مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقُرآنِ الكريمِ بحسبِ ترتيبِ النُّزولِ
وِفْقَ منهجِ كتابِ «قواعدِ التدبُّرِ الأمثلِ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ»

المجلَّدُ الأوَّلُ

تفسيرُ سُوَرِ

العلق (١) ـ المدَّثِّر (٢) ـ المزَّمِّل (٣) ـ القلم (٤) ـ الفاتحة (٥) ـ المسد (٦)
التكوير (٧) ـ الأعلى (٨) ـ الليل (٩) ـ الفجر (١٠) ـ الضحى (١١) ـ الشرح (١٢)
العصر (١٣) ـ العاديات (١٤) ـ الكوثر (١٥) ـ التكاثر (١٦) ـ الماعون (١٧) ـ الكافرون (١٨)

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

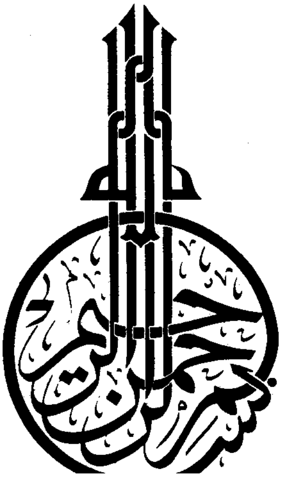
بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

الطّبْعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقدّمة العامّة للكتاب

الحمد لله الجليل الكريم الوهّاب المنّان، مُنَزِّل القرآن، أتمّ ما أنزل من كتاب، والجامع لزُبْدَةِ مَا فِي زُبُر الأوّلين، على خاتم النبيّين والمرسَلِين، مُحمَّد بن عبد اللّهِ الَّذِي آتاهُ ربُّه الحكمةَ وفصْلَ الخطاب، وجعلَهُ سيِّدَ الأولين والآخِرين، وآتاه ما لَمْ يُؤْتِ أحداً من العالمين، وجعل القرآن الّذِي اصطفاه لخاتمة رسالاته كتاباً مُعْجِزاً في مبانيه ومعانيه، لا تفنىٰ عجائبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدّ، بحراً عظيماً زاخراً بالمعاني مع عُذُوبَةِ تلاوة، وقُوَّةِ تأثير، وحُسْنِ بَيَان.

وبَعْدُ فقد فَتَحَ اللّهُ عزّ وجلّ عَلَيَّ خِلَال تَدبُّرِي الطَّوِيل لكتابه المجيد، باسْتِخْراج أرْبَعِينَ قَاعِدَةً من قواعد التدبُّرِ الأمْثَل لكتابه، قابلةٍ للزيادة عليها، وهذه القواعِدُ تُقَدِّمُ للمتدبّرين أصول التفسير الأقوم للقرآن الكريم.

وقد دَوَّنْتُ هٰذهِ القواعد مقرونةً بأَمثلتها، في كتابي: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب اللّهِ عزّ وجلّ» الذي زادت صفحاته على (٨٠٠) صفحة، ولم أجدْ في المفسِّرين من اهتمَّ بالتزام مضمونها، ولا بالْتِزام كثيرٍ منها.

وقد رأَيْتُ من الواجب عليَّ أَنْ أُقدِّمَ ما أستطِيعُ تقديمَهُ من تدبُّرٍ لِسُوَرِ هذا الكتاب العزيز المعجز، الذي لا يأتيه الباطِلُ من بين يدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِه، ملتزماً على مقدار استطاعَتِي بمَضْمُونِ القواعِدِ الّتي فتح اللّهُ بها عليَّ، مع الاعتراف بأنّ التزامها التزاماً دقيقاً وشاملاً عَسِيرٌ جدّاً، بل قد يكونُ بالنّسبة إلى متدبّرٍ واحدٍ متعذّراً، وأَسألُ اللّهَ أن يُمِدَّني بعَوْنِهِ وتوفيقه وفتحه المبين.

وقد ألحَّ عليَّ ناشِرُ كتبي حفظه اللّهُ بأنْ أبْدَأَ بنَشْرِ ما يُنجِزُهُ اللّه لي مِنْ مُجَلَّدَاتٍ في هذا التدبُّر، الّذي ترجَّحَ لديَّ فيه أن أُتابع تدبُّرَ السُّورِ على ما ذكر الْعُلَماء بعُلُومِ القرآن الكريم، مِنْ ترتيبِ نزولها، لا على وفق ترتيبها الاجتهادي في المصاحف، التزاماً بترتيب المصحف الذي وُزِّعَتْ نُسَخٌ منه على معظم أمْصَارِ المسلمين في عَهْدِ عثمان رضي اللّهُ عنه، فَمِنَ الثّابتِ قطعاً أنَّ كثيراً من السُّور، مثل: «البقرة وآل عمران والنساء والأنفال» هي من التنزيل المدني، وأنّ كثيراً من السُّور هي من التنزيل المكّي قطعاً مثل سورة «العلق» وقد رأيْتُ بالتدبُّر الميْدَاني للسُّوَرِ أنَّ مَا ذَكَرَهُ المختصُّون بعُلُومِ القرآن الكريم من تَرْتيب نزول، هو في مُعْظَمِه حقٌّ، أخْذاً من تَسَلْسُل البناء المعرفيّ التكامُلِيّ، وتَسَلْسُل التكامُلِ التربوي، واكتَشَفْتُ في هذا التدبّر أموراً جَلِيلةً تتعلَّقُ بحَرَكةِ البناء المعرفيّ لِأمور الدّين، وحركَةِ المعالجات التربويّة الرَّبَّانيَّةِ الشّاملة للرَّسُولِ ﷺ، وللذين آمنوا به واتَّبعُوه، وللّذِين لم يَسْتَجِيبُوا لدعوة الرَّسُولِ مُتَرَيِّثين أو مُكَذِّبينَ كافِرِين.

وإذا لم تُسْعِفِ القدراتُ أوْ لم يُسْعِفِ الْعُمر باستكمال هذا التَّدَبّر لكلِّ القرآن المجيد، فإنّ من المفيد جدّاً أنْ أُقدِّم ما يفتح اللّهُ الوهّابُ لي فيه، عسَىٰ يُتِمَّ الْعَمَلَ متَدَبِّرونَ لاحِقُونَ، مُحْتَذِين أو مُضِيفين أو مُعَدِّلين.

والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو الفتاحُ الوهاب.

مكة المكرمة ٥/١١/١٤١٨هـ
و٣/٣/١٩٩٨م

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

مُقدّمات حول
أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم
و
بسم الله الرّحمن الرّحيم

مفهومات تتعلَّق بالاستعاذة والبسملة

(١)

الاستعاذة

الاستعاذة: عنوان لجملة: «أعوذ باللّهِ من الشيطان الرجيم» أو «أعُوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» أو نحوهما.

قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

وهذه الاستعاذة قبل الشروع بقراءة القرآن عمَلٌ مندُوبٌ إليه عند جمهور العلماء، فالأمر بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ هُوَ للنَّدْب لا لِلْوُجوب.

ورُوي عن «عطاء» وجوبُ الاستعاذة أخْذاً بظاهر الأَمْرِ.

أَعُوذ: أي: أَلُوذ وأَعْتَصِم مُلْتَجِئاً طَالِباً الحمايةَ والوقاية.

يقال لغة: عَاذَ بِهِ عَوْذاً وعِياذاً ومَعاذاً، أي: لاَذَ به، واعْتَصَم، ولجأ إلَيْه، طالباً حِمَايَتَهُ وَوِقايَتَهُ.

ويقال: مَعَاذَ اللّهِ، أي: عِيَاذاً باللّه.

باللّه: اللّهُ، اسْمُ علَمٌ عَلَىٰ الخالِقِ الرَّبِّ الأَزَلِيّ الأبَدِيّ واجبِ الوجود عقلاً، المتَّصِفِ بكلِّ صفاتِ الكمال، والمنزَّهِ عن كُلِّ صِفةٍ لا تَلِيقُ بكمالاتِهِ السّاميات وأسمائه الحسنىٰ.

السَّمِيع: من أسماء الله الحُسْنَىٰ الوصْفِيَّة، وهو من صِيغِ المبالغةِ فاسم الفاعل «سَامع» ومبالغته «سَمِيع» و«ال» في «السميع» للكمال، أي هو السميع لكلِّ صَوْتٍ مهما كان خافتاً، ولو كان حركَةَ القلوب والنفوس الّتي لا يَسْمَعُها صاحبها، أو أحاديث الأفكار.

العليم: هو من أسماء الله الحسنىٰ الوصْفِيّة أيضاً، وهو أيضاً من صِيغ المبالغة، ويقالُ في «العليم» ما سبق بيانه في السّميع.

فهو سبحانه محيط بكلّ شيءٍ علماً، ومنه ما توسوس به الشياطين في الصدور.

من الشيطان: الشيطان: اسم جنس يقع على كلّ مُغْوٍ مُضِلٍّ متمرّدٍ مُفْسدٍ، من الجنّ والإنس، وإبليسُ إمام الشياطين ورئيسُهم.

يقال لُغةً: شَطَنَ يشْطُنُ شَطْناً، وهذا الفعل يأتي بمعنَيَيْنِ:

المعنى الأولى: شطَنَ عنه، أي: بَعُد عنه. وأشطنَهُ، أي: أبْعَدَه.

المعنى الثاني: شَطَنَهُ، أي شدَّهُ بالشَّطَن، وهو الحبْلُ الّذي يُشْطَنُ بِهِ الدَّلْو في البئر. وكُلُّ حَبْلٍ يُسمَّىٰ شطناً، ويجمع على أشطان.

ولمّا كان المغوي المضلُّ المتمرّدُ المفسد بعيداً عن الحق والخير والْهُدَىٰ، ومُبْعِداً عنها، وَلمَّا كانَتْ له أشطان «=حبائل» للإغواء والإغراء، كان حريًا بأن يسمَّىٰ شَيْطاناً.

الرجيم: الملعون المطرود، والأصل فيه أنّ المطرود يُرْجَمُ بالحجارة، أي: يُرْمَىٰ بها، لإبعاده أو قتله والتخلُّص من شرّه.

والرَّجْمُ: مَا يُرْجَمُ به من حجارةٍ وَغيرها، والجمع رُجُوم.

ولمّا عصَىٰ إبليس رَبَّهُ وأصَرَّ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ، ورفض طاعَةَ اللّه، طرَدَهُ اللّهُ وَلَعَنَهُ وأبْعَدَهُ عَنْ منازِلِ الملائكة، وجعله رجيماً دواماً، وكلُّ من اتّخَذَ إبليسَ إماماً له، وصَارَ مُغْوِياً مُضِلاً لعباد الله، فَهُوَ شيطانٌ رَجيم.

وقد أوصى اللَّهُ عبْدَهُ المؤمِنَ أَنْ يَسْتَعِيذَ باللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ من الشَّيْطَانِ، كلَّما تَعرَّضَ لِنَزْغ في صَدْرِهِ منه، وهَذا النزغ يُحِسُّ به عَلىٰ صورة وساوس وخواطِر فكرية، أو تحرُّكاتِ نفسيَّة تُوَجِّهُه لمعصِيَةِ اللَّهِ، وتُزَيِّنُها في نفسه.

فأنزل الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قوله:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

ثم أنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

فزاد في العبارة تأْكيداً وحَصْراً بأنَّهُ هو وَحْدَهُ السّميعُ، أي: والمجيبُ لاسْتِعاذَة مَن اسْتَعَاذَ بِه، وهو وحْدَهُ العليم بِهِ وبِمَا يُوسْوِسُ به الشيطان في صَدْرِه، مهما أخفى الشيطانُ وساوِسَهُ ونزَغاتِهِ، أي: وهو وحْدَهُ القادِرُ على إعاذته.

وأدعيَةُ الاستعاذة باللَّهِ في السُّنَّةِ كَثِيرة.

وفي الملحق الثالث مِنْ ملاحِقِ سورتي الفلَقِ والنّاس بيانٌ مُفَصَّلٌ لكل ما جاء في القرآن حول الاستعاذة.

* * *

(٢)

حكم الاستعاذة قبل القراءة في الصلاة

- قال الشافعيَّةُ والحنابلة: تُسَنُّ الاستعاذةُ سِرّاً في أوَّلِ كلّ رَكعة قبل القراءة، بأن يقول المصلي: أعوذُ باللَّه من الشيطان الرجيم، عملاً بعموم قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

ورُوِي عن الإمام أحمد أنّه يقول: «أعوذ باللّٰهِ السَّمِيعِ العليم من الشيطان الرجيم».

والدليل ما رواهُ أحمد والترمذيُّ عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ:

«أَنَّهُ كَانَ إذا قام إلى الصلاة استفتح، ثُمَّ يَقُولُ: أعوذ باللّٰهِ السَّمِيع الْعَلِيم من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ من هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِهِ».

- وقال الحنفيَّة: تُسَنُّ الاستعاذة في الركعة الأولىٰ فقط.

- وقال المالكيّة: تُكْرَهُ الاستعاذة والْبَسْمَلَةُ قبل الفاتحة والسورة، لما رواهُ مسلم وأبو داود والنسائي عن أنس بن مالك من طرقٍ كثيرة، أَنَّهُ قالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعُمَرَ، فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بالحمدُ للّٰهِ ربّ العالمين، لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم، لا في أول قراءة ولا في آخرها.

أقول: ما دلَّ عليه هذا الحديث لا يمنَعُ من احتمال ذكْرِ شيءٍ آخر سِرّاً غير الفاتحة، كدعاء الاستفتاح الثابت عن الرَّسُولِ ﷺ.

* * *

(٣)

البسملة

هذه كلمةٌ منحوتَةٌ من جُمْلَةِ: «بسم الله الرحمن الرحيم» ولهَا نظائر من الكلمات المنحوتة.

- فمنها: **«السَّبْحلَةُ»** نحتاً من جملة: «سبحان الله».

- ومنها: **«الْحَيْعَلَة»** نحتاً من جملة: «حيَّ على الصلاة» أو «حيَّ على الفلاح».
- ومنها: **«الْحَوْقَلَة»** نحتاً من جملة: «لا حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ».
- ومنها: **«الحَمْدَلَة»** نحتاً من جملة: «الْحَمْدُ لِلَّه».
- ومنها: **«التَّهْلِيلُ»** نحتاً من جملة: «لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ».

ومن هذا النحت ما رُوي عن عليّ بْنِ أبي طالبٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَال:

- «ما تَسَرْوَلْقَمْتُ قَطُّ» أي: ما لبسْتُ السَّرَاوِيلَ قَائماً قَطُّ.
- و«ما تَعَمْقَعْدَتُّ قَطُّ» أي: ما لبسْتُ العمامة قاعداً قطُّ.

ومن الاختصارات الّتي يُكَنَّىٰ بها عن الْجُمَلِ، ما ورَدَ في السُّنّة، من الترغيب في التسبيح، والتحميد، والتكبير، عقب الصلوات المكتوبة، كنايَةً عن ذِكْر: «سُبْحان اللَّه، والحمدُ للَّهِ، واللَّهُ أكبر».

أمّا جُمْلَة «بسم اللَّهِ الرحْمٰنِ الرَّحِيم» فهي آيَةٌ حتْماً من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بلا خلاف، وقد جاءت في الآية الثلاثين منها، في قول الله عزّ وجلّ، حكايةً لما جاء في كتاب سليمان عليه السّلام، لِبِلْقِيسَ مَلِكَة «سبأ» في اليمن:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

واختلف العلماء في كَوْنِها جزْءاً مِنْ أَوّلِ سُورَةِ الفاتحة، وفي كونها جزءاً مِنْ أَوَّل سَائِر سُوَر القرآنِ باسْتِثْناء سُورَةِ «براءة» أو هِيَ لِلْفَصْلِ بين السُّورَةِ والسُّورَة.

- فقال الشافعية وقُرَّاءُ مكةَ والكوفة وفقهاؤُهما وابْنُ المبارك:

هي جُزءٌ مِنْ أوَّلِ سُورَةِ الفاتحة، ومن أوَّل سائر سُوَر القرآن غيرِ سورة (براءة) علَىٰ الصحيح، وللشافعيّ قولان بالنسبة إلَىٰ غير الفاتحة، أصَحُّهما أنَّها جُزءٌ من أوائل سائر سُور القرآن غير سورة (براءة).

واستدلُّوا بما يلي:

(١) أنَّها مكتوبة سَطْراً قبل كل سورة غير سورة براءة، في نسخ المصحف الإمام الّتي وُزِّعَتْ على الأمصار في عَهْدِ عثمان رضي اللَّهُ عنه.

مع إجْمَاع الصحابة على أنّ مَا بَيْنَ دُفَّتَي المصحفِ كِتَابُ اللَّهِ.

(٢) رَوَىٰ أبو داود بإسناد صحيح عن ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، «أن رسول الله ﷺ كان لا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ حتَّىٰ يَنْزِلَ عليه بسْمِ الله الرحمن الرحيم». وأخْرَجَهُ الحاكم في المستَدْرَكِ.

(٣) وروىٰ النَّسَائيُّ في سُنَنِه، وابْنُ خزيمَةَ وابْنُ حِبَّانَ في صحيحيهما، والحاكم في المستَدْرَكِ، عنْ أبي هُرَيْرة: «أنَّهُ صَلَّىٰ فَجَهَرَ في قِرَاءَتِهِ بالْبَسْمَلَةِ، وقالَ بَعْدَ أنْ فَرَغَ: إنِّي لأَشْبَهُكُمْ صَلَاةً برسُولُ اللَّهِ ﷺ». وصحَّحه الدارقُطْنِي والخطيبُ والبيهَقِيُّ وغيرهُمْ.

(٤) وروىٰ الحاكم في المستدركِ عن ابْنِ عباس قال:

«كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْهَرُ بِبِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم». ثمّ قال: صحيح.

(٥) وروىٰ البخاريُّ في صحيحهِ عَنْ أَنسٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سُئِلَ عن قراءة رسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال:

«كانَتْ قراءَتُهُ مَدًّا، ثُمَّ قَرأَ بِسْمِ اللَّهِ الرحْمٰنِ الرحِيمِ، يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ، ويَمُدُّ الرَّحْمٰن، ويَمُدُّ الرَّحِيم».

فأشْعَرَ هذا الحديث بأنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان يعْتَبِرُ «بسم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» جُزْءاً مِنَ الْقُرْآنِ لدَىٰ تِلَاوَةِ السُّوَر.

(٦) وروى الإمام أحمد في مُسْنَده، وأبو دَاوُد في السُّنَنِ، وابْنُ خزيمَةَ في صحيحه، والحاكم في مُسْتَدْرَكِه، عن أُمّ سلَمَةَ، أنّها قالت:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ: بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم. الحَمْدُ للَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ. الرحْمٰنِ الرَّحِيمِ. مالِكِ يَوْمِ الدِّين».

قال الدارقُطْني: إسناده صحيح.

● وقال الإمام أحمد، وأبو ثور، إنَّها آيةٌ من الفاتحة فقط، لوضوح الأدلّة بالنسبة إليها.

● وقال الإمام مالك والإمام الأوزاعي وقُرَّاءُ المدينة والبصْرَةِ والشَّام: إنَّ «بِسْم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» لَيْسَتْ بآيَةٍ من سُورَةِ الفاتحة، ولا مِنْ سَائِرِ سُوَرِ الْقُرْآن.

وحُجَّتُهُمْ عَدَمُ ثُبُوتِ كَوْنِهَا جُزْءاً مِنْ أَوَّلِ سورة الفاتحة أوْ غيرها من السُّوَرِ بالتواتُرِ، والْقُرْآنُ لاَ يثبُتُ إلاَّ بالتَّوَاتُر.

● ولَمْ يُنْقَلْ عن أبي حنيفة في هٰذِهِ المسألة شيءٌ، لكنَّهُ رأىٰ عدم الجهر بها مع الفاتحة في الصَّلاَة الجهريَّة، وكَرِهَ قراءتها في أوائل السُّورِ الموصولة بالفاتحة في الرّكعتَيْن الأولَيَيْنِ.

وقيلَ: إنَّ الأصحَّ المقبول عند الحنفيّة، أنّ البسمَلَةَ آيةٌ فذَّةٌ أُنْزِلَتْ للفَصْلِ والتَّبَرُّكِ بالابتداء بها، ولهذا أُخِّرَتْ عَنِ الاستعاذةِ، وكُتِبَتْ بقَلَمِ الْوَحْي وحِبْرِهِ وخطِّهِ، في نسخ المصحف الإمام بخلاف الاستعاذَةِ.

وأوْرَدَ الذين نَصَرُوا الْقَوْلَ بأنّ البسملَة ليست جزءاً من أوّل سُورَةِ الفاتحة، أو غَيْرِها من سُوَرِ القرآن، أحاديثَ يُشْعِرُ ظَاهرُها بما ذَهَبُوا إليه، وهي الأحاديث التالية:

(١) ما روى البخاري ومسلم ومالك في الموطأ عن أبيّ بْنِ كعب، أنّ رسول الله ﷺ قال له:

«ألا أُعَلِّمُكَ سُورَةً لَمْ يُنْزَلْ في التوراةِ ولا في الإِنْجيلِ مِثْلُهَا قبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟».

قال: بلىٰ، فلَمَّا قاربَ الخُروجَ قَالَ له:

«كَيْفَ تَقْرَأُ إِذَا افْتَتَحْتَ الصَّلاَةَ؟».

قال أُبَيّ: فَقَرَأْتُ: الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين، حتَّىٰ أتَيْتُ عَلَىٰ آخِرِها.

قالُوا: فهذا دليلٌ على أَنَّه لَمْ يَقْرَأْ مِنها الْبَسْمَلَة.

أقول: هذا دليلٌ احتماليٌّ غَيْرُ لازِم، لاحْتِمَالِ أن يكُونَ أُبَيٌّ يَرَىٰ أَنَّهَا آيَةٌ فَذَّةٌ تُتْلَىٰ قبل البدء بالسُّورَةِ، أَوْ أَنَّها لتكرُّرِها في أوائِلِ السُّوَرِ لا تُمَيِّزُ السُّورَةُ إلاَّ بمَا تَبْدأُ بِهِ السُّورَةُ بَعْدَها، أو أَنَّهُ تَلَىٰ السُّورَة الَّتِي تُسَمَّىٰ «الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِين».

(٢) وما روىٰ مسلم وأبو داود في سُنَنِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْها قَالَتْ:

«كَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يَسْتَفْتِحُ الصَّلاَةَ بالتكْبِير، والْقِرَاءَةَ بالْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِين».

قالوا: وَهٰذا دَلِيلٌ على أنَّ البسملة ليسَتْ جزءاً من الفاتِحَة.

أقول: يَحْتمل أن تكون قد أرادت السُّورةَ الَّتي تُسَمَّىٰ «الحمدُ للّهِ رَبِّ العالَمِين».

(٣) ما رَواه مُسْلِمٌ وأبو داود والنَّسائي عن أَنَسِ بن مالِكٍ من طُرُقٍ كثيرة أَنَّهُ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رسُولِ اللّهِ وأبي بَكْرٍ وعُمَرَ فكانوا يَسْتَفْتِحُونَ بالْحَمْدُ للّهِ رَبِّ العالمين، لا يَذْكُرُونَ بسم اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ لاَ في أوَّلِ قراءَةٍ وَلاَ فِي آخِرِها».

ونظيره عن عبد اللّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ في سُنَنِ الترمذي، وسُنَنِ النسائي.

وذَكَرُوا في الاستدلال عَمَلَ أَهْلِ المدينَةِ إلى زمَنِ الإمَامِ مالك، أنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ أَحَدٌ منهُمْ قَرَأ بسم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم في الصَّلاَةِ الْجَهْرِيَّة.

أقول: هذه الأدلَّة لاَ تَنفِي كَوْن بسم الله الرحمن الرحيم آيَةً مِنْ سُورَةِ الفاتِحَةِ، أَوْ آيَةً فَذَّةً تُتلَىٰ قَبْلَ الفاتِحَة، بَلْ تُثبِتُ أَنَّهُمْ لَمْ يكُونُوا يَجْهَرُونَ بها كما يَجْهَرُونَ بالآيات الأُخرى من السُّورَةِ.

فالموضوع بين الجهْرِ وعَدَم الْجَهْرِ بتلاوة بسم الله الرحمن الرحيم، وأدلَّةُ عَدَمِ الْجَهْرِ مُعَارَضَةٌ بأدِلَّةِ الْجَهْرِ بها الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُها، ولاَ شَكَّ أَنَّ أدِلَّةَ عَدَمِ الْجَهْرِ بها أَقْوَىٰ، إلاَّ أَنَّهَا عَمَلٌ يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ على أفْضَلِيَّةِ عَدَمِ الْجَهْرِ بها، لاَ عَلَىٰ وُجُوبِهِ، وقد الْتَزَمَ أبو بكر وعُمَرُ وعُثْمَانُ وأهْلُ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ بما هُوَ الأفضل.

والأمْرُ يَسِيرٌ فَمَنْ جهَرَ بِهَا في الصلاة الجهْرِيَّةِ فقد اتَّبَعَ السُّنَّة، ومَنْ لَمْ يَجْهَرْ بها فقد اتَّبَعَ السُّنَّةَ، وعَمِلَ بما هو الأفضل.

ويبدُو أنَّ إثبات كونِ «بسم الله الرحمن الرحيم» جزءاً مِنْ أوَّلِ كلِّ سورة غيْر سُورَةِ «براءة» أَوْ كَوْنِها آيَةً فَذَّةً تُتلَىٰ قَبْلَ السُّورِ الَّتِي كُتِبَتْ «بسْمِ اللَّه الرحمن الرَّحيم» في مطالِعِها سَطْراً مُنْفَصِلاً، في نُسَخِ المصحف الإمام الَّتي وُزِّعَتْ في عَهْدِ عثمان على الأمْصَارِ، هو الأرْجَحُ.

فكِتَابَتُهَا في المصاحِفِ المذكورة، الَّتِي لم يُكْتَبْ فيها شيءٌ غَيْرُ الْقُرْآنِ، مَعَ الأحَادِيثِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا ما يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ الرَّسُولَ تَلاَها قَبْلَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ إلى آخر فاتحة الكتاب، ومَعَ الإجماع علىٰ أَنَّ ما بين دُفَّتَي المصحف كتابُ الله، كافيَةٌ لإثباتِهَا قُرْآناً، لأنَّهَا مُجْتَمعةٌ بقُوَّة المتواترِ.

* * *

(٤)

التدبُّر التحليلي للبسملة

قول الله عزّ وجلّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾.

جُمْلَةٌ عظيمة عَلّمَنا اللَّهُ أن نَستَفْتِحَ التلاوَةَ والقِرَاءَةَ بِهَا، وعلّمنا الرَّسُول ﷺ أن نَسْتَفْتِح كُلَّ أمْرٍ ذي بالٍ بها.

﴿بِسْمِ﴾: الْبَاءُ حَرْفُ جَرٍّ، ومن معانيه الاستعانَةُ والإلْصَاق، ووجود هذا الحرف يسْتَدْعي عاملاً جالباً له، وإذْ لَمْ يُوجَدْ هذا العاملُ ملفوظاً فلا بُدَّ من تقديره ملحوظاً حتَّىٰ تَتِمَّ جملة البسملة.

ويختلف تقدير هذا العامل باختلاف حال الناطق بالبسملة، فإنْ كانت حالُه حالَ قراءة أو تلاوة قدَّرَ العامل من أحدهما، وإنْ كانت عملاً ما كقيام أو قعودٍ أو سَيْر أو طعام أو نوم أو أي أمْرٍ آخر ذي بالٍ قَدَّرَ العامل ممّا يُناسب العمل الذي يريد أن يعمله، وهو يشمل كلّ عَمَلٍ فكرِيّ أو قلبيّ أو لسانيّ أو بدنيّ.

واحتمالات تقدير العامل تأتي في أربعة أوجُهٍ، وذلك أنَّه إمَّا أن يُقَدَّرَ العامل فِعلاً، فتكون الجملة فعليَّةً، وإمَّا يُقَدَّرَ اسماً مُشْتقّاً يعمَلُ عَمَلَ الفعل، فتكُونَ الجملة اسميّة، وَكُلٌّ منهما إمَّا أن يُقَدَّرَ مُتَقَدِّماً على معموله، وإمَّا أن يُقَدَّرَ مُتَأَخِّراً عنه، والمقدَّرُ في مقام تلاوة القرآن أو قراءته مشتقٌّ من التلاوة أو من القراءة، فالوجوه الأربعة تأتي كما يلي:

(١) أتلو بسم الله الرحمن الرحيم.

(٢) بسم الله الرحمن الرحيم أتلو.

(٣) تلاوتي كائنةٌ بسم الله الرحمن الرحيم.

(٤) بسم الله الرحمٰن الرحيم كائنةٌ تلاوتي.

وأبلَغُ هذه الاحتمالات أنْ نُقَدِّر الْعَامِلَ فِعْلاً مُتأَخّراً، والسَّبب في هذا أنّ تقديم المعْمُول على عامله يفيد عند البلاغيّين الحصر، والحصْرُ في هذا المقام أنسَبُ إلَىٰ عقيدة المؤمن، لأنَّهُ إذا كانت الباء للاستعانة فإنّ المؤمن لا يستعينُ إلاّ بالله وصفاته، وإذا كانت للإلْصَاق فإنَّ المؤمِنَ لا يلْتَصِقُ التصاقَ التجاءٍ وتبرُّكٍ إلاّ باللَّهِ وَصِفَاته، فيكون تقدير العامل متأخِّراً نَصًّا مُعْلِناً عَنْ عقيدته.

والغرض من حذف المتعَلَّق أن يعُمّ كلَّ ما يَصْلُحَ لأنْ يُقْصَد شرعاً، والتَّعْمِيم غرضٌ بيانيّ من أغراض الحذف، ولا سيما ما يتكرّر اسْتِعْماله في مناسباتٍ لا تُحْصَر.

والاسم: ما يُعْرَفُ به ذاتُ الشيْء، وأصل لفظة «اسم» كما ذكر علماء العربية «سِمْوٌ» بدلالة قول العرب في الجمْعِ «أسماء» وقولهم في التصغير «سُمَيّ».

وهو مشتقٌّ مِن السُّمُوّ بمعنى الارتفاع، فمعنى «الاسم» بحسَبِ الاشتقاق لفظ رُفِعَ بِهِ ذِكْرُ المسمَّىٰ ليُعْرَفَ به.

وقيل: أصْلُ «اسم» هو «وَسْم» بمعنى العلامة، حُذِفَتِ الواو ثُمَّ تُوُصِّل إلى الابتداءِ بالسَّاكِنِ بزيادة همزة الوصْلِ، فالاسم على هذا علامَةٌ دالَّةٌ على المسمَّىٰ.

﴿ٱللَّهِ﴾: اسْمُ علَمٌ في اللُّغة العربيَّةِ على ذاتِ الخالق الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ، الجامع لكلّ صِفاتِ الكمال، والمنزَّه عَنْ كُلِّ صِفَةٍ من صِفات النقصان الَّتي لا تَلِيقُ بذاتِ الرَّبِّ الخالق الأزليّ الأبديّ.

قيل: ولهذا فلَفْظُ «اللَّه» هو أعظم أسْماء الله الْحُسْنَىٰ، ومن خواصّ هذا الاسْم أنَّهُ لم يُسَمَّ بِه غيْرُ الخالِقِ الأزليّ الأبدِيّ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ، لاَ عَلَىٰ سبيل الحقيقة ولا على سبيل المجاز.

وحاوَلَ بعض عُلَماء العَرَبيّة بيَانَ أصل لفظة «اللّه» فقالوا: أصلُها «إلَه» على وزْنِ «إمام» ثُمَّ أدْخَلُوا عليه الألف واللّام للتعْرِيف، فصارت: «الإلَه» ثُمَّ حُذِفَتِ الهمزةُ ونُقِلَتْ حركَتُهَا إلَىٰ لاَم التعريف قَبْلَهَا، فصارت الكَلِمَةُ: «الِلَه» ثُمَّ استثقِلَتِ الكَسْرَةُ علىٰ اللاّم، فَسُكِّنَتْ، وأُدْغِمَتِ اللاّمُ الأولى بالثانية، فصارَتِ (اللَّه) ومن ثَمَّ صارت علماً على الخالِقِ الرّبّ الأزليّ الأبَديّ جلَّ جلالُه.

أقول: هذا بحثٌ في منشأ الكلمة وَتَطَوُّرِها، يهْتَمُّ بِه الباحثون في أصول الكلمات ونَشأَتِها، وفي تَطَوُّرِ اللُّغاتِ، وهُوَ من التَّرَفِ الَّذِي لا يَحْتَاج إليه مُتَدَبِّرُ كِتاب اللَّهِ، إذْ يَجِبُ أنْ يَنْصَبَّ كُلُّ اهْتِمَامِهِ عَلَىٰ مَعَاني الكلماتِ القرآنيَّةِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْها في لُغَةِ الْعَربِ إبَّانَ نزول القرآن.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: صفةٌ مُشَبَّهَةٌ مأخوذة مِنَ الرَّحْمَةِ، يقالُ لُغَةً: رَحِمَ المؤمِنُ أخاه المؤمِنَ رَحْمَةً، ورُحْماً، ومَرْحَمَةً، أي: رقَّ لَهُ، وعطَفَ عليه.

والرَّحْمٰن: من صيَغِ المبالغة، فمعناهُ: الكثير الرحْمَة، وصِيغَ اللَّفْظُ عل وزْنِ «فَعْلَان» للمبالغة.

قالوا: ولفظ «الرحمن» خاصٌّ بالله عزّ وجلّ، فلا يُسْتَعْمَلُ فِي وصف غيره، فأشبه أن يكون علماً.

ومعنى الرحمة في المخلوق رقَّةٌ في القلْبِ، ولكنّ هذا المعنى لا يليق بالخالِقِ سبحانه، فالرَّحْمَةُ صفَةٌ من صفاتِ الرَّبّ على ما يليق به جلَّ جلالُهُ، وهي تسْتَلْزِمُ الإنعام والإكرام.

وهل لفظ «رَحْمٰن» مصروفٌ أو غيرُ مصروف؟

فيه قولان، ومال السَّعْد التفتازَانِي إلَىٰ جواز الأمْرَيْنِ فيه.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صفةٌ مشبَّهةٌ أيضاً مأخوذة من الرحمة، وهي مبنيَّةٌ على وزْنِ «فَعِيل» للمبالغة أيضاً، فمعنى «الرحيم» الكثير الرَّحْمَةِ أيضاً.

وجُمِعَ في البسملَةِ وَفي سورة (الفاتحة) بين اسْمَي اللَّهِ الرَّحْمٰنِ والرَّحِيم لأمور، منها:

(١) تأكيدُ الثناء على الله بصفة رحمته.

(٢) الطَّمَعُ بإنعامه وإحسانه، وهو ما يُشْعِر به حشْدُ أسماء اللَّهِ الحسنىٰ المشتقة من الرحمة، في مقام الاستعانة به، والتبرُّكِ بذكْرِ بعض أسمائه الحسنىٰ، واستعطافه للاستزادة من فيوض عطاءاته.

(٣) الإشارة إلى شمول رحمته جلائل النِّعَمِ ودَقائِقَها الّتِي يتفضَّلُ بها على عباده في الدنيا وفي الآخرة.

قالوا: والرَّحْمٰنُ يُسْتَعْمَلُ في الأغْلَب للدّلاَلَةِ على عموم رحمته تعالى المؤمنين والكافرين في الدنيا، والرَّحيم يُسْتَعْمَل في الأغلب للدّلالَةِ على خصوص رحمته تعالى المؤمنين في الآخرة.

أقول:

لقد تتبَّعْتُ بالاستقراء الآيات التي جاء فيها اسم اللَّه «الرحْمٰن» واسْمُ اللَّه «الرحيم» فوجَدْتُ أنَّ الآياتِ الّتي تُشِيرُ إلَىٰ رحْمَةِ الله عباده في الدُّنيا، وَحتَّىٰ آخِرِ مَوْقِفِ الحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء يوم الدِّين، قَدْ جاء فيها استعمال اسم الله «الرَّحْمٰن» منفرداً في الغالب، أو مَعَ ذِكْرِ اسم اللَّه «الرحيم».

أمَّا الآياتُ الَّتي فيها الحديثُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عِبادَهُ المتقينَ في الجنَّة، فقد جاء فيها استعمال اسم اللَّه «الرَّحيم» فقط.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ رحْمَانٌ لجميع عباده المؤمنين والكافِرين والعاصين، حتَّىٰ دُخولِ آخِرِ داخلِ جنَّةَ النّعيم، ولو كان من أهل العذابِ في دارِ العذاب بِصفةٍ مُؤَقَّتَةٍ.

لكِنَّهُ بالنِّسْبَةِ إلى أَهْلِ جنَّاتِ النعيم فَهُوَ بِهِمْ «رَحِيمٌ» أي: كثير فيوضاتِ الإسعادِ والإِنْعَامِ والإِكْرَام.

ونَسْتطيع أن نفهم من هذا أَنَّ صيغَةَ: «رَحِيم» أَبْلَغُ من صيغة: «رَحْمَان» ولهذا جاءَ في البسملة والفاتحة ذِكْرُ اسم اللّه: «الرحْمٰن» والارتقاء إلى الأَبْلغِ الذي هو اسم اللّهِ «الرحيم».

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: صِفتان مجْرُورتان تابعتان في الإعراب للفظ الجلالة (اللّه) ولا أرىٰ مانِعاً من اعتبارِهِمَا من أسماء اللّٰهِ الحسنىٰ، وإعرابِهِمَا على البدليَّة من اسْمٍ، أو عطف بيان.

وجملة «بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» جملَةٌ ابتدائيَّةٌ لاَ مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعْرَابِ.

* * *

(٥)

مناقشة حول كون لفظة «اسم» مُقْحَمَةً في البسملة أو لا

أَوْرَد بعضُ المتأوّلين أنّ لفظة «اسم» مقْحَمةٌ في جملة: «بسم الله الرحمن الرحيم» وأنَّ الأَصْلَ: «باللّهِ رَبِّ العالمين» مُسْتَدِلاً بأَنَّ الاستعانة إنَّما تكونُ باللّهِ لا بالاسم، وأَوْرَدَ له نظيراً قَوْلَ لبيد بن ربيعة العامري⁽¹⁾:

إِلَىٰ الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا   ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرَ

قال: ومُرَادُ لبيد، ثُمَّ السَّلامُ عَلَيْكُمَا.

ورَدَّ الطبَرِيُّ هذا الكلامَ حتَّىٰ في بيتِ لبيد، وخرَّجَهُ في بيت لبيد على أحد وَجْهَيْن:

---

(١) شاعر أدرك الجاهلية والإسلام، وفد على الرسول ﷺ وأسْلَمَ، وكان من المؤلّفة قلوبهم، ولم يقل بعد إسلامه إلاّ بيتاً واحداً، توفي سنة ٤١ هجرية.

الوجه الأوّل: أنَّ السَّلامَ اسْمٌ من أسْمَاءِ اللّه عزّ وجلّ، فجائزٌ أن يكون لبيد عَنَىٰ بقوله: «ثُمَّ اسْمُ السَّلام عليكما» ثُمَّ الْزَمَا اسْمَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَدَعَا ذِكْرِي والْبُكَاءَ عَلَيَّ، فرفَعَ «الاسم» إذْ أَخَّرَ الحرفَ الَّذِي يأتي بمعنى الإغراء، وقد تَفْعَلُ العربُ ذَلِكَ إذَا أَخَّرَتِ الإغْراءَ وقَدَّمَتِ الْمُغْرَىٰ بِهِ، وإِنْ كانت قد تنصبُ به وهو مؤخّر، ومن ذلك قول الشاعر:

أَيُّـهَـا الْـمَـائِـحُ دَلْـوِي دُونَـكَـا إِنِّـي رأَيْـتُ الـنَّـاسَ يَـحْـمَـدُونَـكَـا

فأغْرَىٰ بِـ«دُونَكَ» وهيَ مؤخَّرَةٌ، وإنَّما مَعْنَاهُ دونَكَ دلْوِي، فكذَلِكَ قول لَبِيد: «إِلَىٰ الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا» يَعْنِي: عَلَيْكُمَا اسْمَ السَّلَامِ، أي: الْزَمَا ذِكْرَ اللَّهِ وَدَعا ذكري، والْوَجْدَ بي، لأَنَّ مَنْ بكَىٰ حَوْلاً كاملاً على ميِّتٍ فَقَدِ اعْتَذَر.

الوجه الثاني: أن يكون «اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا» ثُمَّ تَسْمِيَتِي اللَّهَ عليكما، كما يقولُ القائل للشيء يَرَاهُ فيُعْجِبُهُ: «اسْمُ اللَّهِ عَلَيْكَ» يُعَوِّذُه بذلك من السُّوء.

هذا ما ذكره الطبري، والحقُّ ما ذكر، فالذي أراه أَنَّ كلمة «اسم» في جملة: «بسم الله الرحمٰن الرحيم» هيَ ذاتُ معنىً مُراد، وذلِكَ لأنَّ الذَّاكِرَ إنَّمَا يَبْدَأُ ذِكْرَه باسْمِ اللَّهِ، لاَ بذات اللَّهِ جلّ جلالُهُ، فالاسْمُ هُوَ الَّذِي يُلْفَظُ ويُتْلَىٰ.

ويُمْكِنُ أنْ يُقَالَ: إنَّ الاسْتِعَانَةَ حَاصِلَةٌ باسْمِ اللَّهِ الذي هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيم، على الوجْهِ الذي اعتَبَرْنَا فيه «الرحمٰن الرحيم» على البدليّة من «اسم» أو عطف البيان.

ويخْطُرُ لي أنّه لا مانع من اعتبار «الاسم» بمعنى الصفة، رجُوعاً به إلى أصْلِ الاشتِقاقِ المأخُوذِ مِنَ الْوَسْمِ، وهِيَ العلامة، وعلى هذا يكونُ المراد بعبارَةِ «بسْمِ اللَّهِ» بِصِفَةِ اللَّهِ أستعين، أيْ: بصِفَاتِ اللَّهِ أسْتَعِينُ، لأنّ

الأصْل في المضافِ إلى المعرفةِ أنْ يَعُمَّ، ما لم تَرِدْ قَرِينَةٌ صارفَةٌ عن إرَادَةِ العموم.

وإنَّما كانَتِ الاسْتِعَانَةُ بالصِّفَاتِ، لأنَّ صفات اللّهِ عزّ وجلَّ هِي الَّتِي تتعلَّقُ بمَخْلُوقاتِهِ، ويكُونُ لَهَا فيهم آثارٌ خلْقٍ وتكوين، ويضافُ إلَىٰ هذا أنّ أفهام المخلوقات لا تستطِيعُ أن تَصِلَ إلى إدْراكِ ذَاتِ الخالِقِ العليَّةِ، فغايَةُ المدىٰ الذي يُمْكِنُ أنْ تتطاوَلَ إليه مداركُ المخلوقات، إنّما هو إدْراكُ مقاديرَ مَحْدُودَةٍ من صفاتِ الخالِقِ الرَّبِّ جلّ جلالُهُ، وطائِفةٍ من أسْمائه، وفي هذا الميدان يجب أن تقف أفهامُهُم، ومِنْ أجْلِ ذَلِكَ نَقُولُ متبرّكين ومُسْتَعينين: «بسم الله» أي: بصِفَاتِ اللّهِ وأسمائه الحسْنَىٰ نَسْتَعِينُ، أو نلْتَصِقُ، وإليها نَلْتَجِئ، واللّهُ أعلم.

ولا بُدَّ أنْ نُلَاحِظَ أنَّ أَسْمَاءَ اللّهِ الْحُسْنَىٰ باستثناءِ لَفْظِ الجلالَةِ الَّذِي هُوَ عَلَمٌ علىٰ الذّاتِ، كُلَّهَا أَسْمَاءٌ وصْفِيَّةٌ، أي: هي أسْمَاءٌ تُلَاحَظُ فيها الصِّفَاتُ الّتي تَدُلُّ عليها الكلماتُ الأُصُولُ التي اشتُقَّتْ منها، فالرَّحْمٰنُ، والرَّحِيمُ، هُمَا بمعْنَىٰ ذِي الرَّحْمَةِ الكثيرة العظيمة، والقدير، هُوَ بمعنى ذي القدرَةِ العظيمة، والسَّمِيعُ، هو بمعْنَىٰ ذي السَّمْعِ الذي لا يفُوتُهُ صَوْتٌ، مَهما كان ضئِيلاً وخافتاً، والْبَصِيرُ، هُوَ بِمَعْنَىٰ الذي يَرَىٰ كُلَّ شيءٍ قابلٍ لأنْ يُرَىٰ.

فإذا أُطْلِقَ «الاسم» كان من الْمُمْكِنِ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْوَصْفُ، وعلَىٰ هذا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ في: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وعَلَّمَهُ صفاتِ الأَشْيَاءِ، والأَلْفَاظَ الَّتِي يُمَيَّزُ بِهَا كُلُّ جنْسٍ أو نَوْعٍ، أَوْ شَيْءٍ عَمَّا سِوَاه، ووَصْفُ أَسْمَاءِ اللّهِ بالحُسْنَىٰ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُراد صفاتُهُ.

ويُمْكِنُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قوله تعَالَىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: هَلْ تَعلَمُ لَهُ شبِيهاً في صِفَاتِهِ، وهكذا إلَىٰ نُصُوصٍ كثيرةٍ يُمْكِنُ تفسير الاسْم فيها

بالوصْفِ، ومنها قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئْسَ الوصْفُ الّذِي هُوَ الفُسُوقُ، بَعْدَ الْوَصْفِ بالإيمان، بالنِّسْبَةِ إلَىٰ المؤمنين.

* * *

(٦)

الشرح العام للاستعاذة والبسملة

لمّا كان المؤمِنُ يعتقد بأنّ اللَّهَ هُو وحْدَهُ الذي بيدِه ملكوت السَّماوَاتِ والأرض، وهو وحده الذي يُعِيذُ مَنْ شَاءَ أَنْ يُعِيذَهُ مِنْ عبادِه، وهو وحْدَهُ الذي يُعِينُ بمعونَاتٍ غير منظورة مَنْ شَاءَ أَنْ يُعِينَهُ مِنْ عبادِه، وهو وحْدَهُ الذي لَدَيْهِ الْخَيْرُ والبركة، فلا غَرْوَ أن يَتَوَجَّهُ قلْبُهُ لَهُ دائماً، ملْتَمِساً منه ما يَرْجُو مِنْ إعَاذَةٍ، وعَوْنٍ، وخَيْرٍ وَبركَةٍ في أَمْرِهِ كُلِّه.

ولمّا كانت الوقايَةُ سابقةً في ترتيبها الطبيعيّ المنطقي، للقيام بالأعمال الّتِي تُكْتَسَبُ بها المنافِعُ والخيراتُ والصَّالِحَاتُ، كانت الاستعاذةُ باللّهِ مِنَ الشيطان الرجيم وشروره ووساوسه وتَسْوِيلاَتِهِ وهَمْزِهِ ونفْخِهِ ونفْثِهِ وَنَزَغَاتِهِ، سابقَةً للاستعانَةِ باللّهِ عَلَىٰ القيام بأيّ عَمَلٍ مُفِيدٍ نافِعٍ ذي شأنٍ، وسابقَةً للبَدْءِ باسْمِ اللّهِ تتويجاً وتَبْرِيكاً وتَنْوِيراً لأيِّ عَمَلٍ مفيدٍ نافِعٍ ذِي شَأنٍ.

وجاء فيما رُوِيَ عن الرسول ﷺ:

«كُلُّ أمْرٍ ذِي بال لاَ يُبْدَأُ فيهِ بِبِسْمِ اللّهِ فَهُوَ أبْتَرُ، أو فَهُوَ أَقْطَعُ».

أي: قُطِعَ مِنْهُ مَا يَنْبغي أنْ يكُونَ بمثابَةِ رَأْسِهِ، أو المحيط بِهِ، والْمُمِدِّ لَهُ بالْعَوْنِ والبركَةِ والْخَيْر.

والاستعاذَةُ هي طَلَبُ اللُّجوء للحمايَةِ والحفظ، فالاستعَاذَةُ باللّهِ هي طَلَبُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ أن يَلْجأَ إليه، ويحْتَمِيَ بِحِماهُ، لِيكْلأَهُ بحفظه، ويحْمِيَهُ بحمايتِه، ويَرْعَاه بِرعَايَتِهِ، ويَقِيَهُ شَرَّ وأذىٰ مَنْ استعاذ بِهِ منه، أو ما استعاذ بِهِ منه.

وذِكْرُ اسْمَي السّمِيعِ العليم مِنْ أسماء اللّهِ الحسْنَىٰ وصفاته العظمىٰ، لدىٰ الاستعاذةِ به، له ثلاثة أهْداف:

الأول: التعبيرُ عن جُزْءٍ من عناصر الاعتقادِ في اللّه، تستدعيه الاستعاذة به، فهو سميعٌ لدعاء المستعيذِ، وهو عليم بحاله وبحال من يستعيذ به منه، أو ما يستعيذ به منه.

أمّا صِفَةُ القدرَةِ الّتي بها يكونُ العوذُ فقد دلَّتْ عَلَيْها الاستعاذة نفسها، لأنَّ المستعيذ لا يلْجأُ إلاَّ إلىٰ ذي قدرة تحميه، فلم يأتِ في التعليم لنصِّ الاستعاذة باللّهِ اسم الله «القدير». وفي هذا التعبير عبادةٌ للّه عزّ وجلّ.

الثاني: الثناء على اللّهِ وحَمْدُه وتمجيدُه بأنّه السَّمِيع العليم، مع المناسبة الّتي تسْتَدْعِي تَذكُّرَ هٰذَيْنِ الاسمَيْن، من أَسْمَاء الله الحسنى، وفي هذا الثناء عبادة للّهِ عزّ وجلّ.

الثالث: استِعْطَافُ اللّهِ واسْتِرْحامُهُ لِتَوجيه إرادَتِهِ لحمايَةِ عبْدِهِ المستعيذِ به، ورِعَايَتِهِ، والعنايَةِ به، وإحاطَتِه من كلِّ جوانِبِهِ بالحفظ، مكافأَةً لَهُ على صِدْقِ إيمانِهِ بِهِ، وبقدْرَتِهِ، وبأنّهُ سَمِيعٌ عَلِيم، لا يَخْفَىٰ عليه شيءٌ، جلَّ شانُه وعظم سلطانُهُ. وهذا الاستعطاف هو من عناصِرِ عبادة العبْدِ لرَبّه.

أمّا المستعاذُ باللّهِ منْهُ فَهُو الشيطانُ الرَّجيم المغوي المضِلُّ الصَّادُّ عن طاعَةِ اللّهِ والإيمانِ به إن استطاع.

وَوُصِفَ الشيطانُ بأنّه رَجيمٌ، لأنَّهُ مطْرُودٌ مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ، مَرْجُومٌ مَعْ طَرْدِهِ، مُلاَحَقٌ بالعقوبات المادّيَّةِ والمعنويَّة.

وفي كلّ الرسالات الرَّبّانيَّةِ حذَّرَ اللّهُ عزّ وجلّ بني آدَمَ من الشيطان. كما حذَّرَ آدم وزوجَهُ منه مُنذُ أسْكَنَهُما الجنَّةَ، قال اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مبيّناً ما قاله لهما:

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وأبان اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها أَنَّهُ قَدْ خَاطَبَ بَنِي آدَمَ جميعاً بقوله:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ . . . ﴿٢٧﴾﴾.

فَدَلَّ هذا عَلَىٰ أَنَّ جَمِيعَ الرِّسَالاَتِ الرَّبَّانِيَّةَ قد اشتملَتْ على هٰذَا التَّحْذِير.

أمّا الْبَدْءُ بجملة «بسم الله الرحمن الرحيم» بعد الاستعاذة باللَّهِ السّميع العليم من الشيطان الرجيم، فيَعُمُّ كُلَّ ما يَصْلُحُ أن يُقْصَدَ شرعاً، كالاستعانَةِ والتَّبرُّكِ والتمجيد، أي: باسْمِ الله أستعين في أَمْرِي، أو أتبرَّكُ، أو أُمَجِّدُ باسم اللَّهِ مع بَدْءِ أَمْرِي وعَمَلِي.

وعلَّمَنا اللَّهُ أن نَقُول: باسْمِ اللّه، لا أن نقولَ: باللَّه، إشارةً إلى أنّ حظَّ عقولنا وأفكارِنا من اللَّهِ أن نتفكَّرَ في أسمائه وصفاته، لا أَنْ نتفكَّر في ذاته، أو أَنْ نَسْعَىٰ لإدْراك شيءٍ منها، فبيْنَنا وبَيْنَ إدْرَاكِ ذَاتِهِ تَعَالَىٰ أو شيءٍ منها حاجِزُ الْعَجْزِ الكامل.

أمّا ما نستطيعُهُ فمحصُورٌ في التفكّر في أسمائه وصفاتِهِ، وأسماؤُهُ غيْرُ اسم الذّات وهو لفظ الجلالة (اللَّه) كُلُّهَا من صِفَاته عزَّ وجلّ، وحسبُنَا أنْ نُدرِكَ قَدْراً من صفاتِ اللَّهِ عزّ وجلّ.

فحَظُّنَا مِنه تبارَكَ وتعالى هو حظُّنَا مِنْ صفاتِهِ، من قُدْرَتِه، من عِلْمِهِ، مِنْ إرَادَته، من حكْمَته، من عدْلِهِ، من فضْلِهِ، من رحمتِهِ، من عَفْوه، من غُفْرانِهِ، من كونه رازقاً مُحْيِياً مميتاً، محاسباً، وقاضياً بيْنَ عبادِهِ، ومجازِياً لهم، وفَعَّالاً لِمَا يُريد.

فما لَنَا وللبحْثِ في ذاته الّتي لا سبيلَ في الحياة الدُّنيا إِلَىٰ إدْراكِ شيءٍ منها.

(٧)

من وجوه البلاغة في البسملة

في البسملة طائفة من الوجوه البلاغيَّة، بَيَانُها فيما يلي:

(١) فيها قصْرُ الابتداء والتبرّك والاستعانة، وجعلُها خاصَّةً باللَّه عزّ وجلّ وصفاته العليَّة، وذلك على تقدير العامل في: «بسم الله» فِعْلاً متأخّراً، عملاً بالقاعدة البلاغيَّة التي تبيّنُ أنَّ من أغراض تقديم المعمول على العامل إفادةَ القصْرِ والاختصاص.

(٢) وفيها الإيجاز بحذف العامل ليَعُمَّ، ولتكونَ الجملةُ صالحة لبداية كلّ أمْرٍ ذي بالٍ بها، ويُقَدَّرُ لكلّ أَمْرٍ ما يُنَاسِبُه.

(٣) وفيها حُسْنُ اختيار صِفَتَي الرَّحْمنِ الرَّحيم لمزيَّةٍ فيهما، وهي مناسبتُها لموضوع التسميةِ المتضمّن الالتصاق والاستعانة بالله تبارك وتعالىٰ، ففي ذِكْر هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ تَعْرِيضٌ بالمقتضي الذي دفع المؤمِنَ للاستعانةِ باللَّهِ وحْدَه، إذِ الكلامُ إجمالٌ وإيجازٌ لقول القائل: لا أَبْتَدئ مُسْتَعِيناً إلاَّ باللَّهِ لأنَّهُ هو الرحمٰنُ الرَّحيم. ففي هذا سَوْقٌ للمعنَىٰ مُقْتَرِناً بدليله وهو ما يُسَمَّىٰ عند البلاغيّين: «المذهب الكلامي» وهو أن يساق المعنى مقترناً بدليله.

* * *

سورة العلق

أو سورة «اقرأ باسم ربك»

٩٦ مصحف ١ نزول

(١)

بحث حول نزولها:

هي مكية باتفاق، ولا شيء منها مدنيّ، نزلَتْ بمكّة، وقَدْ نزل صَدْرُها، مِنْ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ حتَّىٰ غايَة الآية الخامِسَةِ مِنها: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ مع بَدْءِ الوحي إلىٰ الرسُولِ ﷺ حينما كان يتعَبَّد رَبَّهُ في غار حِراء على الموروثِ في العَرَبِ من ديانة إسماعِيل وإبراهيم عليهما السَّلامُ، وهذا من أرجح الآرَاءِ الاستنباطِيَّة.

وبعد نزول هذه الآيات الخمس من هذه السورة فتر الوحي، واختلفت الروايات في مُدَّة فترة الوحْي بعدها فقيل: أربعون يوماً. وقيل: ستة أشهر. وقيل: سنتان. وقيل: سنتان ونصف. وقيل: ثلاث سنين، وليس في الصحيح ما يثبت قولاً من هذه الأقوال، لكن الفترة قد حصلت.

أمّا سائر السورة فقد نزل في مكة بعد المدثر، وربّما بعد غيرها أيضاً والله أعلم.

* * *

(٢)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة العلق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ
وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ
﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ
رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِى يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾
أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا
بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ
ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

---

١ - [ٱقۡرَأۡ] في الموضعين أبدل أبو جعفر الهمزة مطلقاً.
- وأبدلها في الوقف حمزة.
- والباقون بتحقيق الهمزة.

٧ - [أَن رَّءَاهُ] لجمهور القرّاء العشرة.
- [أَن رَّأَهُ] لقُنبل بخلف عنه. والوجه الثاني له كالجمهور.

٩ - [أَرَأَيۡتَ] في المواضع الثلاثة من السورة.
- قرأ نافع وأبو جعفر، بتسهيل الهمزة الثانية.
- وقرأ ورش بإبدالها ألفاً مع المدّ المشبع في الوصل فقط.
- وقرأ الكسائي [أَرَيۡتَ].
- ووقف حمزة بالتسهيل.

١٦ - [خَاطِئَةٖ] قراءة جمهور القرّاء العشرة.
- وقرأ أبو جعفر [خَاطِيَة]. وكذلك حمزة في الوقف.

(٣)

ما جاء في السُّنَّةِ حول سورة (العلق)

روى البخاريُّ وغَيْرُهُ بسَندِهِ عَنْ عائِشَةَ أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنَّهَا قَالَتْ:

«أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَىٰ رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ(١).

ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ(٢) فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ(٣) إِلَىٰ أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اِقْرَأْ. قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ(٤)، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فقالَ: اِقرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اِقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣)﴾.

---

(١) **مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ**: أي: مِثْلَ انشَقاقِ الصُّبحِ مِن ظُلْمَةِ اللَّيْلِ.

(٢) **فيتحنَّثُ**: أي: فيتَعبَّدُ.

(٣) **قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ**: أي: قبل أَنْ يَشْتَاقَ إلىٰ أَهْلِهِ ويَعُودَ إليهم

(٤) أي: فَضَمَّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ ضَمّاً شَدِيداً حتَّىٰ بَلَغَ غَايَةَ طَاقَتِي واحْتِمَالِي، يقال لغة: غَطَّ الشيْءَ إذا كَبَسَهُ وعَصَرَهُ عَصراً شَدِيداً.

وجاء في رواية أخرى عند البخاري إضافة: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ - رضي اللَّهُ عَنْهَا - فقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي(١)، فزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ(٢).

فَقَالَ لِخَدِيجَةَ - وأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ - لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي.

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ، مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ(٣)، وتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ(٤)، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ(٥).

فَانطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ، حتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْعُزَّىٰ - ابْنَ عَمّ خَدِيجَةَ - وَكَانَ امْرأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَان شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمٍّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَـٰذَا النَّامُوسُ(٦) الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيتَنِي فِيهَا جَذَعاً(٧)، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

---

(١) **زَمِّلُوني**: أي: غَطُّوني ولُفُّوني.

(٢) **الرَّوْع**: الْخَوْفُ.

(٣) **الْكَلّ**: مَنْ لاَ وَلَدَ له وَلا والِدَ، ومَنْ هُوَ عِبْءٌ عَلَىٰ غَيْرِهِ.

(٤) **تَكْسِبُ المعدومَ**: أي: تُنِيلُهُ وتُعطِيه.

(٥) **النوائب**: جمع نائبة، وهي ما ينزل بالإنسان من الكوارثِ والحوادث المؤلمة.

(٦) **الناموس**: صاحبُ سِرِّ الرَّجُلِ، ومَلَكُ الوحي.

(٧) **جَذَعاً**: أي: صغير السّنّ أَقْدِرُ على الدّفاع عَنْكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟.

قال: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً(١).

ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّي، وفَتَرَ الْوَحْي».

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ في كتابهِ «فَتْح الْبَارِي» في مَعْرِض حديثه عَنْ قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾: وقَعَ عِنْدَ ابْنِ إسْحَاقَ: فِي مُرْسَلِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«أَتَانِي جِبْرِيلُ بِنَمَطٍ مِنْ دِيباجٍ(٢)، فِيهِ كِتَابٌ(٣)، قَالَ: اِقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ».

أي: أَنَا لاَ أَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ لِمَا هُوَ مَكْتُوبٌ، إِذْ لَمْ أَتَعَلَّمْهَا.

أَصْلُ الْقِرَاءَةِ مُتَابَعَةُ النُّطْقِ بِكَلَامٍ مَكْتُوبٍ عَلَىٰ وَفْقِ الخطِّ الَّذِي رُسِمَ بِهِ هٰذَا الكلام.

أقولُ: لَوْ كَانَ الْمُرَادُ تِلاَوَةَ مَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ مِنْ قَوْلٍ، لَكَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ يَقُولَ الرَّسُولُ لَهُ: مَاذَا أَقْرَأُ؟، لا أَنْ يَقُولَ لَهُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَهذَا الْحَدِيثُ الْمُرْسَلُ يُبَيِّنُ لَنَا المراد من الحديث الصحيح المرفوع.

وما جاء في الحديث منْ تكرار قولِهِ ﷺ: مَا أَنَا بِقَارئ، إِنَّمَا هو تَأْكِيدٌ لبَيَانِ وَاقِعِ حَالِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمْ قراءَةَ الْخُطُوطِ، الَّتِي هي رُمُوزُ كلماتٍ تُنْطَقُ.

ودَلَّ الْخِطَابُ بالأَمْرِ بالْقِراءةِ مَعَ أَوَّلِ التنزيلِ، عَلَىٰ أَنَّ المقصودَ هو

---

(١) **مُؤَزَّراً**: أَزَّرَ فُلانٌ فُلاناً، وآزَرَهُ، وأَزَرَهُ، إذا عَاونَهُ وَقَوَّاهُ وَدَعَمَهُ، والنَّصْرُ الْمُؤَزَّرُ: هُوَ النَّصْرُ الْمُتَابَعُ بِالْمَعُونَةِ والتَّقْوِيَةِ والدَّعْم.

(٢) **النَّمَطُ**: قُمَاشٌ لَهُ خَمْلٌ رقيقٌ، **والدِّيبَاجُ**: ضَرْبٌ مِنَ الثياب، سَدَاهِ ولُحْمَتُهُ حَرِير.

(٣) أي: فيه كتابةٌ.

أنَّ أُمَّةَ هذا النبيِّ الأُمِّيِّ مُطالَبَةٌ بِأَنْ تَتَعَلَّمَ الكتَابَة والْقِرَاءَةَ، وَتَتخلَّصَ من الأُمِّيَّة، وَتَبْدَأَ مَسِيرتَها الْعِلْمِيَّة مُتَرَقِّيَةً فِي كُلِّ مَجَالاَتِ الْعُلُومِ، فالْكِتَابَةُ وَالْقِرَاءَةُ مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ التَرَقِّي الْعِلميّ، فِي قضايا الدِّينِ والدُّنيا.

وَإِذَا كَانَتِ الأُمِّيَّةُ فضِيلَةً خاصَّةً بالرَّسُولِ محمّد ﷺ، لِأَنَّهَا إِحْدَىٰ عَنَاصِرِ معجزاتِ نُبُوَّتِهِ، فَلَيْسَتْ فَضِيلَةً لِأَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، بَلْ هِي نقيصةٌ، إِذْ أُمَّتُهُ مأمُورَةٌ بِالْقِرَاءَةِ لِلْكَلاَمِ المكتُوب، وَمَأْمُورَةٌ بتَعَلُّم صَنْعَةِ الكِتَابَةِ، مَعَ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ قُرْآنٍ، عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ محمّد ﷺ.

فَعَلَىٰ أجيالِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ المحمّديَّة أَنْ تُرَدِّدَ النَّشِيدَ التالي الذي قُلْتُ فِيه:

إِنَّنَا أُمَّةُ «اِقْرَأْ»   أَمْرُ مَنْ سَوَّىٰ النَّسَمْ
لِنَبِيٍّ مَنْ بِهِ   مَوْكِبُ الرُّسْلِ خُتِمْ
أَوَّلُ التَّنْزِيلِ «اِقْرَأْ»   ثُمَّ دِينُ اللَّهِ تَمّ
فَانْبِذُوا أُمِّيَّةَ الْغَا   بِرِ فِي بَالِي الرِّمَمْ

* * *

نَحْنُ بِالْقُرْآنِ صِرْنَا   أَهْلَ عِلْمٍ وَقَلَمْ
قَدْ طَرَحْنَا الْجَهْلَ والْقَـ   ـفْرَ وَأَرْبَاضَ النَّعَمْ
وارْتَقَيْنَا ذُرْوَاتٍ   وَجَثَمْنَا فِي الْقِمَمْ

* * *

فَانْهَلُوا الْعِلْمَ وَكُونُوا   فِي الْبَرَايَا عُلَمَاءْ
دَوِّنُوا الْعِلْمَ بِأَقْلاَ   مِ خُلُودٍ وبَهَاءْ
نَقِّبُوا بَحْثاً عَنِ الْحَـ   ـقِّ وَكُونُوا فُقَهَاءْ
واجْعَلُوا الْعِلْمَ سَبِيلاً   لانْتِشَارِ وَارْتِقَاءْ
ولِمَجْدٍ وَلِقُوَّةْ   ولِسَعْدٍ وهَنَاءْ
ولِنُرْضِي اللَّهَ فِي   أَعْمَالِنَا كَيْفَ يَشَاءْ

* * *

(٤)

موضوع السورة

بالتَّأمُّلِ الدَّقيق، مع صَبْرٍ وَأَنَاةٍ، نَسْتَطِيع اكْتشافَ موضوع سورة (العلق) من خلالِ تدبُّرِ دُرُوسِها الثلاثة، وإبرازِ المطويّاتِ في ثنايا آيَاتِها.

فالدّرس الأوّل منها الذي يتألف من خمس آيات، هو قول الله عزَّ وجل:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾.

ويتضمن هذا الدرسُ الدّعوة إلى اكتساب العلم بوسائله التي أتاحها الربُّ الْخَالق للإنسان، ومكَّنَهُ مِن استعمالها، وهَدَاهُ إلى كيفيَّة ذلك، وَأهمُّ وسائله القراءةُ لِمَا هو مُدَوَّنٌ بالكِتَابَةِ مِنْ عُلُومٍ صَحِيحةٍ نافعةٍ في الدنيا والآخِرَة، وتدوينُ المكتَسَباتِ العلميَّةِ المدركة بالعقول، أو بالحواسِّ الظَّاهِرَةِ والباطنة، أو بالتجربَات، أو بالأخبار الصادقة، ومنها الوحيُ المنزّلُ من عند اللّهِ، وأهم وسائل التدوين الكتابة على اختلاف صورها وأشكالها القديمة والحديثة، وأحْدَثُها الآنَ «الكومبيوتر».

ولا يتمّ ذلك إلاّ بتعلُّم صَنْعةِ القراءة والكتابة، والعمل على تدوين المكتسباتِ العلميَّةِ، ليَسْهُل حفظُها، ونَقْلُها من سلَفٍ إلى خلَفٍ، وبهذا تتنامَىٰ وتتعاظَمُ جبالُ المعْرفةِ لدى النّاسِ، إذْ تتراكَمُ الْمُدَوَّنَاتُ مِنْ مسائلِ العلومِ مصنَّفَةً مُبَوَّبَةً مُفَصَّلةً مُفَهْرسة.

وأجَلُّ العلُومِ الَّتِي يدْعو القرآنُ إلى اكتسابها عُلُومُ الدِّين، لأنّها تَهدِي الإنسانَ إلىٰ سبيل سعادَتِهِ في دار البقاء الخالِدَةِ، مع هدايته إِلَىٰ سبيل سعادَتِهِ الأفضل في دار الفناء، دار الحياة الدّنيا.

ويدعو القرآنُ أيضاً إِلَىٰ اكتسَاب العلومِ الَّتِي تَخْدُمُ مَطَالِبَ ولَذَّاتِ

النَّاسِ في الحياة الدنيا، بشَرْطِ اقترانِها بإدْراك دَلاَئِلِ الإيمانِ فيها، وابْتِغَاءِ الدَّارِ الآخِرَةِ فيما آتَىٰ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الإنسانَ من آثارِها وثَمراتِها النّافعاتِ، مَعَ الأخْذِ بنصِيبِهِ النافع مِنْها لِمَتَاعِ الحياة الدُّنيا.

وهُنَا يَرِدُ سؤالٌ يتطلَّبُ جواباً، وهو: ما هِيَ الحاجَةُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي تَفْرِضُ على الإنسانِ أَنْ يكُونَ مُلِمًّا بِعُلُومِ الدِّين، وتَجْعَلُ من مقتضياتِ حِكْمَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، أَنْ يُوَجِّهَ للنَّاسِ رِسَالاَتٍ مِنْهُ، يصطَفِي لحَمْلِها وَلِتَبليغِها للنَّاسِ خِيرَةً مِنْ عِبَادِهِ، وهٰذِه الرّسالاَتُ تتضَمَّنُ تَعْرِيفَهُمْ بالحقّ والصّراطِ المستقيم الّذِي يُحقِّقُ لهم إذا اتَّبعُوهُ واهْتَدَوْا بهَدْيه سعادةَ الدُّنيا والآخرة؟

ويأتي الجوابُ في الدَّرْسِ الثَّانِي من دُرُوس السورة الثلاثة، مُشِيراً إِلَىٰ السَّبَب الدَّاعي إِلَىٰ إِرْسَالِ رُسُلٍ وفي خاتمتهم مُحَمَّدُ بن عبد الله ﷺ، ليبلِّغُوا رِسَالاَتِ رَبّهم لعباده، وهذا السَّبب يشْتَمِلُ عَلَىٰ عنصُرَيْنِ:

العنصر الأول: أَنّ الإِنسانَ في الحياةِ الدُّنيا متَىٰ شَعَرَ باستِغْنَائِهِ بأسبابِهِ الَّتِي أَتَاحَهَا اللَّهُ له طَغَىٰ، فغطَّىٰ طُغيانُهُ عَلَىٰ بَصِيرَتِهِ، فكفَرَ برَبِّهِ، وجَحَدَ الحقَّ، فظَلَمَ وَبَغَىٰ، وزَيَّنَ ظُلْمَهُ وَبَغْيَهُ بزُخْرُفِ الْقَوْل، والدَّعَاوَىٰ الكاذِبَة الباطلة، وسخَّرَ ما لديه من قوىً وأنصار، لتحقِيقِ مطالب نَفْسِه الجائرة الظّالمة الآثمة.

العنصر الثاني: أَن الإِنسانَ لاَ يستطيعُ بنَفْسِهِ إدْراكَ الحياةِ الأخرى، وَمَا فِيها مِنْ حسابٍ وفَصْلِ قضاء وتنفيذ جزاءٍ، في دار النعيم الجنَّة، أوْ في دار العذابِ النَّارِ، ولو أَدْرَكَ بِعَقْلِهِ ضرورةَ تَحقُّق الجزاء، لكنَّهُ لاَ يستطيعُ تَصوُّرَ عَنَاصِرِهِ وكيْفَ يكون، فاحتاج إلى رسالة من الرَّبِّ الْخَالِقِ تُبيِّنُ لَهُ الدَّار الآخِرَةَ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيها مِنْ جزاء.

وهَذا الدَّرْس الثاني يتألَّفُ مِنْ ثَلاث آياتٍ، هِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيها:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

هذا الدَّرْسُ يتضمَّن أَنّ الإنسانَ في مُعْظَم أفرادِه، إذا لم يكُنْ لَهُ هادٍ يَهْدِيهِ ويُحَذِّرُه ويُنْذِره ويُرَغِّبُهُ حتَّىٰ يختار لنفسه الظَّفر بسعادتِه في دنْيَاه وفي أُخْراه، والنجاةَ مِن عذابِ اللّهِ فيها، فإنَّ امتِلاكَهُ للوسائل والأسْبابِ المتاحَةِ لَهُ في العاجلة، والَّتي يَشْعُرُ بأَنَّها تُهَيّئُ لَهُ السَّعادَةَ في دُنْياه، يجْعَلُهُ يَشْعُرُ بالاسْتِغْنَاءِ عَنْ رَبِّهِ، إذْ لاَ يَرَىٰ بعينَيْهِ أَنَّ كُلَّ أحداثِ الكَوْنِ هِيَ مِنْ تَصارِيفِهِ جلّ جلاله، وهذا الشُّعورُ بالاستغناءِ يُوَلِّدُ لَدَيْهِ اسْتِعلاءً واسْتِكْباراً وَطُغْيَاناً. ثُمَّ يَنْسَىٰ مَعَ هذا الطغيانِ الَّذي تشبَّعَتْ بِهِ نَفْسُهُ أَنَّهُ فِي حَيَاةٍ دُنْيَا قَصِيرَةٍ عاجلة، وأَنَّهُ عَبْدٌ لِرَبِّهِ الخَالِقِ له، وأنّه في هذه الحياة مُمْتَحَنٌ مُبْتَلَىٰ، وأنَّ الامتحانَ يَسْتَلْزِمُ المحاسبةَ والجزاءَ عقلاً، وقَدْ جعَلَ اللّهُ ذَلِكَ يوْمَ الدِّينِ، حِينَ يَبْعثُ اللّهُ الموتىٰ، ويكونُ مَصِيرهُم إلى حِسَابِ رَبّهم وفَصْلِ قضائه وتنفيذِ جزائِهِ.

وَهُنَا يَرِدُ سُؤَالٌ، وهُوَ: مَا هُو حالُ النّاسِ عُموماً فِي الحياة الدُّنيا تُجاهَ عُلُومِ الدّين الَّتي تَهْدِيهِم إِلَىٰ سَبِيلِ سعادتهم في الدنيا والآخِرَة، وتُجاهَ دَعْوَتِهِم للاستجابة لنداء رَبِّهِم لهم.

ويأتي الدرس الثالِثُ الأَخير من دُروسِ السُّورَةِ لِيُجيبَ ضِمْناً عَلَىٰ هٰذا السؤال، وهو قولُ اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

ومَعَ بَيَانِ أَصْنَافِ النّاسِ تُجاهَ الرِّسالَةِ الرَّبّانِيَّةِ جاء في هذا الدَّرْسِ تحْذِيرٌ ووعيدٌ للضالّينَ ولِلْمُضِلّين، وَوَعْدٌ للمهتدين والدّاعِينَ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وتَثْبِيتٌ لَهُمْ على ما هُمْ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وخضوعٍ لربّهم متقرِّبينَ لَهُ بالسُّجُودِ.

أمَّا أَصْنَافُ النَّاسِ الَّذِينَ أَشَارَ إِلَيْهِمْ هٰذَا الدَّرْسُ بأُسْلوبِ الرَّمْزِ والكِنَايَةِ، فَهُمُ الأَصْنَافُ الأَرْبَعَةُ التالية:

الصِّنفُ الأوّل: الْمُصَدِّقُونَ برسالةِ الرسولِ المهتدون بأَنْفُسِهِمْ، دون أَنْ يَحْمِلُوا رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ وصراطِهِ المستقيم.

الصِّنفُ الثاني: المصَدِّقُون برسالة الرَّسُولِ الدَّاعُونَ إِلَىٰ اللَّهِ، والآمِرُونَ بالتَّقْوَىٰ، أي: الآمرونَ بالمعروفِ والناهون عن المنكر.

الصنف الثالث: المكذِّبُونَ بالرَّسُولِ وَرِسالته التي يُبَلِّغُها عن رَبّه، والمتولُّون عَنْها، دُونَ أَنْ يَقُومُوا بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الباطلِ والشَّرِّ، ومُجَانَبةِ طاعَةِ اللَّهِ، وتَنكُّبِ صراطِهِ المستقيم.

الصنف الرابع: المكذِّبُونَ المتولُّونَ الدَّاعُونَ إلىٰ التكذيب برسالة الرَّسُول، والنَّاهُونَ عَنْ فِعْلِ الصالحاتِ والخيراتِ الّتي أمر الله بها، والآمِرُونَ بفِعْلِ الشُّرُورِ والقبائحِ والجرائم والآثَامِ الّتِي نَهَىٰ اللَّهُ عنها.

وتَضمَّنَ هٰذا الدَّرْسُ الْوَعْدَ الضِّمْنِيَّ للصنْفَيْنِ الأوّلَيْن، والوعيد الضمْنِيَّ والصَّرِيحَ للصِّنفَيْنِ الأَخِيرَين.

وَجاء في خَاتِمَتِهِ تَثْبِيتُ الصِّنفَينِ الأَوّلَيْنِ عَلَىٰ الإيمانِ والطَّاعَةِ لِلّهِ، وَعلى زيادة التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بالسُّجودِ، لنَيْلِ فيوضِ عطاءات اللّهِ لهم بالاقتراب إِلَيْهِ بِكَمَالِ الخضوع.

ولدىٰ تأمُّل هٰذِهِ الدُّرُوسِ الثَّلاثَةِ المُتَرَابطَةِ تَرَابُطاً تَعَاقُبِيًّا حَكِيماً، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَضَعَ عُنواناً لِمَوْضُوعِ السُّورَةِ مأخُوذاً مِنْ دُرُوسِهَا الثَّلاثَة، ويمكنُ أَنْ نَصُوغ هٰذا العنوان بأنْ نَقول:

أوّل فقراتِ رسالة الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ في هذا الدين الخاتم، التوجيه للانتفاع بوسائل تحصيل العلم الذي يَهْدِي إلى مَصَالِحِ الدُّنيا والآخِرَة،

وسعادةِ النّاسِ فيهما، مع بيان حاجَةِ الإنسانِ إِلَىٰ هٰذِهِ الرّسالة، وَبيان واقع أحوال الناس تجاه مبادئ هذا الدين وأحكامه وشرائِعِهِ، مقروناً بلمحاتٍ من الترغيب والترهيب.

واعتمدت السُّورَةُ في معظم عناصرها على استخدام الأُسْلوب غير المباشر، وعدم ذِكْر دلائل الترابط بَيْنَ فقراتها وآياتها، وتركِ ذلك لذكاء المتدبّر الذي يستخرج بنفسهِ المطويّات.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي للدرس الأوّل

الآيات من (١ ـ ٥)

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجل: بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

قولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

﴿ٱقْرَأْ﴾: فِعْلُ أَمْرٍ من القراءة، والأَصْلُ في الْقِرَاءَةِ أَنّها مُتَابَعَةُ النُّطْقِ بِمَا يَرَىٰ القارِئُ مِنْ مكتوبٍ بالخطّ على صحيفَةٍ أَوْ أيّ شَيْءٍ يُمْكِن أنْ يُكتَبَ عليه، وفْقَ دلالَةِ ما اصْطَلَحَ الْكَاتِبون أنْ يَدُلَّ عليه الرَّسْمُ من حُروفٍ وَكَلِمَاتٍ وأَرْقامٍ وغير ذلِك.

وهٰذِهِ هي القراءةُ المطلوبة فِي النّصِّ هُنَا، بدليل ما جاء في مُرْسَل عبيد بن عُمير، من أَنَّ جبريل عليه السّلام عَرَضَ على الرسُولِ ﷺ عنْدَ بَدْءِ الْوَحْي نَمَطاً مِنْ ديباج فيه كلامٌ مكتوبٌ، وقال له: اِقْرأ.

وبدليل أنّ الرسول ﷺ قال لجبريل عليه السلام: ما أنا بقارئ، أي: لم أتعلّم القراءة، ولم يقُلْ لَهُ ماذا أَقْرأ.

وبدليل أنّه جاء في الآية الرابعة مِنْ هٰذا الّذي طلَبَ جبريلُ من الرَّسُولِ قراءتَهُ قولُ اللّهِ عزّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾. فذِكْرُ التعليم بالقلم يدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المطلوبَ القراءةُ لخطٍّ مَكْتُوبٍ، لا مجرّد مُتابَعَةِ تلاوَةِ ما يُمْلَىٰ عليه من قول.

وقَدْ تُطْلَقُ القراءة على مجَرَّدِ التلاوَةِ ولو لمسْمُوعٍ يُمْلَىٰ، أو لمحفوظ، وأَرَىٰ هذا من التوسُّعِ في الاستعمال، ولَيْسَ من أَصْلِ وضْعِ اللّغة.

﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾: الاسْمُ يُطْلَقُ على اللّفظ الذي يُعْرَفُ بِهِ ذَاتُ الشيْءِ الْمُسَمَّىٰ بِه.

ويُعْجبني قولُ من قال من أئمَّةِ اللُّغَةِ أَنَّ لفظ «اسم» أصْلُهُ «وسْمٌ» بمعنى العلامة، حُذِفَتِ الواو، ثُمَّ حَصَلَ التوصُّل إلى الابتداء بالسَّاكن بزيادة همزة الوصل، فالاسم علامَةٌ دالَّة على المسمَّىٰ.

وأسماءُ اللّهِ هي الألفاظ الدّالَّةُ على ذَاتِهِ جَلَّ جلالُهُ، أَوْ على صفاته الحسنىٰ.

وصفاتُهُ التي تدلُّ عليها آثارُهُ في خَلْقِهِ هي علاماتٌ تَدُلُّ عَلَىٰ وُجُود ذاتِه تباركَ وتعالى.

وحينَ نقول: «باسْمِ اللّهِ» أو «باسْم الرّبّ» فالمقصودُ مجموعُ صفاتِ اللّهِ، أو مجموعُ صِفَاتِ الربّ الْحُسْنَىٰ الدالّةِ عليه، لأنَّ المفرد النكرة المضاف إلى مَعْرِفَةٍ يَعُمُّ، فيكونُ بمثابة جمع النكرة المضاف إلى معرفة، فعبارة: «باسم الله» أو «باسْمِ الرَّبّ» مثل عبارة: «بأسْمَاءِ اللّهِ» أو «بأسْمَاء الرَّبّ». أي: بِكُلِّ الصفات الحسنىٰ التي هي لله، أو للرَّبّ.

واختير هنا من أسماء اللَّهِ الحسنىٰ لفظ «رَبّ» لاستثارة دواعي حَقِّ الرَّبِّ الْخَالِقِ عَلَىٰ عَبْدِهِ المخلوق، الخاضع لربوبيَّة اللَّه دواماً، ولإشْعارِ المطالَبِ بالقراءة بأنّ رَبَّهُ يُمِدُّهُ بفضل معوناته وعطاءاته إذا استعان به بغية الوصول إلى المعارفِ النافعة لَهُ في دُنياهُ وأُخْراهُ.

الرَّبّ: كلمة هي في الأصل مصدَرُ فعل «رَبَّ» يقالُ لغة: ربَّ فُلَانٌ الولَدَ أو الصَّبِيَّ أو الْمُهْرَ مثلاً يَرُبُّهُ رَبّاً. كَما يُقالُ: رَبَّاهُ يُرَبِّيهِ تَرْبِيَةً ورَبَّبَهُ يُرَبِّبُهُ تَرْبِيباً.

فكلمات: «الرَّبّ ـ والتَّرْبِية ـ والتَّرْبِيب» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِها وَمَعْنَاهَا واحد، وهو الإنْشَاءُ المتدرّجُ للشيْء، حيّاً كانَ أو غير ذي حياة، وتعَهُّد الشيء حالاً فحالاً، وطوراً فَطَوْراً، بِحَسَبِ فِطْرَته واستعداداته، فيشْمَلُ هذا التعهُّد بِعُمُومِ مَعْناه التغذية، والتنميَةَ، والإرشاد، والإصْلَاحَ، والتقويم، والحفظ، والرّعاية، والتأديب، والتهذيب، والتعليم إذا كان المُرَبَّىٰ يحتاج تأديباً أَوْ تهذيباً أو تعليماً، ويشْمَلُ أيضاً الإمْدَادَ المستمرَّ بما يحتاج إليه لبقائِه وسلامته، إلى غير ذلك من مفاهيم يدرِكُها الباحثون في مجالاَتِ التربية والتعليم.

وَهٰذِهِ التربية تتناول الأحياءَ والنَّبَاتَاتِ والأشياءَ غير ذاتِ الحياة، من كلِّ ما يحتاج لبقائه أو سلامَتِه تعهُّداً وإمداداً، أو رِعايَةً وحفظاً.

ثُمَّ استُعِيرَتْ كلِمَةُ «الرَّبّ» من المصدريَّةِ إلى اسم الفاعل، فصارتْ تُطْلَقُ كلمة «الرَّب» بمَعْنَى «الْمُرَبّي».

ونظراً إلى معنىٰ التربية ولوازمها أُطلقت كلمة «الرّب» في لسان العرب على معانٍ كثيرة، منها: «الْمَلِك ـ الأمير ـ السيد المطاع ـ مالِكُ الشيءِ أو مستحقه ـ المدبّر ـ القيّم ـ المُنْعِم ـ المُصْلِحُ للشيء ـ المنَمّي للشيء» إلى غير هذه المعاني ممّا يُشْبِهُها وَيَدْخُل ضمْن المفهوم العامّ للتربية.

ولمّا كانت التربية الحقيقيّة لكُلّ شيءٍ في الوجود سوى اللّهِ عزّ وجلّ صفةً مِنْ صفاتِ اللّهِ عزّ وجلّ، كان سبحانه هو رَبَّ العالَمينَ، وَرَبَّ كُلِّ شيءٍ.

ولهذا جاء وصْفُهُ في القرآنِ المجيد بأنّه: «رَبُّ العالَمِين ـ وَرَبُّ كُلِّ شيءٍ ـ وَرَبُّ السَّماواتِ والأرْضِ ـ وَرَبُّ السَّمَاوات السَّبعِ، وَرَبُّ العرشِ العظيم ـ وربُّ الشِّعْرَىٰ (= نجم كان يُعْبَدُ في الجاهلية) ـ وربُّ المشرقِ والمغرب ـ وَرَبُّ الْمَشرِقَيْنِ والمَغْرِبَيْنِ ـ وربُّ المشارِقِ والمغاربِ ـ وربُّ الفلق ـ وربُّ الناس، وَرَبُّ البيت (= الكعبة المشرفة)».

فالرُّبُوبيَّة هي الوصف الجامع لكلّ صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته، واسْمُ «الرَّبّ» هو الاسم الدّالُّ على كلّ هٰذِه الصفات.

وهنا نُلاَحِظُ أَنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُه قد اختار بعلمه وحكمته لعمليّاتِ خلْقِهِ وإبداعِهِ لمخلوقاتِهِ، وهيمنَتِهِ علىٰ كُلِّ ما خَلَقَ بَدْءاً وَدَوَاماً أَنْ يكونَ على نظام التربية التي سبق شرحُ معانيها، لا على نظام الخلْقِ دفعةً واحِدَةً، ثُمَّ تَرْكِ المخلوقِ يسير وفْقَ البرنامج الموضوع له، دون إمْدادٍ وَرِعايةٍ وحِفْظٍ وَتعَهُّدٍ مِنْ خالِقِه، بَلْ خَلَقَ الْخَلْقَ وفْقَ نظامٍ لا يستغني فيه المخلوقُ عن خالقِهِ طَرْفَةَ عينٍ، ولا أَقَلَّ مِنْ ذلك، فِي صغير وكبيرٍ مِنْ ذَاتِهِ وَمِنْ صفاته، فلو رَفَعَ إمداده عَنْ كَوْنه، وإمساكَهُ لَهُ فِي الوجود خلال أقْصَرِ زَمَنٍ، لعادَتِ الموجوداتُ إلى أصْلِها وَهوَ الْعَدَمُ.

هذا هو نظامُ التربية، فَلِلّهِ عزَّ وجلَّ الرُّبوبيَّةُ المستمِرّة الَّتِي لاَ تَنْقَطع، والمؤثِّرة بكُلِّ شيْءٍ في الكَوْنِ مِنْ غَيْبِيٍّ ومَشْهُودٍ، مادِّيٍّ أو معنويٍّ، دلَّ على هٰذه الحقيقة قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٥٣ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

فاللَّهُ عَزَّ وجلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ المستمرّة بلا انقطاع، لاَ تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، فلا يخْرُجُ عَنْ عِلْمِهِ وَهَيْمَنَتِهِ وسلطانه وسائر عناصِرِ رُبوبيَّتِهِ صَغِيرٌ في الوجود مهما صغُرَ، وكبير مهما عظم وكبُرَ.

لذا فاللَّهُ وحْدَهُ هو رَبُّ العالمين، وربُّ كلّ شيءٍ، وهُوَ المالِكُ والْمَلِكُ، والسيِّد الذي يجب أَنْ يُطَاعَ والإلٓه المستحقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ دُونَ سِوَاهُ.

فإذا أُطْلِقَتْ كلمةُ «الرّب» لم يجُزْ أَنْ يُرَادَ بها غَيْرُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ.

وأسماءُ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ الَّتِي تَدُلُّ على عناصر رُبُوبيَّةِ اللَّهِ الرَّبِّ جلّ جلالُه: كثيرة، منها الأسماءُ التالية:

«الخالق ـ الرازق ـ الرحمٰن الرحيم ـ الْمَلِك ـ الْمُهَيْمن ـ العزيز ـ الجبّارُ ـ البارئ ـ المصوّر ـ العفوّ ـ الغفّار ـ الغفورُ ـ القهّارُ ـ الوهّابُ ـ الفتاح ـ العليم ـ القابض ـ الباسط ـ الخافض ـ الرافع ـ المعزُّ ـ المذلُّ ـ السميع ـ البصير ـ الحكَمُ ـ العدْلُ ـ اللَّطِيفُ ـ الْخَبِيرُ ـ الحليمُ ـ الصَّبُور ـ الحميد ـ الشكور ـ الحفيظ ـ الْمُغِيثُ ـ الرَّقِيب ـ الحسيب ـ المجيب ـ الحكيم ـ الودود ـ الباعث ـ الشهيد ـ الوكيل ـ الوليُّ ـ الْمُحْصِي ـ المبدئ ـ المعيد ـ المحيي ـ المميت ـ القادر ـ المقتدر ـ المقدّم ـ المؤخّرُ ـ البرُّ ـ التوّاب ـ المنتقم ـ الرّؤوف ـ مالك الملك ـ الْمُقْسِط ـ الجامع ـ المانع ـ المغني ـ الضارّ ـ النافع ـ الهادي ـ البديع».

إنّ هذه الأسماء وأشباهها تدخل تحت مفهوم كلمة «الرّبّ» لأنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ يتصرَّفُ بمَخْلُوقاتِهِ ويُعَامِلُها من خلال اتّصافِهِ بما تَدُلُّ عليه هذهِ الأسْمَاءُ الحسنَىٰ، فربُوبيَّةُ اللَّهِ لها تَشْتَمِلُ على كُلِّ معانيها.

فاسم اللَّه «الرَّب» إحدى أسماء اللّه الكليَّةِ العامّةِ، الَّتِي تَنْضوِي تَحْتَها أسماءُ حُسنَىٰ كثيرَة، ورُبُوبيَّةُ اللَّهِ هِي الَّتِي تَجعَلُ مَنْ تَتَعَلَّقُ بِهِ عَبْداً لَهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾: لَمْ يُذْكَرْ معمولُ فِعْلِ «خَلَق» ليَعُمَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ في الوجود، وإرادةُ العموم من أغْراضِ حَذْفِ المعمول عند البلاغيين، وهو من الإِيجاز البديع المحمود.

الخلْقُ: يأتي بمعنىٰ الإبداعِ من العدم، والإيجاد على غير مثالٍ سبَق. ويأتي بمعنَىٰ التقدير للعناصر والأجْزَاءِ للشيء الذي يُرادُ إحداثُهُ، وهذا المعنى يتَحقَّق في أمور كثيرة، مِنْهَا جَعْلُ الشيء في صورة مَا على وفْقِ المقادير المعدَّةِ لَهُ فِي الْخِطَّة، كجَعْلِ طينَةٍ لَزِجَةٍ على شكْلِ طائر، ولا تكونُ على شكل طائرٍ ما لم يَسْبِقِ العملَ أو يقْتَرِنْ به تَحْدِيدُ المقادير والأجزاء، ووضع كُلِّ شيءٍ في موضعِه حتَّىٰ تكتمل الصورة المقدَّرة.

فاللَّهُ عزَّ وجلَّ هو الخالق، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ يُريدُ خَلْقَه، وَكُلُّ ما سِوَاه في الوجود خَلْقُه.

والخطاب بقوله تعالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ مُوَجَّهٌ أوّلاً للرّسُولِ محمّد ﷺ، باعتباره أوَّلَ المخاطَبِينَ بِمَطَالِبِ اللَّهِ من عِبادِهِ، وبتعلِيماتِهِ وَوصَاياهُ وبيَاناتِه لهم.

وهُوَ مُوَجَّهٌ مِنْ بَعْدِهِ لكلّ العالَمِينَ الصالِحينَ للخطابِ التكليفيّ، الموضوعين في الحياة الدّنيا مَوْضعَ الامتحان.

ودَلَّتْ نُصُوصٌ أُخرىٰ على أنّ الرّسُولَ محمّداً ﷺ مُسْتَثْنَىٰ مِنَ التوجيه لتعلُّمِ صنعَةِ القراءة والكِتَابَةِ، لتبقَىٰ أُمِّيَّتُهُ إحْدَىٰ مُعْجِزَاتِ نُبُوَّتِهِ، غَيْرَ أَنَّ هذا التوجيهَ لاَ يُسْتَثْنَىٰ مِنْهُ أَحَدٌ من بَعْدِهِ، إلاَّ العاجِزُونَ من أُمَّتِهِ عَنْ تعلُّمِ القراءة والكتابة.

فمعنى قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ اِقْرأْ أيُّها الموضوعُ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاءِ، لاكتساب المعارف والعلوم الدينيَّة والدنيوية، قراءَةً مقترنَةً ومُلْتَبِسةً بالتفكُّرِ فِي صفات رَبِّك الّذِي خَلَقَ كُلَّ

مَخْلُوقٍ فِي الوجود، فَمِنْ آثَارِ صفاتِهِ خَلْقُ كُلِّ مَا سِوَاه جَلَّ جَلاَلَهُ. وأَنْتَ أَيُّها المدعُوُّ للقراءة واحِدٌ ممّا خَلَقَ، واقرأ مُسْتعيناً باللّهِ الذي يُمِدُّ بعطاءات ربوبيته.

وظاهِرٌ أَنَّ التوجيه للقراءة إنما هو توجيه لتحصيل المعارف والعلوم النافعةِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، الَّتِي تُعْتَبَرُ القراءة والكتابة من كبريات أسباب هذا التَّحْصِيل، ولا شَكَّ أَنَّ المعارفَ الدينيَّةَ مطلوبَةٌ بالدّرجَةِ الأُولىٰ، فهي المطلوبُ الأَوَّلُ من العباد.

* * *

قولُهُ تَعَالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾.

العلَقُ: الدّم الغليظ، أو الجامد. وهو اسم جنس، والقطعةُ منه علقة. والعلقة طورٌ من أطوار الجنين، وهي قطعةُ الدّم الّتي يتكوَّنُ الجنينُ منها.

بعد بيان أنّ اللّه عزّ وجلّ خَلَق كُلَّ مَخْلُوقٍ في الوجود، وهو ما جاء في الآية الأولىٰ من السورة، جاءتْ هذه الآيةُ لتُوَجّه نظر الإنْسَان المطالَبِ بأنْ يقرأ باسم ربّه الّذي خَلَقَ إلى طَوْرٍ من أطوار خلْقِه، وهُوَ طَوْرُ العلَقة الَّتي يكونُ عليها وهو في رَحِم أُمّه.

ومُمَارِسُ تَدَبُّرِ كتاب اللّهِ يُلاحظُ أنَّ أُسْلوبَ القرآن قائِمٌ على توزيع عناصر موضوعٍ واحدٍ في سُوَرٍ متعدّدةٍ، فإذا جُمِعتْ هٰذِهِ العناصِرُ تكامَلَ مِنها الموضوعُ الْكُلّيُّ المرادُ بيانُه، وهذا الأسلوبُ مع التكامُلِ الدقيق هو من عناصر إعجاز القرآن. ومن فوائِدِ هذا التوزيع التركيزُ على العنصر المختار في البيان الذي يُسَاقُ فيه، مع التذكير بأَصْلِ الموضوع الكلّيّ الموزّع، والتخلُّص من ركاكة التكرير، وإبعادِ المتدبِّرِ عن الْمَلَلِ والسّأمِ فيما لو جُمِعَتْ لَهُ كُلُّ العناصر حول موضوعٍ واحدٍ فِي نصٍّ واحدٍ.

وبتَتَبُّعِ النُّصُوصِ القرآنيَّة حَوْلَ مَرَاحِلِ خَلْقِ الإنسان وجدْتُ أنَّها تسْعَةَ

عشَرَ نصّاً، فجاء في هٰذِهِ النّصوصِ بيانُ مَرْحَلَةِ خلْق الإنسان من تراب، ومرحلة خلقه من طين لازب، ومرحلة خَلْقه من صلصالٍ من حمأٍ مَسْنُون، ومَرْحَلَةُ خلقه من صَلْصَالٍ كالفخّار، ومرحلة اشتقاقه من نفس واحدة هي نفس آدم، ومرحلَةُ خلقه من ماءٍ مهينٍ في النطفة، ومَرْحَلَةُ خَلْقِهِ من علقة، ثمّ من مضغةٍ مخلّقَةٍ وغير مخلَّقة، مع تتابع أطوار خلقه في بطْنِ أُمّه خَلْقاً من بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاث.

ودراسةُ هذه النصوص دراسةً تدبُّرِيَّة تتطلَّبُ بَحْثاً خاصّاً متكاملَ العناصر.

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

جاء في هٰذِهِ الآيَةِ تَكْرِير الأمْرِ بالقراءة للإشعار بحاجَةِ الإنسان لمتابَعَةِ القراءة في حياته لتغذيةِ فكره وقلبه ونفسه بالمعارف والعلوم والمفهومات الصحيحات.

إنّ نفس الإنسان بحاجَةٍ إلى زادٍ يُغَذّيها بالمعارف والعلوم، لتبقَىٰ لها حياةٌ معنويَّةٌ متنامية، كما أَنَّ جَسَدَهُ بحاجَةٍ إلى الطعامِ والشّرابِ والتنفُّس، لاستمرار حياته إلى أَجَلِهِ.

﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾: أي: الْأَكْرَمُ مِنْ كُلّ كريم، فلفظُ «أكْرَم» أفْعَلُ تفضيل، يقالُ: فلانٌ أكْرَمُ مِنْ فُلَانٍ، ولكن لاَ يُقالُ: «الأَكْرَمُ» بالإطلاق العامّ دُونَ إضافةٍ إلَىٰ شيءٍ إلاّ في جانب اللّهِ عزَّ وجلَّ، كالأكْبر، فَهُو سبحانه الأكْرَمُ من كُلّ كريم، والأكْبَرُ من كلّ كبير.

وجاءت عبارة ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ لإشعار الْمُطَالَب بالْقراءَةِ بأنّ رَبَّهُ الذي يُمِدُّهُ دواماً بعطاءاتِ رُبوبيّته، سيُمدُّهُ بفيوض المعارف كُلّما ازداد من القراءة طلباً للمعارف النافعة، وسَيُعطيه معارفَ زائدةً على المعاني الّتي تَدُلُّ عليها

المكتُوباتُ الَّتِي يَقْرَؤُها، لأنَّ فِقراتِ المعرفةِ الّتي يستفيدها القارئ من قراءاته تفتح له بمعونة اللّهِ وإلهامه وتوفيقه أَبواباً ومَسالكَ لاكتساب معارفَ أخرى، لا تدلُّ عليها المكتوبات، ولكن تجُرُّ إليها السلاسل الفكريّةُ المترابطة الّتي يُتَابِعُها الذهن، متَىٰ أمسك بحلْقَةٍ من حلَقاتها، ويكونُ هذا ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللّهِ السببيّة.

فاللّهُ سُبحانَهُ هو الأكْرَمُ من كُلّ كريم، فلا يقتصر عطاؤه على حُدُود ما يَطْلُبُ القارئ الوصُول إليه من المعاني الّتي تَدُلُّ عليها الألْفَاظُ المكْتُوبَةُ، بل يزيدُهُ من كرمه العظيم فيوضاً من المعارف فَوْقَها، على مقدار ما تستوعبُ آنيتُه الفكريّة.

* * *

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾.

أي: الَّذِي جعل مِنْ وسَائِلِ اكتساب المعارف والعلوم وسيلةَ القلم، فبالقلم تُدوَّنُ المعارفُ والعلومُ المكتسبَة بالإدراكِ الحسّيّ، أو الاستنتاجِ العقليّ بالتأمُّل الفكري، أو الخبرِ الصادق، فتكونُ جاهزةً للقراءة، فيستفيد القارئونَ ما سَبَقَ أن دُوِّنَ بالقلم، ويستذكِرُ بالقراءة الّذِين سبقت لهم المعرفة، ولكن نَسُوها أَوْ نَسُوا شيئاً مِنها، إذ الكتابَةُ المحفوظَةُ من فَسَاد خُطوطِها أو صُحُفها لا تتعرّضُ للنسيان، لكنّ الأذهان والذاكراتِ الإنسانيّة تنسَىٰ ما سبَقَ أنْ تعلُّمتْهُ، فهي بحاجَةٍ إلى مكتُوبٍ محفوظٍ لا يتعرَّض للنسيان.

وتعليم اللّهِ بالقَلَمِ قد حصل بخَلْقِ الناسِ مستعدّين لاكتساب وابتكار صنعة الكتابة والقراءة، وبإلْهامِهِمْ أَنْ يضَعُوا الرُّموز الخطيّة للحروف والكلمات والأعداد، أوْ بالوحْي إلى بعض أنبيائه أن يكتُبَ ويقرأَ ويُعلّم قومه أصول الكتابة والقراءة.

وورد في بعض الآثار أنَّ اللَّهَ تعالى أَنْزَل على آدم عشْرَ صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدْريسَ ثلاثين صَحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف.

فإنْ صَحَّ هذا فإنَّ التعليم الأوّل بالقلم كان عن طريق الوحي.

روىٰ أبو إدْريس الخولاني، عن أبي ذَرٍّ الغفاريّ قال: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ كتاباً أنزل اللَّهُ تعالَىٰ؟ قال:

«مِائَةَ صَحِيفَةٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، أنزل اللَّهُ تَعَالَىٰ على آدَمَ عشْرَ صَحَائِفَ، وعلى شِيثٍ خَمْسِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَىٰ إِدْرِيسَ ثلاثين صَحِيفَةً، وَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ والزَّبُورَ والْفُرْقَان».

* * *

قَولُهُ تعالَىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

أيْ: هيَّأَ للإنْسَانِ الوسائِلَ الأُخرىٰ لاكتساب الْعِلْم، كالإدْراكِ الحسِّيّ للأشياء، والإدْرَاكِ العقْلِيّ الْقَائِم على استخدام الأُصُولِ الْفِكْرِيَّة الَّتِي فَطَرَهُ عَلَيْهَا، والّتي بها يسْتَنْبِطُ ويسْتَخْرِجُ من البواطن، عن طريق لوازم الأَشْياءِ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا الذِّهْنُ البواطنَ غير المدركة بالحسِّ، كإدْراكِ وُجُودِ نارٍ عند رُؤيَةِ دُخانٍ صاعِدٍ في السَّمَاء، وإدْرَاكِ مُرور حَيَّةٍ على الأرض عند مشاهدةِ أثَرِ حَرَكَةِ جِسْمِها على الأرض.

إنَّ الإنسانَ يتعلَّم بحواسّه الظّاهرة المرئيّاتِ والمسموعاتِ والمشموماتِ والمذوقَاتِ والملموسات الّتي أوْجَدَها اللَّهُ في كونه ومكَّنَهُ من استعمال حواسِّه لمعرفتها، وهذا تعليمٌ من الله لعلومٍ لم يكن الإنسانُ على علم بها.

ويتعلَّمُ بحواسِّهِ الباطنة العواطف والإحساسات والمشاعرَ الداخليّة،

كالحبّ والكراهية، والغضب والرّضا، واللّذة والألم. ولو لَمْ يجعلِ الله لدى الإنسان الاستعدادَ للمعرفة، ولم يَضَعْهُ في بيئَةٍ تجريبيّةٍ تَجْعلُهُ يتذوّقُ هٰذِهِ الإحْسَاسات، لبقيَ صفحةً بيضَاءَ جاهلةً، فما يكتسِبُهُ الإنسانُ من ذلك هو تعليمٌ من اللّهِ لعلومٍ لم يكُنْ على عِلْمٍ بها.

* * *

(٦)

نظرةٌ إجماليّة عامّة للدرس الأول

بدأَتْ أوّل سورة من القرآن نزلَتْ على الرسول محمّد ﷺ بالأَمْرِ بالقراءة، نظراً إلى أنّ القراءة وسيلةُ اقتباس المعارف المدوّنة الّتي سبَقَ توصُّلُ الناسُ إليها بوسائلهم الحسيّةِ والتجريبيّة والعقليّة الاستنباطية والخبريّة البشرية، أوْ سبق أن تنزّل بها وحْيُ اللّهِ على أنبيائه ورُسُلِهِ السابقين.

ولمّا كان الهدف من القراءة تحصيلَ المعارف النافعة، وأهمُّها المعارف الدينيَّةُ، الَّتي تَهْدِي الناسَ إلى سعادتهم في دُنْياهم وآخرتهم، كان لا بُدّ من ملاحظةِ الاستعانة باللّهِ فيها، ومصاحَبَتِها بالتفكر بأسماء اللّهِ وصفاتِه الحسنىٰ، إذ الكون كلُّه من آثارها، لاستبصار الحقّ، والتوفيق للإيمان، ثم الارتقاء في درجاته ومراتبه، والتزامِ العمل بمقتضاه، إسلاماً وطاعةً للّهِ في أوامره ونواهيه ونصائحه ووصاياه، وإرْشاداته.

فكانت الجملة الأولىٰ خطاباً للرَّسُولِ أوّلاً، فلكُلِّ مَوْضوع في الحياة الدنيا موضع الابتلاء والتكليف: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اِقْرأ مستعيناً بما لربّك من صفاتِ حُسْنىٰ عظيمات جليلات، ومُبْتَدِئاً بذكْرِ اسم ربّك، ومُسْتَصْحِباً التفكّرَ بأسماء الله الحسنىٰ، الملائمة للموضوع الذي تقرأ فيه، فمَا من موضوعٍ فكريٍّ إلاّ لَهُ صِلَةٌ باسْم أَوْ أَكْثَرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللّهِ الحسنى، إذْ ما مِنْ شيءٍ في الكونِ إلاّ هو أثَرٌ من آثَارِ اسْمٍ فأكْثر من أسمائه جلَّ جلاله.

إنَّكَ أيُّها الكائنُ المدرِكُ لوجود ذَاتِك وصفاتِك، لَكَ رَبٌّ رَبَّاكَ وَنَشَّأَكَ حَتَّىٰ صِرْت كائِناً حيًّا مُدْرِكاً سَوِيًّا، فانظُرْ إلى ذَاتِكَ كَيْفَ بَدَأْتَ، وكَيْفَ تَنَقَّلْتَ في أَطوار خَلْقِكَ، مِنْ نُطْفَةٍ إلَىٰ عَلَقَةٍ إلى مُضْغَةٍ، وهكذا نُشِّئْتَ تَنْشِيئاً صاعداً حتى بَلَغْتَ دَرَجَةَ كمالِكَ المقدَّرَةَ لك، فصِرْتَ حيّاً ذَا إدْرَاكٍ وإرادَةٍ وقوَّةٍ إلى سائر صفاتك النفسيّةِ والجسديّة.

فهلْ كُنتَ أنْتَ الْمُنْشِئَ لذاتِكَ، والمختار لصفاتِكَ وخصائِصِكَ؟ وهَلْ كانَ أَبَوَاكَ هُمَا اللَّذَانِ بَنَيَا ذَاتَكَ، وَمَنَحَاكَ صفاتك؟ إنَّهُما لم يفْعلا شيئاً إلاَّ أَنْ كانَا وَسِيلَةً ما بَيْنَ مُسْتَقَرٍّ ومُسْتَوْدَعٍ، ثُمَّ سَاعَدَاكَ علَىٰ تقديم بَعْضِ وسَائِلِ حياتِكَ وَحِمَايَتِك، لكنَّهُمَا لَمْ يَبْنِيَا فيكَ شيئاً، ولمْ يخلُقَا فيكَ خَلْقاً ما.

إذَنْ: فآمِنْ بأنَّ لَكَ رَبًّا، والْتَمِسْ مِنْهُ عوناً، وتفكَّرْ في أسمائه وصفاته دواماً مَعَ كلِّ حقيقة كونيَّةٍ تتعلَّمُهَا، ومَجِّدْهُ في نَفْسِك وقَوْلِك، ونادِهِ وادْعُه، واقْرأ مَا أُنْزِلَ إلَيْكَ، حَتَّىٰ تَعْلَم واجِبَكَ تُجاهه، وتَعْمَلَ بِمَا يُوصِيكَ بِهِ، وتُطِيعَ أَوَامِرَهُ ونواهِيه.

لَقَدْ أَدْرَكْتَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ بُمُلاَحَظَتِكَ لِذَاتِكَ، وصِفَاتك، ومُلاحظتك لأَمْثَالِكَ، أَنَّكَ تَدَرَّجْتَ فِي نشأَتِكَ مِنَ النُّطفة حتَّىٰ صِرْت علقةً فَمُضْغَةً فَجَنِيناً يتَحَرَّكُ بحَيَاةٍ، فوليداً، فَغُلاَماً، فشابًّا، فكَهْلاً، وهكذا.

أفلا تبحَثُ عَمَّنْ رَبَّاكَ؟ أَفَلا تتفكّر في صفاتِهِ وأسمائه الحسنَىٰ، ولَوْ لَمْ يكُنْ مَرْئِيّاً لكَ بعينيْكَ؟!

إِنَّكَ تستطيعُ أَنْ تُدْرِكَ وُجُودَهُ، بجِهَازٍ فيك، هُوَ أَجَلُّ من بَصَرِكَ وسَمْعِكَ وسائِرِ حواسِّكَ وأعظم، هُوَ فِكْرُكَ، هُوَ قُوَّةُ إِدْرَاكِ المعارفِ فيكَ، هُو عَقْلُكَ الّذي يُدْرِكُ مَا غابَ عَنْ حِسِّك، ويشاركُهُ وجْدانُكَ الداخِلِيُّ وضميرُك.

هٰذا الّذِي رَبَّاكَ هُوَ الْخَالِقُ في الوجود، هو الذي خَلَقَ كُلَّ مَا تُشَاهِدُ في ذَاتِكَ وَحَوْلَ ذَاتِكَ، مِنْ كُلِّ ظَاهِرٍ وباطِنٍ في الْكَوْنِ، فَهُوَ الّذِي خَلَقَ.

فاقْرأ ما نزل بِهِ الوحْيُ باسْمِ رَبِّك الذي خَلَقَكَ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْنِ مِنْ حَوْلِكَ.

واذْكُرْ أيُّهَا الإنْسَانُ أنَّكَ كُنتَ في بَعْضِ أَطْوَارِ خلْقِكَ عَلَقَةً، وهكذا كُلُّ إنسانٍ بَعْدَ آدم وزَوْجِهِ.

ودليلُ هذه الظاهرة ما أثبتَتْهُ دلائل المعرفة الحسيَّةِ الإنسانيّة.

هذا هو بَدْءُ الدَّعْوَةِ إلى دين الله، إنَّها دعْوَةٌ إلى الإيمان بالرَّبّ الْخَالِقِ، وإلى الإصغاءِ لما يَنْزِلُ به الوحْيُ، وكتابَتِهِ وقراءتِه لتدبُّر دلالاته، وطلَبِ الاستعانة بصفاته ومصاحَبَةِ التفكُّر فيها، للوصُول إلى فَهْمِ ما يَنْزِلُ بِهِ الْوَحْيُ، ولمتابَعَةِ اكتساب المعرفَةِ الهاديَةِ إلى الحقائقِ الكُبْرىٰ، والإسْلامِ للَّهِ والْعَمَل بمراضِيهِ.

كُلُّ هٰذِهِ المعاني قَدْ جاءَت مُوجَزَةً أَرْوَعَ إيجازٍ فِي آيَتَيْنِ قَصِيرَتَيْن هُمَا قَوْلُ اللّهِ عَزّ وجلّ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾.

وهُنَا تَظْهَرُ مُشْكِلَةُ الْقَارِئ لمَا نَزَلَ بِهِ الوحْيُ، الَّذِي قَدْ تخْفَىٰ عَلَيْهِ مَعَانٍ كثيرة مِنْ دلاَلات نُصُوصِ الوحي ولوازِمِهَا، لِمَا فِيهَا مِنْ إيجاز، ولما اقْتَضَاهُ تنزيلُها من إعجاز.

فماذا يَفْعَلُ هٰذَا الْقَارِئ؟. هَلْ يَقْرأُ وَيَقْرأُ وَلَوْ لَمْ يَفْهَمْ كُلَّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ الْمُوحَىٰ بِهِ؟.

والجواب: أنَّ ما يَفْهَمُهُ ممَّا يَقْرَؤُهُ يَهْدِيه وينفعُهُ، ومِنْ جَهْلِ كثيرِ يرفعُه، ولكِنَّ علَيْه أَنْ يتدَبَّر، ويُتَابعَ التَّأمُّلَ والتدبُّر، ولْيَضَعْ في حسابِهِ أنَّهُ مأجُورٌ، سَواءٌ أَفهِمَ أمْ لم يَفْهَم، ففي كُلِّ حَرْفٍ من التنزيلِ يَتْلُوهُ لَهُ به عشْرُ حسنات.

ثمَّ إنَّه بمُتَابَعَةِ القراءة والتّدبُّر مع الاستعانَةِ بربِّهِ يُنَوِّرُ اللَّهُ بَصيرَتَهُ، فَيَفْتَح لَهُ أبواباً من الْفَهْم، تُشْرِقُ لَهُ مِنها معارِفُ ربَّانِيَّة، اشْتَمَلَ عَلَيْها النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ الموحَىٰ به.

فاقْرأْ أَيُّها الإنسانُ ما نزل بِه وحْيُ رَبّكَ، وتَدَبَّرْهُ، ثُمَّ اقْرأْ وتَدَبَّرْ، فإنَّكَ إذَا وَجَّهْتَ همَّتَكَ لِفَهْمِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَلامُ رَبّك، وَصَدَقَتْ عزِيمَتُكَ، أَكْرَمَكَ رَبُّكَ، فأشْرَقَتْ عَلَيْكَ أَنْوَارُ المعارف.

إذَنْ: فَتَابِع قراءَتَكَ وَتَدبُّرَكَ يُكْرِمُكَ اللَّهُ بالمعرفة ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③﴾.

واجْعَلْ مِنْ وَسَائِلِكَ أَيُّها الْإِنْسَانُ الْقَارِئ لما نَزَل بِهِ الوحْيُ من عند ربّك وسِيلَةَ الْقَلم، فَدَوِّنْ بِهِ وارِدَاتِ المعرفَةِ الّتِي تَرِدُ عَلَيْكَ عنْدَ قراءَتِكَ وَتَدَبُّرِكَ لِكلاَمِ رَبّك، فوارِدَاتُ المعارِفِ شَرُودٌ، إذا لَمْ تُدَوِّنْها بالْقَلَم نَسِيتَهَا، فضاعَتْ، وقد يَصْعُبُ أَنْ تَعُودَ مرَّةً أُخرىٰ، فَتَخْسَرُ الوارِدَ، إِذْ لَم تُقيّدْهُ بالْقَلَمِ، فَرَبُّكَ الَّذي خَلَقَ، وأكْرَمَكَ بوَسائِلِ المعرفَةِ عَلَّمَ بالْقَلم.

إِنَّ وارِدَ المعرفةِ غَيْثٌ، والقَلَمُ ميزابُ هٰذَا الغيثِ، والقِرْطاسُ هو الوعاءُ الَّذي تَجمَعُ به غيْثَ رَبّكَ من المعارف، وَبِهِ يسْتَقِرُّ الْعِلْمُ، ويُنَقَّحُ وَيُصَنَّف.

هكَذَا خَلَقَ اللَّهُ الإنسان، وهكذا جَعَلَ إحدى وسائل معرفتهِ بعْدَ أن خلقه جهازاً خالياً من العلم قابلاً له.

إنّ رَبّكَ أَيُّها الإنسانُ بوصْفِ أنَّهُ الأَكْرَمُ مِنْ كُلِّ كريم، يُغيثُ بوارداتِ المعارف، وبسنَّتِهِ فِي خَلْقِ الإِنْسَان جعل القلمَ وسيلة سهلةً متاحةً لِجَمْع هذه الواردات وتنقيحها وتصْنيفها.

وبهذه الوسيلة وبغيرها من وسائل اكتساب المعرفة علَّمَ الإِنْسانَ ما لم يَعْلَم.

هذه المعاني مع معانٍ أُخرىٰ أَوْجَزَهَا أَرْوَعَ إيجازٍ قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ:
﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾.

وبهذا ينتهي الكلامُ حَوْلَ الدَّرْسِ الأَوَّل مِنْ دُرُوسِ سورة (الْعَلَق).

* * *

(٧)

التدبُّر التحليليُّ للدّرْسِ الثاني من دروس السورة

الآيات من (٦ ـ ٨)

قال اللّه عزّ وجل:
﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ⑥ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ⑧﴾.

تضمَّن الدرسُ الأَوَّلُ من السورة تكليفَ النّاس أن يتلَقَّوا الرّسالة الرَّبَّانيَّةَ المنزّلَة على محمد ﷺ، وأن يقرؤوا كتابَها آناً فآناً بعد تدوينه بالقلم، ضِمْنَ مَسِيرتهم العلميّة.

وهذا الدّرْسُ يُثِيرُ لدى رافضي الاستجابة لهذه الرّسالة ورافضي الإيمان بالرّسُولِ واتّباعه، اعْتِراضاً مُفادُهُ ما يلي:

مَا حاجةُ الناسِ إلى إنْزال رِسَالة رَبَّانِيَّة؟ إنَّ باستطاعة النّاسِ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ ما يُصْلِحُ شُؤُونَهُمْ، ويُنَظِّمُ حياتهم، ويُبيِّن لهم السُّلوكَ الأَقْوَمَ، عَنْ طَرِيقِ عقولهم وتجرباتهم.

فجاء الدّرْسُ الثاني من السّورة زَاجراً ودافعاً لهذا الاعْتِراض. فبدَأَ بِكَلِمَةِ زَجْرٍ لِلْمُعْتَرِضِينَ، وهي كلمة: «كَلَّا». وبعدها أَشَار الدَّرْسُ إِلَى حاجَةَ النَّاسِ الماسَّةِ إلى إِنْزَالِ رِسَالةٍ رَبَّانيَّةٍ يُدْعَوْنَ فيها إلى سُلُوكِ صراطِ اللَّهِ المبيَّنِ فيها، بَعْدَ دَعْوتِهم إلى الإيمانِ بالحقائق الَّتِي تَشْتَمِلُ عليها أَرْكانُ الإيمان، وما في هذه الأركان من عناصر وتفصيلات.

﴿كَلَّآ﴾: أداة رَدْعٍ وزَجْر، هذا هو الأصل فيها.

أقول: والزّجْرُ الْمُوجَّهُ من اللّهِ عزّ وجلّ هُنَا يقتضي مزجوراً ومزجوراً عنه، ولا يُعْقَلُ أَنْ يكون الزَّجْرُ مُوَجّهاً لِلرَّسُولِ ولا للذين يؤمنون به ويتّبِعُونه، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ الزّجْرُ للذين يرفضُون الاستجابة لهذه الرسالة ويَعْتَرِضُون عليها، فإيرادُ أداة الزّجْرِ يتضمَّن الإشارة إليهم.

ومن تدبُّرِ ما جاء بعد عبارة الزَّجْرِ مِنْ بيانٍ نُدْرِكُ أَنّه قد جاء رَدًّا على الاعتراضِ الذي يُوجِّهُهُ الرّافضون، ومِنْ مضمون الرّدّ نُدْرِكُ مضمون الاعتراضِ المطويّ الذي لم يُفْصِحْ عنهُ النّصّ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ⑦﴾.

هٰذَا النصُّ قد جاء بمثابة التعليلِ للحكمة من إنْزَالِ رِسَالَةٍ رَبَّانِيّةٍ، عَلَىٰ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ، ودَعْوَةِ النّاسِ لاتّباعها، بقيادة الرّسول، أي: فلولا إِنْزَالُ الرّسَالَةِ الّتي تَتَضمَّن تَعْرِيفَ الناسِ بالْحَقّ والباطل، والخير والشّرِ، وتَعْرِيفَهُمْ بالصّراطِ المستقيم، لَطَغَىٰ مَنْ يَشْعُر بالاستغناءِ مِنْهُمْ، ولم يَجِدْ رادِعاً يَرْدَعُهُ عَنْ طُغيانه، وبالطُّغيانِ الّذِي تتعدَّدُ جِهَاتُهُ في النَّاسِ يَحْدُثُ التَّقَاتُلُ وسَفْكُ الدِّماء، وفسادٌ في الأرضِ عريضٌ، وظُلْمٌ وبغيٌ وعُدْوان، وهذا يحتاجُ إلى جَيْشٍ من المؤمنين برسالة اللّه لعباده، يُوقِفون شُرُورَ الطغيان، ويَحُدُّون من تفاقُم العدوان، ويحتاج إلى بياناتٍ تُحَذِّرُ من عقاب الله في الدنيا والآخرة، وتبيّن للناس أنّهم ممتَحَنُونَ في الحياة الدنيا، وأنّهُمْ لاَ بُدَّ أَنْ يَرْجِعُوا يوم الدين إلى بارئهم، ليحاسبهم، ويفصل القضاء فيهم، ويجازِيَهُمْ على أعمالهم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرّاً فَشَرٌّ.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ⑦﴾: الفاعلُ والمفعولُ به في عبارة «رآه» واحد، أي: رأَىٰ من ذاته أَنّه استغْنَى، وهذا من أفعال القلوب الّتي يصحُّ فيها أَنْ يكون ضميرا الفاعل والمفعولِ به واحداً، ومنها: «حَسِبْتُنِي ـ وظَنَنْتُنِي ـ».

فدلَّ هذا النصُّ على أَنَّ من ظواهر السلوك الإنسانيّ، أَنَّهُ يطْغَىٰ إِذا رأَىٰ أَنّه استغنَىٰ، وهٰذِهِ الظّاهِرَة مشاهَدَةٌ في الواقِع الإنسانيّ بنِسْبَةٍ غَالِبَةٍ جدًا.

والحكم في هذا النّصّ القرآنيّ حُكْمٌ على الْجِنْسِ، والحكْمُ عَلَىٰ الْجِنْسِ لاَ يَعْنِي اسْتِغْرَاقَ جَمِيعِ أَفْرَاده.

الطغيان في اللّغة: هُو تجاوُزُ حُدودِ الْحَقِّ والْعَدْلِ، أو الخير والمصلَحَةِ والمنفَعَة، أَوْ مستوىٰ الأَمْرِ الحكيم.

تقولُ لغة: طغَىٰ الْبَحْرُ، إِذَا هاجَتْ أَمْوَاجُه. وطَغَىٰ الماءُ، إذا ارتَفَعَ وعَلاَ عَنْ حَدِّهِ النافِع فأغْرَقَ وأَتْلَفَ. وطَغَىٰ فرعون: أي: ظلَمَ وَعَتَا وَتَجبَّر. وطغَىٰ الكافرُ: أي: أَمْعَنَ في جحودِهِ لخالقه ومعصيته أوامِرَه ونواهِيَه.

﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾: الاستغناء هو في الأصل امْتلاكُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَجْعَلُ مالِكَها غَنِيًّا بِها عن غيره، غير محتاج إلى أحد.

وهذا الاستغناء يكونُ بالمال، ويكونُ بالْقُوَّةِ والسلطان، ويكون بالصحّة والعافية، ويكونُ بالأَتباعِ والأنصار، ويكون بامتلاكِ كلّ ما يُحتَاجُ إليه، ويكونُ الاستغناء عن الشيء أيضاً بعَدَمِ الحاجَةِ إِلَيْهِ أَصْلاً.

والاسْتغناء قَدْ يكونُ حقيقيّاً، وهو للّهِ تعالى وحده، فاللّهُ عزّ وجلّ هو الغني في ذاته، بصفاتِ الكمال التي هي له، وهو المالك لكُلّ شيءٍ، وَهُو الغنيُّ فِي ذَاتِه عن كلِّ شيءٍ من دونه.

وقَدْ يكونُ الاستغناء شُعُوراً نَفسيّاً كاذِباً، يراه الإنْسَانُ لنفسه، وهو في حقيقة حاله فقيرٌ لربّه، محتاجٌ إِلَيْهِ في كُلّ مطلَبٍ من مطالبه، وقَدْ جَعَلَهُ رَبُّهُ مُحْتاجاً لأشياءَ كثيرة، واللّهُ وحده هو الذي يخْلُقُها ويهيّئُها له، ضمن سُنَنِهِ فِي كونه.

إنَّ شعور الإنسان بالاستغناء وهو غارقٌ في الفقرِ إلى الله عزَّ وجلَّ شُعورٌ فاسِدٌ، مُسْتَنِدٌ إلى وهْمٍ كاذبٍ، وهَذا الشُّعُورُ لاَ يكونُ لدىٰ المؤمنين الصّادِقِينَ، المراقبين لربّهم.

إنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ في الإنسانِ صِفَةٌ شَرْطِيَّةٌ، إذْ لَيْسَ كُلُّ إنسَانٍ طاغياً بالْفِعْلِ، ولكِنْ من رأىٰ أنَّهُ اسْتغْنَىٰ طَغَى، ولزُومُ الطغيَانِ للشُّعُورِ بالاسْتِغْنَاءِ في مُرَكَّب هذا الإِنْسَانِ يَكَادُ يكُونُ قاعدةً مطّرِدَةً.

هـذا الـواقـع الإنسـانيُّ يكْشِفُ أَنَّ النَّاسَ بحَـاجَـةٍ إِلَىٰ رِسـالَـةٍ رَبَّانِيَّة يُنَزِّلُهَا اللّه لِعِبَادِهِ.

يُضَافُ إِلَىٰ هَـٰذَا أَنَّ خَلْقَ الإنْسَانِ للابْتِلاَءِ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا يَسْتَدْعِي باللُّزومِ الْعَقْلِيِّ المحاسَبَةَ وفَصْلَ الْقَضَاءِ وتَنْفِيذَ الْجَزَاء.

وبما أنَّ الصُّورةَ الْمُثْلَىٰ لِهَٰذِهِ الْأُمورِ لا تتحقَّقُ في ظروفِ هٰذه الحياة الدُّنيا، فَلاَ بُدَّ مِنْ ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ تَتَحَقَّقُ فِيها، إلاَّ أَنَّ الْعُقُولَ البشريَّة عاجِزَةٌ عَنْ تَصَوُّرِ هٰذِهِ الحياةِ الأخْرَىٰ، فَلاَ بُدَّ لَهَا مِنْ رِسالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ تبيِّن لَهَا المعالم الكبرى لهٰذِهِ الحياة الأُخرىٰ، وقد أشار إلى هذه الحكمة قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ⑧﴾.

الرُّجْعَىٰ: مَصْدَرٌ كالرُّجُوع.

فتبيّن من هذا الرَّدّ المشتمل على عنصرين:

١ ـ كَوْنِ الإنسانِ يطْغَىٰ إذا رأىٰ نفسه اسْتَغْنَىٰ.

٢ ـ وكَوْنِ الناسِ سَيُبْعَثونَ بَعْدَ الموت، ويرجعون إِلَىٰ ربهم، ليحاسِبَهُمْ، ويقضِيَ بَيْنَهُمْ، ويجازِيَهُمْ عَلَىٰ أعمالهم.

أنّ الاعتراض الذي زجَرَ اللَّهُ المعترضِينَ مِنْ أَجْلِهِ، هو تَصَوُّرُهم أَنّ النَّاسَ يَسْتَطِيعُونَ بعقولهم وتجرباتهم، التَّوصُّلَ إِلَىٰ ما يُعَرِّفُهُمْ بالْحَقّ

والْخَيْرِ، وَيضبطُ مسيرتَهُمْ في حياتِهِمْ عَلَى الصراط المستقيم الّذِي فِيه خيرهم جميعاً، وسعادتهم جميعاً.

وقَدْ أثبت الواقع الإنسانيّ أنّ المذاهب الإِنسانية الّتِي وضعها رافِضُو الاستجابَةِ لِدِينِ اللّهِ، قَدْ باءَت بالخيبة وشقاء المجتمع البشري، وهذا دليلٌ تجريبيٌ على سُقُوط اعتراضِ المعترِضينَ، وحَاجَةِ نُفُوسِهِمْ إلى الزَّجْرِ، الذي بدأ به الدّرْسُ الثاني من دروسِ سُورَةِ (العلق) إذْ قال الله لهم: ﴿كَلَّآ﴾.

* * *

(٨)

نظرة إجمالية عامّةٌ للدرس الثاني

زَجْراً لَكَ أيُّها الإنسان المعرضُ عن دعْوَةِ رَبّك لك، لقراءة ما نزل به الوحي عند رَبّك لهدايتك.

زَجْراً لكَ أيُّها الإنسانُ الرافِضُ لهَـٰذِهِ الدعْوَةِ، المعتَرِضُ على إنزال رسالَةٍ من رَبّك على الرسُول الذي اختاره ليبلّغ الناسَ رسالته إليهم.

إنَّ هذا الرّبّ هو الذي خَلَقَ كُلَّ ما في الكون، وأنْتَ خَلْقٌ من خَلْقِهِ، مَرَرْتَ في أطوارِ من الخلْقِ مِنْها طَوْرُ العلقة.

أتَدْرِي أيُّها الإنسانُ المستنكِفُ عن الاستجابة لدعوةِ ربِّكَ لك، ما هِيَ عِلَّةُ دَائِكَ ودَاءِ أمثالك في استكْبَارِكَ وطغيانك؟

إنَّ توافُرَ نِعَمِ اللّهِ عليكَ في حَيَاتك وتوافُرَ أسبابها، جعَلك تشْعُرُ بأنّكَ غَنِيٌّ، مُسْتَغْنٍ بوسائلك الّتي جعلَها رَبُّكَ بيْنَ يَدَيْك ليمْتَحِنَك في ظروفِ هذه الحياة الدنيا.

إنَّ طُولَ ممارَسَتِكَ لِلأَسْبَابِ الّتِي تأتِيكَ بمسبَّبَاتِها بخَلْقِ الله، جعلَكَ تَزْعُم أنّها مُتَاحَةٌ لك دواماً، وجَعَلَكَ تَنْسَى الرَّبّ الخالق الذي سخَّرَها لَكَ

ليَبْلُوك، وتنسَىٰ أنَّه مَتَىٰ سلَبَها بأَسْبابٍ خفيَّةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ لاَ تَملِكُ دَفْعَهَا ولا رَفْعَها، فإنَّك لا تستطيع اسْتِعادتها.

ومَعَ نَزْعَةِ اسْتكْبَارٍ فيك جعلَكَ تشْعُر بالاستغناءِ، وهذا الاستغناء نفخ فيك الكِبْرَ، فغشَّىٰ عَلَىٰ بَصِيرَتِك، فنَسِيتَ نَشْأَتَكَ، ونسيت رَبَّكَ، ووجَدْتَ الْقُوىٰ بَيْنَ يَدَيْكَ فطغَيْتَ، في فكرِكَ ونَفْسِكَ وعَمَلِكَ.

ومن طغيانك في فِكْرِكَ رَفْضُكَ دعوةَ رَبِّكَ لَكَ، لتدبُّرِ ما نزل به الوحْيُ لهدايتكَ، والاستجابَةَ لمضمونها، والْعَمَلَ بما فِيها من أوامر ونواهِيَ ووصايا ونصائح. ومن طغيانِك في فِكْرِكَ اسْتِكْبَارُكَ بما لَدَيْكَ من أفكارٍ ومفهوماتٍ ورثتها مِمَّنْ سلَف، أَوْ أَوْصَلَتْكَ إلَيْها تجارِبُك، أو انْتَهَىٰ إليها ذكاؤك.

ولو أزحْتَ الغشاوَةَ عن نَفْسِك، وتبصَّرْتَ بأصْلِ نَشْأَتِكَ، ونَفَّسْتَ ما في نَفْسِك من كبر نَفَخَتْهُ فِيها الأوهام، لخَشَعْتَ لِرَبِّك، وعُدْتَ إلَىٰ رُشْدِكَ، ودَخَلْتَ ضِمْنَ تَلامِيذِ مَدْرَسةِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه، تتدَبَّرُ ما ينزل به الوحْيُ، فَتَقْرأ كلامَ اللَّهِ، وتتدبَّرُ آياته، وتتعَلَّم الكتابَةَ، وتُقَيِّدُ بالْقَلمِ ما يَهْدِيكَ إليه تَدَبُّرُكَ الواعي، ثُمَّ تَعْمَلُ بوصايا رَبِّك، وتُطِيعُ أوامِرَه وَنواهِيَهُ، لِأَنَّك تُدْرِكُ حينئِذٍ أَنَّ كُلَّ ما بين يَدَيْكَ من أسْبابٍ هي من عطائه، وضَعَها بَيْنَ يَدَيْكَ ليبلُوَكَ بها، وتُدْرِكُ أنَّه متَىٰ شاء سلَبَها، وتُدْرِكُ أَنَّ مَسْؤُوليَّتَك فِي هٰذِهِ الحياةِ إيمانٌ به، وإسلامٌ لَهُ، وسَمْعٌ وطاعَةٌ، فهو رَبُّ كُلِّ شيء، والمهيْمِنُ علىٰ كُلِّ شيءٍ.

إنَّكَ إذا عرفتَ أنَّك مخلُوقٌ لخالقٍ عظيم، وأنَّ هذا الخالق هو رَبُّكَ دَواماً، الَّذي يمنَحُكَ كُلَّ أسْباب نَمائِك وبقائِك، ويشمَلُك بعطاءات رُبوبيّته، فلا بُدَّ أَنْ يخطُرَ فِي بالِكَ سؤالٌ مُلِحٌّ فِي نَفْسِكَ تبْحَثُ لَهُ عَنْ جواب.

هذا السؤال هو: لماذا خلقني رَبِّي مُزَوَّداً بصفاتي التي فيها جهازُ

العِلْم، وإدْرَاكِ حقائق الأشياء، وفيها أجهزة الأهواء والشهواتِ والغرائِز، وفيها نوازع للخير، ونوازِعُ للشرّ، وفيها الإرَادةُ الحرّةُ الّتي باستطاعتها أن تُريد فِعْلَ الخير وفِعْلَ الشرّ، وتَمْلِكُ تَنفِيذَ كُلٍّ منهما، بما سَخَّرَ اللَّهُ لَكَ في ذَاتِكَ، وبما سخَّرَ لَكَ ولِأَمْثَالِكَ في الكونِ. لماذا؟

هل خلقني عبثاً؟

هل خلقني ومكّنَنِي من فِعْلِ الظُّلْم والعدوانِ وجُحُودِ الْحَقِّ ونحو ذٰلِكَ، على خلافِ مَخْلُوقاتِه المجبورَةِ عَلَىٰ أَعْمَالِهَا وتَصَرُّفاتِها، دون أَنْ يكُونَ فِي خِطَّتِهِ محاسَبَتِي ومُجَازَاتي، ووضْعِي في هذه الحياة الَّتِي أَنَا فيها موْضِعَ المسؤوليّة؟

إنَّكَ لاَ بُدَّ أَنْ تَقُولَ في نَفْسِك: إِنَّ مَنْ خلقني بحِكْمَةٍ وإتْقَانٍ، وخَلَق كُلَّ شيءٍ وأتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، لا يُمْكِنُ إلاَّ أنْ يكونَ قَدْ خَلَقَنِي بصِفَاتِي هٰذِه ليمْتَحِنَني، ثُمَّ ليُحَاسِبَنِي على عَمَلِي، ثُمَّ لِيُجَازِيَنِي.

هذا ما يَهْدِي إليه العقل السَّوِيُّ السّليم، ويَرْتَاحُ إلَيْهِ الوجدان.

إذَنْ: فَمِنْ أجلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الوحْيَ بكلامِهِ، ليهدِيني إلى المنهج الذي يجبُ عَلَيَّ أن أَسْلُكَهُ فِي رِحْلَةِ امتحاني.

أمّا مُحَاسَبَتِي وَمُجَازَاتي فلا بُدَّ لهما من حياةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ رِحْلَةِ هٰذِهِ الحياة، ألا يُنَبِّهُنِي إلَىٰ هذا قَوْلُ اللَّهِ عَزّ وجلّ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾.

* * *

(٩)

التدبُّر التحليلي للدرس الثالث

الآيات من (٩ ـ ١٩)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (١٠) أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ (١١) أَوْ
أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ (١٢) أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ
لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨)
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ (١٩)﴾.

تمهيد:

بعد أن استكمل الدرسُ الثاني عناصره يَرِد في ذِهْنِ المُتَلَقِّي سؤال حول أصناف الناس تجاه الرّسالة الرّبّانيّة، الّتِي دَلَّ الدرسُ الثاني على حاجة النّاسِ إليها.

وكانت الإجابَةُ التّلْقَائِيَّةُ الّتي يختارُها أَحْسَنُ الْأُدَبَاءِ وأفضلُ المفكِّرِين أن يقول: الناسُ تجاه الرّسالَةِ الرّبّانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ أصنافٌ أربعةٌ:

الصنف الأَوَّل: مُسْتجيب بنفسِه مُتّبِعٌ، ويحْمِلُ هَمَّ الدَّعْوَةِ إلى هذه الرّسالة، وهداية الناسِ إلى الاستجابة لها واتّباعها.

الصنف الثاني: مُسْتجيبٌ بنفسه متّبع، ولكنَّهُ غير مُهْتَمٍّ بالدّعوة إليها، وهداية الناس إلى الاستجابة لها واتّباعها، ولا يقوم بهذه الوظيفة الشريفة.

الصنف الثالث: مكَذِّبٌ بهذه الرسالة ومكذِّبٌ للرسول المبلِّغ لها، ومتولٍّ مُدْبِرٌ عنها رافضٌ لاتّباعِ ما جاء فيها، لكنَّهُ لاَ يحاربُها ولاَ يُقَاوِمُها، ولا يَدْعو الناس إلى عدم الاستجابة لها.

الصنف الرابع: مكذّبٌ يُعْلِنُ تولّيَهُ وإدْبارَهُ ورفضه اتّباع ما جاء فيها، ويُعْلِنُ مُحَاربتَهُ لها، وينْهَىٰ الناس عَنِ اتباعها والْعَمَلِ بما جاء فيها، وقد يؤدّي به هذا الموقف إلى اضطهاد دُعاتِها والمؤمنين بها، وهذا أخسُّ الأقسام وشرُّهم.

ولكِنَّ النَّصّ في هذا الدرسِ الّذِي ختم اللّه به السورة لم يأْتِ بهذا

الأسلوب الساذج، بَلْ بدَأ بالتعجيب مِنْ واقع حال شَرِّ الأَقْسَامِ وأَخَسِّهِمْ، بأُسْلُوبِ طَرْح الاستفهَام التَّعْجِيبيّ الموجَّهِ لكُلِّ مَنْ يَصْلُحُ لخطابٍ بكلام ذي مضمونٍ فكريّ، فقال الله عزَّ وَجل:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ⑩﴾.

أي: أرأيْتَ أيُّها الرّائي المتفكر هذا الصنف من النّاس، ذا السُّلُوكِ الّذِي يَتعَجَّبُ منهُ العقلاء المتفكّرونَ أولوا الألباب، إذا كنتَ لم تَرَهُ لِيُثِيرَ لدَيْكَ العجبَ من أمْرِه، فانْظُرْ إليه لتَرَىٰ مِنْ أَمْرِهِ عجباً يَدْفَعُكَ إلى الاستنكار الشديد، إنَّهُ يُكذِّبُ بالحقّ ويرفضُ دعوةَ رسالَةِ الله، ثم يَنْهَىٰ عبداً من عباد اللّهِ لِأَنَّهُ قامَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّه يُصَلِّي له، ولا يَتعَرَّضُ لأحَدٍ مِنَ الناسِ بأذىً.

أليس حَالُ هذا النّاهي أمراً يُثِيرُ الْعَجبَ والاستغرابَ والاستنكارَ؟!

ما ورد في سبب النزول:

(١) أخرج ابْنُ أبي شيبة، وأحمد والترمذيُّ، وابْنُ جريرٍ، وابْنُ المنذر، والطبراني وصحّحَهُ، وابْنُ مَرْدَويه، وأبو نُعَيم، والبيهقي عن ابْنِ عباسٍ قال:

«كانَ النبيُّ ﷺ يُصَلّي، فجاء أبو جَهْلٍ فقَالَ: أَلَمْ أَنْهكَ عَنْ هَـٰذَا؟ إِنّكَ لتَعْلَمُ أَنَّ ما بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِياً مِنّي، فأنْزل اللّه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ⑰ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ⑱﴾.

فجاء النبيُّ ﷺ يُصَلِّي، فقيل (أي: لأبي جهل): ما يَمْنَعُكَ؟ فقالَ: اسْوَدَّ ما بَيْني وبَيْنَهُ.

قال ابْنُ عَبّاسٍ: «واللّهِ لو تحرَّكَ لَأَخَذَتْهُ الْمَلائِكَةُ والنَّاسُ ينْظُرُونَ إِلَيْه».

(٢) وعند البخاريّ وغيره عن ابن عبّاسٍ قالَ: قَال أبو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ محمّداً يُصَلّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لأَطَأَنَّ عُنُقَهُ، فَبلَغَ النبيَّ ﷺ، فقال:

«لَوْ فَعَلَ لَأَخَذَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عِيَاناً».

(٣) وأخرج الإمام أحمد ومسلم والنَّسائيّ وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هَلْ يُعَفِّرُ محمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قالوا: نعم. قال: واللاَّتِ والعزَّىٰ لَئِنْ رَأَيْتُهُ كذٰلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، وَلأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فأَتَىٰ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وهُوَ يُصَلِّي لِيَطَأَ على رقَبَتِهِ. قَالَ: فما فَجَأَهُمْ مِنْهُ إلاَّ وَهُوَ ينكُصُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ، ويتَّقِي بِيَدِهِ، فقيلَ لَهُ: ما لَكَ؟. فقال: إِنَّ بَيْنِي وَبينَهُ خَنْدَقاً من نارٍ، وهَوْلاً، وأَجْنِحَة، فقال رسولُ الله ﷺ:

«لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْواً عُضْواً» وأَنْزَلَ اللَّهُ عَزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ إلى آخر السورة.

وما ورَدَ من أسباب النزول لا يُخْرِجُ النَّصَّ عَنْ كونِهِ ذَا دَلالَةٍ عامَّة، فالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ النَّصّ لاَ بخُصُوصِ السَّبب، كما هُو مقرَّرٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ أُصُولِ الْفِقْهِ.

إنَّ هٰذا الصنف الطَّاغِيَ الجبّارَ، الذي يتدخَّل في عقائد الناس وعباداتهم، والذي يمْنَعُ المصلّين عن صلاتِهِمْ بحَسَب معتقداتِهِمْ فيضْطَهِدُهُمْ ويُنْزِلَ بِهِمْ عذاباً مِنْ أَجْلِ معتقداتهم وعباداتهم، صِنْفٌ موجُودٌ في كُلّ عَصْرٍ، وبَلَدٍ ومِصْرٍ، وعُمُومُ النَّصّ يَشْمَلُهُمْ، والوعِيدُ الَّذِي جاء في السُّورَة يَعُمُّهُمْ جميعاً، ولا يخُصُّ أبا جَهْلٍ وَلاَ نُظَرَاءَه من الطُّغَاةِ الَّذِينَ كانُوا فِي عصر الرسول ﷺ، ولكن قد يؤجّل اللَّهُ العقابَ إلى أجَلٍ ما في الحياة الدنيا، أو إلى يوم الدّين.

ما أَبْدَعَ عَرْضَ هذا الصِّنف الذي هو شرُّ النَّاسِ بِعِبَارَة:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

هذه العبارة تَتَضَمَّنُ أَنَّ حُرِّيَّةَ الاعتقادِ والعبادة لدى جميع العقلاء من الناس، ينبغي أنْ تكُونَ مصونَةً في المجتمع البشري، ولا يصِحُّ أَنْ تكُونَ عُرْضَةً لِلإِكْرَاهِ فِعْلاً وَلاَ تَرْكاً.

وبعد هذا ثَنّىٰ النَّصُّ بالتعجيب من حالِ هَـٰذا الطَّاغِي الجبار حينما يَنْهَىٰ ويضطهدُ صِنْفَيْنِ من الناس:

- صنفَ المهتدي بنفسه الذي لا يَحْمِلُ رِسالَةَ الدَّعْوَةِ إلى الْهُدَىٰ.
- وصنفَ المهتدى الداعي إلى الْهُدىٰ.

فقال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

أي: أَرأَيْتَ أيُّها الرَّائِي الْمُتَفَكِّرُ هٰذَا الصنفَ الطَّاغِيَ الجبَّارَ ذَا السُّلوكِ الّذِي يَتَعَجَّبُ منه العقلاءُ أولوا الألباب، حِينَما يَنْهَى ويضطهدُ المهتَدِي بنفسه الذي يؤمِنُ بالْحَقِّ ويَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ بَصِيرَة، ويَنْهَىٰ وَيضطّهد المهتدي بنَفْسِهِ ويَدْعُو الناسَ إلى سُلُوكِ سبيلِ الْهُدَىٰ، دُونَ إِكْرَاهٍ وَلاَ إِلْزَام، ويقولُ لهم اتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ وعقابَهُ بالإِيمانِ بالْحَقِّ الَّذِي جاءَ في رِسَالَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، وبِطَاعَتِهِ في أوامرِه ونواهيه ووصاياه.

إنَّ مَنْ يتدبَّر هاتَيْنِ الآيتَيْنِ يَسْتَخْرِجُ وُجُودَ صنفين من الناس:

- صِنْفِ المهتدي بنفسه، الذي لا يحمل أعباء هداية غيره.
- وصنفِ المهتدي بنفسه الذي يحمل أعباء هداية غيره إلى ما اهتدىٰ هو إليه.

إنَّ النّصَّ لم يَدُلَّ عليهما دلالةً مُبَاشِرَةً ساذجَةً، بَلْ يَسْتَخْرِجُهُما المتدبِّرُ اسْتِنْبَاطاً منه.

والمعنى: أرَأَيْتَ إنْ كَانَ المنهيُّ عن الصَّلاةِ الّتِي يُصَلّيها، الذي يَتَعَرّضُ لاضطهاد الجبَّارِ الطاغي، علَىٰ الْهُدَىٰ عقيدةً وعبادة، فَهُوَ مُتَمَكِّنٌ من الهدى (وهذا صنف من الناس).

أو كَانَ اضطهادُهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ دَعَا الناسَ إلى الْهُدَى وأمَرَهُمْ بأنْ يتَّقوا

عذابَ ربِّهِمْ بالإيمان به والإسلام له والسَّمْع والطاعة، ولاَ يكونُ كذلِكَ إلاَّ إذا كانَ على هُدىً في نفسه (وهذا صنف آخر من الناس).

فما أَبْدَعَ التعريف بهٰذيْنِ القسمين عن طريق هذا الأسلوب البالغ الإيجاز.

وأخيراً جاء بيان القسم الرابع، الضّالّ بنفسه، المكذّب برسالة رَبِّه، دون أَنْ يكون طاغياً باغياً داعياً إلى الكُفْرِ وهَجْرِ سبيلِ الهداية، بقول اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

أي: أَرَأَيْتَ أَيُّهَا الرَّائِي المتفكِّرُ صِنْفاً آخَر من النَّاسِ، وهُو صِنْفٌ اقْتَصَرَ على أَنْ كذَّبَ بالرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وتولَّىٰ عنها، دون أَنْ يكون مُغْوِياً طاغِياً ناهياً عن الإيمان باللّه والإسلام له، إنَّهُ أيضاً ينبغي أن يَتَعَجَّبَ من أمره أولوا الألباب، لأنه يُعرض نفسه لعقاب الله والشقاء الأبدي.

تَوَلَّىٰ: يأتي بمعنى «نأى» أي: ابْتَعد، ويأتي بمعنى «أدبر». ومن تولَّىٰ عن الاستجابة للدعوة إلى دين الله الحقّ فلا بُدَّ أن يُدْبِر لزوماً.

وبعد استيفاء عرض الأقسام اقتضت الحكمة التربويّةُ التلويح بتحذير المكذِّب المتولِّي من عقاب اللّهِ وعذابه، بأسلوب استثارة مَعْرِفته بأنَّ اللّهَ يراه، ومَنْ يَعْلَمُ بأَنَّ اللّه ربَّه يراه، وكان ذا بصيرةٍ فلا بُدَّ أن يخاف عقابه، على تكذيبه برسالاَتِهِ، وتولّيه عن رسولِ ربّه، فذو البصيرة يعلَمُ أَنَّ اللّهَ ربّه قديرٌ وحكيم، والحكيم لا بُدّ أن يعاقب الجاحد الكافر المكذِّب، ولا بُدَّ أن يثيب المؤمن المصدِّق السميع المطيع لأوامره ونواهيه، فقال الله عزّ وجلّ في هٰذَا التلْوِيح:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾؟!

استفهام فيه معنى التعجيب مِنْ أمْرِ المكذّبِ المتولّي، وهو يعْلَمُ أنّ اللّه رَبَّهُ يراه، والرَّبُّ الذي يَرَىٰ عبْدَهُ يُكذِّبُ رسُولَهُ ويُكذّب بما جاء به الرَّسُول عن ربّه لا بُدَّ أن يُجازِيَهُ على تكذيبه كما جاء في بياناته.

واقتصر البيان القرآني في أوائل التنزيل على التلويح بعقاب المكذب المتولّي دون تفصيل، التزاماً بحكْمَةِ التدرّج، والأخذ بالترفُّق في البدايات، إذْ لم تَسْتَقِرَّ بَعْدُ في أذهان المتلَقّين مفاهيم الدّين، ولا مفاهيم الجزاء بالعدل أو بالفضل، ولا نزلت التفصيلات المتعلّقة باليوم الآخر.

ولكنّ اشتدّ النصُّ في توجيه التحذير والتهديد والزَّجْرِ للطاغي الباغي الذي ينْهَىٰ عبداً إذا صلَّىٰ، فقال الله عزّ وجلّ عقب التلويح الذي سبق:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾: أداة زجْرٍ وردْعٍ موجّهةٌ للطاغي الباغي الْمُضِلّ الَّذِي ينْهَىٰ عبادَ الله عن الإيمان به والصلاة له، ويُحَاول إيذاءهم ومَنْعَهُمْ عن عبادَةِ ربّهم بالْإِكراه واستخدام القوّة المادّيَّةِ أو المعنويّة.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾: في هذِهِ الجملةِ وعيدٌ وتهديدٌ لهذا الصنف من النّاس الطاغي الباغي المضلّ، إنْ لَمْ يَنْتَهِ عن تَعَدِّيه على المؤمنين الذين يعبدون ربَّهُمْ، لمَنْعِهم من عبادته.

﴿لَنَسْفَعًا﴾: اللام واقعة في جوابِ قسم مَحْذوف، واللاّمُ في ﴿لَئِن﴾ موطئَةٌ للقَسَم، و«نَسْفَعاً» فعْلٌ مضارعٌ مُؤَكَّدٌ بنون التوكيد الخفيفة.

يقالُ لغةً: سَفَعَهُ على وجْهِهِ إذَا لطَمَهُ براحَتِهِ، **وسَفَعَهُ** بالعصا إذا ضَرَبَهُ بِها. وسفَعَهُ بِنَاصِيَتِه وَرِجْلِهِ إِذَا قَبَضَ عَلَيْهِما قَبْضاً شَدِيداً بعُنفٍ، وجذبَهُ مِنْهُما وأخَذَهُ.

ويُمْكِنُ أَنْ تَجْتَمِع هٰذِهِ المعاني هُنَا، فَهٰذَا الطاغي الباغي لَئِنْ لم يَنْتَهِ عَنْ أعمالِ العدوان الّتي يقومُ بها لَنُجَازِيَنَّهُ بالضَّرْبِ عَلَىٰ نَاصِيَتِهِ، والقبضِ عليها، وأَخْذِهِ مِنْهَا، وجذبِهِ إلى حَيْثُ يَنْزِلُ بِهِ العذاب.

النَّاصِيَةُ: مُقَدَّمُ الرَّأْسِ، وشَعَرُ مقدَّم الرأسِ إذا طال، وتُجْمَعُ على نَوَاصٍ وناصِيات.

وجاء في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) بَيَانُ أَنَّ المجرمين يَوْمَ القيامَة يؤْخَذُونَ إلى دار العذاب بنواصِيهِمْ وأَقدامهم لِقَذْفِهِمْ فيها، ولا يخْفَىٰ ما في هذا من إهانةٍ وإذلالٍ لهم، فقالَ عزّ وجلّ فِيها:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾: جَاءَ وصْفُ ناصِيَةِ هذا الطاغي الباغي الْمُجْرِم بأَنَّهَا كاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ، والمرادُ أَنَّهُ هو فِي هُوِّيَتِهِ الدَّاخِلِيَّة كاذِبٌ خاطِئٌ، وهذا مجاز مرسَلٌ، وهو من إطلاقِ بعض الظاهر وإرادَةِ الباطِنِ، ولَمَّا كانَتِ الناصيَةُ الّتِي هِيَ مُقَدَّمُ الرأسِ مَكَانَ التكْرِيم الأعْلَىٰ من الإنسان، وكانَ في باطِنِ الرأسِ من بَعْدِها جهازُ الفهم والتفكُّر، ومَنَابِعُ الإِرادات ومَنَاطُ المسؤوليَّات، نَاسَبَ أَنْ تُطْلَقَ الناصِيَةُ وَيُرَادَ مَا يَحْتَوِي الرَّأْسُ بَعْدَها، الْمُشْتَمِلُ على الجهاز المركزيّ للوعْيِ والإرادة.

الخاطِئ: المذنب العاصي.

ولمّا كان هذا النّصّ قد نزَلَ بمناسبة قول أبي جهل للنبيِّ محمّدٍ ﷺ وهو يُصلّي: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَـٰذا؟ إِنَّكَ لتَعْلَمُ أَنّه ما بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِياً مِنّي.

كَانَ مِنَ المناسِبِ أَنْ يُوجِّهَ لَهُ النَّصُّ التَّحَدِّي بِأَنْ يَدْعُو كُلَّ أَهْلِ نَادِيه، أي: بأَنْ يَدْعُو كُلَّ أَنْصارِهِ مُسْتَظْهِراً بِهِمْ عَلَىٰ رسُولِ اللَّهِ ﷺ، فإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُ رَسُولَهُ ويحفَظُهُ مِنْهُمْ، إذْ سَيُرْسِلُ الزَّبَانِيَةَ، وهُمْ مَلاَئِكَةُ إِهْلاكِ

وتَعْذِيب، فيُنْزِلُونَ بِهِ وبأنْصارِهِ الَّذِينَ يَدْعُوهم تَعْذِيباً شدِيداً وَإِهْلاكاً، ويمنَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ منهم، فقال اللَّهُ عز وَجَلّ:

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾.

ويظهر أَنَّ أبا جهل ذُعِرَ مِنْ هَـٰذَا التَّحدِّي والْوَعِيد الرَّبّاني فَلَمْ يَسْتَنْصِرْ بأَحَدٍ من أهل نَادِيهِ على الرسول محمّد ﷺ، وأعْرَضَ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ في عباداته، ولا سيما بَعْدَ أَنْ ظهر له ما خَلَعَ قلبه حين حاول أَنْ يَقْتَرِبَ من الرسول وهو ساجدٌ ليَطَأَ على عُنُقِهِ ويعفِّرَ وجْهَهُ بالتراب.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: أَمْرُ تَحدٍّ بأُسْلُوبِ خِطَابِ الغائب، احتقاراً له وازْدِرَاءً به.

النادي: يُطْلَقُ على المكان الذي يَجْتَمِعُ فيه القوم، ويُطْلَقُ على أَهْلِ المكان، فيقَعُ على المجلِسِ وأَهْلِهِ، ويُطْلَقُ على أهل الرجُلِ وعَشِيرَتِه، وهذا المعنىٰ الأخير هو الملائم لقول أبي جهل للرسول ﷺ: إنَّكَ لتَعْلَمُ أَنَّهُ مَا بِها رَجُلٌ أَكْثَرُ نادِياً منّي، أي: ما بها أكْثَرُ أَهْلاً وعَشِيرَةً وأنصاراً مِنِّي.

وإذا كان المقصود ما بها رجُلٌ أكثر أهل نادٍ مِنِّي، على معنى إطلاق لفظ النادي على المكان، فهو من إطلاق لفظ المكان على أَهْلِهِ ومُرْتَاديه، على طريقة المجاز المرسل بإطلاق المحل وإرادة الحالّ فيه.

الزَّبانِيَة: قال قتادة: الزّبانِيَةُ عِنْدَ العَرَبِ الشُّرَطُ. وجاء في كتب اللّغة أَنَّ الزَّبَانِيَةَ هُمُ الَّذِين يَزْبِنُون النَّاسَ، أَيْ يَدْفَعُونَهُمْ.

وسمّىٰ اللَّهُ بعْضَ ملائِكَتِهِ زَبانِيَةً، لِأَنَّهُمْ يَدفَعُونَ أَهْلَ الكُفرِ والتكذِيب والعنادِ عن أولياءِ اللَّهِ، ويدفَعُونَهُمْ إلى النار والعذاب فِيها يوْمَ الدِّين.

وأخيراً أعاد النّصّ زَجْرَ هذا الصنف الطاغي الباغي الضّالّ الْمُضِلّ، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا﴾.

وبَعْدَهُ الْتَفَتَ الْخِطَابُ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: ﴿لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾.

وهذا الخطابُ مُوَجَّهٌ لكلِّ مُؤْمِنٍ يَعْبُدُ ربَّه، ويَجِدُ مَنْ يَنْهَاهُ عن إيمانه وعبادته، ويَضْطَهِدُهُ من أجل ذلِكَ.

أي: لا تُطِعْ مَنْ ينْهَاكَ عن إيمانِكَ بالحقّ، وصَلاتِكَ لِرَبِّك، ويَضْطَهدُكَ لِتُطِيعَهُ، واسْجُدْ لِلَّهِ واقْتَرِبْ بِسُجُودِكَ منه.

وقد دلَّ هذا الْخِتَامُ على أنّ السُّجُودَ للَّهِ عزَّ وجَلَّ يُمَثِّلُ فِي حَرَكَةِ الْجِسْمِ غايةَ الخضوع للَّهِ، الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْ غاية الخضوع القلْبِي والنفسيِّ له جلّ جلالُهُ، وكلما زاد المؤمِنُ خُضُوعاً لِرَبِّهِ وذُلاً وتَضَرُّعاً زَادَ اقْتِرَاباً إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَكُونَ لديه مِنَ المحبوبين.

* * *

(١٠)

نظرة إجمالية عامة

جواباً على سؤال مقدّر غير مذكورٍ في النّصّ جاء في الدرس الثالث من دروس السورة بيان أنّ الناس تُجاه الرّسالة الرّبانية أربعة أصناف:

فصنفان منهما استجابا لدعوة الرّبّ الخالق، أمّا أحدهما فاهتدى بنفسه، وقبل نداء الدعوة، لكنّهُ لم يكن داعياً هادياً، وأمّا الآخر فاهتدى بنفسه وحمل مهمّة دعوة غيره إلى أن يسْتجيب لنداء الدَّعْوَة الرّبّانية، فمشَىٰ بين الناس يأمُرُ بالحقِّ ويأمر بتقوىٰ اللّه.

وصنفان منهما لم يستجيبا لدعوة الرّبّ الخالق، وكانَ داؤُهما داءَ الطغيانِ النّفْسِيّ، الّذي ولَّدَهما في نُفُوسهما الشُّعُورُ بالاسْتغناء بما لديهما من أسبابٍ، عن خالقها ومسبّبها، والذي يُمِدُّ بها، وهو القادر على سلبها متَىٰ شاء.

أَمّا أحدهما فضَلَّ في نفسه، لكنَّهُ لم يجعل من نفسه مُضِلاً، ينْهَىٰ عن عبادة الله والإيمان به.

وأمّا الآخَرُ فضَلَّ في نفسه، وحَمَلَ مُهمَّةَ إضلالِ النَّاسِ ومَنْعِهم عن الإيمانِ باللَّهِ وعبادَته، فإذا رأى عبداً من عباد اللَّهِ يُصَلِّي لِرَبّه نَهَاهُ عَنِ الصَّلاة، ودعاهُ إلى الكُفر، فهو بَيْنَ الناس شيْطانُ تَضْلِيلٍ وإغْواءٍ، وإمَامٌ مِنْ أئمَّةِ التَّضْلِيلِ، والفتنة عن دين الله، أو داعٍ من دُعاةِ الضَّلالِ في الأرض.

هؤلاء الأصناف الأربعة قد جاء بيانهم في الدرس الثالث من دروس سورة العلق.

لقد كان الدرس الأوَّلُ دعْوَة الْمُدْرِكِ المتفكّر المسؤول عن تصرُّفاتِهِ في الحياة إلى قراءة وتدبُّرِ ما ينزل به الوحي من عند الرَّبّ الخالق، وإلى تثبيت ما يهديه إليه التَّلَقِّي والتدبُّر بالقلم، الذي هو من كبرياتِ وسائل التعلُّم وتقييد العلم.

وجاء الدرس الثاني جواباً على سؤال مطويٍّ مقدّر، فأبانَ العلّة النفسية لدى الذين يرفضون دعوة الرّبّ الخالق، وهي الطغيان بسبب مشاعر الاستغناء.

وجاء الدّرْسُ الثالث أيضاً جواباً على سؤال مطْوِيٍّ مقدّرٍ أيضاً، فأبان أصناف الناس الأربعة تجاه الدعوة إلى الاستجابة لدين الله الذي ينزل به الوحي من عند الرّب الخالق جلّ جلالُه.

فظهر لنا أنَّ الدعوة إلى القراءة هي المفتاحُ الأوّل الذي يُفْتَح به باب العلم، وأَنَّ لفتَ النَّظَر إلى رُبوبيَّةِ الرّبّ الخالق هو المفتاحُ الأول الذي يُفْتَحُ به بابُ الدّين.

وظهر لنا أَنَّ رفض الدَّعْوَةِ الرَّبانِيَّةِ طُغْيانٌ نَفْسِيٌّ يُوَلِّدُهُ الشُّعُور بالاستغناءِ عمَّا تَشْتَمِلُ عليه هذه الدعوة الرَّبّانيّة، أمّا من كان لديه الشُّعُورُ بالحاجَةِ لما تشتمل عليه فإنّه يسْتَجِيبُ ولا يَرْفُض.

وموعظةُ الرافِض تكون ببيان مسؤوليّتِه في هٰذهِ الحياة، وبأنّه سوْفَ يُحَاسَبُ ويُجَازىٰ على ما قدّم وأخّر يَوْم الدِّين.

وظهَر أنّ الذينَ يسْتجيبون صنفان: مُهْتَدٍ بنفسه، ومهتدٍ بنفسه داعٍ إلى الهداية.

وأنَّ الذين يرفضون صنفان أيضاً: ضالٌّ بنفسه، وضالٌّ داعٍ إلى الضلالة.

وقد جاء بيان الأصناف الأرْبَعَةِ في الدرس الثالث بطريقة من البيان عجيبة، فيها دعوةٌ إلى رُؤيَةِ الواقع وإحصائه وسَبْرِهِ، فقال الله عزّ وجل:

١ ـ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

٢ ـ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

٣ ـ ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

٤ ـ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

فالصنف الضالُّ المضِلُّ قَدْ جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ بصيغَةِ التعجيب من قَبِيح أَمْرِهِ، وظاهِرٌ أَنَّ الذي ينْهىٰ المصلّي عن عبادة رَبِّه أَسْوأُ أفراد هَـٰذَا الصنف السافل، لأنّ صلاة المؤمن حين يُصَلّي لربِّه لاَ تَضُرُّ الكافِرَ الجاحدَ شيئاً، فما بالُهُ يَتَدَخَّلُ في حُرِّيَّتِهِ الشخصيَّةِ، فينْهَاهُ عن الصلاة، ويُحَاوِلُ إكراهَهُ على تركِهَا، إِنَّ هَـٰذَا لَهُو أَشْنَعُ وأَظْلَمُ صُوَرِ التضليل والإغواء.

والصنف الذي اهتدى بنفسه، دون أن يَحْمِل مُهِمَّةَ هِدايَةِ غيره، هو الّذِي يكونُ في العادَةِ مُعَرَّضاً لتضليل صِنْفِ الضَّالِّ المُضِلّ، وقد جاء بيانُه في النَّصّ عَقِبَه، وجاء التعبير عنه بقول الله عزّ وجل: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ أي: أرَأَيْتَ إنْ كَانَ مُتَمَكّناً من الْهُدَىٰ، وهذا التمكُّن دلّ عليه حرف الجرّ «على».

والصنف الّذي اهتدىٰ بنفسه، وقام يدعو الناس إلى الْهُدَىٰ ويأْمُرُهُمْ بتَقْوَى اللَّهِ والْحَذَرِ من عقابِه يومَ الدِّين، قد جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ أيْ: أو كان عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَأَمَرَ بالتَّقْوىٰ، فهو متمكِّنٌ من الْهُدَىٰ وحامل مسؤولية الهداية.

والصنف الذي ضَلَّ بنفسه دُونَ أَنْ يَحْمِلَ مُهِمَّةَ إضْلاَلِ المهتدين، قد جاء التعبيرُ عَنْهُ بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ أي: كذَّبَ النبيَّ وكذَّبَ بما نزَلَ بِهِ الوحْيُ، وَتَوَلَّىٰ مُدْبراً منصرفاً لِأُمُورِهِ الْخَاصَّةِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاه.

وهَكَذَا استوفىٰ البيان البديعُ أَصْنَاف الناس أجمعين تُجاه دَعْوَةِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ الَّتِي جاءتْ بها الرِّسَالةُ الرَّبَّانيّة.

ولا بُدَّ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ صِنْفٍ من هؤلاء الأصنافِ الْأَرْبَعَةِ يقَعُ في درجاتٍ أو دركاتٍ متفاوتات صاعداتٍ أو نازلات.

فالمهتدون في أنفسهم على درجات، فمنهم السابقون في الخيرات، ومنهم المقتصِدُون الّذين خلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً، ومنهم الظالِمُونَ لأنفسهم بالمعاصي الَّتي أَسْرَفوا في ارتكابها.

والمهتدون الداعون إلى الهداية الآمرون بالتقوىٰ على درجاتٍ أيضاً، هدايةً في أنْفُسِهم، وقياماً بِرسالَةِ الدَّعْوَةِ إلى الله.

والضّالُّونَ المضلُّونَ في دَرَكات، فبعضُهُمْ أَسْوَأ مِنْ بَعْضٍ، وأخَسُّ وأحطُّ في الدّرَكات، وأقبحُهم وأشْنَعُهم أَئِمَّةُ الضَّلاَلِ في الْأَرْضِ، ولا سيما إذا كانوا يملكونَ قُوَّةً وسُلْطَاناً، ومنازِلُهُمْ يوم الدّينِ في الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من النار.

والضَّالُّون في أنفسهم دون أن يَحْمِلُوا مُهِمَّاتِ إضْلاَلِ غيرهم، هُمْ في دَرَكَاتٍ أيضاً، ودركاتُهُمْ تَنْحطُّ بِحَسَبِ شِدَّةِ ضَلاَلِهِمْ، ومُمَارَسَاتِهِمْ للشُّرُور،

وَمُلَاحِظُ مَفْهُومَاتِهِمْ وأنْوَاعَ سُلُوكِهِمْ فِي الحَياةِ، يُدْرِكُ أَنَّ بعضَهُمْ أَضَلُّ وَأَظْلَمَ مِنْ بَعْضٍ.

وبعد بيان الأصنافِ الأَرْبَعَةِ تَوَجَّهَ النَّصُّ لإِنْذَارِ الضَّالِّينَ إِلماحاً وَتَلْوِيحاً، إِذْ ما زَالَ البيانُ القرآنِيُّ فِي أوائِلِ التَّنْزِيلِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى بأُسلوب الخطاب الإفرادي: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾.

وبعده تَوَجَّهَ النَّصُّ لِتَهْدِيدِ الْمُضِلِّينَ الطُّغَاةِ بصَرِيح العبارة، فقال اللَّهُ تَعَالَىٰ بأسلوبِ الخطاب الإفرادي: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾

وأخيراً كرَّرَ الْخِطَابُ زَجْر المضلِّين الطُّغَاةِ وتوجَّهَ لتثبيت المهتدين بأسلوب الخطاب الإفرادي، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾.

أي: اقترب من ربِّكَ بسُجُودِكَ في صلاتك له، فإنَّ أَقْرَبَ ما يكون العبْدُ مِن ربّه وهو ساجد.

* * *

سُورَة المُدَّثِّر

٧٤ مُصْحَف ٢ نزول

(١)

بحث حول نـزولها:

بعد الدراسة التحليليّة ترجّح لديّ أنّ صدر سورة (المدثر) قد نزل بعد سورة (العلق) فهي باعتبار صدرها ثاني سورة مكيّة، وهي على وجه العموم من أوائل التنزيل المكيّ باتفاق، وجاءَ في الصحيح تأكيدُ أنَّ أوّلَ ما نزل على الرسُولِ ﷺ من القرآن بعد أنْ فتر الوحي قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

فهي بعد الآيات الخمس الأولى من سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ حتماً، وقد يكون ما جاء في أثناء سورة (المدّثر) قَدْ نزَلَ متأخّراً ضمْنَ أوائل العهد المكي بعد أن نزل من القرآن ما استثار دهشة الوليد بن المغيرة حتّىٰ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾.

* * *

(٢)

نص سورة المدثر
وما فيها من قراءات من الفرش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ
(٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ
(٧) فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۙ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى
ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ
لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤)
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ
صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ
كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ
وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ
ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى
وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَآ
أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

٥ - [والرُّجْزَ] بضم الراء قراءة حفص وأبي جعفر ويعقوب.
[والرِّجْزَ] بكسرِ الراء قراءة باقي القراء العشرة.

٣٠ - [تِسْعَةَ عَشَرَ] قراءة جمهور القراء العشرَة.
[تسْعَةَ عْشَرَ] قراءة أبي جعفر، بإسكان عين عشر.

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ
ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ
جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾
نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ
بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۙ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۙ
﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۙ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ
مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾
فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾
كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ
ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ
ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

---

٣٣ ـ [إِذْ أَدْبَرَ] قراءة نافع، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف.
[إِذَا دَبَرَ] لباقي القراء العشرة.

٥٠ ـ [مُسْتَنفِرَةٌ] لجمهور القراء العشرة.
[مُسْتَنفَرَةٌ] لنافع، وابنِ عامر، وأبي جَعْفر.

٥٦ ـ [وَمَا يَذْكُرُونَ] لجمهور القراء العشرة.
[وَمَا تَذْكُرُونَ] بتاء الخطاب، لنافع فقط.

(٣)

مما جاء في السُّنَّةِ حوْل سُورَة (المدّثّر)

(١) قال البخاريُّ في صحيحه: حدَّثَنا عبْدُ اللَّهِ بْنُ يوسُفَ، حدَّثنا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيل، قال ابْنُ شِهَابٍ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ قَال: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْي:

«فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ(١) حتَّىٰ هَوَيْتُ إِلَىٰ الأَرْضِ. فَجِئْتُ أَهْلِي فقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني(٢)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعالَىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ»(٣).

ويظهر أنّ بقيّةَ السُورَةِ نَزَلَ على مَرَاحِلَ في أوائل العهد المكيّ.

(٢) وفي رواية أخرى عند البخاريّ أيضاً عن جابر بن عبد الله ـ

---

(١) فَجُئِثْتُ مِنْهُ: أي: ففزعتُ مِنه، يُقَالُ لُغَةً: جُئِثَ يَجْأَثُ جُؤوثاً، إذا فَزِعَ فهو مَجْؤُوث.

(٢) أي: غَطُّوني ولُفُّوني بالثيابِ والأَغْطِيَةِ.

(٣) انظر الحديث رقم (٤٩٢٦) من فتح الباري ج(٨).

رضي الله عنهما ـ قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه:

«فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ فرفعْتُ رَأسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْباً، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فَدَثِّرُوني»، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ ـ إلى ـ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ⑤﴾. [فتح الباري الحديث (٤٩٢٥) ج ٨].

(٤)

موضوع السُّورة ودروسُها

١ ـ تكليفاتٌ للرسُولِ محمّد ﷺ بالْبَيَانِ والإنْذَارِ بعذاب اللَّهِ يوم الدين للذَّينَ يُكَذِّبُونَ وَلاَ يُؤْمِنُون، وأَمْرٌ لَهُ ببَعْضِ ما يَنبغي له أن يتحلَّىٰ به هو وَكُلُّ من يُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَّبعه ويدعو إلى سبيل ربِّه.

٢ ـ ومعالجاتٌ لِلْمكَذِّبين بِرِسَالَتِهِ، في الأَزْمَانِ الَّتِي تَتَابَعَ فِيهَا إِنْزَالُ نُجُومِ السُّورَة، وهٰذهِ المعالجاتُ قد رُوعِيَتْ فيها مَوَاقِفُهُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْها إبَّانَ التَّنْزِيل.

وقد اشتمَلتْ هذه السورة عَلَىٰ خَمْسةِ دُرُوس متكاملة متعانقة حول موضوع واحد:

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٧):

بدأت السورة بتكليفِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يُبَلِّغَ رِسالةَ رَبِّه، وَيُنْذِر الَّذِين يكَذِّبُونَهُ وَيُكذِّبُونَ بِبَلاَغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، بأَنَّهُمْ إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ تكْذِيبهم فسَيُعَذَّبُون يوم الدِّين في دار العذاب النّار عذاباً أَبَدِيًّا خالداً.

وأبان هذا الدّرس للرَّسُولِ ﷺ بعض التعليمات الأَوّلِيَّةِ الَّتي عَلَيْهِ أَنْ يلْتَزِمَ بها، ليكونَ أسْوَةً حَسَنَةً لِمَنْ يُؤْمنُ به ويتَّبِعُه.

الدرس الثاني: الآيات من (٨ ـ ١٠):

تضمَّنَ هذا الدرس بيان لقْطَةٍ تَصْوِيريَّةٍ من لقَطاتِ يَوْمِ القيامة، استدعَىٰ إيرادها ما جاء في الدرس الأوّل من تكليف الرسول ﷺ أنْ يُنْذِر قومه المكذبين بجزاء ربّهم الذي سينالونَهُ يوم الدين.

الدرس الثالث: الآيات من (١١ ـ ٣٧):

تضمّن هذا الدرس معالجةَ أَعْتَىٰ كُبَراءِ المشركين معارضَةً لدعوة الرسول ﷺ، في مراحل نُزول هذه السورة، وهو الوليد بن المغيرة، وتحذيراً من دار العذاب «سقر» مقروناً ببيان ما فيها من عظائم وكبريات مرهباتٍ مخيفاتٍ، تَخْلَعُ قُلوب أُولى الألْبابِ، إذَا تَرَجَّحَ في تَصَوُّرِهِمْ احتمالُ صِدْق نَبأ الوعيدِ الّذي نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ، وبلَّغَهُ الرسول عن رَبِّه جلَّ جلالُه، فكيف بهم إذا اسْتَيْقنوه.

الدرس الرابع: الآيات من (٣٨ ـ ٤٨):

تضمّن هذا الدرسُ بيانَ أَنَّ كلَّ نَفْسٍ سَتَكُونُ رهينَةً مَحْبُوسةً يَوْمَ الدّين، بما كسبَتْ في الحياة الدنيا من جرائم كبريات، باستثناء المؤمنين أصحاب اليمين، الَّذِينَ يأخذونَ صحائفَ أعمالهم بأيمانهم، فهم في جنّاتِ النعيم.

وفي هذا الدّرْس تقديمُ لوحةٍ تُصوِّرُ حواراً يجرِي بين أصحاب الجنَّةِ وَبين أصحاب النَّار، بوسيلَةٍ ما تجعلهم يتخاطَبُونَ وَهُمْ في مواقعهم من دار العذاب أو دار النعيم، فيجيبونهم على أسئلتهم.

وفي الدرس تعقيبٌ بأنّ الكافرينَ أَهْلَ النّارِ لا يكونُ لَهُمْ أَمَلٌ بالخلَاصِ ممّا هُمْ فيه من عَذَابٍ عن طريقِ أَعْمَالِهِمْ وَمَا قَدَّمُوا في الحياة الدُّنيا، ولم يَبْقَ لهم إلاَّ الطَّمَعُ بأنْ يَجِدُوا مَنْ يَشْفَعُ لهم عند رَبّهم، ولكنَّ النّصّ يبيّنُ أَنَّ شفاعَةَ الشافِعينَ لا تَنْفَعُهُمْ، ولو وَجَدُوا مَنْ يَشْفَعُ لَهُم.

وقد دلَّتْ نصوصٌ أخرىٰ علىٰ أنَّه لا يشفَعُ أحَدٌ عِنْدَ اللَّهِ يوم الدِّينِ إلاَّ بإذنه، فلا أَمَلَ لهم بشفاعةٍ مطلقاً، فَقَدْ كانوا في الحياة الدّنيا كفَرَةً مُكَذِّبينَ.

الدرس الخامس: الآيات من (٤٩ ـ ٥٦):

تضمَّن هذا الدرس معالجةَ الكافرين، بطرح التعجيب مِنْ إعراضهم عن بيانات اللَّهِ في القرآنِ الّذِي يُنزّله على رسوله، وعن بيانات الرسولِ الّذي يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ وَيَشْرَحُ ما أنزل عَلَيْه، مع أنَّ دَعْوَةَ الرَّسُولِ لهم لا إكْراهَ فيها ولا قَهرَ، بَلْ هي مُجَرَّدُ تَذْكِرَةٍ بيانيَّةٍ للإقناع بمضمونها فمن شاء أنْ يُؤمن بها فلْيُؤمِن إذْ هو ممكَّنٌ من أن يؤمن باختياره الحرّ، ومن شاء أن يكفر بها فَلْيَكْفُرْ، إذْ هو مُمَكَّنٌ من أن يكفر باختياره الحرّ، ولكن عليه أن يتحمَّل نَتِيجة اختياره الكُفرَ عذاباً أليماً خالداً في دار العذاب النار، في طبقة «سقر».

وتضمَّن هذا الدرسُ بيان سببِ إعراض المكذّبين وَتكْذِيبهم رسولَ رَبّهم، وهو الكِبْرُ في نفوسهم عن اتّباع الرسولِ الذي اصطفاه الله رسولاً ليبلّغ رسالاتِه لعباده، وعَدَمُ خَوْفِهِمْ من عذاب اللَّهِ يوم الدّين، لأنّهم لا يؤمِنُون بالآخِرَة.

وأخيراً أبان هذا الدرس أَنَّ القرآن لا يتضَمَّن سوقاً بالإجْبَار والإكْراه، وإنَّما يتضَمَّن تَذْكِرَةً فِكْرِيَّةً لمن شاء أَنْ يتذكَّر.

فمن شاء باختياره الحرّ وضَعَهُ في ذاكِرَته واستفاد من بياناته وعِظَاتِه وما فيه من وعْدٍ ووعيد، وترغيبٍ وتَرْهيب.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأول

الآيات من (١ ـ ٧)

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

تمهيد:

هذه الآيات القصَار عناوين موضوعاتٍ طِوالٍ تحتاج شرحاً مستفيضاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ نِداءٌ مُوَجَّهٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَعْدَ أَنْ فَزِعَ من مشاهدةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ قاعِداً عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، لمَّا سَمِعَ صَوْتاً من السَّمَاءِ فَرَفَعَ بَصَرَه إلى جِهَتِهِ، فإذا الْمَلَكُ الذي جاءه بحراء، وأَمْلَىٰ عليه الآيات الخمس من صدر سورة (العلق).

ومن شِدَّةِ فَزَعِ الرسول ﷺ هَوىٰ إلى الأرْضِ، فنهض وجاء إلى أهله مذعوراً، وَقَالَ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، دَثِّرُوني.

فَدَثَّرُوهُ وَزَمَّلُوه، وقَبعَ جالساً في بيتِهِ يتَرَقَّبُ الأحداثَ الَّتي ستَأْتِيه من قِبَلِ رَبِّه، فجاءَهُ الوحيُ وقال لَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ حتَّىٰ قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

المدَّثِّرُ: أَصْلُهَا «المتَدَثِّر» أدْغِمَتِ التّاء بالدّال فصارتا دالاً مُشدّدة.

يُقَال لغة: **تَدَثَّر يتَدَثَّر تَدَثراً**، إذا لَبِسَ الدِّثَار، أَوْ تغطَّىٰ بِه. **الدِّثارُ**: الثوب الذي يكونُ فوقَ الشِّعَارِ، ويُطْلَقُ أيضاً على الغطاء، ويجمع على دُثُر، أمَّا الشِّعَارُ فَهُو الثوب الذي يلي جَسَدَ الإنسان، دونَ ما سواه من الثِّياب.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾: أي: يَا أَيُّها المتَدَثِّر بثيابه، القابع في بَيْتِه، الْمَذْعُور من رُؤْية الْمَلَكِ جبريل على هيئةٍ عظيمةٍ بين السّماء والأرض جالساً عَلَىٰ كُرْسِيٍّ، أَنْتَ مدْعوٌّ للقيام بمهمَّةٍ جليلةٍ خطيرة.

- ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾: أي: دَعِ الجلوسَ والسُّكُونَ قابعاً فِي دارِكَ عَنْد أهْلِك، وقُمْ ناهضاً لِتُؤَدِّيَ وَظَائِفَ رسالَتِكَ الّتي يكلّفُكَ رَبُّكَ أَنْ تُؤَدِّيها.

فأَنْذِرْ: الإِنْذَارُ: الإعْلَامُ والإِخْبَارُ بعواقِبَ غَيْرِ سارّة، كَشَرٌّ قادم، أو عُقُوبَةٍ على مُكْتَسبٍ إراديّ من قولٍ أو عملٍ أو اعتقاد، وكذلِكَ التحذيرُ من مَخُوفٍ منْهُ ماديٍّ أَوْ معنويّ.

والإنذارُ بعقاب اللّهِ يوْمَ القيامة يكون بَعْدَ بَلاغِ مَسائل الدِّين للمنذَرين، وتَعْرِيفهم بأركانِ الإيمان، ودعوتهم إلى الإيمان بربِّهم لا شريك له، وإلى عبادته وحده لا شريك له، فإذا كذَّبَ المبلَّغونَ رسُولَ ربّهم وكذَّبُوا بما يأتيهم به عَنْ ربّه أَنْذَرَهُمْ بعقابه يوم الدين.

لهذا كان علينا أن نفهم باللّزوم الْعَقليّ أَنّ جُمْلَةَ ﴿فَأَنذِرْ﴾ تَطْوي في داخلها جُملاً كثيرةً تَدُلُّ عَلَىٰ الوظَائفِ الّتي يجب على الرسول ﷺ أنْ يقوم بها قَبْلَ الإِنْذَارِ، ولمّا كان الإنذار يأتي في آخِرِها بمقتضىٰ التَّسَلْسُل الفكريّ والتربويّ، كان الاقتصار على ذِكْر عبارة: ﴿فَأَنذِرْ﴾ دليلاً عليها.

أي: قُمْ فَبَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّكَ، واشْرَحْها، وأقِمِ الدليل على عناصرها، للإقناع بها، وبيِّنْ للناس واجباتهم تُجاه ربّهم، وبشِّرْهم بالأجْرِ العظيم الذي أعَدَّهُ لمن يستجيب لدعْوة الحقّ التي جئتهم بها، في جنات النعيم يومَ الدين، وأخيراً أنذِرْ الكفرةَ المكذبين بعذابٍ أليم خالِدٍ في دار العذاب النّارِ يوْمَ الدّين.

وهذا من الإيجاز بحذف ما يُعْلَم عن طريق اللُّزوم العقلي، نظيره أن يقول السلطان الكبير لوزير التموين عنده الذي أصدر قراراً بمنع زراعة

الشعير في ضاحية العاصمة والقرى من حولها: دَعْ خيولنا تأكُلُ من شعير هذه الضاحية وما حولها، أي: دع الناس يزرعون فيها الشعير، ويحصدونه، ويدرسونه، ويُذَرُّونه، ويجلبونه بالأوعية إلى العاصمة، ويبيعونه، لِنَشْتَرِي منه، ونُطْعمَهُ خُيُولنا.

وهكذا نفهم قول الله لرسوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي: انْهَضْ يا محمّدُ إلى أداء واجبات الرسالة التي اصطفاك الله ربُّكَ لها، وحمَّلَك مهمّاتها، ومنحَكَ شرفها، فخصَّكَ من قومك بالوحي إليك، فإنَّه لَيْسَ مِنْ شَأْنِ مِثْلِك وقَدْ كنْتَ مَشُوقاً إلى عودة الملَكِ بعْدَ أن فَتَرَ عَنْكَ، أنْ تُصَابَ بالفزع إذْ شَهِدْته على صورته العظيمة المالئة للأفق، فتذهبَ إلى أهلِك مذعوراً تقولُ زمّلوني زمّلُوني دَثّروني، قم يا محمّد، فبلّغ رسالة ربّك، وأدّ الأمانةَ الّتي حمّلَك إيّاها، فادعُ الناسَ إلى الإيمان بالله، وإلى توحيده، وإلى عبادته وحده، وطاعَتِهِ في أوامره ونواهيه، وبَشِّرْهُمْ بالسعادة الأبديَّةِ إذا استجابوا لدعوتك.

أمّا من أعرضْ، أو كذّبَ واستكْبَر فأنْذِرْهُ بعذاب اللّهِ وعقابِهِ في جهنَّمَ يوم القيامة.

ولمّا كان الإنذار بالعقاب يقع آخِراً بحسب مقتضيات الحكمةِ، بعْدَ التّبليغ والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظةِ الحسنة، والجدالِ بالّتي هي أحْسَنُ، حَسُن في إيجاز عنوان الموضوع للرسول ﷺ أن يقول له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

● قول الله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ أي: وخُصَّ رَبَّكَ وحْدَهُ بالتّكْبِير والتعظيم، فَأَبِنْ أنّه هو الأكْبَرُ مِنْ كُلِّ كبير، والأعْظَمُ من كُلِّ ذي عِظَم، إذْ هُو خالِقُ كلِّ شيءٍ، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ أكْبَرَ وأعْظَم مِنْ كلّ شيء، واستُفيد هذا التخصيص من تقديم المفعول به «رَبَّكَ» على الفعل «كَبِّرْ».

والفاء في «فَكَبِّرْ» جيء بها للإشعار بأنّ الجملة واقعةٌ جواباً لشرطٍ محذوفٍ تقديره، ومهما يكُنْ منْ شيءٍ فكبِّرْ ربَّكَ. أو: ومهما استَطَعْتَ في كلِّ أحوالك فكبِّر ربَّك.

هذه الآية يُمكن اعتبارُها عنواناً لكلّ مسائل الرُّبوبيَّةِ وقضاياها، ولكلّ صفات الرّبّ الخالق، إنّ تكْبِيرَ الرَّبِّ يتضمَّن بيانَ عظيم صفاته وأسمائه الحسنى، ويتضمَّنُ توحيده في رُبوبيّته الَّذِي يسْتَلْزم عقلاً توحيدَهُ في إلَهيته جلّ جلاله، ويتضمَّنُ كلَّ ما يَدْخل في إثبات الرُّبوبيّة الواحدة لله عزّ وجلَّ من أدلّة، وكلَّ ما يدخلُ في إثبات صفات الرّبّ الخالق وأسمائه الحسنى، من أدلّة وحُجَج وبراهين، كلُّ هذا يمكنُ اعتبارهُ مشمولاً بعُنْوان: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

ومن تكبِيرِ الرَّبّ ذكْرُهُ القلبيُّ والنَّفْسِيُّ بالإجلال والتعظيم، وذكره باللّسان الذي هو إعلانٌ عمَّا في القلْب من اعتقادٍ نحو الرّب الخالق جلّ جلاله، ومن تكبيره إعلانُ عبارَةِ «اللَّهُ أكْبَر» الّتِي شُرِعَتْ فيما بَعْدُ لافتتاح الصَّلاةِ بها، وتَرْديدِها عند البَدْء بالركوع والْبَدْء بالسجود، والبدء بالرفع منه، وشُرِع إعلانُها في الأذانِ والإقامة، وفي صلاتي العيدين وخُطْبَتَي كلٍّ منهما وفي غَيْر ذلِك، فشعارُ هذا الدِّين: «اللَّهُ أكْبَر» وعبارة الدخول فيه والانتماء إليه: لا إلَه إلاَّ الله محمَّدٌ رسول الله.

ونلْمَحُ في هذِه الآية التَّوطئةَ والتمهيدَ لكلّ هذا الذي شُرِعَ فيه تَرْدِيدُ عبارة: «الله أكْبر» مع التوجيه للتأمُّل والتَّدبُّرِ في مضمون هذا الشعار العظيم دواماً، فبملاحظة أنَّ اللّهَ جَلَّ جلالُه أكْبَرُ مِنْ كُلِّ شيء تَتَصَاغَرُ في نفوس المؤمنين به السماوات والأرض وسائر مخلوقات الله، ويتصاغَرُ الطُّغاة والجبابرةُ والعظماء من الإنسِ والجنّ، وتتضاءَلُ الْمُرْعباتُ والمخيفاتُ والأهوالُ العظمَىٰ، إذْ هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِه، وَمظاهِرُ لتصاريفه في كونه،

وبالانتماء إليه، والالتجاء إليه، والاستعَاذَةِ به، يحْصُلُ الأَمْنُ في القلُوب والسّكينَةُ في النفوس، والاعْتِزَازُ بسلطانِه وهيمنَتِه على كلّ شيء، فَمَهْمَا يكُنْ شيءٌ في الوجُودِ كبيراً فاللّٰهُ أكْبر.

● قول اللّٰهِ عزّ وجلّ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي: ومهما استطَعْتَ في كلّ أحوالك فطَهِّرْ ثِيَابَكَ، وخُصَّهَا بالعناية بالطّهارة، لأنّها مصاحبَةٌ لكَ، أمّا تَطْهِيرُ الأماكِن والمجالِسِ ولا سيما المساجدُ ومواطِنُ العبادة فقد جاء التوجيه له فيما بَعْدُ.

والأمْرُ بطهارة الثياب يتضَمّن الأمْرَ بطهارة لابِسيها، إذْ طَهَارَةُ أبدانهم أولى من طهارة ثيابهم، فإذا أُمِرَ الإنسان بطهارة ثَوْبه فهو مأمورٌ بطهارة جسمه من باب أولى.

وقد نفهم من هذه الآية الأمْرَ الترغيبيَّ بطهارة الثياب بصورة عامّةٍ ولَوْ في غير الصَّلاة.

هذه الآية يُمْكن اعتبارها عنواناً للطهارة المادّيّة منْ كلّ النجاسات، إذِ الطهارةُ من العناصر الأولى في السُّلُوكِ الدينيّ للإنسانِ المسلم، ومعلومٌ أنَّ الرسول في أُمّتِهِ أوّلُ المؤمنين وأوّل المسلمين، فهو أوّلُهُمْ تكليفاً، وأوّلهم حرصاً علَىٰ تطبيق ما أَمَرَ اللّٰهُ به أو نهىٰ عنْهُ إلْزَاماً أَوْ تَرْغيباً.

وقد جاء في بيانات الرَّسُول ﷺ بعد هذا التوجيه الرَّبّاني للطهارة بِعِدَّة سنين، قولُهُ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان» إلاّ أنَّ هذا الحديث يشْمَلُ الطهارة من النجاسات المادّيّة، والطَّهارَة مِنَ النجاساتِ المعنويَّة، كالشِّرْك وارتكاب الكبائر الَّتي أبان الله عزّ وجلّ أنَّها رجْسٌ من عمل الشيطان.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ بضمّ راء «الرُّجْز» في قراءة حفص عن عاصم، وأبي جَعْفَرَ، ويَعْقُوب، وبِكَسْرِ الرَّاءِ «الرِّجْزِ» في قراءة باقي القراءات المتواترات.

وجاء في تفسير «الرُّجْزِ» بضَمِّ الرَّاءِ أَنَّهُ عبادةُ الأَوْثَان، أمّا «الرِّجْزُ» بكسر الراء، فقد أخرج ابن جرير وابْنُ أبي حاتم عن ابْنِ عبّاس قال: «كُلُّ شيءٍ في كتاب الله من الرِّجْزِ يَعْنِي به الْعَذاب».

وأخرج مسلمٌ وغَيْرُهُ من حديثِ أسامة بن زيد، وسَعْد بْنِ مالِكٍ، وخُزَيمَةَ بْنِ ثابتٍ، قالوا: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وبَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

والْهَجْرُ أَبْلَغُ من التَّرْكِ، إِذْ فيه مَعْنَى الابتعاد عن مواطنِ المهجور.

أمّا هَجْرُ «الرُّجْزِ» بمعْنَىٰ عبادةِ الأَوْثَانِ فَهُو ظاهرٌ، وخِطَابُ الرَّسُولِ بهذا هو في الحقيقةِ خطابٌ لكلِّ فردٍ من أفرادِ الأُمَّةِ الَّتي يُوجَّه لها دعوته، لأَنَّهُ ﷺ كانَ هاجراً لَهَا، فلَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ عَبَدَهَا أَوْ عَبَدَ شيئاً منها على طريقةِ مُشْرِكي قومه، ولا يُعْقَلُ أن تحدّثه نفسه بعبادتها بعد اصطفائه بالنبوة والرسالة.

وأَمَّا هَجْرُ «الرِّجْزِ» بكَسْرِ الرَّاءِ الذي هو بمعنى العذاب، فالمرادُ من هَجْرِهِ هَجْرُ كُلِّ اعتقادٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ منْ شأنِهِ أَنْ يُفْضِي إلى سَخَطِ اللَّهِ وعَذَابه، فمعنَىٰ هجْرِ العذابِ هَجْرُ أسْبابه.

فالأَمْرُ بِهَجْر الرِّجْزِ «بكسر الراء» معناهُ الأَمْرُ بهجر المعاصي والمخالفات المسبِّبة لعذاب الله.

وهذا الخطابُ موجَّهٌ في الحقيقة لكلِّ فردٍ من أفراد الأُمَّةِ التي يوجَّهُ لها دَعْوَتَهُ، إذ الرَّسُولُ ﷺ معصومٌ عَنِ المعاصي، إلاَّ أَنَّ له نصيباً من هذا التكليفِ في حدود مرتبتي البرِّ والإحسان وكلِّ ما لا يتعارضُ مع العصمة.

- قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾.

المنُّ: الإنعامُ والإحسان، يقال لغة: منَّ فلانٌ على فلان إذا أنعم عليه نعْمةً طيّبة.

تَسْتَكْثِر: أي: تَطْلُبُ لنفسك الكثرة.

والمعنى عند جمهور أهل التفسير من السَّلَف: لا تُعْطِ العطيَّةَ ملتمساً ممَّنْ أعطيته أن يعوِّضَك أكثر منها وأفضل.

وعلى هذا فالآيَةُ تتضَمَّنُ أصْلاً عظيماً من أصول الأخلاق الاجتماعية، الّتي جاء بها الإسلام، إذ المطلوبُ من المسلم أن يُعامل ربَّه من خلال معاملة عباده، لا أن يُعامِل العباد بالمعروف طالباً منهم المكافأة، فذلك يُحْبِط عند الله عمله، ويخيّبُ أَمَله.

أقول: إنّ النَّهْيَ عن الاستكثار عِنْدَ المنِّ يُشْعِر ضِمْناً بالتَّرغيبِ في المنِّ على عباد الله، ولكِنْ دُونَ طلَبِ الكَثْرة من جِهتِهم، لأنَّ طلَبَ الكَثْرَةِ مِنْ جِهَتِهم تُحْبِطُ فضيلَةَ المنِّ، فَيُحْرَمُ المنْعِم من ثواب اللَّهِ على العمل الذي قامَ به، والترغيبُ في المحافظة على ثواب اللَّهِ على عَمَلٍ مَا يَتَضَمَّنُ التَّرغيب في أصل العمل الذي يُثيب اللَّهُ عليه، وعلى هذا تكونُ العبارة بمعنَىٰ: امْنُنْ على عِبَادِ اللَّهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ مِنْهُمْ ثواباً وَلاَ رِبحاً.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ أي: وَلأَجْلِ ابتغاء مرضاة رَبِّكَ وَثوابِهِ وحْدَهُ لاَ شريكَ له فَاصْبِرْ علَىٰ القيام بالأعمال المطلوبة منك في حياتك، وعلَىٰ تَرْكِ ما تحبُّ وتهوى وتشتهي ممَّا نهاكَ الله ربُّكَ عَنْهُ.

والفاء في «فاصْبِر» نظيرها في: «فكبّر ـ فطَهِّر ـ فاهْجُرْ» واقعة في جواب شرط محذوف، ويمكن تقديره نظير ما سبق بيانه في: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

وهذه الآية: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ تتضَمَّنُ بيانَ أصْلٍ عظيمٍ من أصول الأخلاق في الإسلام، وهو الصَّبْرُ ابتغاء مَرْضاة اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ولمَّا كانَ هذا الدرسُ الأولُ من دروس السورة مُوجَّهاً بالدَّرَجَةِ الأولىٰ

للرَّسُولِ مُحَمَّد ﷺ، وقد جاء في الآية الثانية منه تكليفُهُ أن يبلّغ دين ربّه، وَأن يقومَ بوظائفِ رسالته حتَّىٰ الفقرة الأَخِيرَةِ مِنْهَا، وَهي إِنْذَارُ من كذّبَهُ وكذّبَ بما جاء بِهِ عَنْ رَبّه، ولم يستجب لدعوة الحق الرَّبَّانِيَّةِ الّتي حَمَلَها للناسِ نبيًا ورسُولاً.

ولمَّا كان من شأن الأكثر من النّاس أن يقابلوه بالتكذيب والإعراض والإدْبار، وأنْ يُوجّهُوا له الاتّهامات والشتائم وأنواع الأَذَىٰ، في حروب دعائيَّة، ثُمَّ في حروبِ عسكريَّة.

كان من الحكمة الرَّبانيَّة أنْ يُوجِّه الله لَهُ مع بدايات تكليفه أن يقوم بأداء وظائف رسالَتِه، الأَمْرَ بأَنْ يَصْبِرَ لأَجْلِ مَرْضَاةِ رَبِّه، غيْرَ مُبَالٍ بالنَّاسِ، وَلا مُكْتَرِثٍ لمَا يَنالُهُ مِنْ جهَتِهم منْ مكْرُوهٍ وأنواعٍ مِنَ الأذىٰ المعنويّ أو المادّيّ.

* * *

(٦)

نظرة إجمالية عامة إلى الدرس الأول

- لقد كان الوحْيُ إلى الرسول ﷺ في غار حراء أوّل الأمر، فأنزل الله عليه الأمر بالقراءة، والأخذ بوسائل العلم والمعرفة.

- ثمَّ انقطع عنه الوحي لاستثارة أشواقه إليه.

- ثم ناداه جبريل من جهة السماء فرفع بصره إليه، فرآه على هيئة عظيمة جدّاً جالساً على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فنالَهُ من هذا المشهد ذُعْرٌ أسقطه إلى الأرض، ورَجَع إلى أهله يقول: زمّلُوني دَثِّرُوني.

كلُّ هذا كانَ من التربية الرَّبانيّة له، والإعداد والتهيئةِ النفسيةِ لتلقّي مهمّات رسالته الّتي يجب عليه أن يحْملَها للناس.

● ثُمَّ كان من الحكمة أَنْ يُنَزِّل الله عليه نجماً قُرْآنيًا يتَضَمَّنُ تكليفهُ أَنْ يَحْمِلَ رسالَة رَبِّه ويقوم بوظَائِفها في الناسِ، حتَّىٰ آخِرِ وظيفَةٍ من وظَائِفها وهي توجيه الإِنْذار للمكذبين الذين يُصِرُّونَ على رفض الاستجابة لدعوته، على الرُّغْمِ من استخدام كلّ وسائل الاقناع والتربية والعلاج النفسي.

ويتضَمَّن هذا النَّجْمُ أيضاً بيان بعْضِ المبادئ الكليّة العامّة لهذا الدين، على شكْل عناوين كبرى لموضوعات سيأتي في مراحل التنزيل القرآنيّ والبيان النبوِيّ تفصيلها.

الموضوع الأول: عنوانه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

الموضوع الثاني: عنوانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

الموضوع الثالث: عنوانُه: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

الموضوع الرابع: عنوانه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾.

الموضوع الخامس: عنوانُه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

هذه الموضوعات يمكن شرحها وتفصيلها في بحوثٍ مستفيضة.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثاني

الآيات من (٨ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

الناقور: الصُّور، وهو بوقٌ عظيم يُشبِهُ الْقَرْنَ المجوَّف، ذكر المفسّرون أنّه قَرْنٌ من نورٍ يُجْعَلُ فيه الأرْواح.

نَقَرَ: يأتي بمعنَىٰ: «صَوَّت» يُقالُ لُغةً: نَقَرَ فلانٌ بلسانِه، أي: صوَّت به. ويقالُ: نقر بالدّابّةِ: أيْ: صَوَّتَ بها لتسير، ويُقالُ: نَقَرَ بفُلَانٍ: أي: دعاهُ من بين القوم.

فالنَّقْرُ في الصُّور هو إطلاق الصوت منه، وهذا الإطلاقُ يكونُ بالنفخ.

هذه الأداة الرَّبَّانيَةُ جَاءَ تسمِيَتُها هُنَا «النّاقُور» وجاء تَسْمِيَتُها «الصور» في عشْرَةِ مواضع من القرآن الكريم، وجاء فيها بيانُ أنَّ إطلاق الصوت منه يكُون بالنفخ، فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

والملَكُ الموكَّلُ بالصور الذي ينفُخُ فيه بأمْرِ اللّهِ عزَّ وجلَّ هُوَ «إسرافيل» عليه السلام، وهو ينفخ فيه النفخة الأولى لقيام السّاعَة الأولى الّتي تموتُ بها الأحياء، والنفخة الثانية لقيام السّاعَةِ الثانية الّتي يُبْعَثُ بها الخلائِقُ إلى الْحَياة مرّةً أُخرَىٰ، لاستكمال الخطّةِ الرَّبَّانيَّةِ المقرّرة للحياتين، في الدُّنْيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دار السّؤال والحساب وفصْلِ القضاء وتنفِيذِ الجزاء.

والمرادُ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ النفخةُ الثانيةُ الّتي تنطلق بها الأرْواح إلى أجسادها عِنْدَ البعث إلى الحياة الأخرىٰ للمحاسبة وفصل القضاء والجزاء.

ودلّ علَىٰ النَّفْخَتين قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

- ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ أي: فإذا نُفِخَ في الصُّور فأطْلَقَ صَوْتاً عظيماً لبَعْثِ الأحياء وإعادة الأرواح إلى أجسادها يوم القيامَة.

- ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: فذلِكَ اليومُ الّذِي تُبْعَثُ فِيه الأحْيَاءُ للمحاسبة وفَصْل القضاء والجزاء، يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَىٰ الكَافرين، غَيْرُ يَسِيرٍ، إذ فيه شِدَّةٌ وهَوْلٌ على الكافِرين.

عَسِيرٌ: صَعْبٌ شَدِيد، يُقَالُ لُغَةً: عَسُرَ ـ عَسِرَ ـ عَسَرَ الأمْرُ أو الزَّمَانُ يَعْسُرُ ـ يَعْسِرُ عَسْراً وعَسَراً وعُسْراً وعُسُراً وعَسَارَةً، أي: اشْتَدَّ وصَعُبَ، فهُوَ عَسِيرٌ وَعَسِرٌ. فالْعَسِيرُ ضدُّ الْيَسِيرِ.

وفي بيان كون هذا اليوم عَسِيراً على الكافرين دلالةٌ على أنّ الله عزّ وجلَّ يُيَسِّرُ أمْرَ هذا اليوم الْعَصِيبِ على المؤمنين.

وجاء في بيان أنّ يوم القيامة يومٌ عَسِيرٌ على الكافرين، نصّان آخران:

فجاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن يوم القيامة:

﴿... يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

إلى شَيْءٍ نُكُرٍ: أي: إلى شيءٍ شديدٍ صَعْبٍ، هُو الحسابِ لفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، ﴿نُّكُرٍ﴾ بضم الكاف قراءة جمهور القرّاء، وقرأ ابْنُ كثير: [نُكْرٍ] بإسكان الكاف.

مُهْطِعِين: خاضعين أذلاّء يَنْظُرُونَ بانكسارٍ.

وجاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن يوم القيامة أيضاً:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا (٢٦)﴾.

هذا الدّرس من دُرُوسِ السورة قَدَّمَ لَقْطَةً بيانيّة من لقطاتِ يَوْمِ الدّين، فأبانَ أَنَّهُ يكون بَعْدَ نَفْخَةٍ في النّاقور الذي هو الصُّور، وأَنَّهُ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَىٰ الْكَافِرِين.

وقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ جاء تأكيداً لمعنَىٰ ﴿عَسِيرٌ﴾ وهذا الأسلوب من التأكيد هو من قبيل تأكيدِ الشيء بنفي نقيضه أوْ ضدِّه، نظير قولهم: منحْتُكَ كذا عاجلاً غير آجل، ومنه: حيٌّ غير ميّت، وموجودٌ غير معدوم.

وهو في المعنىٰ مُرْتَبِطٌ بما جاء في الدرس الأوّل من دُرُوسِ السورة، من تكليف الرَّسُولِ أَنْ يُنْذِرَ المكذّبين، الّذين يُصِرُّونَ على رفْضِ الاستجابَةِ لدعوة الحق الرَّبَّانيَّةِ الّتي جاءهم بها، ودَعاهم إلى الإيمان بقاعدتها الإيمانية، والإسلام والطاعة لأوامر الله ونواهيه فيها.

* * *

(٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث

الآيات من (١١ ـ ٣٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا
(١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا
(١٦) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ
(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا
تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا
مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

إِيمَٰنًاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

مَا وَرَدَ في سَبَبِ النزول:

(١) جاء في سيرة ابْنِ هشامٍ عمّا رواه ابْنُ إسْحاق:

أنّ الوليد بْنَ المغيرة اجْتَمَعَ إليه نَفَرٌ مِنْ قُريش، وَكانَ ذَا سِنٍّ فيهم، وقَدْ حَضَر الْمَوسِمُ[1]، فقال لهم: يا مَعْشَر قُرَيْش، إنَّهُ قَدْ حَضَرَ هذا الموسم، وإنّ وفودَ الْعَرب ستَقْدَمُ عَلَيْكُم فيه، وقَدْ سَمِعُوا بأمْرِ صاحِبِكُمْ هذا، فأَجْمِعُوا فيه رأياً واحداً، ولاَ تَخْتَلِفُوا فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بعضاً، ويَرُدَّ قولكُم بعضُه بعْضاً.

قالوا: فأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْس، فقُلْ، وأَقِمْ لَنا رأْياً نَقُلْ به.

قال: بلْ أنْتُم فقولُوا أسْمَعْ.

قالوا: نقولُ: كاهنٌ.

قال: لاَ واللّهِ ما هُوَ بكاهِنٍ، لقَدْ رأيْنَا الكُهّانَ فما هُوَ بِزَمْزَمَةِ[2] الكاهن وَلاَ سَجْعِه.

قالوا: فنَقُولُ: مَجْنُون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فَمَا هُوَ بخَنْقِه، وَلاَ تَخالُجِهِ، ولاَ وَسْوَسَتِهِ[3].

---

[1] أي: موسم الحج.

[2] **الزمزمة**: الكلام الخفيُّ الذي لا يُسْمَع.

[3] **الْخَنْق**: عصر الحلْق. **التخالُج**: التحرُّك والاضطراب بدون اتّزان. **الوسوسة**: التكلّم بكلامٍ خفيّ مختلط غير ظاهر الدلالات.

قالوا: فنقولُ: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقَدْ عَرَفْنَا الشّعْرَ كلَّه، رجَزَهُ، وهَزَجَهُ، وقَرِيضَهُ، ومَقْبُوضَهُ، ومَبْسُوطَهُ(١)، فما هو بالشّعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّارَ وسِحْرَهُمْ، فما هُوَ بنفثهم، ولا عَقْدِهِم.

قالوا: فَمَا نقول: يا أبا عَبْدِ شمس؟

قال: واللَّهِ إنَّ لقولِهِ لحلاوَةً، وإِنَّ أَصْلَهُ لَعَذَق(٢)، وإِنَّ فَرْعَهُ لَجَناة، ومَا أَنْتُمْ بقائلين من هذا شيئاً إلاَّ عُرِفَ أنَّهُ باطل، وإِنَّ أَقْرَبَ القولِ فِيه لأَنْ تَقُولُوا: ساحِرٌ، جاء بقولٍ هو سِحْرٌ، يُفَرِّقُ بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُلِ الناس حينَ قَدِموا الموْسِمَ، لا يمُرُّ بهِمْ أَحَدٌ إلاَّ حذّروه إيّاه، وذكروا له أمْرَه، فأنْزَل الله تعالى في الوليد بن المغيرة:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ . . .﴾ الآيات حتَّىٰ قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

وجاء الوعيد الرّبّانيّ له ولأمثاله في الآيات من (٢٦ ـ ٣٠).

(٢) وجاء عند الطبريّ عَنْ عِكْرِمة، أنّ الوليد بن المغيرة جاء إِلَىٰ

---

(١) **الرّجز**: بحرٌ من بحور الشعر على وزن «مستفعلن ست مرات» **والْهَزَجُ**: بحر آخر على وَزن «مفاعيلن ست مرات» **القريض، والمقبوض، والمبسوط**: لعلّها أنواع من بحور الشعر كانَ العرب يسمونها بذلك.

(٢) **العذَق**: النخلة. وفي رواية: لغَدَق، أي: لذو ماء كثير.

النبيّ ﷺ، فقرأ عليه الْقُرآنَ، فكأنّه رقَّ له، فبلَغَ ذَلَك أَبَا جَهْلٍ، فقال: أيْ عمّ، إنَّ قَوْمَكَ يُريدُونَ أنْ يجمعوا لكَ مالاً، قال: لِمَ؟. قَال: يُعْطُونَكَهُ، فإنَّكَ أَتَيْتَ محمّداً تتعَرَّضُ لما قِبَلَهُ. قال: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنّي أكْثَرُها مالاً. قال: فقُلْ فيه قولاً يَعْلَمُ قومُكَ منْهُ أَنَّكَ منْكِرٌ لما قال، وأنَّكَ كارِهٌ له، قال: فما أقول فيه، فوالله ما منكم رجُلٌ أعْلَم بالأشعارِ مِنّي، وَلاَ أَعْلم برجزه منّي، ولا بقصيدِه، ولا بأشعار الجنّ، واللّهِ ما يُشْبه الذي يقولُ شيئاً منْ هذا، ووالله إنَّ لقَوْلِه لَحَلاَوَةً، وإنَّه ليَحْطِمُ مَا تَحْته، وإنَّهُ لَيَعْلُو وَلاَ يُعْلَىٰ. قال: واللّهِ لاَ يَرْضَىٰ قَوْمُكَ حتَّىٰ تقول فيه. قال: فدعْنِي حتَّىٰ أُفَكِّرَ فيه، فلَمَّا فكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يَأْثُرُهُ عن غَيْرِه، فنزلَتْ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ . . .﴾ الآيات.

(٣) وجاء عند الطبريّ أيضاً عن ابن عباس، قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قُحافَة ـ رضي الله عنه ـ يَسْأَلُهُ عن القرآن، فلَمَّا أخبره خرج على قريش، فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشَة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسِحر، ولا بهَذْي من الجنون، وإنّ قوله لَمِنْ كلام الله، فلمَّا سَمِعَ بذلك النَّفر منْ قريشٍ ائْتَمَرُوا وقالُوا: واللّهِ لَئِن صَبَأَ الوليد، لتَصْبأَنَّ قريش.

فلمَّا سمع بذلك أبو جهل قال: أنا والله أكفيكُمْ شأنه، فانْطلق حتّىٰ دخَلَ عليه بيته، فقال للوليد: أَلَمْ تر قومك قد جَمَعُوا لكَ الصَّدَقَة؟

قال الوليد: أَلَسْتُ أَكْثَرَهُمْ مالاً وَوَلَداً؟

فقال له أبو جهل: يتحدّثونَ أنَّكَ إنَّمَا تَدْخُلُ على ابْنِ أبي قُحَافَةَ لتُصِيبَ من طعامه.

قال الوليد: أَقَدْ تَحَدَّثَتْ بِهِ عَشِيرَتي، فلا واللّهِ لاَ أَقربُ أبا بكر ولا عُمر ولا ابْنَ أبي كَبْشَة، وَمَا قولُهُ إلاّ سِحْرٌ يُؤْثر، فأنزل الله على نبيه ﷺ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ . . .﴾ ـ إلى ـ ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ㉘﴾.

إلى غيرها من روايات تؤكّد أنّها نزلَت الآيات بمناسبة ما كان من الوليد بن المغيرة، ووعيده بعذاب اللّهِ في سَقَر.

أقول: ويُلْحَق بالوليد من كان مِثْلَهُ في كفره وعناده، ومخالفته لقناعاته، وإصراره على الباطل، على الرّغم من وضوح الحق له، فسُنَّةُ الله في عباده واحِدَة.

وقد جاء هذا الدّرسُ الثالث موصولاً بالدرسَيْن السابقَيْن، منْ جهة تضمُّنهما إنذار المكذبين المعاندين، وعلاجاً تربويّاً لبَعْض كبرائهم وَأئمتهم في مكّة إبّان تَنْزيل السُّورة، مع علاج تَرْبوي للرسول وللدعاة من أُمّتِه.

- قولُ اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪﴾

أي: دَعْنِي مع مَنْ خَلقْتُهُ وحيداً لا أنْصَارَ لَهُ وَلاَ أبْنَاءَ ولا أعوان، ولا مالَ ولا قوّة، فَأنا الّذي أمْدَدْتُه بذلك، وأَنا القادر على تجريده من كلِّ شيء، حتَّىٰ أجْعَلَهُ وَحِيداً كمَا بدأتْ مَسِيرَةَ حياته.

هذا الأسلوبُ من التعبير يَتَضَمَّنُ تَهْدِيداً وَوَعِيداً شَدِيداً لِمَنْ يُرادُ تهديدُهُ ووعِيدُه، وهذا التهديد مُوجَّهُ من الرّبّ الخالق جل جلاله، لا من الرّسول ﷺ.

ويتضمّنُ أيضاً وَصِيَّةً للرَّسُولِ ﷺ، ويُلْحِقُ به المؤمِنُون، ويلحق به كُلُّ داعٍ إلَىٰ اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، إذَا وَاجَهَ مَنْ يُعَانِدُ ويكابِرُ ويَقِفُ في سبيلِ الدَّعْوَةِ صادّاً مُعَارضاً مُقَاوماً بحرْبٍ إعلاميَّةٍ، أَوْ حَرْبٍ جَسَدِيَّةٍ إيذائِيَّة، إذا كان في مِثْلِ المرحَلَةِ الّتِي نزلَ فيها هذا النّصّ على الرسول ﷺ.

هٰذِه الوصيَّةُ تقولُ للرَّسول: دَعْ مواجهة هذا الصنف من الجاحدين المعاندين، فلا تتصارعْ معه صراعاً كلاميًّا ولا صراعاً جَسَدِيًّا، بَلْ تابع

مسيرَتَكَ في دعوتِكَ دُونَ أَنْ تَشغَلَكَ مُصَارعَتُه عن القيام بواجبات رسالَتِك التبليغيَّةِ البيانيّة والإقناعيَّة والترغيبيَّةِ بثواب الله والترهيبيَّة من عقابه، فأنْتَ في المراحل الابتدائيَّة لمسيرة دعوتك لا ينبغي لكَ أن تَشغَلَكَ المصارعة، إذْ تُعوِّقُ مَسِيرتَك، ورُبَّما تؤلِّبُ عليك جماهير الناس، فَتُوقِفُ حركتك في القيام بوظائف رسالَتِك.

وهذا المعنى مُرْتبطٌ بقول الله عزّ وجلّ في الدرس الأول: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ⑦﴾.

﴿ذَرۡنِي﴾: بمعنى: دَعْنِي، واتْرُكْنِي، وقد استعمل العربُ من هذه المادّة المضارعَ والأمرَ، فقالوا: «يَذَرُ» بمعنى يَدَعُ ويترك، وقالوا: «ذَرْ» بمعنى دَعْ واتْرُك، أمّا الماضي: «وَذِرَ» والمصْدَرُ: «وَذْراً» فقد أهْمَلوا وأماتوا استعمالهما، إلاّ نادراً.

﴿وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾: أي: ومن خلقْتُهُ حالة كونِهِ وَحِيداً لا نَصِيرَ له وَلا مُعِينَ ولاَ شيءَ يَعْتَزُّ به، وتدُلُّ هٰذِه العبارة باللُّزوم الذّهْنِي على مَعْنَىٰ: وَبَعْدَ ذَلِكَ أَمْدَدْتُهُ بالأنصار والأعوان والأبناء والأموال، وأنا القادر على سَلْبِه ما أمدَدْتُه بِهِ، فلا تَشْغَلْ نفسَكَ بمقاومته ومقارَعتِهِ حتّىٰ آذنَ لَكَ.

الوحيد: المنفَرِدُ بنفسِهِ، والأنْثَىٰ: وحيدة.

هذه العبارة تَنطَبِقُ عَلَىٰ كلّ إنسان، وكلّ ذي حياة، وكلّ مخلوق، وقد جاءتْ هُنَا بمناسبة ما كان من الوليد بن المغيرة، فَهُو المقصودُ الأوّلُ مِنها، ويُلْحَق به مَنْ كانَ مثله، فكُلُّ مخلوقٍ من الإنس والجنّ وغيرِهِمَا قَدْ خَلَقَهُ اللّهُ عاجزاً فقيراً وَحيداً لا نَصِيرَ لَهُ ولا مُعِينَ، محتاجاً في أسباب حياته وبقائِه مَدَداً من قُوىً غيبيَّةٍ غيرِ منظورة، لا يَمْلِكُ الإمدادَ بها إلاّ الرَّبُّ الخالق الّذي لا تراه الْعُيون، ولكن تُدْرِكُ العقول بعض صفاته من آثارها في خلقه.

وقد تكرّر استعمال هذا الأسلوب الّذي تضمَّنَ التَّهْدِيد للكافرين المكذِّبين، والوصيَّةَ للرَّسُولِ بترك مواجهتهم في صراعٍ كلاميٍّ أو جَسَدِيّ، في عدّة نصوصٍ نزلت في المراحل الأولى من مراحل الدعوة، قبل الإذْنِ بالقتال.

فجاء في سورة (المزمل) قولُ اللّهِ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

وجاء في سورة (القلم) قول الله عزّ وجلّ خطاباً للرسول ﷺ:

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

- قول الله عزّ وجل:

﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾﴾:

أي: وجَعَلْتُ له مالاً كثيراً، يَزْدادُ بالْمَدَدِ حِيناً فَحِيناً، فهو مالٌ يُزَادُ فِيه فينْمُو، كبِرْكَةِ الْمَاءِ يأتيها الْمَدَدُ من السواقي والأمطار، فلَهُ غَلَّةٌ من فيض عَطَاء الله.

يُقَالُ لُغَةً: مالٌ مَمْدُودٌ، أي: كثير. ويُقَالُ: مَدَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ إِذَا زَادَ فِيه مَدَداً. الْمَدَدُ: مَا يُمَدُّ بِهِ الشيء، كمَاءِ النَّهْرِ يُمَدُّ بماءِ السّواقي الَّتي تَصُبُّ فِيه، وكالجيْشِ يُضَافُ إِلَيْهِ مَدَدٌ من الجنود لتَقْويته، ويقال: مَدَّ الدَّواةَ، إذا زَاد مِدَادَها.

والمدّ أيضاً: التوسعة والإطالة والبسط، ومدَّ اللّهُ الأرض يمُدّها مدّاً، أي: بسطها وجعل فيها خيراً كثيراً.

رُوي عن ابن عبّاس أنّه قال: كان مالُ الوليد بن المغيرة بين مكَّة

والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان، وكانت غَلَّةُ ماله أَلْفَ دينار (أي: في السنة)(١).

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ⑬﴾:

أي: وجَعَلْتُ له بنين شاهدين حاضرين ليسوا غائبين عن مكان إقامَتِهِ، فَهُمْ أعوانُه وأنصارُهُ يستعين بهم، ويستدعيهم لنصرته في كُلِّ وَقْتٍ يحتاج فيه إلى النُّصْرَةِ، ويعتَزُّ بهم ويفتخر إذْ هم شهودُ مجالسه.

شُهُود: جمع «شاهد» بمعنى «حاضر» غير غائب، ونظير هذا الجمع: «سُجُود» جمع: «سَاجد».

قيل: كان للوليد بن المغيرة عشرة بنين، وقيل: ثلاثة عشر ابناً، وكانوا يشهدون معه المحافل، فكانوا له عزّاً وفخراً، والمذكور منهم في التاريخ سبعة فقط.

- قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ⑭﴾:

التمهيد: البسط، والتسويَةُ والتسهيل، يقالُ لغة: مَهَّدَ الفراشَ أي: بسَطَهُ ووَطَّأَهُ، ومَهَّدَ الأرضَ، أي: سَوّاها وسَهَّلَ الجلوسَ أو المشي عليها، بإزالة ما فيها من منخفضات ومُرْتفعات، وأحجارٍ وصخور. ويُقَالُ: مَهَّدَ الأَمْرَ إذَا وَطَّأَهُ وسَهَّلَه.

تمهيداً: مفعول مطلق مؤكدٌ لفعله، وفيهِ معنى تحقيق التمهيد والعناية به.

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور.

ودلّت هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ اللّٰهَ عَزَّ وجلَّ جَعَلَ بقضائِهِ وقَدَرِهِ أُمُورَ الوليد بْنِ المغيرة مُيَسَّرَة سَهْلَةً، لاَ يَسُوؤُه فيها عُسْرٌ، ولا تَعْتَرِضُهُ فِيها عقباتٌ ولا مُشكلات، لِيَبْلُوَهُ فيما آتاه.

لكنَّهُ لم يَشْكُرِ الله على ما آتاه، بل جعلَتْهُ النِّعَمُ الَّتِي أَوْلاَهُ اللّٰهُ إِيَّاها يَزْداد كُفراً وعِناداً وطُغياناً، وكِبْراً وَعِصْياناً.

● قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾:

الطمع: تعلُّق النَّفسِ بمَحْبُوبٍ لدَيْها مرغوبٍ فيه، مع رجاء حصوله.

وقد كان الوليد بن المغيرة يطمع بأنْ يزداد ما لَدَيْه من مالٍ وبنين وأنصارٍ وسائر محابّه من الحياة الدُّنيا، لأنَّ اللّٰهَ عزَّ وجلَّ جعَلَ مطالِبَهُ من الحياة الدنيا ميسَّرَةً مُسَهَّلَة، لا عُسْرَ عليه في تحصيلها، إذْ مهَّدَ لَهُ سُبُلَه تمهيداً محقَّقاً زائداً عن نظرائه.

ولمّا كانت الزيادة من مطالب الحياة الدنيا لا تكون إلاَّ عطاءً من الرّبِّ الخالق، كان من بيان الواقع أَنْ يَنْسُب اللّٰهُ الزِّيَادَةَ إلىٰ نفسه، سواءٌ أكان الوليد من الّذِين يؤمِنُونَ بأنَّ الله هو المحقّق لمطامعه مع شِرْكه بربه، أم كان من الذين يعتقدون بأنَّ الشركاء هي الّتي تُحقِّقُ له مطامعه، وفي هذا تنبيهٌ لَهُ ولنظرائِهِ على أنّ كلَّ مطالب الحياة لا يحقِّقُ شيئاً منها للعباد إلاَّ اللّٰهُ الرَّبُّ الخالق.

وهذا الطمع الموجودُ عِنْد الوليد موجودٌ عِنْدَ كُلِّ طُلاَّب الحياة الدنيا وزينتها، ولا سيَّما الذين يُيَسِّرُ اللّٰهُ أُمورَهم ويُمَهِّدُ لهم في الحياة سُبُل تحقيق مطامعهم العاجلة من دُنياهم، فالكلام الموجّه للوليد بن المغيرة مُوجَّهٌ ضِمْناً لأمْثالِه وَنُظَرائِه.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ⑯﴾:

﴿كَلَّآ﴾ كَلِمَةُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، مُوجَّهَة للوليد، والمزْجُورُ عَنْه الطَّمَعُ بالزِّيادة، وهٰذا وعِيدٌ من اللّٰهِ لَهُ بأنّ اللّٰهَ لن يُحقّق لَهُ مطامعه الّتي يرجو تحقيقها في المستقبل.

وجاء تعليل هذا الرَّدْعِ والزّجْرِ في قَوْلِهِ تعالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ هذا بيانٌ يتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ التعليل لما سبقه، فهي جملةٌ استئنافية لا محلَّ لها من الإعراب، والجملة التعليلية تأتي جواباً لسؤالٍ مقدّر، وتقديره هنا: لم هذا الردْع والزجر؟! والجواب: إنّه كان لآياتنا عنيداً.

العنيد: المستكبِر الذي يتجاوز الحدّ المألوفَ في العصيان، والذي يجْحَدُ الحقَّ ويَرُدُّه ويخالِفُه مع أنّه يَعْرِفُ أنّه حقٌّ.

يقال لغة: عَنَدَ فلانٌ يعْنِدُ عَنداً وعُنُوداً فهو عَانِدٌ وَعَنُودٌ وعَنِيدٌ.

لقَدْ دَلّتْ روايات أسباب النُّزُول على أنّ الوليد بن المغيرة قد أَدْرَكَ عظمة ما سَمِع من آياتِ القرآنِ المجيد، وأنَّهَا ليْسَتْ من قولِ البشر، وعبَّرَ عن دهشته، ولكنّه استكْبَر عن اتّباع الرسول ﷺ، وجَحَدَ أن يكون القرآن منزَّلاً من عِنْدِ الله، وعانَدَ ما سَمِعَ من آياتِ الله، فخالَفَها وردّهَا ورفَضَ الإيمانَ بها، وله نظراء من قومه كأبي جَهْل.

وقد جاءَتِ العبارةُ القرآنيَّةُ المنزَّلَة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ بياناً مُطابقاً لواقع حاله، إنّه على الرغم من معرفته الحقَّ جَحَدَهُ مُعانداً له.

﴿لِآيَٰتِنَا﴾ جار ومجرور معمولٌ لكلمة ﴿عَنِيدًا﴾ فهو متعلّق به، وقُدِّمَ لمراعاةِ رُؤُوسِ الآي، ولمراعاة أسْلُوبِ بناء الْجُمَل، وقَدْ يكُون لإرادة التخصيصِ أيضاً، فَهُو قَدْ خصَّ آيات اللّٰهِ بمعانَدَتها، مع أنّه لَيْسَ من طبعه

في قومه أن يُعَانِدَ، لئلاَّ يخْسَرَ مكانته الاجتماعيَّة فيهم، فقد كان في وقته ذا رياسة.

ثُمَّ لم تَطُلْ حياةُ الوليد بْنِ المغيرة، إذْ كَفىٰ اللَّهُ رسُولَهُ المستهزئين وأنْزَل عليه قوله في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

وكان الوليد أحَدَ أرْبَعةٍ أهْلَكَهُمُ اللَّهُ بإشاراتٍ أشَارَ بها جبريل عليه السَّلام إليهم وهم يطوفون، ورسُول الله ﷺ قائِمٌ إلى جنبه كما جاء في السِّيرة عند ابْن هشام، فقد جاء فيها أنَّ جبريل عليه السلام أشار إلى أثر جُرْح بأسفَلِ كعب رِجله، كان قد أصابه قبل سنتين، وليس بشيءٍ، فانْتَقضَ الْجُرْحُ فقتله.

ومن الحكمة التربويّة في حصر المواجهة بالوليد بن المغيرة إمام المعاندة في هذه المرحلة تخفيفُ نسبة الأعداء، وعدم إحراجهم أن يقفوا موقف العداء، ولعلّ فريقاً منهم يؤثر السلامة والتواري، أو يهتدي فلا يجد نفسه مُحْرجةً بالتنازل عن موقفه السابق.

● قول الله عزّ وجل:

﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾:

هذه الآية تضمّنَتْ وَعِيداً للوليد بن المغيرة ولمن كان مثله في عناده لآياتِ الله بعذابِ يوم الدين في جهَنَّمَ ذِي صفَةٍ خاصَّةٍ، وهو تَحْمِيلُهُ ما لا يُطِيقُ صاعداً على عَقَبةٍ كَؤُودٍ.

يقالُ لغة: أرْهَقَ فُلانٌ فلاناً إذا حمَّلَهُ ما لا يُطِيق.

الصَّعُود: العقَبَةُ الشَّاقَّة، والمشَقَّةُ، والطريقُ الصَّاعِدَة، ورُوي عن النبي ﷺ: «أنَّ الصَّعُودَ جَبَلٌ من نارٍ يُصْعَدُ فيه سبعين خرِيفاً، ثُمَّ يَهْوِي كذلِكَ مِنْهُ أبداً».

واللَّهُ أَعْلَمُ.

فمعنى «سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً» سأُحَمِّلُه مشقَّةً عظيمةً لاَ يُطِيقُ حملها. أو سأُحمِّلُهُ مشقَّةَ الارتقَاءِ على عَقَبَةٍ شاقَّةٍ، أو طريقٍ صاعِدَةٍ، أَوْ جَبَلٍ من نارٍ على ما رُوي في الحديث.

ويقال: لَأُرْهقنَّكَ صَعُوداً: أي: لأُجشِّمنَّكَ مشقَّةً من الأمْرِ.

وهنا يَرِدُ سؤَالٌ وهو: لِمَ هٰذا التَّعْذِيبُ الشَّدِيدُ الَّذِي يُخَصُّ به الوليدُ ونُظَراؤه، وجاء الجوابُ في عِدَّةِ آياتٍ تُبيِّنُ عِلَّةَ تَكليفهِ هذا العذابَ الشَّاقَّ، فهو جوابٌ مُسْتأْنَفٌ يُبيِّن العلَّة، في القول التالي:

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذِهِ الآياتِ وصْفٌ دقِيقٌ لِمَا كانَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ أدْرَكَ عظمة ما سَمِعَ من آيات القرآن المجيد، وأنها لا يمكن أن تكون من قولِ البشر، بل هي تنزيلٌ من ربّ العالمين، ولكنّه جحدها وعاندها، ورفض أن يُؤْمِنَ بها مستكبراً عن اتّباع الرسول محمّد ﷺ، وأخذ يُفكِّرُ ويُقدِّر، ويُجْهِدُ نفسه في استدعاء الاحتمالاَتِ الَّتِي يُزَيِّفُ بها الحقيقة، لتقديمِ المقولَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أن تقْبَلَها الجماهِيرُ، وتُرَوِّجها لتَصُدَّ الناس عن التَّأَثُّرِ بالقرآن، واتّباعِ محمّد ﷺ، والإيمان بهذا الدّين.

- ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾:

فَكَّرَ: أي: أعْمَلَ فِكْرَه، واجْتَهَد في التفكير في مختلف الوجوه والاحتمالات، ليبتكر مَقُولةً يُزَيِّنُها وَيُزَخْرِفُهَا حتَّىٰ تكونَ مقبولة، لَدَىٰ

الجماهير، ومتضمِّنَةً وصْفَ آيات القرآن بوصْفٍ يُوهِمُ أنّها قولٌ بَشَرِيٌّ، وليس كلاماً مُنَزّلاً من لدن حكيم عليم.

وقَدَّرَ: أي: وتَمَهَّل، فلم يَتسَرَّعْ، يقالُ لُغَةً: قَدَّرَ فُلانٌ، إذا تمهَّل متفكراً في تَسْوِيَةِ أَمْرٍ وتَهْيِئَتِه، لكنّ تفكير الوليد وتقديرَهُ قَدْ كَانَا لإبطال الحقّ وإحقاق الباطل.

- ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩﴾:

أي: فَطُرِدَ طَرْداً مُمِيتاً على أَيَّةِ حالَةٍ كان عليها تفْكِيرُهُ وَتَقْدِيرُهُ، لأَنَّهُ قَدْ صَمَّم على تَسْخِيرِ ما وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ قُدْرَاتِ تفكيرٍ بأناةٍ وتَمَهُّلٍ لتَزْيين الكُفْرِ بآياتِ اللَّهِ.

كيفَ: اسم استفهام مبهم مبني على الفتح يُسْتَفْهَمُ به عن حالة الشيء، ومحلُّهَا النصب على الحال هنا، والعامل فعل «قَدَّرَ».

وتَرَيَّثَ طوِيلاً وَزَادَ في تَمَهُّلِهِ وَتَفْكيرِه، فلم يخْرُجْ عمّا هو فيه من مُحَاوَلاَتٍ لتزيين الكُفْرِ بالقرآن، فاسْتَحَقَ أن تُكَرَّرَ لَهُ عبارَةُ الطَّرْدِ فقال تَعالَىٰ:

- ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠﴾.

وأضافَ تَرَيُّثاً وَتَمَهُّلاً، وهُوَ يَتَفَكَّرُ ويَنْظُر نظراً فكريًا في الاحتمالاتِ الَّتِي يُمكِنُ أَنْ يُزَيّن بها باطِلَهُ، لإبعاد كون القرآن كلاماً مُنَزَّلاً من عند الله، ولِصَرْفِ هَذَا عَنْ تصوُّرَات جماهير قومه، فقال اللَّهُ تَعَالَىٰ كاشفاً هذا التريُّثَ المضاف ليُعمّق النَّظَر:

- ﴿ثُمَّ نَظَرَ ٢١﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ تأمُّلٍ طويلٍ ثبَّتَ نَظَرَهُ على فِكْرَةٍ رَجاءَ أنْ تكون مُقْنِعةً لدَىٰ جماهِيرِ قَوْمِهِ، على الرَّغْمِ من ضَعْفِها وَعَدَمِ كِفَايَتِها للإِقْناعِ.

إلاَّ أنَّهُ قَدْ أدرَكَ فِي قرارة قَلْبِهِ وَنَفسِه أنَّ الفكرةَ الَّتِي تَوَصَّلَ إليها وَرَأىٰ أنَّها أَقْرَبُ كلِّ الأفكار المحتملة للقبول، غَيْرُ كافِيَةٍ للاقناع بما يُريدُ اتِّهَامَ القرآنِ به، فَظَهَر أَثَرُ هَذا الذي اعْتلجَ في قلبه ونفسِه على وجْهِهِ، فعَبَسَ وبَسَرَ، وقَدْ كَشَفَ الله عزّ وجلَّ هٰذا مِنْ حالِهِ، فقال تَعَالَىٰ:

- ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾

عَبَسَ: أي: جمع جِلْدَ مَا بَيْنَ عينيْهِ وَجِلْدَ جبهته، وتَجَهَّمَ، وهذا دَلِيلٌ على سَخَطِه وعدم رضاه، يقال لغة: عَبَسَ يَعْبِسُ عبْساً وعُبُوساً.

وبَسَرَ: أي: وكَلَحَ، يُقَال لغة: بَسَرَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ بُسُوراً، أي: ظَهَر عليه الكَلَحُ، وهو شحوبٌ في الوجه، من أثَرِ الاستياءِ في النفس، ويُطْلَقُ الْبُسُورُ على العبوسِ.

ثم لمَّا لم يَجدْ فِكْرَةً مُضَلِّلَةً أكْثَر قبولاً مِنَ الْفِكْرَةِ الّتي توصَّلَ إليها، أدْبَر واسْتَكْبَر، وقَدْ كشَفَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ هذا من حالِهِ، فقال تَعَالَىٰ:

- ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: أدْبَرَ عَنْ مُتابَعَةِ النظر والتَّفكُّر، إِذْ لَمْ يَجِدْ مَا يُقنِعُ به أقْوَىٰ ممّا تَوَصَّلَ إليه، واسْتَكْبَر عَنِ الإيمانِ بالقرآن وبالرسول محمّد ﷺ.

وعندئذٍ أعْلَنَ مقولَتَهُ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْها فَقَالَ كَمَا جَاءَ فِي الآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْن:

- قولُ الله عزَّ وجل:

﴿فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فقال الوليد بن المغيرة: مَا هَذا القرآنُ الذي يتْلُوهُ مُحَمَّدٌ إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ.

«إِنْ» هُنَا أداةُ نفي مثل: «ما». ﴿إِنْ هَذَآ﴾ أي: ما هذا القُرآنُ. ﴿إِلَّا

سِحْرٌ ﴾ أي: إلاّ كلامٌ هو من قَبِيلِ السِّحْرِ الّذِي يُؤَثِّرُ فِي النفوس ويَسْتَوْلِي عليها.

﴿يُؤْثَرُ ﴾: أي: يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ القرون الأَولى، والمعنَىٰ أنَّ مُحَمَّداً وجَدَ وسِيلةً يَنْقُلُ بِها هذا الكلامَ السِّحْرِيَّ عَنِ الأَوّلين، فكلّما اطّلَعَ علَىٰ شيءٍ منه حفظه وتلاه على الناس وزعم أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ يُوحِي اللَّهُ به إِلَيْهِ، وهذه فريةٌ مفضوحةٌ لا شُبْهَة تؤيِّدها من واقع حَال الرّسول محمد ﷺ.

وَبَعْدَ هذا القرار النِّهائِي الَّذِي توصَّلَ إليه الوليد بَعْدَ مَراحِلِ تفكيره الَّذِي تَرَيَّثَ فيه وتمَهَّلَ طويلاً، اقتضت الحكمة الرَّبَّانيَّةُ أن يُوجِّهَ اللَّهُ لَهُ ولِنُظَرائِهِ الإنْذَارَ بعذابٍ في سَقَرَ يَشْتَمِلُ على لقَطَاتٍ فِيهَا بَعْضُ تَصْوِيرٍ لعذابِ المكذِّبين المستكْبِرين فِيها.

- قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

سَأُصْلِيهِ: أي: سأعذِّبه بالحريقِ، يُقال لغة: صَلِيَ النَّارَ، وصَلِيَ بهَا، إذا احترق فيها، ولامَسَ لهَبُها جسَدَهُ مُحرِقاً، ويقال أيضاً: أَصْلاهُ في النّار وأصلاهُ بها، أي: أدْخَلَهُ فيها ليحترق، وكذلِكَ يقالُ: صَلاَّهُ، ومنه: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾.

سَقَرَ: اسْمُ علَمٍ من أسماء جَهَنَّمَ دار العذاب يوْمَ الدِّين، وسمِّيث جهنَّمُ باسْم «سَقَر» لبُعْدِ قَعْرِها وشدَّة حَرِّها، فالسَّقْرُ البُعْد، ويقال لغةً: سَقَرَتْه الشمسُ إذا ضربَتْ دِماغَهُ بحرِّها وأذابته. ولفظ «سَقَرَ» ممنوعٌ من الصرف للعلمية والتأنيث.

فمعنَىٰ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾: سأُدْخِلُهُ جهَنَّم ليحترقَ فيها، ويَذُوقَ عذابَ الحريقِ بالنّار.

ورُوي عن ابْن عبّاسٍ أنّ «سَقَرَ» اسْمٌ للطبقة السادسة من النار. وقيل: هي الطبقة الخامسة.

فقَدْ وَرَدَ أنّ دركاتِ جهنَّم سبْعَةٌ: ١ ـ جهنم ٢ ـ لظى ٣ ـ الحطمة ٤ ـ السّعير ٥ ـ سَقَر ٦ ـ الجحيم ٧ ـ الهاوية.

واللّٰهُ أعلم.

● ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ هذه العبارَةُ وأَشْبَاهُهَا في القرآن صيغَةٌ منْ صيغ التَّعْجِيب القرآنيَّة المبتَكَرَة ضمْن قواعد اللّسانِ العربيّ. والمعنى: أعظم بأَمْرِ سَقَرَ إعظاماً لا تَصِلُ إلَيْه درايَتُكَ مهما فكَّرْتَ وسبَحْتَ في تصوُّراتك، لأنّه لم يمرَّ في خبراتِكَ ولا في تصوُّراتك شيءٌ، يَجْعَلُكَ تقيسُ هذا الأَمْرَ عليه. والخطابُ في ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ موجَّهٌ بالإفراد لكلّ صالحٍ للخطاب.

وتحليلُ هٰذه العبارة ونظائرها على الوجه التالي:

وأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ ما سَقَرُ؟!. أيّ: أنت لا تدري عظمة سَقَر وهَوْلَ أَمْرِها إلاّ إذا أَعْلَمْنَاكَ بذلك. «ما» استفهامية، يُسْتَفهم بها عن حقيقة الشيء وماهيَّته، وهو هنا استفهام يرادُ به التعجيب من شِدَّةِ هَوْل «سَقَرَ» وعَظَمتها.

● ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾: ما المراد بأنّ «سَقَرَ» لاَ تُبقِي ولا تَذَرُ؟

هل المراد: لا تُبقِي ولاَ تَذرُ شيئاً دَخلَها إلاّ أحْرَقَتْهُ وأَفْنَتْه لِشدَّةِ حَرَارتها؟، وعلى هذا فهُوَ تَعْبِيرٌ يرادُ به بَيَانُ شِدَّةِ حرارتها الّتِي تأكُلُ كُلَّ شيءٍ وتُفْنِي كلَّ شيءٍ دَخلَ فِيها، فَيزيدها حرّاً، ويُستَثنى من الداخل فيها المعذَّبون، إذْ يُجَدِّدُ اللّهُ خَلْقَ جُلودِهم ليذوقوا العذاب، وهذا الاستثناء جاء في بيانٍ غير هذا البيان من القرآن، ومنه ما جاء في الآية التالية:

● ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾: أيْ: مُسَوِّدَةٌ بِحَرِيقها لِجُلُودِ المعذَّبِينَ فِيها، يقال لغة: لَوَّحَتِ الشَّمسُ فُلاناً إذا غَيَّرَتْ لَوْنَ جِلْدِهِ وَسَوَّدَتْهُ، أي: فهي لا تفنيهم.

ومنه أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾﴾.

فَهُمْ دَاخِلَها في مَوْقِعٍ يَمَسُّهُمْ لَهَبُ النَّارِ فَيَذُوقُونَ عَذابَ الحريق، ولَكِنَّهَا لاَ تأكُلُهم، إنَّما تُنْضِجُ جلودَهُمْ فَيُبَدِّلُهُم اللّهُ جُلوداً ذاتَ إحساسٍ ليذوقوا العذاب.

ويحتمل أن يكون المراد بعبارة: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾: لا تَبْقِي فيها أحداً يحْيَا حياةً سالمة منَ العذاب بالْحَرِيق، ولا تَذَرُ فيها أحداً يتخلّصُ بالموْت من هذا العذاب، وهذا المعنى يؤيِّدهُ ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) في وصْفِ عذاب الأشقَىٰ، وهو الكافر المكذِّب بما جاء به الرسُول الأمين عن ربّه:

﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾:

أي: لا يموتُ فَيَسْتَرِيحُ بالموْتِ من العذابِ، ولا يحْيَا حياةً فيها راحَةٌ من عذابِ الْحَرِيقِ بالنّار.

- ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: يُشْرِفُ عَلَىٰ تَعْذِيب المعذَّبِينَ في سَقَرَ تِسْعَة عَشَرَ منَ الملائِكَةِ، أَمّا كَوْنُهُمْ من الملائكة فقد دلَّتْ نُصُوصٌ كثيرة جدّاً في القرآن والسُّنَّةِ على أنَّ المكَلفين بتَعْذِيبِ أَهْل النّارِ يوْمَ الدّين هُمْ من الملائكة الّذين لا يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

والآيَةُ الأخيرَةُ من هذا الدرس الثالث من دروس السورة تُبيِّن أَنَّهُمْ من الملائكة كما سيأتي إن شاء الله.

ولكن ما المراد بعبارة: «تِسْعَةَ عَشَرَ».

هل هم «تسعة عَشَرَ» مَلَكاً فرداً؟ أو هم «تسعة عشر» صِنْفاً؟ أو هُمْ «تِسْعَةَ عَشَرَ» صَفًّا؟

اللَّهُ أَعْلَمُ بمراده، إذْ لَمْ يَرِد بيانٌ صريح عن الرسول ﷺ في هذا الأمر، وإنْ كان الظّاهِرُ ممَّا ورَدَ من تعليقات المشركين على هذا العدد أنّهم تسعَةَ عشَرَ ملكاً فرداً.

أمَّا الْمُؤْمِنُونَ بما جاء عن الله على لسان رسول الله ﷺ، فلا يَجِدونَ أيَّ إشكالٍ حول أيّ بيان عن الله عزّ وجلّ في بيان أعداد المكلّفِين من الملائكةِ للقيام بأعمالٍ يأمُرُهم الله بها، فلَوْ كانَ المكلَّفُ ملكاً واحداً لكان كافياً في تصوُّرِهم الإيمانيّ للقيام بكلّ ما يأْمُرُهُ اللَّهُ به من أعمالٍ جَليلة، لأنّ الله عزّ وجلّ يعطيه حينئذٍ القدرة علىٰ ما يُكلِّفُه القيامَ به من عَمَل، وما الملائكة في مقادير الله عزّ وجلّ إلاَّ مخلوقات مدركة حيّة مطيعة لله، وهي تَدْخُل ضمن الأنظمة السببية التي جعلها الله في كونه، والتي قضت بها حكمته، وَسَتَرَ بها أعمالَهُ التكوينيَّة الَّتِي يجريها ضِمْنَ قانونه الذي دَلَّ عليه قوله تعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

لَكِنْ ثَبَتَ أنّ الملائكة كثيرونَ جدًّا، وأنّهم أصنافٌ وأنواعٌ، وأنّ لبَعْضِهم وظائفَ يَقُومون بها في أعمال الخلْقِ، أو المراقبة والتسجيل، أو التعذيب، أو التنعيم والتكريم، أو الحفظ والحماية، أو غير ذلِكَ من أُمُورٍ لا تُحصَىٰ، بذلك قضَتْ حكمةُ اللَّهِ في الْخَلْقِ، فنَحْن نُؤمِنُ بما يأتينا حولَهم من بيانٍ عن اللَّهِ أَوْ عَنْ رسُولِهِ مُسلّمينَ، ولا نَجِدُ في أيّ شيءٍ من ذَلِكَ أيّ إشكالٍ فِكْرِيّ، فالأَمْرُ من أُمورِ الغيب، وهو يقَعُ ضِمْن الجائزات العقليّة، وقد وَرَدَ عن الصادقِ الأمين المؤيَّد بالمعجزاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، فالواجِبُ

التَّسْلِيمُ به، وكُلُّ بيانٍ لم نَكُنْ على عِلْمٍ بِهِ يزيدُنا معارفَ إيمانيَّةً عَنْ أُمُورٍ غيبيَّة.

لكِنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قَدْ أثار هُزْءَ سُفَهاءِ الكافرين وسُخْرِيَتَهُمْ، إذْ تَصَوَّرُوا أَنَّ هؤلاء المكلَّفِينَ لِتَعْذِيبِ الكافرين في سَقَرَ، هُمْ من الْبَشَر أو من أشباه البشر، فكَانَ من تعليقاتهم ما يلي:

(١) روى الطبريُّ عن ابنِ عبّاسٍ وقتادة أنَّ أبا جهل قال لقريش: ثكلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكَمْ أَسْمَعُ ابْنَ أبي كبْشَةَ يُخْبِرُكُمْ أَنَّ خَزَنَةَ النَّارِ تسعةَ عشَرَ، وأَنْتُمُ الدَّهْمُ(١)، أفيعْجِزُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِرَجُلٍ مِنْ خَزَنَةِ جهَنَّمَ؟!

فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً . . .﴾ الآية.

(٢) وَجَاءَ في تفسير الْقُرطبيّ عن السُّدّي، أنَّ أَبَا الأَشَدِّ بن كَلَدَةَ الْجُمَحيّ قَالَ مُسْتَهْزِئاً: «لاَ يَهُولَنَّكُمُ التِّسْعَةَ عَشَرَ، أَنَا أَدْفَعُ بمَنْكِبي الأيْمَنِ عَشَرَةً، وبِمَنْكِبي الأَيْسَرِ تِسْعَةً، ثُمَّ تَمُرُّونَ إلى الجنَّةِ».

(٣) وقيل: قالَ الحارثُ بْنُ كَلَدَةَ: «أنا أكفيكُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ، واكْفُوني أَنْتُم اثنين».

يريد التهكُّم وإظهارَ قوَّته بين قومه.

إنَّ أمثال هذه الأقوال لا تَصْدُرُ إلاَّ عن جاهلٍ ذي حماقة، أو كافِرٍ مستهزئ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) **الدَّهْم**: أي: العدد الكثير.

لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

سبق بيان سبب نزول هذه الآية، وقد جاء في هذه الآية دفعٌ لأوهام المستهزئين بكون عدد خزنة «سَقَرَ» تِسْعَةَ عشر، وبيانٌ للحكمةِ من ذكْرِ عدَدِهِمْ في التنزيل، ولِلْغاية من وراء تحقيق الحكمة.

● أمّا دفع أوهام المستهزئين فقد جاء في قول الله تعالى فيها:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾.

أي: ليس خزنة «سَقَرَ» بشراً ولا أشباه البشر، حتّىٰ تَسْتَهْزِئوا بكون عددهم تسعةَ عشر، بل هم ملائكة، والمشركون يَعْلَمُون ممّا لديْهم من ميراث النبوّات الأولى أنَّ من الملائكة مَنْ ينسِفُ الجبال، ويُزَلْزِلُ الأرض، ويكفي لتعذيب الأُلوف المؤلّفة من البشر.

أصحاب النار: المراد من أصحاب النار هنا الملائكة المشرفون على تعذيب المعذبين فيها، والملازمون لمواقعهم فيها.

الصاحب: الرفيق الملازم للشيء، ويأتي بمَعْنَىٰ القائم على أَمْرِهِ، أو الموجود فيه، أو الموجود معه، وهذه المعاني مأخوذة من معنَىٰ الملازمة.

● وأمَّا بَيَانُ الحكمةِ من ذكْرِ عَدَدِهِمْ فِي التنزيل، فهو يشتمل على ذِكْرِ أصْنَافِ الْمُتَلَقِّينَ للتنزيل القرآني، وأَثَرِ بيانِ عَدَدِهم لدَىٰ كُلِّ صنف مِنْهُمْ، والأصناف هم:

الصنف الأوّل: الذين كفَرُوا بمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحمَّدٍ وغيرِه من الرُّسُل.

الصنف الثاني: الذين أُوتُوا الكتاب من قَبْلُ.

الصنف الثالث: الّذين آمَنُوا بالله ورسوله وبما أُنزل عليه.

الصنف الرابع: الَّذين في قُلوبهم مرَضٌ لم يَبْلُغْ مَبْلَغَ الكُفر.

فبيان كَوْنِ عَدَدِ المشرِفين على تَعْذيب المعذّبين في «سَقَرَ» تسْعَةَ عَشَرَ له عدّة حِكم ربّانيّة:

(١) إنّ هذا البيان هو بالنسبة إلى الكافرين فتنة لهم، أي: امتحانٌ لعُقولهم وإراداتهم، فالكافر المعاند حين يَسْمَعُ أنَّ خَزَنَةَ دارِ العذاب يوم الدين تسعةَ عَشَرَ. . . يَزِيدُ في غَيِّهِ وكُفْرِهِ، ولو أَنَّهُ اسْتَخدم ما مَنَحَهُ الله عزّ وجلّ من عَقْلٍ وتفكير لَعَلِمَ أنّ هذا تنزيلٌ من عند الله، الّذي بيده ملكوتُ السماواتِ والأرض، وأنّه ليس من كلامِ محمّد ﷺ، ولو أنّه كان من كلامه لما اقتصر على أنْ يخوّفَهُمْ بملائكة عذاب عددهم تسْعَةَ عشر، فهو امتحانٌ يجعلُهم أكثَرَ ميْلاً إلىٰ الإصرار على الكُفر، مع أنّه في حقيقته يوقظ فيهم إدْراكَ أنَّ هَذا البيان تنزيلٌ من عند الله، وقد كان الكُفَّارُ بيَوْمِ الدّين من المشركين يُؤْمِنُونَ بالرّبّ الخالق، فالرَّأْيُ الحصيف يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن وبأنباء الغيب الّتي جاء بها، فَهُمْ بهذا البيان يُفْتَنُونَ، أي: يُمْتَحَنُونَ، لكِنَّهُمْ بحماقتهم وسفاهتهم يسْقُطُونَ في الفتنة، فيكْتَوُونَ بنار العذاب.

وقد دلَّ على هذه الحكمة قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿. . وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا . . .﴾:

أي: وما جعلْنَا ذِكْر عِدَّتِهِمْ إلاَّ مَادَّة امتحانٍ بالنسبة إلى الذين كَفَروا بما أنْزِلَ على محمّد والرُّسُل من قبله. لفظ: «فتنةً» مفعول به ثان لفعل: «جَعَلْنَا»، والقصر هنا قَصْرٌ إضافي، أي: بالنسبة إلى الذين كفروا.

وينتج عن هذا الامتحان لدَىٰ هؤلاء الكافرين ظاهرتان:

الظَّاهِرَةُ الأُولى: أَنْ يُعْلِنُوا اسْتهزاءَهم وكُفْرَهُمْ، كالذي كان من أبي جهل، وأبي الأشدّ بن كَلَدَة، والحارثِ بْنِ كَلَدة، على ما وَرَدَ في سبب النزول.

الظَّاهِرَة الثانية: أَنْ يَقُولُوا على سبيلِ الاستهزاء والسّخْرِيَةِ والإنكار: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مثَلاً؟! أي: لا يُعْقَلُ أَنْ يكون ذكر عددهم هذا من كلام اللَّهِ، بل هو من كلام محمد، إذْ لا فائدةَ تُدْرَكُ مِنْ ذِكْرِ هٰذا الْعَدَدِ بالذَّاتِ.

وقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هذه الظّاهرة، قولُ الله عزَّ وجلَّ في الآيَة:

﴿. . . وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . . .﴾.

أي: ماذا أراد اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِذِكْرِ هذا الوصْفِ، وهو كونُ عدد خزنة «سَقَر» تِسْعَةَ عشر.

كلمة «مَثَلاً» جاءت هنا بمعنى «وصف» وهو أحد معاني هذه الكلمة.

يقولون هذا على سبيل الاستهزاء لإنكار أن يكون القرآن منزَّلاً من عند الله، لأن الله عزّ وجلّ لا يُنَزِّل كلاماً لا فائدةَ مِنْه مثْلَ هذا الكلام، أي: فَمُحمَّد هو الذي جاء به من عنده.

(٢) وهذا البيان هو بالنّسبةِ إلى الّذين أوتوا الكتابَ مِنْ قَبْلُ وكانُوا علَىٰ عِلْمٍ بما جاء في كتُبِهِمْ أو على ألسِنةِ رسُلهم من أنّ خَزَنَة «سَقَرَ» تِسْعَةَ عَشَرَ. . . يُعْطِيهِم يَقِيناً بصِدْقِ مُحَمَّدٍ فيما يُبلِّغُ عن رَبِّهِ، وأنّه رسول الله حقّاً، بِسَبَبِ أنَّ هٰذِه المعلُومَةَ هي من كُنُوز المعلوماتِ لديهم عن عالم الآخرة، لاَ يعلَمُ بها إلاَّ خواصُّ عُلَمائِهِمْ، وهذا اليقينُ العلميُّ يَدْفَعُ طالِبي الحقّ من عُلَمائِهم إلى الإيمان بمحمّدٍ واتّباعِه، أمّا غير طالبي الحقّ فإنَّهُمْ يَجْحَدُونَ، مَعَ أنَّ نُفوسَهُمْ قَدْ اسْتَقَرَّ لَدَيْها اليقين.

دلَّ على هذه الحكمة قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِي الآية:

﴿. . . لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ . . .﴾.

أي: وجعلْنَا هذا البيانَ بالنسبة إلى عُلماءِ أهل الكتاب دليلاً يستيقنون

به أَنّ محمّداً رسولُ الله، يُبَلِّغ عن ربِّه حقائقَ غيبيَّةً لا يَعْلَمُها إلاَّ نبيٌّ يُوحَىٰ إليه.

ولا يقتضي هذا الاستيقانُ إيمانَ من استَيْقَن، فكثيرٌ من الناس يجحدون، مع أنّهم في أنفسهم مستيقنون.

(٣) وهذا البيانُ هو بالنسبة إلى الذين آمنوا بمحمَّدٍ ﷺ وبمَا يُنَزِّلُ اللَّهُ عليه من القرآن وغيره يزيدُهُمْ إيماناً.

دلَّ على هٰذه الحكمة قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿. . . وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا . . .﴾.

أي: وجعَلْنا هَذَا البيانَ بالنِّسْبَةِ إلى الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبما يُبَلِّغُهُ عن ربِّه ليزدادوا إيماناً.

وبالتَّدَبُّر نلاحِظُ أَنَّ زيادَةَ إيمانهم ذاتُ ثلاثة وجوه:

الوجه الأوّل: أَنْ تَزْدَادَ لَدَيْهِمُ العناصر الغيبيَّةُ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بها، إذْ جاء في هذا البيانُ مَعْلُومَةٌ جَدِيدَةٌ لم يكُونُوا على عِلْمٍ بها.

الوجه الثاني: أنْ يزداد إيمانُهُمْ بِصدْقِ الْقُرْآنِ وصِدْقِ الرَّسُولِ، بسبب التطابُقِ بيْنَ ما جاء في القرآن، وما هو مِنْ كُنُوزِ الْعِلْمِ عن الآخِرَةِ لَدىٰ عُلَماءِ أَهْلِ الكتاب.

الوجه الثالث: أنَّ عِلْمَهُمْ بملائكة العذاب المشرفين على تَعْذِيب الكُفَّار في النار يوم الدّين، وعلْمَهُمْ بعددهم، يهُزُّ في قُلُوبهم الوجَلَ، فيزيدُ إيمانهم بعدلِ اللَّهِ وعقابه، ويزيدُهُمْ خوفاً وحذراً من الكُفْرِ، ويزيدُ الْتزامَهُمْ بطاعة اللَّهِ عزّ وجلّ وحِرْصَهُمْ على العمل بمراضيه، إذْ تَدُورُ الحركةُ الفاعلة والْمُنْفَعِلَةُ بين الإيمان والْعَمَل، وبِهَذِهِ الحركة يزداد الإيمانُ رُسُوخاً وعُمْقاً وثباتاً، نتيجة تأثير وضوح الرُّؤْيةِ الإيمانيَّة، في التوجيه لصالح العمل، وتأثير

الأعمال الصالحات في ترسيخ الإيمان وتثبيته وتعميقه، نظير التأثير والتأثُّرِ بين جُذُور الشجرة وفروعها.

(٤) وهذا البيان هو بالنسبة إلى الّذين في قُلُوبهم مرضٌ من أمراض الشّكّ لم يَبْلُغ مَبْلَغَ الكُفر... يَجْعَلُهم يتساءلُون مستفهمين أو باحثين متشككينَ، إذ هُمْ في منْزِلَةٍ وُسْطَىٰ بين الإيمان والكُفر، فيقولون: ماذا أراد اللَّهُ ببيان كون عدد خَزَنَةِ النار تِسْعَةَ عشر؟! على سبيل الاستفهام والبحثِ عن الحكمةِ والتعجُّب وطلب معرفة الحق لا على سبيل الاستهزاء والإنكار.

دلَّ على هذا قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في الآية:

﴿.. وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ...﴾.

إنّ عبارَة: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟! تَصْدُرُ مِنَ الكافِرين على معنَىٰ الاستهزاءِ والسخرِيَة وَإنكار أَنْ يَكُونَ القرآن مُنَزَّلاً من عِنْدِ الله، واتّهامِ الرَّسُولِ بأنَّهُ يتقَوَّلُهُ من عنده، وقد سبق الاستشهاد بها لدىٰ بيان موقف الذين كفروا.

وتَصْدُرُ أيْضاً من الشَّاكِينَ الذين في قُلوبهم مرضُ الشَّكِّ، فلَمْ يبلُغُوا مبْلَغَ الإيمانِ المستَقِرّ، ولا مبْلَغ الكُفْرِ الثابت، على سبيل الاستفهام والبحث عن الحكمة والتعجب وطلَب معرفة الحقّ، وقد جاء الاستشهاد بها هنا لبيان موقف الذين في قلوبهم مرض.

وهؤلاء إمّا أنْ تميل بهم كفّةُ الإيمانِ فَيُذْرِكُوا أنّهُ الحقُّ من ربّهم، وإمّا أنْ يَتأثَّرُوا بوساوس الشيطان ونزغات وشبهات الكافرين، فتميلَ بهم الكفّةُ الأُخْرَىٰ إلَىٰ الكُفر، بدافع من أهواء نفوسهم وتعلُّقِهم بالحياة الدنيا وزينتها، وإيثارهم العاجلة على الآجلة.

فَهُمْ يُشَارِكُون الكافرين في كون هذا البيان فتنةً لهم واختباراً لإِرَادَاتهم.

(٥) ويستفيد أيضاً المؤمِنُونَ وَعُلَمَاءُ أَهْلِ الكِتَاب من هذا البيان الّذِي تحقَّقُوا بِهِ أنّ القرآن مُنزَّلٌ من عند اللّه، أن يَأْخُذُوا كُلَّ مَا سَيأْتي به الرسول محمد ﷺ عن ربّه مستقبلاً هو حقٌّ لاَ رَيْبَ فِيه، فمتَى ثبتَتِ النُّبُوَّةُ والرِّسَالَةُ لِعَبْدٍ من عبادِ اللّهِ فلا سبيلَ للتَّشكُّكِ والارْتِيابِ بها بَعْدَ ذلك، لأنَّ اللّهَ عَزَّ وَجلَّ لاَ يَسْلُبُ المصطَفَيْنَ من عباده للنبوّة والرّسَالَةِ مَا سَبَقَ أن اصطفاهُمْ له، واخْتَصَّهُمْ لحَمْل رسَالاته، فالرَّبُّ حكيم، وحكمته تأبَىٰ سلْبَ الاصطفاء للتبليغ عنه، إنه لم يصطفهم لذلك إلاَّ وهو عالمٌ بهم وعاصمهم.

دلَّ على هذه الحكمة قولُ اللّه عزَّ وجلَّ في الآية:

﴿. . وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ . . .﴾.

أي: وحتَّىٰ لا يرْتَاب مستقبلاً علماءُ الّذين أُوتُوا الكتاب من قَبْلُ والمؤمِنُونَ بمحمَّد ﷺ وبما جاء به عَنْ رَبّه في أيِّ بلاغٍ يُبَلِّغُهُ عن رَبِّه، بل سَيأْخذونَهُ بالتَّسْلِيم الْمُطْلَق الذي لا يُصاحِبُهُ ارْتيابٌ ولا شكٌّ، ويتقصرُ بَحْثُهُم على فَهْمِ الْمُرادِ مِنَ البيانِ الْمُنَزَّلِ على الرسُول.

* * *

وبعد بيان هٰذِهِ الحِكَم الرَّبَّانِيَّةِ الْخَمْسِ الّتِي اشْتَمَلَتْ عليها الآيَةُ، لا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ المتدبّرُ أَنَّ أحكَامَ اللّهِ القضائيّةَ سَتُلاَحِقُ كُلَّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ عَدْلٍ أَوْ فَضل.

أمَّا مَنْ ضَلَّ باختياره الْحُرّ فَسَيَحْكُمُ اللّهُ عليه بالضلالة، ثم يجازِيهِ بحَسَبِ ضلاله.

وأمَّا من اهتدَىٰ باخْتِيارِهِ الحرّ فآمَنَ وَسَمِعَ وأطاع وأسْلَم، فَسَيَحْكُمُ اللّهُ له بالهداية، ثم يُثِيبُهُ ثواباً عظيماً، بمقتضىٰ واسِعِ منَّتِهِ على عباده.

دلَّ على هذه الحقيقة من حقائق صفاتِ اللَّهِ في معاملة الممتَحَنِين من عباده بالعدل أو بالفضل، قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿. . . كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ . . .﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ المشارُ إليه باسم الإشارة [ذَلِكَ] مخاطباً به كُلُّ صالحٍ للخطاب على سبيل التناوب، مواقف أصناف الناس تجاه قضايا دين الله الحق.

والكاف من ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَدُلُّ على أنّ أحكام اللَّهِ عزّ وجلّ القضائيَّة مماثِلَةٌ لأفعَالِ العباد الاختياريَّةِ في الضلالَةِ وفي الهداية، فالإضلال تقتضيه حكْمَةُ العذل، والهداية تقتضيها حِكْمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ معاً، ومَشيئَةُ اللَّه المطلقة لا تفارقُ حكمته.

فالمعنى: مثلَ مَواقف أصناف المكلفين تأتي أحكامُ الله القضائيَّة، بمشيئته المطلقة الّتي لا تفارقُ حكمته عَدْلاً أو فَضْلاً، فَهُوَ بهذه المشيئة الحكيمة يَحْكُمُ بضلال مَنْ اجتاز رحلة امتحانه ضالاً باختياره، ويَحْكُمُ بهدايةِ من اجتاز رِحْلَةَ امتحانِهِ مهتدياً باختياره.

ومعلومٌ أَنَّ الحكْمَ القضائي يتْبَعُه الجزاءُ بالعدْلِ أو بالْفَضْل.

* * *

وبَعْدَ كلّ البيانات التوضيحيَّة السابقة بقي حول مَوْضوع الآية سؤالان، يحتاجُ كُلُّ واحدٍ مِنهما إلى إجابَةٍ حكيمةٍ من بيانٍ رَبَّانيّ:

السُّؤال الأوّل: إذا كان الملائكة المشرفُون بالتكليف الربّاني على تَعْذِيب المعذّبين في سَقَرَ تِسْعَةَ عشَرَ فرداً، أو صنْفاً، أو صَفًّا، أفلَيْسَ لله عزّ وجلّ جنُودٌ غَيْرُهم؟.

وجَاء الجواب على هذا السؤال بقول اللّه عزَّ وجلّ:

﴿...وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...﴾.

أي: وإنَّ جُنودَ رَبِّكَ أيّها الصالحُ للخطاب أيَّ مُخاطَبٍ كنْتَ كثيرون جدًّا، ما يَعْلَمُهُم في أشخاصهم ولاَ في أعدادهم إلاَّ رَبُّكَ وحْدَه جلَّ جلاله، الذي هو رَبُّ كلّ شيء، فلا يعلَمُهُمْ جميعاً مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نبيٌّ مرسل.

فلا تَحْسَبُوا أيّها المستهزئون بعِدَّةِ خَزَنَةِ «سَقَرَ» أنَّ جُنودَ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ مُنْحَصِرُونَ في التّسْعَةَ عشر المأمُورين بالإشرافِ على التعذيب فيها، فجُنُودُ اللَّهِ لا يَعْلَمُهم إحصاءً إلاَّ الرَّبُّ جلّ جلاله.

ويُدْرِكُ المتدَبِّر أنَّ كُلَّ أنواعِ الرّجْزِ الَّتِي عذّب اللَّهُ بها بعْضَ عباده في الحياة الدنيا، كالجراد، والْقُمّل، والطاعون، والفيروسات المضنيات والقاتلات، هي من جُنُودِ اللّهِ.

والعاقل يقيسُ أحوال الآخِرَةِ على أحوالِ الدُّنيا، في الحدود الدُّنيا، ثُمَّ يُطْلِقُ للتَّصوُّرِ أَنْ يَزيد في أحوالِ الآخرة دون حدود تقف عندها الزيادات التصوُّريَّةِ أو التخيُّليّة.

السؤال الثاني: إنَّ ذِكْرَ «سَقَرَ» الَّتي خَوَّف اللَّهُ عباده الكافرين من عذابها، وما اقترنَ بذِكْرِها مِن عِدَّة الملائكةِ المشرفين على التعذيب فيها، ومن كوْنِهَا لوَّاحَةً لِجُلُودِ المعذّبين بِلَهَبِها، بيانٌ خَبَرِيٌّ غَيْرُ مَشْهُودِ الذَّاتِ، وغَيْرُ مُدْرَكٍ بالحواسّ الظاهرة، فهِيَ أَمْرٌ من أمُورِ المستقبلِ غير المشهود، وهي بيانٌ نظريٌّ غَيْرُ مُقْتَرِنٍ بالتطبيق المشاهد، فمَا قيمةُ التَّخْوِيفِ بشيءٍ مَهُولٍ غير مَنْظُورٍ؟؟!

وجاء الجوابُ القرآنيُّ على هَذا السُّؤالِ بقول اللّهِ عزَّ وجلّ:

- ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

أي: وليست البيانَاتُ القرآنيَّةُ عن «سَقَرَ» وما فيها من عذابٍ شديدٍ للكافرين، بياناتٍ لمخلُوقاتٍ لا تفكيرَ لديها، وَلاَ عَقْلَ يَعْقِلُ تَصَرُّفاتها، كالأنعام والبغال والحمير وغيرها من البهائم والدّوابّ الّتي تنحَصِرُ مُدركاتُها غالباً بالْحِسيّات.

بَلْ هذه البيانات عنها تَذْكِيرٌ للبَشَرِ، الّذِين يُدْرِكُونَ بأجْهِزَةِ التفكير لدَيْهم كثيراً من الغيبيَّاتِ الموجودة في هذا الكَوْنِ العظيم الواسع جدًّا، بأدلَّةٍ فكريَّةٍ عقليَّة، ويُدْرِكُونَ الغيْبِيَّات المستقبليَّة الَّتي تأْتيهم بها الأخبارُ الصادقَةُ عن الرَّبِّ الّذِي آمَنُوا بِهِ رَبًّا خالقاً، وَتَدُلُّهُمُ الأدلَّةُ الفكريَّةُ العقليَّةُ على وجوب الإيمان بِرُسُلِهِ المؤيَّدين منه بالمعجزاتِ الباهرات، ووجوب الإيمانِ بما يُبَلّغُونه عن رَبِّهم جلَّ جلالُه.

فهٰذِهِ البيانات بياناتٌ للبشر، لا للحمير والبقر وأمثالهما، فَمَنْ عَلِمَ أنّه بشَرٌ خلَقَهُ اللَّهُ في أَحْسَنِ تقويم، فإنَّ عليه أنْ يَجْعَل هذه البيانات الرَّبَّانيّةَ مُذَكِّرَةً لَهُ دَواماً.

كلمة ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ تأتي دالَّةً على ثلاثة معاني:

(١) إنّها تأتي بمعنى «التذكير» إذ هيَ اسْمٌ له، ومعلومٌ، أنَّ البيان في القرآن عن «سَقَرَ» فيه معنَىٰ التذكير آخِراً، بَعْدَ الإخبارِ أوّلاً، أي: يأتي الإخبار بمضمونِ البيان أوّلاً، والمطلوبُ من المتلقّي أنْ يكون مُتَذَكِّراً له دَوَاماً، ليأخذ حِذْرَهُ، ويبتَعِدَ عن مُسَبّبات دُخول «سَقَرَ» في كلّ أحواله وتصرُّفاتِه الإراديَّة.

(٢) وَتأتي «الذكرى» بمعنىٰ «التّذكُّر» ومعلُومٌ أنَّ العاقل الرشيد الذي يُدْرِك بأدواتِ المعرفةِ لدَيْه ما هو مخيف مُرْعِبٌ، يترَصَّدُ السالِكَ في أَحَدِ سُبُلِ الضلالة، فإنَّهُ يجعلُه دائماً في ذاكِرَتِه، فيَحْذَرُ سُلُوكَ سبُلِ الضلالة.

(٣) وتأتي «الذكْرَىٰ» اسماً للتَّذْكِرَة، وهي الوسيلة الَّتي تُتَّخَذُ للتذكيرِ، كالبطاقة الَّتِي تُذَكِّرُ بموعدٍ أو شيءٍ ما، وَكالرَّتيمة التي توضع في الإصبع للتذكير.

وكلّ هذه المعاني الثلاثَة تَصْلُح هنا، وتذكُرُ المخاوف والتذكيرُ بها من الوسائلِ الرادعة الزاجرة الحاجزة عما يوقع بشرورها.

* * *

- قول الله عزّ وجل:

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

اشتملت هذه الآياتُ على زَجْرٍ لمنكري «سَقَر» وللشاكّين فيها، وأُتْبع هذا الزَّجْر بتوكيد صحَّةِ الخبر الوارد بشأن سَقَر، وقد جاء هذا التوكيد بصيغَة قَسَم مُوَجَّهٍ من الرَّبّ الخالق، واختير للمُقْسَم به بَعْضُ ظواهر الكون المشهود بالحواسّ، الّتي هي من آثار خَلْقِ اللّه عزّ وجلّ، أمّا الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ فَهُو كوْنُ «سَقَرَ» لَإِحْدَىٰ الكائِنَاتِ العظيماتِ الْكُبَرِ الّتي ستكُونُ مَشْهُودَةً للنّاسِ بحواسِّهِمْ يوْمَ الدّين، مثل الظواهر الكونيّةِ المشهودة الآن في الحياة الدنيا، فكلُّ ذَلِكَ من خَلْقِ الله، وآثارٌ من آثار قدرته وعِلْمِهِ وحكمته، والقسم بالمشهودِ منها من قِبَلِ الْخَالِقِ دليلٌ على صحَّةِ خَبَرِ الغيبيّ غَيْرِ الْمَشْهُودِ لهم الآن، لكِنَّهُ سيكون مشهوداً لَهُمْ يومَ الدين.

وتحليل هذا الْقَسَم وأمثاله يكونُ على الوجه التالي:

أُقْسِمُ بصفاتي الّتِي تَرَوْنَ من آثارها في الكَوْنِ ظَواهِر الْقَمَرِ واللَّيْلِ والصُّبْحِ على أنَّ «سَقَرَ» إحدَىٰ الْكَائِنَاتِ الكُبَرِ في دار العذاب المعدَّة للكافِرِينَ المجرمين يوم الدّين. إنَّكُمْ إذا تدَبَّرْتُمْ قَسَمِي أَدْرَكْتُمْ أَنّي كَمَا خَلَقْتُ الظَّواهِرَ العظيمة الّتي تشهدونها، فقد أعْدَدْتُ في خطَّةِ التكوين داراً عظيمةً لعذاب المعذَّبين يوم الدّين، وفيها دركةُ «سَقَرَ» وأدْرَكْتُمْ أَنّي على ما أشاء قدير، وإنّهُ ليس من صفاتي أن أُخْلِفَ وَعِيدِي ولاَ وَعْدِي.

إنّ «سَقَرَ» الّتي أعْدَدْتُها ليوم الدّين، وأخبرتكم الآن بِها، وَأُحذِّرُكُمْ

مِنها، وأقول لكم بشأنِها: إنّها لَإِحدَىٰ الكائناتِ الكُبَرِ هي نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ، أي: إنّ الإعلام بها يتضمّن إنذاراً للبَشَر جميعاً، وكُلٌّ مِنهُمْ يختارُ بمشيئته الحرَّةِ ما يَشَاءُ من إيمان أو كُفر، وعليه أن يتحمَّلَ نتيجة اختياره، فَمَنْ شاء الكُفْرَ والجحود تَقَدَّم إلى «سَقَرَ» غَيْرَ مُكترِثٍ للإنْذار، ومن شاء الإيمانَ والإسْلاَمَ خَوْفاً من الإنْذار تأخَّرَ إلى مواقع النجاة فَسَلِم.

﴿كَلَّا﴾ أداةُ زَجْرٍ ورَدْع، وهُما موجَّهان لمنكِري «سَقَرَ» وللشَّاكِين في وُجودها، وللمستهزئين بأنَّ خَزَنَتَهَا تسْعَةَ عشر.

﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ الواو واو القسم، **الْقَمر**: ظاهرة كونيّة مشهودة هي من آثار خلْق الله، وآثار هذا الخلق تظهر في ذات القمر وفي صفاته، وفي إتقان نظام حركته، وفي منافِعِهِ للنَّاسِ في الأَرْضِ، وفي جَعْلِهِ مسخَّراً لتحقيق منافع كثيرة لهم، ومعلوم أنَّ منافع القمر ظاهرة مشهودة، أَمّا ما فيه من إتقانٍ وإحكامٍ في حجمه، ووضعه في مداره ومنازله فَلِعُلَمَاءِ الْفَلَك في شأنها بُحُوثٌ مستفيضة تَدُلُّ على عظمة الخالق الذي أتقن كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

- ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣﴾ أي: وأُقْسِمُ باللَّيْلِ إِذْ يكُونُ مُدْبِراً، تَظْهَرُ مَعَ إدْبارِهِ بدايَاتُ نُور الْفَجْر، وإدبار اللّيل وظهور الفجر إحدىٰ آياتَ الله في كونه.

﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ قراءة نافع، وحَفْصٍ عن عاصم، وحَمْزَة، ويعقوبُ وخَلَف، وقرأ باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِذَا دبَرَ].

أَدْبَرَ، ودَبَرَ: بمَعْنَىٰ: ذَهَب، فالقراءتانِ لُغَتَانِ متكافئتان.

إِذْ، وإذا: كلاهُمَا ظَرْفُ زَمانٍ متعلّقٌ بمحذوف حالٍ، فَهُما متكافئتان أيضاً.

- ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ أي: وأُقْسِمُ بالصُّبْحِ إذا وضَح وانكشَفَ نُورُه.

أسْفَر: أي: وضَحَ وانكشفَ، وهٰذه الظاهرة إحدى آيات الله في كونه أيضاً.

اختار اللّهُ هنا الْقَسَم بالْقَمَرِ الّذي يُمِدُّ الأَرْض بالنُّور، وباللَّيْلِ في وَقْت إدْبَاره وظُهُورِ نُورِ الْفَجْر، وبالصُّبْحِ في وقْتِ إسْفارِه وانْكشافِ نُورِهِ، إيثاراً للقَسَمِ بالنّور الّذِي يُشَابِهُ العِلْمَ والْهُدىٰ، وابْتَعَدَ عن الْقَسَم بالظُّلْمَةِ الّتي تُشَابه الْجَهْلَ والضَّلاَلَة، ومعلومٌ أنَّ رِسالَةَ اللّهِ في القرآن تتضمَّنُ الدَّعْوَة إلى العلم والهدى، والخروج من الْجَهْلِ والكُفْرِ، فتمّ التناسُبُ والتلاؤم.

يُضَافُ إلى ذلِكَ أَنَّ الظُّلُماتِ تتحقّقُ تِلْقَائِيّاً عنْدَ انْعِدَامِ النُّورِ وانسِلاَخِهِ، أَمَّا النُّورُ فَيُوجَدُ بمصادِرِ نُورٍ أَوْ ضِيَاءٍ يَخْلُقُهَا اللّه جلَّ جلاله، فهي الدالَّةُ على كَمَالِ الْقُدْرة وإحْكام الخلْقِ وإتْقَانِ الصُّنْع.

- ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥﴾: تضمّن معنى هذه الآية الْمُقْسَمَ عليه، أي: إنَّ دَرَكَةَ «سَقَرَ» من دَرَكاتِ جهَنَّمَ، لَإِحْدَىٰ الْكَائِنَاتِ العظيماتِ الْكُبْرَيات.

الْكُبَرُ: جَمْعُ مُفْرَدُهُ «الْكُبْرَىٰ».

وقد جاء تأكيد هذه الجملة بأربَعةِ مؤكّدات: «الْقَسم ـ والجملة الاسميّة ـ وَحرف «إنَّ» المشبَّه بالفعل ـ واللاَّم المزحلَقة في لَإِحْدَىٰ».

- ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾:

لفظ: «**نذير**» يأتي اسماً للإنذار الذي هو مصْدَرُ أنذر، **والإنْذار**: هو الإعلام والإخبارُ بعواقب غير سارّة، وهذه العواقب قد تكون جزاءَ ارْتكابِ ذنبٍ أو معصيةٍ أو جُرْم أو سلوك طريقٍ ما، أو تخويفاً من ارتكاب شيءٍ من ذَلِك، أو تخويفاً من ظالم يَعْدُو بَشَرّ: لاتّخاذ الحذَر والوقاية، والمخوفُ منه قد يكون مادّياً أو معنويّاً.

ويأتي لفظ: «**نذيرٍ**» بمعنى «**مُنْذِر**».

والجمْعُ لكلٍّ من المعنيَيْنِ «نُذُر».

والنَّذَارَة: الإنْذَارُ بشَرٍ أَوْ سُوءٍ.

فمعنى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ أَنَّ سَقَرَ لَإِحْدَى الْكُبَرِ حَالَةَ كَوْنِ الْحَديث عنها في القرآن وما فيها مِنْ هَوْلٍ عظيم، وعذابٍ أليمٍ، إنْذَاراً لِلْبَشَرِ حَتَّىٰ لا يَذْهَبُوا مَذاهِبَ الكُفْرِ والتكذيب بما أنزل اللَّهُ على رسُوله، وهذا الإنذارُ مُوَجَّهٌ لكلّ البشر، إلاَّ أنَّ المُنْتَفِعَ به من استجاب لدعوة الرَّسُولِ وصَدَّقَ ببلاغاته عن ربّه، مختاراً بمشيئته الحرّةِ الإيمانَ والعمل الصالح.

- ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾:

كان الحديث عن البشر بأسلوب الحديث عن الغائب، فالتفت النصّ إلى أسلوب خطاب البشر بهذه الآية، خطاباً مباشراً، ليحمّل المكلفين مسؤولية اختياراتهم الحرَّة.

أي: إنّ الحديث عن «سَقَرَ» إنذاراً للبشر، موجّهٌ لذوي المشيئة الحرّة والاختيار منهم، وهم أهل التكليف:

فمن شاء أن يتقدّم منكم أيها البشر إلى مُقْتَضِيَاتِ العذاب بسَقَرَ، بأنْ يكْفُرَ ويُكَذِّبَ الرَّسُول ويُكذّبَ بما جاء به عن ربّه، غَيْرَ مكترِثٍ للإنذار ولا عَابِئٍ به تَقَدَّمَ غَيْرَ مُكْرَهٍ بِدَفْعٍ ولاَ مَنع، وعَلَيْهِ أنْ يتحمَّلَ نتائِجَ اختيارِه بمَشيئته الحرّة خُلوداً في العذاب الأليم في «سقر».

ومنْ شاء أنْ يتأخّر إلى مواقع النجاةِ والسَّلامَة بالإيمان والعمل الصالح، تأخَّرَ باختياره الحرّ غَيْرَ مُكْرَهٍ بدفعٍ ولا مَنعٍ، فَسَلِم وَنَجا وظَفِرَ.

هذا المعنى للتقدُّم والتأخُّرِ هُو المعنى الذي ذكَرَهُ السُّدّي، وهو الأكْثَرُ ملاءمة لكون سقر إنذاراً للبشر، فالحديث عنها، والتقدُّم يكون إليها،

والتأخُرُ يكُونُ حَذراً منها. ورأىٰ بعض أهل التأويل أنّ المراد بالتقدم التقدُّمُ للإيمان والإسلام، وأن التأخر هو التأخُرُ عنهما تأثُراً بإيحاء لفظ التقدم المشعر بالمدح، وبلفظ التأخر المشعر بالذمّ.

* * *

(٩)

التدبُّر التحليليّ للدّرس الرابع

الآيات من (٣٨ ـ ٤٨)

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾.

نظرة عامة حول هذا الدرس:

الحديث عن الإنذار الذي جاء في صدر السورة، ثم التهديدُ بِسَقَرَ إحدى طبقات دار العذاب يوم الدّين، مَعَ بيان عدد الملائكة المشرفين على تَعْذِيب المعذّبين في النّار عموماً، ثُمّ التأكيدُ بالْقَسَم على أَنَّ سَقَرَ لَإِحْدَىٰ الكائنات العظيمات المهولات الكُبْرَيات، يُثير لدى المتلقّين سؤالاً حوْلَ أحْوَالِ المكلَّفِينَ بالنّسبة إلى دار العذاب يوم الدين، وقد أجابَ هذا الدَّرْسُ الرّابعُ جواباً كُلّيًا فيه بعضُ تفصيل يتعلّقُ بالمجرمين، أمّا المؤمنون أصحابُ اليمين فقد جاء الحديث عَنْهُمْ مجملاً، وتُرِكَ تفصيل أحوالهم لما سينزل بَعْدَ المدَّثِرِ من نجومِ التنزيل في سُوَرِ القرآن.

فالكافرون المكذبون بيوم الدّين الذين يَجُرُّهم تكذيبهم لارتكاب

الجرائم الكبرى، فَسَيَكونُونَ مُرْتَهَنِينَ محبوسين حبساً أبديًّا في دار العذاب يوم الدّين.

وأمّا المؤمنون أَصْحَابُ اليمين فَهُمْ مُسْتَثْنَوْن من هذا الحبس الأبدي في دار العذاب.

وقد دَلَّت سائر النصوص على أَنَّهُمْ يكونون يوم الدّين بِحَسَب أحوالهم ارْتقاءً فوق الحَبْسِ الأَبدي، وهذا يشْمَلُ دَرَجَاتِ الحبْسِ المؤقَّت، ويشْمَلُ مَرْتَبَةَ النَّجاة من عذاب اللَّهِ مطْلقاً، ومَرَاتِبَ النَّعِيم المقيم في جنّاتِ النعيم على اختلاف دَرَجاتها حتَّىٰ أعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْفِرْدَوْسِ، حيْثُ منازلُ نَعِيمِ المصطَفَيْن الأخيارِ من المرسَلِين.

وقَدَّمَ هذا الدرس الرابع من دُرُوس السّورة صُورَةَ تساؤُلٍ سيَحْدُثُ بين أصحاب الجنَّةِ وهُمْ في الجنَّةِ يومَ الدِّين، عن معارفهم في الدنيا من المجرمين، فلا يَجِدُ بعضُهُمْ عند بعضٍ جواباً شافياً، فيُتِيحُ اللَّهُ لهم وسيلَةً يُشَاهِدُونَ بها المجرمين يُعَذَّبُونَ في سَقَرَ، ويتحدّثون بها معهم.

واقتطع النصّ من أحداث المستقبل حواراً سيَجْرِي بين بَعْضِ أصحاب الجنَّة ومعارفهم في الدُّنيا من نُزَلاَءِ سقَرَ، وعرضَهُ كأنَّهُ حَدَثٌ جرَىٰ في زمانٍ مضىٰ، وهَذَا مِن بدائع القرآن الفنيَّة، الّتِي يكون التعبير فيها عمَّا سيَحْدُث في المستقبل حتماً، بعبارات الْأَحْدَاثِ الماضية.

قال المتسائلُون من أصحاب الجنة، لمعارفهم في الدنيا من نُزَلاَء سَقَرَ:

ما هو العمل الإجرامي الّذِي أدْخَلَكُمْ في «سَقَر»؟!

قال المسؤولون: لَمْ نَكُ مِنَ المصلّين، ولم نَكُ نُطْعِمُ المسكين، وكُنَّا نخوضُ مع الخائضين في كُلِّ إثْم وجُرْم، وكُنَّا نُكَذِّبُ بيَوْمِ الدِّين، واسْتَمَرَّ حالُنَا كذلِكَ حتَّىٰ أتَانا يَقينُ الموت، وانقطعَتْ عنَّا أَسبابُ النجاة من العذاب الأبديّ.

التدبُّر التحليلي:

قولُ اللّه عزّ وجل متحدّثاً عن يوم الدين:

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: قضيَّةٌ كُلِّيَّةٌ يَدْخُلُ في أفْرَادِها النفوسُ المكلّفَة الكاسِبَةُ لأعمالها باختيارها الحرّ في الحياة الدُّنيا، وغيرها من النفوس.

﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾: قرينَةٌ دلَّتْ على قَيْدٍ يُخَصِّصُ عُمُومَ عبارة: «كلُّ نفس» بالنفوسِ المكلّفَةِ في الدُّنيا، الكاسبَةِ لأعمالها باختيارها الحرّ، والمسؤولَةِ عند الله عَمَّا كَسَبَتْ لمحاسبتها ومُجَازَاتها.

﴿رَهِينَةٌ﴾: بمَعْنَىٰ مَحْبُوسة، ورَهِين: بمعنىٰ مَحْبُوس، وهو ممّا شاع في الاستعمال، وأصْلُ الرَّهينَةِ الرَّهْنُ مصدراً بوزن «فَعِيلَة» كالشّتيمة والشَّتْمِ.

وجاء في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) قولُ الله عزّ وجَلّ:

﴿... كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

أي: محبوسٌ في دار العذاب بسبب ما كسب من جرائم تستوجب في عدل الله حبْسَهُ فيها حَبْساً أبدِيًّا.

﴿إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾: جاء في القرآن وصْفُ أصحاب اليمين، بأنَّهُمْ يُعْطَوْنَ صحُفَ أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم، وهم الذين ماتوا على إيمانٍ صحيح.

أمّا أصحابُ الشمال فإنّهم يُعْطَوْن صحُفَ أعمال بشمائلهم، وهم الذين أتاهم الموتُ وهم كافِرُون.

وجاء فيه أنَّ أصحاب اليمين هم أصْحَابُ الْمَيْمَنة، **المَيمنَةُ**: هي البركة، والجهةُ الّتِي تكونُ شَطْرَ اليمين، فموقِعُهم يَوْمَ القيامة يكونُ شَطْرَ اليمين، ويكون ميموناً مباركاً. أمّا أصحاب الشمال فهم أصحاب الْمَشْأَمَة.

المشأمَةُ: الشُّؤمُ، والجهة الَّتي تكون شَطْرَ الشمال، فموقعهم يوم القيامة يكون شطر الشمال، ويكون مشؤوماً.

وجاء فيه أنَّ أصحاب اليمين يوم القيامة يَسْعَىٰ نورُهم بين أيديهم وَبأيمانهم.

أمّا أصحاب الشمال فلا نور لهم بل هم يوم القيامة يتَخَبَّطُونَ في الظلمات.

ولمَّا كان من أصحاب اليمين طوائفُ يُعذَّبُون في دار العذاب يوم الدين، كما جاء في نصوصٍ قاطعات متعدّدات، كَانَ علينا أَنْ نفهم أَنّ المرادَ من كون كُلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، وأنَّ كُلَّ امرئٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ، استمرارِيَّةُ السِّجْنِ الأَبَدِيِّ في دار العذاب لخصوص الكافرين، إذِ المعذَّبُون من أَهْلِ اليمين يَنَالُونَ مَا قُضِيَ عليهم منْ عذابٍ مؤقّتٍ فيها، ثُمَّ يُخْرَجُونَ منها، ويكونُ مَصِيرُهُمْ إلى الجنَّةِ دار النعيم، بما في قلوبهم من إيمانٍ صحيح مقبولٍ عند الله، وقد ماتُوا عليه ولَقُوا اللَّهَ رَبَّهُمْ به.

فيكونُ معنىٰ قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾.

كُلُّ نَفْسٍ مُكَلَّفَةٍ كَاسِبَةٍ لأعمالها باختيارِها الحرِّ، مسؤولَةٍ عنْدَ اللَّهِ عمَّا كَسَبَتْ لمحاسبتها ومجازاتها، ستكون مَحْبُوسَةً بمَا كَسَبَتْ يوم الدّين في دار الْعَذَابِ النَّار حَبْساً أبَدِيًا لا نِهَايَةَ له، باستثناء أَصْحَابِ اليمين، وهُمُ الّذِينَ ماتُوا على إيمانٍ صحيحٍ مَقْبُولٍ عنْد اللّه، فإنَّ من يُجَازَىٰ منهم بالدُّخُول في دار العذاب لا يكون سِجْنُه فيها أبديًا، ولا يَسْتَمِرُّ رهيناً فيها إلى ما لا نهاية له.

قول اللّه عزَّ وجلَّ يَعْرِضُ لقطَةً من لقَطَات أحداث أهل الْيَمِين وهم في جنَّاتِ النعيم يوم الدِّين:

- ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١﴾.

﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾: أي: هُمْ في جنّاتٍ، فالعبارةُ خَبَرُ مبتدإٍ محذوف تقدير «هُمْ» وهو ضميرٌ يعودُ على «أصحاب اليمين».

وجاء لفظ «جنّاتٍ» منكّراً للتنويع والتكثير، أي: في جنّاتٍ كثيراتٍ ومُتَنوِّعاتٍ مُتَفَاضلات بحسَبِ أحوال أهل دار النعيم، ووصفَها اللَّه عزّ وجلّ بأنّها جنّاتٌ مع أنّها جميعاً في دار واحدة كبرى للمؤمنين المتقين على مراتبهم ودرجاتهم، للإشعار بأنَّ كلَّ قسْمٍ من أقسامها يصْلُح بمفرده لأنْ يكون جنّةً عظيمةً جدّاً.

ويَدُلُّ ذِكْرُ لفظ «جنّاتٍ» على أنَّ المشهد المعروض في النّصّ يتكَرَّرُ حدوثُهُ لدى نُزَلاَءِ هذه الجنّاتِ على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، فجماعات في جناتِ عدنٍ يتساءلون، وجماعات أُخَر في جناتَ الفردوس يتساءلون، وهكذا.

- ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١﴾.

أي: يَسْأَلُ أَصْحَابُ الْيمين بَعْضُهُمْ بَعْضاً عن معارفهم من الّذِين كانُوا مُجْرِمِين في الدُّنيا، ويقتضي هذا وُجُودَ مشاهدَ متعدِّدةٍ كثيرةٍ موزَّعَةٍ في جنَّاتٍ كثيراتٍ متنوّعاتٍ، وهذه المشاهِدُ مُتَماثِلَةٌ في مضمونها، فَيُعَبَّرُ عنْها بتعبير واحد.

لكِنَّ المتسائلين لا يَجدُ بعضُهُمْ عند بعضٍ جواباً شافياً عمّا صار إليه المجرمون، وعن الأسباب التي جعلتهم خالدين في عذاب السّعير.

ولعلّهم يرغبون في أن يُطْلِعَهم اللّهُ على أحوالهم، فَيُتِيح اللّه عزّ وجلّ لهم وسيلَةً يُشَاهدونَ بها معارفهم من المجرمين وهم يُعَذَّبونَ في سَقَر، ويَتَحَدَّثُونَ بها معهم، ويَتلَقَّوْنَ بها إجاباتهم، وقَدْ غدا مثل هذا أمراً ميسوراً في مبتكرات الناسِ في الحياة الدّنيا، السلكيَّةِ وغير السلكيّة.

وإذْ يتمّ الاتصالُ بين أهل اليمين والمجرمين وهم في داريهما على الرُّغم من المسافات الشاسعات بين الفريقين، فإنه يجري الحوار بينهما، وقد جاء التعبير القرآنيُّ على شكل حوار جرىٰ فعلاً ومضىٰ زمانه، لتأكيد تحقُّق أنَّهُ سَيَقَعُ في المستقبل حتماً، فالآتي في المستقبل حتماً كالواقع فيما مضىٰ، كلاهما ينطبقُ عليه أنّه صدْقٌ وحقٌّ.

ويكون الحوار كما يلي:

- قال أصحابُ اليمين للمجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾؟! أي: ما أَدْخَلَكُمْ في دار العذاب «سَقَرَ»؟

السُّلوك في الشيء الدخولُ فيه وعُبُورُه، ويُقَالُ أيضاً: سَلَكَ الشيءَ في الشيءِ إذا أدخله فيه، وجعَلَهُ يَعْبُرُه.

- قال المجرمون وهم في سقر: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾.

- ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾:

أي: لم نَكُنْ منَ المؤمنين الذين يُصَلُّون لربّهم، وهذا البيان هو بمثابة اعْترافٍ منهم بأنّهم لم يكونُوا يَعْرفون الصِّلَة باللّهِ رَبّهم، ولاَ يُؤَدُّونَ واجب الخضوع له في قيام بين يديه، وركوعٍ وسُجودٍ له، ولم يكونوا يدعُونَه إلاَّ وهُمْ به مشركون.

ونُدْرِكُ من هذا أنَّ الصَّلاة للّهِ عزّ وجلّ ذاتُ أهميَّةٍ عُظْمَىٰ في الدين، إذْ أوّلُ مَا يَذْكُرُهُ أَهْلُ سَقَرَ مُبَيِّنين سبب دخولهم فيها أَنَّهُمْ لم يكونوا من المؤمنين المصلين.

وبالتأمُّل نُدْرِكُ أنَّ أوّل تعبيرٍ عَمَلِيٍّ عن إيمان المؤمن بربه وإسلامه له أنْ يكون من المصلّين، الذين يَدْعُونَه لاَ يُشْركون به شيئاً، ويُعْلِنُون خضوعهم له بالوقوف أذلاَّء بين يديه، والركوع والسجود له.

ودلّ حذف النون من «لم نَكُنْ» وهو وجه جائز في العربية، على أنّهم في منازلهم في سَقَرَ يوجزون عباراتهم إيجازاً شديداً، حتّى بحذْف حرْفٍ لا يؤثّر حذفه على المعنى الذي يريدون التّعبير عنه، فحالُ من يكونُ في العذاب حالُ ضَجَرٍ وتذمُّرٍ وعدم رغبةٍ في القول إلاَّ عند مقتضٍ شديدٍ يقتضي منهم أن يَطْلُبُوا شيئاً أو يُجِيبوا على سؤالٍ مُهِمٍّ.

- ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ويَعْتَرِفون بأنَّهُمْ كانوا في علاقاتهم الاجتماعيّة وواجباتهم الإنسانيّةِ تجاه الجائعين المساكِينَ أَشِحَّاء بخلاء، لا تتحرَّك قُلُوبُهم نحوهم بعاطفةٍ إنسانيّة، ولا تندَى برحْمَةٍ.

إنّ حاجةَ الجائِع إلى الطعام من أشدّ حاجات الحياة، ويَشْعُر بها كلُّ إنسان، فإذا وجَدَ من عِنْدَهُ طعامٌ إنساناً جائِعاً حقًّا، وهذا الجائع لا يَمْلِكُ ما يَسُدُّ به جوعه وحاجته إلى الطعام، كمسكينٍ يُعْلِنُ عن حاجته وجوعه، ويظْهَرُ من حاله فقرُه وحاجته، ثُمَّ لم يُسْعِفْه بالإطعام، فإنّه يكُونُ أبْخَلَ النّاس، لا رَحْمَةَ في قَلْبِه، فهو يستَحِقُّ أَنْ يُعَامَلَ بالمثلِ فلا يَرْحَمَه رَبُّه يوم الدين.

ومَنْ لا يَجِدُ في نفسه دافعاً لإطعام المسكين دون مكافأةٍ يرجوها منه، فإنّه لن يكون لديه دافع لعطاء نافع ينفع به غَيْرَهُ من الناس ابتغاء وجه الله، وطلَبَ مرضاته.

فدلّت هذه العبارة على أنّهم لم يكن منهم خيْرٌ للنّاس في علاقاتهم الاجتماعية.

واختير الإطعام لأنّه من أَشدّ حاجات الناس الضرورية.

واختير الجائع المسكين لأنَّهُ كاشِفٌ نفسَه، مُتَعَرِّضٌ لمن يُطْعِمُه، يَسْتَعْطِفُ قُلوبَ الرحماء، وليس هو من الفقراء المتعفّفين الّذِين لا يسألون

الناس، فيحسبهُمُ الجاهلون أغنياء من التعفُّف، فالفقير المستور الجائع المجهولُ الحال قد يُعْذَرُ عند الله من لم يطعمه ولو كان قريباً منه.

المسكين: هو من يُظْهر الفقر، ولو لم يكن في واقع حاله الخفيّ فقيراً.

أمّا الفقير: فهو من كان في واقع حاله فقيراً، ولو لم يَكُنْ يُظْهر فقْرَه وحاجته.

هذا ما انتهيت إليه في التفريق بين الفقير والمسكين⁽١⁾.

وجاء هنا أيضاً حَذْفُ نون «ولم نَكُنْ» فجاءت: ﴿وَلَمْ نَكُ﴾ وقد سبق بيان الحكمة البلاغيَّة في هذا الحذف.

- ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

الخوض: هو في الأصل المشيُ في الماء وتحريكه، وبهذا التحريك تختلط الرواسب الراكدة بالماء، فيذهَبُ صفاؤُه، وتَسُوءُ حالُه.

ثُمَّ اسْتُعْمِلَ الْخَوضُ بمعنىٰ التلَبُّسِ بالأمر والتصرُّفِ فيه بطريقة تُشْبِهُ الخوض في الماء، والْخَوْضُ من الكلام ما فيه الكَذِبُ والباطل.

إنَّ نزلاء سَقَرَ يومَ الدّين يَعْتَرِفُونَ بأنّهم كانُوا في الحياة الدُّنْيَا يخوضُونَ مَعَ الخائضين، فيخلِطُونَ الكذِبَ والباطلَ في أقوالهم، ويخوضون في مَخَاضَات المعاصي والآثام، ومحرَّمات المظالم في الأَنْفُسِ والأَمْوَالِ والأعراض، مع الخائضين من الظالمين والطغاة وقادَةِ الشرّ والضلال في الأرض، ويشاركون أهل الشرّ والضُرّ والضَّلالِ والفساد.

والتعبير بهذا الخوض يدُلُّ على أَنَّهم كانُوا يَقْتَرِفُونَ كُلَّ الجرائم والآثام

---

(١) انظر القاعدة (١٦) من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف.

السّلوكية، التي كان الخائضون في الدنيا يقترفونها، دون خوف ولا وجَلٍ ولا حَذَرٍ من عاقبةٍ وخيمةٍ، ولا عذاب أليم عند ربّهم.

- ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: وكُنّا نُكَذِّبُ بِمَا جَاءَ عَنْ رَبّنا من أخْبَارِ يَوْمِ الدِّين، يوم القيامة، والْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقِضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، الّذِي يكون به الإدانةُ على الأعمال الّتِي سلَفَتْ أيّامَ رحلة الابتلاء.

إنَّ تَكْذِيبَهُمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ بِنَبأ يَوْم الدّين هو السَّبَبُ الرئيسُ الّذي جعلَهُمْ يقطَعُونَ الصِّلَة بِرَبِّهِم فلا يُصَلُّونَ لَهُ، وهو السَّبَبُ الذي جَفَّفَ منابع الرَّحْمَةِ فِي نفوسهم فجعلهم لا يطعمون المسكين، فضلاً عن بذلِ أي عَوْنٍ فَوْقَ ذلِكَ لمجتمعهم الإنسانيّ، وهو السبب الذي جعلهم يخوضُون في المعاصي والآثام وكبريات الجرائم مع أصناف الخائضين.

- ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: حتَّىٰ أتَانا يَقِينُ الْمَوْتِ الذي انكشفَ لَنَا عنْدَهُ يَقِين يوم الدين الذي كنّا نُكَذِّبُ به.

فهم يعترفُونَ بأنَّهم اسْتَمَرُّوا على أحوالهم التي وصفوها طَوال رحلة امتحانهم، حتَّىٰ نزل بهم الموت، وانتهت مُدَّة الابتلاء، وبدأَتْ رحلة زمن الدّينونة والجزاء.

وبما أَنَّهم قَدْ مَاتُوا دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا لأنفسهم في رحلة امتحانهم ما يُنْجِيهم من عذابِ ربّهم يوم الدّين، فإنَّ نفوسَهُمْ لاَ تَجِدُ مَا تتعلَّقُ به غَيْرَ احْتِمَال أَنْ تَنْفَعَهُمْ عِنْدَ رَبّهم شفاعة شافِعِينَ لهم من إنْسٍ أو جِنٍّ أَوْ مَلاَئِكة، لكنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا مَنْ يَشْفَعُ لهم عند ربّهم، ولو وجَدُوا مَنْ يَشْفَعُ لهم فشفاعته لهم لا تنفعهم.

- ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

لأنَّهم قضوا رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ولَقُوا ربَّهُمْ وهم مكذبون بيوم الدّين، وبما بلّغهم إياه رسُولُ ربّ العالمين.

إنَّ أحداً لا يسْتطيع أن يشفع لأحد يومئذٍ إلاّ بإذن الله، واللَّهُ جلّ جلالُهُ لاَ يأذَنُ لِأَحدٍ بأن يَشْفَعَ لِمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ كافِراً، ولو كان كُفْرُهُ من أَخَفِّ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ، كَدَرَكَةِ أخفِّ أنواع الشرك في توحيدِ الرُّبوبية، أو توحيدِ الإلَهيَّة للَّهِ عزّ وجل، قال تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

* * *

(١٠)

التدبر التحليلي للدرس الخامس

الآيات من (٤٩ ـ ٥٦)

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

- قرأ جُمْهور القرّاءِ الْعَشَرة: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ بِكَسْرِ الْفَاءِ اسْمِ فاعل من «اسْتَنْفَرَ».

وقرأ نافعٌ، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفر: [مُسْتَنْفَرَةٌ] بفتح الفاء اسم مفعول. وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى.

- وقرأ جمهور القرّاء العشَرَة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ بياء الغائب.

وقرأ نافع فقط: [وَمَا تَذْكُرُونَ] بتاء الخطاب. وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

نظرة عامّةٌ حول هذا الدرس:

- بعد عرْضِ لقطةٍ من لقطات أحوال المجرمين في سَقَرَ يوم الدِّين، في الدَّرْس الرابع السابق، وما قدَّمَهُ هذا الدَّرْسُ من مثيراتِ رهْبَةٍ وإقناعٍ معاً لهم ولغيرهم لو كانوا من أولي الألْباب.

- جاء الدرسُ الخامسُ مُتَابِعاً الحديث عن المجرمين، وناظراً إِلَىٰ أحوالهم في ظروف الحياة الدنيا، ولكنّ الحديث عنهم ليس فيه مواجهةٌ لهم بالخطاب.

- فبدأ بتوجيه التعجيب من إعراضهم عن دَعْوة الرسول والقرآن لهم، ونُفُورِهم كَحُمُرِ الوحْشِ النافرة الخائفة من قُوَّةٍ مُكْرِهَةٍ متسلِّطَةٍ قاسِرَةٍ ذَاتِ قوة، مع أن دعوة القرآن والرسُولِ لَهُمْ دَعْوَةُ تَذْكِرَة، أي: دعوة بيان كلاميّ ينبغي أَنْ يَعُوهُ ويفهموهُ ويضَعُوهُ في ذَاكرتِهم دواماً، ولَيْسَتْ قضيَّة إكراه ولا جَبْرٍ ولا قَسْرٍ من قِبَلِ ذِي قُوَّة مُتَسلِّطَةٍ قَاسِرَةٍ تسوقُ بالْقَهْر.

- وبعد هذا التعجيب من أَمْرِ نُفُورِهم دُونَ مقتضٍ لهذا النفور، عَرَض الدّرْس علّةَ نفوسهم في رفضهم الاستجابة للدّعْوَة أو التفكير في جوهرها، وفي العناصر التي تدعو للإيمان بها، فأبان قضيتَيْن:

القضيّةُ الأولى: أنَّهُمْ مُسْتكْبِرُون عن الاستجابة لدعوة الرسول

محمّد ﷺ، واتّباعه نبيًا رسُولاً، على أنَّ رسُولَهُمْ لَوْ كان زعيماً من زعمائهم لمَا استجابوا له، لأَنَّ كلَّ امْرِئٍ مِنهُم يُرِيدُ أنْ يكُونَ نبيًا، وأنْ يؤتِيَهُ اللَّهُ صُحُفاً مُنَشَّرَةً مَقْرُوءَةً لكُلِّ مَنْ يَطَّلِعُ عليها.

القضيّة الثانية: أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُون بالبعث والجزاء والدَّارِ الآخِرَة بَعْدَ هٰذِهِ الحياة الدنيا، فهم بسبب عدم إيمانهم لا يخافون الآخِرةَ وَما أَعَدَّ اللَّهُ فيها من دار عذابٍ خالدٍ للمجرمين.

- وبعد بيان علَّةِ نُفُوسهم وَجّهَ اللَّهُ عزّ وجلَّ لهم عبارة الرَّدْع والزَّجْرِ: ﴿كَلَّآ﴾ وَأَتْبَعَهَا بتأكيد أَنَّ مَا جاء في البيان القرآني هو مُجَرَّدُ تَذْكِرَةٍ للموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الابتلاء. وهذه التذكِرَةُ مُوجّهةٌ لهم دون إكراه ولا جَبْرٍ وَلاَ قَسْرٍ، فلَهُمْ باختيارهم الحرّ أَنْ يَعُوها ويَحْفَظُوها ويَذْكُرُوها إذا شَاءُوا ذلك، ولهم أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهَا، ولا يَلْتَفِتُوا إلَيْها ولاَ يَعُوها ولا يَحْفَظُوها ولا يَذْكُروها، وَلَكِنْ عَلَيْهِم أن يتحمَّلُوا مسؤوليّةَ إعراضهم عنْدَ رَبِّهِمْ عذاباً أليماً في سَقَرَ، كما سَبَقَ به الإنْذَارُ في ثنايا السُّورَة.

- وأخيراً أَبَانَ اللَّه عزّ وجلَّ أصْلاً من أُصول الإيمان، وهو أصْلٌ يَتَعَلَّقُ بموضوع القضاء والقدر، وحرِّيّة المكلَّفين ذوي الاختيار الحرّ في ظروف الحياة الدنيا، وهو يتضَمَّنُ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ بمشيئته الحكيمة قَدْ جعل عباده المكلفين الممتحنين مختَارِين، يملكُونَ مشيئَةَ التَّذَكُّرِ والاستجابة للدّعوة، ومشيئة الإعراض والرفْضِ، وقَدْ منَحَهُمْ ذَلِكَ بحكْمَتِهِ ليبلُوَهم فيما آتاهم خلال ظروف الحياة الدنيا، ولو شاء سُبْحانه لسَلَبَهُمُ القُدْرَةَ على أنْ يشاءُوا، ولجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ لا اختيار لهم ولا مشيئة، كما جَعَلَ السَّمَاواتِ والأرضَ مجبورَةً لا تَمْلِكُ اختياراً في حركةٍ من حركاتها، وكَمَا جَعَلَ كلَّ مَا فِي جَسَدِ الإنْسَانِ مَجْبُوراً باستثناء إرادتِهِ وَمَا يَخْضَعُ لها من عَمَلٍ وتصرّفات.

ولو جَعَلَ اللَّهُ الناسُ مجبورِينَ حتَّىٰ في إرادتِهِم ومشيئاتهم الّتِي يشاءُونها لَمَا جَعَلَهُمْ ممتحنين في ظروف الحياة الدنيا، ولَمَا كلّفَهُمْ بالإيمان والطاعة، ولَما وَجَّهَ لهم الأوامر والنواهي، ولما مكّنَهُمْ من المعصية.

- وخَتَم اللَّه عزّ وجلّ السُّورةَ بعبارَةٍ ثناءٍ على اللَّه جلّ جلالُهُ، فيها تخويفٌ من عقابه، وفيها إطماعٌ بِمَغْفِرَته، فأبانَ تَعالَىٰ أنَّهُ أَهْلٌ لأنْ يُتَّقَىٰ عذَابُهُ، فهو العظيم الجليل القدير المنتقم الجبار، وأهلٌ لأَنْ تُرْجَىٰ مَغْفِرَتهُ، فهو العظيم الجليل الرحيم الْغَفَّارُ. فمن أصَرَّ على كُفْرِهِ عاقبه بعدله، ومن تاب إليه واسْتَغْفَرَهُ رَحِمَهُ فغفر له.

التدبُّر التحليلي:

قولُهُ تعالى:

- ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

الفاء: دلَّتْ هنا على أنَّ الكلام الذي جاء بعدها مبنيٌّ بناءً تفريعيًّا على الكلام الذي جاء قبلها.

«ما»: اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ. «لَهُمْ» متعلق بمحذوف خبر، والضمير عائد على الكفّار المجرمين الذين تتحدّث السورة عنهم.

التَّذْكِرَةُ: ما يُسْتَذْكَرُ به الشيءُ المطلوبُ تَذَكُّرُهُ، كالرتيمة، والبطاقة الَّتِي تُذَكِّرُ بموعد اللّقاء أو الاجتماع أو نحو ذلك.

والقرآن المنزَّلُ على الرسول ﷺ يُثْبَتُ في الصُّحُف، لتكونَ هذه الصُّحفُ تَذْكِرَةً، أي: مُذَكِّرَةً بالحقائِقِ والبيانات والوصايا والتكاليف الرَّبّانِيَّةِ المنَزّلَة، ومن أجل هذا أطلق الله عزّ وجل عليه اسْمَ تَذْكِرَة.

وشأْنُ التذكِرَة أن لا تُكرِهَ ولاَ تُجْبِرَ أحداً على ما لا يُريد هو فعلَه، بَلْ هي مُذَكِّرَةٌ تَذْكِيراً فِكْرِيّاً فقط، والْقُرآنُ يُذَكِّرُ بالحقّ والواجب والنصيحة والخير والشرّ والوعد والوعيد.

مُعْرِضِين: الإعراضُ: إعطاءُ العارض وهو الجانب، وهو منزلةٌ وُسْطَىٰ بين الإقبال والإدْبار.

عارضا الإنسان: هما صفحتا خَدَّيه.

(عن التذكِرَة) معمول لـ**(معرضين)** متقدّمٌ عليه، وكلمةُ «معرضين» حال.

فالمعنى: أيُّ شيٍ هو للمجرمين المكذبين بما جاء به الرسُول محمَّد ﷺ إليهم، من حقّ أَو حُجَّةٍ أو حماية، أو مُسَوِّغٍ حالَةَ كونهم عن التَّذْكِرة معرضين، حتى يكون هذا الذي هو لهم أمراً يُسَوِّغُ لَهُم إعراضهم عن التذكرة، ويجْعَلُهُم معذُورين عند باريهم.

الجملة استفهامية، والغرض من الاستفهام هنا التعجيبُ من حالهم، مع الإشعار بأنّهم لا يملكُونَ شيئاً يُسَوِّغُ لهم الإعراضَ عن التَّذْكِرَة الرّبّانيّة، وإذا كانوا لا يملكُونَ مُسَوِّغاً فلا بُدَّ أَنْ يَقَعُوا تحْتَ طائلة المسؤوليّة والمحاسَبَةِ وفصل القضاء والجزاء بالعقاب الأليم يوم الدين.

- ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾:

حُمُرٌ: الْمُرَادُ حُمُر الوحْش، لأَنّها هي الّتي تَنْفِرُ من الأسد أو من الصَّيَّادِين ذُعْراً إذا أحسَّتْ بأَحَدِهما.

مسْتَنْفِرَة: أي: نافِرَةٌ نفاراً شديداً، فالسّين والتاء لبيان شدّة الحدَثِ الذي دلَّ عليه الفعل، والنّافر بشدّة يَعْدُو فارّاً بسرعته القصوىٰ.

وجاءَ في القراءة الأُخرى: «مُسْتَنْفَرَةٌ» على البناء لغير المعلوم، أي: نَفَّرَها مُنَفِّرٌ ما، كالأسَدِ.

قَسْوَرَة: جاء في كُتُب اللُّغَةِ أَنَّ الْقَسْوَرَة اسم من أسماء الأسد، وأنّه يُطْلَق على جماعة الرُّماة والصَّيادِين. والكلمةُ مأخوذة من الْقَسْرِ، وهو الْقَهْرُ على الكُرْهِ بالغَلَبَة، والمعنيان صالحان هنا معاً.

هذا النصُّ يشبّه المجرمين المعرضين بنفورٍ عن تذكِرَةِ القرآنِ الّتِي لا قَهْرَ فيها ولاَ غلَبَة وَلاَ قَسْرَ، بِحُمُرِ الْوَحْشِ الّتِي تَشْتَدُّ فِي النُّفُورِ، إِذَا أَحَسَّتْ بأسَدٍ يتَرَصَّدُها لافتراسها، أو أَحَسَّتْ بجماعةٍ من الرُّماة الصَّيَّادِين الّذِين يتَرصَّدُونَ صَيْدها.

وفي تَشْبيهِ عَامَّتِهِمْ بالْحُمُر إيماءٌ إلى ضَعْفِ عقولهم، وقلّةِ إدْراكهم لحقائق الأمور، وسُخْفِ تَصَرُّفِهِم تُجاه بيانات القرآن ودعوة الرسول ﷺ، إذْ هُمْ مُخَيَّرُون غير مَقْهُورِين ولا مقْسُورِين على الالتزام بما جاء في القرآن الذي هو بمثابَةِ التَّذْكِرةِ، فَلَيْسَ القرآنُ شيئاً مُكْرِهاً قاسراً بقوّةٍ مادّيَّةٍ.

ونُلاحظ في هذا التشبيه أنّه قَدْ شُبِّهَتْ حالَةُ نفورِهِمْ النفسيّ عن القرآن، وعن دعوة الرَّسُولِ ﷺ بحالة النُّفور الحسّيّ الذي يكون من حُمُرِ الوحْشِ إذا أَحَسَّتْ بالأسد، أو بجماعة الرُّماة.

ونُلَاحظُ في اختيار لفظ «الْقَسْوَرَة» المأْخُوذِ من الْقَسْر، إيماءً إلى أنّ أذكياءهم يَشْعُرُونَ بأنّ سُلْطان البراهين والحججِ والإقناعات والترغيبات القرآنية قادرةٌ على قَسْرِ عُقُولهم ونفوسهم وقلوبهم ومحاصرتهم من كلّ جانبٍ، فتُوقِعُهُمْ في أَسْرِ الإيمان، وهو أمْرٌ لا يريدونه، إذْ لا يُريدون مخالَفَةَ أهوائهم وشهواتهم ونوازِعِ كِبْرِهِمْ، ورغباتهم في الفجور، فَهُمْ يَنْفرون منْهُ فارِّين.

وقد قرأتُ لبعض الملاحدة توصيةً لقرّائه بأنْ لا يقبلوا البحث في بعض الأوليّاتِ الفكريَّة، التي تَتعلّقُ بقضايا أَصْل الْوُجود ونشأة الكَوْن، لئلا تَجُرّهم هذه البحوث إلى الوقوع في براثِن الإيمان.

ما أعْجَبَ هذا الجنوح عن الحقّ والنُّفُور عمّا يُوصِلُ إليه.

قولُهُ تعالى:

- ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ۝٥٢ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣﴾.

في هاتين الآيتَيْن بيانٌ لعلّتِهم النفسيّة التي جعلَتْهُمْ ينفرون من تَذْكِرَةِ القرآن وبياناته، فجرَّتْهُمْ إلى الكفر الذي هم فيه، وهي تتلخّص بأمْرَين: ١ ـ الكِبْر. ٢ ـ وعدم الإيمان بالآخرة الّذي جعلهم لا يخافون من عقاب الله فيها.

- ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ۝٥٢﴾.

بل: هذه «بل» الابتدائية، وهي تتضمَّن معنى الإضراب عمَّا سَبقها، والإضرابُ هنا فيه معنى إبطال معاذيرهم، لعدم الاستجابة لتذكِرَة القرآن، وما جاء به الرّسُولُ من بيان، إذْ كان من ادّعاءاتهم في معاذيرهم أنَّ القرآن سِحْرٌ يُؤثر، وأنَّه قولُ البشر.

وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ بيانٌ لعلّة الكِبْرِ في نفوسهم، الذي جعلهم يتطاولون إلى أن يكونَ كلُّ امْرِئٍ منهم ذي مكانةٍ فيهم نبيًا يُؤْتَىٰ من قبل ربِّه صُحُفاً تُنَزَّلُ عليه، وهٰذه الصُّحُف ينبغي أن تكون مُنَشَّرة.

مُنَشَّرَةً: النَّشْرُ خلاف الطيّ، يقال لغة: نَشَرَ الصَّحيفة يَنْشُرُها نَشراً، أيْ: بسَطَهَا ولم يجْعَلْها مطويَّةً. ونَشَّرَ الصُّحُفَ بتَشْدِيد الشّين، أي: زادَ في بَسْطِها.

والمعنى أنّهم يُريدون أن تكونَ الصُّحُف الّتِي يُؤْتيهم اللَّهُ إيَّاها مُنَشَّرَة غير مطوية، رغبةً منهم في أن يكُون لها مظهر مُعْلَنٌ يَراهُ النّاس، فيكون لهم به مَجْدُ الشهرة بأنّ الله نزّل عليهم هذه الصُّحُفَ مُكَرَّماً لهم بها، وهذا من فَرْطِ الكِبْر في نفوسهم

- ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾: «بل» نظير سابقتها، أي: هُمْ لا يؤمنون بالآخرة حتَّىٰ يخافوا عقاب اللَّهِ عزّ وجل الذي أَعَدَّهُ للمجرمين المكذبين فيها، وفي هذا بيان لعلّتِهم النفسيَّة الثانية.

فكِبْرُهُمْ وعدم خَوْفهم من الآخرة عِلّتَان كانتا السبب في إعراضهم ونفورهم عن القرآن.

قولُه تعالى:

- ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾.

- قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بياء الغائبين.

وقرأ نافع: [وَمَا تَذْكُرُونَ] بتاء المخاطبين.

وفي هاتين القراءتين تكامل بياني، فقراءة «نافع» تخاطب الناس المكلفين جميعاً، وقراءة الجمهور تتحدّث عنهم بالحديث عن الغائب.

﴿كَلَّآ﴾: كلمةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ للّذين هم معرضون عن التذكرة كالْحُمُر المستنفرة التي فرَّتْ من قَسْوَرَة، وردعٌ وزجْرٌ لهم عن أن يُؤْتَوْا صُحُفاً مُنَشَّرَة.

وجاء بعدها تأكيدُ كون القرآن الذي يفرُّون عنه مُجرَّدَ تَذْكِرَةٍ غَيْر مقترنَةٍ بقُوَّةٍ مادّيَّةٍ مُكْرِهةٍ مُجْبِرةٍ بِقَسْر.

- ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ الضمير يعود على القرآن الذي قال بشأنه الوليد بن المغيرة كما جاء في الدرس الثالث من دروس السورة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾.

- ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾.

أي: إنَّ الْقرآن تَذْكِرَةٌ مُوجَّهَةٌ لِمَشِيئَة الموضوعين في الحياة الدنيا

موضع الابتلاء، فَمَنْ شاءَ باخْتِيارِهِ الْحُرِّ أَنْ يَعِيَهُ ويتفَهَّمَهُ وَيَضَعَهُ في ذَاكِرَتِهِ فَهُوَ مُمَكَّنٌ مِنْ ذَلِكَ بقضاء اللَّه وقَدَرِهِ، لأنّ الله منحه الإرادة الحرَّةَ، وسَخَّرَ لَهُ الأدوات الَّتِي يَذْكُرُ بها ما يشاءُ أَنْ يَذْكره، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه، لاَ تَقِفُ دون تحقيق مشيئته قُوَّةٌ قاهِرَةٌ، صادّةٌ ولا صارفة ولا مُعَوّقة ولا مُلْغِيةٌ ولا سَالِبَةٌ.

ولئلاّ يتَوَهَّم مُتَوَهِّمٌ أَنَّ مَشيئَةَ الناس الْحُرَّةَ مَوْجُودة فيهم ذاتِيًّا دون خَلْق خالِقٍ وَتَمْكِينِهِ وَتَسخِيره، قال اللَّهُ عزّ وجلّ في الآيَةِ الأخيرة:

- ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ . . .﴾:

أي: وما يَذْكُرُونَ بِمَشِيئتهم الحرَّة في أيّة حال من الأحوال إلاّ في حالة مَشيئَةِ اللَّهِ أَنْ يمْنَحَهُم القدرةَ على المشيئة الحرّة، ويُسَخِّرَ لَهُم الأسبابَ الّتِي بها يَذْكُرُونَ، فجهاز المشيئة الحرَّة خَلْقٌ من خَلْقِهِ، والْقُدْرات التي بها يَشاءُون ويذكُرون وَيَعْمَلُونَ أعمالهم كُلُّها لاَ تُوجَدُ إلاّ بِخَلْقِهِ، والتَّمْكِينُ من استعمالها يكون منه، وبإذْنِه، وحُرِّيَّتُهُم مع كلّ ذلِكَ لا تتأثَّرُ بجبر ولا قسر، لكنْ من شاء الحقّ والخير والْهُدى صادقاً منحه اللَّه توفيقاً ومعونة وأوزعه وزاده اندفاعاً وسداداً.

ولَمَّا كان الأمر يتعلَّقُ بابتلاء الناس في ظروف الحياة الدنيا، والابتلاءُ يقتضي المحاسبةَ وفصلَ القضاء والجزاء، ومن الجزاء العقاب على السيّئات، ولمّا كانَ كُلُّ بني آدم خطّائين، ومنهم من يتوب ويستغفر، ومنهم من يُصِرُّ على معاصيه ويستكبر، ناسب أن يختم اللَّهُ عزّ وجل السورة بقوله:

- ﴿. . .هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

عبارة: فلانٌ أَهْلٌ لِكَذا تأتي بمعنى أَنَّه مستَحِقٌّ لكذا، فالأَهْلُ للشيء هو المستحقُّ له، يُطْلَق لفظ «أهل» بالإفراد على الواحد وغيره، مثل: هُمَا أهل لكذا، وهُمْ أَهْلٌ لكذا.

﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ اسْمُ للاتقاء، وللتُّقَى، تقولُ لغة: اتَّقَيْتُ اتِّقَاءً، وتَوَقَّيْتُ

تَوَقِّياً، وتُقًى وَتَقِيَّةً وَتِقَاءً، إذا جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ما فيه أذىً أو ضُرٌّ أو عُقُوبَةٌ وِقَايَةً، أي: ما يقيكَ ويَحْمِيك ويحفظك.

ويُطْلَقُ المصدر واسْمُه توسُّعاً على من يَتَّقِي «أي: على اسم الفاعل» وعَلَىٰ مَنْ يُتَّقَىٰ «أي: على اسم المفعول» فَنَقُول: السلطان أهل للتَّقْوَىٰ، أي: لأنْ يُتَّقَىٰ عِقَابُهُ، وكلّ فرد من أفراد رعيَّةِ السُّلطان أَهْلٌ للتقوىٰ، أي: أهل لأنْ يتَّقِيَ عِقَابَ السُّلْطانِ.

ونظيره أن تقول: السُّلطانُ أهل للضَّرْبِ، أي: لأنْ يَضْرِب المذنبين، والمذنب أهل للضَّرْب، أي: لأنْ يُضْرَبَ عَلَى ما جَنَىٰ.

﴿ٱلْمَغْفِرَةِ﴾: مصْدَرُ غَفَر الشيءَ، إذا سَتَرَهُ، تقولُ لُغَةً: غَفَرَ الشيْءَ يَغْفِرُهُ غَفْراً وَغُفْرَاناً وَمَغْفِرَةً، أي: سَتَرَه.

فوصف اللَّه عزّ وجلّ نفْسَه بأنَّهُ هو أهل التَّقْوىٰ وأهل المغفرة، معناهُ: أنّه هو المستَحِقُّ لأنْ يُتَّقَىٰ عذابُهُ وعِقَابُهُ، إذْ هو العليم الحكيم القدير على كلّ شيء، الْعَدْلُ الشّديد العقاب، الذي وضَعَ عباده في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الابتلاء. وهو الْمُسْتَحقُّ لأن تُرْجَىٰ رَحْمَتُه ومَغْفِرَتُهُ، إذْ هو الرحيم بعباده، الذي يقبل توبة من تاب من عباده وأناب إليه، والذي يغفر ذنوب من استغفره مستمطراً رحمته، وهو ما زال في رحلة الابتلاء.

وإثباتُ أَنَّ اللَّهَ جلَّ جَلاَلُهُ هو وحْدَهُ المستَحِقُّ لكُلِّ عناصر التقوى ومفرداتها، والمستحقُّ لكلّ عناصر المغفرة ومفرداتها، لا يَنْفِي أَنْ يكونَ لبَعْضِ عبادِهِ نَصِيبٌ ما ممّا يَنبَغِي أَنْ يُتَّقَىٰ، ونَصِيبٌ ما من المغفرة، لمن أسَاءَ إليهم، فعبارة: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لا تنفي ذلك.

بيان أدبيّ حول مضامين الدرس الخامس:

حقائق الدين الكبرىٰ أمُورٌ فَطَر اللَّهُ أفكارَ النّاس وعقولَهُمْ وأعْمَاقَ نفوسهم ووجداناتهم عليها.

أمّا أهْواؤهم وَشهواتُهم وَرَغباتُهم من دنياهم فهي نزّاعَةٌ إلى مخالَفَةِ مقتضياتها، وهُنَا تظهر عُقْدةُ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

والرّسَالاَتُ الرّبّانيَّة في أُسُسِها تَكْشِفُ للناس الحقائق الكونيّة، والحقائق المغروزة في نفوسهم الّتي فطرهم الله عليها، فهي معلّمةٌ ومُذَكِّرةٌ لهم بما في أعماق نفوسهم ممّا هُمْ مفْطُورون عليه وغافلون عنه.

فمن تكريم رسالة الإسلام للناس، وهي رسالةُ الرَّبّ الخالق لهم، أنّها تُقدّمُ نفْسَها إليهم على أنّها تَذْكِرَةٌ وَذِكْرَىٰ، فَهِيَ نِصُوصٌ مُنزّلَةٌ من لَدُنِ الرَّبّ الحكيم العليم، وموضوعَةٌ للتلاوة والترتيلِ بينهم، حتَّىٰ تكونَ لَهُمْ ذِكْرَىٰ وَتَذْكِرَةً مُتَجَدِّدَة، ينتفع بها من لم يُطْغِه هواه، فأبْصَر طريقه، وأراد سعادة نفسه الحقيقيَّة، ولَمْ يُؤْثِرِ العاجلَةَ على الآجلة.

ومن تكريم رِسَالة الإسلام للناس، وهي رسالة الرَّبّ الخالق الرازق المحيي المميت، الذي بيده مَلَكُوتُ كلّ شيءٍ، أنّها تَجعَلُهُمْ أَمَام دعوتها لهم مخيَّرين بين مشيئتَيْن دون إلزام بالإكْراه، وَلا سيْطَرةٍ ولا قَهْر، مشيئة القبول والمتابعة، ومشيئة الرَّفض والإدْبار، فمن شاء فلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شاءَ فلْيَكْفُرْ.

لكِن لكُلّ مشيئةٍ مِنْ هاتين المشيئتَيْنِ نتيجة حتمية، في قانون الْخَلْق الجبريّ، فَمَنْ شاءَ الرَّفْضَ وأبَىٰ أن يسْتجيب لدعوة الحقّ، فعلَيْه أن يتحمَّلَ عقاباً أليماً خالداً يوم الدين، ومَنْ شاء القبول واستجابَ وتابَعَ فلْيَنْعَمْ سَعِيداً خالداً في جنّات النعيم يوم الدّين.

إنَّ دين اللّه للناس بيانٌ وَتَذْكِرَةٌ وتخيير، فَمَنْ شاءَ أنْ يُؤْمِنَ ويُسْلِمَ فَلْيَفْعَلْ، ومَنْ شاءَ أَنْ يكْفر ويستكْبر فليفْعَلْ أيضاً، وعليه أن يتحمَّلَ النتيجة الحتميَّةَ شقاءً أبديًّا. أمّا من آمن وأصْلَحَ فله السعادة الأبديّة.

أفيليقُ بذي فِكْرٍ ورأْيٍ وَعَقْلٍ تُعْرَضُ عَلَيْهِ تَذْكِرَةٌ مِنْ هذا القبيل، لا إكراه فيها ولا قَهْر، أن يُعْرِضَ أَوْ يَنْفِرَ من هَذا العرضِ التخييريّ؟!

إنّ أمْرَ المعرضين النافرين لأَمْرٌ يثير بالغَ العجب والاستنكار والازدراء، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

ما لَهُمْ نافرين نُفْرَةَ حُمُرٍ وحْشِيَّةٍ خَوْفاً من الأسَدِ أو من جماعَةِ الْقَنَّاصَةِ الرُّماة، مَعَ أنّ المعروض عليهم بيانٌ كلاميٌّ، يُطْلَبُ منْهُمْ أنْ يَفْهمُوهُ ويَعُوهُ وَيَضَعُوه في ذاكِراتهم إنْ شاءُوا، للانتفاع به إذا أرادوا.

إنَّ في هذا التشبيه لإبداعاً عجيباً، فالْمُشَبَّهُ به نَافراتٌ من الْحُمُرِ الوحْشيّة، وللحمار في التشبيه معاني الغباء وضعف الإدراك، لكنَّ هذه الْحُمرَ أَحْسَنُ حالاً، فهي تَنْفر من قَسْوَرَة، ومن حَقّها أن تنفر منه، لكِنَّ النافِرين من دعْوة الحقّ الرّبّانية نافِرُون من تَذْكِرَة لا يليق بِهِمْ أَنْ يَنْفِرُوا منها، إنّ هذا لأمر بالغ العجب، لدى أولي الألباب.

والسبب في انطماس بصيرتهم كبْرٌ في نفوسهم انْتَفَخَ فَغَشّىٰ على قوىٰ الإدْراك لديهم، وتَشبُّثُهُمْ بالحسِّيَّاتِ الذي جعلهم لا يؤمنون بالآخرة، فلا يخافون عذاب الله فيها، لأنّها من الأمور الغيبيّة غير الْمُحَسَّة المشهودة.

وأكّد الدّرسُ أن رسالة القرآن رسالةُ تذكرةٍ، معروضة بالتخيير على نفوسِ ذواتِ مشيئاتٍ حُرَّةٍ، قضَىٰ اللّهُ لها أن تكونَ كذلك، لابتلائها في ظرُوف الحياة الدنيا.

وخُتِمَتِ السورة بعبارةٍ تلويحٍ بالترهيب، والترغيب.

فالترهيب جاء في وصف اللّه عزّ وجل بأنّه هو أهل التقوى.

والترغيب جاء في وصفه بأنه هو أهْلُ المغفرة.

وتمت سورة (المدثر) وتمّ تدبُّرها بما فتح الله به،

فالحمد لله على ما أَولَىٰ

* * *

سُورَةُ المُزَّمِّل

٧٣ مصحف ٣ نزول

(١)

بحث حول نـزول سورة المزّمل:

بالنظر إلى ما جاء عند البخاري بشأن نزول سورة (المدثر) وما جاء في إحدى الروايتَيْن عن جابر ـ رضي الله عنه ـ اللَّتَيْن أوردتُهما في أوائل تدبُّر سورة (المدّثر) إذْ جاء فيها أنَّ جابراً قال: سمعت النبيّ ﷺ وهو يُحدّثُ عن فترة الوحي فقال في حديثه:

«فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْباً، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فَدَثِّرُوني، فأَنْزَلَ اللَّهُ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ ـ إلى ـ ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ⑤﴾. [فتح الباري الحديث (٤٩٢٥) ج ٨].

وبالنظر إلى ما جاء في صدر سورة (المزّمل) وبعْضِ آياتٍ فيها، تَرَجَّحَ لدَيَّ أنّ سورة (المزّمل) هي ثالث سورة مكّيّة، باستثناء عدّة آياتٍ منها نزلَتْ في المدينة على الأَرجح.

وكونها السورة الثالثة بحسب ترتيب النزول هو الذي اعتمده الشيخ محمّد علي خلف الحسيني شيخ عموم المقارئ المصرّية في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ هجرية في إحدى الطبعات المصريّة للمصحف الشريف.

* * *

- وَرُوِي عن ابن عبّاس وقتادة أنَّ الآيتين (١٠) و (١١) نَزَلَتا بالمدينة. وهما: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾.

- ورَوى الطبري عن سعيد بن جُبَيْر قال: «لمَّا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ...﴾ مَكَثَ النبيُّ ﷺ على هَذَا الحالِ عَشْرَ سِنينَ يَقُومُ اللَّيْل كما أَمَرَهُ اللَّهُ، وكَانَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُومُونَ معه، فَأَنزَلَ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ...﴾ الآية.

وهذا يُفِيدُ أنَّ الآيَةَ الأخِيرَة مِنَ السُّورَةِ نَزَلَتْ في المدينة، لأَنَّ مُقَامَ الرَّسُولِ في مَكَّةَ بَعْدَ البعثَةِ قَدْ كانَ عَشْرَ سِنِينَ في قَوْلِ جُمْهور عُلَماء السِّيرَة المحمّديَّة.

وأمّا ما رُوي عن أُمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من أنّ الرَّسول ﷺ قد عمل بما جاء في أوّل سورة (المزّمل) ستة عشر شهراً، وفي رواية حولاً، ثمّ نزلت الآية الأخيرة من السورة، فإنَّها تحدّثت عما شهدت بعد بناء الرسول ﷺ بها، لكن سورة (المزّمل) وعمل الرسول بما جاء في أولها قد كان منذ أوائل البعثة.

* * *

(٢)

نص السورة

سورة المزمّل وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ
قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى
عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ
قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ
رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا
جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ
لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾

---

٣ - [أَوِ انقُصْ] بكسر الواو قراءة عاصم وحمزة.
[أَوُ انقُصْ] بضَمِّ الواو قراءة باقي القراء العشرة.

٦ - [نَاشِئَةَ] بتحقيق الهمزة لجمهور القراء.
[ناشِيَة] بإبْدَال الهمزة ياء لأبي جعفر، ولحمزة حال الوقف.
[وَطْأً] لجمهور القراء العشرة.
[وِطَاءً] لأبي عَمرو، وابنِ عامر.

٩ - [رَبُّ الْمَشْرِق] برفع لفظ «رَبّ» لنافع، وابن كثير، وأبي عَمرو، وحفص، وأبي جعفر. أمَّا الْبَاقُونَ فَبِكَسْرِها «رَبِّ».

يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾
إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾
فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ
مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ
أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ
مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ
عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم
مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ
وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ
لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ
وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾ .

---

٢٠ - [ثُلُثَي] بضم اللام، لجمهور القراء وَقرأ بإسْكانِ اللاّم [ثُلْثَي]: هشام.

● [ونِصْفِهِ وَثُلُثِهِ] بالجرّ عَطْفاً على [مِنْ ثُلُثَي] قراءة نافع، وأبي عَمرو، وابْنِ عَامر، وأبي جَعْفَر، ويعقوب.

وقرأ الباقون بالنّصب عَطْفاً علىٰ [أدْنىٰ] والقراءتان وجهان متكاملان، فقراءة الجرّ تثبت احتمال ما هو أقلُّ من الثلث.

(٣)

موضوع السُّورة

- في هذه السورة تَوْجيهُ بَعْضِ وصايا للرسول وللذين آمَنُوا معه، تتعلّق ببعضِ التكاليف التَّعَبُّديّة، والأعمالِ الحياتيّة، والسُّلوكِ الدّعويّ.

- وفيها تلويحٌ بوعيدٍ شديد مؤجَّلٍ إلى يوم الدين، وآخرَ مُعَجَّلٍ في الدنيا، وهو موجَّهٌ للذين كذَّبوا الرسول وكذَّبوا بما جاء به عَنْ ربّه، إذا استمرّوا على كفرهم ولم يَتُوبوا قبل أنْ يُلاقوا ربَّهم بالموت، مع معالجتهم بتأكيد أنّ رسالة الإسلام الّتي جاءهم بها الرَّسُول ﷺ رسالةُ تَذْكِرَةٍ لذوي المشيئات الحرَّة، ولَيْسَتْ رسالة سَوْقٍ بقَسْرٍ وقَهْرٍ وجَبْرٍ، فمن شاء باختياره الحرّ اتّخذَ إلى مرضاة ربّه وثوابه العظيم سبيلاً بالإيمان والإسلام والطاعة، فَهُوَ مُمَكَّنٌ من ذلك، ومن شاء أَبَىٰ ورَفَضَ وكفر، وهُو مُمَكَّنٌ من ذلِكَ أيضاً، ولكن عليه أن يتحمّلَ نتيجةَ اختيارِه الذي هو حرٌّ فيه عذاباً أليماً من ربّه يوم الدين، مع ما قدْ ينزل به من عذابٍ في الدُّنيا.

- والآية الأخيرة من السورة نَسَخَتْ فرضيَّةَ قيام اللَّيْل الذي جاء في أوائلها، وأمَرَتْ بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإقراض الله قَرْضاً حسناً مأجوراً أجْراً عظيماً، وأمَرَتْ بالاستغفار مع الوعد بأنّ الله غفورٌ رحيم.

وهذه الآية الأخيرة من السورة نزلَتْ في العهد المدني، وضُمَّتْ إلى سورة (المزّمّل) الّتِي هي من أوائل التنزيل المكيّ.

فموضوع السورة يدور حول ما يلي:

«أوامرُ ووصايا سلوكيّة للرسول ﷺ وللمؤمنين مقرونة بالوعد، ومعالجةٌ للكافرين بالوعيد مع تأكيد أنّ رسالة الإسلام رسالة تذكير، لا رسالة سَوْقٍ بالإجبار».

* * *

(٤)

بيان دروس السورة

تشتمل سورة «المزّمل» على ثلاثة دروس:

الدرس الأول: وهو يتضمَّنُ أوامر ووصايا سلوكيةً للرسول ﷺ، وللمؤمنين معه.

وهو من الآية الأولى، وحتى غاية الآية (١١).

الدرس الثاني: وهو يتضمَّنُ مُعَالجةً للكافرين بالوعيد المؤجل إلى يوم الدين، والمعجّلِ في الدنيا، مع تأكيد أنَّ رسالة الإسلام رسالة تذكير لا رسالة سوقٍ بالإجبار.

وهو من الآية (١٢) وحتّىٰ غاية الآية (١٩).

الدّرس الثالث: درس مُلْحَقٌ بالدرس الأول من السورة، إذْ فيه نسخ لحكم فرضيَّةِ قيام اللّيل على ما جاء في الدرس الأول، مع إضافة أحكامٍ ووصايا أخرى مقرونة بالوعد بأجْرٍ عظيم عند الله، ومَغْفِرَة للمؤمنين العاملين بمراضي الله.

وهو الآية (٢٠) الأخيرة.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدرس الأوّل

الآيات من (١ ـ ١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾.

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١)﴾ خِطَابٌ من اللَّهِ لرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ بأداة النِّداء «يا» الموضوعة للمنادىٰ البعيد، إشارةً إلى بُعْدِ المنزلَةِ بَيْنَ الرَّبِّ وعِبادِه مَهما كان العَبْدُ ذا قُرْبٍ من اللَّهِ بخضوعه وعبادته، واصطفاءِ اللَّهِ له، ولو كان أفْضَلَ الأنبياء والْمُرسلين، وإشارةً إلى أنّ الخائف المتزمِّلَ الْقَابعَ بحُجْرَتِهِ مبتَعِدٌ يَحْتَاجُ إلى مثْلِ هذا النّداء، وتنبيهاً على الاهتمام بالمطلوب بعد النداء.

المُزَّمِّل: أَصْلُها الْمَتَزَمِّل، قُلِبَتِ التاء زاياً وأُدْغِمَتْ بالزّاي فصَارتا زاياً مُشَدَّدَة.

المُتزَمِّل: المتلَفِّفُ المتَغَطِّي بثيابه، يُقالُ لُغَة: تَزَمَّلَ، أي: تلفَّفَ بثيابه وتَغطَّىٰ، **وزَمَّلَهُ**: أي: لَفَّهُ بثَوْبِه.

قال إبراهيم النَّخعيّ: نَزَلَتْ على الرّسول ﷺ وهو مُتَزَمِّلٌ بقَطيفَة.

ويظهر لي أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ خاطَبَهُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١)﴾ في سورة «المدثر» إشارة إلى قوله بعد أن رأى جبريل على كُرْسِيٍّ بين السماء والأرض فَذُعِرَ مِنْهُ: «دَثّروني» وخاطَبَهُ هنا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١)﴾ إشارةَ إلى قَوْله: «زمِّلوني».

ويلْمَحُ الأديبُ في النّداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١)﴾ وبـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١)﴾ معْنَىٰ الملاطفَةِ الرَّفيقة الجادّة، الّتي تضمَّنَتِ الإشارة إلى مُهمَّاتِ الرِّسالة التي لا يتّفِقُ معَها الإخلادُ إلى السُّكُونِ والرَّاحَةِ.

ولعلَّ الرسول ﷺ اقْتَبَسَ من أدَبَ هٰذهِ الملاطفة الجادَّةِ في النداء، فنادىٰ عليًّا رضي الله عنه بقوله له: «يَا أَبَا تُراب» حين طَلَبَهُ، فوجده في المسجد نائماً مُتوسِّداً التُّرَابَ.

وقَدْ جاء بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ②﴾. وجاء بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ①﴾ قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾، إشعاراً بأنَّ هٰذِه الرِّسالة الرَّبَّانيَّةَ رِسالةُ جِدٍّ واجْتِهادٍ ونُهوضٍ إلى الْعَمَلِ في الدَّعْوَةِ وَفي العباداتِ الخاصَّةِ، وقدِ اصطفاكَ اللَّهُ لها واجتبَىٰ المحسنين والأبرار من أُمّتِك لِيَقُوموا بوظائِفها من بَعْدِك، فَلَا يَليقُ بمَنْ يُصْطَفَىٰ لها التَّدَثُّرُ والتزَمُّلُ بالثياب، والراحة والنوم إلاّ بمقدار الحاجة الشديدة، أمّا الْقُعُودُ والإخلادُ إلى الراحة، والتَّدَثُّر والتَّزَمُّلُ بثياب الاضطجاع والنوم، فهو شأنِ أهل الكسل، لا شأن من يُجْتَبَوْنَ للعمل الجادّ، والكدْح المتواصل، وحمل المهمّاتِ الْجِسام، والراحةُ لا تُؤْخَذُ فيها إلاّ بمقدار الحاجة فقط.

- ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ④﴾.
- ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾.

قُمْ: فعل أمْرٍ مِنْ قامَ يقُومُ قوْماً وقِياماً. والقيامُ هو ضدّ الجلوس، ويأتي القيامُ بمعنَىٰ الْعَزم، يقالُ لغةً: قامَ يفْعَلُ كذا، أي: عزَمَ على فِعْلِه.

وقَامَ بالأمْرِ، أي: فعَلَه. وقامَ فلانٌ اللَّيْلَ، أي: بقي صاحِياً فيه لم يَنَمْ. ويُكنَّىٰ عن عبادة الله فيه بعبارة: «قَامَ اللَّيْلَ» وخُصَّتْ هذه العبادة غالباً بعبادة الصَّلاة في اللَّيْل، ولهذا فهم المفسّرون من قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ قُمْ للصَّلاَةِ في اللّيل. ودلّ الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ على أنّ المراد بأداة التعريف «أل» في: «اللّيل» الاستغراق، فهي مثل لفظ «كلّ» إذ الاستثناء دليلٌ على أنَّ المستثنى منه عامٌّ مستغرق كلّ أفراده أو أجزائه.

والقليلُ المستثنى لا بدّ أن يكون أقلَّ من نصف اللّيل، أي: فهو الثلث أو نحوه، وقد بدأ الأمر الرّبّانيُّ بالأفْضَلِ من المقادير الموضوعة للتخيير، وهو قيامُ نحو ثُلُثَي اللّيْلِ.

وبعد هذا أَذِنَ النّصُّ بالاكتفاء بقيام واحِدٍ من أزمنة ثلاثةٍ من اللَّيل.

الأول: الاكتفاء بنِصْفِ اللّيل، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بَدَلاً مِنَ اللَّيل.

الثاني: الاكتفاء بأنقَصَ من نِصْفِ اللّيْلِ، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ويَصْدُق هذا بالثلث أو بما هو أكثر من الثلث وأقَلُّ من النصف.

الثالث: الاكتفاء بما زَادَ على النصف ولو كان أَقَلَّ من الثلثَيْن، وجاء بيان هذا بعبارة: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾.

فكأنّه بهذا التعبير الموجز قال:

قُمْ ثُلُثَي اللّيل، أو قُمْ نِصْف اللَّيل، أو قُمْ ثُلُثَهُ، أو ما زاد على الثلث دون أن يَبْلُغَ النصف، أو قُمْ ما زاد على النصف دون أَنْ يبلغ الثُّلُثَين.

فهي خَمْسَةُ تخييرات في الأزمنة المأمور بقيامها من اللّيْلِ، أفْضَلُها ثُلُثَاهُ باستثناء حالاتِ الْعُذْر، ودلَّ على هذا الأفْضَلِ البدْءُ به، وتتنازلُ الأفضليّات بحَسَب تناقُصِ مقدار الزمن.

هذا النَّصُّ يفتح الباب لتعلُّم كُسُورِ الأعداد، ويظهر لي أنّ النَّصَّ قَدْ جَزَّأَ اللّيلَ إلى (١٢) جزءاً.

- فأكمل القيام ما كان بمقدار ($\frac{٨}{١٢}$) وهو الثلثان.
- ودونه ما كان بمقدار ($\frac{٧}{١٢}$) وهو ما بين النصف والثلثين.

- ودونه ما كان بمقدار ($\frac{٦}{١٢}$) وهو النصف.
- ودونه ما كان بمقدار ($\frac{٥}{١٢}$) وهو ما بين النصف والثلث.
- ودونه ما كان بمقدار ($\frac{٤}{١٢}$) وهو الثلث.

والأمر إلزاميٌّ للرَّسُولِ بواحدٍ من هذه التخييرات، وقَدْ نَفَّذَ الرَّسُول الأَمْرَ، وتَبِعَهُ فيه طائفةٌ من أصحابه دون أن يكون واجباً عليهم، فكانَ يَقُومُ مَا هُوَ أقْرَبُ من ثُلُثَي الليل أحياناً، وكَانَ يَقُومُ نِصْفَهُ أحْياناً، وكَانَ يَقُومُ ثُلُثَهُ أحْيَاناً، وكان يَقُومُ بَيْن ذلِكَ أحياناً، وقد دلَّ على هذا ما جاء في الآيَةِ المدَنِيَّةِ الناسِخَة، المضمومة إلى آخِرِ هذه السورة المكيّة، إذْ جاء فيها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ له:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ . . .﴾.

أدْنَىٰ: أي: أقْرَب، وهذا يكون دون الثلُثَيْنِ بقليل، وقد يكون هذا القليل دقائق يصْعُبُ على القائم ضبْطُها، لكِنَّ الله عَلِيم بها، وهو لا يَقُولُ إلاَّ صِدْقاً.

- ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾.

التَّرْتِيل: القراءة بتَمَهُّلٍ وأَنَاة، قال أهلُ اللّغة: رَتَّلَ الكلامَ، أي: أحْسَنَ تأليفه، وأبانَهُ، وتمَهَّل فيه، والترتيلُ في القراءة الترسُّلُ فيها والتَّبْيينُ مِنْ غيْرِ بغيٍ، أي: من غير زيادة مُفْسِدَة.

قال أبو إسْحٰق: التَّبيينُ لاَ يَتِمُّ بأَنْ يعْجَلَ في القراءة، وإنّما يَتِمُّ التَّبْيينُ بأن يُبَيِّنَ جميع الحروف، ويُوَفِّيَها حَقَّها من الإشباع.

وجاء في صحيح البخاريّ عن أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سُئِلَ عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانَتْ مَدّاً» ثُمَّ قرأ بسم الله الرحمن الرحيم،

يمُدُّ «بسم الله» ويمُدُّ «الرحمن» ويَمُدُّ «الرحيم».

فمَنْ تَعَلَّم التجويد بالترتيل على علماء التجويد فقد أخذ بطريقة النبيّ ﷺ في تلاوته لكتاب الله.

إنّ ترتيلَ القرآنِ وفقَ القراءة المجوَّدَةِ المتّبعَةِ تَلَقِّياً عن الرسول ﷺ أعْوَن على فهم القرآن وتدبُّر معانيه، فمن أَغْرَاض ترتيلِ القرآن تفهُّمُ آياتِه وتَدَبُّر معانيها، إذْ هي ثَرَّةُ المعاني، ثَقِيلَةُ الْوَزْنِ في الأفهام، لا يستطيع تَالِيها أَنْ يُدْرِك بِسُرْعَةٍ ما فيها من كُنُوزِ معانٍ ثقيلَةٍ، لما فيها من إيجاز، وما فيها منْ جوامع الْكَلِم، والقواعد الكلّية، والمطْويّات في المثاني، ولهذا جاء فيما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ في وَصْفِ القُرْآن بأنَّهُ لا تَفنى عجائِبُه.

وجاء الأمر بِتَرْتِيلِ الْقُرْآن مؤكَّداً بالمفعول المطْلَقِ: ﴿تَرْتِيلًا ﴾ بَعْدَ الأمْرِ بقِيَامِ اللَّيل، لأنَّ قيام اللّيلِ بعبادة الصَّلاة يشْتَمِل عَلَىٰ تلَاوة آياتِ وسُوَرٍ من القرآن مَأْمُورٍ بتَرْتيلها تَرْتيلاً بعناية، ولا يفوتُنا ما في إيحاء نبرات كلمة ﴿تَرْتِيلًا ﴾ من تَرَسُّلٍ وأناةٍ وتجويد.

ولا أرَىٰ مانِعاً من أَنْ يتحقَّق قِيامُ الليل بعبادةِ تِلَاوةِ القرآن ولو من دون صلاة، فتِلَاوةُ الْقُرْآنِ وحْدَها عبادة، إذْ يُثَابُ تالي القرآن على تلاوة كلّ حرف منه ثوابَ عَشْرِ حسنات، (ألِفٌ) حرف و (لَامٌ) حرف وَ (مِيمٌ) حرف من (ألم).

- ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

ذهب أهل التأويل مذاهِبَ مختلفة في تفسير كون آياتِ القرآنِ قَوْلاً ثقيلاً.

والّذِي ظَهَر لي أنَّ المرادَ من ثِقَلِ القولِ القرآني أَنَّهُ ذُو مَعَاني وفيرةٍ غَزيرةٍ، وهٰذه المعاني الثَّرَّة لا يُسْتَطَاعُ تَفَهُّمُهَا من قِبَلِ الناس إلاَّ بالقراءة المرَتَّلَةِ الَّتِي فِيها أناةٌ، وتَمهُّلٌ، وتَفَكُّرٌ، وتَدَبُّرٌ.

ومن هذه الآية نقتبسُ مذهباً في الأدب، هو مذهبُ الْقَوْلِ الثَّقِيل، ويقابِلُهُ الْقَوْلُ الخفيف، والقولُ المتوسّط، وبَيْنَ هذه المراتب الثلاث درجاتٌ متعدّدات.

والقولُ الثقيلُ هو من خصوصيّاتِ إعجاز القرآنِ البياني، إذْ هو ثقيلُ المعاني، حمَّالُ دلالاتٍ على مضامينَ فكْرِيّةٍ ذاتِ وزْنٍ عظيم في موازين العقول والأفكار.

والقولُ الثقيلُ هو قولُ العظماء والكُبَراء والملوكِ لشعوبهم، حتَّىٰ يتَّفكَّرُوا في تحليل دلالَاتِه ويحفظُوهُ ويُرَدِّدُوهُ، ويستَنْبِطُوا مِنْهُ المعاني، ويكونُ شغْلَهُمُ الشّاغِل.

فكيْفَ بقولِ رَبِّ العالَمِينَ للنَّاس أجمعين، إنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قولاً ثقيلاً.

وقد أبَانَ اللَّهُ هذا الوصْفَ من أوصاف القرآن مع أوائل التنزيل، وقبل أنْ يُنَزِّل اللَّهُ من السُّوَرِ ما يكْشِفُ هذه الحقيقة بجلاءٍ، أمّا صيغَتُه فقد جاءت على سَبِيلِ الوعْدِ بما سَيُنَزِّلُ على رسوله، ثُمَّ تحَقَّقَ هذا الموعودُ به فيما أَنْزَلَ بَعْدَ ذلِكَ في نجوم التنزيل.

أمّا حَمْلُ ثِقَلِه على ثِقَلِ العمل به فمستَبْعَدٌ، لأنَّ الله ما جَعلَ على المسلمين في هذا الدين من حَرَج.

وأمّا حَمْلُ ثِقَلِه علَىٰ ثِقَلِ حِفْظِه وتذَكُّرِه، فيبْعِدُهُ قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

وأمّا حَمْلُ ثقله على ثِقَلِ تنزيله على جَسَدِ الرَّسول عِنْدَ نُزُولِ الوحْي به، فهذا الثِّقَلُ هو مِنْ أَثَرِ الوحْي، لا من أَثَرِ ثِقَلِ آياتِ القرآن، وهو مستبعَدٌ أيضاً.

فالمعنى الذي ينبغي المصير إليه لِثِقَلِ القولِ القرآني، هُوَ غَزَارَةُ معانيه، مع قِلَّةِ ألفاظه، وثِقَلُ جواهر المعاني التي يشتمل عليها.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ المعاني تتفاوتُ فيما بينها الأوزان، كما تتَفاوت العناصر الكونيّة في أوزانِها الذّرّيّة. فالمعاني الّتي تتعلّقُ بكُلّيّاتِ الوجود الكُبْرىٰ، غَيْرُ المعاني الّتِي تَتعلّقُ بظواهر الأشياء، من صُورٍ وألْوان.

إنّ من المعاني ما هو كمثل وزن الزئبق، ومن المعاني ما هو كمِثْلِ وزْنِ ورَقَةِ الورد، ومن المعاني ما هو كمثل وزْنِ جناح بعوضة.

إنّ آيَةً واحدةً مؤلَّفَةً من بِضْعِ كلماتٍ، قد يَسْتَخْرِجُ المتدبّر منها معانيَ يحتاجُ شرحُها وبيانُها مئاتِ الكلمات، ويظلُّ فيها وفرٌ عظيم، وهٰذا من ثقلها.

بينما نجدُ مئاتٍ من الكلمات يُمْكن اختصارها في بضع كلمات، وهذا من خفّتِها.

يُضافُ إلى ما سبَقَ أنَّ القَوْلَ الحقّ النافع المفيد يوصَفُ بالثُّقَل، أمّا القَوْلُ الباطلُ الذي لا نَفْعَ فيه ولا خيرَ فَهُو فارغٌ لاَ وَزْنَ له، وبعض القول نفعه قليل فهو ذو وَزْنٍ خفيفٍ لا ثِقَلَ له.

وكذلك العملُ في ميزان الأعمال عند الله، فالصالح منْهُ يُثْقِلُ ميزانَ صاحِبِه، بخلاف العمل الفاسد، فإنّه يَجْعَلُ مِيزانَ صاحبه طائشاً خفيفاً، قال الله عزّ وجلّ في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾.

وقَدْ وَصَفَ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّحَابَ الْمَلِيئَةَ بما يَنْفَعُ النّاسَ من غَيْثٍ بأَنَّهَا سَحَابٌ ثِقَالٌ.

- ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

النّاشئ: هو ما يُوجَدُ مُتَزايداً شيئاً فشيئاً، كالنباتِ يَرْبو، والكائن الحيّ ينمو، وكأوقات اللّيل أو النهار تتراكم، والناشِئَةُ مُؤَنَّثُ الناشئ، ومنه يقال: فتىً ناشئٌ، وصبيان ناشئون.

وجاء في تفسير ناشئة اللّيل أنّها سَاعاتُهُ وآنَاؤه، لأَنَّهَا تَنْشَأُ نُشُوءاً مُتَزايداً رابياً، والمرادُ من ساعَاتِ اللّيل وآنائه أعمال العبادة فيها، وهو على تقدير: إنّ الأعمال في ناشئَة اللّيل، وهو مجاز بالحذف، فهو من قبيل المجاز المرسل.

وجاء في تفسير نَاشِئَةِ اللّيْلِ أنّها أعمالُ العبادة الَّتي تُنْشأ في الليل، كالصلاة الّتي تُنْشأ في اللّيل، والذِّكْرِ وتِلاَوَةِ القرآن، فقيامُ اللَّيْلِ هو من ناشِئَةِ اللّيل، وهَذَا من إسناد الفِعل أو ما في معناه إلى غير ما هُوَ لَه، ويُسَمّىٰ عند علماء البلاغة مجازاً عقليًا، وقد جَرَىٰ هنا إطلاق لفظ «النَّاشئة» وهو اسم فاعل، على الأعمال «الْمُنْشَأَة» في اللّيل، و «الْمُنْشَأَةُ» اسم مفعول، فهو من إسناد اسم الفاعل إلى غير ما هُوَ له.

ونظيره في وصْفِ المؤمن في الجنة بأنّه في عيشةٍ رَاضِيةٍ، مَعَ أنّ العيشة مَرْضيَّةٌ من قِبَلِ المؤمن فيها.

- ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾: «هي» ضمير فصْلٍ جِيء به للتأكيد. **أشَدُّ وطْأ**: أي: أكْثَرُ شِدَّة وَطْءٍ، ومن كان ذا وَطْءٍ شديدٍ كان أثْبَتَ قدَماً.

الْوَطْءُ: وضْعُ الْقَدَمِ على الشَّيْءِ مَعَ ثِقَلِ الْجِسْم من فَوْقه، يقالُ لغةً: وَطِئَ الشَّيْءَ يَطَؤُهُ، إذا دَاسَه. وتكونُ شِدّةُ الْوطْءِ ببذْلِ ثِقَلٍ زائدٍ أو قُوَّةٍ ما على الموطوء، وبها يكون الواطئُ أكْثَرَ ثباتاً وتمكُّناً.

فعبارةُ: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ تدُلُّ على أنَّ أعمال العبادة في ساعات اللّيل وآنائه أكْثَرُ وأَشَدُّ ثباتاً وتَمَكُّناً في عُمْقِ النفس.

فالعبادةُ الّتي هذه صفتها تكونُ عبادةً راسخةً بعيدةً عمّا يَهُزُّها ويُزَلْزِلُهَا عَنِ المقصودِ الحقيقيّ منها، من عوارض النفس وشهواتها، ومشاغل الفكر، وصوارف الرّياء والسُّمْعة، لأنّها تكونُ بين العبد وربّه في صفاءٍ ونقاءٍ وخلْوَةٍ، في جَوْفِ اللَّيْل الْمُحَاطِ بالرَّهْبَةِ والسُّكُون.

وعبارة: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ تَحْمِلُ أيضاً معنىٰ أنَّ العبادة في آناء اللَّيْلِ أكثر غلَبةً للنفس وشهواتها، وأكثر قهراً لها وتذليلاً، أخذاً من قول العرب: وَطِئْنَا الْعَدُوَّ وَطْأً شديداً.

وجاء في القراءة الثانية: [أَشَدُّ وِطاءَ] الْوِطاءُ: الموافَقَةُ، يُقَالُ لُغَةً: أَوْطأَ فُلاَنٌ فُلاناً على الأَمْرِ، إِذَا وَافَقَهُ، والتواطُؤُ هو التوافُق. والمرادُ من كوْنِ نَاشِئَةِ اللَّيلِ أَشَدَّ وِطاءَ أنّها أَشَدُّ مُوَاطَأَةً وَمُوافَقَةً بَيْنَ أَعْمالِ الجوارح وحَالَةِ النفس والفكر والقلب. أي: هي أَجْمَعُ لكُلِّ جَوَانِب النفس حتَّىٰ عُمْقِ الْفُؤَادِ مَعَ مَشَاعِرِ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ علَىٰ العبادة.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: **الْقِيلُ**: هُوَ الْقَوْل. والمعنى أنَّ القولَ في سَاعاتِ وآناءِ اللَّيْل يكون أكْثَرَ استقامَةً، وأدْنَىٰ إلى مطابقة الحقّ والخيْرِ والْهُدَىٰ، وأكْثَرَ سَدَاداً ورُشْداً وَتَوْفيقاً للمعاني الجليلة.

إنَّ اللّيْلَ بسُكُونِهِ وَرَهْبَةِ ظُلْمَتِهِ يُهَيِّئُ للعابد سكينَةً نَفْسِيَّةً، تَجْعَلُ ما يقُولُهُ في عبادتِه من ذِكْرٍ وَدُعَاءٍ وتَدَبُّرٍ لآياتِ كتاب اللّهِ، وما يَتَفكَّرُ فيه من آيات الله الكوْنيَّة، أكْثَرَ استقامَةً، وأقْرَبَ إلىٰ مطابقة الحق والخير وَالْهُدَىٰ، وأصْدَق مناجاة للّهِ وَتَذَلُّلاً بَيْنَ يَدَيْه.

واستقامةُ الْقَولِ في الذكرِ والدُّعَاءِ والتّلاوة وإنشاءِ المقالات وتأليف المؤلفاتِ وابتكار الأفكار تكونُ بالْتزام الحق والخير والْهُدَىٰ، وابتغاء مرضاة الله عزّ وجَلّ، بحضُورٍ صحيح ثابت راسخٍ مع الله، فكراً ونفساً وقلباً حتَّىٰ عُمْقِ الْفُؤَادِ.

ودلَّ قَوْلُ الله تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ علَىٰ أَنَّهُ ينبغي تخصيصُ اللَّيْلِ لأعْمَالِ العبادَةِ على اختلافِ أنواعها، وتَرْكُ أعْمالِ كسْبِ الأرزاق للنهار، إلاّ عند الحاجة أو الضرورة.

- ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾.

الخطابُ في هٰذه الآية موجَّهٌ للرسول محمّد ﷺ ثمّ لأمّته المتأسّين به، ولا سيما حملة رسالته في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيادة الخلْق إلى الحقّ والخير والهدىٰ.

السّبْح: حركة الانتقال من مكان لآخر برفق ولين وسهولة، ومنه سَبْحُ السّمك في الماء، وسبْحُ الطّيْر في الهواء، وسَبْح الكواكب والنجوم في مَسِيراتها بأفلاكها، وحركَةُ اللّيْلِ والنهار الدائرة في فلكها.

ويُطْلَقُ السَّبْحُ على تقلُّب الإنسان وتصَرُّفه في معايشه، وسمَّىٰ العربُ جَرْيَ الخيْلِ سبْحاً، وقالوا عن الفرس الذي يجري: «سابح» لأنّ حركته السّريعة حركةُ سَبْحٍ، إذْ تكاد قوائمه لا تلامِسُ الأرض.

فالمعنىٰ: إذا خصصتَ اللَّيْلَ لعبادة اللَّهِ فيه كما أمَرَكَ اللَّهُ ربُّكَ بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ فإنّ لكَ في النهار مجالاً واسعاً وزَمناً طويلاً للقيام بما تحتاج إليه من مطالب حياتك، ومعايشك، وللقيام بوظائفِ رسالتك الدّعَوِيَّة والتربويَّة، والجهاديَّة مع الناس.

وقد عَلِمْنا أَنَّ تفريغ اللّيْلِ للقيام بالصلاة ونحوها قد كان في السنوات العشر الأولى من تاريخ رِسالة الرَّسُول ﷺ، ثُمَّ نزلت الآية (٢٠) من السورة ناسخةً هذا التكليف الإلزاميّ، ويظهر أن قيام جزء من اللّيل بقي واجباً على الرسول ﷺ، أمّا سائر المسلمين فيُسَنُّ لهم قيام اللّيْلِ دواماً.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ إرْشادٌ إلى أَنْ تَكُونَ الحركَةُ لتحصيل مطالب الحياة، وكسْبِ الأرزاق، وابتغاء المعايش،

برفق وسماحة وتلطّف. وكذلك الحركة للقيام بوظائف الرسالة الدّعويّة والتربويّة ونحوهما.

إنّ الناس يكْسِبُون في الحياة الدنيا معايشهم بوسائل شتّىٰ، فمنها ما يكونُ بعُنفٍ ومُغَالبَة، ومنها ما يكونُ بِكَدٍّ مُنهِكٍ للقُوىٰ، ومستنفدٍ للطاقات، ومنها ما يكونُ بإقبالٍ شَرِهٍ بغْيَةَ تحصيل الأموال، ومنها ما يكون بطمعٍ ورَغْبَةٍ في ظُلْم الآخرين والعدوان عليهم، وسَلْبٍ ونهْبٍ وغِشٍ واحتكارات ظالمات ونحو ذلك.

لكنّ هذه الآية تُرْشِدُ إلى الرفْقِ والسماحة والطَّلَب الجميل، والسَّبْحِ بحْثاً عن الرزق ومعايش الحياة ومطالبها وواجباتها بالوسائل المباحة المأذون بها شرعاً، دون مغالبة ولا مصارعة ولا ظلم ولا عدوان.

وقد عبّر القرآن عن هَذا بالسَّبْحِ، كما تسْبَحُ الطُّيور في جَوّ السَّماء، وكما تسْبَح الأسماكُ في الماء، بحثاً عن أرزاقها ومعايشها ومطالب حيَوَاتها.

إنّ هذا السَّبْحَ الطويل في النهار يكفي لتحصيل معايش الحياة، وتحقيق مطالبها، مع القيام بواجباتِ ووظائف الرسالة، فلْيَكُنِ اللَّيْلُ للعبادة والرّاحة.

وقد كان هذا في أوائل الإسلام قبْلَ فرض الصلوات الخمس.

ومن وصف أعمال الكسب الأفضل بالسَّبْحِ، ومن تخصيص أَنَّ هذا السَّبْحُ في النهار، نلاحظ التوجيه الرَّبّانيّ لعنصرين:

العنصُر الأوّل: هو العنصُر الحركيُّ للكَسْب، وهو السبح.

العنصُر الثاني: هو الزَّمَنُ الذي ينبغي أن يُخَصَّصَ للكسب، وهو النهار، فالنهارُ هو الأصْلَحُ والأفْضَلُ لكَسْب المعايش، والقيام بأعمال العلاقات مع الناس.

أمّا اللّيل فهو الأصْلَحُ والأفضل للرّاحَةِ والنوم، ولعبادة القيام،

وللصفاء مع الله جلّ جلالُه، والسكينة بين يديه في العبادة والمناجاة والتفكُّر والتأمُّل.

ثُمّ أنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في نجوم التنزيل اللّاحقَةِ تأكيد أنه سُبْحانه جعَلَ اللَّيْلَ لبَاساً وَجعَلَ النهار معاشاً، فقال تعالى في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

ولا يخفى على من يلاحظ حركات الحياة أنَّ السَّابح يبحث عن مطالب حياته برفق ويُسْرٍ وسُهولة، فحيث وجَدَها ضِمْنَ ما سَخَّرَ اللَّهُ له وأَذِنَ لَهُ بِه التقطها برفْقٍ، دون عُنْفٍ ولا مُغَالبةٍ وَلا مُنَاهبَة ولا مقاتَلةٍ ولا عدوانٍ ولا ظلم.

إنّ الأرزاق مقسومة مقدَّرة بالقضاء والقدر، وعلى الإنسان أن يسبح في حياته لتحصيل ما قَسَمَ الله له، وأن يُجْمِل الطَّلَب، وأن يكون رفيقاً، وأن يلتزم المنهاج الذي أمره الله بالتزامه، فزيادة الكَدِّ لا تزيد في الرزق، والكسبُ بمعصية اللَّهِ عزّ وجلّ يُوجب العقوبة من جهة، ولا يَزيد في الرزق من جهة أخرى.

وإذا اتَّجه الإنسان لتحصيل مطالب حياته ومعايشه بحركة السَّبْحِ، أفيترِكُ وهو يَسْبَحُ ذِكْرَ رَبِّهِ؟

وقد جاء الجوابُ الرَّبّانِيُّ على هذا التساؤل النفسيّ، بقول اللَّهِ عزّ وجلَّ في النصّ التالي:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

وجاء في القراءة الأخرى: [رَبِّ المشرِقِ] بجرّ لفظ «رَبّ» على أنَّهُ بدلٌ مِنْ: ﴿رَبِّكَ﴾ أو نَعتٌ، أو عَطْفُ بيان.

أمّا ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ بالرَّفْعِ فَهُو على الْقَطْع، ويكونُ خَبَر مبتدأ محذوف تقديره: هو رَبُّ المشرق والمغرِب.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: واذْكُرْ مع سَبْحِكَ في النهار ما يُلائم حركة حياتك الواعية من أسْمَاءِ رَبّك.

لفظ «اسْم» هو نكرة تَصْدُقُ بأيّ اسْم من أسماء اللَّهِ الْحُسْنَىٰ، ولمّا كان استغراقُها متعذّراً أو شاقًّا جدًّا، كان المطلوب ذكر الاسم الملائم لحركة حياة السابح من أسماء الله الْحُسْنَىٰ.

وأسماءُ اللَّهِ الحسنىٰ باستثناء الاسم العلم «الله» هي أسماءٌ دالأَتٌ على صفاته، ولا شَكَّ أنّ ذِكْرَ الأسماء الدّالأَتِ على الصفات تجعل الذاكِرَ في حالَةِ مُرَاقبةٍ للَّهِ عزَّ وجلَّ عندَ كلِّ عَمَلٍ يعملُه، أو يخطُرُ لَهُ أَنْ يعمله.

فإذا كان يعمل في كسب الرزق فليذكر اسم الله الرزّاق، واسْمَ الله الغنيّ، واسْمَ اللَّهِ الكريم، ونحو ذلك.

وإذا خطر له أنْ يرتَكب معصيةً، فليذكُرْ من أسْماءِ الله «المنتقم، الجبّار، الْعَدْل» ونحوها.

وإذا وقع في معصية، فلْيَذْكر من أسماء الله: «الرّحيم، التوابّ، الغفور، العفوّ» ونحوها.

وإذا تَوجّه للقيام بعمل فلْيَقُلْ: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وهكذا، فعبارة: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ صالحة لكل ذلك وأشباهه.

﴿رَبِّكَ﴾ أي: المهيمن عليك برُبوبيته، الّتي تجمع كل أسماء الله وصفاته ذوات العلاقة بكَ عطاءً أو منعاً أو محاسبة أو جزاءً، أو غير ذلك.

وثمرة ذكر أسماء الرّبّ جلَّ جلاله تَوْجيهُ النَّفْسِ للعمل بمراضيه والإخلاص له، والابتعاد عن معصيته.

وطاعةُ الله دواماً إنّما تتحقَّق بقطْعِ النفس عن أهوائها وشهواتها الجانحات عن صراط الله، وبقطع النفس عن وساوس الشياطين.

والإخلاصُ لله في الأعمال لا يتحقَّقُ إلا بقطع علائق النفس عن مظاهر الحياة الدنيا، وأوهامها، وزينتها، وزخْرُفها، ومفاخرها، والتكاثر منها، وعَنْ مراقَبةِ النَّاسِ والسَّعْي لاكْتِسَاب رضاهم، والْمَجْدِ عن طريقهم، ومَدْحِهم وثنائهم.

وهذه كلُّها إنّما تتحقَّق بالتبتُّلِ لله عزّ وجلّ، فقال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾.

«التَّبَتُّلُ» هو الانقطاع عن شيءٍ أو أشياء والاتجاهُ الكلّي لما حصل التّبتُّلُ إليه، تقولُ لغة: تبتَّلَ إلى اللّهِ تبتُّلاً وَتَبْتِيلاً، أي: انقطع إلى طاعة اللّهِ والعَمَلِ بمراضيه والإخلاصِ لَهُ، عن كلّ ما سِوىٰ ذلك من الصوارف عنها، من كلِّ ما فيه معصية أو مخالفة، أو محبطات للعمل، أو انشغال عن المغانم من الأجْرِ العَظيم.

- ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾:

ثناءٌ عَلَىٰ اللّهِ بأنَّهُ رَبُّ المشرقِ والمغربِ مع رُبوبيّتِه للناس جميعاً، إنّه جَلَّ جَلالُهُ رَبُّ كُلِّ شيء، ولكِنَّ ذِكْرَ اللَّيْلِ والنهارِ في الآيات السابقات، المرتبطَيْنِ بشروق الشمس، وغروبها، ناسَبَهُمَا ذِكْرُ رُبُوبيَّةِ اللّهِ للمشرق والمغرب، وفي ذكْرِهما تَنْبيهٌ علىٰ آياتِ اللّهِ الكونيّة في ظاهرتي الشروق والغروب، ونِعَمهِ وآلائه على عباده فيهما، وربوبيةُ الله للمشرق والمغرب تظْهَرُ في أنّه هو المقدّرُ لمواقع الأرض والشمس، وحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس والْمُجْرِي لأحداثهما.

- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾:

أي: لا مَعْبُود بحَقٍّ إلاّ الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ، الّذي هو رَبُّكَ ورَبُّ

الْمَشرِقِ والْمَغرِب، فَمَنْ لَهُ الرُّبُوبيَّةُ كُلُّها لا بُدَّ أنْ تكونَ له وحْدَهُ الإلَهِيَّةُ، فلا يجوز عقلاً ولا في أوامر الدين عبادة غيرِه، ولا إشراكُ أحَدٍ معه في العبادة.

وفي تَوْحِيدِ الرُّبُوبيَّة، وتوحيد الإلَهِيَّة، للَّهِ وحْدَهُ لا شريكَ له، بيانٌ لِلأَصْلَيْنِ الأَوَّلَيْنِ من أُصُولِ الدّين، وترسِيخٌ لهما في أفئدة المؤمنين.

ولمّا كانت الرّبُوبيّة للَّهِ وَحْدَهُ، إذْ هُوَ وَحْدَهُ المتَصَرِّفُ بكُلِّ شيءٍ في الكوْنِ، ولمَّا كان هو وَحْدَهُ المستحقّ لأَنْ يُعْبَدَ، ولمَّا كان التوكُّلُ علىٰ شيءٍ غَيْبيٍّ عُنْصراً مِنْ عناصِرِ العبادة، ولمَّا كان الإنسانُ بحاجَةٍ ماسَّةٍ دواماً لأنْ يتوكَّلَ في أموره علىٰ غيبيّ قديرٍ عليم رحيم، قال الله عزّ وجلّ في النّصّ هنا:

- ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾:

أي: فاجْعَلْهُ وَكيلاً، وَقُمْ بأعمالِكَ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ، حتَّىٰ يُيَسِّرَ لك الأمور، ويُسَهِّلَ لك الأسباب، ويُمِدَّكَ بالحوْل والقوَّةِ والْمَعُونة، ويَصْرِف عنكَ الموانع، ويذلّلَ لك العقبات، سواءٌ أكانت أعمالَ عبادةٍ أمْ أعْمالَ تحقيقٍ لمطالب الحياة الدنيا ومعايشها.

إنَّ المتدَبّرَ لهذا الدرس الأوّلِ من دُروس سورة (المزمّل) يُلاحِظُ مَبْلَغَ الاهْتِمامِ بأعمال العبادة الّتي تَصِلَ المؤمن بربّه، وتُعِدُّه للقيام بواجب جهاد الدّعْوة وأعمال الجهاد الأخرى، فَمُجَاهدة النفس عَمَلٌ سابق ومتقدّمٌ على القيام بواجبات جهاد الآخرين.

وبعد إعداد النَّفْسِ عن طريق مجاهدتها بالعبادات، وأثناء القيام بجهاد الدّعوة، تأتي الوصيّة بالأخذ بفضيلة الصَّبْر على ما يقولُ الكافرون المكذّبون، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

- ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾:

هَاتَانِ الآيتان منَ التنزيل المدنيّ نزلتا بعد أَنْ حقَّقَ الرَّسُولُ ﷺ المطلوبَ منه فيهما في المرحلة المكيَّة الّتي نزلَتْ فيها السّورة، وقَدْ ضُمَّتا إليها.

فما السِّرُّ في هذا والخطابُ فيهما مُوَجَّهٌ للرَّسُول ﷺ؟!

ونستطيع بالتأمُّل أنْ نَفْهَم أنّ خطابَ الرّسُول في هذا هو خطابٌ لكلّ الدُّعاة إلى دين الله من أمّته، فإذا كانُوا في مرحَلَةٍ من مراحلِ دعوتهم للنّاس مماثلةٍ للمرحلة التي نزلت فيها سورة (المزّمّل) فالمطلوبُ منهم أن يَصْبِروا على ما يقول فيهم رافضو دعوتهم، وأَنْ يهجروهم هجراً جميلاً، وأن يتركوا لربهم المعرضين عنهم من كبراء قومهم المترفين أولي النَّعْمة، وأن يُمْهِلُوهم.

ولمَّا كان الرسول ﷺ في مرحلة نزول سورة (المزّمل) محقّقاً في نفسه وفي سلوكه المطلوب في هذا النجم القرآني، لم يكن بحاجة إلى تنزيله عليه يومَئذٍ.

بيد أنّ المنهج للدُّعاة مِن بَعْدِه لا بُدَّ أن يكون مستوفياً كُلَّ عناصِرِه، فاقتضت الحكمة الرَّبَّانيَّةُ العجيبة تأخير التنزيل إلى المرحلة المدنيّة، ووضْعَ النَّصِّ المنزَّلِ في مكانه الملائم له، فتحقَّقَ بهذا الإجراء غرضان تربويّان أو أكثر.

أي: إنّ هذه المرحلة من مراحل الدعوة تتطلّبُ تحقيق مضمون هذا المنهج، لكنَّ الرَّسُول قد حقّقه دون أن يُطْلَبَ منه، فلم يكُنْ هو في هذه المرحلة بحاجةٍ إلى إنزاله عليه، ولو أنه لم يَكُنْ قد حقّقَه لنَزَل هذا الخطاب بشأنه إبّان نزول سورة (المزّمل) أمّا الدُّعاة إلى دين اللّهِ من بَعْدِهِ فَهُمْ بحاجَةٍ إليه، وخطاب الرسول هو خطاب لأمّتِه ما لم يكن الأمْرُ من خصائصه الشخصيّة.

فاعْجَبْ لهذا الأسلوب البيانيّ التربويّ البديع، وتفهَّمْ دَلالَتَهُ الحكيمة.

- ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

الصَّبْر: ضَبْطُ النَّفْس تُجَاهَ ما يُثيرها ويهيجها من محبوبٍ تَرْغَبُ في الحصول عليه، أو مَكْرُوهٍ ترغبُ في دفعه أو الخلاص منه، أو الانتقام من فاعله أو الراغب فيه.

وهو إمَّا صَبْرٌ عن محبوب، أو صَبْرٌ على مكْروه.

وحامِلُ رسالة الدعوةِ إلى اللَّهِ لا بُدَّ أَنْ يُواجه رافضين لها، ولا بُدَّ في سُنَن الاجتماع البشريّ أَنْ يكون في رافضيها أصحابُ مصالح يَجِدون في امتدادها وانتشارها وانتصارها ضرراً يُهدّد مصالحهم، وهذا يدفعهم إلى مقاومتها بكلّ ما يستطيعون من قوّة ماديَّةٍ أو معنويّة، ويَدْفَعُهُمْ إلى مُقاومةِ ومحاربَةِ دُعَاتِها ونَاشريها ومناصِرِيها، ومن وسائِلهم في ذلك الحربُ الإعلاميّة، بإطلاق الأقوالِ التي تَتَّهِمُهُمْ بالكذب، أو بالجنون، أو بابتغاء مصالح دُنيويّة خاصّة يَسْعَوْنَ للحصول عليها، أو بغير ذلك من أقوالٍ تُشوِّهُ عند الناس سمعتهم.

والحكمة التربويّة الرّبّانيّةُ اقتضت أمْرَ الدُّعاةِ إلى اللَّهِ سواء أكانوا رُسُلاً أم أتباعاً للرُّسل بأن يَصْبِرُوا على ما يقولُ خصومها وخُصُومُهم في بَدْءِ نَشْرِها، وعَدَمُ الدُّخول معهم في صراعات كلاميّة من شأنها أن تُعَوّقَ مسيرة الدعوة، وتُوقِّف انتشارها، وتُحوّل المسيرة من نشر الحقّ والفضيلة والخير إلى مهاتراتٍ وشتائم فارغات تُهْدَرُ بها الطّاقات، وتَضِيع فيها الأوقات، فقال الله لحامل رسالة الدّعوة أيّا كان بأسلوب الخطاب الإفرادي: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

وعلَّمَهُ اللَّهُ أُسْلُوبَ الْهَجْرِ الجميل، فقال عزّ وجلّ:

- ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾:

الهجر: يكون بالإعراض، والابتعاد، وعدم اللّقاء والمواجهة، وهذا من شأنه ولو بعْدَ حينٍ أن يُخْرِسَ ألسنة الخصوم، ويجعلهم يسأمون من الإلحاح في متابعة الشتائم والاتهامات، ويمَلُّون من إطلاقها إذا لم يَجِدُوا من يَرُدُّ عليهم، وقد أدرك هذا المعنىٰ القائل:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِجابَتِهِ السُّكُوتُ

ومهما يكُنْ الكلبُ كثير النُّبَاح، فإنَّهُ إذا لم يَجِدْ من خصمه ردّاً مَلَّ وسَكَتَ عن الإلْحَاحِ، ولا سيمَا إذا هَجَرَه خَصْمُه وابْتَعَدَ عنه وعن مَبَاءته.

والْهَجْرُ الجميلُ هو الهجْرُ الذّي لم يَقْتَرِنْ بغضبٍ ولا مُخَاصَمَة ولا عتابٍ، فهو هجْرُ الراغب في العودةِ إلى المهجورين، الحريصِ على خيرهم ونجاتهم وسعادتهم، ودخولهم في عباد اللّهِ الصالحين.

ومقتضياتُ التربية الحكيمة والدعوةِ إلى الله برفْقٍ تُوجب على الداعي أَنْ يكونَ خفيف الظِّلّ، غيْرَ ثقيلٍ علَىٰ مَنْ يَدْعُوهُمْ، وإنْ واجَهُوهُ بما يَكْرَهُ من قَوْلٍ أو أذىً، وهجْرُهُ لَهُمْ هجراً جميلاً مَقْرُوناً بالإغضاءِ عنهم وعدم مقابَلتِهِمْ على أقوالهم الجارحة بمثلها، أو بغضَبٍ وانفعالٍ وحدَّةٍ، من شأنِه أن يَهْدِمَ ما في نفوسهم ضِدَّهُ، ويُلَيِّنَ من قَسْوَتهم نحوه شيئاً فشيئاً، وربما اجْتَذَب من صفوفهم من في قلوبهم بذور خيْرٍ وإنْصَافٍ وحقّ وَتأثُّرٍ بالفضيلة وكمال الخلق، فالْهَجْر الجميل يكونُ بالتواريّ بصورة مؤقّتة، وبعَدَمِ مقابلةِ السيئة بمثلها، وربّما يقترن به تكريم وإحسان عن بُعْدٍ.

- ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾:

سبق نظير هذا التعبير التَّهْدِيديّ في سورة (المدّثر) بشأن الوليد بن المغيرة، وشرحُ ما يتعلّق به.

أي: ودَعْني والمكذّبين الْمُتْرَفِين أَهْلِ التَّنَعُّمِ في الدُّنيا، بما آتيتهم من سَعَةٍ في الرِّزْقِ والصحَّة، فأبْطَرَتْهُمُ النَّعْمَةُ الَّتي سِيقَتْ إليهم لامتحانهم بها.

النَّعْمَة: بفتح النُّون هي التَّرَفُّهُ وزيادة الاستمتاع بزينةِ الحياة الدنيا ووسائلها. **والنِّعْمَةُ**: بكَسْرِ النون، ما أُنْعِمَ به عليك من عِطَاءٍ تُحِبُّهُ، أَوْ خِدْمَةٍ تُرْضِيك.

في هذا التعبير تَهْدِيدٌ ضِمْنِيٌّ للمُكَذِّبين، مع تأكيد طَلَبِ هَجْرِهِمْ هجراً جميلاً.

- ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾:

أي: ومَهِّلْهُمْ إمْهَالاً قَلِيلاً. **الإمْهَالُ**: إطالةُ مُدَّة الانْتِظَار والتَّرَيُّث. وفي هذا توجيه تَرْبَوِيٌّ لحامل رسالة الدّعْوة، يتضمَّنُ أنَّ الزمنَ يَحُلُّ كثيراً مِنَ الْعُقَد، ويُسَهِّلُ كثيراً من الصِّعاب، ولَهُ في النفوس الْبَشَرِيَّةِ مع الحلْمِ والصَّبْرِ والإحسان آثارٌ نافعةٌ جدًّا.

والإمْهَالُ الْقَلِيل تَنْصَرفُ القلَّةُ فيه إلى الزّمَن، والسَّنواتُ العشْرُ الّتي مَرَّت في المرحلة المكيّة قبل مواجهة المكذّبين في مَعَارِكَ قتالية بَعْدَ هجرة الرّسول ﷺ إلى المدينة، وإقامةِ الدّولة الإسلاميّة، تُعْتَبَرُ في تاريخ الدعوات مُدَّةً قليلة، فقد كان إمهالهم طوال المرحلة المكيّة إمْهَالاً قليلاً.

خلاصة هذا الدرس:

قد تناول هذا الدرس الأول من دُرُوس سورة (المزمّل) إعداد نفس الداعي إلى سبيل ربّه من جهتَيْن:

الجهة الأولى: تَرْبِيَتُه على أن يكون عميق الارتباط بربّه وقويّه دواماً، بعبادات الصلاة والذكر والتبتُّل.

الجهة الثانية: تربيته على أن تكون علاقته بالآخرين الذين يرفضون الاستجابة لدعوته قائمة على الصبر، والهجر الجميل، والإمهال وترك المقاومة، وهذا في المراحل الأولى من الدّعوة.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدرس الثاني

الآيات من (١٢ ـ ١٩)

قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

مقدّمة:

في هذا الدرس وعِيدٌ من الله عزّ وجلّ للمكذبين واجههم فيه بالخطاب، وهذا الوعيد يشتمل على عقابٍ مؤجّلٍ إلى يوم الدين، وعقابٍ مُعجّلٍ في الدّنيا.

وفيه تأكيدٌ على أنّ رسالة القرآن ورسالة الرسول محمد ﷺ رسالة تَذْكِرَة، كما جاء في سورة (المدثر) فمَنْ شاء بحُرِّيَّةِ إرادته غيْرِ الْمُكْرَهَةِ وَلا المجبُورَةِ ولا المسوقة بالْقَسْر، أَنْ يتّخِذَ إلى مرضاة ربّه وثوابه العظيم في جنّات النعيم سبيلاً بالإيمان والإسلام والسَّمْعِ والطاعة، فهو مُمَكَّنٌ من ذلك تَمْكيناً تامّاً، إذْ لا يَجدُ أمامه عقبة تقف في وجه إرادته الحرَّة المختارة.

التدبـر

الإلماح إلى الوعيد المؤجل إلى يوم الدين:

- ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾:

الأَنْكَالُ: القيود، والواحد مِنْها «**نِكْلٌ**» بكَسْرِ النون، وهو القيد الشديد من أيّ شيء كان.

لدينا: أي: عندنا. **لدى**: ظرف مكان بمعنىٰ «عند» والمعنى: نؤكد أنّ أنكالاً وما عطف عليها موجودَةٌ عندنا.

الجحيم: اسم من أسماء النّار. وكلُّ نارٍ عظيمةٍ في مَهْواةٍ فهي جحيم.

هذه العبارة: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ جيء بها على سبيلِ الكناية عن العقاب، إذ الأنكال والجحيم من وسائل عقاب اللَّهِ للمجرمين يوم الدّين، ولوّحَ النَّصُّ بها تلويحاً تَهْدِيدِيًا للمكذبين، أي: فالَّذِي أَعَدَّ الْقُيُودَ ونَار التعذيب إنّما أَعَدَّها للمجرمين الذين يسْتَحِقُّون العقاب بالعدْلِ، والمكذبون بما جاء عن ربّهم هم مجرمون لا محالة، ومثلُها قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾:

الطعام الموصوف بأنّه ذو غُصَّة هو الطعام الّذي لا يسْتَسِيغُه الْحلْقُ، بل يَعْلَقُ فيه، فلا يجري إلى المريء، ولا يَخْرجُ إلى الْفَم.

وممّا يُحْدِث الْغُصَّةَ الشَّجَا في الْحَلْق، وهو ما يَنْشَبُ فيه ويعترضُ من عظم ونحوه.

ودَلَّ هذا البيان على أنَّ المعذَّبين في الجحيم يشعرون بالجوعِ الشديد، فيُضطرُّون أَنْ يأكُلوا طعاماً مُعَدًّا لهم فيها يَغَصُّونَ بِهِ، فَيُحِسُّون بعذاب الجوع، وبعذاب غُصَصٍ ما يأكلون من طعامٍ.

وقد جاء في نصوصٍ أُخْرى بيان نوع طعامهم في جهنّم:

- فجاء في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

الْمُهْلُ: دُرْدِيُّ الزيت، وهو عَكَرُه، وما ذاب من نحاسٍ أو حديد، وَنوعٌ من القطران.

الحميم: الماء الحارّ الذي يغلي من شدّة حرارته.

- وجاء في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

لَشَوْباً مِنْ حَمِيم: أي: لخليطاً من مَاءٍ حارٍّ وعناصِرَ سائِلَةٍ أُخرَىٰ شديدة الحرارة.

فِتْنَةً للظَّالِمِينَ: أي: عذاباً للظَّالِمِينَ فيه حرارة شديدة.

وجاء في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) بشأن طعام المعذبين بالنار:

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾.

الضريع: نوعٌ من النَّبَاتِ وصَفَهُ اللَّهُ بأنَّهُ لا يُسْمِنُ ولاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ.

وجاء في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بشأن طعام المعذَّبِ في النار:

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

غِسْلِين: ما يَسِيلُ من جُلُود أهل النار كالْقَيْحِ وَنَحْوِه. ويُسَمَّىٰ غَسَاقاً، وَغَسَّاقاً.

ويبدو أَنّ هذه أنواع من أطْعِمَةِ أهل النار بحسَب دركاتهم فيها.

- ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾:

أي: وإنَّ لَدَيْنا بالإضافة إلى الأنكالِ والجحيم والطَّعَام ذي الغُصَّةِ عذاباً آخَرَ فوْقَ ذلِكَ أَلِيماً، يَتألَّمُ بِهِ من يُعَذَّبُ به ألماً شديداً.

إنّ الوعيد الذي جاء في هذا النصّ للمكذبين قد جاء كناية وتعريضاً وإلماحاً لا تصريحاً، لأنّ المرحلة ما زالت مرحلة أوائل الدعوة التي يَحْسُن فيها هذا الأسلوب، وهو أسلوب التّنبيه على وجود عذابٍ عند الله لمستحقّيه، ووجود أدواتٍ لهذا العذاب.

قول الله عزّ وجل:

- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

في هذه الآية تقديم لقطة بيانيّة تُصَوّر مشهداً من بدايَاتِ أحداث اليوم الآخر، الذي ستكون فيه الإدانَةُ والجزاء، وسيتحقّق فيه الوعيد الذي ألمحت إليه الآيتان السابقتان.

﴿يَوْمَ﴾ ظَرْفٌ لأحْدَاث الوعيد الْمُلْمَح إليه، وهو منصوبٌ على الظرفية الزمانية، أي: سيكون هذا الوعيدَ يَوْمَ تَحْدُثُ أحداثٌ عظام، وتغييرات في الكون جِسَام، ومن الأحداث الممهّدَة لهذا اليوم العظيم تغييراتٌ تظهَرُ في الأرض التي جعلها اللَّهُ مستقرَّ الناس في الحياة الدنيا، ومتاعَهُمْ إلى حينٍ، وجعلهم فيها يحيون، وفيها يموتون، ومنها يُخْرَجُون تارَةً أُخْرَى إلى الحياة الأخرىٰ، الَّتي يكونُ فيها الحساب وفصْلُ القضاء ثمّ الجزاء.

ومن هذه الأحداث الممهدة، والبدايات لليوم الآخر، حَدَثان عظيمان سيكونان.

الحدث الأول: أنْ تَرْجُفَ الأرض والجبال، أي: أن تتحرّك وتضطرب اضطراباً شديداً بقوة هائلة، ويحدث فيها زِلْزالٌ شديد، يغيّر معالمها، ويدمّر مبانيها، ويمحو كلّ المنشآت فيها محواً تامّاً.

ومن حينٍ إلى حين يقدّم الله عزّ وجلّ في أحداث الأرض نماذج زلزلات مُصَغَّرات في مواضِعَ منها لذلك الزّلْزال العظيم الذي يَعُمُّ الأَرْض كُلَّها في وقت واحد.

الحدث الثاني: أن تكون كُلُّ جبال الأرض بسبب ذلك الزلزال العظيم رَمْلاً سائلاً مطحوناً طحناً ناعماً، مثْلَ كثيبٍ من الرَّمل الناعم جدًّا، الذي ينهالُ فتسيل أعاليه بأدنىٰ حركة حتَّىٰ يستوي مع سطح الأرض.

الكثيبُ: الرَّمْلُ المستطيل الْمُحْدَوْدِب، وكلُّ مجْمع من الرمل مرتفع مُحْدَوْدب.

الْمَهِيل: الذي يَنْصَبُّ انصباباً متتابعاً مُنْدَفِعاً، دون تعثُّر، بسبب نعومته وجفافه، فيكون مشابهاً للماء إذا سال.

يقال: فلانٌ هَالَ الرَّمْلَ وأَهَالَه، إذا دفعه من أعلى، فصار ينصَبُّ انصِبَاباً.

وقد شبَّهُ الله عزّ وجلّ حالة الجبال بعد تحطيمها وتفتيتها بالزلزال العظيم بكثيب من الرَّمل دفعَتْهُ قُوَّة فصار ينْهَالُ مُنْصَباً.

- ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾:

وكانت: أي: وستكون، وقد جاء التعبير بالفعل الماضي بدل الفعل المضارع للدّلالة على تحقُّق الوقوع مستقبلاً، حتَّىٰ كأنَّهُ أمْرٌ قَدْ وقع، فهو أمْرٌ بمثابة الحاصل المشهود، وهذا من الأساليب البلاغيّة البديعة.

كثيباً مهيلاً: أي: كالكثيب المهيل، وهو من التشبيه البليغ الذي حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه.

الإلماح إلى الوعيد المعجّل في الحياة الدنيا:

أمّا الوعيد الضِّمنِيُّ بالعقاب المعجّلِ للمكذِّبين فقد جاء في قول الله عزّ وجل بعد ما سبق:

- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيتَيْن توجَّهَ الخطابُ للمكذّبين، ليقدّمُ لَهُمْ مَثَلاً من إهلاك الله للمكَذّبين الأوّلين، والمخاطبون الأوّلون في هذا كُفَّارُ أهل مكة إبّان التنزيل، وبعدهم يعمّ كلّ المكذبين الكافرين.

أي: إذا كان الوعيد بعذاب يوم الدّين لا يُثيرُ فيكم الخوف، لأنّهُ أَمْرٌ منْ أُمورِ الغيبِ الخبرِيَّةِ عَنِ المستقبَل، وأَنْتُم غير مؤمنين بهذا المستقبل البعيد الذي سوف يكون بَعْدَ تغيير نظام الحياة الدنيا كلّها، فإنَّ لديكم أمثالاً من أحداثِ ووقائعِ الحياة الدنيا، من الخير لكم والعقل والرُّشد أن تضعوها في حسابكم وتقديراتِكُمْ للأمور، وأنتم تعلمون كثيراً من هذه الأحداث الّتِي تَمَّ بها إهلاكُ أقوامٍ من أهل القرون الأولى الذين كذَّبوا رُسُلَ رَبّهم.

ومن هؤلاء المكذِّبين المهلَكين فِرْعَونُ مصْرَ وأنصارُه وجنودُه، فمن الخير والرُّشْدِ والعقل لكم أن تَتَّعِظُوا بهم، فقال تعالى:

- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ هو مُحمَّد بن عبد الله، وقَدْ جاء التعبيرُ بضمير المتكلِّم العظيم: ﴿إِنَّآ﴾ ـ ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ مراعاة لمقام الرُّبوبيّة العظيمة الجَليلَةِ، واستثارةً للرَّهْبَةِ والمهابة، وتذكيراً بسلطان الرَّبّ، خالق السَّماواتِ والأرضِ، والمهيْمِن على كُلِّ شيءٍ برُبُوبِيَّتِه، القدير على إهلاك المكذبين وكلّ جبارٍ مجرم.

الرَّسُول: هو النبي المكلف من قِبَلِ الله أنْ يُبَلِّغ الموضوعين موضع الامتحان ما أَمَرَهُ الله بأن يبلِّغَهُمْ إيّاه.

والرسول لُغَةً: هو الذي يُتابعُ أخبار الذي بعثه، أو يقوم بما أَمَرَهُ به مُرْسِلُه.

- ﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾: أي: مُبَلِّغاً لَكُمْ كُلَّ ما أَمَرَهُ الله بتبليغه، ومُبَيِّناً وشَارِحاً وَنَاصِحاً وَدَاعِياً بالحكمة والموعظة الحسنة ومُرَبِّياً، ورَحيماً رؤوفاً بكم، إلى سائر وظائفِ رِسَالَتِهِ، فإذا لم تستجيبوا لَهُ فإنَّه يأتي يَوْمَ الدِّين شاهِداً عليكم بأنَّهُ بلَّغَ الرسالة، وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأمَّة، إلاَّ أنَّكم لَمْ تسْتجيبوا له.

وقد جاء هنا الاكتفاءُ ببيان وظيفة الشهادة الّتي سوف تكونُ يَوْمَ الدّين، لأنَّها آخِرُ فِقْرَةٍ من فِقْراتِ وَظيفته، فهي تَدُلُّ باللُّزُوم الْعَقْلِي على كلِّ وظائف رسالته التي تكونُ قبلها، وقد جاء بيان سائر وظائف رسالته في نجوم التنزيل القرآني التي نزلت فيما بَعْدُ.

واقتضت الدواعي التربويّة والإعجازيّة لآيات القرآن استخدام هذا الإيجاز البديع في هذه المرحلة.

- ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾: جاء الحديث هُنَا عن فرْعَوْنَ مع أنَّ المراد هُوَ وقَوْمُه، إشارةً إلَىٰ أنَّه كانَ صاحب الكلمة المطاعة النافذةِ في قومه، فلو أنّه آمَنَ بموسى واتّبعه لآمَنُوا معه، لكنّه كذَّبَ موسَىٰ وكفَرَ بما جاء به عن ربّه فاتَّبَعوهُ، إنَّه استخف قومه فأطاعوه، بخلاف سائر الأقوام فإنَّهُمْ يُذْكَرُون بعنوان القَوْم، الذي ينطبق عليهم، كعادٍ وثمود، إذْ لَمْ تكن لهم قيادة واحدة مطاعة إطاعةً عمياء، بل كان فيهم زعامات متعدّدات ولهم مشاركات في الرأي.

- ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ⑯﴾:

أي: فعَصَىٰ فرعَوْنُ وقومُهُ المتابعون له الرسولَ موسى عليه السَّلام، ووزيرَه الرّسُول هارون عليه السلام، فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً.

الْوَبِيلُ: هو الشديد الثقيلُ الوخيم، وكان هذا في الْمَظْهَر الماديّ إغراقاً، أمّا بالنسبة إلى عالم البرزخ فعذابٌ آخَرُ هو من عذاب الآخرة.

- ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾: أي: فعاقبناه عقاباً شَدِيداً ثقيلاً.

أصل الأخْذِ تناولُ الشيْءِ والقبْضُ عليه وحيازَتُه، وقد يَحْمِل الأخْذُ معنى ما يؤخَذُ له الشيء، فأخْذُ المذنب يحمل معنى معاقبته بذنبه ولو لم يحْصُلْ أَخْذٌ جَسَدِيٌّ.

ولعلّ بعض قادة المعاندين في هذه المرحلة يشبه فرعون فجاء التمثيلُ بفرعون من المهلكين الأولين مناسباً لحالهم.

بعد هذا وجّه الله الخطاب لمكذّبي الرَّسُول مُحمَّدٍ من قومه وعشيرته الأقْرَبين، فقال لهم بأسْلُوب الاستفهام التعجيبيّ من إصرارهم على التكذيب:

- ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ عَوْدٌ إِلَىٰ التَّخْوِيف مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يوم الدين، بأسلوب الاستفهام الذي خرج عن معنى الاستفهام إلى معنى التعجيب من إعراضهم عن دعوة الرسول، وإصرارهم على تكذيبه، وهم لا يملكون كيفيَّةً يستطِيعون بها اتّخاذ وسيلةٍ تقيهم من عذاب اللَّهِ في يوم شديدِ الْهَوْلِ جدًّا، لشدّةِ ما فيه من مخيفات بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْكَافِرِين.

فكيف تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتم: أي: أنتم لا تملكُون وقايةً تَقُونَ بها أنفسكم من عذاب رَبِّكم إنْ كَفَرْتُمْ، فَكَيْفَ تَفْعَلُونَ يوم ينزل بِكُمْ جَزاءُ كُفْرِكُمْ وَهُوَ عَذَابٌ شَدِيدٌ جدًّا.

- ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾:

المراد من اليوم ما يَحْصُلُ فيه من هَوْلٍ عظيم وعذابٍ أَليم، أُطْلِقَ اليومُ وَأرِيدَ به ما يَحْصُلُ فِيهِ على طريقة المجاز المرسل، بإطلاق الزَّمَنِ على مَا يَحْصُلُ فِيهِ، أو بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: فكيْفَ تتقونَ إنْ كَفَرْتُمْ عَذَابَ يَوْمٍ يَجْعَلُ الولْدَانَ شِيباً.

وجاء في النصّ استعمال «إنْ» الشرطيّة التي تُسْتَعْمَلُ في الأمر المشكوك فِيه، مُراعاةً لِحَالِ المدعُوّينَ الذين ما زالُوا في أوائل الدعوة إلى الإسلام، وهؤلاء لا يُنَاسِبُ حالَهُمْ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ الشرط «إذا» الَّذِي يُسْتَعْمَلُ غالباً فيما هو مُحَقَّقُ الوقُوعِ أو راجح الوقوع، على أَنَّ كُلَّ مَدْعُوٍّ تُوَجَّهُ له الدّعوة ولو أصرَّ على إعراضِه وعَدَمِ استجابته لاَ يليق في أسلوب دعوته إشعارُه بأنَّ كُفْرَهُ هو المحقَّقُ أو الراجِحُ، بل مثل هذا يُعْرِضُ الداعي عنه.

وعبارة: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ في وصْفِ يَوْمِ الدّين الذي يُحذِّرُ النَّصُّ مِنْ عذابِه الشديد المهُول، قَدْ جاءت كنايةً بَدِيعةً عمَّا يَحْصُلُ فِيه مِنْ أَهْوَالٍ ومُخِيفاتٍ عظيمات.

إنَّ من المعروف أَنَّ الخوفَ الشديد قد يَجْعَلُ شَعَرَ الشَّابّ أو الكَهْلِ الذي لم يَشِبْ بَعْدُ مشتَعِلاً شيباً مِنْ هَوْلِ الأحداثِ المخيفة، ولم يُعْرَفْ أنَّ الوِلْدَانَ تشيب مَهْمَا أحاطَتْ بِهَا الأحْدَاثُ المُرْعِبَةُ المخيفة المَهُولَةُ، لأنَّ إدْرَاكَهَا للخوف لاَ يَصِلُ إلى التأثير على المراكِز الَّتِي تُمِدُّ شعورها بأصْباغها.

لَكِنْ إذا كَانَ الْهَوْلُ أعظم مِنْ كُلّ الأَهْوَالِ الَّتي تَحْدُثُ في الدنيا، فإنَّها تكُونُ ذاتَ تأثيرٍ حينئذٍ حتَّىٰ على الوِلْدَانِ فيشيبون منها. وهذه الكناية من الكنايات البديعة المبتكرة في القرآن الدّالّة على شدّة أهوال يوم الدين.

وأضاف النَّصُّ بيان حدَثٍ من أحداث يوم الدّين، وهذا الحدث يَظْهَرُ

فِي السَّمَاءِ، إِذْ تَنفَطِرُ به، وبانْفِطَارِهَا تَتَشَقَّقُ لِنزول الملائكة مِنْ أَجْلِ القيام بوظَائِفِهِمْ في ذلك اليوم، فقال تعالى:

- ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾: أي: السَّماءُ مُنْفَطِرَةٌ مُتَشَقِّقَةٌ في ذلِكَ اليوم، وجاء وصْفُ السماء بِلفظٍ مُذَكّر وهو «مُنفَطِر» لأنّ لفظ السماء اسْمُ جِنْسٍ يجوز فيه التأنيث والتذكير، ونظيره: «جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ـ من الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ـ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ»(١).

وجاء في بيان بعض أحداث يوم القيامة في سورة (الإنفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

الانفطارُ: التَّشقُّق.

- ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾:

الضمير في ﴿وَعْدُهُۥ﴾ يَعُودُ علَىٰ الْيَوْمِ الْمَهُولِ الّذِي يجعلُ الوِلْدان شِيباً، وَتَنفَطِرُ السَّمَاءُ فِيه، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، والفاعل الرَّبُّ الخالق جلّ جَلالُهُ، وهذه الإعادة أكثر ملاءمة لسوابق اللفظ.

ويجوز أنْ يكون الضمير مراداً به اللّهُ عزّ وجلّ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ فيما سبَقَ في الألفاظ للعلم به ذهْناً، ويَكُونُ من إضافة المصدر إلى فاعله، وفي العبارة على هذا التخريج بيان قاعدة كلّيّة تتحدَّث عن صِفَةٍ من صفات اللّهِ عزَّ وجلّ، وهي أن وعد الله مفعولٌ لا محالة، لأنّه تعالى لا يُخْلِفُ الميعاد.

وأخيراً جاء في هذا الدّرْس تأكيد ما جاء في سورة (المدثر) من أنّ

---

(١) وله تخريجات أخرى ذكرها علماء اللّغة العربية من المفسرين.

هذه الرّسالة التّي حمَلَها القرآن للناس، ويُبلّغُها ويُبَيّنها الرسول محمّد ﷺ رسالةُ تَذْكِرَة، ولَيْسَتْ رسالة قَهْرٍ ولا قَسْرٍ، ولا سَوْقٍ بِالجبْرِ على خلافِ اختياراتِ الناس الحرَّة، بل لا بُدَّ أن تكونَ الاستجابَةُ للدَّعْوَة إلى الإيمان والإسلام مبنيّةً على إرادة حُرَّة واختيار تامّ من المستجيب نَفْسِه، فالإجبارُ والقَسْر لاَ يُدْخِلُ في الدِّين ولا يُخْرِجُ مِنْهُ، فقال الله تعالى:

- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾:

أي: إِنَّ هٰذِهِ الرِّسالةَ رِسالَةُ تَذْكِرَةٍ.

التَّذْكِرَة: مَا يُسْتَذْكَرُ بِهِ الشَّيْءُ المطلوب تَذَكُّرُهُ.

فمن شاء أن يُسْتَجِيبَ للدَّعْوَةِ إلىٰ الإيمان والإسلام الَّتي اشتَمَلَتْ عَلَيْها رسالَةُ التَّذْكِرَةِ هذه، استطاعَ أَنْ يَتَّخِذ بُحُرِّيَّةٍ تامَّة لا يَقِفُ دونها عقبَةٌ وَلاَ تَمْنَعُها موانعُ إلى مَرْضاة ربّه ووقايَتِهِ والظَّفَرِ بثوابه الجليلِ العظيم الّذي يَلِيق بكمال ربوبيته سَبِيلاً مُيَسَّراً سَهْلاً.

ودلَّتْ نُصُوصٌ أُخْرَىٰ على أَنَّهُ يَجِدُ من رَبّه مَعُونَةً وتَوْفيقاً وإمداداً يُحقّقُ لَهُ نجاحاً وسَدَاداً.

وبهذه الآيَةِ تَمَّ الدَّرْسُ الثّاني من دُروسِ السُّورة، وهو درس مُرْتبطٌ ارتباطاً جَلِيًّا بالآيتين الأخيرَتين من آيات الدّرس الأول، إذْ يقول الله عزّ وجلّ فيهما للرّسول ﷺ ثم لكل داع إلى سَبِيلِ رَبّه من أُمَّتِه:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدرس الثالث

الآية (٢٠)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

مقدمة:

هذه آيَةٌ نَزَلَتْ في العهد المدنيّ، وقد ضُمَّتْ إلى سورة (المزمّل) التي نزلت في أوائل العهد المكيّ من تاريخ قيام الرسول محمد ﷺ بأداء رِسَالَتِه، وكان نزولُها بعد عشر سنين عَمِل فيها الرَّسُولُ بما طلب الله منه إيجاباً في أوائل السُّورَةِ من قيام اللّيل، وعَمِل معَهُ بعض أصحابه بهذا المطلوب على سبيل التطوّع منهم، ثمّ نزلت هذه الآية الناسخة.

ويظهر أنّ الغرض من ضمّ هذه الآية الناسخة للتكليف السابق الإشعارُ بأنَّ على حامل الرّسالة الربّانيّة أَنْ يكون كثير الصِّلَةِ بالله عن طريق قيام اللّيل كما أَمَرَ اللَّهُ في أوائل السُّورة، حتّىٰ إذا تمكَّنَ الدَّاعي إلى الله في الأرض، وصار له أنْصارٌ وقوّة، وصارَتْ له دولةٌ أو شبهُ دولة، تحتاج منْهُ وقتاً طويلاً لإدارة المجتمع الإسلاميّ، الذي الْتَفَّ حَوْلَهُ واتَّبَعَهُ، صار بإمكانه أنْ يُخفّف عن نفسه من قيام اللّيل الذي كان مطلوباً منه، وأن يكْتَفِي بقراءة ما تيسّرَ من الْقُرْآن.

ونظير الداعي إلى اللّٰهِ أعوانُهُ وأنْصَارُه فلَهُمْ أَنْ يتخفَّفُوا من شَغْلِ لَيْلِهم بقيامِه تطوُّعاً، والاقتصار على قِراءة ما تيسَّرَ من القرآن، لأنّ أعوانَ الداعي إلى اللّٰهِ وأنْصَارَهُ بعد تمكُّنِهِمْ في الأرض، وقيام دولةٍ لهم أو شبْهِ دولة، سيكونُ من العسير عليهم جدّاً أو من المتعذّر أن يواظبُوا دواماً بإحصاءٍ دَقيق على قيام اللّيل في أدنَىٰ الحدود المطلوبة، وهو ثُلُثُ اللّيْلِ.

وقد شهد اللّٰهُ لرسوله في هذه الآيَةِ وَشَهِدَ لطائِفَةٍ من الّذِينَ معه، بأنَّهُمْ واظَبُوا على قيام اللّيْلِ وفْقَ ما طَلَبَ اللّٰهُ مِن رسُوله في أوائِلِ السُورَة طَوَال الْمُدَّة مُنْذُ نُزول أوائل سُورَةِ (المزّمل) حتَّىٰ نُزول الآيَةِ الْعِشْرِينَ مِنْها، وهذه المدّةُ قَدَّرَها «سعيدُ بْنُ جُبَيْرٍ» فيما رواه الطبَرِيُّ بِعَشْرِ سِنِينَ.

تدبُّر النّصّ:

قول اللّٰهِ عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ . .﴾:

هذه شهادة من اللّٰهِ لِرَسُولِهِ ولِطائفَةٍ مِنْ أصْحَابِهِ بأنَّهم اسْتَمَرُّوا مُنْذُ أوائلِ ظُهُورِ الدَّعْوَة حتَّىٰ نُزول هذه الآية في العهد المدنيّ يَقُومُونَ اللَّيْلَ كما ذكر الله في هذه الآية.

فكانوا يَقُومُونَ على توالي اللَّيالي أدنَىٰ من ثُلُثَي اللَّيْلِ، أيَ: أقرب من ثُلُثَي اللَّيْلِ وهـذا يَصْدُقُ بنحو ($\frac{٧}{١٢}$) من اللّيل، وكانُوا يقومون نصف اللّيل ($\frac{٦}{١٢}$) وكانوا يقومون ثُلُثَ اللّيْل ($\frac{٤}{١٢}$).

ولمَّا كان اللَّيْلُ يزيدُ وَينقُصُ بِحَسَبِ اختلاف الفصول والأيام، وكانت دقائقُ النصفِ والثلثِ والثُلُثَيْنِ مختلفةً في اللَّيالي، وكانَ كُلُّ ذَلِكَ بِتَقْدِير اللّٰهِ عزَّ وجلَّ قَالَ اللّٰهُ عزّ وجلّ في الآية:

- ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ..﴾:

جاءتْ هذه الفقرة معترضَةً في النَّصِّ لبيان اخْتِلَافِ أزْمِنَةِ أنْصَافِ اللَّيالي وأثلاثها، ولِتَرْسِيخ الإيمان بأنَّ كُلَّ الظاهرات الكَوْنِيَّةَ خاضِعَةٌ لقضاءِ اللّهِ وقَدَرِه وحكمته في تدبير تصاريف الكون، ومنها تقديرُ اختلافِ أزمنَةِ اللَّيْلِ والنهار ضمن نظامٍ دقيق جدًّا، يَتْبَعُ دَورَةَ الأرض حول نَفْسِها وَحَوْلَ الشمس، في مدار مُحَدَّدٍ قضاه الله وقَدَّره.

وأبانَ اللّهُ عزَّ وجلَّ حِكْمَةَ تخفيف حُكم قيام اللّيْلِ عن الرَّسُول، وعن الطائفة الذين كانوا يقومون مثْلَ قيامه من أَصْحَابه الحَريصين على أن يعملوا مثل عمله، فقال تعالى لهم:

- ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

أي: عَلِمَ أنّه لَنْ يَتَيَسَّرَ لَكُمْ مُسْتَقبلاً المحافَظَةُ على القيام المطلوب منكم إلزاماً ونذباً في أوائل السُّورَة مُحافَظَةً تَسْتَغرِقُ كُلَّ اللَّيَالي.

فتابَ عليْكُمْ: أي: فرجَعَ مُتَفَضِّلاً عَلَيْكُم بِحُكْمِ التخفيف.

الإحصاء: استيعاب العناصر المطلوبة في العمل، وأصله استيعاب العدد. ولمّا كانت عناصر الأعمال ذوات أعداد كان إحصاؤها استيعابَ تطْبِيق عناصرها المعدودة.

وأبانَ اللّهُ عزَّ وجلّ البدِيلَ الْمَطْلُوبَ المخفَّفَ وهو الاكتفاء لمن شاء بقراءة ما تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآن، فقال اللّهُ عَزَّ وجلّ في الآية:

- ﴿... فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ..﴾:

أي: فاقْرَءُوا ما تَيسَّرَ لكُمْ قراءتُهُ من القرآن، وحمَلَ جُمهور المفسّرين والفقهاء هذا على صلاة اللّيل، فالمراد من قراءة ما تيسَّرَ من القرآن قيامُ اللّيل بصلاة ما فيها، وهذا القيام بالنسبة إلى الرسول واجب، وبالنّسبة إلى

الطائفة التي كانت تقوم معه نافلة، كحالهم التي كانوا عليها في حكم الندب، وكحال سائر المسلمين الّتي سيأتي بيانها.

وخصّ النَّصُّ بَقِيَّة المسلمين ببيان قال لهم فيه:

- ﴿...عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾:

أي: وإذْ علم أنَّ شأنَكُمْ سيكون مِنْكُمْ مَرْضَىٰ لا يسْتَطِيعون المواظبة على قيام اللَّيل.

وعَلِمَ أنَّ آخَرِين مِنْكُمْ يَضرِبونَ في الأَرْض من أجْلِ معايشهم واكتسَاب أرزاقهم بأعمالٍ مختلفات، منها الفلاحة والصناعة والتجارة ومعاناة الأسفار، فهم بالكدح والكدّ يبتغون من فضل الله الحصولَ على أرزاقهم وأرزاق من يعولونهم.

الضرب في الأرض: السير فيها.

وعَلِمَ أنَّ آخَرِين منكُمْ يُقَاتلون في سبيل الله لنشر الدين، ويدخل في عموم القتال ما يلزم له من استعدادات وأنواع حراسة للثغور، ورباطٍ فيها، وتَدْبيراتٍ لجيوش المقاتلين.

وعَلِمَ أَنَّ هذهِ أعذارٌ تَشُقُّ مَعَها المواظبة على قيام اللّيل.

إذْ عَلِمَ اللّهُ من أحوالكم كُلَّ ذَلِكَ خفَّفَ عنكُمْ فلم يكلّفكُمْ قيام اللَّيْلِ الذي كان قَدْ ألزم به رسوله، وعمل به معه طائفة مُحْسِنَةٌ مِنْ أصحابه.

وإذْ لم يُكَلّفكُمُ اللّهُ هذا التكليف الشاقّ عليكم:

- ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾: لتكونوا على صلة بربكم عن طريق كتابِهِ الَّذِي أنزلَهُ إليكم في ليالي أعماركم.

- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: الصلاة المفروضة، والمراد من إقامتها المواظبةُ على أدائها في أوقاتها، وهي خمس صلوات في اليوم واللّيلة.

- ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أَيْ: وأَعْطوا الزكاة المفروضة عليكم في أموالكم، لا تنقُصُوا ممَّا يجب عليكم شيئاً.

- ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾: أي: أنفقوا من أموالِكُمْ صدَقَاتٍ غَيْرَ وَاجبَاتٍ عليكم، فإنَّ هذه الصدقات تكون لَكُمْ بِمَثَابَةِ إقراضٍ تُقْرِضونه رَبَّكم، ومعلومٌ أنّ الله جوادٌ كريمٌ يُضَاعِفُ لَكُمْ ما تبذُلُونَهُ من صَدَقَاتٍ غَيْرِ مَفْرُوضاتٍ عليكم، أضعافاً كثيرةً.

والْقَرْضُ الحسن هو الذي يكون خالصاً لوجه الله عزّ وجَلَّ، وخالياً من المنّ والأذىٰ ورغبةِ مصالحَ دنيويَّة، لدىٰ المحتاجين الذين تُبْذَلُ لهم الصَّدَقات، وخالياً من رغبات الاستعلاء في الأرض.

وبعد بيان هذه الوصايا لجميع المسلمين ذكَرَ اللَّهُ لَهُمْ وَعداً تَرْغيبياً بأجْرٍ عظيمٍ عنْدَهُ، على ما يُقَدِّمُونَه لأنْفُسِهِمْ من خَيْرٍ يبتغون به مرضاة ربّهم وثوابه، فقال الله عزّ وجلّ في الآية:

- ﴿. . . وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ . . .﴾:

قَيْدُ: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ يُشِيرُ إلَىٰ أن الْعَمَل الذي يُقَدِّمه المؤمن لِنَفْسِهِ هو مَا يَنَالُ بِهِ ثَوَاباً عظيماً، ومعلومٌ أنّ الْعَمَل الذي يُنَال به الثوابُ العظيم هو ما كان لوجه الله وابتغاء مَرْضاته.

فقام هذا التعبير مقام عبارة: وما تقدِّموا من شيءٍ تبتَغُونَ بِه وَجْهَ رَبّكم وَرِضوانَهُ وَثوابه.

وقَيْدُ: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يُخْرِجُ ما يُقَدِّمُهُ المكلّفُ المسؤول عن عمله عند الله من شَرٍّ، ففي تقديم الشّرّ مَعْصِيَةٌ للّهِ عزّ وجلّ يَسْتَحِقُّ فاعلها

عقَابَ اللّٰهِ وعذابه، ويُخْرِجُ أيضاً ما ليس بخير كالمباحات من الدنيا التي لا تقترنُ بنِيَّةٍ صالحة يُثِيبُ اللّٰهُ عليها.

وعبارة: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ تَدُلُّ على مضاعفَةِ الأجْرِ على العمل الصالح عند الله، فعَمَلُ الخير ابتغاءَ مرضاة اللّٰهِ لا يَضِيعُ أبداً، بَلْ هُوَ يَنْمُو وَيَرْبُوا ويُضَاعَفُ، كالزارع يَزْرَعُ الحبَّةَ فيُخْرِجُ اللّٰهُ لَهُ بها سَبْعَ سنابل، في كلّ سنْبُلَةٍ مِئَةُ حبَّةٍ، واللّٰهُ يُضَاعِفُ لمن يشاء.

ولَمَّا كَانَ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّائِينَ كانُوا بحاجةٍ إلى وسيلَةٍ يَمْحُونَ بِها خَطَايَاهُمْ، وَقَدْ تَفَضَّل اللّٰهُ علَىٰ عباده فَجَعَلَ من وسائلِ مَحْوِ الْخَطايا الَّتي تكُونُ بيْنَ الْعَبْد وربِّهِ ولَيْسَ فِيها حُقُوقٌ للعباد، أَنْ يَسْتَغْفِرَ الْمُذْنِبُ مِنْ ذُنُوبِه، أي: أن يَطْلُبَ من الله جلّ جلالُهُ أنْ يَغْفِرها له، أي: أن يسْتُرَهَا ويُغَطِّيَها ولا يحاسِبَهُ علَيْها، فقال الله عزّ وجَلّ في آخِرِ الآيَةِ مُطْمِعاً بالْغُفْران:

● ﴿... وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾:

استغفر: أي: طَلَبَ الْمَغْفِرَة، تقول لغة: غَفَرَ فلانٌ الشَّيءَ إذا سَتَرَه، يَغْفِرُهُ غَفْراً وَغُفْرَاناً وَمَغْفِرَة.

غَفُور: كثير الغفران وعظيمه.

رَحِيم: كثير الرحمة وعظيمها.

وفي التذكير بهٰذين الاسمين من أسماء الله الحسنىٰ في آخر السورة تشجيعٌ للمذنب على أن يطلب من ربّه أن يغفر له ذنوبه، ويسْتُرَ لَهُ عيوبَهُ.

وغَفْرُ الذنب كناية عن عدم المؤاخذة عليه، مع عدم فضيحة المذنب بين الخلائق.

وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ بمثابة التعليل للأمرِ بالاستغفار، مع الإطماع بأنّ من استغفر الله غفر الله له.

* * *

حكمة النسخ في أحكام الدين:

علمنا أنّ الآية الأخيرة من سورة (المزّمل) قد نزلت بعْدَ نزول أوّلها بنحو عشر سنين، وقد تضمنت تخفيفاً في التكليف الذي جاء في أوّلها، ورفعاً لحكم وجوب قيام ثلث اللّيل في الحدّ الأدنىٰ، كما سَبَقَ شرحه في تدبُّرِ الآيات الأولى من السورة، وهذا ما يُسَمَّى نسْخاً عند علماء المسلمين، أخذاً من قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

النَّسْخُ: بَيَانُ انْتِهَاءِ الْعَمَلِ بمُقْتَضَىٰ نَصٍّ تَكْلِيفِيٍّ سابقٍ وهذا البيانُ لا بُدَّ فيه من دليلٍ كافٍ للتعريف بانتهاء زَمَنِ الْعَمَلِ بمُقْتَضىٰ النَّصِّ السّابق.

ولله عزّ وجلّ حِكَمٌ متعدّدة من نَسْخِ أحكام التكليف القابلة في واقع حالها للتغيير بمثلها أوْ بما هُوَ خَيْرٌ مِنْها.

أمّا ما تقضي فيه الحكمة في كلّ الأحوال بأن يكون له حكْمٌ واحِدٌ، فإنَّهُ لاَ يكونُ عُرْضَةً في الرّسالاتِ الرَّبَّانِيَّةِ للنَّسخ، كتَحْرِيم الظلْم، ووجوب الإيمان، ووجوب إقامة العدل، ووجوب الاعتراف بالحقّ. وكذلك لا نَسْخَ في الحقائق الوجوديّة، أو الحقائق الفعلية.

ومن حِكَمِ النَّسْخ ما يلي:

(١) فمن حِكَمِ النَّسْخِ في الشريعة الواحدة إقناع المتعصبين للرسالات الرَّبّانِيَّةِ السابقة أنّ الدّين دين الله، فَهُو يُجَدِّد لتبليغه رُسُلاً بمقتضىٰ حكمته، وينسخ فيه أحكاماً تكليفيّة بمقتضىٰ حكمته.

(٢) ومن حِكَمِ النَّسْخِ في أحكام الشرائع تعليمُ ذوي الولايات والرُّعَاةِ وأهل السلطان وأولي الأمر، أنّهم إذا أمَرُوا بأمْرٍ ثم رأَوْا غَيْرَهُ خيراً منْهُ

وأفضل، فَلاَ تَأْخذهم الْعِزَّةُ بالإثْمِ، فيُصِرُّوا على أوامرهم السابقة، فالله الرَّبُّ الخالق العليم بكلّ شيءٍ يَنْسَخُ بعض أحكامه السابقة ويُنْهِي الْعَمَلَ بِها، ويُنْزِلُ أحكاماً أُخْرَىٰ، قَدْ تكونُ مثل الأولى أو خيراً منها، لكنَّه لا يَنْسَخُهَا بما هُوَ دُونَها.

(٣) ومنْ حِكَم النَّسْخ المواءَمَة بين الأحكام المنزَّلة وبين أحوال الأمم المتطوّرة، كحال الأمّة في أوائل بنائها وتكوُّنِها، وحالها عنْدَ اكتمال تكوينها.

(٤) ومن حِكَمِ النَّسْخِ تعْلِيمُ واضِعي الأنظمة والمخطَّطاتِ مَنْهَجَ التَّجْرِبةِ ومُلاَحظةِ نتائجها، وما فيها ممَّا يَنْبَغِي تَعْدِيله، ثُمَّ التعديلُ بحسب المصلَحةِ الأكثر نفعاً، أو الأكثر يُسْراً مع تحقيق المطلوب.

وقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ بنفسه مثلاً إذْ أَجْرَىٰ تعديلات في الأحكام التكليفيَّة الّتي أنْزَلَها لاَحقاتٍ لأحكام سابقات.

وهذا المعنى يدخل في عموم قول الله عزّ وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ . . . ﴿٥٨﴾﴾.

ومَعْلُومٌ أنَّ النَّسْخَ مثَلٌ من أَمْثِلَةِ منْهاجِ التعديل والتبديل إلى الأحسن والأفضل في الأوامر والنواهي والأحكام والنُّظُم.

وانتهىٰ بتوفيق الله ومعونته تدبر سورة المزمل

فالحمد لله على فَتْحه وإمداده

* * *

سُورَة القَلَم

أُو

(نٓ والقلم) أُو (نٓ)

٦٨ مصحف ٤ نزول

وهي فيما ترجّح لديّ بالنظر إلى معظمها السورةُ الرابعة نزولاً

فهي من أوائل التنزيل المكي باتّفاق وفيها آيات مدنية

والآيات المدنية منها هي:

١ ـ من الآية (١٧) وحتى غاية الآية (٣٣)

٢ ـ ومن الآية (٤٨) وحتى غاية الآية (٥٠)

وآيات السورة (٥٢) آية

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات

سورة القلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾
فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ
حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ
عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ
نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ
ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ

---

١٤ ـ قرأ ابنُ عامر، وشعبة، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَأَنْ كَانَ].
وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ كانَ].

٢٢ ـ قَرَأ أبو عَمْرو، وَعَاصم، وحمزة، ويعقوب: [أَنِ اغْدُوا] بكسر نون «أَنِ».
وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنُ اغْدُوا] بضمّ النون.

﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ
قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾
قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ
إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾
إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ
﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ﴿٣٧﴾
إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمۡ
لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن
سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ
تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي
وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾
وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ

وهُما وجهان عربيَّانِ في الأداء، أصْلُ «أنْ» ساكنة، وعِنْدَ اجتماع ساكِنَيْنِ يكون التخلُّصُ مِنْهُمَا بكَسْرِ السَّاكِنِ الأوَّل، أوْ بضَمِّه إذا كان بعد الساكنِ الثاني ضَمٌّ.

٣٢ ـ قرأ نافِعٌ، وَأبو عمرو، وأبو جَعْفَرٍ: [أَنْ يُبَدِّلَنَا] بفَتْحِ الباء وَتشديد الدال، من فعل «بدَّلَ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ يُبْدِلَنَا] من فعل «أَبْدَلَ».

وكلا القراءتين متكافئتان، لأنَّ الْهَمْزَ في الفعل أخو التضعيف.

مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ
وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن
تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ
فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ
لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

---

٥١ ـ قَرَأ نافع، وَأبو جَعْفَر: [لَيَزْلِقُونَكَ] بفتح الياء من فِعْلِ: «زَلَقَ».
وقرأ باقي القراء العشرة: [لَيُزْلِقُونَكَ] بضمِّ الياء، من فعل: «أَزْلَقَ».

(٢)

موضوع السورة

(١) عِلاجات تربوية للرسول ﷺ بشأن مواقف المكذبين برسالته وبالقرآن إبّان نزول سورة (القلم) ويُلْحَقُ به الدعاةُ من أمته إذا واجهوا أمثال هذه المواقف.

(٢) وعلاجاتٌ تربويّة وتأديبيَّة للمكذبين برسالة الرسول ﷺ بحسَب مواقفهم إبّانَ نزول السورة، ويُلْحَقُ بهم أَمْثَالُهُمْ من بعدهم.

الشرح:

● بدأَت السورةُ بعلاجٍ تربويّ للرسول ﷺ بشأن التَّأثُرات الَّتي تأثَّرَتْ بها نَفْسُهُ من مواقف المكذِّبين برسالته إبَّان نزول السُّورة، إذ اتَّهَمَهُ بَعْضُ كبراء قومه وعُتَاتِهِم بالجنون.

وقد اشتمل هذا العلاجُ التربويُّ على ما يلي:

(١) وَعْدُ اللّه رسُولَهُ بالأَجْر العظيم الذي لا ينقطع يوم الدين.

(٢) ثناءُ اللّه عليه بأنَّهُ لعلَىٰ خُلُقٍ عظيم.

(٣) وعْدُ اللّه لَهُ بالعاقبة الحسنة السَّارَّة في الحياة الدنيا قبل الآخرة، وبظفَرِه بهذه العاقبة الحميدة يظْهَرُ أنّه هو ذو العقل والرُّشْدِ والْمَجْدِ، وأنَّ مُكَذِّبيه هم الجديرون بأن يُوصَفُوا بالجنون، للخيبة الّتي تنزل بهم من ربّهم، والعاقبة السيّئة الوخيمة الّتي يُصَابُون بها. فاللّه جلَّ جلالُهُ عليم حكيم، يُنْزل العاقبة السّيّئة بالذين يعْلَم أنهم ضلُّوا عن سبيله، أمّا من يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُهْتَدُون فيَمْنَحُهُم العاقبة الحسنةَ والتأييدَ والنصر.

(٤) توصيةُ اللّه رسولَهُ بأنْ لا يستجيب لإغراءات المكذّبين برسالته، كأَنْ يداهِنَهُمْ في قضايا الدين كما يُداهِنُونه، ولا سيما بعضُ قادتِهم العتاة سيّئي الأخلاق والأفعالِ.

(٥) تطمينُ قلب الرسول ونَفْسِه، بإيعاد حامل لواء العناد والاستكبار من قومه، بعقوبةٍ تُذِلُ أنفه المستكبر: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ⑯﴾.

● واشتملت السورة على نَجْمٍ مَدَنيٍّ نزل في المدينة وأضيف إلى سورة «القلم» التي هي من أوائل التنزيل المكيّ، وفي هذا النَّجْم المدنيّ بَيَانٌ غَيْرُ مُبَاشِرٍ لمَا وصَلَ إليه مشركو مكّة من عُقُوبة ربَّانيّةٍ نزلَتْ بهِمْ بعد هجرة الرسول ﷺ، ونَصْرِ اللّهِ له عليهم في غزوة بدْرٍ، وربُمَّا في غيرها إذا كان هذا النَّجْمُ قد تأخَّرَ نزوله إلى ما بعد الخندق، أو فتح مكة.

والهدف التربويُّ من هذا النجم عِظَةُ مَنْ لم يسْتَجِبْ بَعْدُ لدعوة الرَّسُول، من كفّار مكة وغيرهم، وهذه الموعظة تَبقَىٰ حَتّىٰ آخرِ الدّهر.

وقد جاء هذا النَّجْم القرآني بأسلوب عَرْضِ مثَلٍ من أمثلةِ التاريخ يكْشِفُ عن سُنَّةٍ من سُنَنِ اللّهِ في عباده، للإشعار بأنَّ ما جَرَىٰ لأهل هذا المثل التاريخيّ مُنَاظِرٌ لِمَا جَرَىٰ لمشركي البلَدِ الحرام مكة، بعد أن نزلَتْ

بهم عقوبَةُ اللَّهِ بنصر رسوله عليهم، وخَيْبَةِ كلّ مساعيهم ضدّه، ونَدَمِهِمْ عَلَىٰ ما كان مِنْهُمْ، وتلاوُمِهِمْ فيما بينَهُمْ، بعد هزائمهم المنكرة.

● وبعدئذٍ تعرَّضَتِ السّورة لقانون الجزاء الرَّبَّاني بقسميه: الجزاء بالفضل، والجزاء بالعدل، مع بيان أَنَّ الحكمة الرّبّانيَّةَ تقضي بأن لا يجْعَل اللَّهُ المسلمين كالمجرمين، واقترن هذا البيان بعِلاَجَاتٍ جدليَّة لمنكري الجزاء الرَّبَّاني، وبعرض بَعْض لقطات من مشاهد الجزاء الّتي ستكونُ يوْمَ الدّين.

● وبعدئذٍ اشتملت السورة عن توجيه الإنْذار للمكذّبين بالقرآن، بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سَيَسْتَدرِجُهُمْ من حيثُ لا يعلمون، وسيُمْهِلُهُم حتَّىٰ يُنْزِلَ بِهِمْ عقابه القاصِمَ الماحِقَ، جزاء تكذيبهم وكفرهم بما جاء به رسُولُ ربّهم.

● وبعدئذ ناقشتِ السورة الكافرين بطريقة غير مباشرة، إذْ وَجَّهَتْ للرسول ﷺ سؤالين عن أمْرَين، لو كان أحدهما موجوداً لرُبّما كان لهم بعض العذر:

السؤال الأول: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

السؤال الثاني: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

● وبعدئذٍ انتقلت السورة لتوجيه الدُّعاة من بعد الرسول ﷺ للصَّبْرِ في مجالات الدَّعْوَةِ، تأسِّياً بالرسُول ﷺ، إذْ كان متحقّقاً في ذاتِ نَفْسِه بهذا التوجيه، دلّ على هذا أَنَّ الآيات الثلاث التي تضمّنَتْ هذا التوجيه (٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠) وهي نجْمٌ مَدَنِيٌّ مُضَافٌ إلى سورة هي من أوائل التنزيل المكيّ، ولَوْ كان الرسول بحاجَةٍ إلى أنْ يُوَجَّه له مضمونُه لكان قَدْ أُنْزِلَ مَعَ السّورة في أوائل التنزيل المكيّ، لكنَّهُ كان متحقّقاً بمضمونه فلم يكن بحاجة إليه، غير أَنّ الدُّعاة إلى اللّه من بَعْدِه، سيتَعَرَّضون لِمِثْلِ ما تعرَّضَ لَهُ الرَّسُولُ في مواقف مشابهة للمواقف الّتي كَانَ عَلَيْها مشركو مكّة إِبّانَ نزول سورة

(القلم) فهم بحاجَةٍ شديدةٍ لأنْ يأمُرَهُمُ اللَّهُ بالصَّبْرِ فيها، وجاء الخطاب في هذا النجم موجَّهاً للرَّسول باعتباره قائِدَ أُمَّتِه، وَأوامر اللَّهِ له هي أوامر لهم، فدَلَّ هذا الإِجْراء على أنَّ الدُّعاة من أُمَّتِهِ من بَعدِه هُمُ المقْصُودُون بالتَّوجيه، وهذا من بدائع القرآن، وروائع دلالاته.

● وبعدئذٍ كشفت السورة أن المكذّبين مَذهُوشُون من عظمة البيان القرآنيّ إلى حَدِّ حَسَدِ الرَّسُولِ ﷺ حسَداً شديداً يكاد يَجْعَلُ أبْصارَهُمْ تُزْلِقُهُ عن مواقفه وهو يتلو القرآن، بتأثيراتِ أشعة الحسَدِ الَّتي تَنْطَلِقُ مِنْها، وهُمْ عاجزون عن معارَضة آياته بمِثْلِها أو بِقَرِيبٍ منها.

وعلى الرغم من ذلك فإنَّهُمْ يُكابِرُونَ، ولا يَعْتَرِفُونَ بأنَّها تنزيل من عند الله، فيتَّهمونَ الرَّسُول بأنَّه لمجنون، على خلاف اعتقادهم فيه، واستيقانِهِمْ بأنَّه الصادق الأمين.

● وختم اللّهُ السورة بتأكيد ما سبَقَ بيانُه في سُورَتي «المدثر» و«المزّمل» من أنَّ القرآن تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه.

● ففي «المدَّثر» قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

● وفي «المزّمّل» قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

● وفي «القلم» ختم الله السورة بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

ومَعَ تأكيد أصْلِ الفكرة فبين هذه النصوص الثلاثة تكامُلٌ في المعاني، فالقرآن تذْكِرَةٌ لمن شاء أنْ يَذْكُرَه، ولمن يشاء أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً، وهو ذِكْرٌ لكلّ العالمين المكلّفين إنْسِهِمْ وجِنِّهِمْ.

* * *

(٣)

بيان دروس السورة

تشتمل سورة (القلم) على خمسة دروس:

الدرس الأول: تضمّن علاجاً تربوياً للرسول ﷺ استدعته حالته النفسيّة تجاه مواقف المكذّبين برِسالته وبالقرآن الذي يتنزّل عليه إِبّان نزول السورة، إذ اتّهمه بعض كبراء قومه بالجنون.

وهو من الآية (١) وحتى غاية الآية (١٦).

الدرس الثاني: وهُو درسٌ مدنيّ التنزيل ضُمَّ إلى سورة (القلم) التي هي من أوائل التنزيل المكي، وقد تضمَّن بياناً بأسلوب غير مباشر، عَرَضَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيهِ أَنَّ مَثَلَ كُفَّارِ مكَّةَ بَعْدَ أن حلَّتْ بهم عقوبة اللَّهِ بالهزائم المنكرة الّتي أُصِيبُوا بها كَمَثَلِ أصْحَابِ الجنَّةِ الَّذِين اتفقُوا على أَنْ يمنَعُوا المساكين حقُوقَهُمْ مِنْها، إذْ طافَ عليها طائفٌ من اللّه عزّ وجلّ فأهْلَكَ ثمارَهَا، وأَنْزَلَ بهم عذاباً نفسيّاً معجّلاً، ذاقوا به آلاَمَ خسارةِ ما كانُوا يملكون.

وهو من الآية (١٧) وحتى غاية الآية (٣٣).

الدرس الثاني: تضمَّن بيان قانون الجزاء الرّبّانيّ، ومناظرةً فكريَّةً مُحَاصِرَةً للكافرين المكذبين بيوم الدين، مع إنذارهم بعقاب مُعَجَّلٍ يَنْزِلُ بهم.

وهو من الآية (٣٤) وحتى غاية الآية (٤٧).

الدرس الرابع: درسٌ موجَّهٌ للرسول ﷺ والمقصود الدعاة إلى دين الله من أُمَّتِهِ، وقد تضمَّن الأمر بالصَّبْر لحكم الله، إذا واجَهُوا مزعجات ومؤلمات من الذين يدعونهم، مماثلات لما تلقَّاه الرسول ﷺ من قومه إبَّانَ نزول سورة القلم، فقابلها بالصَّبرِ لحكْمِ رَبِّه دُون أنْ يأمُرَهُ الله به.

وهو من الآية (٤٨) وحتَّىٰ غاية الآية (٥٠).

الدرس الخامس: تضمّن بيان أنّ المكذِّبين للرسول والمكذبين بما أنزل الله عليه مندهشون من عظمة البيان القرآني المعجز، وبَيَانَ حسدهم للرسول حسداً شديداً كاد أن يجعل أبصارهم تُزلِقُهُ عن مواقفه وهو يتلو القرآن، وهم على الرغم من هذا الحسَدِ المنبعث من دهشتهم مكابرون ويتّهِمُونَ الرسول بالجنون على خلاف اعتقادهم فيه.

وتضمَّن بيانَ أنَّ القرآنَ ذِكْرٌ لجميع العالمين الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وليس لأهل مكة أو للعرب فقط.

وهو الآيتان الأخيرتان من السورة (٥١ ـ ٥٢).

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي للدرس الأول

الآيات من (١ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ⑤ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ⑥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ⑦ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ⑧ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ⑨ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ⑩ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ⑪ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ⑬ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ⑭ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑮ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ⑯﴾.

● قرأ ابن عامر، وشُعْبة، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب: (أَأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) بإثبات هَمْزَةِ الاستفهام.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

حروف التهجّي في بعض أوائل السور:

﴿نٓ﴾ حرفٌ من حروف التَّهجِّي يُقْرأ وفق الرسم التالي: «نُونْ» بإسكان آخره، وحروف التهجّي: هي ما تتركَّبُ منها الكلمات.

وقد أطال الباحثون الكلام حول حروف التهجّي المقطّعة الّتي افتتح الله بها أوائل بعضِ سور القرآن الكريم.

وقبل عرض أظهر الوجوه التي ذكرها الباحثون، ينبغي تقديم ما يلي:

لا بُدّ أن نلاحظَ في هذا الموضوع أنّ العرب الذين عاصروا صدر الرسالة، ونزل القرآن بلغتهم ـ وفيهم المعارضون المعاندون الذين كانوا يجْهَدُونَ باحثين لعلّهم يظفرون في القرآن بِمَطْعَنٍ للتشهير به، واتّخاذه مادّةً لنَقْدِه بها ـ لم يجدوا في هذه الحروف المقطّعة ما به ينتقدون أَوْ يشهّرون، الأمر الذي يدُلُّ على أنَّ افتتاح الكلام بأمثالها لا يَنْبُو عن أساليبهم وعن أُصول لغتهم، ومن أجل ذلك لم يُثِيروا حولها نقداً ولا تساؤلاً، مع العلم بأنَّ كلَّ السّور الّتي افْتُتِحَتْ بحروفٍ من حروف التَّهجِّي المقطعة سُورٌ مكيّة، باستثناء سورتي البقرة وآل عمران فهما من أوائل التنزيل المدني.

بعد هذا نقول: ما المراد من هذه الحروف؟

أعرض فيما يلي أربعة وجوه يصْلُحُ كلُّ وجه منها أن يكون مراداً، ومع ذلك فاللّهُ أعْلَمُ بمراده منها:

الوجه الأول: حروف التهجّي المقطّعة الموجودة في أوائل بعض سُوَر القرآن، هي بمثابة أدواتِ التَّنْبيه.

فمن المعروف أنّ من أساليب العرب أن يفتتحوا كلامهم بشيءٍ من أدوات التنبيه مثل: «ألاَ ـ أَمَا» إذ يُسْتَفتح بهما الكلام، والغرض من أدوات التنبيه استثارةُ انتباه السامع إلى ما يُرَادُ إلقاؤه إليه.

ويبدو لي أنَّ استعمال حروفٍ لم تَجْرِ العادةُ باستعمالها لغرض التنبيه أكْثَرُ لفتاً للنّظر، وإثارةً للانتباه ممّا جرت العادة باستعماله، بسبب أنَّ المألوف في السّمع يمُرُّ دون أن يحرّكَ في النفس ساكناً، أو يوقظ في الفكر نائماً، أو يُنَبِّه به غافلاً، فإذا طرقَ السَّمْعَ جديدٌ غَيْرُ مألوفٍ تحرّك الساكن، وتنبَّهَ الغافل، واستيقظ النائم، ومثلُ هذا يجري دائماً في أساليب الكلام، وفي مختلف وسائل التَّنبيه.

فَرُبَّما تُنَبِّه مُخَاطَبَكَ بحَرْفٍ ما اعْتَدْتَ أن تُنَبِّهَهُ به، لتستَدْعيَ ذِهْنَهُ من شُرود، وربّما تُنَبِّهُه بنقرة أو بتصْفِيقٍ أو بضربة بمطرقةٍ على المنصّة، أَوْ بأيّ شيءٍ مما يُحْدثُ صوتاً سريعاً متقطّعاً أو متتابعاً تتابعاً يسيراً، ثُمَّ تنقطع دون استرسالٍ طويل.

إذا عرفنا هذا ثُمَّ تأمَّلْنا في الحروف المقطَّعةِ في أوائل بعض السُّور من حروف التَّهجّي، وجَدْنَا فيها من تحقيق التنبيه التَّامِّ ما لاَ مزيد عليه، مع أدبٍ في الوسيلة التي تُناسب بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك باستعمال أسماء حروف التهجّي التي هي أولُ ما يتعلّمه المتعلّمُون من القراءة والكتابة، وفي هذا إشارةٌ لهم بأنّهم بعيدون جدّاً عن آفاق العلم والمعرفة، وعلَيْهِم أَنْ يَسِيرُوا في طريق التعلّم، ولَوْ مِنْ نُقْطَةِ الْبَدْء بتَعَلُّم حُرُوفِ التهجّي، حتَّىٰ يُحْسِنُوا الكتابَةَ بالْقَلم وقراءةَ المسطورات، ثُمَّ لِيَذْهَبُوا صَاعِدِين في سُلَّمِ مَجْدِ الإنسانِ العلميّ.

الوجه الثاني: تُشيرُ حُروفُ التَّهجّي المقطّعة في أوائل بعض السُّور إلى ما تضمَّنَهُ القرآن المجيد من تَحَدٍّ للإتْيَانِ بمِثْلِه، أَوْ بمثْلِ سورةٍ منه.

فلَقَدْ تحدَّىٰ اللّهُ عزّ وجلّ الناسَ أَنْ يَخْلُقُوا حَيواناً حتَّىٰ ذُبَاباً، مع أَنَّ المادّة الّتي خلَقَ اللّه منها كلّ الأحياء في الأرض معروضة أَمَامَهُم، مَبْذُولةٌ لهم، فهي في متناول أيديهم، إنّها عناصر الأرض، ترابٌ وماء، ومع أنّ هذه المادّة بين أيديهم فإنّهم عاجزون عن خَلْقِ أيّ شيءٍ صغيراً كان أَمْ كبيراً.

وعلى مثل هذا تحدّى اللّهُ عزّ وجلّ النّاسَ أَنْ يأتُوا بمِثْلِ هذا القرآنِ أو بمثل سورة منه، مع أنّ مادّة القرآن الّتي أُلِّفَتْ مِنْهُ آيَاته وسُوَرُهُ إنّما هو الكلامُ الْعَربيُّ الّذي يستعملونه في تخاطبهم، وفي آدابهم شعراً ونثراً، ويتفاخرُونَ ببلاغَتِهِمْ فيه على سائر الأمم، وهذا الكلام العربيُّ معروضٌ أمامَهم، وهو في مُتَناوَلِ نُطْقِهم وكتاباتهم وشعرهم ونثرهم.

وحروفُ التهجّي العربيّة تمثّلُ المادّة الأولى لهذا الكلام، وإطلاقُ حروف التهجّي لأيّةِ لُغَةٍ من اللُّغَاتِ هو بمثابة العنوان لهذه اللُّغةِ من جهة، والإشارة إلى مادّتها من جهة أُخرىٰ.

فمن يُنكِرُ أنّ هذا القرآن كلامُ اللّهِ، وأنّه مُنَزّلٌ من لَدُنْهُ جلّ جلالُه، فلْيَأْتِ بمِثله أو بمثل سورةٍ منه، وهذه مادّةُ كلماته وجُمَلِه وتراكيبه معروضَةٌ أمامه في اللّغة العربية، وعنوان هذه اللّغة أسماءُ حروف التهجّي الموضوعة فيها للحروف التي تُنْطَق في بناء الكلمات، والتي منها على سبيل المثال: (نُونْ ـ صَادْ ـ كَافْ ـ هَا ـ يَا ـ عَيْنْ ـ أَلِف ـ لاَمْ ـ مِيمْ ـ رَا).

ويُقَرِّبُ هذا المعنى أنّ معظم السُّور الّتي افْتُتِحَتْ بحروفٍ مُقَطَّعَةٍ من حروف التهجّي ابتدأتْ بالكلام على القرآن المجيد.

الوجه الثالث: الحروف المقطّعة في أوائل بعض السّور هي أسْماءٌ لها، فيقالُ مثلاً سُورَة (نُونْ) وسورة (صَادْ) وقد ذكر هذا الوجه أكثر المتكلمين، واختاره الخليل، وسيبويه، من أئمة اللّغة العربيّة.

الوجه الرابع: أنّ هذه الحروف المقطّعة مأخوذة من كلمات على طريقة العرب في ذكر حرْفٍ من كلمة، وهم يريدونها، كقَوْلهم: قُلْتُ لها: «قِفِي» فقالت: «قاف» أي: وقفت.

وروي عن ابن عبّاس ـ رضي اللّه عنهما ـ تأويلات لبعض هذه الحروف من هذا القبيل، قال: معنى: (ألّم) أنا اللّه أعلم. ومعنى: (ألّر) أنا اللّه أرَىٰ. ومعنى (ألّمر) أنا اللّه أعلم وأرى.

لكنّ أكثر السَّلف قد رأَوْا أنْ حروف التَّهجّي المقطّعة في أوائل بعض السّور ممّا استأثر اللّهُ بعلمه، وأنّها سِرُّ القرآن.

رُوِي عن أبي بكْرٍ ـ رضي اللّهُ عنه ـ أنّه قال: في كلّ كتابٍ سرّ، وسرّ اللّه في القرآن أوائل السّور.

ورُوي عن علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ أنّه قال: لكُلِّ كتابٍ صَفْوة، وصَفْوَةُ هذا الكتاب حروفُ التهجّي.

ورُوي نَحْوُ ذلك عن الشعبي من التابعين، ولهذا نجد كثيراً من المفسرين يقولون بشأنها: اللّه أعْلَمُ بمراده.

● قول اللّه عزّ وجل:

﴿. . . وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

«الواو» في «والْقَلَم» هي واو القسم. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يكْتُبُ الكاتبون. يُقالُ لغة: سَطَر الكتابَ يَسْطُرُهُ سَطْراً وسَطَّرَهُ يُسَطِّرُهُ تَسْطيراً، أي: كتبه.

لقد عرض الرسولُ ﷺ نفسه على قومه، ودعاهم إلى التوحيد ونبْذِ الشرك، ونَبْذِ الأوثان وعبادتها، فعَظُمَ على سادة قومه هذا الأمر، وكبُرَ علَيْهم أن يُتَّهموا بأنّهم كانوا في ضلالة وجهالَةٍ، وسفاهَةِ أحلام، بعبادتهم الأوثان هم وآباؤهم من قبلهم.

فرأى بعضُ كُبَرائهم أن يَرُدُّوا عن أنفسهم ذلك بأن يتّهموا الرسول ﷺ بالجنون، إذْ ذكر لَهُمْ أنَّ وحْيَ اللَّهِ عزّ وجلَّ قد نزل عليه، وأبلغَهُ بأنَّه رسُولُ اللّه للناس، وأنَّ عليه أن يُبَلّغَهُمْ رسالات رَبّه، وأنَّ أوّل بلاغ فيها نداءُ التوحيد، ووجوبُ نَبْذِ الشرك والأوثان، وأنّ عليهم أنْ يعبُدوا اللّه وحْدَهُ لاَ شريكَ له.

فصاروا يقولُونَ فيما بينهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ لتنتشر هذه المقالة في جماهير أتباعهم، مع أنَّهُمْ قد بلغت بهم الدهشة مَبْلَغَها الأقْصَىٰ من روائع البيان القرآني، حتَّىٰ كادُوا يُزْلقون الرسول ﷺ عن مواقفه بأبصارهم من شدّة حسَدِهِمْ لَهُ، لمَّا سَمِعُوه يتْلُو بعض ما تنزَّلَ عليه من القرآن، دلّ على هذا قول الله عزّ وجل في أواخر السورة:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾.

وكان هذا منْهُم إيذاناً ببَدْءِ معْرَكَةِ الرَّفضِ لدَعْوة الرسول ﷺ، وتكذيبه في دعوىٰ النُّبُوَّةِ والرّسالة.

ومن طبيعة الناس التلقائيّة أنَّهُمْ إذا كَذَّبُوا منْ يَدَّعي اتصالاتٍ غيبيّةً خارجةً عن مجرىٰ العادات الحسيّة قالوا: فيه مسٌّ من الجنّ، وقالوا: هو مجنون، يَتَوَهَّمُ بجنونه أنّ أرواحاً غيبيَّةً تتّصِلُ به وَتُبَلِّغُهُ، ولا يَعْدُو أمْرُهُ أن يكونَ تَوهُّماً، هذا إذا كان معروفاً بينهم بالصّدْق والأمانة وكمال الْخُلُق، فَهُمْ في أوّل الأمْرِ لا يقولُون له: أنت تكْذِبُ علَيْنَا لأمْرٍ تُريدُه، وإنّما يعْتَذِرُونَ له بأنّ فيه مَرضَ الجنون.

لكنَّ الجنون يتنافَىٰ مع دعوة الرّسُول الناسَ إلى القراءة والتعلُّم واستخدام وسيلة «القلم» لتثبيت المعارف، ومُعَاودة بحثها ومُناقشتها، وهو ما جاء في أوّل سورةٍ أُنزِلَتْ عليه، وهي سورة (اقرأ) فكتابَةُ ما ينزل به

الوحي بالقلم يجعلُه مقروءاً ومحفوظاً، يَعْرِضُ نفسه للباحثين والدارسين في كلّ حين، أمّا كلامُ من فيه جنونٌ فإنَّهُ لا يُمْكن أنْ يكونَ كُلُّه كاملاً خالياً من الخلَلِ والانحراف الجنوني.

فلمَّا اتَّهمه بعض قادة قومه بالجنون بغية ترويج هذه المقالَة بين جماهير الناس، جاء في صَدْرِ سورة «القلم» التذكيرُ بالْقَلَم وبما يَسْطُر الكاتبون به من معارفَ وعُلُومٍ، وقرآنٍ يَتَنَزَّلُ عَلَىٰ الرّسُول ﷺ، وجاء هذا التذكير بأسْلُوب الْقَسَمِ الْمُشْعِرِ بتمجيد العلم ووسائله، وفي هذا إلماحٌ إلى أنّ المجنونَ لا يدعو إلى العلم، وتثبيتِ العلم بالكتابة، ومتابعة الكتابة بالقراءة والدّرْسِ والبحثِ والتفكّر والتدبّر، ودوام التذكّر.

أي: ألم يدْعُكُمْ في أوّل سورةٍ أُنْزِلَتْ عليه إلى القراءة، وإلى تسجيل ما ينزل به الوحْيُ بالقلم، لتثبيته ومعاودة قراءته، وتدبُّر معانيه، ليَهْدِيَكُمْ التدبُّر إلى الحق، وإلى صدق دعوة الرَّسُول؟

فأقسم اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله بالقلم وبما يسْطُر الكاتبون به من علومٍ ومعارفَ وهدايَةٍ يتنزَّل بها الوحيُ من لدُنه على أنبيائه ورسُلِهِ، ولا سيما خاتمتُهُمْ محمّد بن عبد اللّه على أنه ليس بمجنون كما يُحَاولُ أَنْ يُرَوِّجَ حَاسِدُوهُ عَلَىٰ النِّعْمَةِ الَّتِي أنعَمَ اللّهُ بها عليه إذِ اصطفاه بالنبوّة والرّسالة وإنْزَالِ القرآنِ المعجز المدهش عليه.

فقال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾.

وفي خطاب اللّه رسُولَهُ بهذا تَسْلِيَةٌ لنَفْسِه إذْ أحزَنَتْهُ مقالة قومه بشَأْنه: إنَّهُ لَمَجْنُون، ونفْيُ الجنونِ عنه مقترنٌ بالدّليل على أنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ مجنوناً، وهو مفَضَّلٌ على سائر الناسِ في زمانه، بنِعْمَةِ النّبوّة والرّسالةِ وما تشتمل عليه من عطاءِ عِلْمِيٍّ رَبَّانيٍّ له فيه الحقُّ والخيرُ والْهُدَىٰ، ويَتَميَّزُ به

على النَّاسِ جميعاً، ولا يقْتَصِر حالَهُ على تفضيلٍ علميٍّ ذَاتيٍّ، بل هو يَدْعو النَّاسَ إلى تدبُّرِ ما يَنْزِلُ عَلَيه من بيان رَبَّاني، وتفهُّم معانيه، وإلى اسْتخدام القلَم والكتابة في تسجيله وجَعْلِه كتاباً مسطوراً، لِمُتَابعَةَ تفهُّمِهِ وَتَدَبُّرِهِ ما بَقِيَ في الدهر دارسون متفهّمُون للنصوص متدَبّرون.

وفيه أيضاً تثبيت للرسول ﷺ على حمل رسالته مهما ناله من أذىً من قومه.

وفي الإشارة إلىٰ هذا الدليل بأسلوب خطاب الرسولِ خطابَ تسلية وتثبيتٍ، تَعْرِيضٌ بسُخْفِ عُقول مُتَّهِمِيه بالجنون، وأَنَّ مقالتهم لا يُمْكنُ أن يكونَ لها رواجٌ في الناسِ، وهو يَتْلُو على الناس قرآناً فيه الحقّ والخير والْهُدَىٰ، ويَعْرِضُ نفسه للباحثين الدارسين المتدبّرين، ويَطْلُبُ منهم أَنْ يتعَلَّمُوا الكتابة والقراءة، وتدَبُّرَ ما يَسْطُرُونَ ممَّا يُنْزِلُ اللَّهُ علَيْهِ مِنْ قُرْآن.

واقتضت الحكمة التربويّةُ في هذه المرحلة الأولى أنْ لا يُواجِهَ اللّه عزّ وجلَّ مُتَّهِمِي الرسُولَ بالجنون بالخطاب المباشر الذي يُبينُ فيه فسادَ مقالتهم، تلطُّفاً بهِمْ، وإيثاراً لأسلوب التدرُّجِ الارتقائي في الوسائل، من التعريض إلى التصريح ثم إلى المواجهة بالخطاب، ثُمَّ إلى التعنيف فالشتيمة إذا اقتضى الأمر ذلك.

وقَسَمُ اللّهِ بالْقَلَمِ وَسِيلَةِ تَدْوِينِ المعارف والعلوم، وبِمَا يَسْطُرُ السَّاطرونَ من مكتُوباتٍ علميَّةٍ يُثْبِتُونها، للرُّجوع إليها آناً فآناً، بُغْيَةَ تَذَكُّرِها، ولِتَنْتَفِعَ الأجْيالُ المتلاحقَةُ مِنها، عَصْراً فعصْراً، وَقَرْناً فَقَرْناً، هو في الحقيقة قَسَمٌ بصفاتِ اللّه الّتي كان من آثارها في تدبير الخلْقِ مَنْحُ الإنسان القدرةَ على استخدام القلم، في كتابة العلوم والمعارف وتسْجِيلِها، وهدايتَهُ إليها، وتَسْخِيرُ الوسائل لِجَعْلِ الكتابَةِ عِمَادَ تَدْوين المعارِف والعلوم وتثبيتِها.

وتحلِيلُ العبارة القرآنيَّةِ يكونُ على الوجه التالي:

أُقْسِمُ بالْقَلَم وبِمَا يَسْطُرُ السَّاطِرُونَ من معارفَ وعلومٍ لتثبيتها ومنها ما أُنزِلَ عليكَ يَا مُحَمَّد من آياتٍ بيّناتٍ تشتمل على الحقّ والخير والْهُدَىٰ، لتكونَ ذكرىٰ للعالمين، علىٰ أنَّكَ لَسْتَ حالةَ كوْنِكَ مُفَضَّلاً بنِعْمَةِ اللّه عليك بالنبوّة والرّسَالَةِ وباصطفائِكَ بكِتَاب رَبِّكَ الْمُعْجِزِ الَّذِي أُوحِي به إلَيْكَ بِمجْنُون، فالمجنونُ لا يكونُ مؤهَّلاً بحالٍ من الأحوالِ لِيُوحَىٰ إلَيْهِ بِمِثْلِ هذا القرآن، وصفة الجنون لا تتلاَءَمُ مَعَ هٰذِهِ النِّعْمَةِ العظيمة الّتي أنْعَمْتُ بها عليك، وآثارُها ظاهِرَةٌ عَلَيْكَ أيْنَما حَلَلْتَ وَأينما ارتَحَلْتَ.

(الباء) في عبارة ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ للمصاحبة والملابسة، والعامل في الحال الذي هو متعلّق الجار والمجرور هو معنىٰ النفي في عبارة: ﴿مَآ أَنتَ﴾ أي: أنفي عنك حالة كونك مُلابساً ومَصْحوباً بنِعْمَةِ اللّهِ عليك أنْ تكون مجنوناً.

والنِّعْمَةُ المرادةُ هُنَا: هي نِعْمَةُ الاصطفاء بالنُّبُوَّةِ والرّسالَةِ ونِعْمَةُ إنزال القرآن المعجز على الرسول محمد ﷺ.

فما جاءَ الرسولَ محمّداً ﷺ من الوحي هو نِعْمَةٌ أنْعَمَ اللّهُ عزّ وجلّ بها عليه، وهٰذِه النّعمةُ ذَاتُ أثَرٍ حَقِيقيٍّ تُدْرِكُ العقول الحصيفة الرّشيدَةُ عظمته، بما تشتمل عليه من حَقٍّ وخيرٍ وَهُدىً وإعجازٍ بَيَاني وعلْمِيٍّ وتشريعيّ وخبريّ، وهٰذِه الأمور لا يمكن أن تَصْدُر عن تَخيُّلٍ أو جُنُون، فكمال العلم، وكمال العقل، وكمال الحكمة، لا يُمْكِنُ أنْ يأتي بها جُنون.

فما أنت يا محمَّد بحَمْلِكَ لهذه النعمة العظمىٰ من ربّك بمجنون، فلا يضيرُكَ أن يقول المكذبون لك الذين يحْسُدُونك على مَا آتاكَ ربُّكَ: إنَّهُ لمجنون، ولْيَعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكَ الذي اصطفاك بهٰذِهِ النعمة يُبَرِّئُكَ ممّا اتَّهمُوكَ به، إذْ أَنتَ في ذَاتِكَ بريءٌ منه، وسيثْبتُ للجميع أنَّكَ أكْمَلُ الناس عَقْلاً وخُلُقاً.

● قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

الأجْرُ: هو العوض عن العمل الذي يُقَدِّمه العامل تحقيقاً لمطلُوبِ المعْمُولِ له.

وعِوَضُ العمل الذي يُحَقِّقُ مطلوبَ اللَّهِ من عَبْدِه يضاعفُهُ اللَّهُ أضعافاً كثيرةً بفضله وجوده، وأَعْظَمُ العوضِ ما ادّخره اللّه لعباده وأَخَّرَهُ إلى يوم الدِّين، فَهُو يمنحُهُمْ إياهُ في الحياة الأخرى.

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: أي غَيْرُ مَقْطُوعٍ، فهو إذنْ أجْرٌ مُتَواصِلٌ لاَ يَنْقَطع، مِنْ قولِهِمْ: مَنَّ الشَّيْءَ، إذا قَطَعه.

والأجْرُ الّذي لا ينقطع هو ثوابُ اللَّهِ لعباده الصالحين في جنَّاتِ النّعيم.

إنّه لَنْ يمُرَّ أذىٰ النّاسِ للرَّسُولِ ذي الخلُق العظيم، دون أجْرٍ دائمٍ جسيم، من الرّبّ الجواد الكريم.

وفي وعْدِ اللّه لرسوله بالأجْرِ غَيْرِ الْمَمْنُونِ تشجيعٌ له على متابعة جهاده في تبليغ رسالات ربّه، دون أن يعبأ بأذىٰ الناس له.

وقد جاءت الجملة مؤكّدةً بالمؤكداتِ التاليات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاّم المزحلقة».

● قول اللّه عزّ وجل خطاباً لرسوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾:

أي: وإنَّكَ لمفطورٌ علَىٰ خُلُقٍ عظيم، فأنْتَ متمكّنٌ منه تمَكُّنَ القادر على الشَيْء باستعلاء، فحرفُ «علَىٰ» يدُلُّ علىٰ هذا التمكُّنِ باستعلاء.

لقد اقتضت الحكمة التربويّة أن يُرْشِد اللّه رسُولَهُ في هذا الموقف إلى

الصَّبْر، والحلْم، والصَّفْح، وسَعَةِ الصَّدْرِ، ومتابعة قيامه بوظائف رسالات ربّه، بأسْلوب الثناء عليه بأنَّهُ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عظيم.

هذه الجملة مؤكَّدَةٌ بمؤكدات ثلاثة: «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة».

أي: فتعامل يا مُحَمَّدُ مع قَوْمِك بهذا الخلُقِ العظيم الذي فُطِرْت عليه، إذْ تَدْعُوهم إلى سبيلِ ربّك، وإذْ تنالُ منهم ما تنالُ من أذىً.

وهنا نلاحظ أنّ اللّه عزّ وجلّ لم يأمُرْ رسُولَهُ صراحة بالصَّبْرِ، والحلْم، والصفح، وسعَةِ الصَّدْرِ، وتحمُّلِ الأذىٰ من قومه، ومتابعةِ القيام بوظائفِ رسالته، وإنّما ألْمَحَ له إلى ذلك إلْمَاحاً عجيباً، فكان هذا الإلماحُ ثناءً فاخراً نفيساً بأنّه لَعَلَىٰ خُلُقٍ عظيم.

- قَوْلُ اللّه عزَّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

الْمَفْتُونُ: المرادُ من المفتونِ هُنَا المصابُ بِالجنون، وإطلاق المفتون على المجنون من التوسُّعَاتِ اللّغويَّة، ومعلومٌ أنَّ الّذي يتصرّف تصرّفات تُؤدّي به إلى شقائه وعذابه وخسارته غَيْرَ مُكترث للتحذيرات الّتي تُوجَّهُ له، هو المستَحِقُّ لأنْ يوصَفَ بالجنون.

ولمّا كان مَصِيرُ الكافرين المكذِّبين للرسول ﷺ والمكذّبين بما جاء به عن ربِّه، مَصِيرَ شقاءٍ وعذابٍ وخسارةٍ وندمٍ، كَانَ وصْفُهم بالجنونِ هو الوصف الملائم لسلوكهم، ولكنّ هذا لا يكُونُ مَرْئيّاً بالأبصار إلاّ بَعْدَ أَنْ يَحُلّ بهم هذا المصير.

وهذا المصيرُ ليس بعيداً، فَسَتَبْصِرُهُ يا مُحَمَّدُ بعَيْنَيْ رأْسِك، وسَيُبْصِرُونه بأعْيُنِهم في الحياة الدنيا قَبْلَ الآخِرَة، وعندئذٍ يُدْرِكُون أنّ

المجنون في فريق الكافرين، لا في فريق الرَّسُولِ والذين آمنوا معه، وقد دلّ على جنونه أنه دفع بنفسه وبمن اتَّبعه إلى مصير الشقاء والعذاب والخسارة والندم.

وجاء استعمال السّين: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ للدلالة على المستقبل القريب في الدنيا، ولو كان المستقبلَ البعيد في الآخرة لكان المناسب استعمالَ حرف التسويف «سَوْف».

وقد تحقّق بفَضلِ اللّهِ هذا، فرأىٰ الرسولُ والمؤمنونَ في الْعَهْدِ المدنيّ كيف حلَّت بالكافرين الهزائم المنكرة، ورأىٰ الكافرون مَصِيرهم الذي وعد الله الرسول به، وأوعدهم به ضمناً.

لقد تضمَّن هذا النصّ وعداً من اللّه لرسوله بأنّه سَيُظْفِرُه، وينْصُرُه على متَّهميه بالجنون، وعندئذٍ يُبْصِرُونَ بأعْيُنِ رؤوسهم مصائرهم الّتي تدُلُّ على أنَّ كلّ واحِدٍ منهم كان هو الذي يَسْتَحِقُّ لَقَبَ «المجنون».

- قول اللّهِ عزّ وجَلَّ خطاباً لِرَسُوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

جاءت هذه الآية بمثابة التعليل للإيعاد بالمصير السّيِّئ الذي سيصير إليه الذين اتّهموا الرسول ﷺ بالجنون، والوعْدِ بالمصير الحَسَنِ السّارّ الذي سيصير إليه الرسُولُ ﷺ والذين آمنوا به واتَّبَعُوه، فهو بمضمونه إيعادٌ ووعدٌ.

وسبب هٰذين المصيرين أنَّ اللّه أعْلَم من كلّ عليم بالضّالين عن سبيله، وأعْلَمُ من كلّ عليم بالمهتدين، أي: وبما أنّه جلّ جلالُهُ حكيم في تصاريف قضائه وقدره، فلا بُدَّ أَنْ يَمْنَحَ العاقبة الحسنة للمهتدين (أي: لرسوله وللذين آمَنُوا به واتبعُوه) ولا بُدَّ أَنْ يُنْزِلَ العاقبة السَّيِّئَةَ المخْزِيَة بالذينَ ضلُّوا عَنْ سبيله (أي: بالكافرين الذين اتَّهَمُوا الرَّسُولَ بالجنون وكذّبوا بما أنزل اللّهُ عليه).

وقد تحقَّقَ ذَلِكَ بَعْدَ حين في الدُّنيا قبل الآخرة، ولعذابُ الآخرة أشدّ.

- قول اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

الطاعة: الانقيادُ والمتابعة والاستجابة للطلب، يقال لغة: طاعَ فلانٌ فلاناً طوْعاً وطَاعَةً وطَوَاعِيَة، وأطاعَهُ إطَاعةً إذا انقاد له وتابَعَهُ واستجابَ لطلَبه.

وقد نهى اللّه رسوله فكُلَّ داعٍ إلى اللّه من أُمَّته عن طاعة المكذبين للرّسُول، والمكذّبين بما جاء به عن ربّه، فهم يستدرجون حامل الرسالة إلى التنازل عَنْ دعوته، أو عن بعض مضامين رسالته.

ودُّوا: أي: أَحَبُّوا وَرَغِبُوا، أو تَمَنَّوْا، والمفعول به محذوفٌ تَقْدِيرُه: أَنْ تُدَاهِنهم، دلّ عليه عبارة: ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾.

لَوْ تُدْهِنُ: «لَوْ» حرفُ تَمَنٍّ، **تُدْهِنُ**: أي: تُظْهِرُ لَهُمْ خِلَافَ مَا تُبْطِن، يُقَال لُغَةً: أَدْهَنَ الرَّجُلُ، أي: أظهر خلاف ما يُبْطِن. وكذا: دَاهَنَ، ويقالُ: داهَنَ فُلانٌ فلاناً، إذا دارَاهُ ولايَنَهُ، وإذا خَدَعَهُ وغشّه.

فالمعنى: تمَنَّوْا أنْ تُداهِنَهُمْ يا مُحَمّد، فلَوْ تُدْهِنُ في مُعَامَلَتِك لَهُمْ، فَهُمْ في مقابل إدْهانِكَ يُدْهِنُونَ، فيُظْهِرُونَ لَكَ خلاف ما يُبْطِنون.

الشرح التحليليّ:

في هاتين الآيتين إعدادٌ تربويٌّ للرّسُول ﷺ فلكلّ داعٍ إلى اللّه من أُمَّتِه، فالدّاعي إلى اللّهِ وإلى سبيله لا بُدَّ أن يتعرّض في دعوته إلى أصنافٍ من المكذِّبين برسالته، بهذا تقضي سنَّةُ الاجتماع البشري، وقد أثبتت هذه السُّنَّةَ الظاهراتُ المتكرّرات، وعلى الداعي إلى سبيل ربّه أنْ يُواجِهَ أصناف

المكذّبين له بمقتضىٰ المنهج الرّباني، وهو عدم طاعتهم في أيّ أمرٍ يَعْرِضُونه من شأنه الإخلال بواجب من واجباتِ رسالته، أو واجب من واجبات الدعوة إلى سبيل اللّه، وأن لا يُداهِنَهُمْ على حِسَابِ شيءٍ من رسالته ودَعْوَته مُخِلاً بمَبْدأٍ أَوْ حُكْم، أمّا المداراة في أُمور الدّنيا ممّا لا يمسُّ شيئاً من أمور الدّين بنقص أو زيادة أو تحريف، فهي من أساليب الدعوة، إذا اقتضتها الحكمة، في الظرف المناسب الذي يكون فيه الداعي.

وفي بيان هذا المنهج الربانيّ قال اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله فلكُلِّ داع إلى سبيل رَبِّه من أُمّته:

- ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

والسبب في النهي عن طاعتهم ولو على سبيل مُداهنتهم أنّهم لا يَعْرِضون أمراً من الأمور المتعلّقة بدعوة الرّسول إلاّ مشتملاً عَلَىٰ ما يُخالفُ واجب الرّسالة وتبليغها، أو على زحزحة الداعي عن بعض مفهوماتِ دينِ اللّه أو أحكامِ شريعته، أو ما يجب عليه من تبليغٍ وبيان ودعوة إلى سبيل ربّه.

إنّ الدّعوة إلى دين اللّه الحقّ لا بدّ أن تتضمّن بيان فَسَاد عقيدة الكافرين والمشركين، وفسَادِ أعْمالهم في عبادة الأوثانِ، أو فسادِ ما هم مُعْتَادونَهُ من ظُلْم وفُحْشٍ وعُدْوانٍ وأخلاقٍ اجتماعيّة ذميمة قبيحة فيها إثْمٌ أو فجور، وهذا أمْرٌ يَعْتَبرُه الذين لا يسْتجيبون للدّعوة شتيمةً لهم ولطرائقهم وعاداتهم، وتسفيهاً لأحلامهم، وتنقيصاً لهم، وسبًّا لآبائهم الذين ورثوها عنهم.

فإذا كان للداعي في قومه عزوةٌ تنصُره، أو مكانةٌ اجتماعيَّةٌ تُخْشىٰ، فإنّ المكذبين برسالته يلجؤونَ في أوّل الأمر لمطالبته أو مطالبة مناصريه من عشيرته بأنْ يكُفَّ عن التعرُّض لعقيدتهم وأعمالهم وعاداتهم وأخلاقهم، لما

في ذلك من شَتِيمةٍ لهم فيما يتصوَّرون، إذْ هُمْ غيْرُ مستعدّين لتَرْكِ ما هم عليه، وقبُولِ دَعْوَتِه ونُصْحِه، وتغيير عقائدهم وعاداتهم وأعمالهم وأخلاقهم وطرائقهم في حياتهم.

وقد تعرّض الرسُول ﷺ فيما بَعْدُ في مسيرته الدّعويّة لمثل هذه المطالب، لكنّه اعتصم بالمنهج الرّباني الذي أمره اللّه فيه بأن لا يطيع المكذّبين ولو على سبيل المداهنة.

وروايات السيرة النبويّة تَشْهَدُ بهذا، فمنها ما يلي:

(١) مشىٰ رجالٌ من أشراف قريشٍ إلى أبي طالب عَمّ الرسول ﷺ ونصيره في قومه، فقالوا: يا أبا طالبِ، إنّ ابْنَ أخيك قد سبَّ آلِهَتَنا، وعابَ ديننا، وسفَّهَ أحلامَنَا، وضَلَّلَ آباءَنا، فإمَّا أنْ تكُفَّهُ عنَّا، وإمّا أن تُخَلِّيَ بيننا وَبينه، فإنّك على مثل ما نَحْنُ عليه من خلافه، فَنكْفِيكَهُ.

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم رَدّاً جميلاً، وانصرفوا عنه، ومضى الرسول ﷺ يُظهِرُ دينَ اللّه، ويدعو إليه، ولم يتخلّ عمُّه عن مناصرته.

(٢) قال عقيل بْنُ أبي طالب:

جاءت قريشٌ إلى أبي طالب فقالوا: إنّ ابْنَ أخيك هذا قَدْ آذانا في نادينا ومَسْجِدِنا، فانْهَهُ عنا. فقال: يا عَقِيلُ، انْطَلِقْ فأْتِني بمُحَمّد ـ ﷺ ـ فَانْطَلَقْتُ إليه، فاسْتَخْرَجْتُه مِنْ كِبْسٍ[1]، فجاء به في الظهيرَة في شدّة الحرّ، فجَعَلَ يَطْلُبُ الفَيْءِ يمْشي فيه من شدّة الحرّ، فلمّا أتاهم قال أبو طالب: إنّ بني عَمِّك هؤلاء قد زعَمُوا أنّكَ تُؤذيهم في ناديهم ومَسْجِدِهم، فانته عن أذاهم.

---

[1] **الكِبْسُ**: البيتُ الصغير. قال شمّر: من كِبْسٍ، أي: من بيت صغير، ويُرْوىٰ بالنون من الكناس وهو بيت الظبي، والأكباسُ بيوتٌ من طين، واحدها كِبْسٌ.. والكِبْسُ اسْمٌ لمَا كُبِسَ من الأبْنية، انظر لسان العرب.

فحلَّقَ رسول الله ـ ﷺ ـ ببصَرِه إلى السماء فقال:

«أَتَرَوْنَ هٰذِهِ الشَّمْسَ؟».

قالوا: نعم.

قال: «فَمَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَىٰ أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَىٰ أَنْ تَسْتَشْعِلُوا شُعْلَةً».

فقال أبو طالب: واللَّهِ مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي، فارْجِعُوا..).

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يُظْهِرُ دين اللّه، ويدعو إليه، غَيْرَ مُسْتجيب لما دعاه إليه المكذِّبون، ولم يَتَخَلَّ عمُّه أبو طالب عن نُصْرَته.

(٣) ثم مشىٰ الرجال من أشراف قريشٍ إلى أبي طالب، فقالوا له: يا أبا طالب، إنّ لكَ سِنًّا وشرَفاً ومَنْزِلَةً فينا، وَإنّا قد استَنْهَيْنَاكَ من ابْن أخِيك فلَمْ تَنْهَهُ عنّا، وإنّا واللَّهِ لا نَصْبر على هذا من شَتْم آبائنا وتَسْفِيهِ أحلامِنَا وعيْب آلهتنا حتَّىٰ تَكُفَّهُ عنّا، أو ننازلَهُ وإيَّاكَ في ذٰلِكَ، حتَّىٰ يَهْلِكَ أَحَدُ الفريقين.

ثمّ انصَرَفوا.

فعَظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم، ولم يَطِبْ نفساً بأَنْ يَخْذُلَ ابْنَ أخيه ويُسْلِمَه لهم.

فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابْنَ أخي، إنّ قومَكَ قد جاءوني فقالوا لي: كذا وكذا، وقَصَّ عليه نبأ ما جاءوا به، ثمّ قال له: فأبْقِ عليَّ وعلَىٰ نَفْسِك، ولا تُحَمِّلْنِي من الأمر ما لا أُطِيق.

فظنّ الرسول ﷺ أنّ عمّه قد ضعُفَ عن نُصْرَته، وأنّه خاذلُهُ وَمُسْلِمُه لقوْمه، فقال: يا عمّ، واللَّهِ لوْ وضَعُوا الشَّمْس في يميني، والقمَرَ في يساري على أن أتْرُكَ هذا الأمْرَ حتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فيه ما تَرَكْتُه.

ثُمَّ استَعْبَرَ رَسُولُ اللّه ﷺ فبكَىٰ، ثُمَّ قام، فلَمَّا ولَّىٰ ناداه أبو طالبٍ فقال له: أقْبِلْ يا ابْنَ أخي، فأقْبَلَ عَلَيْهِ رسولُ اللّهِ ﷺ فقال له: اذْهَبْ يا ابْنَ أخي فَقُلْ ما أحْبَبْتَ، فواللّهِ لا أُسْلِمُكَ لشيءٍ أبداً.

وعرفَتْ قريشٌ مَوْقِفَ أبي طالبٍ من ابْنِ أخيه، وأنَّه غَيْرُ خَاذِلِهِ، وهكذا وقف رسولُ اللّه ﷺ ملتزماً منهج اللّهِ، فلم يُطِعِ المكذّبين، ولم يداهنهم على حِسَابِ وظائفِ رسالته.

ولمّا ثبت الرسول ﷺ ملتزماً المنهج الرّبّاني صَارَ المشركون المكذبون يتعرّضُون له بالأذى، ويتَعرَّضون للذين آمنوا به واتّبعوه بالاضطهاد.

وممّن تعرّض له بالأذى أبو جَهْل «عَمْرو بْنُ هِشام» وكانت كنيته في قومه «أبا الحكم» فسبّ الرسول وشتمه بوقاحة.

فانتصر للرسول ﷺ عَمُّه «حَمْزَة» وكان قد أسلم، وأقبل على أبي جَهْلٍ في مَجْلِس قوْمِهِ، فضربه بقوسه فشجَّه، وعلم القومُ أنّ «حَمْزَة بْنَ عَبْدِ المطّلِب» أصبَحَ على دين محمد ﷺ، فحَسَبُوا لَهُ حِسَاباً، وقام المخزوميّون ينتصرون لرجُلهم أبي جهل، فقال لهم أبو جهل: دعُوهُ، فإنِّي واللّهِ سبَبْتُ ابْنَ أخيه سَبًّا قبيحاً.

(٤) ولجأ المكذِّبون إلى عروض الإغراء، لعلّ محمّداً يطيعهم في ذلك.

فمن عروضهم أنّ «عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَة» وكان سيّداً في قَوْمه، قال يوماً وهو جالسٌ في نادي قريش، ورسُولُ اللّه ﷺ جالِسٌ في الْمَسْجِد وحْدَهُ: يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ، ألاَ أقومُ إلَىٰ محمّدٍ فأكلّمَهُ، وأعْرِضَ عليه أُموراً لعلّه يقْبَلُ بعْضَها، فَنُعْطِيَهُ أيّها شاءَ، ويكُفَّ عنّا؟

فقالوا: بلَىٰ يا أبا الوليد، قُمْ إليه فكلّمْهُ.

فقام إليه عُتْبَةُ، حتَّىٰ جَلَسَ إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: يا ابْنَ أخي، إنَّكَ مِنَّا حَيْثُ عَلِمْتَ مِنَ السِّطَةِ(١) في الْعَشِيرَة، والمكانِ في النّسب، وإنَّك قد أتَيْتَ بأمْرٍ عظيم فرَّقْت بِهِ جماعَتَهُمْ، وسَفَّهْتَ به أحْلامهم(٢)، وعِبْتَ بِهِ آلهتَهُمْ ودينَهم، وكَفَّرْت بِهِ مَنْ مضىٰ من آبائهم، فاسْمَعْ منّي أَعْرِضْ عليْك أُموراً تَنْظُرُ فيها، لعلَّك تقْبَل منها بَعْضَها.

فقال له الرسول ﷺ: «قُلْ يَا أَبا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ».

قال: يا ابْنَ أخِي، إنْ كُنْتَ إنّما تُريد بما جئت به من هذا الأَمْرِ مالاً جمعْنَا لكَ من أَمْوالنا حتَّىٰ تكُونَ أكْثَرَنا مالاً، وإنْ كنْتَ تُريدُ بِهِ شرَفاً سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنا، حتَّىٰ لا نَقْطَعَ أَمْراً دُونَك، وإنْ كُنْت تريدُ به مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ علَيْنا، وإنْ كانَ هذا الّذي يأتيكَ رَئِياً(٣) تراه لاَ تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِك، طلَبْنا لكَ الطِّبَّ، وبذلْنا فيهِ أمْوالَنا حتَّى نُبرِئَك منه، فإنَّهُ رُبّما غلَبَ التابعُ على الرجُلِ حتَّىٰ يُداوَىٰ منه.

حتَّىٰ إذا فرغ عُتْبَةُ ورسُولُ اللّه ﷺ يسْتَمع منه قال:

«أفَرَغْتَ يا أبو الوليد؟».

قال: نعم. قال: فاسْمَعْ منّي. قالَ: أفعل. فتلا عليه رسول اللّه ﷺ سُورَة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مِنَ أوّلها إلى السَّجْدَةِ منها (الآية ٣٨) فسَجَد.

ثم قال: «قد سمعْتَ يا أبا الوليد ما سَمِعْتَ، فأنْتَ وَذاكَ».

---

(١) **السِّطَة**: الشَّرف والمكانةُ والحَسب، يقال لغة: وَسُطَ الرَّجُلُ يَوْسُطُ وَسَاطَةً وَسِطَةً، أي: صار شريفاً وَحَسِيباً، فهو وَسِيطٌ.

(٢) **أحْلَامهم**: أي: عقولهم.

(٣) **الرَّئِيُّ**: هو التابع من الجنّ.

ويلاحظ أنّ في الآيات الّتي تلاها الرسولُ ﷺ علىٰ «عُتْبة بن رَبيعة» تهديداً لقريش بعذابٍ مُهْلِكٍ مُشَابِهٍ للعذاب الذي أهْلَكَ اللّه عزّ وجلّ به عاداً وثَمُودا.

(٥) ثمّ أعاد المكذِّبون محاولة عروض الإغراء الّتي بدأها «عُتْبَةُ بن رَبِيعَة» لمّا رأوا أنّ الإسلام أخذ يفشو في قبائل قريش في الرجال والنساء، وأنّ وسائل الاضطهاد لم تَرُدَّ الذين آمنوا بمحمّد واتَّبَعُوه عن الدّين الذي آمنوا به، بل زادتهم استمساكاً به، وجعلَتِ المتريّثين يستَيْقِنون أنّ هذا الدّين حقٌّ، وأنَّ محمّداً نبيٌّ اصطفاه اللّه بالنبوّة والرّسالة، وبعثه رسُولاً يُبَلّغ الناسَ رسالات ربّه.

روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم، عن سعيد بن جُبَير، وعَنْ عِكْرِمة مولى ابنِ عبّاس، عن عبد اللّه بن عبّاس ـ رضي اللّه عنهما ـ قال:

اجتمع عُتْبَةُ بْنُ رَبيعة، وشَيْبةُ بْنُ رَبيعة، وأبو سفيان بْنُ حرْب، والنَّضرُ بن الْحَارثِ بْنِ كَلَدَة (أخو بني عبد الدارِ) وأبو الْبَخْتَرِيّ بن هشام، والأسْوَدُ بن المطّلب بن أَسَد، وزَمَعَةُ بْنُ الأسْوَد، والوليدُ بْنُ المغيرة، وأبو جَهْلِ بن هشام، وعَبْدُ اللّه بن أُميَّة، والعاصُ بْنُ وائل، ونُبَيْهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنا الحجَّاج السَّهميّان، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَف.

(وهم أشراف قريشٍ من كلّ قبيلَةٍ كما ذكَر ابْنُ إسحاق).

قال ابْنُ عباسٍ: اجتمعوا بعْدَ غُرُوب الشَّمْسِ عند ظهر الكعبَة، ثُمَّ قال بعْضُهم لبعض، ابْعَثُوا إلى محمَّدٍ فَكَلِّمُوهُ، وخاصِمُوهُ حتَّىٰ تُعْذِرُوا فيه.

فبَعَثُوا إليه: إنَّ أشراف قَوْمِكَ قد اجتَمَعُوا لك ليُكَلِّمُوكَ فأْتِهِمْ.

فجاءهم رسول اللّه ﷺ سريعاً، وهو يُظُنُّ أنْ قَدْ بَدَا لَهُمْ فيما كلَّمَهُمْ

فيه بَدَاءٌ، وكانَ علَيْهم حريصاً، يُحِبُّ رُشْدَهُمْ، ويَعِزُّ علَيْه عَنَتُهُمْ، حتَّىٰ جلَسَ إليهم.

فقالوا له: يا مُحَمَّد، إنّا قَدْ بَعَثْنَا إلَيْكَ لنُكَلِّمَكَ، وإنّا واللَّهِ ما نَعْلَمُ رَجُلاً من العرب أدخلَ على قومه مثل ما أدْخلْتَ على قومِكَ، لقَدْ شتَمْتَ الآباء، وعِبْتَ الدِّين، وشتَمْتَ الآلِهة، وسَفَّهْتَ الأحلام، وفرَّقْتَ الجماعة، فما بقي أمْرٌ قبيحٌ إلاّ قَدْ جئتَه فيما بَيْنَنا وَبينك.

فإنْ كنْتَ إنَّما جئتَ بهذا الحديث تَطْلُبُ به مالاً، جمَعْنا لك منْ أموالنا حتّىٰ تكونَ أكثرَنا مالاً، وإنْ كنتَ إنّما تَطْلُبُ به الشَّرَفَ فينا، فَنَحْنُ نُسَوِّدُكَ عَلَيْنا، وإنْ كُنتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنا، وإنْ كانَ هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تَراهُ قَد غَلَبَ عليْكَ (وكانوا يُسَمُّونَ التّابعَ من الجنّ رَئِيّاً) فربَّمَا كانَ ذلك، بَذَلْنَا لك أموالنا في طلَبِ الطِّبِّ لك، حتَّىٰ نُبْرِئَكَ منه، أو نُعْذِرَ فِيك.

فقال لهم رسولُ اللَّه ﷺ:

«مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُ بما جئتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أموالَكُمْ، ولاَ الشَّرَف فِيكُمْ، ولا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، ولكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إليكُمْ رسُولاً، وأنْزَلَ عليَّ كتاباً، وأمَرَني أَنْ أكُونَ لَكُمْ بَشيراً وَنَذِيراً، فبَلَّغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي، ونَصَحْتُ لَكُمْ، فإنْ تَقْبَلُوا مِنِّي ما جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ في الدُّنيا والآخرة، وإنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أصْبِرْ لأَمْرِ اللَّهِ، حتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ».

فلمّا رفضَ الرسول ﷺ منهم عروض الإغراء، وجَّهُوا لَهُ مطالِبَ التَّعَنُّتِ.

لقد استمسَكَ الرسول ﷺ بالمنهج الرَّبّانيّ الّذِي قال اللّه عزّ وجلّ فيه:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

واستمر صلوات اللّهِ عليه كذلك طَوالَ مَسِيرَتهِ في دَعْوته.

وكذلك يجب على كلّ الدُّعاة إلى سبيل رَبِّهِمْ من أمّته.

أمّا رغبة المكذّبين في أَنْ يُدْهِنَ الرَّسُولُ لهم، أيْ: أَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ خلاف ما يُبْطِنُ، وأن يُقَابِلُوهُ بالإدهان منافقين، فقد دلَّتْ عليها ظواهر رواها كتابُ السّيرَة.

وقِمَّةُ المداهَنَةِ أَنْ يَتظاهر المشركون بعبادة ما يَعْبُد الرسول ﷺ مدَّةً من الزَّمن، على أن يتظاهر هو بعبادة ما يَعْبُدون مُدّة من الزمن، فتَتِمَّ المصالحة التوفيقيَّةُ على ذلك، ويكونُ الرَّسُولُ قد كفَّ عن مهاجمة دينهم وعباداتهم الشركيّة، ويكفُّونَ هُمْ عن مهاجمة دينه واضطهاد الذين آمنوا به واتّبعوه.

فمن روايات عروض المداهنة ما يلي:

(١) روى الطبريّ بسنده عن ابن عباسٍ، أنّ قريشاً بعد أن يَئِسُوا من استجابة الرسول لعروض الإغراء الّتي عرضوها عليه، قالوا له: فإنّا نَعْرِض عليك خصلةً واحدةً، فهِيَ لَكَ ولنا فيها صلاح.

قال رسول الله ﷺ: ما هي؟

قالوا: تَعْبُدُ آلهتنا سنةً، اللاّتَ والْعُزَّىٰ، ونَعْبُدُ إلَهَكَ سنة.

قال: «حتّىٰ أَنْظُرَ مَا يَأْتي مِنْ عِنْدِ رَبِّي».

فجاء الوحْيُ من اللَّوْحِ المحفوظ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول).

وأنْزَل اللّه قولَهُ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾.

(٢) وروى الطبريُّ أيضاً بسنده قال: لقيَ الوليدُ بْنُ المغيرة، والعاصُ بْنُ وائل، والأسْودُ بْنُ المطّلب، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، رسُولَ اللّه ﷺ، فقالوا:

يا مُحَمَّد، هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وتَعْبُدْ ما نَعْبُدُ، ونُشركك في أمْرِنا كلّه، فإن كان الذي جئت به خيراً ممّا بأيدينا كُنّا قد شَرِكْناكَ فيه، وأَخَذْنا بحظّنا منه، وإِنْ كَان الّذي بأيدينا خيراً ممَّا في يَدَيْكَ، كنت قد شرِكتَنا في أَمْرِنا، وأخَذْت منْهُ بحَظِّك، فأنزل اللّه عز وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

فلم يستجبِ الرسولُ ﷺ لعروض المداهنة، لأنّها لاَ يُمْكِنُ أنْ تتَّفِقَ مع دَعْوَةِ الحقّ، فأيُّ تظاهر يُعْلِنُه حامل رسالة الحقّ، فيه ما يتناقض مع شيءٍ من مبادئه، ومفهومات رسالته، ومَا تستَلْزمه من شرائع وأحكام، هو في الحقيقةِ إلْغاءٌ ضِمْنِيٌّ لكلّ دعوته، ونَقْضٌ لكلّ رسالته.

إنّ قضيّةَ الدين ليْسَتْ قضيَّةَ مُسَاوَمَاتٍ على مصالحَ دُنيويَّة، بل هي قضيَّةُ حقٍّ وباطل، والتفاصُلُ بين الحقّ والباطل لا بُدَّ أَنْ يسْتَمِرَّ ظاهراً مُعْلَناً، لا يجوز أَنْ تَسْتُرَهُ المداهَناتُ الكاذبات، ولو حصَلَتْ هذه المداهَنات الكاذبات فسيظَلُّ كلُّ ذي دينٍ على دينِه، والمَظَاهِرُ لا تُغيِّرُ من الحقّ شيئاً.

وَأثبتَتْ سيرةُ الرَّسُولِ ﷺ طَوالَ مَسِيرَتِه في دعْوَته أنّه كانَ مُتَحَقِّقاً بالوصِيَّةِ الّتِي أوْصَاهُ اللّهُ بها في قوله له: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ وأنَّ مَا اشتمَلَتَا عليه من إعدادٍ تَرْبويّ له قد حقّقَ آثاره تماماً، فلَمْ يَجِد الرسولُ عنه ﷺ قِيدَ شَعْرَة.

- قول اللّهِ عزّ وجلّ لرَسُوله فلِكُلِّ داعٍ إلى الله من أُمّته:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (١٦)﴾.

في هذه الآياتِ تخصيصٌ لطائفةٍ من المكذّبين بتفصيل بعض ظواهر صفاتهم، باعتبارها علاماتٍ دالاَّتٍ عليهم، بعد الآيتين السّابقتين اللَّتَيْنِ اشتملتا على التحذير من طاعة كلِّ المكذبين برسالة الرسول ﷺ، وفائدة هذا التخصيص المبالغةُ في التحذير من هذه الطائفة، إذْ لدَيْها القدرةُ على المخادعة والمداهنة، وسَتْرِ هُوِّياتها بحَلِفِ الأيمان الكواذب، والطَّعْنِ من الْخَلْفِ بالْهَمْزِ واللَّمْزِ والنميمة، وهي تمْنَحُ من وُجُوهها الْبِشْرَ والْبَسَمَات، وتمْنَحُ من أَلْسِنَتِها حُلْو الْعِبَارات.

هذه الطّائفة الّتي تَعْمَلُ لِصَدِّ الداعي إلى اللّهِ عن دعوته، والوقوف في طريق مَسِيرَتِه الدعويَّة، تَمْلِكُ القدرةَ على تقديم نصائحها برفق، مقرونةً بالأيمان المغلَّظة، مع التظاهر بالودّ والحرص على مصلحة من تُوَجّه له نصائحها، وتَمْلِكُ الْقُدْرَةَ مع ذلك وفي الوقت نفسه على الْهَمْزِ ضدّ الداعي إلى اللّه لإشعار غير المؤمنين بأنّها تَكِيدُهُ بنصائحها وبأيمانها المغلّظة، فإذا فارقت مجلس الداعي إلى سبيل ربّه، انْطَلَقَ كلُّ واحدٍ منها مشَّاءً بالنّميمَةِ كالحيَّةِ الرَّقْطَاءِ، ليُفْسِدَ قُلوبَ الناسِ تُجاه الداعي، وليُقَطِّعَهُمْ عنه، ويَصُدَّهم عن صراط اللّهِ المستقيم، ويظلُّ حريصاً على أَنْ يَمْنَعَ انتشار الخير والهدى، لأنَّ انتشار الخير والْهُدَىٰ في الناس يُضِرُّ بمصالحه، ويحوّلُ عنه المجاري التي يَعُبُّ منها ثراءَهُ ومكانَتَه الاجتماعية وسلطانَه ومَجْدَه، إذْ يُبْصر الناسُ حقيقة جرائمه الّتي كان يسْتُرُها بمكْرِهِ وكيْدِه، بتَأثير انتشار الخير، فَهُوَ مَنّاعٌ للخير بكُلِّ وَسِيلَةِ مكْرٍ وكَيْدٍ تُتَاحُ له.

فإذا أَلْجَأَهُ الْأَمْرُ إلى استخْدَام سُلْطَته العدوانيّة، إذْ لَمْ تُجْدِه وسائل المكر، كانَ مُعْتَدِياً مُرْتَكباً لأقْبَحِ الآثام وأشْنعها.

وحين يَصِلُ به الأَمْرُ إلى استخدام سلطته العدوانيّة تنقلب سحْنَتُهُ الخلُقِيَّة، فيصير عُتُلًّا جافياً، فظًّا، غليظاً، لئيماً، فاحِشَ الخلُق، ظَلُوماً، لا رحْمَةَ في قلْبِه ولا عاطفةَ في نفسه، لقد كان من قَبْلُ يَلْبَسُ جِلْدَ حَمَلٍ وديع، فصَارَ جبَّاراً في الأرض، ضارِياً ضراوة السِّباع، مستكْبِراً أَشِراً، أكولاً شروباً قاسياً نَهِماً.

وعندئذٍ يظهر لدىٰ الناس جميعاً بعلامة: «شِرِّير» فيتّقيه الناسُ ويتحَاشَوْنَهُ مخافَةَ شَرِّهِ، إذْ يصير زعِيمَ شَرٍّ وإجْرام.

هذا الصنف من الناس هو عدُوٌّ لدودٌ للحقّ والخير والدّعاة إلى سبيل اللّه.

التدبُّر التحليليّ للنصّ:

● ﴿وَلَا تُطِعْ﴾: أي: ولا تَنْقَدْ ولا تَسْتَجِبْ لمطالب هذا الفريق من الناس الذي سَنحَدِّثُكَ عن الصِّفات العامّة المشتركَةِ بين أفراده، على وجْهِ الخصوص، بعد أن حذّرْناك من طاعة جميع المكذّبين بالدّين.

● ﴿.. كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾: **حَلَّاف**: أي: كثير حَلِفِ الأيمان المغلَّظةِ، لتوثيق أقواله الكواذب. صيغة «فعَّال» صيغة تكثير، وهي كما يقول النحاة إحدى صِيَغ المبالغة.

هذه الصفة نُلاحظها لدىٰ كثير من المضلّين، إذ يُسْرِفونَ في صناعة الأكاذيب، ويُحاولُونَ سَتْرَهَا بالأيمان الفواجر الكواذب، ويقدّمون لمن يُنافقونه ويتظاهرون بودّه والرغْبَةِ في نُصْحه ما يَزْعُمونَ أَنَّهُم ينصحونه به، ويُخادِعونه بِسَيْلٍ من الأيمان، ليستروا بذلك رغبتَهُمْ في توريطه، أو صَرْفِه عن عَمَل خير هو فيه، أو هو عازمٌ على القيام به.

مَهِين: أي: حَقِيرٍ في ذاتِ نفسه، وإنْ كان منتفخاً فِي ظاهِرِهِ، يتصَنَّعُ التعاظُم.

والمَهِينُ الحقيرُ في ذاتِ نفسه لا بُدَّ أن يكون كذَّاباً فاجراً، ومِنْ مَهَانةِ هذا الصنف من الناس دناءتُهُ في سلوكه الذي يُخْفِيه ولا يُعْلنُه، إذْ تَمْلِكُهُ شَهْوَةٌ حقِيرَة، وتُذِلُّهُ رِشْوَةٌ صَغِيرَة، والباحثُ عن خباياه يَجِدُ لدَيْه من الدّناءات والمهانات ما يترَفَّعُ عنهُ أكْثَرُ النّاس دناءةً وَمَهانَةً، وقِلّةَ مُبَالاتٍ بما تَدْعُو إليه الكرامة، وقَدْ يَظْهَرُ للنّاسِ بعضُ ذلك في فلتات تصرُّفاته، فتكشفُه لأهل الملاحظة والنظر اللّمّاح.

- ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ⑪﴾:

هَمّازٍ: صيغة تكثير، أي: دَيْدَنُه ودَأْبُه تعيير الناسِ وتَنْقيصُهم وغيبتُهُمْ، والطعْنُ فيهم من وراءِ ظهورهم، وأكْلُ لحومهم.

الهَمْزُ: في اللُّغة مثل الغمز والضغط والعَصْرِ والنَّخْسِ باليد أو بأداة ما، ويدخُل في معنى الْهَمْزِ الغيبَةُ، وإشاراتُ التعيير والتنقيص ببعْضِ حركاتِ الوجه، ونَحْوُ ذلك.

وما أكْثَرَ ما يُلاحظ الناس هذه الصفة في ذوي المكانات الفارغات، والزعامات المهينات، من الذين يتظاهرونَ بالتعاظم وهم حقيرون.

وهدفهم من أعمالهم هذه الحطُّ من مكانة ذوي المكانات في مجتمعهم، ليستعْلُوا عليهم، وليكون لهم وحدهم البروز والظهور.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾: أي: كثيرِ المشي بالنَّمِيمَة، لتقطيع أواصر صلاتِ الناس بعْضِهم ببعض، تصَوُّراً منهُ أنّه بهذا التقطيع يمنَعُ تجمُّعَهم، فتكون له وحده القوَّةُ الجماعيّة بالأعوان والأنصار، وهذا من دناءته ومهانته وسوء طويته.

النَّمِيمُ، والنَّمِيمَةُ: الوشاية بالسّوء لإفساد بعض النَّاس على بعض، وأصلهما الصوتُ الخفيُّ من حركةِ شيءٍ، أو من وطْءِ قَدَمٍ، ويقال لصَوْتِ الكتابة: نميم ونميمة.

ومعلوم أنّ النَّمّام يُقَدِّم وشايته باستخفاء، وبصوتٍ خفيّ.

● ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: أي: كثير الْمَنعِ لِلْخَيْر، فهو في ذاتهِ لا يفْعَلُ الخير، لأنَّهُ مُسْرفٌ في أنانِيَّتِه، ثُمَّ هو لا يُريدُ مِنْ غَيْرِه أَنْ يفْعَلَ الْخَيْر، لأنَّ فاعِلَ الْخَيْرِ في الناس محبُوبٌ محتَرمٌ ذو مكانةٍ، والمنَّاع للخير الذي يطلب الزعامة لنفسه بغير ثمن، يكره أنْ يفْعَلَ غيرُه خيراً، لئلا يكون له بذلك مكانةٌ اجتماعيَّةٌ حقيقيَّة، مُنافسةٌ لزعامته الكاذبة المصطنعة بالانتفاخ الفارغ، والتمويه والتضليلِ، أو بوسائل التسلُّط العدواني، فيتَّقيهِ الناسُ مخافَةَ شرّه، وقد يمنع انتشار الخير بأعماله العدوانيّة.

مُعْتَدٍ: أي: ظالم ذو عدوان على النّاس بغير حقّ، يقال لغة: اعتدىٰ فلانٌ على فلان، أي: ظلمه. واعْتَدَىٰ الحقَّ، أي: جاوزه إلى الباطل.

إنّ الواحد من هذا الصنف من الناس يُسَخِّرُ ما لديه من قُوَّةِ مالٍ وبَنينَ وأنصارٍ وأعوانٍ في الاعتداء على الناس ليُرْهِبُوهم، بغية أنْ يأخُذَ مكانته بينهم بالإرهاب والعدوان، لا بالعطاء وفعل الخير وخدمة الناس، وإصلاح ذاتِ الْبَيْن.

وأعدىٰ أعداء هذا الصنف من الناس الدُّعاة إلى اللّه وأنصارُهم ومؤيدوهم والتابعون لهم.

وكم نلاحظ طُلَّابَ زعاماتٍ يفْرِضُونها على الناس بعُدْوانهم عليهم، وظُلْمهم والسَّطْوَةِ عليهم، لا بامْتِلَاكِ قلُوبهم بالمحبّة.

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثير الإثم، مسرفٍ في ارتكاب المعاصي والجرائم، وممارسات الأعمال غير الأخلاقية.

فمهما تحرَّكَتْ لدَيْهِ شَهْوَةٌ، أو هوى، أو مطلَبٌ من مطالبِ نَفْسِه، لم يتورَّعْ عن ارْتكابِ أيّ إثْمٍ لتحقيق شهوته أوْ هواه، أو مطلبه.

وكم يُلاحظ النّاسُ أئمَّةَ ضلالٍ وتضليلٍ هُمْ في أنواع سلوكهم أثِيمُونَ، ويجابِهُونَ الحقّ والخير والفضيلة والدعاة إلى اللّهِ بالإثْمِ والعدوان.

الإثْمُ: في اللّغة الذنب، وجاء استعمال «الإثم» في القرآنِ للدّلالَة على جميع المعاصي الّتي نهى اللّه عنها، كبيرها ومتوسطها وصغيرها.

﴿عُتُلٍّ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾.

عُتُلّ: هذه الكلمة تُطْلَقُ على الجافي الفظّ الغليظ اللّئيم ذي الخلُق السّيئ، الظلوم للناس، الذي لا رحمة في قلْبه ولا عاطفة، الشّدِيدِ الأَشَرِ والكِبْرِ، الأَكُولِ الشَّرُوب القاسي.

هذه صفة صنف من الناس يريد أنْ يفرض على الناس زعامَتَهُ بهذه القبائح الشنيعة التي وضع العرب للمتخلّق بها كلمة «عُتُلّ».

وهو بهٰذِهِ القبائح يواجه داعي اللّه.

﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: أي: وهو بَعْدَ كُلّ الصِّفاتِ السَّيئَة الّتي سَبَقَ ذِكْرُهَا، فهو ذو علامَةٍ بارزةٍ فيه تَدُلُّ دَواماً على أَنَّهُ إنْسَانٌ شِرِّير، فيَتَّقِيهِ النّاسُ لِشَرِّه، ويتحاشَوْنَه مَخافَةَ أن ينالهم منْهُ ضُرٌّ أَوْ أذىً، إنَّهُ زعِيمُ شرٍّ وإجرامٍ تَظْهَرُ عليه علامة الشَّرّ فيه، كظهور زنَمَةِ الشاة أو البعير في أذنه.

الزَّنَمَة: ما يُقْطَعُ من أُذُن البعير أو الشاة فيُتْرَكُ مُعَلّقاً، وزنمتا الأذن: هنَتَان تَلِيَانِ الشحمة وتقابلان الوترة.

والزنيم: المعروف بِلُؤْمِهِ وشرِّه، ويبدو أنَّ هذا المعنى هو المراد.

وهذا الصنف من الناس عدو للحقّ والخير والفضيلة ودُعاةِ اللّه وأعوانِهم ومناصريهم، فلا يَفْتَأُ يكيد المكايد وأنواع المكر بخبث ولُؤْمٍ وكلّ عمَلٍ قبيح، فاقتضىٰ المنهج الرّبّانيّ توجيهَ التحذير الشديد من طاعته، والاستجابةِ لمقترحاته وما يُقدِّم من آراء يزعم أنّها نصائح، إذْ هو كالشيطان غشاشٌ غدّارٌ مُغوٍ مُضِلٌّ وسواسٌ خنّاس.

- قول الله عزّ وجل:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

- قرأ ابن عَامِر، وشعبة، وحمزة، وأبو جعفر ويعقوب: (أَأَنْ كَانَ) بإضافة همزة استفهام.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَن كَانَ﴾ بدون همزة استفهام، ويمكن حمل هذه القراءة على الخبرية، أو على تقدير همزة استفهامٍ محذوفة.

أساطير: تأتي في اللّغة بمعنيين:

- فتأتي بمعنى: أباطيل، وأحاديث لا نظام لها، واحدتُها: إسْطار، وإسْطارةٌ، وأسْطُور، وأُسْطورة.

- وتأتي بمعنى: مكتوبات الأوّلين ومسطوراتهم، قال أبو عبيدة: جُمِع «سَطْرٌ» على «أَسْطُر» ثُمّ جُمِعَ «أسْطُر» على «أساطير».

أقول: فيمكن حَمْلُ عبارة: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على أحد المعنيين: أباطيل الأوّلين، أو: مكتوبات الأوّلين، وهي كتُب أهل الكتاب.

- ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ على أن الجملة خبريّة لا استفهاميّة، وفي ارتباطها بسائر النصّ وجهان:

الوجه الأوّل: هي مرتبطة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ أي: ولاَ تُطِعْ مَنْ هذه قبائِحُهُ ومَثالبُه، لِكَوْنِهِ ذَا مَالٍ وبَنِينَ، جَعَلا لَهُ وَجَاهَةً في قومه، وسيادَة وعزّاً وشَرَفاً، فهو كافِرٌ مَهِينٌ في ذات نفسه سَيّئُ الْخُلُق، وحرف الجرّ قبل «أن» يُحْذَفُ بقياسٍ مُطَّرد.

الوجه الثاني: هي مرتبطة بصِيَغِ المبالغة الّتي تَعْمَلُ أعمال أفعالها: «حلاّف ـ همَّازٍ ـ مَشّاءٍ بِنَمِيم ـ مَنّاعٍ للخير ـ مُعْتدٍ ـ أثيم» والمعنى أَنَّه ارْتكَبَ هَـٰذه القبائحَ الشنيعَةَ مُغْتَرّاً بنفسه لِأَنَّه كانَ ذا مالٍ وبنين، لقد أنعم اللّه عليه بالمال والبنين، فقابلها بالكفران وارتكاب كُبْرَياتِ القبائح.

أمّا على قِراءة: (أَأَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) بصيغة الاستفهام، فهو استفهامٌ استنكاريٌّ توبيخيٌّ لهذا الصنف من النّاس مرتبطٌ بجُمْلَةِ: ﴿قَالَ. . أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ والمعنىٰ: ألأنَّه كان ذا مالٍ وبَنِينَ بعطاءٍ مِنّا لَهُ كانَ شَأْنُهُ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾؟!! فما أشدَّ قُبْحَ هذِهِ المقابلة، ومَا أخسَّ وأرذَلَ أصحابَها؟!!

- قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

لقد اقتضت الحكمةُ التربويّةَ توجيه الوعيد لهذا الصنف المستكبر المكذِّب، بعذَابٍ مُذِلٍّ مُهِينٍ يُخْزِيه يَوْمَ الدِّينِ، ورُبَّما بعذابٍ مُعَجَّلٍ يخزيه ويُذِلُّه في الدّنيا أيضاً، بدليل استعمال حرف «السّين» في: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾:

الوسْمُ: الكيُّ بالنّار لتمييز الموسوم بعلامة خاصّة.

﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾: الأَنْفُ، ومُقَدَّمُ الأَنف، ويختصُّ غالِباً بخُرْطوم الفيل، وخرطوم الخنزير.

وجاء استعمال لفظ «الخرطوم» هنا للدّلالة على أنف هذا الصنف من الناس، للإشارة إِلَىٰ أَنّه استكْبَرَ بأَنْفِه على خلْقِ اللّهِ، وعن الإيمانِ بآياتِ اللّهِ، وتصديقِ رسُوله، لكنَّه في الحقيقة أنزل نفسه بانتفاخ أَنْفِهِ إلى مُسْتَوىٰ الفيلة والخنازير ذَوَاتِ الخراطيم.

لَكِنَّ هذا الأنف المنتفخ المستكْبِرَ سَيُكْوَىٰ بالنار، ويكونُ كيُّهُ بالنّار وَسْماً مُذِلاً مُهِيناً مُخْزِياً يتَمَيَّزُ بِهِ بعلامَةٍ فارقة خاصّة.

وربّما يكونُ هذا بسبب كَبِّهِ في النّار على منخره، إهانة لَهُ على عِناده واستكْباره، وتَعْذِيباً لَهُ على جحوده الحقَّ وإنكاره.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ قوله:

«وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّاسِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ. أو قال: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إلاّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

لقد جاء هذا الإنْذَارُ موجزاً مقتضباً، لأنه كان في أَوَائِل مراحل الدَّعْوَة، ونظيره المقتضبات التي جاءت في «العلق» و«المدثر» و«المزّمل».

وهذه الإنذارات جاءت لقلّةٍ من المكذّبين، هم أئمة الضَّلال والتضليل، مع الإشعار بتقليل عددهم، وانفراد كلٍّ منهم بالتصدّي لدعوة الحقّ الرّبّانيّة، فالإنذارُ يُوجَّهُ لَهُ بوصْفِه فرداً، لا بوصفه واحداً من فئةٍ مجتمعةٍ مُترابطة، متكافلة متضامنة.

وهذا من روائع الأساليب الحكيمة في التربية، لكي يَجِدَ أنْصَارُهُ مهرباً عنه، ما دام الإنْذار موجّهاً له، وليقَع في حِسّهم أَنَّهُمْ إذا لم يلْتفُّوا حوله وينْصُرُوه فإنّهم سيظلُّونَ خارج قَوْسِ الإنذار، حتّىٰ يعملوا مثْلَ عَمَله، أَوْ يكونُوا من أتباعه وأنصاره.

وانتهى الدرس الأول من دروس السّورة.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني

الآيات من (١٧ ـ ٣٣)

قال اللّٰهُ عزَّ وجَلّ:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

درس مدني التنزيل:

هذا درسٌ مَدَنيٌّ أُضِيف إلى سورة (القلم) الّتِي هي من أوائل التنزيل المكيّ، للإشعَارِ بأنَّ مَا كانَ إنْذاراً مِنْ قَبْلُ قَدْ تحقَّق بعضُهُ فيما بَعْدُ، ففي العهد المدنيّ من مسيرة دعوة الرَّسُولِ ﷺ، أخذت الهزائم تتلاحَقُ بمشركي مكّة، الّذين كانت لهم من قَبْلُ السّيادة، والسُّلْطان، وكانُوا يعامِلُون الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ بظُلْمٍ وقَسْوَةٍ وعُدْوان، وكان لهم بين عرب الجزيرة أشرف منزلة وأعلى مكان، وكان فيهم الأثرياء وذَوُو الوجاهَةِ والصِّيت الحسَنِ بين قبائل العرب، فسَلَبَهُمُ اللَّهُ بنصْرِ رَسُولِه والمؤمنين به عِزَّهم ومجدهم، ومُعْظم مَا كان لهم به دَوْلَةٌ وسلطان، وتَحَوَّلَتْ أنظارُ قبائل العرب وغيرِ العرب إلى المدينة المنوّرة، حيثُ ظهَرَتْ دَوْلَةُ الإسلام الدّينيَّة، بقيادةِ مُحمَّدِ بْنِ عبد اللَّهِ الذي كان بين قومه وعشيرته في مكَّة مضطهداً ينالُه الأذى من أقوالهم وأعمالهم هو والذين آمنوا معه.

فجاءت عظة الواقع تطبيقاً للإنذار السّابق، فكان من المناسب إنزالُ قصّة هذا الدّرسِ التاريخيّة، المشابهة لحال كُفّارِ مكَّة بين العهدين المكيّ والمدنيّ للرسول محمّد ﷺ، وإضافة هذا الدرس إلى سورة (القلم) الّتي أُنزِلَ معظمها أيّام كانَ كُفَّارُ مَكَّةَ في أَوْجِ مَجْدِهم وعزِّهِمْ وسلطانهم، والْفَرقُ بين تاريخي تنزيلهما عشْرٌ وبضْعُ سنين، لكِنَّ كِتَابَ التربية والموعِظَةِ الرَّبّانيّة، كتابٌ لكلّ النّاس على تعاقب العصور، فإذا اقتضَتْ حالُ الْمُعَالَجين في مرحلة من مراحل تنزيل القرآن عَدَمَ إنزال دَرْسٍ من الدُّرُوس أخَّرَ اللَّهُ تنزيله، حتَّىٰ إذا اقتضت الحكمة تنزيلَهُ أنزلَهُ اللّه، وضمَّهُ إلى مكانه الملائم من تنزيل سابق، وفي الصيغة النهائيَّة الدائمة يُراعَىٰ تكامُل أداء النَّصّ للهدَف العامّ منه.

وقصّة هذا المثل المشابهةِ لحال كفّار مكة بين الماضي إبّان أوائل بعثة الرّسول ﷺ، وبين ما صاروا إليه إبّان نزول هذا المثل، أنّ إخوةً من أهْلِ

الكتاب وَرِثوا من أَبيهم بُسْتَاناً (جَنَّة) وقَدْ كانَ أبوهم رجلاً يؤدّي حقَّ الفقراء والمساكين من ثمرات بستانه، ويسير فيه سيرةً حسنة، فكانَ ما يجمع من ثمرات بستانه يَقْسِمُهُ إلى ثلاثة أقسام:

- فيأخذ ما يحتاجه البستان للسنة القادمة فيجعله قسماً، ويعزلُه ليَرُدَّهُ فيه.
- ويدّخِرُ لعياله قوت سنتهم، وهذا هو القسم الثاني.
- ويتصَدَّقُ بما فضل عن القسمين السابقين على الفقراء والمساكين، وهذا هو القسم الثالث.

فلمّا مات هذا الرَّجُل وورثه بنوه شحّت نفوسهم عن إعطاء الفقراء والمساكين حقوقهم، وقام بينهم جدَلٌ إذْ كان أَوْسَطُهم حريصاً على أن يتَّبعَ سِيرة أبيه، لكِنَّ إخوته لم يوافقوه، فسايرهم واتَّفَقوا علَىٰ أن يقطَعُوا ثمراتِ جنتهم في الصباح الباكر، دون أن يشعُرَ بهم المستحقون من المساكين، فيأتوهُمْ على عادة أبيهم.

وعَلِمَ اللَّهُ ما اتَّفَقوا عليه، فأهْلَكَ ثمراتِ جَنَّتِهم ليلاً إهلاكاً شاملاً.

وخَرَجَ الإخوة مع طلوع الفجر، وقبل أن يَمْتَد النُّور، متسلِّلين يتهامسون لئلا يشْعُرَ بهم المساكين، فلمَّا وَصَلُوا إلى جنَّتِهم رأَوْها خاويةً على عروشها، قد تلفت ثمراتُها برِجزٍ من السماء، فندموا على ما كان منهم، واعترفوا لربِّهم بذنبهم، وصاروا يتلاومون فيما بينهم، وتابوا إلى اللّه، وسألوه أن يُبْدِلَهُمْ خيراً من جنتهم وثمَرَاتِهِمُ الّتي أتلفها اللّهُ لهم.

التدبّر التحليليّ للنصّ:

قول الله عزّ وجل:

- ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

● ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾: أي: إنّا اخْتَبَرْنَاهم وامتحنَّاهم، والضمير يعود على المتحدَّث عنهم في السورة وهم كُبَراءُ كفَّارِ مكّة وأهل السيادة فيها. تقول لغة: بلَاَهُ يَبْلُوهُ بلاءً، أي: اختبره وامتحنه.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم ﴿إِنَّا﴾ للإشعار بعزّة اللّه وقدرته وحكمته وعظمته، فهو بمقتضاها يبلو ويجزي، فتربو المهابة منه.

● ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: كما امتحنّا واخْتَبَرْنَا أَصْحَابَ الجنَّةِ الذين نذكر فيما يلي ما يتعلَّقُ به غَرَضُنَا من قِصَّتهم، و(أَلْ) في «الجنَّةِ» تشير إلى جنَّةٍ معهودة يعرفها مؤرخو أهل الكتاب، أو الجنة الكاملة في إعداد ما يلزم لها، فالتعريف للكمالِ.

أمَّا ذِكْرُ أسمائهم ومَوْطِنِ إقامَتِهم وتاريخِ وُجودِهِمْ فليس ممَّا يتعلَّقُ به غرض تَرْبويٍّ قرآنيّ، فلَمْ يُوَجِّهْ له النصُّ عنايةً ما.

● ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

«إِذْ» هنا ظَرْفٌ للزَّمَن الماضي، وهو مضاف إلى الجملة الفعليّة (أَقْسَمُوا) ولست أرى أن «إِذْ» ظرف لفعل (بَلَوْنَا) إذ الابتلاء لم يكن خاصّاً بوقت قَسَمِهم، بل كانَ منْذُ ورثوا الجنة، فنقدر فعلَ: «اذكر» أي ضَعْ في ذاكرتِك.

«أَقْسَمُوا» حَلَفُوا. يقال لغة: أَقْسَمَ إقْسَاماً ومُقْسَماً، أي: حَلَف. ويقالُ: أقْسَمَ باللّهِ، أي: حَلَف بِهِ فَهُوَ مُقْسِمٌ.

«لَيَصْرِمُنَّها» أي: لِيَقْطَعُنَّها، تقول لغة: صَرَمَهُ يَصْرِمُهُ، أي: قطعه، وصَرَمَ النَّخْلَ والشَّجَر جزَّهُما.

«مُصْبِحِينَ» أي: داخِلين في الصباح. يقال لغة: أَصْبَحَ يُصْبِحُ، أي: دخل في الصَّباح. **الصَّباحُ**: هو أوّل النّهار.

- ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾: أَصْلُ الاسْتِثْنَاءِ إخراجُ شَيْءٍ أَوْ حِصَّةٍ أو مقدارٍ مَا من جُمْلَةٍ مقدارٍ عامّ يشْمَلُ المسْتَثْنَىٰ والْبَاقِيَ بَعْدَ الاستثناء.

أي: أقسموا لَيَصْرِمُنَّ ثمراتِ جنّتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ فقط، وأَقْسَمُوا لاَ يَسْتَثْنُون من ثمراتِ جنّتهم شيئاً للفقراء والمساكين.

ففِعْلُ: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾ معطوفٌ فيما أرى على فعل: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ فَهُو داخل في الْمُقْسَم عليه أي: أَقْسَمُوا على أمْرَيْن: ١ ـ لَيَصْرِمُنَّها لأنفسهم، ٢ ـ ولا يَسْتَثْنُون شيئاً للفقراء والمساكين.

وهذا أولى فيما أرَىٰ ممَا سبقت إليه أَذْهانُ المفسرين، من اعتبار: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾ جملةً مُسْتَأْنَفَةً، أو جملةً حاليَّةً جاءتْ مُقْتَرنة بواو الحال على خلاف القاعدة الّتي تقتضي عدَمَ دخول واو الحال على المضارع المنفي بـ«لا» أو بـ«ما».

فالمعنى: إنّا بعظمة الرّبوبيّة القادرة العليمة الحكيمة وسائرِ خصائصها الجليلة، بَلَوْنا كُبَرَاءَ مُشْرِكي مكّةَ وأَتْبَاعَهم، كما بَلَوْنا مُمْتَحِنينَ أَصْحابَ الجنّة، إذْ وَرَّثْنَاهُمْ من أبيهم جَنَّةً حسَنَةَ العطاءِ من ثمر، فخالَفُوا سيرَةَ أبيهم، فعزموا على أَنْ يَحْرِمُوا الفقراء والمساكين حقَّهم، إذْ أَقْسَمُوا ليلاً لتأكيد ما عزمُوا علَيه: لَيَقْطَعُنَّ ثمراتِ جنَّتِهم متَىٰ دخلوا في الصَّباحِ أوّلِ النهار، وأقسَمُوا لتأكيد ما عَزَمُوا عليه: لاَ يسْتَثْنُون من ثمراتِ جَنَّتِهم شيئاً لذوي الحقوق من الفقراء والمساكين، بل سيأْخُذون كلَّ الثمرات لأنفسهم، دُونَ أنْ يُؤَدُّوا ما فرض اللّه في أموالهم.

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾: أي: فدار عليها مُحيطاً بها، ومُطَوّقاً لها، دون جاراتِها من الجنّاتِ والبساتين والمزارع.

يقال لغة: طَافَ عليه يطوفُ، إذا دار وحَامَ حولَهُ، يخُصُّه بهذا الدوران.

﴿طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: طائفٌ يَدُورُ حَوْلَ جنَّتِهِمْ مُرْسَلٌ من أَمْرِ رَبّكَ، أيُّها الإنسانُ المتَلَقِّي لهذا الخبر أيًّا كُنْتَ.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: أي: وأصْحَابُ الجنَّةِ نائمونَ ليلاً، بعد أنِ اطمأَنُوا لتحقيق مَا عَزَمُوا عليه مُصْبِحين، وهذه الجملة حاليَّة، والعامِلُ فيها فعل: (طاف).

وهذا الطائف هو نوْعٌ من الرِّجْزِ الْمُهْلِك المتلف، كريح باردة أتلفت الزرع، أو عاصفة أو نحو ذلك.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾: قال الجوهري: **الصريم**: المجذوذ المقطوع، وأصبحَتْ كالصَّرِيم، أي: احترقت، واسْوَدَّتْ.

وظاهر اللَّفظ يفيد أن ثمارها قد تلفت فصارت كجنَّةٍ مصرومة مقطوعة الثمار، قد ذهبَ كلُّ ثَمَرِها، على معنىٰ أَنّ الصّريم هو الذي جُذَّت ثماره.

وجاء من معاني الصَّرِيم في اللُّغة: القطعةُ المنقطعة من معظم الرَّمْل، وعلى هذا المعنَىٰ تكُونُ هذه الجنَّةُ الَّتِي طافَ عليها طائف من رَبِّك قد أُهْلِكَتْ مِنْ جذورها وأصبَحَتْ رماداً، وصارَتْ أرْضُها كقطعة منقطعة من الرَّمْل، وحولها البساتين والمزارع قائمة.

وهذا المعنى يلائمه قولهم فيما بَعْدَ توْبَتِهم في دعائهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

- قول اللّٰه عزّ وجل:

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾: أي: نادىٰ بعضُهم بَعْضاً حالة كَونِهِمْ داخلين في الصباح، بَعْدَ أَنْ أقْسَمُوا لَيْلاً لَيَصْرِمُنَّ ثمراتِ جنَّتِهِم مصبحين.

﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾: «اغْدُوا» فعل أمْرٍ وفاعله، مِنْ «غَدا يَغْدُو غُدُوّاً» أي: ذهب إلى ما يُريد من عَمَلٍ في وقْتِ الْغُدْوَة. **الْغُدْوَة، والغَدَاةُ**: ما بين الْفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْس، وتُجْمَع **الْغداةُ** على «غَدَوَاتٍ» وتُجْمَعُ الْغُدْوَةُ على **غُداً وغُدُوٌ**.

﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾: الْحَرْثُ: الزَّرْعُ المزْرُوعُ الذي أنبته اللّٰه، واستعمل حرف «على» للدلالة على شعورهم بأنهم متمكنون من السيطرة اليوم على صَرْم ثمرات جنتهم دون أن يشاركهم فيها أحد.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ عازِمِينَ الْيَوْمَ على قَطْعِ ثمراتِ جنَّتِكُمْ، وَمَنْعِ المساكِينَ من النَّصِيب الذي كانَ أبوكُمْ يؤدِّيه لهم.

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾: **الانطلاق**: الذهاب بسُرعة، يقال: أطلَقَهُ فانْطلق، وأصْل الإطلاق التحرير من القيد، ومن عادة الْمُقيَّد إذا أُطْلِق من قَيْدِهِ أَنْ ينطَلِق مُسْرِعاً شَطْرَ الجهة الّتي يُريدُ الذَّهاب إليها، ومنه انطلاق الخيل في السّبَاق.

والتَّخافُت: التحادُثُ بصَوْتٍ منخفضٍ، يقال: تخافَتَ القومُ، إذا تسَارُّوا بِحَدِيثهم، ويُقال: خَافَتَ بِصَوْتِهِ، أي: خفَضَه حتّىٰ لا يَسْمَعَهُ إلاّ مَنْ هو بجواره.

والمعنى: فأسْرَعُوا فِي الْغَدَاةِ يتحادثون فيما بينهم بصوتٍ منخفض، حتّى لا يشْعُر بِهم أَحَدٌ من أهْلِ قريتهم.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾: أي: يقول بعضهم لبعضٍ في تَخافُتِهِمْ في حَدِيثهم ما تفسيره: لا يَدْخُلَنَّ جنَّتَكُمُ اليوم عليكم مِسْكِينٌ، لئلاَّ يطالِبكُمْ بنصيبه من الّذِي كانَ يبذُلُه أبوكم للفقراء والمساكين.

«أن» تفسيريَّة، لأنها جاءت بعد فعل «يتخافتون» الذي فيه معنى القول دون حُروفه، والجملة بعدها لا محلّ لها من الإعراب.

أي: صاروا يتحادثون بصوتٍ منخفض، وينهىٰ بعضهم بعضاً عن السّماح لأحَدٍ من المساكين أن يَدْخُلَ اليوم علَيْهِمْ جنَّتَهم، ليستأثِروا لأنفسهم بكلّ ثمراتِ جنَّتِهِمْ.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴿٢٧﴾﴾.

﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ يأتي «**الْحَرْدُ**» في اللّغة بمعنىٰ: «الْقَصْد» يقال لُغَةً: حَرَدَهُ يَحْرِدُهُ حَرْداً، إذا قَصَدَه. ويأتي «**الْحرد**» بمَعْنَىٰ: «الْغَضَب والْحَنَق»، ويأتي بمعنىٰ: «الانفرادِ والانعزال».

وأستَبْعِدُ هنا معنَىٰ الغَضَب والْحنَق، لأنَّهم يَعْلَمُون من أنفسهم أنّهم منطلقون ليمنعوا حقّ الفقراء والمساكين، فالنصُّ يدُلُّ على أَنَّهُمْ عصاةٌ لاَ كُفَّار، ومانع الحقّ لا يكون غضوباً حَنِقاً، بل هو بمثابة اللّصّ الخائفِ المسْتَخْفِي.

فبقي معنى القصد، ومعنَىٰ الانعزال.

أمّا الْقَصْدُ: فهو مُلائِم لاتّفاقِهم على أنْ لا يَدْخُلَ جنَّتَهُم اليوم عليهم مسكين، وفائدة ذِكْرِه مع أنّه مَدْلُولٌ عليه فيما سبَقَ، تَأْكِيدُ أنَّ قَصْدَهُمْ اسْتَمَرَّ مُصَاحباً لَهُمْ لَمْ يتَحَوَّلْ ولم يتغيّرْ حتَّىٰ وصَلُوا إلَىٰ جَنَّتِهم.

وأمّا الانْعِزَال: فهو وصْفٌ أبَانَ أَنَّهم اسْتَطاعوا أن يَقْطَعُوا الطريق إلى جنَّتِهِمْ دون أن يَشْعُرَ بهم أَحَدٌ.

فالمعنى: وَسَارُوا طَرِيقَهُمْ في الغداةِ بَعْدَ انْطِلاَقِهِم بِسُرْعَةٍ من قَرْيَتِهِمْ مُجْمِعينَ على قَصْدِهِمْ الّذِي قَصَدُوه، غير مختلفين، وشاعرين بأَنَّهُمْ قادِونَ

على تَحْقيقه، ومنعزلين لم يَشْعُرْ بهم أَحدٌ، فتُحْمَلُ كَلِمَةُ: «حَرْدٍ» على المعنيين القصد والانعزال.

فعل: ﴿وَغَدَوْا﴾ معطوفٌ على فِعْلِ: ﴿فَانطَلَقُوا﴾ إذْ فِعْلُ ﴿فَانطَلَقُوا﴾ أبانَ حَرَكَتَهُمْ عِنْدَ الْخُرُوج من قريتهم، وفعل: ﴿وَغَدَوْا﴾ أَبانَ حَرَكَةَ مَسِيرِهِمْ بَعْدَ الانْطِلاَقِ حتَّىٰ وصَلُوا إلَىٰ جنَّتِهِمْ، فلا داعي لجعل جملة: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ حالية.

عَلَىٰ حَرْدٍ: متعلّق بمحذوف حال.

قادرين: حالٌ ثانية، أي: شاعرين بأنهم قادرون على تحقيق قَصْدِهِمْ.

- قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: فلَمَّا رَأَوْا جَنَّتَهُمْ هالِكَةً قَدْ أَتْلَفَهَا اللَّهُ عقوبةً لهم على قَصْدِهِم الجازم أَنْ يمنعُوا ما فَرَضَ الله فيها للفقراء والمساكين، أَدْرَكُوا أَنَّهُمْ كَانُوا مُذْنبين عصاةً، وهذا نوعٌ من الضلال عن صراط الله المستقيم، فقالُوا: إنَّا لضَالُّونَ.

الضلال: ضِدُّ الْهُدَىٰ والرَّشادِ، فالضلالُ بالابتعاد عن الإيمان الواجب يُوقع بالكُفر، والضلالُ بالابتعاد عن طاعةِ الله في الواجبات أو المحرَّمات العمليّة السُّلُوكيّة يُوقِع بالمعصية، من الكبائر إذا كانت من الكبائر، ومن الصغائر إذا كانت من الصغائر. والضلال بالابتعاد عن المعرفة الصحيحة يُوقِع في الجهل.

وهؤلاء أصحابُ الجنَّة قد ضلُّوا بالابتعاد عمَّا فَرضَ اللَّهُ عليهم في ثمراتِ جنّتِهِم، فوقَعُوا بكبيرةِ مَنْعِ زكاةِ ما أَخْرجَ اللَّهُ لهم من الأرض، ولمَّا

عاقَبَهُمُ الله بإهْلاَكِ بُسْتَانهم، اعْتَرَفُوا بذنبهم، وضلالهم بارتكاب كبيرة من كبائر الإثم، فقالُوا: إنَّا لَضالُّون، مؤكِّدين نسبة الضلال إلى سُلوكهم بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاَّم المزحلقة» وهذا منهم مبالغةٌ في الاعتراف بذنبهم لربّهم، وإشعارٌ بأنّهم لا يشُكّون في وقوعهم بالإثم الذي استحقُّوا عليه العقاب.

ويرى بعض المفسّرين أنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ معناهُ إنَّنا ضَلَلْنَا طَرِيقَ جَنَّتِنَا، ولَيْسَ هذا مكانَها، وهذا المعنىٰ يتلاءم مع قولهم عقبه: بل نَحْنُ مَحْرُومون، أيّ: معاقبون بالحرمان من كلِّ جنّتِنَا.

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧﴾: أي: بل لَسْنَا مُجَرَّدَ ضالّين بمعصية الله في العزم على مَنْع زكاة ثمراتِ جَنَّتِنَا، بَلْ نَحْنُ معاقبون من قِبَلِ اللّهِ بالْحِرْمَان من كلِّ جَنَّتِنَا، إذْ أَتْلَفَهَا وأَهْلَكَها اللّهُ عقاباً لنا، فالضَّالُّ بالمعصية قَدْ لا يُعَجِّلُ اللّهُ لَهُ العقوبة إمْهالاً لَهُ، ليتوب إلى رَبّه، لكنَّ الله عزّ وجلّ قد عجَّلَ بعقوبتهم فَهُمْ مُعَاقبون بالحرمان من كُلِّ رزقهم، فهُمْ مَحْرُومون، وتعجيل العقوبة قد يكون من نعمة الله على عبده ليتذكر ويتعظ.

المَحْرُومُ في اللُّغَةِ: ضِدُّ المرزوق، يُقالُ لواجِدِ رزقه: مرزوق، ويقالُ للّذِي لا يَجِدُ رِزْقَه: مَحْرُوم. والمحرومُ هُو الممنُوعُ من العطاء.

لَقَدْ تزاحَمَتْ لَدَيْهِمْ معاني الحرمانِ، معنى العقوبة بالحرمان، ومعنى المنع من العطاء، ومعنى كونِهِمْ مَحْرُومِين فقراءَ غَيْرَ مَرْزُوقين، فجاء التعبير عنها جميعاً بعبارة: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧﴾ وهذا من بديع الإيجاز في القرآن.

● ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾.

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾: أي: قالَ أَعْقَلُهُمْ وأَفْضَلُهُمْ وأَقْرَبُهُمْ إِلَىٰ الْخير، ذكر المفسرون أنهم ثلاثة أخوة، وصاحبُ هذا القولِ أعْدَلُهُمْ.

﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾: أي: أَمَا حَصَلَ مِنِّي أَنّي قُلْتُ لَكُمْ فيما سَبَق: لاَ

تُغَيِّرُوا سِيرةَ أبيكم، فَلا تَمْنَعُوا حَقَّ الْفُقَراء والْمَسَاكِين. وقَدْ حُذِفَ مَقُولُ الْقَوْلِ لإمكان الاسْتِدْلالِ عليه من جُمْلَةِ النّص، ومن كَوْنِ القائلِ أوْسَطَهُمْ، فالأَعْقَلُ الأَفْضَلُ الأَعْدَلُ لا بُدَّ أن يَنْصَح بالتزام طاعة الله، واجتنابِ معصيته.

﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾: «لَوْلا» حَرفُ تَحْضِيضٍ بمَعْنَىٰ «هَلَّا». «تُسَبِّحُونَ»: أي: تُنَزِّهُونَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ عَنْ تَصوُّرِ أَنَّهُ حَرَمَكُمْ دُون أَنْ تَرْتَكِبُوا إثْماً.

ونُلَاحِظُ أَنَّ أَوْسَطَهُمْ لَمْ يَتَوَقَّفْ كثيراً عند تذكيرهم بما كان قالَهُ لهم سابقاً، لأنّه استجابَ لرغبتهم فوافقهم، وعزَمَ على ما عَزموا عليه. بل انْتَقَل بسُرْعَةٍ إلى حضّهم على أَنْ يسَبِّحُوا ربَّهم، مُعَلِنين اعترافهم بأنّهم كانوا ظالمين، وهذا الاعترافُ يُشْعِرُ بتَوْبَتِهم.

● ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أَيْ: فاستجاب الأَخَوانِ لتَحْضِيض أوسَطِهم، فقالوا جميعاً سُبْحانَ رَبِّنَا، أي: نُنَزِّهُ رَبَّنَا عَنْ حِرْمَانِنَا من حَقٍّ هُوَ لَنَا، بَلْ اقْتَضَتْ حكْمَتُهُ أَنْ يُعَاقِبَنَا، لأنّنا كُنّا ظَالِمِينَ بعَزْمِنَا عَلَىٰ حِرْمَانِ الفقراء والمساكين حَقَّهُمُ الذي فرضه اللَّهُ في ثَمَرَاتِ جنَّتِنا الَّتِي ورثناها من أبينا.

والظلْمُ هُنَا هو عزمُهُم على أكل حقوق ذوي الحقوق، وهو حقُّ الزكاة، وقد كانت الزكاة مفروضةً على أهْلِ الكتاب، بدليل قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن إسحاقَ ويعقوب عليهما السلام في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وعقِبَ اعْتِرَافِهِمْ بذَنْبِهِمْ وتوبتهم صَارُوا يتلاومُون فيما بينهم، فقال تَعَالَىٰ:

● ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يتلاوَمُون: أي: يلومُ بعضُهم بَعْضاً.

يَا وَيلَنَا: الويلُ في اللّغة يأتي بمعنَىٰ الْحُزْنِ، والْهَلاَكِ، والمشقة مِنَ العذاب. قال ابْنُ سِيدَه: «وَيلٌ كَلِمةُ عذاب». والويلَةُ: البَليّة والفضيحة. وفي النُّدْبة يقول القائل المفرد: يَا وَيْلَتَا، يا وَيْلَتَاهُ، وَاوَيْلَتَاهُ، ويَقُولُ الجماعَة: يَا وَيْلَنَا. تعبيراً عن الْحُزْن والألَم ممَّا نَزَلَ مِنْ مُصاب.

إنَّا كُنَّا طَاغِين: الطُّغْيان تجاوز الحدّ في الظُّلم، وهذا اعترافٌ منهم بعزمهم على ارتكاب ظلم عظيم.

عَسَىٰ رَبُّنَا: عبارة تَرَجٍّ ودعاءٍ لِلّهِ عزّ وجلّ.

أَنْ يُبْدِلَنَا: فيها كما سَبَقَ قراءتان: ﴿أَن يُبْدِلَنَا﴾ مِنْ فِعْلِ «أَبْدَلَ» المهموز و (أَن يُبَدِّلَنَا) مِنْ فعل «بَدَّل» المضعَّف، والهمْزُ أخو التضعيف عند علماء العربيّة، فالقراءتان متطابقتان متكافئتان.

خَيْراً مِنْها: أي: أفضل من جنَّتِنا الْمُهْلَكَة، وهذا مِنْهُمْ حُسْنُ ظنٍّ باللَّهِ بسَبَبِ صِدْقِ تَوْبتهم إلى بارئهم، واستغفارهم، وعزمِهِمْ على أَنْ لا يَعُودُوا إلى ارتكاب مثل الذنب الذي عاقبهم الله عليه.

إنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ: أي: إنَّا إلى رَبِّنَا مبتهِلُونَ متضرِّعُونَ طالبون. يقال لغة: رَغِبَ إليه، أي: ابتهَلَ وتضَرَّعَ وطلب، ورَغِبَ إليه في كذا، أي: سَأَلَهُ إيَّاه.

إنّ المؤمنين الّذِين يشتركون في إثْم كبيرٍ يَكُونُ حالُهُمْ قَبْلَ ارْتِكابه مُتَرَدِّداً بيْنَ الرَّغْبِ والرَّهَبِ، بَيْنَ الإقْدام والإحْجَام، وفي مَوْجَةِ الإحجام العارِضَةِ الَّتي يَتعرَّضُ لَهَا كُلٌّ مِنْهُمْ تَصْدُرُ عَنْهُ كَلِمَاتٌ تُشْعِرُ بخَوْفِهِ من ارتكاب المعصية،

وبتحذيرِ إخوانِه من الوقوعِ فيها، لكنَّهُ لاَ يَثْبُتُ عند هذه العارضة، بَل تطْغَىٰ علىٰ نفسه شَهْوتُه أوْ مَطامِعُه، فَتُطَوِّعُ لَهُ نفسُه ارتكابَ المعصية.

فإذا نَزَلَتْ بهم العقوبة تذكَّرَ كُلٌّ مِنْهُمْ عوارضَ إحجامه ونُصْحِه، ومَواقِفَ إقدام إخوانه وما كان منهم من تشجيعٍ على ارْتكاب المعصية، فيقولُ لهم: أمَا قُلْتُ لكُمْ كذا وكذا، لكنَّكُمْ أنتم الَّذين أصْرَرْتم، ويَدْفَعُ كُلٌّ منهم عن نفسه الملامَةَ بمقالة سبَقَ أَنْ قالَها عِنْد التشاور، والواقِعُ أَنَّهم كانُوا جميعاً آثمين بعد أن عَزَمُوا جميعاً على معصيتهم، فكُلُّ واحدٍ منهم آثِمٌ ومَلُوم.

وبَعْدَ التلاوُم يظْهَرُ لَهُمْ أنّهم كانوا جميعاً آثمين، فينادُونَ على أنفسهم بالعذاب، ويعترفون بأنّهم كانوا جميعاً متجاوزين حدَّ الحقّ والعدل، وكانوا ظالمين طاغين.

وبعد هذا الاعتراف يتوبونَ إلى ربّهم، ويَسْألُونَ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، وَأن يُعَوِّضَهُمْ خيراً ممّا خَسِرُوهُ بسبب ذُنُوبِهم.

هذا حال المؤمنين الذين يرتكبونَ بعض كبائر الإثم، فيعاقبهم الله بِحِكْمَتِه علَىٰ مَا كان منهم.

وقَدْ تَلَطَّفَ اللَّهُ بأهل مَكَّةَ إذْ شبَّهَ حالَهُمْ بحال أصحاب هذه القصة، لأنّهم كانوا يتوافدون على الإسلام بَعْدَ انتصار الرسول عليهم، وَدَخلوا في دين الله أفواجاً بَعْدَ فتح مكَّة.

- قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

كذلِكَ الْعَذَاب: أي: مثل العذاب الّذي عذَّبه الله لأصْحَابِ الجنَّة يكُونُ عذَابُهُ الْمُعَجَّلُ للعصاةِ مُرْتَكِبي كبَائِرِ الإثم.

وهذا توجيهٌ لإدراك العظاتِ من الوقائع والأحداث الّتي يجريها اللَّهُ بعباده، ويَكْشِفُ بها سُنَّتَه في الجزاء.

وعذابُ اللّهِ في الدُّنيا دَلِيلٌ عَلَىٰ عذابه الكامل المطابق لمقتضياتِ عَدْلِه في الآخرة، وهو أكبر من عذاب الدُّنيا، فقال تعالى:

ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ: أي: أَكْبَرُ من عذاب الدُّنيا، لأَنَّهُ عذابٌ مطابقٌ لمقتضياتِ الْعَدْلِ الرَّبَّاني.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون: أي: لو كَانَ الْعُصاة والمذنبون والكَفَرَةُ، يَعْلَمُونَ كَمالَ صِفَاتِ اللّهِ، ومِنْهَا حِكْمَتُهُ وعَدْلُهُ وَتَدَابِيرُهُ فِي خِطَّةِ الْوُجودِ، وَمَا أَعَدَّ في الدَّار الآخِرَة مِنْ حِسَابٍ وفَصْلِ قَضاءٍ وَجَزَاءٍ بالْعَدْلِ، لَعَلِمُوا أَنَّ عَذَابَ الآخِرَة أَكْبَرُ مِنْ عَذَابِ الدُّنيا، فارْتَدَعُوا وَتَابُوا إلى بارئهم، واسْتَقَامُوا على الصّراط الذي أَبَانَهُ ودعا إليه، في الدِّين الذي اصطَفَاهُ لعباده، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

وفي عرض هذا المثل التاريخي الذي شبه الله عزّ وجلّ به حال كفّار مكة إشعارٌ ضمنيٌّ بأن كفرهم لم يبلغ بمجموعه العامّ إلى مثل الكفر الذي بلغه كُفْر كفّار القرون الأولى، الذين أهلكهم الله جلّ جلاله إهلاكاً شاملاً كعاد وثمود، لذلك لم يستحقوا إهلاكاً شاملاً، بل عُوقبوا بما هو دونه، والواقع دلّ على أنّ فتح مكة قد كان سبباً لتحوّلهم إلى الإيمان واتّباع الرسول ﷺ.

وانتهى الدرس الثاني من دروس السورة

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث

الآيات من (٣٤ ـ ٤٧)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ

كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ
شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِى
وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ
(٤٥) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧)﴾ .

تمهيد:

بعد الإلماح بإنذار كلّ المكذّبين، والتصريح بإنذار الفريق المستكبر العاتي المعاند، الذي سيكون من عقابه أنّه سَيُوسَمُ بِكَيَّاتٍ مِن نارٍ على أنفه المستكبر الذي يُشْبه خُرطُوم الفيل والخنزير شبهاً معنويًا لاَ شَبَهاً حِسِّيًا، اقتضت الحكْمَةُ بيان ثواب المؤمنين المتقين، فجاء في أوّل هذا الدرس الثالث قَوْلُ اللّهِ عزّ وجل:

- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤)﴾ .

جاء هذا الوعد مؤكّداً بـ «إنَّ ـ وبالجملة الاسمية» مراعاة لحال المنكرين أو الشاكين، وطمأنةً لقلوب المؤمنين.

لِلمتَّقِين: المتقون جمع المتّقِي، وهو الذي وضع بينه وبين عقوبات الله وِقاية، والوقاية إنّما تكونُ بالإيمان الصحيح والعمل الصالح ابتغاء مرضاة الله.

عِنْدَ رَبِّهِمْ: أي: عنْدَ فضْلِه على عباده يَوْم الدين، في الحياة الأخرى.

جَنَّاتِ النَّعِيم: جاء التعبير هنا بلفظ الجمع «جَنَّات» إشارةً إلى أقسام الجنَّة وَمَنَازِلِ أهْلِها فيها، فهي بجملَتِهَا العامّة «جنَّة» واحدةٌ كبرى، وهي بأقْسامِهَا وأجزائها جنَّاتٌ يَصْلُحُ كُلُّ قِسْمٍ مِنْها لأن يُطْلَقَ عليه لفظ جنَّةٍ.

واختار الله لما في الجنَّةِ يوم الدّين من مُسْعِداتٍ لأصحابِهَا لفظ النعيم. أمّا لذّاتُ الحياة الدنيا ومُسْعِداتُها مَهْمَا بلَغَتْ فقد أطْلَقَ اللَّهُ عزَّ وجلّ عليها لفظ «مَتَاع» لما فيها من انتفاعٍ مؤقّت يعقبه الزوال، فلا خلود لها، بخلاف نعيم الجنَّة فهو خالدٌ مقيم.

قال الأزهري: فأمّا المتاعُ في الأصل فكلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، ويَتَبَلَّغُ به، ويُتَزَوَّدُ، والفناء يأتي عليه في الدنيا.

وبعد تقديم هذا الوعْدِ العظيم للمتقين، قَدَّم هذا الدرسُ من دروس السورة الدّليلَ العقليّ الذي يوجب أن يكون في خطَّةِ الوجود بعْدَ امتحان الناس في ظروف الحياة الدُّنيا، يَوْمٌ يُحَاسَبُ الناسُ فيه على ما سَلَفَ من أعمالهم في الحياة الدنيا.

ويُفْصَلُ القضاءُ بشأنهم، ثُمَّ يجازَوْن، بالعدل، أو بالفضل.

وذلك بمقتضىٰ كون الله عزّ وجلّ حكيماً، فالحكمة تقتضي ذلك، وإلاّ كان هذا الخلْقُ عبثاً ومنافياً للعدل. والرّبُّ الخالق العليم القدير جلَّ جلاله الذي له كلّ صفات الكمال، والمنزَّهُ عن كلّ صفات النقصان، لا بُدَّ عقلاً أنْ يكون حكيماً، وأن يكون مُنَزَّهاً عن العبث، ومنزَّهاً عن أن تكون أعماله منافيةً للعدل، فقدَّمَ الدَّليلَ البرهانيَّ بصيغةٍ أدبيّة رائعة.

فقال عزَّ وجَلَّ:

● ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟.

المُجْرِم: المتعدّي بذنب كبير. **والجُرْم**: التعدّي، والذنب.

مَا لَكُمْ؟: أي: أيُّ شَيْءٍ هو لَكُمْ مِنْ حقّ أو فكْرٍ أو رأيٍ مقبول، يجعلُكُمْ تحكُمونَ بأنَّهُ يُمكِنُ أنْ يُسَوّيَ الرَّبُّ الخالق الذي تَزْعُمون أنّكم تُؤمنونَ بوجوده، بين المسلمين المستسلمين المطيعين له، وبين العصاة المذنبين المجرمين؟

كَيفَ تَحْكُمُونَ؟: أيْ: حالُكُمْ يَنبغي أن يَتَعَجَّبَ منه المتعجبونَ ويستنكِرَهُ المستَنْكِرُون من أولي الألباب، فعَلَىٰ أيَّةِ كيفيَّةٍ تقبَلُها العقول تحكُمُون بهذه التسوية، إذْ تُنْكِرُون الدّينَ والجزاء في اليوم الآخر والحياة الأخرى، بعْدَ انتهاء ظروف هذه الحياة الدنيا.

كلٌّ من هٰذَين الاستفهامَيْن استفهامٌ تعْجِيبِيٌّ إنكاريٌّ واجه الله عزّ وجلّ به المكذّبين.

وهذا الأسلوب من الاستدلالِ هو من قبيل الاستدلال بنفي أحَدِ النقيضيْن لإثبات النقيض الآخر.

والمعنى: يا أيُّها المكذّبون بيوم الدين، إذا كنتم تُؤمِنُونَ حَقًّا بِرَبٍّ خالقٍ عَليم حكيم، فكيف تقبلُون في عقولكم أَنْ يكُونَ هذا الخالق الحكيم مُتَّصِفاً بالعبث ومنافاة العدل؟

إنَّه إذا لم يكن في خطّة الخلْقِ يوْمٌ آخر يُحَاسَبُ النّاسُ فيه، ويُجازَوْن علَىٰ أعْمَالِهم في هٰذهِ الحياة الدُّنيا، مع وُجُودِ مُسْلِمين ومُجْرمين فيها يتَصرَّفُونَ بإراداتِهِمُ الحرَّة الّتي وهبَهُمُ اللّٰهُ إيَّاها، فيَظْلِمُ مِنْهُمْ مَنْ يَظْلِمْ، ويَعْتَدِي مَنْ يَعْتَدِي، ويَكْفُرُ مَنْ يَكْفُرُ، ويُسْلِم مَنْ يُسْلِم، ويُحْسِنُ مَنْ يُحْسِنُ، ويَعْصِي من يَعْصِي، ويُطِيعُ مَنْ يُطِيعُ، ويَكُونُ فِيهِمْ مَظْلُومُونَ وظالمون، ومُصْلِحُون ومُفْسِدُون، فإنَّ خَلْقاً هٰذِه صِفَتُه تَعْوزُهُ الْحِكْمَةُ، ويَلْزَمُ منه أَنْ يَكُونَ خَلْقاً عَبَثاً، أَوْ عملاً عَشْوَائيًا، أَوْ عَمَلَ ظالِم لاَ يَعْبأ بآلاَمِ مَنْ يَخْلُقُهُم، فيُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ علَىٰ بَعْضٍ دونَ أَنْ يُتَابعَ مُجْرِمِيهِمْ بحساب ولا عقابٍ عادل، ودون أن يُتابع مسلميهم وصالحيهم بتكْرِيم وتفضيل وثوابٍ حسن.

تَعالَىٰ الرَّبُّ الخالق العليم الحكيم العدْلُ البرُّ الرحيم عن ذلك علوّاً كبيراً.

إذن: فلا بُدَّ أن يكون في خطَّةِ خلْقِه يَوْمٌ آخَرُ، غيرُ يومِ هذه الحياة الدنيا، يُجْري الله فيه فضله فيمنحه محسنيهم ومسلميهم، ويجري فيه عدله على مسيئيهم ومجرميهم.

هذا هو مفتاح الدليل العقليّ الّذي دلَّ على يوم الدين، بعد الإيمان بربِّ العالمين، والإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى.

وهو ما تضمّنه قول اللَّهِ عزّ وجلّ في أوائل ما نزل من قرآن:

- ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فاستثار الله عزّ وجلّ العقول، ونبّه المؤمنينَ بربوبيَّته على الدليل العقليّ الذي يهديهم إلى الإيمان بيوم الدين.

وأتبع الله هذا الدليلَ العقليّ المقنع بمناظرةٍ تَشْتَمِلُ على حصارٍ فِكريّ، يُسْقِطُ كُلَّ احْتِمالٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شُبْهَةً للمكذبين بيومِ الدّين، أو ذَرِيعةً تجعلُهم لاَ يخافون الآخرة وعقابَ اللَّهِ فيها على كفرهم، وتكذيبِ رسُولِ رَبِّهِمْ.

الاحتمال الأول: أن يتوهَّمُوا أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ خلقهم في هذه الحياة، وأبَاحَ لهم أنْ يَفْعَلُوا فيها كلَّ ما يتخيَّرُونَ لأنْفُسِهم من خَيْرٍ وشرّ، وأعطاهُمُ القوىٰ، وسلَّطَهُمْ على ذواتهم يفعلُونَ بها ما يُرِيدُون، وعلى ما حولَهُمْ ومَنْ حَوْلهم من أشياءَ وأحياء، فللقَوِيِّ منْهُمْ أَنْ يظْلِمَ الضعيفَ ويَقْهَرَهُ، ما استطاع ذَلِكَ، أو ما استطاع إليه سبيلاً أَوْ سبباً.

جاهلين أنَّ تمكينَهُمْ إنَّما هو لامْتِحان إراداتهم في ظُرُوفِ هذه الحياة الدّنيا.

لَكِنَّ مِثْلَ هذه الإباحةِ على الرُّغْمِ من مُنافَاتِها لمقتضيات الحقّ والعدل، لا يُمْكِنُ أَنْ تُعْلَمَ إلاَّ عَنْ طَرِيق كتابٍ ربَّانيّ، وهذا الكتابُ قَدْ بَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ أَباح لهم ذلك، فأثبت فيه بنُصُوصٍ صريحةٍ واضحةٍ أنَّ لهم في الحياة كُلَّ مَا يتخيَّرُونَ من عَمَل.

لكِنَّ أيَّ كتابٍ رَبَّانِيٍّ صحيحٍ غَيْرِ محرّف لاَ يُوجَد فيه نصٌّ مِثْلُ هذا النصّ، فسقَطَ هذا الاحتمال الذي يمكن أن يتعلَّلَ به المكذّبون.

هٰذَا الجانبُ من جَوانبِ المحاصَرةِ في هذه المناظرة، قد دلَّ عليه قول اللَّهِ عزّ وجلّ لهم، في خطابٍ واجَهَهُمْ به:

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

(أَمْ) هذه «أم» المتصلة، وهي الّتي لا يكون الكلامُ بها إلاَّ استفهاماً، وهي حَرْف عطف، والاستفهام المقدّر مع «أم» هنا استفهامٌ إنكاريٌّ.

والمعنى: أفنجعل المسلمين كالمجرمين، وهذا مرفوضٌ عقلاً، أَمْ لَكُمْ كتابٌ رَبَّانِيٌّ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَخَيَّرُونَ مِنْ عَمَلٍ، دون أن تكونُوا عرضة للمؤاخذة والعقاب على ما تُسيئون وتظلمون وتفسدون، وهذا غير موجود.

كُسِرَتْ «إِنَّ» مع أنَّهَا وقَعَتْ بعْدَ عامل لأنّه عُلِّقَ بلام الابتداء الّتي يسَمُّونها المزَحْلَقة.

تَخَيَّرُون: أَصْلَها تتخيَّرون، حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

الاحتمال الثاني: أنْ يَدَّعُوا أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ أعطاهُمْ عَهْداً عَلَىٰ نَفْسِه مُوَثَّقاً بأَيْمَانٍ بالِغَةٍ غَايَةَ التَّأْكِيدِ، ومُسْتَمِرَّةِ الأَثَرِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَة، إِذْ يُحَاسِبُ اللَّهُ عِبادَه ويَفْصِلُ قَضاءَه بينهم، مُقَرّراً ما يُجازِيهم به، وعِنْدَئِذٍ تنتهي المسؤوليَّةُ عن الأعمال في الحياة الدنيا.

وهٰذه الأيمان البالغة قد أعطاكم الله بها أَنْ تَحْكُموا لأنفُسِكُمْ بِمَا تَشَاءُونَ مِنْ حُكْمٍ، فَأَنْتُمْ تَسْتَطِيعُونَ بمقتضىٰ هٰذَا التفويض الرَّبَّانِيّ أَنْ

تُسْقِطُوا عن أنْفُسكم المؤاخذة على ما تقدِّمون في الحياة الدنيا من شرٍّ وسوء عمل، وأنْ تمْنَحُوا أنفسَكُمْ السّعَادة والنجاة والفلاح.

لَكِنَّ مِثْل هٰذِهِ الأيمانِ لاَ وُجُودَ لها، ولا أحد منكم يَسْتطيع أنْ يكون كَفِيلاً بها.

فسقط أيضاً هذا الاحتمال الثاني الذي يمكن أن يَتعلّل به المكذّبون.

دلّ على هذا الاحتمال وعلى إسقاطه قول الله عزّ وجلّ في المناظَرةِ خطاباً للمكذّبين:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

(أَمْ): هُنَا كَسابقتها. والاستفهام في العبارة استفهام إنكاري أيضاً.

﴿أَيْمَٰنٌ﴾: جمع «يَمِينٍ». **اليمين**: الْقَسَمُ.

﴿عَلَيْنَا﴾: أي: أَيْمَانٌ تُوجِبُ عَلَيْنَا، والمتحدِّث هو اللّٰهُ عزَّ وجل.

﴿بَٰلِغَةٌ﴾: أي: أيمان واصلة إلى غاية ما يُقَدَّمُ من تأكيد بالأيمان.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي: وهذه الأَيْمَانُ مُسْتَمِرَّةُ الأَثَرِ إِلَىٰ الْيَوْمِ الذي يُقَرَّرُ فيه قضاء الإدانَةِ والجزاء، وعندئذٍ تنتهي مُتَعَلَّقَاتِ المسؤوليّة عن الأعمال في رحلة الحياة الدنيا، وهذا اليوم هو يَوْمُ القيامة، وهو يوم الدّين.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾: هذه جَوابُ الْقَسم، وفي جواب الْقَسم تُكسَرُ همزة «إِنَّ».

والمعنى: هَلْ أقسمنا لكم أيماناً مغلّظةً، منحناكم بها أَنَّ لَكُمْ مَا تَحْكُمون به لأنْفُسِكُمْ يَوْمَ القيامة، إِذْ يكونُ الحسابُ وفَصْلُ القضاء وتنفيذ الجزاء؟!!.

إنّ مثلَ هٰذه الأيمان لا وُجود لَها، فليس لكم عُذْرٌ يأتي من قِبَلِ هذا الاحتمال.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

«زَعِيم»: تأتي في اللّغة بمعنىٰ «كفيل» وتَأْتي بمعنىٰ «رئيس»، ومعنىٰ «كفيل» هو المعنى الملائم هنا.

والمعنى: سَلْهُمْ يا مُحَمَّد، أو سلْهُمْ أيُّهَا المناظرُ لهم بمقتضىٰ هذا التعليم الجدليّ، أيُّهُمْ كَفِيلٌ «بأنّ لَهُمْ أيماناً عَلَيْنَا بالغةً إلى يَوْمِ الْقِيامة إنَّ لَهُمْ لَمَا يَحْكُمُونَ» يَكْفُلُ تَحْقِيقَ مقتَضَىٰ هٰذهِ الأيمان المدَّعَاة، أو كفيلٌ بإثباتِ وجودِها إذا ادّعَاها؟!

إنَّهُ لا أَحَدَ مِنْهُمْ يستطيعُ أَنْ يكونَ زعيماً بذلك.

الاحتمال الثالث: أنْ يتوهَّمُوا أنَّ شركاءهم الذين يَعْبُدونهم من دُونِ الله، سَتَحْمِيهم من عقاب الله وعذابه وإقامَةِ عَدْلِهِ فيهم.

لَكِنَّ شركاءهم لا تستطيعُ ولَوْ شاءتْ أَنْ تقدّم لهم نفعاً، أَوْ تدفَعَ عنهم ضرّاً، في الحياة الدنيا، فكيْفَ تدفَعُ عنهم عقاب الرَّبِّ الخالق الذي بيده ملكوتُ السماوات والأرْض؟! وكيْفَ تَحْمِيهِمْ من عقاب اللّٰهِ يَوْم الدين.

وهكذا يَسْقُطُ هذا الاحتمال الثالث أيضاً.

وقد دَلَّ على هذا الاحتمال، وعلى إسقاطه، من نصّ المناظرة التعليميّة، قولُ الله عَزّ وجَلَّ فيه:

- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

(أَمْ): نظير سابقتيها، والاستفهامُ في العبارة استفهامٌ إنكاري أيضاً.

﴿لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾: أي: من دُونِ اللَّهِ يَحْمُونَهُمْ من عذاب الله، ويحقّقُونَ لهم نجاتهم وَفَوْزَهُمْ وفَلاَحَهُمْ يوم القيامة.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾: في هذه العبارة تَحَدٍّ للمكذّبين، بأنْ يأتُوا بما يُؤمنُونَ بِأَنَّهُمْ شركاءُ للَّهِ يسْتَطيعُونَ أنْ ينصُرُوهم، لنُصْرَتِهِمْ من عِقَاب الله إذَا شاء عقابَهُمْ في الدنيا، أو لصرف عقاب الله وعَذابه عنْهُمْ يَوْمَ الدّين، إنْ كانوا صادقين في ادّعاء أنّ لله شركاء في ربوبيّته.

لَكِنَّ شركاءهم لم يَنْصُرُوهم حينَ نصرَ الله رسولَهُ والمؤمنين عليهم، في المعارك الّتي جرَتْ بين الفريقين بعد هجرة الرسول ﷺ، وانتهت بفتح مكة.

أي: فإنْ كانوا صادقين في ادّعاء أنّ شركاءهم قادرون على حمايتهم، فلْيَأْتُوا بشركائهم لنصرتهم في الدّنيا، أو يَوْم القيامة.

لم تَنْتَه عناصر المناظرة المحاصِرَةِ بَعْدُ، ولَكِن اقتضت الحكمة التربويَّة أن يثير البيان أثناءها في نفوس المكذبين الخوف من عذاب الله يوم الدّين، الذي يَنْزِل بالمكذبينَ الذين أنهَوْا رحلة الحياة الدنيا وهم مُصِرُّون على كفرهم، فقال الله عزّ وجلّ:

- ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

في هذا عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّينِ، يَوْمِ الْحِسَاب وفَصْلِ القضاءِ وتنفيذ الجزاء.

وهُوَ مَشْهَدٌ اخْتِبَارِيٌّ كاشِفٌ، يُمَيِّزُ مَنْ كَانُوا في الحياة الدُّنيا مؤمنين مُسْلمينَ قَدْ سَجَدُوا لربّهم فيها، من الّذين كانوا كافرين مُكذّبين رَسُولَ رَبّهم، ومُكَذّبين بما جاءهم به عنه، ولم يُعْزَلُوا من قَبْلُ باعترافاتهم، وهؤلاء أكثرهُم منافقون.

في هذا الاختبار يَكشِفُ اللّهُ عزَّ وجلَّ عَنْ سَاقِهِ ويُدْعَىٰ أَهْلُ الموقف للسجود، فيَسْجُد كُلُّ مُؤْمِنٍ ومؤمنة، أمّا المنافقون فلا يستطيعون السُّجود لربّهم يومَئذٍ إذ يكون ظهر كلٍّ منهم طبقاً واحداً، لأنّهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا لربّهم، وإنما كانوا يسجدون نفاقاً ورياءً وسُمْعة، وكذلك من كانَ مجهول الهويَّة في الكفر قياساً على المنافقين.

ويظهر أَنَّ الغرضَ من هذا التمييزِ فَصْلُ المؤمنين عن المنافقين، ليُؤخذ المؤمنين إلىٰ جهة اليمين حيث يكون المصير إلى الجنة، وليُسَاقَ المنافقون إلى جهة الشمال حيث يكون المصير إلى النار.

وجاء عند البخاريِ ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ من حديث طويل عن النبيّ ﷺ قال:

«يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إلىٰ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبهم، وأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّىٰ يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وفَاجِرٍ. . . . فيقال لهم: مَا يَحْبِسُكُمْ وقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ، فيقولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ. . . وإنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا».

قال: «فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ في صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْه فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أنَا رَبُّكُمْ، فيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؟ فلا يُكَلِّمُهُ إلاَّ الأَنْبِياءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعرِفُونَه؟ فَيَقُولُون: السَّاق، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للَّهِ رِيَاءً وسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كيْما يَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقاً واحداً. . .».

لكن دَلَّ النصُّ هنا في سُورَةِ (القلم) على أنّ المكذبين من المشركين يُكْشَفُ لهم عن سَاقٍ، وأنَّهم يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ فلا يَسْتَطِيعون، كما جاء في الحديث بالنسبة إلى المنافقين، فينبغي الْجَمْعُ بين النَّصَّيْنِ لِعَدَم التعارض.

وجاء في حديثٍ عند ابْنِ جرير الطبري، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«يَوْمَ يُكْشَفُ عن سَاقٍ يَعْنِي عن نُورٍ عظيم يخرّون له سُجّداً».

ورواه أيضاً أبو يعلىٰ بسندٍ قال فيه ابن كثير: فيهِ رجلٌ مُبْهم.

والمعنى: فَلْيَأْتِ الْمُشرِكُون بشركائهم، إنْ كانوا صادِقين في ادّعَاءِ أنّ للّٰهِ شُركاءَ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعبَد، وتَسْتَطيع أن تنصُرَ مَنْ يَعْبُدُونها، يَوْمَ الْقِيَامة لِيَنْصُرُوهم ويحموهم من عذاب الله، يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، وبيانُ هذه السَّاق جاء في الحديث الآنف الذكر، عند البخاريّ ومسلم عن أبي سعيدِ الخدري، ولا داعي إلى تأويلات ذَكَرَهَا المفسّرون، فالحديث صحيح صريح.

وجاء في الحديث أيضاً بيان عدم استطاعتهم أن يسجُدُوا للّٰهِ يَوْمئذٍ، بأنّ الله عزّ وجلّ يجْعَلُ ظَهْرَ كُلِّ واحدٍ من الكافرين في حقيقة أمره ولو كان في الدنيا منافقاً يسجُد مع السّاجدين طبقاً واحداً، غير ذي فِقَراتٍ تَنْثَني للسجود.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾: أي: مُنْكَسِرَةً أبْصارُهم، فَهُمْ ينظُرُونَ بأعْيُنِهِمْ إلىٰ الأَرْض منْ ذِلَّتِهِمْ.

الخشوعُ في اللُّغة: الخضوعُ، والخوفُ، والسُّكون.

﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾: أي: تَغْشَاهُمْ ذِلَّةٌ ضَاغِطَةٌ علَىٰ نُفُوسهم، فَهُمْ يَحْمِلونَ بِهَا من الهمّ والغمّ والعذابِ مشقّةً عظيمة.

﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾: أي: وقَدْ كَانُوا يُدْعَونَ في الحياةِ الدنيا إلى الإيمان بربهم والسجود له وهم سالمون قادرون على السُّجُودِ، فلا يَفْعلُونَ، إذْ لم يَكُونوا مؤمنين.

وبعد هذا العرض لمشهد من مشاهدِ يَوْمِ الدّين، الذي يتضمَّنُ وعيداً للمكذّبين، اقتضت الحكمة التربوبية أَنْ يُنْذِرَهُمُ اللّٰهُ بعذابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدُّنيا، إذا أصرّوا على عنادِهِم وتكذيبهم، واقتضت الحكمة أن لا

يُوَاجِهَهُم الله بالخطاب، على خلافِ توجيه الخطاب لهم في العناصر السابقة من المناظرة، فقال الله عزّ وجلّ لِرَسُولِه فلِكُلِّ داعٍ إلى الله من أمّتِه:

- ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

سبق نظير هذا التعبير التهديديّ في سُورتي المزّمّل والمدثر، فهو يتضمَّن تهديداً ووعيداً شديداً لمنْ يُرادُ تَهْدِيدُهُ ووعِيدُهُ، وهذا التهديد موجَّهٌ من الرّبّ الخالق لكل منْ يَكَذِّبُ بهذا الحديث وهو القرآن الذي كان يَنزلُ نجوماً على الرسول ﷺ.

وفيه مع التهديد وصيّةٌ للرّسُول فلِكلّ داعٍ إلى الله من أُمّتِهِ، أن يَتْرُكَ مُقَارعة المكذبين، ويَبْتَعِد عن مصارعتهم، ما داموا في المراحل الأولى في مسيرة الدعوة إلى دين الله، فالحكمةُ الدَّعويّة تقتضي مُتَابعةَ المسيرة دُون الاشتغال بمصارعة المكذبين، لئلا ينصَرِفَ الدّاعي عن القيام بواجبات رسالته الدعويّة، إلى أُمورٍ معوقة.

﴿فَذَرْنِي﴾: أي: دَعْني واتركْني.

﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي: دعْني مَعَ من يُكَذِّبكَ بهذا الحديث، وهو القرآن. **الحديثُ**: الكلام الذي يُقالُ ويُتحدَّثُ به، **والقرآن**: كلامٌ مُنَزَّلٌ من ربّ العالمين، يُحَدِّثُ الرَّسُولُ به، فَيُبلّغُهُ عن رَبّه.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الاستدراجُ: تَقْدِيمُ التّسْهيلات الخفيّاتِ الّتي تجْعَلُ السّالِكَ في طريقٍ ما يَدْرُجُ مُتَابعاً سَيْرَهُ الذي يَحْسَبُ نفسَه فيه صاعداً، بَيْنما قد يكونُ هابطاً مُتَسَفِّلاً، وقد تنتهي به مسيرته إلى هَلاَكه.

يقال لغة: دَرَجَ يَدْرُجُ دَرْجاً، ودُرُوجاً، أيْ: مشَىٰ مِشْيَةَ الصّاعِدِ في الدَّرج.

ومعلومٌ من سُنَّةِ الله عزّ وجلّ أَنَّ مَنْ سَلَكَ طريقَ الشرّ فلا بُدَّ أن تُوصِلَهُ مسيرتُهُ إِلَىٰ عاقبةٍ وخيمةٍ تجعَلُه يَنْدَمُ على ما اختار لنفسِه في حياته من شرّ.

والاستدراجُ الرّبّانيّ لعباده يكونُ من حَيْثُ لاَ يعلَمُونَ، أَيْ: من المكانِ الذي لا يعلمونه، لاستتاره عن إدْراكاتِ حواسهم.

حَيثُ: ظَرْفُ مكانٍ مبنيٌّ على الضمّ، وهو هنا في محلّ جرٍّ بـ «من».

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

الإملاء: الإمْهالُ والتأخير وإطالةُ العمر، يقال لغة: أمْلَىٰ اللّٰهُ له، أي: أمْهَلَهُ وطوّل له.

ويقالُ: أمْلَىٰ للبعير في القيد، أي: أرخىٰ له، ووسّعَ له فيه، وطوّل له مِقْدَار الحبْلِ ليزدادَ في حرّيّة الحركة، وهذا هو الأصل في المادّة.

والْمَلاَ: ما اتَّسَع منَ الأرْض، فبإرخاء الحبل للدّابة تزداد حرّيتها في الْمَلاَ.

الكيْد: تدْبيرُ أمْرٍ فيه مكْروه لِمَنْ دُبِّرَ ضدَّه، وهذا التدبير يكون بالحق أو بالباطل، وبالخير أو بالشرّ، ولكنّ كيْدَ الله لا يكونُ إلاّ بالحقّ أو بالخير، ومنه التدبير لإهلاك المجرمين ومعاقبتهم، ويأتي الكيدُ بمعنى الحرب.

مَتِينٌ: أي: قويٌّ شديدٌ صُلْبٌ لا يُخْتَرق.

والمعنى: أُطَوّلُ لَهُمْ وأُمْهِلُهُمْ لأتْرُكَ لَهُمْ فُرْصَةَ التوبَةِ وإصلاح ما أفسدوا، حتَّىٰ إذا انتَهَتْ مُدَّةُ إمهالِهم الَّتي تقتضيها الحكمة، أَنزلْتُ بِهِمْ عقابي الشديد، إذا استمروا على ما كانوا عليه من شرّ، ولم يُراجعوا أنفسهم، وعندئذٍ يَرَوْن أنّ كيدي قويٌّ شديدٌ غالب لا يستطيعون أن يحْمُوا أنفسهم منه، بأيَّةِ وسيلة من الوسائل.

في هاتين الآيتين (٤٤ ـ ٤٥) التفت البيان القرآني إلى الرسُول ﷺ، ويُلْحَقُ به الدُّعَاةُ إلى الله من أمّته، إذا كانوا في مثل الموقف الذي نزلت فيه سورة (القلم) فبيَّنَ الله عزّ وجلّ فيه الموقف الذي يجب أن يتّخذَهُ تجاه المكذّبين بآيات التنزيل، وهو موقف تركهم لله بارئهم، وعدم مصارعتهم، مع الاستمرار على العمل في طريق الدعوة إلى الله وإلى صراطه المستقيم.

إنَّ الموقف هو موقف مراحل الدعوة الأولى، التي يجب فيها الصَّبْرُ على المكذّبين للرسُول والمكذبين بالرّسَالة والقرآن ويوم الدين، مع الدّأب في مجال الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجب فيها أيضاً عدمُ إثارة صراعات تتجاوز حدود التّبْليغ، والبيان، والجدالِ بالّتي هي أحْسَنُ، وتجميع المستجيبين، وتربيتهم علَىٰ أخلاق الإسلام وشرائِعه، وتكوين الأمّة الإسلاميَّةِ شيئاً فشَيْئاً، كزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فاسْتَوىٰ على سُوقه.

إنَّه ممّا لا شَكَّ فيه أنّ هذا هُو المنهجُ الأمْثَلُ، إذْ هو المنهجُ الرَّبَّانِيّ، وهو المنهجُ الذي أثبتَتِ التطبيقات النبويَّةُ له أنَّ ثَمرَتَهُ أعظَمُ الثمراتِ وَأكْثَرُها وأثْبَتُها وأدْوَمُها.

ثم بمقدار ما التزم الدُّعَاةُ إلى الله والتنظيمات الإسلاميَّة بهذا المنْهَجِ الرَّبَّانِيّ كانَتْ تأْتي ثمراتُ أعمالهم، فتزْدادُ هٰذِه الثمراتُ بازدياد هذا الالتزام، وتتناقَصُ بتَنَاقُصِ هٰذَا الالتزام.

أمَّا الذين زيَّنَتْ لهم آراؤهم أنْ يَخْرُجوا عن هذا المنهج، أو أن يختاروا لأنفسهم مناهج أخرى، كإثارة الصراعات المادّيّة، قَبْلَ استكمال مرحلة بناء الأمَّة الإسلامية القادرة على المواجهات المادّية المهيَّأة بأسْبَابها المادّيّة والمعنويّة للظفر، ضمن سُنَنِ الله في كونه، فقد باءُوا بالفشل والخيبة، وأجْهَضُوا ما بُنِيَ مِنْها، وهي في المرحلة الجنينيّة، أو قتلُوها، أو عرَّضُوهَا للاسْتِئْسَارِ وهي في مرحلة الطفولة، أو المراهقة، أو اليفاع، ولم تَصِلْ بَعْدُ إلى مرحلة الرُّجولَةِ القادرة على الدّفاع أو الْغَلَب.

إنّ الصَّبْرَ على المكذِّبين مع استمرار الدّأب على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظةِ الحسنة والجدال بالّتي هي أحسن له أثران عظيمان:

الأثر الأول: الاستدراجُ إلى مواقع الاستجابة للدّعوة، وقبولِ مَنْطِقها، والاهتداء بهُدَاها.

فمن شأنِ الصبْرِ مع الدّأب على العمل إقناعُ الفريق الرافض المكذّب، بأنَّ الدّاعِيَ إلى الله صادقٌ في دعوته حقًّا، وأنَّهُ لا هَدَفَ لَهُ إلاَّ خَيْرُ مَنْ يَدْعُوهم، ولَيْسَ له من وراء دعْوَته مصلَحةٌ شخصِيَّةٌ دُنيويَّة، وهٰذا أمْرٌ يَهْدِمُ لدى الرافضِ المكذِّب عُنفَ النِّقْمَةِ والعِداء، فَمَنْ كانت لديه من المكذّبين بزُورُ خَيْرٍ نبتَتْ ونَمَتْ، فاتَّجهَتْ نباتاتُهَا نَحْوَ الضَّوْءِ، ثُمَّ امتدَّتْ مُنْجَذِبةً إليه.

فإذا بالَّذِي كانَ سابقاً مُكذِّباً مُعادِياً، يَغْدُو مُنجذِباً في اتّجاه النور، ولا يزال النورُ يسْتَدْرِجُهُ شيئاً فشيئاً حتّىٰ يكون من المستجيبين المتابعين.

وهذا ما حصل فعلاً لكثير من الذين كانوا مكذّبين للرَّسول ومكذبين برسالته، وبآيات التنزيل الرّباني. لقد استَدْرجهم الصبْرُ والدّأبُ، والمثابرةُ على الدعوة إلى الله، والبيانُ الملائم لأحوال المدعُوّين، واتّخاذ وسائل الإقناع والترغيب والترهيب، إلى مَشْرِق نُورِ الحق، وصِدْقِ دُعاته، فاستجابوا واهتدَوْا.

فصارَ كثيرٌ من قادَةِ جَيْش الكُفْرِ وجنودِه بالأمْسِ، قادَةً وجنُوداً في جيْشِ الإسلام بعد ذلك.

الأثر الثاني: اغْتِنَام الوقْتِ وكسْبُهُ لبناء الأمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وتدعيم أركانها، وشَدُّ أواصرها، وإعدادِ جيْشِها، لتكُونَ قَادِرَةً على مُواجهة أعدائِها إذا حزَبَ الأمْر، ودَعَتِ الضَّرورةُ للمواجهة المادّيّة المسلَّحة.

فإذا تَمَّ الإعداد الْمُرَشَّحُ للانْتِصارِ والظَّفر، ظَهَرَ أَنَّ كيْدَ الإمْهَالِ كَيْدٌ مَتِينٌ وإنْ طَالَ حَبْلُه، فالظَّافِرُ هو الظافِرُ أخيراً.

هذان الأثران العظيمان دَلَّ عليهما قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أطيل لهم مُدَّة الإمْهَالِ ليُعِدَّ الرَّبَّانِيُّون أنفسهم إعداداً قادراً على مواجهة مَنْ يَبْقَىٰ مِنْهُمْ مُكَذِّباً، في عمليَّاتٍ كَيْدِيَّةٍ بالغةِ الإحكام، وعندئذٍ يظهر أنَّه قد كان كَيْداً مَتِيناً.

وهكذا استجمع المنهج الرّبّانيُّ ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: الصَّبْرُ مع الدَّأب والمثابرةِ على الدعوة إلى الله وفْقَ منهج الله.

العنصر الثاني: محاولةُ استدراج من تَلِين عريكتُه من المكذّبين شيئاً فشيئاً، وتَصَيُّدُ من لديه بزورُ خَيْرٍ، وضمُّهُمْ إلى بناء الأمّة الرَّبَّانية.

العنصر الثالث: كسْبُ الوقت لإِحكام بناء الأمّة، وإعْدَادِ قُواها القادرة على المواجهة المسلّحة إذا لَزِم الأَمْر، ولو بعْدَ حينٍ من الدَّهْر.

فمن أراد مرضاةَ الله، والظفر بخير نتائج العمل الإسلامي، فلْيلْزَمْ هذا المنهج.

وبَعْدَ مُعَالَجَةِ المكذّبينَ خلالَ عَرْضِ عناصِرِ المناظرة المحاصِرة بمَشْهَد مِنْ مَشاهد يوم الدين لاستثارة مخاوفهم، وتوجيه تهديدٍ لهم بعقابٍ مُعجَّلٍ إذا أصرُّوا على كُفْرِهم وتكْذِيبهم، يَعُودُ النصّ إلى مُتابعَة عناصِرِ المناظِرَةِ المحاصِرَة، فقال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسوله:

- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

لقَدْ سَبَقَ في المناظرة بَيَانُ ثلاثة احتمالاتٍ يُمْكِنُ أنْ تكونَ شبهةً

للمكذّبين بيَوْمِ الدّين، أو ذَريعةً تجعلُهُمْ لا يخافون الآخرة، وعقابَ الله فيها على كفرهم وتكذيب رسُولِ ربّهم، وسبَقَ إسقاطُها.

وهاتان الآيتان (٤٦ ـ ٤٧) تشتملان على احتمالين آخَرَيْنِ فَوْقَ الثلاثة، مع إسقاطِهما، وبإسقاطهما تتمّ المناظرَة الّتي فيها حصارٌ فكريٌّ كامل، لكُلّ التَعِلاّتِ مع إِسْقَاطِها، وإلحاقاً بالاحتمالات الثلاثة السّابقات، يأتي الإحتمال الرابع:

الاحتمال الرابع: دَلَّ عَلَيْه قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾؟!

(أَمْ): نظير سَابقاتها الّتي جاءت لدى عرض الاحتمالات الثلاثة السابقات.

والاستفهام هُنَا استفهامٌ إنكاريٌّ أيضاً، أي: أنْتَ لم تسْأَلْهُمْ أَجراً حتّىٰ يتهرّبُوا من الاستجابة لدعوتك، فإنْ كان تكذِيبهُمْ لَكَ يا مُحمَّدُ مَدْفوعاً بدافع التهرُّب من تكليفِ كلّفتَهُمْ إيَّاه لمصلحة شخصك، أجراً على تبليغهم رسالة ربّكَ لهم، أو تَخوُّفاً مِنْ أنْ تكون دعوتُكَ وسيلةً لتحقيق هذا الأجر من مَالٍ أو مُلْك أو شهواتٍ من متاع الحياة الدنيا، فبيّن لهم أنّكَ لا تَسْأَلُهُمْ أجراً.

الْمَغْرَمُ: الخسارَة من مالٍ ونحوه ممّا لَهُ قيمةٌ ماليّة، أو يُبْذَلُ للوصول إليه مال.

تقول لغة: غَرِمَ يَغْرَمُ غُرْماً وغَرامةً ومَغْرماً، أي: لزمه بَذْلُ شيءٍ لا يجبُ عليه بَذْله.

مُثْقَلُون: أي: مُحَمَّلُونَ بسبب الْمَغْرَمِ حِمْلاً ثقيلاً لا يُريدون حَمْلَه.

لكنَّ شيئاً منْ هذا التوهُّم غير حاصلٍ في الواقع، فأنْتَ لم تَسْأَلْهُمْ أجْراً.

وقد دلَّنا هذا على أنَّ من العقبات الصّادّاتِ عن الاستجابة لدعوة الداعي إلى الله اتّهامُه بالمصلحة الشخصيَّة، ولِهَذا علَّمَ الله رُسُلَهُ جميعاً أن يقول كلُّ واحدٍ منهم لقومه: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ علىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

الاحْتِمالُ الخامس: دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

لم أجدْ في أقوال المفسرين ما يكشِفُ احتمالاً يُمْكِنُ أَنْ يكونَ تَعِلَّةً يتعلّل به المكذبون، لإسقاطه بِنَفْيِ أَنْ يكُونَ عندَهُمْ عِلْمُ الْغَيْب فَهُمْ يكتُبُونَ مِنْهُ، ويسْتَنِدون إليه في تكذيبهم بالقرآن، الذي جاء بشأنه آنفاً قولُ الله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ . . .﴾.

وبالبحث والتأمُّل ظهر لي أنَّ المكذبين بأنّ القرآنَ تنزيلٌ من ربّ العالَمِين، وَقالَ قائلهم الحلاّفُ المهين بشأنه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كما جاء في الآية (١٥) من السورة.

وادّعَاءُ المكذّبين بأنّ محمّداً ﷺ يَنقُلُ الْقُرْآنَ من أَساطِير الأولين، يَجْعَلُهم مُطالَبين بتقديم الدّليل على هذا الادّعاء.

وسبيل ذلِكَ أنْ يأتُوا بما عندهم من مَكْتُوباتِ الأوّلين إنْ كان عندهم شيءٌ من ذلك، مع إجراء المقارنة بينها وبَيْنَ الآيات المنزّلَةِ من القرآن.

لكنّ آيات القرآن المجيد لا شَبَهَ بَيْنَها وبيْنَ كُتُبِ أَهْل الكتاب، وباكتشاف عدم التَّشابُه يسقُطُ ادّعاؤهم بأدنى مقارنة، فهم لا يَلْجَؤُون إلى مثل هذا الادّعاء، لأنَّ الأدلَّة المادّيّة ذات المتناول القريب ستسقطُهُ بأدنىٰ مقارنة.

بقي أن يقولُوا: إنّ آيات القرآن الّتي يتْلُوها محمّد منقولَةٌ من أساطير الأوّلين الخفيَّة، الّتِي ليسَتْ من كتُب أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويُلْحَقُ بهم منْ لهم شبْهَةُ كتاب كالمجوس والبوذيين.

وإسقاط هذا الادّعاء يكون ببيان أَنّ هذه الأساطير الّتِي يتصوّرونها قد صارت بالنسبة إلى جميع الناس من أُمُورِ الغيب، التي لا يَعْلَمُها إلاَّ مَنْ يعْلَمُ الغيب، فكَيْفَ يُقِيمُ المكذّبون دعوى احتجاجيَّة مستندين فيها إلى غَيْبٍ لا يَعْلَمُونَ منه شيئاً، وتعبيراً عن المطالبة بدليل الادّعاء الذي لا يملكونه بالنسبة إلى هذا الاحتمال قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟!!

هذا الاستفهام هو كالاستفهامات التي سبقته في المناظَرة، استفهامٌ إنكاريٌّ، يفيد أَنّهم لا يملكون عِلْمَ الغيب، فهم لا يكتبون منه شيئاً، وبذلك يسقط هذا الاحتمال الأخير أيضاً.

والمعنى: هل عندهم علم غيب ما مضى من الأمم السالفة، وعِلْمٌ بأساطيرِهم ومكتوباتهم؟!!

لكِنَّ واقع حالهم على خلاف هذا تماماً، إذْ ليس عِنْدهم علم غيب ما مضىٰ من الأمم السالفة وأساطيرهم ومكتوباتهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ولا هم يكْتُبُون حتّىٰ يكون لديهم تراثٌ علميٌّ مُدوَّنٌ في الكتب، والرَّسُول محمّد ﷺ واحدٌ منهم في الأمّيَّة.

فسقط ادّعاؤهم أنّ آيات القرآن الّتي يتْلُوها الرسول ﷺ مأخوذة من أساطير الأوّلين، بل هو نبيٌّ ورسُول اصطفاه الله، وهو الذي يُنَزّلُ عليه آيات القرآن المعجز.

وهكذا تَمّتْ المحاصرةُ الفكريَّةُ، في هٰذِهِ المناظرة القرآنيّة للمكذّبين، من كلّ الجوانب التي يُمْكِنُ أنْ يُقدِّمُوا منها تَعِلَّاتٍ ومعاذير، تَسْتُرُ جُحُودَهم للحقّ الذي جاء به رسُولُ اللَّهِ محمَّدٌ ﷺ.

وانتهىٰ الدرس الثالث من دروس السورة

(٧)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع

الآيات من (٤٨ ـ ٥٠)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ باعتباره قائد أمّته، وأوّلَ المسلمين فيهم، والمقصودُ منه الدعاة من أمّته:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

درس مدنيّ التنزيل:

هذا الدرسُ نجم مدنيّ التنزيل ضُمَّ إلى سورة (القلم) الّتي هي من أوائل التنزيل المكيّ لمراعاة اقتضاءَيْن:

(١) فمناسبته الفكرية والموضوعيّة تستدعي أَنْ يكون في سورة (القلم) لأنّ هذه السورة تحدَّثت عن المكذبين الذين اتّهموا الرّسول بالجنون، وقال الحلاّف المهين الْعُتُلُّ الزنيم منهم عن آيات الله المنزّلة: هذه أساطير الأولين، وهذه أمور مُزعِجَةٌ جدّاً للدَّاعِي تستدعي أن يُؤْمَرَ بالصبر لحكم الله.

(٢) لكِنَّ الله عزّ وجلّ قد وصف رسوله محمّداً في مطلع السورة بقوله خطاباً له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ فأغنَىٰ هذا بما فيه من توجيه ضِمْنِيّ عن أن يأمُرَه بالصَّبرِ صراحةً، على أنّ الرَّسُول ﷺ قد كان مُتحقّقاً يومئذٍ بالصَّبْر المطلوب.

ومرَّت السنين وما زال الرسول ﷺ متحقّقاً بالصَّبرِ لحكم رَبّه على أحْسَنِ وجْه في تطبيقاته.

فما الحكمة من تنزيل هذا النجم بعْدَ تحقيقِ الرسول لمضمونه، ومرور سنين عديدة تزيد على عشر سنين؟

لدى التأمُّل ينكشف للباحث أنّ الحكمة من تنزيله متأخّراً في الْعَهْد المدنيّ، ووضعه في سورة (القلم) الّتي هي من أوائل التنزيل المكي، إرادةُ بيانِ منهاجِ الدّعوة في أوائل مراحلها، وواجباتِ الداعي إلى الله تجاه ما يلاقيه من الذين يرفضون دعوته ولا يستجيبون لَهَا.

فالنصّ مُوَجَّهُ في الخطاب الظاهر للرسول ﷺ الذي كان متحقّقاً بمضمونه قبل أن يخاطَبَ به، لكنَّهُ موجَّهٌ بصِفَةٍ عامَّةٍ لكُلِّ الدُّعَاة إلى اللّهِ من بَعْدِ الرّسول ﷺ ليلتزموا به.

فواجبات الداعي إلى الله الَّتي اشتملت عليها سورة (القلم) والّتي يجب على الدُّعاة إلى الله الالتزامُ بها بعد الرسول ﷺ تستَدْعي أن تشتَمِل على الأمْرِ بالصَّبْر لحكم الله، لكنَّ خُلُقَ الرسول العظيم لم يكن بحاجةٍ لتوجيه مثل هذا الأمْرِ له، أمَّا من سيأتي بَعْدَه من الدُّعاة فإنَّهُمْ لا يملكون في فطرتهم خُلُقاً عظيماً مثْلَ خُلُقه، فهم بحاجة إلى الأمْرِ بالصَّبْرِ لحُكْمِ الله منذ المرحلة الأولى من مراحل دعوتهم إلى الله.

فأنزل اللّهُ عزّ وجلّ هذا النجم في العهد المدنيّ من سيرة الرسول ﷺ، بعد أن حقَّقَ الرسول مضمونه وانتهت المرحلة، لنَعْلَمَ أنَّ هذا النَّصّ مُوَجَّهٌ لكُلّ الدُّعَاة بعد الرسول، فَمِنْ واجباتهم الصَّبْرُ لحكم الله مُنْذُ أوّل مراحل دعوتهم إلى الله، وإلى صراطه المستقيم.

وقد وُضِعَ في المكان المناسب له تماماً، مع النصوص المنزَّلة في أوائل مراحل الدعوة، فتحقَّق بهذا الإجراء الغرضان، وعُلِمَ أنّ خطابَ الرسول فيما لم يكُنْ من خصوصيّاته هُو خطابٌ لأمّتِه.

هذا الأسلوب هو من روائع أساليب الأداء البياني، وخلاصتُه تأخير خطاب الرَّسُولِ بالنصّ الذي يتضمّن تكليفاً، إلى ما بعْدَ تحقيق الرَّسُولِ ﷺ مضمونه دُون تكليف، للإشعار ضِمْناً بأنَّ المقصُودَ خطابُ الدُّعاةِ إلى الله من أمّته.

- ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ...﴾.

قَدْ نفهم من هذه الجملة الأمر بالصبر على كُلّ المكاره الّتي تَمَسُّ الداعيَ إلى الله وهو في طريق دعوته، كالتكذيب بما يَدْعُو الناسَ إليه، والإعراضِ أو الإدْبارِ والتولّي عنه، وكاتِّهَامِهِ بما يسوؤُه حتّىٰ بالجنون، وَكإيذائه وشتيمته والإضرار به، وسَجْنِه وضَرْبِه وغير ذلك.

وَحُكْمُ اللّهِ في تَمْكِين غَيْرِ المستجيبين لمواجهة الدَّاعي إلى سبيل رَبّه يخضَعُ لقوانين القضاء والقدر، وسُنَّةِ اللّهِ العامّة في خلقه.

لكنّ تَعْدِيَةَ فعل الصَّبْرِ قَدْ جَاءَتْ في معظم الآيات القرآنية بحرف «على». مثل: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ـ ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ وهذا هو الأصل في الاستعمال.

فما الحكمة هنا من تعديَة فعل الصَّبْرِ بحرف «اللَّام»؟

بالتأمُّل يتبيَّن لنا أنَّ فعل الصَّبْرِ هنا تَضَمَّنَ معنى التسليم لحكْم الله، وهذا التسليم يُلائمه حَرْفُ اللاّم، والتقدير: فاصْبِرْ مُسْتَسْلِماً لحكْمِ رَبك. وهذا التضمين من أسَاليب القرآن البيانيّة البديعة.

وحين نبحثُ في أحكام الله الدَّعويَّة التكليفية الموجهة للداعي إلى سبيل رَبّه، نجدُ فيها تكليفه أَنْ يَسْتَمِرَّ في تذكيره ولاَ يَتْرُكَه يائساً، مَا دَامَ احتمالُ نَفْع تَذْكيرِه موجوداً، ولَوْ بنسْبَةٍ ضئيلة قليلة، فتَرْكُ التذكير لا يكونُ إلاَّ بَعْدَ التحقُّقِ من كوْنِ المدْعُوّ حَالَةً ميئوساً منها، دلَّ على هذا الحكم قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعلىٰ/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

أي: فعلى الداعي إلى الله أنْ يُتَابِعَ تذكيره بما سبَقَ أن بلَّغهُ ولَوْ كَانَ احْتِمَالُ نَفْعِ تَذْكِيرِه احْتِمالاً ضعيفاً، إذْ جاء في الآية حرف الشرط «إِنْ» الذي يُستَعْمَلُ غالباً في الأَمْرِ المشكوك فيه.

أمّا إذا كان احتمال نفع التذكير ميئوساً منهُ جَزماً، فعلَىٰ الداعي حينئذٍ أَنْ يُوَفِّرَ جُهودَهُ ويُعرِضَ عن الميئوسِ منهم يأساً مقطوعاً بِه، أو يتولَّىٰ عنهم، عملاً بقول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾﴾.

وعملاً بقول الله عزّ وجلّ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن الميئوسِ قَطْعاً من استجابتهم:

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾.

الإِعْرَاضُ أَخَفُّ من التَّوَلي، فالتولّي إنما يكون بالنسبة إلى الحالات الأشَدّ، وهي الحالات الّتي وصل أصحابها إلى مواقف العداء العلني.

وعلى هذا نفهم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ فَاصْبِرْ على مُتَابَعَةِ تَذْكِيرك مَهْما لاقَيْتَ من مزعجات ومؤذياتٍ، مستسلماً لِحُكْمِ رَبِّكَ.

وَبَعْدَ الأمْرِ بالصَبْرِ استسلاماً لِحُكْمِ الرَّبّ، حذَّرَ اللَّهُ عزّ وجلّ الداعيَ إلى سبيل ربّه بأسْلُوب الخطاب الموجَّه للرسول فقال له:

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ . . .﴾.

وهُو يونُسُ بْنُ مَتَّىٰ عليه السَّلام، فَقَدْ بَعثَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إلى أهل نينوىٰ من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فكذَّبُوهُ، وأصَرُّوا على كُفرِهِمْ وعِنَادِهِم، فضاق يُونُسُ بهم ذَرْعاً، فَذَهَبَ عَنهُمْ مُغَاضِباً، بعد أَنْ أَوعَدَهُمْ بحُلُولِ عذاب الله بهم بعد ثلاث، وكان انصرافُهُ عَنهُمْ بغَيْرِ إِذْنٍ من الله.

فلمَّا غادرهم، وَجَاءتْهُمْ نُذُرُ العذاب خافُوا، فتابوا إلى الله، وَنَدِمُوا على ما كان منهم تُجاه الرَّسُول الذي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إليهم.

واجتمعوا بعد أَنْ فَرَّقُوا بيْنَ كُلِّ بهيمة وولَدِها، وَجأَرُوا إِلَىٰ اللَّهِ عزّ وجلّ باكِينَ متضرِّعينَ، ليَصْرِفَ اللَّهُ عنْهُمُ العذاب، فَتَاب الله عليهم، وصَرَفَ عنهُمُ العذاب.

أمَّا يُونُسَ عليه السلام فإنَّهُ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً كانَ يظُنُّ أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لَنْ يُضَيِّقَ عليه في المحاسبة، إذا انْصَرَفَ عن قَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يتلَقَّىٰ الإِذْنَ من اللَّهِ بهذا الانْصِرافِ.

وَكان في طريقه إلى أهْلِه بَحْرٌ، وكانَ لا بُدَّ لَهُ من أن يَرْكَبَ فُلْكاً إليهم، فركَبَ فُلْكاً مَعَ قَوْمٍ كعادَةِ المسافرين في البحر، فلَجَّ البحْرُ بهم واضطربَ وَماجَ، وثَقُلَ بِمَنْ فيه، حتَّىٰ كادُوا يَغْرَقُون، وَلم يَجِدُوا وَسيلَةً إلاَّ أن يُخَفِّفُوا عن الفُلْكِ بإلقاء أحدهم في الماء.

فاقترعوا فوقَعَتِ القرعةُ على يُونُسَ عليه السلام في ثلاث محاولات، فقذف بنفسه في البحر فالتقمه حُوتٌ أوحَىٰ اللَّهُ إليه أَنْ يلتقِمه، فنادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَحَمَلَهُ الحوتُ في فَمِه سَجيناً، وسارَ به بأمر الله إلى الشاطئ، ولمّا بلغ الشاطئ لفظه، وَنَبَذَهُ بالعراء وهو سقيم.

قال تعالى في هذا الدرس: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

مَكْظُومٌ: أي: مَحْبُوسٌ في فَم الحوتِ لاَ يَسْتطيع الخروج منه، وقَدْ يَكُونُ مُغْتَاظاً من نَفْسِه إذْ تَرَكَ قَوْمَهُ دون إذنٍ من رَبّه. يُقَالُ لغة: كَظَمَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ، إذا حَبَسَهُ في صَدْرِه، فمعنىٰ الكظْمِ الحبْسُ.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي: لَوْلاَ أَنْ لَحِقَتْهُ نِعْمَةٌ مِنْ ربِّهِ، فأدْرَكَتْهُ بالإنقاذ قبْلَ أَنْ يَهْلِكَ في فم الحوت.

جاء فعل «تداركَهُ» دون تاء التأنيث، لأنّ لفظ «نِعْمَةٌ» مجازيُّ التَّأْنِيث، يجوز معه تذكير الفعل وتأنيثه، يضاف إلى هذا مُلَاحظة أنّ المتدارِكَ هو الرَّبُّ، والنعمةَ مِنْهُ فيضٌ من عطائه.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾.

النَّبْذُ: الطَّرْحُ باحْتِقَارٍ وإهانةٍ وعَدَمِ اكْتِرَاث.

الْعَراءُ: الفضاء في أرْضٍ لا نَبَات فيها وَلاَ بِناء.

وهُوَ مَذْمُومٌ: أي: لأنّه خَرَجَ هاجراً قَوْمَهُ مُغاضِباً لهم دُونَ أَنْ يأذن الله له بذلك، فقومُهُ لم يَصِلُوا إلى حالةٍ ميئوسٍ منها قطعاً، بدليل أنّهم لما رأَوْا نُذُرَ العذاب خَافُوا وتابوا إلى بارئهم، وسَعَوْا في طلب رسولهم.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: فَعَقِبَ هٰذِهِ المصيبة التَّأْدِيبِيَّةِ، تَابَ يُونُسُ عليه السّلام، إلى رَبِّهِ تَوْبَةً عظيمةً، فتابَ اللَّهُ عليه، فاجْتَبَاهُ، أيْ: فاختاره واصطفاهُ، وجَعَلَهُ ضِمْنَ عباده الصالحين، إذْ وصَلَ بتوبته وصلاحه إلى هذه المرتبة الّتي يَحْتَلُّهَا الأنبياء والمرسلون، **الصّالح**: الخالي من الفساد، **والصالح من عباد الله**: الكاملُ في عُبُوديَّتِهِ لربّه.

وفي عرض هٰذه القصة تحذيرٌ لحَمَلَةِ رسالة الدعوة إلى اللَّهِ المؤهّلين لها، منْ تركِ وظائفِ رسالتهم إذا وَجَدُوا المدعوّين غير مستجيبين لدعوتهم، لكن لم تصل أحوالهم إلى دَرَكة يحْسُنُ معها الإعراض أو التولّي عنهم.

وانتهىٰ الدرس الرابع من دُروس السورة

* * *

(٨)

التدبُّر التحليلي للدرس الخامس

الآيتان الأخيرتان من السورة (٥١ ـ ٥٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

● قرأ نافع، وأبو جَعْفَر: (لَيَزْلِقُونَكَ) بِفَتْحِ الياء، من فعل «**زَلَقَ فُلَانٌ فُلاناً يَزْلِقُهُ زَلْقاً**» أي: أَبْعَدَهُ وَنَحَّاهُ وَجَعَلَهُ يزِلُّ عن مكانه.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضمّ الياء من فعل: «أَزْلَقَهُ يُزْلِقُهُ إزلاَقاً».

والمعنى في القراءتين واحد، والقراءتان وجهان عربيّان لهذا الفعل.

تمهيد:

هذا الدرس موصولٌ بالدَّرْسِ الأوّل من دروس السورة، إِذْ جاء فيه أنّ مكذّبي الرسول ﷺ من كبراء مشركي مكّةَ اتَّهَمُوهُ بالجنون، لمّا دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم ما كان قَدْ نَزل عليه من القرآن المجيد، وأنّ عُتُلَّهم الزنيم قال بشأن القرآن: أساطير الأولين.

وموصول أيضاً بالدرس الرابع من دروس السّورة، إِذْ جاء فيه قولُ الله عزّ وجلّ بشأن المكذبين بالْقُرْآن: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

فجاء الدَّرْس الأخير ليكْشِفَ مَبْلَغَ إعجاب المكذّبين بالقرآن إلى حَدِّ الدَّهْشَةِ المثيرة للحسد العنيف، الذي يجعل بصَرَ الحاسد يَزْلِقُ المَحْسُود عن موقفه الذي هو فيه يتحدَّث، من فرط إعجابه بحديثه، وبيانِه المعجز لأساطين البيان.

ومع هذا الإعجاب الشديد منهم بما يَتْلُو عليهم من آياتِ القرآن يقولون عن الرسول ﷺ: إنَّهُ لمجنون.

وهذا منهم تَنَاقضٌ واضِحٌ فاضح، كيْفَ يَحْسُدُونه حسداً شديداً إعجاباً بما يَتْلُو عليهم، ويَتّهمونه مع ذلك بالجنون، إنّ المجنون لا يَحْسُدُهُ العاقِلُون.

إنَّهُمْ مُتَنَاقُضُونَ بَيْنَ حَالِهم ومقالِهم.

وقد جاء الخطابُ في هذا الدّرْس مُوَجَّهاً من اللّهِ لرَسُوله تَسْلِيَةً وَتَطْمِيناً لنفسه وقَلْبِه، بأنّ مُتَّهِميهِ بالجنون غير مصدّقين لأنفسهم في هذا الاتّهام، بَلْ يُطْلِقُونه إطلاقاً كيديًا، لصَدِّ جماهيرهم عن الإيمان بالرَّسُولِ واتّباعه، إِذَا أَدْرَكُوا منْ عظمة آيات التنزيل مِثْلَ ما أدْرَكَ قادتهم.

وهو في الوقت نفسه يبيّن لأصحاب المقالة بأسلوب غير مباشرٍ أَنَّهُمْ مكْشُوفُون، وأنَّ مكيدتَهُمْ ساقطةٌ غَيْرُ مقبولة لدى عقلاء الناس.

﴿وَإِن يَكَادُ﴾: «إِنْ» مخفَّفَةٌ من الثقيلة «إِنَّ» فهي مؤكَّدَة للجملة، والدليل على أنَّها المخففة من الثقيلة وجود اللام المزحلقة في الجملة، وهي في الأصل «لام» الابتداء التي يُؤْتَىٰ بها للتوكيد، و «إنْ» هنا مهملة عن العمل، وتُفِيد التأكيد.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: هُمُ المكذبُون أَنْفُسُهم الذين تَحدَّثَتِ السُورة عنهم، وجاء الحديث عنهم هنا بعنوان «الذين كَفَرُوا» للدّلالَةِ على أنَّ المكذِّبينَ بالرَّسُولِ والقرآنِ كافرون، وللدّلالَةِ على أَنَّ تكذيبهم مقرونٌ بسَتْرِهم الأدلَّة البرهانية القائمة في عُقُولهم على أنّ محمّداً رسول الله حقّاً، وعلى أنَّ القرآن كلامٌ مُنَزَّلٌ من رَبِّ العالمين، إذا أصْلُ الكُفرِ في اللُّغَةِ السَّتْرُ.

﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾: أي: لَيَجْعَلُونَكَ تَزِلُّ وتسقُط عن مَوْقِفِكَ انزلاقاً، كما يَنْزَلِقُ من داسَ على دُهْنٍ أوْ طِينٍ زَلِقٍ.

﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾: أي: بما تُطْلِقُه أَبْصَارُهُم من قُوَّةٍ خَفِيَّة ذات أَثَرٍ في

الماديّات والمعنويات، وهٰذِه القُوَّةُ تُطلِقُها الأَنفُسُ الحسُودَة، ولكِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ وقَىٰ رسُولَهُ من تأثير أبصار حاسديه.

﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكۡرَ﴾: أي: حينَ سَمِعُوا شيئاً من آيات القرآن المجيد، سمَّىٰ اللَّهُ القرآن ذِكْراً لأنّ المطلوبَ من الناس بالنسبة إليه أن يتبلَّغُوهُ ويَتَدَبّروا معانيه، ويجعَلُوها في ذاكراتهم للعمل بما جاء فيها.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ﴾: أي: يَحْسُدُونَ الرسُولَ حسداً شديداً في حال تَدَاوُلِهِمْ بتكرارِ مقالةَ: إنَّهُ لمجنون، وهذا تناقضٌ منهم ظاهر.

ولمَّا كان القرآنُ يَحْمِلُ تأثيراً عالميًا على كُلِّ الناسِ، وقَدْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ للناسِ أجمعين، بخصائص تُؤَثِّر على كلّ الشعوب والأقوام، ولا يَقْتَصِر تأثيرُهُ على أهل مكّة وما حولها، ولا على العرب الذين نزل بلسانهم، وأنَّهُ مؤهَّلٌ لأَنْ يُؤْمِنَ به من كلِّ الشعوب والأقوام العقلاءُ المنصفون، كان من الحكمة إشعار المكذبين به من كُبَراء مَكَّةَ أنَّهُ ذِكْرٌ لجميع العالَمِين، ولَئِنْ كفَرَ به هؤلاء فسَيُؤْمِنُ به آخرون من كُلِّ شعوب الأرض، فأَمْرُ الإيمان به لَيْسَ متوقفاً على هذه الحَفْنَةِ من الناس التي كفرَتْ به من كبراءِ مكّة.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

فَمَعَ ما في هذا من بيان حقيقة عموم الرسالة المحمّديّة، وأنَّه مُرْسَلٌ للناس أجمعين، ففيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ الذين كَفَرُوا بالقرآن مِنْ أهْلِ مكَّةَ قليلونَ جدًّا، بالنسبة إلى الذين سَيُؤْمِنُونَ به، متّىٰ أدْرَكُوا إعْجَازَه وعظَمَةَ ما اشتمل عليه من علم وهداية.

تأثيرُ الإصابة بالعين:

(١) دلَّ قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس الأخير من دروس السورة خطاباً للرسول ﷺ:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ . . .﴾.

على أنّ الإصابة بالعين حقٌّ، وأنّ لها تأثيراتٍ على الأجساد والنفوس، وقد جاء في كلام الرسول ﷺ ما يُثْبِت تأثير الإصابة بالعين، باعتبارها مِثْلَ الأمور السببيَّة التي جعلها اللّٰهُ في كونه ذَوات تأثيراتٍ ضِمْن قضاءِ الله وقدره وَإِذْنِه وتمكينه، وفيما يلي ذِكْر طائفة منها:

(١) روى الإمام مسلم والإمام أحمد عن ابن عباسٍ رَضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال:

«الْعَيْنُ حَقٌّ، ولَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقٌ الْقَدَرَ سبَقَتْه الْعَيْنُ، وإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا».

أي: إذا طُلِبَ من الْعَائن أن يَغْسِل أطرافه ليؤخذ الماء ويُصَبّ منه على المصاب بالعين لزمه أن يفعل.

(٢) وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال:

«الْعَيْنُ حَقٌّ».

أي: الإصابة بالعين من الأمور السببيَّة الّتي جعَلَها اللّٰهُ حقًّا واقعاً في الكون.

(٣) وروى ابن عديٍّ في الكامل وأبو نعيم في الحلْيَة عن جابر رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال:

«الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وتُدْخِلُ الْجَمَل الْقِدْرَ». [«حديث حسن» عن صحيح الجامع الصغير وزيادته].

(٤) وثبت أنَّ جِبْرِيل عليه السّلام كان يَرْقِي رسولَ الله ﷺ بأن يشفيه الله من شرِّ حاسدٍ إذا حسَدَ، ومن شرِّ كُلِّ ذي عيْنٍ.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان إذا اشْتَكَىٰ رسُولُ الله ﷺ رَقاه جِبْرِيلُ، قال:

«بِاسْمِ الله يُبْرِيكَ، ومِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، ومِنْ شرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَد، وشرِّ كُلِّ ذي عَيْن».

وروى مُسْلِمٌ عن أبي سعيد الخدري أنّ جبريلَ أَتَىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا مُحمَّدُ اشتَكَيْتَ؟ فقال: «نَعَمْ» قال:

«بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كلِّ شيءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ يَشْفِيكَ، باسْمِ الله أرْقِيكَ».

(٥) وثبت في الأدعية النبويَّة قول الرسول ﷺ:

«أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ».

وكان الرسول ﷺ يُعَوِّذُ بهذا الدُّعَاءِ الحسَنَ والحسين.

(٦) وروى الإمام أحمد والترمذيُّ وابْنُ ماجه بإسنادٍ صحيح عَنْ أسماءَ بنتِ عُمَيس، قالت: يا رسُولَ الله، إنَّ وُلْدَ جَعْفَرَ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ الْعَيْنُ، أَفأَسْتَرْقي لهم؟ قال:

«نَعَمْ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ».

(٧) وروى البخاريُّ ومُسْلمٌ عن عائشة قالت: «أَمَرَ النبيّ ﷺ أَنْ نَسْتَرْقِيَ من الْعَيْن».

(٨) وروى البخاري ومسلم عن أمّ سلمة أنّ النبيّ ﷺ رأىٰ في بيتها جاريةً في وَجْهِها سُعْفَةٌ «أي: صُفْرَة» فقال:

«اسْتَرْقُوا لَهَا فَإنَّ بِهَا النَّظْرَةَ».

(٩) وروى الترمذيُّ وابْنُ ماجه، بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدريّ قال: «كان رسول الله ﷺ يَتعوَّذُ مِنَ الْجَانّ وعَيْنِ الإنْسَانِ، حَتَّىٰ نَزَلَتِ المعوِّذَتَان، فلما نزلَتْ أَخَذَ بهما وتَرَكَ مَا سِوَاهما».

(١٠) وعن أبي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْف، قال: رَأَىٰ عامِرُ بْنُ رَبيعةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْف يغتسل، فقال: وَاللَّهِ ما رَأَيْتُ كالْيَوْمِ، وَلاَ جِلْدَ فَتَاةٍ مُخَبَّأَةٍ(١)، قالَ: فَتَلَبَّطَ سَهْلٌ، فأُتِي رسُولُ اللَّهِ ﷺ فقيل له: يا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ؟ واللَّهِ ما يَرْفَعُ رَأْسَهُ، فقال:

«وَهَلْ تَتَّهِمُونَ لَهُ أَحَداً؟».

قالوا: نَتَّهِمُ عَامِرَ بْنَ رَبيعَة، قال: فَدَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَتَغَلَّظَ عَلَيْهِ، وقال:

«عَلاَمَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخاهُ، هَلاَّ بَرَّكْتَ(٢)؟ اغْتَسِلْ لَهُ».

فَغَسَلَ عامِرٌ لَهُ وجْهَهُ، ويَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ، ورُكْبَتَهُ، وأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إزارِهِ في قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهِ، فراح مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ».

رواه في شرح السُّنة، ورواه مالِكٌ، وفي روايته قال:

«إنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَوَضَّأْ لَهُ».

وشواهد الإصابة بالعين في واقع الناس كثيرةٌ جدًا، في كلِّ أمَّة، نعوذ بالله من شرورها، ومن شرّ كلِّ ذي شرّ.

وبهذا انتهىٰ تدبر سورة (القلم) على ما فتح الله به
فله الحمد كلّه، إنَّه الوهاب والملْهِم للصواب

* * *

---

(١) **مخبّأه**: أي: مُخبأة في خِدْرِها.

(٢) أي: هلاَّ دَعَوْت له بالبركة.

سُورة الفاتِحة

وتسمّى «أم القرآن»

و«السّبع المثاني» و«القرآن العظيم»

١ مصحف ٥ نزول

(١)

سورة فاتحة الكتاب

مقدمة حول تسميتها

- روىٰ الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنَّهُ قال لأمّ القرآن «أي: الفاتحة»:

«هي أُمُّ الْقُرآن، وهي السَّبْعُ المثاني، وهي الْقُرْآنُ العظيم».

- وروىٰ البيهقيّ في شُعَب الإيمان عن أنس، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إِنّ الله أعْطَانِي فِيما مَنَّ به عليّ فَاتِحَةَ الكِتاب، وقال: هي مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي».

- وروى ابن جرير الطبريّ في تفسيره عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال:

«هِيَ أُمُّ الْقُرآنِ، وَهِيَ فَاتِحَةُ الكِتاب، وهِيَ السَّبْعُ الْمَثانِي».

وروى الطبرانيُّ نَحْوَ هذا في حديثٍ قال عنه: «رجالُهُ كلُّهم ثقات».

- وروى البيهقي عن عليٍّ وابن عبَّاسٍ وأبي هريرة أَنَّهُمْ فَسَّرُوا قول الله تعالَىٰ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ بالفاتحة.

سُمِّيت بالفاتحة، لأنّ القراءة تفتتح بها، ولهذا افتتح الصحابة بها كتابة المصحف الإمام.

وسُمِّيت بأم القرآن لاشتمالها على أهمّ موضوعات القرآن.

وسُمّيت بالسبع المثاني، لأنّها سبْعُ آياتٍ تُكَرَّرُ في الصلاة فتُقْرأ في كلّ ركعة، وكلُّ ما يكرّر على نظام واحد يطلق عليه في العربية لفظ مثاني، ولأنّ بين جُمَلِها مطويات من المعاني تُفْهَم باللّزوم الذهنيّ، وجاء بيانها التفصيلي في سائر سور القرآن.

المثاني: جَمْعٌ مفرده «مَثْنَاة» وهو من الثَّني، وهو ردُّ الشيء بعْضِه على بعض.

وقد نزلت هذه السورة في أوائل العهد المكيّ، وهي السورة الخامسة بحسب ترتيب النزول، كما هو مُدَوّنٌ لدى علماءِ عُلُومِ القرآن، وهو المرجّح لدى العلماء بروايات التنزيل.

وزعم بعْضُ أهْلِ العلم أنّها أوّل سُورةٍ أنزلَتْ، على اعتبار أنّها أمُّ القرآن، والجامعةُ لأمّهَاتِ أغراضه، وهذا منه تحكيمٌ للرأي فيما لا مجال للرأي فيه(١).

* * *

---

(١) راجع كلام الشيخ الصادق عرجون في سيرته ردّاً على الشيخ محمّد عبْدُه المصري.

(٢)

نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات

سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ
(٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)

---

٤ - **[مَالِك]** عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلفٌ في اختياره.
[مَلِك] باقي القراء العشرة.

٦ - قرأ «السّراط» بالسين: قنبل، ورويس.
وقرأ باشمام الصاد زاياً فتنطق كما ينطق العوامّ الظاء: خلف عن حمزة حيث وقع، وخلاد في هذا الموضع فقط.
وقرأ «الصراط» بالصاد باقي القراء العشرة.

٧ - «سِرَاط» بالسين: قنبل، ورويس.
وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد زاياً.
وقرأ «صِراطَ» بالصاد باقي القراء العشرة.

● وقرأ بضم هاء الضمير في «عَلَيْهُمْ» في الموضعين حمزة، ويعقوب.
وقرأ باقي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء.

(٣)

ممّا جاء في السنة بشأن فضائل سورة الفاتحة

جاء في السنة في فضل هذه السورة العظيمة أحاديث نبوية، منها الصحيح، ومنها الحسن، ومنها الضعيف، وأنتقي منها طائفةً، مستبعداً ما لا يقوى على الاستشهاد به.

(١) روى البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلّىٰ أنّ رسول الله ﷺ قال له:

«لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ».

قال فأخذ بيدي، فلَمَّا أراد أن يخرُج من المسجد قلتُ: يا رسول الله، إنَّكَ قُلْتَ: لأُعَلِّمنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ في القرآن، قال:

«نَعَمْ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، والْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الّذِي أُوتِيتُهُ».

(٢) وروى أحمد والترمذيُّ (وصَحَّحه) من حديث أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ، أنّ النبيّ ﷺ قال له:

«أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ في التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟».

ثُمّ أخبرَهُ أنّها الفاتحة.

(٣) وروى الإمام أحمد في مسنده والنسائيُّ من حديث عبد الله بن جابرٍ أن رسول الله ﷺ قال له:

«أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَخْيَرِ سُورَةٍ في القرآن؟».

قلت: بَلَىٰ يا رَسُولَ الله، قال:

«اقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ حتّىٰ تختِمَها».

(٤) وروى البخاريّ ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري قال: انطَلَق نَفَرٌ من أصحاب النبيّ ﷺ في سفْرَةٍ سافروها، حتّىٰ نَزلُوا علىٰ حَيٍّ مِنْ أَحْياءِ العرَب، فاسْتَضَافوهم، فأبَوْا أَنْ يُضيِّفُوهم، فَلُدِغَ سَيِّد ذلِكَ الحيِّ، فسَعَوْا لَهُ بكلّ شَيْءٍ، لا ينْفَعُهُ شيء.

فقال بعضُهم: لو أَتَيْتُمْ هؤلاءِ الرَّهْطَ الّذين نزلُوا، لعلَّهُمْ أنْ يكون عنْدَ بعْضِهم شيءٌ، فأتَوْهُمْ فقالُوا: يا أيُّها الرَّهْطُ، إنَّ سيِّدنا لُدِغَ، وسَعَيْنا لَهُ بكلِّ شيءٍ، لا ينفعُهُ شَيءٌ، فهَلْ عنْدَ أحَدٍ منْكُمْ مِنْ شيءٍ؟

فقال بعضُهُمْ: نعَمْ، واللَّهِ إنّي لأرْقِي، ولكِنِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فلَمْ تُضَيِّفُونَا، فما أَنَا بِرَاقٍ حتَّىٰ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً.

فَصَالَحُوهم على قَطِيعٍ من الغنم، فانْطَلَق يتْفُلُ عليه ويقْرَأُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾⁽¹⁾ فَكَأَنَّما أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فانْطَلَق يمْشِي ومَا بِهِ قَلَبَةٌ⁽²⁾.

قال: فأوفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الّذِي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتَسِمُوا، فقال الذي رقَىٰ: لا تفعلوا حتَّىٰ نأتِي رسول الله ﷺ فنذكُرَ له الّذي كان، فننظرَ ما يأمُرُنا، فقدِموا على رسول الله ﷺ فذكَرُوا له ذلك، فقال:

«وما يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!» ثم قال: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا وَاضْرِبُوا لي مَعَكُمْ سَهْماً».

وقد أخرج هذا الحديث أيضاً الإمام أحمد والترمذيُّ وابن ماجه.

---

(١) أي سورة الفاتحة.

(٢) **ما به قَلَبَة**: أي: ما به ألم ولا علّة ولا داء، **القَلَبَةُ**: الإصابة بالقُلاب، وهو داء يأخذ في القلْب.

(٥) وروى مُسْلمٌ في صحيحه، والنَّسَائيّ في سُنَنه، من حديث ابن عبّاس قال: بَيْنا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذْ سَمِعَ نَقِيضاً[1] فوقه، فرفع جبريل بصَرَهُ إلى السماء فقال: هذا بابٌ قد فُتِحَ من السَّماء ما فُتِحَ قَطُّ، قال: فنزَلَ منْهُ مَلَكٌ، فأتَى النبيّ ﷺ فقال: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيتَهُما لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةَ الْكِتَاب، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ «البقرَة» لَنْ تَقْرَأَ حَرْفاً مِنْهُمَا إلاّ أُوتِيتَهُ».

(٦) ومن فضائل هذه السورة أنّها تُقْرأ لُزوماً في الصلاة، فقد روى مسلم والنسائيُّ والترمذيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّىٰ صَلاَةً لَمْ يَقْرأْ فِيهَا بِأُمّ الْقِرآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، غَيْرُ تَمَامٍ».

(٧) وروى البخاري ومُسْلِمٌ عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ».

(٨) وروى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«قالَ اللّهُ تعالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبين عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإذا قال الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال اللّهُ: حَمِدَني عَبْدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قال الله تعالى: أثنىٰ عَليَّ عَبْدِي، وَإِذَا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قالَ: مجَّدَني عَبْدِي ـ وفي رِوايَة ـ: فَوَّضَ إليَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦

---

(١) **نقيضاً**: أي: صوتاً، يقال: نقيضُ الفراريج: أي صوتها، ونقيض المفاصل، ونقيض الأصابع.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: هٰذَا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

(٩) وروىٰ الدارميّ والبيهقيُّ في شعب الإيمان بسند رجاله ثقاتٌ، عن عبد الملك بن عُمَير، قال: قال رسول الله ﷺ في فاتحة الكتاب:

«شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ».

(١٠) وروىٰ الإمام أحمد، وأبو داود، والنّسائي، وابْنُ السُّنِّي في عمل اليوم واللّيلة، وابْنُ جرير، والحاكم وصحّحه، عن خارِجَةَ بن الصَّلْت التّمِيميّ عن عَمّه، أَنَّهُ أتىٰ رسولَ الله ﷺ، ثَمّ أقبل راجعاً من عنده، فمَرَّ علىٰ قَوْمٍ وعندهم رجُلٌ مجنونٌ مُوَثَّقٌ بالحديد، فقال أهله: أعندكَ ما تُداوي به هذا؟ فإنّ صاحبكم جاء بخَيْرٍ، (يَعْنُون رسولَ الله ﷺ).

قال: فقرأْتُ علَيْه فاتحة الكتاب ثلاثةَ أيّام في كلّ يوم مرّتين غُدْوَةً وعَشِيَّةً، أَجْمَعُ بُزَاقِي، ثُمّ أَتْفُلُ، فبرأ، فَأعطاني مِئَةَ شَاةٍ، فأَتَيْتُ النبيَّ ﷺ، فذكرتُ ذلك له، فقال:

«كُلْ، فَمَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةِ بَاطِلٍ فَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةِ حَقٍّ».

* * *

(٤)

موضوع سورة الفاتحة

هذه السورة القصيرة العظيمة سورةٌ مؤلّفةٌ من دَرْسٍ واحدٍ، جامع لكليّاتٍ كبرى، هي بمثابة عنواناتٍ عامّاتٍ للدّين الّذي اصطفاه الله لعباده الّذين خلقهم ليبلُوَهم في ظروف الحياة الدنيا، ولتاريخهم تُجاهه منذ نشأتهم إلى أن تقوم الساعة، وهي العنوانات التاليات:

العنوان الأول: المبادئ الإيمانيّة الّتي يجب أن يؤمن بها الذين

خلقهم الله عزّ وجلّ ليبلُوهم في رِحلة الحياة الدنيا وظروفها، وقد دلّ عليها صراحةً وضمناً باللُّزوم الذهني ومقتضياته، قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

العنوان الثاني: مطلوبُ اللَّهِ مِنْ عباده الذين وضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وقد دلّ عليه صراحةً وضِمْناً باللّزوم الذهني ومقتضياتِهِ، قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

العنوان الثالث: الدّين الذي اصطفاه الله لعباده الذين وضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدّنيا، وجعله الصراط المستقيم لمن شاء أن يسلكه بغية الفلاح والفوز يومَ الدّين، يومَ الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، وقد دلَّ عليه صراحةً وضمناً باللُّزوم الذّهنيّ ومقتضياته قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

العنوان الرابع: تاريخ الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا منذ نشأتهم الأولىٰ، وإلى أن تقوم الساعة، تجاه مطلوب الله عزّ وجلّ منهم في رحلة امتحانهم، وقد دلّ عليه صراحةً وضمناً باللُّزوم الذّهنيّ ومقتضياته قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وهذه العنوانات قد جاء تفصيلها الوافي مع لواحق هذا التفصيل الاستدلاليّة والجداليّة والتربويّة العقلية والنفسيّة وغيرها في سائر سور

القرآن، ومع التنويع والتصريف في الحجج والبراهين والترغيب والترهيب وضرب الأمثال، لمحاصرة النفس الإنسانيّة من كلِّ جوانبها، حتّىٰ لا يبقىٰ عُذْرٌ لمعتذرٍ عن عدم استجابته لما دعا إليه هذا الكتاب المجيد، من إيمان وعَمَلٍ وَفْقَ تعليماتِ صراط الله المستقيم.

وفي هذه السورة العظيمة يُعَلِّمُنَا ربُنَا جلّ جلاله كيْفَ نُكَرِّر في صلواتنا وفي أذكارنا وفي رُقَانا الكلّيات الكبْرَىٰ للدّين الذي اصطفاه لنا، ولتاريخ الناس تجاهه، وهي الكليّات الّتي جاء تفصيلها في سائر سُور القرآن المجيد، ولهذا سمّيت «أمّ القرآن».

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للسورة

أوّلاً: تدبّر ما تحت العنوان الأوّل من الكليّات الكبرىٰ للسورة:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ① ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ④﴾:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

الحمْدُ: هو التحدّث على وجه التمجيد بصفات المحمود الجميلة، وهو مرادف لكلمة «الثناء».

وتعريف بعض أهل العلم له: «بأنّه الثناء باللّسان على الجميل الاختياري» تعريف قاصر، لأنّ صفات الله الذاتية الأزليّة تُحْمَد، مع أنّها ليست من أفعاله الاختيارية، ولأن القلب والنفس قد يتحدّثان بالحمد ولو لم يتحرّك اللّسان بعبارة الحمد.

و «أل» في كلمة «الحمد» هنا استغراقيّة تَعُمُّ كلّ أجناس الحمد وأنواعه وأصنافه وأفراده.

والحمدُ لله يتناول تمجيده بصفاته الوجودية التي هي من ذاته، وبصفات أفعاله، فيشمل الثناء على الله عزّ وجلّ بكل صفاته وأسمائه الْحُسْنَىٰ ما علمنا منها وما لم نعلم.

ويتناول أيضاً تنزُّهَهُ جلّ وعلا عن كلِّ الصفات التي لا تليق بجلاله ما علمنا منها وما لم نعلم، فلَهُ الْحَمْدُ لبراءته منها وتنزُّهه عنها.

لِلَّه: اللاّم الجارّة هنا هي بمعنى المِلْك أو الاختصاص. وكلمة (الله) علَمٌ في اللّسان العربيّ على خالق الكون الأزليّ الأبديّ الذي لا أوّل له ولا آخر، فَهُو الأوَّلُ والآخِرُ.

و ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مبتدأ، و (لِلَّهِ) خبر، ونقول بحسب الصناعة النحويّة: جارٌّ ومجرور متعلقان بمحذوف هو الخبر.

فمعنى عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلُّ الحمد ما نستطيع تصوُّرَهُ وما لا نستطيع تصوُّره على صفات ذات الله وصفات أفعاله، وعلى براءة الله من كلّ الصفات الّتي لا تليق بجلاله هو لله ملكاً أو اختصاصاً.

ويلزم من كون كل الحمد لله تفرُّدُه بهذا الحمد، فلا يشاركُه في كمال الحمد شيْءٌ في الوجود، وهذا يتضمّن الإعلان عن توحيد الله في ذاته وفي صفاته وأسمائه الحسنىٰ.

بهذه الجملة القصيرة يعلّمنا الله كيف نحمده تعالى ونُثْنِي عليه جلّ جلاله، فنحن بوصفنا بشراً محدودي المدارك، لا نستطيع أن ندرك من كمالات الله إلاّ على مقدارنا، إذن فنحن لا نستطيع أن نُحْصِيَ الثناء عليه بما هو له أهل على وجه التفصيل، لكن نستطيع أنْ نقول: كلّ الحمد الذي يمكن أن يُحْمَدَ به الله هو له وحده لا يشاركه فيه أحد، ولدى اختصار هذه العبارة إلى أقل الكلمات الدّالاّت عليها نقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

ولهذا جاء في دعاء الرسول ﷺ على ما رواه مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذِ بِكَ مِنكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنتَ، كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ».

فالْحَمْدُ كُلُّهُ هو مِلْكُ الله، وهو حقُّه، لأنّه هو وحده الذي له كلّ صفات الكمال، وهو وحْدَه المنزّه عن كلّ صفات النقصَان، وكلُّ ما سَوَىٰ الله عزّ وجلّ لَيْسَ له من صفاتِ كمالٍ يُثْنَىٰ عليه بها، إلاّ مَا وهَبَه الله تعالى، بالخلْقِ، أو بالإمداد، أو بالمعونة، أو بالتوفيق، وبما أنّه هو المانح لكلّ ما يستحقّ حمداً ما، فكلُّ المحامد ترجع إليه، لذا فالْحَمْدُ كلُّه له عزّ وجلّ دون استثناء.

وقد يُطْلَق الحمْدُ على الشكر الذي هو المكافأة على الجميل بالجميل، لأنّ من يُثْنِي على من تفضّل عليه بمنَّةٍ ما فإنّه يحاول على قَدْرِه أن يشكُرَهُ على مِنَّتِهِ بتقديم الثناء، وإنْ كان الأصل في الشكر المكافأة على المنّة بنظيرها أو بما يعادلها، فالشكر على العمل يكون بالعمل أو بما يُعادِلُه، والشكر على المال يكون بالمال أو بما يعادله، وهكذا. وشكر الله على نعمه يكون باستخدام ما وهبنا في مراضيه وفي طاعته، وقد يُلْحقُ بذلك الثناء بالجميل، لأنّ الله عزّ وجلّ غنيٌّ بذاته وبصفاته عن كلّ شيء، وشكْرُ عباده له يعودُ نفْعُه إليهم، مع ما يُصِيبُ غير الشاكر من عباد الله من نَفْعٍ، إذا كان شُكْرُ الله موجّهاً بتوجيه الله لهم، كالصَّدَقة على الفقراء والمساكين، وكمعاونة ذوي الحاجات، وقد جاء في كلام الرسول ﷺ عن ابن عُمر:

«أَحَبُّ النَّاسِ إِلَىٰ اللَّهِ أَنفَعُهُمْ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَىٰ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْناً، أو تَطْرُدُ عَنْهُ جوعاً،

وَلأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ شَهْراً. . .».

فأنْفَعُ الْخَلْقِ إلَىٰ عِبَاد الله أكْثَرُ النَّاسِ شكراً لِلَّهِ على ما امْتَنَّ الله به عليه.

ويلزم من إثبات كلّ الحمد لله تَوْحِيدُ الله في أزليّته وفي أَبَدِيَّتِه، وفي ذاته وصفاته وأسمائه الحسنىٰ، وهذا هو المبدأ الأعظم لكلّ أركان الإيمان، وهو يتضمّن أنّه ربُّ كُلِّ شيءٍ سِوَاه.

- ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

كلمة «رَبٌّ» هي في الأصل مصدر فعل «رَبَّ». يقالُ لُغَةً: رَبَّ فلانٌ الولَدَ أو الصبيَّ أو الْمُهْرَ مثلاً يَرُبُّه رَبًّا. كما يقالُ: رَبَّاهُ يُرَبِّيهِ تَرْبِيَةً. وكما يقال: رَبَّبَهُ يُرَبِّبُهُ تَرْبِيباً.

فكلمات: «الرّبّ ـ والتَّربية ـ والتربيب» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِها ومعناها واحد، وهو الإنشاء المتدرّج للشيْءِ حيًّا كان أم غير ذي حياة، وتعهُّدُ الشيءِ حالاً فحالاً، وطَوْراً فطَوْراً، بحسب فطرته واستعداداته، فيشمل هذا التعهُّدُ بعموم معناهُ التغذيةَ، والتنميةَ، والإرشاد، والإصلاح، والتقويم، والحفظ، والرّعاية، والتأْديبَ، والتهذيب، والتعليمَ إذا كانَ المربَّىٰ يحتاج تأديباً، أو تهذيباً، أو تعليماً، ويشمل أيضاً الإمدادَ المستمرَّ بما يَحْتَاج إليه لبقائه وسلامته، إلى غير ذلك من مفهومات يدركها الباحثون في مَجَالاَت التربية والتعليم.

وهذه التربية تتناول الأحياءَ والنباتات والأشياء غير ذات الحياة، من كلّ ما يحتاج لبقائه أو سلامته تعهُّداً وإمداداً، أو رعايةً وحفظاً.

ثمّ استعيرت كلمة «الرّبّ» من المصدريّة إلى اسم الفاعل، فصارت تُطْلَق كلمة «الرّبّ» بمعنى «المُرَبِّي».

ونظراً إلى معنى التربية ولوازمها أطلقت كلمة «الرّبّ» في لسان العرب على معاني كثيرة، منها: «الملك ـ الأمير ـ السيّد المطاع ـ مالِكُ الشيءِ أو مستحقّه (فرَبُّ كلّ شيءٍ مَالكُهُ أَوْ مستحقّه) ـ المدبِّر ـ القيّم ـ المنعم ـ الْمُصْلِح للشيء ـ المنمّي للشيء» إلىٰ غير هذه المعاني ممّا يشبهها ويدخُل ضِمْن المفهوم العامّ للتربية.

ولمّا كانت التربية الحقيقية لكلّ شيءٍ في الوجود سوى الله عزّ وجلّ، سواءٌ بخلقه ابتداءً أم بمتابعة بقائه وإمداده ورعايته وتنميته دواماً صفة من صفات الله عزّ وجلّ كان جلّ جلالُه هُوَ رَبَّ العالمين، ورَبَّ كلّ شيء.

ولهذا جاء وصْفُهُ في القرآن المجيد بأنه: «رَبُّ العالمين ـ ورَبُّ كلّ شيء ـ ورَبُّ السماوات والأرض ـ ورَبُّ السماوات السَّبْع وربُّ العرش العظيم ـ ورَبُّ الشِّعْرَىٰ (= نجم كان يُعْبَدُ في الجاهليّة) ـ ورَبّ المشرق والمغرب ـ وربُّ المشرقَيْن والمغربين ـ وربُّ المشارق والمغارب ـ وربُّ الْفَلَق ـ ورَبُّ الناس ـ ورَبُّ البيت (أي: الكعبة المشرفة) ـ».

فالرُّبوبيّة هي الوصف الجامع لكلّ صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته، واسم «الرّب» هو الاسم الدّال على كلّ هذه الصفات.

وكلمة «العالمين» تُحْمَلُ هنا على كلّ ذي إدْراكٍ وفَهْمٍ وعقْلٍ، فيدخل في العالمين الإنس والجنّ والملائكة، ولا مانع من تخصيصها هنا بالإنس والجنّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

العالَمُون: جمع مفرده «الْعَالَم» بفتح اللاّم، وكلمةُ «عَالَم» تُطْلَق على كلّ موجودٍ سُوىٰ الله عزّ وجلّ، وهو مأخوذٌ من «الْعَلَم» و «الْعَلاَمَة» بمعنى الشيء الذي يوضَعُ ليكون دالاً على شيءٍ آخر، كالأعلام الّتي تُوضَع للدّلالة عن الطُّرُق، أو حُدُودِ الأرض، أو غير ذلك.

وقد دلّ الفكر على أنّ كلّ ما سوى الله عزّ وجلّ من كائنات هي

مخلوقاتٌ دالأتٌ على خالقها، وعلىٰ جُمْلَةٍ من صفاته الْحُسْنَىٰ، فهي آياتٌ وعلاماتٌ دالأتٌ عليه، فكان من المناسب أنْ يُطْلق على ما سوىٰ الله عزّ وجلّ لفظةُ «عَالَم».

وإذا أردنا أن نجمع لفظة «عَالَم» بمعْنَىٰ أجناس وأنواع وأصناف الموجودات سوىٰ الله عزّ وجلّ قلنا: «عوالم» بصيغة جَمْعٍ لغير العقلاء.

وإذا أردنا أن نجمع لفظة «عالَم» بمعنى أنواع الموجودات الحيّة العاقلة، قلنا: «عالمون» بصيغة جمع العقلاء.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في تفسير لفظة «العالمين» في القرآن.

- فمنهم من قال: كلّ موجود سِوَى الله.
- ومنهم من قال: هُمْ كلُّ من يعقل.
- وقال ابن عباس: هم الجنّ والإنس فقط، لأنّهم هم الذين بُعِثَ رسولُ الله ﷺ إليهم، ورُوي عنه في قول الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ كُلُّ الخلْق.

وهنا نلاحظ أنّ الله جلّ جلاله قد اختار بعلمه وحكمته لعَمَلِيّات خلقه وإبداعه لمخلوقاته، وهيمنته على كلِّ ما خَلَق بذءاً وَدَواماً، أن يكون على نظام التّربية التي سبَق شرح معانيها، لا على نظام الخلْق دُفْعَةً واحدة، ثمّ تركِ المخلوقِ يَسِير وفق البرنامج الموضوع له، دون إمداد ورعاية وحفظٍ وتعَهُّدٍ من خالقه، بل خلق الخلْقَ وفق نظامٍ لا يستغني فيه المخلوقُ عن خالقه طَرْفَةَ عَيْن، ولا أقلَّ من ذلك، في كلّ صغيرٍ وكبيرٍ من ذاته ومن صفاته، فلو رفع الله عزّ وجلّ إمداده عن كونه، ورفع إمْسَاكَهُ له في الوجود خِلال أقصر زمن لعَادَتِ الموجوداتُ إلى أصْلها وهو العدم، هذا النظامُ هو نظامُ التّربية.

فللّٰهِ عزّ وجلّ الرُّبوبيّة المستمرّةُ الّتي لا تنقطع، والمؤثرة بكلّ شيءٍ في الكونِ، من غيبيٍّ ومشهود، ماديٍّ ومعنويّ.

فلا تأخذه سبحانه سِنَةٌ ولا نوم، ولا يخرج عن عِلْمِه وهيمنته وسلطانه وكلّ عناصر ربوبيته صَغِيرٌ في الوجود مهما صَغُر، وكبيرٌ مهما عظُمَ وكَبُر.

وفي عبارة ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ اعترافٌ وإعلانٌ ضمني عن طائفة من صفات الله وأسمائه الحسنى، ذوات العلاقة بالعالمين ذوي العلم والعقل.

ويلزم من كونه ربَّهم وهو العليم الحكيم الذي يفعل ما يشاء ويختار، أن يكون قد خلقهم بصفاتهم الّتي هم عليها، ليبلوهم في ظروف الحياة الدنيا، ثمّ ليجازيهم بعد رحلة امتحانهم في حياة أخرى تكون في يَوْمٍ آخَرَ غيرِ يَوْمِ الحياة الأولى، وهذا اليوم الآخر من المناسب أَنْ يُطْلَقَ عليه عنوان «يَوْم الدّين» أي: يوم الحساب وفصلِ القضاء وتنفيذ الجزاء.

ثم إنّ الابتلاء يقتضي أن يرحم الله الممتَحَنِين بإنزال موادِّ امتحانهم، وبعث الرُّسل لهم، وإنزال الكتب لهدايتهم، ومعاملتهم بالتيسير ورفع الحرج، والعَفْوِ والغفران، فجاء قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الرَّحْمٰن: صفة مُشَبَّهةٌ مأخوذةٌ من الرَّحمة، وهي مَبْنِيّة على وزن «فَعْلَان» للمبالغة، أي: لإرادة التعبير عن عظيم رحمته البالغة الغاية.

قالوا: وهذا الاسم من أسماء الله الحسنىٰ خاصٌّ بالله تعالىٰ، فلا يُسْتَعْمَلُ في وصف غيره، فأشبه أن يكون علماً.

ومعنى الرحمة في المخلوق رقَّةٌ في القلب تدفع الرّاحم إلى الإحسان والإنعام والمشاركة الوجدانية لذي حاجةٍ أو ألم استثارها.

أمّا الرّحمة بالنسبة إلى الخالق جلَّ وعلا فهي صفة من صفاته النّفسيّة على ما يَلِيقُ بجلاله، ومن آثارها الإنعام والإكرام.

وهل لفظ «رَحْمٰن» مصروفٌ أو غيرُ مصروف؟.

فيه قولان، ومال السَّعْدُ التفتازاني إلى جواز الأمْرَيْن فيه.

الرَّحِيم: صفةٌ مشبَّهَةٌ أيضاً مأخوذة من الرحمة، وهي مَبْنِيَّةٌ على وزن «فَعِيل» وهو من صيغ المبالغة أيضاً، لكنّ لفظ «رَحْمَان» أكثر حروفاً من لفظ «رَحِيم» ومن مقرّرات أئمة اللّغة العربيّة أنّ زيادة المبنَىٰ تدُلُّ على زيادة المعنَىٰ.

وجاء الجمع بين الرحمٰن والرَّحِيم لأمور، وفيما يظهر لنا منها ما يلي:

(١) تأكيدُ الثناء على الله عزّ وجلّ بصفة رحمته وآثارها في عباده.

(٢) الاسترحام والإشارَةُ إلى الطَّمع الشّديد بإنعام الله وإكرامه وإحسانه واستدرار فيوض عطاءاته، وهذا ما يُشْعِرُ به جَمْع أسماء الله الحسنىٰ المشتقة من الرحمة، قبل إعلان أنّه مَالِكُ يوم الدّين، اليوم الّذي يحتاج فيه العباد إلى عَفْو الله وغفرانه وفَيْضِ مِنَّتِه بإدخالهم جنَّاتِ النعيم دون حسابٍ أو بحِسَابٍ يَسِير، فالْمستَرْحِم من شأنه أن يستقصِيَ كلّ أوصاف الثناء الّتي تدلُّ على الرحمة الواسعة التي يتصف بها من يوجِّه له استرحامه.

(٣) الإشارة إلى رحمته بإرسال خاتم المرسلين الذي أرسله رحمةً للعالمين، وإلىٰ رحمته بإنزال القرآن الذي هو من مظاهر رحمته بهم، ورحمته بما اصطفى لعباده من الدّين الذي اشتمل على ما يُصْلِح دُنْيَاهم وأخراهم، ويكون لمن اتّبعه سبباً لسعادته الأبَدِيّة في الجنّة دَارِ رحْمَتِه العظمىٰ.

(٤) الإشارة إلى شُمول رحمته جلائل النِّعَم ودقائقَها الَّتي يتفضّل بها علىٰ عباده في الدنيا والآخرة.

وأرى أنّ صيغة «الرحمن» تستعمل غالباً في القرآن للدلالة على شمول رحمته تعالى المؤمنين والكافرين، وصيغة «الرحيم» تستعمل غالباً للدّلالة على خصوص رحمته تعالى المؤمنين، وممّا يدلُّ على هذا أنّ صيغة «رحيم» جاءت في القرآن مقترنة بعبارة «غَفُور» والمغفرةُ لا تكونُ إلاّ لمن آمَنَ، وهذا تخصيص في الاصطلاح القرآني.

وعلى هذا تكون صيغة «رَحْمان» أكثر شمولاً للأفراد المرحومين، وتكونُ صيغة «رحيم» خاصّة برحمة الله للمؤمنين، والجمع بينهما يكون على طريقة التخصيص بعد التعميم، والله أعلم.

● ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

﴿مَـٰلِكِ﴾: قراءةُ عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلَفٌ في اختياره.

مَلِكِ: قِراءة باقي القرّاء العشرة.

لفظ «مَالِكِ» هو من المِلْكِ بكسر الميم بمعنىٰ صاحب حقّ التصرّف بالشيء، فمالِكُ الدراهم والدنانير هو صاحب حقّ التصرّف بها، ومالك البيت هو صاحب حقّ التصرّف بسُكْناه، وبَيْعه، وهِبَتِه، وتأجيره، وغير ذلك من تصرّفات، ومالِكُ الثوب هو صاحب حق التصرّف باستعماله وبيعه وهبته وغير ذلك من تصرّفات، وهكذا.

واللَّهُ عزَّ وجلَّ هو مَالِكُ يَوْمِ الدِّين، أي: هو مالِكُ كلِّ شيء في يوم الدِّين مِلْكاً تامًّا بالاستقلال الكامل، فلا يُشَارِكه في التصرُّف بأَيِّ شيءٍ أَحَدٌ، ولاَ على سبيلِ التمكِينِ والتسخيرِ مِنْه، لأنّ كلَّ حَيٍّ كانَ ذا إرَادَةٍ في الحياة الدّنيا، وكان يَمْلِكُ بِالتَّسْخِير الرَّبّاني أن يَتَصَرَّف بما حوله بعض تصرّفات، يَكُونُ يوم الدِّين عَاجِزاً تماماً عن أنْ يتصرّفَ بقدراته أيَّ تَصَرُّف، إذْ يَسْلُبُ اللَّهُ الأَشْياءَ المطاوَعَةَ إلاّ لِقُدرَتِه ومشيئته.

أُطْلِقَ «الْيَوْمُ» وهو الزمن وأُرِيدَ بِهِ كلّ شيءٍ فيه مادّيّ أو مَعْنَوِيّ، فالْمِلْكُ يَوْمَ الدِّين للّهِ وحْدَه.

والمراد بلفظ «الدِّينِ» هُنَا الجزاءُ والمكافأة، وظاهر أنّ تنفيذ الجزاء يستلزم قبلَهُ تَسْلِيمَ كتاب الأعمال، والمحاسبة عليها، أو عَرْضَها، وفَصْلَ القضاء، فجاء الاستغناء بلفظ «الدين» عن كلّ الأمور الّتي يقتضيها الجزاء بالعدل أو بالفضل.

فمالِكُ يوم الدّين هو مالِكُ يوم الجزاء، وهو يومُ قيام الأموات عند بعثهم إلى الحياة الأخرىٰ، للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء بالعدل أو بالفضل.

ولفظ «مَلِك» هو من الْمُلْكِ بضم الميم، وهو حقّ التصرّف في كلّ شيء بالأمْرِ والنهي، والْمَلِكُ في الناس هو الذي له حقُّ التصرف بإدارة شؤون مملكته بالأمر والنّهْيّ، وعلى الّذِين هم في دائرة مُلْكه طاعَتُه وتَنْفِيذُ أوامره ونواهيه.

ولمَّا كان كلُّ شيءٍ يوْمَ الدِّين خاضعاً لسلطان اللّهِ عزّ وجلّ وحده، وخاضعاً لأمره ونهيه وكلّ تصرُّفاته، إذْ لاَ يجعلُ اللّهُ يَوْمَئِذٍ لأَحَدٍ سُلْطاناً ولا حُكْماً ولا أمراً ولا نهياً، حتَّىٰ الشفاعة لا تكون يومئذ إلاّ بإذنه، كانَ وحَدَهُ هُوَ الْمَلِكَ باطناً وظاهراً على وجه الحقيقة التامّة.

فجاءت القراءتان «مَالِكِ يَوْمِ الدِّين» و «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» مُتَكَامِلَتَيْنِ في أداء المعنَىٰ الْمُرَادِ بَيَانُه والتعبيرُ عنه.

فهو سبحانه يومئذٍ الْمَلِكُ على كُلِّ شَيْءٍ بسُلْطَانِهِ العظيم، لا مُشَارِكَ لَهُ في مُلْكه ولو على سبيل المشاركة الصوريّة.

وهو سبحانه يومئذٍ الْمَالِكُ لكلّ شيءٍ، لا مشاركَ له في مِلْكِه (بكَسْرِ الميم) ولو على سبيل المشاركة الصورية.

ويومئذٍ يظهر لكلّ الخلائق كمال ربوبيّة الله لكلّ شيء، وهو الواحد الأحد، لا يشاركه في رُبُوبِيَّتِه ولا في إلَهيته أحد.

وجاء بيان هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

وهكذا اشتملت هذه الآيات الثلاث من سورة الفاتحة على أهَمّ الكليّاتِ التي تعبّر عن توحيد الربوبية والإلَهية لله، وعن حكمة خلق الإنسان في الحياة الدنيا للابتلاء، تَمهيداً لمحاسبته وفصل القضاء بشأنه ومجازاته يوم الدين.

ثانياً: تَدَبُّر ما تَحتَ العنوان الثاني من الكليّات الكبرىٰ للسورة:

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

سبق تثبيت أُمّهات القضايا المتعلّقة بتوحيد ربوبيّة الله عزّ وجلّ، المستلزمة لتوحيد إلَهيَّته، وبيان رحمته بعباده المستلزمة لاصطفاء الدّين لهم، وبيان كون الله عزّ وجلّ هو مالِك يوم الدين ومَلِكهُ، المستلزم لكون الله قد خلق الناس ليبلُوهم في ظروف الحياة الدنيا، ثمّ ليُحاسِبَهم ويجازيهم على ما كان منهم تجاه مطلوب الله منهم في رحلة الحياة الدنيا، وهو تحقُّقهم بعبوديتهم لربّهم، إيماناً بالحقّ المطلوب منهم أن يؤمنوا به، وإعلاناً لإسلامهم لله وطاعتهم لأوامره ونواهيه.

وبعد تثبيت هذه القضايا في وَمَضات مُوجَزات تمتدُّ أنوارُها إلى فروعها في آفاق الفكر والنفس، والّتي تدخل تحت عنوان «الإيمان باللّهِ واليوم الآخر»

يقضي الواجب أنْ يتوجّه العبْدُ لربّه فيناجيه بإفراده بالعبادَةِ، وإفراده بالاستعانة في كلِّ أمْرٍ من أموره، وفي كلّ عَمَلٍ من أعماله الظّاهرة والباطنة الجسديّة والنفسيّة، حتَّىٰ فيما يقوم به من عبادةٍ لربّه، لأنّه لا حول ولا قُوّة إلاّ بالله، فيقول خطاباً لربّه، ومُلْتَفِتاً إليه بعد الحديث عنه بضمير الغائب:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير منفصل منصوبٌ على أنّه مفعولٌ به لفعل ﴿نَعۡبُدُ﴾ متقدِّمٌ عليه لإفادة الْحَصْرِ والتَّخْصِيص، بالدّلالة على إفراد الله عزّ وجلّ بالعبادة، والتبرُّؤِ من كُلِّ شِرْك فيها.

فمن أغراض تقديم المعمول على عامله إرادةُ التخصيص والْحَصْر كما هو مقرّر لدى علماء البلاغة.

وعبادةُ الله وحده لا شريك له هو جوهر توحيد الألوهيّة، أي: العبادة لله.

وعبادة الله وحده هي حقُّ الله على عباده، ومطلوبه منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وهو الذي يتوقف عليه استحقاقهم دُخُولَ جِنَّتِه يوم الدّين خالدين فيها أَبَداً.

العبادةُ في مفهوم الدّين الرّبّانيّ الحقّ: سلوكٌ إراديٌّ نَفْسِيٌّ، أو ظاهر ذو دوافعَ باطِنة، يُقْصَدُ به أداءُ ما يحبُّ الرّبّ عزّ وجلّ من مربوبيه وما يُرْضِيه منهم ويقرّبهم إليه.

ويدخل فيها الإيمان وأعمال القلب والنفس الإراديّة، وأعمال الجوارح الظاهرة من الأفعال والتروك(١).

---

(١) انظر شرح العبادة في المقولة الأولى من الفصل السابع من كتاب «ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة» للمؤلف.

ثمّ إنّ الاستطاعة الّتي مكّن الله عباده من توجيهها للمُسَخَّرات في الكون، إنّما تكون بإمداد الله لهم بها، في حركة متجدّدة مع تتابع الزّمن على وفق مشيئته، كالطاقة الكهربائية الّتي تتوقّف آثارُها متىٰ انقطع الإمدادُ بها.

فالعبْدُ لا يستطيع بنفسه أن يقوم بأيّ عمل ظاهر أو باطن إلاّ إذا أمَدَّهُ الله عزّ وجلّ بطاقة العمل وأعانه على القيام به.

ولمّا كان واقع حال العبد المخلوق كذلك كان عليه أنْ يُعْلِن لربّه حاجته الدائمة إلى معونته وحْدَه، وأن يُعْلِنَ أنّه لا يستعين في أيّ أمْرٍ من أموره استعانة حقيقيّةً إلاّ به، مؤمناً بهذه الحقيقةِ من الحقائق الّتي يجب على العباد أن يُؤمنوا بها، ومتبرّئاً من حَوْلِه وقوّته، ومتبرّئاً منْ معونة أيّة قُوّة غيبيّة في الوجود سوى ربّه جلّ جلاله، فيخاطبُه قائلاً: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: ولا نستعين إلاّ بِكَ، والسين في نستعين للطلب، أي: نطلب الاستعانة بك.

وفي التعبير بنون الجماعة في فِعْلَيْ: ﴿نَعۡبُدُ﴾ و ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ يُلاحِظُ الْعَبْدُ أنّه واحِدٌ من الأمّةِ الرّبّانيّة المؤمنة العابِدَةِ لربّها، لا تُشْرِكُ بعبادته أحداً، فهو يقولُ معها في مخاطَبَةِ الله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ وفي هذا تعْميقٌ لمعْنَىٰ الجماعَةِ الرَّبّانِيّة الواحدة، في قلْبِ كلِّ مُؤْمنٍ مسلم لله جلّ جلاله، مُنذُ نشأة الخليقة وإلَى أن يرث اللّهُ الأرض ومن عليها، وتَرِثَ هٰذِه الأمّةُ جنّاتِ النعيم.

وفي قول الْعَبْد لربّه في صلاته وغيرها: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ مع ملاحظته لمضمون هذا القول وإيمانه به، يتخلّصُ من الشّرْكِ كلّه، من الشّرْكِ في رُبُوبيّةِ اللّهِ، ومِنَ الشّرْكِ في إلَهِيّتِه، ومن الشّرك في عبادة غيْره معه.

ثالثاً: تدبّر ما تحت العنوان الثالث من الكليّات الكبرىٰ للسورة:

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

تمهيد:

إنّ عبادةَ الله وحْدَه والاستعانةَ به وحْدَه قياماً بحقّ ربوبيّته وحقّ إلٰهيّته، كما جاء في دلالة الآية (٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تَسْتلْزمُ عقلاً أن يسْعَىٰ العابدُ لربّه إلى معرفة الأعمال النفسيّة والجسدِيّة الّتي تُرضِي ربَّه في عبادته له، حتَّىٰ لاَ يَعْمَل عَملاً يُسْخِطُه وهو يحسَبُ أنّه يُحْسِنُ صنعاً.

ومعظم أعمال العبادة بعد الإيمان بالله والإسلام له لا يستطيع الرّاغب فيها أَنْ يتوصّل إلى معرفتها عن طريق عقله وتصوّراته لما يُرْضِي رَبَّهُ منه.

فَكَان لا بُدَّ لَهُ مِنْ أنْ يَدْعُو ربَّه سائلاً أن يَهْدِيَه إلَيْهَا، بالبيانِ وبالتوفيق إلى أدائها، لكنّه يُدْركُ ببصيرته الإيمانية أنّ برنامج هٰذه الأعمال لا يكونُ إلاّ على صراط مستقيم جليّ واضح لا عِوَجَ فيه ولا عثرات، لأنّ الله عزّ وجلّ عليم حكيم لا يُرضيه من عباده في عبادتهم له إلاّ ما فيه خيرهم وسعادتهم في عاجل أمرهم وآجلِه، وظاهرٌ أنّ تحقيق الخير والسعادة العاجلة والآجلَة لا يكون إلاّ بسُلوك الصراط المستقيم الواضح الجلِيّ المضيء الذي لا شرّ فيه ولا ظلمات.

وبما أنّ العباد عاجزون عن تحديد هذا الصراط بكلّ عناصره، كان لا بُدَّ أنْ يَسْأَلُوا رَبّهم أنْ يهدِيَهُمْ إليه، بما يُنَزّلُ لِهدايتهم مُعَلّماً من شرائع وأحكامٍ ونصائح ووصايا وبيانات، وحِكْمَةُ الله جلّ جلالُه في هذا التنزيل اقتضتْ أن يُنَزّلَها على رسولٍ مصطفى لحمل رسالات الله لعباده.

وهم محتاجون في سلوكهم الصراطَ المستقيم إلى معونة من الله بالتوفيق، وبإيجاد الدافع إلى سلوكه، ويَدْخُلُ هذا في عموم طَلَب الهداية إليه من الله.

وحين تكون هذه الحقيقة حاضرةً في تصوُّر العبد المؤمن الحريص على أن يعبُد الله بما يُرْضيه من عباده، وهو يَعْلَمُ أنّه واحِدٌ من الأمَّة الرَّبّانيّةِ المؤمنَةِ المسلمة، الَّتي يحرص كلّ فردٍ من أفرادها على أن يعبُدَ ربّه بما يُرْضيه، فإنّه يَدْعو رَبّه شاعراً بمشاركَتِه لكلّ فَرْدٍ من أفرادها فيما تَدْعُو رَبَّها به، فيقول:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ⑥﴾.

التدبر التحليلي للآية:

- ﴿ٱهْدِنَا﴾: أي: أَعْلِمْنا وأَرْشِدْنا وَدُلَّنا، ووفقنا أيضاً وأوْجِدْ لدينا الوازع والدّافع لنا، وصيغة: «اهْدِنَا» أمْرٌ مُسْتَعْمَلٌ في الدّعاء.

يُقَالُ لُغَةً: هَداهُ الطّرِيقَ، وهَداهُ إليه، وهَدَاهُ لَهُ، إذا أعلمه به، وأرشدَهُ إليه، ودلَّه علَيْه.

وقد يُسْتَعْملُ فعل «هَدَاه» بمعنى وفَّقَهُ، وبمعنىٰ أوْجَد لَدَيْه الدّافِعَ لالتزام الْهُدَىٰ والعمل به، وهذا من التوسُّع في دلالة اللفظ.

وقد يستعمل فعل «هَدَاهُ» بمعنى وَجَدَهُ مَهْدِيًّا فَنَسَبَهُ إلَىٰ الْهُدَىٰ، أو حَكَمَ له بأنّه ذو هِدَايَةٍ، ولكن هذا المعنى غير مرادٍ هنا.

- ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: وجاء في القراءات المتواترات كما سبَقَ نُطْقُ الصاد سيناً «سِرَاط» ونُطْقُها مشمومة زاياً «الظّراط».

والصراطُ: هو الطريق الواضح الجليُّ، وقيل: سُمِّيَ سِرَاطاً لأنّه يَسْتَرِطُ سالكيه، أي: يبتلِعُهم بِيُسْرٍ وسهولة دون حاجة إلى تزاحم.

وجاء إطلاق لفظ «الصراط» على الشرائع، والأحكام، والنصائح، والوصايا، وسائر البيانات الدينيّة، المتعلّقة بسلوك العباد الباطن والظاهر في الحياة الدنيا، عبادَةً لربِّهم، على سبيل الاستعارة القائمة على تشبيه البرنامج الموصل إلى السعادة الّتي هي أَجَلُّ مقاصد أولي الألباب بالصراط الموصل إلى الغاية المطلوبة للسالكين في أسفارهم، وتنقلاتهم في حواضرهم وبواديهم.

ومعلومٌ أنّ الحياة الدنيا إنما هي بمثابة رحلة مُسَافِرٍ إلى الدار الآخرة، دار الحياة الباقية الخالدة، دار القرار.

- ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: جاء لفظ «المستقيم» وصفاً للصراط الذي يدعو العبد المؤمن المسلِمُ رَبَّه أنْ يهديه إلَيْهِ تعليماً وتوفيقاً ودَفْعاً ووَزْعاً.

المستقيم: هو الذي لا عِوَجَ فيه ولا انحراف عن الحقّ والخير وما هو الأفضل والأَحْسَنُ والأَصْلح.

والصراطُ المستقيم أقْرَبُ مَسْلَكٍ مُوصلٍ بين مبدأٍ وغايَة.

وقد اصطفىٰ الله لعباده الدِّين بشرائعه وأحكامه وبياناته وتعليماته، فهو لهم الصراطُ المستقيم، فمن التزم به في سلوكه في الحياة الدنيا، نَالَ السعادةَ والنجاحَ والفلاحَ، وظَفِرَ يوْمَ الدِّين بجنّاتِ النعيم، وكانت درجته فيها على مقدار التزامه به ارتقاءً، والالتزامُ الأكمل به يوصل بفضل الله إلى درجَات مرتبة الفردوس الأعلى.

والصراط المستقيم هو الصراط الذي اختاره الله لِنَفْسِه في مُجْرَيات مَقَادِيرِه وشرائِعِهِ وما اصطفاه لعبادِه مِنَ الّدِين، ومنَ الصراط المستقيم ما كان عليه رسولُ الله محمّد ﷺ والمرسَلُون والأنبياء من قبله، وهو الذي التزم بسلوكه الذّين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وهو الصراط الذي أوصَىٰ الله عباده بالتزام سلوكه في كلِّ الرِّسَالاَت التي أَرْسَلَ رُسُله لتبليغها للناس.

فمن شاء أَنْ يكونَ من حِزْب الله عزّ وجلّ، متابعاً موكب الرُّسُل والأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، فعلَيْه أن يَعْرِفَ صِرَاط الله المستقيم ممّا أنزل على رسوله الخاتم، وأن يلتزم سُلوكَهُ ما استطاع إِلَىٰ ذلك سبيلاً.

* * *

رابعاً: تدبر ما تحت العنوان الرابع من الكليّات الكبرىٰ للسُّورة:

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

تمهيد:

المؤمن المسلم الّذي أعْلَن أنّه يَعْبُد ربّه وَحْدَه، ويستعين به وحْدَه، ولا يُشْرك بربّه شيئاً في العبادة ولا في الاستعانة، والذي سأل ربّه داعياً أنْ يهديه الصراط المستقيم الذي يُوصِلُه إلى مرضاة الله وإلى جنّات النّعيم بفضل الله عليه، لا بُدّ أنْ يشعُر بأنّه فَرْدٌ يتابع مسيرته في الحياة الدنيا على صراط الأمّة الرّبّانيّة الواحدة، في موكبها المتواصل منذ عهد آدم عليه السلام، ولا بدّ أن يشْعُر بأنّ هذه الأمّة هي الأمّة التي أنعم الله عليها فوفقها إلى سلوك صراط ربّها المستقيم، وأنعم عليها فجعلها بفضله مَجْزِيَّةً على إيمانها وإسلامها وصالحاتِ أعمالها بجنّاتِ النّعيم يوْمَ الدّين، وبرضوانه العظيم.

وإذْ يشْعُر هذا الشعُورَ المريح المُسْعِدَ لقلْبه، فمن شَأْنِه أن يُلْقِيَ نظرةً عامّةً على تاريخ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الابتلاء، فيدرك أنّهم أقسام رئيسيَّةٌ كُبْرَىٰ ثلاثة، على فروعها وزُمَرِهَا وفُرَقَائِها:

القسم الأول: وهو القسم الناجي السعيد، وينضوي تحته الذين عرفوا ربَّهم أنّه الحقّ، فآمنوا به، واتّبعوا رضوانه مسلمين، فهم المؤمنون المسلمون الّذين اختاروا لأنفسهم بالإيمان والإسلام لله عزّ وجلّ أن يَسْلكوا صراطَه المستقيم على امتداده، بعد أن دخلوا أوائله بالإيمان والإسلام والتوجّه لِلّه بالعبادة والاستعانة مُوَحّدين غيْرَ مُشْرِكين.

وموكبُ هذا القسم على أرتاله المتتابعات يقودُهُ المرسلون فالنَّبِيّون، فأَئمّة المتّقين، من الصّدّيقين والشهداء والصالحين.

وأفرادُ هذا القسم قد أنْعَمَ اللَّهُ عليهم بَعْد صِدْقهم في طَلَبِ الحقّ، وسُلُوكِ صراطِ الْهُدَىٰ، صِرَاط الله المستقيم، بالتوفيق والمعونَة والهداية في متابعة مسيرتهم، والْحُكْم لَهُمْ بأَنَّهُمْ مَهْدِيُّون، وبأنّهم من أصحاب جنّاتِ النّعيم يوْمَ الدِّين.

القسم الثاني: وهو القسم المعاند للحقّ الرَّبّانيّ، المستَحِقُّ غضَبَ الله عليه، بسبب عِنَادِه ورَفْضِه الاعتراف بهذا الحقّ، والإذْعانَ له، ورَفْضِه اتِّبَاعَ مرضاة الله.

وأفرادُ هذا القسم قد عرفوا أصولَ الدِّين أوْ أُمَّهَاتِها معرفةً ذهنيّةً فكريّة، لكنّهم لم يُؤْمِنُوا بها إيماناً إرادياً اختيارياً قَلْبِيّاً، بل عاندوها، فرفضوا الإيمانَ الإراديَّ بالحقّ الذي جاء به رُسُلُ الله، واستنكَفُوا عَنْ أن يكونوا عبيداً لله باختيارهم، يَتَّبِعُونَ رضوانه، ويُطيعُونه في أوامره ونواهيه، فاستحقُّوا بسبب عنادهم واستنكافهم عن عبادة ربّهم أن يَغْضَبَ الله عليهم، ويَجْزيَهُم بعذابٍ شديد خالدٍ في قاع الجحيم.

وفي هذا القسم طوائفُ وفِرَقٌ وزُمَرٌ كثيرة.

القسم الثالث: وهو القسم الضّالّ السائر في متاهات الضلالة، ملتزمين تَقَالِيدَهم على غير بصيرة، تعصُّباً للقوم أو الآباء والأجداد، أو للجماعة

الَّتِي يَنْتَمُون إليها، أو هم يَتَّبِعُون أهواءَهم وشهواتهم ومطالِبَهُمْ من الحياة الدنيا، غَيْرَ مُسْتَخدمين أدوات المعرفة الّتي وهبهم الله إيَّاها فيما خُلِقَتْ لَهُ، بل استخدمُوها في تحقيق رغباتهم من الحياة الدنيا فقط، فلَمْ يُوَجِّهوا أنفسهم لأن يَسْعَوا إلى معرفَةِ منْ خلَقَهُمْ، ولا إلى مطلوبه منهم، ولا إلى الحكمة من إيجادهم، ولا إلى المصير الذي هم إليه صائرون، فاستحقُّوا أنْ يُوصَفُوا بأنّهم ضَالُّون.

وأفراد هذا القسم الضالّ ينقسمون إلى فِرَقٍ متعدّدة:

(١) فريقٌ وَجَدُوا من يَدْعوهم إلى معرفة أصول الدين الحق، ومعرفة مطلوب رَبّهم منهم في رحلة الحياة الدنيا، فأعرضوا ولم يكترثوا للدعوة ولم يَعْبَؤوا بها، ولم يُكَلِّفُوا أنفسهم التفكُّرَ في آيات الله في كَوْنِه، ولم يَتدبَّرُوا آياته المنزَّلاَت، إيثاراً لاتّباع ما كان علَيْه قَوْمُهُمْ أو آباؤهم وأجدادهم أو جماعتهم الّتي ينتَمُون إليها، بتقليد أعْمَىٰ.

فهم ضالُّون اسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ والظُّلُمَات، وآثَروهما على الْبَصَرِ والنُّورِ والْهُدى، فَهُم بإراداتهم الحرَّة قد اختاروا لأنفسهم البقاء في الْجَهَالة والضَّلالة.

وأفراد هذا الفريق مسؤولون عن اختيارهم البقاءَ في الجهالة وفي الضلالة، فهم خارجون حتماً عن دائرة من أنعم الله عليهم، فلا يَسْتَحقُّون دُخُول الجنَّةِ مع أصحابها، بل يستحقّون دخُولَ دار العذاب، وأن يذُوقَ كلّ واحدٍ منهم فيها من العذاب على مقدار ما لدَيْهِ من قُوَّةِ إعْرَاض عنْ دَعْوَة الحقّ الّتي وُجِهتْ له.

(٢) وفَرِيق عاشوا في حياتهم الدّنيا كالأنْعَام السَّائمة، ولم يجدوا من يدعوهم إلى معرفة أصول الدّين الحقّ، ومعرفةِ مطلوب ربّهم منهم في رحلة الحياة الدنيا، إلاّ أنّ عقولهم توصَّلَتْ إلَىٰ معرفة أنّ لهذا الكون رَبًّا

خالقاً، وأَنَّ من حَقِّهِ عليهم أَنْ يؤمنوا به وأن يعبدوه عبادةً ما، لكنَّهم آثَرُوا اتِّباع أهوائهم وشهواتهم من الحياة الدّنيا، فلَمْ يُتَابعوا البحث، لئلاَّ يَشْعُرُوا بالإِثْم تُجاهَه، إِذا طَغَوْا وبَغَوْا وظَلَمُوا.

وأفراد هذا الفريق مسْؤُولُونَ عمّا تَوَصَّلَتْ إليه عقولُهُم، ومسؤولون عن إهمالهم مُتَابعةَ الْبَحْثِ لِئَلاَّ يكُفَّهُمُ الإيمانُ بربّهم والخوفُ من عقوبته عَنْ تحقيق رغباتِ نُفُوسِهِم بالظُّلم والعدوان.

وهؤلاء يدخلون في عُمُومِ الضالّين، وعليهم من المسؤوليّة بمقدار حالة نفوسهم الّتي جعلتهم يُهْمِلُون مُتَابَعةَ البحث الذي فتح الله لهم فيه أَبوابَهُ الأولى، فالْمُسْتَحِقُّ منهم أَنْ يُدْخِله الله يوم الدّين دار العذاب أدخله، ولا يظلم اللَّهُ عزَّ وجلَّ أحداً.

(٣) وفريق لم يجدوا من يدعوهم إلى معرفة أصول الدين الحقّ، ومعرفة مطلوب الله منهم في رحلة الحياة الدنيا، ولم يتفكّروا في آيات اللَّهِ في الكون ولا في أنفسهم، ولم يتوصَّلُوا بأنفسهم إلى معرفة ربّهم، ولا إلى معرفة أيِّ واجبٍ عليهم تُجَاهَه، بل عاشوا في حياتهم الدُّنيا كالأنعام السّائمة، أو الوحوش الهائمة.

وهؤلاء يدخلون أيضاً في عموم الضالّين، وقد جاء بشأنهم في السنَّة أنّ الله عزّ وجلّ يُجْرِي لهم نَوْعَ اخِتيَارٍ قبل أن يَقْضِي بشأنهم، ليكْشِفَ حقيقةَ نفوسهم، فمن اجتاز هذا الاختبارَ بنجاح أَدْخَلَه جنَّته، ومن سقط فيه أدخله دار العذاب، واللَّهُ أعلم، ونحن نعْلَمُ بيقينٍ أنّ الله لا يظلم أحداً مثقالَ ذرّةٍ ولا أَصْغَرَ من ذلك، وأنّ فضله على عباده عظيم، وأنّ رحمته واسعة، وسِعَتْ كلَّ شيْءٍ.

وفي سورة «الفاتحة» يُعَلِّم اللَّهُ عزّ وجلّ المؤمنَ المسلم العابد لرَبّه أن ينظر هذه النظرةَ إلى تاريخ الموضوعين مثْلَه موضع الامتحان في ظرف الحياة الدنيا، وأَنْ يُلاحظ أَنّهم على ثلاثة أقسام رئيسيّة:

- قِسْمٌ أنعم الله عليهم، على مراتبهم ودرجاتهم.
- وقسمٌ غضب الله عليهم على منازلهم ودركاتهم.
- وقسم ضالّون على اختلاف عوامل ضلالهم، واختلاف زُمَرِهِمْ وفِئاتهم.

فجاء فيها بيانُ أن الصراط المستقيمَ هو صِراط الذين أنعم الله علَيْهم، وأنّ هؤلاء الذين أنعم الله عليهم مُغَايِرُون مغايَرَةً تامّة كلّيّة للّذين غضب اللّهُ عليهم، ومُغَايرون أيضاً لِفرَقِ الضّالين، فيقول المؤمن المسلم العابد لربّه في ختام السورة:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

التدبر التحليلي للآية (٧):

- ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: بَدلٌ من ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في الآية السابقة، أو عطف بيان. والغرض إضافة وصْفٍ جديد للصراط غير كونه مستقيماً، أي: وهو الصراط الذي اختار سُلُوكه المؤمنون المسلمون الّذين أنعم الله عليهم بالهداية إليه، والتوفيقِ والمعونة حتّىٰ سَلكُوه، ثمّ أنعَمَ عليهم بالحكم لهم بأنهم مَهْدِيُّونَ فائِزُون، وفي مقدّمتهم النبيُّون والصدّيقون والشهداء والصالحون وأئمة المتقين.

- ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: يقالُ لغةً: أَنْعَمَ عَلَيْهِ يُنْعِمُ إنْعَاماً، أيْ: أفْضَلَ وزَادَ، ومَنَحَهُ شيئاً نفيساً مِمَّا يُحبُّ. والنِّعْمَةُ تأتي اسماً للإنعام.

وألفاظُ «النِّعْمَةِ والنَّعْمَاءِ والنُّعْمَىٰ» تُطْلَقُ في اللّغة على الدَّعَةِ والْمَالِ وخَفْضِ العيْشِ والرَّفَاهِيَة وأَسْبَابِها، ضدّ البأْسَاءِ والبؤْسَىٰ، وتُطْلَقُ على المِنَّةِ والعطِيَّةِ السّارَّة.

ونِعَمُ الله على عبَادِه كثيرةٌ لا يستطيعون إحصاءها، ومنها السَّمْعُ والبصَرُ والرزق.

والنِّعْمَةُ بمعناها الشامل تُطْلَقُ على كلّ ما فيه نَفْعٌ وخَيْرٌ ماديٌّ أو معنويٌّ للدُّنيا أو للآخرة.

فمن نعم الله الجليلة علىٰ عباده ما يلي:

- الفكر الْمُدْرِك للمعارف.
- الإرادة الممكَّنَةُ من حرّيّة الاختيار.
- الحواسُّ الظاهرة والباطنة، والرزق والصحة وكلّ الأسباب التي تجْلُبُ نفعاً وخيراً.
- تسخير المسخَّرات في الكون، كالشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والجبال واللّيل والنهار والأنعام والمراكب وغيرها.
- الدِّينُ الذي اصطفاه الله لعباده.
- بعْثُ الرُّسُل الأكرمين، وفي خاتمتهم سيدنا محمّد ﷺ.
- إنزال القرآن الحاوي لما فيه هداية البشر، وإرشادُهم إلى صراط سعادتهم العاجلة والآجلة.
- ما أعدَّ الله للمؤمنين المتقين من جنّات النعيم، يدخلونها يوم الدين بفضل الله ورحمته بهم ومنها عفْوُه وغفرانُه.

إطلاق لفظ النعمة في القرآن على الرسالة وعلى الدين:

وقد جاء في القرآن الكريم إطلاق لفظ «النِّعْمَة» على الرّسالة وعلى الدّين، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

أي: ما أنت بالنبوّة، والرّسالة، والدِّينِ الذي حمَّلَك ربُّك رسالة تبليغه للناس، والقرآنِ المجيد، بمجنون.

وقال عزّ وجلّ له في سورة (الضُّحىٰ/ ٩٢ مصحف/ ١١ نزول):

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

أي: فبلِّغ ما يُنَزِّلُ الله عليْكَ من الدِّين بأسلوب الحديث الهادئ.

وقال تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لأمة محمد ﷺ بعد أن أنزل على رسوله أواخر الأحكام الدينيّة:

﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...﴾.

وجاء في القرآن إطلاق لفظ «النِّعْمَةِ» على ما سخّر الله للناس في كونه من مسخّرات، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١﴾.

وجاء في القرآن إطلاقُ لفظ «النِّعْمَة» على ما تفضَّل به الله على يونُس عليه السلام بعد أن لفظه الحوت على الشاطئ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) بشأنه:

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾.

وجاء في القرآن إطلاق لفظ «النِّعْمَةِ» على ما يتفضّل الله به على عباده من دخول الجنَّة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/

٥٦ نزول) حكايةً لقول المؤمن في الجنّة يخاطبُ رجلاً من أصحاب النار وهو في النار وقد كان قريناً له في الدنيا، وكان يحاول إغراءه بأن يكْفُر بيوم الدّين:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولولا نعْمَةُ اللَّهِ عليَّ بالتوفيق إلى الإيمان، وبالعفو والغفران لكُنتُ مَعَكَ من الْمُحْضَرِين في الجحيم.

● ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: «غيرِ» بدل من «الّذِينَ» في عبارة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهو بدلُ مجرور من مجرور.

المغضوب عليهم: هُمُ الَّذينَ أنزل الله عليهم غَضَبَه، بسبب كفرهم وعِنَادهم وإصْرَارِهم على الباطلِ ورفضِ الحق الدّيني، وهم يَعْلَمُون أنَّهم مُبْطِلُون.

الغضب: عند أهل اللّغة: هو ضِدُّ الرّضَىٰ، ويكون الغضب محموداً إذا كان من أجل الدّين والحقّ، ويكون مذموماً إذا كان بغير حَقٍّ أو من أجل هوى النفس ودوافعها السيئة.

والْغَضَب في النّاس انفعالٌ نفسيٌّ يستثيره فِعْلٌ مكروهٌ لَدَيْهَا، ومن آثاره الرَّغبةُ في الانتقام ممَّن فَعَل المَكْرُوه.

أمَّا غَضَبُ الله على مستحِقِّيه من عباده فهو صفة من صفات الله عزّ وجلّ على ما يليق به سبحانَه، ومن آثاره العقوبة العادلة والانتقامُ بالحق.

● ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: جيء بحرف النفي «لاَ» لتأكيد معنَى النَّفي

الّذي دلَّتْ عليه لفظة «غير» في عبارة: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ فهي بمثابة لفظة «غير» أي: غَيْرِ المغضوب عليهم وغَيْرِ الضالِّينَ. والحكمة من التصريح بالنفي إلى جانب الضالّين الدّلالة على أنَّ قِسْمَ الضّالّين قِسْمٌ قائمٌ بذاته غَيْرُ قسم المغضوب عليهم.

الضلال في اللُّغَةِ: ضِدُّ الهُدىٰ والرَّشاد، ويَأْتي بمعنىٰ الجهل بالشيء، وبمعنى الضَّيَاع، وبمعنى النّسْيَان.

● فخالي الذهن من معرفة الشَّيءِ يُقال بشأنه: هو ضالٌّ، أي: جاهل، ويُعْذَرُ بجَهْلِه، إلاَّ إذَا دُعِيَ إلَىٰ معرفة الحقّ كطريق آمن موصل إلى الغاية فلم يَسْتَجِبْ، فإنّه يكون غير مَعْذُورٍ بجهله وضلاله.

● والباحث عن معرفة الشيءِ الذي لم يهتَدِ إليه يقالُ بشأنه: هو ضالٌّ، أي: ضائع، ويُعْذَرُ بضياعه، إلاّ إذا دُعِيَ إلى معرفة ما يَبْحَثُ عنه فرفَضَ دَعْوَة الداعي، ولم يلْتفِتْ إلى دعوته ولا إلى ما يُقدِّمُه من أدلّة إذا كان الأمْرُ يحتاجُ أدلّة إثبات أو نَفْي.

● والنَّاسِي الذي لم يكُنْ منهُ إِهْمالٌ مقصودٌ هو ضالٌّ معذور بضلاله، أي: بنسيانه.

● أمّا الضّالُّ عن الطريقِ الجائرُ بإرادته اتّباعاً لأهوائه وشهواته ونزعات نفسه ونزغاتها، فإنَّه مُكابرٌ مُعَانِدٌ للحقّ من الدرجة القصوىٰ، ويستَحِقُّ أشَدَّ العقاب، ومن هذا الفريق علماء اليهود المكذبون للقرآن عناداً.

● وأمّا الْمُعْرِضُ عن دَعْوَة الداعي إلى الحقّ وإلى سبيل النَّجاة والوصول إلى الغاية السعيدة، والسائِرُ في متاهاته على غير هُدىً، فإنَّهُ ضَالٌّ غير مَعْذُورٍ في ضلاله، وهو مَغْرُورٌ معانِدٌ لمعرفة الْحَقّ، راضٍ بما هو فيه من ضَلاَلَةٍ وجهالة، وهو يحسب أنّه على الحقّ وأنّه يُحْسِنُ صُنْعاً، فَجُرْمُهُ دون

جُرْم المعاندِ للحقّ من الدرجة القصوى، ويَسْتَحِقُّ من العقاب دون عقابه، ومن هذا الفريق جماهير كثيرةٌ من النصارىٰ الضالّين التائهين الذين يُعْرِضون عن دَعْوَةِ من يدعوهم إلى الإسلام والْعَمَلِ بما جاءَ به خاتم المرسلين.

وقد جاءت عدّة روايات عن النّبي ﷺ أنّه فَسَّرَ المغضوب عليهم باليهود، وفسَّرَ الضَّالّين بالنّصارىٰ، وهذا فيما أرىٰ تَفْسِيرُ تَمْثِيلٍ، لا تفسير تخصيصٍ وتعيين، فحالُ اليهود حال من عرف الحقّ الذي جاء به رسول الله ﷺ، فرفض اتّباعه مكابرةً وعناداً، فقد أَبانَ الله عزّ وجلّ أنّ اليهود في المدينة قد عرفوا صِدْقَ الرسول محمّد ﷺ وصِدْقَ رسالته، إلاّ أَنّهم كابروا وعاندوا بغياً من عند أنفسهم، وهذا مَحْمُولٌ على علمائهم والعارفين منهم.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأنهم:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وحال جماهير النّصارىٰ حال من أعرض عن الإصغاء إلى دعوة الحقّ، فظلّ ضالاً في متاهته وهو يحسَبُ أنّه يُحْسِنُ صنعاً.

إلاّ أنّ حال بعض النصارىٰ كحال علماء اليهود، عرفوا الحقّ الذي جاء به محمد ﷺ والذي اشتمل عليه القرآن، ولم يتّبِعُوه اتّباعاً لأهوائهم وشهواتهم ومصالحهم الدنيويّة، فهم من المغضوب عليهم.

وحالُ بَعْضِ جهلة اليهود كحال جماهير النصارىٰ الضالّين التائهين، الذين يَحْسَبُون أنّهم على الحقّ، فلا يَلْتَفتون إلى الدعوة إلى الإسلام، ولا يُصْغُون إلى بياناتها.

ومن غير اليهود والنصارىٰ من هم مغضوبٌ عليهم ومن هم ضالُّون، والنصّ القرآنيّ يشْمَلُهُمْ بِعُمُومه، وتصنيفهم يكون بحَسَب أحوالهم.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر سورة (الفاتحة) على ما فتح الله به عليّ، وأعتقد أنّ للسورة أبعاداً وأعماقاً لم يَصِلْ إليها هذا التَّدَبُّر.

* * *

ملاحق لتدبّر سورة الفاتحة

الملحق الأول: حول كلمة: «آمين» بعد تلاوة الفاتحة.

الملحق الثاني: بلاغيّات في السورة.

الملحق الثالث: وجوب تلاوة سورة الفاتحة في الصلوات.

الملحق الرابع: تدبّر الآيات التي جاء فيها لفظ الصراط ونحوه، وهي: «السبيل ـ الطريق ـ المنهاج ـ الصراط».

(٦)

الملحق الأول

حول كلمة: «آمين» بعد تلاوة الفاتحة

آمِينَ: كلمة تُقال عَقِب الدّعاء، ومعناها اللَّهُمّ اسْتَجِب. ويُقالُ: أمَّنَ فلانٌ تأميناً أي: قال بعد الفراغ من تلاوة الفاتحة، أو الفراغ من دُعَاءٍ: آمين.

وهي كلمةٌ مبنيّة على الفتح مثل: أَيْنَ وكَيْفَ، وفيها لغتان، تقولُ العربُ: آمِينَ بمَدِّ الهمزة، وهي الأكثر، ومنه قول عُمَر بن أبي ربيعة:

يَا رَبِّ لاَ تَسْلُبَنِّي حُبَّهَا أَبَداً وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْداً قَالَ آمِينَا

وتقولُ أيضاً: أَمِينَ، دون مدِّ الهمزة، ومنه ما أنشده ابنُ بَرِّي لشاعرٍ:

سَقَىٰ اللَّهُ حَيًّا بَيْنَ صَارَةَ والْحِمَىٰ
حِمَىٰ فَيْدَ صَوبَ الْمُدْجِنَاتِ الْمَواطِرِ⁽¹⁾

---

(١) صَارَة وحِمَىٰ فَيْد: اسمان لموضعين. المُدْجِنَات: السُّحُبُ المَجلِّلةُ للأرض وأقطار السماء، الحاملة للماء. المَوَاطِر: التي تُمْطِرُ، جمع «ماطرة».

أَمِـيـنَ وَرَدَّ الـلَّـهُ رَكْـبـاً إِلَـيْـهِـمُ بِـخَـيْـرٍ وَوَقَّـاهُـمْ حِـمَـامَ الْـمَـقَـادِرِ(١)

والسنّةُ الصحيحة الصريحة الثابتة تواتراً قد دلّت على مشروعيّة التأمين عَقِب الانتهاء من تلاوة الفاتحة فمنها ما يلي:

(١) أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حُجْر قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقالَ: آمين مدَّ بِهَا صَوْتَه».

ولأبي داود: «رَفَعَ بِها صَوْتَه».

قال الترمذي: حديث حسن، وأخرجه أيضاً النَّسائي وابن أبي شيبة وابْن ماجه والحاكم وصحّحه.

(٢) وأخرج وكيع وابن أبي شيبة عن أبي مَيْسَرَة قال:

«لمَّا أَقْرَأَ جبريلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاتِحَةَ الكتَاب فَبَلَغَ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: قُلْ: آمِينَ، فقال: آمِينَ».

(٣) وأخرج ابن ماجه عن عليّ رضي الله عنه قال:

«سمِعْتُ رسول الله ﷺ إذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: آمِينَ».

(٤) وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابنُ ماجه عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا قَرَأَ (يعني الإمام): ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولُوا: آمِينَ يُحِبّكُمُ اللّهُ».

(٥) وأخرج البخاريُّ ومُسْلِمٌ وأحمد وأصحابُ السُّنَن وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) **حِمَامُ المقادر**: قضاء الْمَوْتِ الذي تقضي به المقادير.

«إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا فإنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وقال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: «آمِين».

وفي رواية عند البخاري ومسلم:

«إِذَا قالَ أَحَدُكُمْ: آمين، وقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ في السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

* * *

(٧)

الملحق الثاني

ممّا جاء في سورة الفاتحة من بلاغيات ما يلي:

(١) التسلسل في التعبير من الأعم إلى الأخصّ فالأخص في عبارات متتابعات:

- فعبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تضمّنت إثباتَ كلّ صفات ذات الله وأفعاله وثناءً على الله بها.

- وعبارة: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تضمَّنَتْ إثباتَ كلّ صفات رُبوبيّة الله لخلقه، وثناء على الله بها، وهي أخصّ من كلّ صفات الله عزّ وجل.

- وعبارة: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تضمّنَتْ إثباتَ كلِّ صفات رحمته وثناءً على الله بها، ومنها أنّه الرّزاق الفتاح الرّؤوف المغني النافع الهادي العفوّ الغفور البرّ التوّاب، وهذه أخصّ من صفات ربوبيته، جلّ جلاله.

- وجاءت عبارة: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ أو (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) أَخَصّ من عبارة: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لأنّ هذه تَعُمُّ الدّنيا والآخرة.

(٢) الالتفاتُ البديع في عبارة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فقد كان الكلامُ قبلَها جارياً على أسلوب ضمير الغائب في الثناء على الله، فالتفت إلى أسلوب ضمير الخطاب له جلّ جلاله.

(٣) إفادة التخصيص والحصر بتقديم المعمول على عامله في آية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أي: ما نَعْبُدُ غيرك، ولا نستعين غيرك، ولو تأخرَ المعمُولُ على عامله لمَا حصلت هذه الإفادة، وتكون العبارة في التأخير: «نَعْبُدُكَ ونسْتَعينُكَ» إذ الضمير المنفصل يتحوّل فيكون ضميراً متصلاً.

(٤) صيغة الأمر في عبارة: (إهْدِنَا) مستعملةٌ بمعنى الدعاء لأنها من العبد لربّه.

* * *

(٨)

الملحق الثالث

وجوب تلاوة الفاتحة في الصلاة

● ذهب جمهور الفقهاء المجتهدين من المسلمين إلى أنّ تلاوة الفاتحة واجبة في كلّ ركعة من ركعات الصلاة، خلال ركن الوقوف منها، بالنسبة إلى من قدر على تلاوتها سواءٌ أكان إماماً أمْ منفرداً، وأنّ الركعة لا تحتسب من ركعات صلاة المصلّي دون تلاوتها إلاّ المسبوق، فقد رأوا أنّ الإمام يتحمّل عنه ما لم يستطيع تلاوته منها، حتىٰ لو أدركه راكعاً فركع معه بعد تكبيرة الإحرام قبل أن يرفع الإمام من الركوع فإنّ الركعة تُحْتَسَبُ له، وتردّد في هذه بعض المتأخرين.

● وذهب قليل من الفقهاء ومنهم الحنفيّة إلى أنّه لا تشترط لصحة الصلاة تلاوةُ الفاتحة، بل تجزئ المصلّيَ تلاوةُ ما تيسّر من القرآن، ولو من

غير الفاتحة، إلاّ أنه يكون قد ترك واجباً ليس شرطاً في صحة الصلاة، وهذا على ما ذهب إليه الأحناف من التفريق بين الفرض والواجب.

واستدل الجمهور لما ذهبوا إليه بما يلي:

(١) روى البخاريّ ومسلم وأحمد وغيرهم عن عبادة بْنِ الصامت رضي الله عنه، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرأ بفاتِحَةِ الكِتَابِ».

(٢) وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ صَلَّىٰ صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، غَيْرُ تَمامٍ».

فقيل لأبي هريرة: إنّا نَكُونُ وراءَ الإمام؟ فقال: إقرأْ بِها في نَفْسِكَ.

الْخِدَاجُ: النقصان، يقال لغة: خدَجَتِ النّاقة، إذا ألقت ولدها قبل أوان النّتاج.

(٣) قال ابن كثير في تفسيره: وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً:

«لاَ تُجْزِئُ صَلاَةُ مَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأُمِّ الْقُرْآن».

فالأحاديث هذه صريحة في الدّلالة على ما ذهب إليه جمهور الفقهاء المجتهدين.

واستدلّ الحنفيّة لما ذَهَبُوا إليه بعموم قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزّمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿. . . فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ . . .﴾.

الآية الّتي منها هذه الفقرة من التنزيل المَدنيّ الذي ضُمّ إلى سورة هي من أوائل التنزيل المكي.

قَالُوا: وهذا في الصلاة، وما يتيسّر من القرآن يصْدُقُ بآياتٍ منه ولو كانت من غير الفاتحة، فتجزئ القراءة بها، ويُحْمَل ما جاء في الأحاديث على الوجوب فقط، لا على كون تلاوة الفاتحة شرطاً لصحّة الصلاة، وهذا على أصلهم من أنّ أحاديث الآحاد لا تَنْسَخُ مَا جاء في القرآن المتواتر، وهي مسألة خلافيّة مدوّنة في علم أصول الفقه.

أقول:

إنّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ قَدْ جاء في العهد المدني تخفيفاً على الرسول ﷺ وعلى من كان قد ألزم نفسه من الصحابة بأن يعمل مثل عمله في إيجاب قيام اللّيْل عليه، الذي أوجبه الله عليه منذ أوائل العهد المكيّ، بقوله له كما جاء في أوّل السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾.

والمرادُ من قيام اللّيل الصّلاةُ فيه من غَيْرِ الفرائض الخمس.

وقَدْ جَاءَ التعبيرُ في العهد المدني بقول الله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ كنايةَ عَنِ الصلاة في اللّيلِ من غيرِ الفريضةِ إشعاراً بأنّ تلاوة القرآن في الصّلاةِ هي من أَهَمّ عناصِرِها، فالمعنى: فصَلُّوا في اللّيل ما يتيسَّرُ لَكُمْ، وأدنى المتيسّر ركعتان، وهذا على الوجوب بالنسبة إلى الرسول ﷺ، أمّا غيرُهُ مِنَ الْمُسْلِمِين فهو على النّدْب.

وحَمْلُ قولِ اللّهِ تعالَىٰ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ عَلَىٰ قيام اللّيْلِ هو فَهْمُ جُمهورِ المفسّرين والفقهاء، على أنّ ظاهر اللّفظ يدُلُّ على الاكتفاء بتلاوة ما تيسّر من القرآن في قيام اللّيْلِ ولو في غير الصّلاة.

وعلى ما ذهب إليه الجمهور من أنّ العبارة كناية عن الصّلاة في اللّيل فليس فيها دليلٌ واضح الدلالة على أنّه يجزئ تلاوةُ ما تيسّر من القرآن في

الصلاة من غير فاتحة الكتاب لمن هو قادرٌ على تلاوتها، فدلالة هذا النصّ المتواتر على أصْلِ المسألة المتنازع فيها دلالة احتماليّة، فلا ينطبق عليها قاعدةُ الحنفيَّةِ من أنَّ أحاديث الآحاد لا تَنْسَخُ ما جاء في القرآن المتواتر، فالمعنى الاحتمالي في النصّ المتواتر وليس متواتِراً، فلا يستقيمُ أن يُطبَّقَ عليه الحنفيّة أصْلَهم، من أنّ المتواتر لاَ يُنْسَخُ بالآحاد.

فالحقّ في هذه المسألة هو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء المجتهدين من المسلمين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عملاً بما ثبت في السُّنة، والله أعلم.

* * *

(٩)

الملحق الرابع

نظرات تدبّرية حول الآيات الّتي جاء فيها لفظ الصراط ونحوه في القرآن

لدى استقراء كلمات: «الصراط ـ الطريق ـ السبيل ـ المنهاج» في القرآن مع سَبْر معاني الآيات الّتي وردت فيها بتدَبّر تبيّن لي أنّه لم تُسْتَعْمَلْ هذه الكلمات في القرآن بمعنىٰ الدّين الذي اصطفاه الله لعباده، الشامل لأصوله وشرائعه وأحكامه وبياناته وتعليماته ووصاياه، إلاّ بالإفراد، للدَّلالة على أنّ صراط الله أو طريقه أو سبيله أو منهاجه الذي اصطفاه لعباده واحد، لا تعدُّد فيه.

ولهذا أمر الله عزَّ وجلّ في قَضِيّة الدِّين باتّباعِ سَبِيله الواحدة غير المتعدِّدة، ولاَ يُؤَثِّر على وحْدَةِ سبيلِ الله التغييرُ في بعض أحكام التكاليف العمليّة في رسالات الرُّسُل، أَوْ رسَالَةِ الرَّسُول الواحد، فهذا التغيير يُشْبِهُ تَغْيِيرَ حركةِ السَّيْرِ على الطريق الواحد، ما بين مَشْيٍ هادئ، أو مشيٍ

سريع، أو سَعْيٍ بِهِمَّة، أو ركُوبٍ على مَرْكوبٍ مَا يَنْتَقِلُ براكبه على الطريق الواحد، في نهارٍ أو لَيْلٍ، أو أيِّ جزءٍ من أجزائهما، إلى غير ذلك من احتمالاتٍ لا يَخْتَلِفُ بها السبيلُ نَفْسُه، وإنّما تختلف بها حركة السَّيْر.

والغَرضُ من التغيير في بعض التكاليف امتحانُ ما لدى الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا من استجابة بالطاعة لأوامِرِ الرَّبِّ الْمعبُودِ ونواهيه، أو عدم استجابة.

وصراطُ الله ذو مراحلَ، فَمَنْ سَلَكَ مَهْدِيًا في مرحلةٍ أولى منه، فهو بحاجة إلى متابعة ما بعدها على هُدَىٰ، وهكذا في كلّ المراحل التاليات حتى آخر حياته، إذ يلْقَى ربَّهُ وهو ملتزم سلوك صراطه المستقيم، أو تائب راجع إلى الالتزام به.

- فكلّ ما جاء في القرآن من مادّة «صراط» قد جاء مفرداً، ولم يأتِ مجموعاً في أيّ نصّ قرآني.

- وجاء من مادة «منهاج» مرّة واحدةً فقط، وقد جاءت بالإفراد.

- وجاء من مادة «طريق» بالإفراد إذا كان بمعنى شرائع الدين وأحكامه، أمّا ما جاء منها مجموعاً فقد جاء بلفظ «طرائق» بمعنى طرقات مادّية، أو بمعنىٰ سُبُل الضلال.

- أمّا مادّة «سَبِيل» فنلاحظ في القرآن أنّ كلّ النصوص التي يتضمّن السِّبَاق أو السِّيَاقُ فيها أن المراد شرائع الدين وأحكامه فقد جاء فيها اللّفظ بالإفراد.

وكلّ ما جاء في القرآن من مادّة «سبيل» مجموعاً فقد جاء للدلالة على سُبُل الأَرْض، أو سُبُلِ الرّزق، أو سُبُل السلامة والنجاة في الدنيا، أو سُبُل الضلالة، ونحوها.

* * *

أولاً: نظرات تدبّريّة حول ما جاء في النُّصوص القرآنيّة من مادّة «سَبيل»:

(١) قال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية حوار جرىٰ بين فرعون وموسىٰ عليه السّلام:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

فجاء لفظ «السُّبُلِ» في هذا النصّ وهو جَمْعُ «سَبِيلٍ» لأنّ المقصود سبُلُ الأرْضِ المختلفة الموصلة إلى ما يُرِيدُ النّاسُ الوصول إليه من نواحي الأرض المتباعدة والمختَلِفة، والّتي لا تُوصِلُ إليها سبيلٌ واحدة.

* * *

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) يُعَلِّم رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بعض ما يقوله للناس، ومنه أنْ يقول لهم:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

وصراط الرَّسُولِ ﷺ هو صراط الله الذي وصّىٰ الناس بأن يَسْلكوه ليتَّقُوا بسلوكهم إيّاهُ عذابَه يومَ الدِّين، مع مَا يتقون من عذابٍ آخر مُعَجّل قَدْ يُنْزِلُهُ اللّهُ بالذين يسلكون السُّبُل الأخرى المتفرّقة.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الله عزّ وجلّ أمَرَ باتّباع سبيله، وهي سبيل واحدة، ونَهَىٰ عن اتباع السُّبُلِ الأخرى، لأنّ مَنْ سَلَكَ شيئاً مِنْها تفرَّقَ وابْتَعَد عن سبيل الله، وسار في المتاهات المهلكات ذاتَ اليمين أو ذاتَ الشِّمال.

وهذا نصٌّ قاطعٌ واضحُ الدلالةِ على أنّ سبيل الله وهو الدِّين الذي اصطفاه لعباده سبيلٌ واحدة، لا تعدُّدَ فيها.

* * *

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) مبيّناً بعض آيات نعْمَتِهِ على الناس:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠﴾.

أي: وجعلَ لَكُمْ في الأرضِ سُبُلاً مختلفة كثيرة تَسْلُكُونَها لتحقيق مطالبكم من الحياة الدنيا، وتَصِلُون بسلوكها إلى غاياتٍ لكُمْ فيها فوائد ومنافع، وفي هذه السُّبُل المختلفة آياتٌ على طائفة من صفات الخالق العليم الحكيم الرحيم بعباده، فمن أدركها باحثاً عن الحقّ اهتدىٰ إلى الإيمان به جلّ جلاله، ثمّ إلَىٰ الإيمان بكتابه ورسوله واليوم الآخر.

* * *

(٤) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) مُبَيِّناً أيضاً بَعْضَ آياتِ نِعَمِه على عباده، الّتي تَهْدِي من تفكّر فيها إلى الإيمان به وبكمال صفاته وبرسوله وكتابه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٤ وَأَلۡقَىٰ فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥﴾.

أي: وألْقىٰ في الأرض جبالاً رواسي لئلّا تَمِيدَ قِشْرَةُ الأرض بالنّاس.

يقال لغة: مَادَ الشّيْءُ يَمِيدُ إذا تحرَّكَ واضطرَب.

وجعل فيها أنهاراً لسُقْيا الناس والأنعام والمزارع، وجَعَلَ فيها سُبُلاً مختلفة كثيرة يسلُكُهَا النّاس للوصول إلى غاياتهم وتحقيق مطالبهم من الحياة الدنيا، فهي سبُلٌ دُنْيويَّة.

فمن تفكر في هذه الآيات الربّانيّة باحثاً عن دلالاتها المعنوية اهتدىٰ إلى الإيمان.

* * *

(٥) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) أيضاً:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

السُّبُلُ المذَلَّلَة الّتي هيّأها الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ في جَوِّ الأرض للنَّحْل، حتّىٰ تسلُكها طيراناً بأجنحتها لتَصِلَ إلى رحيق الأزهار، ثم تعود إلى بيوتها، فتأوي إليها وتعمل في صناعة العسل، هي سُبُلٌ دُنيويّة، ولهذا جاء اللّفظ بالجمع.

* * *

(٦) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) في حكاية مقالات نوحٍ عليه السلام لقومه وهو يَدْعُوهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

سُبُلاً فِجَاجاً: أي: طُرُقاً واسعة.

فالله بمنّتِهِ على الناس في الأرض جعل لهم الأرض ذات مساحات

منبسطة ممتدة، كالبساط، ولم يجعلها جميعاً جبالاً كظهر القنفذ. وفي هذه المساحات المنبسطات الواسعات يتخذ الناس لأنفسهم فيها طُرُقاً واسعة يَسْلُكونها للوصول إلى غاياتٍ لهم يُحَقِّقُون فيها مصالح لهم ومنافع يرجونها، ومطالب لمعاشهم.

* * *

(٧) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في حكاية بعض مقالات الرُّسُل السّابقين لأقوامهم:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

هذا النصّ يتحدَّثُ عن أنواع الضغوط الآثمة الظالمة، وأنواع الأذىٰ، الّتي كانَ يتَعَرَّضُ لها الرُّسُلُ مِنْ قِبَلِ الكافِرين الطغاة من أقوامهم، والّتي جَعَلَتِ الرُّسُل عليهم السلام يُعْلِنُونَ تَوَكُّلَهُمْ على الله جلّ جلاله، ويُعْلِنُون أَنَّه لا داعِيَ يدعُوهُمْ إلى اليأس من النجاة من ظلم الكافرين لهم، وقد هداهم الله سُبُلَهُمْ لتحقيق نجاتهم من أن يَتَعَرَّضوا للهلاك بأيدي الكافرين، أمّا الأذىٰ الذي لا يَصِلُ إلى حَدِّ القتل فهم يَصْبِرُونَ عليه، قياماً بواجب تبليغ دِينِ الله للناس.

ولَيْسَ وارداً في عبارة الرُّسُل: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ في هذا النَّصّ أن يكون المراد سُبُلَ الدّين، فسبيل الله الدّيني لجميع الرُّسُل سبيلٌ واحدةٌ لا تعدُّدَ فيها، لكنَّهَا هُنَا سُبُلُ النجاة من القتل بأيْدِي أعدائهم الكافرين،

وهي السُّبُل المختلفةُ الّتي هداهم الله إلى سُلوكها للخلاص من تهديد أعدائهم لهم بالقتل، والقرينة على هذا توكُّلُهُمْ على الله.

* * *

(٨) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

كانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا: الرَّتْقُ: الالتئامُ بين الشيئَيْنِ وتلاصقهما. **والفتق**: ضدُّ الرّتْق.

فدلّ هذا النصُّ على أنّ السَّماوات والأرض كانت في مرحَلَةٍ منْ مراحِلِ الْخَلْقِ السّابق ملتئمةَ الأجرام متلاصقة، ثمّ قسّمَها الله جَلّ جلاله وباعَدَ بين الأقسام، فكانت الأرض، وكانت الكواكب والنجوم في السماء.

وجَعَلْنَا فِيها فِجَاجاً سُبُلاً: أي: وجعلنا في الأرض طُرُقاً واسعةً يتخذها النّاسُ سُبُلاً للوصول إلى غاياتٍ يحقّقون فيها مطالب لهم في معايشهم.

* * *

(٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وهي من أواخر التنزيل المكيّ:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

من الواضح أنّ الجهاد المرادَ في هٰذه الآية هو جهادُ المقاومة لضُغُوط أعداء الإسلام من المشركين، وجهاد الصَّبْر، وجهاد اتخاذ السُّبُلِ للهجرة والفرار بالدّين.

وفي هذه الآية إشارة ضمنِيَّةٌ للضعفاء الَّذِين فُتِنُوا في دينهم أَنْ يَتَّخذوا أيَّ سبيلٍ، ليتخلّصُوا بالهجرة من ضغوط الكافرين ذوي السلطان والجبروتِ في مكّة، فإذا فَعَلُوا ذلِكَ بإحْسَانٍ وَتصرُّفٍ حكيم، هداهُمُ الله عزّ وجلّ إلى سبُلِ نجاتهم وسلامتهم، وإنّ الله لَمَعَ المحسنين بالمعونة والتوفيق والتأييد والنَّصْر، أمَّا الَّذِين لا يُحْسِنُونَ التصرُّف، فيتحرَّكُونَ لتحقيق غاياتهم تحرّكاً أهوج طائشاً، ولا يتّخذون الشّروط السببيّة الملائمة، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يَعِدْهُمْ بأن يكون معهم.

ويقع كثيرٌ من المؤمنين ذوي السّذَاجة والجهْلِ بمفهومات الدّين، في غلَطٍ فاحِشٍ حِيالَ هذه الحقيقة، فَيُسِيئُونَ التصرُّف، ولاَ يتَّخذون الشروط السببيّة الملائمة المطلوبة، ثمّ يطالبون الله عزّ وجلّ بأن يكون معهم حامياً وناصراً، تصوُّراً منهم أنّ الإحسان في العمل بمفهوم الدّين قاصرٌ على جوانب خاصَّةً تتعلّقُ بالعبادات المحضة، ولا ينطلقون مع الأبعاد الكاملة لقول الرسول ﷺ في تعريف الإحسان:

«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وأنّ العبادة لِلّه تشْمَلُ كلَّ سُلُوكِ الإنسان في الحياة الدنيا، وأنّ الجهاد في سبيل الله من أعظم العبادات وأكثرها تحقيقاً لمرضاته.

ويغفلونَ عن قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح:

«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ».

فالله عزّ وجلّ يُعَلِّم المؤمنين في هٰذهِ الآية من سورة (العنكبوت) أنْ يكونوا محسنين في اتّخاذ الأسباب المناسبة للهجرة من بَلَدٍ يُفْتَنُونَ فيه بدينهم، حتَّىٰ يكون معهم ساتراً وحافظاً وناصراً.

وقد ضرب الرسول ﷺ في سلوكه المثل الكامل في اتّخاذ الوسائل السببيَّةِ على أَحْسَنِ وجْهٍ لدى هجرته من مكة إلى المدينة، حينَ أذن الله له بالهجرة.

إنّ الله عزّ وجلّ يكون مع الّذِين يُحْسِنُونَ التَّصَرُّفَ في أعمالهم ويُتْقِنُونَها، ولا يكون مع المتساهلين، ولا المتهاونين، ولا الفوضويين، ولا الّذِينَ لا يُتْقِنُونَ أعْمَالَهُمْ، ولا يتخذون أفضل الوسائل لما يبتغون من خَيْر.

وغير وارد إطلاقاً تفسير السُّبُل في قول الله عزّ وجلّ في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ بالسُّبُلِ الدينيّة، لأنّ سبيل اللّهِ في الدّين سبيلٌ واحدة، بلْ هي سُبُلُ سَلاَمتِهِمْ ونجاتِهِمْ وَخلاصهم مِنْ أعدائهم في الحياة الدنيا، ومنها سُبُلُ هِجْرَةٍ آمِنَةٍ، مَعَها تَأْمِينُ سبُلِ الرّزق والمعاش.

وهكذا تنسجم هذه الآية مع سائر النصوص القرآنية انسجاماً تامًّا.

* * *

(١٠) قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لأهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

سُبُلَ السَّلاَم: أي: طُرُقَ الأَمْنِ والنَّجاةِ في أمور دنياهم، ولكَيْلاَ نَفْهَمَ أنّها سُبُلٌ في الدِّين قالَ اللّهُ عزّ وجلّ في آخر النّصّ:

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فثبت من استقراء النُّصوصِ الواردة حول مادّة «سَبيل» مَعَ سَبْرِ معانيها بالتدبّر أنّ سبيل اللّهِ في الدِّين واحدةٌ لا تعَدُّدَ فيها.

* * *

ثانياً: نظراتٌ تدبّرية حول ما جاء في القرآن من مادّة «طريق»:

كلّ ما جاء في القرآن من مادّة: «طريق» مراداً به الدّين الذي اصطفاه اللّٰهُ لعباده قد جاء مفرداً، وهي ثلاثة نصوص:

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) في معرض الحديث عن طائفة من الجنّ استمعوا القرآن من الرّسُول ﷺ فآمنوا به:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ⑯ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ⑰﴾:

على الطريقة: أي: على صراط الله المستقيم، فجاءت الطريقة بالإفراد.

غَدَقاً: أي: غامراً كثيراً.

عَذَاباً صَعَداً: أيْ: عذاباً شديداً شاقًّا.

* * *

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) حكاية لمقالة بعض مؤمني الجنّ الذين سمعوا القرآن من الرسول ﷺ فآمنوا به، ودَعَوْا قومهم إلى الإيمان:

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ㉚ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ㉛﴾.

فجاء في هذا النصّ التعبير عن دين الله لعباده بعبارة: ﴿طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالإفراد.

النصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾﴾.

* * *

وجاء في القرآن التعبير بعبارة: ﴿طَرَآئِقَ﴾ جمع «طريقة» وهي مؤنث «طريق» دلالة على الطرائق المختلفة لكفرة الجنّ، وعلى الطرائق السَّبْعِ الّتي تَجْرِي فيها نجوم السماوات السَّبع.

فلا شيء في القرآن من مادّة «طريق» قد جاء مجموعاً بمعنى الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده.

وبقي علينا استعراض النُّصوص التي جاءت فيها مادَّتَا «منهاج وصراط» بشيءٍ من التدبُّر.

* * *

ثالثاً: نظرات تدبُّرية حول ما جاء في القرآن من كلمة «منهاج»:

لم يأت في القرآن من هذه المادة إلا كلمة واحدة جاءت في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لرسوله في معرض الحديث عن أهل الكتاب وما هو المطلوب من الرسول ﷺ إذا أَتَوْا إليه ليحكُم بينهم:

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

يخطئ بعض المتعجّلين في فهم قول الله عزّ وجلّ في هذا النصّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فيتَصَوَّر أنّ رسالات الله الّتي أرسل بها رُسُلَه السابقين إلى الأمم مختلِفَةٌ فيما بينها شِرْعةً ومنهاجاً، وما جاء في الرسالة الخاتمة مشتمل على شرعة ومنهاجٍ مخالفين أيضاً لما جاء في الرسالات السابقات، وجاء هذا الوهم من كون بعض أحكام الفروع التعبُّديَّة قد جاء فيها تكميلٌ أو تعديلٌ أو تيسير، مع أنّ مثل هذا قد حصل في الرسالة الخاتمة نَفْسِها، دون أن يؤثّر على وحدة صراط الله، ووحدة شرعته ومنهاجه الذي اصطفاه الله لعباده.

وقد أكّدت النصوص الكثيرة جدًّا أنّ صراط الله الدينيّ الذي اصطفاه الله لعباده صراطٌ مستقيمٌ واحد، لا تعدُّد فيه، وهو الدّين الذي بيَّنَهُ اللَّهُ لآدَمَ ولِسَائِرِ النبيّين والْمُرْسَلِينَ مِنْ ذرّيته.

ونظراً إلى وحدة صراط الله لعباده جعَلَ الله أَتْبَاعَ جميع الرُّسُلِ أمَّةً وَاحِدَةً، تتلاحَقُ مَوَاكِبُها بقيادَةِ المرسلين، حتَّىٰ خاتمةِ الرسالات الرّبّانيَّةِ الَّتي جعَلَ اللَّهُ قائِدَهَا محمد بن عبد الله ﷺ.

لكنّ أهواء الناس هي الّتي كانت السَّبَبَ في التفرُّق والتمزّق إلَىٰ فِرَقٍ وأحزابٍ شتَّىٰ، فمن التزم صراط الله الحقَّ اتّبع الرسول الخاتم، وعَمِلَ بما أنزلَ الله عليه، وهَجَرَ تحريفات المحرّفين وغُلُوَّ الغالين، وما أدْخل النّاس من شِركيّاتٍ وكُفرِيَّاتِ فيما يُنْسَبُ إلى الرُّسُلِ السابقين.

دلَّ على هذه الحقيقة نصٌّ أنزلَه الله في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) خطاباً للرسُل جميعاً، وفي هذا الخطاب دلالة على أنّ مضمونه قد أنزله الله على جميع المرسلين ضمن ما أنزل على كُلٍّ منهم، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

زُبُراً: أي: قطعاً، وكُتُباً ذاتَ تَعليمات مختَلفات.

فأَتْبَاعُ كلِّ الرُّسُل بصِدْقٍ واستقامة دون انحرافٍ ولا اتباعٍ للهوىٰ، هُمْ أُمَّةٌ واحدةٌ بمقتضىٰ دلالة هذا النصّ، وهذه الأمَّةُ الواحدة لهاَ صراطٌ واحدٌ مستقيم هو صراط الله لعباده، ولها سَبِيلٌ واحِدَةٌ مُسْتَقِيمةٌ هيَ سَبِيلُ اللَّهِ لعباده، ولها شرعةٌ واحِدَةٌ هي شرعَةُ الله لعباده، ولَها منهاجٌ واحدٌ هو منهاج الله لعباده.

تدبر النصّ الذي جاء في سورة (المائدة):

- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾:

أي: وأَنْزَلْنا إليكَ يَا مُحمَّدُ القُرْآنَ مُلْتَزِماً بالحقّ لاَ يحيد عنه، ومقترناً به اقتران الروح بالجسد ذي الحياة، وهذا معنى الملابسة الذي تدلُّ عليه «الباء» في عبارة: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

وهذا الكتاب مصدِّقٌ للكُتُب الرَّبَّانِيَّة الّتي أنزلَها الله بين يَدَيْه، أي: قبله، وهكذا الحقُّ يُصَدِّقُ بعضُه بعْضاً، ويؤيِّدُ بعضُهُ بعضاً، لكنّ القرآن يُصَدِّقُ الكُتبَ السابقة على ما أنزلَها الله، ولا يُصَدِّقُ الكتُبَ الّتي دخَلَ فيها التحرِيفُ والتبديلُ والتغيير، ولا الكُتُبَ الّتِي كتَبَها الناسُ بأَيْدِيهم ونَسَبُوها إِلَىٰ الرُّسُلِ الصادقين، وزعَمُوا أنّها كُتُبٌ مُنَزَّلَةٌ من عندِ الله.

﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: من الكُتُب الربّانية و «أل» في الكتاب للجنس.

ومُهَيْمِناً عليه: جاء في تفسير المهيمن أنَّهُ الأمِينُ المؤتَمَنُ، والشّاهد والحاكم.

فالقرآنُ بمقتضىٰ هيمنته على الكُتبِ الرَّبَّانيَّةِ السابقة، يَشْهَدُ بِصِحَّةِ نزولِ كتُبٍ من عند الله على رُسُلِهِ السَّابقين، وهو الأمين الذي حفظ ما نزل فيها بصيغته الثابتة قطعاً الّتي لم يدخُلْهَا ولَنْ يَدْخُلَها تَحْرِيفٌ وَلاَ تَبْدِيلٌ وَلاَ نِسْيَانٌ، وهو الحاكم عليها الذي يُرْجَعُ إلَيْهِ فيما اشتَبَهَ على الناس من أحكامها، ويُرْجَعُ إليه في معرفةِ أحكام الله، وفق آخر صيغةٍ مُكمَّلَةٍ مُتَمَّمَةٍ صحيحة، أكْمَلَ اللَّهُ بها للنّاس دينهم، وأتَمَّ بها عليهم نعمته.

- ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾:

تكليفٌ من الله لرسوله ثم لكلّ حاكمٍ من أمته أن يحكم بما أنزل الله بين الناس جميعاً، مَنْ آمن بالرَّسُولِ والقرآن منهم، أو رضي بحكْمِ الرسول أو بحكُم الحاكم من أمته ممَّنْ لم يدخُلْ في الإسلام.

وما أنزل الله يشْمَلُ ما انفرد به القرآن تكميلاً أو تعديلاً، وما اشتركت ببيانه الكتب الربّانيّة ممّا لم يُنْسَخْ ولَمْ يعدَّلْ فيه شيءٌ.

ونهى الله رسولَهُ ويُلْحَقُ به كلُّ حاكم من أمّته عن اتّباع أهواء الناس، ومنهم أهل الكتاب الأوّل الّذين حرّفُوا وبدلُوا ما أنزل الله على الرسُل السابقين، فقال تعالى له: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾:

أي: ولا تتبعْ أَهْوَاءَهم مُعْرِضاً أو مُنْصرِفاً عمّا جَاءَكَ من الْحَقِّ، وقَدْ ضُمِّنَ فعل: ﴿تَتَّبِعۡ﴾ المنهي عَنْه معنَىٰ فِعْل: «تُعْرِض أو تُدبِر أَوْ تَتَوَلّى أو تَنْصَرِف» فَعُدِّيَ تعديته، فجاءت عبارةُ: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ مُلائمة لهذا التضمين.

- ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾:

إنّ الناس ينتهجُون مناهج مختلفة في حياتهم، انطلاقاً من المبادئ والأُسس الاعتقاديّة الّتي يعتقدونها. وهذا هو نظام السلوك الإنساني الذي فطر الله الناس عليه، وجعله سُنَّةً من سُنَنِ الاجتماع البشري، فمن آمن بالله ورسوله دفعه إيمانه إلى الالتزام بصراط الله المستقيم الذي اصطفاه ديناً لعباده، وتحرَّىٰ العمل بمنهاجه التفصيلي. ومن اختار لنفسه مبادئ أخرى وَضْعيَّةً من الأوضاع البشرية عمل بما تقتضيه هذه الأوضاع البشريّة.

شِرْعَة: الشِّرْعَة والشريعة في كلام العرب هي مَشْرعَةُ الماء، وهي مورد الشاربة الّتي يشْرَعُها الناسُ فَيَشْرَبُونَ مِنْهَا ويَسْتقون، ورُبّما شَرَّعُوها دوابَّهم حتَّىٰ تَشْرَعها وتَشْرَبَ منها، والعربُ لا تسمِّيها شريعةً حتَّىٰ يَكُونَ الماء فَيْضاً لا انقطاع له، وحتّىٰ يكون ظاهراً معيناً لا يحتاج أن يُنْضَحَ بالدّلاء. [عن لسان العرب مع بعض تصرّف في اللّفظ].

وهنا نلاحظ أنّ الشِّرْعَة تُشِير إلى المبادئ والأسس الاعتقاديّة الّتي يشْرَعُها الناس، فيشربون منها ويسْتَقُون مفهوماتهم للحياة وعقائدهم، وهو ما يُسَمَّى في اصطلاح القانونيين بالمبادئ الأساسيّة، أو الموادّ الدستورية، أو الأسس الّتي يعتمد عليها الدستور، وقد يُطْلِقُون عليها عبارة «أيديولوجيات».

منهاجاً: المنهاج والمنهج الطريق الواضح، تقولُ العرب: أَنْهَجَ الطَّرِيقُ، إِذَا وَضَحَ واسْتَبَانَ، وصار نَهْجاً واضِحاً بَيِّناً.

وهنا نلاحظ أنّ المنهاج يشير إلى الأحكام التفصيليَّة لأعمال الحياة وأنواع السُّلوك فيها، وهذه الأحكام تستند إلى المبادئ والأسس الاعتقادية الّتي اشترعوها وانطلَقُوا منها، فهي الأديولوجيات التي يستندون إليها في رسم مناهجهم في الحياة.

والناس في شرائعهم ومناهجهم على أقسام:

(١) فمن يؤمن بالله ورُسله، واليوم الآخر، ويكون صادقاً مخلصاً حريصاً على سعادته ونجاته، يَرِدُ شِرْعةَ اللّٰهِ لعباده، ويَصْدُرُ عنها سالكاً منهاج الله لهم.

وانسجاماً مع هذه الفطرة التكوينيّة، اصطفىٰ الله للنّاس في الكتُب الّتي أنزلها على رُسُلِهِ شِرْعَةً يَشْرَبُونَ منها المبادئ والأُسُسَ الّتي يجب عليهم أنْ يُؤْمِنُوا بها، ليضمَنُوا لأنفسهم السعادة العاجلة والآجلة، واصطفىٰ لهم منهاجاً بيّناً واضِحَ المعالم مَوْصُولاً بالشِّرْعَة، وأوصاهم بأن يسلُكُوهُ في حياتهم، ليَضْمَنُوا لأنفسهم السعادة.

وهذا المنهاج الرَّبَّانيُّ قد دخل فيه بحَسَبِ التكامُل البشري، والتَّطَوُّرِ الإنساني تكامُلٌ، وبعض تعديلات، ليلائم الطور الذي وصل إليه الناس، فلمَّا اكتَمَلَ التّطوُّر البشريّ أنزل الله عزّ وجلّ المنهاج المكتمل على خاتم رُسُله.

(٢) والذين يُشْرِكُون بالله، قَدِ اتَّخَذُوا لأنفسهم شِرْعَةً غير شِرْعَةِ الله، ولا بُدَّ أَنْ يكون لهم منهاجٌ في الحياة منسجم مع شركهم، وهو مخالفٌ حتماً لمنهاج الله للناس.

(٣) والذين يجحدون الله جحوداً كلّياً، ولا يؤمنون بالغيب، ولا يؤمنون بأنهم مدينون ومجازَوْن، قد اتخذوا لأنفسهم شرعةً غير شرعَةِ الله لعباده، ولا بُدَّ أن يكون لهم منهاج في الحياة منسجمٌ مع نوع كفرهم بالله واليوم الآخر، وهو مخالفٌ حتماً لمنهاج الله للناس.

وهكذا يتّضح للمتدبر معنى قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾.

إذ الخطابُ مُوجّهٌ للنَّاسِ جميعاً مؤمنين وكفّاراً.

وقد تُشكل على بعض الذين يَتْلُونَ هذا النصّ عبارة: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فيه، حينما يَضَعُونَ في تصوُّرِهم هذا الْفَهم الذي سبَقَ بيانه.

وأقول:

إنّ عبارة: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ هنا ينبغي أنْ نَفْهَمَها على معنى الجعل التكويني الْقَدَرِيّ الْعَامّ الّذي ربط الله به المسبَّبَات بأسبابها، وهذا الجعْلُ التكويني هو الْمُهَيْمِنَ على كُلّ ما في الكون من قوانين وسُنَنٍ ربَّانِيَّة، وهو يَشْمَلُ مَا فَطَرَ اللَّهُ الناسَ عليه، وجعَلَهُ سُنَّةً من سُنَنِ الاجتماع البشريّ، والسُّلُوك الإنسانيّ الاختياريّ.

أي: فمن اختار شِرْعةً غير شرعة الله، بمقتضىٰ ما وهبه الله من إرادة حُرَّةٍ مختارة، وسخَّرَ له المسخَّراتِ الّتي تُطِيعه بخَلْقِ الله، فيُحَقِّقُ بها ما اختار لنفسه، فلا بُدَّ أن يتخذ في حياته منهاجَ سلوكٍ يلائم ما اختار مِنْ شِرْعة، ويُمَكِّنُهُ اللَّهُ من سلوكه بما يُسخِّرُ له من مُسَخّرات. ومن اختار شِرْعةَ الله كذلك فلا بُدَّ أن يَدْفعه إيمانه إلى سلوك منهاج الله لعباده، وبعد وجود الدافع: إمّا أن يستجيب بإرادته مطيعاً، وإمّا أن لا يستجيب فيتبع هواه عاصياً.

والمعنى فاحكم بين الناس يا محمَّد بما أنزل الله عليك، ولا تتَّبع أهواءهم مُعْرِضاً أو مُدْبراً عمّا جاءك من الحقّ، لك شِرْعَتُكَ ومنهاجُكَ اللّذان أوْحَيْنا بهما إليك، ولكلٍّ منهم. أيْ: من الناس غَيْرِ المؤمنين شِرْعَتُهُ ومِنْهَاجُهُ، فَسُنَّةُ الله في المجتمع البشريّ أنّ مناهج الناس في الحياة تَتْبع مَشَارِبَهُمْ وشرائعهم «= أي: أيديولوجياتهم».

- فالمؤمنون شِرْعَتُهُمْ ابتغاء مرضاة الله، ومنهاجهم أحكام دينه لعباده.

- والكافرون شرائعهم أهواؤهم وضلالات الشياطين، ومناهجهم ما يُرْضِي شهواتهم، ويَرْسُم لهم شياطينهم وواضعو مذاهبهم.

الْجَعْلُ في القرآن:

استعمل القرآن فعل «جَعَل» في عدّة معاني، أبرزها المعاني التالية:

(١) الخلق والتكوين.

(٢) الحكم الديني الذي يَمْتَحِنُ الله به النّاس.

(٣) الحكْمُ الإنسانيّ الصادر عن تَصَوُّراتِ الناس، فمنها الحق ومنها الباطل، ومنها الصواب ومنها الخطأ.

(٤) الفعل ذو الأثر من أيّ مخلوق، سواءٌ أكان صادراً عن إرادة أمْ عن غير إرادة⁽¹⁾.

- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾:

أي: وبما أنّ الناسَ مختلفون في شرائعهم ومناهجهم، فلا بُدَّ أن يفترقوا إلى أُمَمٍ متخالفة، وهذا من آثار مَنْحِهم إراداتٍ حرَّةً لابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا.

ولو شاء الله أن يجعل الناس أمّةً واحدة، لسلبَ الناس إراداتهم الحرّة، ولجعلهم مَجْبُورين على الإيمان والإسلام، ولكانوا بذلك أُمّةً واحِدَةً ربّانيّة خاضعةً في حركاتها وسكناتها لسُلْطانِ قَدَرِ الله الْجَبْرِيّ.

ولكنَّ هٰذَا يفوّتُ حكمة الابتلاء، الذي هو في الأساس الغاية من خلق الناس مزوّدين بالصفات الّتي هم عليها.

فالله عزَّ وجلَّ لم يجعل النَّاسَ أُمَّةً واحدة بالقهر والجبر، لأنّ حكمته قد قضت بأن يمتحنهم فيما آتاهم من إراداتٍ حُرَّة، وإدراكٍ للأمور،

---

(١) انظر تفصيل هذه المعاني وأمثلتها من القرآن في كتاب «الأمة الرّبانية الواحدة» صفحة (٣٩) الطبعة الثانية.

وعَقْلٍ، وشهوات، وغَرائز وأهواء، وقدرة على الطاعة والمعصية، وفعلِ الخير وفعلِ الشرّ، وسَخّرَ لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً.

فقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: ولكِنْ لم يشأ أنْ يَسْلُبَكُمْ إراداتِكُم الحرّة، ويجعلكُمْ أمّةً ربّانيةً واحدة، ليبلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ من صفاتٍ ميّزكُمْ بها على المخلوقات المجبورة الّتي لا اختيار لها.

- ﴿فَاسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾:

استبقوا الخيرات: أي: بادِرُوهَا مُتَسَابِقينَ يجتهد كلّ منكم أن يكون سابقاً.

في هذه الفقرة بيان المطلوب في الامتحان، وهو فعل الخيرات والاسْتباق إليها، ليَظْهَرَ مَنْ هو أحْسَنُ عملاً، فيجازيهم الله يوم الدين، بحسب سَبْقِهم أو تقصيراتهم جَزاءَ الفضل، وليظهر المسيئون والكافرون الجاحدون، فَيُعَاقِبَهم اللّٰهُ يوم الدّين على سَيِّئاتهم وكُفْرِهم وجحودهم عِقابَ العدل.

فالمرجع إلىٰ الله هو للحساب وفصْل القضاء والجزاء. أمّا الإخبارُ بما كان الناسُ فيه يختلفون إلى شرائع ومناهج، فيكون بكشف الحقيقة الّتي لا يغشّيها يومئذٍ هوىً، ولا وساوس شياطين، ولا ضلالات مضلّين، ولا زخْرُف أقوال الْمُغْوِين المفسدين.

ويومئذٍ يظهر للجميع أَنَّ الحقّ الذي لا رَيْبَ فيه هو شِرْعة الله ومنهاجه، اللّذانِ أوحى بهما إلى رُسُله، وأمّا شرائع الناس ومناهجهم المخالفة له، والمتخالفة فيما بينها، فهي بَوَاطل وزيوف.

ويومئذٍ تحقُّ كلمة الرحمة والتكريم لمن آمن بالله، وبما أنزل الله على رُسله، واستقىٰ من شِرْعَتِه الطاهرة النقيّةِ لعباده، وسَلَكَ المنهاج الواضح البيّن الهادي إلى السعادة العظمى، والذي اصطفاه الله لهم.

ويومئذٍ تحقُّ كلمة العذاب والإهانة على من كفر بالله، واتخذ لنفسه شِرْعةً شيطانيَّةً منتنة، وسَلَكَ في حياته مِنْهاجاً واضح البطلان والفساد، وهادِياً إلى الشرّ والضرّ والشقاء وعذاب السعير.

● ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

جاء في هذه الآية تأكيد ما جاء في الآية السّابعة إشعاراً بخطورة مزالِقِ أهْلِ الأهواء ومُتَبِعي الشهوات من المسلمين لزحزحة حُكّامِ المسلمين عن الحكم بما أنزل الله، وأنّ لهم زَخَارِفَ أقوال يَصْطنعونها لفتنتهِمْ عن العمل بأحكام الله، وأنَّهُمْ يتخذون لذلك أسْلُوبَ الخطوات المتدرجات التي تبدأ بزحزحة الحاكم المسلم عن العمل ببعض ما أنزل الله على رسوله، ولو في حدود الحكم لغير المسلمين المؤمنين بما أنزل الله على رسوله.

فإنْ أَبَىٰ أهل الأهواء والشهوات من المسلمين الحكم بما أنزل الله، وتولّوا عنه مُدْبرين فلا تكترث لهم ولا تعبأْ بهم، واعْلَمْ أنّهم بتوليهم عن الحكم بما أنزل الله مُصِرّين على ذلك عِصْياناً واتّباعاً للهوى يُعَرّضون أنفسهم لأنْ يصيبهم اللّهُ ببعض ذنوبهم بإرادةٍ حكيمة عادلة منه.

ولمّا كان هذا التولّي لا يفعله من المسلمين إلاّ فاسِق، قال الله عزّ وجلّ في آخرِ الآية: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

● ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

استفهام تعجيبيٌّ من أمْرِ مسلمين يتبعون حكم الجاهلية، بدل حُكْمِ الله، اتّباعاً لأهواء نفوسهم وشهواتها: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾؟!! وقُدِّم المفعول به على الفعل لبيان انحصار ابتغائهم بابتغاء حُكْم الجاهليّة إذا تَوَلَّوْا عَنْ قَبُولِ حُكْمِ الله، إذْ كُلُّ حُكْمٍ مُخَالفٍ لحكْمِ اللّهِ هو حُكْمٌ مِنْ أَحْكام الْجاهِلِيّة.

واستفهامٌ لانتزاع الإقرار بأنّ حُكْمَ اللّهِ هُو أَحْسَنُ الأحكام، لدىٰ المقارنة التدبُّرِيَّةِ الرّشيدة، ولدَىٰ التَّجارِبِ على المدَىٰ الطويل، بعبارة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: يوقِنُونَ بِحِكْمَةِ الله وعَدْلِهِ، وأَنَّه أَحكَمُ الحاكِمِينَ، وأنه لا يظْلِمُ أحداً مثقالَ ذرَّة.

* * *

رابعاً: نظرات تدبرية حول ما جاء في القرآن من كلمة «صراط»:

جاء في القرآن المجيد استعمال كلمة «صراط» ثلاثاً وأربعين مرّة، وكلّها بالإفراد، ومعظمها قد جاء بمعنى دين الله الذي اصطفاه الله لعباده منذ نشأة الخليقة، أو بمعنى صراط الله الذي تسيرُ مقاديره الحكيمة على وفقه.

وجاء فيه استعمال كلمة «صراط» بمعنى الطريق الواسع من الأرض في ثلاثة مواضع فقط، وهي:

(١) ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكايةً لما قال شعيبٌ عليه السلامُ لقومه ناهياً، إذْ قال لهم:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا . . . ﴿٨٦﴾﴾.

فقد كانوا يقعدون في الطرقاتِ ويتهدَّدون المؤمنين بشعيب، أو من يميل إلى الإيمان به.

(٢) ما جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

فاستبقوا الصراط: فابْتَدرُوا الطريق الواسِعَ الواضح الذِي كانوا يعرفونه ليسلكوه، لكنّهم لا يبصرونه، لأنّ الله قد طَمَسَ على أعينهم.

(٣) ما جاء في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾﴾.

أفمن يَمْشِي مُكِبّاً على وجهه: هو كناية مهذّبة عن الحمار والبغل والأنعام.

أَمَّنْ يَمْشِي سَوِياً على صراط مستقيم: كناية عن الإنسان العاقل الرشيد الحسن التصرف، الذي يختار طريقاً واضحاً واسعاً يسْلُكُهُ إلى مَقصِده إذا أراد أن يَمْشِي في الأرض.

* * *

أمّا النصوص الّتي جاء فيها لفظ الصراط بمعنى دين الله الذي اصطفاه الله لعباده، أو بمعنىٰ صراط الله الذي تسير مقادير الله الحكيمة على وفقه، فهي ما يلي، مرتَّبةً على وفق ترتيب نُزول سُوَرِها:

(١) ما جاء في سورة (الفاتحة/ ١ مصحف/ ٥ نزول) وقد سبق تدبّر النص لدىٰ تدبّر السورة.

(٢) ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) حكاية لما قاله الملكان اللّذان دخلا على داود عليه السلام وهو معتزل في محرابه، على صورة خصْمَيْن، يستفتيانه في خصومة بينهما.

قال تعالى فيها:

﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

ولاَ تُشْطِطْ: أي: ولا تَجُر مُبْعِداً عن صراط الحق.

واهْدِنا إلى سواء الصّراط: أي: واهدنا إلى وسط الصراط، فالسواء يأتي بمعنىٰ وسَطِ الشيء، ويأتي بمعنىٰ الْعَدْل.

وسواء الصّراط هو الحقّ الذي يشتمل عليه دين الله لعباده وهو صراطٌ واحد.

وكان إرسالُ هٰذَيْنِ الملَكَيْن على صورة خَصْمَيْن من النّاس، لتَنْبِيهِ داود عليه السلام على أمْرٍ ما كان ينبغي أنْ يَصْدُرَ عنه، وهو رسولٌ مجتبىً، فتنبَّهَ عليه السلام، وأدْرَكَ أنَّ اللَّهَ يمتَحِنه بهذا الحدَث، فاستغفر ربَّهُ وخرَّ راكعاً وأنابَ إلى ربّه، فغفر اللَّهُ له خطيئته.

* * *

(٣) ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لمقالة إبليس لربّه بعْد أن حَكَمَ الله عليه بالْغَوايَة، فقال تعالى:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

فَبِمَا أغْوَيْتَنِي: أي: فبِما حَكَمْتَ عليّ بالْغَواية إذْ لم أُطِعْ أمْرَكَ بالسُّجودِ لآدم، وعانَدْتُ معانَدَةَ رافِضِ إلَهِيَّتِك.

لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ: أي لأقْعُدَنَّ لِذُرِّيَّةِ آدم راصِداً صِرَاطَكَ المستقيم، حتّىٰ أمنعهم من دخوله من بين أيديهم، أو أجذبهم من خلفهم لأخرجهم منه، أو أُخْرِجهم جَذْباً أو دفعاً من ذاتِ اليمين أو من ذاتِ الشِّمال وهم سائرون فيه، بشتّىٰ الوسائل الإغرائيّة والإغوائيّة.

فدلَّ هذا النّصّ على أنّ إبليس لعنه الله قد كان يعلم أنّ دين الله الذي اصطفاه لعباده صراطٌ واحدٌ مستقيمٌ لا تَعَدُّد فيه، فَتعهَّدَ أن يَبْذُل غايةَ جَهْدِهِ لإبعاد الناس عنه، أو إخراجهم منه إذا دَخلوه.

إنّ صراط الله هو الحق، وهو الهدى وهو الخير، وليس بعد الحقّ إلاّ الباطل، وليس بعد الهدىٰ إلاّ الضلال، وليس بعد الخير إلاّ الشرّ.

* * *

(٤) مَا جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ لرسوله مُقسماً بالقرآن الحكيم:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنَّ دَعْوَة الرَّسُولِ محمّد ﷺ، وكُلَّ ما كان يُبَلِّغه للناس ويُبَيِّنه لهم قَولاً وعملاً قد كان فيه سالكاً على صراطٍ مستقيم، لا عوج فيه عن الحق والهدىٰ والخير والرشاد، إذْ هو يتابع مسيرته على صراط الله، وصراط الله صراطٌ مستقيم.

وهذه شهادة من الله لرسوله بملازمة صراطه المستقيم.

وجاء في هذه السورة أيضاً بيان أنّ عبادة الناس لربّهم في الحياة الدنيا هي صراط مستقيم، فقال الله عزّ وجلّ فيها عارضاً صورة ما سَوْفَ يَقُولُه للمجرمين في موقف حسابهم يوم الدّين:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤﴾.

* * *

(٥) مَا جاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها في حكاية مقالات إبراهيم عليه السلام لأبيه داعياً له إلى دين الله الحقّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾.

فقال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ ومعلوم أنّ الصراط السّويَّ، أي: الصراط المستقيم، هو الدّين الذي اصطفاه الله لعباده، وهو واحدٌ لا تعدُّدَ فيه.

وجاء فيها أيضاً حكاية مقالات عيسىٰ عليه السلام وهو صبيٌّ رضيع أنطقه الله، ومنها قولُهُ:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

فأبان أنّ عبادةَ الله بوصفِ كونه رَبَّ الناس أجمعين لا ربّ لهم سواه صراطٌ مستقيم لا عِوَجَ فيه ولا عثرات.

* * *

(٦) ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها بشأن المشركين بعد بعثة الرسول محمد ﷺ:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

مِنْ قَبْلِه: أي: من قبل بعثة الرسول محمد ﷺ.

الصّراط السّوِيّ: هو الصراط المستقيم المستوي الذي لا عِوَج فيه ولا عثرات.

أي: فسَتَعْلَمُونَ أيُّها المكذّبون برسالتي وبما جئتكُمْ به من عند ربّكُمْ

حين يجازيكم على كفركم بالعذاب الأليم، بعد رحلة الحياة الدُّنيا، حياة الابتلاء، مَنْ أصْحَابُ الصّراط السّوِيّ، ومَنِ المتنكِّبُ له، السالِكُ في متاهات الخيبة والهلاك. ومَنِ اهتَدَىٰ إلى الحقّ والرُّشد وسُلوك سبيل السعادة، ومَنْ ضلَّ وغَوَىٰ وعرّضَ نفسه لعذابٍ أليم خالدٍ في دار العذاب يوم الدّين.

والمعنى: سيظهر لكُمْ أنّ رسولكم ومَنْ آمَنَ به واتّبعه هُمْ أصحاب الصراط السَّوِيّ الموصِلِ إلى السَّعادَةِ الأبَدِيّة، وأنّكُمْ وأمثالكم الذين كذّبوا رَسُولَ رَبّهم هُمُ الخارجون عن الصراط السّويّ، والضّالّون الخائبونَ المعذّبون في دار العذاب يوم الدين.

* * *

(٧) ما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

دَارُ السَّلاَمِ: هي الجنَّةُ الّتي يحظَىٰ فيها أَهْلُها بالسَّلام الكامل الدائم الخالد الذي لا تشوبه منغصّات خوف ولا قلق ولا عَذَابٌ ولا نصَبٌ ولا تعب.

ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلَىٰ صِرَاط مستقيم: أي: ويهدي بمشيئته الّتي لا تفارق حكمته وعلمه بما في نفوسِ عباده من خيرٍ إلى صراط مستقيمٍ في مسيرتهم في حياتهم.

فمن آمَن إيماناً صحيحاً صادقاً، شَرَحَ الله صدْرَه لتطبيق أحكام الإسلام والاستمساك بشرائعه، والإسلامُ هو الصراط المستقيم لسلوك الناس في الحياة الدنيا.

والهداية هنا هي هداية دلالة ومَعُونَةٍ وتوفيق، وهي أَثَرٌ رَبَّانيٌّ من آثار صِدْقِ إيمانِ الْعَبْدِ، واتّجاه قلبه إلى ربّه كي يَهْدِيَهُ هذه الهداية، وليست هداية جَبْرٍ لاَ كَسْبَ للعباد فيه.

* * *

(٨) ما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

قال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿. . .قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٦)﴾.

لقد أَبَانَ هُودٌ عليه السَّلاَمُ لِقَوْمِهِ أنَّ اللَّهَ رَبَّهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مستقيم، أي: هو سبحانه في مقاديره وتصاريفه في كونه وعباده، إنَّما يُجْرِيها مُلْتَزِماً بِحِكْمَتِه صراطاً مستقيماً، فيُعَامِلُ عباده بالحقّ والعدل والفضل والإحسان.

فمن استحقّ العقاب من عباده عاقبه بعدل، ومن استحقَّ الثوابَ منهم أثابه بفضله، ومن قضىٰ له بحكمته أنْ ينجيه أنجاه، ومن قضىٰ عليه بحكمته أن يُهلكَهُ أهلكه.

وهو آخِذٌ جلّ جَلاَلُهُ بنواصي الجميع، فما من دابَّةٍ في الكون كُلِّهِ إلاَّ هو آخِذٌ بناصيتها، وتمضي أحكامه ومقاديره في كلّ خلقه ضمن حُدُود صراطٍ مستقيم ألزم نفسه به، دون ظُلْم لأحد، إنّ رَبّي لا يَظْلِمُ أحداً مثقال ذرّة، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

* * *

(٩) مَا جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

جاء فيها حكايةُ حوارٍ جرىٰ بين الله عزّ وجل وإبليس، إذْ رفض

إبليس لعنه الله أن يسجد لآدَمَ عليه السلام كما أمره الله، مستكبراً ومتعلّلاً بأنّ الله خلقه من نارٍ وخلق آدم من صلصال من حَمَإٍ مَسْنون، وزعم أنّه ليس من شأن المخلوق من النار أن يسجد لمخلوق آخر خُلِقَ من طينٍ أسود مُنْتِن، معترضاً على حكم الله وأمره، فطرده الله من دائرة رحمته الواسعة لإصراره، فطلَبَ من ربّه أن يُنْظِرَهُ إلى يوم الدّين، فاستجاب الله لبعض طلبه، فقال له:

﴿. . . فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾.

أي: إلى وقت إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وإماتة كلّ الأحياء في الأرض وفي السماوات.

فلمّا أخذ إبليس هذا الوعد من ربّه أعْلَنَ تعهُّدَهُ بأن يُغْوِي بني آدم جميعاً، باستثناء المخلِصين من عِباده، والْمُخلَصين بفتح اللاّم.

قال الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾.

- قرأ بكَسْرِ لام (الْمُخْلِصِينَ) ابْنُ كثير، وأبو عمرو، وابْنُ عَامِرٍ، ويعقوب. وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، بمعنى المصطَفين الذين استخلَصَهُمُ الله من عباده، وهم الأنبياء.

فأجابَهُ رَبُّه:

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾.

هَذَا صِرَاطٌ عَلَيّ مُسْتَقِيمٌ: أي: هذا الذي أُبيّنُ عناصِرَه فيما يلي، صِرَاطٌ مستقيمٌ عليَّ الالتزامُ به، وهذا الصراط يتألّفُ من الموادّ التالية:

المادّة الأولى: إنَّ عبادي الذين آمنوا بي واعتصموا بي، ليْسَ لكَ عليهم سُلْطان، لأنَّهم في مَعَاذِي وفي حِمَايتي.

المادّة الثانية: لكنّ الذين يَتَّبِعُونَكَ من الغاوين، فيُخْرِجون أنفسهم عن دائرة عبوديتهم لي، والاحتماء والاعتصام بي، يَكُونُ لك عليهم سلطان إغواء وإغراء.

المادّة الثالثة: إنَّ جَهَنَّم لَمَوْعِدُهُمْ أجمعين، يدخلونها يَوْمَ الدّين، لينالوا فيها ما يَسْتَحِقُّون من عذاب.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الله جلَّ جلاله يُلْزِمُ نفسَه بالصراط المستقيم، في مقاديرِه وتصاريفه وجَزائه وكلِّ ما يشاء من أمْرٍ، كما جاء في الحديث القدسي بالنسبة إلى الظلم:

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا».

* * *

(١٠) ما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

- جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: من يشأ الله يُضْلِلْه، ومَنْ يشأ يَهْدِيه، وهدايته له تكون بأن يجعَلَهُ على صِراطٍ مُسْتَقِيم فإذا تابع مسيرته في الحياة الدنيا عليه كان مَهْدِيًّا، ومشيئة الله عزّ وجلّ لا تفارق علمه وحكمته.

فالذين كذّبوا بإراداتهم الحرَّةِ بآيات الله المنزَّلاَتِ في كتابه، ولم يستفيدوا من آيات الله في الكون وفي أنفسهم، تُصيبهم بسبب تكذيبهم الإراديّ ضِمْن مقادير الله وقوانينه السببيَّةِ النتائج التالية:

النتيجة الأولى: أَنْ يَكُونُوا صُمًّا عن استماع دعوة الحق، مهما كانت جليّة واضحة، وذات أدلّة برهانيّة دامغة.

النتيجة الثانية: أَنْ يكونوا بُكْماً عن الإقرار بالحقّ الدينيّ والاعتراف به، وعن قول الحقّ والخير على ما يرضي الله عزّ وجلّ، لأنَّ ألسنتهم مُوجَّهةٌ منْ قِبَلِ أهوائهم وشهواتهم ومصالحهم من الدنيا، ومن قِبَلِ شياطين الإنْسِ والجنّ الضّالّين المضلّين.

النتيجة الثالثة: أَنْ يكونوا في الظُلمَات، من معتقدات باطلات، وأعمال فاجرة، وقوانين جائرة، وشتات في متاهات مهلكات، فهم في ظلماتِ دامِسَات بمثابة الْعُمْي.

وقد جاءت عبارة: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۚ﴾ تصريحاً بالمراد من كلمة: «عُمْي» التي جاءت في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

- ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾.
- و ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾.

وهؤلاءِ الذين كذبُوا بآيات الله بإرادتِهِمُ الحرَّة يُضْلِلْهُمُ الله، أي: يجري فيهم قوانينه القدرية العامّة، فمن اختار لنفسه أن يترك صراطَ الْهُدىٰ، وهو صراط الله المستقيم، متّبعاً مسالِك الشياطين، أضلَّهُ الله في المهالك، كمن اختار لنفسه أن يرمي جسَدَهُ في النار أحرقه الله ضِمْن قوانينه في كونه، وهذا مشمولٌ بمشيئته الحكيمة التي لا مُجْبِر لها، ومعلومٌ أنّ كلّ ما يجري في الكون من أشياء إنّما يجري بأمر الله أو بإذنه.

لكن من آمن وأسلم واتّبع رضوان الله فإنّ الله عزّ وجلّ يجعله على صراطٍ مستقيم في مسيرته في حياته، وهذا أيضاً مشمولٌ بمشيئة الله الحكيمة.

* * *

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً ذِكْرُ طائفة من الرُّسُل عليهم السّلام، بدأهم الله عزّ وجلّ بإبراهيم عليه السلام، ثُمّ عطف عليهم بالتعميم بعض آبائهم وَذُرِّيّاتِهم وإخوانهم الّذين اجتباهُمْ واصطفاهم، وأبان عقب الحديث عنهم أنَّهُ جلّ جلاله هداهم إِلَىٰ صراطٍ مستقيم، ومعلومٌ أنّ الصراط المستقيم الذي هداهم إليه هو الدّين الّذي اصطفاه لعباده، وأنزلَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ لتبليغه للناس.

قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)﴾:

● وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢٧)﴾:

حَرَجاً: أي: شديد الضيق.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ من سورة (الأنعام) أنّ من آمَنَ إيماناً صحيحاً صادقاً كان من ثمرات إيمانه أن يَهْدِيه الله إلى الصراط المستقيم في مسيرته في حياته، فيشرح صدره للتطبيقات الإسلاميّة في سلوكه النفسيّ والجسدي.

أمّا مَنْ لم يؤمِنْ بل كفر بالله ورسوله واليوم الآخر، فإنّ من ثمرات كُفره أنْ لا يَهْدِيَه الله إلى الصراط المستقيم في مسيرته في حياته، فلا يشرح صَدْرَه للتطبيقات الإسلاميّة، بل يجعل عليه رِجْسَ القبائح والشرُور والآثام في سلوكه النَّفْسِيّ والجسدي، وإذا كان من أهل النّفاق ووَجَدَ نفسه مضطّراً للقيام ببعض التّطبيقات الإسلاميَّةِ أحسَّ في صَدْرِه بضيق شديدٍ يشبه حالة الاختناق البطيء الذي يَشْعُرُ به الذي يَصّعَدُ في السماء إلى طبقات مرتفعات، حيث يتناقص الأكسجين الذي يحمله الهواء.

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ الإيمان والإسلام هو الصراط الرّبّانيُّ المستقيم الذي دعا الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا إلى سلوكه عقيدة وعملاً.

ودلّ هذا النصّ على أنّ هداية الله عزّ وجلّ مَنْ آمنَ إيماناً صحيحاً صادقاً، إلى الإسلام، بشرح صدره للتطبيقات الإسلاميّة، وأنّ جَعْلَهُ رِجْسَ الشرور وقبائحِ الأعمال على من كَفَر فَلَمْ يؤمِنْ إيماناً صحيحاً صادقاً، كلاهما داخِلَان في صراط الرّبّ المستقيم، الذي يُجْرِي فيه مقاديره وتصاريفه وأحكامه، ونظير هذا أنّ من غمس نفسه في الماء الطّهور المحلّل للأدران والأوساخ والقذارات طَهَّرَهُ الله، فشعر بالانتعاش ونفحات النعيم تَسْرِي في جسده ونفسه، وأن من غَمَسَ نفْسَه في بئر القذارات والأنجاس والأرجاس دَنَّسَهُ الله، فشعر بآثار قاذوراته المزعجات الْمُمْرِضات، وهذا من سُنَن الله في كونه، في المادّيّات وفي المعنويّات.

- وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً بعد تكليف الله رسوله ﷺ أن يُبَلِّغ طائفة من أحكام الإيمان وأحكام السلوك، قول الله عزّ وجلّ لرسوله أن يقول للنّاس:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

إنَّ صِراطَ رَسُولِ اللَّهِ في الدِّين هو صِرَاطُ اللَّهِ، فَهُمَا واحِدٌ، فإذا قال الرسول للناس: اتَّبِعُوا صِرَاطِي فإنَّه يدعوهم إلى اتّباعِ صِرَاطِ اللَّهِ، لأنَّهُ يُبَلِّغُ ببيانِهِ القولي والعمليِّ صراط الله.

ويأتي من وراء حدود صراط الله ورسولِهِ من ذاتِ اليمين ومن ذات الشمال سُبُلٌ مُتَعَدِّدَةٌ شَتَّىٰ، فَمَنْ سَلَكَ واحِداً مِنها ابتَعَدَ عن سبيل اللَّهِ حتماً، وكلُّ سَبِيلٍ غير سبيلِ الله يُوصل سالكيه إلى المتاهات فالمهالك، مَهْمَا أمتعتهم أوائله بزيناتها مِنْ ظواهر الحياة الدُّنْيَا ولذَّاتِها، ولَيْسَ بعد متاهات السُّبُل ومَهَالِكِهَا إلاَّ مُنْحَدَرَاتٌ تَقْذِفُ إلىٰ جهَنَّمَ دارِ العذاب، مع ما يُصَابُ سالكوها من خَيْبَةٍ في الحياة الدنيا، إذْ لا يُحَقّقُونَ ما كانُوا يرجُونَ من سعادة، ومع ما يَحُلُّ بهم من نَدَمٍ على عُمْرٍ وطاقَاتٍ أَنْفَقُوها في الأوهام، وضيَّعُوهَا في التُّرَّهَاتِ والسَّفَاسِفِ والشُّرور والآثام وكُلِّ ما لا خير فيه، ولا ثباتَ له ولا بقاء.

وعندئذ يُذْكِرون أنَّهُمْ كَانُوا يجاهدون ويكدحون للوصول إلى ماءٍ يُرْوِي ظمَأَهُمْ، فإذا بِهِمْ يجاهدون ويكدحون إلى سرابٍ، وعند انتهاء رحْلَتِهم لا يجدون إلاَّ حسَابَ اللَّهِ وعذابه، لأنَّهُمْ رفضوا أن يسْلُكُوا صراطه المستقيم.

- وجاء في سورة (الأنعام) أيضاً قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

- قرأ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عَمْرو وأبو جعفر ويعقوب: (دِيناً قَيِّماً) بفتح القاف وتشديد الياء مكسورةً، أي: معتدلاً مستقيماً.

- وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرة: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ بكسر القاف وفتح الياء من

غير تشديد، قالوا: وهو مصدر قامَ بمعنى اعتَدَلَ فلا عِوَجَ فيه، كَمَصْدَرَي: الصِّغَرِ والْكِبَرِ. وأقول: لماذا لا يكون جَمْعَ قِيمَة؟ إذْ يقال في اللّغةِ: «قِيمَة» وتُجْمَع على «قِيَم» أي: إنَّ هذا الدِّين يشتمل على قِيَم عظيمة. وفي هذا دليل على أنّ ما لَهُ حقيقَة ثابتة نافعة فَهُوَ ذو قِيمَةٍ يُقَوَّمُ بها، **والْقِيَمُ** هي أثمان الأشياء الّتي لها حقائق ثابتة نافعة، أما الأشياء الأُخْرَىٰ التي لَيْسَ لها حقائقُ نافعة فإنَّها غَيْرُ ذواتِ قِيَمٍ، فلا أثمان لَهَا لدىٰ البحث والتمحيص، وهنا ندرك أن أحكام الدّين وشرائعه ذوات قِيَم حقيقيَّة تُكافَأُ بالسّعادة في الدّنيا وفي جنّاتِ النعيم يوم الدين. فمَنْ قدَّمَ شيئاً منها نَالَ مِنَ السَّعَادَةِ على مقدار ما قدَّم.

فكلَّفَ الله عزّ وجلّ رسولَه محمّداً ﷺ أن يقول للنّاس: إنَّ هذا الدّين الّذِي أدعوكم إليه هو صراط مستقيم هداني الله إليه بما أنزلَ عليّ عن طريق الوحْي. وأنّ هذا الدِّين مَجْمُوعَةُ قِيَم (= أي: حقائق ثابتة نافعة ثوابها عند الله سعادةٌ عاجلة وآجلَةٌ لِمَنْ آمَنَ بها وعمل بمقتضاها) وهُوَ مِلَّةَ إبراهيم عليه السلام الذي كانَ حَنِيفاً مائلاً عن كلّ اعْوِجَاجٍ كان عليه أهل زمانه، ولا يتركُ كلّ اعْوِجَاجٍ إلاَّ مَنِ استقام، فلم يكن عليه السلام من المشركين.

وكلَّفَ الله رسولَه أنْ يُعْلِنَ للنّاس أنّه أوّلُ المسلمين، أي: أوّل المطبِّقين لأحكامِ الإسلامِ وشرائِعِهِ، باعتباره الإمَام الأولَ والقائدَ الأعظَمَ لأَتْبَاع هذه الرسالة الرَّبَّانِيّة الخاتمة، وكَمَالُ هذا التطبيقِ الإسلاميّ يتحقَّقُ بأنْ تكون عبادات الْعَبْدِ كلُّها من صلاةٍ يُصَلّيها ومِنْها الدُّعاء، وأنْسَاكٍ يَنْسُكُهَا كأعمال الحجّ، وكذَبائح الْهَدْي والأضاحِي ونحوها، موجَّهَةً للّهِ وَحْدَه لاَ شريكَ له، وكذلك أيْضاً كلُّ ما يشْتَمِلُ عليه مَحْيَاهُ وَمَمَاتُهُ مِنْ عَمَلٍ إراديٍّ ظاهِرٍ وبَاطِنٍ ماديٍّ ومَعْنَوِيٍّ، فهو يُجْرِيه في قَنَواتِ طاعةِ اللّهِ والعمَلِ بمراضيه، والابْتِعَادِ عَنْ مساخِطِه، حتّىٰ المباحاتُ يَجْعَلُهَا بالنّيّاتِ الصالحات جاريَةً في قنواتِ عبادة الله.

وقد يتساءل متسائل قائلاً: كيف يكونُ للإنسان عَمَلٌ إراديّ عند موته أو بَعْدَ مَوْته؟

والجواب: أنّ كثيراً من تصَرُّفَاتِ الإنسانِ في محياه قد تكون معلَّقَةً إلى ما بعد مَمَاته كالوصايا، وقد تكون ذاتَ آثَارٍ تمتدُّ إلى ما بَعْدَ مَوْته، كالصَّدَقةِ الجاريَة والْعِلم الذي يُنْتَفَعُ به، فما كان منها عبادةً لله مع الْتِزام أحكام الإسلام وشرائعه كان لله، وما لم يكن كذلِكَ لم يكن لله.

وكلَّفَ الله عزّ وجلّ رسوله أن يَقُولَ للنَّاس: إنَّ اللَّهَ رَبّي قد أَمَرَني بأن تكون صَلاَتي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي بأَنْ تَكُونَ له وحْدَهُ لاَ شريكَ له.

وبهذا يكون كمالُ الالتزام بسُلُوك صراط الله المستقيم، الذي هو الدين الذي اصطفاه لعباده.

* * *

(١١) ما جاء في سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

- قال الله عزّ وجلّ فيها يَعْرِضُ لَقْطَةً هي حدثٌ يجري من أحداث مشاهد يوم الدّين:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

دلَّ هذا النَّصُّ علىٰ أنَّ الذين كانُوا في رحلة الحياة الدنيا يَسْلُكُونَ سُبُلاً شَتَّىٰ غَيْرَ سَبيلِ اللَّهِ المستقيم، تَصُبُّ سُبُلُهُمْ المختَلِفَةُ يَوْمَ الْقِيامة في صِرَاطٍ واحِدٍ هُوَ صِرَاطُ الجحيم، أي: الصِّرَاطُ الذي يجعلهم على أبواب جَهَنَّم، وهنالك يوقفون لمساءلتهم، والحكم عليهم بأنَّهم من أهل النار.

فاهْدُوهُمْ إلَىٰ صِراطِ الْجَحِيم: هذا الأمر يوجِّهُه اللَّهُ يوم الدِّين إلَىٰ الملائكة الذين جعل الله من وظائِفهم سَوْقَ المجرمين إلى دار العذاب.

ومعنى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ فَدُلُّوهُمْ وَسُوقُوهُمْ سَوْقاً جَبْرِيّاً.

فصراط الجحيم يوم الدين صراطٌ واحِدٌ، لكنَّهُ في رحلة الناس في الحياة الدُّنيا سُبُلٌ شَتَّىٰ تجتَمِعُ عنْدَ نِهَايَاتِها في صراط الجحيم.

● وقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصّافات) أيضاً بِشَأْنِ موسَىٰ وهارُونَ عليهما السلام:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾:

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ أنّه هدَىٰ مُوسَىٰ وأخاه هَارُونَ عليهما السلام الصّراطَ المستقيم، وهو الدين أنزله عليهما لتبليغه للناس، ومنهاج الدعوة إلى الله، والقيادة الصالحة لبني إسرائيل.

* * *

(١٢) وجاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ، في وصْفِ ما يَراه أولُوا الْعِلْم بشأن ما أُنزِلَ إلَىٰ الرسول ﷺ من ربّه:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

صِراط العزيز الحميد: هو الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده، وهو صراط الله المستقيم.

العزيز: القويُّ الغالب.

الْحَمِيد: أي: المحمود في كلّ صفاته وأسمائه جلّ جلاله، والّذي يَحْمَدُ مُسْتَحِقي الحمد من عباده.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الّذين أوتُوا العلم يَرَوْنَ بعقولهم الواعية، وقلوبهم البصيرة، أنَّ مَا أُنزِلَ إلى الرسُول من رَبّه قِسْمَان:

(١) قِسْمٌ هُوَ الحقّ الذي لا ريب فيه.

(٢) وقِسْمٌ يَهْدِي إلى صراطٍ مستقيم لا عوج فيه، فالقرآن في كلّ أحكامه وشرائعه السلوكية يهدي للّتي هي أقوم.

والذين أوتوا العلم من البشر هُمُ الصفوة الّذين يُعْتَدُّ بهم، فمن عداهم جهلة وأهل أهواء يتَّبِعُونَ الشهوات ويؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، والباطلَ على الحقّ.

* * *

(١٣) وجاء في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾: هو القرآن، سَمَّاه الله عزّ وجلّ روحاً لكونِه سبَبَ الحياة السعيدة لمن آمن به واتَّبع هُداه.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾: أي: ما كنت يا مُحمّد تَدْري قبلَ أن نُوحِيَ إليك القرآن شيئاً عن حقيقة كتابٍ رَبّانيّ يتضمّن هداية الناسِ

إلى صراطٍ مستقيم يحقّق لمن سلكه السعادة، وما كنت تَدْرِي شيئاً عن حقيقة الإيمان وأركانه وأدلّته وآثاره في النفوس وفي السلوك الظاهر والباطن.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾: أي: ومَا أوحينا إليكَ القرآن لنُميِّزَكَ وحْدَكَ بالْهِدَاية والتشريف، ولكِنْ جَعلْناه نوراً عاماً للأذهان والأفكار والقلُوب والنفوس الّتي تَتَدَبَّرُهُ وتتفهَّمُه وتُؤْمِنُ به، وهذا النور نَهْدِي به من نشَاءُ مِنْ عبادنا.

والهداية هُنَا هدايةُ دلالة وإرْشادٍ ومعونة وتوفيق للعمل، وبما أنّ مشيئة الله عزّ وجلّ لا تفارق عِلْمه وحكمته، كان علينا أنْ نفهم أنّ الله يهدي بنور القرآن من استجابَ لدعوته وآمن به، وبذَلَ جَهْدَه لتَدَبُّر آياتِه مبتغياً معرفة الحقيقة الّتي يَهْدِي إليها نورُه المبين، وحريصاً على الإيمان بالحقّ واتّباعه.

ومَنْ هداه الله عزّ وجلّ بنور القرآن أدْرَكَ الحقَّ وآمَن به، ثم وفَّقَه الله إلى سُلُوكِ الصراط المستقيم، صراطِ الله العزيز الحميد، على مقدار حِرْصِه على ابتغاء مرضاة الله في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا.

فإذا اسْتَمَرَّ طَوَال رحلة امتحانه مؤمناً حتَّىٰ لَقِي ربّه، وكان لإيمانه آثار أعمالٍ صالحة، فإنّ الله عزّ وجلّ يحكُمُ له بالهداية، فيكونُ يوم الدين من المهديِّينَ الذين يقضي الله لهم بأنّهم من أهل جنّاتِ النعيم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ تَهْدِي هِدَايَةَ دَلاَلَةٍ بما أوحَيْنَا إلَيْكَ إلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم، وهذا الصراط المستقيم الّذِي تُبَيِّنُهُ للناس وتدُلُّهُمْ عليه هو صِرَاطُ الله الّذِي لَهُ مُلْك كلّ شيءٍ في السَّمَاواتِ وَكلّ شَيْءٍ في الأرض، وهَذا الصراط هو دينه الذي اصطفاه لعباده.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: دلّ هذا الختام على أنّ الصّراط المستقيم الذي اصطفاه الله لعباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا حياةِ الابتلاء، إنّما دُبّرَ بعلم اللّهِ وحكمته للامتحان، والغاية من الامتحان الحسابُ وفَصْلُ القضاء يَوْمَ الدّين وتَنفِيذُ الجزاء، هذا هو مصير الموضوعين في رحلة الحياة الدنيا موضع الامتحان، إنّه مصيرٌ إلى الله الذي يحاسب عباده، ويفصل بينهم ويجازيهم على ما عملوا، وهذا داخل ضِمْنَ قَضِيَّةٍ كُلّيَّةٍ عامّة، هي أنّ الأُمُور كُلّها في الوجود كلِّهِ تصير إليه جلّ جلاله، فانْتَبِهُوا يا عباد الله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

* * *

(١٤) ما جاء في سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

- قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾: أي: فأَمسِكْ بقُوّةٍ بالقرآن الّذي أُوحِيَ إليك عقيدةً وَعَملاً وَدَعْوَةً إلى الإيمان وإلى سُلُوك صِرَاط الله المستقيم.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: إنَّكَ يا مُحَمَّد في عقيدتِكَ وفي سلوكِكَ وفي دعوتك إلى دين الله وفي تبليغِكَ آياتِ القرآن وفي بيانك لما أنزل اللّهُ سالِكٌ على صراطٍ مستقيم، وهذه شهادةٌ من اللّهِ لِرَسُوله بعِصْمَتِه عن الانحراف عن صِراطه المستقيم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾: أي: وإنَّ القرآنَ بوصفه قرآناً عَرَبيّاً مُبِيناً لشَرَفٌ لَكَ ولقومِكَ الناطقين باللّسَانِ العربيّ المبين.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾: أي: وسَوْفَ تُسْأَلُونَ يومَ الدّين أَنْتَ ومَنْ آمَنَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ عَنْ تَبليغ كتابه وأصول الدّين وفروعه للناس.

● وقال الله عزَّ وجلَّ فيها أيضاً في معرض الحديث عَنْ عيسَىٰ عليه السلام فأوصَىٰ رسولَهُ محمّداً ﷺ بأن يقول لقومه:

﴿... وَاتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

فَدَلَّ هٰذَا النَّصُّ علَىٰ ما يلي:

(١) أنّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ قد أمَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنْ يقول لقومه: ﴿وَاتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ والصراط المستقيم الذي يدعوهم إلى اتّباعه فيه هو الدّين الذي أمَرَه الله بتبليغه للناس، وأنْ يكون فيه أُسْوَةً حسنةً.

(٢) أنَّ عيسَىٰ عليه السلام قال لقومه خمس مقولات:

المقولة الأولى: تضمّنَتْ أمْرَهُ لهم بتقوى الله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

المقولة الثانية: تضمّنَتْ أمْرَهُ لهم بطاعته: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

المقولَةُ الثالثة: أبان لهم فيها أَنَّ اللّٰهَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾.

المقولة الرابعة: تَضَمَّنَتْ أَمْرَهُ لَهُمْ بأنْ يَعْبُدوا ربَّهم: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾.

المقولة الخامسة: أَبَانَ لَهُمْ فيها أنّ تقوى الله، وطاعة رسوله، وتوحيدَ الله في رُبُوبيته، وعبادتَهُ وحْدَه لا شريكَ لَهُ صِرَاطٌ مستقيم: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾.

* * *

(١٥) مَا جاء في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

● قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾:

أبَانَ هٰذَا النّصُّ أَنَّ الأَبْكَمَ الّذِي لاَ يأَتِي بِخَيْرٍ لاَ يَسْتَوِي هُوَ ومَنْ يأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ في سُلُوكه بنفسِهِ عادِلٌ على صِراطٍ مُسْتَقِيم، لاَ يكْتَفِي بِأَنْ يأمر بالعدْل، وهو في أعماله وسلوكه جائر عن الصّراط المستقيم، بل هو جامِعٌ بين فضيلَتَي قَوْلِ الحقّ والعمل به.

والمرادُ من الأبكَم هُنَا الَّذِي لاَ يَقُولُ الحقَّ ولا يَنْطِقُ بالْعَدْل، وهو الذي يُوصَفُ بأنَّهُ شيطانٌ أَخْرَس.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل) أيضاً مُثْنِياً على سيدنا إبراهيم عليه السلام بعدّة صفاتٍ ومنها أنّه هَدَاه إلى صِراطٍ مستقيم:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

جاء في هذا النصّ الثناء على إبراهيم عليه السلام بالصفات التاليات:

(١) أنه كان في أوّل عَهْدِه أمَّةً وَحْدَه، قبل أن يوجد معه مؤمنون، إذْ كان منفرداً باتجاهه للتفكير المستقلّ بعيداً عن كلّ تقليد أعمى، وبعيداً عن كلّ شركيّات قومه.

(٢) أنَّهُ كان قانتاً لله، أي: مطيعاً لله خاضعاً له، ملازماً عبادته.

(٣) أنّه كان حنيفاً، أي: مائلاً عن كلّ مذاهب المشركين، ولاَ يكون هذا إلاّ بالاستقامة على الحقّ.

(٤) أنّه لم يكُنْ من المشركين.

(٥) أنّه كان شاكراً لأنعم الله عليه.

(٦) أنّ الله اجتباهُ، أي: اصطفاه فجعَلَه نبيًّا رَسُولاً.

(٧) أنّ الله هداه إلى صراطٍ مستقيم، وهو الدّين الذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، وأوحَىٰ به إلى إبراهيم عليه السّلام.

(٨) أنَّ الله آتاهُ في الدّنيا حسنة فأنجاه من نمرود وكيده، وأرشده أن يهاجر، فهاجر بإذنِ الله إلى الأرض التي بارَكَ اللَّهُ فيها مع أهله ومن آمن معه، ووسَّع عليه في الرزق وأكرمه في حياته الدنيويَّة.

(٩) أنّ الله عزّ وجلّ جعله في الآخرة من الصالحين.

* * *

(١٦) مَا جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) فقد جاء فيها قول الله لرسوله في الآية الأولى منها:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ①﴾.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾: أي: لتكونَ يا مُحَمَّدُ في تَبليغِكَ دِينَ الله وبيانِك الحكيم، وفي كَوْنِكَ أسْوَةً حسنة، سبباً في خُروجِ من استجابَ لدعوتك واهتدى بهُدَاك، مِنَ ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: أي: إلى الصراط المستقيم، الذي هو صِرَاطُ العزيز الحميد.

العزيز: القويّ الغالب.

الحميد: ذو الصفات المحمودة، والذي يَحْمَدُ مستحقي الحمد من عباده.

* * *

(١٧) مَا جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

قال الله عزَّ وجلَّ فيها خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن دَعْوَته مشركي مكّةَ إلى نَبْذِ الشِّرْكِ، وإلى الإيمان باليوم الآخر:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أنّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ التوحِيدِ ونَبْذِ الشِّرْكِ وإلى الإيمان باليوم الآخر، دَعْوَةٌ إلى صراطٍ مستقيم.

وأبَانَ أنّ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة مائلون عن الصراط المستقيم وخارجون عن حدوده.

لَنَاكِبُون: الناكِبُ عن الطريق، المائلُ عنه، الخارجُ عن حدوده، السائر في سُبُل تفضي به إلى المتاهات فالمهالك.

* * *

(١٨) ما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

- فقد جاء فيها قول الله عزّ وجل:

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾:

لـمَّا قضَتْ حكمة اللّهِ عزّ وجلّ في الْعَهْدِ المدنيّ أنْ يُحَوِّلَ قِبْلَةَ المسلمين من التوجُهِ للْمَسْجِد الأقْصَىٰ، إلى التوجُهِ في صلاتِهم شَطْرَ

المسجد الحرام وكعبَتِهِ في مكّة، أبانَ جلّ جلاله أنّ السُّفَهاء من الناس وهم اليهود يومئذٍ في المدينة سَيُثيرون اعتراضاً على هذا الإجراء الرَّبّانِي يقولون فيه: ﴿مَا وَلَّـٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ لفتنة المسلمين عن دينهم، موهمين أنَّ ذَاتَ القبلة هي من أصول الدّين، لا من أحكام التكاليف التعبُّدِيّة الّتي يُقْصَدُ بها طاعة الله في أوامره ونواهيه مهما غيَّر فيها وبدّل، مع تحقيق حِكَمٍ ومصالِحَ للعابدين فهٰذِه الأحكام التعبُّدِيّة قابلة للتغيير والنسخ إلى مثلِها أو خَيْرٍ مِنها، كشأن أوامر الضابط العسكريّ لجنده إذْ يقول لهم: «تَقَدَّمُوا ـ تأخَّرُوا ـ سِيروا يميناً ـ سيروا شمالاً ـ تراجعوا إلى الوراء ـ هيَّ إلى مهاجعكم ـ هَيَّ إلى الطعام، انصرفوا إلى الراحة ـ اصْعَدُوا ـ إنْزِلُوا ـ وهكذا».

فلا يُقالُ للضابط العسكريّ: لِمَ تُغيّر في أوامركَ ونواهيك؟ ولِمَ تأمُرُ بشيءٍ ثُمَّ تَأمُرُ بضِدِّه؟ لأنّ كلّ إنسانٍ ذي فكرٍ يُدرِكُ أَنَّ الْغَرَضَ التدريبُ على الطاعة، أو امتحان الطاعة.

وفي هذا الحديث أَلْقىٰ اليهود بين المسلمين لفتنتهم عن دينهم مقولةً مفادُها: مَا حَالُ المؤمنين بمحمّد الذين ماتوا وقد كانوا يتوجّهون في صلواتهم لبيت المقدس؟

فقال بعض المسلمين للرسول ﷺ: يا رسول الله، فكيف بالذين ماتُوا وهُمْ يُصَلُّونَ إلى بيت المقدس؟

فأنزل اللّهُ عزّ وجلّ في الإجابة على هٰذِه المقولة قولَه في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿. . وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

أي: إنَّ التَّوَجُّهَ لِبَيْتِ المقدس أو للكعبة إنّما الغرض منه طاعةُ أَمْر الله عزّ وجلّ، وهٰذِهِ الطّاعةُ أَثَرٌ في السُّلوك من آثار الإيمان، وهذا التوجُّه الإيمانيُّ الملتزِمُ بأمْرِ الله يسْتَحيل عقلاً أَنْ يُضَيِّعَهُ اللّٰهُ أو يُلْغِيهُ، فاللّٰهُ جلّ جلاله عليم حكيم.

إِنَّ المشرقَ والمغرب وسائر الجهات كلَّها هي لله عزَّ وجلّ، وليس شيءٌ مِنها لغيره، حتَّىٰ يكون تغيير القبلَةِ تغييراً للمَعْبُود، فإذا أمرَ الله عباده بالتوجُّه للمشْرِقِ فإنَّهم يتوجَّهون لَه، طاعةً لأمر الله، ثُمَّ إذا أَمَرَهُمْ بالتوجُّهِ للمغرب فإنَّهُمْ يتوجَّهون أيضاً لَهُ طاعة لله، وامتثالاً لأمره، والتوجُّهُ في كلتا الحالَتَيْنِ إنّما هُو تعْبِيرٌ عَنْ صِدْقِ الإيمان في قلوبهم، وصِدْقُ الإيمان هذا لا يمكن عقلاً أنْ يُضَيِّعَهُ الله سبحانه، إذْ هو طاعة منهم لأوامره، وأثَرٌ من آثار الإيمان في قلوبهم.

ومن حكمة الله في هذا التغيير في الأوامر الرَّبَّانيّةِ حول قضيَّةٍ واحدة تدريبُ المؤمنين على عدم ارتباط قلوبهم بالأشياء، وتجريدُهم من كلّ تَعَلُّقٍ إلاَّ التعلُّقَ به سُبْحانه، والتّعَلُّقَ بطاعته في أوامره ونواهيه دواماً مَهْما غيَّرَ فيها وبدّل.

هذا هو الصراط المستقيم في أحكام العبادات، فمن أدركه والتزمَ به إيماناً وعملاً، وعزَم على طاعة الله مُطْلقاً دون النظر إلى عَيْنِ المأمور به، أو الحكمة منه هداه اللّٰهُ بالتوفيق والمعونة إلَىٰ متابعة سلوك صراطٍ مستقيم يُحَقِّقُ به رضوان رَبّه عليه، وهٰذِه الهداية إنّما يُجريها الله بمشيئتِه الحكيمة الّتي لاَ توجَدُ قُوَّةٌ من غَيْرِ ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ تُلْزِمها بشيء، لكِنَّ اللّٰهَ عزّ وجلّ يشاءُ الأمر الحكيمَ بمقْتَضَىٰ كمالِهِ الْمُطْلَق في ذاتِهِ وفي صفاته.

- وجاء في سورة (البقرة) أيضاً قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

أي: كانَ النَّاسُ أمَّةً واحِدَةً علىٰ الإيمان الّذِي وَرِثُوهُ عَنْ آدَمَ عليه السّلام، ثم اخْتَلَفُوا إِذْ دَخَلَ إليهم الشِّرْكُ وَالكُفْرُ فتفرَّقُوا فِرَقاً على سُبُلٍ شَتَّىٰ، فاحْتَاجُوا إلى نَبِيِّينَ مُرْسَلِينَ مُبَشِرِينَ ومُنْذِرِين، فبعثَ الله لهم بِحِكْمَتِهِ الرُّسُلَ، وأنزلَ معَهُمُ الكتابَ بالحقّ، لِيُبَيِّنُ لَهُم أصُولَ الإيمان وأحكام الدّين، وليكون لمن شاء منهم أن يتحاكموا إِلَيْهِ مَرْجعاً يحكُمُ بَيْنَهم فيما اختلفوا ويَخْتَلِفُون فيه.

ثمّ اختلف فيه الّذِين أوتوه بالتحريف والتبديل والتأويلات الباطلات، من بَعْدِ ما جاءتهم آيات الكتاب البيّنات، وكان هذا بغياً بَيْنَهم، إِذْ وُجِدَ فيهم منافقون يتظاهَرُون بقبول نصوص الكتاب الرَّبَّانِيّ والعمل بأحكامه، ويتلاعَبُونَ فيها بالتأويل الباطل وبالتحريف.

ثمّ بعث الله عزّ وجلّ خاتم النبيّين والمرسلين محمّداً ﷺ، وأنْزَل عليه القرآن خاتمة كتُب السّماء، بيّناً واضح الدلالة على أصول الدّين، فهدىٰ الله بتوفيقه ومعونته وإذنه الذين آمنوا بالرَّسُول وبما أَنْزَل الله عليه إلى الاستمساك بالحقّ الذي جاء في القرآن.

فأحَقَّ أئمّةُ الاجتهادِ منهم المتَّقُونَ الأَبْرَارُ الحقَّ، وأبْطَلُوا الباطل، وَأَوضحوا للناس الصراط المستقيم الذي هو صِرَاط الله في العقائد والأخلاق والآداب وأحكام السُّلوك، بالأدلّة الجليَّة، بحثاً واستنباطاً من نُصُوصِ الكتاب المجيد، وبيانات الرسول ﷺ، وكان هذا بمعونة من الله وتوفيق لهم، إِذْ عَلِمَ أنّهم مؤمنون مخلصون صادقون في تَحَرّي الوصول إلى الحقّ، دون بغي ولا زيغ عنه، واللّهُ يَهْدِي بمقتضىٰ عِلْمِه وحِكْمَته من يشاء

من عباده إلى صراطٍ مستقيم، هدايةَ دَلاَلَةٍ ومعُونةٍ وتوفيقٍ، ومعلُومٌ أنّ مشيئة الله في كلّ مقاديره لا تُفَارِقُ حكمته.

* * *

(١٩) ما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

● فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ حكايةً لبعض ما قال عيسَىٰ عليه السلام لقومه:

﴿... فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

فأبان عيسى عليه السلام لقومه أنّ من عناصر الصراطِ المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه ولا عثرات ما يلي:

١ ـ أن يتّقُوا الله، وتقوى الله تكون بالإيمانِ به وبما جاء من عنده، وبفعلِ ما أمرهم به وتركِ ما نهاهم عنه.

٢ ـ أن يُطِيعوا رسُولَ ربِّهم ولا يَعْصُوه.

٣ ـ أنّ حقّ الله على عباده أن يَعْبُدوه، فهو رَبُّهُ وربُّهُم، إذْ من مقتضىٰ رُبُوبيّته لهم أنْ يعبدوه فلا يُشْرِكوا بعبادته شيئاً، فحَقُّ الرَّبِّ المالِكِ الْمُمِدِّ بعَطَاءَاتِ الرُّبوبيّة على عبيده أن يَعْبُدوه، والالتزام بالحقّ التزامٌ بالصّراط المستقيم.

وعبادة العبد لربّه تشْمَلُ طاعتَه والْعَملَ بمراضيه في كلّ سلوكٍ نفسيٍّ وَجَسَدِيّ.

● وجاء فيها قول الله عزّ وجلّ خطاباً للذين آمنوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَحْتَمِ باللَّهِ مُلْتَجِئاً إليه ومُمْتَنِعاً به. والاعتصامُ بالله يكونُ بالإيمان به، والإسلام له، وعبادته وحْدَه بصِدْقٍ وإخلاصٍ دون إشراكٍ به، وبالْعَملِ بمراضيه، وباللُّجوءِ إليه وحْدَهُ بالدُّعاء مع إخلاصِ النِّيَّةِ في كلِّ أمْرٍ مِنْ أُمُور الدنيا والآخرة.

وهذا الاعتصام هو من جواهر الدِّين العظمى، ومن عناصره الرئيسة.

الاعتصام بالشيء لغةً: هو اللُّجوءُ إليه، والامتناع به، والاحتماءُ بحماه.

وقد أبان هذا النصّ أنّ من اعْتَصَم باللَّهِ ملْتَجئاً إلَيْه ومُحْتَمِياً به ومُسْتَمْسِكاً بالدّين الذي اصطفاه الله لعبادِه فَقَدْ هُدِيَ بِتَوْفِيقِ الله ومعونته إلى صراطٍ مُسْتَقيم.

* * *

(٢٠) ما جاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

- فقد جاء فيها قول الله عَزّ وجلّ في معرض الحديث عن المنافقين:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ولو أنّهم تَابَعُوا فِعْلَ مَا يوعَظُونَ به مِنْ تحكيم الله ورسوله في قضاياهم لكان هذا خيراً وأشدّ تَثْبيتاً على الحقّ الذي أعْلَنُوا بألسنتهم انتماءهم إليه، إذْ تتجدّد لدَيْهم قناعات تُدْخِلُ الإيمانَ إلَىٰ قُلُوبهم، ومتَىٰ صَحّ تَثْبيتهم على الإيمانِ آتاهُمُ اللَّهُ أجراً عظيماً، وهداهم في مسيرتهم في رحلة امتحانهم صراطاً مستقيماً، أي: وفّقهم إلى التزام صراط الله المستقيم وأعانَهُمْ عليه، فالهداية هُنَا هداية توفيق ووَزْعٍ وإعانة.

- وجاء فيها أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ خطاباً للنّاسِ جَمِيعاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾.

فأبانَ هذا النصُّ أنَّ صِدْقَ الإيمان مع الاعتصام باللَّهِ احْتِمَاءَ بِحِماه، يُعِدُّ الْمُؤْمِنين الصَّادقين إلى أن يُدْخلهم الله في رحمته فيغفر لهم ذنوبهم ويُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِم، ويجعلهم مشمولين بفَضْلٍ مِنْهُ إذْ يَعْصِمُهمْ عن الوقوعِ فيما يُسْخِطُهُ، ويُزَكِّيهم بحمايةٍ منه، مع ما يمنَحُهم في الحياة من راحة ضمير، وسعادةِ نفس، وتَيْسِيرٍ للأمور ودفعٍ للمكاره، ومعوناتٍ في أمورهم، ويهديهم صراطاً مستقيماً فيما بقي لهم من مسيرتهم في حياتهم، وهو صراط الله الّذي يبلغون به رضوان الله في جنّات النّعيم يوم الدّين.

* * *

(٢١) وَجاء في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾: أي: كاشفاتٍ موضّحاتٍ لمن تدبّرها صراط اللَّهِ المستقيم، وهو دينه الذي اصطفاه الله للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ودَلَّ على أنّ التّبيين هو تبيين للصراط المستقيم تتمة الآية.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: سبق أَنْ عَلِمْنا أنَّ مشيئة الله عزّ وجلّ لا تفارق عِلْمَهُ وحكمته، ومشيئته هي الّتي تحدّد مقاديره وتصاريفه.

فَمَنْ عَلم اللَّهُ في قلبه إرادة الحقّ والخير حبَّبَ إليه الإيمانَ وزيَّنَهُ في قلبه، فإذا آمن وصدقَ في إيمانه واتَّجهَتْ إرادته للعمل بمقتضَيات الإيمان

شرح الله صَدْره للإسلام، فإذا أَسْلَم وصدق في إسلامه، أي: في إعلانه الطاعة لله في أوامره ونواهيه، وفي الخضوع له، أَوْجَدَ الله في قلبه الدافع إلى معرفة أحكام الإسلام وشرائعه، فإذا عَزَم على ذلك أَعانه الله فَهَداهُ إلى معرفتها، ثُمَّ إلى الْعَمَلِ بها. وبهذا التسلْسُل تتحقَّقُ هدايته إلى صراطِ اللَّهِ المستقيم عِلْماً وعملاً، وسُلوكُ هذا الصراط يُوصل إلى جَنَّاتِ النّعيم ورضوانٍ من الله أَكْبَرَ يوْمَ الدين.

* * *

(٢٢) ما جاء في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

- جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

- ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: سَوابق هٰذه العبارة تُشْعِرُ بأنّ هذَا يكونُ في الجنّة، فما هو الطيّبُ من القول الذي يقولونه فيها؟

جاء في القرآن عدّة بيانات تفصيليّة تخبرُ عن بعض ما يقول أهل الجنة في الجنة، فمنها ما يلي:

١ ـ قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ... ﴿٥٣﴾﴾:

فهذا من الطيّب من القول الذي يقولونه في الجنّة.

٢ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٧٤)﴾.

وهذا أيضاً مِنَ الطَّيِّب من القول.

٣ ـ وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (فَاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾.

وهذا أيضاً من الطَّيِّب من القول.

٤ ـ وقالَ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٩) دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠)﴾.

وهذا أيضاً من الطَّيِّبِ من القَوْل.

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾: ذهب المفسّرون إلى حمل هذه الهداية على هدايتهم في الحياة الدنيا إلى صراط الله الذي هو دينه الّذي اصطفاه الله لعباده.

وأرى أنّهم يُهْدَوْنَ في الجنة إلى الصراطِ الّذي يوصلهم إلى حيث

يَرَوْنَ ربّهم، فيفيض عليهم أنوار سُبُحاتِ وجهه، حامداً لهم إيمانهم وعملهم الصالح، وهم يَحْمَدُونه بما هو له أهلٌ من المحامد الجليلة العظيمة، والله أعلم.

- وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ) أيضاً:

﴿...وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾.

أي: وَإِنّ الّذِينَ آمَنُوا إيماناً صحيحاً صَادِقاً يُنَوِّرُ اللّهُ عزّ وجلّ بصائرهم، فَيَهدِيهم في حياتهم إلى صراطٍ عَمَلِيّ مستقيم، يكون سبب نجاتهم وسعادتهم.

الهداية هنا هداية دلالةٍ وإرشاد، وقد تكون مصحُوبة بالتوفيق والمعونة على التحقُّقِ بطَاعَة الله والعمل بمراضيه.

* * *

(٢٣) ما جاء في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

- قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ① لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ② وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ③﴾.

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ①﴾: هو ما حصل في صُلْح الحديبية، وآثاره من انتشار الإسلام بالدّعوة، إذْ كان هذا فتحاً مُبِيناً.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: أي: ليغفِرَ لكَ اللّهُ مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ مَا كانَ يَنْبَغِي لمثلِك أن يُقَدِّمه، ومَا أخَّرْتَ مِنْ عَمَلٍ فَلَمْ تَعْمَلْهُ، ممّا لا يَنبغِي لمثلِكَ أن لا يَعْمَلَه.

﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾: في هذا إشارة إلى قُرْبِ إنْزالِ ما بقي من شرائع الدّين وأحكامه، وبإنزاله تَتِمُّ نِعْمَةُ عناصر رِسالة الرسول، فسورة (الفتح) من أواخر التنزيل.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: هنا يَرِد سؤال وهو: أَلَمْ يَسْبِقْ أَنْ هَدَىٰ اللَّهُ رسولَهُ محمّداً ﷺ الصراط المستقيم، فهذا النّصّ من سورة (الفتح) وهي من أواخر ما نزل من القرآن إذْ لم ينزل بعدها إلاّ المائدة والتوبة والنّصر؟

وأقول في الجواب:

إنَّ الصراط المستقيم له بدايات وأوساط وأواخر، فَمَنْ سَلَكَ في أوائل الصراط المستقيم وهو مؤمنٌ صادقٌ يستعين بالله ويُخْلِص له في العبادة، أعانه الله بالبيان والتوفيق والتسديد علَىٰ متابعة سلوكه على الصراط المستقيم، بمقدار التزامه به.

ومن تابع مسيرته على الصراط المستقيم في أواسطه، أعانه الله بالبيان والتوفيق والتسديد حتى يَصِلَ إلى قُرْب أواخره، بمقدار التزامه به.

ومن قارب نهاية حياته سائراً على الصراط المستقيم، أعانه الله بالبيان والتوفيق والتسديد على متابعة سلوك الصراط المستقيم، بحسب مرتبته عند ربّه، حتَّىٰ يلْقَى الله ربّه وهو على صراطه.

ثم يَمُرُّ على الصّراط يوم الّدين مروراً تكون سرعته فيه على مقدار التزامه بصراط الله في رحلة امتحانه في الحياة الدُّنيا.

ثم يدخله الله الجنَّةَ ضِمْنَ الزُّمْرَةِ الَّتِي هُو منها.

فالمراد من هداية الله رسولَهُ الصراطَ المستقيمَ وهو في أواخِرِ رحلةِ حياتِه في الدنيا، إنْزَالُ ما بَقِيَ مِنْ شرائع الدِّين وأحكامِه عليه، وعِصْمَتُهُ فيما بقي له من عُمْرٍ، حتَّىٰ يُتابعَ مَسِيرَتَه إِلَىٰ أَنْ يلْقَىٰ رَبَّهُ حائزاً أَسْمَىٰ دَرَجاتِ المحسنين، ويكونَ في الذِّرْوة من الفِرْدَوس الأعلى.

- وجاء في سورة (الفتح) أيضاً خطاباً لأصحاب الرسول ﷺ الذين

بايَعُوه تحت الشجرة في الحديبية، على قتال المشركين حتّىٰ الموت، وكانت هذه المبايعة الجهاديَّة قَبْلَ أن يَتِمَّ الصُّلْحُ بَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ وبَيْنَ مُشْرِكي مَكَّة، فأنزل اللَّهُ عَزَّ وجلّ في السورة بعد ذلك، وقد أنزل الله أوائلها وهُمْ قافلون إلى المدينة:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾: وهي الغنائم الَّتِي غَنِمُوهَا فِي غَزْوَةِ خَيْبَر.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾: فَحَمَىٰ أَهْلَكُمْ من كَيْدِ اليهود، إذْ هَمُّوا بعد خروج الرسول، ومَعَه معظم أصحابه إلى مكة، لأداء العمرة، بأن يُغِيروا على مَنْ بقي في المدينة من المسلمين.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: هذه العبارة معطوفة على محذوفٍ مُلاحَظٍ ذِهْناً، أي: لتشكروه على المغانم، وعلى كفِّ أيدي الناس عَنْكُمْ، ولتكونَ هذه المِنَحُ والمعونات الرَّبَّانِيَةُ عَلاَمَةً يستَدِلُّ منها المؤمنون على أنّ اللَّهَ مَعَهُمْ مُؤيِّدُهُمْ وَنَاصِرُهم إذا جاهَدُوا في اللَّهِ حَقَّ جهاده.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: أي: وليَدُلَّكُمْ وَيُعِينَكُمْ ويُوفّقكم على مَعْرِفَةِ مَا لَمْ تَسْلُكُوهُ بَعْدُ من الصِّراطِ المستقِيم، ويُسَدِّدَكُمْ حتّىٰ تلازَمُوه في مُسْتَقْبَلِ أمركم، إذا صَدَقْتُمْ مع الله، وأَخْلَصْتُمْ له الْعَمل.

إنّ الصراط المستقيم صراطٌ ذو مَرَاحِلَ مُتَعَدِّدَة، فَمَنِ اجتاز مَرحَلَةً مِنْه مَهْدِيّاً كَانَ بِحَاجَةٍ إلى مَعُونَةٍ من اللَّهِ بالبيان والتوفيق والتسديد حتَّىٰ يَقْطَعَ المرحَلَةَ التاليَة مَهْدِيّاً مُسَدَّداً، فإذا اجتازها كان بحاجة أيضاً إلى معونةٍ من الله بالبيان والتوفيق والتسديد حتَّىٰ يقطع المرحَلَةَ التالية لها مَهْدِيّاً مُسَدَّداً، وهكذا حتّىٰ يجتاز رحلة حياة الامتحان بنجاح.

* * *

(٢٤) ما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لأَهل الكتاب:

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾:

أبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أنَّ القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ له عدّة صِفَاتٍ:

الصفة الأولى: أنَّ القرآن من الله نُورٌ للقلُوب والأفكار والأنفس.

الصفة الثانية: أنَّهُ كتابٌ مُبِينٌ واضِحٌ لمن تَدَبَّر آياته وعقَلها.

الصفة الثالثة: أنّ الله يهدي به الّذين اتَّبَعُوا رضوانه سُبُلَ سلامتهم في الدنيا والآخرة.

الصفة الرابعة: أنّ القرآن يُخرج بإذن الله من اتّبع رضوان الله من ظلُماتِ الكُفرِ والجهل والضلالة وحماقات السلوك في الحياة الدنيا إلى نور الإيمان والمعرفة الحقّ والهدى والرّشْدِ في الأقوال والأعمال الظّاهرة والباطنة، الجسديّة والنفسيّة.

الصفة الخامسة: أنّهُ يهديهم هداية دلالة وتعليم إلى صراط مستقيم في مَسِيرَتِهِمْ في حياتهم، إذْ كلُّ ما في القرآن من دلالة وعِلْمٍ يَهْدِي إلى صراطٍ مستقيم لا عِوَجَ فيه ولا عَثَرَات.

وبهذا يتم تدبُّر النصوص الّتي جاء فيها لفظ الصراط في القرآن المجيد، والحمد لله على معونته وتوفيقه.

* * *

سُورَةُ المَسَد

وَيطلق عليهَا سُورَة «تَبَّتْ»

١١١ مصحف ٦ نزول

(١)

نصّ السورة وما فيها من قراءات من الفرش

سورة المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ
۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥

---

١ ـ قرأ ابن كثير [أَبِي لَهْبٍ] بإسكانِ الهاء.
- وقرأ باقي القراء العشرة: بفتح الهاء: [أَبي لَهَبٍ].

٤ ـ قَرأ عَاصم [حَمَّالَةَ] بالنّصْبِ.
- وقرأ بَاقي القراء العشرة [حَمَّالَةُ] بالرفع.

وهما وجهان عَرَبيان جائزان.

(٢)

سبب نزول السُّورة

ورد في سبب نزول سورة «المَسد» أنّ الله أَمَرَ رسُولَهُ محمّداً ﷺ بِأَنْ يُنْذِرَ عَشيرَتَه الأَقْرَبِينَ، فخرجَ حتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لبُطُونِ قُرَيشٍ، وانْتَظَر حتَّىٰ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، ومن لَمْ يسْتَطِعْ أَنْ

يحضُرَ أرْسَلَ رسُولاً، فجاءتْ قُريشٌ، وكانَ فيهم أبو لَهَب.

فلمَّا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ قال لهم:

«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخبرْتُكُمْ أَنَّ خيْلاً تَخْرُجُ منْ سَفحِ هٰذَا الْجَبَل تُريدُ أَنْ تُغيرَ عليكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟؟».

قالوا: نعم، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً.

قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

قال أبو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لِهَذَا؟

فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾.

ويظهر أنَّ اللَّهَ أمَرَ رَسُولَهُ بأَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الأَقْرَبِينَ مُنْذُ أَوَائِلِ بعثَتِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِ فِي أواسط الْعَهْدِ المكّي قَوْلَهُ في سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

فسبَبُ النُّزُولِ الّذي سبَقَ بيانُهُ قَدْ رَوَاهُ البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، قال:

لَمَّا نَزَلَتْ: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ، ورَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصينَ»(١) خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا، فهَتَفَ: «يَا صَباحَاهْ».

فقالُوا: مَنْ هٰذَا، فاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فقال:

---

(١) الجملة الأولى آيةٌ قرآنيّة مِنْ سُورَة (الشعراء) التي نزلت في أواسط العهد المكيّ، لكن الجملة الثانية ليست من القرآن، فجمْعُهُما تحت عنوان: «نزلت» يدلُّ علىٰ أنها نزلت وحياً غير قرآن ولم تنزل قرآناً في أوائل العهد المكي، والله أعلم.

«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخرُجُ مِنْ سَفحِ هَذا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ».

قالوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً.

قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

قال أَبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لِهٰذَا، ثُمَّ قَامَ، فنزلتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾. وقَدْ تَبَّ. هكَذَا قَرَأَهَا الأَعْمَشُ يومئذٍ. [البخاري: ٤٩٧١ (١٣٩٤) ومسلم (٢٠٨)].

وفِي روايَةٍ للبخاري (أي: بَعْدَ: حتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا):

فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حتَّىٰ اجْتَمَعُوا، فَجعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ فَقَالَ:

«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟».

قالوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلاَّ صِدْقاً. [البخاري ٤٧٧٠].

* * *

أَمّا الرِّوَايَاتُ الّتِي تَحدَّثَتْ عَمَّا فعلَهُ الرسولُ ﷺ بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ آيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ من سُورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) فلَيْس فيها ذكْرُ أَبِي لَهَبٍ، ومَا وَاجَه به الرَّسُولَ ﷺ، فهِي لا تَصْلُحُ بياناً لِسَبَبِ نزول سُورَةِ «الْمَسَد»، بَلْ جَاءَ فِيهَا بَيَانُ قِيَامِ الرسول ﷺ بما أَمَرَهُ اللّٰهُ بِهِ في سُورَةِ (الشعراء) ويكونُ هذا عملاً آخرَ قام به الرَّسُولُ ﷺ في أواسِطِ العهد المكيّ، بعْدَ نزول سُورَةِ (الشُّعَراء)، وهُو غيرُ العمل الذي قام بِهِ في أَوَائِلِ العهد المكيّ، الّذِي قال له فيه أبو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لهذا، وموقع

هذه الرّوايات سُورَةُ (الشعراء) عند الآية، أُورِدُها هنا لمنع اللَّبْسِ بَيْنَها وبين ما رُوي عن ابن عباس في سبب نزول سورة (المَسدِ).

(١) فقد جاء عند البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حين أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ قال:

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ـ أَوْ كلمةً نَحْوَها ـ اشْتَرُوا أَنفُسَكُمْ لاَ أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لاَ أُغْنِي عَنكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً». [البخاري ٢٧٥٣ ومسلم ٢٠٦].

- وفي رواية عند البخاري ومسلم إضافة: «يَا بَنِي عَبْدِ المطَّلِبِ».
- وفي رواية عند البخاري إضافة: «يَا أُمَّ الزّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ الله».

(٢) وجاء في رواية عند مسلم عَنْ أبي هريرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ دَعَا رسُول اللَّهِ ﷺ قُرَيْشاً، فَاجْتَمَعُوا، فعَمَّ وَخَصَّ، فقالَ:

«يَا بَنِي كَعْب بْنِ لُؤَيّ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِن النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ النّار، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ النار، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ النّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ، أَنقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ. فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا»[1]. [مسلم ٢٠٤].

---

[1] **سأَبُلُّها بِبَلالها**: يقال لغة: بَلَّ رَحِمَهُ إذا وَصَلَها، وأَصْلُ الْبَلاَلِ نَضْحُ الشيء بالماء حتىٰ

(٣) وروى مسلم عن عائِشَةَ رضي الله عنها قالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ الصَّفَا فقال:

«يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ». [مسلم ٢٠٥].

(٤) وروى مسلم عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ، وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو قَالاَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال: انطَلَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إلى رَضْمَةٍ[1] مِنْ جَبَلٍ فَعَلاَ أَعْلاَهَا حَجراً، ثُمَّ نادَىٰ:

«يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، إِنِّي نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَىٰ الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهْ». [مسلم ٢٠٧].

يَرْبأُ أَهْلَهُ: أي: يَعْلُو على مُرْتَفع، ويتطلَّع مَسِيرَةَ العدوّ، وينادي أهله محذّراً.

* * *

(٣)

موضوع سورة «المَسَدِ»

تتضمَّن السورة انتصار الله لرسوله ضدّ عمه أبي لَهَبٍ الَّذِي آذاه بالدُّعَاءِ عَلَيْهِ بالْخُسْرانِ والهلاك والانقطاع، وضِدَّ امرأتِهِ أُمّ جميل، التي كانت تؤذي الرسول ﷺ بأنواعٍ من الأذىٰ، فقد ورد في أخبارها أنّها كانت تحمل الحطب المملوء بالشوك فتطرحُهُ ليلاً في طريق النبيّ ﷺ إيذاءً له ولأَصْحَابِه، وَأَنَّها كانت تَمْشي بالنَّميمة لتُفْسِدَ بيْنَ الناس.

= يكون نَدِيًا، يُقَالُ: بلَّ الشيْءَ بالماء ونحوه يَبُلُّه بَلاًّ، وبَلَلاً، وَبَلاَلاً، إذا نَدَّاهُ. ويقال: بَلَّ فُلاناً، إذَا أعْطَاهُ.

[1] رَضْمَة: الرَّضْمَةُ الصخرة العظيمة، أو مجموعة صخور مُتراكمة.

ذكر مشيها بالنّميمة مجاهد، وقتادة، والسّدّي.

أبو لهب: هو عبد العزّىٰ بن عبد المطلّب، أحدُ أعمام الرسول ﷺ.

وامرأتُه: أي: زوجتُه، هي أمُّ جميل أَرْوَىٰ بنتُ حَرْب بن أميَّة، أخْتُ أبي سفيان بن حرب، وكانت عوراء، ترى بعين واحدة، فربّما كان يُطْلَق عليها لفظ «الْعَوْرَاء».

ويُلاحظُ أنّ كلَّ من تعرَّض له القرآن بالذّمّ من أعداء الرسول ﷺ وأعداء الإسلام قد ذكره الله بالوصف الّذي ينطبق عليه وعلى غيره، باستثناء أبي لهب وزوجته، ويَبْدو لي أنّ السبب في هٰذَا يَرْجِعُ إلى أمرين:

الأمر الأوّل: أنَّ أبا لَهَبٍ عمُّ الرسول ﷺ، فَهُو من عشيرته الأقْرَبين، فَلاَ يَتعصَّبُ في الانتصار إِلَيْه أحَدٌ مِنْ عشيرَته ضِدَّ محمّد ﷺ، إذْ هما من عشيرةٍ[1] واحِدَة.

الأمْرُ الثاني: أنّ أبا لَهَبٍ كان البادئ بإيذاء الرسول مواجهةً بلسانه وهو ينصح عشيرته الأقربين، وكان أذاه صريحاً لا مُوارَبَةَ فيه ولا تورية، وأنّ امرأته كانت تُعْلِنُ في المجتَمَعِ المكّيّ إيذاءها للرسولِ ﷺ بأقوالها وأفعالها.

فكان من الحكمة أنْ يَتولَّىٰ الرَّبُّ جَلَّ جَلاَله بِقُرْآنِه نُصْرَةَ رسوله، حتَّىٰ لاَ يتجرّأ علَيْهِ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَتِهِ اسْتِخْفَافاً به وبِعَشِيرَته.

وقَدْ اشْتَمَلَتِ السُّورَةُ علَىٰ رَدِّ عِبَارَةِ أبي لَهَبٍ عَلَيْهِ، والحكْم عليه بِالْخُسْرَانِ والانقطاع في قُرآنٍ يُتْلَىٰ مَا دَامَ لِكتَابِ اللّهِ تَالٍ يَتْلُو آيَاتِهِ.

ولَكِنْ كانت عبَارَةُ أبي لَهَبٍ دُعَاءً غَيْرَ مُسْتَجابٍ، أمَّا مَا نزل فِي القرآنِ ردّاً عَلَيْهِ فهُو حُكْمٌ مُبْرَمٌ مِنَ اللّهِ جَلَّ جَلاَلُهُ، مسْتَتْبَعٌ بالتّنْفِيذِ لاَ مَحالَة، وقَدْ تَبَّ فَهَلَكَ، وهُوَ يَلْقَىٰ عِقَابَه عند رَبِّهِ هو وزَوْجَتُهُ حَمَّالَةُ الحطَبِ.

---

[1] **عشيرة الرجل**: بنو أبيه الأقربون، وقبيلته.

(٤)

التدبّر التحليلي للسورة

أوّلاً: تدبر ما يَتَعَلَّقُ بأبي لَهَبٍ من السورة:

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

عَرَفْنَا مِنْ سَبَبِ النُّزُول الذي رواه البخاريُّ ومُسْلمٌ عن ابن عباسٍ، أنَّ الرَّسُولَ ﷺ في أوائِلِ الْعَهْدِ المكيِّ لمَّا أنْذَرَ عَشِيرَتَهُ الأَقْرَبِينَ عمَلاً بما أمَرَهُ اللَّهُ بِه فيما أوحىٰ إليْهِ، وكانَ أبو لَهَبٍ فيمَنِ اجْتَمَعَ إلَيهِ في هذِه المرَّةِ المتقدّمَةِ، قالَ أَبُو لَهَبٍ للرَّسُول: «تبّاً لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إلاَّ لِهذَا» وجاء في رواية أنَّه قَال: «تباً لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جمَعْتَنا؟». ثُمَّ قَامَ وانْصَرَف.

فَانْتَصَرَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ، فَأنْزَلَ السُّورَةَ صَرِيحَةً بأبي لَهَبٍ وَزَوْجَتِهِ، والحكمِ عليهما بالخسْران، والعذاب الشديد في النار يوم الدين.

فِعْلُ: «تبَّ» يدُور حول معنى الخسران، وقد يَدُلُّ على الْهَلاك.

يقال: **تَبَّتْ** يَدا فُلان، أي: خَسِرَتا. **وَتَبَّ تَباً وَتَبَاباً**، أيْ: خسر، أو هلك. **والتَّتْبِيبُ**: النقصُ والْخَسَارة، وتقول العربُ في دعائها عَلىٰ إنسان بالخسران والهلاك: تباً لفُلَان، بالنصب على المصدريّة من فعل محذوف.

«تبَّ» فِعْلٌ مَاضٍ والتّاء للتأنيث، والفاعِلُ «يَدَا أبي لَهَب».

ومَا جَاءَ فِي الآيَةِ حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ وَقَضَاءٌ، لاَ يَقْتَصِرُ عَلَىٰ خَسَارَةِ يَدَي أَبِي لَهَبٍ، فِي مُقَابِلِ دُعَاءِ أبي لَهَبٍ عَلَىٰ الرَّسُول بأَنْ تَخسَرَ يَدَاه، فَقَدْ جَاءَ فِعْلُ: ﴿وَتَبَّ﴾ في آخرِ الآيَةِ الأُولى، للحُكْمِ عَلَيْهِ كُلِّهِ بالْخُسْرَانِ، ودَلَّ

عَطْفُ زَوْجَتِهِ عَلَيْهِ في الآيَةِ الرابعة علَىٰ مُشَارَكَتِهَا لَهُ فيما أبْرَمَهُ اللَّهُ بَشأنِهِ، فَهُمَا معاً مَشْمُولاَنِ بالْوَعِيدِ بِالْخُسْرَانِ وبالعذابِ بِلَهَبِ نَارِ جَهَنَّمَ يوم الدين.

فقولُ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾.

دَلَّ على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ أَبْرَمَ حُكْمَهُ وَقَضَاءَه بخسارَتِهِ فيمَا تَكْسِبُ يداه، في مقابل دُعَائِه على الرَّسُولِ بدعاءٍ لاَ يَسْتَجِيبُهُ اللَّهُ، والحكمَ عليه بخسارته كلَّ ذَاتِهِ، عَلَىٰ أَنَّ إطْلاَقَ الْيَدَيْنِ قد يكونُ مِنْ إطْلاَقِ الْبَعْضِ وَإرَادَةِ الكُلِّ، ومَنْ كَانَ مِنَ المخلَّدِين في عَذَابِ النَّارِ يوْمَ الدّينِ فَقَدْ خَسِرَ كُلَّ ذاتِهِ لاَ مَحَالَة.

وَجاءَ في الآية اختيارُ كنيته «أبي لَهَب» دُون اسمه «عبد العزَّىٰ» لعدّة دَوَاعٍ حكيمة:

الدّاعي الأول: شُهْرَتُهُ فِي قَوْمِهِ بأبي لَهَب، فقد كان يُكَنَّىٰ بِذَلِكَ في الجاهلية لأنَّ وَجْهَهُ قَدْ كانَتْ فِيهِ حُمْرَةٌ كَحُمْرَة اللَّهَب.

الداعي الثاني: إيثارُ الابْتِعَادِ عَنْ ذِكْرِ اسْمِهِ «عَبْدِ الْعُزَّىٰ» فَهُو في الحقيقَة لَيْسَ عبْداً للوثَنِ الّذِي كَانَ يُسَمَّىٰ عند الْعَرب الْعُزَّىٰ مؤنَّث «الأعَزّ» إذْ كان على صورة امرأة، بَلْ هُوَ عَبْدٌ مِنْ عبادِ الله.

الداعي الثالث: إيْثَارُ التناسُبِ اللّفظي بيْنَ كُنْيَتِه الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، والنار ذاتِ اللَّهَبِ الّتِي هُوَ صَائِرٌ إلَيْهَا لاَ مَحَالَة، فَقَدْ جاءَ فِي السُّورَةِ بيانُ أنَّهُ سَيَصْلَىٰ ناراً ذَاتَ لَهَبٍ، ولا يخْفَىٰ مَا فِي هَذَا مِنْ إبداع بيانيٍّ دلّ عليه مُقابَلَةُ ما كان يُمْدَحُ به منْ إشراق وجْهٍ هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لاَ مِنْ كَسْبه، بمَا سَيَنْزِلُ بِهِ مِنْ عَذَابِ لهَبِ النار، عقاباً لَهُ عَلَىٰ مَا هُوَ من كسْبه.

كان أبو لَهَب معتزّاً في إعْلاَنه معاداةَ الرَّسُولِ ﷺ ومُعَادَاةَ الإسلام،

وإعلانِهِ مُقَاوَمَتَهما، بما ملكَتْ يداه من مالٍ، وبما يَقْدِرُ عَلَىٰ كَسْبِهِ مِنْ أعْمَال، ومنها كسْبُه مِنْ أولاده الّذين كان يتقوَّىٰ بهِمْ، ومِنْها مُتَابَعَاتُهُ للرَّسُولِ فِي مَوَاقفِ دَعْوَتِهِ لقومِهِ كالمتابَعةِ الّتِي رُويتْ عَنْ طارقٍ المحاربيِّ، قال:

بيْنَا أنا بِسُوقِ الْمَجاز، إِذْ أَنَا برَجُلٍ حَدِيثِ السِّنّ يَقُول: «أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لاَ إِلَهَ إلاَّ الله تُفْلِحُوا».

وإِذَا رَجُلٌ خَلْفَهُ يَرْمِيهِ، قَدْ أَدْمَىٰ سَاقَيْهِ وَعُرْقُوبَيْهِ، ويقُولُ: يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّهُ كَذَّابٌ فَلاَ تُصَدِّقُوهُ.

فَقُلْتُ مَنْ هٰذَا؟. فقالُوا: هذا محمَّدٌ يزعُمُ أَنَّهُ نَبيٌّ، وهذا عَمُّهُ أبو لَهَب⁽¹⁾.

لمَّا كان أبو لَهبٍ معتزّاً هذا الاعْتِزَازَ بما مَلكَتْ يَدَاهُ من أمْوالٍ، وبِمَا يَقْدِرُ عَلَىٰ كَسْبِهِ مِنْ أعْمَالٍ، كانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يقول اللّهُ بِشَأْنِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ وقَدْ عَلِمَ اللّهُ مَا فِي عُمْقِ نَفْسِهِ مِنْ شَرٍّ لَنْ يَتَحَوَّلَ عنه طَوالَ عُمْرِهِ، أي: خَسِرَتْ يَدَاهُ أَمْوَالَهُ الّتِي يملِكُهَا بِهِما، والّتِي بِهَا تَقْوَيَانِ علَىٰ حَرْب الرسول ﷺ وَمُقَاوَمَةِ دَعْوَتِهِ، وَخَسِرَ هُوَ كُلُّهُ في كُلّ مَا يَكْسِبُ مِنْ أعْمَالٍ بفكْرِهِ، وبلسانه، وبحركات جَسَدِهِ، وتَبَّ هو كُلُّهُ فيما كَسَبَ وَيَكْسِبُ مِنْ أوْلاَدٍ كَفَرَةٍ مِثْلِه يَتَقَوَّىٰ بِهِمْ وَيَعْتَزُّ.

وإذا خَسِرَ مالَهُ، وخَسِر سَائرَ كَسْبِه في الأعْمَالِ العدائيَّةِ والكيديّة، لم يَبْقَ لَهُ شيءٌ يسْتَنْصِر به، فيخيب مَسْعَاهُ ويكونُ مَهْزُوماً ذِلِيلاً، حَسِيراً خاسِئاً.

ومِنْ مظاهر خسارته المعجَّلة في الدنيا، أنّ ابْنَهُ عُتَيْبَةَ، الّذِي كان

---

(١) عن تفسير التحرير والتنوير. لابن عاشور.

زوْجَ أم كُلثوم بنت الرسول ﷺ، لمّا أمَرهُ أبواهُ بتَطْلِيقِها، جاءَ إِلَىٰ النبيّ ﷺ، فقال لَهُ: كَفَرْتُ بدينِكَ، وطَلَّقْتُ ابْنَتَكَ، وأقْبَلَ على الرسُول ﷺ فشَقَّ قميصه.

فقال الرسول ﷺ له: أَمَا إِنّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْكَ كَلْبَةً.

فخَرَجَ عُتَيْبَةُ مع تُجّار من قريشٍ نحو الشّام، حتّىٰ نَزلُوا بالزّرْقَاءِ، فَأَطَافَ بِهِمْ أَسَدٌ تِلْكَ اللَّيلَةِ، فجعَلَ عُتَيْبَةُ يَقُولُ: هٰذَا وَاللَّهِ آكِلِي كَمَا قَالَ مُحَمَّد، قاتَلَنِي ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ وهُوَ بِمكّةَ وَأنا بالشّام، فانْصَرَفَ الأَسَدُ، فَنَامُوا، وَجَعَلُوا عُتَيْبَةَ وَسَطَهُمْ، فَأَقْبَلَ فِي اللَّيْلِ يَتخطّاهم، حَتّىٰ أَخَذَ بِرَأْسِ عُتَيْبَةَ فقتَلَهُ.

لكنّ الخسْرَان الأعْظَمَ والعذابَ الأكبر هو ما يُلاقيه يوْمَ الدين، جزاء ما اقترف في حياة الابتلاء في رحْلَة الحياة الدُّنيا.

- قول اللّهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

أي: مَا نَفَعَهُ مَالُهُ الذي اعْتَزَّ بِهِ، وَمَا نَفَعَهُ مَا كَسَبَ مِنْ أعْمَالٍ، بَلْ بَاءَ بالخيبَةِ والْخُسْران.

يُقَالُ لُغَةً: أغنَىٰ الشيءُ فلاناً إذا كَفَاهُ، ويقالُ: أغْنَاهُ إذَا نَفَعَهُ وَأَجْزَأَ عَنهُ، ويقالُ: أغنَىٰ عَنهُ هٰذَا الأمْرُ، أيْ: أجْزَأَ عَنْهُ وَنَفَعه، وَمَا أغنَىٰ عَنهُ شيئاً، أي: لم يَكْفِهِ ولم يَنْفَعْهُ بِشَيْءٍ.

لَقدِ انْتَصَرَ الإسلام، وهُزِمَ الشِّرْكُ، وعَلَتْ كلمة لا إلَه إلاّ الله، ونُكِّسَتِ الأَوْثَانُ وحُطِّمَتْ، وخابَ زُعَماءُ المشركين وهُزِمُوا وانْكَسَرُوا، ودَخَلَ مُعْظَمُ أتباعِهِمْ في الإسلام في زمن من عُمْر الأجيال قصير، وقامَتْ للرّسُولِ والذين آمَنُوا معه دَوْلَةٌ قَوِيَّةٌ، وَصَارَتْ لهُمْ فِي الحجاز صَوْلَة، وتَضاءَلَتْ دَوْلَةُ مُشرِكي قُرَيشٍ.

فَمَا كَانَ حُكْماً رَبّانياً بكلماتِ اللّهِ فِي: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ صَار بَعْدَ قليلٍ من الزّمَنِ حقيقَةً واقِعَةً أنبأَ عَنْهَا مُقَدَّماً قولُ الله تَعالَىٰ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ لقد كان هذا خبراً مُعَجَّلاً سابقاً لما نزلَ بأبي لهَبٍ وَنُظَرَائِهِ بعْدَ حينٍ مِنْ هزيمةٍ وخيبة، فلا مَالُهُ نَفَعَهُ في الانْتِصَار على الرسُول وصَحْبِه، وإيقافِ انتشار الإِسلام وامتدادِه، ولاَ سَائِرُ كسْبِهِ الكَيْدِيّ نَفَعَهُ أيّما نَفْع، بل لاحقَتْهُ وسائر المشركين من قومِهِ الهزائمُ والنَّكَبات، ونَصَر الله رسُولَهُ والمؤمنين معه، وأعزَّ دِينه.

- قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

أي: وإذا جَاءَ أجَلُ مَوْتِه سَيُلاقي العذابَ والذُّلَّ والصَّغار، وسيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ يُحْرِقُ جِلْدَهُ، فَيذُوقُ عَذابَ الْحَرِيقِ، آناً فآناً بصُورَةٍ مُتكرِّرَةٍ مُتَجَدِّدَة.

سَيصْلَىٰ ناراً: أي: سَيُعَذَّب بالْحَرِيقِ فِي النّارِ. يُقَالُ لُغَةً: صَلِيَ النّارَ، وصَلِيَ بِها، إذا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

اللّهَب: ألْسِنَةُ النّار الّتي ترْتَفِعُ من الموادّ الّتي تَحْتَرِقُ فيها.

واستعمالُ السين في عبارَة ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ دون حرف التسويف «سوف» قد يُشْعِرُ بأنّه في مُدَّةِ البرزخ بين الموت والبعث تُعَذَّبُ نفْسه بعذاب حَرِيقٍ بنارٍ يجعلُ الله لها خصائص عذاب لَهَبِ نارِ جهنَّم يومَ الدّين، بدليل أنّ النصوص الْقُرآنيّة الّتِي جاء فيها بيان العذاب في نار جهنَّم يَوْمَ الدِّين، قد جاء فيها استعمال حرف «سوف» لا حرف «السين» ويدلُّ استقراء النُّصوص القرآنية على أنّ «سَوْفَ» تستعمل للمستقبل البعيد، وأنّ «السين» تُسْتَعمل للمستقبل القريب.

فلا يخدَعَنَّهُ مِنْ نَفْسِه أنّ قَوْمَهُ رَأَوْا حُمْرَةَ وَجْهِهِ ووضاءَتَهُ فكنَّوْهُ بأَبِي

لَهَبٍ، فإنَّ ظُلُماتِ نَفْسِهِ، وقَلْبِهِ، وظُلماتِ كُفْرِهِ وسُوءِ عَمَلِه، وكَيْدِهِ السّيِّئِ ضِدَّ الرسول ﷺ وضدّ دعوة الحق، وضدّ الّذين آمنوا به واتّبَعُوه، ستجعل جزاءه العادل العذاب بالحريقِ بلَهَب النار، ويَوْمَ الدّين يكون عذابُهُ حَرِيقاً بنَار جهنّم، خالداً فيها مُخَلَّداً أبداً، فالعذابُ بنار جهَنَّمَ يوم الدِّين يَكونُ بمثابَةِ الاسْتِمْرَارِ لعذاب نفْسِهِ بيْنَ الْمَوْتِ والبعث.

وهذا الحكم الصادر عن الله على أبي لَهَبٍ وامرأته، وهُمَا مَا زَالاَ في حياةِ الابْتِلاَءِ، دليلٌ على أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ عَلِمَ مَا فِي عُمْقِ أفْئِدَتِهِمَا مِنْ كُفْرٍ لَنْ يَتَحَوَّلاَ عَنْهُ، مهما تَعَرَّضَا لمختلف أنواعِ صُوَرِ الإقناعِ والترغيب والترهيب، ووسائل التربيةِ والتأديب، وعَلِمَ أَنَّهما سيَمُوتَانِ علَىٰ كُفْرِهِمَا، فحَكَمَ عليهما بِالعذابِ الأبديّ وهُمَا ما زَالاَ حيَّيْنِ في الدنيا.

فالنّصّ حُكْمٌ صَادِرٌ عن اللّهِ، وليْسَ مُجَرَّدَ إنْذَارٍ وتَهْدِيد مُعَلَّقَيْنِ على اسْتِمْرَارِهِمَا علَىٰ الكُفر، وكُفْرُهُمَا كُفرٌ إراديٌّ اختياريٌّ مِنْهُمَا، لَمْ يُجْبَرَا عليه، وقَدْ عَلِمَهُ الله بواسِعِ عِلْمِهِ المحيط بكلّ شيءٍ، حتَّىٰ مَا فِي أعماق النفوسِ والقلوبِ والأَفْئِدَةِ، كمَا قال جَلَّ جلالُهُ، في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾.

ثانياً: تدبّر ما يتعلّق بامرأة أبي لهب من السورة:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

وامْرَأَتُهُ: أي زَوْجَةُ أبي لَهَب، وهي أمّ جَمِيلٍ أَرْوىٰ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أميّة، أُخْتُ أبي سُفْيَانَ بْنِ حَرْب.

والمعنى: وستَصْلَىٰ امرَأتُه ناراً ذاتَ لَهَبٍ، فقوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ معطوف على فَاعل: ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ الْمُسْتَتِر، أي: سيَصْلَىٰ هُو وامرأتُهُ ناراً ذاتَ لَهَب، فهي تَعذَّبُ مثْلَ عَذَابِهِ، لأنَّها كانت مُشارِكَةً لَهُ في جَرائِمِهِ ضَدَّ رَسُولِ اللَّهِ وَدَعْوَتِهِ، وسبَقَ بيانُ أَنَّها كانت تَحْمِلُ الْحَطَبَ ذَا الشَّوْكِ فَتطْرَحُه لَيلاً في طَرِيقِ النبيّ ﷺ إيذاءً لَهُ ولأصْحَابِهِ، وَذَكَرَ مجاهد، وقتادةُ، والسُّدِّيّ، أنَّها كانَتْ تَمْشِي بالنَّمِيمة لتُفْسد بيْنَ الناس، ومِنَ المتعارفِ عليه عند العرب أَنَّهُمْ كَانُوا يُكَنُّونَ عمَّنْ يَمْشِي بيْنَ الناس بالنَّمِيمَةِ بعِبَارَةِ «حَمَّال الحطبِ» أي: هُو نمَّامٌ بَيْنَ بُيُوتِ الْعَرب ويَسْتُرُ غَرَضَهُ مِنَ التَّنَقُّل بأَنَّهُ يَحْمِلُ الحطبَ الَّذِي يجلُبُه ليبيعَهُ عَلَىٰ أصحاب البيوت، ولعلَّها كانت عادة الحطّابين بَيْنَ العرب، فصار حمْلُ الحطب كنايَةً عن النميمة، وصار يكنىٰ عن النّمام بعبارة: حمّال الحطب، وقد كانت نميمة أم جميل هذه وسيلة من وسائل تقطيع الناس عن الرسول ﷺ، ومقاومة دَعْوَتِه، لشدَّة عداوتها.

ولا مانع من أنّ هذه المرأة قد كانت تفعل هاتين الخسيستين، النميمة، وإلقاء حطب الشوك في طريق الرسول ﷺ.

حَمَّالَة الحطب: قراءة جمهورُ القراء العشرة برفع (حَمَّالَةُ) على أَنَّهُ نَعْتٌ للفظ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾.

وقَرأ عَاصِمٌ: ﴿حَمَّالَةَ﴾ بالنَّصْبِ، على أَنَّه مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلٍ محذوفٍ تَقْدِيرُهُ: **أذُمُّ**، والنصبُ على تقدير فعل الذّم أو المدح شَائِعٌ في لسان العرب.

قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾:

الجيدُ: الْعُنُق، ومُقَدَّمُهُ، وَمَوْضِعُ الْقِلادَة.

والْمَسَدُ: اللّيفُ، وحَبْلُ اللّيفِ حبْلٌ خَشِنٌ، وهُوَ لاَ يَصْلُحُ قِلادَةً للنّسَاءِ، لكنَّهُ يُسْتَعْمَلُ حَبْلاً مَهِيناً لجرّ الدوابّ المحتقرة كالْحَمِير، أَمَّا الجيادُ وَكرائِمُ الإبلِ فَيُوضَعُ في أَعْنَاقِها حِبَالٌ نفيسَةٌ.

وَعِبَارَةُ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ تَصْلُح كِنَايَةً عن كون هذه المرأة بِمَثَابَةِ دَابَّةٍ مُحتقَرَةٍ، يكْفي لقيادَتِها حبْلٌ خَشِنٌ مِنْ لِيفٍ، إذْ هِيَ حمْقَاءُ لا عَقْلَ لَهَا وَلاَ رُشْدَ عِنْدها، ولا تعمَلُ إلاّ وفْقَ انفعالاتها ونزوَاتِها الرَّعْنَاءِ بحدَّةٍ وغضَبٍ وشرّ.

ويَدُلُّ علَىٰ لُؤْمِهَا وَخِسَّتِهَا وَنُزُولِ مستواها إلى مستوى دابّةٍ يكْفِي لجَرّها مِنْ جِيدِها حَبْلٌ خَشِنٌ من لِيفٍ، ما كانت تفْعَلُهُ مِنْ قطع سَبيلِ الرسولِ والمؤمنينَ بحَطبِ الشوْكِ، ليغْقِرَهُمْ وهُمْ سَالِكُونَ في اللّيل، ومثل هذا العمل لا يَفْعَلُه إلاّ السُّخَفَاءُ السُّفَهَاءُ ضُعَفَاءُ العقول، وما كانتْ تَفْعَلُه مِن التحريض على الرّسول ودعْوَتِهِ بوسيلةِ النميمة، والنميمَةُ من أقبح الوسائل التي يقومُ بها شِرار الْخَلْقِ من الناس، إذْ دوافِعُها الخِسَّةُ والسّفاهَةُ واللُّؤْمُ وخُبْثُ النفس، ولا سيما إذَا كان ذلِكَ ضدَّ الحقِّ والخير والْهُدَىٰ، ولمُقَاوَمَةِ أخيار الناس وفضلائهم، فكيف بها وهي تفعله ضدّ رسول اللَّهِ وضدّ دين الله الحقّ.

وعبارةُ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ تَصْلُحُ بَيَاناً لَمَا سَتَكُونُ عليه يوم الدّين في دَار العذاب، إذْ تُطَوَّقُ يَوْمئذٍ بطَوْقِ إهانَةٍ وإذْلاَلٍ وتَحْقِيرٍ، مَعَ مَا تُعَانِي مِنْهُ مِنْ عَذَابِ نار الحريق فِي جهنّم وبئس المصير.

أمّا الأقوال الأخرى التي ذكرها المفسّرون فلم أجِدْ فيها روايَةً مرفوعةً إلَىٰ الرسول ﷺ، فأعرضْتُ عنها.

ماذا كان من هذه المرأة بعد نزول سورة المَسَد

أخرج ابْنُ أبي حاتم وأبو زُرْعَة عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «لمّا نزلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلَتِ العوراء أمُّ جميل بنْتُ حَرْبٍ ولَها وَلْوَلَةٌ، وفِي يَدِها فِهْرٌ⁽¹⁾، وهِيَ تَقُولُ:

---

(١) الفهرُ: الحجَرُ.

مُذَمَّماً أَبَيْنَا. وَدِينَهُ قَلَيْنَا. وأَمْرَهُ عَصَيْنَا.

ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ في الْمَسْجِدِ ومَعَهُ أَبُو بكْرٍ، فلَمَّا رَآها أبو بكر، قال: يا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أقْبَلَتْ وأَنَا أَخَافُ أَنْ تراكَ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي».

وقرأ قرآناً اعْتَصَمَ بِهِ كمَا قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

فَأَقْبَلَتْ حَتَّىٰ وَقَفَتْ عَلَىٰ أبِي بَكْرٍ، وَلَمْ تَرَ رَسولَ الله ﷺ، فقالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، قَالَ: لاَ وَرَبِّ الْبَيْتِ ما هجَاكِ[1]، فَوَلَّتْ وهِيَ تقولُ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي ابْنَةُ سَيِّدِهَا».

وأخْرَجه البزّار بمعناه، وقال: لا نعلمُهُ يُرْوَىٰ بأحْسَنَ مِنْ هٰذَا الإسْنَادِ.

وتمَّ تدبُّر سورة (المسد) بعون الله وتوفيقه.

* * *

---

[1] يريد أنّ الله هو الذي أنزل بشأنها ما أنزل.

سُورَةُ التَّكوِيرُ

٨١ مصحف ٧ نزول

(١)

السورة وما فيها من قراءات من الفرش

سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ
سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ
﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا
ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ
﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ
﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا
تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ

---

٦ ـ ● قرأ ابن كثير، وأَبُو عَمْرو، ويَعْقُوبُ: [سُجِرَتْ] بدون تشديد الجيم.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [سُجِّرَتْ] بِتَشْدِيدِ الجيم.

٩ ـ ● قرأ أبو جعفر فقط [قُتِّلَتْ] بتَشْدِيد التاء قبل اللام.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [قُتِلَتْ] بتخفيفها.

١٠ ـ ● قرأ نَافع، وابْنُ عَامرٍ، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُشِرَتْ] بتخفيف الشين.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [نُشِّرَتْ] بتشديد الشين.

١٢ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ ذكوان، وحفص، وأبو جعفر، ورُوَيس: [سُعِّرَتْ] بتشديد العين.

وقرأ الباقون: [سُعِرَتْ] بتخفيف العين.

مَكِينٖ (٢٠) مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ (٢٢) وَلَقَدۡ
رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ (٢٤) وَمَا هُوَ
بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ (٢٥) فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ (٢٦) إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ
لِّلۡعَٰلَمِينَ (٢٧) لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٩)

---

٢٤ ـ ● قرأ ابنُ كثير، وأبو عَمرو، والكسائي، ورُويسٌ: [بظَنِينٍ] بالظاء.
وقرأ الباقون: [بِضَنِينٍ] بالضاد.

(٢)

مما رُوي عن النبي ﷺ بشأن هذه السورة

أخرج الإمام أحمد، والترمذيُّ وحسَّنه، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابنُ مردويه، عن ابن عُمَر، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وإِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ، وإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ».

أي: فليقرأ السُّور الثلاث، المفتتحة بهٰذِهِ الآيَاتِ الثلاث، وهي سور «التكوير» و «الانفطار» و «الانشقاق» وربما نفهم من هذا الحديث أنّ الرَّسول ﷺ سمَّىٰ هذه السُّوَر الثّلاث بالآيَاتِ الّتي افتُتحَتْ بها، ورُبَّما يكونُ عَمَلُه مجرَّد تمييزِها عن غيرها بذِكْرِ الآيَةِ الأولَىٰ من كُلِّ منها، ومثلُ هذا التّمييز كثيرٌ في بيانات الرسول ﷺ.

* * *

(٣)

موضوع سورة التكوير

- تشتمل سورة «التكوير» على عرض لقطات من أحداث يوم القيامة التي تكون عندها إماتة الأحياء وإفناء الخلائق، مع تغيير في نظام السماوات والأرض.

- وتشتمل أيضاً على عرض لقطاتٍ من أحداث يوم الدين، يوم بعْثِ الأمواتِ للحساب وفصل القضاء في محكمة العدل الرّبّانِيّة.

ومعلومٌ أنَّ يوم الدّين في خطّة التكوين الربَّانيّة هو الغايةُ المترقّبة، بعْدَ رِحْلَةِ الابتلاء في ظروف الحياة الدّنيا.

أمّا الابتلاءُ في الحياة الدنيا فلا يكون دون تبليغ الممتَحَنِين ما هو مطلوبُ الله منهم في الحياة الّتي أعِدَّتْ في خِطَّةِ التكوين لامتحانهم، وهذا التبليغ قد حصل بإرسال الرُّسُلِ الْمُصْطَفِيْن لحمل رسالات رَبِّهم وتبليغها للنّاس، وإنْزَال الكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ عليهم، وَكانَ في خاتِمتهم رسول اللَّهِ محمَّدٌ ﷺ، الذي اصطفاه اللَّهُ لحَمْلِ خاتمة رسالات اللَّهِ للناس، ولِتَبْليغ آخِرِ كتُبِه لهم، الجامع لصفوة مَا في الكتُب السابقة، مع زيادات اقتضتها تطَوُّرَاتُ أحوال البشر، وعلاقاتهم، وثقافاتهم، وهذَا الكتابُ الخاتم هو القرآن المجيد.

وهُنَا يُقْسِمُ اللَّهُ عزّ وجلَّ في السُّورة بطائفة من الظواهر الكونيّة الّتي هي من آثار خلقه البديع الحكيم، على صِدْقِ الرسول محمّد ﷺ، وصِدْقِ بلاغاته عن رَبّه، وأنّ القرآن الذي يتْلُوهُ تباعاً على الناس كتابٌ رَبّانِيٌّ يتلقَّاهُ الرسول محمّد، عن أمين الوحي جبريل عليه السّلام، تَلقّياً مباشراً، حرفاً فَحَرْفاً، وكلمة فكلمةً، في تنزُّلاَتٍ تتتابع، وقد شاهَدَهُ مُشاهدةً بصريّة بالأُفُقِ، في إحدىٰ مرّاتِ ظهوره له، وهو كامل الوعي، كامل الإدراكات الحسيّة والعقليّة.

ومضامين القرآن تدلُّ على أَنَّه رَبَّانيٌّ التنزيل، وأنه لا يمكن أنْ يكونَ بَشَريّاً، وَلاَ أن يكون من مصْدَرٍ شيطاني، وتَدُلُّ على أنَّهُ هِدَايَةٌ وَذِكْرٌ للعالمين جميعاً، عليهم أن يضعوه في ذاكراتهم، للعمل بما يهديهم إليه.

وسورة «التكوير» في وحدة موضوعها تنقسم إلى درسَيْن:

الدرس الأول: فيه مقطعان:

- مقطع يشتمل على ذكر لقَطَات من أحْدَاث يوم القيامة، وهي القيامة التي تكون عندها إماتَةُ جميع الأحياء، مع تغييرٍ في نظام السَّمَاوات والأرض، وهو الآيات (من ١ ـ ٦).

- ومقطع يشتمل على ذكْر لقطاتٍ من أحداث يوم قيامة الأموات إلى الحياة الأخرى، المعدَّة في خطّة التكوين للحساب وفصل القضاء في المحكمة الرَّبَّانيّة العظمىٰ، ولتنفيذ الجزاء، وهو الآيات من (٧ ـ ١٤).

الدرس الثاني: يشْتَمِل على تأكيد صدقِ الرسول فيما يُبَلّغ عن ربّه، وتأكيد كون القرآنِ كتاباً رَبَّانياً يتنزَّلُ من لَدُنْ رَبّ العالمين، ويبلّغُهُ للرسول محمد ﷺ أمينُ الوحْي جبْرِيلُ عليه السلام، في حالَةِ كون الرسول محمد ﷺ كامل الوعي، في حواسه الظاهرة والباطنة.

ويشتمل على بيان أنَّ القرآن أنزلَهُ الله ليكونَ هدايةً وذكراً لجميع العالمين حتّىٰ تقوم الساعة.

وبين الدَّرْسَيْن مَطْوِيَّاتٌ فكريَّةٌ يمكن بالتّأمُّلِ الذهنيّ استخراجُها، وهذه المطويّاتُ تصِلُ الدَّرْسَ الثاني من السورة بالدرس الأول منها.

* * *

(٤)

التدبُّر التحليلي للدرس الأول من السورة
وهو الآيات من (١ ـ ٦)

أوّلاً: الآياتُ من (١ ـ ٦):

قَالَ اللَّهُ عَزّ وجَلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾.

تمهيد:

تَضَمّنت هذه الآيات السّتُّ الإخبار بوقوع أحداثٍ ستٍّ كُبرىٰ، مستقبليّة ستقع قبيل قيام السّاعة التي يكون بها إنهاء ظُروف الحياة الدنيا، وكلِّ النظام الكونيّ المرتبط بها.

وجاء بعدها سبع آياتٍ تضمَّنَتِ الأخبارَ بوقوع أحداثٍ ستٍّ أخرى، بعد انتهاء مُدَّة البرزخ الفاصل بين إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وبَدْءِ ظروف الحياة الأخرى بالبعث إلى يوم الدين.

وقَد جاء بيان هٰذه الأحداث المستقبليّة مقترناً بكلمة ﴿إِذَا﴾ التي هي اسم شرط لما يستقبل من الزمن، يتطلّبُ شرطاً وجواباً له.

ومعلومٌ أنّ من شأن الشرط أن يعقد ارتباطاً بين جملَتَيْن خَبَرِيَّتَيْن، أولاهما جملَةُ الشرط، وهذه الجملة الشرطيّة تتطلّبُ جملَةَ أخرىٰ هي جوابُ الشرط.

وتدخل كلمة ﴿إِذَا﴾ الشرطيّة في الغالب على ما هو متحقِّق الوقوع مستقبلاً عند المتكلّم.

وجاءت كلمة ﴿إِذَا﴾ الشرطيّة في هذه السّورَة مكرّرةً (١٢) مرّة، ومقترنة غير الأولى منها بحرف العطف، وداخلة على (١٢) جملةً شرطيّة، فالشرْط مؤلفٌ من اثْنَيْ عشر حدثاً، أمّا جواب الشرط فقد جاء جملةً واحدةً هي آية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ⑭﴾.

أمّا الأحداثُ التي جاء في السّورة بيان أنّها ستكون قُبَيْل قيام السّاعة الّتي يكونُ بها إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، والنظام الكونيّ المرتبط بها، فهي ما يلي:

الحدثُ الأوّل:

«تكويرُ الشَّمس» دلَّ عليه قول اللَّهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾.

التكويرُ في اللّغة: إدارة شيءٍ ذي طولٍ كالعمامة بَعْضِه علَىٰ بعْضٍ، وكلُّ دَوْرٍ في عمليّةِ التكوير يسمَّىٰ: كَوْراً.

وقالوا في تفسير تكوير الشمس هو جَمْع ضَوْئها، ولَفُّهُ كَمَا تُلَفُّ العمامةُ على الرأس. وقال الأخفشُ وأبو عبيدة: تُلَفُّ فَتُمْحَىٰ.

أقول: هذا حدَثٌ سيكونُ في الشمس قُبَيْل قيام الساعة لإِنْهَاءِ نظام الحياة الدنيا، وإماتَةِ الأحياء، جاء التعبير عنهُ بتكْوِير الشمس.

وجاء في سُورَة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان أنَّ الشمْسَ والْقَمر يجمعان قُبَيْلَ قيام الساعة، مقدّمة لقيامها، فتَبْلَعُ الشّمْسُ القمَرَ فيكونُ جزءاً منْها.

وباستطاعة المتدبّر أنْ يأخُذ من فِكْرَةِ تكْوِير الشمس أنَّ جِرْمَها عند إجراء هذا الحدث فيها، لا يكون قد فَنِيَ كمَا يفنىٰ الوقود بالاشتعال إذا توَقَّفَ عن النار الإمداد به، بل تكون الشمس عندئذٍ في جِرْمِهَا صالحةً للإمداد بالوقود اللاّزم لبقاء ضيائها، وإمداد أَلْسِنَتِها اللاّهبة.

فالحدث الذي يجريه الله في الشمس هو مَحْوُ ضيائها بطريقةٍ حكيمةٍ تخضع لأنظمته في كونه، دون إعدام ما هو باقٍ من مادّتها.

نطالع فيما توصّل إليه علماء الفلك بشأن الشمس فنجد لديهم الأوصاف التالية لها. قالوا:

(١) حجْم الشمس يعادل أكثر من مليون مرّة من حجْم الأرض.

(٢) وقطْرُها يبلُغ نحو مليون وأكثر من ثلث المليون من الكيلومترات.

(٣) وَجاذبيّتُها نحو (٢٨) ضعف جاذبيّة الأرض.

(٤) والشمس ليسَتْ كتلةً مادّيّةً صلبة، بل هي كتلَةٌ من الغاز الملتهب.

(٥) وجَوُّ الشمس فوق سطحها تندفع منه فَوّاراتٌ من الغاز المحترق تمتدّ لمسافة آلاف الكيلومترات ارتفاعاً وبصورةٍ دائمة.

(٦) والغلَيانُ المستمرّ في سطح الشمس المضيء ينفثُ ألسنةً ضخمةً من الغاز المشتعل الذي يرتفع إلى ما فوق جوّ الشمس، وهٰذِهِ المقذوفات الشمسيّة تنفجر بصورة مفاجئة، ويبلُغُ امتدادها مئات الآلاف من الكيلومترات.

(٧) وعواميد الغاز الضخمة الّتي تؤلف رؤوسها سطح الشمس المضيء ليست متراصّةً بتباعُدٍ منتظم، وليسَتْ كُلُّها بارتفاعٍ واحدٍ، وهذا يؤدّي إلى فراغٍ وظِلاَلٍ على سَطْح الشمس.

بعد هذه المطالعة اليسيرة الّتي قدّمَتْ لنا هذه الصورة الوصفية عن الشمس، أخذاً ممّا توصّل إليه علماء الفلك من معلوماتٍ عنها، نستطيع أن نقول: إنّ أمثل طريقة لمحْوِ ضياء الشمس مع بقاء ما فيها من مواد صالحة

للتفجّر والاشتعال، تكون بلَفِّ ألسنة الغاز الملْتهبِ، ولفِّ أعمدة الغاز الضخمة، وتكْويرها كوْراً فوقَ كَوْرٍ على الموادّ ذاتِ الكثَافةِ الشديدَةِ في باطنها حول مركزها، وضغط هذه الألسنة الغازيّة، والأعمدة الغازيّةِ التي يبلُغُ امتدادُها مئات الآلاف من الكيلومترات، لمنْع التفجُرَاتِ النوَويَّةِ التي تحْدُثُ في باطنها، وتُمِدُّ بألسنة الغاز الملتهب إلى سطحها.

وبهذا التكوير والضغط على مركز الشّمس ينمحي الضياء، وتشْتَدُّ كثافة الشمس، حتّىٰ تصير المواد الغازيّة بشدّة كثافتها شبيهةً بالموادّ الصلبة، مع بقاء القوى الالتهابيّةِ كامنةً فيها، والله على كلّ شيءٍ قديرٌ.

هذه هي الظاهرة الّتي تكونُ في هذا الحدث العظيم، أمّا الوسيلة السببيّة لحدوث هذه الظاهرة فأمْرٌ من أمور الغيب الّتي يعلمها الله، ولا نَمْلِكُ حتّىٰ الآنَ أماراتٍ عنها.

* * *

الحدث الثاني:

«**انكدار النجوم**» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾.

الانكدار: هو الإسراع المتوسط في العدْوِ، يقالُ لغة: انكَدَرَ الفرسُ يَعْدُو، أي: أسْرَعَ بعض الإسراع.

ويأتي الانكدارُ بمعنَىٰ الانقضاض، يقال لغةً: انكدر الطائر، إذا انقضّ وهوَى في طيرانه بسرعة يريد الوقوع على شيءٍ ما كفريسة.

وقد يكون الانكدارُ من الكُدْرَة، وهي اللّوْنُ الضاربُ إلىٰ السَّواد والْغُبْرَة، والمختلط بالأكدار التي تُذْهِبُ صفاءه، وقد يكون هذا قبل انطماسها.

وجاء في تفسير: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ عند المفسرين قولُهُمْ: تناثَرَتْ.

وجاء في سُورَةِ (المرسَلاَتِ/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بيان أنّ النجوم ستنطمسُ يوم القيامة، أي: يذْهب نورها، فقال الله عزّ وجلّ فيها: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾.

طُمِسَتْ: أي: أذْهَبَ اللّهُ نورَهَا.

ومن هذه المعاني نُدْرِكَ أَنَّ النجوم في أحداث يوم القيامة، تمرّ في مراحل حتَّىٰ تنطَمِسَ انطماساً كُلّيًا، وتَنْفَلِتُ من نظام جاذِبياتها، وتخرج عن مَدَاراتها وَطُرُقِ سيرها، وتُسْرِعُ كالطائر المنقضّ، وتتناثَرُ في الجهاتِ على خلاف مواقعها ومسيراتها الّتي كانت لها في نظام ظروف الحياة الدنيا.

وقد استخرجنا هذا من جمع دلالات النَّصَّيْن الواردين في القرآن، بشأن ما يحدث للنجوم ضمن أحداث يوم القيامة.

* * *

الحدَثُ الثالث:

«**تَسْيِيرُ الجبال**» دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾.

المرادُ من تسيير الجبال إزاحَتُها عن مواقعها كما تسير السفُنُ في البحار، وهذا يستلزم تغييراً كبيراً في نظام تماسُكِ الأرض مع الجبال، لِيَتَهيَّأ لها أن تسير عن مواقعها مُنْزَلقة في الأرض من أعماقها إلى شواهقها.

وقد يكونُ المرادُ تسييرَها إلى باطن الأرض وتغويرها، أَوْ تفجيرها ونَسْفَها وَإذهَابَها، والله أعلم.

الأحداث التي ستتعرّض لها الجبال:

ومن استقراء النصوص القرآنية وسَبْر معانيها حول الأحداث التي

ستتعرّض لها الجبال قُبيْلَ السّاعة وعند قيامها، يظهر لنا أنّها تتعرّض لإحدى عشرة مرحلة.

المرحلة الأولى: «مرحلة الدّكّ» وهي ما جاء بيانها في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

الدَّكُّ: الدَّقُّ والدَّفع بقُوة، يُقال: دَكَّ الأَرْض إذَا دَقَّهَا بقُوَّةٍ حتَّىٰ يُسَوّيَ الصاعد منها بالنّازل، ولكن لا تشترط في الدكّ هذه التسوية.

المرحلة الثانية: «مرحلة جعل الجبال ليّنة كالْعِهْن، أي: كالصوف المصبوغ ألواناً، وهي ما جاء بيانها في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ، في عرض بعض أحداث يوم القيامة:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾.

الْمُهْلُ: المعدِنُ المذاب، والقطران، ودُرْدِيُّ الزيتُ، والقيح.

العِهْنُ: الصوف المصبوغ ألواناً.

المرحلة الثالثة: «مرحلة جعل الجبال كالعِهْنِ الْمَنْفُوشِ»، وهي التي جاء بيانها في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾.

المنفوش: المكبّر حجْمُهُ بإحداث فراغات كثيرة بيْنَ أجزائِه.

المرحلة الرابعة: «مَرْحلَةُ بَسِّ الجبال» وهي التي جاء بيانها في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

البسُّ: التفتيتُ إلى أجزاءٍ صغيرة.

الْهَباءُ: الترّابُ الناعمُ الذي تُطَيِّره الريح، ويعْلَقُ على الأشياء، أو ينبثُّ في الهواء فلا يبدو إلاّ في ضَوْءِ الشمس.

المرحلة الخامسة: «مَرْحلة جعل الجبال بالبسّ كالكثيب المهيل» وهي التي جاء بيانُها في سورة (المزّمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

الكثيب: الرَّمل المستطيلُ الْمُحْدَوْدِبُ.

الْمَهِيل: الْمَدْفُوعُ الذي يتساقَطُ أعلاهُ على أسفله بتتابع.

هذه مرحلة تكون فيها الجبال كرمل ناعم يَسيل إلى الأرض فَيَهْبِط بتتابع من الأعالي إلى سطوح الأرض المنبسطة.

المرحلة السادسة: «مرحلة سَيْر الجبالِ سيراً غير شديدٍ مَعَ مَوْرِ السَّمَاءِ، أي: مع اضطرابها بما فيها» وهي التي جاء بيانُها في سورة (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾.

الْمَوْرُ: التحرُّكُ والتدافع والاضطراب، كالأمواج في البحر الثائر.

وسيرُ الجبال في هذه المرحلة أرى أن يُحْمَل على السَّيْر العادي.

المرحلة السابعة: «مَرْحَلَةُ مُرُورِ الجبالِ كَمَرِّ السَّحَاب» وهي التي جاء بيانها في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ

ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

يدُلُّ التعبير بأنَّها تَمُرُّ كَمَرِّ السَّحَابِ على أنَّها تكونُ حِينئذٍ ناعِمةً كالْهَباء المنبثّ، فهي تتحرَّكُ في الجوّ كتحرُّكِ السَّحَابِ.

وقد يكون ما جاء في هذا النصّ تعبيراً عن حالة الجبال القائمة الآن إذ هي تتحرّك مع حركة كلّ الأرض في دورتها حول نفسها، وفي مسيرتها في فلكها حول الشمس. وغير ذلك مما تُثْبِتُه العلوم الإنسَانية.

المرحلة الثامنة: «مرحلة تَسْيِيرِ الجبال بقوّة» وهي التي جاء بيانُها في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) التي نتدبّرُها على قدرنا، بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾﴾.

المرحلة التاسعة: «مرحلة نسف الجبالِ وَتَذْرِيتها مُتَنَاثِرَة» وهي التي جاء بيانها في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾﴾.

وجاء بيانها أيضاً في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفۡصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

يَنسِفُها نَسْفاً: أي: يقْتَلِعُهَا مِنْ أُصُولها، ويَسْحَقُها ويُذْرِيها.

فَيَذَرُها: أي: فيجْعلُها.

قاعاً: أي: أرضاً مستوية، أي: فيجعل مكانها قَاعاً.

الصَّفْصَفُ: المستوي من الأرض الذي لا نبات فيه.

العِوَجُ: الانحناء والالتواء.

الأَمْتُ: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ورقَّةً وصَلابَة.

المرحلة العاشرة: «مَرْحَلَةُ تَسْيِيرِ الجبال حَتَّىٰ لاَ يُرَىٰ مِنْ آثارِها إلاَّ مِثْلُ السَّرَاب رُؤيَةً بلا حقيقة» وهي التي جاء بيانها في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

المرحلة الحادية عشرة: «مَرْحَلَةٌ لاَ يَبْقَىٰ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ أيُّ أَثَرٍ وَلاَ مِثْلُ السَّرَاب» وهي التي جاء بيانها في سورة (الكهفِ/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

هذه هي المراحل التي وردت في القرآن بشأن الجبال، أمَّا الترتيب بين هذه المراحل، فبعضها يكتشفه المتدبّر بيسر، وبعضها يختلط عليه الأمر، وبعضها أحداثٌ سابقة للنفخة الأولى، وبعضها أحداثٌ تأتي بعد النفخة الثانية، واللَّهُ أعلم كيف يكون ترتيبُها الدقيق في الواقع، وقد يأتي متدبّرٌ عميق التفكير ثاقبُ النظر فيهديه الله لاكتِشَافِ كيف يكون الترتيب بينها.

* * *

الحدث الرابع:

«تَعْطِيلُ الْعِشَار» دلَّ عليه قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾.

الْعِشَارُ: جَمْعُ «الْعُشَرَاء» وهي من النوق ما مضىٰ على حَمْلها عشَرَةُ أشهر.

عُطِّلَتْ: أي خُلِّيَتْ وأُهمِلَتْ بِلاَ رَاعٍ يرعاها وتُرِكتْ سائبَةً لاَ حامِيَ لها ولا حارسَ يَحْرُسُها.

وكانت الْعِشَارُ أكْرَم الأموال عند العرب، يُبَالِغُونَ في رعايتها والاعْتِنَاءِ بِها، أمّا تعطيلُها وَإِهمالها فَلا يكونُ إلاّ في حالة فزعٍ كبير، أو ذهُولٍ بأحداثٍ جسَام، فَتَعْطِيلُ الْعِشَار مظْهَرٌ من مظاهر ذهُولِ النّاس بأحْدَاثِ الكوْنِ الْجِسَامِ قُبَيْلَ قِيامِ السَّاعَة، مُنْدَهِشين بالتَّغيُّراتِ الْعُظْمَىٰ الكونيّة.

وتَعْطِيلُ العشارِ كِنايةٌ عَنْ ذُهُولِ النَّاسِ يومئذٍ عن أَكْرَمِ أمْوالِهِمْ.

* * *

الحدث الخامس:

«حَشْرُ الْوُحُوشِ»: دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾.

الحشرُ: السَّوْقُ والجمْعُ، والوحُوشُ من الأحياء الموزَّعَةُ في الجبال، والوديان، والمغارات، والصحاري، تفِرُّ من مواطنها فزعاً من الأحداثِ الكونية، وتتجمَّعُ بتِلْقَائيَّةٍ طلَباً للأَمْنِ بالتجمّع، وهو كِنَايَةٌ عَنْ شدّةِ الْهَوْلِ العامّ الذي يَعُمُّ الأَرْضَ وأَجْواءَها.

* * *

الحدَث السّادس:

«تَسْجِيرُ الْبِحَار»: دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ وقُرِئَ بتخفيف الجيم: (سُجِرَتْ).

التَّسْجِيرُ، والسَّجْرُ: يأتي بمعنىٰ الملء. ويأتي بمعنى التفريغ.
فالْمَسْجُور: المملوء، **والْمَسْجُورُ**: الفارغ. فاللّفظ يقع على الضّدَّين.

ويأْتي السَّجْرُ أَيضاً بمعنىٰ الإيقاد والإحماء، يُقَالُ لغةً: سَجَرَ التَّنُّورَ إِذَا أَوْقَدَهُ.

فالمعاني اللّغوية للكلمة ثلاثة:

- أمّا التسجير بمعنىٰ الْمَلْءِ فيكُونُ بِضَمِّ البحار بعضها إلى بَعْضٍ حتّىٰ تكونَ بحراً واحداً، وبتَذْويب تَجمُّعاتِ الثُّلوج وضَمِّها إلى هذا البحر الواحد العظيم.

- وأمّا التَّسْجير بمعنىٰ التفريغ فيكون بتبخير مياهها بالحرارة، أو ابتلاع باطن الأرْض لها.

- وأمّا التسجيرُ بمعْنىٰ الإيقاد والإحماء، فيكونُ بتفجير موادَّ مُشْتَعِلَة من باطن الأرض كنِفْطٍ وغازاتٍ وَبراكين، وبهذا تتبخَّرُ مِياهُ البحار.

وبكلّ هذه المعاني قال أهل التأويل.

أقول: وربّما تكون كلُّ هذه المعاني مرادة، فيكون مَلْؤُها بضمّ بعضها إلى بعضٍ أوّلاً، ثمّ تَتَفَجَّرُ الموادُّ المشتعلةُ تحتها فتتبخَّرُ مياهُهَا بالحرارة العالِيَةِ، فَتَصِيرُ فارغَةً، فتَكُونُ كَلِمَةُ ﴿سُجِّرَتْ﴾ مُسْتعملةً للدَّلاَلَةِ عَلىٰ المعاني الثلاثَةِ إيجازاً بديعاً.

وقِرَاءَةُ (سُجِرَتْ) تَدُلُّ على حَالاَتٍ يكونُ فيها السَّجْرُ حركةً غير شدِيدَة، وقراءة: ﴿سُجِّرَتْ﴾ تدلُّ على حالاتٍ يكون فيها التَّسْجِير شديداً، وكلا الأمْرَين يحصلان يومئذٍ.

* * *

ثانياً: الآيات من (٧ ـ ١٤):

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

تضمَّنَتْ هذه الآيات الإخبار بوقوع أحداثٍ ستٍّ أُخْرىٰ ستَقَعُ بعْدَ الْبَعْثِ إلَىٰ يَوْمِ الدِّين.

الحدث الأوّل:

«**تَزْوِيجُ النُّفُوسِ**» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾.

التزويجُ في اللّغة: يأتي بمعنَىٰ قَرْنِ شيْءٍ بشيْء، يقال لغةً: زوّج الشيْءَ بالشيْءِ، وزوّجَهُ إليه إذا قَرَنَه به. وكلُّ شيئَيْنِ اقْتَرَنَ أحَدُهُمَا بالآخر فَهُمَا زَوْجَان.

ويأتي التزويج بمعنى جمع الأصناف بعضها إلى بعض.

ويأتي الزوج في اللّغة بمعنى الصنف والنوع، والأزواج: الأصناف والأنواع.

فيمكِنُ حَمْلُ تزويج النفوس الوارد في الآية على معنى قَرْنِ النفوس بأجسادِها ونفخ الأرواح فيها.

ويمكن حمله على معنى جمع أصناف النّاس بَعْضِهم إلى بعْضٍ، كَمَا قال الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بشأن فرز أصناف الناس يوم القيامة:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.

وقد دارت أقوالُ أهل التأويل حوْلَ هٰذيْنِ المعنَيَيْن، ولا نجد معنىً آخر تساعِدُ عليه اللُّغة.

* * *

الحدث الثاني:

«**سُؤَالُ الْمَوْؤُودَةِ عَنْ ذَنْبِهَا الَّذِي قُتِلَتْ بِهِ**» دلّ عليه قول اللّٰهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

الْمَوْؤُودَةُ: الْمَدْفُونَةُ حيَّةً مِنَ الْبَنَات، وقَدْ كَانَ وَأْدُ البنات عادةً عنْد بعض العرب، تخلُّصاً من الفقر، أو خَوْفاً مِنْ حُدُوثِ الْفَقْرِ في المستقبل، أو خَوْفاً من الْعَار عنْدَ سبْيِهِنَّ في الغزوات الجاهليّة.

وفي التعبير عن هذا الحدث الذي سوْفَ يَجْرِي يوم الدّين إشارة إلَىٰ مشْهدٍ من مَشاهِدِ الحسَاب يومئذٍ، وهو أوّل مَا يُقْضَىٰ فيه بين الناس.

فقد روى البخاريُّ ومسلم والإمام أحمد والنسائيّ وابن ماجه، عَنْ عبد الله بْنِ مسعود، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«أَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ».

وروى النسائي عن عبد الله بن مسعودٍ أيضاً بإسنادٍ حسَنٍ، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلاَةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».

إنَّهُ لمَّا كانَ قَتْلُ الموؤودة الّتي لا حول لها ولا قُوَّة من أقْبَحِ أنواعِ الْقَتْل وأشْنعه، ومن أقبح أنواع ظُلْم الإنسانِ للإنسان، أبْرَزَ اللَّهُ من مشاهد الحساب والقضاء يوْمَ الدين مشْهَدَ المحاسبة على وأدِ البنَاتِ ظُلْماً وَعُدْواناً، وجعله أوّل ما يُقْضَىٰ فيه بين الناس.

ويُدْركُ المتدبّر ذو التفكير السليم، أَنّ في عرض الحساب على وأدِ البناتِ الذي هو من أقبح أنواعِ الظلم وصُوَرِه الشنيعة، إشارةً إلى الدليل العقلِيّ الذي يهتَدِي به من يُؤْمِنُ باللَّهِ وكمالِ صفاته ومِنْها حكْمَتُه، إلَىٰ الإيمان بضرورة اليوم الآخِر، لمحاسبَةِ الناس ومجازاتهم على أعمالهم، فالحكيم العليم القديرُ لا يمكن أنْ يتْرُكَ الظّالِمين يظلمون الضعفاء دون أن يتابعهم بالمسؤوليّة والحساب والجزاء.

ومن بديع الأدب القرآنيّ وأساليبه البيانية الحكيمة، أنّ مَشْهَد المحاسبة على الوأد جاء فيه توجيه السؤال للموؤودة المظلومة، لا للوائد الظالم القاتل، فهي الّتي تُسْأَلُ: بأيِّ ذنبٍ قُتِلت؟.

ومعلومٌ أنّها صغيرة لم تَجْن ذنباً، وقَتْلُها اعْتراضٌ على خالِقِها، وعدوانٌ علىٰ حقِّ اللّهِ على عباده، في احترام منْ خَلَق، وتأمينِهِ في الحياة، وعدَمِ العدوان عليه.

وحين تُسْأَلُ الموؤودة: بأيّ ذنب قُتِلَتْ؟ تجيب بأنّها لا ذنب لها غير أنّ اللّهَ خَلَقها أنثىٰ.

هذا السؤال هو أحَدُ مشاهد مجلس القضاء في محكمة الرّبّ يوم الدين، وقد اكتفىٰ النّصّ به عنواناً على بقيّة ما يجري فيه، ويُمكن أنْ نُصَوّر هذا المجلس بما يلي:

- يُقالُ للمَوْؤُودَة أولاً: بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتِ؟.
- فتقول الموؤودة: يا رَبِّ، لا ذَنْبَ لي إلاَّ أنّكَ خَلَقْتَنِي أنثىٰ، وقومي يكرهون أن تولَدَ لهم الإناث من الناس.
- فيقال للوائد: أيّ ذنب جنَتْهُ موؤودتُك حتّىٰ وَأَدْتَها في التراب.
- الوائد: يعترف بجُرْمِه، أو يُجِيب بتعلاّت باطلات ساقطات.
- ويُقْضَىٰ عليه بحسَبِ جُرْمِهِ.

الحدث الثالث:

«**نَشْرُ الصُّحُف**» دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾﴾ وقُرِئ: (نُشِّرَتْ) بتشديد الشين.

المرادُ من الصحف صُحُفُ أعمال العباد، تُنْشَر عليهم، وفيها بيانُ ما قَدَّمُوا فِي حياتهم الدّنيا من أعمال عملوها، وَما تركوا من أعمال كان عليهم أن يعملوها، تمهيداً لمحاسبتهم، ثُمَّ مجازاتهم.

النَّشْر: الْبَسْطُ والتوزيعُ والإذَاعَةُ للإعلام بمضمون المنشور.

وَجاء في القرآن تَسْمِيَةُ صُحُفِ الأعمال كُتُباً، وجاء فيه بيانُ أنَّ المؤمنين يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بأيمانهم، وأنَّ الكافرين يُؤْتَوْن كتُبَهُمْ بشمائِلهم.

وتدلُّ القراءتان: (نُشْرَتْ) و ﴿نُشِرَتْ﴾ أنَّ بعض الصُّحف تُنَشَّرُ بقُوَّة، وأنَّ بعضها تُنْشَرُ بصورة عاديّة على حَسَب اختلاف أحوال من تُوَزَّعُ عليهم.

الحدث الرابع:

«كشطُ السَّمَاءِ» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ⑪﴾.

الكَشْطُ: يأتي في اللُّغة بمعنىٰ إزالة نحو الجلد عن اللّحم، ككَشْطِ جِلْدِ البعير، وكشْطِ جلْدِ الشاة ونحوها.

ويأْتي بمعنىٰ نَزْعِ كُلِّ ظاهِرٍ مُتَماسِكٍ تماسكاً ما بما تحته، ككشْطِ جُلِّ الفرسِ عنه، والجُلّ ما تُغَطَّىٰ به الدّابّةُ لتُصَانَ.

والكَشْطُ والْقَشْطُ بمعنىً واحدٍ، وكلّ رفع شيءٍ عن شيءٍ قد غطَّاهُ وغَشِيَهُ فهو كشطٌ وقَشْط.

أمَّا كَشْطُ السَّمَاءِ يوْمَ الدّين فَيَنْبَغِي أنْ يَحْمِلَ معنَىٰ إزالَةِ شَيْءٍ ما يُجَلّلها، فيكْشِفُ ما وراءه، وأمَّا حقيقَتُهُ فهو بالنسبة إلينا الآنَ أمْرٌ من أمور الغيب الَّتي لم يَصِلْ عِلْمُنا إليها، وقَدْ يكون بإزالة النجوم وكُلّ حواجز الرُّؤية التي تمنع رؤية ما فوقها في السّماء.

* * *

الحدث الخامس:

«تَسْعِيرُ الْجَحِيمِ» دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫﴾ وقُرِئ: (سُعِرَتْ) بتخفيف العين.

سُعِّرَت. سُعِرَت: أي: أُوقِدَتْ وهُيِّجَتْ فزادَ لهَبُهَا وتفاقم حَرُّهَا.

ويجري هذا الحدث يوم الدين إعداداً للجحيم كي تسْتقبل أهْلَ العذاب فيها، وهيَ في أشَدِّ أحوالها المرهبة.

الْجَحِيمُ: اسْمٌ من أسماء النار دارِ العذاب يوم الدّين، وكُلُّ نَارِ عظيمَةٍ في مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

وتدلُّ القراءتان ﴿سُعِرَتۡ﴾ و ﴿سُعِّرَتۡ﴾ على أنَّ بعْضَ دَركات الجحيم تُسَعَّرُ بشدّة، وبعضها تُسْعَرُ بصورة دون ذلك.

* * *

الحدث السّادس:

«إزْلاَفُ الجنَّةِ»: دلَّ عليه قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ⑬﴾.

أزْلِفَتْ: أي: قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ مِنْ أهلها وهم في مَوْقف الحشر، للحسابِ وفَصْلِ الْقَضاء، بُشْرَىٰ لهم بأنَّهُمْ سَيَدْخلونها، وَإِينَاساً لهم بِرُؤْيَةِ شيءٍ ما من أطرافِها، وتمهيداً لدخولهم فيها متَىٰ انتهى الحكْمُ لهم بأنَّهُمْ من أهلها، ثُمَّ يُقالُ لهم: ادْخُلوا الجنَّة لاَ خَوْفٌ عليكُمْ ولا أنْتُمْ تَحْزَنُونَ.

وإزْلاَفُ الجنةِ يَدُلُّ عَلَىٰ أنّهَا مَوْجُودَةٌ في مكانٍ مَا مِنَ الكَوْنِ السّحِيقِ، فهي تُقَرَّبُ تَقريباً إلى مَوْقفِ مَحْشَرِ الْمؤمِنِينَ، ليدخُلُوهَا حين يُؤْذَنَ لهم بِدُخُولها.

* * *

جواب الشرط المتكرر:

وبَعْدَ ذِكْرِ الأَحْدَاثِ الَّتِي تَكُونُ قُبَيْلَ السَّاعَة، والأَحْدَاثِ الأُخْرَىٰ التي تَكُونُ عِنْدَ الْبَعْثِ وَبَعْدَهُ، قَال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي جواب شَرْطِ ﴿إِذَا﴾ الّتي

جاءت في السّورة مُكَرَّرَة (١٢) مَرَّة ومُقْتَرِنَةٍ ببيان أحداثٍ تُكَوِّنُ في مجموعها الشَّرْطَ الذي أَشْعَرَتْ بِهِ ﴿إِذَا﴾:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

أي: عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَوْضوعَةٍ في الحياة الدّنيا موضع الامتحان، ومَسْؤولَةٍ عمَّا تَكْسِبُ فيها باخْتِيَارِها الْحُرّ، مَا أَحْضَرَتْ من كَسْبِها لِمَوْقِفِ الحساب بين يَدَيْ رَبّها، ولا سيما بعد أنْ تَسَلَّمَتْ كِتَابَها الذي لا يُغَادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إلاّ أَحْصَاها.

وعِلْمُ كُلِّ نَفْسٍ سَتُحَاسَبُ على مَا كسبَتْهُ في الحياة الدُّنيا، يُرَادُ مِنْهُ لازِمُهُ، وهُوَ أنَّهَا سَتَقِفُ بين يَدَيْ ربِّها في محكمة يوم الدِّين للحساب وفصْلِ القضاء.

أمّا حقيقَةُ العِلْم فيَحْدُثُ في نَفْسِ الإنسان بتَذَكُّرِهِ لِمَا سَعَىٰ في الحياة الدنيا، كما قال اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾.

ويُؤَكِّدُ لَدَيْهِ هذا العلم بقِرَاءَتِهِ لصحيفَةِ أعْمَالِهِ الّتي تَسلَّمَها.

وجاءتْ كلِمَةُ «نَفسٍ» مُنكّرةً لتنطَبِقَ علَىٰ كلِّ نَفْسٍ مسؤولةٍ عن كَسْبِها في الحياة الدنيا، وجاءت نصوص أخرى في القرآن تدُلُّ على الاستغراق العامّ لكلّ النفوس المسؤولة المحاسَبَة التي كانت مكلّفَةً في الحياة الدنيا.

أَحْضَرَتْ: أي: أتَتْ بِهِ إِلَىٰ مَوْقِفِ حِسَابِها بين يَدَي رَبّها فكان حاضراً، وَجاء إِطلاقُ الإحضار ليوم الدين على الأعمال التي مضَتْ وانْقَضَتْ في الحياة الدنيا، لأنّ الدنيا مزرَعَةٌ للآخِرَة، فالعملُ في الدنيا

يُسَجِّلُ علىٰ عامله المكلّف أو يُسَجِّلُ لَهُ، فَتُحْضَرُ الْمُسَجَّلاتُ ليُحَاسَبَ عَلَيْها، وَهٰذِه الْمُسَجَّلاَتُ مُطَابِقاتٌ تَمَاماً للأعمالِ بالصّورة والصَّوْتِ والخواطِرِ والأفكار والنّياتِ وَكُلِّ مَا في القلوبِ والنفوس، ولمَّا كانت النَّفْسُ هي العَامِلَة الكاسِبَةَ كانت هِي الْمُحْضِرَةَ لَهَا.

وقد جاء بيان الإحضار لكلّ الأعمال الظاهرة والباطنة في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

* * *

أفكار مطوية بين درسَي السّورة

إنّ ذكر أَحداثٍ عظمىٰ تكون قُبَيْلَ قيام السّاعَةِ التي يَتِمُّ بها إنهاء نظام الحياة الدنيا، وذكر أحداثٍ أُخرى تجري عند البعث إلى يوم الدين وبعْدَهُ، يستدعي لدى المتفكّرين الذين لم يؤمنوا بَعْدُ بالبعث للحساب وفصْلِ القضاء، ولا بالدّار الآخرة التي يكون فيها تحقيقُ الجزاء، عدّة أسئلة تقترن بالإجابة عليها فكريّاً.

السؤال الأوّل: ما سبَبُ إجراء هٰذه الأحداث؟.

ويأتي الجوابُ استنباطاً فكريّاً، إنّ هذه الأحداث تمهيدٌ وتوطئة لتحقيق الغاية من خلق الناس في ظروف الحياة الدنيا، وهي امتحان الناس فيها، ثُمّ مجازاتهم على ما قَدَّموا فيها من خَيْرٍ أَوْ شرٍّ، بمقتضىٰ حكْمَةِ الرَّبِّ الخالق جلّ جلاله.

وهنا يرد سؤال آخر، وهو:

السؤال الثاني: هل يكون الامتحان وتقرير الجزاء في خطّة التكوين دون إعلام الموضوعين موضع الامتحان أنّهم مخلوقون لهذه الغاية، وهم مكلّفون ومسؤولون تجاه ربّهم عمّا يأمرهم به وينهاهم عنه؟.

ويأتي الجواب استنباطاً فكريّاً مستنداً إلى واقع حال الرسالات الرّبّانيّة السّابقة، وإلى دعوة الرسول محمد ﷺ، وهو: لا بُدَّ أَنْ يكون لديهم عِلْمُ بهذه الغاية عن طريق التبليغ، ولا بُدَّ أن يُبَلَّغُوا ما هو مطلوبٌ منهم في مدّةِ امتحانهم.

وهنا يرد سؤال ثالث، وهو:

السؤال الثالث: ما هي الطريقة الّتي اختارها رَبُّنا لإعلام الناس بأنهم ممتحنون، وبأنهم مسؤولونَ عن تكاليف تُوجَّهُ لهم.

ويَأتي الجواب استنباطاً فكريّاً مستنداً إلى واقع حال الرسالات الرّبانيّة السابقة، وإلى دعوة الرسول محمّد ﷺ، وتلاوته كتاباً يقول: إنّه يتلقّاهُ عن ربّهِ، وهو: إنَّ الطريقة المختارة هي أن يُرْسِلَ اللَّهُ رَسُولاً ويَشْهَدَ له بخوارقِ العادَاتِ أنّه رسولُه حقًّا وصدقاً، وأن يُنَزِّل عليه كِتَاباً من لَدُنْهُ، ويأْمُرَهُ بتبليغِه للناس، وأن يُحِيطَ هذا الكتاب بما يَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ مُنَزَّلٌ من عند الله حقًّا وصِدْقاً.

وهنا يأتي دور الدرس الثاني من دُرُوسِ سورة (التكوير) لتأكيد أنَّ القرآنَ كلامُ الله المنزَّل حقًّا وَصِدْقاً، وأنّ محمد بن عبد الله الذي يُبَلِّغُهُ عن ربّهِ هو رسولُ الله حقًّا وَصِدْقاً، وبهذا يتم الترابط بين دَرْسَيِ السورة.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الثاني من السورة

الآيات من (١٥ ـ ٢٩)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ (١٥) ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ (١٦) وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٢٧) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٩)﴾.

تمهيد:

يُقْسِمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذا الدّرْسِ بعدَدٍ مِنْ آياتِهِ في كوْنِه، على أنَّ القرآن الذي يتْلُوهُ محمَّدٌ ﷺ على قومه مُبيِّناً لَهُمْ أنَّهُ يَتَنزَّلُ عليه مِنْ عند اللَّهِ، ويُمْلِيه عليْه أمين الوحي جبريل عليه السلام، هو في الحقيقة والواقع كتَابٌ مُنزَّلٌ من عند الله، يحملُه رسولٌ كَرِيمٌ من الملائكة، ويُبَلِّغُهُ قَوْلاً ملفوظاً مسموعاً بالأُذن لرَسُولِ الله محمد ﷺ.

والآياتُ الّتي أقسم بها اللَّهُ عزَّ وجلّ في السورة هي ثلاثة:

(١) آية النجوم الْخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ.

(٢) وآية اللّيل إِذَا عَسْعَسَ.

(٣) وآية الصُّبْحِ إِذَا تنَفَّسَ.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ (١٥) ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ (١٦)﴾ [الفاء] في: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ جاءت بمثابة التفريع على الأفكار والمعاني المطويّة

بين درسَي السّورة، أي: فتفريعاً على مقتضيات الحكمة من إرسال رسولٍ يبلّغ عن الله، وإنزال كتابٍ من عند الله عليه يتضمّن مطلوبات الله من عباده الّذين وضعهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان: أُأكّد لكم ببعض آياتي في كوني العظيم أنّي أرسَلْتُ محمّداً إليكم رسولاً، يبلّغ عنّي ما أوحي به إليه، وأنزل عليه كتاباً من عندي فيه بيانُ مواد امتحانكم في ظروف الحياة الدنيا الّتي أعددتُها لذلك.

وجاء فعل: ﴿أُقْسِمُ﴾ منفيّاً بحرف النفي [لا] مراعاة لاقتضاءين، أحدهما يقتضي الْقَسَمَ بهذه الآيات الكونية، والآخر لا يقتضي الْقَسم بها، لأنّ المخاطبين إبّانَ التنزيل في معظمهم لا يُدْرِكون عظمتها، فلا فائدة تُرجىٰ لديهم من القسَم بها.

فاستدعَتْ مراعاةُ ما يقتضي الْقَسَمَ بها ذِكْرَ فعل الْقَسَم، وذِكْرَ الآياتِ الكونيّة الّتي اختار الله أن يُقْسِمَ بها في هذه السورة.

واستدعَتْ مراعاةُ ما يقتضي أنّه لا فائدة تُرْجَىٰ من القَسَم بها، نفيَ فعل القسَم بحرف النفي «لا».

فكان هذا الإجراءُ من المبتكرات البيانيّة القرآنيَّةِ البديعة.

إنّ مُعْظَم المخاطبين العرب إبّانَ التنزيل لا يُدْرِكون عَظَمَة هٰذه الآيَاتِ الكونية: «النجوم الخنس ـ الجواري الكُنَّسِ ـ اللّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ـ الصّبْح إذا تَنَفَّسَ» وهذا الواقع يجعل الْقَسَمَ بهٰذِه الآياتِ قَسَماً غَيْرَ ذي فائدة، فهو يقتضي عَدَمَ الْقَسَم بها، بالنسبة إليهم.

لكِنْ سيَأتي زمانٌ يتّسِعُ فيهِ علْمُ الْفَلك، ومَعْرِفَةُ كثيرٍ من عظمة الظواهر الكونيّة الدّالّة علَىٰ صِفَاتِ خالقها ومُتْقِنها، ويُدْرِكُ فيه عُلَمَاءُ الكونيات عظمَةَ هٰذِهِ الآيات الكونية الدالاّت على الخالِقِ الرَّبِّ العليم

الحكيم القدير، وهؤلاء العلماء ومَنْ يطّلعون على مقرّرَاتهم العلميّة يُنَاسِبُ حالَهُمْ أنْ يُقْسِم الله لهم بهٰذِهِ الآياتِ من آياته في كونه، ليُؤَكِّدَ لَهُمْ صِدْق الرسول محمد ﷺ، وصِدْق بلاغاتِه عَنْ رَبّه، ومثل هذا الواقع الذي سيحدثُ حتماً يقتضي الْقَسَمَ بها.

ولمّا اجتمع الاقتضاءَانِ: اقتضاءُ الْقَسَمِ، واقتضاءُ عَدَمِ الْقَسَم، كان الحلُّ البديع أن يأتي النَّصُّ بعبارَة [لاَ أُقْسِم].

هكذا ينبغي أَنْ نفهم كُلَّ مَا جاءَ في القرآن من عبارة [لاَ أُقْسِم] وقد استقْرأتُ الأقْسَامَ الْقُرْآنيّة فانتهيتُ إلى إدْرَاكِ هٰذِهِ الحكْمَةِ البيانيَّةِ البديعَةِ في القرآن.

فَلَسْتُ أعتبر كلمة «لا» زائدةً كما ذكَرَ بعْضُ المفسّرِين، وَلا مَا ذَكَرُوهُ من تأويلاتٍ أُخرَىٰ متكلّفة، وقد هداني اللّٰهُ بهذا الاستقراء إلى استخراج قاعدة للأقسام المنفيّة في القرآن دَوَّنْتُها في كتابي: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب اللّٰهِ عزّ وجل» وهي القاعدة «العشرون» منه، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

شرح الآيَات الكونية الثلاث:

أوّلاً: آيَةُ الْخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ، التي دلَّ عليها قولُ اللّٰهِ عزَّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾.

الْخُنَّس: وَصْفٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ هيَ النجوم، وهُوَ جَمْعُ «خَانِس» أو «خانِسَة» والخنوسُ هو الانقباضُ والاستخفاء، يُقالُ لغة: خَنَس يَخْنِسُ ويَخْنُسُ خُنُوساً إذا انقبضَ وتَأَخرَ، وقيل: إذا رجَعَ.

وجاء في كلام الرسول ﷺ: أنَّ الشيطَانَ يُوسْوِس للعبْدِ، فإذَا ذكَرَ اللّٰهَ خَنَسَ، أي: انقبَضَ عَنْهُ وتأخر.

الجوار: جمع «جارية» حذفت من «الجوار» الياء اختصاراً في اللّفظ، وأصلها الجواري.

ومن المشهود بالأعين، والمعلوم عند علماء الفلك أنَّ نجوم السّماء تجري وتسير، ضمن نظامٍ عجيب دقيق مُدْهش.

وكلّما تعمّق الباحثون في تتبُّعهم لنظام جريان النجوم في أفلاكها زادت دهشتهم، وزاد إيمان المنصفين منهم بالخالق العظيم الجبّار الذي أتقن كلّ شيءٍ صُنعاً.

الكُنَّس: جمع «كانس» أو «كانِسَة» والكانس في اللُّغَةِ هو الظبيُ إِذَا دَخَلَ كِناسَه، وهو موضع في الشجر يَكْتَنُّ فيه، ويسْتَتِرُ، يُقَالُ لغة: ظِبَاءٌ كُنَّسٌ وكُنُوسٌ.

وأصْلُ الكَنْسِ كسْحُ القُمامة عن وجْهِ الأرض، وسُمِّيَ المكانُ الذي يأوي إليه الظبيُ أو بقَرُ الوحْشِ بين الأشجار الساترة له كِناساً، لأنَّهُ إذا أوىٰ إليه كَنَسَ الرَّمْلَ الذي عليه، حتَّىٰ يَصِلَ إلى الثَّرَىٰ الحرّ، فَيَرْتَاحَ عليه.

فَمِنْ صفَاتِ النجوم التي أقْسَمَ اللَّهُ بِهَا أَنَّهَا خُنَّسٌ، وأَنَّهَا جواري، وأَنَّهَا كُنَّسٌ، وجاء استعمال الوصف التشبيهيّ كنايةً عن النجوم دون ذكر اسمها إيثاراً للإبداعِ البياني المركب من استعارة وكناية.

أمّا الخُنُوسُ فهُوَ اختِفاؤها في النّهار، مَعَ وُجُودِها في منازِلها وَمَجَارِيها، كَمَا تَختفي الظِّبَاءُ بَيْنَ الأشجار في أكْنِسَتِهَا عَنْ أعيُنِ طُلَّاب صَيْدِها أو افتراسِهَا، ووصْفُها بِأَنَّها خُنَّسٌ، وبأنَّها كُنَّسٌ، استعارةٌ قائمةٌ على تَشْبِيه اختِفائها في النهار باختفاء الظباء في أكْنِسَتِهَا، وتشبيه مواقع النجوم بأَكْنِسَةِ الظّباء، وهي استعارةٌ بديعة قائمة على تشبيهٍ دقيق، ثمّ استُخْدِمَتْ هذه الاستعارة كِنايةً عن النجوم.

وقَدْ يكونُ وصْفُها بأنَّها كُنَّسٌ لأنَّها تجذبُ إليها الغبار والكتَلَ الصَّخريّة الّتي خلّفَتْها نجومٌ أَوْ كواكبُ انفجرَتْ وَتناثرتْ أجزاؤها، فهي بمثابة الكانِسِ الذي يَكْنُسُ القمامات، والله أعلم.

إنَّ عَالَمَ النجوم الذي تُعْتَبَرُ شَمْسُنَا نجماً متوسط الحجم من نجومه الّتي لا تحصيها المخلوقات، عالَمٌ عظيم مُذهِشٌ مُحَيِّرٌ لأولي الألباب، والبحثُ فيه، والتَّفكُّرُ فيما انبَثَّ فيه من آيات الله الجليلة لا بُدَّ أن يَهْدِيَ المتفكّرِين المنصفين إلى الإيمان بالخالق الرّبّ جلَّ جلاله، والإيمان بعلمه المحيط بكلّ شيء، وحكمتِه العظيمة، وقُدْرَتِهِ التي لا يُعْجِزُهَا شيءٌ في السَّمَاوَاتِ ولا في الأرض، وإتقان صُنْعِه البالِغِ ذروة الكمال.

فالْقَسَمُ بِالنُّجُومِ هو في الحقيقة قَسَمُ بصِفَاتِ اللَّهِ الجليلة الّتي تُعْتَبَرُ النجومُ إِحْدَىٰ ظَواهِرِ خَلْقِ اللَّهِ لكونه.

ثانياً: آيةُ اللّيل إذا عسْعَسَ، الّتي دَلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾.

يقال لغة: عَسْعَسَ اللّيلُ، إِذَا أَقْبَلَ من أَوَّلِهُ، ويقال أيضاً: عَسْعَسَ اللّيلُ، إِذَا أَدْبر عند أواخِره، فهو من الأضداد.

والآية تُحْمَلُ عليهما جميعاً، لأنَّ ظاهرة اللّيل عند إقباله وعنْدَ إدْباره متشابهة، وهي تلْفِتُ نظر أهل البحث العلميّ إلى قضيَّةٍ علميّة تنظيميَّةٍ فيها إتْقانٌ وحِكْمةٌ مِنْ قضايا نظام الكون البديع، وهي تدلُّ على أنَّ اللَّهَ جلّ جلالُهُ عليم قدير حكيم، وهي أَثَرٌ من آثار دوران الأرض حول نفسها تُجاهَ الشمس، ولهذا يتطابَقُ إقبالُ اللّيل مع إدباره، وللإيجاز في اللّفظ اختيرَتْ كلمة «عَسْعَسَ» الدّالة على الأمرين معاً. والله أعلم.

ثالثاً: آيَةُ الصُّبْح إِذَا تنفَّس، التي دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾.

التنفُّس: يأتي بمعْنَيَين:

الأول: استمدادُ النفس، أي: أخذ الريح وإدخالُهُ إلى الرّئة، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ ذِي رِئَةٍ هو مُتَنَفِّس.

الثاني: الزيادةُ والامْتِدَادُ والاتّسَاعُ، يُقال لغة: تَنَفَّسَ النَّهْرُ، إذا زاد ماؤُه. ويقالُ: بيْنَ الفريقين نَفَسٌ، أي: مُتَّسَعٌ، ويقالُ: تَنَفَّسَ الصُّبْحَ، إذا تَبَلَّجَ وامتدَّ واتَّسَعَ ضَوْؤُهُ حتَّىٰ يَصِير نهاراً بَيّناً. ويقال: تنفَّسَ النهارُ، إذا امتدَّ وطَال، وهذا المعنى هو المناسب للآية، باعتبار أنّه المعنى الذي ينسجم مع: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ⑰﴾ فكلاهما ظاهرتان من ظواهر إتقان حركة دوران الأرض حول نَفسِها، في اتّجاه الشمس، وهي الحركة الّتي يَنْتُجُ عنها ظاهرتا اللّيل والنهار.

* * *

قولُ اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ⑳ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ㉑﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲﴾: أي: إنَّ القرآنَ الّذِي يَتْلُوهُ محمَّدٌ على قومِهِ، ويقول لهم: إنَّه كتابٌ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ الله، هُوَ قَوْلٌ يتلقَّاهُ مُحمَّدٌ سمَاعاً قَوْلِيًا جليًا من رسُولٍ كريمٍ، يقولُهُ حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمةً فكلمة، وهو جبريل عليه السلام.

فالضمير في: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يُرادُ مِنْهُ القرآن، بدليل الحال، ودليل كوْنه قولاً يتلىٰ.

وجملة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲﴾ هي جواب القسم في ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾.

ولم يُذكَرِ هُنَا اسم الملك جبريل أمين الوحي عليه السلام، إنّما ذُكِر بصفَاتٍ تعيِّنُهُ وَتُميِّزُه.

(١) **فَهُوَ رَسُولٌ من الملائكةِ**: يُرْسِلُهُ اللَّهُ لتبليغِ ما يُريدُ أن يُوحي إلى رُسُلِهِ من البشر، فوظيفته القيامُ بتأدِية الرّسالة التي يكلّفُه الله أن يؤدّيها، دون أن يتصرّف بشيءٍ مِنْ عنده.

(٢) **وهو كَرِيمٌ**: والكريم هو الذي يترفّع عن النقائص والدنايا، وهو المحمود بالصفات الرفيعة النفيسة، والجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والمكرَّمُ في جنسه، أو نوعه، أو بين نظرائه أو قومه.

وكيف لا يكون جبريل عليه السلام كريماً، وقد اصطفاه الله لتبليغ وحيه إلى رسُله من البشر، وللقيام بكُبْرَياتِ المهمّات، مع أنّه من الملائكة الكرام الذين لا يعصون اللّهَ ما أمرهم ويَفعلون ما يُؤْمَرُونَ.

(٣) **وهو ذُو قُوَّةٍ**: أي: ذو قُوّةٍ عظيمة دلّ على عظمتها التنكير، فلو أمره الله عزّ وجلّ بأن يَنْسِفَ الجبال والبحار، ويَرْفع الْمُدُنَ وَيَقْلبها، ويُزَلْزِلَ الأرضَ وما عليها، لقَدَرَ على ذلك، فقد أعطاهُ جلّ جلالُهُ قوّةً عظيمة.

(٤) **وهُوَ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ**: أي: وهو عند الله الذي هو ذو العرْشِ المجيد مكين. **المكِينُ**: هُو ذو المكانة الرفيعة، والمنزلة العالية الثابتة الراسخة، المتمكّن في الموقع الذي هو فيه.

(٥) **وَهُو مُطاعٌ بين الملائكة العالين**: قال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ كلمةُ (ثَمَّ) بفتح الثاء اسْمٌ يُشارُ به إلى المكان البعيد، وهو بمعنى هُنَالِكَ، فهو مطاعٌ هُنَالِكَ، أي: بين الملائكة العالين عند ربّ العالمين، فله عليهم رياسةٌ، يأمُرُهُمْ بإذْنِ اللّهِ فَيُطِيعُونَهُ.

ولمّا كانت الرسالة الدينيَّةُ أعظَمَ رسالات الرّبّ، اختار لحمْلِها وتبليغها لرسُله من البشر أعظم ملائكته، وذا الرياسة عليهم، والمكين عنْدَهُ.

(٦) **وَهُو أمين**: أي: وهو أمين على وحْي الله، وأمين على رسالاته،

فلا ينقُصُ منها شيئاً، ولا يزيد فيها شيئاً، بل يبلّغها أو يُؤدّيها كما أَوْحَىٰ الله إليه بدقَّةٍ تَامّة. وفي هذا تعبيرٌ عن سلامة القرآن المبلَّغِ إلى رسول الله محمد ﷺ من أيّ تغيير عمّا أنزل الله.

وقد أثبت الله عزّ وجلّ أنّ القرآن مُنَزَّلٌ من عنده نطَقَ به وتلَفَّظَ بحروفه وكلماتِه رَسُولٌ كريمٌ أرسَلَهُ، وهو ذو قُوَّةٍ عِنْدَ ذي الْعَرْشِ مَكِين، وهو مطاعٌ هنالِك بين الملائكة العالين، وهو أمين، وعلمنا أنّ هذا الرسول هو جبريل عليه السلام، لئلّا يتَوَهَمَ مُتَوَهِّمٌ أنّ القرآن قد أوحى الله به إلى رسوله محمد ﷺ معاني، وأنّ الرسول محمّداً عبَّر عن هذه المعاني بألفاظٍ من عِنده، وهذا فرقٌ عظيم يفرّقُ بين القرآن، وبين المعاني الّتي أوحى الله بها إلى رسوله، وعبَّر عنها الرّسول ﷺ بعباراتٍ من عنده، فهي شيءٌ آخر غَيْرُ القرآن، وليس لها صفة إعجاز القرآن، ولا الصفات الأخرى الخاصّةُ بالقرآن.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

توجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ بهذِهِ الآيَاتِ لخطاب الّذِين كذّبوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ إبَّانَ التنزيل، والذين اتَّهَمُوهُ بالْجُنُونِ، لادّعائه أنّه رسُول اللَّهِ، ويتَلَقَّىٰ عَنْ رَبِّهِ الْوَحْيَ، وأنّ مَا يتْلُوهُ عَلَيْهِم هو كتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ويُلقِّنُهُ إيّاهُ أمينُ الوحي جبريل عليه السَّلام، ولأنّه جاءهم برسالة تقضي على شركهم وأوثانهم، فقال لهم: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وما الرسُول الذي أُرْسِلَ إليكم فهو مصاحبكم وملازم لكم في دعوته إياكم إلى دين الله، وفي تبليغكم رسالاَتِ اللَّهِ للناس بمجنونٍ، كما يزْعُمُ من اتّهمه بالجنونِ منكم.

زِيدَتِ الْبَاءُ الجارّة في: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ لتأكيد النفي الذي دلّت عليه أداة النفي [مَا].

وقد سبق في سورة (القلم) أن شهد الله لرسوله ليُسَلِّيَهُ وَيَشُدَّ عزيمته بأنه غير مجنون، خطاباً له، فقال له فيها: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾.

أمّا هنا في سورة (التكوير) فقد وجّه اللّهُ عزَّ وجلَّ الْخِطَابَ للذّينَ كذَّبُوهُ، فَقالَ لَهُمْ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝﴾.

إنّ هذا القرآن العظيم الذي يُنَزِّلُهُ اللّهُ عليه، والذي يبلّغه عَنْ رَبّه دليلٌ جَلِيٌّ على أنّه في ذُرُواتِ الكمالِ الْعَقْلِيّ، وفي ذرواتِ الكمال الفكريّ والنفسي، وأَنّى لِلْمَجْنُونِ أن يَقْتَرِبَ من ذِرْوَةٍ مِنْ ذرْوَاتِ هٰذِهِ الكمالات.

يضافُ إلى هذا أنّه صَاحِبُكُمْ الْمُلاَزِمُ لكُمْ في صُحْبته، فقد صَاحَبْتُمُوه وعَاشَرْتُمُوهُ، وعرفْتُم أخلاقَه، وصدقه، وأمانته، ورجاحة عقله، وأنّ من كان مثْلَهُ فهو أبْعَدُ النّاسِ عَنِ الجنون.

وبَعْدَ نفي الجنون عنه بدليل مصاحبتهم لَهُ أبَان الله لهم أنَّ صِلَتَهُ بجبريل أمين الوحي الربّانيّ لَمْ تَقْتَصِرْ على وحْيٍ غَيْبِيٍّ أَوْ قَلْبِيٍّ غير مَشْهُودٍ بِبَصَرٍ وَلاَ سَمْعٍ، بل رأىٰ مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ رُؤْيَا عَيْنٍ وَهُوَ بالأُفُقِ الْمُبِينِ، فقالَ تَعالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝﴾.

الأُفُق: خطٌّ دَائِرِيٌّ في الجوّ يَرىٰ فيه الْمُشَاهِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا ملتقيةٌ بالأَرْضِ.

المبين: أي: الظاهر الواضح، يقال لغة: بَانَ الشّيْءُ بياناً فهو بائن، وأَبَانَ الشّيْءُ إِبَانَةً فَهُو مُبين، إذا ظهر ووضح وكان جليًا.

فدلَّتْ هٰذِهِ الآيةُ علىٰ أنّ الرسول محمّداً ﷺ قد رأىٰ أمين الوحي

جبريلَ عليه السّلام رُؤيا بصريَّةً واضحةً بالأفُق الواضحِ المشرقِ الذي لاَ ظُلْمَةَ فيه وَلاَ غَبَش، فالرُّؤيَةُ إذْ ذاكَ لاَ شبْهَةَ فيها، ويكونُ هذا في النهار صباحاً أوْ مساءً أو ما بينهما، لا بَعْدَ الغروب ولاَ قَبْلَ الفجر.

روى البخاري أنّ جابر بن عبد الله الأنصاري قال ـ وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرَةِ الوحي ـ فقال في حديثه عن النبيّ ﷺ أنه قال:

«بَيْنَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الّذِي جَاءَنِي بِحِراءٍ، جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُوني، فأنزَلَ اللّٰهُ تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ».

بَعْدَ هٰذَا وَصَفَ اللّٰهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بقوله:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾.

وَقرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرو، والكسائيّ، ورُويسٌ: [بِظَنِينٍ] بالظاء.

الضَّنين: البخيل في اللُّغَة، يقالُ لُغَةً: ضَنَّ بالشَّيْءِ يَضِنُّ ويَضَنُّ ضِنّاً وضَنَانَةً إذَا بَخِلَ، فهو ضَنِين، أي: بخيل.

والظَّنِينُ: المتَّهَمُ الذي لاَ يُوثَقُ بِهِ في الأَخْبَارِ أو في غَيْرِها.

إنّ الله عزّ وجلّ يَشْهَدُ لِرَسُولِهِ محمد ﷺ، بأنّه على ما يطَّلِعُ علَيْه من الغيب، ومنه ما يَنْزِلُ عليه من أقوالٍ وبياناتٍ رَبَّانية، ليس بخيلاً كاتماً ما يُؤْمَرُ بتبليغه أو يؤذَنُ لَهُ به، ولَيْسَ مُتَّهَماً بالتحريف أو الزيادة أو النقص، بل هو صادقٌ أمِينٌ لا يألُو جَهْداً في تعليم الناس وإرشادهم إلى كلّ ما فيه خَيْرُهم وسعادتهم من أمور دنياهم وآخرتهم.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أو [بظنين] تَقْدِيرُهُ فيما أرى: وَمَا هُوَ مُطَّلِعاً على الغيب الذي يُطْلِعُهُ اللَّهُ عليه ببخيلٍ وَلاَ مُتَّهَمٍ، وهذا على التضمين، والتضمين كما يكونُ في الأفعال، يكونُ فيما يَعْمَلُ عَمَلها، أي ليس بضنين ولا بظنين مُطّلِعاً على الغيب.

وفي هذا بيانٌ لبراءة الرسُول محمد ﷺ من أخلاق الناس الّتي فيها الْبُخْلُ والاتّهام، فمَنْ ظفِرَ منهم بعِلْمٍ من علُوم غيبيَّةٍ عن الناس، احتفظ به لنَفْسِه، وضَنَّ بِهِ عن الآخرين، ليستثمره لدُنْياه، وحين يجد وسيلةً لاستثماره، كالسَّحَرَةِ الّذِين يتّصِلُونَ بالجنّ، وَيأخذونَ عَنهُمْ علوماً لا يَعْلَمُها الناس، فإنَّ الواحِدَ منهم يَضِنُّ بمَا تعلَّمَهُ ليسْتأثِرَ بِه لنفسه، وما يَتَلَقَّاهُ منْ أخبارِ عن الجنّ فإنَّهُ يُضِيفُ إليه أكاذيب من عند نفسه، حتَّىٰ لا تضيع عليه أيُّ فرصة من فرص الاستثمار لنفسه، وحتّى لا يقول في أمْرٍ يجهلُه: لا أعْلَمُه.

أمّا رسُولُ الله فما يَعْلَمُه من أمْرِ الغيب لا يضِنُّ به، وَمَا يجْهَلُه يقول في شأنه: إنّني بَشَرٌ لا أعْلَمُ إلاّ ما يُعَلّمُني الله.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

إنّه لمَّا كان الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنْسِ، بأخْبارٍ يَصْدُقُونَ في بعْضِها، ويَكْذِبُونَ في أكثرها، ولمّا كان الواقع يقتضي التَّفْرِيقَ بيْنَ وَحْي الله وإيحاءِ الشياطين لأوليائهم، قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ومَا القرآن الذي يَتْلُوهُ محمّد ويُبَلّغُهُ للنّاسِ بقَوْلِ شيطانٍ رَجيم يوحي به إليه.

إنَّ القرآنَ الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومَا يشتمل عليه من هداية وعِلْم شاهِدٌ على أنّه تنزيل من عليم حكيم، وليس بقولِ بَشَرٍ، ولا بقول شيطان رجيم.

إنّ أقوال الشياطين وأخبارهم مَشْحُونَةٌ بالضلالات، والأباطيل والأكَاذِيب، ولهذا خاطب اللّهُ مُكَذّبي الرّسُولِ فيما يُبَلّغ عن رَبّه بقوله:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فأَيْنَ تذهَبُونَ فارّين من حقيقة أنَّ القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله، ودلائل الحقّ تُحَاصِرُكُمْ من كلّ جانب، فحقائق القرآن، وإعجازُ القرآن، وكمال الرسول، وبراهِينُ الْعَقْل، تَشْهَدُ للرّسُولِ بالصدق، وتشهد للقرآن بأنَّهُ حقٌّ مُنَزَّلٌ مِن عليم حكيم، فلا مَفَرَّ لمكذّبٍ، إلاّ أن يكونَ معانداً مُصِرّاً على الباطل.

وَبعْدَ هذا ختم الله السورة بقوله:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الضمير في ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعودُ على القرآن، ولفظ (إنْ) حرفُ نَفْي بمعنى «ما». أي: ما هذا القرآن الذي يتلوه محمَّدٌ إلاّ ذِكْرٌ للْعَالِمين جميعاً، أي: مُوَجَّهٌ لجميع العالمين المكلّفين الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

أمّا مَنْ يَنْتَفع من هذا الذّكْر الموجّه للعالمين، ويهتدي بهدْيِه، فكُلُّ من شَاءَ بإرادته الحرَّةِ أنْ يسْتَقِيم على صراط الله المبيَّن فيما يُنَزّلُ اللّهُ على رسوله.

المبلَّغُونَ هم كلُّ العالَمِين المكلفين الموضوعين موضع الامتحان، والمنتَفِعُونَ منه من شاء من العالمين المبلّغين أن يستقيم على صراط الحقّ والْهُدَىٰ، فإيمانُه وهدايَتُهُ من ثمرات ما أعطاه ربُّهُ من مشيئة حرَّة ليبْلُوَهُ، أي: ليمتحنه في ظروف هذه الحياة الدنيا.

هذا ما نفهمه من قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

وجاء بَيَانُ هذه الفكرة بأسلوب بدل الإضراب من قوله تَعَالَىٰ: ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وبَدَلُ الإضراب بدَلٌ يُقْصَدُ به الْبَدَلُ والْمُبْدَلُ منه معاً، والإبداعُ هنا أنّ الْمُبْدَلَ مِنْهُ جَاءَ على معنى، وأنّ الْبَدَلَ جاء على معنىً آخر، مع ما في الخطاب بعد الحديث عن العالمين بالغائب، من التفاتٍ بديعٍ ذي هَدَفٍ فكريّ، وهُوَ تَحْمِيلُ عُمُوم المخاطبين مسؤوليَّاتهم تجاه هذا الذِّكْرِ المنزَّلِ مِنْ رَبّ العالمين.

وقد أَثبت قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أنَّ الْمُخَاطبين المكلفين يَملكُونَ مشيئَةً حُرَّةً يسْتطيعُونَ بِهَا أَنْ يَشَاءُوا الاستقامة على صراط الله، وأن يشاءُوا عَدَمَ الاستقامة، وذَلك إذْ خَلَقَ اللَّهُ فيهم بحكْمَتِهِ الجليلة جهاز المشيئة الحرّة، التي يَسْتَطِيعون أن يَشَاءُوا بها طريق الخير، أو طريق الشّرّ، وأن يشاءوا بها الإيمان أو الكفر، والطاعة أو المعصية.

ويَرِدُ على كلمة [الذِّكْرِ] في النّص سؤال، وهو: لِمَاذا وصَفَ اللَّهُ القرآن بأَنَّهُ ذِكْرٌ؟

وأقول: الذكر في اللّغة حفظ الشيء في الذاكرة، وإجراؤُهُ على اللّسان، وتذكُّرُ المحفوظ عند استدعائه، والتذكير بما كان معلوماً ثم نُسِيَ.

فهل وصف الله القرآن بأَنَّهُ ذِكْرٌ لمن شاء أن يستقيم من العالمين، لأنّه يجب أن يُحْفظَ فلا يُنْسَى، وبهذا يكون واعظاً دائماً لحافظِهِ في ذاكرته

ينصحه ويأمُرُه وينهاه ويُرشِده بعد أن يتبلغه ويتفَهّم دلالاته؟.

أو لِيُتْلَىٰ وتجري بآياته ألسنة المؤمنين آناء اللّيل وآناء النهار؟.

أو ليتَذَكَّر المؤمِنُون حيناً فحيناً ما اشتمل عليه من هَدْيٍ لهم، فيتّعِظُوا بمواعظه، ويهتدوا بهَدْيه؟.

أو لأنّ ما اشتمل عليه من حقائق، وهدايَةٍ إلى الصراط المستقيم، أمُورٌ مُغْرُوزةٌ في عقول الناس وفِطَرِ نفوسِهم، فحين يفهمون ما جاء به القرآنُ يجدونه مطابقاً لما في عقولهم من موازين، ولما في قلوبهم وضمائرهم من مشاعر حقٍّ وخير وجمال، فيكون بالنّسبة إليهم بمثابَةِ مذكّر يذكّرُهم بشيءٍ غير جديدٍ عليهم، فكأنَّهُمْ كانوا يعلمونه ثُمَّ نَسُوه.

كلُّ هذه المعاني مقبولة ومعقولة، وربَّما سُمّي القرآن ذِكراً لمراعاة هذه المعاني جميعاً، على أنّه ينبغي العناية بحفظه وتذكّر مضامينه عند مناسباتها، للعمل به والاهتداء بما يهدي إليه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يخطئ كثيرٌ من الناس في فهم هذا النّصّ وأشباهِهِ في القرآن، وسَبَبُ خَطَئِهِمْ أَنَّهُمْ لم يتَنَبَّهُوا إلى أَنَّ الله عزّ وجلّ، قَدْ شَاء أنْ يَجْعَل المكلّفين الممتحنين المسؤولين عَنْ أعمالهم الاختياريّة في الحياة الدّنيا ذوي مشيئاتٍ حُرَّةٍ، يختارُونَ بها في مجالات امتحانهم ما يشاءونَ من خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أو غير ذَلِك، ليمتحنهم في اختياراتهم، فخلَقَ لكلٍّ منهم بمَشيئَتِه جهازاً خاصّاً، هو جهاز المشيئة الحرّة، فالعَبدُ بهذا الجهاز الذي خلقه الله له بمشيئته يختار ما يشاء في رحْلةِ امتحانه.

ولولا أن شاء الله أن يمنح عباده القدرة على أن يشاءوا لكانوا

مجبورين ليس لهم مشيئاتٌ حُرَّةٌ، ولما اسْتَطاعوا أن يشاءُوا شيئاً، ولكانوا مثل الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب، ومثل سائر الكائنات المجبورة المسيّرة التي ليس لها إرادات حُرَّةٌ تَشَاءُ بها.

فمَشيئة المكلّفين المسؤولين مشيئَةٌ حُرَّةٌ فيهم، ضمن حدود أفعالهم الاختياريَّة الجَسدِيَّة والنفسيّة، أمّا الأفعال الاضطراريَّةُ الَّتِي تجري فيهم أو تجري عليهم، فهي خارجةٌ عن دائرة اختياراتهم الْحُرَّةِ، وخارجةٌ عن حُدودِ مسؤولياتهم في رحلة امتحانهم.

ومعلومٌ أنَّ مَشيئاتهم الحرّة لم تكُنْ لهم إلاَّ بعد أن شاء الله أن يمنحهم أجهزة المشيئة الحرّة.

وهذه المشيئاتُ الحرّةُ فيهم لا تَعْمَلُ أعْمَالَها إلاَّ بالتمكين الرَّبَّانِيِّ لها من أَنْ تَعْمل، وهٰذَا التمكين الرَّبانِيُّ هو الذي يجعلهم مسؤولين عن أعمالهم الاختياريّة في رحلة ابتلائهم.

وفي اللّحظَة الّتي يرفع اللَّهُ فيها تمكينَهُ لهم يرتفع التكليف، وترتفع المسؤولية.

وعلى هذا ينبغي أن تُفْهَمَ النُّصوص، وأن يُجْمَعَ بين دلالاتها، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر سورة التكوير ضمن ما فتح به العليم الحكيم القدير

* * *

سُورَةُ الأَعْلَى

وَيُقَالُ فِيهَا: سُورَة «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى»

وَيُقَالُ أَيْضًا: سُورَة «سَبِّح»

٨٧ مُصْحَف ٨ نزول

(١)

نصُّ السّورة وما فيها من قراءات من الفرش

سورة الأعلى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ
فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾
سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ
﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ
مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ
﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾
وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾
وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾
صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

* * *

---

٣ ـ ● قرأ الكسائي: [قَدَرَ].
● وقرأ باقي القراء العشرة: [قَدَّر] بتشديد الدال.

٨ ـ ● قرأ أبو جعفر: [لِلْيُسُرَىٰ] بضمّ السّين.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [لِلْيُسْرَىٰ] بإسْكان السين.

١٦ ـ ● قرأ أبو عمرو: [يُؤْثِرُونَ] بياء الغائبين.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [تُؤْثِرُونَ] بتاء المخاطبين.

(٢)
ممّا رُوي عن النبيّ ﷺ بشأن هذه السّورة

(١) روى الإمام أحمد والبزّار وابن مردويه عن عليٍّ رضي الله عنهُ قال:

«كان رسول الله ﷺ يُحبُّ هذه السّورة: سَبّحِ اسْمَ رَبّكَ الأَعْلى».

(٢) وروىٰ مسلم وأحمد وأهل السُّنن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ:

«كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبّكَ الأَعْلَىٰ، وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيث الغاشية، وإِنْ وافَقَ يَوْمَ جُمُعَةٍ قَرَأَهُمَا جَمِيعاً».

أي: وإن وافق العيدُ يَوْمَ جُمَعَةٍ قرأ السُّورتين في صلاة العيد، وفي صلاة الجمعة.

(٣) وروى مسلم وغيرُه عن جابر بن سَمُرَة، أنَّ النبيّ ﷺ:

«كان يَقْرأُ في الظُّهر بِسَبِّحِ اسْمَ رَبّكَ الأعْلَىٰ».

(٤) وروى أبو داود والنَّسائي وابْنُ ماجَهْ والدَّارَقُطْنِي والْحَاكِمُ والْبَيْهَقِيُّ عن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوتِرُ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبّكَ الْأَعْلَىٰ، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الكافرون، وقُلْ هُوَ اللَّهُ أحد».

(٥) وروىٰ أبو دَاوُدَ والترمذيُّ والنَّسائِيُّ وابْنُ مَاجَهْ والحاكم وصحّحه، والبيهقي، عن عائشة، قالت:

«كَانَ النبيُّ ﷺ يقْرأُ في الْوِتْرِ في الرَّكْعَةِ الْأُولَىٰ بِسَبّحْ، وفي الثانية بقُلْ يَا أَيُّها الْكَافِرُونَ، وفي الثالِثَة بقُلْ هو اللَّهُ أحد والْمُعَوِّذَتَيْنِ».

(٦) وروى البخاريّ ومسلم عن جَابِرِ بْنِ عبد اللّهِ: أنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ كان يُصَلِّي مع النبيّ ﷺ، ثُمَّ يأتي قَوْمَه فَيُصَلِّي بهم الصَّلاة، فقَرَأَ بِهِمُ الْبَقَرَةَ، قال: فَتَجوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّىٰ صَلاَةً خفيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعاذاً، فقَال: إنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللّه، إنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، ونَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذاً صَلَّىٰ بِنَا الْبَارِحَةَ فَقَرأَ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوَّزتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ.

فقال النبيُّ ﷺ:

«يَا مُعَاذُ، أَفَتَانٌ أَنْتَ ـ ثلاثاً ـ اقْرَأْ: والشَّمْسِ وضُحَاها، وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ، ونحوها».

وفي رواية لهما زيادة: «وَاللَّيْلِ إذَا يَغْشَىٰ».

وفي رواية عند مسلم: «والضُّحَى، واقْرأْ باسمِ رَبِّكَ».

وفي رواية للبخاري: «فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الكَبِيرُ، والضَّعِيفُ، وَذُو الْحَاجَةِ».

وفي رواية عند مسلم: فصَلَّىٰ مع النبيّ ﷺ الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَىٰ قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ، فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ البقرة، فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ، ثُمَّ صَلَّىٰ وَحْدَهُ وانْصَرَفَ، فَقَالُوا لَهُ: نَافَقْتَ.

هذه الرّواية تُفَسِّر معنىٰ: «فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ» في الحديث.

* * *

(٣)

تتابع التوجيه التربويّ لذكر اللّه حتى نزول سورة الأعلى

(١) في سورة «العلق» بدَأَ التَّوجيه لذكر اسم الرّبّ مقترناً بالأَمْرِ بالقراءة فقال اللّه عَزَّ وجلَّ فيها: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

(٢) ثمَّ في سورة «المدثّر» أنزل اللّه قولَه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ وفي هذا تَوْجِيهٌ لتعظيم الرّبّ وتكْبِيره، وذِكْرِهِ بعبارة: اللّهُ أكبر.

(٣) ثمّ في سورة «المزمّل» أنزل اللّهُ قَوْلَه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾.

وتَبَتَّلْ إِلَيه: أي: أخلص له العبادة والطاعة، وانْقَطِعْ عن غيره، فلاَ تُعَلِّقْ قلبك ونفسك بغيره في عِبَاداتك.

(٤) ثم في سورة (الفاتحة) أنزل اللّه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾

(٥) ثمّ في سورة (الأعلى) أنزل اللّهُ قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ فجاء التوجيه هنا لِذكْرِ اللّهِ بالتَّسْبِيح، الذي يَدُلُّ على تنزيه اللّهِ عمّا لاَ يليق بجلاله.

دلالة هذا الترتيب:

ونستطيع أن نستدلَّ من هذا الترتيب في مراحل التنزيل القرآنيّ على ما يلي:

أوّلاً:

العلْمُ هو الخطْوةُ الأولَى، والعِلْمُ عن الرّبّ الخالق وَسِيلَتُه قِراءَةُ الكِتَابِ الْمُنزَّلِ من لَدُنْهُ، وَتَدْوين العلم بالْقَلَمِ، مع الاستعانة باسم الرّبّ الذي خلق، إذْ لا يكون العلم مصوناً عن الزّلل ما لم يقترن بالاستعانة باسمه، والتبرُّك بالابتداء به، والرغبة بالتعرُّف على كمال صفاته، استدلالاً بظواهر خلقه.

ثانياً:

العلْمُ باللّه يَهْدِي إلى تَعْظِيم اللّهِ وَتَكْبِيرِهِ، وأنّه أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كبيرِ

يُمْكِنُ أَنْ تتخيَّلَهُ الأفكار، ومن كلِّ كبيرٍ في الوجود، لأنَّهُ هو الخالق لكلّ ما سواه جلَّ جلاله.

ثالثاً:

طريق الوصول إلى حقيقة العبوديَّة للّه عزّ وجلّ مداومة ذكر اسم الرّبّ، والتبتُّلُ إليه، بالانقطاع إليه عن كُلِّ شِرْكٍ، حتَّىٰ التعلُّق القلبيّ بالأسباب التي جَعَلَها هو سبحانه أسباباً، وهي لا تعمل إلاّ بخلقه.

رابعاً:

وحين يَصِلُ الفكْرُ في تصوُّراته لصفات الرّبّ إلى مستوىً يُدْرِكُ فيه أنَّ كُلَّ مظهر من مظاهر الكائنات يدُلُّ على صِفَةٍ من صفاتِ الرّبِّ تَستَحِقُّ أكبر الْحَمد وأعظم الثناء، وأنّ كل صِفَةٍ يُحْمَد بها كائنٌ في هَذَا الوجود فإنَّما هي من خَلْقِ اللّه، وأثَرٌ من آثار صفاته، فلا بُدَّ أن يكون على يقينٍ تامٍّ بأنَّ كُلَّ الْحَمْد وأكْملَ الحمْدِ هو للّهِ رَبّ العالمين الرحمن الرحيم.

في هذه المرحلة التربويَّةِ نزل قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

خامساً:

بعد التحقُّق بالمراحل السابقة، صار الإنسانُ المتدرّجُ على وفْق بنائها التربويّ مستعدًّا لأن تكون نَفْسُه ويكُونَ قلبُه وَفِكْرُهُ في حالَةِ سَبْحٍ ضِمْنَ آفاقِ تصَوُّراتِ صِفَاتِ الرَّبّ الأعْلَىٰ، وتَذَوُّقِ المشاعر النفسيّة والقلبية الّتي تَسْتَثِيرها أو تُحْدِثُها أو تُغَذّيها هذه التصورات.

وهذا السَّبْحُ الفكريُّ والنَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ الَّذِي لا تَعْتَرِضُهُ عقباتُ الكَثَافَاتِ الماديّة، والمشْبِهُ لسَبْحِ السَّمكِ في الماء، وسَبْحِ الطيور في الفضاء، وسَبْحِ الملائكة في السّماء، يُساعِدُ على تحقُّقِه مُدَاوَمَةُ التسبيح المشتمل على ذكر اسْمِ الرَّبّ الأعلى.

عند هذه المرحلة أنزل اللّه على رسوله سورة (الأعلى) المفتتحة بقوله تَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

ولا بُدَّ أَنْ نُلاحظ أنّ هذا البناء التربويّ المتدرج ملاحَظٌ فيه بالدرجة الأولى قِمَّةُ البشر جميعاً، وهو رسول الله ﷺ.

ثُمَّ على وفقه يكون تدرّج البناء التَّربويّ بالنسبة إلى غيره، مع مراعاة حالة اسْتِعْداد كلٍّ منهُمْ للْمُدَّة الّتي يحتاجُها، حتَّىٰ ينْتَقِلَ من مرحلَةٍ إلَىٰ الَّتِي تَلِيها.

* * *

(٤)

دروس سورة الأعلى ووحدة موضوعها

تشتمل سورة «الأعلى» على أربعة دروس متعانقة، وهي تُكَوِّنُ في مجموعها موضُوعاً واحداً، وجَذْرُ هذا الموضوع: «هذا الدِّين».

ولهذا الموضوع أربعة خطوط، أو فروع كفروع ساق شجرة:

الخطّ الأول: اللّه وبعض ما يتعلّق بصفاته وأسمائه الحسنى.

الخطّ الثاني: الرّسالة وإنْزَالُها على الرسول المصطفى وبعض خصائصها.

الخط الثالث: توجيهاتٌ للرسول محمد ﷺ بشأن وَظيفته في رسالته.

الخطّ الرابع: المرسَلُ إليهم وانْقِسَامُهُمْ إلى سعيد تَزَكَّىٰ، وكافراً أشقى، وبعض مُعَالجَةٍ دَعَوِيَّة لهم.

أمّا دروس السورة الأربعة فهي:

الدرس الأول: تضَمَّن أمر اللّه لرسوله بأن يُنَزِّه صفات الرَّبِّ الأعلى

عمّا لا يليق بجلاله مع التنبيه على بعض آياته في كونه الَّتِي تدلُّ على رُبوبيّتِه جَلَّ جلاله، وأمْرُ الرسولِ يسْتَتْبع أمْرَ كلِّ موضوع في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وهو الآيات التاليات من السورة:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

وفي هذا الدرسِ توجيهٌ ضِمْنِيٌّ للرسول أن يَشْرَح للنّاس القضايا الّتي اشْتَمَلَ عليها.

الدرس الثاني: تضمَّنَ وَعْدَ اللّهِ لرسوله محمد ﷺ بمتابَعَةِ إنْزَالِ القرآنِ عَلَيْهِ، وَتَثْبِيتِه في ذَاكِرَتِهِ، وإعْدَادِهِ بِيُسْرٍ في صُنْعٍ رَبَّانِيٍّ لحَمْلِ الرِّسَالَةِ الْيُسْرَىٰ في أحْكَامِهَا وَتَكَالِيفها، وهو الآيَاتُ التالياتُ من السّورة:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

الدرس الثالث: تضَمَّنَ تكليفَ الرسولِ بالتبليغِ ومتابعةِ التبليغِ بالتذكير، إنْ وجَدَ احتمالاً يُفيد أنّ الذكرى غَيْرُ ميؤوسٍ من نَفْعِها، ولو كان احتمال نَفْعِها ضَعِيفاً.

وتضمّن بيان أنّ من يخشَىٰ الجزاء الرّبّانيَّ فسَيَتَذَكّر، وستنفعه الذكرى ولو بِحُدُودٍ دُنيا.

أمّا الأشقى الذي لا يَخْشَىٰ الجزاء الرّبّاني فَسَيَتَجَنَّبُ الذِّكْرَىٰ، ولا يلْتَفِتُ إلى المذكِّرين، بل يَبْتَعِدُ عنهم وعن مجالس تذكيرهم.

وتضمَّنَ بيانَ عاقبةِ الأَشْقَى بإيجاز، وبيانَ عاقِبَةِ من تزكّىٰ وذكرَ اسم ربّه فصَلّىٰ بإيجاز.

وهو الآيات من (٩ ـ ١٥).

الدرس الرابع: تضمَّن خطاباً مُوجّهاً من اللّه للناس مبيناً فيه علَّةَ نفوسهم في الإعراض عن دين اللّه، وعن المذكّراتِ به، وهي أنَّهم يُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا العاجلة، على السعادة الخالدة.

وتضمَّن نُصْحَهُم بأنّ الآخرة خيرٌ لهم إسعاداً إذا عملوا للفلاح فيها، وأبقىٰ زماناً لأنَّها حياة الخلود.

وتضمَّنَ أنَّ هذا الذي ينْصَحُهم به ليس جديداً على الناسِ في هذه الرِّسالة الخاتمة، بل هو موجودٌ في الرسالات السّابقات، في الصُّحُف المنزّلَةِ على إبراهيم، وفي الصُّحُف المنزَّلَةِ على موسى عليهما السلام.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩).

فالدروس الأربعة متعانقة مُتَكاملَةٌ، تُكوِّنُ شَجَرَةَ موضوعٍ واحِدٍ، والعناصِرُ الّتي جاءت في هذه الدروس هي لقطاتٌ وكليّاتٌ منْ هذا الموضوع الكبير، الذي تَدُور عليه سُورٌ كثيرة في القرآن المجيد، بصُوَرٍ مختلفة وتَصارِيفَ متنوّعة.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من السّورة

الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللّه عزّ وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ (٥)﴾.

سَبِّحْ: أَمْرٌ من اللَّهِ بالتَّسْبِيحِ، فما هُو التسبيح؟.

التسبيح في استعمال العرب يُطْلَقُ على كلِّ ذِكْرٍ للّه، ويُطْلَقُ على الصَّلاة، يقول القائل منهم: قَضَيْتُ سُبْحَتِي من الذكر، وقضيْتُ سُبْحَتِي من الصلاة.

والتسبيح: هو التنزيه والتقديس عن كلّ ما لا يليق باللّه من صفات النقص التي تتنافى مع كمالاته.

والتسبيح في دلالات النُّصوص الشرعيّة يُحْمَلُ على معنىٰ سَبْحِ اللِّسَانِ والنَّفْسِ والفِكْرِ والقَلْبِ بذكر الله، فيكون بحَمْدِهِ والثَّناء عليه، ويكون بتَنْزِيهِهِ عَنْ كُلّ وصْفٍ لا يليق بجلاله، وعن كلّ وصْفٍ من أوصافِ الْحُدُوث، ويكون بتعظيمه وتكبيره جلّ وعلا.

وفعل «سَبَّح يُسَبِّح» يَتَعَدَّى بنفسه فيقال: سبّح اللَّهَ، ويُسَبِّحُ اللّه، ويتَعَدَّى باللّام الجارة، فيقال: سَبَّح لِلَّه، ويُسَبِّحُ لِلّه، وبهما جاء الاستعمال القرآني.

وأقوالُ أهل التأويل في عبارة: «سُبْحَانَ اللّه» تتفق على أنَّ معناها: أُنَزِّه اللّه عن كلّ ما لا يليق بذاته وبصفاته الجليلة تنزيهاً كتنزيه اللّه نفسه.

وقال النحاة: كلمة: «سبحان» في موضع المصدر وليس منه فِعْلٌ، والأصل فيه أُسَبِّح اللَّهَ تسبيحاً، أي: أُنَزِّه اللّه تنزيهاً. وقالوا: كلمة: «سبحان» اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه عن كلّ ما لا ينبغي أن يوصف اللَّهُ به، فهو ممنوع من الصرف للعلميَّة وزيادة الألف والنون فلا يُنَوَّن(١).

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾: جاء التكليف بتسبيح اسمِ الرّبّ الأَعْلَىٰ،

---

(١) انظر بقية موضوع التسبيح في ملحق السورة.

لأنّ حظّ العباد من معرفةِ اللّه يتَعلّق بأسمائِه الدّالة على أوصافه، أمّا ذَاتُهُ جَلّ وعَلا فليس لهم حظٌّ من معرفة شيءٍ منها غَيْرَ أَنّ له ذاتاً موجودةً وموصوفةً بكلّ صفات الكمال ومُنَزَّهَةً عن كلّ صِفاتِ النقصان.

واسْمُ الرّبّ يعُمُّ كُلّ أسمائه الحسنىٰ(١)، مَا كان منها اسماً لعموم الذات، وهو لفظ «اللّه» وما كان منها اسْماً دَالاً على صفة من صفاته، مثل: «الرحمن ـ الرحيم ـ السميع ـ البصير ـ القدير ـ الحكيم ـ الحليم ـ الملك ـ القدوس ـ السلام ـ المؤمن ـ المهيمن ـ العزيز ـ الجبار» إلى سائر أسمائه الحسنىٰ الوصفيّة.

واختير هنا في خطاب الأمر بالتسبيح عبارة: «رَبِّكَ الأَعْلَىٰ» لأن علاقة المخلوقاتِ كلّها باللّه جلّ جلاله منحصرةٌ بِرُبُوبِيّتِهِ لهم، لأنّ كلمة: «رَبّ» هي في الأصل مصدر فعل «رَبَّ يَرُبُّ» و«الرَّبُّ، والتربيَةُ والتربيبُ» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِهَا وَمعناها واحد، وهُو الإنشاء المتدرج للشيء مع تعهُّدِهِ حالاً فحالاً، وطوراً فطوراً، حتَّىٰ إبلاغه درجة كماله، أو حَتَّىٰ انتهاء مدّة وجوده.

وأسْمَاءُ الله الحسنىٰ الّتي تدخل تحت كونه «رَبّ العالمين» كثيرة جدّاً، منها: الخالق والرازق والمحيي المميت، والرحمن والرحيم والعفوّ الغفار الوهاب الحكيم البرّ التوّاب، المنتقم الجبار...».

وفي عبارة ﴿رَبِّكَ﴾ إشارةٌ إلى ما يقتضي تسبيحه، وهو حاجة العبد إلى ربّهِ دَواماً في بدئه وبقائه، وخضوعه لسلطانِهِ التامّ في دنياه وآخرته، لأنّ ربوبيّة اللّه له محيطةٌ بكلّ ذَرَّةٍ من ذراته فما دُونها، ومصاحبةٌ لكلّ دَقيقَةٍ من دَقَائِقِ عُمْرِهِ فما دونها.

---

(١) استفيد العموم من إضافة النكرة إلى المعرفة.

ومن ملاحظة أسماء اللّه الحسنىٰ الداخلة تحت مفهوم كون اللّهِ رَبَّ العالمين، نُدْرِك أَنَّ اللّه عزّ وجل قد اختار أن تكون أعمال الخلْقِ التي يجريها في الكائنات جَارِيةً وفْق نظام التربية، لا وفق نظام الخلْقِ دُفْعَةً واحِدَةً، لِتظَلَّ الكائنات بحاجَةٍ إلَىٰ إمداد اللّهِ لها بالبقاء خلْقاً بعد خَلْقٍ، كما يستمدُّ المصباح الكهربائي إضاءته من الطاقة الكهربائية، ففي اللّحظة الّتي ينقطع المدد الكهربائي ينْعَدِمَ النُّورُ والضَّوْءُ من المصباح الكهربائي.

وجاء وصف الرّبّ بصفةِ «الأَعْلى» للثناء على اللّه بأنّه هُوَ الأعْلَىٰ من كُلِّ ذي عُلُوٍّ في الوجود، ولإبعاد توهُّمِ شمُولِ كَلِمة «رَبّ» لما تُطْلَقُ عليه في اللّسان العربي هذه الكلمة: «كالْمَلِكِ والأمير والسَّيِّدِ المطاع. ونحوها».

فالرَّبُّ الأعْلَىٰ هو اللّهُ وحده لا شريكَ له.

وتسبيح اسْم الرّبّ الأعلى يتضمَّنُ متابعَةَ حركَةِ الفكر والقلْب والنفسِ، بانسيابِ رفيق هيّنٍ ليّنٍ، في ذكْرِ صفات اللّهِ وأَسْمَائه الحسنىٰ، ويتضمَّنُ متابعةَ إحضارِ تصوّراتِ أسماء اللّه الْحُسْنَىٰ في الفكر، ومتابعةَ الانشغال بالمشاعر القلبية والنفسيَّة التي تستدعيها تصوُّراتُ هذه الأسماء، وبهذا يكون التسبيح حضوراً مع اللّهِ مِنْ خلال التفكُّرِ في صفاته، والتأمُّلِ في دلالات أسمائه الحسنى.

وبعد الأَمر بالتسبيح أرْشَد اللّهُ عزّ وجلّ إلى الدليل الكونيّ الدالّ على ربُوبيَّةِ الرّبّ الأعلى، وتفرُّدِهِ بالربوبيّة، فأشار إلى عدّة قضايا من ظواهر الكون المشهود، فقال تعالى في السورة:

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

وقُرِئ: قَدَرَ. والمعنى فيهما واحد.

أربع قضايا أرشد إليها هذا النّصّ من آيات اللّه في كونه، فهِيَ من ظواهر الكون المشهود:

القضية الأولى: ظاهرة الخلق.

القضية الثانية: ظاهرة تسوية المخلوقات.

القضية الثالثة: ظاهرة تقدير المقادير، في كلّ صغيرٍ وكبير من هذا الكون الشاسع الواسع، من الذّرة إلى المجرّة، فإلى السماوات السَّبْعِ فَمَا فَوْقَها.

القضية الرابعة: قضية هداية المخلوقات في حركاتها ومسيراتها وأعمالها، إلى القيام بما يُحقِّقُ الْغَايةَ من خلقها.

- أما ظاهرة الْخَلْقِ التي دَلَّ عليها قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

فالْخَلْقُ: يأتِي في اللُّغَةِ للدلالَةِ على أَحَدِ معنيين، أو للدّلالة عليهما معاً:

المعنى الأول: التقديرُ الْعَمَلِي، وهو إعْطَاءُ أجزاء الشيء المؤلف من عناصر أو صُوَرٍ مختلفة مقاديرَها بإحكامٍ، ووفق هذا المعنىٰ قال اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِيسَىٰ عليه السلام، كما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿. . .وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى. . . ﴿١١٠﴾﴾.

وإذْ تخلُقُ: أي: وإِذْ تُقدِّرُ وَتُصَوِّرُ.

المعنى الثاني: ابتداءُ الشَّيْءِ بإيجاده على غير مثال سبَقَ، والْخَلْقُ على وَفْقِ هذا المعنىٰ هو من خصائص الرَّبِّ الخالِقِ جلّ جلاله.

وقول اللّٰه عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ يَدُلُّ على المعْنَيَيْنِ معاً، لِأَنَّ أعْمَال الخلْقِ الرَّبَّانِية فيها التقدير المحكم، وفيها الإِبْدَاعُ على غَيْرِ مِثَالٍ سبَقَ.

● وأمّا ظاهرة تسوية المخلوقات في كلّ ما خلق اللّه من شيء، والتي دلّ عليها قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي: فجعل ما خلق يبلغ بإنشائِهِ المتدرج الغاية المقضيّةَ له في خطّة التكوين، فصار تامًّا بالغاً غايته.

سَوَّىٰ الشّيءَ: أي: جَعَلَهُ مُستوياً، وسَوِيًّا، والمستوي والسَّوِيُّ هو التّامّ الّذي بلَغَ الغاية المقضيَّةَ لَهُ فِي خطّة تكوينه.

وجاء العطف بالْفَاء في ﴿فَسَوَّىٰ﴾ الدّالة على الترتيب لمطابقةِ واقعِ سُنَّة اللَّهِ في خَلْقِهِ وهي سُنَّةُ الْإِنْشَاءِ المتدرّج إلى كمالِ الشَّيْءِ وَغايَتِهِ الْمُعَدَّةِ فِي خِطَّةِ إيجاده.

ولَمَّا كَانَتْ عَمَلِيّاتُ الخلْقِ تَسِيرُ وفْقَ نِظام التربية، وهِي الإنْشَاءُ المتدرِّجُ حتَّىٰ بلوغ الْمَخْلُوقِ غايَةَ كماله، وبها يكونُ مُسْتوياً، فإنّ تَسْوِيَةَ الْمَخْلُوقِ تأتي مُتَأَخِّرَةً ومُتَرَتِّبَةً على أَعْمَالِ الْخَلْقِ المتتابِعَةِ المحكَمَةِ في كلِّ أَجْزَائِهَا وَعَنَاصِرِها.

فقول الله عزّ وجلّ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ في غايةِ الإيجاز، مع المطابقة لحركة الصُّنع الرَّبّانِيِّ المتْقَن المحكَم العجيب.

● وأمّا ظاهرة تقدير المقادير، في كلّ صغير وكبير من هذا الكون كلّه، والّتِي دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾.

يقال لُغَةً: قَدَّرَ الأَمْرَ وَقَدَرَهُ، إذا حدّد مقاديره ودبّره قبل إيجاده.

فالتقدير: هو تَحْدِيدُ المقادير، ويكونُ التقدير في كلّ شيءٍ لَهُ أجزاءٌ صغرىٰ يتكوّن من اجتماعِ مقادِيرَ مختلفةٍ منها كائناتٌ مختلفات.

فالذّرّاتُ تختلف باختلاف مقادير أجزائها، إذْ تتكَوَّنُ الذَّرَّةُ الّتي لا تُرَىٰ بالعين من نواة تتجمع فيها أَعْدادٌ مِمّا يُسَمَّىٰ «نيوترونات» وأعداد مما يُسَمَّىٰ: «بروتونات» وهي تختلف باختلاف العنصر الكيميائي، كالأكسجين،

والهيدروجين، والفحم، والكبريت، وتدور حول نواة الذرّة ألكترونات بعدَدِ مَا في نواتها من بُروتونات، والبروتونات تحمل شِحْناتٍ كهربائية موجبة، أما الألكترونات فتَحْمل شِحْنَاتٍ كهربائيَّة سَالِبَةٍ مماثلة في مقاديرها للشحنات الكهربائية الموجبة في البروتونات، وبذلك تتعادل الذّرّةُ كهربائيًا، ويتَحَقَّقُ بذلك تسْويتها. أمّا النيوترونات في النواة فلا تحمل أيّ شحنَةٍ كهربائية موجبة أو سَالبة، فهي متعادلَةٌ بذاتِها.

وتجري بحوث العلماء في عناصر الكون مِنْ هذا المنطلَقِ القائِم على اختلاف المقاديرِ، في حكمة الخالق العليم الحكيم القدير، الذي خَلَقَ فَسَوَّىٰ، والذي قَدَّر.

ومن تحديد المقابر تَحْدِيدُ مقادِيرِ الأزمنة وأعمار الكائنات، بدءاً وامتداداً وانتهاءً، وتحديدُ الأمكنة من الفراغ الذي لا تُدْرَكُ له نهاية، وتَحْدِيدُ القوىٰ والطَّاقاتِ، إلى كلِّ شيء تُدْرِكُ العقول أنَّهُ قابل للتجزئة إلى أجزاء صُغْرىٰ، كلُّ جزءٍ منها يُمَثِّلُ أصْغَر وَحَدَاته.

فكُلُّ شيءٍ في المخلوقات هو ذُو أجزاء، واللَّهُ هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ مَقَادِيرَ هذه الأجزاء، ومقادِيرَ أفعالِها وآثارها والغاية منها.

● وأمّا ظاهرة هداية المخلوقات في حركاتها ومسيراتها وأعمالها إلى القيام بما يحقق الغاية منها، فَعُلَماء الكَوْنِيات يصفون مِنْ هذه الهداية ما فيه العجب الْعُجَاب، المحيِّر لذوي الألباب.

وكلُّ الناس يلاحظون هداية كلّ مخلوقٍ حيٍّ في أطوارِ نَشْأَتِهِ إلى ما يُفِيدُه في نمائه، حتّىٰ يصير كائناً سويًا بالغاً الغايةَ المقضيّة لنوعه أو جنسه في خطّة التكوين الحكيمة.

يُحَدِّثنا العلماء الكونيون المختصونَ بالجراثيم المسببة للأمراض في الأجساد الحيَّة، ووسائل مكافحة الأجساد لها بالمضادّاتِ الجرثوميّة،

وتصنيع الْغُدَد اللّمفاويّة في الأجساد لها، بعد التعرف عليها، وإجراء الاختبارات المختلفة للتوصّل إلى المضادّ الناجح للقضاء على الجرثوم الدخيل، فإذَا توصَّلَتْ إليه نَشِطَتْ في تصنيع هذا المضادّ حتى تقضي فعلاً على الجرثوم الدّخيل.

ويبقى في ذَاكرتها هذا الجرثوم الذي قَضَت عليه أوّلاً بعد امتحانات وتجربات، حتّىٰ إذَا عاود الدخول إلى الجسم مرّة أُخْرى أَسْرَعت إلَىٰ تصْنيع المضادّ نَفْسه الذي سبَقَ أن كان ذا فائدة فيما سلف.

فَمَنْ هَدَىٰ خلايا وغُدداً خاصَّةً في الأَجْسَامِ لمكافحة أعدائها من الجراثيم الداخلة إليها؟

إنَّهُ سُبْحَانَهُ الرّبُّ الّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ والذي قَدَّرَ فَهَدَىٰ.

إنّ ظاهرات الخلق والتسوية والتقدير والهداية لها في الكَوْنِ أمثلَةٌ بعَدَدِ مَا فِي الكون مِنْ مخلوقاتٍ كبرى وصُغرى، وبعَدَدِ أجزائها وعناصرها، وهي أدِلَّةٌ تُحاصِرُ الإنسان أيْنَ كان من هذا الكون، فتدُلُّهُ على أنَّ له ربًّا خالقاً مُسَوِّيًا مُقَدِّراً هَادِياً.

وكلُّ البحوث الوصفيّة الّتي توصَّلَ إليها علماء الدراسات الكونيّة تتضمَّنُ أمثلة لا حصر لها، وهي شواهد على كمال ربوبيّة اللّه، ووحدانيته، وهيمنته، وإتقان صنعه، وحكمته وشمول علمه، وعظيم قدرته.

والاستدلال بهذه الظاهرات الكونية هو الاستدلال الذي استدل به موسى عليه السلام في مناظرته لفرعون، كما جاء في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

قول اللّه عزّ وجل:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ④ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ⑤﴾.

الْمَرْعَىٰ: مَا تَرْعَاهُ الماشِيَةُ مِنْ نَبَاتِ الأَرْض.

وفي التَّنبيه على إخراج المرعىٰ نباتاً من الأرض تقديمُ مَثَلٍ من الأمثلة الكونية على كون اللّهِ عزّ وجلّ خَلَقَ فَسَوَّىٰ وقَدَّرَ فَهَدَىٰ.

فظاهِرَةُ إخراج النبات من الأرض تدلُّ على جملة من صفاتِ اللّٰهِ الداخلة تحت كونِه رَبّ العالمين، ومنها كونه خالقاً فَمُسَوِّيًا، وَمُقَدِّراً فهادِياً.

إنَّه أَخْرَج نباتاتِ الأرضِ، وفيها ما يَصْلُح مَرْعَىٰ لآكِلاتِ النبات من الحيوانات، وَهَدَىٰ هٰذِهِ الآكلاتِ لأكْلِ مَا يَنْفَعُهَا ويُغَذِّيها أو يُدَاويها، واجتناب ما يضرُّها أو يؤذِيها من النباتات السّامّة.

وفي هذا التنبيه امتنانٌ على الناس إذْ هيّأَ الله لَهُمْ أنعاماً وَدَوَابَّ، وسَخَّرَهَا لِمنافِعِهم المختلفة.

غُثَاءً: الغثاء البالي من ورق الشجر. قال الزجاج: فجعله غُثَاءً: أي: جفَّفَهُ حتَّىٰ صَيَّرَهُ هشيماً جافاً كالْغُثَاءِ الذي تراه فوقَ السَّيْل.

أَحْوَىٰ: أي: خالَطَ لونَهُ سوادٌ بسبب جفافه وتحوُّلِه بَعْدَ خُضْرته ونُضْرَتِهِ إلى الغثائِيَّة، **والأحوى**: الأسْوَد.

وفي هذا تنبيهٌ على نظام اللّٰهِ في الْخَلْقِ، سَوَاءٌ أكان في الأحياء أم في النباتات، أم في غيرهما، إِنَّه نِظَامُ صُعُودٍ مُتَدَرِّجٍ إلَىٰ مستوى كمال المخلوق، ثُمَّ هُبوطٍ وانحِطَاطٍ إلَىٰ أرْذَلِ الْعُمُرِ في الأَحْيَاءِ، وإلىٰ شبيه ذلك في النباتاتِ حتىٰ دَرَكَةِ الغثاء، وإلى شبيه ذَلِكَ في غيرهما من الأشياء.

إنّ حركة النبات منذ أوّل نشأته، حتَّىٰ يخرج إلى سطح الأرض مرعَى، وحتَّىٰ يسْتَوِي على سُوقه، وحتَّىٰ يَيْبَسَ ويكُونَ حُطاماً، وحتَّىٰ يَسْوَدَّ

وَيكون غُثاءً مُسْتَهْلَكاً، بمثابة سِفْرٍ عظيم مشحونٍ بِعِلْم عظيم، إلاَّ أنّه مشهود، يدرسه عُلَماءُ النبات مئاتِ السِّنين، وكُلَّما تَعَمَّقُوا في الدّراسة اكتَشَفُوا من الإتقان البديع العجيب، بدءاً من الجينات الوراثيّة. حتَّىٰ انْشِقَاق البزور، وحتى انشقاق الأرض عن النبات بالقوة العجيبة، وحتَّىٰ التنامي صعوداً إلى درجة كماله، ولِقاحِهِ وَإنتاجه، وإلى مختلف تركيبات العناصر في مختلفات النباتات، وإلى توزيع الخصائصِ في الأصناف، ثم إلى الاستهلاك الأخير، ما يُحَيِّر أَلْبابهم دهشة، ويجعلهم إذا أنْصَفوا يقولون: آمنا باللّه رَبِّ كلِّ شيءٍ، وخالِقِ كلِّ شيءٍ، وَهو الحكيم الخبير القدير.

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من السورة

الآيات من (٦ ـ ٨)

قال اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾.

ارتباط هذا الدرس بالدرس الأوّل:

تضمّن الدرس الأوّل من السورة توجيه الرسول محمد ﷺ أن يشرح للنّاس القضايا الّتي اشتمل عليها، والمتعلّقة باللّه جلّ جلاله، وتنزيهه عمّا لا يليقُ به، وبيان أدلّة رُبوبيته في كونه.

وقد سبق أنْ عَلِمَ صلواتُ اللّه عليه فيما أنزل اللّه عليه من القرآن أنَّ هٰذِهِ القضايا المتعلّقة باللّهِ إنّما هي فقراتٌ أولى مِنْ أسُسِ العقيدة في الإسلام، وَلا بُدَّ أنْ تَتْبَعها بياناتٌ أخرىٰ تتعلّقُ بسائر فقراتِ أَرْكان الإيمان، وبيانات تتعَلّقُ بأنواع السُلُوك الدّينيّ في الحياة، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَلَقَّىٰ هٰذِهِ

البيانَاتِ بتتابُعٍ، وهو في حالَةِ استعدادٍ نَفسِيٍّ كَامِلٍ لِتَلَقِّيهَا وَحِفْظِها، وحَمْلِ مَسْؤُولِيّة تبلِيغِها وَالتَّذكِيرِ بها، وتأدية سائر وظائف رسالته كاملةً تامَّةً على أحْسَنِ وجْهٍ، وحتَّىٰ يَلْقَىٰ رَبَّهُ مطمئنًا مؤمناً بأنَّه لم يُقَصِّرْ في شيءٍ من وظائف رسالته.

وَإِذْ يَعْلَمُ الرَّسُول ﷺ من نفسه أنَّه بشَرٌ؛ وأنّه مُعَرَّضٌ لأَنْ يَنْسىٰ بَعْضَ مَا يُنَزِّلُ اللَّهُ عليه من القرآن، فلا بُدَّ أَنْ يتخوَّفَ من هٰذا الأَمْرِ العظيم، وهو يحمل رسالة رَبِّهِ الجليلة، وأنْ يحْمِلَ هَمَّ حفظ كُلِّ كَلِمَةٍ وَكُلِّ حَرْفٍ وَكُلِّ آيةٍ وَكُلِّ سُورَةٍ تتَنَزَّلُ عليه مُسْتَقْبلاً، وهو أمّيٌّ لم يَأْمُرْهُ اللَّهُ بأن يتعلَّمَ القراءَةَ والكتابة، وهو ما زال في أوائل ما أنزل اللَّهُ عليه من قرآن، فسورَة (الأعلى) هي السورة الثامنة بحَسَبِ ترتيب النزول، ولا بُدَّ أن يحْمِلَ هَمَّ القيام بوظائف رسالته في قومه.

لهذا كان من الحكمة أن يطمئن اللّه عزّ وجلّ رسولَهُ بشأن الأمْرَين الْمُهِمَّيْن لنَفْسِهِ وقلبه:

الأمْرُ الأول: تخوُّفُهُ من أن ينْسَىٰ بعض ما يُنَزِّل اللَّهُ عليه من كتابه المجيد.

الأمر الثاني: تخوُّفُهُ من أن لا يستطيع تأدية وظائف رسالته التي أرسله اللّه بها على أَتَمّ وجْهٍ وأكمله.

فأبان اللّه له أَنّه سيُمِدّهُ بعطاء من لَدُنه يجعله لا يَنْسَىٰ ما يُنَزِّلُ عليه من قرآن، إلاّ ما شاء اللّه أَنْ يُنسيَه إيّاه. وسَيُمدّهُ بمعُونَتِه حتَّىٰ يُؤَدِّي وَظائف رسالته التي حمَّله إياها بيُسْرٍ، إذْ يُيَسِّرُهُ اللَّهُ لحملها بما يُعْطِيه من قُوَىٰ فكريَّةٍ ونفسيَّة وقَلْبِيَّةٍ وَجَسَدِيَّة، وهذا ما اشتمل عليه الدرس الثاني من دروس السورة.

- ● فقال اللَّهُ له بِشَأنِ الأمر الأول:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾.

أي: سيقرأ جبريل علَيْكَ القرآن بأَمْرِنا، فأَنْتَ تَتْلُوه فلا تَنْسَىٰ بما نَمْنَحُكَ، إذْ هُوَ يُلَقِّنُكَ إيّاهُ شَفَهِيّاً، بقراءة تعليميّةٍ، حرفاً فحَرْفاً وكَلِمَةً فكَلِمَةً، فَنَجْعَلُكَ بَعْدَ حِفْظِكَ لَهُ لاَ تَنسَىٰ، إِذْ نُثَبِّتُهُ في ذَاكِرَتِكَ بعَطَاءٍ خاصٍّ منّا لَكَ، ولمّا كان التثبيت في الذاكرة أمراً يأتي بعد الإقراء جاء العطف في الآية بالفاء، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي: فأنْتَ بعد ذلك لا تَنْسَىٰ بحفظٍ مِنّا لك ومعونة.

وخاطب اللّه رَسُولَهُ هنا بضَمير المتكلّم العظيم فقال له: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ لإشعاره بأنّ تَثْبِيتَ اللّهِ القرآنَ في ذَاكِرَة الرَّسُولِ أمْرٌ هَيِّنٌ عَلَيْهِ، فلا يَحْمِلْ همَّ تَخَوُّفه من نسيان مَا سَيُنَزِّلُ اللّهُ عليه من قرآن مهما كَثُرَ وَتَتَابَعَ.

واسْتثنىٰ اللّه عزّ وَجلّ مَا شَاءَ هو أَنْ يُنْسِيَهُ رَسُولَهُ، لحكمة يشاءُ تحقيقها، كآيَةٍ أرادَ نَسْخَها، وآيَةٍ أراد أَنْ يُنسيَهُ إيّاها، ليأتي بخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِها، وعندئذٍ يكون الأمْرُ تابعاً لإرادَةِ اللّهِ جلَّ جلالُه، ولا يكُونُ الرَّسُولُ فيه مُقَصِّراً وَلاَ مُتَهاوناً في الحفظ والاسْتِذْكَار. ومشيئَةُ اللّهِ عزّ وجلّ في كلّ أَمْرٍ لاَ تُفَارِقُ حِكْمتَه، ومشيئته في كلّ أَمْرٍ لاَ تكونُ إلاّ حكيمة.

وقد أبان اللّه عزّ وجَلّ بتفصيلِ هذه الحقيقة بقوله في سورة (البقرة/٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾.

فذكَرَ في هذه الآيَةِ جانباً من حكمته تَعالَىٰ في هذا الأمر، وهو أَنَّهُ يُنْسِي لِيَأْتِي بالأَحْسَنِ أو المساوي، وليدُلَّ بالمساوي على أنّ له الاختيار الحرَّ في مشيئته، لا مجبر له، وليُدلَّ بِالأَحْسَن على أَنَّهُ يراعِي مصالح عباده

وفق تغيُّرَاتِ أحوالهم، واستعداداتهم، وليدُلَّ بهما جميعاً على أنّه يختبر إيمان عباده بما يُنَزِّلُ عليهم، ويختبر طاعَتَهُمْ لأوامره ونواهيه مهما بدّلَ فيها وغيَّر، وليعلِّمَ أُولي الأَمْرِ منهم أَنْ يَنْسَخُوا قراراتهم وأوامرهم ونواهيهم إذا رأَوْا أَنّ المصلحة تقتضي نَسْخَها، فالرَّبُّ جلَّ جلالُهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ في كتابه المنزّل.

وكلُّ هذا الموضوع يتعلَّقُ بالنسيان الكلّيّ، أمّا النسيانُ العارض المؤقت الذي يتبعه استذكار، فقد يقعُ من الرَّسول ﷺ في بعض الأحوال النادرة بمقتضىٰ بَشَرِيّتِهِ.

قولُهُ تعالَىٰ: ﴿. . . إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾.

الْجَهْرُ: العلانية، وهو مصدر «جَهَرَ» يقال لغة: جَهَرَ بالكلام إذا أعلنه، والمراد بالْجَهْرِ، المجْهُورُ به، أي: الْمُعْلَنُ، بدليلِ مقابلته بما يَخْفَىٰ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: وما يَخْفَىٰ علَىٰ المخلوقات، أَمَّا اللَّهُ عزَّ وجلَّ فلا شيْءَ يخْفَىٰ عليه، إنّه سبحانه وتعالى يعلمه علماً تامّاً ظاهِرَهُ وباطنه.

ونلاحظ أنّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ إشارةً إلى أَنَّ الذّاكرة في الدماغ جهاز خفِيٌّ لا يعلَمُ الناسُ حقيقته، فَتَثْبيتُ المحفوظاتِ فيها، ومَسْحُهَا منها، من الأمور الخفيَّةِ عَلَىٰ الناس، ويُقَابِل هذا المخفيَّ المجهورُ به من القول، ولكنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ، فهو سبحانه بعِلْمِه لاَ يَخْفَىٰ عليه شيء، وهُوَ بقُدْرَتِهِ على كُلِّ شيءٍ يُثَبِّتُ مَا يَشاءُ في ذَاكِرَةِ الرَّسُولِ ﷺ مهما كان كثيراً وَصَعْباً، ويَمْسَحُ منها مَا يشاء مَسْحَهُ مهما كان قليلاً وسَهْلاً.

ولتثبيتِ المحْفُوظاتِ النّصيَّةِ في الذاكرة يُمِدُّ اللَّهُ رسوله بقوَّةٍ خاصَّةٍ يجعله بها قادِراً على أَنْ يَحْفَظَ فلا يَنْسَىٰ.

وَقد جاء هذا المَدَدُ الرّبّاني لتطمين قلب الرسول، ولصيانةِ القرآن وحفظه في ذاكرة الرَّسُولِ المبلِّغ للناس ما يُنَزِّلُ اللَّهُ عليه لهدايتهم.

ثمّ أنزل اللّه عزّ وجل ما بيّن به أنّه تكفَّل بحفظ القرآن للناس بعد الرسول ﷺ، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

فَتَمَّ بالعناية الرَّبّانية حفظ القرآن من التغيير والتبديل والزيادة والنقص، إذْ تكفَّلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بهذا الحفظ من كلّ أطرافه، وفي كلّ مراحله.

- وقال اللّه لرسوله بشأن الأمر الثاني الذي أَهَمّه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

أي: ونهيّئك ونَصْنَعُكَ ونُمِدُّكَ بالقوة والْعَوْنِ وكلّ ما تحتاجُ إليه في حَمْل وظائف رسالتك، التي تُبَلِّغ بها المِلَّةَ والشّرِيعة الْيُسْرَىٰ، دُون أن تُقَصِّر بشيءٍ منها، ودون أن تعجز عن شيءٍ منها.

والعربُ تستعمل فعل «يَسَّر» بِمَعْنَىٰ صَنَعَ وهيّأ.

فطمأنَ اللَّهُ رَسُوله بهذا حتَّىٰ يُبْعِدَ عن نفسه التخوُّف من أن لا يستطيع تأدِيَةَ وظائِفِ رسالته الّتي أرسله بها على أتَمّ وجْهٍ وأكمله.

وقال اللّه لرسوله في هذه الآية: (نُيَسِّرُكَ) ولم يَقُلْ لَهُ: نُيَسِّرُ لكَ، للدلالة على أمْرٍ دقيقٍ يَنِدُّ عن الأذهان، وهو أنّ التَّيْسِيرَ إمّا أنْ يكُونَ لحامل التكليف، وإمّا أن يكون في التكليف نفسه.

أمّا تيسيرُ التكليف هنا وهو وجوب حمل الرسالة على أحسن وجْهٍ في مُجْتَمع مشحونٍ بالعقبات والمؤذيات والمضادّات، وفيه المخالفون الأعداء، والمقاومون الأشداء، فحِكْمَةُ ابتلاء الناس في ظروف الحياة الدنيا تأباهُ، ولا بُدَّ أن يُواجه الرسولُ صُعُوباتٍ كثيراتٍ وهو يؤدّي وظائف رِسالته.

فبقي تيسير الرسول المكلّف بإعداد نفسه وفكره وقلبه وجَسَدِهِ لتحمُّل أعباء رسالته بيُسْرٍ وصَبْرٍ وقُوَّةِ عزيمة.

مثال هذا: إذا كان الحِمْلُ يَزِنُ قِنطَارين وكانت استطاعة المركبة الحاملة أَنْ تَحْمِلَ نِصْفَ قنطارٍ بِيُسْرٍ، فأَمَامَنا للتيسير وسيلتان:

الوسيلة الأولى: أن نُيَسِّرَ في الحِمْلِ فنجعله نصْف قنطار.

الوسيلة الثانية: أن نُمِدَّ المركبةَ بطاقَةٍ أعلَىٰ وقُدْرَاتٍ إضافِية تجعل حَمْلَ القنطارَيْنِ يسيراً سَهلاً عليها، ولكن التيسير بهذه الوسيلة قد حصل في المركبة لا في الحِمْلِ.

وهكذا كُلُّ صعوبات الأعمال إذَا كان الإِمداد للقيام بها مُوَجّهاً لذات العامل، فإنّه يكون هو الميسَّرَ لها، والقادِرَ على القيام بها بسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وإذا كان التيسِيرُ في الصعوبات نَفْسِها فإنَّهُ يكُونُ بتخفيفها، وحذْفِ ما يشُقُّ على العامل منها.

وأمّا كَلِمَةُ (الْيُسْرَىٰ) فقد جاءَتْ في الآية وَصْفاً لموصوف محذوف، معلومٍ من سِيَاقِ الكلام وسِيَاقِه، وتقديره: الملّة الْيُسْرَىٰ، أو الشريعة اليسرىٰ.

الْيُسْرَىٰ: في وصف المؤنث مثْلُ الأيْسَر في وصف المذكر كلاهما يدلُّ على التفضيل، أي: ذات الْيُسْرِ الأكثر من كلِّ ملّةٍ رَبَّانيّة سابقة.

فهذه الملّة التي جعلها اللّه خاتمة الديانات المنزلَةِ تشتَمِلُ على الأحكام الْيُسْرَىٰ على الناس، التي لا حرج فيها، ولا تكاليف عسيرة فيها إعناتٌ وإصْرٌ كما حَصَل لأمم سابقة، وفي وصف هذه الملّة بالْيُسْرَىٰ مع بدايات تنزيل القرآن بشارة للناس بأنّ رسالة هذا الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين، رِسَالَةٌ تتضَمَّنُ أحكاماً وتكاليف يُسْرَىٰ.

ثم جاء تأكيد وشرح وتفصيل يُسْرِ الشريعة الإسلامية فيما نزل من قرآنٍ في العهدين المكيّ والمدني(١).

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من السورة

الآيات من (٩ ـ ١٥)

قال اللّه عزّ وجل خطاباً لرسوله:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥)﴾.

- قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ (٩)﴾.

بعد أنْ طَمْأَنَ اللّهُ عزّ وجلّ رسولَهُ بشأنِ الأَمْرَيْنِ اللَّذينِ أَهَمَّاهُ، إِذْ تَخوَّفَ من النسيان، وتخوَّفَ من الْعَجْزِ عن تأديته رسالَتِه على أَحْسَنِ وجْهٍ وأَكْمَلِه، وجَّهَ اللّهُ له الأمر بأن يقوم بتبليغ رسالته وبيانها للناس، وشرحها لهم، وإقامة الأدلة والبراهين التي تقنعُهُمْ بصحَّتها، ومعالجتهم بالترغيب والترهيب وبمُخْتَلِفِ وسائل التربيَةِ المؤثِّرة، فَمَنْ تبلَّغَ كُلَّ ذَلِكَ منهم ولم يَسْتَجِبْ فالمناسِبُ في متابَعَةِ معالَجَتِهِ التذكيرُ مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ بما سَبَقَ أَنْ أُعْلِمَ به، ما لم يَبْلُغِ المدعُوُّ إلى حالةِ ميؤوسٍ منها، ويُعْرَفُ هَذَا بأماراتٍ وأدلَّةٍ كَثيرةٍ تَظْهَرُ في سلوكه ومُخْتَلِفِ تصرُّفاته.

---

(١) انظر الفصل التاسع «خصائص الشريعة الإسلامية» من كتاب: «ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة» للمؤلف.

أمّا ما دام نَفْعُ التَّأْثير مَرْجُوّاً ولَوْ بِنِسْبَةٍ ضئيلَةٍ فإنَّ المطلوبَ متابَعَةُ تَذْكِيرِه.

وَجَاء في النَّصّ الاقتصار على أمْرِ اللَّه رسُولَهُ بالتذكِير، وهو إحضار المعلوم السابقِ في الذاكرة بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ مع أنَّ مَرْحَلَةَ التذكير مرحلَةٌ متأخِّرة، لأنّ التذكير لا بدَّ أن يكُونَ مسبوقاً بالتبليغ والبيان والشرح واتخاذ مختَلِف وسائل الإقناع والتربية بالترغيب والترهيب وغيرهما. فذكر التذكير يدُلُّ باللُّزوم الذهني على ما لا بُدَّ أن يكون قبْلَه. كمن أَدْخَل ضيفاً إلى داره ليسكنها عدّة أيّام، وقال له: كُلْ واشْرَبْ ونم واقض كلّ حوائجِك، لكنّه لا يستطيع أن يأكُلَ ما يُريد حتّىٰ يُعِدَّ طعامه بأن يطبخَهُ من الأرْزاق الموجودة فيه، ففيه أرزاقٌ كثيرة تحتاج إلى طبخ وإعدادٍ حتّىٰ تكون صالحة للطعام، وَلا يستطيع أن يشرب حتّىٰ يستخرجَ الماء من البئر بالدلاء، وكذلك سائر حاجاته.

فالأمر بالتذكير أمْرٌ بما ينبغي أن يكون قبله من تبليغ وبيان وشرح، وإقناع بمُخْتَلِف الوسائل الإقناعية، ومعالجةٍ بمختلِف وسائل التربية.

التذكير: إعادةُ ما سَبَقَ الإعلامُ به، لإخراجه من مراكز المعرفة الكامنة إلى ساحَةِ الذّاكرةِ الحاضرة، رجاءَ أن يكون هذا الحضور في ذاكِرَةِ المدعُوّ دافعاً له حتى يسْتجيبَ للدَّعْوَةِ.

الذِّكْرَى: اسْمٌ للتَّذْكير، ويأتي بمعنىٰ التَّذَكُّرِ.

وفي قَوْل اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ بَيَانٌ لقاعدة من قواعد الدَّعْوَةِ إلى اللّهِ، أيْ: إنَّ على الداعي إلى اللّهِ أن يُتَابعَ التذكير بما كانَ بلَّغَهُ وبيَّنَه وشرحه واتَّخذ وسائل الإقناع به، لدى من لم يستجيبوا لدعوته كلّما رأىٰ إمكان النَّفْع بالذكرى، ولو بالاحتمال الضعيف الوارد على سبيل التقدير المشكوك بجَدْوَى الذكْرَىٰ معه.

يقولُ البلاغيون: إنَّ استعمال كلمة «إنْ» الشرطيّة يُفِيدُ أنَّ ما دَخَلَتْ عليه مشكوكٌ في وُقوعه، بخلاف كلمة «إذا» الشرطيّة فإنَّها تُسْتَعْمَلُ حينما يكون فعل الشرط متيقَّن الوقوع، أو مظنوناً وقوعُهُ ظنًّا راجحاً.

فعلى هذا نستطيع أن نفهم أنّ الأمر بالتذكير يتوجَّه ولو كان احتمال نفع الذِّكرى احتمالاً ضعيفاً.

وعلى طريقة الاستدلال بالمفهوم المخالف أرى أنَّ الداعيَ إلى اللَّهِ إذا تيقَّنَ بعْدَ مُحَاوَلاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ أنّ التذكير لإنسانٍ بعينه، أو لمجموعة مُحَدَّدَةٍ، قَدْ غَدَا نوعاً من إضاعَةِ الوقت فيما لا نفع فيه، فمن الخير له أَنْ يتحوّل إلى جهة أخرى يرجو فيها نَفْعَ تَذْكِيره، أو دَعْوَته، وفي شأن هؤلاء الميؤوسِ من استجابتهم إبّانَ التنزيل وفي أمثالهم قال اللَّهُ عزَّ وَجلَّ في سُورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

إذْ إنَّ إصرارهم على الرفض والجُحُود قد كانَا بعْدَ أن استيقنت قُلُوبُهُمْ بالحقيقة، فهم يجحدُونها بدافعٍ من الكبر، أو الرَّغْبَةِ بالفجور واتباعِ الهوىٰ، كما قال اللَّه عزّ وجلّ بشأن فرعون وقومه في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وهَٰذَا المنهجُ في التذكير هو المنهج الذي اتَّبَعَهُ الآمِرُونَ بالمعروف الناهون عن المنكر من بني إسرائيل إذْ وَجَّهُوا تَذْكِيرَهُمْ لأهل القريَة الّتي كانت حاضرة البحر، إذْ يَعْدُونَ في السبت، لَقَدْ وعَظُوهم وَذَكَّرُوهُمْ

ونَصَحُوهم بأن لا يخالِفُوا أمْرَ اللّه، فلامَهُمْ جماعَةٌ من أهل الاستقامة في أنفسهم، وقالوا لهم: هؤلاء العَادُونَ في السبت متمادون في معاصيهم، فاللّهُ مُهْلِكُهُمْ أوْ مُعَذّبُهم عَذَاباً شديداً، فلا تُتْعِبُوا أنفُسَكُمْ في وعظهم وأمْرِهم بالمعروف ونَهْيِهِمْ عن المنكر.

فكان الجواب الحكيم من الواعظين ذا شقّين:

الشقّ الأول: نَحْنُ نُقَدّمُ عُذْرَنا إلى اللّه بأنّنا لم نُقَصّرْ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الشقّ الثاني: إنَّ احتمال وجود من يتّقي اللّه منهم بالتذكير والموعظة احتمالٌ قائم لم ينقطعْ، حتَّىٰ نَنْفُضَ أيْدِينَا مِنهم، وإنْ كانَ احتمالاً ضعيفاً، فالواجب أن نُتَابع تذكيرهم وموعظتهم.

وفي بيان قصتهم قال اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

فعلَىٰ حامل الرسالة أن يوفّر جهوده العظمىٰ من جهود أدائه وظائف رسالته، فلا يُنْفِقَها تبذيراً فِي الّذِين دلّت التجرباتُ المتكرّرات على أنّ قابليّاتِهِمْ للاستجابةِ غَيْرُ مطموع فيها، لبلوغهم إلى حالةِ ميؤوسٍ منها، وعليه أَنْ يُوجّه جُهُودَهُ إلى آخرين مطموعٍ في استجاباتهم⁽¹⁾.

- قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) انظر لاستكمال هذا الموضوع شرح القاعدة (١٩) من «قواعد كلية بوصايا لحامل الرسالة» في الجزء الأول من كتاب: «فقه الدعوة وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للمؤلف. من ص٣٢٨ ـ ٣٤١.

أبان اللّه عزّ وجلّ في هٰذِهِ الآيَةِ من يُرجَىٰ منهُمُ التَّذَكُّرُ النَّافِعُ من الناس، الذين إذا تَذَكَّرُوا دَفَعَهُمْ تذكُّرُهم للاستجابة لدعوة الحقّ.

إِنّهم الذين لديهم استعدادٌ لأنْ يَخْشَوُا اللّه إذا حَصَلَ عِنْدَهُمُ العلْمُ به وبصفاته، ولهٰذا الاستعداد أماراتٌ في الناس، تُلاحَظُ من تصرّفاتهم، ومن تأثير بعض المرهبات الغيبيّة في نفوسهم، وهي لا تخفىٰ على الدّاعي الألمعيّ.

وجاءت الآية بصيغة: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ بإدخال السين الدالة على المستقبل لتَدُلَّ على أنَّ الذين لديهم استعداد لأن يخْشَوا رَبّهم، ويخافوا من إِنذاراته بالعذاب المعجل أو المؤجل، يحتاجون متابعةً تربويَّةً بالتذكير، وعلاجاً يسْتَمرُّ إعطاؤه مدّةً من الزمن حتَّىٰ يَتَحقَّقَ نَفْعُ التذكير. فنفْعُ التذكير لا يتمُّ بين عشيَّة وضحاها، على الرُّغم من وجود الاستعداد لدَيْهِمْ. على أن الناس يتفاوتون في هذا، والنسبة المستعدّة لأن تخشَىٰ وتنتفع بالتذكير من الناسِ نسبةٌ كبيرة، وليست بالنّسبَةِ القليلة، مع تفاوت نسبة الانتفاع لديهم، وأدناهم من ينتفع بالاستجابة إلى الإيمان، ولو كانت استقامته ضعيفةً وقليلة، لأنَّ هواه أقوى من إرادته.

أمّا الّذين لا يوجد لديهم الاستعداد للخشية من اللّه فهم الأشْقَوْنُ، أي: هم الأَكثر شقاوة، بسبب تعريض أنفسهم للخلود في عذاب النار يوم الدّين، وهم أهل الكُفرِ والجحود، لا مَنْ فيهم شقاوة الفسوق والعصيان، مع استعدادهم للإيمان.

● قولُ اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

ويَتَجنَّبُها: أي: ويبتعد عنها، الضمير يعود على الذكرى.

الأشقى: أي: الأكثر شَقَاوَةً بسبب كُفرِهِ ومعاندَتِهِ للحقّ، وشقاوتُه العظمى هي ما سَيُعَانِي منه من عذاب النار يوم الدين خالداً فيها مخلّداً.

الَّذِي يَصْلَىٰ النَّارَ الْكُبْرَىٰ: أي: الّذِي يُعَذَّبُ يوم الدّين بالْحَرِيقِ في النار الكُبْرَىٰ، وهي نَارُ جَهَنَّمَ، وَوَصَفَها اللّهُ بالكبرىٰ لأنّها أكْبَرُ نَارٍ مُعَدَّةٍ لعذاب العصاة المذنبين، أمّا النيرانُ الأُخرىٰ فهي دونها، ومن هذه النيران نيرانُ الدّنيا مهما كانت شديدة.

يُقَالُ لُغَةً: صَلِيَ النَّارَ وَصَلِيَ بِهَا، إذا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لهَبُها جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

ويقال: أَصْلاه يُصْلِيه ناراً، إذا أَدْخَلَهُ فيها ليحتَرِق.

إنَّ هذا الأَشْقىٰ الذي هو الأكثر شَقَاوَةً بسبب كُفْرِه العنادي، هو الذي يتجنّبُ الاستجابة لتذكير المذكِّرين، لأنّه ليس مستعدّاً نفسيًّا لأن يخشَىٰ وَلَوْ مُسْتَقْبلاً، مهْمَا قُدِّمَتْ له الإقناعات والمذكّرات، ولهذا لم يكن فعل التجنُّب منه يحتاج إلى حرف «السين» الدالّ على المستقبل، نظراً إلى أنّه يتجنّبُ الذكرىٰ عَقِب التذكير، ويظلُّ كلَّ حياته متجنباً.

ولهذا كان هذا الأشقىٰ مستحقًّا لأن يصْلَىٰ النار الكبرىٰ خالداً فيها، وهذا الخلودُ الأبَدِيُّ فيها يكافِئُ جُحُودَهُ الأَبَدِيَّ، لأنَّ اللّهَ لَوْ أَحْيَاهُ في الدار الدنيا حياةً أبديَّة لبقي كافراً كُفْراً أَبَدِيّاً.

ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىٰ: أي: ثُمَّ مَهْما طَالَ في النّار الكبرى بقاؤه وعَذَابُه، فإنَّهُ لا يَأتيه زَمَنٌ تَحْصُل له فيه راحَةٌ ما من العذاب الذي هو فيه، فلا يأتيه الموتُ الذي يَقْطَعُ عنه الإحْسَاسَ بالعذاب، ولاَ تأتيه حيَاةٌ مُرِيحَةٌ خاليَةٌ من العذاب.

وَجاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ تنزيلاً لحياة العذاب مَنْزِلَةَ حالَةٍ وُسْطَىٰ بَيْنَ الْمَوْتِ المريح والحياة السعيدة، وهذه الحالة الوسْطَىٰ هي حَالَةُ تَعَاسَةٍ وَشَقَاءٍ دَائِمَيْن، وهذه الحالة حَرِيَّةٌ بأَنْ لا تُسَمَّىٰ حَيَاةً، لأنَّ من شأن الحياة الّتي يَحْرِصُ الأحْيَاء عَلَيْها أنْ يكونَ فيها شيءٌ ممّا يُحِبُّونَ ويَرْغبونَ فيه، أمّا

أَنْ تكُونَ شَقَاءَ دَائماً فهي لَيْست بحياة، وَلَيْسَتْ مَوْتاً، بل الموتُ خَيْرٌ منها، ويتمنّاهُ أهل هذا العذاب فلا يسْتَطِيعُونَ الحصول عليه.

- قول اللّه عزّ وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾.

في مقابل بيان مصير الأشْقَىٰ جَاءَ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بَيَانُ مصير مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكر اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ، وهَٰذا أدنَىٰ المؤمنين المفلحين.

قَدْ أَفْلَحَ: أي: قَدْ ظفر وفَاز، والمراد الفوز بنعيم الجنَّةِ يوم الدين، والمعنى: أصاب الفلاح وهو الظفر والفوز.

مَنْ تَزَكَّىٰ: أيْ: مَنْ تَطَهَّرَ مِنْ رجْسِ الكُفْر والشرك بالإيمان والإسلام، ونَمَّىٰ نفسه بالصالحات من الأعمال.

الزكاة في اللّغةِ تدلُّ على معنَيَيْنِ: الطهارة من الأرجاس، والنماء، والمؤمن المسلم الذي يعمل صالحاً يطهر نفسه من أرجاس الكفر والشرك، وينمّي نفسه بالأعمال الصّالحة والطاعات.

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ: أي: وعَبَدَ رَبَّهُ بذكْرِ اسْمِهِ مُعَظِّماً مُؤْمِناً مُسْلِماً، فَصَلَّىٰ له.

ويظهر أَنّ المرادَ منْ ذكْر اسم رَبِّه ذكْرُ أسمائه وصفاته الَّتي تَشْمَلُها رُبُوبيَّتُهُ جلَّ جَلالُهُ، مع الخضوعِ لسلطانه خضوعاً إرادِيّاً، فصَلَّىٰ لَهُ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بعبادته شيئاً، ودعاه وحده لا شريك له.

ولمَّا كانت سورة (الأعلى) من أوائل التنزيل القرآنيّ كَانَ من حِكْمَةِ التَّدرُّج في الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللّهِ وَتَطْبيقاته فِي السُّلُوكِ الاقتصارُ على التوجيه لعبادةِ اللّهِ بِذكرِ أسْمَائه الْحُسْنَىٰ وصِفَاتِهِ الجليلة التي تَشملها رُبوبيَّته، والصَّلَاةِ له، دون تحديدٍ لركعاتها وأركانها وشروطها، وقد يكون المراد من الصلاة الدّعاء، أوْ مَا كان متوارثاً في العرب عن إسماعيل عليه السلام،

فقد كان لدى المشركين صلوات موروثة من ملّةِ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، كما كان لَدَيْهِمُ الحجّ والطواف وكثير من المناسك الّتي أدخلوا فيها بِدَعاً ومُحْدَثَاتٍ من عِنْدِ أنفسهم.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من السورة

الآيات من (١٦ ـ ١٩)

قال اللّه عزَّ وجل خطاباً مباشراً للناس وفي مقدمتهم الكافرون:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾.

وقرأ أبو عمرو: [بَلْ يُؤْثِرُونَ] حديثاً عن النّاس بضمير الغائبين، وبين القراءتين تكاملٌ بياني، فالذين يُلاَئم حالتهم النّفسية الخطاب يقال لهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ والمعرضون والمتولُّون يُلائم حالتهم النفسيّة أن يقال بشأنهم: [بَلْ يُؤْثِرُون].

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦)﴾ أي: بَلْ تُفَضِّلُون اخْتِيَارَ الكدح لنَيْلِ حظوظكم من الحياة الدنيا وزينتها ومَتَاعِها الزائل الفاني، عَلَىٰ السَّعْي لِلْفَلاح والظَّفَرِ والفوز بالنعيم الخالد في جنّاتِ النعيم، ولو عَرَّضتم أنفسكم لاستحقاق العذاب في النار الكبرى والشقاء الأبديّ أو المؤقّت في النار الكبرى.

إنَّ ما تضمَّنه الدرس الثالث من دروس السّورة، وسبَقَ بيانه فيما نَزَل قَبْلَها من القرآن، يجعل أهل الألباب يُؤْثِرُونَ السَّعْيَ للفلاح والفوز والظفر بالنعيم الخالد في جنّاتِ النعيم، لكِنَّ أكْثَرَكُمْ يا أيُّها الناس لا تُؤْثِرُونَ هذا

السَّعْي، بَلْ تُؤْثِرُون الْحَيَاةَ الدنيا وَزِينَتَها ومَتَاعَها، والكَدْحَ المتواصِلَ لنَيْلِ حظوظِكُمْ منها.

وهذا من الناس تعجُّلٌ وقِصَرُ نظر، أو جهْلٌ وعدم إيمان بيوم الدّين، ولاَ بمَا جاء عن اللّه في ذلك من خَبرٍ يقين، وعدم الالتفات إلى حكمة الله في الخلق التي تقتضي حتماً حياةً أُخْرَىٰ للحساب والجزاء.

وبالربط مع مضامين الدّرسِ الثالث الذي فيه بيان أنّ الأَشقى يَصْلَىٰ يوم الدّين النار الكبرى، وفيه قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ⑭ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ⑮﴾ نسْتَطيع أن نستخرج الشرح التالي:

لكِنّكُمْ لاَ تخشَوْنَ عذابَ رَبكم خشيةً رادعةً، ولا تَحْرِصُونَ على أنْ تُزَكُّوا أنفسكُمْ بكمال الإيمان، والتبرُّءِ من الشِّرْك، والتطهُّر من أرجاس الإثم والفسوق والعصيان، ولا تحرصون على ترقيةِ نفوسكم وتَنْمِيتها بصالح الأعمال، وبذكر أسماء ربّكم الحسنىٰ ذِكْر تفكّر وعبادَةٍ، والخضوعِ لربّكم بالصلاة والذكر والدّعاء، للظفر بجنّات النعيم.

بل تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا وزينتها، وتفضّلونُها على نعيم الآخرة، طَلَباً للمتاع العاجل، واللّذّاتِ الفانيات.

﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ⑰﴾: أي: والحالُ أَنَّ الآخِرَة وَمَا فيها مِنْ نَعِيم مُقِيم خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكُلِّ مَا فيها كَمّاً وكيْفاً، وأَبقَىٰ في مَدَىٰ الإحْسَاسِ باللّذّاتِ، مع الْخُلودِ الّذي لا آخِرَ له.

فاللّذّةُ الّتي يُصِيبُها المستمتع بلَذّاتِ الحياة الدنيا قصيرة الزمن، قليلَةُ الكَمّ، ضعيفةُ الكَيْف.

أمّا اللّذّاتُ التي يصيبُها المنعَّمُ في نعيم الجنّةِ فَهِيَ مَدِيدَةُ الزَّمن، كَثِيفةُ الْحَجْمِ، عميقَةُ التأثير، كثيرة الكَمّ، قَوِيَّةُ الكيف، فهي خَيْرٌ وأَبقَىٰ مِنْ كُلِّ وَجْه.

فمن آمن بهذه الحقيقة، ثُمَّ آثَرَ العمل والكدح للحصول على لذّاتِ الحياة الدّنيا، وفضّلها على الآخرة، تأثُراً بنزعات شهواته وأهوائه للاستمتاع بلَذَّاتِ العاجلة، فإنَّه يُعْلِنُ بإيثاره هذا عن قلّة عقله، وضعف إرادته.

وقد جاء في بيانات الرسول ﷺ بيان الفرق الكبير الّذِي لا يُدْرِكه التصوّر بين نعيم الجنَّة، ومتاع الحياة الدنيا.

روى مسلم بسنده عن المستورد بن شدّاد، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبَعَهُ في الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ».

وروى مسلم عن أنس رضي اللَّهُ عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَىٰ بِأَنْعَم أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً (أي: يُغْمَسُ غَمْسَةً) ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ، وَاللَّهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ مَا مَرَّ بِي بُؤسٌ قَطُّ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ».

من أدرك هذه الحقيقة وآمن بها، وكان ذا عَقْلٍ ورُشْدٍ، لَمْ يُؤْثِرْ مَتاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ آثَرَ الْعَمَلَ لِلآخِرَةِ كادّاً كادِحاً، رجاءَ الظفر بنعيم الجنة، ونَيْلِ الفلاح الأَكْبَرِ يَوْمَ الدّين. وآثَرَ أَنْ يَتَتَبَّعَ مَرَاضي اللَّهِ أَيْنَ كانت، مَهْما بذل فيها من جَهْدٍ وضَحَّىٰ من أجْلِهَا بمحابّه من الحياة، وتحَمَّلَ في سبيلها من مكاره.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

المشار إليه باسم الإشارة [هَذا] ما في السُّورةِ ممَّا يُدْرِكُ الفكرُ أنّ الرسالاتِ السّابقَات مُشَاركةٌ فِيهِ لِخَاتِمَةِ الرِّسَالات الرَّبَّانِيّة، وهو ما يتَعَلَّقُ بعذاب الأشقىٰ، وفلاح من تزكَّىٰ، وبيانِ إيثار الناس الحياة الدنيا، مع أنّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وأَبْقَىٰ، وهذا ما يشعر به لفظ [هذا] وهو اسم إشارة يستعمل للمشار إليه القريب.

وقد يشملُ ما تضمّنتهُ الآيات الخمس الأولى، فهو ممَّا تَشْتَرِكُ فيه الرسالات الربَّانيّة، واللّهُ أعلم.

فقد أثبت هذا الختام لآيات سورة (الأعلىٰ: أنّ المشار إليه بكلمة [هذا] ممّا اشتَمَلَتْ عليه الصُّحُفُ الرَّبّانيّة المنزّلة على إبراهيم عليه السلام، والصُّحُفُ الرَّبَّانيَّةُ المنزَّلَةُ على مُوسَىٰ عليه السلام.

وبهذا تمّ لنا تدبُّرُ سورة (الأعلى) على ما فتح اللّهُ به

* * *

(٩)

ملحق بالسورة
حول التسبيح في القرآن

أمَرَ اللّهُ عزّ وجَلّ فِي كتابِهِ الرّسُول ﷺ وسائر المؤمنين بأنْ يُسَبِّحُوه، وأبان تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيءٍ في الكَوْنِ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وأنّه يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأرْض، وأنَّهُ يُسَبِّح له من في السماوات والأرض، وأَبَانَ تَعَالَىٰ أنَّ هَذا الذِّكْرَ من الأذْكار الّتي أوصى اللّهُ بها في الرّسالات السابقة المنزّلة على الرُّسُلِ السَّابقين، وأنَّهُ من الأذكار الّتي تُؤدّيها الملائكة فِي عباداتها لربها، حتّىٰ الملائكةُ الحافُّون بالْعَرْشِ والذين يَحْمِلُونَهُ يسبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِمْ.

التسبيح للّه: هو التنزيه والتقديس للّه عزّ وَجَلَّ عَنْ كلّ ما لا يَلِيق به من صِفَات النَّقْص الّتي تتنافَىٰ مع أزليّته، ووحدانيّته، وكمال صفاته الوجودية، وعلى هذا فالتسبيح للّه تمجيدٌ لَهُ بالبراءة من الصفاتِ التي لا تليق به، بخلاف التوقير الذي هو تمجيد للّه عزّ وجل بالصفاتِ الوجودية. أمّا الحمد والثناء فيكونان بكلا الأمْرَين، وقَدْ يختص الحمْدُ بالصفات الوجوديَّة فَيُجْمَعُ بين التَّسبيح والحمد في العبارة، مثل: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» أي: نسبح سبحان الله، ونحمد بحمده. ومثل: «وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ - ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِك» أي: ونزهوا رَبَّهُمْ تنزيهاً مُلْصقاً بِحَمْدِهِ. ونَحْنُ نُنَزِّهُكَ تنزيهاً مُلْصَقاً بِحَمْدِك.

وقَدْ يُطْلَقُ التَّسْبِيحُ ويُرَادُ به مُطْلَقُ ذكر اللّه الشَّامِلِ لتنزيهه وتقديسه، وحَمْدِهِ والثناء عليه بكمال صفاته الوجودية، وعلى هذا تُحْمَلُ النُّصوص التي فيها ذكر التسبيح دون الحمد.

وأصل السَّبْحِ في اللّغة الحركة السهلة التي يحصل بها الانتقال في الماء أو الهواء برفقٍ ولين.

وسُبُحاتُ وجْهِ اللّه أنوارُه العظيمة. والعرب تقول: «سُبْحَانَ مِنْ كذا» إذا تعجَّبَتْ مِنْهُ تعجُّبَ إكبار، فيُفْهَمُ من هذا أنّ التسبيح يحْمِلُ معنى التعظيم، فالعظيم الّذي تَحارُ الأفكار في عظمته هو المستَحِقُّ لأعْظَم التَّسْبيح.

وروى الأزهريُّ بإسْنَاده أَنَّ ابْنَ الْكَوَّا سَأل عَليّاً رضي اللّه عنه عن: «سُبْحَانَ اللّه» فقال: كلمةٌ رَضِيَها اللّهُ لنفسه فأوصى بها.

وروى مسلم عن أبي ذرٍّ أنّ رسول اللّه ﷺ سُئِلَ: أيُّ الكلام أفضَلُ؟. فقال:

«مَا ٱصْطَفَىٰ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ».

وروى البيهقيُّ عن عبد الرحمن بن قُرْطٍ، أنّ رسول اللّه ﷺ ليلة أُسْرِي به سَمِعَ تَسْبيحاً في السماوات الْعُلاَ:

«سُبْحَانَ الْعَلِيِّ الأَعْلَىٰ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

وجاء في صفات اللّه عزّ وجلّ أنَّهُ السُّبُّوحُ الْقُدُّوس، فالسُّبُّوح المنزَّهُ عن كلّ نقص وسُوء، أو الذي يُسَبِّحُهُ كُلُّ شيءٍ. والْقُدُّوسُ الطّاهر، أو المبارك، أو الذي يُقَدِّسُهُ ويُعَظِّمُه كل شيء.

ومن الأذكار المأثورة: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الملائكة والرُّوح.

وروى الطبريُّ بسنده عن سعيد بن جبير، أنّ الرسول ﷺ قال لعمر بن الخطّاب:

«إِنَّ لِلَّهِ في السماوات السَّبْعِ ملائكةً يُصَلُّونَ له..».

فقال عُمَرُ: وما صلاتهم؟ فلم يَرُدّ عليه شيئاً، فأتاهُ جبريل فقال: «يا نَبيَّ اللَّهِ سَأَلَكَ عُمَرُ عَنْ صَلاَةِ أَهْلِ السَّمَاءِ؟» قال: «نعم» فقال جبريل: «اِقْرَأْ عَلَىٰ عُمَرَ السَّلاَمَ، وَأَخْبِرْهُ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا سُجُودٌ إِلىٰ يَوْمِ القيامة، يقولون: سُبْحَانَ ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ. وأَهْلَ السَّمَاءِ الثانية ركُوعٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَقُولُونَ: سُبْحَانَ ذِي الْعِزَّةِ والْجَبَرُوت. وأَهْلَ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ قِيَامٌ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَقُولُونَ: سُبْحَانَ الحيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ».

* * *

اشتقاقُ مادّة التسبيح:

والتسبيحُ مشتَقٌّ من مَادَّة السَّبْحِ، وهو الانْتقال في الماء، أو في الفضاء، أو في السَّماء الخلاء، بحَرَكَةٍ لا تُدَافِعُها عوارض، فيجتاز السَّابِحُ المسافاتِ دُونَ أنْ يَجِد مُقَاومةً شديدَةً تَدْفَعُهُ أو تَصُدُّهُ، فأصل السَّبْحِ في اللّغة الحركة السهلة برفقٍ ولين.

والَّذِين خَرَجُوا إلَىٰ الفضاء، وتَحَرَّرُوا مِنْ جاذبيّة الأرض، أَحَسُّوا بحقيقة هذا السَّبْحِ الخالي من كلّ العوارض والجاذبيّات إلاَّ ما هو من داخِلِ ذواتهم.

وقد اختار اللّه عزّ وجلّ لذِكْرِهِ بأسمائه وصفاتِه التَّسْبِيحَ المشتَقَّ من السَّبْحِ الذي يَحْمِلُ هذا المعنىٰ، ليَكُونَ الذّكْرُ المطلوبُ متضمّناً معنَى سَبْحِ النَّفْسِ والْقَلْبِ والفِكْرِ في أبْعَادٍ غَيْرِ مُدْرَكَةِ النّهاية، من عظيم صفاتِ اللَّهِ وَأَسْمائِهِ الْحُسْنَىٰ.

واجْتِمَاعُ الفكرِ والنَّفْس والقلْبِ وسَبْحُهَا معاً في ذكْرِ اللَّهِ، إنَّما يكونُ حين يسْتَطِيعُ الذَّاكِرُ صَرْفَ كُلِّ الشَّوَاغِلِ عَنْهُ، فَلَا تَجْذِبُهُ أَوْ تَدْفَعُهُ من نفسه مطالبُ خاصَّةٌ بها، ولا تَجْذِبُهُ أو تَدْفَعُهُ من قَلْبِهِ عواطفُ أو انفعالاَتٌ من دون ما هو فيه من سَبْح بذكْرِ اللَّهِ، وَلاَ تَجْذِبُهُ أَوْ تَدْفَعُهُ أَفْكارٌ خارجةٌ عمّا هو فيه من سَبْحِ بذكر اللَّهِ جلّ جلاله.

عندئذٍ يكونُ هذا التسبيح هو جوهَرَ العبادة للّه عزّ وجلّ وروحَها، لما فيه من الحضور الكامل مع اللّه، الخالي من الصَّوارفِ والعوائق والمنغصّات.

* * *

التسبيح دواء نافع للنفوس والأعصاب:

ويكون عندئذٍ هذا التسبيح أنْفَع دواء للنفس وللجملة العصبيَّةِ في الإنسان، إذْ يمْنَحُهُ الْهُدُوءَ التّامّ والسَّكِينَةَ والطُّمأْنينة والرّاحَة. فبالتَّسْبيح يُفَرِّغُ الْمُسبّح كُلَّ الشّحْنَاتِ الضَّاغطَةِ على فكره ونفسه وقَلْبه، وبتفريغها يَعُودُ إلى سَوَائِهِ، فتعملُ قُواهُ الداخلية أعْمَالَها الطبيعيَّةَ النَّافِعَةَ ضِمْنَ أنْظِمَتِها الرَّبَّانيَّةِ، دون خَلَلٍ آتٍ من حَرَكَاتِ النَّفْسِ المضْنِيَة، أَوْ حَركات القَلْبِ وانْفِعَالاَتِهِ وَعواطفه المرهقة للجملة العصبيّة، أو حَرَكَاتِ الْفِكْرِ المثيرةِ للقَلْبِ والنَّفْسِ

بِمَا يُؤذِي أَوْ يَضُرّ، أَوْ يُضْنِي وَيُؤلم، أَوْ يُعَوِّقُ أَجْهِزَةَ الْجِسْم عن أنْ تؤدِّيَ وَظَائِفَها الطبيعيَّة بانْتِظَامٍ ووفَاءٍ بالمطلوبِ الطبيعيّ منها.

* * *

وَصايا اللّه لرسوله بالتسبيح:

ولـذلِكَ أوصَىٰ اللّه رسولَهُ محمّداً ﷺ بأنْ يَسْتعمل دواء التَّسْبِيح، علاجاً لما يَنْتَابُه من ضِيقِ صَدْرٍ، وآلاَمٍ نفسيَّةٍ، بسبب ما يُلاقيه من قومه من جُحودٍ، واستهزاءٍ، وتكْذيبٍ، واتّهامٍ بالسِّحْرِ والجنون وغير ذلِك.

ونجد هذه الوصية قَدْ تكرَّرَت في ستَّةِ مواضع من القرآن المجيد، وقد رافقَتْ ستَّ مراحِلَ في سِتِّ مُنَاسَبَاتٍ.

الوصية الأولى:

تعرّض الرسول ﷺ لمقالاتِ مُؤذِيات له، واجَهَهُ بها مشركو مكة فأنزل اللّه عليه قوله في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ وَقُرِئ: [وَإِدْبَارَ السُّجُودِ].

فأرشد اللّه رسُولَهُ بهذا إلَىٰ أَنَّ التسبيح بحمد الرّبّ على الوصف الذي ينبغي أَنْ يكونَ عليه التَّسْبِيح، علاجٌ نافع يصْرِفُ عن النفس ما يؤلمها أو يزعجها من أقوال الناس المؤذية المؤلمة لها، والمثيرة للانفعال الْغَضَبيّ.

وهذا العلاج له أربع جرعات:

- قَبْلَ طُلُوعِ الشمس.
- وقبل غُرُوب الشمس.
- وأثناء اللّيْل.
- وبعد الصلوات الّتي يَسْجُدُ فيها العبد لربّه.

الوصيّة الثانية:

اشْتَدَّ تعرُّضُ الرسول ﷺ لِمَا يؤذيه من أقوال أهْلِ الشّرْكِ فيه، حتّىٰ ضاقَ صَدْرُه بما يقولون، فأنزلَ اللّهُ عليه قوله في سورة (الحِجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: واعْبُدْ رَبَّكَ حتّىٰ يَأْتِيَكَ الموتُ الّذي هو يَقين لدَىٰ الجميع لا يشُكُّ فيه شَاكٌ، ومن عباداته لربّه قيامُهُ بوظائف رسالته.

فأضاف هذا النّصّ التّصْرِيحَ بأنّهُ يضيق صدْرُه بما يقُول المشركون فيه، من أنّه كذَّاب، وشاعر، وساحر، ومجنون، وغير ذلك.

وأكّد له أنّ دواءه أن يُسبِّح بحَمْدِ رَبّه، وأنْ يكون من السّاجدين لربّهم، الخاضعِينَ له، المستسلِمين لمقاديره، وأنْ يَعْبُد رَبَّهُ في كُلِّ أحواله حتّىٰ يأتيه الموت.

ومعلومٌ أنَّ الصَّبْرَ هو من عناصر عبادته لربّه.

وقد أكّدَ اللّه له النُّصْحَ بهذا العلاج بعد أن أمره في السورة نَفْسِها بأن يَصْدَعَ بما يُؤْمَرُ به، أي: أن يجاهر بتبليغه، ويَشُقَّ بنورِه ظُلُماتِ الْجَهْلِ والكُفْرِ المنتشرة حتّىٰ تنصَدِعَ، أي تنشَقّ بنور آيات اللّه ودعوة الحقّ. وأمَرَهُ بأن يُعْرِضَ عن المشركين، فقال له فيها:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

الوصية الثالثة:

ثمّ أنزل اللّه على رسوله في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) قوله:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصُّ ذِكْرَ الاستغفار إلى جانب التسبيح، مع الأَمْرِ بِالصَّبْرِ، ولمّا كانت حالَةُ الرّسول النفسيَّة مُتَشَوِّفَةً لتحقيق وعْدِ اللّهِ له بالنّصر، طَمْأَنَهُ اللّهُ بقوله له: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

الوصية الرابعة:

وكرّر المشركون إيذاء الرسول ﷺ باتّهامهم له بأنّه كاهن، أو مجنون، أو شاعرٌ يترَبَّصُونَ بِهِ رَيْبَ المنون، فهم ينتظرون موته ليتخلّصوا من دينه، فأنزل اللّه عليه قولَهُ في سورة (الطور/ ٥٢/ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

فزاد هذا النَّصُّ في أوقات التسبيح فأضَافَ التسبيح عند كُلِّ قيام، وأكَّدَ التسبيح أثناء اللّيل، وأضَافَ التسبيح في آخر اللَّيْلِ عند إِدْبارِ النجوم.

وأَعْلَمَ اللّهُ رَسُولَهُ في هذا النّصّ بأَنَّهُ في موضع العناية العظيمة به، فقال له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: فاطمِئِنَّ طُمَأْنِينَةً تامَّة.

الوصيَّة الخامسة:

ثُـمَّ أَنْـزَلَ اللّـهُ عزّ وجَـلَّ قَـوْلَـهُ فـي سـورة (طه/ ٢٠ مـصـحـف/ ٤٥ نزول):

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

هذا النَّصُّ أُنزِلَ في الْمَرْحَلَةِ المدنيَّة، وأضيف إلى سورة هِيَ مِن أواسط العهد المكيّ، للإشعار بأنّ المقصود به الدُّعَاة من أمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إذا

كانوا في مثل الوضع الذي كان فيه الرّسول إبّان نزول سورة (طّه) ولم يكن الرَّسُول بحاجَةٍ إلى إنزاله عَلَيْه يومئذٍ لِأنَّه كَانَ متحقّقاً بمضمونه، فإنّه ما زال يعمل بمضمون ما أنزل عليه في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٦ نزول) وهو ما جاء في الوصية الأولى.

الوصية السادسة:

ما جاء في سورة (النصر/ ١١٠ مصحف/ ١١٤ نزول) آخر ما نزل من سُور القرآن، فقال اللّه عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾.

وقد كانت هذه السورة بمثابة إشعارٍ إيمائي بانْتِهَاءِ مُهِمَّةِ الرَّسولِ في الحياة الدنيا.

* * *

تسبيح الكائنات:

(١) جاء في القرآن الكريم بيان أنّ كُلَّ شيءٍ في الوجود يُسَبِّحُ بحَمْدِ اللّه، ولكِنَّ النّاس لا يَفْقَهون تسبيحهم.

فقال اللّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: وَمَا مِنْ شَيْءٍ ذي حياةٍ أو غير ذي حياة إلاّ يُنَزِّهُ اللّهَ عمّا لا يليق بذاته وصفاته تنزيهاً مقترناً بحمده والثناء عليه بصفات الكمال.

أمّا تسبيح وحَمْد غَيْرِ ذي الحياة بلسان الحال فهو ظاهر لا إشكال فيه، لأنّ كلَّ شيءٍ من مخلوقات اللّه في كونه يشتمل على صفاتٍ تدلُّ أولي الألباب على تنزُّه اللّهِ عن كلّ ما لا يليق بذاته وصفاته، وهذا بمثابة التسبيح للّهِ عزّ وجل. ويشتمل أيضاً على صِفَاتٍ تَدُلُّ أولي الألباب على طائفة من صفات اللّه وأسمائه الحسنىٰ، لأنّه هو خالقها وربُّها، وهذا بمثابة الحمْدِ والثناء.

أمّا تسبيح وحَمْدُ غير ذي الحياة بكلامٍ يُمْكِنُ أن يَسْمَعه من يستطيع أنْ يَسْمَعَ كُلَّ الأصوات، ويمكن أن يفْهَمَ دلالاته من يفهم كلَّ اللّغاتِ، فهو أمْرٌ مُمْكِنٌ عقلاً، وغير مستبْعَدٍ على قُدْرَةِ العزيز الجبار الخالِقِ الرَّبّ الّذي لا خالق غيره ولا ربَّ في الوجود سواه.

وقد قرّبت لنا المكتشفات في هذا العصر، أنّ بعض الصفائح من الخلائط المعدنية المصنّعة، قَابلةٌ لأَنْ يُسَجّلَ عليها بوسيلة أَشعَّةِ اللّيزر آلاف الصفحات الناطقة، فإذا حُرِّكَتْ على آلَةِ حِكايَةِ الصَّوْتِ المسجَّلِ فيها نطقت بكلّ ما هو مُسَجَّلٌ فيها على أحسن وجْهٍ وأكمله.

أفيعجز خالق الكائنات وربُّها عن أن يَجْعَلَ كُلَّ شَيْءٍ فيها صغيراً كان أو كبيراً يُسَبِّحُ بحمْدِ رَبّه تَسْبِيحاً يمكِنُ أن يسْمَعَهُ ويفْهَمَهُ مَنْ هيّأه اللّهُ لاستماعه وفهمه.

وقد أبان اللّه عزّ وجلّ أنّ أسْمَاعَ الناس وأبصارهم وجلودهم تُسَجِّلُ عليهم أعمالهم، وَتَشْهَدُ عليهم بها يوم الدّين في محكمة اللّهِ الّتي يفصل بها بيْنَ العباد، فقال تعالى في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾.

فَهُمْ يُوزَعُون: أي: فهم يُجْمَعُون ويُحْصَرُون ويُحْبَسُونَ.

فمن يشتغل بتسبيح اللّه وحمده فإنّه يجعل ما هو خاضِعٌ لإرادته من ذاته مُنْسَجماً مع ما هو مُسَبِّحٌ حَامِدٌ للّهِ بالتكوين الفطريّ من ذاته ومن سائر الكون.

(٢) وقال اللّه عزّ وجل في مطالع سُور (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) و(الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول) و(الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول) وهي سُوَرٌ مَدَنِيَّةُ التنزيل:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾.

فجاء التعبير فيها بصيغَة الفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ للدلالة عَلَىٰ أزمان الماضي مُنْذُ إنْشائِها.

أمّا الْمُسَبِّحُ فَهُوَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض، ولفظ «ما» يقع على غير ذي العلم، أي؛ فكُلُّ ما في السماوات والأرْضِ مفطورٌ عَلَىٰ تسْبِيحِ اللّه منذ نشأته وتكوينه.

وخَتَمَ اللّهُ الآية باسْمَيْه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ للدّلالة على أنَّ اللّه عزّ وجلّ بقُدْرَتِه الغالبة الحكيمة هو الذي فطر الكائناتِ غير العاقلة على التسبيح له منذ أنشأها.

(٣) وفي نصوصٍ ثلاثةٍ أخرى جاء التعبير بصيغة الفعل المضارع الدّالّ على دوام تسبيح ما في السماوات والأرض من كائنات، وتجدّد تسبيحها في كلّ وقتٍ، ما مَرَّ عليها زمان، من لحظة الحال إلى كلّ أزمان المستقبل الّتي يكون لها فيه وُجود.

فقال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ㉔﴾.

وَقال تعالى في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول):

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.

وقَالَ تَعالَىٰ في سُورَة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾.

وهذه أيضاً سُوَرٌ مَدَنِيَّةُ التنزيل.

(٤) وجاء في القرآن أيضاً بيان أنَّ مَنْ في السماواتِ ومَنْ فِي الأرض من الأحياءِ ذوي العلم يسبّحون للّه، وينبغي أن يُحْمَل هذا على الملائكة الذين يُسَبِّحون لِلّه بالغريزة، كما يتنفَّسُ الناس، بدليل جمعهم في النصّ مع الطير، إِذْ أثبت للطيْرِ تَسْبِيحاً مثْلَ تسْبيحهم.

فقال اللّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ㊶﴾.

في هذه الآية حَذْفٌ من الأوائل دلَّتْ عليه الأواخر، أي: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُصَلِّي ويُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاواتِ والأَرْض من الملائكة الذين يعبدون اللّه دَواماً، وأنّ الطَّيْر تُصَلّي للّه وَتُسَبِّحُ لَهُ، وأَنَّ كُلًّا مِنَ الْمَلائِكَةِ والطَّيْر يَعْلَمُ طريقته الخاصَّة في الصَّلاة للّه والتسبيح له، وأنَّ اللَّهَ عليم بما يفعلون.

وقد شهِدْتُ في أَحَدِ الأيّام مع أُسْرَتي في مُنْتَزَهٍ من أطراف «استانبول» في تركيّا قُبَيْلَ غُروبِ الشَّمْسِ صنفاً من الطيْر قد توافَد إلى شجرة عظيمة قريبةٍ من المنتزه، وتجمَّع عدد كبير من هذا الصنف مصطفاً صفوفاً منتظمة على أغْصَانها، حتَّىٰ ملأ أغْصَانَ الشجرة وفروعها بكثافة، وسكن قُرَابة

نصف ساعةٍ أو أقلّ، ولمّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ انفَضَّ هذا الجمع من الطَّيْر في وقْتٍ وَاحدٍ، كما ينفضّ المصلون من صلاة الجمعة، وشعرنا جميعاً أنَّ هذا الصنف من الطّيْرِ قد كان يؤدّي صلاةً لِلّهِ بغريزته، ويُسبّح له في سِرّه، ويظْهَرُ أنَّ هٰذه الصلاة قد كانت صلاة جماعيَّةً لا صلاةً إفراديَّة، بدليلِ أنَّ طيرَيْن جاءا متأخِّرَيْنِ، فأقْبَلاَ مُسْرِعَيْنِ، وَدَخَلاَ في الصفوف كما يدخُلُ المسبوقُ من الناس في صلاة الجماعة.

(٥) وَجاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ سَخَّرَ الجبال والطَّيْرَ مَع داود عليه السلام يُسَبِّحْنَ بالعشيّ والإشراق، فقال تعالى فيها في معرض الحديث عنه:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ (١٨) وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٩)﴾.

وجاء نظير هذا في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) فقال اللّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

(٦) أمّا تَسْبِيحُ الملائكة في السَّماء فقد جاء بيانُه في نُصُوصٍ قُرْآنية متعدّدة:

فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾.

ومنها قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

لاَ يَسْتَحْسِرُونَ: أي: لا يَتْعَبُونَ وَلاَ يَمَلُّونَ.

لاَ يَفْتُرُون: أي: لا ينقطعُونَ عَنْ تسبيحهم، ولا يَسْكُنُ نَشَاطُهُمُ المتواصل بفُتُورٍ يَعْرِض لهم.

وَجاء في سُورَة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) بيانُ أنّ الملائكة الحافّين من حول العرش في موقف الحساب وفَصْل القضاء يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ... ﴿٧٥﴾﴾.

حافّين: أي: مُحِيطِينَ.

وَجاء في سورَة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) بيان أنّ الذين يَحْمِلُونَ الْعَرْش من الملائكة، والحافين من حول العرش، يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهم، ويؤمنون به، ويَسْتَغْفِرونَ للمؤمنين ويَدْعُونَ لهم، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وجاء في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) بيان أنّ ملائكة السماء يُسَبِّحُون بِحَمْدِ ربّهم وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ في الأَرْض، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾.

(٧) وَجاء في سورة (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) بَيَانُ أَنَّ الرَّعْدَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وأنّ الملائكة تُسَبِّحُ خَوْفاً مِنَ اللّه عزّ وجل، فقال تَعَالَىٰ فيها:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ...﴾.

وهكذا دَلَّت النصوصُ القرآنيَّةُ عَلَىٰ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهِ، ولا يُسْتَثْنَىٰ مِنْ هذا القانون العامّ إلاّ الكافرونَ باللَّهِ واليوم الآخر، فهم لا يُسَبِّحُونَ في حدود مجالاَتِ أعمالِهِمُ الاختياريَّة، أمَّا المجبُورَاتُ مِنْ ذَواتِهِمْ الَّتِي لا تَخْضَعُ أعمالُهَا لإرَادَاتِهِمْ فَهِي مُنسَجِمَةٌ مع سائر ما في الكَوْن كخَلاَيَا أعضائِهِمْ وَحَرَكَات قلوبِهِمْ، وجريانِ دمائهم، وكلّ ذَرَّةٍ فيهم.

فَمَنْ شاءَ من ذوي الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ أَنْ يَنسَجِمَ مَعَ الكَوْنِ في حركته تُجاهَ رَبّه فَلْيَكُنْ مُسَبِّحاً بحمدِ اللّه، ضِمْنَ المسبّحين والمسبِّحَات، والحامِدِين والحامدات، ولْيَحْذَرْ مِنْ أَنْ يَكُونَ شَاذّاً مخالفاً، لئلاَّ يُطْرَدَ بِشُذُوذِهِ إلى جَحِيم الْمُجْرِمِينَ.

* * *

سُورَةُ اللَّيْلِ

ويُقَال فيهَا : سُورَةُ والليل

وَيُقَال فيهَا: سُورَةُ وَاللَّيلِ إذا يَغْشَى

٩٢ مصحف ٩ نزول

(١)

السّورة وما فيها من قراءات من الفرش

سورة الليل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ
﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ
بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾
وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا
تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾
فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾
وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ
﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

* * *

---

٧ ـ قرأ أبو جعفر: [لِلْيُسُرَىٰ] بضم السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [لِلْيُسْرَىٰ] بإسكان السين.

١٠ ـ قرأ أبو جعفر: [لِلْعُسُرَىٰ] بضم السين.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لِلْعُسْرَىٰ] بإسكان السين.

١٤ ـ قرأ البزي ورُوَيس في الوصل: [نَاراً تّلظّىٰ] بِتَشْدِيدِ التاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [نَاراً تَلَظَّىٰ] بفتح التاء دون تشديد.

(٢)

ممّا ورد من أحاديث حول هذه السورة

(١) أخرج الطبرانيّ في الأوسط عن أنس رضي الله عنه:

«أنّ رسول الله ﷺ صلّىٰ بِهِمُ الْهَاجرة فرفع صوته، فقرأ «والشَّمْسِ وضُحَاها» و«وَاللَّيلِ إذَا يغشَىٰ».

فقال له أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أُمِرْتَ في هٰذِهِ الصَّلاَةِ بِشَيْءٍ؟».

قال: «لاَ، ولَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُوَقِّتَ لَكُمْ».

الهاجرة: نصف النّهار، وصلاةُ نِصْف النهار هي الظهر.

أَنْ أُوَقِّتَ لَكُمْ: أي: أَنْ أُبَيِّنَ لَكُمْ وَقْتَ صلاة الظهر، ويظهر أنّه بيَّنَ لَهُمْ بالتحديد أوّل وَقْتِ صلاة الظهر، عقب زوال الشمس عن كبد السّماء مباشرة.

أما رفع صوته بالقراءة على خلاف السنّة بالنسبة إلى صلاتي الظهر والعصر، فليعلّمهم أنّ الصلوات النهاريّة يَحْسُنُ أن يقرأ الإمام فيها بنحو هاتين السورتين من قصار السّور.

(٢) وسبق في سورة (الأعلى) لدى ذكر روايات حديث معاذ وتطويله في الصلاة على الناس، أن الرّسول ﷺ أرشده أن يقرأ: «واللّيْلِ إذا يَغْشَىٰ» ضمن السور التي أرشده أن يقرأها، ليُبَيِّن له أن تطويل القراءة في الصلاة يفتن المتقدين ويُنَفِّرهم.

* * *

(٣)

دروس سورة «اللّيلِ» ووحدة موضوعها

تشتمل سورة «اللّيل» على ثلاثة دُرُوس يتفرّع التالي منها عمّا سبقه ضمْن وحدة موضوع.

الدرس الأول:

يقسم اللّه عزّ وجلّ فيه ببَعْض ظواهر خلقه في كونه الدّالة على قدرته وعلمه وحكمته وغيرها من صفاته، على أن سَعْي الناسِ في الحياة الدّنيا مختلف اختلافاً كبيراً إلى حدّ التباينِ بين سَعْيٍ في الخير، وسَعْيٍ في الشّرّ، وسَعْيٍ إلى ذُرُواتِ الفضائل والمكارم، أو سَعْيٍ إلى حضِيضِ الرّذَائل والجرائم.

وهذا دليل على أنّ اللّهَ خَلَقَ الناس ذوي إرادات حُرَّةٍ، ليَبْلُوهُمْ في ظروف الحياة الدنيا، فالناس في هذه الحياة ممتحنون.

هذا الدّرْس اشتمل على الآيات الأربع الأولى من السورة:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ (٤)﴾.

الدرس الثاني:

وجاء الدرس الثاني مُتَفَرّعاً عن الدّرْسِ الأَوّل، واختير فيه بيان نوع من سلوك الناس الذي يختلفون فيه اختلافاً كبيراً إلىٰ حَدِّ التّباين، وهو سلوكهم فيما يملكون من أموال بَذْلاً في الخيرات أو بخلاً وإمْسَاكاً.

وعلى سبيل إدْماج التوجيه الدينيّ المقرون بالترغيب والترهيب، ضِمْنَ بيان اختلاف سلوكهم المالي، قال اللّهُ عَزَّ وَجلَّ في هذا الدرس:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ (١٠) وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١)﴾.

الدّرْس الثالث:

جاء فيه الإجابة على أسئلة مطويّة تَسْتثيرها في النفوس فقرات الدرسَيْنِ السَّابقَيْن:

السؤال الأول: كَيْفَ يعرفُ الناس ما هو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ليختاروا السلوك الذي يكونون فيه من المفلحين يوم الدين، يوم الجزاء الأكبر؟.

وجاءت الإجابة عليه بقول اللّه عزّ وجل يتحدّث عن نفسه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢)﴾ بضمير المتكلّم العظيم، أي: نحن متكفّلونَ ببيان ذلك.

السؤال الثاني: ما الذي يجعلُنَا نُصَدِّقُ بأنّ نظام الحياة الدنيا إذا انتهىٰ، فلا بُدَّ أَنْ يأتي بَعْدَهُ نظام حياةٍ أخرى يكون فيها الحساب وفصل القضاء والجزاء؟

وجاء الجواب الرَّبّاني بأنَّ مَالِكَ الحياة الدنيا هو الذي وضع في خطته إيجاد حياة أخرى يكون هو مالكها والمتصرّف فيها، ودلّ على هذا الجواب قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ (١٣)﴾.

السؤال الثالث: كيف يكون عذابُ الآخرة لمَنْ كفر بربّه ولم يسْتَجِب لدعوته؟ وجاء الجواب الرّبّاني بقوله تعالى:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦)﴾.

السؤال الرابع: كيْفَ يكون حال من آمن بربّه واستجاب لدعوة رسوله؟ وجاء الجواء الرّبانيّ بقول اللّه عزّ وجل:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى (١٧) ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾.

فموضوع السّورة يدور حول ابتلاء الناس من خلال حرّية الإرادة الممنوحة لهم، ومسؤولياتهم عن أعمالهم الإرادية تجاه ربّهم، وجزائهم يوم الدين بالثواب أو بالعقاب، مع الاهتمام في السورة ببيان مسؤولياتهم عن

سلوكهم المالي طاعة للّه أو معصية له، في جانبي العطاء ابتغاء مرضاة الله، والبخل مَعْصِيَةً له.

* * *

(٤)

التدبر التحليلي للدّرس الأول من السورة

الآيات من (١ ـ ٤)

قال اللّه عزّ وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ الأوّل من دروس السورة أَقْسَم اللّهُ عزَّ وجَلّ بثلاث ظاهرات من ظواهر خلقه، الدَّالأتِ على طائفة مِنْ عظيم صفاتِهِ جلَّ جلاله، ومنها علمه وَقدرته وحكمته، وأداة القسم الّتي استعملت فيه هي «الواو» والْمُقْسَمُ عليه هو أنّ سَعْيَ الناسِ في الحياة الدنيا مُخْتَلِفٌ اختلافاً كبيراً، إلى حَدِّ التَّنَاقُضِ بَيْنَ قِمَّةِ الْخَيْرِ وَحَضِيضِ الشرّ، وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُه قَدْ مَنَحَهُمْ إرَادَاتٍ حُرَّةً، لِيَمْتَحِنهم في ظروفِ الحياة الدنيا، ولو كانوا مَجْبُورين في مجالاتِ أعمالهم الاختياريَّةِ، لكانوا كالملائكة أمّةً واحدةً لا يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون، لأنّ اللّهَ لاَ يَرْضى لعباده الكفر، ولا يأمُرُ بالفحشاء والمنكر ولا يَرْضَىٰ بهما، فلا يمكن أن يجعل عباده مجبورين على ما لا يرضاهُ منهم.

- قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾.

يغشَىٰ: أي: يُظلِمُ، يُقَالُ لُغَةً: غَشِيَ اللَّيْلُ يَغْشَىٰ غَشًا، إِذَا أَظْلَم. واللّيْلُ ظُلْمَةٌ في الأَرض يُسَبّبُها غُرُوبُ الشَّمْسِ عَنْهَا، وهذه الظلْمَةُ مَوْجُودةٌ في كُلّ شيءٍ لا تُشرِقُ عليه أَنْوَارٌ كاشفةٌ له.

ويُقَالُ لُغَةً: غَشِيَ الشَّيْءُ شَيْئاً آخر، إذا غَطَّاهُ وَجلَّلَه فحجبَهُ وستَرَهُ، ولا اختار هنا هذا المعنى، لأنَّ اللَّيْلَ لا يأتي فيجلّلُ، بَلْ هُوَ ظُلْمَةٌ مَوْجُودَةٌ، نُدْرِكُهَا عِنْدَ انْعِدَام الأنوار الكاشفة، ولهذا قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧﴾.

فشبّه اللّه النهار بِجِلْدٍ يُسْلَخُ عَنِ الأرض، فيجد أهل الأرض أنفسهم غارِقين في الظلام، بسبب فقدهم ضياء الشمس الكاشف للأرض وما عليها بعْدَ غروبها.

تَجلّىٰ: أي: انكَشَفَ ووَضَحَ وظهر، يُقَالُ لغة: جلَّىٰ الضَّوْءُ الشيءَ للأنظار فَتَجلَّىٰ، أي: أظهره وأوضحه فتجلَّىٰ «مطاوع جلَّىٰ».

والمراد من تجلّي النهار تجلّي الأشياء وظهورُها فيه، وهذا من إطلاق الزمان وإِرَادَةِ الأشياء التي تكونُ فيه، وهو من المجاز المرسل.

والنهار: اسم للزمن الذي تكون فيه الشمس مواجهةً بأشعّتِها وضيائها لما واجهته من الأرض، فحيث تكون المواجهة يكون النَّهار، وكلّما دارت الأرض حول نفسها تحوّل كلٌّ من النهار واللّيل إلى مواجهةٍ أخرىٰ بحسب دورانها، فكان للشمس مشارق ومغارب عليها، واختلفت عليها الأنْهُرُ واللّيالي معاً تبعاً للمواجهة والدوران.

ولفظ «النهار» يُطْلَقُ علىٰ الضياء الكائن ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويجمَعُ علَىٰ «أَنْهُرٍ ونُهُرٍ».

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

أي: وَخَلْقِ الذّكر والأُنْثَىٰ، فكلمة «ما» مَصْدَرِيَّة تُؤَوَّل ما بَعْدَها بمصدر. والمعنى: وأُقْسِمُ بخَلْقِ الذكر والأُنْثَىٰ.

إنّ الْقَسَم باللّيل إذا يغشَىٰ وبالنهار إِذَا تجلَّىٰ قَسَمٌ بظاهرتَيْنِ من ظواهر تقدير اللّه المحكم العجيب لحركة الأرض حول نفسها تجاه الشمس، في نظامها اليوميّ، عَبْرَ ألوف الملايين من السنين، دون خَلَلٍ أو اضطرابٍ، وبدقَّةٍ بالِغَةِ الغاية.

هذا التنظيم المحكم فيه عناية بالغة بالناس، إذْ جعل اللّه الأرض المعدّة لسكناهم يتَدَاوَلُ عليها ليلٌ يَغْشَىٰ بظلامه، ونهارٌ يتجلَّىٰ بضيائه، فينتفعون من كليهما في مطالبهم المختلفة، ومصالحهم المتنوّعة، ومعلوم أنَّ بعض مصالح الناس مرتبط باللّيل إذا يَغْشَىٰ، وبعضها مرتبطٌ بالنهار إذا تجلّى وأشرقَتْ شَمْسُه، فالنبات وطاقة الحياة في الأرض، ومعاشُ الناس، وأمورٌ كثيرة جدّاً مرتبطةٌ بالنهار إذا تجلّىٰ وأشرقَتْ شَمْسُه، واستمدَّتْ من ضيائها وشلّالاَتِ أشعّتها الضَّوْءَ والدِّفْءَ والطّاقة. أمّا الرَّاحَةُ والسُّكُونُ والسَّتْر وحَرَكَةُ الرِّياحِ وأُمُورٌ كثيرة جدّاً فهي مرتبطَةٌ باللَّيْلِ وبَرْدِه، وابتعاد أشعّة الشمس عن الأرض فيه.

وإنَّ الْقَسَمَ بخَلْق الذكر والأُنْثَىٰ في تكامُلِهما، وحَاجَةِ كلِّ زَوْجٍ منهما لزوجه، من ظواهر إتقان صنعة الخالق الرَّبِّ العجيبة.

ودراسَةُ هٰذه الظاهرة مجالٌ فسيح ودقيق لعلماء البحث الكونيّ، وبها يكْتَشِفُونَ عَجَائبَ وغَرَائِبَ تُدَوَّنُ في مُجَلَّداتٍ كثيرة.

وظاهرةُ الذكر والأُنْثَىٰ تَعُمُّ عالَمَ الأحياء وعالم النباتات، وكُلٌّ من الزوجين يحتَاجُ إلى قرينه لإشباع الغريزة وتنامي الْخَلْق.

وقد خلق اللّهُ الأزواجَ كلَّها في الكائنات لينفرد بالوحدانية في كلّ

شيء، فهو سبحانه الكامل بذاته الذي لا يحتاج إلى شيءٍ، لأنّه هو وحْدَهُ الأزليُّ الأبديُّ بذاته وصفاته.

هذه الظاهرات الثلاث اللاّتي أَقْسَم اللّه بها، تشتمل على أَدلَّةٍ تهدي ذوي العقول الحصيفة النظيفة، إلى أن خالقها والمهيمن على الكون بربوبيته، لا بُدَّ أن يكون كامل القدرة، وشامِل العلم، وعظيم الحكمة، فالْقَسَمُ بها هو في الحقيقة قَسَمُ بما تَدُلُّ عليه من صفات اللّهِ الجليلة، وأسمائه الحسنى، وهكذا كُلُّ ما أقسم اللّه به في القرآنِ من كونه العجيب.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

هذا خطابٌ مُوجَّهُ لكلّ ذوي الإِرادات الحرَّةِ المسؤولين عن اختياراتهم وأنواع سلوكهم في الحياة الدنيا.

وجاءت الجملة مؤكّدَة بمؤكّدات ثلاثة: «إِنّ ـ والجملة الاسميّة ـ ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر».

شَتَّىٰ: أي: متفرّقون تفرُّقاً شديداً، وهو جَمْعٌ مفرده «شَتِيت» بمعنى متفرّق ومختلف. يقال لغة: أشياء شتّىٰ، أي: متفرّقة مختلفة. وقومٌ أشتاتٌ: أي: متفرّقون، وأصل الشّتّ الافتراق والتفريق. ويقال: شَعْبٌ شتِيتٌ، أي: مشتّتٌ.

لقد أثبت اللّه عزّ وَجلّ في هذه الآية أنّ المكلّفين المخاطبين بها سَعْيُهم مختلف متفرّقٌ إلى حدّ التبايُنِ والتناقُضِ، مَا بَيْنَ أعلى ذُرُوات الفضائل، وأحطّ دَرَكَاتِ الرَّذَائل، وهذا لا يكون إلاَّ إذا كانوا بخَلْق اللّهِ ذوي إراداتٍ حُرَّة. بخلاف المخلوقات الّتي لم يمنَحْهَا اللّهُ إراداتٍ حُرَّة، فإنّ سُلُوكَ كلّ صنف منها سلوكٌ متشابه متماثل، لأنّه يخضَعُ لنظام جبريٍّ رَبّانيٍّ واحد، كالذَّرَّة، والنّبات، والماء، والهواء، وغيرها.

وبالتأمّل يهتدي الفكر إلى أن الإرادة الحرّة في الناس إنما وهبها لكلِّ

منهما، ليمتحنهم في ظروف الحياة الدنيا، ولا بُدَّ أن يكون لكلٍّ منهم سعْيٌ مُخْتَلِفٌ عن نُظَرائِهِ، وهذا السلوك المختلف هو أثَرٌ لِحُرِّيَّةِ الإرَادَةِ في كُلٍّ مِنْهُمْ.

وبالتأمل يَهْتَدي الفكر الملاحِظُ لصفات اللّه الجليلة، ومنها حكمته، وتنزُّهُهُ عن العبث في الخَلْقِ، إلى أنّ الامتحانَ لا بُدَّ أَنْ يستَتْبعَ الْحِسَابَ وَفَصْلَ الْقَضَاءِ وتنفيذَ الجزاء، بالفضل أو بالعدل، وأنَّهُ لا يُمْكِن أن يُسَوِّيَ الرَّبُّ العليم القدير الحكيم بين المسلمين والمجرمين، وبين من اختار في امتحانه الأعمال الصالحة، ومن اختار في امتحانه الأعمال السيئة.

ودلّ الواقع المشاهد لذوي الإراداتِ الحرَّة الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، أنّهم متفاوتون في اختياراتهم تفاوتاً كبيراً، فمنهم سَعْيُه في الخير، ومنهم سَعْيُه في الشرّ، ومنهم سعْيُه مختلط، وتختَلِفُ بينهم النِّسَبُ والمقاديرُ اختلافاً لا يستطيع حصْرَه إلاّ الخالق البارئ المحيط بكلّ شيءٍ علماً، وهذا الاختلاف الكثير يتَطَلَّبُ دَرَجاتٍ ودَرَكاتٍ مِنَ الجزاء، فمنهم من يسْتَحِقُّ بفضل الله أنْ يُجَازَىٰ بالفردوس الأعلىٰ من جنَّاتِ النعيم، وَتتنازلُ المراتب والدَّرجات، حتَّىٰ أَدْنَىٰ الجنَّةِ. ومنهم مَنْ يَسْتَحِقُّ بِعَدْلِ اللَّهِ أَنْ يُجازَىٰ بالدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النارِ، وتخفُّ الدَّرَكاتُ شيئاً فشيئاً حتَّىٰ مُسْتَوَىٰ الضَحْضَاح من دَار العذابِ يوم الدِّين، وأخفُّ العذاب فيها. ومنهم فريق يقتضي العدْلُ أنْ يكونوا على الأعراف، إذْ تساوَتْ سيِّئَاتُهُمْ وحَسَنَاتُهُمْ، فالنار والجنَّة تتجاذبانه بقُوَّتَيْنِ متماثِلَتَيْن، فيقِفُ في مكان وسَطٍ بينهما، إلاَّ أَنْ تَتَدَارَكَهُمْ رَحْمَةُ اللّه، فتدفع بهم، فيغْلِبُ جاذبُ الجنَّةِ جاذِبَ النَّار، فَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ في رحْمَته.

وهذا السَّعْيُ الْمُخْتَلِفُ في الناس إنَّما هُوَ مَظْهَرٌ لإراداتهم الحرَّة الّتي مَنَحَهُمُ اللَّهُ إيَّاها ليَمْتَحِنَهُمْ، ومن أجْلِ هذا وضعهم في ظرُوف الامتحان

الأمثل، وأعطاهم من الصفات ما يجعلهم مؤهلين لاختيار الخير والعمل به، واختيار الشرّ والعمل به، فإذا اختاروا الخير أمدَّهم الله بعونه وتوفيقه، وإذا اختاروا الشرّ تركهم لما سخّرَ للناس من أسباب.

وقد جاء بَيَانُ أنَّ سَعْيَ المخاطبين بالآيةِ سَعْيٌ مختلف اختلافاً كبيراً، تمهيداً لبيان صُوَرِ الجزاء المختلفة المناسبة للسّعْي المختلف.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدّرس الثاني من السورة

الآيات من (٥ ـ ١١)

قال اللَّهُ عَزَّ وَجلّ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١)﴾.

تمهيد:

تضمّن هذا الدرس من دروس السورة قضيتين:

القضيّةُ الأولى: الترغيب في العطاء من المال ابتغاء وجه الرَّبّ الأعلى، بشرط أَنْ يكون هذا العطاء ثمرة تقوى الله، التي هي من آثار التصديق بالملّة الحسنىٰ، التي يُبَلِّغُها الرسول محمد ﷺ عن الرّبّ جلّ جلاله.

والثواب المبشّرُ به هو التيسير للأمورِ الْيُسرَىٰ، ولا سيما ما يكون منها يوم الدين.

القضيّة الثانية: الترهيبُ من البخل بإمساك المال عن مستحقّيه، المقرون بمشاعر الاستغناء عن الرّبّ جلّ جلاله، فهذه المشاعر الخسيسَةُ يتوَلّد عنها الطغيان، وَعَدَمُ الخوف من عذاب اللّه، والتكذيبُ بالملّة الحسنَىٰ الّتي يُبَلّغها الرسول محمد ﷺ عن الرّبّ جلّ جلاله.

والعقابُ المنْذَرُ به هو التيسير للأمور الْعُسْرَىٰ، ولا سيما يوم لا يُغْنِي عن المعذّب ماله الذي استغنى به، فطغى، فكفَر.

وبالنظر إلى سُنَّة التدرُّج الرَّبَّانِيَّةِ في إنزال شرائع الدّين، نلاحظ أنّ العناية الرّبّانيّة في هذِهِ المرحلة الْمُبَكّرَةِ من تنزّلاَت القرآن، قد وجّهَتْ لقضايا الإيمان أوّلاً، وأتبعتها بالتوجيه للصلاة، فبالتوجيه للعطاء المالي مساعدةً للفقراء والمساكين وَذوي الحاجات، وهذا التوجيه للعطاءِ المالي في هذه المرحلة المبكّرة، فيه دليل على أنّ سدّ حاجات المحتاجين في المجتمع تَأْتي في التعليمات الإسلامية عَقِبَ التوجيه للصلاة، ولهذا اقترنَتِ الزكاة بالصلاة في معظم النصوص القرآنيّة، وهذا التوجيه في هذه المرحلة المبكّرة، قد جاء تمهيداً لفريضة الزّكاة الّتي تأخر تحديدُها، والإلزام بالمقدار الواجب بذلُه فيها إلى المرحلة المدنيّة.

وبالنظر إلى السُّوَر التي نزلت قبل نزول سورة «اللّيل» نلاحظُ أنّه قد جاء تمهيد خفيف جدّاً لقضيّة بذل المال في سورة (العلق) أوّل سُورَةٍ أُنْزِلَت، ببيان أنّ مشاعر الاستغناء من أسباب طغيان الإنسان، إذ جاء فيها قول اللّه عزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

وبعدها جاء في سورة (المدثر) السّورة الثانية بحسب ترتيب النزول بيان أنّ من أسباب تعذيب المعذّبين في سقر أنّهم لم يكونوا يطعمون المساكين، فقد جاء فيها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ حكايةً لسؤالٍ يُوجَّهُ لَهُمْ وهم يُعَذَّبُونَ في النارِ، وحكايةً للجواب الذي يجيبون به:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم جاء في سورة (الأعلى) السّورة الثامنة بحسب ترتيب النزول إلماح خفيفٌ إلىٰ هذا الموضوع ضمن قضية عامّة، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ ومعلومٌ أَنَّ إمْسَاكَ المال، والبخل ببذله للمساكين وذوي الحاجات من إيثار الحياة الدنيا.

أما سورة (اللّيل) السّورَةِ التاسعة بحسب ترتيب النزول، فقد جاء فيها الترغيب بإعطاء المال واضحاً وبقوّة، وهو ترغيب مقرون بالوعد بالثواب. وجاء فيها الترهيبُ من البخل ببذل المال لمستحقيه، مع الإنذار بالعقاب على البخل.

- قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾.

الفاء في: ﴿فَأَمَّا﴾ دلّت على أنَّ ما بعدها مُفَرَّعٌ عمّا دلَّ عليه الدّرْسُ الأول من السورة، وهو كون المخاطبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ مَوْضُوعُونَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، فهم ذَوُو إراداتٍ حُرَّةٍ، فباستطاعتهم أن يختاروا لأنفسهم طريق الخير حتَّىٰ يكونوا سعداء بفَضْلِ اللّه، وباستطاعتهم أن يختاروا لأنفسهم طريق الشرّ وبه يكونون أشقياء بعَدْلِ اللّه.

وكلمة: [أَمّا] حَرْفٌ فيه معنى الشرط والتوكيد دائماً، وفيه معنَىٰ التَّفْصِيلِ غالباً، ويُكَرَّرُ غالباً حينما يَحْمِلُ معنى التفصيل، كما جاء هنا في السّورة.

﴿مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي: مَنْ أعطىٰ عَطَاءً ماليّاً يبتغي به وجْهَ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ. حُذِفَ المفعولُ به ليَعمَّ كُلَّ عطاء مَالِي. ودلَّ على كونه عطاء ماليّاً مقابَلَةُ العطاء في السورة بالبخل، وذِكْرُ المال مرّتين في السّورة إحداهما في

الحديث عمّن بخل واستغنى، والأخرى في الحديث عن الذي يُؤتي مالَهُ يَتزَكّى، فالكلام في السّورة يدور حول إعطاء المال والبخل به. ودَلَّ على ابتغاء وجْهِ اللّه بالإعطاء ما جاء في آخر السُّورة من بيان أنّ الناجي من النار هو الذي يُؤتِي مالَه يَتَطهَّرُ بإيتائه من رجس البخل والمعصية وهو لا يبتغي بإيتائِه إلاّ وجْهَ رَبِّهِ الأعْلَىٰ، ودلّ على أنّه أعْطَى مالَهُ في طاعة اللّه عطف فعل: [اتَّقَىٰ] على فِعْلِ: [أَعْطَىٰ].

﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: أي: واتَّقَىٰ عَذابَ اللّهِ فيما أعطىٰ، وفي كلِّ أقواله وأفعاله الإراديّة الظاهرة والباطنة، الجسَدِيّة والنفسِيّة.

- قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ⑥﴾.

أي: وجَزَمَ في قَلْبِه مؤمناً بأنّ بلاغاتِ الرسول عن اللّهِ حقٌّ وصِدْقٌ، ومعلوم أنّ بلاغاتِ الرّسُولِ عن اللّه تَشْمَلُ العقائد الإيمانية، ووصايا اللّه وأوامره ونواهيه لعباده في هذه الملّة، من كُلّ أنواعِ السُّلوكِ الظاهر والباطن، الجسديّ والنفسيّ، وهذه كُلُّها حُسْنَىٰ، فاقَتْ في حُسْنِها كُلَّ ما يُخالِفُها.

الْحُسْنَىٰ: مؤنث «الأحْسَن» أي: المفضَّل في الْحُسْن. وقد جاء لفظ [الْحُسْنَىٰ] في الآيَة صفةً لموصوف محذوف، فاختلَفَ أهل التأويل في تقديره، إذْ لم يَرِدْ عن الرسول ﷺ بيانٌ يُعَيِّنه، فقيل: الجنة. وقيل: لا إلَه إلاّ اللّه. وقيل: الصلاة. وقيل: الزكاة.

لكنّي رأيْتُ أنَّ المحذوفَ المقدّرَ ذِهْناً هو الملَّةُ، أو الشريعة، أو الديانة أو الرسالة الّتِي يُبَلِّغُها الرَّسُولُ ﷺ عن ربِّه، فهي المقدَّرُ ذهْناً في دعوته، ولا يحتاج إلى التصريح به، وهذا المحْذُوف المقدر على الوجه الذي رأيتُهُ، يَشْمَلُ كُلَّ أقوال أهل التأويل وزيادة، وهو المطلوب الإيمان به واتّباعه من الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

ولدى تتبُّع مَا جاء في هذه الرسالة المحمّديّة الخاتمة لرسالات اللّهِ السابقات، نُدرِكُ أَنَّ كُلَّ بَيَانٍ، وكُلَّ حُكْم، وكُلَّ تَوْجِيهِ، وكُلَّ وَصِيَّةٍ، وكُلَّ نُصْحٍ، وكلَّ تَعْلِيم، هُوَ الأَحْسَنُ من كُلِّ ما خالفه، فهٰذِهِ الرّسَالَةُ بكلّ ما جاء فيها هي الْحُسْنَىٰ المفضّلَةُ في الْحُسْنِ على كلّ ما سواها ممّا اشتمل على الموضوعات التي جاءت فيها.

- قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾.

هذا وعْدٌ من اللّهِ لِمَنْ أعطَىٰ واتَّقَىٰ وصَدَّق بالْحُسْنَىٰ، بأن يُيَسِّرَهُ في المستَقْبَلِ القريب للْيُسْرَىٰ.

الفاء واقعة في جواب أداة الشَّرْط [أمَّا] وحرف التنفيس «السين» للدلالة على المستقبل القريب.

وفعل: «نُيَسِّرُه» هو بمعنى: نهيّئُه ونُعْطِيهِ من المعونات والتوفيقات والإمدادات بالقوى الجسديَّة والنفسيَّة ما يُهَوِّنُ عليه سلوك الصراط المستقيم، الذي يَسْتَحِقُّ به الْيُسْرَىٰ.

وتحليل معنى فعل: «نُيَسِّرُهُ» سبق في سورة (الأعلى) لدى تدبّر قول اللّه لرسوله فيها: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ فلا داعيَ للإعادة.

ويظهر لي أنّ المراد من الْيُسْرَىٰ هنا في سُورة «اللّيل» الأمورُ الْيُسْرَىٰ الَّتي يُكَافئ اللّهُ بها عبْدَهُ المؤمن الذي أَعْطَىٰ واتَّقَى وَصَدَّقَ بالْحُسْنَىٰ، وهذه الأمور الْيُسْرَىٰ ينالُ منها نصيباً في الحياة الدنيا، وَينال منها نصيباً في البرزخ بين الموت والبعث إلى يوم الدين، وينال منها في يوم الحشر والحساب وفَصْلِ القضاء، وينال منها الجزاء الأوفىٰ الخالد في جنّاتِ النعيم.

فيوم الْحَشْرِ والحساب وفصل القضاء يومٌ عَسِيرٌ على الكافرين، لكنَّهُ على أهل الإيمان والعمل الصالح يَسيرٌ غير عَسِير، كما قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ⁽٨⁾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ⁽٩⁾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ⁽١٠⁾﴾.

وكما قال اللّه عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ⁽٧⁾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ⁽٨⁾﴾.

أي: لكنّ المؤمنين لا يجدونه عسيراً فلا يقولون: هذا يومٌ عَسِرٌ، بل يجدونه عليهم يسيراً.

وكما قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ⁽٢٦⁾﴾.

* * *

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ⁽٨⁾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ⁽٩⁾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ⁽١٠⁾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ⁽١١⁾﴾.

في هذه الآيات بيان للقسم الثاني من النّاس، وهو الْقِسْمُ المضادُّ لقسم: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ⁽٥⁾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ⁽٦⁾﴾

فهو قِسْمٌ بَخِلَ بما يَمْلِك من مَالٍ على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وشَعَر بأنَّه اسْتَغْنَىٰ بأمْوالِه عَنْ رَبّه، مُتَوَهِّماً أنَّ أمْوالَهُ تَقْضِي له كُلَّ حاجاته ومطالبِهِ من الحياة، فَطَغَىٰ، وكَفَرَ بأَنْعُمِ اللّهِ عليه، وكذَّبَ بالرِّسَالَةِ التي يُبَلِّغها رسولُ اللّهِ ﷺ عَنْ رَبّه، فلم يؤمن بها، مع أنها الْحُسْنَىٰ، وَتَفَوُّقُها في الْحُسْنِ عَلَىٰ كُلِّ مَا يُخَالِفُها شاهِدٌ دائِمٌ على أنّها رسالَةٌ رَبَّانِيَّة حَقًّا وصِدْقاً.

وفي مقابل تَيسِيرِ الْقِسْمِ المؤمِنِ لِلْيُسْرَىٰ، قال اللّهُ عَزَّ وجلَّ بشأنِ هذا

القسم المضادّ المكذِّب بالرّسالة الْحُسْنَىٰ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ أي: فَسَنُهَيِّئُهُ فِي نَفْسِه وجَسَدِهِ وقُدْرَاتِهِ المختَلِفَةِ، لاختيار الْأَسْبَابِ والوسائلِ المسخَّرَةِ للناسِ في ظرُوفِ الحياةِ الدنيا، ولسُلُوك مَا يشَاءِ من مَسَالِكَ وسُبُلٍ ضِمْنَ السُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ العامّة، الّتِي تُعْطِي عَطَاءَهَا الْمُقَدَّرَ لَهَا، مَنْ آمَنَ بالله، ومَنْ كَفَرَ به، حتَّىٰ تَنْتَهِي به مسيرتُه في حياته للأمور الْعُسْرَىٰ، الَّتِي يُعَاقِبُ اللَّهُ بهَا عبادَهُ الكافرين، والْعُصَاةَ المجرمين، الذين بَخِلُوا واسْتَغْنَوْا وكذّبوا برسالة اللَّهِ الْحُسْنَىٰ. وهذه الأمور الْعُسْرَىٰ يَنَالُون منها مقداراً ما في الحياة الدنيا، ويَنَالون منها مقداراً مَا في البرزخ بين الموت والبعث إلى يوم الدين، وينالون منها مقداراً ثالثاً يوم الحشر والحساب وفصل القضاء، ثم ينالون منها العقاب الأوفىٰ، في دار العذاب، جهنّم وبئسَ المصير، وعندئذٍ يُدْرِكُونَ أنَّ الْأُمورَ الّتي نزلَتْ بهم هي الْأُمورُ الْعُسْرَىٰ الّتي لاَ يُوجَدُ أَعْسَرُ مِنْها.

الْعُسْرَىٰ: أي: الزَّائدةُ على كلّ ما سواها في الْعُسْر، إذِ الْعُسْرَىٰ مؤنَّثَ «الْأَعْسَر» الوزن الموضوع للتفضيل، أي: للدلالة على زِيَادة الموصوف به في صفته على غَيْرِهِ.

وحين تَنْزِل به الأمور الْعُسْرَىٰ فَهَلْ تَرُدُّ عنه أَوْ تَرْفَعُ عَنْهُ شيئاً أَمْوَالُهُ الَّتي يَسْتغنِي بها، أو الَّتِي كان قد اسْتَغْنَىٰ بِها.

فقال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

إِذَا تَرَدَّىٰ: أيْ: إذا سَقَطَ وَخَرَّ في هَاوِيَةِ العذاب والْأُمُورِ الْعُسْرَىٰ. التَّرَدِّي: السُّقُوط منْ شاهِقٍ في هُوّةٍ، شُبِّهَ مَسُّ العذاب بالتردِّي.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ: أي: ومَا يَصْرِفُ عنه مَالُهُ ما يَنْزِلُ به منْ عذابٍ وعُسْرٍ، ومَا يَكْفِيهِ مَالُهُ مِنْ أُمورِهِ حينئذٍ شيئاً.

لَقَدْ وَجَدْنَا أغنياء وافِري الغنى من الناس، لَمْ تَنْفَعْهُمْ أَمْوَالُهُمْ شيئاً،

حينَ نَزَلَتْ بِهِمُ الأُمُورُ الْعَسِيرة منْ أَمْرَاضٍ، أو مصَائبَ في أهْليهم وذويهم ممّا لا يَمْلِكُ دفْعَه ولا رَفْعَهُ إلاّ اللّهُ جلّ جلاله.

فكيف بالأمور الْعُسْرَىٰ في البرزخ بين الموت والبعث، وبالأمور الْعُسْرَىٰ في موقف الحشر والحساب وفَصْلِ القضاء، وبالأُمور الْعُسْرَىٰ في جهنّمَ دَارِ عَذَابِ المجرمين؟!!

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة

الآيات من (١٢ ـ ٢١)

قال اللّهُ عزَّ وَجل:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾.

تمهيد:

بالتأمل العميق يكتشف المتدبّر أنّ هذا الدرس الأخير من دُرُوس السورة الثلاثة، يتضمّن الإجابة على أسئلة تثيرها في أذهان المتفكّرين، قضايا تضمنها الدرسان الأول والثاني من دُروس السورة.

السؤال الأول المطويّ:

كيف يعرفُ الناس ما هو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، حتَّىٰ تُتَاح لهم الفرصة ليختاروا السلوك الذي يكونون فيه من المفلحين يومَ الدين، يوْمَ الجزاء الأكبر.

وقد جاءت الإجابَةُ على هذا السؤال المطويّ بقول اللّه عزّ وجلّ يتحدّث عن نفسه بضمير المتكلّم العظيم:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

هذه الجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ ولام الابتداء المزحلقة لاسم «إنَّ» المتأخر عن خَبَرِها».

لمّا كان من حقّ الموضوع موضع الامتحان، أنْ يُبَيَّن له طَريقُ الهُدَىٰ الذي عليه أن يَسْلُكَهُ في رحلة امتحانه، ليَنْجُوَ من العذاب يوم الدين، وليظْفَرَ بالنَّعِيمِ المقيم في جنّاتِ النعيم، قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ فأبَانَ جلَّ جلالُهُ الْتِزَامَه بدلالَة الناس على طريق هُدَاهم إلى الحقّ والخير والنجاح والفلاح، وتَكَفُّلَه به، وأَوْجَبَهُ تبارك وتعالَىٰ على نفسه، مؤكّداً هذا بعدّة مؤكّدات.

وتَتَحقَّقُ هٰذِه الهدايةُ البيانيّة، بإعلامهم بالحقّ والخير والفضيلة، وإبانة طريقِ الْهُدَىٰ لهم، حتَّىٰ لا يكون لهم عُذْرٌ بالجهل، وحتَّى لا يَتَعَلَّلُوا بأَنَّهُمْ لم تبلُغْهم بياناتٌ عمّا هو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم.

وهذا ما اشتملت عليه البيانات الدّينيَّة، الّتي تُعَرِّف الناس بما هُمْ مطالبونَ بِفِعْلِهِ من خَيْرٍ، وبما هم مطالبون بتركه من شَرٍّ، سواءٌ أكان اعتقاداً، أَمْ خُلُقاً، أَمْ سلوكاً نَفْسِيّاً، أمْ سُلوكاً جسَدِيًّا ظاهراً.

وتتالت بعْدَ سُورةِ (اللّيل) البيانات القرآنيّة، والبيانات النبويَّة، في العقائد والأخلاق والعبادات وأنواع السلوك النفسي والظاهر، الّتي بيَّنَتْ للنَّاس طريق هدايتهم، وسُبُل ضلالِهِمْ وانحرافهم.

السؤال الثاني المطويّ:

ولمّا كان الحسابُ والجزاءُ حقَّ الخالق الرَّبِّ المالك لدار الابتلاء الّتي

هي الأولىٰ، ولدار الحساب والجزاء الّتي هي الأُخْرىٰ، وكان من التوهُّمات التي قد تقع في النُّفوس اسْتِبْعَادُ وُجُودِ حياةٍ أُخْرَىٰ، كان من المناسب بيان أَنّ الرَّبَّ الممتَحِنَ مَالِكَ الحياة الأولىٰ، هو وحده مالِكُ الحياة الأُخْرىٰ، وتَقْضِي حكْمَتُهُ بأنْ يُحاسِبَ عباده ويُجَازِيَهُمْ في الأُخْرَىٰ، كما ابتلاهُمْ في الأُولى، فقال اللّهُ عزَّ وجل:

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

وجاءت هذه الجملَةُ مؤكَّدَة بمؤكدات ثلاثة، كالجملة السابقة.

أي: وإنّ الآخرةَ والأُولَىٰ وَكلَّ ما فيهما، وكلَّ مَنْ فيهما مِلْكٌ لَنَا، وجاء التعبير باستعمال ضمير المتكلّم العظيم، والمعنى فَنَحْنُ الممتَحنُونَ في الأولى، ونَحْنُ المحاسبون والمجازون في الأخرىٰ، ونحن القادرون على إيجاد الأخرى.

السؤال الثالث المطويّ:

إذا كانت الحياة الدنيا هي حياة الابتلاء، وكانت الحياة الأخرى هي حياة الحساب وفصل القضاء والجزاء، فَكَيْفَ يكونُ عذابُ الآخرة لِمَنْ كَفَرَ بربِّهِ، ولم يسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُولِهِ؟

وقد جاء الجوابُ الرّبّاني على هذا السؤال المطويّ بقول اللّه عزّ وجلّ في السّورة:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

فأنذرتُكُمْ: الإنْذارُ هو الإعلام بما هو مُخوفٌ منه مستقبلاً.

تَلَظَّىٰ: أصلها: تَتَلَظَّىٰ، أي: تتلَهَّبُ. ولَظَىٰ النّار هو لَهَبُها.

لاَ يَصْلاَها: أي: لا يَحْترِقُ بلَهَبِها، يقالُ لغة: صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِيَ بِهَا، إذا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لَهَبُها جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

إلاّ الأَشْقَى: أي: إلاَّ الأَكْثَرُ شَقَاءً بسببِ كُفْرِهِ عناداً وإصراراً على الباطل وارتكاب الجرائم.

الّذي كذّب وتَولّىٰ: أي؛ الَّذِي كَذَّبَ برسالة الرسول الحسنى، **وتَولّىٰ**: أي: وأدبَرَ مُبتعِداً عَنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ الرَّبّانِيَّة، فلم يُؤمِنْ بها، وَلَمْ يكْتَرِثْ لِمَا جَاءَ فِيها مِنْ بُشْرَيَاتٍ وإنْذَارَاتٍ.

وَفِي هذا بيانٌ للأشقى وتعريفٌ بِهِ، فالأشقى هو الذي كذّبَ وَتولّىٰ.

فالإنْذَارُ بالْحَرِيقِ بالنّار هو لِمَنْ كَفَرَ وعَصَىٰ، وأبَىٰ طاعَةَ رسُولِ اللّهِ، وسُلُوكَ طَرِيقِ الْهُدَىٰ، وتَوَلّىٰ مُدْبراً مُبْتَعِداً عن دعوة الرسول.

وهذا النَّصُّ يَدُلُّ على أنّه لا يُقاسِي حَرَّ لَهَبِ النّار، ولاَ يَذُوقُ لَذْعَ سَعِيرِها الملامِسِ لِلْجَسَدِ إلاَّ الأَشْقَىٰ، وهو الكافِرُ الْمُجْرِمُ، أمّا مَنْ فيه شقاوَةٌ من دُونِ الكُفرِ، ولم يبلُغْ دَرَكَةَ الأَشْقَىٰ، فإنَّهُ إذا دَخَلَ النّار بعَدْلِ اللّه، فإنّه يُعَذَّبُ بأنواعٍ من عذابها غَيْرِ مُلاَمَسَةِ لَهَبِ النّارِ لِجَسَدِهِ.

إنَّ الصَّلْيَ بلهَبِ النّار هو نَوْع من أنواعٍ كثيرة شديدة وخفيفة من عذاب النار.

فتوهُّمُ المرجئة الغالطين في فهم هذا النصّ آتٍ من أنّهم لم يُحْسِنُوا تَدَبُّرَ دَلاَلَتِه، فانْحَرَفَ فِكْرُهُمْ عَنِ المعنَىٰ المراد.

السؤال الرابع المطويّ:

فكيْفَ يكونُ حالُ من آمَنَ بربِّهِ، واستجاب لدعوة رسوله، فآمَنَ بالرِّسَالة الْحُسْنَىٰ، وأعلن إسلامه؟

وقد جاء الجوابُ الرَّبّانِيُّ عَلَىٰ هذا السُّؤَالِ المطويّ، بقول اللّهِ عزّ وجلَّ في السُّورَة:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أيْ: وسَيُجَنَّبُ النَّارَ، ويُبْعَدُ عَنْهَا، فَلاَ يُدْخَلُ فِيهَا، ويُوقَىٰ مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ عَذَابِها، الأَتْقَىٰ.

الأَتْقَىٰ: هُوَ الَّذِي بَلَغَ كَمَالَ التَّقْوىٰ، بِفِعْلِ كلِّ ما أوجَبَ اللَّهُ، وَتَرْكِ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، لاَ الَّذِي فيه بَعْضُ التَّقْوىٰ وبَعْضُ الْعِصْيان، أي: فالَّذِي له معاصٍ نَقَصَ بها عن كمال مرتَبَةِ التَّقْوىٰ، فَقَدْ لاَ يُجَنَّبُهَا، بل قَدْ يُعَذَّبُ بِها، إلاَّ أَنَّهُ عَذَابٌ لاَ يَصِلُ إِلَىٰ دَرَكَةِ الصَّلْيِ، بَلْ هُوَ عذابٌ دُونَ ذَلِكَ.

وما دام التوجيه السلوكيُّ في السّورَةِ قَدْ أَعْطَىٰ العناية الكبرى لبذل المال إِلَىٰ مستحقِّيه من المساكين، وذوي الحاجات، كان من المناسِب أن يَصِفَ اللَّهُ عزّ وجلّ الأتقىٰ بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾.

يُؤْتِي مَالَهُ: أَيْ: يُعْطِي مَالَهُ.

يَتَزَكَّىٰ: أي: يتَطَهَّرُ بالعطاء من رذيلة البخل، ومِنْ إثم المعصية، ويَنْمُو بِهِ عند اللّه كمالاً، فالزكاة تدور حول مَعْنَيَي الطهارة والنَّماء.

وقد يُلاحَظُ أَنَّ إدْخال كلمة: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ في عبارة الترغيب في العطاء، خلال هذه المرحلة المبكّرَة من تنزُّلاَتِ القرآن، هو من باب التوطئة لعنوان «الزكاة» الّتي ستُفْرَضُ على المسلمين فيما بَعْدُ.

وجاء قَوْلُ اللّه عزّ وجل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾ لبيان أَنّ مقتضيات التقوىٰ تُوجب على الباذل لماله الذي يجب عليه أن يبذلَ من ماله ليتزكّىٰ، أنْ لا يجمع بَيْنَ المكافَأَةِ عَلَىٰ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ من أَحَدٍ مِنْ مستحقّي المساعدة الماليّة، وبين الزكاة، وذلِكَ بجعل المكافأَةِ هي زكاة ماله، فالمكافأَةُ يجب أَنْ تكونَ عطاءً مُنْفَصِلاً عَن إعطاء الزكاة لِمَنْ يَسْتَحِقُّها.

فالجملَةُ الْقرآنيَّةُ خاصَّةٌ ببيان أَنَّ البذل ابتغاء وجْهِ اللّه لا يصحُّ أن يُدْمَجَ فيه إرادةُ مكافأة المنْعِم على إنعامه، وفي بَسْطِ هذا أقول:

وَما لأحَدٍ عنْدَهُ من نِعْمَةٍ كَانَ قَدْ أَنْعَمَ بها عليه، فَهُوَ يكافِئُهُ ويجازيه على نِعْمَتِهِ، من الّذِين يَبْذُلُ لهم ما يجب عليه أن يَبْذُلَهُ من ماله للفقراء والمساكين وذوي الحاجات.

فإن كان ببذله لما يجب عليه أن يبذُلَهُ من ماله مكافئاً صاحِبَ نِعْمَةٍ عليه، فإنَّهُ لا يُعْتَبَرُ مُؤَدّياً ما فرض اللّهُ عليه في ماله، فلا يتحقَّقُ بكمال التقوى، وَلاَ يُوصَفُ بوصْفِ الأَتْقَىٰ الّذِي يُؤْتي مالَهُ يَتزَكّىٰ، إذْ لاَ يَصِحُّ أنْ يُكافِئ باذِلُ المال ذَا نِعْمَةٍ على إنعامه عليه، ويحتَسِبَهُ من الصَّدَقة الَّتي يُبْتَغَىٰ بِهَا وَجْهُ اللّهِ، كما لا يَصِحُّ أَنْ يَدْفَعَ أُجْرَةَ عَاملٍ يَعْمَلُ عنْدَهُ، ويَحْتَسِبها من الصَّدقة الّتي يجبُ عليه أن يَبْذُلَها.

إنّ صدقَةَ المال لا يَصِحُّ أنْ تكُونَ إلاّ ابتغاء وجه اللّه عزّ وجل، وقَدْ جاء بيان هذه الحقيقَةِ الدينيَّة مع أوائل التّنزيل، للتنبيه على ضرورة كون العمل الديني خالصاً لوجه اللّهِ تَعَالَىٰ، ولا سيما كَوْنُ هذا البيان قد كانت له مناسبة كما ذكر المفسّرون، وهيَ أنّ أبا بكر الصّدّيق رضِيَ اللّهُ عَنْهُ لمّا أعْتَقَ بلالاً رضي اللّهُ عنه قال المشركون: ما فَعَل أبو بكرٍ ذلِكَ إلاّ لِيَدٍ كانَتْ لِبلاَلٍ عِنْدَهُ، فبرّأ اللّهُ أبا بكر من هذا، بأسلوب الإيماء، وأثنى على أبي بكر بأنّه يَدْخُل في عُمُومِ الأتْقَىٰ، إيماءً لا تَصْرِيحاً.

● قَوْلُ اللّهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ هُنَا بمَعْنَىٰ «لَكِنْ» أي: وَما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ، لكِنْ يُؤْتي مَالَهُ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ، وجاء وَصْفُ الرّبّ بِوَصْفِ الأَعْلَىٰ لدَفْعِ تَوَهُّم إطْلاَقِ كلمة «رَبّ» بمعنَىٰ المنعم الذي يَشْمَلُ الْمنْعِمَ من الناس في لغةِ العَرَب، فالمرحلَةُ التي نزلَتْ فيها السّورة مرحلة مبكِّرَةٌ، ولَمْ يَثْبُتْ بَعْدُ في أذهان الناس تخصيصُ الرَّبّ باللّهِ الخالِقِ جلّ جلاله، مع ما في ختم الآية بلفظ ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ من فَنّيَّةِ مُراعَاةِ رؤوسِ الآيات في السّورَة.

- قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وَجلَّ في آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وَلَسَوْف في المستقبل البعيد الذي سوف يأتي يَوْمَ الدّينِ يَمْنَحُ اللَّهُ عَزّ وجلَّ الأَتْقَىٰ الذي يُؤْتِي مَالَهُ ابتغاء وجه ربِّه الأعلَىٰ ثواباً جزيلاً جدّاً، يجعله يَرْضَىٰ كُلَّ الرّضا، حتَّىٰ لا يَجِدَ في تَصَوُّرِهِ شيئاً يطلُبُه من ربّه، إذْ يَنَالُ مَزِيداً من عند رَبِّهِ فَوْقَ كلِّ ما يَشاء.

وبهذا انتهى تدبُّر السورة على ما فتح اللّه به

* * *

(٧)

حول بلاغيات في سورة اللّيل

بفتح من الله استخرجت من سورة «اللّيل» الروائع البلاغيّة الإحدى عشرة التالية:

الأولى:

التلاؤم والتناسبُ الفكريُّ بين المعطوف والمعطوف عليه فيما أقسم اللّه به في مَطْلعِ السورة:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾.

فاللَّيْلُ والنهار زَوْجَانِ مُتَكاملان في نظام الأرض، والذكر والأُنْثَىٰ زوجان مُتَكاملان أيضاً في نظام الأرْض، فعطف خلْقِ الذكر والأُنْثَىٰ في هذا النَّصّ على اللّيل إذَا يَغْشَىٰ والنهار إذَا تَجلّىٰ فيه الجمْعُ بين قسمين متلائمَيْن مُتَنَاسبَيْنِ من الكائنات، وهذا من الإبداعات الفكريَّة الجماليّة.

ويدخل هذا تحت ما يُسمَّىٰ «حُسْنَ النَّسَق» عند علماء البديع.

الثانية:

حذف معمول الفعل، لغرضَيْن: **الأول**: الإيجاز. **الثاني**: التعميم.

ونلاحظ هذا في فعل: [أَعْطَىٰ] أي: أعطى مقداراً ما من ماله. وفي فعل: [اتَّقى] أي: اتَّقَىٰ عَذَابَ رَبِّهِ بإعطائه من ماله. وفي فعل: [بَخِلَ] أي: بَخِل ببذْلِ ماله على وجه العموم.

الثالثة:

من المحسِّنَاتِ البديعيَّة المعنويّة في السورة (الْجَمْعُ مع التقسيم).

وهو في قول اللّه عزّ وجلّ خطاباً للناس:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾

فالجمع جاء في قوله تعالى خطاباً للناس: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾.

والتقسيم في: ﴿فَأَمَّا﴾ الأولى وما بعدها، وفي ﴿وَأَمَّا﴾ الثانية وما بعدها.

الرابعة:

الاستغناء بذكر الصفة عن الموصوف، وهو من الكنايات، وقد جاء هذا الاستغناء:

(١) في قوله تعالى: ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالرسالة الربَّانية الْحُسْنَىٰ.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: للأمور الْيُسْرَىٰ، ثواباً لمن أعطى واتَّقَىٰ وصدَّقَ بالحسنىٰ.

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: للأمور الْعُسْرَىٰ، عقاباً لمن بَخِلَ واستغنىٰ وكذَّبَ بالْحُسْنَىٰ.

الخامسة:

الاستعارة البديعة في فعل: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ وأصل هذه الاستعارة تشبيه الكفر وما ينْتجُ عنه من أعمالٍ سَيِّئَةٍ وجرائم بالتردّي، وهو السقوط من شاهقٍ في مَهْوَاةٍ إلى مصير يكون فيه التمزّقُ، والعذابُ الأليم.

السادسة:

اختصار اللّفظ في كلمة: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ فأصلُها: «تتلظّىٰ».

السابعة:

استخدام اللّفظِ في مَعْنَيَيْهِ للإيجاز، وهو في قوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ ففعل: «يَتَزكّىٰ» يأتي بمعنى يتكلّفُ من الأعمال الشّاقة ما يطهِّرُه من أرجاس البخل والمعاصي. ويأتي بمعنى يتكلّف من الأعمال الشّاقة ما يُنَمِّي به نفسه، وينمّي به درجاته عند ربّه بالطاعات والقربات.

الثامنة:

الاعتماد على اللّوازم الفكريّة الّتي يُدْرِكُها المتدبِّرُ مِن النَّصّ، وتَرْكُ المتدبّر يفهم بنفسه اللّوازمَ الفكريَّة من الإبداعات القرآنيّة البارزة الكثيرة.

ومنه في السورة فعل [أعطى] الذي يشْمَلُ كلَّ عطاءٍ، حتَّىٰ في معصيةِ اللّه، لكنّ اقتران فعل [أعطى] بفعل: [واتَّقَىٰ] في النَّصّ يدُلُّ باللُّزُوم الذهني على أنّ الإعطاء مقيَّدٌ بطاعة اللّه وبالبعد عن معصيته، إذ البذلُ في معصية الله يتنافَىٰ مع مقتضيات التقوىٰ.

ومنه أيضاً في السورة فعل: ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: وشَعَرَ بالاستغناء عن ربّه فَطَغَىٰ، فتورّط في اقتحام الموبقات وعَدَمِ اتّخاذ ما يقيه من عذاب اللّه، وهذا نقيض التقوى.

التاسعة:

بناءُ الكلام على أسئلة مطويَّةٍ تَسْتَثِيرها السّوابقُ في النّصّ في أذهان المتدبِّرين بعُمْق، والإجابةُ عليها، وهذه الأسئلة يتنَبَّهُ إليها المتدبّر المتأنّي اللّمّاحُ، وبإدْرَاكها ينكَشفُ له كثير من الترابط الفكريِّ بَيْنَ فقَرَاتِ السورة.

وقد سبق لدى تدبّر سورة (الليل) التنبيه على عدّة أسئلة مطويّة، جاءت الإجابة عليها في السورة. وباكتشافها ظهر لنا الترابط البديع بين اللاَّحق من دروس السورة، مع السابق منها، وبدون اكتشاف ذلك فقد يرى المتعجّل أنّه لا يوجد بين دروس السورة ترابُطٌ فكريٌّ، بل السورة تشتمل

على موضوعات مُفَكَّكَةٍ غَيْرِ مترابطة، وهذا من قِصَر النظر، والبعد عن حُسْنِ التدبُّرِ الذي أمر اللَّهُ عزّ وجلّ به.

العاشرة:

من المحسنات البديعيّة في السورة:

(١) الطباق، في قول اللّه عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ فالجمْعُ بين الذكر والأنثَىٰ فيه «طباق» وهو من المحسنات البديعية المعنَويَّة.

(٢) المقابلة، وهي طباقٌ مُتَعَدِّدُ عناصر الفريقين المتقابلَيْن.

فقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾﴾ يُقَابِلُه قولُهُ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ يقابله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾ «أعْطَىٰ» يقابلُهُ على الضدّ: «بخل» ـ «واتَّقَىٰ» يقابله ما يلزم منه الضّدّ، وهو «وَاسْتَغْنَىٰ» إذْ يلْزَمُ منه فكريّاً طغيانه وعَدَم تقواه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ ... وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

فَمَعْنَى: «صَدَّقَ» يقابلُه: «كذَّب» ومعنى: «لِلْيُسْرَىٰ» يقابله: «لِلْعُسْرَى».

الحادية عشرة:

تأكيد اسْتغْرَاق النفي بحرف الجرّ الزائد «مِنْ» في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٍ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾.

وفي هذه الآيَةِ الْقَصْرُ الإضافي، أي وما لأحدٍ مِنَ الذين يَبْذُلُ لهم صَدَقَةَ ماله، وليس المقْصُودُ كُلَّ أَحَدٍ من الناس، ولا كُلَّ أَحَدٍ في الوجود.

هذا ما فتح اللّه علي باستخراجه، وقد يأتي من بعدي من يكتَشِفُ من بلاغيّاتِ السورة فَوْقَ هَذَا، واللَّهُ أَعْلَمُ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الفَجْرِ

٨٩ مصحف ١٠ نزول

(١)

نصّ السورة وما فيها من قراءاتٍ من الفرش

سورة الفجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا
يَسۡرِ ﴿٤﴾ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ
رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي
ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي
ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ
﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ
لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ

---

٣ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي وَخلف: [وَالْوِتْرِ] بكَسْرِ الواو.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَالْوَتْرِ] بفتح الواو.
وهُمَا لغتان في الكلمة.

٤ ـ قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِذَا يَسْرِي] بإثباتِ الياء وصلاً.
● وقرأ ابن كثير، ويعقوب: بإثبات الياء وصلاً ووقفاً.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذف الياء وصلاً ووقفاً.
وهي وجوه من الأداء.

٩ ـ ● قرأ ورش: [بالوادِي] بإثبات الياء وصلاً. وحذفها في الوقف.
● وقرأ البزّي ويعقوب بإثبات الياء وصلاً ووقفاً.
● وقرأ قُنْبُل بإثباتها وصلاً، وروي عنه في الوقف روايتان: الإثبات والحذف.
● وقرأ الباقون بحذف الياء في الوصل والوقف.

فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ
فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا
تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ
أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآۖ إِذَا
دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا
﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ
ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ
عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ
ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي
عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

* * *

---

١٦ ـ قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [فَقَدَّرَ] وقرأ الباقون: [فَقَدَرَ].

١٥ ـ ١٦ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَكْرَمَنِ ـ رَبِّيَ أَهَانَنِ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكان الياء مع مدّها، وأثبت ياء المتكلّم في [أَكْرَمَنِي ـ أَهَانَنِي] وصلاً نافع، وأبو جعفر. وأثبتها وصلاً ووقفاً البزّي ويعقوب. وحذف الياء في الوقف أبو عمرو، وله في الوصل الإثبات والحذف. وقرأ باقي القراء بحذفها مطلقاً.

١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ قرأ بياء الغائِبين في [يُكرِمُون ـ يَحُضُّون ـ يأكلون ـ يُحبّون] أبو عَمرو، ويعقوب. وقرأ بتاء الخطاب فيها: نافع، وابن كثير، وابن عامر. وقرأ باقي القراء العشرة [تُكرِمُونَ ـ تَحَاضُّونَ ـ تأكلون ـ تحبُّونَ].

٢٥ ـ ٢٦ ـ وقرأ: [لاَ يُعَذَّبُ ـ وَلاَ يُوثَقُ] بالمبني للمجهول الكسائي ويعقوب. وقرأ الباقون بالمبني للمعلوم.

(٢)

ممّا ورد مما يتعلّق بالسورة

تعدّدت روايات الحديث الذي جاء فيه، أنَّ الرسول ﷺ قال لمعاذٍ رضي الله عنه، حين بلغه أنه يطوّل قراءته في إمامته للناس في الصلاة: «أفَتَّانٌ أَنْتَ يا مُعَاذُ» وأرشده أن يقرأ من قصار السّور، مثل: «سبّح اسم رَبّك الأعلى ـ واللَّيْلِ إذا يغشى ـ» وجاء في بعضها ذكر سورة «الفجر».

* * *

(٣)

دروس سورة «الفجر» ووحدة موضوعها

تشتمل سورة (الفجر) على أربعة دروس ضمن وحدة موضوع:

الدرس الأوّل:

يُقْسِمُ الله عزّ وجلّ فيه بأزمنةٍ جرَىٰ فيها إهلاك أُمَم من الأوّلين، بسبب كفرهم وطغيانهم، وتكذيبهم رسُلَ رَبّهم، والْقَسَمُ بهذه الأزمنة كناية عن الْقَسَم بصِفَاتِ عَدْلِهِ وانتقامه وجبروتِه، وانتصاره لأوليائه المرسلين والذين آمنوا بهم واتّبعوهم، بإهلاك الّذين عادَوْهُم وكادوهم وطغَوْا في الأَرْض وبَغَوْا.

ويَدْخُلُ الْقَسَمُ بِالأَزْمِنَةِ في أساليب التعبير غير المباشر عن المقصود في الكلام.

وبعد الْقَسَمِ بِالأَزْمِنَةِ جاء ذكْرُ بعض الأَقوام الذين أُهْلِكُوا فيها.

وجاء في آخر هذا الدرس بيانُ الْمُقْسَمِ عليه، وهو أَنَّ الرَّبَّ الْعَدْلَ المنتقم الجبارَ الذي ينتصر لأوليائه، لَبِالمرصَادِ لكُلّ الأُمَمِ اللاَّحِقَةِ إلى أن تقوم الساعة، فمتَىٰ وصَلَتْ أُمّةٌ إِلَىٰ مثْلِ ما وصَلَتْ إليه الأُمَمُ الّتي سبَقَ

إهْلاَكُهَا أهلكَها اللَّهُ عزَّ وجلّ بحكْمَتِهِ وعَدْلِهِ، ضِمْنَ سُنَّتِهِ العامَّةِ الَّتي لا تَبْدِيلَ لها ولا تحويل.

وقد اشتمل هذا الدرس الأول على الآيات من الآية (الأولى) وحتّىٰ غاية الآية (١٤).

الدرس الثاني:

يُبيّن الله عزّ وجلّ فيه أنّ الحكمة العظمىٰ من بَسْطِ الرزق لبعض عباده، وتضييقه وتقديره على آخرين من عباده، هو امتحان كُلٍّ منهما في ظروف الحياة الدنيا، لكِنَّ معظم الناس يخطئون في فَهْم المراد من بسط الرزق، فيتصَوَّرُونَ أنَّه إكرامٌ من ربّهم لهم، لأَنَّهُمْ يستحقّون هذا الإكرام لخصائص في ذواتهم، ويخطئون في فهم المراد من تضييق الرزق وتقديره عليهم، فيتصَوَّرُونَ أنَّهُ إهانةٌ من ربِّهِمْ لهم، وهُمْ لاَ يسْتَحِقُّون هذه الإهانة.

ويختم اللَّهُ هذا الدرس بزَجْرِ الفريقَيْن عن تصَوُّرِهما المخالفِ للحقيقة بقوله لهم: ﴿كَلَّاۖ﴾.

وهذا الدرس الثاني من السّورة هو قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ﴾.

الدرس الثالث:

يوجّه الله عزّ وجلّ فيه التوبيخ لذوي الأموال الذين يبْسُطُ اللَّهُ لهم الرزق، ليمتحنهم بالبذل لذوي الضرورات والحاجات في مجتمعاتهم كالبؤساء والضعفاء من اليتامى والمساكين، فلا يُؤدُّون ما يجب عليهم في أموالهم لدفع البؤس عن البؤساء، بل يبخلون ويشحّون، وهم مع بخلهم الشديد بما يجب عليهم بذْلُه، تتعلّقُ نفوسهم بشَرَهٍ لحيازة الأموال الّتي

ليسَتْ تَحتَ أَيْدِيهم من غير كدٍّ ولاَ جَهْدٍ، فيتَرَقَّبُونَ مَوْت مُوَرِّثيهم، ليأكُلُوا التراثَ أكْلاً لمًّا، ويَسُرُّهُمْ ذَلِكَ ولَو كان الهالكون أحبَّ الناس إليهم، ويُحِبُّونَ المال حُبًّا جَمًّا أكْثرَ مِنْ حُبِّهم لِمُوَرِّثِيهم، ولو كانوا من أقرب الناس إليهم، وحُبُّهُمُ الشديد للمال يجعلُهُمْ جَافِّي العواطف النبيلة، فلا يُشْعُرونَ بمشاعِرِ ذوي الضرورات والحاجات، ولا يُشَارِكُونَ الناس في آلامهم الناتجة عن الفقر والحاجة إلى المال.

ويختم الله عزّ وجلّ هذا الدرس بزجْرِ هؤلاء الباخلين، الذين يحبّون المال حُبًّا جمًّا، ويمنعُونَ حقوق ذوي الحقوق في مجتمعهم، وهم مُتَحجِّرو القلوب، فلا تَنْدَىٰ بعاطفة كريمة، فيقولُ الله لهم: ﴿كَلَّآ﴾.

وهذا الدرس الثالث من السورة هو قول اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿..بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ..﴾.

الدرس الرابع وهو الأخير:

يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عَرْضٍ لَقْطَةٍ مِنْ أحداثِ مَا قَبْلَ يَوْمِ الدِّين، ولقَطَاتٍ مِنْ أحداث يَومِ الدين، رغْبَةً في استثارة نُفُوسِ من يريدُ الاستجابة لدعوة الحقّ من المتَلَقِّين، بوسيلتي الترهيب والترغيب، للإيمان بهذا الدين، والعمل بمطالب الله من عباده، في رحلة امتحانهم في ظروف الحياة الدنيا، ومن هذه المطالب ما جاء الاهتمام به، وإبرازه في السّورة من أفعال الخير، وهو الحثُّ على إكرام اليتيم، والحضُّ على إطعام المسكين، إذِ التَّعَاطُفُ والتَّراحُمُ الاجتماعيُّ منْ أَوْلَوِيَّاتِ السُّلُوكِ الدِّينيّ، بَعْدَ الإيمانِ باللّهِ والصَّلاَةِ له، والإخلاص له في الدّعاء والالتجاء.

واقترنَ بالحثّ على إكرام اليتيم، والحضّ على إطعام المسكين، التوجيه للتخفيف من تعلُّقِ النفوسِ بحُبّ الأموال حبًّا جمًّا، الذي يجعل

المتعلّق بها يبْخَلُ، فيمْنَعُ ما يجب عليه بذلُهُ، ممّا يضْمَنُ تكافل أفراد المجتمع وتضامُنَهُمْ.

موضوع السورة

فالسورة تدور حول إنذار المكذّبين برسالة الرسول ﷺ، وتحذيرهم من إهلاكٍ عاجلٍ في الحياة الدنيا، كما حصل لمكذّبي أهل القرون الأولى، وتَرهيبهم من عذابٍ مؤجّل إلىٰ يوم الدين، ويكونُ ذلك في جهنم دار عذاب المجرمين. معَ ترغيب المستجيبين لدعوة الرسول ﷺ في دخول جنّة الله الّتي أعدها للمتقين فَمَنْ هم أعْلَىٰ مرتبةً منهم، وهم الأبرار والمحسنون.

واختير في السُّورة من أنواع السلوك الإسلاميّ المطلوب مع أوائل تنزيل القرآن توجيه العناية لقضيّة التكافل الاجتماعي، وضرورة حمل الموسّع عليهم في الرزق على أن يبذلُوا من أموالهم، لتحقيق هذا التكافل، ولدفع البؤس عن البؤساء، ومواساة الضعفاء، ورحمتهم بالعون والمساعدة. وفي توجيه العناية في هذه السُّورة لهٰذه القضيّة متابعة لما جاء في سورة (اللّيل) وخُطْوَةٌ مضافة إلى الخطوات الّتي جاءت حول هذا الموضوع في السُّوَرِ السابقة نزولاً، ضِمْنَ سُنَّة البناء المتدرّج في التعليم والتربية والتوجيه والنُّصْحِ والإرشاد.

* * *

(٤)
التدبُّر التحليلي للدرس الأول من السورة
الآيات من (١ ـ ١٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ

فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

القراءات:

- قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلَفٌ: [وَالْوِتْرِ] بِكَسْرِ الواو، وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَالْوَتْرِ﴾ بفَتْحِ الواو، والْوَتْرُ والْوِتْرُ لغتان عربيتان في هذه الكلمة.

- وقرأ نافع، وأبو عَمْرٍو، وأبُو جَعْفر: [إِذَا يَسْرِي] بإثبات الياء وصْلاً. وقرأ ابْنُ كثير، ويَعْقُوب بإثبات الياء وصْلاً ووقفاً. وقرأ باقي القراءِ الْعَشْرَةِ بحذف الياء في الحالين.

وأصْلُ الفعل: «سَرَىٰ يَسْرِي» بإثبات الياء، فيقال لغة: سَرَىٰ اللَّيْلُ يَسْرِي، أي: مضىٰ يَمْضِي. ويقال: سَرَىٰ فلانٌ اللَّيلَ، وسَرَىٰ باللَّيْلِ: أي: قطَعَهُ بالسير. وحذفُ مثل هذه الياء من آخر الكلمة من لهجات العرب، وقد يُخْتارُ حَذْفُها لمراعاة القوافي والسَّجْعات. وحَسُنَ هنا في السورة حذفها لمراعاة رؤوس الآيات.

- وقرأ ورْشٌ: [بِالْوَادِي] بإثبات الياء وصلاً، وبحذفها في الوقف، وقرأ الْبَزّي ويعقوب بإثبات الياء وصلاً ووقفاً، وقرأ قُنبَلٌ بإثباتها وصلاً، ورُوِيَ عَنْهُ في الوقف روايتان: الإثبات والحذف. وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذف الياء في الحالتين: الوصل والوقف.

وحذف الياء في كلمة «الوادي» نظيرُ حذف الياء في كلمة «يَسْرِي».

* * *

المراد بالأزمنة التي أقسَم اللَّهُ بها في السورة:

(١) لم يَرِدْ عن الرسول ﷺ ما يدُلُّ على المراد من هذه الأزمنة الّتي أقسَم اللَّهُ عزّ وجلّ بها، ولَسْنا مُلْزَمين بالآراء الاجتهاديَّة التي ذكرها أهْلُ التأويل.

(٢) وقد نَظَرْتُ فيما ذكره المفسّرونَ من أقوالٍ اجتهاديّةٍ، فلم أَجِدْ فيها قولاً يتضَمَّنُ مُناسبَةً بَيْنَ الأَزْمِنَةِ الّتي أقسم الله بها، وبين الحديث عن إهلاكِ عادٍ وَثَمُودَ وفِرْعَوْنَ وجنُودِهِ، فلم يَنْشَرِح صَدْرِي لقولٍ منها.

(٣) ثُمَّ تَتَبَّعْتُ في القرآنِ الأَزمِنَةَ الّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ بها هَؤلاء الأَقْوَام وأشباههم، فَظَهَرَت المناسبةُ جَلِيَّةً واضحةً، وتَمَّ لدَيَّ بهذا الترابُطُ بَيْنَ الْمُقْسَمِ بِهِ، والْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، والَّذِينَ أقْسَمَ اللَّهُ لتَأْكِيدِ إنْذَارِه لهم بالإِهْلَاكِ المعجّل في الدنيا.

وفيما يلي بيانُ هذا التتبُّع:

● لقد أهلك الله عزّ وجلّ عاداً قَوْمَ هودٍ عليه السلام بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية، سَخَّرَهَا عليهم سبْعَ لَيَالٍ وثمانيةَ أيّام حُسُوماً، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾:

بِرِيحٍ صَرْصَرٍ: أي: بريحٍ بارِدَةٍ ذَات صَوْتٍ شَدِيدٍ مخيف.

يقال لغة: صَرْصَرَ: أي: صَاحَ صِيَاحاً شديداً فيه صَرِيرٌ.

عاتية: أي: طاغيَة متجاوزة حدَّ الاحتمال، فهي مدمّرة، يقال لغة: عَتَا يعتُو عُتوّاً وعِتِيًّا وعُتِيًّا، أي: طغىٰ واستكبر وجاوز الحدّ، فهو عاتٍ.

حُسُوماً: أي: متوالية متتابعة بالشرّ والتعذيب، فهي متوالية التدمير والتعذيب حتَّىٰ تَحْسِمَ مادَّتَهم وتقطَعَ أصلهم، وأصل الْحَسْمِ القطع، يقال: حَسَمَ الْعِرْقَ، أي: قَطَعَهُ وكواه لئلا يسيل الدّم منه.

ولفظ «حُسُوم» جمْعُ «حَاسِم» مثل: شاهد وشُهُود.

لقد كان إهلاكُ كفَّار عادٍ في ثمانية أيَّامٍ شَفْعٍ، وسَبْعِ ليالٍ وِتْر، ولا بُدَّ أنْ تكون قد بدأَتْ مع فَجْرِ اليوم الأوَّل منها، وانْتَهَتْ مَعَ غُرُوبِ شَمْس اليومِ الثامن منها، فتكُونُ اللَّيالي بينهما سبعاً.

وجاء في النصّ تقديم اللّيالي على الأيّام، لأنَّ اليوم الأَخير اسْتَمَرَّتِ الرّيح العاتية فيه بعد انتهاء اللَّيالي، ولأنّ الإرْهابَ بِالبدْءِ بذكْر اللَّيْلِ أَشَدُّ، ولأنّ الفجْرَ الّذِي بدأ عنده تَسْخِيرُ الريح الصَّرْصَرِ العاتية قَدْ كانَ عَقِبَ اللَّيْلِ السَّابقِ لَهُ مُبَاشَرَةً، فأَدوَاتُ الإهْلاَلِ جاهزَةٌ مُعَدَّةٌ من اللَّيْل.

● وأهْلَكَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ثَموداً قَوْمَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السلام بالصَّيْحَةِ مُصْبِحينَ، أي: عند الفجر، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وهكذا كان بَدْءُ إهلاك ثمود قوم النبيّ صالحٍ عليه السلام في وقْتِ الفجر، فاستحَقَّ أن يُقْسِمَ اللَّهُ بِهِ، كِنَايَةً عن صفات عَدْلِهِ وانتقامه وانتصاره لرُسُلِه والذين آمَنُوا معهم، باعتبار أنّه الوقْتَ المختار للبدْءِ بتوجيه أدوات الإهلال والتدمير.

الحِجْر: أرض ثمود التي كانوا يسكنُونها: وهي ظاهرة معروفة في طريق المسافر من المدينة إلى تبوك.

● ومن غير المذكورين في السُّورة هنا نُلاحظُ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ أهْلَكَ قَوْمَ لُوطٍ مُصْبِحينَ، أي: بدأ بتوجيه أدوات إهلاكهم وتدمير بلدانهم، وجعل عاليها سافلها، في وقْتِ الْفَجر.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ حكايةً لمقالة الرُّسُلِ من الملائكة المرسلين لإهلاكهم، لرَسُولِهم لُوطٍ عليه السلام، في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وقال الله تعالىٰ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن لوطٍ عليه السلام وقومه:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: في وقْت دخولهم في الصَّبَاحِ. **الصباحُ**: أوَّلُ النهار، وبدْؤُهُ يكُونُ عِنْدَ الفجر. فَبَدأ تَعْذِيبُهُمْ مع الفَجْر، واسْتَمَرَّ حَتَّىٰ شُرُوق الشمس، فلَمَّا أشرقَتْ الشَّمْسُ أخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ الْمُهْلِكَة، وقَلَبَ اللَّهُ بلادَهم عالِيَها سافلها، كما قال الله تعالَىٰ في سورة (الحجر) أيضاً:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾:

السّجيل: الطين المتحجّر.

● وسار بنو إسرائيل في ليالِ عَشْرٍ مِنْ أوّل المحرَّم فارّينَ من فِرْعَوْن

وَجُنُودِهِ، واتَّجَهُوا مِنْ مَساكِنِهِمْ عِنْدَ النَّيل مُتَّجِهِينَ شَطْرَ البَحْرِ الأَحْمَرِ(١)، فلمَّا علم بأمرهم فرعون جَنَّدَ جيشهُ ولحقَ بهِمْ، حتَّىٰ تَراءىٰ الجمعان مُشْرِقين، أي: في وقْتِ شروق الشمس.

وذُعِرَ بنو إسرائيل من جَيْشِ فِرْعَوْنَ بعَدَدِهِ وعُدَّتِهِ، ورأَوْا أنَّهم محْصُورون بين عدُوِّهم والْبَحْر.

وكادت المواجهة القتاليّة تحدُثُ، ولعلّ اليوم قد كان التاسع من شهر المحرّم، وحطّ الجيش الفرعونيُّ رحالَهُ استعداداً لقتال الإسرائيليين من غدٍ، والإسرائيليُّون لا مَهْرَبَ لهم إلاَّ أن يخوضوا البحر، والهلاك مُحقَّقٌ فيه لمن خاضه في تصَوُّر فرعون وجيشه، وفي تصَوُّر عامَّةِ الإسرائيليين المذعُورين.

وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فأرسلَ ريحاً باردة شديدة، فشقت البحْرَ، وفلَقَتْهُ إلى شِقَّيْنِ، فكان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم، وجعلَتْهُ جليداً يابساً في مكان الفرق للْعُبُور(٢).

ودخل موسى وهارون عليهما السلام، ومعهما بنو إسرائيل يَعْبرُون

---

(١) جاء في سفر الخروج (١٢) فقرة (٢٧) أنّ بني إسرائيل ارتحلوا من مَدِينَةِ «رَعَمْسِيس» وجاء في قاموس الكتاب المقدّس أنَّ موقعها الآن مدينة «صالحجر» أو «صان الحجر». والبحر الأحمر هو الذي ورد باسم بحر سوف في سفر الخروج.

(٢) جاء في الإصحاح (١٤) من سفر الخروج عند أهل الكتاب ما يلي:
٢١ ومدّ موسَىٰ يَده على البحر، فأجرى الرّبُّ البحْرَ بريحٍ شرقيَّةٍ شديدَةٍ كُلَّ الليل، وجعل البحر يابسَةً وانْشقَّ الماء ٢٢ فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماءُ سورٌ لهم عَنْ يمينهم وعن يسارِهم، ٢٣ وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم، جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر ٢٤ وكان في هَزِيعِ الصبح أنَّ الرَّبَّ أشْرَفَ على عسكر المصريين في عمود النار والسّحاب وأزعَجَ عَسْكَرَ المصريّين ٢٥. . . فقال المصريّون نهرب من إسرائيل. لأنّ الربّ يقاتل المصريّين عنهم. ٢٦ فقال الربُّ لموسى مدّ يدك على البحر ليرجِعَ الماءُ على المصريين على مركباتهم وفرسانهم ٢٧ فمَدَّ موسى يده على البحر فرجع البحْر عند إقبال الصبح إلى حاله الدّائمة.

البحر، وهالَ فرعونَ وجنُودَه أن يفْلَتَ الإسرائيليّون من أيديهم، وأوهموا أنفسهم أنّ الحدث قد كان ظاهرةً طبيعيَّةً تجمَّدَ بها الماء، ولم تكُنْ معجزةً ربَّانيَّةً منحها الله لموسى عليه السلام، فتبعوهم ليلاً، ودخَلُوا وراءهم مكابرين من حيث دخلوا، وانتهىٰ خروج أواخر بني إسرائيل قُبَيْلَ الفجر، واستكمل فرعون وجنوده الدخول في مكان الفَرْقِ من البحر، ملاحقين بني إسرائيل، والبحْرُ جامِدٌ ساكن، وأمَرَ اللَّهُ مُوسَىٰ أن يترُكَ البحْرَ رَهْواً، أي: ساكناً متجمّداً عند مكان العبور، إغراءً للعدوِّ الملاحق، ثمَّ أمر الله موسىٰ أَنْ يضْرِبَ بعَصَاهُ البحر، فضربَهُ فذابَ الجليد، والتأم الماء، وغَرِقَ الجيشُ الملاحِقُ كُلُّهُ عند الفجر.

وكانت أحداثُ هذه اللّيالي العشر من أول المحرّم حتَّىٰ العاشر منه، الذي هو يوم الإنقاذ لبني إسرائيل، والإهلاك لفرعون وجنودِه أحداثاً عظيمة تَسْتَحِقُّ أن يُقْسم الله بها، كناية عن صفاتِ عدله، وانتقامه وانتصاره لرُسُلِهِ والَّذِينَ آمَنُوا معهم، باعتبارها الزمن المختار لتحقيق سنّةِ الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.

ومن هذا التتبُّع ندركُ أنّ الْفَجْرَ هو الوقْتُ المختار من العزيز الجبار لبدء توجيه وسائل إهلاك عادٍ، وثمود، وقوم لوطٍ، وفرعون وجنوده.

فهذا الوقت جديرٌ بأن يُقْسِمَ الله به، على تقدير أنّ القسم به هو قَسَمٌ بحكمته في مقادير جزائه وعقابه المعجّل لمستحقّي العقاب في كثير من وقائع إهلاكِهِ لكفّار أهل القرون الأولىٰ.

وبالنظر في نُصوص القرآن نلاحظ أنّ إنْزال البأسِ وإجراء الإهلاك أو التعذيب بَيَاتاً، أي: حين دخول الناس في الليل، ولا سيما في أواخره مع دخول الفجر، أو حين قيلولة الناس وسكونهم بعد الظهر هو السُّنَّةُ المفضّلة في مقادير الله للإهلاك، وقد يكون في وقْتِ الضحىٰ وهم يلعبون.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾:

بياتاً: أي: وهم داخلون في اللّيل، وربّما يكونون نائمين فيه.

قائلون: أي: وهم نائمون في وقت القيلولة.

وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

* * *

- ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾: قَسَمٌ بِوَقْتِ انْبِعَاث نور الصبح لانتهاء اللّيل وبَدْءِ النهار. وهو الوقت الذي بدأ فيه إنْزَالُ بأس الله، لإهلاك عَدَدٍ من الأمم الّتي كذَّبَتْ رُسُلَ رَبّها، وطغَتْ وبَغَتْ، كما سبق بيانه.

- ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ هي فيما ظهر لي العشر الأوائل منْ شهْرِ المحرَّم، الّتي سار فيها بنو إسرائيل بقيادة موسى وهارون عليهما السلام، خارجين من مصر في اتّجاه البحر الأحمر إلى سيناء، كما سبق بيانه، وقد أقسم الله بها.

وحذفت الياءُ من ليالي للتنوين، تخلُّصاً من اجتماع ساكِنَيْن كما هي القاعدة.

- ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾: **الشّفْعُ** في اللّغَةِ: مَا كانَ عَدَدُه زَوْجاً. **والوَتْر**: مَا كان عددُه فرداً. وقد ظهر لي أن المراد سبْعُ اللَّيالي وثمانية الأيّام التي أهلك الله فيها عاداً بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية، سَخّرَها عليهم متتابعةً حُسُوماً، وقد أقسم الله بها، كما سبق بيانه.

- ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾: إِذَا يَسْرِي بإثبات الياء أو حذفها، أيْ: إِذَا

يَمْضي شيئاً فشيئاً، إِذْ قَدْ يكُونُ هو الوقْتَ المختار لإنزال بأس الله في الذين يقضي اللّهُ بإهلاكهم من أُمَمِ الكُفْرِ، وكم من قَرْيَةٍ كَفَرَ أَهْلُهَا وَظَلَمُوا وطَغَوْا وَبَغَوْا فجاءَهُمْ بَأْسُ اللّهِ بَيَاتاً، وهم نائمون ليلاً.

يَسْرِي: أي: يمضي. وقد يكون من فعل «سَرَىٰ فلانٌ يَسْرِي» إذا مَشَىٰ ليلاً، وجاء وصف اللّيل هنا بأنّه يَسْرِي على معنَىٰ أنَّهُ يُسْرَىٰ فيه، كما يقال: نهارُهُ صائم، ولَيْلُهُ قائم.

وهذا من المجاز العقلي، كما يقولُ كثيرٌ من علماء البلاغة، إذ جاء فيه إسناد الفعل إلى زمن فعلِ الفاعل، لا إلى الفاعل نفسه⁽¹⁾.

وفي الْقَسَم باللّيل إذا يَسْرِي إشارةٌ إلى تَبْيِيتِ الله الناس بالعذاب، إذا حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب، لأنَّ اللَّيل هو الوقْتُ الذي يكثُرُ اختيار اللّهُ له، ولا سيما أَواخِرُهُ، ومَعَ انبعَاثِ الْفَجْرِ، لإِنْزَالِ العذاب وإِهْلاكِ مَنْ قَضَىٰ اللّهُ بإهلاكِهِمْ.

وفي هذا الْقَسَمِ وَعيدٌ للمجرمين المكذبين برسالة رسول اللّهِ، الَّذِين يعْمَلُونَ على اضطهَادِ المؤمنين وتَعْذِيبهِمْ والإفساد في الأَرْض، بأَنَّهُمْ يُعَرِّضونَ أَنفُسَهُمْ لإِنْزَالِ عقابِ الله فيهم، وإهلاكهم كَمَا أَهْلَكَ نُظَراءَهم من مُجْرِمي القرون الأُولَىٰ.

ودلَّ على الوعيد استعمال لفظ «إِذَا» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ فهو ظرفٌ لما يُستقبَلُ من الزمن.

أي: فَسُنَّةُ اللّهِ في تبْيِيت الْمُجْرمين بالمعذِّبات والمهلكات سُنَّةٌ ثابتَةٌ، يجري تنفيذها كلّما قَضَتْ حكمةُ اللّهِ بإهلاك مجرمين لاحقين، إلى أَنْ تقومَ

---

[1] انظر «تقسيم الإسناد في الجملة إلى حقيقي ومجازي» في كتاب: «البلاغة العربية» للمؤلف ج(١) ص(١٩٤).

السَّاعَة، فتسْرِي وسائل وأدواتُ الإهلاك ليْلاً، كالرّيح المدمّرة، والبراكين المتفجّرَة، والزلازل الْمُحْدِثَةِ للخراب، والفيضانات الآتيات بالعذاب، والنيران المحرقة، والسُّيول المغرقة، فيَصُبُّ اللَّهُ بها عذابَهُ على المجرمين، أثناء اللَّيْلِ، أوْ مَعَ الْفَجْرِ والإصباح، وعند الشروق وهم نائمون.

إنَّ الْقَسَمَ بأحداثِ إهلاكٍ سبقَتْ، وأحداثِ إهلاكٍ يُنْذِرُ اللَّهُ بإيقاعها مستقبلاً على المجرمين، قَسَمٌ بأمْرٍ عظيمٍ مُخِيفٍ، مَهُولٍ جدًّا، وهو يُنَبِّهُ ذَا الحِجْرِ على الخطر العظيم، فيجعله يَحْجُرُ على أهوائه وشهواته وَكِبْرِهِ وكلِّ نوازِغِهِ وَنَوَازِعِهِ الجانِحَة، بإرادة عاقلَةٍ رشيدة، فَيُؤْمِنُ باللَّهِ وَبرُسُلِهِ، وبكُلِّ ما جاء عن اللَّهِ من بيان وتكليف، ويؤمِنُ بالجزاء وبيومِ الدّين، ويتّبعُ سبيل الْهُدَىٰ ضِمْنَ حُدُودِ استطاعَتِه.

- ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾:

الحِجْرُ: هو العَقْلُ، وسُمِّيَ حِجْراً لأنَّهُ يَحْجُرُ أهواءَ صاحِبِهِ وغَرَائِزَه وشهواته، ويَعْقِلُهَا بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ حازمَةٍ عاقِلةٍ رشيدة، حتَّىٰ لا تَسُوقَهُ إلى الموبقات، وتدفَعُ به إلى المهالك.

«هل» حرفُ استفهامٍ موضوعٌ للتَّصْدِيقِ الإيجابيّ(١).

والاستفهامُ هنا خارجٌ عن حقيقته وهو طلبُ الفهم، والغرض منه هنا التقرير، ويُسمَّىٰ عند البلاغيين استفهاماً تقريرِيّاً، والمرادُ به حمل المخاطب على الإقرارِ والاعترافِ بأمْرٍ يعْلَمُهُ، أو يَشْعُرُ به.

فذو الْحِجْرِ يقول: إنَّ الْقَسَمَ بأزمِنَةِ إهْلاَكِ اللَّهِ العزيزِ الجبّارِ

---

(١) **التصديق**: هو إدراكُ النسبة الحكميّة في الجملة، فلا يستفهم بحرف «هل» عن المفرد، **والإيجابي**: ضدُّهُ السلبي وهو المنفي، فلا يصحُّ أن يقال: هل لم يأتِ العيد، ولا هل لم يُرَ هلال شوال، بل تستعمل الهمزة في الجملة المنفية.

للمجرمين سابقاً ولاحِقاً قَسَمٌ عظيمٌ مَهُولٌ، فيه وعيدٌ شدِيدٌ، لِمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ الْحَقِّ، ولم يَتَّبِعْ صِرَاط الله المستقيم، الذي جاء به دِينُ الله للناس أجمعين.

وقد أقْسَمَ الله عَزّ وجل بهذه الأزمنة توطئةً لعَرْضِ إهلاكه لعادٍ وثمود وفرعون وجنوده، تحذيراً للمشركين في عصر الرسول محمد ﷺ، من أن يُنْزِل اللّهُ بهم مِثْلَ ما أنزل بالذين سلفوا، إذا وصلوا إلى مثل الحال الّتي وصلَ إليها السابقون المهلَكُون.

* * *

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾؟!.

الاستفهامُ هنا خارجٌ عن أصل دلالته، وهو طَلَبُ الإفْهَامِ أو الإعلام، والمراد به التقريرُ، أو التلويمُ والإنكار، وهو موجَّهٌ للمكذِّب الجاحد المنكر لرسالة الرسول.

فعلى معنى التقرير يُرادُ بالاستفهام حمْلُ المخاطَب على الإقرار والاعتراف بعلمه بما فعل الربُّ جلَّ جلالُهُ بهؤلاء القوم.

وعلى معنى التلويم والإنكار فالمرادُ به تحميله مسؤوليَّةَ المؤاخَذَةِ على عَدَمِ اتّعاظه بما يَعْلَمُ من سُنَّةِ اللّهِ في إهلاك الكافرين المكذبين، المعاندين المجرمين العاملين على قَمْعِ دعوات رسل الله، واضطهاد الّذين آمَنُوا بهم.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؟: أي: ألم تَعْلَم، فالرُّؤيَةُ على هذا رؤيَةٌ علمية. ولا مانع من حَمْلِهَا على الرُّؤية البصرِيَّةِ أيضاً إشارة إلى أنّ بإمكان الرائي أن يَرَىٰ أرضهم وديارهم، ويَشهَدَ ما حلَّ فيها من دمار واعظٍ لمَنْ أرادَ أنْ يَتَّعِظ. وعَادٌ قبيلة من القبائل العربيّةِ البائدة، وهم من ذُرِّيةِ من نجا مع نوحٍ عليه السلام، وهي مسمّاة باسم جدِّها عاد.

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾: إِرَم: اسم بلاد عادٍ، وإِرَم: هو في الأصل اسمُ جدِّ عاد، فهو كما يذكرُون واللَّهُ أعلَمُ: عادُ بْنُ عُوص بن إرَم بن سام بن نوحٍ نبيِّ اللَّهِ ورسوله عليه السلام.

وأُطْلِقَ لفظ «إِرَمَ» على قبيلةٍ مِنها عادُ الأولى، وهي منْحَدِرَةٌ من جدِّها: «إرم بْنِ سَام». وهي قبيلةٌ من قبائل الْعَرَبِ البائدة، وهذه هي المرادة هنا.

وتوجد «عادٌ» ثانيةٌ، يقالُ: إنَّها مَنْ بَقِي من عاد الأولى، وهم ذُرّية من آمنوا بهُودٍ عليه السلام، أو من كانوا بعيدين عن مواطن إهلاك قومهم.

وجاء وصف «إرَم» بأنّها ذات العماد، إشارة إلى أنَّهُمْ كانوا يقيمون مساكنهم على أعمدة.

و ﴿ذَاتِ﴾ إمّا وصْفٌ للبلاد، أو وصفٌ للقبيلة، فعلَىٰ أنَّها وصف للبلاد، فالمعنى أنّ بلاد إِرَم هي البلادُ ذاتُ العِمَاد، أي: المتميّزةُ بهذا الوصف. وعلى أنها وصف للقبيلة، فالمعنى أنّ قبيلة إرمَ قبيلة مشهورة ومعروفة في زمانها بأنها ذات العماد.

﴿ٱلْعِمَادِ﴾: لفظة تأتي بمعنى الخشبة الّتي تقوم عليها الخيمة، فهي على هذا مفرد، وتأتي جمعاً للعِمَادَةِ، وهي الأبنية المرتفعة، وأهْلُ الْعِمَادِ هُمْ أصْحَابُ الأَبنيَةِ العالية الرّفيعة، وهذا الْمَعْنَىٰ هو المعنىٰ الملائم الذي جعل قبيلة إرَم تَتَميَّزُ بين قبائل عصرها بأنّها ذَاتُ العماد، إذْ جاء التعريف بـ «أل» في العماد، لبيان تميُّزِها وَتَفَوُّقِها بأبنيتها العالية الرفيعة بين القبائل الساكنة في البلاد العربيّة.

وربما كانت متفوقة بارتفاع أعمدة خيامها والله أعلم.

ولا أساس للأساطير التي يرويها القصَّاصُونَ عن مساكن عادٍ في الأحقاف⁽١⁾.

---

(١) تقع الأحقاف في مكانٍ من الربع الخالي الآن في شبه الجزيرة العربية.

- ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾: قال المفسّرون: الضمير في: ﴿مِثْلُهَا﴾ يعود على «عاد» التي يُطْلَقُ عليها أيضاً لفظُ: «إِرَمَ»، أي: لم يُخْلَقْ مثل قبيلة عادٍ في بلاد الدُّنيا، لأنّهم كانوا طِوالاً أشدّاء أقوياء، أو في البلاد العربية، والأوّل أظهر والله أعلم.

- ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾: وَقُرِئَ في المتواتر [بِالْوادِي] بإثباتِ الياء المحذوفة اختصاراً ولمراعاة رؤوس الآيات، في قراءة من رواها بالحذف.

[ثَمود] هم قوم النبيّ الرسول صالحٍ عليه السلام، وهي قبيلةٌ عربيّة من القبائل البائدة. وكانت مساكنهم في وادي القُرى، الذي فيه مداين صالح المعروفة، وفيها آثارٌ باقية.

﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾: أي: قَطَعُوا الصَّخْر، يقال لغة: جَابَ فُلانٌ الشيْءَ، أي: قطعه، ويُطْلَقُ على قطْعِ وسَطِ الشَّيْءِ. وعلى خَرْقِه. ويقال: جابَ الصَّخْرَ، أي: نَقَبَهُ.

وآثار «ثمود» في مداين صالح تَدُلُّ على أنّهم كانوا ينقبون الجبال، ويتّخذون لأنفسهم فيها بيوتاً.

- ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾: أي: وفرعون ذي المباني العظيمة التي تُشْبه الأوتاد (أي: الجبال) وقد كان للفراعنة اهتمامٌ ببناء الأهرامات التي تشبه الجبال في ارتفاعها، وقد يكون التعبير كناية عن قوّته وتمكُّنِهِ في سلطانه.

وجاء هنا ذكر «فرعون» دُون ذكر قومه، إشارةً إِلَىٰ أَنّه استخفَّ قَوْمَهُ فأطاعوه، فكان هو كُلَّ قومه، إذْ كانوا بمثابةِ الملْحَقِين بأطرافه، فلا أَمْرَ إلاّ أَمْرُه، ولا رأيَ إلاّ رأيُه.

- ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾:

هذا وصْفٌ لعادٍ وثمودَ وفرعَوْنَ وقَوْمِهِ، فكُلٌّ هؤلاء قَدْ طَغَوْا في البلاد، وأكْثَروا فيها الفساد، بظُلْمِهم وعدوانهم وسَيِّئَاتِ أعمالهم.

الطغيان: تجاوُزُ الحدّ المقبول أو المحتَمَل، إلى مستوى الإضرارِ الفاحش والإفساد الكثير، والظُّلْم والجَوْر والبغي والعدوان.

يقال لغة: طَغَىٰ يَطْغَىٰ طَغْياً وطُغْيَاناً، أي: جاوز الحدّ المقبول، وطغى الماء، إذا فاض وتجاوز الحدَّ فأفسد.

الفساد: التلَفُ، والعَطَبُ، وتحوُّلُ الشيء من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالح ولا نافع، بل رُبَّما يصيرُ ضارّاً كريهاً مفسداً للأشياء الصالحة. يقالُ لغة: فَسَدَ اللَّحْمُ إذا أنْتَنَ وصارَ ضارّاً، وكذلك كلُّ شيءٍ يتحوّلُ إلى كونه مؤذياً أو ضارّاً فقد فَسَد.

- ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾:

يقالُ لُغَةً: صَبَّ فُلانٌ الماءَ على الأَرْضِ مثلاً، إذا سكَبَهُ وأَفْرَغَهُ دُفْعَةً واحدة من الإناء الذي هو فيه. فالصَّبُّ جعْلُ الشَّيْءِ يتهاوىٰ من عُلْوٍ بتتابُعٍ على أكثر ما لديْهِ من انْدِفاع وسُرْعَةٍ.

والسَّوْط: هو ما يُضْرَبُ بِهِ منْ جلْدٍ للتَّعذِيب.

في هذه الآية استعارة فِعْلِ «صَبَّ» للدلالة على إنزالِ العذاب بتتابُعٍ وعُنْفٍ كما يُصَبُّ الماء من الإناء علَىٰ رؤوس الذين يُصَبُّ عليهم، واسْتعارةُ لفظ «سَوْطٍ» للأدوات الرّبّانيّة الّتي أهلَكَ اللَّهُ بها هؤلاء الأقوام، إذْ شُبِّهَ إنْزَالُ العذَاب عليهم بتتابُعٍ بحركَةِ الصّبِّ، وَشُبِّهَتْ أَدَواتُ التعذيب الرّبّانيّة بالسَّوْط. وأضيفَ لفظ «سَوْطٍ» إلى كلمة «عَذَابٍ» لبيان أنّ إهلاكهم لم يكُنْ مجرَّدَ إماتَةٍ لم تقْتَرِن بشُعورِهِمْ بآلامِ العذاب النازل عليهم، بل كانت مقرونةً بإذاقتهم عذاباً شديداً.

وبهذا استكْمَلَتِ الصورَةُ تعبيراتها المقصودة بالبيان.

هذا أوّلُ عَرْض قرآنيٍّ نَزَل بشأن إهلاكِ أُمَمٍ ماضيَةٍ كذّبت رُسُلَ ربّها، وطغت في البلاد، وأكثرت في الأرض الفساد، وهو عرضٌ موجزٌ غاية الإيجاز، ثمّ نزلت في القرآن بعد هذا تفصيلاتٌ متتابعاتٌ، كلٌّ منها يلائم المناسبة التي ورد بشأنها.

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾:

هذا هو الْمُقْسَمُ عليه في السورة، إذْ بدَأَتْ بالْقَسَمِ بالفجر، وليالٍ عشر، والشَّفْعِ والوَتْرِ، واللَّيْلِ إذا يَسْرِ.

الْمِرْصَادُ: هو مَكانُ الرَّصْدِ أو طريقُه، الرَّصْدُ هو المراقبةُ التامَّةُ لأمْرٍ ما، دون سَهْوٍ أو غفلة، لئلا تَمُرَّ لحظات يفْلَتُ فيها المرصودُ ويخْرُج عن سَاحَةِ المراقبة.

فراصِدُ النجم يُتابعُ حركَته وظهوره واختفاءه، والأسَدُ يرصُدُ فريسته، والْحُرّاسُ يَرْصُدُون الطرقات من حولهم يترقَّبُون، حتَّىٰ لاَ يُداهِمَ المحروسَ عدُوٌّ أوْ لِصٌّ.

وهذا التّعبير القرآنيُّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ كنَايَةٌ عَنْ مُرَاقَبةِ اللَّهِ للمجرمين دواماً، في كلّ الأزمانِ حتَّىٰ أقْصرِ وَحَدَاتِها وأصغرها، مع شمولِ عِلْمِه لكلّ حركةٍ وسَكَنَةٍ من حركاتهم وسكناتهم، وبما أنَّهُ حكيمٌ عَدْلٌ مُنْتَقِمٌ جبَّارٌ، ولَهُ سُنَّةٌ في عبادِه ثابتَةٌ لاَ تبديلَ لَهَا وَلا تحويلَ فيها، كما جاء التصريح به فيما نزل من قرآنٍ بعد هذا في عِدَّة سُوَر، فإنَّهُ سيُنْزِلُ عذابَهُ وإهلاكَهُ على المجرمين اللاّحقين، كما أنزله على المجرمين السابقين.

وفي هذا إلماحٌ إلى إنذارٍ ووعيدٍ بعذابٍ وإهلاكٍ لكلِّ المجرمين، متَىٰ وصلَتْ حالتهم إلى مثل الحالة التي وصل إليها المعذّبون المهلكون الغابرون.

(٥)

التدبُّر التحليليّ للدرس الثاني من السورة

الآيتان: (١٥ و ١٦) وكلمة «كلّا» من الآية (١٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا . . .﴾.

القراءات:

- وقُرِئ: [أكرمَنِي] بإثباتِ ياء المتكلم. وقُرِئ: [أَهَانَنِي] أيضاً بإثبات ياء المتكلم.

- وقُرِئ: [فَقَدَّرَ عَلَيْهِ] بتَشْدِيد الدّال. وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ من النّاسِ مَنْ يضَيِّقُ اللَّهُ عليه الرزْقَ تضييقاً غَيْرَ شدِيدٍ، وقد دلَّت على هذا قِرَاءَةُ: [قَدَرَ] ومن الناس من يُضَيِّقُ اللَّهُ عليه الرّزْقَ تضييقاً شديداً، وقد دلَّتْ على هذا قَراءَةُ [قَدَّرَ] بتشديد الدال، إذْ زيادة المبنىٰ بالتضعيف هنا تَدُلُّ على الزيادة في المعنى.

يُقَالُ لغة: قَدَرَ اللَّهُ على فُلاَنٍ الرّزْقَ، وَقَدَّرَهُ، إذا ضيَّقَهُ وقلَّلَهُ عَنْ حاجته وحاجَةِ عياله، وهذا أحد معاني هذا الفعل.

* * *

تمهيد:

في هذا الدرس بيان خطأ النّاس في مفهوماتهم حول قضيَّة بسْطِ الله الرزقِ على بعض عباده، وَتضييقه الرّزق على آخرين، مع بيان حكمة الله في ذلك، وهي ابتلاء كلٍّ فريقٍ منهما بما يلائم خصائصه النفسيَّة التي فَطَرهُ الله عليها.

وقد يمتحن الله بعض عباده بالتضييق فالبسط، أو بالبسط فالتضييق، وقد يجعل بعض عباده يتقلَّبُ بين البسط والتضييق.

وامتحان الإنسان مُتَابَعٌ برَصْدِ تصرُّفاته الكواشِف لبواطنه، وتسجيلها عليه، تمهيداً لمحاسبته فمجازاته يوم الدين.

إنّ الامتحان ببسط الأرزاق والسَّعَةِ في امتلاك الأموال، أو بتَضييقها وتقليلها، امتحانٌ صعْبٌ، وهو من أكثر الامتحانات كشفاً لكوامن النفوس، ولتوجُّهِ الإرادات الحرَّةِ في اختياراتها الدافعات إلى السَّيْر في طريق الخير، أو السَّيْر في طريق الشر، أو التردُّد بينهما في مسيرة الحياة، أو الانحراف ثم الاستقامة، أو العكس.

وفي هذا الدرس من سورة (الفجر) متابعة لسلسلة الحديث عن الأموال، وواجب الإنسان الممتحن في الحياة الدنيا تجاهها، الّذي تعرّضت له سُوَرُ «العلق، والمدثر، والأعلى، واللّيل» فيما سبق من تنزيل.

- ففي سورة (العلق) جاء بيان أنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.
- وفي سورة (المدّثر) جاء بيان أن من أسباب التعذيب في سقر يوم الدين عدم إطعام المسكين.
- وفي سورة (الأعلى) جاء إلماح ضمني إلى حرص الناس على المال وشُحِّهم به، ضمن قضيّةٍ عامّة، وهي بيان أنّهم يؤثرون الحياة الدنيا.
- وفي سورة (الليل) برز التَّوجيه بقوّة للعطاء الماليّ، المبني على قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر، والتحذيرُ من البخل وإمساك المال عن مستحقّيه.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾:

الفاء في: ﴿فَأَمَّا﴾ دلّت على أنّ ما بعدها مفرَّع عن شيءٍ جاء بيانه في الدرس الأول من السُّورة.

وبالتأمُّل يظهر لنا أنّ قول الله عزّ وجلّ في آخر الدرس الأول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ دلَّ على أنّ الناس لو لم يكونوا موضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان لَمَا كان اللّهُ لهم بالمرصاد.

وكون الناس موضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، يقتضي أنْ يكونوا ممتحنين بقضيّة بَسْطِ الرزق وتوسعته، أبو بتضييقه وتقليله، وذلك بحسب خصائصهم النفسيّة الّتي فَطَرَهُمُ اللّهُ عليها، ضِمْنَ أمُور كثيرة جدًّا امتحنهم الله ويمتحنُهُمْ بها، ولكنَّ البيان هنا وجّهَ العناية لقضية الأرْزاق لأهمّيتها عند الناس، وللحاجة إليها دواماً، ولأنّ بذل المال ابتغاء مرضاة الله من المطالب الأولى في سلوك الإنسان المؤمن المسلم، ويأتي بعد الصلاة لله مباشرة.

أي: فتفريعاً على كون الناس ممتحنين بكُلِّ عطاءٍ من اللّهِ أَوْ مَنْعٍ في ظروف الحياة الدنيا، يُشَاهِدُ المتتبّع الخبير أَنَّ الناسَ غافلون عن حكمة اللّهِ في ابتلاء الناس، ويتوهَّمُونَ أَنَّ توسعةَ الرزْقِ لبعض الناس تكريمٌ من اللّهِ لهم، وأَنّ تضييقه على بعض عباده إهانَةٌ من اللّهِ لهم.

وكلمة: [أمّا] حَرْفٌ فيه معنى الشرط والتوكيد دائماً، وفيه معنى التفصيل غالباً، وتُكرَّرُ كثيراً حينما تحمل معنى التفصيل، كما جاء هنا في السورة.

إنّ الحكمة من الْبَسْطِ والتَّضْيِيقِ هي الابتلاء، أي: الامتحان والاختبار. لكِنَّ الإنسان أخطأ الفهْمَ عن الله، وأخطأ في تعليل تصاريفه في خَلْقِهِ، فأَبْعَدَ عن ذِهْنِهِ حِكْمَةَ الامتحان وقَدَّمَ من تَوَهُّمِه تَعْليلاً تفصيليًّا آخر، فزعَمَ أَنَّ بَسْطَ الرّزقِ تكريمٌ من اللّهِ لعَبْدِهِ، وأنَّ تَضْيِيقَهُ إهانَةٌ من الله له.

وكلا التوهُّمَيْنِ باطلٌ يَسْتَحِقُّ صاحبُهُ عليه الزَّجْر والرّدْعَ.

والمرادُ من الإنسانِ الجنْسُ الَّذي ينطَبِقُ على معظم أفراده، ولا يُرادُ به مَنْ آمَنَ بالله وأسْلَمَ له، وفَهِمَ حقيقةَ حِكْمَةِ اللَّهِ في عطائه ومَنْعِه، ونِعَمِهِ وَمصائبه، في ظروف الحياة الدنيا، وأنَّ القاعدة العريضة في كلّ ذلِكَ الابتلاء، فهذا الإنسانُ لا يجري وراء توَهُّمَاته، فَلَا يقول مقالة الجاهلين.

ولا تشمَلُ عبارة (الإنسان) هنا الكافر والملحد الذي يرى أنه نال أمواله بعلمه ومهارته، أو بمصادفة حظ.

- ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: أي: إذا امْتَحَنَهُ اللَّهُ رَبُّه المهيْمِنُ عليه بسُلْطانِ رُبُوبيّتِه، و «ما» بعد إذا تأكيديَّةٌ لمعنى الشرط، أو لفعل الشرط.

مادة الابتلاء تدُلُّ في أصل معناها على الامتحان والاختيار، لكشف ما لدى المبتَلَىٰ من صفاتٍ كاماناتٍ، بعَملٍ إراديٍّ ذي أثر يُدْرَكُ في النفس، أو في حركات وتصَرُّفاتِ الْجَسَدِ الإراديَّة، ويكون الابتلاء بالنعم وبالمصائب.

- ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾: **فأكْرَمَهُ**: أي: فجعَلَهُ بعطاءاته له مترفّعاً عن الحاجة إلى الناس، واستجداء صدقاتهم ومعوناتهم.

ونَعَّمَهُ: أي: جعلَهُ يتنَعَّمُ بما أعطاه من وسائل التَّرَفُّهِ في الحياة الدنيا، يقال لغة: نَعَّمَ الله الإنسانَ، أي: أفاض عليه نِعماً وأَرزاقاً وخيراتٍ، جعلَتْهُ يستمتع بلذَّاتها في حياته.

ومن فعلي: «أكرمه ونعَّمَهُ» ومقابلتهما بقوله: [وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ] نفهم أنّ المراد وسَّعَ له رزقه.

- ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وفي قراءة [أَكْرَمَنِي]: أي: أعطاني ما أَنَا لَهُ أَهْلٌ مِنْ تكريمٍ وتعظيم ومكانةٍ عالية.

يقال لغة: أكْرَمَ فُلاَنٌ فلاناً إذا عظَّمَهُ وَنَزَّهَهُ وَشَرَّفه. والعبارة تَدُلُّ بإيحائها على أنّ القائل يَشْعُر باستحقاقه لهذا التكريم.

● ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ وقُرِئ: [فَقَدَّرَ] وقد سبق بيان تكامل القراءتين في الدلالة على المراد.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾: سبق شرح نظيرها.

﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾: أي: فضَيَّقَ عليه رزقه ولم يَبْسُطْهُ له.

﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ وفي قراءة [أَهَانَنِي] بإثبات ياء المتكلّم.

أهانني: أي: أَذَلَّنِي. وهذه العبارة تَدُلُّ بإيحائها المستفاد من القرائن في النّصّ، على أَنَّ قائلها يَشْعُرُ بأَنَّ ربَّهُ ظلمه فلم يُعْطِهِ ما هو له أهل.

﴿كَلَّاۖ﴾: أداةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، ويجوز الوقوف عندها في كُلِّ الأحوال. وقد جيء بها لزجْرِ ورَدْعِ صاحِبَي المقالتين.

والمعنى: لا بَسْطُ الرزق للإنسان تكريمٌ له، ولا تضييقُه عليه إهانة له، بل كُلٌّ منهما لابتلاء الإنسان وامتحانه في ظروف الحياة الدّنيا. فيا صاحِبَ المقالة الأولى، ويا صاحِبَ المقالة الثانية، كُفَّا وامْتَنِعَا عن مقالَتَيْكُمَا، فهي مقالةٌ باطلةٌ لا أَساس لها من الصِّحَّة، إنَّ الله ليس بينه وبين أحد من عباده نَسَبٌ ولا قرابة ولا مصاهرة، فلا يُحَابِي فريقاً منهم ببسط الرزق، ولا يَجُورُ على فريقٍ منهم بتضييقه عليه.

* * *

(٦)

التدبر التحليليّ للدرس الثالث من السورة

الآيات من (١٧ ـ ٢٠) وكلمة «كلَّا» من الآية (٢١)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿. . بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ . .﴾.

القراءات:

- وقُرِئ: [يُكْرِمُونَ ـ يَحُضُّون ـ يَأْكُلُونَ ـ يُحِبُّون] بياء الغائِبين.
- وقُرِئ: [تَحُضُّونَ] كما قُرِئ: [تَحَاضُّونَ] وبين هاتين القراءتين تكامل في المعنى، فَتَحُضُّونَ ليس فيه معنى المشاركة في الحضّ، وهذا يناسِبُ حال أصحاب القيادة الفكريّة في مجتمعهم الذين ينْصَحون العامة، وتَحَاضُّونَ فيه معنى المشاركة، وهذا يناسب أحوال الناس بشكل عامّ.

وبين القراءتَيْنِ التي بتاء الخطاب وبياء الغائب تكامل بياني، إذْ الخطاب يلائم فريقاً من الناس، والحديث عن الغائب يلائم فريقاً آخر من الناس، وهم المعرضون والمدْبِرون.

* * *

تمهيد:

بعد بيان حكمة الله عزّ وجلّ في توسعة الرزق لبعض عباده، وتضييقه على بعض عباده، وهي حكمة الابتلاء، وبعد زَجْرِ الّذين يتوهَّمُونَ خلاف هذا، لا بُدَّ أن يُدْرِك ذو التفكير السليم، الذي عرف أنّ الغرض من كُلٍّ منهما الابتلاء، أنّ المطلوب في هذا الابتلاء الرَّبَّانيّ من الَّذِينَ وسَّعَ اللَّهُ لهم في الرزق، أنْ يَبْذُلُوا من أموالهم لرفْعِ البؤس عن الَّذِينَ ضَيَّقَ اللَّهُ عليهم أرزاقهم، وفي طليعة هؤلاءِ البؤساءُ من اليتامَىٰ والمساكين.

لكنّ واقع حال الجمهور الأَعظم من ذوي الْيَسار والسَّعةِ، أنّهم قُساةُ الْقُلوب والنفوس، فلا تُحرّكُهُمْ نحو البؤساء عاطفة نبيلة، فلا يُؤَدّون ما يحثُّهُمْ عليه الواجب الإنساني، وما يأمُرهُمْ به التكليفُ الرّبّاني، من بَذْلِ بعْضِ أموالِهِمْ لتخفيف البؤس عن البؤساء، والعطف على الضعفاء، بل يزيدون على هذا حبًّا شديداً للمال، وشَرَهاً للاستزادة منْه ولو بالمكاسب الظالمة الآثمة.

- ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾:

أي: فهل تُؤَدُّونَ يا ذَوِي اليسار ما يجب عليكم في أمْوالكم لِذَوِي الاستحقاق في مجتمعكم من البائسين وذوي الاضطرار؟.

والجواب: لا. بل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ مُجَرَّدَ إِكْرَام معنويٍّ وَلَوْ لَمْ يُكلّفكُمْ مالاً تبذلُونه، إذْ تَشْعُرُونَ بِالتَّرَفُّع والاستعلاء عن إكرام اليتامَىٰ الضعفاء البؤساء، بل تعاملُونهم بالإهانة والإذْلال، ومن كان منكم وليًّا عليه وعلى أمواله أكل ما له بغير حقٍّ، واستغلَّه وأذلّه، وهضم حقوقه.

أكرَمَ فُلاَنٌ فُلاَناً: أي: رفع من قَدْرِهِ وأعطاه ما يُحِبُّ من مكانة، ولم يجعله يشْعُر بانتقاص ولا مهانة، ضدّ أَهانه.

اليتيم: الصغير الذي مات أبوه من الناس.

وإذا كان اليتيم فقيراً فإنّه يدخُلُ أيضاً في عموم المسكين الذي جاء الحديث عنه في الآية التالية:

- ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ⑱﴾ وقُرِئَ: [وَلاَ تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ]:

ولا تَحاضُّونَ، ولا تَحُضُّون: الحضُّ على الأمْرِ الحثُّ عليه، وهو طلَبُهُ بشدّة وإلحاح. يقال لغة: حضَّ الرَّجُلُ صَديقَه على فِعْل الخير، إذا حثَّهُ عليه وطلب منه فعل الخير بإلْحاح. ويقال المؤمنان تَحَاضَّا على فعل الخير والبعد عن الشر، إذا ألح كُلٌّ منهما على أخيه أنْ يَفْعَل الخير ويبتعد عن الشرّ، فصيغة تفاعل تدلُّ على المشاركة.

على طَعَامِ الْمِسْكِين: أي: على إطعام المسكين، استُعْمِل اسم المصدر «طَعَام» بدل المصدر «إطعام» والمعنى واحد.

الْمِسْكِين: هو في الحقيقة الفقير الذي تدلُّ ظواهر حاله على فقره،

فالمسكنةُ: هي ما يَبْدو من ظواهر وأماراتٍ دالآت على الفقر والحاجة. ورُبَّما تكون هذه الظواهر مصطنعة وذاتَ دلالة كاذبة، وبهذا يظهر الفرق بين الفقير والمسكين كما حَقَّقْتُه في كتاب «قواعد التدبر الأمثل».

والمرادُ من المسكين جنْسُ المساكين، وهم الفقراء الذين تدلُّ ظواهر أحوالهم على فقرهم، وهٰذه الظواهر تستعطف ذوي القلوب التي تشعر بالرحْمَةِ نحو ذوي الحاجات والضرورات.

أي: ولا تقومُونَ بواجبكم الاجتماعي نحو ذوي الضرورات والحاجات، ولا تُثِيرُ مشاعر قلوبكُمْ رحمةٌ بهم، فلا تَنْهَضُون متعاونين مع القادرين، فيَحُضَّ بعضكم بَعْضاً لسدّ حاجات ذوي الحاجات والضرورات، حتَّىٰ الضرورة إلى الطعام الذي تتوقَّف عليه الحياة.

- ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ١٩﴾:

استعير فعلُ الأكل للدلالة على معنى الحيازة والامتلاك، لأنَّ الأَكْلَ أكْثَرُ الأعْمَال الدَّالّة على الامتلاك والانتفاعِ والاستهلاك.

التُّرَاثُ: مَا يُورَثُ ممّا كان للميّتِ من مالٍ تركَهُ، أَوْ مَجْدٍ أَو غير ذلك من أمور مادّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّة، ويقال فيه: الميراث، والإراث، والإِرْث.

اللَّمُّ: الجمع المستغرق، يقال لغة: لَمَّ الشيءَ يَلُمُّهُ لمًّا، إذا جَمَعَهُ جَمْعاً شديداً. وجاء وصْفُ «أَكْلًا» بالمصْدَرِ «لَمًّا» للدلالة على زيادة الشَّرَهِ في حيازة الميراث وامتلاكه. أي: تأكلون التراث بشَرَهٍ، جَامعين لأنفسكم منه صغائرهُ وَحَذَافِيرَه.

وهذا أمْرٌ مشاهَدٌ عند معظم الوارثين.

هذه الآية تدلُّ على أنّ الناس بوجهٍ عامٍّ، لديهم شَرَهٌ شديدٌ لامتلاك الأموال دون بذْلِ جَهْدٍ، أو عَمَلٍ مكافئٍ، رغْبةً في تحصيل الثروات والاستكثار منها دون كسْبٍ ذَاتيّ، ونموذَجُهُ الظاهر للجميع أَكْلُ الميراث أكلًا لمًّا جامعاً كلَّ صغير وكبير فيه.

وهٰذا التعلُّقُ النفسيُّ الشديدُ بالأموال يُبَلِّدُ حِسَّ الإنسان تُجاهَ الآخرين من ذوي الحاجات والضرورات، فلا يتحرَّكُ قلبُه برحْمَةٍ ولا بعاطفة كريمة، فكيْفَ يبْذُلُ للمسكين، أو يحضُّ على إطعامه.

- ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾:

الْجَمُّ: هو الكثير من كلّ شيءٍ، أي: وتحبُّون المال حُبًّا كثيراً.

وهٰذه الآيَة تَدُلُّ على أنّ من صفات الناس أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا كثيراً، ولو كان ما جمعوه منه زائداً عن حاجاتهم مهما طالت أعمارُهُمْ في الحياة الدنيا.

وفي هذا البيان كناية عَنْ أنّ بُخْلَهُمْ بأموالهم، وإمساكَهُمْ لَهَا، وحرمانَ ذَوِي الحقوق من حقوقهم سبَبُهُ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جمًّا، حتَّىٰ يكون داءُ حبِّهِمْ للمال غَيْرَ مُرْتَبِطٍ بِحَاجَتهم إليه لقضاء مطالبِهِمْ من الحياة الدنيا وزينتها.

- ﴿كَلَّآ﴾ كلمة رَدْعٍ وَزَجْرٍ لَهُمْ عَنْ كلِّ الصفات الذميمة، الَّتي تجعَلُهُمْ لاَ يُؤَدُّون مَا هُوَ مطلوبٌ منهم في رحلة ابتلائهم، حتَّىٰ يَتَعَرَّضُوا بسببها لعذاب اللّٰهِ يوم الدّين، ويَحْرِمُوا أنفسهم بسببها من الظفر بجنّاتِ النعيم.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدرس الرابع من السورة

الآيات من (٢١ ـ ٣٠)

قال اللّٰهُ عزَّ وجل:

﴿.. إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ

لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

القراءات:

● قرأ الكسائي ويعقوب: [لاَ يُعَذَّبُ] و [وَلاَ يُوثَقُ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، أي: لاَ يُعَذَّبُ وَلاَ يُوثَقُ أَحَدٌ كما يُعَذَّبُ ويُوثَقُ الإنسان الكافر المسوق إلى جهنم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لاَ يُعَذِّبُ] و [وَلاَ يُوثِقُ] بالبناء للمعلوم، أي: لا يُعَذِّبُ عذابَ اللّٰهِ أحدٌ ولا يُوثِقُ وَثاقَ اللّٰهِ أحد، وبين القراءتين تكامُلٌ بياني ظاهر وتكاملٌ في المعنىٰ.

تمهيد:

في هذا الدرس عرض لمشهَدٍ يكون قبل موقف الحشر، وعرْضٌ لمشهد يكون يوم الدين تمهيداً للحساب وفصل القضاء، وإشارة إلى حَدَثين، أحدهما يتعلّقُ بمن يُسَاقُ إلى عذابه في جهنم، والآخر يتعلَّقُ بمن قضىٰ الله له بأنْ يكون من أهل جنته، مع عَرْضٍ وَمْضَةٍ من مشاهد من يُساقُ إلى عذابه.

ويتضمّنُ هذا العرض بياناً لنتيجة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وهو ما جاء في السُّورة بيانُه، فالامتحان يقتضي حتماً المحاسبةَ، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء. وهذا الجزاء يوم الدين يكون في دار العذاب جهنّم، أو في دار النعيم الجنَّة، وبهذا يَتِمُّ تكامل حبَّاتِ عِقْد السورة.

● ﴿.. إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾:

الدَّكُّ: الدقُّ والتكسير والحطْمُ، وجاءَ تكرير ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ وهو مفعول

مطلق لفعل: ﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ للدلالَة على أنَّ حركَةَ الدَّكِّ تأتي متكرّرَةً متتابعة، أي: دكًا فَدَكًا فَدَكًا حتى يتحقَّق المطلوب، وربما تكونُ وسيلة الدك الزلازل التي يحدثها اللَّهُ بها.

ويتحقَّقُ بدَكِّ الأرض تكسِيرُ جبالِهَا ومرتفعاتها، وتسوية سطح كُلّ الأرض، حتى تكون كسَطْحِ الْبُحَيْرَةِ الساكنة التي لا أمواج تتحرّكُ فيها. ويتحقّق بدَكِّ الأَرْضِ أيضاً رَصُّهَا حتَّىٰ لا تكون فيها فراغاتٌ وتجويفاتٌ، ويتمُّ هذا الحدث لحشر الخلائق جميعاً على سطح الأرض في صعيد عامّ، قبل تمييزهم وفصلهم إلى فريق أصحاب اليمين، وفريق أصحاب الشمال، وفريق أصحاب الأعراف الذين هم وسَطٌ بين الفريقين.

أمّا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

فهو فيما أرىٰ محمولٌ على الدَّكَّةِ الواحِدَة، الَّتي تكون عند حملهما ورفعهما وإلقائهما على بَعْضِهما، وتتبعُها حركاتُ دَكٍّ فَدَكٍّ لتسوية عُمُومِ الأرْضِ حتَّىٰ تكونَ كالبساطِ الممدود لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ولا عِوَجَ ولا هُشُوشة.

- ● ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وجاء ربُّكَ اللَّهُ الخالِقُ البارئ المصوّر المهيْمِنُ بصفات ربوبيّته مجيئاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

والغَرَضُ من المجيء الحضورُ لموقف الحساب وفَصْلِ القضاء والأمْرِ بتنفيذ الجزاء.

والملَكُ: التعريف بـ (أل) لتعريف الجنس، فالمراد الملائكة الَّذِين جعلَ الله من وظائفهم الحضور مُصْطَفين صفوفاً لموقف الحساب وفصل القضاء، وتنفيذ ما يأمُرهم الله به.

صَفًّا صَفًّا: أي: وجاءت الملائكةُ مُرَتِّبِينَ أو مُنْتَظِمِينَ صُفُوفاً، فاللفظان معاً في موقع حال تقديره: مرتبين أو منتظمين.

هذا الحضور والانتظام في صفوف، هل يكونُ لكلّ الملائكة، أمْ يكونُ لطوائف منهم يأمُرُهُمُ اللَّهُ بهذا الحضور المنتظم، ويبقى آخرون قائمين بوظائفهم في الجنَّة أو في النار، أو مرافقين لأهل المحشر من الإنس والجنّ؟

الجواب: ليس في النصّ ما يُعَيِّنُ المراد، واللّفظ محتمل لكُلٍّ من الأمرين، وقد أُرَجّح الاحتمال الثاني، لأنّ أداة التعريف في لفظ [الْمَلَك] تُشْعِرُ بإرادة طوائف متميّزة من الملائكة، وهم العَالُون الذين يَجِيئون مع مجيء الرَّبّ، وهم الذين تَشَقَّقُ عنهم السماء، ويُنَزَّلُونَ إلى موقف الحساب تَنْزِيلاً، كما جاء في بعض نصوصٍ قرآنيَّةٍ أخرى.

أمّا الملائكة الآخرونَ فقِسْمٌ منهم موجودُون مرافقون للإنْسِ والجنّ في موقف الحشر منذ بعثهم، وقبل حَدَثِ مجيء الربّ والْمَلَكِ صَفًّا صَفًّا. والله أعلم.

- ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ..﴾:

جَهَنَّمَ: اسم علَمٌ من أسماء النار الّتي أعَدَّها اللَّهُ لعذاب الكافرين والعاصين يوم الدين، وهو ممنوعٌ من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال لِلقَعْرِ البعيد جَهَنّم. وبئر جهنَّمُ: أي بعيدة القَعْر.

هذه العبارة دلّت على أنَّ جهَنَّمَ تكونُ في موقعٍ بعيد عن موقف الحشر، ولكن يُؤْتَىٰ بها حتَّىٰ تكون قريبة من الأرض، من الجهة التي يُجْمَعُ فيها الكافرون، الذين سيُقْضَىٰ عليهم بأن يُعَذَّبوا فيها عذاباً أبديًا.

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّم يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

الزِّمَامُ: ما يُقَادُ به من سَبَبٍ ونحوه، وهو تعبير مستعارٌ للوسيلة التي تُقَرِّبُ بها جهنَّمُ لموقف حشر الخلائقِ يوم الدين.

● ﴿...يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾:

أي: يومَ إذْ تحدثُ هذه الأحداث الجِسَام يوم الدين، يتذكَّرُ الإنسانُ كلَّ مَا كان قد كَسَبَه في سَعْيِه من خير أو شرٍّ في رحلة الحياة الدنيا، كما جاء التصريح بهذا في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بقول الله عزّ وجل فيها:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

الطَّامَّة الكُبْرَىٰ: أي: القيامة للحساب والجزاء. وأصل الطامَّة الداهية الكبرى التي تفوق ما سواها. والطَّامُّ الشيء العظيم، والماءُ الكثير، ويقالُ: طَمَّ الشيءُ إذا كثُر وعَظُم، أَوْ عَمَّ.

وإثبات هذا التذكُّر يَدُلُّ على أنَّ النَّفْسَ الإنسانيَّة، تَحْتَفِظُ بما سجَّلَتْهُ ذَاكرتُها من كُلّ مكْتَسبَاتِها في الحياة الدنيا، من العلوم والمعارف، والأفكار، والأخبار، وأنّ عارض الموت يشبه عارض النوم والإغماء، فهو لا يَمْسَحُ من ذَاكِرَتها ذلك، بل جَعَل اللَّهُ عزَّ وجلَّ بقدرته وحكمته من خصائص النفس الإنسانيَّة أَنَّ المسَجَّلاتِ فيها لا تُمْحَىٰ، وأنَّ النسيان الذي يَعْرِضُ لها في الحياة الدنيا هو بمثابَةِ الأغشية الساترة، وهذه مثل السُّحُب تنقشِعُ في الآخرة، فالنسيانُ ليْسَ مَحْواً كاملاً من الذاكرة.

ولكنَّ الإنسان إذا تذكَّرَ يَوْمَ الدّين، مَا كَانَ قد سَعَاه في الحياة الدّنيا، فهل تنفَعُهُ هذه الذِّكْرىٰ في تَدارُكِ ما فات، وإصلاح السيئات، بفعل الحسنات؟!

الجواب: أَنَّ هذه الذكْرىٰ لاَ تنفَعُهُ، فقد انتهىٰ زمَنُ الابتلاء، وجاء زمَنُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد دلَّ على هٰذا قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾:

﴿وَأَنَّىٰ﴾: اسم استفهام يأتي بمعنىٰ: «مِنْ أَيْن؟». ويأتي بمعنى: [كَيْفَ؟] وهو هنا استفهام يُرادُ به النفيُ مع الإنكار على من يتوهَّمُ الإثبات، وفيه أيضاً معنىٰ التعجيب مِنْ حالِ مَنْ يتَوهَّمُ أنَّ التَّذَكُّرَ يومئذٍ ينفع صاحبه في تدارُكِ ما فات والمبادرة إلى فعل الحسنات والخيرات.

الذِّكْرَىٰ: اسْمُ بمعنَىٰ التذكُّر.

فمعنىٰ العبارة على هذا:

- من أَيْنَ يأتي له نَفْعُ التّذكّر. أو كيف لَهُ أنْ ينفَعَهُ التذكُّر، وقد انْتَهىٰ زمَنُ الابتلاء الذي ينفَعُ العمل الصالح فيه، وجاء زمَنُ الحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، الذي لا يَنْفَعُ الْعَمَلُ الصالِحُ فيه؟!!.

- ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾:

أي: حين يتذكَّر الإنسان الكافر ما سعَىٰ في الحياة الدنيا، ويعلَمُ أنَّ تَذَكُّرَه لا يُجدِيه نفعاً في تدارُكِ ما فات، لا يبقَىٰ لديه إلاّ الندم على ما فرّط في جنب الله، وتَمنّي أنْ يكون قد قَدَّم إيماناً صادقاً صحيحاً، وعملاً صالحاً يُنْجِيه من عذاب الله، ويجعله من أهل جنّاتِ النّعيم.

أمّا الندم فلا يرفَعُ عنه شيئاً من العذاب، وأمّا التّمنّي فلا يُحقِّقُ له شيئاً من أمانيه، مهما أطال في تمنّيه العبارة، ومدَّها بالنداء الطويل، لكنَّهُ لا يَمْلِكُ أكثر من إطلاق عبارة التَّمَنّي، فيقول: يا ليتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتي.

﴿يَٰلَيْتَنِي﴾: «يا» حرف نداء داخل على عبارة التَّمنّي: «لَيْتَني» فأيَّ شيءٍ يُنادِي؟.

ذكر المفسّرون عدّة آراء، منها أنّ المنادى محذوف، مثل: يَا رَبّ ليتني.

أقول: حرف «يا» في مثل هذا الاستعمال أشبه بأن يكون حرْفَ نُدْبَةٍ وتحسُّرٍ وتفجُّعٍ أَوْ تَوَجّع. فالذي ينادي مثل هذا النداء فإنّه يُعْلِنُ تفجُّعَهُ أو توجُّعَهُ من أَجْلِ أُمْنِيَّةٍ تجاوزَتْ حَدَّ الممكنات، ودخلَتْ ضمن المستحيلات، أو الأمور التي لا يُسْتَطاعُ الحصولُ عليها.

﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾: أي: يا ليتني قَدَّمْتُ في حياتي الدُّنْيا لحياتي الباقية الخالدة الأخرىٰ ما أكونُ بِهِ من الفائِزِينَ المفلحين، الْمَجْزِيِّينَ في جنّات النعيم.

جاء في القرآن استعمالُ فِعْلِ «قَدَّمَ يُقَدِّمُ» بمَعْنَىٰ: عَمِلَ في الحياة الدنيا ما يَنَالُ عليه جزاءَهُ في الآخِرَة، نظراً إلى أنَّ الإنسان حين يَعْمَلُ وهُوَ مُكَلَّفٌ عملاً إراديًّا يُجْزَىٰ عليه عند رَبّهِ، يكون قَدْ قَدَّمَهُ قَبْلَهُ لآخِرَتِهِ، إذْ صَارَ مُسَجَّلاً لَهُ أو عليه في كتاب عمله الّذِي يُؤْتَاهُ يَوْمَ الدّين، فهو عمل يَسْبِقه لآخِرَته.

ولَمّا كانت الحياة الدنيا حياةً قصيرَةً زَائِلَةً لاَ خُلُودَ فيها، وكانت بمثابَةِ الْجِسْرِ الذي يَمُرُّ عليه المسافِرُ لدار إقامته الدائمة، لَمْ تكُنْ جديرةً بأن تُعْتَبَر هي الحياة ذَات القيمة.

ولَمّا كانت الحياة الأخرىٰ يوم الدّين هي الحياة الأبديَّة الَّتي لا نهاية لها، كانت هي الجديرة بأن يُطْلَقَ عليها اسْمُ الحياة، وعلى هذا يقول صاحبُ هذا التمنّي: «يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتي».

ولهذا وصَفَ اللّٰهُ الدّار الآخرَة بأنّها هي الحيوان، أي: هي الحياة الّتي تَسْتَحِقُّ هذا الاسم المستجمع لكل عناصره.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

لَهِيَ الْحَيَوانُ: أَيْ: لَهِيَ الْحَيَاةُ الحقيقيَّةُ الخالِدَةُ الَّتي لا لَهْوَ فيها ولا لعب، بل كلُّ ما فيها حقٌّ وجِدٌّ.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فَيَوْمَئذٍ لاَ يُعَذِّبُ مثل عَذَابِ الله أحد، ولا يُوثِقُ مثْلَ وَثَاقِ اللَّهِ أَحَدٌ.

وقُرِئ: (لا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ):

أي: لاَ يُعَذَّبُ مثل عذاب الإنسان الكافر أحَدٌ، ولا يُوثَقُ مِثْلَ وَثَاقِ الإنسانِ الكافِرِ أحَدٌ، ببناء فعل «يُعَذَّبُ» وفعل «يُوثَقُ» لما لم يُسَمَّ فاعله.

والغرضُ شِدَّةِ الترهيب من عذاب اللَّهِ يَوْمَئِذٍ، لأَنَّ الْمُلْكَ يَوْمَئذٍ للَّهِ وحْدَهُ، فلا تَعْذِيب إلاّ تعذيبه، ولا وَثاقَ إلاّ وَثَاقه.

يقال لغة: عَذَّبَ تَعْذِيباً، أي: عاقَبَ وَنَكَّلَ. والعذابُ اسْمُ للعقاب والنَّكال، فهو اسم للمصدر.

ويقال لغة: أوثَقَ الأَسير إيثاقاً، إذا شَدَّ عليه الْوَثَاق، بفتح الواو وكسْرِها، وهو ما يُشَدُّ به الأسيرُ من حَبْلٍ أو غيره.

والْوَثَاقُ أيضاً اسم للإيثاق الذي هو مصدر «أَوْثَقَ» وهذا هو المراد في النصّ هنا.

والتّعبيرُ كلُّه كناية عَنْ أخذ الإنسان الكافر يومئذٍ إلى دار التعذيب جَهنّم.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠)﴾.

في مقابل أخذ الكافر إلى جهنم دار عذابِه الأبديّ، يقتضي البيان الحكيم تَوْجِيهَ حديثٍ عَنْ مَصِير المؤمن المسلم يومَئذ.

واختير في البيان هنا اقتطاع لَقْطَةٍ من مَشَاهِدِ توجيه المؤمنين المسلمين إلى دُخول الجنَّةِ دَارِ نعيم المتقين.

ويُسْمَعُ من هٰذه اللَّقْطَةِ الْمَحْكيَّة المقتطعَة من المستقبل للحاضر، حتَّىٰ كأنّ السامعَ أو التالِيَ حاضرٌ هذا المشهد المستقبليّ، يَسْمَعُ مَا يقالُ لكلّ نفس مؤمنة مسلمةٍ، حينَ الإذْنِ لها بدخول الجنة، فتُنَادَىٰ نداءً تكريميًا بنَفَسٍ طويل:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧)﴾:

تُخَاطَبُ نَفْسُ الْمُؤمِنِ الْمُسْلِمِ، لأَنّ نَفْسَ الكائنِ الحيِّ هي حقيقة ذاته، والحامِلَةُ لصِفَاتِه، والكاسِبَةُ لأعماله، وفيها خريطَةُ وُجودِه، أمّا أعْضاءُ الجسَدِ فأدواتٌ تَظْهَرُ فيها حركاتُ النفْسِ واختياراتُها، وأمّا الروحُ فطاقة الحياة، كالكهرباء في الآلاتِ الّتي تُحرّكها القوة الكهربائية.

ولمَّا كان النداء للنفس المؤمنة المسلمة التي قضىٰ الله لها بأن تكون من أهل الجنَّةِ يومئذٍ، جاء فيه وصْفُهَا بصفة «المطمئنّة».

الطُّمَأْنِينَةُ: غايَةُ السُّكُونِ والارتياح، والاستقرارِ الخالي من التوتُّرِ والقلَقِ والاضطراب.

يُقال لغة: طَمْأَنَهُ طَمْأَنَةً إِذَا سَكَّنَهُ ودفع عنه القلق والاضطراب، واطْمَأَنَّ يَطْمَئِنُّ اطْمِئْنَاناً، إذا سَكَنَ واستقَرَّ بلا تَوَفُّزٍ وَلا قَلَقٍ، فهو مُطْمَئِنٌّ.

والمؤمن الْمُسْلِمُ الذاكر لربّه قد يصل في الحياة الدنيا إلى مرتَبَةِ

الطُّمَأْنِينة، كما قَال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾.

وعند الموتِ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ من الْجَنَّةِ بِشَارَةٌ لَهُ فَيطْمَئِنُّ عَلَىٰ مصيره، وقد ثبت هذا بدلالة القرآن وصَرِيحِ الحديث عَن النبيّ ﷺ.

وفي موقف الحشر يَسْتَلِم كتابَ أعماله بيمينه فيطْمَئِنُّ إذْ يُدْرِكُ أَنَّ مصيره إلى الجنَّة. ويُفْرَزُ المؤمِنُونَ إلى جهة الجنة عن الكافرين، وعن أهل الأعراف، فيزيدُ طُمَأْنِينَةً.

وبعد الحساب وفصل القضاء يَصْدُرُ الحكْمُ الرَّبَّانِيُّ بأنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجنَّة، فيزْدَادُ طُمَأْنِينَةً وارْتِياحاً، ويَتَرَقَّبُ أَنْ يُنَادَىٰ بأنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ.

فأكْثَرُ الأَوْصَافِ مُلاَءَمَةً لحالَةِ هذه النَّفْس المؤمنة، أَنْ يُقَالَ لها عِنْدَ الإذْنِ لها بدخول الجنَّة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾:

أي: ارْجعي إلى المكان المشْمُولِ برَحْمَةِ رَبّكِ إنْعَاماً وإكْراماً.

وهُنَا يَتَسَاءَلُ الْفِكْرُ: لمَاذَا جَعَلَ اللَّهُ هٰذَا رُجوعاً، ومَعْلُومٌ أنَّ الرجُوعَ إلى الشيءِ هو عَوْدٌ إليه بَعْدَ الخروج منه؟!.

وأقول: لَقَدْ أَدْخَلَ اللَّهُ آدم وزوجَهُ الجنَّةَ إدْخالَ ابتلاء، لا إدْخال استقرار أَبَدِي، وحرَّمَ عليهما أن يأْكُلَا من شَجَرَةٍ معيَّنَةٍ، فلَمَّا أكلا منهما متأثِّرَيْنِ بوساوس إبليس وتسويلاته، أَخْرَجَهُمَا اللَّهُ منها، وأَهْبَطَهُما إلَىٰ الأَرْض، فخرجا من الدَّار المشمولة برحْمَةِ الله إنْعَاماً وإكراماً.

وقَدْ كان في ظهر آدَمَ سَلاسِلُ ذُرّيّتِهِ، فَإِخْرَاجه من الجنَّةِ إخراجٌ له

ولكلّ ذُرّيته منها، ودُخولُ الجنَّة يَوْمَ الدِّين بَعْدَ رِحْلَةِ الابتلاء في الحياة الدُّنيا هو رُجُوعٌ إلى المكان المشمول برَحْمَةِ الرَّبِّ إنْعاماً وإكْرَاماً، وهذا رجُوعٌ خاصٌّ بالمتّقين.

وقد أُطْلِقَ الرُّجُوعُ إلى اللَّهِ في القرآن بمعنى الرجوع إلى الحياة بعد الموت، لتلَقِّي وَعْدِ اللَّهِ بالحساب وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وهذا رجوعٌ عَامٌّ لكلّ الخلائقِ.

أمّا النفس المطمئنَّة، فَيُؤْذَنُ لَهَا يَوْم الدين بعد الحساب وفَصْلِ القضاء بأن تَرْجع إلى الجنَّةِ الّتي كان فيها آدم عليه السلام، وفي ظهره ذُرّيَّته، وأُخْرِجَ مِنْها بسبب معصيته ربَّه، وقد جعل الله الرجوعَ إلى الجنَّة مَشْرُوطاً بالإيمان الصحيح المقبول عنده، وإعلان الإسلام له، مع ما يَدُلُّ عليه من عَمَلٍ صالح.

رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً: أي: رَاضِيَةً بِكُلِّ شيءٍ هي فيه من الجنَّةِ، نَعيماً وتكريماً ورضواناً من اللَّهِ عليها. ومَرْضِيَّةً من الله جلّ جلالُهُ، إذْ رضيَها وقَبِلَها للدخول في رحمته والتَّنَعُّمِ في جنَّته.

يُقَالُ لُغَةً: رَضِيَهُ، ورضِيَ بِهِ، وَرَضِيَ عَنْهُ، ورضِيَ عَلَيْهِ، يَرْضَىٰ رِضاً، ورضاءً، ورِضْواناً، ومَرْضَاةً، أي: قَبِلَهُ واخْتاره وجعل له عنْدَهُ مكانَةً وحُظْوَةً.

واسم الفاعل من هذا الفعل «راضٍ» واسْمُ المفعول «مَرْضِيٌّ» أصْلُهُ مَرْضُويٌ. أي: قد رضِيَهُ اللَّهُ.

وهٰذا القولُ الْمُصَدَّرُ بالنداء: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.

يَحْتَمِلُ أن يكونَ صادراً عَنْ مَلَكٍ مَأمُورٍ بأنْ يقولَهُ، ويحتَمِلُ أَنْ يكون قولاً يقولُهُ اللهُ لعبده، وهٰذا هُوَ الأرجَحُ فيما أرىٰ، لقَوْلِ اللَّهِ بَعْدَهُ: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

ولا فرْق بَيْنَ أنْ يقولَهُ مَلَكٌ حِكَايَةً عن اللَّهِ عزَّ وجلَّ، أَوْ يَقُولَهُ اللَّهُ لِعَبْدِهِ مُبَاشَرَةً على ما يليق بِجَلاَلِهِ سُبْحانَهُ.

وحصَل في العبارة الالتفاتُ من الغيبة في: [رَبِّكَ] إِلَىٰ التَّكَلُّم في: ﴿عِبَٰدِى﴾ وفي ﴿جَنَّتِى﴾ وَمِثْلُ هذا التَّفنن الالتفاتي البديع كثير في القرآن المجيد.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾: أي: في عبادِي المكرمين الذين تحقَّقُوا عن طريق إراداتهم الحرّة بعبوديّتهم لي، فَشَرَّفْتُهم بإضافتهم إليّ، وَجَعَلْتُهُمْ ضِمْنَ المكَرَّمِين المشرَّفِين برُبُوبيَّتِي وفيوض عطاءاتي بإنْعَامي عليهم، وإكرامي لهم.

أمّا الذين رفضوا في الحياة الدنيا ربُوبيتي لهم، ولم يتحقَّقُوا بعُبُودِيَّتِهم الإراديَّةِ لي، فإنَّني لا أُدخِلُهُمْ ضمْنَ عبادي المكرمين المشرّفين بالانتماء إليّ.

﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾: أي: وادْخُلِي مع عبادي المكرّمينَ، جنَّتِي الَّتِي أعتَدْتُها لمستحقي دخولها بفضلِي، وهم الذين يجتازونَ رِحْلَةَ امتحانِهم في الحياة الدنيا بنجاح.

وقد دَلَّ على هذه الإضافات الشارحات نصُوصٌ أُخْرَىٰ من القرآنِ الكريم، فَنُصُوصُ القرآن يُكَمِّلُ بعْضُها بعضاً، لأنَّ المعاني مُوَزَّعَةٌ فيها توزيعاً تكامُلِيًّا.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة الفجر والحمد لله على فتحه وعظيم فضله ومنّته

(٨)

ملحق

حول «بلاغيات في سورة الفجر»

باستطاعة المتأمّل البلاغي أن يكتشف في هذه السورة عدّة اختيارات بلاغيّة حكيمة، منها ما يلي:

الأولى:

استخدام الكناية عن صفات عدل الله، وعظيم قُدْرته، وجليل حكمته، وشمول علمه بكل أحوال عباده الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وعَنْ ثباتِ سُنَّته في عباده التي لا تبديل لها ولا تحويل، بالْقَسَم بأزمِنَةٍ تَمَّ فيها إهلاكُ أُمَم مِنْ أهْلِ القرون الأولى، لأنّهم كذَّبوا رُسُلَ رَبِّهم وَطَغَوْا في البلاد، وأكْثَروا فيها الفساد.

فاللَّوازِم الفكريَّة تتنقَّل بالمتفكّر من أوقاتِ إهْلاك الأُمَم المهلكة إلى إدْراك السَّبَب الذي دعا إلى إهلاكهم، فإلى معرفة أنَّ ذَلِكَ قد حصل بخلْق الله، فإلى إدْراكِ حكمته تعالى في ذلك، وثباتِ سنّته في عباده، وما يقتضي هذا الإهلاك من علْمٍ شاملٍ وقدرة عظيمة، إلى غير هذه الصفات من كمالات الله جلّ جلالُه.

الثانية:

الكناية عن التهديد بالعقاب بعبارة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

الثالثة:

بناء الكلام على محذوفات في اللّفظ ومطوياتٍ تقتضيها المذكورات، ويستطيع المتدبّر أن يُدْرِكَها ذهناً، وهذا من بدائع الإيجاز في القرآن.

ولقد سبق لدى تدبُّر السورة اكتشاف عدّة أمثلةٍ لهذا.

الرابعة:

الاستفادة من تَعَدُّدِ القراءات فيما ثبتَ متواتراً، لإضافة معاني دلّ عليها النَّصّ بما تَعَدَّدَ فيه من قراءات، وهذا الإجراء في القرآن قد أغْنَىٰ عن إنشاء جُمَلٍ أو آيات في السورة، لإفادة المعنى الذي يُرادُ الإعلامُ به، مع كمالِ الإيجاز.

الخامسة:

استخدام الكناية عن أخذ الكافر إلى مكان تعذيبه في النار، بعبارة:

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

فهٰذه العبارة تَدُلُّ باللُّزُوم الذهْنِي عَلَىٰ أَنَّ الكافر قد أُخِذَ به إلى دَرَكَة عذابِهِ في جهَنَّم، فَهُو يُعَذَّبُ فيها هذا العذاب، وهو موثُوقٌ فيها لا يَسْتَطِيعُ الخروج ولا التحوّل.

السادسة:

اقتطاع الحدث من المستقبل دون تغيير في صيغته، وتقديم عبارته للمتلقّي كأنّه واقع مشهودٌ الآن.

وهذا ممّا انفرد به القرآنُ قبل ظهور فُنونِ الأَفْلَامِ السينمائيَّةِ ووسائلها.

السابعة:

الالتفات من الغيبة إلى التكلّم في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

- ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ كلامٌ عَنِ الغائب.
- ﴿فِى عِبَٰدِى﴾ و ﴿جَنَّتِى﴾ حديث المتكلّم عن نفسه.

* * *

سورة الضحى

أو

سورة والضحى

٩٣ مصحف ١١ نزول

(١)

نصّ السّورة

سورة الضحى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)
وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ (٤) وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرۡضَىٰٓ (٥) أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا
فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ (٨) فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ
(٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ (١٠) وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ (١١)

(٢)

مما جاء في السُّنّة حول سورة الضُّحَىٰ

(١) روى البخاري بسنده عن جُنْدُب بن سفيان الْبَجَلِيّ، قال: اشْتَكَىٰ[1] رسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أو ثلاثاً، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فقالَتْ: يا مُحَمَّدُ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ عَلَيْهِ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾.

---

[1] **اشتكىٰ**: أي: مرض.

ونظِيرُهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ وغيره.

وجاء في أحاديث أخرىٰ بيان المرأة التي جاءت إلى الرسول ﷺ وقالَتْ له هذه المقالة، وأنَّها: أمُّ جميلٍ امْرَأةُ أبي لَهَبٍ حاملة حَطَبِ العداء للرسول ﷺ ودعوته.

(٢) وروى الحاكم من طريقِ إسرائيل عن أبي إسحاق، عن زَيْدِ بْنِ أرقم، قال: قالَتِ امرأةُ أبي لهَبٍ، لمَّا مَكَثَ النبيُّ ﷺ أيّاماً لم يَنْزِلْ عليه الوحْيُ: يَا مُحَمَّدُ، مَا أَرَىٰ شَيْطَانَكَ إلاَّ قَدْ قَلاَكَ(١). فنزلت:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

(٣) وروى ابْنُ جَرِيرٍ والطبراني وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ جُنْدُبٍ، قال: أبْطَأَ جِبْرِيلُ عن النبيّ ﷺ، فَقَالَ المشركون: قَدْ وُدِّعَ مُحَمَّد، فَنَزَلَتْ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

(٤) وأخْرَجَ الطبرانيُّ عن جُنْدُب قال: احْتَبَسَ جِبْرِيلُ عَنِ النبيّ ﷺ، فقالَتْ بعْضُ بناتِ عَمِّهِ: ما أَرَىٰ صاحِبَكَ إلاَّ قَدْ قَلاكَ، فَنَزَلَتْ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

ويَبْدُو أنَّ امرأة أبي لهَبٍ بدأت تُذيعُ هذه المقالة في مكّة، فأنزل الله على رسوله سورة (الضحى) وأتبعها بإنزال سُورةِ «الشّرح» فقابَل مُكايَدَتَها لرسوله ببيَانٍ يشُقُّ مَرارَتها، ويمزِّقُها غيْظاً.

(٣)

مواقف العداء ضدّ الرسول ودعوته في مراحل التنزيل السابقة حتى سورة الضُّحى

تولَّىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الدِّفاع عن رسُولِهِ فيما يُنَزِّلُ عليه من قُرْآن كَما جَاءَ في المتابَعاتِ التَّالِيَاتِ:

---

(١) **قَلاكَ**: أي: أبغضك.

(١) ففي سورة (الْعَلَق/ ١ نزول) واجَهَ اللّٰهُ عزّ وجلَّ الّذي نَهَىٰ الرسُولَ ﷺ عن الصلاة (وهو أبو جَهْلٍ) بقوله:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾.

(٢) وفي سورة (المدّثر/ ٢ نزول) تولّى الله عزّ وجلّ مُواجَهَةَ من فكّر وقَدَّرَ، وأدْبَر واستكبر، واتَّهَمَ الرّسُول ﷺ بأنّه سَاحر، وقَالَ عن القرآن إِنْ هٰذا إلاَّ سِحْرٌ يُؤثَر، فقال اللّٰهُ عزّ وجلّ فيها بشأنه، وهو الوليد بْنُ المغيرة خطاباً لِرَسُولِهِ:

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)﴾.

(٣) وفي سورة (القلم/ ٤ نزول) تولّىٰ اللّٰهُ عَزّ وجلَّ الدّفاعَ عن رَسُولِهِ، ضِدَ الّذينَ اتّهَمُوهُ بالْجُنون، فقال اللّٰهُ عزَّ وجل في صَدْرِها خطاباً لِرَسُولِه ﷺ:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾.

(٤) وفي سورة (المسَد/ ٦ نزول) تولّىٰ اللّٰهُ عزّ وجلّ الدّفاع عن رسوله ﷺ، ضدّ شتيمة عَمّه «أبي لَهَبٍ» له وضدّ إساءَاتِ امرأة هذا الخاسر «أُمّ جميل» له، فأنزل الله سُورة «المسَد»:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ (٤) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾.

(٥) وفي سورة (التكوير/ ٧ نزول) واجَهَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ المشركين بالدِّفاع عَنْ رسُولِه ﷺ فقال لهم:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(٦) وفي سُورَةِ (الضحى/ ١١ نزول) الّتي نُعَالِجُ في الصفحات التاليات تَدَبُّرَهَا، أَقْسَمَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ بِمَظْهَرَيْنِ منْ مظاهِرِ قُدْرَتِهِ في كَوْنِه، وإتقانِهِ لهما، وعنايته بخَلْقِه، هُمَا تَدَاوُلُ إشراقِ الضُّحَىٰ واللَّيلِ إذا سَجَىٰ، أَنَّ رَبَّهُ ما ودَّعَهُ ولا قَلاَهُ، عَلَىٰ خلافِ مزاعِمِ امرأة عَمِّهِ أبي لهَبٍ، وفي هذا الْقَسَمِ ما فيه من تكريمٍ للرَّسُول، ومُكايَدَةٍ لمروِّجَةِ الفرية ومَنْ معها.

واقتصر الدِّفاعُ هُنَا على مقابلة المكايَدَة الّتِي وجّهتْهَا «أُمُّ جَميلٍ» بمكايَدَةٍ تغِيظُها، ولكِنْ بأسْلُوب اسْتِعطافِ الرَّسول بقَسَمٍ يَفِيضُ بالتَّودُّدِ والتَّحَبُّبِ، وفيه نَفْيٌ لمقُولَةِ مَنْ كايَدَهُ، مع الإعْرَاض عَنِ القائل وعدَمِ مواجَهَتِه، اسْتِهَانَةً بِه، واحتقاراً له، وفيه استعراضٌ لسَوَابق الإكرام والإنْعَام الَّتي أكرم الله بها رسوله، وأنْعَم بها عليه، مع بيان ما فيها من التَّرَقّي الصّاعِد، الدّالّ على أنَّ العطاء الارتقائيَّ سَيَظَلُّ مُسْتَمِرّاً من الله لرسوله طَوال الحياة الأولى، الَّتي سيُصِيبُ منها خيراً كثيراً، أمَّا الآخِرَةُ فهي خَيْرٌ وأجَلُّ وأعظَمُ له من الأُولىٰ، إكراماً وإنعاماً وتمجيداً، ومقاماً كريماً ودَرَجَةً رفيعةً.

فلْتَتَميَّزْ «امْرَأَةُ أَبِي لهَبٍ» ومَنْ كان على شاكلتها غيظاً وكمداً، فإنّ الله جلَّ جَلاَلُهُ إذا شاء إكرام عبْدٍ من عبادِه لَمْ تُوقِفْ عَطَاءاته مقالاتُ المكايدين والْمُكَايدات، ولا حسَدُ الحاسِدِين والحاسدات، ولا يَنْفَعُهُمْ شيئاً ترصُّدُهُمْ للعوارض الّتي يَمْتَحِنُ الله بها عبادَه، ولا يُعْفِي منْها صفْوَةَ خلْقِه وخيرَتَهُمْ، لأنَّ هؤلاء الصَّفْوَة على معراج الصعود بإذن اللَّهِ وَتَوْفيقه وفُيُوضِ عطاءاتِه، ولا بُدَّ للصاعد من أن يتعرّض في بعض درجاته لبعض العوارض الّتي تُرَبِّيه على الثبات، وتمنَحُهُ الْعَزيمةَ والصُّمود، وتشحنُهُ بالْهِمَّةِ والمقاومة

والتحدِّي، وتزيدُهُ طُمُوحاً، وتَجْعَلُه أَكْثَرَ حِرْصاً على الاحتفاظ بمواقعه الّتي بلَغَ إلَيْها، لأنَّها ثمراتُ كِفاحٍ وَجِلادٍ وصَبْر.

أمَّا أعداؤه الحاسدون فموقعهم يظَلُّ في الحضيض، وليْسَ لهم من درَجاتِ مِعْراج الصعود حظٌّ غير النظر إلى المحظُوظين بالتّرقّي، والتمزُّقِ غَيْظاً وحسداً.

وامرأَةُ «أبي لَهَبٍ» صاحبَةُ المقالة أقْدَرُ النَّاس على إدْراك هذه الأمور الَّتي تُمزِّقُ نَفْسَها، وتَزِيدها غيظاً وحَسَداً.

* * *

(٤)

موضوع السورة

(١) دفاع من الله عزّ وجلّ عن الرسول ﷺ ضِدَّ من أشاع أنّ الله ودّعَهُ أو قَلاَه، بإثبات عكْسِ ذلك، مع وعد الله له بمستقبل باهرٍ يُرْضيه.

(٢) تذكير الله رسوله بما كان عليه منذ أوائل نشأته حتَّىٰ بعثته، وكيْفَ أنعم ربُّه عليه، بأنَّه كان يتيماً فآواه، وكان جاهلاً فعَلَّمَهُ وهداه، وكان عائلاً فقيراً فأغْنَاهُ، فلْيَطْمَئِنَّ إلى وعْدِ اللَّهِ له بما يُرضيه مستقبلاً.

(٣) تكليف الله رسوله بأن يَشْكُرَ نِعَمَ اللَّهِ عليه، بأنْ لا يَقْهَرَ اليتيم، وبأن لا يَنْهَر السائل، وبأنْ يدعو إلى دين الله بأسلوب محادثة الناس بما أوحَى الله إليه من قضايا الدين، ومن آياته البيّنات، الَّتِي هي نِعْمَةٌ عظيمة منَ اللَّهِ عَلَيْهِ وعَلَىٰ النَّاسِ أجمعين، لا بأسلوب الخطبة أو غيرها من وسائل البيان.

فالسورة بهذا تشتمل على ثلاثة دروسٍ متعانقة في وحدة موضوع، وهذه الوحدة الموضوعيَّة لا تحتاج إلى بيان وشرح، لأنّ عناصرها ظاهرة التماسُك والترابط لكلِّ متدبّر.

فالدرس الأول: هو الآيات من (١ ـ ٥).

والدرس الثاني: هو الآيات من (٦ ـ ٨).

والدرس الثالث: هو الآيات من (٩ ـ ١١).

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأوّل

الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾.

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾:

أقْسم اللَّهُ عَزَّ وجلّ لِرَسُولِهِ بالضُّحَىٰ وباللَّيْلِ إذَا سَجَىٰ، وهُوَ قَسَمٌ ببَعْضِ ظَواهِرِ خَلْقِهِ في كَوْنِه، وإتْقَانِ صُنْعِهِ، وعِنَايَتِهِ بسُكَّانِ الأَرْضِ مِنْ عبادِه، إذْ تَرْتَبِطُ مصالحُ كثيرةٌ لَهُمْ بأَنْ يَتَداوَلَ على الأرضِ نَهارٌ يُشْرِقُ فيه ضياءُ الشَّمْسِ، ولَيْلٌ ساتِرٌ يحْتَاجُ الأحياءُ فيه إلى السَّتْر والسُّكُونِ والراحَةِ والْبُعْدِ عَنْ وَهَجِ الشَّمْس.

وإقْسَامُ اللهِ عزَّ وَجلَّ بظواهِرِ خَلْقِهِ في كَوْنِهِ، كِنَايَةٌ عَنْ إقْسامِهِ بصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَة، الّتي من آثارِهَا هٰذِهِ الظَّواهِر، ومَعْلُومٌ أَنَّ الظَّواهِر الكونيَّةَ آيَاتٌ دَالاَّتٌ في الكَوْنِ علَىٰ صفاتِ الله خالِقِها، وإثْبَاتُ الصِّفَاتِ يلْزَمُ عنه عقلاً إثباتُ الذَّاتِ المتَّصفَةِ بها.

الضُّحَىٰ: يُفْهَمُ من أقوال أهل اللُّغَةِ أنّه الوقْتُ يَوْمِيّاً من ارْتِفَاع الشَّمْس حتَّىٰ زوالها عن كَبِدِ السماء وسط النهار، أو إلى ما قَبْلَ الزوال.

وقيل: الضُّحَىٰ ساعَةٌ من سَاعَات النهار.

ولفظ «الضحَىٰ» مقصورٌ مؤنث، قال الجوهريّ: ويُذَكَّرُ.

وجاء عند المفسّرين أنّ المُرَادَ من الضُّحَىٰ في هذه السُّورَةِ النهارُ كُلُّهُ، وأنَّ المرادَ منَ اللّيْلِ إِذَا سَجَا اللَّيْلُ كُلُّه، لكِنّي لم أجِدْ دليلاً على هذا.

فَما جاء في القرآن من استعمال كلمة «الضُّحَىٰ» في غير هٰذِهِ السّورة ظاهرٌ في أنَّ المراد أوّل النهار من ارتفاع الشَّمْس إلى الزوال.

ففي سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) يقول اللَّهُ عزّ وجلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

فَدَلَّ هذا على أنَّ الضُّحَىٰ الّذِي هو وقْتُ اللَّعِب يَكُونُ قَبْلَ مُنْتَصَفِ النَّهار.

وفي سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قال الله عزّ وجلّ حكايَةً لقَوْلِ موسى عليه السلام جواباً لفرعون إذْ طلَبَ منه تَحْدِيدَ موعد التحدِّي بين آياته وسِحْرِ السَّحَرة.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

وعادة المُلُوكِ في المهرجانات الكبرى العامّة أن يجمعوا النّاس في أوّل النهار بعْدَ ارتفاع الشمس، وقبْلَ منتَصَفِه، وقبْلَ دُخُولِ وقْتِ الهاجرَة الّتي تشتَدُّ مَعَها حَرَارَة الشَّمْس.

ولا داعِيَ لإخراج اللَّفْظِ عَنْ أصل دلالته اللُّغَوِيَّة، فَقَدْ أقْسَم اللَّهُ عزّ وجلّ باللّيل عموماً، وأقْسَمَ بالنّهارِ عموماً، وأَقْسَم بالضُّحَىٰ على وجْهِ الخصوص، وأَقْسَم باللّيْلِ إذا سَجَا على وجْهِ الخصوص، فلا داعِيَ لإخراج

دلالات الألفاظ الخاصّة عن خصوصها في الاستعمالات القرآنيّة، ما أمْكن عقلاً وشرعاً حملها عليها، فلِلأَلْفَاظ العامّةِ دلالاتٌ تُقْصَدُ من جهة عمومها، وللألفاظ الخاصّة دلالاتٌ تُقْصَدُ من جِهة خُصُوصِها.

- ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾:

وفي هذا قَسَمٌ باللَّيْلِ إذا سَجا، أي: في وقْتٍ من أوقاتِهِ وهو وقْتُ سُجُوِّه.

ومادّة: «سَجَا يَسْجُو سُجُوّاً وسَجْواً» تدور في اللُّغَةِ حَوْل معنَيين: السُّكُون. وتغْطِيَةِ الأَشْيَاء. ومع معنَىٰ السكون يأتي معنَىٰ الاستمرار والدّوام.

يُقَالُ لغة: سَجَا الشَّيْءُ إذَا سَكَنَ. ويقالُ سَجَا الثوبُ الجسَدَ إذا غَطّاهُ. ويُقَالُ فيهما أَسْجَىٰ. ويُقَالُ: سَجَّىٰ الميّتَ إذَا غَطّاهُ. وجاءت كلمة «سَجَا» في الكتابة القرآنيّة بالألف المقصورة مراعاة للنظائر في السُّورة، مع أنّ القاعدة الإملائية تقتضي كتابتها بالألف لأنّ أصْلَها واو.

ولِلْقَسَم بالضُّحَىٰ، وباللّيْلِ إِذَا سَجَا، مَعْنَيانِ مقصُودَانِ فَوْقَ كوْنِهِما آيَتَيْنِ من آيات الله في كَونِه، وهٰذَان المعنيان قَدْ رُوعِيَ فيهما الْمُقْسَمُ عَلَيه، إذْ رُبَّما كانَ وقْتَا الضُّحَىٰ واللَّيْلِ إِذَا سَجَا في تِلْكَ المرْحَلة من مراحل رِسَالةِ الرسول محمّد ﷺ هما الوقتان المختاران لنُزولِ الوحْي عليه، فالضُّحَىٰ يكُونُ فيه الناسُ مُنْصَرِفين إلَىٰ أعمالهم وأسواقِهِم، فيَخْلُو فيه مُسْتقْبِلُ الواردات الرَّبَّانِيَّة لِربِّهِ، دُونَ أنْ يَجد ما يُعَكِّرُ صَفْوَه، ويُفْسِدُ عليه خَلْوتَهُ. واللّيْلُ إذا سَجَا، أيْ: إذَا سَكَنَ وأظْلَمَ وَكانَ ساتراً، هو وقْتُ صَفَاءِ الْقُلُوبِ والنُّفُوسِ والأَفْكارِ، وَوَقْتُ تَنَزُّلِ واردات المعارف الرَّبّانيَّةِ، والرّحَماتِ الْقُدْسِيّة.

فهٰذَان الوقتان الملائمانِ لِلْمُقْسَمِ عَلَيْهِ في السُّورَةِ، وهُوَ أنَّ الله ما وَدَّعَ

رسُولَهُ وَمَا قَلاهُ، كما أشاعَ المكايِدُون والمكايِدَاتُ، والحاسِدُون والحاسِدَات.

- ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾:

أي: ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلاَكَ، كما زعَمُوا، وقَدْ حُذِفَ ضمير قَلاَك إيجازاً ولمراعاة التناظر.

هذا هو المقْسَمُ علَيْهِ في السُّورَةِ بالضُّحَىٰ وبِاللَّيْلِ إذا سَجَا.

ودَّع: أَيْ: فارَقَ غَيْرَ كَارِهٍ لِلّقَاء. فالمودِّعُ هو منْ يفارقُ وهُوَ مُتَعلّقٌ بمَنْ وَدَّعه لَمْ يَكْرَهْ لقاءَه.

قَلَىٰ: يُقَالُ لُغَةً: قَلَىٰ فُلاَنٌ فُلاناً قِلىً، أي: أَبْغَضَهُ وهَجَرَهُ، فالْقَالي هو المبغض الكارِهُ، فإذَا فارَقَ فارَقَ عَنْ كراهيةٍ وَبُغْض.

ففي قول اللَّهِ عزّ وجلَّ لرسُولِهِ مُقْسِماً بالضُّحَىٰ وباللّيل إذَا سَجَا: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ نَفْيٌ شامِلٌ لكُلِّ صُوَرِ إنْهَاءِ صلة الوحي به، وأدناها التوديعُ مع بقاء الرَّغبة في اللقاء، وأشَدُّها المفارَقَةُ مع البغضِ والكراهية.

ويظْهَر للمتدَبِّر أنَّ تَقْدِيمَ نَفْي التَّوْديعِ مع أنَّهُ أخَفُّ الأَمْرَيْنِ، علَى نَفْي القِلَىٰ وهُوَ أشَدُّهُمَا قد كَانَ لمُرَاعاةِ حِكْمَتَيْن:

الأُولَىٰ: أنَّ فِعْل «قَلَىٰ» مُلاَئِمٌ لرُؤُس الآيات في السُّورة، دون فعل «وَدّع».

الثانية: أنَّ انْتِشَارَ شائِعَةِ: أَنَّ رَبَّ محمّد ودَّعَهُ قَدْ كَانَ أَكْثَرَ من انتشار شائِعَةِ: أنَّهُ قَلاَهُ، فاسْتَدْعَى هذا من البيان تقديمَ نَفْي ما هو أوْسَعُ انتشاراً، على نَفْيِ المقولَةِ الأُخْرَىٰ الّتي كان انتشارُهَا قَلِيلاً، واللَّهُ أعلم.

- ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ طَمْأَنَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ بالْوَعْدِ الْكَرِيم، مَعَ

التلْويحِ لأعدائِه بأسْلُوب التَّعْريضِ، كيْ يتَميَّزُوا غَيْظاً في أنْفسِهم، فالنَّصُّ قَدْ أَعْرَضَ عَنهُمْ اسْتِهَانَةً بهم، وطَمْأَنَ اللَّهُ فيه رسُولَهُ بخطابٍ مُباشِرٍ، مُبَيِّناً لَهُ فيه أنَّ تَرَقِّيَهُ في مِعْرَاجِهِ الأَبَدِيِّ الصاعِدِ مستمِرٌّ إلَىٰ غاياتِ التَّنْعِيم والتَّكْرِيمِ والمقامِ المحمود، في دَارِ الْخُلودِ.

أيْ: فَإذَا كُنتَ في الأُولَىٰ الرَّسُولَ المجتَبَىٰ المفضَّلَ على كُلِّ النَّاسِ، فإنَّكَ في الآخِرَةِ سَتَكُونُ المفضَّلَ أيْضاً، وستكُونُ الآخرةُ خيراً لَكَ إنْعاماً وإكراماً وتفضيلاً عظيماً.

وجاء تأكيدُ هذا الوعْدِ بمؤكّدَين: «لام الابتداء والجملة الاسميّة».

- ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾:

في هٰذه الآية مُتابَعَةٌ للْوَعْدِ الكريم الوارِدِ في سابقَتِها ببيَانٍ فيه شَيْءٌ مِنْ تفْصِيلِ مُجْمَلِها، فكَوْنُ الآخِرَةِ خيراً للرسول من الأُولَىٰ كَلاَمٌ مُجْمَلٌ، لكنَّهُ يعُمُّ كُلَّ مَا يُسْعِدُهُ فإنَّ اللَّهَ سَيُعطِيهِ من أنواعِ الخيرَاتِ والسَّعَادَاتِ والمنازِلِ الرَّفيعَةِ والدَّرجَاتِ الْعَالِيَاتِ حتَّىٰ يَرْضَىٰ رضاً تامًّا، فَلاَ يَجدَ في نَفْسِه مَطْلَباً إلاَّ نَالَ أكْثَرَ مِنْهُ، ممَّا لَمْ يكُنْ يخْطُر في بَالِه.

إنَّ الوعْدَ بالْعَطَاءِ مع الإطلاق يشْمَلُ عطاءً لا حُدودَ لَهُ منْ كلِّ جنْسٍ ونَوْعٍ وفَضْلٍ وصِنْفٍ، بحَسَب رغائبِهِ صلَواتُ الله عليه.

ولـمَّا كانَ العطاءُ فوق مدَىٰ الطَّلبِ والأمانيّ قالَ اللَّهُ لرسُولِه في الآيةِ: ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ فجاء العطْفُ بالفاء الّتي تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب. ولو كانت العطاءاتُ دون أمانيه صلواتُ اللّهِ عليه، لكانَ المناسبُ أنْ يكونَ التعبير: «حَتَّىٰ تَرْضَىٰ» فَدَلَّ الأداءُ البيانيُّ بدقَّتِه على أنَّ فَيْضَ العطاء الرَّبَّانِيِّ له أَوْسَعُ مِنْ حُدودِ أَمَانيه صلوات اللّهِ عليه، وقد تفرَّدَ الرسُول ﷺ بهذا الوَعْدِ الكريم في بيانات القرآن.

وَجاء توكيد هذه الجملة بمؤكّدَيْن: «لام الابتداء وحرْف سَوْف».

(٦)

التدبُّر التحليلي للدرس الثاني

الآيات من (٦ ـ ٨)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾؟

لَيْسَ الْغَرضُ من هذا الاستفهام الوارد في صدر هذه الآيات طَلَبَ الإفْهام، بلْ هو استفهامٌ تقريريٌّ.

وفي هذا الاستفهام التَّقْريريّ، تَذْكِيرٌ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ لرَسُولِهِ بِمُتَابَعاتِ العِنَايَةِ به مُنذُ نشْأَتِه، حتَّىٰ اصطفائِه لَهُ بالنُّبوَّةِ والرّسالة.

وفي هٰذَا التّذكيرِ توجيهٌ ضِمْنِيٌّ لَهُ أَنْ يَقيسَ مُجْرَيات الوقائع، الّتِي أَثارتْ ضدَّهُ مُؤْذِيَاتِ الْمُكَايِدِينَ والْمُكايدات، ومُجْرَيَاتِ المسْتَقْبَلِ القريب والْبَعيد، على وقائعِ الماضي المشحُونِ بدَلائِلِ العنايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ به، إذْ لَمْ يَطْرأْ تَغْيِيرٌ وَلاَ تَقْصِيرٌ مِنَ الرسول ﷺ يقتضي تغييراً من قِبَلِ رَبِّهِ له، في رعايتِه ومُتَابَعةِ العِنايَةِ به.

إذَنْ: فعلَيْهِ أنْ لا يَتَأَثَّرَ بالأَصْواتِ الإعلاميَّةِ الموَجَّهَةِ ضِدَّهُ من أعْدَاءِ رِسالَتِه، ولا بأَصْدائها، ما دامَ حظُّهُ من عنايَةِ رَبِّه بِه حظًّا وفيراً وعظيماً.

وانتقَىٰ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ صُوَرِ العِنَايَةِ السّابقَةِ بِهِ أَهَمَّها، وَأَجْمَعَها، وأَشْمَلَها، ممَّا هُو لدُنْيَاهُ، وممَّا هُو لآخِرَتِه.

فالأولى: إِيواؤُهُ وهُو يَتِيمُ الأَب، ثُمَّ يَتِيمُ الأَبوَيْن.

والثانية: هدايتُهُ في مسيرته في حياته، ثم هدايته لمعرفة الحقائق الدينيَّة الكبرىٰ، ولمعرفة صِرَاط النجاة والسَّعادة الخالدة في الفردوسِ الأعلَىٰ من جنَّاتِ النعيم.

والثالثة: تَيسِيرُ سُبُلِ إغْنَائِه بما يَسُدُّ حاجاتِ عَيْشِهِ فِي حياته، وكانَ قَدْ نشَأَ فقيراً لا مَالَ لَهُ ولا مواريث.

فَحَمَىٰ نشْأَتَهُ، وسَدَّدَ طَرِيقَهُ بالهداية، ويَسَّرَ لَهُ من سُبُلِ العيْشِ ووسائِله ما يكْفِيهِ ويُغْنِيه عن المسألة.

● ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾:

استِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ علَىٰ النَّفْيِ، وجَوَابُهُ هُنَا: بلَىٰ، لأَنَّ محمّداً قَدْ كَانَ يَتِيماً فآواه ربُّهُ جلّ جلالُه مُعْتَنِياً به.

وفي عِبارَةِ ﴿يَجِدْكَ﴾ مع أَنَّ اللَّهَ هو الّذي بحِكْمَتِهِ وقَضَىٰ وَقائِعَ يُتْمِهِ، تَعليمٌ من الله جلّ جَلاَلُهُ الأدَبَ في عَدَمِ نِسْبَةِ مَا هُو مكْرُوهٌ إلَى الله تعالى في العبارة الكلاميَّة، وإنْ كان سبْحَانه هُوَ الّذِي قَضَىٰ وقَدَّرَ وَخلَقَ.

وتَمَشّياً مَعَ هذا الأدَب في العبارة قالَ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلاَمُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

يَتِيماً: اليتيمُ من النّاس من ماتَ أبوه، ويظَلُّ يتيماً حتَّىٰ يبْلُغَ الْحُلُمَ.

فآوَىٰ: أي: فآوَاكَ، والمَعْنَىٰ: فضَمَّكَ وأحاطَكَ بعِنَايَتِه، تقولُ لُغَةً: أَوَيْتُ فُلاَناً إلَيّ، وآوَيْتُهُ إليَّ، إذا ضَمَمْتَهُ إلَيْكَ وأحطْتَه بعنايتك وَرِعَايَتِك، وحُذِف ضمير آواكَ إيجازاً، ولمراعاة التناظر.

وُلِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَتِيم الأب، فكفَلَهُ جَدُّه عَبْد الْمُطَّلِب، وألْقَىٰ الله حُبَّهُ في قلْبه، فكان أحَبَّ إليه من سائِر ولَدِه.

وأخبارُ طفولته ورضاعه في السيرَة النبوِيَّةِ شواهِدُ علىٰ أَنَّ عِنايَةَ اللَّهِ به كانَتْ عظيمةً جدًا، فلَمْ تُفارِقْهُ لحظةً واحدة.

وتُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ وهو ابْنُ سِتّ سِنِين، فكَانَ عِنْدَ جدِّه عَبْدِ المطلب،

وكان يَخُصُّه بتكريم لا يَخُصّ بِهِ أحداً من أبْنَائِه، وكَانَ يتفرَّسُ له بمُسْتَقْبَلٍ عظيم فيقولُ: واللَّهِ إنَّ لَهُ لَشأناً.

ثُمَّ تُوُفِّيَ جَدُّهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِي سنين، فكفَلَهُ عمُّهُ شقيق أبيه «أبُو طالب» فَضَمَّهُ إِلَيْهِ عمَلاً بوصيَّةِ أبيه عبْدِ المطَّلب. وألْقَىٰ اللَّهُ حُبَّهُ في قَلْبِ عمِّه أبي طالِبٍ، حتَّىٰ كان يُحِبُّهُ أكْثَرَ من وَلَدِه، وكانَ لاَ ينَامُ إلاّ إلىٰ جَنْبِه، وكان يخصُّهُ بالطَّعَام دون بَنِيهِ، وكانَ هذا من مظاهِرِ المِنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الأولَىٰ عَلَيْهِ.

- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ⑦﴾:

ضَالاً: اسم «فاعل» من فِعْل «ضَلَّ» وهذا الفعل يُسْتَعْمَلُ بمعنى: «ضَاعَ، وغَابَ، وخَفِي» ويستَعْمَلُ متعدِّياً بنفسه، فتقُولُ: ضَلَلْتُ الطَّرِيقَ، إذَا بَحَثْتَ عنهُ، فاشْتَبَهَتْ علَيْكَ السُّبُل، إمَّا لأنَّك لم تكُنْ تَعرفُه، وإمَّا لأنَّك نسيتَهُ. ويستَعْمَلُ متعدِّياً بحرف الجرّ «عَنْ» فتقول: ضلَلْتُ عن الطريق، وضلَّتْ عَنِّي دراهِمي.

والمناسبُ لحال الرسول ﷺ من هذه المعاني، هو المعنَىٰ الّذِي يدُلُّ على سابِقِ جهْلِهِ بطريقِ الهداية، وبحْثِه عنْهُ، واشتِبَاهِ السُّبُلِ عليْهِ، لكِنْ كانَتْ تُتَابِعُهُ الْعِنَايَة الرّبّانِيَّة بالهِدَاية دون إبطاء، بَدليل قول الله له: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فهداك، إذ دلَّ العطفُ بالفاء على أنَّ هِدَاية اللّهِ له كانَتْ تَتَدارَكُهُ دون تَرَاخٍ زَمَنِيٍّ، فالْفَاءُ تَدُلُّ على التَّرْتيب مع التعقيب.

وهكذا كان واقِعُ حَال سيّدنا محمَّد ﷺ، فَلا إشْكال يَقتضي صَرْفَ لفظ «ضالاً» إلَىٰ معاني ذكرها بعْضُ المفسِّرين.

ومعلومٌ أنَّه وُلِدَ خَاليَ الذِّهْنِ من المعارِفِ والعلوم، وأنَّ اللَّهَ كَانَ يفْتَحُ لَهُ أبوابَها، ويُرَقِّيه صاعداً في مَعَارِجِها داوماً، ويُحيطُه بِحِمَايَتِهِ وحِفْظِهِ، حتَّىٰ يَسْلُكَ مَهْدِيًا على صِراط الحقّ والخيْرِ والكمال.

لقد أَضَاء الله له آفاق التفكير وَالتَّأَمُّل، وأَنْزَلَ عليه فُيُوضَ المعارف، وأَلْهَمَ قلْبَه ونفْسَه حُبَّ الحقّ والخير والفضيلة، فكان يرَىٰ الخلُقَ الكَرِيم، والسُّلُوكَ القويمَ، فيَلْتَزِمُ بِهِما مُحَاطاً بِعنايَةِ الله وتوفيقه، وكان يَرَىٰ قبائح الجاهليّة ووَثنيَاتِها، فتَعْزِفُ نَفْسُه عنها، حتَّىٰ اللَّهْوُ الَّذِي لا شَرَّ فيه وَلا ضُرَّ لَمْ يكُنْ له به تعلُّق، وهذا من عناية الله بِهِ، وتأديبِهِ له، وهدَايَتِهِ وتَوْفيقه.

وظلَّ كذلك في مراحِلِ نشأتِه، حَتَّىٰ كَانَ الرَّجُلَ الَّذِي يُشارُ إليه بالأَمَانَةِ وَكَمَالِ الخلُق في قوْمِه.

ثُمَّ اصطفاه الله بالنُّبُوَّةِ، ففتَحَ عَلَيْهِ فيوضَ العلم والهدايةِ، ثمَّ بعثَهُ رَسُولاً، وصَارَ الوحْيُ يأْتِيه، وتَتَنَزَّلُ عليه آيَاتُ اللَّهِ، وتفيض على قَلْبِهِ وَارِدَاتُ الحِكْمَة.

وكلُّ هٰذا من مظاهِرِ المنَّةِ الثّانية الّتِي امْتَنَّ اللَّهُ بها عليه في قولِهِ لَهُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

فإذا رَجَعَ إِلَىٰ وِجْدَانِهِ يتفكَّرُ في هٰذِهِ المنَّةِ فإنَّه لا بُدَّ أنْ يكُونَ على ثِقَةٍ تامَّةٍ، وَيَقِينٍ رَاسِخٍ بأنَّ ربَّهُ لَنْ يتَخَلَّىٰ عنه، فلَنْ يُودِّعَهُ، ولَنْ يهْجُرَهُ قالِياً.

- ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾:

عائلًا: أي: فقيراً، يُقَال لُغَةً: عَالَ فُلَانُ يَعِيلُ عَيْلاً وَعَيْلَةً، أي: افْتَقَر، فهُوَ «عائِلٌ وعَيِّلٌ» أي: فقير، والجمْعُ «عالَةٌ وعُيَّلٌ».

فأغنَىٰ: أي: فأغنَاكَ، حُذِف الضمير إيجازاً ولمراعاة رُؤوس الآيات في السورة، يُقَالُ لغةً: أغْنَىٰ اللَّهُ فُلَاناً، أي: جَعَلَهُ غنِيًا.

ويقالُ: غَنِيَ فُلَانٌ يَغْنَىٰ غِنىً، أيْ: كَثُرَ مالُهُ فهو غَانٍ وَغَنِيٌّ، إذْ صَارَ مكْتَفِياً به لسَدِّ حاجاتِ مَعَاشه.

هذه المنَّةُ الثالثَةُ الّتي امتَنَّ اللَّهُ بها على رسولِه محمّد ﷺ في السّورة.

لقد نَشَأ محمَّدُ فقيراً فكفَاهُ اللَّهُ معَاشَه ببَعْضِ كَسْبِه، ثُمَّ أرسلَتْهُ التَّاجرة السيّدة الكريمة خديجَةُ بنْتُ خُوَيْلِد بتجارة لَهَا إلى الشّام، فأنْعَمَ الله علَيْهِ بتجارَةٍ لخديجة رابحَةٍ جدًّا، وَكانَ فيها الأمينَ وذَا الْخُلُقِ العظيم.

ثُمَّ أنْعَمَ الله عليه بالزّواج منْها، وهي الغنيَّةُ الثّرِيَّةُ الحسيبَةُ النسيبةُ، فأغناه الله، وقد نزلَتْ سورة (الضحى) وهو في بحبُوحة العيش والغنىٰ عن الناس، مع زوجته الكريمة الحسيبة العاقلة الحكيمة الودود الولود، خديجة بنت خويلد.

هٰذه هيَ أهَمُّ وَأَجْمَعُ وأشْمَلُ صُورِ عنايَةِ اللَّهِ بِه فيما سَبَقَ من حَيَاتِهِ قَبْلَ إنْزَالِ هذه السّورَةِ عليه.

وهي أماراتٌ دالأَتٌ علَىٰ أنَّ مستقبلَهُ أجَلُّ وأعظَمُ وأرْجَىٰ لَهُ من ماضيه، بعْدَ اصطفائِه بالنُّبُوَّةِ والرّسَالة.

أي: وإذْ كانَتْ سَوابِقُ عنايَةِ رَبِّكَ بك أنَّهُ وَجدَكَ يَتِيماً فآوى، ووجَدَكَ ضالاً فهدَىٰ، ووجَدَكَ عائِلاً فأغْنَىٰ، فكُنْ على يقينِ راسِخٍ بِأَنَّ اللَّهَ لَنْ يتَخَلَّىٰ عن مُتَابعَةِ عِنايتِهِ بك، فلَنْ يُوَدّعَكَ ولَنْ يَهْجُرَك.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث

الآيات من (٩ ـ ١١)

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

تمهيد:

بعد أَنْ طَمأن الله عزّ وجلّ رسُولَهُ محمّداً ﷺ حوْلَ أمور مُسْتَقْبَلِه ومُتَابعَةِ عناية اللَّهِ به، عن طَرِيق تذكيره بسوابق عنايته به، الّتي لم تُفَارِقْهُ منذ نشأته، حتّىٰ اصطفائه بالنُّبُوَّةِ والرّسالة أجلّ نِعَمِ الله عليه، وأرْفَعِها مقاماً، وأوْصَلِها إلى المقام المحمود يوم الدين، صار من المناسب في تربية الله لَهُ أن يُكلّفَهُ تكليفاتٍ مَبْنيَّاتٍ عَلىٰ كُلِّيَّاتِ النِّعَمِ الّتي أنْعَم بها عليه، وذكَّرَهُ بها، ليكُونَ عبْداً شَكُوراً لرَبّه.

فجاء في التَّكليفِ مُقَابلَةُ كُلِّ نِعْمَةٍ جاءَتْ في التَّذكير بتَكْليفٍ من جنسها.

- ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾:

جاء هذا التكليف للرسول ﷺ في مقابلِ قولِ الله عزّ وجلّ له في التذكير بسوابقِ النِّعَم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: الْفَاءُ عاطفةٌ للتفريع على ما سبَق، وفي هذا التفريع دلالة على أنّ النّعمةَ تقتضي تلقائيًا الشّكْرَ عليها بعَمَلٍ من جِنسِها، أي: فإيواءُ الله لك من الْيُتم الذي وجدَكَ فيه، يقتضي منك أن تشكُرَ رَبّكَ الذي آواك بأنْ تُكْرِمَ اليتيم إذا وجَدْته، وتذكُرَ فيه نفْسَك حينما كُنْت مِثْله.

[أمّا]: حرْفُ شرط، وتوكيد، وتفصيل غالباً. ويَظهر كوْنها شرطاً من لزوم الفاء بعْدَها، وقد رأى علماء العربيّة أنّها تفيد التوكيد. وكوْنُها للتفصيل هنا ظاهرٌ من تكرارها بجانب القسمَيْنِ الآخَرَين في هذا الدرس.

ويُفْصَلُ بين «أمّا» وجوابها بواحدٍ من أشياء، منْها اسْمٌ منْصُوبٌ بجوابها مُقَدّمٌ عليه، كمَا جاء هنا.

﴿ٱلْيَتِيمَ﴾: هنا مفعولٌ به مُقَدّمٌ على فِعْلِه وهو: ﴿تَقْهَرْ﴾.

﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾: الفاء واقعةٌ في جواب الشرط. و «لا» حرْفُ نَهْي يجزم الفعل المضارع، وهو هنا: «تَقْهَرْ».

القَهرُ في اللّغة: الغَلَبَةُ، والأَخْذُ من فَوْقٍ، والمَقْهُور هو المأخُوذ من غيْرِ رضاه. وقد كان المتبادِرُ إلى الذهْنِ أن يكون التوجيهُ للأمْرِ بإكرام اليَتيم، لا إلى النّهي عن قَهْرِه، فما هي الحكمة ممّا اختير في النّصّ؟

أقول: لمَّا كان المتبادر مِنْ مَعْنَىٰ الإكْرام الإعطاءَ والبذلَ، وهذا قد يكونُ مع التَّعالي والإشْعَارِ بالتَّفضُّل، وفي هٰذَيْنِ نَوْعٌ من الغلَبَة الّتي لا تُرْضي آخِذَ العطاء حينما يأخُذُه اضطراراً أَوْ عَنْ حاجَةٍ، كانَ من المناسِبِ التصريحُ بالنهْي عن قَهْرِه، وفي هَذا إعلامٌ ضمنِيٌّ لغيْرِ الرسُول بأن لا يقْهَرَ اليتيم ولو كان يُعطيه وَيَبْذُلُ لَهُ مالاً أَوْ معُونةً أو خِدْمةً ما.

علىٰ أنّه قد سبق في سورة (الفجر/ ١٠ نزول) زَجْرُ الَّذِين لا يُكْرِمُونَ اليتيم، فكان من المناسب في سورة (الضحى/ ١١ نزول) التّصريحُ بالنّهْي عن قَهْرِه، ولَوْ مع مَعُونته والإنْعامِ عليه.

ولتطبيق هذه المحمَدَةِ وجوهٌ كثيرة لا تخفى على أهْلِ الذكاء، ومنها إقامَةُ دُورٍ لِرعايَة اليتامَىٰ لا تظْهَرُ فيها وُجُوهُ المحسنين.

وقد جاء التوجيهُ لإكرام اليتامَىٰ والنَّهْي عن قَهْرِهم في المراحِلِ الأولى لتنزيل سُور القرآن، اهتماماً بالمستَضْعَفِين المحرومين من الحنان، الّذين يَشْعُرون بأنّهم في حياتهم مغلوبُونَ مَقْهُورُونَ، ورَبّما كانوا مع ذلك ذوي حاجةٍ فقراء، وهذا يضاعفُ من آلامهم.

إنّ اليتيم تزْدَحِم في نفسه تصوُّراتُ أنّه مغلُوبٌ مَقْهُورٌ، إذْ هو مَحْرومٌ من أبيه الّذي لو كان حيًّا لكان به معزّزاً كريماً مَكْفِيًّا، ومَحْبُوباً مُدَلَّلاً، وأنَّ من يُحْسِنُ إليه يَفْعَلُ ذٰلِكَ شفقةً عليه، لا حُبًّا لَهُ.

فكَيْفَ بمَنْ يُذِلُّه، ويطْرُدُهُ، ويَدُعُّهُ دَعًّا، ويسْتَوْلي على ماله، ويُكَلِّفُه من الأعمال فوق تكليف أترابه ونظرائه من غَيْر اليتامَىٰ.

- ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾:

وجاء هذا التكليف من الله عزّ وجلّ للرسول ﷺ في مُقابِل قول الله له في التّذْكير بسَوابِق النِّعَم: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

جملَةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ معطُوفَةٌ علىٰ جُمْلة: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾. والجملتان مُتماثلان تركيباً وإعراباً، فلا حاجة للإعادة.

﴿ٱلسَّآئِلَ﴾: هو في العرف العامّ طالِبُ الصّدقَةِ من الناس، والأصْلُ في لفظ السّائل أنّه ينطَبِقُ علىٰ كلّ مَنْ يُوَجّه سؤالاً ما، ولو لمعرفة خبَرٍ أو عِلْمٍ أوْ غيْرِ ذلك.

﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾: يقال لغةً: نَهَرَ فُلانٌ فُلاناً إذَا زَجرَهُ وأغْضبَهُ، فالنَّهْرُ الزَّجْرُ المثير للغضب.

جاء فيما سبقَ من تنزيل القرآن التوجيهُ للعطاء والأمْرُ به، إذْ أمر الله فيه رسُولَهُ بأنْ يمُنَّ غَيْر مُسْتكْثِر، وذَمّ الكافرين بأنّهم لا يَحُضُّون على إطعام المسكين، أي: فمِنْ خلائق المؤمنين أنَّهُم يُطْعِمُونَ المسكين، ويحضُّونَ على إطعامه.

إذنْ فالْخَصْلَة الحميدةُ الّتي يحْسُنُ التوجيه لها، بعْدَ هذه السَّوابِق حوْلَ موضوع العطاء، هي عَدَمُ نَهْرِ السَّائل، والسَّبَبُ في هذا أنّ السَّائِلِينَ لأنفُسِهم في أغلَبِ الأحوال والأفْرَادِ إنّما يسْألُون للاستكثار من الأموال، وعن غَيْرِ حاجة، إذْ غَدَتِ المسألَةُ لديْهِمْ بمثابةِ مِهْنةٍ امْتهَنُوها، فالسَّائلُ منهُم في الغالب المعتاد مظِنَّةُ غَنِيٍّ مُتَمَسْكِنٍ مُسْتكْثِر، وحينما يَغْلِبُ في تصَوُّر الناسِ هذا المعنىٰ فَإنَّ الحريصَ على بذْلِ العطاء لمستحقّيهِ يَضِيقُ بالسّائِل تِلْقَائيًا فيَنْهَرُهُ ويَزْجُره.

لكِنَّ هذا الظّنَّ قَدْ لاَ يُوافِقُ حالَ السَّائِلِ، فيكُونُ نَهْرُهُ إيذاءً بالِغاً لقَلْبِه، وطَعْناً في مَكانِ جراحَتِهِ الّتي تُؤلِمُهُ، فكانَ من الحكمة لِصيانَةِ

السَّائِلين ذوي الحاجَةِ الحقيقيَّةِ المجهولين، وإنْ كانُوا قَلِيلِينَ، توجيهُ النَّهْي عن نَهْرِ كُلِّ سائلٍ، حتَّىٰ لاَ يَمَسَّ النَّهْرُ سَائِلاً صادقاً.

ونأخذ من هذا قاعدة عامّة، وهي: لزوم الابتعاد عن أُمُورٍ كثيرةٍ غير ممنُوعَةٍ بجملَتِها، ولا يُؤَدِّي الابتعاد عنها إلى ارتكاب محرَّم أو ترْكِ واجب، مَخافَة الوقوع بمَمْنُوعٍ ضارٌ مختَلِطٍ فيها، ولا يُسْتَطاع تمييزُه.

- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾:

جاء هٰذا التكليف من الله عزّ وجلّ لرسوله في مقابل قَوْلِ اللَّهِ لَهُ في التذكير بسوابق النِّعَم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾.

ظهر لي أنَّ المراد بنِعْمَةِ رَبِّهِ في هٰذه الآية هي نِعْمَةُ تَعَالِيم دين الإِسلام الَّتي هَدَىٰ الله بها رسُولَهُ، وعلَّمَه إيَّاها، ونِعْمَةُ آيَاتِ الْقُرآن الَّتِي يَنْزِلُ بها عليه الوحْيُ من الله عزّ وجلّ.

ويَدُلُّ على هذا الفهم نُصُوصٌ قرآنيّة متَعَدِّدة، منها النصوص التالية المشتملَةُ على دلالات واضحات:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) خطاباً لرسوله ورداً على متّهميهِ بالجنون من قومه:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾:

أي: بنِعْمَةِ الهدايَةِ والإِسلام وما يتنزَّلُ عليك من القرآن.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) خطاباً لرسوله أيضاً:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَمَا أَنْتَ بما يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْكَ من نِعْمَةِ القرآن وشرائع الإِسلام بكاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ، وفي هذا رَدٌّ على ما اتَّهَمه به بعض مشركي قومه.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بشأن مُشْرِكي مكّة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: أَفَبِالْبَاطِل الّذي هُوَ الشِّرْكُ وَلوازِمُهُ الجاهليَّة يُؤمِنُون، وبِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ شرائع دينِ الإسلام وآياتُ الْقُرآنِ يَكْفُرُونَ؟!

(٤) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾:

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: أي: ويُتِمَّ عَلَيْكَ إنزالَ القرآن وبَيَان شرائع الإسلام وأحكامه، وكان هٰذا تمهيداً وَتوطِئَةً لما أنْزَلَ الله عليه في سورة (المائدة/ ١١٢ نزول) في الآية الآتي بيانُها، وسُورَةُ (الفتح) من أواخِرِ السُّور القرآنيَّةِ في تَرْتيب النزول.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿. . . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا . . .﴾.

هٰذه الآية كانت آخِرَ آياتِ الأحكام الدينيّة نزولاً، نزلَتْ في حجّة الوداع يوْمَ الجمعة عَشِيَّة عَرَفَةَ كَمَا جَاء عند البخاريّ ومُسْلِمٍ وغيرِهما، وعاش الرسول بعدها (٨١) يوماً وقبضه اللَّهُ إليه بعْدَ ذلك.

فالنِّعْمَةُ المرادة هُنَا هي نِعْمَةُ شَرَائِعِ الإسلام، وأحكام الدِّين ونِعْمَةُ

الهداية إلى صراط اللَّهِ المستقيم، وهي التي تُلائِمُ امْتِنَانَ اللَّهِ عليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ⑦﴾.

فقولُ اللَّهِ عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾ تكليفٌ من اللَّهِ لَهُ أَنْ يُحَدِّثَ النَّاسَ، بما أَنْزَلَ اللَّهُ عليه من نِعْمَةِ هَذا الدِّين، وأَنْ يُقَابِلَ مِنَّةَ اللَّهِ علَيْهِ بالهداية إلَىٰ الدِّينِ الحقّ، وإلى سُلُوكِ الصراط المستَقِيم، بالدَّعْوَةِ إلى عَنَاصِرِ هذا الدِّين، شُكْراً لِلَّهِ على ما مَنَّ بِهِ علَيْهِ من هداية.

ودَلَّ قَوْلُ اللَّهِ لرسُولِهِ ﴿فَحَدِّثْ﴾ علَىٰ أَنَّ أسْلُوبَ الدَّعْوَةِ إلى دين اللَّهِ وَصِرَاطِهِ المستقيم في هٰذهِ المرحلَة الَّتي نزلَتْ فيها سورةُ (الضُّحَىٰ) هو أسْلُوبُ الْحَدِيث، لاَ أسْلُوبُ الْخُطْبَةِ والموعظة العامَّة ونحوهما.

والعامَّةُ من المسلمين يَفْهَمُونَ مِنْ هٰذهِ الآيَةِ أنّ المطلوب التحدُّثَ بما يُنْعِمُ اللَّهُ به على عَبْدِه من أرْزَاقٍ وأموالٍ ونَحْوِها، وهذا كما ظهر غير مَقْصُودٍ هنا.

على أن المطلوب من النّاس أَنْ يَحْمَدُوا الله على ما أَوْلاهم منْ نِعَمٍ ظاهرة وباطنة، وأَنْ يَشْكُروا اللَّهَ عليها بأعمالهم وأقوالهم، أخذاً من نصوصٍ أخرى، ولا يُشترط التحدُّثُ عنها بالتفصيل للناس، فقد يثير هذا حسد الحاسدين، ومطامع الباغين.

ويلاحظُ في السّورة أنّه جاء التَّرْتيب في تفصيل المطلوبات في التكليف، علَىٰ خلاف الترتيب الّذِي جاء فيه تَعْدَادُ مِنَنِ اللَّهِ على رَسُوله، الَّتي سبَقَ أن امْتَنَّ عليه بها، والتي جاءت عناصر التكليف مُقَابِلَةً لها، ويسمَّىٰ هذا عند البلاغيّين النَّشْرَ على خِلَافِ اللَّف.

والحِكْمَةُ من هذا الإجراء تظهَرُ لنا بملاحظة ما يلي:

أوّلاً: لقد جاء ترتيب المِنَن الَّتي امتنّ الله بها على رسوله موافقاً للترتيب الطبيعي:

(١) فالإيواءُ من اليُتْم قَدْ كانَ أوّلَ المِنَن، إذْ مَاتَ أبوه قَبْلَ وَلاَدَته.
(٢) وبَعْدَهُ بدأَتْ رِحْلَةُ الهداية والتعليم التي استمَرَّت.
(٣) وبَعْدَهما جاءت مِنَّةُ الإغناءِ من الْعَيْلَة.

ثانياً: أمّا مُقَابلاتُها في التَّكْلِيف، فَقَدْ رُوعِيَ فيها الْبَدْءُ بإكرام اليتيم وعَدَمِ قَهْرِه، وإتباعُ هذا بِعَدَمِ نَهْرِ المسكين، لأَنَّ العطْفَ علَىٰ ضُعَفَاءِ المجتمع وبائِسيه، من الوسائل الَّتي تَمْلِكُ القلوب، وتأسِرُ النُّفُوس، فَيَنْبَغِي أَنْ تكُونَ مُقَدَّمَةً علَىٰ الدَّعْوة إلى دين اللَّهِ والهداية إلى الصراط المستقيم، وهٰذِه الدَّعْوَةُ تَتَضَمَّنُ الحثّ على مخالفة التقاليد والعادات وأهواء النفوس وشهواتها، فلا بُدَّ لها من وسَائِلَ تَسْبِقُهَا، من شأنها أن تستعطف القلوب والنفوس، وتُلَيّن ما تَصَلَّبَ فيها ضدَّ الحقّ والخير والفضيلة، وهذا إنما يكون عن طَرِيقِ مَحَابِّ النفوس، ومُرْضيات حاجاتها، وضروريات حياتها، وإشعارها بما في هذا الدين من خدمات اجتماعيَّةٍ جليلة، وعواطف إنسانيَّة نبيلة.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة (الضحى) والحمد لله على توفيقه وفتحه

* * *

(٨)

الملحق الأول

حول إسناد فعل: «وَجَدَ يَجِدُ» إلى الله في القرآن

تتبَّعْتُ الآيات القرآنيَّة التي جاء فيها إسناد فعل: «وَجَدَ يَجِدُ» إلى اللَّهِ عزّ وجلَّ، فظهر لي أنَّ هذا الإسْنادَ يكونُ في الأنواع التالية:

النوع الأول:

الأمور الّتي تكُونُ استمراراً لأصْلِهَا الّذي هو الْعَدَمُ في الوجود، ولاَ يَتِمُّ فِيها خَلْقٌ مَقْصُودٌ بالإرادة.

ومِنْ أمْثِلَةِ هذا النوع قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الضُّحَىٰ) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

إنَّ الأَصْلَ في كلّ مَخلُوقٍ أَنْ يكونَ جاهلاً غَيْرَ عَارِفٍ سَبِيلَ هِدَايَتِهِ، فَهُو يَحْتَاجُ هدايَةً من الله تَهْدِيه سبيلَ رَشادِهِ وسعادته العاجلة والآجلَة.

وقَدْ هدَىٰ اللّهُ محمّداً، وزادَه فجعَلَهُ نَبِيًّا رَسُولاً، وحَمَّلَهُ أتَمَّ رِسَالَةٍ وَأكْمَلَ دِينٍ، وجعَلَهُ خاتم الأنبياء والمرسَلِين.

وإنّ الأَصْلَ في كُلِّ مَخْلوقٍ أنْ يكونَ عائِلاً فقيراً، فإذا شَاءَ الله أن يُغْنِيَهُ أغْنَاهُ من فَضْلِه وَأَعْطَاه ما يكفيه أو زاده.

وقد كان محمَّدٌ عائلاً فقيراً، فأغْنَاهُ الله، إذْ هيّأَ لَهُ مِنْ وسائِلِ العيشِ ما يكفِيهِ ويغنيه عن المسألة.

النوع الثاني:

الأمورُ الّتي تَحْدُثُ لُزُوماً نتيجَةً لأَعْمَالِ خَلْقٍ مَقْصُودَةٍ لذواتِها في خطَّةِ التكوينِ، كإمَاتَةِ الوالدَيْنِ لانْتِهاء أعْمَارِهما، وهذه الإماتَةُ يلْزَمُ عنْها تلْقَائيًّا يُتْمُ أَوْلادهما الصغار الذين هم لم يَبْلُغوا الْحُلُمَ.

ومن أمْثِلة هذا النوع قول الله عزّ وجلّ في سورة (الضُّحَىٰ) أيضاً خطاباً لرسوله:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

ويُقَاسُ علىٰ هذا اللازم نظائرُه.

النوع الثالث:

الأمور الّتي تكونُ نتيجة إرادة المخلوقِ واختيارِه الحرِّ، إذَا كَانَ مِمَّنْ مَنَحَهُمُ الله إرادةً واختياراً ليَبْلُوَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا.

ومن أمثلة هذا النوع ما يلي:

(١) قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بشأنِ آدم عليه السلام في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾:

أي: لم نَجِدْ لدَيْهِ إرادَةً قوِيَّةً من مستوى العزمِ، تجعَلُهُ يُحَافظ على عَهْدِهِ، ويَرْعَاه ويَسْتَمْسكُ به، وكانَ هٰذَا من لوازِمِ تخييرِه ومَنْحِهِ الإرادةَ الحرَّة ليبلوَه، وتسخير المسخرات الكونية للنّاس.

(٢) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ بشَأْنِ أَيُّوبَ عليه السَّلام، في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾:

إنّ صَبْرَ أيُوبَ قَدْ كان نَاتِجاً عَنْ قُوَّةِ إرادَتِهِ في تَحَمُّلِ الآلام والمصائب، وهذا من لوازم تخييره ومَنْحِهِ الإرادة الحرَّةَ ليبلُوَه.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأنِ أهْلِ القرى الّتي أهْلَكَهَا الله بسبب كُفْرِها وتكذيبها رُسل رَبِّها وفِسْقِها:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ولهذا أَبَانَ الله عزّ وجلّ أَنَّ من صفات المنافقين، أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ ما يُصِيبُهُمْ من أذىً على أيدي الكافرين، مِثْلَ عَذَابِ اللَّهِ الذي يُنْزِلُه ببَعْضِ عبادِهِ، غيْرَ نَاظِرِين إِلَىٰ أَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثارِ تخيير الله لَهُمْ، وتمكينِهِمْ من استخدام المسخَّرَاتِ للناس في الكون، لامتحانهم في ظروف الحياة الدّنيا، فقال اللَّهُ عزّ وجَلّ في سورة (العنكبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

(٩)

الملحق الثاني
حول «بلاغيات في سورة الضُّحَىٰ»

باستطاعة المتأمّل البلاغي أن يكتشف في هذه السّورة عدّة اختيارات بلاغية حكيمة، منها ما يلي:

الأولى:

جاء في عبارة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ اختيار الاسم الظاهر المضاف إلى ضمير المخاطب وهو الرسول، ووَضْعُه مَوْضِعَ ضمير المتكلّم: «ما وَدَّعْتُكَ» لدواعي بلاغيّة، منها:

(١) مطابقةُ ما جاء في جملة النفي القرآنية لما جاء في الإشاعة المفتراة، إذْ قال المشركون: إنّ ربّ محمّد ودَّعَه وقلاه.

(٢) التذكير بسوابق فضل رَبّه عليه، إذْ كان في ربوبيته له منذ نشأته يُتَابعُهُ بالمِنَنِ والمنَح والعناية الفائقة، فلفظ «ربّ» يُشْعِر بكلّ معاني الربوبيّة أخذاً من أصل وضع الكلمة ومشتقاتها، الدّالّ على معنَىٰ التربية.

(٣) إيثار الجمال التعبيري في السُّورة، الملائم لصِيَغ آياتها.

الثانية:

استخدام أدوات التأكيد في عدّة مواضع:

(١) تأكيد جملة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ بالْقَسَم، لأنَّ حال الرَّسول النفسيّة تَستَدْعي تأكيد الخبر له، بعد إشاعة خصومه أنّ ربَّهُ وَدّعَهُ أو قلاه، مستغلّين تأخُر الْوَحْيِ عَنْه قليلاً، بَعْدَ أن كان متواليَ الاتّصال به، ولا سِيمَا أنّه ما زال في أوائل بعثته رسولاً.

(٢) تأكيد وعد الله لرسوله بأنّ الآخرةَ خَيْرٌ لَهُ من الأولى، بلام الابتداء، وبالجملة الاسميّة، مراعاةً لحالته النفسيّة يومَئذٍ، ولإغاظة خُصُومه.

(٣) تأكيد وعد الله لرسوله بأنّه سوف يُعْطيه حتّىٰ يُرْضيه، بلام الابتداء، وبحرف التنفيس «سوف» كما يقول البلاغيون، إذْ قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

وجاء هذا التأكيد أيضاً مراعاةً لحالة الرسول النفسيّة يومئذٍ، وإغاظةً لخصومه، من مُكَايِدِيه وحاسديه.

الثالثة:

الإيجاز بحذف ضمير الخطاب في: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ وفي ﴿فَهَدَىٰ﴾ وفي ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ مع مراعاة التناظر في رؤوس الآيات في السورة، وهذا من الزيناتِ اللّفظيّة المحبَّبَةِ للسَّمْع.

الرابعة:

تتابُع دُرُوس السّورة تَتَابُعاً تفريعيًّا، فالدرس الأول منها يَشْهَدُ لِمَضْمُونِه مضمونُ الدَّرْس الثاني، إذْ هو بمثابة الدّليل عليه، والدرْسُ الثاني منها يَسْتَدْعِي تكليفَ الرسولِ العمَلَ بمضمون الدرس الثالث، شُكْراً لِلَّهِ على سَوابقِ مِنَنِ اللّهِ عليه، وبهذا تتجلّىٰ للمتدبّر وحْدَةُ مَوْضوع السورة، وبناءُ السّورة بناءً تكامليًّا تفريعيًّا.

وانتهى تدبر سورة (الضحى) بفضل الله ومعونته

* * *

سُورة الشّرح

أوْ

ألَمْ نشْرَح

أوْ

الانشراح

٩٤ مصحف ١٢ نزول

(١)

نص السورة وما فيها من فرشيات القراءات

سورة الشرح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ
وِزْرَكَ (٢) ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا
لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ
مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ (٧)
وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب (٨)

---

٥ - ٦ - قرأ أبو جعفر: [فَإِنَّ مَعَ الْعُسُرِ يُسُراً * إِنَّ مَعَ الْعُسُرِ يُسُراً *] بضَمّ السِّينِ في الكلمات الأرْبَع.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشْرَةِ بإسْكَانِ السِّينِ في كُلٍّ مِنْها.

الضّمُّ والإسْكانُ لُغَتَانِ في السّين من كَلِمتَي الْعُسْرِ والْيُسْرِ.

(٢)

موضوع السّورة

تكادُ تكُون سورة (الشَّرْح) تتمَّةً لسورة (الضُّحَى) أوْ دَرْساً من دروسِها، بيْدَ أنَّها سُورَةٌ منفصلَةٌ، نزلَتْ بعْدَ (الضحى) خطاباً للرسول

محمّد ﷺ، والأسلوبُ البيانيُّ والتربويُّ والتكليفيُّ فيها مُشابهٌ لأسْلُوبها، مع فارق بيانيٍّ استدعى فَصْلَها.

وهي تشتَمِلُ علَىٰ استفهامٍ تقريريّ بما امْتَنَّ اللَّهُ به علَيْهِ مِنْ مِنَنٍ تَتَّصِلُ بوظيفته الَّتي حمَّله الله أَعْبَاءَهَا، وهيَ كوْنُهُ نبيًّا رَسُولاً، سَيُواجِهُ لَدَىٰ قِيامِهِ بتَأْدِيَةِ رسَالَتِهِ في قومِهِ صُعُوبَاتٍ يُذَلِّلُهَا اللَّهُ لَهُ، ويُعِينُهُ عَلَيْهَا، ومَسَالِكَ ومُواجَهاتٍ وأعْمَالاً فيها عُسْرٌ يُيَسِّرُهُ اللَّهُ لَهُ بأَلْطَافِهِ الْخَفِيَّةِ، ومَعُوناتِهِ غَيْرِ المنْظُورة، فعليه أَنْ يُتَابِعَ كُلَّما فَرَغَ من عَمَلٍ من أعْمَاله الجهاديَّة الدَّعَوِيَّةَ، مَهْمَا شاهَدَ في المنْظُورِ عُسْراً، فَالْيُسْرُ غَيْرُ المنظورِ مرافِقٌ لِهَذَا الْعُسْرِ مِنْ جَانِبَيْهِ، وهو كفِيلٌ بأَنْ يَضْغَط علَيْهِ ويَجْعَلَ سَبِيلَ الرَّسُولِ مَيْسُوراً، وهُوَ يقُومُ بأداءِ وظائف رِسالَتِه، وعَلَيْهِ أَنْ يَرْغَبَ إِلَىٰ رَبِّه، داعِياً مُلْتَجِئاً يَسْتَمِدُّ مِنْهُ الْعَوْنَ والتوفيقَ والتَّسْدِيدَ والتأييدَ والنَّصْرَ والحِفْظَ دواماً، كُلَّمَا فَرَغَ مِنْ عَمَلٍ، واتَّجَهَ لِعَمَلٍ جِهادِيٍّ آخَرَ يَنْصَبُ فيه ويَتْعَبُ.

فالسُّورَةُ دَرْسُ وَاحِدٌ مُكمِّلٌ لِدُرُوس سُورَة (الضحى).

وما جاء فيها من توجيهٍ تكليفِيٍّ للرّسُول هو مُوَجَّهٌ أيضاً لِحَمَلَةِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

* * *

(٣)

التدبر التحليلي لآيات سورة الشرح

- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ خطاباً للرّسُول ﷺ بضمير المتكلم العظيم:

أَلَمْ: اسْتِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ على النَّفي، وجوابُهُ هُنَا: بلَىٰ، لأَنَّ محمّداً ﷺ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَه، أي: بَلَىٰ لقد شرحْتَ صَدْرِي.

وهذا من قبيل الاستفهام الذي يُرَادُ به التّقرير بالامتنان، لا طَلَبُ الإفهَام، فهو ممّا خرج عن أصْل دلالَتِه، كنظيره الذي جاء في سورة (الضحى)، ويُقالُ فيه: استفهامٌ تقريري، كما هو مقرّر عند البلاغيين، ويُؤْتَىٰ به لانتزاع الإقرار بنقيض النفْي المستَفْهَم عنه.

فالمعنىٰ: لَقَدْ شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، وهكذا مَا عُطِفَ علَىٰ فِعْل ﴿نَشْرَحْ﴾ من السُّورَةِ، وهو: [وَضَعْنَا] و [رَفَعْنا].

● ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾.

لمَّا كانَ حَرْفُ النَّفْي «لَمْ» الجازم للفعل المضارع يَقْلِبُ مَعْنَىٰ الفعل المضارع من الحال والاستقبال إلى الماضي جاء العطْفُ عَلَىٰ فِعْلِ ﴿نَشْرَحْ﴾ بفِعْلَيْن مَاضِيَيْنِ، وهما: [وَضَعْنَا] و [رَفَعْنا] والمعنى: وَأَلَمْ نَضَعْ عَنْكَ وزرَكَ، وألَمْ نَرْفَعْ لَكَ ذِكْرَكَ.

﴿نَشْرَحْ﴾: الشَّرْحُ في اللُّغَةِ: يأتي بمَعْنَىٰ: قَطْعِ اللَّحْمِ وشَقِّه، فالشَّرْحَةُ والشَرِيحَةُ هي القِطْعَةُ الْمَشْرُوحَةُ من اللَّحْم.

ويأتي الشَّرْحُ بمَعْنَىٰ: الْبَسْطِ والتَّوْسِعة، ومِنْهُ شَرْحُ الصَّدْرِ للإسلام، وشرْحُ الصَّدْرِ يكون بانفراجه وسُرُورِه، وذهَابِ ضِيقِ الْهَمّ والْغَمّ والْحُزْنِ عنه.

ويأتي الشرحُ بمعنَىٰ: الكَشْفِ والإيضاح، فالمسألةُ المشكلَةُ أو الصَّعْبَة يكُونُ شَرْحُها بتَوْضِيحِ وكَشْفِ ما هو غامِضٌ فيها.

وهذه المعاني كُلُّها تَنْطَبِقُ على حالِ الرَّسُول محمّد ﷺ:

(١) فقد شرَحَ اللَّهُ صَدْرَه إذْ أَجْرَى لَهُ عمليَّةَ شَقِّ الصَّدْرِ كمَا ثبَتَ في الصَّحيح، ونزَعَ من قَلْبه حظَّ الشَّيْطان، وكانَ هٰذا إكراماً من اللَّهِ له، وقَدْ أجراه اللَّهُ على خلاف مَجْرَىٰ العادات، إذْ توَلاَّهُ رُسُلٌ من الملائكة، في عَمَلِيَّة جراحِيَّةٍ ملكِيَّة، تَمَّ فيها شَقُّ صَدْرِه، وإخراجُ قَلْبِه، ونَزْعُ حَظِّ

الشَّيْطَانِ منه، ثُمَّ أُعِيدَ قَلْبُهُ إِلَىٰ مَكانِهِ وَضُمَّ صَدْرُهُ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ عِنْدَ مكانِ الشَّقِّ، والْتَأَمَ مَكَانُ الشَّرْح.

وهٰذِه الحادثة الّتي جرَتْ للرَّسُولِ على خلاف مجرى العادات، صَارَتْ في عَصْرِنا من العمليات الجراحيّة الطبيَّة المنتشرة المعروفة عند كُلِّ شُعُوب الأرض، ولكن يَتِمُّ بها عِلاَجَاتٌ جَسَدية بحت، لا تَصِلُ إلى مراكز الإرادات والعواطف والمعارف.

وقد ورد في وصف حادثة شقِّ صدْر الرسول ﷺ روايات متعدّدة، منها ما يلي:

- روى مسلمٌ عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ أتَاهُ جبريلُ عليه السّلام وهو يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَان، فأخَذَهُ فصَرَعَهُ فشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، واسْتَخْرَجَ منْهُ علقَةً سَوْداءَ، فقال: هَذا حظُّ الشَّيْطَان، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بمَاءِ زمْزَمَ، ثُمَّ لأمَهُ، ثُمَّ أعادَهُ في مَكانِهِ، وجاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّهِ (أي: مُرْضِعَتِهِ ومُرَبِّيَتِه) فقَالُوا: إنَّ مُحمَّداً قَدْ قُتِلَ، فاسْتَقْبَلُوهُ وهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْن».

مُنتَقِعُ اللَّوْن: أي: متغيِّرٌ مُصْفَرٌّ ممَّا حَدَثَ لَهُ من الخوف.

قال أَنَسٌ: وقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ أثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطَ في صِدْرِه.

- وروى أبو نُعَيْم والإمَامُ أحْمَدُ وصحَّحه الحاكم عن عُتْبَةَ بْنِ عبد اللَّهِ، أنَّ رجُلاً سَأَلَ النبيَّ ﷺ فقال: كيْفَ كَانَ أَوَّلُ شَأْنِكَ يَا رسُولَ الله؟. قال:

«كَانَتْ حاضِنَتِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَانْطَلَقت أَنَا وابْنٌ لَهَا فِي بَهْمٍ(١) لنا، ولَمْ نَأْخُذْ مَعَنا زَاداً، فَقُلْتُ: يَا أَخِي(٢)، إذْهَبْ فَأْتِنا بِزَادٍ مِنْ

---

(١) **الْبَهْمُ**: جمع البَهْمَةِ، وهيَ الصغيرُ من الضأن (الذكر والأنثى فيه سواء).

(٢) كان أخاه من الرَّضاعة.

عِنْدِ أُمِّنَا، فانطَلَقَ أخِي، ومكَثْتُ عِنْدَ الْبَهْمِ، فَأَقْبَلَ طَائِرَانِ أَبْيَضَانِ كَأَنَّهُمَا نَسْرَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُما لصاحِبِهِ: أَهُوَ هُو؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَقْبَلَا يَبْتَدِرَانِي(١) فَأَخَذَانِي، فَبَطَحَانِي لِلْقَفَا، فَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي، فَشَقَّاهُ، فأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بمَاءِ ثَلْجٍ، فَغَسَلَا بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ: ائتِنِي بمَاءِ بَرَدٍ، فَغَسَلَا بِهِ قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ، فَذَرَّاهَا(٢) في قَلْبِي. ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: حِطْهُ، فَحَاطَهُ، وَخَتَمَ عَلَىٰ قَلْبِي بخَاتَمِ النُّبُوَّةِ. فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اجْعَلْهُ فِي كِفَّةٍ، وَاجْعَلْ أَلْفاً مِنْ أُمَّتِهِ فِي كِفَّةٍ، فَإِذَا أَنَا أَنظُرُ إِلَىٰ الأَلْفِ فَوْقِي، أُشْفِقُ أَنْ يَخِرَّ عَلَيَّ بَعْضُهُمْ. فقالَ: لَوْ أَنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَتْ بِهِ لَمَالَ بِهِمْ.

ثُمَّ انطَلَقَا فَتَرَكَانِي، وَفَرِقْتُ فَرَقاً شَدِيداً(٣). ثُمَّ انطَلَقْتُ إِلَىٰ أُمّي، فَأَخْبَرْتُهَا بالَّذِي لَقِيتُ، فَأَشفَقَتْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لُبِّسَ بي، فقالَت: أُعِيذُكَ بِاللَّهِ، فَرَحَّلَتْ بَعِيراً لها، وحَمَلَتْنِي عَلَىٰ الرَّحْلِ، وَرَكِبَتْ خَلْفِي، حَتَّىٰ بَلَغْنَا إِلَىٰ أُمّي(٤)، فَقَالَتْ: أَدَّيْتُ أَمَانَتِي وَذِمَّتِي، وحَدَّثَتْهَا بالَّذِي لَقِيتُ فَلَمْ يَرُعْهَا. وقَالَتْ: إِنِّي رَأَيْتُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ».

● ورأَىٰ طائِفَةٌ من الْمحقّقين أَنَّ حَادِثَةَ شَقِّ الصَّدْرِ قَدْ تَكَرَّرَتْ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، جمعاً بيْنَ الروايات المتعدّدة المثبتَةِ حُدوثَها في أزمنَةٍ مختَلِفَةٍ مُتَباعِدَة.

هذا الشَّرْحُ الّذِي هو بمعنَىٰ الشَّقّ قَدْ كانَ إحْدَىٰ الْمِنَنِ الَّتِي امْتَنَّ اللَّهُ بها على رسُوله، إذْ أَخْرَجَ من قَلْبِهِ حظَّ الشيطان، فكان بإخراجِهِ منه مُنْشَرِحاً لأفْعَالِ الخير والبِرّ والتحلّي بالفضائل والكمالاَت.

---

(١) **يَبْتَدِراني**: أي: يُسْرِعَانِ إليَّ.

(٢) **فَذَرَّاها**: أي: فَأجَالَهَا فِي قَلْبِي كما تفعَلُ الريحُ إذْ تُطِيرُ الأَشْيَاءَ بِسُرْعَةٍ.

(٣) **فَرَقاً شَدِيداً**: أي: خوْفاً شديداً.

(٤) أي: إلى أمّهِ التي ولدته آمِنة.

(٢) وَأَمَّا الشَّرْحُ بمعنَىٰ الْبَسْطِ والتوسعَة، فَهُوَ ما أَنْعَمَ اللَّهُ به عَلَىٰ رسُولِه من إزالة الضِّيْقِ عن صَدْرِه، الّذي يُحْدِثُهُ عادَةً الْهَمُّ والْغَمُّ والحزَنُ، وأَلَمُ النَّفس الّذي يَحْدُثُ بسبَبِ عدَمِ تَحْقِيق المطالِبِ التي تَتعلَّقُ بها طُمُوحَاتُها، ونحو ذلك.

ويدخُلُ في هذا المعنىٰ أَيْضاً انشراحُ صدْرِهِ لِفِعْلِ الخيْرِ والبرّ وطاعَةِ اللَّهِ في كُلِّ أَمْرٍ، والتَقرُّب إِلَيْهِ بِمَحَابِّه، بما أعطاه الله من مشاعِرِ لذةِ العمل الصالح.

ويَدْخُلُ فِي هذا المعنى أَيْضاً انْشِرَاحُ صَدْرِه صلواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لوارداتِ المعارفِ والْعُلُومِ والمفهومات الصحيحات السَّاميات، بإشراقٍ لا ظُلْمَةَ معَهُ ولاَ غَبَشَ فِيه.

وعلىٰ هذا المعنىٰ من معاني الشَّرح ورَدَتْ نصُوصٌ قرآنيَّةٌ مُتعدّدة، مِنْهَا النُّصوص التالية:

- ما جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) حكايَةَ لِدُعَاءِ مُوسَى عليه السَّلَام، إذْ أَمَرَهُ اللَّهُ بأنْ يَذْهَبَ لدعوة فرعون إلى الإيمان والإسلام، وتَرْكِ مَا هُو فيه من طغيان، فقال اللّه عزّ وجلَّ فِيها حكايَةً للقصّة:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾.

فدلَّ دعاء موسىٰ عليه السلام ربَّهُ، بأنْ يشرح له صدْرَه، علَىٰ أنَّ شَرْحَ الصَّدْر لحَمَلَةِ رِسَالة الدَّعْوة إلى اللّه، والنُّصْحِ والإرشاد، والأَمْرِ بالمعروف والنهْيِ عَنِ المنكر، من المطالب المهمَّةِ، المساعِدَةِ على القيام بوظائف الرسالة بثباتٍ وحِكْمَةٍ ورُشْدٍ، وبَصِيرةٍ مستنيرة، وهِمَّةٍ عالية، وعَزِيمَةٍ قَوِيَّة.

● وقولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: وَمن يُرد اللّه أن يَهْدِيَهُ لسُلُوك صراط الإسلام مُعَاناً، بسَبَبِ سَوابقِ إيمانه الصّادِقِ الصّحيح، يَشْرَحْ صَدْرَهُ للقيام بالتطبيقاتِ الإسلاميَّة العمليَّةِ الْجَسَدِيَّة والنفسيّة، فَهُو يَنطَلِقُ في حياتِه مَهْدِيّاً مُعَاناً.

ومَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ عَنْ سُلُوك الصِّراط المستقيم صِرَاطِ الإسلام العملِيّ في تطبيقاته، بِسَبَبِ عَدَمِ إيمانِهِ الذي هو الأَسَاسُ والقاعِدَةُ لكلّ سُلُوكٍ إسْلَامِيٍّ، يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضيّقاً حَرَجاً يكادُ يختَنِقُ كأنّما يَصَّعَّدُ في السّماء، كلّما وَجَدَ نَفْسَهُ مُلْزماً بأنْ يَقُومَ ببَعْضِ التطبيقات الإسلاميّة، مخالفاً فيها هواه أو شَهَواتِه، لأنَّ هٰذه التطبيقات غَيْرُ مبنيَّةٍ على إيمان صحيح صادق. وتنطَبِقُ هٰذِهِ الحالَةُ على المنافقين الّذين يجدُونَ أنْفُسَهُمْ مضطرّين لِمُمَارسَةِ أعمالِ إسلاميّة بين المؤمنين الصادقين.

وسمَّىٰ اللّٰهُ هذا الضّيق والحرَجَ في الصَّدْرِ رِجْساً، وأَبَانَ أنّهُ يَجْعَلُهُ على الّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ.

وهذه من سُنَنِ اللّهِ في كَوْنه، فَمَنْ آمَنَ بقضيَّةٍ ما إيماناً صحيحاً صَادِقاً، انْدَفَعَ إلَىٰ القيام بأعْمَالها مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ، مُتَفائلاً بتحقيقِ نتائجَ يطْمَعُ بتحقيقها ممّا يُحبُّ. ومَنْ لم يُؤْمِنْ بها انقبضَتْ نَفْسُه، ولم يَنْشَرِحْ صَدْرُهُ للقيام بالأعمال الّتي تتطلَّبُها أَوْ تَدْعُو إلى القيام بها.

وسُوءُ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الآيَةِ يأتي مِنْ عَدَمِ الانتِبَاهِ إلَىٰ قول اللّهِ في آخرها: ﴿... كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعَدَمِ مُلاحَظَةِ الفَرْقِ بَيْنَ الإِسلام الّذي يُرادُ به التطبيقاتُ العمليّة، وبَيْنَ الإيمان الذي هو

الإذْعَانُ والاعْتِرَافُ الْقَلْبِيُّ والتَّصْدِيقُ بمَا جَاءَ عَنِ اللّهِ ورسولِه من حقائِقَ علميَّةٍ اعتقاديَّة.

وسوءُ تدبُّرِ هذه الآية يوقع في المفهومات الجبرية الباطلة.

- وقول الله عزّ وجل في سُورَة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَه للتطبيقات الإسلاميّة بسبَبِ إيمانه الصحيح الصّادقِ وذِكْرِهِ للّهِ وَلليوم الآخر، ولما هو مطلوبٌ منه في رحلة امتحانه للفَوْز، فَهُو علىٰ بَيِّنَةٍ من رَبِّهِ في مَسِيرَتِهِ في حياته، كَمَنْ كَفَرَ فلَمْ يَشْرَحِ اللّهُ صَدْرَهُ للتطبيقات الإسلاميّة، لعَدَمِ إيمانه الّذي يَجْعَلُ قَلْبَه قاسِياً مِنْ جِهَةِ ذِكْرِ اللّهِ ومطلوبَاتِهِ منه في رِحْلَةِ امتحانه؟! وحينما لاَ يَنْشَرِحُ صَدْرُه للتطبيقات الإسلاميَّةِ يَكُونُ حَتْماً في ضَلاَلٍ مُبِينٍ، بَعِيداً عَنْ صراط اللّهِ المستقيم.

(٣) وأمّا الشَّرْحُ بمَعْنَىٰ الكَشْفِ والإيضاح فانْطِبَاقُهُ علَىٰ حال الرسول ﷺ أمْرٌ ظاهر، إذْ كشَفَ اللّهُ لَهُ وأوْضَحَ الحقائقَ وَالمعارِفَ الكُبْرَىٰ المتعلّقَةَ بمَسَائِلِ الدِّين، فهِيَ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ في عُمْقِ قَلْبِهِ الّذِي في صَدْرِهِ، وهذا من إطْلاَقِ المَحَلِّ وإرادَةِ الْحَالِّ فِيه، إذْ إنّ هذه الحقائِقَ والمعارفَ الرَّبَّانِيَّةَ حالَّةٌ في صَدْرِهِ بجَلاَء ووضوحٍ، ومُحَاطَةٌ بأنْوَارٍ مِنَ اللّه، والمرادُ بشرح الصَّدْرِ على هذا المعنىٰ إيضَاحُ وتجليَةُ الحقائِقِ الرّبّانيَّةِ الحالَّةِ فيها.

- ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ﴾: أي: أَزَلْنا عَنْكَ، وألْقَيْنا عَنْكَ، عِنَايَةً بِكَ وَتَخْفيفاً.

﴿وِزْرَكَ﴾: الوِزْرُ في اللُّغَةِ: الحِمْلُ الثَّقِيل. وأُطْلِقَ الوِزْرُ عَلَىٰ الذَّنْب،

لأنَّ الْمُذْنِبَ يَحْمِلُ تَبِعات ذَنْبِهِ إلى رَبِّهِ حتَّىٰ يُحَاسِبَهُ عليها يوم الدّين. وَجَمْعُ وِزْرٍ «أوْزَار».

﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أي: جَعَلَ فِقَراتِ ظَهْرِكَ تُعْطِي صَوْتاً باحتِكَاكِ بَعْضِها ببَعْضٍ، من ثِقَلِ الْحِمْلِ الّذي علىٰ ظَهْرِك.

النقيضُ من الأصْوات: مَا يَكُونُ لمفاصِلِ الجِسْمِ حينَ تُعْطِي صَوْتاً من ثِقْلٍ يَقَعُ عليها، والناسُ يَضْغطون على الأصابع عند المفاصِلِ فتُطْلِقُ صَوْتاً، هٰذَا الصَّوْتُ يُطْلَقُ عليه في اللُّغَة اسْمُ: «نَقِيض».

ويُطْلَقُ النقيض أيضاً على أصوات الفراريج، والوزَغ، والضفادع، ونحوها.

فعِبَارَة: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ كِنَايَةٌ عن ثِقَلِ الْحِمْلِ الَّذِي كان محمَّدٌ ﷺ يَحْمِلُه، وهُوَ حِمْلٌ مَعْنَوِيٌّ قَدْ وَضَعَهُ اللّه عنه، ولاَ يُشْتَرَطُ أَنْ يَحْصُلَ منْهُ نَقِيضٌ يُسْمَعُ.

فما هُوَ هذا الْحِمْلُ الّذي وضَعَهُ اللّهُ عزّ وجلَّ عَنْهُ ﷺ؟

أمّا مَعْنَىٰ الذَّنب لكَلِمة «الوِزْر» فغير وارِدٍ هُنَا حَتْماً.

إنَّ الدليلَ العقليَّ والدّليلَ النقلِيّ يُثْبتَانِ خِلاَفَ ذَلِكَ دُونَ شكٍّ وَلا إشكال.

أمّا قَبْلَ النبوّة والرّسالَةِ فلَمْ يَكُنْ لدَىٰ محمّدٍ تكاليف عمليَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ حتَّىٰ يُخالفها بالذُّنوب، وثَبَت أنّه صلوات الله علَيْه وسلاماته لم يُشْرِكْ بربّه أحداً، ولم يكُنْ يدعو شيئاً من الأوثان مثْلَ قومه، حتَّىٰ إنَّه لم يكُنْ يَحْفِل باللَّهْو الّذي كان يشْغَلُ شبَابَ أهْلِ مكّة، ولم يُعْرَفْ عنهُ إلاّ كَمَالُ الخلُق، فتصَوُّرُ الذنُوب منه قبْلَ بعْثَتِهِ تَصَوُّرٌ لاَ مَحلَّ له، وهو مُجافٍ للواقع تماماً.

وأمّا بعْد النبوّة والرّسالة، فالْعِصْمَةُ تُنَافي احْتِمَالَ وقوعِ ذُنُوبٍ منْهُ

تُنقِضُ ظَهْرَه، ولا سيما أنّ هذه السُّورة قَدْ نَزَلَتْ وهو ما زال في أوائل قيامه بوظائف رسالته، وفي المراحل الأولى من دعوته، فكَيْفَ تَتَراكَبُ عليه ذُنُوبٌ تُثْقِلُ ظهرَهُ وهُو في هذا الحال. إنَّ هٰذا لَأَمْرٌ مرفوضٌ قطعاً، وحَمْلُ الوِزْرِ على الذنب هنا حَمْلٌ مُنْكَرٌ من الْقَوْلِ وزُور.

فما هو الحِمْلُ الثقيلُ المرادُ من كلمة الوِزْر الواردة في هذه السُّورة؟

أقول: لدَىٰ التفكّر المتأنّي في حالَةِ محمّد ﷺ، بحْثاً عمّا يمْكِنُ أَنْ يكون لدَيْه منْ حِمْلٍ ثقيلٍ ينوءُ بِهِ ظهرُه، تَظْهَرُ لنا حقيقَةُ طُموحاتِه، وهِمَّتِهِ العليّة، وآمالِه الواسعة، وهُمُومِهِ الكُبْرَىٰ، لإصْلَاح قَوْمِهِ، وإنْقاذِ البشرِيَّةِ من خبائِثها وشُرُورها وظُلْمِها وفسَادِها العريض.

فقَدْ بَدأ يحْمِلُ هُمُومَ إصْلَاح أحوال أهله وأسْرَته ومَنْ حَوْلَهُ منْ عَشِيرَته، ثُمَّ تنامَتْ هُمُومُهُ بالرَّغباتِ المِلحّاتِ فيه لإصلاح قَوْمِهِ كُلِّهِم في جَمِيعِ الأراضي العربيّة، فكان كثير التفكير في ذلِكَ، الأمْر الذي جعله مُثْقَلاً بالهُمُوم، باحِثاً عن وسائل الإصلاح، متفكِّراً بالمبادئ الّتي يَجِب أن يقومَ عليها الإصلاح، وبالمنهاج الذي يجب أن يَسِيرَ عليه قومُه.

ولا بُدَّ أن تكون قد تنامَتْ هُمُومُهُ بالرَّغبات الْمُلِحَّاتِ في الإصلاح العامّ الشامل، حتَّىٰ صَارَ يَحْمِلُ هُمُومَ إصْلَاح شُعُوبِ الأرْضِ جميعاً، عَرَبِهم وعَجَمِهم، وصَارَ يُجْهِدُ مَلَكَاتِهِ الذهنيَّةِ في التأمُّل والتفكير والبحث، وطَرْحِ الاحْتِمَالاَتِ، ومحاولَةِ استخراج المبادئ والمناهج ووسائل التنفيذ، فمن كان مثْلَهُ ذا فِطْرَةٍ عالية، ونَفْسٍ كبيرة، وفِطْنَةٍ فَذّة، وهمّةٍ رَفيعَةٍ، وَتَحلٍّ بأكْرَم الصِّفَاتِ البشريَّةِ والْخُلقِ العظيم، فلا بُدَّ أن تكون له هِمَّةٌ نَفْسِيَّةٌ عظيمةٌ جدّاً، تُكلّفُه أن يَحْمِلَ من هموم الإصلاح البشريّ مَا يُثْقِلُ ظَهْرَهُ ويُنْقِضه.

وإذَا كَـانَـتِ الـنُّـفُـوسُ كِـبَـاراً   تَـعِـبَـتْ فِـي مُـرَادِهَـا الأجْـسَـامُ

ولمَّا كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَحْمِلُ هذا الْحِمْلَ الْعَظِيمَ من الْهَمّ الكبير، لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ الكبيرَةِ السّامِيَةِ، وقَلْبِهِ العظيم، إلاّ الْخَلْوَةَ بربِّه في ذروة جَبل حراء، عِنْدَ غارٍ صَغِيرٍ هناك، فصَار يَتَعَبَّدُ فيه اللَّيَالِيَ ذوات العدد، ثمّ يعودُ إلَىٰ أَهْله ليَأْنَس بِهِمْ أيَاماً، ثُمَّ يَدْفَعُهُ همُّهُ العظيم، وشَوْقُهُ المتوهّج إلى الْخَلْوَةِ بربّه، فيأْخُذُ زادَه، عَوْداً إلىٰ الغار في ذروة حِرَاء، فيَعْبُدُ ربَّه، ويَسْبَحُ في تَأَمُّلاَتِه، مُعَانياً هُمُومَ إصْلاحِ الناس جَميعاً.

وظلَّ كذلِكَ حتَّى اصطفاه اللّه بالنُّبُوة الّتِي كان قَدْ أَعَدَّهُ لها، ثم بالرِّسَالَةِ الخاتمة، إذْ أرسَلَ إليه الملَك جبريلَ عَلَيْه السّلام، وَبدَأَ يُلْقِي عَلَيْهِ ما يأمُرُهُ اللَّهُ به، وَيُتَابِعُهُ ببيان أَرْكان الإيمان وعناصِرِ مِنْهَاج السُّلُوكِ، وَوَسَائِلِ التبليغ، وأساليب التربيَةِ والإصلاح، وبهذا أَلْقَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ عن ظهر محمّد ﷺ كُلَّ هُمُومِهِ، فَتوجَّهَ لِتَلَقِّي التَّعْلِيمات والأَوامر الرّبّانِيَّة، مَهْدِيًّا بِهَدْيِ رَبّه، مُلْقِياً عَنْ ظَهْرِهِ أَعْبَاءَ رَسْمِ مِنْهَاج عَمَله، يتَرَقَّبُ ما يُسْعِفُهُ اللّه به عن طَرِيقِ الوحي.

وتحقَّقَتْ بهذا مِنَّةٌ عظيمة من مِنَنِ اللّهِ عليه، إذْ وَضَعَ عنْهُ وِزْرَهُ الّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَهُ.

- ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ﴾: أيْ: وَأَعْلَيْنا لَكَ. فَرَفْعُ الشَّيْءِ يكون بإعْلائِه، حتَّىٰ يَراهُ جَمِيعُ الرَّائين، فلاَ يكُون محجوباً عن أَحَدٍ منهم، ومنه رفْعُ الرّايات، ورفع المنارات، ورَفْعُ المباني، ومنه الإذْنُ برفع بُيُوت اللّهِ حتّىٰ تكون أعْلَىٰ من سائر المباني حولَها، للاهتداء إليها.

﴿ذِكْرَكَ﴾: أي: صِيتَكَ الحسَنَ بيْنَ كُلِّ ذَوِي الإِدْراك، إنَّ انتشارَ الذكْرِ الحسَنِ بَيْنَ الخلائق من أَجَلِّ عناصِرِ المجْدِ الَّتِي يَحْرِصُ عليها كِرامُ النّاس وعُظَماؤهم.

فأبان اللّه عزّ وجلّ لرسوله في هذه الآيةِ مِنَّةَ تكْرِيمهِ بمَجْدِ الذِّكْرِ الحسَن، والصّيتِ العظيم، والثناء الرَّفيعِ بيْنَ أهل الأرض، وبين أهل السّماوات السَّبْعِ والْعَرْش والكرسيّ.

ولهذا التكريم وقائع وتطبيقات كثيرات، منها ما يلي:

- ذِكْرُ صِفَاتِه والبِشَارَةُ بِه في التوراة والإنجيل، وعلى ألسنَةِ كثيرٍ من الأنبياء والمرسَلِين.
- اقترانُ اسْمِه باسم اللّه جلّ جلالُه في الشهادتين.
- أنّ له الشّفاعة يوم القيامة، حينَ يتخلّىٰ عنْها جميع الأنبياء والمرسلين.
- ثناء اللّه عليه بقولِه له كما جاء في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

ونَلْمَحُ من هَذا أنّ حامل رسالة الدعوة إلى اللّه والنُّصْحِ والإرشاد والأَمْرِ بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، بحاجَةٍ إلى شيْءٍ من الغذاء النَّفْسِيِّ التَّشْجِيعِيِّ، يَتَّصِلُ بالتكريم، ومَجْدِ رفْعِ الذِّكْرِ بيْنَ الخلائق.

- ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

الْعُسْرُ والْيُسْرُ: ضدّان، فالْعُسْرُ: الشّدّةُ والصُّعُوبة، من ضِيقِ المسالِكِ ووُعُورَتِها، وضِيقِ المداخل، وكثرة العقبات. واليُسْرُ: السُّهولَةُ واللّينُ والمطاوعةُ والانقياد، بسبب انفراج المسالك، واتّساع المداخل، ومُطَاوعَةِ الأشياء وانقيادها، والخلُوّ من العقبات والموانع والمؤذيات، والمشَقّات.

وقد وعَدَ اللّه رسولَه بأنّه كُلّما واجَه عُسْراً في مَسِيرَتِه، قائماً بوظائف رسالته، أحاطَهُ اللّه بِيُسْرٍ عَنْ يَمِينِه وعَنْ شِماله.

ولا يخفىٰ على المتدبّر الرَّبْطُ بين التقرير بما امْتَنَّ اللّٰه به على رسوله من شرح الصَّدْر، وَوَضْعِ الْوِزْر، ورفْعِ الذِّكْر، وترتيب الْوَعْدِ بتيسير ما يَعْتَرضُه في مَسِيرَتِه من صُعُوباتٍ وشَدَائد.

إنّ هٰذه المِنَن الَّتي طَلَبَ اللّٰهُ عزّ وجلّ من رسوله وضْعَها في ذاكرتِه والإقرار بها، تتطلَّبُ منهُ أن يُجاهِدَ في حَمْلِ الرسالة الّتي كلّفَهُ اللّٰه إيّاها، وأَمَرَهُ بتَبْلِيغِها، وحمَّلَهُ مسؤوليّةَ قيادةِ أُمَّتِهِ وسياسَةِ النّاس.

لكِنَّ هذا التكليف قد طُوِي في السُّورَةِ، وذُكِرَ لازِمُهُ الَّذي على الرسول أنْ يتحمّله، وهُو مقابَلَةُ الْعُسْرِ الّذي سَيُعانِي منه في مسيرته في دعوتِه وأداء رسالته، بالصَّبْر، مع الطَّمَعِ بالتَّيْسِير الرّبّاني، الّذي يَحُفُّ عَقَباتِ الْعُسْرِ.

أخرج عبد الرّزّاق وابْنُ جرير والحاكم والبيهقيّ عن الْحَسَنِ قال: خَرَجَ رسولُ اللّه ﷺ يوماً فرِحاً مسروراً وهو يضحك ويقول:

«لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مع الْعُسْرِ يُسْراً»(١).

وذكر علماء العربيّة في بيان سبَبِ هذا القول، أنّ الْعُسْرَ جَاءَ مُعَرَّفاً في الجملة الثانية فهو عيْنُ الْعُسْرِ الذي جاء في الجملَة الأولى، أمّا الْيُسْرُ فقد جاء في الجملَتَيْنِ مُنَكّراً فَهُما متغايران، فصارا يُسْرَيْن.

ودلَّ أيضاً على هذا التكليف المطْوِيّ خطابُ اللّهِ لرسوله بقوله:

- ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴿٧﴾﴾:

﴿فَانْصَبْ﴾: فِعْلُ أمْرٍ مِن فعل «نَصِبَ» أي: تَعِبَ وأعْيَا. يقالُ لغةً: نَصِبَ يَنْصَبُ نَصَباً إذا تَعِبَ وأَعْيا.

---

(١) هذا الحديث مرسل، وروي نحوه مرفوعاً.

والنَّصَبُ يكونُ عادةً من أثر عَمَلٍ فيهِ جِدٌّ واجتهاد.

وفراغُ الإنسانِ يَكُونُ عادةً إِذَا انْتَهَىٰ من عَمَلٍ كانَ يَعْمَلُه، ويُقَال: فَرَغَ من الشيء إذا أتَمَّهُ.

فمعنى الآية بعْدَ هذا التحليل: فإذا فَرَغْتَ من عَمَلٍ من أعمال الخير، كأعمال الدّعْوةِ إلى الله، وأداء مُهِمَّةٍ من المهمّاتِ الّتي كُلِّفْتَهَا في رسالَتِكَ، فأنْشِئْ عمَلاً آخرَ تُجَاهِدُ فِيه قائِماً بوظائفِ نُبُوَّتِكَ، ووظائِفِ رسالَتِك حتَّىٰ تنصَبَ مُتْعباً، وَلاَتَنِ بفُتُورٍ وكَلَلٍ، وهذا نَظِيرٌ قَوْل اللّهِ عزّ وجلّ لموسىٰ وهارون عليهما السلام كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾.

أي: ولا تَفْتُرا ولاَ تَضْعُفَا عَامِلَيْنِ كَادِحَيْنِ في القيام بأعباء رسالَتِكُمَا المشتملةِ على ذكْرِي، فذِكْرُ اللّه بالنسبة إلى حامل الرسالة، يكون بالدعوة إلى الإيمان به، والاستمساك بالدِّينِ الذي اصطفاه الله لعباده.

فقول الله لرسوله محمّد ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾﴾ يتضَمَّنُ أمْرَهُ بمواصَلَة الْمُجَاهَدَةِ في أداء وظائف رسالَتِهِ، فكُلّما فَرَغَ من عَمَلٍ من أعْمَالها، فإنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ في عمل آخَرَ حتّىٰ ينْصَبَ فيه مُتْعَباً.

وأرْشَدَهُ اللّهُ عزّ وجلّ بعد هذا إلى الدَّواء الّذِي يُمِدُّ بالْعَوْنِ والْقُوَّةِ والنَّشَاطِ، لِيُتابعَ مُجاهَدَتَهُ في مَسِيرَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ وهُو دَوَاءُ الدُّعَاءِ والالْتِجاء إلى ربّه أنْ يُمِدَّهُ بالْقُوَّةِ والْعَوْن والنَّشاطِ، ما كان منها مادّيًا، وما كان مِنْهَا معنويّاً، فقال له:

● ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾:

أي: وَإِلَىٰ رَبِّكَ فابتَهِلْ وَتَضَرَّعْ دَاعِياً سَائِلاً حتَّىٰ يُيَسِّرَ أمْرَكَ، ويَدْفَعَ عَنْكَ الْعُسْرَ، ويُمِدَّك بما تحتاجُ إلَيْهِ من قوَّةٍ ومَعُونَةٍ ونَشَاطٍ، وحتّى يَقْضِيَ لَكَ بالتوفيق والتَّسْدِيد والتأييد والنَّصْر.

يُقَالُ لُغَةً: رَغِبَ الْعَبْدُ إلى رَبِّه إذَا سَأَلَهُ طالباً مُبْتَهِلاً مُتَضَرِّعاً.

إنّ الروابط الفكريَّة بيْنَ الآيَاتِ تَدُلُّ على المقصود ضمناً بقَوْله تعالى لرسوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾. كما دَلّتْ اللّوازم الفكريَّة على أن المقصود بـ: ﴿فَٱنصَبْ﴾ الأَمْرُ بأعْمالِ المجاهدة في تأديَةِ وظائِفِ الرسالة حتَّىٰ الشُّعُورِ بالنَّصَبِ وهو التَّعَب. وكَمَا دَلَّتِ اللّوازمُ الفكريَّة على أنَّ من يَقُومُ بتأدِيَةِ رسَالَةِ الدَّعْوَة إلى اللّه في مجتمعات جاهليّة، لا بُدَّ أنْ يَتَعَرَّضَ لعَقَبَاتٍ ومَضَايِقَ فِيها عُسْرٌ يحْتَاجُ مَعَها إلى تَيْسِيرِ من اللّه جلَّ جَلاَلُهُ، أَخذاً من قول اللّهِ في السُّورَةِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾.

الفاء في ﴿فَٱنصَبْ﴾ واقعة في جواب الشرط [إذا]. والفاء في ﴿فَٱرْغَب﴾ واقعة في جواب شرط يفهم من مضمون الكلام، تقديره: وإذا توجهت للعمل الجديد فارغب إلى ربك سائلاً أن يمُدَّكَ بالعون والتوفيق.

* * *

(٤)

ما يُستَفادُ للدّعْوَة والدُّعَاة من سُورَتي الضُّحَىٰ والشَّرح

نستطيعُ أن نستَنْبِط من سُورَتَي الضُّحَىٰ والشَّرْحِ للدّعْوَة والدُّعاة، أنَّ التأهِيلَ لِحَمْلِ رسالَةٍ عُظْمَىٰ ذَاتِ مَسْؤُوليّاتٍ كُبْرَىٰ، فيها تبليغٌ ودَعْوَةٌ وجهادٌ وكفاحٌ وقيادةٌ ومُواجَهَةٌ لخُصُومٍ وأعْدَاء، ذوي كَيْدٍ وحَسَدٍ، قد يَصِلُ كيدُهُمْ إلى محاولاتِ السّجن أو القتل أو الإِخراج من البلد، يتطَلَّبُ التأهِيلَ والإعدادَ بنَوْعَيْنِ أساسيَّيْن:

النوع الأوّل:

ما يتعلّق برعايته في أمُور ثلاثةٍ:

الأوّل: نَشأَتُه في طُفُولته.

الثاني: تربيَتُه الفكْرِيّة.

الثالث: تأمِينُ معاشِه.

وقد أبانت سورة (الضحى) ما يتعلّق بهذا النوع:

- فرعايتُه في نَشْأته قد كان بإيوائه إذْ كان يتيماً، وقَدْ آواه اللّه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.
- وتربيتُه الفكريَّةُ قد كانَتْ بِهدايَتِهِ وتَعْلِيمِه، إذْ كان جاهلاً ضالاً سبيل الهدى غير عارفٍ به، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.
- وتَأْمِينُ مَعَاشِهِ قَدْ كانَ بإغْنائِهِ وتَيْسِيرِ وسائِلِ كفايَتِه، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾.

النوع الثاني:

ما يتعلَّقُ بإعدادِه النَّفْسِيّ، ويتطلَّبُ هذا الإعداد النفسِيُّ أربعة أمور:

الأوّل: أن يكونَ ذا صَدْرٍ مُنْشَرِحٍ متَّسِعٍ منفتح للحياة وتَحمُّلِ الْمُهمّات، والاضطلاع بالمسؤوليّاتِ الكُبْرَيَاتِ، ولا يكونُ الصَّدْرُ مُنْشَرِحاً إلاَّ إذا كان خالياً من كلّ ضِيقٍ وكَرْبٍ وقلَقٍ وهُمُومٍ ضاغطة، وكلّ ما يَدْخُلُ في باب الْعُقَد النفسيّة، وخالياً من نوازغ الشيطان، ورَغباتِ الإثم والْعِصيان، ومطالب الشرّ والبَغْي والْعُدوان، ونحو ذلك.

وقد تَوَلّىٰ اللّه عزّ وجل شرح صدر الرسول ﷺ، ليكفِيَهُ هذا الجانب الذي يُعْتَبرُ من أهَمّ الشروط اللاّزمة لإعداده وتهيئته للمُهِمَّاتِ الجسيماتِ الَّتي يجب عليه أن يحمِلَها وهو يؤدِّي رسالات ربّه، كما قال اللّهُ له في سُورَة (الشرح): ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

وبهذا الشرح أزال اللّه عن صدْره الهموم والغموم والكروب والمقلقات، ونزع منه حظّ الشيطان، فصفا، وانفتحتْ آفاق نفسه لواردات المعارف الربّانيّة الصافية، الخالية من شوائب النَّفْسِ الأمَّارة بالسّوءِ،

وأشرقَتْ فيها الأنوار الرّبّانيّة، وتحرَّكَتْ هِمَّتُهُ لحمْلِ أجَلّ المهمّات، وأخَذَتْ فيوضُ العطاء تَنْبُعُ من داخلِه ثرَّةً وفِيرَةً.

الثاني: أنْ لاَ يكونَ مُثقلاً بحِمْلِ طُمُوحَاته الكُبْرَىٰ، الَّتِي كانت تَشْغَلُ فِكْرَهُ ونفسَهُ مِنْ أجلِ إصلاحِ قَوْمِه والنّاسِ أجْمَعِين، وهو لا يَدْرِي ماذا يَفْعَلُ لتحقيق هٰذِه الطُّمُوحَاتِ العظيمة الجسيمة، حتَّىٰ وَضَعَ اللَّهُ عنهُ هذا الْحِمْلَ الثقيل بالوحْيِ إليه، وجَعْلِهِ نبيّاً، فَرَسُولاً لقَوْمِهِ وللنّاسِ أَجْمَعين، كما قالَ اللّه له: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.

الثالث: تغذيَةُ نَفْسِه العظيمة الطَّمُوحَةِ بِما يُرْضِيها من تكريم وتشجيع، يُرافقانِ مَسِيرَتَهُ في أَدَاءِ رسالَةِ رَبّه الَّتي يجاهِدُ فيها دُونَ فُتُورٍ ولا انقطاع.

وقد منَحَهُ اللَّهُ في هذا مجْدَ الذكْرِ الْحَمِيد والشَّرَفِ الرَّفِيع، كَمَا قال اللَّهُ لَهُ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

الرّابع: تَهْيِئَتُه لاستقبال الصعوباتِ الَّتِي سيتَعَرَّضُ لها، وأنواعِ الْعُسْر الّتي يُواجهها، في مسيرته وهو يؤدّي وَظائِف رسالته، بصَبْرٍ وَتَفَاؤُلٍ وَثِقَةٍ بأَنَّ اللَّهَ العزيزَ الحكيم سَيَجْعَلُ لَهُ مَعَ كلِّ عُسْرٍ يُسْرَيْنِ يُذلِّلانِه، يُسْرٍ من ذَاتِ الْيَمِين، ويُسْرٍ من الشّمال، فما علَيْه إلاّ أن يُتابعَ العَمَل والكدْحَ والكفاحَ، حاملاً رسالة رَبّه، مترقّباً كثيراً مِنَ العُسْرِ في مَسِيرَته، راجياً من اللّهِ التَّيْسير، ملتجئاً إلَيه بالدّعاء والابتهال، ثُمَّ عَلَيْهِ كلَّما فَرَغ من عَمَلٍ في دَعْوَتِه وكفاحه، أن يَعْمَلَ حتّىٰ ينصَبَ في عَمَلٍ آخر ضمْن مهمّاتِ رسالته، فقال اللّهُ له؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

وتم بحمد الله وتوفيقه ومعونته تدبّر سورة «الشرح»

* * *

(٥)

ملحق حول «بلاغيات في سورة (الشرح)»

من بلاغيات هذه السورة ما يلي:

الأولىٰ:

الإطناب للإبهام المحرّك للشوق والّذي يَتْبَعُه الإيضاح المؤكِّدُ للفكرة، والمثبِّتُ لها.

ونجد هذا الإطناب في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾؟ ففي هذه الجملة زيادة عبارة ﴿لَكَ﴾ إذِ المساواة تقتضي أن يقال: ألم نَشْرَحْ صَدْرَك؟

ونجده أيضاً في ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ ففي هذه الجملة زيادة عبارة: ﴿عنك﴾ والمساواة تقتضي أنْ يُقال: ووَضَعْنا وِزْرَكَ.

ونجده أيضاً في ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ ففي هذه الجملة زيادة عبارة: ﴿لَكَ﴾ والمساواة تقتضي أنْ يقال: ورفَعْنا ذِكْرَك.

قال البلاغيون هذه الزيادات في هذه الجمل تُفِيد الإبْهامَ أوّلاً، فَتَسْتَشْرِفُ النَّفْسُ للإيضاح، وتتشَوَّقُ للتفسير، فتأتي عبارات: [صَدْرَكَ - وِزْرَكَ - ذِكْرَكَ] فيَرْتَفِعُ الإبهام، ويرتوي ظمأ النفْس إلى المعرفة، هذا الظمأ الذي أثاره التشويق، فتتمكَّنُ المعرفةُ وتثبُت، مع ما في: «لَكَ» و«عَنْكَ» من تأكيد وتمكينٍ، وإشعارٍ بالتميز والتخصيص، إذ المقامُ مَقَامُ امتنانٍ سَبقَتْ دواعيه.

الثانية:

استعمال ضمير المتكلّم العظيم، وهو ضمير الجماعة مع أنّ المتكلّم واحِدٌ أحَدٌ في: «نَشْرَحْ - ووضَعْنَا - ورَفَعْنَا» للإشعار بأنّ المِنَنَ التي امتَنَّ اللَّهُ بها على رسوله مِنَنٌ عظيمة تُناسِبُ عظمة واهِبها، وللإطماعِ بتحققِ الْمِنَنِ الموعود بها، فَمُقَدَّمُ الوعْدِ عظيمٌ جليل.

ولم يأت مثْلُ هذا الاستعمال في سورة (الضحى) لأنّ الموقف فيها مَوقف إيناسٍ واستعطافٍ من الرَّبّ لرسوله، في مقابل ما أشاعَ بعضُ أعدائه وحُسَّادِه من أنّ رَبَّهُ وَدّعَهُ أَوْ قلاه، ومِثْلُ هذا الموقف يُلائِمُهُ حَدِيثُ الْخَلِيلِ لخَلِيله دُونَ استعمال ضمير المتكلّم العظيم.

الثالثة:

تقْدِيمُ المعمول على عامله لإفادة التخصيص والحصر في: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ فَعِبارة [إلى ربّك] معمولٌ للفعل في [فَارْغَبْ] إذ الجار والمجرور متعلقان به، وهما مقدّمان عليه لإفادة الحصر والتخصيص، أي: وإلَىٰ رَبِّك وحْدَه فابْتَهِلْ وَتَضَرَّعْ داعياً سائلاً، ولا تجعل معه شريكاً، ولاَ تَدْعُ غَيْرَه.

مع ما في هذا التقديم من مراعاة الجمال التناسقي بين آيات السورة، والتلاؤم في الفاصلة بين الآيَتَيْنِ الأخيرتَيْن منها: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

الرابعة:

خروج الاستفهام في السورة عن طلَبِ الإفهامِ إلى إرادَة التقرير والامْتنان.

الخامسة:

التعبير غير المباشر، بذكر الكلام الذي يُقْصَدُ به لوازمه الفكرية، وهو في هذه السّورة من أبدع الكنايات.

نلاحظ هذا في: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ أي: فقم بوظائف رسالتك، وستَلْقَىٰ في مسِيرَتِكَ هٰذهِ عُسْراً، يذلِّله اللَّهُ لك، بتَيْسِير مُضَاعفِ أقوى منه، فلا تَضعَفْ ولا تثبّطْكَ المسالِكُ الوعْرَةُ، ولا المداخل الضيقة، ولا العقباتُ الْعَسِرَة، ولا المشكلاتُ المتداخلة المعقّدة.

السادسة:

البناء على المطويّات غير المصرّحِ بها في ألفاظ السورة، ولكنْ يستطيع الفَطِنُ اللبيب إدراكها، حتّىٰ كأنّها مذكورة صراحة، وقد يُسَمِّي الأدباء المعاصرون مثل هذا رَمْزِيّة، إلاّ أنّه في التعبيرات القرآنيّةِ عُمْقٌ يحتاج استخراجُه إلى فِطْنَةِ المتدبّر، وذكائه، وقُوّة التقاطه الأفكار باللّمح.

نلاحظ هذا في: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي؛ فاجتهد في أداء وظائف رسالتك عاملاً مُجِدّاً، وكلّما فَرَغْتَ مِنْ عَمَلٍ فاجْتَهِدْ في القيام بعَمَلٍ آخر حَتَّىٰ تَنْصَبَ فِيهِ وتَتْعَبَ.

السابعة:

السَّجْعُ المتوازي، وهو أن تكون الكلمتان الأخيرتان من السجعتين، أو الكلمات الأخيرة من السجعات، متّفِقَةً في الوزن وفي الحرف الأخير منها، وهذا من المحسّنات الجمالية اللّفظيّة الداخلة عند البلاغيين في علم البديع.

نلاحظ هذا السّجع المتوازي في الآيات الأربعِ الأولىٰ من سورة (الشرح).

وفي الآيتين الأخيرتين منها.

أمّا الآيتان الخامسة والسادسة فهما بمثابة الجملة المكرَّرة.

الثامنة:

سَلاسةُ بناء الآيات القصار في السورة، وتتابُعها بانْسياب سَهْل على اللّسان، لَيِّن في السّمع، كجريان جَدْولٍ من الماء الصافي الرَّقراق الجاري بهدوءٍ، على دَرَجاتٍ متساويات الأبعاد.

ولم يؤثر على عموم السلاسة اجتماع «القاف والضاد والظاء» بتتابُع في: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ فهي في لسان العربي الفصيح سهلة، على أنّها في عُمُوم السلاسة السائغة الشراب كحبّاتٍ من اللّوز تقضَمْنَ مَعَه.

* * *

سُورَةُ العَصْر

أو

سُورَةُ وَالعَصْر

١٠٣ مصحف ١٣ نزول

(١)

نصّ السورة

سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟
بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

* * *

(٢)

مما ورد من آثار بشأن هذه السورة

(١) كان الرجلانِ من أصحاب رَسُولِ اللّه ﷺ إذا الْتَقيا لم يتفَرِقا إلاّ عَلَىٰ أنْ يقرأ أحَدُهما على الآخر سورة العصر إلَىٰ آخِرها، ثُمَّ يُسَلِّم أحدهما علىٰ الآخر⁽¹⁾.

ذكره الطبراني من طريق حمّاد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله بن حصْن.

---

(١) عن ابن كثير في تفسيره.

(٢) وقال الشافعيّ رحمه الله: لو تَدَبَّر النَّاس هٰذِهِ السورة لَوَسِعَتْهُمْ(١).

* * *

(٣)

موضوع السورة

سورة العصر تُبَيِّن قيمةَ الوقْتِ، في حياة الإنسان الموضوع مَوْضِع الامتحان في ظروف هٰذه الحياة الدنيا، وأنَّ عُمْرَهُ فيها هو من رأسِ مَاله، وأجزاءُ عُمْرِهِ تَنْطَلِقُ عنه إلى غير رجْعَةٍ ولا تعْوِيضٍ زمَنِيٍّ، فهو خاسِرٌ لحظةً في كلِّ لحظة، وساعةً في كلِّ ساعةٍ، ويوماً في كُلِّ يَوْمٍ، وشهراً في كلِّ شَهْرٍ، وهكذا. باستثناء من يستطيع أنْ يغْتَنِمَ في عُمْره ما يُحَقِّقُ له تَعويضاً عِنْد ربّه يوْمَ الدِّين، سعادةً خالِدَةً، ونعيماً أبديّاً، بأنْ يُؤْمِنَ إيماناً صحيحاً، ويَعْملَ صالحاً، وبأن يُؤَدِّي مع بني جنسِه وظِيفَةَ التَّواصي بالحقّ، والتَّواصِي بالصّبْر.

فهي درس واحِدٌ من ثلاث آيات هُنَّ نُجومُ هداية.

* * *

(٤)

البناء الفكريُّ التدرجي في سوابق نجوم التنزيل حتى نزول سورة العصر

سبق في السّوَر التي نزلَتْ قبل سورة (العصر) الاهتمامُ ببيان القضايا التالية:

---

(١) عن ابن كثير في تفسيره.

القضيّة الأولى: التوجيه للقراءةِ والتَّعلُّم واكتساب العلم.

القضية الثانية: بيان حاجة الإنسان حتَّىٰ لا يطغى إلى الدين، الشامل للبيان الرَّبّاني للناس، وبيانِ الرّسولِ المبلِّغ عن ربّه، وقانُونِ الجزاء، ويَوْمِ الدين.

القضية الثالثة: الحثّ على عبادة اللّه بالصلاة والدّعاء، وعلى البذل والعطاء للمساكين وذوي الحاجات.

وبعدها جاء في سورة العصر بيان قيمَةِ الوقْتِ بالنسبة إلَىٰ الإنسان المكلّف.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي لآيات سورة العصر

قول الله عزّ وجل:

- ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾ الواو هي واو الْقَسَم، **الْعَصْرُ:** هو الزّمن السَّيَّالُ الذي لا ثَبَاتَ له، كنَهْرٍ يَجْرِي من غَيْبِ المستقبَلِ إلَىٰ غَيْب الماضي، ولا نَعِيشُ منهُ إلاَّ لحظَةَ الحاضِر، فمن لم يغْتَنِمْ لحظة الحاضِرِ بما هو مُفِيدٌ يُدَّخَرُ له، فَهُو إنسانٌ خاسِرٌ.

أقْسَمَ رَبُّنَا بتَقْدِيره لِأَعْمَارِ مخلوقاته في الْعَصْرِ، الّذِي هو الزَّمَنُ السَّيَّالُ بلا تَوَقُّفٍ، علَىٰ أنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. أي: هو في واقِعِ خُسْرٍ دائِمٍ مُحِيطٍ به.

باستثناء الّذِين آمَنوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصَّبْر.

﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: «أل» هنا هي «أل» الجنسيّة الاستغراقيّة، والمرادُ استغراق جنسِ الإنسانِ البالغ مَبْلَغَ التكليفِ في ظروف الحياة الدنيا، أمّا غيْرُ المكلّف فهُوَ مستثنىً عقلاً، وبِدَلاَلَة نصوصٍ أُخْرَىٰ.

﴿لَفِى خُسْرٍ﴾: أي: لَهُو مُحَاطٌ بِخُسْرٍ، كالْغَرِيق في وَحْلٍ حيَوَانَاتُهُ تأكُلُ منْهُ باسْتِمْرار. **الْخُسْرُ**: النقصُ ممّا يَمْلِكُ المالِكُ، من ماله، أو جِسْمِه، أو عُمْرِهِ، أو لذَّاتِهِ وسَعَادته، أو نحوها، والنَّقْصُ أيضاً مِمَّا يَسْتَطِيعُ أنْ يغنَمَهُ ففاتَهُ بإهْمالِهِ وَتقصيرِه.

وجاء تأكيد كوْنِ الْإِنسانِ في مُحِيطٍ به من الْخُسْرِ، بالْقَسَم بالْعَصْر الّذِي يَدُلُّ علَىٰ أنّه يَخْسَرُ من عُمْرِهِ طَوَالَ لحظاته. وبحَرْفِ التوكيد «إنَّ» وبـ«الجملة الاسميَّة» وبـ«لام» الابتداء المزحلقة إلىٰ الخبر.

وقَدِ احتاجت هذه القضيَّةُ كُلَّ هٰذِهِ المؤكِّدَاتِ لغرابتها، وبُعْدِهَا عن تَصَوُّرَاتِ الناسِ، فَحَالَتُهُمْ حَالَةُ من هو شاكٌّ فيها أو مُنْكِرٌ لها.

هٰذه القضيَّةُ الكلّيّةُ الّتي قرَّرها رَبُّنا عزَّ وجلَّ مُؤَكّداً، تَجْعَلُنا نُمْعِنُ التَّدبُّر، ونَبْحَثُ في واقع وجُودِ الإنسَان وحَيَاته، لنَكْتَشِفَ حقيقتها.

وبالبحث والتدبُّر في مبدأ الإنسان ونشْأتِه ومصيرِه، ورحْلَتِه في هٰذهِ الحياة الدنيا، ووظيفته فيها، نُلَاحظُ أنّ رأسَمَالِه في حياتِه الدّنيا أمران:

الأمْرُ الأوّل: لحظاتُ عُمْرِهِ الّتي تَنْتَهي بانتهائِهَا حيَاتُهُ في رِحْلَةِ امتحانه.

الأمر الثاني: ما وَهَبَهُ اللَّهُ من طَاقَاتٍ مادّيّة ومعنويَّة يستطيعُ أَنْ يَعْمَلَ بها خيْراً أَوْ شرّاً، أو يُعطِّلها ويُضيِّعَها ويُتْلِفَها بلا فائدةٍ يَجْنِيها منْها.

ونُلَاحِظُ أيضاً أَنّ لحظاتِ عُمْرِهِ ممتَزِجَةً بها طاقاتُه مخبّأَةٌ في خَزَّانِ المستقْبَلِ، كَمَاءٍ سيَّالٍ، وهذا الخزّانُ وما فيه محْجُوبٌ عنْ علْمِ الإنسانِ، إذْ

يَفْصِلُ ما بيْنَهُما جدارُ الغيب، ومَا في هذا الخزّانِ يجْري من ثَقْبٍ لا يُمْكن إقْفالُهُ، ولا يُمْكن الانتفاعُ به إلاَّ لحظَةً فلحظَةً، إذْ ما يجري من هذا الثُّقْبِ المفتوحِ يبتَلِعُهُ الماضي فلاَ يُمْكِنُ اسْتِرْجاعُه.

ذلِكَ هُوَ الوقْتُ وَما يُصَاحِبُهُ من طاقاتٍ، يَجْريَانِ معاً، ويمضيانِ معاً.

إنَّه العصْرُ الذي هو نَهرُ الزّمَنِ السَّيَّال من المستقبل إلى الماضي، والذي لا يستطيع الإنسانُ أن يَنْتَفِعَ منْهُ إلاَّ بموجَةِ الحاضِرِ الْقَصِيرة، وما ينْتفع منه بموجَةِ الحاضر هو المقدارُ الّذي لا يكون خاسراً له من رأسِ ماله، وهو المقدار الذي يحوّلُه من الزّمَنِ السَّيَّالِ وما امْتَزَجَ به من طاقاتٍ، فيَجْعَلُه شَيْئاً ثابتاً مُعَوَّضاً عمّا ابتلَعَهُ الماضي، فإذَا حوَّلَهُ وثَبَّتَهُ فِي نَفْعٍ خالِدٍ، كَانَ كَمَنْ استَطَاعَ أنْ يجمِّدَ الوقْتَ الحاضِرَ ويَجْعَلَهُ شيئاً متزايداً متنامياً بلا انقطَاعٍ، إذْ يَدَّخِره اللَّهُ لَهُ ويُرَبِّيهِ لَهُ، حتَّىٰ تكُونَ الذَّرَّةُ منْهُ كَجَبَلٍ عظيم في بعض الحالاَتِ الْمُرْضِيَاتِ للرَّبِّ جلّ جلالُه.

ولمَّا كان مِقْدارُ الانْتِفاعِ بمَوْجَةِ الوقْتِ الحاضِرِ في الخيراتِ والأعمال الصالحات يخْتَلِفُ بيْنَ المنتفِعين اختلافاً عظيماً، فَمِنْهُمْ من ينْتَفِعُ منْها بمقدار ذرَّةٍ فما فوْقَها، حتَّىٰ ينتَفِعَ بعضُهم بمقدار جَبَلٍ من خيراتِ المستقبل، أَمْكَنَ لنا أنْ نَفْهَمَ أَنَّ مَوْجَةَ الوقْت الحاضِرِ مَعَ تَسَاوِي طُولِها بين المنتَفِعين، إلاَّ أنّها ذاتُ عرْضٍ وعُمْقٍ مختَلِفَيْنِ اختلافاً كبيراً.

فلحْظَةُ سُلْطانٍ عادِلٍ مُحِبٍّ للخيْر، يُوَقِّعُ فيها عَلَىٰ أَمْرٍ يَعُمَّ نَفْعُه شعْباً بأَكْمَله، ويَجْرِي خَيْرُه ما بقي نفاذُ هذا الأمْر، هي من جهة الطّول تُساوي اللّحظة التي انتفَع فيها إنسانٌ بحَكِّ رأسه، لكِنَّ عَرْضَها وعُمْقَها بمثابةِ بَحْرٍ عَرِيضٍ عميقٍ.

وفرقٌ كبيرٌ بيْن لحظةٍ يَمْلأُ فيها مالئٌ كأساً، ولحظةٍ يملأُ فيها مالئٌ بِرْكَةً، ولحظةٍ يملأُ فيها مالئٌ بَحْراً. إنَّ أطوالهنَّ الزمنيَّةَ واحدةٌ، ولكن اختَلَفْنَ عَرْضاً وعُمْقاً.

وفرقٌ كبيرٌ بيْنَ لحظَةٍ تَقْطَعُ فيها دُوَيبَّةٌ مِقْدار عرْض شَعْرَةٍ من الأرض، ولحظة يَقْطَعُ فيها فرسٌ عدَّةَ أذْرُعٍ، ولحظةٍ تقْطَعُ فيها طائرةٌ أمْيالاً، في حين يجتاز فيها الضوءُ مئاتِ الألوف من الأميال.

ويُمْكِنُ أنْ نقول: إنّ العرْضَ في لحظَةِ إنْسَانٍ يعْمَلُ فيها عمَلاً نافعاً يأتي من شمول الخير وكثرته، أمّا الْعُمْقُ فيأتي من بقاءِ جريان الخيْرِ في المستقبل.

ولهذا كانت الصّدَقَةُ الجاريةُ، والعِلْمُ الذي يُنْتَفَعُ به، من الأعمال الّتي يعْمَلُها المؤمِنُ فِي وَقْتٍ عَرِيضٍ عَمِيقٍ. أَمّا طولُه فهو يساوي طول أَيِّ وقْتٍ آخَرَ جرىٰ فيه عمَلٌ ضئيلُ النَّفْع قليلُ القيمة، أوْ مَرَّ ضائِعاً إسرافاً وتَبْذِيراً، لكنَّه مختَلِفٌ في عَرْضِهِ وعُمْقه، بمقدار شمول النَّفْع، وبقاء الجريان.

فمَنْ تصدَّقَ بصَدَقَةٍ جارِيَةٍ، أو نَشَرَ عِلْماً نافعاً، فقَدِ استَفَادَ من عَرْضِ وقْتِهِ وعُمْقِه، إذْ يبقَىٰ أثَرُ عَمَلِهِ فيه ولو مات، هذا ما تعلَّمْنَاهُ مِنْ كلام الرَّسول ﷺ.

روىٰ مسلم عن أبي هُرَيْرَة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ؛ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

من هذا التحليل الفكريّ يتبَيَّنُ لنَا بوضوحٍ أنَّ رأس مَالِ الإنْسانِ في الحياة الدنيا أوقاتُ عمره وطاقاتُهُ المادّيّة والمعنويَّة المقترنَةُ بها اقتراناً يشبه الامتزاج.

ورأسُ المال هذا هو مِنحةٌ من اللّهِ عزَّ وجلَّ للإنسان فِي الحياة الدُّنيا ليمْتَحِنَه، وهو مسؤُولٌ عنهُ يوم القيامة، كما جاء في الصحيحِ ممّا رُوِيَ عن الرسول ﷺ.

روى الترمذيُّ عن أَبِي بَرْزَةَ أَنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟. وعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ فِيهِ؟. وعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟. وعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ؟».

ولمَّا كانَتْ مقَادِيرُ انتفاع النّاس بلَحظَاتِ أعْمَارِهِمْ متفاوتَةً تفاوُتاً كبيراً، حتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ مِثْلِ التّفاوُتِ بيْنَ القَطْرَةِ والبَحْر، وكانَ الإِنسانُ في مُعْظَم أحْوَالِهِ ما بَيْنَ مُسْتَهْلِكٍ أوْقاتَ عُمُرِهِ في نَفْعٍ قليلٍ ضئِيلٍ، أو فيما لاَ نَفْعَ فيه مُطْلقاً، أو فيما يَحْمِلُ به أوزاراً، كانَ في وضْعٍ دائمٍ من الْخُسْرِ، كُلَّمَا أمْضَىٰ لَحْظَةً ممَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ عُمْر، مَا مَرَّ علَيْهِ حِينٌ مَا مِنَ الْعَصْرِ، وحَامِلُ الأوزار في لحظاتِ عُمْرِهِ خَاسِرٌ ومَدِينٌ، على حِسَابِ أوقاتِ خلُودِهِ يوْمَ الدّين.

فمِنَ الحقّ والدّقَّةِ الرائِعَةِ في البيان، أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ بالْعَصْرِ علَىٰ أَنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ.

والمناسبةُ بيْن العصْرِ الذي هو الزمن السيّال، والذي تُحَدَّدُ بأجزاءٍ منه أعمارُ الناس، وبين كون الإنسان في خُسْرٍ من رأسماله في حايته الدّنيا، كلّما انصَرَمَ من عُمُرِهِ زمَنٌ ما، مناسبة ظاهرة.

وفي الْقَسَمِ بالعصْرِ إشارةٌ إلى أن الإنسان هو الإنسان مهما اختلفت عليه الأزمنة، في خصائصه النفسية التي تدفعُه إلى أن يعبّر عنها بأنواع من السُّلوك تُؤدّي به إلى الخُسْرِ في أكثر أحواله، منذ عهد آدم وإلى أن تقوم الساعة.

- قول الله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

استثنَىٰ اللَّهُ عزّ وجَلّ بهٰذه الآية من عُموم كَوْنِ الإنسَان المكلّفِ، الذي يَعِيشُ هٰذه الحياة الدنيا، في مُحِيطٍ به من الْخسْر، فريقاً منَ النَّاسِ لا

يكونُ الْخُسْرُ مُحِيطاً بِهِمْ من كلّ جوانبِ وُجودِهم، وهُمُ الّذِين اتّصَفُوا بصِفَاتٍ أرْبَع:

الصّفةُ الأُولَىٰ: الإيمانُ الصَّحِيحُ الصَّادقُ بعناصر القاعدَةِ الإيمانيَّة في الإسلام، دلَّ عليها قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

الصفة الثانيةُ: القيامُ بأعْمَالٍ صَالِحَاتٍ، مُعَبِّرَاتٍ في السُّلوك النَّفْسِيّ والجسَدِيّ، عَنْ وُجُودِ الإيمان الصحيح الصادِق في القلْبِ. إذ الإيمانُ الصحيحُ الصادِقُ ذُو دَوافِعَ تَظْهَرُ في أنواعٍ من السُّلُوكِ، هِيَ من لَوَازِمِه وآثارٌ من آثاره.

وهٰذِهِ الأعمال التَّعْبِيريَّةُ عن كوامِنِ الإيمان تكُونُ في دائرة الحركَةِ الذاتِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، من ذاتِهِ لِذَاتِهِ، دُونَ مُلاحَظَة غَيْره، وهٰذِهِ هِيَ الحركَةُ التّلْقائِيَّةُ الأُولىٰ في سُلوكِه، وقد دلّ عليها قولُهُ تعالى في الآيَةِ: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعَمِلُوا من الصَّالحاتِ ما يَدُلُّ علَىٰ صِحَّةِ إيمانِهِم في قُلُوبِهِم وصِدْقِهِ، فـ«أل» في الصالحاتِ ليسَتِ استغراقيَّة، بدلاَلَةِ نصوصٍ أخرى كثيرَةٍ، تَدُلُّ على أنَّ الذي يَعْمَلُ بعْضَ الصالحاتِ مع صِدْقِ إيمانه وصِحَّتِهِ لا يكونُ الْخُسْرُ محيطاً بِهِ من كلِّ جوانبه.

الصِّفَةُ الثالثة: قِيامُ الإنسَانِ بواجبٍ عليه تُجَاهَ غَيْرِهِ من النَّاسِ الْخَارِجِينَ عن دائرةِ الحقّ، والخائضين في أرْجَاسِ الباطل، أو الضالّين الجاهِلِين الّذِين لم يَرَوُا الحقَّ حتَّىٰ يُؤمِنُوا به، ويَسْتَمْسِكُوا بحَبْلِهِ، وَيَسْلُكُوا صراطَهُ المستقيم.

والواجِبُ بالنسبَةِ إِلَيْهِم يتحقَّقُ بتَعْرِيفِهِمْ بالْحَقّ ونُصْحِهِمْ بالإيمان به، ومُتَابَعَةِ تَوْصِيتهم بالاستمساك بحَبْله، وسُلوك صراطِهِ المستقيم.

وحين يَقُومُ النَّاسُ بهٰذا الواجب، تظْهَرُ في المجتمع الإنسانِيّ ظَاهِرَةُ التواصِي بالْحَقّ.

هذا ما دَلَّتْ عليه في الآية عبارَةً: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾.

الوصِيَّةُ: بيانٌ مَقْرُونٌ بنُصْحٍ مؤكَّدٍ بعَهْدٍ. وليسَتْ مجرَّدَ بيانٍ عابرٍ، ولا مُجَرَّدَ نُصْحٍ باردٍ أو فاتر، بل هي نُصْحٌ مشدَّد مؤكَّدٌ بعَهْد.

وبهذا المعنى نَفْهَمُ قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

والتَّواصِي: تَشَارُكٌ في تَوْجيه الوصيَّة، أي: يُوصِي شخصانِ فأكْثرُ بعْضُهُمْ بعضاً.

والحقُّ: هو الْبَيَانُ أو التَّصَوُّرُ المطابِقُ للواقعِ، وضدُّه الباطل. وأوّلُ حقٍّ في الوجود هو اللّهُ جلّ جلالُه، وصفاتُه العليّة وأسماؤه الْحُسْنَىٰ، ثُمَّ ما يقْضِيهِ اللّهُ ويُقَدِّرُه، ثُمَّ ما يَخْلُقُه، وما يُبَيِّنُه ويأمُر بالإيمانِ به.

وأوّل ما تُوَجُّهُ لَهُ جُمْلَةُ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ القيامُ بوظيفة دعْوة غير المسْلِمين إلى قضايا الإيمان، والاستمساك بدين اللّه الحقّ، ويأتي من بعد هذا الدَّعْوةُ والتوصِيَةُ بكلِّ حقٍّ من حقوق اللّه، أو حقوقِ العباد، والتوصِيَةُ بالاعترافِ بأيِّ حقٍّ تُوصِلُ إليه المعرفَةُ الصحيحة، والْعَمَلُ بما يقتضيه ذلِكَ الحقّ، وهذه التوصِيَةُ تُوجَّهُ للمسلمين ولغيرِ المسلِمين.

الصفة الرّابعة: قيامُ المؤمن المسلم بواجبٍ عليه تُجاه غَيْرِه من الْمُؤْمِنِينَ المسلمين.

وواجبُ المسلم تُجاه أَخِيه المسْلِم أن يُعَلِّمَهُ ما يَجْهَلُ من أوامر اللّه ونواهِيه، في الدِّين الذي اصطفاه لعباده، وأن يَنْصَحَهُ بفِعْلِ ما أَمَرَ اللّه

بفعله، واجتنابِ ما نهَىٰ اللَّهُ عنه، وأنْ يُوصِيَهُ بالصَّبْر على فعل الواجبات وتَرْكِ المحرَّمات.

فإذا قام الْمُسْلِمُون بهذا الواجب انْطَبَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَتَوَاصَوْن بالصَّبْرِ.

ومعلُومٌ أَنَّ التواصِيَ بالصَّبْر لا بُدَّ أَنْ يكُون مَسْبُوقاً بالتَّعْرِيفِ بما أَمَرَ اللَّه به عبادَهُ من أعمالٍ ظاهِرَةٍ وباطنة، وبما نَهَىٰ اللَّهُ عنه عبادَهُ من أعمالٍ ظاهِرَةٍ وبَاطِنَةٍ، ومَسْبوقاً بالنُّصح بطاعة اللَّه فيها، والإرشادِ إلَىٰ أنَّها هي الصراط المستقيم الموصل إلى سعادتي الدنيا والآخرة.

ولمّا كانَتِ الأَوامِرُ الدينيَّةُ تُحَمِّلُ فاعِلَها مشقَّةَ أدائِها، ولا يخْفى أنَّ تَحَمُّلَ هٰذِهِ المشقَّةِ يتَطَلَّبُ صَبْراً.

ولمَّا كانت النَّواهِي الدِّينيَّةُ تُحَمِّلُ الحريصَ على الطاعَةِ مشَقَّةَ مخالَفَةِ شَهَواتِ نفسِه وأهْوَائِها، ولا يخْفَىٰ أَنَّ تحمُّلَ هذه المشقَّةِ يتطلَّبُ صبْراً أيضاً.

كانت الفقَرَةُ الأخيرَةُ من القيام بهذا الواجب هي التوصِيَةُ بالصَّبْر، وظاهر أَنَّ تَشَارُكَ المؤمنين المسلمين بالقيام بهذا الواجب هُوَ الذي يُبْرِزُ في المجتمع الإسلاميّ ظاهِرَةَ تَعْلِيمِ أحْكَامِ الدِّينِ والنُّصْحِ والإرشادِ، والأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكَرِ، والتَّواصِي بالصَّبْرِ.

فالتواصِي بالصَّبْرِ يَدُلُّ باللُّزُومِ الذهْنِيّ على ما يَنْبَغِي أن يكُونَ سَابقاً له، من الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكر، الْمَسْبُوقَيْنِ بالنُّصْحِ والإرْشادِ، اللَّذَيْنِ قَدْ حصَلَ قَبْلَهُما البيانُ والتَّعْلِيمُ والتَّبْلِيغُ لأحكام دينِ اللَّهِ.

وعلى سبيل الإيجاز والاقتصاد في العبارة اقتصر النصُّ على عبارة: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ إذْ هِيَ تَدُلُّ باللُّزُوم الذِّهْنِي علَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ يكُونَ سابقاً لمضمونها، وهذا من أَبْدَعِ الإِيجاز الَّذِي لا يستقيمُ تَدَبُّرُ آياتِ كتابِ اللَّه ما لَمْ يُلاَحِظْهُ المتدبّر، إذْ هُوَ يعْتَمِدُ على اللّوازِمِ العقليَّة الّتِي يكْتَشِفُهَا أولُوا

الْأَلْبَابِ الباحِثُونَ في الْعُمْقِ، الَّذِينَ لا يَقْتَصِرُونَ على السُّطُوحِ، فكِتَابُ اللَّهِ بَحْرٌ عَمِيقٌ، لا يكْفِي فِي تَدَبُّرِهِ التَّوَقُّفُ عنْدَ السُّطوحِ، دون الغوْصِ في الأعماقِ عن طريقِ اللّوازم العقليَّة.

فما تُوجّه لَهُ جُمْلَةُ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ هُو الْقِيامُ بوظيفةِ تعليمِ أحكام الدّين للمسلمين، والنُّصْحِ بها والإرْشادِ إلى الاستمساكِ والْعَمَلِ بمقتضاها، والسَّيْرِ على صِرَاطها المستقيم، والأمْرِ بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، معَ التوصيَةِ بالصَّبْرِ على فِعْلِ ما أمَر اللّهُ به، وتَرْكِ ما نَهَىٰ اللَّهُ عَنْه.

الصَّبر: قُوَّةٌ خلُقيَّةٌ من قُوىٰ الإرادة، تُمَكِّنُ الإنسانَ منْ ضَبْطِ نَفْسِهِ، وحَبْسِها، لتَحَمُّلِ المتاعب والمشقّاتِ والآلام، وضَبْطِها وحَبْسِها عن الاندفاع بعوامل الضَّجَر والجزَعِ، والسَّأم والْمَلَلِ، والعَجلَةِ والرُّعُونَة، والْغَضَبِ والطَّيْشِ، والخوفِ والطَّمَعِ، والأهواء والشهواتِ والغرائز.

سؤال وجوابه:

السؤال: هل الاستثناءُ في السورة بقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ يُخْرِجُ كُلَّ مَنْ آمَنَ وعَمِل صالحاً وأوصَىٰ بالحقّ وأوصَىٰ بالصَّبْرِ مِنْ كُلِّ خُسْرٍ، ولو كانَ منَ المسْرِفين على أنفُسِهم بالمعاصِي وارتكاب الكبائر، الظالمين لأَنْفُسِهم بها، أَوْ كان من المقتَصِدين الذين يَقْتَصِرُونَ على فِعْلِ الواجبات وتَرْكِ المحرّمات، ولا يسْتَزِيدون من نوافِلِ القرباتِ وفِعْلِ الخيرات؟؟

الجواب: لدَىٰ تَدَبّر قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾: أي: في وَحْلٍ مُحِيطٍ بِه من الْخُسْرِ، فلَوِ اسْتَمَرَّ فيه لكان من الخالدين يوْمَ الدّين في العذابِ، يتَبَيَّنُ لَنا ما يلي:

أوّلاً: أمَّا مَنْ كان من المؤمنين المسرفين على أنفُسِهم في ارتكاب المعاصي من دون الكُفر، والظالمين لأنفسهم بها، فإنَّهُ يُخْرِجُ نَفْسَه بعْضَ

إخراجٍ من محيط الْخُسْرِ، فلا يكونُ من مستَحقي الْخُلُودِ في دار العذابِ يوْمَ الدين، وخسارتُه تكونُ في حُدُودِ ما تَعَرَّض لَهُ من عذابٍ، وما تعرَّضَ لَهُ من خَسَارة منازل في الجنة، كان باستطاعته أن يرقَىٰ إليها لو كان من المتقين المقتصدين، الذين يقتصِرُونَ علىٰ فعل الواجبات وترك المحرّمات، أو كان من الأبرار أو المحسنين السابقين في الخيرات من نوافل القربات بإذن الله.

ثانياً: وأمّا مَنْ كَانَ من المؤمنين المقتصدين، الذين يقتصرون على فعل الواجبات وتَرْكِ المحرَّمَاتِ، دون الاستزادة من نوافل القرُباتِ الّتي يرفَعُهُ اللَّهُ بها في درجات جنَّاتِ النعيم، فإنَّه يُخرِجُ نَفْسَهُ من الْخُسْرِ الذي يستَحِقُّ بِهِ العذاب، فيكونُ بفضل اللَّهِ من أهل جنَّاتِ النّعيم دُونَ أنْ يُعَذِّبَهُ اللَّهُ في دار العذاب، إذْ كان من المتقين عذابَها بإيمانه وعَمَلِه.

لكنَّه يكونُ خاسراً منازلَ عاليةً في الجنَّةِ كان باستطاعَتِهِ أَنْ يَرْتَقِي إليها بفضل اللَّهِ، لَوْ كان من المستزيدين من نوافل القربات الّتي استزادَ مِنْها الأبْرارُ والْمُحْسِنُون.

ثالثاً: وَأَمّا مَنْ لا يَخْسَرُ شيئاً ممَّا كان باستطاعته أَنْ يغنَمَهُ من مَنَازِلَ في جنَّاتِ النَّعيم، فَهُوَ الذي يكُون من أَهْلِ الفردوس الأعْلَىٰ في الجنَّة، مع النبيّينَ والصِّدِّيقين والشُّهَداء والصالحين، بفضل اللّه وغُفْرانِهِ وَعَفْوِه، بسَبَب ما قَدَّمَ من نوافل الصالحات والقربات الّتي اكْتَسَبَ بها رضوان اللّه عزّ وجلّ.

رابعاً: وَبَيْنَ مَنْ هُمْ في الفِرْدَوْس الأعلَىٰ، ومَنْ هُمْ في أدْنَىٰ مراتب الجنَّةِ ودَرَجاتها خاسِرُون بمقدار نزولِ دَرَجَةِ كلٍّ منْهُمْ عن مرتبة الفردوس الأعْلَىٰ، إذ قَصَّرُوا فلم يقوموا بأعمال صالحة كان بمقدورهم أنْ يَعْمَلُوها، وكان تقصيرهم ناتجاً عن تهاونٍ، أو كَسَلٍ، أوْ إيثارٍ لمتاعِ الحياة الدنيا،

على ما أعَدَّ اللّه للأبرار والمحسنين السّابقين بالخيرات بإذنه، من منازل رفيعَةٍ في جنَّاتِ النعيم.

* * *

(٦)

نظرة عامة إلى الوقت

لقد دلّتْنَا سُورَة (العصر) على القيمة العظيمة لنهر الوقت السَّيَّال، الذي لا يَمْلِكُ أحَدٌ من الخلْقِ إمْهَالَهُ، أو تَطْوِيعَهُ للانتظار، وإنَّما يَمْلِكُ أنْ يغْتَرِفَ فيه نفعاً، أَوْ يَصِيدَ من كلِّ مَوْجَةٍ مارَّةٍ منْهُ صَيْداً ثميناً.

ولا يَحْمِي نَفْسَهُ من خسارة عُمْرِهِ، إلاَّ مَنْ حوَّلَ وَقْتَهُ إلى قِيمَةٍ ثابتَةٍ، وأعظَمُ التحويلِ قيمَةً مَنْ يُحَوِّلُ وقْتَهُ إلى قِيمَةٍ يسْتَثْمِرُها نعِيماً خالداً، في دار النعيم يوْمَ الدِّين.

ومَنْ خَسِرَ أوقَاتَ عُمْرِه الممتزِجَةَ بطاقَاتِهِ المادّيَّةِ، والمعنويَّة فَقَدْ خَسِرَ نَفْسَهُ، وهو في الحقيقة أَخْسَرُ الخاسِرِينَ.

ما فائدة إِنسانٍ سَعَىٰ كادحاً حَتَّىٰ مَلَكَ جبلاً من ذهَبٍ، وحِينَ ملكَهُ سَقَطَ علَيْهِ ميّتاً.

لكنَّ الأخْسَرَ منه مَنْ ضيَّعَ عُمْرَهُ فيما لا خيْرَ فيه، والأخْسَرُ منْهُمَا من حَمَلَ أوزاراً وآثاماً رمَتْ بِهِ خالداً في عذاب النار، أو مُقِيماً بها إقامَةً طَوِيلة.

هذا هو مفهومُ الوقْتِ، وهذه هي قيمته في دلالات سورة (العصر).

هذه الحقيقة الجليَّةُ بكُلِّ أبْعَادِها لا يُدْركها معظم الناس، فلا يكاد الباحثُ المتتبِّعُ يَجِدُ إلاَّ ظالِماً لِنَفْسِهِ خاسراً، يُبَدِّدُ عُمْرَهُ وطاقاته بإسْرافٍ وتبذيرٍ، فلا يُحْسِنُ الاستفادة منهما في نافعٍ له خالد، بلْ يُتْلِفُهُما في متاعٍ

فانٍ، أو في أوهامٍ وأحلامٍ من أحْلام اليقظة، أو فيما يحْمِلُ به أوزاراً وآثاماً، فَيَقَعُ في مُرَكَّبِ الْخُسْرَان، إذْ يَخْسَرُ رأسَ مالِهِ من جِهَةٍ، ويَحْمِلُ ديُوناً وَتَبِعَاتٍ من جِهَةٍ أُخرىٰ، وهٰذِهِ لا يَجِدُ لَهَا تَسْدِيداً إلاَّ مِنْ عذَابٍ في الحياةِ الأُخْرَىٰ، حيَاةِ الحساب وفَصْلِ القضاءِ وتنفيذِ الجزاء.

وشَرْطُ النجاةِ من الْخُسْرِ المطارِدِ للإنسانِ مع لحظات عُمْرِه، كَمَالُ الإيمان، وكمالُ الْعَمَلِ الصالحِ في دائرة ذاتِهِ، وكمالُ التوصية بالحقّ والتوصية بالصَّبْرِ في دائرته مع دوائر غيره من الناس على مقدار استطاعته.

وشرحُ هذه الفضائل المنجية من الخسر، جاءَ بَعْضُهَا فيما نزل قبْلَ سُورَةِ «العصر» من قرآن، أوْ شرحه الرسولُ ﷺ من بيان، وجاء بعْضُها الآخَرُ فيما نزل بَعْدَ سورة (العصر) من قرآن، وفيما شرحه الرسولُ بعدها من بيان.

ولمَّا كان فعلُ الْخَيْر والْعَمَل الصالح، وتَرْكُ الشَّرِّ والعَمَل السّيّئ يتطلَّبَانِ مُجَاهَدَةً للنَّفْسِ، وهذه المجاهَدَةُ لاَ تتحقَّقُ إلاّ بالصَّبْرِ، اكتفَىٰ النصّ بذكر التواصِي بالصَّبْرِ، ليدُلَّ على اللوازم الفكرِيَّةِ الّتي يستَخْرِجُها أولوا الألباب بالتدبُّرِ المتأنّي.

* * *

(٧)

الملحق الأوّل

حول بلاغيات في سورة «العصر»

من بلاغيات هذه السورة ما يلي:

الأولى:

تأكيد خبَرِ كون الإنسانِ في محيط به من الخسْرِ باستثناء الذين جاء

بيانهم في السّورة بالمؤكدات التاليات: «القسم بالعصر ـ حرف التأكيد «إنّ» ـ الجملَةُ الاسمية ـ اللاّم المزحلقة».

والداعي للتأكيد بهذه المؤكدات غرابَةُ الخبَرِ، وبُعْدُهُ عن أذهانِ الناس، حتَّىٰ كأنَّه مشكوكٌ فيه، وإنكارُ أهْلِ الشركِ والكُفرِ له. وجاء البدْءُ بالقسم لتنفتح النفس باهتمام لمعرفة المقْسَمِ عليه.

الثانية:

ربط أوّل السّورَةِ بآخِرِها في سَجْعٍ واحدٍ، مع عدم التزامه وسَطاً، إذْ لو الْتُزِم وسطاً لتناقَصَ مُسْتَوَىٰ جمال اللّفظ في السّورة، ولصار شبيهاً بسَجْع الكُهّان. ولو تُرِكَ السّجْعُ في آخِرهَا لاسْتَرْسَلَتِ النَّفْس تتطلَّبُ المزيدَ من الكلام، ولم تَشْعُرْ بانْتِهَاء السورة، فمجيء السَّجْعِ قَدْ كان بمثابَةِ حرف الروي في آخرِ الشّعْرِ، الذي يُشْعِرُ بانتهاءِ البيت، أو القصيدة، أو المخمَّسِ، أو نحوِ ذلك.

الثالثة:

توازُنُ الفقراتِ بعْدَ الْقَسَمِ، مع ملاحظة أن كلَّ فقرة منها هي عنوان موضوعٍ كامل مترامي الأطراف، ذي شُعَبٍ كثيرة، وقد جاءت الفقرات كموجات هادئات في جَدْولٍ يجري جرياناً رفيقاً ليّناً.

الرابعة:

جاء في السُّورَةِ الحديث عن خسارة الإنسان بصفة عامّة، لتتطلّع النفوسُ باستغرَابٍ ودَهْشَةٍ، ثمّ جاء الاسْتثناءُ بعد أن صارت النفوسُ مستعدّة للتفكر بأَنَاة وتعمُّقٍ، وتدبُّرٍ تُحْشَدُ لَهُ طاقات الفكر وأطرافٌ من المعرفة تناسبُ الموضوع.

الخامسة:

لمّا كانت «ال» في «الإنسان» لاستغراق كلّ المكلفين من الناس، كان

اللفظ بمثابة الجمع، أي: كلُّ الناس المكلفين، ولهذا صحَّ استثناء فريقٍ منه، فجاء في السورة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾.

* * *

(٨)

الملحق الثاني

«الإنسان مملكة»

يعيش الإنسان في ذاتِ نفسه كأنَّهُ مملكَةٌ معقَّدَةٌ تشتمل على كلِّ عناصر المملكة وصفاتها وخصائصها، فمن أحْسَنَ سياسَةَ مَمْلكَةِ ذاتِه، فسلَّم أمْرَ القيادة والتوجيه إلى أهْلِهِ رَبِحَ وفاز، ومن أساء سياسة مملكته، فسَلَّم أمر القيادَة والتوجيه إلىٰ غَيْرِ أَهْلِه خَسِرَ وجرَّ لنفسه فساداً عظيماً، وعذاباً أليماً.

فلدىٰ المقارنة بين صفات الإنسان وخصائصه النفسيّة، وبين الممالِكِ في المجموعات الإنسانيّة الكبرى، نلاحظ ما يلي:

- ففي داخل الإنسان جهازُ عقْلٍ باحِثٍ، وفِكْرٍ متأمِّلٍ، قادرٍ على أن يَزِنَ الأمور بميزان المصلحة والمفسدة، والمنفعة والمضرَّةِ، العاجل من كلِّ ذلك والآجل، مُسْتَرشداً بهُدَىٰ اللّهِ الذي أنزله لعباده.

فإذا استخدَمَ الإنسانُ هذا الجهازَ فيما خُلِقَ له، وكان سليماً من العطَب أو الخَلَل، بَصَّرَهُ بالحقّ والباطل، والخير والشرّ، والصالح والفاسد، والنافع والضارّ، وكان لدَيْهِ بمَثَابَة السلطة التشريعيَّةِ، وكانت وظيفتُه أنْ يُصْدِرَ القوانين والأحكام التشريعيَّة الهاديَةَ إلى الصراط المستقيم في الحياة، صراط اللّه العزيز الحميد العليم الحكيم.

- وفي داخل الإنسان جهازُ إرادةٍ حُرَّةٍ، وتَقَعُ تَحْتَ سلْطَةِ هذه الإرادة جَمِيعُ قُوىٰ الإنسانِ المؤثِّرَةِ في إنجاز الأفعال.

وهذه الإرادة الحرَّةُ في داخل الإنسان هي بمثابة السلطة التنفيذيَّة، الّتِي تُوجّه أوامِرَها لِيَتِمَّ التَّنفِيذُ مباشرةً، ضمن حدود الطاقات والقدراتِ التي تستطيع توجيهَها لتنفيذِ المرادات.

- وفي داخل الإنسان دوافع كثيرةٌ مختَلِفَةُ الأشكال والخصائص، متعدّدة الجهات، وبعْضُها مورُوثٌ ومُسْتَقِرٌ في الغريزة، وبعْضُها مكتَسَبٌ من البيئة.

وهٰذه الدوافع هي بمثابة الرّعيَّة في المملكة، الّتي يجب تنظيمُها والتنسيقُ فيما بينها، حتَّىٰ لا يطغَىٰ بعضُها على بعضٍ في داخل مملكة الإنسان، وحتَّىٰ لا تَطْغَىٰ في الْفَرْد جُمْلَةُ هٰذِهِ الدّوافع فتُسَبّب له أنْ يطْغَىٰ على أخيه الإنسان في مملكته الأخرى.

وإذَا أُهْمِلَتْ هٰذه الدّوافع عاشَتْ في داخل الإنسان في حَياةِ فوضَىٰ، وجعَلَتْ تأمُرُهُ بكُلِّ سُوءٍ وشر، وتكون في داخله بمثابة جمهورٍ فَوْضويّ تُحَرِّكُه رُعُونَةُ الشهوات والأهواء والغرائز الثائرة الهائجة بطيشٍ وحماقة، ولو كانت تَسُوقُ أو تقودُ الإنسانَ إلى المهالِكِ والموبقاتِ، وتهبِطُ به إلى أوديَةِ العذابِ والشقاء.

هذا هو شأن غرائز الإنسان ودوافعه في داخل ذاته، إذا أهْمِلتْ، ولم يكُنْ لها ضابطٌ من إرادةٍ مَهْدِيَّةٍ بهَدْيٍ من دينٍ ربَّانيٍّ صحيح، وعَقْلٍ مُدْرِكٍ للحقّ والخير والفضيلة، ومُدْرِكٍ لأضدادها الضارّة الفاسدة المفسدة في عاجل أمْرِ الإنسانِ أو آجله.

لكن متَىٰ تمّ تنظيمها والتنسيقُ بيْنَها وضَبْطُها بضوابط الحقّ والخير والفضيلة، استطاع الإنسانُ أَنْ يعيش في أمْنٍ وطمأنينة وسعادَةٍ مع نَفْسِه، وأن يَعِيشَ في سِلْم وطُمأْنِينَةٍ وَتَعَاوُنٍ مع أمثالِهِ من الناس.

ومن أراد أنْ يُحْسِنَ سِياسة مملكته النفسيَّة ليكُونَ إنساناً مثاليّاً، أو سالكاً في مدارج الإنسان المثالي، فليوزّع السلطات في داخل نَفْسِه وفْقَ القانون الطبيعيّ السابق، وعليه في هذا أن يُسَلِّم السُّلْطَةَ التشريعيَّةَ إلى القدرات الفكريّة المهديَّة بالهداية الرّبانيّة، وأنْ يُبَاعِد بين هذه القدرات وبين مؤثرات الأهواء والشهوات والغرائز والدوافع النفسيّة، حتّى لا تَجْنَح بها عن صراط الحقّ والعدل، وعليه أن يُطْلِق قُدْراته التفكيريّة في ميادين البحث عن الحقائق، ويُثِير فيها الشّوَق إلى الوصول إليها، وكلّما وصَلَتْ إلى طائفة من شرائع الحقّ والعدل الرّبانيّة، فيجب عليه أنْ يؤمن بها، ويجعلَهَا موجِّهةً لإرادته المالكة للسُّلْطَةِ التنفيذيّة داخل مملكة ذاته.

وهذه السلطة التنفيذيّة، تَتَعَرَّضُ لضغوط غوغائيَّة من قِبَلِ جُمْهور الأهواء والشهواتِ والغرائز، الّتي تطالِبُ بما هو زائِدٌ على أنصِبَتِها النافعَةِ في الحياة، لتَسْتَمتع باللّذاتِ العاجلات، غَيْرَ عابئَةٍ بالمضرَّاتِ الآجلاتِ، الجالبات للآلام وأنواعِ العذابِ الجسَدِيّ والنفسيّ.

فإذا وَجَدَ من إرادَتِه ذاتِ السُّلطة التنفيذيَّةِ داخل مملكَةِ ذاتِه ضعفاً، أو ميْلًا للاستجابة لمطالِب جماهير أهوائه وشهواته وغرائزه الجانحة عن صراط الحقّ والخير والفضيلة، صراط اللّهِ المستقيم، فعلَيْه أن يُمِدّ إرادَتَهُ بقُوىً تشُدُّ عزمها وحزمَها، من مخازن الإيمان في عُمْقِ قَلْبِهِ، ومن كوابِحِ الخوْفِ من سُوءِ المصير، ومن دوافِعِ الطَّمَعِ بثواب اللّهِ، المعجَّلِ من ذَلِكَ والمؤجّل، وعليه أن يَجْعَلَ شِعَارَه دواماً: الحقُّ فَوْقَ الجميع، وعندئذٍ يَجِد من معونة اللّه جلَّ جلالُهُ ما يجْعَلُ إرادته ذاتَ عزْمٍ يُسْكتُ صَخَبَ جماهير الأهواء والشهوات والغرائز الجانحة، ويقْمَعُ طيشَها، ويُلْجِمُ دوافعها الرَّعْناء.

والإنسَانُ أمام جماهير أهوائه وشهواته وغرائزه الجانحة، التي تَنْبَحُ

داخِلَ مملكة ذاته، بحاجةٍ إلى حصْنٍ حَصِينٍ من الصَّبْر، حتَّىٰ يقيَهُ ضعْفَ الإرادة وخَوَرَ العزيمة.

لكنَّ الجمهور الأعظم من النّاس تتحكّم بإراداتهم أهواؤهم وشهواتُهم وغرائزهم الجانِحَةُ عن صراط اللّه المستقيم، ثُمَّ تكونُ السُّلْطة التشريعيَّةِ في ذواتهم مُسَخَّرَةً لخدمَةِ هذه الأهواء والشهوات والغرائز، فتَعْمَىٰ عن إدْرَاكِ الحقّ والخير والفضيلة، وبَدَلَ أَن تُؤَدِّيَ القدراتُ الفكريّةُ فيه وظيفتها الفطريَّةَ في خِدْمَةِ الحقّ والخيْر والفضيلة، تؤدِّي وظيفةَ تَقْدِيم وسَائِل الْغَوَايَةِ والشرِّ والضّرّ والإفساد في الأرض، بألوان من المكر والتحايُلِ والكيْدِ الشيطانيّة، وتجتالُها الشياطين وتَهِيم بها في كلِّ وادٍ قَذِرٍ وخيم، وعندئذٍ ينغمس الإنسانُ في الخسرانِ المبين، في الدنيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دارِ الحساب وفصْل القضاء وتنفيذ الجزاء.

ربّنا آتنا رُشْدَنا ولا تجعلْنا من الخاسِرِين.

وبهذا انتهى تدبّر سورة «العصر» بفتح من الله ومعونة وتوفيق

* * *

سورة العاديات

١٠٠ مصحف ١٤ نزول

(١)

نصّ السورة

سورة العاديات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا (١) فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا (٢) فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا
(٣) فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا (٤) فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا (٥) إِنَّ
ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ (٦) وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ (٧)
وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ (٨) ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا
فِي ٱلۡقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ
يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ (١١)

(٢)

مما رُوي بشأن هذه السورة

(١) أخرج أبو عُبَيْد في فضائله عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ، والْعَادِيَاتُ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ»(١).

«هذا الحديث مرسل».

(٢) وأَخْرَجَ مُحمَّد بْنُ نصْرٍ من طرِيقِ عَطَاءِ بن أبي رباحٍ عن ابن عباسٍ مرفوعاً مثْلَهُ، وزاد:

---

(١) عن فتح القدير للشوكاني.

«وقُلْ هُوَ اللَّهُ أحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآن، وقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ تَعْدِلُ رُبْعَ القرآن»(١).

* * *

(٣)

موضوع السورة

تُعالجُ هذه السورة تخليصَ المجتمعات الجاهليّة، من قبيحةٍ خَطِيرَةٍ من القبائح الّتي كانتْ شائعةً في البيئة العربيَّة الجاهليّةِ، بيْنَ قبائلهم الّتي يَجْمَعُها جَدٌّ واحِدٌ، ولُغَةٌ عربيّةٌ واحِدَةٌ، وكانَتْ شائعةً عنْدَ غَيْرِ الْعَرَبِ، وهيَ قبيحَةُ غَزْوِ النَّاس بَعْضِهِمْ لبَعْضٍ للسَّلْبِ والنَّهْبِ والسَّطْوِ على الأَمْوال عُدْواناً وظُلْماً، وهُمْ يتفاخَرُون بذلك، ويَجِدُونه حقاً مَشْروعاً للأقوياء على الضُّعَفاء، ويَسْتَخْدِمُونَ فيه إحْدَىٰ نِعَمِ اللَّه على النّاسِ، وهي نِعْمَةُ الْخَيْلِ المهيَّأة بالتَّدْبِير الرَّبَّاني تَهْيِئَةً ملائِمَةً بعِنَايَةٍ فائقَةً للقِتَال في سبيل اللَّه، وإعلاء كَلِمتِه، وإقامة الحقّ والعدل.

ولكِنَّ النَّاسَ يسْتَخْدِمُونَها بجُحُودهم وكُنُودِهِمْ لربِّهِمْ، وبِحُبِّهم الشّدِيد للحصُولِ علىٰ الأموالِ الَّتي لا حَقَّ لهم بها، في البَغْي والطُّغْيانِ، والظُّلْم والْعُدْوَان، وهُمْ يُفَاخِرُونَ بمُمَارَسَةِ هٰذِهِ القبيحَةِ، ويتَواضَعُونَ على قَلْبِ مفْهُومَاتِ الحقِّ والْعَدْلِ، والْبَغْي والظُّلْم، فَيَجْعَلُونَ الباطِلَ حقًّا، والظُّلْمَ والْعُدْوانَ بُطُولَةً ومجداً وَشَرَفاً، غَافِلِينَ عَنْ سلطانِ الرّبِّ الْجَليل، الّذي سوْفَ يُحاسِبُهُمْ على أعمالهم يوْمَ الدّين، وسَوْف يُجَازيهم عليها، ويُقيم بَيْن النّاسِ العَدْلَ، فيقْتَصُّ من الظالِمِينَ الباغِين المعتدين، ويُحاسِبُهم ويجازيهم عَلىٰ كُفْرِهِم وكنُودِهِمْ، وجُحودِهِمْ حقَّ بارئهم عليهم في الإيمان والإسلام وفعلِ الصالحاتِ واجتناب السّيّئات، على مقدار استطاعاتهم.

---

(١) عن فتح القدير للشوكاني.

ويُقاسُ على نِعْمَةِ الْخَيْلِ كُلُّ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي يُمْكن استخدامُها في القتال في سبيل اللّه، لنَشْرِ دينِهِ، وإعلاَ كَلِمتِه، إِذْ يسْتَخْدِمُهَا النّاس في الظُّلْم والعدوان، والبَغْي والإثْمِ والطُّغْيان.

ولدى النظر في مَضْمُون سورة «العاديات» وما نَزَلَ قَبْلَها من سُوَرِ القرآن، نُلاحِظُ ما يلي:

بعْدَ القضايا التي عالجتها السُّوَرُ الّتي نزلَتْ قَبْلَ سُورة «العاديات» والّتِي اهْتَمَّتْ بقَضَايا العلم، وحرِّيَّةِ الإرَادَة لدى الإنسان المكلّف، وقضايا الإيمان والإسلام، وعبادة اللّه بالصَّلاة، وقضَايَا الْبَذْلِ والعطاء لذوي الضروراتِ والحاجاتِ في المجتمع، جاء دَوْرُ معالَجةِ قَبِيحَة غَزْوِ النَّاسِ بعْضِهِمْ لبَعْضٍ، بُغْية سَلْبِ ونَهْبِ أمْوالهم، والسَّطْوِ علَىٰ مُمْتَلَكاتهم، ولو نَجَمَ عن ذَلِكَ سَفْكُ الدِّماء، وإزْهَاقُ الأرْواح، وتَخْرِيبُ العمران، نظراً إِلَىٰ أَنَّ هذا الْغَزْو قَدْ كانَ إحْدَىٰ الظواهر السلوكيَّة الشنيعَةِ من سلوكيّات الجاهليات العربيَّة وغيْرِ العربيَّة، ومَا الاستعمارُ الّذِي تَقُومُ به الإمبراطوريَاتُ والدُّوَلُ الّتي تَعْتَزُّ بما لَدَيْها من قُوىً عَسْكَرِيَّة إلاَّ إحدىٰ صُوَرِ هذا الغزْوِ القبيح الشَّنيع.

فالسورةُ بهذا التحليل لموضوعها درْسٌ واحِدٌ متماسِكُ الأفكار، مترابطُ العناصر، وأمْرُ وحْدَةِ مَوْضوعها لا يخفىٰ على متدبِّرٍ ذي أناة، وهو ما سبق بيانه.

❁ ❁ ❁

(٤)

التدبُّر التحليلي لآيات سورة «العاديات»

قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾.

● ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ①﴾: «الواو» واو القَسَم. [الْعَادِيات] جَمْع «الْعَادية» وهي الجاريَةُ بسُرْعَة، منْ «عَدَا يَعْدُو عَدْواً وَعُدُوًّا» إذا جرَىٰ بسُرْعة. ولفْظُ [الْعَادِيَاتِ] وَصْفٌ لموصُوفٍ مَحْذُوف، وأَوْلَىٰ مَا ينْطَبِقُ علَيْهِ هذا الوصْفُ الْخَيْلُ، فالأوصَافُ الّتي جاءَتْ بَعْدَهُ من الأوصَاف البارزة في الْخَيْل، دُونَ غَيْرها ممّا يُسْتَعْمَلُ في الرُّكوب للإغارةِ عَلَىٰ ظُهُورِهَا في الغَزَوات.

والاستِغْنَاءُ بذِكْرِ الصّفات عَنْ ذكْرِ اسْم الموصوف بها، من الكنايات البديعَة الشائِعَةِ في اللِّسَان الْعَرَبيّ، وهُو من أساليب التَّعْبير غيْرِ المباشِرِ عنِ المقْصُود.

﴿ضَبۡحٗا﴾: الضّبْحُ يأتي في اللُّغة العربيَّةِ بمعْنَيَيْن:

المعْنَى الأول: الْعَدْوُ الشّدِيدُ إذا بلَغَ مداه الأقْصَىٰ في مُسْتَطاعِ الْعَادِي أو العادية، فَضَبْحُ الْخَيْلِ عَدْوُها حتَّىٰ تَصِيرَ أَيْدِيها وأرْجُلُها معَ أَبْدانها مُمْتَدَّةً طُولاً في جَرْيها، كأنّها علَىٰ خَطٍّ أُفُقِيّ.

جاء في كتاب الخليل على ما نقَلَ ابن منظور: الضّبْحُ: أَنْ يمُدَّ الفَرَسُ ضبْعَيْه إذَا عَدَا حتَّىٰ كأنَّهُ علَىٰ الأرْضِ طُولاً، يُقَالُ: ضَبَحَتْ وضَبَعَتْ.

الضَّبْعُ: ما بيْن الإبْط إلى نِصْفِ الْعَضُد من أعلاه، وهما في الإنسان والحيوان ضبْعَان. يقال لغة: ضَبَعَ الفرسُ يَضْبَعُ ضَبْعاً وضُبوعاً، أي: مَدَّ ضَبْعَيْهِ في جَرْيِهِ مُسْرِعاً.

والضَّبْحُ مثْلُ الضَّبْع، تَقُول لغة: ضَبَحَتِ الْخَيْلُ في عَدْوِها تَضْبَحُ ضَبْحاً، وضَبَعَتْ تَضْبَعُ ضَبْعاً.

المعنى الثاني: الضَّبْحُ صَوْتٌ يُسْمَعُ مِنْ صُدُور الْخَيْلِ عِنْدَ الْعَدْو، وليس هو الصَّهيل الذي تُطْلقه حناجرُها.

وكلمة: [ضَبْحاً] منصوبةٌ على أنّها مصْدَرٌ مؤكِّدٌ لاسم الفاعل: [الْعَادِيات] على معنَى أنّ الضَّبْحَ هو الْعَدْو الشديد البالِغ مَدَاهُ الأقْصَىٰ. أو مَصْدَرٌ في موضع الحال، تنزيلاً للْمَصْدَرِ مَنْزِلَة اسْم الفاعل، أي: ضَابِحَاتٍ، وهذا يُنَاسِبُ المعنَيَيْن للضَّبْحِ، الْعَدْوِ الشديد، والصَّوْتِ الذي يُسْمَعُ من صُدُورِها.

وأرَىٰ حَمْلَ اللّفْظ على مَعْنَيَيْهِ معاً، وهو ما عليه جُمْهُور عُلماء أصُولِ الفقه، إذْ يَرَوْن أنّ من أساليب اللّغة استعمالَ اللّفظِ في معنَيَيْهِ أو معانيه إلاّ عند التعارض، وهذا من روائع العربيّةِ في إيجازها البديع، وقد تكرَّر اسْتِخْدَامُهُ في القرآن المجيد، إذْ هُو قائِمٌ على استخدام لفظ واحدٍ في جُمْلَةٍ لِيَدُلَّ على معنَيَيْن فأكثر، ويُسْتَغْنَىٰ بهذا الإجراء عن جُمْلَتَيْن فأكْثَرَ، وهو يَنِمُّ عَنْ ذَوْقٍ رَفيع في أساليب البيان العربيّ.

وقد أقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ بإحْدَىٰ نِعَمِهِ على عبادِه، وهي نِعْمَةُ الخَيْل الّتي تَعْدُو في جَرْيها حَتَّىٰ تكُونَ كالسَّابحة في الرِّيحِ، وتُطْلِقُ من صُدُورها أصْواتاً تُلْقِي الذُّعر فيمن تُغِيرُ عَلَيْهم، وهو في الحقيقة قَسَمٌ ببعض صفاته الّتي من آثارها هذه النّعمة.

جملة ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ①﴾ تُقَدِّمُ اللّقطة الأولَىٰ من مشاهد الصُّورَةِ البيانيّة البديعة لحركة الخيْلِ الْمُغيرَة بفُرْسَانها على مواقع مَنْ تُغِير عليهم بشرّ.

- ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ②﴾: هٰذه هي اللَّقطة الثانية من مشاهِدِ الصُّورة البيانيّة البديعة لحركة الْخَيْل المغِيرَة بفُرْسانها على مواقع من تُغيرُ عليهم بشرّ.

[الْمُورِيات] جمع الْمُورية، اسْمُ فاعل من «أوْرَىٰ يُوري فهو مُورٍ» يُقَالُ: لغةً: أوْرَىٰ الزَّنْدَ إذا أخْرَجَ منه النارَ بالْقَدْح.

الزَّنْدُ: الْعُودُ الأعلَىٰ الّذي تُقْدَحُ بِه النار، إذْ يُضْرَبُ عَلَىٰ الزَّنْدَةِ الّتي هي الْعُودُ الأسْفَل.

يقالُ لُغَةً: قَدَحَ بالزَّنْدِ قَدْحاً، إذَا ضَرَبَ بِهِ حَجَرَهُ لتَخْرُجَ النارُ منه، ويقالُ: قَدَحَ النّارَ من الزَّنْدِ، إذا أخْرَجَها منه.

والخيلُ في عَدْوِها الشديدِ تُورِي النار والشّرَرَ بسنابكها، إذْ تَضْرِبُ بحَوَافِرِها على الأرض، فتُصِيبُ بها أحجاراً منبثَّةً فيها، فتقْدَحُ شَرَرَ النار.

وفي هذا تَصْوِيرٌ للَقْطةِ من مَشْهَدِ إغارة الخيول في أرْضٍ غَيْرِ مُمَهَّدَةٍ لِعَدْوِ الخيلِ، وفي هٰذهِ الأرض حجارةٌ وصخُورٌ تَقَعُ عليها حوافر الخيْل فتَقْدَحُ ناراً وتُطْلِقُ شرَراً، فِعْلَ قادِحِ الزَّنْدِ الْمُورِي بقَدْحِهِ ناراً.

القَدْح: ضَرْبُ عودٍ على عُودٍ، أو حَدِيدَةٍ على حجَرٍ، أو غير ذلك، ممّا تُسْتَخْرج شرارةُ النارِ بضَرْبِ أحَدِهما على الآخر منهما.

ويقال لغة: أوْرى النّارَ إذا أوْقَدَها وأشْعَل اللّهَبَ فيها.

[قَدْحاً] مصدرٌ منصوبٌ على الحال تنزيلاً له منزله اسم الفاعل، أي: قادحات، أو مفعولٌ مطْلَقٌ لفعلٍ محذوف تقديره: تَقْدَحُ قَدْحاً، أي: فتوري النار بهذا القَدْح.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾: هذهِ هي اللَّقْطةُ الثالثة من مشاهد الصورة البيانيَّةِ البديعَةِ لِحَرَكَة الْخَيْلِ المغيرَةِ بفُرْسَانها على مواقع من تُغِيرُ علَيْهم بشرّ.

وبهذه اللَّقْطَةِ تحدَّدَت الغاية من حركة الخيول العاديات، وعلى ظهورِها فُرْسانُها، وتَحَدَّدَ الوقْتُ وهو وقْتُ الصُّبْح.

المغيرات: جمع «المغيرة» اسم فاعلٍ للمؤنّث من فعل «أغارَ يُغِيرُ إغارَةً».

الإغارة: هي الهُجومُ المباغِتُ لقَتْلٍ أوْ أَسْرٍ أوْ سَلْبٍ ونَهب، أو نحو ذلك من شرّ.

الصُّبْح: أوَّلُ النَّهار، وهو الوقْتُ الذي يَخْتَارُهُ الْغُزَاةُ، لمباغَتَةِ الْقَوْم الذين يُرِيدُون الإغارة عليهم للقَتْلِ والْأَسْرِ والسَّلْب. ويبدأ أوَّلُ النَّهار من طُلوعِ الفجر الصادق.

● ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾: هٰذه هي اللَّقْطة الرابعة من مشاهد الصُّورة البيانيَّةِ البديعة لحركة الخيل المغِيرَةِ بفرسانها على مواقع القوم الذين تُغِير عليهم بشرّ.

﴿فَأَثَرْنَ﴾: الإثارة التَّهْيِيجُ والنَّشْرُ، ويكون باستخراج الشَّيْء من مواضع استقراره، ونَثْرِ أجزائِه ونَشْرها في مواضِعَ شتَّىٰ، كنَشْرِ التُّراب والْغُبار في الجوّ، وقد كان ساكناً مُسْتَقِرّاً في الأرض.

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالعدْوِ المفهوم من العاديات، إذْ هو الذي تكون به إثارة النَّقْع.

﴿نَقْعًا﴾: النَّقْعُ هو الغُبَارُ السَّاطِعُ، وهذا أحَدُ معاني هذه الكلمة، وهو المراد بها هنا.

والمعنىٰ: فأثارات الخيولُ العادياتُ بِجَرْيها السَّرِيع عنْدَ إغارَتِهَا وضَرْبِ حوافِرِها على الأرض، غُبَاراً سَاطِعاً في الجوِّ، يُحيط بهَا كأنَّهُ مُوَاكِبٌ لَهَا، فهو يسْتُرُها ويُخْفِي أعدادها، ويزيدُ في إلقاء الرُّعْبِ في قُلُوب الْقَوْم الَّذِين تُغِير عليهم.

● ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾: هذه هي اللَّقْطةُ الخامسَةُ من مشاهِدِ الصّورَةِ البيانيّة البديعة لحرَكة الخيْلِ المغيرة بِفُرْسَانِها على مواقع الْقَوْمِ الَّذِينَ تُغِيرُ عَلَيْهِمْ بشَرٍّ.

﴿فَوَسَطْنَ﴾: أي: فصِرْنَ في الْوَسَط، وهو المكان الواقع بيْنَ طَرَفي الشيء، أو حول مركز دائرة الشيء.

يُقَالُ لغة: «وَسَطَ الشيْءَ يَسِطُهُ وَسْطاً وَسِطَةً» أي: صَارَ في وَسَطِه، فهُوَ وَاسِطٌ. يُقالُ: وَسَطَ المكانَ، ووَسَطَ القوْمَ.

﴿بِهِۦ﴾: أي: بالْعَدْوِ المفهوم من العاديات.

﴿جَمْعًا﴾: أي: قَوْماً مُجْتَمِعِين، الْجَمْعُ في اللّغة: الجماعة. والقوْم المجتَمِعُونَ. والْجَيْشُ المجتمع.

لمَّا أَحَسَّ الْقَوْمُ بِهُجُومِ غارَةِ العدُوِّ عليهم، والْمُفَاجِئَةِ لَهُمْ عنْدَ الصَّباح، خَرَجُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ واجْتَمَعُوا للدِّفَاعِ، أو لمعرفةِ ما يَحْدُثُ، أو للتشاوُرِ، فباغَتَهُمُ المغِيرُونَ حَتَّىٰ دَخَلُوا فِي جَمْعِهِمْ، وكانُوا وَسَطَهُمْ يقْتُلُونَ وَيَأْسِرُون ويَسْلُبُونَ وينْهَبُون.

وتَوَقُّفَ عرْضُ المشْهَدِ عنْدَ هٰذِهِ اللَّقْطَةِ الأخيرة، ليذهَبَ الذِّهْنُ والتَّخيُّل في تكْمِيلِ مَشْهَدِ الغارَة، وتصوُّرِ مَا يَحْدُث عادَةً من قَتْلٍ وسَلْبٍ وأسْرٍ، في غَزْوِ النّاس بعْضِهم لبعْضٍ.

وجاء التعْبِيرُ بالفعل الماضي في ﴿فَأَثَرْنَ﴾ وفي ﴿فَوَسَطْنَ﴾ معطوفَيْن عل اسْم الفاعل الدَّالّ على حَرَكة الحال المتجدّدة في: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾ وفي: ﴿فَٱلْمُورِيَـٰتِ﴾ وفي ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ للدَّلالَةِ على أَنَّ إثارَةَ الغبار استمرَّتْ آثارُهَا فَهِيَ فِعْلٌ مضَىٰ ولَكِنْ بقِيَتْ آثاره، وللدّلالَة عَلَىٰ أَنَّ دُخولَ الخيُولِ في وَسَطِ الْجَمْعِ قَدْ تحقَّقَ وصَار أثَراً قائِماً في الواقِع من آثار عَدْوٍ مضَىٰ وانْتَهَتْ حَرَكَتُه.

ولا يخفىٰ على البليغ أنَّ اللّقَطاتِ الْخَمْسَ، قَدْ وَصَفَتْ مَشهداً علَىٰ تقديرِ أَنَّ أحْداثَهُ تَجْري مَعَ فِقَراتِ التَّعْبير، حَدَثاً فَحَدَثاً، كما يَفْعَلُ الْمُعَلّق علىٰ مَشْهَدِ سِباقِ الْخَيْل، وهِي تَجْرِي في مضمارِها.

وجاء العطفُ بالفاء في اللَّقطاتِ البيانيَّةِ الْخَمْس، للدَّلالَةِ على التعاقب السَّريعِ في مَشَاهِدِ اللَّوْحَةِ البيانيَّة الرائعة.

كلُّ هذا الذي دَلَّ عليه الوصْفُ التعبيريّ الرائع لحركاتِ الخيول العاديات المورِيَات بسُرْعتها لشرَر النار، الذي ينشأ عن قَدْحِ حوافِرِها

لحجارَةٍ في الأرض تُطْلِقُ الشّرَر، والمغيراتِ في وقْتِ الصُّبحِ لمباغَتَةِ قَوْمٍ فِي مَنازِلِهِمْ، فتَتَوسَّطُ جَمْعَهُمْ، ليُحقّقَ الغزاةُ على ظهورها مقاصِدَهُمْ من الغزْو، لَمْ يكُنْ لِيَتحَقَّقَ للنّاسِ لَوْلا التَّسْخِيرُ الرَّبّاني، الّذي سخَّرَ اللَّهُ فيه هذا الصّنْف من المخلوقات للإنسان، وهو صِنْفُ الخيْلِ، وأَمَرَهُ أَنْ يسْتَعملَهُ في طاعَة اللّه أو فيما أذن له به، ونَهاهُ عن استعماله في الْبَغْي والطغيان، والإثم والظُّلْمِ والعدوان.

ولكِنْ كَيْفَ كان حَالُ الإنسان؟ هلْ كان شاكراً نعْمَةَ اللّهِ عَلَيْهِ فاسْتَعْمَل هٰذِه النّعمَةَ المسخَّرَةَ لَهُ في مَرَاضيه، أو فيما أذن له به. أمْ كان كنوداً كفُوراً؟؟.

لقد جاء الجواب على هذا السؤال المطويّ داخل ثنايا السورة في المقطع الثاني منها، وهو المقْسَمُ عليه فيها، وهو المقطَعُ التالي:

- قولُ اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

هذا هُوَ الْمُقْسَمُ عليه في السّورة، والمناسَبَةُ بيْنَ الْمُقْسَم بِه والْمُقْسَم عَلَيْهِ ظَاهِرَةٌ، أي: أُقْسِمُ بنِعْمَتِي علَيْكَ أيُّها الإنسانُ إذْ سَخَّرْتُ لَكَ الْخَيْلَ بكلِّ ما فيها من صِفَاتٍ ملائِماتٍ لِنَشْرِ ديني وإعْلاَءِ كَلِمَتِي، علَىٰ أنَّكَ كنُودٌ كَفُورٌ بنِعْمَتِي، تَسْتَعْمِلُ ما سَخَّرْتُ لَكَ في مَعْصِيَتي بالْبَغي والطُّغْيان، والإثمِ والظلم والعدوان.

﴿لَكَنُودٌ﴾: أي: لَجحُودٌ وَكَفُورٌ بالنّعْمة. يُقَالُ لغةً: كَنَدَ النّعْمةَ يَكْنُدُهَا كُنوداً، أي: كَفَرَها وَجَحَدَها. وكلٌّ من الذكَرِ والأنْثَىٰ يُقَالُ فيه: كَنُودٌ. ويُقَالُ: كَنَدَ رَبَّهُ، أي: جَحَدَ نِعْمَتَهُ عليه، وكفر بها. وصيغة: كنود، من صيغ التكثير والمبالغة.

أي: فهُو بدَلَ أن يستعمِل نِعْمة اللّه عليه بتسخير الْخَيْلِ، في طاعة اللّه ومراضيه، وفيما أذِنَ لَهُ به، يَسْتعملها في الإغارَةِ على الآمِنِينَ عُدْواناً وظُلْماً، للسَّلْب والنّهب والسَّطْوِ الآثم.

والمراد من الإنسانِ مُعْظَم أفراد النَّوع لا جَمِيع أفراده.

﴿لِرَبِّهِۦ﴾: متعلّقٌ بـ«كَنُود» إذْ هو يعمَلُ عَمَل الفعل، واللّام لتقوية عَمَلِ «كَنُود» إذ الفعل يتعدَّى بنفسه.

وقد جاء في الآية تأكيد خَبَرِ كَوْنِ الإنسان كَنُوداً بالمؤكدات التاليات: «إنّ، والجملة الاسميّة، ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر» ويفيد تقديم: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ على عامله التّأكيد أيضاً، مع التّنبيه علَىٰ شناعَةِ كنُودِ الإنسان، فهو لرَبّه الذي يُمِدُّه دواماً بعطاءاتِ رُبُوبيَّتِه لَه لكَنُودٌ.

● ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾: أي: وإنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الكُنُودِ الذي يُمارِسُهُ دواماً لشَهيدٌ بِهِ علَىٰ نَفْسِه، إذْ يجاهِرُ به، ويُكابِرُ فيه، ويُفَاخِرُ بفِعْله، إذْ يَزْعُمه عملاً مَجِيداً، كَمَا هُوَ عادَةُ الْغُزاةِ فيما يقومون به من غاراتِ الْقَتْلِ والتّدْمِير للسَّلْبِ والنَّهْبِ والسَّطْوِ على ما لَيْسَ لهم به حقٌّ، فَهُو علَىٰ نَفْسِهِ بذلِكَ شَهِيدٌ، يَقُول: إنّي فَعَلْتُه وأفْعَلُه، مُجَاهِراً مكابِراً مُفَاخِراً، قائلاً: إنَّ الأقْوَىٰ والأغْلَبَ، هو صَاحِبُ الحقّ ولَوْ سَلَبَ ونَهَبَ، وبَغَىٰ وظَلَم، وعَدَا وَأثِمَ، وطغَىٰ وَأجْرَم.

وقد جاء تأكيد هذه القضيّة في هٰذِه الجملَةِ بمثل المؤكدات الّتي اشتملت عليها سابقتها، وفي هذا التأكيد إشارة إلى مكابرة النَّاس في استحسان ما يفعلون من ظلم وعدوان، وبغيٍ وطغيان.

● ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾: في هذه الآية إشارةٌ إلى أهَمّ الأسباب الّتي تَدْفَع الإنسان للقيام بغزوات السَّلْب والنّهْبِ والسَّطْو، وهو حبُّهُ الشديد للمال.

أُطْلِقَ لفظ «الخير» في هذهِ الآية على المال، تمَشّياً مع استعمال العَرب، الّذين كانوا يُسَمُّون المال خيراً، مع أنّه وسيلَةٌ من الوسَائل الّتِي تُسْتَعْمل في الخير، وتُسْتَعْمَلُ في الشرّ، كما أبان الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري الّذي قال فيه الرسول:

«لاَ واللَّهِ مَا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أيُّهَا النّاسُ إلاَّ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيَا».

فقال رجُلٌ: يا رَسُول الله، أَيَأْتِي الْخَيْرُ بالشَّرّ؟ تصوُّراً منه أن المال خير.

فقال الرسول: «أَوَ خَيْرٌ هو؟!» أي: هو وسيلة وليس خيراً محضاً⁽¹⁾.

فمعنَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ وإنَّهُ ليُحِبُّ الْمَالَ حُبّاً شديداً يَدْفَعُهُ إلى السَّطْو على الأموال الّتي لا حَقَّ لَهُ بها، بالظلْم والعدوان، والبغي والطغيان.

أي: وإنّه لأجل حُبِّهِ المالَ لَشَدِيدٌ قَوِيٌّ في الْبَغْي والظُّلْم والعدوان، والجرأَةِ على الحقّ بالْبَاطل، والجرأَةِ علىٰ رَبِّهِ بالكُنُودِ والعصيان، وحُذِفَ معمولُ شديدٍ ليشمَل كلَّ قبائح الجاهليّة الّتي تُفرِزُهَا رَغَبَاتُ غَزْو الناس بعضِهم لبعض طمعاً بالاستيلاء على أموالهم.

بعْد هذا البيان عن واقع حال الإنسان الذي يَسْتَخْدم نِعْمَةَ اللَّه عليه بتسخير الخيل، في ضدّ مَا أُعِدَّتْ له، جاءَ دَوْرُ التَّحذِيرِ من عاقبة هذا السُّلوك الشَّنِيعِ، من سُلُوك الجاهليّاتِ البشريَّةِ، في رِحْلَة امتحان الناسِ في ظروف الحياة الدنيا، وهذا ما دَلَّ عليه البيانُ في المقطع الأَخِيرِ من السُّورة، وهو:

قول اللَّه عزّ وجلّ:

---

[1] انظر شرح الحديث الثاني في كتاب «روائع من أقوال الرسول» للمؤلف.

﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ۝١١﴾.

- ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ﴾: في هذه العبارة استفهام، وفاء عطْفٍ، وفعلٌ فاعله ضميرٌ يعود على الإنسان، والمفعولُ به محذوفٌ اقتصاداً وإيجازاً في العبارة، لإمْكان إدْراك معناه من السِّباق.

أمّا الاستفهام فهو استفهامٌ مُسْتَعْمَلٌ في التقرير، وفيه مع التقرير الذي يُنْتَزع به الإقرار والاعْتِراف، التلويمُ والتوبيخ، على عدَم العمل بمقتضىٰ العلم.

وفاء العطف فيما أرى فصيحةٌ تَعْطِفُ علَىٰ محذوفٍ يُمْكِنُ بالتأمُّل استِخْرَاجُهُ من مقتضىٰ الحال، والتَّقْدِير: أهُوَ منَ الأَنْعَام، أمْ نشَأَ مُنْعَزِلاً عَنِ المجتَمَعَات البشرية فَلاَ يَعْلَمُ شيئاً عَنِ الحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاء وَتَنْفِيذِ الجزاءِ في الآخِرَةِ يَوْمَ الدِّين، ولا يعْلَمُ من دَلاَئِلِ حِكْمَةِ اللّهِ المرشدة إلَىٰ ضرورَة الْيَوْمِ الآخِرِ للحساب والجزاء، أنّه لاَ بُدَّ من مُلاَقاةِ رَبّه يَوْمَ الدّين للحسَاب والْقَضَاء والجزاء.

- ﴿إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾: أي: أفلا يَعْلَمُ حقائِقَ يَوْم الدِّين الّتي بلّغَها المرسَلُونَ، وسبَقَ في نجوم التنزيل بيانٌ عَنْهَا، وهٰذِهِ تكونُ يَوْمَ البعْثِ إذا بُعْثِرَ مَا في الْقُبُورِ، أي: اسْتُخْرِجَ ما في الْقُبُورِ مِنَ الموْتىٰ إلى الحياة الأُخْرَىٰ، بحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ فِيها إثارةٌ وَنَثْرٌ وتَفْرِيقٌ، ولعَلَّ السَّبَبَ في هذا أنّه لمّا كَانَ الْقَبْرُ الواحِدُ رُبَّما يَحْوي آلاف الموتىٰ الّذِينَ بَلِيَتْ وفَنِيَتْ أجْسَادُهم، إذْ صار قبْراً آلاف المرات، كان استخراج ما فيه بوقْتٍ واحِدٍ يحتاجُ بعْثَرَةً، حتَّىٰ يتَفَرَّقَ الخارجُون إلى الحياة الأُخرى أجْسَاداً، فَلاَ يتزَاحَمُوا عنْدَ الخروج.

تقولُ لغة: بَعْثَر فلانٌ الشَّيْءَ، إذَا قَلَبَهُ وفرّقه ونَثَرَهُ على غَيْرِ نظام.

وفي سُورَة (القارعة) شبَّه اللَّهُ عزّ وجلَّ النّاسَ مع هٰذِه الْبَعْثَرَة بأَنَّهُمْ يكُونُون كالْفَراشِ المبثُوثِ.

- ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾: أي: وكُشِفَ وَبُيِّنَ ومُيِّزَ وفُصِلَ مَا فِي الصُّدُور الّذي كانَ مضمراً فيها.

والشيْءُ الّذِي كان في الدُّنيا مُضمراً في الصُّدُور، هي النيَّاتُ والمقاصِدُ والغاياتُ من الأعمال المُسَجَّلةِ تَسْجيلاً كامِلاً، وكذلِكَ العقائِدُ المستقِرَّةُ فيهَا من إيمانٍ وَكُفرٍ، ونِفَاقٍ، ومَا تُضمِرُهُ الصُّدُور من حُبٍّ وكراهية وبُغْض، وحِقْدٍ وحَسَدٍ، ونحو ذلك.

فما في الصُّدُور هو مَنَاطُ الحسَابِ الأَكْبَر.

تَحْصِيلُ الشيْء لُغَةً يكُونُ بكَشْفِه وتَبْيِينه وتمييزه وفَصْلٍ بعضِه عن بعْضٍ، ويكُونُ بجَمْعِه.

وهذا المعْنَىٰ قد جاء بيانُه أيضاً في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) بقول اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾.

﴿تُبْلَى﴾: أي: تُكْشَفُ.

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: جمْعُ «السَّريرَة» وهي ما يُكْتَمُ وَيُسَرُّ في الصُّدور.

ويَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرائر هُوَ يوْمُ الدّين الذي يكون فيه الحسابُ وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الجزاء.

- ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾.

﴿بِهِمْ﴾: مُتعلِّقٌ بخَبِير، وقُدِّم علىٰ عامله لمراعاة رؤوس الآي في السّورة.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: أي: يومَ إذْ يُبعْثَرُ مَا في الْقُبُور، ويُحَصَّلُ مَا في الصُّدُور، والتنوينُ في «إذٍ» هو تَنْوينُ الْعِوَضِ عَنْ جُمْلَةٍ مُقَدَّرَةٍ ذِهْناً بعْدَ «إذْ».

﴿لَّخَبِيرُۢ﴾: أي: لَعَالِمٌ عَنْ خِبْرَةٍ، والخِبرَةُ هي الْعِلْمُ بالشيْءِ الناتج عن مُشَاهَدَةٍ أو مُمَارَسَةٍ، والخبيرُ هو العالم بظواهر المعلوم وبواطنِه، وكلِّ أجْزَائِهِ ودَقائِقِهِ.

وقد جاء تأكيد مَضْمُون هٰذِهِ الجملَة الخَبريَّة بالمؤكّدات التالية: «إنّ، والجملة الاسميّة، واللّام المزحْلَقَة».

وبيانُ كَوْنِ ربِّ المبعوثين ليوم الدّين خبيراً بهم يومئذٍ، هو كناية عن محاسبة اللّه لهم محاسبَةً دقيقةً عادلةً لاَ ظُلْمَ فيها وَلاَ فَوْتَ، لأنّ الخبير الحكيم القديرَ الْعَدْل لاَ بُدَّ أنْ يُحَاسِبَ المجرمين بمقتضىٰ صِفاته وأسمائه الحسنىٰ، وهذا يُسْتَدَلُّ علَيْه باللُّزوم الْعَقْلِيّ.

ومثل هذا التعبير هو من الكنايات البديعة الّتي تكْثُرُ نظائِرُها في القرآن المجيد، ومن أسَاليب التعبير غير المباشر عن المقصود.

* * *

(٥)

نظرة عامّة إلى السورة

اشتملت هذه السورة على درْسٍ واحدٍ ذي ثلاث مقاطع:

فالمقطع الأوّل اشتمل على قَسَمٍ من اللّه عزّ وجلّ بنعْمَة الخيل التي أنعم بها على نوع الإنسان، وأوْرَدَ من الْمُقْسَمِ به خَمْسَ لَقَطَاتٍ منْتَزَعَاتٍ من مشْهدِ عَدْو جماعَةٍ غازية من الخيول بأقصىٰ سُرْعَتها، وعلى ظهورها فرسانُها، حتّىٰ صارت سنابكها تُطْلِق شَرَرَ النار، حينما تضربُ ببعض حجارة في الأرض المنطلقة عليها، ولمّا اقتربت عند الصُّبح من منازل القوم المقصودين بالغزو أغارت عليهم مفاجئةً لهم إغارَةً عنيفةً أثارَتْ غبَارَ الأرض

فسَتَرَتِ الموقِعَ به، وأخرجَتِ القومَ منْ مَنازِلهم مَذْعُورِين قد أصابهم الذهول من هَوْل المفاجَأة، فتَوَسَّطَتْهُمْ، وصار الغزاةُ يسْطُونَ قتلاً وأسراً وسَلْباً.

هذا مَشْهَدٌ ممّا يَفْعَلُه النَّاسُ بعضُهم بِبَعْضٍ بغياً وطغياناً، وظُلْماً وعُدْواناً، في غزوات السَّلْب والنَّهْب والسَّطْو على أموالٍ لا حقّ لهم بها، عرَضَ المقطع الأوّل من السورة فيه لَوْحَةً رائعةً من لوحات حركات الخيل الهجوميّة، وعلى ظهورها فرْسَانُها الغزاة.

ولهذا المشْهد دَلالَتَان:

الدلالة الأُولَىٰ: أنّ الخيلَ بصِفاتها الممتازة الّتي تُقَدِّمُ مثْلَ هذه اللَّوْحَة الْهُجُومِيّة الرائعة، بتَسْخِيرِ اللّه إيّاها للإنسانِ، هي من نِعَم اللّهِ عليه الّتي يجب عليه أن يُقَابلها بالشُّكْر، فَيَسْتَعْمِلها في طاعة اللّه ومراضيه وما أذن له به، لا في معصيته بالبغي والطغيان، والظلْم والعدوان، فمِنْ وظائفِ الخيْلِ الجليلَةِ الَّتي هيّأها اللّهُ لها اسْتِعْمالُها في نَشْرِ دين اللّه، وإعلاءِ كلمة الله، وإقامَةِ الحقّ والْعَدْلِ بيْنَ النّاس.

الدلالة الثانية: أنّ الإنسان قد كان كنُوداً كفوراً، فاستخدم تسْخيرَ الخيْلِ له في معصية اللّه مُسَخِّرها، فَطَغَىٰ وبغَىٰ، وظلَمَ وَاعْتَدى على ظُهورِها، وتجبَّرَ وقَتَلَ وأَسَرَ فَغَلب، وسَطَا وسلَبَ ونَهَب.

أمّا الدلالةُ الأولى فتَسْتَحقُّ أن تكون هي المقْسَمَ به لأنَّها من آثار إنعام اللّه على عباده، وهُوَ من مظاهر صفاتِه في قضائه وقَدَره وحكمته وخَلْقه.

وأمّا الدلالَةُ الثّانيةُ فَتَسْتَحِقُّ أَنْ تكُونَ هيَ الْمُقْسَمَ عليه، لأنّ الواقِع البشَرِيَّ في ظاهرات سلُوكِ مُعْظَم النّاس المتكرّرَة، قَدْ أثْبتَ أنّ أكْثَر النّاس هُمْ من صنف الكَنُود الجَحُود الكفور بنعمة اللّهِ علَيْه.

ولَمْ يقتَصِرْ أمْرُ الإنسان (والمرادُ معظم أفراد هذا النوع) على استعماله لهذه الوسيلة الحربيّة، التي هي الخيل، في غزوات السَّلْب والنَّهْب، والظلم والعدوان، والاستعلاء في الأرض بالْبَغْي والطغيان، بل جعل ذلك قانوناً محموداً، وحقّاً للأقْوِياءِ على الضُّعفاء، وقاعدةً متعارفاً عليها من قواعد المجتمعات البشريَّة، وتقليداً مُتَّبعاً، وحُكْماً سائداً، لا يَعِيبُ فيه الناس بعضُهُمْ على بعض، فقَلَبَ الإنسان بهذا مفاهيم الحقّ والباطل، فهو يفْعَلُ ما يفْعَلُ من الجرائم متفاخراً، شاهداً على نَفْسِه بما يَفْعَل، مُفَرِّقاً بين جرائمِهِ الشّنيعَة وبين اللُّصُوصيَّةِ وأشباهها، إذْ يزعُمُ أنَّ الغزو للسَّلْبِ والسَّطْو والْقَتْلِ والْأَسْرِ حقُّ الأقْوَىٰ عَلَىٰ الأَضْعَف.

وهذا غايَةُ الكُنُود والجحود والكُفْران، والسَّبَبُ الباعِثُ حبُّهُ الشديد للمال.

وقد جاء الْمَقْطَعُ الثّاني من السُّورة بجُمَلِهِ الثلاث الموجزاتِ، مبيّناً بصريح الكلام وبلوازمه الفكريّة هذه القضايا عن واقع حال الإنْسَان، فقال اللّه عَزَّ وجَلَّ في الْمُقْسَم عليه في السورة:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

جُمَلٌ ثلاث، كلُّ جُمْلَةٍ منها آية، كأنَّها دُرَّاتٌ في عِقْد نَفِيسٍ، والروابِطُ بينها روابطُ أشِعَّةٍ وظلال، وروابِطُ مفهومات فكريّة، يستَخْرِجُها التَّدبُّر الواعي، والتأمُّل العميق.

ونُلاحِظُ هُنَا أنّ رَصْفَ هٰذِهِ الْجُمَل المنتَقَياتِ بحكْمةٍ عظيمةٍ، دون إبْرَازِ الروابط بينها بعبارات كلاميّة، أسْلُوبٌ مُخْتارٌ لإعطاء القرآنِ المجيد صِفَةَ الْعُمْقِ من وراءِ دلالَاتِ السَّطْح.

وهذه الجمل هي بمثابَةِ عنوانات مباحثَ يُحيطُ بها مَوْضُوعٌ واحدٌ شامل، وتفصيلُها يأتي في كُرَّاسَات.

وبالنظر في السُّوَرِ الّتي نزَلَتْ قبل سُورَةِ (العاديات) مع هذه السورة نُلاحظ أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ قَدْ وصَفَ الإنسان، والمرادُ معظم النَّوْع بما يلي:

(١) في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) وصَفَ اللّه الإنسان بقوله:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

(٢) وفي سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) وصف اللّه الإنسان بقوله:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا . . .﴾.

(٣) وفي سُورَة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) وصفَ اللّه الإنسان بقوله:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

(٤) وفي سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) وصف الله الإنسان بقوله:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

وفي هذه الأوصاف تكامُلٌ في التعريف بالإنسان المحتاج إلى دين يهديه إلى الحق والخير والفضيلة، ويبشِّرُه ويحذِّره ويُنْذِرُه.

وأمّا المقطع الثالث من السورة فيشتمل على تحْذِيرٍ ووعيدٍ للإنسان الطاغي الباغي الظالم، الذي يسْتَعْمِل نِعَمَ اللَّه عليه في مخالفة أوامره ونواهيه، وفي الظلم والعدوان، والبغي والطغيان، والفساد والإفساد في الأرض، لتحقيق أهوائه وشهواته ومطالبه من الحياة الدنيا بغير حقّ.

وجاءتْ آياتُ هذا القسم لقطاتٍ مُنْتَقيات من أحداث البعث ويَوْم الدّين، متضمّنَةً الإشارةَ إلى سائر الأحداث الّتي تَدُلُّ عليها اللّوازم الفكريّة، ويستخرجها المتدبِّر من العُمْقِ القرآني.

وبهذا انتهى تدبر سورة (العاديات) والحمد لله على فتحه ومعونته وتوفيقه

* * *

(٦)

ملحَق

حول بلاَغِيَاتِ في سورة «العادِيات»

من بَلاغيّات هذه السورة ما يلي:

الأولى:

التصوير الفنّيّ البديع في التقاط لَقَطاتٍ من مشْهَدِ غزوةٍ جاهليّة، قام بها غُزاةٌ على ظهور خيولهم، وقد جَعَلُوا خُيولهم تَعْدُو بأقصىٰ ما لدَيْها من عَدْوِ طويلِ الخطوات سريع، حتَّىٰ أغارُوا صُبْحاً على قوم آمِنِين، مُبَاغتين لهُمْ، فتوسَّطُوا جمْعَهُمْ، وجعَلُوا يقْتُلُونَ وَيأسِرُون ويسْلُبُون، والغايَةُ من غزوهم السَّطْوُ الظالِمُ للسَّلْبِ والاستيلاء على ما ليْسَ لهم به حقّ.

وقَدْ قُدِّمَتْ هٰذِهِ اللَّقَطَاتُ بأسْلُوبِ حدَثٍ يَجْري مرافقاً لتوجيه العبارة البيانيّة، كتَصْويرٍ بآلات تصوير لاقطات للصُّور، يُلاحِقُ حرَكاتِ حدَثٍ قائم، مع الابتعاد عن حكايةِ أمْرٍ مضىٰ، وهذا من أبْدَع البيان الكلاميّ الذي هو من مبتكرات القرآن، قبل اكتشاف أدوات التصوير الّتي تُثْبِت الصُّوَرَ على أشرطة تَسْجِيل لاقطة.

وهذه اللّقطاتُ الّتي جاءت في البيان القرآنيّ غيْرُ شاملاتٍ لكلّ أحداث الغزوة الجاهليّة المباغتة، إذْ فيها فراغاتٌ تملَؤُها تصوُّراتُ المتلقّي

الأديب، الّذي يُحْسِنُ ملْءَ الفراغات بيْنَ اللّقَطَات التصويريّة غَيْر الشاملات لكلّ عناصر المشهد العامّ.

الثانية:

مراعاة المطابقة بين الصورة التعبيريّة، وبين واقع الأحداث.

- فالأحداث الّتي تجري وتنقضي لحظة فلحظة جاء التعبير عنها باسم الفاعل المشابه في دلالته للفعل المضارع الذي يفيد التجدُّد، وهذا نلاحظه في: «والعاديات ـ فالموريات ـ فالمغيرات».

- والأحداثُ الّتي تجري وتبقىٰ لها آثارٌ في المشهد، كالغبار الذي يُثِيرُه الْعَدْو وَتَبْقَىٰ آثاره في الجوّ مُدَّةً بَعْدَ إثارته، قد جاءَ التعبيرُ عنها بالْفِعْلِ الماضي، في: «فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ـ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً».

الثالثة:

العطف بالفاء في: «فالموريات ـ فالمغيرات ـ فأَثَرْنَ ـ فَوَسَطْنَ» للدَّلالة على الحركات المتتابعات الّتي يَعْقُبُ بَعْضُهَا بعضاً دُونَ فواصلَ زمنيّة.

الرابعة:

تناسُقُ وتعادُلُ آيات كلّ مَقْطَعٍ من مقاطع السورة الثلاثة، حتَّىٰ كأنَّها جدَاوِلُ تَجْرِي على مُدَرَّجَاتِ متناظِرَات الدرجات.

الخامسة:

السَّجْعُ المحَبَّبُ غَيْرُ المتكلِّفِ، والذي تَسْتَسِيغُهُ النَّفْسُ، فتَثْبُتُ الفِقَراتُ الّتي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ في الذاكرة.

السادسة:

تأكيدُ كون الإنسانِ كَنُوداً، وشهيداً على كُنُودِهِ، وتأكيد كونه شديد الحبّ للمال، بالْقَسَم في أوّل السورة، وبحرْف التوكيد «إنّ» وبالجملة

الاسميَّة، وبلام الابتداء المزحلقة إلى الخبر، في الآيات: «٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ١١» لأنّ المتلقين ينكرون هذه الحقائق.

السابعة:

الاستفهام المستعمل في التقرير مع التلويم والتوبيخ في الآية (٩) وهذا من خروج الاستفهام عن أصل دلالته إلى معاني أُخرىٰ، لدواعي بلاغيّة.

* * *

سُورَةُ الكوثر

١٠٨ مصحف ١٥ نزول

(١)

نص السورة

سورة الكوثر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ
وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾

---

٣ - قرأ أبو جعفر [إِنَّ شَانِيَكَ] في الوقف والوصل. وحمزة في الوقف فقط وقرأ الباقون: [إِنَّ شَانِئَكَ] بتحقيق الهمزة.

* * *

(٢)

مما رُوي بشأن هذه السورة وسبب نزولها

(١) روى البخاريّ في صحيحه من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة عن أنس بن مالكٍ قال: لمّا عَرَجَ النبيُّ ﷺ إلى السماء قال:

«أَتَيْتُ عَلَىٰ نَهْرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ، فَقُلْتُ: مَا هَٰذَا يَا جِبْرِيلُ؟.

قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ».

(٢) وجاء في رواية عند البخاري ومسلم عن شَرِيك بن عبد الله أنّه قال: سمعت أنس بْنَ مالِكٍ يقول (ضِمْنَ حديث الإسراء والمعراج):

«ثم مَضَىٰ بِهِ (أي: مضىٰ جبريل عليه السلام بالنبيّ ﷺ) فِي السَّمَاءِ فَإذَا هو بِنَهْرٍ آخَرَ، عليه قَصْرٌ من لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَد، فَضَرَبَ يَدَهُ، فَإذَا هُوَ مِسْكٌ أَذْفَرُ(١)، قال: ما هذا يَا جِبْرِيلُ، قال:

هَذَا هُوَ الكَوْثَرُ الَّذِي خَبَّأَ لَكَ رَبُّكَ».

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال: أغفىٰ رسول اللّهِ ﷺ إغفاءةً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُبْتَسِماً، إمَّا قَالَ لَهُمْ، وإمَّا قالُواله: لِمَ ضَحِكْتَ، فقال رسولُ الله ﷺ:

«إنَّهُ أُنزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ» فَقَرَأَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» حتَّىٰ خَتَمَهَا، فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟».

قالوا: اللَّهُ ورسولُه أعلم. قال:

«هُوَ نَهْرٌ أعْطَانِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الجنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ الكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ(٢)، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ إنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: إنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

(٤) وذكر ابن كثير في تفسيره، أنّ الرّوايات الّتي تضمَّنَتْ أَنَّ الكَوْثَر نَهرٌ في الجنَّةِ أعطاه اللّه رسولَهُ محمّداً ﷺ، قد جاءت من طُرُقٍ كثيرة مُتَوَاتِرَةٍ تُفِيدُ القطع عند كثير من المحدّثين، وكذلك أحاديث الحوض.

---

(١) **مِسْكٌ أَذْفَرُ**: أي: طيّب الرائحة بالغ بطيبه حدّ الغاية.

(٢) **يُخْتَلَجُ العَبْدُ مِنهُمْ**: أي: يُنْتَزَعُ ويُبْعَدُ عَنه فلا يُسْمَحُ لَهُ بأنْ يَرِد مع الواردين، أو هو يَخْتَلِجُ: أي: يَنْكَمِشُ ويَبْتَعِدُ لأنه ليس من أهل الورود.

وقال: وَقَدْ وَرَدَ في صِفَةِ الحوْضِ يوم القيامة، أنَّهُ يَشْخُبُ فيه ميزَابَانِ من السَّماء من نَهْرِ الْكَوْثَر، وأنَّ آنيَتَهُ عدد نجوم السماء.

(٥) ورُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ فقَالَ رسُولُ اللّه ﷺ.

«الكَوْثَرُ نَهرٌ فِي الجنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، يَجْرِي عَلَىٰ الدُّرِّ والْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، ومَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ».

(٦) وأخرج الْبَزَّار وابْنُ جَرِيرٍ وابْنُ أَبي حَاتمٍ وابْنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابن عبّاس قال: قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الأَشْرَفِ مَكَّةَ (وهو من عظماء اليهود) فقالت له قريش: أَنْتَ خَيْرُ أهل المدينة وسيِّدُهم، ألاَ تَرَىٰ إلَىٰ هٰذَا الصَّابئِ المُنْتَبر من قومِه يَزْعُمُ أَنَّه خَيْرٌ مِنَّا، ونَحْنُ أهلُ الحجيج وأَهْلُ السِّقَاية وأهْلُ السِّدَانة، قال: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فنزَلَت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾..

(٧) وأخرج الطبراني وابْنُ مَرْدَوَيْه عن أبي أَيُّوب قال: لمَّا مات إبراهيم ابن رسول الله، مَشَىٰ المشركون بعضُهُمْ إلى بعْضٍ فقالوا: إنَّ هذا الصابئ قَدْ بُتِرَ اللّيلَةَ، فأنزَل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

(٨) وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبيّ عن أبي صالح عن ابْنِ عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم ثم زينب، ثُمَّ عبد الله، ثمّ أم كلثوم، ثمّ فاطمة، ثمّ رُقيَّة، فمات القاسم، وهو أوَّلُ ميّتٍ من أهله وولده بمكة، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهميّ قد انقطع نَسْلُه فهو أَبْتَرُ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

(٩) ورُوِيَ عَنْ شَمّرِ بْنِ عَطِيَّةَ، أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ أبي مُعَيْطٍ كان يقول: إِنَّهُ لاَ يَبْقَىٰ لمحمَّدٍ وَلَدٌ ذَكَرٌ، وهُو أبْتَرُ.

* * *

(٣)
موضوع السورة

ظاهرٌ أنّ موضوع سورة (الكوثر) هو الامتنان من اللّه عزّ وجلّ على رسوله بما أعطاه من خَيْرٍ كثير جدّاً، وتَكْليفُه أن يعبُد ربّه وحْدَه لا شريك لَهُ في صلاتِه ونُسُكه، والدفاعُ عنه ضدّ بعض مقالات شانئيه فيه، ضِمْن سلسلة قذائفهم الإعلاميّة.

يرى مشركو مكة وغيْرُهم من العرب أنّ الرجُلَ الذي لا يَبْقَىٰ لَهُ من صُلْبِهِ وَلَدٌ ذكرٌ هو أَبْتَرُ، أي: هو مقطوع الأَثَر من الخيْر.

وقد أطْلَقَ بعضُ المشركين ومنهم أبو جَهْلٍ والعاص بن وائل السَّهْميّ على الرسُول ﷺ أنّه أبتر لمّا مات ولده القاسم، ثُمّ ولدُهُ عبد الله، وكانَ لهذه القذيفة الإعلاميَّةِ أثَرٌ غَيْرُ حَسَنٍ في نفس الرسول ﷺ، فنزلت سورة (الكوثر) تُبَيِّنُ له ولمطْلِقي المقالة المشعرة بعَدَم عناية اللّه به، أنّ اللّه عزّ وجلّ مُعْتَنٍ به عِنَايةً عظيمةً جِدّاً، وأَنّه قَدْ تَفَضّل عليه بخير كثيرٍ جدّاً أعظم من إبقاء ولَدٍ ذكر له يبلغ مبلغ الرجال، وهذا يتضمَّن أنّ الحكمة الرَّبّانيّة اقتضَتْ أن يجعله الله مُنجِباً للذكور، واقتضت أن لا يبقي له ولداً ذكراً يظلُّ حيّاً حتَّىٰ يبلغ مَبْلَغ الرجال.

ومن هذا الخير الكثير الذي أعطاه الله لرسوله نَهَرٌ في الجنَّةِ حافَّتَاهُ من ذهب، وعلى جانبيه قبابُ اللُّؤلؤ المجوّف كما جاء في بعض الروايات، وهو يجري على الدرّ والياقوت والمرجان واللُّؤلؤ، وتُرْبَتُه أطْيَبُ من ريح المسْكِ الأذفر، وماؤه أشدّ بياضاً من اللَّبَن، وأحلَىٰ من الْعَسَل، وهذا النَّهر يُمِدُّ الحوضَ الذي خصَّ اللّه به رسوله في موقف الحشر، ومن شرب من هذا الحوض فإنّه لا يظمأُ بعد ذلك أبداً.

ومن هذا الخيْرِ الكثير النُّبوّة العظيمة، والرسالة الخاتمة، والقرآن

المجيد، ورفع ذكره، وما خصّه اللّه به من شفاعة في موقف الحساب، وما خصّه به من الإسراء والمعراج، وطائفة من المعجزات الباهرات، وإنّ أمّتَهُ أكثر الأمم وخَيْرُها، إذْ هي الأمّة المصطفاة التي أورثها اللّه الكتاب، وجعلها أمّةً وسطاً عدولاً يشْهَدُونَ على النَّاسِ يوْمَ الدين بأنّهم بلّغوا رسالة ربّهِم خاتمة رسالاته للناس أجمعين، فقال اللّهُ له: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾.

ولمّا كان المشركون يتقرّبون إلى شركائهم في دعائهم وصلواتهم إذا صَلَّوا، ويتقرّبون إلى أوثانهم فيما يذبحون أو ينحرون من أنعام، كان من الحكمة أن يأمُرَ اللّهُ رَسُولَه بأنْ يتقرَّب إلى اللّه ربّه وحْدَهُ في صلاته التي تشتمل على الدعاء، وفي نُسُكه الذي يُعْتَبَرُ نَحْرُ الْإِبِل أفضل صُوَرِهِ عند العرب، تحقيقاً لعبوديّته لرَبّه، وقياماً ببَعْضِ ما يجب عليه من شكْرٍ له، فقال اللّهُ له: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ أيْ: وانْحرْ نُسُكَكَ من الإبلِ لربِّكَ.

وجاء في السورة الرّدّ على مَنْ أطْلَقَ عبارة أنّ محمّداً ﷺ أبْتَرُ، بأَنّ شانئه (أي: مُبْغِضَه) هو الأبْتَرُ، أي: الأقْطَعُ من كُلِّ خَيْرٍ، لأنّه صائِرٌ إلى عذابٍ شديدٍ في نَارِ جهنّم، وبذلك يكون هو الخاسر، لِخَسَارَتِهِ سعادته، وتحَمُّلِه شقاءً أبدِيّاً، فقال اللّه عزّ وجلّ له: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾.

* * *

(٤)

سلسلة القذائف الإعلاميّة الموجّهة ضد الرسول من بدْء التنزيل حتى نزول سورة (الكوثر)

لدى متابعة القذائف الإعلاميّة، التي وجّهها المشركون ضدّ الرسول محمّد ﷺ، منذ بدْءِ التنزيل حتّى نزول سورة (الكوثر) يظهر لنا ما يلي:

(١) اتّهَمَ بعض المشركين الرسول بالكذب في ادّعائه النبوة والرسالة، وزعموا أنّ القرآن الذي ينزل عليه سحرٌ يُؤْثَرُ، وكان الوليد بن المغيرة

حامل لواء هذه المقولة، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلّ بشأنه في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) قوله:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)﴾.

(٢) ثمّ اتّهم بعض كبراء مشركي مكة الرسول ﷺ بالجنون، فأنزل اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) ما يدحَضُ هذا الاتّهام، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)﴾.

وخاطبهُ معرّفاً بأن المجنون هو في فريق متّهميه بالجنون فقال تعالى:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ (٦)﴾.

دون تعيين ذلك المجنون فيهم لحكمةٍ تربويّة.

(٣) ثُمَّ وَاجَهَهُ عَمُّه «أبو لهب» وامرأتُه «أمُّ جميل» بالشتيمة والنميمة والأذىٰ، فأنزل اللّه عزّ وجلّ عليه سورة (المسَدِ/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) فقال تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ (٤) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ (٥)﴾.

(٤) ثُمَّ أَصرَّ بعضُ المشركين على شتيمتِهِمْ للرسول ﷺ بالجنون، فأنزل الله عزّ وجلّ قولَهُ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) مواجهاً لهم بالخطاب:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾.

(٥) ثم أشاع بعض المشركين أَنَّ ربَّه قد هجره وقَلَاهُ، بسبب انقطاع الوحي عنه أيَّاماً معدودات، فأنزل اللّه عزّ وجلّ عليه قوله في سورة (الضحىٰ/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول):

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

فواسَىٰ اللّه رسوله، وأرضَىٰ نَفْسَهُ وقَلْبَهُ، وأغاظَ بالتَّعْرِيضِ أَعْدَاءه.

(٦) ثُمّ استَغَلَّ بعضُ المشركينَ موْتَ ولديه الذكرين القاسِمَ وعَبْدَ اللّه، فأطْلَقُوا أَنَّهُ أَبْتَرُ، أي: مقطوع من الأولاد الذكور من صُلْبه، فهو بسبب ذلك مقطوعٌ من الْخَيْر، فأنزل اللّهُ عزّ وجل عليه سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول):

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾﴾.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي لآيات سورة (الكوثر)

قولُ اللّه عزّ وجلَّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

- ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾: جاء في هذه الجملة استعمال ضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بأنّ ما أعطاه الله لرسوله عظيم يناسب عظمة المتكلّم العظيم جلّ جلاله.

أعطيناك: أي: وَهَبْنَاكَ وَجعَلْنَا لَكَ. يُقَالُ لُغَةً: أَعْطَىٰ فُلَانٌ فُلاناً الشَّيْءَ، أي: ناوَلَهُ إيَّاهُ فتناوله. وهذا الإعْطَاءُ قَدْ يكونُ على سبيلِ الهِبَةِ والمِنَّةِ، تمليكاً

أو تمكيناً من الانتفاع، وقد يكونُ في المادّيات، وقد يكون في المعنويّات، وعطاء اللّه لعباده من الخير هو دائماً هبَةٌ وامْتِنَان، وجودٌ وإحسان.

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾: على وزن «فَوْعَل» من الكثرة، والواو زائدة، لإفادة التكثير والمبالغة، ومعنى «الكوثر» في اللّغة الخيْر الكثير، والكثير جدّاً من كلّ شيءٍ، يقال لغة: **تَكَوْثَرَ الْغُبَارُ**، أي: كَثُرَ كَثْرَةً زائدة. ويقال: **رجُلٌ كَوْثَرٌ**، أي: كثير العطاء والخير. **والكَوْثَرُ**: السّيّد الكثير الخيْر.

وصَحَّ في السُّنَة كما سبق بيانه في المقدّمات تَفْسِيرُ الكوثر في هذه الآية بالنَّهرِ الّذي أعطاه اللّهُ رَسُولَهُ في الجنَّة، وهو الذي يُمِدُّ حوضَه الذي تَشْرَبُ مِنْهُ أُمَّتُهُ في موقف الحشر، كما سبَقَ بيانه.

ويدخل في عموم الكوثر مع نَهْرِ الكوثر الذي أعطاه الله رسوله في الجنة، كلُّ خير كثير أعطاه اللّه إيَّاه، كالنبّوة العظيمة، والرسالة الخاتمة، والقرآن المجيد، ورفع ذكْرِه، وما خصّه به من خصائص سبق بيان بعضها في المقدّمات، وهذا ما ذهب إليه ابْنُ عبَّاسٍ في بعض ما رُوي عنه، وهو لا يتعارض مع ما جاء في البيان النبويّ، لأنّ البيانات النبويَّةَ في التفسير قد تذكر بعض أفراد اللّفظ العامّ، ولا يُرادُ بها الْحَصْر، فيبقَىٰ اللّفْظ العامّ شاملاً لعُمُوم الأفراد الّتي يَنْطَبِقُ عليها، ومنها وبالدرجة الأولى ما جاء في بيان الرسول.

واختلفت أقوال المفسرين في المراد بالكَوْثر، فذكر بعضهم حوض النبيّ ﷺ في الموقف، وذكر بعضهم النبوّة، وذكر بعضهم القرآن، وذكر بعضهم غير ذلك، لكنّ هذه الأقوال تندرج تَحْتَ عُمومِ كلّ خَيْرٍ كثير أعطاه اللّه رسوله محمّداً ﷺ.

وقد جاء في الآية تأكيد الخبر بمؤكدين: حرف التأكيد (إنّ) والجملة الاسميّة لدفع مقولة مُبْغضي الرسول ﷺ، ولتسلية الرسول.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾:

«الفاء» في ﴿فَصَلِّ﴾ سببيَّةٌ غير عاطفة كما ذكر ابن هشام في كتابه: «مغني اللّبيب»(١).

فصَلِّ: الصلاةُ هي العبادة المخصوصة التي فيها قيام وركوع وسجود ودعاءٌ وذكر. قال ابن الأثير: وأصلها الدُّعاء في اللغة، فسمِّيَتْ ببعض أجزائها.

وقال ابن الأعرابي: الصلاة من اللّه رحمة، ومن المخلوقين الملائكة والإنسِ والجنّ القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح، والصلاة من الطير التسبيح.

وجاء في كتب اللّغة: أنّ الصلاة الدعاء والاستغفار، والعبادة المخصوصة التي فيها قيام وركوع وسجود وتلاوات وذكر ودعاء.

وكلُّ صلاةٍ لغير اللّهِ عزَّ وجَلّ هي من الشِّرْكِ الذي لا يغفر اللّه عزّ وجلّ لمن مات عليه دون توبة، بإيمان صادقٍ صحيح.

ولهذا أمر اللّه رسولَهُ محمّداً الذي هو أول المؤمنين المسلمين من الأمَّةِ الخاتمة، بأنْ يُصَلِّيَ لرَبِّهِ لا يُشْرِكُ به أحداً، في العبادة المخصوصة، أو في الدعاء، أو في الذكر، أو في الاستغفار، أو في التسبيح.

وأَمَرَهُ بأَنْ يكونَ نُسُكُهُ بذبح ذبائح الهدي، أو الأضاحي، أو النذور وسائر ما يُتقرّبُ به من الأنعام عن طريق الذبح أو النَّحْرِ، للّه وحده لا شريك له.

---

(١) قال: وتأتي الفاء للسببيّة المحضة دون أن تكون عاطفة مثل: [إنّا أعطيناك الكوثر فصَلّ لِرَبّك وانحر] ونحو «ائتني فإنّي أكرمك». قال: إذ لا يُعْطَفُ الإنشاء على الخبر ولا العكس، ولا يَحْسُنُ إسقاطها ليَسْهُل دعوى زيادتها.

النَّحْرُ: طريقَةُ الذَّبح الخاصّةُ بالإبل، ولمّا كانت الإبل أكرم الأموال عند العرب، وكان تقديمُهَا للّه عزَّ وجلّ أفْضَلَ صُوَرِ النُسُكِ، كَانَ الأمْرُ بالنَّحر أمْراً بأفْضَلِ صُور النُسُكِ الَّتي تُقَدَّم قَرَابِينَ، ويُلْحَقُ بالنحرِ ذبْحُ سَائِرِ الأَنْعَام من بقَرٍ وغنم، أي: فَصَلِّ لِرَبِّك وانْحَرْ واذْبح لرَبّك.

مع ما في لفظ «وانْحَرْ» من تطابُقِ رُؤوس الآيات بحرْفِ الراء، مع الاتفاق في الوزن، فيما يُسمَّى بالسَّجْعِ المتوازي، عند علماء البديع، وهو في السورة سجْعٌ غيْرُ متكلّف.

وقد كان المشركون يُصَلُّون بالدُّعاء والتعظيم، ويتقربُون بالقرابين لشركائهم الّتي يتخذون لها أمثلة من الأوثان، فناسَبَ ذلِكَ الْبَدْءُ بتغيير هذه العادة الشركيّة في تعليمات اللّه لرسوله ولسائر المؤمنين بأن تكون صلاتُهُمْ وأنساكهم للّه ربِّهِمْ.

واختير الاسم الظاهر بدل الضمير وهو لفظ «ربّ» في ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ للإشعار بأنّ من له صفَةُ الرُّبُوبيَّة الّتي لا يُشاركه فيها أحد هو المستحقّ وحده بأنْ تكون له الصلاة والنُسك، فأغْنَىٰ هذا المعنىٰ عن استعمال صيغة من صيغ الحصر، للدلالة على وجوب إفراد اللّه عزّ وجَلّ بالصلاة والنُسُك.

كما جاء في قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

النُسُك: يُطْلَقُ في اللّغة على الذبيحة الّتي يُتَقَرَّبُ بها إلى المعْبُود. ويُطْلَق على كلّ تَزَهُّدٍ وَتَعَبُّد.

وأنا أول المسْلمين: أي: وأنا أوّل المستسلمين لأوامر الله، المطيعين الممتثلين.

قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾:

﴿شَانِئَكَ﴾: أي: مُبْغِضَكَ، يُقَالُ لُغَةً: شَنَأَهُ يَشْنَؤُهُ شنئاً، أي: أبْغَضَهُ وتَجَنَّبَهُ، فَهُو شانِئٌ لَهُ. ويُقَالُ: تَشانَؤُوا، إذا تَباغضوا.

الأَبْتَرُ: هو الأقْطَعُ مِنْ كلّ خير. وكلُّ أمْرٍ انقطع أَثَرُهُ من الخير فهو أبتَر. والأَبْتَرُ الّذِي لا عَقِبَ له، والْمُعْدِمُ، والخاسر، والذي ليس له ولَدٌ ذَكَرٌ يَبْلُغَ مَبْلَغَ الرِّجال يكون مُعِيناً له وقوة وسنداً.

وقد جاءت هذه الآيَةُ تسليَةً للرَّسُولِ محمّد ﷺ، ودفاعاً عنه، وردّاً لمقالة من قال من المشركين: مُحَمَّدٌ أَبْتَرُ لا يعيشُ له ولد ذكر، بعد أن مات ولداه القاسم وعبد الله، كما سبق بيانه في المقدمات.

وجاء في الآية استخدام لفظ (الأبتر) بمعنى المقطوع من كلِّ خير، لا بمعنى الذي ليس له ولَدٌ ذكر يبلُغُ مَبلغَ الرّجال ويكون مُعيناً له وقوةً وسَنداً، وهو دفاعٌ أشدُّ وأقوى من الهجوم، مع استخدام اللفظ نفسه الذي أطلقه مبغضو الرسول ﷺ.

وقد جاء في هذه الآية تأكيد الخبر الذي تضمَّنَتْه بمؤكدات ثلاثة: حرف التأكيد «إنّ» والجملة الاسميّة وضمير الفصل.

وفي الآية قَصْرُ قلْبٍ، أي: ليس محمَّدٌ أَبْتَرَ إذْ لَمْ يُبْقِ اللَّه له ولداً ذكراً يَبْلُغ مَبْلَغَ الرجال، فاللّه قد أَيَّدَهُ بنصره وبالمؤمنين، ولحكمةٍ عظيمة أَمَاتَ أولادَه قبل أن يبلغوا أن يكونوا رجالاً، ولكنَّ مُبْغِضَهُ هو الأَبْتَرُ المقطوعُ الأثر من كلِّ خير، والخالد في الشقاء الأبديّ بسبب كفره..

أي: فليس الأبتر في الحقيقة من لا عقب له، ولا من ليس له ولَدٌ يبقَىٰ حتَّىٰ يكون رجلاً يشدُّ أزر أبيه، إنّما الأبتر هو من لا عقب له من الخير عند الله عزّ وجل في آخرته يوم الدين.

فمبغض الرسول ﷺ هو في الحقيقة أبتر، وقد جاء هذا البيان الرّباني بصيغة قَضِيَّة عامّة، يدخل في عمومها الذين شنَّعُوا على الرسول ﷺ بأنّه أبتر. ونفهم من هذا أنّ من يُبْغِض الرسول محمّداً ﷺ في كلِّ عصر وفي كلّ مصر هو أبتر عند الله عزّ وجلّ، منقطع الخير، ذو عاقبة وخيمة.

فمن نزَعَتْ نفسه إلى أَنْ يكون من مبغضي رسول الله ﷺ، فليترَقَّبْ أن يَجْعَلَهُ اللّهُ أبتر منقطع الخير، والعياذ باللّه عزّ وجل.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ من البديع محسِّن استخدام لفظ «الأبتر» بمعنىً غير المعنى الذي أطلقه بعض المشركين، وطريقه هنا القصر، الذي تضمن إبطال قول المشركين، وردّ اللفظ بمعنى آخر أشْنَع من المعنى الذي قصدوه، وهذا أحد طُرق الاستخدام، كما ذكره بعض المحققين من البلاغيين.

* * *

سورة التكاثر

١٠٢ مصحف ١٦ نزول

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات

سورة التكاثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ
﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ
ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ
لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ
يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

---

٦ ـ قرأ ابن عامر والكسائي [لَتُرَوُنَّ] بضم التاء.
وقرأ باقي القراء العشرة: [لَتَرَوُنَّ] بفتح التاء.
والقراءتان متكاملتان في المعنى، إذْ هُمْ يُرَوْنَها، فيَرَوْنَها.

* * *

(٢)

مما رُوي بشأن هذه السورة

(١) روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عبد الله بن الشخّير عن أبيه، قال: انْتَهيْتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إلاَّ ما أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ؟». [ورواه مسلم، والترمذيّ، والنَّسائي].

(٣)

موضوع السورة ودروسها

يدور موضوع هذه السورة حول بيان العلّة النفسيّة، الّتي جعلت الكافرين يستَبْعِدون عن أجهزة التّفكرِ فيهم التّفكُّرَ بيَوْم الدِّين، وما فيه من عقابٍ ملازمٍ في الجحيم للكافرين المجرمين، وما فيه من نَعِيم مقيم في جنّاتِ النّعيم للمؤمنين المتّقين.

إنّها علّة التّلَهّي بالتكاثر من الأموال ومن لذّاتِ الحَياة الدنيا وزينَتِها ومتاعِهَا الفاني، والكَدْحِ لامتلاكِ أكثَرِ وأعْظَم مقدارٍ من الأموال، والقصور، والمراكب، والحرث والجنّات والبساتين، والاستحواذِ على أكثر وأعظم مقْدارٍ من الْجُنْدِ والأنصار والأعوان والخدَمِ ووسائل الرفاهية والقوّة.

وكلُّ كادحٍ مِنهم يُلْهِيهِ عن الآخرة تكاثُرٌ علَىٰ قَدْرِه، ويتنافس الكافرون فيما بيْنَهُمْ في هٰذا التكاثر، ويظلُّ الواحد منهم كذلك كادحاً لاهِثاً حتَّىٰ تَأْتِيَهُ مَنِيَّتُهُ، ويسْتَقْبِلَ حِسَابَه وفصْلَ القضاء بشأنه، ويُلاَقِيَ جزاءَه يوْمَ الدّين.

وعند مَوْته يعْلَم مَصِيرَه في الجحيم عِلْمَ اليقين، إذْ ينكشف له منزله فيها، ثُمّ يَراه رؤيا الْعَيْن حينَ يُحْشَر إلى جهة النار في موقف الحشر، ثمّ يَرَاه رؤيا الإحساس بالعذاب في الجحيم حينَ يُلْقَىٰ فيها، إذْ يكونُ إدراكه لها عيْنَ اليقين وحقَّ اليقين. ثُمّ يُسْأَلُ وهو في الجحيم عن النعيم في الجنّة

الذي كان يُنكِرُه ولاَ يَعْبأُ به في الدنيا، فيُقَالُ لَهُ: أليس نعيمُ الآخرة في الجنَّةِ حقًّا؟ فيقول: بلى.

وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أنّ أصْحَاب النار يُنادُون أصْحَابَ الجنَّةِ أنْ أفيضوا علينا من الماء أو مِمّا رزقكم الله، وأنّ أصْحَابَ الجنّة يقولُون لهم: إنَّ اللَّهَ حرَّمَهُمَا علَىٰ الكافرين الّذين اتَّخَذُوا دينَهُمْ لَهْواً ولِعباً، وغَرَّتْهُمْ الحيَاةُ الدُّنيا.

ويُلاحَظُ من عُمُوم ما جاء في السورة، مع النظر إلى بعض التوجيهات النبويّة أنّ صفة التَّلَهِي بالتكاثر من متاع الحياة الدنيا، تؤثّر في مداها الأقْصَىٰ علَىٰ سُلُوك الإنسان حتَّىٰ تُفْضِيَ به إلَىٰ الكُفر، وتُؤَثِّرُ أيضاً على سلوك المؤمن تأثيراً قد يَصِل به إلى ارتكاب المعاصي والموبقات هبوطاً في دركاتها إلى ما قَبْلَ دَرَكَة الكفر.

فالتَّلْويمُ على صفة التَّلَهِي بالتَّكاثر، والتَّحذِيرُ منها يتناول في السورة الكافرين أوّلاً، لأنّهم هم المخاطبون بما جاء فيها، ثم يتناول أَيْضاً بإيحَاءَاتِ ظلالِ السُّورة المؤمنينَ الذين قَدْ يقَعُ منهم وهم في دائرة الإيمان والإسلام، نَظِيرُ ما يَقَعُ من الكافرين وهم في حضيض أودية الكفر.

فقد نجد مؤمنين مسلمين كثيرين يُلْهِيهُم التَّكاثُرُ من متاع الحياة الدنيا، فَيُنْسِيهم كثيراً من واجباتهم تجاه ربّهم، ويجعلهم يقعون في الغَفَلات، ويَرْتكبون المعاصِيَ والآثام حتّى دركاتِ الكبائر، لكنّهم قد لا يَصِلُونَ إلى حضيض الكفر، ومن وصَلَ منهم إلى الكفر صار من زُمْرَة الّذِين يتناولهم ما جاء في السُّورة تناوُلاً أوّليًا.

ونَظِيرُ صِفَةِ الالْتِهَاءِ بالتّكاثر من متاع الحياة الدنيا، سائِرُ الصِّفَات النفسيّة والسُّلُوكيَّة الّتي كانت السَّبب في إسقاط الكافرين في مهاوي الكفر، فقد تُسْقِطُ هذه الصِّفَاتُ نفسُها المؤمنين المسلمين في مهاوي المعاصي والآثام حتَّىٰ الكبائر من دون دَرَكَةِ الكفر.

فليحذر المؤمنون من التلَهِّي بالتكاثر من متاع الحياة الدنيا وزينتها.

وهذه السورة تشتمل على درسين:

الدرس الأول: قولُ الله عزّ وجلّ فيها: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

الدرس الثاني: قول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

* * *

(٤)

التدبُّر التحليلي لآيات الدرس الأول من سورة التكاثر

الآيتان (١ ـ ٢)

قول الله عزّ وجلّ خطاباً للكافرين في منطوق النصّ، وتتناول ظلالٌ منه بعض المؤمنين:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾:

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: الخطابُ في منطوق اللّفظ مُوجَّهٌ للكافرين، لأنهم هم الذين يَرَوْن الجحيم يوْمَ الدّين رُؤْيَا عَيْنِ اليقين، إذْ يكونون مَعذَّبين بنارها، وهم الّذين يُسْأَلُونَ بَعْدَ ذَلِكَ عن النّعيم الذي حُرِمُوا منه بسبب كفرهم، إلاّ أنّه يتناول بظلاله بعض المؤمنين، وهم الذين يُلْهيهم التكاثر.

أَلْهَاكم: أي: شَغَلكم وصَرفَكم عن التفكُّر فيما هو سَبَبُ سعادتكم، فكفَرْتُم بيَوْمِ الدّين، الّذي جاءكم به الخبرُ عن ربّ العالمين، على لسان الرسول الأمين.

يقال لغة: أَلْهَاه، أي: شَغَلَهُ. ويُقال: لَهَا يَلْهُو لَهْواً، والْتَهَىٰ يَلْتَهِي الْتِهَاءً. وتَلَهَّىٰ يَتَلَهَّىٰ تَلَهِّياً، أي: تَشَاغل.

واللَّهْوُ: الاشتغالُ بأمْرِ غَيْرِ ذي شأن والانصرافُ به عمَّا يَجِبُ توجيه الْجَهْد والْعَمَلِ له، كالاشتغال بما لا حاجة له من زينة الحياة الدنيا عن العمل للآخرة.

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: تفاعُلٌ من الكثرة، ولهذه الصيغة معاني تُقْصَدُ بها، ومعناها هنا حُصُولُ الكثرة فالكثرة بتَتَابُع متدرّجٍ دون توقُّفٍ عند حدّ.

والتكاثر المحَبَّبُ للناس والمزيّن لهم هو التكاثر في الأموال والأولاد، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) يعظ المؤمنين:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

فالتكاثُرُ في الأموال على اختلاف أنواعها وأصنافها، والتّكاثُرُ في الأولاد ويُلْحَقُ بهم الأعوان والأنصار لتحقيق العِزَّة والمجدِ من أعظم الملْهِيَات عن الاشتغال للآخرة والسعادة الأبدية فيها، وقرينة الحديث عن الآخرة في السورة دلَّتْ على أنّ التكاثُر من أمور دُنيَاهم الفانية قد ألهاهم عن أمور آخرتهم الباقية الخالدة.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ **حَتَّىٰ**: هُنا حرفُ عطفٍ يدُلُّ على انتهاء الغاية، أي: استمرَّ إِلْهَاءُ التكاثر لكم حتَّىٰ ابتداء زيارتكم المقابر.

زُرْتُمُ المقابر: أي: صِرْتُم مَوْتَىٰ مُهَيئين للدفن في المقابر بصفة زائرين زيارة مؤقتة.

فالمرادُ بزيارة المقابر مَوْتُهم، وتهيُّؤ أجْسَادِهم للدَّفْن في المقابر، وعبارَةُ: ﴿زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ كنايةٌ عَنِ الموْت، وتضمَّنَتْ هٰذِه الكناية بالإضافة إلى الدَّلالة على الموتِ الدَّلاَلَةَ على الْبَعْثِ بَعْد الموت، باسْتِعْمَال فعل: «زُرْتُمْ» الذي يَدُلُّ على الحضور المؤقَّت والّذي يَنْتَهي بالبعْثِ إلى الحياة الأخرى، والانتقال إلى الدَّار الآخرة، لأنَّ من يَزُورُ مكاناً يحضُرُ فيه حُضوراً مؤقَّتاً، ويَنْصرِفُ بعْدَه عنه إلى مكان إقامته، وكذلك من يَزُور إنْسَاناً يَمُرُّ به، أو يحْضُرُ عنده، بصفَةٍ مؤقَّتة لا بصفةٍ دائمة، وتضمَّنَتْ التوجيه لدفن موتى الناس في القبور إذ هو من محاسن الأمور.

فجاء في هذه الكناية البديعة، إدْمَاجُ الدّلالة على معنى البعث في الدَّلالة على معنى الموت، وإدماج التوجيه الحميد لدفن موتى الناس في المقابر، تكريماً لأجسادهم، ورعايةً لصحّة الأحياء من الناس.

رَوىٰ ابن أبي حاتم بسَنَده عن ميمون بن مهران، قال: كنْتُ جالساً عند عُمَر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ فلَبِثَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قالَ: يَا مَيْمونُ، ما أرَىٰ المقابِرَ إلاَّ زيارةً ومَا للزَّائِرِ بُدٌّ مِنْ أن يَرْجِعَ إلى مَنْزِلِهِ.

وجاء عند ابن كثير في تفسيره أنَّ بعْضَ الأعراب سَمِعَ رجُلاً يَتْلُو قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ فقال: بُعِثَ الْقَوْمُ وَرَبِّ الكعْبَة.

وأصْلُ معنى القبر: الدفن في الأرض، يقال لغة: قَبَرَ فلانٌ الميّتَ إذا دفنه.

التكاثُر الملْهِي من الفانيات، الصارِفُ عَنِ العمل للنّعيم الخالد

كُلُّ ما يزيد عن حاجة الإنسان، وحاجةِ أُسْرَته في الحياة، بدافع الرغبة في التكاثُر من زينة الحياة الدُّنيا ومتاعها وأموالها، فإنْفَاقُ الوقْتِ فيه من التَّلَهِّي عمّا يَنْبَغِي للإنسان أن يغتنم منْهُ ثواباً عظيماً في نعيم مقيم.

فالْعَمَلُ ابتغاء التكاثُر من زينة الحياة الدُّنيا، دون حاجة الحياة إلى الزائد، هو لَهْوٌ بما لا خَيْرَ فيه للمتكاثر، ولا نفْعَ له منه، وانْصِرَافٌ عَمّا هو لَهُ خَيْرٌ وأعْظَمُ وأجَلُّ في آجِلِ أمْرِه، وقد يكُونُ لَهْواً أيْضاً عَمَّا هو خيرٌ لَهُ في عاجلِ أمْرِه، كَصَلاح الْبَالِ، وطُمَأْنينة الْقَلْب، وراحَةِ الضمير، ورضا النفس، والاستمتاع بما أعطاه الله ويسَّر له من مُتَعِ الحياة الدُّنيا، مع القناعةِ بأنَّهُ الخير له والأفضل، إذْ هو المختارُ له بقضاء الله وقدره.

فكَمْ من كادٌ كادحٍ مُسْتكْثِرٍ من جَمْعِ الأموال، واقتناء تُحَفِ الدّنيا، محرومٌ من الاستمتاع بما يَجْمع في حياته، ومحرومٌ من حظِّ الآخرة عند الله في جنّاتِ النعيم، ومُضَيِّعٌ عُمْره في التَّلَهّي بما لا خيْرَ له منه، هذا إذا استطاع في جَمْعِه واقتنائه واستكثاره أنْ يسْلَم ممّا يَحْمِل به إثماً، أو يجني به جُرْماً، أو يَغْرَمَ به غُرْماً، أو يَظْلِمَ به ظُلْماً، أَوْ يُعَذِّبَ بِهِ نَفْسَهُ همًّا وغمًّا.

وكذلك الكادّون الكادحون للظفر بجاهٍ أو سلطانٍ في الأرض، والكادّون الكادحون لبناء القصور والجنَّاتِ، أوْ جَمْع القناطير المقنطرة من الذهب والفضّة، أو اغْتِنَام الكَثِير من اللّذّاتِ، إنَّهُمْ يُنْفِقون أعْمَارَهم في التَّلَهّي بالتكاثر عمَّا هو لهم خيرٌ وأفْضَلُ، ممّا يُحَقِّق لهم السعادة والهناء، في الدنيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دار الجزاء، دون أن يحْصُلوا من العاجل الأدنى على ما يُسْعِدهُمْ، ويورثهم الراحة والطمأنينة.

كثيرٌ من الناس يكْدَحُونَ لامْتِلاكِ أموالٍ كثيرة لا يَحْتَاجُونها في حياتهم، فلا ينفقونَها فيما هو متاعٌ لَهُم، وتحقيقٌ لمنافع ولذّات، وحريٌّ بهؤلاء أنْ يكونوا هم المملوكين لأموالهم، يُثَمِّرُونها ويحفَظُونها، لا المالكين لها، لأنَّها سَتَصِير إلَىٰ غَيْرهم. وهذا المعنى نجدُه فيما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس(١)، أنّه رأى في يَدِ رَجُلٍ

---

(١) نقلاً عن ابن كثير في تفسيره لسُورَة التكاثر.

دِرْهماً، فقال: لِمَنْ هذا الدرهم؟. فقال الرجل: لي. فقال له الأحنف بن قيس: إنَّما هو لَكَ إذا أنفقته في أجْرٍ، أو ابتغاء شكر، وأنْشَدَ متمثلاً قول الشاعر:

أنـتَ لِـلْـمَـالِ إذَا أمْـسَـكْـتَـهُ فَـإذَا أنْـفَـقْـتَـهُ فَـالْـمَـالُ لَـكْ

إنّ طُلّاب الدنيا يظلُّونَ لاَهِينَ عَنِ الخيْرِ الجليل العظيم الباقي، بما يكدحون في الحياة ابتغاء التكاثر، وحين تسعفهم المقادير الرّبّانيّة يكْرَعُون مستكثرينَ دون أن يرتَوُوا، كالظامِئ الّذي يكْرَعُ من ماءٍ مِلْحٍ أُجَاجٍ، وكالمريض الذي يشرب ولا يرتوي، ويأكُلُ ولا يشبع، ويضاعفون كدَّهم مستكثرين، رجاء أن يَصِلُوا إلى الارتواء ممّا يستكثرون من أشياء، فلا يَصِلُونَ، وتأتيهم مناياهم، فيأخُذُهُمُ الموتُ من أشيائهم الّتي اسْتَكْثَرُوا منها، دون أن تكونَ سبب سعادتهم في الحياة الدنيا، ثُمَّ يَجِدُون أنفسَهم محرومين في الآخرة من الزّاد الذي كانَ علَيْهِم أن يتزَوّدوا منه، ويَجِدون أنفسهم محمَّلِين بأثقالٍ من الأوزار الّتي جنَوْها طَمَعاً في التكاثُر.

إنّهم يَزُورُون مقابِرَهُمْ وقد تلَهَّوْا في حياتهم عمَّا يَنْفَعُهم فيها، بجلب نعيم أو دفع عذاب، ثمّ تَنْتَهِي زيارتُهُمْ للْقُبور بالبعْثِ إلى يوم الحساب والجزاء يوم الدين، الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بَنُون، إنّما ينْفَعُ فيه العملُ الصالح ومَنْ أتَىٰ اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، ويومَئِذٍ يَرَوْن أنَّهم قَدْ ضيَّعُوا أعمارهم في اللَّهْو، إنْ لم يكونوا قد ضيَّعوها في الاشتغال بحَمْلِ الأَوْزار، وسلوك مسالك الفجّار.

أليسَتْ هذه الحقيقة حول أعمار الناس في الحياة الدنيا، التي ينفقونها في التَلَهِّي بالتكاثر، جَدِيرةً بأن يُنْزِل اللَّهُ عزَّ وجلَّ في بيانها سورة (التكاثر) ليبيّن فيها دافع الرغبة في التكاثر الذي يخسر به الإنْسَانُ أوقات عمره المحدود، في اشتغاله بأشياء لا خيْرَ له منها، فيُلْهِيهِ اشتغاله بها عمّا هو له

خيْرٌ من كلّ باقٍ حَمِيد جليل يناله السَّاعون للآخرة وما فيها من نعيم مقيم بعْدَ رحلة الحياة الدنيا، رحلة الابتلاء.

وإذا ربطنا فكرة سورة (التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول) بفكرة سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) السابقة في النزول، والتي أبان الله عزّ وجلّ فيها أنّ واقع حال الإنسان في خُسْرٍ دائم، لأنّه يُضَيِّع وقته الذي هو رأسُ مَالِه مع طاقته في الحياة الدنيا، فيما لا خير له فيه، باستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر، وضَحَ لَنَا أنّ سورة (التكاثر) تُبيِّن دافع رغبة الإنسان في التكاثر من فانيات الحياة الدُّنيا، الّذي هو أحد أسباب انغماس الإنسان في واقع الْخُسْر الدائم مع لحظات عمره، الذي جاء بيانه في سورة (العصر).

ثمّ إذا تأمَّلْنا ما جاء في سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) التي نزلت بعد سورة (العصر) وقبل سورة (التكاثر) وجَدْنا أنّها قد تحدّثت عن حُبّ الإنسان الشديد للمال، في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾:

لحُبّ الخير: أي: لِحُبّ المال، إذْ يَرَىٰ الناسُ المالَ خيراً.

ومن هذه السُّوَر الثلاث نَسْتخلص أنّ دافع حُبّ المال حُبًّا شدِيداً، مع رغبة التكاثر منه ومن الأولاد وسائر زينة الحياة الدنيا، ومع توجيه الْجَهْدِ والطّاقة خلال مرور ساعات العمر، للجمْع من الدنيويّات الفانيات، من أعظم أسباب وقوع الإنسان في الْخُسْرِ، ما تَتَابَعَ عليه مرور العصر، الذي هو الزمن السّيّال، وعُمْرُ الإنسان مقطع سيّالٌ منه.

وهكذا يتكامَلُ بناءُ الأفكار المعرفيّة في القرآن، مع مراحل التنزيل، لَبِنَةً فلَبِنَةً، وضمْن هذا المنهج التدرُّجيّ تَتَكامَلُ الموضوعاتُ القرآنيّةُ جامعةً كُلَّ عناصرها.

استعمال صيغة الفعل الماضي في الآيتين دون الفعل المضارع

لمّا كانت الرغبة في التكاثر من الأموال والأولاد ونحوهما من زينة الحياة الدنيا، تُلْهِي الناس عن العمل للآخرة، وكان هذا حاصلاً في كلّ زمَنٍ من أعمارهم «الماضي والحاضر والمستقبل» كانت الصِّيغةُ الملائمة لبيان هذا الواقع صِيغةَ الفعل الماضي الدّالَّةَ على تحقُّق الحدوث والوقوع، والمتجرّدَةَ من الدَّلاَلة على الزمن.

ودلالَةُ صِيغَة الفِعْلِ الماضي على مُطْلَقِ تحقُّقِ وجود الأمر دون الدَّلاَلَة على زَمَنٍ مُعَيَّنٍ قَدْ جاء في القرآن المجيد نظائر كثيرةٌ لها، ومنها ما يلي:

- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [٤ النساء].
- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [٤ النساء].
- ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [١٧ الإسراء].
- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [١٨ الكهف].

فالمعنى: قد تحقّق فيكم أيُّها الناسُ إِلْهَاءُ التَّكاثُرِ لَكُمْ، طَوالَ أعْمَارِهم، عن الْعَمَلِ لما فيه سَعَادَتُكُمْ في أُخْراكُمْ، بسبب حُبّكُمُ الشديد للأموال التي تُسَمُّونها خيراً، ورغبتكم في التكاثر منها، فتقعُون دواماً في الْخُسْر، ما مَرَّ عليكم زَمَنٌ من الْعَصْرِ، فيمَا حُدِّدَ لكُمْ من عُمْر.

ويستثنى من عموم الناس الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر.

(٥)

التدبر التحليلي لآيات الدرس الثاني من دروس سورة التكاثر

الآيات من (٣ ـ ٨)

قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ

ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾:

- ﴿كَلَّا﴾ في المواضع الثلاثة أداة رَدْعٍ وزَجْر. والمراد رَدْعُ وزَجْرُ المخاطبين الذين أَلْهاهُمُ التكاثُر عن تَلهِّيهم الذي يصرفهم عن السّعي لسعادتهم في أُخْراهم.

- ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: سَوْفَ: حَرْفُ اسْتِقبالٍ مثل «السِّين» في نحو: «سَتَعْلَمُون» ويُعْجبني قول من قال من علماء العربيّة: إنّ «سَوْفَ» أَوْسَعُ استقبالاً من «السّين» فقد نظرت في استعمالاَتِ «سَوْفَ» في القرآن فرأَيْتُ مُعْظَم الزَّمَنِ الّذي تشير إلَيْه ما يكُونُ يوْمَ الدِّين، أو فيها إشعارٌ بعدم إرادة تقريب زمَنِ وقوع الفعل الّذي دخَلَتْ عليه، أمّا «السِّين» الاستقبالية فمعظم استعمالاتها قد جاءت في القرآن لما هو موعودُ الوقوع في الحياة الدنيا، أو لما هو قريب الوقوع فيها، أو لما هو منزَّلٌ منزلة قريب الوقوع للتخويف والمبالغة في التحذير، ولو كان وقُوعُه مُؤَجَّلاً إلى ما بعد الموت.

فالمعنى هنا: سَوْفَ تَعْلَمُونَ بعد انتهاء رحلة الحياة الدنيا أنّ ما كنتم فيه من التَّلَهّي بالتّكاثُر قد كان ضِدَّ مَصْلَحَتِكُمْ، إذْ قد جنَىٰ عليكم خَيْبَةً وخُسْراناً عظيماً، وعذاباً أليماً، دون أَنْ تَظْفَروا من دُنياكم بما فيه سعادةٌ لَكُمْ، في عاجل أمركم وآجِلِهِ.

- ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ دَلَّ حَرْف العطف «ثُمَّ» الذي يدُلُّ بوضعه اللّغوي علىٰ التَّرتيب مع التراخي على أَنَّ حصول الْعِلْم الذي جاء بيانه في الآية الرابعة، غَيْرُ الْعِلْم الّذِي جاء بيانه في الآية الثالثة من السورة، فهما عِلْمَانِ، فما هُمَا هذان الْعِلْمَان؟ وكَيْفَ يَحْصُلان؟ وهَلْ بعدهما عِلْمٌ ثالث؟

مراتب العلم الثلاث وأدلتها:

لدى تتبّعِ النُّصُوص من القرآن والسُّنَّةِ يَتبيَّنُ لنَا أنّ مُنْكِري عذاب النار

يوم الدين وهُمْ في رحلة الحياة الدنيا، يَتَحقَّقُ لهم العلم بما كانوا له منكرين في ثلاث مراحل، وكلُّ مَرْحَلةٍ منها تقع في مرتبة من مراتب العلم:

المرتبة الدُّنيا: مرتَبَةُ تحقُّقِ العلم النَفْسِي، وهذا الْعِلْمُ يكونُ منْذُ مُلاَمَسَتِهِم عتَبَةَ الموت، ويُرَافِقُهم طوال مّدة البرزخ، ويُسمَّى هذا العلمُ عِلْمَ اليَقين لأنّ أدلّته في نفوسهم تفيد اليقين.

المرتبة الوسطى: مَرْتَبَةُ العِلْمِ القائم على الشُّهُود والْمُعَايَنَة، وهذا العلم يكون في موقف الحشر بعد البعث للحياة الأخرى، إذْ يُحْشَرُونَ إلى قُرْب النّار فيشاهدونها، ويسَمَّىٰ هذا العلم عَيْنَ اليقين، لمعَايَنَتِه.

المرتبة العليا: مرتبة العِلْم القائم على الإحساس الجسَدِيّ الكامل حين يَذُوقُون عذاب النَّار في الجحيم، فتشترِكُ كُلُّ حواسِّهِمْ في إدراك هذه الحقيقة الْعِلْمِيَّة، ويُسَمَّىٰ هذا العلم حَقَّ اليقين، لتحقّقه في الواقع تحقُّقاً تامّاً لا يحتملُ دُخُول التوهم فيه.

من أدلّة المرتبة الدّنيا (عِلْم اليقين)

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ . . . وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

فحين يَشْهَدُ الظَّالِمُونَ هذا المشهد وهم في غَمَرَاتِ الْمَوْتِ، يَعْلَمون عِلْمَ اليقين أنّ ما أُنْذِرُوا به من عذاب الجحيم يوم الدين حقٌّ، ولو لَمْ يشْهَدُوه بعد.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن الكافرين المكذبين بيوم الدّين:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

إنّ الكافر لا يَطْلُبُ الرَّجْعَةَ إلَىٰ الحياة الدنيا عند موته ليَعْمَلَ صالحاً، ما لَمْ يَكُنْ قد شَهِدَ مَا يُورثه عِلْمَ اليقين بأنّ عذاب الجحيم يَوْم الدين حقّ.

(٣) وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

هذا الواقع الذي يَشْهَدُه الكافرون عند الموْتِ وعقِبَه، يُعْطِيهِم عِلْمَ اليقين بأنَّ عذابَ الجحيم يوْمَ الدين حقّ.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) بشأن المنافقين:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

هذا النصّ في المنافقين نظير نصّ (الأنفال) بشأن الكافرين.

(٥) وروى البخاري ومسلم عن عبدِ اللَّهِ بْنِ عُمَر رضي اللَّهُ عنهُما أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَحدَكُمْ إِذَا مَاتَ، عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجنَّةِ، وإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

هذا العرض بعد الموت يُعْطِي الكافر والمنافق عِلْمَ اليقين بِأَنَّ عَذَابَ الجحيم يَوْم الدّينِ حقٌّ.

والأدلّة من السُّنَةِ كثيرةٌ في هذا الموضوع.

من أدِلَّةِ الْمَرتَبَةِ الْوُسطَىٰ (عَين اليقين)

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفُرْقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾.

إنَّ الكافرين إذَا حُشِرُوا هذا الحشْرَ إلى قُرْبِ جهَنَّمَ يَصِلُ عِلْمُهم بأنَّ عذاب الجحيم حقٌّ إلَىٰ عَيْنِ اليقين، إذْ يشْهَدُون جَهَنّم عِيَاناً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

إنّ إيقاف الكافرين المكذبين بعذاب جهنم على النار يعطيهم علماً بما كانوا يكذبون به هو من نوع عين اليقين.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

إلى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُون: أي: فهم يُجْمَعُونَ في مكانٍ قَرِيب من النّار، وأصْلُ الوَزْعِ الكَفُّ والحبْس.

إنّ أعداء اللّهِ وهُمُ الكافرون والمنافقون حين يُجْمَعُونَ هذا الْجَمْع في مكان قريب من النار، يَصِلُ علْمُهُم بأنّ عذابَ الجحيم حقٌّ إلى عَيْنِ اليقين، إذْ يَشهَدُونَ جهَنَّمَ عِيَاناً.

من أدلة المرتبة العليا (حقّ اليقين)

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٥٠) ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ...﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ (٣٦) وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧)﴾.

(٣) وقول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٦) وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ (٧٧)﴾.

وظاهر أنّ المعذَّبين فِعلاً في جهَنَّم قد ارْتَقىٰ عِلْمُهم بما كانوا به يُكَذِّبون إلى مَرْتبة حَقِّ اليقين، إذْ صار اليقين العلمي حقيقة واقعةً يذوقون آلآمَها بكلّ ما لديهم من حواسّ، مع حضورهم فيها، وشهودهم التامّ لكلّ ما يجري فيها.

وقد دلّ على أنّ العِلْم الذي بلغ هذه المرتبة يُسَمَّىٰ في البيان القرآنيّ حَقَّ اليقين آيتان:

الأولى: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

فالمعذّبُون في الجحيم يَصِلُ عِلْمُهُمْ بما يَذُقونَهُ من عذاب إلى مَرْتَبَةِ حَقِّ الْيَقِين، إذْ صَار بالنسبة إليهم حقيقةً واقعةً يذوقونها بحواسّهم، ويُدْرِكُونَها بكلّ ما لَدَيْهِم من قدرات إدراك.

الثانية: قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾:

أي: وحِينَ يدخُلُ المكذّبونَ النّارَ يَصِلُ عِلْمُهُمْ بها إلى مرتبة حَقِّ اليقين، بدليل ما جاء في النصّ السابق.

ومراتب العلم الثلاث يشير إليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿. . . وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

- **قول الله عزّ وجلّ**: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾: أداة رَدْعٍ وزجْرٍ عَلَىٰ ما سَبَق بيانه في الآيتين (٣ ـ ٤).

﴿لَوْ﴾: تأتي هذه الكلمة في اللّسان العربي لعدّة معاني: فمنها أن تكون شَرْطِيّة كأدوات الشّرط. ومنها أن تكون للتمنّي أو الترجّي وهذه لا تحتاج إلى جواب كما تحتاج الأدوات الشرطيّة إلى جواب. ومنها أنْ تكُونَ للعَرْضِ وهذه أيضاً لاَ تحتاج إلىٰ جواب.

● أمّا الذين رَأَوْا من المفسّرين أَنّها شَرْطِيَّةٌ في هذه فقالوا: إنّ جواب الشرط محذوف، وله نظائر في القرآن المجيد، والتقدير عندهم: لَوْتَعْلَمُونَ الأَمْرَ الذي أنتم صائرون إليه عِلْمَ اليقين، لَمَا أَلْهَاكُمُ التكاثُر، ولسَعَيْتُم لآخِرتكم سَعْياً يُحَقّق لكم النجاة من عذاب الجحيم، والظَّفَرَ بجنّاتِ النّعيم.

● ويَصْلُحُ في هذه الآية اعتبار «لو» للْعَرْضِ الذي هو دعوةٌ إلى أَمْرِ ما برفق، وهذه لا تحتاج إلى جواب، ويكون المعنىٰ نَعْرِضُ عليكم أَنْ تَعْلَمُوا عِلْمَ اليقين، بما لديكم من أدلّة على يوم الدين، حتّى تَعْمَلُوا الصَّالِحَات لآخِرَتِكُم، ولا يُلْهِيَكُمُ التكاثُر مِمّا لا خَيْرَ لَكُمْ فيه، وفي العبارة مع الْعَرْض إشعارٌ بالرغبة، أي: نرغب في أن تعلموا علم اليقين.

● أمّا معنى التّمنّي فلا يليق بجلال الرَّبّ تبارك وتعالى. ولكنْ قد يُراد بأداة «لو» التَّرَجّي، وهو طلب أمْرٍ مرغُوبٍ فيه، وهذا المعنى مقبولٌ، لأنّ الله جلّ جلاله يَرْضى لعباده الإيمان، ولا يرضى لهم الكفر، فهو يطلب من عباده الكافرين أن يكونوا مؤمنين بيوم الدِّين، لأنّ إيمانهم ممّا رَضِيَه الله لهم، فهو يَرْغب فيه، ويأمُرهم به، ولا يُجبِرُهم ولا يُكْرِههم، بل يُكَلّفهم أن يكون إيمانهم عن طريق اختيارهم الحرّ.

﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾: مفعولٌ مطلق لبيان نوع العلم. **اليقين**: مضافٌ إليه.

واليَقِينُ: هو العلْمُ الذي لا شَكَّ فيه، وأدنى مراتبه ما اعتمد على أدلّة نظريَّة أو خَبَريّة صادقة. **والعِلْم**: يُطْلق على ما هو يقين وعلى ما هو دون اليقين، كالعلم المبنيّ على دليلٍ ظَنّي.

● **قول الله عزّ وجلّ**: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ⑥﴾:

﴿لَتَرَوُنَّ﴾: اللاّم واقعة في جواب قَسَمٍ مُقَدَّر، والنُّونُ في آخر الفعل هي نون التوكيد الثقيلة، وهذا التوكيد واجب، لأنّ الفعل جاء مُثْبتاً

مستقبلاً، جواباً لقَسَمٍ غير مفصول عن لامه تقديراً. والرُّؤيةُ المرادة هنا الرؤيَة البصرية.

﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: اسم من أسماء دار العذاب يوم الدين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مَهْواةٍ يقال لها في اللّغة جحيم.

والمراد برؤيَةِ الكافرين الجحيمَ في هذه الآية، ما يُعْرَضُ عليهم من مقاعدهم بعد الموت، وفي مدّة البرزخ، في الجحيم التي سيدخلونها يوم الدين بعد البعث والحشر والحساب وفصل القضاء، وهذه الرؤية تفيدهم عِلْمَ اليقين.

- **قول الله عزّ وجلّ:** ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾:

جاء العطف في هذه الآية بحرف «ثُمَّ» للدلالة على أنّ هذه الرؤية سوف تكون في زمان متأخر بفاصل طويل عن الرؤية التي دلّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ وهذه الرؤية المتأخرة سوْفَ تكون في موقف الحشر، حينما يُحْشَرُ الكافرون إلى جهة الجحيم وعلَىٰ مَقْرُبة منها، حيث يشهدونها شُهُودَ مُعَاينة، وتمتاز هذه الرؤية بأنّها تفيدهم العِلْمَ من مرتبة «عَيْنِ اليقين» إذْ هو عِلْمٌ قائمٌ على الشهود والمعاينة، وتحليل ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾ نظير ما سبق في: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾.

والخطاب ما زال موجّهاً للكافرين بيوم الدِّين والكافرين بعذاب الجحيم، تكذيباً لأخبار الأنبياء والمرسلين، المبلِّغين عن ربّ العالمين.

- **قول الله عزّ وجلّ:** ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾:

يَدُلُّ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ على أنَّ السُّؤالَ الّذي تضمّنَّه ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ يكون متأخراً بفاصل زمنيٍّ طويلٍ نِسبيًا عن رُؤيَتِهِمُ الجحيمَ رؤيةً مِنْ مَرْتَبَةِ «عَيْنِ اليقين» وتحليل ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ نظير تحليل: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾.

والمتدبّر الحصِيفُ يُدرِكُ أنَّهم يُسْأَلُونَ عَنِ النعيم، وهُمْ في باطن الْجَحِيم يُعَذَّبُون، إذ الخطابُ ما زال مُوَجَّهاً للكافرين المكذبين بيوم الدِّين.

إنّ سُؤال أصحاب الجحيم وهم في باطِنِها، عن النعيم الذي يَتَنعَّمُ به أصحابُ الجنَّة وهم فيها، إنَّمَا هُوَ سُؤَالُ تَحْسِيرٍ وتنديم على ما كانوا به في دنياهم يُكَذِّبونَ، فإذا سُئلوا عن النّعِيم ازدَادُوا حَسْرَةً ونَدَامَةً وألَماً، علىٰ ما فَاتَهُم من السَّعَادة بِسَبَبِ كُفْرِهم وتكذيبهم، وسُلُوكهم سُبُلَ المجرمين.

وبقليلٍ من التأمُّل نُدْرِكُ أنّ سُؤالَهُمْ يكُون على نحو ما يلي:

أليس نعِيمُ الْجَنَّةِ حقًّا، بَعْدَ أنْ وَجدتُّم أنّ عَذَابَ الجحيم حقٌّ فيقولون: بلَىٰ، وبذلك يزدَادُون حَسْرَةً وندامةً وألَماً.

وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بيان أنّ أصْحَابَ الجنّة يسْألُون أصحابَ النار في موقف الحشر، قبل أنْ ينصرف أهل الجنّة إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار، فيقولون لهم: قَدْ وجدْنا مَا وَعَدنا رَبُّنَا حقًّا، فَهَلْ وَجدتُّم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حقًّا، فيقول الكافرون أصحاب النار: نعم. ويكون هذا السؤال تبْكيتاً لهم وزيادةً في حسرتهم وندامتهم. قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

وأكّدَ عِندِي هذا الفهم لقول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ أنَّ كلَّ ما جاء في القرآن المجيد من النعيم فالمراد به نعيم الجنَّة، مثل: [جنَّات النعيم ـ نعيم مقيم ـ جنَّة النعيم ـ في جنَّاتٍ ونعيم ـ إنّ الأبْرار لفي نعيم ـ تَعْرِفُ في وجوههم نَضْرَة النَّعِيم ـ جنّة نعيم ـ وإذَا رأيْتَ ثَمَّ رَأيْتَ نَعِيماً ومُلْكاً كبيراً].

أمّا لذّاتُ الدّنْيَا وكلُّ ما فيها من زينة فقد جاء التعبير عنها في القرآن

المجيد بأنَّهَا مَتَاعٌ واستمتاع أو تَمَتُّع، ولم يأت التعبير عنها بلفظة «النعيم» أو بلفظة «نعيم».

والمتاعُ والاستمتاع والتمتُّع في اللّغة هو ما يُنْتَفَعُ به مُدّةً من الزّمن، ثمّ يَفْنَىٰ ولا يكون له بقاء.

أمّا النّعيمُ فهو مقيم متَجَدِّدٌ باقٍ خالدٌ يَوْمَ الدين، في جنّات النّعيم.

وبسبب ترك هذا الاستقراء لآيات القرآن، وتَرْكِ النظر في وحدة موضوع السورة، وترابط آياتها حول موضوعها توجّهَتْ أنظار معظم المفسرين إلى أن المراد بالنعيم في الآية لذَّاتُ ومنافعُ الحياة الدّنيا، وعُذْرُهم أنّ أحاديث مَرْوِيّةً عن الرسول ﷺ لم تَبْلُغْ مبلغ الصحّة جاء فيها أنّ الناس يُسْأَلُونَ يَوْمَ الدّين عن كلّ نِعْمَةٍ أنْعَمَ اللّهُ بها عليهم في الحياة الدنيا، إلاّ أنّ شيئاً منها لم يُحَدِّدْ أنّ المراد بالنّعيم في الآية الثامنة من سورة «التكاثر» هو لذّاتُ الحياة الدنيا، وقد توسَّع الرُّواة في استعمال لفظ «النعيم» فحملوه على متاع الحياة الدنيا.

علىٰ أنّ متاعات الحياة الدنيا إنّما يُسْألُ عنها في موقف الحساب، وما دلّت عليه الآية هو ما بعد موقف الحساب.

قال الحسن: لا يُسْأَلُ عن النعيم إلاّ أهْلُ النار.

ترابط درسي السورة:

إن توجيه التثريب والتلويم للمخاطبين بقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ يستثير سؤالاً في النفوس، وهو: فما العلاج للتخلّص من هذا الداء؟، وكيف تَصِحُّ مسيرة الإنسان في حياته الدنيا، حتّىٰ يُلْجِم دافعه إلى التكاثر من زهرة الحياة الدنيا، وحتّىٰ لا يُلْهِيَهُ التكاثر عن العمل لتحقيق سعادته الأبديّة الخالدة؟.

وقد جاء في الدرس الثاني ما يتضمّن بيان العلاج بأسلوب غير مباشر، ومنه نستفيد الجواب.

إنّ تصحيح مسيرة الإنسان في حياته ينبغي أن يبدأ بأن يعْلَم عِلْمَ اليقين الغاية من رحلة الحياة الدنيا، والمصير الذي هو صائر إليه بعدها، وأن يقتنع بذلك اقتناعاً تامًّا، وأن يؤمن به إيماناً صحيحاً راسخاً قويًّا، حاضراً على الدوام غير غائب، باعثاً على تقويم السلوك وتصحيح المسيرة بقوّة، وشدِّ لجام المطامع في متاع الحياة الدنيا وزينتها، وتنبيه النَّفْسِ عند غفلاتها.

فجاء الدرس الثاني من السورة مُبَيِّناً أنَّ علم الناس بالدار الآخرة وما فيها من عذاب في الجحيم، ونعيم خالد في جنّات النعيم، سيتحقق في واقع لا يستطيعون ردّه ولا تغيير أي شيءٍ فيه، ويكون تحقُّقُ هذا العلم على مراحل، عند الموت وعَقِبَهُ في مدّة البرزخ، ثُمّ عند البعث والحشر والحساب وفَصْل الحكم بالجزاء، ثم عند تنفيذ الجزاء، وكلُّ عِلْمٍ يتحقَّقُ لاحقاً هو أقوى وأشدّ من سابقه.

واقتضى توجيهُ التثريب والتلويم في الدرس الأول تكرير الرَّدْعِ والزجْر بكلمة «كلّا» ثلاث مرّات في الدرس الثاني منها.

- فجاء الإعلام الضمني بأنّ هذا العلم المطلوب سيتحقَّق في أدوات الإدراك لديهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾.

- وجاء الإعلام الضمنيّ بأن «عِلْمَ الْيَقِين» سيتحقّق لديهم، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ أي: نُرْغب لسعادتكم في أن تعلموا عِلْمَ اليقين بأنّ عذاب النار حقّ.

- وجاء الإعلام الصريح بأن «عِلْمَ عَيْنِ الْيَقِينِ» سيتحقَّقُ لديهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾.

● وجاءت الإشارة إلى أن «عِلْمَ حَقِّ الْيَقِينِ» سيتحقَّقُ لديهم في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي: وأنتم في دَارِ العذاب تذوقون بكلِّ أحَاسِيسكم آلامَهَا.

وتم بحمد الله تدبّر سورة التكاثر

* * *

(٦)

ملحق

حول بلاغيات في السّورة

في سورة التكاثر اختيارات بلاغيَّةٌ تثير الإعجاب، منها اللّطائف التالية:

الأولى:

الكناية عن البعث، بالتَّعْبير عن الْفَاصل بين الموت والبعث للحياة الأخرى، بأنَّهُ زيارةٌ للقبور، ولَيْس إقامة دائمة.

الثانية:

استعمال حرف «لَوْ» بمعنى الرَّغْبَة والرضَىٰ، وهي عنْد عُلَماءِ العربية بمعنى التمنّي والتَّرجِّي، وهٰذان لا يَلِيقان بمقام اللّهِ عزّ وجلّ.

الثالثة:

تأكيدُ تَحقُّقِ عِلْم الْيَقِين، وعِلْم عَيْنِ اليقين، وعِلْم حَقِّ اليقين، مستقبلاً، بمؤكّدَاتٍ مُتَعَدِّدَة، اللاّم الواقعة في جواب قسم محذوف، نون التوكيد الثقيلة.

الرابعة:

الدّقّة في استعمال الكلمات لتأدية المعاني المرادة «زُرْتُم - سَوْف - ثُمَّ - لَوْ - عيْن اليقين - النعيم».

* * *

سُورَةُ المَاعُونْ

١٠٧ مُصْحَفْ ١٧ نزول

(١)

نص السورة

سورة الماعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ (١)
فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (٢) وَلَا
يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ
لِّلْمُصَلِّينَ (٤) ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ (٥) ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦)
وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ (٧)

(٢)

موضوع السورة

تبيّن سورة «الماعون» بعض الظواهر السلوكيّة القبيحة الّتي يتّصف بها الّذين يُكَذِّبُونَ بقانون الجزاء الرّبّاني العاجل منه والآجل، وهُمُ الكفَّارُ حتماً، وظلال معاني هذه السورة تتناول بعض المؤمنين الّذين يَغِيبُ عن تصوُّرهم الجزاء الرَّبّاني المعجَّلُ في الدنيا، والمؤجَّل إلى الآخرة.

وقد جاء في السورة اختيار أقبح الظواهر السلوكيّة الاجتماعيّة للّذين يُكَذِّبون بالدّين، أي: بالجزاء الرَّبّانيّ، وهي:

(١) دَعُّ اليتيم، أي: دفْعُهُ دَفْعاً عنيفاً، وقهْرُه وإذْلاَله، إذْ هو من الضعفاء الّذِين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا يقْوَوْنَ على المطالبة بحقوقهم وأخذها، ويَشْعُرون دواماً بإنكسارهم وذُلِّهم.

(٢) قَسْوَةُ الْقَلْب تُجاهَ المسكين، وهو الفقير الذي يَبْدُو من حاله ما يدُلُّ على شدّة فقره، وأنّه جائع شديد الحاجة إلى الطعام، فالمكذّب بالدِّين الّذي لا يؤمن به تَشِحُّ نفسه عن إطعام المسكين، ولا تنْدَىٰ بكلمة طيّبة في الحضّ على إطعامه.

(٣) مُرَاءاةُ النّاس ببعض الظواهر الدينيّة الّتي لا تُكلّفُهم بذْلَ مالٍ، كصَلاةٍ يخادعون بها الناس لتحصيلِ منافع دنيويّة.

(٤) منع إعارة الماعون (وهو اسم جامع لأَدَوات البيت كالقِدْرِ والفأس والقَصْعةِ والرَّحا ونحوها) مع أنّه لا خسارة في إعارتها، إلاّ أنّ التكذيب بالدِّين يزيد في شُحّ النفوس، وجفاف عواطفها الاجتماعية.

* * *

(٣)

سوابق الحديث عن الجزاء الرّباني في نجوم التنزيل

نجد في القرآن المجيد عناية عظيمة جدًّا ببيان قانون الجزاء الربّاني للموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا، ما كان منه معجّلاً في الحياة الدنيا، وما كان منه مؤجّلاً إلى يوم الدين، وتأكيد الإعلام به، بأساليب مختلفة، وصُورٍ متعدّدة، والتذكير به، والتحذير منه، وبيان آثار عدم إيمان الناس به في سلوكهم، وكَوْنِه مظهراً من مظاهر حكمة الله في كونه، ومظاهر عدله وفضله.

فالإيمان بقانون الجزاء الرّبّانيّ هو المحرِّضُ الأعظم، والدافعُ الأَقْوَىٰ في النفوس لالتزام صراط الله المستقيم، صراط الحقّ والخير والفضيلة والجمال والكمال، والملْجِمُ الأقوىٰ والأشدّ للكَفِّ عن الظلم والعدوان، والبغْيِ والإثم والطغيان، ومعصية الله ورسوله بِتَرْكِ ما أَمَرَا به، وفعل ما نَهَيَا عنه.

ولدى تتبع ما نزل قبل سورة (الماعون) الّتي تدور حول بيان بعض آثار التكذيب بالدّين في سلوك الناس، نجد بدء الحديث ومتابعته حول موضوع الجزاء الرّبّاني في السّور التالية:

(١) في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول).
(٢) وفي سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول).
(٣) وفي سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول).
(٤) وفي سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول).
(٥) وفي سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).
(٦) وفي سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول).
(٧) وفي سورة (اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول).
(٨) وفي سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).
(٩) وفي سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول).
(١٠) وفي سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول).
(١١) وفي سورة (التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول).

هذه العناية بقانون الجزاء الرّبّاني (= الدين) وأعظمه ما ادَّخَره الله إلى يوم الدين، في الآخرة دار الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، يَدُلُّ على الأهميّة البالغة لركن الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان السّتّة، وأنّه المحرّض والرادع الأكبر في حياة الإنسان المكلّف المدرك، لالتزام سلوك صراط الله المستقيم، واجتناب سلوك سُبُل الضلالة.

ولهذا نجد كثيراً من النصوص القرآنية قد اقترن فيها ذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي لآيات سورة (الماعون)

- **قول الله عزّ وجلّ:** ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾:

﴿أَرَءَيْتَ﴾: الخطابُ مُوجَّهٌ لكلِّ مؤهَّل لأنْ يرَىٰ. وفيه استفهامٌ تعجيبي من حالِ المكذِّبِ بأخبار قانون الجزاء الرّبّاني. والمراد بالرؤية الرؤية البصريّة. وقد يكون المراد بالاستفهام هنا الإعلام ببعض صفات المكذب بالدين والتنبيه عليها، أي: انظر تَرَ من صفاته كذا وكذا.

﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾: **الدّين**: المراد به هنا الجزاء الرّبّاني، ولا سيما ما يكون في الآخرة، والّذي يكذّب بالدّين اسم جنس يَعُمُّ كلَّ المكذبين.

والتكذِيبُ به هو تكْذِيبُ الرّسُولِ بما أخبر به من أنباء الجزاء الرّبّاني، وتكذِيبُ ما جاء في القرآن من ذلك.

والمعنى: تعجَّبْ أيّها الرائي المؤهَّلُ لأنْ يَرَىٰ ويتفكر من حال المكذِّب بأخبار قانون الجزاء الرَّبّاني المعَجل منه في الدنيا، والمؤجَّل إلى يوم الدين. أو انظر تَرَ من صفات الذي يكذب بالدين أنه يدُعُّ اليتيم، ولا يحضّ على إطعام المسكين.

- **قول الله عزّ وجلّ:** ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾:

﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾: أي: يَدْفَعُه دَفْعاً عَنِيفاً بجفَاء وغلْظَة.

الْيَتِيم: الصغير الذي مات أبوه من الناس، ويَظَلُّ يتيماً حتَّىٰ يبلُغَ الحُلُم.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ﴾: أي: ولا يحُثُّ على، يقالُ لغة: حضَّ يحُضُّ حَضًّا. والحضّ على الأمْر: هو الحثّ عليه وطَلَبُهُ بِشدَّةٍ وإلحاح. وتحاضَّ الرجلان على أمْرٍ إذا حضَّ كلٌّ منهما صاحبه عليه.

﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: أي: إطْعَام المسكين، **طعام**: اسْم مصدر، إذ المصدر هو «إطعام» تقول لغة: أطْعَمْتُ الجائِعَ أُطْعِمُهُ إطْعاماً. وإنّما كان «طعام» اسماً للمصدر، لأنَّ حروفه نقصَتْ عن حروف فعْلِه، كما يقولُ عُلَماءُ العربيَّة.

وجاء اختيار اسم المصدر بدل المصدر إيجازاً في اللّفظ، وربَّما كان لحكْمةٍ أخرى تتصّل بحروف القرآن وأعدادها، والله أعلم.

المسكين: هو من يظهر الفقر، ولو لم يكُنْ في واقع حاله الخفيّ فقيراً، وأمّا الفقير فهو من كان في واقع حاله فقيراً، ولو لم يَكُنْ يُظْهِرُ فَقْرَه وحاجته(١).

والمراد بالمسكين هنا في الآية من كان في واقع حاله فقيراً، مع مسكنته الظاهرة، فهو مسكين صادقٌ في مسكنته الدالّة على فَقْره.

وجاء استعمال اسم الإشارة الخاصّ بالمشارِ إليه البعيد في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للدلالة على أنّ الذي يكَذِبُ بالدّين قانون الجزاء الرّبّاني، بعيدٌ جدًا عن رحْمَةِ اللّهِ الّتي وسِعَتْ كلَّ شيءٍ يَسْتَحِقُّ أنْ تشْملَهُ، إذْ قد أَخْرَجَ نفسه بتكذيبه وكُفْرِه أو حَجَبَها عن أَنْ تشملَهُ.

---

(١) هذا ما انتهيت إليه في التفريق بين الفقير والمسكين، انظر القاعدة (١٦) من كتابي «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ».

وقد دلّت هاتان الآيتان على أنّ من الأمراض النفسية الخبيثة للتكذيب والكفر بقانون الجزاء الرَّباني، جفافَ عاطِفَةِ الرحمة في نفس المكذّب الكافر.

ومن الظواهر السلوكيّة لهذا الداء دعُّ اليتيم بدفعه دفعاً عنيفاً بشدّة وغلظة، إذْ هو من أضعف الضعفاء في المجتمع الْبَشَرِي، فماله من يدافع عنه ويَحْمِيه ويحفظ حقوقه.

ومن الظواهر السلوكية لهذا الداء أيضاً عدَمُ الحضّ على إطعام المسكين، ذي الحاجة التي أفضت به إلىٰ الجوع.

وهاتان الظاهرتان في السُّلوك تَدُلاَّن على أمثالهما، وتدلاّن من باب أولى على ظواهر سلوكيّة قبيحة أخرى.

إنّ مَنْ يُكَذّب بالدّين (= قانون الجزاء الرَّباني) وباليوم الذي أعدَّه الله عَزَّ وجلّ لتحقيق الجزاء الأمثل، تَمُوتُ الرحمة في قلبه، إذْ هو لا يَرْقُبُ حساباً ولا عذاباً ولا ثواباً، فتُنْزَعُ من قلبه الخشية من العقاب، ويُنْزَعُ من قلْبه الطَّمَع بالثواب، فتنْمُوا في نفسه الأنانيّة الضيِّقة المسرفَةُ المقيتة، حتَّىٰ تَقْطَعَهُ عن النظر إلى الآخرين، وعن الشعور بمشاعرهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال:

«لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ». [حديث حسن رواه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وابن حبان].

ومن أشنع مظاهر مَوْتِ الرحمة وانتزاعها من قلْب الإنسان، أنْ يكون ظَلاَّماً للضعفاء الذين لا يَجِدون حيلةً يُدافعُونَ بها عَنْ أنفسهم.

وأضعف الضعفاء في أفراد المجتمع من كان صغيراً يَتِيماً، إذْ هو ضعيفٌ لا حيلَةَ له، وليْس له نصير يدافع عنه ويَحْنو عليه.

والمكذّب بالدّين لا يقتَصِرُ على أَنْ يأْكُلَ مَالَ اليتيم، بَلْ يُغْلِظُ عليه ويعنُفُ ويشتَدّ، فإذا أقبل عليه لأمْرٍ ما، أو سأله من حقّه، لم يَرُدَّهُ بلُطْفٍ ورِفْقٍ ورَحْمَةٍ، بلْ يَدُعُّهُ دعًّا، ويطْرُدُهُ ويُهينُه، ويَقْهَرُهُ ويظْلِمُه، ولا يعطيه مع ذلك حقَّه الذي هو لَهُ من ميراثه.

ومن أشنع مظاهر موْتِ الرحمة وانتزاعها من قَلْب الإنْسان، أنْ تكِزَّ نفْسُهُ شُحًّا، فلا ينْفَع بنافعةٍ ذا حاجَةٍ أو صاحِبَ ضرورة، لاَ من نَفْسِه، ولا بكَلِمة حضٍّ لغيرِه على نَفْعِه، وأشْنَعُ هذا الأشْنَع أَنْ لا يُطْعِم الجائع المسكين، ولا يَحُضَّ غيْرَهُ علىٰ إطعامه، فهو في أحَطِّ دركاتِ الشُّحِ إذْ لا ينْذُلُ من نَفْسِه، ولاَ يُحضُّ غيْرَهُ على بذل ما يجب عليه بذلُه.

لقد فَقدَ الرَّحمةَ وظِلاَلَها وآثارَها في قلْبِه ونفْسِهِ، بسَبَبِ كُفْرِه بقانون الجزاء الرَّبَّاني العاجل منه والآجل.

● **قــول الله عــزّ وجــلّ**: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

تتابعُ السّورَةُ الحديثَ عن المشركين المكذبين بالدّين، وبيوم الحسَاب، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، عند ربّ العالمين، ولمّا كان المراد بالذي يكذّب بالدين كلَّ من يتصف بهذه الصفة كان من المناسب ذكرهم هنا بالجمع.

﴿فَوَيْلٌ﴾: الفاء حرف عطفٍ يفيد الترتيب مع التعقيب.

ويْلٌ: كلمة عذاب، وفيها معنىٰ الوعيد بحلول عقاب اللّهِ الشديد، وورَدَ أنّ كلمة «ويْل» اسم علَمٌ على وادٍ في جهنم.

ويْلٌ: مبتدأ، والمجرور بعدها باللام الخبر، وسوّغ الابتداء بها لأنّها تحمل وصفاً مقدّراً، أي: عذابٌ شديد، وإذا كانت اسماً لوادٍ في جهنم فهي مَعْرِفةٌ بالعلميّة.

والمعنى: فيترَتَّبُ علىٰ المكذبين بقانون الجزاء الرَّبّاني عَذَابٌ شديد في وادي «ويل» في جهنم.

واختير في السورة وصْفُهم بالمصَلِّينَ، بدَلَ الكناية عنهم بالضمير، وكان الظاهر يقتضي أن يقال: فويلٌ لهم، ولكن عُدِلَ عن هذا لبيان بعض أعمالهم ذواتِ المظهر الدينيّ الموروث عن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، الّتي يَعْمَلُونَها رِئَاءَ النّاس، كالصَّلَاةِ على ما وَرِثُوا من دين إسماعيل الّتي خلطوا بها شِرْكيّاتِهم، وأعمالَهم الجاهليَّة الكثيرة، وكالطواف حول البيت، والسَّعْي بين الصفا والمروة، والحجّ في موسمه، وكالْعُمْرة.

وقد كان القرشيُون يقولون: نَحْنُ أَهْلُ الحجيج، وأَهْلُ السِّدَانَة، وأَهْلُ السِّقاية، ويفتخرون بهذه الأعمال من العبادات على سائر العرب.

فإذا وَرَدَ سُؤَالٌ: كيْفَ يُؤَدّي المشركون الذين يُكَذِّبُونَ بالدّين، وهم على شركهم وتكذيبهم، عباداتٍ كالصَّلاة بركوعٍ وسُجُودٍ على ما وَرِثُوا من دينِ إسْمَاعيل؟

والجواب: إنّهم يُراءُونَ بها النّاس، للمحافظة على مكانتهم المتميّزة بَيْن العرب، إذ هم أهل الحرم، وسدَنَة بيت الله فيه، والقائمون بوظائفهم الدينيّة على ما ورثوا من إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقيامهم بها يُعْطِيهم أمجاداً دنيويّة ومنافع.

لكنَّهم سَاهُونَ عمَّا تَقْتَضِيه عبادَةُ الله جلّ جلاله، من الإيمان بحكمته وعَدْلِه، وما يلزم عنهما من إقامة حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

واقتضى الإبداع البياني التنويع في الأسلوب، ليكون للقرآن المجيد تميُّزُهُ المعجز، إذْ لم يأت بأسلوب، وإنَّهُ قد يُصَلِّي على مواريثه الدّينيَّة، إلاّ أنَّه يُرَائي النّاسَ بصَلَاتِهِ فويلٌ له. بل جاء التعبيرُ شاملاً كلَّ المشركين المكذبين بالدّين،

الذين قد يُصَلُّون ويعملون أعمالاً هي من مظاهر دين الله الموروث لديهم، إلاّ أنهم يراءُون بها، ويخلطون شرْكيّاتهم بها، وابتدأتِ الْجملَةُ بإثبات العذابِ الشديد لهم في وادي ويل، أحَدِ وِدْيَان جهنَّمَ، لبيان استحقاقهم هذا العذاب ولو كانوا من المصلّين على مَوْرُوثٍ من دين صحيح.

﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: أي: عمّا تَقْتضيه منهم صلاتُهُمْ غافلون تاركون، وهو الإيمان الصحيح، والأعمال الصالحات ابتغاء مرضاة الله.

يقال لُغَةً: **سَهَا عَنِ الشيْءِ، وسَهَا فيه**: أي غَفَلَ فتَرَكَ.

وقيل: **سَها فيه**: إذا تركه عن غير عِلْم. **وسَهَا عَنْهُ**: إذا تَرَكَهُ عن علم.

ويمكن ربْطُ بَيَانِ سَهْوِهم في هذه السُّورة، بقول الله عزّ وجلّ في سورة (التكاثر) السابقة لها في النزول خطاباً لهم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أي: حُبُّ الدنيا ورَغْبَة التكاثر منها، قد ألهاكم طَوال حياتِكُمْ، فغفلْتُهم وسَهَوْتُمْ عمّا تقتضيه منكم صلاتكم الّتي ورثْتُمْ أداءَها عن دينٍ صحيح، جاءَ به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

- ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾: أي: يُرُونَ من أنفسهم أنّهم يتَّصِفُون بالقيام بالأعمال الصالحة، كالصلاة والحجّ والعمرة والسّقاية ونحوها، وغرضهم منها مصالح ومنافع دنيويَّة لدى الناس.

يقالُ لغة: رَاءَى الرجُلُ يُرَائي مراءاةً، ورِءَاءً، ورِيَاءً، أي: أرَىٰ من نفسه أنّه متصف بالخير والصلاح، على خلاف ما هو عليه في واقع الأَمْر.

وقد دَلَّ النّصُّ على أنّهم لا يَنْتَفِعُون عند الله من أعمالهم الصالحة، الّتي يُرَاءُونَ النّاسَ بها، لأنّها لم تقترِنْ بإيمان صَحِيحٍ، ولم يُبْتَغَ بها وَجْهُ اللَّهِ عزّ وجلّ، بل يَكُونُ لهم عند الله ويْلٌ، عذابٌ شديدٌ في وادي ويْلٍ بجهنَّم يوْمَ الدّين.

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾: **الـمـاعـون**: اسم جامع لأدوات المنزل، كالقدر، والفأس، والقصعة، والرحا، ونحوها.

ولفظ الماعون يُطْلَقُ في الجاهليّة على المنفعة والعطيّة، وكُلّ ما يُنْتَفَعُ به، مما يأتي عفواً، ويُطْلَقُ على أمتعة البيت، فالماعون: كلُّ معُونة ومنفعة وعطية لا تكلّف باذلها إلاّ يسيراً، وهي عند الناس تكون عفواً من غير تكلُّف ولا منّة.

ورُوِي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: **الماعون**: الزكاة.

أي: والمكَذِبُونَ بقانون الجزاء الرَّبَّانيّ يَمْنَعُون إعارة الماعون، ويمْنَعُونَ بَذْل المعونات اليسيرات، الّتي لا يَغْبأ الناسُ بمقاديرِ قِيَمِهَا وأثمانِها، عن ذوي الحاجات لها من جيرانهم ومعارفهم، ولا يَخْجَلُون مِنْ مَنْعِها، ويفعلون هذا إضافَةً إلى كونهم يدُعُّونَ اليتامَىٰ، ولا يَحُضُّون على إطعام المساكين الفقراء الجائعين.

ودَلَّ تأخير بيان صفَةِ مَنْعِهم للماعون إلى آخر آية في السورة، للإشعار بأنّ المراد بالمصلّين السّاهين عن صلاتهم هم المكذّبون بالدِّين أنفسهم، وهم الكفرة المشركون، وأنَّ صلواتهم وعباداتهم إنّما هي تقاليد وعادات يفعلونها محافظةً على بعض مواريثهم من دين إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، كمناسك الحجّ الّتي يُؤدُّونها على جاهلياتهم وشِرْكيّاتهم ووثنياتهم.

ويُقاسُ على هذه الصفات الّتي ذكرتها السورة أشباهها من قبائح السلوك.

وسورة «الماعون» تتّسِقُ بمضامينها مع المرحلة الأولى من مراحل التنزيل الّتي نزلت فيها، فالاهتمام فيها مُنْصَبٌّ على أُسُس العقيدة، وأركان الإيمان، وفضائل الأخلاق، ومحاسِنِ التعامل الاجتماعي الكريم.

وإذا كانت هذه السُّورَةُ تكشف بعض صفات المكذّبين بقانون الجزاء الرَّبّاني، فإنَّ قَدْراً ما من مضامينها يُلْقِي ظلالَهُ على المرائين من المؤمنين، الذين يَعْمَلُون ظواهر أعمالهم الصالحات ابتغاء الدنيا، لا ابتغاء ثوابِ الله ورضوانِه، ولاَ رَجاءَ ظَفَرهم بالنعيم المقيم الخالد، في جنّاتِ النعيم يوم الدّين.

(٥)

بلاغيات في السورة

● جاء استعمال الفعل المضارع في «يُكذِّبُ ـ يَدُعُّ ـ ولا يحُضُّ ـ يُراءُونَ ـ يَمْنَعُونَ» على أنّ الْمَعْنِيِّن في السورة يُجَدِّدُون دواماً ممارساتهم في التكذيب، والدَّعّ، وعدم الحض، والمراءاة، والمنع، لأنّ صيغة الفعل المضارع تدُلُّ على التكرار والتجدّد كما ذكر علماء المعاني.

وأرى أنّ اسم الفاعل نظيرُ الفعل المضارع في هذه الدلالة.

وانتهىٰ تدبر سورة «الماعون» بفضل الله وتوفيقه ومعونته وله الحمد والمنة

* * *

سُورَة الكافرون

١٠٩ مصحف ١٨ نزول

(١)

نص السُّورة وفرشيات القراءات فيها

سورة الكافرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ
أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

---

٦ - ● قرأ نافع، وهِشَامٌ، وحفص، والْبَزّي في أحَدِ الوجهين عنه، [وَلِيَ] بفتح ياء المتكلّم.

● وقرأ يعقوب بإسكانها في الوصل والوقف، مع إضافة ياء المتكلم لكلمة «دين» فتكون قراءته: [وَلِيْ دِينِي].

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَلِيْ دِينِ] بإسْكانِ ياء المتكلم في «لِي».

(٢)

ممّا ورد في سبب نزول السورة

(١) أخرج ابن جرير وابْنُ أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس:

«أنّ قريشاً دَعَتْ رسُول الله ﷺ إلى أن يُعْطُوهُ مالاً فيكون أغْنَىٰ رجُلٍ بمكّة، ويُزَوّجُوهُ ما أراد من النساء، فقالوا: هٰذَا لك يا مُحمّد، وكُفَّ عن

شَتْمِ آلِهَتِنا ولا تذْكُرْها بسُوءٍ، فإنْ لم تَفْعلْ فإنَّا نَعْرِضُ علَيْك خَصْلَةً واحدةً، ولَكَ فيها صَلاحٌ.

قال: ومَا هي؟

قالوا: تَعْبُدُ آلِهَتِنا سَنَةً اللاّتَ والْعُزَّىٰ، ونعْبُدُ إلَهَك سَنَةً.

قال: حَتَّىٰ أنْظُرَ مَا يأْتِيني مِنْ رَبِّي.

فجاء الوحي من عند الله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ . . .﴾ إلى آخر السّورة.

وأنزل اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝٦٦﴾. (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول).

لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ: أي: ليَبْطُلَنَّ عَمَلُكَ الصَّالح الذي عَمِلْتَه. يقالُ لغة: حَبِطَ الْعَمَلُ، إذَا بَطَلَ.

هذه الآيات من سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) فيظْهَرُ أنّ المشركين ظلُّوا يُتَابعونَ عرضهم، ولم يكتفوا بما نزل في سورة (الكافرون) فأنزل الله على رسوله هذه الآيات من سورة (الزمر).

(٢) وأخرج ابن جرير بسنَدِه عن محمّد بن إسحاق، قال: حدّثني سعيد بْنِ مينا مولَىٰ البَخْتَرِيّ وَكذلك ابن أبي حاتم وابن الأنباري عن سعيد بن مينا مولى البختري أيضاً، قال:

«لَقِيَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة، والعاصُ بْنُ وائل، وَالأَسْوَدُ بْنُ المطّلِب، وأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، رسول الله ﷺ فقالوا:

يَا مُحَمَّدُ، هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وتَعْبُدْ مَا نَعْبُدُ، ونُشْرِكَكَ في أَمْرِنَا كُلِّه،

فإنْ كَانَ الَّذِي جِئْتَ بِه خَيْراً مِمَّا بأيْدِينَا، كنَّا قَدْ شَرِكْنَاكَ فيه، وأخَذْنَا بِحَظِّنَا مِنْهُ، وَإنْ كَانَ الَّذِي بأَيْدِينَا خَيْراً مِمَّا في يَدَيْكَ، كُنْتَ قَدْ شَرِكْتَنَا فِي أَمْرِنَا، وأخَذْتَ مِنْهُ بِحَظِّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ حتَّىٰ انقضت السورة».

(٣) وأخْرَج عبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وابْنُ المنْذِر وابْنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابْنِ عبَّاس: أَنَّ قُرَيْشاً قالَتْ: (أي: للنبيِّ ﷺ):

«لَوِ اسْتَلَمْتَ آلِهَتَنَا لَعَبَدْنَا إلَهَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ . . .﴾ السورة كُلَّها.

فعلّم اللَّهُ رَسُولَهُ أنْ يُبَيّن لِلْمُشْرِكين الَّذِينَ عَرَضُوا عليه مفاوضاتهم التوفيقيّة بين الإيمان والكفر، أنَّ الإيمان لا يقْبَلُ التبعيض، لأنَّهُ حقٌّ كُلُّه، وهو لا يَقْبَلُ الاخْتِلَاطَ والامْتزاجَ بالباطل، ومَتىٰ امْتَزَجَ بالباطِلِ لم يَعُدْ صَحيحاً ولاَ طَهُوراً، ولَمْ يَعُدْ مقبولاً عند الله عزّ وجلّ.

والإيمان الصحيح الّذي لم يَخْتَلِطْ بالباطِلْ حقُّ اللَّهِ على عباده.

* * *

(٣)

مما ورد في فضائل السورة

(١) أخرج محمد بن نصر والطبرانيُّ في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ الْقُرآنَ و ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ تَعْدِلُ رُبْعَ القرآن، وَكَانَ يَقْرأُ بِهِمَا في رَكْعَتَي الْفَجْر».

ومضمون ما جاء في هذا الحديث قد جاء في عدّة أحاديث أُخْرَىٰ.

(٢) وأخرج ابْنُ أَبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذيّ والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم من فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعيّ عن أبيه

أنَّه قال: يَا رَسُول الله، عَلِّمْنِي ما أقولُ إذَا أَوَيْتُ إلى فِرَاشِي، قال: «إقْرَأ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ①﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَىٰ خَاتِمَتِهَا فإنَّها بَراءَةٌ من الشِّرْك».

ومضمون ما جاء في هذا الحديث قد جاء في عدّة أحاديث أخرى.

(٣) وأخرج البزّار والطبراني وابنُ مردَوَيْهِ عن خَبَّابٍ، أَنَّ النبيّ ﷺ قال: «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجِعَكَ فاقْرَأ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ①﴾».

قال خَبَّاب: وإنَّ النبيّ ﷺ لم يأْتِ فِراشَهُ قَطُّ إلاَّ قَرَأَ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ①﴾ حَتَّىٰ يَخْتِمَ.

(٤) وأخرج أبو عُبَيْد في فضائله، وابنُ الضّريس عَنْ أبي مسعود الأنصاري قال: مَنْ قَرأ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ①﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ في لَيْلَةٍ فقد أكْثَرَ وأطَابَ.

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي لآيات سورة (الكافرون)

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ⑥﴾:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ①﴾:

﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾: هُمُ الْجَاحِدُونَ لِلْحَقّ الدِّينيّ الرَّبَّاني، الّذي جَاءَ بِهِ رُسُلُ اللَّهِ تَبْليغاً لمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بتبليغه للنّاس.

الكُفْرُ: يأتي في اللُّغة بمَعْنَىٰ جُحودِ النِّعْمَة، وهو ضدُّ الشكر، وأصْلُ الكُفر في اللّغة تَغْطِيَةُ الشيء تغطيَةً تَسْتَهْلِكُهُ، وكُلُّ من كفر شيئاً فقد سَتَرَه، ولـهذا يقال للزارع كافِر، لأنه يُلْقِي الحبّ في الأرض ويسْتُرُه بالتراب، وتُسَمِّي العرب الزُّرَّاعَ كُفّاراً، لأنهم يكْفُرون الحبّ المبذور بتُراب الأرض.

وعلى هذا فالكافر في الدّين هو الذي سَتَرَ أدلّة الإيمان والإسلام وجحَدَها بعْدَ أنْ وضَحَتْ له.

وليس الكافر من كانَ خاليَ الذهن من أدِلَّة الإيمان والإسلام، ولا الباحثُ عنها، ولا المتريّثُ حتَّىٰ تتّضِحَ له الأدلّة، بل هو العارف بحقائق عناصر الإيمان والإسلام السّاتِرُ لَها والجاحد بها.

فالكَفْرُ في الدين: هو موقف الرَّفْضِ والجحود، بعْدَ مَعْرفة الحقّ بأدلّتِه المثبتة له، وهذا ما تدلُّ عليه الاستعمالات القرآنيّة المختلفة.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾:

العبادة: هي الخضوع والطاعة والانقياد والقيامُ بما يُرْضِي المالِكَ المعْبُودَ، وتَرْكُ ما لا يرضيه من كلّ سُلُوكٍ إراديّ.

والعبادة في الدين: هي كلُّ ذلِكَ مُوجّهاً للرّبّ المالِكِ غيْرِ المدْرَكِ بِالْحَواسّ، ورأسُ عِبادتِهِ تَوْجِيه الدُّعاء له، لتحقيق مطالب الدنيا والآخرة، والصّلاةُ له، والقيامُ بأعمال قلبيّة ونفسيّة وجَسَدِيَّة تُعبّر عن إفراده بالرُّبُوبيّة والإلَهيَّة. وهذه العبادة لا تكون إلاّ للخالقِ الرّبّ جلّ جَلالُه، فهو وحْدَهُ الذي يسْتَحِقُّها، ولا شيءَ سواه له رُبُوبيَّةٌ أو إلَهيَّة، فمن عَبَدَ بهذه العبادة غيْرَ الله فقد كفر بالله.

والعبادة قسمان: جَبْرِيَّةٌ واختيارِيَّة.

فالجبْرِيَّةُ هي الطاعة التامَّة لأوامر التكوين، وهذه لا فضْلَ فيها لِمَنْ تَجْرِي فيه أو علَيْه، ويخضع لها كُلُّ ما سوىٰ اللَّهِ في الوجود.

والعبادة الاختيارية: هي السُّلوك الإراديُّ الواعي المحقِّق لمطلوب الرَّبِّ من عبْدِه، أو لما يُرْضيه منه، على ما شرَع، مع قَصْدِ عبادته وحده لا شريك له، وهذه العبادة هي الّتي كلّف اللّهُ عِبَادَهُ أن يؤدُّوها في رحلة امتحانهم في الحياة الدّنيا، وهي الّتي رتّبَ عليها الثواب العظيم الخالد في جنّات النعيم، يوم الدين، مع ثوابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا قد يَمْنَحُهُ اللّهُ عباده.

وقد عَلِمْنَا من روايات أسباب نزول السورة، أنّها نزلَتْ بمناسبة ما عرضه مشركو قريشٍ على الرسول ﷺ، من الْمُصَالَحَة الدّينيَّة، فَيَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ سنةً، ويَعْبُدوا إلَهَهُ سنَةً، أو يخْلِطُوا الدّينَيْن، فَيَعْبُدوا هُمْ ما يَعْبُدُ ويَعْبُد هو ما يعبُدون.

وقَدْ حَسَمَ اللّهُ الأمْرَ بتًّا، فأنْزَلَ على رسوله هذه السورة، وهي تتضمَّن توجيهاً للرَّسُول ﷺ، ولكلّ مؤمن مُسْلمٍ من بَعْدِه.

فبدأ الله عزّ وجلّ السُّورة بأمْرِ التكليف ﴿قُلْ﴾ وعلَّمَ رسُوله وسائر المؤمنين المسلمين أَنْ يُنَادوا المكذّبين الجاحدين بوصفهم المشتَقِّ من الكُفر، فيُوَاجِهُوهُمْ بالنّداء التالي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وأنْ يُعْلِنُوا لهم بكلّ حَزْمٍ وعَزْمٍ وإصرارٍ رَفْضَ المساومة في الدِّين قولاً واحداً.

إنّ عرْضَ المشركين يتضَمَّنُ مُفَاوَضَةً توفيقيَّةً بَيْنَ الإيمان والكُفر.

والتعْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ بشأن هذه المفاوضة يتضمَّنُ أن الإيمانَ والإسلام لا يقْبَلَانِ التَّبْعِيض، لأنَّهُما الجامعان لدين اللّهِ الذي اصطفاه لعباده، ودَينُ اللّهِ حقٌّ كُلُّه، فلا يَقْبَلُ التبعيض ولا الاختلاط والامتزاج بالباطل، ومتَىٰ امتزج بالباطل تنجَّسَ فَلَمْ يَبْقَ طَهُوراً ولاَ طاهراً، ويُمْسِي غير مقبولٍ عند اللّهِ عزَّ وجلّ.

ويتضمّن هذا التعليم الرَّبَّانيُّ أنّ عِبادَة اللّهِ عزّ وجلَّ لاَ تقْبَلُ الشِّرْكَ به، فَمَنْ أشرَكَ بعبادته أحداً غير الله لَمْ يَكُنْ للّهِ عابداً، إذْ يَرُدُّ اللّهُ عليه عبادته، فهو أغنَىٰ الشركاء عن الشِّرْك.

وعبادَةُ غير الله إمَّا أن تكون على معنى أنّ غير الله لَهُ مُشاركةٌ لله في رُبوبيّته، وهذا كُفرٌ بالله وباطل، لأنّ الله عزَّ وجلَّ هو الرَّبُّ وحْدَهُ في الوجود، ولَيْسَ له شريكٌ في ربُوبيّته، وإمّا أن تكونَ على معنَىٰ التَّقرُّب إلى اللَّهِ عزّ وجلّ بعبادة الشركاء، وهذا لا يكون إلاّ بأمْرٍ أو بإذْنٍ من اللَّهِ الرَّبّ الخالق الرازقِ المحيي المميت المحاسِب والمجازي على الأعمال الاختياريّة، صاحِبِ الحقّ وحْدَه بالعبادة.

لكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْ ولَمْ يَأْذَنْ لأحَدٍ بعبادة غَيْرِه، فَقَدْ أوْحَىٰ لكُلِّ رسُولٍ ونبيٍّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ كما جاء في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: بل اللَّهَ وَحْدَهُ فَاعْبُدْ وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ بعبادتِكَ لَهُ، على ما أنعم به عليك من نِعَمٍ جَليلة.

فالمساوَمَة على الدّين، والمصالحَةُ فيه مرفوضة رفضاً كُلّيًا، إذْ لَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ من المخلوقين أنْ يُساوِم أو يُصَالح على دين الله الحقّ.

إنّ الدّين دِينُ الله، والدّين عند الله هو الإسلام لله عزّ وجلّ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، ومَنْ يبْتَغِ غَيْرَ الإسْلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ منه، وهُوَ في الآخِرَةِ من الخاسرين.

ويتضَمَّنُ هذا التعليم أن يُعْلِنَ الرَّسُولُ وكلُّ مؤمن مسلم من أمَّتِه للكافرين الانفصالَ التامَّ بيْنَه وبيْنَهُمْ، وأنَّه لاَ تَلاقِيَ بين الحقّ والباطل، ولا خلط ولا مزْجَ ولا مُهَايَأَة ولا مصالحةَ مطلقاً، فلهم دينُهُمُ الباطل، ليس للمؤمن المسلم منه شيْءٌ، ولَهُ دينُهُ الحقُّ ليْسَ لهم منه شيءٌ، إلاّ أَنْ يَتْرُكُوا باطلهم ويتَّبِعُوا ما أنزل اللَّهُ على رسوله.

أمّا التكرار في عبارات: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾.

فَيَحْتَمِلُ وُجُوهاً:

(١) فمنها أنّ العرض الّذي عرضُوه يقْتضِي تقسيم العبادة بيْنَ الله وبين الشّركاء على نوبَاتٍ زمنيّة، وهذه تقتضي التكرار لدى التطبيق، فقابلها التعليمُ الرّبّانيُّ برفضٍ متكرّر، ليُقَابلَ الرّفْضُ صورة العرض، وهذا لوْنٌ بديعٌ من فُنُون البيان، مذوقٌ ومُسْتَعْمَلٌ تلْقائِيًّا في نحو هذا من إجابات الرفض على مثل العرض الذي عَرَضَهُ المشركون.

(٢) ومنها تأكيد الرفض على عادات النّاس في تكرير المفردات والجمل للتأكيد، وله نظائر كثيرة لدى الأدباء والشعراء، وقد نَصَرَهُ الشَّوْكَانيّ.

(٣) ومنها حَمْلُ أَحَدِهِمَا على الحال، وحمْلُ الثاني على الاستقبال.

(٤) ومنها حَمْلُ أَحَدِهِمَا علَىٰ المعبود، إذا اعتبرنا لفظ «ما» فيه اسم موصول، وحَمْلُ الآخر على نوع العبادة، إذا اعْتَبَرْنا أنّ لفظ «ما» فيه حرْفٌ مصدريٌّ يكُونُ هو وما بَعْدَهُ في تأويل مصدر، أي: لا أعْبُدُ عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي.

(٥) وأضيف وَجْهاً خامساً بَدَا لي، وتفصيله كما يلي:

- **أنّ الجملة الأولى:** ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ هي على معْنَىٰ: لاَ أنْشِئ أيَّ عِبادَةٍ لمَا تَعبدُون من شركائِكُمْ، حاضراً ولا مستقبلاً، فالْعَرْض مرفوضٌ كُلُّهُ قَوْلاً واحداً.

- **وأنّ الجملة الثانية:** ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ هي على معنىٰ: أنّكم لو عَبدتُّمُ اللّهَ مَعِي، في النَّوْبَةِ الّتِي تقرّرُونها لعبادته، أو

عَبَدتُّم الله مع عبادتكم شركاءكم، فأنْتُمْ لاَ تَزالُون على عقيدتكم من الشِّرْك، لذلِكَ فإنكم لاَ تكونون عابدين في الحقيقة مَا أعْبُدُ، لأَنَّ العبادة الصحيحة لله عَزَّ وجلَّ شَرْطها صحَّةُ الاعتقاد، في «لا إلّه إلاّ الله» الّتي تفرض توحيد الإلّهيَّة لله عزّ وجلّ، وهذه غير حاصِلَةٍ لديْكُمْ، فعبادتكُمْ للّهِ مُنْعَدِمَة، ولو زعَمْتُم أنّكُمْ تَفْعَلُونها، ولو صَدَقْتُم في ذلِكَ ولم تُنَافِقُوا.

● **وأنّ الجملة الثالثة:** ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾ هي على معنىٰ: أنِّي لو تظَاهَرْتُ لكُمْ بِمُسَايَرَةِ عَرْضِكُمْ لاجْتِذَابكم ـ على سبيل فرض المحال الذي لا يكون فقد سبَقَ رَفْضُهُ بتًّا ـ فإنَّنِي لا يُمْكِنُ أنْ أكُون في الحقيقة عابداً ما عبدتُّمْ، إذْ لا أُومِنُ بشُرَكائكُمْ، فهي في عِلْمي واعتقادي باطل، وعبادَتُها شِرْكٌ بالله، ومُحْبِطٌ للأعْمالِ، واللّهُ لاَ يَغْفِرُهُ.

● **وأنّ الجملة الرابعة:** ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾ هِيَ علىٰ معْنَىٰ: أنَّكُمْ لو تظاهرتم بعبادة ما أعبُد، فإنَّكُمْ في الحقيقة ستكونُون منافقين كاذبين، لا تَعْبُدونَ حَقيقةً ما أعبُد، لمخالفة هٰذه العبادة لمَا تتعلَّقُونَ به من شركائكم.

فالموقف الإيمانيّ الإسلاميّ تجاه عرض المشركين الكافرين موقفٌ واضِحٌ مُحَدَّدٌ، لَهُمْ دينُهُمْ، فَلَيْسَ لنا منه شيءٌ يخالِفُ دينَنَا، ولَنَا دِينُنَا، فلَيْسَ لهم منْهُ شَيْءٌ ما دامُوا على شركهم.

● ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾: بحذف ياء المتكلّم، أي: ولِيَ ديني، ومثل هذا الحذف الإيجازيّ في اللّفظ شائع في العربيّة، وله نظائر كثيرة في القرآن المجيد.

بهذا التفصيلِ في دلالات الْجُمَل تكُونُ كُلُّ جُمْلَةٍ ذَاتَ دَلاَلَةٍ خاصَّة، واللّهُ أعْلَمُ بمراده.

ولا أرَىٰ لزوماً لما ذكره بعْضُ المفسّرين من حمْلِ الخطاب في

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ على أنَّه عامٌّ أُرِيدَ به خُصُوصٌ من عَلِمَ اللَّهُ أنّه سيموتُ كافراً لأن الخطاب للكافرين مقصودٌ به من اتصف بالكفر ما دام كافراً، كما يُقَالُ للعاصي وهو مُتَلَبِّسٌ بالمعصية يا أيُّها العاصي، لكنّه قد يَتُوبُ ويُقْلِعُ عَنْ معصيته، وكما يُقالُ للنائم يا أيُّها النائِمُ استيقظ، فإذا استيقظ لم يَصِحَّ أن يُقَالَ له ذلك، وكذلِكَ إذا آمَنَ الكافر خرجَ من الخطاب بعبارة ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ①﴾ تلقائيًا بإيمانه وليس المقصود بالخطاب أفراداً بأعيانهم يلزمهم الخطاب دواماً، إذ السورة تتحدَّثُ عن المبادئ، ومناسَبَة ما عرضه المشركون على الرسول ﷺ قد استثارت الحديث عن المبدأ حول موضوع العرض، ولم تَنْزل لمعالجةِ شَخْصِيَّةٍ لأشخاص بأعيانهم فقط.

إنّ عرض بعض كبراء مشركي قريش يتضمّن تأليف دين جديد مختلط من حقٍّ وباطل، في مزيج أو خليط متنافر، تتنافر عناصره أوّلاً، ثمّ تهدأ ليتألّفَ مِنْهَا باطِلٌ جديد، تضيع عناصر الحقّ فيه وتفسد.

إنّ صراط الحقِّ واضحٌ بيّن، محدّدُ المعالم، مستقيمٌ لا اعْوِجَاجَ فيه، وأيُّ عبَثٍ فيه أو انحرافٍ عنه يجُرُّ إلى الباطل فالتَّهْلُكَةِ لا محالة.

والخطابُ للكافِرين في السُّورة يَتَضَمَّنُ أعْنَفَ مُواجَهَةٍ للمساومين على الباطل، المداهِنين للحقّ، الذين يُفَاوِضُونَ للخلط بين الحقّ والباطل، بغية إقَامَةِ مُصَالَحةٍ توفيقيَّة بين متناقضات لا يمكن اجْتِماعُها، إذْ يَصِفُهم بدون مقدّماتٍ ليّنَةٍ بأنَّهُمْ كافرون، أي: مبطلون يجْحَدُونَ الحقّ، ويسْتُرُونَ جحودهم بالمعاذير الكلامية، والْعِلَلِ السّاقطة، الّتي لا تَنْهَضُ بها حُجَّةٌ مقبولة.

وتتضمَّنُ هذه المواجهة عدّة مفهومات:

المفهوم الأول: أَنَّ ما نُؤمِنُ بِهِ وَنَدْعُو إليه حقٌّ لاَ شَكَّ فيه، ولا شبْهَةَ حوله.

المفهوم الثاني: أَنَّ ما عليه المشركون الكافرون باطل واضح البطلان، دُونَ شكٍّ، وما على الكافرين إلاّ أن ينبذُوه.

المفهوم الثالث: إعلام الكافرين بأنّ ما هم عليه باطل حتماً، ولكنَّهُمْ يسْتُرُونَ باطِلَهُمْ بما يَصْطَنِعُونَ بألسنتهم من زيوف، ويسْتُرُونَ الحقَّ وأدلَّتَهُ البرهانيّة بزُخْرُفِ من القول.

إنّ هذه المساومة الصلحيَّةَ في الدين التي جاء بها فريق من قادة كفّار قريش، أسْلوبٌ شيطانيٌّ خبيث، يُخْفُون فيه مزلقاً من المزالقِ الماكرة الخطيرة، الّتي تفضي إلى وأدِ الحقّ على أيْدي دُعاته ورُوّادِه، وحَامِلي لوائه، إن استجابوا لها.

وكثيراً ما يَغْتَرُّ بَعضُ الناس بمِثْلِ هذا العرْض، بحُجَّةِ المحافظة على وَحْدَةِ الصَّفّ، وجَمْعِ الكَلِمَة، ودَرْءِ الْفِتَن، وحِمَايَةِ المجتمع من التفكُّكِ تُجَاهَ الأعداء من خارج البلاد، فَيسْتَجِيبون له، منزلقين إلى الباطل فالخيبةِ والخسران المبين.

إنّهم متَىٰ استجابوا منزلقين إلى قبول شيءٍ من الباطل سقطَتْ دعوتهم، وانهارت أبنيتهم الفكريَّة، وبدا لخصومهم أَنَّهُمْ أصحاب منافع ومصالح دُنيويَّة، لا أصحاب مبادئ حقٍّ يدعُونَ الناسَ إليها، ويكافِحُونَ من أجْلِها، ولا يَقْبَلُونَ المساومة عليها.

والأمْرُ يشْتَدُّ خطراً حينما تكونُ المساومة والمصالحة على حساب دينِ ربّانيّ، لاَ يَمْلِكُ الناسُ فيهِ إلاّ الإيمان والاتباع، للظفر بنجاتهم من عذاب الله، والسعادة الخالدة في جنّات النّعيم.

إنّ المبادئ الحقّ في الحياة لا تَقْبَلُ التّنصِيف، ولا المساومة عليها، والمصالَحةَ فيها، قطعاً.

ذلك لأنّ أوّل خطوة من خطوات المساومة والمصالحة في أمْرِ

المبادئ والحقائق الاعتقادية، هي أوّل خطوة في طريق الضعف والوهن والانحراف. ولأنّ أيَّ تنازل عن جزء من الحقّ الّذي يمثّل وحدة اعتقاديّة متكاملة هو تنازُلٌ عن الحقّ كُلّه، الشامل لكلّ عناصره، مهما كانت الذرائع، إذ المبادئ والحقائق الاعتقاديّة هي الجوهر والأصل الثابت، وما عداها من مصالح شخصيّة أو غايات مرافقات لها فإنّها خَارِجَةٌ عنها، وغَيْرُ دَاخِلَةٍ في عناصرها.

إنّ وحدة الصف لا ترقى بحالٍ من الأحوال إلى مستوى وحدة المبدأ الحق، فوحدة الصف الذي لا تجمعه وحدةُ مبدأ حقٍّ يُكَوّنُ صَفًّا خليطاً من أصحاب مبادئ متنافرة، وعقائد متباينَة، ومصالح متخالفة، وما أسرع ما تدبُّ خلافات المصالح الفرديّة فيه، فَتُفَكّكُهُ وتمزّقه وتشتّته.

إنّ الذي يقبل المساومة والمصالحة من الحقوق إنما هي الحقوقُ الشخصيَّة، الّتي ترتبط بها مصالح دُنيويّة، فلِلْفَرْدِ أَنْ يُسَاوِمَ وَيُصَالِحَ على حقٍّ مالِيٍّ له، فيتنازل عنه أو عن جُزْءٍ منه، ويسامح بسائره، حرصاً على وحدة الصّفّ، وجَمْعِ الْكَلِمة، واستبقاء الألفة والمحبَّة بين الإخوة.

فالحفاظ على وحدة الصّفّ وجمع الكلمة أجَلُّ وأسْمَىٰ من المصالح الشخصيَّة الفردية، وتنازل الفرد عن حقّه الشخصيّ من أجل وحدة صفّ الجماعة فضيلةٌ خلقيّة عظيمة، وإيثارٌ محمود.

وربّما تحْسُنُ المساومة والمصالحة في الطّرُق المؤديّة إلى الغاية الواحدة المشتركة، إذا اختلفت الاجتهادات في أسْهَلها أو أقربها أو أكثرها سلامةً وأمْناً، مع احتفاظ المتنازل عن العمل باجتهاده في الطّرُق والوسائل بما رأىٰ، على أنّه فكرةٌ موقوفة التنفيذ إذْ وافق على العمل برأي غيره، حرصاً على وحدة الصّفّ، الّتي تتكاثَرُ بها الْقُوىٰ لتحقّقَ الغاية، إذْ لو تفرّقَ أصحابُ الآراء، فَعَمِلَ كلُّ واحد منهم بما رأىٰ في اجتهاده الخاصّ،

لتبَدَّدتِ الطاقات، وخاب العاملون جميعاً في الوصول إلى الغاية المنشودة لهم جميعاً، أو لفشلوا بسبب تنازعهم، وعلى هذا يُحْمَلُ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

فَتَفْشَلُوا: أي: فتَضْعَفُوا وتجبُنُوا.

وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ: أي: وتذهَبَ قُوَّتُكُمْ، ولا يكونُ لكم النَّصْر والغلبة.

أمّا أصحاب الحقّ الاعتقاديّ، وأصحاب الباطل، فالنزاع قائم بين الفريقين لا محالة، وأيّةُ محاولة للتوفيق بين الحقّ والباطل، إنّما هيَ تقوية للباطل على الحقّ، وتكثيرٌ لسواده، وتجميع لقواه، حتّىٰ ينقضّ على البقيّة الباقية من الحقّ فيغتالها.

وبهذا تمّ بحمد الله وتوفيقه تدبر سورة الكافرون

* * *

الفهرس

الموضوع — الصفحة

المقدمة العامة ٥

مفهومات تتعلّق بالاستعاذة والبسملة ٩

(١) الاستعاذة، وتدبرها ٩

(٢) حكم الاستعاذة قبل القراءة في الصلاة ١١

(٣) البسملة ١٢

- كونها آية من القرآن ١٣
- الاختلاف في كون البسملة جزءاً من أوائل سور القرآن باستثناء سورة «براءة» ... ١٣

(٤) التدبر التحليلي للبسملة ١٨

(٥) مناقشة حول كون «اسم» مقحمة في البسملة ٢٢

(٦) الشرح العام للاستعاذة والبسملة ٢٥

(٧) من وجوه البلاغة في البسملة ٢٨

سورة العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول

مقدمات ٣١

(١) بحث حول نزولها ٣١

(٢) نصّ السورة وما فيها من فرشيات القراءات ٣٢

(٣) ما جاء في السنة حول سورة العلق ٣٣

(٤) موضوع السورة ودروسها ٣٧

(٥) التدبر التحليلي للدرس الأول الآيات من (١ ـ ٥) من العلق ٤١

- **﴿إقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾** ٤١
- ﴿باسم ربّك﴾ ٤٢
- ﴿الذي خلق﴾ ٤٦
- ﴿خلق الإنسان من علق﴾ ٤٧
- ﴿اقرأ وربّك الأكرم﴾ ٤٨
- ﴿الذي علّم بالقلم﴾ ٤٩
- ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ ٥٠

(٦) نظرة إجمالية عامة للدرس الأول ٥١

الموضوع **الصفحة**

(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثاني الآيات من (٦ ـ ٨) من العلق ٥٥
- ﴿كلّا إنّ الإنسان ليطغىٰ * أن رآه استغنى﴾ ٥٥
- ﴿إنّ إلى ربّك الرُّجْعىٰ﴾ ٥٨

(٨) نظرة إجمالية عامة للدرس الثاني ٥٩
(٩) التدبر التحليليّ للدرس الثالث من (٩ ـ ١٩) ٦١
- تمهيد ٦٢
- ﴿أرأيت الذي ينهىٰ * عبداً إذَا صلَّىٰ﴾ ٦٣
- ﴿أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى﴾ ٦٥
- ﴿أرأيت إنْ كَذَّبَ وتولّى (١٣)﴾ ٦٦
- ﴿ألم يعلم بأن الله يرى (١٤)﴾ ٦٦
- ﴿كلاّ لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية...﴾ إلى الآية ١٨ ..... ٦٧
- ﴿كلا لاَ تُطعْه واسجُدْ واقترب (١٩)﴾ ٧٠

(١٠) نظرة إجمالية عامّة ٧٠

سورة المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول

(١) بحث حول نزولها ٧٧
(٢) نص السّورة وما فيها من فرشيات القراءات ٧٨
(٣) ممّا جاء في السنة حول سورة المدثر ٨٠
(٤) موضوع السورة ودروسها ٨١
(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول الآيات من (١ ـ ٧) من المدثر ٨٤
- تمهيد ٨٤
- ﴿يا أيها المدثر * قم فأنذر﴾ ٨٥
- ﴿وربك فكبّر﴾ ٨٦
- ﴿وثيابك فطهر﴾ ٨٨
- ﴿والرُّجْزَ فاهْجُرْ﴾ ٨٨
- ﴿ولا تمنن تستكْثِر﴾ ٨٩
- ﴿ولرَبّك فاصْبِرْ﴾ ٩١

(٦) نظرة إجمالية عامّة للدرس الأول ٩١
(٧) التدبر التحليلي للدرس الثاني. الآيات من (٨ ـ ١٠) من (المدثر) ٩٢
- ﴿فإذا نُقِرَ في الناقور﴾ ٩٢
- ﴿فذلك يومئذٍ يوم عسير * على الكافرين غير يسير﴾ ٩٤

(٨) التدبر التحليلي للدرس الثالث. (الآيات من (١١ ـ ٣٧) ٩٥
- ما ورد في سبب النزول﴾ ٩٦
- ﴿ذَرْني ومن خلقتُ وحيداً﴾ ٩٩

الموضوع الصفحة

- ﴿وجعلت له مالاً مَمْدوداً﴾ ١٠١
- ﴿وبنين شهوداً﴾ ١٠٢
- ﴿ومهّدتُ له تمهيداً﴾ ١٠٢
- ﴿ثم يطمع أن أزيدَ﴾ ١٠٣
- ﴿كلاّ إنَّهُ كان لآياتنا عَنِيداً﴾ ١٠٤
- ﴿سأرهقه صعوداً﴾ ١٠٥
- ﴿إنه فكّرَ وقَدَّر * فقُتِلَ كيف قَدَّر﴾ وحتى الآية ٢٥ .... ١٠٦
- ﴿سأصليه سقَر﴾ وحتى الآية ٣٠ .... ١٠٩
- ﴿عليها تسعة عشر﴾ ١١١
- ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة﴾ ١١٣
- ﴿وما هي إلاّ ذكرى للبشر﴾ ١٢١
- ﴿كلاّ والقمر * والليل إذْ أدبر﴾ وحتى الآية ٣٧ .... ١٢٣
- ﴿والليل إذْ أدْبر﴾ ١٢٤
- ﴿والصبح إذا أسفر﴾ ١٢٤
- ﴿إنّها لإحْدَىٰ الكُبَر * نذيراً للبشر﴾ ١٢٥
- ﴿لمن شاء منكم أن يتقدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ ١٢٦

(٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (المدثر) الآيات من (٣٨ ـ ٤٨) ... ١٢٧

- نظرة عامة حول هذا الدرس ١٢٧
- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ رهينة * إلاّ أصحاب اليمين﴾ ١٢٩
- ﴿في جنَّاتٍ يتساءلُون * عن المجرمين﴾ ١٣١
- ﴿مَا سَلَكُمْ في سَقَرَ﴾ وحتى الآية ٤٧ .... ١٣٢
- ﴿ولم نَكُ نُطعم المسكين﴾ ١٣٣
- ﴿وكنّا نخوض مع الخائضين﴾ ١٣٤
- ﴿وكُنّا نكذِّب بيوم الدِّين﴾ ١٣٥
- ﴿حتَّىٰ أتانا اليقين﴾ ١٣٦
- ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ ....

(١٠) التدبّر التحليلي للدرس الخامس من المدثر الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) ١٣٦

- نظرة عامّة حول هذا الدرس ١٣٧
- ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ ١٣٩
- ﴿كأنّهم حُمُرٌ مستنفرة * فَرّت من قسورة﴾ ١٤٠
- ﴿بل يريد كلُّ امرئ منهم أنْ يُؤتَىٰ صُحُفاً منشَّرَةً * كلاّ بل لا يخافون الآخرة﴾ . ١٤٢
- ﴿كلاّ إنّه تذكرة * فمَنْ شاء ذكره﴾ ١٤٣
- ﴿وَما يذكرون إلاّ أن يشاء اللّه﴾ ١٤٤

الموضوع الصفحة

● ﴿... هو أهل التقوىٰ وأهل المغفرة﴾ ١٤٤
● بيان أدبيّ حول مضامين الدرس الخامس ١٤٥

سورة المزّمل

/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول

(١)● بحث حول نزولها ١٥١
(٢)● نصّ السورة وما فيهما من فرشيات القراءات والآيات المدنية منها ١٥٣
(٣) موضوع السورة ١٥٥
(٤) بيان دروس السورة ١٥٦
(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول منها الآيات من (١ ـ ١١) ١٥٦
● ﴿يا أيها المزمّل﴾ ١٥٧
● ﴿قم اللّيل إلاّ قليلاً﴾ ١٥٨
● ﴿نصفه أو انقص منه قليلاً﴾ ١٥٩
● ﴿أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً﴾ ١٦٠
● ﴿إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ ١٦١
● ﴿إنّ ناشئة اللّيل هي أشدّ وطئاً وأقوم قيلاً﴾ ١٦٤
● ﴿إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ ١٦٦
● ﴿واذكر اسم ربّك وتبتّلْ إليه تبتيلاً * رَبّ المشرق والمغرب لا إلّه إلاّ هو فاتخذْهُ وكيلاً﴾ ١٦٨
● ﴿واصْبِر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾ ١٧١
● ﴿وَذَرْني والمكذبين أُولي النعمة ومهّلهم قليلاً﴾ ١٧٤
● خلاصة الدرس الأول ١٧٥
(٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس (المزمل) الآيات من (١٢ ـ ١٩) .
● مقدمة﴾ ١٧٦
● ﴿إنّ لدينا أنكالاً وجحيماً﴾ ١٧٦
● ﴿وطعاماً ذا غُصّة﴾ ١٧٧
● ﴿وعذاباً أليماً﴾ ١٧٩
● ﴿يوم ترجف الأرض والجبال...﴾ ١٧٩
● ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ ١٨٠
● ﴿إنّا أرسَلْنَا إليكم رسولاً شاهداً عليكم...﴾ ١٨١
● ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ ١٨٢
● ﴿فعصَىٰ فرعَوْنَ الرّسُول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ وحتى الآية ١٨ .... ١٨٢
●﴿إنّ هذه تذكرة فمن شآء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴿١٩﴾﴾ ١٨٦
(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة الآية (٢٠) ١٨٧

الموضوع **الصفحة**

● مقدمة ١٨٧
● تدبر النصّ ١٨٨
● حكمة النسخ في أحكام الدّين ١٩٣

سورة القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول

(١) نصّ السّورة وما فيها من فرشيات القراءات ١٩٧
(٢) موضوع السورة ١٩٩
(٣) بيان دُرُوس السورة ٢٠٣
(٤) التدبر التحليلي للدرس الأول من سورة القلم الآيات من (١ ـ ١٦) ٢٠٤
● حروف التهجي في بعض أوائل السور بمناسبة (ن) والقلم ٢٠٥
● ﴿..والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ ٢٠٨
● ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجراً غير ممنون﴾ ٢١٣
● ﴿وَإِنَّكَ لعلى خلق عظيم﴾ ٢١٣
● ﴿فستبصر ويبصرون * بأيكُم المفتون﴾ ٢١٤
● ﴿إِنَّ رَبَّكَ هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (٧)﴾ ٢١٥
● ﴿فلا تطع المكذبين * ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾ ٢١٦
● ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حلاّفٍ مهين﴾ وحتى الآية ١٦ .... ٢٢٦
● ﴿ ولا تطع كلَّ حلاّف مهين﴾ ٢٢٧
● ﴿همّاز مشّاءٍ بنميم﴾ ٢٢٨
● ﴿مناعٍ للخير معتدٍ أثيم﴾ ٢٢٩
● ﴿عُتُلِّ بعد ذلك زنيم﴾ ٢٣٠
● ﴿أَنْ كان ذا مالٍ وبنين * إذا تُتْلَىٰ عليه آيَاتُنا قال أساطير الأولين﴾ ٢٣١
● ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ ٢٣٢
(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني من سورة القلم الآيات من (١٧ ـ ٣٣) ٢٣٣
● درس مدنيُّ التنزيل ٢٣٤
● ﴿إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة... (١٧)... (١٨)﴾ ٢٣٥
● ﴿فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم﴾ ٢٣٧
● ﴿فتنادَوا مصبحين... (٢١).... (٢٤)﴾ ٢٣٨
● ﴿وغَدَوا على حَرْدٍ قادرين (٢٥).... (٢٧)﴾ ٢٤٠
● ﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحونَ (٢٨)... (٣٢)﴾ ٢٤٢
● ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (٣٠)... (٣٢)﴾ ٢٤٤
● ﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلَمُون (٣٣)﴾ ٢٤٥
(٦) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس القلم الآيات من (٣٤ ـ ٤٧) ٢٤٦
● **تمهيد** ٢٤٧

الموضوع الصفحة

- ﴿إنّ للمتقين عند ربّهم جنّات النعيم﴾ ٢٤٧
- ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون﴾ ٢٤٨
- ﴿أم لكم كتابٌ فيه تدرسون * إنّ لكم فيه لما تخيّرون﴾ ٢٥١
- ﴿أم لكم أيمانٌ علينا بالغة إلى يوم القيامة إنّ لكم لَما تحكمون * سلهم أيُهُمْ بذلك زعيم﴾ ٢٥٢
- ﴿أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ۝٤١﴾ ٢٥٣
- ﴿يوم يكشف عن ساقٍ ويُدْعَونَ إلى السجود فلا يستطيعون﴾ وحتى الآية ٤٣ ... ٢٥٤
- ﴿ذرني ومن يكذّب بهذا الحديث سنستدرجم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إنّ كيدي متين ۝٤٥﴾ ٢٥٧
- ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون ۝٤٧﴾ .. ٢٦١

(٧) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة القلم الآيات من (٤٨ ـ ٥٠) ٢٦٥

- درس مدني التنزيل ٢٦٥
- ﴿فاصبر لحكم ربّك...﴾ ٢٦٧
- ﴿ولا تكن كصاحب الحوت...﴾ ٢٦٨
- ﴿إذْ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمةٌ من ربّه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربّه فجعله من الصالحين﴾ ٢٦٩

(٨) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة القلم الآيتان الأخيرتان من السورة (٥١ ـ ٥٢) ٢٧١

- تمهيد ٢٧١
- ﴿وإنْ يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ ٢٧١
- ﴿ومَا هو إلاّ ذكر للعالمين﴾ ٢٧٣
- تأثير الإصابة بالعين ٢٧٣

سورة الفاتحة / ١ مصحف/ ٥ نزول

(١) مقدمة حول تسميتها ٢٧٩
(٢) نص السورة وما فيها من فرشيات القراءات ٢٨١
(٣) ما جاء في السنة بشأن فضائل سورة الفاتحة ٢٨٢
(٤) موضوع سورة الفاتحة ٢٨٥
(٥) التدبر التحليلي للسورة ٢٨٧

أولاً: تدبر ما تحت العنوان الأول من الكليات الكبرى للسورة ٢٨٧

- ﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمٰن الرحيم * مالك يوم الدين﴾ ٢٨٧

ثانياً: تدبر ما تحت العنوان الثاني من الكليات الكبرى للسورة ٢٩٧

- ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ٢٩٧

الموضوع الصفحة

● العبادة في مفهوم الدين الربّاني الحق ٢٩٨
ثالثاً: تدبر ما تحت العنوان الثالث من الكليات الكبرى للسورة ٣٠٠
● ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ ٣٠١
رابعاً: تدبّر ما تحت العنوان الرابع من الكليات الكبرى لسورة الفاتحة ٣٠٣
● ﴿صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين﴾ ٣٠٣
● إطلاق لفظ النعمة في القرآن على الرسالة وعلى الدين ٣٠٨
● ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ ٣١٠
ملاحق سورة الفاتحة ٣١٣
(٦) الملحق الأول: حول كلمة «آمين» بعد تلاوة الفاتحة ٣١٣
(٧) الملحق الثاني: ممّا جاء في سورة الفاتحة من بلاغيّات ٣١٥
(٨) الملحق الثالث: وجوب تلاوة «الفاتحة» في الصلاة ٣١٦
(٩) الملحق الرابع: نظرات تدبريّة حول الآيات التي جاء فيها لفظ «سبيل ـ طريق ـ منهاج ـ صراط» ٣١٩
أولاً: مادّة «سبيل» ٣٢١
ثانياً: مادّة «طريق» ٣٢٨
ثالثاً: كلمة «منهاج» ٣٢٩
رابعاً: كلمة «صراط» ٣٣٩

سورة المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول

(١) نصّ سورة المسد وما فيها من قراءات من الفرش ٣٧٧
(٢) سبب نزول السورة ٣٧٧
(٣) موضوع سورة «المسد» ٣٨١
(٤) التدبر التحليلي للسورة ٣٨٣
● ﴿تبت يدا أبي لهب وتبّ﴾ ٣٨٤
● ﴿ما أغنىٰ عنه ماله وما كسب﴾ ٣٨٦
● ﴿سيصلَىٰ ناراً ذات لهبٍ﴾ ٣٨٧
● ﴿وامرأته حمّالةَ الحطب * في جيدها حبْلٌ من مَسَدِ ٣٨٨

سورة التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول

(١) السورة وما فيها من القراءات من الفرش ٣٩٥
(٢) ممّا روي عن النبي ﷺ بشأن سورة التكوير ٣٩٦
(٣) موضوع سورة التكوير ودُروسها ٣٩٧
(٤) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة الآيات من (١ ـ ٦) ٣٩٩
أوّلاً: الآيات من (١ ـ ٦) ٣٩٩
تمهيد ٣٩٩

الموضوع الصفحة

- ﴿إذا الشمس كُوِّرت﴾ ٤٠٠
- ﴿وَإذا النجوم انكدَرت﴾ ٤٠٢
- ﴿وإذا الجبال سُيِّرَت﴾ ٤٠٣
- الأحداث التي ستتعرّض لها الجبال (أخذاً من القرآن) ٤٠٣
- ﴿وَإذا العشار عُطِّلت﴾ ٤٠٧
- ﴿وَإذا الوحوش حُشِرَت﴾ ٤٠٨
- ﴿وَإذا البحار سُجِّرَت﴾ ٤٠٨

ثانياً: الآيات من (٧ ـ ١٤) ٤٠٩

- ﴿وَإِذا النفوسُ زُوِّجت﴾ ٤١٠
- ﴿وَإذا الموؤودة سئلت * بأيّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ٤١٠
- ﴿وَإذا الصُّحُف نُشِرَت﴾ ٤١٢
- ﴿وَإذا السّماء كُشِطَت﴾ ٤١٣
- ﴿وإذا الجحيم سُعِّرَت﴾ ٤١٣
- ﴿وإذا الجنة أزْلِفت﴾ ٤١٤
- جواب الشرط المتكرّر: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ ٤١٥
- أفكار مطوية بين درسَي السورة ٤١٦

(٥) التدبّر التحليليّ للدرس الثاني من دروس سورة التكوير الآيات من (١٥ ـ ٢٩) ٤١٨

تمهيد ٤١٨

- ﴿فلا أقسم بالْخُنَّس * الجوار الكنّس﴾ ٤١٨
- ﴿والّليل إذا عَسْعَس﴾ ٤٢٢
- ﴿والصُّبْح إذا تنفّس﴾ ٤٢٢
- ﴿إنَّهُ لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاعٍ ثمَّ أمين﴾ ٤٢٣
- ﴿وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين﴾ ٤٢٥
- ﴿وَما هو بقول شيطان رجيم﴾ ٤٢٨
- ﴿فأيْنَ تذهبون﴾ ٤٢٩
- ﴿إن هو إلاّ ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله ربّ العالمين﴾ ٤٢٩

سورة الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول

(١) نصّ السّورة وما فيها من قراءات من الفرش ٤٣٥

(٢) ممّا رُوي عن النبي ﷺ بشأن سورة الأعلى ٤٣٦

الموضوع **الصفحة**

(٣) تتابع التوجيه التربوي لذكر الله حتى نزول سورة الأعلى ٤٣٧
(٤) دروس سورة الأعلى ووحدة موضوعها ٤٤٠
(٥) التدبّر التحليليّ للدرس الأول من دروس سورة الأعلى الآيات من (١ ـ ٥) ٤٤٢
- ﴿سبّح اسم ربّك الأعلى * الذي خلق فسوّى * والذي قدّر فهدى﴾ ... ٤٤٣
- ﴿والذي أخرج المرعى * فجعله غُثَاءً أحوى﴾ ٤٥٠

(٦) التدبّر التحليليّ للدرس الثاني من دروس سورة الأعلى الآيات من (٦ ـ ٨) ٤٥١
- ارتباط هذا الدرس الثاني بالدرس الأوّل ٤٥١
- ﴿سنقرئك فلا تنسىٰ * إلاّ ما شاء الله إنّه يعلم الجهر وما يخفىٰ﴾ ٤٥٣
- ﴿ونيسّرُكَ لليُسْرَىٰ﴾ ٤٥٥

(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة الأعلى الآيات من (٩ ـ ١٥) ٤٥٧
- ﴿فذكّر إن نفعت الذّكرى﴾ ٤٥٧
- ﴿سيذّكر من يخشىٰ﴾ ٤٦٠
- ﴿ويتجنبها الأشقى * الذي يصْلَىٰ النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيىٰ﴾ .. ٤٦١
- ﴿قَدْ أفلح من تزكّىٰ * وذكر اسم ربه فصلّى﴾ ٤٦٣

(٨) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من السورة. الآيات من (١٦ ـ ١٩) ٤٦٤
- ﴿بل تُؤثرونَ الحياة الدّنيا﴾ ٤٦٤
- ﴿والآخرة خيرٌ وأبقىٰ﴾ ٤٦٥

(٩) ملحق بالسورة حول التسبيح في القرآن ٤٦٧
- اشتقاق مادّة التسبيح ٤٦٩
- التسبيح دواء نافع للنفوس والأعصاب ٤٧٠
- وصايا الله لرسوله بالتسبيح ٤٧١
- تسبيح الكائنات ٤٧٤

سورة اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول

(١) السورة وما فيها من قراءات من الفرش ٤٨٣
(٢) ممّا ورد من أحاديث حول هذه السورة ٤٨٤
(٣) دروس سورة اللّيل ووحدة موضوعها ٤٨٤
(٤) التدبر التحليليّ للدرس الأول من دروس سورة اللّيل الآيات من (١ ـ ٤) .. ٤٨٧
تمهيد ٤٨٧
- ﴿واللّيل إذا يغشى * والنّهار إذا تجلّى﴾ ٤٨٨
- ﴿وما خلق الذكر والأنثىٰ﴾ ٤٨٩
- ﴿إنّ سعيكم لشتّىٰ﴾ ٤٨٩

(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة اللّيل الآيات من (٥ ـ ١١) ٤٩٢
تمهيد ٤٩٢

الموضوع **الصفحة**

- ﴿فأمّا من أعطىٰ واتّقىٰ﴾ ٤٩٤
- ﴿وَصدّق بالحسْنَىٰ﴾ ٤٩٥
- ﴿فسنيسّره لليُسْرىٰ﴾ ٤٩٦
- ﴿وأمّا من بَخِلَ واستغنى * وكذّب بالْحُسْنَىٰ * فسنيسّره للعسرى * وما يغني عنه ماله إذا تردّى﴾ ٤٩٧

(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة اللّيل الآيات من (١٢ ـ ٢١) ٤٩٩

تمهيد ٤٩٩

- ﴿إنّ علينا للهدىٰ﴾ ٥٠٠
- ﴿وإنّ لنا للآخرة والأولى﴾ ٥٠١
- ﴿فأنذرتكم ناراً تلظّىٰ * لا يصلاها إلاّ الأشقى * الذي كذّب وتولّىٰ﴾ ٥٠١
- ﴿وسيُجنَّبها الأتقى﴾ وحتى آخر السورة ٢١ .... ٥٠٢

(٧) ملحق حول بلاغيات في سورة اللّيل ٥٠٥

سورة الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول

(١) نص السورة وما فيها من قراءات من الفرش ٥١١

(٢) ممّا ورد مما يتعلق بسورة الفجر ٥١٣

(٣) دروس سورة الفجر ووحدة موضوعها ٥١٣

(٤) التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة الفجر الآيات من (١ ـ ١٤) ٥١٦

- القراءات ٥١٧
- المراد بالأزمنة التي أقسم اللّه بها في السورة ٥١٨
- ﴿والفجر * وليالٍ عشر * والشفع والوتر ﴾ ٥٢٣
- ﴿والليل إذا يسْرِ﴾ ٥٢٣
- ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ ٥٢٥
- ﴿ألم تر كيف فعل ربُك بعادٍ * إرَمَ ذات العماد﴾ ٥٢٦
- ﴿الّتي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ ٥٢٨
- ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ ٥٢٨
- ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ ٥٢٨
- ﴿الّذين طغَوْا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد﴾ ٥٢٨
- ﴿فصبّ عليهم ربُك سَوْط عذابٍ﴾ ٥٢٩
- ﴿إنّ رَبّك لبالمرصاد﴾ ٥٣٠

(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني من سورة الفجر الأيتان (١٥ و١٦) وكلمة (كلا) من الآية (١٧) ٥٣١

- القراءات ٥٣١
- **تمهيد** ٥٣١

الموضوع الصفحة

- ﴿فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّهُ فأكرمه ونعَّمه فيقول ربي أكْرَمَنِ﴾ ٥٣٢
- ﴿وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانَنِ * كلاّ...﴾ ٥٣٥

(٦) **التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس سورة الفَجر الآيات من (١٧ ـ ٢٠) وكلمة «كلا» من الآية (٢١)** ٥٣٥

- القراءات ٥٣٦
- تمهيد ٥٣٦
- ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ ٥٣٧
- ﴿ولا تحاضُّون على طعام المسكين﴾ ٥٣٧
- ﴿وَتأكلون التراث أكلاً لمّاً﴾ ٥٣٨
- ﴿وتحبّون المال حُبًا جمّاً﴾ ٥٣٩
- ﴿كلاَّ﴾ ٥٣٩

(٧) **التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة الفجر الآيات من (٢١ ـ ٣٠)** ٥٣٩

- القراءات ٥٤٠
- تمهيد ٥٤٠
- ﴿.. إذا دُكّت الأرض دكًا دكًا﴾ ٥٤٠
- ﴿وجاء رَبُّك والملك صفّاً صفّاً﴾ ٥٤١
- ﴿وجيء يومئذٍ بجهنّم...﴾ ٥٤٢
- ﴿.. يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّىٰ له الذكرىٰ﴾ ٥٤٣
- ﴿يقول يا ليتني قدّمت لحياتي﴾ ٥٤٤
- ﴿فيومئذٍ لا يعذّب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد﴾ ٥٤٦
- ﴿يا أيّتها النفس المطمئنّة * ارجعي إلى ربّك راضية مَرْضيّة * فادخل في عبادي * وادخُلي جنتي﴾ ٥٤٧

(٨) **ملحق حول بلاغيات في سورة الفجر** ٥٥٠

سورة الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول

(١) نصّ السورة ٥٥٥

(٢) مما جاء في السنة حول سورة الضحى ٥٥٥

(٣) مواقف العداء ضدّ الرسول ودعوته في مراحل التنزيل حتى نزول سورة الضحى ... ٥٥٦

(٤) موضوع سورة الضحى ودروسها ٥٥٩

(٥) **التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة الضحى الآيات من (١ ـ ٥)** ٥٦٠

- ﴿والضحى * والليل إذا سَجَى﴾ ٥٦٠
- ﴿والليل إذا سَجَىٰ﴾ ٥٦٢
- ﴿ما ودّعك رَبُّك وما قَلَىٰ﴾ ٥٦٣
- ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ ٥٦٣

الموضوع الصفحة

- ﴿وَلسوف يعطيك ربُّك فترضىٰ﴾ ٥٦٤

(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة الضحى الآيات من (٦ ـ ٨) ٥٦٥

- ﴿ألم يجدك يتيماً فآوَىٰ * ووجَدَك ضالاً فَهدى * ووجدك عائلاً فأغنَىٰ﴾
- ﴿ألم يجدْك يتيماً فآوى﴾ ٥٦٦
- ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ ٥٦٧
- ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ ٥٦٨

(٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة الضحى الآيات من (٩ ـ ١١) ٥٦٩

تمهيد ٥٧٠

- ﴿فأمّا اليتيم فلا تقهر﴾ ٥٧٠
- ﴿وَأمّا السّائل فلا تنهر﴾ ٥٧٢
- ﴿وَأمّا بنعمة ربّك فحدّث﴾ ٥٧٣

(٨) الملحق الأول: حول إسناد فعل «وجَدَ يجد» إلى الله في القرآن ٥٧٦

(٩) الملحق الثاني: حول بلاغيات في سورة الضحى ٥٧٩

سورة الشرح/ ٩٤ مصحف/ ١٢ نزول

(١) نص السورة وما فيها من فرشيات القراءات ٥٨٣

(٢) موضوع السورة ٥٨٣

(٣) التدبر التحليلي لآيات سورة الشرح ٥٨٤

- ﴿ألم نشرح لك صدْركَ﴾ ٥٨٤
  - شرح الصدر بمعنى شقه وإخراج حظّ الشيطان منه ٥٨٥
  - شرح الصدر بمعنى البسط والتوسعة وإزالة الضيق ٥٨٨
- ﴿ووضعنا عنك وِزْرَك * الذي أنقض ظهرك﴾ ٥٩٠
- ﴿ورفعنا لك ذكْرَكَ﴾ ٥٩٣
- ﴿فإنَّ مَعَ الْعُسْر يُسْراً * إنَّ مع العسر يُسْراً﴾ ٥٩٤
- ﴿فإذا فَرَغْتَ فَانصبْ﴾ ٥٩٥
- ﴿وإلى ربّك فارغَبْ﴾ ٥٩٦

(٤) ما يستفاد للدّعوة والدّعاة من سورتي الضحى والشرح ٥٩٧

(٥) ملحق حول بلاغيات في سورة الشرح ٦٠٠

سورة العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول

(١) نصّ السورة ٦٠٥

(٢) مما ورد من آثار بشأن سورة العصر ٦٠٥

(٣) موضوع سورة العصر ٦٠٦

(٤) البناء الفكريّ التدرُّجي في سوابق نجوم التنزيل حتى نزول سورة العصر ٦٠٦

(٥) التدبّر التحليلي لآيات سورة العصر ٦٠٧

الموضوع الصفحة

- ﴿والعصر * إنّ الإنسان لفي خُسْر﴾ ٦٠٧
- ﴿إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصَوْا بالصَّبْر﴾ ... ٦١١

(٦) نظرة عامّة إلى الوقت ٦١٧

(٧) الملحق الأول: حول بلاغيات في سورة العصر ٦١٨

(٨) الملحق الثاني: الإنسان مملكة ٦٢٠

سورة العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول

(١) نصّ السورة ٦٢٧

(٢) ممّا روي بشأن سورة العاديات ٦٢٧

(٣) موضوع سورة العاديات ٦٢٨

(٤) التدبّر التحليلي لآيات سورة العاديات ٦٢٩

- ﴿والعاديات ضبحاً﴾ ٦٣٠
- ﴿فالموريات قدحاً﴾ ٦٣١
- ﴿فالمغيرات صبْحاً﴾ ٦٣٢
- ﴿فأثَرْنَ به نقعاً﴾ ٦٣٣
- ﴿فوسَطْنَ به جمعاً﴾ ٦٣٣
- ﴿إنّ الإنسان لربّه لكنود﴾ ٦٣٥
- ﴿وإنّه على ذلك لشهيد﴾ ٦٣٦
- ﴿وإنّه لحبّ الخير لشديد﴾ ٦٣٦
- ﴿أفلا يعلم إذا بُعْثر ما في القبور﴾ ٦٣٨
- ﴿وحُصّل ما في الصدور﴾ ٦٣٩
- ﴿إنَّ ربّهم بهم يومئذٍ لخبير﴾ ٦٣٩

(٥) نظرة عامّة إلى سورة العاديات ٦٤٠

(٦) ملحق حول بلاغيات في سورة العاديات ٦٤٤

سورة الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول

(١) نص السورة ٦٤٩

(٢) مما رُوي بشأن هذه السورة وسبب نزولها ٦٤٩

(٣) موضوع سورة الكوثر ٦٥٢

(٤) سلسلة القذائف الإعلامية الموجهة ضد الرسول منذ بدء التنزيل حتى نزول سورة الكوثر ٦٥٣

(٥) التدبّر التحليليّ لآيات سورة الكوثر ٦٥٥

- ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ ٦٥٥
- ﴿فصَلّ لربّك وانْحَرْ﴾ ٦٥٧
- ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ ٦٥٩

الموضوع الصفحة

سورة التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول

(١) نص السورة وما فيها من فرشيات القراءات ٦٦٣
(٢) مما رُوي بشأن هذه السورة ٦٦٤
(٣) موضوع السورة ودروسها ٦٦٤
(٤) التدبّر التحليلي لآيات الدرس الأول من سورة التكاثر ٦٦٦
- ﴿ألهاكم التكاثر * حتّىٰ زرتم المقابر﴾ ٦٦٦
- التكاثر الملهي من الفانيات الصارف عن العمل للنعيم الخالد ٦٦٨
- استعمال صيغة الفعل الماضي في الآيتين (١ ـ ٢) ٦٧٢

(٥) التدبر التحليلي لآيات الدرس الثاني من دروس سورة التكاثر الآيات من (٣ ـ ٨) . ٦٧٢
- ﴿كلاَّ سَوْفَ تعلمون﴾ ٦٧٣
- ﴿ثمّ كلا سوف تعلمون﴾ ٦٧٣
- مراتب العلم الثلاث وأدلّتها ٦٧٣
- ﴿كلاّ لو تعلمون علم اليقين﴾ ٦٧٨
- ﴿لترَوُنّ الجحيم﴾ ٦٧٩
- ﴿ثم لترَوُنّها عيْنَ اليقين﴾ ٦٨٠
- ﴿ثم لتُسْأَلُنّ يومئذٍ عن النعيم﴾ ٦٨٠
- ترابط دَرْسَي السورة ٦٨٢

(٦) ملحق حول بلاغيات في سورة التكاثر ٦٨٤

سورة الماعون/ ١٠٧ مصحف/ ١٧ نزول

(١) نص السورة ٦٨٧
(٢) موضوع سورة الماعون ٦٨٧
(٣) سوابق الحديث عن الجزاء الرّبّاني في نجوم التّنزيل ٦٨٨
(٤) التدبر التحليلي لآيات سورة الماعون ٦٩٠
- ﴿أرأيت الذي يكذّب بالدّين﴾ ٦٩٠
- ﴿فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم * ولا يحضّ على طعام المسكين﴾ ٦٩٠
- ﴿فويل للمصلّين * الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ ٦٩٣
- ﴿الذين هم يراءون﴾ ٦٩٥
- ﴿ويمنعون الماعون﴾ ٦٩٦

(٥) بلاغيات في سورة الماعون ٦٩٧

سورة الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول

(١) نصّ السورة وفرشيات القراءات فيها ٧٠١
(٢) ممّا ورد في سبب نزول السّورة ٧٠١
(٣) ممّا ورد في فضائل السورة ٧٠٣

الموضوع	الصفحة
(٤) التدبر التحليلي لآيات سورة الكافرون	٧٠٤
● ﴿قل يا أيها الكافرون﴾	٧٠٤
● ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾	٧٠٥
● ﴿لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد* ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾	٧٠٨
● ﴿لكم دينكم ولي دين﴾	٧٠٩

* * *

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقرآنِ الكريمِ بحسبِ ترتيبِ النُّزولِ
وِفْقَ منهجِ كتابِ «قواعدِ التدبُّرِ الأمثلِ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ»

المجلدُ الثاني

تَفْسِيرُ سُوَر

الفِيل (١٩) - الفَلَق (٢٠) - النَّاس (٢١) - الإخْلَاص (٢٢) - النَّجم (٢٣)
عَبَسَ (٢٤) - القَدْر (٢٥) - الشَّمْس (٢٦) - البُرُوج (٢٧) - التِّين (٢٨)
قُرَيْش (٢٩) - القَارِعَة (٣٠) - القِيَامَة (٣١) - الهُمَزَة (٣٢) - المرسلات (٣٣)

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

الطّبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَةُ الفِيلِ

١٠٥ مصحف ١٩ نزول

(١)

نص السورة

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾
أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن
سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾

(٢)

معاني مفردات لغويّة

كيدَهُمْ: الكيد: التدبير الخفيّ أو الظاهر بحقّ أو بباطل، وفيه مكروهٌ لِمَنْ كانَ ضِدَّهُ. والكيدُ: الحربُ، وإعْدادُ وَسَائِلِهِ، والاحتيالُ والاجتهاد، وتدبير الأمور وإعداد الوسائل لتحقيق مطلوب ما.

في تَضْليل: أي: في مُحِيطٍ من الضياع والهلاك. **ضَلَّلَهُ**: أي: ضيّع مسعاه، وأفْسَد تدبيره، وأبطل كيْدَه، وأهلكه.

أَبَابيل: أي: جمَاعَات متلاحقات يَتْبَعُ بَعْضُها بعضاً.

من سجيل: أي: من طين متحجّرٍ مُتَصَلّب، وربّما كان للنار أثرٌ في جعله متحجّراً.

كَعَصْفٍ مَأْكول: العصْفُ في اللّغة، هو ما تأكُلُه الدّوابّ من نباتاتِ الأرض، كالزّرع الذي يؤخذ حبُّهُ، ويُتْرَكُ سَائِرهُ طَعاماً للدّواب، وكالفِصْفِصَة والبرسيم، والتِّبْن، ونحوها.

(٣)

موضوع سورة الفيل

يظهر لكُلِّ مُتَدَبّرٍ أنَّ موضوع سورة (الفيل) يدور حول تذكير مشركي أهل مكّة وما حولَها إبّانَ التنزيل، بما أنزل الله عزّ وجلّ من عذابٍ وإهلاكٍ بأصحاب الفيل، الجيْشِ الّذي قَدِم من اليمن بقيادة أبرهة الحبَشِيّ والذي جاء قاصداً تدمير الكعبة بيت الله الحرام.

وفي هذا التذكير تهدِيدٌ ضِمْنِيٌّ لهم بأَنَهُمْ إذا أرادوا رسولَهُ محمّداً ﷺ بسوءٍ أو بشرٍ كانوا عُرضَةً لِعَذابٍ من اللّهِ وإهلاك، كالذي تعرَّض له جيش أَبْرَهَة لمَّا قصدَ هدْمَ بيْتِه أوّلِ بيْتٍ وُضِعَ للناس، وهو بناء مِنْ أحجار أرضِ مكة، وُضِعَ لعبادة اللّهِ وحْدَه، أمَّا رسُولُهُ محمّد ﷺ فهُو مبلّغ دينه الّذي اصطفاه للنّاس أجمعين، فهو أعظم وأجلُّ عند اللّهِ تَبارَكَ وتعالَى من بناء من الأحجار يُمْكن تجديده، أو إعادة بنائه إلى مثل ما كان عليه.

وفي هذا التهديد للمشركين طَمْأَنَةٌ ضمنيَّةٌ للرسول محمّد ﷺ وللذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ، بأنّ اللّهَ عزّ وجلّ ناصرُه، وحافظه، وحاميه، من كلّ الّذين يُرِيدُون به شرّاً.

ويمتاز هذا التهديد في المراحل المبكّرة من دعوة الرسول ﷺ، بأنّ حادثة إهلاك أصحاب الفيل حادثَةٌ قريبة، لم يَمْضِ على حدوثها إلاّ أقلُّ من نِصْف قَرْنٍ، وقد عاصَرَها وشهد أحداثها كثيرٌ مِنْ أهل مكّة وما حولها،

وكثيرٌ مِنهُمْ يتّخذ وسائل كيْدِيَّةً ضِدَّ رسُول اللّهِ ﷺ وضدّ دعوته والدّين الّذي يبلّغه عن ربّه.

وقد سَبَقَ هذا التَّهْدِيدَ في نجوم التنزيل تَهْدِيدٌ آخَرُ جاء في سورة (الفجر/٨٩ مصحف/١٠ نزول) وَهو ما تضمَّنَهُ قول الله عزّ وجل فيها:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

(٤)

قصة أصحاب الفيل

جاء عند أصحاب السِّيَرِ والأخبارِ بِشَأْنِ قِصَّةِ أصْحَابِ الفيل ما يلي:

وقَعَتِ الْيَمَنُ تَحْتَ حُكْمِ الأَحْبَاشِ، وقد كَانوا يَدِينونَ بالنصرانيّة، وكانَ على اليمَنِ من الأحْبَاشِ أَمِيرَان حَبَشِيَّانِ، هما: أَرْيَاط، وأَبْرَهَة، فاختلفا، وتصاوَلاَ، وتَقَاتَلا، حَتَّىٰ قُتِلَ أَرْيَاطُ، واستَبَدَّ بالسُّلْطَانِ أَبْرَهَةُ، وكَانَ قَدْ ضَرَبَهُ أَرْيَاطُ بالسَّيْفِ عَلى وَجْهِهِ في مُبَارَزَةٍ بَيْنَهُمَا، فَشَرَمَ أَنْفَه وفَمَهُ، وشَقَّ وَجْهَهُ، فصارَ يُقَالُ: أَبْرَهةُ الأَشْرَمُ.

واسْتَقَرَّ أَمِيراً عَلى الْيَمَنِ كُلِّهِ مِنْ قِبَلِ النَّجَاشِي ملك الحَبَشة.

وسَاءَ الأَمْرُ مَلِكَ الحبَشَة، فحاوَلَ أَبْرَهَةُ اسْتِرْضَاءَه، حتَّى رَضِيَ عَنْه، وأرادَ أَنْ يُبَالِغَ في اسْتِرْضائِهِ، فكَتَبَ إِلَيْهِ يقول: سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مِثْلُهَا.

وَلَمَّا بَنَى الكنيسة كَتَبَ إلى النجاشي: إنّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كَنيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُها لِمَلِكٍ كَانَ قَبْلَكَ، ولسْتُ بِمُنْتَهٍ حتَّى أَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ العَرَبِ. أي: بدَلَ أَنْ يحجُّوا إلى الكعْبَة.

وسمّى العربُ هذِهِ الكنيسَةَ «الْقُلَّيس» لأنَّ الناظِرينَ إلَى أعلاها تَتساقَطُ قَلانِسُهُمْ عن رؤوسهم، بسبب ارْتفاعِها وعُلُوّ بنائها.

وبَلَغَ العربَ عَزْمُ أبْرَهَةَ على تحويل حجّهِمْ إلى كنيسَتِهِ فَكَرِهُوا ذَلِكَ، وغَضِبَتْ قُرَيْشٌ مِنْ هَذَا الأَمْرِ غَضباً شَدِيداً.

قالوا: فجاء رجلٌ من الْعَرَب، هُو أَحَدُ بَنِي فُقَم، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَالِكٍ، وَدَخَلَ «الْقُلَّيسَ» وَتَبَرَّزَ بِهَا، إعْلاناً عَنْ تَسخُّطِ العرب، وإشعاراً بأن هٰذهِ الكنيسَةِ لا تَسْتَحِقُّ في نُفُوسِ الْعَربِ أنْ يحُجُّوا إليها، وَخرجَ الرَّجُلُ وفَرَّ إلَىٰ أرْضِه.

ورأَىٰ رُعاةُ الكنيسَةِ «الْقُلَّيس» مَا فُعِلَ فيها، فرفعُوا الأمْرَ إلى أبْرَهَةَ، وقالُوا له: إنّما صَنَعَ هذا بعْضُ قُرَيشٍ، غضباً لبَيْتِهم.

فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنَّ إلَىٰ بيْتِ مَكَّة، ولَيُخَرِّبَنَّهُ حجراً حجراً.

وذكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيمانَ، أَنَّ فِتْيَةً مِنْ قُرَيْشٍ دخَلُوا «الْقُلَّيسَ» فَأَحْرَقُوهَا، فَسَقَطَتْ إلَىٰ الأَرْض، فعزَمَ أبْرَهَة علَىٰ هَدْمِ الكَعْبَة.

وَحَشَدَ «أَبْرَهَةُ» جَيْشاً كثيفاً من الْحُبْشَان، واسْتَصْحَبَ مَعَهُ فيلاً عظيماً كبير الجثَّة، لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ «محمود» وكان قد بَعَثَهُ إلَيْهِ النَّجاشيُّ مَلِكُ الحبشَةِ لذلك.

وسمِعَتِ العَرَبُ بمَسِيرِ أَبْرَهَةَ وَجَيْشِهِ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الأَمْرُ واسْتَفظَعُوه.

فخَرَجَ رَجلٌ من أشرافِ اليَمَنِ ومُلُوكهم يُقالُ لهُ: «ذُو نَفر» فَدعا إلى حَرْبِ أبرَهةَ وجَيْشهِ، دِفاعاً عَنِ الكعبَةِ، فَأَجابَهُ جَمْعٌ من قَوْمِهِ وَمِنْ غيرهم، فَقَاتَلوا أبرَهَةَ وَجَيْشَهُ، لكِنَّهُمْ هُزِمُوا، وَأُسِرَ «ذُو نَفر» واسْتَصْحَبَهُ أَبْرَهَةُ معه.

وسَارَ أَبْرَهَةُ بِجَيْشِهِ، فاعْتَرَضَهُ نُفَيْلُ بن حَبِيب الْخثْعَمِيُّ في قَوْمِهِ، فقاتلُوهُ، فَهزَمَهُمْ أَبْرهَةُ، وأُسِرَ نُفَيْلُ بن حَبِيب، واسْتَصْحَبَهُ أَبْرَهَةُ مَعَهُ، ليكُونَ دَلِيلَهُ فِي بِلَادِ الْحِجاز.

ولَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ خَرَجَتْ إِلَيْهِ ثَقيفٌ، فَصَانَعُوهُ، وبَعَثُوا مَعَهُ «أَبَا رِغال» دَليلاً إِلَىٰ مَكَّة، فَلَمَّا وَصَلُوا «الْمُغَمِّس» وَهُو مَكانٌ قريبٌ مِنْ مَكَّة مَاتَ «أبو رغال» فَدُفِنَ هُنَاكَ، فصارَتِ الْعَربُ تَرْجُمُ قَبْرَهُ بَعْد ذلِكَ.

وبعثَ «أَبْرَهَةُ» رَجُلاً من الحبشَةِ، يُقال له: «الأَسْوَدُ بْنُ مقصود» في خيْلٍ له، حتَّىٰ انتَهَىٰ إِلَىٰ مكَّة، فسَاقَ إِلَيْهِ أَمْوَالَ أَهْلِ تِهامَةَ، مِنْ قُرَيشٍ وغَيْرِهِمْ، وأَصَابَ فيها مِئَتَيْ بَعِيرٍ لِعَبْدِ المطَّلِبِ بن هاشم، وهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبيرُ قُرَيشٍ وَسَيِّدُها.

فهَمَّتْ قُرَيشُ، وكِنَانَةُ، وهُذَيلٌ، وَمَنْ كانَ بمكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا من سائر النَّاس بقتالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُمْ لاَ طاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَأَحْجَمُوا عن ذَلِكَ.

وبعث «أَبْرَهَةُ الأَشْرَمُ» رَسُولاً إِلَىٰ مكَّة يُقَالُ لَهُ: «حُنَاطَةُ الحِمْيَرِيّ» وقال له: سَلْ عَنْ سَيِّدِ أَهْلِ هٰذَا الْبَلَد وشَرِيفِها، ثُمَّ قُلْ له: إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَكَ: إِنّي لَمْ آتِ لحِربكُمْ، وَإِنَّمَا جِئْتُ لِهَدْمِ هٰذا البيْتِ، فإنْ لَمْ تَعْرِضُوا دُونَهُ بحَرْبٍ فَلاَ حَاجَةَ لِي بدمائِكُمْ، فإنْ هُوَ لَمْ يُرِدْ حَرْبِي فأْتِنِي بِه.

فلمَّا دَخل «حُنَاطَةُ الحِمْيَرِيُّ» مكَّة، سأَلَ عن سَيِّدِ قُرَيشٍ وشَرِيفها، فقِيلَ لَهُ: «عَبْدُ المطَّلِبِ بن هاشم».

فجاءَهُ، فقال لَهُ ما أَمَرَهُ بِهِ أَبْرَهَةُ، فقالَ له عبد المطَّلب: واللَّهِ مَا نُريدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بذلِكَ من طاقة، هذا بيتُ اللَّهِ الحرام، وبَيْتُ خَلِيلِه إِبْرَاهِيم عليه السلام، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فهُو بيتُه وحَرَمُه، وَإِنْ يُخَلِّ بينَه وَبَيْنَهُ، فواللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْه.

فقال له «حُنَاطَةُ الحِمْيَرِي»: فانْطَلِقْ مَعِي إِلَيْه، فإِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بك.

فانْطَلَق معَهُ عبد المطَّلب، ومَعَه بعْضُ بَنِيهِ، حَتَّىٰ أَتَى الْمُعَسْكر، فسأَل عن «ذي نفر» وَكان له صَدِيقاً، حتَّىٰ دَخَلَ علَيْه وهُوَ في مَحْبِسِه، فقالَ له: يا ذا نَفر، هَلْ عِنْدَكَ مِنْ غَنَاءٍ فيما نزَل بنا؟.

فقال له «ذُو نفر»: وَمَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسيرٍ بِيَدَيْ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدُوّاً أَوْ عَشِيّاً، مَا عندنا مِنْ غَنَاءٍ في شَيْءٍ ممَّا نزَلَ بكَ، إلاَّ أَنَّ «أُنَيْساً» سَائِسَ الْفِيلِ صَدِيقٌ لِي، وَسَأُرْسِلُ إلَيْهِ فَأُوصِيهِ بك، وَأُعَظِّمُ عَلَيْهِ حقَّكَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَكَ علىٰ الْمَلِكِ، فَتُكلِّمَهُ بما بَدَا لك، وَيَشْفَعَ لكَ عندهُ بخَيْرٍ إن قَدَرَ على ذلِك.

فقال «عبْدُ المطَّلب»: حسْبِي.

فبعَثَ «ذُو نَفَر» إلَىٰ «أُنَيْس» فقال له: إنَّ عَبْدَ المطَّلب سَيِّدُ قُرَيشٍ، وصَاحِبُ عِيرِ مَكَّة، يُطْعِمُ النَّاسَ بالسَّهْلِ، والْوُحُوشَ في رُؤُوسِ الجِبَال، وقَدْ أَصَابَ لَهُ الملِكُ مِئَتَيْ بَعيرٍ، فاسْتَأْذِنْ لَهُ عَلَيْهِ، وانْفَعْهُ عِنْدَهُ بما اسْتَطعْتَ.

فقال «أُنَيسُ»: أَفْعَلُ. فكلَّمَ أُنَيسُ «أَبْرَهَة» كمَا أوصَاهُ «ذُو نفر» فَأَذِنَ أَبْرَهَةُ لِعَبْدِ المطّلب.

وكان «عبد المطلب» أوسَمَ النّاس، وأجْمَلَهُم، وأعظمهم، فلمَّا رَآهُ «أبرهة» أجلة وأعْظَمَهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ أنْ يُجْلِسَهُ تَحتَه، وَكرِهَ أَنْ تَراهُ الحبشَةُ يَجْلِسُ معَهُ على سَرِيرِ مُلْكِهِ، فنزَلَ عن سَريرِهِ، فجلَسَ علَىٰ بِسَاطِهِ، وَأجْلَسَهُ معَهُ علَيْهِ إلَىٰ جنبِهِ، ثُمَّ قَالَ لتَرْجُمانِهِ: قُلْ له ما حَاجَتُك؟

فقال «عبد المطَّلب»: حاجتي أنْ يَرُدَّ علَيَّ الملِكُ مِئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لي.

فلمَّا قال له ذلك قال «أَبْرَهَة» لتَرْجمانه: قل له: قَدْ كُنْتَ أعجبتني حين رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فِيك حِينَ كلَّمْتَنِي، أَتُكلِّمُني فِي مئَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وتَتْرُكُ بيْتاً هو دينُك وَدِين آبائِكَ، قَدْ جِئْتُ لهَدْمِهِ لا تُكلِّمُني فِيه؟!

قال له «عبد المطَّلب»: إنِي أنَا رَبُّ الإِبلِ، وإنَّ للبيْتِ رَبّاً سيَمْنَعُه.

قال «أَبْرَهَةُ»: ما كان لِيَمْتَنِعَ مِنّي.

قال «عبد المطّلب»: أنْتَ وَذاكَ.

فَرَدَّ «أبْرَهَةُ» على «عبْدُ المطّلب» الإبلَ الّتي أصابها له.

وانصَرَفَ «عبد المطّلب» إلَى قُرَيشٍ، فأخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ، وَأَمَرَهُمْ بالخروج مِنْ مَكَّةَ، والتحرُّزِ فِي شَعفِ الْجِبَالِ (أي: في رُؤُوسِها) وَفي الشّعاب.

ثُمَّ قام «عبد المطّلب» فأخذ بحَلْقَةِ باب الكعبَة وقام مَعَهُ نَفرٌ مِنْ قُرَيشٍ، يدْعُونَ اللّهَ وَيَستَنصِرُونه على أَبْرَهَة وجُنْدِهِ، وقال «عبد المطّلب» وهو آخِذٌ بحَلْقَةِ بَاب الكعْبَة:

لاَ هُمَّ إنَّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلاَلَكْ
لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ. وَمِحَالُهُمْ غَدْواً مِحَالَكْ
إنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقِبْلَتَنا فَأَمْرٌ ما بَدَا لَكَ

ثمَّ انْطلَقَ «عبد المطّلب» هو ومَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيشٍ إلَىٰ شَعَفِ الجِبَالِ، فَتَحَرَّزُوا فيهَا، يَنْتَظِرُونَ مَاذَا يكون مَن أحْدَاث.

فلمّا أصْبَحَ «أبرَهَةُ» تهيّأ لِدُخُولِ مكّةَ، وأعَدَّ عُدَّته، وأمَرَ جيشَهُ بالتوجُه شطر مكّة.

فبَرَكَ الفيل، ورفَضَ التوجُهَ لمكّة، فضرَبُوهُ، وأرادُوا إلْجَاءَه، فأبَى وامْتَنَع عليهم. فوجَّهُوهُ راجعاً إلى الْيَمَنِ فَقَامَ يهرولُ، ووجّهوه شطر الشّام وشطر المشرق ففعل مِثْلَ ذَلِكَ مُطَاوِعاً، ووجَّهُوهُ شَطْرَ مكّةَ فبرَكَ.

فأرْسَلَ اللّهُ عَلَيْهِمْ طيْراً أَبابيل، ترمِيهِمْ بحجارة مِن سِجّيل، لا تُصِيبُ أحداً إلاّ هلَكَ، ولَيْسَ كُلَّهُمْ أصابَتْ.

وخرجوا هاربين يتبادرون الطّريقَ الذي جاءوا منه، ويتساقطون بكلّ طريق، ويَهْلِكُونَ بكلّ مَهْلِكٍ وعلى كلّ منْهَلٍ.

وأُصِيبَ «أبْرَهَةُ» في جَسَدِه، وخَرَجَ بِهِ بَعْضُ جُنْدِهِ يحملونه معهم، وصارَتْ أَنامِلُه تَسقُطُ أنملةً فأنملة، حتَّى قَدِمُوا به صَنْعاءَ فماتَ فيها.

قالوا: إنَّ أوّلَ مَا رُئِيَتِ الْحَصْبَةُ والْجُدَرِيُّ بأرْضِ الْعَرَبِ كان في ذلِكَ العام.

وقد وُلِدَ سيّدُنا محمَّد ﷺ عامَ حَادِثَةِ الفيل، وكان نزول سُورَةِ (الفيل) في الرُّبْعِ الأَوَّل من تاريخ سيرته المكيَّة، لأنَّها السورة (١٩) بحسَبِ ترْتيب النزول.

(٥)

التدبّر التحليلي لآيات السورة

تمهيد:

أوجز الله عزّ وجلّ قِصَّةَ أصحاب الفيل بذكْرِ عنوانات عناصِرها الكبرى، وهي أربعة:

العنوانُ الأوّل العام: ما فعل الله بأصحاب الفيل، وفي هذا إشارةٌ إلى مَقْدَمهم إلى مكة بجيشٍ، بُغْيَةَ هَدْمِ الكعْبَةِ، بيْتِ اللَّهِ الحرام.

فذِكْرُ أصحاب الفيل وما فعل الله بهم كافٍ في الإشارة إلي ذلك. لأنَّ قصَّتهُمْ مَعْرُوفَةٌ لدَىٰ العرب إبَّانَ التنزيل.

العنوان الثاني: أَنَّهُمْ دَبَّرُوا كيْداً، فجَمَعُوا جيشاً وسِلاحاً وأَعْتِدَة، وقَدِمُوا من اليَمَنِ مجتازين عقاباتِ خُصُومهم من العرب المعظمين للبيت الحرام. والّذين يحجُونَ إليه اتّباعاً لما بقي لدَيْهم من ميراث الدّينِ الذي ورثوهُ عن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السَّلام، فجعل اللَّهُ كيْدَهُمْ فِي تضليل، أي: في ضياعٍ وباطِلٍ وهَلاكٍ، فضَيَّع أسْبَابَهُمْ، وأبْطَل وسائلهم، وأهلَكَهُمْ.

العنوان الثالث: أنَّ وَسِيلَةَ إهْلاَكِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ، قَدْ كَانَتْ بإرْسال جماعاتٍ مِنَ الطَّيْر، تَحْمِلُ بأَرْجُلِهَا وَمَنَاقِيرِهَا حِجَارَةً مِنْ سِجّيلٍ، أي: حجارة أَصْلُها طِينٌ تحجَّر، ورُبَّمَا كَان تَحجُّرُها بتأثيرِ نَارٍ جعَلَتْهَا صُلْبَةً قَاسيَةً.

العنوان الرابع: أنَّ عَاقِبَتَهُمْ فِي الدُّنيا قَدْ كَانَتْ عَذَاباً وَهَلاَكاً، صاروا فيه كعَصْفٍ مَأْكُول، وهذا التشبيه يَدُلُّ عَلىٰ أنَّهُمْ صَارُوا على أصناف ثلاثة:

- فصِنْفٌ منهم تَفَسَّخَ وَأنْتَن، وتحوَّل حتَّىٰ صَارَ كَرَوْثِ الدَّوابّ.
- وصِنفٌ تَجَمَّعَ مُتَحطّماً، متداخِلاً بعْضُه في بَعْض، كالْحَشِيش والزَّرْع الذي أكَلَتِ الدَّوَابُّ ما استطابَتْ منه، ورَمَتْ سائرَهُ، فداسَتْهُ، ومَرَّتْ عَلَيْهِ ذَهَاباً وعَوْداً.
- وصُنْفٌ كالأعواد التقَطَتْ مِنْها الدَّوابُّ الأَوْراق الصَّالحةَ لِلأَكْلِ، فارتمتِ الأَعْوادُ مُتَنَاثِرَةً هُنَا وهُنَاكَ وَهُنَالِكَ.

التدبّر التحليليّ للآيات

- قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ①﴾؟

تكرّر في القرآن الكريم استعمالُ هذا الأسلوب الاستفهاميّ الموجَّهِ على سبيل الخطاب الإفرادِيّ، لكلّ مُفْرَدٍ صَالح للخطاب، حتَّىٰ يشْعُرَ بأن اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُحَادِثُهُ حَدِيثاً مُوَجّهاً لَهُ، بُغْيَةَ تحميله مسؤليته تُجاه مضمون الخطاب بصورَةٍ فَرْدِيَّة.

والاستفهام في عبارةِ ﴿أَلَمْ تَرَ ؟﴾ ليس على حقيقته لطلَب الإخبار عن عَدَمِ الرؤيَة، بل هو مُسْتَعْمَلٌ مجازاً لِأَغْراضٍ أُخْرَىٰ، ويَصْلُحُ مِنْ هٰذِهِ الأغراض هُنَا ما يلي:

(١) التَّقْريرُ، بحَمْلِ المخاطَب علي الإقرار بأنَّهُ رأىٰ رأيَ عِلْمٍ.

(٢) توجيه النظر الفكريّ للمستَفْهَم عنْهُ، بغية إحضاره في الذهن، والاعتبار والاتعاظ به.

وجواب الاستفهام عن عدم الرؤية يكون بلفظ «نعم» إذا لم تحدُثِ الرؤية، وبلفظ «بلَى» إذا كانت الرُّؤْية واقعة فعْلاً.

وعلى أنّهُ استفهام تقريريٌّ يُرادُ به الإقرارُ بحُدوث الرُّؤية فالمعنى: قد رأيْتَ أيُّها الرائي عن طريق الشهودِ البصري، أو عَنْ طريقِ العِلم اليقيني الخبريّ، المماثل للرُّؤيَةِ البصريَّةِ، كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأصْحَابِ الفيلِ، مِن تَعْذِيبِ وإهْلاكٍ، فاعتَبِرْ بهذا الحدَثِ التاريخيّ، المتَضَمِّن سُنَّةً من سُنَنِ اللَّهِ في عباده، واحْذَرْ مُعَجَّل عِقَابِ اللَّهِ عزّ وجلّ، إنْ كنتَ مِنَ مُكَذِّبي الرَّسُول وبما جاء به.

أمَّا إنْ كنتَ من المؤمنين به وبما جَاءَ بهِ فَاطْمَئِنَّ لنَصْرِ اللَّهِ لَهُ، على أعدائه وخُصُومه.

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾: كَيْفَ: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ في محلِّ نِصْبٍ، وفعْلُهُ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ والمعنَى: أَلَمْ تَرَ فِعْلَ رَبّكَ بأصْحَابِ الْفِيلِ فِعلاً ذَا حَالَةٍ رهيبَةٍ فيها اعتبارٌ وعِظَةٌ، وذا كَيْفِيَّةٍ عَجِيبَةٍ سُخِّرَت فيها جماعاتٌ من الطير.

﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾: هُمْ أبْرَهَةُ الحبشيّ وَجَيْشُهُ مِنَ الْحُبْشَان، أصل الصاحب المرافق الملازم، ويكَنَّى بهذا اللَّفظ عَنْ كلِّ مُقْتَرِنٍ بشَيْءٍ يتَمَيَّزُ بهِ، فيقالُ: صاحب الراية، وصاحب العِمَامةِ الخضراء، وصاحِبُ الثَّوْبِ الأبيض. ويُسْتَعْمَلُ الجمع، فيقالُ مثلاً: أصْحَابُ النار، وأصْحَابُ الجنَّة، وأصْحَابُ الجَملِ، وأصحابُ الفتنة.

- قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ②﴾

الاستفهامُ في هذه الآية الثانية من السّورة نظير الاستفهام الذي جاء في الآية الأولى منها.

والمعنى: إنَّكَ تَعْلَمُ أيُّها المخاطَبُ المعاصِرُ لتنزيل السورة، أَوْ مِنَ الْيَسِير جدّاً عليك أَنْ تَعْلَمَ من مُشَاهِدِي إهلاك أصْحَاب الفيل من أهل مكة وما حولها، أنَّ كَيْدَ أَصْحَابِ الفيل الّذي كادُوهُ لِهَدْم الكَعْبَةِ وتَحْوِيل حجِّ العربِ عَنْها إلى الكنيسة «الْقُلَّيْسِ» قد جَعَلَهُ رَبُّكَ في ضياعٍ وهلاك، إذْ قَدِمُوا بِجَيْشٍ كَبِيرٍ مُزَوَّدٍ بأسْلِحَةِ الْحَرب وأَعْتِدَتِها، يتَقَدَّمُ مَسِيرَتَهُمْ فِيلٌ ضَخْمٌ، وقَدْ هَزَمُوا مَنْ أرَادَ أَنْ يَصُدَّهُمْ عَنِ البيْتِ من قبائل العرب، ولَمْ يَكُنْ لدَىٰ أهْلِ الحرَم المكيّ قُدْرَةٌ علَىٰ صَدِّهِ.

كَيْدُهُمْ: هو كُلُّ ما دَبَّروهُ وأَعَدُّوه، مِنْ خطَطٍ ووَسَائِلَ وأَعْمَالٍ وجَيْشٍ لا قِبَلَ لقبائل العرب به، بغْيَةَ هَدْمِ الكَعْبَةِ بَيْتِ اللَّهِ الحرام، وتَحْوِيلِ العرب عن الحجّ إليه.

في تَضْلِيلٍ: أي: في مُحِيطٍ مِنَ الضَّيَاعِ والْهَلاَكِ والتبدِيدِ والتشتيت.

تقول العرب: ضَلَّلَهُ إذَا ضَيَّعَ مَسْعَاهُ. وأَفْسَدَ تَدْبيرَه وأهلكَهُ، وشَتَّتَ شَمْلَهُ، وفرَّقَ جمْعَهُ.

- قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾.

أي: وإنَّكَ تَعْلَمُ أيُّها المخاطَبُ، أَنَّ رَبَّكَ أَرْسَلَ على أصْحَابِ الفيلِ، جُنْداً مِنْ جُنْدِهِ الّتِي لا يُحْصِيهَا إلاّ هو، وكانَتْ يَوْمَئِذٍ جماعَاتٍ مُتَلاحِقَاتٍ مِنْ أَصْنَافِ الطَّيْرِ، تَحْمِلُ بأَرْجُلِهَا ومَنَاقِيرها حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ، أي: مِنْ طينٍ مُتحجّرٍ مُتَصَلِّبٍ، لَهُ خَصَائِصُ وَبَائِيَّةٌ تُهْلِكُ أَوْ تُعَذِّبُ مَنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْهَا، وقَدْ غَطَّتْ سَمَاءَ الجيش كالسَّحاب.

أَبابِيل: أي: جماعات متلاحقات متتابعات من صِنْفٍ من أصناف الطير.

تَرْمِيهِمْ: أي: تُلْقِي عَلَيْهِمْ، أَوْ تَقْذِفُهُمْ، فالرَّمْي يأتي بمعنى إلْقاءِ شيءٍ عَلى شيءٍ، وَيأْتِي بمعنى قَذْفِ شَيْءٍ عَلى شَيْءٍ.

- قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

أي: فجعلَهُمْ رَبُّكَ الّذِي هو رَبُّهُم وَرَبُّ كلّ شَيْءٍ كَعصْفٍ مَأكول.

عرفنا أنَّ الْعَصْفَ في اللُّغةِ هو ما تأكلُه الأنعام والدّوابُّ من نباتات الأَرْض.

إنّ تَشْبيةَ جَيْش «أَبْرَهَةَ» بَعْدَ إِنْزالِ العذَابِ والإِهْلاَكِ فِيهِ، بالعصْفِ المأكُولِ، يُقَدِّمُ لِفِكْرِ المتَدبّرِ صُوَراً مُتَعَدِّدَة، على الرُّغْمِ مِنَ الإيجاز الشَّدِيدِ في العبارةِ القُرْآنيَّة.

فالْعَصْفُ المأكُولُ، مِنْهُ مَا تبتَعِلُهُ الآكَلاتُ من الأَنْعَامِ والدَّواب، ومِنْهُ مَا تأْكُلُ مِنْهُ شَيْئاً وتَدُوسُ الباقي، ومِنْهُ مَا تَأْكُلُ أَوْراقَهُ وتَتْرُكُ أَعْوادَهُ وقُضْبَانَهُ، وكلٌّ مِنَ المأكُولِ والمترُوك يُقَالُ له بَعُمِوم العبارَةِ: عَصْفٌ مَأْكُول، على معنَى: مأكُولٌ كُلُّهُ، ومأكُولٌ بَعْضُهُ دُونَ سَائِرِه.

فالْعَصْفُ المأكُولُ أقسامٌ ثَلاثَةٌ: قِسْمٌ هُضِمَ وتَحَوَّلَ رَوْثاً، وقِسْمٌ دَاسَتِ الدَّوَابُّ عَلَيْهِ، فَتَقَذَّرَ قُمَامَات، وقِسْمٌ أُكِلَتْ أَوْرَاقُهُ وبَقِيَتْ أَعْوادُهُ وقُضْبَانُهُ حَطَباً ووقُوداً.

وكَذَلِكَ صَارَ أصحاب الفيل أقساماً.

- فقِسْمٌ مِنْهُمْ تَفَسَّخَ وأنْتَنَ، وتحوَّلَ حتَّى صَارَ مِثْلَ رَوْثِ الدَّوَابِّ والأَنْعَام.

- وقسْمٌ مِنهُمْ تَجَمَّعَ مُتَحطِّماً مُتَدَاخِلاً بعْضُهُ بِبَعْضٍ، كالْحَشِيشِ والزَّرْعِ الّذِي أَكَلَتِ الدّوابُّ والأنْعَامُ ما اسْتَطَابَتْ مِنْهُ، ورَمَتْ مَا لَمْ تسْتطِبْهُ، فَدَاسَتْهُ وَمَرَّتْ عَلَيْهِ ذَهَاباً وعَوْداً، وصَارَ قُمَامَةً مِنَ الْقُمَامَاتِ الْمستَقْذَرَة.
- وقِسْمٌ مِنهُمْ مُتَنَاثِرٌ هُنَا وهُنَاكَ وهُنَالِكَ، كالأعْوَادِ والْقُضبان التي الْتَقَطَتْ منها الأنعام والدّواب الأوراقَ الصالحةَ للأكْلِ مِنْهَا، وارْتَمَتِ الأعواد والقضبان مُتَنَاثِرَة.

فما أَبْدَع هذا التَّشبيهَ الجامع المتحلّيَ بالصّدْق الفنّي، المطابقِ بفَنِّيَّةٍ رائعَةٍ للواقع.

وتمّ بحمد الله تدبُّر سورة (الفيل).

سورتا الفلق والناس

سورة الفلق ١١٣ مصحف ٢٠ نزول
سورة الناس ١١٤ مصحف ٢١ نزول

(١)

نص السورتين

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا
خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣)
وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ (٤)
وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ .

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (١) مَلِكِ ٱلنَّاسِ
(٢) إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ (٣) مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ
ٱلْخَنَّاسِ (٤) ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ
ٱلنَّاسِ (٥) مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ (٦) .

(٢)

ممّا ورَدَ بشأن هاتين السورتين

(١) أخرج مُسْلمٌ والترمذيّ والنسائي وغيرهم عن عقبة بن عامرٍ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أُنزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَاتٌ لم أرَ مِثْلَهُنَّ قَطُّ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

(٢) وأخرج ابْنُ الضَّرِيس، وابْنُ الأنباريّ، والحاكم وصحّحه، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ في الشُّعَب، عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ، قَالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرِئْنِي سُورَةَ (يوسف) وسُورَةَ (هود) قال:

«يَا عُقْبَةُ اِقْرَأْ بِقُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، فإنَّكَ لَنْ تَقْرَأَ سُورَةً أَحَبَّ إِلَىٰ اللَّهِ، وأَبْلَغَ مِنْهَا فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ تَفُوتَكَ فَافْعَلْ».

أي: في موضوع الاستعاذَةِ باللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ في كوْنِهِ.

(٣) وأخرج ابْنُ سَعْدٍ والنَّسائِيُّ والْبَغَوِيُّ والْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبي حَابسٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال:

«يَا أَبَا حَابِسٍ، أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟»

قَالَ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال:

«﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ هُمَا الْمُعَوِّذَتَانِ».

(٤) وأخْرَجَ الترمذيُّ وحسَّنَهُ، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، والْبَيْهَقيُّ عن أبي سَعيدٍ الْخُدَرِيّ قال:

«كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ وَمِنْ عَيْنِ الإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ سُورَتَا الْمَعَوِّذَتَيْنِ أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَىٰ ذَلِكَ».

(٥) وأخرج النَّسائي، وابْنُ الضّرِيس، وابْنُ حبَّانَ فِي صحيحه، وابْنُ الأنباريّ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عبد اللَّهِ رضي الله عنه قال:

«أَخَذَ بِمَنْكِبِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَال: اِقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟. قَال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ ثُمَّ قَال: اِقْرَأْ. قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي، مَا أَقْرَأُ؟. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ وَلَمْ تَقْرَأْ بمِثْلِهِمَا».

أي: في مَوْضوع الاسْتِعَاذَةِ باللَّهِ مِنْ شَرِّ ما خَلَق، ومِنْ شَرِّ وَسَاوِسِ شَيَاطِينِ الجِنِّ والإنْسِ.

(٦) وَأَخْرَجَ مَالِكٌ في الْمُوَطَّأ، عن ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأَخْرَجَهُ البخاريُّ ومُسْلِمٌ فِي صحيحيهما من طريقِ مالِكِ بالإسنادِ نفسه:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَىٰ يَقْرَأُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وأَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَيْهِ، رَجَاءَ بَرَكَتِهِمَا».

اشْتَكَىٰ: أي: مَرِضَ، أو تَوَجَّعَ ممّا نَزَلَ به مِنْ مَرَضٍ.

(٧) وأخرج الطّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِير، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أبي طالِبٍ رضي اللَّهُ عَنْهُ قالَ:

«لَدَغَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَقْرَبٌ وهُوَ يُصَلِّي، فلَمَّا فَرَغَ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْعَقْرَبَ لاَ تَدَعُ مُصَلِّياً وَلاَ غَيْرَهُ، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ ومِلْحٍ، وجَعَلَ يَمْسَحُ عَلَيْهَا وَيَقْرَأُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

(٨) وأخرج عبدُ بْنُ حُمَيْدٍ في مُسْنَدِهِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قالَ:

«سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَاشْتَكَىٰ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ

بالْمَعَوِّذَتَيْنِ، وقَالَ: إنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، والسِّحْرُ في بِئرِ فُلاَنٍ، فَأرْسَلَ عَلِيّاً، فَجَاءَهُ به، فَأمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ، وَيَقْرَأَ آيَةً ويَحُلَّ، حَتَّىٰ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كأنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ».

ورُوِي نظيره عن عائشة، وعن ابْنِ عبَّاس.

(٣)

موضوع سُورتي الفلق والناس

يَدُورُ مَوْضوع سُورَتي الفلق والناس، حَوْلَ تعليم المؤمنينَ الْمُسْلِمين الاسْتِعَاذَةَ باللَّهِ مِنْ شِرِّ كلِّ ذِي شَرٍّ ممَّا خَلَقَ اللَّهُ فِي كوْنِهِ، ومِنْ شَرِّ وَسَاوِسِ الْجِنِّ والإِنْسِ الّذِين يُوَسْوِسُونَ فِي صُدُورِ النَّاسِ، بِالتَّحْرِيضِ على مَعْصِيةِ اللَّهِ ورسُولِهِ، وارْتِكَابِ الآثام، منْ دَرَكَةِ الصَّغائر، حتَّىٰ دَرَكَةِ أقْبَحِ الجرائِمِ الّتِي تَجْعَلُ مُرْتَكِبيهَا فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

(٤)

بيان حول كلمة (قل) ودَفْعٌ لشبهة بعض المتحَذْلقين

جاء في بدْءِ سُورَتي الفلق والناس، وسُورَتَي الإخلاص والكافِرُون، كَلِمَةُ ﴿قل﴾ تَعليماً لكُلِّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَقُولَ مَا جَاءَ بَعْدَ كلمة: ﴿قل﴾.

وهذا الأَمْرُ التَّعليميُّ في القرآنِ هُوَ جُزْءٌ مِنَ السُّورِ الّتي جَاءَ فيها، فَلاَ تَتِمُّ السُّورَةُ القرآنِيَّةُ إلاَّ بذِكْرِه، لدَىٰ تلاوَتِهَا قُرْآناً.

أَمَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحقِّقَ المأمُورَ بِهِ بكَلِمَةِ ﴿قل﴾ دُونَ أَنْ يَلْتَزِمَ تلاَوَةَ قُرْآنٍ مُنَزَّلٍ، فلَهُ وَجْهان:

الْوَجْهُ الأول: أنْ يتْلُو السُّورَة القرآنِيَّة كامِلَةً، مَعَ كلمة ﴿قل﴾ فيها، ويَنْوِيَ أوْ يَقْصِدَ مَا جَاءَ بَعْدَ كَلِمَة ﴿قل﴾.

الوجه الثاني: أنْ يَحْذِفَ كَلِمَةَ ﴿قل﴾ قاصِداً امْتِثَالَ الأَمْرِ، بِتَحْقيق المأمُورِ به.

لكِنَّهُ إِذا أَرَادَ أَنْ يَتْلُوَ السُّورَة فَعَلَيْهِ أَنْ يَتْلُوَهَا كما أَنْزَلَهَا اللَّهُ.

ويتَحَذْلَقُ بَعْضُ المتحذلِقِينَ، وَيتنَطَّعُ مُتَفلسفاً على كِتَابِ اللَّهِ عزّ وجلَّ فيَقُول: ما معنى أنْ نَقُولَ في السُّوَرِ المبْدُوءة بـ(قل): ﴿قل﴾. واللَّهُ قَدْ أَمَرَ بأنْ نقُولَ مَا جَاءَ بَعْدَ كَلِمَة ﴿قل﴾ وكانَ يَنْبَغِي أَنْ نَتْلُوَ مباشَرَةً ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ و﴿الله أحد﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

وجوابُ هٰذا الْمُتَحَذْلِق المتنطِّع أَنْ نَقُولَ لَهُ: إنّ كلمة ﴿قل﴾ في هٰذِهِ السُّوَر هِيَ جزءٌ من كلٍّ منها، ولو حذَفْنَاهَا لم نعلَمْ أَنَّ الله يأمُرُنا في كتابه على الدّوام بأن نُحقّقَ المطلوب بهذا الأمر. ولو أسْقَطْنَا كلمة ﴿قل﴾ عند التلاوة فإنّنا لا نكونُ قد تَلَوْنا السّورة كاملة، بل ناقصة كَلِمَةَ ﴿قل﴾ ونحْنُ نعلَمُ أنَّ القرآن يُتَعَبَّدُ بتلاوته كما أُنزل، ، فلَيْس مِنْ حقّنا أنْ نحذِفَ أيَّ حَرْفٍ أَوْ كلمةٍ منه لدى تلاوته، ونحْنُ عالمون، عامدون لأنّه من التحريف في كتاب الله، حتَّىٰ مَا جَاءَ في أوائِل السُّوَرِ من الحروف المقطّعة التي نقول بشأنها: الله أعلم بمراده، مثل: (ن) و(ق) و(صٓ).

لكنْ إذا أرَدْنا أنْ نحقّق المطلوبَ بما أمَرَنا الله به بكلمة ﴿قل﴾ دون أن نَقْصِدَ تلاوة السورة فلا مانع من حذف كلمة ﴿قل﴾. وخيرٌ من ذٰلِكَ تلاوة السورة كاملة مع نيّة تَحْقِيقِ المطلوب.

إنّ آيات القرآن المجيدِ دُسْتُورٌ تعليميٌّ للناس في كلِّ عصورهم، وفي كلِّ أحوالهم، وهذا الدستور لا بُدَّ أنْ يبقىٰ كلُّ أمْرٍ فيه عَلَىٰ وجْهِهِ كمَا أُنْزِلَ، وكذلِكَ كُلُّ نَهْيٍ، وكُلُّ اسْتِفْهامٍ، وكلُّ خبرٍ، وكُلُّ حرْفٍ وكلمة.

ومادّة الدستور يجب أن تُقرأ كما هي في صُلْبِه، ولو كانت مبدوءَةً برقْمٍ أو بحَرْف، وهَذا ما يلتزم به القانونيّون في القوانين والدَّسَاتير، وأيُّ تغيير يعتبرونه تحريفاً وتزييفاً في عُرْفِهِم، فما بالُ المُتَحَذْلق يتفاصح على كتاب الله عزّ وجلّ بحماقة أو بغير علم، أو بمكرٍ وكَيْدٍ.

ولتحصيل الفائدة ممّا أمَرَنا الله عزّ وجل به في كلمة ﴿قل﴾ لا بُدَّ من ملاحظة المعنى الإجمالي للألفاظ التي اشتمل عليها النّص، وإلاّ اقتصر الأمْرُ على كون ما نتلفّظ به تلاوةً قرآنيّة مأجورة على كُلِّ حرْفٍ بعَشْرِ حسَنات، فمجرّد الترديد للألْفَاظِ دون ملاحظة المعاني لا يُحقّق المطلوب.

(٥)

التّدبُّر التحليلي لآيات سورة الفلق

- قول الله عَزَّ وجلّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾

﴿قل﴾: فعْلُ أمْرٍ مُوجَّهٌ لكلّ مَنْ يَصْلُح للخطاب بصورة إفراديةٍ من المؤمنين المسلمين، وأوّلُهُمْ محمَّدٌ رسُول اللَّهِ ﷺ.

﴿أَعُوذُ﴾ أي: ألُوذُ وأعْتَصِمُ مُلْتَجئاً طالباً الحمايَةَ والوقاية.

يقال لغة: عَاذَ بِهِ يَعُوذُ عَوْذاً وَعياذاً ومَعَاذاً، إذا لاَذَ به واعتصم، ولجأ إليه طالباً حمايتَهُ ووقايتَهُ.

ويُقَالُ: معَاذَ اللَّهِ، أي: عياذاً بالله.

﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾: الرَّبُّ هو السيّد، والمالِكُ، والخالق وَفْق سُنَّةِ الإنْشاءِ المتدرّج شيئاً فشيئاً حتَّى إبْلاغ المخلوق درجة كماله، والمحيي والمميت والمغني، والمتصرّف بمخلوقاتِهِ على ما يشاءُ زيادةً ونقصاً، وبناءً وهَدْماً، وإيجاداً وإعداماً.

وسُنَّة الإنشاء المتدرّج هِيَ سُنَّةُ الخالق في الخلْقِ، فهو ربُّ الْعَالَمِينَ (العالمون: هم ما سِوَىٰ الله عزّ وجَلّ) وهو ربُّ الْفَلَق.

الفلَقُ: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ عَلَى وَاحِدِ الْفُلُوقِ، وهِيَ الشُّقُوق.

والفَلْقُ: بسُكُونِ اللاّم هو الشَّقُّ الّذي هو الحدث، وهُوَ مَصْدَرُ فَلَقَ الشيْءَ فَلْقاً إذَا شَقَّهُ.

ويُطْلَقُ (الفَلَقُ) بفتح اللاّم على ما انفلق من عَمُودِ الصُّبْح.

ويَسَمَّىٰ الخلْقُ فَلْقاً بسْكُونِ اللاّم، وعلى هذا فالفلَقُ بفتح اللاّم هو الْمَفْلُوق، أي: المخلوق، فربُّ الْفَلَقِ هُوَ رَبُّ كلّ مَخْلِوقٍ.

والباحثُ العلميُّ في الظواهر الكونيّة يَجدُ أن سَنَّةَ اللَّهِ في الخلْقِ قائِمةٌ على نظام الفَلْق، فالنوى والحبُوبُ تَنفلِقُ ويَنْبتُ النّبات مِنْها، والْبُيوضُ الْمنتجَةُ تَنفَلِقُ وتخرجُ الأحْيَاءُ مِنْها، وبُيَيْضَةُ الأنْثىٰ يدْخل الْحُوَيْنُ الملَقّحُ إليها، فيتّحِدَانِ، ثُمَّ يَنْشطران وفق سُنَّةِ الانْفِلاقِ، وينمو المخلوق، وهكذا نظامُ التكاثر في سُنَّةَ الخلْقِ الرَّبَّاني، وهٰذا من أعجب العجب في عمَليّات الْخَلْقِ، إذ البُعْدَ الباطن ينتهي إلى نقطة العدم حتماً، ومن صفات الله أنه يخلُقُ من العدم، كما يَخلُق ممَّا أوجَدَ سابقاً كماء وتراب.

والصّبْحُ يَنْفَلِقُ فيظهرُ ضوْءُ النّهارِ، قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

فالمعنى: ألُوذُ وأعْتَصِمُ بِربِّ الْخَلْقِ كُلِّهمْ الّذِي يَخْلُقُ خَلْقَهُ وفْقَ سُنَّةِ الْفَلْقِ والإنْمَاءِ مِنَ البَاطِنِ إلَى الظَّاهر، ومِنْ خَلْقِهِ فَلْقُ الصُّبحِ، وَأَلْتَجِئُ إلَيْهِ لِيَقِيَنِي ويَحْمِيَني.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾

في هذه الآية دَلالَةٌ علَىٰ أنَّ الشَّرَّ إنَّما يأتي ممَّا خَلَقَ الله وأعْطَاهُ في كَوْنِهِ التمكِينَ والتَّسْخِير.

أمّا اللَّهُ عزّ وجلّ فالشَّرُّ الحقيقيُّ لا يُنْسَبُ إليه، ولاَ يَصْدُرُ عَنْهُ، وما يَراهُ النَّاسُ مِنْ مقاديرِ المصائب والآلاَمِ الّتي يُسَمُّونَها شرّاً، هُو في حقيقة أمْرِهِ ليْسَ شرّاً، إنّما هو للامتحان، أو التربية، أو العقوبة، وهٰذِهِ جميعُها تَشمَلُها الحكْمَة، والأمْرُ الحكِيمُ لاَ يكُونَ شرّاً علىٰ الحقيقة، إنَّهُ قَدْ يُسَمَّى ضُرّاً أوْ مُصيبةً أو ألماً، لكِنْ قد يكون وسيلَةً لخيرِ عظيم.

إنَّ كلمتي: «الخير والشّر» ذواتا دَلالَتَيْنِ بحَسَبِ رؤى الناس القاصِرَة، المقيَّدَةِ بحُدُودِ إحساساتهم الضعيفة الكَلِيلَة، وبحُدُودِ تفكيرهم في عاجلِ من الحياة الدنيا. وذواتا دَلالَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ بحَسَبِ الحقيقة الّتي يحيط بها علْمُ الله الشاملُ للظاهر والباطن، والماضي والحاضر والمستقبل، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فما هُوَ خيْرٌ في الحقيقةِ المطلَقة للإنسان، قد يراه الإنسان شرّاً فيكْرَهُهُ، وَمَا هُوَ شرٌّ في الحقيقة المطلقة له قد يراه خيراً فيحِبُّهُ، فَيَدْعُو رَبَّهُ أنْ يُحَقِّقَهُ لَهُ، وقد نبَّهَ الله على هذا بقوله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

وكلمةُ «مَا» من قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ اسم موصول يقَعُ على غيْرِ العاقل وعلى العاقل معه من باب التغليب، وهو من ألفاظ العموم، فيشْمَلُ جميع ما خلَقَ رَبُّ الفَلَق.

والمضافُ إلى العامّ يكْتَسِبُ العُمُومَ منْهُ، فالاستعاذَةُ برَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ تَشْمَلُ كُلَّ شَرٍّ قَدْ يأتي بِهِ أيُّ شيءٍ، مِنْ كُلِّ ما خلَقَ رَبُّ الفلَق.

- قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾

في هٰذِهِ الآية تخصيصٌ بعْدَ التعميم الذي جاء في الآية التي قَبْلها، للاهتمام بهذا المخصوص بالذكر، بعْد أن كان داخلاً في عُمُوم مَا خلَقَ الله في الآية السابقة.

فما هو الغاسِقُ إذا وقَب؟

أولاً: تدور مادّة «غَسَقَ» حول معنيَيْنِ، هُمَا: انْصَبّ، وأظْلَم.

يقولون: غَسقَ اللَّبَنُ من الضّرْعِ غَسْقاً، أي: انْصَبَّ انْصِبَاباً. وغَسَقَتِ السَّمَاءُ تَغْسِقُ غَسْقاً وغَسَقَاناً، إذَا انْصَبَّتْ مطراً. ومنْهُ قولُ عُمَر رضي اللَّهُ عنه: «حِينَ غَسَقَ اللّيْلُ عَلَىٰ الظِّرَاب». أي: حين انْصَبَّ اللَّيْلُ على الجبال.

ويقولون: غَسقَ اللَّيْلُ يَغْسِقُ غَسْقاً وغَسَقَاناً، وأغْسَقَ إغْسَاقاً، أي: انْصَبَّ وأظْلَم.

وغَسَقُ اللَّيلِ، ظُلْمَته، وقيل: أوَّلُ ظُلْمَتِه.

فالْغَاسِقُ: هو المنْصَبُّ، أو المظْلِم.

وجاء عند المفسِّرين تفسير الغاسِقِ في سُورَة (الفلق) باللّيل، وجاء تفسيره بالقمر، لأنّ الْقَمر يَخْسِفُ فيغْسِقُ، أي: يَذْهَبُ نُورهُ ويَسْوَدُّ ويُظْلِمُ.

ثانياً: أمّا كلمة «وَقَبَ» فهي بمعنى دَخَلَ، أَوْ بمعنى دخَلَ في الْوَقْب.

الْوَقْبُ: الكَوَّةُ، ونُقْرَةٌ في الجبَلِ يجْتَمِعُ فِيها الماء، والثَّقْبُ الّذي يَدْخُلُ فيه المِحْوَرُ، وكُلُّ حُفْرَةٍ، أو نُقْرَةٍ أَوْ ثَقْبٍ، يُمكِنُ أن يدخُلَ فِيه شيْءٌ، فِي صَخْرة أوْ أرْضٍ، أو خَشَبَةٍ، أَوْ جِسْمِ حيَوانٍ، أو غير ذلك.

فإذا تدَبَّرْنا عُموم نصِّ الآيَةِ المستفاد من تنكير لفظ غاسِقٍ، أمكَنَنا أَنْ نَفهَمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَدْخُلَ مُظْلِماً، فيَنْصَبُّ، أَوْ يَتَسَلَّلُ، في ثَقْبٍ، ويَحْمِلُ بدُخوله شرّاً للمدْخُولِ فيه. أو شرّاً لِغَيْرِه بهذا الدّخولِ، فالاستِعَاذَةُ تَشْمَلُه.

وقد جاء تخصيص المظلم بهذه الاستعاذة، لأنه يدخل دون أَنْ يُرَىٰ، فلا يستطيع الناس اتخاذ الوقاية العامَّة منه.

وقد كشَفْنا بوسَائِل العصر الحديث أنّ الجراثيم والميكروباتِ الضَّارَّة مُظْلِمة لا نراها، لصِغرها، وتدخُلُ في أَوْقَاب الأحياء، فالفتحات الظاهرات ثقوبٌ تَدْخُلُ منها، ومَسَامُّ الجسَدِ في الحيوان هي الثقوب الصغيرة التي ترشح، وقد تدخلُ منها الجراثيم بالاحتكاك، فَتَتولّدُ منها الأمراض والأسقام، فكُلُّ ثَقْبٍ منها وَقْبٌ، وجمع وَقْبٍ أَوْقَاب.

والغَاسِقُ إذا وَقَبَ: هو المظْلِمُ الذي لا يَرَاهُ الناسُ إذا دخَلَ في الوقْبِ. وكلُّ مظْلِمٍ يدخُلُ في الأوقابِ غاسق.

الْفَمُ وَقْبٌ، والمنْخَرانِ وقْبَانِ، وسائر فتحات الجسد أوقاب. والحشراتُ والْهَوَامُّ، والميكروبَاتُ والجراثيمُ الضّارَّةُ وغيرُها، وكثيرٌ ممّا خلَقَ اللَّهُ غاسِقَاتٌ تَدْخُلُ في الأوْقَابِ، فتَأْتي الناسَ بشرٌ. وممَّا يَدْخُلُ في الأوقابِ أَصْنَافٌ من الجنّ قد تدخُلُ في أجْسادِ الناسِ، فيُصِيبُ الناسَ منها شُرُورٌ وأنواعٌ من الضُّرِّ والأذىٰ.

وصحَّ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنَّ الرسُولَ ﷺ أخذ بيدها، فأراها الْقَمَر حين طلَع، وقال لها:

«تَعوَّذي باللَّهِ مِنْ شَرِّ هٰذا الغَاسِقِ إذَا وَقَبَ».

وفي مُحَاوَلَةٍ لإيجاد تفسير لهذا يخْطُر لي احتمالُ أنْ يكون المراد ما يحْدُثُ للْقَمَرِ يوم القيامةِ من خَسْفٍ يكُونُ بهِ مظلماً، ثمّ مَا يحْدُثُ له من اقْتِرَابٍ من الشمس، حتَّىٰ ينصَهِر، ويَنْصَبَّ في وَقْبٍ مِنْ أَوْقابِها، وهو ما أشَارَ إليه قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾

فَشَرُّ ذلك اليوم شرٌّ عظيم، وهو أعظم ما يستعاذ بالله منه، إنّ وُقُوبَ الْقَمَرُ في الشَّمْسِ لدى اجتماعهما يومئذٍ يكونُ بدخوله في وَقْبٍ مِنْ أَوْقَابِ الشَّمْس، والْوَقْبُ مِنها على كِبَرِهِ العظيم هُو ثَقْب صغيرٌ بالنِّسْبَةِ إليها، لا يزيدُ عَلىٰ مِثْلِ حُفْرَةٍ في جَبَلٍ، وَهٰذِهِ الأوقابُ فيها تَقْذِفُ باللَّهَبُ العظيم، فَتَبْتَلِعُ الْقَمَرَ ومَا هُو أكبر منه.

والله أعلم.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾

(١) عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: ما خَالَطَ السِّحْرَ من الرُّقَى.

(٢) وعن الحسَنِ: أنَّ النَّفَّاثاتِ في الْعُقَدِ السَّوَاحِرُ والسَّحرةُ.

(٣) وعن ابن زيد قال: السَّوَاحِرُ في الْعُقَد.

(٤) ورُوِيَ عن مجاهد أَنَّه قال: هُنَّ السَّوَاحِرُ إذا رَقِيْنَ ونَفَثْنَ في الْعُقَد.

ونحو ذلك قال «عِكْرِمة» و«الضَّحَّاكُ» كما ذكر الطبريُّ وابْنُ كثير.

النَّفْثُ: إخراجُ الهواء من الْفَم نفخاً، وقد يصاحبُهُ رَذَاذٌ من الرّيق. ويقالُ لُغَةً: فُلاَنٌ يَنْفُثُ غَضَباً، أي: يَنْفُخ بفِيهِ، تنفيساً عن غضبه.

الْعُقَد: جَمْعُ مفرَدُه «الْعُقْدَة» وهي العُقْدَة التي تُعْقَدُ في الحبْلِ أو الخيْط أو نَحْوِهما، والّتي يُرْبَط بها الْحبْلُ بِالحبْلِ، أو الخيْطُ بالخيط أو بالثوبِ، ونَحو ذَلِكَ، وتكون بإدارة الخيط على الخيْطِ وإدخال الطرف أو الأطراف في الدائِرَةِ، وشدّ الطّرفين فتحصُل الْعُقَد.

والسَّواحِرُ يفعَلْنَ هَذا على الأَدَوَاتِ اللاّتي يَنْفُثْنَ سِحرَهُنَّ عليها، عِنْدَ تِلاوَةِ الألفاظ السِّحْريَّةِ التي يُسَخِّرْنَ بها الْقُرناءَ من الجنّ.

وقد جاء تخصيص السَّواحِرِ النَّفَّاثاتِ في الْعُقَد بالاستعَاذَةِ بربِّ الفلَق مِنْ شرِّهنَّ، مع دُخولِهِنَّ في عُمُوم مَا سبَقَ، إذْ يدخُلْن في عُموم: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ وقد يَدْخُلْنَ أو يدْخلُ أثر سحرهِنَّ في عُموم: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ تأكيداً على الاهتمام بما يكيدُهُ بعْضُ النَّاسِ ضِدَّ خُصُومِهِمْ، أَوْ مَنْ يَحْسُدُونَهُمْ عَنْ طريقِ السِّحر، وهو وسيلة مظلمة خفيَّةٌ قد تأتي بشَرٍّ، فَتَدْخُلُ به في أَوْقابِ النَّاسِ، فَتُؤْذِيهم أو تمسُّهُمْ بضُرٍّ ضمن أسْبابٍ خفيَّةٍ، لَهَا مضادَّاتٌ مِنْ جِنْسِهَا، ولَهَا مضادّاتٌ مِنَ الأذكار والاستعاذاتِ باللَّهِ عزّ وجلّ رَبِّ الْفَلَقِ، رَبِّ العالمين.

والنَّفّاثاتُ في الْعُقَد: هِيَ النّفوسُ الساحرة سواءٌ أكانت نُفُوسَ ذُكُورٍ أمْ إنَاث، لِأنَّ النَّفْسَ عِنْدَ اسْتِخْدَامها وَسيلَةَ السِّحْر تتجرَّدُ من أوْصَافِ الذكورَةِ والأُنوثَةُ، وتَشْتَرِكُ مَعَ قَرِيناتِها من النفوس الخبيثَةِ في فِعْلِ الشّرِّ والضُّرّ.

- قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

يُعَلِّمنَا اللَّهُ عزّ وجلّ في هذه الآيَة أَنْ نستَعِيذَ بربِّ الفلَقِ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَد.

﴿حَاسِدٍ﴾: اسم فاعل من فعل: «حَسَدَ يَحْسُدُ» واسم الفاعل هنا يَدُلُّ على من يَحْمِلُ في نَفْسِهِ خُلُقَ الْحَسَد، وفي طبْعِهِ مِقْدارٌ مِنْهُ يُشكِّلُ لَدَيْهِ حالَةً مَرَضيَّةً قَدْ يتعدَّى أثَرُها إلى إيذاء المحسُودِ، أو الإضرار به.

﴿إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا كَانَ مَنْ في خُلُقِهِ وطَبْعِه الْحَسَدُ قَدْ حَسَدَ فِعْلًا، فتحرَّكَتْ نَفْسه تُطْلِقُ النَّظَراتِ ذواتِ الكَيْدِ ضِدَّ الْمَحْسُود.

وجاء هذا القَيْدُ الشَّرْطيّ للإشْعَارِ بأَنَّ مَنْ في نَفْسِه خُلُق الْحَسَدِ، قَدْ لاَ يَحْسُدُ، فَلاَ يكونُ لمَا في طَبْعِه من حَسَدٍ تَأْثيرٌ بأذى أَوْ ضَرَرٍ على ذِي النِّعمة.

والحسَدُ يبدَأُ بنظر الْحَاسِدِ إلى نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بها على المحسُود، ثُمَّ تتحرَّكُ نَفْسُه فيتمَنَّى أَوْ يَتَشهَّىٰ لنَفْسِه مثْلَها، إذَا لم يَكُنْ لَدَيْه نِعْمَةٌ مِثْلُها، أو

يَتَمَنّىٰ أو يَتَشهّىٰ زوال هذه النعمة عن المحسُود، ولو كان لدَيْهِ مِثْلُها، لِيَنْفَرِد هو وحْدَهُ بحيازَةِ هذه النعمة، أو لئَلاَّ يمتاز عليه المحسُود بنعمةٍ ليس لديه هو منها.

وبعد حركة النفس هذه لدى بعْضِ الْحَاسِدِين يُحِسُّ المحرومُ منْهُم من طُمَأْنينة الإيمان بقضاء اللَّهِ وقَدَرِه وحكمته في عَطَائه ومنعه، بغليانٍ في داخل نفسه كغليَانِ المِرْجَلِ على النّار.

وتختلف درجَةُ حرَارَةِ هٰذا الْغَلَيان من حاسِدٍ لآخر، بحَسَبِ قُوَّةِ أو ضَعْفِ الطبيعَةِ الحاسِدَةِ في نَفْسه. وقُوَّةِ أَوْ ضَعْفِ الْمُعَدِّلاَتِ والْكَابِحاتِ لها.

فمن الحاسدين مَنْ تَفُورُ نَفْسُه عَلىٰ مِثْلِ ما تَفُورُ النّار ذَاتُ الوقود السّريع الاشْتعال، وتتلظّىٰ باللّهب، ولا يُطِفئُ لَهَبَها ويبَرّدُهُ إلاَّ الإيمانُ باللّهِ العلِيّ الجليل، وبِحكْمَتِهِ العظيمة في مقاديره، معَ الإيمان باليْوم الآخرِ، وبالجزاءِ الحكيم، على صالح الْعمل بالفضل، وعلى سَيِّئِ الْعَمل بِالْعَدْلِ، ومن صَالِحِ أعْمَال الْقُلوب والنُّفوس الرضا بمقادير الله. ومن سَيِّئِ أعمال الْقُلوبِ والنُّفوسِ التسَّخُطُ على ما تَجْرِي به الأحداثُ الكونيَّةُ ضِمْنَ قَضَاء الله وقَدَرِهِ، الّتِي يُقدِّرُها ويقْضِيها بعلْمِه وحكمته.

وتُوجَدُ لدىٰ بعْضُ نُفُوسِ الحاسدِينَ شِحْنَاتُ طاقاتٍ إشعاعيّة، ذَواتِ آثارٍ ماديّة، إذَا أصابَت المحسُودَ آذتْهُ، أو أضرَّتْ بِهِ، ورُبما قتَلَتْه، وإذا أصابَتْ أشياء من ممتلكاتِه أوقعَتْ بها الْأَذىٰ أو الضَّرر.

وهذا هو ما يُسَمَّى بالإصابَةِ بالْعَيْن، والإصابَةُ بالْعَيْنِ حقٌّ، وهي ظاهرةٌ من ظاهرات الطّاقاتِ الإنسانيَّةِ الخفيَّةِ، التي تُوجَدُ لدى بَعْضِ الناس، وقد تَنْطَلِقُ دُونَ إرادَةٍ مِنْهُمْ، ويَكْثُرُ انْطِلاقُهَا لدَىٰ الحاسِدِينَ المزوّدِينَ بِها إذَا حَسَدُوا.

والاستعَاذَةُ بربِّ الْفَلقِ تَحْمِي مِنْ هٰذه الطّاقةِ الإشْعَاعِيَّةِ الحسَدِيَّةِ الخفيَّة. وقَدْ تُوجَدُ أشياءُ في الكَوْنِ تجذِبُها إليها، فتمتَصُّهَا، أو تظهر آثارُها فيها، فتتكَسَّرُ هي، ويَحْمِي اللَّهُ بها المحسُودَ من أذاها وضَرَرِها.

وقد صَحَّ عن النبيّ ﷺ أنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، أي: أَنَّ الإصابَةَ بنظراتِ الحاسِدِ إذا حسَدَ حقٌّ.

- روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الْعَيْنُ حقٌّ».

- وروىٰ مسلم عن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ، قال: «الْعَيْنُ حَقٌّ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا».

أي: إذا طُلِبَ مِنَ العائِنِ أَنْ يَغسِلَ أَطْرَافَهُ، ليُؤْخَذَ الْمَاءُ ويُصَبَّ مِنْهُ على الْمُصَاب بالْعَيْن لَزِمَهُ أَنْ يَسْتَجِيب للطَّلَب.

وحقيقةُ هذا من الأُمورِ الغَيْبيَّةِ بالنِّسْبَةِ إلَيْنا، وَقَدْ يَكُونُ فِي جَسَدِ الْحَاسِدِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَ الْمَاءُ مِنْهُ شَيْئاً إذا أُلْقِيَ عَلَى الْمُصَابِ بِعَيْنِهِ أَزَالَ مَا كان قد انطلَقَ من نفسه إلَيْه. أو اتَّحَدَ بِه فَبَرِئَ الْمُصَابُ بإذْن الله وبخلقه.

وصحَّ عن النبيّ ﷺ الإذْنُ بالرُّقْيَة من الإصابة بالعين. وعلى المؤمن أنْ يكُونَ علىٰ حضُورٍ مع الله، فيستعيذَ باللّه من شرِّ كُلِّ ذي شرّ، ومِنْ ضُرِّ كُلِّ ذي ضُرّ، فَهُو عزّ وجلّ الواقي، وأفضلُ ألفاظ الاستعاذة ما جاء بيانُه في كتاب الله عزّ وجلّ، ثمّ ما جاءَ في أقوال الرسول ﷺ.

فسورتا المعَوِّذتَيْنِ حِصْنَانِ عظيمان لمَنْ شَاء أنْ يكون في حماية الله عزّ وجلّ، وحفظِه من شرِّ ما خلق، ومن شَرِّ النفاثات في العُقَد ومن شرّ حَاسِدٍ إذا حسَدَ ومن شر غاسِق إذا وقَب، ومن شرّ الوسْوَاسِ الْخَنَّاس، الّذي يُوسْوِسُ في صُدور النّاس، من الجنَّةِ والنَّاس.

ومن الأدعية الواردة في صِحَاح الأحاديث ما يلي:

- روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالَتْ: كان إذا اشتكى رسولُ الله ﷺ رقَاهُ جبريل، فقال:

«بِاسْمِ اللَّهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وشرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ».

- وروى مسلم عن أبي سعيد الخدريّ، أنَّ جِبريلَ أَتَى النبيّ ﷺ فقال: «اشتَكَيْتَ؟»، فقالَ: «نعَمْ». قال: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، ومنْ كلِّ شيءٍ يؤذيك، من شرّكلِّ نَفسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ».

وقد لا يقتصر الحاسِدُ ذُو النَّفْس الخبيثَةِ على الإصابة بالعيْن، بل يَتّخِذُ وسائِلَ كيْدٍ ومَكْرٍ فيها أذىً أو ضُرٌّ، يَكِيدُ بها مَحْسُودَه، إلى حَدِّ الْقَتْلِ ظُلْماً وعُدْواناً.

وربّما قامَت حُروبٌ طاحِنَةٌ دافِعُها الحسَدُ بين النّاس.

ومن أعظم ما جرىٰ في تاريخ الحسَدِ، حَسَدُ إبليس لأبينا آدم عليه السّلام، فقد جَعَلَ هذا الحسَدُ إبليس يتّخذ كلَّ حيلَةٍ ووسيلَةٍ يستَطِيعُها ليُخرِجَ آدم وزَوْجَه مِنَ الجنَّة، وليُتَابعَ ذُرّيَّتَهُما بالإغواء والتَّسْويل والوسوسة، ليُدْخِلَهم النّار.

ومن الحسَدِ في تاريخ بَنِي آدَمَ حسَدُ قَابيلَ لهابيل الذي دفَع به حتَّىٰ قتل أخاه.

ومن الحسَد في تاريخ الناس حسَدُ بني إسرائيل، فقد حسَدَ أولادُ يعْقُوبَ عليه السلام أخاهم من أبيهم يوسف عليه السّلام، حتَّىٰ حاولوا قتله، ثُمَّ اقْتَصَرُوا على إلْقَائِه في الْجُبِّ، وهو غُلَامٌ صغير السِّن، وكان من شأنه بقضاء الله وقدرَه وإذْنِه وتمكينه وعنايتِهِ به ما قصَّه الله في سُورة (يوسف).

ثُمَّ حسَدُهُمُ الْعَرَبَ إذْ جاء النبيُّ الخاتم الذي كَانُوا قد بُشِّرُوا به من أولاد إسماعيل عليه السلام، ولم يأتِ منْهم من أولادِ إسحاق، فكفَرُوا به، وَكَادُوهُ كَيْداً عظيماً، وكادُوا دينَهُ وأُمَّتَهُ، وما يزالُون يكيدون.

ومَنْشأُ الحسَدِ الأَنانيَّةُ المفرطة، وكراهِيَةُ الخيْر للغير.

وكلُّ الحسَدِ مَذْمُومٌ إلاَّ مَا أَذِنَ به الرَّسُول ﷺ من حسَدِ الغِبْطَة، وهو الحسَدُ الّذي يتمَّنى الحاسد فيه أن يكون له مِثْلُ ما للمَحْسُودِ منْ أمُورٍ تنفَعُهُ في آخِرَتِه عند ربّه.

روى البخاريُّ ومسلم عن ابن مسعود، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْن: رجُل آتاهُ اللَّهُ الْحِكْمةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا. وَيُعَلّمُهَا النَّاسَ، ورَجُل آتاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكِتِهِ في الْحَقِّ».

(٦)

التدبّر التحليليّ لآيات سورة النّاس

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾

يُعلّمُنا اللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ في هذَا النصِّ أنْ نَسْتَعِيذَ به بوصْفِه رَبَّ النَّاسِ، مَلِكَ النَّاسِ إلَهَ النّاس، ففي ذِكْرِ هٰذِهِ الصّفات مُلاحَظَةُ مَا يتّصل بالشرّ المستَعاذِ بهِ منه.

(١) فالرَّبُّ هو الخالقُ وفْقَ نِظَام التَّرْبية، إذا التربية هي الإنشاء المتدرِّجَ حالاً بعْدَ حَال، وهذا يسْتَلْزمُ الحضور والشّهُود دواماً، ويسْتَلْزمُ الإمْدَادَ المتَتَابع، والْخَلْقَ المتابعَ آناً فآناً دون انقطاع.

إذَنْ فَهُو القادِرُ على مَنْحِ الإعاذَةِ مِنْ شرّ الوسْواس الخنّاس، الذي هو ملازِمٌ دواماً لحركَاتِ قَلْبِ الإنسانِ ونَفْسِه مع الآنَات المُتَتَابعات، يُوسْوِسُ بفِعْلِ الشُّرور، ويُغْري بارتكاب المعاصي، ويُزَيّنُها، ويسْتَدْرجُ للوقُوعِ فيها، مادًّا خُرْطُومَه إلى المواطن المحرّكَة للإنْسَانِ من داخله.

فإذَا ذَكَرَ الإنْسَانُ رَبَّهُ خَنَسَ شيْطانُهُ الموسوس له، وكلّما غَفَل عَنْ

ذِكْرِ رَبِّهِ والاستِعَاذَةِ بهِ جَعَلَ يُوسوسُ له، حريصاً على إسقاطه في آبار المعاصي والمخالفات وارتكاب الآثام.

إنّ هٰذِ المتابعةَ مِنَ الشيطان الوسْواسِ الخنَّاسِ لا يَقِي ولاَ يَحْمِي وَلاَ يُعِيذُ مِنها إلاَّ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ، بوصْفِه رَبّاً خالقاً حاضراً شاهداً مُمِدًّا في كُلّ الآنَاتِ المتتابعات.

فالاستعاذةُ به مع ملاحظة هٰذا الوصف، هُو الأمْرُ الّذي تقتضيه عُبُودِيَّةُ الْعَبْد لربّه، نظراً إلى أنَّ العبوديَّة في مفْهُومِها النَّفْسِيّ. هيَ رُدُودُ أَفْعَالِ النَّفْسِ السَّويَّةِ تجَاهَ تَصَوُّرَاتِها لعناصر القاعِدة الإيمانيَّة.

إنَّ عُبودِيَّة الإنسان لربّه في حالة تعرُّضه باستمرار لوسَاوس الشّيْطان الوسواس الخنَّاس، تقتضِي مِنْهُ أن يستعيذَ بالرَّبِّ الّذي هو شاهدٌ حَاضِرٌ عَلِيمٌ، متَابعٌ لعَمَليَّاتِ الخلْقِ المتجدّدَةِ دواماً مِنْهُ، في كلّ خَلِيَّةٍ وَكلِّ ذرَّةٍ من عَبْدِه، وفي كلّ آناتِهِ المتتابعات.

(٢) ومَنْ كانَ هُو الرّبّ دَوماً، كَانَ هو الْمَالِكَ لِعَبْدِهِ دَواماً، وكانَ هُو الْمَلِكَ الآمِرَ المتصرّف فيه علىٰ ما يشاء دَواماً.

وفي الاستِعَاذَةِ باللَّهِ جَلَّ جلالُهُ بوصْفِهِ مَلِكَ النَّاس، معْنَى الاستِنْصَارِ بِصَاحِبِ الْمِلْكِ وصَاحِبِ الْمُلْك، لِحمَايَةِ وَوِقَايَةِ وإعَاذَةِ من هو داخِلٌ في مِلْكِهِ لأنَّهُ خالِقُهُ ورَبُّهُ دَواماً، وداخلٌ في مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، إذْ هُو المَلِكُ وحْدَهُ في الوجود كُلّه، فَلاَ سُلْطانَ لأحَدٍ مع سُلْطانه، وهُوَ مَلِكُ النَّاسِ الذي له حقٌّ الأمْرِ والنَّهْي والتكليف والمحاسبة والجزاء، ومِنْ شَأْن رَعِيَّةِ الْمَلِكِ أَنْ تسْتَنْصِرَ بمَلِكِهَا الْقَوِيّ العزيز الغالبِ لأعدائها، ونصره لها يكون بِحِمَايَتِهَا وَوِقَايَتِهَا وَإِعَاذَتِهَا من شرّ كُلِّ ذي شرّ.

والله جَلَّ جلالُه يَنْصُر عَبْدَه، إذا كان صحيح الإيمان به، وصادقاً في عبوديته له، ومُعْتصماً به، ومُذْعِناً لمُلكه وسُلْطانه، وحريصاً على طاعته.

أمَّا الكافر الجاحد، أو المخالف العاصي، أو المتهاون الناسي، فإن حظه من نُصْرَةِ رَبِّه له مُنْعَدِمٌ، أو ضعيفٌ، وذلِكَ بحَسَبِ حَاله مع ربِّه.

(٣) ومن كان هُو الرّبّ، وهُوَ الْمَالِكَ والْمَلِكَ، كَانَ هو وحْدَه المستَحِقَّ لِأَنْ يكون الإله المعبود.

إلٰه النَّاس: أي: هو المستحقُّ لأنْ يَعْبُدَهُ وحْدَه جميع الناس، إذْ هو وحْدَهُ رَبُّهُمْ، وهو وَحْدَهُ مَالِكُهُمْ وَمَلِكُهُمْ، فلا إله غَيْره، أي: لا مَعْبُودَ بحقٍ سواه.

وفي الاستعاذة باللَّهِ بوصْفِهِ إله النَّاس، إلْمَاحٌ إلى أنَّ المستعيذَ بِهِ قائِمٌ بحقِ رَبِّهِ عليه، من توجيه عبادته له وحْدَه، ومِنْها عبادَةُ الدُّعاءِ والاستعاذة، فهو بهذا أهْلٌ لِأنْ يُكْرِمَهُ اللَّهُ بإجابَةِ دُعائه، وإعَاذَتِهِ مِنْ أَعْدائِهِ الساعِينَ إلى إغوائه وإضلاله، من شياطين الجن، ومن شياطين الإنس.

● قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾:

هٰذه الآيَات تُبيّن المستعاذَ بالله جلَّ جلاله من شرّه، مع بيان نَوْع الشّر، وهو الوسوسة.

الْوَسْوَاس: بفتح الواو هو الشيطان، وكلُّ ما حَدَّثَكَ وَوَسْوَسَ إليك.

والوَسْوَسَةُ، والْوَسْوَاسُ في اللُّغة: الصَّوْتُ الخفيُّ، من الرّيح، والْوَسْوَاسُ صَوْتُ الْحَلْي، والهمْسُ من الأصوات والأَقوال.

والْوَسْوَسَةُ، والْوِسْوَاسُ: حَدِيث النفس.

يقال لغة: وَسْوَسَ في صَدْرِهِ ووَسْوَسَ إلَيه وَسْوسَةً وَوَسْواساً.

الخنَّاس: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ وتَكْثِيرٍ لصيغة «الْخَانِسِ» اسم فاعل من فعل «خَنَسَ يَخْنِسُ خُنُوساً وَخِنَاساً» أي: تأخَرَ، وانقَبَضَ واسْتَخْفَىٰ.

وقد وُصِفَ الشيطانُ بأَنَّهُ خنَّاسٌ، لِأَنَّهُ يَخْنِسُ كُلَّما ذكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ، فإذَا غَفَل أو نَسِيَ عَادَ الشيْطانُ فَوَسْوَسَ في صَدْرِه، فإذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَس، وهَكَذَا دوالَيْكَ وَسْوَاسٌ خنَّاسٌ.

وكذلِك يَفْعَلُ شَيَاطِين الإنسِ، بلْ شيطان الإنس أشَدُّ خطراً وأعْظَمُ ضرراً مِنْ شياطين الجنّ، فشَيْطَانُ الإنسِ يُوَسْوِس بالأقوال الّتي تمرُّ عَنْ طريقِ الفكر، حتّى تَصِلَ إلى مراكز الانْفِعَالات والعواطف والشهواتِ والأهواء في الصَّدْرِ. وشيطان الجنّ يقْذِفُ من داخل النَّفْس بالخواطر ويجري من ابْنِ آدم مجْرَىٰ الدَّمّ، فتنتَقِلُ الخواطر إلى مراكز الانفعالات العواطف والشهوات والأهواء في الصَّدْر.

وحين يَستَجيبُ الإنسَان بإرادته إلى هذه الوساوس فإنّها تُنتِجُ سلوكاً مُنْحرِفاً يجلُب الشرّ والضُّرَّ للإنسان.

رُوِيَ عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ أنَّهُ قال: الشيطانُ جاثِمٌ على قَلْبِ ابن آدم، فإذا سَهَا وغَفَلَ وَسْوَسَ، وإذا ذكَر اللَّهَ خَنَس.

ورُوِيَ نظير هذا عن مجاهدٍ وقتادة.

- وثبت في الصحيح[١] أنّ الرسول ﷺ قال:

مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وُكّلَ به قَرِينُهُ».

أي: الموسْوِسُ له بالفواحِشِ والمعاصِي من شياطين الجنّ.

قالُوا: وأنْتَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟. قال:

«نَعَمْ، إلاَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلاَ يَأْمُرُنِي إلاَّ بخَيْر».

---

[١] كما ذكر ابن كثير في تفسيره للسورة.

- وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ أنسٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ».

- وروى الحافظ أَبُو يَعْلَىٰ الْموْصِليُّ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسُول الله ﷺ:

«إنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ[1] عَلَىٰ قَلْب ابن آدم، فإنْ ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، وإنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الخناس». [وهو حديثٌ غريب].

- وأخرج ابْنُ أبي دَاودَ عن ابْنِ عبَّاسٍ في قول الله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ قال: مَثَلُ الشَّيْطَانِ كمَثَلِ ابْنِ عِرْسٍ، وَاضِعٌ فَمَهُ عَلىٰ فَم الْقَلْب، فَيُوَسْوِسِ إلَيْه، فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، وَإِنْ سَكَتَ عَادَ إلَيْهِ، فَهُوَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ.

ابن عِرْس: حيوان أصغر من القط يفتك بالدجاج ويتوارى عن الأنظار في مخابئ.

وانتهى تدبّر السُّورة بمعونة الله وتوفيقه.

* * *

ملاحق لسورتي الفلق والناس

الملحق الأول: نظرة عامَّة حول ما جاء في السّورَتين.

الملحق الثاني: حول فلسفة التمكين من فعل الشرّ.

الملحق الثالث: الاستعاذة في القرآن والسُّنَّة.

الملحق الرابع: حول السّحر.

* * *

---

[1] خَطْمَهُ: الخطم: الأنف، أو مقدّم الأنف، والمراد مُقَدَّم فَمِهِ، ولعلّه يخرج صوت حديثه من أنفه.

(٧)

الملحق الأوّل

نظرة عامّة حول ما جاء في سورتي الفلق والناس

بعد التدبُّر التفصيليّ لسورتَي المعوِّذَتَين، يَحْسُنُ بنا أَنْ ننظُرَ نظرَةً عامّة إلى ما تدَبَّرْنَاهُ مِنْ آياتهما.

لقد أمرنا الله عزّ وجلّ بأَنْ نَسْتَعيذَ بِهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وبَرَأَ وَذَرَأَ في كَوْنِهِ، لأنَّ الاستعاذَةَ به منْ شرّ مَا خلَق مظهَرٌ منْ مَظَاهر الإيمان الصادق. وسلُوكٌ نابعٌ من القاعدة الإيمانيّة.

فالمؤمن بالله الّذي له مَلَكوتُ السَّمَاوات والأَرْضِ، وهُوَ على كُلّ شَيْءٍ قديرٌ، إذَا حَذِرَ أو خاف من شرّ شيءٍ أو من ضرِّهِ أو أذاه، لم يسْتَعِذْ في دُعَائِهِ الموجَّهِ لِلْغَيْبِ بإِنسٍ، ولاَ جِنٍّ، ولاَ مَلَكٍ، ولا حَيوانٍ، ولا جَمادٍ، ولا رُوحِ نَبِيٍّ أَوْ رسُولٍ أو وَلِيٍّ أو صالحٍ مِنْ صُلحاء المسلِمين.

إِنَّما يستَعِيذُ باللّهِ عزّ وجلَّ وحْدَهُ لاَ شريكَ له، فهُوَ رَبُّ الْفَلَقِ، وهو رَبُّ النَّاسِ، وَمَلِكُ النَّاسِ، وَإِله النَّاسِ، وهُو رَبُّ كلِّ شيءٍ من دُونه، وَمَلِكُ كلِّ شيءٍ وَمَلِيكُهُ، والمسْتَحِقُّ وَحدَهُ لأنْ يُعْبَدَ، والاستعاذَةُ بالغيبيّاتِ لَوْنٌ من أَلوانِ العبادة.

وفي الاستعاذة باللّهِ عزّ وجلّ تمْكينٌ للقاعِدَةِ الإيمانيَّةِ، وَتثبيتٌ عمليٌّ للاعتقاد بأنّه لاَ رَبَّ في الوجود كلِّه إلاَّ الله، وَلاَ إله في الوجود كُلِّهِ يَسْتَحِقُّ الإلهيَّة إلاَّ الله. ولا مُنجِيَ مِنْ كُلِّ المكاره سِوَاه، مع ما في الاستعاذة بالله عزّ وجلّ من عبادةٍ هي من أَعْمقِ العباداتِ وأَخْلَصها، فالاستعاذَةُ من الدُّعاء، والدُّعاء عبادةٌ، أو هي مُخُّ العبادة كما جاء في بعض الأَحاديث النبويَّة، والاستعاذة تتضمَّن ثلاثة أركان، هي:

(١) مسْتَعِيذٌ. (٢) ومُسْتَعَاذٌ به. (٣) ومستعاذٌ منه.

- **أمّا المسْتَعيذ:** فإنّما يُلجئُه إلى الاستعاذة بغيره شُعُورُهُ بضعفه وعَجْزِه عَنْ دَفْعِ أَوْ رَفْعِ شرٍّ أو ضُرٍّ أَوْ أذىً يَخْشَاهُ، أو قَدْ مَسَّهُ مِنْهُ شيْءٌ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ ضُعَفَاءُ تجَاهَ كَثِيرٍ ممّا خلق اللّهُ في كوْنه، وهُمْ فُقَرَاءُ إلىٰ اللّهِ جلّ جلالُهُ دون اسْتِثْناء.

- **وأمّا المسْتَعَاذ به:** فالقاعِدَة الإيمانيَّةُ المسْتَقِرَّةُ في قَلْبِ المؤمِنِ تتضَمَّنُ أَنَّ الخلْقَ جميعَهُمْ ضُعَفَاءُ، لا يملكون لغيرهم ولا لأنفُسِهم جلْبَ نَفْعٍ ولا دَفْعِ ضُرٍّ، إلاّ بتمكينٍ من الله وتسْخِيرٍ للأشْيَاء، وإذْنٍ قَدَرِيٍّ مِنْه.

فالسُّلْطانُ كُلُّهُ في الوجود كلِّهِ له وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، هو الذي خلَق فَسَوَّىٰ، وأخْرَجَ مِنْ ظلْمَة العَدَمِ إلى نور الوجود، وأمَدَّ بالْقُوىٰ، ومَكَّنَ، وسَخَّر، ثُمَّ هُو يأذَنُ إذَا شَاءَ أو لا يأذَنُ.

فهو عزّ وجلّ الذي يَجِبُ أنْ لاَ يَسْتَعِيذَ المستعيذُون إلاّ به، وأن لا يَدْعُو الدَّاعُون إلاّ إيّاهُ.

- **وأمّا الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ:** فَهُو كُلُّ شرٍّ أو ضُرٍّ أَوْ أَذىً عاجلٍ أو آجلٍ، من كلِّ مَا خَلَقَ اللّهُ، ومن غضَب الله وسَخَطه وعِقَابه، وعَذَابه، التي تَجْلُبُها معاصِي العباد. وَمِنْ بَلائِهِ الّذِي قد تقضي به مقاديرُه، ممَّا هو من المكاره، وأذِنَ اللّهُ بأن نسْأَلَهُ العافية منه.

والمخلوقاتُ الّتي يمكن أنْ تَجْلُبَ للإنسَانِ الشَّرَّ أو ما يَكْرَهُ من ضُرٍّ أو أذىً منبَثَّةٌ في كلِّ ما خلَقَ الله من أنواع وأصناف، بدْأً مِنْ نَفْسِ الإنسان الأَمَّارَةِ لَهُ بالسُّوءِ بَيْنَ جنْبَيْهِ، إلَىٰ شهواته الجامحة، وأهوائه الجانحة، وقُواه الطاغية، ثُمَّ إلى شيطانه الذي يجري منه مجرىٰ الدّم، فإلى سائر شياطين الإنْسِ والجنّ، وسائر ما خلقَ الله من ظاهرٍ مشهود، أو خفِيٍّ محْجُوب.

ممّا تضمنته سورتا المعوّذتين:

وقد تضمَّنَتْ سورتا المعوّذَتَيْنِ أموراً ذاتَ أهمية، منها ما يلي:

الأمر الأول: تنبيهُنا على حقيقة عجزنَا وَضعفنا عن دفْعِ الشرور والمكاره عن أنفسنا، ممَّا قَدْ يُصِيبُنا به كثيرٌ ممَّا خلَق الله في كونه.

الأمر الثاني: تنبيهُنا بصفَةٍ عامَّةٍ على حاملات الشُّرُور المحيطة بنا، أو الدَّاخِلَةِ في ذواتنا والمتغلغلَةِ في أعماقِ نفوسنا.

وتنبيهُنا بصفةٍ خاصّة على شُرورٍ خاصَّةٍ ذاتِ أَهميَّةٍ بالغة في حياتنا، لما لها من آثار سيئَةٍ جدّاً علينا، في أمورنا الدنيويَّة أو الأخرويَّة.

الأمر الثالث: تَعْلِيمنا كيْفَ نسْتَعِيذُ باللَّهِ عزّ وجلَّ، في كلام موجَزٍ جامعٍ، يتضمَّنُ الثناء البليغ على الله عزّ وجلّ، والاستعاذَةَ الْحُلْوَةَ العذْبَةَ الأداء، مع ذكْرِ المستعاذِ بالله منه.

الأمر الرابع: تثبيت إيماننا بأنَّ الله عزّ وجلّ هو وحده القادر على حمايتنا وصيانتنا ودفع الشرور عنّا، فهو ربُّ الفلق، أي: هو ربُّ الخلق المنفلق من الْعَدَم، وهو مُربّيهِ، ومنمّيه، ومنشّئه، والممدّ له بالبقاء والقوىٰ، وهو رَبُّ الناس، الخالق لهم، والمهيمن عليهم دواماً بالتربية، وهو الرحيم بهم الذي يُعِيذُهم، إذا استعاذوا به، والتَجَؤُوا إليه، وَهُو مَلِكَ النَّاسِ الذي بيَدِه تصْرِيفُ كُلِّ أَمْرٍ بِحُكْمِهِ وحِكْمَتِهِ، فمن استعاذ به مُؤْمِناً خاضعاً عابداً أعاذه. وهو إلٰه الناس المعبودُ بحقٍّ، فلا إله في الحقيقة غَيْرُه، ولا مُسْتَحِقَّ للعبادَةِ سواه، ومِنْ عبادته عزّ وجلَّ الاستعاذةُ به، والالتجاء إليه.

(٨)

الملحق الثاني

حول فلسفة التمكين من فعل الشر

من لوازم حكمة ابتلاء الإنْس والجنّ في ظروف الحياة الدنيا، منْحُهم إراداتٍ حُرَّةٍ، يُرِيدُونَ بها ما يشاؤن من اعتقادٍ أو عمل.

ومن لوازم منح الإرادات الحرَّة للممتحنين، تمكينُهم تمكيناً قدريّاً

عاماً بالإمداد والتسخير من تنفيذ ما يريدون، إذا لم يكُنْ للَّهِ عزّ وجلّ مرادٌ آخرُ تقتضيه حكمته.

ومع التمكين القدريّ العامّ، لا بُدَّ من الإذْنِ الرَّبَّاني لدى ممارسَتِهم أعمالهم، من أَنْ يُحقِّقُوا مراداتهم.

ومن لوازم كلِّ ما سَبَقَ لتحقيق حكمة الابتلاء أنْ تُؤَثِّر أعْمالُ بَعْضِ المخلوقاتِ في بعض، فيكونَ من نتائج هٰذِهِ التأثيرات نَفْعٌ وَخَيْرٌ من بعْضِ ذوي الإراداتِ الحرَّةِ لغَيْرِهم، أو ضررٌ وأذىً وشرٌّ منهم لغَيْرِهم.

ومنْ تأثيرات بعضهم على بعض، أَعْمالُ إغواء وإغراء ووسوسَةٍ وتسويل، حتَّىٰ يفْعَلَ المستجيبونَ بإرادتِهم شرّاً أو ضُرّاً أو أذىً، أو يُحْدِثوا إفساداً في الأرض، مع خضوع كل نتائج أعمالهم لسلطان التمكين القدريّ العامّ، والتسخير للمسخّرات في الكون، ومَعَ الإذنِ من الخالق جلَّ جلاله بتحقيقها للابتلاء.

وممّا قد يكون له آثارٌ ذَواتُ شَرٍّ وضُرٍّ، وهو يتحرَّك في الكَوْنِ بقوانين الله القدريَّة الجبريَّة، ما هو داخل في ذات الإنسان، كنَفْسِه الأمّارة بالسُّوء، وكبَعْضِ دوافعه وغرائزه الّتي قد تنمو في ذات نفسه، فتحرّضُ قُدْرات إرادته على فعل الإثْم والشّرّ، وقد يَدْفَعُها بقُوَّة، كَشِدَّة انفعال الغضب الّذي يُفْسِد ميزان العقل، ويُضْعفُ مقاومة الإرادة، وكَشِدَّةِ انفعال العشق أو البغض أو الحقد، أو شِدَّة ثَوران الشهوة، أو تملُّك الطَّمَعِ أو الخَوف أو الجبْنِ، أو ضغط الضائقاتِ الْمُحْرِجَاتِ كالفقر والجوع الشَّديدين، وأنْواع التَّعذِيب والآلام الَّتِي تُزْهِقُ قدرات الاحتمال لدى الإنسان.

والإنسُ والجنُّ لهُمْ آثارٌ ذَاتُ شَرٍّ، وهم يتحرَّكون ويتصَّرفُون في الكون بإرادَةٍ حرّة مُخْتارة منحهم الله عزّ وجَلّ إيّاها، ومكَّنَهمْ من تنفيذ بعض مراداتهم، ممّا يدخُل ضِمْنَ استطاعة قُدْراتهم، فيما سخَّرَ لهم في كونه.

فالإنسُ قد يمكرون ويكيدون ويوسْوِسُون بأسبابٍ خفيّة أو ظاهرة، لإنزال الشرِّ أو الضرّ، أو الأذىٰ، فيمن يكيدونه، وهذا من لوازم التخيير والتمكين والتسخير، للابتلاء في ظروف الحياة الدنيا.

والجنُّ قد يفعلون مثل ذلك، بأسْباب خفيَّةٍ، مكَّنَهُمُ اللَّهُ منها، وسخَّرَهَا لهم، غير أسباب الإنس، وهذا من لوازم التخيير والتمكين والتسخير.

والشياطينُ وهم كفَرَةُ الجنّ ومرَدَتُهُمْ قَدْ يُوَسْوِسُون، ويُغْرُون، ويُسَوِّلُونَ إطماعاً بالباطل، لدفع الناس بوساوسهم، وإغراءاتهم، وتسويلاتهم، إلى الكفر والفسوق والعصيان، وهذا من لوازم التخيير والتمكين والتسخير.

وكلُّ ما لا يَمْلِكُ الناس أسبابَ الحماية منه، واتخاذ الوقاية من أسباب شَرِّه أو ضُرِّه أو أذاه، فقد تكفَّلَ اللَّهُ عزّ وجل للمؤمنين به، المستقيمين على طاعته، والمستعيذين به، بأَنْ يتدخَّل جَلَّ وعلا، ليحميَهُمْ ويَقِيَهُمْ من الشرور، ذواتِ الأثار الضّارَّةِ في آخِرَتِهم، إذا استعاذوا بِه حقاً وصدْقاً، ولَجَؤُوا إليه من عُمْقِ قُلوبهم، وتوكَّلُوا عليه، داعين متضرّعين له، وقَدْ يدفع عنهم المضارّ الدُّنيويَّة أيضاً، ما لم تكن حكمتُهُ قد قضَتْ بأن يَبْتَلِيهُمْ ببعْضِها، بشَرْط أن يستعيذوا بِه حقاً وصدْقاً، ويَلْتجِؤُوا إليه من عُمْقِ قُلُوبهم، ويتوكَّلُوا عليه، داعين متضرّعين له، مخلصين في دَعَائهمْ وعبادتهِم له.

وقد عَوَّدَ الله عزَّ وجَلَّ عباده المؤمنين الصّادقين أن يَرُدَّ كيْدَ أعدائهم في نُحورهم، وأنْ يُعيذَهُمْ من شرورِهم، إذا استعاذوا به والتجؤوا إليه.

ومكّن الرّبُّ الخالق جلّ جلالُه ذوي الإرادات الحرّة من اتخاذ مَقاديرَ مُحَدَّدةٍ من الأَسْبَاب، للوقاية والحماية من أنواع الشرّ والضّرّ والأذىٰ، التي قد تأتي بها القوانين الكونية الجبريّة، والتي مكَّنَ عباده من اتّخاذ أسبابها،

بمقادير محدَّدة أيضاً، ومكَّنَهُمْ أيضاً من دفْعِ الموانع والعقبات والصوارف الّتي تَحُولُ دون تحقيق النتائج الّتي يُرِيدون تحقيقها، بمقادير محدَّدة من الأسْباب أيضاً.

ولكِنَّ وراءَ الأسْباب الظاهرةِ أسباباً كثيرةً خفيَّة، منها ما هو لتحقيق المطلوب، ومنها ما هو لرَفْع الموانع والعقبات والصوارف عن تحقيقه، ومنها ما هو للوقاية والحماية من الشرّ والضرّ والأذى، وهذه الأسباب الخفيَّةُ غيْرُ الظاهرة هي الجمُّ الغفيرُ من الأسباب، وهيَ تَقَعُ فَوْقَ استطاعة المخلوق وقدراته، أو تَقَعُ وراء دائرة عِلْمه، أو يَعْلَمُها ولا يتمكَّنُ من الوصول إليها أو التَّحكُّم بها.

فَمَنْ غيْرُ الله الخالقِ الرَّبّ العليم الحكيم اللّطيف الخبير، يتوَّلىٰ أو يَمْلِكُ دَفع أنواع الشرّ والضرّ والأذي، الّتي لم يُعْطِ عبادَهُ أسْبَابَ دفعها؟!

ومَنْ غير الله الخالق الرَّبّ العليم الحكيم اللّطيف الخبير، يتولّى أو يَمْلِك رَفْعَ الموانع والعقبات والصوارف، الّتي لم يُعْطِ عباده أسْباب رفْعِها؟!.

ومَنْ غَيرُ اللَّهِ عزّ وجلَّ يتولّى أو يَمْلِكُ وِقَايَةَ وحِمَايَةَ عباده من أنواع الشرّ والضرّ والأذي الّتي لا يملكونَ وسيلةً للتوقي منها، لأنَّهَا فوق طاقتهم، أوْ لاَ تَقَعُ في دوائر علمهم؟!!.

إذَنْ: فالإنْسَانُ يَتَّخِذُ مِنَ الأَسباب ما مكَّنه الله من اتَّخاذه، ثُمَّ يَجِدُ نفسه عاجزاً عن اتّخاذ أسبابٍ هي فوق قُدْرَاته، أو لا تَقَعُ في دائرة علمه أصلاً.

فماذا يفْعَلُ إذن؟!

إنّه لا حيلة له إلاّ أن يَرْجع إلَىٰ قاعدة إيمانه برَبّه، الذي هو مَسَبّبُ الأسْبَابِ كلِّها، والمهَيْمِنُ علَىٰ كُلِّ شيءٍ، والعليم الخبير بكلّ شَيْءٍ، والَّذِي هو على كُلّ شيء قدير.

فإذا رجَعَ إلى قاعدة إيمانه بربّه هَدَاه إيمانُه إلى أنَّ مسؤوليّاته وواجباته السببيّةِ تَنْحَصِرُ فيما يَمْلِكُ اتِّخاذه من أسباب، وهو يتَّخذها مستَعِيناً باللَّهِ عزّ وجلّ، ليُمِدَّهُ بالْعَوْن والتوفيق، وبمزيدٍ من الْقُوَى الغيبيَّةِ المساعدة له في أسبابه.

ولهذا علّمنا رَبُّنا جلّ جلالُه، أن نستعين به في ممارساتنا لكلّ أسبابنا، فنقولَ بقلوبنا وألسنتنا: بسم الله الرحمن الرحيم.

وعلّمَنا رَبّنا جلَّ جلالُه، أَنْ نَتوكَّلَ علَيْهِ ليحقّق لنا ما نِحِبُّ منْ خَيْرَي الدنيا الآخرة، وعلّمنا أن نقول بقلوبنا وألسنتنا أذكارا وأدعية أنزلها في كتابه، ومنها:

- ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾
- ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾.
- ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾
- ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾.
- ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.
- ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

إنَّ هذا التوكُّلَ على اللَّهِ عزّ وجلَّ، هو من عناصر العبادة له تبارك وتعالى مع ما فيه من استجلاب تحْقِيق مَا لا يَمْلِكُ العبْدُ أسبابه، إذا كان لله حِكْمَةٌ وإرادَة في تحقيقه لِعَبْدِه.

وبالتأمُّل الدقيق العميقِ نُدْرِكُ قَضيَّتَيْن:

القضيّة الأولى: أنَّ اتّخاذ الأسباب يَقَعُ في دائرة الطاعة العمليّة لله عزّ وجل.

القضيّة الثانية: أنّ التوكُّلَ على الله عزّ وجلّ يَقَعُ في دائرة العبادة القلبيَّة والنفسيّة لله تبارك وتعالى، ويُسَاعِدُ الِلّسَانُ هذه العبادة بالذكر اللفظيّ، الذي قد يجلُب التصوّرَ الذهْنِيَّ، والحضورَ القلبيَّ النفسيَّ.

أمّا موقف العبْدِ المؤمِنِ تُجاهَ ما لا يَمْلِكُ حمَايَة نَفْسِه وَوِقايتَها، مما قدْ يَتَّجِه نَحْوَهُ بشرٍّ أَوْ ضرٍّ أَوْ أذىٰ، مِنَ المخْلُوقاتِ غَيْرِ ذَاتِ المسؤوليّة عمّا يَحْدُث بها من أحداث، وكذلك مِنَ المخلوقات ذوات المسؤوليّة عمّا تُحْدِثُ بإراداتها مِنْ أحداث. فهو الاستعاذة بالله من شرّ كلّ ذي شرٍّ، ومن ضُرّ كلّ ذي ضُرّ، ومن أذى كُلّ ذي أذىٰ.

والاستعاذةُ باللَّهِ عزَّ وجلَ، هي في الحقيقة تَوَكُّلٌ على اللَّهِ ودُعَاءٌ له في آنٍ واحد. وهاتان عبادتان في حركاتِ القَلْبِ وذكر اللّسان.

وفي الربع الأوّل من التّنزيل المكيّ أنزل اللَّهُ وجلّ سُورَتَي المعوِّذَتين، يُعَلِّمُنَا فيهما كَيْفَ نَسْتَعِيذُ به مِنْ شَرِّ كلّ ذي شرّ، نظراً إِلَىٰ أنّ الاستعاذة به من أوائل مظاهر السلوك الإِيماني، بَعْدَ إعلان التوحيد، وبَعْدَ الاستعانَةِ باللَّهِ في كلِّ الأعمال، وبَعْدَ الصَّلاةِ له وبعْضِ ألوان العبادات القوليّة والعمليَّة.

وقد اشتملت سورة (الفلق) على الاستعاذة بالرَّبّ الخالق عزّ وجلّ من شرّ كلّ ذي شرٍّ يأتي بأضرار وشرورٍ دُنيويَّة، كَكُلّ حامل للشرّ والضُّرّ والأذىٰ يَسْرِي في الظلمات. وهو يسْتَتِرُ ويَتخَفَّىٰ بوسائله وتحرُّكاته، وكَكُلّ مُتَّخِذِ وَسَائلَ خفيَّةٍ غَيْبيَّةٍ، لا يَعرِفُهَا إلاّ ذَوُو اختصاصٍ وممارسَاتٍ خاصَّة، كالسَّحَرةِ، وكُلِّ مُسْتَخْدِم طاقاتٍ خفيةٍ في ذاتِهِ، وهِيَ ذوات تأثيرات في الأجساد أو في الأنفس، كالطاقات الّتي تُطْلِقُها نفوسُ الحاسدين، فيكون لها تأثيرات بشرّ أو بضُرّ أو أذى.

واشتملت سورة (الناس) على الاستعاذة ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

* * *

(٩)

الملحق الثالث
الاستعاذة بالله في القرآن والسُّنَّة

(١)

الاستعاذة في القرآن

باستقراء ما جاء في القرآن المجيد حول الاستعاذة بالله عزّ وجلّ، تَتَبُّعاً له وفْقَ تَرْتيب نُزُول السُّور، تبيّن لي ما يلي:

أولاً وثانياً:

كان أوّل ما نزل في القرآن حول الاستعاذة بالله جلّ جلاله، مَا جاء في سورتي (الفلق والناس) اللَّتَيْنِ تدبَّرْنَا آياتهما على قَدْرِ أَوْعيتنا الفكريَّة والعلميَّة.

ثالثاً:

ثُمَّ أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) خطاباً لرسوله، ويُلْحَقُ به كُلُّ حَمَلةِ رِسالَتِه من أُمَّتِه قَوْلَه:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾.

نزغ الشيطان: وساوسه وتسويلاتُه التي يَقْصِدُ بها حَمْل الإنسان على ارتكاب الإثم، ومخالفة منهج الله.

في هذا النصّ أبان اللَّهُ عزّ وجلّ للدّاعي إلى الله طرفاً من المنهج القويم في معالجة الذين يدعوهم إلى دين الله، ويتضمّن هذا البيان التعليميُّ أربع موادّ:

المادّة الأولى: أنْ يأخُذَ الْعَفْوَ عمَّنْ أساء إليه من المدعوّين، ومع أنّ العفو عن الإساءة صعْبٌ على معظم النفوس، فقد جاء التعبير عنه بعبارة تُشْعِر بأنه شيء ثمين يأخذُه الدّاعي إلى الله، وفي هذا كناية تدُلُّ على أنّ ثوابه عندا الله ثوابٌ عظيم، وأنَّ على الداعي إلى اللَّهِ أن يكون حريصاً على أن يَنال هذا الثواب الجزيل ويظفر به، كما يَأْخُذُ النّاسُ ما يُحِبُّون من عطاءات الملوك والعظماء.

المادّة الثانية: أن يأمُرَ بالْعُرْف، أي: أن يكون من اهتماماته الكبرى في المجتمع الذي يدعو إلى الله فيه، أن يَدْعُوَ الموسِرين إلى بَذْلِ الْعُرْفِ للفقراء والبائسين وذوي الحاجات، فالْعُرْفُ في مفهوم الناس إبّان نزول هذا النصّ يُطْلَق على الْجُود والعطاء والبذل لذوي الحاجات ممّا يسُدُّون به حاجاتهم، وبهذا يستعطف الداعي إلى دعوته جُمْهوراً عظيماً من المجتمع.

المادّة الثالثة: أنْ يُعْرِضَ عن الجاهلين، ولا يُوَاجه جهالاتهم بأمثالها.

والمراد بالجاهلين الذين يقابلون دعوة الداعي بالسباب والشتائم، أو بأنواعٍ من الأذىٰ، أو بالاستهزاء والسخْرِية.

فمن أدب منهاج الدعوة إلى الله الإعراضُ عن الجاهلين، وعدم الاشتغال بدفع أذاهم، أو بردّ شتائمهم واستهزاءاتهم وسخراياتهم بأمثالها.

المادّة الرابعة: أنْ يلتجئ إلى الله مستعيذاً به، ليَدْفع عن نَفْسِه نَزَغَات الشيطان، الّتي تحرّضُهُ على أن يقابل السيّئَة بمثلها، ويَنْتَقِمَ لنفسه من المدعوّ، فإنّ مثل هذا العمل يُفْسِدُ على الداعي دعوته، ويحوّل رسالَته من وظيفة رَبّانية يَعْبُد بها ربَّهُ، إلى قضيّة شخصيّة.

وبما أنّ الداعي إلى الله من فئة المتقين في الحدّ الأدنى، إذا لم يكن من الأبرار أو المحسنين في الحدّ الأعلى، فإنّ المتقين إذا مسَّهُمْ طائفٌ من الشيطان تَذَكَّرُوا وَاجباتهم تُجاه ربّهم، فأبْصَرُوا، فاستعاذوا بالله من نزغات الشيطان.

أمّا غير المتقين فهم إخوان الشياطين، وهم يتأثّرُونَ بنزغاتهم، ويستجيبون لوساوسهم، وإنَّ الشياطين يَمُدُّونهم في الْغَيِّ، فيوقعونهم في المعاصي والآثام، ويجعلونهم يفعلون الشّرور، ثم يتابعون إزْلاَقهم في المنحدرات الوخيمات إلى مهالكهم.

رابعاً:

ثمّ أنزل اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) حكاية مقالات قالها نفرٌ من الجنّ، اسْتَمعوا تلاوة طائفة من القرآن من الرسول ﷺ، فآمَنُوا به، وأعْلَنُوا أنَّهُمْ لن يُشْركوا بربّهم أحداً، وجاء في مقالاتهم قولهم:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

أي: فزادُوهُمْ تعباً وأحْمالاً ثقيلةً على نفوسهم، وزادوهم سَفَهاً وحماقة وجهلاً، وركوبَ شرٍّ وإثم وظلم.

لأنّ مثل هذه الاستعاذة هي من الشرك بالله، ومعلومٌ في الدّين أنّ الاستعاذة بالغيبيات لا تكون إلاّ باللّهِ العزيز العليم، الذي لهُ مُلْكُ السماوات والأرض، وبيده مقاليد كلّ شيء.

خامساً:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) ضمن عرض قصة مريم عليها السلام:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾.

لم تكُنْ مَرْيَمُ عليها السّلام تَعْرِفُ أنّه ملَكٌ مُرْسَلٌ إلَيْها منْ ربّها، لَكِنْ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ أيّة علامة على أنه رجلٌ فاسِقٌ، بل رأَتْ عليه علاماتٍ تَدُلُّ على أنّه تقي، ولهٰذَا استعاذَتْ باسم الرَّحْمٰن منْهُ إنْ كان تقيّاً، لأنَّ دخولَهُ عليها قد يجلُبُ ما يسوؤُها في مجتمعها، وهي الطاهرة العفيفة الشريفة العابدة القانتة لربّها.

ولو أنّها رأت عليه أمارات الْفِسْق لاستعاذَتْ منه بالجبّار القهّار المنتقم.

وفي حكاية هذه القصة تعليم لنا كيْفَ نستعيذ بالله في المواقف الحرجة المشابهة.

سادساً:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في معرض حكاية لقطات من قصّة نوح وقومه قوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لم يكُنْ نوحٌ عليه السّلامُ يعْلَمُ عن ابنهِ المحكوم عليه بالغرق مع كُفّارِ قَوْمِهِ أنَّهُ كافِرٌ، إذْ كان بعيداً عنه، وظنَّ أنّ وعْدَ اللّهِ لَهُ بنجاة أهْلِهِ معه في السفينة يشْمَلُ هذا الابْنَ، فأبانَ اللّهُ لَهُ حقيقة أمْرِهِ، وقالَ لَهُ: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: أنّي أَعِظُكَ مُحذِّراً لَكَ أَنْ تكونَ مِنَ الجَاهِلين، الّذِين يسأَلُونَ الله تغييرَ أُمُورٍ هي مِنْ أَحْكَامِهِ الحكيمة العادلة.

عندئذٍ استعاذ نوحٌ عليه السلام بربِّهِ مِنْ أَنْ يسْأَلَهُ مُستقبلاً مَا لَيْسَ له به

عِلْم، وسألَ ربَّهُ أن يَغْفِرَ لَهُ ويَرْحمَهُ بشأنِ سُؤالِهِ السَّابِق الّذي سألَهُ مِنْ أجْلِ ابْنِه.

وفي هذا النصّ تعليم لنا أن لا نسألَ اللّهَ تغيير أحكامه العادلة، فيمن حكم عليهم بالعقاب، ولو كنّا لا نعلم السَّبَب الحقيقيَّ لما حكم عليهم به، فهو سبحانه عليم بعباده، ولا يظلم أحداً، ودُعَاؤه في أمْرٍ من هذا القبيل يُشْعِرُ بالاعْتِراض على حُكْمه، أو هو جهالَة لا تَلِيق بالمؤمن الذي يعْلَمُ أنَّهُ أحْكَمُ الحاكمين، وأعْدَلُ العادلين.

سابعاً:

ثمَّ علّمنا الله عزّ وجلّ أن نلْجأَ إليه، ونستعيذ به من أن ننزلِق إلى الانغماس في كبائر الإثم، عند المواقف الّتي قد تضعف فيها مقاومَة إرادتنا الرشيدة، وتبدأُ فيها غشاوات الشهوات العارمَات تتوارد على ساحة بصائرنا الإيمانيَّة، فقصّ علينا في قصّة يوسف عليه السلام، استعاذَته بربّه حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه، ودُعاءَه ربَّهُ أن يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَها، وكَيْدَ النّسوة اللّواتي أعْلَنَتْ لَهُنَّ شغَفَها به، وحرصَها الشديد على أن يستجيب لمراودتها.

- فقال الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) في أثناء عرض قصّته:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مَعَاذَ اللّهِ: أي: أعوذ بالله مَعاذاً، أنْ أعْصِيَ رَبّي الّذي أحْسَنَ مَكانَ إقامَتِي في مِصْرَ، وَأحْسَنَ مَنْزِلَتِي عِنْدَه إذْ آتاني الْحُكْمَ والعلم.

- وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً مبيِّناً دُعَاءَ يوسف لربّه، إذْ رأَىٰ تواطُؤَ جَمْهَرَةٍ من ذَوات المكانة من نساء عِلْية القوم، يُحَرِّضْنَهُ علَىٰ أن يسْتجيب لرغبة امرأة العزيز العاشقة:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أي: أَمِلْ إلَيْهِنَّ مَيْلَ مُرْتَكِبٍ لِلإِثم.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: أي: وَأكُنْ من مضيّعي الْحَقّ، السُّفَهاءِ العصاة الَّذين يرتكِبُونَ الإثم.

يقال لُغَة: جَهِلَ الْحَقَّ إذا ضَيَّعَهُ. ويقال: جَهِلَ فُلانٌ جهلاً وجهالَةً، إذَا جَفَا وتَسافَهَ، وركب مراكب الحمقى وتصرَّفَ بغير عَقْلٍ وَلاَ حِلْمٍ، وحَادَ عَنْ سَواء السبيل.

وجاء في سورة (يوسف) أيضاً بشأْنِ استعاذَةِ يوسف عليه السَّلام باللَّهِ من أن يكُونَ مُجانباً الْعَدْلَ، فيأْخُذَ البريء بدَلَ مَنْ دَلَّتِ الأمارات المادّيَّةُ على أنَّهُ هو المتَّهَمُ من إخْوَتِهِ بسَرِقَةِ صُواعِ الْمَلِكِ، قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في أثناء حكايته للقصّة:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

عَبَّر يوسف عليه السلام بنُون الجمع فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ إشارةً إلى حَزْمِه في إدارته، وقُوَّة سُلْطَانِهِ على جُنُودِهِ، ومُرَاقَبَتِه لهم، وأنَّه لا يُوجَدُ في جُنُودِه من يتجرَّأ عَلىٰ أَنْ يأخُذَ بريئاً غير مُتَّهَمٍ، بدَلَ المتَّهَمِ الَّذي وُجِدَ صُوَاعُ الْمَلِك في رَحْلِه.

ثامناً:

ثمّ أعْلَمنا الله عزّ وجلّ أنّ مُوسَى عليه السَّلام استعاذ بربّه الّذي هو رَبُّ فرعون وجنوده من كلّ متكبّرٍ لا يُؤْمِنُ بيَوْمِ الحسَاب، لمَّا عَلِمَ أنَّ فرعون يستَشِيرُ مَجْلِسَ وُزَرائِهِ أَنْ يقتُلَه.

وفي هذا تَعْليم لنَا أن نَسْتعيذ بالله من كلّ ذي سُلْطانٍ متكبّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْم الحساب.

فقال الله عزّ وجلّ في سُورَة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦ نزول) أثناء عَرْضِ لقطاتٍ من قصَّةِ موسَىٰ وقومه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

تاسعاً:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) توجيهاً للداعي إلى الله بأن يدفع بالّتي هي أحسن. وأكّد له ما سَبَق أن أنزلَهُ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بأن يستعيذ بالله السميع العليم، إنْ تحرّكَ في نفسه نزغ من الشيطان يدعوه إلى أن يخالف المنهج الذي أبانه الله للداعي.

وجاءت العبارة في سورة (فُصّلت) مقترنة بمزيدٍ من أدواتِ التوكيد، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

لقد جاءت العبارة في سورة (الأعراف) السابقة نزولاً: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مُؤَكَّدَةً بِدُونِ قَصْرٍ وحصر.

ثُمّ جاءت العبارةُ في سورة (فصلت) التي نزلت بعد نزول إحدى

وعشرين سورة: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فاقترنت بضمير الفصل، وتَعْرِيف كلمتي «السميع العليم» فأفادت الجملَةُ التأكيد الشديد مع القصر، وربّما كان الداعي لهذا أنَّ بعض الدُّعاة إلى اللَّهِ مِنَ الصحابة قَدْ تأثّر بشيءٍ من نزْغِ الشيطان، حين لَقِيَ ما يَسُوؤه من الّذين يَدْعُوهم من المشركين.

عاشراً:

ثم أبان الله عزّ وجلّ استعاذة موسى عليه السلام بربّه الذي هو رَبُّ فرعَوْنَ وجنودِه، من أن يَرْجُموه، إذْ بلَغَه أنّ الْمَلأَ أباحوا رَجْمه، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) في أثناء عرض بعض لقطاتٍ من قصة موسى وقومه، وبعض أقواله لهم:

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: فاستجابَ الله دُعاءه، وفي هذا تعليم لنا أن نستعيذ بالله ربّنا جلّ جلاله، كُلّما تخوّفْنَا من أعداء الله أن يُنْزِلُوا بنا ضُرّاً أَوْ أذى.

حادي عشر:

ثُمَّ علّمَ اللّهُ عزّ وجلّ رسوله، ويُلْحَقُ به كلُّ حَمَلَة رِسالته من أمّته، أَنْ يستعيذ بربِّه من همَزَاتِ الشّيَاطين، ومن أنْ يكونُوا حاضرين عنده حضور مُوَسْوسٍ خَنَّاس، فأنزل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) قوله:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

همزات الشياطين: خاطراتهم، وهَمَسَاتُهم، ووساوِسُهم، الّتي يُلْقُونها في فِكْر الإنسان وقلبه.

أصل الهمز في اللّغة، مثلُ الغمز والضَّغْط والْعَصْر والنَّخْسِ باليد، أو بأداةٍ ما.

ثاني عشر:

وفي العهد المدنّي أنزل الله عزّ وجلّ بشأن الذين يجادلون في آيات اللّهِ بغير سلطانٍ أتاهم نَصّاً ضُمَّ إلى سُورَةٍ مكيَّةِ التنزيل هي سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) هو قول الله عزّ وجلّ فيها؛

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾.

في هذا الإجراء الحكيم إشعارٌ بأنّ الْمُرادَ بهذا النَّصّ هم طُغَاةٌ مستكبِرُونَ من مُشْرِكي مكّة، ولَكِنْ اقْتَضَتِ الحكمَة الدعَوِيَّة تأخير إنزاله إلى العمد المدني لئلا يستثير حفيظتهم ويهيّجَ غَضَبَهم، والرَّسُول ﷺ ومعظم المسلمين بينهم وتَحْتَ سلطانهم.

وقد علّم الله رسوله ﷺ وكلَّ حَمَلَةِ رِسَالَتِه من أُمَّتِهِ، أنْ يَسْتَعيذُوا بالله من شرور الذين يجادلون في آيات اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ عِلْمِيٍّ أتاهم، إنَّما الدافع الذي يدفعهم إلى الجدال بالباطل كِبْرٌ في صُدُورِهِمْ، يَضَعُونَ بِهِ أنْفُسَهم في مَنْزِلَةٍ فكْرِيَّةٍ واجتماعيَّةٍ لَيْسُوا هُمْ أَهْلاً لها، ولا هُمْ ببالغيها.

فاستكبارُهم استكبارُ ظالم مُعْتَدٍ مجانبٍ للحقّ، يدفع المصابَ بِهِ إلى الانتقام السّريع بحماقة، ممَّنْ يَكْشِفُ خبايا نفسه.

ثالث عشر:

ثمّ علّم الله المسلمين ولا سيما حمَلَةُ رسالة الرسول ﷺ من أمّته، أَنْ لا يتَّخِذُوا أيَّ عَمَلٍ يُشعِرُ بالاسْتهزاءِ بالآخَرِين، وأخطر ذلِكَ مَا يكونُ في مسائل الدين.

وعلَّمهم أن يستعيذوا باللّهِ من أنْ يَرْتَكِبُوا هذهِ الحماقة القبيحة الّتِي لا يفعلُها إلاَّ الجاهلون.

نفهم هذا مِنْ عَرْضِ قصَّة قتيل بني إسرائيل وطلب موسى عليه السّلامُ منهم أَنْ يذبحوا بقرةً، لكَشْفِ قاتله، فظنُّوا أنَّه يسْتَهْزِئُ بهم فقال لهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوّل سورة نزلت في العهد المدني:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: أعُوذُ بالله مِنْ أنْ أكُون الآنَ وَمُسْتَقْبلاً من السُّفَهاءِ الحمقى، العصاة لله، الّذين يَسْتَهْزِئون بالآخرين، ولا سيَّما في قضيَّةٍ من قضايا الدِّين الَّتي يُبَلِّغُونَها عَنِ الله.

رابع عشر:

ثُمَّ علّمنا رَبُّنا أَنْ نَسْتعيذ به لأولادنا وَذُرّياتنا من الشيطان الرَّجيم.

نفهم هذا من عرضه لقصّة امرأة عمران، عرضاً مشعِراً باستحسان دُعائها لربّها، أن يُعيذ ابْنَتها مَرْيم، وذُرِّيّتها من الشيطان الرجيم، واستجابته لدعائها.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة نزلت في العهد المدنّي:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا...﴾.

هذه هي النصوص القرآنية حول الاستعاذة باللّهِ عزّ وجلّ، مقرونة بموجزاتٍ تَدَبُّرِيَّةٍ لما جاء فيها بشأن هذا الموضوع.

❋ ❋ ❋

(٢)

الاستعاذة بالله في السُّنة

جاء في السّنّةِ النّبويّة حوْلَ التوجيه للاستعاذة باللّهِ عزّ وجلّ، وحول استعاذات الرّسُول ﷺ بربّه في أدعيته، أحاديث كثيرة، منها ما يلي:

(١) روى مسلم عن أبي هريرة قال:

«كَانَ النبيّ ﷺ يَأمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحدُنَا أَنْ يَنَامَ، أَنْ يضطجع عَلَىٰ شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولَ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاواتِ وَرَبَّ الأَرَضِينَ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ والنَّوَىٰ، مُنْزِلَ التَوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْس قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اِقْضِ عَنّي الدَّيْنَ، وأغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ».

(٢) وروى أبو داود والتّرْمِذيُّ عن عبد الله بن عَمْرِو بن الْعَاص، أنّ النبيَّ ﷺ قَالَ:

«إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ مِنَ النَّوْمِ فَلْيَقُلْ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعَذَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِه، ومِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين) فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

(٣) وَأَخْرَج الترمذِيُّ وأبُو دَاود عَنْ أبي هُرَيرَة، أنَّ أبا بكر قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَمْسَيْتُ، وإِذَا أصبحْتُ، قال:

«قِلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَعَالِمَ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ومَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوذِ بِكَ مِنْ شَرِّ نِفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ».

(٤) وروى مسلم عن عبد الله بن مَسْعودٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ إذا أمْسَىٰ وَإِذا أصْبَحَ:

«أَمْسَيْنَا وَأَمْسَىٰ الْمُلْكُ لِلَّهِ، أَوْ أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ».

ثم يَقُول:

«وَالْحَمْدِ لِلَّهِ، لاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شرِّ هٰذِهِ اللَّيْلَةِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ».

(٥) وروىٰ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْد الله بن عَمْرِو بن العاص، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ».

(٦) وروى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وسُوءِ الْقَضَاءِ، وشَمَاتَهِ الأَعْدَاءِ».

(٧) وروى أبو داود والنسائي وابْنُ ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنّه قال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذِ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَة».

(٨) وروى البخاريُّ ومسلم عن عُثمان بن أبي العبّاس، أنَّهُ شَكا إلى رسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعاً يجدُهُ في جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَم، فقال له رسول الله ﷺ:

«ضَعْ يَدَكَ عَلَىٰ الّذِي تَأْلَمُ مِنْ جَسَدِكَ، وقُلْ: بِسْم اللَّهِ، ثَلاَثاً، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ».

وجاء عند مالك، أن عثمان بن أبي العباس قال: فَفَعَلْتُ ذلِكَ، فأذْهَبَ اللّهُ مَا كَانَ بِي، فَلَمْ أزَلْ آمُرُ بِهَا أَهْلِي وَغَيْرَهم.

(٩) وروى مسلم وأحمد وغيرهما، عن زيد بن أرقم، عَنِ النبيّ ﷺ قولُهُ:

«اللّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ والْكَسَلِ، والْجُبْنِ والْبُخْلِ والْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، اللّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاها، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَها، اللّهُمَّ إنّي أَعُوذ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا».

(١٠) وروى أبو داوُد والنسائي والبيهقيُّ والحاكم عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قوله:

«اللّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ والْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ».

والأحاديث في الاستعاذات النبوية كثيرة، تُكْتَبُ فيها رسالةٌ فَذَّة، وأكتفي منها بهذا المقدار هنا.

* * *

(١٠)

الملحق الرابع حول السّحر

السِّحْرُ من الوسائل الخفيَّةِ، إذْ تُسْتَخْدَمُ فيه بعْضِ الْقُوىٰ المحتَجِبة عن مدارك الناس، وهي قُوىً يضْعُب الاحتراز مِنها أو تفادي خطَرِها بالوسائل المادّية المشهودة. وهو أيضاً من الوسائل الّتي تُغْرِي الأَنْفُسَ بالأذى والضُّرُ لِمَنْ تُعَادِي أو تَحْسُد، مع ما فيه من فِتْنَةٍ لا يَكادُ ينْجُو منْهَا أحَدٌ تعَلَّمَهُ أَوْ مَارَسَه، وفي معظم الأحوال يكُون مقترناً بشركيَّاتٍ وكُفريَّات.

لكُلِّ ذَلِكَ شدّد الإسلام في تحريمه والتحذير منه، وجعَلَهُ الرَّسولُ ﷺ بعْدَ الشِّرْك باللَّهِ في السّبْعِ الْمُهْلِكَاتِ الّتي أمَرَ باجْتِنَابها، أي: بالابتعاد عن حدودها.

روى البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنَّسَائيُّ عن أبي هريرة، أَنَّ الرَّسُول ﷺ قال:

«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» أي: المهلكات.

قالوا: وما هُنَّ يا رسُولَ الله؟ قال:

«الشِّرْكُ باللَّهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالْحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، والتَّوَلّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤمِنَاتِ الغافِلاتِ».

وأبان الله عزّ وجلَّ أنَّ السَّاحِرَ لا يُفْلِحُ حيث أتىٰ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) لموسى عليه السلام بشأن سِحْرِ سَحَرَةِ فِرْعَوْن:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

وقد أجْمَعَ الْفُقَهاءُ على أنَّ السِّحْرَ مِنْ كَبَائر المحرَّماتِ في الشريعة الإسلاميَّة. وأنَّهُ رُبما يؤدّي إلى الكفر، بل قال الإمامُ مالِكُ: «إنَّ السَّاحِرَ كافِرٌ».

ويَرَى معظم علماء المسلمين أنَّ للسِّحْرِ بعْضَ التأثيراتِ الظَّاهراتِ، مع جَهْلِ حقيقة الأسْبابِ الخفيَّةِ الْمُؤَثِّرَةِ فيهِ

والسِّحْر له أنواع ذواتُ مستويات ودركات:

النوع الأول: السِّحْرُ الذي يُخَيَّلُ فيه للحواسّ أنّها تُحسُّ بعْضَ الأشياء دون أن يكُونَ لهٰذِهِ الأشْيَاءِ حقيقَةٌ واقعة، ويكُونُ عن طريق التأثير على

جهاز التوهُّم في الإنسان، فتَرَىٰ عَيْنُه، أو تَسْمَعُ أُذُنُه، أو يَشُمُّ أنْفُه، مَا لاَ حقيقة له في مَجَالِ الحِسّ.

ورُبّما استفْحَلَ هذا التأثير التوهُّمِيُّ حتَّىٰ يكُون له أضْرَارٌ عضويَّةٌ حقيقيَّةٌ في جسَدِ المسْحُور، كأنْ تكُونَ المرئيَّاتُ التوهميَّةُ حيَّاتٍ وعَقَارِبَ وأشباحاً مُرْعبة، أو نحو ذلك من مخيفات.

النوع الثاني: السّحْرُ الّذي يعْتمد علىٰ بعض الْقُوىٰ الفطريَّة الّتي خلقها الله في بعْضِ الأنفس، فيكُونُ لها من التأثيرات الإشْعاعيَّةِ أحْداثٌ مادّيَّةٌ في الأجساد، دون أن يكون ذلِكَ عن طريق التوهّم الذاتيّ في المسْحُور، وقد تنمو هٰذه القوى الفطريّة برياضات ذوات تأثير في إنمائها، فتكُونُ تأثيراتُها أشدّ.

النوع الثالث: السّحْرُ الّذي يَعْتَمِد على مَعْرِفَةِ بعْضِ خواصّ الأشياء في الطبيعة، واستخدامها في خواصها، أو يعتمد على الحِيَلِ الصّناعيَّةِ الخفيَّةِ، وخِداع الحواسّ بها.

ويَدْخلُ في هذا النوع الألعابُ القائِميَةُ عَلَى خِفّة الحركة، التي قد تَكُون أسرع من قدرة الإدراك البصريّ.

النوع الرابع: السّحر الذي تُسْتَخْدَمُ فيه بعض الأنفس الشّريرة الخبيثة من الجنّ، وسطاء للقيام ببعض التأثيرات الوهمية، أوْ للمساعدة في بعض الحِيَلِ والحركات الخفيَّةِ، أو بَثُّ القوىٰ الإشْعَاعيّة، أو الدخول إلى الأجساد البشريّةِ والتأثير فيها من داخلها، كالشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدّم.

وهذا النوع من السّحر له رُمُوزٌ ومُصْطَلَحات وألفاظٌ خاصَّةٌ بين السَّحَرةِ وقُرنائهم من الجنّ، وأظْهَرُها وأكثرها استعمالاً ممّا كان معروفاً في الْعُصُور القديمة، رَبْطُ الْعُقَدِ في الْخُيوط، والنَّفْثُ عليها مِن فَم وريقِ

ممارِسِ السِّحْر، مع تلاوة ألفاظٍ خاصَّةٍ تَسْتَدْعي القرناء.

ولمّا كانت هذه الأنفُس الشرّيرة الخبيثة من الجنّ لا تُقَارِنُ إلاَّ أمْثَالها من النفوس البشريَّة، فإنَّ وَسَائِلَ التَّقَرُّب إليها واسْتِخْدامِها إنّما تكون بألفاظٍ وَأَفْعَالٍ مَليئَةٍ بالكُفْرِيَّات غالباً، وفيها الكثير من النجاسات والقذارات.

ومن يسْتَخْدِمُ شيئاً من الشركيَّات أو الكفريَّاتِ الأخْرَى في أعمال السّحر، فهو كافرٌ حلال الدّم.

ولهذا قال الإمام مالِك: الساحر كَافِرٌ، حيثُما وُجِدَ قُتِلَ ولا يُسْتَتابُ، وإلى هذا الرأي ذهَبَ الإمام أحمد، وطائفة من الصحابة والتابعين.

أمّا جُمْهورُ الفقهاء فإنَّهم يقولون بكُفْره، إذا اسْتَخْدم في سِحْره بعض المكفّرَاتِ، أمَّا إذا لم يَسْتَخْدِم شيئاً من المكفّرات القوليَّةِ أو الفعليَّةِ فلا يكْفُر، لكِنَّهُ يكون قد ارتكَبَ كبيرة من كبائر الإثْم العظمى، الَّتي شَدَّدَ الإسْلام في تحريمها، ولَوْ لَمْ يسْتَخْدِمِ السِّحْرَ في الإضرار بأَحَدٍ من النَّاس، لأنَّهُ مَسْلَكٌ خَطِرٌ قلَّما ينجو من فِتْنَتِهِ أَحدٌ تعلَّمَه ومارَسَه.

ونَحْنُ نُؤمن بأنَّ الإضرار بالسِّحْر لا يتمُّ إلاَّ بالتمكين والتسخير والإذْنِ من الله عزّ وجلّ، وبقضاء الله وقَدَره، وجَعْل الأسْبابِ تُؤَثِّرُ في تَحْقِيق مُسَبَّبَاتِها، كسائر الأسْباب الظَّاهِرَة غير الخفيَّة.

إنّ الأسْبَابَ الظّاهِرَةَ والأسْبَابَ الخفيَّةَ سَواءٌ في أنَّها لاَ تُؤَثِّرُ إلاَّ بقضاء الله وقَدَرِهِ، تَمْكِيناً، وتَسْخِيراً، وإذْناً، ولو كان المستخدمُ لها مُذْنِباً عاصياً لله عزّ وجلَّ، كَقَتْلِ مَنْ يقْتُلُ بغَيْر حقٍ عمداً وعُدْواناً، بسَيْفٍ، أو بسلاحٍ ناريّ، أو بدَسِّ سمٍّ، أو بتوجيه شُعَاعٍ قاتلٍ لاَ تُدْرِكُهُ الأبْصار، أو باستخدام قُوىً أخرى خَفِيَّة، كالنفوس الشرّيرة من الجنّ.

ومن هُنَا نُدْرِكَ أنّ تخصيص استعاذة خاصّةٍ بربّ الفلَقِ، من شرّ النَّفَّاثاتِ في العقد، بعد التَّعميم بآيَتيْنِ سابقَتَيْن، فيه معنى الالتجاء الخاصّ

إلى الله، طَلَباً لحمايَتِهِ جلَّ وعلا، من شُرورِ النّفوس السَّواحر الّتي تسْتَخْدِمُ ما خلَقَ اللَّهُ من قُوىً خَفِيَّةٍ، في الإضرار بالنّاس بغير حَقّ.

هذه الأنواع الأربَعَةُ هي ما عرفناه من أنواع السِّحْر.

● أمّا السّحر الذي يكون من قبيل التَّخْييل، فهو ما كان نظير سِحْرِ سَحَرةِ فِرْعَوْن، إذْ ألْقَوْا حِبالاً وعِصِيّاً، فَكانَ من أَثَر سِحْرِهم، أَنْ خُيّل للمشاهدين ولموسَى وهو النبيُّ الرَّسُول عليه السلام، أنَّها ثَعابينُ تَسْعىٰ، حتّىٰ أَحَسَّ في نفسه خيفةً مِنْها.

وفي عرض قصّة هذه المباراة بين معجزة موسى عليه السلام، وسِحْرِ سَحَرَة فرعون، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

● وأمّا السِّحْرُ الّذي قَدْ يكونُ له تأثيرٌ في العواطفِ، فقَدْ ذكَرهُ الله عزّ وجلَّ أثراً للسِّحْرِ الّذي كانَ يُعَلِّمهُ الملَكانِ ببابلَ هَارُوت ومَارُوتَ، في معْرِض ذمّ بني إسرائيل الّذين اتّبعُوا الشّياطينَ الكَفَرَةَ، فيما تَتْلُوا على مُلْكِ سُلَيْمَانَ علَيْه السّلام، وفي مَعْرِض الحديث عن الملكَيْنِ ببابلَ هاروت ومَاروت.

قال الله عزّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول: متحدّثاً عَنْ فريقٍ مِنْ بَنِي إسرائيل:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ومع وجود بَعْضِ التَّأثيرات السّحْريَّة في الأحداث الكونيَّة، فإنّ المؤمِنَ الراسخ الإيمان لدَيْهِ من عَقِيدَته في الله عزّ وجلّ حِصْنٌ حَصِين، ولدَيْهِ من الالتجاء إلى اللَّهِ مَا يقيه ويَحْمِيه، إلاَّ أَنْ يكون لله جلَّ جلالُهُ قضاءٌ وقدَرٌ في نُزُول بعض الضرّ أو الأذىٰ بالسّحر، لِحِكْمَةٍ يشاءُ تحقيقَها من حِكَمِه الجليلة.

وقد ثبَتَ في صحيحَي البخاريّ ومُسْلِم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن لَبِيدَ بْنَ الأَعْصَم، وهو رَجُلٌ من زُرَيقٍ من حُلفاءِ اليهود، وكان مُنافقاً، ورُوِي أنّه عربيٌّ تَهوَّدَ ثمّ دخل في الإسلام نفاقاً، سَحَرَ النبيَّ ﷺ في مُشْطٍ مِنْ أمْشاطِ النبيّ، ومُشَاطَةٍ⁽¹⁾ من شعر رأسِهِ، وجُفِّ طَلْعِ نخلة ذكر⁽²⁾، ووضَعَهُ في بئْرِ ذَرْوان، وهِيَ بِئْرٌ في حَيِّ بَنِي زُرَيْقٍ، وهُمْ خَزْرَجِيُّون فكانَ مِنْ أثر هذا السِّحْر في جَسَد الرَّسُولِ ﷺ أنّه كان يُخَيَّلُ إليْهِ أنّه يَفْعَلُ الشيءَ وهُو لا يَفعلُه، أو أنَّهُ يأتي زَوْجاتِه وَهُو لاَ يأتيهِنَّ، وهذا أقْصىٰ ما أثّر السِّحْرُ فيه، ممّا هو ثابتٌ في الصحيح، أمّا ما فوقَ ذلِكَ فلَمْ

---

(١) **المُشَاطة**: ما يخرجُ في المشط من الشعر لدى تسريحه به.

(٢) أي: قِشرِ طَلْعِ نخْلَة ذكر.

يَكُنْ، ولا يُمْكِنُ أيضاً تأثيرُ السحْرُ على فكر الرسُولِ أو قولِه أو شيءٍ مِن سُلُوكِه الذي هو قدوةٌ للناس فيه، لأنه معْصُومٌ في ذلك كلِّهِ بعصْمةِ من اللّهِ، وكذلك لا يمكن أَنْ يُؤَثّر السِّحْرِ على حياته، لأنّ الله عزّ وجَلّ قَدْ عَصَمه من الناس، فقال له في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) مبيّناً دوام عصمته له.

﴿. . . وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

روى البخاريُّ في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت:

سَحَرَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ رجُلٌ من بَنِي زُرَيْقٍ، يقالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، حتَّى كانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعلَه. حتَّىٰ إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ ـ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ ـ وهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائشَة أَشعَرْتِ أَنَّ اللّهَ أَفْتَانِي فيما اسْتَفتَيْتُهُ فيهِ؟.

أَتَانِي رَجُلَانِ،⁽¹⁾ فَقَعَدَ أَحدُهُما عِنْدَ رَأْسِي، والآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِه: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟. فَقَالَ: مَطْبُوبٌ⁽²⁾. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟. قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَم. قَالَ: فِي أيِّ شَيْءٍ؟. قَالَ: في مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ: وَأَيْنَ هُو؟. قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ.

فَأَتَاهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ في نِاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَجَاءَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَكَأَنَّ رُؤُوسَ نَخلِهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَفَلا اسْتَخْرَجْتَهُ؟ قالَ: قَدْ عَافَانِي اللّهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَىٰ النَّاسِ فِيهِ شراً. فَأَمَرَ بِها فَدُفِنَتْ».

وجاء في رواية عند الإمام أحمد أنّ الرسُول ﷺ أرسل إلى البِئْر مَنْ

---

(١) أي: ملَكَانِ على صِفَتَيْ رَجُلَيْنِ.

(٢) **مطْبُوب**: أي: مَسْحُور.

يُحْضِرُ له منها الشيء الذي عقِدَ عليه السِّحْرُ، فأحْضِرَ له، فحلّ الرسول ﷺ عُقَدَهُ، فقَامَ كَأَنما نُشِطَ مِنْ عقال. وجاء في بعض الروايات أن الرسول ﷺ قَرَأ المعوِّذَتَيْنِ فَشَفَاهُ اللَّهُ مِمَّا نَزَل به.

* * *

سُورَة الإخلاص

أوْ سُورَة: قُلْ هُوَ اللّٰه أحَدٌ

أوْ سُورَة: الصَّمَدُ

وَذكرت لهَا أسْماءٌ مُتعدّدة

أخرى بلغت اثنين وعشرين اسمًا

١١٢ مصحف ٢٢ نزول

(١)

نص السورة مع ما فيها من الفرشيات

من القراءات

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ
(٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ
يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ (٤)﴾

القراءات:

﴿كُفُوًا﴾: حفص. كُفْئاً: حمزة، ويعقوب، وخَلَف.

[كُفُؤاً] باقي القُرَّاء العشرة.

ووقف حمزة بنَقْلِ حَركةِ الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة.

وبإبدال الهمزة واواً مع إسْكانِ الفاء.

(٢)
سبب نزول السورة

(١) روىٰ الإمام أحمد، والبخاريُّ في تاريخه، والتّرمذيّ، وابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمْ، عَنْ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ: «أنَّ المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾ ليْس شَيْءٌ يُولَدُ إلاَّ سَيَمُوت، ولَيْسَ شيْءٌ يَمُوتُ إلاَّ سَيُورَثُ، وَإنَّ اللَّهَ لاَ يَمُوتُ وَلاَ يُورَث، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾ قال: لم يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلا عَدْل، ولَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».

(٢) وروى الطبَراني في الأوسط، والبَيْهقي، وابْنُ جَرِيرٍ، وغيرُهُمْ عَنْ جابرٍ، قَال: «جاء أعْرَابِيٌّ إلَىٰ النبيّ ﷺ فقال: أنْسُبْ لنا ربَّكَ، فنزلتْ هٰذِهِ السُّورَة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①...﴾ إلى آخر السورة. قال السيوطي: [إسناده حسن].

(٣)
فضل السُّورة

(١) روى مُسْلِمٌ والترمذيُّ وصحّحه، وغيرُهما، عَن أَبِي هريرَة قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ:

«احْشُدُوا فَإنِّي سَأَقرأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ النبيُّ ﷺ، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾ ثُمَّ دَخلَ. فَقَال بَعْضُنَا لبَعْضٍ: قال رسول الله ﷺ فَإنّي سأَقْرأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟!. ثُمَّ خَرَجَ نبيُّ اللّهِ ﷺ فقال:

«إِنِّي قُلْتُ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلاَ وَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

(٢) وروىٰ البخاريُّ وأَحْمَدُ وغيرهما، عَنْ أبي سعيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَال رسول اللَّهِ ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

يَعْنِي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ . . .﴾ إلى آخر السورة.

(٣) وروى البخاريُّ وأحمد وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري، قَال: قال رسُول اللَّهِ لأَصْحَابِهِ:

«أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟»

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلك؟! فَقَالَ:

«اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القرآن»

سَمَّىٰ الرَّسُول السُّورَة بهذا العنوان: «اللَّهُ الواحد الصّمد» أو كَنَّىٰ عنها بهِ.

(٤) وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ وَغيرهما عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ النبيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً في سَرِيَّةٍ، فكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فَيَخْتِمُ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ . . .﴾.

فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُوهُ، لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»

فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمٰنِ، وأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بها، فقال:

«أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهِ تَعَالَىٰ يُحِبُّهُ».

(٥) وروى البخاريُّ من حديث أَنَسٍ قَال: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ في مَسْجِد قُبَاء، فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً فَقَرَأَ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ، مِمَّا يَقْرأُ بهِ، افْتَتَحَ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ . . .﴾ حتَّىٰ يَفْرُغَ مِنْها، ثُمَّ

يَقرأُ سُورَةَ أُخرَى مَعَها، وَكَانَ يصْنَعُ ذلِكَ في كُلِّ رَكَعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أصْحَابُهُ، فقالُوا له: إنَّكَ تَفتَتِحُ بِهذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لاَ تَرَىٰ أَنَّها تُجزِئكَ حَتَّىٰ تَقْرَأَ بِالأُخْرَىٰ، فإمَّا أَنْ تَقرَأَ بِهَا وإمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخرَى.

قَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُم بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُم.

وكانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، فَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ. فَلَمَّا أَتَاهُمُ النبيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الخبر، فقالَ:

«يَا فُلانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ؟ وَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ لُزُومِ هٰذِهِ السُّورَةِ في كلِّ رَكْعَةٍ؟»

فَقَال: إنِّي أُحِبُّهَا. قال:

«حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ».

سبب كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن:

رأىٰ الرازي احتمال أن يكون سبَبُ كَوْنِ سُورَةِ الإخلاص تعْدِلُ ثُلُثَ القرآن، أَنَّ المَقْصُودَ الأشرفَ مِنْ جَمِيع الشرائع والعبادات، مَعْرِفَةُ ذَاتِ اللَّهِ، ومَعْرِفَةُ صِفَاتِهِ، ومَعْرِفَةُ أفْعَالِهِ، وهٰذه السُّورَةُ مشتملةٌ علىٰ مَعْرِفَةِ الذَّاتِ، فَكَانَتْ هٰذه السُّورَة مُعَادِلَةً لِثُلُثِ الْقُرْآن.

أقول:

إنّ مُجَرَّدَ المعرفة دون اعترافٍ وتسْلِيم، بالْإيمان والطَّاعَةِ المعبّرة عن صِدْقِ الْإيمان، لاَ تُخْرِج صاحبَ المعرفَةِ منَ الكُفر، فكثيرٌ من ذوي المعرفة المستيقنين في نُفُوسهم كافرون كُفْرَ جُحودٍ، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن فرعونَ وقومه:

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

ولهذا أرىٰ إجراء التَّعْدِيل التَّالي لما رآه الرازي: فأقول:

إنَّ المطلوبَ في الدين هو الإيمان، وثمرَةُ صِدْقِ الإيمان المتحركِ الفاعلِ، الْعَمَلُ المعبَّرُ عَنْهُ.

والإيمان يتناوَلُ ثلاثة أقسام:

(١: قِسْمٌ يتعلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ، وهذا القسم قد أبانته سورة الإخلاص.

(٢) وقسْمٌ يتعلَّقُ بصفاتِ الله.

(٣) وقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بأفعال اللَّهِ، ومن أفْعالِهِ ابتلاءُ عباده المكلَّفِين، وبيانُ مطلوبه منهم.

ولمَّا أبَانَتْ سورة (الإخلاص) القسمَ الأوَّل من هٰذِهِ الأقسام الثلاثة الّتِي أُنْزِلَ القرآن لبيانها وتفصيلها، كانت بهذا الاعتبار بمثابَةِ ثُلُثِ القرآن، واللَّهُ أعْلَمُ.

* * *

(٤)

موضوع السُّورة

يشتمل موضوع السُّورة على بيان ما يستطِيعُ العباد معرفته عَنْ ذاتِ اللَّهِ الغائِبَةِ عَنْ إِدْراكاتِ حواسِّهِمْ، وهي: أحَدِيَّته، وصَمَدِيتُهُ الّتِي تقتضي غِنَاه عَنْ كُلِّ شيءٍ، وحاجَةُ كُلِّ شَيْءٍ إليه، وتقتضي عَدَمَ قابليَّةِ ذَاتِهِ لانفصال شيءٍ منها، وعَدَمَ قابليَّتِهَا لدُخولِ شيءٍ فيها. وأنَّهُ لَمْ يَلِدْ فلَمْ يَصْدُرْ عن ذَاتِهِ ذَاتٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْهُ، وأنَّهُ لَمْ يُولَدْ، فَلَمْ تَصْدُرْ ذَاتُهُ عَنْ ذَاتٍ

أُخْرَىٰ اشْتُقَّ هو منها. وأنَّهُ لاَ أحَدَ هُوَ كُفْءٌ له، لا في ذَاتِهِ ولا في صفاته ولا في أفْعَالِهِ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ. وهٰذِهِ الصِّفَاتُ الخاصَّةُ بذَاتِهِ يلْزَمُ عَنْهَا وُجودُه الأزليُّ الأبَدِيُّ، فَلاَ أوَّلَ لَهُ ولاَ آخِر، هُوَ الأوَّلُ بلا بداية، وهو الآخر بلا نِهَايَة.

هٰذا كُلُّ ما يسْتَطِيعُ العباد معرفته عَنْ ذَاتِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ، فلا يخوضَنَّ الخائضُونَ في البحث عن ذَاتِ اللَّهِ بأكْثَرَ مِن هذا الَّذِي يَسْتَطِيعُونَهُ، لأنَّهُمْ سيَقَعُونَ حَتْماً فِي مَتَاهَات وضَلاَلاَت وَتكهُّنَاتٍ لاَ حَصْرَ لها، وفي تَصَوُّرَاتٍ مُمَاثِلاَتٍ لبَعْضِ الكائِنَاتِ المخلوقة له جلّ جَلاَله، في هيئَتِهَا الْمُرَكَّبَةِ، أو تَتَألَّفُ مِنْ أجزاء مُمَاثِلَةٍ لِأَجزاءِ مَوْجُودَةٍ في الْكائنَاتِ المخلوقة له.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي لآيات السُّورة

- قول الله عزّ وجلَّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾.

[قُلْ]: فِعْلُ أَمْرٍ مُوَجَّهٌ لكُلِّ مَنْ يَصْلُح لِلْخطابِ بصورةٍ إفراديَّة من المؤمنين المسلمين، وأوَّلُهُم مُحَمَّدٌ رسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وقد سبق في مقدّمات سورتي: «الفلَق والناس» بيان الحكْمَةِ مِنْ إثبات كَلِمَةِ: [قُلْ] جزءاً من السّورَةِ، مع الرَّدّ علَىٰ المتَحَذْلِقِين.

[هُوَ]: ضميرٌ يَعُودُ هُنَا علَىٰ غَيْبِيِّ الذَّاتِ الأعْظَم، الَّذِي لاَ تُدْرَكُ ذَاتُهُ، ولَكِنْ تُشَاهَدُ أَوْ تُدْرَكُ آثَرُ صِفَاتِهِ في الكَوْنِ.

أو يقال: ضمير عائد على ما يفهم من السِّياق.

ويقول النحويُّونَ: لفظ: «هُوَ» هُنَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ، كَكُلِّ ضَمِيرٍ يأتي في بَدْءِ الكَلَامِ دُونَ مَذْكُورٍ سَابِقٍ يَعُودُ عَلَيْهِ، وفي ضَمِير المؤنَّث يقولون: ضَمِيرُ الْقِصَّةِ، وفي ضميري الشأن والقصة معنى الأمر العظيم، والجملة بعَدَه خَبَرُه، وهي مفسّرة له.

ويَرى بعْض أهلِ التأْويلِ احْتِمَالَ أنْ يَكُونَ ضَمِيرُ [هُوَ] عَائِداً على لفظ «ربّك». في قول المشركين الذي كان سبب نزول السورة: «يا محمدُ انسُبْ لنا ربَّك» **أقول**: ويُمكِنُ أنْ يكون عائداً على مبتدأٍ مَحْذُوفٍ تقديره: رَبِّي. أي: ربِّي هُو الله.

﴿ٱللَّهُ﴾ علمٌ على الخالِقِ الرَّبِّ الأَزَليِّ الأبدِيِّ، وهذا الاسْمُ الْجَلِيلُ قَدْ كان مَعْرُوفاً لِلْعَرَبِ بأَنَّهُ عَلَمٌ عَلَىٰ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ خالِقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ.

ولفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر. أو مبتدأ خبرُه «أَحَدٌ». ويجوز أن يكون «الله» خبراً أوّل و«أحد» خبراً ثانياً.

﴿أَحَدٌ﴾: أي: فَرْدٌ في ذَاتِه وَفي صفاته، فلا يُجْمَعُ معَ كُفْءٍ لَهُ أَوْ أَكْفَاءٍ، حتَّى يَكُونَا اثنين أو ثلاثة.

ويجوز أن يكون «أحدٌ» خبرَ مبتدأ محذوف، تقديرُه: هو أحد، وهذا أولى ويرى بعضُهم أنّه لا يُقال: «أحد» في حالة الإثبات[1]، لِمَنْ يُمْكِنُ أن يُجْمَع مع كفْءٍ له، أو أكفاء، حتَّىٰ يكونا اثْنَيْنِ، أو ثلاثة فأكثر، بل يقال فيه «واحد» لكنّ هذا الرأيَ غير صحيح من الناحية اللُّغويَّة، إذْ يُقالُ: جاءني أَحَدُهم. علَىٰ أَنَّ الأَحَدِيَّة والْفَرْدِيَّة الَّتي لَيْسَ لها في الوجود نظيرٌ ولا مُكَافِئٌ، هي من الصّفاتِ الّتي اختصَّ اللَّهُ بها، فلا يُشَارِكهُ فيها أَحَدٌ.

---

[1] أمّا في حالة النفي فيُمْكِنُ أنْ يُقَالَ نحو: لاَ أَحَدَ في الدار.

ويقول الناسُ على سبيلِ الادِّعَاءِ أو بالإضافة إلى عَدَدٍ مَخْصُوص: فريدةُ العقد، أي: لاَ نظير لها، ولا شبيهَ لَهَا فِي حبَّاتِ الْعِقْد. ويقولون: فُلانٌ وَحِيدُ عَصْرِهِ. وفَرِيدُ عَصْرِه، أي: لا نظير له ولا شبيه. وهذا من المبالغَات الَّتِي لاَ تُعَبِّر عن الواقع.

أمّا الأحَدُ في الْوُجُود كلّهِ فهو الله الَّذِي لاَ شبيه لَهُ، ولا نظيرَ، ولاَ كُفْء، لا في الذَّاتِ ولاَ في الصِّفات، ومنْهَا صفَةُ الأَزَلِيَّةِ، فَلاَ أَزَلِيَّةَ إلاَّ لله وحْدَه، ومنْها صِفَةُ الأَبدِيَّة، فَلا أَبدِيَّةَ ذَاتِيَّة إلاَّ للّهِ وحْدَه، لاَ شريكَ لَهُ فيها، وقَدْ يَمْنَحُ اللّهُ الْخُلُودَ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَجعَلَهُمْ خَالِدِينَ، وَخُلُودُهُمْ إنَّما يكونُ بإمْدَادِه لهم بالبقاء.

ولئلاَّ يُشَارِكَ الله عزّ وجلّ في أَحَدِيَّتِه شيءٌ، فقد جَعَلَ بحِكْمتِه مِنْ كلّ شيءٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْن، دلَّ على هذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الذّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقد تَوَصَّلَتِ الْعُلُومُ الإنْسَانِيَّةُ إلى هذِهِ الحقيقة، حتَّى غَدَتْ مِنْ مُقَرَّرَاتِها، في أحْدَثِ مَا توصَّلَتْ إلَيْهِ، حتَّى الذَّرَّةِ، فكُلُّ ما سِوَىٰ اللَّهِ لَهُ كُفْؤٌ ولَهُ نظيرٌ يُجْمَعُ معه على اثنين أو أكْثَر.

أمَّا اللَّهُ عزَّ وجلّ فَهُو أَحَدٌ، لاَ كُفْءَ لَهُ وَلا نظيرَ لَهُ، حتَّىٰ يُجْمَع مَعَهُ فيُقَالَ اثنان أو ثلاثة، أو أكثر، وليس كمثله شيءٌ، ولاَ يشاركُهُ شيءٌ في ذَاتِهِ ولا في صِفَاته.

وفي إثباتِ أنَّ اللَّهَ أَحَدٌ بيانٌ لضَلاَلِ الثَّنَوِيَّة، الَّذِينَ زَعَمُوا أنَّ اللَّهَ اثنان، ولِضَلاَلِ الْمُثَلِّثِين، الّذين زَعَمُوا أنَّ الله ثَلاثَةُ أقانيم، أي: ثلاثَةُ أشخاص متفاصِلَةٍ، وقد قال الله بشأنهم في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ... (٧٣)﴾.

ولِضَلالِ كلّ الَّذِين زعَمُوا تَعَدُّدَ الخالقين الأربابِ الأزليين الأبديّين.

فَقَوْلُ اللّهِ عزَّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾: أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ، وهٰذا خطابٌ أيضاً لكلّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَقُولَ، جواباً لِمَنْ قَال: «أَنْسُبْ لَنا رَبَّكَ»: هُوَ اللّٰهُ، وَهُوَ أحَدٌ.

فغيبيُّ الذّاتِ الأَعْظَمُ الَّذي مِنْ آثَارِهِ خَلْقُ السَّمَاواتِ والأرض، هُوَ واحِدٌ في الوجود كُلِّهِ، ويلْزَمُ مِنْ تَفَرُّدِهِ عقلاً أنْ لاَ يكُونَ لَهُ نَظِيرٌ وَلاَ شبِيهٌ فِي ذَاتِهِ وَلاَ في صفاته.

أي: فالرَّبُّ الذي أدْعُو إلى الإيمان بِهِ، وأدعو إلى عبادتِهِ وحْدَه، والَّذي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ اللّٰهُ، أي: هُوَ مَنْ تَعْرِفُونَهُ باسْم الله، وتُؤْمِنُونَ بأَنَّهُ هُوَ الّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ والأرض.

وَهُوَ في ذَاتِهِ أحَدٌ، وَهُوَ في صفاتِهِ أحَدٌ، فليس كمثْله شيْءٌ، ومَنْ كان أحداً في ذاته وصفاته فلا يُمْكِنُ أَنْ يكون لَهُ نَسَبٌ، حتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ نَسَبه.

كلُّ مَنْ لَهُ نَسَبٌ لا بُدَّ أن يكونَ شبيهَ أفراد نسَبه في النوع، أَوْ في الجِنْس، وعندئذٍ لاَ يكُونُ أحداً فَرْداً، بَلْ يُمْكِنُ أن يُجْمَع مَع أَفْراد نوعه، أو جنْسِه.

لكنَّ اللّٰهَ أَحَدٌ فَرْدٌ، فلا نسَبَ لَهُ، ومَنْ لاَ نسَبَ لَهُ لاَ يكون له أبٌ يُنْسَبُ إلَيْهِ وَلاَ أُمٌّ يُنْسَبُ إليها، ولاَ يكونُ لَهُ أجدادٌ و جدَّات، ولا تكونُ لَهُ ذُرِيَّةٌ تَنْتَسِبُ إلَيْه، ولاَ تكُونُ له صاحبَةٌ تُكافِئُه، ولَوْ كانَ له صاحبَةٌ لَكَانَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْن، ولَمَا كانَ أحداً فرداً.

- قول الله عزّ وجل:

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾

﴿ٱلصَّمَدُ﴾: جاء في اللُّغَةِ: أنَّ الصَّمَدَ هو الذي لَهُ غَايَةُ الكَمَال في كُلّ الصِّفَاتِ ذَاتِ الشَّرَفِ والعظمة والسُّؤدد.

وجاء فيها: أنّ الصَّمَد هو الّذي يُصْمَدُ إلَيْهِ في الحوائج، أي: يُقْصَد.

وجاء فيها: أنَّ الصَّمَد هو الغنيُّ بذاته عن كلِّ شيء، فلا يحتاج إلى شيء.

وجاء فيها: أنَّ الصّمَد هو الَّذِي لاَ جَوْفَ لَهُ، أي: فلا يدخُلُ في ذاتِهِ شيءٌ، وأنّه الذي لا يَخْرُج منه شيءٌ، أي: فَهُو غَيْرُ قَابلٍ لانفِصَالِ شيءٍ مِنْ ذَاتِه.

وجاء فيها: أنَّ الصَّمَد هو الباقي الذي لا يفنىٰ، وهذا الأخير عَنْ قتادة والْحَسَن.

ومن جمع هذهِ المعاني لكلمة: [الصَّمَد] يظهر أنَّ من كانت لَهُ هذِه الصّفات لا يُمْكِن أن يكونَ وَالداً لغيره، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَوْلُوداً مِنْ غَيْرِهِ، فالمولُودُ مُحْتَاجٌ في وُجودِه إلى والِدِه، لِكنَّ الله عزّ وجلَّ غنيٌّ بذاتِهِ، وهُوَ الَّذِي يُصْمَدُ في الحوائج إليه. والوالِدُ لغَيْرِهِ لاَ بُدَّ أَنْ يكونَ ذَاجَوْفٍ، أوْ قابلاً للتجزِئة، واللّهُ عزَّ وجلَّ صَمَدٌ، لاَ جَوْفَ لَهُ، ولاَ يَخْرُجُ مِنْ ذَاتِهِ شَيْءٌ.

ومنْ هو أحَدٌ صَمَدٌ بالِغٌ غايَةَ الكمالاتِ كلّها، لا يُمْكِنُ أن يُكافِئَهُ أن يناظِرَهُ أَوْ يُساوِيَهُ أحَدٌ، فلا صاحِبَة تُكافِئه، ولا ندَّ يُضَادُّه، سبحانه وتعالى عن المثيل والشَّبِيهِ والنظير، وعن الضّدّ والنّدّ.

فليزَمُ من كَوْنِ اللّهِ جَلَّ جلالُهُ أحداً صَمَداً، أن لا يَكُونَ والداً لغيره، ولا مَوْلوداً مِنْ غيره، وأَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ كُفُواً له.

فقال اللّهُ عزّ وجلّ: .

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ في هَذَا رَدٌّ لقوْلِ النّصارىٰ: إنَّ اللّهَ أبٌ لعيسى ابنِ مَريم، وردٌّ لِقَوْلِ بَعْضِ اليَهُودِ: إنَّ اللّهَ أَبٌ لِلعُزَيرِ، وردٌّ لقول كلِّ من له مقالة مشابهة، فاللّهُ سبحانه وتعالى لَمْ يلِدْ.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وفي هذا رَدٌّ لِقَوْلِ النّصارىٰ: إنَّ عيسى ابنَ مريم ابْنٌ للّهِ. فَهُوَ شَرِيكٌ لِلّهِ في رُبوبيّةٍ مُشْتَقَّةٍ مِنْ أبيه، ولقول بَعْضِ اليهود: الْعُزيرُ ابْنُ الله، فهو شريكٌ للّهِ في رُبُوبيّةٍ مشتقّةٍ من أبيه، ورَدٌّ لقول كلّ من له مقالَةٌ مشابهة، فاللّهُ لَمْ يُولَدْ.

وبما أنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ أَحَدٌ مُتَفَرِّدٌ في ذَاتِهِ وَفي صفاته، فلَيْسَ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.

الكُفْءُ والكُفُؤ: الْمُمَاثِلُ والْمُسَاوِي في الذَّاتِ أَوْ في الصِّفَات، واللّهَ عزَّ وجَلَّ لاَ يُكَافِئُه أحَدٌ، لاَ في ذَاتِهِ، ولا في صِفَاتِهِ، إذْ هُوَ أحدٌ فِي ذَاتِهِ، وَأَحَدٌ في صِفَاتِهِ، جلَّ جَلاَلُهُ.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: نَفْيُ الكَوْنِ فِي الْمَاضِي بالنِّسْبَةِ إلَىٰ اللّهِ عزَّ وجَلَّ هُوَ نَفْيٌ للشيءِ المنفِيِّ عَنْهُ دَواماً، في الماضي والحاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ، مِنَ الْأَزَلِ إلَىٰ الأَبَدِ. والدَّليل الْعَقْلِيُّ يُثْبِتُ أنَّ انْتِفَاءَ وجُودِ الْمُكَافِيء للّهِ فِي الماضِي، يَسْتَلْزِمُ عقْلاً انتفاء وُجودِه دواماً وإلَىٰ الأَبَدِ، لِأَنَّ المكافِئ لِلأَزَلِي لاَ بُدَّ أَنْ يكُونَ أزلِيًا، أمّا الحادثُ فَهُو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، ولاَ يُمْكِنُ عَقْلاَ أَنْ يكونَ الْمَخْلُوقُ مُكافِئاً للخالِقِ بحالَ من الأَحْوالِ.

يُضَافُ إلى هذا أنَّ فعل «كان» إذا اقترَنَ بإثبات صِفَةٍ أَزَلِيَّةٍ لِلّهِ عزَّ وجلَّ، أَوْ نَفْيِ صِفَةٍ لا تَلِيقُ بِهِ، فإنَّ دَلاَلَتُهُ على الزَّمَنِ الماضِي تُلْغَىٰ، ويَبْقَىٰ الفِعْلُ دَالاً، عَلَىٰ الكينُونَةِ المجرَّدَةِ عَنْ كُلِّ زَمَن.

وكَوْنُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ: لَمْ يَلِدْ، ولَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، هِيَ لوازِمُ عَقْلِيَّةٌ لِكَوْنِهِ أحداً صَمَداً.

فالصِّفَتَانِ الرئيسَتَان اللَّتَانِ بَيَّنَتْهُمَا سورةُ «الإخْلَاصِ» جواباً لقَولْ المشركين للرَّسول ﷺ: «أُنْسُبْ لَنَا رَبَّكَ» هُمَا:

الأولى: أَحَدِيَّةُ الخالقِ الرَّبِّ الْأَزَلِيّ الأَبَدِيّ، فلا شريك لَهُ ولا كُفْءَ لَهُ في أَحَدِيَّتِه، ومَنْ هُوَ أَحَدٌ لا يُمْكِنُ أن يكون له نَسَبٌ حتَّى يُسْأَل عن نسبه.

الثانية: صَمَدِيَّةُ الخالقِ الرَّبّ الْأَزَلِيّ الأَبَدِيّ، فَلَيْسَ لَهُ أَصْلٌ انْفَصَلَتْ ذَاتُهُ عَنْهُ، ولَيْسَ لَهُ فَرْعٌ انْفَصَلَتْ ذَاتُهُ عَنْ ذَاتِهِ.

ويَلْزَمُ لُزوماً عَقْلِيّاً من أَحديَّةِ اللَّهِ وَصَمَدِيَتِهِ، أَنَّه لَمْ يَلِدْ، وأنَّه لَمْ يُولَدْ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.

والصَّمَدُ لاَ يَتَغَيَّرُ، وكلُّ ما سِوىٰ اللَّهِ يَتَغَيَّرُ ويَتَبَدَّلُ فِي دَرَجَاتِ الكمال أَوْ دَرَكَاتِ النَّقْص، ولا يُمْكِنُ أن يَصِلَ بحالٍ من الأحوال إِلَى نِهَايَةِ الكَمَالِ فِي كُلِّ شيءٍ، لأَنَّ اسْتِجمَاعَ كُلِّ الكمالاتِ مِنْ خَصائِصِ الأَحَدِ الصَّمَدِ الخالِقِ الرَّبّ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيّ.

وَلَمَّا كَانَ سُؤَالُ المشركين عن نَسَب الرَّبّ الَّذِي يدعو الرسول إلى عبادَته وحْدَه، يَدُلُّ على أَنَّهُمْ يتوَهَّمُونَ أَنَّ لَهُ أُصولاً نسبيَّة، واحتمالِ أن تكونَ لَهُ ذُرِّيَّة، وأَنْ تَكُونَ لَهُ صاحبَةٌ تُنْجِبُ له الأولاد، أَبَانَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنَّهُ صَمَدٌ.

أَمَّا كُلُّ مَا سِوىٰ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فلَمْ يخلُقْهُ اللَّهُ صمَداً، بَلْ له جوْفٌ قَابلٌ لأن يَدْخُلَ فيه شيءٌ مِنْ غَيْرِهِ، فتتغيَّر بذلِكَ صفته، وقابلٌ لأَنْ ينْفَصِلَ مِنْهُ شيءٌ، فتتغَيَّرُ بذلِكَ صِفَته.

إنّ النامِيَات في الوجود تنشَطِرُ وتَنْقَسِمُ وَتَقْتَاتُ فتَتَنامَىٰ، في عمليّات الفطر الرَّبَّانيّة، إذْ يخْلُقُها اللّٰهُ ضِمْنَ نظامَيْنِ:

- نظام الفَلْقِ والْفَطْر، وإخْرَاج المحدَثَاتِ الجديدة، من باطِنِ الكائناتِ قبْلَهَا بِخَلْقِه.
- ونظام التَّرْبِيَةِ بالإنْمَاءِ المتدرِّجِ، مع المحافظة على نظام الْفَلْقِ والْفَطْرِ.

وتَسْتَمِدُّ النَّامِيَاتُ أقْوَاتَ نَمَائِهَا ممَّا حوْلَها.

وكلُّ وَالِدٍ وَكُلُّ والِدَةٍ يُخْرِجُ مواليدَهُ من داخِلِهِ، مِنْ تجويفاتٍ لَدَيْهِ، فتَحْمِلُ المواليدُ صِفَاتِهَا ميراثاً مِنْ أُصُولِها، فتكُونُ لَهَا شبهاً، أو يكونُ بَيْنَ الفروع والأصول أشْباهُ ونظائِرُ.

وَيَقولُ عُلَماءُ الذَّرَّةِ: إنَّ للذَّرَّاتِ في كُلِّ شيءٍ مِنْ هذا الكَوْنِ نَوَيَاتٍ، وبَعْدَهَا فَرَاغٌ كبيرٌ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ حَجْمِها الصغير، وحَوْلَ هذا الفراغ تَدُورُ أَلكتْرُنَات، وهِيَ وَحَدَاتٌ صُغْرَىٰ تَحْمِلُ شِحْنَاتٍ كَهْرَبَائِيَّةً سالبة.

أمَّا النَّوَيات فهي وَحَدَاتٌ أخرىٰ تَحْمِلُ شِحْنَاتٍ كهربائيّة مُوجِبة، وتُسمَّىٰ هٰذِهِ الشِّحنَات «بُروتُونَات».

ويقولُون: إنَّ ذَرَّة الهيدْروجين الخفيف، هي أبْسَط ذرَّاتِ العناصر في هذا الكَوْن، إذْ هِيَ تَتَأَلَّفُ مِنْ نَوَاةٍ وَاحِدَةٍ، تحوي بْرُوتُوناً واحداً، ومِنْ ألكترون وَاحِدٍ يَدُورُ حَوْلَهُ بسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ.

ويقولون: إنّ الألكترون يَدُورُ بسُرْعَةِ الضوء، أي: (٣٢٠) كيلومتر في الثانية الواحدة، أي: يَدُورُ حوْلَ مداره في الذَّرَّةِ عشَرَة آلاف مليون مليون مليون دورة في الثانية الواحدة.

وفوق ذرَّةِ الهيدرُجين الخفيف ذَرَّاتُ العناصرِ الأخرىٰ الّتِي هِيَ أثْقَلُ مِنْها، إذْ تأتي ذَرَّةُ الهِلْيُوم التي تتألَّف نواتُها من بْرُوتون بعَدَدِ اثنين، وحول

النواة يَدُورُ ألكترونات، وفي نواتها أيضاً جُسيْمَانِ حيادِيَّان، يسَمَّىٰ كُلٌّ منهما «نيوترون» وهو يَزِيدُ وزن الذرّة، لكِنَّهُ لاَ يُؤَثِّرُ في شِحْنَتِها الكهْرُبائيَّة.

وتترَقَّىٰ الذّرَّاتُ ثِقَلاً، حتَّىٰ يَجِدَ العلماءُ ذَرَّةَ اليورانيوم، الّتِي يوجَدُ في نواتها (٩٢) بروتوناً، و(٩٢) ألِكْترُوناً، و(١٣٢) نيوتروناً.

وتنشطر الذَّرَّاتُ، ويخْرُجُ منْها بعضُ ما في نواتِها وألكتروناتها، فتختلفُ عناصرها، وتنْضَمُّ المنشطرات، فتتداخل ببعضها، فتتألَّفُ ذَرَّاتٌ جَدِيداتٌ مختلفاتٌ في عناصِرِها، والسَّبَبُ في ذلك أنَّها قابلاتٌ لأن يَدْخُلَ فِي أجوافها أشياء، وأنَّ فيها فراغات واسعات بحَسَب حُجُومها، تَسْمَحُ بالدُّخول، وتَسْمَحُ بالتجزئة، ولا يُعَوِّقُ ذلك إلاّ السُّرعة الهائلة في دوران الألكترونات حَوْل نويات الذّرّاتِ، مع العلْم بأنّ ذرَّة الإكسجين مثلاً إذا اصْطَفَّ منها خمسة ملايين ذَرَّة طولاً، لم تَزِدْ أطوالها جميعاً على عُشْرِ سَنْتي متر، أي: علَىٰ جزءٍ واحد من ألْف جزءٍ من المتر الواحد، وهو يساوي طوله خطّاً نقطتَين (. .) فقط بقلم الكتابة العادي.

ولو كانت الذَّرَّةُ كائناً صَمَداً لكانت غير قابلةٍ للانشطار والتجزئة، وغير قابِلةٍ للاتّحاد مع غيرها من الذرّات.

ولو كانت الخليَّةُ الواحدة كائناً صمَداً لكانت غيْرَ قابِلَةٍ للانفطار والفلْقِ، وغير قابلة للازدواج والاتحاد مع غَيْرِها.

لكنَّ اللّهَ جلَّ جلالُهُ قد خَلَقَ جَمِيعَ خَلْقِهِ ذوات أجواف، فهي قابلَة لأَنْ تَدْخُلَ فيها أشياء، وقابلة لأن تنفصل عنها أشياء، فانْفَرَدَ هُو سبحانه بأنّهُ هُو الصَّمَد وحْدَه، فلا تقبل ذاتُهُ الانشطار، ولا التجزئة، ولا الانفطار ولا الفلق، ولا تقبل ذاته الازدواج ولا الاتحاد بغيرها، فلم يَلِدْ ولم يُولَدْ سبحانه، ولم ينفصل منه شيءٌ ولن ينفصل، ولم يتّحدْ في ذاتِه شيءٌ ولَنْ يتّحِدَ، ولَمْ يكُنْ له كُفُواً أحَدٌ، فلا صاحبة لَهُ ولا وَلَد.

إنَّهُ جَلَّ جَلاَلُه أَحَدٌ صَمَد، أمّا ما سِوىٰ اللَّهِ سبحانه، فهو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، لاَ أَحَدِيَّة له ولا صَمَدِيَّة، ولا يَمْلِكُ لنفسه ولا لغَيْره من دونِ تمكين الله وإذْنِه وتسخيره نَفْعاً ولا ضرّاً، ولا شيءَ ممَّا سوىٰ اللَّهِ له من ذاتِه لذاته البقاءُ الأبديّ، لكِنَّ اللَّهَ الأزليَّ الأبدِيَّ هو الذي إذا شَاءَ أَمَدَّ مَا شَاءَ ومَنْ شَاءَ بالبقاء بأمْرِه التكويني، ولا رادَّ لأمرِه، ولا لقضائِه وقَدَرِه وحُكْمِهِ، جلَّ جَلالُه، وَتَبَارَكَ سُلْطانُه، وعَظُمَ شَأْنه.

* * *

(٦)

سورة الإخلاص سورة تقريريّة

لم تتضمَّن سورة الإخلاص الدليل على أحَدِيَّة الخالق الرّب جلّ جلالُه، المعروف باسم «الله» ولم تتضمَّن الدليل على صمديَّتِه، ولا الدليل على أنَّهُ لم يلدْ، ولم يولَدْ، ولَمْ يكُنْ له كُفُواً أحَدٌ، بَلْ جَاءَتْ البيانات فيها بأسْلوبٍ تَقْرِيريٍّ للأحكام التي تضمنَتْهَا جُمَلُها.

والسَّبَبُ في هذا أنَّ المرحَلَة الّتي نزلَتْ فيها السُّورَةُ مَرْحلةُ استفسارٍ عَنْ نَسبِ الخالقِ الرَّبِّ الذي يَدْعو مُحمَّدٌ إلى عبادته وحده، وإلى نَبْذِ عبادَةِ كلِّ المعبودات من دونه، وقد جاء هٰذا الاستفسار على لسانِ بعض المشركين، وهُوَ يقتضي بيان الجواب بطرِيقَةٍ تقريريَّةٍ خبريَّةٍ، لا بطريقَةٍ استدلاليّة.

وحين يُنْكِرُ مُنْكِرٌ مَا جاء في هذا التقرير، أو يُناقِشُ مُنَاقِشٌ فيه، تَدعُو الحاجَةِ إلَىٰ بيانِ الدّلِيلِ، وإقامَةِ الحجَّةِ، على مقدارِ ما تَدْعُو إليه الحاجة.

ولمَّا كان سُؤالُ المشركين مقتصراً على طلَبِ التعريف بنَسَبِ الرَّبّ الّذي يدعو الرَّسُول إلى الإيمان بأنّه لا رَبَّ غيره، ولا معبُودَ بحَقٍّ سواه، وهذا السؤال يستلزم أنَّهم يتوهَّمون أنَّ لَهُ أصولاً انْحَدَرَ هو منها، ويتوهّمونَ

إمْكَانَ أنْ يكونَ له ذُرّيَّةٌ وإمكان أنْ تكونَ له صاحبة، أبانَ اللّٰهُ أنَّهُ أحد، وأنّه الصَّمَد، وأنَّهُ لم يَلِد ولم يولَدْ، ولَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ.

وقد اشتمل القرآن المنزَّلُ بَعْدَ هٰذِهِ السُّورَةِ على أدلّة هذه الحقائق عن الله جلّ جلالُهُ، وتنزّه عمّا لا يَليقُ بأزليَّتِهِ وأبديّته، وبصفات الكمال التي هي له.

* * *

سُورَةُ النَّجْمِ
أوْ
سُورَةُ وَالنَّجْمِ

٥٣ مصحف ٢٣ نزول

وهي مكية إلاّ الآية (٣٢) منها فهي مدنيّة. وهي قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾.

(١)

نصّ السورة مع ما فيها من فرشيات القراءات

سورة النجم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ
﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا
فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ
مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا
يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ
ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾
أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ

---

١١ ـ ● قرأ جمهور القرّاءِ العشَرَة: ﴿مَا كَذَبَ﴾ بتخفيف الذال.
● وقرأ هشام وأبو جعفر: [مَا كَذَّبَ] بتشديد الذال.

١٢ ـ ● قَرَأ جمهور القرّاء العشر: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾.
● وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب: [أَفَتَمْرُونَهُ].

١٩ ـ ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿ٱللَّٰتَ﴾.
● وقرأ رُويس: [اللاّتَّ] بتشدِيد التاء مع المدّ المشبع.
● ووقف الكسائي بالهاء.

٢٠ ـ ● قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿وَمَنَوٰةَ﴾.
● وقرأ ابن كثير: [وَمَنَآءَةَ].

ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ
أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ
ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾
۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ
بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾
فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾
ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾
ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ
ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ
فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

---

٢٢ ـ ● قرأ الجمهور: [ضيزى] بالياء. وقرأ ابن كثير: [ضِئزى] بالهمز.

٣٢ ـ ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾.

● وقرأ حمزة، والكسائيُّ وخلف: [كبيِر الإثم].

● وقرأ جمهور القراء: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ بضمّ الهمزة.

● وقرأ حمزة في الوصل [في بطونِ إِمِّهاتِكم] بكسر الهمزة والميم.

● وقرأ الكسائي في الوصل: [في بطون إِمَّهاتكم] بكسر الهمزة وفتح الميم.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾
وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن
لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾
ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ
هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ
ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ
ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ
﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ
تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ

---

٣٣ ـ لِلقرّاءِ وجوه من الأداء في الهمزة الثانية من [أَفرَأَيتَ].

٣٦ ـ في همزة ﴿يُنَبَّأْ﴾ وجوه من الأداء.

٣٧ ـ ● قرأ جمهور القرّاء: [إِبْرَاهِيم]. وقرأ هشام: [إبراهام].

٤٧ ـ ● قرأ جمهور القرّاء: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.
● وقرأ ابن كثير، وأبو عَمرو: [النَّشَآءَة].

٥٠ ـ للقرّاء وُجوهٌ متعدِّدَةٌ من الأداء.

٥١ ـ قرأ عاصم وحمزة، ويعقوب: [وَثَمُود] دون تنوين.
● وقرأ باقي القرّاء: [وثموداً] بالتنوين.

٥٥ ـ ● قرأ جمهور القرّاءِ: ﴿رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.
● وقرأ يعقوب في حال الوصل: [ربّك تّمارى] بإدغام التّاء الأولى بالثانية وجعلهما تاء واحدة مشدّدة.

﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ
تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾
فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾ .

(٢)

مِمَّا ورَد من أحاديث بشَأنِ سُورَةِ النجم

(١) روى البخاريُّ ومُسْلِمٌ وغيرُهُما عن ابْنِ مَسْعُودٍ قال: «أوّل سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ: (والنجم). فَسَجَدَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ وسَجَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، إلاَّ رَجُلاً رأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِراً، وهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ».

(٢) وروىٰ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عن ابْنِ مَسْعُودٍ قَال:

«أوّلُ سُورَةٍ اسْتَعْلَنَ بِهَا النبيُّ ﷺ يَقْرَؤُها: (والنجم)».

(٣) وروىٰ ابْنُ مَرْدَوَيْه والْبَيْهَقِيُّ في سُنَنِهِ عن ابن عُمر قال:

«صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَرَأَ (النَّجْمُ) فَسَجَدَ بِنَا فَأَطَالَ السُّجُودَ».

(٤) وروى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها: «أَنَّ النبي ﷺ قَرأَ (النَّجْمَ) فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ سَجَدَ فيها».

(٥) وروىٰ البخاري ومُسْلِمٌ وَأحمد وغَيْرُهُمْ عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قال: «قَرَأْتُ (النَّجْمَ) عِنْدَ النبيِّ ﷺ فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا».

(٣)

سبب نزول السورة

قال ابن عطيَّة: سبب نزولها أنَّ المشركين قَالوا: إنَّ محمَّداً يتقَوَّلُ الْقُرآنَ وَيَخْتَلِقُ أَقْوالَهُ، فَنَزَلَتِ السُّورَةُ في ذَلِك.

(٤)

موضوع السُّورة

تضمّنت سورة (النجم) معالجة المشركين بالإقناع المقرون بغمزهم وتلويمهم على الالتزام بآرَاءٍ باطلة يتمسَّكُونَ بها تقليداً، مع الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، حول طائفة مِنْ مواقفهم الكفريَّةِ البارزة إبَّان نزول السورة.

وجاء في أثنائها توجيه الرَّسول ﷺ ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ داعٍ إلى دين اللَّهِ من أمَّتِه، لمَا يَنْبَغِي معاملة غير المستجيبين للدَّعوة به في تلك المرحلة من مراحل دعوة الرسول، الّتي ما تَزَال في السَّنَواتِ الْأُولى مِنْها، وتَتلَّخص هذه المعامَلَةُ بالإعْرَاضِ عمَّنْ تولّى مُدْبراً. والإعراضُ هو وسَطٌ بيْنَ الإقبال والإدْبار.

ويُفْهَم من هذا لزوماً، مُتَابَعَةُ دَعْوَةِ الآخَرِين، الذين لم يتَولَّوْا مُدْبِرِين، ولم يُقْبلُوا مُسْتَجيبين، على حَسَب أحوالهم.

وهذا التوجيه يَصْلُحُ تعميمه على كلّ قومٍ بلغ أمْرُهم هذا المبلغ الذي وصل إليه مشركو مكة إبّان نزول هذه السُّورة التي نزل قبلها (٢٢) سورة تضمَّنَتْ عدَّةَ معالجات بالإقناع ذي الوسائل المتَعَدِّدَة والمختلفة، وبالترغيب والترهِيب، والمجادلة بالّتي هي أحسن.

(٥)

دروس السُّورة

اشتملت سورة (النجم) على خمْسَةِ دروس:

الدَّرس الأول: تضمَّنَ توجِيهَ عناصِرَ إقناعيَّة للمشركين، بشَأنِ الوحي الذي يُكذِّبُونَ الرَّسولَ بهِ، زاعمين أنَّهُ يَفْتَرِي القرآنَ ويتقَوَّلُهُ على الله جلَّ جلالُهُ.

وهو الآيات من (١ ـ ١٨).

الدرس الثاني: تضمَّن بعض معالجةٍ لشِرْك المشركين، مع بيان سقُوط مذهبهم حول اعتقادهم في أوثانهم: (اللاَّت، والعزَّىٰ، ومنَاة).

وهو الآيات من: (١٩ ـ ٢٨).

الدرس الثالث: تضَمَّنَ توجيه الرسول ﷺ للإعراض عن الذين تَوَلَّوْا مُدْبِرين عن دعوته من المشركين، ويُفْهَمُ من هذا مُتَابَعَةُ دَعْوَةِ مَنْ لَمْ يَسْتَجب لكنَّه لم يُدْبر.

الإعراض: وسَطٌ بين الإقْبال والإدْبَار.

وتضمَّنَ إشعارَهُ بحُدُودِ وَظِيفَتِه، وأنَّهُ لَيْسَ مسؤولاً عن تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، فالحكْمَةُ من الابتلاء في ظروفِ الحياة الدُّنيا كَشْفُ مَا في صُدور الممتَحَنين لتَحْقِيقِ الجزاء يوم الدّين. وفي هذا ترغيب وترهيب.

وهو الآيات من: (٢٩ ـ ٣٢).

الدرس الرابع: تضَمَّنَ الإقْنَاعَ بِأَنْ مَذْهَبَ الشِّرْكِ مذهَبٌ ساقطٌ، وأنَّ الدَّعْوَةَ الإسْلاميَّةَ اسْتِمْرَارٌ لمَا جَاءَ به المرسَلُونَ السَّابِقُونَ، إيماناً باللّهِ، ومسْؤُوليَّةً في الحياةِ الدنيا، وجزاءَ يَوْمَ الدّين، وتحذيراً مِنْ مُعَجَّلِ العقاب، كما حصل للمكذِّبينَ الأوَّلين.

وهو الآياتُ من: (٣٣ ـ ٥٥).

الدرس الخامس: تضمَّنَ تَوْجيهَ إنْذارٍ عامٍّ بعذابِ اللَّهِ.

وخُتِمَتِ السُّورة بتكليف النّاس أنْ يَسْجُدُوا للَّهِ وأنْ يَعْبُدوه.

وهو الآيات من: (٥٦ ـ ٦٢).

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة

- قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ
(٣) إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ (٦) وَهُوَ
بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ (٩) فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ
مَآ أَوۡحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً
أُخۡرَىٰ (١٣) عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ (١٥) إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ
(١٦) مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ (١٨)﴾.

تمهيد

تضمَّنَ هذا الدَّرْسُ الأوَّل من دُروسِ سورة النجم معالجةَ إقناع المشركين المكذبين لرسول الله محمّد ﷺ في نُبوّتِه: وتَلَقّيه الوحي من ربّه عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السَّلام، والمكذبين بما جاءَهُمْ عن اللَّهِ جَلَّ جلاله، ومعالجةَ إقناعهم بشأنِ آيَةِ الْعُرُوجِ به إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ حتَّىٰ بُلُوغِه سِدْرَةَ المنْتَهَى.

فهُمَا قضيَّتان:

القضيَّةُ الأولى: مُعالجةُ إقْنَاعِ المشركين بِشَأْنِ إنكارهم تَنَزُّلَ نُجُومِ القرآن على رسول الله ﷺ من رَبِّ السّماوات والأرض العزيز الحميد الحكيم القدير، يَنْزِلُ بها أمين الوحْي جِبْرِيلُ عليه السَّلاَمُ عَبْرَ السَّمَاوَاتِ لِيُبلّغِهَا رَسُولَهُ مُحمَّداً ﷺ، وبشَأْن إنكارهم أنّ محمّداً يُبَلِّغُ هٰذِهِ النجومَ القرآنيَّة للنَّاس عن رَبّه صَادِقاً، غيْرَ مُتوهِّم ولاَ كاذِبٍ.

القضيَّةُ الثانية: معالجةُ إقْنَاعِ المشركين بشَأْنِ اصْطِفَاء الله رسُولَهُ بآيَةِ الْعُروجِ بهِ إلىٰ السَّماوات الْعُلَىٰ، حتَّىٰ بُلوغه سِدْرَةَ المنتهىٰ.

إنّ تكذيب المشركين لرسول الله محمّد ﷺ لاَ يَسْتَنِدُ إلى تَشَكُّكٍ في كَمالِ صفاتِه، فَقَدْ خَبَرُوهُ في كلّ ما سلف من عُمْرِه فيهم، فَعَرفُوا أنَّه أمِينٌ وصادقٌ وذُو خُلُقٍ عَظيم، ولَمْ يَعْهدوا أنَّهُ كَذَبَ كذْبَةً واحدةً في حَيَاتِه، ولاَ خانَ أدْنَىٰ خيانة.

إنما اسْتَنَدَ تَكْذِيبهم إلى مُجَرَّدِ استِبْعَادِ واستِغْرابِ أنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ علَىٰ مُحَمَّدٍ الْوَحْيَ تِبَاعاً من السَّمَاءِ في أوقاتٍ قَصِيرَةٍ من اللَّيْلِ أو من النَّهَارِ، مع تباعُد مسَافاتِ آفَاقِ السَّماءِ عَنِ الأرضْ، وأنْ يصْطَفيَهُ بالعروجِ به إلى السَّمَاواتِ الْعُلَىٰ حتَّىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ فِي سَاعَاتٍ مِن اللَّيل.

فَكَانَ من المناسِبِ أَنْ يشْهَدَ اللَّهُ لَهُ بالصّدْقِ، مؤكّداً شَهادَته بِقَسَمٍ يتَضَمَّنُ الإشارَةَ إلى قُدْرَتِهِ عزَّ وجلَّ على تقديرِ سُرْعَاتِ حركَةِ الأشياء، وإخْضَاعِ كلٍّ مِنْهَا إلَىٰ نِظَامٍ من السُّرعَةِ يخْتَلِفُ عن غَيْرِه.

وقد كان النّاسُ إبّانَ تَنْزِيلِ القُرْآنِ لاَ يَعْرِفُونَ من السُّرْعَاتِ العاليات إلاَّ سُرْعَةَ الْبرْق، وسُرْعَةَ خُرُور الشُّهُبِ من السَّمَاءِ إلى الأرضِ، ويعتبرُونها نُجُوماً.

والشُّهُبُ السماويَّة تدخُل تحت عموم لفظة «النجم» الدالّ على كُلّ جرْمٍ سماويٍّ مُضِيء، لأنّ الشُّهُبُ مهما عظُمَتْ هِيَ أجرامٌ سماويَّةٌ صغرى بالنسبة إلى النجوم العظيمة العليا، ومعظم هذه الأجرام الصغرى أجرامٌ

معدنية، إذا اقتربَتْ من الأرضِ انجذبت إليها، فإذا دَخَلَتِ الهواء المحيط بالأرْض التهبَتْ بالاحتكاك فصَارَتْ كأسْهُم نارِيَّةٍ منقضَّةٍ بسرعَةٍ عظيمة نحو الأرض، فتكونُ بضيائها المُلْتَهِب وبحركاتها السّريعةِ جزءاً من زينةِ السَّمَاءِ مع طردها للشياطين إذْ هي تُؤدّي وظيفَتَيْنِ: إحداهما مشهودة، والأخرىٰ غير مشهودة:

فالوظيفة المشهودة: هي وظيفة تزيين السَّماء الدنيا باعتبارها مع النجوم العظيمة العُلْيا زِينَةً كالمصابيح.

والوظيفةُ غير المشهودة: هي وظيفَةُ مُتَابَعَةِ مُسْترِقي السَّمْعِ مِنَ الشياطين لِطَرْدِهم أو إحراقهم.

وعلىٰ هذا نفهم قول اللّهِ عزَّ وجَلَّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

وسَمَّىٰ اللّهُ هٰذِهِ المصابيحَ الّتي جعَلَها رُجُوماً للشياطين شُهُباً، في سُوَرِ: (الحجْرِ، والصافات، والجن).

والشهابُ في اللُّغَة: يُطْلَقُ على الشُّعلة السَّاطعة مِنَ النار، وعلى النجم المضيء اللاَّمع.

تدبُّر الدرس:

فبدأ اللّهُ عزَّ وجلَّ بالْقَسَم بالنجم إِذَا هَوَىٰ، فقال تَعالَىٰ:

- ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾.

النجم: يُطْلَقُ في اللُّغةِ على ثلاثَةِ معَاني:

(١) يطْلَقُ علَىٰ كُلِّ جرم مضيءٍ لامعٍ في السماء.

(٢) ويُطْلَقُ على ما لا ساقِ له من النبات.

(٣) ويُطْلَقُ على الْوَقْتِ المعَيَّنِ لأداءِ عَمَل مَا، وعلى الشيء الّذِي

يُعْمَل أوْ يُؤَدَّىٰ في الوقْتِ المعين، ولمَّا كانَ تَنْزِيلُ القرآنِ مُجزءاً على أوقاتٍ، أُطْلِقَ علَىٰ كُلِّ جُزْءٍ يُنَزَّلُ مِنْهُ فِي وقْتٍ ما نَجْماً.

وقد أقْسَمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بالنَّجْم إذا هَوَىٰ لِيُشِيرَ إلَىٰ أنَّ سُرْعات الأشياء لدىٰ انتقالها وتحرُّكها تختلف اختلافاً عظيماً. وأنَّ الله لا يعجزه إنزال الوحي من السماء بلمح البصر، والعروج برسوله إلى السماواتِ الْعُلا في ساعة من ليل أو نهار. فمن الجهْلِ قِياسُ المشركين سُرعَة نزولِ أمِينِ الوحْي جبريل عليه السّلاَمُ من السماوات إلى الأَرْض، ليُوحيَ إلى محمّد بن عبد الله ما أَمَرَه الله بأنْ يُوحيَ به إليه، على ما يُدْ رِكونَ من سُرْعَاتٍ، ومِنَ الْجَهْلِ قياسُ سُرْعَةِ عُروجِ جبريل عليه السلام بمحمَّدٍ إلى السماء السابعة فسِدْرَةِ المنتَهَىٰ، على ما يُدْرِكون من سُرْعاتٍ يمْلِكُونَ استخدامها، ولو كانوا يعلمون ما نعلم اليوم من سرعات الصوت والضوء لقلَّ استغرابهم.

واختِيرَ القَسَم بالنَّجمِ عنْدَ هُوِيِّهِ السَّريع دُونَ الْقَسَم بالبرقِ، لأنَّ الجزء الذي كان يُنَزَّلُ من القرآنِ يُسَمَّىٰ نَجماً، وبهذا تحقَّقَ التجانُسُ بَيْنَ اللَّفْظَيْن، والتشابُه بين النُّزولَيْن، مع التَّنْبيه على أنَّ السُّرعاتِ متفاضلاتٌ في الوجود، ضمن أنظمة الخلْقِ الرَّبَّانيَّة العجيبة، فللصَّوْت سُرْعة. وللضوء سُرْعة فائقة، ولِلملائكة سرعات، وللأرواح سرعات، والله يخلُق ما يشاء ويفعل ما يريد.

إذا هَوَى: أي: إذا سَقَطَ مُنْقَضّاً مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْل. ولفظةُ «إذا» هنا دالَّةٌ على مجرَّدِ الزَّمان، دون أن يكون ظَرْفاً لما يُسْتَقبل من الزمن، إذ المرادُ: والنجمِ حين هُوِيّه.

فمعنى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ أُقْسِم بقُدْرَتي على إخْضاع النَّجْم عند هُوِيِّهِ لنظام من السُّرْعَةِ الشديدة تَشْهدون مظهرها بأبصاركُمْ، أي: فلا تقيسُوا أُمُورَ رَبّكم بمقاييس ما أنتم عليه من حُدودٍ.

أما المقْسَمُ عَلَيهِ فهو قولُه تعالىٰ:

- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

﴿مَا ضَلَّ﴾: أيْ: ما ضَاعَ جاهِلاً طَرِيقَ الْهُدَى، في الّذِي جاءكم به عن رَبِّه، مبيّناً لكم أنّهُ نبيُّ اللّهِ ورسُولُه.

فالضَّلَال: قد يأتي بمعنى الضياع والْجَهْلِ دونَ قَصْدٍ ولا تعمُّد، وهو المرادُ هنا، بَدَليلِ نفي الْغَواية عنه أيضاً.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: أي: وما تنكَّبَ صِرَاط الرُّشْدِ عَنْ قَصْدٍ وتعمُّدٍ، اتّباعاً لهَوىٰ نَفْسِه.

ونفْيُ الضَّلالِ والغوايَةِ عن الرسُول محمد ﷺ يَلْزَمُ منْهُ إثْبَاتُ صِدْقِهِ فيما يُبَلّغ عن رَبِّه من نجوم القرآن، الّتي تَتَنَزَّلُ عليه آناً فآناً، وصِدْقه فيما يخبرهم به من أحداثٍ كُبْرىٰ يُجْرِيها اللّهُ له، ويَصْطَفيه أو يُكْرِمُهُ بها، كالعُروج به إلىٰ السماواتِ السَّبع.

ولمَّا كانَ تكذِيبُ المشركين للرَّسُول محمّد ﷺ لا يَعْدو أن يكون مستنداً إلى تَشْكِيكَيْن:

التشكيك الأول: أن يكون متوهِّماً ضالاً عن سبيل الحقّ والْهُدَى دون قَصْدٍ منه، فهو يتَراءَىٰ له أنّه رسولٌ يتنزّل علَيْهِ الوحي، وتَجْرِي له الأحداث التكريميَّةُ الكبرى، وهو ليس كذلك بزعمهم.

التشكيك الثاني: أن يكون مُدَّعياً هذا الادّعاء عن غَوَايَةٍ، إذْ يَعْلَمُ أنّهُ كاذبٌ غيرُ صادقٍ، إنّما يَدَّعي ادّعاءاته اتّباعاً للهَوَىٰ، وليُحقِّقَ لنفسه أَغْراضاً خاصَّةً، واستعلاءً في الأرض.

ولنفي الأمْرَيْن كلَيْهما خاطَبَ الله المشركين بقوله:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

أي: بل هو صادق فيما يُبَلِّغ عن ربّه، وصادقٌ في أنباء الأحْدَاثِ الكبرى الّتي يُكْرمه اللَّهُ بها، واعٍ في مشاهداته لها.

وفي قَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ خطاباً للمشركين: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ أي: الملازم لكُمْ مِنْذُ نَشأَتهِ وحتَّىٰ إنْزالِ خطابي هذا لكم، إشارةٌ إلى كمال صفاته الَّتِي كانوا يعلمونها فيه، وكمال أخلاقه العظيمة الّتي كانت فيما بيْنَهُمْ هي المثَلَ الأعْلَىٰ بين الناس.

أي: فَطُولُ صُحْبَتِكُمْ له كافيةٌ لأَنْ تكشِفَ لَكُمْ أنَّهُ لا يمكنُ أنْ يَكْذِبَ على رَبِّهِ، وقد تنَزَّه طَوال حياته السَّابقة عن أنْ يَكْذِبَ علىٰ النَّاس في أيِّ أمْرٍ صَغيرٍ أو كبير، ولا يُمْكِن أن يكُونَ مُتَوَهِماً وهُو الكامِلُ في وَعْيِهِ، والكامل في صفاته النفسيَّة، على ما تعلمون من أمْرِه.

● قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾:

في هٰذِه الآية تأكيدُ كَوْنِ الرسُولِ ﷺ لم يكُنْ غاوياً في بلاغاته عن ربّه، ولا في إخباره بما جرى له من أحداث العروج به إلى السَّماوات الْعُلَا، لأنَّ مِنْ شَأْنِ الغاوي أن ينطق عن الْهوى.

أي: وما ينطق بما ينطق به صادراً عن توجيه الْهَوَىٰ وتأثيره.

ولدفْعِ احتمال تعرُّضه لمؤثرات الْهَوىٰ بعْدَ إعلانه نُبُوَّتَهُ ورسالَتَه، جاءت الآيَةُ معطوفةً بحرف العطف (الواو). ولولا هذا لكان المناسبُ أن تكون خالية منه، إذ يلزم عقلاً من كونه ما ضلَّ وَما غَوَىٰ فيما تلَقَّىٰ عن رَبِّهِ وفيمَا شَاهَدَ فيما مضَىٰ، أنَّه لا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ الآن ولا مستقبلاً.

فإيرادُها مَعْطُوفةً يجعلها مَسُوقةَ مساقَ جُمْلَةٍ تُؤَسِّسُ فِكْرَةَ جَدِيدة، مع ما فيها من تأكيدٍ لمضمون ما قبْلَها أو للازمِهِ الفِكْرِيِّ.

الْهَوَىٰ: هو مَيْلُ النَّفس بقوّةٍ إلى ما لها فيه لَذَّةٌ أو مُتْعَةٌ أو مسَرَّةٌ أو شَهْوة أو مَصْلَحةٌ خاصّةٌ، فهي تنجذِب إليه باندفاعٍ قويٍّ أرْعَن، دون بصيرةٍ ولا رُشد حتى يصل صاحبُه إلى سحيق الهاوية.

ومن شأن الهوى أنْ يَجْعَل صاحبَه يَهْوِي إلى ما فيه شرٌّ أو ضُرٌّ أو فسادٌ أو عذابٌ أليم، إذا اتَّبعه واستجابَ له. والعِصْمَةُ منْهُ تكون بالتمسُّك بحقٍّ أو خَيْرٍ وهُدىً ضِمْن مؤثِّرٍ دينيٍّ، يُغَذِّيه من اللَّهِ والطَّمَعُ برضوانه وثوابه العظيم.

وكون الرسول محمّد ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ لا يَدُلُّ على عِصْمتِهِ عن الخطأ في الاجتهاد في المسائل المأذون له بالاجتهاد فيها، أو الْخَطَأِ في القضاء بين الناس إذا قضى بنحو ما سَمِعَ من الخصْمَيْن، وكان أحدُهما الْحَنَ بحجَّته من الآخر، أو الْخطأ في بعض الأمور الدنيويَّة، كما جرَىٰ منه في قصَّةِ تأبير النخل ونحو ذلك، فالرسول ﷺ في كلِّ هذا لم يكن قد نَطَق عن الهوى، بلْ نَطَقَ وهو حريصٌ على أنْ يقول ما رأىٰ أنَّهُ الحقّ، أو الصوابُ، أو الأحْسَنُ والأفضل، أو الأحَبُّ إلى اللَّهِ والأرضىٰ له. ولكنّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ جعَلَهُ بشراً عُرْضَةً لاحتمال أن يخْطِئ فيما أذِنَ له بأن يجتهد فيه.

أمَّا ما يُبَلِّغُهُ الرسولِ ﷺ عن الوحي، وما يخبر به عمّا رأى، أو سمع، أو أَدْرَكَ بأيّ حاسَّةٍ من حواسّه الظاهرة والباطنة، فهو فيه معصُومٌ عِصْمَةً تامَّةً عن الكذب وعن الخطأ، بعِصْمَةٍ له من الله عزَّ وجلّ.

- قول الله عزّ وجل:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾:

بعْد القسَم بالنجم حينَ يَهْوِي، الذي أشار الله عزّ وجلّ به إلى خطأ المشركين في مفهوماتهم لسُرْعَاتِ الأشياء، التي استبعدوا بالاستناد إليها

نُزُول أمين الوحي جبريل عليه السلام على محمد بن عبد الله من موقِعِه الرَّفيع في السّماوات بأزمانٍ قليلة يسيرة، واستبعدوا أن يَعْرُج به في ساعات من اللّيل إلى سِدْرَةِ المنتهى.

وبعد بيان أنّ الرسول مُحمَّداً ﷺ ما ضَلَّ ومَا غَوَىٰ، وبيان أنَّه ما ينطِقُ في كلٍّ ما ينطِقُ به عن الهوىٰ.

بعد كلِّ هذا ينتَقِل إلَىٰ سؤال وهو: إذا لم يكن محمَّد ﷺ ضالاً عن غير قَصْدٍ، ولا غاوياً عَنْ قَصْد، ولا يَنطِقُ عن الهوى، فَمِنْ أيْنَ يأتيه هذا الْعِلْم العظيم الَّذي يَتَحَدَّثُ بِهِ إلى النَّاس؟ وكَيْفَ تَتَوَارَدُ على فُؤادِهِ الآيَاتُ القُرْآنِيَّة نَجْماً فنجماً (أي: قِسْماً فقِسْماً) بحَسَب مقتضيات الحكمةِ في تكامُلِ الدِّينِ، والتَّدَرُّجِ الارتقائيّ فيه؟.

وقد أجَاب الله عزّ وجلّ على هذا السؤال الذي ينتَقِلُ إلَيْهِ الفكر تِلْقائيّاً بقولِهِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ أي: يُوحَىٰ إليه بِهِ من رَبِّهِ، فَمَا هُوَ مِنْ عَبْقريَّتِه الخاصَّة، ولا هو مِنْ ملائكيَّةٍ فيه ولاَ رُبُوبيَّة، إذْ هو بَشَرٌ من البشر، وعَبْدٌ مِنْ عباد الله الذين اصطفاهم اللَّهُ بالنُّبُوَّة، وكلَّفَهُمْ أنْ يؤدُّوا رسالات رَبّهم لأقوامهم.

[إنْ] حرف نفي مثل «ما» النافية. [هو] ضمير يعود على الذّي ينْطِقُ به مبلّغاً إياه عن رَبّه، المفهوم من جملة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾.

فالمعنى: ما هو الذي ينطِقُ به مبلّغاً إيَّاهُ عَنْ رَبِّهِ إلاَّ وَحْيٌ من عند الله يُوحَىٰ إليه به آناً فآناً، أو آناً ثم آناً، على سبيل التكرار والتجدُّد، ولم يُوحَ إليه به دُفعةً واحدة، لوجوه من الحكمة اقتضت ذلك، وأبانتها الآيتان (٣٢ و٣٣) من سُورة (الفرقان).

الوحي: ظاهرةٌ معروفة في تاريخ الرسالاتِ الرّبانيَّة، وفي تاريخ الأنبياء والمرسَلِين، ومعظمُ الشعوب تَعْرِفُ هٰذِهِ الظَّاهرة، ولدَيْها ذِكْرَياتٌ

عَنها، وأخبارُ الأنبياء والمرسلين حَوْلَها مستفيضة، وكلُّ أصحاب المِلَلِ الّتي تَنْتَمِي إلى دينٍ رَبَّانيّ يَعْرِفُونها ويُؤمِنون بها.

والوحيُ في اللّغة يأتي بمعانٍي متعدّدة، منها: الكتاب، والكتابة، والإشارة السَّريعة، والإلْهامُ، والكلامُ الخفيُّ السَّريع، وإلقاء المعنىٰ في النفس دون صوتٍ يُسْمع.

أمّا الْوحْيُ في المفهُوم الدينيّ: فهو إعْلاَمُ الله رسُولاً من رُسُلِهِ، أو نبيّاً من أنبيائه ما يَشَاءُ من كلام أو معنىً، بطريقة تفيد الرسُولَ أو النبيَّ الْعِلْمَ اليقينيَّ القاطِعَ بما أعْلَمَهُ اللَّهُ به.

وهٰذه الطريقة قَدْ تكون إلقاءً في الْفُؤَادِ من الله. أَوْ خطاباً يُخَاطبُ اللَّهُ به عبْدَهُ المختارَ من وراء حجاب، وقَدْ تَكُونُ بوساطة مَلَكٍ يُبَلِّغُ بالقوْلِ عن طريق السَّمْع.

وهنا ينتَقلُ الفكْرُ إلىٰ سؤالٍ آخر، وهو: هَلْ هٰذا الوحْيُ يرتقي إلى مُسْتَوى التعليم النَّصّي، حَرْفاً بحَرْفٍ، وكَلِمةٍ بكَلِمَة، حتّى يكونَ قَوْلاً مُحَرَّراً محفوظاً بنصّه الكامل، دون زيادَةٍ ولا نَقْصٍ في حَرْفٍ أو حَرَكةٍ أَوْ أداءٍ؟.

وقَدْ أجابَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ على السؤال بما يلي:

- قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾.

﴿عَلَّمَهُۥ﴾: أي: علَّمَ الرَّسُولَ محمَّداً. **التعليم**: إتّخاذُ الوسَائل لجعْلِ مَنْ يُرادُ تَعْليمه عالماً بمَا أُلْقِيَ إليه من أقوالٍ ومعاني وغير ذلك.

﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ صفةٌ لموصُوفٍ مَحْذوف، وهو جبريلُ عليه السّلامُ في أقوال جُمْهُور المفسّرين. ويَشْهَدُ لهذا ما سَبَق نزوله في سورة (التكوير/ ٨١

مصحف/٧ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلّ فيها بشأن القرآن:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

فَمَا جاءَ في سُورَة (النجم) قد أضَافَ بيانَ صفَاتٍ لجبريل علَيْهِ السَّلام إلى صفاته المبيَّنة في سُورة (التكور) فالنَّصَّان متكامِلاَنِ.

وعبارَةُ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ هي من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أي: ذُو الْقُوىٰ الشديدَةِ المتنوِّعَة.

الْقُوَىٰ: جمْعٌ مفْرَدُهُ «الْقُوَّة» فدَلَّ الجمع على أنواعٍ من الْقُوَّةِ.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: أي: ذو إحكامٍ وَإتقانٍ ومُمَارسَةٍ وَخِبَرَةٍ في التعليم، تَعْتَمِد على المعالجة الحكيمة، واسْتِخْدام مختلف الوسائل التعليميَّة ذات التأثير العميق الرّاسخ.

ونُلاحظُ في هذا الثناء على جبريل عليه السّلام توجيهاً للمعلّمين أن يَتَّخذُوا ما يسْتَطِيعُون من وسائِلَ للتعليم الْمُجْدِي، ذي الأثَرِ الراسخ.

المِرَّةُ في اللّغة: القوة وشدّة العقل، وقُوَّةُ الْخَلْقِ وشِدَّته.

أصْلُ المِرَّةِ في اللُّغة: إحكامُ الفتل للْحبْل، يُقالُ لغة: أمَرَّ الحبْلَ إمراراً، أي: أحْكَمَ فَتْلَه.

وَكُلُّ قُوَّةٍ (أي: طاقة) من قُوَىٰ الحبل تُسَمَّىٰ: «مِرَّة» وجَمْعُها «مِرَرٌ». **والْمَرَائِرُ**: هي الحبال المفتولَةُ على أكثَرَ من طاق، ومفْرَدُها مَرِير، ومَرِيرَة.

وقالُوا: فلانٌ يُمِرُّ فُلاناً ويُمَارُّه، أي: يُعالِجُهُ ويتلَوَّىٰ عليه ليَصْرَعَهُ ويتمكَّنَ منه.

ونَفْهَمُ من هذه المعاني اللُّغويَّة أنَّ معنى قول الله عزَّ وجل في وصف

جبريل عليه السَّلامُ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أنَّهُ ذو قُوَّة شَدِيدَةٍ عَظيمةٍ خارقَةٍ: جسميَّة وفكرية وعَقْليَّةٍ وإراديَّةٍ ونفسيَّة، وأنَّه ذو قُدْرَةٍ على الفَتْلِ والتلَوِّي والمداوَرَة والمعالجة في التعليم، حتى يبلُغَ غاية ما يريدُ من تَمْكِينِ الْعِلْم فيمن يُعَلِّمُه.

﴿فَاسْتَوَىٰ﴾: أي: فوصَل الرَّسُولُ محمَّد ﷺ إلى مستوى الاستواء الكامل من حالة التعلُّم التي لا يَنْقُصها شيْءٌ، ولو نقصها شيءٌ لما كانت مُسْتويةً، ولَمَا كان هو في تعلُّمِهِ مُسْتَوِياً.

إنّ غير المستوي يكون ذا اعوجاج أو ارتفاع أو انخفاض عن المطلوب الكامل، أو يكون غير مطابق للأوصافِ التي يُؤَدِّي بها الوظيفة المُعَدَّ لأدائِها على أكمل وَجْهٍ وأَحْسَنِه، والنقص في استوائه يتنازَلُ في دَرَكات، فبمقدار النقص في الاستواءِ يكون الانحطاط في الدركات.

وظاهر سوابق: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ تدلُّ على أنّ الذي وصل إلى درجَةِ الاسْتِواء الكامل هو الرَّسُول محمَّد ﷺ، لأنَّ تعليم جبريل عليه السلام كان مُوجَّهاً له، فهو المتلَقِّي المتعلِّم.

والمرادُ باستوائه بُلُوغه دَرَجَة الكمالِ في التَّعَلُّم، وهذه شهادة من الله له.

إذا كان المعَلِّمُ شَدِيدَ الْقُوىٰ، وذا مِرَّةٍ في التعليم بإحكامِ وإتقان، فلا بُدَّ أنْ يَصِلَ المتعَلِّم وهو الرّسُولُ المجتَبَىٰ المصطفى من الناس، إلَىٰ دَرَجة الاستواء الكامل في التَّعلُّم، بما لديه من الاستعداد الكامل للتعلُّم والحفظ والفهم والفطنة.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

تحكي هذه الآيات قصة مشاهَدَةِ الرسول ﷺ الأولىٰ لجبريل عليه السلام بصورته الحقيقيَّة.

﴿وَهُوَ﴾: هٰذا الضميرُ يعُودُ على جِبْرِيلَ عليه السَّلامُ، المفهوم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ...﴾.

﴿بِٱلْأُفُقِ﴾: **الأفُق**: هو من السَّماء الجانِبُ الذي يُرَى أَدْنَاهُ ملتقياً بالأرض، وهو جُزْءٌ من قُبَّتِها العظمَىٰ، وهو بالنسبة إلى الناظرِ يُرىٰ له أسْفَلُ فأوسط وأعلى.

﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: وُصِفَ الأُفُقُ بالأَعلَىٰ لتَحْدِيدِ الْمَكَانِ الذي ظهر فيه جبريل للرَّسُول من الأفقِ، فالمشاهِدُ الواقِفُ على الأرض إذا مَدَّ نظَرَهُ إلى جهَةِ الأُفُقِ، فقد يرىٰ مَا ظهر فيه قَدْ ظَهَرَ من أعلاه، أو مِنْ أوساطه، أو من أدناه اتّصالاً بالأرض، ومن كان واقفاً في وادٍ تحْجُبُهُ عن الأفق الأَدْنى والأوسَطِ جبالٌ، فإنما يَرى من الأفق أعلاه.

وفي طريق أجياد من مكة، حيث رأى الرسول ﷺ جبريل عليه السلام في الأفق، لا يرىٰ السّالِكُ فيه من الأفق إلاَّ الجانب الأعلَىٰ منه، لأنَّ المقادير الوسْطَىٰ والدنيا منه محجوبةٌ بجبال من مكّة.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ أي: لقد رأىٰ محمّد جبريل والحال أنّ جبريلَ ظاهرٌ بالأفق الأعلىٰ، بدليل قول الله تعالى في الآية (١٣): ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ فعطف هذه الجملة على جملة: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ مع المطويّ المقدّر. وفي هذه العبارَة تصوير للَّقطة الأولى من مُشاهدة الرسول ﷺ لجبريل عليه السَّلام، بصورته الأصليّة التي خلقه الله عليها، لا بصورة أخرى يستطيع أن يتمثل بها، كصورة إنسان.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ متراخية استقرَّ فيها جبريلُ في موقعه الّذي ظهر فيه للرسول في الأفق، دَنا إلى جهة الأرض دنُوّاً قَليلاً.

﴿فَتَدَلَّىٰ﴾: أي: فَعَقِبَ دُنُوِّهِ القليل صارَ يَتَدَلَّىٰ مِقْدَاراً فمقداراً أي:

يقتربُ بِرِفْقٍ هابطاً إِلَىٰ جِهَةِ الرَّسُول، لئلا يُلْقِي الرُّعْبَ في نَفْسِ الرَّسول، من المشهد العظيم لصورته الأصليّة الّتي خلقه الله عليها.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾: أي: فكان الفاصِلُ بينَهُما بَعْدَ الدُّنوّ والتَّدَلّي مقدار طُولِ قوسَيْن عربيَّتَيْن أو أدنى مِنْ طولهما، وهذا الفاصل المقدر الذي هو اسم «كان» يُفْهم من سوابق العبارة: «وهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ».

﴿قَابَ﴾ أي: مقدار، **القابُ**: المقدار. والقابُ من القوس: ما بَيْنَ المِقبض وطَرَف القوس.

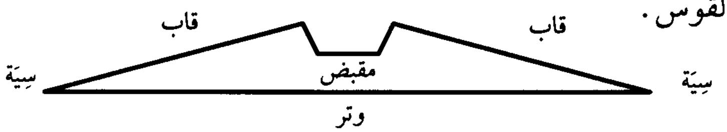

وورد أنَّ القوس ذراعٌ يقاسُ به كلُّ شيء.

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾: أي: أو أدنى من قَدْر قَوْسَيْن، وهذا أسلوبٌ بياني لتأكيد تحديد مَسَافة القرب بقَدْر طِولِ قَوسين عَرَبيَّتَين، وقد يكونُ ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ تعبيراً عن بعض أحوال القرْب بيْنهما، فأبْعدُها قَدْر طول قوسَيْن، وقد يكون القرب أقل من ذلك.

قال الرازي: ورَدَ هذا على استعمال العرب، فإنّ الأميرين منهم أو الكبيرَيْنِ إذا اصطلحَا أو تَعَاهدَا خَرَجَا بِقَوْسَيهِمَا، وَوَتَر[1] كُلُّ واحدٍ منهما وَتَرَ قَوْسِه بطَرَفِ قَوْسِ صَاحِبِه، ومَنْ دُونَهما من الرَّعيَّةِ يَكُونُ كفُّهُ بكَفِّه فَيُنْهِيَانِ بَاعَيْهِمَا.

وقد ظهر جبريل عليه السلام للرسول ﷺ ليَرَاهُ رُؤْيَا عيْن تَصِلُ إلى عُمْق الفؤاد، وتكونُ له بُرْهانَ إثباتٍ على أنّه من عالَم الغيب حقّاً، وأنّه رسولُ الله من الملائكة الذي يَبْعَثُه اللّهُ إلى رُسُله من البشر، ليُبَلِّغُوهم ما أوحَىٰ الله به إليهم.

---

(١) **وتر** أي: شَدَّ وتَرَ قَوْسِهِ.

ولم يقتصر الأمر على مُشاهدةٍ واحدة، بل جعلها الله عزّ وجلّ مرَّتين، زيادةً في تأكيد الإثبات البرهانيّ، وليَتِمَّ تعرُّفُ الرسول على شخصيَّة جبريل، حتَّى إذا جاءه بعد ذلك بأيَّة صورة تمثيليَّة، أو بتنزُّلِ مَسْمُوعِ الصَّوْت غيْرِ مَرْئِيّ الذَّات عرفَهُ، ولَمْ يخْفَ عليه.

وهذه المشاهدة الثانية سيأتي في هذا الدَّرْسِ ذِكْرٌ لها.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾: أي: فأوحَى اللَّهُ عزَّ وجلَّ إلى عبْدِهِ محمَّدٍ عَنْ طريقِ رَسُولِ الوحْي جبْرِيلَ مَا أوحاه إليه، ولمّا كان ما أوحاه جبريل للرسول محمد أثراً من آثار خَلْقِ اللَّهِ جاء التعبير بأسلوب أنَّ الله هو الذي أوحى لعبده محمد ما أوحى به إليه.

ولم يأتِ في النصّ بيانٌ لهذا الذي أوحى الله به إلى رسوله، لأنَّ الغرض بيان ظاهرة الوحي، أمّا الموحى به إلى الرسول محمد ﷺ، فالرسُولُ قائِمٌ بتَبليغ مَا أمَرَهُ اللَّهُ بتبليغه للنَّاس، لا يَكْتُمُ منْهُ شيئاً. ولم يكْتُمْ منْهُ شيئاً.

- قول اللهِ عزَّ وجلّ:

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾.

الفؤاد: عُمْقُ الْقَلْبِ الذي هو أداة الإدْرَاك في الإنسان، ومركز استقرار العلوم والمعارف، وتنطلق منه الإرادات.

إنّه لما كان مشهد ظهور جبريل بصُورَته العظيمة الَّتي تملأُ الأفق أمراً من الوضوح والتحقُّق التَّامّ بالِغاً الغاية، كان نافذاً إلى الفؤادِ مركز عمق القلب، وهو شيء غير جهاز ضخ الدّم.

وهذا دليل يَدُلُّ على أنَّ الرُّؤيَةَ الحقيقيَّةَ هي الرُّؤية النافذة إلى مركز الإدْراك البصَرِيّ في عُمْقِ الإنسان.

وقد أثبتت العلوم الحديثة أنَّ الْعَيْنَ أداةُ توصيلٍ لصورة المرْئيّ، وأنَّ

الرؤيَةَ إنَّما تكونُ في مراكز الإبْصَارِ في الدّماغ، وحينَ تُصَابُ هذه المراكز بالْخلَلِ لا تَحْصلُ الرُّؤْية، ولو كانت العينانِ سَلِيمَتَيْن وأعصابُ التوصيلِ سَلِيمة.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾: أي: ما كذَبَ فُؤادُ محمّد ﷺ ما رَأى، وجاءَتْ: (أل) في الفؤادِ بدَلَ الضمير المضاف إليه، والمعنَىٰ: ما كذبَ فُؤَادُه، وهذا الضمير يعود على «عَبْدِه» في الآية السَّابقة. ووضع (ال) التعريف موضع الضمير هو من الاستعمالات العربيَّةِ المعروفة، مع ما في التعريف بـ(ال) لفؤاد الرسول ﷺ من إشارة إلى كماله وعلُوِّ شأنه، إنَّهُ لفُؤَادٌ عظيم، لرسُولٍ مصطفى كريم.

وجاء في قراءةٍ أخرى لهشام وأبي جعفر: [ما كذَّب] بتشديد الذّال.

وأمّا تَعْديةُ فعل ﴿كَذَبَ﴾ [كذَّب] اللاَّزمان فيحتمل وجْهَين:

الوجه الأول: أنَّه علَىٰ طريقة نزع الخافض، أي: ما كذَبَ فيما رأىٰ، وما كذَّبَ فيما رأىٰ.

الوجه الثاني: أنّ فعل ﴿كَذَبَ﴾ أو[كذَّب] ضُمِّنَ معنَىٰ فِعْلٍ آخَرَ فَعُدِّيَ تَعْدِيتَه، وفْقَ قاعِدَة التضْمينِ الشائعة في الاستعمالات القرآنيَّة، ويمكن أن يكون التقدير: ما كذَبَ أو ما كذَّبَ فُؤادُ مُحمَّدٍ يختلق رُؤيته أَوْ يتوَهَّمُها.

ولا حاجة مع هٰذَيْن الوجهين إلى إيراد تخريجات متكلَّفات اشتَمَلَتْ عليها بعض التأويلات.

- ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾؟:

خطابٌ موجَّهٌ للمشركين الذين يجادِلُونَ الرسول محمّداً ﷺ، في رؤيته رسولَ الوحي جبريل عليه السلام، وتلَقِّيه عنه ما أوحَىٰ الله به إليه.

وفي هٰذه العِبَارة استفهامٌ إنكاريٌّ، يتضمَّن التَّعْجيب من مُماراتهم، ويتَضَمَّن الإنكار عليهم.

وَجاء في القراءة الأُخْرى: [أَفتَمْرُونَهُ].

المُمَارَاة: أَخَذَتْ في الاستعمال معنى المجادلة والمداورة، وتكُونَ المماراةُ غالباً بغير حقٍّ.

وأصْلُ الْمُمَاراة والامْتِرَاءِ أَنْ يَمْسَحَ الحالب على ضَرْعِ الشَّاةِ أو البقَرَةِ ونَحْوِهما لاستخراج اللَّبَنِ واحْتِلَابه، وفي هٰذا قَدْرٌ كبيرٌ من الملايَنَةِ والملاطَفَةِ والمداورة لبلوغ الْمُراد.

والمجادل يُحاول أن يسْتَخْرِجَ مَا عِنْدَ صاحِبِهِ، وهُوَ يَمْتَرِيه كما يمْتَرِي الحالبُ اللّبَن من الضَّرْعِ.

والْمَرْيُ: مسْحُ ضَرْعِ النَّاقَةِ لِتَدِرَّ. يقال لغة: مَرَىٰ النَّاقةَ مَرْياً، أي: مَسَحَ ضَرْعَهَا للدِّرَّة، والاسم من ذلك: «الْمِرْيَة». ومن فِعْل «مَرَىٰ» جاءت قِرَاءَة: [أَفَتَمْرُونَهُ].

وجاءت التعْدِية بحَرْف «على» في قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾. [أَفَتَمْرُونَهُ عَلَى مَا يَرىَ] لتضمين الفعل معنى فعل «حَرَص» أي: أفتمارونه حريصين على إنكار ما يَرَىٰ، وتكذيبه فيه.

والمعنى: ألا تعجبون من أنفسكم أيها الكافِرُون المكذِّبون لرَسولِنا، فيما يَرَاهُ رُؤيَةَ حَقٍّ، فَتُمارونَه مجادلين بالباطل حريصين على تكذيبه في شيءٍ هو يَراهُ رُؤيَةً صادقَةً واضحَةً لا شَكَّ عنْدَهُ فيها، وهذا الشيء الذي يراه لَيْسَ من المستحيلات العقليّة، وقد سبقه الأنبياء والرُّسُلُ في ذٰلِك.

ما هي الحجَّةُ الّتي يمكن أن يُقَدّمَها لكُم غير أنَّه رأىٰ، وهو صَادِقٌ في كلّ ما رأى، وصادقٌ في كلِّ ما يخبركم به، وأنتم تَعْلَمُون خلُق الصّدْقِ فيه.

الفاء في ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ عاطفة على محذوف مقدّر ذهناً، فهي من قبيل الفاء الفصيحة.

أمّا برهان قاعدة الصّدْق عنده فظاهرٌ فيما آتاه ربُّه من آيَاتٍ باهرات، ومنها القرآن الذي يتْلُوهُ عليكم، ففيه من الإعجاز ما يكفي لأقناعكم بصِدْقه، وبأنَّه نبيُّ الله ورسُولُه حقّاً، فلا تَصِحُّ عقلاً مماراته حِرْصاً منكم على تكذيبه فيما يراهُ هو رُؤْية حقّ.

روايات بشأن رُؤية الرّسول لِجبْريلَ في النزلَةِ الأُولَىٰ

أورد ابْنُ كثير في تفسيره عدّةَ رواياتٍ بشأن رؤية الرسول محمد ﷺ جبريلَ، على الصِّفة الحقيقيَّة التي خلَقَهُ اللَّهُ عليها.

وأكثرها روايات لا ترقى إلى مستوى الأحاديث الصِّحاح بأفرادِها، لكن يقوّي بعضها بعضاً، وتَشْرَحُ جانباً مما جاءت الإشارة القرآنية إليه، في سورتي (التكوير) و(النجم):

(١) روى الإمام أحمد عن عبد الله، أنّه قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناحٍ كُلُّ جناحٍ منها قَدْ سَدَّ الأُفُق، يسقط من جناحه من التهاويل⁽¹⁾ والدُّرّ والياقوت ما الله به عليم. [إسناده حسن].

(٢) وروى الإمام أحمد أيضاً بسند فيه وهبُ بن مُنَبِّه عن ابن عباس، قال: سأل النبيُّ ﷺ جبريلَ أن يراه في صورته، فقال: ادْعُ ربَّكَ، فدعا ربَّهُ عزَّ وجلَّ. فطَلَعَ علَيْه سوادٌ من قِبَلِ المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلمَّا رآه النبيّ ﷺ صَعِقَ، فأتاهُ فَنعَّشَه، ومَسَح الْبُزَاقَ عن شِدْقِهِ.

(٣) وروى البخاري ومسلم وأحمد عن الشعبي عن مسروق، قال: كُنْتُ عند عائشة، فقُلْتُ: أَلَيْسَ اللَّهُ يقولُ: [وَلَقَد رآه بالأُفُقِ المبين] ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً

---

(١) **التهاويل**: الزيناتُ ذوات الأشاكل والصور والنقوش المختلفة الألوان وأنواع الحلي التي يُتزَيَّنُ بها، وما على الهوادج من الصوف الأحمر والأخضَر والأصفر تُزَيَّنُ به.

أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فقالت: أَنَا أَوَّلُ هذه الأُمَّةِ سَأَلْتُ رسول الله عنها، فقال: «إِنَّمَا ذَاكِ جِبْرِيلُ» لَمْ يَرَهُ في صورته الَّتِي خُلِقَ علَيْها إلاَّ مَرَّتَيْن، رآهُ مُنْهَبِطاً من السَّماء إلَىٰ الأرْضِ، سَادّاً عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْض».

(٤) وقال ابْنُ وهْبٍ، حدَّثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عُروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

كان أوَّلُ شأن رسول الله ﷺ أنَّهُ رأىٰ في منامه جبريل بأجياد، ثُمَّ إنَّهُ خَرَج ليقضي حاجتَهُ، فصَرَخ به جبريل، يا محمّد، يا مُحمّد، فنظر رسول الله ﷺ يميناً وشمالاً، فلَمْ يرَ أحداً ثلاثاً، ثم رفع بصَرَهُ، فإذا هُوَ ثاني إحْدَى رجْلَيْهِ معَ الأُخْرىٰ على أُفُقِ السَّماءِ، فقال: يا مُحمَّد، جبريل، جبريل، يُسَكِّنُهُ، فهربَ النبيُّ ﷺ حتَّىٰ دخَلَ في النّاسِ، فنظر فلَمْ يَرَ شيئاً، ثُمَّ خرجَ فنظَرَ فرَآهُ، فذلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ يعْنِي جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسَّلام.

(٥) وروى مَسْروقٌ عن عائشة، أنَّ الرسُولَ ﷺ لم يَرَ جبريلَ في صُورَتِه إلاَّ مَرَّتين: مَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهىٰ ومرَّةً فِي أجْياد وله ستُّمائة جَناحٍ قد سَدَّ الأُفق.

(٦) وروى الإمام أحمد عن ابْن مَسْعُودٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«رأيتُ جِبْرِيلَ، ولَهُ ستمائة جناح، ينْتَثِرُ من رِيشِهِ التَّهاوِيلُ من الدُّرِّ والْيَاقُوت». [وهذا إسنادٌ جيّدٌ قويّ].

- قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

بعد أن أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أنّ الرسُول محمّداً ﷺ رأى جبريل بصورته الأصلية التي خلقَه عليها، حين دَنَا فتدلّى، فكان بُعدُ الفاصل بينهما مِقْدارَ

قوسَيْنِ أو أدْنَى، أبانَ أنَّهُ رآهُ أيضاً رؤيَةً أُخْرَىٰ بصورته الأصليَّة التي خلقه الله عليها، في نَزْلَةٍ أُخْرَىٰ من مكانه الرّفيع في السَّماواتِ، فكان اللِّقَاءُ بينهما عندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ. وقد سبق بيان النزْلَةِ التي رآهُ فيها ابتداءً من الأفُق حتَّىٰ كان قاب قوسَيْنِ أو أدْنَىٰ.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬﴾:

جاء تأكيد هذه الجملة باللاَّم التي تقع في جواب قسم، وبحرْف «قد» الذي يؤْتَىٰ به للتحقيق.

﴿رَءَاهُ﴾: أي: محمَّدٌ جبريلَ عليهما السَّلام بصورته الأصلية.

﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: في نَزْلَةٍ أُخْرَىٰ نَزَلَها جَبْرِيلُ من موقعِهِ الرَّفيع في السَّمَاوَاتِ. **النَّزْلَةُ**: واحِدَةُ النَزلاَت.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ⑭﴾: أي: فكانت هذه الرُّؤْيَةُ الأُخرىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهَىٰ.

كانت هٰذِه الرُّؤْيَة في رِحْلَةِ العروج به إلى السماوات، واطّلاعه على ملكُوت الله الأعْلَىٰ.

السِّدْرَة: شجرة من نوع شَجَر السِّدْر، ويُسمَّى شجَرَ النَّبِق، وهو صنْفُ شجرٍ معروفٍ في الحجاز.

أمّا سِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ فهي من مخلوقات الله في الملكوت الأعلَىٰ، وهِيَ شَجَرَةٌ مختلفة عَنْ أشجار الأرض، جاء بعض وصْفٍ لَهَا في روايَات أحاديث الْمِعْرَاج. ومَوْقِعُ هٰذِهِ السِّدْرَة العظيمة العجيبة الكُبْرىٰ كائِنٌ عِنْدَ جَنَّةِ المأوَىٰ.

جاء في بعض روايات الحديث ومنها عند مُسْلم عن أنس، أنَّ الرسول ﷺ قَدْ ذَهَبَ به جبريلُ عليه السَّلامُ إلى سِدْرَةِ المنتهىٰ بَعْدَ أَنْ دَخل السَّماء السابعة ورأىٰ فيها إبراهيم عليه السلام وهو مُسْنِدٌ ظهرَهُ إلى الْبَيْتِ

الْمَعْمُور، الذي يدخله كلَّ يَوْمٍ سبعُونَ ألف مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إليه.

قال: «ثُمَّ ذَهَبَ بِي إلى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ. وإذَا وَرَقُهَا كآذَانِ الفِيلَةِ، وإذَا ثَمَرُها كالْقِلاَل[1]».

قال: «فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيَّ ما أَوْحَىٰ...».

وجاء في رواياتٍ أخرى أنّ شُهوده سِدْرَةِ المنتهى قد كان في السَّماء السَّادسَةِ، وأرى أنَّ روايات كَوْنِها بَعْدَ السَّابعة أجْدَر بالاعتبار.

سُمّيتْ سِدْرَةَ المنتَهىٰ، لأَنَّهُ ينتهي إليها ما يُعْرَجُ بهِ من الأرض، أو يَنْتَهِي عِنْدَ حُدُودِها علْمُ الخلائقِ حتَّىٰ كبار الملائكة، أو تنتهي إليها أَرْوَاحُ الشهداء، وقيل غير ذلك، واللَّهُ أعلم.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾: أي: تُوجَدُ جَنَّةُ المأوَىٰ، عنْدَ سِدْرَةِ المنتَهىٰ الموجودَةِ بعْدَ السَّمَاءِ السابعَةِ.

في هذا البيَان وصْفٌ للجنَّةُ الّتِي أَعَدَّهَا الله للمتقين من عباده بأنَّها جَنَّةُ المأوىٰ، أيْ: المأوَىٰ للمتقين، الَّذِينَ يَقْضِي اللَّهُ لَهُمْ بأَنَّهُمْ من الْخَالِدِينَ في جنَّاتِ النَّعِيم.

الْمَأْوَىٰ: المكانُ الَّذِي يُؤْوَىٰ إلَيْهِ للسَّكَن وَالإقامَةِ والأَمْنِ وقضاء الحاجات والمطالب.

وبجمع هٰذا الوصف مع سائر الأوصاف المذكورة للجنَّة في القرآن الكريم، تتكاملُ لَوْحَةٌ تصويريَّةٌ بَيَانِيَّةٌ، تَسْتَثِيرُ رغبَاتِ المؤمنين بالاستزادة من صَالحِ الأعمال، وتُهَيّج أشواقَهُمْ إليها، لنيل سعاداتهم وأنواع نعِيمهم فيها.

---

(١) **القِلاَل**: جمع «قُلّة» وهي الجرّة العظيمة، وجاء في رواية أنّ ثمرها مثل قِلاَلِ هجَر. سَعَةُ الواحدة منها (١٥٣،٥) ليتراً.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑯﴾:

أي: رأى محمّد جبريلَ في النزْلَةِ الأخرى عنْدَ سِدْرَةِ المنتَهىٰ حين كان يغْشَىٰ السّدْرَة ما يغْشَىٰ، أي: يُجَلِّلُها ويُلابسها.

فما هٰذا الذي غشَيَ السِّدْرة؟

إنَّهُ أشياءُ ذاتُ حُسْنٍ عظيم لاَ يَسْتَطيعُ أحدٌ من خَلْقِ الله أن ينْعَتَهُ مِنْ حُسْنِه، كما جاء في حديث مسلم عن أنس عن النبي ﷺ.

وجاء في حديثٍ عند مسلمٍ أيضاً عن عبد الله بن مسعود، قالَ: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ».

وجاء في رواية: «وَغَشِيَهَا أَلْوَان لاَ أَدْري مَا هِي».

وجاء في رواية: «غَشِيَهَا نُورٌ مِنَ اللَّهِ مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا».

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰﴾: أي: ما زَاغَ بصَرُ الرسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ ومَا طَغَىٰ. جَاءت «ال» في الْبَصرِ بدَلَ الضمير المضاف إليه، أي: ما زاغ بَصَرُه، نظير ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾.

﴿مَا زَاغَ﴾: أي: مَا مَالَ وَلاَ انْحرَفَ عَنْ سَوائه. أصْلُ الزَّيغِ في اللُّغَةِ الميلُ والْبُعْدُ، يُقَالُ: زاغ السَّالِكُ عن الطَّرِيق، إذا عدَلَ عنهُ ذَاتَ اليمين أو ذَاتَ الشِّمال. وزاغ الفِكْرُ، إذا عَدَلَ عن الصّواب، وزاغ القلْبُ، إذا عَدَلَ عَنِ الحق والْهُدَىٰ.

﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: أي: ومَا جاوزَ الْحَدَّ في إدْرَاكِهِ لِمَا شَاهَدَهُ. أصْلُ الطغيان في اللُّغَةِ: تَجَاوُزُ الحدِّ الذي يكُونُ الحقُّ مَحْدُوداً بهِ.

دلَّتْ هذه العبارة على أنَّ مُشَاهَدَةَ الرَّسُولِ لمَا شاهَدَ عِنْدَ سِدْرة المنْتَهىٰ قد كانَتْ كُلُّها حقاً، لم يُدَاخِلْهَا ولم يُخالِطْها وهْمٌ ناشِئٌ عَنْ مَيْلٍ وانْحِرَافٍ عَنْ حُدودِ المشهود، ولا وهْمٌ نَاشِئٌ عَن طُغْيَانٍ وزِيَادَةٍ عَلَىٰ

حُدودِ المشْهُودِ، بلْ رأىٰ ما رأىٰ مُشَاهَدَةً حقيقيَّةً خاليةً عَنْ زَيْغٍ وخاليةً عن طغيان.

إنَّ مِنْ شَأْنِ من يَرَىٰ مَشَاهِدَ عظيمةً عَجِيبَةً غَرِيبَةً لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أنْ شاهدها، ولا شاهَدَ نظيرها، أنْ يَزِيغَ بَصَرُهُ أوْ يطْغَىٰ، فتَخْتَلِط علَيْهِ المرْئِيَّات، فيَتَوهَّم أنَّهُ رأَىٰ أشْيَاءَ في المشْهَدِ الّذِي وقَعَ بصَرُهُ عليه، معَ أنّ هذه الأشياء لا وُجود لَهَا فِي ذاتِ المشْهَدِ.

لكِنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ أمَدَّ رسُولَه بقُوَّةٍ وتَثْبِيتٍ في رحلة المعراج، فلم يحْدُثْ في بَصَرِهِ زيغٌ ولا طُغْيان، وقد شَهِدَ اللَّهُ لَهُ بهذا في قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ أي: فما يُحَدِّثُ به محمَّد عن مشاهداته في رحلة المعراج حقٌّ وصدْقٌ مستَنِدٌ إلى رُؤيَةٍ بصريّةٍ صحيحة، لا زائِغةٍ ولا طاغية، وهذا يُفْهَمُ لزوماً.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾: جاء تأكيد هذه الجملة باللاَّم التي تقع في جواب قسم، وبحرف «قَدْ» الذي يُؤْتَىٰ بهِ للتحقيق.

﴿رَأَىٰ﴾: أي: رُؤْيَةً حِسِّيَّةً بَصَرِية، بدليل ما جاء في الآية السابقة.

﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾: أي: من علامات عظمة رَبِّهِ وقُدْرَتِهِ وسائِرِ صفاته الْجَلِيلَةِ. وكلِمَةُ ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ إمَّا أنْ تكون مفعولاً به لفعْلِ ﴿رَأَىٰ﴾ فيكون المعنَىٰ: لَقَدْ رأىٰ الكُبْرَىٰ من آيات ربّه. وإمَّا أن تكون صفةً لكلمة ﴿ءَايَٰتِ﴾ فيكونُ المعنى: لَقَدْ رأىٰ بعْضَ آياتِ ربّه الكبرىٰ.

الكُبْرىٰ: مؤنّثُ أكْبَرَ الّتي هي «أَفْعَلُ تفضيل».

فَهَلْ سِدْرَةُ المنتهَىٰ هيَ الآيَةُ الكُبْرَىٰ من آياتِ اللّهِ في كونه، أو هِيَ آيَةٌ كُبْرَىٰ من ضِمْنِ آيات الله الكبرى، أو أنَّ الرسُولَ ﷺ رأىٰ فوق سِدْرَةِ المنتهى من آيات ربِّه؟

احتمالات لا نسْتطيع أن نجزم بواحدةٍ منها، والله أعلم.

وقد جاء في رواية عنْدَ مُسْلم عن ابن عبّاسٍ وأَبِي حَبَّةَ الأنصاريّ، أنّهما قالا: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوىً أَسْمَعُ بهِ صَرِيفَ الأَقْلَامِ».

وجاء في رواية:

«ثُمَّ انطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ، حتَّىٰ نأْتِي سِدْرَةَ المنتَهَىٰ، فَغَشِيَهَا أَلْوانٌ لاَ أَدْرِي ما هِي» قال: «ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا بِهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ[1]، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ».

هذا الدرس الأول من دروس السورة اشتمل على الدّفاع عن صِدْق الرَّسُول ﷺ في دعْوَىٰ رسالته واتّصاله بالوحي، وفي أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ تفضَّل علَيْه وأكْرَمَهُ بالعروج به إلى السّماواتِ الْعُلْيَا حتَّىٰ سِدْرَة المنْتَهَىٰ. واشْتَمل على تقديم أدِلَّةٍ إِقْنَاعيَّةٍ لإثبات أنّه رسولٌ يوحَىٰ إليه من ربِّهِ، وأنّه قد اتَّصل برسول الوحي من الملائكةِ جبريل عليه السلام، وأنّه رآه على صُورَته التي خلقه الله عزّ وجلَّ عليها مرَّتَين، دون أنْ يَتَمثَّلَ فيهما بأيِّ مِثالٍ آخر، وأنَّهُ عُرِج به إلى السّماوات العليا، وشاهَدَ مُشَاهَدَةً بَصَريَّةً مقرونةً بإدراكٍ قلبيّ حقيقيّ من آيات رَبّه الكبرى، وقد شَهِد الله له بكلّ ذلِكَ.

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة
الآيات من (١٩ ـ ٢٨)

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

---

[1] (١) **جنابذ اللؤلؤ**: أي قبابُ الّلؤلؤ.

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾.

القراءات

- قرأ جُمْهُورُ الْقُرَّاء العشرةِ: ﴿ٱللَّٰتَ﴾.

وقرأ رُويس: [اللاّتّ].

أصل الكلمة كما سيأتي «اللاَّتّ» بالتشديد، ومعناها الذي يلُتُّ، أي: يخلط السّويق(١) أي الدقيق بالسَّمْنِ ويَعْجنُه، ولمَّا سُمِّيَ بَيْتُ هذا المعبود عند العرب باسم اللاَّتِّ الّذي كان يلُتُّ الطعام للحجّاج في هذا المكان، خَفَّفَ العربُ التّاءَ لأنّه أسْهَلُ في النطْق.

- وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿وَمَنَوٰةَ﴾.

وقرأ ابن كثير: [ومَنَاءَةَ].

وهُما لفظان ينْطَقُ بهما اسم هذا الصنم، إلاّ أنّ الأكثر ما عليه جمهور القرّاء.

- وقرأ جمهور القرّاء الْعَشرةِ: [ضِيزَىٰ] من ضَازَه حقَّهُ، إذا نقصَه فهو جائر.

وقرأ ابْنُ كثير: [ضِئْزَىٰ] من ضَأَزَهُ حقَّهُ، إذا نقصَهُ أيْضاً، فهو جائر.

---

(١) السّويق: طعامٌ يتّخذ من مَدقوق الحنطة أو الشعير.

تمهيد وتدبر

بعد الدّفاع عن الرسول محمّد ﷺ في الدرس الأول من دروس السّورة، لإثباتِ نبوّتِه ورسالته وتلَقّيه الوحي عن ربّه، وصِحَّةِ مُشَاهَدَاتِهِ البَصَرِيَّة والقَلْبِيَّةِ من عالَم الغيب، ومن السماواتِ فيما أكرمَهُ الله به من العروج حتَّىٰ سِدْرَةِ المنتهى، ورُؤيَتِهِ فيها من آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَىٰ.

يَأتي الدرْسُ الثَّاني من دُروس السّورة، وفيه هجُومٌ على عقائدِ المشركينَ الباطِلَةِ، وبعْضِ مقالاتِهِم الافترائيَّةِ الّتي لا تستنِدُ إلى حُجَّةٍ مقْبولةٍ لدَىٰ ذي نَظَرٍ صحيح، وفكْرٍ سليم.

وفي هذا الهجوم تسْدِيدُ الضَّرَباتِ علَىٰ الرُّموز الكُبْرَىٰ الّتِي يُؤْمِنُونَ بإلهِيَّتِهَا، وعلَى المفهومات الباطلات الّتِي يتمسَّكُونَ بِها، في مُقَابل تَصَدِّيهم لمصارَعة الرَّسُولِ محمّد ﷺ بظلم وعُدْوانٍ، وتَكْذِيبهم لما جاءَهُمْ به من حَقٍّ أَوْحَىٰ اللَّهُ به إليه.

وقد اشتمل هٰذا الدَّرْسُ علَىٰ قَضِيَّتَيْنِ من قضايا المشركين الباطلة: **الأولى**: اتخاذهم معبودات من الأصنام. **والثانية**: اعتقادهم أنّ الملائكة بنات الله.

أمّا القضيّةُ الأولى

وهي اتخاذهم الأصنام معبوداتٍ لهم من دُون اللّهِ، زَاعمين أنَّها تجلُبُ لهُمْ نَفعاً، وتدفع عَنهم ضرّاً.

فخاطبهم الله عزّ وجلّ بقولِهِ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾

الفاء في ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ عاطفةُ الفعل على فعل «تُمَارُونَهُ» في الدرس الأوَّل من السّورة. أو عاطفة على محذوف، والمعنى: أتفكّرتم فرأيتم آلهتكم، وما في عبادتها من جهالة ومجافاة للحقّ، والرأي السديد، والعمل الرشيد.

والاستفهام هو من قبيل الاستفهام الإنكاريّ التهكمِيّ، المشْعِر بضعفِ عقولهم التي قَبِلَتْ عبادةَ حجارَةٍ لاَ تنْفَعُ ولاَ تضُرُّ، واتخاذَهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ الله.

إنّ أوثان العرب الّتي كانت قبائلهم المختلفةُ يعْبُدونَها كثيرة، ذكرت سورة (النجم) منها على سبيل التمثيل وثَنَيْن لقُريشٍ هُمَا «اللاَّتُ والْعُزَّىٰ».

واللاَّتُ هو أيضاً لأهل ثقيف في الطّائفِ ومَنْ يَعْبُد عبادتهم.

وذكرَتْ وثناً واحداً غيرهما، وهو «مَنَاة» وهذا قد كان لأهل يثربَ، ومن عبَد عبادتَهم من القبائل المجاورة لَهُم.

واقتصرت السُورة على ذكر هذه الأوثان الثلاثة، دُون ذكر سائر أوثان العرب، لأنّه متَىٰ سَقَطَتْ قيمةُ أوثانِ أهْلِ مكّة وما حولها، وأهل الطائف وما حولها، وأهل يثرب وما حولها، سقَطَتْ قيمةُ سائر أوثان العرب، إذْ تُلْحَقُ بكُبَرَيَاتها.

والاستفهامُ الإنكاريُّ التهكُّمِيُّ الذي بدَأت بهِ هاتَانِ الآيتان، يتضمَّنُ المعانِيَ التالية:

أتكَذِّبُونَ الرَّسِولَ محمّداً الَّذِي يعْرِض عليكم الحقَّ الرَّبَّانيَّ مؤيّداً ببرهاناته، ومقْرُوناً بآيَاتِ صدْقِه فيما يُبلّغُ عنْ رَبّه، متظاهرين بوهم العقلانية في زعمكم، وأنتم تَعْبُدونَ جامداتٍ حجَريَّة لا تضُرُّ ولا تَنْفَع؟!!. ما هٰذِهِ المفارقة العجيبة بيْنَ رفضِكُمُ الحقَّ بزَعم الاستمساك بالعقلانيَّة، وبين اعتقادكم عقائِدَ ظاهِرةَ البطلان، لا يَصِحُّ أن يعتقدها من كانت لدَيْه ذَرَّةٌ من عَقْلٍ، أو مقدارٌ ما من تفكيرٍ سَلِيم؟!!

اللاَّت

قالوا: بيتٌ لثقيفٍ في الطائف، كانُوا يعظّمونه نحو تعظيم الكعبة.

وأصل هذا البيت أنّه كانَتْ صَخْرَةٌ يلُتُّ رجُلٌ من ثقيفِ السَّويقَ

للحجّاج عليها⁽¹⁾، وكانت هذه الصخْرَةُ تُسمَّىٰ صخْرَة اللاَّتّ، فلمَّا ماتَ هذا الرَّجل من ثقيفٍ قال لهم: «عَمْرُو بْنُ لُحَيّ» جالبُ صَنم «هُبَل» إلى مكَّةَ من مُآب من أرْض الْبَلْقاء بالشَّام: إنَّ اللاَّت لم يَمُتْ، ولكنه دخلَ في الصخرة، وأمَرَهُمْ بعبادَتِها، وأَنْ يَبْنُوا عليها بيتاً يُسمَّىٰ: «بَيْتَ اللاَّتّ».

وكان عَمْرو بْنُ لُحَيٍّ رجُلاً مطاعاً في مكَّةَ والطَّائف.

ورُبّما اعْتبَر عابدو «اللاَّت» فيما بَعْد لفظ «اللاَّت» مؤنَّثَ لفظ الجلالة «الله».

وكان سَدَنَةُ «بيت اللاَّتّ» وحُجَّابُه بَنِي مُعَتِّبٍ من ثقيف، وعند ابن الكلبي في كتابه «الأصنام» أنهمُ بنُو عتَّابِ بن مالكٍ.

الْعُزَّىٰ

هي صخرةٌ صَنَميَّةٌ اتَّخذَها «ظالِمُ بْنُ أَسْعَد» وكانَتْ لقُرَيشٍ وبني كنانة، بوادٍ يُقالُ له «الْحُرَاض» من «نَخْلَة الشاميّة» تقَعُ على يمين الْمُصْعِد إلى العراق من مكة، فوق ذات عِرْق، ثم صارت الْعُزَّىٰ أعظم آلِهَةِ قُرَيش الوثنيَّة، وكانوا يَزُورونها ويُهْدُونَ لَهَا، ويتقربون عندها بالذبائح.

وكان بنو شيبان من سُلَيْمٍ حُلَفَاءُ بني هاشم هم سَدَنَتَها وحُجَّابَها.

وقيل: الْعُزَّىٰ شجَرةٌ من شجَر السَّمُر، كانت لغطفان يعبدونها، وأَنَّهُمْ بَنَوْا عليها بيتاً، وأقاموا لها سَدَنَةً.

ولفظُ «الْعُزَّىٰ» في العربية مؤنَّثُ «الأعزّ».

ورُبّما اعتبَر بعضُ الشّارحين أنَّ الْعُزَّىٰ مأخوذٌ من اسْم اللَّهِ «العزيز».

وجاء في سيرة «ابن هشام» في أحداث ما بعْدَ فتح مكة:

---

(١) **اللَّتُّ**: هو خلط الدقيق بماء أو سَمْنٍ بطريقةٍ خاصَّةٍ، أو بخشبةٍ خاصَّةٍ تسمَّىٰ المِجْدَع.

«ثُمَّ بَعَثَ رسولُ الله ﷺ (خالدَ بْنَ الْوَلِيد) إلى (الْعُزَّىٰ) بنخْلَة، وكانت بيتاً يعِظّمُهُ هذا الحيُّ من قُرَيش، وكنانَةُ ومُضَرُ كلُّها، وكان سَدَنَتُها وحُجَّابُها بَنِي شيبَانَ من سُلَيْم، حُلَفَاءَ بَنِي هاشم، فلمَّا سَمِع صاحِبُها السُّلَمِيُّ بمَسيرِ خالِدٍ إِلَيْها، عَلَّقَ علَيْها سَيْفَهُ، وَأَسْنَدَ(١) في الْجَبَلِ الّذِي هيَ فيه، وهو يقول:

أَيَا عُزُّ شُدِّي شَدَّةً لاَ شَوَىٰ لَهَا ... عَلَىٰ خَالِدٍ أَلْقِ الْقِنَاعَ وَشَمِّري(٢)
أَيَا عُزُّ إِنْ لَمْ تَقْتُلِي الْمَرْءَ خالداً ... فَبُوئِي بإِثْمٍ عَاجِلٍ أَوْ تَنَصَّرِي

فلمَّا انْتَهىٰ إليها خالِدٌ هدَمها ثم رَجَعَ إلى رسول اللَّهِ ﷺ» هـ.

وجاء في لسان العرب: أنَّ «خالد بن الوليد» هدَمَ بيْتَ الْعُزَّىٰ، وأحْرَقَ السَّمُرَة وهُوَ يَقُول:

يَا عُزُّ كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَك ... إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكِ

قالوا: وكانت قريش إذا حَلَفَتْ قالت: واللاَّت والْعُزَّىٰ.

وكان مشركو قريش يعذّبون عبيدهم وإماءهم وأبناءهم ليكْرِهُوهم على تعظيمها، والكفر بمحمّد وربِّ محمّد.

مَنَاة

جاء في لسان العرب لابن منظور: مناة صخْرة، وفي الصّحاح: صَنَمٌ لهزيل وخزاعة، بين مكة والمدينة، يعبُدونها من دون الله، وفي الحديث: أنّهم كانُوا يُهلُّونَ لمناة (أي: يحجُّونَ إليها).

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من

---

(١) أَسْنَدَ في الْجَبل: أي: ارتفع فيه.

(٢) **شَدَّةً لاَ شَوىٰ لها**: أي: شُدِّي عليه شَدَّةَ ضَاربٍ في مقْتَلٍ، لا ضاربٍ في الأطراف التي هِيَ شَوَىٰ.

أهل يثرب، على ساحل البحر، من ناحيَةِ المشلَّلِ بقُدَيْدٍ(١).

وقال ابن هشام: فبعث رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حرب فهدمها. وقيل: بعث عليّ بن أبي طالب فَهَدَمها.

وجاء في كتاب: «الأصنام» لابن الكلْبِي: كانت مَناةُ أقْدَم الأصنام كلّها، ولم يكُنْ أحَدٌ أشَدَّ إعظاماً لها من الأوس والخزرج.

إشكالٌ ودفعه

أشكل على بعض المفسّرين وصف «مناة» في الآية بقوله تعالى: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قال: الآخَرُ والأُخْرى إنّما يوصفُ بِهِما الثاني والثانية، لا الثالث والثالثة، وقال: لا داعيَ للأخرى بعد وصْفها بكونها الثالثة.

وأُجِيبَ: بأنّه جيء بالأُخْرى لمراعاة رؤوس الآيات، وتوازُنِ الفِقَرات.

أقول: وأرى مع هذا أنّه لمّا كانت اللّات والعزّىٰ لقريش، وكانت سورة (النجم) من أوائل التنزيل المكّيّ خاطبهم الله بقوله فيها: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾؟!!.

أمّا «مناة» فكانت للأوس والخزرج في يثرب، فكان من المناسب أن يخصّصها الله بقوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ ولمّا كانت في مقابل مجموع ما تعبُد قريشٌ كانَتْ أخرى، على أنّها أحَدُ الشيئَيْن المذكورَين للفريقين.

أو نقول: أُخرَى هنا مؤنّثُ آخرُ «أفعل تفضيل» على أنّه وصف يحمل معنَى التأخّر، لا على أنه أحد الشيئين، والمعنى: ومناة الثالثة الأكثر تأخراً، فهي كالبُعْدَى، إذْ كان المخاطبون من قريشٍ لا يضَعُونها مع اللّاتِ والعُزَّىٰ

---

(١) المشلَّل جبَلٌ يُهْبَطُ منه إلى قُدَيد، وهو موضع بين مكة والمدينة.

في المرتبة، فَخُوطِبُوا بحسب واقع حالهم، والله أعلم.

تعذيب المشركين أصحاب محمّد لإكراههم على عبادة الأوثان

قال ابْنُ إسحاق: وحدّثني حكيمُ بن جُبَيْر، عن سَعِيد بْنِ جُبَير قال: قُلْتُ لعبد الله بن عبّاسٍ: أكان المشركون يَبْلُغُونَ من أصحاب رسول الله ﷺ منَ العذابِ مَا يُعْذَرُونَ به في تَرْكِ دِينهم؟

قال: نعم، والله، إنْ كانوا ليَضْرِبون أحَدَهم، ويُجِيعُونه ويُعطِّشُونه، حتَّى مَا يقْدِر أن يسْتَوِيَ جالساً من شِدَّةِ الضُّرّ الذي نزَلَ به، حتَّى يُعْطِيَهُمْ ما سألُوهُ من الفتنة، حَتَّىٰ يقولوا لَهُ: آللاَّتُ والْعُزَّى إلهُكَ من دُونِ اللَّهِ؟. فيقولُ: نعم. حتَّىٰ إنَّ الْجُعَلَ ليمُرُّ بهم فيقُولُونَ لَهُ: أهَذَا الْجُعَلُ إلهُكَ من دُون الله؟. فيقولُ: نعم، افتداءً منهم بما يَبْلُغُونَ منْ جَهْدِهِ.

وأمّا القضية الثانية

وهي اعتقادُ المشركين أنّ الملائكةَ بناتُ الله، مع الإشارة إلى عبادتهم للملائكة، وربّما كان هذا عند بعضهم، إذ اتّخذوا لبعض الملائكة صُوراً من الأصنام وعَبَدُوها، واعتقدوا أنَّ الملائكة يشفعون لهم عند الله جلّ جلاله.

فخاطبهم اللَّهُ عزّ وجَلَّ بقوله:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾؟!!

ضيزىٰ: أي: جائرَةٌ، مُجَانِبَةٌ لمقتضىٰ العدل بحسب مفهوماتكم.

الاستفهام هنا أيضاً هو من قبيل الاستفهام الإنكاريّ التهكُّميّ المشْعِر بجهالتهم وضعف عقولهم، يقول العرب: قِسْمَةٌ ضيزىٰ، وقسمةٌ ضُوزَىٰ، أي: قسمةٌ جائرة، يقال: ضاز في الحكم، إذا جار، ويقال: ضازَهُ حقّه يَضِيزُه ضَيْزاً، أي: نقصه وبَخَسَهُ.

هاتان الآيتان هما بمثابة «عُنوان» لموضوع عقائد أهل الكفر حوْل

الملائكة، ضمْن حركة الهجوم على مواقع المشركين الفكريَّة. فقد كان بعض كفّار العرب يعتقدون أنَّ الملائكة بناتُ الله، ويتخذون منهم آلهةً ليكونُوا شفعاء لهم عند الله.

قال الرازي: ونقَلَ الواحديُّ عن المفسّرين أنّهم قالوا: إنَّ قُرَيشاً، وجُهَينَةَ، وبَنِي سلَمَةَ، وخُزَعَةَ، وبني مُلَيْح، قالوا: الملائكةُ بناتُ الله.

وروى ابْنُ جرير عن السُّدِّيّ قال: ذُكِرَ أَنَّ مُشركي قُريشٍ كانوا يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، وكانوا يَعْبُدونها.

أقول: توجيه الخطاب للمشركين، وفي مقدّمتهم مشركو مكّة، يُشْعِرُ بأَنَّهُمْ من الذين يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، ومن الذين كانوا يعبُدونها ببعض أنواع العبادة وأشكالها، كالدُّعاء مثلاً.

كان المشركون شديدي الحرص على أن تَلِدَ لهم نساؤهم الذكور، وكانوا يكرهون أن يَلِدْنَ الإناث، فإذا بُشّر أحدهم بالأُنْثَى ظلَّ وجهُهُ مُسْوداً وهُو كظيم، يتوارَى من الْقَوم من سوء ما بُشِّر به، وكان بعضهم يلجأ إلى التَّخَلُّصِ من الأُنْثَى الَّتي وُلِدَت له، بأن يئِدَها حيَّةً في التراب عقب ولادتها، أو حينما تقترِب من سنّ بلوغها.

ومع كراهيتهم للإناث افْتَرَوْا على اللَّهِ خالقهم فقالوا: الملائكة بناتُ الله، فقال اللَّهُ لَهُم مُشَنِّعاً عليهم:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أَتَنْسُبُونَ إلى الله بارئكم افتراءً علَيْهِ ما تكرهونه أنتم لأنْفُسِكُمْ، ولا يَخْفَىٰ ما في اختيار كلمة: «ضِيزَىٰ» في هذا المقام من ملاءَمَةٍ لحالة جَوْرهمُ الذي مسُّوا به ذَات الله عزّ وجلّ

هذه الفرية تشتمل على شنيعتَيْن:

الأولى: نسبةُ الأولاد إلَىٰ الله سبحانه وتعالى عمَّا يصِفُون.

الثانية: تخصيص الله بالذُّرِّيَّةِ من الإناث دون الذكور.

وقد جاء في هذا النّص اختيار البدْءِ بمواجهتهم باستنكار الشنيعة الثانية، لوضوح أمْرها بالنسبة إليهم، نظراً إلى أنّهم يكرهون لأنفسهم المواليد من الإناث، ويحبُّونَ المواليد من الذّكور، ومع هذا فهم ينسبون إلى الله المواليد من الإناث، ولا يجعلون له من الذكور نصيباً.

إنّ هذه القسمة بينهم وبين الله قسمةٌ جائرة مجانية للعدل، حتَّىٰ في مفهوماتهم العوراء الشَّوهاء.

والمعنى: كيف اسْتَقام في عقولكم بحسب مفهوماتكم أن تقولوا: الملائكة بنات الله، افتراءً عليه. مع أنكم تكرهُونَ لأنفسكم البنات؟!!.

أليس هذا أمراً منافياً لمنطق أهل العقل والرَّأي، ومنافياً أيضاً لمفهوماتكم الباطلات التي تستمسكون بها؟!!

وليس الغرض إثبات البنين لله عزّ وجلّ، فقد تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، إنَّما الغَرض بيان سقوط الفكر الوثني، من أوّل خطوات مناظرة الوثنيّين.

وقد جاءت معالجتهم حول قضيّتي اتّخاذهم معبودات من دون الله، وادّعائهم أنّ الملائكة بناتُ الله، في قول اللّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

- قول الله تعالى:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ. . .﴾.

﴿إن﴾ حرف نفي مثل «ما» النافية.

﴿هي﴾ ضَمِيرٌ يَعُودُ على مَعْبُوداتِهِمْ: «اللَّات، والْعُزَّىٰ، ومَناة» ويُلْحَقُ بها سائر ما يُعْبَدُ مِنْ دون اللَّهِ من جامدات، وأشجار، وأحياء، حتَّىٰ الملائكة التي يعْبُدُهُمْ عابدوهم من دون الله.

أيْ: ما هي إلاَّ أسْمَاءٌ لما لَيْسَ لَهُ إلهيَّةٌ في الحقيقَةِ والواقع، ولما لا يستَحِقُّ أن يُعْبَدَ من دُونِ الله، بأيّ شكْلٍ من أشكالِ العبادات، وفي أيّ حالٍ من الأحوال، إذْ ليس لَهُ رُبوبيَّةٌ ولاَ مشارَكَةٌ في أيّ من أَجْزاء الرُّبُوبيَّة، فالرُّبُوبيَّة خاصَّةٌ بالله وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ في الوجود كلّه.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا أنَّ شركاءهم لا تزيدُ على أنَّها أسْماءٌ سَمَّوْها مِن عند أنفسهم، واختلَقُوا لها من صفاتِ الإلهيَّةِ ما زَيَّنَ لهم عبادَتَها، مع أنَّها في الحقيقة لا تَمْلِكُ لهم ولا لأنفسها جَلْبَ نفع ولا دفع ضُرّ.

وفي التعبير عن فقدِهَا لكُلّ الصّفاتِ الّتي تُوهِمُ أنَّ لَهَا أيَّ تأْثِيرٍ، بأنّها أَسْمَاءٌ سَمَّوْها هُمْ وآباؤُهُمْ من رَوْعَةِ الأداء ما لا مَزِيدَ عليه.

فإن ادَّعَوْا أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أمرهم بعبادتها فهُو يقول لَهُمْ:

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

سُلْطَان: المرادُ بالسلطان هنا الحجَّةُ والبرهان، أي: ما أنزل اللَّهُ بالأمْرِ بعبادَتِها أو بالإذْن به أيّ حُجَّةٍ يُحْتَجُّ بها. «مِنْ» حرف جَرّ زيد في اللَّفظ لتأكيد النفي في: ﴿مَّآ أَنزَلَ﴾ وللتنصيص عليه، مع تأكيد الْعُمُومِ

المنفي، الذي يَشْمَلُ كُلَّ شيءٍ يمكن أن يكونَ حُجَّةً يُحْتَجُّ بها.

فما أنزل الله بذلك نصّاً في كتابٍ مُنَزَّلٍ، وإن ادَّعَوْا أنَّ لديْهِم شيئاً من ذلك فليُخْرِجُوهُ وليُقَدِّمُوهُ على مِنَصَّةِ المناظرةِ.

أمّا مَنْطِقُ الْعَقل فيُثْبِتُ أَنَّها لاَ تَمْلِكُ أيَّ مُشاركَةٍ في الإلهيَّة، إذْ هِي لا تَمْلِكُ أيَّ جُزْءٍ من أجزاء الرُّبوبيَّةِ، فالرُّبُوبيَّة كلُّها لله وحْدَهُ لا شريكَ له، ويلْزَمُ عن هذا عقلاً أن تكون الإلهيَّةُ لله وحْدَهُ لاَ شَريك له، فلا تُوجَدُ أيَّةُ ذريعةٍ للمشركين.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿..إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

في هذِه الفقرة كَشْفٌ لانحراف المشركين عن صراط الحَقّ من ثلاثَة وُجوه، وقد كان الخطاب مُوجّهاً لهم قبْلَها، فالْتَفتَ البيان، فجاء الحديث فيها عنهم بضمير الغائبين، إشعاراً بأنَّ المخاطبين بها ينبغي أن يكونوا أَهْل عَقْلٍ ورُشْدٍ ورغبة في الهُدَى، لا أهْلَ هَوىً وغَيٍّ وإيثارٍ للظُّلُمات.

الوجه الأول: أتّباعُهم للظَنّ الضَّعِيف الّذِي يُسمَّىٰ في اصْطِلاح عُلَماء المسلمين «وَهْماً» وهذا الظَّنُّ لا يَصْلُح لإثباتِ أقَلِّ القضايا في القيمة العلميّة، فضلاً عَنْ قضيَّةٍ اعتقاديَّةٍ غيبيّةٍ من قضايا الرُّبوبيّةِ والإلهيَّة.

وباتّباعِهمْ للظَّنّ الضعيف يكُونُون غير مؤهّلين للدُّخولِ في أيّ مجَالٍ من مجالات المعرفة الصحيحة، إنَّما يكونون مُتصفين بالتخلُّفِ العقليّ، والهمجيَّة الفكريَّةِ والعلميَّة.

دلَّ على هذا الوجه، قول الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

الوجه الثاني: اتباعُهُم لأهْواء نُفوسِهم، ولهذا الاتباع ظاهرتان:

الظاهرة الأولى: انتصارُهم التعصُّبِيُّ لآبائهم. إذْ يقولُون: إنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا علَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا علَىٰ آثارِهِمْ مقتَدون.

الظاهرة الثانية: التزامُهُم عبادة آلهتهم الباطلة، لأنَّ عبادتهم لآلِهَتهم لا تكّلفهم تَرْكَ أيِّ شيءٍ من شهواتهم ومعاصيهم، ويزعمون أنَّها قد تجلُبُ لهم نفعاً وتدفَعُ عنهم ضرّاً في أمُور دنياهم، وهذه الأمور لأنفسهم بها هوىً، وقد سبق شرح الهوى.

دَلَّ على هذا الوجه قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

الوجه الثالث: إِعْرَاضُهم عن الْهُدَىٰ الذي جاءهم من ربّهم، وقد بلَّغَهُمْ إيّاه رسُولُهُ المؤيَّد من لَدُنْهُ بالمعجزات الباهرات، وعَدَمُ قبولِهِمْ له، مع كونه مقروناً بالحجج البرهانيّة، والبيانات العلميَّة، والأنباء المؤيَّدة بالآيَاتِ الخارقات للعادات من ربّهم.

وظلُّوا مصرّين على باطِلهم وشرورهم وقبائحهم وفسادهم وإفسادهم.

دلَّ على هذا الوجه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾. أي: فرفضوا الإيمان به، ورفَضُوا اتّباع ما تَضَمَّن من أوامر ونواهيَ ووصايا، فلا عُذْر لهم في الإصرار على باطلهم بعْدَ أن جاءهم من ربّهم الْهُدَىٰ.

سمَّىٰ اللَّهُ مَا أوحىٰ به إلى رسُولِه «الْهُدَىٰ» بالتعريف، أي: الكامل في أنَّه يَهْدِي إلى الحقّ وإِلَىٰ الصراط المستقيم.

الْهُدَىٰ: مصدرٌ معرَّفٌ لفعل «هَدىٰ» يقال لغة: هدَىٰ فلانٌ فلاناً الطريقَ يَهْدِيه هُدَىً، وهَدَاه له، وهَدَاهُ إليه، أي: أرشَدَهُ إليه ودلَّه عليه، وعرَّفَه وبَيَّنه له.

ويُطْلَق مصْدَرُ هَدَىٰ على البيان المشتمل على ما يَهْدي وبهذا يكون القرآنُ هُدىً، والبيانُ النبويُّ هُدىً.

ويُطْلَقُ لفظ «الْهُدَىٰ» على النهار، لأنَّه كاشفٌ للطُّرُقِ والمسالك، وعلى الطَّرِيق، لأنَّ من سلكه بلغ غايتَهُ مَهْدِيّاً، وعلى الْعَمل الّذي يَهْتَدِي من اقتدىٰ به إلى الغاية المطلوبة.

وجاء تأكيد الجملة باللاَّم التي تأتي في جواب القسم، وبحرف «قد» الذي يدلُّ على التحقيق.

● قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥﴾.

لمّا كان المشركون قد جانبوا الحقّ ورفَضُوه، وجاءهم من ربّهم الْهُدَىٰ فلم يتّبِعُوهُ، وآثَرُوا اتّباع أهوائهم، فإنَّهم قد فقَدُوا كلَّ الوسائل والأسباب الصحيحة التي تحقّق لهم سعادتهم الحقيقيَّة في دنياهم وآخِرَتهم، ولم يَبْق لديهم إلاَّ الأماني الّتي يتوهَّمُونَ أَنَّ أسْبَابهم الباطلة التي توحي لهم بها أهواؤُهم وشَيَاطينُ الإنسِ والجنّ تُحقِّقُها لهم.

الأماني: هي الأشياءُ التي يرغب الإنسانُ في تحقيقها، ويحبُّ بُلُوغها والظفر بها، إلاّ أنّها مستحيلة المنال، أو متعذّرة المنال، أو أَمْرُ تحقيقها في مِلْكِ غَيْرِهِ الّذي لا سلطان له عليه بوجْهٍ من الوجوه.

قد يتمنَّى الإنسان أَنْ يكونَ الباطلُ حقّاً لأنّ له فيه هوىً، وأن يكون الحقُّ باطلاً، وقد يتمنَّى الإنسان أَنْ يخْرِق سُنَنَ الله في كونه، ليحقِّقَ ما يهْوَىٰ من الكون، وقَدْ يتمنَّىٰ أن يَدْخُلَ الجنَّة يوم الدِّين، ويَظَلَّ في حياته الدُّنيويَّةِ كافراً بربِّه حتَّىٰ يوافيه أجَلُه.

لكنَّهُ لا يسْتَطِيعُ أَنْ يظْفَرَ بما تمنَّىٰ، إنَّ الإنسان لا يستطيعُ أن يُحَقِّقَ من أَمانيه إلاَّ ما قَضَىٰ اللَّهُ بهِ، ولِلَّهِ في كونه قوانين وسُنَنٌ لا يخْرِقُها إلاَّ هُو إذا كانت من الممكنات، فهو جلَّ جلاَلُه مالك ملكوت السَّماوات والأرض، وله الأمْرُ كلُّه، في الدُّنيا وفي الآخرة.

فعلَىٰ الإنسان أن لا يَطْمَعَ بتحقيق أمانيه خارجاً عن قوانين الله وسُنَنِه الكونيَّة والشّرعيَّة، فالله الخالق الحقّ لا يَتَّبع أهواءَ الناس في تحقيق أمانيهم علَىٰ خلاف مقتضىٰ حكْمَتِه، ولو اتَّبَعَ الحقُّ أهواء ذوي الإرادات الحرَّة لفَسَدَتِ السّمَاوات والأرض ومَنْ فيهن، نظراً إلى تعارض رغباتهم، وتبايُن أهوائهم.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ... ﴿٧١﴾﴾.

فإذا تمنَّىٰ الإنسانُ أن يُحقِّقَ بعبادَتِهِ آلِهةً من دون اللَّهِ، مَطَالِبَهُ من دُنياه أو آخِرَتِه، وقَدْ جعَل الله هٰذِه العبادةَ غيرَ ذاتِ أثرٍ نافع للعابد، بل جَعَلَها ذَاتَ أَثَرٍ ضارٍّ يُفْضِي بِهِ إلى عذابٍ أليم، فقد بَنَىٰ بُنْيانَهُ على شفا جُرُفٍ هارٍ يَنْهارُ بِهِ في نار جهنَّم وبئْسَ المصير.

وإذا تمنَّىٰ الإنْسَانُ أَنْ تَشْفَع له آلِهَتُهُ التي يَعْبُدُها من دون الله، عنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّين، فإنَّها لَنْ تَشْفَعَ له، لأنَّ الله لا يقْبَلَ شفاعَةَ أحَدٍ، إلاَّ مَنْ أذن له ورضي له قولاً.

إنَّ عقائد المشركين حول شركائهم أَمَانيُّ يتمَنَّوْنَها، وأكاذيبُ افْتَرَوْها، وصَدَّقُوا أنفُسَهُمْ فيها، وليس لهذا التمنِّي أيُّ نصِيبٍ من الواقع، وليس من شأن الأمانيّ أن تتحقّق للإنسان بمجرَّدِ أن يتمنّاها، فهو لا يستطيع أن يصْنَع المقادير ويتصرَّف في خَلْقِ الله.

● ﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾: أي: بل هل الإنسان ممكَّنٌ من تحقيق أَمَانيه كما يشاء في الدنيا والآخرة، حتَّى يختار ما يُرِيدُ دون التزام بقواعد الحقّ والعدل والخير، وما شرعه الله لعباده؟!!

والجواب: لا. ليس للإنسان ما تمنَّىٰ، لأنَّ الوجود كُلّه ماضِيَهُ وحاضِرَهُ ومستقبلَه في الدنيا والآخرة مِلْكٌ لِلَّهِ عزّ وجلّ، فقال الله تعالى:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: فلِلَّه مِلْكُ الآخِرة بكلّ ما فيها، ومِلْكُ الحياة الدنيا بكلِّ ما فيها، فلا يستطيع أحدٌ من النّاس أن يحقِّق ما يتمنّى إذا لم يكن مقدَّراً مقضِيّاً بقضاء الله وقَدَرِه إذْ هو مَالِك الآخِرَةِ والأولى.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

أشار الله عزّ وجلّ بقوله في هذا الدرس الثاني من دروس السورة: خطاباً للمشركين: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ إلى بَعْضِ مَفْهُومَاتِ المشركين بشأن الملائكة، أمّا بقيَّةُ مُعْتَقَد أقسامٍ من المشركين بشَأْنهم، فنَفْهَمُهَا من فقرات هذه الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) ومن عناصر معالجتها وإبطالها.

ومفهوماتُ المشركين حول الملائكة تتلَخَّصُ بقضيتَيْن:

القضيَّةُ الأُولَىٰ: اتّخاذُ بعضِ المشركين بعض الملائكة آلِهَةً من دُون الله، فهم يعبُدُونَهُمْ ليكونوا شفعاء لهم عند الله، وهذا يدلُّ على اعتقادهم بأنّ الله أمر بعبادة الملائكة أو أذن بها، وأنّهُ أعطى الملائكة حقَّ الشفاعة لعابديهم.

القضيَّة الثانية: توهُّمُ كثيرٍ من المشركين أنَّ الملائكة بناتُ الله، فهم يجعلون للملائكة من الأسماء والصفات ما تُسَمَّىٰ به الإناثُ وتتصفُ به، ذكر الشوكاني: أنَّ قريشاً وقبائل من العرب كانوا يزعمون أنَّ الملائكة بناتُ الله. **أقول**: ولهذا جاء في القرآن توجيه العناية لمعالجة هذه القضية عند قريش.

وليس للمشركين علمٌ يستندون إليه في تأليهِهِمْ من ألّهوا من الملائكة،

وليس لهم علم يستَنِدُون إلَيْهِ، في جعل الملائكة ذوي أسماء وصفاتٍ خاصَّةٍ بالإناث.

كُلُّ ما يسْتَنِدُونَ إليه ظنونٌ ضعيفةٌ توهميَّة، لا تَمْلِك قيمَةً تَعَادُلِيَّة أو ترجيحيَّة في مقابل أَضْدَادِها بوجه من الوجوه، فضلاً عن أن تملِكَ قيمة إِثباتٍ قطعيّ، حتَّىٰ تكونَ في مستوى العقائد الثابتة.

وفي فقرات هذه الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) معالَجَةٌ إقناعيَّةٌ للمشركين بشأن هاتين القضيتَيْن الباطلتَيْن.

إنَّ هاتين القضِيَّتيْنِ من القضايا الخبريَّة، الَّتي لا تصِحُّ الأخبارُ فيها ما لم تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ وَحْياً عن اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

فإبطالُهُما إنَّما يكُونُ بأنْ يُخْبِرَ اللَّهُ بوحْيٍ من لَدُنْهُ بأنَّهما باطِلَتَان، وبأنَّ الواقع على خلافهما.

وهذا ما اشتمل عليه البيانُ القرآنيُّ في فقرات هٰذِهِ الآيات.

فقول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: ليس للإنسان ما تمَنَّى، ولا تنفَعُهُ شفاعَةُ ملائكَةٍ يَعْبُدُهم من دون اللَّهِ، لأنَّ شفاعتهم ـ لو شفَعوا ـ لا تنفَعُ شيْئاً إلاَّ من بَعْدِ أَنْ يأذَنَ الله لهم بأنْ يشفَعُوا، ويَرْضَىٰ أقوالهم في الشفاعَةِ الَّتِي يقولُونها، والله لا يأذن لهم بأنْ بشفعوا لمَنْ أشْركَ به، لأنَّهُ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به، ويغفر ما دُون ذلك لمن يشاء.

﴿وَكَم﴾ الواو حرف عطف هذه الجملة على المفهوم من جملة: ﴿أَمۡ

لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ليس للإنسان ما تمنَّىٰ ولا تنفعه شفاعة آلهة من دون الله.

«كَمْ» خبَرِيَّةٌ، ومعناها: عَدَدٌ كثير، وهي مُبْهمَةٌ تُمَيَّزُ بالمجرور بعدها.

والمعنى: عَدَدٌ كثير من الملائكة في السَّماوات لا تَسْتَطيعونَ إحصاءَهم، لا تغني شفاعَتُهُمْ شيئاً: أي: لا تكفِي شفاعَتُهُمْ أحداً شيئاً من حاجاته الّتي يَرْجُوها من شفاعتهم، إن شفعوا له عند ربّه.

ولحصول النَّفْع من شَفَاعَةِ الشافعين للمشفوع لهم عند الله عزّ وجلّ شرْطان:

الشرط الأول: أَنْ يأْذَنَ اللّهُ للشافع بأَنْ يَشْفَعَ للمشفُوع له.

الشرط الثاني: أن يَرْضَىٰ اللّهُ عزَّ وجلَّ القول الّذي يقولُهُ الشَّافع في شفاعتِهِ، ولو كان مَلكاً، أو نبيّاً رسُولاً.

دلَّ على هٰذين الشرطين الاستثناء في قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾.

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) التصريح ببيان المراد بقوله تعالى: [وَيَرْضَى] فقالَ فيها:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

وأبانت النصوص القرآنيّة أنَّ الكافرين ولو من أدنى مستويات الكفر، لا تُقْبَلُ فيهم شفاعة الشافعين، لأنَّ كلمة الله بعذابهم لا نقض لها، ولا استئناف فيها.

وقول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ

عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾.

تضمَّنت هاتان الآيتان معالجة القضيَّة الثانية، وهي تَوَهُّمُ معظم المشركين أنَّ الملائكة بناتُ الله، فَهُمْ يَجْعَلُونَ للملائِكَةِ من الأسماء والصّفاتِ ما تُسَمَّىٰ بِهِ الإناثُ وتتصِفُ به.

وقد ذكر الله المشركين هنا وهُمُ الَّذِين يتعلَّقُ بهم البيان، بوصْفٍ بارِزٍ فيهم، وهو أَنَّهُمْ لاَ يُؤمنون بالآخرة، أحَدِ أركان الإيمانِ الكبرىٰ بعد الإيمان باللَّهِ عزَّ وجلَّ وتَوْحِيدِهِ في رُبُوبيَّتِهِ وإلهيَّتِهِ.

أي: وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة يتجرّؤون على دين اللَّهِ، فيفْتَرُون من عند أنفسهم مَقُولاَتٍ باطلات، ومنها هذه المقولة.

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾: أي: يَصِفُونَ الملائكة بأَنَّهُمْ إناث رجْماً بالغيب.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾: أي: والحال ما لهم بهذا الوصف الذي وصفوا به الملائكة أيُّ علم مهما كان ضعيفاً، وجيءَ في العبارة بلفظ «مِنْ» لتأكيد العموم والتنصيص عليه، وتُسمَّىٰ عند النحاة زائدةً لتحقيق هذا الغرض.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: أي: ما يتَّبعُون في هذا إلاَّ الظَّنَّ التوهمِّي الباطل.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾: أي: وإنَّ الظنَّ التَّوهميَّ الذِي اعْتَمَدُوا عليه لا يكفي شيئاً حالة كون هذا الشيء من الحقّ.

لا يغني: أي: لا يكفي في تقديم حجّة صحيحة.

من الحقّ: صفة مقدمة على موصوفها [شَيْئاً] فصارت حالاً.

* * *

(٨)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة

الآيات من (٢٩ ـ ٣٢)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

القراءات

- قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ بالجمع، ومفرده كبيرة.

وقرأ حمزة، والكسائي وخلف: [كبير الإثم] أي: الإثْمَ الكَبير، بإضافة الصفة إلى الموصوف. والإثْمُ الكبيرُ جنسٌ يُدُلُّ على كلِّ كبائرِ الإثم، فالقراءتان أُسْلُوبانِ من أساليب البيان، والمراد بهما واحد.

- قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بضمّ الهمزة وفتح الميم المشدّدة.

وقرأ حَمْزَةُ في الوصل: [بُطُونِ إِمِّهاتكم] بكسر الهمزة وكسْرِ الميم المشدّدة.

وقرأ الكسائي في الوصل: [بطونِ إِمَّهاتكم] بكسر الهمزة وفتح الميم المشدّدة.

وهي لهجات عربيّة.

- قولُ الله عزّ وجلّ

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ . . .﴾.

الخطاب هنا موجّه للرسول محمّد ﷺ ثم لكل داعٍ إلى الله من أمّته على سبيل الخطاب الإفرادي.

﴿فَأَعْرِضْ﴾: الإعراضُ حالةٌ وسُطىٰ بين الإقبالِ والإدبار، وأصل الإعراض إعطاءُ الجانب، وعارضا الإنسان صفحتا خدَّيه.

﴿تَوَلَّىٰ﴾: يأتي بمعنى «أدْبَر» وبمعْنَى «نَأَىٰ» والمعنى الأوّل هو الملائم هنا.

والله عزّ وجلّ يُوصي رسولَه وكلَّ داعٍ إلى الله من أمّته على سبيل الخطاب الإفرادي، بأنْ يقْتَصِرَ علَىٰ الإعْرَاضِ عَمَّنْ أدْبَرَ عَنْ ذِكْرِ الله، أي: أدْبَرَ عن الاستجابة لدعوة الدّاعي إلى الله، ولدعوة كتابه المنزَّلِ الذي هو ذِكْرُ اللَّهِ الشامل لكلّ مسائل الدِّين وقضاياه الكبرىٰ.

وهذا أحد مناهج الدعوة إلى الله، فالمطلوبُ من الداعي أن لا يقابل المدعوَّ بِمثْلِ عَمَله إذا أدْبَر، بل يقتصر على مُجَرَّدِ الإعْرَاض إذَا هو أدْبر، ويُفْهَمُ من هذا أنَّ المدعوَّ إذا أعْرَضَ فإنَّ الدَّاعِيَ لا يُعْرِض عنه، بل يَعْمَلُ على دعوته بالمواجهة أو بنصف المواجهة.

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: ولم يُؤْمن بالآخِرَة ومَا فيها من جزاء بالثواب أو بالعقاب، وبسبب ذلك لم يُرِدْ إلاَّ مَتاعَ الحياة الدُّنيا ولذَّاتِها وزيناتِها، فهو يَكْدَحُ لتحقيق مراداتِه منها، غير عابئٍ بدعوة الداعي، ولا بما في القرآن من ذكْرٍ ربَّانيّ.

والمرادُ باسم الموصول في عبارة: [عمّن تولّى] كُلُّ مَنْ يتولَّىٰ عن ذِكْرِ الله والتذكير به، ولهذا جاء ذكرهم بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ فأبان عزّ وجلّ أنّ سببَ عَدَمِ إرادتهم إلاَّ متاعَ الحياة

الدنيا، أنّ مَبْلغَهم من العلم مُنحَصِرٌ في حُدُود دائرة الحياة الدنيا، فهم يتعلَّقُونَ بها فقط، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾: أي: ذلك الّذي لم يُريدوا غَيْرَهُ هو الغاية الّتي بلَغَ علْمُهُم إليها، إذْ رفَضُوا الإيمان بيَوم الدّين وكذَّبوا بالأخبار الرَّبَّانيَّة المنزَّلَةِ على رَسُولِهِ مُحمّد وعلى سائِرِ رسُلهِ من قبله، التي تتضمّن نبأ البعث إلى الحياة بعد الموت، ونبأ يوم الدين، وأنباء الدار الآخرة وما فيها من نعيم خالد في جنّاتِ النعيم، وما فيها من عذاب أليم في دار العذاب، النّار المعدَّة للمجرمين والعصاة، فاقتصر عِلْمُهم عند حدود الحياة الدُّنيا.

مَبْلَغُ العِلْم: هو الغايَةُ الّتي يَصِلُ إليها العِلْمُ: يُقَال لغة: بلَغَ الأَمْرُ، إذا وَصَلَ إلىٰ غَايَتِه، ومَبْلَغُ الشيءِ هو الغاية الّتِي يتوقَّفُ الشَّيْءُ عِنْدَها.

خلاصة هذا التعليم من عناصر منهاج الدعوة إلى الله

يُبَيّن اللَّهُ عزّ وجلّ لرسوله ولكل داعٍ إلى الله من أُمّته في هذا التعليم، أنَّ من لَم تُؤَثِّرْ فيه من المدعُوّينَ أفْراداً أو جماعَاتٍ كُلُّ الْحُجَج والبيّنَاتِ والمناظرات وأساليب الإقناع والتربيَةِ، مع تنويع الأساليب الفكريَّة والنَّفسيَّةِ المختلفة، وتَصْريفِ الأدلَّة والحجج والبراهين، وتبيَّنَ أنَّه مع كلِّ مراحل المعالجات السّالفاتِ لَمْ يُرِدْ إلاَّ الحيَاةَ الدُّنيا ومَتاعَها، إذْ لَمْ يُؤْمِن بالآخرة وما فيها، فلَمْ يَعْبأْ بالترغيبات والترهيبات الأُخْرَويَّة، وأصَرَّ علَىٰ مَوْقفه العناديّ، فالحِكْمَةُ تَقْتضي الإعراض عَنْهُ، وتوصيل البيانات الرَّبّانيّة له دون مواجهة، توفيراً للوقْتِ والْجَهد، مع شَغْلهما بمن لَمْ يَصِلْ بَعْدُ إلى هذا المستوىٰ من الإصرار العنادي المكذِّب بالآخرة، دون اهتمام إلاَّ بمتاع الحياة الدنيا.

وقد وضع النصّ القرآنيُّ لهذا الإعراض قَيْداً، وهو أن يتأكّد الداعي أنَّ المتولّيَ الْمُدْبِرَ لم يُرِدْ إلاَّ الحياة الدنيا، ويظهر ذلك إذَا حصلَتْ معالجتُه

عدّة مرّاتٍ في أوقاتٍ مختلفات، فتبيَّنَ من خلالها أنّه لم يُرِدْ في كلّ مُعَالجاتِه إلاَّ الحياة الدّنيا، إذْ هو كافر بالآخرة وما فيها، فاقتصر عِلْمه على ظاهِرِ من الحياة الدنيا، ولهذا وصف اللَّهُ عزّ وجلّ الكافرين بقوله في سورة (الرّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿. . . يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾.

بعد أن أَمَرَ الله رسولَهُ وكلَّ داعٍ إلى الله من أمّته بأسلوب الخطاب الإفراديّ، بأن يُعْرِضَ عمَّنْ تولَّىٰ عن ذِكْرِ رَبّه، ولم يُرِدْ إلاَّ الحياة الدنيا، أبان جَلَّ جلالُه أنّه أعْلَمُ بمَنْ ضلَّ عن سبيله، وأعْلَمُ بمن اهتدى، أي: وبما أنّه أعلَمُ بحقيقة من ضلَّ عن سبيله ضلالاً ميؤُوساً في الغالب من إنقاذ صاحبه منه، إذْ هو مبْنِيٌّ على إرادة جازمة منه، سببها أنّه لا يريد إلاَّ الحياة الدّنيا، فهي غاية ما بلغ إليه عِلْمُه، إذَنْ فتَوْجِيهُ الله عزَّ وجلَّ الدّاعِيَ للإعراض عن المتولّي عن ذكر ربّه هو الأمْرُ الحكيم، إذْ هُوَ الموافق لمقتضىٰ علم الله بالناس وبنفوسهم، وبأسباب الضلالة وأسباب الهداية ومسَبَّبَاتِهما في نفوس الناس.

وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ الغاية من رحلة الحياة الدّنيا، وهيَ الابتلاء الذي يعْقُبُه الجزاء يوم الدّين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾

أي: إنَّ الغايةَ من خلق النظام الكوني كلّه، بسماواته وأرضه وما

فيهما، والخاضع لسلطان مِلْكِهِ وَمُلْكِهِ، ابتلاءُ الأحياء المهيَّأةِ للابتلاء والتكليفُ في ظروف الحياة الدنيا، لتحقيق الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء يوم الدّين.

فجاء في هذه الآية إيجاز كلّ ذلك ببيان ملكيَّة اللَّهِ لكلّ شيء، وبيان غاية الجزاء، مع طيّ كلّ ما سَوى ذلك إعتماداً على أنّ المتدبّر يَسْتخرج المطويّات بالتفكّر، وبمتابعة اللّوازم الفكرية.

وقد دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ علَىٰ أَنَّ المسيئين في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا يَجْزِيهم اللَّهُ مَالِكُ ما في السَّمَاوَاتِ والأَرْض بمقدار إساءاتهم، أمَّا الْمُحْسِنُون فيجزيهم اللَّهُ على إحسانهم بالمثوبة الحسنىٰ، وهي الجنَّةُ، أو الأنواعُ الْحُسْنَىٰ في الجنَّة.

الْحُسْنَىٰ: مؤنَّثُ «الأحسن» أي: الأفضَل في الْحُسْن.

ومعلوم من نصوص قرآنيّة كثيرة أنَّ الجزاء الأمثل يكون يومَ الدّين، بعد البعث من الموت للحياة الأُخْرَىٰ.

وظاهر أنّ ذِكْرَ الجزاء الأُخْرَويّ في هذا النّصّ يدُلُّ على أن مرحلة الحياة الدنيا مرحلة ابتلاء، لأنَّ الجزاء إنّما يكون بعد الابتلاء، وهذا من الإيجاز القرآني البديع.

ومن الإيجاز البديع فيه أيضاً ذِكْرُ المسيئين، وهُمْ يَشْمَلُونَ عُصَاةَ المؤمنين، ويَشْمَلُون الكافرين حتَّىٰ أَخسّ دَرَكاتهم، وذِكْرُ المحسنين، وهُم أهْلُ المرتبة العليا من مراتب المؤمنين، وهي مرتبة الإحسان.

أمَّا المتقون والأبرار. أي: أهل مرتبة التقوى، وأهْلُ مرتبة البرّ، فَيُفْهَمُ باللُّزُوم الفِكْريّ أَنَّ اللَّهَ يجزيهم بفضله الجزاءَ الأوفَىٰ، على تفاضُلٍ بينهم بحَسَبِ دَرَجَاتهم في مرتبتي التقوىٰ والبرّ، والله ذو الفضل العظيم على عباده.

ومعلوم أنّ قانون الجزاء الرّباني يقوم على العدل في السيئات فلا

يجازي الله على السيئة إلاَّ بمثلها، وعلى الفضل في الحسنات، فيضاعف الله الثواب بفضله الحسنة بعشر أمثالها، ثم إلى ما يشاء من أضعاف.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

هذه الآية مدنية التنزيل اقتضت الحكمة تأخير تنزيلها إلى العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول ﷺ: مراعاة للتّدرّج في بيان الأحكام.

وضُمّتْ إلىٰ سورة هي من الرّبع الأوّل من التنزيل المكّي مراعاةً لما تقتضيه المناسبة الفكريّة.

وفي هذا الإجراء الحكيم مُراعاةُ الاقتضاءَيْن معاً.

بعد قَوْله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾﴾ يَقعُ في ذهن المتلقّي المتدبّر لكتاب الله سُؤال، وهو يحرص على أنْ يَتَلَقّىٰ الجواب عليه، وقد جاء في الآية (٣٢) التي تأخّر إنزالها إلى العهد المدني الإجابَةُ المطلوبة عليه.

فالّذين أحْسَنُوا في الحياة الدُّنيا في أعمالهم الظاهرة والباطنة، ويَنالُون في الآخرة المثوبة الْحُسْنَى جزاءً لَهُمْ بفَضْلِ الله وجُوده، هم الذين يجتنبون على الدّوام كبَائِر الإِثْم، ويجتنبُونَ على الدَّوام الفواحش، باستثناء اللَّمَم من المعاصي والذنوب.

الإثم: هو في اللّغة الذنب، وهو في القرآن مستعمل للدّلالة على جميع المعاصي التي نهىٰ الله عنها، كبيرها ومتوسطها وصغيرها، ظاهرها وباطنها.

لكن لا يشترط لبلوغ مرتبة الإحسان من درجاتها الدنيا اجتناب كلّ مُفْردات الإثم، بل يكفي اجتنابِ كبائرها، ويغفر الله ما دون ذلك لمن يشاء بفضله ومَنّه وكرمه.

كَبَائِر: جمع كبيرة، والآثام التي هي كبائر ما جاء ترتيب وعِيدٍ عظيمٍ على ارتكابها، وَوُصِفَتْ بأنّها موبقات، أي: مُهْلكات.

يَجْتَنِبُون: اجتِنابُ الشَّيْء هو الابتعادُ عن حُدُودِه، وعدَمُ الاقتراب منها، ولَيْسَ مُجَرَّدَ عدم الوقوعِ فيه.

الفواحِشَ: جمع «الفاحشة» وهي في اللُّغة كلُّ قبيح تجاوز حدّ ما يُحْتَمَلُ ويُغْضَىٰ عنه عادةً من قول أو فعل. وكلُّ خَصْلَةٍ قبيحة.

والفواحش في الاستعمالات القرآنية تدور في معظمها حول الكبائر المتعلّقة بشهوات الفروج، فتخصيص الفواحش بهذا الإطار اصطلاح قرآنيٌّ.

إلاَّ اللَّمَم: يُقَالُ لُغَةً: آلَمَّ بالْقَوْم، أي: أتاهم ونزل بهم وزارهم زيارَةً غير طويلة. وألَمَّ بالطَّعَام، أي: أكل منه دون إسراف، وألَمَّ بالشيء إذا قارَبَهُ.

فالمادّةُ تدور حَوْلَ مُقَاربة الشيء وحَوْل الوقوعِ به دون إسراف وتكرار ومتابعة.

وجاء عند المفسرين أَقْوالٌ في تفسير اللّمم، فقيل: هو ارتكابُ الصغائر من الذنوب. وقيل: هو الوقوع في الكبائر مع الاستغفار السرّيع ودون إصرار ومُتَابعة. وقيل: هو الإِلْمام بالمعاصي ومقاربَتُها دون الوقوع فيها.

أقول: لا مانع من حمل اللَّمم على كُلِّ ذلك، فالله يَغْفِره بواسع رحمته ومغفرته، ولا يَخْرج به المؤمن المسلم من فئة الّذِين أحسنوا، ووَصَلُوا إلى مرتبة الإحسان، ويَدُلُّ على هذا ما جاءَ في صفات

عباد الرَّحْمن في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وهم مُرَشَّحُون لإمامة المتقين، فهم أبرارٌ أو محسنون، فقد جاء في صفاتهم احتمال وقوع الواحد منهم ببعض كبائر الإثم الكبرىٰ كالقتل والزنا، وجاءَ وعيدُهُ بمضاعَفَة العذاب، وقال الله بعْدَ ذَلك:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

ودلَّ على احتمال وقوع الّذين أحْسَنُوا بِكَبَائِرِ الإثْم إلْمَاماً بها دون إصرار ومُتَابَعةٍ، قول الله عزَّ وجلّ بعد استثناء اللّمم:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾:

فالمغفرة الواسعة هي الّتي تَتَّسِعُ لغُفْرَانِ كبائِرِ الإثْم.

وَجاء تعْلِيلُ مَغْفِرَةِ الرَّبُ الحكيم جلَّ جلاله، لِبَعْضِ كبائر الإثم التي قد يَقَع بها المحسنون بقوله تعالى في الآية:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ﴾.

ففي هذا إشارةٌ إلى ضعْف الإنسان في أَصْلِ تكوينه، إذْ قد تَغْلِبُه أهواؤه وشهَواتُهُ أحْيَاناً، مَهْما كانَ مِنَ المحسنين، فيضْعُفُ عن الْتِزَامِ الطاعة في كُلِّ أحواله، وعن ضَبْط نفسه على الاستقامة طَوالَ حياته، فَقَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ ضعيفاً تُجاهَ أهوائه وشهواته، باستثناء من عَصَمَهُمُ اللَّهُ بعصْمَةٍ منه جلَّتْ حكمته.

ألم يَعْصِ الإنسان الأوّل من قَبْلُ، بَعْدَ أن طلب الله من الملائكة أن يسْجُدوا احتراماً لما آتاه من علْمٍ وصفاتٍ مؤهّلَةٍ لاكتِسَابِ المعارف.

لقد قابل الله جلّتْ حكمتُه هذا الضَّعْفَ الفطريَّ في الإنسان، بواسع مغفرته لمن استغفر وتاب، ولِمَنِ اجتنبَ كبائر الإثْم والفواحشَ إلاَّ اللَّمم،

ولم يُخْرِجْهُ بذلك من زُمْرَةِ الَّذِين أحْسَنُوا في الْحيَاة الدُّنيا.

● روى الإمام أحمد والتّرمذيُّ والبيهقيُّ والحاكم، عن أنس رضي اللَّهُ عنه، أنَّ رسُول الله ﷺ قال:

«كُلُّ بَنِي آدَمَ خطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخطَّائينَ التَّوَابُونَ». [حديث حسن].

● وروى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ كتَبَ على ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَ اللِّسَانِ المنطِقُ، والنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وَتَشْتَهِي، والْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ».

ولمَّا كان الإنسان عرضةً للأخطاء، والوقوع في العصيان، ولو كان من الأبرار والمحسنين، قال الله عزَّ وجلَّ في آخر الآية:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: فلا تَدَّعُوا لأنفسكُمْ الطهارة من المعاصِي والآثام والذُّنُوب، فإنكم خطَّاءُون، واللَّهُ أعْلَمُ بمن اتَّقَىٰ، فَلَمْ يَرْتَكِبْ ما نَهَىٰ الله عنه، ولم يتْرُكُ ما أمَرَ اللَّهُ به، ورحمة الله ومغفرته هي التي تَشْملكم فيغْفِرُ لكم، وقد يعفو عنكم بتعفِيَة الأثر.

(٩)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس السُّورة

الآيات من (٣٣ ـ ٥٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ

يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦)
وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩)
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ
وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾.

القراءات

- قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾.

وقرأ هِشَامٌ: [إِبْرَاهَامَ].

وهُمَا نُطْقَان لاسم سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويأتي اسمه أحياناً عند أهل الكتاب «أَبْرَام» وهو وجْهٌ أيضاً لنطق اسمه.

- وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.

وقرأ ابن كثير، وأبو عَمْرٍو: [النَّشَآءَةَ].

النشْأَةُ والنَّشَاءَةُ مصدران لفعل «نشأ» ومن مصادره أيضاً النَّشْؤُ والنُّشُوءُ.

- وقرأ جمهور القرّاء العشرة: [وثموداً] بالتَّنوِين على أن اللفظ مصروف.

وقرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [وَثَمُود] بغير تنوينٍ على أنه ممنوع من الصرف.

والصَّرْفُ والمنع من الصرف وجهان جائزان لأسماء القبائل العربية، فإذا لوحظ في اللفظ اسم الجدّ صُرِف، وإذا لوحظ فيه أنه علَمٌ على القبيلة مُنع من الصرف فلم ينوّن للعلميّة والتأنيث اللفظي.

تمهيد.

في هذا الدرس بيانُ بُطْلانِ تَوَهُّمٍ مِنْ تَوَهُّمَاتِ المشركين حول قانون الجزاء الرَّبَّاني.

وجاء في أسْباب النُّزول ما رواه الطبريُّ بسَنَدِه عن ابْنِ زيد، أنَّ رَجُلاً من المشركين أسْلَمَ، فَلَقِيَهُ بعض مَنْ يُعَيِّرُهُ، فقال له:

أتَرَكْتَ دينَ الأشْيَاخ وضَلَّلْتَهُمْ، وزَعمتَ أنَّهُمْ في النار؟! كَان ينبغي لَكَ أَنْ تَنْصُرَهُمْ، فَكَيْفَ تَفْعَلُ بآبَائِكَ؟!.

فقال: إنّي خشِيتُ عَذَابَ الله.

قال له: أعْطِنِي شيئاً وأنَا أَحْمِلُ كُلَّ عَذَابٍ كان عليك عنك.

فَأَعطاه شيئاً.

فقال له: زدْني.

فتعاسَرَ، حتَّى أعطاه شيئاً آخر، وكتَبَ له الرجلُ كتاباً وأشْهَدَ له.

فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ على رسوله في سورة (النجم) قوله:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾؟!

أي: أَنَظَرْت فرأيْتَ هذا الّذي تولّىٰ مبتعداً مُدْبراً مُرْتدّاً عن الإسلام، بعد أنْ أقبل قليلاً فأسلم، خوفاً من عذاب اللّهِ يوْمَ الدّين.

وسبَبُ تَوَلّيه توهُّمُهُ أنّه يستطيع أن يَشْتَرِيَ بمَالِه من يتعهَّد له بأن يَتحمَّل العذاب بَدَله عند ربّه يوم الدّين.

فوصفه الله في السورة بأنَّه تولَّىٰ مُدْبراً، مع أنّه قد خاف من عذاب الله يوم الدين، والمفروض فيمن خاف خوفاً صحيحاً أن يكون مرجوَّ الاستجابة للإسلام، وأنْ لا يَصِلَ إلى دركة التَّولّي الكامل، لقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾

لكِنْ أثَّرَ علَيْهِ تَوَهُّمُ نَفعِ شِراء مَن يتعهَّدُ له بأنْ يتحمَّل العذاب بدَلَهُ، فصَرَفَ الخوفَ من عذابِ اللَّهِ عن قلبه، وقد كانَ ممَّن يُؤْثِرون الحياة الدنيا، والانطلاق فيها دُونَ ضابطٍ من الدِّين، فوجد لنفسه مخرجاً من مشاعر الخوف، فكانَ لا بُدَّ من إقناعِه وإقناعِ نُظَرائِه بإسْهاب، وهو ما جاء في هذا الدرس الرابع من دروس السورة.

● ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾.

استفهامٌ تعجبيٌ مِنْ أمْرِ هذا الّذي تَوَلَّىٰ، فأدبَرَ ولم يُتَابعْ مَسِيرَتَهُ في الإسْلام، لمَّا خدَعَهُ شيطانٌ من شياطين المشركينَ إذْ تعهَّدَ لَهُ بأنْ يَتَحَمَّلَ عَنْهُ الْعَذَابَ عِنْدَ رَبِّه، مُقَابل مالٍ يدفَعُه إليه.

فأعْطَىٰ منْ ماله قليلاً كما جاء في قصَّتِهِ الواردة في سبب النزول، وتوقَّف عن أن يزيد في العطاء لمن تعَهَّدَ لَه، وفي هذا بيان لما في نفسه من شحٍّ، وليس المرادُ ذمَّه إذْ لم يَبْذُل كثيراً، فقضيَّتُه كُلُّها مرفوضةٌ أصْلاً وفرعاً، لأنَّها مبنيَّةٌ على تَوَهُّم باطل.

وفي عبارة: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ استعارةٌ قائمة على تشبيه من يُعْطِي قليلاً ويتَوَقَّفُ بعد ذلك بَاخِلاً شحيحاً، بالذي يحفر في الأرض ليستخرج ماء فيَجدُ قليلاً من الماء، وبعد ذلك تَظْهَرُ له كُدْيَة في الأرض وهي من الصُّخور الشديدة العظيمة التي لا ترشح بماء، أو الأرض الغليظة الجافّة التي لا مطمع في حَفْرِها واستخراج الماء منها، فيتوقف عن متابعة الحفر.

وقد كان الرَّجُلُ من العرب إذا عَمِل في حفْر بئرٍ طمعاً في الوصول إلَىٰ الماء، ربّما وجَدَ بعض ماءٍ نَزٍّ من السَّطح من بقايا الأمطار القريبة، فإذا ظَهَرَتْ لَهُ وهو يَحْفِرُ كُدْيَةٌ عظيمة لم يستطع حفرها ولا اقتلاعها، قالوا: أَكْدَىٰ، أي: وجَدَ كُدْيَةً، أو ظَهَرَتْ له في بئره كُدْيَة، فيتوقف عن متابعة الحفرِ.

وعلى سبيل المجاز بالاستعارة استخدم القرآن فعل «أكدى» للدلالة على شحّ نفس الرجل، إذْ هي كالصفاة الّتي لا تَنِزُّ بماء، وكان هذا القدر كافياً في التعريف بالرَّجُل ضمن بيئته أيّام نُزُول النّصّ القرآني، وكافياً في الدلالة على أنه من الّذين لا يُريدُون إلاَّ الحياة الدُّنيا، والانطلاق فيها دون ضابط من الدين.

ونجِدُ في جملة: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ من وراء التعبير عن قصّته مع مَنْ تعهَّد له من المشركين، بأن يتحمَّل عنه العذابَ عند رَبّه مقابل ما يَبْذُلُ له من مال، إلماحاً إلى أنَّه أقبل إلى الإسلام خوفاً من عذاب الله، ثُمَّ أدبر عنه لمّا توهّم أنّه قد دَرَأَ عَنْ نفسه عذاب الله.

وقد أوجز الله قصّته إلى أدنى الحدود، لأنَّ الغرض منها بناء الأفكار عليها، دون الاهتمام بكونها مقصودة بالذّات.

وكان من الحكمة الإقناع بما يكفي حول هذا التوهُّم الباطل، فقال اللَّهُ عزّ وجلَّ:

- ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

استفهامٌ تعجيبيٌّ من أمْرِه، إذْ لا يَمْلِكُ أيَّ دَلِيلٍ ولو كان دليلاً ضعيفاً يمكن اتُخاذُه ذريعةً لقبُول ما توَهَّمَه.

أي: أعنْدَه علْمُ الغيب فهو يرىٰ من مشاهد الغيب أو مكتوباته أنَّ الله عزّ وجلّ يقبل أن يتحمَّلَ أحَدٌ العذابَ عن غيره، إذا فَداهُ بنفسه، أو باعَهُ من نفسه أن يتحمَّلَ العذابَ عنه، مقابل مالٍ يأخذُهُ منه في الدنيا.

ويلاحظ أنَّ الحديث عنه قد جاء بأسلوب الحديث عن الغائب، لا بأسْلُوب مواجهته بالخطاب ليعمّ أمثاله.

إنَّ قضاء الله بيْن عباده وقانون عدْلِه وفضلِه من أمْور الغيب، وهي

أمُورٌ لا يُفْتِي فيها إلاّ الله عزّ وجلّ، الذي هو عالم الغيب والشهادة، ومقدِّر أنظمتها والقاضي بها.

ورُبَّما يُراد بالاستفهام مع التعجيب من أمْرِ صاحب القصّةِ وأمثاله، انتزاعُ الاعتراف بأنّ عِلْمَ الغيب ليس عنده، فإذا اعترف بذلك فإنّه يُقالُ له: كيْفَ تقْبَلُ هذا التوهم؟! أو كيف تبني عليه؟!. وكيف تُفَرِّطُ بنفْسِك فتعَرِّضُها لعذاب الله؟!. وكيف تبْذُل في ذلك مالاً لمَنْ لا يستطيعُ أن يكون ضامناً ولا يستطيعُ أن يكون بديلاً عنْكَ في تحمُّل العذاب؟!.

وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ أنَّ قانون العدْل الرّبّانيّ المبيَّنَ في صُحف موسى، وفي صحُف إبراهيم، يتضمَّنُ أنَّ كُلَّ إنسانٍ هو المسؤلُ عن عَمَلِهِ واختياراته، في رحلة امتحانه في الحياة الدُّنيا، فَلا يَفْتَدِي أحَدٌ بنَفْسِه أحداً عنْدَ الله، ولا يستطيع أحَدٌ أن يَشْتَرِيَ بمالِهِ في الدنيا من يتعهَّدُ له بأن يتحمَّل عنْه العذابَ يومَ الدِّين.

وهذا القانون الرَّبَّانيُّ لا نَسْخَ له ولا تبديل فيه، فقال اللَّهُ عزَّ وجل:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يُنَبَّأْ﴾: أي: يُخَبَّرْ مِنْ قِبَلِ المخْبِرِينَ العالِمِين بما جاء في كتُبِ الأوَّلين الموجودين في البيئة العربيَّة. **النَّبَأ**: الخبر الظاهر الواضِحُ لكَثْرَةِ تداوُله. أو الخبر الجليل ذو البروز، فأصل معنىٰ الكلمة يدور حوْل البروز والظُّهور، يُقالُ لغة: نَبأَ الشيءُ، أي: ارتفع وظهر. ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾: أي: بما أُنزِلَ على موسَىٰ وَدُوِّنَ في الصُّحُفِ، ومَا أُنزِلَ علَىٰ إبْرَاهيم ودُوِّنَ في الصُّحُفِ، وتداولَتْهُ ألْسِنَةُ المهتمين بالأنباءِ الجليلة من أهل الأنباء من العرب.

فقد كان لبعض قبائل اليهود وعلمائهم وجودٌ في يثربَ وخيبر وتيما من بلاد العرب، وكانت لهم بالعرب صِلَاتٌ وعلاقاتٌ اجتماعيَّةٌ وفكريَّة وأحاديثُ في مسائل الدين، ولا سيما ذاتُ البروز والظهور، ومنها القضايا التي ذكَرَتْها السورة بأنَّها موجودة في صحف موسى.

وكان لدى العرب ميراثٌ دِينِيٌّ توارثُوهُ عن إسماعيل عن إبراهيم عليهما السلام، على الرُّغْم من تَسَلُّل الشركِ إلى عقائدهم، ومِمَّا بقي محفوظاً منه لدى الحنفاء، القضايا التي ذكَرَتْها السُّورة بأنها موجودةٌ في صحف إبراهيم.

وأثنى الله عزّ وجلّ على إبراهيم عليه السلام بأنَّهُ وفّىٰ، في قوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي: الذي وفّىٰ ما كلَّفَهُ اللَّهُ إيّاه، فأدّاهُ أداءً وافياً لم يَنْقُص منه شيئاً، بل أعطىٰ فيه الْعُبُودِيَّةَ الكاملة لربّه، وممَّا وفّاهُ طاعَتُهُ لربّه في أمْر ذبْحه ولَدَهُ إسماعيلَ عليه السلام، وهذه إحدى الكلماتِ التَّكْلِيفيَّة التي وجَّهَهَا الله له، فَوَفَّاها حتَّىٰ لحظة نزولِ فدائِه بِذبْحٍ عظيم، ولم يأت في القرآن بيان تفصيليٌّ عن جميع الكلمات التكليفيَّة الَّتِي ابتلاه اللَّهُ بها، وإنّما جاء بشأنها بيانٌ إجماليٌّ في قول اللَّهِ عزّ وَجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ... ﴿١٢٤﴾﴾.

والاستفهام في: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ...﴾ استفهام فيه معنى الإنكار على هذا الرجل الذي تتحدَّث عنهُ الآيات، إذْ لَمْ يَعْتَنِ بقضايا دينهِ، وهي أهَمُّ القضايا في وجوده، ولم يَعْتَنِ بَتلقِّيها عَنْ أهل الذكْر فيها، الَّذِينَ يتَحَدَّثُونَ بأُمُورِ الدِّين وقانون الجزاء الرَّبَّانيّ.

وفي هذا الاستفهام معنَىٰ الحثّ على التعرُّفِ على أنباء هذه القضايا ممّا أنزل اللَّهُ على موسى، وممّا أنزل على إبراهيم، بسُؤَال أهل الذكر

فيهما، لاكْتِشافِ وحْدَةِ الرسالات الرَّبّانيّة، في أُسُسها وأصولها وقواعدها، وللتعرُّفِ على أنَّ الدّين عند الله الإسلام.

أي: بل ألَمْ يُنَبَّأْ عن طريقِ أهْلِ الأخبار بما في صحف موسى وإبراهيم بشَأنِ هذه القضايا؟! فإنْ لم يأته هذا النّبأ فَلْيَسْأَلْ عنه أهْلَ العِلْمِ بأمور الدّين.

ولم يُرَاعَ الترتيب الزَّمَنِيُّ هنا في ذكْر صحُف موسى وإبراهيم إيثاراً للنسَقِ الجماليّ في الآيتين، ولأنَّ ما في صحف موسى مُدَوَّنٌ عند أهل الكتاب، أمّا ما في صحف إبراهيم فغيرُ مُدَوَّنٍ عند العرب.

فما هي القضايا الّتي نَبَّهَ عليها النَّصُّ ممَّا هو موجودٌ في صحُفِ إبراهيم وموسى؟.

إنَّها قسمان:

القسم الأول: يتعلّق بقانون الجزاء الرَّبّانيّ.

القسم الثاني: يتَعَلَّق بتوحيد الله في ربوبيّتِهِ في تصاريف الكون، وبربوبيته في الجزاء المعجّل للطغاة المجرمين الذين أهلكهم من أهل القرون الأولى، تحذيراً للكافرين المجرمين المعاصرين لنزول القرآن، فمن يأتي بعْدهم مع تذييل تربويٍّ للمجادل المماري بغير حقّ.

فالقضايا التي تتعلَّقُ بالقسم الأوّل هي أبع قضايا:

القضيَّةُ الأولَى: دلَّ عليها قولُ اللّهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾:

تَزِرُ: أي: تحمِلُ حِمْلاً ثقيلاً، وترتكِبُ إثماً، يُقال: وزَرَ يزِرُ وِزْراً ووَزْراً.

وازِرَة: صفة لموصوف محذوف، والتقدير: نفسٌ وازِرة، أي: من شأنها أنْ تَحْمل وِزْراً إذا عصَتْ أوامر ربِّها باختيارها الحرّ.

الوِزْرُ: الحِمْلُ الثقيلُ، والذَّنْبُ.

وِزْرَ أُخْرَى: أي: ذَنْبَ نَفْسٍ وَازِرَةٍ أُخْرَىٰ.

والمعنى: أنَّ من قانون العدل الرَّبَّانيّ، أنَّ كلَّ نفسٍ مكلَّفَةٍ في رحلة امتحانها، ومن شأنها أنْ تحْمِلَ أوزار نفسها، لا تحْمِلُ بطَوْعِها ولاَ تَحْمِلُ وهي مُكْرَهَةٌ وِزْرَ نفسٍ أُخرى بحالٍ من الأحوال.

هذه مادّةٌ لا نسخ لها من موادّ قانون الجزاء الرَّبَّاني.

والجملة بدل من «ما» في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦﴾ و﴿أَلَّا﴾ هي: «أَنْ لا» وأن هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفٌ وجوباً وجملةُ: «لا تَزِرُ...» خبرها.

القضية الثانية: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾:

أي: وأن ليْسَ للإنْسَانِ من حَقٍّ رَتَّبَهُ الله له بفضلِه ابتداءً، فلَهُ الحقُّ بأن يُطَالِبَ بأجْرِه عِنْدَ رَبِّهِ إلاَّ مَا كَسَبَهُ مِنْ حسناتٍ وأعمالٍ صالحاتٍ بسَعْيِهِ، في رِحْلَةِ امتحانه في الحياة الدنيا.

وهذا لا يمنَعُ من أَنْ يَصِلَهُ شيءٌ بفضل الله دون سَعيٍ منْه، وربما كان بسبب دُعَاءِ من يستجيب اللَّهُ دُعاءه له، أو شفاعَةِ مَنْ يَأْذن الله له بالشفاعة، ويرضى له قولاً، أوغير ذلك، لكن لا يكون للإنسان حقُّ المطالبَةِ به عند ربّه يوم الدّين، إنّما يأتيه من فيض فَضل الله عليه.

ويُعْطِي بعض النّاس هذه الآية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ تعميماً ليس مقصوداً فيها، فَيَفْهَمُ منها أنّه لا يَصِلُ إلى الإنسان إلاَّ ثوابُ ما سَعَىٰ، وهذا فَهْمٌ غير صحيح، لأنّ اللام في: ﴿لِلْإِنسَـٰنِ﴾ هي لام الاستحقاق، وليست لام الغاية.

وقد ثبَتَ في السُّنَّةِ الحجُّ عمَّنْ مات ولم يَحُجَّ، والصَّوْمُ عمَّنْ مَاتَ وعليه صوْمُ لَمْ يصُمْه، وغير ذلك من أعمال.

ومَنْعُ وُصُولِ فَضْلِ اللّهِ للإنسان إلاَّ ثوابَ ما سَعَىٰ، هُوَ من الحجْرِ على فَضْلِ اللّهِ، وفَيْضِ جوده العظيم، وتقطيعٌ لما أمَرَ الله به أَنْ يُوصَلَ من وَشَائج الأُخوَّة الإيمانيَّةِ وعَوَاطِفها المتبادلَةِ بين المؤمنين.

ويلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ استعمل مادّة «السّعي» في القرآن لعمل الآخرة، وأمَّا الْعَمل الْمبَاحُ لكْسبِ الرِّزْقِ ومَصَالح الحياة الدنيا فقد استعمل فيه مادَّةَ «المشْي» فقَال تعالى في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

وقال تَعَالَىٰ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

المشي: هو الانتقالُ الهادئ بِرِفْقٍ لِلْكَدْحِ والْعَمل وغير ذلك.

السّعي: هو الانتقال بهمَّةٍ ونشاطٍ وقُوَّةٍ في الكَدْحِ والعمل، والمراد الحالة النفسيَّة، ولو كان المطلوبُ السكينَةَ والرِّفْق. فالسَّعْيُ في اللُّغَة حركتُهُ فَوْق حركة المشي، ودون حركة الْعَدْوِ والرَّكْضِ.

القضيّة الثالثة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: وأنَّ سَعْيَ الإنسان المكلَّف في الحياة الدُّنيا في أعمالٍ صالحةٍ، أو في أعمالٍ سيِّئةٍ سَوْف يُرَىٰ يَوْمَ الدّين، أيْ: يُكْشَفُ لَهُ في كتاب عَمَله حتَّىٰ يراه، وقد يُكْشَفُ لمن يشاءُ الله أن يُطْلِعه علَيْه من خلقه.

سوف: حرف استقبال، وهو مُسْتَعمل في القرآن للمستقبل البعيد.

القضيّة الرابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾:

﴿يُجْزَىٰهُ﴾: أي: يُكافأُ يومُ الدِّين علَىٰ سَعْيِهِ بالعمل الصالح في الحياة الدنيا التي تَمَّ فيها امْتِحانُه، والمعنى: يُجْزَىٰ الإنْسانُ سَعْيَه.

يُقال لغةً: جَزَىٰ فلانٌ فلاناً حقَّهُ، أي: قَضَاهُ إيَّاهُ، وحقُّ السَّاعي في الحياة الدنيا عند رَبِّه يَوْمَ الدِّين، هو ما تفضَّلَ به علَيه من وعْدٍ كريمٍ بالثَّواب الجزيل.

﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾: أي: الجزاءَ الأتَمّ الأكْمَل. دون نقص، مع زيادة، وهو مفعول مطلق لبيان النَّوع.

وجاء استعمال ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ وَهُو أفْعَلُ تفضيل للإشعار بمعنىٰ الزيادة على الوافي، أي: التامّ، وبهذه الزيادة يكون «أوفى» من الحقّ المقرَّرِ لهُ بِوَعْدِ الله الكَريم، وَيَدُلُّ على هذا المعنى قول الله عزَّ وجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ . . . ﴿١٧٣﴾﴾.

وهٰذه الزيادة هي من الترجيح على الحق الذي يُضيفُه البائع أو مؤدّي الحقّ، على مقدار الحقّ.

وجاء استعمال حرف [ثمّ] الذي يدُلُّ على الترتيب مع التراخي الزمنّي، للدلالة على أنَّ تحقيق الجزاء متأخِّرٌ بتراخٍ زَمنيٍّ عن المحاسبة وفصْل القضاء اللَّذَيْنِ يَرَىٰ فيهما الإنْسانُ سَعْيَه.

- **والقضايا** التي تتعلَّقُ بالقِسْمِ الثاني هي تسع قضايا دلَّ عليها قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ

وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ
عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ
(٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾.

فالقضيَّةُ الأُولَىٰ: دَلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾.

الخطابُ في هٰذه الآية مُوجَّهٌ بأسْلُوب الخطاب الإفرادِيّ لكلّ من يَصْلُح للخطاب، ويُدْرِكه ويَفْهَمُه، وَيَقَعُ في المقدمَّةِ الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الابْتِلاء، وفيه التفات من الغيبة إِلَىٰ الخطاب، إيثاراً لما هو أَوقع في نفوس المتلقين:

أي: وأَنَّ مِنَ القضايا المبيّنةِ في صُحُفِ مُوسَىٰ وإبراهيم عَليهما السّلام، أنَّ إِلَىٰ اللّٰهِ الّذي هو ربُّكَ وَربُّ كلّ شيءٍ، يَنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ، فالرُّجُوعُ من الحياة الدنيا بالموت يَنْتَهِي إليه، والعودة إلى الحياة بالبعث للحساب والجزاء تنتهي إليه، وَأَمْرُ الحساب وفصْل القضاء يوم الدين ينتهي إليه، وأمْرُ تنفيذ الجزاء ينتهي إليه، له الخلْقُ وله الأمْر، وكُلُّ الحجج والبراهين الدالَّةِ علَىٰ أوّليَّةِ الوجود تنتهي إليه، فَتُثْبتُ أَنَّه الأزليُّ الّذي وُجِدَتْ بأمْرِه التكوينيّ كُلُّ الكائناتِ من دُونه، إلى غير ذلك من كُلّ ما في الأكْوَانِ كبارها وصِغَارِها، وهي أمور لا يحيط بعلمها إلاّ الله جلَّ جلاله، وَإليه تَنْتَهي أسبابُ تصاريفها برُبُوبيَّتِه العامَّة الشّاملة لكلّ شيءٍ.

وفي هذه العبارة إشارة إلى سلاسل الأسْباب في حركات كلّ شيءٍ في الكون وسكناته، وأنَّها جميعَها تَنْتَهي إلى اللّٰهِ الذي له الخلْقُ والأَمْرُ جلَّ جلاَلُه، وعظُمَ سلطانه، وفيها إشارة إلى أن الغاية هي ابتلاء ذوي الإرادات الحرَّة في ظروف الحياة الدنيا.

﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: مصدر ميمي لفعل «انتهىٰ» ولا مانع من اعتباره أيضاً اسْمَ زَمانٍ أو اسم مَكانٍ، على معنى أنّ أزمَانَ كلِّ ذي زمَنٍ ينْتَهي إلىٰ الله السُّلْطانُ عليها، وكذلِكَ أمكِنَةُ كلِّ ذِي مَكان.

والقضيَّةُ الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾:

نفهم من هذه الآية أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ الّذِي هو رَبُّ كلِّ شيء، هو وحْدَهُ لا شريكَ له الذي خلَقَ الأسبابَ الّتِي تَسُرُّ فَتسْتَدْعِي الضَّحِك، وخَلَقَ مشاعِرَ الفرح والسُّرور، وخَلَقَ ظَوَاهر التعبير عن هذه المشاعر بالضَّحك. وأنَّهُ هو وحْدَهُ لا شريك له الذي خَلَقَ الأَسْبَابَ الّتِي تُؤلِمُ، فتستَدْعي البكاءَ المعبّر عن الألم، وخلَق مشاعر الألم، وخلَقَ التعبير عن هذه المشاعر بالبكاء.

وجاء التأكيد بضمير الفصل [هو] لإفادة القصر.

والقضيَّةُ الثالثة: دلّ عليها قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾:

نفهم من هذه الآية أنَّ الله عزَّ وجلّ هو وحْدَهُ الذي منح الحياة لكلّ ذي حياة، وأنَّه هو وحده الذي خلَقَ الموت، وأذاقه كُلَّ نَفْسٍ ذَاقت الموت، وجاء فيها التأكيد بضمير الفصل [هو] لإفادة القصر.

وجاء في الآية استعمال الفعل الماضي بقوله تعالى: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لحكمَتَيْن:

الحكمة الأولى: توزيع أجزاء الموضوع الواحد على النصوص، فإذا كان هذا النَّصُّ قد عبَّر عن أحوال الماضي، ففي نصوصٍ قرآنية كثيرة جاء فيها التعبير عن أحوال الحال والاستقبال بصيغة الفعل المضارع، ومنها قول الله عزَّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

الحكمة الثانية: الاعتماد على الدَّليل الاستنباطيّ، فما دام النَّصُّ باقي الدَّلاَلَةِ إلى يَوْم الدّين، فكُلُّ مَنْ يحيا وَيموت فالله عزّ وجلّ وحْدَهُ لا شريكَ له هُو الذي أحْيَاهُ، وهو الذي أماته.

وتشير هذه الآية إلى أنَّ الغاية من الإحياء والإماته ثُمَّ الإحياء بالبعث، هي الابتلاء الذي يسْتَتْبعُ الحسَابَ وفصْلَ القضاء وَتَنْفِيذَ الجزاء، وَقد جاء هذا المعنى مُصَرَّحاً به في قول الله عزّ وجَلَّ في سورة (الْمُلْكِ/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ فبعزَّته يجازي بالعقاب، وبمغفرته يستر الذنوب ويجزي بالثواب.

والقضيَّةُ الرابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلُّ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

وَجاء في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) الحديث عن الإنسان بقول الله عزّ وجلّ:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿سُدًى﴾ أي: مُهْملاً غير مكلَّف ولا مسؤول، وغيْرَ مَوْضوع موضع الابتلاء في الحياة الدنيا، وغير مجازىً على أعماله في الحياة الدنيا.

فجاء التصريح في هذا النَّصّ باسم النُّطفةِ، وأنَّها هي مَنِيُّ الرَّجُل.

وجاء في سورة (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول) إشارةٌ إلَىٰ آيَةٍ من آيات الله في خَلْقِ المنيِّ، فقال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للنَّاس:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ونفهم من قول الله عزَّ وَجَلَّ في سورة (النجم): ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ الإشارة إِلَىٰ حِكْمَةِ اللَّهِ العظيمة في خَلْقِ الزَّوْجين، اللَّذَيْنِ انعقدَتْ بانجذاب بعضِهما إلى بعض الروابط الأسريَّة، وكانت بذلك شَبَكة الترابط الاجتماعيّ، وامتدَّتْ من وحدة الأصْل، وتلاقي الأزواج، وتَفَرُّعِ الأنْسَالِ، شجَرَةُ النّسب الإنسانيّة ذاتُ الفروع والأغْصَانِ المتداخلة المتشابكة.

ونفهم منه أيضاً أنّ الذكر والأنْثَىٰ كلَيْهما يخْرُجان من نطفة الرّجل، فلا علاقة لبُيَيْضَة المرأة بتحديد كون الجنين ذكراً أو أنْثَىٰ، وهذه الحقيقة من حقائق التكوين الرّبّاني لم يَعْرِفْها علماءُ الأحياء والأطبّاءُ وعُلَماء الأجنَّةِ إلاَّ مُتَأَخِّراً، فهي من أمثلة الإعجاز العلميّ في القرآن.

ونفهم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي: إذا تُقْذَفُ في الرَّحم، أنَّ الوقْتَ الذي يتمّ عنده توجيه الْحُوَين الذكر، أو الحوَيْن الأنْثَىٰ من النطفة المنويَّة، ليكونَ هُو قرين بُيَيْضَةِ الأنْثَىٰ، ولينْعَقِدَ منهما الجنين هو وقْتُ قَذْفِ النطفة في الرَّحِم، وهذا هو الذي اكْتُشِف بالوسائل العلميَّة التجريبيَّة.

يقال لغَةً: أمْنَىٰ الرَّجُلُ النُّطْفَةَ، أي: أنْزَل المنيَّ. ويقالُ: أمْنَىٰ، إذا أنْزَلَ المنِيَّ. ويقالُ: أمْنَىٰ الدِّماءَ، إذَا أراقها.

والقضيَّة الخامسة: دلّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: وأنَّ الله عزّ وجلّ جعَلَ على نفسه الالتزام بإيجاد أحداث النَّشْأَةِ الأخرى، التي تبدأ بالبعث إلى الحيَاةِ للحسَاب وفَصْل القضاء وتَنْفِيذ الجزاء، كما كان قَضَىٰ وقَدَّر قَبْل إيجاد النشأة الأولى.

إنّ مُنشئ النَّشْأةِ الأُولى للنَّاس والجِنَّةِ للابتلاء في ظُروفِ الحياة

الدنيا، هو وحده الذي سَيُنْشِئُ النَّشأَةَ الأخرىٰ للجزاء.

النَّشْأَةُ: هي الحُدوثُ المصْحوبُ بالتَّكامل المتدرّج غالباً، يقال لغة: نَشأَ الشيءُ نَشئاً وَنُشُوءاً وَنَشأَةً، إذا حَدَث وتجدَّد، ويُقالُ: نشأ الصبيُّ إذا شبَّ ونَما.

والقضية السادسة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾

﴿أَغۡنَىٰ﴾: أي: جَعَل بقَضَائه وقَدَرِه وخَلْقِه الغِنَى لكلّ ذي غنىً.

الغِنَىٰ: كَثْرَةُ المال ووَفْرَتُه.

﴿وَأَقۡنَىٰ﴾: أي: جعَلَ بقضائه وقَدَرِه وخَلْقِه لعباده ما يَقْتَنُونَهُ ممّا يحتَاجون إليه مستقبلاً. يقال لغة: قَنَىٰ فُلانُ الشيءَ يَقْنِيه قَنياً، أي: كَسَبَهُ وجَمَعه وادَّخره لنفسه لا للتجارة. وكذلِك اقْتَناه.

وجاء في هذه الآية التأكيد بضمير الفصل [هو] لإفادة القصر، أي: فلا مُغْنِيَ وَلا مُقْنِيَ إلاَّ الله جلَّ جلالُه.

فدلَّت هذه الآية على أن الله عزّ وجلّ هو وحده الذي أغنى ذوي الحاجات في الوجود، بما هيّأ لهم في الدنيا من وسائل قضاء حاجات حياتهم من رزقٍ وغيره، على مقاديرِ كفاياتهم وأكثر، وزاد على ذلك فجعل لهم من الوسائل ما يمتلكونَه ويدّخرونه ويقْتَنُونه، ومنه ما يكون أصْلُه طَوِيلَ الإقامة عندهم، متجدِّد العطاء والثمَرَة، مُتَنامِيَ الذّاتِ، أو ذا أنْسَالٍ ومواليد، فَهُمْ ينتَفِعُون من مُقْتَنَيَاتِهم مطمئنّين بحسَبِ حاجاتهم، كالأنعام والشَّجَر، وكُلّ ما يقتنىٰ ويُدَّخر.

وقد كان من الممكن عقلاً أن يجعل غناهم دون اقتناء، كما جعل المنَّ لبني إسرائيل، إذْ كانوا يُرْزَقونه يَوْماً فَيَوْماً، ولا يستطيعون ادّخار شيءٍ

منه، لأنَّ مَا يُدَّخَرُ منه للْيَوْم التالي يفسُد، وينتشر فيه الدُّود.

فالله هو وحده في الوجود الذي أغْنَىٰ وأقْنَىٰ، تباركت صفاته، وجلَّت حكمته.

والقضيَّة السابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

الشِّعْرىٰ: اسم نجم من نجوم بُرْجِ الجوزاء، وهو نَجْمٌ شديد الضياء، ويُسمَّىٰ أيضاً عنْد الْعَرَب: «كَلْبَ الْجبَّار» لأنّ العرب يسمّون الجوزاء «الجبَّار» إذْ يتَخيَّلونَ مجموع نجوم الجوزاء في صورة رجل جبَّارٍ واقف بيده عصاً، وعلى وسَطِه سيف، ويتخيَّلون الشِّعْرَى في صورة كلْبٍ يَتْبَع الجبَّارَ الذي هو الجوزاء. وتُسَمَّى «الْمِرْزَم».

والشعرىٰ: أشَدّ نجوم بُرْجِ الجوزاء بياضاً، وتُوصفُ عنْدَ العرب باليمانية، ويسمُّونها الشِعْرىٰ الْعَبُور، تفريقاً بينها وبين: «الشِّعْرَىٰ الْغُمَيْصاء».

ونجم «شِعْرىٰ الْعَبُور» عَبدتْهُ قَبِيلَةُ خُزَاعَة، والّذِي جعلهم يعْبُدُونه رجُلٌ من سادتهم يُكْنَىٰ «أَبَا كَبْشَة» عبدَه ودَعَا قبيلته إلىٰ عبادَته.

وتخصيص نجم «الشِّعْرَىٰ» من دون سائر النجوم، مع أنَّ الله عزّ وجلّ هو رَبُّهَا جميعاً ما عُبِدَ منْها وما لم يُعْبَدْ، للتَّنبِيه على أنّ عبادة بعض العرب للشعرىٰ عبادةٌ باطِلَةٌ، لأنَّ الله رَبُّها، وهي ليس لها من الرُّبوبيَّة شيْءٌ.

ويُقاس على الشِّعْرىٰ سائر النجوم والكواكب، ولا سيما ما عُبِدَ منْها، وقد كان قوم إبراهيم عليه السَّلام يعبُدُون بعض النجوم ويقدِّسونها، ويعتقدون أنَّ لها تأثيراتٍ في أحداث الأرض ومن عليها.

ويظهر أنّ صحف موسى وإبراهيم قد اشتملت على بيان أنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ النجوم والكواكب السَّماويَّةِ كلِّها، ويدخل ضمن هذا العموم «نجم

الشعرىٰ» ولَوْ لم يكن هذا النجم الذي عَبَدَهُ بعض العرب من معبوداتِ قوم إبراهيم عليه السَّلام، فتكونُ آية: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ معطوفَةً على ما اشتملَتْ عليه صُحُفُ موسَىٰ وإبراهيم عليهما السلام، لأنَّ الشِّعْرىٰ داخلةٌ ضمن عموم النجوم.

وضمير الفصل في الآية يُفيد مع التأكيد القصر، والمعنى أنَّه لا ربَّ للشِعْرىٰ إلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له، فما يَنْسُبُه عُبَّادُ هذا النجم له من تصاريف، هو في الحقيقة لله عزّ وجلّ وحده.

والقضية الثامنة: دلّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾

هذه القضيَّة تتضمَّن الموعظة بالترهيب من العقاب المعجّل، للّذِين يُصِرُّونَ على كُفْرِهم وعنادهم وَفسادِهِمْ وإفسادهم، على الرُّغْمِ من وضوح الأدلَّة لهم الكافية لإقناع المهتمّ بمعرفةِ الحقّ والاستمساك به.

والترهيب في هذه القضيَّة قد جاء بتقديم أمثلةٍ تاريخيَّةٍ، من أقوام أهلكهم الله إهلاكاً شاملاً، بسبب كفرهم وطغيانهم.

المثال الأول: إهلاك الله عزّ وجلّ قوْمَ عَادٍ الأولى، وهم قوم النبيّ الرسول هود عليه السلام، وهم قبيلة عرَبيَّةٌ من العرب البائدة، كانت مساكنهم في أرض «الأحقاف» من جنوب شبه الجزيرة العربية، وهي تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الرّبع الخالي، وفي شرقها عُمَان، وموضع بلادهم الآن رمال قاحلة مهجورة.

فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

وصفها الله بالأولى، لأنّ قِسْماً من عادٍ آمنوا برسولهم هودٍ عليه

السلام فأنجاهم الله من الهلاك، ومن ذراريهم «ثمود» قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، فَهُمْ عادٌ الثانية.

المثال الثاني: إهلاك الله عزَّ وجلَّ قوم ثمود، إذ تمرّدُوا على رسولهم صالحِ عليه السَّلام، وأصَرُّوا على كُفْرهم وطغيانهم، وعقروا النَّاقَة الّتي أخرجها اللَّهُ لَهُمْ من صخرة حَسْب طلبهم، واستهانوا بالمعجزة الّتي أقام اللَّهُ لهم بها الدَّلِيلَ على صِدْق رسُولهم.

فقال تعالى: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾. أي: وأَهْلَكَ ثمودَ فما أبقى منهم كافراً.

وكانت مساكنهم في أرْضِ «الحِجْرِ» وهي أرضٌ معروفة بين الشام والحجاز إلى وادي القرىٰ، وتقع في الطريق للمسافرين من الشام إلى الحجاز، وآثارُ مَدَايِن هؤلاء القوم ظاهرة حتَّىٰ الآن، وتُعْرَف باسم «مداين صالح».

وقد سبق التذكير بإهلاك «عادٍ» و«ثمود» في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).

المثال الثالث: إهلاك الله عزّ وجلَّ قَوْمَ نُوحٍ عليه السلام، الذين لبث فيهم نوحٌ يدعوهم إلى الإيمان باللَّهِ وهَجْرِ أوثانهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، فأصَرُّوا على كُفْرِهم وظُلْمِهم وطُغْيانِهم، فأهلكهم اللَّهُ بالطوفان.

فقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ أي: وأنّه أهْلَكَ قومَ نوحٍ من قبلِ إهلاكه عَاداً وثمودَ، إذْ كانت أزمانهم سابقة لأزمان عادٍ وثمود.

ووصف الله قوْمَ نوحٍ بأنَّهُمْ كانوا هم أكْثَر ظُلْماً وأكثر طغياناً من عادٍ وثمود، وجاء التأكيد بضمير الفصل إشعاراً بتخصيصهم بشدة الظلم والطغيان.

وجاء هنا ذكر عادٍ وثمود قبل ذكر قوم نوحٍ، لأنَّ أخبار عادٍ وثمود معروفةٌ متداولَةٌ بين العرب، ولأنَّ آثارهم في بلاد العرَبِ ظاهرة ومعروفة.

المثال الرابع: إهلاكُ الله عزّ وجلّ قوم لوط عليه السلام، وقد كَنَّىٰ الله عنهم في هذا النصّ بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

الْمُؤْتَفِكَة: أي: المنقَلِبة، وهذا وصْفٌ لموصوف محذوف، وهي قُرَىٰ قوم لُوط عليه السلام، أي: وقُرَىٰ قَوْم لوطٍ، الّتي رَفَعها الله بأهلها الفاسقين المجرمين، وقَلَبها فجعل عالِيَها سَافلها، وأهوى بها إلى جهة الأرض، فهَوَتْ سَاقِطَةً مُنْقَلِبَةً مُدَمَّرَة.

الائْتِفَاكُ: عند أهل العربيَّة هو الانقلاب.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾: أي: فجعَلَ عليها غِشاءً جلَّلَ كُلَّ أجزائِها، وكان هذا الغِشَاءُ حجارَةً مُحرِقَةً أَمطَرَها الله عَليهم، تَعذِيباً لَهُمْ، مع إهلاكهم بتَدْمير بلادهم عليهم.

قال المؤرّخون: هم أهل «سَدُوم» وكانوا يعيشون في مكان البحر الميّت المعروف الآن في الأردن، ولهم خمس قرى، هي «صَبْغَة ـ عَمْرَة ـ أَذما ـ صَبُويم ـ بالع».

وقد عرضت السورة هذه الأمثلة عرضاً موجزاً جدّاً، مناسباً لأسلوبها البيانيّ العامّ، الموافق لما يُعْجب فصحاء العرب وبُلَغاءَهم من إيجاز واختزال، وبُعْدٍ عن أسلوب البيان المباشر.

القضية التاسعة: دلَّ عليها قَوْل الله عزَّ وجلّ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾:

خطابٌ مُوجَّهٌ لكُلِّ مُتَشَكِّكٍ بِآلاَءِ الله، جاء بمثابة مُنَاقَشَةٍ تربويَّةٍ عقب

الدرس الرابع من دُروس السُّورَةِ، أو عَقِب دُرُوس السورة الأربعة السابقة.

﴿ءَالَآءِ﴾: نِعَم. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: فَبِأَيِّ نِعَم رَبِّك، والواحد: «أَلَىٰ» و«إِلْيٌ» و«إِلَى».

﴿تَتَمَارَىٰ﴾: أي: تَتَشَكَّكُ، وتُجَادِل. والمعنى: فبِأَيِّ نِعَمِ اللَّهِ ربِّكَ الّتي أفاض بها على عِبَادِه، تتشكَّكُ وتُجادِلُ أيُّها الكافِرُ بِرَبِّكَ، المكذِّبُ لرسوله، والمكَذِّبُ بما جاء به عن ربّه، والمكذِّبُ بظاهرة الوحْيِ، وبيوم الدّين.

إنَّ نِعَمَ اللَّهِ الكثيرةَ الّتِي أَنْعَمَ بِهَا وَيُنْعِمُ بها على عباده دَواماً، من شَأْنِهَا أَنْ تَجْعَل العاقل الرَّشِيدَ الذي يَنْشُدُ الحقَّ يُؤْمِنُ بِرَبّه، ويخضع له، ويَعْبُده لا يُشْرِكُ بعبادته أحداً، ويُؤْمِنُ بِرَسُولِهِ وبكتابه الذي أنزلَهُ عليه.

* * *

(١٠)

التدبر التحليليّ للدرس الخامس من دروس السّورة وهو الأخير

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

هذا الدرس الخامس وهو الأخير من دروس السُّورة، يتضمَّن حديثاً ختاميّاً ذا بيانات جازمات تُوجِز القضايا التالية الأربع:

القضية الأولى: بيان وظيفة الرسول الختاميَّة بالنسبة إلى من كذَّبه في نبوّته ورسالته، وَالوحْي الّذي تلقَّاهُ عن ربّه، وكذَّبَ بما جاء به عن ربّه، ربْطاً بما جاء في الدرس الأوّل من السورة: وهي وظيفة الإنذار

بعذاب الله، كما كانت الوظيفة الختاميَّة لسائر المرسَلين بالنسبة إلى الذين كفروا من أقوامهم، وأسرفوا في ظلمهم وطغيانهم، وكذلك بيان وظيفة القرآن الختامية بالنّسبة إليهم.

القضية الثانية: بيان اقتراب يوم القيامة الّذِي تنتهي به ظروف الحياة الدنيا، ليبدأ بعْدَهُ يوْمُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء. وفي هذا إنذارٌ بعذاب الله يوم الدين للكافرين برسول الله محمّد ﷺ، وبما جاء به عن الله عزّ وجلّ.

القضية الثالثة: توجيه التثريب للكافرين الذين كذّبوا الرَّسُول محمّداً ﷺ، وكذّبوا بما جاء به عن الله عزّ وجلّ، مع التَّعجيب من أمرهم، إذْ يعجَبُون من الحقّ وأدلّته وبراهينه الساطعات وإِذْ ينطلقون في حياتهم يضحكون لاهين ساهين غافلين ساخرين متكبِّرين، أو جامدين متحيّرين أغنياء، أو مشتغلين بالغناء.

وقد كان من الواجب عليهم لو كانوا أهل عقْلٍ وتدبُّرَ ورُشْدٍ أَنْ يتَّعِظُوا، ويبكوا على ما فرَّطوا في جَنْب الله، وعلى ما أَسْرَفُوا وظَلَمُوا في حقّ أنفسهم، إذ يَقْذِفونَ بها أغبياء إلى الشقاء الدائم، والعذاب الأبَديّ في جَهَنَّمَ وبئْسَ المصير.

القضية الرابعة: وهي القضيَّةُ الّتِي ختم الله بها السّورة، وقد تضمَّنتْ توجيه الأمر للناس أجمعين وفيهم الكافرون بأَنْ يَسْجُدوا لله ويعبُدُوه، حتَّىٰ يؤدُّوا واجب عبوديتهم لربّهم، وليذوقوا حلاوة القرب من الله عزّ وجلّ، وليتخلَّصُوا من وساوس الشياطين، وشتات الأهواء التي تجنح بهم عن صراط الله المستقيم، إلَىٰ أوْدِية العذاب الأبدي.

أمّا القضيّة الأولى: فقد دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ بشأن الرسول محمّد ﷺ، أو القرآن أو كليهما: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾: أي: الرَّسُولُ مُحمَّد ﷺ، أوالقرآن، بالنسبة إلى الكفرة المكذبين.

﴿نَذِيرٌ﴾: يأتي بمعنَىٰ: «مُنْذِر». ويأتي اسماً للإِنْذارِ الذي هو مصدر «أَنْذَرَ». **والإِنْذار**: هو الإعلامُ والإخبار بعواقب غير سارّة، والتحذير من ذلك.

وجمْعُ «نَذِير» على المعنيَيْن: «النُّذُر» وهو لفظ يصحّ أن يُطْلَق على الرسول، وعلى القرآن لتضمُّنِه الإنْذار، وعلَىٰ الإنْذار الذي جاء في القرآن.

﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾: أي: من جِنْس النُّذُرِ الأُولَىٰ، رُسُلاً كانوا، أو كُتُباً رَبَّانيَّة، أو إنْذاراتٍ جاءَتْ في الكتب السابقة أو على ألسنة الرُّسل، فكَلِمَةُ النُّذر صَالِحةٌ لكلّ ذلِكَ، وهذا من الإيجاز القرآني البديع.

والمراد بالأولَىٰ السابقة السَّالفَةُ في الرِّسالات الرَّبّانيّات السابقات.

وأمّا القضيَّةُ الثانية: فقد دلَّ عليها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾:

[أَزِفَتِ الأزِفَةُ]: أي: قَرُبَتِ السَّاعَةُ القريبة، وقد أبان الله عزّ وجلّ قُرْبَهَا بتعبير صريح، فقال تعالى في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول): ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

يقال لغة: أزِفَ الوقْتُ يأزَفُ أزَفاً وأُزُوفاً، أي: دنا، ومنه قولهم: أزف التَّرحُلُ، أي: قَرُبَ ودَنَا.

الآزفة: صفةٌ لموصوفٍ: مَحْذُوفٍ تقديرُه: السَّاعة، أو القيامة. وصَفَها اللّهُ بالْقَرِيبة بالنسبة إلى ما مضى من عُمْرِ الدُّنيا قبل خَلْقِ آدَمَ عليه السَّلام، وقد زَادَتْ قُرْباً في عصْرِ بعْثَة الرَّسُولِ محمد ﷺ ونزول القرآن.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾: أي: ليس للسَّاعَةِ من غَيْرِ اللّهِ وإعْلام منه نَفْسٌ كاشفَةٌ وقْتَ حُدُوثها ووقوعها فعِلْمُ وَقْتِ وُقوعِ السّاعة وقيام القيامة عِلْمٌ لم يُطْلِع اللّهُ علَيْهِ أحداً من خلقه، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) لرسوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

فدلَّتِ النصوص القرآنيَّةُ على أنَّ وقْتَ قيام السَّاعَةِ من الأمُور الّتي سَتَرَهَا اللَّهُ وأخْفَاهَ، فلَمْ يُطْلِعْ عليها أحداً من خلقه.

وأمّا القضيّة الثالثة: فقد دلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجلّ خطاباً للكافرين المكذّبين: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾

في هٰذه الآيَات تلويمٌ وتَثْرِيبٌ للكافرين المكذبين لرسول الله محمّد ﷺ، والمكذِّبينَ بما جاء به عَنِ اللَّهِ عزّ زجلّ، وتَعْجِيبٌ من تَعَجُّبِهِمْ ممَّا اشتمل عليه القرآن الكريم، الّذِي هو حَدِيثُ الله لعباده بياناً وإقناعاً ونُصْحاً.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟!: أي: أرَفَضْتُمُ الحقَّ الجليَّ الّذِي حَدَّثْنَاكُمْ بهِ في القرآن، مع وُضوح الأدلة وقُوَّةِ ما فيها من سلطان على العقول، وأعْلَنْتُمْ إنكارَكُمْ له، وزعَمْتُمْ أنَّهُ بَاطِلٌ، فصِرْتُمْ تَسْتَبْعِدُونه وتُوهِمُونَ أنَّه باطل بأسْلُوب التَّعَجُّب منه.

إنَّ تَعجُّبَكُمْ هُو الذي يَسْتَدْعي الْعَجَب، لأنَّه قَائم على جُحُود الحقّ على الرُّغْمِ من ظهوره، ووضوح أدلَّته.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾: أي: إنَّ من شَأْن ما جَاءَ في حَدِيثنا لكم أنْ تَحسُبُوا ألف حسابٍ ليوم الدين والجزاء. إيماناً بالحق الذي جاءكم به رسُولُ ربّكُم، فتخافوا العذابَ الأليم الذي ستَصِيرونَ إليه لا محالة، إذا أصررْتُمْ على كفركم، ومن شأن هذا أن يُبْكِيَكُمْ بُكَاءً كثيراً، لا أنْ يُثِير لديكم الضّحك والسُّخْرِيَةَ ممّا حَدَّثْناكم به.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾: أي: وأنتم لاَهُونَ لاَعبون، وسَاهون غافلون، أو مَشْغُولُون بالغِنَاء، أو مُتَكَبِّرون بَطِرُونَ أشرُونَ، أو قائمون جامِدُونَ لاَ تتأثَّرُون، أَو أَغْبياء، أَوْ مُتَحَيِّرون.

على كلِّ هذه المعاني تدلُّ في اللُّغَة كَلِمَةُ: «سامدون» وهي فيما أَرَىٰ مرادَةٌ كُلُّها، ولو على سبيل التوزيع بحسَب أحوال المخاطبين، وهذا من الإيجاز الرّائع في القرآن الكريم.

وقد تأكَّد لديّ إمكان حَمْل اللَّفظ القرآني على كلّ معانيه اللُّغويَّة، إذا أَمْكن ذلِكَ، ولَمْ تَتَناقَضْ فيما بينها، وهو الذي عليه معظم الفقهاء المجتهدين.

وأمّا القضيَّةُ الرّابعة: فَقَدْ دَلَّ عليها قولُ الله عزَّ وجلَّ خطاباً للناس ومنهم الكافرون المكذّبون: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

فالْمَطْلوبُ الدِّيني الذي جاء به الرَّسُول عن ربِّه هو الخضوع لله، وعِبادَتُه بطاعَتِه، في فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ وتَرْكِ مَا نَهىٰ عنه.

السّجُود: يشمل كُلَّ أنواع الخضوع لله، وأكملُهُ في الأعمال الجسديَّة الظاهِرَةِ يكُونُ بِوَضْعِ الجبْهَةِ على الأَرض.

والعبادة: تَكُون بالطاعة، وبقيام العابد بما يُرْضي المعبود، ورأْسُ العبادة الدُّعاء بالغيب لتحقيق مطالب الدُّنيا والآخرة، وهٰذِه العبادة لا تكون إلاَّ للرَّبّ جلَّ جَلاَله، وتوجيهها لغيره شرك به.

وهكذا استكْمَلَتِ السورة ترابُطَها الفكريّ، وخُتِمَتْ بهذا الختامِ الحكيم.

* * *

ملاحق لسورة النجم

الملحق الأول: من البلاغيات في السورة.

الملحق الثاني: معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة.

الملحق الثالث: سياسة الداعي في أحوال المدعوّ الذي لم يستجب.

* * *

(١١)

الملحق الأول

من البلاغيات في سورة (النجم)

(١) الأسلوب البيانيّ الذي صيغت به سورة (النجم) هو الأسلوب الذي كان يَسْتثير إعجاب بلغاء العرب وفصحَائهم إبَّانَ تنزيل القرآن، إنّه الأُسلوب القائم على تقصير الجمل، والسَّجْع البديع الذي لا تكلُّفَ فيه، والبُعْدِ عن التعبير المباشر، باسْتِخْدام الكناياتِ التي تَعْتَمد على اللّوازم الفكريَّة، وتعتَمِدُ على الإيجاز الشديد، وحذْفِ ما يمكن إدْراكه ذهْناً ولو لم يَكُنْ في اللَّفظ ما يَدُلُّ عليه.

وفي السورة من هذا أمثلة ذوات عدد، ولهذا ثبت في الصحيحين وغيرهما أن المشركين سجدوا مع الرسول ﷺ والمسلمين حينما سجد الرسول عند آية السجدة من آخر سورة النجم.

(٢) التأكيد بالْقَسَم بظاهرة من ظواهر خَلْقِ الله المشهودة، في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ عَلَىٰ قضيَّةٍ غَيْبيَّةٍ مُشَابهة، جحدها الّذين كفروا، لأنّهم استبعدوا نُزُول رَسُول الوحي جبريل من السماوات إلى رسول الله محمَّد ﷺ في زمن قليل من ليل أو نهار واستعبدوا العروج بالرسول محمّد إلى السماوات العليا بصحبة جبريل عليهما السلام، والعودة

به إلى مكة في ليلة واحدة، وفيه إشارة إلى أنّ أنظمة السُّرعات عند الله في كونه متفاوته تفاوتاً كبيراً.

(٣) استخدام الاستفهام في غير ما وُضِع له، إذ استُعْمِلَ مراداً به الانكارُ على الكافرين وتلويمُهم والتعجيب من أمرهم في عدّة مواضع: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢)؟! - أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) ؟! - أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤)؟! - أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣)؟! - أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥)؟! - أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩)﴾؟!

(٤) الكناية عن الموصوف بالاكتفاء بذكر صفته فيما يلي: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥)﴾(أي: جبريل) - ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ (أي: بالمثوبة الحسنى، أو بالجنة التي هي حسنى) - ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)﴾ (أي: نفس وازرة وزر نفس أخرى.

(٥) التشبيه المكْنيُّ في قوله تعالى عن الّذي كَفَر: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤)﴾ - شبّه الّذي يبْخَل بسبب شُحّ نفسه بَعْدَ أن أعطَىٰ قليلاً، بمَنْ يَحْفِرُ من الْبِئر شيئاً ثُمَّ يَجِدُ كُدْيةً (أي: صَفَاةً عظيمةً تمنَعُهُ من متابعة الحفر).

وقد سمَّيْتُ هذا النوع تشبيهاً مَكْنِيّاً، لأَنَّهُ من قبيل التشبيه البليغ الذي ذُكِرَتْ فيه بعضُ لَوَازِمِ المشبه به(١).

* * *

(١٢)

الملحق الثاني

حول معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة

جاء في القرآن المجيد حول موضوع عقيدة المشركين في الملائكة

---

(١) انظر مبحث التشبيه المكنيّ في كتابي البلاغة العربية. الجزء الثاني ص٢٠٤.

بأنَّهم إناثٌ، وبأَنَّهُمْ بناتُ الله، وبأنهم يشفعون لهم عند الله إذا تقرّبوا إليهم بالعبادة وَبأنَّهم شركاءُ لله في إلهِيَّته، تسْعُ نصوص في ثَماني مراحل من العهد المكيّ، بثماني سور.

وجاءت معالجة هذا الموضوع موزّعَةً في هٰذه المراحل، مَعَ إعادة ما يقتضي السّياق والعلاجُ التربوي والإقناعيُّ الأَفْضَلُ إعادَتَه منها، ومع إضافَةِ ما يقتضي الأسلوب التدريجيّ إضافته.

المعالجة الأولى:

ما جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

وقد تدبّرنا ما جاء فيها حول هذا الموضوع خلال تدبُّر السُّورَة.

المعالجة الثانية:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) خطاباً للمشركين:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾؟!.

أي: أَفَآثَرَكُمْ رَبُّكُمْ بالبَنِينَ، واتّخذ لِنَفْسِه من الْمَلاَئِكَة إناثاً بالولادة أو بالتَّبَنِّي، ثُمَّ جعلَهُنَّ شركاء له في إلَهيَّته، المستلزمة لمشاركتهم له في رُبوبيَّته، دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ بعد آيَةٍ خطاباً لرسوله ولكل داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: قُلْ: لَوْ كان مع الله عزَّ وجلَّ آلِهَةٌ تَسْتَحقُّ العبادَةَ بِمَا لها من

مشارَكَةٍ للَّهِ في رُبُوبيَّته، لاتَّخَذَ هؤلاءِ الآلِهَةُ الأَرْبابُ إلى ذي العرشِ سبيلاً أي: إلى منافَسَةِ الله في رُبوبيَّتِه، ومضادَّتِهِ في إرَادَاته، ولنجَمَ عن ذلِكَ فسادٌ كبيرٌ في السَّماوَاتِ وفي الأرْض، لِتَعارُض الإرادات، وتناقض الْمُرادَات.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ أي: في زعمكم أن الملائكة بناتُ الله، وقد تنزّه سبحانه عن ذلك.

المعالجة في هذا النصّ جاءت بأسلوب الاستفهام الاستنكاريّ التعجيبيّ من أمْرِ المشركين، الذي يتضمَّن التقريع والتوبيخ لهم على معتقداتهم الباطلات، التي لا يملكون لإثباتها أيّ دليلٍ فكريّ، أوْ خَبَرِيٍّ عن الرَّبّ الخالق جلّ جلاله، أو حسّيٍّ، بل الأدلَّةُ العقلية والخبريَّة الصحيحة الصادقة تُثْبتُ نقيض هٰذِه المعتقدات.

المعالجة الثالثة:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الصافّات/٣٧ مصحف/٥٦ نزول) قولَهُ خطاباً لرسُوله ﷺ:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾: أي: فاسألْهُمْ سؤال مناظر مجادل بالحق عنْ حُكْمِهِم الفاسِدِ واعتقادهم الضَّالِّ الَّذي جعلُوا فيه للَّهِ رَبِّكَ وربِّهم البناتَ، واصْطَفَوْا لأنفسهم البنين، وهذا صالح لادّعاء النسبيَّة، أو ادّعاء التبني.

والاستفهام فيه معنى التلويم والإنكار والتقريع والتعجيب من أمرهم.

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾؟!﴾: أي: بل أخلقنا الملائكةَ إناثاً وهم حاضرون شاهِدُون خَلْقَهُمْ، فعَرَفُوا من المشاهدة أنَّ الملائكة إناثٌ؟!. وهذا صالح لادِّعاء التَّبنِّي.

«أم» هذه هي المنقطعة، وهي بمعنى «بل» مع محافظتها على الدلالةِ على الاستفهام.

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

﴿أَلَآ﴾: أداةَ استفتاحٍ وتنبيه بقوة، أي: ألاَ إنَّ الكافرين ليقولون من إفكهم أي: من كذِبِهِمْ علىٰ الله وَلَدَ اللَّهُ ولَداً، وإنَّهُم لَكَاذبُونَ في قولهم هذا:

جاءت هاتان الجملتان مؤكّدَتين بالجملة الاسمية وحرف «إنّ» واللام المزحلقة في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ وفي ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾؟!﴾: أي: آآثر لِنَفْسِهِ البنات على البَنِين؟! إنَّ هَذَا لَحُكْمٌ على الله باطلٌ ظاهر البطلان، لا دليلَ عليه من عقل أو حِسٍّ أو نَقْلٍ صحيحٍ عن الله: بل الأدِلَة تُثْبِتُ أَنَّ كُلَّ ما سوَى الله عزَّ وجلَّ خَلقٌ من خلْقِه، فلا نَسَبَ بَيْنَه وبين أحَدٍ من خلْقه، وليس بحاجة سبحانه إلىٰ أنْ يَتَبَنَّىٰ أحداً من خلْقه، والاستفهام إنكاريٌّ تعجيبيٌّ.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾؟!﴾: أيْ: أيُّ شيْءٍ حصل لكم فأفْسَدَ عقولكم فجعلكم تقولون: الملائكة بنات الله، أو هم إناث، أو أيُّ شيْءٍ هو لكُمْ من الحق في ادّعائكم الباطل على الله؟! كيف تحكمون على الله هذا الحكم الباطل؟! أفلا تتذَكَّرُون ما أعدّ الله للكافرين به من عَذَابٍ خالدٍ في جهنَّمَ، فتتعظون وتَرْهَبُون، وتتبرَّءُونَ من افتراءاتكم على الله.

وفي هذا تقريع لهم بأنهم يبنُون معتقداتهم على أوهام باطلة، أو تقليد أعمى.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾:

أي: بَلْ أَلَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ من نَصّ كتابٍ رَبَّانِيّ يُثْبِتُ ما تقولُون على الله، فإنْ كان لديكم شيْءٌ من ذَلِكَ فَأْتُوا به إنْ كُنْتُمْ صَادِقين.

وفي هذا مطالبة لهم بالدّليل الخبريّ عن الله، إنْ كان لديهم شيء من ذلك، لكنهم لا يملكون.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أي: وجعل بعض المشركين بين الله وبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً، وهذا يَنْطَبِق على الجنّ الذين زعَمُوا لقرنائهم من الإنْسِ أَنَّهُمْ ملائكةٌ وأَنَّهُمْ بنَاتُ الله، وينطبق على الذين يَزْعُمونَ أنَّ اللَّهَ خَطَبَ إلى سادات الجنّ فَزَوَّجُوهُ من سَرَواتِ بناتهم، فالملائكةُ بناتُ الله من سَرَوَات بناتِ الجنّ.

ولَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ الكافرون الّذين أوْحَوا لقُرنَائهم من الإنس أنهم ملائكة، وأَنَّهُمْ بناتُ الله، لقد عَلِمُوا أَنَّهُمْ سيكُونُونَ مُحْضَرِينَ في عذاب جهنَّم، مع سائر الكفرة من الإنس والجنّ، وكُسِرَتْ همزَة (إنَّ) في الآية لأنَّ اللام المزحلقة جاءت في خبرها.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

وقُرِئ: [المُخلِصِينَ] بكَسْر اللاَّم.

أي: تَنَزَّهَ اللَّهُ عمَّا يَصِفُه به جميع الواصفين، إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ المخلَصِينَ بالنبوّة، والمْخلِصِينَ بالاستقامة والتَّقيُّدِ بما جاء عن اللَّهِ في صفاته، فإنَّهُمْ لا يصِفُون الله عزّ وجلّ بشيْءٍ لا يَلِيق بذاته أو بِصفاته، بل يَصِفُونَهُ بكلّ كمال، ويُنَزِّهُونه عن كلّ نقْص، ويَتَقيَّدون في ذكر صفات الله بما صحّ عن الله ورسوله، أوْ قامَتْ عليْه براهين الْعَقْلِ الصحيح.

المعالجة الرابعة:

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول): ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

دَلَّ هذا النَّصُّ على أنّ أكْثَر المشركين كانوا يُؤْمِنُونَ بالْجِنِّ وبخُرَافَاتِ الجنّ، وأنَّ الجِنَّ يَزْعُمونَ لِقُرنائهم من الإنْسِ أنّهم ملائكة، فيُصدّقونهم، ويقولُون للناس هؤلاَء الّذين نتَّصِل بهم ويدعوننا لعبادتهم هم ملائكة، فيجلُبُون لنا بعبادتهم نفعاً، ويَدْفَعُون عنّا بها ضرّاً، ويأتُونَنا بأخبار غيبيَّةٍ لا نستَطيعُ أنْ نأتي بها إلاَّ إذا أخبرونا بها.

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾: أي: أكثر المشركين يؤمنون بِالكَفَرة من الجنّ، لا بما جاءَهم عن ربّهم.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: تنزَّهتَ ربَّنا عن أن يكون لك شريك في إلَهيَّتك، فنحن بريئون من عبادتهم لنا، في هذا اقتطاع لمشهد من مشاهد يوم الحساب، وتقديم له كأنه تمّ وانقضى، وهذا من روائع القرآن البيانية التي تدلُّ على تحققِ الوقوع.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أي: لا وَليَّ لنا إلاَّ أنت، فلم نَعْبُدْ نحْنُ أحداً غَيْرَكَ، ولم نَدْعُ أحداً من دُونِكَ لعبادَتِنا، ولم نتَّخِذْ أيَّ شيءٍ يُغرِي أحداً بعبادتنا.

أصل مادّة «الوليّ» تدور حول معنىٰ الاتّباع، فهي تُطْلَقُ على التابع وعلى المتبوع. فالمعنى لم نَتّبع غَيْرك ولم نَدْعُ أحداً لاتِّباعِنا.

﴿مِن دُونِهِم﴾: أي: من غيْر من كانُوا يَعْبُدونَنَا، فهؤلاء لم يَكُنْ بيننا

وبَيْنَهم ولايةٌ ما، ويومئذٍ يقول الله عزَّ وجلَّ للمشركين وللّذين كانوا يعبدونهم من دون الله مقالين:

الأول: فالْيَومَ لا يَمْلِكُ بعضُكُمْ لبعضٍ نفعاً ولاَ ضرّاً.

الثاني: يقول الله عزّ وجلّ للذين ظلموا: ذُوقوا عذاب النار الّتي كنتم بها تكذّبون، ويكون هذا قبل أوْ بَعْد إدْخالهم في جهنم.

وفي عرض هٰذين المقالين تحذير شديد للمشركين من المصير التعيس الذي سيصيرون إليه إذا أصَرُّوا على شِرْكهم وكفرهم بما جاءهم به رسولُ ربّهم، وهذه معالجة تربويَّة تعتمد على موعظة الترهيب، بعرض مشهد من مشاهد الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

المعالجة الخامسة:

ثمَّ أنزل اللّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول) قولَهُ بياناً لما عليه المشركون في مفهوماتهم حول هذا الموضوع:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

اشتمل هذا النصّ على المعالجة الخامسة للمشركين بشأن أقوالهم ومعتقداتهم حول الملائكة، وزعمهم أن الملائكة إناث، وبأنّهم بناتُ الله، وبأنهم يَشْفَعُون لهم عند الله إذا تقرّبوا لهم بالعبادة، وبأنّهم شُركاء للّهِ في إلَهيَّته.

- ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

إنّ اللّهَ جلَّ جلالُهُ صَمَدٌ، لا يَتَّحِدُ بذاته شَيْء هو من غير ذاته، ولا ينفصل عن ذاته جُزْءٌ هو من ذاته، فَهُو لم يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ.

وكلُّ الأحياء التي خَلَقَها في كونِه مملوكَةٌ لَهُ، فَهُمْ عِبادُهُ، هو خالِقُهُمْ، وهُوَ مالِكُهُم، وهو المتصرّف بهم على ما يشاء، وقد خلقهم بكلمة التّكوين.

والّذِينَ زَعَمُوا أنَّ الملائكة بناتُ اللّهِ قد جَعَلُوا بالكذِب والافتراء للّهِ مِنْ عباده الّذِين خَلَقَهُمْ جُزْءاً، فالمنفصل عن شيء بالولادة هُو جُزْءٌ مِنَ الشَّيْء الّذي انفصل عنه، والجزْءُ المنفصل عن الشيء لا بُدَّ أَنْ يَحْمِلَ شيئاً ما من خصائص الأصل الذي انفصل عنه.

لكنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ مُنَزَّهٌ بذاتِهِ عن أن يَدْخُلَ في ذاته شيءٌ فيتَّحِدَ بها، ومُنَزَّهٌ عَنْ أنْ يَنْفَصِلَ عن ذَاتِه جُزْءٌ، فيكون له وُجودٌ منفصل.

إنَّهُ أحَدٌ، إنَّه صَمَد، إنَّهُ لم يَلِدْ ولم يُولدْ، ولم يكن له كفُواً أحد.

فنَبَّهَ هذا النّصّ بهذه الآية، على أنّه يستحيلُ عقلاً أنْ يكون لله الأزليِّ الأبَدِيّ جُزْءٌ قَابلٌ لأن يَنفصِل عنه، وتَكُونَ له ذَاتيّة خاصَّةٌ.

وقد غابت هذه الحقيقة عن معظم المفسرين، فلم يولُوها العناية الكافية من البيان والشرح.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾: أي: ووصَفُوا اللّهَ بأنَّ لَهُ ذُرِّيَّةً انْفَصلَتْ عنه، فَجَعَلُوا بهذا الْوَصْفِ المفترَىٰ عليه بعضَ عبادِهِ الذين خَلَقَهُمْ بأمْرِ التكوين جزءاً منفصلاً عنْ ذاتِه سبحانه وتعالى.

فِعْل «جَعَلَ» مُسْتعَمَلٌ هُنَا بمعنى إسناد حكْم باطِلٍ إلى الله عزَّ وجلّ، وهذا أحد المعاني الّتي اسْتعملَ للدّلالة عليها هذا الفعل في القرآن.

وهذا ينطبق على الذين زعَمُوا أنَّ الملائكة بناتُ الله، وعلى الذين

زعَمُوا أنَّ عيسى ابْنُ الله، وعلى الذين زعَمُوا أنَّ عُزيراً ابْنُ الله، إلاَّ أنَّ سياق هذا النصّ يدلُّ على أنَّ الْمُرَادَ به الذين زعَمُوا أنَّ الْمَلاَئكَةَ بناتُ الله، فعَبَدوهُمْ من دون الله.

- ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾:

يؤكّد الله بالجملة الاسمية وبـ«إنَّ» وباللام المزحلقة أنَّ الإنسانَ شديدُ الكُفرِ بربّه في وَقَاحَةٍ ظاهرة.

والمرادُ بالإنسان المقدار الأعظم من هذا النَّوعِ، بدليل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/١٢ مصحف/٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿لَكَفُورٌ﴾: أيْ: لَشَدِيدُ الكُفرِ، صيغَةُ «فَعُول» من صيغ المبالغة.

﴿مبين﴾: أي: ظاهِرٌ واضِح، يقال لغة: أَبَانَ الشَّيْءُ فَهُو مُبِين، إذا ظهر واتَّضَحَ.

ومن شِدة كُفر الإنْسَانِ الواضحِ الْجَلِيّ أَنْ يَنسُبَ لِلَّهِ وَلداً، وأَقْبَحُ من هذا أنَّ يَزْعُم أنَّ أَوْلاَدَ اللَّهِ بناتٌ، فيقولَ: الملائكةُ بَنَاتُ الله، مع أَنَّهُ هو إذَا بُشِّرَ بمولودة له أنْثَىٰ كَرِه ذلك، وظلَّ وجْهُهُ مُسْوَدّاً وهُوَ كظِيمٌ.

- ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾

أي: إنَّ جَعْلَ الملائكةِ بنَاتَ اللَّهِ له احْتِمالاَن:

- إمَّا أنْ يعْتَقِدَ قائِلُ هذا أنَّ الملائكةَ بنَاتُ اللَّهِ نسباً، وقد جَاءَ رَدُّ هٰذَا الباطل بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا...﴾

- وإمَّا أنْ يعْتَقِدَ أنَّ الملائكة خَلْقٌ من خَلْقِ الله، إلاَّ أنَّ الله جَعَلَهم إنَاثاً، واتَّخَذَهُمْ جُنوداً لِنَفْسه، وآثَرَ الناسَ علَىٰ نفسه فَخلَق لَهُمْ بَنِينَ.

- ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ؟﴾: أي: بل أَتَّخذَ لِنَفسِه ممَّا يخلُقُ بناتٍ؟.

- ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾: أي: وآثَركُمْ على نفسه بالبنين.

استفهامٌ إنكارِيٌّ عليهم، وتعجيبيٌّ من أَمْرهم، كيف يتصوَّرُون أن الله اخْتَار لنفسه الأدنَىٰ، وآثَرَ النَّاسَ بالأكمل؟!!

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: وإذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بما وَصَفَ الرَّحْمٰنَ به كَرِهَ ذٰلِكَ واغْتَاظ، وجاء التعبيرُ عن وصْف الله بأنَّه ولَدَ البنات، أو جُنودُه بنَات، بعِبَارة: بمَا ضَرَبَ للرَّحْمٰنِ مثلاً، أي: صنع من عنده مثلاً زَعَمَ أنَّهُ مشابِه للرحمن، وهٰذا المثلُ الَّذي صَنَعَهُ ذُرِّيَّتُهُ بَنَاتٌ، أو جُنُودُهُ بَنَاتٌ.

هٰذَا مِنْ بدائع العِبَارات الَّتي تَدُلُّ علَىٰ المَقْصود، مع تكريم الله عن أنْ يُقَالَ: الله مِثْلُ عبادِهِ في إنجاب الذُّرِّية.

فالعبارة تَدُلُّ علَىٰ أنَّهُمْ صنعُوا مِنْ عِنْدِهِمْ مَثَلاً، وجعَلُوا هٰذا المثَلَ مشابهاً للرَّحْمٰن وهُمْ كاذِبونَ.

وجَاء في هٰذه الآيةِ الكِنَايَةُ عَنْ غَيْظِ مَن يُبَشَّرُ منهم بولِيدَةٍ أُنْثَىٰ بعبارةِ: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: بَقِي وجْهُهُ كالِحاً علَيْهِ سَحَابَاتُ سَوَادٍ تَدُلُّ علَىٰ كراهيته لما بُشِّرَ به، وغَيْظِه منه، مَا دامَتْ مُنَاسَبَةُ الولادة مُتَداوَلة على ألسنة عشيرته.

أُطْلِقَتِ الظَّاهِرَةُ التي تَبْدُو في الوجه، والمرادُ الحالة النفسيَّة المؤثرة في هذه الظاهرة وهي الغيظ.

وجاءت عبارة: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ دالَّةً عَلَىٰ الغيظ المحبوسِ في النفس.

﴿كَظِيمٌ﴾: أي: مُمْسِكٌ على ما امتلأَتْ بِهِ نفسُه من غيظٍ أَوْ غضبٍ، أَصْلُهُ في اللّغة مَأْخوذُ من: كَظَمَ السِّقَاءَ، أي: مَلأَهُ وسَدَّ فَاهُ.

- ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾؟!!.

في هذه الآية متابعةٌ لتقريع المشركين وتوبيخهمْ، بشأن ادّعائهم أنَّ الملائكة بناتُ اللّهِ بالنَّسب أو بالتَّبَنّي ممَّنْ خَلَق.

فهي تتضَمَّنُ طرْحَ سُؤَالٍ عليهم: أَيُّهما أفضلُ في تصوُّرِهم لاختيار جُنْدٍ يُكَلَّفُونَ وَظائِفَ عَظْمىٰ في الكَوْن؟؟

هل اختيار أشِدَّاءَ أقوياء مُطِيعينَ لا يَعْصونَ، أم اختيارُ بنَاتٍ ناعماتٍ من طَبْعِهِنَّ حُبُّ الدَّلاَل، وحُبُّ الزِّينَة رغْبَةً في أن يَكُنَّ مَحْبوبَاتٍ عِنْدَ أزْواجِهِنَّ، فَأَوْلياؤُهُنَّ يُنَشِّئُنَهُنَّ ويُرَبّينَهنَّ في الْحِلْيَةِ ممَّا تَتَزَيَّنُ به البنَاتُ، إِشْباعاً لرغباتِهِنَّ، وإِعْدَاداً لَهُنَّ حتَّىٰ يَكُنَّ سَارَّاتٍ لأَزْوَاجِهِنَّ. سعيدات مُسْعِدَاتٍ في حياتهنَّ. وبتأثير عواطِفهنَّ، وعدم قُدْرَتِهِنَّ على ضبط رَغباتهن، يَكُنَّ في المخاصماتِ ثائراتٍ وغير مُبيناتٍ لحُجَّتهنَّ، وهذه إحدى مظاهر صفاتهن الرقيقة الناعمة.

والجواب الذي يجيب به كلُّ مُنْصِفٍ: أَنَّ حِكمة الحكيم تقتضي أن يَخْتَار للقيام بوظائفَ جليلةٍ عظمىٰ في الكون، عباداً أشدّاءَ أقواءَ مُطِيعين لا يعصُونَ الأوامر، ويفعلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وهذه الصفات غير موجودة في البناتِ، بالنظر إلى النسبة الغالبة عليهن.

والآية فيها محذوف مُقَدَّرٌ يمكنُ استخراجه بقليلٍ من التأمُّلِ، والتقدير: أو مَنْ يُنَشَّأُ في الْحِلْيَةِ وهُوَ فِي الْخِصَام غَيْرُ مُبين خَيْرٌ، أم مَنْ هو عَبْدٌ شدِيد قويٌّ مطيعٌ لا يَعْصِي الأوامر، ولا تميلُه العواطف والانفعالاتُ فتخرجه عَنْ طريقِ الطاعة، للقيام بوظائف جليلةٍ عظمىٰ في الكون؟!!

أي: فكيف صَحَّ في تَصَوُّرِكم أَنْ يختار الربُّ الحكيم لنفسه ملائكةً إناثاً؟!! إنَّ هذا لمنكَرٌ عظيم، وعُدْوَان علَىٰ حكمة اللَّهِ البالغة.

بل الملائكة عبادٌ مُكْرَمُون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤْمَرون، فليسوا إناثاً ولا ذُكُوراً.

- ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: وجَعَلُوا بحُكْمِهِمُ القائِم على التوهُم، الملائكةَ الذين هم عُبادُ الرَّبِّ الرَّحْمٰنِ، وَلاَ يُوصَفُونَ بذُكُورةٍ ولا أُنوثَةٍ، جَعَلُوهُمْ إنَاثاً، لَهُنَّ صِفَاتُ الإناث.

وَجاءتْ معالجةُ المشركين هُنَا بسُؤَالِهِمْ عَنْ دليلٍ حسِّيٍّ كانوا هم الذين شَهِدُوه بأنفسهم، فَقَالَ الله بأسلوب الكلام عن الغائب، دون أنْ يواجههم بالخطاب:

﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ؟!!﴾

أي: أشَهِدُوا الملائكةَ وشَهِدُوا أعضاءَ الأْنوثَةِ فيهم؟؟ سؤال يُطْرَحُ علَيْهم، ليُجِيبُوا عليه.

فإنْ كَذَبوا وَقالوا: نَعمْ شَهِدْنا خَلْقَ الملائكة.

فالجواب الرَّبَّانِيُّ يقولُ الله فيه:

﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾:

أي: سَتُكْتَبُ في صحف الملائكة الذين يراقبونَهُمْ ويُسَجِّلُونَ عليهم أعمالهم وأقوالهم، شَهَادَتُهم الْكَاذِبة، ويُسْأَلُونَ يوم الدِّين في موقف الحساب عن كذبهم في شهادتهم، للحكم عليهم.

- ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

في هٰذِهِ الآية بيانٌ لمقولَةٍ جَدَليَّةٍ من مقولات المشركين، حول معبوداتهم من دون الله، مع بيان أنَّ مقولَتَهُمْ هٰذِهِ محرومَةٌ من سَنَدٍ عِلْمِيٍّ يَقْبَلُه أهل الفكر والفهم السليم لحقائق القضايا الفكريّة، وأنّها مبنيَّةٌ عَلَىٰ الخَرْصِ.

﴿يَخْرُصُونَ﴾: أي: يأتي هذا الفعل بمعنيين:

المعنى الأول: يقال فيه: خَرَصَ يَخْرُصُ، أي: كَذَبَ.

والمعنى الثاني: يقال فيه: خَرَصَ فُلانٌ الشيءَ، أي: حزَرَهُ وقدّره بالظنّ.

وباستطاعتنا فَهْمُ ما جاء في هذه الآية على المعنَيَيْن، ولكن على التوزيع بين قائلي هذا القول الباطل، فقسم منهم يقولُهُ كاذباً وهو يعلم أنَّه كاذب، ولكن يقوله جَدَلاً. وقسم آخر منهم يقولُهُ على سبيل الحزْر والتخمين والحكم بالظَّنّ الضعيف، وهذا القسم مسؤولٌ عقلاً وديناً عن الحكم بقضيَّة ليس له فيها عِلْم، ولا سيما أنَّ برهان العقل يثبت بطلان مقولتهم.

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾: قَصَدَ المجادلون من المشركين بمقولتهم هذِه، أنَّ عبادَتَهُمْ لآلِهَتِهِمْ من دُونِ الله، قد تَمَّتْ بمَشِيئَةِ الله الْجَبْرِيَّة، فَهُمْ يُلْقُونَ مسْؤُوليَّة عبادتِهِم لآلِهَتِهِم على اللَّهِ عزّ وجلّ، الذي جعلَهُمْ مجبورين على ما يقومون به من أعمال شركيَّة.

وليس قَصْدُهُمْ أنَّ الله لو شاء لسَلَبَهُم اختيارهم، فمنعهم بالجبْرِ عن عبادتهم لآلهتهم، لأنّ هذا المعنى صحيح وتُحْمَلُ عليه نصوصٌ قرآنية كثيرة مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾:

أي: ولو شاء الله لسَلَبَ النَّاسَ مَا وهبهم من إرادةٍ حُرَّة، ولجعَلَهُمْ مجبورين غير مختارين، وعندئذٍ يكونون مجبورين على الهداية كالملائكة، ومجتمعين على الْهُدَى، لأنَّ اللَّهَ لاَ يُجبِرُ على الضلالة.

وجاء الرّدُّ القرآنيّ على مقولة المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ بقول الله عزّ وجلّ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠﴾: أيْ: لَيْسَ لهم بمقولتهم الّتِي قالُوها قاصِدِينَ أنَّ اللَّهَ قَدْ جعلهم مجبورين بالتكْوِين الجبريّ على عبادة آلِهَتِهم الّتي يَعْبُدونها، أيُّ عِلْم يسْتَنِدُونَ إليه، مهما كانت وسائل هذا العلم، والمراد بالْعِلْم هُنَا ما كانت وسائِلُه حُججاً عقليَّة فكريَّة.

وإذْ لا عِلْمَ لهم بذَلِكَ الباطل الذي قالوه، فإنَّهُمْ لم يَبْقَ لهم إلاَّ احتمالان:

الاحتمال الأوّل: أنَّهُمْ يكذبون متعمّدِين الكذب.

الاحتمال الثاني: أنَّهم يظُنُّون ظنّاً توهُّمِيّاً ضَعِيفاً لا قيمة له في اكتساب معرفةٍ صحيحة، فظنُّهُمْ حَزْرٌ وتخمين.

دلّ عليهما قوله تعالَىٰ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

- ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١﴾

بقي احتمال أن يكون للمشركين في مزاعمهم الشركيَّة، وأقوالهم الباطلة، مُسْتَمْسَكٌ يَسْتَمْسِكُونَ بِه من كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ، وقد جاءت هٰذِهِ الآيةُ تَطْرَحُ عليهم دون مُواجهتهم بالخطاب سؤالاً يتضَمَّنُ ما يلي:

بل هل آتاهم ربُّهم كتاباً من قَبْلِ القرآنِ يشْتَمِلُ على ما يَدُلُّ على مزاعمهم الشّركيّة، وأقوالهم الباطلة، فَهُمْ بمَا فَهِمُوا من هذا الكتاب الرَّبَّانيّ مُسْتَمْسِكُونَ؟!!

والجوابُ الذي يَدُلُّ عليه بُرْهانُ الواقع: هو أنَّهم لَيْسَ لديْهم أيُّ كتابٍ رَبَّانِيٍّ من قبل القرآن يستَمْسِكُونَ بِهِ، وفيه ما يزعُمون.

فَسَقَطَتْ كُلُّ الاحتمالات الّتِي يُمْكِنُ تَصَوُّرُها ذِهْناً، والّتِي يُمْكِن أن يتذَرَّعَ بها المتذرّعون.

مستمسكون: أي ممسكون بقوة وشدّة، الإمساك: القبض باليد، ويأتي كناية عن الاعتقاد والعمل.

إذَنْ: فما هي ذَريعَتُهُم التي جَعَلَتْهُمْ يُصِرُّونَ على ما هم فيه من شرك وأقوال باطلة؟!!.

لقد أجابت الآيَةُ التاليَةُ على هٰذا السُّؤالِ:

- ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أُمَّة: المرادُ بهذا اللَّفْظِ هُنَا الطريقةُ والمِلَّة.

أي: ليس لهم أيُّ حُجَّةٍ يَحْتَجُونَ بِهَا إلاَّ تقْلِيدُهم لآبَائِهِمْ، وهو في الحقيقة تقليدٌ أعْمَىٰ. لكنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أنَّهم بالسير على آثار آبائهم مُهْتَدُون، وهم في الحقيقة ضالُّون.

المعالجة السادسة:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) قوله حكايةً لاستمرار المشركين على ما كانُوا عليه:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾: أي: ما زال المشركون حتَّىٰ قُرابَةِ أواخر العهد

المكيّ مُصِرِّينَ علَىٰ زعْم أنَّ الملائكة بناتُ الله، دَلَّ على هذا استعمال الفعل المضارع ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ الدّالِ على التجدُّدِ والتكرار.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي: تَنَزَّه الله وتعالَىٰ عمّا يقولون.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾: أي: ويجعَلُونَ لِأنفسهم الذكور، فيتفاخرون بأولادهم من الذكور، استجابة لما يشْتَهُون، من أن يكون لهم من أولادهم أنصارٌ وأعوان ذوو قُوَّةٍ وَبأْسٍ، وقدرة على أعمال الكسب والحرب.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾: أي: وإذا أُخْبِرَ أحَدُهم بالمولودة له الأُنْثَىٰ، أي الّتي كان يتخوَّفُ أن تُولَدَ له، فَهِيَ ماثلَةٌ في تصَوُّرِه حذراً وكراهية، ولهذا جاء تعريف اللفظ بـ«ال».

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾: أي: بقي طَوال يَوْمِه مُكْفَهِرَّ الْوَجهِ، تدور فيه غشاوة ذاتُ سواد من غيظه، أو يَشْعُر أنَّ قومه يَرَوْنَ وجْهَهُ أسْود، إذْ وُلِدَتْ له مولودةٌ أنْثَىٰ.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: وهو مُمْسِكٌ على ما امتلأَتْ به نفسُه من غيظٍ أو غضب.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾: أي: يستَتِر من قومِه فلاَ يَظْهرُ لهم من قُبحِ مَا بُشِّرَ به، إذْ بُشِّرَ بمولودة أنْثَىٰ.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾: أي: يُحَدِّثُ نَفْسَهُ مُتَسَائِلاً: ماذا يَفْعلُ بهذا المكروه الحيِّ الذي بُشِّرَ به؟.

إنّهما أمران أحلاهما مُرٌّ:

الأمر الأول: أن يُمْسِكَهُ وَيُضِيفه إلى مواليده صابراً علىٰ الذُّلِّ الذي نزل به.

الْهُونُ: الذُّلّ.

الأمر الثاني: أن يتخلَّصَ مِنه بالوَأْدِ، بأنْ يَدُسَّهُ، حيًا في التُّراب.

وقد كانت هذه الشنيعة من أعمال الجاهلية عند بعض العرب.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: «ألاَ»: أَداة استفتاح وتنبيه بقوّة، وفيها معنى تأكيد لزُوم استماع الكلام الآتي بعدها. «سَاءَ» فعل ذَمٍّ وتقبيح.

«مَا يَحْكُمُون» أي: قَبُحَ قبحاً شنيعاً ما يحكمون من أحكام باطلةٍ فاسدة، جَرَّتْهُمْ إلى كراهية المواليد من الإناث، وأحكامٍ باطلةٍ جعلَتْهُمْ ينْسُبُون إلى الله البنات بالولادة أو بالتبنّي ممّا خلق.

فأضاف هذا النصّ قبيحة وأْدِهم للبنات وهم يجعلون لله البنات.

المعالجة السابعة:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) قوله يصف الملائكة ويبيّن أنّهم عبادٌ مُكْرَمُون يخافون ربهم ويفعلون ما يأمرهم به، فهم بأمْرِه يعملون:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

- ﴿وَلَدًا﴾: الْوَلَدُ، والْوُلْدُ: كُلُّ مَا يُولَدُ، يطْلَقُ على الذكر والأنثىٰ، الواحد، والمثنىٰ، والجمع، ويُجْمَعُ على أوْلادٍ وَوِلْدة.

- ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾: أي: وقال المشركون اتَّخذ اللَّهُ الملائكةَ أولاداً له، وقد جاء في العبارة اسم الله الرحمن، ولو كان المشركون لا يُؤْمِنُونَ بهذا الاسم، لأنَّ اللَّهُ هو في الحقيقة الرَّحْمٰن شاء المشركون أم أَبَوْا.

- ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي تنزّه جلّ جلاله عن الولد.

- ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾: أي: بل الملائكة عبادٌ من العباد المملوكين لله، وهم مُكْرَمُونَ، أي: ذَوُو منزِلَةٍ عاليَةٍ عنْدَ رَبّهم.

- ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾: أي: لا يقول الملائكةُ قَوْلاً لم يأمُرْهم الله بقَوْله، أو لم يأذَنْ لهم بقولِهِ، فهم في أقوالهم مطيعون لربّهم طاعَةً تامَّةً كامِلةً، جاء في هذه العبارة التعبير عن الطاعة التامَّة بَعَدم السَّبق، وهو كناية عن كمال المتَابَعِة، لأنّ السابق يتقدم فينفرد بنفسه في اختيار طريقه.

- ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾: أي: والملائكة بأمْرِ الله وحْدَهُ يَعْملُونَ، فلا يعملون بأمر غيره، دلَّ على القصر تقديم المعمول وهو «بأمره» على عامله، وهو «يَعْمَلُونَ» وهذا التقديم يُفِيد القصر.

فدَلَّ هَذَا النصّ على أنَّ تصرفات الملائكة القوليّة والعمليّة خاضعة خضوعاً تامًا بعبوديَّةٍ كاملةٍ لله جلّ جلاله، إذْ خلَقَهم الله جُنودَ طاعة، ولم يخلُقْهم ليختبر إرادَاتهم الحرَّةَ فيما آتاهم، كما خلَق الإنْسَ والجنّ.

- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي يعْلَمْ ما بين أيديهم، وهو كُلُّ ما سبَقَ في الماضي، ويعْلَمُ مَا خَلْفَهُمْ، وهو كُلُّ مَا سَيأْتي في المستقبل. ويعلم أيضاً كُلَّ ما في أمكنة الوجود أَمَامَهم، وكُلَّ مَا في أمكنة الوجود خلفهم، لا تخفَىٰ عليه خافية.

وهذا يدُلُّ على أنه لا يستطيع أحَدٌ من الملائكة أَنْ يقول قَوْلاً أو يَعْمَلَ عَمَلاً إلاَّ بأَمرِ اللَّهِ أو بإذْنه، لأَنَّهُمْ جُنودٌ مفطورون علَىٰ الطاعة، وأقوالهم وأعمالهم أثرٌ لأقوال الله وأعماله، بخلاف أقوال الإنس والجنّ وأعمالهما، إذِ الإنْسُ والجنُّ قَدْ وُضِعوا موضع الامتحان، ليحاسَبُوا ويجازَوْا على أَعْمالهم وأقوالهم، فكان من لازم ذلك أن يُمَكَّنُوا من طاعةِ اللَّهِ وَمِنْ معصيته.

- ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾: دلَّت هذه العبارة على أنَّ للملائكة شفاعة، ولكنّهم لا يشفَعُونَ إلاّ بإذْنِ الله، ولِمَنِ ارتضَىٰ أن يشْفَعُوا له، وفي حدود ما يُرْضِيه مِنْ قَوْلٍ في شفاعَتِهِمْ.

وشفاعة العباد بعضِهم لبعضٍ عند ربّهم، هي دُعَاءٌ يسأَلُون الله به شيئاً يَنْفَعُ مَنْ يشفَعُونَ له عنده، كَمَغْفِرَةٍ، وعَفْوٍ ورفْعِ درجةٍ.

- ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾: أي: والملائكة هم من الخوف من عقوبة الله خائفون.

يقال لغة: خَشِيَ، أي: خاف. ويقال: أَشْفَق، أي: خاف.

ولكنّ الخشية من الله فيها معنى الخوف الممزوج بالإجلال والإعظام والحبّ، وليست مجرّد خوف.

- ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾:

أي: ومَنْ يَقُلْ من الملائكة إنّي إلَٰه مِنْ دُونِ اللَّهِ فإنَّهُ يُطْرَدُ من صفوف الملائكة، ويُبْعَدُ عَنْ دَائرة رَحمة الله، وذلك المطرود يجزيه الله عَذَابَ جهنم.

هذا قانون الجزاء بشكل عامٍّ، وإنْ كان الملائكة معصومين عن معصية الله عزّ وجلّ بالفطرة، فلَنْ يقول أحَدٌ منهم: إنّي إلَٰهٌ من دون الله، ولكنّ قانون الجزاء الرَّبّاني يُعْلَنُ على الجميع، ولا يُعْفَىٰ منه أحَدٌ.

وهذا نظير الوعيد الذي وُجّه للرُّسُل بشدّة إذا أشركوا أوتَقَوَّلُوا على الله، مع أنّهم معصومون بعصمة الله لهم، وفي بيان هذا تحذيرٌ شديدٌ لغير المعصومين الذين ليس لهم خصوصيّاتُ قُرْبٍ من الله.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: كذلِك الجزاء بعذابِ جهنم نَجْزِي كُلَّ الظَّالِمِينَ الَّذِين يَظْلِمُونَ بادّعاء الإلَٰهيَّة لأنفسهم، أو لغيرهم من دون اللَّهِ عزّ وجلّ.

المعالجة الثامنة:

ثمَّ أنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ في أواخر العهد المكيّ قوله في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/٧٦ نزول) وهذا آخر ما أنزل من قرآن حول هذا الموضوع:

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾؟!

وقد ختم اللَّهُ عزّ وجلّ بهذا عِقْدَ الموضوع مصوغاً بأُسْلُوبٍ يُشْبِهُ النَّصّ الذي بدأَهُ بِهِ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/٢٣ نزول) وهو قول الله فيها: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾؟!

وبهذا ارتبط طرفا عقد الموضوع بقُفْلهما ارتباطاً فنّيّاً جميلاً، ونُظِمَتْ حبّاتُ عقد الموضوع على سمطها في مراحل التنزيل نَظْماً تكاملياً بديعاً، يدركه المتدبّر المتفكر في عناصر المعالجة الفكرية والإقناعية، والنفسية القائمة على الموعظة بالترغيب والترهيب.

خلاصة العناصر التربوية التي اشتملت عليها هذه النصوص

بعد تدبُّر هذه النصوص الّتي اشتملت على معالجة المشركين حول عقيدتهم في الملائكة، يحسنُ أن نُقَدّم خلاصَةً عن العناصر التربويَّة التي تُسْتَفاد منها:

العنصر الأول: الاستفهام الإنكاري الذي يتضمّن التقريع والتوبيخ للمشركين، إذ يستمسكون بمعتقداتٍ فاسدات لا يملكون لإثباتها أيّ دليلٍ فكريٍّ، أو حِسّيٍّ، أو خَبَرِيٍّ عَنِ الرَّبّ الخالق، بل الأدلّة العقليّة والخبريَّة الصحيحة الصادقة تُثْبِت نقيض هٰذِهِ المعتقدات.

العنصر الثاني: بيان الحقيقة والواقع، بآياتٍ منزّلات من لَدُنْ من هو خالِقُ كلّ شيء ومالِكُهُ، والعليمُ بكلّ شيءٍ، فهو وحده الّذِي يجب على الناس عقلاً أن يعتمدوا على خبره في الكائنات الغيبية، التي لا يملكون وسيلة عقليَّة، ولاَ وَسيلةَ حِسِّيَّةً يتعرّفون بها على حقيقتها.

العنصر الثالث: بيان بطلان قياسهم اللَّهَ الرَّبَّ الخالق الأزليّ الواحد الأحد، على أنفسهم في أن يكون له وَلَدٌ سبحانه، وأشدّ من ذلك سقوطاً وبطلاناً ومفارقة عجيبة، أن يجعلوا مواليد الله عزّ وجلّ من صنف الإناث، مع أنّهم يحبُّون لأنفسهم الأولاد الذكور، ويكرهون البنات، حتى إنّ أحدهم كان إذا بُشّر بالمولودة الأنثى ظلّ وَجْهُه مُسْوَدّاً وهو كظِيمُ يحبسُ في نفسه غيظه وغضبه، ويتوارىٰ من قومه من سوء ما بُشِّرَ به، وحتَّىٰ كان بعضهم يَئِد بنته في التراب تخلُّصاً من عارها أو من نفقتها.

العنصر الرابع: إقامة الدليل على أنّ الله عزّ وجلّ لا يمكن عقلاً أن ينفَصِل منْهُ جزءٌ وَأن يَكُونَ له ولَدٌ، لأنَّ ذَلِكَ يتنافَىٰ مع أزليّته، ووحدانيته الّتي قام عليها برهان العقل، وشواهد وحدة نظام الكون.

العنصر الخامس: بيان أنّ ادّعاء المشركين أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ ولَدَ أولاداً انفصلُوا من ذاته إفْكٌ وكذبٌ على الله، افْتَرَوْهُ من عند أنفسهم، وقد تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

العنصر السادس: بيان أنّ من زعموهم ملائكة إنما هم في الحقيقة جنٌّ عبَدُوهُمْ من دون الله، ويشهد بذلك الملائكة أنْفُسُهم يوم الحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء.

وقد دلَّت نُصُوصٌ موزّعَةٌ في القرآن حول الجنّ أنَّ الكَفَرَة منهم يتَّصِلُونَ بإخوانهم من الإنس، فيوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

ومن الربط بين النصوص نفهم أن من هؤلاء الكَفرة من الجنّ من يزعمون لقرنائهم من الإنس، أنهم ملائكة، وليْسُوا بِجِنّ، ليُلَبِّسُوا عليهم، وليرفَعُوا مكانة أنفسهم لديهم.

العنصر السابع: قد يدَّعي بعض المشركين أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ خلَقَ الملائكة إناثاً، ثمّ تَبَنَّاهُنَّ، فهُنَّ بناتُ اللَّهِ بالتبنّي.

وَهُنَا يُبَيّن الله عزّ وجلّ كذبهم في هذا الادّعاء، ولمَّا كان هذا الأَمْرُ لا يَثبُتُ إلاَّ بالمشاهدة، أو عن طريق الخبر عن الله، فالله عزّ وجلّ يطالبُهم بإثبات مشاهدتهم إن زَعَمُوا المشاهدة، وبتقديم سلطانهم الخبريّ عن الله إنْ زَعَمُوا أنَّ لَهُمْ دليلاً خبريّاً عن اللَّهِ يُثْبِتُ ذلِكَ.

العنصر الثامن: تكذيبهُمْ في ادّعائهم أنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّرَ عليهم قَدَراً جَبْرِيّاً أن يَعْبُدوا الملائكة. وأبَان الله عزَّ وجلَّ أنَّهم يُخْرُصُونَ، وأَنَّهُمْ ليس لهم بذلك علْم ما.

(١٣)

الملحق الثالث

سياسة الداعي في أحوال المدعوّ الذي لم يستجب

الأصل في الداعي إلى الله أن يبلّغ دين الله، ويصْدَعَ بهِ النفوس مجاهراً بما أمَرَهُ الله بتبليغه، ويُنْذِرَ من لم يستجب، ويخوّفه من عذاب الله، ويُتَابعَ دعوةَ من يَدْعوهم بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالّتي هي أحسن، ويراجعهم بالبيان والإقناع بالحجة والبرهان، والتذكير بما سبَقَ به البيان، مع الترغيب والترهيب، واتخاذ مختلِف وسائل الإيناس والتودّد، دون يأس ولاَ سَأم، مهما بقي لدى الداعي أمَلٌ بنَفْع الذّكْرى.

هذا ما اقتضاه قول الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

ومعلومٌ أنّ الإنذار لا بُدّ أن يسبقه التبليغُ، والدَّعْوة الرّصينة الرَّشيدةُ بالحكمة، والموْعِظَة الحسَنَة، والجدالِ بالّتي هي أحسن، إذا اقتضى الإقناع ذلك، وقد ذُكِرَ الإنْذارُ باعتباره آخِرَ المراحل، ليَدُلَّ باللُّزُوم الذهنيّ على ما يَنْبَغي أن يَسبقه، وقد يُلَوِّحُ بالإنْذَار مع أوائِلِ مراحل التَّبليغ للتنبيه بقوَّة،

ولَفْت الأنظار، واستثارة مشاعر الخوف التي تفتح البصائر للإدراك السليم.

لكن إذا انقطع الرجاء باستجابة الشخص المدعوّ، أو الجماعة الخاصة المدعوّة، وانقطع الأمل بنفع التذكير، وظهر الإصرار العناديُّ على الرفض، فمن الخير للداعي أن يوفّر وقته وجهده، لينفقهما في آخرين لم تُثْبِت المعالجة أنَّهُمْ ميْؤوسٌ منهم.

دَرَكاتُ عدم الاستجابة

أمّا دركاتُ عدم الاستجابة الّتي دلّ عليها القرآن المجيد فهي ستّ دركات:

الدركة الأولى: لَيُّ الرَّأسِ، وهي حركة دون حركة الإعراض، وقد تكُونُ مقدّمةً لها، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ بشأن طائفة من المنافقين، في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

الدّرَكَةُ الثانية: الإعراض، وهو إعطاء الجانب، فهو منْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بين الإقبال والإِدْبار.

وعُرْضُ الشيء في اللّغة جانبه، وعارضا الإنسان صَفْحتا خَدَّيْه.

وممّا دلّ على دَرَكة الإعراض في القرآن قول الله عزَّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾.

الدركة الثالثة: النأيُ بالجانب مع الإعراض، فَهُما حركتان، أولاَهما إعطاء الجانب وصَرْفُ الوجه عن المواجهة، وثانيتهما الابتعاد عن مجلس الداعي مع الإعراض.

وقد دلَّ على هذه الدركة قول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

الدركة الرَّابعة: الإدْبار، ويكون بإدارة الظهر إلى الداعي وإعطائه الدُّبُر، وَهو أشدّ من النأي بالجانب مع الإعراض.

دلّ على هذه الدّركة قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) في الآيات التي وصفت الوليد بن المغيرة:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾

الدركة الخامسة: النَّأيُ مَعَ الإدْبار، فهما حركتان أُولاَهما إدارة الظهر وإعطاء الدبر، وثانِيَتُهما الابتعداد بالجسم كُلّه عن مَجْلِس الداعي مع الإدْبار.

وقد جاء التعبير عن هذه الدركة بالجمع بين الإدْبار والتولّي.

التولّي في اللّغة: يأتي بمعنى الابتعاد والنأي، ويأتي بمعنى الإدبار، فإذا اجتمع اللفظان في عبارة واحدة، كان التولّي بمعنى النأي والابتعاد. وكذلك إذا اجتمع التولّي والإعراض في عبارة واحدة، وقد يأتي التولي بمعنى الابتعاد مع الإدْبار.

وقد دلَّ على هذه الدركة ما جاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) حكاية لمقالة مُؤمن آل فرعون لفرعون وملَئِه:

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وقد دَلَّ عليها فِعْلُ: «وَلّىٰ» وفِعْلُ «تولّى» دون اقترانٍ بما يدلُّ على الإدبار، نُصُوصٌ قرآنية كثيرة، ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾: أي: وَمَنْ أدبَرَ وابْتَعدَ عن طاعة الرسول ﷺ.

وهذه الدّركة قد يُطْلَقُ علَيْها في القرآن الهجر، ومنه ما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾

أي: أدْبَروا عنه وابْتعدوا ابتعاداً كلّيّاً.

الدركة السادسة: العِدَاء والتصدِّي للمقاومة والحرْب، وقد دلَّ على هذه الدركة نصوص كثيرة، منها قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾

الشقاق: العداوة والخِلَاف.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

التوجيهات القرآنية بشأن سياسة الداعي

وقد جاءت التوجيهات القرآنيّة للدَّاعي، بالنسبة إلى أحوال المدعوّ الذي لم يستجب للدعوة في نصوص متعدّدة مع مراحل الدعوة.

التوجيه الأول:

ما جاء في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾. أي: فذكّرْ أيّها الدّاعي المذكّر بمَا سبَقَ أنْ بلّغتَهُ عن ربّك، ودعَوْت إليه، وبَيَّنتَهُ بأدِلّتِه وبراهينه، وبما سبقَ أنِ اسْتَثَرْت به مِحْوَرَي الخوف والطمع بالترغيب والترهيب، ما بَقِي لديْكَ أملٌ باستجابة من تُذَكّرُهُ، وإنْ كان أملاً ضعيفاً مشكوكاً بتحقُّقِهِ، أخذاً من حرف «إنْ» في قوله تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أو نقول: إنْ نَفَعَتِ الذكْرَى السابقة أقلّ نفع، وأثّرت أدنىٰ أثر.

الذِّكْرَىٰ: اسم للتذكير.

وجاء في هذا التوجيه بيان أنَّ الذِّكْرَىٰ ستَنْفَعُ من يكُون في نفسه خوفٌ وخَشْيَة، فإذا استشعر الداعي ذلك فليتّخِذ إلى نفس من يدعوه أو يُذَكِّره مثيراً يسْتثير به كوامِنَ الخشية لديه إن بقيت لديه منها بقيّة.

التوجيه الثاني:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾

أي: فاكتفِ بالنسبة إلى هذا المتولّي المدْبر بِمَنْزِلَةِ الإعراض فقط، وهو الحالة الوسطىٰ بين المواجهة والإدْبار، بشَرْط أن يكون قَدْ ثبت لكَ بالمعالجة المتكرّرة أنّهُ لم يُرِدْ إلاّ الحياة الدنيا.

التوجيه الثالث:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) قوله لرسوله ﷺ، ثم لكل داع إلى الله من أمّته من بعده:

﴿... وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: فتابعْ تَذْكِيرَكَ بالقرآن من تتفرّسُ فيه أنه يخاف وعيد الله بعذابه العاجل أو الآجل.

ويُفْهَمُ من هذا أنّ من تَتيقّنُ أنّه لا يخاف وعيد الله فإنّ التّذكير لا ينفَعُ فيه.

التوجيه الرابع:

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قوله بشأن إصرار من أصَرَّ على التكذيب واتّباع الهوى من مشركي قريش:

﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ . . .﴾

فوجّه الله عزّ وجلّ في هذا النَّصّ رَسُولَهُ وكلَّ دَاعٍ إلى الله من أمَّته للأخذ بسياسة التَّولِّي عن الْمُصِرّين المعاندين، الّذين بلَغ من عنادهم أن يُعْرِضوا عن كُلّ آيَةٍ رَبَّانيَّةٍ يَرَوْنها، قائلين بشأنِها سِحْرٌ مُسْتمر، ومُكَذِّبين رسولَ رَبِّهم، ومُتَّبِعين أهواءهم.

التوجيه الخامس:

ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) على رسوله بشأن المصرّين على عدم الاستجابة لدعوته، من مشركي قريشٍ الّذين لَمْ يَبْلُغوا مبْلَغَ دركة الْهَجْر والعداء والصّدّ عن سبيل الله:

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾.

فوجَّه الله رسوله وكلّ داعٍ إلى الله من أمته للأخذ بسياسة الْعَفْو والأمْرِ بتقديم المساعدات لذوي الحاجات استعطافاً لقلوبهم، والإعراض عن الجاهلين، وعدم الاندفاع لمقابلة السيِّئة بمثلها، استجابَةً لنَزْغ الشيطان، معَ الاعتصام بالاستعاذة بالله.

واقتصر هذا النّص على التوجيه للأعراض. لأن المدعوّين المشار إليهم في النَّصّ لم يَبْلُغوا مبلغ الْهَجْرِ والعداء.

التوجيه السادس:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) قوله:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

فوجّه الله في هذه الآية إلى اتّخاذ سِيَاسَةِ أمْرِ الدَّاعي المدعُوِّين بأنْ يَنظُرُوا بأنفُسِهِمْ إلَىٰ ما في السَّماواتِ والأرْضِ مِنْ أياتٍ دالأّتٍ على أن الله عزّ وجلّ واحدٌ في رُبُوبيّته، وواحِدٌ في إلَهيَّتِه. وعلى ما في الأرْضِ مِنْ آثار المُهْلَكِين الأوَّلِين الَّذين كذّبُوا رُسُل ربِهم، دون أن يَتَّخذ مَعَهُمْ سياسة التذكير والبيان.

ولا بُدَّ أن يكون هذا الفريق من الذين رفَضُوا الاستجابة للدَّعوة، بعْدَ أنْ توارَدَتْ عليهم الآيات المتتابعاتُ المتلاحقات، ثُمَّ لم تُؤثّرْ فيهم أثراً إيمانيًا، وبذلك تكون التجربة قَدْ أثبتَتْ أنّهم لا تَنفَعُ فيهم الآيَاتُ المقنعات، ولاَ النُّذُرُ المرهبة. وهذه أمارة تَصْلُح لأَنْ يُعَامَلُوا مَعَها بالإعْرَاض.

﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾: أي: ومَا تَكْفِي الآيَاتُ والنُّذُرُ صارفَةً عَقَبَاتِ العِناد والإصرار على الكفر عن نُفُوسِ قَوْمٍ لَيْسَ لدَيْهِمُ الاستعدادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، ولا الرغبَةُ في معرفة الحقّ واتّباعه، والتَّخلّي عن أهواء نفوسهم وشهواتها.

التوجيه السابع:

ثم أنزل الله عزّ وجل في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قوله لرسوله ﷺ:

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

الصَّدْع: الشّق. والمرادُ الجهر بشدّة في تبليغ دين الله، لشقّ جدار مشركي مكة إلى غيرهم، مع الإعراض عنهم.

ولم يأمر الله رسوله في هذه المرحلة بأن يتَولّىٰ عن المشركين تولّياً كُلّيًا، لأنّ حالة بعضهم لم تَصِلْ إلى مستوىٰ اليأس الكامل من استجابتهم.

أمّا المستهزئون منهم فقد اتَّخَذَ الله أسباباً أهلكهم بها، وقد جاء بيانهم في كتب السّيرة، وقال لرسوله في هذا النصّ بشأنهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ وهم خمسة من رؤوساء أهل مكة: «الوليد بن المغيرة ـ العاص بن وائل ـ الأسود بن المطّلب بن الحارث بن زمعة ـ الأسود بن عبد يغوث ـ الحارث بْنُ الطُّلاَطِلَة».

التوجيه الثامن

ثم أنزل الله عزّ وجل في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) قوله لرسوله ﷺ:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي. وأَنْذِرْ بالقرآن الَّذِين تتفرَّسُ فيهم أَنَّهُمْ يخافون أن يُحْشَرُوا إلى رَبّهم للحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، ويخافون أن لا يكون لهم من دون اللّهِ وَلِيٌّ، ولاَ شَفِيعٌ يشفع لهم عند ربّهم.

ويُفْهَمُ منهذا أن الّذين لا يخافون هذا الحشر فإِنْذارُهم بالقرآنِ لا يُؤثّر فيهم.

التوجيه التاسع

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافات/٣٧ مصحف/٥٦ نزول) قوله لرسوله بشَأْن الَّذِين أصَرُّوا على الكفر والعناد ومشاقّة الله ورسوله:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

فوجّه الله رسوله في هذا النَّص لأن يتولّىٰ عن المشركين الذين أصَرُّوا على كفرهم وعنادهم، ووقوفهم موقف الشقاق من الرسول ودعوته، وموقف التّصَدِّي للمقاومة والحرب.

وهذا التوجيه مقدَّمة لمرحلة قتالٍ قادمة، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾: أي: وكُنْ شَدِيدَ الحذر من تدبيراتهم ومكايدهم، مُراقباً تَحرُّكاتهم ببصَرٍ مُتابعٍ شديد.

التوجيه العاشر:

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) قوله لرسوله:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فتَولَّ مُدِيراً ظَهْركَ للمعاندين المصرّين على كُفرِهم، على الرُّغْم من وُضوح الحقّ الرَّبّانيّ لهم بأدلّته وبراهينه، فإذا تولَّيْت عَنْهُمْ فما أَنْت بِمَلُومٍ على تَوَلِّيكَ عَنهُمْ، وعَدَم اهتمامِكَ بِتَذْكيرهم، وعَدم مُتابَعتِكَ لمعالجتهم.

ولكن لا تَتْرُكْ تَذكيركَ لِمَنْ تَأْنَسُ منهم الاستعداد لأَنْ يؤمِنُوا مسْقبلاً، ولو باحتمالٍ ضعيف، فإنَّ الذّكرَىٰ تَنْفَعُ من لديهم في نفوسهم الاستعدادُ لأَنْ يؤمِنُوا مستقبلاً.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾: لفظ «المؤمنين» اسم فاعل بقُوَّةِ الْفِعْلِ المضارع، فهو يصْلُح للحال والاستقبال كالفعل المضارع،

والقرائن في هذه الآية تدلُّ على أنَّ المراد الذين لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا مستقبلاً، إذ الحديث يتعلق بتذكير الذين لَمْ يستجيبوا بَعْدُ للدَّعْوَة إلى الإيمان.

التوجيه الحادي عشر:

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قوله لرسوله فلكُلِّ داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

ففي هذا النصّ توجيهٌ لدَعْوَةِ آخَرين لم يَصِلُوا بَعْد إلَىٰ دَرَكة الرَّفْضِ والإعراض، ولم يَصِلُوا حتماً إلى دركة التولّي والشقاق والعداء والاستعداد للمقاومة والحرب.

وما جاء في هذه الآية هو الأسلوب الذي يَجِبُ اتخاذُه بالنسبة إلى كلّ مدْعُوِّين أبكار، لم يَبْلُغوا دَرَكَةَ الإعراض وعدم الاستجابة، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات، وكذلك كلُّ فرد أو جماعة لم تُظْهِرِ التجربة المتكرِّرَة عَدَم استجابتهم.

التوجيه الثاني عشر:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) قوله لرسوله:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

جاء هذا التوجيه في مقابلة الّذين أعرضوا عن آيات الله، ثم تولّوا وأصرُّوا على كفرهم وعنادهم، على الرغم من طول معالجتهم بالإقناع والترغيب والترهيب.

ولم يأمرُ الله رسوله بأن يَتولّى عنهم، لأنّهم لم يقفوا منه ومن دعوته موقف العداء والشقاق والاستعداد للمحاربة والمقاومة.

التوجيه الثالث عشر:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) قولَهُ لرسوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾: أي: إنَّما يَنْفَعُ إنْذارُكَ بِالسَّاعَةِ وَيَوْمِ القيامة مَنْ يَخْشَى السَّاعة ويخَافُ عَذَابَ الله يوم الدين.

التوجيه الرابع عشر:

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ في العهد المدني آيات الإذن بقتالِ أعداء الإسلام، فآيات الحضّ عليه، بعد أن قال لرسوله في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

والمراد بالذين كفروا هم عُتَاةُ مشركي مكة الّذين قاوموا دعوة الرسول واستعدوا لمحاربته.

* * *

سُورة عبس

٨٠ مصحف ٢٤ نزول

وهي مكيّة كلّها

(١)

نص سورة عبس وما فيها من فرشيات القراءات

سورة عبس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ
(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ
تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨)
وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن
شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى
سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَىِّ
شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ
(٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ
أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥)

---

٤ - قرأ عاصم [فَتَنفَعَهُ] بالنصب.
- ● وقرأ باقي القراء العشرة: [فَتَنفَعُهُ] بالرفع.

٦ - قرأ نافع وابنُ كثير وَأبو جعفر: [تَصَّدَّىٰ] بتشديد الصاد، أصلها تَتَصَدَّى.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿تَصَدَّىٰ﴾ بصاد مفتوحة غير مشددة.

١٠ - قرأ البزي [عَنْهُ تَّلَهَّىٰ] في الوصل مع المدّ المشبع.
وقرأ باقي القراء العشرة ﴿عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾.

٢٥ - قرأ عاصم وحمزة والكِسائي وخلف: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ بِفَتْحِ الهمزة.
- ● وقرأ رُوَيس بفتح الهمزة وصلاً وكَسْرِها ابتداءً.
- ● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إِنَّا صَبَبْنَا] بكسر الهمزة.

ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا (٢٦) فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا (٢٧) وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا (٢٨)
وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا (٣٠) وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا (٣١) مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ
وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ
(٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ
يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ (٣٧) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ (٣٨) ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ
(٣٩) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (٤٠) تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ (٤٢)﴾.

(٢)

ممّا رُوي في سبب نزول سورة «عبس»

جاءت قصّة سبب نزول هذه السورة في عدّة روايات متفقة في أصل محتواها، ومختلفة في بعض تفصيلاتها.

والقصةُ تَدُور حول أنّ الرسول ﷺ كان في مكة يدعو إلى دين الله بعض عُظَماء قريش، ويناجيه سرّاً، لمَا في المناجاة من تأثير أوقع في نفس المدعُوّ من الجهر بالخطاب، وقد طمع الرسول ﷺ أن يستجيب من كان يناجيه.

وفي هذه الأثناء أقبل ابْنُ أُمّ مكْتُوم، وهو رجُلٌ أعْمَىٰ من المسلمين الأوائل، وهو أَحَدُ بني عامِرِ بْنِ لُؤَيّ، والمشهور أنّ اسْمَهُ «عبد الله» ويقال: اسْمُه «عَمْرو» كما ذكر ابن هشام في السّيرة وغَيْرُه. فجعل هذا الرجل الأعمىٰ يسألُ رسول الله ﷺ عن شيءٍ من أمور دينه، وقد تكون بعض آيات من القرآن يطلُبُ منه تلاوتَها عليه كما جاء في بعض الرّوايات، وجعَلَ يُلِحُّ على الرسول في السؤال غَيْرَ عالم بمَا يَشْغَلُ الرّسولَ عنه.

ووَدّ النبيُّ ﷺ لَوْ كفَّ عنه في ساعته تلك، وعبَسَ بوجهه، وأدار له ظهْرَه ولم يُجِبْه، واستمرَّ مع من كان يناجيه من عظماء قُرَيْشٍ طمعاً في إسْلاَمه، فأنزل الله على رسوله قوله:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾

من الواضح في هذه الآيات أنّ الله عزّ وجلّ يعاتب رسوله محمّداً ﷺ من أجل ما كان منه نحو هذا الأعْمى، ويبيّن له فيها سبب هذا العتاب، ويُعَلّمه المنْهَج الأفضل والأحسن في معاملة مَنْ يَدْعُوهم إلى سبيل ربّه، أو يُعلّمهم أو يُزَكّيهم.

وقد اختلفت الرّوايات في تعيين الشخص أو الأشخاص الذين كان الرّسول ﷺ يُناجيهم من عظماء قريش.

فالرّواية الّتي أخرجها كثير من أئمة المحدّثين عن عائشةَ أم المؤمنين رضي الله عنها، جاء فيها: وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من عظماء قريش.

وفي رواية الطبري عنها: وعند رسول الله ﷺ من عظماء قريش.

استعراض أهَمّ الروايات

(١) أخرج الترمذيُّ وحسَّنه، وابْنُ المنذر، وابن حِبَّانَ، والحاكِمُ وصحّحه، وابْنُ مَرْدَوَيه، عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت:

«أُنْزِلَتْ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١)﴾ في ابْنِ أُمّ مَكْتُوم الأَعْمَىٰ، أَتَى رَسُولَ اللّهِ ﷺ فجَعَلَ يقول: يا رَسُولِ الله أَرْشِدْني، وعِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلٌ من عُظَمَاءِ قُرَيشٍ، فَجَعَلَ رسول الله ﷺ يُعْرِضُ عَنْه وَيُقبِلُ علَىٰ الآخَرِ، وَيَقُولُ: أَتَرَىٰ بِمَا أَقُولُ بَأْساً؟ فَيَقُولُ: لا. ففي هذا أُنْزِلَتْ».

وفي رواية الطبري: «من عظماء الْمُشْرِكين» بدَلَ «رجُلٌ مِنْ عظماء قُرَيش».

(٢) وأخرج عبد الرزاق، وعبْدُ بْنُ حُمَيد، وأبو يَعْلَىٰ، عن أَنَسٍ رضي الله عنه قال:

«جاء ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وهُوَ (أي: الرسول ﷺ) يُكلِّمُ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، فأعْرَضَ عنه، فأنزل الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك يُكرِّمُهُ».

(٣) وروى الطبري بسَنَده عن ابْنِ عباس رضي الله عنهما قال:

«بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنَاجِي: (عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، والْعَبَّاسَ بْنَ المطّلِب) وكان يتصدَّىٰ لهُمْ كثيراً، ويَحْرِصُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَعْمىٰ، يُقَالُ لَهُ: (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ) يَمْشِي وَهُوَ يُنَاجِيهِمْ، فَجَعَلَ (عَبْدُ الله) يَسْتَقْرِئُ النبيَّ ﷺ آيَةً مِنَ الْقُرْآن. وقالَ: يَا رَسُولَ الله عَلِّمْنِي ممَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعَبَسَ في وَجْهِهِ وَتَوَلَّىٰ، وَكَرِهَ كَلامَهُ، وأَقْبَلَ عَلَىٰ الآخَرين.

فَلَمَّا قَضَىٰ رسُول الله ﷺ، وأَخَذَ ينقَلِبُ إِلَىٰ أَهْله، أَمْسَكَ اللَّهُ بَعْضَ بَصَره، ثُمَّ خَفَقَ بِرأْسِهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾

فَلَمَّا نَزَلَ فِيهِ أَكْرَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمَهُ، وَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ هَلْ تُرِيدُ مِنْ شَيءٍ؟. وإِذَا ذَهَبَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ حَاجَةٌ في شَيْءٍ؟».

(٤) وجاء عند ابن هشام في سيرته(١):

وقف «الوليد بن المغيرة» مع رسول الله ﷺ، ورسول الله يكلّمه، وقد

---

(١) انظر الجزء الأول ص(٣٦٣ ـ ٣٦٤).

طمع في إسلامه، فبينما هو في ذلك، إذْ مَرَّ به «ابْنُ أمّ مكتوم» الأعْمَىٰ، فكلَّمَ رسُولَ الله ﷺ وجَعَل يسْتَقْرِئه القرآن، فشَقَّ ذلك منه على رسول الله ﷺ، حتَّىٰ أضْجَرَه، وذلك أنَّه شغَلَه عمّا كان فيه من أمْرِ الوليد، وما طمع فيه من إسلامه، فلَمَّا أكْثَر عليه انْصَرَفَ عنه عابساً وتركه، فأنزل الله تعالَىٰ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةٖ ﴿١٤﴾﴾

لمحة من أخبار عبد الله بن أُمّ مكتوم الأعْمَى

- جاء في سيرة ابن هشام بشأنه أنّ الرسول ﷺ استعمله علَىٰ المدينة في خَمْس غزوَات:

(١) حين لَحِقَ الرَّسُولُ ﷺ بالمشركين بعد غزوة أُحُدٍ إلى حَمْرَاءِ الأَسَد.

(٢) وفي غَزوَة بني لِحْيَان.

(٣) وفي غَزوَةِ ذي قُرَد.

(٤) وفي غزوة بني قُرَيظة.

(٥) وفي غزوة الخندق.

- وقال ابْنُ كثير في تفسيره: وكان يُؤَذّنُ مع بلال، قال سالم: وكان رجُلاً ضَرِيرَ البصَرِ، فلَمْ يَكُ يُؤَذّن حتَّىٰ يقولَ له النّاس حين ينظرون إلى بُزُوغ الفجر أَذِّنْ.

- وقال أنس فيما روى الطبري: فرأيْتُه يوم القادسيَّة عليه دِرْعٌ، ومعه رايَةٌ سوداء.

* * *

(٣)

نظرة تدبرية حول حادثة سبب النزول وعتاب الله الرسول بشأنها

كُلُّ الدُّعاة إلى الله حتَّىٰ سَيِّدُنا رسول الله ﷺ يَقَعُ في تَصَوُّرِهم قَبْلَ التَّعْلِيم الرَّبَّانيّ، أنّ توجيه العناية الْقُصْوىٰ للمسْتَغنين بأمْوالِهم أو مكاناتهم الاجتماعيّة من رافضي الدّعوة الذين لم يستجيبوا لها، يقع في المرتبة الأولى من الأولويّات في مجال دَعْوة النّاس، دون ضعفاء المستجيبين لها، الّذين آمنوا واتّبعوا، وهم بحاجة إلى مزيد من التثبيت والتزكية بالطّهارة من أرجاس الاعتقاد والعمل، وبحاجة إلى التزكية بالنَّمَاءِ في المعرفة الدّينيَّة، والسُّلُوك الأتْقَىٰ والأبرّ والأحْسَنِ، أو بحاجة إلى تذكير نافع.

فإذا كان الدُّعَاةُ مُهْتَمِّين بالاشتغال في دعوة المستغنين بأموالهم أو بمكاناتهم الاجتماعيّة، طمعاً في هدايتهم واستجابتهم، لأنّهم إذا استجابُوا استجاب من ورائهم أتباعٌ كثيرون لهم، لَمْ يُولُوا الاهتمام المطلوب بضُعفاء أتباعِهِمْ، الَّذين يجهلون ظُرُوف الداعي الّتي يكون فيها، أَوْ لا يُقَدِّرونَها حق قَدْرِها، فيسألُونَه عَنْ مسائل تُهِمُّهُمْ من أُمُور دينهم، ويُلحُّونَ في المسألة، فإذا وجَدُوا رَجُلَ دَعْوَتهم قد انْصَرَف عنهُم، ولم يَهْتَمَّ لشَأْنهم، انكَسَرَتْ قُلوبُهم، وَظَنُّوا بالدَّاعي أَوْ بدعْوَتِه سُوءاً، ورُبَّما غَضِبُوا، ورُبَّما انْصَرَفُوا عَنه وَوَلَّوْا ظُهُورهم للدّعْوة.

ولا بُدَّ أمام مِثْل هٰذا الواقع من تدارُكٍ رَبَّانِيٍّ بالتعليم والتوجيه وتَصْحِيح التَّصوُّر، وبيان لزوم العناية بالمستجيب، والاهتمام له، مهما كان من الضعفاء، أو من الذين لا يُقَدِّرون ظروف الداعي الّتي يكون فيها حقّ قَدْرِها، كأعْمَىٰ يأتي وَليس في رأسه إلاَّ حَلُّ مشكلته، والإجابةُ على مسألَته، فإذا وَجدَ الدَّاعِيَ مُنْصَرِفاً عَنه، ومُوَجِّهاً عِنايَتَهُ لغيره، ظنَّ أنَّ ذٰلِكَ بسبَب أنّه أعْمَىٰ، أوْ بسَبَبِ انْحِطاط مكانَتِه الاجتماعيَّة، ورُبَّما لم يَخْطُر أو

لا يَخْطُر في باله ما يكون الداعي فيه من حرْصٍ شديد على المصلَحة العامَّةِ فيما يرىٰ.

أمام مثْلِ هذا الموقف لا بُدَّ مِنْ بيانِ المنهج الأسَدِّ والأرْشَدِ، تعليماً لحمَلَةِ الرّسالة، دُعَاةً ومُعلّمين، وناصحين مُرْشدين، وآمِرين بالمعروف، وناهين عن المنكر.

وقد يكفي من العناية بالضعيف السَّائل بيانُ الْعُذْرِ لَه، ومطالبتُه بأن يتريَّثَ قليلاً، معَ تطييب خاطِره، وإشعاره بأنَّه محلُّ عِنايَةٍ وَتكريم، إلاَّ أنَّ الظرف الحاضر لا يسمح بقطع عَمَلٍ سابقٍ، والاشتغال بغيْره قَبْلَ الفراغ منه، مراعاةً لوظائف الرّسالة المختلفة.

أمّا تَرْكُه، والإعْرَاضُ عَنْه، وإظهارُ كراهيَّة مسألَتِه وما كانَ منْه من مقاطعةٍ لحديثٍ بَيْنه وبَيْنَ شَخْصٍ آخر، فهو أمْرٌ يكْسِرُ قَلْبَهُ لا مَحَالَةَ، ولا سيما إذا كان أعْمَىٰ لا يَرَىٰ الظَّرْفَ المحيط بحامل الرّسالة.

وَكان هذا الحدث الذي ورد في روايات قصة سبب النزول سبباً في معاتبة الله لرسوله محمد ﷺ بقُرْآنٍ يُتْلَىٰ.

وعتابُ الله لرسوله يتضمَّن توجيهاً لما هو الأفضل والأكمل، ويَقَعُ في مرتبة البِرّ، أو في مرتَبة الإحسان، بالنسبة إلى أساليب تأدية وظائف الرّسالة الرَّبانية، إذْ لم يكن من الرّسول في هذه القِصَّة ما ينافي في مرتبة التّقوى، بل كان يقومُ بعمل عظيم من أعمال وظائِفِ رسالته، ضمن حدود ما أذن الله لَهُ به من اجتهاد، لكن اللّهَ عزّ وجلّ أبان لرسوله، ولكلّ حاملي رسالته من أمَّته، في هذا التعليم المنهج الأفْضَل والأحسن في تأدية وظائف الرّسالة الرَّبانيَّة، والذي سيأتي إن شاء الله شرحُه لدى تدبُّر النصّ.

وفي شأن هذا العتاب الذي عاتب الله به رسولَهُ ﷺ، قال بعض أصحاب رسول الله:

«لو كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِماً شَيْئاً ممَّا أنزل عليه من الْقُرآنِ، لَكَتَمَ عِتَابَ اللَّهِ له بشأن الأعْمَىٰ ابنْ أمّ مكتومٍ».

ومن الملاحظ أنَّه عِتابٌ عَلَنِيٌّ مُدَوَّنٌ في قُرْآنٍ يُتْلَىٰ، ليتعظ به حَمَلَةُ رسالة الرسول من أمَّتِه.

(٤)

موضوع السورة

تضمَّنت سورة (عَبَس) توجيه علاج تربويٍّ حول بعض عناصر المنهاج الأمثل لحامل الرّسالة الرّبّانيّة، تُجاهَ مَن اسْتَجاب للدّعوة، وتُجاه من لَمْ يستجب لها. وتوجيه علاج تربويّ فيه شدّةٌ وعُنْفٌ بإقناعٍ وتَرْهيبٍ وتَرْغيبٍ للإنسان الكافر المعاند، الذي عانَدَ وكابَر واسْتَهَانَ بِدَعْوَة الدَّاعي إلى الله، فلم يستَجِبْ لدعوته، على الرغم من أنّه بَذَل غايَة جَهْدِهِ في اتّخاذ وسائل الإِقناع والتَّرغيب والترهيب.

* * *

(٥)

دروس السورة

اشتملت السورة على أربعة دروس:

الدرس الأول: جاء فيه عتاب الرسول محمد ﷺ على ما كان منه بشأن الأعمى «عبد الله بْنِ أم مكتوم» مُتَلَهّياً عنه، وموجهاً كلّ عنايته واهتمامه لدعوة بعض عظماء المشركين من قريش وجاء فيه بيان وظيفة القرآن التي يُفْهَمُ منها وظيفة الرسولِ في دعوته للناس، وهي وظيفة تبليغ

وتعليمٍ وإقناعٍ وموعظة بالترغيب والترهيب، وتذكير متكرّر عند رجاء نفع الذكرى، وليست وظيفة تغيير وتحويل من الكفر إلى الإيمان.

وهو الآيات من (١ ـ ١٦).

الدرس الثاني: جاء فيه تقريعٌ بشدّة وعُنْفٍ للإنسان الكافر بربّه، وتعجيبٌ من شدّة كُفرِهِ وغلُوّه فيه، مع أنّه يعْلَمُ من نفسه أنّه كان نُطْفَةَ مهينة، ثم يصير إلى جيفَةٍ مستقذرة تُوارَىٰ في التراب، ويستهين بأمْرِ بعثه بعد الموت للحساب والجزاء، وَيَجِدُ حينَئِذٍ أَنَّهُ لَمْ يُنَفِّذْ مَا أَمَرَه به رَبُّهُ في الحياة الدنيا من إيمانٍ يُنجيه من الخلود في النار وعمل صالحٍ ينال به ثواباً عظيماً، ويَتَمَنّى لو يُعْطَىٰ مُدَّةً إضافيَّة قَلِيلَةً يَتدارَكُ فيها نفسه بالإيمان لينجو به من الخلود في عذاب النار، ولكِنْ لا سبيلَ إلى ذلك.

وهو الآيات من (١٧ ـ ٢٣).

الدّرس الثالث: جاء فيه عَرْض بَعْضِ مظاهر رُبُوبيَّةِ الله عزّ وجلّ للإنسان، في إمداده بطعامه الذي يُجْري الله له في كونه أسبابه، مع الإشارة إلىٰ أنَّ رُبوبيّة اللّهِ له تستَوْجب مِنْهُ أن يَشْكُر نعم اللّه عليه بالإيمان والإسلام والطاعة.

وهو الآيات من (٢٤ ـ ٣٢).

الدرس الرابع: جاء فيه عرض لقطات من مشاهد يوم القيامة فيها ترغيب وتَرْهيب، لمن كان ذا بصيرة، ولم تَمُتْ في داخل نفسه مشاعر مِحْوَرَي الطَّمَع بثواب الله والْخَوْفِ مِنْ عقابه يوم الدّين.

وهوالآيات من (٣٣ ـ ٤٢ آخر السورة).

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٦)

قال الله عزَّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦)﴾.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢)﴾.

جاء الكلام في هاتين الآيتَيْن عن الرسول محمّد ﷺ بأسلوب الحديث عَنِ الغائب، وهما تُشِيرانِ إلى قِصَّةِ الرسول ﷺ مع الأعْمَىٰ «عبد الله بن أمّ مَكْتُوم» الَّتِي سبَقَ بيانُها وَذِكْر الرّوايات فيها في فقرة [(٢) ما رُوي في سبب نزول السورة] والنَّصُّ يعاتب الله فيه رسوله على الحادثة التي كانت منه. والكلام العتابيُّ للرسول الذي جاءَ بأسلوب الحديث عن الغائب، يَلْمَحُ فيهِ الّذي يمارِسُ أَسَالِيب التربية، معنَىٰ تربية اللّهِ لرسُولِه فِي أسْلُوب الخطاب، بما يُشْبِهِ تَوَلِّيَ الرَّسُول عن الأعمى، وهذا من روائع الأدَبِ القرآنيِّ الرَّفيع، ومن بدائع أساليب التربية.

لم يَقُل الله لرسوله عبَسْتَ وتَوَلّيْتَ أَنْ جاءكَ الأعْمَىٰ، كَما قَالَ لَهُ بشَأن الذين اسْتأذَنُوهُ في عَدَمِ الخروج معَهُ إلى غزوة تبوكَ، إذْ قال له كما جاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

لأنّ عتابَ الله للرسول في قِصَّتِه مع الأعْمَىٰ، وهو يُوجِّه عنايتَهُ الفائقَة لدَعْوَةِ بعض عظماء قريش، مع شِدَّة حِرْصِه على هدايتهم، أشَدُّ مِنْ عِتَابِهِ له على إذْنِه للرَّاغبين في التخلُّفِ عن غزوة تبوك، فقد كان مُعْظَم المعتذرين منافقين، والمصلَحةُ في عدم الإذن لهم تَظْهَرُ بكَشْفِ وفَضْحِ نفاقِهِمْ وكذِبِهِمْ في معاذيرهم، ويقابِلُها أنَّهَمْ لَوْ خَرَجُوا مع جيش الرسول مَا زَادُوا في المسلمين عدداً صحيحاً، إنّما يزيدونَهَمْ فساداً وإفساداً، وهذا أمْرٌ جَدِيرٌ بالملاحظة، وعُذْرُ القائد في اختيارِه عُذْرٌ واضِحٌ، وفيه تحقيق لمصلحة عظمىٰ، إلاَّ أَنَّ عدَمَ الإذْنِ لهم قد كَانَ أكْثَرَ رُجْحَاناً، وهُوَ ما أرشَدَ اللَّهُ إليه في العتاب.

﴿عَبَسَ﴾: تقولُ لُغةً: عبَسَ الرَّجُلُ يَعْبِسُ عبْساً وعُبُوساً، إذا كَلَحَ وجْهُهُ، وتَقَبَّضَ عَنْ كَرَاهِيَةٍ واستياء.

وتَقُولُ أيضاً: عَبَسَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إِذَا جَعَله بإرادَتِهِ مُنْقَبِضاً عن تكرُّهٍ واستياء.

فالفعل يأتي لازماً ومتعدّياً، ويُمكن حَمْلُ ما جاء في الآية على الأمرين كليهما، فَوَجْهُ الرَّسُول عبَسَ بحركة غير إرادية، ثُمَّ عبَسَ الرُّسُول وَجْهَهُ بحركةٍ إرادِيَّةٍ.

ويُلاحَظُ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ كشف ما كان من الرسول ﷺ من عبوسٍ، مع أنَّ عُبُوسَهُ لا يراهُ الأعْمَىٰ، ليعَلِّمَنَا أَنَّه ليس من الأدب الإسلامي أَنْ نواجه الْعُمْيَان بما يَكْرَهُونَ من أعمالٍ وحركاتٍ لَوْ كانُوا مُبْصِرين لَرَأَوْها، على أنَّهُ لا يخْلُو الأعْمَىٰ غالباً من قائدٍ يُبَلِّغُه، فيكونُ حَالُهُ بذلِكَ كَحَالِ البصير.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أي: وأدارَ ظَهْرَهُ مُدْبراً، والتولّي ضدّ المواجهة، وبينهما

الإعراض، وشرح بعض المفسّرين كلمة «تولّىٰ» بـ «أَعْرَض» فيه تَسمُّحٌ لغوي.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾: أي: لأجل أنْ جاءه الأعمىٰ فسألَهُ بَعْضَ مسائل من أُمُورِ دينه، فكَرِه أن يَشغَله عمّا هو فيه من دعْوَةٍ إقناعيَّةٍ وترغيبية وترهيبيّة لبَعْضِ عظماء قُرَيش، وهو شديد الحرص على إسلامهم.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾.

في هذا الْتفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب، فبعَدْ أن كان الكلام بأسْلُوبِ الْحَدِيثِ عن الغائبِ، لتقديم لَمْسَةٍ تَرْبويَّةٍ ضاغِطة، الْتَفَتَ النَّصُّ إلَىٰ أُسْلُوب الْمُواجَهةِ بكافِ خِطاب الحاضر، لبيان العناصر الّتي اقتضت تَرْبية الله لرَسُولِهِ بالعتاب، وبالكلام عنه بأسلوب الحديث عن الغائب.

ففي الحديث عن الرسول بأسلوب ضمير الغائب عِتَابٌ على ظاهِرَة السلوك بالعبوس والتولّي.

وفي مُواجَهَةِ الرَّسولِ بكافِ الخطاب المباشر مُراعاةٌ لمقتضىٰ العتاب على الدافع النَّفْسيِّ لمَا كان من الرسول من سلوكٍ ظاهر.

إنّ قول الله عزّ وجلّ لسَيِّدنا رسُولِ الله ﷺ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟﴾ مُوجَّهٌ لخواطرَ وَظُنُونٍ نفسيَّةٍ كانت هي الدّافع لعُبُوسه وتَوَلِّيه عن المسلم الأعْمَى، وهذه الخواطرُ والظنونُ مطْوِيَّةٌ في النَّصّ إيجازاً وتَعْميماً، لكنَّنا نستطيعُ اكتشَافها، من الاحْتِمَالاَتِ التوجيهيَّة التي طَرَحها النَّصُّ في العتاب، إذْ قالَ الله لرسوله فيه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾

ومن استقراء الاحتمالات استقراءً فكريًّا يظْهَرُ أنّها تقع في قسمَيْن:

القسم الأول: أن يكون السائل الأعْمَىٰ ثَرْثاراً ثقيلَ الظِّلِّ، من عادته أن يَسْأَل عمَّا هو عالمٌ به، كشأْن بعض الثقلاء، أَوْ أن يكون مِمَّن يُحِبُّونَ الاستمتاع بمحادثة الرسول، كشأْنِ كثيرٍ من الأتباع الَّذِين يُثقّلُون على

قائدهم، دون حاجةٍ داعيةٍ، لكنَّهم يرغبون في أن تكون لهم عِنْدَه حُظوَةٌ، وكَثْرَةُ مُخَالَطَةٍ ومُجَالَسَةٍ ومَنْزِلَةٍ قريبة، فَيَصْطَنِعُونَ المسائل اصطناعاً، ويتّخِذُونَهَا معاذيرَ لِلّقاءِ والمحادَثة، ولَفْتِ النظر إلى أنفسهم.

القسم الثاني: أنْ يكون السّائلُ الأعْمَىٰ طالِبَ استفادةٍ حقّاً، وهذه الاستفادةُ لها وُجُوهٌ من الاحتمالات:

(١) فإمَّا أَنْ تكون تَزكيةً بالنَّماءِ والزِّيَادَة في المعرفة الدينية، أو بالنَّماءِ والارتقاء في الأخلاق والسلوك الدينيّ منْ مَرْتبتَي البرّ والإحْسَان.

(٢) وإمَّا أن تكون تَزْكيَةً بالتَّطَهُّر من أرجاس الاعتقاد، أو أرجاسِ الأخلاق والسُّلوك.

(٣) وإمَّا أنْ تكون بتَذَكُّر أمْرٍ دينيٍّ هو ناسٍ له، أو غافل عنه.

وحين يكون السائل طالب استفادةٍ حقّاً، فمِنْ حقّه إجابَتُه على مسائله، والإقبالُ عليه، بالْبَيَانِ والتَّعْليم، والنُّصْحِ والتوجيه، أو بالاعتذارِ مِنْهُ، ومُطَالبَتِهِ بالتريُّثِ قَلِيلاً، أو تأجيلِه لوَقْتٍ آخَر.

وليس في العبُوس والتولّي عُذْرٌ مع هذه الاحتمالات من هذا القسم الثاني.

من هذا الاستقراء الفكريّ يتّضح لنا أنّ الخواطر والظُّنون الّتي دفَعَتْ إلى العبوس والتوَلّي، ليْسَتْ من احتمالات القسم الثاني، وإنَّما هيَ من احتمالات القِسْم الأول، ولهذا قال الله عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾: أي: وأيُّ شيءٍ يَجْعَلُكَ تَعْلَم من حال هذا الرّجل الأعْمَىٰ، أَنَّه جاء لِيَشْغَلَكَ بفُضولٍ من المسائل، التي تصرفُك عمَّا أنْتَ فيه من مُعَالجة من تُعالجه من عظماء مشركي قُرَيش، راجياً استجابته لدعوتك.

يُقَال لُغَةً: دَرَىٰ فُلَانٌ الشيءَ، ودَرَىٰ به، دَرْياً ودِرَايَةً، إذا عَلِمَه، ويقال: أَدْرَىٰ فُلَانٌ فُلاناً بِالشيء، إذا أعْلَمَهُ به.

فعبارة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾ تتضمَّن أنه ليس لَدَيْك دِرَايَةٌ، أي: عِلْم، بما ظنَنْتَهُ، أو خَطَر على بالك، إذْ لَمْ تَخْبُرْ سابقاً حال هذا الرجل، ولم يَنْزِلْ عليك بما ظننْتَ وحْيٌ، ولا توجد أماراتٌ تَدُلُّ عليْه.

والأصْلُ بقاءُ احتمالاتِ طلَبِه الاستفادةَ الحقيقيّة، وعَدَمُ إبعادها عن الملاحظة والتقدير، والأصْلُ معاملته على أساس أنّها احتمالات قائمة.

والواو في عبارة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾ استئنافيَّة. ولا أرَىٰ مانعاً من اعتبارها عاطفةً على محذوفٍ تقديره: فما حَمَلك على العبوس والتَّوَلّي؟ أظُنونٌ ظَنَنْتَها في الأعْمَىٰ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ؟!﴾⁽¹⁾ أي: وما يُعْلِمُكَ أنها ظنون صحيحة مطابقة للواقع.

وقد أبان الله عزّ وجلّ احتمالات طلَبِ الأعْمَىٰ الاستفادة الحقيقيّة بقوله تَعَالَىٰ:

﴿... لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾.

عبارة: ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ تُفِيد إمْكَان وجود هٰذه الاحتمالات الّتي ينبغي رعايَتُها، ووضْعُها في الْحُسْبان، وعَدَمُ استبعادها.

وَعبارة: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ وَأصلها «يَتَزَكَّىٰ» أدْغِمَتِ التَّاء بالزَّاي فصارتا زاياً مشدّدة، تُشيرُ إلى احتمالَيْن:

الاحتمال الأول: التَّطَهُّر.

الاحتمال الثاني: النَّماء والزِّيادة.

---

(١) لدى تتبّعي للنصوص القرآنيّة رأيت أنّ العطف على محذوف لا يَخْتَصُّ بالفاء الفصيحة، بل كلُّ حروف العطف قابلَةٌ لأن تعطفَ على محذوف، ووجود حرف العطف يفصح عن هذا المحذوف، وقد ذكرتُ هذا في كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ».

فأصل الزكاة في اللُّغة يأتي بمعاني، وهي: «الطهارة ـ النَّماء ـ الْبَرَكَة ـ المدْح» واستعملت الزكاةُ والتزكيَةَ في القرآن، بمعنى الطهارة والتطهير، وبمعنى الإصلاح والصَّلاح، وعبارة: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: فلا تَمْدَحُوها بالطهارة والصلاح.

والتزكيةُ يُرادُ بها في الغالب تَطْهِيرُ النفس وتَنْمِيتُها، وإصلاحُها، بتخليصها من الكفر والشرك والمعاصي، وتَحْلِيتُها بالإيمان الصحيح والعمل الصالح طاعةً لله، وخضوعاً له.

وعبارة ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ وَأَصْلُها «يَتَذَكَّر» أُدْغِمَتِ التاء بالذَّال فصارتا ذالاً مُشَدَّدة، تُبَيِّن الاحتمال الثالث، وهو تذكُّر ما هُو ناسيه، أو غافلٌ عنه من أمور دينه.

والمعنى: أو لعلّه يتذكّر أمراً هو ناسٍ له أو غافل عنه من أمور دينه.

«لَعَلَّ» حرف تَرْجيةٍ يعمل عَمَل «إنَّ» في نصْب الاسم ورفع الخبر.

﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ في إحدى القراءتَيْنِ، وفي القراءة الأخْرىٰ [فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى] فالرفع محمولٌ على عطف فعل «تَنْفَعُه» على فعل ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ والنَّصْبُ محمول على اعتبار أنّ الفاء هي السببيَّة، إذْ جاء قبلَها حرف «لَعَلَّ» الذي يدلُّ على التَّرْجِية.

﴿ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾: اسمٌ للتذكير، وتأتي بمعنَىٰ التّذكُّر، وتأتي اسماً للتذكِرَة (وهي الوسِيلَةُ الَّتِي تُذَكِّرُ، كالرَّتيمة).

والمعنى: أو لَعَلَّه يَتَذَكُّر فينْفَعه التذكُّر والتذكير.

أي: فتكونُ يا محمّد بإقبالِكَ عليه. وإجابَتِك لأسئلته، وعَدَم تولّيك عنه، قد تَسَبَّبْتَ في تَطْهِيره، أو تعليمِهِ ما يَجْهلُهُ من دينه، أو تَنْمِيَة فضائله الخلقيَّة والسلوكيّة، أو تذكيره ما هو ناسٍ له، أو غافلٌ عَنْهُ من أُمُور دينه، فتكونُ هذه الذكْرَىٰ نافعةً له.

فتولّي حامل الرّسالة عن طالب التزكية أو التذكير لا يصحُّ ما دامَت احتمالاتُ النَّفْع قائمةً، ولا يكُونُ هذا التولّي مقبولاً إلاَّ إذا كَانَ مَصْحوباً بدِرَايةٍ صحيحة تكشف أنّ السائل قد جاء ليشغل وقت حامل الرسالة بما لا نَفْعَ فيه، ولم يَأْتِ لينتفع في تزكية أو ذكرىٰ، ولا يكْفِي الظنُّ التَّقْدِيريُّ في هذا الأمْر وأشباهه، بوصْفه أحد الاحتمالات فقط. وهو مُعَارَضٌ بما لا يَصِحُّ مَعَهُ التولّي.

● قوله الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله:

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ . . .﴾:

في هذه الآياتِ عتَابٌ للرسُول ﷺ علَىٰ تصَدِّيه للمُسْتغني الصّادّ عن دعوة الحق، الْمَقْرُونِ بتَلَهِّيه به عن السّاعي الخائف من ربّه، الّذي هو طالبٌ للتزكية أو التذكير.

﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾: أي أصاب غِنىً بمالِه، أو بمكانَتِهِ الاجتماعيَّة، وامْتلأَتْ مشاعِرُ نَفْسِه بالاستغناء فاسْتَكْبَرَ، وأَبَىٰ أن يستجيب لدعوة حامل الرسالة.

﴿تَصَدَّىٰ﴾: أَصْلُها «تَتَصَدَّىٰ» حذفت التاء الثانية للتخفيف في اللفظ، والمعنى: تتعرَّضُ له، وتُقْبِل عليه، معتنياً به، تَحْمِل هَمَّ إقناعه، بغيةَ تحويله من الكفر إلى الإيمان، ومن الاستكْبَار إلى الإسلام والخضوعِ والطاعة.

التصدّي في اللُّغة هو فعل الذي يرفع رأَسَهُ وصَدْرَه يتصدَّىٰ للشيء يَنْظُر إليه، واستُعْمِلَ في النّصّ هنا كنايةً عن توجيه كلّ العناية لمَنْ هو المقصودُ بالتّصدّي.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾: يحتمل أن تكون هذه الجملةُ استفهاميّةً، ولفظ «ما» فيها اسم استفهام، والواو قبلها عاطفة، وأن تكون خبريَّة، ولفظ «ما» فيها حرف نفي، والواو قبله واو الحال.

● فالمعنى على كونها استفهاميّة: وأيُّ حَرَجٍ عَلَيْكَ في أن لا يتزَكَّىٰ هذا الذي استغْنَىٰ، وأَنْتَ لَهُ تتصَدَّىٰ، شديدَ الحرْصِ على إيمانه، كأنك مسؤول عند ربّك عن تحويله من الكفر إلى الإيمان ومن الاستكبار والاستنكاف إلى الطاعة والإسلام.

إنَّهُ لا حَرجَ علَيْكَ في أن لا يَتزَكَّىٰ، بعْدَ أَنْ بلَّغْتَهُ ما أَمَرَكَ الله بتبليغه، وأقمْتَ لَهُ الحجج والبراهين، ونصحتَهُ وأرْشَدْته، وحذَّرْتَهُ وأَنْذَرْته، فالاستفهام فيها استفهامٌ إنكاريٌّ.

● والمعنى على كونها خبريَّة: والحال أنَّه لا حَرَجَ علَيْكَ في أَنْ لا يتزَكَّىٰ، بعد أن أدّيْتَ وظائفَ رِسالَتِكِ على الوجْهِ المطلوب منْكَ.

إنّ حامِلَ رسالة رَبّه مسؤولٌ عن تأديَةِ وَظائفِ رسالَتِه علَىٰ ما أَمَر الله، وليس مسؤولاً عن تحويل من يؤدِّي إليهم رسالَةَ رَبِّه من التولّي والإعراض، إلى الاستجابة والاتّباع.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧﴾: المرادُ؛ بـ«مَنْ» هنا الأعْمَى «عبد الله بن أُمّ مَكْتوم».

«يَسْعَىٰ»: السَّعْيُ عَمَلٌ فَوْقَ المشي، وهو عَدْوٌ دُونَ الشَّدّ، ويأتي السَّعْيُ بمعنَىٰ الْعَمَل بهمَّةٍ وَنَشاط، وقَدْ يُراد به الهِمَّةُ النفسيَّة ولَوْ كان العملُ هادئاً فيه أَنَاةٌ وتمَهُّلٌ وسكينة، وهذا هو المقصود بالسَّعْي للآخرة.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨﴾: **يخشَىٰ**: أي: يخاف، والمراد الخوف من عذاب اللّهِ وعقابه في العاجلة والآجلة.

والخوف من اللّهِ مقرونٌ دواماً بالتعظيم والحبّ والإجلال.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩﴾: **تلَهَّىٰ**: أصلها «تَتَلَهَّىٰ» حُذِفت التاء الثانية تخفيفاً. أي: فأنت يا مُحمَّدُ تَنصَرِفُ عَنْهُ مُنْشَغِلاً بغيره.

التَّلَهِّي: التشاغُلُ، ويُقَالُ: أَلْهاهُ، أي: شغله.

واللَّهْوُ: كلُّ أَمْرٍ غَيْرِ ذي أهميَّةٍ يشْغَلُ عمَّا يَجِبُ تَوْجِيه الْجَهْدِ والْعَمَل له.

وربما يكون المشتغل بأَمْرٍ غير ذي جَدْوىٰ حقيقيَّةٍ ظَانّاً أنَّ ما هو فيه من الأمور ذاتِ الشأنِ العظيم، فهو لا يَقَعُ في تقديره أَنَّهُ يَتَلَهَّىٰ، فيُقَالُ لَهُ: أَنْتَ تتلَهَّىٰ، أي: تشْغَلُ نَفْسَك بأَمْرٍ غير ذي بال، فَدَعْهُ ولا تهتَمَّ له، واشغَلْ نَفْسَكَ بما هو خير. وكذلك كان رسول الله ﷺ، إذْ لم يكُنْ في تَصَوُّرِه مُتَلَهِّياً، وهو يَبْذُل جَهْدَهُ لإقْنَاعِ بعض عظماء قريشٍ بالْحَقّ الّذي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّه، لكِنَّ عَمَلَهُ قد كان في حقيقة الْأَمْرِ تَلَهِّياً، لأَنَّهُ لم يكن ذَا جَدْوَىٰ، فقد سبَقَ أنْ أوضح لهم كلَّ شَيءٍ فعانَدُوا، وأصَرُّوا علَىٰ الكُفْر ومُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الحقّ.

﴿كَلَّآ﴾ أَدَاة زَجْرٍ. أي: لا تَفْعَلْ مثل هذا مرَّةً أُخْرىٰ.

المعنى العامّ

لِمَ تَتَصَدَّىٰ يا مُحَمَّدُ لِمَنِ اسْتَغْنَىٰ، مُسْتكْبراً بمشاعر استغْنَائِه، وهُوَ متولٍّ عن دَعْوَتِك ودِينِك، والاستجابة لما تُقَدِّمُه لَهُ من إقناعٍ وترغيبٍ وترهيب، تُعْطيه كُلَّ عنايَتك واهتمامِكَ، حَرِيصاً على إسلامه، وهو رافض له، مع أنَّكَ غيْرُ مسؤولٍ ولاَ مُحَاسَبٍ على كُفْرِهِ وعَدَمِ قبوله للتزكية، بعد أن بلّغته، وبيّنْتَ له، إنَّ كُفْرَهُ ورِجْسَهُ عليه، وليس عليكَ مِنْهُ شيْءٌ.

ولَمْ يقتصر أمْرُكَ على التَّصَدِّي للمستَغْنِي المستكبر الرّافضِ لدعوتك في وقْتِ فراغٍ كامل، بل انْشَغَلْتَ به عن المؤمن السّاعي إليك، راجياً أن يَنْتَفِع منكَ بتزْكيَةٍ أَوْ ذِكْرَىٰ.

فكان من المناسب أَنْ يختم الله عزّ وجلّ بسُلْطان رُبُوبيَّتِه عبارَاتِ

العتاب المفصّل، بكلمة: «كلاّ» وهذا في مضمونه موجَّه لتحذير حَمَلَةِ الرِّسَالَة من أمَّةِ مُحمَّد ﷺ، أن يمارسُوا في دعواتهم مثْلَ هذا الْعَمَل الّذِي لا يَلِيقُ بأئمة المتَّقِين، من الأبرار والمحسنين.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

ظاهرٌ أنَّ المراد بتوجيه هذا النّصّ بَيَانُ وظيفة الْقُرآنِ الدائمة، ولمَّا كانَ القرآنُ كِتَاباً يُكْتَبُ في الصُحُفِ، وكَانَ مَضْمُونُهُ كلاماً يشْتَمِلُ على عِلْم يتلقَّاهُ المؤمنون، ويتَفَهَّمُونَ معانيه، ويحْفَظُونَ أوامره ونواهيَهُ ووَصَاياه، ويَذْكُرُونَ ما جاء فيه عند المناسبات الداعيات للعمل بما فيه، كانَ جَدِيراً بأَنْ تُذكَرَ الصُحُف التي يُدَوّنُ فيها بضمير المؤنَّث، على أنَّها بمثابة تَذْكِرَة، وبأَنْ يُذْكَرَ مضْمُونُهُ بضمير المذكر، على أنّه كلامٌ يشتمل على عِلْم يُذْكَرُ عنْد المناسبات الدّاعيات للعمل بما جاء فيه.

ومراعاةً للاعتبار الأول قال الله عزّ وجلّ عن الصُّحف الّتي يُكتَبُ فيها القرآن: ﴿. . . إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: **التَّذْكِرَة**: مَا يُسْتَذْكَرُ به الشيءُ الّذي يُرادَ تَذكُّرُه آناً فآناً، كالرَّتيمة⁽¹⁾ وكالبطاقة الّتي تُذَكِّرُ بمَوْعِد اللّقاء أو الاجتماع، فجاء في العبارة اسْتِعْمَالُ ضمير المؤنث.

ومراعاةً للاعتبار الثاني قال الله عزَّ وجلّ عن الكلام الْمُنزَّلِ الْمُدوَّنِ في الصُّحف الّتي يُكْتَبُ فيها القرآن: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾

ومِنْ وظيفة القرآن تُعْلَمُ وظيفة الرَّسول التبليغيَّة، أي: فالرَّسُولُ مُبلّغٌ وَمُبيِّنٌ ومُعلِّمٌ مَا أنْزل الله عليه، ومُذكِّرٌ بما سبَقَ أَنْ بلَّغه وبيَّنَهُ وعَلَّمَهُ، إنْ

---

(١) **الرَّتيمة**: خيط يُشدُّ في الإصبع أو الخاتم للتذكُّر، والجمع رَتائم.

رَجا أنْ يَنْفَعَ تَذْكيرُه، كما سبق أنْ أبان الله له في سُورَةِ (الأعلىٰ/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾.

وليسَتْ وَظيفةُ الرَّسُولِ وظيفةَ مُحَوِّلٍ من الكُفْرِ إلى الإيمان، ومن الضلالة إلى الْهُدَىٰ.

أمّا التحوُّلُ من الكُفر إلَىٰ الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، فلا بُدَّ أنْ يكون نتيجة إرادة الْعَبْدِ المكلَّف واختياره الحرّ، إذ الأمْرُ مُرْتَبِطٌ بمَشِيئَتِهِ الّتِي لا مُكْرِهَ لها، وبياناً لهٰذه الحقيقة قال الله عزّ وجلّ: ﴿... إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾.

وبعد هذا وصَفَ اللّهُ عزّ وجلّ القرآن بقوله:

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾: أي: إنَّ القرآن مكْتُوبٌ في صُحُفٍ مفضَّلَةٍ مُعَظَّمة، مُنَزَّهَةٍ عن التحريف والتغيير والعبث.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾: أي: مَرْفُوعَةِ المنزلَةِ والمكانةِ عنْدَ الملائكة، ومُطَهَّرَةٍ عمَّا يُدَنِّسُها، فَلا يَمَسُّها تلاعُبٌ، ولاَ تغيير، ولا تَبْدِيلٌ، ولا تحريف، ولا تَمَسُّهَا شياطين.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾: أي: هذه الصُحُفُ مكْتُوبَةٌ ومَحْفُوظَةٌ بأَيْدِي كتَبَةٍ من الملائكة الكرام، وهي غير اللّوح المحفوظ الجامع لعلوم الدنيا والآخرة، والقرآنُ وسائر كُتُب اللّهِ بعْضُ ما فيه.

﴿سَفَرَةٍ﴾ جمع «سَافِر» بمعنى «كاتب». سافِرٌ وسَفَرَةٌ، مثل: كاتبٍ وكتبةٍ. تقول لغةً: سفرْتُ الكتاب أسْفِرُهُ سفراً أي: كتَبْتَه. ويُقَال للكتاب: سِفْرٌ، وجَمْعُهُ أسْفَارٌ.

قال الزّجّاج: قيل للكاتب: «سَافِر» وللكِتَاب «سِفْرٌ» لأنّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُبَيّنُ الشيء ويُوَضِّحه.

والمادة في أصْلِها تَدُلُّ علَىٰ معنَىٰ الانكِشَافِ والْوُضوح.

وسُمِّيَ بعْضُ الملائكة: «سَفَرَة» لأنهم يَسْفِرُونَ بَيْنَ الله عزّ وجلّ وبيْنَ أنبيائه، ويَنْزِلُونَ بَوَحْيِ اللَّهِ لبعض عباده، أي: يكونون سُفَرَاء.

﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾: أي: وهؤلاء الملائكة السَّفَرَة كِرَامٌ بَرَرَة:

كِرَامٌ: جَمْعُ كريم، والكريم هو الجامع لأنواع الْخَيْر والشَّرَف والفضائل، وهو اسْمٌ جَامِعٌ لكُلّ مَا يُحْمَد.

بَرَرَة: جَمْعُ بارّ، وهو الذي يتوسَّع في فعل الْقُرُبات والعبادات فَوْقَ مَرْتَبَةِ التقوىٰ، التي تقتصر دَرَجاتُها على فعل الواجبات وتركِ المحرَّمات.

فهؤلاء السَّفرةُ الكرام البرَرَةُ من الملائكة، لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهم ويفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ضِمْنُ حُدُودِ دَرَجات مرتَبَةِ التقوىٰ، ثمّ يَزيدون على ذلك أنواعاً من الأذكار والعِبَادات والتطوُّعَاتِ الّتي لم يُؤْمَرُوا بها أَمْرَ إِلْزام، تبرُّراً وَتَوَسُّعاً في التقرُّبِ إِلَىٰ اللَّهِ عزّ وجلّ.

تحليل كون القرآن تذكِرَةً فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَ مَا جَاءَ فيه

إنَّ القرآن يشتمل على تعليم بالهداية للّتي هي أقومُ عقيدةً وخُلُقاً وعملاً، وعلى ترغيب بثواب اللَّهِ الجزيل يوم الدين، وعلَىٰ ترهيب من عقاب اللَّهِ العادل يوم الدين، مع ترغيبٍ وترهيبٍ بجزاء معجّل.

ومن الهداية للّتي هي أقوم التذكير بمعارف عقليَّة، والتنْبِيهُ على معارفَ كونيّة دالَّة على الله وصِفاته، وعلى وظيفة الإنسان في الحياة، فقد يغفل الإنسان عن ملاحظتها، فيُنَبّهُهُ القرآنُ عليها.

لكنّ دوام القرآن في الناس بحفظه في صحُفٍ ومصَاحِفَ تُتْلَىٰ، وفي

أصوات مُسَجَّلَةٍ على أشرطة تَسْجِيل الصَّوْت، وإنَّ تكْرِير تِلَاوَةِ آياته وسُوَرِه في الصَّلَوات، وفي غير الصَّلَوات، يَجْعَلُ من أبرز صفاته الدائمة أنَّه ذِكْرٌ، يُطَالَبُ المؤمنون به أنْ يذكروه دواماً بألسنتهم، وأن يتذكرُوا ألفاظهُ، وأن يتذكَّرُوا معانيَهُ بأفكارهم، وأنْ يكون وُجوده بَيْنهم تَذْكِرَةً حاضرةً بأمور دينهم وآخرتهم، وواجباتهم نحو ربّهم، كما أنّ التَّذْكِرَة الّتِي يتَّخِذُها النَّاسُ وسِيلةً حاضرةً تُذَكّرُهم بحاجاتهم الّتي يُهِمُّهُم أن يتَذَكَّرُوها.

والمؤمن العاقل الحصيفُ يعْلَمُ أنَّ أعظم حاجات الحياة ما يضْمَنُ له سعادة الدنيا والآخرة، وهذان كلاهما لا يتحقَّقان إلا بالتزام تعليمات الدّين وشرائعه وأحكامه. والقرآن هو دستورُ الهداية إلى الدين، فَهُو يَرْجِعُ إِلَىٰ ما عَلِمَه منه، ليكون دائِمَ التَّذَكُّرِ له.

أمّا قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ فيَدُلُّ على أَنَّ من شاء من المكلّفين قَبِلَ هدايتَه، وتعلَّم مضامينه، وعَرَفَ ترغيباته وترهيباته، ثمّ كان مع آياته في ذِكْرٍ متكَرّر ليكونَ له تذكِرَةً حقّاً. فجاء في النَّصّ ذِكْرُ الفِقْرَةِ الأخيرة، لأنّها لاَ تكُونُ إلاّ مسْبوقةً بالفقراتِ الّتِي تأتي قَبْلَها في الترتيب الطبيعيّ.

وفي تعليق الشرط بمشيئة الْإنسان دلالةٌ على أنَّ الرَّبَّ الخالِقَ جلّ جلاله، قد جعل الإنسانَ في الحياة الدُّنيا مخيراً أَمَام تصرُّفَاته الإراديَّة، ومنْها قبولُ الإيمان والإسلام، وتَدَبُّرُ ما أنْزَلَ اللَّهُ في القرآن للتعرُّف على هَدْيه، والاتعاظ بعظاته، ومنها ذكْرُ آياته آناءَ اللَّيل وآناءَ النهار، ليكون له القرآن تذكِرَةً حاضِرَةً مُصَاحِبَةً له في معظم أوقاته، فكُلَّما غفل عن طاعة رَبّه والْعَمَلِ بمراضيه، ونزعَتْ به نَفْسُه إلى المعاصي، بنوازع الأهواء والشهوات ووساوس الشياطين، كانَتْ آيَاتُ اللَّهِ في كتابه مُذَكِّرَةً لَهُ، ومُنَبِّهَةً لَهُ مِنْ غَفَلَاتِهِ.

وكما أنّ وظيفة القرآن الهداية والترغيب والترهيب والتذكير المستمرّ، ما دام الإنسان المكلَّفُ على اتِّصَالٍ به، يتلو آياته، وَيَذْكُرُ مَضامينها، فإنَّ وَظيفَةَ الرَّسُولِ وَكلِّ حَمَلَة رسالَتِهِ من أمَّته مِثْلُ وَظيفَةِ القرآنِ، غَايَةُ فِقَرَاتها التذكير بما جاء في القرآن بعد الهداية لِلّتِي هي أقوم، والترغيب والترهيب.

ثمَّ إنَّ الإنسان المكلَّف هو المسؤول وحْدَهُ عن الاستجابة أو الرَّفض، وعن الطاعة أو المعصية، أمام الله عزّ وجلّ يوم الدين، وأمام أحكامه القضائية المنزلَة للعمل بها في الحياة الدنيا، الّتي يجب على السلطة الإسلاميَّة الممكَّنَةِ في الأرض أنْ تقُوم بتنفيذها، كالقصاص وقطع يد السارق، وجلد الزاني.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دروس السورة

وهو الآيات من (١٧ ـ ٢٣)

قال اللّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣)﴾

مطلع هذا الدرس الثاني من دُروس السورة مرتبطٌ بالمستغني المستكبر الرافِض لدعوة الرَّسُول له إلى الإسلام، والمصرّ علَىٰ كُفْرِهِ وعناده، الذي جاء الحديث عنه في الدرس الأوّل من السورة.

إلاّ أنَّ البيان انْتقل إلَىٰ التّعميم الذي يشْمَلُ كُلَّ إنسان كافرٍ، مُشابِهٍ لمَنْ جاء الحديث عنه في الدرس الأول، والذي هو من عظماء قريشٍ،

فمِنْ أُسْلوب القرآنِ الاستفادةُ من الحوادثِ الخاصَّة، وتَصَيُّدُ مُناسَبَتِها لتوجيه بيانٍ عامٍّ وقضِيَّةٍ كلّية.

- قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾:

جاء في هذه الآية الحديثُ عَنْ نَوْعِ الإنسان، مع أن المقصُودَ بعْضُ أفراده، وهُمُ الكافرونَ، نظراً إلَىٰ أنَّ أغْلَبَ هذا النوع الإنسانيّ هُمْ من فِئةِ الْكافِرينَ، الضَّالِينَ المضلّين، فقد قال الله عزّ وجلّ في وصْفِ الناس في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿. . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

والنُّصُوصُ القرآنيَّةُ في بيانِ هذا الواقع الْإِنْسَانِيّ كثيرة، وبما أنَّ أكثر النَّاس كافرون كان مَجْموعُ هذا النوع جديراً بأنْ يُقَال بشأنه ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ ومَعْلُومٌ أنَّ الحكْمَ عَلَىٰ الْمَجْمُوع لا يَتَنَاوَلُ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أفرادِه، بل يتناول مَا تَدُلُّ عليه القرائِن، والمرادُ هُنَا الإنْسَانُ الْكَافِرُ، أو أكْثَرُ أَفراد هذا النوع.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: قَال المفسّرون: أَيْ: لُعِنَ وطُرِدَ وأُبْعِدَ عَنْ مَدَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ الواسعة، والمرادُ من كان من نوع الإنسانِ كافراً بالله وبِرسُولِهِ وبما أَنْزَلَ اللَّهُ على رسُولِهِ، ويكشفُ هذا المرادَ قولُ اللَّهِ عَقِبَ هذه العبارة:

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ؟!!﴾: أي: قُتِلَ الإنْسَانُ الكَفُورُ مَا أكْفَرَهُ، وهذا من الإيجاز القرآنيِّ الَّذِي لَهُ نَظَائِرُ كثيرة.

وعبارة: ﴿قُتِلَ﴾ أبلَغُ في الدَّلالَةِ علَىٰ اللَّعْنِ والطَّرْدِ، لِأَنَّ الْقَتْلَ في

تَصَوُّر النَّاسِ صَرْفٌ لِلْحَيِّ من الْوُجُودِ إلى الْعَدَم، أمَّا اللَّعْنُ والطَّرْدُ فَهُما إبْعَادٌ، مع إبقاء الحيِّ موجوداً في الأَحْيَاء.

وعبارة: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ؟!﴾ يُمْكن أنْ تُفْهَم على وجهين:

الوجه الأول: التَّعْجِيبُ من غُلُوّه في كُفْره وجُحُوده لنِعَم الله عليه، والمعنى: ما أشدَّ كُفْرَهُ وغُلُوَّهُ فيه!!

الوجه الثاني: أن تكون «ما» في العبارة استفهاميَّة، وهو استفهامٌ توبيخيٌّ، والمعنى: أيُّ شيْء جعله يكْفُرُ باللَّهِ وبأَنْعُمِهِ عليه، مع أنّ أدِلَّة وبراهين وُجود اللَّهِ ظاهرةٌ في ذاتِ الإنْسَان، وفي كلّ شيءٍ من الكَوْن حَوْله، ومع أنّ أدِلَّة وبراهين نِعَم الله عليه مُرَافِقةٌ لحياته كُلّها، في طعامه وشرابه وسائر حاجاته وَمطالب جسَدِه ونَفْسِه.

سوابق الحديث عن الأنسان في نجوم التنزيل

أولاً: أبان الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/٩٦ مصحف/١ نزول) ثلاث قضايا تتعلّق بالإنسان:

القضية الأولى: كوْنُه خُلِقَ مِنْ عَلَق، وهذا بيانٌ لطور من أطوار تكوينه، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

القضية الثانية: كون الله تعالى قد أعطاه الله الجهاز القابل للعلم، وأعطاه وسائل التعلّم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

القضية الثالثة: أنَّ الإنسان متى رأىٰ نفْسَه قد استغنى سَلَكَ مَسَالِكَ الطغيان، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

ثانياً: وفي سورة (الفجر/٨٩ مصحف/١٠ نزول) أبان الله عزّ وجلّ نظرةَ الإنسان إلى صُوَر ابتلائه بالنِّعَم والمصائب في الحياة الدُّنيا، وأبانَ أنَّها نظرةٌ فاسدة مباينةٌ للواقع والحقيقة، فهو في امتحانه بالنِّعَم يقول في أخفّ أحْوَالِه جُنوحاً وسُوءَ فَهْم عن الله: رَبِّي أَكْرَمَنِي، لِأَنِّي أَسْتَحقُّ هذا الإكرام، مَعَ أنَّهُ مُمْتَحَنٌ مُبْتَلىٰ بالنعم. وهو في امتحانه بالمصائب يقولُ في أخَفّ أحوالِهِ جُنُوحاً وسُوءَ فَهْم عن الله: رَبِّي أهَانَنِ، فَلَمْ يُعْطِني ما أَسْتَحِقُّ من عطاءِ أنا أهْلٌ له، مَعَ أَنَّهُ مُمْتَحنٌ مُبْتَلَىٰ بالمصائب.

فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا . . .﴾.

فَقَدَرَ عَلَيهِ رِزْقَهُ: أي: فَضَيَّقَهُ علَيْه ولم يجعلْه واسعاً.

ثالثاً: وفي سورة (العصر/١٠٣ مصحف/١٣ نزول) أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أَنَّ الإنسَانَ في واقع خُسْرٍ دائم من رأس مالِهِ في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، ما مَرَّ علَيْهِ مِقْدارٌ ما من الزَمَنِ الجاري الّذي هو العصر، باستثناء الّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ . . .﴾.

وسبَبُ كَوْنه في مُحِيطٍ من الْخُسْرِ أنّه يُضَيّعُ مُدَّةَ امتحانِهِ، ويُبَدّد ساعاته وطاقاتِهِ فيها سُدىً، إذا لَمْ يرتكِبْ مع ذلك فيها آثاماً، ويَحْمِلْ فيها أوْزاراً.

رابعاً: وفي سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) أبان الله عزّ وجلّ قَضِيّتَيْن من القضايا الّتي تتعلّق بالإنسان:

القضية الأولى: أنَّهُ كنودٌ كفورٌ بنعمة الله عليه، وقد يفتخر بِكُنُودِه ويُعْلِنُ ذَلك، ويُكابِرُ في استحسان ما يفْعَلُ من ظُلْمٍ وعُدْوانٍ، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

القضية الثانية: أَنَّهُ يُحِبُّ المالَ حُبّاً شديداً، ويُسمّيه خيراً، فقال الله عزّ وجلّ فيها عن الإنسان:

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

خامساً: **وفي سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول)** أبان الله عزّ وجلّ أنّ الإنسَانَ يَتَمَنَّىٰ أمانيَّ لا يستطيعُ تحقيقَها، ويتمنَّىٰ أَمَانِيَّ يستحيل في العقل وقوعُها، ثمّ يَزْعُمُ وُقُوعَها، ويَدَّعِي أَنَّها حقائِقُ كذِباً وزوراً، أو تَوَهُّماً واتِّبَاعاً للأوهام والظنون الضعيفة التي لا يصحّ الاعتماد عليها في اكتساب المعارف، فقال اللهعزّ وجلّ في سياق الحديث فيها عن اتّخاذ المشركين الأوثان شركاء لله، وعبادتهم بعضَ ما يَزْعُمُون أنّهم ملائكة، وأنّهم يشفَعُون لهم عند الله:

﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ليس للإنسان ما تمنَّىٰ، بل الوجود كلّه مِلْكٌ لله، في الآخرة وفي الأولى، وهو الذي يُجْري تصاريفه فيه بحكْمَتِه على مايشاء.

سادساً: وفي سورَةِ (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) أبان الله عزَّ وجلّ أنّ الإنسان بالنظر إلى أكثر أفراده كثير الكُفْر بربّه، وكثير الكُفْرِ بنِعَمِه عليه،

مع توافر الأدلّة على وجوده، وظُهُور أيادي عنايته به، وإمداده له بالنِّعَم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

أي: لُعِنَ الإنسان الكافر بربّه ما أشَدَّ كُفْرَهُ مع وضُوح أدلَّةِ الإيمان. أوْ مَا الذي جعله يكفر بربه، مع أنّ أدلَّة الإيمان وأياديَ نعَم الله علَيْه واضحاتٌ جليّات كثيرات؟!

نظرةٌ إلى تسلسل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في نجوم التنزيل

وإذا نظرنا في تسلْسُل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في هذا الاستعراض السابق، وجَدْنَا أنّها مُرَتَّبَةٌ تَرْتيباً مَنْطِقِيّاً بَدِيعاً، مطابقاً لتدرُّج البيان التعليميّ والتوجيهيّ:

(١) فالفكرة الأولى تتعلّق بخَلْق الإنسان.

(٢) والفكرة الثانية تتعلّق بتعليم الإنسان.

(٣) والفكرة الثالثة تتعلّق بوصْفِ واقع حال الإنسان الخُلِقِي والسلوكيّ، لدى شعوره بالاستغناء، وهي حالة طغيان.

(٤) والفكرة الرابعة تتعلّق ببيان نظرة الإنسان الخاطئة إلى صُوَرِ ابتلائه في الحياة الدنيا بالنِّعَمِ والمصائب.

(٥) والفكرة الخامسة تتعلّق بوصْفِ حال الإنسان في الحياة الدنيا، وأنَّه في واقعِ خُسْرٍ دائم، إلاَّ من استثْنَتْهُمْ سورة العصر.

(٦) والفكرة السادسة تكشفُ السَّبَب في كون الإنسان في واقع الْخُسْرِ الدائم، وهي أنَّهُ كنُودٌ جَحُودٌ كفور، مكابِرٌ فيما هو فيه، مع عِلْمِه بحالة نفسه.

(٧) والفكرة السابعة تُبيِّن أن الإنسان بالنظر إلى معظم أفراد نوعه متعلّق بالدُّنيا، متشبّثٌ بما يهوى منها، فهو لذلك يحبُّ المال حُبّاً شديداً، ويُسَمِّيه خيراً، وهذا من الأسباب التي تصرفُهُ عن العمل للآخِرَةِ، وعن التفكير فيها.

(٨) والفكرة الثامنة تُبيِّن أنَّهُ واسِعُ الأماني، مُسْرِفٌ في التعلُّقِ بها، مع أنَّ الذي يُغْرِيه بها أوْهامٌ وظُنُون ضعيفة، ورُبما يَفْتَري الأكاذيب من عنده، ليثْبِت بها دعاوَىٰ الأماني.

(٩) والفكرة التاسعة أنَّهُ كثير الكُفْر يَسْتَحِقُّ أن يُبْعَدَ عن الوجود كلّه بالقتل، بالنظر إلى معظم أفراد نوعه، أمّا من آمَنَ واستقام على صراط الله فَهُو يستَحِقُّ الخلودَ الدائم في جنّات النعيم.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ⑱﴾؟؟.

جاءت هٰذه الآية على طريقة الاستفهام التقريري، لإحضار الجواب في الذهن، فإذا حضَرَ الجواب فيه، جاء البيان بعْدَ ذَلِكَ مطابقاً له، أو شبْهَ مطابقٍ، والمعنى: من أيّ شيءٍ خلقه خالقه، الذي هو الله إذ لا خالق سواه.

وطرح السؤال والجواب علَيْه من أساليب القرآن البديعة.

هذا الاستفهام الوارد في الآية يتضمّن ابتداءً أنَّ الإنسان مخلوق، وأنَّ له خالقاً، وأنّه خلَقَهُ منْ مادَّةٍ هو يَعْرِفُها، ولا يستطيع أن يتدَخَّل بشيءٍ من خلقها وتكوين عناصرها، إنَّها النُّطفَةُ المنويَّة، إحدى أدلّةِ الإعجاز الرَّبّانيّ في الخلْق.

وفي الإجابة على الاستفهام الذي جاء في هذه الآية، جاءَ

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ⑲﴾:

وهنا يتحدَّث عُلَماءُ البحوث التكوينيَّةِ لخلْقِ الإنسان، عن تكوين النطفة بأمُور غايَةٍ في الْعَجَب، فيقولون: إنّ النطفة الواحدة الّتي يقذفها الرجل السَّوِيُّ قد تحتوي على خمسِمائة مليون حيوان منويّ، ومن واحد فقط منها يتكوّن الجنين، لدى تلقيحه بُيَيضَة الأنثىٰ، ولدَىٰ هذا الحيوان الذي يتمّ بِه لِقَاحُ البُيَيْضة عوامل الذكورة، أو عوامل الأنوثة.

أمّا الْبُيَيضَةُ التي تكون لدى المرأة فإذا لَقِّحَتْ من حيوانٍ فيه عامل الذُّكُورَة كانت معَهُ ذكراً بخَلْقِ الله، وإذا لُقِّحَتْ من حيوان فيه عامل الأنوثة كانت معه أُنثَىٰ بِخَلْقِ الله.

ويذكرون أموراً تثير الدهشة في عمليّاتِ سَعْي الحيوانات المنويّة التي تَشْتمل عليها النطفة، مُتَسابقَةً داخل رَحِم المرأة وأَجْهِزَتها التناسُليَّة، حتَّىٰ يظْفَر واحدٌ منها بنَطْحِ جِدَار البُيَيْضَة وكَسْرِه، للاتحاد بنواتها، إلى غير ذلك من عملياتٍ مُذْهِشَاتٍ مُتَتَابعاتٍ، حتَّىٰ يتكَوَّنَ الجنينُ ويَتَخَلَّق. ثُمَّ تَدِبُّ فيه رُوحُ الحياة الإنسانية، ثُمَّ يتكامَلُ خَلْقُهُ ونُضْجُه حتَّىٰ لحظةِ الميلاد والخروجِ من بَطْنِ أمّه إلى الحياة على الأرض.

فمن استَبْصَر بهٰذه الدلائل المدهشة، واتَّجهَ وِجْدانُه للاعتراف بالحقّ، آمن بالله العليم الحكيم القدير اللَّطيف، الذي أَتْقَن كلَّ شيءٍ صُنْعاً، فسبَّحَ بحَمْدِه، وسجَدَ لَهُ خاضعاً قانتاً عابداً، إيماناً بأنّه هو الذي خلقه وصَوّره وشقّ سمْعَه وبصَرَه.

النُّطْفَة: تُطلق على المنيّ الذي يَقْذفُه الرجل، وتطْلَق على الماء القليل الصافي، وعلى الْقَطْرَة منه.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾: أي: مِنْ بَعْض نطفةِ مَنِيٍّ خلَقه، فحْرفُ «مِنْ» هُنَا للتبعيض، والبيانُ يتَحدَّث هنا عن حلقة من سلسلة أطوار خَلْقِ الإنسان الطويلة، وقبلها حَلقات كثيرات منها الدم، والغذاء، والماء والتراب، وما

قبلَ ذَلِك، وبعدها حلقات كثيرات، منها العلقة، والمضغة غير المخلّقة، والمضغة المخلّقة، ثم الجنين.

﴿خَلَقَهُۥ﴾: الخلْقُ هو فعل إيجاد الشيء إبداعاً على غير مثالٍ سبق، ومن غير مادّة سابقة، أو تصويراً على مثالٍ سبقَ، ومن مادّةٍ موجودةٍ سابقاً.

أمّا الخلْق الإبداعي فَلاَ يتصف به إلاَّ الله جلّ جلاله إذ هو من خصائص الربّ العليّ الأعلى.

وأمّا الخلْقُ التصويريُ من مادّة موجودة وعلى مثال سابق، فقد يكون من أفعال العباد الّتي مكّنَهُمُ الله منها، ومن هذا قول الله عزّ وجلّ لعيسى عليه السلام، كما جاء بيانه في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿. . . وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى . . . ﴿١١٠﴾﴾.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: التقدير في الْخَلْق هو جَعْل كلِّ جُزْءٍ من أجزاء المخلوق وكلّ عنصر من عناصِرِه مُقَدَّراً بمقْدارٍ مُحَدَّد، موافقٍ للغاية منه بإحكامٍ تامٍّ.

ويأتي تَنْفِيذُ المقَدَّرَاتِ عَقِبَ بَدْءِ عمليَّةِ الخلْقِ مباشرة، وتَبْرُزُ ظواهِرُ الأعضاء المقدّرة في المخلوقات الحيّة، وفوارق صفاتها بعد كَوْنِها مُتماثِلَةً في مراحل خَلْقِها الأوّل.

فتقدير الْفُروق والخصائص والصّفات والتَّخَصُّصات في الخلايا يكونُ لاحقاً للخلْق الأوّل، الذي تكُونُ فيه أفرادها متماثلة، بمقتضىٰ دَلاَلَة «الفاء» في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ وهٰكَذا يكونُ الجنين نطفةً، ثم علقة، ثم مضغةً، ثُمَّ تظهر أعضاؤه وجوارحُه، بمقتضى تقديرِ بدَيعٍ حَكيم، فَيُقَدِّرها الخالق الحكيم بمقاديرها الملائمة للغاية منها، وفْقَ خُطَّتِه في خَلْقِ كُلّ فرْدٍ من أفراد نَوْع الإنسان.

قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾: أي: ثُمَّ بعد ولادته ونَشْأَتِه سَهَّلَ الله الإنسانَ وهيَّأَهُ وأعَدَّهُ مُيَسَّراً لا يجدُ عُسْراً في اتّباع السّبيل، وهو صراط الله المستقيم، الذي أنزل الكتُبَ وبَعَثَ الرسُل لبيانه والهداية له.

يَسّرَهُ: أي: سهَّله وهيّأه وأعَدَّهُ مُيَسّراً، ويكون التسهيل بإعطاء الوسائل وتذليل الموانع والعقبات.

وفي تحليل هذه العبارة لدَينا وجْهان.

الوجه الأوّل: أن يكون أصْلُ العبارة ثُمَّ يَسَّرَهُ لِسُلُوكِ السبيل، فحذفت كلمة «سلوك» إيجازاً، وقُدِّم: «للسّبيل» على الفعل مراعاً للنَّسَق الجمالي في الآيات، وبَعْدَ ذلك حُذِف الجار، فانتصب لفظ «السبيل» بنزعِ الخافض، فصارت العبارة ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾.

فعل «يَسَّرَ» يتعدّى لمفْعُولٍ به واحد، ويتعدّى للمفعول الثاني بالجار.

والمعنى: ثم يَسَّرَ الله الإنسان بما وهبه من صفات، لسلوك سبيل الله، الذي هو سبيل هدايته ونجاته وسعادته الأبدية، فإذا شاء الإنسان سلكه، ويساعده الله على سلوكه ويمُدُّه بمعونته.

الوجه الثاني: أنْ يكون فعل «يَسَّرَ» قدْ ضُمِّن معنى فعل «هَدَى» وتقدير العبارة: ثمّ يَسَّرَهُ هَادِياً إيّاهُ السبيل. وإذْ حُذِف الفعل الذي جعل ضِمْنَ فِعْلِ يَسَّر، فإنَّ تقدير العبارة يكون: ثم يَسَّرَهُ السَّبِيلَ، وبعد هذا قُدِّمَ السبيل مراعاة للنَّسَق الجمالي، فصارت العبارةُ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ أي: ثم هداه السبيل ويسَّرَهُ لسلوكه.

والمراد بالسبيل فيما أرى صراطُ الله المستقيم، لا مَخْرَجُ ولادة الجنين، لأنَّ العطف قد جاء بحرف «ثم» الدَّالّ على التراخي، ولو كان المراد سَبِيلَ خُروج الجنين من رحم أُمِّه لكان المناسب أن يُعْطَفَ بالفاء.

وسبيل الله يُعْلَم ويُيَسَّرُ الإنسانُ لاتّباعه بعد بلوغه سِنَّ التكليف، فالمناسبُ مع هذا المعنى العطف بحرف «ثم».

وقد استقرأْتُ وسَبَرْتُ كلمة «السّبيل» مُعَرَّفةً في القرآن فوجَدْتُها مثْلَ كلمة «الصّراط» فهما في الجوانب الفكريَّة والسلوكية يُرَادُ بهما صراط الله وسبيله في الدين، وأحكام شريعَتِه لعباده، ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾:

أي: إمّا أن يكونَ شاكراً ولو شكراً جُزْئيّاً يُنْجيه من الخلود في عذاب النار، وإمَّا أَنْ يكون كَفُوراً مُبَالِغاً في كُفْرِهِ، ليس لديه أَقَلُّ مقدارٍ من الشُّكْرِ، فهو يستَحِقُّ الخلود في عذاب النار.

فحْمل السبيل على هذا المعنى الذي تواطَأَتْ عليه الآيَات القرآنيّة أولَىٰ من حَمْلِهِ على مَعَانِي أُخْرَىٰ ذكرها بعْضُ أهل التأويل⁽¹⁾.

وهو الذي يتناسب مع الترتيب الفكري في آيات الدرس تناسباً تامّاً، وينسجم معها انسجاماً معقولاً سوابقها ولواحقها.

ولا مانع من اعتبار سبيل الله مُيَسّراً فَهْمَا من النصّ، فقد دلّت النصوص على أنّ القرآن ميسّر، وعلى أن الدين يُسْر.

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾

(١) إنّ خلْقَ الإنسان بدْءاً من النطفة حتّىٰ الاكتمال والبلوغ والاستعداد التامّ لتحمُّل المسؤوليّة في الحياة الدنيا مَرْحَلَة.

(٢) وَإِنَّ تحمُّلَهُ مسؤوليّة ابْتِلَائِه في الحياة الدنيا، مع هدايتِهِ إلى سبيل الله فيها وتَيْسِيرَهُ لسلوك هذا السبيل وتيسير السبيلِ له، مرحَلَةٌ ثانية.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبر سورة الفاتحة.

(٣) وَإِنَّ إِمَاتَتَهُ وإقباره إلى يوم البعْثِ والنُّشُور مرْحَلَةٌ ثالثَة، وهي المدَّةُ الفاصلة بين انتهاء حياته الأولى حياة الابتلاء، وبَدْءِ حياته الأخرى حياة الحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء.

(٤) وإنَّ بَعْثَهُ إلى الحياة وإنشاره لمحاسبته وفصل القضاء بشأنه ومجازاته على أعماله في الحياة الدنيا مرحلَةٌ رابعة.

بهذا يظهرُ تتابع المراحل وتكامُلها وتناسُقُها وانسجامُها الفكريّ، بحَسَبِ ما تَهْدِفُ إليه البيانات القرآنيَّةُ بِوَجْهٍ عامٍّ.

وإذا عَرَفَ الإنسانُ هٰذهِ الخُطَّةَ الرَّبَّانيّة، وآمن إيماناً صحيحاً صادقاً، كان على بَصِيرةٍ مِنْ أَمْرِ وُجُوده والغاية منه، ومَسْؤوليّتِه في الحياة الدنيا.

ولا عُذْرَ بعد البيان الرَّبَّانيّ المقرونِ بالحجج والبراهين لكافرٍ جاحدٍ، أَوْ شَاكٍّ، لأنّ شكّه لا يَسْتَنِد إلى ما يُعْذَرُ به عند ربّه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾: **الإمَاتَةُ**: هي سَلْبُ الحياة عن النفوس الّتي سبَقَ أنْ مَنَحَها اللَّهُ الحياة. وقد جاء العطف بحرف «ثُمَّ» الدّالّ على التراخي، لأنَّ الإنسانَ المكلّف لا يكون موتُهُ قبل أن يَبلُغَ مَرْحلَةَ التكليف، وقبل أن يمُرَّ عليه زَمَنٌ كافٍ لامتحانه.

لقد خلَق الله الإنسان في الحياة الدّنيا ليبْلُوه، ثمَّ لمَّا انْتَهتْ مُدَّةُ ابتلائه أمَاتَهُ، وقَدْ قَدَّر اللَّهُ وقضَىٰ أسْبَابَ الموت، ضِمْنَ سُنَّتِهِ فيما خلَق من كائناتٍ حيَّةٍ، فَهُو سبحانه المميتُ لكُلِّ نَفْسٍ تموتُ، وقد أبان جلَّ جلالُه في كتابه أنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذائقَةُ المَوْت.

وحينما يتَدَخَّل ذَوُوا الإراداتِ الحرَّة، فيتّخذونَ أسْبابَ مَوْتِ ذي نَفْسٍ حيَّةٍ، فالأمْرُ يكون على أحد وجهين:

الوجه الأوّل: إذا كان لله عزّ وجلّ إرادةٌ في الإمَاتَة ضمْن الأجَلِ

المحدّد بقضائه وقَدَرِه، مَكَّنَهُمْ من أسبابهم، وأوصَلَها إلى الإماتة، فالْمُمِيت في الحقيقة هو الله عزّ وجلّ بقضائه وقَدَرِه وفِعْله، وأمْرِه أو إذْنه.

على أنَّ المتعدِّيَ من الناس بالْقَتْلِ يتَحَمَّل مسؤوليّته كامَلةً، لأنَّه عصَىٰ وأجرم باتّخاذ الأسباب.

الوجه الثاني: إذا لم يكن لِلَّهِ عزّ وجلَّ إرادةٌ في الإماتة، صَرَفَهُم الله، أو لم يُمَكِّنهم من اتّخاذ الأسباب، أو قَطَع أسْبَابَهم من أوْسَاطها، أو لم يُوصِلْها إلَىٰ الإمَاتَةِ بأَلْطَافِهِ الخفيَّة.

﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾: أي: وَارَاهُ في قَبْرٍ تكرِيماً لجَسَدِه عن أَنْ تنتشر رائحة ما يتفسَّخ منه، ويكون كجِيَفِ البهائم.

وهذا التكريم قد تمّ بشَرِيعة الإقبار، والهداية إليه، فشريعةُ دَفْن موتى الناس في القبور مما اتفقت عليه جميع الشرائع الرّبّانيّة، منذ عهد الإنسان الأول، أخذاً من الخطاب الشامل للإنسان بوجه عامّ، ويؤكّد هذا قصَّةُ ابْنَيْ آدم قابيل وهابيل، إذْ لمَّا قَتَل قابيلُ هابيلَ تحيَّر كيْفَ يواري سَوْأَة أخيه، حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ غُرَاباً يَهْدِيه إلى إقباره، بما فَعَل بغُرَابٍ ميّتٍ.

قال الله عزّ وجلّ بشأن القاتل منهما لأخيه في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وابتدع الهنادكة في الهند إحراق موتاهم، وابتدع مجوس الفرس إلقاء موتاهم لسباع الطير، وكذلك بعض أهل الجاهلية العربية، وكرم الله جسد الإنسان بالإقبار، هداية وتشريعاً.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْد مُرور زَمن البرزخ الفاصل بين الموت والبعث للحياة الأخرى، وبعَدَ زِيارَةِ الْقَبْر[1] طَوال زمن البرزخ، يُنْشِرُه الله، ويَبْعَثُه إلى الحياة الأخرىٰ، حياة الحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء الأمثل.

وهذا البعث هو المرحلة الرابعة من مراحل تكوين الإنسان، تنفيذاً لما سبقَ به قضاء الله وقَدَرُه.

﴿أَنشَرَهُۥ﴾: أي: أحْياهُ بعد الموت، تقول لغة: نَشَرَ اللَّهُ الميّت نَشراً وَنُشوراً، وأنْشَرَهُ الله إنْشَاراً، أي: أحْيَاهُ بعد الموت.

وتقولُ: نَشَرَ الميّتُ «بصيغة الفعل اللاّزم» أي: عاد إلى الحياة.

﴿إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾: ربَط الله الإنشار بمشيئته الّتي سوف تتوجَّهُ مستقبلاً لتنفيذ ما سبق أن تمّ به قضاؤه وقَدَرُه. أخذاً من دلالة «إذا» الّتي هي ظرف لما يُسْتقبل من الزمن، إشارةً إلَىٰ أَنَّ وقْتَ البعث ممّا أخفاه اللَّهُ علَىٰ كلّ خَلْقه، فلا يَعْلَمُ وقْتَه، ولا الأسْبَابَ ولا الأَحْداث الّتي قد تُعْطِي ظنًّا بوقْتِه إلاّ الله وحدَه، جلّ جلالُهُ، وتباركَتْ أسْماؤه وصفاته.

فالمشيئَةُ هنا مشيئة التنفيذ، لا مشيئة القضاء والقدر السابقة في خُطّة التكوين، إذْ إنَّ وقْتَ الإنشار مُقَرَّرٌ في عِلْمِ الله سابقاً.

فلا مطمع لأحد من الخلائق مهما عَلَتْ مَنْزِلَتُه عند الله في أَنْ يَعْلَم وقْتَ الإنْشار، إنّه ممّا استأثر اللَّهُ بعلْمِه لمقتضيات حكمته جلَّ جلاله.

كذلك أَخفى الله عزّ وجلّ وقْتَ السَّاعَةِ الّذِي تنتهي فيه ظروف هذه الحياة الدنيا.

---

[1] المراد بالقبر مكان وُجود النواة التي لا تُدْرَكُ بالأبصار، والّتِي تكون منها النشأة الأخرى، إذ الغالب أن تكون منثورة في قبرٍ من القبور أو في التراب.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾: كلمة زجْرٍ لهذا الإنسان الذي قال الله بشأنه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ والمرادُ به الإنسانُ الكافر.

لقد أعطاه اللَّهُ مُدَّةَ عُمْرِهِ في الحياة الدنيا، وأمْهَلَهُ إمْهالاً كافياً، ليُؤمن ويَعْمَلَ عملاً صالحاً، ويَتُوبَ إلى ربّه.

لكنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، وقد كان بإمكانه أن يُنْجيَ نَفْسه ولو قبل أن يدركه الموت بلحظات لم تصل فيها نفسه إلى عتبة الموت. ولم تبلُغْ رُوحُه الحلقوم، لقَدْ أدْرَكه الموت وهو على كُفْرِهِ وجُحُودِه وفُجورِه.

وَكلمة ﴿لَمَّا﴾ في الآية حَرْفٌ جازمٌ للفعل المضارع، وهو يجزمُهُ لفظاً، ويَقْلِبُ معناه إلى الماضي مثل حرف «لم» ومعنى حرف «لمَّا» النفيُ، ولكن يَدُلُّ على أنَّ منفيَّهُ مُتَّصِلُ النفي إلى ما قبْل النُّطقْ مباشرةً، وكان بإمكانه تغيير حالة النفي هذه بالقيام بما نفته ولو قَبْلَ لحظة بَدْءِ النطق مباشرة.

وَإذْ قَدْ جَعَل اللَّهُ للإنسان مجالاً لأن يَتُوبَ ما دامَ حيّاً، لم يُدْرِكْهُ الموتُ، ولَمْ تَبْلُغْ رُوحُهُ الحلْقُوم، فإنَّ أَدَقّ تعبير للحُكْم عليه إذا مات قبلَ أن يتوب ويؤمن، أن يقال بشأنه: لمَّا يَتُبْ، لأنَّ فُرْصَةَ التوبَة قد كانت مهيَّأَةً له إلى ما قَبْل لحظة بلوغ روحه الحلقوم.

وقد كان له رجاءٌ حتَّىٰ لحظة ما قبل الموت أن يقبل الله توبته وإيمانه واستغفاره، لو شاء هو أن يَتُوبَ ويُؤْمِن ويستغفر، فينجوَ بذلك من الخلود في عذاب جهنّم، لكنَّه لم يفعل، وساعَتئِذٍ يَصْدُر القرار الحكميّ بشأنه: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ أي: لمَّا يُنَفِّذْ ولمَّا يُمْضِ مَا أَمَرَهُ رَبُّه به، من إيمان وإعلانٍ للطاعَة والإسلام، ولو أَنَّهُ قَضَىٰ وأمْضَىٰ بالتّنفيذ ما أَمَرَه الله به لنجا من الخلود في عذاب النار.

لقد ظلَّ بابُ الرجاءِ مفتوحاً له، حتَّىٰ قُبيْلَ اللَّحظَاتِ الّتي نزلَ به فيها الموت، لكنَّهُ انْقَطَعَ رجاؤه مُنذُ لامَستْ نَفْسُه عتبة الموت، وشاهد بعض حقائق ما بعد الموت، لقد انتهت حياة امتحانه، وظهرت عند أواخرها لَوْحَة: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ وثبتت ظاهرةً علىٰ رأْسِهِ، وجاء مُفصَّلُ مرحلة الموت عقبَ ذلك.

هكذا حَصَلَ لفرعون حين أدْرَكه الغرق، وبدأ يذوقُ سكَراتِ الموت، وبعد أن انتقل إلى مَفْصِلِ مرحلة الموت قال: آمَنْتُ، لكنَّهُ لم يَنْفَعْهُ إيمانه ساعتئذٍ، وبَقِي حاملاً على رأْسِه لوحة: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول) بشأنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

لقد كان باستطاعة الإنسان الكافر الذي ماتَ ولم يُؤمِنْ، أَنْ يتدارَكَ نَفْسَهُ قَبْلَ الموت بلحظات يؤمِنُ بها حينما كان يُحسُّ أن الحياة فيه مستقرَّةٌ، ولا يُكلّفُهُ ذلك إلاّ أن يُؤمِنَ بقَلْبه، ويُعْلِنَ ما يستطيع أن يُعْلِنَهُ بلِسَانِه، لكنَّهُ لم يفعل.

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس السّورة

وهو الآيات من (٢٤ ـ ٣٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

تمهيد

في هذا الدّرس أمْرٌ جازمٌ للإنسان الكافر على وَجْه الخصُوص، وفيه أيضاً لفْتُ نَظَرٍ لكلّ إنسانٍ يَنْتَفِعُ لِنَفْسِهِ، أو لأساليب دَعْوته إلى سبيل ربّه.

فما هو المأمُورُ به؟

يأمُرُ الله عزّ وجلّ الإنسان بأن ينظر نظر تفكُّرٍ إلى طعامه، أي: إلى وسائل وظواهر إعداد الله التكوينيّ له، في ظاهرات الكون، لِيَسْتَدِلّ من كلّ ذلِكَ على رحمة الله بعباده، وعنايته العظيمة بالإنسان، في إعداده الطعامَ له، بوسائلَ تكوينيَّةٍ لا يَمْلِك الإنسان من جوهرها الفعّال شيئاً، وما يَمْلِك الإنسانُ بالتسخير الرَّبَّانيّ، لا يَعْدو بعض وسائل ظاهرة مَكَّنَهُ الخالق منها، لتكليفه العمل في الحياة الدّنيا، أمّا آلاف الوسائل الظّاهرة والخفيّة، فإنَّها تجري ضِمْن مقادير الخلق الرَّبَّاني، دون أن تكون مسخَّرَةً للإنسان.

فمن الوسائل المسخّرة للإنسان في مجال الأطعمة، حَرْث الأرض، وإلقاء البزور فيها، وإجراء الماء إليها إذا لَمْ يكُن الزّرْع مَطَرِيّاً، وشيْءٌ من التعهُّدِ للرّعاية والحمايةِ والحفظ.

أمّا فَلْقُ الحبِّ والنّوىٰ، وإنباتُ النّبات في توالي اللحظات، وإنماءُ الزُّرُوعِ، وتَكوينُ السُّحب، وسَوْقُها وإنْزال الأمطار، وإعطاءُ كلّ شيءٍ خلقه، وملايين الأحداث المتتابعة، فإنّما تَتِمُّ بخَلْق الله وحده لا شريك له.

وقد جاء هذا الدَّرس الثالث مُتَرَتِّباً ترتيباً منطقيّاً على ما جاء في الدرس الثاني من دروس السورة، الذي اشتمل على ما يلي:

(١) سؤال الإنسان الكافر عن سبب الكفر الذي كابر فيه، وأصَرَّ عليه، على الرُّغم من أدلّة الإيمان الموجودة في ذاته وفي الكون من حوله.

(٢) سؤاله عن نشأته المليئة بآيات الخالقِ البارئ المصوّر.

(٣) بَيَان الغايَةِ من رحْلَته في الحياة الدنيا، وهي الابتلاء في ظروفها المختَلِفة والمتنوّعة، وإدراكُ هذه الغاية يَهْدِيه إلى المصير الذي هو صائر إليه لا محالة في حياةٍ أخرى بَعْدَ بَرْزَخ الموت.

هذه القضايا الّتي اشتمل عليها الدرس الثاني تَسْتَدعي تكليف الإنسان أن يَنظُرَ إلى آيات الله في كَوْنه، وفي مُقَدِّمَتِها طَعَامُه، الذي هيّأ اللّٰهُ له أسْبَابَه في كونه، فجاء الدّرس الثاني مبتدِئاً بتوجيه التكليف للإنسان، أنْ ينْظُر إلى طعامه، كيف هيّأ الْبَارئ الحكيم له أسبابه.

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤)﴾:

التدبر:

أمْرٌ جازِمٌ حازمٌ بالنظر إلى الطعام، وظاهرٌ أنّه لَيْس المرادُ مُجَرَّدَ النظر بالباصِرَة، بل المرادُ النظرُ المصحوبُ بالتفكُّر والتَّأَمُّل، واسْتِخْراجِ الروابط والْعِلَلِ والأسباب والغايات، ومعرفة دلائل الآيات الكونيّة الكثيرة المنبثّة في الأرض وفي السّماء، لإعداد طعام الإنسان في الكون، ومنها أشعّة الشمس وما يسببه القمر من مدٍّ وجزرٍ في البحار، ومنها تَبَخُّر المياه من المحيطات، وتكْوِينُ السُّحُب وسَوْقُها، وإنزالُ الأمطار من السَّمَاء، إلى غير ذلك ممّا يكشِفُه البحثُ العلميُّ الإنساني.

إنّ النَّظَر إلى الظواهر الكونيَّة دُونَ تعَمُّقٍ فيها، ودون بحْثٍ عَنْ دلالاتِها، نَظَرٌ حاصل للجميع، كافِرين ومؤمنين، ويسْتَمْتِع بجمَاله وبدائعه كُلُّ ذي حسٍّ ذوّاقٍ للْجَمَال.

أمّا النَّظَرُ المصحوبُ بالتفكر والتأَمُّل والتدبُّر، فهو من شأن العلماء الباحثين، ومن شَأْن المؤمنين المستجيبين للأمْر الرَّبّانيّ بالنظر.

- قَـوْلُ الـلّـهِ عـزَّ وجَـلَّ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢)﴾.

عرضَتْ هٰذِه الآياتُ صُورَة مشْهَدٍ متحرّكٍ بديع، يُقَدِّم أبْرَزَ أحداثِ فَصْل نَباتيّ، يَبْدَأُ بالشِّتاء مُرُوراً بالرّبيع، حتَّىٰ فصْل الحصاد، مع الرَّتْعِ في خيراتِ الزَّرْعِ والثَّمرِ، غِذاءً وفاكِهَةً للنَّاسِ والأنْعَام، ومتعةً جماليةً رائعة.

وفي عرض هذا المشهد الْبَدِيع لفْتُ نظَرِ الفكر إلى بديع صُنْع الله الّذي أتْقَن كُلَّ شيءٍ صُنْعاً، وَإلَى عظيم أَلْطَافِهِ الخفيَّة، وفيه أيضاً لمْسُ مشاعر الوجدان لمساً رفيقاً حُلْواً، لإيقاظ دَوَافِعِ شُكْرِ المنعِمِ من أعْمَاقه.

وفي التّفكّر في ظواهر إعداد طعام الإنسان، تُسْتَخْرَج أدلَّةٌ كافية للإيمان بالله، وبكتابه، وبرَسُوله، وباليوم الآخر للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، وأدلَّةٌ تَهْدِي إلى وجوب اتّباع سبيل الله للنَّاس في رحْلَةِ ابتلائهم عَبْرَ الحياة الدُّنيا.

وهذا الإعداد يتمُّ بوَسِيلة إنْبَاتِ النبات من الأرض، القائمة على عِدَّة شروط ظاهرة:

الأوّل: التُّرابُ الصالح للإنبات.

الثاني: الماء الّذي يختلط بتُراب الأرض، فيُمِدُّ البزور والجذور بما يلْزَمُ لَهَا لتَنْبُتَ.

الثالث: البزور والجذور المشتملة على الصِّفَاتِ والخصائص القابلة لأن تَنْبتَ وتَتَنامَىٰ وتتكاثر، وتُخْرِج من الثَّمَراتِ والْخَضِرِ مَا هو غذاء الإنسان والحيوان، وما هو فاكهةٌ أو شبيهُ الفاكهة.

الرابع: الضَّوْء والحرارة اللّذان تُمِدُّ بهما الشمس.

الخامس: الرّياح الّتي تُمدُّ بالغازات الّتي تحتاج إليها النباتات.

وكلُّ هذه آياتٌ من آيات خلْق الله الّتي لا سلطان للإنسان على تكوينها، وهي من ظواهرِ نِعَم الله على عباده.

- ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾: أي: فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى أحد أسباب إنْعَامِ الله على النَّاس بالطعام، وهو الماء الذي يَنْزِل السماء مطراً مُنْصَبّاً، بعلْمِ الله، وحكمته، وقضائه وقَدَره، وعظيم قُدْرته، لإحياء الأرض بالنبات.

صَبُّ الْمَاءِ ونَحْوِه: سَكْبُه، وفي الصَّبِّ معنى جَعْلِ الشيء المصْبُوب ينْدَفِعُ من عُلْوٍ بقُوَّةٍ، مع توالي أجزاء المصبوب وتتابُعِها.

إنَّ توجيه نظر الإنسان للتفكّر في هٰذِهِ الظاهرة يَسْتَدْعي التأَمُّل والتفكُّر والتَّدَبُّر في قوانين تبخُّر الْمِياه، وسَوْقِ السَّحَاب، وتجمُّعِها رُكاماً، وتَلَقُّحِها بالرّياح، وعَوَامِلِ تجمُّعها قَطَراتِ ماءٍ، ثُمَّ هُطولِها مُنْصبَّةً من السَّماء على الأرض.

ولِعُلَماء الكَوْنيَّاتِ في هذا المجال بحوثٌ كثيرةٌ دقيقَةٌ ونفيسة. وهي مشحونَةٌ بأدلَّةِ آيات الله الخالق البديع العليم الحكيم القدير.

- ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾: جاء العطف بـ«ثُمّ» لأنَّ شَقَّ الأرض لِخُروجِ النبات منها مُتَراخٍ عن إنزال المطر.

وفي هٰذِه الآية إرْشادٌ للنظر إلى آيَةِ شقِّ الأرض لخروج النباتات منها، أَلَسْنَا نُشَاهِدُ أنَّ عِرْق النَّبات الناعِم الضّعيف، يَفْلِقُ الصخرة ويشُقُّها شَقاً لِيَخْرُجَ فَوْق سَطْحِ الأرض، فيمْتَصَّ غذاءَه من الضياء وحَرَارَة أشِعَّة الشمس، ومِنَ الْغِلَافِ الغازي المحيط بالأرض.

إنَّ التفكُّر في هذه الظاهرة يَسْتَدْعي بحوثاً علميَّةً دقيقة، تتَّصِلُ بعمليَّاتِ انفلاق البزور، وامْتِداد الجذور والعروق في الأرض والجوّ ونباتها، وظُهُور الزَّرْع والشَّجَر والثمر.

ولِعُلَماء الكونيات في هذا المجال بحوثٌ دقيقة ونفسية، وهي مشحونة بأدلَّةِ آياتِ الله الخالق البديع العليم الحكيم القدير.

- ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧﴾: جاءَ العطف هُنَا بـ«الفاء» الّتي تدُلُّ على الترتيب مع التَّعَاقُب، لأنَّ عمليَّاتِ شقِّ الأرض بالنباتاتِ متواصِلَةٌ ما دام النبات ينمو، وظهورُ الحبِّ في النباتات يأتي مُرَتَّباً بِتَعَاقُبٍ، على عمليَّاتِ شقِّ الْأَرْضِ لظهور النباتات وتناميها.

في هذه الفقرة من فِقَراتِ المشهد البياني توجيهٌ للتفكُّر في كُلّ نباتٍ يُنْتِجُ حبّاً، كالْقَمْح والشّعير والذُّرَةِ والأرزّ والْعَدَسِ والفول. إلى سائر الحبوب الغذائيَّةِ والدوائيَّة، والحبوب ذَواتِ الطُّعُومِ والرّوائِح المطيّبَةِ للأطْعِمَةِ، والمشهّيةِ لتناوُلها، والأكْلِ منها.

وفيها توجيه للتفكُّر في طعام الإنسان من لحوم الحيوانات، المشاركات للإنسان في أكل الحبوب، وفي نُمُوّ أجسادها على ذلك.

- ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨﴾:

وفي هٰذه الفِقَرَة من فقرات المشهد البيانيّ تَوجيهُ نظر الإنسان إلى طعامه من ثمار الشجر الّذي يُعَمِّر سنين عديدة، وجاء في هذا البيان البدْءُ بشجرة العنب، لِعِظَم قيمة العنب في حياة النّاس غذاءً وفاكهة.

﴿وَقَضۡبٗا﴾: **القضْبُ**: ما يُؤكَلُ من النّباتِ غضًا طَرِيّاً، وهو في الغالب ممّا تأكُله الأنعام، ومن القضب أوراق وأغصان شجرة العنب.

ولمّا كانَتْ شجرةُ العنب تُعْطي عِنَباً وَقضباً معاً، كان ذكْرُهُما مقترنَيْنِ دالاً على هذه الشجرة العظيمة في عطائها، وجزيل كَرَمِها، ولهذا سمَّاها الناس كرْمة.

إنَّ أشجار العِنَب من نِعَم الله الجليلة على النّاس في الحياة الدنيا.

- ﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩﴾:

وفي هٰذِه الفقرة من فقرات المشهد البيانيّ توجيه نظر الإنسان للتفكُّر

في شجرتين عظيمَتَيْنِ في حياة الناس، شجرة الزيتون، وَشجرة النَّخل.

أمَّا شجرة الزيتون فهي من الأشجار المعَمِّرة، ذات النَّفْعِ العظيم غذاءً ودَوَاءً، ويُسْتَخْرَج من ثمرها دُهْنٌ ذُو نَفْع جليل، يكاد لا يعادله دُهْنٌ آخر، وفي سائر أجزائها منافع كثيرة للناس.

وكذلك شجرةُ النخل ففيها منافع للناس عظيمة، غذاءً وفاكهة، ودواءً، وغير ذلك من منافع.

● ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿وَحَدَآئِقَ﴾: **الحديقةُ**: كلُّ أرضٍ ذاتِ شجر مثْمر أَحَاط بها حَاجز.

﴿غُلْبًا﴾: أي: تكاثَفَتْ أشجارها والْتَفَّت، يُقال لغة: حَدِيقَةٌ غَلْبَاءُ، أي: كثيفَةُ الأَشجار مُلتفٌّ بعضها على بعض، وفي الجمع يقال: حدائقُ غُلْبٌ.

﴿وَفَٰكِهَةً﴾: **الفاكهة**: الثمار اللَّذِيذة ذات الطعم الطيّب.

﴿وَأَبًّا﴾: **الأبُّ**: مَرْعَىٰ الحيوان من نبات الأرض، وهو للحيوان بمثابة الفاكهة للإنسان، أو الكلأ كُلّه، وقيل: نَبْتُ الأَرْضِ مما تأكل الناس والأنعام.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾: **المتاع**: كُلُّ شيءٍ يُنْتفع به مدّة ثُمَّ يأتيه الفناء، وهو يشْمَل كل ما فيه منفعة أو لذة من مأكل أو مشرب أو مَلْبَس أو مسكن أو مركب أو منكح، أو أداة لشَيْءٍ، من ذلك.

وقد جاء في القرآن تخصيص لفظة «المتاع» ومشتقاتها بالأشياء ذَوات المنافع الزائلة في الدنيا، أمّا ما يصيبه المتّقون في الجنّة يوم الدين فقد جاءَتْ تَسْميَتُه في القرآن نعيماً، للتَّنبيه على أن النعيم له صفة الدوام، وأنه مقيم.

الأنعام: هي الأموال الراعية، ولفظ الأنعام يذكر ويُؤنث.

وقد جاء النشرُ مَرَتباً على وفق اللّف، في عِبَارَتَيْ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ فالفاكهةُ متاعٌ للنَّاس، والأَبُّ متاعٌ للأنعام، وهذا من المحسّنات المعنوية البديعة عند علماء البلاغة، ويسمُّونه اللّفّ والنَّشر المرتّب.

في هذه الآيات الثلاث جاء البيان القرآنيُّ عامّاً، بعْدَ كان البيان قد خَصّص العِنَب والقضب، والزيتون والنخل، فنبَّهَ بالتعميم على كلِّ الأشجار الّتي تتكَوَّنُ مِنها مجتمعةً الحدائِقُ الغُلْب، ونَبَّه على كُلِّ أنواع الفاكهة المهيَّأة للإنسان، وكلّ النَّباتَات المهيَّأَة للحيوان الّتي تشبه الفاكهة الّتي يتفكَّهُ بها الإنسان، وجاء في آخر هذا البيان قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

فخاطب الله جلّ جلاله الناسَ جميعاً، بَعْدَ أن كان الخطاب مُوجّهاً للإنسان بأسلوب الحديث عن الغائب، وبأسلوب التوجيه الإفراديّ لكلّ إنسان، وفي هذا التفاتان، أحدهما التفات من الغيبة إلى الحضور، والآخر التفاتُ من الحديث عن المفرد، الذي يُقْصَدُ به كلُّ فرد على التّناوب، إلى خطاب جميع المؤهّلين للخطاب من الناس.

ومما جاء في تسمية ما في الجنة من لذَّاتٍ وأنواعِ سعادات بأنّه نعيم مقيم، قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بُشْرَىٰ للفائزين يوْمَ الدّين:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

(٩)

التدبر التحليلي لآيات الدَّرس الرابع من دروس السورة

وهو الآيات من (٣٣ ـ ٤٢).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

هذا الدرس الأخير من دروس السورة، يَعْرِضُ مَشْهداً من مَشَاهد يوم القيامة، يوْمِ البعث للحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، وهو مرتبطٌ بقول الله عزّ وجلّ في الدرس الثاني من دروسها:

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

إنّ هذه الآية قد استَدْعَتْ عَرْضاً فيه شيْءٌ من التَّفصيل لمشْهَدٍ من مشاهِدِ يوم القيامة، الذي تظهر فيه المرحلة الرابعة من المراحل البارزة الظاهرة لوُجُود الإنسان.

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: فإذا جاءت الصَّاخة الّتي يكونُ بها إنْشارُ الموتَىٰ، وبَعْثُهم للحياة الأُخرىٰ، لتحقيق المرحلة الرابعة من مراحل خَلْقِ النَّاس، كان الناس منقسمين إلى قسمين: ذوي وُجوه مسفرة، ضاحكة مستبشرة، وذوي وجوه عَلَيْهَا غَبرَةٌ، تَرْهَقُها قَتَرَة.

فجواب «إذا» الشرطية هنا محذوفٌ دلَّ علَيْه قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: اسمٌ وصْفِيٌّ من أسماء يوم القيامة، وهَذَا أوّل اسْمٍ من أسْمَاءِ هذا اليوم جاء في نجوم التنزيل.

أمَّا لفظ: [الآزفة] أي: القريبة، الذي جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) فهو اسْمٌ للسَّاعَةِ الّتي تكُونُ فيها أحداث إنْهَاء نظام الحياة الدنيا إنْهاءً كُلِيًّا، وبعدها تمضي مُدَّةٌ بَرْزَخيَّةٌ فاصِلَةٌ بين الحياة الدُّنيا والآخِرَة.

روىٰ الطبريُّ بسَنَدِهِ عن عَلِيٍّ وابْنِ عبَّاسٍ أنَّ «الصَّاخَّةَ» اسم من أسماء يوم القيامة، عظَّمَهُ الله وحَذَّرَهُ عِبَادَه.

الصَّخُّ في اللُّغَة: الضَّرْبُ بالحديد على الحديد، أو الضربُ بالعصا الصُلْبَةِ علَى شيءٍ مُصْمَتٍ.

وكُلُّ صَوْتٍ صَادِرٍ من أثَرِ وقْعِ صَخْرةٍ على صَخْرَةٍ، فَهُو في اللُّغَةِ صَخٌّ. تَقُولُ: ضَرَبْتُ الصَّخْرَةَ بحَجَرٍ فَسَمِعْتُ لَهَا صَخَّةً.

فلفظ «الصَّاخّة» الّذي سُمِّيَتْ بِهِ القيامة:

- إمَّا اسْمُ فاعل من صَخَّ يصُخُّ صخّاً، فهو صَاخٌّ وهي صاخَّة.
- وإمَّا مصْدَرٌ بمعنَىٰ الصَّخّ.

وقال أبو إسحاق: الصَّاخَّةُ هي الصيْحَةُ الّتي تكونُ فيها القيامة، تَصُخُّ الأَسماع.

أقول: الظاهر أن هذه الصاخة هي الصّوتُ الذي يَصُخُّ نُفوسَ الموتى، حين يُنْفَخُ في الصور النفخةُ الثانية، فتدْخل الأرواح في النفوس، وتَنْبُتُ الأجساد الّتي دبَّتْ في نفوسُها الحياة، ويخرُجُ المبعوثون مُنْتَشِرين، إلى ربّهم يَنْسِلُون.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾.

الأجداث: القُبور.

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤﴾:

إنَّ حُدُوثَ «الصَّاخَّة» مُؤْذِنٌ بِبَدْءِ الْيَوم الآخِر، يوم الحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، وأوّل أزمَان هذا اليوم ظرفٌ لحدوث الصَّاخَّة، وتأتي بَعْدَها أزمَانٌ وأحداثٌ، كُلُّها مَظْرُوفَةٌ بهذا اليوم الذي جعله اللّٰهُ عزَّ وجلَّ غَيْرَ ذِي نهاية، إنَّ يَوْم الحياة الدُّنيا كُلّها ينتهي بالسَّاعَةِ الّتي يكون بها الإفناء، أمَّا اليوم الآخِرُ فيَبتَدِئ بالسَّاعَةِ الّتي تَحْدُثُ فيها الصَّاخَة، ويكُونُ بها الإحياء الثّاني، ولا نهايَةَ لهذا اليوم.

ومن الأحْدَاثِ الّتِي تُشَاهَدُ في أوائل هٰذَا الْيَوْم أنْ يَفِرَّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه، حَذَرَ أن يَطْلُبَ مِنْه مَعُونَةً، لأنَّه مَشْغُولٌ بهُمُومِ نفسه، خائفٌ من عذابِ رَبِّه على معاصيه إنَّه لَيَوْمٌ عَصِيبٌ.

الْمَرْءُ: هو الرَّجُل الْكَامِلُ الرُّجُولة، ولعلَّ في اختيار كلمة «الْمَرْءِ» هُنَا بدَلَ الإنسانِ إشارةً إلى أنَّهُ ذُو مُرُوءة، وهِيَ كَمَالُ الرجوليَّة.

وإذا كان المرءُ يفرُّ من أخيه فمِنْ باب أولى أن يفرّ ممَّن هو أبْعَدُ قرابَةً من أخيه، وأنْ يفرّ أيّ إنسان آخر هو دُون المرءِ في الرجوليَّة والْمُروءَة.

- قولُ اللّٰهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾:

أي: ويَفِرُّ المرْءُ من أُمِّهِ وَأبيه، وفي بيان هذا ارتقاء من الأخ، إلى الأمّ والأَبِ اللّذَانُ هُمَا أكْثَر قَرابَةً، وحَقُّهما عَلَيْه أكثر من حقّ أخيه.

وجاء في البيان تقديم الأمّ مُراعاةً للنَّسَقِ الجماليّ في الآيات، ولأَنَّ الأُمَّ أكثَرُ تعلُّقاً بولَدِها مستَنْجِدَةً بِه من الأب، فَفِرَارُهُ مِنْها آكَدُ عِنْدَه.

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾:

أي: ويَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ صاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، وفي بيان هذا ارتقاءٌ أيضاً مِنَ الأَمّ والأَب، إلى الصَّاحِبَةِ والبنين. لأنّ هوَىٰ الإنسان مرتبطٌ بصَاحِبَتِه الّتي يُحِبُّها أشَدَّ من ارتباط عاطفَتِه بأمِّهِ وَأبيهِ، ولأنَّ ارتباط عاطِفَتِهِ ببَنِيه أشد من ارتباطه بصاحبته.

فالْعَطْفُ ولو كان بالواو الّتي تدلُّ على مُطْلَق الْجَمع، إلاَّ أنَّ ترتيب المعطوفات قد لوحظ فيه معنى الارتقاء الطبيعيّ، وهذا من بدائع الترتيب اللفظي في القرآن.

ولعلّ في اختيار كلمة ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ دون لفظ [زوجته] معنى مقصوداً، ويظهر هذا في أمْرَين:

الأمر الأول: أن تكون صاحبتُه في الدنيا غير ذاتِ صفة شرعيَّة تجْعَلُها زَوْجةً له، فالعلاقة بينهما علاقة حبّ.

الأمر الثاني: أن تكون زوجَتُه في الدنيا مَكْرُوهَةً له غير محبُوبَة، فَمِنْ شأنِه أن يَفِرَّ مِنها، فمِنْ غير المناسب ذكرها في البيان.

أمَّا الصاحبةُ فهي الحَبيبة الملازمةُ، وفِرَارُه منها دليلٌ على أنّه مَهْمُومٌ بنفسه، يَبْحَثُ عن نجاته، ويَفِرُّ من كلّ من يخشَىٰ أن يتعلّق به.

دلَّت هذه الآيات من (٣٤ ـ ٣٦) على أنَّ الناسَ يومَ البعْثِ قبْلَ الحساب وفَصْل القضاء يَفِرُّ بعضهم من بعض، حتَّىٰ إنَّهُمْ يفرُّون مِنْ كلّ مَنْ كانُوا أحِبَّاءَهم في الحياة الدّنيا، لأنّهم يكونون مَهْمُومِين مشغولين بأمُورِهم

وشؤونهم الخاصَّة، يخافون عذاب الله، ويطلُبُونَ نجاة أنفسهم، فلا يقبل أحَدٌ منهم أن يسْتَنْجِد به أحدٌ لمعاونته في شأنه، مهما كان حبيباً له، بل يفرُّ منه.

وفي تفصيل من يفرُّ منهم تصويرٌ بديع للمشهد بالتعبير البياني، مع أنَّ الغرض قد كان يمكن تحقيقه بتعبير عامٍّ مجمل لا تفصيل فيه.

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾

جاء هذا البيان بمثابة جوابِ سؤالٍ يطْرَحُه الذّهن، ولو لَمْ يُذْكَرْ في البيان، وهو: لِمَاذا يَفِرُّ المرْءُ يومئذٍ من أخيه، وأُمِّهِ وأبيهِ، وصاحِبَتِه وبينه؟؟

والمعنى الذي دلّ عليه الجواب: لكلِّ امْرِئٍ منهم من أمْرِه الخاصّ به ما يكْفِيه، أي: ما يَسْتَغْرِقُ كُلَّ تفكير واهْتِمَام لدَيْه، فلَيْسَ لَدَيْه زائدٌ يُساعِدُ بِه غَيْره، مِمَّن يتمنَّىٰ أن يكون لدَيْه فائضٌ عن ضروراته القُصْوَىٰ، حتَّىٰ يُساعِدَه به.

إنَّهم يومئذٍ يكونون فُرَادَى، لا يستطيع أحدٌ منهم أن يتعاون مع أحد، لأنّ الحساب والجزاء يوم الدّين حِسَابٌ فَرْدِيٌّ، كما قال تعالى في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

وكمَا قال تعالى في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

ويزيدُ المجرِمُ يومَئذٍ فَيودُّ لَوْ يفْتَدِي مِنْ عذاب الله ببنيه، فضْلاً عن صاحبَتِهِ وأخيه وَمَنْ هُمْ أبْعَدُ من هؤلاء عنه قرابَةً وَنَسَباً، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿... يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ (١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤)﴾.

جاء تقديم البنين والصاحبة هنا وفق الترتيب العاطفيّ لأنّ البيان يُشعر بأنه يَوَدُّ لو يجمعهم جميعاً في الفداء بوقت واحد، بخلاف الفرار فإنه يحدُث مُجزّأً.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢)﴾.

بعد بيَانِ لقْطَةٍ مِنْ مَشَاهدِ يَوْم الْبَعْثِ، وهي لقطة يبرُزُ فيها فِرَارُ كُلّ إنسانٍ مِنْ أقَاربه وأحْبابِه، حتَّى أحَبُّ الناس إليه في الدّنيا، فكَيْفَ يكون حالُه مع سائر النَّاس؟. يَعْرِضُ البيان في السُّورَةِ لَقْطتَيْنِ: لَقْطَةٍ تَظْهَرُ فيها أماراتُ السَّعَادة والفرحة، وأخرىٰ تظْهَرُ فيها أمارتُ التعاسة والشقاء.

فاللّقطة التصْوِيريّةُ الأولى: جاء فيها عَرْضُ وُجُوهِ مُسْفِرَةٍ، ضَاحِكَةٍ مستَبْشرة. إنَّها وُجُوه أهل الإيمان والنجاة من الخلود في عذاب النار، على اختلاف درجاتهم، وطبقاتهم، ومنازلهم.

مُسْفِرَةٌ: أي: مُشْرِقَةٌ مضيئة. تقولُ العرب: أسْفَرَ الصُّبْحُ، إذا انكشف وأضاء، حتَّىٰ لاَ يَشُكَّ ذو بَصَرِ خبير بأنَّه صُبْح.

أمّا فعل «سَفَر» فَيُقَالُ لمن كشَفَ وجْهَهُ المغطَّى، تقول العرب: سَفَرَتِ المرأة، إذا ألْقَتْ نِقَابها أو بُرْقَعَها عَن وجْهها.

مُسْتَبْشِرَة: أي: فَرِحَةٌ مُنْبَسِطَةٌ ذاتُ بِشرٍ، لأنَّها مُبَشَّرَةٌ بالنَّعيم المقيم في الجنَّة دارِ المتقين.

وما يَظْهَرُ علَىٰ الوجوه، إنّما هو تعبير عمّا في نفوس أصحاب هذه الوجوه من فرحٍ وطُمَأْنينة بعَفْو الله وغُفْرَانِه وجنَّتِهِ. وهُو علامَةٌ علَىٰ أنّ

مصيرهم إلى الجنّة ولو بعد التّطهير بعذابٍ على مقادير الْوُجوه لا تظهر عليها هذه الأمارات ما لَمْ تكُنْ النفوس قد اطمأنّتْ للظّفر بالمصير السعيد.

واللّقطة التّصْوِيريّة الثانية: جاءَ فيها عَرْضُ وُجوهِ أخْرَىٰ عَلَيْها غَبَرَةٌ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ.

الْغَبَرَةُ: الغبار، وهو ناعم التراب الّذِي يُثِيرُه أيُّ تحريكٍ يَسير، ولو كان من نَسَمات رفيقَات. وكلُّ ناعِم من كلّ شيءٍ ينتشر في الجوّ بالنسمات.

﴿تَرۡهَقُهَا﴾: أي: تَغْشَاهَا وَتَعْلُوها، تقول لُغةً: رَهِقَ الشَّيْءُ الرَّجُلَ يَرْهَقُهُ رَهَقاً، أي: غشِيَهُ وعَلاَه.

وتَقُولُ: رَهِقْتُ مَنْ أُقاتِلُه، إذَا غَشِيته وعَلَوْتَ عليه.

ورَهِقَ الغُبَارُ البيوتَ، إذَا غَشِيَها وجلَّلَها.

﴿قَتَرَةٌ﴾: الْقَتَرَةُ: غَبرَةٌ يَعْلُوها سوادٌ كالدُّخان.

وأصْحَابُ هذه الوجوه البائسة التعيسة يوم الحشر هم الكَفَرَةُ الْفَجَرَة، وقد أشار اللّهُ عزَّ وجلَّ إليهم في البيان باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للدّلالة على إبعادهم عن مواطن رحمته، فقال جلّ جلاله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾: جمع «الكافر» والكافر هو الجاحد للحق وهو عالم به، والجاحد للنعمة لئلاَّ يطالَبَ بشُكْرِها، **والكافر**: السَّاتر للحقّ ولأدلّتِهِ بِحِيَلِه الّتي يَسْتَخْدِم فيها زُخْرُفَ القول تَغْريراً ومخادعة.

﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾: جمع «الفاجر» وهو اسم فاعلٍ من فَجَرَ يَفْجُرُ فُجُوراً.

والْفُجور: هو الانبِعَاثُ الواسِعُ الْوَقحُ في القبائِحِ والآثَامِ والمعاصِي. فالفاجِرُ هو الْمُنبَعِثُ بوَقَاحَةٍ واتِّساعٍ على مقادير استطاعته في ارتكاب الجرائم.

وبهذا تَنْتَهِي السّورة بعد أَنْ تدرّجَتْ دُرُوسها الأربعة متشابكَةَ الأفكار، ومُجْتَمِعةً على موضوع شَجَرِيٍّ واحد، بدأ بتربية الرَّسول، وتوجيهِهِ لما هو الأفضل في عُنْصُرٍ من عناصر تأديته رسالته، وثَنَّىٰ بتوبيخ الإنسان الكافر المعاند المكابر، وتنبيهه على أدلة الإيمان، وبيان الغاية من خلق الإنسان، وثلَّث بلفت الأنظار إلى بعض ظواهر نعم الله الدائمة على عباده، وأخيراً قدّم لقطات واعظات من مشاهد يوم الدين.

والحمد لله على توفيقه ومنّه وفتحه.

* * *

ملاحق لتدبر سورة عبس

الملحق الأول: حول بلاغيات في السورة.

الملحق الثاني: حول كون وظيفة القرآن والرَّسُول وظيفة بيانٍ وتَذْكِير.

* * *

(١٠)

الملحق الأول

حول بلاغيات في سورة عبس

في هذه السُّورة روائع بلاغيَّة متعددة، منها يلي:

(١) جاء في مطلعها الحديثُ عن الرسول ﷺ بأسلوب الحديث عن الغائب. لأنَّه تولَّى عن السائل الأعمى، وهذا من مقابلة العمل بما يشبهه في البيان، ولكن جاءَ عَقِبه مباشرةً الالتفات إلى مخاطبَتِه بعتابٍ وِجَاهِيّ فيه إقْبالُ الخليل إلى خليله.

(٢) استخدام الاستفهام للدلالة على المعاتبة، وهذا من إخراج الاستفهام

عن أصل دلالته، فقال تعالى خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣)﴾؟!

(٣) استعارة فِعْلِ ﴿قُتِلَ﴾ للدّلالة على مَعْنَى «لُعِنَ» لأنَّ الْقَتْل أشدُّ في الدلالة على معنى الطّرْدِ والإبعاد من اللّعن.

(٤) طرحُ السؤال وإتباعُهُ بالجواب، وهذا أُسْلوب مفيد من أساليب البيان والتعليم، لأنَّ طرح السؤال يحرّكُ الذِّهْنَ للتفكّر في الجواب، فقال الله تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨)﴾؟ وأتبعه بالجواب فقال تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) . . .﴾.

(٥) جاءت آيات السّورة قَصِيرَةَ الفِقَرَاتِ، متوازنَةً بَدِيعة، وفق الطريقة الّتي كانت تعجب فُصَحاء العرب إبّان التنزيل.

(٦) اللّفّ والنشر المرتب، في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٢)﴾.

(٧) الكناية عن يوم القيامة بذكر أوّل حَدَثٍ يَحْدُثُ فيه وهو الصَّخّ، وأخْذاً من هذا صَحَّ أن توصفَ القيامة بأنّها صاخَّة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣)﴾.

(٨) الترتيب الارتقائي المطابق للواقع في قول الله تعالى:

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾.

وأَطْلَق علماء البديع على هذا النوع اسم «الترتيب».

(٩) الكناية عن أحوال النفوس الباطنة بذكر ما يَبْدُو على الوجوه من ظواهر، لأن الظّواهر أَمَارات تَدُلُّ على البواطن، فقال اللّهُ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ (٣٨) ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ (٣٩) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (٤٠) تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾.

* * *

(١١)

الملحق الثاني

حول كون وظيفة القرآن والرسول وظيفة بيان وتذكير

لقد خلق الله الإنسان ليَبْلُوه (أي: ليمتحنه) في ظروف الحياة الدُّنيا، فاستدعى ذلك أن يمنحه حرِّيَّة الاختيار، بجهازٍ في نفسه يختار به ما يشاء، ضمن المجالات التي مكَّنه من التحرّك فيها في حياته، واستدعى ذلك أيضاً أن يُشْعِرَه بأنّه يستطيع تحقيق مراداته، وذلك بتسخيره الأشياء له، ممَّا هو داخل في ذاته أو خارجٌ عنها.

والتسخير إنما يَتِمُّ بخَلْق الله، وأعمال المسخّرات إنما تتم بقضاء الله وقَدَرِه وقدرته وخلقِهِ، لتحقيق مرادات الإنسان الموضوع موضع الامتحان.

وإعطاء الإنسان المخلوق للامتحان حرِّيَّة الاختيار يتنافَىٰ مع إكراهه بالْجَبْر على أن يختار فعْلَ أو تَرْكَ الخير الذي يجب عليه أن يفْعَلَهُ، أو فِعْلَ أَوْ تَرْكَ الشَّرِّ الذي يَحْرُم عليه أنْ يَفْعَلَه، أو فِعْلَ أو تَرْكَ المباح المأذون له بأنْ يفْعَلَهُ أَوْ يَتْرُكه.

فجاء البيان الرَّبَّانيُّ بأنَّهُ لا إكراه في الدين. وهذا يستدعي باللّزوم العقلي أنْ تُتْرَكَ للإنسَان حُرِّيَّةُ الاختيار، لا علَىٰ معنَىٰ الإباحة، ولكن على معْنَىٰ التمكين المستَتْبَعِ بالمسؤوليَّةِ، والحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء. بالثواب أو بالعقاب.

ويلْزَمُ من كلّ ما سبَقَ عقلاً أن تكون وظيفةُ حامل الرسالة الرَّبَّانيّة للناس، وأن تكون وظيفةُ نصوص الرسالة الرَّبّانيّة للنَّاس، التبليغَ، والتعليمَ، والشرحَ، والبيانَ، والإقْناعَ بمختلف وسائل الإقناع، والترغيبَ والترهيبَ، والتذكيرَ ما دام احتمال نفع التذكير قائماً غير ميؤوسٍ منه، والانْذَارَ أخيراً

بعقاب الله يوم الدين، مع ما يمكن أنْ تقضي به حكمة الله من عقاب مُعَجَّلٍ في الدنيا.

ويلْزَمُ عقلاً أنَّهُ ليس من وظائفِ حامل الرّسالة الرَّبّانيَّة، رسولاً كانَ، أم تابعاً له من أُمَّتِه، أنْ يُحَوّل أحداً مِنَ الكُفرِ والفُسُوقِ والعِصْيانِ، إلى الاستجابة والطاعة والإيمان، والقيام بالأعمال الصالحة عبادَةً للرَّحْمٰن، وإرْغاماً للشيطان.

وهذا ما تواطَأَتْ على بيانه وتأكيده النصوص القرآنيَّةُ، في مراحلَ مُتباعدةٍ من نُجُوم التنزيل.

ونجد في القرآن الكريم سبعة عشر نصّاً تُبَيّن هذه الحقيقة، وتُؤَكّدُها، ضمن مَنْهَجٍ حَرَكيٍّ تَرْبَوِيٍّ حَكِيمٍ.

وفيما يلي بيانُها بحسب ترتيب نزولها، مقرونةً بشيءٍ من التدبّر.

النصُّ الأوّل:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

تَذْكِرَة: أي تذكيرٌ بَاقٍ، بما اشتملت عليه نصوصُها من بيانٍ ودعوةٍ إلى الإسلام وموعظةٍ وإرْشاد

وأصْلُ التذكِرَة في اللّغة: الوسيلةُ المذكِّرة، ولـمّا كانت الرسالة الإسلاميَّة مشتملة على نصوصٍ قضىٰ الله ببقائها محفوظة، فإنّها تَحْمِل صِفَةَ البيانِ والهداية والموعظةِ والإرشادِ والتذكير دواماً، ولـمّا كانَ التَّذْكِيرُ هو الحلقة الأخيرة في هذه السِّلْسِلَةِ، كانَتْ تسمِيَةُ هذه الرسالة بالتَّذْكِرَة مُتَضَمِّنَةً باللّزوم الذّهني الحلقات السابقات للتذكير.

ففي هذه الآية بيان أنّ هذه الرسالة رسالةُ بيانٍ وهدايةٍ وموعظةٍ وإرشاد

وتذكيرٍ دواماً، أي: فهي ليست رسالة إكراهٍ ولا إلزام، فمَنْ شاءَ بما آتاه اللَّهُ من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمَكَّنَةٍ بخَلْق اللَّهِ من أن تَشَاءَ بحُرِّيَةٍ نجاةَ نفسِه وسَعَادَتها اتَّخذَ إلى مرضاة ربِّه سبيلاً، ومن لم يشأ ذلك استَحقَّ العقابَ والعذاب، فهو الّذي يتحمَّل نتائج رفضه للحق، ورفضه سُلُوكَ سبيل الهداية.

* * *

النص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول) بشأن المعرضين المبتعدين عن الاستماع لدعوة الرسول وبيانات القرآن الّتي هي تَذْكِرَةٌ فكريّة بيانيّة، وليست إكراهاً ولاَ قَسْراً بإجبار:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥)﴾.

كلاَّ: كلمةُ زجْرٍ فيها معنى التنديد والتلويم.

إنَّهُ تَذْكِرَة: أي: إنّ القرآن تَذْكِرَةٌ باقيةٌ بما اشتَملَ عليه من بيانٍ وهدايةٍ وموعظةٍ وإرْشادٍ وترغيبٍ وترهيب، ولمّا كان القرآن مذكّراً بهٰذِه الأمور دواماً أطْلَقَ اللَّهُ عليه اسم «التَّذْكِرَة» وهي في اللُّغة ما يُسْتَذْكَرُ بِه الأمْرُ، كما سبق به البيان.

فما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضين: استفهامٌ إنكاريٌّ تَعْجِيبيٌّ من حالهم.

حُمُرٌ: جمع «حمار» والمرادُ بِها الحُمُرُ الْوَحْشِيَّة.

مُسْتَنْفِرَة: أي: نافِرَةٌ بِشِدَّةٍ إذا أصابَها الذُّعْرُ.

قَسْوَرَة: على صِيغَةِ «فَعْوَلَة» منَ الْقَسْر، وهوالأخذ بإكراه.

القَسْوَرُ والْقَسْوَرَةُ: من أسماء الأسَد، والقَسْوَرَةُ أيضاً جَمْعُ «الْقَسْوَر» وقَدْ سُمِّي الأسد قَسْوراً لأنه يفترس صيْدَهُ قسراً.

ويطْلَقُ لفظ «الْقَسْوَر» على الصَّيَادِ الرّامي، وجَمْعُهُ «قَسْورَة» فالرُّماة الصيّادون الّذين يصيدون الحيوانات البرّية بِسِهامِهِم، فيَقْسِرُونها بوسائلهم، ويُكْرِهونها حتى يأسروها يُطْلَقُ عليهم لفظ «قَسْوَرَة».

في هذا النصّ تعجيبٌ من حال الْمُعْرضينَ عن القرآن النافرين من سَطْوَتِهِ الفكريَّة المؤثِّرَة فيهم، بما فيه من بلاغة رفيعة، ودلالات مَنِيعَة، وَحَقَائِقَ لاَ يَأْتِيهَا الباطل من بين يَدَيْها ولاَ مِنْ خَلْفِهَا، وأنْوارٍ ساطعَةٍ، وهِدَايةٍ قاسِرَةٍ لِمَنْ اسْتَسْلَمَ إليها، وقد جاء تَمْثِيلُهُمْ في هذا النّصّ بالْحُمُرِ الْوَحْشِيّة الّتي هَجَم عليها أسَدٌ أو أُسُود لِتَفْتَرِسَها، فأصابَها الذُّعْرُ الشدِيدُ فَنَفَرَتْ وفَرَّتْ لاَ تَلْوِي علَىٰ شيءٍ.

وظاهِرٌ أنّ الغرض من هذا التمثيل التنفيرُ مِنَ الإعراض عن هداية القرآن، مع تقبيح صُورَةِ الْمُعْرِضين وذَمِّهِمْ، إذْ جاء تمثيلُهُم بالْحُمُرِ الوحْشيَّة، وَكان من الممكن تمثيلُهم بالْبَقَر أو بالظّباء، لِكنَّ الْحُمُر هي المعروفة عند الناس بالبلادة والغباء، فالتمثيل بها أكْثَرُ تقبيحاً وَذَمًّا لحالة النفور من تذكرةٍ فكريَّة ليس لها سَطْوَةٌ مادّيَّةٌ تَقْسِرُ بإكراه.

إنّ الفكرة الّتي سِيقَ لَهَا التَّشْبيهُ في هذا النصّ، هي أنّ بَيَانَ الدَّعْوَة إلى الإسلام، وما جاء في القرآن، دَعْوَةُ تَذْكِرَةٍ بحَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ، هيَ فِطْرِيَّةٌ في فِكْر الإنسان ووِجْدانه، وبحقائق علميّة مُنَزّلَةٍ من لَدُنْ عليم حكيم، يُطْلَبُ من الناس أنْ يعْلَمُوهَا أوّلاً، ثُمَّ يَتذَكَّرُوهَا دَواماً عند المناسبات الداعيات لتذكرِها، لتكون مُوَجّهَةً لإراداتهم، وأنواعِ سُلُوكهم.

وكُلُّ إنسانٍ هُو حُرٌ بَعْدَ أَنْ تُعْرَضَ علَيْه هَذِه التَّذْكِرة في أن يَسْتَجِيب لمضمونها فَيُؤْمِنَ، أو يَرْفُضَهَا فَيَكْفُر، فهِيَ إذَنْ ليْسَتْ مُطَارَدَةَ مُكْرِهٍ مُجْبِرٍ

قَاسِرٍ، يُلاَحِقُ طَرِيدَتَهُ لِيَفْتَرِسَهَا أو يَصِيدَها، كما يَفْعَلُ الأسُود، أوْ كما يَفْعَلُ الرُّماةُ الصَّيَّادون.

إنّ الإنسان ذا الْفِكْرِ الْحَصِيف لا يَفِرُّ من عَرْضِ التذكراتِ الفكريّة عليه، بَلْ يَقْبَلُ عَرْضَها، ويَقْبَلُ مُنَاقَشَتَها، ثُمَّ هُو بعْدَ ذلك إمَّا أن يَقْبَلَها، وإمَّا أَنْ يَرْفُضَهَا.

فدلّ هذا النّص بوضوح تامٍّ على أَنّ الدعوةَ إلى الإسلام عَرْضٌ تخييريٌّ لمن يُعْرَضُ عليهم من غير المسلمين، وليس إكراهاً ولا إجباراً بالْقَسْر، فمَنْ شاءَ اسْتَجَابَ فأسلم، ووَضَع في ذاكِرَتِه أرْكانَ الإيمانِ والإسلام وبيانات القرآنِ، لاتباعها، فقال تعالى فيه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

وأبان النصُّ عِلَّةَ المعرضين النفسيّة وهي أمران:

الأول: الكِبْرُ عن اتّباع الرسولِ، لأنّ كلّ امْرِئٍ من هؤلاء يُرِيدُ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِ من عِنْدِ اللّهِ صُحُفٌ مُنَشَّرَةٌ، فقال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

الثاني: جحودهم للبَعْث والحساب والجزاء يوم الدّين، فهم لا يخافُون عقابَ الله في الآخرة، فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ من سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن المجيد:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

فأبانَ هذا النَّص أنّ القرآنَ ليْس إلاّ ذِكْراً مُوجّهاً لكُلّ الْعَالَمِين، الموضوعين مَوْضعَ الابتلاء والتكليف، أمّا من يسْتجيب لدعوته ويتدبَّرُه،

ويتخذُه ذكراً، وينتفع بما فيه من هداية ودلالة على صراط الله المستقيم، فَهُوَ مَنْ شاءَ مِنَ المخاطبين به بإرادَتِهِ الْحُرَةِ أنْ يستقيم على صراط الله، ولا يُرِيدُ أن يَعْوَجّ ويكونَ جائراً مُتَنكّباً عنه، وسَالكاً سُبُل الضلال الّتي تَسْتَدرجُه إليها الشياطينُ والأهواء والشهواتُ الجانحات عن الحقّ والخير والفضيلة وما أَذِنَ الله به لعباده.

* * *

النصّ الرابع:

قولُ الله عزّ وجلّ من سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) في معرض تربية الله لرسوله ﷺ بشأن إعراضه عن الأعمى ابْن أُمِّ مكتوم الذي جاء يسأله عن بعض مسائل الدّين، إذْ أعرض عن إجابته لأنّه كان ﷺ مشغولاً بدعوة كُبَراء قومه إلى الإسلام:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾.

أي: إنَّ رسالَتَك يا مُحَمَّدُ رسالةُ بيانٍ وهداية وتذكير، ولَيْسَت رسالةَ تَكْليفٍ لكَ أن تُحوّل الناسَ من الكُفْر إلى الإيمان، حتَّىٰ تُوَجّه اهتمامَكَ الكبير لدعوة الكافرين، وتُعْرِضَ عَن طالِبِ المعرفة الدينيَّةِ راجياً أن يتذكَّرَ أو يخْشَىٰ، فوظيفتُك وظيفَةُ مُذَكِّرٍ، ولَيْسَتْ وظيفَةَ مُكرِهٍ ولاَ مُغَيِّر، فالاستجابة للدعوة ينبغي أن تكونَ بإرادَةِ المدعوّ الحرّة، واختيارِه الإيمانَ بالحق، وسلوكَ صراط الهداية، لا بالإكراه والإجبار.

* * *

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ بشأن شُعَيْبِ عليه السلام وشأنِ قَوْمه معه، في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨)﴾.

فجاء في هذا النصّ بيان مَثَلٍ من أمْثِلَةِ إكراه أهْلِ الكُفر لأَهْلِ الْإِيمان، على أن يَتْركُوا دينهم الرَّبّاني، ويَعُودُوا إلى ما كَانوا عليه قَبْلَ الإيمان، ويكونُوا من الدَّاخلين في ملَّةِ الْمُكْرِهين، وهذا دَيْدَنُ قادَةِ أَهْلِ الكُفْرِ دواماً، فِي كُلِّ عصور التاريخ، إنَّهُمْ يُكْرِهُونَ النَّاسَ على الدُّخول في مِلَلِهِمْ وأدْيانِهم ومذاهبهم وطرائِقِهم في الحياة، وإلاّ أَنْزلُوا بهم أنْواعَ الاضطهاد والتعذيب.

على خلاف الرّسالات الرّبّانيّة للنّاس، فإنَّها عَرْضٌ وإقناعٌ وهدايَةٌ بتَخْيير، مقرونٌ بإنْذَارٍ بالعواقب الوخيمة من الله العزير القدير، لِمَنْ أَبَىٰ ولم يستجبْ، وببشارَةٍ بسعادةٍ أبديَّةٍ عند الله الرّحيم الغفور، لمن سَمِعَ وأطاعَ واستجابَ بإرَادَتِه الحرَّة، دون إكراه ولا قَسْرٍ وإجبار.

إنّ قضايا العقائد، واعتناقَ المذاهب الدينيَّة، لا يُعْقَلُ أَنْ تكُونَ مع الكراهِيَةِ والإجبار، وإنّما تكون بالرَّغْبَةِ الذَّاتِيَّةِ والاختيار الحرّ.

* * *

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿طه (١) مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ (٢) إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ (٣)﴾.

لمَّا اشتَدَّ حِرْصُ الرَّسول ﷺ على إيمان قومه، حتَّى أَهَمَّهُ كُفْرُهُمْ، وشَقَّ عليه إعراض مَنْ أعْرَضَ مِنْهم، وإدْبارُ مَنْ أدْبَرَ، وتَوَلِّي مَنْ تَوَلَّىٰ وكَفَرَ، وجَعَلَتْ رحْمَتُه بهم تُقِضُّ مَضْجِعَهُ، وتوجعُ قَلْبَهُ وتُشْقيه بإيقاعِهِ في

الشِّدَّة والْعُسْرِ والألم أنْزَلَ اللَّهُ عليه هذا النصّ، مبيّناً له فيه وظيفة رسالته، بإنزالِ الْقُرْآن عليه، وأنّه جلّ جلاله ما أنْزَل عليه القرآنَ، وحمّلَهُ مسؤوليّةَ تَبْلِيغِه، لِيُشْقِيَ نَفْسَهُ بالآلَامِ من أجْلِ الذين لم يسْتجيبوا لدعوته.

وأَبانَ الله لِرَسوله بأسلوب الحصْرِ، أنَّه مَا أنْزَلَ عَلَيْهِ القرآنَ إلاَّ تَذْكِرَةً لمن يخش، أي: فمن يَخْشَىٰ الله ويخاف عقابه فإنّه يجعل القرآن تذكرة له، ثمَّ إنَّ من جعل القرآن تذكرةً له فلا بُدَّ أن تَتَّجهَ نَفْسُه للطَّمَع بثواب الله العظيم يوم الدّين، مع ما يُصِيبُ مِنْ خيراتٍ وطمأنينة قلبٍ في الدنيا.

فالمعنى: ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقَىٰ بالحزْنِ والألم من أجل الذين كفروا ولم يَسْتَجِيبوا، ما أنزَلْنَاهُ عَلَيْكَ إلاَّ تَذْكِرَةً لمَنْ يَخْشَىٰ.

أي: فلا تَحْمِلْ يا مُحَمَّدُ هَمَّ الّذِينَ اخْتَارُوا لأنْفُسِهِمُ الكُفْرَ بَعْدَ تَذْكِرَتِهِمْ، وبيان الحق لهم، ولا تُشْقِ نَفْسَكَ من أجلهم.

ونُلاَحِظُ في هذا النّصّ تَوْجِيهاً مباشراً للرّسول، لتأديبه، برِفْقٍ، حوْلَ مُهِمّتِهِ في رسالته، وتوجيهاً لكلّ الدُّعَاةِ إلى الله من أمّتِهِ من بَعْدِه.

ونلاحظُ فيه تعريضاً غيْرَ مباشر للكافرين المعرضين، والمدبرين المتولّين عن الاستجابة لدعوة الحقّ.

* * *

النصّ السابع:

قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

تَدُلُّ هٰذه الآيَةُ بلَوازم بيانِها على أنّ رحمة الرسول ﷺ بقومه كانت شديدةً جدًّا، وأنّ حِرْصَهُ على إيمانِهم للنَّجاةِ من عذاب الله، والظفرِ بالنعيم الخالد، قد كان حرْصاً بالغاً، وأنّ توجُّعَ قَلْبِه من أجْلِهِمْ قَدْ كَانَ عظيماً فَلَمْ

يَسْتَطِع الضَّغْطَ على عَاطفته، فأنْزَل اللَّهُ عليه هذا النَّصَّ، مُتَضَمِّناً أُسْلُوباً تَرْبَوِيًّا فِيه الإقناعُ المشوبُ بالعِتَاب.

والمعنى: لو شاء ربُّكَ يا محمَّدُ إكراه الناس على الإيمان، لسَلَبَهُمْ حُرِّيَّاتهم، فجعَلَهُمْ مَجْبُورين، فأكْرَهَهُمْ،فآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كلُّهُمْ جميعاً، أو لاتَّخذَ من الوسائل ما يجعلُهم مُلْجَئين إلى الإيمان إلجاءً.

لكِنَّ هذا يتنافَىٰ مع حِكْمَة الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وحِكْمَةِ تَرْكِ الناسِ لاخْتِيَارِهِمُ الحرّ.

فإذا كان ربُّكَ القادر على جعلهم مجبورين على الإيمان جميعاً لَمْ يَفْعَلْ ذَلك، لأنَّه شاءَ أن يجعلهم مُخيّرين، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم، أفأَنْتَ يا مُحمَّد ويا كُلَّ مَنْ يَدْعُو إلى اللَّهِ من أمّتِهِ تُكْرِهُ النَّاسِ حتَّىٰ يكونوا مؤمِنينَ، مع أنَّه أمْرٌ لم يخْتَرْهُ اللَّهُ لِنَفْسِه، وهو ذو القدرة التامَّةِ عليه.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) مُبَيّناً مثلاً من أمْثِلَةِ دَعْوَةِ الرُّسُل السابقِينَ لأقوامهم، الّذِي يَنْبَغِي التَّأَسِّي به، وهو مُقْتَطَعٌ من دعوةِ نُوحٍ عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآية بيانُ جانبٍ من حِوارِ نوحٍ لقَوْمِهِ، حَوْلَ حُرِّيَّة النَّاس في اختيار الإيمانِ والكُفْر، وأنَّ الرَّسُولَ لاَ يَمْلِكُ إلزامَ الناس بالإيمانِ، بَعْدَ أن مَنَحَهُمُ الله عزّ وجلّ حُرِّيَّةِ الاختيار ليَبْلُوَهم، وحمَّلَهُمْ مسؤوليَّةَ اختيارهم، فعليهم أن يتحمَّلُوا عقوبات اختيارهم عند ربّهم إذا اختاروا الكُفْر على الإيمان، والضّلالَةَ على الهدى، والظلمات على النور.

* * *

النصّ التاسع:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمَر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ به كلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من أُمّتِه:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾.

في هذا النصّ تعليمٌ من الله لبَعْضِ أساليب الحوار الإقناعيّ للكافرين المشركين، الذين يَعْبُدُونَ آلِهةً من دون الله عزّ وجلّ، وهو حوارٌ حَوْلَ موضوعٍ هو من أهَمِّ موضوعاتِ الدّين، وهو موضوعُ العبادة.

فجاء في التعليم تكليفُ الرسول أن يقول للمشركين:

- إنّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُد الله مُخْلِصاً له الدّين فلا أشركَ بعبادته أحداً.

- وأُمِرْتُ بالتكاليف الدينيّة التي أَعْبُدُ بها ربِّي قبْلَ غيري من الناس، من أجل أن أكون أوّل المسلمين المطيعين لأوامر الله ونواهيه.

وجاء في التعليم تكليفُ الرسول أن يقول للمشركين أيضاً:

- إنّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبّي فلم أَعْبُدْهُ، أو أشركتُ بعبادته معبوداً من دونه عذابَ يَوْمٍ عظيم، هو عذاب يوم الدين.

وأنْ يقول لهم مُعْلِناً مَنْهَجَهُ في عبادته الذي اختاره لنفسه، ومبيّناً لهم أنهم أحرار في أن يختاروا لأنفسهم ما يشاؤون من معبودات يَعْبُدونها:

- اللّهَ أَعْبُدُ مخلصاً له ديني، فلا أشرك بعبادته أحداً.

- فاعْبُدوا ما شِئْتُم مِنْ دُونه من آلِهَةٍ، فلَكُمْ أنْ تَخْتَاروا في حياتكم ما تَشَاءُونَ من إيمانٍ أوْ كُفْر، وتوحيدٍ أو شرك، إذْ أنتم في الحياة الدّنيا في

رحلة ابتلاء، مُمَكَّنُون ممّا تشاءُون، وعليكم أن تتحمّلوا نتائج اختياركم.

وأن يقول لهم أخيراً محذّراً ومنذراً:

إنّ الخاسِرينَ الّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُم وأَهْليهم يَوْمَ القيامة، ألا ذلِك هُو الْخُسْرانُ المبين.

أي: فمن كفر فعَبَدَ غير الله أو أشرك في عبادته إلَهاً من دونه، خَسِرَ نفسه وأهليه يوم القيامة، إذ يكون من أصحاب النّار خالداً فيها أبداً، ألا ذلك هو الخسران المبين.

ألا: أداة تنبيه بشدّةٍ، فتعريض الإنسان نفسه لهذا الخسران المبين يحتاجُ هذا التنبيه، ليَصْحُوَ من غفلته، أو غفوته.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

يُلْحِدُونَ في آياتنا: أَلْحَدَ: أي: مال عن الحقّ وجَارَ وظَلَم، والمعنىٰ: يَحيدون ويَميلون عن الدين الحقّ ظُلْماً وجَوْراً، شاكّين في آياتِنَا الكونيّة، وآياتِنَا البيانيّة المنزَّلَة، وآياتنا الإعجازيَّة، وآياتِنا الجزائية.

ففي هذه الآية يتحدّث الله عزّ وجلّ عن الْمُلْحِدين الجائرين المائلين عن دينه الحقّ، الشّاكّين والمشكِّكِينَ في آياته، بأنَّهُمْ غير خافِين عليه جلّ جلاله، وهُو يُنْذِرُهم بالإلْقاء في النّار يوم القيامة إذا اسْتَمرُّوا على إلحادهم، ويُبَشِّر المؤمنين بالأَمْن.

وبعد هذا البيان يخاطِبُ الملحدين خطاباً مُباشراً، فيقول لهم:

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فيُعطيهم في هذا أنَّ لهم أن يختاروا ما يَشاءُون من عَمل، ولكنَّهُ لَيْسَ تخيير إباحة، إنّما هو تخيير امتحان، وهو ممزوجٌ بِوَعِيدٍ بالعقاب إذا اختاروا غَيْر المطلوبِ منهم في رحلة امتحانهم.

فقد حمَّلَهم مسؤوليَّة مشيئتهم، وأبانَ لهم أن عاقبة إلحادهم وشِرْكِهِمْ عذابٌ أليم يَوْمَ القيامة في نارِ جهنَّم.

* * *

النص الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الغاشية/٨٨ مصحف/٦٨ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ به كُلُّ داعٍ إلى سبيلِ ربّه من أمّته:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

نزل هذا النّصّ بعد رِحْلَةٍ طويلَةٍ في دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ لقومه، أبان لهم خلالها أصول الدين الإيمانيّة والأخلاقيّة، وأُصوله التعبّديّة مبيّناً لهم فيها أنَّ الْعِبَادة لا يَصِحُّ أن تكون إلاّ لله وحده، وأقامَ لَهُمُ الْحُجَجَ والبراهينَ الكثيرة، ولم يَبْقَ عَلَيْهِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَنْ تَبَلَّغَهَا من الكافرين غَيْرُ التذكير بها، وإذْ وصَلَ مَعَهُمْ إلى هذه المرحلة، فإنّ وظيفته الآنيّة بالنسبة إليهم إنَّمَا هيَ التذكيرُ فَقَطْ، أمّا أن يتصوَّرَ أنّه صَارَ مُكَلّفاً أن يُلْزِمَهُمْ بالإيمانِ والإسلام إلزام مُكْرِهٍ مُسَيْطِرٍ، فَهُوَ تَصَوُّرٌ غَيْرُ صَحِيحٍ، لأنَّهُ يَتَنَافَىٰ مع وضْعِهِمْ في الحياة الدنيا موضِعَ الامتحان، فامتحان الإرادة يستلزم تمكينَها من أن تختار مَا تشاء خلالَ مُدَّةِ امتحانها.

فقال الله لرسوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فوظيفتك بالنسبة إلى هؤلاء هي وظيفة التذكير بما سبَقَ أن بلّغتَهُمْ إيَّاه.

إنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ: أي: ما أنت بالنسبة إلى هؤلاء الذين سبق أن

عالجتهم خلال تنزيل (٦٧) سورة منذ بَدْءِ الدّعوة حتى نزول سورة (الغاشية) إلاّ مُذَكِّرٌ لهم، فقد قَدَّمْتَ لهم البيان الكافي، والشافِيَ لمن شاء منهم أن يُؤمِن بالحقّ ويستقيم على صراط ربّه.

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ: أي: فَلَسْتَ مُطَالَباً ولا مأذوناً بأَنْ تكونَ مُسَيْطِراً عليهم سَيْطَرَةَ مُكْرِهٍ مُجْبِر على الإيمان والإسلام، إذْ هُمْ مُطَالَبُونَ بأن يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا باختيارِهم وإراداتهم الحرّة، بعد بيان الحقّ لهم، بالآيات الجليّات.

ومن رفض أن يستجيب لدعوة الحقّ فعلَيْهِ أن يتحمَّلَ عِنْدَ ربّه نتيجة مَشِيئَتِهِ التي شاءَ بها سُبلَ الْغَيّ، مُلْحِداً عن صِراط الرُّشْد، صراطِ الله العزيز الحكيم.

النص الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول) خطاباً لرسوله فكلّ داعٍ إلى سبيلِ رَبّه من أمّته:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

وَقُلِ الْحَق مِنْ رَبّكُمْ: أي: وقُلْ أيُّها الداعي إلىٰ دين الله وصراطه المستقيم، بهدوءٍ كامل، لا انفعالَ فيه ولا غضبَ ولا مؤكّدات: لمن تُوجِّه لهم دعوتك: الحقُّ الذي أدْعُوكم إلى الإيمان به والعمل بمقتضاه، هو من ربّكُمْ ولَيْسَ مِنْ عِنْدَ نَفْسِي، فمَا أَنَا إلاّ مُبلّغ.

فَمَنْ شاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ: أي: فمن شاءَ بإرادَتِهِ الحرَّةِ بَعْدَ أن يَتبلَّغَ الحقَّ الرَّبّانيَّ أَنْ يُؤمِنَ بِهِ فَلْيُؤْمِنْ به، لينالَ أجْرَهُ العظيم عند ربّه، ومن شاءَ بإرادته الحرَّة أنْ يَكْفُرَ بِهِ فَلْيَكْفرْ به، ولَكِنْ علَيْهِ أن يَتحمَّلَ الْمَصِير الذي أعَدَهُ اللَّهُ للظالمين، فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

سُرَادِقُهَا: السُّرَادِقُ: الخيْمَةُ، السّور، الدُّخان، وهذا هو المناسب هنا.

الْمُهْل: القطران السائل، والمعْدِنُ الذائبِ، والقيح، وصديد الموتَىٰ. شُبّه الماء الذي يشربُ منه أهلُ جهنَّم بالْمُهْلِ، إذْ هو حارٌ فيه كثافةٌ ما، يخرُجُ منه بخَارٌ يَشْوِي وجُوهَ الشاربين.

وسَاءَتْ مُرْتَفَقاً: أي: وساءت النار مكاناً للظالمين، ومجلساً يجلِسُونَ فيه، وَمُتَّكأ يَتَّكِئونَ عَلَيْهِ بمرافِقِهم.

النصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

فدلَّتْ هذه الآيَةُ مُضِيفَةً في الموضوع، علَىٰ أنَّ الإكْراهَ كما أنّه لَيْسَ وَسِيلَةً صحيحة ولا مقبولة للدخول في الدين، فهو لا يخرج من الدين من أعلن بسببه الكُفْرَ، وقَلْبُه مطمئنٌ بالإيمان.

* * *

النصّ الرابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن

رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ: أي: لا فَائِدَةَ من أنْ أُقْسِمَ لكم بآياتي في كوني الّتي تبصرونها والّتي لا تبصرونها، مع أنّها تَسْتَحِقُّ أن أقسم بها، لأنكم بلغتم من الإصرار على المعانَدَة مبلغاً شنيعاً، والمقصود بالخطاب فئة المعاندين من مشركي مكّة.

فما سبق أن نزل من القرآن كافٍ لأنْ يمْحُوَ كُلَّ أثَرٍ للشَّكِ فيه، ولأنْ تُذْركوا بأنّه ليس بقول شاعر، وليس بقول كاهِنٍ، لكنَّكُمْ قليلاً ما تُؤمِنُونَ بالحقّ الذي يخالفُ أهواءكم وتقاليدكُمُ الْعَمْيَاءَ، وقليلاً ما تَتَّعِظُونَ بالمذكِّرَاتِ الّتي تُذَكِّرُكُمْ بسُنَنِ الله في عقوبات الجاحدين المكابرين الذين يُصرُّونَ على الباطل.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبّ الْعَالِمِين: أي: هٰذا القرآن الذي يتْلُوهُ عليكم مُحَمَّدٌ، هُوَ تنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، الّذِي هو ربُّكُمْ وربّ آبائِكُمْ الأوَّلين، فاعْلَمُوا هذه الحقيقة.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: واعلموا حقيقةً أُخْرَىٰ تَدُلُّ على أنّ القرآن تنزيلٌ من رَبِّ الْعَالَمِين، وهي أنّهُ لَوْ كان يكْذِبُ علينا ببعَضِ الأقاويل، مع تأييدنا له بالمعجزات، لما تَرَكْنَاهُ على قَيْدِ الحياة، بل لأَخَذْنَا بيمينه جرًّا، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين.

الوتين: عرْقٌ مُتَعَلِّقٌ بالْقَلْبُ إذا انقطع ماتَ صاحِبُه.

إننا لا نَدَعُ نبياً مُؤيَداً منّا بالآياتِ يكْذِبُ علينا، بل نُميتُهُ فوراً، فالرَّبُّ لا يكْذِبُ ولا يَقْبَلُ بحالٍ من الأحوال أن يكذبَ عليه نبيٌّ من أنبيائه.

وَإِنَّه لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتقِينَ: أي: وإنَّ القرآن لتَذْكِرَةٌ يَنْتَفِعُ بها دواماً المتَّقُون الّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فآمَنُوا به، وأسْلَمُوا له.

فأبان الله أنّ القرآن تَذْكِرَةٌ، والتذكِرَةُ تُعْطِي مَنْ يَتبَلَّغُها حُرِّيَّة الاختيار.

* * *

النصّ الخامس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن يوم الدينِ، يوم الحسابِ والجزاء:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

فأكّدَ الله في هذا النّصّ أنّ للنّاسِ مَشيئاتٍ ذواتِ حُرِّيَّةٍ في اختيار مآبٍ حَسَنٍ لَهُمْ عِنْدَ رَبّهم يوم الدّين، يكونون فيه سُعَداء سالمين، فَهُمْ يَسْلكون للوصول إليه صِرَاط الله المستقيم.

أي: فَمَنْ شاء اتخذ وَسِيلةً إلى الظَّفَرِ بمرضاة ربّه بالإيمانِ والعمل الصالح، فنالَ بذلك مآباً حسناً عنده.

أي: ومن شاءَ لم يَتَّخِذ ذَلِكَ، فاسْتَحَقَّ العذابَ يَوْمَ الدين، وهو عَذَابٌ قَرِيب، إذْ يَنْعَدِم حِسُّ الزَّمَنِ بين الموت والبعث، ويومئذٍ يتمنَّىٰ الكافِرُ أن يكون تُراباً لم يُبْعَث، أويُقَالُ له كما يُقَالُ للبهائم بعد بَعْثِها وإقامة العدل فيما بينها: كوني تراباً.

* * *

النصّ السادس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أوّل سُورةٍ مَدَنيّة:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآية حقيقةً كليّة عامَّة شامِلَةً لاَ تَخْصِيصَ فيها ولاَ نَسْخَ وَلاَ تغييرَ ولاَ تبدِيلَ بالنسبة إلى الذين يُوضَعُونَ في حياتِهِمْ موضِعَ الامتحانِ، هي أنَّ الدّينَ اختيارٌ من الْمُمْتَحَنَ، ولا يُمْكن أن يكون فيه إكراه مَادّيّ، فالقلوبُ التي هي مراكز الإيمان لا يُمْكِنُ إكراهها إلاَّ بالجبْرِ الرَّبَّانيّ الّذي يَسْلُبُهَا معه حُرِّيَّة إراداتها، وهذا مناقض لوَضْعِها موضع الامتحان، والوسائل الإكراهية المادّيَّة التي يملكُها الناس تَصْنَعُ مُنافقين، لا مُؤْمِنِين، والمنافقون أسْوأُ حالاً من الكافرين الصرحاء.

النصّ السابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة: (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾﴾.

في هذا النّصّ يُقْفِلُ اللّهُ مَوْضُوع حُرِّيَةِ مَشِيَةِ الإنسان في الإيمان والكُفْر، والعملِ الصالحِ والسّيِّءِ، بمثل النَّصّ الذين بدأ به هذا الموضوع في سورة (المزمّل: ثالث سورة نزلَتْ من القرآن المجيد، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

وأُنْزِلت فيما بينهما نُصُوصٌ بلغت (١٥) نصّاً، مَلأَ كُلٌّ منها فراغَ حَبَّةٍ في عِقْدِ الموضوع، على تكامليَّةٍ في المعاني، مع مراعاةِ المناسبات الداعيات لإيراد كلٍّ منها في السورةِ التي هو منها.

وأطْبَقَ اللّهُ عزّ وجلّ على هذا الْقُفْل قولَهُ:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

أي: ولا يكون لكُمْ مشيئة إلاَّ إذا منحكم الله جهاز الإرداة الحرَّة، الّتي بها تشاءُون طريق نجاتكم وسعادتكم، أو طريق هلاككم وشقائِكُمْ، وإلاَّ إذا مَكّنكُمْ من استعماله عند كُلّ مَشِيئة جزئيّة.

لكِنَّ الله عزّ وجلّ ما وَضَعَكُمْ مَوْضِعَ الامتحان إلاَّ بَعْدَ أنْ منحكُمْ هذا الجهاز، وسائر شروط التكليف، فأَنْتُمْ مَسْؤُولون مسؤوليَّةً تامّةً عن مشيئاتكم وعن أعمالكم، لذلك يُدْخِلُ اللَّهُ منْ يشاءُ في رحمته، وهي جَنَّتُه، ومعلومٌ أنَّ مَشيئَته تعالى لا تفارق حِكْمَتَه، وأمَّا الظَّالِمُونَ فقد أعَدَّ اللَّهُ لهم بِعَدْلِهِ عذاباً إليماً في دار العذاب عنده.

وبهذا تكاملَ عِقْدُ الموضوع وأدَّتِ النُّصُوصُ أدْوارَها التربويَّة بحسَب مَراحلها الزّمَنيَّة، وبحسب الحاجة إلى حركيَّة الدّعْوة، ومُقْتَضَيَاتِها التربويَّة.

* * *

سُورَةُ القَدْرِ

٩٧ مصحف ٢٥ نزول

نزولها:

الأكثر على أنها مكيّة، وعند جابر بن زيد أنّها الخامسة والعشرون في ترتيب النزول.

وقيل: إنّها مدنيّة نزلت قبل نُزُول سورة البقرة.

(١)

نصّ السورة

سورة القدر وما فيها من فرشيات القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا
لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ
شَهۡرٖ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ
رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ
ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾

---

٣ ـ ٤ قرأ البزّي ﴿مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تّنَزَّلُ﴾ في حالة الوصل. وقرأها باقي القرّاء العشَرَة ﴿مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ﴾، والقراءتان وجهان من الأداء.

٥ ـ قرأ الكسائي، وخَلَف ﴿مَطْلِعِ﴾ بكسر اللأم. وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿مَطْلَعِ﴾ بفَتْح اللأم.

والقراءتان وجهان عربيّان. أمّا «مَطْلَع» بفتح اللّام فهو جارٍ على القياس؛ لأنّ مضارع فِعْلِه مضمومُ العَيْن «طَلَعَ يَطْلُعُ».

وأمّا «مَطْلِع» بكَسْرِ اللأم فقد سُمِعَ في نُطْق العَرَب عَلَى خلاف القياس، فهو لُغَةٌ عربيَّةٌ سماعيَّة.

(٢)

موضوع سورة القدر

تضمَّنت سورة القدر التنويه بفضل القرآن الّذي اختار الله عزّ وجلَّ لإنزاله من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السماء الدنيا (على ما رُوي عن ابن عبَّاس) واختارَ لبَدْءِ إنزال أوّل ما أُنزِل منه على رسول الله محمد ﷺ، لَيْلَةَ القَدْر، الّتي هي أفضل الأزمان عند الله جلّ جلالُه، في دورة العَام بالنسبة إلى نظام الأرض ضِمْنَ المجموعة الشمسيّة، والّتي جَعَل تبارَكَ وتعالىٰ العمل الصالح فيها أفضل من أمْثَاله مَعْمُولةً في ليالي وأيّام ألف شهر ليس فيها ليلَةُ الْقَدر، إكراماً منه وتفضُّلاً على عباده المؤمنين، الذين يحرصون على تعويض ما فاتهم في أزمان أعمارهم الماضية، إذْ لم يغنموها في أعْمَالٍ صالحة، بل أضاعوها سُدًى، أو حَمَلُوا فيها أوزاراً، فجَعَلَ لهم ليلَةً أخْفَى تَحْديدَها، من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، من كلّ عام، رغبةً في أن يتحرَّوْها بالأعمال الصالحة، عسَى أن يُحَصِّلوا فيها أرباح دُعَاءٍ ومغانم أعمالٍ صالحة في ألف شهر.

والسّورة كلّها درس واحد متماسك العناصر.

* * *

(٣)

سوابق الحديث عن القرآن في نجوم التنزيل

نُطالعُ ما سبقَ سورة القدر في نجوم التنزيل، ممّا جاء فيه الحديث عن القرآن الكريم، فنجده في سبع سُوَر:

الأوّل:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثّر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) حكايةً لما قاله الوليد بن المغيرة عن القرآن:

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

ويظهر أنّ هذا قد نزل بعد نزول عدد من سُوَر القرآن، إلاّ أنّهُ أضيف إلى سورة (المدثّر) مراعاةً للمناسبة التي اقتضتها معاني آيات السورة.

وقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

فوَصَف اللّهُ الْقُرْآنَ بأنّهُ تَذْكِرَة.

وقول اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

الثاني:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾.

الثالث:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) متحدّثاً عن الحلاّف المهين، الهمّاز المشّاء بنميم، المنّاع للخَيْر، المعتدي الأثيم، المكذّب بالقرآن الكريم:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وقول اللّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله، فلُكلّ داعٍ إلى اللّه من أُمّته:

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

وقول اللَّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله بشأن المكذّبين بالقرآن، مع أنّهم يَحْسُدُون الرَّسُول على القرآن الذي يَتْلُوهُ عليهم مُعْجَبِين به:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

الرابع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن، وأنّ جبريل عليه السَّلام علَّمه لرسول الله محمّد ﷺ قَوْلاً ملفوظاً، حَرْفاً فَحَرْفاً، وكلمةً فكلمة:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

وقولُ اللَّه عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

الخامس:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾.

أي: سيَقْرأ جبريل عليك القرآن بأمرنا، فأنْتَ تَتْلُوهُ فلا تَنْسَى، إذْ نُمِدُّكَ بذاكِرَةٍ حَافِظَةٍ لاَ تَنْسَى، إلاّ ما نشاء أن تنساهُ لحكمةٍ تُراد.

السادس:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) مبيّناً أن القرآن وحيٌ يُوحَى بأمْرِ اللَّه، يعلّمه جبريلُ رَسُولَ اللَّه محمّداً ﷺ:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

وقَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ فيها خطاباً لِرَسوله، ومبيّناً أنّ القرآن ذِكْرٌ مُنَزَّلٌ من لَدُنْه:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

وقولُ اللَّه عزّ وجلّ فيها خطاباً للمكذّبين بالقرآن:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

السابع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) بشأن آيات القرآن:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

ثم جاء في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول) قَوْل اللَّه عزّ وجلّ بشأن القرآن:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾.

وجاء بعدها في نجوم التنزيل بشأن القرآن جمٌّ غَفِيرٌ.

مجمل ما اشتملت عليه هذه النصوص من دلالات بشأن القرآن:

(١) أنّ القرآن آياتٌ مُنَزَّلاتٌ من عند اللَّه عزّ وجلّ، أي: هو ببلاغته ودلالته على المعاني يشتمل على علاماتٍ بيّناتٍ واضحاتٍ جليّاتٍ على أنّه كلامٌ منَزَّلٌ من عند اللَّه، ولَيس من كلام أيّ مخلوق.

(٢) أنّ القرآن حديثٌ من اللَّه لعباده، أي: هو مُنَزَّلٌ على صفَةِ حَدِيث، بما في الحديث من هُدوءٍ، ورِفْقٍ، ونَفَاذٍ إلى عُمْقِ الأفكار، والنفوس، والقلُوب، وتأثير فيها.

(٣) أنَّ القرآن بما فيه من إعجاز بيانيٍّ وفِكْريّ، يثيرُ حَسَدَ الْبُلَغَاءِ الحاسدين للرّسول من المكذّبين بأنّه رسُولُ اللّه، ظانّين أنَّه كَلاَمُهُ وبيانُه.

(٤) أنّ القرآن ثقيلٌ بما يشتمل عليه من معاني ثَرَّة، إذْ تَحْوي الكلماتُ القليلات فيه المعاني الغزيرة الجليلةَ الفيّاضة.

(٥) أنَّ القرآن بسبب سموه البيانيّ وقُوَّةِ تأثيره في النفوس، يجعل المكذّبين بأنه من عند اللّه يصفونَه بأنَّه سِحْرٌ، على عادتهم في كلّ أمْرٍ يعجزون عن مُجَارَاتِه، ممّا يأتي به النَّاس من خوارق لقُدْراتهم.

(٦) أنّ القرآن تَذْكِرَةٌ، أي: هو كتابٌ ينبغي أن يوضَعَ أمام الأعْيُن، وأنْ يُتْلَىٰ آناء اللّيل وآناء النّهارِ، ليكون تَذْكِرَةً[1] للمؤمنين.

(٧) أنّ القُرْآن يُنَزَّل على رسول اللّه محمّد ﷺ قولاً يَنطق به جبريلُ، الرَّسول الكريمُ رسولُ الوحي، ويُلَقِّنُهُ الرَّسُول محمّداً، رسول اللّه للناس أجمعين، حرفاً فحرفاً، وكلمة فكَلِمَةً.

(٨) أنّ القرآن ذِكْرٌ لمن شاء من العالمين أن يستقيم على صراط اللّه العزيز الحكيم، أي: هو تعليم رَبَّانيٌّ يطالَبُ العالَمُون بأنْ يَتَلَقَّوْهُ، ويَتَدَبَّرُوا معانيه، ويكتبوه كتاباً مُوَثَّقاً، ويحفظُوهُ في ذاكرتهم، ويَتْلُوهُ بألْسِنَتِهِم، لينتفعوا من هدايته بتذكُّر آياته عند مناسَباتها، فيَسْتَقِيمُوا في حياتهم على صراط اللّه المستقيم.

فمَنْ شاء منهم أن يستقيم فَعَلَ ذلك.

وهو أيضاً شَرَفٌ لهم ومَجْدٌ عظيم، لأنّ عملهُمْ بما اشتمل عليه من هداية سيجعلهم يبلغُون الشَّرَف الرفيع، والمجد العظيم.

---

[1] **التذكرة**: ما يُسْتَذْكَرُ به الشيء المطلوب تذكّره، كالبطاقة الّتي تُذكّر بموعد اللّقاء أو الاجتماع، ونحو ذلك.

(٩) أنّ اللّه عزّ وجلّ سَيُقْرِئ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ القرآنَ مع مَنْحِه الْقُدْرَة على حفظه، وعَدَم نِسْيَانِ أيّ شَيْءٍ منه، إلاّ ما شاء اللّه نَسْخَه لِحِكْمَةٍ هُو يَعْلَمُها.

(١٠) أنّ القرآنَ وَحْيٌ يُوحَى مِنْ عند اللّه، بألْفاظه حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمَةً فكلمة.

(١١) أنّ القرآنَ مُدَوَّنٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ، مَرْفوعةٍ مطهّرة، وهذه الصُّحف محفوظةٌ بأيْدي سفَرَةٍ، كرامٍ بَرَرَة (وهم صنفٌ من الملائكة).

(١٢) ثم جاء في سورة (القدر) بيان أنّ اللّه أنْزَلَه في ليلة القدر.

(٤)

التدبّر التحليلي لآيات سورة القدر

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾: جاء في هذه العبارة اختيارُ ضمير المتكلم العظيم، للإشعار بعظمة القرآن الكريم، إذْ هو كلامُ اللّه العظيم الجليل العزيز الحكيم العليم الخبير، وهكذا كلّما كان المرادُ الإشعار بأنّ ما يُسْنِدُه اللّه إلى نفسه جَليلٌ عظيمٌ عنده جلّ جلاله.

ونظائر هذا الاختيار كثيرة في القرآن، ولا سيّما حينما يكون الحديث عن القرآن، مثل:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ. . . ②﴾[الزمر/ ٣٩، (١٠٥)النساء: ٤].

أمّا في مقامات المحادثة والإيناس، فيأتي اختيار ضمير المتكلم المُفْرَد، مثل:

- ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ...﴾ [طه/ ٢٠].
- ﴿...لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه/ ٢٠].
- ﴿...إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة/ ٢].

والهاء من ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ ضمير منصوبٌ جاء كناية عن القرآن، ولو لم يَسْبِقْ في النّصّ حديثٌ عنه، للعلْم به بداهةً، فهو المنَزَّلُ من عند اللَّه على رسوله. وقد غدا معلوماً في استعمالات القرآن قبل إنزال سورة الْقَدر أنَّ التنزيلَ والإنزالَ متىٰ أُطْلِق في القرآن، فالمراد به تنزيل القرآن وإنزاله، أمّا إذا أُريد به شيء آخر، فإنّه يأتي مُقْتَرِناً ببيان الشيء المنزّل، كإنزال الماء وإنزال الحديد، وإنزال الملائكة، وإنزال السَّكينة.

إنّ من الإيجاز في القرآن الكنايةَ بالضمير أحياناً عمّا يمكن أن يُعْلَم المرادُ به من القرائن، أو من مضمون المعنى.

﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾: هي إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان، قد أخفاها اللَّهُ فيها، ليجتهد المؤمنون العابدون في التماسها طوَال هذه اللّيالي، حرصاً على اغتنام خيراتها الجليلات العظيمات.

وأوصَى الرَّسُولُ ﷺ بالتماسها في هذه اللّيالي، ولا سيما في الآحاد منها، وسيأتي إن شاء اللَّه البيان المفصّل في هذا.

القَدْر: بإسْكان الدال وفتحها، تأتي في اللّغة للدّلالة على معاني متعدّدة ذكَرَها عُلَماء اللّغة العربية:

- فتأتي بمعنىٰ مقدار الشيء في كلّ ما يُمْكِن تقدير كميَّةٍ له.
- وتأتي بمعنىٰ القضاء والحكم.
- وتأتي بمعنى التّدْبير، يقالُ لغةً: قَدَرَ القومُ أَمْرَهُمْ يَقْدُرُونه ويَقْدِرُونه قَدْراً، أي: دبَّرُوا أمرهم. ويُقَالُ: قَدَرْتُ لأمْرِ كذا أَقْدِرُ وأَقْدُرُ له، أي: نظرت فيه، ودَبّرته، وقايَسْته.

- وتأتي بمعنى المكانة وعلوّ الشَّأنِ، وقد جاء للدّلالة على هذا المعنى قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/١٠٣ نزول):

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

أي: ما عَظّمُوهُ حَقَّ تعظيمه، أو ما وصَفُوه حَقَّ وصفه الجليل، وعلى هذا المعنى يُقال: فلانٌ جليل القَدْر، أي: عظيم المكانةِ والشأن.

وأصْلُ مادّة الكلمة يدور حول مقادير الأشياء، وحُدُود كميَّات وحَدَاتها، فتحديد وحَدَات كلّ عُنْصُر من عناصر المركّباتِ هو تقديرٌ له.

وصُنْعُ كُلّ شيءٍ مُرَكَّب من عناصر في ذَرَّاته، وأبْعَاده، وأوزانه، وأوصافه ليؤدّي الغرض من صُنْعِهِ، لا يتمُّ إلاَّ بقَدَرٍ، أي: بتحديد مقدار الوَحَدات من كلّ عنصر كبيراً كان أم صغيراً، ولهذا قال اللّه عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

هذا هو المعنى الأصلي للمادّة، وقد تأخُذُ معاني أخرى إذا اقترنت بما يدُلُّ عليها، كالإمضاء والحكم، والتَّدْبير، والمقايسة، والتعظيم ورفع الشأن.

وبناءً على هذا التحليل اللُّغوي يُمْكن أن نُفَسّر السَّببَ الّذي دَعَا إلى تَسْمِيَةِ اللَّيْلَة المباركة الّتي أنزل اللّه فيها القرآن بلَيْلَةِ القدر.

فهي ليلَةُ القضاء والحكم بمقادير الأشياء، وليلَةُ التدبير، وليلَةُ الشَّأْنِ العظيم والشَّرَفِ الرَّفيع، وليلَةُ الإعْلاَمِ بمقادير الآجال والأرزاق والأحْدَاث، وغير ذلك.

وبهذه المعاني جاءت التعليلاتُ المأثورة لتسمية هذه الليلة المباركة بلَيْلَةِ القَدْر.

- فقد رُوي عن ابن عبّاس رضي اللّه عنهما، أنّ اللّه عزّ وجلّ يُقدّرُ في لَيْلَةِ القَدْر ما يكونُ في تلْكَ السَّنَةِ من مطَرٍ ورِزْقٍ، وإحْياءٍ، وإماتَةٍ، إلى مثل هذه اللَّيْلَة من السَّنَةِ الآتية.

أي: يَنْزِلُ أمْرُ اللّه بقضائه لملائكته، في كلّ أمْرٍ من أمور تدبير شؤون خلقه.

ويؤيّد هذا المعنى ما جاء في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ⑥﴾.

أي: يُفْصَل في هٰذِهِ اللَّيْلَة المباركة من اللَّوْح المحفوظ أمْرُ السَّنَةِ القادمة، وما يكونُ فيها من الآجال والأرزاق وغير ذلك.

وقد اختار هذا التعليل عامَّةُ أهْل العلم.

- ونُقِل عن الزهريّ أنه قال: ليلة القَدْرهي ليلة العظمة والشرف، من قولهم: لفُلاَنٍ قَدْرٌ عنْدَ فلانٍ، أي: له منزلَةٌ وشَرَفٌ عنده.

ولسْتُ أرى مانعاً من اجتماع عدّةِ معانٍ للَيْلَةِ القَدْرِ، فهي لَيْلَةُ القضاء والحكم، وليلَةُ التدبير، وليلَةُ فَصْلِ مقادير العباد من اللَّوح المحفوظ، لتبليغها إلى الملائكة المكلّفين القيامَ بوظائف تتعلّق بأمور العباد، وهي ليلة الشأن العظيم، والشرفِ الرَّفيع.

ما المراد من إنزال القرآن في ليلة القَدْر؟

هذا السؤال قد طرحه «عطيّةُ بن الأسود» على ابن عبّاس رضي اللّه عنهما، وأجابه عليه.

● رُوِيَ عن ابْنِ عبَّاسٍ من عدّة طُرُقٍ كما ذكر ابْنُ كثير، أنّه سألَهُ «عطيَّةُ بْنُ الأَسْودِ» فقال: وقع في قَلْبي الشَّكُّ، قولُ اللَّه تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وقولُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وقَوْلُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾، وَقَدْ أُنْزِلَ في شَوّال، وفي ذي القَعْدَة، وفي ذي الحجّة، وفي المحرّم، وصفر، وشهر ربيع.

فقال له ابن عبّاس: إنَّهُ أُنزِلَ في رمضان في لَيْلَةِ القدر، وفي ليلَةٍ مباركةٍ جُمْلَةً واحدة، ثُمَّ أُنزِلَ على مواقع النُّجوم ترتيلاً في الشُّهور والأيَّام.

● وروي عن ابن عبّاس أيضاً بإسناد صحّحه الحاكم، أنّه قال: أُنْزِلَ القرآنُ في لَيْلَة القدر، حتَّى وُضِعَ في بيت العزَّةِ في السّماء الدُّنيا، ثُمَّ جَعَلَ جِبْريلُ ينزلُ على محمّد بجواب كلام العباد وأعمالهم.

● وذكر المفسّرون تعليلاً آخر، وهو أنَّ أوّل قرآنٍ أُنْزِلَ على رسول الله ﷺ كانَ في ليلَة القدر من شهر رمضان، ثُمَّ نزَلَ سَائِرُهُ على مواقع النجوم، فكان بَدْءُ نُزوله فاتِحَةَ أمْرٍ عظيم وقَدْرٍ جليل للنَّاس، وكان بين بَدْءِ نُزول ما نزل منه وآخر ما نزلَ منه ثلاثٌ وعشرون سنة.

ليلة القدر إحدى ليالي شهر رمضان:

يدُلُّ قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (البقر/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾.

وقول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾.

على أنّ لَيْلَةَ القدر إحْدَىٰ ليالِي شَهْرِ رمضانَ المبارك لا محالةَ.

ولم يأتِ عن الوحي تعيين لها، إلاّ أنَّ الرسول ﷺ أوصَىٰ بالتماسها في العشر الأواخر من شهر رمضان ولا سيما في الآحاد منها.

● فقد روى البخاريّ ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ، أنّ رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأوّل من رمضان، ثُمّ اعتكف العشر الأَوْسَطَ في قُبَّةٍ تُرْكِيّة(١)، ثُمَّ أَطْلَعَ رَأْسَهُ فقال: «إنِّي اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الأُول أَلْتَمِسُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ اعْتَكَفْتُ الأَوْسَطَ، ثُمَّ أُتِيتُ فَقِيلَ لِي: إِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، فَقَدْ أُرِيتُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ أُنسِيتُها، وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ مِنْ صَبِيحَتِها، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، وَالْتَمِسُوهَا فِي كُلِّ وِتْرٍ».

قَدْ أُرِيتُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ ثُمَّ أُنْسِيتُها: أي أُرِيت تَحْديد وقتها في المنام ثم أُنسِيتُها.

● وروىٰ البخاريّ عن عُبَادة بن الصَّامت قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنا بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحىٰ(٢) رَجُلاَنِ من المُسْلِمِينَ (أي: تَشَاتَمَا) فَقَالَ ﷺ:

«خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحَىٰ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ فَرُفِعَتْ(٣)، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْراً لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ، وَالسَّابِعَةِ، وَالْخَامِسَةِ».

أي: من العشر الأواخر من رمضان.

قال أبو سعيد الخدري راوي الحديث الأوّل: فَمَطَرَتِ السَّمَاءُ تِلْكَ اللَّيْلَة، وَكَانَ الْمَسْجِدُ عَلَى عَرِيشٍ، فَوَكَفَ المسجد (أي: صار يتقاطر سَقْفُه) فَبَصُرَتْ عيناي رَسُول اللّهِ ﷺ وعَلَىٰ جَبْهَتِهِ أَثَرُ الْمَاءِ والطين من صبيحَةِ إِحدَى وعِشْرين.

---

(١) هي قُبّة صغيرة من لُبُودٍ.

(٢) **فتلاحىٰ**: أي: فتشاتَم.

(٣) **فَرُفِعَتْ**: أي: فَرُفِعَتْ مَعْرِفَةُ لَيْلَتِهَا مِنْ ذَاكِرَةِ الرّسول ﷺ.

الحكمة من إخْفاء ليلة القدر:

ويُلاحظُ أنَّ الحكمة من إخفاء ليلة القدر، أنَّه أسلوبٌ من أساليب التشويق إلى الاجتهاد في العمل الصالح لاغتنام الأجْرِ العظيم، فَمِنْ طبائع الناس تتبُّعَ الاحتمالاتِ المحصورة في عدَدٍ مُعَيَّن، للظفر بالرّبح العظيم المنُوطِ بواحدٍ منها يجهلون تَعْيينه، فمن أحصاها كُلَّها منهم استَيْقَنَ مِنَ الظفر بالمطلوب، وبذلك تَنْدَفِع نفوسُهم إلى إحصائها.

والناس مفطورون أيضاً على محبَّةِ الأسرار، والرَّغبَةِ في البحث عنها، والمحافظة عليها بَعْدَ الوصول إليها.

ومن حِكَمِ إخفاء ليلة القدر في العشر الأواخر من ليالي رمضان، تمييز أهل الحرص على التماس مظانِّ فضل اللَّهِ العظيم، بالتحرِّي والاجتهاد في العبادة، خِلاَلَ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ أطْوَلَ من المدّةِ الَّتِي تتنَزَّلُ فيها خصائصُ الخيراتِ الرَّبَّانِيَّةِ الحِسَان.

فعلَىٰ المؤمن العابد الحريص على اغتنام الفضل الرَّبَّاني العظيم، أن يجتهد في ضبط نفسه على العبادات والطّاعات طَوال ليالي شهر رمضان، ثُمَّ يُضاعف اجتهاده في العشْر الأواخرِ منه، وأن يَزِيد من حرصه وحُسْن عبادتِه في آحاد ليالي هذا العشر، رغبةً في أن يظفَر بها، ويغتنم خيراتها، ولو لَمْ يَشْعُرْ بأماراتها؛ إذْ لاَ يُشْتَرَطُ ذلِكَ للظفر باغتنام خيراتها.

- قول اللَّه عزّ وجَلّ:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾:

﴿**وَمَا أدْرَاكَ**﴾؟! أي: وأيُّ شيءٍ أَعْلَمَكَ؟ فلفظ «ما» اسْمُ استفهام، يُسْتَفْهَمُ به عن حَقِيقة الشيءِ وماهيّته. وهي جملة مُؤلفة من مبتدأ وخبر: «ما» مبتدأ، وجملة «أَدْرَاكَ» في محلّ رفعٍ على أنّها خبر. والواو اسْتئنافية ولا يَظْهَرُ فيها أنّها عاطفة.

﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾؟! أي: أَيَّةُ لَيْلَةٍ عظيمةِ الشأنِ، جليلة الخطَرِ ليلَةُ القدر؟! استفهامٌ يُرادُ به التعجيب من عظمة ليلة القدر، وهذه الجملة مؤلفةٌ من مبتدأ هو «ما» الاستفهاميّة التعجيبيّة، وخبر هو «لَيْلَةُ القَدْرِ».

وجملَةُ ﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾؟! في محلّ نَصْبٍ، سدَّتْ مَسَدَّ مفعولين، والتقدير: ومَا أَدراكَ مُعْلِماً إيَّاك عظمَةَ ليلَةِ القَدْرِ.

وهَذا الاستفهام في ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾؟! ونظيره يتضمَّن مَعْنَىٰ نفي عِلْمِ المخاطَب بما هو مسؤولٌ عنه. أي: أَنْتَ لاَ تَدْرِي مَهْمَا انطَلَقْتَ سابحاً في التصوُّر مبلَغَ مكانةِ هٰذه اللَّيلة العظيمة، إلاّ إذا أعلمناكَ بذلك، وفي هٰذا دلالةٌ كافيةٌ علىٰ أنّها ليلةٌ عظيمةٌ جداً.

قال المفسّرون في تفسير: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾؟!! وأمثاله، أي: لم تَبْلُغْ دِرايتُك غايةَ فَضْل هٰذه اللّيلة، ومُنْتَهىٰ علُوِّ قَدْرِها، وعِظَمِ شَأْنِهَا.

أقول:

لقد تكرّر في القرآن الكريم مِثْلُ هذا الاستعمال، حتَّى صار معلوماً أنَّه أسلوب من أساليب التعظيم والتكبيرِ والتَّهويل والتَّعْجيب.

ولدى التحليل التدبُّري يظهر لنا أنَّه صيغَةٌ من صِيَغِ التعجيب القرآنيّة المبتكرَةِ، ضِمْنَ أُصول اللّسان العربي.

أيْ: أعظم بهذا الأمر إعظاماً لا يَصِلُ إليه مَدَىٰ إدْرَاكِكَ.

وهٰذِهِ العبارة أبْلَغُ من عبارَتَي التعجُّب والتَّعجيب المستعملتَيْنِ عند العرب، وهما: «ما أعْظَمَهُ» و«أَعْظِمْ بِهِ»، فَهاتَانِ العبارتانِ لا تَدُلاَّنِ علىٰ عَدَمِ قُدْرَةِ المخاطَبِ علىٰ إدْرَاكِ حقيقةِ الشَّيْءِ الَّذِي يُعَظَّمُ له، وأنَّ مَدَارِكَهُ لاَ تَصِلُ إلى الإحاطة به، بخلاف الصّيغة القرآنيَّةِ المبتكرَةِ في التعجيب.

قولُ اللّه عزَّ وجلَّ:

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾.

بعد التعجيب من جلالة وعظمة ليلة القدر، يَقَعُ في الأنْفُس سؤال: فَماذا من صفات لَيْلَةِ القَدْر ممَّا يحرصُ المؤمِنُ العابد على معرفته بعناية بالغة للعمَلَ بما ينْفَعه في آخِرَته.

فجاء جوابُ هذا السؤال المطويّ بقول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾.

أي: هي خيرٌ من ألف شهر في فضلها الزَّمانيّ الّذِي جعلَهُ اللّهُ لَهَا، وفي فَضْلِهَا بما يُجْرِيه اللّهُ فيها من خَيْرٍ عظيم، وبما يُفيضُ فيها من رحَماتٍ على عباده، وبما فيها من فَضْلِ الدُّعاءِ والعبادة، وبما يُضَاعِفُ اللّهُ عزّ وجلّ فيها على عباده من أُجُورٍ على الأعمال الصالحة الّتي يُؤَدُّونَها فيها، وبما يَقْضِي اللّهُ فيها من إجابَةِ الدُّعاء.

فَمَنْ عَبَد اللّهَ فيها، وذكره، ودَعَاهُ، وفَعَلَ خيراً، وسجَدَ له، والْتجأَ إليه، كان له من الثواب، والأجْرِ العظيم، والبركات الجِسَام عِنْدَ اللّهِ، ما هوخَيْرٌ لَهُ من أعمالٍ صالحاتٍ يَعْمَلُهَا في ليالي وأيّامٍ كثيراتٍ تَبْلُغُ لو جُمِعَتْ أَلْفَ شَهْرٍ لَيْسَ فيها لَيْلَةُ القَدْرِ.

فإذا كان الشهر ثلاثين يوماً كانَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ خيراً من ثلاثين ألْفاً من الأيّامِ الأخرى، وألْفُ شَهْرٍ تُعَادِلُ ثلاثاً وثمانينَ سنَةً وثُلْثَ السَّنَة، وهذا عُمْرٌ قَلَّ من النّاس من يبلُغُه، فكَيْفَ بمَنْ يَعْبُدُ اللّهَ فيه وهو لاَ يَعْبُدُ إلاَّ مُمَيّزاً على أقَلّ تقدير.

فَمَنْ أَحْيَا هٰذِه اللَّيْلَة بالعبادات والطاعات والقُرُبات والدُّعَاء والذكر، والتفكّر في آياتِ اللّه وآلائه وأسمائه الحسنى وصفاته الجليلة، والتضرُّع

والابتهال، كتَبَ اللّٰهُ له من الأَجْرِ وحطّ عنه من الوِزْر، كما لو عَبَدَ اللّٰه وتَضَرَّعَ إليه طَوَالَ عُمْرٍ فيه من الأيّام ثَلاثُونَ أَلْفاً.

يضافُ إلى هذا أنّ الدُّعَاء فيها مستجاب بفضل اللّٰه وكرَمِهِ على عباده.

لقد جعل اللّٰهُ عزّ وجلّ ليلة القدر مناسبةً للتسابُقِ في عَمَلِ الخير، والتعويض عمَّا سَلَفَ من تقصيرات، والتكفير عمَّا سَلَفَ من سَيِّئاتٍ ومخالفاتٍ، والإطماع بإجابة الدَّعوات.

مضاعفة ثواب الأعمال لخصائص بعض الأزمنة والأماكن:

أمّا مضاعفةُ الأَجْرِ والثوابِ عند اللّٰهِ، وإجابَةُ الدُّعَاءِ، لِخصائِصَ يَجْعلها اللّٰهُ جلّ جلالُهُ، لبَعْضِ الأَزمِنَةِ والأَمْكِنَةِ وغيرها، فَهِيَ قضيَّةُ فَضْلٍ وَجُودٍ يَنفَحُ اللّٰهُ بهما عبادَه، لِيَمْنَحَهُم فُرَصاً يُعَوِّضُونَ فيها على أنفُسِهم ما فَاتهم من أعْمالٍ، بسَبَب تقصيراتهم، أو مشاغلهم، أو انصرافهم إلى مُلْهِيَاتِ الحياة الدُّنيا، كالأمْوالِ، والبنين، والاستمتاع بصُنُوف اللَّذَّاتِ.

فمِنْ خصائص الأزمنة ليلة القدر، ومن خصائص الأمكنة الحرَمُ المكيّ، ومَسْجِدُ الرَّسول، ومن خصائص الأحوال صلاة الجماعة، ومن خصائص الأشخاص الرَّسُول محمّد ﷺ، فَمَنْ لَقِيَهُ مسلماً اكتسب مَزِيَّة الصُّحْبَة، ونظراً إلى الخصائص المختلفة الّتي جَعَلَها اللّٰهُ عزَّ وجلّ قال العلماء: إنَّ للّٰهِ خواصّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

- قول اللّٰه عزّ وجلّ:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾.

في هٰذِهِ الآية يُبَيّن رَبُّنا تبارَكَ وَتَعالَىٰ أنَّ من خصائص ليلَةِ القَدْرِ أنَّ الملائكة تَنزَّلُ فيها، أي: تتنزّل فيها من منازِلِهَا في السَّمَاوَاتِ العلْيا إلى

السَّمَاءِ الدُّنيا، وإلى الأرض، لتشهَدَ موسمَ الخير العظيم الذي جعَلَهُ اللَّهُ للمؤمنين، وخُصّ الرُّوحُ بالذِّكر وهو جبريل عليه السَّلام مع أنّه داخلٌ في عموم الملائكة، تنويهاً برئاسته ورفعة شأنه بينهم.

كلمة: «تنزّل» بهٰذِه الصيغة تُشعِر بأنَّ نُزُولَ الملائكة في هذه اللَّيْلَةِ، يحصُلُ بشَكْلٍ مُتَتابع مُتَلاحقٍ علىٰ أفواجٍ، ولا يَحْصُلُ دَفعةً واحدة، ورُبّما يَنْزِلُ فَوْجٌ مِنهُمْ بَعْدَ أنْ يَنصَرِفَ فَوْجٌ نزلَ قبله، وشَهِدَ موسم الخير، وأدّى فيه وظيفَتَهُ أو رِسالتَهُ الّتي أُرْسِل بها.

روى البيهقيّ في شعب الإيمان عن أنَسٍ، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ:

«إِذَا كَانَ لَيْلَةُ القَدْرِ نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كَبْكَبَةٍ(١) مِن المَلَائِكَةِ، يُصَلُّونَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ قَائِم أَوْ قَاعِدٍ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ، فَإذَا كَانَ يَوْمُ عِيْدِهِمْ بَاهَىٰ اللَّهُ بِهِمْ مَلائِكَتِهِ، فَقَالَ: [يَا مَلَائِكَتِي، عَبِيدِي وَإِمَائِي قَضَوْا فَرِيضَتِي عَلَيْهِمْ، ثُمَّ خَرَجُوا يَعُجُّونَ إِلَيَّ الدُّعَاءَ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكَرَمِي وَعُلُوِّي وارْتِفَاعِ مَكانِي، لأجِيبَنَّهُمْ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، وَبَدَّلْتُ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ].

قال: فَيَرْجِعُونَ مَغْفُوراً لَهُمْ».

ذكر جبريل عليه السلام بعنوان الرُّوح:

وقد جاء في هذه الآية ذكر جبريل عليه السّلام بعنوان «الرُّوح»، أي: الرُّوحُ العظيم الكامل، الذي هو عند ذي العرش مَكِينٌ، والذي هو رئيس مطاعٌ هنالك عند ملائكة السّماوات الْعُلاَ، والذي هو أَمِينٌ في أداءِ رسالاتِ رَبّه، كما سَبَقَ أنْ نَزَلَ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

ولدَىٰ تتبُّع سُوَر القرآن نجد أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد ذكر جبريل عليه

---

(١) **كَبْكَبة**: أي: جَمَاعَة.

السّلامُ بأَنَّهُ «الرُّوح»، وبأنه «الرُّوحُ الأمين» وبأنه «رُوحُ القُدُس»، وشَرَّفَهُ بإضافته إلى ذاته، فقال تعالىٰ: «رُوحنا» بضمير المتكلّم العظيم، وذكره ببعض صفاته في سورة (التكوير)، وذكره باسمه «جبريل» في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) مرتين، وفي سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) مرّة واحدة.

١ ـ ففي سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) قال اللّه بشأنه مُلَقِّناً أَلْفاظ القرآن، لرسول اللّه محمّد ﷺ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

٢ ـ وفي سورة (القدر/ ٩٨ مصحف/ ٢٥ نزول) ذَكَرَهُ اللّهُ عزّ وجلّ بأنّه الرُّوح، فقال تعالىٰ:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾.

٣ ـ وفي سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) قالَ اللّهُ عزّ وجلّ في معرض الحديث عن مريم عليها السّلام:

﴿... فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾.

٤ ـ وفي سُورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن القرآن:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

٥ ـ وفي سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خاطب اللّه رسُوله في شأنِ القرآن بقوله:

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

٦ ـ وفي سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) قال اللَّهُ عزّ وجلّ بِشَأْنِ عُرُوج الملائكة والرُّوح إليه تبارَكَ وتعالىٰ:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾.

٧ ـ وفي سورة (النَّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) قال اللَّهُ عزّ وجلّ بشأن يوم الحساب وقيام الرّوح (جبريل) والملائكة صَفّاً:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

* * *

قول اللَّه تعالىٰ:

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾:

دلَّتْ هٰذهِ العبارة علىٰ أنَّ الملائكة برئاسَةِ الرُّوح جبريل عليه السَّلام، حينما تَتَنَزَّلُ في ليلةِ القَدْر للقيام بوظائِفِهم وأعْمَالِهم الَّتي يُكَلَّفُونَها، من كُلِّ أمْرٍ مِنْ أَوَامِرِ تَدْبيرِ اللَّهِ لِخَلْقِهِ، لاَ يَتَنَزَّلُونَ إلاَّ بِإِذْنٍ من رَبِّهم عِنْدَ الشُّرُوع بالتَّنَزُّلِ، ولَوْ كان لَدَيْهِم في الخُطَّةِ العَامَّةِ والبَرْنَامَجِ المُقَرَّرِ أنْ يَتَنَزَّلُوا لَيْلَةَ القَدْرِ من كُلِّ عامٍ، فالشُّرُوعُ بالتَّنَزُّلِ تنفيذاً للبرنامج العامّ لاَ بُدَّ أن يكونَ مصحوباً بالإِذْنِ، استيفاءً لمقتضَيَاتِ الانضباط النظامي.

ولا يقتَصِرُونَ على إذْنٍ تفويضيٍّ عامّ، بل لا يقومُون بكبير ولا صغير من كلّ أَمْرٍ إلاّ بإذْنِ رَبّهم.

وباستطاعة المتدبّر لكلام اللّه عزّ وجلّ أنْ يَجِدَ بيان قوله هنا في سورة (القدر): ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ فيما أَنْزَلَ اللَّه بعد هذا في سورة (الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

أي: في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ المبارَكَةِ ليلَةِ القَدْرِ الَّتي أُنزِلَ فيها القُرآن، يُفْصَلُ من اللَّوْحِ المحفوظ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم - وكلُّ أوامر اللَّهِ حكيمة - من أوامِرِ قضاء اللَّه وقَدَرِهِ المُحْكَم، الَّذِي لاَ مَحْوَ فيه، ممَّا يتعلَّقُ بتَدْبيرِ اللَّهِ لأحداث السَّنةِ القادمة، حتَّىٰ ليلَةِ القَدْرِ التالية.

وإنَّما يَتِمُّ هذا الفَصْل الذي جاء التعبير عنه بالفَرْقِ، من جُمْلَةِ المكتوبات في اللَّوْحِ المحفوظ، بأمْرٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وإذْ نُلاحظُ هذا الحَدَثَ العظيم من أحداثِ هٰذِهِ اللَّيْلَة المباركَة، فلا بُدَّ أن نُلاحظَ معه أنَّ وظائفَ وأعمالاً جليلَةً تتعلَّقُ بالملأ الأعْلَى من الملائكة مُقْتَرِنَةٌ به، وهي أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أوامرَ اللَّه الحكيمةَ المُحْكَمَة، الَّتِي فُرِقَتْ من اللَّوح المحفوظ، ويَنْزِلُونَ بها، ليبَلِّغُوهَا إلى الذينَ يكلَّفُونَ تَنْفِيذَهَا من ملائكة الأرض.

ومع قيام الملائكة بوظائفهم وأعمالهم الّتي يكلَّفُونها من كلّ أمْرٍ من أوامر تدبير اللَّه لخلقه، لدى تَنَزُّلِهِم إلى الأرض في ليلَةِ القَدْرِ، لا بُدَّ أن نَضَعَ في تصوُّرنا أنَّ ملائكة السماء يشارِكُونَ المؤمنين المسلمين في مواسم الخَيْر، وأنّ مَهْرَجانات العبادة للَّهِ عزّ وجلّ مهرجاناتٌ تَعُمُّ أهْلَ السَّماوات والأرض، ولو لَمْ يَشْعُرِ المؤمِنُون من الإنْسِ بمشاركةِ الملائكة لهم في مواسم الخير، إلاَّ أَنَّهُم يُؤمِنُون بذلك تصديقاً لما ثبت لديهم من أخبارٍ عن الرسول ﷺ.

ولا يكونُ بمعزلٍ عن هذا المهرجان العظيم إلاّ الكافرون، والعصاةُ المعاندون المجرمون، والشياطين، فهم المحرومون من بركاتِ مواسم الخير، وخيراتها الرَّبانيّة العظيمة.

- قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

وصفَ اللَّهُ جلّ جلالُه هذه اللّيلَة المباركَةَ ليلةَ القَدْرِ بأنَّها سلام، وفي

هذا دليلٌ على أنّها ليلَةُ أمْنٍ شامل، فلا غَضَبَ فيها ولا انتقام، ولا تَلاحِيَ فيها ولا خصام، والملائكةُ فيها في ليلةِ عيدٍ ومَهْرَجانِ عبادةٍ وأمن، إذْ تتوقّفُ أوامر العقاب، وتعمُّ مظاهر الأمن في السماء والأرض، إلاّ ما يكون من قِبَلِ المكلّفين المخيَّرين مِنْ إنْسٍ وجنٍّ.

وتستمرّ هذِهِ اللّيلة ليلةَ سلامٍ حتَّىٰ طُلوعِ فَجْرِهَا، كما جاء في الآية.

ويظهر أنّ ليلة القدر تَدُورُ على كلّ الأرض بحسب مشارقها ومغاربها، لكَيْ تكون عامّةً لكلّ أهل الأرض؛ إذ اللّيلُ والنهارُ يدوران على الأرض بحسب ابتداء وانتهاء كلٍّ منهما، على اختلاف مواقعها بالنسبة إلى الشمس، إشراقاً ومغيباً سَبَبُهُما دوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشمس.

صفات ليلة القدر في القرآن:

مما ورد في القرآن المجيد عن ليلَةِ القَدْرِ نستطيع أنْ نستَخْلِص ستّ صفاتٍ كبرى لها، وهي:

الصفة الأولى: أنّها ليلةُ القدر، أي: ليلَةُ تقدير الأمور وتدبيرها، من كلّ ما يكون في كلّ تلك السنة القادمة، إلى مثل هذه الليلة من السنة الّتي تليها.

وهي ليلة الشرف والعظَمَة والمنزِلَة الكبرى عند اللّه.

الصفة الثانية: أنّها ليلَةٌ مبارَكَة، أي: يبارِكُ اللّه فيها لعباده، فيضاعفُ لهم رحماته، ويزيد لهم في ثواب أعمالهم ومن فيوض غُفْرَانِه وعَفْوِه، ويستجيب فيها دُعاء من دعاه.

ومن بركاتها الجليلات أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ أنْزَل فيها القرآن رحمةً للناس.

الصفة الثالثة: أنّها خَيْرٌ عِنْدَ اللّهِ لعباده من ألفِ شَهْرٍ، ليس فيها ليلَةٌ من ليالي القدر، فالعمل الصالح فيها يُضَاعَفُ بمثل هٰذِهِ الخيريَّة.

الصفة الرابعة: أنّ الملائكة تتَنَزَّلُ فيها ومعهم الرُّوح جبريل عليه السلام، بإذْنِ رَبِّهِمْ من كلّ أمْرٍ من أمور تدبير الخَلْقِ.

وخُصَّ جبريلُ عليه السلام بالذكر لشرَفِ منزلته بين الملائكة، ولأنّه لا يَنْزِلُ عادةً إلاَّ للأمور العظيمة الجليلة.

الصفة الخامسة: أنَّ كُلَّ أمْرٍ رَبَّانيٍّ حكيم، يُفْرَقُ فيها من اللَّوْحِ المحفوظ، للإعلام به وإبلاغه لملائكة التنفيذ، إذا كان من أمور تدبير الخلائق للعام القادم.

الصفة السادسة: أنها ليلة سَلاَمٍ وأمْنٍ شامل، وتَظَلُّ كذلك حتَّىٰ طُلُوعِ فَجْرِهَا، وهي تَدُورُ مع الأَرْضِ، بحَسَبِ مشارق الأرض ومغاربها.

مما ورد في السنّة حول صفات ليلة القدر المادّيّة:

(١) أخرج الطيالسيُّ عن ابن عبّاسٍ، أنّ رسول الله ﷺ قال في ليلة القَدْر:

«لَيْلَةٌ سَمْحَةٌ طَلْقَةٌ[1]، لاَ حَارَّةٌ وَلاَ بَارِدَةٌ، وَتُصْبِحُ شَمْسُ صَبِيحَتِهَا ضَعِيفَةً حَمْراء».

(٢) ورُوِيَ عن جابر بن عبد اللَّه، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ فَأُنْسِيتُهَا، وَهِيَ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ لَيَالِي شَهْرِ رَمَضان، وَهِيَ طَلْقَةٌ بَلْجَةٌ، لاَ حَارَّةٌ وَلاَ بَارِدَةٌ، كَأَنَّ فِيهَا قمراً، لاَ يَخْرُجُ شَيْطَانُهَا حَتَّىٰ يُضِيءَ فَجْرُهَا».

بَلْجَة: أي: مضيئة واضحة.

(٣) وروى مسلم عن زِرّ بن حُبَيْشٍ، عن أُبَيّ بن كَعْبٍ، قال: «أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ شَمْسَ صَبِيحَتِهَا تَطْلُعُ لاَ شُعَاعَ لَهَا».

يمّا ما يتوهَّمُهُ النَّاسُ حَوْلَها من عجائب مادِيَّةٍ فلا أصل له، وهو من المفتريات التخريفية.

وبهذا تَمَّ تدبُّر سورة القَدْر

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته

* * *

---

[1] **سَمْحة طلقة**: أي: سهلةٌ طيّبة، لا حرَّ فيها ولا بردَ يؤذيَان، وساكنة مضيئة.

سُورَةُ الشَّمْسِ

٩١ مصحف ٢٦ نزول

(١)

نصّ السورة

سورة الشمس وما فيها من فرشيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا (١) وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا (٢) وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا (٣) وَٱلَّيْلِ إِذَا
يَغْشَىٰهَا (٤) وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا (٥) وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا
(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن
دَسَّىٰهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ (١١) إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم
بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا (١٥)

---

١٥ - ● قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ عطفاً بالفاء.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلاَ يخافُ عُقْبَاهَا﴾ بالواو بدل الفاء.

والقراءَتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، فالعطف بالفاء يَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، أي: فالربُّ عَقِبَ تَسْوِية دِيار ثمودٍ بالأرض وإهلاكهم بالأنقاض لاَ يخافُ عاقبةَ تَبِعَةٍ مَا؛ لأنَّ ما فعلَهُ تحقيق للعدل، أمّا الواو في قراءة الجمهور فهي واو الحال، وهي تدُلُّ على أنّه لم يكُنْ، في حال قيامه بتدمير ديار ثمود وإهلاكهم يخافُ تَبِعَة فِعْلِه، لأنّه يُحقّق العدل جلّ جلاله، والتبعةُ أن يُسأَل: لماذَا أهلكتَهُمْ.

(٢)

ممّا ورد بشأن سورة الشمس من أحاديث

(١) روى الإمام أحمد، والترمذيّ وحسّنه، والنّسائي، عن بُرِيدَة:

«أنّ رسُولَ اللّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صلاة الْعِشَاءِ» ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، وأشْبَاهِهَا مِنَ السُّور».

(٢) وروىٰ البخاري ومُسْلِمٌ عَنّ جابر بن عبد اللّه، أنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللّهُ عَنه كان يُصَلّي مَعَ النبيّ ﷺ، فَيأْتِي قَوْمَهُ فيُصَلّي بهم الصَّلاَةَ، فقرأ بهم البقرة.

قال: فتَجَوَّز رَجُلٌ فَصَلَّى صَلاَةً خفيفةً، فبلَغَ ذَلِكَ مُعَاذاً، فقال: إنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذٰلك الرجلَ، فأتَىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللّهِ، إنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بأيْدِينا، ونَسْقِي بِنَواضِحَنا، وإنَّ مُعَاذاً صلَّىٰ بنا البارحةَ، فقرأ البقرة، فتَجَوَّزْتُ فزعم أنّي مُنافِق.

فقال النبيّ ﷺ:

«يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟! - ثَلاَثاً - اقْرَأ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾...».

وفي رواية عند مسلم زيادة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

(٣) وروى الطبراني عن ابن عبَّاسٍ: «أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ في صَلاَةِ الصبح بـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ - ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾».

(٤) وروى البيهقي في الشُّعَب عَنْ عُقْبة بن عامرٍ قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ أنْ نُصَلّي رَكْعَتَي الضحىٰ بسورتَيْها، بالشَّمْسِ وضُحَاها، والضُّحَىٰ».

(٣)

موضوع سورة الشمس ودروسها

موضوع هذه السُّورة تَنَاولَ تأكيدَ قَضِيَّةِ الجزاء، الذي هو عاقبة الابتلاء والمسؤوليّة في الحياة الدنيا، بمقتضىٰ حكمة الرَّبّ الخالق العليم الحكيم القدير.

وقد اشتملت هذه السورة على دَرْسين:

الدرس الأوّل:

تَضَمَّنَ قَسَماً تَأْكيديّاً من اللّه عزّ وجلّ بطائفة من ظواهر بديع صُنْعِهِ في الكون وفي الأنفس، وهٰذِهِ الظواهر تَدُلُّ على كَمَالِ الإتقان، وعظيم العناية بالعباد، وتَهْيِئة ما فيه مصالحُهُم، ومعايشُهم في الحياة الدُّنيا، والمُقْسَمُ عليه الَّذي يُرادُ تأكيده قضيّةٌ واحدة من أركان الإيمان، هيَ قضيَّةُ الجزاء الرَّبَّاني، ومعلومٌ أنَّ الجزاء هو الحكمة الغائيَّةُ من الإبتلاء في ظروف الحياة الدنيا، وهو الآيات من (١ ـ ١٠).

الدرس الثاني:

تضمَّن ذِكْرَ مَثَلٍ تاريخيٍّ من أمثلةِ عقاب اللّه المعجَّل في الدُّنْيا للمكذّبين برسالاَتِ المُرْسَلِينَ من لَدُن رَبّ العالمين، هو عِقَابُ اللّه عزَّ وجلَّ لِثَمُودَ قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، لتكذيبهِمْ رسُولَ رَبّهم، ولطغيانهم، ولتحدِّيهم لإنْذَارَاتِ رَبِّهم في معجزتِهِ الَّتي خَلَقَها لهم حسب طلبهم، وهي النّاقة الّتي أَخْرَجَها لهم من صَخْرَةٍ عَيّنوها، وعلى وفق الصفاتِ التي ذكروها.

وقد جاءت قصة هذا المَثَل موجزةً مناسبة لحجم السّورة، ومرحلة نزولها، ومعلومٌ أنّ ذكر العقاب المعجّل يُنَبّهُ على العقاب المؤجّل إلى يوم الدين.

وآيات هذا الدرس هي من (١١ ـ ١٥).

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي لآيات الدرس الأوّل

وهو الآيات من (١ ـ ١٠)

قال اللّٰه عزّ وجلّ:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾.

تمهيد:

إنّ القَسَمَ الصّادِر عن اللّٰهِ عزّ وجلّ ببَعْضِ ظواهِرِ خَلْقِهِ المتقنة، هو في الحقيقة قَسَمٌ بصفاتِهِ العَظِيمة الجليلة التي كانَ من آثارِهَا هٰذِهِ الظواهر، نظراً إلى أنّ هذه الظواهر تَدُلُّ أولي الألْبَاب على طائفة من صفاتِهِ العظيمة الجليلة، ومنها وجودُهُ الأزليُّ الأبديُّ، وهَيْمَنَتُهُ على كلِّ شَيْء، وسلطانُهُ الدَّائم، وعِلْمُهُ المحيطُ بكلِّ شيء، وتَدْبيرُه الحكيم، وقُدْرَتُهُ على مَا يشاء.

إنَّ القَسَمَ بالصنعة يَدُلُّ على الصانع وصفاته، وإنَّ القَسَمَ بالمشهود هو بمثابة الدليل القويّ على صِدْقِ وُقوعِ المُقْسَمِ عَلَيْهِ الغائب، المماثِلِ للمشهود.

وبهذا تظهر لنا حكمةُ إقْسَام اللّٰهِ عزّ وجلّ ببعض مخلوقاته في القرآن الكريم.

وقد أقسمَ اللّٰهُ عزّ وجلّ بسَبْعِ ظَاهِرات من ظاهرات خَلْقِهِ العظيم لكَوْنه، في هذا الدَّرْس الأوّل من دَرْسَي السورة.

الظاهرة الأولى: دلّ عليها قول اللّٰهِ عزّ وجلّ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١)﴾ «الواو» هي «واو القسم» والكلام على تقدير «أَحْلِفُ» أَوْ «أُقْسِمُ» ولكن لا

يظهر هذا الفعل المقدّر إلاّ إذا كان حرف القسم الباء، فيجوز إظهاره وإضماره معها، وفي غيره لا يأتي في لِسانِ العرب ظاهراً، بل هو مُقَدَّرٌ ذهناً.

لقد أقسم اللَّه عزّ وجلّ في هذه العبارة بالشّمس، وأقسم بضُحَاهَا.

وفي الإقْسَام بالشَّمْسِ توجيهٌ لظاهرة عناية اللَّهِ بسُكّانِ الأرض، في إيجاد هذا النجم العظيم الملْتَهِب القَرِيبِ من الأرْضِ، والمُمِدِّ لها بالطاقةِ، وبالضَّوْءِ الَّذِي يَنْطَلِقُ منها إلى السطح المواجِهِ لها من الأرض، بمقدار حاجَةِ أهْلِها. والمُمِدّ لَهَا بنُورِ القَمَر المنعَكِسِ من أشِعَّةِ الشَّمْسِ المنْسَكِبَةِ عليه⁽¹⁾.

وجاء في العبارة تخصيصُ ضحاها بقَسَم، بعد القسم بها كلّها؛ لأنّ ضحاها وهو وقت ظهورها وانجلاء ضوئِهَا، هو الأمر العظيم الذي يُمِدُّ الأرْضَ وسُكَّانَها بما يحتاجون إليه من وَقُودٍ لغذائهم ومعايشهم المختلفة.

فجِرْمُ الشَّمْسِ خصَّصَتْهُ العنايةُ الرَّبَّانيَّة بإتقانٍ عجيب لمنافع سُكَّانِ الأرض، وضبط دورانها حول الشمس سنويّاً، وحول نفسها باتّجاه الشمس يوميّاً، مع محافظتها على مدارَيْهَا دُون إخلال.

وضَوْءُ الشَّمْس خصَّصَتْهُ العِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بإتْقَانٍ عجيب، لإمداد سُكّان الأرض بطاقات أقواتهم، ومصالح أجسامهم المختلفة.

الضُّحَى: هو الوَقْتُ الّذي يَكْتَمِلُ فيه إشراقُ الشَّمْس بَعْدَ أن تَطْلُع.

وضحى الشمس أيضاً ظُهُورها وبُرُوزها وانجلاء ضَوْئِهَا، يُقالُ لغة: ضَحَا الشيءُ إذا ظهر وبرز. قال الجوهريّ الضُّحَا مقصورة، تؤنّث وتذكّر.

فيظهر أنّ المراد بعبارة [ضُحَاهَا] ظهور كلِّ ضَوْئِهَا المشرق وقت إشراقه.

---

(١) الحديث عن الشمس وبعض ما توصل إليه بشأنها علماء الكونيّات سبق في سورة التّكوير.

الظاهرة الثانية: دلّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

هذا قَسَمٌ آخَرُ بالقَمَرِ إذَا تَلاَ الشَّمْسَ أقْسَمَ اللّهُ عزّ وجلَّ به.

القَمَرُ: نعمةٌ من نعم اللّه عزّ وجلّ على أهل الأرض من وجوهٍ عَدِيدة.

فنورُه مصباحٌ ليليٌّ، وأَهِلَّتُه دلالَةٌ على المواقيت، وجاذبيته يتسبّبُ عنها حدوث المدّ والجزر في البحار، فينجم عنها حركاتٌ نافعات لأهل الأرض، إلى منافع ومصالح أخرى كثيرة يَعْلَمُ الباحثون الكونيُّون بعضها، ويجهلون سائِرها.

ودلَّ قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ على أنّ القمر تابع من توابع الشمس، أي: فحركاتُ القَمَرِ، وانْضِباطُهُ في مَداره، ونُورُه الّذي يَبُثُّهُ، كلُّها تابعةٌ وتاليةٌ لِمَا في الشَّمْس من أسباب بتقدير اللّه عزّ وجلّ.

وقد هَدَتِ العُلومُ الإنسانيّة المؤكَّدَةُ إِلَىٰ أَنَّ القَمَرَ تابعٌ من توابع الشمس، فهو تابعٌ لها في الجاذبيّة، وفي نِظَامِ الحركَةِ مع المجموعة التابعة لها، وفي نُورِهِ الذي يبثُّهُ؛ إذْ نُورُ القمر هو انْعِكاسُ أشِعَّةِ الشَّمْسِ المنسكِبَةِ على سَطْحِهِ المواجه لها، فَهُو يقابل الشمس بوجهٍ واحدٍ من وَجْهَيْهِ، والقَمَرُ بتَكْوِينِهِ الظَّاهِر باردٌ غَيْرُ حارّ، وما يبثُّهُ نورٌ انعكاسيٌّ، وليس ضياءً، بخلاف الشمس.

الظاهرة الثالثة: دلَّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

هذا قَسَمٌ ثالث أقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالنهار الذي هو أثَرٌ في الأرض مُرْتَبِطٌ بالشمس، فالسَّطْحُ المواجِهُ للشمس من الأرض في دورتها اليوميّة حَوْلَ نَفْسِهَا، هو السَّطْحُ الذي يكونُ فيه النهار. يقال لغة: جَلَّىٰ فُلانٌ الشَّيْء، أي: كَشَفَهُ وأظهره.

ويَظْهَرُ أَنَّ المُرادَ بالنَّهَارِ الوقْتُ الَّذِي تَكُونُ مَعَهُ المواجَهَةُ بين الشَّمْسِ والجُزْءِ المواجِهِ لَهَا من الأرض، فهذا الوَقْتُ هو الذي يَتَسَبَّبُ عَنه تجلِيَةُ الشَّمْسِ لسُكَّانِ هذا الجزْءِ من الأرض، فجاء النَّصُّ مُبَيِّناً أنَّ النَّهَار هو الذي يُجَلّي الشَّمْسَ، أي: وَقْت النَّهار. وهذا من إطلاق السَّبب وإرادة لازمه المسبَّبِ عنه، وهو عند البلاغيّين من المجاز المرسل، وسَبَبُ هذا الوقت دوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشمس.

وبهذا نجد التطابُق بين دلالة النّصّ، وما أكَّدَتْهُ الدِّراسات العلميَّةُ الإنسانية.

الظاهرة الرابعة: دَلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

هذا قَسَمٌ رابع أقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ به، إنَّه قَسَمٌ باللّيل الذي يَظْهرُ في الجُزْءِ من الأرض الذي لا يكون مواجهاً للشمس، في دورتها اليوميَّةِ حول نفسها.

ويظهر أنّ المرادَ باللَّيل الوقْتُ الذي لاَ يكُون فيه الجزْءُ من الأرض مواجهاً للشَّمْسِ، فهذا الوَقْتُ هو الّذِي يتَسَبَّبُ عنه سَتْرُ الشَّمْس بالنسبة إلى سُكَّانِ الجُزْءِ مِنَ الأرض الذي يكون فيه اللّيل، فجاء النَّصُّ مُبيّناً أنَّ اللَّيْلَ هُوَ الّذي يَغْشَى الشَّمْسَ، أي؛ يجلِّلُها ويَسْتُرُهَا، أي: وَقْتُ اللّيل الّذي يُحْجَبُ فيه ضياء الشَّمْسِ بجِرْم الأرْض نفسها، لانعدام المواجهة بين هذا الجزْءِ من الأرض وبين الشمس في هذا الوقت.

يَغْشَاهَا: أي: يُغَطِّيها ويُجَلِّلُها، تقولُ لغة: غَشَّىٰ فُلاَنٌ الشَّيْءَ، أي: غَطَّاهُ وجَلَّلَهُ.

والمعنى أنّ هذا الوقْتَ قَدْ كانَ سَبباً في سَتْرِ الشَّمْس عَنْ الذين يعيشون في الجزء من الأرض الذي يكون فيه اللّيل، وهذا من إطلاق السَّبَب وإرادة لازمه المسَبَّبِ عنه، وهو عند البلاغيين من المجاز المرسل.

وبهذا نجِدُ التطابُقَ بين دلالة النّصّ، وما أكّدَتْهُ الدّراساتُ العلميّةُ الإنسانيّة.

هذه الأمور قَدْ فَهِمْنَاهَا من قول اللّهِ عزّ وجلّ.:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

بَعْدَ أن كشَفَتْ لنا الدّراساتُ العلميَّةُ الإنْسَانِيَّةُ المؤكّدَةُ، نظامَ الشَّمْس والقَمَرِ والأرض، ومَسِيراتها الفلكيّةِ، في مَداراتها، أو حول نفسها، وما يتسبَّبُ عن ذلِكَ من لَيْلٍ ونَهارٍ، فيكونُ وقت النهار سبباً في تَجْلِيةِ الشمس، ويكونُ وقْتُ اللّيلِ سبباً في استتار الشّمس.

فظهر لنا بالتدبُّر المتأنّي التّطابُقُ العجيب بين مقرّرات العلوم الإنسانيّة حول هٰذِهِ الظَّوَاهِر، وبَيْنَ دلالاتِ النَّصِّ القرآني الواضحة الّتي لا إشكال فيها، ولا تحتاجُ تخريجاتٍ مُتَعَرجَاتٍ، ولا تأويلاتٍ تُخْرِجُ النَّصَّ عن دَلالاته الظاهرات ولوازمها، الّتِي تدُلُّ عليها ضِمْنَ بياناتِ اللّسان العربيّ وقواعِدِهِ.

الظاهرة الخامسة: دلَّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

هذا قَسَمٌ خامسٌ أقْسَمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالسَّمَاءِ وببنائها، أي: بإبْداع بنائها وإتقانه العظيم العجيب، وبما فيها من نجومٍ وكواكبَ وأنظمةٍ تحارُ فيها الألباب، وتَدْهشَ بها العقول، فلا يخرُجُ نَجْمٌ ولاَ كوكَبٌ عَنْ موقِعِ مداره، ومَسِيره الذي يسير فيه، بقوانين جَبْرِيَّةٍ لاَ تُخْرَم، ولا تَسْمَحُ بأنْ يَنِدَّ عنها نادّ.

السّماء في اللّغة: كلُّ ما عَلاَ سُكّانَ الأرضِ من جهة رؤوسهم وهم منتَصِبُو القاماتِ، فيَدْخُل فيها الغلافُ الغازي المحيطُ بالكُرةِ الأرْضيَّة من

كُلّ جهاتها. ويدخُلُ فيها السَّحَابُ الذي يتجمَّعُ في جوّ الأرض. ويدخل فيها مجموعات المجرّات ذواتِ النجوم المُلْتَهِبَة والكواكب الباردة، وهذه هي المرادةُ في الآيَةِ هُنَا، إذْ جاء فيها ذكْرُ بنائها.

ولفظ «السَّماء» هنا اسم جنْسٍ يَعُمُّ كُلَّ السَّمَاوات السَّبْعِ وما فيهن وما عَلَيْهِنَّ.

لفظ «ما» في: ﴿وَمَا بَنَنهَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ على الأرجح، وهي الّتي تُؤَوَّلُ مع الفعل الذي اقترن بها بمَصْدَر، والتقدير: والسَّمَاءِ وبِنَائِها، أي: أُقْسِم بكُلٍّ مِنْهُما.

أمّا بناءُ السَّمَاءِ فَلِعُلَمَاءِ الفَلَكِ بحوثٌ مستفيضة، تَكْشِفُ ما فِيهِ من إتقانٍ بديعٍ عجيبٍ، هادٍ إلى جُمْلَةٍ من صِفاتِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وهٰذِهِ الصّفاتُ تُثبتُ وجُودَ الرَّبِّ الموصوفِ بها، وتُثْبتُ سُلْطانَهُ المطلق في كَوْنِهِ.

وبناءُ كلّ شيء بحَسَبِهِ، فبناء بُيُوتِ سُكَّانِ البوادي خيامٌ ينصبونها، ويُثَبِّتونها بالحبال والأوتاد.

وبناء المساكن والقصور في الحواضِر والقرى، جُدْرَانٌ يُقِيمونها، ويضعون عَلَيْهَا سُقُفاً، ويتَّخِذُونَ لها أبواباً للدُّخول والخروج، ونوافذ للضياء والهواء.

والعنكبوت تبني بيتاً لَهَا من خيوط دقيقة جداً، تُفْرِزُهَا من أجسادها، وتُشَبِّكُ بينها بنظام يُلائم امتداد أرجلها، ويلائم حركات صَيْدِ فرائسها من الحشرات الصغيرة، وبين هذه الخيوط فراغات شاسعات في حِسَابِ النِّسَب، وإنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ العنكبوت.

وبناء الذّرّة على ما يذكر العلماء الباحثون في الكونيّات، قائم على نواة حَوْلَها فراغٌ شاسع في حِسَاب النِّسَب، وتدور في هذا الفراغ ألكترونات كهربائية، ضمن نظام يجعل الذَّرَّة متماسكة مترابطةً في وحْدَة ذرِّيَّة، وتتلاقىٰ

الذَّرّات متقاربة، فما تَشْهَدُهُ عيونُنَا جِسْماً صُلْباً متماسِكاً هو في الحقيقة ذَرَّاتٌ متقاربات، وبينها فراغات واسعاتٌ جدّاً، حتىٰ لَوْ ضُغِطَتِ الأرض كُلُّها فَلَمْ يَبْقَ بين ذَرَّاتِها ولا داخل ذَرَّاتها فراغات، لكانت الأرض كُلُّهَا أَقَلَّ من حَجْمِ جَبَلٍ صغير فيها.

وبناءُ السَّمَاءِ وضْعٌ تَرَابطيٌّ مُجْتَمِعٌ، خاضع لنظامٍ جبْرِيٍّ متماسِكٍ قاهر، بقُدْرَةِ العزيز الجبّار القهّار.

وليس من حَقّنا أن نَفْرِضَ بتصوّراتنا الخياليَّة أو القِياسِيَّة صورةً مُحَدَّدَةً لبناء السَّمَاء، بل يجب علينا أن نتتبَّع ما تثبتُه الحقائق العلميَّة الّتي قالَتِ الدّراسات العلميّة الإنسانيَّة فيها كلمتَها الأخيرة، اعتماداً على المشاهدات القطعيّة، أو البراهين الّتي لا شكّ فيها.

ومن المقطوع به في المفهومات القرآنيَّة أنَّ الشَّمْسَ والقَمَر في السَّمَاء، لاَ دُونَهَا، أي: فهما جُزْءٌ منها، بدليل قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

ومن هذا نفهم أنّ المجموعة الشمسيَّة جُزءٌ من السَّماء، وقد أَثْبَتَتِ المشاهدةُ العلميَّة أنَّ هٰذِهِ المجموعة ذاتُ بناءٍ خاضعٍ لنظامٍ متماسِكٍ، على الرُّغْمِ مِنْ وُجُودِ مسافاتٍ شاسعات، بين الشَّمْسِ الأمِّ وبين بَنَاتها المتباعدات فيما بينَهُنَّ مسافاتٍ شاسعات.

فبناءُ كُلِّ شيءٍ بحسَبِهِ.

الظّاهرة السّادسة: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾﴾.

هذا قَسَمٌ سادس أَقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالأرض وبطَحْوِهَا. و«ما» مصدريّة على الأرجح كالتي في: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾.

أمّا القسم بالأرض، فيشمل كلّ مافيها من جبال هي بمثابة أوتادٍ لها، وبحار، وأنهار، وفجاج، وكُنوز، ويَشْمِلُ سُهُولَها وجنّاتها ومرعاها، وما أودع اللّه فيها من أقوات للأحياء عليها، وما حولها من غلافٍ غازيٍّ ضروريٍّ للحياة، إلى سائر ما فيها من نِعَمٍ وخيرات.

وأمّا طَحْو الأرض الذي أَقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ به، ففيه دلالَةٌ على كُرَوِيَّتها، ودَورانها حول نفسها، ودورانها في مدار حول الشمس، ويهدينا إلى هذا تحقيقٌ لغويٌّ نَرْجِعُ فيه إلى مُعْجَمات اللُّغَةِ العربيّة الّتي تبيّن معاني كلماتها، وتَتَبُّعٌ للحقائق العلميَّة الّتي أثبتتها الدراسات العلميَّة الإنسانيَّة إثباتاً قَطْعِيّاً.

أمّا مُقَرَّراتُ العلوم الإنسانيَّةِ القطعيَّة، فتُثبت أنَّ الأرض كُرَةٌ كبيرة لَيْسَتْ كاملة الاستدارة، وتثبتُ أنّها تدور حول نفسها دورة كاملةً في كلّ يَوْم، وتُثْبِتُ أنّها تدورُ في مدارٍ حول الشمس دورةً كاملةً في كُلّ سنةٍ شمسيّة.

وأمّا التحقيق اللُّغَوي فقد رجَعْتُ إلى كُتُبِ اللُّغَةِ فوَجَدْتُ أنَّ كلمة: «طَحَا يَطْحُو طَحْواً، وطَحَىٰ يَطْحى طَحْياً» تأتي بمعنى دفَعَ.

يُقالُ لغةً: القَوْمُ يَطْحَىٰ بعضُهُم بعضاً، أي: يدفع بعضهم بعضاً.

ومثل «طَحَا» في المعنى فعل «دَحَا يَدْحُو دَحْواً. . . ودَحَىٰ يَدْحَىٰ دَحْياً».

قال الفرّاء: «طحاها» و«دَحَاها» واحدٌ، أي: هما بمعنىً واحدٍ.

وقد جاء من معاني «دَحَا» في اللُّغَةِ معنى «دَفَعَ» يُقالُ لغة: دحا السَّيْلُ الحصا، أي: دفعه ودحرجه.

قال ابْنُ الأعرابيّ: هو يَدْحُو بالحَجَر بيده، أي: يَرْمي به ويَدْفَعُهُ، قال: والدَّاحِي الذي يَدْحُو الحجَر بيده.

وجاء في حديث أبي رافع: كُنْتُ ألاعِبُ الحَسَنَ والحُسَيْن رضوان اللَّه عليهما بالمَدَاحِي، وهي أحجارٌ أمثال القِرَصَة[1]، كانوا يَحْفِرُون حُفْرَةً، ويَدْحُون فيها بتلك الأحجار، فإنْ وقع الحَجَرُ فيها غَلَبَ صاحبُها، وإنْ لم يَقَعْ غُلِبَ[2].

وجاء من معاني: «طَحَا ـ ودَحَا» أيضاً مَعْنَى «بَسَط».

وللمطابقة بين مُقَرّراتِ العلوم الإنسانيّةِ القطعية، وبَيْن المعنى اللّغوي لفِعْلَي: «طَحَا ودَحَا» ترجّح لدَيَّ أنّ المراد الدَّفْعُ، بالطَّحْوِ والدَّحْوِ في قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الشّمس/٩١ مصحف/٢٦ نزول): ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾، وفي قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (النازعات/٧٩ مصحف/٨١ نزول): ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾.

هذا الدَّفْعُ مماثِلٌ لِدَفْعِ حَجَرَةِ المَدَاحِي إلى حُفْرَتِهَا، ومُماثل لدفع السَّيْل الحصا ودَحْرَجَتِهِ.

فهذا الدَّفْعُ ينجُمُ عنه حَرَكتانِ عادَةً:

الحركة الأولى: حَرَكَةُ الشَّيْءِ حَوْلَ نَفْسِهِ؛ إذ يتَدَحْرَجُ.

الحركة الثانية: حرَكَةُ الشيء في مَسِيرٍ لِيَبْلُغَ الغايةَ المرادة.

إنَّ هذا المعنىٰ اللّغوي لمادَّتَيْ «طَحَا ودَحَا» هو المعنى الذي يَنْطَبِقُ على ما هُو مُقَرَّرٌ في البحوث العلميَّة الإنسانيَّة حول الأرض، فهي في

---

(١) **القِرَصَة**: قِطَعُ العجين الّتي تُقَطَّع لتبسط فتخبز، مُفْرَدُها قُرْصَة. القِرَصَةُ على وزن عِنَبَة.

(٢) عن كتاب «لسان العرب» لابن منظور.

الفضاء كحَجَرَةٍ كبيرَةٍ، لهَا حَرَكَةٌ دورانيَّةٌ حول نَفْسِهَا في كلّ يومٍ، وحَرَكَةٌ في مَسِيرٍ لها حَوْلَ الشمس، طَوال عامٍ شَمْسِيٍّ كامل، ضِمْنَ مدارٍ مُحَدَّدٍ دقيق.

الظّاهرة السابعة: دلّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

هذا قَسَمٌ سابعٌ أقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ به، إنَّهُ قَسَمٌ بالنفس، وقَسَمٌ بتسوية اللَّه لها. فلفظ «ما» من عبارة: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، مَصْدَرِيَّة كسابقَتَيْهَا، فالنفس الإنسانيَّةُ قد سوَّاها الرَّب تسوية مُدْهِشَة لِما أُعِدَّت له.

إنّ النَّفْسَ الممتحنة المكلّفَة في الحياة الدُّنيا، وما فيها من إبداع الخالق في تسويتها، بجَعْلِهَا كاملةَ الصِّفات الَّتي تُؤَهِّلها لأداء وظيفتها في الحياة، مَخْلُوقٌ عجيبٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّه الخالقُ الرَّبُّ به، نظراً إلى ما فيه من أدِلَّةٍ بُرْهَانِيَّةٍ، وآيَاتٍ جليلاَتٍ علىٰ صِفاتِ الرَّبِّ الخالِقِ السَّنِيَّةِ.

إنَّ إبْداعَ النفس في الإنس والجنّ بخصائصها الفكريّةِ، وغَرَائِزِهَا، ودَوَافِعِهَا، وعواطفها، وآلامِها ولَذَّاتِهَا، وآمالها وطُموحاتِها، وانفعالاتها وأخْلاَقها، من أعْجَب العَجَب، وهذا الإبْدَاع من أقوى الأدلّة في ذاتِ المخلُوق على الخالِقِ العظيم، وصفاته الجليلات، ومنها عِلْمُه المحيطُ بكلِّ شيءٍ، وحكمتُهُ السَّنِيَّة، وقُدْرَتُهُ على إبْداعِ ما يشاءُ ويختار.

التسوية: إبلاغ الشَّيْءِ الغاية المقضيَّة له، والمقصودة من صُنْعِهِ.

وجاء في النَّصِّ تنكير لفظ «نفس» للدّلاَلة على عظم شأنِ خصائصها، إنَّ خريطَتها موجودةٌ ضِمْنَ خليَّةٍ صُغْرَى لا تخدْرَكُ بالعين، ضِمْن جَسَدِ المخلوق من الإنس ومن الجِنّ، ونفس الإنسان أكْمَلُ وأعْظَمُ إبداعاً.

وقولُ اللَّه عزّ وجلّ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾، هو من توابع القسم بالنفس الّتي سَوَّاها بارئها، أي: سوّاها فألْهَمَها بَعْدَ تَسْوِيَتِهِ لها مَعْرِفَةَ

سُبُلِ فُجُورِها، وأنَّها قبيحة ومُنْكَرَةٌ مَذْمُومَة، ومَعْرِفَةَ طَرِيق تقواهَا، وأنَّهُ حَسَنٌ جَميلٌ ومحمود.

الإلهام في اللّغة:

هُو ما يُلْقِيهِ اللَّهُ في النّفس فيجعلُها تَسْتَحْسِنُ الحسَنَ، وتَسْتقبح القبيح، ثم إنَّ الإرادة فيها تختار، إمّا أَنْ تَسْلُكَ طَرِيقَ التقوىٰ حتىٰ مرتبتي البرّ والإحْسَانِ، وإمّا أن تَسْلُكَ سُبُلَ أهوائِها وشهواتها على غَيْرِ تقوىٰ، حتَّىٰ دَرَكَةِ الفجور، وهو الانبعاثُ الوقح بقُوَّةٍ في ارتكاب الجرائم والآثام.

فالنفسُ المدركةُ بعد أن خلقها اللَّهُ جلَّت قُدْرَتَهُ وحكمتُهُ، وأبْدَعَ تَسْوِيتَها، وكَمَّلَها بالخصائص للوظيفة الّتي أعَدَّهَا لها، وللامتحان في ظروف الحياة الدنيا، المُسْتَتْبع بالحسَابِ، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، أعانَها بارِئُهَا كي تجتاز رحلة امتحانها على بَصيرَةٍ، فوضع في فِطْرَتِهَا بِطَرِيقَةِ الإلْهَام، الإحْسَاسَ الوجدانيّ، والبصيرة القلبية، مع النظرات الفكريّة المميّزَة، الّتي بها تُدْرِكُ نَوْعَ العمل الَّذِي تَهُمُّ بعَمَلِهِ، أوْ يَعْمَلُهُ الآخَرُونَ، إذا كان من دركة الفجور التي هي أَخَسُّ دَركات المعاصي والآثام، فما هو أخفُّ منها، إلى ما قبل أولىٰ درجات مرتبة التقوىٰ، ثم ارتقاءً في درجات مرتبة التقوىٰ فما فوقها من درجات مرتبتي البرّ والإحسان.

وهذا الإدراك الإلهاميُّ هو من الفِطَرِ النفسيّة التي فطر اللَّه النفوس عليها، ولكن يأتي إدْراكُهَا لها مُتأخِّراً، بمقتضىٰ دلالة الفاء في عبارة ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾.

الفجور: هو كما سبق بيانُه، الانبعاث القبيح بوقَاحة ومَجَانَة، في كبريات المعاصي والجرائم، الّتي تُدْرِكُ قُبْحَها وشناعتها النفوس، كالكفر وجحود الحقّ والخيانات العظمى، والإصرار على التزام الباطِل مع وضوح أنّه باطل، وكالعُدْوان على الأنفس والأموال والأعراض.

وهذا الفُجور تُدْرِكُ كلُّ النفوس قباحتَه وخسّتَه، ولَوْ لم تنزلْ شرائع ربَّانيَّةٌ بِبيانِهِ، ومن أَدْرَكَ الفجور أدرك أنّ فاعله يستَحِقُّ العقاب عليه.

أمّا إلْهام النفوس معرفةَ طريق تَقْواها فهو توجيه فطرتها لإدْراك ما يَقِيها ويَحْمِيها مِنْ عَواقِب تَكْرَهُها وتَخْشاها، إذا هَوِيَتْ، أو اشتَهَتْ، أَوْ رَغِبَتْ في أمْرِ ما، من فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ قَدْ ينْجُمُ عنه شرٌّ، أَوْ ضُرٌّ أَوْ عُقُوبَةٌ أو أذى.

والكُفْر والشركُ باللّه من أفجر الفجور المؤدّي إلى العذابِ الأليم الخالد، والإيمانُ الصَّحِيحُ الصادق هو الوقاية الواقيةُ منه.

والتقابُلُ بين أخسِّ دَركاتِ المعاصي والجرائم، وأوّلِ درجات سُلّم التقوىٰ، يَدُلُّ باللُّزُوم العَقْلِيّ على الدركات الأخف من دركة الفجور حتىٰ ما قَبْلَ أوّل دَرجات سُلَّم التقوى، ثُمَّ يَدُلُّ باللُّزُوم العقليّ على سائر درجات كمال التقوىٰ، لدخولها في عُموم مفهوم التقوى. ثُمَّ يَدُلُّ أهل الفطانة على دَرَجاتِ مرْتبة البرّ الّتي هي فوق مرتبة التقوى، وعلى درجات مَرْتَبة الإحسان الّتِي هي فوق مرتبة البرّ، وهذه يَفْهَمُهَا الفُطَنَاءُ من التقابُل بين الفجور أخسّ الدَّركات، والتقوىٰ أوّل مراتب الدّرجات الصاعدات، مع أنّ المُقَابل المُنَاظِر للفُجُور هو أعلىٰ درجات الإحسان، وتأتي بينهما متقابلات متناظرات بحَسَبِ دَرجاتِ الارتقاء ودركَاتِ الانْحِطاط.

المُقْسَم عليه بالظواهر الكونيّة السَّبع:

بعد القسم بالظواهر الكونيّة السّبْع المشهودة جاء المُقْسَمُ عليه، وهو خَبَرٌ غَيْبِيٌّ مُسْتقبليٌّ لَهُ شواهد من أحداثٍ ماضِيَةٍ قد وقعت فِعْلاً في العاجلة قبل الآجلة.

وقد جاء المقْسَمُ عليه في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

الضمير المنصوبُ في: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ وفي ﴿دَسَّىٰهَا﴾، يَعُودُ على النّفس الّتي جاء ذكرها في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

في هذا المَقْسَمِ عليه أَكَّدَ رَبُّنَا جلَّ جلالُه قضيَّتَيْنِ من قَضَايا الجزاء على اختيارات الممتَحَنِين المكلَّفِين في ظروف الحياة الدُّنْيَا، بَعْدَ الحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، بالقَسَمِ بالظَّاهرات الكونيَّةِ السَّبْعِ الّتي بَدَأَتْ بها السُّورَة، وبحرف التحقيق «قَدْ».

القضيَّةُ الأولى: فَلَاحُ من زَكَّىٰ نَفْسَهُ بعمله الإراديّ، فقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

القضيَّة الثانية: خَيْبَةُ مَنْ دَسَّىٰ نَفْسَهُ بعمله الإراديّ، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

﴿أفْلَحَ﴾: أي: فَازَ ونَجَا وظَفِر، وأصْلُ الفلاحِ البقاء في النعيم والخير، وفَلَاحُ الدَّهر بَقَاؤُه.

قال الأزهري: وإنما قيل لأهل الجنَّةِ مُفْلِحُون، لِفَوْزِهِم ببقاء الأبد. ويُسْتَعْمَلُ الفَلَاحُ ويُرادُ به الظَّفَر والبَقَاءُ في السُّلطان.

﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾: أي: من طَهَّرَ نفسه باجتناب ما يُدَنِّسُهَا، وطَهَّرها بإتْباع السيّئة الحسنة لتمحوَها وتغسلَ أثرها، ومن الحسنات المطهّرة التوبةُ والاستغفار، ونمّاها بالعمل بالفضائل، ومراضي اللَّه، صادقاً مخلصاً لربّه.

الزَّكَاةُ في اللّغة:

تأتي بمعاني الطهارة، والنَّماء، والبَرَكَةِ، والمَدْح.

واسْتُعْمِلَتِ الزكاةُ والتزكية في القرآن بمعنى الطهارة والتطهير، وبمعنىٰ النماء والتنمِيَةِ والبَرَكة، وبمعنىٰ الصَّلاح والإصلاح.

والتزكيةُ يُرادُ بها في الغالب تطهير النفس، وتنميَةُ فضائلها،

وإصلاحُها، وتخليصها من الكفر والجحود والشرك وسائر المعاصي والآثام.

ويقال أيضاً: زكَّىٰ نفسه، بمعنى مَدَحَها بالطهارة والصلاح ونَماءِ فَضَائلها، وهذا منهيٌّ عنه في القرآن، بقوله تعالىٰ في سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول): ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾: يقالُ لغة: خابَ يَخِيب ويَخُوبُ خَيْبةً، أي: حُرِمَ ولَمْ يَنَلْ ما طلَبَ، **والخَيْبَة**: الحِرْمَانُ والخُسْرَان.

والسَّهْمُ الخائب من قِداحِ المَيْسِر هو الذي لاَ نَصِيبَ لَهُ، والقِدْحُ الخيَّابُ هو الَّذِي لاَ يُورِي، فلا يُطْلِقُ شَرَارةً تُوقَدُ بها النار.

﴿مَن دَسَّاهَا﴾: أيْ: مَنْ دَنَّسَهَا ولم يُنَمِّهَا بالفضائل.

دَسَّاهَا: ضدُّ زَكَّاها، يُقالُ لغة: دَسَىٰ يَدْسَىٰ، ودَسَا يَدْسُو دَسْوَةً، ضِدُّ زَكَا يَزْكُو زكاةً.

قال اللّيث: دَسَىٰ يَدْسَىٰ لُغَةٌ، ودَسَا يَدْسُو أَصْوَبُ.

ويقال لغة: فلانٌ دَاسٍ لا زَاكٍ.

وقال ابن الأعرابي: دَسَا إذا استخفىٰ.

قالوا: وأصْلُ دَسَّىٰ دَسَّسَ، توالتِ السِّينَات فَقُلِبَتْ إحداهُنَّ ياءً، مثل تقضَّىٰ في تَقَضَّضَ.

قال أبو الهيثم: دَسَّىٰ فُلاَنٌ نفسَه، إذا أخفاها وأخْمَلَها لُؤْماً، مخافَةَ أن يُتَنَبَّهَ لَهُ فَيُسْتَضَاف.

وتأتي «دَسَّىٰ» بمعنى أَغْوَىٰ وأفْسَد، وأنشد ابْنُ الأعرابي لرجُلٍ من طيِّئٍ:

وأَنْتَ الَّذِي دَسَّيْتَ عَمْراً فأَصْبَحَتْ ... نِسَاؤُهُمْ مِنْهُمْ أَرَامِلُ ضُيَّعُ

أي: أنت الذي أفسَدت قبيلة عَمْرو. «عن لسان العرب».

بعد هذا البيان اللّغوي يتّضِحُ لنَا في تدبّر الآيتين (٩ ـ ١٠) أمران:

الأمْرُ الأوّل: تأكيد أنّ من زكّىٰ نَفْسَهُ، أي: طَهّرَها من الكفر والشّرك وكبريات الآثام، وأصْلَحَها، ونمّاها بالأعمال الصالحة، فإنّه سينجو من عذاب اللّهِ في النار يوم الدّين، وتأكِيدُ فَوْزِهِ وظفره بالثواب الجزيل، وتأكيدُ بقائه في النّعيم المقيم، في دار الخُلْدِ، وهذا هو فَلاحه، بمقتضى قَوْل اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

الأمر الثاني: تأكيد أنَّ مَنْ دسَّ نفسه، أي: أغْوَاها وأفْسَدَها، وغَمَسَها في أوحال الكُفْر أو الشّرك، أو كبائر الآثام والمعاصي، وأخفاها عن استقبال أضواء شمس الهِدَاية، فإنه سيكون خائباً يوم الدّين، أي: محروماً من الخير والسعادة، وخاسِراً نفسه، بسبب أنّه قذَفَ بها إلى مواقع عقاب اللّه وعذابه.

(٥)
التدبّر التحليلي لآيات الدرس الثاني

وهو الآيات من (١١ ـ ١٥)

قال اللّه عزَّ وجلَّ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

وقرأ نافع، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفر: ﴿فَلاَ يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

هذا الدرسُ الثاني وهو الأخير في السّورة، وهو يتضمّن عَرْضَ مَثَلٍ مِنْ أمثلة عقاب اللّه المعَجّل في الدُّنيا، للمكذّبين رُسُلَ ربّهم، والمكذّبين

بما جاءُوا به عَنِ اللّهِ عَزَّ وجلَّ مقروناً ببراهينه الدَّالّة على أنّه من عند اللّه جلَّ جلالُه.

إنَّهُ مَثَلُ عقابِ اللّهِ عزّ وجلّ لثمود، قَوْمِ رسُول اللّهِ صالحٍ عليه السلام، وكان عِقابُه المعجَّل لهم بإهْلاكهم في ديارهم مدائن صالح، إهلاكاً جماعيّاً عامّاً.

وهذا المثلُ التاريخيّ لَهُ آثارٌ باقيةٌ في أرض العرب.

وقد جاءَ هُنَا عَرْضُ قصَّةِ إهلاكهم وسَبَبِهِ في حكايةٍ مختزلةٍ موجزة، تتناسَبُ مع قصرِ السُّورة، إلاَّ أَنَّ هذا العَرْضَ الموجَز يحقِّق المقصود من الاعتبار بقصَّتِهِمْ، لِمَنْ شاءَ أَنْ يَعْتَبِر.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾.

﴿ثَمود﴾: قبيلةٌ من القبائل العربيّة البائدة الّتي أهلكها اللّه بسبب طغيانها. وكانوا يسكنون الحِجْر، وهو بين الحجاز وتبوك، ومكانهم يُعْرَفُ الآن بمدائن صالح، وقد نَشَؤُوا بَعْدَ أن أهلك اللّه عزّ وجلّ قوم عاد، وحينَ بعث اللّه رسوله صالحاً إليهم كانوا يَعْبُدون الأصنام.

﴿بطَغْوَاها﴾: الطُّغْوىٰ كالطُّغيان، مأخُوذٌ من فعل: «طَغَىٰ يَطْغَىٰ طَغْياً» و«طَغَا يَطْغُو طُغْيَاناً».

والطَّغْوَىٰ: اسْمٌ للمعنىٰ دون مُلَاحظة الحدَث.

ومادّة هذا الفعل ومشتقّاته تَدُورُ دلالتَهُ حَوْلَ مَعْنَىٰ مُجَاوَزَةِ الحدّ والقَدْرِ إلَىٰ مَا هُو شَرٌّ أو ضُرٌّ.

يُقالُ لغة: طَغَىٰ البَحْرُ، إذا ارْتفَعَ وعَلاَ عَلَىٰ مَا حَوْلَهُ وأغْرَقَهُ. وطَغَىٰ العَاصِي، إذَا تجاوز الحُدُودَ المعروفة لأمثاله من الناس، ففجَرَ وغَلاَ في العدوان والظُّلم والكُفر. وطَغَىٰ السُّلطان الظالم، إذَا عَمَّ جَبَرُوتُهُ وظُلْمُهُ الجميع.

﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾: أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أيّاً كُنتَ، الحدَثَ التاريخي الذي كانَ حينَ انْبَعَثَ أَشْقَىٰ ثَمود.

﴿انبَعَثَ﴾: أي: اندَفعَ ثَائراً فاجراً مُهْتاجاً، مُنْطَلِقاً بإسراعٍ وانفعالٍ غضبي.

ويَحْمِلُ فعل «انْبَعَثَ» أيضاً معنى الاستجابة والمطاوعَة، لمَنْ بَعَثَهُ وحَرَّضَهُ على ارتكاب جريمة عَقْرِ الناقة، الّتي جعلَها اللَّه آيةً منْهُ لرسوله صالحٍ عليه السَّلَام، دالَّةً على صِدْقِ رسالتِهِ.

ومع مطاوعته فقد كانت لَهُ رغبةٌ في الانبعاث، بدليل وَصْفِهِ بأنَّه أَشْقَىٰ قبيلة ثمود.

﴿أشقاها﴾: هو أشقى هذه القبيلة، قيل: هو قَدارُ بْنُ سَالف.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ: نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾: أي: قال لهم نبيُّ اللَّه صالح الذي بَعَثَه اللَّه لهم رسولاً عليه السلام.

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وسُقْياها﴾: أي: احْذَرُوا أَنْ تَمَسُّوا نَاقَةَ اللَّهِ الَّتِي أخرجَها اللَّهُ لَكُمْ من صَخْرَةٍ في الجَبَلِ كما طَلَبْتُمْ بسُوءٍ، واحْذَرُوا أنْ تَمَسُّوا سُقْيَاهَا بسُوءٍ، أي: يَوْمَ شُرْبها المخصَّصِ لها، واحْذَرُوا شُرْبَهَا أنْ تَمَسُّوهُ بسُوء.

«نَاقَة» مَنْصَوبَةٌ على التَّحْذِيرِ بفِعْلٍ مُضْمَرٍ وجوباً، تَقْدِيرُهُ: احْذَرُوا، ووجب إضمار فعل التحذير، لأنَّ المحذَّرَ مِنْهُ قَدْ عُطِفَ عليه، فجاء في الآية: **﴿وَسُقْيَـٰهَا﴾**.

﴿وَسُقْيَاهَا﴾: أي: وَشُرْبَها، فالسُّقْيَا اسْمٌ للشُّرْب.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: كَذَّبُوهُ في تَحْذِيره لهم، من التعرُّض لناقةِ اللَّهِ بسُوءٍ، وكذّبوه في كلّ رسالته.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: **العَقْرُ**: قَطْعُ أَحَدِ قَوَائِمِ البعيرِ ونحوه، للتمكُّنِ من نَحْرِهِ. والمعنَىٰ: فَعَقَرُوهَا، حتَّىٰ إذا سَقَطَتْ نَحَرُوهَا.

نُسِبَ الفعلُ إلى كَفَرَةِ قبيلة ثمود كُلِّهم، لأنّهم مُدَبّرون، أو موافقون رَاضُون، مع أنّ الّذي تولّىٰ مُباشَرة عقرِ ناقة اللّهِ بَعْضُهم.

وأضيفت الناقة إلى لفظ الجلالَة «اللّه» لأنّها قد كانت آيَةً من آياته الَّتي آتاها رسُولَهُ صالحاً عليه السلام، والكَلاَمُ على معنىٰ: احْذَرُوا آيَةَ اللّهِ أَنْ تَمَسُّوها بسُوءٍ.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾: أي: غَضِبَ عليهم، فأَنْزَلَ بهم ما عذّبهم به حتىٰ أهلكهم جميعاً، ودفنهم، وردَم الأرض فوقهم، حتىٰ لم يَبْقَ لأجسادهم أثَرٌ ظاهر.

يُقالُ لغةً: دَمْدَمَ عليهم، أي: غَضِبَ عليهم. وَدَمْدَمَ عليهم، إذا طَحَنَهم وأهلكهم مستأصِلاً. وأطْبَقَ عليهم بوسائل التعذيب والإهلاك. ويقال: دَمْدَمَ عليه القَبْرَ ونَحْوه، أي: أَطْبَقَهُ عليه حتَّى سَوَّاه بسائر الأرض، وكُلُّ هٰذِهِ المعاني تنطَبق على ما أنزل اللّهُ عزَّ وجلَّ بثمود.

﴿فسَوَّاهَا﴾: أي: فَسَوَّىٰ ما دَمْدَمَهُ من الأرض فَوْقَهُمْ، فدَفنهم فيها، وسَوَّىٰ الأَرْضَ عليهم، فصارتْ دِيَارُهُم خلاءً.

﴿ولاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: أي، والحَالُ لاَ يَخَافُ تَبِعَةَ تَسْوِيَةِ الأرض فوقهم، بما أَنْزَلَ من إهْلاكٍ شامل، لأَنَّهُ حَقَّقَ فيهم عَدْلَهُ جَلَّ جلالُه.

العُقْبَى: مَصْدَرٌ كالعاقبة، وعاقبةُ الشَّيْءِ ما يَعْقُبُ آخِرَهُ من نتائج أو تَبِعَات.

هذا موجز قصة إهلاك ثمود، مع بيان سبب إهلاكهم بإيجاز أيضاً،

ثُمَّ جاءَت تفصيلاتٌ من قصّتهم في عدَّةِ سُورٍ استَدْعَتْهَا المناسباتُ التوجيهيَّة الداعية للاعتبار، مع التذكير السَّرِيع بإهلاكهم وإهلاك أمثالهم كلّما دعَتِ المناسبة التربويّة ذلك.

وعَسَىٰ أن يفتح اللَّه عليَّ بجمع كُلّ ما يتعلّق بهم وبرسولهم من كلّ القرآن، مع تَدَبُّرِهِ تدبُّراً تكامليّاً.

نظرة عامَّةٌ إلى ما اشتمل عليه الدرسُ الثاني من درسَي السُّورَة:

كذَّبَتْ قبيلةُ ثمودَ رسولَ رَبّها بسبب طغيانها في تكذيبه، وفي سائر مكْتسباتهم الإراديَّة، واستمرَّ أمْرُهَا على هذه الحالة من الطغيان، حتىٰ الوقت الَّذي انْبَعَثَ فيه أشقاها، عاقِرُ ناقة اللَّه، مُنْدَفِعاً ثائراً مُسْرِعاً بانفعالٍ وغضب، ومستجيباً لتحريض قومه له على قتلها والتخلُّص منها.

فقال لهم رَسُولُ اللَّه صالحٌ عليه السّلام: احْذَرُوا أَمْرَين كُلٌّ مِنهما يجلُبُ عليكم عقاب اللَّه المهلك لكم:

الأمر الأول: أنْ تمسُّوا بسُوءٍ ناقَةَ اللَّه الَّتي أخْرَجَها لكم آيَةً على صِدْقِ ما أبلّغكُمْ إيّاهُ عَنْ رَبّي، من الصَّخْرَةِ كما طلَبْتُم.

الأمرُ الثَّاني: أن تمسُّوا بسُوءٍ قِسْمَتَها من سُقْيَا الماء، فَهٰذِهِ القسمة قد كانت من الشروط الَّتي اشْتُرِطَتْ عليكم، لاستجابة اللَّه لكم، لمَّا طلبتُمْ هٰذه الآية على وَجْهِ التعيين.

وشدَّدَ رَسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام في تَحْذِيرِهِمْ، وإنذارِهِمْ بعقابِ اللَّهِ المستأصِلِ إذا مسُّوها بسُوءٍ.

فكذَّبُوهُ، وتَحدَّوْهُ، واتفقوا على عَقْرِ الناقةِ ونَحْرِها، والخلاص من مُقاسمتها لهم ماءَهُم، فبَعَثُوا أشْقَاهُمْ وطائفةً مَعَهُ، فعَقَرُوا الناقةَ ونَحرُوهَا.

فغَضِبَ اللّٰهُ عليهم، وأنْزَلَ بهم عذابه، وأهلكهم جميعاً، ودفَنَ أجْسَادَهُمْ في أرْضهم، ورَدَمَ الأَرْضَ فوقَهُمْ، فجَعَلَهَا أرضاً مستوية، ولم يُبْقِ من كُفَّارِهِمْ على سطح الأرض أحداً.

وهَلْ يخافُ الرَّبُّ الخالقُ العَدْل الحكيم، ذو السلطان العظيم على كلّ شيء، عاقبةَ مَلَامٍ أو تَثْرِيب، إذا عاقَبَ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ بإهْلَاكِهِمْ، والتَّدْمِير عليهم.

إنَّه سُبْحَانَه العليم الحكيم العَدْل، فلا مُعَقِّبَ على حكمه وقضائه في خلقه، ولا سُلْطَانَ فَوْقَ سلطانه، ولا سلطانَ مع سلطانه، ومن صفاته سبحانه، أنَّه يجازي بالعَدْل، ويُثيب بالفضل، ولا يظلم أحداً. فَمَا أَحَدٌ يَجِدُ حُجَّةً على رَبّه بأنّه كان مظلوماً في حكم اللّٰه عليه، أَوْ في جزاءٍ جازَاهُ به، أو معاقبةٍ عاقَبَهُ بها. فهو تبارك وتعالىٰ لاَ يخافُ عُقْبَىٰ إهلاكٍ أَنْزَلَهُ بخَلْقٍ من خلقه، ولا يَخَافُ نِسْبَةَ الظُّلْم إليه وقَدْ حرَّمه سُبْحَانه على نفسه، لأَنَّهُ لا يَظْلِمُ أَحداً مثقال ذَرَّة.

مُوجَزُ ما جاء في القرآن عَنْ ثمودَ ورسولهم:

أمّا موجَزُ ما جاء في القرآن مُفَرَّقاً عن ثمود ورسولهم صالحِ عليه السّلام، ففيما يلي:

(١) أنّ ثموداً كانوا قوماً عَرَباً يسكُنُون الحِجْر، والحِجْرُ أَرْضٌ معروفة من أَرْضِ العرب، وهي ما يُعْرَفُ بمدائن صالح.

(٢) أنّ ثَموداً ظَهَرُوا في جزيرة العرب بَعْدَ عادٍ، فكانوا في القوّةِ والظهور والبُنْيَان الحضاري بمثابَةِ الخلفاء لعادٍ، وأنَّ اللّٰهَ عزَّ وجلَّ قَدْ مَكَّنَ لهم في الأرض فاستَعْمَرُوهَا، فكانوا يَبْنُونَ في سُهُولِهَا قُصُوراً من الحجارة والصُّخُورِ الّتي يَجُوبُونَها بالوادي. وكانوا يَنْحِتُونَ في الجبال بيوتاً فارهين

ومُحَصِّنِينَ فيها أَنْفُسَهُمْ. وكانَتْ لهم جنَّاتٌ وعيُونٌ وزُرُوعٌ ونخيل ذَواتُ ثَمَرٍ كثير متداخِلٍ ببَعْضِهِ.

(٣) أَنَّهُم كانُوا قوماً كافرين مشركين يعبُدُونَ من الأوثانِ ما كانَ يَعْبُدُ قبلهم آباؤهم، وَكان فيهم مُفْسِدُونَ في الأرضِ كثيرون، ولا يَجِدُونَ من سائر قَوْمهم من يَرْدَعُهُمْ عن الفَسَادِ والإفْسَاد.

(٤) أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ أرسَلَ إليهم رسولاً من سُلاَلاَتهم، كان قبل نبوّته وإرساله رسولاً رجُلاً صالحاً فيهم، ذا خُلُقٍ رفيع، ورأْيٍ حَصِيفٍ، وكانَ فيهم مَرْجُوّاً لكلِّ خَيْرٍ، هُو أَخُوهم صالحٌ عليه السَّلام، فوعظهم ونَصَحَهُم، ودَعاهُمْ إلى التوبةِ والاستغفار، وأبان لهم حقَّ خالقهم في وحدانيّته في رُبُوبيَّتِهِ، ووحدانيته في إلهِيَّتِهِ، ودَعاهم إلى نَبْذِ ما هم فيه من شرك ووثنيّات، ودَعاهم إلى الاستقامة على صراط اللَّه، ونهاهُمْ عن أن يعيشُوا في الأرْضِ مُفْسِدين.

فآمَنَ به فريقٌ من مستضعفي قَوْمه، وكذَّبَهُ ملَؤُهم المستَكْبِرُونَ في الأرْض، ومَعَهُمْ الأكثرون من قومه.

(٥) أنّه قامَ بينَهُ وبَيْنَ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ مُنَاظرَاتٌ وجَدَليَّاتٌ حَوْلَ دَعْوته وعناصرها، وحَوْلَ تكذيبهم لَهُ ورَفضهم دَعْوَته.

وقال لهم: اعْبُدوا اللَّهَ ما لكم من إله غيره.

وقال لهم: اللَّهُ هُوَ الّذي أنشأكم من الأرض واسْتَعْمَرَكُمْ فيها.

وقال لهم: استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيب.

وقال لهم: ألاَ تَتقون، إنّي لَكُمْ رسولٌ أمين، فاتَّقُوا اللَّهَ وأطيعون، ولا تطيعوا أمْرَ المُسْرفين، الّذين يُفْسِدُونَ في الأرض ولاَ يُصْلِحُون.

وقال لهم: ومَا أسْألُكُمْ عليه من أجْرٍ، إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العالمين.

وقال لهم: اذْكُرُوا إذْ جعلكم ربُّكم خلفاء من بَعْدِ عادٍ، وبَوَّأَكُمْ في الأرض، تتخِذُونَ من سُهُولِهَا قُصوراً، وتَنْحِتُونَ الجبالَ بيوتاً، فاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ، ولاَ تَعْثَوْا في الأرض مفسدين.

وقال لهم: أَتُتْرَكُونَ في مَا هٰهُنَا آمِنِينَ، في جنَّاتٍ وعُيُونٍ، وزُرُوعٍ ونَخْلٍ طَلْعُها هضيم، وتنحتُون مِنَ الجبال بيوتاً فارهين؟

طَلْعُهَا هضيم: أي: ثمرها ناعم لطيفٌ ليِّنٌ مَريء.

إلى غير ذلك من مقالات.

قال الذين استَكْبَرُوا مِنْ قومه لمَنْ آمَنَ من المستضعفين منهم: أتعلمون أنّ صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّه؟! بغية أن يفتنوهم عن دينهم.

قالوا: إنَّا بما أُرْسِلَ به مؤمنون.

قال الذين استكبَروا: إنّا بالذّي آمَنْتُمْ به كافرون.

وقالوا لرسولهم: يا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا، أَتَنْهَانَا أن نَعْبُدَ ما كان يَعْبُدُ آباؤنا، وإنّا لَفِي شكٍّ مما تدعونا إليه مُرِيب؟!

وقالوا له: إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِين، ما أنت إِلاَّ بَشَرٌ مثلنا.

وقالوا له: اطَّيَّرْنَا بِكَ وبِمَنْ مَعَكَ.

قال لهم: طائركُمْ عِنْدَ اللَّهِ، بل أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ، أي: تُمْتَحَنُون.

وقالوا فيما بينهم: أبشراً منّا واحداً نتّبِعُه؟! إنّا إِذاً لَفِي ضلالٍ وسُعُرٍ (أي: وجُنون) أَأُلْقِي عَلَيْهِ الذِّكْرُ من بَيْنِنَا؟! بل هو كذَّابٌ أشِرٌ (أي: مستكبر).

(٦) وطلبوا منه آيَةَ النَّاقة يُخْرِجُهَا لهم من صخرة، فاستجاب اللَّه

لطَلَبِهم، بشَرْط أنْ لاَ يَمَسُّوها بسُوء، وأن يكون لها من مائهم شِرْبٌ لاَ يُشَارِكُونَها فيه، فالماء قسمةٌ بينَهُمْ وبينها.

(٧) فضاقوا بالناقة ذَرْعاً، ودَبَّرُوا أمْرَ عَقْرِهَا ونَحْرِها، فعقَروها وتخلّصُوا منها.

وبَيَّتَ تِسْعَةُ رَهْطٍ من المفسدين في الأرض مِنْهُم قَتْلَ رسُولِهم صالح عليه السّلام وأهْلِه، وكان صالح قد حَذَّرَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ عقابَ اللَّهِ إذا عقروا الناقة أو مَسُّوها بسوء.

فلمَّا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا، وبيَّتُوا ما بيّتوا ضدّ رَسُولهم وأهله، أرسل اللَّه عليهم صَيْحةً واحدة، رافقتها صاعقَةُ العذاب الهون، وكان ذلك عند الصّباح، ورافَقَ ذلك رجفَةٌ في الأرض أخذتْهُمْ، فأصبحوا في ديارِهِمْ هَلْكَىٰ جاثِمين نادِمين.

وما أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كانوا يَكْسِبُون من قُوىً وتحصينات، ودفنهم اللَّهُ في أَرْضِهِمْ، وسَوىٰ عليهم الأرض.

(٨) وأنجَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ بحكمته ورَحْمَتِهِ وألْطَافِهِ صالحاً عليهِ السَّلاَمُ ومَنْ آمَنَ معه.

وتولّىٰ صالح ومن معه عن أَرْضِهِمْ قائلاً: يَا قَوْمُ لَقَدْ أبلغتكم رِسالَةَ رَبِّي ونَصَحْتُ لكُمْ، ولٰكِنْ لاَ تُحِبُّونَ الناصحينَ.

وانتهىٰ بعون اللَّه وفتحه وتوفيقه

تدَبُّرُ سورة الشمس، والحمد للَّه على مِنَّتِهِ الجليلة

* * *

ملاحق لتدبّر سورة الشمس

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيّة مما اشتملت عليه السورة من بلاغيات

الملحق الثاني: حول الشمس والقمر والأرض والنهار والليل في القرآن

* * *

(٦)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغيّة ممّا اشتملت عليه السورة من بلاغيات

(١) التأكيد الرَّبَّانيُّ بالقسم بظواهر كونيّة هي من بدائع وعجائب صُنْع الرَّبّ جلّ جلالُه، ومن آثار علمه وحكمته، على قضيّة الجزاء يوم الدّين، الذي هو من مقتضيات حكمته الظاهرة في كلّ ما خَلَقَ وبَرَأَ، بَعْدَ أَنْ وضع الناس في الحياة الدنيا موضع الامتحان والتكليف.

(٢) الانسجام في كلمات السورة وآياتها، وهو من المحسنات البديعية اللّفظية، وهو أن يكون الكلام في مفرداته وجُمَلِه منساباً انْسِيابَ الماء في مجاريه السَّهْلَة، مُتَّحَدّراً ليّناً، بسبب التلاؤم بين كلماته وجُمَلِهِ، وعذوبة ألفاظه، وجمال تَمَوُّجَات فقراته، وخلوّه من التعقيد والتنافر، وخلُوِّه من كلّ ما يَنِدُّ عن النطق، أو يَنْفِرُ منه السّمع.

(٣) من المحسنات البديعيَّة في السورة ما يُسمَّىٰ «مراعاة النظير»، فبيَّن الشمس وضُحاها، والقمر إذا تلاها، واللّيل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، تناسبٌ وائتلاَف، رُوعي فيه ضَمُّ النظائر إلى النظائر.

(٤) من المحسنات البديعيّة اللفظية في السّورة السَّجْع المحبّب الذي لا تكلُّفَ فيه.

(٥) بناء آيات السورة جارٍ على ما يُعْجِب فُصَحاء العرب إبَّان التنزيل، إذْ هو قائم على الجمل القصيرة السَّهْلَة الجميلة، والسَّجْعِ غير المتكلَّف.

(٦) الكناية عن دخول الجنّة يوم الدين بذكر لازمٍ من لوازمهِ وهو الفلاح، والكناية عن دخول دار العذاب يوم الدين بذكر لازم من لوازمه وهي الخيبة.

واستخدام الكنايات من اتّخاذ الأسلوب غير المباشر في التعبير عن المراد، وهو ذو أَثَرٍ عميقٍ في كثير من النفوس، ولا سيما النفوس الذكيَّة الذَّوَّاقة للأدَب، الّتي لاَ تَمِيلُ إلى التعبيرات المباشرات.

(٧)

الملحق الثاني

حول الشمس والقمر والأرض والنهار واللّيل في القرآن

جاء في القرآن المجيد بيانات متعدّدات تتعلّق بالشمس والقمر والأرض والنَّهار واللّيل، ومن المفيد استعراضُها بحسب ترتيب نزولها، مقرونَةً بنظراتٍ تدبُّريّة.

النصّ الأول:

ما جاء في صدر سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/٢٦ نزول) وقَدْ سَبَقَ تدبُّره في الدَّرس الأول من دَرْسَي السّورة.

النَّصُّ الثاني:

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ

عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

فجَاء في هٰذه الآية ما يلي:

(١) بيانُ أنَّ اللَّهَ رَبَّنَا عزَّ وجلَّ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوات والأرض في سِتَّةِ أيَّام، أي: في سِتَّةِ أحقابٍ زمَنِيَّة.

(٢) بيان أنَّ اللَّه هو الّذي يجْعَلُ النَّهارَ بسبب إشراق الشمس وامتداد ضيائها يَغْشَىٰ اللَّيْلَ، فيسْترُهُ، لأنَّ الظلام هو الأصل في الأكْوان الَّتي خَلَقَها اللَّه جلَّ جلالُه، والضياءُ الذي يُسَلَّط عليها بتقدير اللَّهِ وتراتيب أنظمته هو الذي يَسْتُرُ الظلام، ويَكْشِفُ الأجسام، فتراها عُيُون المخلوقات على مقادير استطاعاتها.

(٣) بيان أنَّ النهارَ هو الذي يُتَابِعُ اللَّيْلَ طالباً له مُسْرِعاً جادّاً في أمْرِه، لا يكلُّ ولا يَمَلُّ ولا يَتوانى.

وهذا البيان يشير إلى دوران الأرض حول نَفْسِهَا باتجاه الشَّمس دون توقُّفٍ ولا انقطاع، وبسبب ذلك يظهر أنَّ ضياء الشمس المُسَلَّطَ على الأرض يُلاحِقُ اللَّيْلَ دَواماً، فيكونُ عليه كالغشاء السَّاتِر.

(٤) بيانُ أنَّ اللَّه رَبَّنَا عزّ وجلّ هو الذي خَلَقَ الشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ كُلَّها مُسَخَّرَاتٍ بأمْرِهِ لمصالح ومنافع عباده، فَهِيَ من نِعَمِ اللَّهِ عليهم.

النَّصُّ الثالث:

قولُ اللَّه عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

فجاء في هٰذِهِ الآيات الأربع ما يلي:

(١) بيان أنَّ النَّهار بمثابة الجِلْدِ السَّاتِرِ فَوْقَ اللّيْل، وأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بنظامه المتْقَنِ البديع في كونه، يجعل النهار مِنْ جِهَةِ ظهور اللّيل شيئاً فشيئاً، بمثابة الجِلْدِ الذي يَنْسَلِخُ عمَّا تحته شيئاً فشيئاً.

وهذا المعنى يُطابق ما جاء في سُورَةِ (الأعراف) من كون النهار هو الذي يَغْشَى اللّيْلَ فيَسْتُرُه، وأنَّ الأرضَ مُظْلِمَةٌ لَوْلاَ الضياء الذي يُسَلَّطُ عليها.

لكنَّ مَا جاء في سُورَة (الأعراف) تناول بالبيان جانِبَ شُرُوقِ الشَّمْسِ الَّذِي يَغْشَىٰ اللّيلَ فَيَسْتُرُه.

أمّا ما جاء في سورة (يس) فقد تناولَ بالبيان جانِبَ غُروب الشمس الذي يُشْبِهِ انسلاخ الجِلْدِ عمَّا تحته، والذي تحت أشعَّةِ الشمس في المشبَّهِ هُو اللّيل.

فتكامل النَّصَان في الدَّلالة على المعنى المراد، مع استعمال التعبير الأدبيّ الرفيع القائم على الاستعارة.

(٢) بيانُ أنَّ الشَّمْسَ تجري لبلوغ مستقرٌ لها، بتقدير العزيز العليم.

وقد أثبتت الدراسات العلميّة الإنسانيّة أنَّ الشمس مع مجموعتها تجري داخل المجرّة، مع أنَّ كُلَّ واحِدٍ من المجموعة الشمسيَّة له جَرَيَانُه الخاصُّ به، سابحاً في فَلَكِهِ المقدَّرِ له.

(٣) بيان أنّ اللّه عزّ وجلّ جعل للقمر منازل تظهر فيها لسكّان الأرض أهّلته تزايداً وتناقصاً حتى يعود إلى مثل الحالَةِ التي بَدَأ بها، هلالاً صغيراً جداً، كعود يابس متقوّس.

(٤) بيان أنَّ النظام الدقيق الّذي حدَّدَ به اللَّهُ مِقْدارَ كلٍّ من الشمس

والقمر، ومِقدارَ بُعْدِ كلٍّ منهما عن الآخر، ومقدار الجاذبيات، جعَلَ الشَّمْسَ على الرُّغم من عِظَمِها بالنسبة إلى القمر، وعلى الرُّغم من قُوَّةِ جاذبيَّتِها، غَيْرَ مُهَيَّأةٍ لاجتذاب القمر إليها، وإدْرَاكه وابتلاعه، لأنّ التنظيم العامّ مقدَّرٌ تقديراً غايةً في الإتقان.

(٥) بيان أنَّ اللَّيْلَ لاَ يَسْبِقُ النهار، لأنَّ النَّهَار هُو الّذِي يُتابع اللَّيْلَ فيغشّيه بضيائه من جهة الشّروق، وهو الّذي يَنْسَلِخُ عنه من جهة الغروب، وفي هذا إشارة إلى انضباط حركة دوران الأرض حول نفسها، وهذا من كمال الإتقان، وإحكام التدبير.

(٦) بيانُ أنَّ الشَّمْسَ والقَمر والأرضَ الّتي يظهر على سطحها اللّيْلُ والنَّهار، ذَوَاتُ أفْلاَك، وكُلٌّ مِنها سابحٌ في فَلَكِهِ المحدَّدِ له، في الفضاء المؤهَّل لسَبْحِ الأجرام الكونيَّة فيه، وإنْ لم يكن هذا الفضاء فراغاً تامّاً، فالطيرُ يسبح في الهواء، والسَّمَكُ يسبح في الماء، والكواكب والنجوم تَسْبَحُ في الفضَاء الملائم لِسَبْحِهَا.

النَّصُّ الرابع:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

وقول اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

فجاء في هذه الآيات من سورة (الفرقان) ما يلي:

(١) بيان ظاهرة الظّلّ الذي يكون بسبب حاجب يحجُبُ ضياء الشمس

عن المكان الذي يَظْهَرُ فيه الظلّ، وكيف يمتدُّ شيئاً فشيئاً بسبب حركة دوران الأرض حول نفسها باتّجاه الشمس، وكذلك كيف يتقلّص شيئاً فشيئاً بهذا السبب نفسه.

وهذه الظاهرة من نعم اللّٰه على عباده سُكّان الأرض، ولو شاء اللّٰه لجعل الظّلّ ساكناً غير متحرّك، بنظام آخر غير النظام الذي تتمّ به حركة امتداد الظلّ وتقلُّصِه برِفق.

(٢) بيان ظاهرة «البروج» في السَّمَاء، وهي منازلُ الكواكب والنُّجوم السَّيَّارة.

(٣) بيانُ أنَّ الشمس جرْمٌ نارِيٌّ مُلْتَهِبٌ، إذْ جَعَلَها اللّٰهُ سِرَاجاً، أي: كالسِّراج، ومن شأن السِّراج أنْ يكونَ نارِيّاً يَنْشُرُ ضِياءً.

وبيانُ أنَّ القَمَرَ جِسْمٌ مُنِيرٌ، وهذا يدلّ على أنَّهُ كالمِرْآة الّتي تَعْكِسُ نور الضياء الذي يُسَلَّطُ عليها، وهو ما أثبتَتْهُ الدراسات العلميّة الإنسانيّة القطعيَّة.

(٤) بيان نعمة اللّٰه على عباده بتعَاقُب اللَّيْلِ والنَّهار، وهذا يَدُلُّ على حركة دوران الأرْض حول نفسها باتّجاه الشمس دورةً كامِلَةً كُلَّ يَوْمٍ.

وجاء التعبير عن هذا التعاقب بكلمة: «خِلْفَة»، أي: يَخْلُفُ كُلٌّ منهما الآخر.

النَّصّ الخامس:

قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (فاطر) ما يلي:

(١) تصوير تعاقُب اللَّيل والنَّهار بصُورَةِ إدْخال اللّيل في النهار عند

حركات شروق الشمس في المشارق، فكأنَّ النَّهار يَبْتَلِع اللّيل، وبصُورَةِ إدْخَالِ النهار في اللّيل عند حركات غروب الشمس في المغارب، فكأنَّ اللَّيْلَ يَبْتَلِع النهار، وهكذا دواليك بالتتابع. وهذا تشبيهٌ للظاهرة التي يَراها الرائي حين يكون في الجوّ داخل طائرة تدور في السّماء.

وقد يدُلُّ إيلاج اللّيل في النهار وإيلاجُ النهار في اللّيل على ما يحدُث من قصر اللّيل وطول النهار أحيانا، وما يحدُث من قِصَرِ النهار وطول اللّيل أحياناً، فكان الذي قصُر منهما يلج في الّذي طال منهما.

(٢) بيان تسخير اللَّهِ جريانَ السَّمْسِ والقمر لمصالح العباد في الأرض، لأجَلِ مَعْلُومِ ومُسَمّى لدَيْهِ، فالتَّسْمِيَةُ إنّما تكونُ بعد العلم بالأجل، وكلُّ مَعْلُومِ ومُسَمًّى عند اللَّه مكتوبٌ في اللَّوْح المحفوظ.

التسمية للأجل وصف تحديديّ لوقته.

النَّصّ السادس:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾.

فجاء في هاتين الآيتَيْن من سُورة (يونس) ما يلي:

(١) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ جعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً، أي: كُتْلَةً نارِيَّةً تَنْشُرُ الضِّيَاء، والضّياءُ أشِعَّةٌ حارَّة.

وجَعَلَ القَمَرَ نُوراً، أيْ: ناشِراً لنُورِ بارِدٍ لاَ حَرارَةَ فيه.

وجاء التَّفْسِيرُ العلمِيُّ الإنسانِيُّ لهذا بأنَّ القَمَرَ عاكِسٌ لأشعّةِ الشَّمْسِ المُسَلَّطَةِ عليه، فهو لهذا يُعْطِي نوراً بارداً.

(٢) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدَّرَ القَمَرَ فجَعَلَ حركَتَهُ تتنَقَّل في منازِل يظهر فيها أهِلَّةً تتنامَىٰ في النِّصْفِ الأوَّل من الشهر، وتتناقص في النّصف الثاني من الشهر، ليعْلَمَ النَّاسُ عددَ السِّنين، وحِسَابَ الأَيَّامِ والشّهور القمرية وما يرتبط بها من أحوال الأرض والنَّاس الدينيَّة والدنيوية.

(٣) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ جعَلَ اللَّيْلَ والنّهار يَخْتَلِفانِ طُولاً وقصراً، وهذا تابع لآية من آيات اللَّه في حركة الأرض ومَيْلِها باتّجاه الشمس.

النّص السابع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (الأنعام) ما يلي:

(١) بيان حكمةٍ من حِكَمِ إيجاد نظام اللّيل في الأرض، وهي أن يكون سكَناً للناس، أي: يَسْكُنُونَ فيه، ويَطْمَئِنُّونَ، ويرتاحُون من عناءِ العمل والكدّ في النهار، وقد جعل اللَّه عزّ وجلّ اللَّيْلَ بخصائصه مُهَيَّأً لإمداد الأجسادِ بالرَّاحة النفسيّة والسكون.

(٢) بيان أنّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ جعل الشمس والقمر حُسْباناً، أي مُقَدَّرَين في كُتْلَتَيْهما وحَرَكَتَيْهما تَقْدِيراً غايةً في الدِّقَّة والإتقان، ليؤدِّيَا وظائفهما في الكون على أحسن وجهٍ، وهذا التقدير المتْقَنُ الدَّقيق من الأدلّة الجليلة على الرَّبّ وعظيم صفاته وأسمائه الحسنَىٰ.

حُسْباناً: مَصْدَرُ حسَبَ، يقال: حَسَبَ يحسُب حِساباً وحُسْباناً.
والحُسْبَانُ: العدُّ، والتدبير الدَّقيق.

النصّ الثامن:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (الزمر) ما يلي:

(١) بيانُ أنَّ اللَّه عزّ وجلّ خَلَق السَّمَاواتِ والأرض بالحقّ، أي: بالأمْرِ الثابت الهادف لغاية جليلة، ولم يخلُقْهُمَا باطلاً ولا عبثاً.

(٢) تصويرُ تَتَابُع اللَّيْل والنّهارِ بصُورَةِ تَكْوِيرِ اللَّيْلِ على النهار في المغارب، وبصورة تكوير النهار على الليل في المشارق، وهذا تشبيه آخَرُ للحركتين، غَيْرُ تَشْبِيهِهِما بإيلاج كلٍّ منهما في الآخر، على أحد مَعْنَيَي الإيلاج.

(٣) الامتنان بتسخير الشَّمْس والقَمَر للعباد، وجَعْلِ كلٍّ مِنْهُما يَجْرِي لأجَلِ معلومٍ مُسَمّىً.

وحسَّنَ تكريرَ هٰذِهِ الفكرة إذْ سَبَقَ بيانُها في سُورَةِ (فاطر) أنَّ الأمْرَ فيه امتنان من اللَّهِ على عباده، ليكون دافعاً لأهْلِ الرّشْدِ منهم ومُحَرِّضاً على الإيمانِ به، وحَمْدِهِ، وشُكْرِهِ، جلَّ جَلاَلَهُ.

النّصّ التاسع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾.

جاء في هذه الآيَة من سورة (فصّلت) ما يلي:

إضافةُ بيانِ أنَّ من الآياتِ الكونيّة الدَّالأَتِ على الرَّبّ الخالِق وصفاتِهِ تَدْبيراتِهِ الظاهرات في اللَّيْل والنّهارِ، وأنّ مِنْ آياتِهِ الشَّمْسَ والقَمَر، وقَدْ جاء هذا البيان مفتاحاً للدخول إلى النَّهْي عن السجودِ للشَّمس والقمر، الذي يَفْعَلُهُ بعض المشركين في الأرض، من الّذين يجعلُون مع اللّهِ آلهةً من الأجرام السماوية. وإلى الأمر بالسُّجُودِ للّهِ وحْدَهُ الَّذي خَلَق هذه الآيات الكونيّة.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: أي: إنْ كنتم لا تَعْبُدون غَيْرَه.

النّصّ العاشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سُورَة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فجاء في هذه الآية من سورة (النحل) إضافَةُ خِطَاب النَّاس، مع التصريح بمنَّةِ اللّه عليهم بتسخير اللّيل والنهار، والشَّمْسِ والقَمَر، لِحَثّهم على الإيمان باللّهِ وحَمْدِه وشكره، تبارك وتعالىٰ.

وحَسَّنَ تَكْرِيرَ مِنَّةِ التسخير للناس أنّه بمثابة العلاج الدَّوائي الذي يَحْسُنُ فيه التكرير.

النصّ الحادي عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (نوح/٧١ مصحف/ ٧١ نزول) بياناً لما قالَهُ نوحٌ عليه السَّلَام لقومه:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

فَدَلَّ هٰذا على أنَّ بيانات نُوح عليه السلام لقومه حول آيات اللَّهِ في كَوْنِهِ مِثْلُ البيانات الواردات في القرآن، فقد سَبَقَ بيان كون القمر نوراً وبيان كون الشمس سِرَاجاً، فيما نَزَلَ قَبْلُ في نجوم التنزيل.

النصّ الثاني عشر:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) خطاباً للنَّاس:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾.

فأضافت هٰذه الآية بَيَان كَوْن الشمس والقمر مسخَّرَيْن للناس دائبَيْن لا يتوقَّفُ عملهما، وكذلك اللّيل والنهار.

الدائب: هو الذي يكرّر وظيفته دواماً دونَ انقطاع.

والتصريح بهذه الجزئية هو من التفصيل البياني في القرآن.

النصّ الثالث عشر:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فأضافت هذه الآية بيان أنّ اللّيل والنهار، أي: وما يُسَبِّبهما وهو دوران الأرض حول نفسها باتجاه الشمس، وأنّ الشَّمْسَ والقَمَرَ، كُلُّ أولئِكَ مِنْ خَلْقِ اللّه إبْداعاً وتقديراً، وكذلِكَ سَبْحُها في أفْلاكِهَا، وهو تَحَرُّكها المُنْسَابُ في مَدَارَاتها ومَسِيراتِها.

النّصّ الرابع عشر:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) خطاباً لرسُوله فَلِكُلّ دَاعٍ إلى اللَّهِ من أُمَّتِهِ، بشأن المشركين الوثنيين من العرب إبّان التنزيل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فأضافَ في هذا النَّصّ بَيَانَ أنّ مُشرِكي العَرب كانوا يُؤْمِنُونَ بأنّ اللّه هُو خالِقُ السَّمَاوَات والأرض، وهو الذي سَخَّرَ الشمس والقَمَر، وهٰذه بعض خصائص ربُوبيَّةِ اللّهِ الرَّبّ جلّ جلاله، لكنَّهم يَجْعَلُونَ لآلِهَتِهِمْ رُبوبيَّةَ الرِّزْقِ والنَّصْرِ والتَّوْفيق والسَّلاَمَةِ وسائِرِ مَنَافِعِهِمْ في الحياة الدُّنيا، فعَبَدُوهَا من دون اللّه.

النصّ الخامس عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

ففصَّلَ اللّهُ عزّ وجلّ في هذا النَّصّ بيانَ جُمْلَةٍ من آياته في كونه، وأضاف أنَّ السَّماءَ رَفَعَهَا بغير عَمَدٍ مَرْئِيَّة، لأنَّها مرفوعة بأنظمة الجاذبيات التي لا تُرَى. وأضافَ أنه سُبْحَانَهُ يُدبّر أُمورَ كونه دَواماً ويُفَصّلُ آياته، لتكُونَ أدلَّةً مُحَرِّضةً على الإيمان بالبعث ليوم الدّين، بغية تحقيق الحساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء. وأضاف بيان نعمته على عِبَادِه بإمداد الأرض بموادّ أرزاقِ العباد، وأضاف أنَّه جَعَلَ في الأرض جبالاً رَوَاسِيَ مُثَبّتاتٍ لِقِشْرَةِ الأرض، حتى لا تميد بسُكّانها، وجَعَلَ فيها أنهاراً تجري فيها المياهُ الحلْوَة رزقاً للعباد، وأنّه جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلّ الثَّمرات، وهو نظام الزَّوجيَّة في الأحياء وفي الأشياء.

وأخيراً أبانَ أنَّ في كُلِّ ذٰلِكَ آياتٍ دَالاَّتٍ على الخالِقِ وصفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، يستفيدُ من دلاَلاتها الّذين يتفكّرون.

النصّ السادس عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الرحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾.

أي: تَقْدِيرُ جِرْمَيْهِما وحَرَكتيهما بحساب دقيق غايَةٍ في الإبداع والإتقان.

جاء في هذا النصّ تأكيد ما سبَقَ بيانُه في سورة (الأنْعَام) لِمَا في تَقْدِيرِ جِرْمَيِ الشمس والقَمَر وتقدير حَرَكتيهما بحسابٍ غايَةٍ في الدِّقَّة، فَهُمَا لاَ يَخْرُجَانِ عَنْ أنظمتهما المَوْضُوعَة لهما طَوال ملايين السنين، وهذا إنما يُدْرِكُ عظمته ويَدْهَشُ لها علماء الكونيات الرياضيُّون.

النصّ السابع عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ۝١٨﴾.

وقول اللّه عزّ وجلّ فيها في معرض إثبات كمال قدرته وحكمته وعلمه:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١﴾.

فأضافت الآية الثامنة عشرة بَيَانَ أن اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ السَّماواتِ ومَنْ في الأرض من الملائكة سُجوداً إرادياً، مُلَبِّين فيه دواعيَ فطرتهم، وسُجُوداً غَيْرَ إراديّ، وهو خضوعُ ذَواتِهِمْ لِمَا يُجْرِيهِ اللّهُ فيها عَنْ غير طريق إراداتهم، وكذٰلِكَ مَنْ في الأرض من الجنّ والإنسِ، فذواتُهم خاضعةٌ

خضوعاً تامّاً لِمَا يُجْرِيه اللَّهُ فيها بسُلْطانِ الجَبْر، وكذلك سَائِرُ الأكوان: «الشمس والقمر والنجوم والجبال والشّجر والدوابّ» كُلُّهَا ساجدة للَّهِ (أي: خاضعةٌ للّه خُضوعاً تامّاً بسُلْطان الجَبْرِ). أمّا الجانبُ الاختياري الإراديُّ من الناسِ، فكثيرٌ من الناسِ ساجِدُون للَّهِ أيضاً سُجوداً اختيارياً إرادِيّاً، وكثيرُون آخرون غير ساجدين سجوداً اختيارياً لبارئهم، وهؤلاء قد حَقَّ عليهم العذاب، وسَيُهينُهُم اللَّهُ لأنَّهُمُ استكْبَرُوا عن السجود الاختياريّ الإراديّ له، مع سجود سائرهم لَهُ سجوداً جَبْرياً.

السجود: هو كمال الخضوع، ومن تعبيراته لدى ذوي الإرادات وضْعُ الجبهة على الأرض خضوعاً للّه.

واقتضت المناسبة في السورة تكرير الاستشهاد بظاهرة حركة الأرض حول نفسها باتجاه الشمس، وهي الحركة التي يتَسَبَّبُ عنها دَورانُ النهار واللّيل حَوْلَ كُرَةِ الأرْضِ.

وجاء التعبير عن هذه الظاهرة، بعرض صورة المشهد، لمن يُشَاهِد مِنْ جوّ الأرض تَلاحُقَ اللّيلِ والنهارِ، فيتخيَّلُ أنَّ اللَّيْلَ يَلِجُ في النَّهَارِ كما تَبْلَعُ الحيَّة العريضة البيضاء الّتي يستوعب عرض فَمِها عرض الأفق، الحيّةَ العريضة السوداء من جِهَة ذَيْلَها العريض الذي هو على قَدْرِ فَمِ البيضاء، هذا من جهة شروقِ الشمس، أمّا مِنْ جِهَةِ غُروب الشمس فالحَيَّةُ السَّوْدَاءُ هي الّتي تَبْتَلِعُ الحيَّةَ البيضاء ذاتَ الجسم العريض كَعَرْضِ الأُفُق، وتَدُور دَائِرَتُهما وَالِجاً ومَوْلُوجاً به.

وفي هذا تَنْبِيهٌ أدبِيٌّ بَدِيعٌ عَلَىٰ صُورَةِ هذا المشهد العجيبة.

وقد يكونُ المراد بالولوج تناقُصَ زمن اللّيل أحياناً لحساب طول النهار، وتناقص زمن النهار أحياناً لحساب طول اللّيل، والله أعلم.

* * *

سُورَة البُروج

٨٥ مُصْحَف ٢٧ نزول

(١)

نص السورة

سورة البروج وما فيها من فرشيّات القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ
عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا
نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾
ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ

---

١٤ ـ قرأ قالون وأبو عَمْرو والكسائي وأبو جعفر: ﴿وَهْوَ﴾ بإسكان الهاء وقرأ الباقون: ﴿وَهُوَ﴾ بضم الهاء.

ووقف يعقوب بهاء السكت.

١٥ ـ قرأ جمهور القراء العشر: ﴿المَجِيدُ﴾ بالرفع على أنه من صفات اللّه عزّ وجلّ.

ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ .

- وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿المَجِيدِ﴾ بالكَسْر على أنّه صفة للعرش، وبين القراءتين تكامل في بيان المراد.

٢١ ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿قُرْءَان﴾ بإسكان الراء وبالهَمْز.

- وقرأ ابن كثير وفي الوقف حمزة ﴿قُرَان﴾ بفتح الراء وحذف الهمزة.

٢٢ ـ قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ بالجرّ صفة لِلَوْح.

- وقرأ نافع: ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بالضمّ نَعْتاً للقرآن.

(٢)

ممّا رُوي بشأن سورة البروج

(١) روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة:

«أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ في الْعِشَاءِ الآخِرَةِ بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، والسَّمَاءِ والطَّارِق».

(٢) وأخرج الطَّيالِسِيّ، وابْنُ أَبي شيبة في المصنّف، وأحْمَدُ، والدَّارمِيُّ، وأبو داود، والترمذيُّ وحسَّنَه، والنسائي، وابْن حِبَّان، والطَّبَراني، والبيهقيّ في سننه، عن جابر بنِ سَمُرَة:

«أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بالسَّمَاءِ والطَّارق، والسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ».

هٰذان الحديثان يدُلّان على عِنَايَةِ الرسول ﷺ بهاتين السُّورَتَيْنِ، واختيار تِلَاوَتِهما في الصّلاة: «والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ» ـ «والسَّمَاءِ وَالطَّارق».

والتأسّي بالرَّسُول ﷺ في اختيار تلاوتهما دون التزامٍ دَائم، في صلاةِ العشاء الآخرة، وفي صَلاَتَيِ الظُّهْرِ وَالْعَصْر، عمَلٌ صالح.

والحديثان لا يَدُلأن على أنَّ الرَّسُول ﷺ كان يَفْعَلُ ذَلك دواماً، بل يَدُلأنِ على أنَّهُ قَدْ كان يُكَرِّرُ اختيارَهُما للتلاوة في الصلوات المذكورة. وقَدْ جاء في مَرْوِيَّاتٍ أُخْرَىٰ ما يَدُلُّ على أنَّهُ كان يتلو غيرهما في هٰذِهِ الصَّلواتِ، أو يُوصِي بتلاوة غيرهما، وفي هذا دليل على عدم الالتزام دواماً بتلاوتهما في هذه الصلوات.

(٣)

موضوع سورة البروج

موضوع السورة يدور حول معالجة رَبَّانيَّةٍ لِطُغاةِ المشركين، الذين كانوا يفتنون ضعفاء المؤمنين والمؤمنات عن دينهم، بألوان من الاضطهاد والتَّعْذيب، وقد جاءت هذه المعالجة:

(١) بعَرْض مَثَلٍ تاريخيٍّ شَنِيعٍ، مقرونٍ بأبلغ التشنيع على أصحابه، وهو مَثَلُ أصحابِ الأُخْدُودِ، الذين كانوا قَدْ فَتَنُوا مؤمني بلدهم عن الدِّين الحقّ الذي آمنوا به، وَأَكْرَهُوهُم على الكفر به، وإلاَّ أَحْرَقُوهُمْ بالنار التي أوقدوها في الأُخْدُود، إشعاراً بأنّ عَمل طُغاةِ المشركين مُشَابه لما كان قد عَمله أصحابُ الأُخْدُود المَلْعُونُونَ أشَدّ اللَّعْن الذي يفضي بهم إلىٰ العذاب الشَّديد في نار جهنّم، وإلى عذاب الحريق فيها.

(٢) وبوعيدٍ للذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات عن دينهم من طغاة المشركين بالحريق مَتْبُوعٍ بوعْدٍ كريمٍ للَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات.

(٣) وببيانٍ لبعض صفات اللّهِ جلَّ جلاله، ممَّا له علاقَةٌ بقانون الجزاء الرَّبّاني.

(٤) وبتذكير ببعض المهلكين الأوَّلين من كُفَّار القرون السَّابقة.

(٥) وبوصْفِ حالِ كُبَراء المشركين المكذّبين للرسُول، والمكذّبين بالقرآن الذي يَتْلُوهُ عليهم، مُنَزّلاً من لَدُن عزيز حكيم، والذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بالاضطهاد والتعذيب، وببيان أنَّ القرآن الذي يكذّبون به قرآنٌ مَجِيدٌ تَدُلُّ صفاتُ مَجْدِهِ على أنه مُنَزَّلٌ من عند اللَّه، وأنَّهُ في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ عند اللَّه، أي: وهو مُنَزَّلٌ على الرسول محمّد ﷺ كما هُوَ في اللَّوْحِ المحفوظ.

(٤)

دروس سورة البُرُوج

تشتمل سورة البروج على خمس/ دروس:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٩) وهي تتناول قصَّة أصحاب الأُخْدُود بإيجازٍ شديد، مع التشنيع عليهم بأشَدِّ صُوَرِ اللَّعْن، المعبَّرِ عنه بالقتل.

الدرس الثاني: الآيتان (١٠ ـ ١١) وهما تتضمّنان الوعيد المؤكَّد للّذينَ فتنوا المؤمنين والمؤمناتِ ثُمَّ لم يَتُوبوا بعذاب الحريق في جهنّم، مع أنواع أخرى من العذاب والوَعْد المؤكَّد للَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات بجَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأنْهار، يكون لهم فيها نعيم خالد.

الدَّرسُ الثالث: الآيات من (١٢ ـ ١٦) وهي تُبَيِّن طائفةً من المفهومات الاعتقاديَّةِ المتعلّقة باللَّه عزّ وجلّ، ممّا له علاقة بحكمته جلَّ جلاله، في قانون الجزاء الّذي قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقضاهُ، للَّذِين يضَعُهم موضع الامتحان في الحياة الدنيا، وممّا لَهُ علاقة بسلطانه العامّ، فهو: «شديد البطش ـ يُبْدِىء الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ـ غَفُورٌ وَدُودٌ للمؤمنين ـ ذو الْعَرْشِ المجيد ـ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وإرادَتُهُ سُبْحانَه لا تُفَارِقُ حكمته».

الدَّرس الرابع: الآيتان (١٧ ـ ١٨) وفيهما تذكيرٌ بإهْلاَكِ فِرْعَوْنَ ومَلَئه وجنوده، وإهلاك ثمود الذين سَبَقَ الحديث عنهم بإيجازٍ في سورة (الشمس) وفي سورة (الفجر).

وفي هذا التذكير دليلٌ واقعيٌّ على حكمة الجزاء الرَّبَّاني الصادر به قدر وقضاءٌ، وهو موضوعٌ موضع التنفيذ كلَّما اقتضى حال العباد ذلك.

الدَّرسُ الخامس: الآيات من (١٩ ـ ٢٢ آخر السورة) وفيها بيانٌ لواقع حال المكذِّبين بالقرآن، الذين يفْتنُونَ المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بالاضطهاد والتعذيب، مقرون بتهدِيدٍ ووعيدٍ لهم. وفيها بيانٌ بشأن القرآن الذي يكذِّبون به، وأنَّهُ مجيدٌ يشْهَدُ له مَجْدُهُ في مبانيه وفي معانيه على أنَّهُ مُنَزَّلٌ من عند اللَّه العزيز الحكيم، وأنَّهُ مُدَوَّنٌ عند اللَّهِ في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ لا يمسُّهُ إلاَّ الملائكة المطهَّرون.

وهكذا نلاحظ ترابط دُروس السُّورَةِ حول موضوعها ترابطاً محكماً دقيقاً، وتَشَابُكَ فروعها وأغصانها تشابكاً بديعاً ضِمْنَ شَجَرَةِ مَوْضُوعها.

إنّ كُلَّ سُورَةٍ من سُوَر القرآن بمثابة شجرة، وترتيبُ آياتها ترتيبُ نِظَامٍ شجريّ، وليس تَرْتِيبَ سِلْسِلَةٍ ذاتِ حلقاتٍ متتابعاتِ الصَّفِّ والتَّعلُّق.

فعلى المتدبّر للسُّوَرِ القرآنيّة أنْ يَكُونَ على بصيرة من هذا، حتَّىٰ لا يَنْتَزِعَ ترابطاً بتَمَحُّلٍ يُفْسِدُ دَلاَلات القرآن، وترابط آياته في السُّورَة.

(٥)

التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دُرُوس السورة

وهو الآيات من (١ ـ ٩)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ

ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

يُقسِمُ رَبُّنا في مطلع هذا الدّرس الأوّل من دُروسِ السُّورة، بأربع آياتٍ دَالأتٍ على شُمولِ علمه وكَمالِ حِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ، على تَحقُّقِ إحْدَى ظواهر حِكْمَتِهِ في عباده، وهي قانون الجزاء، الَّذي هو الغايَةُ من وَضْعِ ذوي الإرَادَاتِ الحرَّةِ مَوْضِعَ الابتلاء في ظروف الحياة الدُّنيا.

الآية الأولى من آياته في كونه: السَّمَاءُ ذَاتُ البروج، وقَدْ دلّ على القَسَم بها قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾.

المراد بالسَّمَاء هذه القبَّة الزرقاء الّتي تَسْبَحُ فيها النجوم والكواكب، ذوات الأعداد المذهلة، وكلٌّ منها له طريق سَيْرٍ لا يتعدّاه، ولَهُ منَازِل، وله بُروج.

البُرُوج: مفردها «بُرْج»، ويظهر أنَّ المراد بالبروج منازل الكواكب والنجوم في السَّمَاءِ، على خطوط سيرها، ومداراتها في أفلاكها.

ووَصْفُ السَّمَاءِ بأنها ذاتُ البُرُوج يَدُلُّ على أنها أبْعَادٌ فضائية، وزّعَ اللَّه فيها النُّجومَ والكواكبَ توزيعاً حكيماً، وجعل لها فيها منازل ومَسِيرَاتٍ ومَدَارَاتٍ في أفلاك، وأبْدَعَ تَنْظِيمَ حركاتِها إبداعاً مُذْهِلاً، ونشَرَ بينها قُوىً وجاذِبياتٍ تجعل كلَّ نجم وكلَّ كوكب منها لا يخرُج عن خطّ سيره، ولا عَنْ مداره، ولا عن مَنَازِله المحكمة المقدَّرَة له.

إنّ علماء رَصْد النجوم والكواكب والمجَرَّاتِ المتتبّعين لحركاتها، ولمنازلها، على خطوط سيرها ومداراتها في أَفلاكها، يَجِدُون إتْقاناً مذهلاً، ونظاماً بَدِيعاً رائعاً، لا يَخْرِمُ حُدوده في ملايين السنين مقداراً ما مَهْما قَلّ.

هكذا يقولُ علماءُ الفلك، فالقَسَم بالسَّماءِ ذاتِ البروجِ هو في الحقيقة قَسَمٌ بظاهرة من ظواهر صفات اللَّه الجليلة، وهٰذه الظاهرة الرائعة تَدُلُّ على

عِلْمِ اللَّهِ المُحِيط بكلِّ شَيْءٍ، وعَلىٰ قُدْرَتِهِ، وعلى حكمته العجيبة، وعلى إتقانه في قضائه وقَدَرِهِ وخَلْقِه.

والقَسَمُ بالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ، هو في لوازِمِهِ الفكريّة قَسَمٌ بِيَوْمِ الحياة الدُّنيا، وبأنظمته كلّها.

فلدىٰ التأمُّل في واقع هذا الكون، وفي دلالات النُّصوص القرآنيّة، نُلَاحظ أنَّ يَوْمَ الحياة الدُّنيا مُرْتَبِطٌ بهذا النظام الّذي تَسِيرُ عليه السَّماءُ ذَاتُ البروج.

وحين يُريد اللَّه عزّ وجلّ تحقيق قضائه وقدره، بإنهاءِ هذا اليَوْم، فإنَّهُ يُكوّرُ الشمس، ويَنْثُرُ الكواكب، ويجمع الشمس والقمر، ويَنْسِفُ الجبال، ويقيم قيامة كلِّ هٰذِهِ الظاهرات المنتظمة، ويفني الأحياء.

حتّىٰ إذا جاء ميعاد اليوم الآخِرِ، يُبَدِّلُ اللَّهُ عزّ وجلّ الأرض غير الأرض والسماوات، وذلك هو اليَوْمُ الموعُود.

الآيَةُ الثانية من آيات اللَّه في كونه: هي آيَةُ إعْلانِهِ عن اليوم الآخر الموعود، فيما بَعَثَ به رُسُلَه، وفيما أنزلَهُ من كُتُب، فهذا اليومُ الموعود هو الذي تقتضيه حتماً حكمته جلَّ جلاله، بَعْدَ أنْ وضَعَ ذوي الإرادات الحرَّة موضع الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا. وذلك لأنَّ الابتلاء يقتضي في حكمة الحكيم الحسابَ وفَصْلَ القضاء وتحقيقَ الجزاء حتماً، وإلاّ كان وُجُودُ هذا الكون باطلاً وعبثاً.

فَوُجودُ يوم الحياة الدنيا يوم الابتلاء، يَسْتَلْزِمُ حتماً أنْ تشتمل خطة الخالق الرَّبّ على إيجاد يوم آخر، يتحقَّقُ فيه الحسابُ، وفَصْلُ القضاء، والجزاء، فَمِنَ الأُمُورِ البَدَهِيَّةِ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ باليوم الموعود، كما أقْسَمَ بالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوج الَّتِي هِيَ الظاهرة العظمى ليوم الحياة الدنيا، وما فيه من كلِّ مشهود، فَهُمَا جميعاً من مظاهر حكمته جلّ جلاله، وقد دلَّ على هذه الآية

الثانية، وعلى القَسَم بها، قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ۝٢﴾.

أمّا المقسمُ به الأوّل فعظمَتُه مشهودةٌ ظاهرة، وتَزْداد هذه العظمة لدىٰ الباحثين الكونيين، الّذين يَدْرُسونَ الكَوْنَ، ويتفكّرون في نظام السماوات، وحركة الكواكب والنجوم في أفلاكها، ويتفكّرون في منازلها وفي بُرُوجها، فيَرَوْنَ فيها براهين على الخالق العليم القدير الحكيم، الَّذِي أتقن كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

وأمّا المُقْسَمُ به الثاني، وهو اليوم الموعود، فمن تَدَبَّر في حكمة الخالق الرَّبّ المُبْدِعِ الحكيم، ظهر له بالبرهانِ العقلي، أنَّ مُقَدِّرَ اليوم الجاري، وهو يوم الحياة الدنيا، وخالقَ الإنسان فيه بصفاته الّتي هو عليها، القادر بمقتضاها أنْ يَفْعَلَ الخير ويَفْعَلَ الشرّ بإرادَتِه الحرَّة، وأنْ يَرْحَمَ ويَظْلِم، وأن يَعْدِلَ ويَجُور، وأنْ يُؤْمِنَ ويَكْفُرَ، وأنْ يُطِيعَ رَبَّه ويَعْصِيَه، لا بُدَّ أن يكون قد وضَعَ في خُطَّتِهِ وبرنامجه خَلْقَ يَوْم آخر، يُحَاسِبُ فيه، ويقضي فيه بين عباده، ويَجْزِيهم بحسَبِ أعمالهم، فالمُحْسِنُ يجزيه بفضله، والمُسِيءُ يَجْزيه بعدله، أو يغفر له إذا اقتضت حكمته ذلك، ما لم يكن كافراً برَبِّه، ولو من أخفّ دَرَكات الكفر.

إنَّ عظمة اليوم الأوّل المشهود، تَدُلُّ دَلاَلَةً برهانيَّةً عقليَّةً على عظمة اليوم الآخر الموعود، فكانَ من الحكمة أن يُقْسِمَ اللَّه به، إعظاماً لأمْرِهِ، وإطماعاً بما فيه من أجْرٍ عظيم، وثوابٍ جزيل، وتخويفاً ممّا فيه من عقاب أليم، وجزاء عادلٍ حكيم.

وفي جعل القسم باليوم الموعود وهو غيبيٌّ بين قسمين من آيات اللَّه المشهودة إشارةٌ إلى أنه هو المقصود بالتأكيد بالقسم، وهذا أسلوب مبتكر قائم على إدْرَاج المقسم عليه ضِمْنَ الأمور المقْسَمِ بها.

وبسط قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾.

يكونُ على الوجه التالي:

أُقسِمُ لكم أيّها المتفكّرون المتدبّرون الباحثون، بيَوْمِ الحياة الدنيا، يَوْمِ التكْليفِ والابتلاء، المرتَبِطِ بقاؤه ببقاء نظام حركة الكواكب والنجوم والمجرّاتِ في السّماء، وأُقْسِمُ باليَوْمِ المَوْعُودِ، يَوْمِ الحِسَابِ وفَصْلِ القضاءِ وتحقيق الجزاء، اليوم الذي تُبَدَّلُ فيه الأرْض غير الأرْض والسَّمَاوَات، والذي يَدُلُّكم على ضَرُورَتِهِ برهان العقل.

الآية الثالثة من آيات الله: هي آية القرآن، وقد دَلَّ عليها وعلى القَسَمِ بها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَشَاهِدٍ . . . ۝٣﴾.

نظرت فيما أورده المفسّرون من آراء لا تستند إلى بيان عن الرسول ﷺ، فلم أَجِدْ بينها وبين عناصر السورة تناسُباً ما.

وتفكَّرْتُ في المناسبة، فرأيت أنَّ السُورَة قد بُدِئَتْ بالقَسَم بيَوْمَي الابْتِلاَءِ والجزاء، وخُتِمَتْ بالحَدِيث عن المكذّبين للرَّسُولِ والمكذّبين بما جاء به عن ربّه، وبالحديث عن القرآن المجيد.

ورأيْتُ أنَّ الابتلاء في يوم الحياة الدنيا، يقتَضِي رسُولاً يُرْسِلُهُ اللّهُ للمكلَّفِين، ليبلّغَهُمْ موادَّ امْتِحانهم.

ورأيْتُ أنَّ هذا الرَّسُولَ يَحْتَاجُ شاهداً من لَدُنْ مُرْسِلِه، يَشْهَدُ له بصِدْقه، فيما يُبَلِّغُ عن رَبّه، ليمتاز النبيُّ الصادقُ من المتنبّي الكذّاب.

ورأيْتُ أنَّ القُرْآن بإعجازِهِ في مبانيه وفي معانيه، هو الشاهِدُ الدّائم المنَزَّلُ من عِنْدِ اللّهِ جلّ جلالُه وعظُمَتْ حكمته، على صِدْقِ الرَّسول محمّد ﷺ.

ورأَيْتُ أنَّ السُورَة خُتِمَتْ بالحديث عن القرآن.

فظهر لي أنّ المرادَ بالشَّاهِد الذي أقسم اللَّه عزّ وجلّ به في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ. . .﴾ كتابُ اللَّه القرآن، الذي يُنَزِّلُهُ اللَّه مُعْجِزاً شاهداً على صِدْقِ رسُولِهِ محمّد ﷺ.

ثُمَّ بَحثْتُ في سُوَر القرآن المجيد، لَعَلّي أجِدُ فيها بياناً صريحاً وصَفَ اللَّه عزّ وجلّ فيه القرآن بأنه شاهِدٌ لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ بصِدْقِهِ في رسالته، وبلاغاته عن ربّه، فوجَدْتُ قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أمّا الّذي هُو على بَيِّنَةٍ من رَبّه بحَقَائِق الوَحْي إلَيْهِ الّذي رآهُ بِبَصَرِهِ وعَلَّمَه، فهو الرَّسُولُ محمَّدٌ ﷺ.

وأمّا الشَّاهِدُ من اللَّهِ الّذي يَتْلُو الرَّسُولَ محمّداً، أي: يَتْبَعُهُ فتَتَنزَّلُ عليه نُجُومُه، فَيَشْهَدُ له بما فيه من إعجاز في المَباني وفي المعاني، أنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حقاً وصِدْقاً، فَهُوَ القرآنُ لا محالة.

ويَشْهَدُ له أيضاً كتابُ مُوسَىٰ الّذي أَنْزَلَهُ اللَّهُ على رسولِهِ موسَىٰ عليه السّلام مِنْ قَبْلِ القرآن، إمَاماً ورحْمَةً، بما اشتمل عليه من بشائرَ تُبَشِّرُ بالرَّسُولِ الخاتم محمّد ﷺ.

فتأكَّدَ عِنْدِي أنّ المُراد بالشَّاهِد القرآنُ المجيد، وقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ به تَنْبيهاً عَلَىٰ عَظمتِهِ، وتَوْجيهاً لما فيه من إعجازٍ يُثْبِتُ صِدْقَ الرَّسُولِ الّذِي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِهِ، في دَعْوَاهُ النبوَّةَ والرّسالة، وتَوْجيهاً للأخذ بما فيه من بلاغٍ للنَّاس، يُبيِّنُ لَهُمْ مَوادّ امتحانهم في الحياة الدنيا، إيماناً، وعملاً، ظاهراً وباطناً.

الآية الثالثة من آيات اللَّه: الرَّسُولُ محمَّدٌ ﷺ، وقَدْ دلَّ عَلَىٰ هٰذِهِ

الآيةِ، وعَلَىٰ القَسَمِ بها، قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... وَمَشْهُودٍ﴾.

لقَدْ ظهر لنا المرادُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَشَاهِدٍ...﴾ ومِنْهُ نَعْلَمُ أنّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿... وَمَشْهُودٍ﴾ الرّسُولُ محمّد ﷺ، أي: المشهود له بالنبوّة والرّسالَة، مِنْ قِبَلِ الشَّاهِدِ الذي هو القرآن المجيد المعجز.

وحذف مثل هذه التعدية وهي «له» مألُوف في القرآن الكريم، وحسَّنَهُ التلاؤم اللّفظي بين: ﴿الموعُود﴾ وبين ﴿مَشْهُود﴾ في آخِرِ الآية الثانية، وآخِرِ الآية الثالثة.

وقد أقْسَمَ اللَّه عزَّ وجلَّ برسوله محمّد ﷺ تَنْبيهاً علىٰ حكمته جلَّ جلالهُ في اصطفائه للنبوّة الخاتمة للنبوّاتِ، وفي اصطفائه للرسالة العُظْمىٰ الخاتمة للرسالات، وتمجيداً بخُلُقِهِ العظيم، وثناءً عليه تطييباً لخاطره في مقابل تكذيب القَوْم له، وتوجيهاً لأنْظَار النّاسِ نحو صفاته الدّاعيات لهذا التمجيد.

فتَمَّ بَيْنَ الأقْسام وبَيْنَ عناصر السُّورَة التلاؤُمُ التامّ، والحَمْدُ للَّهِ على فَتْحِهِ.

لمحة عن القسم في القرآن:

القَسَمُ في القرآن يتضمَّن تَنْبيهاً على عظمة المُقْسَمِ به، أو تمجيدِهِ والثناءِ عليه، فهٰذِهِ من لوازم القسم.

وحين يكون المُقْسَمُ به مما يستطيعُ النّاسُ التّوَصُّل إلى معرفة عظمته، وجلالَة قَدْره، فإنّ في القَسَمِ به توجيهاً ضمنياً للبَحْثِ عن صفاته الدَّالأت على عظَمتِهِ، فعظمةِ صانعه، أو خالقه ومُقَدِّر مقاديره ومانِحِهِ صفاته.

وحين يكون الغرضُ من القَسَم بالشَّيْءِ تمجيدَ المُقْسَم به والثناءَ عليه، فقد يكون المراد بالثناء عليه تَسْلِيَتَهُ، وتطييبَ خاطره، أو مُكايَدَة أعدائه، مع توجيه النَّظَر لمعرفة صفاته الدّاعيات إلى الثناءِ عليه.

ويُؤتَى بالقَسَم عادةً لتأكيد قضايا خبريَّة، وقَعَتْ فيما مضى، أو هي واقعةٌ فيما لا يزالُ من أمورٍ غيبيَّة، أو ستقع فيما سيأتي مستقبلاً، ويَدْخُلُ في هذا الوَعْدُ بما سيكون، أو سَوْفَ يكون.

وقد عَهِدْنَا في الأقسام القرآنيّة التناسُبَ بَيْنَ المُقْسَم به والمُقْسَم عليه في السُّورَة، فعلىٰ المتدبّر أنْ يتأنّىٰ في التفكير والتأمّل حتّى يُدْرِكَ التناسُبَ بين المقْسَم به والمقْسَمِ عليه.

- قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ④﴾.

بالتدبّر المتأنّي ظَهَرَ لي أنَّ هذا هو المُقْسَمُ عليه بالأقْسَامِ الرّبَّانيَّة الّتي بدأ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها السُّورة.

أي: لُعِنَ أصْحَابُ الأُخْدُود لَعْناً أبَديّاً يَنالُونَ به عَذابَ الحَرِيقِ المتجدِّد في جهنّم، مَعَ أنواع العذاب الأُخْرَى الّتي جعَلَها اللَّهُ في جهنّم للكافرين المجرمين الّذين يَفْتِنُونَ الناس عن دينِهِم بالاضطهاد والتعذيب.

جاء في هذه العبارة استعارة لفظ [قُتِلَ] للدَّلَالَة على اللَّعْنِ الأبَدِيّ المقرون بأنواعِ من العذاب في جَهَنَّم، وأشَدُّهُ عذاب الحَرِيقِ المتجدّد، كلّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بدَّلَهُمُ اللَّهُ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العذاب.

وهذا أمْرٌ يستَحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ على أنّه قضاءٌ مُتَحَقِّق لا محالة، بيَوْمَي الدُّنيا والآخِرَة، وبالقرآن، وبالرَّسُولِ محمَّد ﷺ، أي: بيَوْمِ الابتلاء، وبيَوْمِ الجزاء، وبالمُعَرِّفِ بمادَّةِ الابتلاء وهو القرآن، وبالمبلِّغ والمبَيّن للناس ما نُزّل إِلَيْهِمْ وهو النبيُّ الرسول.

جاء عند أهل التفسير تفسير فعل [قُتِلَ] في الآية بمعنى: «لُعِنَ»، واللَّعْنُ في اللُّغَةِ هو الطَّرْدُ، والإبعاد، والسّبُّ والشتيمة.

وحِينَ يكونُ اللَّعْنُ مُوَجّهاً من اللَّه عزّ وجلّ، فهو الطَّرْدُ والإبعاد عن رحمة اللَّه.

أقول: لكنّ الطَّرْدَ والإبْعادَ لا يَسْتَلْزِمانِ أن يكونا أبديَّيْن، فقد يُطْرَدُ المطرودُ ويُبْعَدُ مؤقتاً لجُرْمٍ أصابَهُ، ثُمَّ يَتُوبُ، فَيُعَادُ إلى مَنازِلِ القرب، وتَشْمَلُه دائرة الرَّحْمَةِ الرَّبَّانيَّةَ الّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَدَيْهِ قابليَّةٌ مَا لأَنْ تُمْطِرَ عليه شَآبيب الرَّحْمة، أمَّا من حَجَبَ نفسه بجُحُودِهِ وجَرَائِمِه، فهو الذي اختار لنفسه أنْ يَحْرِمَهَا من خيرات رَحْمَةِ رَبّه.

لكنّ مَنْ يُقْتَلُ فَقَدْ حُكِمَ عليه بالطَّرْدِ والإبْعاد الأبَدِيَّيْن، فَمَنْ تُوَجَّهَ له عبارَةُ: [قُتِلَ] في القرآن، فقد نصَّ البيانُ الرَّبَّانيُّ على أنَّهُ مَطْرُودٌ مُبْعَدٌ أبديّاً، عن مدىٰ رحمة اللَّه الّتي وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ.

وفي هذا دلالَةٌ على أنَّ جريمته قد بلَغَتْ أقْصَىٰ الجرائم، وأنَّه أَمْسَىٰ مَيْؤُوساً من عودَتِهِ إلى أيّ مَنْزِلٍ من المنازِلِ المشمولة برحمة اللَّه جلّ جلاله، ومُسْتَحِقّاً للخلود الأبَدِيّ في عذاب اللَّه، وجَهَنَّمُ هي مَصِيرُه الذي هو صائر إليه.

وبهذا نُدْرك أنّ استعارة فِعْلِ (قُتِلَ) للدَّلالة على الطَّرْدِ الأبدي، قَدْ تَضَمَّن باللُّزوم العقلي الكناية عن القضاءِ بالتعذيب الأبديّ في جهنَّم، دارِ خُلود الكَفَرَةِ المسرفين في الجحود، وفي ارتكاب كُبْرَيَاتِ الجرائم، وهم الأَشْقَوْن الذين يُعَذَّبُون فيها بعذاب الحَرِيق.

ولهذا لم تأتِ عبارةُ [قُتِلَ] في القرآن الكريم إلاّ في أربع سُوَرٍ مكيّة:

(١) فقد جاءت في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) بشأن الوليد بن المغيرة، الّذي فكّرَ في القرآن وقَدَّر، وعَلِمَ في قرارة قلبِهِ أنَّهُ لا يقولُ مِثْلَهُ بَشَرٌ، لكنّه أدْبَرَ واسْتَكْبَرَ وكفر، وزَعَمَ أنه سِحْرٌ يُؤْثر، وقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، فحَقَّ عليه أنْ يقول اللَّه عزّ وجلّ بشأنه:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳﴾.

(٢) وَجاء في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) بشأن الكافر المعاند، المصرّ على كُفْره، على الرُّغم من ظُهور أدِلَّةِ الحقّ له، قَوْلُ اللّٰه عزّ وجلّ:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ⑰﴾.

أي: قُتِلَ الإنسان الجاحد الكافر المعاند، مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ بالحقّ الجليّ الواضح ببراهينه.

(٣) وجاء في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) الَّتي نتدبَّرُ آياتها، بشأن الطُّغَاةِ البغاة الظلمة، الذين بلَغُوا في كفرهم وطغيانهم، وجرائمهم الشنيعة، أنَّهُم جَعَلُوا يُحَرِّقون المؤمنين والمؤمنات في الأخاديد التي أوقدوا النار فيها، لأنَّهم آمنوا باللّٰه العزيز الحميد الذي له مُلكُ السَّمَاوات والأرض.

(٤) وجاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن المكذّبين بيوم الدّين، الذين يَبْنُونَ تكذيبهُمْ به على الخَرْصِ، وهو الكذب، أو الوهم والظنُّ الضعيف، ويَرْفُضُون الأدلَّة والحجج العقليّة البرهانيّة، والأخبار الرَّبَّانيَّة الّتي بلَغَهُم إيَّاها الرَّسُولُ المؤيَّدُ من رَبّه بالمعجزات الباهرات، فقال اللّٰه عزّ وجلّ فيها:

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ⑪ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ⑫﴾.

هؤلاء الّذين لعنهم اللّٰهُ في القرآن لعناً أبديّاً، يُوصِلُهم إلىٰ الدَّرْك الأسْفل من جهنّم، وهذا من العَدْل الرَّبَّانيّ.

وبهذا نُلاحظُ أنَّ عبارةَ: [قُتِلَ] أشدُّ وأبْلَغُ في الطَّرْدِ والإبْعَادِ من عبارةِ «لُعِنَ».

ونسألُ اللَّه السَّلَامَةَ من سَخَطِهِ وغَضَبِهِ وعَذَابِهِ، ونَعُوذُ به من شُرُورِ أَنْفُسِنَا وسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا.

- ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾.

الأُخْدُود: هُوَ الشَّقُّ المُسْتَطِيلُ في الأرض، أو الحُفْرَة المستطيلَةُ، كالخندق والجَدْول.

وأَصْحَابُ الأُخْدُود: هُمْ قَوْمٌ كَفَرَةٌ، طُغَاةٌ بُغَاةٌ ظَلَمَةٌ، حَفَرُوا الأُخْدُود في بَلَدِهِم، وأَوْقَدُوا فيه النّار، للتَّنْكِيل بالمُؤْمِنِينَ والمؤمنات وتَحْرِيقهم، لمجرَّدِ أَنَّهُمْ آمنوا باللَّهِ العزيز الحميد.

مَنْ هُمْ أَصْحَابُ الأُخْدُود؟

لم أجِدْ عند المفسّرين تحديداً مجزوماً به لأصحاب الأخدود، لكنّ تاريخ الطغاة الجبابرة في الأرض يُسَجّل عدّة وقائع، يمكن انطباقُ قصة أصحاب الأخدود على كلٍّ منها.

ومن هذه القصص قصَّةٌ وقعَتْ في بلاد العرب، ويظهر أنَّها من القصص الّتي يرويها قصّاصوهم، مع ما يدخل في رواياتهم من تحريف وزيادة ونقص، كشأن سائر القصص الّتي تتناقلها الأفواه دون تدوين.

فما جاء في سورة (البروج) يُحْمَلُ عليها بالدّرجة الأولى، ولا مانع من تطبيقها على سائر القصص المماثلة.

وقد ورد في الصحيح عن النبيّ ﷺ قصَّةٌ تَصْلُح لانطباق ما جاء في سورة (البروج) عليها، لكن لم يأتِ فيها تحديد المكان والزمان، إنَّما جاء فيه ذِكْرُ كلمة: «راهب» وهٰذِهِ من مصطلحات النصارىٰ أتباعِ عيسىٰ عليه السلام، فلا مانع من أنْ تكون إشارةٌ لِقِصَّةٍ حَدَثَتْ في نجران، كان يتحدّث بها العرب، فقد دخلَتِ النصرانيَّةُ عَرَبَ نَجْران، ووَفَدَ من وافديهم قِسِّيسُون

ورُهبانٌ على رسول اللّه ﷺ، وقد جاء في القرآن ثناءٌ عليهم.

روى الإمام مسلم والإمام أحمد كما ذكر ابن كثير عن صُهَيْب رضي اللّه عنه (واللفظ لمسلم) أنّ رسول الله ﷺ قال:

«كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قال لِلْمَلِكِ: إنّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاماً يُعَلِّمُهُ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ كَلامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذٰلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذٰلِكَ إِذْ أَتَىٰ عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاس، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ، السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَل؟

فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَاقْتُلْ هٰذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسِ، فَرَمَاهَا، فَقَتَلَهَا، وَمَضَىٰ النَّاسُ.

فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ.

وَكَانَ الْغُلاَمُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةً، فَقَالَ: مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنتَ شَفَيْتَنِي.

فَقَالَ: إِنّي لاَ أَشْفِي أَحداً، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَىٰ، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّهِ، فَشَفَاهُ اللَّهُ.

فَأَتَىٰ الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ

عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَال: أَوَ لَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ.

فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَتَفعَلُ وَتَفعَلُ!

فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحداً، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَىٰ.

فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَى الرَّاهب.

فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوُضِعَ الْمِنْشَارُ فِي مِفْرَقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ، حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ.

ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ⁽¹⁾، وَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

---

(١) **القُرْقُور**: نَوْعٌ من السُّفُن البَحْرِيّة.

فَقالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي، حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ: مَا هُوَ؟

قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهماً مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ قَتَلْتَنِي.

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فَمَاتَ.

فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، فَقَدْ آمَنَ النَّاسُ.

فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتِ، وَأُضْرِمَ فيها النِّيرَانُ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ، فَأَقْحِمُوهُ فِيها، أو قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ.

فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ».

هكذا رواه مسلم، ونظيره عند الإمام أحمد، ورواهُ أيضاً النّسائيّ والترمذيّ، بنحو ذلك.

وظاهرٌ أنَّ قِصَّةَ هذا الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ تَصْلُحُ شَرْحاً لِقِصَّةِ أصحابِ الأُخْدُودِ الواردة في سُورَةِ (البروج)، ولٰكِنْ لَيْسَ فيها ما يَدُلُّ على تَعْيِينِ أنّها هِيَ المرادة.

واعْتِبار «نَجْران» مَسْرَحَ هذا الحَدث التاريخي يُشْكِلُ عليه أنَّ البَحْرَ بَعِيدٌ عَنْهَا، وقصَّةُ الحديث فيها قُرْقُورٌ وبَحْرٌ.

وذِكْرُ كلمةِ «رَاهِب» في القِصَّةِ الَّتِي جَاءَتْ في الحديث النبويِّ تَدُلُّ على أنَّهَا حَدَثَتْ أيَّامَ انتِشَارِ النَّصْرَانِيَّةِ بَعْدَ عِيسىٰ عَلَيْهِ السَّلام، بدَعْوَةِ القِسِّيسينَ والرُّهْبان، وَقَدْ كانَ النَّصارَى يتعرَّضُون لاضطهادٍ شديدٍ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ الرُّومانِيَّةِ ومِنْ قِبَلِ اليَهُودِ، ومن غيرهم.

وجاء في سيرة ابن هشام، قال ابنُ إسحاق: وحدَّثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كَعْبٍ القُرَظي، وحدَّثني بعض أهل نجران عن أهلها، أنَّ أهل نجران كانُوا أهلَ شِرْكٍ، يَعْبُدونَ الأوثان، وكان في قَرْيَةٍ من قراها قريباً من نجران ساحِرٌ يُعَلِّمُ غِلْمانَ أهْلِ نجران السِّحر.

فلمَّا نَزَلَها «فَيْمِيُون»⁽¹⁾ ـ قال ابنُ إسحاق: ولم يُسَمُّوه لي باسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه ـ قالوا: رَجُلٌ نَزَلَها، ابْتَنىٰ خَيْمَةً بين نَجْرانَ وبَيْنَ تِلْكَ القريةِ الَّتِي بها السَّاحر، فجعل أهْلِ نجران يُرْسلُون غلمانَهم إلى ذٰلِكَ السَّاحر يُعَلِّمهم السِّحر.

فبَعثَ إليه الثَّامِرُ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّه بْنَ الثَّامر، مع غِلْمَان أهْل نجران، فكان إذا مَرَّ بصاحِب الخَيْمَة أعْجَبَهُ ما يَرَىٰ من صلاته وعبادتِهِ، فجَعَلَ يَجْلِسُ إليه، ويَسْتَمِعُ منه، حتَّىٰ أسْلَمَ، فوَحَّدَ اللَّهَ وعبَدَهُ، وجعلَ يَسْأَلُه عَنْ شرائِعِ الإسلام، حتَّىٰ إذا فَقُهَ فيه جَعَلَ يَسْأَلُهُ عن الاسْم الأعْظَم، وكان يَعْلَمُهُ، فَكَتَمَهُ إيَّاه، وقال له: يا ابْنَ أخي إنَّكَ لَنْ تَحْمِلَه، أَخْشَىٰ عَلَيْكَ ضَعْفَكَ عنه.

والثَّامِرُ أبو عَبْد اللَّه لا يَظُنُّ إلاَّ أَنَّ ابْنَهُ يختَلِفُ إِلَىٰ السَّاحِرِ، كما يَفْعَلُ الغِلْمانُ، فلمَّا رَأَىٰ عَبْدُ اللَّه أنّ صاحبَهُ قد ضَنَّ به عنه، وتخوَّفَ ضعْفَهُ فيه⁽²⁾، عَمَدَ إلى أقداح فجمعها، ثُمَّ لَمْ يُبقِ للَّهِ اسْماً يَعْلَمُهُ إلاَّ كَتَبَهُ

---

(١) فَيْمِيُون: راهب تقيٌّ من رهبان النصارىٰ، نقل ابن هشام قصّة قُدُومه من الشّام إلى نجرانَ عن وهب بن مُنَبِّهٍ، قبل ذكر قصّة أهل نجران والساحر.

(٢) أي: ضنّ فَيْمِيُون بأن يُعَلمه اسم الله الأعظم، وخاف أن يضعف في حَمْله، فيَسْتَعْمِلَهُ فيما يجُرُّ له فتنةً وبلاءً.

في قِدْحٍ، ولكلِّ اسم قِدْحٌ⁽¹⁾، حتَّىٰ إذا أَحْصَاها أوْقَدَ لها ناراً، ثُمَّ جَعَلَ يَقْذِفُهَا فِيها قِدحاً قِدْحاً، حتَّىٰ إِذَا مَرَّ بالاسْمِ الأعظم قَذَفَ فيها بقِدْحِه، فوثَبَ القِدْحُ حتَّىٰ خَرَجَ منها لم تَضُرَّهُ شيئاً، فأَخَذَهُ، ثُمَّ أَتَىٰ بِهِ صاحِبَهُ، فَأَخْبَرَهُ بأنَّه قَدْ عَلِمَ الاسم الذي كَتَمه.

فقال: وما هو؟

قال: هو كذا وكذا.

قال: وكَيْفَ عَلِمْتَه؟

فأخبره بما صنع. قال: أي ابْن أخي قَدْ أَصَبْتَهُ، فَأَمْسِكْ على نَفْسِكَ، وما أَظُنُّ أنْ تفعل.

فجَعَلَ عَبْدُ اللَّه بن الثامر إذا دخل نجرانَ لم يَلْقَ أحداً به ضُرٌّ إلاَّ قال له: يا عَبْدَ اللَّه، أَتُوَحِّدُ اللَّهَ، وتَدْخُلُ في ديني، وأدعو اللَّهَ فَيُعَافِيك ممّا أنت فيه من البلاء؟

فيقول: نعم، فيُوَحِّدُ اللَّه، ويُسْلِمُ، ويَدْعُو له فيُشْفَىٰ. حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ بنجران أَحَدٌ به ضُرٌّ إلاَّ أَتَاهُ فاتَّبَعَهُ على أمْرِه، ودَعَا له فعُوفِيَ.

حتَّىٰ رُفِعَ أَمْرُهُ إلى مَلِكِ نَجْران، فَدَعَاهُ، فقال له: أَفْسَدْتَ عَلَيَّ أَهْلَ قَرْيتي، وخالَفْتَ ديني ودين آبائي، لأُمَثِّلَنَّ بِكَ.

قال: لاَ تَقْدِرُ على ذٰلِكَ.

قال: فَجَعَلَ يُرْسِلُ به إلى الجَبَلِ الطّويل، فَيُطْرَحُ علىٰ رَأْسِهِ، فيقَعُ إلى الأَرْضِ لَيْسَ به بأسٌ.

وجعلَ يبعثُ به إلى مِيَاهٍ بنَجْران، بحُورٍ لاَ يقَعُ فيها شَيْءٌ إلاَّ هَلَكَ، فيُلْقَىٰ فيها، فَيَخْرُجُ لَيْسَ به بأسٌ.

---

(١) القِدْحُ: سهم من خشب.

فلمّا غَلَبَهُ، قال له «عبد اللّه بْنُ الثّامر»: إنَّكَ وَاللّهِ لَنْ تَقْدِرَ عَلَىٰ قَتْلِي، حَتَّى تُوَحِّدَ اللّهَ فَتُؤْمِنَ بِمَا آمَنْتُ بِهِ، فإنَّكَ إنْ فَعَلْتَ ذٰلِكَ سُلِّطْتَ عَلَيَّ فَقَتَلْتَني.

قال: فَوَحَّدَ اللّهَ ذٰلِكَ الْمَلِك، وشَهِدَ شَهَادَة عبد اللّه بن الثّامِر، ثُمَّ ضَرَبَهُ بعصاً في يَدِهِ فَشَجَّهُ شَجَّةً غَيْرَ كبيرة، فقتله، ثُمَّ هَلَكَ المَلِكُ مكانه.

واسْتَجْمَعَ أهْلُ نجران على دين عبد اللّه بن الثّامر، وكان على ما جاء «عيسَىٰ ابن مريم» من الإنجيل وحُكْمه.

ثُمَّ أصابَهُمْ ما أصابَ أهْلَ دِينهم من الأحداث، فَمِنْ هُنَالِكَ كان أصْلُ النّصرانيّة والله أعلم بذلك وأورد ابن إسحاق بعد هٰذِهِ القصّة ما يلي:

فَسَارَ إلَيْهِمْ ذُو نُواسٍ بجنوده⁽¹⁾، فَدَعَاهُمْ إلى اليهوديَّةِ، وخيَّرَهم بين ذٰلِكَ والقتل، فاختاروا القَتْل، فخدَّ لَهُمُ الأخْدُود، فحَرَّقَ من حرَّقَ بالنّار، وقَتَلَ بالسَّيْف مَنْ قَتَلَ، ومَثَّلَ به، حتَّىٰ قَتَلَ منهم قريباً من عشرين ألفاً.

قال ٱبْن إسحاق: ففي ذِي نُواسٍ وجُنْدِهِ تِلْكَ، أَنْزَلَ اللّهُ تعالىٰ على رسُولِهِ سيّدنا محمد ﷺ:

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾ الآيات.

أقول: هذا التعيين الذي ذكره ابْنُ إسحاقٍ لا دليلَ عليه. والقصّة الّتي رواها عن محمّد بن كَعْبٍ القُرَظِيّ، وعن بَعْضِ أهْلِ نجران، تختلف عن القصّة الواردة في الصحيح عن رسُول اللّه ﷺ في تفصيلاتها، وما صَحَّ عن الرسُول ﷺ أوْلى بالاعتماد، وإنْ لم يكُنْ في شيءٍ منهما دليلٌ على أنَّها هيَ المرادةُ فيما جاء في القصّة القرآنيّة.

---

(١) **ذُو نُواس**: آخِرُ مُلُوك حِمْيَرَ، وقد تسَمَّىٰ يُوسف، وكان على دين اليهود.

وعند المؤرخين قصَصٌ أُخرَى، وقَعَتْ في فارس، وفي العراق، وفي بلاد الرُّوم، وفي أرض غَيْرِ ما ذكر ٱبْنُ إسحاق، وغير القصّة التي رواها مسلم والإمام أحْمَدُ عن صُهَيْب عن الرسول ﷺ، وكلُّ واحدة منها تَصْلحُ لأنْ تُطبَّقَ عَلَيْهَا القِصَّةُ القرآنيَّة.

ولا مانع من اعتبار كلّ الأحداث والوقائع المشابهة داخلة في عموم القصّة القرآنية، فكُلُّ جبابرتها يَنطَبِقُ عليهم قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

* * *

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾:

لَفظُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بَدَلُ اشتمالٍ من الأُخْدُودِ، فَدَلَّ هٰذا علىٰ أنَّ أصْحَابَ الأُخْدُودِ قَدْ أَوْقَدُوا فيه النَّار، فاشْتَمَلَ الأُخْدُودُ على النار، فَحَسُنَ أنْ يأتي لفظ [النّارِ] بَدَلاً منه، على طريقة بدَلِ الاشتمال، وبدَلُ الاشتمالِ من التعبيراتِ الفنيَّةِ في اللّسان العربيّ.

﴿ذاتِ﴾: بمعنى صاحِبَةٍ، وهِيَ كَلِمَةٌ يُتَوَصَّلُ بها إلى الوَصْفِ بالأجناس.

﴿الوَقُود﴾: هو الحَطَبُ، وكلُّ مادّةٍ تُوقَدُ بها النار.

وُصِفَتْ نَارُ هٰذا الأُخْدُودِ بأنّها ذاتُ الوقود، لتَصْوير مَشْهَدِ المدَدِ من الوَقُودِ، الّذي جَمَعَهُ أو يجلبُه أصْحَابُ الأُخْدُود، ويَجْعَلُونَهُ قَرِيباً منه، فَهُمْ يُمِدُّونها بالوقود اللاّزم لها، كُلَّما تقاصَرَتْ ألْسِنَةُ لَهَبِهَا.

وفي هٰذا التَّصْوِير إبرازٌ لشناعَةِ عَمَلِهِمْ، وفظاعَتِهِ، وتَنْبِيهٌ علىٰ مَا فِي

قُلُوبِهِمْ من قَسْوَةٍ، وعلىٰ ما في وُجوهِهِم من لُؤْمٍ وغَيْظٍ، وكلاحَةٍ جَهَنَّمِيَّة.

وفي تَعْريف الوقود بـ (ال) إشارةٌ إلى كثرته، وتعاظم أكوام الحطب إلى جانب الأُخْدُود، حتَّىٰ كأنَّ كُلَّ الحطب الذي يستطيعون جمعه قد جمعوه.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾:

أي: اذكُرْ شَنَاعَةَ جَرِيمة أصحاب الأخدود إذْ هُمْ على نارهم مُشْرِفُون قُعُود، يَشْهَدُون تحريقَ الذين يُكْرِهُونَهُمْ على تَرْكِ دينهم الحقّ الّذي آمَنُوا به، بمعنى: ضع هذا في ذاكرتك أيّها المتلقّي أيّاً كُنتَ، وتصَوَّرْ مَبْلَغَ بَشَاعَةِ هذا المشهد الإجراميّ الشنيع.

فلفظ [إذْ] هنا ظرفٌ للزمان الماضي، وهو معمول لفعلٍ محذوف تقديره: اذكر.

أو هو معمولٌ لفعل [قُتِلَ] والمعنى: طُرِدَ أصحابُ الأُخْدُود طَرْداً أبديّاً لجريمتِهِم الشنيعة الّتي ارتكبوها، في الوقْتِ الذي كانوا فيه قُعُوداً مُشْرِفين على النار، الّتي أوْقَدُوها لتحريقِ المؤمنين والمؤمنات بالدّين الحقّ. فقد بَلَغُوا بجريمتهم البَشِعَة غايَةَ الطغيان، وصارَتْ حالَتُهُمْ النفسيّة بذٰلك حالةَ مَيْؤُوساً من توبتهم بَعْدَها، فاسْتَحَقُّوا هذا الطَّرْدَ الأَبَدِيَّ المستلزم للعذاب الأبديّ في نار جهنّم، وقد أدْرَكَتْهُمْ مَنَايَاهم دون أنْ يتوبوا.

﴿قُعُودٌ﴾: جمعُ «قاعد»، وقد دلَّ هذا البيان على أنَّ هؤلاء الطّغاة البغاةَ لم يَكْتَفُوا بأمْرِ جُنُودهم بتحريق المؤمِنِين والمؤمنات وهُمْ في قُصُورهم، بل اتَّخذُوا لأنفسهم مجالِسَ قريبةً من الأُخْدُود، ومُشْرِفَةً عليه، لِيَسْتَمْتِعُوا بتحريق المؤمنين والمؤمِنَاتِ الّذِين يَرْفُضُون الرّدَّة عن إيمانهم، والعودة إلى الكفر، والاستجابة لأوامر ذَوِي السُّلطان عليهم.

والضميرُ في عبارة [عَلَيْهَا] يعُودُ على النّار، وهو متعلّقٌ بـ [قُعُود]

مقدّمٌ عليه، رعايةً لرُؤُوسِ الآياتِ، وللتّنْبِيهِ على شناعةِ ما فَعلُوا.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾:

أي: والحالُ أنَّ أصْحَاب الأخدود الآمِرِينَ به حاضِرُون ناظرون شاهدون على ما يَفعَلُون بالمُؤمنين.

﴿شُهُودٌ﴾: جمع «شاهد» وهو الحاضر وقْتَ الحدَثِ، المُحِسُّ بما يجري فيه.

وفي هذا البيان مُتَابَعَةٌ لتصوير شناعة ما قاموا به، وتصوير فظاعَتِهِ، للتّنْبيه على حالتهم النفسيّةِ البالغة غايةَ الإجرام واللُّؤم والخِسَّةَ والكلاحَةِ الجهنميّة.

إنَّهُمْ يُشاهِدُون من أَمَرُوا بتَحريقهم مُسْتَمْتِعِين، لمجرَّدِ أنَّهُمْ آمَنُوا بربِّهم.

إنَّهُمْ يَسْتَمْتِعُون بتعذيبهم وصُرَاخِهِم وعويلهم وقَتْلِ نسائِهِمْ وأطفالهم، دُون أنْ تَمَسَّ قُلُوبَهُمْ مشاعِرُ رحْمَةٍ أو شفقة، ودون أن يتحرَّكَ وجْدَانُهم باستنكار ما يمارسُونه من ظُلْمٍ وطغيان، وبَغْيٍ وعُدْوان.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنهُمْ﴾: فِعْل: «نَقَمَ يَنقِمُ» مثل: ضَرَبَ يَضرِبُ، و«نَقِمَ يَنقَمُ» مثل: تَعِبَ يَتْعَبُ، يأتي بمعنىٰ: عابَ وَذَمَّ، وبِمَعْنَىٰ: كَرِهَ أَشَدَّ الكراهِيَةِ وأَبْغَضَ، ويأتي بمعنىٰ: عاقَبَ. وتَعْدِيَةُ الفِعْل على هٰذِهِ المعاني الثلاثة تأتي بحَرْف الجرّ «مِنْ».

﴿إلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾: أي: إلاَّ أَنْ يُتَابِعَ بعضُهُمْ بعْضاً بالإيمان، فاسْتِعْمال الفعل المضارع الَّذِي يَدُلُّ على التجدُّدِ يُشْعِرُ بحركةِ انتشار الإسلام في القوم

المَنْقُوم عليهم، وهي الحركة الّتي يخشاها ذَوُو السُّلطان، والتي تجعل جماهير شعبهم يَعْمَلُون بمختلفِ الوسائل لتحكيم شَرْعِ اللّه والعَمَلِ به، وهذا يتعارض مع أوامِرِهِم وقراراتهم الّتي يُحَقّقون بها أهواءهم، وإراداتهم الجَبرُوتيّة، لأنّها أوامِرُ وقرارات طاغوتيَّة، دوافِعُها مَصَالح ذوي السلطان وأعوانِهِم وأنصارِهم.

﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: العزيز الحميد: اسمان وصْفيان من أسماء اللّه الحسنىٰ.

﴿العزيزُ﴾: أي: ذُو العزّة الكاملة، **والعِزَّة**: هي القُدْرَةُ على الْغَلَبَةِ، **فالعزيز**: هو القويُّ المقتدر الغالبُ لكلِّ شَيْء.

﴿الحميد﴾: هو الموصوف بجميع الصّفات العليَّةِ السَّنيَّة، الّتي يَحْمَدُه بها الأوَّلُون، والآخِرُون، ويَحْمَدُهُ بها كُلُّ حامد، وهو بهذا المعنىٰ على صيغة «فَعِيلٍ»، بمعنى مَفْعُول، أي: محمود كثيراً.

والحميد أيضاً هو الذي يَحْمَدُ عبادَهُ على ما يكون منهُم من أمُورٍ تَسْتَحِقُّ الحَمْدَ والثناء، وهو بهذا المعنى «فعيل» بمعنى فاعل، أي: كثير الحَمْدِ لعباده المستحقّين للحَمْد، وحَمْدُ اللّه لعباده يستلزم مكافأتَهُمْ على صالحات أعمالهم لأنه جلّ جلالُه جوادٌ كريم.

وفي ذكر هٰذين الاسمين (العزيز الحميد) من أسماء اللّه الحسنىٰ، عقب الكلام على أصحاب الأُخْدود وجريمتهم الكبرىٰ، تَنْبِيهٌ على أمْرَيْن:

الأَمْرُ الأول: أنّهُ بِعِزَّتِهِ يَنْتَقِمُ من المجرمين الجبارين، فيُنْزِلُ بهم ما يقتضيه عَدْلُهُ، جلَّ جلاله، وعظم سلطانه.

الأمر الثاني: أنّه بمقتضىٰ كونه محموداً كثيراً بصفاته السنيّة، وحامداً كثيراً لمستحقّي الحَمْدِ من عباده، سَيُثِيبُ عِبادَهُ المؤمنين، الصادقين الصابرين على ما نَالَهُمْ من اضطهادٍ وأذىً وضرٍّ، بأَيْدِي الطغاة البغاة الجبارين، من أجل ثباتهم

على دينهم ابتغاءَ مرضاةِ ربّهم، وسيجعل ثوابهم جَزِيلاً وعظيماً.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾: أي: لَهُ وَحْدَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْض، لا يُشاركه أحَدٌ في سلطانه على كُلِّ شَيْءٍ، فكلّ شيءٍ سوى الله عزّ وجلّ هوداخل في السماوات والأرض، وهو جلَّ جلاله رَبُّ كُلِّ شيءٍ بالخَلْقِ الدَّائم المتتابع، والخالقُ الرَّبُّ هُو المالِكُ وهُوَ المَلِكُ، وهو المتَصَرِّفُ بكلّ ما يملك، لا منازع له، ولا نِدَّ له، وهو القادر على أن يُهْلِكَ ويُعَذِّبَ بعَدْلِهِ مَنْ يَشاء، ويُثِيب بفضله العظيم مَنْ يَشاء.

﴿واللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾: أي: واللَّه فوق كلّ شيءٍ حاضِرٌ، عَلِيمٌ بكلِّ شيءٍ، خبيرٌ بكلّ شيء.

إذَنْ: فَمَا يَفْعَلُهُ عِبادُهُ الطغاةُ الجبَّارُون، بعباده المؤمنين الصادقين، معلومٌ مشهودٌ له، لا يَعْزُبُ عن علمِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ في السَّمَاواتِ ولا في الأرض.

والعليم العزيز الحميد الحكيم لا بُدَّ أن يُعَاقِبَ الظَّالِمِينَ الجبَّارِينَ بعَدْلِهِ، ولا بُدَّ أن يُثِيبَ المؤمنين المتَّقِينَ بفَضْلِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة

وهو الآيتان (١٠ ـ ١١)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

تمهيد:

اشتمل الدرس الأوّل من دروس السورة على عرض مثل تاريخيٍّ بَشِع شَنِيع، من أمثلة الطُّغاة البُغَاة المجرمين، الّذِين يتّخذون وسائل جبروتية، لإكراه المؤمنين والمؤمنات على تَرْكِ إيمانهم بربّهم، والعودة إلى الكفر وأنواع الشرك، إنّه قِصَّةُ أصحاب الأخدود التي اقتضىٰ عَرْضُها بيان الحكم عليهم، بأشدّ أنواع العذاب الأبديّ، لتحذير الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات عن دينهم، من طغاةٍ وجَبابِرَةِ مشركي مكّة إبّان التنزيل، فكلّ الطغاة المعاصرين ثُمّ الّذين يأتون بعدهم في العصور من كلّ الناس، مغبّةَ وعاقبةَ أفعالِهم الإجراميَّة الشنيعة التي يُكْرِهون بها الناس على تَرْكِ إيمانهم بربّهم الواحد الأحَد، وتَرْكِ العمل بشرائعه وأحكام دينه.

واقتضى هذا التمهيدُ إتْباعَهُ ببيان قضيَّةٍ من قَضَايا العَدْلِ الرَّبَّاني الّذي يُقابلُه الفضل الرَّبَّانِي.

أمّا العدل الرَّبانيّ فقد أبانه اللّٰه عزّ وجلّ في الآية (١٠).

وأمّا الفضل الرَّبَّانيُّ فقد أبانه اللّٰه عزّ وجلّ في الآية (١١).

اضطهاد طغاة مشركي مكّة للمستضعفين من المؤمنين والمؤمنات:

لقد كان طغاة مشركي مكّة يضطهدون ويعذّبون المستضعفين والمستضعفات من المؤمنين والمؤمنات، لفتنتهم عن دينهم، وإكراههم على أن يَرْتَدُّوا عنه، إلى ما كانوا عليه من شرك.

وقد جاء بيان ذلك في مُدَوَّنات السيرة النبويَّة، وبعض المرْوِيَّات من الأحاديث، ومن ذلك ما يلي:

(١) قال ابن إسحاق، فيما يرويه ابْنُ هِشامٍ في السيرة:

«ثم إنّهم (يعني طُغاةَ مشركي مكّة) عَدَوْا على من أسْلَم، واتَّبَعَ

رسُولَ اللَّه من أصْحَابه، فوثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ علىٰ مَنْ فيها من المسلمين، فجعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ، ويُعَذِّبُونَهُم بالضَّرْب والجوعِ والعَطَش، وبِرَمْضَاء[1] مكة إذَا اشتدَّ الْحَرُّ، مَنِ اسْتُضْعِفُوا منهم، يَفْتِنُونَهُم عن دينهم، فَمِنْهُمْ مَنْ يُفْتَنُ مِنْ شِدَّةِ البَلَاءِ الّذِي يُصِيبُه، ومِنْهُمْ مَنْ يَصْلُبُ لَهُمْ، ويَعْصِمُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ.

وَكان أُميَّةُ بنُ خَلَفٍ الجُمَحِيُّ يُخرِج مَوْلاهُ بلال بْنَ رَباحٍ إذا حَمِيَتِ الظَّهيرَةُ، فيَطْرَحُهُ على ظهره في بطحاء[2] مكة، ثمّ يأمُرُ بالصَّخْرَةِ العظيمةِ، فَتُوضَعُ على صَدْرِهِ، ثمّ يقول له: لا واللَّه، لا تَزَال هكذا حتّىٰ تموتَ أو تَكْفُرَ بمحمّد، وتعبُدَ اللّاتَ والعُزَّىٰ.

فيقولُ وهُوَ في ذٰلِكَ البلاء: أَحَدٌ، أَحَد.

حتّىٰ مَرَّ به أبو بكر الصدّيق رضي اللَّه عنه يوماً، وهُمْ يَصْنَعُونَ ذلك به، فقال لأميّة بْنِ خَلَف:

ألاَ تَتَّقِي اللَّهَ في هٰذَا المِسْكِين؟ حتَّىٰ مَتَىٰ؟

قال: أَنْتَ الَّذِي أَفْسَدْتَه، فأَنْقِذْهُ مِمّا تَرَىٰ.

فقال أبو بكر: أفْعَلُ، عِنْدِي غُلَامٌ أسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وأَقْوَىٰ، على دِينِكَ، أُعْطيكَهُ به.

قال: قد قَبِلْتُ.

فقال: هُوَ لَكَ، فَأَعْطاهُ أبو بكر الصدّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غُلَامَهُ ذٰلك، وأَخَذَهُ فأعتقه.

وكانت بنو مخزوم يَخرُجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأُمّه ـ وكانوا أهل

---

(١) **الرَّمضاء**: شِدَّةُ الحرّ، والأرض أو الحجارة التي حَمِيَتْ من شدّة وَقْعِ أشِعّة الشمس عليها، وفي أمثالهم: «كالمُسْتَجِيرِ من الرّمضاء بالنّار».

(٢) **البَطْحاء**: المكان المتّسع يمُرُّ به السّيل فيترك فيه الرَّمْلَ والحصَىٰ.

بيتِ إسلام ـ إذا حَمِيَتِ الظَّهيرة، يُعَذِّبُونَهُم بِرَمْضاءِ مكّة، فيَمُرُّ بهم رسولُ اللَّه ﷺ، فيقول: «صَبْراً آلَ ياسِرٍ، مَوْعِدُكُم الجنَّة».

فأمَّا أُمُّهُ فقتلُوها، وهي تأبَىٰ إلاَّ الإسلام.

وكان أبو جهلٍ الفاسقُ، إذا سَمِعَ بالرَّجُلِ قد أسْلَمَ، إنْ كان له شَرَفٌ ومَنَعَةٌ، أنَّبَهُ وأَخْزَاهُ، وقال له: تَرَكْتَ دينَ أبيك، وهو خَيْرٌ مِنْك، لَنُسَفِّهَنَّ حِلْمَكَ، وَلَنُقَبِّحَنَّ رَأْيَكَ، ولَنَضَعَنَّ شَرَفَكَ. وإنْ كانَ تاجراً قال له: واللَّهِ لَنُكَسِّدَنَّ تِجارَتَكَ، ولَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ. وَإِنْ كان ضَعيفاً ضَرَبَهُ وأَغْرَىٰ به».

(٢) وقال ابن إسحاقٍ أيضاً:

«وحَدَّثَني حكيمُ بْنُ جُبَيْرٍ عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر، قال: قلت لعَبْدِ اللَّه بن عباسٍ: أكانَ المشركون يَبْلُغُونَ من أصحاب رسُول اللَّه ﷺ من العذاب، ما يُعْذَرُون به في تَرْكِ دِينِهِمْ؟؟

قال: نعم واللَّهِ، إنْ كانُوا لَيَضْرِبُونَ أحَدَهُمْ، ويُجِيعُونَه، ويُعَطِّشونه، حتَّىٰ مَا يَقْدِرُ أنْ يَسْتَوِيَ جالساً، مِنْ شِدَّةِ الضُرِّ الذي نزل به، حتَّىٰ يُعْطِيَهُمْ مَا سَأَلُوهُ مِن الفتنةِ، حتَّىٰ يَقُولوا له آللاَّتُ والعُزَّىٰ إلٰهُكَ من دُونِ اللَّهِ؟

فيقولُ: نعم، حتَّىٰ إنَّ الجُعَلَ لَيَمُرُّ بهم، فيقولُون له: أَهٰذا الجُعَلُ إلٰهُكَ من دُون اللَّه؟ فيقولُ: نعم. افْتِداءً مِنْهُمْ، ممَّا يَبْلُغُونَ مِنْ جَهْدِهِ.

● قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآية وَعِيدٌ مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ للّذين يَفْتِنُونَ المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بالاضطهاد والتعذيب، من طُغَاةِ الكافرين، في عصر التَّنْزيل، وفي سائر العصور من بَعْدِهِ، بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد أعْتَدَ لهم عذابين شديدين:

الأوّل: أنواع من العذاب مختلفة في جهنّم، في منازلهم، وفي

مآكلهم، وفي ملابسهم، وفي مشاربهم، وفيما يُسَلَّطُ عليهم من زبانية تَعْذيب، وما يكلّفونه من مشقات، كصُعُود جبالٍ عاليات، شديدات الحرارة، كثيرات العقبات.

الثاني: عذابُ الحريقِ، بمُباشَرَةِ النَّار لأجسادهم الَّتي تَحْتَرِقُ بها، كُلَّما نضجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلَهُمْ اللَّه جُلوداً غيرها، أَخْذاً من نصٍّ قرآني آخرَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾:

﴿فتَنُوا﴾: يُقَالُ لغة: فَتَنَ يَفتِنُ فَتْناً وفُتُوناً، والاسْمُ منه «الفِتْنَة»، وهي في الأَصْل الصَّهْرُ بالنّار للمَعْدنِ، كالذَّهَبِ والفضّة، لتمييز الرديء من الجيّد.

ثمّ صارت مادّة الكلمة تدُلُّ على مُطْلَق الابْتلاء والامتحان والاختبار.

ومن التوسُّعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ في دلالة هذه المادّة إطلاَقُهَا على الإحراقِ بالنّار، أو التعذيب بها، عقاباً، أو انتقاماً، أو عُدواناً وظُلْماً، ويَسْقُطُ معنى الاختبار حينئذٍ.

ومن التوسُّعَات اللّغوية، إطلاق الفتنة على الإغْرَاء والإغواء، وعلى الإكراه بأنواعٍ من التعذيب للاستجابة لما يطلبُهُ المُكْرِهُ، وتُطْلقُ أيضاً على الاستجابة، إلى غير ذلك من توسُّعَات.

وظاهر أنَّ المرادَ هنا بفِعْل: [فَتَنوا] أنَّ الطُّغَاةَ الجبابرة اتَّخَذُوا الوسائل الإكْرَاهِيَّةَ الضَّاغطة، ومنها التعذيبُ الجسديُّ لجَعْلِ المؤمنين والمؤمنات يرتَدُّون عن دينهم.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾: في العطف بحرف العطف «ثُمَّ» دلاَلَةٌ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ مَنَحَ السَّابقين فرصَةَ إمْهَالٍ متراخية ليَتُوبُوا، على الرُّغم من فعْلَتِهِم الشّنيعة، وجريمتهم الكبرى، لاحتمال أن يكونوا قد ارتكبُوا جرائمهم في

حالةِ ثَوْرَةٍ غَضَبِيَّةٍ طار بها صوابُهم، وفقدوا بها رُشْدَهم، فإذا هدأت نفوسُهم بعد ذلك نَدِمُوا وتَابُوا.

وكذلك يَفْعَلُ اللَّهُ في أمثالهم الّذين سيأتون مُسْتَقْبلاً، فَسُنَّةُ اللَّه في عباده واحدة، وفي هذا إطماع من اللَّه لهم بأن يتوبوا قبل أن يُنْزِلَ بهم العذاب.

يقال لغةً: تَابَ يَتُوبُ تَوْباً وتَوْبَةً ومَتَاباً، إذا رَجَعَ عن المعصية، فهو تائب، وإذا كان كثير المتَاب فهو تَوَّاب.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: جاءت «الفاء» في خبر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ للإشعار بأنّ الكلام هو بقُوَّة الشرط وجوابه، أي: مَنْ فَتَنَ فلَهُ هذا العذاب، وبهذا يَكُونُ أسْلُوبُ الكلام من صيغ العموم، الدَّالّ على أنّ هذا القضاء المُبْرَمَ، هو من سُنَنِ اللَّهِ الدائمة في عباده.

﴿جَهَنَّم﴾: اسم علَمٌ من أسماء دار العذاب الّتي أعدّها اللَّه عزّ وجلّ ليعذّب بها الكافرين والعاصين يوم الدّين، وهو مَمْنُوعٌ من الصرف للعلميّة والتأنيث، ويقال للقعر البعيد جَهَنَّم، وَجِهِنَّام، وبئرُ جَهَنَّم وجِهِنَّام، أي: بعيدة القعر.

أمّا عذابُ جَهَنَّم فهو أنواع كثيرة، كما سَبَقَ بيانه، وهذه الأنواع منها ما هو أخفّ من الحريق، وقد يُعَذَّب بها العُصَاةُ على دركاتهم.

وأمَّا عذابُ الحَريق فهو خاصٌّ يُعَذَّبُ بِهِ كبارُ المجرمين، دلَّ على هذا قول اللَّه عَزَّ وجلَّ:

﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيق﴾: هذه الجملَةُ تُشْعِرُ بأنَّ المراد بعذاب جهنَّم أنواعٌ من العذاب دون عذاب الحريق، فهو إمَّا من عطف الخاصّ على العامّ، أو من عطف المغاير على المغاير، ويكون عذاب جهنّم من العام الذي أريد به خاصّ، بقرينة عطف عذاب الحريق عليه، وهذا ما أرجّحه،

فكثير من العمومات القرآنيَّة محمولة على إرادة ما هو خاصٌ بأدلّة من القرائن أو من نصوص أخرى.

قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

في هٰذه الآية وَعْدٌ مؤكَّدٌ مشدَّدٌ للّذِين آمَنُوا بربّهم وبرسوله، وبما جاء به الرّسول ﷺ عن رَبِّهِ، ومِنْهُ القرآن المجيد، وعملوا الصالحات، بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد أعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ جليلات عظيمات تجري من تحتها الأَنْهَار.

وقد جاء هذا الوعد الكريم عقب الوعيد الّذي اشتملت عليه الآية (١٠)، ومن سنّة اللَّه في القرآن أن يجعل الوعد والوعيد مقترنين، فإذا اقتضت السّوابق ذكر الوعيد، جاء عقبه الوعد، وإذا اقتضت ذكر الوعد جاء عقبه الوعيد، إيثاراً للعلاج التّربويّ المزدوج، القائم على إثارة مِحْوَرَيْ الخوف والطمع في النّفس الإنسانيّة، بعد الإقناع بالحق، والهداية المنطقيّة للّتي هي أقْوَمُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي: إنّ الّذين عَلِمُوا وَصَدَّقُوا واعْتَرَفُوا بقلوبهم بإرادة صادقة، مُخْلِصَةٍ للَّه عزّ وجلّ، بكُلّ أرْكان الإيمان الَّتي جاء بها الإسلام، دُون نقصٍ لأيِّ عُنْصُرِ حَقٍّ من عناصِرِها، وقد عَلِمْنَا أنّ كُلّ ما ثَبَتَ عن الرَّسُول ﷺ بيقينٍ فهو حقٌّ يجب الإيمانُ به، وإنكارُه كُفْرٌ.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾: أي: وبَرْهَنُوا على صِدْقِ إيمانهم بأعْمالٍ صالحاتٍ فيها مرضاةٌ للَّه عزّ وجلّ، ودلّت النصوصُ القرآنيّةُ الكثيرة على أنّ (ال) في الصالحات هُنا ليس المراد بها استغراق كُلّ الصالحات الّتي أمَرَ اللَّهُ بها عبادَهُ المؤمنين، بل ما يَدُلُّ منها على صِدْقِ الإيمان، فنقول: (ال) هنا جِنْسِيَّة. والمراد بها جنس الصالحات، فيكفي لاستحقاق دخول الجنَّةِ ولو بَعْدَ التطهير بالعذاب، أن تَكْسَبَ النَّفْسُ في إيمانها الصحيح الصادق خيراً.

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾: أي: أُعِدَّتْ لهم بفضل اللّه العظيم جنّاتٌ.

الجنَّة: ما يحتوي على أشجار وثمارٍ وزُرُوع، وقد تحتوي مع ذلك علىٰ أنهار وقصورٍ، وكلّ ما يُمْتِع النفس والحواسّ.

ودار النعيم يوم الدين فيها جنّاتٌ متعدّداتٌ باعتبار أقسامها، ويجمعها جميعاً اسم جَنَّة، ولدى ملاحظة أقسامها، ومنازلها المتفاضلات، بحسب أحوال عباد اللّه المؤمنين المتفاضلة، فهي إذَنْ جنّات.

﴿تجري من تَحْتِهَا الأنهَار﴾: أي تجري من تحت فروع أشجارها وما فيها من ثمرات، ومن تحت قصورها، وأسِرَّتِهَا وآرائكها، ومجالِسِ المُنعَّمِين فيها، أنهارٌ مُتنَوِّعَة، فمنها أنهارٌ من ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وأنْهَارٌ من لَبَنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه، وأنهَارٌ من خَمْرٍ لذَّةٍ للشَّاربين، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّىٰ، كما وَصَفَ اللّه عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ . . . ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَثَلُ الجنة﴾: أي: وَصْفُ الجنّة.

﴿مِن مَاءٍ غَيرِ آسِنٍ﴾: أي: من ماء غير متغيّر الطعم بما خالَطَهُ ممّا يُفْسِدُه، يُقَالُ لُغَةً: أسَنَ الماءُ يَأْسُنُ أَسْناً وأُسُوناً، إذا تغيَّر طعمه بالمنتناتِ فهو لا يُشْرَبُ.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾:

﴿الفَوْزُ﴾: يأتي بمعنى الظفر، والنجاة من الشرّ، والرِّبح، يقال لغة: فَازَ يَفُوزُ فَوْزاً ومَفَازاً ومَفَازَة.

وأيُّ فَوْزٍ أعظم وأكبر من النجاة من عذاب اللّه يَوْم الدّين، وأيُّ ظَفَرٍ أعْظَمُ من الظفر بجنّاتِ النعيم.

وفي الإشارة إلى أنَّ هٰذا الفوز فَوْزٌ رَفِيعُ المنزلة عظيم، اختير في النّصّ الإشارَةُ إليه باسْم الإشارة الذي يستعمل للبَعِيدِ، والمرادُ هُنَا بُعْدُ مَنْزِلَتِهِ في جهة الارتفاع، فقال اللّٰهُ عزّ وجلّ:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ⑪﴾:

أي: فهو عالي المنزلة جدّاً، وهو الكبير أيضاً، فجَمَعَ هذا الفوز وَصْفَيْنِ جَلِيلَيْن: عُلُوَّ المنزلة، وكِبَرَ الذَّاتِ وعِظَمَهَا.

هذا الفوز الكبير أعَدَّهُ اللّٰهُ عزّ وجلّ للّذين آمنوا وعَمِلُوا الصّالحات، فجَمَعُوا بَيْنَ الإيمان القلبيّ الصادق الصحيح، وبَيْنَ العمل الصالح، وقد دلَّتْ النصوصُ المختلفةُ على أنَّ العَمَل الصَّالح هو المظهر السُّلوكي السَّوِيُّ للإيمان المُسْتَقِرّ في القَلْب.

(٧)

التدبُّر التحليليّ للدّرس الثالث من دروس السورة

وهو الآيات من (١٢ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ⑬ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ⑭ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ⑮ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ⑯﴾.

- قرأ جمهور القرَّاء العشرة: [المَجِيدُ] بالرَّفع صفة للّٰه عزّ وجلّ، الذي هو الغفور الودودُ ذو العَرْش.

وقرأ حمزة، والكسائيُّ، وخَلَف: [المَجِيدِ] بالجرّ، صفَةً لِلْعَرْش.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فاللّٰه هو المجيد، والعَرْشُ مخلوقٌ مجيدٌ عظيم من مخلوقات اللّٰه العظمى.

المجيد: صيغة تكثير ومُبالَغةٍ للماجد، مأخُوذٌ من المَجْدِ، وهُوَ بُلوغُ غايةِ الشَّرف، ونهاية الكَرَم.

تمهيد:

إنّ الوعيد بعذابٍ في جهنّم، والوَعْدَ الكَريم بجنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، يوم الدّين، اللَّذَيْن اشتملَتْ عليهما آيتا الدرس الثاني من دروس السورة، يَسْتَدْعيان تأسِيسَ أو تأكيدَ طائفةٍ من صفاتِ اللَّه عزّ وجلّ، لربط كلٍّ من الوعيد والوَعْدِ بالقاعدة الإيمانيّة وعناصرها ممّا يتّصِلُ باللَّه عزّ وجلّ، وصِفاتِه وأسمائه الحسنى.

فالوعيد العادل بعذابٍ يوم الدين، يَسْتَدْعي بيان أنّ بطش اللَّه شديد، وأنَّه هو الذي يُبْدِئ الخَلْقَ ثم يُعيدُه بحكمته، وقدرته، وكمال علمه، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

والوَعْدُ الكريم بالفضل يَسْتَدْعي بيان أنَّ اللَّه جلَّ جلالُهُ هو الغفور لذنوب المؤمنين، وهو الودود الذي يمنحهم بودِّه لهم فُيُوض عطاءاته التي لا تنقطع في جنّات النعيم.

وذكر الجنّات العظيمات الموعود بها، وهي من أمور الغيب عن العباد في الحياة الدنيا، يحْسُنُ معه ذكر العرش العظيم، الّذي هو فوق السماوات السبع، ولا يستَبْعِدُ وُجُودَهُ راصِدُو المجرّات العظيمات البعيدات في السّماوات.

وكلٌّ من الوعيد بالعدل والوَعْدِ بالفضل يَسْتَدْعي بيان أنّ اللَّه عزّ وجلّ فعَّالٌ لما يُرِيد، وقد عُلِمَ من سائر النّصوص أنَّ إرادته سُبْحانه وتعالىٰ لا تفارقُ حكمته، فكُلُّ مُراداته جلَّ جلالُهُ حكيمة.

* * *

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

هذا خطابٌ موجَّهٌ بصورةٍ إفراديَّةٍ لكُلِّ مكلَّفٍ مأمُورٍ بالإيمان والعمل الصالح ممَّنْ يَفْهَمُ الخطاب، لتحذيره من بطش اللّه عزّ وجلّ المعجَّلِ والمؤجَّل إلى يوم الدين.

البَطْش: هو التناوُلُ والأَخْذُ بشِدَّةٍ لأيِّ شَيْء، والأَخْذُ القويُّ الشديد، والسَّطْوُ في سُرْعَةٍ وقُوَّة.

فإن كان للإمْسَاك بالشيء، كانت الشدّة في القبض عليه.

وإن كان لقتله بيدٍ أو سَيْفٍ أو غير ذلك، كان البطش بشدّة وسطوة وعُنْف.

وإن كان لمعاقبته كان المعاقَبُ عاجزاً عن الإفلات.

تقول لغة: بطَشَ يَبْطُشُ ويَبْطِشُ بَطْشاً.

وقد وصَفَ اللّهُ بَطْشَهُ بأنَّهُ شديد، للدّلالة على أنّ أخذه للظالمين أخْذٌ لا يُمْكن الإفلاتُ منه.

وفي ذِكْر اسم «ربّ» من أسماء اللّه تَنْبِيهٌ على سلطانِه التامّ على عباده المربُوبين له في كلّ وَحْدَةٍ زمنيَّةٍ مهما كانت صغيرة طوال وجودهم في الكون، فاللّه رَبُّ كلّ شيءٍ وجوداً وبقاءً وإعداماً.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾:

أي: إنَّ رَبَّكَ هو وَحْدَهُ يُبْدِئُ خَلْقَ الخَلْقِ، ثم إذا جاء أَجَلُ ما خَلَقَ أنْهَىٰ صُورَته، وأفْنَىٰ مادّته، ثُمَّ يُعِيدُهُ مرَّةً أخرىٰ إذا شاء.

وقد علمنا أنّ الغايةَ من إعادة خلق النّاس تَحْقِيقُ قانون الجزاء بالعدل أو بالفضل على ما كان في حياة الامتحان ضمن ظروف الحياة الدنيا.

﴿يُبْدِئُ﴾: تقولُ لغة: أَبْدَأْتُ الشَّيْءَ وبَدَأْتُه، واختير في الآية فِعْل: [يُبْدِئ] دون فعل «يَبْدأ» ليَتَّسِقَ في التَّوازن اللّفظي مع [يُعِيدُ] فهذا من الجماليات اللّفظِيّة.

ولمّا قَضَتْ حكمةُ اللّه عزّ وجلّ بأنْ تكون الحياة الدنيا حتى آخر لحظة من حياة الإنسان فيها حيَاةَ امتحان، لَزِم أنْ يكون برنامج الخَلْقِ مُشْتَمِلاً على حياةٍ أخرى يكون فيها تحقيق الجزاء، بعد الحساب وفصْل القضاء، وهذا لا يكون إلاّ بالإعادة إلى الحياة بعد الموت.

ولمّا كان إنكار المشركين للْيَوْمِ الآخر قائماً على توهُّم صُعُوبة إعادة الموتَى إلى الحياة بعد فناء أجسادهم، كانَ من الحكمة البيانيَّةِ التَّعْلِيميَّةِ والتربويّة عَرْضُ قضيَّتَيْ بَدْءِ الخَلْقِ وإعادتِهِ على مستوىً واحدٍ من التكافؤ، فالخالِق الذي بدأ الخَلْقَ على غَيْرِ مثالٍ سَبَقَ، قادرٌ على أن يُعِيدَه بَعْدَ أن يُميتَه ويُفْني جسده.

وقد جاء البيان عَرَضاً دافعاً لأَوْهامٍ قَدْ تَدُورُ في نُفُوس المشركين، قَبْلَ أن تنطلق أَلْسِنَتُهُم بطَرْح شُبُهاتِهم وجَدَلِيَّاتهم حَوْلَ هذا الأمر، كقولِ قائِلِهم فيما بَعْدُ: «مَنْ يُحْيِي العظامَ وهي رَمِيمٌ؟».

- قول اللّه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾:

في بيان أنَّ اللّهَ هو الغفور، إطْماعٌ للمذنبين من عباده بأنّه كثير المغفرة وعَظِيمُها، فهو يَغْفِرُ لِمَنْ آمَنَ به حقّاً، ودَعَاه أن يَغْفِرَ ذُنُوبه، وفيه إشارةٌ إلى أنّ كُلَّ عَبْدٍ من عباد اللّه سيرتكِبُ بعض الذنوب والخطايا حَتْماً، فهو بحاجةٍ إلى أن يَغْفِرَ اللّه له، مَهْمَا تسامَتْ منزلته في درجات التقوى، فالبرِّ فالإحْسَانِ، ومَهْمَا انْضَبَطَتْ استقامتُه على صراط اللّه العزيز الحميد.

﴿الغفُور﴾: صيغةٌ من صِيَغ التكثير والمبالغة، والغَافِرُ في اللّغة هو الساتِر، والمغفرةُ والغفران السَّتْر.

تقول لغة: غَفَرَ يَغْفِرُ غَفْراً وغُفْرَاناً ومَغْفِرَةَ الشَّيْءَ، أي: سَتَرَه.

فاسم اللّه «الغفُور» يَدُلُّ على أنَّهُ جلَّ جلالُهُ كَثِيرُ السَّتْرِ لذنوب عباده، ومن لوازن هذا السَّتْر تجاوزُه عن الذنوب، وصيانة المذنب عمّا استحَقَّ من العذاب عليها، إذا اقتضت حكمته ورحمته ذلك.

﴿الوَدُودُ﴾: صيغةٌ من صِيَغ التكثير والمبالغة، واسْم الفاعل «وادّ» من فعل: «وَدَّهُ، يَوَدُّه، وُدّاً، بتثليث الواو، ووِداداً، بتثليث الواو أيضاً، ووَدادةً ومَوَدَّة».

الوُدُّ: نوع من الحبّ الهادئ الثابت الذي يكون بين الأصحاب والإخوان وذوي العلاقات القويَّة، ولا يُطْلقُ على المشبوب بالعواطف الثائرة، بخلاف الحبّ فهو لفظ عامٌ يشْمَلُ كلّ الأنواع ومنها الودّ.

فاسم اللّه «الوَدُود» يَدُلُّ على أنَّهُ جلّ جلاله كثير الودّ للذين يتقرَّبون إليه بما يحبُّ من صِدْقِ إيمان، وحُسْنِ خُلُقٍ، وفضائل أعمال.

والّذين آمنوا وعملوا الصالحات سيُكَافِئُهُمُ اللّهُ، فيَجْعَل لَهُمْ في قلوب عباده الصالحين في الدنيا وُدّاً، مهما لاقَوْا من الكَفَرَةِ والمشركين من كراهيَةٍ وعِداء، قال اللّه عزّ وجلّ في سورة (مريم/١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

وَوُدُّ اللّهِ عزَّ وجلَّ لعَبْدِهِ شيءٌ عظيمٌ جداً، ينالُ به العَبْدُ من ربّه فُيُوضَ رحَمَاتٍ وخيراتٍ وسَعَاداتٍ ومَعُونات.

وقد أبانت آياتٌ كثيراتٌ مُفْردات الأعمالِ الصالحة الّتي بها يُحبُّ اللّهُ عباده، منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ـ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ـ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ـ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ـ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ـ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ـ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

ويفيد التعريف بـ «ال» لاسمَيْ «الغفور» و«الوَدُود» أنّ اللّهَ عزَّ وجلّ هو الذي له الكمالُ الأعلى من هٰذين الاسْمَيْن، فهو المتفرّدُ في هذا الكمال، حتَّىٰ كأنَّهُ لا غَفُورَ ولا وَدُودَ غَيْرُه.

● قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥﴾:

أي: وهو جلّ جَلاَلُهُ صاحب العرش، الخالق له، والممسك له بالوجود، والمُهيمن عليه بلسطان رُبُوبيَّتِهِ، أفلا يكون بطشُهُ شديداً؟؟ أفلا يكونُ قَدِيراً على أن يجعل عبادَهُ الذين آمنوا، وعملوا الصَّالحات، مُنَعَّمِين أبداً في جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار.

﴿العرش﴾: مَخْلُوقٌ للّٰهِ عظيم، لا يُقْدَرُ قَدْرُه، فوقَ كلّ السَّمَاواتِ السَّبْع وأعظم منها، وهو الذي استوى عليه الرحمٰن، والكرسيُّ دونه، ورُوِي عن ابْنِ عبَّاسٍ أنّ الكرسيّ موضع القدمين.

﴿المَجِيدُ﴾: هذا اسم من أسماء اللّٰه الحسنى، وهو صيغة مبالغة للماجد، مأخوذٌ من المجد، وهو بلوغُ غاية الشَّرف، ونهاية الكرم. وهو من الأسماء الجامعة الدّالّة على أنّ لِلّٰه جلَّ جلالُه كَمَالَ الصِّفات العلِيَّة، والأسماء السَّنِيَّة.

● قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾:

أي: كُلُّ ما يُرِيدُ اللّٰه فهو فعَّالٌ له، مهما كان جليلاً وعظيماً.

﴿فعَّالٌ﴾: صيغة تكثيرٍ ومبالغة لصيغة «فاعل». والغرض من المبالغة تأكيد الدَّلاَلة على أنه يَفْعَلُ ما يُرِيد، بكلّ دقائقه الصُّغْرَى وتفاصيله، وأنَّه يَفْعَلُ ما يُرِيد مهما عظم المُرَاد وجلَّ، لا رَادَّ لقضائه، ولا مُوقِفَ لِفعْلِهِ، ولا يتعَرَّضُ تنفيذه لأي تَقْصِير عن أيَّةِ جُزْئِيَّة من جزئياته. وقد جاء في القرآن بيان أنه إذا أراد شيئاً فإنّما يقولُ له: كُنْ فيكون.

وقد علمنا من جَمْعِ النُّصُوصِ وبالدّليل العقليّ أنَّ إرادات اللّٰه لا تُفارِقُ حِكْمَتَهُ وعِلْمه الشامل.

(٨)

التدبُّر التحليليُّ للدرس الرابع من دروس السّورة

وهو الآيتان (١٧ ـ ١٨)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾.

تمهيد:

إنَّ ما جاء في الدروس السابقة من دروس السورة من بيان قانون الجزاء الربَّانيّ، وبيان أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ذُو بطشٍ شديد، إذا شاء أن يُعَاقِبَ الظالمين المجرمين، يُناسبُهُ تقديم شاهد تاريخيٍّ من وقائعِ التاريخ، وأحْداثه العظيمة ذَاتِ الآثار الباقية، ليُبَيِّن ما أَنْزل اللَّه من إهلاك شامل، ببعض عباده المجرمين، عقاباً مُعَجّلاً وعذاباً أَدْنىٰ، دُونَ العذاب الأكبر الذي سوف يلاقونه يَوْمَ الدّين، فمن كان له عقْلٌ يُدْركُ به سُنَنَ اللَّه بِعِبَادِهِ خاف عقاب اللَّه، وآمَنَ واستقام وعمل صالحاً.

وقد جاء في هذا الدرس الرابع بيانُ الشاهد المناسب، بالإشارة الخفيفة إلى إهلاك اللَّه عزّ وجلّ فرعون وجنودَه، الذين كفروا بموسى وهارون عليهما السلام، وجحدُوا بما جاءا به من آيات، وتابَعُوا بني إسرائيل الخارجين من مصر، لقتل من يقتلونه منهم، واستعادة من يأسرونه منهم للعبوديّة، وإلى إهْلَاكِ اللَّه عزّ وجلّ ثمودَ قَوْمَ النبيّ الرّسول صالح عليه السلام، عقاباً لهم على كفرهم وعنادهم، وإصرارهم على جرائمهم، وقتلهم ناقَة اللَّه التي جعلها اللَّه آيةً لهم على وفق طلبهم، وحذّرَهُمْ رسُولهم من التعرُّض لها بسوء.

- قول اللَّه تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾:

التوجيه المختار هنا في الخطاب، هو خطابُ كلِّ فَرْدٍ صالحٍ

للخطاب، بصُورَةٍ إفرادية، للتّشْديد عليه في تَحْمِيله المسؤوليّة، فهو أبْلَغُ في الدلالة على هذا التشديد مِنْ خِطَابِهِ ضمن الجماعة.

وجَاءَ على طريقة الاستفهام، لانتزاع الجواب بكلمة «نَعَمْ» من المخاطب، فهذا أوقع في النفس من مُجَرَّدِ التذكير بالخَبَرِ، الذي سبق التذكير به فيما كان قد نزل من نجوم تنزيل القرآن، وهو من الأحداث المتواترة المعروفة في التاريخ لدى العَرَبْ المخاطبين الأوّلين بآياتِ القرآن.

فقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ يتضمَّنُ معنى الإحالة على ما سَبَقَ أن أنزل اللّٰه بشأنهم في سورة (الفجر/٨٩ مصحف/١٠ نزول) ليَسْتَحْضِر المخاطبُ صورة بَطْشِ اللّٰه عزّ وجلّ بهم، المبيَّنِ فيها، وفي سُورَة (الشمس) أيضاً.

واقتصَرَ البيانُ في سورة (البروج) على تَوْجيه نظر المخاطب لفِرْعون وثمود، دون عادٍ الذين ذُكِرُوا معهما في سورة (الفجر).

والحكمة الّتي تظهر لي في هذا الاقتصار، أنَّ الَّذِين يَفْتِنُون المؤمنين والمؤمنات، من كفّار قريش، الّذين نَزَلَتْ سورة (البروج) لمعالجتهم، فريقان:

- فريقٌ تُشْبهُ حالهم حال فرعون وجنوده.
- وفريقٌ آخر تُشْبهُ حالهم حال أشقياء ثمود وطغاتهم.

وقد ورد في وصف بعض جبابرة مشركي مكّة، بأنه فرعون هذه الأمّة، ففي أحداث غزوة بدر الكبرىٰ، رُوي أنّ الرسول ﷺ قالَ بشأن أبي جَهْلٍ: «هذا فِرْعَوْنُ هٰذِهِ الأُمَّة».

ومن الملاحظ أنّ اللّٰه عزّ وجلّ حين يذكر الكَفَرَة الّذين أُهْلِكُوا في مصر أيام موسى وهارون عليهما السّلام، يَذْكُرُ «فرعون». وهذا يَدُلُّ على

أنّ فرعون قد كان كلّ شيءٍ في قومه، فالرأيُ رأيُه، والأمْرُ أَمْرُهُ، وهم جميعاً تابعون له ومطيعون؛ إذ هو «الديكتاتور» المُسْتَبِدّ، الّذي اتخذ نَفْسَه رَبّاً عليهم، ولهذا جاء في النصّ: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ⑱﴾ بَدَلاً من لفظ ﴿الْجُنُودِ﴾ والْجُنودُ جَمْعُ «جُنْدٍ».

وبهذا ظهر لنا أنّ التذكير بما فعل اللَّهُ بفرعَوْن وثمودَ، وكيف صَبَّ اللَّهُ عليهم سَوْطَ عَذَاب بسبب طُغْيانهم وعدوانهم، تذكيرٌ بشاهد تاريخيّ واقعيٍّ لمَضْمُونِ قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (البروج): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫﴾.

فَمِنْ شِدَّتِهِ أَنَّهُ أَغْرَقَ فرعون وجُنُودَهُ جميعاً، لم يُبْقِ منهم أحداً، ومن شدَّتِهِ أنَّهُ أَهْلَكَ كُفَّارَ ثَمُودَ جميعاً، فلم يُبْقِ مِنْهُم أحداً.

فمن عَقَلَ اتَّعَظَ وآمَن، واسْتَقَامَ على صراط اللَّه العزيز الحميد، خوفاً من بَطْش اللَّه الشديد.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس السّورة

وهو الآيات من (١٩ ـ ٢٢)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ⑲ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ⑳ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ㉑ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ㉒﴾.

﴿بَلْ﴾: حرفُ ابتداءٍ في الموضعين، ومعناهُ الإضراب، والغرضُ منه إبطالُ شُبهة أنّ الكافرين المتحدَّث عنهم في السورة، والذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات عن دينهم لهم عُذْرٌ في تكذيبهم الرَّسُول محمّداً ﷺ

في نبوّته ورسالته، ولهم عُذرٌ في تكذيبهم بالقرآنِ، على اعتبار أنَّهُ غَيْرُ مُنَزَّلٍ من عِنْدِ اللَّهِ على رسوله.

هٰذِهِ الشُّبْهةُ لَمْ يَأْتِها في سوابق آيات السُّورَةِ ما يُشيرُ إليها، لكن استعمال ﴿بَلِ﴾ الابتدائية، الّتي من معانيها إبطالُ أمْرٍ سابق، والأمْرُ السَّابقُ هُنَا خواطِرُ وأسئلة يَسْتَدْعيها قول اللَّه عزّ وجلّ في السورة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

ومضمونُ هذه الأسئلة التي قَدْ تتحدَّثُ بها الخواطِرُ، يمكن التعبير عنه بما يلي:

ألاَ يَحْتَمِلُ أنْ يكون هؤلاء الذين فَتَنُوا المؤمنينَ والمؤمناتِ مَعْذُورين بما فَعَلُوا باعْتِبَارِ أنَّ الحقَّ لم يَظْهَرْ لهم؟؟

فجاء الإضراب الإبطاليّ بكلمة ﴿بَلِ﴾ الابتدائية، لرَدّ هذا الاحتمال، الذي قد يَخْطُر في البال، ويُوجَّهُ به سؤال.

والمعنى: ليس لهم عُذْرٌ فيما فَعَلُوا، بَلْ هُمْ غارِقُونَ في تَكْذِيبٍ للحَقّ، ولَيْسَ لهم شبهاتٌ تَجْعَلُ لهم عُذراً فيما يقومون به من تعذيب لضعفاء المؤمنين والمؤمنات، لإكراههم على الرّدّة عن الدّين الحقّ الذي آمنوا به، على أنّ الدّين لا يُقْبَلُ عقلاً أن يكون فيه إكراه، ولو كانَ إكْراهاً من أجْلِ الإيمان بدين اللَّه الحقّ، فكيف إذا كان إكراهاً للكُفْرِ به، وللإيمان بالباطل.

﴿في تَكْذِيبٍ﴾: أيْ: مُحَاطُون مِنْ كُلّ جوانِبِ نفوسهم وأفْكارهم وقُلوبهم بتَكْذِيب، والمعنى: ما عِنْدَهُمْ حُجَّةٌ يَحْتَجُّون بها، إلاَّ أن يقولُوا للحقّ لمَّا جاءَهُمْ: هٰذا كَذِبٌ، فَهُمْ يُكَذِّبُونَ به دُونَ أيّة حجّة.

ومثل المكذّبين من مشركي مكّة في عَصْرِ التنزيل الكفرة في أيّامنا هذه التي نَعِيشُها.

فإذا قِيل لَهُمْ: هٰذا رَسُولُ اللَّهِ، وشَاهِدُهُ المعجزة البرهانيّة، قالُوا: هٰذَا كَذِبٌ، وهُوَ كَذَّابٌ لَيْسَ بنبيٍّ ولاَ رَسُول.

وإذا ذُكِرَتْ لَهُمْ: قِصَّةُ أَصْحَابِ الفيل، لم تكن لدَيْهم حُجَّةٌ يَحْتَجُونَ بها إلاَّ أَنْ يَقُولُوا: أَسْطُورَةٌ من أَسَاطير الكذب.

وإذا قيل لهم: هٰذا القرآنُ يَنْطِقُ بالحقِّ، وفيه البيانات المطابقات للحقائق العلميَّة الّتي لم يَعْرِفْها الناسُ إلاَّ بَعْدَ ثلاثَة عشر قرناً، أو أكثرَ، لم تَكُنْ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ يَحْتَجُونَ بها إلاَّ أَنْ يُكَذِّبُوا.

فالمُحَاطُ بالتكذيب من كلّ جوانبِهِ ليس لديه إلاَّ أَنْ يقُولَ عَنْ أيِّ أَمْرِ حقٍّ، هٰذا كَذِب، إذِ التكذيبُ لا يُكَلِّفُ المُنْكِرَ الجاحد من التفكير شيئاً، ويَهُونُ عليه أن يقول دون تفكير، ولا إجهادٍ ذِهْني هٰذا كَذِبٌ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾.

وإذا كانوا غارقين في حمأة التكذيب، وساهين لاهين في أوهام أفكارهم المضطربة، وضلالتهم عن الحق، فاللَّه من وراء دائرة تحرُّكاتِهِمْ في الحياة محيط، لا يستطيع أَحَدٌ منهم أن يفلتَ من بطشِ اللَّه به، وعقابه له متى شاء أن يحقّق عدله فيهم.

- قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: وبما أنّ الّذِين كفروا مُحَاطُون من كلّ جوانبهم بالتكذيب الذي هم منغمسون فيه، فإنَّهم يَفْعَلُونَ ما يَفْعَلُونَ من طُغْيان وتعذيبِ للمؤمنين والمؤمنات بغية فِتْنَتِهِمْ عن دينهم، دون أن يَشْعُرُوا بخوفِ من عقاب اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ودون أن يُحِسُّوا بوخزِ في ضمائرهم ووجْدَاناتهم.

لكِنْ: هل هم مَتْرُوكُونَ، أو مُفْلِتُونَ مِنْ عذَاب اللَّهِ العَزِيزِ الجبَّارِ القَهَّارِ؟

الجواب: إنَّهم غير متروكين، وغَيْرُ مُفْلِتِين من عذاب اللَّه وانتقامه، لأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بقوَّتِهِ، وقُدْرَتِهِ، وسُلْطانه، وعِلْمِهِ، من وَرَاءِ كُلِّ شيءٍ فيهم، وكلِّ جُزْءٍ من أجزائهم، وكُلِّ قُوَّةٍ يَمْلِكُونَهَا، مُحِيطٌ إحَاطَةً تامَّةً، لا تَدَعُ لَهُمْ مَهْرَباً من عذابه وانتقامه.

وفي هذه الآية تربية بالوعيد الضمني، ليتَّقِيَ اللَّهَ مِنهُمْ مَنْ لَدَيْهِ خوفٌ ما من عذاب اللَّهِ وانتقامه.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾:

تُشير هاتان الآيتان إلى أنّ تكذيب الذين كَفَرُوا لا عُذْرَ لَهُمْ فيه، إذْ تُوجّهان عُقُولَهُمْ وأفهامَهُمْ للتبصُّر بمجد القرآن، فالقرآنُ بمَجْدِهِ العظيم الذي لا يستطيع أن يأتي بشَرٌ بمِثْلِهِ، شاهِدٌ دائم الشهادة للرسول محمّد ﷺ بأنّه رسُولُ اللَّه حقّاً وصِدْقاً، ولهذا استحقَّ أن يُقْسِمَ اللَّه به في قوله في أوائل السورة: ﴿وَشَاهِدٍ...﴾ كما سبق في تدبّر هذه السورة.

فوصف القرآن الّذي هو كلامٌ مُنَزَّلٌ من ربّ العالمين الحكيم العليم العزيز الرحمٰن الرّحيم، بأنه قرآنٌ مجيد، فيه توجيهٌ للعقول والأفهام حتى يتدبَّروه، ليَكْتَشِفُوا من صفاته وخصائصه وإعجازه أنَّهُ قرآنٌ مَجيد حقّاً، بالغٌ غايَةَ الشّرف، والكمال والكَرَم.

وقد وصَفَ اللَّه عزّ وجلّ القرآن بمثل ما وصف به نفسه وعرشَه، فاللَّه عزّ وجلّ مجيد، وعَرْشه مجيد، وقُرآنهُ الذي يُنَزِّله على رسوله محمد بن عبد اللَّه ﷺ مَجِيدٌ.

وللتأكيد على أنّه تنزيل من عند اللَّه عزّ وجلَّ بألفاظه ومعانيه، ذكر

اللَّه عزّ وجلّ في آخرِ آيَةٍ من آيات السّورَة أنَّهُ مُسَجَّلٌ عند اللَّهِ في السَّمَاءِ في لَوْحِ مَحْفُوظ.

وجاء في سورة (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول) قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ بشأن القرآن:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾.

ومن الجمع بين النَّصَّيْن نَفْهَمُ أنّ القرآن مُسَجَّلٌ عند اللَّه عزّ وجلَّ في كِتَابِ مَكْنُونٍ، لاَ يَمَسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرُونَ، وهُمْ من ملائكته المقرّبين، وهذا الكتابُ في لَوْحِ محفوظٍ بحفظ اللَّه له، من أيّ تغيير أو تَبْدِيل، أو زيادة أو نَقْصٍ.

مَكْنُونٍ: أي: مَسْتُورٌ مُخْفَىٰ، لا تَصِلُ إليه أيْدي المحرّفين والمحرِّفات، ولا فيروسات العابثين والعابثات.

وهكذا ظهر لنا ترابط دروس السّورة ترابطاً حكيماً عجيباً، دائراً حول موضوعٍ علاجيّ واحد.

وبهذا أَنْتَهي من تدبّر سورة «البروج» والحمد للَّه على توفيقه وفتحه وفُيُوض عَطَاءاته، وأسأَلُهُ التوفيق للشكر، والمزيد من فيوض العطاء.

* * *

سُورَةُ التِّين

أو سُورَةُ وَالتِّين

٩٥ مُصحف ٢٨ نزول

(١)

نصّ السورة

سورة التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا
ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ
تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ (٥) إِلَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ (٧)
أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨)

(٢)

ممّا ورد بشأن سورة التين

(١) روى البخاريّ ومسلم وأهل السّنن وغيرهم عن البَراء بن عازب رضي اللّه عنه، قال:

«كان النبيُّ ﷺ في سَفَرٍ فصلّىٰ العِشاء فقَرَأَ فِي إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ (١)﴾ فَمَا سَمِعْتُ أَحَداً أَحْسَنَ صَوْتاً وَلاَ قِرَاءَةً مِنْهُ».

(٢) وأخرج الخطيب عن الْبَراء بن عازب أيضاً قال:

«صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ المَغْرِبَ فَقَرَأَ بِالتِّينِ والزَّيْتُون».

(٣) وأخرج ابنُ أبي شَيْبَةَ في المصَنَّفِ، وعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ في مُسْنَدِهِ، والطَّبَرَانِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ فِي المَغْرِبِ: وَالتِّينِ والزَّيْتُون».

(٤) وَأَخْرَجَ ابْنُ قَانِعٍ وَابْنُ السَّكَنِ والشِّيرَازِيُّ في الأَلْقَابِ، عَنْ زُرْعَةَ بْنِ خَلِيفَةَ قالَ:

«أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْيَمَامَةِ، فَعَرَضَ عَلَيْنَا الإِسْلَامَ فَأَسْلَمْنَا، فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْغَدَاةَ قَرَأَ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ».

(٥) وأخرج أحمد وأبو داود والترمذيّ وابن المنذر والحاكم وصحّحه وابن مَرْدَوْيه والبيهقيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَرَأَ مِنكُمْ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾ فَانْتَهَىٰ إِلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَىٰ، وَأَنَا عَلَىٰ ذٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِين.

ومَنْ قَرَأَ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١﴾، فَانْتَهَىٰ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى.

ومَنْ قَرَأَ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾، فَبَلَغَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ».

قال الشوكاني: وفي إسناده رجلٌ مجهول.

* * *

(٢)

موضوع سورة التين

موضوع سورة التين يدور حول بيان الحكمة من خلق الإنسان في أحْسَنِ تقويم، وهي ابتلاؤه الذي يستلزمُ مَنْحَهُ حرِّيَّة الإرادة وسائِرَ شروط الامتحان الأمثل، وحرّيةُ الإرادة لا بُدّ أن يكون من آثارها تفاوُتُ النّاسِ وتفاضُلُهم في اختياراتهم، من أرفع الدرجات ارتقاءً، حتَّىٰ أخَسِّ الدّرَكات هُبُوطاً.

وهذا الامتحان يَسْتَلْزِمُ حتماً في حكمة الحكيم تحقيقَ نتائجه بثواب المرتقين بحَسَب درجات ارتقاءاتهم، وبعقابِ الهابطين بحسب دركات انحطاطاتهم، وهٰذا هو الدِّين، أي: الجزاءَ الّذي تقتضيه الحكمة.

والجزاءُ لا بُدَّ أن يسبقه الحسابُ وفَصْل القضاء، وبما أنّ تحقيق الجزاء الأمْثل غير موجود في ظروف الحياة الدنيا، فلا بُدَّ أن تشتمل خُطَّةُ الحكيم العليم القدير على حياةٍ أُخرَى يكون فيها تحقيق الإدانة، وتنفيذ الجزاء، ويَوْمُ الدّين هو اليومُ المقرَّر في خُطّة التكوين، لتحقيق الغاية من الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

والأُسْلُوبُ البيانيُّ المختارُ الّذي جاء في هذه السُّورة للدَّلاَلَة على عَنَاصِر هذا الموضوع، قد جاءَ أسْلُوباً عجيباً، بدأ بالقَسَم بمهابط الوَحْي الّذي تَنَزَّلَ برسالاَت اللّه على نُخْبَةٍ مِنْ كِبارِ أنبياء اللّهِ ورُسُلِهِ، ليبلِّغُوها للناس، أمّا المُقْسَمُ عليه فَهُوَ خَلْقُ الإنسانِ في أحْسَنِ تَقْوِيم، الّذِي كان من ظواهره مَنْحُ الإنسانِ حُرِّيَّةَ الإرادة الّتي هِيَ مُصَغَّرٌ ضَئِيلٌ يَدُلُّ على أنَّ للّهِ الإرادَةَ الحكيمةَ العظمىٰ الّتي يختار اللّه بها كلَّ أمرٍ حكيم، ومَنْحُهُ العِلْمَ والإِدْرَاكَ الّذي يَعْرِفُ به موادّ امْتِحَانِهِ، وتمكينُهُ مِنْ ظواهر القُدْرَةِ الّتي يَشْعُرُ مَعَها أنَّهُ يُنَفِّذُ بها ما يُرِيدُ، ومَنْحُ نَفْسِهِ عَنَاصِرَ الأهواء والشهوات والرغبات،

وأحاسِيسَ اللذّة والألَم، ودوافعَ الإقبال لتحقيق المطالِبِ المحبُوبَة، ومُثِيراتِ النفور خوفاً من المَكَارِهِ والمؤلمات، في ظروف الحياة الدنيا.

وقَفَزَ البيان في السُّورة من خَلْقِ الإنسان في أحْسَنِ تقويم إلى بيان واقع الإنسان بعد رِحْلَةِ الامتحان، إذْ كانَ من أفراده من اختار لنفسه أحَطّ الدركات، فرَدَّهُ اللّه بحِكْمَتِهِ وعَدْلِهِ إلى أسْفَلِ سافلين، وكان من أفْرَادِهِ من اختارَ لنفسه دُونَ ذٰلِكَ، حَتَّى أُولَى دَرَجَاتِ الارتِقاء فَحَمَىٰ نفسه مِنْ عقاب اللّه بأن آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، ولا بُدَّ أنْ يَتَفَاضَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات فيما بَيْنَهُمْ، فَيَرْفَعَهُم اللّهُ في الدَّرَجات، حَتَّى تَتَسَاوَىٰ الدرجاتُ العُلْيَا مَعَ كَوْنِ الإنسانِ مَخْلُوقاً في أحْسَنِ تَقويم، وهٰذه الدرجات الرَّفيعات ثوابُها الدَّرجَات المناظرات لها في الفردوس الأعلى من جنّاتِ النعيم يَوْمَ الدّين، فمنازلها هي المنازل الملائمة لِمَنْ خلقه اللّه في أحسنِ تقويم.

أَلَيْسَ هذا الدّينُ هو ما تقضي به حكمة الخالق الرَّبّ الَّذِي هو أحْكَمُ الحاكِمين؟!

فما الَّذِي يَجْعَلُ المنكرَ الجاحِدَ يُكَذِّبُ بالدّين، وكلُّ آثار صفاتِ اللّهِ الرَّبِّ في كَوْنِهِ تَدُلُّ على أنَّهُ أحْكَمُ الحاكِمِين، وأحْكَم الحاكمين لا يمكن أن يَخْلُقَ الناس عَبَثاً، ولا يُمْكِنُ أنْ يَخْلُقَ السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا باطلاً؟!! بَلْ لا بُدَّ بَعْدَ رَحْلَةِ الحياة الدّنيا من حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضاءٍ، وتَنْفيذ جزاءٍ، يَوْمَ الدّين، هذا ما تقضي به حِكْمَةُ أَحْكَمِ الحاكمين، وهذا مَا تُوجِبُهُ البراهين العقليّة، والحججُ القَاطِعَة المُسْتَنِدَةُ إلى معرفة صفات اللّه الّتي تَدُلُّ عليها آياتُهُ في كَوْنِهِ.

* * *

(٤)

دروس سورة التين

تشتمل سورة التين على درسَيْن:

الدَّرْس الأول: الآيات من (١ ـ ٦).

وقد تضمَّن هذا الدّرسُ القَسَمَ الرَّبَّانيَّ بأرْبعة من مهابط وَحْيِهِ، الّتي اختارها جلَّ جلالُه لتنزُّلات الوَحْي على طائفة مِنْ رُسُلِهِ الكرامِ، برسالات اللَّه للناس، على أنَّهُ جلَّ جلالُهُ خَلَقَ الإنْسَانَ في أحْسَنِ تقويم، ليبلُوَهُ في ظروف الحياة، ثُمَّ ليُجَازِيَهُ يوم الدِّين، فكان من الناس بعد الامتحان مَنْ أنْزَلَهُ اللَّه إلى أسْفَلِ سافلين لأنَّهُ اختار لِنَفْسِهِ الكُفْرَ بربّه، وارتكاب أقبح الجرائم، وكان من الناس من اختار لنفسه بالإيمان والعمل الصالح أعلى الدرجات، وبَيْنَ أعلى الدرجات وأخَسِّ الدّركاتِ اختيارات اختارها الناس بإراداتهم الحرَّة في رحلة امتحانهم.

الدَّرْس الثاني: الآيتان (٧ ـ ٨):

وقد اشتملتا على لَفْتِ نظر المكذِّب بالدِّين إلى أنَّ اللَّه أحْكَمُ الحاكمين، أي: وأحْكَمُ الحاكمين لا يُمْكِنُ أن يَخْلُقَ الناس عَبَثاً، دون أن يُقرِّرَ في خُطَّةِ تكوينه يوماً للحساب وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء بالعِقَاب لمستحقِّيه بالعَدْل، وبالثواب لمستحقّيه بالفضل الربَّاني، على اختلاف درجاتهم في الثواب، واختلاف دركاتهم في العقاب.

* * *

(٥)
التدبُّر التحليليّ للدّرس الأول من درسَي السورة

الآيات من (١ ـ ٦)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

في هذا الدرس من درسَيْ السُّورة يُقْسِمُ رَبُّنا جَلَّ جلالُهُ بمَهَابِطِ وَحْي أرْبَعَةٍ، مُخْتَارَةٍ اخْتِياراً حكيماً، من عُمُومِ أرْضِهِ الّتي خَلَقَها لسُكْنَىٰ النّاس، في رِحْلَة امتحانهم في الحياة الدنيا.

ذكر المفسّرون في تفسير المراد بقوله تعالىٰ:

- ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾:

آراءً لَيْسَ لَهَا سَنَدٌ مِنْ بيانات الرسول ﷺ، وأَحْسَنُهَا فيما أرَىٰ، ما هُوَ مُنْسَجِمٌ ومُتَنَاسِقٌ مَعَ القَسَم بطُورِ سِينِينَ، والقَسَم بمكَّة البَلَدِ الأمين، وهو أيضاً الملائمُ لِمَا جاءَ في السورة بَعْدَ الأقْسَامِ الأربعة.

إنّ القَسَمَ بمهبط الوَحْي الرَّبَّانيّ على موسىٰ عليه السّلام، وهو «طُورُ سينين» والقَسَم بأوّل مَهَابط الوَحْي على محمَّدٍ خاتَم الأنبياء والمرسلين، وهو «البَلَدُ الأمين» مكّةُ المكرَّمَةُ، يُلائمُهُ القَسَمُ بمهابط الوحي على جُمْلَةٍ من أنْبياء اللّهِ ورُسُلِهِ عليهم السَّلام، وهي بلادُ التّين والزّيتون.

- فَالقَسَمُ بالتِّين هو على تقدير: ومَنَابِتِ شجر التّين، وهي بِلَادُ الشَّام، إذْ كانَتْ مَعْرُوفةً بهٰذِهِ الشَّجَرَةِ المباركة قديماً، فإذا قال قائل قديماً لمسافرٍ: إلى أيْنَ أنْتَ مُسَافِرٌ؟ فقال له: إلى التين. عُلِمَ من جوابه أنه مُسَافِرٌ إلى بلاد الشَّام، لكَثْرَةِ ووفْرَة أشْجَارِ التين فيها.

وفي ذكر التّين إشارةً إلى بلاد الشَّام، وعنواناً لها، مَعَ أنَّ فيها أشجاراً أخرىٰ غير أشجار التّين، تَنْويهٌ ضِمْنِيٌّ بقيمة هٰذِهِ الشّجرة، ذات الثمرة المباركة، العظيمة الغذاء والنفع.

وقد كانت بلادُ الشّام مهابطَ وَحْي اللَّهِ عزّ وجلّ لطائفةٍ جَلِيلَةٍ من أنبياء اللَّهِ ورسُلِهِ عليهم الصَّلاة والسلام.

والتّينُ لم يُذْكَرْ في القرآن باسمِهِ الصّريح إلاَّ في هٰذِهِ السُّورَةِ فقط.

● والقَسَمُ بالزَّيْتُونِ هو أيضاً على تقدير: ومنابت شَجَرِ الزَّيْتُون، وهي بلادُ فلسطين على وجه الخصوص من أرْضِ الشَّام الكبرى، إذْ كانت بلاد فلسطين معروفة قديماً بهذِهِ الشجرة المباركةِ، فإذا قال قائلٌ قديماً لمسافرٍ: إلى أيْنَ أنت مُسافِرٌ؟ فقال له: إلى الزّيتون. عَلِمَ من جوابه أنّه مُسَافِرٌ إلى بلاد فلسطين، لِكَثْرَةِ ووفرة أشجار الزيتون فيها، وشهرتِها بها في أزْمان تَنَزّلاَتِ الوَحْي قديماً، وقد تكون المنابِتُ الأخرىٰ لشَجَرَةِ الزَّيْتون في عصورِ تنزّلاَتِ الوحي، قد كانت مَهَابِط وَحْي على طائفة من الأنبياء.

وفي ذكرِ الزّيتون عنواناً لبَعْض مهابط الوَحْي، مع أنّ فيها أشجاراً أخرى غير أشجار الزيتون تنويهٌ ضِمْنِيٌّ بقيمة هذه الشجرة العظيمة ذات الثمرَةِ المباركة الّتي وَصَفَهَا اللَّه عزّ وجلّ بقوله في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ... ﴿٣٥﴾﴾.

وقَدْ ذُكِرَ الزَّيْتُون في القرآن الكريم سِتَّ مرَّاتٍ، إشادةً بقيمتِهِ الغذائيّة، ونَفْعِهِ العظيم، ونَفْعِ الزَّيْتِ الذي يُعْصَرُ منه.

وقد يكون المراد بالقَسَمِ بالتّين والزّيتون معاً بلاد الشَّام وما حولها

على وجه العموم، فهي مهابط وَحْي، ومواطِنُ رسالاتٍ رَبَّانيَّةٍ جليلة، وقد يُشيرُ إلى هذا جَمْعُها في آيةٍ واحِدَة.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾:

في هذا قَسَمٌ بجَبَل الطّور الّذي كلَّمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ عِنْدَهُ، من وراءِ حِجَاب.

وردَ في معنى «سِينِين» أقوال:

(١) فقال قتادة: هو المبارَكُ الحسَنُ في لغة الحبشة.

(٢) وقال مجاهد: هو المبارَكُ بالسّريانيّة.

(٣) وقال مجاهد والكلبيُّ: كُلُّ جَبَلٍ فيه شجرٌ مُثْمِرٌ فهو سِينين وسيناء، واللَّهُ أعْلَمُ.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾:

في هذا قَسَمٌ بمكَّةَ البَلَد الحرام، الذي هو أوّلُ مَهْبَطٍ وأعْظَمُهُ من مَهَابِطِ وَحْيِ اللَّه لخاتم أنبيائه ورُسُله مُحَمَّد بن عبد اللَّه ﷺ، وفيه أوّلُ بيتٍ وُضِعَ للناس لعبادة اللَّهِ في الأرض.

وقد يُلاحظ المتدبّر التَّدَرُّجَ الارتقائيّ في الأقسام بحَسَب أفضليات مهابط الوَحْي المُقْسَم بها، فأفْضَلُها عند اللَّه عزَّ وجلَّ مكَّةُ البَلَدُ الأمينُ، فطُورُ سِينين، فبلاَدُ الزَّيْتُون فالتّين.

وبالتأمُّل نُدرِكُ أنَّ القَسَمَ بمهابط الوَحْيِ ورُمُوزِ عبادةِ اللَّه في الأرض، يَرْجع عن طَرِيق السَّلاسِلِ الفكريَّة المتلازمة، إلى القَسَم برسالات اللَّه للنّاس، والقَسَمِ بالكُتُب الرَّبّانيّة الّتي أنْزَلَهَا اللَّهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ، لِهدايَةِ الممتحنين المكلّفين، إلى صراط نجاتهم، وسعادَتِهِم، وفَلاحِهِم، وفَوْزِهِمُ الكبير.

ففي ذِكْرِ مَهَابِطِ الوَحْيِ إشارَةٌ إلى الوَحْيِ، ومضمونُ الوَحْيِ رسَالاَتٌ رَبَّانِيَّةٌ للناسِ، يُبَلِّغُها أنبياءُ مُرْسَلُونَ، وفي هٰذِهِ الرّسالاَت الرَّبّانيَّة كُتُبٌ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ العليم العزيز الحكيم الرحيم. وكُلُّ هذه أمُورٌ عظيمةٌ جليلة، تستحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللّٰهُ عزّ وجلّ بها، لِمَا فيها من آياتِ حِكْمَتِهِ العظيمة.

وممّا يَظْهَرُ لكل مُتَدَبّر أنّ القَسَم بالرّسالات الرَّبّانيّة للناس، يُشِيرُ ضِمْناً إلىٰ أنّها رسالاتٌ عظيماتٌ جليلات، إذْ هي تَهْدِي للّتِي هي أقْوَمُ، وبسبَب ذٰلِكَ استحقَّت أنْ يُقْسِمَ اللّٰهُ بها، ليَدُلَّ بقَسَمِهِ بها على رفيع مكانتها، وعظيم شأنها، وحُسْنِهَا وكَمالِهَا، وأنَّهَا حَقٌّ وخَيْرٌ، وأنَّهَا السَّبِيلُ الأَقْوَمُ للناس.

- قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾:

هٰذَا هُوَ المُقْسَمُ عَلَيْهِ بمهابط الوَحْي، إنَّهُ التأكيد على أنَّ اللّٰهَ جلَّتْ قُدْرَتُهُ، وعظم سُلْطانُه، وسَمَتْ حِكْمَتُه، قَدْ خَلَقَ الإنسان في أحْسَنِ تَقويم.

إنّ الإشادَة بالرّسالات الجليلات الّتي أنزلها اللّٰهُ عزَّ وجلَّ على رُسُلِهِ، تَسْتَدْعِي تَسَاؤلاً مَفَادُهُ: لماذَا جَعَلَ اللّٰهُ هٰذِهِ الرّسالاَتِ بهذا الكمال والحُسْنِ، ومُشْتَمِلَةً على الهداية للّتِي هي أقْوَمُ؟

وقَدْ جاءَ المُقْسَمُ عليه مشيراً إلى الجواب المسؤول عنه.

والمعنَى: أنَّ مخلوقاً يُخْلَقُ في أحْسَنِ تَقْوِيم يَحْتَاجُ رِسالاَتٍ رَبَّانِيَّةً عظيمةً جليلةً، تَهْدِي هٰذا المَخْلوقَ للّتِي هِيَ أَقْوَمُ، لتُناسِبَ الرّسالَةُ ذَاتُ الصِّراطِ الأَقْوَمِ حَالَ هٰذَا المخلوقِ الذي اخْتِيرَ لهُ أحْسَنُ تقويم في خَلْقِهِ.

إذْ من صفاتِ هذا المخلوق الذي هو الإنسان: أنّه ذُو حياة، وذُو قُدْرَة يُمِدُّه اللّٰهُ بها، وذُو إرادَةٍ حُرَّةٍ، ولَهُ صفات السَّمْعِ والبَصَر، وسائر الحواسّ الظاهرة والباطنة، ولديه القُدْرَة على التعلّم واكتساب المعارف وتدبير الأمور، واستنتاج الأسْبابِ من مُسَبّبَاتِهَا، والنّتائج من مُقَدِّماتها،

ولدَيْه القُدْرةُ على اكتشافِ البواطن من الظواهر، وله صفاتٌ نفسيَّة راقية، كالحبِّ والكراهية، والعفَّة والجود، والشجاعة والحذر، والعطف والرَّحْمَةِ، والإيثار والنَّجْدة، وغير ذلك من صفات نفسيّة.

ومن الظاهر أنَّ مخلوقاً له هذه الصفات هو مخلوقٌ في أحْسَنِ تقويم؛ لأنّ بعض هٰذه الصِّفات في مَدَاها الأكمل الذي ليس فوقه كمال، هي من صفات اللَّه عزّ وجلّ الذي ليس كمثله شيء، وقد فهم بعض العلماء من الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ ومسلم وأحْمَدُ عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنَّهُ قال:

«خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ».

أنَّهُ مَنَحَهُ نَفَحَاتِ مُصَغَّراتٍ ضئيلات من الصِّفات الّتي تُطْلَقُ عَلَيْهَا الأسْمَاءُ الّتي تُطْلَقُ على صفاتِ اللَّه عزّ وجلّ، غَيْرَ أنَّ صفات اللَّه سبحانه أزَلِيَّةٌ لاَ نِهَايَةَ لكمالاتها، أمَّا الإنسان فهو ذو صفات حادثات مَحْدُوداتٍ ناقصاتٍ، فهي تشترك مع صفات اللَّه بإطْلاَقِ بعض الأسْماء عليها، وفي بعض الآثار الصُّغرىٰ، وتختلف في الجوهر والحقيقة، وبسبب إعطاء اللَّه له هذه الصفات كان الإنسانُ مخلوقاً في أحْسَنِ تَقْويم.

ولمّا كان من صفات الإنسان حرِّيَّةُ الإرادة، وكان باستطاعته أن يَفْعَلَ الخَيْرَ والشَّرّ، والطاعةَ والمعصية، كان من الحكمة السّنية وضْعُهُ مَوْضِعَ الامْتِحَانَ، الذي يَسْتَدْعِي الحساب وَفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء. وكان من الحكمةِ تحديد موادّ امتحانه، وإنْزَالُ الرّسالاَتِ الرَّبَّانيّة الّتي تَهْدِيه للّتي هي أقوم، وتُعَرِّفه بِمَا هو مطلوبٌ منه في رِحْلَةِ امتحانه.

فإذا اجْتَازَ امتحانَه بنجاحٍ استحقّ دار النّعيم خالداً فيها مُخَلّداً أبداً، وإلاّ استحَقّ من دَرَكَاتِ الجحيم بحسَبِ دَرَكاتِ معاصيه ومخالفاته، والدَّرْكُ الأَسْفَلُ مِنَ الجحيم يُعَذَّبُ فيه الذين هُمْ من أسْفَلِ السَّافلين.

التقويم: يأتي في اللّغة بمعنى التَّعْدِيل، وتعديلُ كلّ شيءٍ يكون

بحسَبه، فتقويم الرُّمح يكون بجعل عصاهُ معتدلةً مستقيمة، لا عوج فيها، وتقويم المخلوق المعَدّ لوظيفةٍ ما، يكُونُ بمَنْحِهِ العناصِرَ والصّفاتِ اللّازمَة بتعادل، كي يؤدّي وظيفته التي خُلِقَ لها على أحْسَنِ وَجْهٍ.

وباستطاعتنا أن نشرح المُقْسَم به والمُقْسَم عليه بما يلي:

قسماً بالرّسالاتِ العظيمة الهادية للّتي هي أقوم، والمشتملة على بيان الدّين القيّم الذي اصطفَيْنَاهُ للناس، والذي يُلائمُ كمالُهُ حالَ من أنْزَلْنَاهُ لِهَدَايَتهم، لقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ في أحْسَنِ تقويم، فحالُهُ يَسْتَدْعي إنْزَالَ هٰذِهِ الرّسالات القيّمة المشتملة على الدّين القيّم.

﴿لقَدْ خلَقْنَا﴾: اللاّم واقعة في جواب القسم، و«قد» حرفٌ يؤتىٰ به للتحقيق والتوكيد. وجاء الفاعل ضَميرَ المتكلّم العظيم، لأنّ الإنسانَ المخلُوقَ بصفاتِهِ الّتي جعلَهُ الخالقُ بها في أحْسَنِ تقويم، لا يَتِمُّ خَلْقُهُ إلاّ مِنْ قِبَلِ خالقٍ عظيم، فَصفاتُهُ تَدُلُّ على عظمة خالقه، فجاء ضَمِير المتكلّم العظيم مُشْعِراً بذلك.

وقد كان من كمالِ الحِكْمَةِ أن يُهَيّئ الخَالِقُ لهذا المخلوق المتميّز مسكناً رفيعاً جدّاً يُلائِمُ تَفْضيله وتَكْرِيمه، وجَعْلَهُ في أحْسَنِ تقويم، فخَلَقَ لَهُ الفِرْدَوْسَ الأعلىٰ في جنّاتِ النّعيم، وخلق مراتب جنّاتِ النعيم، ودرجاتها للّذين لا يستحقّون باختياراتهم الفردوس الأعلى، وتمّ بخلق جنات النّعيم على اختلاف مراتبها ودرجاتها تحقيقُ حكمة الفضل الرّباني.

ثمّ إنَّ حُرِّيَّة الإرادة الّتي مُنِحَتْ للإنسانِ، جَعَلَتْهُ يستطيعُ بها أن يَجْحَدَ خالقه، ويَكْفُرَ به، ويتمرَّدَ على أوامِرِهِ ونَوَاهِيهِ وأحْكامه، أو جَعَلَتْهُ يُؤْثِرُ العَاجلة على الآجلة، فيَقَعُ بالمعاصي والمخالفات، والتقصيرات في القُرُبات التي لَوْ تَقَرَّبَ إلى بارئِهِ بها لكان أهلاً لاستحقاق درجات الفردوس الأعلى يَوْمَ الدّين.

فاقتضت حكمة اللّٰه أن يخلُق داراً أخرى لعقاب الجاحد المعاند الكافر، ولعقاب العاصي المسرف في المعاصي والمخالفات، فخلق دار العذاب، وتمّت بخلقها حكمة العدل الربّاني.

واقتضت حِكْمَةُ اللّٰه جلّ جلاله أنْ تَهبِط درَجَةَ الإنسانِ في منازل الجنّة، إذا كان من أهل الإيمان، وأن ينال الدَّرَجَة التي تُلاَئِمُ اختياراته في الحياة الدنيا طاعةً أو مَعْصِية. وأن يَهْبِطَ إلى دَرَكَاتِ النّار، فَيُوضَعُ في المَنْزِلَةِ والدَّرَكَة الّتي يَسْتَحِقُّها بحسب مَعَاصيه، فإنْ كان من أَهْلِ الكفر ومرتكبي الجرائم الكبرىٰ أنزلَهُ اللّٰه إلى الدركات السُّفْلَى في الجحيم، حتَّىٰ يكونَ مع أسْفَلِ سَافِلِين، وفي الدَّرْكِ الأسفل من النار، والهبوطُ في الدَّركات خاضِعٌ لأحْكَامِ قانون العَدْلِ الرَّبَّاني.

وعندئذٍ يَصْدُقُ على هذا الإنسان أنّ اللّٰهَ عزّ وجلَّ قَدْ خَلَقَهُ مُنْذُ بَدْءِ خَلْقِهِ في أَحْسَنِ تقويم، إلاَّ أنَّهُ قد رَمَىٰ نَفْسَهُ باختيارِهِ الحرّ من عِلّيّينِ، بكُفْرِهِ وجحوده وعصيانه، وطُغيانه وعُدْوانه، وما زالَ يَتَدَنَّى في الدَّرَكاتِ حتَّى صارَ في أسْفَلَ سافِلِين.

وهٰذه الصَّيْرُورَةُ في أسْفَلِ سافِلين، والَّتي جَنَىٰ بها على نَفْسِهِ بإرادَتِهِ الحرَّة، قد تمَّتْ بقوانينِ اللّٰهِ القدريَّة الجزائِيَّة، الَّتِي نَظَّمَ اللّٰه عزَّ وجلَّ بمقتضاها جزاءَه لعباده، على ما يجنون به على أنفسهم باختيارتهم الحرَّة الّتي لا جَبْرَ فيها ولا إكراه.

فَمَنْ رَمَىٰ نفسه من شاهقٍ على صَخْرٍ صَلْدٍ حطَّمَهُ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ وقَتَلَهُ على الصَّخْرِ، بمقتضىٰ قوانينِهِ القدريَّة التكوينيَّة.

ومَنْ تعاطىٰ المخدّراتِ بإرادتِهِ، عاقَبَهُ اللّٰهُ عزّ وجلّ بالإدْمَانِ عليها، بمقتضىٰ قوانينه القَدَرِيَّةِ التكوينيّة.

ومن أَلْقَىٰ نفسه في النار بإرادته الحرّة، أحْرَقَهُ اللَّهُ بالنَّارِ الَّتِي رَمَى نَفْسَهُ فيها، بمقتضىٰ قوانينه القَدَرِيَّة التكوينيَّة.

ومن كفر باللَّه ولم يَتُبْ قَبْلَ مَمَاتِهِ أدْخَلَهُ اللَّهُ النار بمقتضىٰ قوانينِهِ الجزائيّة العادلة. . .

كلُّ هذهِ المعاني يستطيع أن يستخرجها المتدَبّر من القسم بمهابط الوحي، أي: برسالات اللَّه للناس، ومن المقْسَم عليه الذي جاء في:

- قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾:

أي: إنّ هذا الإنْسان الذي خَلَقْنَاهُ بعَظَمَةِ القُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّة، مُحَاطَ الأَجْزَاءِ كُلِّها في أحْسَنِ تَقْويم، نَفْسِيٍّ وجَسَدِيٍّ، قَدْ كانَ مِنْ أفراده من أنْزَلَ نفسه بإرادتِهِ الحرَّةِ، واتِّباعه أهواءَهُ وشهواتِهِ، ووساوِسَ الشياطين وتَسْويلاتهم، إذ اختار لنفسه الجحودَ والكُفْرَ والطغيان، والظُّلْمَ والبَغْيَ والعُدْوَانَ، حتَّى بَلَغَ بها أحَطَّ الدَّرَكاتِ السُّلُوكِيَّةِ الباطِنَةِ والظَّاهرة، فعاقَبْنَاهُ بمقتضىٰ القوانين الجزائيّة العادلة، فَرَدَدْنَاهُ عن مَرْتَبَةِ التفضيل الّتي فَضَّلْنَاهُ بها، جاعلين إيَّاه أسْفَلَ سافلين.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ فوقَهُ مَرْدُودُونَ آخَرُونَ من السَّافلين، في دَرَكاتٍ أخَفُّهَا أولَىٰ دَرَكاتِ المعذَّبين في النَّار دار العذاب يَوْمَ الدِّين، وبينَهمَا دركاتٌ مختلفاتٌ بحَسَب أحوال أهل كُلّ دركة.

صيغة ﴿أَسْفَلَ﴾ تَدُلُّ على مَنْ هو في أحَطِّ الدّركات وأخَسِّها، وجَمْعُ ﴿سَٰفِلِينَ﴾ يَدُلُّ على أصْنَافٍ متفاوتين متخالفين في الانْحِطَاط والتسفُّل.

ويدخُلُ في عُمُوم الرَّدّ أيضاً الخَاسِرُونَ من الدرجات الرفيعة في جنَّاتِ النّعيم، بدءاً من درجات الفِرْدَوْسِ الأعلىٰ، حتى أدنى درجات الجنَّات، ولكلّ مقصّر أو عاصٍ رَدٌّ متنازلٌ بحسب مخالفته لشروط درجات التكريم.

واقتصر النَّصُّ على ذِكْرِ الدَّرَكَةِ السُّفْلَىٰ، لأنَّ فِكْرَ المتدبّر المتأنّي الذي يَغُوصُ إلى أعماقِ المعاني ويَفْتَحُ اللَّهُ عليه، يُدْرِكُ الرَّدَّ إلى ما دُونَهَا باللُّزُومِ العقليّ، وبدلالة سائر النصوص الدّالّة على التفاوت في الدَّرَجات وفي الدَّرَكات، بحسب الاختيارات الإراديَّة للناس.

والرَّدُّ إلى أسْفَلِ سافلين في الصّفات النفسيَّة يكونُ بمَسخِ هٰذِهِ الصّفات إلى ما هو أَخَسُّ من أخسّ البهائم والحشرات، ثمّ إلى أخَسّ من ذلك حين يكون الإنسان جَحُوداً كَنُوداً كَفُوراً، حقوداً حسوداً جبّاراً، قتَّالاً سَفَّاكاً للدِّماء ظلاّماً، عابداً للطّواغيت.

الرَّدّ في اللّغة:

يأتي بمعنى «الصَّرْف»، ويأتي بمعنى «الإرجاع»، وهذا المعنى يُشيرُ إلى أنّ الإنسان لم تكن له أيّةُ صفةٍ من صفاتِ الكمال والتفضيل قبل أن يخلُقَه اللَّه ويمنحَهُ صفاته الّتي فضَّله بها، بَلْ لم يكن شيئاً مَذْكوراً.

وفي قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ توجيهٌ من اللَّه جلّ جلالُهُ للنّاس أن يَدْرُسُوا ويبحثُوا بتَتَبُّعٍ وأَنَاةٍ، ليَكْتَشِفُوا عَظِيمَ مِنَّةِ اللّٰهِ علَيْهِمْ فيمَا وَهَبَهُمْ مِنْ صِفاتٍ تكوينيَّةٍ، نَفْسِيَّةٍ وجَسَدِيَّةٍ.

إنّ الباحثين المُتَتَبّعِينَ من عُلَماءِ الكَوْنِ مَا يَزالُون يَتَتَبَّعُونَ بالدَّرْس والبحث والتجرباتِ والملاحظاتِ هذا الإنسان، من مُخْتَلفِ المجالاَتِ والتخصُّصات، ويَكْتَشِفُونَ ما فيه من عجائب الخَلْقِ وإتقان الصُّنْعِ المُدْهِش، وما تزال تتفتَّحُ أمامَهُمْ مغاليقُ عجائب مدهشةٍ تِباعاً، كُلَّما واصَلُوا البَحْثَ والتأمُّل والاختبارَ والتجربة والملاحظة.

إنّهم كلَّما اكتشَفُوا عجائبَ جَدِيدةً بالنسبة إليهم، تَشَعَّبَتْ أمامَهُم طُرُقٌ ومجالاتٌ لم تَكُنْ في حسبانهم، وفيها من المدْهِشات العجيبات، والمتقنات الرائعات، ما يَجْعَلُهم يتَصَاغرون في مداركهم، فيُؤمِنُ مُؤْمِنُهم بالرَّب العظيم الجليل، ويَسْجُدُ لسلطانه خُضوعاً وخُشُوعاً.

أمّا الدِّينُ الذي جاءت به الرسالات الرّبانيّة، الّتي أقْسَمَ اللَّه بمَهَابِطِ وَحْيِهَا، فهو الحقُّ والخيرُ والتشريعُ الأقْوَمُ الأحْسَنُ، يُدْرِكُ ذلك أهلُ العقل والبصيرة، ويُسَلِّم به أهْلُ الإيمان، وتكشفه التجرباتُ الإنسانيّةُ، الّتي تُعَدِّلُ أحْكَامَها طلباً للأحْسَنِ والأفضل مُقْتَرِبَةً إليه، وتكشِفُه المقارَنَات المتجرّداتُ المقوِّماتُ بإنْصَافٍ، فكُلَّما جَرَّبَ النَّاسُ الأنظِمَةِ الوضعيَّة، الّتي يَضَعُهَا المُقَنِّنُونَ من النّاس بآرائهم، أو بأهوائهم ومصالحهم، وشَاهَدُوا مَا فيها من عُيُوبٍ وسَيِّئاتٍ ومثالِبَ، أدرَكَ أهْلُ العَقْلِ والإنصافِ مِنْهُم حِكْمَةَ اللَّهِ الجَليلَةَ في الدِّين الذي اصْطَفَاهُ للناس.

- قول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

﴿غيرُ مَمْنُونٍ﴾: أي: غَيْرُ مَقْطُوع. يقال لُغَةً: مَنَّ فُلانٌ الشَّيْءَ، أي: قَطَعَهُ، أو لا يَقْترن بما يُشْعِر بالمنَّةِ المؤذِيَة للنفوس.

والأَجْرُ غير المقطوع هو النعيم الذي يَخْلُدُون فيه في منازلهم ودرجاتهم في جنّات النعيم، بحَسَبِ إيمانهم وصالحات أعمالهم.

﴿الّذِينَ آمَنُوا﴾: **الإيمان**: هو التصديق الإراديّ والاعترافُ التامّ الصحيح بأركان الإيمان السّتة وفروعها وأجزائها.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾: **العَمَلُ الصالح**: هو كلُّ فِعْلٍ ظاهرٍ أو باطن، أَمَرَ اللَّه به أوْ رَسُولُهُ أَمْرَ إلزام أو ترغيب، وكلُّ اجتنابٍ أو تَرْكٍ لشَيْءٍ نَهَىٰ اللَّه عنه أو رَسُولُهُ نَهْيَ إلْزامٍ أَو تَرْغيب.

فَيَشْمَلُ العملُ الصالح فِعْلَ أشياءَ، وتَرْكَ أشياء، ممّا يَخْضَع لسلوك النَّاس الإرادي، في أجسادهم، أوْ قُلوبهم، أو نُفُوسهم، أو أفكارهم وخواطرهم الإراديّة.

أمّا ما لا يملكه الإنسان بإرادته من كلّ ذلك، فلا يَدْخُلُ في دائرة مَسْؤُولِيَّتِهِ أصلاً، ولا يُنْسَبُ إليه منه فِعْلٌ ولا تَرْكٌ.

ودلالاتُ كتابِ اللَّه وسُنَّةِ رَسُول اللَّه القوليَّة وغير القَوليَّة، هي التي يَسْتَفِيد الفقهاءُ المجتهدون منها أوامر اللَّه ورسُوله ونواهيهما الإلزاميّة أو الترغيبيّة.

وكلمة (إلاَّ) في الآية أرى أن نَفْهَمَهَا على أنَّها بمعنى «لكن»؛ لأنَّ جعلها من قبيل الاستثناء يجعلُ الناسَ قسمين: إمّا مَرْدُودون لأَسْفَلَ سافلين، وإمّا نَاجُونَ ومنَعَّمُون في جنَّاتِ النعيم بالإيمان، والعَمَل الصالح، بينما تَكْشِفُ قواطع النُّصُوص أنّ النَّارَ دركاتٌ، ويَخْلُدُ في درَكَاتِها كُفَّارٌ ومُشْرِكُونَ لَيْسُوا من أَهْلِ أَسْفَلِ سافلين.

مقارنة بين ما جاء في سورة العصر وما جاء في سورة التين:

ثم إذا أجرينا مقارنة بين ما جاء في سورة «العصر» وما جاء في سورة «التين» لنَجْمَعَ بين النصّين جمعاً تكاملياً، فإنّا نُلاحظُ أنَّ سورة «العصر» قد أبانَتْ أنَّ الإنسان يتعرّضُ دواماً في حياته الدنيا للخُسْر، كلّما مرّت عليه لحظة من لحظات العمر، في نهر العصر العابر من المستَقْبَل إلى الماضي، والسَّبَبُ في هذا عَدَمُ محافظته بالإيمان والعمل الصالح على مرتبة التكريم والتفضيل الّتي مَنَحَهُ اللَّه إيّاها، إذْ خَلَقَهُ في أحْسَنِ تقويم، وهيَّأ لَهُ الفردوسَ الأعْلَى لتفضيله في جنّاتِ النّعيم، إذا هو حافظ عليه باختياره الحرّ، في رحلة امتحانه.

وأبانَتْ سورة «التين» أنَّ اللَّهَ جلَّتْ قُدْرَتُه وحكمتُه قد خَلَقَ الإنسان في أحْسَنِ تقويم، أي الذي يلائمه مسكن الفردوس الأعلى، لكنّ فريقاً من الناس اختار بإرادته في رحلة امتحانه الانحطاطَ في الدّرجاتِ، ثم في الدّركات، إلى أحَطِّها، فرَدَّه اللَّه رَدّاً جزائياً بعقابٍ أوْصَله إلى أسْفَل سافلين.

ولم يَكُنْ في شَيْءٍ من اختياراته مَجْبُوراً، بل كان يَمْلِكُ إرادةً حُرَّةً لا مُجْبِر لها.

ومن الجمع بين دلالات ما جاء في السّورتَيْن نُدْرِكُ أنّ فريقاً من الناس يستمرُّ في واقع الخُسْر، خلالَ رحلة امتحانه، بسَبَبِ تقصيراته، ومَعَاصِيه، وتضييعه عُمْرَهُ الّذِي هو رأسُ ماله في المتَالِفِ، أو فيما يَحْمِلُ به أوزاراً، ثم بِسَبَبِ كُفْرِهِ بربِّه، وجُحُودِهِ لَهُ، وبعنادِهِ وإصراره على الباطل، وإنكارِهِ نِعَمَ اللَّهِ عليه، حتَّىٰ يتسَفَّلَ في الدَّرَكَاتِ إلى أخَسِّهَا وأحَطِّها، وعندئذٍ يَجِدُ نفسه في أسْفَل سافلين، عُقُوبَةً من ربِّه له.

وجاء في سورة (العصر) التصريحُ بأنّ من العمل الصالح التواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر.

وجاء في سورة (التين) التصريحُ ببيان الأجْرِ غير الممنون للذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات.

واشتركت السورتان ببيَان أنَّ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات يُمْكن أنْ يحافظوا على مقاديرَ ممَّا وهبهم اللَّه من تفضيلٍ وتكريم، بحَسَبِ مَقَادِيرِ ما يَكْسِبُونَ بإراداتهم الحرَّة، من ثَرواتٍ من الإيمان والعمل الصالح.

فتكامَلَتِ السُّورتان في بياناتهما حول موضوع التفضيل في أصل الخَلْقِ للإنسان، وخسارته عَبْرَ رِحْلَةِ امتحانه بإرادته الحرَّة في الدّرجات والدّركات، إلى مستوى قد يَصِلُ به إلى أسْفَلِ سافلين.

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دَرسَيِ السّورة

الآيتان (٧ ـ ٨)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

تمهيد:

التدبّر المتأنّي العميقُ لآياتِ الدرس الأول من درسَيْ السورة، هدَى إلى استخراج المفهومات التاليات استنباطاً من لوازم الدلالات المباشرات للألفاظ:

المفهوم الأول: الرّسالاتُ الرَّبَّانيَةُ العظيمة، الّتي اسْتَحَقَّتْ لعظمتها أن يُقْسِمَ اللَّه بمهابط الوحي بها، إشارةً إلى مجدها وسُمُوّ هدايتها للتي هي أقوم، وإشادَةً به، قد أُنزِلَتْ للإنسان الّذي خلقه اللَّه في أَحْسَنِ تقويم، بدلالة أنَّهُ هُو المُقْسَمُ عليه.

المفهوم الثاني: الإنسَانُ قَدْ خلقَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ في أَحْسَنِ تقويم، ليُسْكِنَهُ خالداً مُخلَّداً في أحْسَنِ مَسْكَنٍ، تكريماً لما منحه في خَلْقه من كمالات، وهي جنَّاتُ النّعيم ذاتُ المراتب والدرجات المتفاضلات، والّتي يقَعُ في ذروتها الفردوس الأعلى، بشَرْط أن يَمُرَّ في رِحْلَة امْتِحَانٍ يُثْبِتُ فيها استحقاقه وأهليَّته مع رحمة ربّه وفضله عليه لما كرَّمَهُ خالقُهُ به، ولِلْخُلُودِ في دَارِ كَرَامَتِهِ.

المفهوم الثالث: الإنسانُ الّذي يُثْبتُ امتحانُه عَدَم استحقاقه الخلودَ في دار كرامة اللَّه له، أو يُثْبت امتحانُه أنّ حكمةَ اللَّه تَقْضِي بحاجته إلى التطهير بمقدارٍ ما من العذاب، قبل التفضُّلِ عليه بالخلود في دار كرامة اللَّه، قد خلق اللَّه له في مقابل دار كرامته، دار عذاب، ذاتَ دركاتٍ متنازلات، ويَقعُ في أَحطِّها وأَخسِّها الدَّرْكُ الأَسْفَل، الذي يَسْتَحِقُّ الخلودَ فيه معذَّباً بأشدِّ أنواع العذاب أسْفَلُ السَّافلين.

المفهوم الرابع: حكمةُ اللَّهِ أَحْكَمِ الحاكمين تقتضي لا محالَةَ أنْ يكون الدِّينُ (أيّ الجزاء) ثَمرَةَ امتحانِ ذوي الإرادات الحرَّة الّتي مَنَحَهُم الخالقُ إيَّاها، ليَعْبُرُوا رِحْلَةَ امتحانِهِمُ الأَمْثَلِ دون جَبْرٍ ولا إكراه.

والجزاءُ لا بُدَّ أن يكُونَ مَسْبُوقاً بالسُّؤَالِ، والحساب، وفَصْلِ القضاء.

المفهوم الخامس: الجزاءُ الَّذي تَقْتَضِيهِ حكمة الابتلاء (أي: الامتحان) غَيْرُ مُتَحقّق كَما يَنْبَغِي له في ظُرُوف الحياة الدنيا، فلا بُدَّ إذَنْ أن نَفْهَمْ أنَّ حِكْمَةَ أَحْكَمَ الحاكمين خالِقِ الإنْسان في أحْسَنِ تقويم، قَدْ قَرَّرَ في خُطَّتِهِ إيجاد حَيَاةٍ أُخرَىٰ بَعْدَ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، وهٰذه الحياةُ الأُخْرَىٰ مُعَدَّةٌ لتحقيق الجزاء الأَمْثَلِ بالفضل في دار الكرامَةِ والنّعيم، أو بالعَدْلِ في دارِ للإهانَةِ والعذاب.

وقَدْ سَمَّىٰ اللّٰه زَمَنَ هٰذِهِ الحياة الأخرى: يَوْمَ الدِّين، أي: يَوْمَ الجَزاء. وسمَّاهُ الْيَوْمَ الآخر، وسمَّىٰ دار الإقامة فيه الدّار الآخِرَة.

المفهوم السادس: لمّا كانَ الإنسانُ المخلوقُ في أحْسَنِ تقويم، لا بُدَّ أنْ يَمُرَّ رِحْلَةَ الابتلاء لتَمْيِيزِ أفراده، وقد أنزل اللّٰهُ الرّسالات الّتي تبيّن له مطلوبَ اللّٰه منه، في هذه الرِّحْلَةِ الاختباريّة.

ولمّا كان من أفراد هذا الإنسان مَنْ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّين، ولاَ يُصَدِّقُ بشَأْنِهِ ما جاء به المُرْسَلُونَ الَّذين يُبَلِّغُون رِسالاتِ رَبِّهِم.

كانَ مِنَ الحِكْمَةِ العِلاَجِيَّة العقليّة، أن يُخَاطِبَ اللّٰه عزّ وجلّ هٰؤُلاَءِ المكذِّبين بالدِّين، بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ، كما جاء في الدَّرْسِ الثاني من دَرْسَيْ السّورة.

فقال اللّٰهُ عزّ وجلّ خطاباً لكلّ مكذِّبٍ بالدِّين، بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾:

أي: أيّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ فيَجْعَلُكَ تُكَذِّبُ بالدِّين، أي: بالجزاء الَّذي تقتضيه حِكْمَةُ أحكم الحاكمين، يا أيُّها الإنسانُ ذُو الفِكْرِ القادر على إدراك الحقّ بأدِلَّتِهِ، بَعْدَ أن خلقَكَ رَبُّكَ في أحْسَنِ تقويمٍ.

إنَّ من أجَلِّ عَنَاصِرِ هٰذا التقويم الذي فضَّلَكَ على سائر المخلوقاتِ، قُدْرَتَكَ الفِكْرِيَّةَ على الفَهْم، والاستنباط، وإدْرَاكِ الحقائق عن طَرِيق أدلَّتِها وأماراتها، وإدْرَاكِ بواطنِ الأمُور استنتاجاً من ظواهرها، والاسْتِدلالِ على غَيْرِ المشهودِ بالمشهود، وبالقياس عليه.

أيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ بَعْدَ هٰذا الَّذِي أنت به في أحْسَنِ تقويم، فيَجْعَلُكَ تُكَذِّبُ الرَّسُولَ والقرآنَ المنزَّل من ربّك، بنبأ الدين، الذي سَوْفَ يكون في يوم الدّين، بَعْدَ البعث للحساب وفصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء الأمثل ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾، أي: بالجزاء الحكيم، الذي تقتضيه حِكْمَةُ خَلْقِكَ في أحْسَنِ تقويم.

إنّ النَّظَر الحصيف، إلى الدَّليل العقليّ، لا بُدَّ أن يَهْدِي أُولي الألباب المنصفين، الَّذِين لا يتّبِعُون أهواءهم وشهواتهم ووساوس الشياطين وتسويلاتهم وتزييناتهم، إلى ضَرُورَةِ وجُودِ يوم الدّين، الّذي تقتضيه حَتْماً حِكْمَةُ اللَّه الرَّبّ الخالِقِ العليم القدير، أحْكَم الحاكمين، الّذي يَفْعَلُ مَا يشَاءُ ويَخْتَارُ، فَلَا يُعْيِيهِ ولاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ممّا يُرِيدُ، إنَّما أَمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أن يقُولَ لَهُ: كُنْ فَيكُون.

- ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾؟!!

فإذا قُلْتَ أيُّها الإنْسَانُ المكَذِّبُ بالدّين: بلَىٰ، كَمَا يجبُ عَلَيْكَ عقلاً أنْ تَقُول، فَعَلَيْكَ أن تُؤمِنَ بالدّين، لأنَّ الجزاء الحكيم، على أعمال المخلوق الاختيارية، الموضوع مَوْضِعَ الامتحانِ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، لاَزِمٌ عَقْلِيٌّ ضَرُورِيٌّ، فكَيْفَ بِحِكْمَةِ أَحْكَم الحاكِمين، رَبّ العالمين، الرَّحْمٰنِ الرَّحيم، العَلِيم القدير، مَالِكِ يَوْمِ الابْتِلَاء، ومَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الجَزاء؟!!

﴿أَحْكَمُ﴾: صيغَةُ «أَفْعلُ» تَفْضيلٍ، مِنْ فِعْلِ «حَكَمَ» بمعنىٰ: «قَضَىٰ».

يُقال لُغَةً: حَكَمَ بالأَمْرِ يَحْكُمُ حُكْماً، أي: قضىٰ، ويُقالُ: حَكَمَ لَهُ، أي: أَصْدَرَ حُكْماً لمصحلته، وحَكَمَ عَلَيْهِ، أي: أَصْدَرَ حُكْماً بإدانته، وحَكَمَ بَيْنَهُمْ، أي: أَصْدَرَ حُكْماً فَصَلَ فِيهِ بينهم فأعطىٰ بالحكم ذا الحقِّ حَقَّهُ، وأدانَ مَنْ عَلَيْهِ الحقُّ بالحكم عليه.

﴿أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ﴾: **الحاكمون**: جمع «الحاكِم» اسم الفاعل من حَكَم بمعنى قَضَىٰ، فالحاكم هو القاضي الذي يُصْدِر الأحكام.

وأَحْكَمُ الحاكمين: هو أفضل الحاكمين الذين يَحْكُمُونَ بالعَدْل، وخَيْرُهُمْ، والحاكم الذي يَمْلِكُ صلاحيَّة الحُكْمِ تقتضي حِكْمَتُهُ أَنْ يَقْضِي بين العباد بِمَا يستحقُّون من عَدْلٍ أو فَضْل.

أمّا السّلْسلةُ الفكريَّةُ الّتي هَدَىٰ إليها هذا الدليل القرآنيُّ، الموجَزُ في عبارته، العميق في دلالته، الثَّرُّ في معانيهِ، فهي كما يلي:

أولاً:

لقَدْ غدا معلوماً لك أيُّها الإنسان أنَّ اللَّه عزّ وجلّ هو رَبُّ العالمين، خالقُ كلّ ما سِواهُ ومُبْدِعُهُ، وأنتَ خَلْقٌ من خَلْقِهِ، خلقك بقدرته المقرونة بحِكْمَتِهِ مَنْ علق، وعلَّمَكَ بالْقَلَم، وعلّمَكَ بما وَهَبَكَ من وسائل وقُدْراتِ فِكْرٍ وفَهْم ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَم، وخَلَقَ كلَّ شَيْءٍ فسوَّاهُ أَحْسَنَ تَسْوِيَةٍ للغايَةِ الَّتِي أَعَدَّهُ لها، وقَدَّرَ فَهَدَىٰ، وأَخْرَجَ المَرْعَىٰ، فجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ، وصَبَّ المَاءَ، وشَقَّ الأَرْضَ، وأَنْبَتَ الزَّرْعَ، متاعاً للنّاس وأنعامهم، ومَلأَ كُلَّ شَيْءٍ في كَوْنِهِ بآياتِ وُجُودِهِ، وعِلْمِهِ، وقُدْرَتِهِ، وحِكْمَتِهِ، وهَيْمَنَتِهِ علىٰ كُلِّ شَيْءٍ، إلى غَيْرِ ذٰلِكَ من صفاته وأسمائه الحُسْنَىٰ.

ثانياً:

وغدا معلوماً لك أيُّها الإنسانُ أَنَّكَ مَخْلُوقٌ في أَحْسَنِ تَقْوِيم، قَدْ خَلَقَ رَبُّكَ أَباكَ آدَمَ على صُورَتِهِ، وأَنْتَ ذُرِّيَّةٌ من ذُرِّيَّتِهِ، وبَضْعَةٌ مِنْهُ، ونَسْلٌ مِنْ نَسْلِهِ.

ثالثاً:

وغدا معلوماً لَكَ أيُّها الإنسان أنَّ كُلَّ شَيْءٍ في ذَاتِكَ وفي الكون من حَوْلِكَ، موضوعٌ بعنايةٍ تامَّةٍ، وحِكْمَةٍ بالِغَةٍ، لغايَةٍ حكيمة.

رابعاً:

وغدا معلوماً لك أيُّها الإنسانُ بَعْدَ البياناتِ والأدلَّةِ الّتي وضَعَهَا رَبُّكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، ونبَّهكَ عليها، وناظرَكَ بها، فيما سَبَقَ أن أنزل قَبْلَ سُورَة «التّين» من قرآنٍ يُتْلَىٰ، أنّ الغاية من خلقك بصفاتك التي جَعَلَك بها في أحْسَنِ تَقويمٍ، إنَّما هي امتحانُكَ وابْتِلاَؤُكَ في ظروفِ هذه الحياة الدنيا، لمُحَاسَبَتِكَ، وفَصْلَ القضاء بِشَأْنِكَ، ومجازاتَكَ على اختياراتك وتصرُّفاتِكَ الإراديَّة في رحلة امتحانك.

على أنَّ أولي الألباب الدَّرَّاكَة، تَصِلُ عقولُهُمْ إلى إدْرَاكِ هٰذه الغاية، متىٰ اسْتَبْصَرُوا صِفَاتِ أنفُسِهِمُ الّتي فُضِّلُوا بها على سائر ما يَشْهَدُونَ في الكَوْنِ.

إنَّهُمْ لا يشهدون شيئاً في الكون إلاَّ له غايةٌ حكيمة، فالماء لوظائفه في النبات والأحياء. والنباتُ لوظائفه في الأحياء والبهائم وغير ذلك. وحيواناتُ البَرِّ والبَحْرِ لوَظائفِها الّتي تُؤَدِّيها للإنسان، وَهِيَ مُسَخَّرَةٌ له. وكلُّ ما في الأَرْضِ والسَّمَاءِ مَخْلُوقٌ له، ومُسَخَّرٌ لما وهَبَهُ من قُدْراتٍ متىٰ وَصَلَ إلى مفاتيحها، وأحْسَنَ الانتفاع بها، دون معصيَةٍ للّه عزّ وجلّ في شيءٍ من ذلك.

خامساً:

بقي أن تُدْرِكَ أيُّها الإنسان أنَّ الغاية من خَلْقِكَ حُرَّ الإرادة، أنَّكَ مَخْلُوقٌ لرَبِّكَ، ليَمْتَحِنَكَ فيما آتاك، ثُمَّ يُحاسِبَكَ على اختياراتك في رحلة امتحانك، ويَفْصِلَ القضاء بشأنك، ويجازيكَ بالفَضْلِ إنْ أَحْسَنْتَ، وبالعَدْلِ إنْ أَسَأْتَ.

فَمِنْ غَيْرِ المقبول عقلاً أن يَخْلُقَكَ اللّه بصفاتك الّتي مَنَحَكَ إيَّاها، وفَضَّلَكَ بها على سائر خَلْقِهِ، والّتي تستَطِيعُ بها أنْ تكونَ طاغياً جبّاراً، وفاجراً كفّاراً. والّتي تستطيعُ بها أن تتكبَّرَ وتتعاظم، حتَّىٰ تَدَّعِي الرّبوبية، وتكلّف أمثالك من النّاس أن يعبدوك وتَجْعلَ نَفْسَكَ إلٰهاً على الناس من دون اللّه.

من غير المقبول عقلاً أن يَتْرُكَكَ خالِقُكَ بَعْدَ ذٰلِكَ سُدى، فَلَا يُحَاسِبَكَ، ولا يُجَازِيَكَ، وهو سُبحانَهُ أحْكَمُ الحَاكِمِين.

إنَّهُ لو كان الأَمْرُ كذلِكَ، لكانَتْ عَمليَّةُ الخَلْقِ كُلّه عَبَثاً، ولَهْواً ولَعِباً.

لكِنَّ أحْكَمَ الحاكمين مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ، وعن اللّهْوِ واللّعِبِ.

وهذا الذي يَهْتَدِي إليه أُولُوا الألْبَاب، قَدْ جاء بيانُه والإرشادُ إليه بتفصيلٍ في عِدَّةِ آياتٍ من القرآن المجيد:

(١) فقال اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾؟!

﴿سُدىً﴾: أي: مُهْملاً غَيْرَ مكلَّفٍ ولا مَسْؤُولٍ، وغير موضوع موضِعَ الابتلاء في ظروف الحياةِ الدنيا، وغَيْرَ مُحَاسَبٍ ولا مُجازَى.

(٢) وقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)﴾.

(٣) وقال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧)﴾.

أي: فلَيْس من شأن الخالِقِ أحْكَمِ الحاكمين، أن يَعْبَثَ ويَلْهُوَ بخَلْقِهِ، ولا سِيّما مَنْ يُحِسُّ ويتألّم، ويَفْرَحُ ويَحْزَنُ.

إنَّ خَلْقَهُ مَقْرُونٌ بالحقِّ، ويَهْدِفُ إلى غايةٍ حكيمة.

(٤) وقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

سادساً:

ثمَّ بَعْدَ أن خلقك اللّهُ أيُّها الإنسانُ ليَبْلُوكَ في رحلة الحياة الدنيا، وظروفها المختلفات، ووضَعَكَ مَوْضِعَ الامتحان، بَعَثَ لكَ الرُّسُلَ، ليُبَلِّغُوا عَنِ اللّه مطلوبَ اللّهِ من الإنسان في رحلة ابتلائه، وأَرْسَلَ معهم رسالات، وأنزلَ عليهم الكتاب والميزان.

هذا ما تقتضيه حِكْمَةُ الحكيم، فكَيْفَ بأَحْكَمِ الحاكمين، اللّه رَبّ العالمين.

سابعاً:

وبعد الامتحان يا أيُّها الإنسان، لا بُدَّ حتماً أن يأتي الحساب عن الأعمال الاختياريّة الإراديَّة، وفَصْلُ القضاء بشأنها، وتحقِيقُ الجزاء بالعدل، أو بالفضل.

وبما أنّ هذا لا يتمّ في ظروف الحياة الدنيا، فلا بُدَّ حتماً من أن تكون خُطَّةُ التكوينِ مشتملةً على ظروفِ حياةٍ أُخْرَى، يكون فيها الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء.

فبَعْدَ انتهاء رحلة الابتلاء، ومَحْوِ ظُرُوفِها، لا بُدَّ أن تأتي النَّشْأَةُ الأخرى، بعثاً للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء بالفضل أو بالعدل، وهذه الحياة الأخرى هي حياة البقاء، وفيها دَارُ كَرامةِ اللَّهِ لمستحقّي الخلود في النّعيم بوَعْدِ اللَّه الكريم. وفيها دار الإهانة، للمعذّبين، وللذين يخلُدُونَ فيها من الكَفَرَةِ والفجرة والمجرمين.

فما أبدع الإيجاز وأعْمَقَ دَلالاته في قول اللَّه عزّ وجلّ خطاباً للمكذّب بيَوْمِ الدّين:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾؟!!

بهذا قَامَتْ على الإنسان الحجَّةُ العقليَّةُ البرهانيَّةُ على ضرورة الدِّين بمعنى الجزاء، فلا عُذْرَ لَهُ إذا أَنْكَرَهُ أوْ كَذَّبَ بالأَنْبَاءِ الواردة بشأنه عن الرَّبّ جلّ جلاله.

﴿مَا﴾: اسْمُ استفهامٍ، والمعنى: أيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ أيُّهَا الإنسان على التكذيب بنبإِ يَوْم الدّين.

﴿الدِّين﴾: يأتي في اللّغة بمعنى الجزاء، وهذا المعنىٰ هو المرادُ هنا. تقولُ لُغةً: دِنْتُ فُلاَناً على عَمَلِهِ، إذا جَازيتَهُ عليه، قال الشاعر العربيّ:

دِنَّا تَـمِـيـمـاً كَـمَـا كَـانَـتْ أَوَائِـلُـنَـا   دَانَـتْ أَوَائِـلَـهُـمْ مِنْ سَالِفِ الزَّمَـنِ

﴿أَلَيسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِين﴾: استفهامٌ فيه معنىٰ الإنكار على الكافر المكذِّبِ بنبإِ الدّين، مَع تنبيهه على الحجَّة العَقْلِيَّةِ الَّتي تَدلُّ ذَوِي الألباب على ضَرُورَةِ الدّين، الَّذِي لا بُدَّ أن تقضي به حِكْمَةُ أَحْكَمِ الحاكمين.

وبهذا تمّ تَدَبُّر سورة «التين»

والحمد للَّه على فتحه وتوفيقه

* * *

ملاحق لتدبّر سورة التين

الملحق الأول: حول بلاغيات في السورة.

الملحق الثاني: حول الأمن بمكة البلد الحرام

* * *

(٧)

الملحق الأول

حول بلاغيات في سورة التين

باستطاعة المتدبّر أن يستخرج طائفة من البلاغيات النفيسة في هذه السورة، ومنها ما يلي:

(١) الكناية البديعة الدقيقةُ ذاتُ اللّوازم المتعدّدة للوصول إلى المكنّىٰ عنه بها.

ونجد هذه الكناية في القَسَم بعَدَدٍ من مهابط الوحي، للدّلالة على كمال الرّسالات الرَّبَّانيَّة الّتي أُنزلت فيها على طائفة من رُسُل اللّه عليهم السلام، مُشْتَمِلَةً على الهداية للّتي هي أقوم، ذات الخصائص الملائمة للإنسان الذي خلقه اللّه في أحْسَنِ تقويم، ووضعه في الحياة الدنيا موضع الابتلاء.

ونظير هذه الكناية أن يُقْسِمَ العاشقُ بخالِقِ وَالِدي معشوقته، وخالِقِ البلد الجميلة التي نَشَأَتْ فيها، على أنّ قَلْبَهُ مُرْهَفُ الحسِّ، سَهْلُ الإصابة بسهام الجمال.

(٢) المجاز المرسَلُ بإطلاق اللاّزم وإرادةِ المَلْزُوم.

ونجد هذا المجاز المرسَلَ في جملة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾، تعبيراً عمّا يفعل البارئ جلّ وعلا بالإنسان، للدلالة على أنَّ الإنسانَ قَدْ

تسفَّلَ باختياره الحرّ، اتّباعاً لشهواته وأهوائه وكِبْرِهِ وعُجْبِهِ بنفسه حتَّىٰ أوْصَلَ نفسه إلى الدّركة السُّفْلَى بكُفْرِهِ وسُلُوكِهِ، وهذا مَلْزُوم، فرَدَّهُ اللَّه بعَدْلِهِ رَدّاً عقابيّاً إلى أسْفَل سافلين، وهذا لازمه، فأُطْلِقَ اللاّزِمُ مُتَضَمّناً إرادَةَ المَلْزُوم.

(٣) الأسلوب المختار في هذه السورة هو الأسلوبُ غَيْرُ المباشر، للدلالة على المراد، وهو أسلوبٌ شبيهٌ بالأسلوب الرّمزيّ، مع أنّه ليس منه، إذْ هو مُحاطٌ بدلالات يكشفها المتدبّر، إذا استخدم السَّلاسل الفكريّة العقليّة، للوصول بها إلى المراد.

وهذا من أمثلة العُمْقِ القرآني، الّذي يَكْشِفُه الغوّاصُ لاستخراج المعاني من الأعماق الّتي لَهَا أمَاراتٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا في السُّطُوح.

(٤) التأكيد بالقسم، وببعض أدوات التأكيد الأخرى، وهذا ممّا يَسْهُل اكتشافه.

* * *

(٨)

الملحق الثاني

حول الأمن بمكّة البلد الحرام

وصف اللَّه عزّ وجلّ في سورة «التين» البلد الحرام بالبلد الأمين، أي: بالبلد الكثير الأَمْنِ.

إنّ قضيّة أمْنِ مكّة قضيّةٌ موروثَةٌ منذُ أسَّسَها سيّدُنا إبراهيم عليه السّلام، بولَدِهِ إسماعيلَ عليه السّلام، ثُمَّ بِبِناءِ الكَعْبَةِ المُشرَّفَةِ فيه، على المكان الّذي بوّأهُ اللَّه له، أي: أعْلَمَهُ به، وأنْزَلَهُ فيه، بَعْدَ أنْ أمَرَهُ ببنائه على الموضع، الذي كان فيه أوّلُ بَيْتٍ لعِبادَةِ اللَّه عزّ وجلّ وُضِعَ للنّاس في الأرْضِ، دلَّ على هذا قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وإذْ بَوَّأْنا لإبراهيم مَكَانَ الْبَيْتِ﴾: أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أنّنا هَيَّأْنا مَكَانَ الْبَيْتِ لإبراهيم، وكَشَفْنا لَهُ عن مَعَالِمِهِ، وأَعْلَمْنَاهُ به، ومَكَنَّا لَهُ فِيهِ، لِيَرْفَعَ قواعِدَهُ وجُدْرَانه، ويَجْعَلَهُ بَيْتاً للَّهِ يحُجُّ النَّاسُ إليه، ويكونُ لهم مَثَابَةً وأَمْناً، مُطَهَّراً من الشِّرْكِ والرِّجْسِ مِنَ الأَوْثَانِ، ومن الكفر والفُسُوقِ والعِصْيان.

يقال لغة: بَوَّأَهُ المكانَ، أي: أنزلَهُ فيه. وبوّأ المنزلَ له، أي: أعدَّهُ وهيَّأَهُ له، ويَدْخُلُ في هذا الإعلامُ بهِ وكشفُ معالمه.

ويمكن أن نفهم من تعريف البيت بأداة التعريف «ال» أن تكون للعهد العِلْميّ، فيكون فيها دلالة على أنّه قد كانَ قديماً بيتاً لعبادة اللَّه لأُمَمٍ سالفةٍ قبل إبراهيم عليه السلام، ويؤكّدُ هذا الفَهْمَ قولُ اللَّه عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

بَكَّة: اسم من أسماء مكة البلد الحرام، سُمّيت بهذا الاسم لأنّها كانت تَبُكُّ أعْناق الجبابرة إذا أَلْحَدُوا فيها بظُلْم، أي: تَدُقُّ أعناقهم وتَكْسِرُهَا، وقيل: لأنّها مكانُ ازْدِحام الناس حول بيت اللَّه فيها، يقال لغةً: بكَّ الرَّجُلُ صاحِبَهُ يَبُكُّهُ بكّاً، أي: زاحَمَهُ. وبَكَّ فلانٌ يَبُكُّ بكَّةً، أي: زَحَمَ ودخل في الناس بقُوَّة، وتَبَاكَّ القومُ، أي: تَزَاحَمُوا.

ومعلومٌ أنّه قد كان في الناس قبل إبراهيم عليه السلام أُمَمٌ مكلّفَةٌ أن تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، ولَهَا بُيُوتُ عبادة يَعْبُدُونَ اللَّه عزّ وجلّ فيها، وهذه الآيَةُ تنصُّ على أنَّ أوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاس، هو بيت اللَّه الحرام في مكّة.

وأمْنُ مكّةَ البلَدِ الحرامِ قد تناول ظاهرتين:

الظاهرة الأولى: ظاهِرَةٌ تكوينيَّة، إذْ حَمَىٰ اللَّه جلّ جلالُه مكَّة بجبالها، وطبيعة تكوينها من البراكين والزّلاَزِل، منذ قديم العُصُور الجيولوجيّة المصاحبة للتاريخ الإنسانيّ على الأرض، وكذلِكَ حَمَاهَا من الأحداث الكونيَّةِ الكُبْرَى، فَهِيَ سُرَّةُ الأرض، وأوّل ما بَرَدَ من قِشْرَتِها، وأَرْسَخُ مكانٍ فيها، وصخور جبالها من أقوى الصُّخُور وأصْلَبِهَا(١).

الظّاهرة الثانية: ظاهرةٌ تَشْرِيعيَّة، وتَدُلُّ عليها عدّةُ نصوصٍ قرآنيّة، وفيما يلي استعراضٌ لها مقرونٌ بشيءٍ من التدبّر:

(١) دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يَجْعَلَ هذا البلَدَ بلداً آمناً، وأن يَرْزُقَ من الثَّمرات من آمَنَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ من أَهْلِهِ، فاستجاب اللَّه عزّ وجلّ دُعاءه، ولٰكِنْ عَمَّمَ فَضْلَ رِزْقِهِ فيه على من آمَنَ ومن لم يُؤْمِنْ؛ لأَنَّ الحياة الدنيا حياةُ امتحانٍ للجميع، وما دام الممتَحَنُ في مجال الامتحان فلا بُدَّ أنْ يَنَالَهُ رِزْقُه المقسُوم له طَوال مُدَّةِ امتحانه، تحقيقاً لشروط الامتحان الأمْثَل لجميع الممتَحِنِين.

وقد أبان اللَّهُ عزّ وجلّ هذا بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: قال اللَّه عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السَّلام: قد اسْتُجِيبَتْ دعْوَتُك، ولٰكِنْ لا أَخُصُّ بالمؤمنين الرِّزْقَ بالثمرات فيه، بَلْ سأرْزُقُ فيه من الثَّمَرَاتِ

---

(١) نشرت الصحف ما يلي: [واس ـ القاهرة]: أعلنت نتائج دراسة علمية أجراها المعهد القومي للبحوث الفلكيّة، والجيوفيزيقيّة في القاهرة، أنّ الكعبة المشرفة تمثل مركز الأرض.

مَنْ كَفَرَ أيضاً، وأُمَتِّعُهُ في الحياة الدُّنيا متاعاً قليلاً، ثُمَّ في يوم الدّين أجْعَلُهُ مَسُوقاً بالإكْرَاهُ لأن يكون داخلاً في دار العذاب، وذائقاً فيها عذاب النار، وبِئْسَ هذا المصير الذي هو صائِرٌ إليه.

ونظيره ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في الآية (٣٥).

(٢) وقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا. . . ﴿١٢٥﴾﴾.

مَثَابَةً للنَّاس: أي: بَيْتَ عبادَةٍ يُكَرِّرُونَ الرُّجوع إليه، ومَلْجأً لقُلُوبِهِم ونُفُوسِهِمْ وأمْنِهِم يَلْجَؤُونَ إليه، ومكانَ اجتماعٍ على اللّه يَجْتَمِعُونَ عندَهُ.

وأمْناً: أي: ومكان أَمْنٍ بحُكْمِ شريعة اللّه للمؤمنين من عباده.

واستمرَّتْ قاعِدَةُ الأَمْنِ التشريعيّة للْبَلَدِ الحرام في العَرَب، مُنْذُ عَهْدِ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، حتّىٰ بِعْثَةِ محمد ﷺ، على الرغم من تحريف أهْلِ الجاهليّة للدّين الذي وَرِثُوه من إسماعيل عليه السّلام، وعلى الرُّغْم من إدخالهم الأوثان والشّرك إلى مكّة والمَسْجِدِ الحرام، ونَصْبِهِمُ الأوثان في المسجد وعلى الكعبة.

(٣) وبعد البعثة المحمّديّة، ذَكَّرَ اللّهُ قريشاً بنِعْمَتِهِ عليهم بالرِّزْقِ والأَمْنِ من أجل بيتِهِ «الكعبة المشرّفة» وبلده البلد الحرام، إذْ هُمْ أَهْلُهُ وساكِنُوهُ، فمِنَ الواجب عَلَيْهِم أنْ يَشْكُرُوا رَبَّ هذا البيت، الَّذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ من خوفٍ، فيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، ولا يشركوا بعبادته أحداً، فقال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (قريش/ ١٠٦ مصحف/ ٢٩ نزول):

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

ومعلومٌ أنَّ رِزقَهُمْ وأمْنَهُمْ الدائمين، إنَّما هُمَا بِسَبَبِ هذا البَيْتِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مَثَابَةً للنَّاسِ وأمْناً.

(٤) وأكَّدَ اللَّهُ عزّ وجلّ أمْنَ مكّة البلَدِ الحرام بحُكْمٍ تشريعيٍّ، فقال تعالىٰ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾.

أي: ومن دخله فيجبُ تأمينُه، وقد جاء التعبير بصيغَةِ الخبر المقطوع بوُقُوعه، ومعناهُ التكليفُ الإلْزامِيُّ من درجَةٍ قُصْوَىٰ، إذْ يَحْمِلُ في مضمُونه الوعيد بالعقاب المعجّلَ لمخالفي واجب التأمين في هذا البلَدِ الحرام، الّذي جَعَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ البلَدَ الأمين، فمَنْ خالَفَ فيه واجبَ التأمين، عاجَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بالعقاب، ولَوْ بأيدي السلطة الحاكمة، فيَزْهَبُ كُلُّ مَنْ تُحدِّثُهُ نَفْسُه بالإخْلاَلِ بأمنه، وبذلك يتحقَّقُ مَضْمُونُ قولِهِ تعالىٰ التشريعيّ:

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ...﴾.

(٣) وقَدْ تَعلَّلَ مشركو قريشٍ في رفضهم اتّباع هَذي الرّسول محمّد ﷺ، بأنَّهُمْ إذا اتَّبعُوهُ غضب سائر العرب، فحارَبُوهُمْ وتخطَّفُوهُمْ، وأخرجوهم من بلَدِهِمْ؛ إذ قَبائل العرَب وثنيَّةٌ، وَهِيَ جميعاً تَدِينُ لقريشٍ، بِسَبَبِ أنَّهُمْ سَدَنَة البيت الحرام الذي يُعَظِّمُونَهُ جميعاً، ويَفِدُونَ إلَيْهِ، حاجّين ومعتمرين، وبسبب أنَّهُمْ سُلالَةُ إسماعيلَ بن إبراهيم مُؤسِّسَي البلد الحرام عليهما السّلام، والبانِيَيْنِ للكَعْبَةِ بيت اللَّه، وبِسَبَبِ أنَّهُمْ رُعَاةُ وسَدَنَةٌ للأوثانِ الّتي في مكّةَ والمَسْجِدِ الحرام فيها، وهي

أوثانٌ تعظّمها قبائلُ العرب، فإذا تنكّرَ أهل مكَّةَ لعقائد قَبائل العرب ومقدَّساتهم الوثنيَّة حاربُوهم وتخطَّفُوهم.

فهم بدافع الحرص على وجودهم ومصالحهم، يَرْفُضون اتّباع الرّسول محمّد ﷺ في الدّين الذي جاءَهم به، الذي يَنْسِفُ العقائد الجاهليَّة الشركيَّة وعاداتها وتقاليدَها نسفاً، فَلاَ يُبْقِي إلاّ ما كان من أعمالهم خلقاً كريماً، أو موروثاً صحيحاً عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السّلام من الدّين الحقّ.

فأبان اللَّه عزّ وجلّ لهم أنّ أَمْنَهُمْ وجباية الثمرات لهم من أقطار الأرض، إنّما هي مِنْحَةٌ من اللَّه لهم من أَجْلِ أَنَّهُمْ سُكَّانُ بَلَدِهِ، وسَدَنَةُ بَيْتِهِ المطهَّر، الّذي جعله اللَّهُ قياماً للناس، أي: مكاناً ثابتاً يثُوبُ الناسُ إليه في عباداتهم لربّهم، حاجّين ومعتمرين، ومتوجّهين له في صلواتهم، وجعله أمْناً، أي: مكان أمْنٍ، وأمَرَ بإبْعاد كلّ شِرْكٍ ورِجْسٍ عنه.

وأبان اللَّه عزّ وجلّ لهم أنّ أمْنَهُمْ وجبايَةَ الثمرات لهم ليس بسبب رضَىٰ قبائل العرب عَنْهُمْ، فالنَّاسُ من حَوْلِهِمْ يُتَخَطَّفُونَ وهم آمنون، فقال اللَّه عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾.

(٥) ثُمَّ أنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قولَهُ تعالىٰ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾.

وقد جاء هذا البيانُ بَعْدَ أنْ أذاقَهُمْ اللَّهُ بتأدِيبِ عارِضٍ لباسَ الجوعِ والخوف بسبب ما كانوا يصنَعُون، لِيَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ هو الذي يَمْنَحُهُمْ الرِّزْقَ والأَمْنَ في بلده، لا قبائلُ العَرَب، وما لَهُمْ عندهم من منزلة محترمة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

وكانَ ذٰلِكَ بَعْدَ دُعَاءِ الرسول ﷺ عَلَيْهِمْ بأنْ يَجْعلَها عليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُف، فابْتُلُوا بالقَحْطِ حتَّىٰ أكَلُوا العِظَامَ، وأكلوا الميتة.

وقد ثبت في الصحيحين عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه «أنّ رسولَ اللَّه ﷺ لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَيْه قريش دعا عَلَيْهم بسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّىٰ أَكَلُوا العِظَامَ والجُلُودَ والمَيْتَةَ والجِيَفَ، وصَارَ يَنْظُرُ أحَدُهُمْ إلى السَّمَاءِ فَيَرَىٰ الدُّخَانَ مِنَ الجُوعِ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيانَ فَقال: يا مُحَمَّدُ إنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وإنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ».

لٰكِنْ لم يَرِدْ أنَّ المُرادَ بالقَرْيَةِ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ مثلاً في الآيتَيْنِ الآنِفَتَي الذّكر من سُورَةِ (النّحل) هو ما جاء في هذا الحديث.

إنّما جاء في روايات الحديث ما يدُلُّ على أنَّ ما جاء في هذا الحديث قد جَاءَتِ الإشارة إليه بقول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ

أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ
رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ
عَآئِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦)﴾.

ويرى ابن مَسْعُود أنّ البَطْشَة الكبرىٰ قد كانت يوم غزوة بَدْرٍ الكبرى.

* * *

سُورَة قريش

١٠٦ مصحف ٢٩ نزول

(١)

نصّ سورة قريش وفرشياتها

سورة قريش

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ
وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ
٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم
مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤

---

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿لإِيلَافِهِم﴾ بإثبات الياء.
- وقرأ ابْنُ عامر: ﴿لِئِلَافِهِمْ﴾ بحذف الياء.
- وقرأ أبو جعفر: ﴿لِيلَافِهِمْ﴾ بجعل الهمزة ياءً مَدِّيَّة.

(٢) قرأ جمهورُ القرّاء العشرة: ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ بإثبَات الياء.
- وقرأ أبو جعفر: ﴿إِلَافِهِمْ﴾ بحَذْفِ الياء.

الإيلَافُ: مَصْدَرُ «آلَفَ» يُقالُ لُغةً: آلَفَ فلانٌ الشَّيْءَ، أيْ أَلِفَهُ. «آلَفَ» على وَزْنِ «فاعَل».

الإلَافُ: مَصْدَرُ «أَلِفَ» يُقالُ لُغة: أَلِفَ فُلَانٌ الشَّيْءَ يَأْلَفُهُ إِلْفاً، وَأَلْفاً، وإِلَافاً.

أَلِفَ فُلانٌ الشَّيْءَ، وآلَفَهُ، أيْ: أحبَّهُ وأنِسَ به واعْتَادَهُ ولَزِمَهُ، فَهُوَ آلِفٌ وأَلِيفٌ، وجَمْعُ «آلِفٍ» أُلاَّفٌ.

صيغة «آلَفَ إيلافاً» هي في الأصل تَدُلُّ على المشاركة، مثل: قاتَلَ وبايَعَ وجَاهَدَ، وكثيراً ما تَخْرُجُ عن هذا الأصل فَتَدُلُّ على الكثرة فقط، دون الدَّلالة على المشاركة، والإيلاف في هذه السّورة من هذا القبيل، والأصل فيه أنّ المتشاركَيْن المتقابلَيْن على سبيل المغالَبَة يُبالغُ كُلٌّ منهما في بذل جَهْدِه ويضاعفه ليكون الظافر الغالب.

(٢)

موضوع السورة
وهي ذات دَرْسٍ واحد

هذه السّورة ذاتُ دَرْسٍ واحدٍ مُوجَّهٍ لقُرَيْش، ثُمَّ لكلّ سُكّان مكَّةَ البَلَدِ الحرام من بَعْدِهِمْ حتَّىٰ آخِر تاريخ وجود النّاس فيها.

وفي هذا الدَّرسِ يستحِثُّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ قُرَيْشاً سُكَّانَ مَكَّةَ المكرَّمَة، الّتي فيها بيتُ اللَّه المعظَّم، على عبادة رَبّ هذا البَيْتِ وَحْدَهُ، غَيْرَ مشركين به شيئاً، شكراً له على نِعْمَتِهِ الدَّائمَةِ عَلَيْهم، بالرِّزْقِ والأَمْنِ، من أجْلِ بَيْتِهِ المطَهَّر، بينما يُتَخَطَّفُ الناس من حَوْلِهِم، كما سبق بيانه لدىٰ تدَبُّر سورة (التين) وقَسَمِ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها بالبَلَدِ الأمِين، أي: بمكَّةَ المكرّمة، الّتي فيها بَيْتُ اللَّهِ المعظَّمُ المطهَّرُ.

(٣)

قصّةُ الإيلاف

الإيلاَف، والإلاَف: عنوانٌ اصطلاحيٌّ تجاريٌّ عِنْدَ العرب، علىٰ العَهْدِ والأمان الّذي يَتِمُّ التعاقُدُ عَلَيْهِ بين قادة الأمم، لتأمين خروج ودُخُول السِّلَع التجاريّة والحامِلِين لها، في أراضي الّذِين تعاقَدُوا على الإيلاف.

وقد كان لقريش إيلافٌ ذو امتدادٍ واسِعٍ مع ملُوكِ الرُّوم، وفارس، والحبشة، ومُلوكِ حِمْيَر في اليمن، وقد سخَّر اللَّه لقُرَيْشٍ هذا الإيلاف، وألْهَمَ المُلُوكَ الموافَقَةَ عليه، من أجْلِ بلَدِهِ الحرام، وبَيْتِهِ المطهّر فيه، واستجابَةً لدُعاء خليله إبراهيم عليه السلام، بأنْ يَجْعَلَ هذا البلَدَ آمناً، وبأن يَرْزُقَ أهْلَهُ المُؤْمِنينَ من الثمرات، لكنّ اللَّه في استجابته لم يخُصَّ الرِّزْقَ بالمؤمنين، بل جعَلَهُ شاملاً من آمَنَ ومن لَمْ يُؤْمِنْ في الحياة الدنيا، وأخَّرَ معاقبة الذين كفَرُوا إلى يَوْمِ الدِّين، إلاَّ من تقضي الحكمة إنزال العقاب العاجل به أيضاً مع العقاب الآجل، كالذين تعرَّضوا للعقاب العاجل من مشركي قريش بعد بعثة الرسول محمّد ﷺ.

وقد صنع هذا الإيلاف لقريش سَادَتُها بَنُو عبد مَنافٍ الأربعة، وهم «هاشم، وعَبْدُ شمس، والمطّلب، ونَوْفل» على ما نقل ابن منظورٍ عن ابْنِ الأعرابي، قال: «أصحابُ الإيلاف أربعة: هاشم، وعَبْدُ شمس، والمطّلب، ونوفل، بنو عَبْدِ مناف، وكانُوا يُؤَلِّفُون الجِوَارَ، يُتْبِعُونَ بعضَهُ بعضاً، يُجِيرُونَ قُرَيشاً بمِيَرِهِم⁽¹⁾، وكانُوا يُسَمَّوْنَ المُجِيرين.

- فأمَّا هاشِمٌ: فإنَّهُ أَخَذَ حَبْلاً⁽²⁾ من مَلِكِ الرُّوم.
- وأمّا نوفل: فإنَّهُ أَخَذَ حَبْلاً من كِسْرَى (أي: من مَلِكِ فارس).
- وأخذ عَبْد شَمْسٍ حبلاً من النجاشي (أي: من مَلِكِ الحبشة).
- وأخذ المطّلبُ حبلاً من مُلوكِ حِمْيَر (أي: مُلوك اليَمَن).

فكان تُجّارُ قريش يختلفون إلى هٰذهِ الأمصار بحبال هؤلاء الإخوة فلَا يُتَعَرَّضُ لهم».

---

(١) مِيَر: جمع «مِيرَة» والميرةُ: الطعام الذي يُجْمَعُ للسَّفر أو لأوقات الحاجة إليه.

(٢) حَبْلاً: أي: عَهْداً.

وقال ابْنُ الأعرابيّ أيضاً:

«كان هاشمٌ يُؤْلِفُ إلى الشام، وعَبْدُ شمسٍ يُؤْلِف إلى الحبشة، والمطَّلِب إلى اليمن، ونوفلٌ إلى فارس»

قال ابْنُ الأنباريّ: «ومعنىٰ آلف إيلافاً، هو مِنْ «يُؤْلِفُون» أي: يُهَيِّئُون ويجهّزون».

أقول: ما ذَكَرَهُ ابْنُ الأعرابيّ أبْيَنُ للواقع المعهود، مع صِلَةِ الكلمة بمعناها اللّغويّ. ويَشْهَدُ لهذا ما رُوِيَ عن ابن عباس، قال: «وقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٍ أنَّ أوَّلَ مَنْ أخَذَ لَهَا الإيلاَفَ لهَاشِمٌ. الإيلاف العَهْدُ والذّمام، كانَ هاشِمٌ بْنُ عَبْدِ منافٍ أخْذَهُ من المُلُوكِ لقُرَيْش»(١).

ومن هذا نستطيع أن نؤكّد أنَّ الإيلافَ قد صار عند القرشيّين قبل الإسلام عنواناً على هٰذِهِ الوسيلة التأمينيّة الناجحة، لرحلاتهم التجاريّة الّتي كانت تجلُبُ لهم خيراً ورِزْقاً واسعاً، مع أمْنِ الطريق والدُّخول إلى بُلْدَانِ الدُّوَل والخروج منها، ذاهبين وآيبين شتاءً وصَيْفاً، يجتازُون جنوباً إلى اليمن فالحبشة، وشمالاً وشرقاً وغرباً إلى الشام والعراق وفارس ومصر في أسفارٍ تجاريَّةٍ واسعة، وقد يتوغَّلُونَ حتَّىٰ الهند.

وهذا يدُلُّ على أنّ أهْلَ مكّة قد كانوا تُجَّاراً يضربون في مناكب الأرض آمنين في رحلاتهم التجاريّة، ويتّصِلُونَ بمعظم الممالك المتحضّرة يومئذٍ، ويَفِدُونَ على مُلُوكِهَا، ويُقَدِّمُونَ لهم الهدايَا، ويَعْقِدُونَ معهم عُهودَ تأمِينٍ، وتمكينٍ من القيام بأعْمالِ توريدٍ وتَصْدِيرٍ للسِّلَعِ التجاريّة، فكانت مكَّةُ مركزاً تجارِيّاً ثَقيلاً، وكانت أَسْوَاق مكّةَ تَزْدَحِمُ بالتُّجّار وافدِينَ إلَيْهَا من مُخْتَلِف البلاد والقبائل العربية.

---

(١) عن لسان العرب لابن منظور.

وجاء عند المؤرّخين أنَّ أهْلَ مكَّةَ كانُوا حتىٰ ظهور الإسلام يَسْتَوْرِدُونَ من أفريقية عن طريق اليَمَن بتأمِينِ مُلُوكِ حِمْيَر والنجاشيّ لهم، وبالإيلافِ الّذي عَقَدُوهُ، الرّقيقَ، والصَّمْغَ، والعَاجَ، والتِّبْرَ. وكانوا يَسْتَوْرِدُونَ من اليَمَنِ الجُلُود والبخُور والثياب. ويَسْتَوْرِدُونَ من العراق وفارس توابل الهند وطُيُوبَهَا وغير ذلك، بتأمِين كِسْرَىٰ لهم، والإيلاف الذي بينهم وبينه. ويَسْتَوْرِدُون من الشّام ومِصْر الزّيوتَ والغِلاَلَ والأَسْلِحَة والحريرَ وغير ذلك، بتأمين قَيْصَر لهم، والإيلاف الذي بَيْنَهُمْ وبَيْنه.

وكانت القافلة التجاريَّة الذاهبة الآيبةُ قَدْ تَبْلُغُ قُرابَةَ أَلْفِ بَعِيرٍ أَوْ أَكْثَرَ، بحُمُولاَتٍ وأمْوالٍ قَدْ تَصِلُ إلى نَحْوِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينارٍ أو أكثر.

وكانت رحلاتُهُمُ التجاريَّةُ الكُبْرَى في أَغْلَب أحوالها مُسَاهَماتٍ يَشْتَرِكُ فيها كلُّ ذي مال في مكّة، ولو كان مالاً قليلاً، واستمرَّت هذه الرّحلات من إيلاف قريش حتّى ظهر الإسلام.

هٰذِهِ الصّفة التجاريّةُ الّتي انفرد بها القُرَشِيُّونَ من بَيْنِ سائر العَرَب، والّتي هَيَّأَهَا لهم الإيلاف، إنَّما كانت لهم بِسَبَبِ كَوْنِهِم أهل حَرَمِ بَيْتِ اللّه في وسط العرب، حتّى كانت قُرَيْشٌ تقول:

«نَحْنُ أَهْلُ اللّه، وبَنُو إبْرَاهِيمَ، وَوُلاَةُ الْبَيْتِ الحرام، وساكنو حَرَمِهِ وقُطَّانُهُ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ مِثْلُ حقّنا، ولا مِثْلُ مَنْزِلَتِنا، ولا تَعْرِفُ العَرَبُ لأَحَدٍ مِثْلَ مَا تَعْرِفُ لَنَا».

وجاء في الأخبار أنّ هاشم بنَ عبد مناف هو الذي سَنَّ لقريشٍ رِحْلَتَي الشتاءِ والصّيف.

وذلك أنّهم كانت تعتريهم خصاصة، فإذا لَمْ يَجِدْ أَهْلُ بَيْتٍ طعاماً لِقُوتِهِمْ حَمَلَ رَبُّ البَيْتِ عِيَالَهُ إِلَىٰ مَوْضِعٍ مَعْرُوفٍ، فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ خِباءً،

وبقُوا فيه حتَّىٰ يَمُوتُوا جُوعاً، ويُسَمَّىٰ هذا «الاعْتِفار»(١). فَحَدَثَ أَنَّ أَهْل بَيْتٍ مِنْ بني مخزوم أَصَابَتْهُمْ فاقَةٌ شديدةٌ، فَهَمُّوا بالاعْتِفَار، فبَلَغَ خَبَرُهم هاشماً، لأنَّ أَحَدَ أَبْنَائِهِمْ كانَ تِرْباً(٢) لأَسَدِ بْنِ هاشم، فقام هاشمٌ خطيباً في قريْشٍ وقال:

«إِنَّكُمْ أَحْدَثْتُمْ حَدَثاً، تَقِلُّونَ فِيهِ وَتَكْثُرُ العَرَبُ، وتَذِلُّونَ وَتِعِزُّ العَرَب، وأَنْتُمْ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ، والنّاسُ لَكُمْ تُبَّعٌ، ويَكادُ هٰذا الاعْتِفَارُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ».

ثُمَّ جَمَعَ كُلَّ بَني أبٍ على رِحْلَتَيْنِ للتجارات، فما رَبِحَ الغَنِيُّ قَسَمَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفَقِيرِ من عشيرَتِهِ، حتَّىٰ صارَ فقيرهم مِثْلَ غَنِيِّهِم.

وفي هذا قال مَطْرُود الخزاعيّ:

يا أيُّهَا الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ هَلاَّ نَزَلْتَ بِآلِ عَبْدِ مَنَافِ
الأَخِذُونَ العَهْدَ مِنْ آفَاقِهَا والرَّاحِلُونَ لِرِحْلَةِ الإِيلاَفِ
وَالخَالِطُونَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ حَتَّىٰ يَصِيرَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي

كَالْكَافِي: أي: كالمستغني ذي الكفاية والغنىٰ، يقال: هو كافٍ وكَفِيّ، أي: ذُو غِنَىٰ.

(٤)
التدبر التحليلي لآيات سورة قريش

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

---

(١) **الاعتفار**: التعفّر والتمرّغ بالتراب، **العَفْرُ والعَفَرُ**: ظَاهِرُ التراب، إذْ يكون له غبارٌ يتعفَّرُن به.

(٢) **ترباً**: أي: صاحباً وصديقاً، إذ هو نظير له في سِنّه.

﴿لإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾: سَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا مَا هُو الإيلَافُ مُصْطلحاً تجارِيّاً عند العرب، ومعنىً لُغويّاً.

فالمصطلح التجاريّ: يَدُلُّ على العَقْدِ والعَهْدِ الذي يَتِمُّ به تَأْمِينُ قَوافل التُّجّارِ والسّلعِ التجارية، الّتي تَمُرُّ وتتنقّل في أراضي وبُلْدانِ الذين تَمَّ معهم التَّعاقد.

والمعنى اللّغَوي: يَدُلُّ على محبَّةِ الشيء، واعتياده وملازمته والأنْسِ به، فالإيلافُ مَصْدَرٌ كالإلْفِ، وكذلِكَ الإلاف، كما سبق بيانه.

وقد بدأت السُّورة ببيَان عِلَّةِ التكليف قَبْلَ توجيهِ الأمْر به، وهذا فنٌّ بَدِيعٌ مُبْتَكَرٌ في الأداء البيانيّ، واقترن بالحديث عن الذين قد وُجّهَ لَهُمُ الأَمْرُ، بأسْلُوب الحَدِيثِ عن الغائب تَلَطُّفاً بهم، فاجتمع في النّصّ فَنَّانِ أَدبِيّانِ جَمِيلان بليغان راقيان رائقان مُعْجِبان لمَنْ أحْسَنَ تَذَوُّقَهُما.

فمَعْنَى السُّورَة بصُورةٍ عامَّةٍ موجَزَة هو كما يلي:

لأجْلِ إيلاف قريشٍ التجاريّ، الذي يَسَّرَهُ لهم ربُّ الكَعْبَة المشرّفة المطهّرة، بيتِ اللَّهِ الحرامِ، من أجْلِ بَيْتِهِ وحَرَمه الذي جعله آمناً، والّذي تمكَّنُوا به من محبَّةِ واعتياد ومُلازَمَةِ رِحْلَاتهم التجاريَّة، الشتائيَّة والصيفيَّة، جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، والتي يَجْلُبُون بها أرزاقهم آمنين، ولأجْلِ حِرْصِهم على عدم زوالِ نِعْمَتَي الرِّزق والأمن عَنْهم، إذَا كانوا مؤمنين باللَّهِ حقاً، فَلْيَعْبُدُوا شاكِرين رَبَّ هٰذا البيتِ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف، لأنّهم أهْلُ حَرَمِهِ الآمِنِ المَرْزُوق؛ إذْ لَمْ يَجْعَلْهُمْ آمِنِينَ مَرْزُوقين غيره جلّ جلالُه، وعظم سلطانُهُ، وسَمَتْ حكمته.

ولمّا تضمَّنَ التَّعْليل في: **﴿لإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾**، مَعْنَى الشَّرْطِ، اقْتَرَنَ فعل الأمرِ الذي هو بمثابة جواب الشّرط، بالفاء الّتي يُؤْتَى بها عادةً في جواب الشرط، فقال تعالىٰ: **﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ**

هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ شكراً للّه على نِعْمَتِهِ الّتي لم يُشارِكْهُ في مَنْحِها لهم أحَدٌ.

ونظير هذا التعبير القرآنيّ أن نقول لمن نريد أن نَحُثَّه على الاجتهاد في الدّراسة:

لأَجْلِ رَغْبَتِكَ وحِرْصِكَ على النجاح المتفوّق دواماً، فادْرُسْ بجدٍّ واجتهادٍ، ولا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمَا يُلْهِيكَ ويُضِيع أوقاتَكَ سُدًى.

اللّام في: [لإِيلَافِ] هي لام التعليل. و«إيلافِ قريشٍ» عنوان للمصطلح التجاريّ الأمني الذي كانت قريش تَعْقِده مع رؤساء الأمم، وتأخُذُ به عهداً وذِماماً كما سلف به البيان.

والجار والمجرور متعلّقان بفِعْل: [فَلْيَعْبُدُوا] قُدّم المعمولُ هنا على العامل فيه لتوجيه عناية قريش واهتمامهم لقضيتَيْ رزقهم وأمنهم بما هيَّأ لهم رَبُّ هذا البَيْتِ من إيلاف يجلُبُونَ به أرزاقهم ويحقّقُون به أمنهم، وقَدْ حَقَّقَ اللّه لهم ذٰلِكَ من أَجْلِ بيته وحَرَمِهِ الذي قَضَىٰ اللّهُ أنْ يجعله آمناً، ويجعل سُكَّانَهُ تُجْبَىٰ إلَيْهِم ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ ذي ثَمرٍ نافع في الغذاء، أو في الدَّواء، أو غَيْرِ ذلك.

﴿إيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ﴾: بدلٌ أو عَطْفُ بيان من: [لإِيلَافِ قريش] الذي جاء عنواناً للمصطلح التجاريّ الأمْنِيّ.

﴿إيلَافِهِمْ﴾: الإيلاف في هذه العبارة مستعملٌ للدّلالة على المعنى اللّغوي، الذي هو الإلْفُ والاعتياد والملازمة مع الاستئناس والرّغبة، لتحصيل المنافع بجلب الأرزاق مع الأمن.

﴿رِحْلَةَ﴾: اسْمٌ للارتحال، وهو الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ آخر بعيد.

﴿والشتاء﴾: أحد الفصول الأربعة من السنة الشمسيّة، تنخفض فيه درجات الحرارة عادة.

﴿والصَّيف﴾: أحد الفصول الأربعة من السنة الشمسيّة، وترتفع فيه درجاتُ الحرارة عادةً.

وعَرْضُ العنوان بعبارة: [لإيلاَفِ قريش] يستَدْعي سؤالين غَيْرَ مذكورين في النّصّ:

السؤال الأوّل: أيَّ شَيْءٍ كانت تفعل قريشٌ بإيلافها؟

وجاء جوابُه في الفقرة التالية البيانيّة: **﴿إيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشّتَاءِ والصَّيْفِ﴾**.

السؤال الثاني: ما هُو المطلوبُ من قُرَيْشٍ من أجْلِ نِعْمَةِ اللّهِ عليهم بهذا الإيلاف؟

وجاء جَوابُه في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

وفي عبارة ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ المختارة بعناية إشارةٌ إلى أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أَكْرَمَ قريشاً بهذا الإيلافُ، وأطعمهم من جوع وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ، من أجل بيته المشرَّف المعظَّم، الذي جعله مثابة للنّاس، وجعل حَرَمَهُ آمِناً، أمْناً تكوينيّاً، وأمْناً تشريعيّاً تَكْلِيفيّاً.

﴿أطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾: أي: أطْعَمَهُمْ حامياً لهم من جوع، على تَضْمِين فعل «أطْعَم» معنى فعل «حمىٰ» فَعُدِّي تَعْدِيتَه.

﴿وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾: أي: وآمَنَهُمْ حامياً لهم من خوف، على تضمينِ فعل «آمَنَ» معنى فعل «حَمَىٰ» فعُدِّيَ تَعْدِيته.

وهذا التضمين من بدائع الإيجاز في القرآن.

آمَنَ: يقال لغة: آمَنَ فُلَانٌ فُلاناً، أبي: اتَّخذَ وسَائِلَ وأسباباً كان بها آمِناً، فجعله بما فعل آمِناً.

تنكير لفظتي «(جُوعٍ وخوف)» للإشارة إلى نَوْعٍ جوعٍ، ونوع خَوْفٍ، وهما نوعا الجوعِ العامّ، والخَوْفِ العامّ، لا الجوع والخوف الذين قد يُصِيبَانِ بعض الأفراد بقضاء اللّه وقَدَرِهِ، لحكمةٍ اختِبَارِيَّة، أو تربويَّةٍ، أو جزائيّة.

وهذا ما جعل «مُسَاوِرَ بْنَ هِنْدٍ» يقولُ في هِجَاءِ بني أَسَدٍ:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ ... لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافُ
أُولٰئِكَ أُومِنُوا جُوعاً وخَوْفاً ... وَقَدْ جَاعَتْ بَنُو أَسَدٍ وخَافُوا

المعنى العامّ الذي دلَّتْ عليه السُّورة:

إذا كانت قريشٌ، وكذلك كلُّ من يَسْكُنُ مكَّة حتى آخر تاريخ الناس على الأرض، يُريدُون دوامَ المحافظة على رِزْقِهِمْ وأمْنِهِم، فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البيت، الذي يُطْعِمُهُمْ فَيَحْمِيهِم من جُوعٍ، بما يُهَيِّئُ لهم من أسباب الرّزق ووسائله، والذي يُؤَمِّنُهم فيَحْمِيم من خَوْفٍ، بما يُهَيِّئ لهم من أسباب الأمن ووسائله.

فاللّهُ جلَّ جلالُهُ رَبُّ هذا البيت المشَرَّفِ المعظّم المطهّر، هو وَحْدَهُ الّذي يُهَيِّئُ لَهُمْ بفَضْلِهِ الرِّزْقَ والأَمْنَ الدَّائِمَيْن، من أجْلِ بَيْتِهِ المعظّم، وحَرَمِهِ الآمن، ليكونَ مثابةً للنّاس وأمْناً، فالنّاسُ يَثُوبُون إلَيْهِ حيناً بَعْدَ حين، فلا يَفْرَغُ من وافدين إليه حَاجِّين، أو معتمرين زائرين، أو طائفين أو راكعين ساجدين، ارتباطاً بمَرْكَزِ التَّوْحِيد، في رَمْزِهِ الماديِّ في الأرض، ويأمَنُون فيه على أنفُسِهِمْ وأموالهم وكراماتهم وعبادَاتِهم.

وبهذا تم تدبّر سورة قريش، والحمد للّه على فتحه وتوفيقه.

* * *

سُورَةُ القَارِعَة

١٠١ مصحف ٣٠ نزول

(١)

نصّ السّورة وفرشُها

سورة القارعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
ٱلۡقَارِعَةُ (١) مَا ٱلۡقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ
مَا ٱلۡقَارِعَةُ (٣) يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ
كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ
كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ
مَوَٰزِينُهُۥ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ
(٧) وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ (٨) فَأُمُّهُۥ
هَاوِيَةٞ (٩) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ (١٠)
نَارٌ حَامِيَةُۢ (١١)

---

١٠ ـ قرأ يعقوب، وحَمْزَة ﴿مَا هِيَ﴾ بحذف هاء السَّكت في حالة الوصل، وبإثباتها ﴿مَاهِيَه﴾ في الوقف.

- وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَاهِيَهْ﴾ بإثبات هاء السَّكْتِ في حالَتَي الوصل والوقف.

(٢)

موضوع سورة القارعة

وهي ذات درسين

(١) يتناول موضوعُ السّورة عَرْضَ لَقْطَتَيْنِ وصْفِيَّتَيْنِ مَهُولَتَيْنِ مُثِيرَتَيْنِ للفَزَعِ الشّديد، من أحداث قيام السَّاعَةِ، في نَفْسِ المتلَقي الّذي يَخْشَىٰ اللّه، فاللقطَةُ الأولى تَعرضُ مَشْهَدَ النَّاسِ مَبْثُوثِينَ مُتطَايِرِين كالْفَراش، بسبب ما يَحْدُثُ في الأرض من أحداثٍ تَقْذِفُ ما عليها من أشياء، فتجَعلُها متناثِرَةً طائشةً كَطَيْشِ الفراشِ المَبْثُوثِ. واللّقْطَةُ الثّانية تُبَيّنُ أنَّ الجبال الّتي كانَتْ صُلْبَةً راسخَةً قد صارت أكْواماً لَينَةً مُنْتَفِخَةً لا صلابةَ فيها، فهي كالصّوف المنفوش ذي الألوان المتعدّدة.

وجَاءَ عَرْضُ هاتَيْنِ اللّقطتين في الدَّرْسِ الأوّل من دَرْسَيْها، وهو الآيات من (١ ـ ٥).

(٢) ويتناوَل إخباراً عن صُورَةٍ مُنْتَزعَةٍ من صُوَرِ الحِسَابِ يَوْم الدّين، مع تَرْكِ الذّهْنِ يَسْتَدْعِي ما يمكن أنْ يكون قَبْلَها وبَعْدَها، هِيَ صورَةُ ثِقَلِ موازِين المؤمِنِينَ النَّاجين، وخِفَّةِ موازين الكافرين الذين لم يُقدّموا من الإيمان والعَمَل الصّالح ما يُثَقِّل موازينهم.

وإخباراً مُوجزاً عن ثواب الناجين، بأنّهم في عيشةٍ راضية، وعن عقاب الخاسِرين الكافرين بأنّهم سَيُكَبُّون على رؤوسهم في نارٍ حامية، فَيَهْوون في اتجاه قَعْرِها.

وجاء بيانُ هٰذَيْنِ الخَبَرَيْنِ في الدَّرْسِ الثّاني من دَرْسَيْها، وهو الآيات من (٦ ـ ١١) آخر السُّورة.

(٣)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دَرْسَيْها

وهو الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

﴿القَارِعَة﴾: اسْمُ «فاعل» وَصْفاً لمؤنثة من فِعْل «قَرَعَ الشَّيْءَ يَقْرَعُهُ قَرْعاً فهو قارِعٌ وهِيَ قَارِعَةٌ».

الْقَرْعُ: الضَّرْبُ، يقالُ: قَرَعَ المؤدّبُ المُسِيءَ بالْعَصَا أو بالمِقْرَعَةِ، أي: ضَرَبَهُ.

ويُقالُ: قَرَعَ فُلاناً أمْرٌ، أي: أَتَاهُ فُجَاءَةً، وهذا المعنىٰ ملائِمٌ لمَا سَمَّاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذه السّورَة [القَارِعَة].

وتُطْلَقُ القَارِعَةُ في اللُّغَةِ أيضاً على المُصِيبَة، يُقالُ لُغَةً: قَرعَتْهُمْ قوارِعُ الدَّهرِ، أي: أصابَتْهُمْ مصائبُه، وهٰذا المعنى ملائِمٌ أيضاً لما جاء في هٰذه السّورَة.

﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾؟!! استفهامٌ تعجيبيٌّ مِنْ هَوْلِ القارعة الَّتي ستَحْدُث، أيْ: أَعْظِمْ مُتَعَجّباً أيُّها الإنسانُ في هٰذه الحياة الدُّنيا، من الحَادِثَة العظيمة الشديدة المهُولة الّتي سَتَحْدُثُ، والتي نَصِفُها بأنّها القارعَةُ بأفْخَمِ معاني هذا الوَصْفِ وأَشَدِّهِ، واعْلَمْ أنّها قادِمَةٌ لا محالة.

- ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾؟!

سبق شرح وتحليل أمثال هذه العبارة في أثناء تدبّر سورة (القدر/ ٩٧

مصحف/ ٢٥ نزول) عند شرح قول اللّه فيها: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾: أي: وأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ؟ فلفظ «ما» اسم استفهام، يُسْتَفْهَمُ به عن حقيقة الشَّيْءِ وماهيّته، وهي جملة مؤلّفة من مبتدأ وخبر.

﴿مَا الْقَارِعَة﴾؟! أي: أيّةُ حادثةٍ عظيمة خطيرة مَهُولَةٍ حادِثة القارعة؟! استفهام يرادُ به التعجيب من هَوْل القارعة وأحداثها الجسام. وهي جملة مؤلّفة من مبتدأ هو «ما» الاستفهاميّة التعجيبيّة، وخبر هو «القارعة».

وجملة: ﴿ما القارعة﴾؟! في محل نَصْبٍ سَدَّتْ مَسَدَّ مَفْعُولَيْن. والتقدير: وَمَا أَدْرَاكَ مُعْلِماً إيّاك هَوْلَ القارعة.

والاستفهام في: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَة﴾؟! ونظيره يتضمَّن معنى نفي علم المخاطب بما هو مسؤولٌ عنه. أي: أنتَ لا تدري مهما انْطَلَقَ بكَ الخيالُ مدىٰ هول القارعة، إلاّ إذا أعلمناكَ بذلك، وفي هذا دلالة كافيةٌ على أنّها ذَاتُ أَحْدَاثٍ مَهُولة جِسَام.

وأُعِيدُ القولَ: بأنّه قد تكرّر في القرآن الكريم مِثْلُ هذا الاستعمال، حتىٰ صار معلوماً أنّهُ أسْلُوبٌ من أساليب التهويل والتّكبير والتعجيب.

ولدى التحليل التدبري يظْهَرُ أنّهُ صِيغَةٌ من صيغ التعجيب القرآنيّة المبتكرة، ضمن أصول اللّسان العربيّ.

أي: أعظم بهول أحداث القارعة إعظاماً لا يَصِلُ إليه مدى إدْرَاكِك. وقد غدا معلوماً أنّ هذه العبارة أبلغ من صيغتي التعجُّب والتعجيب «ما أَفْعَلَه. . . وأَفعِلْ به».

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾.

بعدَ الإعداد النفسيّ للتعرُّف على بَعْضِ أَنْبَاءِ هذا الحدث العظيم المَهُولِ القادم، الّذي أُطْلِقَ عليه لفظ «القارعة»، وقُدِّمَتْ للتعجيب من هَوْلِهِ ومن أحداثه الجِسَام عبارتا الاستفهام التعجيبيّ: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۞٢۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۞٣۞﴾، جاء بيانُ بعض مظاهر أحداثها.

إنّها حادثَةٌ عظيمة مَهُولَةٌ تكونُ يَوْمَ يكونُ الناسُ بِسَبَبِ ما يجري فيها من تفجيرات وتغييرات وتَبْدِيلات، مُتَنَاثِرِين مُتَطَايِرِين كالفَرَاشِ المَبْثُوثِ، وتكُونُ الجبالُ الرَّاسِيَاتُ الرَّاسِخَاتُ مُنْتَفِخَةً مَنفُوشَةً لاَ صلابَة فيها، فهي حينئذٍ كالصُّوف المنفوش.

ما هٰذه الحادثة القارعة العظيمة المَهُولَة الّتي تَنْفُذُ إلى أَعْمَاقِ جبال الأرض كلّها، فتُغَيِّرُ طَبِيعَتها الصَّلْدَة الرَّاسِخَة، فتَجْعَلُها كالصُّوف المَنْفُوش المَنْدُوف، مع بقاء أَلْوان صُخُورِها المختلفة فيها؟!!

العِهْن: هو الصُّوف المَصْبُوغ بألْوانٍ مختلفة اخْتَلَطَ بَعْضُها بِبَعْضٍ.

المَنفوش: هو الذي نُفِّشَ بالمِنْدَفِ ليَرِقَّ فَيَصْلُحَ لغَزْلِهِ خُيُوطاً.

ومشهد هذا العِهْنِ المنفوش قد كان مشهداً مألوفاً في معظم بيوت العرب، لأنّهم كانوا يأتون بالصُّوف، فيَغْسِلُونَه، ثم يصبُغُون كُلَّ قِسْم منه بلَوْن، ثُمَّ يخلطون هذه المَصْبُوغاتِ ببعضها، ثُمَّ ينفشونها لغزلها وإبرامها خيوطاً.

ما هٰذه الحادِثَةُ القارِعَةُ العظِيمَةُ المَهُولَةُ الّتي تَجْعَلُ الناس يُقْذَفُونَ مُتَاطِرِينَ عن سَطْحِ الأرض، مُنْبَثِّين لا أوزان لَهُمْ على الأرض، طَائِشِين في كُلِّ اتّجاهٍ، كالفَرَاشِ المبثوث؟!

إنّها لاَ بُدَّ أنْ تَكُونَ حادِثَةً عظيمةً جداً، وعامّةً للكُرَةِ الأرضيَّةِ كُلّها.

لكنَّ تَصْيِير الجبالِ كالعِهْنِ المَنْفُوش حَدَثٌ سابقٌ لمراحِلَ لاحقة،

تتطوّرُ فيها أحوال الجبال بالأحداث الجِسَام الّتي سَتَحْدُثُ في الكون، فقد جاء في البيانات القرآنية أنَّ الجبال في أحداث السّاعة تمرُّ بمراحل:

المرحلة الأولى: مرحلةُ تصيير الجبال كالعِهْنِ المنفوش، وهو ما جاء بيانه في سورة القارعة.

المرحلة الثانية: مرحلة بَسِّ الجبال، **البَسُّ**: التفتيتُ الذي تصير به صخور الجبال رِمالاً ناعمةً، فَهَبَاءً مَنْثُوراً، ويَحْدُثُ هذا مع رَجِّ الأرض، وهو ما جاء بيانُه في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/٤٦ نزول) بقول اللّه تعالىٰ:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

الرَّجُّ: الْهَزُّ والتَّحْرِيكُ بشدَّة.

الهَبَاءُ: هو الترابُ الناعم الذي يَنْبَثُّ في الهواء، فلا يَبْدُو إلاّ في ضوء الشمس.

المرحلة الثالثة: مرحلَةٌ تكونُ فيها الجبال كالكثيب المَهِيل، **الكثيب**: الرَّمْلُ المستطيل المُحْدَودِبِ. **المَهِيل**: أي: الذي يَسِيلُ مُتدافعاً إلى الأسفل بفِعْلِ فاعلٍ يحرّكُهُ أقلَّ تحريك.

دلّ على هذه المرحلة قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

المرحلة الرابعة: مرحلة النَّسْفُ، وهو التذريَةُ والتفريق، دلَّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.

النَّسْفُ: التذريَةُ والتفريق.

وبهذا النسف تكون ذرَّات الجبال هَبَاءً مُنْبَثّاً، وقد دَلَّ عليه ما جاء في النّصّ الذي اسْتَشْهَدْنَا به آنفاً من سورة (الواقعة):

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

وبهذا النّسف يَحْدُثُ تَسْيِير الجبال، وبه تَحْدُثُ المرحلة الخامسة.

المَرحلة الخامسة: مرحَلَةٌ لا يكون فيها وجودٌ للجبال في مواضعها، إذْ تصير سَراباً، دلّ على هذه المرحلة قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (النّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾.

المرحلة السادسة: مرحلة تكُونُ فيها الأرضُ سطحاً مُسْتَوِياً، ليس فيها اعْوِجاجٌ، ولا ارتفاعٌ وانخفاض، دلَّ على هٰذه المرحلة قول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾.

قاعاً: أي: أرضاً مُسْتَوِيَة.

الصَّفْصَفُ: المستوي من الأرض الذي لا نَبَاتَ فيه.

لا تَرَى فِيها عِوَجاً: أي: لا ترىٰ فيها انْحِرافاً ولا الْتِواءً.

ولاَ أَمْتاً: أي: ولا تَرَىٰ فيها ارْتِفاعاً، بَلْ كُلُّها مُسْتَوِيَةٌ.

ويَدُلُّنا على هٰذِهِ المراحل التسلسل المنطقي للأحداث، بالقِياس على سُنَنِ اللّٰه في كونه.

وبالنظر إلى هذا التسلسل يَتَرَجَّحُ لَدَيَّ أنّ صيرورة النَّاس كالفراش

المَبْثُوثِ، وصَيْرُورَةَ الجبال كالعِهْنِ المنفوش، من الأحداث التي ستَحْدُثُ عند قيام ساعَةِ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، إذْ تقوم السَّاعة على شِرَارِ الخَلْقِ، لذلك تَتَفَجَّرُ الأَرْضُ من تَحْتِهِمْ تفجُّرات على قَدْرِ سَطْحِها، فتقْذِفُ بهم، فيتطايَرُون تَطَايُرَ الفراش طائشين على مقادير قُوَىٰ التَّفَجُّرات. وتَجْرِي أحداثُ تفجُّرَاتٍ داخل ذَرَّاتِ الجبال، فتُبَاعِدُ بَيْنَها حتىٰ تَكُونَ كالصُّوفِ الملَوَّن المَنْفُوش.

وبهذا الفَهْم نُدْرِكُ أنَّ المراد بالقَارعةِ أحداثُ قيام الساعة، التي تنتهي بها ظروف الحياة الدنيا، والله أعلم.

أمّا يوم البعث، فإنهم يخرجون إلى ربّهم ينسلون نَسْلاً(١)، كما جاء في سورة (يس/٣٨ مصحف/٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١)﴾.

ويخرجون كأنَّهم جراد منتشر كما جاء في سورة (القَمر/٥٤ مصحف/٣٧ نزول):

﴿. . . يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)﴾.

أي: يخرجون من قبورهم كما يخرج الجراد حينما يتوالد ويَنْتَشِر، فيَمْشُون مُسْرِعين إلى محشرهم ولاَ يتطايَرُون طائشين كالفراش المبثوثِ.

وبعد تقديم مَشْهَدَيْنِ من المشاهد التي ستحدثُ بالقارعة التي تقوم بها السّاعة الإفنائية، يَقْفِزُ البيان في السّورة إلى بيان الغاية من وراء أحداث السّاعة الإفنائية، التي يأتي بَعْدَها البَعْثُ للحياةِ الأُخْرَى، ألاَ وهو الحسَابُ وفَصْلُ القضاء، وتَحْقِيقُ الجزاء.

---

(١) **يَنسِلُونَ**: أي: يُسْرِعُونَ في المَشْيِ كمَشْية الذئب إذا أسرع.

وهُنا تأتي في السُّورة آياتُ الدَّرْس الثَّاني من دَرْسَيْها، وفيها دلالة على الغايَةِ بإيجاز.

* * *

(٤)

التدبُّر التحليلي للدرس الثاني من درسَيِ السُّورة

وهو الآيات من (٦ ـ ١١)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

تمهيد:

بين الدَّرس الأوَّل من دَرْسَيِ السُّورَةِ، والدَّرْس الثاني سؤالٌ مطويٌّ مفادُه:

لِمَ هٰذِهِ الأحْدَاثُ الجِسَامُ وهٰذِهِ التغييراتُ الكونيَّة العظيمة، وما هِيَ الغايَةُ منها؟!

وجاء الدَّرْسُ الثَّاني مُتَضَمِّناً مُوجزاً لَمْحِيّاً من الإجابة على السؤال المطويّ، إذْ جاء فيه الاكْتِفَاءُ بذِكْرِ مُجْمَلٍ عن النتيجة، الَّتي تَدُلُّ على سَوَابقها.

والمطويُّ من الجواب هُنا قَدْ صَرَّحَتْ به آياتٌ قُرآنِيَّةٌ كثيرات، في سُوَرٍ متعدِّدَاتٍ، نَزَلَتْ في مَرَاحِلَ مُتَتابِعاتٍ من نُجُومِ التَّنزيل.

وخلاصَتُهُ أنَّ هٰذِهِ الأحْدَاث إنَّما هي مُقدِّماتٌ، تأتي بعدها أحداثٌ

مُتتابِعاتٌ، ثُمَّ يكونُ بَعْثُ الأمْوات إلى الحياة الأُخْرَىٰ، ثُمَّ يَكُونُ الحَشْرُ، ثُمَّ يَكُونُ الحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء بين العباد، على ما قَدَّمُوا في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، ثُمَّ يكونُ تَحْقِيقُ الجزاء.

والجزاء يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ عَظِيمَيْن كُلِّيَّيْن:

القسم الأول: قِسْمُ أهل الجنّة على تفاضل دَرَجاتهم، وقد دَلَّ عليه في الدرس الثاني قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.

القسم الثاني: قِسْمُ أهْلِ النار، على تَنَازُلِ دَرَكاتِهِم، وتوالي انْحِطاطاتهم حتَّىٰ الدَّرْك الأَسْفَلِ من النار. وقد دَلَّ عليه في الدّرس الثاني قولُ اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

«أمّا» حرفٌ فيه معنى الشرط والتوكيد دائماً، ويَدُلُّ على معنى الشرط لُزُوم الفاء بعدها، وفيه معنى التفصيل غالباً، ويَدُلُّ عليه استقراء مواقعها، وهي في هذه السّورة تحمل معاني الشرط والتوكيد والتفصيل.

ولمّا كانَ الحِسَابُ العادل الدقيقُ يعتمد على موازين ربَّانيَّةٍ دَقيقة جداً، لا تُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحْصَتْهَا ووزنتها، كانَ من الحكمة البيانيّة المتعلّقة بيوم الدّين، التّنبيهُ على هٰذِهِ الموازين.

ولعلَّ المراد بذِكْرِ الموازين مَجْمُوعَةً غَيْرَ مُفْرَدَة في عبارتَيْ: [ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ] و[خَفَّتْ مَوَازِينُهُ] التّنبيهُ علىٰ أنَّها موازينُ مُتَنَوِّعَةٌ تُناسِبُ صُنُوفَ الأعمال وأنواعها، القلبيَّة والنفسيَّة والفِكْرِيَّة والجسَدِيَّة، ثُمَّ تُجْمَع نتائجُ حسابات الموازين، وتُبْنَىٰ عليها أحكامُ العَدْل والفضل الرَّبَّانيّة.

وأبَانَ هٰذا الدَّرْسُ من دَرْسَيْ السُّورة، أنَّ طريقَةَ الوَزْنِ في موازينِ يوم الدِّين، تَعْتَمِدُ على ثِقَلِ الأعْمَالِ الصَّالِحَة، أمَّا الأعمالُ السيّئةُ والأعْمَالُ الحياديّة الّتي لاَ تُصَنَّفُ مع الصَّالحاتِ ولا مَعَ السَّيِّئاتِ، فهي سالبة خَفِيفَةٌ، أوْ طائشَةٌ إلَىٰ جانِبِ السَّلْبِ، فالحياديَّةُ لاَ وَزْنَ لَهَا، والأعمالُ السّيِّئَةُ ذاتُ وَزْنٍ سالبٍ.

وهٰذِهِ الموازينُ لاَ تتحرّكُ إلى جانهبِ الرُّجْحَانِ حتىٰ إشارَةِ النَّجَاةِ، فالنَّجاحِ، فالفَوْزِ، فالفَلاَحِ، إلاَّ بالأعْمَالِ الصَّالحةِ الَّتي جعَلَ اللَّهُ لَهَا ثِقلاً، وهذه الأعمال الصالحةُ تَشْمَلُ كُلَّ ما يكسِبُهُ الإنْسَان بإرادَتِهِ الحرّة مِنْ مراضي اللَّه، فتشْمَلُ الإيمانَ الصحيح الصادق، والنّيَّاتِ، والأفكارَ، وحرَكاتِ النُّفُوسِ الإرادية، وتَشْمَلُ الأعمال الظاهرة الّتي هي من آثار الإيمان، والمقرونة بالإخلاص للّه تعالىٰ، مع التزام أحكام شريعته.

فَمِنَ النّاس مَنْ تَصِلُ إشارَةُ ثِقَلِ أعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ إلى الرّقم الذي عنده قرار النجاة من الخلود في النار، بسبب المقدار الكافي من إيمانه لاستحقاقه بعد التطهير بالعذاب أن يدخل الجنّة.

وتَرْتَقِي الإشارة صاعدةً بحسَبِ ثِقَلِ الأعْمَالِ الصالحة، وعند كُلِّ رَقمٍ صاعدٍ مقدارٌ من التخفيف من العذاب على المعاصي والذّنوب والمخالفات، إذا لم يشملْها عفو اللّهِ وغُفْرانه، ضِمْنَ حِكْمَتِهِ وعِلْمِهِ بعباده.

ثُمَّ تَرْتقي الإشارةُ صاعدةً بحَسَبِ ثِقَلِ الأعمال الصالحة، وعند كلّ رقم صاعدٍ درجَةٌ من درجاتِ الارتقاء في الجنّة.

وتستمرُّ إشاراتُ الموازينِ صاعدةً، على مقادير الأعمال الصالحة الّتي قَدَّمَهَا العَبْدُ في الحياة الدنيا حياةَ الامتحان، حتىٰ مَنْزِلَةِ الفِرْدَوْسِ الأعلىٰ، حَيْثُ يَنْزِلُ الرَّفِيقُ الأَعْلَى المنعَّمُ في أسْمَىٰ درجاتِ النّعيم.

ومنزلة الفردوس ينالُها بفَضْلِ اللّه مَنْ كانَ من أهْلِ هذه المرتَبَة، بأعْماله الصالحة ذاتِ الوزن الثقيل عند اللّه.

وقد عَلِمْنَا من نُصُوصِ الشريعَةِ المختلفة، أنَّ العَمَلَ الصَّالحَ ذَا الوزن المنْجِي من الخلود في عذاب النار، هو الإيمانُ الصّحيحُ الصادقُ، الخالِصُ من الشّرْكِ باللّٰه.

واقْتَصَرَ البيان هُنَا في التعبير عن نعيم الجنّة لِمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ على بيان أنّهُ في عِيشَةٍ راضية، فقال تعالىٰ:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.

أي: في عيشَةٍ ذَاتِ رِضا، بمعنىٰ أنَّ صاحِبَهَا يكونُ راضياً كامِل الرضىٰ، إذْ يَنَالُ فيها كُلَّ مَا يَطْلُبُهُ من نعيم، وفَوْقَ ما يَطْلُبُهُ منه بمزيدٍ من فيوضِ عطاء اللّٰه، حتىٰ يكونَ راضياً، غيرَ متكدّرٍ من حِرْمَانٍ أو نُقْصانٍ عمَّا يَطْلُبُ أو يتمنّىٰ.

ويرى البلاغيُّون في عبارة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ أنه من قبيل المجاز العقلي⁽¹⁾، إذْ أُسنِدَ الرّضا إلى العيشة، والأصْلُ أنَّهُ هو الراضي بها، والملابَسَة أنَّهُ هُو صاحبُ العيشَةِ، فهي جُزْءٌ من ذاته.

والغرضُ البيانيُّ الإشعارُ بمُصاحَبَةِ الرّضا لكلّ أجزاء عيشَةِ المؤمن في الجنّة، فَلاَ يُوجَدُ عُنصُرٌ منها، ولا أجزاءٌ زَمَنِيَّةٌ مرافقَةٌ لَهَا تَخْلُو من الرّضا، وهذا المعنى لاَ تُؤَدّيه عبارة: فهو راضٍ عن عيشته، وذلِكَ لأنَّ الإنسانَ قد يَرْضَى عَنْ عيشته ولو دخَلَتْ ضِمْنَهَا مُنغِّصات، إذْ هو يَنْظُرُ إلى عيشَتِهِ باعتبار الأغلب من أحوالها، بخلاف العيشة نفسها الّتي تَمُرُّ أجزاءً مع توالي الأزمان؛ إذْ كُلُّ جُزْءٍ منها مُنفَكٌّ عن سابقه وعن لاحِقِهِ، فإسناد الرّضا إليها يَدُلُّ على أنَّ كُلَّ أجزائِها مَغْمُورٌ بالرِّضا.

---

(١) **المجاز العقلي**: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاد المتكلّم، لملابَسَةٍ بينهما، مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له في اعتقاد المتكلم.

ووصْفُ العيشة بأنّها رَاضِيَة بقوّة الإسناد في قولنا: عيشَتُهُ رَاضِية. والأصل: عيشته مرضيٌّ عَنْها.

ولم يأتِ في السورة بيانٌ تفصيليٌّ عن الدّرجات المتفاضلات في جنّاتِ النعيم، أخْذاً بحِكْمَةِ التدرُّج في البيان، وتجزئةِ تقديم المعارف الدينيّة على مراحل، وتوزيعها على متفرّقات النصوص في القرآن، ففي السُّور الّتي نزلَتْ بعد سورة (القارعة) حتى آخِرِ ما نزل من قُرْآن تفصيلات كافِياتٌ يتمّمُ بعضها بعضاً، وهذا منهج قرآنيٌّ يَدُلُّ على أنَّهُ مُنَزَّلٌ من لَدُنْ حكيم حميد، ولو كان من عند غير اللّه لَوَجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً.

واقتصر البيان في السورة أيضاً لدى التعبير عن العذاب في النّار لِمَنْ خَفَّتْ موازينُه على بيان أنَّ أُمَّهُ هَاوِيَة، وعلى أنّها نارٌ حامية، فقال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

﴿فأُمُّه﴾: أي: فَمُسْتَقَرُّه الّذي سيَصِيرُ إليه ويَسْتَقِرُّ فيه، والمكان الذي يضُمُّهُ، ويَجْمَعُ أمْثالَه.

﴿هَاوِيَة﴾: اسم من أسماء جهنّم لأنّها ذَاتُ عُمْقٍ سحيقٍ، يهوي السَّاقِطُ فيه. وهذا من إطلاقِ اسم الفاعل على المكان الذي يحصُلُ الهُوِيُّ فيه.

وقد جاء في النُّصوص بَيَانُ أنَّ بَعْضَ المُعَذَّبين في جهنّم يَهْوُون فيها، في اتّجاه أعماقها.

- روى البخاري عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّه، لاَ يُلْقِي لَهَا بِالاً، يَرْفَعُ اللَّهُ

بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمٍ».

● وروى الترمذيّ وابْنُ ماجه والحاكم عن أبي هريرة أيضاً، أن النبيّ ﷺ قال:

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ لاَ يَرَىٰ بِهَا بَأساً، يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً في النَّارِ».

وقد تَرَجَّحَ لديّ أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَأُمُّه هَاوِيَةٌ﴾ فمستقَرُّهُ جهنَّمُ الّتي تضمُّهُ وأمثالَهُ، لِمَا ثَبَتَ في اللّغة من أن الأُمَّ لكلّ شَيْءٍ المَجْمَعُ والمضَمُّ.

قال ابْنُ شُمَيل من اللُّغويّين: الأُمُّ لكلّ شيءٍ المَجْمَعُ والمَضَمُّ، ومِنْهُ إطْلاَقُ أُمَيَّة بْنِ أَبِي الصَّلْتِ على الأرض اسْمَ الأُمّ بقوله:

فَالأَرْضُ مَعْقِلُنَا وَكَانَتْ أُمَّنَا فِيهَا مَقَابِرُنَا وَفِيهَا نُولَدُ

وتفسير ﴿فَأُمُّهُ﴾ بقَوْلِنا: فَمُسْتَقَرُّهُ، هو الملائم لمَعْنَىٰ النَّصّ هُنا فيما أرىٰ، وهو أحَدُ المعاني اللُّغَوِيَّةِ لِلَفْظِ الأُمّ، دون تأويل ولا تقديرات، وهذا المعنى هو الذي فسَّرَ به الأَخْفَشُ لفظ «الأمّ» في النّصّ هنا، فقال: أُمُّهُ: مستقرُّهُ. وقال قتادة: فَأُمُّهُ: فَمَصِيرُهُ، وهو بمعنى ما قال الأخفش.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾؟! أي: وما أَعْلَمَكَ ما هِيَ هٰذِه الهاوية؟!

وفي هذا الاستفهام معنىٰ تعظيم أمرها، وبيان أنَّها شيءٌ مَهُولٌ مخيفٌ جداً.

قوله تعالىٰ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، أي: هي نارٌ عظيمةٌ جداً، وهي حامِيَةٌ شَدِيدَةُ الحرارة.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة القارعة والحمد للّه على فتحه ومَنّهِ.

سُورَةُ القِيَامَة

٧٥ مُصحف ٣١ نزول

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة القيامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ
ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾
بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا
بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ
ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ
ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ
نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ
لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ
قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾
وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾

---

١ ـ قرأ ابن كثير والبزي في وجه عنه: ﴿لَأُقۡسِمُ﴾ بالإثبات.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة والبزّي في الوجه الآخر عنه: ﴿لاَ أُقۡسِمُ﴾ بالنفي.

٣ ـ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر: ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ بفتح السّين.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَيَحۡسِبُ﴾ بكسر السين، وهما وجهان عَرَبيان.

٧ ـ قرأ نَافع وأبو جَعْفَر: ﴿بَرَقَ﴾ بفتح الراء.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء، وهما لغتان بمعنى دَهِشَ فَلَمْ يُبْصِرْ.

٢٠ ـ ٢١ قرأ ابن كثير وأبو عَمْرو وابن عامر ويعقوب: ﴿يُحِبُّونَ ـ وَيَذَرُونَ﴾ بياء

وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ (٢٥) كَلَّآ إِذَا
بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ
ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا
صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ
(٣٣) أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (٣٥) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ
أَن يُتۡرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ
فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ (٤٠)

الغائب فيهما.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تُحِبُّونَ ـ وتَذَرُونَ﴾ بتاءِ الخطاب.

وفي هاتين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

٢٧ ـ قرأحفص ﴿مَنۡ رَاقٍ﴾ بسَكْتَةٍ لطيفة من غَير تنفّس، على نون ﴿من﴾.

■ وقرأ باقي القراء العشرة بإدغام النون بالرّاء. وهما وجهان من الأداء.

٣٦ ـ قرأ ابْنُ عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر: ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ بفتح السين.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَيَحۡسِبُ﴾ بكَسْر السين.

والقراءتان وجهان عَربيان جائزان، وكلاهما بمعنى يظُنُّ ظنّاً ضعيفاً توهُّمياً.

٣٧ ـ قرأ حَفصٌ ويعقوب: ﴿يُمۡنَىٰ﴾ بالياء على أنّ الضَّمير في الفعل عائد إلى: [مَنِيّ].

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تُمۡنَىٰ﴾ بالتاء على أنّ الضمير في الفعل عائد إلى: [نُطْفَة].

وفي القراءتين تكامُلٌ في التعبير عن المعنى المراد، إذ النطفة هي نطفَةُ المنيّ، والمنيُّ هو المادّة الّتي اشتملت عليها النّطفة.

(٢)

موضوع سورة القيامة

يتناول موضوع سورة (القيامة) الحديث عن اليوم الآخر والجزاء الرَّبَّانيّ المقرّر على أعمال الممتحَنين في رحلة الحياة الدنيا.

فقد سَبَقَ في طائفة من السُّوَر النّازلة قبل سورة (القيامة) بيانات خَبَرِيَّة، ومعالجاتٌ إقناعيَّةٌ، وتقديمُ لقطاتٍ من مشاهِدِ يَوْمِ الدّين، ولقطاتٍ من مشاهِدِ أحْدَاثِ السَّاعَةِ الّتِي يكُونُ بها إنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وطائِفَةٍ من أَمْثِلَةِ الجزاء الرَّبَّانيّ المعجَّل الّذي أَهْلَكَ اللَّهُ به المكذِّبين الأوَّلِين، الَّذين كَفَرُوا بربّهم، وكذَّبُوا رُسُلَهُ الّذين أرْسَلَهُمْ إليهم، وكذّبوا بما جاءوهم بلاغاً عن ربّهم.

والمتابعة في سورة (القيامة) تشتمل على دَفْعِ تَوَهُّمَاتٍ قَدْ يَتَوَهَّمُهَا المنكرون الجاحِدُون، وعلى بيانِ بَعْضِ الدَّوافع لإنْكَارِ الجزاء الرَّبَّانيّ يَوْمَ القيامة، فنبَّهَتِ السُّورة على رَغَباتِ الفُجُورِ، وحُبِّ العاجِلَةِ وَتَرْكِ الآخرة، في نفوس المكذِّبين.

وتشتمل على عَرْضِ بَعْضِ لقطاتٍ من مشاهد أحداثِ قيام الساعةِ الإفْنَائِيَّة، وبعضِ لقطاتٍ من مشاهِدِ أحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين، الّتي تكونُ بَعْدَ البَعْثِ. وبعضِ لقطاتٍ من أحْوَالِ مَوْتِ الإنْسَانِ حين انتهاء أجَلِهِ في الحياة الدنيا.

وتشتمِل على تأنيبٍ للإنسان المكذّب بيوم الدين، وعرضِ بعض الحجج الإقناعيّة الّتي تَدُلُّ على أنَّ الحِكْمَةَ الرَّبَّانيَّة السَّاميَة تقتضي الجزاء حَتْماً، وتَدُلُّ على أنَّ العَقْلَ السَّوِيَّ لا يَقْبَلُ مُرُورَ الإنسان في الحياة الدنيا، وما يَشْتَمِلُ عليه تاريخُه فيها، دُونَ أنْ يُلاقي جزاءَهُ على ما قَدَّم فيها من خَيْرٍ أو شرّ باختيارِهِ الإراديّ. وتَدُلُّ على أنَّ ظواهِرَ بَدْءِ خَلْقِ الإنسان

شواهِدُ كافياتٌ دَالأَتٌ على قُدْرَة خالقِهِ على إعادتِهِ إلى الحياةِ بَعْدَ المَوْت.

وجاء في أثناء دُروس السُّورة دَرْسٌ اعْتِراضِيٌّ خارجٌ عن موضوع السورة، فيه تَرْبِيَةٌ للرَّسول محمّد ﷺ، بشأن تعجُّلِهِ في تَلَقّي القرآن، إذْ كان هذا التعجُّل منه قد حَصَلَ أثناء تَلَقّيه سورة (القيامة) فجاءَتِ التربيَةُ الرَّبَّانيَّةُ له عندَ تَعَجُّلِهِ، قُرْآناً يُتْلَىٰ ضِمْنَ السُّورَةِ، لِتَعْلِيمنا أسْلُوباً من أساليب العِلاجِ التربويّ الحَكِيم الذي يكون عند ممارسة العمل المخالف للأكمل والأحسن.

وسورَةُ (القيامة) قد جاءَتْ بمثابةِ إضَافَاتٍ تفصيليَّة لمَا جاء في سُورَتَي «التين» و«القارِعَة» وإضافاتٍ في البناء الكُلّيّ لمَوْضُوع الجزاء الرَّبَّاني الّذي تعرَّضَتْ له سَوابقُ السُّور في نُجُومِ التنزيل.

* * *

(٣)

دروس سورة القيامة

تشتمل هذه السّورة على سبعة دروسٍ مترابطة في وِحْدَةِ موضوع قرآنيّ، باستثناء الدرس الثاني منها، الذي جاء درساً اعتراضياً خاصّاً بتربية اللَّه للرسول محمّد ﷺ، يُعَلِّمه اللَّه فيه أنْ لاَ يُحَرِّكَ بالقرآن لِسَانه مُتَعَجّلاً لِيَحْفَظَ ما يُنَزَّلُ عليه منه، قَبْلَ أنْ يَنْتَهِي الوَحْيُ من تَلْقِينه كامِلَ النَّجْم الّذي يُوحِي به إليه.

والظاهِرُ أنَّ هٰذا الدَّرسَ الاعتراضِيّ قَدْ نَزَلَ عِنْدَ تَعَجُّلِ الرَّسُولِ ﷺ في تَلَقِّيه من جِبْرِيلٍ عليه السَّلام سُورَةَ القِيَامَة، واقتضت الحِكْمَةُ التَّرْبَوِيَّةُ وضْعَهُ عَقِبَ الدَّرْسِ الأوّل من دُرُوسها، وجَعْلَهُ الدَّرْسَ الثَّاني، لتَعْلِيمِنا كَيْفَ يكون التوجيه التربويُّ التعليميُّ عَقِبَ التصرُّف المخالِفِ لما يَنْبَغِي، أو لِمَا هو الأحْسَنُ والأفضل.

أمّا دُرُوسُ السُّورَة فهي كما يلي:

الدَّرْس الأول:

تضمّن معالجة الإنسان المنكر للبعث والجزاء يَوْم القيامة بتأكيد خبره بالقسم، إنْ كان من الَّذِينَ يتأثَّرُون بالمؤكدات الّتي تشتمل على القَسَم، وتضمَّن مناقشته حول توهُّماته التي يحسَبُ فيها عَدَم قُدْرَة اللّه على إعادته إلى الحياة بعد الموت، وبَعْدَ مصير عظامِ جَسَدِه عِظاماً نَخِرَةً بالِيَةً.

وتضمَّن بيان بعض دوافع نَفْسِه لإنكار يَوْم القيامة وما فيه من جزاء، وهي أنَّهُ يُرِيد أن يَسْتَمِرَّ فاجراً حتىٰ تَأْتِيَهُ مَنِيَّتُه في الحياة الدنيا.

وتضمَّنَ عَرْضَ لَقْطَةٍ من مشاهد أحداثِ الساعة الّتي يكون بها إنهاءُ ظُرُوف الحياة الدنيا، ولَقْطَةٍ من مشاهد أحْدَاثِ يوم القيامة، إذْ تُعْرَضُ على الإنسان يَوْمَئِذٍ أعْمَالُه، فَيُنَبَّأُ بكلّ ما قَدَّمَ وكُلّ ما أخَّرَ من عملٍ، وبَيانَ مُحاولة تَمَلُّصِه من جرائمه الّتي ارتكَبَهَا في الحياة الدنيا، حياة امتحانه، مع أنَّهُ يَعْلَمُ تماماً ما كان قد عمله في الدنيا، ولَوْ حاوَلَ أن يَسْتُرَ قبائحَهُ وجرائمه بالإنكار، وتلفيقِ الأعذار.

هذا الدرس هو ما اشتملت عليه الآيات من (١ ـ ١٥).

الدرس الثاني:

هو الدرس الاعتراضيُّ الذي وجَّه اللّه عزّ وجلّ فيه التربية لرسوله محمّد ﷺ، بأنْ لا يُحرِّكَ بالقرآن لسانَهُ من قبل أنْ يُقضَى إليه وَحْيُه، وتعهَّد اللّه عزّ وجلّ بأنْ يَجْمَعَهُ لَهُ في ذاكِرَته، ويُعِينَهُ على قِراءَتِهِ، قراءةً سليمة كما أنزلَهُ عَلَيْه، وأبانَ له فيه أنّه جلَّ جلالُه سيُبَيّن مُسْتَقْبلاً كُلَّ ما فيه من حقائق، تناولَتْ عُلُومَ الدّين والدُّنْيا والآخرة.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩).

الدرس الثالث:

درسٌ خاطبَ اللَّه عزّ وجلَّ به النّاسَ جميعاً، وفيهم الّذين يُكَذِّبُون بالدِّين وباليوم الآخر زاجراً لهم، فأبان لهم فيه أن سَبَبَ تولّيهم عَنِ الإيمان بالآخرة، أو إعراضهم، أو استغراقهم في المعاصي والمخالفات، أنّهم مُتَعَلِّقو القُلُوب والنُّفُوس بالعاجلة الفانيَةِ، تَارِكُون للآخرة وزاهدون فيها، فَهُمْ يُحِبُّون العاجلة ويَذَرُونَ الآخرة.

وهو الآيتان (٢٠ ـ ٢١).

الدرس الرابع:

تضمَّنَ عرض مَشْهَدَيْنِ من مشاهد النَّاسِ يوم القيامة.

● أحدُهُما يُصَوِّرُ وُجُوهَ المؤمنين الناجين، الَّذِين قضىٰ اللَّهُ لهم بأنْ يَدْخُلُوا جنَّاتِ النعيم، فهؤلاء وجوهُهُمْ ناضِرةٌ.

● والآخَر يُصَوِّرُ وُجُوهَ الخاسرين الّذين قضىٰ اللّه عليهم بأنْ يَكُونُوا من أهل النار، فهؤلاء وُجُوهُهُمْ كالِحَةٌ باسِرَةٌ.

وهو الآياتُ من (٢٢ ـ ٢٥).

الدرس الخامس:

تضمَّن عرض مَشْهَد الإنسان في السّاعات الّتي تَكُونُ قُبَيْلَ انْتِهَاءِ أجَلِهِ في الحياة الدنيا، حتَّىٰ قَبْضِ رُوحِهِ ومُفارَقَتِهِ ما يُحِبُّ ومن يُحِبُّ في دنياه.

وهو الآيات من (٢٦ ـ ٣٠).

الدرس السادس:

تضَمَّنَ عَرْضَ لقطةٍ من حساب الكافِرِ بين يَدَيْ ربّه يوم الدّين.

وهو الآياتُ من (٣١ ـ ٣٥).

الدرس السابع:

تضمّن إقامةَ الحجّة الدّامِغَة للإنسان المكذّب بِيَوْمِ الدّين، بأنّه من غير المُمْكِنِ في حكمة اللّه عزّ وجلّ أنْ يَتْرُكَ الإنسان سُدىً مُهْمَلاً، دُونَ أن يُتَابِعَ أعماله الاختياريَّة الإراديّة بالحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء. وتَضَمَّنَ إقامةَ الحجّة له، لدَفْعِ تَوَهُّمِهِ أنَّ الخالقَ جلَّ جلالُه غَيْرُ قادِرٍ علىٰ إحياءِ الموتَىٰ بَعْدَ أنْ تتفرَّقَ أجزاء أجسادهم في تراب الأرض بالفَنَاءِ الَّذي يَحْدُثُ فيها.

وهو الآيات من (٣٦ ـ ٤٠) آخر السّورة.

* * *

(٤)
التدبّر التحليلي لآيات الدرس الأول من دروس السورة

وهو الآيات من (١ ـ ١٥)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥)﴾.

هٰذا دَرْسٌ عظيمٌ جليل يَصْلُحُ أنْ يَكُونَ سُورَةً فَذَّةً، لكنَّ اللّه عزَّ وجلَّ ضَمَّ إليه دُرُوساً أُخرَىٰ، وجعلها سُورَةً ذاتَ طُولٍ يُعادِلُ نحو سَبْعٍ من قصار السُّوَر، تَرَقّياً في التَّنْزِيلِ، بين قصارٍ من السُّوَر، فأطْوَلَ، فقِصَارٍ، فأطْوَلَ، حتَّىٰ الطّوال، ثُمَّ حتَّىٰ سُورَةِ (البقرة) ونَحْوِها في التنزيل المدنيّ، مُراعاةً لأحْسَنِ الأساليبِ التَّعْلِيميَّة، والتكليفيّة الملائمة لطبائع الناس.

وقد اشتمل هذا الدرس على أربع قضايا متعانقة المعاني والأهداف:

القضيّةُ الأولى:

- قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾:

جمهور القرّاء العشرة قرأ: ﴿لاَ أقْسِم﴾ بالنفي في الأولى، وقرأ ابن كثير والبزّي في أحد وَجْهَيْهِ: ﴿لَأُقْسِمُ﴾ بالإثبات. أمّا: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾، فليس فيها من القراءات العشر إلاَّ النفي.

يوم القيامة: هو يَوْمُ قِيام الأموات مَبْعوثين للحياة الأخرىٰ، حياة الخلود في نعيم مقيم، أو في عذابٍ أليم، بعد الحِسَاب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء. ويَوْمُ قِيام الخلائق بين يَدَي الحيِّ القيّوم.

يقال لغة: قامَ يَقُوم قَوْماً، وقِيَاماً، وقَوْمَةً. وقيل: **القيامَةُ**: مَصْدَرُ قام الخَلْقُ من قبورهم قِيامَةً، **والقيام**: هو الانتصاب وقوفاً.

النفس اللوّامة: هي النَّفْس الهاديَة بتلويمها صاحِبَها على آثَامِهِ إلى ضرورة وجود قانون الجزاء في خُطَّة الخالق.

ولتوجيه عبارة ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ وأشباهها في القرآن عند المفسّرين عدّة آراء، لَيْسَ لواحد منها مستَنَدٌ من بيانات الرسول ﷺ.

- فقيل: «لاَ» زائدة، والتقدير: أقسم. قيل: وهذه الزيادة جارية في كلام العرب.

- وقيل: «لا» تَنْفي كلاماً مطويّاً، فهي رَدٌّ لكلام منكري البعث. وفِعْل «أُقْسِمُ» بَعْدها إثباتٌ للقسم، فهما جملتان في الحقيقة.

- وقيل غير ذلك من تخريجاتٍ فيها تكلُّفٌ لاَ يُلائم كمال البيان القرآني.

وأقول:

إنّ عبارة ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ أسْلُوبٌ بَيَانيٌّ قُرآنِيٌّ مُبْتَكرٌ، للدَّلاَلة على أنّ الموضوعَ مع حَالِ المخاطب يقتضي اقتضاءَيْنِ مُتَعَارِضَيْن.

(١) أحَدُهما يَسْتَدْعي البَيانُ فيه القَسَمَ المؤكّدَ للخَبَر الذي يُسَاقُ القَسَمُ لتأكيده.

(٢) والآخر يَسْتَدْعي البيان فيه عَدَمَ القَسَم.

فكان الحلُّ المبتكَرُ في أساليب البيان القرآنيَّةِ اختيارَ أُسْلُوبِ ذِكْر لفظ القَسَم والمُقْسَمِ به تنبيهاً عليه، مع سبقه بأداة النفي، «لا».

فالجانبُ الذي اقتضىٰ القَسَمَ رُوعِيَ حالُه بذكْرِ القَسَم والمُقْسَمِ به، تنبيهاً على ما في المقْسَمِ به من تأكيدٍ أو حُجَّةٍ هاديةٍ إلى أنّ الموضوع الّذي يُرادُ تأكيدُهُ متحقّقُ الوقوعِ حتماً.

والجانِبُ الذي اقتضىٰ عدمَ الحاجَة إلى القَسَمِ رُوعِيَ حالُه بنفي القَسَم بأداة النّفي «لاَ».

ويُلاحَظُ أنّ المَقْصُودَ بالخطاب في قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ ۝١﴾، وكَذٰلِكَ بالعبارة التالية لها هو مُنْكِرُ البعْثِ، الّذي يَظُنُّ ظنّاً تَوَهـمِيّاً أنّ قُدْرَةَ اللّهِ عزَّ وجلّ لاَ تَصِلُ إلى جَمْعِ رُفَاتِ عِظَام جَسَدِ المخلوق الّذي أبْلَتْهُ الأَرْض، وإعادَتِهَا إلى الحياةِ مرَّةً أُخرَىٰ. وهٰذا المِنْكِرُ هو الذي يُرادُ تأكيدُ نَبَأِ البَعْثِ لَهُ بالقَسَم.

ويُلاحَظُ أيضاً أنّ الحكمة البيانيَّة عِنْدَ إنْزال سورة القيامة اسْتَدْعَتِ التنبيه على أمْرَيْن عظيمَيْن، بَيْنَهُمَا ترابطٌ في خُطَّة الخَلْق، هما:

(١) النَّفسُ اللَّوَّامَة الهادِيةُ بتَلْويمها صاحِبَها حينَ يَفْعَلُ الإثْمَ والخطيئة

بإرادته الحرَّة، إلى ضرورة وجود قانون الجزاء الربّانيّ في خُطَّةِ الخالِق، لذوي الإرادات الحرّة.

اللّوّامة: مؤنث اللوّام، وهو من صيغ المبالغة والتكثير، أي: فالنفس الإنسانيّة السّويّة كثيرة اللّوم لذاتها.

(٢) ويَوْمُ القيامة لتحقيق بنُودِ قانون الجزاء.

- أمّا يَوْمُ القيامة فَهُوَ يَوْمٌ عظيمٌ جداً، وهُو في حقيقة أمْرِهِ يَسْتَحِقُّ أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ به، لأنَّهُ مَظْهَرٌ من مظاهر عظيم قُدْرَتِهِ، وكَمَال عَدْلِهِ وفَضْلِهِ، وبالِغِ حِكْمَتِهِ.

فهذا مُقْتَضٍ للقَسَمِ بهِ، لكنَّه أمْرٌ غَيْبيٌّ لاَ يُدْرِكُ عَظَمَتَهُ مُنْكِرو البَعْثِ، حتَّىٰ يكونَ القَسَمُ به في نظرهم مُؤكّداً لقضيَّةِ البعث الّتي هِيَ مَحَلُّ إنْكَارهم. ويُضافُ إلى هذا أنَّ القَسَمَ بِيَوْمِ القيامةِ لتَأْكِيدِ قَضِيَّةِ البعثِ للحساب وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء، هو من قَبِيلِ المُصَادَرة في آداب البَحْثِ والمناظرة، إذْ هو بمثابَةِ الاسْتِدْلاَلِ لإثْباتِ المدَّعَىٰ بالمدَّعَىٰ نَفْسِهِ، ولكنْ بصيغةٍ أُخرَى، وهذا يقتضي عَدَمَ القَسَم بِيَوْمِ القيامة.

- وأمَّا النَّفسُ اللَّوّامَةُ في داخِلِ الإنسان، فهيَ من بَدِيعِ إتْقَانِ صُنْعِ الخالِقِ لهذا الإنسان، وإيجَادُهَا فيه هو بمثابَةِ إيجَادِ دليلٍ على الجَزَاءِ الرَّبَّانيّ، وأنَّهُ حَقٌّ لاَ محالة، وهٰذَا الدّليلُ مَوْجُودٌ داخِلَ ذَاتِ الإنْسان، كما هو مفطُورٌ علىٰ مشاعرَ تَهْدِيه إلى الإيمان باللَّه خالقِهِ، والمُهَيْمِنِ عليه دواماً بصفات رُبُوبيَّتِهِ.

إنّ النَّفْسَ اللَّوّامَةَ تُمثِّلُ عُنصُر الفطرة الخيّرة الفاضلة في النفس الإنسانية، لأنّها تقومُ بِوَظيفةِ لَوْمِ جانب الإرادة التنفيذيَّة داخل الإنسان على أعْمَالِهِ السَّيِّئةِ، وعلى تقصيراته عمّا يَنْبَغي أن يعمله، كلّما نفَّذَ جانِبُ الإرادَة شيئاً من ذلك.

اللَّوْمُ: هو العَذْل والتثريب وتوجيه الملاحظات النَّقْدِيَّة على نَقِيصَة أو إساءة، دون الوصول إلى مستوى الذّمّ والشتيمة، ففي اللّوم مع الوخز غير العنيف معنىٰ النصح، وهو شبيه بالعتاب.

والنفس اللّوّامة[1] باعثٌ فطريٌّ يَهْدِي صاحِبَ البصيرَة المنصفَ إلى قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، وهو يأخُذُ بأسْبَابِ الفكر إلى الإيمانِ باليوم الآخر للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء. فإيجاد النفس اللّوّامة داخل الإنسان أمْرٌ عجيب، يستحقُّ أنْ يُقْسِم اللّهُ به، لأنَّهُ أمْرٌ من الخَلْقِ عظيم، ولأنَّ في القَسَم بِها توجيه نظر فكر الإنسان لها، لتَهْدِيَهُ إلى قانُونِ الجزاء الرَّبَّانيّ.

فهذا مقتضٍ للقَسَمِ بالنَّفْس اللّوّامَة.

لكنّ هٰذِهِ النَّفْسَ اللّوّامة ضامِرَةٌ هزيلة داخِلَ مُنْكِرِ البعْثِ، فالقَسَمُ بها لا يُقَدِّمُ للمنكرين تأكيداً على أنَّ البَعْثَ حَقٌّ.

وهذا مُقْتَضٍ لِعَدَمِ القَسَمِ بالنَّفْسِ اللّوّامَة.

فاجتمع المقتضى الإيجابي للقَسَم بِيَوْمِ القيامة، والْقَسَم بالنَّفْسِ اللّوّامة، والمقتضى السَّلْبي لعَدَم القَسَم بهما، فكَانَ الحلُّ البيانيُّ البديعُ الجامعُ، هو أنْ يُذْكَرَ القَسَمُ والمُقْسَمُ به، وأنْ يُنْفَىٰ القَسَمُ، بأداة النفي «لا».

وهذا من روائع الأساليب البيانيّة القرآنيّة المبتكَرَة.

---

[1] النَّفسُ اللّوّامة لذاتها على إساءاتها هو الطرف الأعْلَىٰ السامي منها، ما لم تَفْسُدْ بعوارِضِ الأمراض. ويقابِلُها النَّفْسُ الأمّارةُ بالسُّوء، الّتي هي الطَّرَفُ الأسْفَلُ الشَّهْوَانِيُّ منها.

وتقَعُ الإرادة المنفّذة بين الطرفين، فإمّا أنْ تميل في اختياراتها إلى الطَّرَفِ الأعْلَىٰ اللّوّام، وإمّا أنْ تميل إلى الطَّرَف الأسْفَل الأمّارِ بالسُّوءِ.

وجاءَتْ قِرَاءَةُ ﴿لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ ①﴾ بالإثبات مُراعاةً لحالَةِ مَنْ يتيقَّظُ ضَمِيرُهُ، فَيُدْرِكُ حِكْمَةَ اللَّه وعَدْلَهُ وضَرُورة تَحْقِيق الجزاء على ما يجري من الناس في رحلة الابتلاء.

أمّا المرادُ تأكيده بالقسم فَمَحْذُوفٌ دلَّ علَيْه ما رُتِّبَ عَلَيْه من آياتٍ جاءَتْ بَعْدَ الْقَسم، إنَّهُ قضيَّةُ البعث للحياة الأخرى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، والمصير إلى جنَّاتِ النعيم بفضل اللّه، أو إلى عذاب أليم بعَدْل اللّه، أي: لِيَكُونَنَّ كُلُّ ذَٰلِكَ بِمُقْتَضَى الحِكْمَة.

القضية الثانية:

● قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ③ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ④﴾.

انتقل البيان القرآنيُّ بهذا، إلى مناقشة الإنسان المنكر لقضيّة البعث بعد الموت للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وهي إحدى قضايا الإيمان الكُبْرَىٰ، ولم يواجهه اللّه عزّ وجلّ بالخطاب، بل تحدّث بأُسْلُوب الحديث عن الغائب لأنّه أدْبَر وتَوَلَّىٰ عَنْ مُواجهة الحقّ الذي أنزله اللّه لهدايته.

أي: أيحسَبُ الإنسانُ الكافر بيَوْم الدّين، في ظنِّهِ التَّوَهُّمِيّ الضعيف، أنّ الرَّب الخالِقَ لَهُ في النشْأة الأولَىٰ، لن يَجْمَعَ عظامه بعد موته وفناء جسَدِهِ، وتفتُّتِ ذرّاتِ عظامه، مستبعداً أنْ تستطيع قُدْرَةُ الرَّبّ هذه الإعادة.

﴿أَيَحْسَبُ﴾ وقُرِئ: [أَيَحْسِبُ] بكسر السِّين، وهما وجْهَانِ عَرَبيان لنُطْقِ هذا الفعل.

ومن استقراء فِعْل: «حَسِبَ يَحْسِبُ ويَحْسَبُ» وسَبْرِ معناه في القرآن تبيَّنَ لي أنّه قد اسْتُعْمِلَ للدلالة على الظّنّ الضعيف جدّاً، والمساوي للتوهُّم، والذي يجب طَرْحُه واستبعاده.

بخلاف فِعْل: «ظَنَّ يظُنُّ ظَنّاً» فهو مستعمل في درجات ما دون اليقين، حتى الظن الضعيف المرفوض، فمن الظَّنّ ما هو مقبول ويجب العمل به، ومنه ما هو من مستوى الشَّكّ الذي يتساوىٰ فيه الطرفان، القبول والرَّفْض، ومنه ما هو مَرْفوض، وهو الظَّنُّ التوهُّمِيُّ.

وكان طرح هذه المناقشة في القرآن، قَبْلَ أَنْ يُصَرِّحَ أَحَدٌ مِنْ منكري البعث من المشركين، بمقالةٍ يحْتَجُّ بها على إنكاره، وهٰذه المقالَةُ تَدُلُّ على اعتقاده بأنَّ قُدْرَة اللَّهِ جلَّ جلالُهُ عاجزَةٌ عن أن تُحْيِيَ العظامَ وهي رَميم، كالمقالة الّتي قالَها فيما بَعْدُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ للرَّسُول ﷺ، إذْ أَخَذَ عظْماً بالياً، فجَعَلَ يَفُتُّهُ بِيَدِهِ وَيقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَتَرَىٰ اللَّهَ يُحْيِي هٰذَا بعْدَمَا رَمَّ.

قال رسول الله ﷺ: نَعَمْ، ويَبْعَثُكَ ويُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ. وأنزل اللّه عزّ وجلّ حينئذٍ قرآناً يُعَلِّمُ فيه رسولَه الحجَّة الدّامِغَة، فقال الله جلّ جلاله في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

أمّا عندَ إنزال سورة (القيامة) فإنَّ مِثْلَ هٰذِهِ المقالَة لَمْ تَكن قَدْ ترَدّدَتْ على أَلْسِنَةِ المنكِرين الكافرين، الذين يَدْعُوهم الرسُول ﷺ إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر، فاقتصر النَّصُّ على نَفْي الظَّنِّ التوهُّمِيّ الذِّهْنِيّ، وإثبات نقيضه.

ففي جواب: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس كما يَحْسَبُ هذا الإنسان الكافر، بل سنجمع عظامَهُ كُلَّها، ونُعِيدُها إلى مِثْلِ ما كانت عليه، بقُدْرَةٍ تامَّةٍ، لم

يَعْتَرِها إعياءٌ ولا نقص. فالمرادُ بِالإنسان هُنَا الكافر، لأنه هو الذي يَحْسَبُ أنَّ اللَّهَ لَنْ يَجْمَعَ عظامَهُ بَعْدَ مَوْته.

هذا ما ظهر لي، وذكر القرطبي أنّها نزلت في عَدِيّ بن أبي رَبيعَة، قال للنبيّ ﷺ، «يا مُحَمَّد حدّثني عن يوم القيامة، فأخبره رسُول الله ﷺ، فقال عَدِيٌّ: لو عاينتُ ذلك اليوْم لَمْ أصَدِّقك، أو يَجْمَعُ الله العظام؟! فنزل قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ...﴾.

وقد سبَقَ هٰذا النّصّ في نجوم التّنْزيل قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) خطاباً لكلّ صالحٍ للخطاب:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

ولتأكيد ما أثبتَتْه كَلِمَةُ ﴿بَلَىٰ﴾ أتَمّ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ الآيَةَ بقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾:

أي: بلىٰ سَوْفَ نَجْمَعُ عظامه حالَةَ كَوْننا قادِرين علىٰ أَنْ نُسَوِّي بنانه، الّتي تُعْتَبَرُ تَسْويَتُها مِنْ أَبْدَعِ التّسْوِياتِ في الْخَلْق، وأَشَدِّها إتقاناً لوظائفها في الكَفّ وحَرَكَةِ الْيَدِ.

﴿أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: أن نجعل بَنَانَهُ مُسْتَوِيَةَ الْخَلْقِ، بالغَةَ الغايَةَ في أداء وظائِفِها الّتي خُلِقَتْ لتأدِيَتِها.

تَسْوِيَةُ الشيء: جَعْلُه تامّاً بالغاً الغاية المقصودَةَ من صُنْعه، مُحْكماً في مقادير أجْزائه، لتحقيق الغَايَةِ المقضيّةِ له في إعداد خُطَّةِ تكوينه.

البَنَان: أطراف الأصابع، وهي جمْعٌ واحِدَتُها «بَنانَة».

في ديواني الشّعْريّ: «آمَنْتُ بِاللّهِ» تحْتَ عنوان هذه الآية قلْتُ بشأن البنان:

أَخُطُّ. أَقُصُّ. أَخِيطُ الثِّيَابْ — وَأَبْنِي الْبِنَاءَ بِهَـٰذِي الْبَنَانْ
أُمَارِسُ مَا شِئْتُ مِنْ صَنْعَةٍ — بِهِنَّ وَتَخْدُمُنِي كُلَّ آنْ
بَوَاسِطُ إِنْ شِئْتُ بَسْطَ الْأَكُفّ — قَوَابِضُ تَمَّتْ بِهِنَّ الْيَدَانْ
أَنَامِلُ هُنَّ لِقَبْضِ السُّيُوفْ — وَقَبْضِ الرِّمَاحِ وشَدِّ الْعِنَانْ
وَهُنَّ وَسِيلَةُ ذِي رِيشَةٍ — وَذِي قَلَم وذَوِي صَوْلَجَانْ
وَهُنَّ وَسِيلَةُ ذِي صَنْعَةٍ — يُفَاخِرُ بِالْعَبْقَرِيِّ الْحِسَانْ
بِهِنَّ الدِّفَاعُ. بِهِنَّ الْهُجُومْ — بِهِنَّ الْحُتُوفُ. بِهِنَّ الْأَمَانْ
وَهُنَّ لِعُمْيِ الْعُيُونِ الْعُيُونْ — وَلِلْبُكْمِ هُنَّ بَدِيلُ اللِّسَانْ
وَأعْجَبُ شَيْءٍ بِهِنَّ الْخُطُوطْ — فَمَا اتَّحَدَتْ فِي الْوَرَى «بَصْمَتَانْ»
وَطَبْعَةُ إِبْهَا مِنَّا خَتْمُنَا — يُمَيِّزُنَا مَا تَوَالَىٰ الزَّمَانْ
أَنَامِلُنَا مِنْ بَدِيعِ الْفُنُونْ — يُقَصِّرُ عَنْ وَصْفِهِنَّ الْبَيَانْ
بَصُرْتُ بِإِتْقَانِهَا الْبَاهِرِ — فَآمَنْتُ بِالْخَالِقِ الْقَادِرِ
بَنَانٌ بِهِنَّ لِأَهْلِ النَّظَرْ — رَوَائِعُ آيَاتِ رَبِّ الْبَشَرْ. . . .
فَآمَنْتُ بِهْ

كلمة «بَلَىٰ»: حرْفُ إيجاب عنْدَ علماء العربيّة ويختصُّ بالنفي، ويفيد إبطاله، كما جاء في الآية.

ومن تَتَبُّعِي للنُّصُوص الْقُرآنِيَّة الَّتي فيها لفظة «بَلَىٰ» ظهر لي أنَّ العطْفَ قَدْ يَأْتي بَعْدَها عليها، كأنَّهَا في قُوَّة جُمْلَةٍ مُثْبَتَة، مُنْتَزَعَةٍ من الجملة المنفية السَّابقة لها، ومنه قول اللّه عزّ وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) حكاية لمقالة إبراهيم عليه السلام: ﴿..بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...﴾.

أي: بلىٰ آمنتُ ولكن...

وَقد يأتي الحال بَعْدَهَا كأنَّ الجملة المثبتَة مَوْجُودَةٌ، ومنه ما جاء في هذه الآية: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ④﴾.

وقد يأتي غير ذلك مبنيّاً على هٰذِهِ الجملَةِ الَّتي جاءَتْ كَلِمةُ «بَلَىٰ» عوضاً عنها، أو دالَّةً عَلَيْها.

وأرى أن نعتبر كلمة «بلَىٰ» عِوَضاً عن الجملة المثبتة هذه، نظيرَ قول النُّحاة في تنوين الْعِوَض في نحو: «يومئذٍ» و«حينئذٍ».

القضيَّةُ الثالثة:

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾.

في هذا النصّ كشفٌ للباعث النفسيّ الّذي يجعَلُ الْإِنسَان يَسْتَبْعِدُ عن تَصوُّرِهِ يوْمَ الدِّين نهائيّاً، حتَّىٰ مُسْتَوىٰ الإنكار، والتكذيب بما جاء عنه من صَادِقِ الأخبار، عن العزيز الجبّار القهار.

﴿بَلْ﴾ حرف ابتداء، ومعْنَاهُ الإضرابُ، والإضرابُ هُنَا إضرابٌ إبْطاليٌّ لمعنًى يُشْعِرُ به تَوَهُّمُ الإنسانِ المنكر للبعث بأنّ اللَّهَ لَنْ يجْمَعَ عِظَامَه، أي: ليْسَ صحيحاً أنَّ هذا الإنسانَ الكافِرَ شاكٌّ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ، في قُدْرَةِ الرَّبّ الخالق على إحياء الموتىٰ بعد أنْ تَبْلَىٰ عِظَامُهُمْ، بَلْ هو واقع تحت تأثير رغباتِ الفجور لديْه، إذْ هو يُرِيدُ أَنْ يَنْطَلِقَ فَاجراً في مستقْبَل أيَّامِهِ، دون أَنْ تُعَكِّرَ عَلَيْهِ مَشاعِرُ الخَوْفِ من عقابِ اللَّهِ، فيَطْرَحُ عبارات الشَّكِّ في الحياة بعْدَ الموت، مُعْلِناً كُفْرَهُ وجُحودَه.

﴿يُرِيدُ﴾: يَدُلُّ الفِعْلُ الْمُضَارع هُنَا على الحركة المتجدِّدة المستَمِرَّةِ لإرادته، كما يَذْكُر البلاغيُّون.

وَجاءت التعدية بحَرْفِ اللاّم في: ﴿لِيَفْجُرَ﴾ مع أن الفعل يَتَعَدَّىٰ بنفسه، فالأصل أنْ يُقالَ: بل يُرِيدُ الإنسانُ أَنْ يَفْجُر، للإشعار بأنّ الْمَفْعُولَ به مَحْذُوفٌ، والتقدير: بل يريد الإنْسَانُ بإرَاداتٍ مُتَجَدِّدات، مُرَادَاتٍ

كثيراتٍ، تَتَدَفَّقُ من مَنَابعِ أهوائه وشهواتِه ورَغَباتِ غَرائِزِهِ وَأَنَانِيَّاتِهِ، ويُرِيدُ أن يُمَارِسَهَا بمِلْئِه، وبكلِّ انطِلاقَاتِه الحرَّة، ويَكْرَهُ أن يكون الإيمان بالدِّين وبالعقاب الرَّبّانيّ وكُلُّ التصوّراتِ المتصلة بالجزاء بالعدل غُصَّةً في حَلْقِ ممارساته الحرَّة الْفَاجرة، وقد حُذِف المفعولُ به ليعُمَّ كلَّ المرادات الفاجرات.

لكُلِّ ذَلك فهو يريد الكفر بيوم الدِّين، ويُرِيدُ صَرْفَ ذِهْنِهِ عن كلّ تصوّراته وتصوّرات الجزاء ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾.

﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾: أي: لِيَنْطَلِقَ في مستقْبَلِ أيَّامِهِ فاجراً مُنْبَعِثاً انبعاثاً كُلِّيًا بكُلِّ طاقاتِه لمُمَارَسَةِ شَهَواتِه وأَهْوائِهِ ورَغباتِ نفسه، مهما كان فيها من شرٍّ وضُرٍّ وتَحَدٍّ لكلّ فَضِيلَةٍ، ومَهْما كان فيها من استهانة بكلّ واجب، واستمراءٍ لكلّ رذيلة وفِسْقٍ وعُدْوانٍ، وظُلْمٍ وَبَغْيٍ وَطغْيان.

الْفُجور: هو الانبعاثُ القبيح الوقح الواسع في فعل الشُّرور وارتكاب الآثام والكبائر، وكلُّ ما فيه ظلم وضُرٌّ وبَغْيٌ وعُدْوان، دُونَ وازِعٍ ولا رَادِعٍ من داخل نَفْسِ ذي الإرادة، وانْبِعاثُه حاصلٌ بِمِلْءِ سعَةِ نَفْسِه، وبأوسع ما لَدَيْهِ من جُرْأَة.

فالإنسان الكافِرُ بيوم الدِّين عَنْ وغْيٍ وتَصْميم، على الرّغم من ظُهُورِ أدلَّة الإيمان باللَّه وكمالِ صفاته، وأنَّهُ أحكم الحاكمين، وأنّه لا يمكن أن يَخْلُق الناسَ عَبَثاً، ولا يمكن أن يَتْرُكَهُمْ سُدىً، دون حسابٍ وفَصْل قضاءٍ وتحقيق جزاء، هو ذُو كُفرٍ مُرادٍ، وكُفْرُهُ نَتِيجةٌ خبيثَةٌ لإرَادَةِ جُحُودٍ واعيَةٍ منه، ولهذا الإنْسَانِ غايَةٌ من إرادَتِهِ الكُفْرَ، وهي أَنْ يَفْجُرَ في مُسْتَقْبَلِ عُمْره، فهذا المستَقْبَلُ هو الممتَدُّ أَمَامَه ولو كانَ لا يَرَىٰ منه شيئاً.

فكشَفَتْ هاتان الآيتان مَعَ بالِغِ ما فيهما من إيجازٍ، الباعِثَ النَّفْسِيَّ لدَىٰ الإنسان الكافِرِ بيَوْم الدِّين كُفراً إراديًا تَصْمِيمِيًا واعياً، فالجاهل بأمْرٍ ما

لا يمكِنُ إذا كان عاقلاً، وذا إدْراكٍ واعٍ، أنْ يكْفُرَ به مُثْبتاً بُطْلانَه، بل يقول: لا أعلم. ومثلُه الشَّاكّ في أمْرٍ مَا، الصادِقُ في شَكِّه، والباحثُ عَنِ الحقيقة، لا يمكِنُ أن يَكْفُرَ به مُثْبتاً بُطْلانه، بلْ يقول: أنا ما زلْتُ في مَرْحَلَةِ الشَّكِّ، ولَمْ أصِلْ إلى مَرْحَلَةِ الظَّنِّ الرَّاجح، فضْلاً عن مَرْحَلَةِ اليقين، إيجاباً ولا سَلْباً.

فعُنْوانُ الكُفْر إنَّما يَنْطَبِقُ على ذي الكُفْرِ الإرادِيِّ، الذي هو ثَمَرَةُ وعْيٍ لمَا يكْفُرُ به، وثَمَرَةُ تَصْمِيمٍ على أَنْ يَكْفُر به.

فإنْ كان كُفْرُ الكافِرِ بالشَّيْء نتيجَةَ عِلْمٍ قَائِمٍ على بُرهَانٍ بأنَّهُ باطلٌ، فَهُو فضيلَةٌ يُطَالَبُ بها المؤمنُونَ باللَّه وباليَوْمِ الآخرِ، ولهذا فَهُمْ مُطَالَبُونَ دِيناً بأنْ يَكْفُرُوا بالطَّاغوت.

وإنْ كان كُفْرُ الكافر بالشَّيْءِ غَيْرَ نَاتِجٍ عنْ عِلْمٍ قائم على بُرهانٍ ببُطْلَانه، فَهُو أَحَدُ ثلاثَة فُرَقاء:

(١) فريقٌ عَالِمٌ بأَنَّهُ حَقٌّ، وهو يَكْفُرُ بهِ جُحُوداً، وهذا شَرُّ خَلْقِ اللَّه، ومن هذا الفريق فرعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَقَدْ أنزلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ بشأنهم قولَهُ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

(٢) وفريقٌ شَاكٌّ بأَنَّهُ حَقٌّ، وهو مع ذَلِكَ يَكْفُرُ بِهِ لأَنَّهُ يَرْغَبُ في أنْ لاَ يكونَ حَقًّا، وهذا دُونَ الفريق الأَوَّلِ في السُّوءِ والشَّرّ، ولكِنْ لَيْسَ لَهُ أن يَكْفُرَ بِهِ لمجرَّد الشَّكِّ، بل عليه أن يَبْحَثَ حتَّى يَسْتَيْقِنَ.

وَإِنَّهُ لَيْسَ لقضيَّةٍ من قضايا الدِّينِ الحقّ ضِدٌّ أَوْ نقيضٌ يُمْكِنُ الإيمانُ به بدليلٍ مَقْبولٍ في العقول، فَلاَ حُجَّةَ للشَّاكِّ إذا رفَضَ الإيمانَ بقضيَّةٍ من قضايا الدِّين الحقّ، وآمَنَ بنقيضها، أو بضِدِّها، بلْ يُعْتَبَرُ كافراً بغَيْرِ حقّ.

(٣) وفريقٌ جاهِلٌ بأنَّهُ حَقٌّ جَهْلاً تامًّا، وجاهلٌ أَيْضاً بأنَّهُ باطلٌ، ومع جَهْلِهِ به يَكْفُرُ به، وهذا دُون الفريق الثاني في السُّوءِ والشّرّ، لكِنَّهُ ضَالٌّ مُعْتَدٍ على الحقّ، إِذْ ليس لَهُ أن يَكْفُرَ بشيءٍ يجهلُه، فإذا كَفَرَ بِهِ كانَ مسؤولاً عن كُفْرِه.

ولمَّا كانَ كُفْرُ الإنسانِ الراغبِ في الفجور بيَوْمِ الدِّين كُفْراً إرادِيًّا تَصْمِيميًّا، نَابعاً من منابعِ رَغَبَاتِ الْفُجور لَدَيْهِ، لَمْ يَجِدْ حُجَّةً صَحِيحةً تقبلُها العقولُ حتَّىٰ يحتجَّ بها، ليَجْعَلَ كُفْرَهُ مَقْبُولاً ظاهِرِيًّا بيْنَ النَّاس، لذلك فَهُوَ يَلْجأُ إلَىٰ طَرْحِ أَسْئِلَةِ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَاب، ومِنْها أَنْ يَسْأَلَ قائلاً: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟!!

«أَيَّانَ»: اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ به عَنِ الزَّمَان، ويُسْتَعْمَلُ فيما يُرادُ استعظامُهُ واستِغْرَابُهُ واستبْعَادُهُ.

أي: متَىٰ يَكُونُ يَوْمُ القيامَةِ هَٰذا، وقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ الْعَدِيدَة في تاريخ النَّاسِ، دُونَ أَنْ يَحْدُثَ هَٰذَا الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ به.

وحين يسْأَلُ المنكِرُ مثْلَ هذا السُّؤَال، فَمُرادُهُ الاستبعَادُ والإنكار. أي: لَنْ يأتِيَ يَوْمُ القيامَةِ هٰذا.

لكِنَّ صِيغَةَ سؤالِه فيها مُوارَبَةٌ، ظاهِرُها التَّسَاؤلُ، وباطِنُها التكذيب بيَوْم الدين.

القضيَّة الرابعة:

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

قرأ جمهورُ الْقُرّاء الْعَشَرَة [بَرِقَ] بِكَسْرِ الراء. وقرأ نافع وأبُو جَعْفَرٌ: [بَرَقَ] بفتح الرَّاء.

وهما لغتان عربيَّتَانِ بمعنَىٰ دَهِش فَلَمْ يُبْصِرْ من الدَّهْشَةِ الّتي أصابته فَحَيَّرَتْه.

إنّ القضيّة التي دلَّت عليها هذه الآيَاتُ، ذاتُ عناصر مترابطة متعانقة، مجتَمِعَةٍ عَلَىٰ غَايَةٍ واحدة، ولَوْ كانت بينها فواصِلُ زمنِيَّةٌ طويلَةُ الْأَمَدِ.

إنَّها قضيَّةٌ وصْفِيَّةٌ تصِفُ لقطاتٍ سريعاتٍ مُخْتَصَراتٍ جدّاً، من أحداثٍ سَوْفَ تكون، يبْدَأُ أوَّلُهَا عنْدَ مَوْتِ الإنسان، واللَّقْطَةُ الثانية تصِفُ حَدَثَ تَغْيِيرٍ كوني هُوَ من مُقَدّمَاتِ سَاعَةِ إنْهَاء ظُرُوف الحياة الدّنيا. واللّقطَةُ الثالثة تحْكِي مقالَةَ يقولُهَا الإنْسَانُ الْكَافِرُ إذا بُعِثَ بَعْدَ الْمَوْتِ للحساب، وفصْل القضاء، وتنفِيذِ الجزاء. واللّقطَةُ الرّابعةُ تَحْكِي مَا يُقَالُ لَهُ جواباً على مقالَتِهِ مَعَ زَجْرِهِ. واللَّقْطَةُ الخامسة تَصِفُ مَشهداً من مشاهِدِ حسابه، إذْ يُنَبَّأُ بكُلِّ ما فَعَلَ وَتَرَكَ في الحياة الدنيا، مع بيان أنَّه خبير بما يُنَبَّأُ به، لأنَّهُ يتَذَكَّرُ يومئذٍ كلَّ ما سَعَىٰ في رحْلَةِ امتحانه في الحياة الدنيا، ومع الإلماح إلى مناقشته الحسابَ، وأنَّهُ يُحَاوِلُ أنْ يُدافع عَنْ نَفْسه، فيُلْقِيَ مَعَاذِيره الكلاميَّة، وهو يَعْلَمُ أنَّهُ لاَ عُذْر لَهُ، إذْ كان مُجْرِماً حقًّا.

ويُمْكِنُ تفصيلُ بعْضِ هذه اللّقطات فتكونُ بَعْدَ التفصيل سَبْعَ لقطاتٍ.

اللقطة الأولى:

جاءَت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ بكسر الراء وفي قراءة المدنيَّيْن: «نافع وأبي جَعْفَر»: [**فإذَا بَرَقَ الْبَصَرُ**] بفَتْحِ الرّاء من [بَرَقَ].

قال علماء اللّغة: بَرِقَ الْبَصَرُ يَبْرَقُ، وبَرَقَ يَبْرُقُ بُرُوقاً، أي: دَهِشَ فلَمْ يُبْصِرْ. وقيلَ: تَحَيَّرَ فلَمْ يَطْرِفْ.

قَال الفرّاء: بَرَقَ من الْبَرِيق، أي: شَخَصَ. وبَرِقَ بمعْنَىٰ فِزِعَ، أي: فَتَحَ عينَيْهِ من الفزع. وبَرَقَ بصَرُهُ كذلِكَ أيضاً.

وجاء في كُتب اللُّغة أيضاً: الْبَرَقُ: الحيْرَةُ، والدَّهَشُ، والْفَزَعُ، والشُّخُوص، فالمعاني كلّها مستفادة من القراءتين.

فالظاهر أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ ما يحْصُلُ للإنسان في لحظة مَوْته ومُفَارَقَتِه للحياة، لأنَّهُ عنْدَها يَبْرَقُ بَصَرُهُ دَهْشَةً وَحَيْرَةً وذُعْراً، ثُمَّ يشْخَصُ.

يقال لغة: شَخَصَ فُلانٌ بَصَرَه، وشَخَصَ ببَصَره، أي: فتح عَيْنَيْهِ ولم يَطْرِف بهما متأمِّلاً أو مُنْزَعجاً.

(ال) في: [الْبَصَر] للجنس، ولكنّ المؤمنين الناجين يشاهدون منازلهم الكريمة في جنات النعيم فيحبُّون لقاء اللّه ولا يحصل لديهم الدهش والذعر، فالمراد بصر أهل العذاب.

فالآية إذن تُعْطِي لقطةً لحالة الإنسان الذي يَشْهَدُ المخاوِفَ سَاعَةَ موته، وما يصِيبُ فيها بَصَرَهُ من حَيْرَةٍ ودهْشَةٍ، وما يصيبُهُ فيها من فَزَع وذُعْر، إذا كان من أهل النار، ممَّا يشْهَدُ من أحوال الآخرة، ثمّ ما يحدُثُ فيه من شُخُوص، وسوابق الكلام في السُّورة تتحدّث عن المكذّب بيوم الدّين.

اللّقطة الثانية:

جاءت في قوله اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾.

هذا حَدَثٌ من أحداث أشراط السَّاعة الّتي يُنْهِي اللّه بها ظُرُوف هذه الحياة الدنيا، أو يكون من مقدّماتها، أو أَحَدَ عناصِرِها.

والمراد بخُسُوف القمر ذهابُ نُوره، أو ذهاب جِرْمِه الذي يَذْهَبُ بذهابِه نُورُه.

خَسَف: يقال لغة: خَسَفَ المكانُ يَخْسِفُ خَسْفاً وخُسُوفاً، أي: غَارَ بما عليه. ويقال: خَسَفَ اللَّهُ بهم الأرْضَ، أي: غيَّبَهُمْ فيها. ويقال: خَسَفَتِ الْعَيْنُ: إذَا غارَتْ وذهَبَتْ في تجويفِ الرأس. وعَيْنٌ خاسِفَةٌ وخاسفٌ، إذا غارَتْ وغابَتْ حَدَقَتُهَا مِنْ عِلَّةٍ، أَوْ فُقِئَتْ.

هذا أصل معنى الْخُسُوف في اللُّغة، وعلى مِثْلِه يَكُونُ خُسُوفُ الْقَمَر الذي هو من أشراط السَّاعة أو من أحداثها.

أشراط السَّاعة: هي العلامات الّتي تحدُثُ قَبْلَ وُقُوعِها، فتدلُّ على قُرْب وقوعها.

اللّقطة الثالثة:

جاءت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

هذا حدَثٌ يكونُ عقِبَ خَسْفِ الْقَمَرَ أَوْ مُقَارِناً له، إذْ يَنجَذِبُ الْقَمَرَ إلى الشَّمْس، حتَّىٰ إذا بلَغَها ابْتَلَعَتْهُ، فَيَغُورُ في أَحَدِ تجويفاتها العظيمة العميقة، فيجتمعان.

أمّا ما دام نظام الحياة الدنيا قائماً فإنّ الشَّمْسَ لا ينبغي لَهَا أنْ تُدْرِكَ القمر، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾.

يُلاحظُ في اللَّقَطَاتِ الثَّلاثِ السَّابقات، أنَّ البيان القرآنيَّ قد جاء فيه اختيارُ لَفْتِ نظر الإنسان المكذّبِ بِيَوْمِ الدِّينِ:

- إلى ساعة موته الّتي يَشْهَدُ فيها ملائكةَ العذاب، وَنُزُلَهُ من النار، فَتُصِيبُهُ الحيْرَةُ والدَّهْشَةُ والْفَزَعُ الْعَظِيم، فَيَبْرَقُ بصَرُه، ثُمَّ يَشْخَصُ مع طلوع الرُّوح.

● وإلَىٰ حَدَثٍ آخَرَ يكُونُ قُبَيْلَ أو عنْدَ قيام السَّاعَةِ الَّتي يُقْضَىٰ بها على الخلائق، وهُوَ حَدَثٌ يشْهَدُه الكافرون في الأرض الّذِين تَقُومُ السَّاعَةُ علَيْهم، إذْ تَقُومُ وَلَيْسَ في الأرض من الناس إلاَّ الكافرون، ليس عليها من يقول: الله، كما جاء في بيانات الرسول ﷺ.

وهذا الحدَثُ هُوَ ذهَابُ نور القمر المصحوبِ أو المتبوع بذَهاب جِرْمِه، إذْ تَبْتَلِعُهُ الشَّمْسُ فَيُجْمَعُ بَيْنَهُما.

فهما حَدَثَان مُتَتَابِعَان أو مُقْتَرنان، والله هو العليم بما سَوْف يَحْدُث.

اللقطة الرابعة:

جاءت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يَقُولُ الإنسانُ الكافرُ، فَهُو المذعُورُ الذي يُريدُ مكاناً يَفِرُّ إليه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يوم القيامة الذي يُنْكِرُه.

﴿أَيْنَ﴾: اسْمُ استفهام عن مَكَانٍ، وهو مبنيٌّ في محلّ رفْعِ خبر مقدّم، و﴿ٱلْمَفَرُّ﴾ مبتدأٌ مؤخر.

﴿ٱلْمَفَرُّ﴾: مصدر ميميّ، بمعنى الْفِرار، أي: أيْنَ مَكَانُ الفرارِ من مَوْقف الحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

أو هو اسم مكان من فِعْل: «فَرَّ يَفِرُّ». الأصل في اسم المكان من «فَعَل يَفْعِل» مَفْعِل، فهو من «يَفِرُّ» مَفِرٌّ، لكن أَجازَ الْفَرَّاءُ والكِسَائي أن يكون «مَفَرّ» اسم مكانٍ.

وأُرَجّح المصْدَرِيَّةَ هُنَا، لأنَّ الكافِرَ يومَئذٍ يَطْلُبُ الْفِرَار ولو إلى الموت الأبَدِي، إذْ يَقُول كما جاء في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿...يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

أي: يقولُ: يا لَيْتَهُ يَصِيرُ مِثْلَ الْبَهائِمِ إِذْ تَصِيرُ إلى التُّرابِ، بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ اللَّهُ الْعَدْلَ فيما بَيْنَها.

لم يُقَدِّم النَّصُّ هُنَا لقْطَةً عَنْ سَاعَةِ البعثِ إلى الحياة بعد الموت، اكْتِفاءً بما جاء في صَدْرِ السُّورَةِ، وهو قولُ اللَّهِ عزَّ وجل: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ فالحدِيثُ عن يَوْمِ القيامة هو المقصود الأساسيُّ في البيان، ونظراً إلى الْبَدْءِ به في صَدْرِ السّورَةِ، انتقل النَّصُّ إلى اللّقطَةِ الرّابعة، وهيَ بيان بَعْضِ ما يَقُولُه المكذِّبُ بيوْم الدّين، إذْ يُدْرِكُ مَا هُوَ صائِرٌ إليه من حسابٍ، وفَصْل قَضَاءٍ، وَجَزَاءٍ بعذاب جهنَّمَ خالداً فيها مُخَلَّداً.

اللقطة الخامسة:

جاءت في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾.

﴿كَلَّآ﴾: أداة ردْعٍ وزجْرٍ في معظم أحوالها، ولهذا يجوز الوقوفُ عليها والابتداء بما بعْدَها.

﴿لَا وَزَرَ﴾: أي: لاَ مَلْجأَ لَكَ أَيُّها الإنسانُ الكافِرُ تلْتَجِئُ إليه، طالباً فيه حمايتَكَ منْ عذاب الله.

الْوَزَرُ: في كلام العرب الجبَلُ، وكُلُّ مَعْقِلٍ، ويُطْلَقُ علىٰ كُلِّ مَا يُلْتَجأُ إليه لِلْحمَايَة.

يقال للكافر يوم القيامة جواباً على سؤاله: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾؟ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾: أي: زجراً ورَدْعاً لاَ وَزَرَ لَكَ.

كان الظاهرُ أن يُقَالَ لَهُ: كَلَّا لاَ مَفرَّ، على وفْقِ سُؤاله. لكِنَّ جوابَهُ يأتي بِتَيْئِيسِه من الملْجَأ الذي هو أخفُّ من الْمَفرّ، ونَفْيُ الأخفِّ يلْزَمُ عَنْهُ عقْلاً نَفْيُ الأَشَدِّ حتماً.

أو يُقال: حُذِفَ من سُؤَالِهِ في النصّ الْوَزَر، وأصْلُهُ: أيْنَ المَفرُّ؟ أو أيْنَ الْوَزَرُ؟

فجاء الرَّدُّ الزَّجْرِيُّ في النَّصِّ بحذف «الْمَفرّ» وإثبات «الْوَزَر». ليَدُلَّ المذكور في كلٍّ من الطرفَيْن على المحذُوفِ من الطَّرَفِ الآخر.

وهذا على الاحتمالَيْن هو من الْعُمْقِ القرآني.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾:

الْمُسْتَقَرُّ: أي: المكانُ الَّذِي سَوْفَ يستَقِرُّ فيه الكافِرُ يوْم الدين، وهو في جَهَنَّمَ حَتْماً، فهي مستقرّ الكافر لا مَكانُ إقامَتِه المؤقتة، بخلافِ المؤمن العاصي.

اسْتَقَرَّ بالمكان: أي: تَمكَّنَ فِيهِ وَثَبَتَ. **والْمُسْتَقَرُّ**: القرارُ والثُّبُوتُ. ويقال: صار الأمْرُ إلَىٰ مُسْتَقَرِّهِ، أي: تَنَاهَىٰ إلَيْهِ وثَبَتَ فيه.

جاء في هذه الآيَةِ خطابُ الكافِرِ وهو في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، بدليلِ عبارة: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

والمعنى: إنَّ الْحُكْمَ يومَ القيامة بمكانِ استقرارِكَ الَّذِي سَوْفَ تَسْتَقِرُّ فيه خالداً مخَلَّداً، هو إلى رَبّك يَوْمئذٍ، لاَ معقّبَ لحُكْمِه، ولا رادَّ لقضائه. فَضَعْ في حِسَابكَ أيُّها الكافر وأنْتَ الآن في رحلة الامتحانِ هٰذه الحقيقة من حقائق أنْبَاءِ يَوْمِ الدّين، يَوْمِ الْحِسَابِ، وَفَصْل القضاء، وتحقيقِ الجزاء.

ويَحْسُنُ بالمتَدبِّر الْحَصِيف أنْ يُدْرِكَ، أَنَّ الْبَيَانَ القرآنيَّ بيانٌ عَجِيبٌ، يتنقَّلُ فِيهِ النَّصُّ ما بَيْنَ مراحلِ الدُّنيا حَيَاةِ الابتلاء، ومراحِل الآخِرَةِ حَيَاةِ الجزاء، فالْمَاضِي والْحَاضِرُ والمستقْبَلُ صفحَةٌ مَفْتُوحَةٌ في مَدَىٰ عِلْمِ اللَّهِ، يَكْشِفُ منْها لعبادِه بحكْمتِهِ ما يشاء.

اللقطة السادسة:

جاءَتْ في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يُنَبَّؤُا۟﴾: أي: يُخَبَّرُ. **النَّبأُ**: الْخَبَرُ ذُو الظُّهور والارتفاع، لأهَمِيَّته. يُقَالُ: أَنْبأَ فُلاَنٌ فُلاناً وَنَبَّأَهُ الْخبرَ وبِالْخَبر، أيْ: أَخْبَرَهُ وأَعْلَمَهُ به.

﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: يُرادُ بالإنسانِ هُنا جِنْسُ الإنسان. و(ال) لا تفيد الاستغراق، لأنَّ الَّذِين يَدْخُلونَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حسَابٍ قَدْ لا يُنَبَّؤُونَ بأَعْمَالِهِم كُلِّها، إغْضَاءً عن تَقْصِيراتهم وبَعْضِ معاصِيهم، وقد جاء في بيانات الرسُول ﷺ ما يُشْعِرُ بهذا.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يَوْمَ إِذْ يَكُونُ الحُكْمُ بمَصِيرِه إلى رَبِّهِ فِي موقفِ حِسَابه، للْفَصْلِ في القضاء له أو عليه.

التنوين في «يَوْمَئِذٍ» هو تنوينُ الْعِوَضِ عن هذه الجملَةِ المفهومة استخراجاً من الآيَةِ السَّابقة (١٢).

والمعنى: يُنَبَّأُ الإنسانُ يوْمَ القيامة عند محاسبته على ما كسَبَ في الحياة الدُّنيا، حياة الامتحان، بِكُلِّ ما قَدَّمَ منْ عمَلٍ قَدْ عَمِلَهُ، خيراً كانَ أوْ شَرّاً، وبكلّ ما أخَّرَ، أي: بكُلّ ما لم يَعْمَلْهُ من أَعْمَالٍ كان يجبُ عليه أن يَعْمَلَها، أَوْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أن يَعْمَلَهَا.

وجاء التعبير عمَّا عَمِلَهُ من أَعْمَالٍ في الحياة الدُّنيا بعبارَة: ﴿قَدَّمَ﴾ وعمّا لم يَعْمَلْهُ فيها بعِبَارَة [أَخَّرَ] وهذا من مصطلحات الْبَيَان القرآنيّ، للدّلاَلَة على أنّ كُلَّ ما يَكْسِبُهُ الإنْسَانُ بإرادته في رحلة امتحانه مُدَوَّنٌ، وسَيُحَاسَب عليه، فَهُوَ يُقَدِّمُهُ بيْنَ يَدَيْهِ إنْ كَانَ عملاً، ويُؤَخِّرُهُ وراءَه، إذا كَانَ تَرْكاً لعَمَلٍ مطلوبٍ منه، وسَيُحاسَبُ على تَرْكِهِ له.

إنّ مقابلة فِعْل «قَدَّمَ» بِفِعل «أَخَّرَ» تَدُلُّ على أنَّ فِعْلَ «أَخَّرَ» يُرَادُ به تَرْكُ الْعَمَلِ الَّذِي كانَ مأمُوراً به إلزاماً أو ترغيباً.

ومن هٰذِهِ الاستعمالات القرآنيَّة، قوْلُ اللّه عزَّ وجلَّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

وقَدْ وُصِفَ الْعَمَلُ المؤدَّىٰ في الحياةِ الدُّنيا بأنه «يُقَدَّمُ» لأنَّهُ يَسْبِقُ عَامِلَهُ إلى ديوان أعْمَالِه فَيُسَجَّلُ في كتابِ عَمَلِهِ.

وَوُصِفَ ما لم يَعْمَلْهُ الْإِنسَانُ في الحياة الدُّنيا بأنَّه «يُؤَخَّرُ» لأنَ الإنسان حينما يأتي مَوْقفَ الحساب، ولا يأتي معه عَمَلُهُ الّذي كانَ مَأمُوراً به، يُدْرِكُ أَنَّهُ قد تَرَكَهُ في زَمَانِ الحياةِ الدُّنيا، وجَعَلَه مُتَأَخِّراً عَنْ رَكْب حَيَاته، ويُدْرِكُ أَنَّه لا رجْعَةَ إلَيْه الْبَتَّةَ، وقَدْ عاش عُمْراً كانَ بإمْكانه فيه أن يَسْتَدْرِكَ ما فاتَهُ فلَمْ يَفْعَلْ، حتَّىٰ وافَتْهُ مَنِيّتُهُ، وانتَهَتْ ظروفُ امْتحانه، وأقْبَلَتْ مَرْحلةُ حسابه، وفَصْلِ القضاء بشأنه، ومجازاتِه على اختياراته الحرَّة في الحياة الدُّنيا.

اللقطة السابعة:

جاءت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

﴿بَصِيرَةٌ﴾: أي: كثير الْبَصَرِ والمعرفة بحركاتِ نَفْسِهِ، وتَصَرُّفَاتِهَا، ومُرَاداتِها، وأهوائها، وشهواتها، ونزعاتها ونزغاتها، ونِيَّاتِها، وأعْمَالِهَا الصَّالحاتِ والسّيّئات، وسائر ما يَصْدُرُ عَنْهَا من مكتسباتٍ إراديَّة.

كَلمة «بَصِير» على وزن «فَعِيل» من صِيَغِ المبالَغةِ الّتي يرادُ بها التكثير، أو التكبيرُ والتعظيم. والتاء في «بَصِيرَة» لزيادة المبالغة، وهي التاء التي يُؤْتَىٰ بها أحْيَاناً لتوكيد وزن الفاعل، مثل «رَاوِية» و«نَابغَة» وقد تأتي لتوكيد المبالغة، مثل «علاَّمَة» و«نَسَّابَة» و«فَهَّامَة».

﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾: متعلقٌ بـ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مقدّمٌ عليه لمراعاة رؤوس الآيات وفنّيتها، وللتخصيص بأنّ معرفته الزائدة خاصّةٌ بأحوال نَفْسِهِ الإراديَّة.

﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾: أي: هو يَعْرِفُ تماماً قبائح نَفْسِهِ، وجرائمها، وخطاياها الظاهرة والباطنة، ولَوْ حَاوَل تلْفِيقَ الأعْذَارِ لتبْرِئة نَفْسِه بالأكاذيب.

مَعَاذِير: جمع «مَعْذِرَة» بكَسْرِ الذَّال وضَمِّها، وتُجْمَعُ أيضاً على «مَعَاذِر» بغير ياء، على وزْنِ «مَفَاعِل».

والْمَعْذِرة: هي الحجَّةُ الّتِي يقدّمها ويجادل بها المعتذر عن ذنْبِه، الذي يُحَاول تَبْرِئة نَفْسِهِ من التقصير أو الذّنب.

والمعاذِير يَشُوبُها الكَذِب، ومن أمثالِ العرب: المعاذِرُ مكاذب.

وتأتي الْمَعاذِيرُ بمعنى السُّتُور في لُغَةِ اليمن، ومُفْرَدُها: «مِعْذَار».

والمعاذير بمعنى الحجج الكلاميّة تشبه السُّتُور الّتي يُلْقِيها الإنسان، ليَسْتُر بها ما وَراءَها من عُيُوب.

ومُقَدِّم الحجج الكواذب يحاول بها سَتْر ذُنُوبه، لعَلَّهُ يَظْفَرُ بحكم البراءة، لكنّها عند الله يَوْم الحساب لا تنفَعُهُ بشيء، فاللّه به وبخفايا نَفْسِه عليم، لا تخفَىٰ علَيْه خافيَة.

عَلَىٰ أنّ الْإِنسَانَ نفْسَه يتذكّر يَوْمَ الدِّين كُلَّ ما سَعَىٰ في الحياة الدنيا، وكُلَّ ما جَنَىٰ من مكتَسَبَاتٍ إراديَّة في رحْلَة امتحانه.

يُضَافُ إلى ذلك أنَّ صُحُفَ أعْمَالِهِ لَمْ تُغَادِرْ صَغِيرَةً ولاَ كَبِيرَةً إلاَّ أحْصَتْهَا، ففِيهَا سِجِلٌ كاملٌ له بالصَّوْت والصُّورَةِ الظَّاهرة والباطنة، حتَّىٰ حركاتِ الفكر، وحركاتِ النفْس، والنيَّاتِ، وما في عُمْقِ الْفُؤَادِ.

ويُضافُ إلى ذلك أيضاً أنّ جِلْدَهُ وأعْضَاءَه الّتي ارتكبَ بها الذّنوب والمعاصيَ والآثامَ تَشْهَدُ عليه في موقف حسابه.

كُلُّ هذا دلَّتْ عليه نُصُوص من القرآن المجيد والسنة المطهرة.

فَمِنْ بديع البيان القرآنيّ استعمالُ كلمة «معاذير» هنا لتدلّ على معنى الحجج الكواذب التي يحاول بها المجرم تبرئة نَفْسِه يوم الدين، ولتَحْمِلَ معنى تشبيه هٰذِهِ الحجج بالستور التي يُحَاول مُلْقِيها سَتْرَ ما وراءها من عيوب، على طريقة استخدام اللَّفْظِ بمَعْنَيَيْه، أو على طَرِيقة التورية.

وفي استخدام فِعْلِ ﴿أَلْقَىٰ﴾ توجيهٌ لقبول الْمَعْنَيَيْن، فقد استعمل هذا الفعلُ في القرآن في الحسّيَات وفي المعنويّات، فمِنَ الحسّيَات: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ ومن المعنويّات: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

وفي استعمال كلمة ﴿بَلْ﴾ الَّتي فيها معنَىٰ الإضراب الإبطالي، وما في جُمْلة: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ⑮﴾ من دَلاَلَةٍ، بعد بيان أنّ هذا الإنسان خبيرٌ بما قَدَّمَ وأخَّرَ، إذ هو: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ يُدْرِكُ المتدبّر المتَتَبِّعُ لِلَوازِمِ الأَفكار، أنَّ هذا الإنسَانَ لَدَىٰ مُحَاسَبَتِهِ وَتَنْبِيئِهِ بما قَدَّمَ وَأَخَّرَ، يُجادِلُ عَنْ نَفْسِه، لتَبْرِئَتِها ممَّا جنَتْهُ في رحلة الحياة الدنيا، فَلاَ يُقِرُّ بِمَا جَنَىٰ، مَعَ عِلْمِهِ بمَا جَنَىٰ، ويُحَاوِلُ أَنْ يَسْتُرَ نفسَه بالمعاذير.

ففي النَّصّ القرآنيّ محاذيفُ تُقَدَّرُ ذهناً، وَقَدْ دَلَّ عليها ما سَبَق.

وبإبراز المحاذيف يُمكن أن نفهم النَّصّ على الوَجْهِ التالي:

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬﴾ فَيُنْكِرُ، ويَرْفُضُ الإقرار، ويُحاولُ أن يُلْقِيَ مَعاذيرَهُ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ⑭ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ⑮﴾ لكنَّهُ يُمْنَعُ من ذَلِكَ، فَلاَ يُؤْذَنَ لَهُ بتَقْديم الحجج الكواذب، فوقْتُ الحسَاب الرَّبَّانِيّ لا يُشْغَلُ باسْتِمَاعِ أكاذيب المجرمين، دَلَّ علَىٰ هٰذا قَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ㉟ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ㊱﴾.

وقد أبَان اللّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) أنَّ كُلَّ نَفْسٍ حَامِلَةٍ أَوْزَاراً، تَأْتي يَوْمَ الْحِسَابِ لتُجَادِلَ عَنْ نَفْسِها بَيْنَ يَدَيْ رَبِّها، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

مما جاء في السُّنَّة بشأن جدال الإنسان عن نفسه يوم الحساب:

(١) روى مسلم عن أنس بن مالكٍ قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فَضَحِكَ، فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟».

قال: قُلْنَا: الله ورسوله أعلم. قال:

«مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يقولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي من الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ علَىٰ نَفْسِي إلاَّ شَاهِداً مِنِّي. فيقولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُوداً.

فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انطِقِي. فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ. ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَم.

فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ».

وفي رواية ابْنِ أبي حاتم: «مِنْ مُجَادِلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ».

(٢) روى ابْنُ أبي حاتم، وابْنُ جريرٍ، عن أبي سعيد، عن النبيّ ﷺ، قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، عُرِّفَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ، فَيَجْحَدُ، ويُخَاصِمُ، فَيُقَالُ: هَؤُلاَءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ،

فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: احْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ. ثُمَّ يُصِمُّهُمُ اللَّهُ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِم أَيْدِيهِمْ، وَأَلْسِنَتُهُمْ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّار».

وشهادة أعضاء الإنسان عَلَيْهِ ثابتَةٌ فِي نُصُوصٍ قرآنيّة.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي لآيات الدرس الثاني من دروس السورة

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ⑯ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ⑰ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ⑱ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ⑲﴾.

تمهيد:

هذا دَرْسٌ اعتراضيٌّ في موضوع السُّورة، مُوجَّهٌ للرسُول محمّدٍ ﷺ، بِشَأْنِ تَلَقِّيهِ مَا كَانَ يُنَزَّلُ عليه من نجوم القرآن، وقد دعا إليه حالَةُ الرّسُول ﷺ عند نزول الدرس الأول منها، إذْ جَعَلَ يعْجَلُ بمُتَابَعَةِ جبريل عليه السّلام.

فاقتضَت الحكمة التربويّةُ وَضْعَهُ دَرْساً اعتراضِيًا في السُّورَةِ، لتَعْلِيمِنا أُسْلُوباً من أساليب التربيَة، وهو أسْلوبُ التوجيهِ في تعليم ما هو الأفضلُ عَقِب الممارسة الّتي يُراد تصحيحها، أو تَقْوِيمها، ولا سيما عنْدَ مُمَارَسَةِ عَمَلٍ لاَ يَصِحُّ التمادي فيه.

وهذا نَظِيرُ عَمَلِ المربّي إذا رأى وَلَدَهُ أو تلميذَهُ يأكُلُ بشمالِه، فإنَّهُ يقولُ له عنْدَ مُمَارسَتِه ذلك: كُلْ بيمنك. وإذا رآه يمُدُّ يَدَهُ لِيَخْتَار أَجْوَدَ

اللَّحْمِ مِنَ الجَفْنَةِ، ومعه آكلون آخرونَ منها، فإِنَّهُ يقول له عندئذٍ: كُلْ مِمَّا يَلِيكَ.

فعند تَلَقِّي الرسول محمّد ﷺ أوائلَ سُورة (القيامة) من جبريل عليه السلام، صار يَعْجَلُ بتَحْرِيكِ لسانه يَتْلُو ما كان يتلَقَّاهُ، حرصاً منه على جمْعِ ما يتلقَّاهُ في ذاكرَته مُرَتَّباً، لاَ يَضِيعُ منه شيءٌ، وحرصاً منه على فَهْمِ المراد، وعلى ضَبْطِ ترتيلِهِ مُجَوَّداً، كما يَتْلُوهُ عليه رسولُ الوحي الرَّبَّاني، فأنزل الله عزّ وجلّ عليه هذه الآيات التربوية.

درسٌ من أربع آياتٍ حوْلَ ما يَنْبَغِي للرَّسُول ﷺ أنْ يَفْعَلَهُ عنْدَ تلقّي نُجُوم القرآن، الَّتِي يَنْزِلُ الوحْيُ بها عليه.

وقد سبق هذا الدرس طَمْأَنَةٌ من الله لرسوله بأنَّه سيُقْرِئه القرآن فهو لا يَنْسَىٰ ما يُقْرِئُه منه بما يعطيه من قدرة على الحفظ، إلاَّ ما شَاء اللَّه، فقال له في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾.

أي: إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْسَحَهُ من ذاكرته، إذْ يكون أَمْراً مراداً كالنَّسْخ، وحين ينْسَخُ اللَّهُ آيَةً أَوْ يُنْسِيها رَسُولَهُ بقضائه وقدَرِه، فإنَّهُ يأتي بخَيْرٍ منها أو بِمِثْلِها لاَ بدُونها، كما قال اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾.

وكان من مقتضىٰ وعْدِ اللَّه رسُولَهُ بعَدَم نِسْيان ما يُنَزَّلُ علَيْهِ من قرآن، أنْ لا يَتَعَجَّلَ الرَّسُول ﷺ بحفْظِ وضَبْطِ ما يَنْزِلُ عليه به الوحي من نجوم القرآن، ولكنَّ شدّة حِرْص الرَّسُول على تَلَقِّي أمانة الله الْمَأْمور بتبليغها كما تَنزِل عليه، جعلَتْه يَرَىٰ من الخير أن يتعجّل بقراءة ما يَنْزِلُ عليه، لتحقيق ما

وَعَدَهُ اللَّه به، وجعلَتْهُ يَرَىٰ أَنَّ علَيْه أَنْ يَضْبط ما يتلَقَّاهُ بتلاوةٍ مُجوّدة، كما يَقْرَؤها جبريل عليه السلام، مع حرصه صلوات الله عليه على فهم المراد.

لكلِّ ذَلِكَ قال الله لرسوله في هذا الدرس الاعتراضيّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾:

أي: لا تحرّك بما يُنزَّلُ علَيْكَ من القرآن لسانَكَ لأجْلِ أن تعجَلَ بجمع كلماته وآياته في ذاكرتك، وتَعْجَلَ بضبط تلاوتِه مُرتَّلاً مجوَّداً، وتَعْجل بفهم المعاني المرادة.

- ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾: أي: فَلَا تحذَرْ أنْ ينِدَّ عَنك شيءٌ منه، من كلماته، أو آياته، أو نسَقِه وتَرْتِيبِه وضبطه، فإنَّ عَلَيْنا جمعَهُ في صَدْرِكَ وذاكرَتك وفكرك، كما يُلقّنُك إيّاهُ جِبْريل، فتكفّلَ اللَّهُ لَهُ بجمعه في ذاكِرَته.

- ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾: أي: ولاَ تَحْذَرْ أنْ يَنِدَّ عنكَ شيْء من ضَبْطِ تِلاَوَتِهِ مجوَّداً، بالأداء المبين الكامل المرتَّلِ، كما يُلَقّنُك إيَّاه جبريل.

وَقُرْآنَهُ: أي: وقِرَاءَتَهُ، فالقرآن هنَا مصدَرٌ كالقراءة.

فالمعنى: وإنَّ علينا أمْرَ ضَبْطِ لسانِك على قراءته وفْقَ التَّلْقِين المنزَّل، فإن كنْتَ تحرّكُ لسانَكَ تَعَجُّلاً لضبط الأداء المرتّل المجوّد، فإنَّ عَلَيْنَا قرآنه، فتكَفَّلَ اللَّه له بضبط تلاوته مُرَتَّلاً، مجوَّداً.

- ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾: أي: فإذا أتْمَمْنَا لَكَ قِراءَة النَّجْمِ الذي يَنْزِلُ عليك به الوحْي، فاتّبعْ قراءتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا تلَقَّيْتَهُ وتَلَقَّنْته.

في استعمال فعل ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾ هُنَا دَلاَلَةٌ علَىٰ أَنَّ جبريلَ كانَ يَقرأُ بأمْرِ اللَّهِ علىٰ رسُولِه من صحائف قَدْ كُتِبَ عَلَيْها النَّصُّ المنزَّلُ على الرسُولِ، إشعاراً بكمال الضَّبْط. لأنَّ القراءة هي في الأصل مُتابعَةٌ في النُّطْقِ لصحائِفَ

مكتوبة، ثمّ تَوَسَّعَت الدّلالة فصارت تُطْلَقُ القراءَةُ على النُّطْقِ بما هو محفوظٌ في الذاكرة، ولهذا لمَّا عَرضَ جبريل عليه السّلام على الرسُولِ محمّد ﷺ في غارِ حراء، عند بدء الوحي خطّاً مكتوباً وقال له: «اقرأ» كان جَوَابُ الرَّسُول: ما أنا بقارئ، أي: لم أتعلّم القراءَةَ والكتابة، فأنا لا أَعْرِفُ رُمُوز الخطوط حتَّىٰ أقرأها، ولو قال له انطِقْ بما أَقْرَأُ عَلَيْكَ لنَطقَ مُتَابعاً لَهُ، بَدْءاً من المرَّة الأولى الّتي قال له فيها: اقرأ.

- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾:

إنّ بَيَانَ مَعَانِي القرآن المنزّل هو القضيّة المهمَّةُ الثالِثةُ بعد قضيَّة الحفظ على وفْقِ التَّنْزيل، وقَضِيَّةِ ضبْطِ الأداء والترتيل.

وبَيَانُ معاني القرآن يشمَلُ بيَانَ ما اشتَمَلَتْ عليه دلالاَته من عقائدَ وشرائعَ وأخلاقٍ وآدابٍ وأحكامٍ وتكاليف، ويشْمَلُ ما تَدُلُّ عليه نصوصُهُ من علومٍ عن الكون والماضي والمستقبل والحاضر من عالَمَي الغيب والشهادة، وعن النفوس والحقائق الفكريَّة المجرّدَة.

وفي هذه الآية تكفَّلَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ بأنْ يُبيِّنَ كُلَّ ما اشْتَمَلَ عليه القرآن من دَلاَلات، ولكنْ على التراخي، بمقتضى دَلالة حَرْف العطف ﴿ثُمَّ﴾ فيها، وهذا يَشْمَلُ الأزمِنَةَ المستقبلَةَ وَلَوْ بَعْدَ انتِهاء حياة الرَّسُولِ ﷺ في الدنيا، فَفَهْمُ كامل المعاني القرآنيّة له مراحل مستقبليّة.

أمّا ما يتعلَّقُ من معانيه بمطلُوبِ اللَّه من العباد في أُمُور دينهم، فقَدْ جعَلَ اللَّهُ في لَوَاحِقِ نُجُومِ التنزيل، وفي بيانات رسُولِهِ للنّاسِ مَا فيهِ وفاءٌ بذلك.

وأمَّا ما يتعلَّقُ من معانيه ودَلالاته بأمُورٍ أُخرى فَقَدْ تكفَّلَ الله ببيَانِهِ بوسائل مختلفةٍ يَهْدِي اللَّهُ إليها عباده في القُرون المتتابعات، ومنها اكتشاف حقائقَ كانت مجهولةً للناس، في السَّمَاواتِ والأَرْضِ والأَنْفس، عن طَريقِ التجربات، والملاحظات، واستخدامِ الوسائل والأدوات الّتي يَتَوَصَّلُ النَّاسُ

إلى اكتشاف خصائصها، واستخدام ما فيها من قُوىً وطاقات، وهٰذِهِ لم يَطْلُبِ الله من الرسول محمد ﷺ أنْ يُبَيِّنها للناس.

لكنّ الله عزّ وجلّ قَدْ تَكَفَّل ببَيَانِها مستقبلاً، بما يفتح به على عباده من أبواب معارِفَ كوْنيّة، ولو كانوا من الكافرين بالرَّسُولِ وبالقرآن المنزَّل علَيْه.

وفي هذا الإطار ظهرت قضايا الإعجاز العلميّ في القرآن، وفي هذا الإطار أيضاً نفهم قول الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١/ مصحف/ ٦١ نزول) في مَعْرِض الحديث عن القرآن:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

ويظهر أنّ الرسول ﷺ على الرُّغم من أناته وصَبْرِهِ لدَىٰ تلقّي القرآن من الوحي، واستجابته للتعليم الرَّبَّانيّ، لمَّا صَارَتْ نُصُوصُ نجوم التنزيلِ تنزِلُ عليه أطْوَلَ ممّا كانت تَنْزِلُ، صَارَ يتَعَجَّلُ بتلاوَةِ ما يُوحِي إليه به جبريل، قبْلَ أَنْ يَنتَهِيَ من وحْيِهِ، ظَنّاً منه أنَّ النَّجْمَ قَدْ تَمَّ، مع أَنَّ جبريل عليه السّلامُ لَمْ ينْتَهِ بَعْدُ من قراءته عليه، فأنزل اللّه عَزّ وجلّ عليه قَوْله في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿...وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

فعلّمَ اللّه رسولَهُ في هٰذه الآية أنْ يَنْتَظِرَ حتَّىٰ يعلَمَ أنَّ جبريلَ قد أَنْهَىٰ كامل النَّجم الذي يوحي به إليه، وأنّه قد فرغ مِنْ تَلْقِينِه إيّاه تماماً.

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآيتان (٢٠ ـ ٢١)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

- قرأ جمهور القرّاء العشرة [تُحِبُّون] و[تَذَرُونَ] بتاء الخطاب.
- وقرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، وابْنُ عَامِرٍ، ويعقوب: [يُحِبُّونَ] وَ[يَذَرُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءَتَيْنِ تكامُلٌ في الأداءِ البيانِيّ، فالمستجيبون للخطاب القرآني يلائم حالَهُمْ قراءَةُ الجمهور. والمعرضون والمدْبِرون يلائم حالَهُمُ القِراءة الأُخرى: [يُحِبُّونَ] و[يَذَرُونَ].

هذا الدرس موصول بموضوع الدرس الأوّل، المتعلّق بقضيَّةِ الدنيا دار الابتلاء، والآخرة دار الجزاء، في خُطّة الخالق ربّ العالمين، وأَحْكَمِ الحاكمين، الذي بيده ملكوت السَّماوات والأرض، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

إلاّ أنَّ هذا الدرس موجَّهٌ لعموم النَّاس، لا لخصُوص الكافرين المكذّبين بيوم الدّين، الّذِين جاء الدرس الأوّل موجّهاً لهم.

وقد صدَّر الله عزّ وجلّ هذ الدرس الثالث بعبارة الزَّجْر لعموم الناس، على واقعٍ غيْرِ سَوِيٍّ هم فيه، إذْ يُحبُّون العاجلَةَ الفانية السَّريعة الزّوال، وهي الحياة الدنيا، ويتركُون الآخرة الباقية الخالدة، ذاتَ النعيم العظيم الذي لا يزول، فلا يسْعَوْنَ لها سَعْيَها، ولو كَانوا مؤمنين بها، ومؤمنين بأنّها هي دار الحيوان الباقية.

والناس بالنظر إلى هذا الواقع الذي هم فيه يستحقُّون الزجْرَ عليه، والرَّدْع عنه.

﴿كَلَّا﴾: أداةُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ في معظم أحوالها، ولهذا يجوز الوقوف عليها، والابتداء بما بعدها.

وقد جاء هذا الردْع والزجْر في صَدْر التوجُّهِ لخطاب النّاس، ليعلَمُوا أنهم في واقعٍ غَيْر سَوِيّ، وهم يسْتَحقُّون عليه الزَّجْرَ والرَّدْع. ألاَ وهو حُبُّهم للدُّنيا الّتي هي العاجلة، وتَرْكُهُمْ لِلآخِرَة الّتي هِيَ الآجلة.

﴿بَلْ﴾ حرف إضرابٍ انتقالي كما يقول المعْرِبُون الذين لا يَبْحَثُونَ في الْعُمْق، لكنّنا إذا تعمّقْنَا في التّدَبُّر وجدْنا أنَّ كلمةَ ﴿كَلَّا﴾ الرَّادِعَة الزاجرة، تُشْعِرُ بأنَّ النَّاسَ يتَّخِذُونَ لأنفسهم ذرائع ومعاذير تَصْرِفهم عن السَّعْي للآخرة، وتَجْعَلُهُمْ يُوجّهُونَ اهتماماتهم للحياة الدُّنيا وزينَتِها، وذرائِعُهُم ومعاذيرهم باطلَةٌ، يُدْرِكُ بُطْلاَنَها أولو الألباب.

فجاءت كلمة ﴿بَلْ﴾ لِلإضْراب الإبطالي، لا لمجرّد الإضراب الانتقاليّ من غرضٍ في البيانِ إلى غرضٍ آخر.

إنّ حبَّ الناس للعاجلة، بِسَبَب نَظَرِهم القاصر، وتعجُّلهم لاغتنام اللَّذَّاتِ، وإجابَة مطالِبِ الشهوات، يجعلُهم يتعلَّقُونَ بالْحَيَاة الدنيا وزيناتها، ويوجّهُونَ كلّ أعمالهم واهتماماتهم، أو معظمها، لنَيْلِ متاعها، ولذّاتِها وشهواتِها، فيصرفُهُمْ ذلك ويُلهيهم عن الآخرة والعَمَل لها، فهم وإنْ كَانُوا يؤمنون بالآخرة يتركونها ويضيّعون حقُوقَها، فَيَخْسَرون كنوزها المدَّخرة، ويخْسَرُون أنفسهم في الفاني، لأنَّهم وجَّهُوا له كلَّ وسائلهم، آخِذين بأسْبَابه، تاركين أسباب الآخرة، فإذا ماتُوا نبَذَتْهُمْ الدّنيا عنها، وتوجَّهَتْ لمتعلّقين بها آخرين ما زالوا فيها أحياء.

ثُمَّ إذا بُعِثُوا للحياة الأُخْرى وجَدُوا أنفسهم خاسرين، لأنَّهم كانوا قد تركوا أسبابها، وتلَهَّوْا عن العمل لها بالعمل للعاجلة.

ألا يستحقّ هذا الواقع عِبَارَة الزَّجْر والرَّدْعِ «كلَّا» تَنبِيهاً للغافل، وحثًّا للمؤمن العامل المقصِّر على مُضاعفة جُهودِهِ ومجاهدته في ابتغاء نعيم الآخرة، ومراتِبِها الرفيعة في جنَّات النعيم، فضلاً من الرّبّ الرحيم الكريم.

وترجع **أسْبَابُ حُبِّ النَّاسِ العاجِلَةِ** وتَرْكهم الآخرة إلى ما يلي:

السبب الأوّل: أنّ الدُّنيَا حقِيقَةٌ مُشَاهَدَةٌ مُدْرَكَةٌ بالحواسّ، أمّا الآخرة فهي غيبيَّةٌ مستقبليّة يربط بها الإيمان.

السبب الثاني: أنّ الناس يَحْيَوْن الحياة الدنيا، ويَعيشُون فيها، لحظَةً فلَحْظَةً، فتَشْغَلُهم بها، وتَمْتَلِكُ أحاسيسهم الظَّاهِرَة والباطنة، أمّا لذَّاتُها فيطلُبُونَ منها المزيد، وأمَّا آلامُها وأكدارُهَا فَيَكْدَحُونَ للخلَاصِ منها في الحاضر، والتوقي منها في المستقبل، وهَـٰذا يُنْسِيهم الدار الآخرة وما فيها، ولو كانوا يُؤْمِنُونَ بها، إلاَّ مَنْ كان الموتُ واعظاً له، وكانت الآخِرَةُ حاضِرةً في ذَاكِرَته بالمواظبة على تلاوة القرآن الكريم، ولا سيما الآياتُ الّتي تتحدَّثُ عَنِ الآخرة والجنَّة والنار، ومَا فيهما من نعيم مقيم، وعذابٍ أليم.

السبب الثالث: أنّ حرَكَةَ شهوات النّاس وأهواء نفوسهم تُلِحُّ عليهم إلى حدِّ النُّباح أحياناً، ونُبَاحُهَا يَدْفَعُهم بقُوَّةٍ إلىٰ أن يَعُبُّوا من لذَّاتها وصُنُوف متَاعِهَا بلا حساب، فهُم يلْهَثُونَ وراء جَمْع الأَسْبَاب الّتي يَرَوْنَ أنّها تُوصِلُهم إلى ذلك، وهُمْ في الغالِب لا هَمَّ لَهُمْ إلاَّ إرْضاءُ أهْوائهم وشهواتهم الجسديّة والنّفسيّة.

السبب الرَّابع: أنَّ الآخِرَةَ حقيقةٌ غيْبِيَّةٌ مَوعُودٌ بها، وهي غَيْرُ مُدْركة بالحواسّ حتَّىٰ تَتَهَيَّجَ الأَهْواء والشهوات لها، وأنَّ الإيمانَ بالآخرةِ إيمانٌ عقليٌّ ووجدانيٌّ.

ويَحْسُنُ بنا هُنَا أن نُذَكِّرَ بِأَنَّ عقَبَة الامتحان الأُولىٰ في الحياة الدُّنيا، هي الإيمان بالغيب، عن طريق برهان الْعَقْلِ، ومؤيّداته الوجدانيّة، وبَرَاهِينُ

العقلِ تَسْتَنِد إلى دلائل الحسّ وأماراته، مع ما لَدَيْه من أحكامٍ ومقاييس وموازين فطريَّةٍ فطَرَهُ البارئُ عليها.

السبب الخامس: أنّ الآخرة تقع في المستقبل البعيد بحَسَب تصوّر الناس، مع أنَّهُ في حقيقَةِ الأمْرِ قريبٌ جدًّا، ليْسَ بيننا وبينه إلاَّ عَتَبَةُ الموت.

أمّا البرزَخُ الذي بين الموْت والبعث إلى الحياة الأخْرى، فإنَّ الميِّت لا يُحِسُّ بزَمَنِه، إذْ يُلْغَىٰ مِن مشاعر الميِّتِ الإحساسُ بمُرُور الزّمَنِ، ويَبْقَىٰ لدَيْهِ الْإِحْسَاسُ بمشاعر النّعِيم إذا كان من المنعّمين السُّعَداء، والإحساسُ بمشاعر العذاب إذا كان من المعذّبين الأشقياء، وذلك في مراكز الشعور التي تبقَىٰ له، في خريطة نفسه، مع إشعاعٍ عليها من روحه، أو في رُوحِه، وليس لدينا بشيْءٍ من ذلِكَ عِلْمٌ نُقَدّمُ به تحديداً واضحاً، غير أن النَّعِيمَ والْعَذَابَ في مدَّةِ الْبَرْزَخ ثابتَانِ في النُّصوص الصحيحة الصريحة، من القرآن والسُّنّة.

وإذْ يُلْغَىٰ الإحساس بالزَّمَنِ من النُّفُوس والأرْواحِ بَعْدَ الموْت، فاللَّحظَةُ والسَّاعَةُ وملايينُ القرونِ بالنسبة إلى إحساس الموتى بالزّمَنِ سواء، وحين يبعثُون من قبورهم لا يَشْعُرُونَ مشاعر زمَنيَّةً إلاَّ كما يشْعُرُ النائم نوْمَةَ القيلولة في النهار، يسْتَوي في هذا الشعور من ماتَ من أوَّلِ النّاس، ومن ماتَ عنْدَ قيام سَاعَةِ الْإِفناء العامّ.

وهٰذِهِ قضيَّةٌ تَدُلُّ عليها في تجربات الناس حالة النوم، وحالة الإغماء، وحالاتُ التخدير لإجراء العمليّات الْجِراحِيَّة، ويَدُلُّ عليها موتُ الْعُزَيْرِ، ونَوْمُ أهل الكهف.

وقد دلَّتْ عليها بالنسبة إلى عُموم الموتى، نُصُوصٌ مُتَعَدّدَةٌ من نصوص القرآن المجيد، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) يصِفُ حِوَارَ المجرمين في موقف الحشر، عَقِب بعْثِهم إلى الحياة للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أَيْ: أحْسَنُهُم في طريقة تقدِير الزّمن بين الموت والبعث في إحْسَاسِ الموتى.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾: أي: ما لبِثْتُمْ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إلاّ يَوْماً واحداً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

فدلَّتْ هذه الآيَةُ على أنَّ الناسَ بعْدَ بعْثِهم وحَشْرِهِمْ، يَشْعُرُون كَأَنَّهُمْ لم يَلْبَثُوا بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ في البرزَخِ الفاصل إلاَّ سَاعَةً من النَّهار، أي: أقلَّ من نَوْمِ اللّيل.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: أي: وَمَا كانوا مُسْتَعِدِّين لأنْ يَهْتَدُوا في الحياة الدنيا، مهما مدّ اللَّهُ في أعمارهم، فاسم الفاعل هنا يَدُلُّ على الاستقبال.

إنَّ يَوْمُ البعْث هو في الحقيقة بالنسبَةِ إلى الإدْراك الّذي يُحِسُّ به النّاس، يومٌ قريبٌ جدّاً، ليْسَ بين الموْتِ وبَيْنَه إلاَّ مِثْلُ نومَةٍ ينامُها النائم، لا يُحِسُّ بزمَنِها الطويل، إلاّ كَمَا يُحِسُّ إذَا نَامَ سَاعَةً من النَّهارِ، إذْ يُلْغَىٰ الإحْسَاسُ بمرُور الزّمَنِ من مَشَاعِرِ نفوس الموتى.

ولهذا وصَفَ اللّهُ عزَّ وجلَّ يَوْمَ الْبَعْثِ وَمَا يَجْرِي فيه بالْقُرْب.

(١) فقال اللّهُ عزَّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) يَصِفُ العذاب الواقع بالكافرين يَوْمَ الدين بأنَّه قريب:

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

(٢) وقال اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾.

* * *

حبُّ العاجلة في النصوص القرآنية:

جاءت معالجة القرآن لحبّ الناس الحياة الدنيا الْعَاجلة في عِدَّةِ نصوص، يَحْسُنُ بِنَا هُنَا أن نَسْتَعْرِضها بشيءٍ من التدبر:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) خطاباً للنّاس:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ للناس في هذا النّص أَنَّهُمْ في واقع حالهم يُؤْثِرون الحياة الدنيا، وأرشدَهم إلَىٰ أن يَعْمَلُوا للآخرة الّتي هي خَيْرٌ لهم وأبْقَىٰ، دون أنْ يُوجِّه لهم زَجْراً وَرَدْعاً، نظراً إلى أنه هو النَّصُّ الأوّل في هذا الموضوع.

النّصّ الثاني:

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ قَوْلَهُ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول): خطاباً للناس:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٢١﴾:

فجاء في هذا النَّصّ زَجْرٌ ورَدْعٌ للنَّاسِ على إيثارهم للحياة الدنيا العاجلة، بدافع حُبّهم لها، وعلى تَرْكهم للآخرة، الّتي أبَانَ لَهُمْ في نصّ سورة (الأعلى) أنّها خَيْرٌ لهم وأبْقَىٰ.

النصّ الثالث:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قولَهُ في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بياناً لقول الكافرين الّذِين يُؤْثِرُونَ الحياة الدُّنيا ويَذَرُونَ الآخرة ولاَ يَعْبَؤُون بها:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾:

أي: رَبَّنَا عَجّل لنا نَصِيبَنَا من العطاء الّذي تمنحه عبادَك.

أصل «**الْقِطّ**» الرُّقْعَة التي يُكْتَبُ فيها عَطَاءُ الملِك لمن يَحْبُوه بعطائه.

النصّ الرابع:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) مبيناً سنّته في معاملة عباده تجاه اختياراتهم للعاجلة أو للآخرة:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝٢١﴾.

فَدَلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ الحياة الدنيا حياة امتحان، ومن شأن الامتحان أن تكون ظروفه للمُحْسنِينَ ولِلْمُسِيئين مَشمُولَةً بنظامٍ عامٍّ واحد، لِيَستَوْفِي كلٌّ منهم شُروط الامتحان الأمثل.

فمن كان يُريد الحياة الدنيا لم يحرمْه اللّه من عطاءاته المقَدَّرَة له فيها، لكنَّهُ يكون في الآخرة من أهل جهنَّم يصْلاَها مَذْموماً مَدْحوراً.

أمّا من أراد الآخرة وَسَعَىٰ لها سَعْيَها وهو مُؤْمِنٌ، فإنَّهُ يُصِيبُ من دُنياه عطاءاتِ رَبّه المقدَّرَةَ له فيها، ثم يُثيبُهُ اللّهُ يَوْم الدّين على إيمانه وأعمالِهِ الصالحة ثواباً جزيلاً، إذْ يكُونُ سَعْيُه عِنْدَ رَبِّهِ مَشْكُوراً، أي: مأجُوراً أجراً عظيما.

النّص الخامس:

ثُمَّ أنْزَلَ الله عزّ وجَلَّ قولَهُ في سُورَةِ (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

فدلّ هذا النصُّ على أنّ المرادَ بإيثار الحياة الدنيا تَرْك الآخرة تَرْكاً كلّياً، بإهمالها وعدَمِ العملِ لَهَا مطلقاً، لأنّ الجَحِيم يوْمَ الدّين هي مأوىٰ من آثرها هذا الإيثار الكليّ.

النّص السادس:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأن الكافرين المصرّين على كفرهم:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: يُدْبِرُون وَيَتَوَلَّوْن نَابذِينَ وَرَاءهم الإيمان بيَوْم الدّين الّذي هو يَوْمٌ ثقيلٌ، في كلّ ما فيه من عقاب وثواب وبقاءٍ بلا نهاية.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة

وهو الآيات من (٢٢ ـ ٢٥)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذا الدرس عرض للَقْطَتَيْن من مشاهد الناس في موقف الحشر يوم القيامة، إذْ تَبْدو في هذا المشهد صورتا صنفين من وجوه النّاس:

الصنف الأوّل: وجُوهُ المؤمنين، فهي وجُوهٌ ناضِرَة، إلى ربّها ناظرة.

الصنف الثاني: وجُوهُ الكافرين، فهي باسِرَةٌ، تخشَىٰ عقاب اللَّه وعذابه.

وجاءتْ كلمة ﴿وُجُوهٌ﴾ منكرةً في عرض كلٍّ من الصّنفين، لأنَّ الغرض بيان انْقِسَام الوجوه في موقف الحشر إلى قسمين: قسم وجوه المؤمنين، وقسم وجوه الكافرين.

فمن أشْرَف من عُلوٍ على موقف الحشر ليشْهَدَ النَّاس فيه، رأىٰ هذَيْن القسْمَيْنِ من الوجوه بعَلاَمَاتهما الظاهرات.

■ أمَّا علامَةُ وجوه المؤمنين فهي أَنّها ناضِرَةٌ، إلى رَبِّها ناظرة، كما قال الله تعالى:

- ● ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: الكلام في السُّورَةِ عَنْ يَوْمِ القيامة، وما يجري فيه من أحداث، أي: يوم تجري أحداث القيامة إلى الحساب، وفصل القضاء، وتحقيق حكمة الجزاء. التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن هذا الكلام الطويل المفهوم من سوابق العبارة.

﴿نَّاضِرَةٌ﴾: أي: حَسَنَةٌ غَضّةٌ ناعِمَةٌ، مؤنّث «ناضِر» اسْم فاعل من فِعْلِ «نَضَرَ يَنْضُرُ، وَنَضِرَ يَنْضَرُ، ونَضُرَ يَنْضُرُ» نَضْراً، ونَضْرَةً، ونَضَارَةً، ونُضُوراً، أي: حَسُنَ، فهو ذو بريقٍ تَظْهَر عليه علامات السُّرور والنِّعْمة والْبِشْر، فَهُو نَاضِرٌ، ونَضِيرٌ، وَنَضِرٌ.

ويُقَالُ لغة: نَضَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ، ونَضَّرَ اللَّهُ وجهه، وأنْضَرَه، أي: نَعَّمَه.

● قال الله عزّ وجل في سورة (المطفّفين/ ٨٣ مصحف/ ٨٦ نزول) يَصِفُ الأبْرار وهُمْ في الْجَنَّةِ يُنَعَّمُونَ:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾: أي: حُسْناً ذَا بَرِيقٍ تَظْهَرُ عليه السِّمَاتُ الدَّالاَّتُ على أنَّهم سُعَداءُ بما هم فيه يُنَعَّمون.

● وقال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) في وصْفِ الأبْرار أيضاً وهم في الجنَّةِ يُنَعَّمُونَ:

﴿. . . فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

الأرائك: جمع «الأرِيكة» وهي المقْعَدُ المنجَّدُ الوثير الموطَّأُ اللّيّن.

● قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿نَاظِرَةٌ﴾: اسم فاعل من فِعْلِ: «نَظَرَهُ، ونَظَرَ إلَيْه» أي: رآه بحاسَّةِ الْبَصر.

دلّت هذه الآية على أنَّ المؤمنين يَرَوْنَ رَبَّهُمْ في الآخرة، أمّا كيفيَّةُ الرُّؤيَةِ فاللَّهُ أعْلَمُ بها، وقد ثبتَتْ هٰذِهِ الرُّؤيةُ في المتواتر عن الرسول ﷺ، ومنها ما يلي:

(١) روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبي هريرَة قَال: قال الناس: يَا رَسُول اللَّه، هل نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القيامة؟.

قال: «تُضَارُونَ في الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟».

قالوا: لاَ، يا رَسُول اللَّه.

قال: «فَهَلْ تُضَارُونَ في الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟».

قالوا: لا، يَا رَسُول الله.

قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ».

تُضَارُونَ: أي: يُصِيبُكُمْ ضَرَرٌ، يقالُ لغة: ضَارَهُ يَضِيرُهُ ضَيْراً، وَضَارَهُ يَضُورهُ، أي: أضَرَّ به.

(٢) وَروى ابن مَرْدَوَيْهِ عن أنس بن مالكٍ قال: قالَ رسُولُ اللَّه ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال: «يَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ بِلاَ كَيْفِيَّةٍ، وَلاَ حَدٍّ مَحْدُودٍ، ولاَ صِفَةٍ مَعْلُومَةٍ».

إلى غيرهما من أحاديثَ ورواياتٍ بَلَغَتْ عندَ أهل الحديث مبْلَغَ التواتر.

■ وَأَمَّا عَلامَةُ وُجُوهِ الكافرين فهي أنّها بَاسِرَةٌ خائفةٌ مَذْعُورَة، كما قال اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي: عابسَةٌ كالِحَةٌ كئِيبةٌ مُقَطِّبَةٌ مُتَقَبِّضَةٌ، مُصْفَرَّةٌ مَعَ سَوَادٍ وألْوانٍ تَدُلُّ على الكآبَةِ والْخَوْفِ من أَثَرِ الشُّعُورِ بسُوءِ الْمَصِير.

يقال لغة: «بَسَرَ الرَّجلُ يَبْسُر بَسْراً وَبُسُوراً» أي: عبَسَ، وكَلَحَ، وتقَبَّضَ، من أَثَرِ الكراهِيَةِ الشديدة، فهو «بَاسِر».

وقد يوصَفُ بالمصْدَرِ فيُقَالُ: وَجْهٌ بَسْرٌ.

ويُسْتَعْمَل الفعل متعدّياً، فيُقالُ: بَسَرَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إِذَا جعلَ فيه الْعُبُوسَ والكَلاَحَةَ والتَّقْطِيب.

﴿فَاقِرَةٌ﴾: أي: داهِيَةٌ عظيمةٌ وشَرٌّ كبير، وأصل الْفَاقِرة: الداهيَةُ العظيمة الكاسِرَة لِفَقَارِ الظَّهر أي: لِفِقَرَاتِ الظهر. «فَقَار» جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «فِقَرَة».

وتُطْلَق كلمة «فاقِرَة» على الوسْمِ بحَدِيدَةٍ مَحْمِيَّة، أو بنارٍ على أنْفِ البعير حتَّىٰ تَخْلُص إلَىٰ أصْلِ العظم، كذا قال الأصْمعي. ومن هذا قولهم: قد عَمِلَ بهِ الْفَاقِرَة.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾: أي: تَظُنُّ وهي في مَوْقف الحشر أنَّه سَيُفْعَلُ بها داهيةٌ عظيمةٌ وشَرٌّ كبير، وعذابٌ أَليم بسبب أنها بصيرة بما قدّمَتْ في الحياة الدنيا، من كفر وجرائم تَسْتَحِقُّ عليها الخلود في عذاب جهنّم.

نسب الفعل إلى الوجوه، والمراد أصحابها، وهذا من المجاز المرسل، من إطلاق بعض الذاتِ على الذات، ويُحسِّن مثْلَ هذا المجاز أنَّ الوجوه هي الجامعة لأَجَلِّ الحواسِّ الظاهرة، ومن ورائها الأدمغة المفكّرة، وهي الّتي تُواجَهُ بالخطاب.

وَجاء في الجملة اسْتِعْمَال فعل ﴿تَظُنُّ﴾ دون نحو: «تَعْلَم» أو «تَتَيَقَّنُ» لأنَّ الكافِرينَ في موقف الحشر يبقَىٰ لدَيْهم أمَلٌ مَهْما كان ضعيفاً، بأن يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مَخْرَجاً من العذاب، كأن يَأْذَن اللَّهُ لهم باستئناف رحْلَةِ امتحانهم، أو يَجْعَلَهُمْ تُراباً كما يجعل البهائم والأنْعَام، بعد حشرها وإقامة العدل بينها.

وقد جاءت الْبَيَانَاتُ القرآنيّة المتعدّدة مُؤَكّدةً لهذا الفهم.

فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

أي: فَظَنُّوا ظنًّا رَاجحاً أنّهم مُخالطُوها ومُصَاحِبُوها ومُلازِمُو عذابها، مع بقاء أمَلٍ ضعيفٍ لديْهم بأنْ يستجيب اللَّهُ طَلَبَهُمْ، في أن يُعيدَهم إلى الحياة الدنيا، ليَسْتَأْنِفُوا رِحْلَةَ الابْتِلاء، فَيَعْمَلُوا عملاً صالحاً يسْتَحِقُّون به النجاةَ من النّار، والفوز بدخول الجنّة.

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾: أي: ولم يَجِدُوا مكاناً يَنْصَرِفُونَ منه عن مُوَاقعة النار، فهُمْ مَحْصُورون مَدْفُوعُونَ لاَ طريق لهم غَيْرُ الوقوع في النار ومُخالَطَةِ عَذَابها.

* * *

(٨)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة

الآيات من (٢٦ ـ ٣٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذا الدرس بَيَانُ حالَةِ الإنْسانِ ساعَةَ مَوْته، مع إعلامه بأنّ سَوقَهُ إلى حُكْمِ رَبِّه، لا إلَىٰ الْعَدَم الكلّيّ وانتهاء الوجود، فالموتُ بانفصال الروح عن النفس والجسَدِ ليس عدماً، إنّما هو مرحلةٌ بَرْزَخِيَّةٌ فاصِلَة، ذَاتُ وجودٍ مختلف عن الوجود الّذِي تكون فيه الأرواحُ مُقْتَرِنَةً وَدَاخلة في خريطة النفس وذرَّات الجسد، كدُخُولِ الطاقة الكهربائية في الأجهزة الّتي تَعْمَلُ وتُؤَدّي وظائفها بالكهرباء.

وقد بدأ هذا الدَّرس بعبارة الرَّدْع والزَّجْرِ ﴿كَلَّآ﴾ لأنَّ المقصُودَ بالخطاب الإنسانُ المنكِرُ للبعث، الكافِرُ به، ويُلْحَقُ به من كان في سلوكه وإعراضِه عن السَّعْي للفَوْزِ بجَنَّاتِ النعيم شبيهاً بمنْكِرِ البعث.

﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾: أي: إذا بَلَغَتِ الرُّوحُ عِنْدَ خُروجها من الجَسَدِ في حالة النَّزْع الذي تَذُوقُ به النفوس الموت، حُذف الفاعل وهو «الروح» للعلم به من القرائن الواردة في السِّياق.

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمع مفرده «التَّرْقُوَة» وهِيَ عَظْمٌ بين ثُغْرَةِ النَّحْرِ والعاتِقِ من أمام، وللإنسان تَرْقُوَتان، إحداهما يُمْنَىٰ، وَالأُخْرَىٰ يُسْرَىٰ.

وجاء التعبير في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾: مجرىٰ الطعام والشراب والنَّفَسِ، ويَقَعُ بين الترقُوتين، فالتعبيران مُؤَدَّاهُما واحد، لأنَّ مُسْتَوَاهُمَا في الجَسَدِ واحد.

وبلوغُ الرُّوحِ التَّراقيَ أو الحلقوم يدلُّ على أنَّ نَزْعَ الرُّوح يَبْدَأُ من أَبْعَدِ الأطْرَافِ فصاعداً، فالأَقدام تَبْرُدُ أَوّلاً، ثم ما فوقها.

- قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾؟.

أي: وقال أَهْلُه ومُحِبُّو بقائِه في الْحَيَاة: مَنْ يَرْقيه رُقْيَةً تَرُدُّ إليه حيَاتَه.

ويُلْجأُ إلى الرُّقْيَةِ عادَةً حينما لا تنفع وسائل العلاج الطِّبيّ، فإذا عَجَزَ النَاسُ عن اتّخاذ وسيلَةٍ طبيَّةٍ نافعةٍ، لجَؤُوا إلى الرُّقَىٰ، باعتبارها من الوسائل ذاتِ التأثير الغيبي الّذي قد ينفَعُ في ظنِّهِمْ إنْ كَانَ لمحتَضَرِهم بقِيَّةٌ منْ حَيَاة.

وقد جاء التعبيرُ في الآيَةِ عن آخر وَسِيلَةٍ يُمْكِنُ أنْ يُلْجأَ إليها، ليُفْهَمَ منها لزوماً أنَّه قد اتُّخِذَتِ الوسائلُ السابقةُ لها.

فيكُونُ المعنَىٰ: كلاَّ. إذا بلَغَتِ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ، واتُّخِذَتِ الوسائل العلاجِيَّة الطِّبِّيَّةُ المختلفة، للمحافظة على استمرار الحياة، فَلَمْ تُفِدْ شيئاً، حتَّىٰ بدأَ أولياءُ المحتَضَرِ ومحبُّوهُ، بدافع الحرْصِ على بقاء الحياة له مُلْتَمِسين له الرُّقَىٰ، يَقُولُون: مَنْ رَاقٍ يَرْقِيه رُقية تَحْفَظُ له حياته؟

لكنّ لِسَانَ واقعِ حالِ الأجل المحتوم يجيبُهم: لقَد انتهىٰ الأجَلَ، ونزلَتْ بمَنْ تُحبُّونَ له الحيَاةَ مُصِيبَةُ الموت، وبدأَتْ رِحْلَةُ البرزخ، ومن ورائها البعْثُ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

● قول الله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وظنَّ المحتَضَرُ الذي بلغَتْ روحُهُ الحلْقُومَ أنّ الأَمر النّازل به هو فراقُ الحياةِ الدنيا، وفراقُ الأَهْلِ والمال والْوَلَدِ وسائر من يُحِبُّ وَما يُحبُّ.

وجاء التعبير بالظّنّ هُنا للدَّلاَلَة علَىٰ أنَّ الأملَ مَهما كَانَ أَملاً ضعيفاً باستمرار الحياة، فإنّه لاَ يُفَارِقُهُ حتَّىٰ مع بلُوغ الرُّوح التراقي.

● قول اللّه تَعالَىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وخَرجَتِ الرُّوحُ، وَمَاتَ مَنْ بَلَغَتْ رُوحُه التراقيَ، وكُفِّنَ بالأكْفان.

وقد دلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على هٰذا، بذِكْرِ مَشْهَدٍ من مشاهد تكفين الميِّتِ، وهو مشْهَدُ الْتفَافِ ساقه اليمنىٰ بساقه اليسْرَىٰ.

كقَوْلِ رَجُلٍ عجوز لولَدِ صديقِه القديم الَّذِي لم يَرَهُ من نَحْو عَشْرِ سنين، كيْفَ حالُ أبيكَ صَدِيقِنَا وَرَفِيق صبَانا.

فأجَابَهُ وَلَدُهُ: النَّاسُ يأكُلُونَ من شَجَرَةِ التُّوتِ الَّتي زَرَعْنَاهَا على قَبْرِهِ. أي: مات قبل أن نَزرَع هذه الشجرة التي هي الآن مُثْمِرَةٌ وَيأكُلُ النَّاسُ من ثمَرِها.

ولَفُّ إحدى ساقَي الميّت بالأُخْرى ممّا اعتاده مكفِّنوا الموتى، لتسهيل حمْل الميّت ودفنه، وقد جاء الاستغناء بذكر لفّ السَّاق بالسَّاق عَنْ سائر عمليّةِ التكفين، أسلُوباً من الأساليب البيانيّة الأدبيّة الحسَنَة، إذ فيه دلالة على بقيّة الأعمال التي تأتي بعْدَه، حتّى حَمْلِه وسَوْقِه إلى مَدْفنه، كما دَلَّ عَلَىٰ الأَعمال الّتي تكون قبله.

ويسَمَّىٰ هذا عند علماء البيان «الكناية»⁽¹⁾.

- قول اللّه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾:

قد يَسْأَلُ شاهِدُ حالِ الذي ماتَ والْتَفَّت إحدىٰ سَاقَيْه في نَفْسِه: إلى أيْنَ مساقُ هذا الميّت؟ هلْ هُو إلى فناءٍ أبديّ؟ أم إلى حساب الله، وفصْل قضائه، وتنفيذ جزائه؟

وجاء الجواب الرَّبّانيّ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾:

﴿ٱلْمَسَاقُ﴾: مَصْدرٌ ميميٌّ من فِعْلِ «سَاق» أي: إلى حُكْمِ رَبِّكَ يَوْمئذٍ السَّوْقِ.

أمّا سَوْقُ الْجِسْمِ فإلَىٰ حُكْم اللّه بالإفْنَاءِ وَعَوْدَتِهِ إلَىٰ التُّراب، أو إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ من حفْظٍ أو تحويل.

وأمّا سَوْقُ الرُّوح فإلَىٰ حُكْمِ اللّهِ حيْثُ مُسْتَقَرُّها.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْبَعْثُ، فالسَّوْقُ إلى الْحَشْر، فالسَّوْقُ إلى موقف الحساب، وفَصْلِ القضاء، فالسَّوْقُ إلى تَنفِيذِ الجزاء، والحُكْمُ في كلّ ذلِكَ إلَىٰ رَبِّكَ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لا رَادَّ لحُكْمِه، ولا مُعقِّبَ له.

---

(٢) **الكناية**: اللفظ المستعمل فيما وُضع له في اصطلاح التخاطب للدلالة على معنىً آخر لازم له، أو مصاحبٍ له، أو يشار به عادة إليه، لما بينهما من الملابسة بوجه من الوجوه.

وجاء التعبير بعبارة: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ دُون نَحْوِ إلَىٰ اللّه، أو غَيْرِهِ من أسماء اللّه الْحُسْنَى، لتَوْجِيهِ المخاطَبِ إلى معاني رُبوبيَّة اللّه لعباده، وصِفَاتِ اللّه وأسمائه المشمولة بها، ذَاتِ العلاقَةِ بالْخَلاَئِقِ إيجاداً وإعداماً، وتَدْبِيراً، وحُكْماً، وسُلْطاناً، وحَيَاةً وَمَوْتاً، ورِزْقاً، وَبَسْطاً وقَبْضاً، وابتلاءً، وحِسَاباً، وفَصْلَ قضاءٍ، وتَنْفِيذَ جزاء، وغَيْرَ ذلِكَ مِمَّا يَدُلُّ على تصاريف اللّهِ بعبَاده.

وفيه تذكيرٌ بأنَّ الموْتَ النازِلَ بالمخاطَبِ، وبكُلّ مَنْ سيَنْزِلُ به الْمَوْتُ، هو من تصاريف رُبوبيَّةِ الرَّبّ لعباده، فهو الْمُحْيِي وهُوَ الْمُمِيت، وهو الباعث إلى يوم الدّين يَوْمِ الْحِسَاب وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذِ الجزاء، إليه الحكْمُ في كلّ ذَلِك.

وَفي اختيار كلمة «رَبّ» تنبيهٌ عَلَىٰ أَنّ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانيّ تَتِمُّ وفْقَ نِظَامِ التربية، وهي الإنْشاء المتدرِّج، حتَّىٰ بلُوغ المخلوق الغايَةَ المقدَّرَةَ لَهُ، والْهَدْمُ المتَدَرِّجُ أيضاً، في خَطٍّ بيانيٍّ صاعِدٍ أو نَازِلٍ.

* * *

(٩)

التدبر التحليلي للدّرس السّادس من دروس السورة

الآيات من (٣١ ـ ٣٥)

قال اللّهُ عَزّ وجل:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾.

في هذا الدّرس مشْهَدٌ مُوجَزٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْحِسَاب وفَصْل الْقَضَاء يَوْمَ الدّين.

وهذا المشْهَدُ خاصٌّ بِالْإِنْسَان الكافر المكذِّب بيَوْم الدِّين، الذي دارَتْ حَوْلَهُ السُّورَةُ في معظم آياتِها، وهو الذي جلَبَتْ له إرادتُهُ الّتي كانَتْ تتجدَّدُ دواماً في الحياة الدنيا أن يَفْجُر فيما يأْتِيه من ساعاتِ دَهْرِهِ ولحظاتِ عُمْرِهِ، على أوْسَعِ ما لَدَيْهِ من قبائح ورغباتٍ فاحشات، حتَّىٰ كان الفجورُ أمَامَه، يَتَقَدَّمُهُ إلى موقف حسابه.

وقد اقْتَصَرَ هذا الْمَشْهَدُ على فِقَرَاتٍ كافياتٍ لإدانة هذا الكافر الفاجر، من اللاّئحة الّتِي يُعْلَنُ فيها مُقْتَضِيَاتُ إدانَتِه بجَرِيمته، والحكْمِ عليه بالعذاب الأبديّ، بالاستناد إليها.

فالقرار الذي يَصْدُر بشأْنِ هذا الكافِر الفاجر المستند إلى محاسبته ومحاكمته يتضمَّنُ مادّتَيْن:

المادّة الأولى:

دلّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

المعنى: بناءً على مَوْقفِ الحساب الذي جَرَىٰ لَهُ، وَمَا أَثْبَتَهُ كِتَابُ أعْمَالِهِ في الحياة الدنيا، ومَا قَدَّمَهُ شُهُودُ الإثبات من جوارحِه وأعضائِه وجِلْدِهِ، ومِنَ الملائكة المكرَّمين، تحقَّقَ ما يلي:

أولاً: جاءَهُ الرَّسُولُ المؤيَّدُ مِنْ رَبّه بالمعجزاتِ الباهرات، وبالآيَاتِ البيّنات، وبالقرآن الذي أقام عليه البراهين الدّامغة، الّتي حاصَرَتْهُ من كلّ مَهْرَبٍ فكْرِيٍّ، فَلَمْ تَدَعْ لَهُ معاذيرَ تَصْلُحُ لأنْ يعْتَذِرَ بها.

- فَمَا استجاب لدَعْوَة اللَّه ورسوله، الّتي تضمَّنَتْ دَعْوَتَهُ لِمَا يُحْييه، كَمَا جاءَ في بيانات نُصِوصٍ أُخرى.

- وَلاَ صَدَّقَ الرَّسُولَ، ولاَ صَدَّقَ بالقرآن، ولاَ صَدَّق بالآيَاتِ

الْبَيِّنَاتِ، ولا بالمعجزات الباهرات، ولا بنَبَأ يَوْم الدّين، والبعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ للحسَاب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزَاء.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾: الفاء هُنَا فَصِيحةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ، أي: ما استجابَ للدَّعْوة إلى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، فَمَا أطاعَ، ولاَ صَدَّقَ الرَّسُولَ.

ثانياً: ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لِرَبِّه الّذِي خلَقَهُ وَرَبّاه، وأمَدَّهُ بكُلِّ مَا كانَ يَحْتَاجُ إليه في الحياة الدّنيا، وأعْطاهُ الأسبابَ وخلَقَ له المسبَّبَات، وسخَّرَ لَهُ الأشياء، ومكَّنَهُ من الانتفاعِ بها، فَلَمْ يَعْبُدْ ربَّه بالصَّلاةِ له، والخضوع لعزّتِه وجَلاله، عبادَةً خالصةً من الشّرْك، إنَّه لَمْ يَعْبُدْ رَبَّه عبادَةَ شُكْرٍ لنَيْلِ الأجْر العظيم، والسّعادة الخالدة، ولَمْ يَعْبُدْهُ عِبادَة خَوْفٍ من الْعِقاب والعذاب الخالِدِ في الجحيم.

ثالثاً: وَإذْ لَمْ يُصَدِّقْ ولَمْ يُصَلِّ لِرَبِّه، لَمْ يكُنْ من أَمْرِهِ أَنَّهُ وَقَفَ مَوْقفاً وَسَطاً مُتَحَيّراً، بحْثاً عن الدّليل إنْ كانَ قَدْ قامَ لَدَيْهِ شَكٌّ أَوْ ظَنٌّ قَوِيٌّ يقْتَضِي منْهُ أنْ يَتَأَنَّىٰ حتَّىٰ يَقْتَنِع. بل أخذ الطَّرَفَ المقابل الأَقْصَىٰ.

إنَّ المواقف تُجاهَ أيّة فكْرةٍ ثَلاَثَةٌ لا اثنان، وهي:

(١) التصديق. (٢) التكذيب. (٣) التوقُّف دُون تَصْدِيقٍ وَلاَ تكذيب.

فَمَنْ لَمْ يَقُمْ لدَيْهِ أنَّ الفِكْرَة حَقٌّ، فَلَيْسَ مِنْ حَقِّه أَنْ يُكَذِّبَ بها، حتَّىٰ يَقُومَ لدَيْه دَليلٌ صَحِيحٌ مقبولٌ بِأَنَّها باطل، وإنَّما عَلَيْهِ أنْ يَتَوَقَّفَ وَيَتَرَيَّثَ، ويَبْحَثَ حتَّىٰ يتَرَجَّح لَدَيْهِ دَلِيلُ الإثْبَاتِ أو دَلِيلُ النَّفي.

لكِنَّ هذا الْكَافِرَ الفاجرَ مُعَانِدٌ مكابرٌ يتّبعَ الْهَوَىٰ ورَغباتِ الفُجُورِ لديه، وقَدْ أَخَذ بنقِيضِ القضايا الّتي جاء بها رَسُولُ رَبّه، دون أنْ تكونَ لدَيْهِ أيَّةُ حُجّةٍ تَصْلُحُ لأنْ يعْتَذِرَ بها عِنْدَ رَبّه، فيما اعْتَنَقَهُ وَأَخَذَ بِهِ مِنْ كُفْرِيَات.

فَكَذَّبَ الرَّسُولَ بِرسالته، وكَذّبَ بالْقُرآن المنَزَّلِ من عند اللّه الحكيم

العزيز، وكذَّبَ بأنْباءِ يَوْمِ الدِّين، وبكُلِّ ما جَاءَ به الرَّسُول عَنْ رَبِّه، واسْتَهَانَ بالْوَعِيدِ، وقَدْ دَمَغَتْهُ الحججُ والبراهين فَلَمْ يَكْتَرِثْ لها، ولَمْ يَعْبأْ بها.

دلَّ علىٰ مَوْقِفِهِ المعانِدِ هذا قَوْلُ اللَّهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

دَلَّ قولُهُ تَعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ على أنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ مَوْقِفاً إيجابيّاً مِنَ الدَّعْوَة الرَّبَّانيَّة الحقّ.

ودَلَّ قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ عَلَىٰ أنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ مَوْقِفاً مُتَوَسِّطاً، مُتَرَيِّثاً، بَاحِثاً عَنِ الحقّ، بل اتَّخذ مَوْقفاً سَلْبيّاً من الدَّعْوَةِ الرَّبَّانيَّةِ الحقّ.

﴿كَذَّبَ﴾: أيْ: كَذَّبَ الرَّسُولَ، وكَذَّبَ بكُلِّ ما جَاء به عَنْ رَبِّه.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أي: وأَدْبَرَ وابتَعَدَ نَائياً، وأدَارَ ظَهْرَهُ رَافِضاً ما جَاءَ من الحقّ، عاصِياً لرَبِّه منَ الدَّرَكَةِ الْقُصْوَىٰ، إذْ رَفَضَ الإيمانَ، واعْتَنَقَ الكُفْرَ، واتَّبَعَ أهواءَهُ وَشَهَواتِهِ، وَرَغَبَاتِ الْفُجُور لدَيْه، وَوَسَاوِسَ الشَّيَاطِين وتَسْويلاتهم.

رابعاً: وَبَعْدَ أنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ انْتَفَخَ كِبْرُهُ في صَدْرِهِ، فَذَهَبَ إلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ يَمُدُّ يَدَيْهِ مُتَبَخْتِراً مُسْتَكْبراً.

دلَّ علَىٰ تَصَرُّفِه الأَحْمَقِ هذا قولُ اللَّهِ تَعالَىٰ: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: أي: يَمُدُّ يَدَيْهِ مُتَبَخْتِراً مُسْتَكْبراً مُخْتالاً، يتَعاظم بعِنادِهِ وكُفْرِهِ بالحقّ، مُعْجَباً بنَفْسِهِ ورَصَانَتِهِ وَعَقْلِهِ المتحجّر، إذْ لم يَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ مخالِفَةٍ لِمَا عَلَيْهِ آبَاؤه وأجْداده، مع أنّه يُقَلّدُهم تَقْليداً أعْمَىٰ، ويَزْعُمُ أنَّهُ أرفَعُ وَأعظم رأياً وَنَفْساً ومَكَانَةً من أن يكُون تابعاً لِرَسُولٍ من البشر، أو خاضعاً لرَبٍّ غَيْبِيّ غَيْرِ مَشْهُودٍ، يَسْلُبُه حُرِيَّتَهُ، ويَأْمُرُه بالإيمانِ به، وبطاعَتِه في أوامِرِهِ ونواهيه.

وهذا ما يُعْلِنُهُ بعضُ الْمُلاَحِدَة بعباراتٍ صريحاتٍ، ويَدُور في خَلَد سائر الكَفَرَةِ باللّه ورُسُلِه والْيَوْمِ الآخِرِ، ولَوْ لَمْ يُصَرِّحُوا به في عباراتهم.

المادَّةُ الثانية:

دلَّ عليها قولُ اللّهِ عزّ وجلَّ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

بَعْدَ بيانِ المادّة الأولىٰ الّتي تضمَّنَتْ ذكر مقْتَضِيَاتِ إدَانَةِ الكافِرِ الْفَاجِر، المكذّبِ بيَوْمِ القيامة، بذكْرِ أقْبَح ما كانَ مِنْهُ في الحياة الدنيا، ممَّا يقتضي الحكْمَ عليه باستحقاقِ العذابِ الأبدِيّ، تَأتي المادّة الثانيةُ مُتَضَمِّنَةً إصْدَارَ الحكْم عليه، بعبارَةٍ عَجِيبَةِ الاختيار والتَّوْجِيه، إذْ يُواجَهُ فِيهَا بالْخِطَابِ، فيَقُولُ لَهُ الرَّبُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه:

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾:

أي؛ تقرَّرَ الحكْمُ عَلَيْكَ بِالْعَذابِ الأبدِيِّ، وصَارَ تنفِيذُهُ قَرِيباً مِنْكَ.

فالعبارَةُ الاصْطِلاَحِيَّةُ الدَّالةُ على هذا المعنى هي: «أَوْلَىٰ لَكَ».

أمّا التحليلُ اللُّغوِيُّ لهذا التعبير، فَقَدْ قَالَ الأصْمَعِيُّ بشأنه: «أَوْلَىٰ لَكَ» أي: قارَبَكَ ما تكْرَهُ.

قال ثعلبُ: لَمْ أجِدْ في «أَوْلَىٰ لَكَ» أَحْسَنَ مِمَّا قالَ الأصْمَعِيُّ.

أقول: إنَّ كلمة: «أَوْلَى» عَلَىٰ ما فَهِمَ الأَصْمَعِيُّ هِيَ من فِعْلِ: «وَلِيَهُ الشَّيْءُ يَلِيهِ» أي: تَبِعَهُ دُونَ فَاصِلٍ، فَهُو تابعٌ قَرِيبٌ منه. وتَقُولُ لغة: أولَيْته إيَّاه، إذا أَتْبَعْتَهُ إيَّاهُ، وجَعَلْتَهُ قريباً منه.

فإذَا كانت «أَوْلَىٰ» صيغة «أَفْعَل تفضيل» كان معنىٰ «أولى لَكَ» صَارَ العذابُ أقْربَ لَكَ من أيّ قَرِيب.

وهذا قرارٌ رمْزِيٌّ مُوجزٌ بِحُكْمِ التَّعْذِيب، فمِنْ شَأْنِ العظماء عادَةً أن يكْتَفُوا في أوامر التعذيب أو القتل بالإشارات، أو بالرُّمُوز الكلاميّة.

وإذا كانت «أَوْلَىٰ» فعلاً مُتَعَدّياً إلَىٰ مَفْعُولَيْن، من فِعْل: «أَوْلَيْتُ الرَّجُلَ الشَّيْءَ» أي: أتبعْتَه إيّاه، وجعلْتَهُ قريباً منه، كان المعنَىٰ: أَوْلاكَ مُقَدّماً لَكَ العذابَ ما قَدَّمْتَ من تكْذِيبٍ وتَوَلٍّ واستكْبار. أي: أَتْبَعَكَ الْعَذَابَ عَمَلُكَ.

واللّام في «لَكَ» من عبارة: «أولَىٰ لَكَ» إمَّا للتقوية، وإمَّا للتعْدِيَة على تضمِينِ فعل: «أولَىٰ» معنى فعل «قَدَّمَ» أي: قَدَّمَ لَكَ عَمَلُكَ العذاب.

والتكريرُ في: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ يحتمل وجْهَيْن:

الوجه الأول: أن يكون لتأكيدِ تَقْرِير العذاب، بتكْرِيرِ الْعِبَارَة مَع التعقيب، ومع التراخي.

الوجه الثاني: أن يكُونَ للإشارة إلَىٰ أنواعٍ من العذابِ يأتي بعضُها أوّلاً، فيتْبَعُه نَوْعٌ آخَرُ دُونَ فاصل، بدليل «الفاء» الّتي للترتيب مع التعقيب، ثُمَّ يَتْبَعُهُ نَوْعٌ ثالثٌ من العذاب بعْدَ مُدَّةٍ متراخية، بدليل «ثُمَّ» الّتي للترتيب مع التراخي، فيَتْبَعُ هَـٰذَا الثالِثَ نوْعٌ رابعٌ من العذابِ دون فاصل، بدليل «الفاء» الّتي للترتيب مع التعقيب.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السّابع من دُرُوس السورة

الآيات من (٣٦ ـ ٤٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

● قَرَأَ ابْنُ عَامرٍ، وعاصِمٌ، وحمزة، وأبو جعفر: [أَيَحْسَبُ] بفتح السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَيَحْسِبُ] بكَسْرِ السّين.

وهذان وجهان عرَبيان لنطق هذا الفِعْل، وقد سبق بيان أَنَّ فعْلَ «حَسِبَ» جاء في القرآن مستعملاً للدّلالَةِ على الظنّ التوهميّ الضعيف جدّاً.

جاء هذا الدرس السَّابعُ مَوْصُولاً بالدّرس الأوّل من دُروس السورة، ومُتَمّماً لمَا جاء فيه.

ففي الدرْسِ الأوّل جاء عرضُ احتمال توهُّم الإنسان المنكر للبعث أنَّ قُدْرَةَ الرَّبِّ الخالق لا تَصِلُ إلى مستوىٰ جمع ما يَبْلَىٰ من عَظْم الميّتِ وإِعادَةِ تَرْكِيبه، ثُمّ إعادةِ الحياة إليه، وكانَ الرَّدُّ القرآنيُّ فيه بقول اللّه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ④﴾.

أمّا هذا الدرس السَّابعُ الأخِير من دُروس السّورة، فقد جاء فيه عرض احتمال توهُّم الإنسان المنكِرِ للبعث، أنَّ الرَّبَّ الخالِقَ لم يَضَعْ في خُطَّتِهِ التَّدْبيريَّةِ للخَلْق، مُحَاسبَةَ النَّاسِ على أَعْمالهم وتصرُّفاتهم الإراديَّة في الحياة الدُّنيا، وأَنَّهُ سَيَتْرُكُهم مُهْمَلِينَ، وأنَّه قَدْ خَلَقَهُمْ تَفَنُّناً في الْخَلْقِ، وَتركَهُم لأنفُسِهم دونَ ابتلاء ودونَ تكليفِ، وسيتركُهُمْ سُدىً دُونَ حسَابٍ وَلاَ فَصْلِ قَضاءٍ وَلاَ تَنفِيذ جزاء.

وجاء هذا العرض بأسلوب سؤال المسْتَفْهِم، لانتزاع ما عند المنكر ليوم القيامة من أفكارِ حَوْل الموضوع، ولاسْتِدْراجِهِ إلى المناظَرةِ، بُغْيَةَ دَفْع توهُّماته، وإقامَةِ الحجَّة عليه، فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ٣٦﴾:

﴿سُدًى﴾: أي: مُهْملاً، كالسَّائمة الّتي ترعَىٰ بِنفْسِها بِلا راعٍ. يُقالُ

لغة: إبِلٌ سُدىً، أيْ: مُهْمَلَةٌ تَرْعَىٰ بلا رَاعٍ، فَتُفْسِدُ مَا تُفْسِدُ دُونَ مُرَاقبةٍ ولاَ مُحاسبة.

قال أهل اللّغة: السُّدَىٰ: المهْمَلُ، الواحِدُ والجميع فيه سواءٌ، وبعْضُ العرب يقولُ: «سَدىً» بفتح السّين.

وفعله «أسْدَىٰ يُسْدِي إسْداءً». تقولُ: أسْدَيْتُ إبِلي إسْدَاءً، إذَا أهْمَلْتها. والاسْمُ منْهُ «سُدىً».

بعد هذا الطَّرْح بأسْلوب السؤال الاستفهاميّ، تضَمَّنَ الدرْسُ التَّنْبِيهَ على صِفَتَيْن من صفاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه، يكْشِفُهُما الاسْتِنْبَاط الفكري:

الصّفة الأولى: صفَةُ حِكْمَةِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ الظَّاهرة في آيات خلقه، ومنها خَلْقُ الإنْسَان من نُطْفَةٍ فعَلَقَةٍ فَخَلْقٍ كاملٍ سَوِيّ.

الصّفة الثانية: صفة قُدْرَتِه البالغَةِ غايَةَ المدى، والقادرة على خَلْقِ مَا يَشَاءُ ابْتِدَاءً أوْ إعادةً، وتُدْرَكُ هٰذِهِ الصِّفَةُ من تصاريف خَلْقِ اللَّهِ للإنسانِ أيْضاً.

والمعنى: أَنَّ الحكيم العليم لا يخْلُق خَلْقاً لَهُ إرادةٌ واختيارٌ، وهُوَ مُمَكَّنٌ من أنْ يَعْدِلَ وَيَظْلِمَ، ويُحْسِنَ ويُجْرِمَ، ثُمَّ يَتْرُكَهُ سُدىً، دون أن يضَعَهُ مَوْضِع الامتحان، ويُتَابعهُ بالتكليف، ثُمَّ بالْحِسَاب وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وأنَّ ذا القدرة البالغَةِ الظاهِرَةِ للنَّاسِ آثارُهَا في الْخَلْقِ الأوّل، لا يُعْجِزُهُ إعادَةُ الْخَلْقِ بَعْدَ إماتَتِهِ وإفناءِ جَسَدِه، بلْ هو جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ قادِرٌ علَىٰ أنْ يُحْيِيَ الموتَىٰ حيَاةً أُخرى.

فَهُوَ عزَّ وجلَّ سَوْفَ يَبْعَثُ الموتَىٰ من الناس، ليُحَاسِبَهُمْ، وَيَفْصِلَ

قَضاءَهُ فيهم محسنين أو مُسِيئين، ويجازيَهُم على مَا كان منهم في رِحْلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، بالْعَدْلِ إذَا أسَاءُوا وَقَدْ يشْمَلُهُمْ بغفرانِه وعفوه بمقتضىٰ حكمته، ما لم يكونوا من أهل الكفر به أو الشِّرْك، وبالفضل إذا أحْسَنُوا مؤمنين به وبما أمرهم أن يُؤْمِنُوا به.

ودليل هاتين الصفتين ما شَهِد الإنسان ويشْهَدُ دواماً من آثار حكْمَةِ اللّه الجليلة، وقُدْرَتِهِ العظيمة، في خَلْق الإنسانِ نَفْسِه الذي كان تُرَاباً، فصارَ غذاءً، ثمَّ صار دماً، فصار نُطْفَةَ مَنِيٍّ.

والتقط النَّصُّ من هٰذِهِ الأطوار طَوْرَ النُّطفة من المنيِّ الذي يُمْنى، فيكونُ بَذْؤه في بطْن أمّه من جزءٍ صغير جدًّا لا يرى بالأبصار، ضمن النطفة الَّتي تَحْوي منْ أمثاله مئات الملايين. وهذا الجزء الصغير الذي هو أحَدُ الحيوانات المنويَّة يُلَقِّحُ الْبُيَيْضَة الّتي تهْبِطُ في بَطْن أمّه من بُرْجِها، في الزَّمَن المقدَّر للْقَاح، فيتَّحِدَان مُتَكَامِلَيْن، ثُمَّ بالتنامِي الصَّاعد يَكُونُ عَلَقَةً، والْتَقَطَ النَّصُّ من أطوار التنامي طَوْرَ الْعَلَقة الَّتِي يصِلُ إليها الجنين، فنَبَّهَ عليه بأسْلُوب الاستفهام لانْتِزَاع الإقرار بهذه الحقيقة، فقال اللَّهُ عزَّ وجل:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾.

﴿أَلَمْ يَكُ﴾: أصْلُها «أَلَمْ يكُنْ». حَذْفُ النُّون من فِعْلِ «يَكُن» المجزم لغةٌ عَرَبِيّةٌ، جاء اسْتِعْمَالُها في خَمْسَةَ عَشَر موضعاً من القرآن الكريم، سبعة في: [تَكُ] وثمانية في [يَكُ].

واسم ﴿يكُ﴾ ضمير يعود على الإنسان.

﴿نُطْفَةً﴾: النُّطْفَةُ والنُّطَافة في اللُّغَة: القليلُ من الماء، ولا فعل لهاتين الْكَلِمَتَيْن. نُطْفَةً: خَبَرُ ﴿يكُ﴾ لأنَّه من الأفعال الناقصة.

والمراد بالنطفة ماء الرجل الذي هو المني، وأُطْلِقَ عليه لَفْظُ النطفة لِقِلَّةِ مقداره.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾: أي: ثمّ كان الإنسان علقةً. **العَلَقة** في اللّغة: قِطْعَةٌ من الدّم المتجمّد، وهي في فَهم الأطِبّاءِ المعاصِرين المرحَلَةُ الّتِي تتحوّلُ إليها النّطفَةُ الأمْشَاجُ، فَتكُونُ شيئاً يعْلَقُ بجدار الرّحِمِ وَيَتَشَبَّثُ فيه، وهٰذه تكون مُحَاطَةً بالدَّمِ المتخثّرِ المتَجمّد، وفَهْمُ ما جَاءَ في الآيَةِ على ما اكْتَشَفَهُ عُلَمَاءُ الأجنَّةِ، هُوَ الّذي يَنْبَغِي المصِيرُ إليه، وفي اللُّغَةِ مَا يُؤَيِّدُه.

وجاء العطف بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالَةِ على أَنَّ طَوْرَ الْعَلَقَةِ تَسْبقُه أطوار تَتْلُو طوْرَ النُّطْفَةِ، وهٰذِه الأطوارُ تكون بين النطفة والعلقة.

وبعد التَّنْبِيه على طَوْرِ النُّطْفَةِ، وطوْرِ الْعَلَقَة، جَاءَ في النَّصِّ اخْتِيَارُ طَوْرِ الْخَلْقِ فَالتَّسْوِيَةِ، فَقَال اللّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾:

أي: فخلقه الله ربّه فسوّاه. حذف فاعِلُ «خَلَق» ومفعولُ «سَوَّىٰ» إيجازاً للعلم بهما.

والمعنى: فصَوَّر اللّه أعضاء الجنين الإنسانيّ الظاهرةَ والباطنةَ. وميَّزَ خَلْقَ كلِّ واحِدٍ منها، ووضع كُلَّ جُزْءٍ في مكانه المقدَّرِ له، فَجَعَلَها مُسْتَوِيَةً مضْبُوطةً بضابط العدْل.

التّسْوِية: إحْكَامُ مَقَادِير أجزاء المخلوق المصَوَّر، وجعْلُه يَتدَرَّجُ مُتَكاملاً حَتَّىٰ يبلُغَ الغايَةَ المقْضِيَّةَ لَهُ في خُطّة التكوين، وتكُونُ التَّسْوِيَةُ بإعْطاءِ كلّ شيْءٍ خلْقَهُ بالْعَدْل، أي: بإعْطَاءِ كلّ عُضْوٍ وكلِّ جُزْءٍ من أجْزَاء المخلوق أو المصنُوع من العناصر والصفاتِ، مَا يَجْعلُه صالحاً مُؤَدِّياً وَظيفَتَهُ دُونَ زِيادةٍ ولا نُقْصان.

وكُلٌّ من الْخَلْقِ والتَّسْوِية لا بُدَّ أنْ يكُونَا مَسْبوقَيْن بتَقْدِيرٍ وقَضَاءٍ في خُطَّةِ التّكوين.

ثُمَّ تكُونُ أعْمالُ التَّنفِيذِ مطابقةً لمَا سَبَقَ به القضاء والقدر.

وهذه التَّسْوِيَةُ أمْرٌ مُخْتَلِفٌ عَنِ التَّسَاوِي والمساواة، إنَّ التسويَةَ هي إعْطاءُ كلِّ شيْءٍ حقَّهُ بالْعَدل، أمّا المساواة فهي إعطاء الشَّيْئَيْنِ أو الأشْيَاءِ مقاديرَ مُتَسَاويَة وَلَوْ كانَتِ الْحُقُوقُ مُتَفَاضِلَةً، وهذا عملٌ فاسِدٌ يُؤَدِّي إلى إفساد.

أمّا الْعَدْلُ فَهُوَ إعطاءُ كُلِّ ذي حقٍّ حقّه، فَمَا حقُّهُ عشرة، يُعْطَىٰ عشرةً بلا زيادَةٍ ولاَ نَقْصٍ، وما حقُّه عشرون يُعطَىٰ عشرين، وَما حقُّه مئة يُعْطَىٰ مئة، وهكذا بحسب الحقوق والمصالح.

وقد وصَفَ اللَّهُ كلمتَهُ الخبريَّة بالصِّدْق، ووصَفَ كَلِمَتَهُ الْجَعْلِيَّة بالْعَدْل، سواءٌ أكانت كَلِمَةً تكْوِينيَّةٌ أم كلمةً تَشْرِيعيَّة.

فقال اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

- فكلمة اللّه الخبرية عمّا كان وعمّا هو كائن وعما سيكون قد تَمَّتْ صِدْقاً مطابقاً للواقع، أي: تمت حالة كونها صِدْقاً.
- وكلمةُ اللّهِ التشريعيّة قد تمّتْ عدْلاً، أي: تمّتْ حالة كوْنِها عدْلاً.
- قول اللّه تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فجَعَلَ منَ الْمَنِيّ الّذي يَقْذِفُه الرَّجُلُ كِلاَ الزَّوْجَيْن الذّكرِ والأُنْثَىٰ، وَهٰذَا ما قَرَّرَتْهُ البُحوثُ الإنسانيَّةُ أخيراً، إذِ اكتشفَ عُلَماءُ البحث الكَوْنِيّ في نشْأةِ تكوين الجنين، أنَّ بُيَيْضَةَ المرأة وسَطٌ صالح للتَّلْقيح بحُوَيْنِ ذكَرٍ، أَوْ بِحُوَيْنِ أُنثَىٰ. وأنَّ نُطفةَ الرَّجُل هِيَ الّتي تَحْمِلُ الْحُوَيْنَاتِ من النَوْعَيْن،

الذُّكُور والإناث، فإذَا سَبَقَ حُوَيْنُ الذكر بقضاء اللّهِ وقَدَرِه، جاء الجنينُ ذكراً، وإذا سبَقَ حُوَيْنُ الأنثَىٰ بقضاء اللّهِ وقَدَره، جاء الجنِينُ أنثَىٰ، والأَمْرُ يخْضَع في أصْلِ التكوين لأمْرِ اللّه التكويني.

فَمَنْ دَرَسَ هٰذه الحقائق المدهِشَةَ، الّتي يكْشفها تتبُّعُ مراحِل خَلْقِ الإنسانِ، عَظُمَ في نَفْسِهِ جَلَالُ الرَّبّ عزَّ سُلْطانُه، وتَصاغَرَ في نَفْسِه أمَامَ اللّه، وَوَجَدَ رَبَّهُ عالياً في العلُوّ اللّانهائي.

- قول اللّه تَعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؟

أي: إنَّ ذَلِكَ الرَّبَّ الْعَلِيَّ الجليلَ العظيمَ الكبير، الّذِي هُوَ في العلوّ اللّانهائي، والّذِي أتْقَن خَلْقَ الإنسان، وجعَلَهُ في أحْسَنِ تقويم، ألَيْسَ بقادر على أن يُحْيِي الموتَىٰ، فَيَبْعَثَهُم إلى الحياة بعْدَ الموت، ليقيم فيهم مقتضىٰ حكْمته، فيُحاسبَهم، ويفصل فيهم قضاءه، ويُنَفِّذَ فيهم جزاءه على ما قدَّمُوا من كسْبٍ إراديٍّ في الحياة الدُّنيا، الّتي كانت بالنّسْبَةِ إليهم رحْلَةَ امتحانٍ وابتلاء؟!

جاء اسْتِعْمالُ اسم الإشارة الذي يُسْتَعْمَلُ للمُشَار إلَيْهِ البعيد، للدلالَةِ عَلَىٰ أنّ الرَّبَّ الخالقَ عليٌّ في العلُوّ اللّانهائي.

والجوابُ العلميُّ لهذا السُّؤالِ كما يلي:

بلَىٰ. إنَّهُ لَقَادِرٌ على أنْ يُحْيِيَ الموتَىٰ، وعلى أن يخْلُقَ ما يَشاءُ، وعلى أنّه على كلِّ شيءٍ قدير، سُبْحانه وتعالَىٰ عمّا يَصِفُون.

وبهذا تمّ تدبّر سورة القيامة

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته

* * *

ملحق لسورة القيامة

(١١)

ملحق

حول إبداعيات بلاغيّة في سورة القيامة

تُوجد في هذه السورة إبداعَاتٌ بلاغيّة متعدّدة منها ما يلي:

(١) فنيَّةُ الْقَسَمِ وعدَمِ الْقَسَم معاً بابتكار أُسْلوب إيراد لفظ الْقَسم مقروناً بنفيه، لمراعاة اقتضاءين أحدهما يقتضي القسم، والآخر يقتضي عدم الْقَسَم.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾.

(٢) حذف الْمُقْسَمِ عليه إيجازاً، للعلْم به من السّباق ومن السياق، وهو:

«لنُحْيِيَنَّ الموتَىٰ، ولنحاسَبنَّهم، ولَنَفْصلَنَّ القضاء بشَأْنِهِم، ولنَجْزِيَنَّهُمْ يوم الدّين على ما عَمِلُوا في الحياة الدنيا من خيرٍ وشرّ».

(٣) الإيجاز بالحذف في عدّة مواضع من السّورة، مثل:

- ﴿بَلَىٰ﴾ لَنَجْمَعَنَّ عِظَامَهُ الّتي نَخِرَتْ وتفتَّتَتْ، وتَفَرَّقَتْ في التراب ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

- إنّ الإنسان الذي يُنْكِرُ يَوْم القيامة وما سيجري فيه لا يُنْكِرُ ذلك لأنَّهُ قامَ لدَيْه دليلٌ يَدُلُّ على أنَّ قُدْرَة البارئ لاَ تَصِلُ إلَىٰ مُسْتَوىٰ إحياء الموتى للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء ﴿بَلْ يُرِيدُ﴾ هذا ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مُرادَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

- ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ فَيَجْحَدُ، ويجادل عن نفسه، ويُقَدِّمُ المعاذير الكواذب غَيْرَ مُقْتَنِعٍ بها، إذ لا يقولُها جاهِلاً بحقيقة نفسه ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

- إنّ الإنسانَ الكافر المنكِرَ ليَوْم القيامة، ما استجاب في الحياة الدنيا لدعوة الحقِّ الّتِي جاء بها الرسول ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الرَّسُولَ وبما جَاءَ به عن رَبّه ﴿وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣)﴾.

- حَذْفُ الفاعِلِ للعلم به في: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أي: الروح، وفي ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: اللّه.

(٤) الاكْتِفاءُ بذِكْرِ لقطاتٍ بَعْضُها مِنْ أحْداثِ ساعَةِ إِنْهاء نظام الحياة الدنيا، أو قُبَيْلَها، والقفز إلى ذكر لقطة خطيرة من لقطات يوم الدّين، وهي الّتي تتعلّقُ بالإنسان الكافر حين يقولُ: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾.

نلاحظ هذا في: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الرُّوحُ ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾. وفي ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ (١٠)﴾.

(٥) الاعتراض بدَرْسٍ تَرْبَوِيٍّ مُوَجَّهٍ للرَّسُولِ ضِمْنَ وَحْدَةِ مَوْضوعِ السُّورَة.

(٦) التّنَقُّلُ بيْنَ أُمُورٍ هي من أَحْدَاث الحياة الدنيا، وأُمُورٍ أخرى هي من مشاهد يَوْمِ الدّين، على أنَّ شريط الزّمَنِ واحدٌ ما يجري فيه من أمور الدنيا، وما يجري فيه من أمور الآخرة.

وهذا الأسلُوبُ الفنيُّ لم يَعْرِفْهُ الناس إلاّ بعْدَ أن مَهَرُوا أسَالِيبَ الإِعْلاَنِ عن عناصر بارِزَةٍ من عناصر «الفِيلْم» قَبْلَ عرض وقائعه بالتسَلْسُل.

(٧) استخدام الأسلوب غيْرِ المباشر للدّلالة على الأفكار في عدّة مواضع من السّورة:

- الكناية عن تَلَقِّي الحكم بالظفر بالنعيم في الجنّة، بأسلوب التعبير عن ظواهر يلاحظها المشاهِدُ في وجوه المحكوم لهم بأنَّهُمْ من أهل جنَّاتِ النّعيم:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾.

- والكناية عن تَلَقِّي الحكم بالعذاب في جهنّم، بأسلوب التعبير عن ظواهر يُلاحظها المشاهِدُ في وجوه المحكوم عليهم بأنَّهم من أهل النار:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾.

- الكناية عن حالة احتضار الميّت بذكر أحداث مرافقةٍ عادةً لاحتضاره ومَوْته، وهذا في:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩)﴾.

- الكناية بعبارة ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ عن الكبر والتبختُر وإعجابِ الكافر بنفسه إذْ عاند الحقّ وأصرَّ على إنكاره.

(٨) الاكْتِفاءُ بِذِكْر مراحِلَ بَارِزَةٍ من أطوار خَلْقِ الإنسان، وتَرْكِ الذِّهْنِ يَتَصَوَّرُ ما بَيْنَ المراحل المذكورة، من أطوارِ خلْقٍ غَيْرِ مذكورة، على أنَّ هذه سيكْتَشِفُها، أو يكتشفُ بعْضَها، البحثُ العلميُّ الإنساني.

(٩) استخدامُ أسْلُوب الاستفهام التقريري لانتزاع اعتراف الموَجَّهِ له السُّؤال بالحقيقة، نجد هذا في:

- ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣)﴾.
- ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾.
- ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾.

(١٠) استخدام اسم الإِشَارَةِ الموضوعِ للمشار إليه البَعِيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في مقام الْعَلِيِّ الأعْلَىٰ، جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه.

* * *

سُورَةُ الهُمَزَة

١٠٤ مصحف ٣٢ نزول

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ (٢)
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ (٣) كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ (٤) وَمَآ
أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ (٥) نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ (٦) ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى
ٱلْأَفْـِٔدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ (٩)

---

١ ـ ● قرأ ابْنُ عامر، وحمزة والكسائي، وأبو جعفر، ورَوْح: [جَمَّعَ] بتشديد الميم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿جَمَعَ﴾ بتخفيف الميم.

وقد روعي في القراءتين اختلاف أحوال المتحدَّث عنهم. فمنهم من يَجْمَعُ جمعاً بدون مبالغة، ومنهم من يُجَمِّعُ بنهم ومبَالغة.

٣ ـ ● قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة وأبو جعفر: [يَحْسَبُ] بفتح السين.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يَحْسِبُ﴾ بكسر السين. والقراءتان وجهان عربيان لنُطق هذا الفعل.

٨ ـ ● قرأ أبو عَمْرو، وحَفْص، وحمْزَة، ويعْقُوب، وخلف: [مُؤْصَدَةٌ] بإثبات الهمزة.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مُوصَدَةٌ﴾ بجَعْل الهمزة واواً. والقراءتان وجهان من الأداء في النطق.

٩ ـ ● قَرَأ شعبة، وحمزة، والكسائي، وخَلف: [فِي عُمُدٍ] بضَمّ العين والميم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فِي عَمَدٍ﴾ بفتح الْعَيْن والميم. «عَمَد، وعُمُد» كلٌّ منهما جمْعٌ مفردُهُ «عَمُود» فهما وجهان عربيان.

(٢)

من ذُكر من المشركين أنّه كان همّازاً لمّازاً للّذين آمنوا

ذكر بَعْضُ كتَّاب سِيرَة حَيَاة الرَّسُول ﷺ، وبَعْضُ المفَسِّرين، أسْماءَ عَدَدٍ من كُبَراء مُشْركي مكّة، الّذينَ كانوا يتعَرَّضُونَ بالْهَمْزِ واللَّمْز، للَّذِينَ يَسْتَضْعِفُونَهُمْ، من الّذِين آمنوا واتَّبَعُوا الرسُول.

ومن الّذين ذُكِرَتْ أسْماؤهم في استخدام هذه الرّذيلة من المشركين:

«الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة المخزومي - أُمَيَّةُ بْنُ خَلَف - أُبَيُّ بْنُ خَلَف - الْعَاص بْنُ وائل من بني سَهْم - الأسْوَدُ بْنُ عبد يَغُوث - الأَخْنَسُ بْنُ شَرِيق - وهٰذان الأَخيران ثقفيّان من سادَة ثقيف في الطائف».

ولا يعني ذكْرُ هؤلاء أنّ السورة خاصّة بهم، بلْ هي عامَّةٌ تشْمل كلّ هُمَزَةٍ لُمَزَة، في عَصْرِ الرّسول ﷺ، وفي سائر العصور حتّى آخر التاريخ الإنساني، وهم الذين يستخدمون وسيلة الهمز واللّمز للصّدّ عن دين الله الحقّ.

* * *

(٣)

موضوع السّورة

هذه السُّورَةُ ذَاتُ دَرْسٍ واحد، وموضوعها يَدُورُ حول وعيد الْهَمّازِين اللَّمّازين، الّذين يسْتَخْدِمُونَ قبيحَةَ الْهَمْزِ واللَّمْزِ، احْتِقَاراً وازدراءً لضُعَفَاءِ الّذين آمَنُوا واتَّبَعُوا الرَّسُول ﷺ، بغْيَة رَدِّهِمْ عن دينِ اللّه، وصَدِّ أمْثالِهِمْ عن الدّخول فيه، ممَّنْ تُحَدِّثُهُمْ نفوسُهم بأَنْ يسْتَجِيبُوا لدَعْوةِ الحق.

وَهؤلاء الهمَّازُون اللَّمَّازُون يكونُون عادة من فئَةِ الأثْرِياء، الذين يَجْمَعُونَ الأموالَ ويُعَدِّدُونَها، ويعْتَزُّونَ بها، ويَتَصَوَّرُون أنَّها سَتُبْقِيهم في مراكز الْقُوّة والسِّيَادة في مُجْتَمَعَاتهم ما داموا أحياء.

وجاء في السُّورَة بيَانُ وعِيدِهم الشَّديد، بأنَّهُمْ سَيُنْبَذُونَ مُهَانِين مُحْتَقَرِين، في نارِ اللّه الموقَدَةِ، الّتي يصْلَوْنها يَوْمَ الدّين، ويكونون مِنْها في أماكنَ تتزاحَمُ فيها أجسادُهم، حتّىٰ يَحْطِمَ فيها بعْضُهُمْ بعضاً، ويُحْبَسُونَ فيها، وَتُوصَدُ عليهم أَبْوَابُها، فَلا يَسْتَطِيعُون الخروج منها خالِدِين مُخَلَّدِين.

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي لآيات سورة الْهُمَزَة

قال اللّه عزّ وجل:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾:

﴿وَيْلٌ﴾: يأتي في اللّغة بمعنى الْحُزْنِ، والْهَلاَكِ، والمشقَّةِ من العذاب. قال ابْنُ سِيدَه: ويلٌ كلمةُ عذاب.

وفي كلمة «ويْل» معنى الوعيد بعذاب اللّه.

ويقابلُ كلمة: «ويْل» التي هي كَلِمةُ عذابٍ في اللّغة، كلِمةُ «ويْح» الّتِي هي كَلِمَةُ تَرَحُّم.

وورد أنّ لفظ «ويْلٍ» اسْمٌ علَمٌ على وادٍ في جهنّم.

روى الإمام أحمد، والترمذيُّ، وابن حبَّان في صحيحه، والحاكم، عن أبي سعيد الخدريّ، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«الْوَيْلُ: وَادٍ في جَهَنَّم يَهْوِي فيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً، لَوْ أُرسِلَتْ فِيهِ الْجِبَالُ لَمَاعَتْ مِنْ حَرِّهِ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهُ.

والصَّعُودُ: جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَصَّعَّدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفاً، ثُمَّ يَهْوِي كذَلِكَ».

لم يصل هذا الحديث إلى درجة الصِّحَّةِ عند المحدثين، لكن يمكِنُ

الاستئناسُ به، إذْ فيهِ بيَانٌ لنوعٍ من أنواع العذاب الذي تدلُّ عليه كَلِمةُ «ويل» في اللُّغة، فيُحمل اللفظ في القرآن على المعْنَيَيْن.

وجُمْلَة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ مؤلفة من مبتدأ وخبر «ويْلٌ» مبتدأ، وجاز الابتداء بها مع أنّها نكرة لأنّ فيها معنى الدعاء أو التهويل، و﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ خبر.

ويمكن اعتبار كلمة «ويل» في الآية خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: الْعَاقبةُ أو الجزاءُ ويْلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَزَة.

وأرجَح الإعرابَ الأوّل، لأنّ فيه إبقاءَ ما في كلمة «ويْلٍ» في بَدْءِ الكلام من تهويلٍ وإزهابٍ، أي: عذابٌ عَظِيم مَهُول، لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ.

﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: لفظان على صيغة «فُعَلَة» وهي من صيغ مبالغة اسْم الفاعل التي ورَدَتْ قليلةً في كلام العرب، ومنها «ضُحَكَة» لمن هو كثير الضَّحِك، و«صُرَعَة» يُطْلق على بطَلِ المصارعة الّذِي يَصْرَعُ الناس كُلَّما صارعه أحد، و«لُعَنَة» لِمَنْ هُو كثير اللَّعْن للناس.

وتُشْعر هٰذه الصيغة مع الدلالة على المبالغة بأنَّ الوصْفَ الذي دلَّت عليه قد صَارَ سَجِيَّةً وطَبْعاً وأمراً مُلَازماً غَيْر منفك.

﴿هُمَزَةٍ﴾: وصْفٌ لموصُوفٍ مَحْذُوفٍ قام مقامه. وأصْلُ الْهَمْزِ في اللُّغَةِ الْغَمْزُ بإيلام، ومنه «الْمِهْمَاز» وهو حديدة يَضَعُها راكِبُ الدابَّةِ في مؤخّر خُفِّه أو نحوه، فيَهْمِزُها بأسنانٍ في طرفِهِ على بطْنِها، فيُؤْلِمُها مستحثًّا إيّاها لتُسْرِع.

ونُقِلَ الْهَمْزُ من الْغَمْز الفِعْليّ بإيلام إلى نَظِيرِه من الكلام، على طريقَةِ التوسُّع في اللُّغَةِ، تَشْبيهاً للمَعْنَوِيَّاتِ بالحسِّيَّات.

فالهَامِزُ بالكلامِ هو الذي يَعِيب النّاس بأقواله، **والهمَّازُ والْهُمَزَةُ**: **الْعَيَّاب**. يقالُ: رجُلٌ هُمَزَةٌ، وامْرأةٌ هُمَزَة.

وقد يكون الْهَمْزُ بحركاتٍ تُعَبِّر عن أقوالٍ، كبعض حركاتِ الشِّدْق، والعين، والرأس، والأيدي، والأصابع.

وخُصَّ الهمْزُ غالباً بما يكون من طعْنٍ لا يَشْعُرُ بِه المطعون عنْد فعل الطاعن، فتَدْخُلُ فيه الغيبَةُ والنميمَةُ والإشارات الطاعنات المُلْحَقَاتُ بهما.

﴿لُمَزَةٍ﴾: وصْفٌ أيضاً لموصوفٍ محذوف قام مقامه. وأصل اللَّمْزِ في اللُّغَة الدَّفْعُ والضَّرْب. ونُقِلَ على سبيل التوسُّع في اللُّغَةِ إلى معنَىٰ الإيذاء المؤلم للنَّفْس، بأسْلُوبِ الإشارَة بالْعَيْنِ أو بالرَّأسِ، أو بالشَّفَةِ، أو بغَيْرِها من الجوارِح، مع كلَامٍ خَفِيٍّ.

وخُصَّ اللَّمْزُ غالباً بما يكون من ذلك يحضُورِ الْمَلْمُوز.

وصارَ يُطْلَق على الْمُغْتَاب النَّمّام العيَّابِ الطَّعَّانِ في أعراضِ النَّاس: همّازٌ لَمّاز، وهُمَزَةٌ لُمَزَة.

و«كُلُّ هُمَزَةٍ لُمَزَة» قضيَّةٌ كُلِّيَّةٌ، فيها أداةٌ من أدوات العموم، الَّتي تَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ كُلَّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ مُوَجَّهُ له الْوَعِيدُ بعذابٍ شديدٍ في وادٍ من وِدْيَانِ جهنَّمَ يقال لَهُ: وادِي وَيْل، إذا كانَ منَ الذين يَصُدُّون عن دين اللّه بهَمْزِهم ولَمْزِهم، أو يُحَرِّضُونَ به الضُّعفاء على الرِّدَةِ عنه.

فالمعنى: عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الدِّين، في وادٍ من وديان جهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: «وَادِي وَيْل» لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ يَتَّخِذُ الْهَمْزَ واللَّمْزَ وَسِيلَةً للتَّحْرِيضِ على الرِّدَّةِ عَنْ دِينِ اللّه، وللصَّدِّ عن الدخول فيه.

- قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾:

﴿جَمَعَ﴾ وَقُرِئ في المتواتِر من القراءات [جَمَّعَ] إشارَةَ إِلَىٰ أن بَعْضَ الهمّازين اللّمازِين المحرِّضِين على الرِّدَّةِ عن دينِ اللّهِ بما يفْعَلُون، والصادّين

عنه مَنْ يتأثّر بهَمْزِهم ولَمْزِهِم، يَجْمَعُونَ مَالاً وَفِيراً ويُعَدِّدُونَهُ، دُونَ مُضاعفَةٍ في أعمالهم واجتهاداتهم في جمعه. وأنّ بعضهم الآخَرَ يُضاعِفُون أعْمَالَهُمْ كادِحِينَ في هذا الجمْعِ للْمَال الوفير.

﴿مَالًا﴾: جاء اللَّفظُ منكَّراً، للإشارة بالتنكير إلى الكَثْرةِ والْوَفْرَة، أي: مالاً كثيراً وافراً، وهذا أحد أغراض اختيار النكرة، كما ذكر عُلَماء المعاني، والقرائِنُ في هذا الموضع تدُلُّ على هذا الْغَرض.

المال: كُلُّ شَيْءٍ مَرْغُوبٍ في امْتِلاكه، ممّا به نَفْعٌ ما، وكانت الإبل عند العرب قَدِيماً أنْفَسَ أمْوالِهِمْ.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾: أي: وكـرَّرَ إحـصـاءَه بـالْـعَـدِّ، مَـرَّاتٍ مُـتَـتَـابـعـاتٍ، إذْ هـو يسْتَمْتِعُ ويتلَذَّذُ بعَدِّ مَا يَمْلِكُ من مالٍ، وقد تكونُ لَذَّتُهُ بعَدِّه وإحصائه ومَعْرِفَةِ مقدار ما يَمْلِك منه، أكثر من اسْتِمْتَاعه ولذّته بالانتفاع به مُسْتَهْلِكاً له.

يقال لغة: **عدَّ ذا الأفْراد**، إذا أحصاه ليَعْرفَ مقدارَ أفْرَاده، **وعدَّدَه**، إذا كرّر إحْصَاءَه. والتكْرِيرُ يَدُلُّ على الاستمتاع والتلَذُّذِ بمشاعر بما يَمْلِكُ من مال.

﴿يَحْسَبُ﴾ وفي القراءة الأخرى [يَحْسِبُ] قراءَتَان متواترتان، وهما لغتان عربيّتان، كما سبق بيانه.

والمعنَىٰ يظُنُّ ظناً ضعيفاً توهُمّياً، دلّ على هذا استقراء استعمال هذه المادّة في القرآن، فمادّة «حسب» لم تستَعْمل في القرآن إلاّ بمعنى الظَّنّ التوهُميّ.

﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾: **الْخُلود**: يأتي بمعنىٰ البقاء بلا نهايةٍ، ويأتي بمعْنَىٰ طول مُدَّةِ الْبقَاءِ النسْبي، ومن هذا أطلق الْعَربُ علىٰ الجبال والْحِجارَةِ والصُّخُور كَلِمَةَ «الخوالِد» لطول بقائها بعد دُرُوس الأطلال.

لكن الفعل الماضِيَ من مادّة «الخلود» لا يَدُلُّ إلاّ عَلَىٰ البقاء حتَّىٰ لحظة الحاضر، ولا يتعرَّضُ للْخُلُودِ الأبدِيّ، ولا للخلود النِّسبِيّ.

فاسْتِعْمال الفِعْلِ الماضي؛ «أَخْلَدَهُ». بقَوْلِ اللّهِ عزَّ وجَلَّ في وصْفِ المذْمُوم المهَدَّدِ بالوعيد الْهُمَزَةِ اللُّمزَةِ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ قد دلَّ علَىٰ أَنَّهُ يَحْسَبُ مَعَ كُلِّ زَمَنٍ يتَجَدَّد له في الحياة أنَّ مالَهُ هُوَ الّذِي أبْقَاهُ فيما مضَىٰ حَتَّىٰ لحظة الحاضر عزيزاً في قَوْمِه، مَكْفِيَّ الحاجات، ذَا مَكانَةٍ اجتماعيَّةٍ رَفِيعَةٍ، لَهُ فيها أمْرٌ ونَهْيٌ وسُلْطَان، ولاَ يَدُلُّ على معنى البقاء الدائم مستقبلاً، إذْ لم تأْتِ العبارة في النّصّ: يحسب أنَّ مالَهُ يُخْلِدُهُ، حتَّىٰ يَكُونَ فيها إشكالٌ بأنَّ أحداً من النَّاسِ لا يتصَوَّر الخلُودَ بلا نهاية في الحياة الدنيا، ولو كان مِنَ الكافرين باللّه وبرُسُله وبكُتُبه وبالْيوم الآخِر.

ولكن نَسْأَلُ هنا: كيْفَ يحسَبُ الكافر أنَّ مالَهُ هو الّذي أبْقَاهُ فيما مضَىٰ حتَّىٰ لحظة الحاضر؟

وأقول: باستطاعة المتأمّل أنْ يُدْرِك أنَّ الكافر يَحْسَبُ أنّ ماله هو الّذي أبْقَاهُ فيما مضَىٰ، حتَّىٰ لحظة الحاضر عزيزاً في قَوْمِه، مَكْفِيَّ الحاجات والْمُؤَن، ذا مكانةٍ اجتماعيَّة رفيعة، له فيها أمْرٌ ونَهْيٌ وسلطان، ولولاَ مالُه لَمَا بَقِيَتْ له هٰذِه العزَّةُ والقُوَّة والمكانَةُ الاجتماعيّة الرَّفيعة.

هذا التوهُّمُ الباطل يُسَيْطِرُ على نفوس معظم أَصْحاب الْغِنَىٰ والثَّرَاء، إذْ يَنْسَوْنَ أنّ اللّه هو الّذي منَحهم العزَّةَ والقوَّةَ والمكانَةَ الاجتماعيَّة الرَّفيعَةَ في أقوامهم، وربما كان المال من الأَسْبَاب الظاهرة، ولو شاء اللّه لسلبهم أموالهم وعزّتهم وقُوَّتَهُمُ الاجتماعيَّة الرفيعة، فهو جلّ جلالُه مالِكُ الملْكِ، يُعِزُّ بحِكْمَتِهِ لابتلاء عباده مَنْ يَشَاء، ويُذِلُّ مَنْ يشاء، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

والكافر بيوم الدين لا يَتطَلَّع إلاّ إلَىٰ مَتَاعِه من الحياة الدُّنيا، إذْ يرَىٰ

أنَّ كُلَّ وجُودِه منحَصِرٌ في هذه الحياة الّتِي يعيشُ ظرُوفهَا، فهي فُرْصَتُه الوحيدة للاستمتاع، وانتِهَابِ اللّذات، وتحقيق الشهوات، وهو يَرَىٰ أنَّ وَسيلته إلى ذَلِكَ ما جمع من مالٍ وعَدَّدَه، وأَعَدَّهُ لتحقيق هذه الغاية، ويَرَىٰ أنّ بقَاءَهُ طَوَال حياته في متاعِ الحياة الدنيا هُوَ الْخُلودُ الَّذِي تَطْمَحُ نَفْسه إلَيْهِ، وتَنْحَصِرُ فيه.

والكافر الْهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ المغتاب النَّمّام العيَّابُ الذي لا يُؤْمِن باللّه وعَدْله وجَليل حكْمته، ولا يُؤْمِنَ بالْيَوْم الآخر الّذي يكون فيه الحسابُ، وفَصْلُ الْقَضاء، وتحقيقُ الجزاء، يتَوَهَّمُ توهُّمَاتٍ لا قيمة لها في موازين الفكر السَّلِيم، منها أنَّ ماله الذي يجمعه، هُوَ إكْسِيرُ بَقَائه عزيزاً منعَّماً ذا مكانة رفيعةٍ بين الناس، وهو الوسيلة الّتي يَدْفَعُ بها عن نفسه الضُّرَّ، وهو الوسيلة التي يجْلُبُ بها لنفسه النَّفْع وما يشْتَهِي وما يُرِيدُ، حتَّىٰ آخِرِ لَحْظَةٍ من حياته، وهو الوسيلة لاغتنام سَعَادَتِه في فُرْصَةِ وجُودِه الوحيدَة في الدَّهر.

بكلِّ هذه التوهُّمَاتِ الْبَاطِلات، يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أخْلَدَهُ فيما مضى عزيزاً قويّاً ذَا مكانَةٍ اجتماعيّة رفيعة، وهو يُبْقِيه كذلك في أيَّام عُمْرِهِ الآتياتِ في المستقبل، فهو يَقِيسُ مستقبلَهُ على مَاضِيه.

- قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾.

﴿كَلَّا﴾ كلمة رَدْعٍ وزَجْر، وهي هنا لردع الهمزَة اللُّمزَة.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: اللاّم واقعة في جواب قَسَمٍ مَنوِيٍّ، كما قال الخليل في مثل هذا الاستعمال، فالفعل مؤكّدٌ بقَسَمٍ مُقدَّرٍ، وبنُون التوكيد الثقيلة.

«يُنبَذَنّ»: أي: يُطْرَحَنَّ مزهوداً فيه. أصل النَّبْذِ طَرْحُ الشيء وإلقاؤه، مع زُهْدٍ فيه، أوْ مَعَ إهَانَةٍ واحتقارٍ له. وإذا أراد النابذ صَرْفَ الشيء الذي يَنْبِذُه عن بصَرِهِ، نَبَذَهُ وراءَ ظَهْرِه.

وآكل التَّمْرِ مثلاً ينبذُ النّوىٰ إلى أيّة جهةٍ بعيداً عنه إذا كان في الخلاء.

واللّقيط ولَدُ الزِّنَىٰ يُسَمَّىٰ منبُوذاً، لأنّ والدَته نَبَذَتْهُ في الطريق حين ولَدَتْهُ، فيَلْتَقِطُه من يلتقطه.

والشَّاةُ النَبِيذَةُ والمنبُوذَةُ هيَ الّتي لا تُؤكَلُ من الْهُزَالِ والضعف.

فَفِي استعمال فعل «النَّبْذِ» حينَ الإلقاء في النار، مَعَانِي الازدراء والإهانة والاحْتِقار، والْعُقُوبة بالذِّلّة والصَّغار، لهذا الصنف المستكبر من الكُفّارِ، الْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ، الصّادّ عن دين اللّه، والّذي يتّخِذُ وسيلة الْهَمْزِ واللَّمْزِ لجَعْلِ ضُعَفاء المؤمنين يَرْتَدُّونَ إلىٰ الكُفْر بَعْد أَنْ آمَنُوا برَبّهم واتَّبَعُوا الْهُدىٰ، والذي لم يكن له هَمٌّ في الحياة الدنيا إلاّ أنْ يَجْمَعَ الْمَالَ ويُعَدِّدَه، ويتّبع أهواءه وشهواته ولذّاته.

﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾: **الْحُطَمَةُ**: اسم من أسماء دار العذاب يوم الدين، سمّاها اللّه في القرآن حُطَمَة، لأنّها تَحْطِمُ كلَّ شيءٍ يُنْبَذُ فيها، أي: تُكَسِّرُهُ تكْسِيراً بعُنْفٍ وشِدَّة، ليَذُوق مع عذاب الإهانة والإذْلالِ والْحَرِيق، عذابَ التحطيمِ وتكْسِير العظام.

صيغة «حُطَمَة» من أبْنِيَةِ المبالغة كالهُمَزَة واللُّمَزَة والصُّرَعة. أي: فإذَا كان هذا الكافر هُمَزَةً لُمَزَةً، عُجْباً بنفسه واستكباراً، فلْيُنْبَذْ في الْحُطَمَةِ التي تُحَطِّمه وتكَسِّر عظامه إهانة له واحتقاراً، تحقيقاً لقاعدة، «الجزاءُ من جنْسِ العمل» فهذا ما يقضي به قانونُ العدل الرّبّاني.

أصلُ الْحَطْمِ في اللّغة الكَسْرُ عَلىٰ أيّ وجْهٍ، دون عناية بالمكسُور، ولا مُبالاةٍ به، ولا بأيّ شأنٍ من شؤونه، أو مع قصد التخلّص من هيئته وصورته.

تقولُ لغة، حَطَمْتُ الشيءَ أحْطِمُه حطْماً، إذا كَسَرْته على أيّ وجْهٍ،

وتقولُ: حطَّمْتُه تحطِيماً فانْحَطَمَ وتحَطَّم، إذا أردت التعريف بأنَّكَ زِدْتَ في أَعْمَال التّحطيم كمّاً أوْ كيفاً.

والْحُطَامُ: الأشياءُ المحطَّمَةُ المُكَسَّرَة المكوَّمَة بغير نظام أو المنثورة.

ويقال: رَجُلٌ حُطَمَةٌ، أي: كثير الأكْلِ يَحْطِمُ كُلَّ طَعَام يضَعُه في فيه. ويُقالُ: إبلٌ حُطَمَةٌ، أي: كثيرةٌ متزاحِمَةٌ تَحْطِمُ الأرْض والكَلأَ بخفافِها، وكذلك يقال في قُطْعان البَقَرِ والغنم.

وروى مسلم وأحمد في مسنده، أنّ الرسول ﷺ قال:

«إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ».

أي: إنّ شَرَّ الرِّعَاء العنيفُ الشّدِيدُ القاسي في رعايته، الّذي يسُوق رَعِيّتَهُ بشدّة وعُنف، فيجعَلُها تتزاحم حتَّىٰ يحْطِمَ بعضُها بعضاً، وتُحطِّمَ ما تمُرُّ عليه.

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾؟!

استفهامٌ يُرادُ به التعجيبُ والتعظيم والتهويل، كما سبَقَ في نظائر هذه العبارة، وقد غدا معلوماً أنّهُ أسلوبٌ قُرْآنيٌّ من أساليب التعظيم والتهويل والتكبير والتعجيب.

أي: وَأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ عَظَمَةَ الْحُطَمَة وخَطَرَهَا العجيب، والمعنىٰ: لم تَبْلُغْ دِرَايَتُكَ عِظَمَ الْحُطَمَةِ، ولاَ مَبْلَغَ الْعَذَاب الذي تشتمل عليه، إذْ هي أمْرٌ فظيعٌ جدّاً.

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾:

بعْدَ الاستفهام التعظيميّ عن الْحُطَمَةِ، المتضمِّن التعجيبَ من هَوْلِهَا، جاء الجَوابُ الرَّبَّانيّ بأنَّها نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَة، مع سَائر صفاتها الآتِيَاتِ في السُّورَة.

أي: هي نارُ اللّه، وإذا كانت نارَ اللَّهِ فأمْرُها مَهُولٌ وخَطَرُها عظيم. وهذه الإضافة في «نَارُ اللَّهِ» تُشعِرُ بأنّ نارَ اللَّهِ هٰذِهِ الَّتِي أعَدَّها دَاراً لِعَذَاب مستحقّي العذابِ يوم الدّين، هي إعْدَادُهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، وليْسَت إعداد أحَدٍ من خَلْقِه.

إنَّها نَارُ اللَّهِ العظيمَةُ، فالمؤمن العاقل يخْشَاها أشدّ الْخَشْيَة، ويجتَنِبُ كلَّ قولٍ أو عَمَلٍ يُقَرِّبُهُ إلَيْهَا.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾: أي: تُمَدُّ دواماً بالْوَقُودِ الّذي يَجْعَلُها في حالَةِ اشتعالٍ دواماً حالاً ومستقبلاً. فاسْمُ المفعول مثلُ الفعل المضارع المبنيّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، يَدُلُّ على الحال والاستقبال والتجدُّد. واسْمُ الفاعل مثل الفعل المضارع المبني لِمَا سُمِّيَ فاعله، يَدُلُّ على الحال والاستقبال والتجدّد(١) أيضاً.

الْوَقُودُ والْوِقاد: ما تَشْتَعِل به النّار من حطب وغيره، وقد جاء في البيان القرآني أنّ وَقُودَ نَارِ اللّه يوْمَ الدّين النّاسُ والْحِجَارَة، فالحجارَةُ وَقُودُها قبل إدْخال المعذّبين بالاحتراقِ فيها.

يقال لغة: أوْقَدَ النّار، أي: أشْعَلها.

● قول اللّه عزَّ وجلّ:

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾:

---

(١) هذا ما ظهر لي في دلالات النصوص القرآنية الكثيرة، ولم يظهر لي فيها ما ذكرَهُ علماء أصول الفقه، من أنّ اسم الفاعل حقيقَةٌ في الحال مجازٌ في الماضي والاستقبال. بل كلٌّ من اسم الفاعل واسم المفعول كالفعل المضارع في الدلالة على الحال والاستقبال والتجدُّد.

وصَفَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ نارَ جهنَّم يَوْمَ الدِّين، بأنَّهَا تَطَّلِعُ على الأَفْئِدَة، فما المرادُ بهٰذِهِ العبارة؟

اطَّلَعَ علَىٰ الشيْء: أي: أشْرَفَ عليه ناظراً إلَيْهِ.

يمكن أنْ نَفْهَمَ من هذا الوصف أنّ مَسَّ عذاب النَّار لا يقْتَصِرُ على الْجُلُودِ، الّتي كُلَّما نَضِجَتْ خلَقَ اللّه للْمُعَذَّبينَ بها جلوداً غَيْرَها، ليَتَجدَّدَ إحْسَاسُهُمْ بعذابِ الْحَرِيقِ، وإنَّمَا ينفُذُ حرُّها إلىٰ أفئدَتِهم أيضاً كَمَا يَنفُذُ بَصَرُ الرَّائي إلَىٰ الشَّيْءِ الّذي يطَّلِعُ علَيْه.

شُبِّهَ وصُولُ حرِّ النَّارِ إلَىٰ الشيء، بوُصُولِ نَظَرِ المطَّلِع على الشَّيءِ، فاسْتُعِيرَ فِعْلُ ﴿تَطَّلِعُ﴾ للدّلالة على وصُول حرِّ النَّار إلى أفْئدَةِ المعذَّبين فيها بشَكْلٍ مُتَجدِّدٍ، علىٰ مثل إدراكِ النَّظَر الّذي يُحِيطُ بالمنظور إليه.

وقد يكون المراد أنَّ النَار تَطَّلِعُ على الأفْئدَةِ الّتي هي محَلُّ النِّيَّاتِ والمقاصد، ومنَابعُ الكِبْرِ والْعُجْبِ والكُفرِ ورَغَبَاتِ الفُجُور، فَتُعْطِي من قُوَّةِ تَعْذِيبها وشِدَّتِه ما يُنَاسِبُ ما في الأفْئِدة ممّا يستحقّ العذابَ كمًّا وكيْفاً، وقد يَدُلُّ هذا على أنَّ ما كانَ في الأفئدة في الدّنيا من ذٰلِكَ يَبْقَىٰ فيها مسجَّلاً كما كان تماماً، وهو يشبه ما يُسَمَّىٰ بالصُّنْدُوق الأَسْوَد في الطَّائرات إذا تحطَّمَتْ، يُسَجِّلُ فيه ما جَرَىٰ فيها قبْلَ التَّحْطيم.

قول اللّه عزّ وجل:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ وفي القراءة المتوارة الأُخْرى «مُوصَدَة» وهُما وجْهان لنُطْق الكلمة في العربيّة.

وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلَّ «الْحُطَمَةَ» التي هِيَ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَة، بأنَّها علىٰ كُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ كافرٍ باللّه والْيَوم الآخِرِ مُؤْصَدَةٌ، أي: مغْلَقَةُ الأبوابِ، مقفلَةٌ، فلا يسْتَطِيعُونَ الخروجَ منها.

مُوصَدَةٌ: اسْم مفعُولٍ من فِعْل «أَوْصَدَ يُوصِدُ» تقولُ لُغَة: أوصَدْتُ الْبَابَ وأوصَدْتُ القِدْرَ، إذا أَطْبَقْتَه وأَغْلَقْتَه وأَقْفَلْتَه.

وأصَدَ البابَ يَأْصُدُهُ أصْداً وإصَاداً، أي: أغلقه، فَهُو مَوْصُودٌ، وأَوْصَدَهُ يُوصِدُه فالباب مُوصَدٌ.

وآصَدَ البابَ يُؤْصِدُه فهو مُؤْصَدٌ.

قولُ اللّه عزّ وجل:

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾﴾ وفي القراءة الأخرى المتواترة «عُمُدٍ» عُمُد: جَمْع عَمُود وعماد، وقال الفرّاء: «عَمَد وعُمُد» كلاهما جَمْعُ عَمُود. وقيل: عَمَدٌ اسْمُ جَمْع مفردُهُ عمود وعِمَاد. والمؤدَّى في المعنى واحد.

والعمود كلُّ ما يُحْمَل عليه من فوقه شَيْءٌ ثقيل، كالسَّقْفِ يُعْمَدُ بالأساطين المنصوبة.

ولكن ما المراد بقول اللّه تعالى: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾﴾؟

أقول:

● لو كان الْمُرَادَ أَنَّ أبوابَ الْحُطَمة الّتي هي نار اللّه الموقدة موصَدَةٌ مقفلة في عَمَدٍ مُمَدَّدَة، لكان الأولى في التعبير أن يقال: بِعَمَدٍ مُمَدَّدة، لأنّ حرف الباء هو الأصْلُ في الدّلالة على معنى السببيّة.

يُضَاف إلى هذا أنّه لا حاجَةَ يوْمَ الدِّين لأنْ يكونَ إيصَادُ أبواب دار العذاب وإقفالُها بالأعْمِدَةِ الممدّدة، فقد اكتَشَفْنا من ظواهر آيات اللّه في كوْنه في الحياة الدُّنيا أنّ إغلاق الأبواب وإقْفَالَها له وسائل أخْفَىٰ وأدَقُّ من الأعْمِدَة الّتي كانت إحْدَىٰ وسائل الحضارات الإنسانيّةِ غَيْر المتَقَدِّمَةِ لإيصاد الأبواب وتَثْبيت إقفالها.

● والأَرْجَحُ فيما ظهر لي ـ واللّهُ أعلم ـ أنْ تكون عبارة: ﴿فِى عَمَدٍ

مُّمَدَّدَةِۭ (٩)﴾ وَصْفاً للحُطَمَة، فهي نَارُ اللّه الموقَدَةُ، وهي الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الأَفْئِدَة، وهي على المعذّبين فِيها مُوصَدَة، وَهِيَ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ، وقد تكونُ هٰذِهِ الْعَمَدُ الْمُمَدَّدَة عَمَداً نارِيَّةً مُحِيطَةً بها، تَنشُرُ النَّارَ واللَّهَبَ في وِذْيانِها، بِحَسَب منازِلِ أَهْلِهَا الْمُعَذَّبِينَ فيها، وَعَلَىٰ مقاديرِ ما يَسْتَحِقُّونَ من عذَابٍ في دركاتِهِمْ منها.

على أنَّ هذه القضيَّة من قضايا الغيب الّتي قضاها اللّهُ وَقَدَّرَها، وأَعَدَّها لِيَوْمِ الدّين، فاللّهُ أعْلَمُ بحَقِيقَتِها، ولا نَسْتَطِيعُ أَنْ نجْزِم بِصُورَةٍ مُحَدَّدَة.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة الْهُمَزَة والحمد للّه على توفيقه وفتحه.

* * *

سُورَةُ المرسلات

٧٧ مصحف ٣٣ نزول

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة المرسلات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ
﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ
أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ
ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾

---

٦ ـ ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿عُذْراً﴾ بإسْكَان الذال.

● وقَرَأ رَوْح: [عُذُراً] بضَمِّ الذّال. وهو وجه عربيّ لنطق الكلمة باتباع حركة الذال لحركة ما قبلها.

● وقرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلَف: [نُذْراً] بإسكان الذال.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿نُذُراً﴾ بضمّ الذال، والضمّ وجه عربيٌ لنُطْقِ الكلمة.

١١ ـ ● قرأ أبو عَمْرو: [وُقِّتَتْ].

● وقَرَأ أبو جعفر: [وُقِتَتْ].

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أُقِّتَتْ﴾. والمعنى فيها واحد.

إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟
إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ
﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ
لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ
جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ

---

٢٣ ـ ● قرأ نافعٌ، والكسائيّ، وأبو جعفر: **[فَقَدَّرْنَا]** بتَشديد الدَّال.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: **﴿فَقَدَرْنَا﴾** بتخفيف الدال.

التشديد يدلُّ على العنايَةِ بتحديد المقادير. والتخفيف يدل علىٰ التنفيذ بالْقُدْرة. فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد.

٣٠ ـ ● قرأ رُويس: **[انطَلَقُوا]** بفتح اللاَّم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: **﴿انطَلِقُوا﴾** بكَسْر اللاّم. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد. إذْ يُؤْمَرُ المكذّبون بالانطلاق، إلى دَرَكَاتِهِم في جهنم، وهذا ما دل عليه الفعل بكسر اللام. فيتمُّ انطلاقهم وهذا ما دلَّ عليه الفعل بفتح اللاَّم.

٣٣ ـ ● قرأ حفصٌ، وحمزة، والكِسائي وخَلَف: **[جِمَالَةٌ]** بكَسْرِ الجيم، أي: طائفة مجتمعة من الجمال.

● وقرأ رُويس: **[جُمَالاَتٌ]** جمع جُمَالَةٌ وهو الحبل العظيم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[جِمَالاَتٌ]** أي: قُطعَانٌ من الجمال، إذْ هو جَمْعُ جَمْع.

٣٩ ـ ● قَرأ يعقوب: **[فَكِيدُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم في الوقف والوصْل.

● وقرأ جمهور القرّاء العشرة: **﴿فَكِيدُونِ﴾** بحذْف ياء المتكلم إيجازاً.

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ
مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟
وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ
حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

* * *

---

٤١ ـ ● قرأ ابن كثير، وابنُ ذَكْوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونٍ] بكسر العَين.

● وقَرَأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضمّ العين. وهما وجْهان لنطق الكلمة في اللّسان العربي.

٤٣ ـ ● قرأ حَمْزَة [هَنِيّاً] وقرأ باقي القُرّاء العشرة: ﴿هَنِيئاً﴾.

[هَنِيّاً] وجهٌ من وَجهَيْ نُطقِ الكلمة في العربية.

(٢)

مما ورَد بشأن سورة المرسلات

(١) روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعودٍ قال:

«بَيْنَما نَحْنُ مع النبيّ ﷺ في غَارٍ بمِنًى، إذْ نَزَلَتْ سورةِ المرسلات عُرْفاً، فإنَّهُ لَيَتْلُوها، وإِنِّي لأَتَلَقَّاها مِنْ فيه، وإنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بها، إذْ وَثَبَتْ عَلَيْنا حَيَّةٌ. فقال النبي ﷺ: اقْتُلُوها، فابْتَدَرْنَاهُ فَذَهَبَتْ، فقال النبيّ ﷺ: وُقِيَتْ شَرَّكُم كَمَا وُقِيتُم شَرَّهَا».

(٢) وروى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن ابنِ عبّاسٍ أنَّ أُمَّ الْفَضلِ

سَمِعَتْهُ وهُوَ يَقْرأُ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ لَقَدْ ذَكَّرْتَني بِقِرَاءَتِكَ هٰذِهِ السُّورَة، إِنَّها آخِرُ ما سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرأُ بِهَا في الْمَغْرِب».

(٣) وروىٰ أبو داود عن ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قال:

«كَانَ النبيُّ ﷺ يَقْرأُ النَّظَائِرَ السُّورَتَيْن في رَكْعَةٍ، الرَّحْمٰنِ وَالنَّجم فِي رَكْعَة، واقْتَرَبَتْ والْحَاقَّة في ركْعَةٍ، ثُمَّ قال: وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ والْمُرْسَلاتُ فِي رَكْعَة».

(٤) ورُوِي عن ابْنِ عبَّاس أنّ سورة «المرسلات» نزلَتْ في مكة إلاَّ قَوْلَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فهي مَدَنِيَّة.

* * *

(٣)

موضوع السّورة

يدور موضوع السورة حول معالجة المكذبين بيوم الدين إقناعاً فكريّاً، واستثارة نفسيّةً ووجدانيّةً من مِحْوَرَي الخوف والطمع في عُمْقِ النفس الإنسانيّة، وإنذاراً مُتكرّراً عشر مرّات بعبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ في مفاصل من السّورة، بِفَنِّيّة تَهُزُّ أعْمقَ المشاعر الغافلة الغارقة في نَوْمٍ عَمِيقٍ.

بدأت السورة بالْقَسَم ببعض آيات اللَّهِ في كَوْنِه على أنَّ يَوْم الدّين الموعودَ به لواقع حتماً لا محالة.

وأُتْبع الْقَسَمُ بعَرْض طائِفَةٍ من الأحداث المستقبليّة التي جعلها اللّه عزّ وجلَّ في تَسَلْسُل أحْداثِ الكَوْنِ مُقَدِّماتٍ وعَلاَمَاتٍ وأَمَارَاتٍ وَتَوْطئاتٍ لساعَةِ إِنْهَاء ظُروف الحياة الدُّنيا، وأنْظِمَتِها، ثم لسَاعَةِ بَدْءِ ظُرُوفِ الحياة الأخرى، وبعْثِ الخلائِقِ إليها، وقيامهم لِمُوَاجَهَةِ يَوْمِ الدّين، يوم الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء بالْعَدْلِ أو بالفضل.

وأُتبِعَ هذا العَرْضُ بتَوْجيه طائفةٍ من الأدلَّة على قانون الجزاء الرَّبّاني، في خُطَّةِ الخالِقِ الرَّبِّ جلّ جلالُهُ وَعظُمَ سلطانُه، وعَلَىٰ قُدْرَتِهِ على إعادة الموتَىٰ إلى الحياة بَعْدَ فَنَاءِ أجسادِهِم وتفَرُّقِهَا في تُرَاب الأرْض.

وأُتبِعَتْ هٰذِه الأدلّة بعَرْضِ مَشهَدٍ رَهيبٍ من مشاهِدِ يوم الدِّين، منتزَعٍ ممَّا سوفَ يكُونُ للكافِرينَ المكذّبين بِيَوْمِ الدين، وأُتبع هذا المشهد بعرض مَشْهَدٍ آخر مُنتزَعٍ ممّا سَوْفَ يكُونُ من نعيم للمتّقين ولِلْمُحْسِنين، ويُفْهَمُ من ذَلِكَ لُزُوماً أنّه سَوْفَ يكونُ أيْضاً للأبْرَار الَّذِين هم أصحاب المرتبة الوسْطَىٰ فَوْقَ مَرْتبة المتقين، وتحت مرتبة المحْسِنين.

ثُمَّ جاءَ في السورة تَوْجيهُ خطابٍ تَهْدِيدِيّ من الرَّبِّ جلّ جلالُهُ وعَظُم سلطانُه، للمكَذّبين بيوم الدِّين، يخاطبهم فيه بقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾.

أي: وأنْتُم بسَبَب كوْنِكُمْ مُجْرِمين تَسْتَحِقُّونَ الوعيد الشَّدِيدَ بالمقالة الَّتي جاء تكريرها في السُّورَة عشْرَ مرّاتٍ، بفنّيّةٍ بارِعَةٍ عَقِبَ كُلِّ مَفْصِلٍ مِن مَفَاصِلِ مَوْضُوعِها: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾.

وأخيراً جاء في السُّورة بيانُ أنّ من مظاهر كِبْرِ المكذّبين بِيَومِ الدّين على رَبِّهم، واسْتِنْكَافِهِمْ عَنْ عبادَتِه، في سلوكهم الدائم، أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لهم ارْكَعُوا لِرَبِّكُمْ لاَ يَرْكَعُونَ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ سَجَدَ لَهُ في الوجود كُلُّ خاضِعٍ لسُلْطَانه بالجبر، وَسَجَدَ لَهُ مَنْ في السَّمَاواتِ، وسَجَدَ لَهُ المؤمِنُونَ به في الأرض بإراداتِهِمْ طَوْعاً.

ولمَّا اشتملَتْ سُورة المرسلات عَلىٰ كلّ هٰذِهِ العناصر التي تخاطب العقول بالدّلائل والبراهين والآيَات، وتُلامِسُ مِحْوَرَي الْخَوْفِ والطَّمَع في عُمْقِ النفس الإنسانيّة، وَتَعْرِضُ طائفةً من المشاهد المنتزَعَة من الواقِع الذي

سوْفَ يَحْدُثُ يَوْمَ الدّين، تَأْكيداً لأنَّهُ سَوْفَ يَقَعُ حتْماً، ناسَبَ أَنْ تُخْتَمَ السُّورَةُ بقول اللّهِ عزّ وجلّ في آخرها: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾.

* * *

(٤)

دروس السورة

تشتمل سورة «المرسلات» على سبعة دُروس:

الدرس الأوّل:

درس اشتمل على الْقَسَم ببعض آيات اللّه في كونه، واخْتِير منها آيَةُ الرِّياحِ على اختلاف صفاتها وخصائصها وآثارها، أمّا الْمُقْسَمُ عليه فَهُو الْمَوْعُودُ بِه يَوْمَ الدِّين، بعْدَ إِنْهاء ظُرُوف الحياة الدنيا، وبَدْءِ ظروف الحياة الأخرى، بقيامة الأموات، وبعْثِهِم للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وهو الآيات من (١ ـ ٧).

الدرس الثاني:

درس تضمَّن عَرْضَ طائفةٍ من الأَحْدَاثِ المستقبليَّةِ الّتي جَعَلَها اللّه عزّ وجلَّ في تَسَلْسُل أَحداثِ الكَوْنِ، مُقَدمات وعلامات لسَاعة إنْهاء ظروف الحياة الدنيا، فاشْتَمل على بيانِ طَمْسِ النُّجُوم، وفَرْجِ السّماء، ونَسْف الجبال، وتأقيت الرُّسل.

وهو الآيات من (٨ ـ ١٥).

الدرس الثالث:

درسٌ تضَمَّنَ الاستدلاَلَ على قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، والْقُدْرَةِ على الْبَعْثِ، بعَرْضِ ظَواهِرَ كونيّةٍ مَعْلُومَةٍ من أَحْدَاثِ تاريخ الأُمَمِ الغَابِرَةِ ذَاتِ

الآثار الباقية، وظواهر كونيَّةٍ مَشْهُودَةٍ، في مجاري تصاريف اللَّهِ عزّ وجلَّ في كونه، فمن الظواهر الكونيّة التاريخيَّةِ الغابرة إهْلاَكُ اللَّهِ المكَذِّبين المجرمين الأوّلين، وإهلاكه أمثالَهُمْ ما تَوالَتِ الْقُرون. ومِنَ الظواهر الكونيّة المشهودة، أطوار خَلْقِ الإنسان، وتَصاريفُ اللّه عزّ وجَلَّ في الأرض أَحْيَاءً وأمْوَاتاً، وإقامة الجبال الراسيات الشامخات، وإنعامُ اللَّه على عباده بالماء العذب الفرات.

وهو الآيات من (١٦ ـ ٢٨).

الدرس الرابع:

درسٌ تضمَّنَ عَرْضَ مَشْهَدٍ مُقْتَطعٍ ممَّا سَوفَ يَكُونُ في يَوْمِ الجزاء للمكذبين بيوم الدّين الكَفَرَةِ المجرمين، ومشهد آخر مقتطع ممّا سوف يكون لأهل دار النعيم متقين، وأبرارٍ، ومُحْسِنين.

وهو الآيات من (٢٩ ـ ٤٥).

الدرس الخامس:

درسٌ اشتمل على خطاب من الرَّبّ جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه، موجّه للكافرين المكذّبين، فيه وعِيدٌ بعذابٍ شديدٍ يومَ الدّين، بَعْدَ رِحْلَةِ حَيَاةٍ في الدُّنيا يُمَكنُّونَ فيها من أنْ يأكُلُوا ويَتَمَتَّعُوا بما فيها من أنواعِ متاعٍ قليلٍ زَائل، وفيه مُوَاجَهَةٌ لَهُمْ بأَنَّهُمْ مُجْرِمون، فهم داخِلُون في وعيد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وهو الآيتان: (٤٦ ـ ٤٧).

الدرس السادس:

درسٌ تَضَمَّن إشارةً إلى ما في نُفُوس المكذبين المجرمين من كِبْرٍ يَجْعَلُهُمْ لا يَرْكَعُونَ لربّهِمْ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَسْجُدُوا، وهذا أَحَدُ البواعِثِ الكُبْرَىٰ على الكُفر.

وهو الآيتان: (٤٨ ـ ٤٩).

الدرس السابع:

دَرْسٌ من آيَةٍ واحدة يختم اللَّهُ عزّ وجلّ بها السُّورَة، مبيّناً فيها، أنَّهُ لا تُوجَدُ وسيلة بيانيَّةٌ قوليَّةٌ تعالجُ ما في أفكار ونفوس الكفرة المجرمين المكذبين معالجةً أكْثَرَ ممَّا اشتملت عليه هذه السورة، وما نَزَلَ قبلها في نجوم التنزيل، فإذا لم يُؤْمِنُوا بهٰذا البيان القوليّ الكافي لمَنْ لديه استعداد ما للاستجابة للحق: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾؟؟

أي: لا يُوجد حديث بعْدَ هذا الحديث يجعل هؤلاء يؤمنون إذا لم يؤمِنُوا بهذا الحديث.

(٥)

القسَمُ في سوابق نجوم التنزيل لتأكيد قُدوم يوم الدين

جاء في سوابق نجوم التنزيل تأكيدُ قُدُوم يوم الدين، يوم الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، بالْقَسَمِ الرَّبّاني بآيات اللّه في كونه الّتي هي ظواهر لقدرته وحكمته وعلمه المحيط بكلّ شيء، وظواهر لرُبُوبيَّتِهِ في كونه الّتي لا يُشَارِكه فيها أحَدٌ، ثماني مرَّاتٍ في ثمانية نصوص، وما جاء في سورة (المرسلات) هو الْقَسَم التاسع:

النصّ الأول:

ما جاء في سورة (اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول) فقد أَقسم اللّه عزّ وجل فيها باللّيل إذا يغشى، وبالنهار إذَا تَجلّىٰ، وبخَلْقِه الذكر والأُنثَىٰ، فقال تعالى فيها:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ...﴾ وحتى الآية (١١).

النصّ الثاني:

ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) فقَدْ أقْسَم اللّه عزّ وجلّ فيها بأزمِنَةٍ جرَتْ فيها أحداث إهلاكه عاداً وثمود وفرعون وجنوده، باعتبار ما جرى فيها من آيات اللّهِ الجزائية في كونه، فقال تعالى فيها:

﴿وَٱلْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ③ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ ...﴾ وحتى الآية (١٤).

النصّ الثالث:

ما جاء في سورة (العصر/ ١٠٣ مصحف/ ١٣ نزول) فقد أقْسَم اللّهُ عزَّ وجلّ فيها بالزَّمَنِ (العصر) الذي هو آيَةٌ من آياتِ اللّهِ في كونه، وهي آية مشهودة، على أنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ دائم من رأس ماله في حياته، إلاَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر، ولا يكون في خُسْرٍ ما لم يكُنْ يوْمُ الدِّين أحَدَ عَناصر خُطَّةِ الرَّبّ جلّ جلالُهُ في برنامج التكوين، وهو ما تَقْضِي به حِكْمَتُه سُبْحانه.

النصّ الرابع:

ما جاء في سورة (العاديات/ ١٠٠ مصحف/ ١٤ نزول) فقد أقسم اللّه عزّ وجلّ فيها بالخيل، وهي إحدى آياته المشهودة في خلقه، على أنَّ الإنسان لكنودٌ جَحُودٌ، غيْرُ عابئٍ بما في خُطَّةِ اللَّه من أحداث يوم الدين، إذا بُعْثِرَ مَا في القبور، وحُصِّلَ ما في الصدور.

النصّ الخامس:

ما جاء في سورة (الشّمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) فقد أقسم اللّه عزّ وجلّ فيها بطائفة من آيَاته في كَوْنه على أنَّ الجزاء الرَّبَّانيَّ واقِعٌ لا محالَة، وهذا إنّما يكون يوم الدّين، فقال تعالى فيها:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا (١) وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا (٢) وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا (٣) وَٱلَّيۡلِ إِذَا
يَغۡشَىٰهَا (٤) وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا (٥) وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا (٦) وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا (٧)
فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا (٨) قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (٩) وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (١٠)﴾.

الفلاح والخيبة إنَّما يكونانِ يَوْم الدّين.

النصّ السادس:

ما جاء في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) فَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيها بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوج، وهي إحدى آيات اللَّهِ المشهودة في كونه، وأقْسَمَ بالقرآن الشّاهد وبالرَّسُول المشهود لَه، وأَقْسَمَ ضِمْنَ ذَلِكَ بالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، إشَارَةً إلَىٰ أَنَّهُ هو المقْصُودُ بتَأْكِيدِ وُقُوعِهِ بالْقَسَم ببَعْضِ آياتِهِ المشهُودة، مع بَيَان أنّه ممَّا يُقْسَمُ به إذْ هُوَ ممَّا يَدُلُّ عليه الدليل العقلي المستند إلى حكمة اللَّهِ السَّامِيَة، وأَنَّهُ لا يمكن أنْ يَخْلُق النّاسَ عبثاً.

النصّ السابع:

ما جاء في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول) فقد أقْسَمَ اللّه عزّ وجلّ فيها بمهابط الوحي، لما في الرسالات الرّبّانيّة من آياتِ إعجاز عظيمة، وهي آيات مشهودة الآثار، في عظمة الدين الّذي يمثّلُهُ الإسلام، والذي بعَثَ اللَّهُ به خاتم أنبيائه ورُسُلِه محمد بن عبد اللَّهِ، عليه أفضل الصلاة وأَتَمُّ التَّسْلِيم.

النصّ الثامن:

ما جاء في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فقد جاء فيها الْقَسَمُ الْمَنْفِيُّ بِيَوْمِ القيامة وبالنَّفْسِ اللَّوَّامة على أنّ يَوْم الدين واقع لا محالة، وقد ظهر لنا أنَّ الْقَسَمَ المنفِيَّ قَدْ رُوعي فيه اقتضاءانِ أَحَدُهُما يقتضي الْقَسَم بالقيامة وبالنفس اللّوّامة، والآخر يقتضي عَدَم الْقَسَم بهما،

لأنَّ مَنْ يُوَجَّهُ له الْقَسَمُ لا يَسْتَفِيدُ من الْقَسَمِ تأكيداً، إذْ ما يُقْسَمُ لَهُ به هو ما يُنْكِرُه.

وقد سبَقَ شرح هذا لدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (القيامة).

النصّ التاسع:

ما جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي سنشرع إن شاء الله بتدبُّر آياتها، فقد جاء فيها الْقَسَمُ بآيَةِ الرِّياح إحْدَىٰ آيات اللّٰه العظمىٰ في كَوْنه، على أنَّ يَوْمَ الدِّينِ واقِعٌ مُسْتَقْبلاً لا محالة.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة

الآيات من (١ ـ ٧)

قال اللّٰه عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ⑦﴾.

قُرِئَ: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥﴾. وقُرِئَ [عُذْراً أَوْ نُذْراً] كما سبق بيانه في حاشية نصِّ السُّورة، والقراءتان وجهان لنُطْقِ الكلمتين عند العرب.

تمهيد:

هٰذا الدّرس اشتمل على قَسَم بآيَةٍ مِنْ آياتِ اللّٰهِ في كونه هِيَ آيَة الرِّياح ذاتِ القوّة الكونيّةِ الْعُظمىٰ، وتَصْرِيفها بالنَّفْعِ العظيم لسُكَّانِ الأرض، وبالعقاب والعذاب الأليم للمجرمين من الناس، أو بالتخويف والإِنْذار.

أمّا المقْسَمُ عليه لتأكيد وقوعه، فهو ما تضمَّنَهُ قول اللّٰهِ عزّ وجل:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾:

وما وَعَدَنا اللّٰهُ عزّ وجلّ إيَّاهُ هو القيامة والبعث للحياة الأخرى، والحسابُ وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء، بالنّعيم المقيم في جنَّةِ الخلْد بفضل اللّه وواسع رحمته، أو بالعذاب الأليم لمستحقيه في دار العذاب النار، الّتي أعدّها اللّهُ بحكمتِه للكافِرين والعاصين.

التدبُّر:

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ الواو هي واو الْقَسَم [الْمُرْسَلات] وصْفٌ لمَوْصُوف محذوفٍ قامَ مقامه، وأظْهَرُ أقوال أهل التأويل فيما أرىٰ أنّ الموصُوفَ المحذوف هنا هي الرّياح، فقد تتبَّعْتُ باستقراء تامٍّ ما جاء في القرآن عن الرِّيَاحِ فرأيْتُها خَمْسةً وعشرين نَصّاً، وتأمَّلْتُ في صفاتها فظهر لي أنَّ اللَّهَ عزّ وجل يُقْسِمُ بها في الآيات السِّتّ الّتي افتتح بها سورة (المرسلات) فذكر فيها أربَع صِفاتٍ للرّياح، دالأتٍ علىٰ أنّ الرّياحَ من آياتِ اللَّهِ الْعُظْمَىٰ في كَوْنِهِ، وأنَّ لهَا وظَائفَ سَببيَّةٍ في الكَوْنِ تُؤَدِّيها، بَعْضُهَا من النِّعَم، وبَعْضُهَا من المصائب، وبَعْضُها يأتي بِالثّواب للمتقين والأبرار والمحسنين، وبَعْضُهَا يأتي بالعقاب للعصاة والمجرمين والكَفَرَةِ الْفُجّار.

وهي في كُلّ ذَلِكَ تَكْشِفُ عن حكمة اللَّهِ في مقاديره، فإمَّا أَنْ تَدُلَّ على الْعُذْرِ في الابتلاء أو الجزاء، وإمَّا أَنْ تكونَ مُنْذِرَةً لمستحقِّي الْعِقَابِ المعجّلِ بأنَّ اللَّهَ لَهُمْ بالْمِرْصاد، ومن وسائله الظاهِرةِ لإهلاك المجْرِمين الرّياح.

والرّياحُ أَصْنافٌ مُتَعَدِّدَة، ولكلّ صِنْفٍ مِنْهَا صِفَاتٌ وخَصَائِصُ ووظائف في مُجْرَيَاتِ أحداث الكون.

● فمنها الْمُرسَلاَتُ تِباعاً بيُسْرٍ وسُهُولَةٍ إرْسالاً عُرْفاً.

● ومنها الْعَاصِفَاتُ اللّواتي تَعْصِفُ عَصْفاً شديداً فَتَحْمِلُ ما على وجه الأَرْضِ من عَصْفِ (وهو النَّبَاتُ اليابس).

- ومنها النَّاشِراتُ اللاتي تَنْشُر بخار الماء، وتَنْشُر نويات اللِّقاح وغُبارَ الطَّلْع، وبزور النَّباتات، والروائح، والغازات، وغير ذلك.

- ومِنْها الفارقات اللاّتي تُفَرّقُ بينَ الأشياء الّتي تَحْمِلُها عَقِبَ نَشْرِها، فتوزّعُها بحَسَب مقتضيَاتِ حكمة اللّه عزّ وجلّ.

فمعنى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ①﴾ أُقْسِمُ بنَوْع الرّيَاحِ الْمُرْسَلاَتِ تِبَاعًا بِيُسْرِ وسُهُولَةٍ إِرْسَالاً عُرْفاً، أي: معروفا من أمْرِها غير منكر، إذْ تكون مُبَشِّرات برحمة الله، ولِهذا فهي رياحٌ يُسْتَأْنَسُ بها إذَا قَدِمَتْ، ويُسْتَبْشَرُ بالْخَيْرِ الذي قد تأتي به، فقد تكونُ مُبَشِّرَاتٍ بمطَرٍ يُحْيِي الأرْضَ الظّمأىٰ بعْدَ مَوْتها. وقَدْ تكونُ أَنْسَاماً مُنْعِشَةً طيّبَةً، وقد تَحْمِلُ أنواعاً من اللّقاح للزّروع والثّمار، إلى غير ذلِكَ من آثار رحمة اللّه جلَّ جلاله.

هذه الرِّيَاحُ تَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ الرَّبُّ بها، لأَنّها إحدى آياتِه في كونه، وإِحْدَى آثارِ رحمَتِهِ بعبادِه.

الإرسال: هُو التوجيه لأداء مَقْصُودٍ مَا بتُؤَدَةٍ وتَرَفُّقٍ وأَنَاة، ولتحقيق أمْرٍ حكيم، ففي الإرسال معنى الحركة اللّيّنةِ المتتابعة.

والْمُرْسَلُ: هو الذي يقوم بما وُجّه له بأناةٍ وحِكْمَةٍ، ويُؤَدّي وظيفته بتتابع، أخذاً من قول العرب: جاءت الإبلُ رَسَلاً، أي: متتابعة، قطيعاً بَعْدَ قطيع. **المرسَلاَت:** جمع «مُرْسَلَةٍ» مؤنث «مُرْسل».

عُرْفاً: الْعُرْفُ المروف ضدّ المنكر، وما تعارف الناس عليه في عاداتهم ومعاملاتهم. والجودُ وبَذْلُ النّعْمة. ويقال: جاء الْقَوْمُ عُرْفاً، أي: بعضهم وَرَاءَ بَعْض.

وعُرْفُ الْفَرَس: شَعَرُ عُنقه، وهو يكون مصفوفاً بالتّتابع.

والمناسب من هٰذهِ المعاني هنا: معنى الجود والإنعام، ومعنىٰ التتابع.

أي: والرِّياحِ الْمُرْسَلاَتِ بتَتَابُعِ إرْسالَ إنْعَامٍ ورحمة.

وهي الرِّياح المبشِّراتُ برحمةِ اللّه لعبادهِ، بمطَرٍ وغَيْرِه من فيوض عطاءاته الّتي لا يَسْتَطِيع الْعِبَادُ إحْصَاءَها، وتأتي بالنفع الرَّبَّاني، والبشريات الطيّبات.

ولفظ «عُرْفاً» منصوبٌ على أنه حَال، أي: والمرسلات متتابعةً.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾: أي: فأُقسم بالرّياح العاصفات عَصْفاً شديداً.

الْعَاصِفات: هيَ التي تَحْمِلُ ما على وجْهِ الأرض من عَصْفٍ لشِدَّتها.

يقال لغةً: عصَفَتِ الرِّيحُ تَعْصِفُ عَصْفاً، أي: اشْتَدَّ هبُوبُها، فهي عاصِفٌ، وعاصِفَة، تذكّر وتُؤَنث.

الْعَصْفُ: النَّبَاتُ الْيَابس. وحُطَام التِّبنِ وَدُقَاقُه. وَورَقُ الزَّرْع. والْوَرَقُ الذي يَتَفَتَّحُ عن الثَّمر.

هذه الرياح العاصفات تَحْمِلُ ما على وجْهِ الأرض من عَصْفٍ، فَتَدُور به، وتتنقَّلُ لتُؤَدِّي وَظائف مختلفة، فمنها ما يَنْفَعُ الناس، ومنها ما يكون لامتحانهم، ومنها ما يكُون لتربيتهم، ومنها ما يكون لجزائِهِم وعقابهم.

والعاصفاتُ الّتي تأتي بالعذاب والهلاك، تكون في العادة والسُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ المتَّبَعَةِ عَقِبَ الْمُرْسَلات.

عصْفاً: مَصْدَرٌ لتأكيد الحدث الذي دلَّ عليه اسم الفاعل: «العاصفات».

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ أي: وأُقسِمُ بنوع الرِّياح النَّاشراتِ.

النَّشْرُ: الْبَسْطُ والْمَدُّ وتوسِيعُ وُجودِ الشَّيْءِ أو أَجْزَائِه في أماكن متعَدِّدَةٍ بحسَبِ قُوَّةِ النَّشر والمدَى الَّذِي يصِلُ إليه.

والرّياح الناشرات: هي الّتي تَنشُر بخار الماء وتُكوّن منه السُّحَب، وتَنشُرُ نَويَاتِ اللِّقاح وغُبارَ الطَّلْع فيكُونُ بنَشرِها تَلقيحُ الثمَرات الّتي يتطَلَّبُ نُضجُهَا للانتفاع بها لِقاحاً، وتَنشُرُ بُزُور النباتات لتحقيق منَافع للأحياء في مواضِعَ مُخْتَلِفة من الأرض، وتَنشُر الرَّوائح، وتنشُر الغازات.

وبأدائها هذه الوظيفة الّتِي جعلها اللّه لها تجتمع بحكمة اللّهِ متباعدات فيحْصُل باجتماعها خَيْرٌ للعِباد، وتَتَفَرّقُ بحكْمَةِ اللّهِ مُجْتَمِعَاتٌ، فيَحْصُل بتَفَرُّقِها خَيْرٌ للعباد، ولولا نَشْرُ الرِّياح بقَضَاءِ اللّهِ وقَدَرِهِ لقَتَلَتْ بَعْضُ الرَّوائِحِ، والغازاتُ الضّارّات السّامّاتُ الأَحْيَاءَ الْمَوْجُودِين في أمكِنَةِ تَجمُّعِهَا.

نَشراً: مفعول مطلق لتأكيد الحدث الذي دلّ عليه اسم الفاعل: «الناشرات» وللدلالة على قيمة وظيفتها.

● قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ٤﴾ أي: فَأُقْسِمُ بالرِّياح الْفَارِقاتِ بين الأشياء الّتي تَحمِلُها عَقِبَ نَشرِها، فَتُوزِّعُها بحَسَبِ مُقتَضَيَاتِ حِكْمَةِ الرَّبِّ مُوَجِّهِهَا ومُسَيِّرِها.

يُقَالُ لغة: فَرَقَ بَيْنَ الشيئَيْن يَفرُقُ فَرْقاً وفُرْقَاناً، أي: فَصَل ومَيَّزَ أَحَدَهُما من الآخر. وفَرَقَ الشَّيْءَ، أَيْ: قَسَمَه.

فالرّياحُ الْفَارِقَات: هي التي تَفصِل الأشياء الّتي تَحمِلها، وتُمَيِّزُ كلَّ نوعٍ وصِنْفٍ منها، وتُوزّعُه بحسَبِ مقتضيات حِكْمَةِ الرَّب جلَّ جلاله. فهذا لِلِّقَاح، وهذا للاتّحاد مع غيره، وهذا لتَغْذية النَّبات، وهذا للزَّرْعِ، وهذا للرِّزْقِ، وهذا لرَمْيِهِ في الْقُمَامَاتِ، وهذا، وهذا، وهذا، إلى أُمُور كثيرة يتعذَّرُ عَلَيْنَا إحْصَاؤها.

ومن اللّقاح النويَات الّتي تَصِل إلى أمكنتها في السَّحَاب ليجتمع عليها البخار ويتكاثف وتكوّن قطرات ماء، وهذا من الفرق بعد النشر.

فَرْقاً: مصدَرٌ لتأكيد الحدَثِ الذي دلَّ عليه اسْمُ الفاعل «الفارقات» وللدلالة على قيمة وظيفتها.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾:

أي: فأُقْسِمُ بالرِّياح ذوات الصّفاتِ المختلفات، الَّتي تُلْقِي في أفكار ونُفُوسِ أولي العقول والألباب، ذِكْراً باللّه، وبصفاته الجليلَة، وبأسمائه الحسْنَىٰ.

ومن صفاته جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ، رَحْمَتُهُ بعباده، وفَضْلُهُ العظيم على مَنْ آمَنَ وأطاعَ، وَعَدْلُهُ الحكيم في عقاب منْ كَفَرَ وعصَىٰ.

فاللّهُ عزَّ وَجَلَّ بتَصَارِيفِ رحْمَتِهِ وعطاءاتِه، وما يُفيضُ على عباده من صنوف نِعَمِهِ عَلَيْهِم، يُذَكِّرُ بفَضْلِه.

وهو عزَّ وجَلَّ بتَصَارِيفِ عُقُوباتِه للمجرمينَ والْعُصَاةِ من عبادِه، يُذَكِّر بعَدْلِهِ.

وهو عزّ وجلّ ببيَاناتِهِ عن تصاريفه المتنوّعَةِ في الرِّيَاحِ، يُلْقِي الْعُذْرَ قَبْلَ تَنْفِيذِ الْعِقَاب فيمَنْ يسْتَحِقُّونه، ويَقْطَعُ بذلك اعتذارَاتهم، إذْ لا يكُونُ لهم عُذْرٌ بِهِ يَعْتَذِرُونَ.

وهو عزّ وجلّ بما أجرى من عقابٍ بالرّيح المدمِّرة للأُمَم المجْرِمَةِ السابقة، يُنْذِرُ بأنّه سَيُجْري نظير عقوباته السابقاتِ، على الْمُجْرِمين المعاصِرين لتنزيل القرآن، أوِ الّذين يَصِلُون إلى مِثْلِ ما وصَلَ إليه المجرمُون السّابقون الذين أهلكهم اللّهُ بالرّيح الْمُدَمِّرَة، ما توالَتِ القرون حتَّىٰ قيام السَّاعة.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾: أَلْقَىٰ الشَّيْءَ، أي: طَرَحه لمن يأخُذُه، ويَنْتَفِعُ به. وكُلُّ آيَاتِ اللَّه في كوْنه تُلْقِي علماً لمن يَتعَلَّم، وتُلْقِي ذِكْراً بَعْدَ ذلك لِمَنْ يتذَكَّر.

فإذا أَلْقَتْ آيَاتُ اللَّهِ الكونيَّة عِلْماً في أَوَّلِ ما يُشَاهِدُها المشاهِدُ من أُولي الألْبَابِ، الّذِين يتفَكَّرُونَ فيما تَدُلُّ عَلَيه، كانَ من وظائِفِها أَنْ تُلْقِي بَعْدَ ذلِكَ ذِكْراً في فِكْرِهِ وَنفْسِه، كُلَّمَا شَاهَدَهَا، أو سَمِعَ بخبر حُدُوثها.

وما دَامَتْ آيَاتُ اللَّهِ في كوْنِه دَائمةَ الظُّهُور أَوْ مُتكَرّرةَ الحدُوث، فَإنَّها تُلْقِي في نَفْسِ كلِّ مُدْرِكٍ لَهَا عِلْماً ابتداءً، وتُلْقِي بَعْدَ ذَلِكَ ذِكْراً دَوَاماً أو متكَرّراً.

﴿ذِكْرًا﴾: أي: تَذْكيراً. **الذِّكْرُ**: هو اسْتِحْضارُ معنَىٰ الشَّيْءِ في الذّاكِرَة. وهو ضدُّ النّسيان. **والذِّكْرُ**: استعادة الشَّيْءِ إلى الذاكرةِ حيناً فحيناً.

ويطْلَقُ الذِّكرُ على ترديد لفظِ الشَّيْء على اللّسان، لأنَّه من وسائل التَّذكُّرِ الفكرِيّ له. والتَّذكُّرُ الفكْريُّ يسْتَدْعي أيضاً تَرْدِيدَ اللَّفظ الدَّالّ علَيْه باللِّسَان.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾:

الْعُذْرُ: الحجَّةُ الّتي يُعْتَذَرُ بها، والجمْعُ «أعْذار»، وهو مصْدَرُ عذَرَهُ يَعْذِرُه، أي: قبل حجَّتَهُ فرفَعَ عنْهُ اللَّوْم.

ويأتي اسم مَصْدرِ أعْذَرَ إعْذَاراً، أي: أَبْدَىٰ عُذْراً، وفي المثل العربي: «أعْذَرَ مَنْ أَنْذَر» أي: قدّم الاعتذار الذي يُعْذَرُ به، وصارَ ذا عُذْرٍ، مَنْ قدَّم إنْذَارَهُ.

ومن الجلِيّ الواضح لكلّ ذي فكر سليم، أنَّ آياتِ اللّه في كوْنه، ومنها آيَةُ الرّياح، وآثارُ هذه الآيَةِ، الّتي تَظْهَرُ بنِعَمِ اللَّهِ على عباده، أو ابْتِلَاءَاتِه وتَرْبيَاتِهِ وَجزَاءَاتِه بالثواب أو بالعقاب، هي حُجَجٌ من اللَّهِ جلَّ

جلالُهُ وعظُمَ سُلطانُهُ، يُلْقِيهَا لِمَنْ يَتَفَكَّرُ فيها من عباده، فيَعْلَمُ ما تَدُلُّ عليه، ثُمَّ يَتَذَكَّرُ ذلِكَ حيناً فحيناً، أو كُلَّما شَهِدَها أو سَمِعَ بخبرها.

وبها يُقدّم اللَّهُ عزّ وجلّ العذر في أنّه أبان في آياته لعباده آيات صفاته، ومنها رحْمَتُه، وقُدْرتُه، وعِلْمُهُ المحيط بكلِّ شيءٍ، وحِكْمَتُه في تَصاريفه، بالْفَضْل أو بالْعَدْل.

فإذا أَنْزَل بهم عقابه بَعْدَ ذلِكَ على كُفْرِهم وعصيانهم، فَلاَ يَلُومُوا إلاَّ أنْفُسَهُمْ.

النُّذْرُ: اسْمُ مصْدَرِ: «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إِنْذَاراً». **الإِنْذَارُ**: هو التحذير والتَّخويف بمَكْرُوهٍ قادمٍ للتوقي مِنْهُ.

وجليٌّ أنَّ آيَة الرِّياح تَشْتَمل في بعض تَصَارِيفِها العاصِفَةِ، والْقَاصِفَةِ، والمدَمِّرَة، والْمُهلِكَة لِمُجْرِمِينَ مِنْ أهْل القرون الأولى، على إِنْذَارٍ من اللَّهِ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه، بعقابه وعذابه للمجرمين من عباده، ضِمْنَ سُنَنِهِ في كونِه، الّتي لاَ تَبْدِيلَ لَها، ولا تَعْدِيلَ فيها.

عُذْراً أو نُذْراً: بَدَلاَنِ من «ذِكْراً». أو منصوبان على الحال من «الْمُلْقِيات».

- قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ⑦﴾:

هذا هو الْمُقْسَمُ عليه، أي: إنّ الّذي توعَدُونَهُ من بعْثٍ، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، في الدار الآخِرة لواقِعٌ في المستقبل حتماً، وهو خَبَرٌ من اللَّه صَادِق.

وَاقع: اسْمُ فَاعل يَدُلُّ على الاستقبال كالفِعْلِ المضارع، أي: لَسَوْفَ يَقَعُ حتماً.

فَمَنْ يُجْرِي في كونه آيَةَ الرِّياح العظيمة الجليلة الخطيرَة، ويُعَاقِبُ بها

عِبَادَهُ الْمُجْرِمين، بالإهلاك الشامل في الحياة الدنيا، كَمَا فَعَلَ بمُجْرِمي القرون الأولى، لا يُمْكن عقلاً أنْ يخْبِرَ إلاّ بصِدْق.

فلا تَغُرُّوا أنفسكم أيها المكذِّبُون المجرِمُون بإمْهال اللَّه لَكُمْ، وَعَدَم تعْجِيلِ عقابه، فإنَّ من سنَّتِه أَنْ يُمْهِل، لكِنَّهُ لاَ يُهْمِلُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة

الآيات من (٨ ـ ١٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

- قرأ أبو عَمْرٍو: [وُقِّتَتْ] بالواو وبتشديد القاف.
- وقرأ أبو جَعْفر: [وُقِتَتْ] بالواو وبتخفيف القاف.
- وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرةِ: [أُقِّتَتْ] بالهمزة وبتشديد القاف.

وقَتَ، ووَقَّتَ الشَّيْءَ: جَعَلَ لَهُ وَقْتاً، فيُقَال: وَقَّتَ وَوَقَتَ الرَّجُلَ لِيُؤَدِّي الْعَمَلَ المطلوبَ منه، ويقال: وقَّتَ ووَقَتَ الْعَمَلَ لِيُؤَدِيَهُ المكلّفُ أَنْ يَعْمَله.

ويقال لغة أيضاً: أقَتَه وأَقَّتَه، وهو من التبادل بين الواو والهمزة في اللغة، يقول علماء العربية: أصل الهمزة هنا الواو، وأبْدِلَت الواو همزةً،

لأنَّ الواو إذا كانت أوّلَ حَرْفٍ وضُمَّتْ، جاء في اللُّغة إبدالُها همزة، ومنه: وجُوه وأَجُوه، ووُقّت وأُقِت.

والمعنَىٰ في الكُلّ يَرْجِعُ إلى تحديد الوقْتِ بمُبَالَغَةٍ ودِقَّةٍ بحسب دلالة الفعل المشَدَّد، وبِسَعَةٍ بحسب دَلالة الفعل المخفَّفِ، فيكُونُ بَيْنَ وُقِتَ، وَوُقِّتَ تكاملٌ في الدَّلاَلَةِ على المعنى المراد، فمِمَّا يُحَدَّدُ وقْتُهُ لا يُجْعَلُ له في الوقت سَعَةٌ، ومنه ما يُحَدَّدُ لَهُ وقْتٌ مُوسّع، كالتَّوسيع في الوقت لأداء الصلوات المفروضة.

تمهيد:

أبان اللَّه عزّ وجلّ في هذا الدرس من الأحداث المستقبليّة الّتي سوف تحدث قبْل يوم القيامة، يوم الدين، الذي تُبْعثُ فيه الخلائق للحساب وفَصْلِ القضاء وتحقِيق الجزاء، أربعة أحداثٍ عظْمَىٰ، ثلاثة منها كونِيَّة، والحدث الرابع منها تكليفيٌّ للرسُل من عباد الله.

الحدث الأوّل: طَمْسُ النجوم.

الحدث الثاني: فَرْجُ السَّمَاء، بإحداثِ انفتاحِ وانْشِقَاقِ ما فيها.

الحدث الثالث: نَسْفُ جبال الأرض.

الحدث الرابع: تأقِيتُ الرُّسل، وهو حدَثٌ تكليفِيٌّ يُوجَّه للرسُل من الملائكة، وقَدْ يكون من غيرهم أيضاً، للقيام بالوظائف الّتي يكلّفُونَ القيام بها يَوْمَ الدين، وهو يوم فَصْلِ أقضية اللّه بَيْنَ الذين كانوا ممتحنين مُكَلَّفين في رحلة الحياة الدنيا.

- قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾﴾:

﴿طُمِسَتۡ﴾: أي: ذَهَبَ ضوْؤُها ومُحِي، أو انْدَرَسَتْ وذهب كُلُّ أثر لها.

الطَّمْسُ في اللُّغَة: هو الدُّرُوسُ وذهابُ كلِّ أثرٍ للشَّيْء.

فإذا أرَدْنَا أن نَجْمَع جمعاً تكامليًا بين هذا النَّصّ الذي جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) وبين النَّصّ الآخر الذي جاء في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾.

ظهر لنا ما سبق بيانه لدى تدبُّر سورة (التكوير)، وهو: أنّ الانكدار يأتي بمعنىٰ الإسراع المتوسط في الْعَدْو، ويأتي بمعنى الانقضاض، ومنه انكدارُ الطير الكاسر إذْ ينقضُّ على فريسته، ويأتي بمعنىٰ الكُدْرَةِ، وهو اللَّوْنُ الضَّارِبُ إلى السَّواد والْغُبْرَة.

ومن جَمْعِ هذه المعاني مع ما دَلَّ عليه الطَّمْسُ، نُدْرِكُ أَنَّ النجوم في الأحداث المستقبليّة الّتي تكون قَبْلَ يَوْمِ الدين، تَمُرُّ في مراحل.

- فهي تنفَلِتُ من نظام جاذبياتها، وتخْرُج عن مداراتها وطُرُق سيرها.

- وبَعْدَ ذَلِكَ تُسْرِعُ كالطّائِرِ المنقضّ على فريسته، وتتناثر في الجهات على خلاف مواقعها ومسيراتها الّتي كانت لها في نظام ظروف الحياة الدنيا.

- وأثناء ذلِكَ تَخْفِتُ أضواؤها وتغشاها كُدْرَة.

- وبَعْدَ كُلّ ذَلِكَ تنطَمِسُ انطِمَاساً كُلّيّاً وتَنْدَرِسُ، ويذْهَبُ كُلُّ أثَرٍ لها، وقد يكون انطماسها بسَبَبِ انْفِجاراتٍ تَحْدُثُ فيها، فتتناثر شظايا في السّماء الواسعة، ويُمْحَىٰ كُلُّ أَثَرٍ لها يُرَىٰ بالأبْصار، وتصير السَّماءُ في ظُلْمَةٍ تَامَّة، لا أثَرَ فيها لأضواءِ أو أنوار النجوم.

وهذه الظاهرة قَدْ تَحْدُثُ أحْيَاناً لبَعْضِ النجوم في هذا النّظام الأوّل

الذي نحيا فيه الحياة الدُّنيا، دليلاً على ما سَوْفَ يَحْدُثُ لسائر النجوم، عند إنْهَاءِ برنامج الْيَوْم الأوّل، ثم البدْء ببرنامج اليَوْم الآخِر.

● قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾.

﴿فُرِجَتْ﴾: أي: فُصِمَ مَا فيها من الْتحام في نِظامها الشّامل، فَجُعِلَ فِيها مَنَافِذُ مُنفَرِجة، ويَكُونُ هٰذا بتغيير نظام التَّماسُك والترابُطِ بَيْنَ عناصِرها المُلْتَحمَةِ، وقد يكون هذا بفَكِّ الجاذبيات بيْنَ أجرامها.

تقول لُغةً: فَرَجَ فُلاَنٌ بين الشَّيْئَين المتلاصقَيْن يَفْرِجُ فَرْجاً، أي: أحْدَثَ بينهما شقّاً، ففَصَلَهُما به.

أمّا السَّماءُ في نِظَام هذا اليوم الأوَّل قَبْلَ إنْهائه، فهي مَبْنِيَّةٌ بناءً مُتَمَاسِكاً لا فُرُوجَ فيه ولاَ شُقُوق، وليْسَ معنىٰ هذا أَنّها مُتَلاصِقَةُ الأجْرام، فبِناءُ كُلِّ شيءٍ يكون بحَسَبِ نِظَامِهِ، إنَّ نظامَ بناء بيْتِ أهْلِ البادية من الخيام، غَيْرُ بناء أهل الحضر من لَبِنٍ وحِجَارة وطين، وغَيْرُ بناء الخليَّةِ في الجسم.

قال اللّهُ عزّ وجَلَّ يَصِفُ السَّمَاءَ القائمة في هذا الْيَوم الأوَّل بقوله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾.

أي: فهي الآن مبنيَّةٌ بنظام متماسِكٍ، لا شقُوقَ فيه يَحْدُثُ عَنها خَلَلٌ في تَمَاسُكِ أجْرَامِهَا، وقَدْ يكونُ هذا بالجاذبيّاتِ فيما بينها، واللّهُ أعلم.

ما جاء في القرآن المجيد عن الأحداث المستقبليّة في السّماء:

لقد جاء في القرآن المجيد بيانٌ لَمْحِيٌّ موجزٌ عن أحداث مستقبليَّةٍ تحدُثُ في السَّماء، أَستَعرِضُها بحسَبِ تَرْتيب نُزُول سُورها:

النصّ الأول:

قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾﴾:

﴿كُشِطَتۡ﴾: أي: نُزِعَتْ كَمَا يُنْزَعُ الْجِلْدُ حينَ تُسلَخُ الذبيحة.

الكشطُ في اللّغة: يأتي بمعنى إزالة نَحْوِ الْجِلْد عن اللّحم ونزعِهِ عنه.

ويأتي بمعنى نزع كُلّ ظاهِرٍ متماسكٍ نوع تماسُكٍ بباطن، وبمعنى رفْع شيءٍ عن شيءٍ قَدْ غَطَّاهُ وغَشِيَه، ومنه كَشْط جُلِّ الفرس عن جسْمه. **الكشْطُ والْقَشْط:** بمعنى واحد.

الْجَلُّ والْجُلّ: مَا تُغَطّىٰ به الدابة لتُصَان.

النصّ الثاني:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) الّتي نتدبّر دروسها وآياتها:

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾﴾:

وقد سبَقَ آنفاً بيان معناها، بحَسَب مفهوم «فُرِجَتْ» في اللّغة.

النّص الثالث:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾﴾.

أي: تَنْشَقُّ انشقاقاً مَا تكونُ بِهِ واهيةً، أي: تكون به ضعيفة التّماسُك، ضعيفَةَ الْقُدْرَةِ على الحمْلِ بسبب الانشقاق الذي يَحْصُل فيها.

النَّصُّ الرابع:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾.

الانْفِطَارُ والتَّفَطُّرُ هو أوّل الانشقاقِ في ظاهر الشيء، وقد جاء في الحديث أنّ الرسول ﷺ قام من اللَّيْلِ يُصَلِّي حتَّىٰ تفطّرتْ قَدَمَاه، أي: تشقّقَتا.

ويقال: تفطَّرَتِ الأرضُ عن النَّبَات، أي: تشقَّقَتْ، فَهُو تشقُّقٌ ابتدائيٌّ يحْصُل للشيء.

النصّ الخامس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول):

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾:

وقد جاء بيان هذا الانْشِقاق مقترناً ببيان أنّ السّماءَ قَدْ استَمَعَتْ مطيعةً أمْرَ رَبِّها، وببيان أنّها مَحْقُوقَةٌ بقَضَاءٍ جبريٍّ أنْ تَسْمَعَ وَتُطِيع، ولعَلَّ في هذا إشارةً إلَىٰ آخِرِ أطوار الانشقاق فيها.

النصّ السادس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩﴾.

أي: إنَّ السَّماءَ تنشَقُّ انشقاقاً تكُونُ معَهُ ورْدَةً كالدّهان، أي: حمراء كَلَوْنِ الورْدَةِ الحمراء، ومائِرةً مائجةً صافيةً كالدّهان، جَمْع دُهْن، أو كالأَدِيم الأحْمَر.

هذه الأحداثُ الّتي دلّت علَيْها هٰذهِ النُّصوص ممّا سوْفَ يحْدُثُ في المستقبل، يُمْكِن أنْ نتصوّر ترتيبها على الوجه التالي بالنظر إلى ترتيب الأحداث وفق سُنَن اللّه في كَوْنه:

أولاً: يحدُثُ في السَّمَاءِ انفطارٌ أوَّليٌّ غير عميق.

ثانياً: ثم يحدُثُ بعْدَه انْفِرَاج ما.

ثالثاً: ثم يحدُثُ فيها نشقاقٌ تضْعُفُ فيه فتكونُ واهية.

رابعاً: ثم يزيد الانشقاقُ حتَّىٰ تكونَ السَّماء كالوردَة الحمراء بانعكاساتِ أشِعَّةٍ خاصَّةٍ عليها، وتكون رَجْرَاجَةً كالدُّهْنِ السَّائل في عَيْنِ النّاظر إليها.

خامساً: ثُمَّ تَنْشَقُّ انشقاقاً كُلّيّاً تامّاً.

سادساً: ثُمَّ تُكْشَطُ كَمَا يُكْشَطُ جِلْدُ الذّبيحَةِ عنْدَ سَلْخِ جلْدِها عنها.

واللَّهُ أعلم.

وهل هٰذه الأحداث تكونُ في السماء القريبة المحيطَةِ بالأرض، وهو ما نُسَمّيه بالْغِلاف الجوّيّ، المؤلف من الغازاتِ التي جعَلَها اللَّهُ عزّ وجلَّ مادّة من موادّ شُروطِ حياة الأحياء على الأرض.

أو هي أحداثٌ تكونُ في السَّماءِ البعيدة الّتي تَسْبَحُ فيها النجوم؟

اللَّهُ أَعْلَمُ بمراده، وقد ينكَشِفُ في المستقبل لعلماء البحث العلميّ في الظاهرات الكونيّة ما يَهْدِي إلى المراد إنْ شاء اللَّهُ ذلك من أمارات ودَلالات كونيّة.

● قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾:

﴿نُسِفَتْ﴾: أي: ذَهَبَتْ بها الرّياح فلَمْ يبْقَ على ظاهر الأرض جبال.

النَّسْفُ في اللغة: اقتلاع الشيْء والذَّهابُ به، يقال لغة: نَسَفَتِ الرِّيحُ الشيْءَ تَنسِفُه نَسْفاً، وانتسفَتْهُ، أي: سَلَبَتْهُ، وَحَمَلَتْهُ، وَذَرَتْهُ.

وهذا الحَدَثُ يكونُ بعْدَ مَرْحلة بَسّ الجبال، وبَعْدَ جعْلِهَا كَكُثْبَانِ

مَهِيلَةٍ من الرِّمال، إذْ تأتي الرِّياح فَتَنْسِفُهَا، وتَسْفِيها، ولا تُبْقِي لها أثراً مُرْتفعاً، وعندئذٍ تكُونُ الجبال قَدْ سُيِّرَت، أيْ: ذُهِبَ بها، وتكُونُ الأرضُ كُلّها عندئذٍ بارزةً سَطْحاً مُسْتَوياً، لاَ يَرَىٰ فيه الرائي عِوَجاً ولاَ أَمْتاً[1].

وقد سبق لدىٰ تدبُّر سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بيانُ المراحل التي تتعَرَّضُ لها الجبال قُبَيْلَ السَّاعَةِ وعند قيامها، أخْذاً من دلالات النصوص القرآنية، وهي إحدى عشرة مرحلة:

(١) مرحلة الدَّكّ.

(٢) مرحلة جعل الجبال ليّنَةً كالعِهْن، أي: كالصوف المصبوغ ألواناً.

(٣) مرحلة جعل الجبال كالْعِهْنِ المنفوش.

(٤) مرحلة بَسِّ الجبال، ويكون به تفْتِيتُها إلى أجزاءٍ صغيرة.

(٥) مرحلة جعل الجبال بالبسّ كالكثيب الْمَهِيل، أي كالرمل الذي يتساقط بتدافع من الأعلى إلى الأسفل بأدنى حركة.

(٦) مرحلة سَيْرِ الجبال سيراً غير شديد.

(٧) مرحلة مُرُور الجبال كمَرِّ السَّحاب.

(٨) مرحلة تسيير الجبال بقُوَّة.

(٩) مرحلة نَسْفِ الجبال وتذرِيتها متناثرة.

(١٠) مرحلة تسيير الجبال حتَّى لا يُرَىٰ من آثارها إلاَّ مِثْلُ السَّراب، رُؤيةً بلا حقيقة.

(١١) مرحلةٌ لاَ يَبْقَىٰ فيها من الجبال أَيُّ أَثَرٍ ولا مِثْلُ السّراب.

---

[1] **الأَمْتُ**: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ورِقَّةً وصَلابةً.

واللّه أعلم كيف يكون ترتيب هذه المراحل.

● قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾؟

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾: أي: وَإِذَا الرُّسُلُ حُدّدَتْ أوقاتُ قيامها بوظائفها المأمُورَةِ بقِيَامِهَا يَوْمَ الدين، والمعنى أنَّها أُعلِمَتْ بوظائفها الّتي علَيْها أن تَقُومَ بها يوم الدّين مع إعلامِها بأوقاتِ قيامها بها، فلا أحد يوم الدّين يقومُ بعملٍ ما إلاَّ بأمْرِ اللّه أو بإذْنه.

في هذا بَيَانُ أنّ الرُّسُلَ المعنيّين يُعْلَمُونَ في وقْتٍ من الأوقاتِ قبْلَ يوم الدّين، وقد يكون بعْدَ طَمْسِ النجوم، وفَرْج السَّمَاءِ، ونَسْفِ الجبال، بوظائفهم في المواقيت المحدَّدة الّتي يخْبَرُون بها، مؤجَّلَةً إلى يوم الْفَصْل بين الخلائق، وهو يَوْمُ الدّين.

ونَفْهَمُ من معنى: ﴿أُقِّتَتْ﴾ بُيّن لها تَحْدِيدُ أعمالها وأمكنة القيام بها وأوقاتها المؤجلة، للقيام بوظائفها المتعلّقَة بأحْدَاث يوْم الدين، ضمن التكليف.

أصل التوقيت تحديد الوقت الزماني، ثمّ جرى التوسُّعِ اللُّغوي فيه، فصار يَشْمَلُ تحديد الزَّمَانِ والمكانِ والعمل⁽¹⁾.

قول اللّهِ تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾:

إنَّ التَّوْقِيتَ يَدُلُّ علىٰ تَحْدِيدِ وقْتٍ مُؤَجَّلٍ، ولا يَدُلُّ عَلَىٰ القيام

---

(١) من التوقيت المكاني تحديد مواقيت الإحرام بالحجّ والعمرة، فتُسَمّىٰ الأماكن: مواقيت.

ومن التوقيت الخارج عن الزمان والمكان، ما جاء في حديث ابن عباس، قال: «لَمْ يَقِتْ رسُولُ اللّهِ ﷺ في الخمر حدّاً» أي: لم يُحَدِّدْ مقدار عقوبة شرب الخمر بعدَدٍ مخصوص من الجلدات.

بالْعَمَل عنْدَ تَوْجيه الأمْرِ التكليفيّ، وهذا يستَثِيرُ في نَفْسِ المتلَقِّي سُؤالاً، جاء التعبير عنه في النّصّ بقوله تَعَالَىٰ: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫﴾ وهَـٰذا من أساليب البيان البديعة، أن يأتي في النَّصّ ما تَطْلُبُ نُفُوسُ المتَلَقّين الإجابَةَ علَيْه، فيقوم المتَحدِّث بطَرْحِ السؤال الذي يَدُورُ في نفوس المتلَقِّين، مُسْتَفْهِمين وطالبين الإجابَةَ عليه، وبَعْد طرحه يُجيب عنه.

وَأجَابَ النَّصُّ بقول الله تَعَالىٰ: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ⑬﴾: أي: لِيَوْمِ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الدّين، بأحْكَام اللَّهِ الجزائيّة عَلَىٰ ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ الحياة الدنيا، رِحلة الامتحان.

واختير هنا من أحداث يوم الدين ذكر «الْفَصْل» وفي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ اختير من أحداثه ذكْرُ «الحساب» وفي نُصُوصٍ أُخْرى اختير من أحداثه ذكر «الجزاء» على منهج القرآن في تَوْزيع عناصر الموضوع على مختلف النُّصُوص، ليظهر بين النُّصوص التكامل على رغم ما بينها من تَعَدُّدٍ في السُّور، وتباعُدٍ في أزمان النزول، وهذا من عناصر إعجاز القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجَدَ الباحثون فيه اختلافاً كثيراً.

ويُمْكِنُ أن نَفْهم أنّ الْمُرادَ بالرُّسُل الرُّسُلُ من الملائكة المكلّفينَ أن يكتُبوا أقوالَ النّاسِ وأعمالَهم لتقديم شهاداتهم بما دَوَّنُوا وكتَبُوا، والمكلَّفين أنْ يَسُوقوا أصْحَابَ النّار إلى دَرَكَاتِهِمْ فيها، وأنْ يَسُوقُوا أصْحَابَ الجنة إلى دَرَجَاتِهِم ومَراتِبهم فيها، إلَىٰ غير ذَلِكَ من أَعْمَالٍ وَضَعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في خُطَّتِهِ لِيَوْمِ الدّين تَكْلِيفَ الرُّسُل من الملائكةِ أن يَقُومُوا بها، في موقف الحشْر، وفي موقف الحساب وفَصْلِ القضاء، وعنْدَ التَّوْجيه لتحقيق وتنفيذِ الجزاء الذي يقضي به الباري جلّ جلالُهُ، وعَظُمَ سلطانه.

وقَدْ يشْمَلُ لفظ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ الرُّسُلَ من البشر أيضاً، واللَّهُ أعلم بمراده.

قول اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ⑭﴾:

سبَق أن علمنا أنَّ هذا التَّعْبير ونظائِرَهُ في القرآن، أسْلُوبٌ قرآنيٌّ مبتكَرٌ للتعجيب والتهويل والتعظيم.

أي: أعْظِمْ بيَوْم الْفَصْل إعْظَاماً كثيراً لاَ يَصِلُ إليه مدَىٰ إدْرَاكِكَ مَهْما سبَحْتَ في التخيُّل.

قول اللّه تعالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮﴾:

سبق لدى تدبُّر سورة (الهمزة) شرح نظير هذا التعبير، وبيان معنى كلمة: «وَيْل» وأُوجزه بما يلي:

﴿وَيْلٌ﴾ كلمة تهديد بعذاب شديد. وورد أنَّها اسم علَمٌ على وادٍ في جهنم، والجملة مؤلفة من مبتدأ وخبر.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ التنوين هنا هو تَنْوِينُ العوض عن إعادة ما سَبَقَ بيانُه، وهو هنا: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: عذابٌ شَدِيدٌ في وادٍ سحيقٍ من وِدْيَان جهنَّم، يَوْم إذ يكون الْفَصْلُ في الأحكام بين العباد، للمكذِّبين بِيَوْمِ الدِّين الذي يُوعَدُونه، والتكذيب بيَوْمِ الدِّين مصحوبٌ دواماً بتكْذِيب الرَّسُولِ في نُبوَّتهِ ورِسالته، وبالتكذيب بالقرآن، وبالآيات الباهرات على صِدْق الرَّسُول، والدالاَّت على أنَّ القرآنَ كَلامُ اللّه المنزّل، الذي لاَ يأتيه ولَمْ يأته الباطل من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا من خلفه.

وجاء هذا التحذير مُكَرَّراً في السُّورَةِ بفنّيَّةٍ جميلة عِنْدَ مفاصِلها عشْرَ مرَّاتٍ، إذْ يأتي قَرْعُ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮﴾ عَقِبَ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْ مَفَاصِلِها، وسيلةً من وسائل العلاج النَّفْسِيّ، المناظِرِ لتكرير العلاج الدوائي آناً فآناً عَقِبَ كلِّ وجْبَةٍ من وَجباتِ الطَّعام، وجاء التكرير هُنَا عَقِبَ وجبات البيان الإقْنَاعي، أو الوعيد بالعذاب الأليم يوْمَ الدين، أو الوعْدِ بالنَّعِيم العظيم المقيم في الجنَّاتِ الَّتِي أعدَّهَا اللّه للمتَّقِينَ والأَبْرار والمحسنين.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الثالث من دروسِ السّورة

الآيات من (١٦ ـ ٢٨)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾.

- قرأ نافِعٌ، والكِسَائي، وأَبُو جَعْفَرٍ: [فَقَدَّرْنَا] بِتَشْدِيد الدّال.

قرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدال.

التشدِيدُ يَدُلُّ على العناية بتحديد المقادير في خُطَّة التكْوين.

والتخفيف يدُلُّ على التنفيذ بالْقُدْرَةِ الّتي يخلق اللّه عزّ وجلّ بها ما يشاءُ على ما يشاء بأمر التكوين: كن.

فالقراءتَانِ مُتَكامِلَتَانِ في أداء المعنى المراد.

تمهيد:

هذا الدَّرْسُ من دُروس السورة تضمَّن الاستدلال على قانون الجزاء الرَّبّاني، بالإشارة إلى أحداث تاريخ الأمم الغابرة، الّذين أهلكهم اللّهُ بسبب تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وتكْذِيبهم بيوم الدّين.

وتضمَّن الاستدلال على قُدْرَةِ اللّه على بعْثِ الموتَىٰ للحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء، بظواهر كونيَّةٍ مَشْهُودَة، هي آياتٌ قائماتٌ دوماً دالاّتٌ على أنَّ اللّهَ عزّ وجَلَّ قديرٌ على أَنْ يَخْلُق ما يشاءُ بَدْءاً وإعادة، على غَيْر مثالٍ سبَقَ، أو على مثالٍ سبَقَ.

التدبّر:

● قول اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: إنَّ من الأدلَّةِ الْوَاقعيَّة على قانون الجزاء الرَّبَّاني، إهلاكَ اللّه عزّ وجلّ للمجرمين الأوّلين، الذينَ كذبوا رُسُلَ ربّهم، وكذّبُوا بنبأ يوم الدين وما فيه من حساب، وفَصْل قضاء، وتَنْفِيذِ جزاء، ومنهم قومُ نوحٍ، وأقوام عادٍ وثمود وفرعون.

إنّ قِصَص إهلاك اللّه مجرمي القرون الأولى قِصَصٌ معروفة مَشْهُورة، وبَعْضُ آثارهم مشهودة، وما كان الرّبّ الحكيم الرحيم ليُهلِكَهُمْ إهلاكاً جماعيّاً شامِلاً، إلاّ بذُنُوبٍ كُبرىٰ أصرُّوا على ارتكابها، فكان من الحكْمَة تطهيرُ الأرض منهُمْ، فأنذرهُمُ اللّه بالإهلاك الشامل على أَلْسِنَةِ رُسُله، فاستهانوا بإنذار اللّهِ لهم، ولم يَعْبَؤُوا بأوامر اللّه ونواهيه لهم، وأكثَرُوا في الأرض الفساد، فأهلكهم ربُّهم على ما فصّله في نُصُوصٍ متعدّدة من سُور القرآن المجيد.

جاء التَّنْبيه على هذا الدليل بأُسْلوب الاستفهام التقريريّ، لانتزاع اعتراف المخاطبين، وإقرارهم بأمْر إهلاك اللّه المجرمين الأوّلين، نظراً إلىٰ أنَّ إهلاك المجرمين الأوّلين من الأمور المعلومة تاريخيّاً، ونظراً إلىٰ أنّ الآثار الدالّة على إهلاكهم ظاهرةٌ في مواقِعَ كثيرة يَعْرِفُها المخاطَبُونَ، ولا سيما ما كان منها في الجزيرة العربيّةِ وَما حَوْلَها.

والكلام على تقدير محذوف هو لفظ «الْمُجْرِمين» بدليل قول اللّه عزّ وجلّ بعْدَ آية: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: بكلّ المجرمين، فَسُنَّةُ اللّه بعباده واحدة حتّىٰ يرث اللَّهُ الأرض ومَنْ علَيْها.

● قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: ثُمَّ في الزّمن الْبَعيد المتراخي الَّذِي يُوجَد فيه مُجْرِمُونَ آخِرُونَ مُشَابِهُون لِلْمُجْرِمين الأَوّلين، فَنُهْلِكُهم إهلاكاً عامّاً شاملاً، ونجعلُهم تابعين

للمجرمين الأوَّلين الّذين أكثَرُوا في الأرض الفساد، ضِمْن أفواج الحشراتِ البشريَّة المهلكَةِ في التاريخ.

هٰذه الآيَةُ تُشِيرُ إلَىٰ أَنَّ آخِر النَّاسَ في الأجيال البشريَّة سيَكُونون مُجْرِمين يستَحِقُّون الإهلاك الشامل، ولا يكونُ فيهم من يؤمِنُ باللّٰهِ، وعَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنّ السّاعة لا تقوم إلاّ على شرار الناس، ولا تقوم حتّىٰ لا يبقَىٰ على الأرض من يقول اللّه اللّه، وهؤلاء الأشرار يتهارجون فيها تَهارُجَ الْحُمُر، أي: يتسافَدون علانية كالحمير، فعليهم تقوم الساعة(١).

- قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾:

أي: مثل ذلك الإهلاك الذي فعلْنَاهُ بالمجرمين الأوّلين، وسَوْفَ نَفْعَلُهُ بالْمُجْرِمين الآخِرِين، نَفْعَلُ أيضاً بسائر المجرمين الّذِين يوجَدُون بيْنَ الأوّلين والآخِرين، من الأُمم التي تَصِلُ في جرائمها وَإفسادها في الأرض، إلَىٰ مِثْلِ مَا وصَلَ إليه المهْلَكُونَ مِنَ المجرمين الأوّلين، والمراد الإهلاك الجماعيُّ العامّ.

وقد كان إهلاك المجرمين الأوّلين بأنواعٍ من وسائل الإهلاك الرَّبَّانيّة، عقوبةً معجّلةً لهم، وتطهيراً للأرض منْهم، وبرهاناً على قانون الجزاء الرَّبَّاني، أمَّا العذابُ فيكُون بحسَبِ جرائم كُلِّ فرْدٍ منْهُم يَذُوقُه على مقدار استحقاقه بالعدل.

وإذْ قَامَ الدليلُ على قانُون الجزاء الرَّبَّانيّ الحكيم العادل، فَمِنَ المناسب اعتبارُ هٰذِه الفقرة من السورة مَفْصلاً للتحذير والتهديد بعبارة:

---

(١) من هذه الأحاديث ما رواه مسلم عن النوّاس بن سمعان، وقد تضمّن بيان خروج الدجال ونزول عيسَىٰ عليه السلام، وقتله الدّجال.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩﴾ الّتي سبق بيان اختيارها للتكرير العلاجي، عند مفاصِلَ محدَّدَة بإحكام من مفاصل هذه السورة العظيمة.

* * *

- قول اللّٰهِ تعالَىٰ: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤﴾:

- قرأ نافع، والكسائيّ، وأبو جعفَر: [فَقَدَّرْنَا] بِتَشْدِيد الدال.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ بتخفيف الدّال.

يقال لغة: قَدَرَ الأمْرَ وَقَدَّرَه، أي: حدّد مقاديره، ودَبَّره قبل إيجاده.

ويقال لغة أيضاً: قَدَرَ على الشيء فَهُو قادِرٌ وقدِير، أي: تمكَّنَ منه، فإذا كان فعلاً فعله باستطاعة تامّة وإذا كان خلْقاً خَلَقَه كما قَدَّره في خُطَّةِ إيجاده باستطاعة تامّة.

قَدَرَ عَلَىٰ الشيء يَقْدِرُ وَيَقْدُرُ، وَقَدِرَ عليه، أي: تمكَّنَ بقوَّته من التصرّف فيه على ما يشاء.

واللّٰهُ عزّ وجلّ قَدْ حدَّدَ مقادير مخْلُوقاته في خُطَّتِه السَّابقةِ لتكوينها، وأَوْجَدَ ما خَلَق بقُدْرَةٍ تَامَّةٍ لم يحدُثْ فيها إعْياءٌ ولا ضعف ولا كَلَلٌ ولا مَلَل.

فبَيْنَ قراءتي: [فَقَدَّرْنَا] و﴿فَقَدَرۡنَا﴾ تَكَامُلٌ في أداء المعنى المراد، وهذا من الإيجاز في القرآن، وهو من عناصر الإعجاز.

جاء في هذه الفقرة عرض دليلٍ مشهود في الكون على قدرة اللّٰهِ على البعث.

- ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾:

جاء استعمال نون المتكلم العظيم وهو الرّبّ جل جلاله، إشارة إلىٰ عظَمَة إتقان الخلق.

﴿مِّن مَّآءٍ﴾: هو ماء الرَّجُل وهو «المنيّ».

﴿مَّهِينٍ﴾: أي: قليلٍ حقيرٍ ضعيف. «**مَهِين**» على وزن «فَعِيل» من فعل «مَهُنَ يَمْهُنُ مَهَانَةً» أي: قَلَّ وصَغُرَ وضعُف.

● ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: فجعَلْنَا هذا الماء الّذِي هو المنيّ في استقرارٍ أو في مكان استقرارٍ ملائم تماماً لوضع نُمُوّ الجنين، وحمايته، وثباته وتغذيته، حتى نضجه وولادته طفلاً.

﴿فِى قَرَارٍ﴾: قرار: مَصْدَرُ قَرَّ بمعنىٰ استقرّ وثبت. أو في مكان استقرار حيث يتمُّ تلقيحه لبُيَيْضَةِ الأنثى، وحيث يتمّ علوقه بجدار الرحم، ثم نُمُوُّه مستقرّاً فيه، حتَّىٰ حين ولادته طفلاً.

﴿مَّكِينٍ﴾: أي: هذا القرار مَكِين، بمعنى أنه ذو مكانٍ ملائمٍ تماماً لنموّ الجنين وثباته حتى ولادته.

وكلُّ ذَلِكَ يَتِمُّ بجعل اللّه وتقديره وخَلْقه، إذْ يُوَجّهُ الأسباب للقيام بوظائفها، لتحقيق الأطوار المقدّرة بقضائه وقَدَرِه، ويكونُ تَنْفِيذُها وتكوينها بقُدْرَتِه.

وجاء استعمال ضميرِ المتكلّم العظيم الرّبّ جلّ جَلاله إشارةً إلَىٰ عظمة جعل الجنين في قرارٍ مكين.

● ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: إلى تحقيق قَدَرٍ مقدّرٍ مقضيٍّ ومعلومٍ سابقاً، وهذا القَدَرُ يشْمَل المقادير الزمانيّة والمكانية والذّاتية والوصفية، ومقَاديرَ كلِّ شيءٍ في خَلْقِ كلّ

جنين، من ذوات وصفات، وأطوارٍ وأحْوَال وغير ذلك.

فكُلُّ خلْقٍ محدَّدٌ بمقدار، وكُلُّ حَرَكةٍ محدّدَةٌ بمقدارٍ، وكُلُّ طوْرٍ محدّدٌ بمقدار، وكُلُّ وصْفٍ مُحَدَّدٌ بمِقْدار.

- ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

يدلُّ فعل: «فَقَدَرْنَا» على تَحْدِيدِ المقادير، وعلى الْقُدْرَةِ على تكوين المخلوق وفْقَ المقادير المحدَّدةِ في خُطَّة تكوينه.

وكذلك اسْمُ الفاعل «الْقَادِرُون» يدُلُّ على المعنيين.

وجاء استعمال ضمير المتكلم العظيم، واستعمال لفظ الجمع، لأنّ خَلْقَ الأجنَّةِ على ما وصَفَ النَّصُّ، لا يُمْكن أن يَفْعَلَهُ إلاَّ الرَّبُّ العظيم، الذي يَخْلُق ما يشاء ويختار بعلمه وحكمته وقُدْرَته.

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾: أي: فنِعْمَ الْمُقَدِّرُون نَحْنُ، ونِعْمَ ذَوُوا القدرة القادرَة علىٰ خَلْقِ مَا نَشَاءُ ونَخْتار نَحن.

والمعنى: فَحَدَّدْنَا مقاديرَ كُلِّ شيءٍ في خَلْق الأجنَّةِ بأبْدَع نظام، وأتْقَنِه وأحْكمه، وأصْلَحِه لتحقيق الغاية منه.

وقَدَرْنَا على تنفيذِ وخَلْق مَا قَدَّرْنَاهُ في خُطَّة التكوين، بقُدْرَةٍ قَادِرَةٍ على خَلْقِ مَا نشاء، مهما كانت عظيمة وجليلة.

وكلٌّ من الأَمْرَيْنِ نَسْتَحِقُّ المدْحَ والثناءَ والحمْدَ عليه، بفعل المدح «نِعْم» فقال جلّ جلالُهُ ثَنَاءً على وصْفَيْه بأنَّه مقَدِّرُ المقادير، والقادر على تنفيذها: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾. فكلٌّ من الأمْرين هو من الأمور الجليلة العظيمة التي لا تَصْدُرُ إلاَّ عن رَبٍّ خَلَّاقٍ عظيم جليل عليم حكيم قدير.

إنّه جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه مستحقُّ الحمْدِ كلّه، وكُلُّ مَحْمُودٍ في الوجود هو خلْقٌ من خلقه.

وقد جاء التنبيه على هذا الدليل أيضاً بأُسلوب الاستفهام التقريريّ، لانتزاع اعتراف المخاطبين وإقرارهم بعظمة خلق الإنسان وإنشائه من ماء مهين، نظراً إلى أنّ هذه الآية من آيات الله في كونه آيةٌ مشهودة ومتكرّرة الحدوث في إنشاء الأحياء.

فهل يَعْجِزُ هذا الخلاَّقُ العظيم العليم القدير عن إعادة الناس إلىٰ الحياة بعد الموت؟!

تَعالَىٰ اللَّهُ عمَّا يصِفُون.

وَإِذْ قام الدليل القاطع على قدرة اللّه عزّ وجلّ على إعادة الموتَىٰ إلى الحياة، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

بعد أنْ قام الدليل القاطع على أنَّ قانون الجزاء الرَّبَّاني حقٌّ لاَ شكَّ فيه.

فمن المناسب اعتبارُ هَٰذه الفقرة الّتي تضمّنت التنبيه علَىٰ أنَّ اللّه جلّ جلالُهُ قدير على البعث للحساب وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، مَفْصِلاً للتحذير والتهديد بعبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الّتي سبَقَ بيان اختيارها للتكرير العلاجي، عند مفاصل محدّدةٍ بإحكامٍ من مَفَاصل هذه السُّورة العظيمة.

* * *

- قول اللّهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.
- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾.

استفهام تقريريٌّ كسابقيه، لانتزاع اعتراف المخاطبين بعظمة الخالق وحكمته وعلمه الشامل وقدرته على أن يخلُقَ ما يشاء، من خلال

ملاحظتهم لآيات اللّٰه العجيبة في الإحياء والإماتة، وإقامة الجبال الشامخات الراسيات في الأرض، وفي تهيئة الماء العذب الفرات لسُقْيَا الناس.

فهٰذه الآيات هي من آيات اللّٰه المشهودة في كونه، وهي من الأدلّة الدَّامغة على قُدْرَة اللّٰه على بعث الناس للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، يوم الدين.

﴿كِفَاتًا﴾: أي: وِعَاءً جامعاً لدورة الحياة والموت، يقال لغة: كفَتَ الشَّيْءَ يكْفِتُهُ كَفْتاً، وكَفَّتَهُ تَكْفِيتاً، إذا قبضَهُ وضَمَّه، ويقالُ: كَفَتَهُ اللّٰهُ، أي: قبضَهُ اللّٰه.

والكِفَاتُ: هو الْمَوْضِعُ الّذِي يُضَمُّ فيه الشيءُ ويُقْبض.

قال ابن سِيدَه: وعندي أن ﴿كِفَاتًا﴾ في الآية مصدرٌ من مصادر «كَفَتَ» إذا ضمَّ وقبضَ، وأنَّ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ منتصبٌ به، أي: ذات كِفَاتٍ للأحياء وللأموات.

وتقول العرب: المنازل كِفَاتُ الأحياء، والمقابر كِفَاتُ الأموات، أي: جامعةٌ وضامّة.

قال صاحب التهذيب في تفسير الآية: يُريد: تَكْفِتُهُمْ أَحْيَاءً على ظهرها في دورهم ومنازلهم، وتكفِتُهُمْ أمْواتاً في بطْنِها، أي: تحفَظُهُمْ وتُحْرِزُهم، ونصَبَ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ بوقوع الكِفَاتِ عليه، كأنَّكَ قُلْتَ: ألم نجعل الأرض كِفاتَ أحياءٍ وأمواتٍ، فإذا نَوَّنْتَ نَصَبْتَ(١).

أقول: يدلُّ هذا النّصّ القرآنيُّ مع التفكُّر في واقع حال الأرض، بعناصرها التي تنقسم إلى التراب والماء، إنما هي وعاءٌ للحياة، إذْ ليست

---

(١) انظر لسان العرب في مادة «كَفت».

الحياة من طبيعتها، بل الحياة أمْرٌ خارجٌ عنها، وهي تحلُّ فيها ضِمْن نظامٍ رَبَّانِيٍّ خاصّ.

فإذا حلّت الحياة في قبضةٍ من طين الأرض كانت هذه القبضة وعاءً ضامًّا كافتاً للحياة، وعند الموت تُسْلَبُ الحياة من الجسَدِ الذي هو من عناصر الأرض، ثم يعود الجسَد تُراباً، وينْحَلُّ إلى مثل ما كان عليه قبل أن تدِبَّ فيه الحياة.

وتضمُّ الأرضُ الجسَد الميّت حتّى تستهلكه، ثُمَّ تَنْشَأُ حياةٌ أخْرىٰ من عناصر الأرض نفسها، وقد تدخلُ في تركيب الأجساد الحيّة الجَديدة موادُّ وعناصر انْحلَّتْ من أجساد الأحياء السابقة، التي ماتَتْ وانْحَلَّتْ عناصرُها إلى التراب، وهكذا تتكَرَّرُ دَوراتُ الحياة والموت في الأرض.

فالأرض كما هو مُشَاهد كِفَاتٌ، يخْرُجُ منْها أحياء بتقدير اللّه وخلقه، وهيمنته بصِفَاتِ رُبوبيّته، ويعُودُ إلَيْها أمْوَاتٌ بتقدير اللّه عزّ وجلَّ وخلقه، وهيمنته بصفات ربوبيّته على كلّ شيءٍ، ورُبَّ قبضةٍ من تراب الأرضِ ومائها، دَارَتْ عليها نَفْسِهَا دَوْرَة الحياة والموت مِرَاراً وتكراراً، مجتمعة أو متفرّقَةً في الأحياء.

فأيُّ استغرابٍ واستبعادٍ لأنْ يَبْعَثَ اللَّهُ جلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطَانُه الموتَىٰ يوم القيامة، إلى الحياة بحَقِيقَةِ ذواتهم وصفاتهم مرّةً أخرىٰ، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء؟!! وإذا تَعَمَّقْنا في تَفَهُّم خلق الله للأشياء فإننا نَصِلُ إلَى أنَّ كُلَّ ما في الوجود يَخْلُقُه اللّه عزّ وجلّ خَلْقاً من بَعْدِ خَلْقٍ، فكُلُّ شيء يُخْلَقُ خَلْقاً جَدِيداً بعَدَدِ وَحَدَاتِ الأزمنةِ الَّتي تمرُّ عليه، والشيءُ الواحد في صورته الظاهرة، هو متعدّد الوجودات بتعدّد الأزمان، فما خُلِقَ جسداً لحيٍّ في أزمنته، غير ما خلق جسداً لحيّ آخر في أزمنته، ولو كان في الظاهر من رفات جسد الحيّ السابق.

ولا يصحّ أن يغيب عن تصوُّرنا أنّ دورة الحياة والموت ظاهرةٌ في تكرير إعادة النباتات من بزورها، وفي نشأة أجيال الأحياء من النَّسل، فتأتي أحياءٌ لم تكُنْ، ثُمَّ يكونُ لها نسْلٌ، ثُمَّ تموتُ، وتَنْمو أنسالُها في الحياة، ثم تفعَلُ مثل أُصولِها، وهكذا تداوُلاً حتَّىٰ تَنْتَهِي ظروف الحياة الدّنيا، ضمن خُطَّة الرَّبّ الجليل العظيم الذي أحْكم مقاديره، وأتْقَنَ كلَّ شيْءٍ صُنْعاً.

أفَلا تَدُلُّ هذِه الظَّاهِرَةُ المتكرّرَةُ الّتي تَنشأُ بها الحياة من الأرضِ ثُمَّ تَعُود إليها، على قُدْرَةِ اللَّهِ جلّ جلاله على بَعْثِ الموتىٰ إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء؟!!.

عِلْماً بأنَّ الحياة في الأرض ليْسَتْ من طبيعة الأرض، بل هي وافدةٌ حديثَةٌ إليها، تتّخذُ منها وِعاءً ولباساً، ثُمَّ تخرُجُ من هذا الوعاء، وتخْلَعُ عنها هذا اللّبَاس، فيَعُودُ كُلٌّ منهما إلى أصْلِه ومصْدَرِه.

أفَلا تَدُلُّ هٰذه الظّاهرةُ المدهشة المتكرّرة على أنَّ الْمُبْدِئَ الّذي أحْيَا في الأولى، قادِرٌ على أن يُعِيدَ في الأخرى، ليحاسب، ويفصل قضاءه بين عباده، ويُنَفّذ جزاءاته جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه؟!!

أفلا يَدُلُّ الإبْدَاعُ الحكيمُ الرّائع على أنَّ المبْدِع سوْف يُعيدُ بحكمته وقدرته المكلفين من عباده إلى الحياة الأخرى، ليُجْري ما تبقّىٰ من خُطَّته في خلْق عباده الممتحنين المكلّفين في ظروف الحياة الدنيا؟!!.

قال اللّه عزّ وجل في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بشأن الأرض:

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

هذه الآية تُلْقِي الضَّوْءِ الذي يكشِفُ للمتدبّر المراد بقول اللّه عزّ وجلّ في السورة التي نتدبَّرُها:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾.

وقد أدْرَكَ «أبو العلاء المعَرّي» أنّ سَطْحَ الأرض فُتَاتٌ من أجساد الآباء والأجداد، تداولَتْ علَيْها حيَوَاتهم فقال:

خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْأَرْضِ إلاَّ مِنْ هٰذِهِ الْأَجْسَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الْأَضْدَادِ

- قَوْلُ اللّه تَعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ... ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وَجَعَلْنا في الأرض جبالاً رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ.

﴿رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ وصفانِ لموصوف محذوف يُعْلَمُ من ذكرهما مع قرينَة أنّ الموصوف بهما موجودٌ في الأرض، وهو من آيات اللّهِ فيها، فالفكر يُدْرِكُ بداهة أنّ الموصوف المحذوف الجبال.

﴿رَوَٰسِىَ﴾: جمع «راسية» مؤنث اسم فاعل من الرُّسُوّ، وهو الثبات والرُّسُوخ.

تقول لغة: رَسَا الشيءُ يَرْسُو رُسُوّاً ورَسْواً، أي: ثبَتَ ورسَخَ. ورَسَا الجبَلُ: أي: ثبت أصْلُهُ في الأرض، فهو «رَاسٍ». وهي «راسية».

والرَّواسي من الجبال الثوابتُ الرواسِخُ، وأرسَىٰ اللّه الجبال يُرْسِيها، أي: ثبّتَها وَجعلَها راسخات.

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾: جمع «شامخة» أي: عالية مرتفعة. تقول لغةً: شمَخَ الجبَلُ يشمَخُ شُمُوخاً، أي: عَلَا وارْتفع.

والجبال الشوامخ: هي الجبال الشواهق. وجَبَلٌ شَامخ وشَمَّاخٌ، أي: طويل في السَّماء، ومنه قيل للمتكبّر: شامخ.

وصَفَ اللّه عزّ وجلّ الجبالَ في الأرض بأنّها رَواسي، وبأنّها شامخات، وفي ذِكرِ هٰذين الوصفين إشارةٌ إلى عناية اللّهِ بعباده في الأرض،

فَرُسُوُّ الجبال ورُسُوخُها في مواضع من الأرض مختَلِفَةٍ، مثبّتٌ لِقِشْرَةِ الأرض من أنْ تكون عُرضَةٌ دواماً للتشققات والزلازلِ، والتحرّك والاضطراب، بتأثير الغليان النّاريّ الْفَوّارِ النّاشر للغازاتِ الضّاغِطَةِ في باطن الأرض.

وشُموخ الجبال وارْتفاعُها يُحَقّق للناس وغيرهم منافع كثيرة، ففيها تكونُ مخازِنُ للمياه العذبة، ومن صخورها يقتَطِعُونَ لمبانيهم، وعليها يَبْنُون قُصُورهم وحُصُونهم، وعلى مُرْتفعاتها يَسْتَمْتعون بنزهاتهم، وفي مغاراتها يتحصَّنُون ويَحْتَمُون، وبها يَدْرأُ بعضُهُمْ عن نَفْسِه بأسَ بعض.

● قولُ اللّه تعالى: ﴿... وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم﴾: أي: وجَعَلْنا لكُمْ ماءً صالحاً للشرب.

تقول لغة: سقَاهُ يَسْقِيه سَقْياً، وأسْقَاهُ، وسَقَّاهُ، أي: جعل له ماءً ليَشْرَبَ منهُ طَلَباً للرّيِّ.

﴿فُرَاتًا﴾: **الْفُرات**: أعذَبُ الماء وأنقاه. يقال لغة: فَرُتَ الماءُ يَفْرُتُ فُروتَةً، أي: عَذُبَ، فَهُو فُراتٌ بمعْنَىٰ أنّه بالِغُ العذوبة.

في ظاهرة الجبال الرّواسي الشّامخات، وظاهرة الماء الْفُرات، من ظواهر خلْق اللّه آياتٌ جليلاتٌ، يَكْتَشِفُ دَقَائِقَها عُلَماءُ البحوث الكونيّة، ويكْتُبُونَ فيها البحُوث المستفيضة، وهٰذِه البحوث تَهْدِي إلَىٰ عظيم قُدْرَةِ اللّهِ وجَليل حكمته، وهي تُقدّمُ الإقْناعَ الكافيَ بأنّ البعْثَ للحياة الأخرى حقٌّ، وفي هذه الحياة الأخرى يكونُ الْحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء.

أفلا تدُلُّ هاتان الظّاهرتان من ظواهر آيات اللّه في كونه، على أنّ الرّبّ الْقَدِير العليم الحكيم سَوْفَ يُعِيدُ المكلّفِين من عباده، إلى الحياة بعْدَ الموت، ليُجْرِي مَا تَبَقّىٰ من خُطّتِه في خَلْقِ عباده، الممْتَحنين المكلّفين في ظُرُوف الحياة الدُّنيا؟!!.

ومن المناسب والبديع عند هذا المَفْصِل من مفاصل السُّورة، تكرير التحذير والتهديد بعبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾ الّتي سبَقَ بيان اختيارها للتكرير العلاجيّ، عنْدَ مفاصلَ محدّدَةٍ بإحكامٍ من مفاصِلِ هذه السُّورَة العظيمة، وسبَقَ تدبُّرها.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة

الآيات من (٢٩ ـ ٤٥)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٩) ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ (٣٠)
لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ
(٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ
(٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ
كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ
مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥)﴾.

- قرأ رُوَيس: **[انْطَلَقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ]**: بصِيغَة الفِعْل الماضي في الآية (٣٠).

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ بصيغة فعل الأمر وبين القراءتين تكامل في أداء المراد.

وقَرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلَفٌ **[جِمَالَةٌ]** وهو اسم جمْعٍ لطائفةٍ من الجمال، القراءة بكسر الجيم، وفي اللّغة يجوز ضمُّها وفتحها.

الجمل: الكبير من الإبل.

وقرأ رُويسٌ عن يعقوب **[جُمَالاَت]** جمع «جُمَالَة» وهو الحبْلُ العظيم الذي تُشَدُّ به السفينة، ويُسَمَّىٰ «القَلْس». وهو أيضاً جمع لجمع «جَمَل».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بكسر الجيم، وهو جمْعٌ لجَمْعِ «جَمَل».

- وقرأ يعقوب **[فَكِيدُونِي]** بإثْبَاتِ ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

وقرأ باقي القرّاءِ العشرة ﴿فَكِيدُونِ﴾ بحَذْف ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

حذْفُ ياء المتكلّم من النُّطْقِ إيجازٌ يكْثُر في القرآنِ، وهو من لطائفه.

- وقرأ ابن كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشُعْبَة، وحمزَة، والكسائي: **[وَعِيُونٍ]**: بكسر العين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضَمّ العين.

كَسْرُ العين وضَمُّها في لفظ «عيون» لغتان عرَبيتان.

- وقرأ حمزة **[هَنِيًّا]** بإبْدَالِ الهمزة ياءً، وإدْغام الياء التي قبلها فيها، وهذا وجْهٌ من الأداء.

وقرأ باقي القُرَّاء العشرة ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ بإثبات النُّطْق بالهمزة حسب الأصل.

الهَنِيءُ: السَّائِغُ اللَّذِيذ.

تمهيد:

يبْدأ اللَّهُ عزَّ وجلّ في هذا الدَّرس بتوجيه الخطاب للمكذّبين بيَوْمِ الدِّين، يوم الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، مع ما يرافق هذا التكذيب من تكذيبٍ للرَّسُولِ، وتكذيب بالقرآن الذي يبلّغه عن ربّه.

وهذا الخطابُ صورَةٌ مقْتَطعَةٌ ممَّا سَوْفَ يُوَجَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّين، حينما يؤمَرُون بالانطلاق إلى دَرَكاتِهِمْ في جهنَّم.

وهو يحْكِي في يوم الحياة الدنيا ما سَوْف يُخاطَبُونَ به بعد حِسَابِهِم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والْحُكْم عليهم بالْخُلُودِ في عذاب النار، حَيْثُ منازِلُهم في أعماقها، حتَّىٰ الدَّرْكَ الأسْفَل منها.

وفنُّ الاقتطاع هَٰذا من الأساليب القرآنيّة البديعة، الّتي تَعْتَمِدُ علَىٰ عرض صورة المشْهَدِ الّذي سوف يَكون مستقبلاً، كأَنَّ الحدَثَ واقعٌ الآن، للإشعار فكريًا بأنَّهُ سوف يتحقَّقُ حتماً، ولإعطاء الْمَشْهَد صُورَةَ أَمْرٍ واقع الآن، ففي هٰذا من الإمتاعِ ما في المشاهدة الفعليَّةِ لدىٰ وقُوع الحدَث. ولم يكن هذا الأسلوب البيانيُّ من الْفُنُون المعروفة لدى الْبُلَغاء إبَّان نزول القرآن.

واكتشفه في عصرنا الحاضر صانِعوا الأفْلام الّتي تحكي الوقائع والأحداث، ولا سيما المبدعون منهم.

وقد جاء خطابُ الحكاية هذا عَقِب خطاب المكذّبين وهم في حياة الابتلاء، في يوم الحياة الدنيا، بتقديم الأدلَّة الدافعة لشبهاتهم، حول قضيَّة البعث للحياة الأخرى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

إنَّ هذا الخطاب الذي ينتَقِلُ بصورَةٍ مفاجِئةٍ مِنْ وَاقِع حياة الابتلاء، إلى مَشْهَدٍ مقْتَطعٍ ممَّا سَوْفَ يَكُونُ في يوْمِ الجزاء، فَنٌّ جميلٌ بديع، من فُنُونِ الأدَب الرَّفيع جدًّا، وهو من عناصر إعجاز القرآن.

لقد فاجأ اللّه عزَّ وجَلَّ المكذّبين بالآخرة، فخاطَبَهُمْ كَأَنَّهُمُ الآنَ في يَوْم الدِّين، ووصَفَ لهم بهذا الخطاب المكانَ السَّحِيق الْمُعَدَّ لتعذيبهم في جهنَّم، وهو وادي «وَيل». ووصَفَ لهم قاعَ هذا الوادي الّذي سوف يكونون فيه، بَعْد حسابهم، وقرار معاقبتهم.

● قول اللّه تعالى:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول هذا النّصّ في مضمونه للمكذّبين بيوم الدّين، وكأنّهُمْ بعْدَ مَوْقفِ الحساب وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والْحُكْمِ عليهم بالعذاب في وادِي «وَيل»:

انطَلِقُوا إلَىٰ نُزُلِكُمْ في دار العذاب، في قاع وادي «وَيْل».

لكنّ النّصّ لم يسْتَعْمل هذا الأسلوب التّلقائِيّ السّاذج، وإنّما قال لَهُمْ مذَكّراً بعباراتِ الوعيد، يوم كانوا في حياة الابتلاء.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

فالنّار، ووادي «ويْل» فيها، ومعاقبتُهم بالعذاب يوم الدّين، هو ما كانوا به يكذّبون.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾: أي: اذْهَبُوا سريعاً، فالانْطِلاَقُ في اللُّغَةِ، هو سُرْعة الذّهاب، يقال: انطلَقَ الظبْيِ ونحوه، أي: مرَّ سَرِيعاً لا يَلْوي على شيء. وانْطلقَت الخيل، أي: مضَتْ في السِّبَاقِ إلى الغاية المحدّدة لها.

أصل الإطلاق التحريرُ من القيد، ومن شأن المقيّد إذا أُطْلِق من قَيْدِهِ أن ينْطَلقَ مُسْرِعاً شطر الجهة الّتي يريد الذهاب إليها.

جاء في العبارة فعل «انْطَلِقُوا» دُون اذْهَبُوا أو انْصَرِفُوا أو نحو ذلك، ليَدُلَّ هٰذا الفعل على أنّ المكذّبين يُكَلَّفُونَ يوم الدين، بعْدَ مُحاسبتهم وفَصْل القضاء بشأنهم، أن يُسْرعوا في الذهاب إلى دار العذاب، وإلى نُزُلهم فيها، لِيَنَالُوا جزاءهم فيها جزاءً وفاقاً معادلاً لكُفْرهم وجرائمهم.

وفي هذا التكليف حزْمٌ لا تساهُلَ مَعَهُ ولا تهاون، فقد أُبرِمَ الأمْرُ، وتَمَّ بشَأْنهم الحكْمُ، فَلْيُسْرِعُوا إلى منازلهم في الدَّرَكات، وإلى مُسْتَقَرّاتهم في دار العذاب، جَهَنَّمَ وبِئْسَ الْقَرار.

وتصويراً بارعاً ورائعاً لموقعهم في قَاعِ وادي «ويل» موطِنِ تعذيبهم،

رسَمَت الكلمة الفنيّة الأدبيّة الموقع، ببَثِّ لقطاتٍ تَصْويريّة يستطيع الذَّكاءُ اللَّمّاحُ مِن خلالها تَحْدِيدَ مَعَالِمِهِ، بمَلْءِ الْفَرَاغَاتِ المتروكَة بين هذه اللَّقَطاتِ، وهذا من أروع التَّصْوير الفنّيّ الأدبي.

فجاء التعبير التالي من فقرات هَٰذا التَّصْويرِ الْفَنّيّ الرائع بقول اللّٰه تعالى:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

في هذا التعبير تحديدٌ وصْفِيٌّ لِلْمَكانِ الّذي أُمِرُوا بالإسراع إليه.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾:

أي: انطَلِقُوا إلى مَكانِ ظلّ، هذا التعبير يدُلُّ على أنَّهُ مكَانٌ مُظْلِمٌ ظُلْمَةً وُسْطَىٰ، إذْ لا يَصِلُ إليهِ شُعَاعٌ إشراقيٌّ، كشُعَاعِ الشَّمْسِ في الضُّحَ الّذي هو ضدُّ الظّل. فَدَلَّ على أنّهُ لا يَصِلُ إِلَيْه ضَوْءُ لَهَبِ النّار، بسَبَب حاجِبٍ يحجُبُ عنه ضَوْءَ اللَّهَب.

لكِنَّ الّذِي يَحْجُبُ الضَّوْءَ عنه لا يحجُبُ الحرارة، بدليل قول الله تعالى:

﴿..وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾.

فما هو هذا الحاجب؟

إنّ الذهن ليسْتَدْعِيه دُون كُلْفة، إذْ يُدْرِكُ أنّه حاجِبُ دُخَانِ لَهَبِ النَّارِ الموقَدَة، فَهُو يُعْطِي ظِلاًّ ما، لاَ ظُلْمَةً دامِسَةً، فأهْلُ هٰذا الموقع يُشاهد بعضُهُمْ بعضاً، ويَرَوْن مسَالِكَهُمْ فيه، لكِنَّ هذا الظِّلَّ لا يَحْجُبُ عنْهُمْ حَرارةَ اللّهب، ألاَ يَدُلُّ على هٰذهِ المفهومات، قولُ اللّه تَعالَىٰ:

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: أي: غَيْرُ ذي ظلٍّ دائم، وغير مَانعٍ للرُّؤية.

﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: أي: غيرُ ساتِرٍ للحَرارة، [**لاَ يُغْنِي**]: أي: لا يكفي. ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: أي: من دفع أيِّ شيءٍ من اللَّهب.

من طبيعةِ الظلّ أنه لا يحْجُبُ الرؤية، إذْ تبْقَىٰ معَهُ انْعِكاسَاتٌ ضَوْئِيَّة تَسْمَحُ برُؤْيَةِ ما على مِقدار كثافَةِ الظلّ.

جاء في كتُب اللُّغَة: مَكانٌ ظَلِيلٌ، أي: ذو ظلّ، وقيل: الدَّائِمُ الظِّلّ. وصيغَةُ «ظَلِيل» على وزْنِ «فَعِيل» هي من صِيَغِ المبالغة، ونَفْيُ كَوْنه ظليلاً يدُلُّ على نَفْي ما تَقَعُ عليه المبالغة، وهي تقع على الدَّوام، وتَقَعُ على ما هو المقصود بالظِّلّ، وهو سَتْرُ الحرَارةِ وحَجْبُها.

ويدُلُّ على عدم الدَّوام لِهَـٰذا الظِّلّ أنَّ المقيمين فيه يَرَوْنَ شَرَرَ نار جهنَّم، إذْ جاء بَعْدَ بيان كونِهِمْ في ظِلٍّ غَيْرِ ظليلٍ وهو لاَ يُغْنِي من دَفْع اللَّهَبِ شيئاً، قولُ اللَّهِ تَعالَىٰ:

- ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

فالظِّلُ في جهنّم غير دائم، وغَيْرُ حاجبٍ للحرارة، وهذا يَدُلُّ على أنّ لفحاتِ لَهَب النار تأتيهم بالوهَج اللاهب حيناً فحيناً في أوقاتٍ أكثرها ظلٌّ.

﴿إِنَّهَا﴾: أي: إنَّ النّارَ المحيطَةَ بوادِي «ويل» والمفهومَةَ من السِّبَاق والسِّياق، ولو لم يُذْكَرْ لها لفظٌ يَعُودُ الضمير عليه، وهذا من الأساليب القرآنيّة البديعة، الّتي يعتَمِدُ فيها النّصُّ على ذَكَاءِ المتلَقّي، وإدْراكِه للمرادِ، دُون التَّصْريح باللَّفظ الخاصّ الدالّ عليه.

﴿تَرْمِى﴾: أي: تَقْذِف، وباستطاعَتِنا قياساً على نَارِ الدّنيا حين تقذفُ بالشَّرَرِ، أنْ نتَصَوَّرَ بعْضَ تَصَوُّرِ الْقَذَائِفَ من الشَّرَرِ الّتي تَرْمِي بها نارُ جِهَنَّم.

﴿بِشَرَرٍ﴾: **الشَّرَرُ**: اسْمُ جِنْسٍ جمْعِيٌّ، واحِدَتُه: «**شَرَرَة**».

وشَرَرُ النار جُزَيْئَاتٌ مُلْتَهبات تَقْذِفُها، نَاتجاتٌ عن تَفَجُّرَاتٍ في أجْرَامِ

الْوَقُود، وأعْظَمُ وَقُودِ نار جهنَّمَ الحجارَة، وقد تكون حجارةً على مقدار قَصْرٍ عظيم.

إنَّ هٰذَا الشَّرَرَ العظيمَ الّذي يَرَاهُ أَهْلُ وادي «وَيْلٍ» يُعْطِي ضياءً يشُقُّ الظِّلَّ، فيَجْعَلُهُ ظِلاًّ غير دَائم.

وهو يَدُلُّ عن طريق اللُّزُومِ الذهْنِيّ، علَىٰ أَنَّ لَفَحَاتِ لَهَبِ النَّار تأتِيهِمْ بالْوَهَجِ اللاَّهِبِ السَّمُوم حيناً بَعْدَ حين، في أوقاتٍ أكثَرُها ظِلٌّ.

وجاء التَّصْريح بأنَّ هٰذا الظّلّ هو بسبب الحاجب من دُخَانِ نار جهنَّم في قول اللّٰهِ عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) مبيّناً منازل أصحاب النار فيها:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فِى سَمُومٍ﴾: **السَّمُومُ**: الرِّيحُ الحارَّةُ الّتِي تنفذ في المسَامّ.

﴿وَحَمِيمٍ﴾: **الحَمِيمُ**: الماء الحارُّ ذو الحرارة الشديدة.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وظِلٌّ من أَثَرِ يَحْمُوم. **اليَحْمُوم**: هو الدُّخان. والأسْوَدُ من كلّ شيءٍ، فهو دُخانٌ أسْوَد.

بهذا تمَّتِ اللَّقْطَةُ السّريعة الأُولى من تصوير موقع المكذّبين، في قاع وادي «ويْلٍ» من وديان جهنَّمَ يَوْم الدّين.

وهنا ينْطَلِقُ بنا الذّهنُ إلَىٰ مَوْقعِ المنَعَّمِين في الجنَّةِ دارِ نعيم المتقين، فقد جاء في القرآن أنّهم يكونُون في ظلٍّ ظَلِيلٍ دائم مَمْدُود.

- فقال اللّٰه تعالى في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول): ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

- وقال تعالى في سورة (يٓس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول): ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: **الأرائك**: جمع «الأريكة» وهي المقعد المنجّدُ الوثير.

﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾: «**المتكِئ**: مَنْ يسْتَوي قَاعداً على وِطَاءٍ مُتَمَكّناً.

- وقال اللّه تعالَىٰ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾: أي: في شَجَرٍ من نوع شجَرِ السّدْرِ منْزُوعِ الشَّوْك. **مخْضُود**: أي: منْزُوع شوْكُه.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾: **الطَّلْحُ**: الموْزُ. **الْمَنضُود**: المضْمُومُ بعْضُه إلى بعض مُتَّسِقاً بنِظَامٍ جميل.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وظلّ دائم وشَامِلٍ لكل موقعٍ في الجنَّة.

- وقال اللّهُ تعالَىٰ في سورة (النّساءِ/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾:

أي: ظِلاًّ دائماً، لا تخْترِقُهُ أَشِعَّةٌ حارَّةٌ مؤذية، أو غَيْر سَارَّة.

- وقال اللّه تعالَىٰ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) في وصف الجنَّة:

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴿٣٥﴾﴾: أي: وظلُّها دائمٌ أيضاً.

- وقال اللّهُ تَعالَىٰ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) في وصْف نعيم الأبرار في الجنَّة:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾:

القُطُوف: جمع «القِطْف» وهو ما يُقْطَفُ من الثَّمَرِ ساعَةَ قَطْفِه، أي: فَصْلِه عن شَجَرَتِه.

والتَّذْليل: التَّسْهِيلُ والتَّمْهِيد والتَّيْسِير.

ونُلاحظ في معظم هذه النُّصُوص أَنَّ ذِكْرَ الظِّلّ قَدْ جَاءَ كِنَايَةً عن دار النعيم يوْمَ الدّين، والكِنَايةُ من أساليب البيانِ غير المباشر، وهو سبيل الْبُلَغَاء في التعبير عَنْ مُراداتهم.

بَعْدَ هذا الاستعراض للنُّصُوصِ القرآنيَّة عن الظِّلّ بشيءٍ ما من التدبُّر، أعُود إلى متابعة تَدَبُّر الدَّرْس الرابع من سورة (المرسلات).

■ وفيما سبَقَ كانَ التَّدَبُّر مُتَعَلِّقاً باللُّقْطَة الأولى من الصورة الّتي وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها مَوْقع المكذبين في قاع وادي «ويل».

■ **أمّا اللَّقْطَةُ الثانِية**: فهي وصْفُ الظّلّ الّذي يُكَلَّفُون الانطلاق إليه، بأنّهُ ذو ثَلاَثِ شُعَب.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾.

جاءت قراءة ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ بصيغَةِ فعل الأمر، للدَّلاَلَة علىٰ توجيه الأَمْرِ التَّكْليفي الجبْرِيّ، الّذي لاَ يستطِيعُ واحِدٌ من المأمورين به مُخَالفته.

وجاءَتْ قراءة ﴿انطَلَقُوا﴾ بصيغَة الفِعْل الماضي، للدَّلالَةِ علىٰ مطاوَعَتِهم في تَنفِيذِ الأَمْر، إذْ لا تَخْيِيرَ لَهُمْ، ولا قُدْرَةَ لهم على المخالَفَة، فَهُمْ يتحرَّكُونَ يوْمَ الدِّينِ بالجَبْر، إذْ قَدْ انْتَهىٰ زَمَنُ تخييرهم مع انْتِهاء ظُرُوف الحياة الدنيا، يوم مُنِحُوا حُرّيَّة الاختيار لابتلاء إراداتهم.

كَيْفَ يكونُ مَكانُ الظّلّ في قَاعِ وادي «وَيْلٍ» ذَا ثَلاَثِ شُعَبٍ؟؟.

إنَّ باستطاعة الذِّهْن اللَّمّاحِ، مُسْتَدْعِياً الأَشْباه والنَّظَائِر في المشاهدات الحسِّيَّةِ الدُّنيويّة، أنْ يُدْرِكَ أنَّ مكان هذا الظّلّ غير الظّلِيلِ في جهنّمَ، يقَعُ

في أسْفل وادٍ من وِدْيَانها، وفِي سَمَاءِ هٰذا الموقع يمُوجُ الدُّخَانُ الأسْودُ الّذي يُلْقِي ظلَّهُ عليه.

وَبأَنَاةٍ وَتَأَمُّلٍ نُدرك أنَّ الوِدْيَانَ لا بُدَّ أن تقَع بيْنَ جبالٍ، وأنَّ المداخلَ أو المخارِجَ من هذه الوِدْيان هيَ شُعَبٌ، أو شِعَاب، في المضايق الّتي تتقارَبُ فيها الجبال.

﴿شُعَبٍ﴾ جمْعُ «شُعْبَة» وهي صَدْعٌ في الجبل بمثابة طريقٍ، أو مضيقٍ بيْنَ جبلَيْن.

فإذَا كَان مَكَان المكذبين في قَعْرِ وادي «ويْل» الْمُجَلَّلِ بالظِّلّ الموصوف، ذَا ثلاث شُعَب، فلا بُدَّ أنْ يكون مكاناً فيه سعَةٌ ما، وسط وادٍ تُحيطُ به ثَلاَثُ جبالٍ من جهَاتٍ ثلاث.

ومن الطبيعيّ أيضاً أنْ يكون لهذا الوادي مخارج في أطرافه هي شُعَبٌ ثَلاثٌ.

إذَن: لَقَدْ تَمَّ بهذا رسْمُ صُورَة الموقع في أسْفَل هذا الوادي الذي يُطْلَقُ عليه اسم «ويل» كما سبَقَ بَيَانُه، والاستدلال عليه بالحديث الّذي رواه أحمد في مُسْنَدِه، والترمذيُّ، وابْنُ حبّانَ في صحيحه، والحاكم في مستدركه، عن أبي سعيد أنّ النبي ﷺ قال:

«وَيلٌ وادٍ في جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ».

ولئن لم يَرْقَ سَنَدُه عند المحدّثين إلى درجَة الحديث الصحيح، إلاَّ أنّ معناه يلْتَقِي مع دلالَةِ البيان القرآنيّ في هذا النّصّ من سورة (المرسَلات).

ومعلُومٌ أنَّهُ لاَ يكون وَادِياً إلاَّ أَنْ يكون بين جبال، وتَحْدِيد الشُّعَب

الثلاث لهذا الوادي يَدُلُّ عن طَرِيق اللُّزُوم الذِّهْنِيّ على أنّه بَيْنَ ثلاثَة جبالٍ غَيْر مُتَلاصقة، وهٰذِهِ الشُّعَبُ الثلاث هي المخارج الضَّيِّقَة لهذا الوادي.

فالذين يكونُون من أهل العذاب في هذا الوادي، لا مَخْرج لهم إلاَّ أن يَصَّعَّدُوا في جبلٍ من هٰذه الجبال، وهذا التَّصَعُّد يتحمَّلُون فيه عذاباً أشَدّ ممّا هم فيه في قاعِ الوادي، إذْ فيه إرْهَاقٌ من جِهَة، واقْتِرَابٌ من مصادر اللَّهَبِ وشِدَّة الحرّ من جهة أخرى. أو بأن يَدْخُلوا في إحدى هذه الشُّعَب الثلاث، وهي مضايقُ أشدُّ حرّاً، وأشَدُّ عذاباً، فاللَّهَبُ مُحيطٌ بالوادي، وبجباله، وبشُعَبه.

■ **وأمّا اللّقطة الثالِثَةُ مِنْ تصوير الموقع**: فقد جاء فيها وصْفُ ما تَرْمِي به النَّارُ من حَوْلِه إلَىٰ سَماءِ وَادِي «وَيْلٍ» من شَرَرٍ، واحدتُها «شَرَرَة». فقال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

بهذا التعبير يضيف النَّصُّ لَقْطَةً تَصْوِيرِيَّة لبَعْض الأحْداث الَّتي تَجْري في الموقِع الَّذي أُمِرَ المكَذِّبُونَ بأنْ ينطَلِقُوا إليه، فانْطَلَقُوا مُكْرَهِين.

إنّ الموقعَ جُزْءٌ من جهَنَّم الّتي توقَدُ فيها النّار الحامية، فكان من الأدَب الرّفيع التَّحَدُّثُ عن النار بالضّمِير «إنَّها» والقرينة تُعَيِّنُ المراد، إذْ لاَ يَرْمي بالشَّرَرِ غير النار، فهي تَرْمي بالشَّرَرِ إلى جَوّ وادي «ويل» على وفْقِ الوصف الْبَدِيع الذي جاء في النصّ.

إنَّ من طبيعَةِ الشَّرَر أنَّهُ جَمْرِيٌّ مُتَوَهِّجٌ ولَهُ ضَوْءٌ ما، فيكْفي ذكْرُ الشَّرَرِ عَنْ وَصْفِه بالتَّوَهُّجِ، وبثّ الضَّوْءِ الْقَاطِع أحياناً لدوام الظّلّ غَيْرِ الْبَارِدِ، وغَيْرِ الكريم، في وَادي «ويل».

جاء وَصْفُ الشَّرَرِ في النَّصّ بأنّه مِثْلُ الْقَصْر، وهو الْبنَاء العظيم العالي الواسعُ المحصَّن، وسُمّي قصْراً لأنّه تُقْصَرُ فيه الْحُرَمُ، أي: تُحْبَسُ، ويُقْصَرُ

عن دخوله والاقتراب من أسواره إلاّ بإذن، إذ القصور في الغالب مساكن الملوك والعظماء، وأصحاب المكانات.

هذا الوصْفُ القرآنيُّ يوحِي بأنَّ النّار تَرْمي من أعْلَىٰ الجبال المحيطة بوادي «ويل» بشَرَرٍ قَدْ اجتَمَعَ بعْضُهُ إلىٰ بعْضٍ اجتماعاً في أشكالٍ هَنْدسيَّةٍ، تُشْبِه القصْرَ الْعَظِيم، في مُرْتَفِعَاتِهِ، ومُنْخَفِضاته، وشُرُفَاتِه، وَنَوَافِذِهِ، وأسواره، وأبْراجه، وَحَدَائقه، وأشجاره، إلى غير ذلك.

هل رأيتُمُ الأَسْهُمَ النّارِيَّة العظيمةَ الّتي تَنطَلِقُ صاروخيّةً، ثُمَّ تَنفجرُ في الجوّ، فتُصَوّرُ أشكالاً مختلفة.

إنَّ هذا النَّصَّ القرآنيَّ قَدْ قَدَّمَ للنّاس صُورةً تعبيريَّةً فيها أكْثَرُ تشكيلاً هَنْدَسِيّاً رَائِعاً، من هٰذه المستَحْدَثَاتِ المعاصرات لَنَا الْيَوْم.

وبَعْدَ وَصْفِ الشَّرَرِ مُجْتَمعاً في الجوّ بأنّه يُشْبِهُ القصر، جاء وصْفُه في قول اللّه عزّ وجلّ كَمَا جَاءَ في قراءة جمهور القرّاء العشرة: **[كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ]**. وفي قراءة أُخْرَىٰ متواتِرَة: **[كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ]**. وفي قراءة ثالِثَةٍ مُتَوَاتِرَةٍ أيْضاً: **[كَأَنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْرٌ]**.

ولدى تَدَبُّر هٰذه القراءات تَدَبُّراً تَحْلِيلِيّاً، نُدْرِكُ أنَّ هذا الوصْفَ اللاَّحِقَ بقراءاتٍ بدائل ومن دُون حَرْفِ عطْفٍ يُوحي بإشارتِه السَّريعَةِ الخفيفَةِ إلَىٰ مَا يلي:

(١) إنّ الشَّرَرَ المجتمع المتفجّرَ في سماء وادي «ويل» يَكُونُ أوّلاً يُشْبِه القَصْر.

(٢) وبَعْدَهُ يتَشَكَّلُ تَشكُّلاً آخَرَ، تكُونُ فيه كُلُّ شرَرَةٍ على شكْل جَمَلٍ أصْفَر، وهو مشهَدٌ كُلّيٌّ دلَّتْ عَلَيْه قراءة: **[كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ]** أي: طائفَةٌ من الجمال الصُّفْر المجتمعة، هاجِمَةً في اتّجاه قاعِ وادي «ويل».

(٣) وَبَعْدَهُ يتشكَّلُ تشكُلاً ثالثاً، فيَكُونُ الْمَشْهَدُ الكُلِّي موزَّعاً في الجهات، كأنَّهُ قُطْعَانٌ من الْجِمال الصُّفْر، كُلُّ قطِيعٍ منْها يَهْوِي إلَىٰ جِهَةٍ من الجهات، على مُحِيط الدّائرة، وهو مشهد دلّت عليه قراءةُ: **[كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ]**.

(٤) وبعْدَهُ يكُونُ تَشْكِيل المشهد يُشْبِهُ حِبَالاً عظيمةً مُتَدَلِّيَةً في اتّجاه بَطْن الوادي، ومن كُلّ جِهاته، وهو ما دَلَّت عليه قراءَةُ رُوَيس: **[كَأَنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْرٌ] جُمَالاَتٌ**: جمْعُ «جُمَالَة» وهو الحبْلُ الْعَظيم الَّذِي تُشَدُّ به السّفينة، وقد سبَق بيان هذا.

فتكامَلَتِ القراءاتُ في رسْمِ المشْهَدِ العجيب، مع غاية الإيجاز.

ولا يخْفَىٰ ما في مَشْهَد **«الْجِمَالَةِ الصُّفْرِ»** وبَعْدَهُ مشْهَدُ **«الجِمَالاَت الصُّفْرِ»** قُطْعَاناً موزّعةً هاجمَةً بشَكْلٍ مُخِيفٍ من أعْلَىٰ إلى أسْفل، حيْثُ مَوْقع المكذّبين، وبعْدَهُ مَشْهَدُ **«الْجُمَالاَتِ الصُّفر»** وهي الحِبَالُ النَّارِيَّةُ العظيمة الممتدَّةُ، منْ إثَارَةٍ للرَّهَبِ في النفوس، مع ما فيه من دِقَّةٍ حَرَكِيَّةٍ في التَّصْوير الْفَنّيّ الأَدبيّ.

وتتبُّعاً للدّقّة الرائعة الرائقة البديعة في التصوير جاءت عبارة التشبيه اللاّحِق، للحركة التّالية بعْدَ الشَّرَرِ المجتَمع كالْقَصْر بصِيَغٍ ثلاثٍ **[كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ]** ـ **[كَأَنَّهُ جِمَالاَتٌ صُفْرٌ]** ـ **[كَأَنَّهُ جُمَالاَتٌ صُفْرٌ]** في حركاتٍ ثلاثٍ متواتراتٍ من دون فاصل بعطف، مع المحافظة على الوصْفِ بالصُّفْرَة، للدَّلاَلَة علَىٰ أنَّ الشَّرَرَ قَدْ وَصَلَ إلى مرحَلَةِ الْحِبَالِ العظيمة ولَمْ ينْطَفِئ.

إنّ هذا التَّشْبيه يُصَوّر المرحلَةَ الْجَمَلِيَّةَ كُلَّ شَرَرَةٍ بجَمَلٍ أصْفر، فهي أوّلاً قطيعٌ واحدٌ ضخْمٌ من الجمال الصُّفْر، وهي ثانياً قُطْعَانٌ من الجمال المتدافعة السَّاقِطَة في الجوّ بانْتِظَامٍ في كُلّ الجهات.

وأخيراً تتدَلَّىٰ علَىٰ شكْلِ حِبالٍ عظيمةٍ في اتّجاهِ أسْفَلِ الوادي، حيْثُ مَوْقع المكذبين.

إنَّه لمشهَدٌ مُرْعبٌ حقَّاً، وقد جاء التَّتابعُ في التشبيه من دون عَطْف دليلاً على التتابُع السَّريع في حركة الواقع، حتَّىٰ كأنَّ الأحداثَ المتلاحقة تأتي في وقْتٍ واحدٍ.

هذا هو الصِّدْقُ الفَنّيُّ حقّاً، إذْ يكُون الأَدَاءُ التعبيريُّ مطابقاً لحالة الشُّعُورِ النَّفسِيّ، إنْ لَمْ يَكُنْ بالنسْبَةِ إلى المتكلّم، فبِالنِّسْبَةِ إلى الْمُشَاهد، أو المخاطب، مع كمال الْإِيجاز باستخدام القراءات لكلمة واحدة من كلمات الْجُملة.

ونُلَاحظُ أَنَّهُ لم يُوصَفِ الْقَصْرُ بالصُّفْرَةِ اكتفاءً بأمْرَين:

الأمر الأول: أَنَّهُ جاءَ وَصْفاً للشَّرَرِ، والشَّرَرُ جَمْرٌ أصْفر، وحجارة القصور لدَىٰ المخاطَبين من الْعَرب أكْثَرُها ذاتُ لَوْنٍ أصْفر.

الأمر الثاني: أنَّ مَرَاحِلَ «الجِمَالَة» فـ«الْجِمَالاَتِ» فـ«الْجُمَالاَتِ» قَدْ وُصِفَتْ بالصُّفْرَة.

وهذا الوصف بمُجْمَلِه من نوع تشبيه التمثيل، الذي يجْمَعُ الصُّورَة واللَّوْنَ والحركَةَ مع المؤثرات النفسيَّة.

عنْد هذا المفْصِل من مفاصِل السُّورَة نُدْرِكُ أنَّه من المناسِب والبديع تكرير التحذير والتهديد بعبارَة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾ الّتي سبَق بيانُ اختيارها للتكرير العلاجيّ، عنْدَ مفاصلَ محدَّدَةٍ بإحكامٍ من مفاصل هذه السُّورَة، وسبَقَ تَدَبُّرُها.

* * *

- قول اللّه تعالى:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾.

اعتذَر مِنْ ذنْبه: أي: تنصّل منه، واحتجَّ لنفسه مُدَافعاً عنها.

نتساءل لدى تدبّر هذه الفقرة:

هل يُمْنع المكذِّبون يوم القيامة من النُّطق منعاً كُلّيًا، فيُبْعثُونَ بُكْماً، أم يُمْنعُونَ من النُّطْق عند رغبتهِمْ في الثرثرة بتقديم المعاذير الكواذب؟؟.

لقد دلّت نصوص قرآنيّةٌ أُخرَىٰ، وبيانات نبويّة، على أنّ الكافرين يوم القيامة يَنطِقُون، وأنّهم يحاولون الدّفاع عن أنفسهم بالمعاذير الكواذب، فَيُخْتَمُ عَلَىٰ أفواهِهِمْ، وتَنْطِقُ جوارِحُهُم وجُلودُهم بما كانوا يفعَلُونَ في الدُّنيا من كفريّاتٍ وجرائم أخرى.

وثبَتَ في القرآن: أنّهم يَدْعُونَ رَبّهم دُعاءً جماعيّاً قائِلين: ربَّنا أبْصرْنَا وسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إنّا مُوقِنُونَ. وأنهم يقولون: عند رؤيتهم العذاب: هَلْ إلَىٰ مَرَدٍّ من سبيل. وأنّهم يَقُولُونَ حين يُوقَفُون على النار: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بآياتِ رَبّنَا ونكونَ من المؤمنين، أمّافي داخل جَهَنَّمَ فإنَّهم يَصْطَرِخون، ويُخاطبون مالكاً خازنَها بأنْ يَقْضِيَ عليهم ربُّهُمْ بالْمَوْتِ، إلى غير ذلك ممّا دلَّتْ عليه النُّصوص المختلفة.

بقي أنْ نَفْهَمَ أَنَّهم عندَ مُحاكَمَتِهِمْ إمَّا أَنَّهُمْ لا يَنطِقُونَ باختْيارهم، لاقتناعهم بثبوت جرائمهم عليهم، وقَدْ يكُونُ هَٰذا من بعضهم فقط. وإمَّا أَنَّهُمْ يُمْنَعُونَ بالْجَبْرِ من الثَّرْثَرَةِ بتقديم المعاذير الكواذب، وهٰذا يكون من أهْل الجدل والمماراة والثرثَرَةِ فيهم.

وأستعرض بعض النُّصوصِ الكاشفة والدّالّة على هذا الفَهم.

النّص الأول:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بياناً لبعض ما سوف يخاطَبُ به الكافرون يوم الدين، وبياناً لبعض الأحوال التي سَوْف يَتعَرَّضُون لها.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

هذا الختم على أفواههم يكُونُ في حالة جُحُودِهم جرائمهم وإنكارهم لَهَا، كما جاء في بيان الرَّسُول ﷺ الآتي ذكره إن شاء اللّه.

النّص الثاني:

قولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ المجرمين يتكلَّمُونَ يوم القيامة فيما بيْنَهُم كلاماً خافتاً، فَهُمْ إذَنْ لا يكونون يوم القيامة بُكْماً، إلاَّ أنّ الموقف الرّهيب يَجْعَلُهم يتخافتُونَ بَيْنَهُمْ.

النّص الثالث:

قول اللّه عزّ وجلَّ في سُورَةِ (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾.

فَدَلَّ هذا النَّصُّ على أَنَّهم يُخَاطِبُونَ جُلُودَهم الّتي تَشْهَدُ عليهم، فلَيْسُوا بُكْماً.

ممّا جاء في بيانات الرسول ﷺ:

(١) روى مسلم عن أَنَسِ بن مالك قال: كُنَّا عِنْدَ رسول اللّهِ ﷺ فَضِحِكَ، فقال:

«هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟».

قُلْنَا: اللَّهُ ورسُولُهُ أعلم.

قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟».

قالَ: «يَقُولُ: بَلَىٰ».

قال: «فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيداً، وَبِالْكِرَامِ الكاتبين شُهُوداً».

قال: «فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِه: انطِقِي. فتنطِقُ بأعْمَالِهِ. ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وبَيْنَ الكلام، فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»⁽¹⁾.

(٢) وروى ابْنُ أَبي حَاتِمٍ وابْنُ جريرٍ عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ، قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عُرِّفَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ، فَيَجْحَدُ ويُخاصِمُ، فَيُقَالُ: هَٰؤُلَاءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ، فَيَقُول: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ. فَيَقُولُ: كَذَبُوا. فَيُقَالُ: اِحْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ. ثُمَّ يُصِمُّهُمُ اللَّهُ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ، وَأَلْسِنَتُهُمْ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّار».

فدلَّتْ هٰذِه النُّصُوصُ وهٰذِه الْبَيَانَاتُ على أنَّ المجرمين لاَ يُمْنَعُونَ يوْمَ الدّين من الدّفاع عن أنفُسِهِم، لكِنَّهُمْ يُمْنَعُونَ من الثرثرة بالباطل، ومن تقديم الأعذار الّتي ليس لَدَيْهم منها إلاّ الأكاذيب.

إنّ أرْكانهم «سَمْعَهُمْ وأبْصارَهم وجُلُودَهُمْ» تَشْهَدُ عليهم يوم الدّين بكُلِّ ما كانوا قد كَسَبُوهُ في الحياة الدنيا، ويَدْخُلُ في عُمُوم جلودِهم جُلُودُ

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ـ كتاب الزهد.

أفوَاهِهِمْ وألْسِنَتِهِمْ ممَّا كانَ من ذُنوب وجرائم ارْتَكبُوها فيها، أمَّا النُّطْقُ الّذي يُريدُونَ التعبير به عمَّا يَصْطَنِعُون من تَلْفِيقات وأكاذيبَ ومعاذير، فَهُو الذي يُمْنَعُونَ منه، إذْ يُخْتَمُ علَىٰ أفواههم فلاَ تَسْتَطِيعُ التعبيرَ عن رَغَبَاتِهِمْ في الدّفاع الكاذب عن أنفسهم.

هذا ما دَلَّ عليه الْجَمْعُ بَيْنَ مُخْتَلف النُّصُوص، وهو المنْهَجُ الذي يجب اتِّباعُهُ في كُلّ النُّصُوص القرآنية الدائرة حَوْل موضوع كُلّيٍّ واحد.

وقد خُتِمَت هذه الفقرة كسَابِقَاتها بعبارة الوعيد: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾ ضمن الأسلوب العلاجيّ المختار لهذه السورة.

* * *

قول اللّه تَعالَىٰ:

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾.

الآيتان (٣٨ ـ ٣٩) قَوْلٌ مُسْتَقْطِعٌ بفَنّيَّةٍ بَديعةٍ مِمَّا سَوف يُخَاطَبُ بِهِ المكذِّبونَ يَوْمَ الدّين، والظّاهر أنّه يكونُ عند إقامة محكَمَةِ العدْلِ الرَّبَّانيَّة، ويكونُ خطاباً من الرَّبّ جلَّ جلالُهُ لعباده.

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾: أي: يُقَالُ لهم يَوْمَئِذٍ هذا يَوْم الْفَصْل.

الفَصْلُ في اللُّغَة: الْفَرْقُ والتَّمييزُ بَيْنَ الشيئَيْن أو الأشياء. والْقَضَاءُ، والحكْمُ الفاصل. يُقَالُ لغة: فصَلَ يَفْصِلُ فَصْلاً وفُصُولاً. وفَصَلَ الحاكم بيْنَ الْخصْمَيْن، أي: قَضَىٰ وحَكَمَ، وَيُفْصَلُ أهْلُ الموقف إلى زُمَرٍ على وفق الأحكام الّتي صدَرَت بشأن كلّ زُمْرَة منهم.

ولمَّا كانت محْكَمَةُ الْعَدْل الرَّبَّانِيَّةُ يوم الدِّين تَفْصِلُ بين العباد، بأحكامٍ قضائِيَّةٍ، فَتُمَيِّزُ أَهْلَ الجنَّة عَنْ أهْل النار، وتُمَيّزَ بَيْن مراتب أهْلِ الجنَّة

ودَرَجَاتهم، وتُمَيّزُ بين مَنَازِلِ أهلِ النّار ودَركاتهم. أَطْلَقَ اللّهُ عزّ وجَلّ على يَوْمِ الدِّين اسْمَ «يَوْمِ الْفَصْل» إِذِ الْفَصْلُ أَحَدُ عناصر يوم الدِّينِ الكُبْرَىٰ، قَبْلَ تَنْفِيذِ الجزاء، وبعْدَ الْبَعْث والحشْرِ والحِسَاب، فمِنْ دُونِ الْحُكْمِ الْفَصْل لا يكُونُ جزاء.

﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: جَمَعْنَاكُمْ يا أيُّها الذين كذَّبُوا محمّداً وكذّبوا بالقرآن، وبيوم الدين، وجَمَعْنَا الْأَوَّلين من أهْلِ القرون الأولى، حتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّد وإنْزَال الرسالة الخاتمة عليه، وهذا الخطاب يَشْمَلُ كُلّ المكذّبينَ بَعْدَ بَعْثَةِ محمّد حتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَة.

ويُوَجَّه هذا الخطابُ للكَفَرَةِ المكذّبين، لأنّ المؤمنين لا يَحْتَاجُونَ مثْلَ هذا الخطاب يَوْمَ الدِّين، إذْ كانُوا في الحياة الدنيا به موقنين.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾: هذا تابع لخطاب المكذبين يوْمَ الدِّين، إذْ يَقولُ اللّهُ لَهُمْ: إنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ.

كيف يكُونُ لهم كيد، وهم عاجزُون عن أنْ يتصرَّفوا في تحرُّكاتهم أيّ تصرُّف، إذْ هم يومئذٍ مَجْبُورُون، يتحرَّكُونَ بالجبْرِ، دُونَ أَنْ تكون لهم الخِيَرَةُ في شيْءٍ من أعمالهم، باستثناء أقوالهم، وخواطِرِ أفكارهم ونفوسهم؟!!.

وفي هذا تَحَدٍّ من الْقَدِير على مايشاء، للعاجِزين عن كلّ شيءٍ فَلاَ يسْتَطِيعون فِعْلَ أيّ شيءٍ يشاؤون، والغرضُ تَذْكيرُهُمْ بالْأَحْوَال الّتي كانوا مَعَها في الحياة الدنيا، حياةِ البتلاء، مُمَكَّنينَ من مُعَانَدَةِ رَبّهم ومَعْصيته، ومُمَكَّنينَ من مُقَاومَةِ دَعْوَةِ رَسُوله، واضطهادِ الذين آمنوا به واتَّبَعُوه.

الكَيْدُ: الحيلة، والحربُ وإعداد وسائلها وأسلحتها ودفاعاتها، وكُلُّ تدبير ظاهِرٍ أو خفِيٍّ بحَقّ أو بباطل، وفيه مكرُوهٌ لمَنْ دُبّر ضدّه، وكُلُّ تَدْبير يحقّق لصاحبه النَّصْر أو النجاة.

والمعنى: فإنْ كَانَ لَكُمُ اليوم كَيْدٌ تَنصُرُونَ به أنفُسَكُمْ، أَوْ تُنجُونَ بِهِ أَنفُسَكُم من عذاب ربّكم الّذي كفَرْتُمْ به وبرسُوله وبكتابه، أوْ تحارِبُونَه به، فافعَلُوا. ولَنْ يَسْتطيعوا أيّ كيد.

جاء في العبارة استعمال حرف الشرط «إنْ» للإشارة إلى أَنَّهُمْ يكونُون عاجِزين، فهي في الغالب تُسْتَعْمَلُ في المستحيل، أوالمتعذّر، أو فيما هو مشكُوكُ فيه ومستَبْعَدُ الوقوع، وقد استعملَتْ هُنَا في المستحيل، فالمتحدّي هو الرَّبُّ الخالِقُ الذي لا حول ولا قُوَّة إلاَّ به.

وحُذِفَتْ يا المتكلّم من ﴿فَكِيدُونِ﴾ بحسب قراءة جُمْهورِ القرّاء العشرة إيجازاً، وحَذْفُها مَألُوفٌ في الاستعمالاتِ العربيّة، وكثيرٌ جدًا في القرآن. وأُثبِتَتْ هذه الياء في قراءة يَعْقُوب مُراعاةً للأصْل.

إنَّهم يوم الدين عاجزون عن فعل أيّ شيءٍ ممَّا كانوا يَفْعَلُونه في الحياة الدنيا، لا يملِكُون إلاَّ تَلَقِّي ما يَقْضِيه اللَّهُ عزّ وجلّ علَيْهم، أوْ فيهم، لَقَد انْتَهَىٰ دَوْر الابتلاء، وجاء دَوْرُ الجزاء.

وعند هذا المفصل البياني جاء موقع تكرير العبارة العلاجيَّة التي فيها تحذير وتهديد ووعيد، والمختارة لهٰذه السورة بفَنّيّةٍ رائعةٍ، فقال اللَّهُ تَعالَىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

قول اللّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

من الأسلوبِ التربَويّ النافع في القرآن الكريم، أنّه إذا جاء فيه بيَانُ

جَزَاءِ الكافرين المكَذّبين، أو جزاء الْعُصَاة والمذنبين، أُتْبِعَ ببيان ثواب المتقين وَأهل الاستقامة والطاعة، والعكس كذلك.

وتمشّياً مع هٰذه الطريقة التربوية الحكيمَةِ، جاءَتْ هذه الفِقْرة من فِقَرات هذا الدرس الرابع الذي نَتَدَبَّرُ آياته، لتقدّم صورة من صور نعيم المتقين والأبرار والمحسنين.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾: جاءت هذه الجملَةُ مؤكَّدَةً بمؤكّدَيْن: «إنَّ» و«الجملة الاسميّة» كما يَقُول عُلَمَاءُ البلاغة.

المتَّقُون: هم أهْلُ مَرتبة التقوىٰ على تفاضل دَرَجاتهم.

التقوى في اللغة: أن تجعل بينك وبين ما تحذَرُ من مكروه وقايةً بفعل أو ترك، ففعلُ الواجباتِ يقي عقوبة تركِها، وتركُ المحرَّمات يقي عقوبة فعلها.

ومَرْتبة التقوى ذات درجات، وأدنىٰ درجاتها أنْ يتّقي المـمْتَحَنُ المكلّف الخلودَ في عذاب النار يوم الدين، بإيمان ينجيه من هذا الخلود، وتَرْتَقِي الدرجات بمقدار أدائه الواجبات، واجتنابه المحرَّمات، وأعْلَىٰ دَرَجَةٍ من درجاتِ هذه المرتبة، هي درجة مَنْ يُؤدّي كُلَّ الْوَاجبات، ويَجْتَنِبُ كلَّ المحرّمات، وقد يحْتَلُّها مَنْ يغفِرُ اللّٰهُ له خطاياه الّتي ارْتَكَبَها بِتَرْكِ واجباتٍ، أو فِعْلِ مُحَرَّمات، إذا عَلِمَ اللّٰهُ بحِكْمَته أَنَّهُ أَهْلٌ لأَنْ يحتلّها، كأَنْ يَتُوبَ ويَسْتَغفر، أو يفعل من النوافل ما يمْحُو به الخطايا، فالحسنات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات بفَضْل اللّٰه وغُفْرَانِه وعَفْوه.

وتأتي «مَرْتَبةُ البِرّ» فَوْقَ مَرْتَبَة التقوىٰ، وهِيَ أيضاً ذَاتُ دَرَجَاتٍ كثيرات، ويَرْتَقي في درجات هٰذه المرتبة من يَتَوَسَّعُ في فِعْلِ النَّوافِلِ من الصالحات الّتي رغَّبَ اللّٰه فيها دون إلزام، ورتَّبَ على فِعْلِها ثواباً جَزِيلاً للمتطوّعين، دون أن يرتّب عقاباً على تاركيها.

ويَرْتَقِي في «مرتبة البرّ» الأبرار، وهم يتفاضَلُونَ بحسَب توسُّعَاتِهم في فعل النوافل ابتغاء مرضاة اللّه، ولا يكون الارْتقاء في هذه المرتبة إلاّ بَعْدَ اسْتِيفاء حقوق مرتبة التقوىٰ، في نوع العمل الذي يُؤَدّي فيه المؤمن النّوافلَ تبرُّراً.

وتأتي «مرتبة الإحسان» فَوْقَ «مَرْتبة البِرّ» وهي ذَاتُ درجاتٍ كثيراتٍ أيضاً، والإحْسَانُ يكُونُ بأنْ يَعْبُدَ العبْدُ رَبَّهُ كَأَنَّه يَراه، فَهُو إتْقانٌ في عَمَلِ العبادة مع غاية الإخلاص للّه عزّ وجل، وابتغاء مرضاته.

ويرتقي في «مرتبة الإحسان» المحسِنُونَ، وهم يتفاضلون على مقادير إحسانهم في عباداتهم لربّهم، وابتغائهم رضوانه، ولا يكون الارتقاء في هذه المرتبة إلاّ بعْدَ اجتياز مرْتبة التقوى فمرتبة البرّ في نوع العمل الذي يؤدّيه العابد لربّه.

وأهل هذه المرتبة المرسلون والأنبياءُ ويَصِلُ إلى بعض درجاتها الصّدِّيقُون والشهداء والصالحون من المؤمنين المسلمين لله ربّ العالمين من غير الأنبياء والمرسلين.

﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾: أي: في جنَّةٍ ذَاتِ ظِلاَلٍ وذاتِ عيون تجري منها أنهار، وقد جاء في غير هذا النَّصّ بيَانُ أنّ أنهار الجنَّةِ متنوعة، فمنها أنهار مياهِ شديدة العذوبة، ومنها أنهارٌ من لَبَنٍ، ومنها أنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّىٰ، ومنها أنهار من خَمْرٍ لذَّةٍ للشّاربين، لا غَوْلٌ فيها، ولا هم عَنْها يُنْزِفُون، أي: يَسْكَرُون.

ذِكْرُ الظِّلاَل كنَايةٌ عن وُجُودِ قُصُورٍ وأشجارٍ باسقات تُغطي ظلاًّ دائماً. واستعمال الجمع«ظلال» يَدُلُّ على أنها ظلاَل متنوعة من أشجار وقصور كثيرة الأنواع، على خِلاَفِ ظلّ الدخان الذي يكون لأهل النار.

وذكر العيون كنايةٌ عن وجود أرْضٍ تتفجَّرُ فيها هٰذه العيون.

وكُلُّ ذَلك كناية عن الجنَّةِ الّتي أعَدَّها الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ لسُكْنَىٰ المتّقين

الخالدين فيها يوم الدِّين، ولسكنىٰ الأبرار والمحسنين، فهم متقون وفوق المتقين.

وظاهرٌ أنّ استخْدَام هذه الكنَايات هو من أساليب البيان غير المباشر، وهو من أساليب البلغاء الرفيعة.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾: وذاتِ فَوَاكه مُثِيرَةٍ لشهواتهم، ومُلَبِّيةٍ لرَغَبَاتِ شَهَواتهم أن يَأكُلُوا منها، متَنَعِّمين.

[فَوَاكِه] جمع «فاكهة» وهي تُطْلق في اللُّغة على كلّ الثَّمَر، ومنه: «التَّمْرُ والعِنَبُ والتّين والرُّمَّان» إلى سائر ثمرات الأشجار اللّذيذة المثيرة لشهوات الآكلين.

﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾: أي: من جُمْلَة ما يشتهون أنْ يتَنَعَّمُوا به في الجنة. «مِنْ» في «مِمّا» للتَّبعيض. وفي هذا إشارة إلى مشتَهَيَاتٍ أخرىٰ لا تُحْصَرُ ينَعِّمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بها أهل دار كرامَتِه.

في مقابل بيان أوْصاف مكان المكذبين في جَهَنَّم يوم الدِّين، بأنَّهم يكونون في ظلٍّ ذي ثَلَاثِ شُعَبٍ، لا ظليلٍ ولا يغني من اللَّهَب، إذْ يكونُ من يحْمُوم، وهو دُخانُ نَارِ جهَنَّمَ الأسْود.

جاء بيان صفات مكان المتقين في الجنّة يوم الدين، على طريقة مقابلة الأوصاف بأضدادِها من أجناسها، فالمتَّقون في جنَّةٍ ذاتِ ظلالٍ وعيونٍ مُتَدَفِّقة بالمشارب، فهي ظِلالٌ باردَةٌ وكريمة، مع مُرافقَاتٍ تنعيميَّة أخْرَىٰ.

وعبارة [في ظلال] وما عطف عليها، تُشْعِرُ بأنَّ المتَّقين مُحَاطُونَ بوسائِلِ نعيمهم إحاطة الظَّرْف بالمظروفِ فيه.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾: حَدَثٌ مُسْتَقْطَعٌ من أحداث

ما سَوْفَ يكُونُ للمتقين في جنَّاتِ النعيم، وهذا الاستقطاع من أحداث المستقبل، وتَقْدِيمُهُ في البيان الحاضر، من الْفُنون البيانيَّة القرآنيَّة البديعَة.

ويُفْهَمُ عن طريق اللّوازم الفكريَّة، أَنَّ المتقين في جنَّاتِ النّعيم يُقَالُ لَهُمْ هذا الْقَوْل على سبيل التكريم.

أي: كُلوا ممَّا تَشْتَهُونَ من الفواكه، واشْرَبُوا ممّا يلَذُّ لكُمْ من الْعُيُون، بإباحَةٍ تامَّةٍ لا حَجْرَ مَعَها وَلاَ غُصَّة، حالَة كَوْنِ مَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَشْرَبُون هَنِيئاً.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أو [هَنِيًّا]: أي: سائغاً لذيذاً. يُقَالُ لُغَةً: هَنِيءَ الطعامُ أَوِ الشرابُ يَهْنَأُ هَنَأً وَهَنَاءَةً، أي: سَاغَ وَلَذَّ.

السائغ: هو الذي يمُرُّ في الْحَلْق سَهْلاً طيّباً مستَمْرَأً.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: بسبب ما كنتم تَعْمَلُون في الحياة الدُّنيا من عمل صالح مُسْتَنِدٍ إلىٰ إيمانٍ صحيح صادق، ومصحوب بابتغاء مرضاة ربّكُم.

في هذه العبارة زيادَةُ تكريم لأَهْل دار النعيم يوم الدين، مع التذكيرِ بِصِدْق وعد اللّه الكريم، فالإشعارُ بأَنَّ ما هُمْ فيه قَدْ تحقَّقَ لَهُمْ بسبب ما كانوا يَعْمَلُونَ، فيه غايَةُ المبالغة في تكريمهم، مع أَنَّ ما هُمْ فيه إنَّما هو بفَضْل اللّهِ عليهم، أمّا أعمالهم في الحياة الدنيا فهي لا تكفِي لشُكْرِ ما أنعَمَ اللّهُ عليهم به فيها، ودُخُولُهُمْ الجنَّةَ ونَعِيمَها قَدْ كانَ بمَحْضِ فَضْل اللّه علَيْهم.

ونظير هذا ـ وللّهِ المَثَلُ الأَعْلَىٰ ـ أنْ يضَعَ الْمَلِكُ أَوْ صاحِبُ فَضْلٍ عظيم، جائزَةً كبيرةً جدًّا، لصاحب الجواد الفائز في حلَبَةِ السِّباق، أو لصاحب أجمل قَصِيدَةٍ غزليَّة، أو لأوّل داخلٍ إلى مائدَتِه وآكلٍ منها.

فالدُّخولُ إلى المائدة والأكْلُ مِنها دَعْوَةٌ لتناوُلِ فَضْل الداعي، والمكافَأَةُ بالجائزة العظيمة هي أيضاً من فضله، وهكذا الدُّخولُ في الإيمان والإسلام، والمكافأَةُ عليه بجنّاتِ النَّعيم يوم الدين.

وجاء في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) بيَانُ أنّ المتقين في جنّاتِ النعيم، وأنّهم يقالُ لهم يومئذٍ:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

مع إضافات لم تأتِ في سورة (المرسلات) من نعيم أهل الجنّة.

وجاء في سورة (الحاقَة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بيان أنَّهُ يقال لهم يومَئذٍ:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

- قوله تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

يتحدَّثُ رَبُّنا في هٰذِه الآيَةِ بضَمِير المتكلّم العظيم، فيُبيّن أنَّهُ يجزي المحسنين وهم أهْلُ مَرْتبة الإحسان الْعُلْيَا، جزاءً مُمَاثلًا لجزاء المتقين، أيْ: مَعَ ما يُفَضّلُهُمْ به من جزاءٍ أعْلَىٰ، فما يُعْطِيهم من جزاءٍ أَعْلَىٰ لاَ يُوقِفُ عَنهُمْ ما دُونه مِنْ جزاء المتقين، إذْ هُمْ مُتّقُونَ أوّلاً، وارْتَقَوْا عَنْ مَرْتَبَةِ المتقين إلى مَرْتَبَةِ الأبرار، ثُمَّ ارْتَقَوْا إلَىٰ مَرْتَبَةِ المحسنين، فاكْتَسَبُوا بذلِكَ جزاءاتِ المرتَبَتَيْن الدنيا والوسطى، مع جزاءات الدَّرَجَةِ الّتي يكونون من أهلها في مرتبة الإحسان.

واقتصر النصُّ على ذِكْرِ المتقين أهل المرتبة الدنيا، والمحسنين أَهْلِ المرتبة العليا، لتُدْرِكَ عن طريقِ اللُّزُوم الذّهنِيّ والدَّلاَلات الفكريَّةِ أنَّ الأبرار وهم أهل «مرْتَبة الْبِرّ» ينالون في الجنة حظوظ مرتبة المتقين، لأنَّهُمْ مُتّقُونَ وزِيادَة،

وينالون أيضاً حظُوظاً أخرىٰ مخصَّصَةً للأبْرار بحسَبِ دَرَجاتهم في «مَرْتَبَةِ الْبِرّ».

وهذا من الإيجاز البديع في القرآن، الذي يَعْتَمِدُ على ذكاء المتلَقِّين الذين يتدبَّرُونَ النُّصُوصَ القرآنيَّةَ بأناة وتعَمُّقٍ.

وعند هذا المفصل يَأتي تكرير لازمة السُّورَةِ أمْراً مُحْكماً، فَيَقُول اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾.

* * *

(١٠)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُروس السورة

الآيتان (٤٦ ـ ٤٧)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾.

الْتِفَاتٌ بالخِطَاب، من الحديث عن المتقين، ووصْفِ بعْضِ ما سَوْفَ يكُونون فيه من نَعِيم يَوْم الدِّين في الجنّة، إلَىٰ مُوَاجَهة الكَفَرَةِ المكَذِّبين وهم ما زالُوا في حياة الامتحان في الدُّنيا.

إنّ فنّيَّةَ التنقُّل في الْخِطَاب بين حيَاتَي الابتلاء والجزاء، من البدائع القرآنيّة الّتي لم تُعْرَفْ عندَ الْبُلَغاءِ قبْلَ نزُول القرآن، وهذا الْفَنُّ الجميل من عناصر إعجاز القرآن المبتكرة.

إنَّ اللّه عزّ وجَلَّ يَقُولُ في هَـٰذَا الدرس من دُروسِ السورة للكَفَرَةِ المكذِّبين:

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾: أي: كُلُوا ممَّا خلَقْتُ للنّاسِ من

رزقٍ في الحياة الدّنيَا، في الأرْض دار الابتلاء، واشْرَبُوا ممَّا جَعَلْتُ فيها للناس من مشارب، وتَمَتَّعُوا بشَهواتها، ولذّاتها، ولَهْوِهَا ولَعِبها وَتكاثُرِها وتفاخُرِها وزِينَاتها، متاعاً قليلاً، في الكمّ وفي الكيف، وقَلِيلاً في الدّوام، إذْ هو متاعٌ ضئيل المقدار، وسَرِيع الزّوال.

المتاع: ما يُنْتَفَع به والفناءُ يأتي عليه في الدنيا.

وقد وصف اللَّهُ كلَّ ما في الدّنيا بأنَّهُ متاع قليل، لأنَّهُ قليل فِعلاً بالقياس على الخلود الذي يكون في الحياة الأخرى.

وقد جاء وصْفُ محّابّ الناس من الحياة الدنيا بأنّه متاعٌ قليل في عدّة نصوص قرآنية، وفي عِدَّة مناسبات، ومنها النُّصوص التالية:

(١) قول اللّه عزّ وجلّ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) معالجةً تَرْبويَّةً للمؤمنين الذين كرهوا الدّخول في معارك قتاليّة مع الكافرين:

﴿. . .قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

الْفَتِيل: الخيط الذي يكُونُ في شقِّ نُواة التّمر.

(٢) وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

(٣) وقول اللّه عزّ وجل في سورة (الرّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) بشأنِ أهل النار، الّذين لهم اللَّعْنَةُ ولهم سُوءُ الدّار:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وما الحياة الدنيا في جنْبِ الآخِرَة وبالقياسِ عَلَيْها إلاَّ مَتاعٌ سَريع الزَّوال، وعُرْضَةٌ للْفَنَاء.

أمّا مَا في الجنة من جزاء فسمَّاه اللَّهُ عزّ وجلَّ في القرآن نعيماً مقيماً دائماً لا زوال له.

وفي قول اللّهِ عزّ وجلّ خطاباً للمكذبين وهم ما زالوا في ظروف الحياة الدنيا: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ بيانٌ لإمْهَالِهِمْ مع إشارةٍ ضمنيَّةٍ فيها تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيد، إذْ فيها إشعارٌ لَهُمْ بأنَّهم تَحْت المراقَبَةِ الدّائمة، وبأنَّ تمتُّعَهم بما يُحِبُّونَ من الْحَياة الدُّنيا خاضِعٌ لقضاء اللَّه وقَدَرِه، ضِمْنَ ظُرُوف امتحانهم.

وحكَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ عليهم حُكْماً وِجَاهياً خاطبهم فيه بقوله لهم: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: إنَّكُمُ الآنَ مُجْرِمُون، ما لَمْ تُقْلِعُوا عمّا أنتم فيه بالتوبة والإيمان والإسلام والعمل الصالح. أمّا إذا بقيتم مُصِرِّين على كُفْركم وتكذيبكم على الرُّغم من كلّ البيانات الإقناعيَّةِ والتَّرغيبيّة فإنَّكم ستظَلُّونَ مُجْرِمين، وستأتُون يَوْمَ الدّين مُجْرِمين، ويَنْطَبق عليكم أنّكُمْ مُكَذِّبون، وتَسْتَحِقُّونَ الدُّخول في وعيد:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

هٰذه اللاّزمَة المختارة لِتَكْرِيرها عنْدَ مَفاصِلِ السُّورَةِ بِفَنِّيَّةٍ بديعة.

الْجُرْمُ والْجَرِيمة في اللّغة: الذّنْبُ والتعدي. يقال: جَرَمَ وأجْرَمَ واجترم، أي: اكتسب إثماً.

الْمُجْرِمُ: هو المذْنِب ذنباً عظيماً، وقد جاء لفظ «المجرمين» في القرآن عنواناً مُقَابلاً لعنوان «المسلمين» ووصفاً للكافرين الّذِين أهْلَكَهُمُ اللّه عزّ وجلّ في الدنيا، ووَصْفاً للمعذبين في النار، وهذا يَدُلُّ علَىٰ أنَّ الْمُجْرِمين في الاصْطِلاح القرآني هم الذين يرتكبُون الآثَامَ من مستوىٰ

الكفر، ولهٰذا فَهُمْ من أهل النار الخالدين فيها. وهذا المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن أصل المعنى اللّغوي الذي هو قطع الشيء من أصله.

ومن الأدلة على هذا المعنَى الاصطلاحي ما يلي:

(١) قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟!

(٢) وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ولمَّا كانت خواطر كثيرةٌ مُزَلْزِلةٌ تَشغَلُ بعْضَ المؤمنين، إذْ يَرَوْنَ الكافِرين المجرمين ذوي مالٍ وسلطانٍ وقُوّةٍ أحْيَاناً، وتَقَلُّبٍ في بلاد الدنيا بحُرّيَّةٍ واستمتاعٍ بما يُحِبُّونَ، فَتَغُرُّهُمْ هٰذِهِ الظّواهِرُ، وتُوسْوِسُ لهم شياطينُ الإنْسِ والجِنِّ وَساوس شَتَّىٰ، قد تُزَلْزِل ما لديهم من ثوابت إيمانيَّة، كان من الحكمة العلاجيَّة أن يخاطب اللّه عزّ وجلّ كُلَّ مُؤمِنٍ ومُسْلِمٍ خِطَاباً إفرادياً، فيَقُول لَهُ كما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

أي: كُلُّ ما في الدُّنيا من لَذَّاتٍ يُصِيبُها النَّاسُ، وتَحقيقِ شهوات، وإرْضاءِ أهواء، مَتَاعٌ قليل، ضئِيلُ القِيمَةِ، سَرِيع الزّوال.

مَأْوَاهُمْ: أي: مَنْزِلُهُمُ الذي ينزلون فيه يوم الدين، ومَكانُ إقَامَتِهِمُ الذي يقيمون فيه. **المأوى**: المنزلُ الذي يُنْزَلُ فيه ويُسْكن.

جَهَنَّمُ: اسْمُ علَمٍ من أسماء دار العذاب يوم الدّين، ويقال للقَعْرِ البعيد في اللُّغَة: «جهَنَّم».

الْمِهَادُ: الْمَكانُ الْمُمَهَّدُ الموطّأ، وأطلَقَ اللّه على مكان الذين كَفَرُوا في جهنم لفظ «الْمِهادِ» على سبيل التهكّم بهم، إذْ هو مُعَدٌّ لتعذيبهم لا لتكريمِهِمْ، ولهذا قال اللّه بشأنه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: وبئْسَ المكان المعَدُّ لهم فيها. بئْسَ: فعل ذَمٍّ، والمعنى: بئس المهادُ مِهَادُهم.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة

الآيتان (٤٨ ـ ٤٩)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذا الدرس الْتِفَاتٌ عن خِطَاب الكَفَرَةِ المكذّبين، إلى الحديث عنهم بضمير الغائبين.

رُوِيَ أنّ هذا الدَّرْسَ من التنزيل المدنيّ، وأرى أنَّ السِّبَاق والسِّياق يَدُلاّن على أنَّه من التنزيل المكّيّ، فالظاهر أنه لم يتأَخَّرْ عن نزول السّورة، واللّه أعلم.

الرُّكُوع: هو في اللّغة الانحناء، وأقْصاهُ أَنْ تَمَسَّ الركبتان الأرض. والرُّكوع الشرعيُّ في الصلاة هو الانحناء بعْدَ القيام حتى توضع الراحتان على الرُّكبتين.

هذه العبارة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فيها كنايةٌ عن كِبْرِهِمْ، حتّىٰ على خالِقِهم، وبارئهم، ورازقهم، ومن بيده حياتُهم وموتُهم، وهو الّذي وَضعهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ليخْتَبِر ما منحهم من

إرادةٍ حُرَّةٍ بالإيمان والعمل الصالح وأضدادهما، فَهُو مالِكُ مُحَاسبتهم وفصْل القضاءِ بشأنهم ومجازاتهم يوم الدين على اختياراتهم في الحياة الدنيا.

واختير الرُّكوعُ دون السُّجُودِ لأنَّه أدنىٰ الخُضُوع الماديّ للّه عزّ وجلّ في عبادته.

ولو جاء في الآية السجودُ بدل الرُّكوع لكان محتملاً للدّلالَة على أنَّهم أنْصَاف متكبّرين، فهم قد يركعون ولكنّهم لا يَسْجُدون.

إنَّهم لا يكْتَفُونَ باتّباع أهوائهم وشهواتهم عُصَاةً فاجرين، يرتكبُونَ الآثام من الكبائر، بل هم مستكبِرونَ أيضاً على ربّهم، فلو لم يكُنْ لهم شهواتُ بُطُونٍ وفُروج، وجَاهٍ وزعاماتٍ، ولَعِبٍ ولَهْوٍ، وتعلُّقٍ بزُخْرُف الحياة الدنيا، وحُبٌّ للتكاثر والتّفاخر، لَمَا خَضَعُوا لبارئهم أدْنَىٰ خُضوع، لأنّهم في نُفُوسهم مستكْبِرُونَ، وكِبْرُهُمْ جعَلَهم يرتكِبُون أقْبَحَ الحماقاتِ وأخَسَّها.

وفي مقابلَةِ إدْبارِهم وتولّيهم عن الاستجابة لدعوة اللّه لهم لمَا فيه سعادَتهم في دُنياهم وآخِرَتهم، تَوَلَّىٰ اللّهُ عنهم، فتَحَدَّثَ عَنْهُمْ بضمير الغائبين، الّذِين لا يستحقُّون مواجَهتَهُمْ بالخطاب، فقال تَعالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ومن حِكَم هذا الالتفات عن مخاطَبَتِهم أنّ الرُّكوع المطلوب منهم، إنّما هو لَهُ سُبْحَانه، وهُو الذي يتحدَّثُ عنهم.

وعند هذا المفْصِل من السورة كانَ من المناسب تكريرُ لازمتها المختارة للتكرير العلاجي، فقال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

* * *

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس السورة

الآية الأخيرة من آيات السورة وهي الآية الخمسون

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!!.

الحديث: الكلام الهادئ الّذِي يتكلّم به المحدّث في مجلس متكافئ بينه وبين من يستمع إليه، فلا يَشْعُر المستمع بأنّه في موقع الأدنَىٰ الذي يتلقَّىٰ من الأعلى، بل يَشْعُرُ بأنَّهُما على سواء، في التَّلقِّي والعطاء.

بخلاف عَمَل الخطيب، أو الْمُعَلِّم، أو المدرّس، أو من يلقي محاضرة، أو الآمِرِ النَّاهِي، أو الشّاعر، أو نحوهم.

والحديثُ أكثر الكلام قبولاً وتأثيراً في النفوس البشرية، إذْ لا يُواجِه عقَبةً صادَّةً في الغالب من الأحوال، ولا يُواجه نُفُورَ مستَكْبِرٍ يَرْفُضُ تلَقِّيَ الْعِلْمِ من مُعَلِّم.

ولهذا وصَفَ اللَّهُ كلامَهُ لعباده في كتابه بأنَّهُ مِنْ نَوْع الحديث، وأرْشَدَ بهذا الوصْفِ الدُّعَاة إلىٰ دين اللّه بأنْ يكونوا مُحَدِّثين، حتَّىٰ تكُونَ دَعْوَتُهم أوْقَعَ في نُفوس مَنْ يُوجِّهون لَهُمْ الدَّعْوَة.

فخاطب المشركين الذين كَفَروا باللّه ورسوله بقوله في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

وقد أدْرَكَ أئِمَّةُ الضلال المعاصرون في الأرض قيمةَ تأثير الحديثِ الهادئ، فيمن يُوجَّه لهم، فأوصَوْا جنُودَهم بأن يستَخْدِموا أسلوب الحديث الفردي، أو في جماعات صُغْرىٰ، لإقناع الناس بأفكارهم، ومذاهبهم، وضلالاتهم، فقدّمَ لهم استخدامُ هذا الأسلوب تأثيراتٍ كثيراتٍ، وجلَبَ إلَىٰ صُفُوفهم وتكتُّلَاتهم قُطْعاناً بشريَّةً كثيرة.

أمّا ختم سورة (المرسلات) بقول اللّه عزّ وجل:
﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾؟!!

فمعناهُ: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ آخر يؤمنون بَعْد هذا الحديث البيانيّ الإقناعيّ، والترغيبيّ، والترهيبيّ، الّذي اشتملت عليه هذه السّورة، والكافي تماماً لهداية من هو مستعدٌ للهداية، فلا يَرْفُضُها ولا يَرْفض التصديق بالحق الذي هدَتْ إليه، إلاّ جَحُودٌ معانِدٌ مُجْرم.

إنّ هذا الحديث قد حاصرهم محاصَرةً تامَّةً فكريَّةً عقليّةً منطقيَّة، ومحاصرةً نفسيَّةً من مِحْوَرَي الخوف والطّمع، فإذا لم يؤمنوا تأثراً به فَمِنَ المستَبْعَد أن يكون لدَيْهم استعدادٌ لأنْ يؤمِنُوا بالرَّسُول وبالقرآن وبيَوْمِ الدين تأثُراً بأيّ حَدِيثٍ بَعْدَه.

ماذا يَطْلُب الحريصُ على نَجَاةِ نَفْسه وسعادتها، أكْثَر من حدِيث مُوَجَّهٍ لمصلحته، مُشْتَمِلٍ على ما يُقْنِعُه بالْحَقّ، ويُخَوّفُهُ من الخلود في العذاب الأليم، ويُرغبه في النعيم المقيم، بجنّاتِ رَبّ العالمين.

إنّ إصراره على التكذيب بعد هذا الحديثِ لا يكُونُ إلاّ ناشئاً عن عنادٍ وإصرارٍ على الباطل بحمَاقَةٍ طاغية، وعن اتّباعٍ للهوىٰ ورغبات الفجور، والتعلُّق الشديد بارتكاب الجرائم والآثام.

والاستفهام في هٰذه العبارة اسْتِفْهامٌ تعجيبيٌ منْ أمْرِ المكذّبين الذين يستحقّون الدُّخُولَ في وعيد:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮﴾.

ومثل هذه العبارة قد جاء في موضعين آخرين من القرآن المجيد:

الموضع الأول: ما جاء في سُورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بَعْدَ بياناتٍ إقناعيَّةٍ وتَرغيبيَّةٍ وتَرْهيبيَّة، وهو قول الله عزّ وجل فيها:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ⑱⑤﴾؟!!.

الموضع الثاني: ما جاء في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول) وهو قول الّه عزّ وجلّ فيها:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ⑥﴾؟!!

إنّه لا يوجد للإقناع بالغيبيَّات إلاّ الآيات الكونية ذوات الدلالات العقلية، والبيانات الكلامية الإقناعية والترغيبيَّة والترهيبيّة، فمن لم يؤمن بالآيات الكونية، ولا بالبيانات الكلامية، فلا سبيل إلى تحويله من الكفر إلى الإيمان إلاّ بالجبر، وهذا ينافي الابتلاء.

* * *

(١٣)
تلخيص ما اشتملت عليه السُّورة

تلخيصٌ جامع لما اشتملت عليه سورة (المرسلات) في الفقرات التاليات:

(١) الاستدلال بظاهرة كونيّة عظمَىٰ هي ظاهرة الرّياح، إذْ هي تدلُّ على الخالق الجليل، وجُمْلَةٍ من صفاته السنيَّة، بأسلوب القَسَمِ بها على أنّ

يوم الدّين حقٌّ لاَ شكَّ فيه، إذْ هو من عناصر برنامج خلق الناس للابتلاء، فالحساب، ففصْل القضاء، فتحقيق الجزاء.

(٢) بيان أحداثٍ تفصيليَّةٍ هي من مقدّماتِ يوم الدين، ومن العلامات الموطئة له.

(٣) الاستدلال بإهلاك المجرمين السَّابقين الّذين كذّبوا المرسلين، على قانون الجزاء الرَّبَّاني.

(٤) الاستدلال بخلق الإنسان من ماءٍ مَهينٍ على قُدْرَة اللّه العظيمة وحكمته الجليلة. ومن لازم الحكمة ومقتضياتها قانون الجزاء.

ومن الأمور البدهيّة أنّ القادر على بدْءِ خلق الإنسان ولم يكُنْ شيئاً مذكوراً، قادرٌ على إعادة خلقه بعْدَ موته، ليحاسبه، وليفْصِل القضاء بشأنه، وليُجازيه.

(٥) الاستدلال بدَوْرة الحياة والموت من الأرض وإلى الأرض، على صحّة خبَرِ البعْثِ للحساب وفَصْل القضاء والجزاء، الأمْر الذي جاءت به رسَالاتُ اللّهِ للناس، على ألسنة رُسُلِ اللّه، وبيَّنَتْهُ الكُتُبُ الرَّبَّانيّةُ بصُورَةٍ صَريحَةٍ لا غُموض فيها.

(٦) عَرْضُ صُورَةٍ تَرْهيبيَّة مخيفةٍ جدّاً، من مشاهِدِ عذاب المكذّبين، في جهنَّمَ دَار المجرمين يوم الدين.

(٧) عَرْضُ صورَةٍ تَرْغيبيَّةٍ مُطْمِعَةٍ من مشاهد نعيم المؤمنين المتقين في جنَّاتِ النّعيم، يوم الدّين.

(٨) التهديدُ بالعاقبة الوخيمة للمكذّبين، بَعْدَ الإمْهَالِ الّذي هُمْ فِيه، ليقْطَعَ اللّهُ بِهِ أعذارَهم، ولعَلَّ بعْضَ الّذِين يجتازون رِحْلَةَ النَّزَوَاتِ الرَّعْناء منهُمْ، أنْ يَتُوبُوا إلى بارِئهم فيَكُونُوا من الناجِينَ المغْفُورِ لهم، وهُمُ الذين لَدَيْهم استِعْدادٌ للتوبَةِ والرَّجْعَةِ إلى الحقّ والْهُدَىٰ، ولكنَّ

غِشَاوَاتِ الأهواء والشهوات ورُعُوناتِ نَزَعاتِهم الحمقاء حَجَبَتْ عَنْ بَصَائِرِهِمْ رؤيَةَ الحقّ، والانتفاعَ بأنوار الهداية.

(٩) مخاطبةُ المكَذّبين بحقيقة حال نُفُوسِهم المجْرِمَة، ببيَانِ أنّ تكذيبَهُمْ ناتجٌ عن رغبات الإجْرام الجامحة الّتي فيهم، فَهُمْ مُجْرِمُون راسِخُونَ في الإجرام، ولَيْسُوا واقِعِين في عوارضِ أهواءٍ ونزواتٍ عابراتٍ في حياتهم.

(١٠) بيانُ أنّهُم مستكْبِرُونَ حتّىٰ على بارئهم، فَهُمْ إذا قيل لهم: ارْكَعُوا لِلّٰهِ الّذِي خلقَكم وصوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ لاَ يَرْكَعُونَ، فضلاً عن أن يَسْجُدوا له، أو يُطِيعُوا أوامره، أو يجتَنِبُوا نواهيَهُ، على خلاف رغبات نُفُوسِهم وأهوائهم وشهواتهم ونزعاتهم، ونزغات الشياطين الذين يوسوسون لهم ويُسَوّلُون.

(١١) خَتْمُ السُّورَة باستفهامٍ تعجيبيّ من المكذبين، فيه معنَىٰ نفْي أن يكون لَدَيْهم بَعْدَ بيانات السُّورَةِ العلاجيّة وإصرارهم على التكذيب، استعدادٌ للإيمان والإسلام بتأثير أيِّ حَدِيثٍ آخَرَ بَعْدَه.

وهكذا جَمَعَتِ السُّورَةُ بعناصِرِها كُلَّ ما يلْزَمُ للوحْدَةِ الموضوعيَّةِ، ضِمْنَ الْمَنْهَج الشَّجَريّ المتَّبَع في السُّوَر القرآنيَّة، والقائم على العلاج الشامل للمقصودين بالخطاب، فكريًا، ووجدانيًا ونَفْسِيًا، دُونَ التزام بصِلَةِ كُلِّ آيَةٍ بالَّتي قَبْلَها، فقد تأتي آيَةٌ أَوْ عِدَّةُ آيَاتٍ منها مُشْتَقَّة مِنْ سَاقِ شجرة موضوع السُّورَةِ، أو متفرّعَةً من أَحَدِ فُروعها، أو موصُولَة بجَذْرِها مباشَرَة.

وبهذا تَمَّ لي تَدَبُّر آيَات السُّورة على قَدْر وعائي، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

* * *

(١٤)
ملاحق لتدبُّر سورة المرسلات

الملحق الأول: حول بلاغيات في السّورة.

الملحق الثاني: حول الرياح في القرآن المجيد.

الملحق الثالث: حول القسم بالمرسلات.

* * *

الملحق الأول
حول بلاغيات في سورة المرسلات

توجد في سورة (المرسلات) بلاغيّاتٌ محكمات الاختيار، ومنها روائع مبتكرة لم يكن البلغاء قد توصَّلُوا إلى إدْراكها في روائعهم الشعريّة والنثريَّة، ولولا القرآن المجيد لما عَرَفُوها، أو لتأَخَّرَتْ معرفَتُهم لَهَا جدًّا.

وأذكر من هذه البلاغيات ما يلي:

(١) تأكيد الخبر بالقسم بأشياء هي بمثابة الأدلّة على تحقُّق المقسم عليه، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ وما بَعْدَها، والْمُقْسَمُ عليه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

(٢) تأكيد الخبر بأدَواتِ تأكيدِ مُرَاعَاةً لأحوالِ المخاطبين:

- بحرف التأكيد «إنَّ» وباستخدام «الجملة الاسميّة» في: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢﴾ وفي: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١﴾.
- التأكيد بتكْرير عبارة الوعيد في: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

(٣) الكنَاية عن الأشياء بذكر بعْضِ صفاتها دُون الألفاظ الخاصَّةِ بها، وهو من استخدام الأسْلُوب غير المباشر في القول، ونجد هذا في:

- الكناية عن الرّياح بذكر بعض صِفاتها، في: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾.

- الكناية عن الجبال بذكر بعض صفاتها، في: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ . . . ﴿٧﴾﴾.

- الكناية عن مكان المكذّبين في جهَنّم بذِكْر بعض صفات نُزُلهم فيها: في: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴿٣١﴾﴾.

- الكناية عن الجنّة بذكر بعض ما يكون فيها من نعيم للمتقين، في: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

(٤) اقتطاعُ الأحداث ممّا سوْفَ يكونُ يَوْمَ الدّين، وتقديمُه كأنّه واقعٌ الآن عند الخطاب، ونجد هذا في:

- ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾.
- ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(٥) الإيجاز بالحذف، اعتماداً على استخراج المخاطب الذكيّ لَهُ، ونجد هذا في حذْفِ جزاء الأبرار، أصحاب المرتبة الوسطى، اعتماداً على ذكر جزاء المتقين أصحاب المرتبة الدنيا، وذكر جزاء المحسنين، أصحاب المرتبة العليا. وقد سبَقَ شرح هذا في التدبّر.

إلى غير ذلك من بلاغيات جاء تحليلُها لدى تدبُّر آيات السُّورة، وبلاغيات أخرى يمكن استخراجها بالتفكر العميق.

* * *

الملحق الثاني

حول الرياح في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد خَمْسةٌ وعشرون نصّاً موزّعَةً في السُّورِ حول الرّياح، وفي هذا الملحق أَسْتَعْرِضها بشيء من التدبر على وفق ترتيب نزول سُورِها، مع استنباط وظائفها المادّيّة والمعنوية ما تيسّر لي ذلِكَ.

النص الأوّل:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ⑦﴾.

وقد سبَقَ لنا تَدَبُّر هذا النّص لدى تدبر الدرس الأوّل من دُروس هذه السّورة.

النصّ الثاني:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن إهلاك عاد قوم الرسول هُودٍ عليه السلام:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ⑱ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ⑲ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ⑳ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ㉑﴾.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي: ريحاً باردةً شديدَةً ذات صَوْتٍ شَدِيدٍ مخيف، وهذا يكون من شدّة سُرْعَتِهَا واصطدامها بالأشياء ذواتِ الحجُوم المادّية.

﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: أي: في يَوْمِ بُؤْسٍ وشُؤْمٍ وعذابٍ، وقد تَتَابَعَ على طَرِيقَةٍ واحِدَةٍ في أجْزَائِه الزَّمَنيَّة، فهو يَوْمٌ شَديدٌ قَوِيٌّ في الشُّؤم والبؤس والعذاب الذي حصل فيه لقوم عاد.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ⑳﴾: أي: تقتلع هذه الرّيح الصرصر النّاسَ من قوم عادٍ اقتلاعاً، ثُمَّ تَرْمِيهِمْ صَرْعَىٰ هلكَىٰ، فتَجْعَلُهُمْ إذا رمَتْهم كأنَّهم أصُولُ نَخْلٍ مُنْقَلعٍ من جذُوره، ومَرْمِيّ كَيْفَمَا اتّفَقَ مُكَوَّماً حَطباً.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ㉑﴾: أي: فانظر أيُّها المتفكّرُ في تصاريف جزائي، كيْفَ كَان عذابي، وكَيْفَ كانت نُذُري، فما حصل لعادٍ من إهلاك

شاملٍ قَدْ كان مسبوقاً بإنْذارِهم بالإهلاك إذا لم يتوبوا ويؤمنُوا، لكنَّهم لم يكترثوا له ولم يَعْبؤوا به، فنزل بهم العذاب المهلِكُ لهم إهلاكاً عامًّا.

لقد أنذرهم اللّه قبل أن يُهلكَهُمْ، ومَنْ أنْذَرَ فقد أعْذر، أي: قدّم عُذْرَه الكامل فيما فعل، ولم يُبْقِ لِمَنْ عذَّبَهُ وأهْلَكَهُ عُذْراً يعْتَذِرُ به.

وما حصل لعادٍ من الإهلاك الشامل هو لمن جاء بعدهُمْ من أهل الكفر والتكذيب بقانون الجزاء الرَّبَّانيّ إنْذارٌ وعبْرَةٌ، لمنْ لدَيْه رغْبَةٌ في الاعتبار، وذِكْرَىٰ لمن لديه رغبة في الادّكار، ممَّنْ كان لَهُ قلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْع وهُو شَهِيدٌ.

إنّ هذه الريح الّتي أرسلها الله عزّ وجلّ على عادٍ قوم الرسول هود عليه السّلام فأهلكهم بها:

- آيَةٌ من آياتِ اللّه في كونه، وقُوَّةٌ من القوى العظيمة في خلقه، وهي دالّة على قدرته أنْ يُسَخّرها في إهلاك مَنْ يشاء، متى شاء بحسب حكمته.

- وإرسالُها للإهلاك بها قد كان مسبوقاً بالإنذار، فالعذْرُ بما أجراه بها قائم.

- وهي لمن سيأتي بعد قوم عاد من الذين يسْمَعُونَ أخبارهم، أو يشاهِدُونَ آثارهم، عبْرَةٌ تتضَمَّنُ إنْذاراً بعقوبة اللّه لِمَنْ يفْعَلُ مثل أَفعالهم، ويكْفُر مثل كُفرِهم، فالنُّذُرُ (أي: الإنْذارُ) بها قائم.

- وما أجرى اللّه بها من عقابٍ للكَفَرَةِ المكذبين من قوم عادٍ دليلٌ على قانون الجزاء الرَّبَّاني.

- وقِصَصُ المهلَكِين بها ومواطنُ إهلاكهم الماثلةُ في الأرض مُذَكِّرَةٌ بعذاب اللّهِ عزّ وجلّ للكافرين المكذبين بالدّين، فالذكْرُ (=التذكير) باللّهِ وعقابِهِ في آثارها قائم دائم.

إذن فوُجود الرِّياح الدائم، وتصاريفها، من الأمور الّتي تقدّم لأهل البصيرة الذِّكْرَ، ودَلاَلاَتِ العذر، ودَلاَلات النُّذر.

وهذا يلقي الضَّوْء على ما وَصَفَ اللّه عزّ وجل به الرّياح في قوله في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

فنفَهَمُ المراد به بتوفيق الله ومعونته وتفهيمه.

النص الثالث:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن امتنانه على سليمان عليه السلام إذْ سخّر له ممَّا سخَّر الريح تجري بأمْرِه رُخاءً حيث أصاب، بعْدَ أن سأل ربَّهُ أن يَهَبَهُ ملكاً يَخُصُّهُ به، لا ينبغي لأحدٍ من الناس من بعْده:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: أي: تجري الريحُ بأمْرِ سليمان عليه السّلام ﴿رُخَآءً﴾ أي: خفيفةً ناعِمَةً ليّنةً ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: في المكان الذي يُرِيد أَنْ تَجْرِيَ فيه كذلك، وإلى المكان الذي يُرِيد أَنْ تَجْرِي إليه كذلك.

يقال لغة: أصاب صَوْباً، أي: أراد أمْراً صواباً. **والصَّوْبُ**: الْقَصْد.

فمعنى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حيْثُ قصد قصْداً صَوَاباً، وفي هذا ثناء على سليمان عليه السلام، بأنّه لم يكن يستَخْدِمُ الريح الّتي سَخَّرَها اللّه عزَّ وجلَّ له في أعمالٍ خارجَةٍ عن مَنْهَجِ الصَّواب.

وضدّ الصواب الخطأ، وما لا خير فيه، واللَّهْوُ واللَّعبُ.

وفي تسخير اللّه عزّ وجلّ الريح لسليمان عليه السَّلام تجري بأمْرِه شاهدٌ على صِدْقِ رسالَتِه، وصدْق دعوته لربّه.

وبما أنَّ سُلَيمان عليه السّلام واحدٌ من رُسُل اللّه، وبما أنّه مُصَدِّقٌ بسائر الأنبياء والرُّسُل، فتسخير الريح له يُلْقي في عقول النّاس وقُلوبهم ذكْراً باللَّه وبرسالاته، وبما جاء فيها من وعْدٍ ووعيد، وفي إلْقَاء هذا الذكر إعذارٌ وإنْذار، وهو من الأمور التفصيليَّة، لمجمل قوله تعالى في سورة (المرسلات) بشأن وظيفة الرِّياح في دَلاَلاَتِها الإيمانية: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

النصّ الرابع:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾.

● قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائيُّ، وخَلَفٌ [**يُرْسِلُ الرِّيحَ**] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

والمعنى واحد.

● وقرأ عاصم: [**بُشْراً**] مصْدَرُ «بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ» أي: أَخْبَره بما يَسُرُّهُ ويُفرحه.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وأبو عُمْرو، ويَعْقُوبٌ: [**نُشُراً**] جمْعُ «نَشُور» مثل: «رَسُول ورُسُل» **النَّشْرُ**: الحياة.

وقرأ ابن عامر: [**نُشْراً**] بإسكان الشين، وهو تخفيف لـ«نُشُر» جمع نَشور.

وقرأ حمْزَةُ، والكسائي، وخلف: [**نَشْراً**]: أي: حياة.

وبين القراءات تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد، ووجوه عربية متماثلة.

دلّت هذه الآية على أنّ من وظائف الرياح السببيَّة على سَطْح الأرض، أن تأتي منتَشِرَةً لتَجْمَع بخار الماء، وتَحْمِلَه سحاباً ثقالاً بماء المطر، ليتِمَّ بأمْرِ اللّه وقضائه وقَدَره سَوْقُه لأرض ميّتةٍ لا نبات فيها، فتكون به حياتُها، إذْ يُنْزل اللّه الماء بهذه الأرض من السّحاب، فَيُخْرِجُ النباتَ من بزورها، ويُخْرِج به من كلِّ الثمرات.

فإذا انتشَرَتِ الرّياح هٰذا الانتشار النافع استبشَر النَّاسُ بالْغَيْثِ، وفَرِحوا بمَقْدَمِهِ، فكَانَتِ الرِّياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رحمة اللّه عزّ وجلّ.

ولفظ «سَحَاب» اسم جنْسٍ جَمْعيّ مفرده «سَحَابة».

ومعنى «أَقَلَّتْ» حمَلَتْ ورفَعَتْ.

أمّا وظيفة الرّياح في دَلاَلاتِها الإيمانية فهي:

- التذكير باللّه، الذي بيَدِه مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ والأرض، والّذِي يرحَمُ عباده، بنشر الرّياح، وإنْزال الغيث.
- والتذكير بالبَعْثِ والنشور، بإخراج الموتَىٰ من القبور، الّذي يُشْبِه إحياءَ البلَدِ الميّت، وإخراجَ النبات في الأرض من البزور، وعودتَهُ إلى الحياة، يُعْطِي الظِّلَّ والثمرات، وعظيم الخيرات.

وفي هذا إشاراتٌ تفصيليَّةٌ لمجْمَلِ قوله تعالَىٰ في سورة (المرسلات) بشأن وظيفة الرّياح في دَلاَلاَتها الإيمانية: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

النص الخامس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾.

- قرأ ابْنُ كثير: [**الرِّيحَ**] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيَـٰحَ﴾ بالجمع.

ودلالَة القراءتين واحد.

- كلمة: ﴿بُشۡرَۢا﴾ فيها من وجوه القراءات ما سبق بيانه في آيَةِ الأعراف: [**نُشُراً - نُشْراً - نَشْراً - بُشْراً**] وسبَقَ بيَانُ دلالالتها، في النصّ الرابع الذي من سورة (الأعراف).

- وقرأ أبو جعفر: [**مَيِّتاً**] بتشديد الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَّيۡتٗا﴾ بإسكان الياء.

«**مَيِّتٌ ومَيْتٌ**» بمعنى واحد، وإسْكَان الياء تخفيف.

الكلامُ في هذا النصّ كالكلام الذي سبَقَ لدى تدبُّر آية (الأعراف).

إلاّ أنَّ النصّ من سُورَةِ (الفرقان) قد استُعْمِلَ فيه الفِعْلُ الماضي، ﴿أَرۡسَلَ﴾. أمّا في (الأعراف) فقد استعمل فيه الفعل المضارع [يُرْسِلُ] أخذاً بمنهج القرآن في تجزئِةِ عناصر الأفكار على النصوص ذوَات الموضوع الواحد.

وذُكِرَ في هذا النصّ من سورة (الفرقان) أشياء لم تُذْكَرْ في آيَةِ (الأعراف).

فقد جاء فيه ما يلي:

(١) وصف الماء الذي يُنزله اللّهُ عزّ وجلّ من السّماء، أي: من السَّحَاب الثقال (كما جاء في سورة الأعراف) بأنّه طَهُورٌ، أي: هو طاهِرٌ بنَفْسِهِ، ومُطَهّر لغيره.

(٢) التَّصْريح بلفظ إحياء البلَدِ الميِّت.

(٣) جاء في (الأعراف) تذكير لفظ [بَلَد] وجاء في (الفرقان) تأنيثه [بَلْدَة] وهما وجهان عربيان.

(٤) جاء في (الفرقان) بيان أنّ من أغراض إنزال الماء الطهور أنْ يُسْقِي اللّهُ ممّا خلَقَ في الأرض أَنْعاماً وأناسِيَّ كثيراً.

وجاء فيها استعمال ضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بعظمَة فَضْلِ اللّهِ على عباده.

وكلُّ ذَلِكَ من آيات اللّه المذكَّرَة به، وبصفاته، وبِعَدْلِهِ، وبرَحْمَته، وبقُدْرَتِه على إحياء الموتى.

فظهر لنا أنّ النصَّيْنِ متكاملان لا مكرّران.

النص السادس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ⑨﴾.

- قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف [الرّيحَ] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع. والمؤدى واحد.

أبانت هذه الآية من وظائف الرّياح السببيَّةِ لحياة الأحياء في الأرض أنّها تُثير سحاباً، فساقهُ اللّه عزّ وجلّ بعظمة رُبوبيته إلى بلَدٍ ميّتٍ، فأحْيَا به الأرْض بَعْدَ مَوْتها، وهذا وصف لما وقع في الماضي. واستعمال الفعل المضارع في ﴿فَتُثِيرُ﴾ للدّلاَلة على العمل المتكرّر المتجدّد الذي تقوم به الرياح من إثارة السّحاب، فهو من السُّنَنِ.

وأبانت أنّ من وظائف الرياح في دلالاتها الإيمانيّة أنَّ ما يتَسَبّبُ بها من إحياء الأرض بعْدَ مَوْتِها يُذَكّر ويقْنِعُ بِنُشُور الناس إلى الحياة بعد الموت، وسَوْقهم للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وأضافت هذه الآية أنّ إرسالَ الرّياح عَمَلٌ من أعمالِ اللّه عزّ وجلّ لاَ شَرِيكَ له، وأنَّ من نظام الرّياح في سُنَّة اللّه أن تُثِيرَ السّحابَ المتجَمّع بالتبخّر، وهٰذه الإثارة من وظائف الرياح دواماً، دلَّ على هذا استعمال الفعل المضارع: ﴿فَتُثِيرُ﴾ كما سبَقَ بيانه.

وأضافتْ أنّ سَوْق الرّيَاحِ إلىٰ بلَدٍ ميّتٍ إنّما يتمُّ بأمْرِ اللّهِ مع السَّوْق، لا بالوظيفة ذاتِ النّظام الدائم بإثارَة السّحاب، وكذلك إحياءُ الأرْض بعد موتها إنّما يتمُّ بأمْرِ اللّهِ جلّ جلاله، لا بالوظيفة ذَاتِ النظام الذي لا يتخلّف.

فالرّياحُ بما تكونُ سبباً فيه، تُلقِي ذِكْراً، عُذْراً أَوْ نُذْراً، وهو تفصيل بيانيٌّ لما جاء في سورة (المرسلات) مجملاً عن وظائف الرياح:

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾.

وقد جاء في آية (فاطر): ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

أمّا آيَة (الأعراف) فقد جاء فيها: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

فدَلَّ استعمال حرف [إِلَىٰ] على المكان البعيد. ودَلَّ استعمال [لِ] على المكان القريب.

في لفظ [مَيّت] في هذه الآية قراءتان: [مَيّتٍ] و[مَيْتٍ].

فقرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر [مَيّتٍ] بتشديد الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [مَيْتٍ] بإسكان الياء.

والقراءتان بمعنى واحد كما سبق بيانه في نصّ (الفرقان).

النص السابع:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) يَطْرَحُ

سؤالاً على أهل الأفكار والعقول فيه حصارٌ منطقي، لإثبات أنّه لا رَبَّ إلاَّ اللّه فَلاَ إلّه سواه جلّ جلالُه، وهو خطاب موجّهٌ للمشركين:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

- قرأ ابْنُ كثيرٍ، وحمزة، والكسائي، وخلف: [الرِّيحَ] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

والدّلالة المستفادة من القراءتين واحدة لأنَّ الريح اسم جِنْسٍ يدلُّ على كلّ أنواع الرّياح، إلاّ أنّ الرّيَاحَ تُشِيرُ إلى أنّها أنواع.

- في كَلِمَة [بُشْراً] القراءات التي سبق ذكرها في النص الخامس الذي من سورة (الفرقان) وسبق بيان دلالاتها في النصّ الرابع الذي من سورة (الأعراف).

﴿يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يَدُلُّكم على طُرُقكم بالنور، وبالنجوم، وبما جعل لكم من وسائل أخرى تكْتَشِفُونها.

في هذا النصّ يَضَعُ الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ المشركين أمامَ سؤالٍ مُحْرِجٍ ليس له إلاَّ جوابٌ واحد لدَىٰ أهل الفكر والعقل السليم، وهو: الّذِي يُرْسل الرّياح هو الرّبّ الخالق وحده لا شريك له، لأنَّ أحداً غَيْرَهُ لا يَمْلِكُ سبباً مادّيًا أو معنويًا يُصَرّفُ به الرّياح، فقُوّةُ الرّياح العظيمَة خارجَةٌ عن مدىٰ دوائر الأسباب الّتي أعطىٰ اللّهُ الناس القدرة على استخدامها فيما سخّر لهم.

إذَنْ: فظاهرة الرّياح إحدى الظواهر الكونيّة العظمىٰ الدالَّة على الرَّبّ العظيم، والمذكّرَةِ في تصاريفها باللّه وبقدْرَتِه العظمى، وبحكمتِه.

فأضاف هذا النَّصُّ السُّؤال المحرِجَ الموَجّهَ للمشركين، بغية لفت

أنظارهم وأنظار سائر الناس، إلى إحدى آيات اللّه في كونه، الّتي تتضمَّنُ الهدايةَ إلى وجود الرّب المتصرّف في كونه بصفاته الجليلة.

وفي لَفْتِ النظر هذا إعلامٌ ابتداءً وَتذكيرٌ دواماً.

وفي هذا توجيه تفصيليٌ للمجمل الذي جاء في سورة (المرسلات) وصفاً للرّياح: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ الذي هو أوّل النصوص المنزَّلةِ بشأن الرياح.

النصّ الثامن:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا (٦٩)﴾.

- قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو بِنُونَ المتكلّم العظيم في: [**نَخْسِفَ - نُرْسِلَ - نُعِيدَكُمْ - فَنُرْسِلَ - فَنُغْرِقَكُمْ**].

وقَرَأ أبو جعفر، وابْنُ وَرْدَانِ في إحدى روايتينِ عنه، ورُوَيس في إحدى روايتَيْن عنه: [**يَخْسِفَ - يُرْسِلَ - يُعِيدَكُم - فَيُرْسِل**] بضمير الغائب العائد على اللّه جلّ جلاله. و[**فَتُغْرِقَكُمْ**] أي: الرّيح.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**يَخْسِفَ - يُرْسِلَ - يُعِيدَكُمْ - فَيُرْسِل**] بضمير الغائب العائد علىٰ اللّه جلّ جلاله، كقراءة أبي جَعْفَر ومن معه.

و[**فَيُغْرِقَكُمْ**] بضَمِير الغائب العائد على اللّهِ عزّ وجلّ أيضاً.

ويُلاحَظُ أنّ بَيْنَ هٰذه القراءات تَكَامُلاً بيانياً، ومُؤَدَّاها واحد.

● وقرأ أبو جَعْفر [مِنَ الرِّياحِ] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ بالإفراد.

ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، كما سبق بيانه في النصّ السابع الذي من سورة (النمل).

﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾: أي: يَسُوقُهَا وَيَدْفَعُها، وقد كانت الرِّياح هي وسيلة سَوْق الفلْكِ الشّراعيَّةِ ودَفعِها لنَقْل حُمولاتها عبْرَ البحار.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أي: ضاع وخفي وغابَ عنكُم مَنْ تَدْعُونَ من شُرَكائِكُمْ، ولَمْ تَجدُوا مُجيباً يسْتَجيب لِدُعائِكُمْ سائلين النَّجاةَ، إلاَّ اللَّهَ رَبَّكُمْ.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾: أي: فلمّا نَجّاكُمْ مُوصلاً إياكم إلى الْبَرّ، ضُمِّنَ فِعْلَ ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾ معْنَىٰ فِعْلِ «أَوْصَلكُمْ» فعدِّيَ تَعْدِيته فأغْنَتِ الجملة الواحدة عن جُمْلَتين.

﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: أعْطَيْتُمْ مِنْ وُجُوهكم عَارِضَها. الإعْرَاضُ وسَطٌ بين المواجَهَةِ والإدْبار.

﴿كَفُورًا﴾: صيغة من صيغ المبالغة، أي: شديد الكُفر.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾: أي: أن يُغَيِّبكُمْ في باطِن الأرض، إذْ يغَوِّرُها إلى الْعُمْقِ ويَدْفنكم فيها.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: **الحاصِبُ**: الريحُ الّتي تَحْمِلُ التُّرَابَ والْحَصْبَاءَ فتضْرِبُ بها الأشياء، فَيُصِيبُ اللّٰه بها من يشاء.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ الريح القاصِفُ هي الريحُ الشديدةُ الّتي تَقْصِفُ الأشجارَ بِشِدَّتها، وتُكَسِّرُهَا، وتُحَطِّمُها.

● فأبان هذا النص أنّ من وظائف الرياح السببيَّة في تصاريف مقادير الله على وجه الأرض، سَوْقَ الفُلْكِ في البحر ودَفْعَها، ليبتغي النَّاس بأسْفارهم على ظُهورها أرْزاقَهُمْ ومصالحَ معاشِهِمْ من فَضْلِ اللّه.

وقد سخّرَها اللّهُ لهم رحْمَةً بهم، وهو برحمته يحميهم من الانْكِفَاءِ والغرق.

فإذا تَعَرَّضُوا وهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِها ضِمْنَ تصاريفه في كونه للمخاوف الشديدة، لم يَجِدُوا مَنْ يَنْجِدُهم ويحميهم إلاَّ أن يَدْعوا اللّه ربَّهُمْ، حتَّىٰ إذا أنجاهم وسلَّمَهُمْ، وأوصَلَهُمْ إلَىٰ البرّ الآمِنِ بحَسَب تَصَوُّرِهم أعْرَضوا عَنْه، فلَمْ يَحْمَدُوهُ ولَمْ يشكُرُوه، بَلْ انطَلَقُوا يَعْصُونه ولا يَعْبُدُونه، مُجَاهِرين بارْتكاب الذُّنوب والآثام، كأنَّهُمْ لَمْ يكُونُوا قَدْ الْتَجَؤُوا إليه داعِينَ حينما كانوا في الشّدّة.

وكَانَ الإنْسانُ كَفُوراً جَحُوداً.

● وأبانَ هذا النّصّ أنّ من وظائف الرّياح الشديدة، أن تَكُونَ حاصبةً، وأَنْ تكونَ قاصفة، وأنْ تكون سبباً لإهلاك من يُرِيد اللّهُ إهلاكهم، فإذا كانُوا في الْبَرّ أهلكهم بالريح الحاصب أو القاصف، وإذا كانوا في الْبَحْر أهلكهم اللّه عزّ وجلّ بالريح القاصف التي تَقْصِفُ صوارِيَهم، وتكْفَأُ سُفُنَهم وتُغْرِقُهم.

ألسنا نُلاحظُ في هذا النّصّ بياناً تفصيليّاً للمجمل الذي جاء في أوّل النُّصوص المنزَّلَةِ بشأن الرّياح، وهو قول اللّه عزّ وجلّ في صدر سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥﴾.

حقّاً إنّ الرّياح بتَصْريفِ اللّهِ عزّ وجَلّ تُلْقِي ذِكْراً باللّهِ والْيَوْم الآخر،

وفي هذا التَّذْكِير إعْذَارٌ وإنْذار، مع ما فيه من تذكِيرٍ بنِعَم اللَّهِ على عباده، حين تُزجي الْفُلْكَ، وحينَ تَأْتي بِبُشْرَيَاتِ الخيْر والْغَيْث والخصْب والنَّفْع العظيم.

النّصّ التاسع:

قول اللّهِ عزّ وجلَّ في سُورَةِ (يونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

● قَرَأَ جُمْهُور القرّاءِ العشَرَةِ: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من التسيير وهو النقل من مكانٍ إلى مكان آخر.

وقرأ ابْنُ عامِرٍ، وأبُو جَعْفر: [يَنْشُرُكم] من النَّشْرِ الَّذي هو الْبَسْطُ والمدُّ والتَّفْريق.

بين الْقِرَاءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاء المعنىٰ المراد، فالناس يَسِيرونَ في الْبَرّ والْبَحْرِ والْجوِّ، لابتغاء أرزاقِهِمْ في أَمَاكِنَ مختلفةٍ من الأرض، شرقاً وغَرْباً وجَنُوباً وشمالاً وفي كلّ الجهات، واللَّهُ هو الذي يُسَيِّرُهُمْ بإعطائهم القدرةَ على السَّيْر، وبتَيْسِير اللَّه لهم طُرُقَهم ووسائِلَ تَنَقُّلِهم. واللَّهُ هُوَ الّذي يَنْشُرُهم بجَعْلِ مصالحهم وحاجاتِهِمْ موزَّعَةً في شَتَّىٰ أماكِنِ الأَرْض، وبإيصالهم إليها.

ويُفْهَمُ تَسْيِيرُهُمْ ونَشْرُهُمْ في الْجَوّ باللُّزُوم العقليّ، فَمَنْ يكُونُ هو المسيّر والناشر في البرّ والبحْر، لا بُدَّ أَنْ يكُونَ هو المسيّر والناشر في الجوّ، فالجوُّ أشَدُّ صُعُوبَةً وأشَدُّ حاجةً إلى تَسْيِير اللّه.

● وقرأ حفصٌ: **[مَتاعَ الْحَيَاةِ الدُّنيا]** بفَتْح العين، أي: تَتَمَتَّعُونَ متاعَ الحياة الدنيا، أو حالة كوْن بغيكُم متاعَ الحياة الدنيا.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[متاعُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا]** بضَمّ الْعَيْن، خَبَرٌ ثانٍ للمبتَدأ **[بَغْيُكُمْ]** والمعنى: بَغْيُكُمْ على أنْفسِكُم. بَغْيُكُمْ مَتَاعُ الحياة الدنيا.

والقراءتَانِ وجْهانِ للدّلاَلَةِ على المعنى المراد في الإعراب، والمؤدّىٰ بهما واحد.

بين هذا النصّ والنّص السابق من سورة (الإسراء) تكامل في بيان واقع معظم الناس إذْ يجْحَدُونَ نِعَمَ اللّهِ عليهم التي هي من آثار رَحْمَتِهِ.

فَهُمْ إذا أحاطَتْ بهم المخيفات المرهبات الْقَاتِلاتُ من كلّ جَانِبٍ، ولم يَجِدُوا وسائل نجاةٍ ممّا هُمْ فيه، لجؤُوا إلىٰ اللّهِ ربِّهِمْ داعِين ليُنْجِيَهُمْ، مُخْلِصين له الدُّعَاء، فَلا يُشْرِكون بدعائه أحَداً، حتَّىٰ إذا أَنْجاهُمْ وصرَفَ عنهم ما هم فيه من بلاء، عَادُوا إلَىٰ ما كانوا عليه من خروج عن صراط اللّه المستقيم، بغياً وعُدْواناً، واتّباعاً للأهواء والشهوات، وزُخْرُفِ الحياة الدنيا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: وفي الجوّ كما سبَقَ بيانه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: أي: حتَّىٰ وَقْتِ كَوْنِكُمْ في الْفُلْكِ...

«حتَّىٰ» هنا حَرْفُ جرٍّ، بمعنى «إلَىٰ» الدّالّة على انْتهاء الغاية المكانية أو الزمانية.

الْفُلْكُ: مركَبُ البحور. يُطْلَقُ على الواحد والاثنين والجمع، ويذكر ويؤنث. فيقال: هي الفلك، وهو الفلك.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: التفاتٌ في الكلام من الْخِطَاب إلَىٰ الحديث عن غائبين، نظراً إلَىٰ أنَّ بَعْضَ المخَاطَبين قد لا يتعرّضُون لرُكُوبِ الْفُلْك،

وللأحداث المخيفة الّتي وصفها النَّصّ، لكنَّهم في الغالب مِثْلُهم فيما لَوْ تَعَرَّضُوا لهٰذِه الأَحْداث أو لمثلها.

الضمير في ﴿وَجَرَيْنَ﴾ يَعُودُ على الْفُلْكِ. ﴿بِهِمْ﴾ أي: براكبيها من الناس. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: خالية من الضُّرّ والأذىٰ، وغير ذاتِ آثار مخيفة. **الطيّبُ**: ضِدُّ الخبيث، وكلُّ نَافع طيِّب، وكلُّ ضَارٌ أو مؤذٍ بلا نَفْعٍ خبيث.

﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾: أي: وفرِحُوا بالرّيح الطيّبَة الّتي تُجْرِي فُلْكَهُمْ.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: أي: جاءَتِ الفلْك رِيحٌ شديدة من نوع الرّيح العاصِف، وهي التي تضربُ وجْهَ الأرض فَتَحْمِلُ ما عليها من أشياء كالْعَصْفِ وهو الزَّرْعُ اليابس، وكالتُّرابِ، ونحوهما.

يقال لغة: ريحٌ عاصِفٌ، وريحٌ عاصفة، تُذَكّر وتُؤَنّث.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: أي: وجاءهم الموجُ يضربُ فُلْكَهُمْ مِنْ كُلِّ مكانٍ، فصارتِ الرّيحُ تخبِطُ فُلْكَهُمْ وتَرْتَفِع بها وتَنْزل، ووقَعُوا في رعْبٍ شَدِيدٍ خَوْفاً من الغرق.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي: وظنُّوا ظنًّا راجحاً أَنّهم هالِكُون.

يقال لغة: «أُحِيط بفُلاَنٍ» أي: دنا هلاكُه. و«أُحِيطَ بالشّيء» أي: هَلَك. والأصْلُ في هذه العبارة أنّها مأخوذة من إحَاطَة الْعَدُوّ بِعَدُوّه بوسائل إهلاكه، فتُسْتَعْمَل كنَايَةً عن دُنُوّ الْهَلاك. وقد تستعمل كناية عن الهلاك.

﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أي: دَعُوا اللّه مُخْلِصين لَهُ الدُّعَاءَ لا يُشْرِكُون بدُعائه أحداً، وقد أبان اللّهُ عزّ وجل بهذا أنّ الدُّعاء من الدّين، أي: لأنَّهُ عبادة للّه تعالَىٰ، والعبادة له هي الدّين، وقد صحّ أنّ الدُّعاء هو العبادة أي: أعظم عناصرها، وورد أنّ الدُّعاءَ مُخُّ العبادة.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: أي: نُقْسِمُ لَئِنْ أنجيتَنا

مِنْ هٰذه المهْلِكَاتِ الّتي أحاطَتْ بنا، لنَكُونَنَّ في المستقبل من الشَّاكِرِين، القائمين بواجب الشكر لَكَ في أَعْمالنا وكَسْبِنَا الاختياري.

الشكر: هو مقابلة إنْعام المنعم بما يرضيه من عَمَلٍ أو اجتنابٍ، أو أيّ شيءٍ ماديٍّ يسُرُّه. وقد يشْمَلُ القول الذي فيه ما يرضي المنْعِم. إلاَّ أنّ بعض القول يختصُّ بعنوان الحمْدِ والثناء.

فالْحَمْد كالمدح: الثناء على المحْمُود بذكر اتّصافه بصفاتٍ جميلة فطريَّةٍ أو مكتسبة، أو بقيامه بأفعالٍ حسنة، أو باجتنابه لما لا يَحْسُن أن يَصْدُرَ منه أو من مثْله، من مكتسبات إراديَّة.

فَهُمْ يَحْلِفُون على أنّهم سيكونون من الشاكرين لربّهم، إذا أنجاهم ممّا هم فيه، وأن لا يَقْتَصِروا على مجرَّد عباراتِ الحمْدِ والثناء.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: فلَمَّا أنجاهم رَبُّهُمْ، إذ أسْكن لهم الرّيح، وجعلها رخاءً وأوصلهم إلى البرّ الآمِنِ في تَصوُّرِهم، فَاجَؤُوا بنَقْضِ مَا عَاهَدُوا رَبَّهُمْ عليه، وجَعَلُوا يَبْغُونَ في الأرض عصاةً للّهِ جلَّ جَلاَلُه، ويتجاوزون الحدود بغير حقّ.

﴿وَإِذَا﴾: هنا حَرْفٌ يَدُلُّ علىٰ معنَىٰ المفاجَأة. وهي غير «إِذَا» الشرطيّة.

البغي: تجاوُزُ الْحَدّ المأذون بِهِ في السُّلوك الإرادي. ويُطْلَقُ علىٰ الكِبْر والظلم والفساد في الأرض.

ولمَّا كان تجاوز الحدّ قَدْ يكُونُ مأذوناً به كالقصاص، والقتال في سبيل اللّهِ، كان من الحكمة تَقْيِيدُ العبارة بقوله تَعَالَىٰ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فالقصاصُ بالعدْلِ حقّ، والقتالُ في سبيل اللّه حقٌّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾: أي: ما تجاوزُكم الحدَّ بغير

حقٌ إلاَّ سَبَبٌ يُعَرّضكُمْ لعقابِ اللَّهِ بالعدْل، فهو في الحقيقَةِ عليكُمْ لا لكُمْ.

﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وإنّما بغْيُكم الّذي تَبْغُونه لإرضاءِ أهوائكم وشهواتكم ومطالب نفوسكم، لا يُقدّمُ لكم إلاَّ متاعَ الحياة الدنيا، ومعْلُومٌ أنَّ مَتاعَ الحياة الدُّنيا قَليلٌ وإلَىٰ زوال، بخلاف لذّاتِ الجنَّةِ فهي نعيمٌ مقيم.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: ثُمَّ إلَىٰ مقتضَيَاتِ حِكْمَتِنا مَرْجعُكُمْ بالبعث، إذْ نَبْعَثُكُمْ إلَىٰ يوم الدّين، الذي نقيم فِيه مَحْكَمةَ الْعَدْل، فنحاسبكم، ونفْصِل الأقضية بينكم، ونُجازِيكُم علَىٰ ما قَدَّمْتُمُوه من كسب إراديٍّ في الحياة الدنيا.

واقْتَصر النَّصُّ هنا على بيان أَنَّ اللَّهَ يُنبئُهم بما كانوا يَعْمَلُون في الحياة الدنيا، وهذه فِقَرَةٌ من الفِقَرات التي يَتَعرَّضُون لها يوم الدينِ، في محكمة العدْلِ التي سَوْف يُقيمُها اللَّهُ لعباده.

ومعلومٌ أنَّ ذِكْرَ بَعْضِ الفِقَراتِ يُومِئُ إلى سائرها، ممَّا يكُونُ قبْلَها، ومِمَّا يكونُ بَعْدَها، ولا سيما أَنّ القرآنَ ببيانه الْبَدِيع قَدْ اختار اللَّهُ عزَّ وجلّ له أسْلُوبَ تَجزئة عناصر موضُوعَاته وتوزيعها في النُّصُوص الموزَّعَةِ في مختلِفِ السُّور، ليكون التكامل فيما بين النُّصُوص أحد عناصر الإعجاز في القرآن، ولو كان من عند غَيْر اللّه لوجَدَ الباحِثُونَ فيه اختلافاً كثيراً.

ويطولُ الكلامُ إذا وضعْتُ هَٰذا النصّ التاسع الذي جاء في سورة (يونس) والنَّصّ السابق له الذي جاء في سورة (الإسراء) وقابَلْتُ بينهما مُقَابلَةً تكامليّة.

على أنّ المتدبّر الحصيف يُدْرِك بالتأَمُّلِ المتعمّق، ما بينهما من تكامل رائع، بعيدٍ عن تكرار الْعَنَاصِر، إلاَّ ما تَسْتَدْعيه سلاسل الخواطر.

ونلاحظ في النصّ التاسع ما يلي:

(١) أنّ اللّهَ عزّ وجلّ يمتَنُّ على عباده، بتسخيره الريح الطيّبة، الّتي تجري السُّفُنَ الشراعيّة وتأتي بالنفع العظيم.

ويقاسُ عليه تسخِيرُ اللّه لعباده النِّفْطَ والآلات الميكانيكيّة الّتي اكتَشَفَ النّاسُ تسْيِيرَ السُّفُنِ العظمىٰ بها.

(٢) أنَّ اللّه عزّ وجلّ يخَوّفُ عباده بالرّيح العاصف الّتي هي من أدواتِ تَعْذِيبه وإهلاكه لأهل الكفر والتكذيب، الّذين يكذّبون رُسُلَ اللّه، ويكذّبون بيَوْم الدين.

(٣) أنَّ اللّه عزّ وجلّ يكْشِفُ للناس صورةً من صُورِ نُزوعِهِمْ، بدواعي فِطرتِهِم الكامِنَةِ في أعْمَاقِ قُلُوبِهِم، إلى الالتجاء إلى اللّه رَبِّهِم، والتَّوَجُّهِ له بالدُّعاء مخلصين له الدّين، حين تشتَدُّ بهم الأزمات، وتحيطُ بهم المخاطر، ليَصْرِفَ عنهم بقُدْرَتِهِ العظيمة ما أحاط بهم، معلنين إيمانَهُمْ به ساعَتَئِذٍ، ويتعهَّدُون لَهُ بأن يكونوا إذا أنجاهم شاكِرِين، عاملين بمراضيه، مطيعين أوامره، ومُجْتَنِبِينَ ما نَهاهم عنه.

(٤) أنّ من اختيارات معظم الناس الإراديَّة، أن ينْقُضُوا عُهُودهم لربّهم، الّتي يُوَثِّقُونها بأيمانهم، وأن يَعُودُوا إلى شِرْكهم، أو إلى ما كانوا عليه من كُفْر، وأَنْ يُتَابِعُوا مَسِيرَة بَغْيِهم في الأرض بغير الحقّ.

والحديث عن الرياح في هذا النّصّ هو بمثابة التفصيل لما جاء في صَدْرِ سورة المرسلات، أوّل النُّصُوص عن الرياح نزولاً.

النّصّ العاشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

- قرأ حمزة، وخلف [الرِّيح] بالإفراد. وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

أبانَ هذا النصّ من وظائف الرّياح السَّبَبيَّة في سُنَن اللّه التكوينيَّةِ، الّتي تكونُ بها منافع ومصالح للناس وأرْزَاقٌ وخيْرَاتٌ، أنَّها لواقِحُ، أي: تكُونُ وسِيطَ لِقَاحٍ.

رُوِي عن ابن عباسٍ: «أنّ الرّياحَ تُلَقِّحُ السَّحَابَ، وتُلَقِّح الأَشجار».

أما تلقيحها الأشجار والنَّبَاتَات فيكون بِحَمْلِها اللّقَاحاتِ من ذُكُور النَّبَاتَاتِ والثمار، إلى الإناث منها، وبذلك تنْضَج وتصِيرُ صالحةً لِلأَكل.

وأمَّا تَلْقِيحُها السَّحَابَ، فقد أثبتَهُ عُلَماءُ الكون، إذْ تَحْمِلُ الرّياحُ إلى السَّحَاب دقَائِقَ الْغُبار الّذي تتجمَّع عليه حبَّات المطر.

وتقومُ الرّياح أيضاً بوظيفة جَمْعِ السَّحَابِ المشحونَةِ بالكَهْرُبَاءِ الموجبة، والسَّحاب المشحونة بالكهرباء السالبة، لِيَتِمَّ باجتماعهما التّلاقُح، فتتكاثَفَ حبّاتُ المطَر، فتهطل بإذْنِ اللّه على البلد الّذي قضَىٰ اللّه عَزَّ وجلَّ بأن يُسْقِيَه.

هذه الوظائف السببيَّةُ التي جعَلَها اللّهُ عزّ وجَلَّ للرّياح، ممّا يتَّصِل بمنافع العباد، رحْمةً من اللّه بهم، تُضَاف إلى الوظائف الأخرىٰ الّتي دلَّتْ عليها أوْ أشارت إليها سائر النصوص، أو كشفها أو ستكشفُهَا البحوثُ العلميَّةُ الإنْسَانيَّة.

أمّا الوظيفة الدينيَّةُ فهي التذكيرُ باللّه وبصفاته، والتذكير بالْيَوم الآخِر، يوْمِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء.

فالبعث إلى الحياة بَعْدَ الموتِ مُشابِهٌ لِظَاهِرَةِ إحياء الأرض بالنبات، وقد أشار إلى هذا المعنى قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فجاء فيه استعمال ضمير المتكلّم العظيم إشارة إلى عظيم قُدْرته، وسامي حكمته، وجاء فيه تأكيد الخبر بمؤكِّدات: «إنَّ» والجملة الاسمية، واللّام المزحلقة إلى الخبر.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: أي: ونحن الذين نَرث جميع ما جَعَلْنا فيه لعبادَنا تملُّكاً صُورِيّاً، إذْ تَقومُ السَّاعَة، ونَقولُ: لِمَنِ الْمُلْكُ اليوم، ويأتي الجوابُ الصَّادِرُ عَنْ كلّ شيءٍ: لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار. وهذا ما جاء بيانه في الآية (١٦) من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول).

النصّ الحادي عشر:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ... ﴿١٢﴾﴾.

- قرأ شعبة: [**وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحُ**] بالإفراد والرَّفع.

وقرأ أبو جعفر: [**وَلِسُلَيمَانَ الرِّيَاحَ**] بالجمع والنصب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد والنصب.

أي: وسخَّر اللّه عزّ وجلّ لسُلَيْمانَ الرّيحَ ذاتَ الأنواع تجري بأمْرِهِ بسُرْعَةٍ، فتقطَعُ مَسافة شَهْرٍ في الْغُدُوّ صباحاً، وتَقْطَعُ مسافة شَهْرٍ في الرّواح مساءً.

وسبق في النصّ الثالث الذي هو من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سخَّرَ لسُلَيْمَان الرّيحَ ذَاتَ الأنواع المختلفة تجري بأمْرِهِ رُخاءَ (أيْ: لَيِّنَةً نَاعِمَةً رَفِيقَةً) حَيْثُ أَصَاب.

وهنا في آية (سبأ) أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أَنَّهُ سَخَّرَ له الرِّيح الشّديدة السّريعة بأنواعها المختلفة، فهِيَ تَجْرِي بأمْرِه في غُدُوِّها مسِيرَةَ شَهْرٍ، وفي رواحِهَا مَسِيرَةَ شَهْر.

ومَسِيرَةُ الشَّهر تُعَادِلُ مَا يَزيد علَىٰ أَلْفِ كيلومتر، وإذا قسَمْنَا ساعات الْغُدُوّ على ألف كيلومتر، أمكننا أن نتصوَّر أنّ الرّيح والرياح السَّرِيعَةَ المسخَّرَةَ لسُلَيمان، والّتي تَجْرِي بأمْرِه، قَدْ تَبْلُغُ سُرْعَتُها قُرَابَة مِئَتَيْ كيلومتر في السَّاعَةِ أَوْ أكثر، وهي سُرْعَةٌ قادرَةٌ على نَسْفِ المساكِن واقتلاع الأشجار، وحَمْلِ جَيْشٍ كامِلٍ بعتاده ورجاله وكُلِّ أَسْلِحَتِه، وَنَسْفِه وتَدْمِيرِه.

فتكامل النَّصان في بيان ما آتاه اللّهُ عزّ وجل لسليمان عليه السلامُ من تسخير الرياح لأمْرِه، رُخَاءً ليّنَةً نَاعِمَةً رفيقَةً، أو سَرِيعةً عنيفَةً شديدة، قادرةً على تحقيق النَّصْرِ لِقُوَّةِ الحقّ على قُوىٰ الباطل والكُفر والْبَغْي.

وفي بيان هذا التسْخير لسليمان عليه السلام تذكير بنعمة اللّه عليه، وعلى أوليائه ضدّ أعدائه، وتذكير باللّهِ وبصفاته، وبواجب العمل بمراضيه، وفي التذكير إعذارٌ وإنْذار.

النّص الثاني عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (فُصّلَت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) بشأن عادٍ قوم الرسول هود عليه السلام:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

- قرأ حمزة، ويَعْقُوب: [**فَأَرسَلْنَا عَلَيهُمْ**] بِضَمّ هَاءِ الضَّمِير.
وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بكَسْرِ هاء الضمير.
وهما وجهان عرَبيّان لِنُطْق هاء الضمير.

- وقَرَأ نافع، وابْن كثير، وأبو عَمْرو، ويعقوب: [**نَحْسَاتٍ**] بإسْكان الحاء.

وقرأ باقي القراء الْعَشَرة: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ بكسر الحاء.

وهما وجهان عربيّان لنُطْق هذه الكلمة.

﴿يَجْحَدُونَ﴾: الجحودُ: إنكار الشَّيْءِ وادّعاءُ بُطْلاَنِه مع العلم بأنَّه حَقٌّ.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي: ريحاً شديدةً بارِدَة، يُحْدِث اندفاعُها الشديد أصواتاً مُرْهبة مُرْعبةً.

سبق في النص الثاني الذي من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بيان إهلاك عادٍ بريح صرْصر جاءتهم في يومِ نَحْسٍ مُسْتَمِرّ، فَدَلَّ على أنّ إهلاكهم قَدْ تَمَّ في اليوم الأول. أمّا الرّيح فقد استمَرَّتْ على ديارهم بَعْدَ إهلاكهم أيّاماً نَحِسَات.

النصّ الثالث عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

- قرأ نافع، وأبو عَمْرو وأَبُو جعْفر بإثبات ياء [الجوارِي] في الوصل. وقرأ بإثباتها في الوصل والوقف ابنُ كثير، ويعقوب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذْفها في الوصل والوقف تخفيفاً في النطق، وهو من أساليب النُطْق العربي لمثل هذه الياء في آخر الكلمة.

- وقرأ نافع، وأبو جعْفر: **[الرِّياحَ]** بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد.

والمؤدّى واحد، لأنّ الريح اسم جنس يشمل أنواع الرّياح.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: هي السُّفُن في البحار.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أي: كالجبال، في عِظَمها وعِظَمِ ما تَحْمِلُ.

﴿رَوَاكِدَ﴾: أي: ثوابتَ سَواكِنَ، لا تجري إلى حيث يُرِيد ركّابها.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾: أي: أَوْ يُهْلِكْهُنَّ بإرسالِ ريحٍ قاصِفٍ تُكَسِّرُ سُفُنَهُمْ وَتُغْرِقُهُمْ.

فنبَّهَ هذا النصّ على الاحتمال المضادّ لإرسال الريح، وهُوَ احتمال إسكانها، وجَعْلِها ساكنةً لاَ تتحرَّكُ، وبذلك تثبتُ السُّفُنُ في البحر، وتظَلُّ رواكِدَ علَىٰ ظَهْرِه، والمراد السُّفُن الشراعية.

وفي هذا تذكير بأنّه هو سبحانَه الذي يُرْسِلُ الرّياحَ، فيُجْري السُّفُن، ويُحَقِّقُ بإرْسالها المنافع للناس.

فَسُنَنُ اللّه الّتي تجري بها السُّفُن الجواري في البحر، والتي هي كالأعلام، معَ وُجُودِ الاحتمالاتِ المضادّة لها، أمُورٌ تتضمَّن آياتٍ من آياتِ اللّه، وعلامات على حكمته وقُدْرته ورحمته، يَنْتَفِعُ بها كُلُّ صَبَّارٍ علَىٰ صُنُوف الامتحان الّتي يَمْتَحِنُ اللّهُ بها عباده، شَكُورٍ لأنْعُم اللّه عليه.

﴿صَبَّارٍ﴾: صيغة مبالغةٍ وتكثيرٍ لـ«صابر» أي: كثير الصَّبر.

﴿شَكُورٍ﴾: صيغة مبالغةٍ وتكثيرٍ لـ«شاكر» أي: كثير الشكر.

ونبّه النَّصُّ على احتمال مضادٌ آخَر، وهو احْتِمال بعْثِ الرّيح بعْثاً شديداً عنيفاً قَاصِفاً كاسراً، وهو أمْرٌ إنْ شاء اللّه فَعَلَه، فيحطّم بها السُّفُن، ويُهْلِكُ رُكّابَها، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيه:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾:

يُوبِقْ: يُهْلِك. أي: أو يُحَطِّم السُّفُنَ، ويُهْلِكُ الرَّاكبين فيها.

وأخيراً نَبَّهَ النَّصُّ على الغالب من تصاريف اللّه في مقاديره، وهو أن يغفُوَ عن كثير من ذُنُوب عباده، فَلا يُعاجلُهم بالعقاب، فقال اللّهُ عزّ وجلّ في بيان الاحتمال الثالث.

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾: بجَزْم فعل «يَعْفُ» عطفاً على فعل جواب الشرط: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾.

النصّ الرابع عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

- قرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، بنَصْبِ **[آياتٍ]** من **[آياتٍ لِقَوْم يُوقِنُونَ]** ومن [آياتٍ لِقَوْم يَعْقِلُونَ].

وقرأ باقي القرّاء العشرة بالرَّفْعِ فيهما.

والقراءتان وجْهان إعْرابيّانِ جائزان، فالرَّفْع لُوحظَ فيه أن الْجُمْلَتَيْن مُسْتأْنفَتَانِ، والنَّصْبُ لُوحِظَ فيه أنَّهما معطوفتان على ما جاء في الآية (٣).

أضاف هذا النّصّ التّنْبِيهَ علَىٰ ظاهرة تَصْرِيف الرّياحِ، في الأزمنة، والأمكِنَةِ، والجهاتِ، وتَصْرِيفِها شدَّةً وضَعْفاً، بمستويات مختلفات من السُّرْعَةِ، والكثافة، والحرارة والْبُرودة، والنَّقَاء والصفاء، والاختلاط بالشوائب، إلى غير ذلك من أمور.

وأضاف ظاهرة التأثير بها على المياه، والْبِحَار، والسُّحُب، والأمطار، وأنواع الثلج والْبَرَد، وسُفُنِ الْبَحْرِ، وكلّ شَيْءٍ حيٍّ وغَيْرِ حيّ، حتّىٰ الجبال

الرواسي، بَحَتِّها وتَعْرِيتها، فضلاً عن الأشجار ونبات الأرض، والتُّراب والرَّمْل والْحَصَىٰ.

دلَّ علىٰ كُلّ هذا عُمومُ عبارة ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ مع النظر إلى الواقع.

إنَّ الرّياح لقُوَّةٌ عظيمة في الكون، فقد تكون سبباً لنفع عظيم، وقَدْ تكون سبباً لهلاك ودمار جسيم.

أفلا تُذَكّر بمَنْ يمْلِكُ تَصْريفها برحمته، أو بَعَدْله، فتُنبِّهُ على عُذْرِه أو نُذْرِه كما جاء في صَدْرِ سورة (المرسلات/ ٧٧ مصف/ ٣٣ نزول):

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾.

النص الخامس عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) بشأن عادٍ قوم الرّسول هُودِ عليه السّلَام، وظنّهم أنّ الرّيح الّتي ساقَتْ سحَاباً، وأقْبَلَتْ علَىٰ أوديتهم، قد أقبلَتْ بالغيث والمطر النافع، مع أنَّها قَدْ أقْبَلَتْ لإهلاكهم وتدمير كلِّ شيءٍ في بلادهم عليهم:

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٥﴾.

﴿عَارِضٗا﴾: **العارض**: السَّحَابُ الْمُطِلُّ القادم. وكلُّ ما يَعْتَرِضُ في الأُفُقِ فَيَسُدُّه، كالجراد، والمهاجراتِ من الطيْر.

هذا النصّ أضاف بعض تفصيلات تتعلّق بقصة إهلاك «عاد» قوم الرسول هُودِ عليه السّلام.

وأضاف بشأن الرّيح أنّ مقدّماتها قَدْ لاَ تُشْعِرُ بأنّها ريح إهلاك وتَعذيب وتَدْمير، إذْ قد تأْتي مُرْسلَةً ناعِمَةً لطيفة كَرِيح المطر، ثُمَّ تتواتَر

شديدَةَ عاصِفَةَ قَاصِفَةَ حاصِبَةَ مُدَمِّرَة، بأمْرِ رَبّها، وهذا يَدُلُّنا على بعض المراد بقول اللّه تعالى في سورة (المرسلات)):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١) فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا (٢)﴾.

- قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف: **[لاَ يُرَىٰ إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ]** بالياء.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[لا تُرى إلا مساكنهم]** بالتاء.

وهما وجهان جائزان لغة.

النصّ السادس عشر:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورةِ (الذّاريّات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا (١) فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا (٢) فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا (٣) فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ (٦)﴾.

- قرأ أبو جَعْفَر: **[يُسُراً]** بضمّ السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُسْرًا﴾ بإسكان السّين.

وهما وجهان عربيّان لِنُطْقِ الكلمة.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا (١)﴾: **الذَّرْوُ**: هو الْبَثُّ والنَّشْرُ لذَرَّاتِ أيّ شيءٍ لَهُ دقَائِقُ صغيرة يمكنُ بثُّهَا في فضاء واسع، كَبَثّ ونَشْرِ الْغُبار، والتّراب، والدّقيق، وذرَّات الماء، وذَرَّات بخار الماء.

والذي يكون سبباً في هذا الذَّرْو، ضِمْن سُنَن اللّهِ الظاهرة في كونه، هي الرّياح.

فلَفْظُ «الذَّارِيَات» وصْفٌ لموصُوف محذوفٍ ينْطَبِقُ على الرياح في ظاهرات الكون، وجاء تأكيد هذا الحدث الوصْفِيّ بالمفعول المطلق «ذَرْواً»

لتفخيم شأن هذه الظاهرة، ولا سيما إذا لاحظنا ما تُسَبِّبُه الرّياحُ من إثارَة ذَرَّاتِ الماء الدقيقة وبَثِّها ونَشْرِها بُخَاراً، ثُمَّ تَجْمِيعِهَا سُحُباً، وما تُسَبِّبُه من إثارة دَقائِقِ الغبار، وذَرْوِها لتكوينِ نَوَيَاتِ الأَمْطار.

ونظراً إلى عظمة هٰذِهِ الظَّاهرة من ظاهرات قُدْرَة اللَّهِ وحِكْمَتِهِ في كونِه، أقْسَمَ اللَّهُ بها، لتأكيد صِدْقِ وَعْدِه بإحياء الناس يوم القيامة، وتأكيد أنَّ الدِّينَ وهو الجزاء واقع لا محالة.

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾: الْوِقْرُ بكَسْر الواو الشيْء الثقيل. والحاملاتُ شيئاً ثقيلاً قد جاء وصفاً للرّياح أيضاً، إذْ هي تَحْمِلُ السُّحُبَ الثّقال بالماء.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ أي: فالجاريات جَرْياً يُسْراً هيْناً ليّناً رَفيقاً لاَ عُسْر فيه، وهذا وصْفٌ للرّياح أيضاً، إذْ تجري بالسَّحاب في الْجَوِّ جَرْياً يُسْراً.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ وهذا وصْفٌ للرِّياح، إذْ تُقَسِّمُ بأمْرِ اللّه السُّحُب، وتُوَزِّعُها على البلاد، لإنزال الأمطار والثّلج والبرَدِ منها بقضاء اللّه وقَدَرِه وأمْرِه، على وفْقِ حِكْمَتِه رحْمَةً أو عَدْلاً.

إنّ المتفكّرين في هٰذِه الظَّاهِرَة الكَوْنِيَّةِ العظيمة، الّتي هي من ظَواهِرِ قُدْرَةِ اللّه وحكمته في كَوْنه، يُدْرِكُون أنّها تَسْتَحِقُّ أن يُقْسِمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ بها باعتبارها من آثار صفاته الجليلة، على أنّ البعث حقٌّ، وأنّ الحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، أمْرٌ واقعٌ لاَ محالة.

النّصّ السابع عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) أيضاً، بشأن عادٍ قوم الرّسُول هود عليه السلام:

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾.

- قرأ أبو عَمْرٍو [عَلَيْهِم] بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأ حمزة، والكسائيّ، ويعقوبُ، وخَلَفٌ: [عَلَيْهُمْ] بضَمّ الهاء والميم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء وضمّ الميم.

وهي وجُوه من النُّطْق كلّها عربية.

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾: هي الرّيح التي لا تنتج خيراً.

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾: أي: كالْبَالِي المتفتّت، والذي صار نخراً غير متماسك الذرّات.

وقد أضاف هذا النصّ وصْفَ ريحِ الإهلاك بأنّها رِيحٌ عقيم، وبأنَّها ذَاتُ قُدْرَةٍ عظيمة فائقة، تجعل الشيء الذي تأتي عليه متفتّتاً منخوراً كالرّميم، وهذا يذكّرنا بالتعرية التي تفعلها الرياح بالجبال، إذْ تُجَزِّئُ بعض صخورها إلى رمال، وإذ تَجعل بعض الصخور كالعظام البالية النخرة.

النص الثامن عشر:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

- قرأ نافع وأبو جعفر: [الرِّيَاحُ] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ بالإفراد.

والمؤدّى واحدٌ كما سبقَ بيانه.

﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾: أي: اشتَدَّتِ الريحُ بتَذْرِيَته وتَفْرِيق ذرّاته، فَهَلْ تُبْقي منْهُ شيئاً مجتمعاً بعْضُهُ إِلَىٰ بَعْضٍ؟

كذلِكَ أعمال الذين كَفَرُوا برَبّهم، لا يحْصُلُونَ منها على أيِّ نَفْعٍ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّين، لأَنَّهُمْ لم يَعْمَلُوها إيماناً باللّه، وابتغاءَ رضوانه وثوابه.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾: أي: في يوم ذي ريح عاصف، **الريح العاصف**: هي الريح الّتي تأتي على مستوى سَطْح الأرض، فتحمل التُّرابَ. والرَّمَادَ، والعصف (وهو يَابِسُ الزّرع) ونحو ذلك بحسب قُوَّتِها وسرعَتِها وشِدّتها.

فَأَبان هذا النّصُّ من أوصاف الريح أنّها تحْمِلُ الدّقائق فتذْرُوها وتُفَرِّقُها في أماكن شتَّىٰ متباعِدَةً، حتّىٰ لا تقدر الخلائق أن تَحْصُل على شيْءٍ ممَّا نَثَرَتْهُ ونشرَتْهُ، وفرَّقته.

كذلك أعمال الذين كفَرُوا برَبِّهم، فقال اللّه عزّ وجل بشأنها:

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

النّصّ التاسع عشر:

قول اللّهِ عزّ وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

بشأن تَسْخِير الرِّيح العاصفة للنبِيِّ الرسول سليمان عليه السلام:

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

- قرأ أبو جَعْفَرَ: **[الرِّياحَ]** بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد.

ومؤدّى القراءتين واحد، كما سبق بيانه في نصوص متعدّدة.

أضاف هذا النصّ بشأن الريح الّتي سخّرَها اللّهُ عزّ وجلّ لسليمان عليه السلام، أنَّه قد سخَّر له الرّيح العاصفَةَ تَجْرِي بأمْرِهِ إلى الأرض المقدسة التي بارك اللّه فيها.

وقد سبقه نصان في نجوم التنزيل:

الأول: ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وهو يتضمّن أنّ اللّه سخّر له الرِّيحَ تَجْرِي بأمْرِه رُخاءً حيْثُ أصاب.

الثاني: مَا جاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) ويتضَمَّنُ أنّ اللّه قد سخَّرَ له الريح السّريعة، الّتي يعادل غُدُوُّها مسيرة شَهْر، ويُعادلُ رواحُها مسيرة شهر، وأدْركنا بالتقريب شدَّة سُرْعتها.

فهي أنواع ثلاثة من الرّياح سخَّرَها اللّهُ عزَّ وجل لسليمان عليه السلام:

(١) الريحُ الرُّخاء الناعمة الرفيقة.

(٢) والرّيح السّريعة الّتي غُدُوُّها شَهْرُ ورَواحها شهر.

(٣) الرّيحُ العاصفة التي تَنْسِفُ ما على وجه الأرض من عَصْفٍ وغُبار ورَمَادٍ ونحوها.

النّصّ العشرون:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بشأن إِهْلاَكِ عَادٍ قَوْمِ الرَّسُولِ هود عليه السلام:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾؟!.

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾: أي: بريحٍ بارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرودَةِ، وقويَّةٍ سَرِيعَةٍ تَصْطَدِمُ بالأشياء فيكُونُ لَهَا دَوِيٍ وصوتٌ مخيفٌ فيه صَرِير. يقال لغة: صَرْصَرَ، أي: صاح صياحاً شديداً فيه صَرِير.

﴿عَاتِيَةٍ﴾: أي: متجاوزة حُدود النفع والسَّلامة، ومُحَطِّمةٍ مُهْلِكَةٍ.

﴿حُسُومًا﴾: أي: مُتَتابعَةً لحَسْمِ مادّتِهِمْ، واستئصالهم، كالْكَيِّ بعْدَ الْكَيِّ لحَسْمِ العِلّةِ. «حُسُوم» جمْع «حَاسِم» مثل «شهود» جمع «شاهد».

﴿صَرْعَىٰ﴾: أي: هَلْكَىٰ مقتولين مطروحين.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: أي: كأنَّهُمْ أصول نخل فَارِغَةٍ شُبِّهوا بها لتصوير حالة بُطُونهم الّتي بُقِرَتْ، وخَرَجَ ما فيها، فَصَارَتْ خاوية.

هٰذه هي الحالة الثانية الّتي يصيرون إليها.

أمّا الحالةُ السابقة لها قَبْلَ أن تُبْقَر بُطُونُهُم وتفرُغ من أحشائها، فقد جاء وصفهم فيهَا في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بقوله تعالى:

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

فأصول النخل المنقَعِر (أي: المنقلِع لساعَتِه) لا تكونُ خاوية، لكنّها بعْدَ حين تجفُّ وتَيْبَسُ ويَبْلَىٰ باطِنُهَا، فتكونُ خاوية.

فجاء في النَّصّيْن تكامُلٌ وصْفِيٌّ لهُمْ باعتبار حالَتَيْن، تكُونُ الأولَىٰ أوّلاً، ثُمَّ تَحْدُثُ الثانية.

وجاء في هذا النَّصّ إضَافة وصف الرّيح الّتِي أهلكَ اللّه بها عاداً بأنَّهَا عاتية، وبأنَّها قد كانت حُسُوماً توالت على أرضهم سبْعَ ليالٍ وثَمانية أيَّامٍ، مع أنّهم قد أهلكوا في اليوم الأوّل منها.

وهذا من التوزيع التكامُلِيّ، المعهود في النُّصوص القرآنِيّة الّتي تَبْدُو في ظاهرها أنّهَا مُكرَّرَات، وهي في واقع حالها غَيْرُ مكرَّرَات، بلْ هي متكاملات، ويكشف تكاملها التَّدَبُّر المتأنّي العميق.

وهذا من عناصر إعجاز القرآن.

النصّ الحادي والعشرون:

قول اللّه عزّ وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾.

- قرأ ابنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: [**اللَّهُ الَّذِي يُرسِلُ الرِّيحَ**] بالإفراد.

- وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

- وقرأ هشام في إحدى روايتين عنه، وقرأ ابنُ ذكوان، وأبو جعفر: [**كِسْفاً**] بإسكان السين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة وابن هشام في الرواية الأخرى عنه: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السّين.

الكِسْفُ والكِسَفُ جَمْع «كِسْفَة» وهي القطعة من الشيء.

- وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [**يُنْزَلَ**] من فعل «أنزل».

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿يُنَزَّلَ﴾ من فعل: «نَزَّل».

- وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمرو، وشُعْبة، وأبو جَعْفَر، ويَعْقُوب: [**فَانْظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّه**] بإفراد «أثَر».

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾ بالجمع «آثار».

والمؤدّىٰ واحد.

- وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكَسْر هاء الضمير.

وهما وجهان عربيان لنطق هاء الضمير.

جاء في هذا النّصّ بيانٌ لطائفة من وظائف الرياح في سُنَنِ اللّه السّببيّة في كونه، مع بيانِ وظيفتها الدينيّة في الترغيب والترهيب، وهي كَما يلي:

الوظيفة الأُولَىٰ: كونُهَا مُبَشّراتٍ بنزول الأمطار التي هي من رحمة اللَّهِ بعباده، فَيُسْقيهم، ويُنْبت زروعهم، ويُخْرِجُ لهم الثمار المختلفة الأنواع والمنافع، دلّ على هذا في النّصّ.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

الوظيفة الثانية: كونُها سبَباً لتجْرِيَ الْفُلْكُ في الْبَحْرِ بأَمْرِ اللّهِ، وليبتغي الناس بركوبها مِنْ فضله أرزاقهم وتحقيق مصالحهم في البحر والبرّ. دلَّ على هذا في النصّ.

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الوظيفة الثالثة: كونُها وسيلة من وسائل اختبار الناس الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان، وما تَشْتمل عليه من سبب لمنافع الناس يُقْصَدُ به تحريض دوافع الشكر في قلوبهم، رغبةً في أن يشكُروا نِعَمَ اللّهِ عليهم.

دلَّ عليه قول اللّه تعالى في النّصّ:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الوظيفة الرّابعة: كونُها قُوّةً عظيمة تُثيرُ الْخَوْفَ والذُّعْرَ من عقاب اللّه وانتقامه من المجرمين، فهي تُنْذِرُ بالجزاء الرَّبّاني، دلّ على هذا دَلاَلَةً ضمنيَّة يُدْرِكُهَا المتدبّرون باللَّمْح، قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ومَعْلُومٌ أَنَّ إهْلاَكَ معظم المجرمين من الأمم السالفة قد كان بِالرياح، أو كانت الرّياح من وسائل إهلاكهم.

الوظيفة الخامسة: أنها تكون سبباً يُثِيرُ اللّه به السَّحَابَ فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاء كيْفَ يشاءُ، ويَجْعَلُه قِطَعاً فيَخْرُجُ المطر من خلاله، فَيُصِيبُ به مَنْ يشاءُ من عباده، فيستَبْشِرُون به، بعد أن كانوا يائسين، دلَّ على هذا قول اللّهِ عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: أي: فَتُحَرِّكُ الرِّياحُ ضِمْنَ نظامها السَّبَبِيّ المياه على الأرض، وتحرّكُ الأبخرة الصاعِدَة من المياه، وتُهَيِّجُها، وتَحْمِلُها، وتجمع بعضَها إلَىٰ بَعْض فتكُونُ سحاباً.

سَحَابٌ: اسم جنس جَمْعِيّ واحِدَتُهُ سحابَة. ويُلاحظ معنى الجمع فيه فيوصف بالجمع، ومنه: «سَحَابٌ ثِقَال» ويُلاحَظُ معْنَى الإفراد فيه فَيُوصَفُ بالمفرد، ومنْهُ: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾: أيْ: يَمُدُّه اللّه في الجوّ كيف يَشَاءُ من جَمْعٍ أو تفريق، وقِلَّةٍ أو كثْرَةٍ، ورقَّةٍ أَوْ كَثَافَةٍ، وبأشكالٍ وصُورٍ مختلفة، تَبْدُو حَرَكاتٍ طبيعيَّةٍ وهي من فعل اللّه جلّ جلاله.

والوسيلة الظاهرة هي الرّياح.

﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: أي: ويجعلُه قطعاً. **الكِسْفَةُ** في اللّغة: هي القطعة من أيّ شيءٍ. وجمعُها كِسْفٌ وكِسَف.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾: أي: فترىٰ المطر يخرجُ من خِلالِ السَّحاب. تقول لغة: وَدقَتِ السَّماءُ، إذا أمْطَرَتْ.

﴿لَمُبْلِسِينَ﴾: أي: لَيَائِسين، أَوْ مُتَحيِّرين. الإبلاسُ في اللّغة: اليأس، والتحيّر، والانقطاعُ، والسّكوت، والنَّدم.

الوظيفة السادسة: إقناعُ أهلِ العقل والرُّشد بقُدْرَة اللّه عزّ وجَلَّ على إحياء الموتى للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدّين، قياساً على قُدْرَتِهِ على إحياء الأرض بمياه الأمطار بَعْدَ مَوْتها، دلَّ على هذه الوظيفة الفكريَّةِ الدّينيَّة، قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ:

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

الوظيفة السابعة: أنَّها تُنْذِرُ بعذاب اللّهِ إذا أَرْسَلَها اللّهُ مُصْفَرَّةً، فيخَاف المُجرِمُونَ فيُعْلِنُونَ تَوْبَتَهُمْ إذا رَأَوْهَا كذلك، فَإذَا صَرَفَ اللّهُ عَنْهُمُ العذابَ عادوا إلى ما كانوا فيه من الكُفْر، وظَلُّوا بَعْدَ ذَلِكَ يَكْفُرُونَ باللّهِ وبآياته، دلَّ على هذا قول اللّه عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: أي: مُنْذِراً بالعذاب الذي يدلُّ علَيْه اللَّوْنُ الأصفر، والمعنى: لأعْلَنُوا إيمانَهم وتَوْبَتَهُمْ، ولَعَادُوا بَعْدَ أن يَصْرِفَ اللّه عنهم العذاب، و﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾: أي: لاسْتَمَرُّوا دواماً من بعد انصرافه عنهم يكْفُرُونَ باللّه وبِآياتِه.

النصّ الثاني والعشرون:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾».

- قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وتَصْرِيفِ الرِّيحِ] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: «وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ» بالجمع.

ومؤدّى القراءتين واحد.

التصريف: التدبير، والتوجيه، والتّنويع، والتغيير، واتّخاذ مختلِف الوجوه الممكنة للوصول إلى الغاية المقصودة.

أَبان اللّه عزّ وجلّ في هذه الآيةِ أنَّ تَصْرِيف الرّياح في الكون من آياته العظيمة، فقد ذكرها سبحانَه مع آيَة خَلْقِ السَّماء والأرض، وآيةِ نظامِ حركَةِ الأرض ضمن المجموعة الشمسيّة التي بها يحدُثُ نِظَامُ اختلاف اللَّيْلِ والنّهار، مع ما في الأرض من آياتِ جَليلات، وآيةِ أنظمة الماء، والأَوْزانِ النَّوْعيَّةِ للأشياء، والطَّفو، والريحِ والحركة الّتي بها تجري الْفُلْكُ في الْبَحْر، وآيَةِ الدَّورة المائيَّةِ ونظام تَحْلِيَةِ الماء بالتَّبَخُّرِ والاجتماع في السحاب، ثُمَّ هُطولِهِ مطراً على مَا يشاءُ اللّه بحكْمَتِه ولمن يشاء، وآيَةِ دورة الحياة النَّباتيَّة، وآية خَلْق أصناف الأحياء الّتي تَدِبُّ على الأرض، وآية نظام السَّحَاب المسخَّر وَفْق مقادير اللّهِ وأوامره الحكيمة بين السماء الْعُلْيا والأرض.

فالرِّياح، وتسخيرها، وتَصْرِيفُها في الأماكن والأزمِنَة، وتصريف أنواعها الكثيرة الرُّخاء والعاصف والقاصف والمدمّرة وغير ذلك، بحسَب الأغراض النفعيَّةِ للأحياء، والتذكيرية بعناصِرَ إيمانية للنّاس، والتحذيريّة والإنْذاريَّة، والعقابيَّة الجزائيّة، هي من آياتِ اللّهِ العظيمة في الكون.

النصّ الثالث والعشرون:

قولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

«إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا

وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾: أي؛ كمثل ريحٍ فيها بَرْدٌ شدِيدٌ.

الصِّرُّ: شِدَّةُ الْبَرْدِ.

فأبان اللّه عزّ وجلّ في هذا النصّ، أنَّ من وظائف الريح، أنْ يُرْسِلَهَا اللَّهُ بحكْمَتِه باردَةً شديدَة البرودة، فَيُهْلِكَ بِهَا زَرْعَ قَوْم ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ بالمعاصي، أو بأكْل أموال النّاسِ بالباطل، أو بمَنْع الزّكاة الَّتي فَرَضَهَا اللَّهُ في أمْوالِهِم، أو بأَكل الرّبا، أو بتَرْكِ فرائضِ العبادات، أو بارتكاب الكبائر، أو نحو ذلك.

وقد جعل اللّه عزّ وجَلَّ هؤلاء الّذين يُعَاقِبُهُمْ بإهلاك زُروعِهِمْ في مَجَاري سُنَنِ عِقَابه المعجّل، مثلاً لِنَتِيجَةِ مَا يُنْفِقُهُ الكافِرُون في الحياة الدنيا، ابتغاءَ منافِعَ غيبيَّةٍ يَرْجُونَ تَحْقيقها. لكِنَّ اللَّهَ جلَّتْ حكْمَتُه يأتِي إلى كُلّ ما أنفقوهُ، فأعَدّوا وَدَبَّرُوا به أشياء تُشْبِهُ عَمَل الزارع الظالم لنَفْسِه في مَزْرَعَتِه، فيبْعَثُ عليه مَا يجعلُهُمْ لاَ يَنْتَفِعُونَ ممَّا أَنْفَقُوا شيئاً ممّا كانوا يَرْجونه.

هذه الوظيفة من وظائف الريح لم يأتِ التصريحُ بها في النصوص السابقة لهذا النّص في نُجُوم التنزيل.

النصّ الرابع والعشرون:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول): يمتنُّ على المؤمنين بتسخِير الرِّيح لِرَدِّ أحزاب الشِّركِ عَنهم في غزوة الخندق، وجَعْلِهِمْ يَرْجِعُونَ خَائِبِينَ عن الْمَدِينَة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

- قرأ أبو عَمْرو: [**بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيراً**] بياء الغائبين.

وقرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ بتاء المخاطبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذِ اللّه عزّ وجَلّ بَصيرٌ بمَا يَعْمَلُ المخاطَبُون في الآية وهم الّذين آمَنُوا، وبما يَعْمل الجنود الذين جاءُوهم من المشركين، وهم غير مخاطبين في الآية. فأغنت القراءتان عن أَنْ يُقَال في الآية: وكان اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ويَعْمَلُون بَصِيراً.

وقد أبان اللّه عزّ وجلّ أنّ من وظائف الريح في سُنَن اللّهِ السَّبَبِيَّة، أنْ يَرُدَّ بها كَيْدَ وبَأْسَ الكافِرِينَ عن المؤمنين الصادقين، الذين تقضي حكمتهُ عزّ وجلّ أنْ يُؤيِّدَهم، ويَرُدَّ كيْد أعدائهم عنهم، وهو البصير بما يَعْمَلُون وبما يَعْملُ أعداؤهم.

وما نَصَرَ اللّه به المؤمنين في غزوة الأحزاب، مثالٌ علىٰ إحدى أفعال اللّه السببيّة في نُصْرَة أوليائه على أعدائه، وكانت الرِّيح يومئذٍ سبباً في صَرْف كيد المشركين عن المؤمنين.

النّصّ الخامس والعشرون (وهو آخر النُّصوص حول الرِّياح في القرآن):

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

- قرأ نافِعٌ، وأَبُو جَعْفر: [**فَتَخَطَّفُهُ**] بفتح الخاء وتشدِيد الطاء المفتوحة.

وقرأ باقي القُرّاء العشرة: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ بإسْكان الخاء وفتح الطاء دون تَشدِيد.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى: فالفِعْلُ المشدَّدُ الطَّاء يَدُلُّ على حالةِ كثْرَةِ جماعَةِ الطَّيْر الَّتي تَتَخطَّفُهُ، وهذه تُصَوِّرُ شِدَّة التَّمَزُّقِ النَّفْسِيِّ لدَىٰ بَعْضِ المشركين.

والفعلُ المخفَّفُ الطاء يدُلُّ على الحالَةِ العاديَّةِ الّتي لا تكون فيها كثْرَةٌ مِنْ جماعة الطَّيْرِ الّتي تخْطَفُهُ، وهٰذه تُصَوِّر حالة التمزُّق النفسِيّ غَيْرِ المشدّدة لدىٰ بَعْضِ المشركين، إذ المشركون مُخْتَلِفُو الدَّركات في الشرك.

وقد أبان هذا النَّصُّ، أَنَّ مِنْ وظائفِ الرِّيح أَنْ تُسَاعِدَ على دفع من خَرَّ من السّماء، باتّجاه جاذبيَّةِ الأرض، فَتَزيد مِنْ هُوِيِّه، وتُوَجِّهَهُ بَعِيداً عن الأماكن المرتَفِعَةِ الَّتي قَدْ تُخَفِّفُ من قُوَّةِ اصْطِدامِه بالأَشياء الصُّلْبَة، الّتي يقَعُ عليها، لِتَهْوِي به في مَكانٍ سحيقٍ.

وهذا يكونُ في نوْع الرّيح الّتي تأْتي من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، مائلةً عن المرتفعات إلى الوديانِ السحيقة.

وعكسُها الرّياح الّتي تَحْمِل السَّاقِطَ فتَرْفَعُه إلى الأعالي قليلاً أو كثيراً، وتُدْنيه من المرتَفِعات، فَتُخَفِّفُ من شدَّة صَدْمَتِهِ وهو ساقِطٌ، وقد تكُونُ سبباً في إنْقاذه.

والآيَة تُصَوِّرُ حالة التمزُّقِ النَّفْسِيّ لدَىٰ المشركين، وعاقِبَتَهُم التعيسة الّتي توصلُهُمْ إلَىٰ العذاب الحتميّ.

وتُصَوِّرُ أَنَّ الإيمانَ في مَوْقِع السُّمُوّ والْعَلاء، وأَنَّ الشِّرْكَ الذي هو أَخَفُّ أنواع الكُفْرِ هو بمثابَةِ مَنْ يخِرُّ من السَّماء، فيتَعَرَّضُ إلى عذاب التمزّقِ وهو يخِرّ، وإلَىٰ عذابِ المصير، حينَ يَصِلُ إلىٰ عاقبة الْجَزاء، بعْدَ رِحْلَة الابتلاء.

وبهذه النظرة التَّتَبُّعيّة للنُّصوص القرآنيّة حول الرّياح، ظَهَر لنا أَنَّ الرّياح ذواتُ وظائف دنْيَوِيَّة، ضِمْن أنظمة سببيَّةٍ ربّانية، وذَواتُ وظائف

دينيَّة، إذْ تُلْقي دَلالاَتٍ بيانيّةً تذكيريَّةً، فتَدُلُّ على طائفة من صفات الرَّبّ جَلَّ وعلا، وتُحَذِّرُ وتُنْذِرُ بِقَانُونِ الجزاء الرَّبَّانيّ المعجّل والمؤجّل إلى يوم الدين.

ويجْمَع ذَلِكَ عُنوانٌ كُلّيٌّ جامع، جاء في أوَّل تنزيل قرآنيّ عن الرّياح، وُهو قول اللّه عزّ وجلّ في صدر سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١) فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا (٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا (٣) فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا (٤) فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾.

* * *

تلخيصٌ موجز لما جاء عن الرياح في القرآن

أخذاً من التتبع السابق للنصوص القرآنيَّةِ الّتي جاء فيها بيانٌ عن الرّياح، باستقراء شامل، وتدَبُّرٍ فيه بغَضُ السَّبْرِ باتّجاه الْعُمق، أقدّم التلخيصَ التالي:

أوّلاً: الرّياح ذوات تصاريف بتصريفِ اللّه لها، فهُو جلّ جلالُه يُوَجِّهها بحكْمَتِه، علَىٰ ما يشاءُ بسُلْطان رُبُوبيّته لكلّ ما سِوَاه، وجُوهاً مختلفة، بصِفَاتٍ ومُرَادَاتٍ متنوعة تَنَوُّعاً كثيراً.

ثانياً: الرّياح تختلف اختلافاً كثيراً في صفاتها:

(١) فهي تختلف باختلاف نِسَبِ عناصِرِ الغازاتِ فيها.

(٢) وتختلف باختلاف نِسَب بخار الماء فيها.

(٣) وتختلف باختلاف ما تَحْمِلُ من أشياء.

(٤) وتختلف باختلاف درجاتِ الحرارة والبرودة فيها.

(٥) وتختلف باختلاف شدَّةِ السُّرْعَةِ والْحَرَكَةِ وضعفهما حتى السكون.

(٦) وتختلف باختلاف نوع حركتها في الْجَوّ، فقد تكُونُ أُفُقِيَّة، وقد تكون عَمُودِيَّةً من الأَعْلَىٰ إلى الأسفل، أو من الأَسْفَلِ إلى الأعلى، وقَدْ تكون بمُسْتَوى سطحِ الأرض، أو بحُدُود مُسْتَوى الأشجار، أو فوق ذلك حتَّىٰ السُّحُبِ فمَا فوْقها، وقد تكُونُ مُرْسَلَةً بخُطُوطٍ مائِلَةٍ من الأعلى إلى الأسفل، أو من الأسفل إلَىٰ الأعلى، باحتمالاَت كثيرة يَصْعُبُ حصرها.

(٧) ومنها رياحٌ كونية في عوالم النجوم والمجرّات.

ثالثاً: الرّياح ذواتُ آثارٍ نافعة، بحكْمَةِ الرَّبّ مُصَرِّفِها وذات آثارٍ ضارَّة، بحكمة الرَّبّ مُصَرِّفِها.

- **فمِنْ تأثيراتها النافعات بحكمة اللّه وأمْرِه، ما يلي:**

(١) إثارتها المياه وحملها لبخار الماء وتكوين السُّحب، وسوقها لإنزال الأمطار، على البلاد والأراضي التي يأمُرُ اللَّه بإغاثتِها وإحيائها.

فإذا جاءت كانت نَاشرة، ومبشِّرَةً برحمة الله.

(٢) إثارَتُها للسحاب، وبَسْطُهُ، وجَمْعُهُ، وتفريقه، على مُرَاد اللّه وأمْرِه الحكيم.

(٣) حَمْلُها اللّقاحات، للنباتات، وللسحاب، وحملُها للروائح الزكيّة.

(٤) إجراؤها للسُّفُن في الْبَحْر، بأمْر اللَّه، وعلى مقتضىٰ حكمته.

(٥) تَذْرِيَتُها لأشياء نافعة، إذْ تَنقُلُها من أمكنَةٍ في الأرض إلى أمْكِنة أُخرىٰ.

(٦) تأديتُها وظيفة نَصْرِ أولياء اللّه على أعدائه، بأمْرِ ربّها.

إلى غير ذلك من أمُورٍ فيها نَفْعٌ عظيم للنّاس.

- **ومن تأثيراتها الضارّات بحكمة اللّه وأمرِه، ما يلي:**

(١) أنْ تكون صَرْصَراً عاتيةً بارِدَةً فتُهْلِكَ وَتُدَمِّر.

(٢) أَنْ تكون قاصِفَةً للأشجار والصواري.

(٣) أن تأتيَ مُصْفَرَّةً مُنْذِرَةً بالْهَلاك.

(٤) أنْ تأتي عَاصِفَةً تَحْمِلُ ما خَفَّ عل سطح الأرض، فتُحْدِثُ بعضَ الضّرَرِ.

(٥) أن تأتي هاوية من أعْلَىٰ إلى أسفل، ومائلة إلى أعماق الوديان، فتَرْمي، وتُحَطِّمُ وَتُدَمِّر.

(٦) أنْ تأتي حافرةً ومُقْتَلِعةً للأشياء، وناسِفَةً إلَىٰ الأعْلَىٰ، ثُمَّ رَامِيَةً بالأشياء ومُحَطِّمَةً لها.

(٧) أن تأتي شديدة عنيفة فتضْرِبَ البحارَ، وتجعل أمواجها كالجبال يَصْدِمُ بعْضُها بعضاً، وتُغْرِقَ السُّفُنَ الَّتي تجري عليها.

إلى غير ذلك من صور تأتي بالبلاء والعذاب والعقاب، بحسب حكمة اللّهِ في عباده.

تلخيص وظائف تصريف الرياح:

حين نتفكر في وظائف تصريف الرياح يتَبيَّنُ لنا أنها تشتمل على الوظائف التالية:

الوظيفة الأولى: أن تكون سبباً لإمداد الأحياء المتَنَفِّسَةِ بالأكسجين اللازم لحياتها.

الوظيفة الثانية: أن تكون سبَباً لتحقيق أرزاق الأحياء على الأرض، بتكوين المطر، وإنزاله، وبحمل عناصر اللّقاح للنباتات وللسُّحب، وأن تكون سبباً لتحقيق منافع كثيرة للناس كَإجراء السُّفُن، وحَمْل الطائرات، وسوق السّحاب.

الوظيفة الثالثة: أن تكون سبباً لامتحان الناس بالنِّعَمِ، أو بالمصائب والمكاره.

الوظيفة الرابعة: أن تكون سبَباً لعقاب مستحقي العقاب المعجّل، حتّىٰ مُسْتَوَىٰ الإِهْلَاكِ الماحِق المدمّر.

الوظيفة الخامسة: أن تكون سبباً لتأييد المؤمنين، ونصرهم على الكافرين، أو صَرْف كيْدِ الكافرين عن المؤمنين.

الوظيفة السادسة: أنْ تكون مسخَّرَة لبعض عباد اللّه المرسلين، كما كانت مُسَخَّرةً لسُلَيْمانَ عليه السلام، إذْ سخَّر اللّه له الرّيحَ الرُّخَاءَ، والرّيحَ السَّرِيعة الّتي غدُوُّها شَهْرٌ ورَواحُها شهر، والرّيحَ العاصفة.

الوظيفة السابعة: أن تكُونَ مُذَكّرَةً باللّه جلّ جلاله، وبعظيم صفاته، إذْ هي آيةٌ من آياته في تصاريفها ذواتِ الآثار العظيمة والجسيمة والخطيرة.

الوظيفة الثامنة: أنْ تكون مُنْذِرَةً بعقاب اللّه وعَذَابه، لكلّ من يَفْعل مثل أفعال مَنْ أُهْلِكُوا في سَالِفِ الأيّام بأنواعٍ منها. وَأنْ تكُون منبِّهَةً على عَدْلِ اللّهِ وجزائه المؤجَّلِ إلى يوم الدّين.

إلى غير ذلك من وظائف يستطيع المتفكر المتدبّر أن يكتشفها بالبحث والتأمل.

* * *

الملحق الثالث
حول الأقسام الواردة في صدر سورة المرسلات

جاء عند المفسّرين تفسير «المرسلات» بالرّياح، وبالملائكة، وبالأنبياء، وتفسير «الفارقات» و«الملقيات ذكراً» بالملائكة، ورأيْتُ أنَّ هذه التفسيرات لا تَسْتَنِدُ إلى بيانٍ نَبوِيٍّ، وإنّما هي آراء اجتهاديّة ذكرها المفسّرون.

ثم نظرتُ في الأقسام القرآنيّة بنظراتٍ تَدَبُّرِيَّة، فظهر لي أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ يُقْسِمُ بآيَاتٍ من آياته في كَوْنِه، وهذه الآياتُ مشْهُودَةٌ أَوْ مَعْلُومَةٌ لدىٰ المقصودين بالخطاب، لتأكيد نَبَأٍ غَيْبِيٍّ يُبَلِّغُهُمْ إيّاه، ومضْمُونُ هذا النبأ ممّا ينكرُونَ، أو ممّا يشكُّونَ فيه، أو تكُونُ حالَتُهم مثْلَ حالَةِ المنكر أو

الشَّاكّ، أو تكون حالَتُهم النفسيَّةُ في قَلَقٍ، أو اضطرابٍ، أو حُزْنٍ، أو خَوْفٍ، أو أيّ انفعالٍ آخر يجعلُ تصَوُّرَاتهم لِلأشياء رَجْرَاجَةً مُهْتَزَّةً، غَيْرَ واضِحَةٍ ولا نقيَّةٍ، فَهُمْ بحاجَةٍ إلَىٰ ما يُسَكِّن نفوسَهُم ويُعيدُها إلَىٰ سوائها، ومن وسائل ذلك التأكيد بالْقَسَم.

ودَلَّني الاستقراء القرآنيّ، مع التدبُّر المتأنّي على أنَّ من المستَبْعَد جدًّا، أنْ يُقْسِمَ اللَّهُ الرَّبُّ الحكيمُ بأمُورٍ غيبيَّة هي ممّا ينكِرُهُ المقصودونَ بالخطاب أو يشكُّونَ فيه، على قضيَّةٍ غيبيَّةٍ أُخْرَىٰ لتأكيدها.

فالأمور الغيبيَّةُ الَّتي لا يُؤْمِن بها الذين يُوجَّهُ لَهُمُ الخطاب مُتَسَاوِيَةٌ لَدَيْهم إنكاراً لها، أو شكًّا فيها، والقسم ببعضها لتأكيد بعْضها الآخر مُسَاوٍ لعكسه، وهو في العادَةِ لا يُعْطي قوّةً ولاَ تَرْجيحاً، وحكمةُ الرَّبّ الحكيم أجَلُّ، فمِنْ غَيْرِ المقبولِ في العقول، أنْ يُقْسِمَ الرَّبُّ جلَّ جلالُه لمنكِرِ الْبَعْثِ أو الشَّاك فيه، علَىٰ أنَّهُ حَقٌّ، بمَلاَئِكَةٍ مُرْسلاتٍ، وهو أيضاً يُنْكِرُها ولاَ يُؤْمِنُ بها.

والواجب على متدبّر كلام اللّه في كتابه المجيد أن يُمْعن النظر، ويُمِدَّ تفكُّرَهُ وتَدَبُّرَهُ بمَزِيدٍ من الصَّبْر والتَّأنّي، ومُتَابعة التفكُّر والتدبّر، حتَّىٰ يفتح اللّه عليه بالفهم الصحيح المطابق لمراده من كلامه.

هذا ما جعلني أستبْعِدُ الآراء التي ذُكرت في تفسير ما أقْسَم اللّه به في صَدْرِ سُورَةِ (المرسلات) باستثناء الرّياح، لأنَّها من آيات اللّه الكبرى المشهودة في الكون، أقسم اللّه بها لمنكري البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، على أنَّ ما يُوعَدُونَه لَواقعٌ حتماً، ومثل هذا القسم معقولٌ ومقبولٌ، وهو يتضَمَّنُ حُجَّةً على قُدْرَةِ اللّه، وعلى قانون الجزاء الذي هو ثَمَرَةُ حكمة الابتلاء، فقد كانت الرّياح في تاريخ الأمم سبباً في إهلاك مجرمي أهل القرون الأولى.

* * *

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

(١٩)

سورة الفيل

١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول

(١) نص السورة ٧
(٢) معاني مفردات لغوية ٧
(٣) موضوع سورة الفيل ٨
(٤) قصة أصحاب الفيل ٩
(٥) التدبر التحليلي لآيات السورة ١٤
- تمهيد ١٤
- الآية الأولى ١٥
- الآية الثانية ١٦
- الآيتان (٣ ـ ٤) ١٧
- الآية (٥) ١٨

(٢٠) و(٢١)

سورتا الفلق والناس

١١٣ مصحف/ ٢٠ نزول ـ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول

(١) نص السورتين ٢٣
(٢) مما ورد بشأنهما ٢٤
(٣) موضوعهما ٢٦
(٤) بيان حول كلمة (قُلْ) ودفع لشبهة بعض المتحذلقين ٢٦
(٥) التدبّر التحليلي لآيات سورة الفلق ٢٨
- ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ ٢٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿من شرّ ما خلق﴾ ٢٩
- ﴿ومن شر غاسق إذا وقبَ﴾ ٣٠
- ﴿ومن شرّ النفاثات في العقد﴾ ٣٣
- ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ ٣٤

(٦) التدبُّر التحليلي لآيات سورة الناس ٣٨
- الآيات (١ ـ ٢ ـ ٣) ٣٨
- الآيات (٤ ـ ٥ ـ ٦) ٤٠

ملاحق لسورتي الفلق والناس ٤٢

(٧) الملحق الأول: نظرة عامّة حول ما جاء في سورتي الفلق والناس ٤٣

(٨) الملحق الثاني: حول فلسفة التمكين من فعل الشرّ ٤٥

(٩) الملحق الثالث: الاستعاذة بالله في القرآن والسنة ٥١
- الاستعاذة في القرآن ٥١
- الاستعاذة في السنة ٦١

(١٠) الملحق الرابع: حول السّحر ٦٣

(٢٢)

سورة الإخلاص

١١٢ مصحف/ ٢٢ نزول

(١) نص السورة ٧٣

(٢) سبب نزول السورة ٧٤

(٣) فضل سورة الإخلاص ٧٤

(٤) موضوع السورة ٧٧

(٥) التدبّر التحليليّ لآيات السُّورة ٧٨
- ﴿قل هو الله أحد﴾ ٧٨
- ﴿الله الصمد﴾ ٨٢
- ﴿لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفُواً أحد﴾ ٨٣

(٦) سورة الإخلاص سورة تقريرية ٨٧

الموضوع الصفحة

(٢٣)
سورة النّجم
٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول

(١) نص السورة ٩١
(٢) مما ورَدَ من أحاديث بشأن سورة النجم ٩٤
(٣) سبب نزول السّورة ٩٥
(٤) موضوع سورة النجم ٩٥
(٥) دروس السورة ٩٦

(٦) التدبر التحليلي للدرس الأول:

الآيات من (١ ـ ١٨) ٩٧
- تمهيد ٩٧
- ﴿والنجم إذا هوى﴾ ٩٩
- ﴿ما ضل صاحبكم وما غوىٰ﴾ ١٠١
- ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ ١٠٢
- ﴿إن هو إلاّ وحْيٌ يوحَى﴾ ١٠٣
- ﴿علمّه شديد القوى * ذُو مِرَّة فاسْتَوى﴾ ١٠٥
- ﴿وهو بالأفق الأعْلَىٰ * ثم دنا فتدلّىٰ * فكان قاب قوسين أو أدنىٰ﴾ . ١٠٧
- ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ ١١٠
- ﴿ما كذب الفؤاد ما رَأىٰ * أفتمارونه على ما يَرَىٰ﴾ ١١٠

روايات بشأن رُؤية الرسول لجبريل في النزلة الأولى ١١٣
- ﴿وَلَقَدْ رَآه نَزْلَةً أخرى....﴾ وحتى الآية (١٨) ١١٤

(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السُورة:

الآيات من (١٩ ـ ٢٨) ١١٩
- تمهيد وتدبر ١٢١
- **القضية الأولى**: اتخاذ المشركين الأصنام معبودات لهم ١٢١

إشكال ودفعهُ حول وصف «مناة»: بالثالثة الأخرىٰ ١٢٥
تعذيب المشركين أصحابَ النبي ﷺ لإكراههم على عبادة الأوثان ١٢٦
- **القضية الثانية**: اعتقاد المشركين أنّ الملائكة بناتُ اللّه ١٢٦

(٨) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة: الآيات من (٢٩ ـ ٣٢) ١٣٨

الموضوع الصفحة

- ﴿فَأعرض عمّن تولّىٰ عن ذكرنا﴾ ١٣٩
- خلاصة هذا التعليم من عناصر منهاج الدعوة ١٤٠
- ﴿إنّ رَبَّك هو أعْلَم بمَنْ ضلَّ عن سبيله...﴾ ١٤١
- ﴿ولله ما في السماواتِ وما في الأرض...﴾ ١٤١
- ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم...﴾ ١٤٣

(٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة النجم: الآيات من (٣٣ ـ ٥٥) وفيه تسع قضايا ١٤٦

- تمهيد ١٤٨
- ﴿أفرأيت الذي تولّى...﴾ (٣٣ ـ ٣٥) ١٤٨
- ﴿أم لم ينَبأْ بما في صحُف موسى...﴾ ١٥١

(١٠) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة
وهو الآيات من (٥٦ ـ ٦٢ آخر السورة) وفيه أربع قضايا ١٦٦

ملاحق السورة ١٧١

(١١) الملحق الأول: من بلاغيات سورة النجم ١٧١

(١٢) الملحق الثاني: حول معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة ... ١٧٢

(١٣) الملحق الثالث: سياسة الداعي في أحوال المدعوّ الذي لم يستجب ... ١٩٣

(٢٤)

سورة عبس

٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول

(١) نصّ السّورة ٢٠٧

(٢) ما رُوِي في سبب نزول السّورة ٢٠٨

(٣) نظرة تدبُّرية حول حادثة سبب نزول السورة ٢١٢

(٤) موضوع السّورة ٢١٤

(٥) دروس السّورة ٢١٤

(٦) التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس السورة:
الآيات من (١ ـ ١٦) ٢١٦

- ﴿عبَسَ وتولّىٰ * أنْ جَاءَهُ الأعْمَىٰ﴾ ٢١٦
- ﴿وَما يُدْرِيك لعلّه يزّكّىٰ * أو يذّكّر فتنفع الذكرى﴾ ٢١٨
- ﴿أمّا من اسْتَغنى... (٥)... (١٠) كلاّ...﴾ ٢٢٢

الموضوع الصفحة

● ﴿إِنَّها تَذْكِرَة.... (١٢ ـ ١٦)﴾ ٢٢٥
تحليل كون القرآن تذكرة فمن شاء ذكر ما فيه ٢٢٧

(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُروس سورة عبس:

الآيات من (١٧ ـ ٢٣) ٢٢٩
● ﴿قُتِلَ الإنسان ما أَكْفَرَه﴾ ٢٣٠
١ ـ سوابق الحديث عن الإنسان في نجوم التنزيل ٢٣١
٢ ـ نظرة إلى تسلسل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في نجوم التنزيل ٢٣٤
● ﴿مِنْ أي شيْءٍ خَلَقَهُ﴾؟ ٢٣٥
● ﴿من نطفة خلقه فقدّرهُ﴾ ٢٣٥
● ﴿ثمّ السبيل يسّرَه﴾ ٢٣٨
● ﴿ثُمّ أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره﴾ ٢٣٩
● ﴿كَلَّا لمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَه﴾ ٢٤٣

(٨) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة عبس:

الآيات من (٢٤ ـ ٣٢) ٢٤٤
● تمهيد ٢٤٥
● ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ ٢٤٦
● ﴿أنَّا صببنا الماء صبّاً... (٢٥ ـ ٣٢)﴾ ٢٤٦

(٩) التدبّر التحليلي للدرس الرابع:

الآيات من (٣٣ ـ ٤٢) ٢٥٢
● ﴿فإذا جاءَت الصاخّة﴾ ٢٥٢
● ﴿يَوْمَ يفرّ المرءُ من أخيهِ﴾ ٢٥٤
● ﴿وَأُمّهِ وأبيه﴾ ٢٥٤
● ﴿وَصاحبته وبنيه﴾ ٢٥٥
● ﴿لِكُلّ امْرِئٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه﴾ ٢٥٦
● ﴿وُجوهٌ يومئذٍ مسفرة...﴾ ٢٥٧
ملاحق لتدبر سورة عبس ٢٥٩
(١٠) **الملحق الأول**: حول بلاغيات في السورة ٢٥٩
(١١) **الملحق الثاني**: حول كون وظيفة القرآن والرسول وظيفة بيان وتذكير .. ٢٦١

الموضوع الصفحة

(٢٥)

سورة القدر

٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول

(١) نصّ السورة ٢٨١
(٢) موضوع سورة القدر ٢٨٢
(٣) سوابق الحديث عن القرآن في نجوم التنزيل ومجمل ما اشتملت عليه من دلالات ٢٨٢
(٤) التدبّر التحليليّ لآيات سورة القدر ٢٨٧
- ﴿إنّا أنزلناه في لَيْلَةِ القدر﴾ ٢٨٧
- ما المراد من إنزال القرآن في ليلة القدر؟ ٢٩٠
- ليلة القدر إحدى ليالي شهر رمضان ٢٩٠
- الحكمة من إخفاء ليلة القدر ٢٩١
- ﴿وَما أدْرَاكَ مَا لَيلَةُ القدر﴾؟ ٢٩٣
- ﴿ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر﴾ ٢٩٣
- مضاعفة ثواب الأعمال لخصائص بعض الأزمنة والأمكنة ٢٩٥
- ﴿تنزّل الملائكة والرّوح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر﴾ ٢٩٦
- ذكر جبريل عليه السلام بعنوان الروح ٢٩٧
- ﴿سلامٌ هي حتى مطلع الفجر ۝٥﴾ ٣٠٠
- صفات ليلة القدر في القرآن ٣٠١
- ممّا ورَدَ في السُّنَّة حول صفات ليلة القدر المادّية ٣٠٢

(٢٦)

سورَة الشمس

٩١ مصحف/ ٢٦ نزول

(١) نصُّ السورة ٣٠٥
(٢) ممّا وَرَدَ بشأن سورة الشمس من أحاديث ٣٠٦
(٣) موضوع سورة الشمس ودروسُها ٣٠٧
(٤) التدبّر التحليلي للدّرس الأول: الآيات من (١ ـ ١٠) ٣٠٨
- تمهيد ٣٠٨
- ﴿والشمس وضحاها﴾ ٣٠٨
- ﴿والقمر إذا تلاها﴾ ٣١٠
- ﴿والنهار إذا جَلَّاها﴾ ٣١٠

الموضوع الصفحة

- ﴿واللّيل إذا يغشاها﴾ ٣١١
- ﴿والسماءِ وما بناها﴾ ٣١٢
- ﴿والأرض وما طحاها﴾ ٣١٤
- ﴿ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورَها وتقواها﴾ ٣١٧
- المقسَمُ عليه:

﴿قَدْ أفلح من زكّاها * وقد خابَ من دَسَّاها﴾ ٣١٩

(٥) **التدبر التحليليّ للدرس الثاني:**

الآيات من (١١ ـ ١٥) ٣٢٢

- ﴿كذّبت ثمود بطغواها﴾ ٣٢٣
- ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ ٣٢٤
- ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسُقْياها﴾ ٣٢٤
- ﴿فكذّبوه فعقَرُوها﴾ ٣٢٤
- ﴿فَدَمْدَمَ عليهم ربُّهُمْ بذَنْبِهِمْ فسَوَّاها﴾ ٣٢٥
- ﴿وَلاَ يخافُ عُقْبَاها﴾ ٣٢٥
- نظرة عامة إلى ما اشتمل عليه الدرس الثاني من درسَيْ السورة ٣٢٦

موجز ما جاء في القرآن عن ثمودَ ورسُولهم ٣٢٧

ملاحق لتدبر السورة ٣٣١

(٦) **الملحق الأوّل**: مستخرجات بلاغية مما اشتملت عليه السورة من بلاغيات ٣٣١

(٧) **الملحق الثاني**: حول الشمس والقمر والأرض والنهار والليل في القرآن . ٣٣٢

(٢٧)

سورة البروج

٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول

(١) نص السورة ٣٤٧

(٢) مما رُوي بشأن سورة البروج ٣٤٨

(٣) موضوع سورة البروج ٣٤٩

(٤) دروس السورة ٣٥٠

(٥) **التدبّر التحليلي للدرس الأول:**

الآيات من (١ ـ ٩) ٣٥١

- ﴿والسماء ذات البروج﴾ ٣٥٢

الموضوع الصفحة

● ﴿واليوم الموعود﴾ ٣٥٣
● ﴿وشاهد ومشهود﴾ ٣٥٥
لمحة عن القسم في القرآن ٣٥٧
● ﴿قُتِل أصحاب الأخدود﴾ ٣٥٨
● من هم أصحاب الأخدود؟ ٣٦١
● ﴿النار ذات الوقود﴾ ٣٦٨
● ﴿إذْ هم عليها قعود﴾ ٣٦٩
● ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهودٌ﴾ ٣٧٠
● ﴿وَما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا باللّه العزيز الحميد.. (٨ ـ ٩)﴾ ... ٣٧٠

(٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة البروج:

الآيتان (١٠ ـ ١١) ٣٧٢
● تمهيد ٣٧٣
● اضطهاد طَغاة مشركي مكة للمستضعفين من المؤمنين والمؤمنات ٣٧٣
● ﴿إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات...﴾ ٣٧٦
● ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾ ٣٧٨

(٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة البروج:

الآيات من (١٢ ـ ١٦) ٣٨٠
● تمهيد ٣٨١
● ﴿إنّ بطش ربك لشديد﴾ ٣٨٢
● ﴿إنَّهُ هو يبدئ ويعيد﴾ ٣٨٢
● ﴿وهو الغفور الودود﴾ ٣٨٣
● ﴿ذو العرش المجيد﴾ ٣٨٥
● ﴿فعال لما يريد﴾ ٣٨٥

(٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة البروج:

الآيتان (١٧ ـ ١٨) ٣٨٦
● تمهيد ٣٨٦
● ﴿هل أتاك حديث الجنود * فرعَوْن وثمود﴾ ٣٨٦

(٩) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة البروج:

الآيات من (١٩ ـ ٢٢) ٣٨٨
● ﴿بل الذين كفروا في تكذيب.. (١٩ ـ ٢٢)﴾ ٣٨٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ﴾ ٣٩١

(٢٨)

سورة التين

٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول

(١) نص السّورة ٣٩٥
(٢) ممّا ورد بشأن سورة التين ٣٩٥
(٣) موضوع سورة التين ٣٩٧
(٤) دروس سورة التين ٣٩٩
(٥) التدبّر التحليليّ للدرس الأول من درسي السورة:
الآيات من (١ ـ ٦) ٤٠٠
- ﴿والتين والزيتون﴾ ٤٠٠
- ﴿وطور سينين﴾ ٤٠٢
- ﴿وهذا البلد الأمين﴾ ٤٠٢
- ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ٤٠٣
- ﴿ثمّ رَدَدْنَاه أسْفَلَ سافلين﴾ ٤٠٧
- ﴿إلاّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصّالحات فلهم أجْرٌ غير ممنون﴾ ٤٠٩

مقارنة بين ما جاء في سورة العصر وما جاء في سورة التين ٤١٠
(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من درسي سورة التين:
الآيتان (٧ ـ ٨) ٤١١
- تمهيد ٤١٢
- ﴿فما يكذّبك بَعْدُ بالدين﴾ ٤١٣
- ﴿أليس اللّه بأحكم الحاكمين﴾ ٤١٤

ملاحق لتدبر سورة التين ٤٢٠
(٧) **الملحق الأول:** حول بلاغيات في السورة ٤٢٠
(٨) **الملحق الثاني:** حول الأمن بمكة البلد الحرام ٤٢١

(٢٩)

سورة قريش

١٠٦ مصحف/ ٢٩ نزول

(١) نصّ السورة ٤٣١

الموضوع الصفحة

(٢) موضوع السورة، وهي ذات درس واحد ٤٣٢
(٣) قصّة الإيلاف ٤٣٢
(٤) **التدبر التحليلي لآيات سورة قريش** ٤٣٦
- المعنى العام الذي دلّت عليه السورة ٤٤٠

(٣٠)
سورة القارعة
١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول

(١) نصّ السورة ٤٤٣
(٢) موضوع سورة القارعة وهي ذات درسين ٤٤٤
(٣) **التدبّر التحليلي للدرس الأول من درسيها:**
الآيات من (١ ـ ٥) ٤٤٥
- ﴿القارعة * ما القارعة﴾ ٤٤٥
- ﴿وَما أدراك ما القارعة﴾ ٤٤٥
- ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعِهْن المنفوش﴾ ٤٤٦

(٤) **التدبّر التحليلي للدرس الثاني من درسيها:**
الآيات من (٦ ـ ١١) ٤٥١
- تمهيد ٤٥١
- ﴿فأما مَنْ ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية﴾ ٤٥٢
- ﴿وأما منْ خفت موازينه * فأمّهُ هاوية * وما أدراك ماهية * نارٌ حامية﴾ ٤٥٥

(٣١)
سورة القيامة
٧٥ مصحف/ ٣١ نزول

(١) نصّ السورة ٤٥٩
(٢) موضوع سورة القيامة ٤٦١
(٣) دروس السورة ٤٦٢
(٤) **التدبر التحليلي لآيات الدرس الأول:**
الآيات من (١ ـ ١٥) ٤٦٥

الموضوع الصفحة

- ﴿لا أقسم بيوم القيامة * ولا أُقسم بالنفس اللّوامّة﴾ ٤٦٦
- ﴿أيحسب الإنسان ألنْ نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانهُ﴾ .. ٤٧٠
- ﴿بل يريد الإنسان ليفجُر أمامَهُ * يسألُ أيّان يومُ القيامة﴾ ٤٧٤
- ﴿فإذَا برِق البصر * وخسَف القمر... (٨ ـ ١٥)﴾ ٤٧٧
- ﴿فإذا برِق البصر﴾ ٤٧٨
- ﴿وخَسَفَ القمر﴾ ٤٧٩
- ﴿وجُمع الشمس والقمر﴾ ٤٨٠
- ﴿يقول الإنسان يومئذٍ أين المفرّ﴾ ٤٨١
- ﴿كلاَّ لا وزر * إلى ربك يومئذٍ المستقر﴾ ٤٨٢
- ﴿ينبَّأُ الإنسان يومئذٍ بما قَدّم وأخّرَ﴾ ٤٨٤
- ﴿بل الإنسان على نفسه بَصيرة * ولو ألقى معاذيرهُ﴾ ٤٨٥
- ممّا جاء في السّنة بشأن جدل الإنسان عن نفسه يوم الحساب ٤٨٨

(٥) **التدبّر التحليلي لآيات الدرس الثاني من دروس سورة القيامة:**

الآيات من (١٦ ـ ١٩) ٤٨٩

- تمهيد ٤٨٩
- ﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به﴾ ٤٩١
- ﴿إنّ علينا جمعه وقرآنه﴾ ٤٩١
- ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ ٤٩١
- ﴿ثمّ إنّ علينا بيانه﴾ ٤٩٢

(٦) **التدبّر التحليلي للدرس الثالث من سورة القيامة:**

الآيتان (٢٠ ـ ٢١) ٤٩٤

- ﴿كلاّ بل تحبّون العاجلة * وتذَرُونَ الآخرة﴾ ٤٩٤
- أسباب حُبّ الناس العاجلة ٤٩٦
- حب الناس العاجلة في النصوص القرآنية ٤٩٩

(٧) **التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس القيامة:**

الآيات من (٢٢ ـ ٢٥) ٥٠٢

- ﴿وجُوهٌ يومئذٍ ناضرة * إلى ربّها ناظرة * ووجوه يومئذٍ باسرة * تظنُّ أن يُفعَلَ بها فاقِرَة﴾ ٥٠٢
- رؤية المؤمنين ربَّهم يوم القيامة في السّنة ٥٠٤
- ﴿ووجوه يومئذٍ باسرة ㉔ تظنُّ أن يُفعَلَ بها فاقِرَة ㉕﴾ ٥٠٤

الموضوع الصفحة

(٨) التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس القيامة:

الآيات من (٢٦ ـ ٣٠) ٥٠٦
- ﴿كلّا إذا بلغت التراقي﴾ ٥٠٧
- ﴿وقيل من راقٍ﴾ ٥٠٧
- ﴿وظنّ أنّهُ الفراق﴾ ٥٠٨
- ﴿والتفت السّاق بالسّاق﴾ ٥٠٨
- ﴿إلى ربّك يومئذٍ المساق﴾ ٥٠٩

(٩) التدبّر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة القيامة:

الآيات من (٣١ ـ ٣٥) ٥١٠
- ﴿فلا صدّق ولا صلّىٰ * ولكِنْ كذَّبَ وتَوَلّى * ثمّ ذهب إلى أهْلِه يتمطّىٰ﴾ ٥١١
- ﴿أولَىٰ لك فأولى * ثم أولى لك فأولَىٰ﴾ ٥١٤

(١٠) التدبّر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة القيامة:

الآيات من (٣٦ ـ ٤٠) ٥١٥
- ﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سُدىً﴾ ٥١٦
- ﴿ألم يَكُ نطفة من منيٍّ يُمْنَىٰ * ثم كان علقة﴾ ٥١٨
- ﴿فخلق فسوّىٰ﴾ ٥١٩
- ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ ٥٢٠
- ﴿أليس ذلك بقادر على أن يُحْيي الموتىٰ﴾ ٥٢١

(١١) **ملحق:** حول إبداعات بلاغيّة في سورة القيامة ٥٢٢

(٣٢)

سورة الهمزة

١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول

(١) نصّ السورة ٥٢٧
(٢) من ذُكر من المشركين أنّه كان همّازاً لمازاً للمؤمنين ٥٢٨
(٣) موضوع السّورة ٥٢٨
(٤) التدبّر التحليلي لآيات السورة ٥٢٩
- ﴿ويلٌ لكل همزة لمزة﴾ ٥٢٩
- ﴿الذي جمع مالاً وعَدّدَه * يحسب أن ماله أخلده﴾ ٥٣١

الموضوع الصفحة

- ﴿كلّا لينبذَنّ في الحطمة﴾ ٥٣٤
- ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾؟ ٥٣٦
- ﴿نار الله الموقدة﴾ ٥٣٦
- ﴿الّتي تطّلع على الأفئدة﴾ ٥٣٧
- ﴿إنّها عليهم مؤصدة﴾ ٥٣٨
- ﴿في عَمَدٍ مُمَدَّدَة﴾ ٥٣٩

(٣٣)

سورة المرسلات

٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول

(١) نصّ السورة ٥٤٣

(٢) ممّا ورد بشأن سورة المرسلات ٥٤٥

(٣) موضوع السّورة ٥٤٦

(٤) دروس السورة ٥٤٨

(٥) الْقَسَمُ في سوابق نجوم التنزيل لتأكيد يوم الدين ٥٥٠

(٦) التدبر التحليلي للدرس الأول من سورة المرسلات: الآيات من (١ ـ ٧)

- تمهيد ٥٥٣
- ﴿والمرسلات عرفاً﴾ ٥٥٤
- ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ ٥٥٦
- ﴿والناشرات نشراً﴾ ٥٥٦
- ﴿فالفارقات فرقاً﴾ ٥٥٧
- ﴿فالملقيات ذكراً * عُذْراً أو نُذْراً﴾ ٥٥٨
- ﴿إنما توعدون لواقع﴾ ٥٦٠

(٧) التدبر التحليلي للدرس الثاني من المرسلات: الآيات من (٨ ـ ١٥) ... ٥٦١

- تمهيد ٥٦٢
- ﴿فإذا النجوم طُمِست﴾ ٥٦٢
- ﴿وإذا السّماء فُرِجت﴾ ٥٦٤

ما جاء في القرآن عن الأحداث المستقبليّة في السماء ٥٦٤

- ﴿وإذا الجبال نُسِفت﴾ ٥٦٧

الموضوع الصفحة

- ﴿وَإِذَا الرُّسُل أُقِّتت * لأيّ يوم أُجّلت * ليوم الفصل * وما أَدْراك ما يوم الفصل﴾ ٥٦٩
- ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ ٥٧١

(٨) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من السورة:

الآيات من (١٦ ـ ٢٨) ٥٧٢

- تمهيد ٥٧٢
- ﴿ألم نُهْلِك الأولين﴾ ٥٧٣
- ﴿ثُمّ نتبعُهُمُ الآخرين﴾ ٥٧٣
- ﴿كذلك نفعل بالمجرمين (١٨)﴾ ٥٧٤
- ﴿أَلَمْ نخلقكم من ماءٍ مهين * فجعلْناهُ في قرار مكين * إِلَىٰ قَدَرٍ معلوم * فقدرنا فنعم القادرون * ويل يومئذ للمكذبين﴾ ٥٧٥
- ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياءً وأمواتاً * وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً * ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ ٥٧٨
- ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ ٥٨٢
- ﴿. . . وأسقيناكم ماءً فُراتاً﴾ ٥٨٣

(٩) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من سورة المرسلات:

الآيات من (٢٩ ـ ٤٥) ٥٨٤

- تمهيد ٥٨٥
- ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون﴾ ٥٨٧
- ﴿انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللّهب﴾ ٥٨٨
- ﴿إنّها تَرْمي بشرر كالقصر * كأنّه جمالة صفر﴾ ٥٨٩
- ﴿هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذَنُ لهم فيعتذرونَ * ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ ٥٩٧
- ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأوّلين * فإن كان لكم كيد فكيدونِ * ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ ٦٠١
- ﴿إنّ المتّقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلُوا واشربوا هنيئاً بما كنتُمْ تَعْمَلُونَ * إنّا كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ ٦٠٣

(١٠) التدبر التحليلي للدرس الخامس من سورة المرسلات: الآيتان (٤٦ ـ ٤٧) ٦٠٩

- ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون * ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ ٦٠٩

تخصيص لفظ «المتاع» بحظوظ الدنيا، أما حظوظ الآخرة في الجنة فخصّص لها لفظ «النعيم» ٦١٠

الموضوع **الصفحة**

المجرم في الإصلاح القرآني يساوي الكافر المخلد في النار ٦١١
(١١) التدبر التحليلي للدرس السادس من سورة المرسلات:
الآيتان (٤٨ ـ ٤٩) ٦١٣
- ﴿إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون * ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ ٦١٣

(١٢) التدبّر التحليلي للدرس السابع وهو الأخير من السورة:
الآية الأخيرة (٥٠) ٦١٥
- ﴿فبأيّ حديث بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟؟!! ٦١٥

(١٣) تلخيص ما اشتملت عليه سورة المرسلات ٦١٧
(١٤) ملاحق لتدبر سورة المرسلات ٦٢٠
- **الملحق الأول**: حول بلاغيات في سورة المرسلات ٦٢٠
- **الملحق الثاني**: حول الرياح في القرآن المجيد ٦٢١
- **الملحق الثالث**: حول الأقسام الواردة في صدر سورة المرسلات ٦٦٤

* * *

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرٌ تَدَبُّرِيٌّ لِلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ ٱلنُّزُولِ
وِفْقَ مَنْهَجِ كِتَابِ «قَوَاعِدِ ٱلتَّدَبُّرِ ٱلْأَمْثَلِ لِكِتَابِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ»

المجلَّدُ الثَّالِثُ

تَفْسِيرُ سُوَر

قٓ (٣٤) - البلد (٣٥) - الطَّارق (٣٦) - القمر (٣٧) - صٓ (٣٨)

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطّبْعَة الأولىٰ
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

حُقوق الطبْع محفوظة للمؤلّف

تُطلب جميع كتُبنا مِن :
دَار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَار البشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَة ق

٥٠ مصحف ٣٤ نزول

مكيّة كلّها إلّا الآية (٣٨) منها فمدنية

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة ق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ
ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ
بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ
﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾
أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا
مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾
وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ
﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا
بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ

---

٣ - ● قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿مِتۡنَا﴾ بِكَسْرِ الميم.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُتْنَا] بضمّ الميم. وهما وجهان عربيان جائزان.

١١ - ● قَرَأَ أبو جَعْفر: [مَيِّتاً] بتَشْديد الياءِ المكْسُورة.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [مَيْتاً] بإسكان الياء من غير تشديد. وهما وجهان جائزان والإسكان تخفيف.

وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾
وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا
بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا
ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ
ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا
يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ
بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ
ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ
كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا
مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ
وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ
لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ

---

١٤ ـ ● قرأ ورش [وَعِيدي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل. وقرأ بإثباتها في الوصل والوقف يعقوب.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة [وَعِيدِ] بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً. وحذفُ ياء المتكلّم كثير ويدلُّ عليها إبقاء الحرف الذي قبلها مكْسُوراً.

٣٠ ـ ● قرأ نافع، وشعبة: [يَوْمَ يَقُول] بياء الغائب، والضمير يعود على الله المعلوم من السياق على طريقة الالتفات من المتكلم إلى الغائب. =

﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ
﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ۖ
وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم
بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا
مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ

= ● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نقول] بنون المتكلّم العظيم.

٣٢ ـ ● قرأ ابْنُ كثير: [يُوعَدُونَ] بياء الغائبين.

● وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بتاء المخاطبين وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

٤٠ ـ ● قرأ نافع، وابْن كثير، وحمزة، وأبو جعفر، وخَلَف: [وَإِدْبَارَ] بكسر الهمزة على أنه مصدر قام مقام ظرف الزمان، والمعنى: وقْتَ إِدْبار السجود.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَأَدْبَارَ] بفتح الهمزة، وهو جمع «دُبُر» وهو آخر الصلاة وعَقِبُها، والمعنى: وسبِّحه في أعقاب الصلوات.

٤١ ـ ● ﴿الْمنَادِ﴾ أثبت الياء وصلاً نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها في الوصل والوقف ابن كثير ويعقوب وحذفها مطلقاً باقي القراء العشرة.

٤٤ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وابْنُ عَامِرٍ، وأَبُو جعفر، ويعقوب: ﴿تشَّقَّقُ﴾. =

سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ
أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

= ● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [تَشَقَّقُ].

«تَشَّقَّق»: أصلها «تَتَشَقَّقُ» أدغمت التاء بالشين فصارت شيناً مُشَدَّدَة.

و«تشَقَّقُ»: أصلها أيضاً «تتَشَقَّقُ» حُذِفَتِ التَّاء الثانية تخفيفاً.

وكلا الوجْهَيْن جائزان في العربيّة.

٤٥ ـ ● قرأ وَرْشٌ: [وَعِيدِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل.

● وقرأ يعقوب بإثباتِها في الوصل والوقف.

● وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرةِ [وَعِيدِ] بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

وهي وُجوهٌ جائزة في اللِّسان العربي. وسبق نظيرها في الآية (١٤).

(٢)

مما ورد في السُّنّة بشأن سورة (قٓ)

كان للرسول ﷺ عِنايةٌ خاصّةٌ بسورة (قٓ) دَلَّ على هذا عدة أحاديث صحيحة:

(١) روى مُسْلِمٌ وغيره، عن قُطْبَة بن مالك قال:

«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقرَأ في الْفَجْرِ في الرَّكْعَةِ الأولى قٓ والقُرْآن المجِيد». أي سورة (قٓ).

(٢) وروى الإمام أحمد ومُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ عن أبي واقد اللَّيْثِي قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقرَأُ في الْعِيدِ بِقَاف واقْتَرَبَتْ». أي: كان يقرأ سورة (قٓ) وسورة ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾﴾ وهي سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) في عيدي الفطر والأضحى.

(٣) وروى مسلم وابْن أبي شيبة، وأبو داود، وابْنُ ماجه، والبيهقيُّ، عن أمّ هشام ابْنَةِ حارِثة قالت:

«ما أخذتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ إلاَّ مِنْ فِي رَسُول الله ﷺ، كَانَ يَقْرَأ بِهَا في كُلِّ جُمُعَةٍ عَلَىٰ المِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاس».

أي: إنّها حَفِظتْها مِنْ كَثْرَةِ سَماعِها من فِيهِ، وهُوَ يَقْرأ بها على المنبر، إذا خطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الجمعة.

* * *

(٣)

موضوع سورة (قٓ)

يدور موضوع سورة (قٓ) حول متابعة الموضوع الذي دارت حوله سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي نزلت قبل (قٓ) مباشرة. وهو موضوع معالجة المكذبين بيوم الدين، وتضيف إليه تكذيبَهُمْ بالرَّسول ﷺ، بحجَّةِ أنَّه بشر منهم، زاعمين أنَّ إرْسَالَ رَسُولٍ من البشر إلى البشر أمْرٌ مُستبعد عجيب، فهوَ لا يَحصُلُ، وكذلك إحياءُ الموتَى بَعْدَ فَناءِ أَجسادِهِمْ وَتفتُّتِ ذَرَّاتِها وضياعها في ترابِ الأَرْض أمْرٌ مُسْتبعَد عجيب، فهو لا يحصل.

والمعالجات الفكريَّة والنفسيّة، للإقناعِ الفكري، واسْتِثَارةِ مِحْوَرَي الرَّهَبِ والرَّغَب النَّفسِيّيْن الّتي اشتملت عليها سورة (قٓ) معالجاتٌ تكمِيليَّةٌ لِمَا جَاءَ في سورة (المرسلات) والسُّوَرِ قبلهما في نجوم التنزيل، ولَيْسَتْ مُكَرَّرَةً تكْرِيراً تَطَابُقياً، وجملة النصوص السابقة تسعة نصوص، وهذا الذي اشتملت عليه سورة (قٓ) هو النصّ العاشر⁽¹⁾.

واشتملت أيضاً سورة (قٓ) على معالجة لنفس الرسُول وقلْبِه، تُجاهَ ما كانَ يَلْقَاهُ مِنْ تَكْذِيبِ بَعْضِ قَوْمِهِ له، وما يُواجِهُونَهُ بِهِ من أقوالٍ جارحةٍ

---

(١) انظر الفقر (٥) من مقدمات تدبر سورة المرسلات.

مؤلمة، فَأَوْصَىٰ الله رسُوله ﷺ، بأن يَعْتَصِم بالصَّبْرِ، وبأنْ يُكْثِرَ مِنَ التَّسْبيحِ والذِّكْرِ، لله عزَّ وجلَّ الذي تنشرح بذكْرِهِ الصُّدُور، وتنحلُّ به عُقَدُ الأمُور، وأوصاهُ بأن يكونَ تَسْبيحُهُ، قبْلَ طُلوع الشمس، وقَبْلَ غُروبها، وأثْنَاء اللَّيْلِ، وعَقِبَ الصلوٰات التي يُصَلِّيها لربِّه.

وأبان له في هٰذه المعالجة أنّ وظيفته في رسالته التبليغ، فهو ليس مُجبراً ولا مكرِهاً للنَّاسِ على الإيمان، ومتابعةُ التبليغ بالتذكير بالقرآن من يخافُ وَعيد الله، والَّذي يخافُ وعيدَ الله هو الذي يُوقنُ قَلْبُه به، وَلَوْ لَمْ يُعْلِنْ إيمانَه وإسلامَه.

وموضوع سورة (قٓ) ظاهر في الدَّرْس الأوّلِ من دُرُوسها، وهو الآيات الثلاث الأولى منها.

* * *

(٤)

دروس سورة (قٓ)

اشتملت السورة على اثني عشر درساً:

الدرس الأول: تضَمَّن بعد القَسَم بالقرآن المجيد، عرض مقالة المشركين إذ كَذّبوا الرَّسُول في رسالته، وكذّبوا بنبأ البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، بأسلوب الاستفهام التعجُّبيّ الإنكاري.

وهو الآيات من (١ ـ ٣).

الدرس الثاني: تضمّن دفْعَ توهُّمِهم أنْ تفتُّتَ رُفَاتِ أجساد الموتى واختلاطَها بتراب الأرض يجعل من المستحيل تمييزَها وجَمْعَها، وإعادتَها إلى الأجساد التي كانت فيها قبل موتها. وتضمَّن بيان واقع حالهم النفسيّ الّذي جعلهم في وضع قَلِق مضطربٍ لا يستطيعون معه إدْراك حقائق

الأمور، بَعْدَ أن كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهُمْ، لأنّه خالف أهواءهم ورغبات الفجور التي لديهم.

وهو الآيتان: (٤ ـ ٥).

الدرس الثالث: تضمّن عرض أدِلَّة من الظواهر الكونيّة تدلُّ على أنّ الله قادر على بعث الموتى، وأنّ بعثهم يُشبه إحياء الأرض بعد موت نباتاتها، بفَلْقِ البذور وإخراج النبات.

وهو الآيات من (٦ ـ ١١).

الدرس الرابع: تضمّن عرض نماذج من المكذبين الأوّلين وكيف حقَّ وعيد الله لهم بإهلاكهم إهلاكاً جماعيّاً عامّاً، ليكونُوا عبرةً للمعتبرين، وهذا إنذارٌ للمشركين.

وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤).

الدرس الخامس: تضمّن تساؤلاً يكْشِفُ أنَّ الله عزَّ وجل لم يَعْيَ بالخلْقِ الأول، بدليل وجوده واستمرار تكرُّره، وبَيَانَ أنَّ المكذبين بالبعث، في لَبْسٍ من أمْرِهِمْ بالنسبة إلى خَلْقٍ جديد، بَعْدَ إنهاءِ الله ظروفَ الخلْق الأوّل.

وهو الآية (١٥).

الدرس السادس: تضمّن بيانَ أنَّ الله الذي خلق الإنسان بسُلْطانِ رُبوبيّته وخلَقَ له خصائص نفسه، يَعْلَمُ ما تُوَسْوس به نفسه، وأنّه أقرب إليه من حبل الوريد، فلا يَعْزُبُ عن عِلْمِهِ شيءٌ من خواطِرهِ ونيّاته، وقد خلقَ له مَلَكَيْنِ مُرافِقَيْن لَهُ عن اليمين وعن الشّمال يُسَجِّلان عليه أعماله الظاهرة والباطنة.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٨).

الدرس السابع: تَضَمَّنَ عَرْضَ ساعَةِ الموتِ وما يَشْهَدُ فيها الميّتُ من أحداثِ أمُورِ ما بَعْدَ الموت، وعَرْضَ ساعَةِ البَعْثِ الذي يكونُ عَقِب النَّفْخ في الصُور، وأنّ هذا الإحياءَ يكون ليوم الوعيد، وعَرْضَ مجيئه إلى موقف حسابه يَسُوقه إليه سائق من الملائكة وشهيد يَشْهَدُ عليه بما كان قدّمه في الحياة الدنيا، مع بيان أوّل قَوْلٍ يقال له عند وصوله إلى موقف حسابه.

وهو الآيات من (١٩ ـ ٢٢).

الدّرس الثامن: تضمّن عرض لقطة من حساب الكافر العَنِيد المعتدي والحكم عليه المساوي للحكم علَىٰ كلّ نُظرائه، من الإنس والجنّ، ومنهم قرينُه الشيطان الذي كان يوسوس له، وعَرْضَ ما يُحاولُ أن يعتذر به هذا القرين، مع الردّ عليه.

وهو الآيات من (٢٣ ـ ٢٩).

الدرس التاسع: تضمّن عرض لقطات من مشاهد يوم الدين تتعلّق بجهنم، وبالجنة وإزلافها، وبخطاب الذين قضىٰ الله لهم بأن يدخلوها وبأن يكونوا من المنعّمين فيها.

وهو الآيات من (٣٠ ـ ٣٥).

الدرس العاشر: تضمّن توجيه إنذار لمكذّبي الرسول والمكذّبين بيوم الدين بسُنَّةِ الله في إهلاك أمثالهم، كما فعل الله بكفّار القرون الأولى من إهلاكٍ عامٍّ شاملٍ وتعذيبٍ يعتبر به من كان له عَقْلٌ، أو أصغى للبيانات الكلامية وشَهِدَ آثارَ الأوّلين.

وهو الآيتان: (٣٦ ـ ٣٧).

الدرس الحادي عشر: درْس مدني التنزيل ضُمَّ إلى سورة مكيّة التنزيل، مراعاةً لاقتِضاءَيْن:

الاقتضاء الأول: أنّ سبب نزوله الرّدّ على مقالة اليهود في المدينة، الزّاعمين أنَّ الله بَعْدَ أن خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام، استراح في اليوم السابع فجعله مقدّساً، متوهمين أنّ الله قَدْ مَسَّهُ التَّعبُ والنَّصبُ، في عمليّاتِ الخلقِ، فأبانَ الله كذبهم في هذا.

الاقتضاء الثاني: المناسبَةُ الفكريَّة اقتضَتْ ضَمَّهُ إلى سورة (قَ) المكية.

وهو الآية (٣٨).

الدرس الثاني عشر: تضمن معالجة حالة الرسول ﷺ النفسيّة والقلبية تجاه ما يكابده من مزعجات أقوال المكذبين، ويُلْحَقُ بالرَّسولِ كلُّ حَمَلَة رسالته من أمّته، وتضمّن بيان أنّ الرَّسُولَ مبلغٌ عن الله وليس بجبّارٍ على الاستجابة له.

وفيه إعلامٌ بطريقة غير مباشرة للكافرين المكذبين بيوم الدّين ببعض حقائقَ عن أحداث يوم البعث، مع بيان أنّ الله عَظُمَ سلطانه هو الذي يُحيي ويميت.

وهو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥ آخر السورة).

* * *

(٥)

التدبُّر التَّخلِيلِي للدرس الأوّل من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٣)

قال الله عز وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ② أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ③﴾.

القراءات:

● قرأ نافع، وحفص، وحمزة والكسائي وخلف: ﴿مِتْنَا﴾ بكسر الميم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُتْنا] بضم الميم.

والقراءتان وجْهان عربيّان جائزان.

التدبر:

﴿قٓ﴾: سبق الكلام على الحروف المقطّعة الواردة في بعض أوائل السُّوَر في أوّل سورة (القلم/ ٦٨ مصحف ٢/ نزول).

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾:

الواو هي «واو» القسم، وفي هذه العبارة يُقْسِمُ الله عزّ وجلّ بالقرآنِ الذي وَصَفَهُ بأنّه مجيد.

إنَّ القرآن معجزةُ الرّسول الخالدة، الدائمةُ الإعجاز، ما كَرَّت العصور، ومرّت الدُّهور، وإعجازُه يُثْبِتُ بشَكْلٍ قاطع أنّه رَسُولُ الله حقّاً وصِدْقاً، وأنّه صادقٌ بلا رَيْب في كلّ ما يُبَلّغُ عن ربِّه، ومنْه خبَرُ البعث للحياة بَعْد الموت، بحياة أخرى، يتمُّ فيها الحساب وفصْلُ القضاء وتحقيق الجزاء، على ما كان في رحلة الحياة الدنيا رحلة الابتلاء، بالنسبة إلى الذين خَلَقَهُم الله عزّ وجلّ فيها ليَبْلُوهم.

﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ أي: الشريف الكريم الرّفيع المقام الْعَليّ المنزلَة، بسبب ما فيه من كمالاَتٍ جليلاتٍ عظيماتٍ تدُلُّ على أنّه كلامُ الله عزَّ وجلَّ، ولَيْسَ كلامَ بشَرٍ مَهْما ارْتقت منزلة ذلك البشر.

وكلمة «مجيد» على صيغة «فعيل» التي تدلُّ على المبالغة والكثرة لصيغة اسم الفاعل، هي بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ وصفاته تدلُّ على غاية كمال الصفة، وهي محوّلة هنا عن اسم الفاعل «ماجد». وكلاهما: «الماجد والمجيد» من

أسماء الله الحسنى. وهذا الوصف لم يَرِدْ في القرآن إلا وصفاً لله مرَّتين، وللقرآن مرّتين، وللعرش مرّة واحدة في قراءة ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ۝١٥﴾ بكسر الدال.

والمجْد في اللّسان العربي هو الكرم والشرف والعلوّ والرّفعة المعنويّة العالية السامية. تقول لُغةً: مَجُدَ مَجَادَةً فهو مجيد. وأمْجَدَهُ ومَجَّدَهُ، أي: عظَّمَهُ وكرَّمه وأثنىٰ عليه بالمجد.

والتمجيد: أن تنسُب الرَّجُل إلى المجْدِ. وتقول: تَمجَّد فُلانٌ، أي: صار مَجيداً.

- أما جوابُ القسم الوارد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ فمَحْذُوف.

وبالنظر التأمُّليّ فيما جاءَ بَعْدَهُ، وهو أنّ المشركين الذين كَفَروا بالرَّسول محمّد ﷺ، وكَفَروا بما أنْذَرهم به من عذاب الله يوم الدّين، قد تعجَّبُوا تعجُّبَ المنكر من أن يأتيهم رسُولٌ بشرٌ منهم مُنْذِرٌ لهم بعذابِ الله يوْم الدّين، فإنَّ باستطاعتِنا أن نُدرِكَ أن المقْسَمَ عليه قضيَّتان:

القضيّةُ الأولى: صدْقُ رسالة الرَّسُول محمد ﷺ، وأنّه رسول الله حقّاً، لأنَّ القرآن بمَجْدِهِ المعجز، قد جعَلَه الله الآية الكبرىٰ على صِدْق الرَّسول في رِسالَته، وفي بلاغِهِ للناس، وعلى أنّه رسول الله حقّاً وصِدْقاً.

القضية الثانية: صِدْقُ إنذار الرسول بعذاب الله يوْم الدين، وصِدْقُ ما أخبر به عن ربّه من أمْرِ البعث بعد الموت، إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

ويمكن تقدير جواب القسم بما يلي: والقرآن المجيد لَمُحَمدٌ رسول الله حقاً وصِدْقاً، وهو صادقٌ فيما يبلِّغ عن ربّه، ولَإنْذَارُهُ بعذاب الله يوم الدين حقّ وصدق، وَلَلْبَعْثُ بعد الموت للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، في اليوم الآخِرِ حقٌّ وصدقٌ.

والْقَسَمُ بالْقُرْآنِ المجيدِ قَسَمٌ بآيَة من آياتِ الله الباهرات، ويَتَوَقَّفُ إدْراكُ هذه الآية على التفكُّرِ والتَّدَبُّر للوصول إلى معرفة عناصر إعجازه، وأنّه لا يُمْكِنُ أن يَكُونَ صادراً عن فَرْدٍ أو جماعَةٍ من الناس، أو عن كلِّ الإنسِ والجِنّ، ولو اجتَمَعُوا على ذلك، فالقرآن آيَةٌ عظْمىٰ، وهو يستحقُّ أنْ يُقْسِم به الله عزَّ وجلَّ كما أقسم بظواهِر آياتِ صفاته في الوجود.

والْقَسَمُ به مُوَجّه في الحقيقة لمَنْ هم مؤهّلونَ لإدْراكِ عناصر إعجازه من أولي الألباب.

فكأنَّ الله عزّ وجلَّ يقول: أُقْسِمُ بالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ المعجز، لأولي الألباب القادرين على إدْراك عناصر إعجازه بعد التفكّر والتدبّر، على صِدْقِ رسولي محمّد وصِدْقِ ما جاءَ به عَنّي ليُبَلِّغَهُ للناس، كما أنزلْتُه عليه.

ولهذا لم يواجِهِ الله عزّ وجلَّ بعد هذا القَسَمِ الكافرين بالخطاب، بل تحدَّث عنهم بضمير الغائب، فالقسم بالقرآن المجيد لا يؤكّد في نفوسهم، صدق الرسول في رسالته، ولا صِدْق نَبَإِ يوم الدين الذي أخبرهم به عن ربّه، إذْ لم يتفكَّروا في القرآن ولم يَتَدَبَّروا عناصِرَ إعجازه، لكِنْ قد يوجَدُ فيهم مستقبلاً مُتَفَكِّرون مُتَدَبِّرُونَ أولو ألباب، أو يَسْتَحِثُّ هذا الْقَسَمُ من كان منهم ذا لُبَّ دَرّاكٍ فَيَتَفَكَّرُ وَيَتَدَبَّرُ، فيكُونُ هذا الْقَسَمُ مُفِيداً بالنِّسْبَةِ إلى هٰؤلاء، ويُؤَكِّدُ في نفوسهم صِدقَ الرَّسول وصِدْق ما جاء به.

- قول الله عزَّ وجل:

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾؟؟!

﴿بَلْ﴾ حَرْفُ إضراب، والذي يَظْهَرُ لي أنّه إضرابٌ عن كلام مطْوِيّ مُقَدَّرٍ ذهناً يَدُلُّ عليه الْقَسَمُ بالقرآنِ المجيد⁽¹⁾، أي: لكِنَّ الَّذِين كَفَرُوا لَمْ

---

(١) يعجبني في مثل هذا الإضراب بحرف (بل) الداخلة على الجملة قولُ من يعتبرها حرف=

تُؤَثِّرْ فيهم معجزة القرآن المجيد، ولم يَسْتَفِيدُوا من دلالتها فيؤمنُوا بالرَّسُول وبما جاء به، بل أنكروا رسالة الرسول محمّد وأَنْكَرُوا البعث يوم القيامة، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، باسْتِعْمال أسْلُوب التعجُّب والاستغراب فقط، دون حجَّةٍ أو أيّ دليل يَصْلُح للمناقشة والبحث.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم﴾ يقال لغة: عَجِبَ من الشيء يَعْجَبُ عَجَباً، وَعَجْباً، وعُجْباً، وتعجّبَ منه، إذا أنكره لقلة اعتياده إيّاه، وأصلُ الكلام: وعَجِبُوا من أنْ جاءهم، ولكن حَذْفَ الجار قبل «أنَّ» و«أن» قياسٌ مطرد.

وكان مقتضىٰ كون القرآن مجيداً معجزاً لا يستطيع البشر أن يأتُوا بمثله، أنْ يكونَ برهاناً على صِدْقِ محمَّد ﷺ في بيانه أنّه رسول الله، وعلى صِدْقِ نَبأ البعث للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدّين، وصِدْقِ كلّ ما يبلّغه الرسول ﷺ عن رَبّه، وكان يجب على القوم بعد أن اسْتَمَعُوا إلى القرآن أن يأخذوا بهذه الدّلاَلَة فيُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا لله ورَسُوله.

وعلى افتراض أنَّ إعجاز القرآن لم يتَّضِحْ لهم تماماً، وأنَّ آياتِ صِدْق الرَّسول الأخرى لم تُوصِلْهُمْ إلى القَنَاعَةِ الكافية للإيمان به، فالواجب العقلي المنطقي يقتضي منهم أن يترَيَّثُوا ويَتَوَقَّفُوا، ليُتَابِعُوا تَأَمُّلَهُم وبَحْثَهُمْ حتّى يَتِمّ لديهم الاقتناع بصدق نبوة محمَّدٍ وصِدقِ رسالَتِهِ، وصِدْقِ ما يُبَلّغُه عن رَبّه.

لكنَّ هؤلاء المكذّبين الكافرين، قد سَتَرُوا ما عَرَفُوهُ من دلائل الحقّ بالكُفْر، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، ولم يَتَرَيَّثُوا باحثين، بل أنكروا رسالة الرّسُول محمّد، وأنْكَرُوا يوم الدّين الذي يتمُّ فيه تحقيق قانون الجزاء الرّباني، مستندين إلى مجرَّد التعجُّب من أن يأتِيَهُمْ رسُولٌ بَشَرٌ منهم، والتعجُّب من إحياء الله

= عطف من النَّحويين، لا حرف ابتداء على ما هو المقرر عند جمهورهم والذي وصفه ابن هشام بأنه الصحيح، في «مغني اللبيب».

الموتى بعد أن يصيروا تراباً، مُتَعامِين عن آية الله السابقة والدائمة، التي يُنْشِئ بها الأحياء النشأة الأولىٰ من ماء وتراب، ضمْن حلقاتٍ سببيَّة في سلسلة إنشائه الأحياء جلّ جلاله.

فجاء الإضرابُ بلفظ «بل» دليلاً على هذا الكلام المطويّ، وهذا من بديع الإعجاز القرآني، الذي يعْتَمِدُ على منطِقِيَّةِ التحليل.

وقد جاء الحديث عن الذين كَفروا بالرَّسُول وبيوم الدّين من مشركي مكَّة بضمير الغائبين، ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ دون أن يسبق في سورة (قَ) حديث عنهم، اعتماداً على عدّة قرائن تُحدِّد المراد.

القرينة الأولى: أنّ سورة (قَ) قد نزلت عقب سورة (المرسلات) التي دارت آياتها حول معالجة المكذّبين، وتكَرَّرَ فيها قول الله عزّ وجل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

القرينة الثانية: يُعْلَمُ من وَاقع الحال إبَّان نُزول هذه السُّورة، ومما جاء بَعْد ضمير الغائبين أنَّ المكَنَّىٰ عنهُم بالضمير هم المكذّبون للرسول والمكذبون بيَوْم الدّين، فواقع الحال يكْشِفُ أنَّ القوم ثلاثة أقسام:

(١) قِسْمٌ آمَن بالرَّسول وبما جاء به، واتَّبَعُوه، وهؤلاء لا يَعْجَبُونَ ولا يُنْكرون، فهم غير مقصودين حتماً.

(٢) وقسْمٌ لَمْ يُؤْمِنْ بَعْدُ ولَمْ يَكْفُرْ، لأنَّه لم يُناقش قضيَّة الرسول ولا قضيَّة البعث للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، فلَمْ يُبْدِ في القضيتين رأياً لا بالنفي ولا بالإثبات، وهؤلاء غير مقصودين أيضاً، إذْ لم يُعْلِنُوا إنكارهم، ولا تكذيبهم.

(٣) والقسم الثالث: هم الذين أعلَنُوا كُفْرَهم وإنكارهم، ولَمْ تكن حجتهم إلاَّ أنَّهم تعجبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ بَشَرٌ منهم، وتعجَّبوا من قضيَّةِ البعث، فقالوا: أئِذا مِتنا وكُنَّا تُراباً سَوْف نرجع إلى الحياة مرَّةً أُخْرى

لنجازَى على ما كُنّا عَمِلْناه في الحياة الدُّنيا، ذلك رَجْعٌ مُسْتَبعَدٌ مُسْتَنْكَرٌ لا نُؤمِنُ به، فهؤلاء هم المقصودون حتماً. وقد دَمَغَهُمُ الله بالكُفْر بصريح العبارة، في قوله عزّ وجل: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

إنَّ التعجبَ من شيءٍ لا يصحُّ في موازين العقول السّويَّة أنْ يكون دليل نَفْيٍ للشيء المتعجَّب منه.

لكنَّ التعجُّبَ قد يُتَّخذُ أسلوباً بيانياً لإنكار المتعجَّب منه.

فاختيار الكناية عنهم بضمير الغائبين مع وجود القرائن الدالَّة عليهم، من أحْكَم البيان وأخصره وأكثره إيجازاً، مع خلوّ العبارة من إيهام غير المراد. وهذا من روائع البيان القرآني.

وَوُضِعَ الاسم الظاهر في: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بدل الضمير لإبراز وصف الكفر الذي تدنَّسُوا به مع علمهم بالحق.

تحليل بواعث التعجُّب:

الْعَجَب من الشيء والتَّعَجُّبُ مِنْهُ حالةٌ من المشاعر تحدُثُ في النَّفْس مِنْ إكْبَارِ شيءٍ ما وإعظامه، أو من استهجانِه لِقُبْحه ومخالفته للسُّلوك المقبول من الأسْوِيَاء، أو من استبعاد إمكانِ حُدُوثِه وقد يَصِلُ الأمْرُ إلى حَدِّ تَصَوُّر استحالته، ولو كان من الممكنات.

وقد يكون التعجُّبُ من الشيءِ لعَدَمِ إلْفِه، فإذا صَارَ مألوفاً زال التعجُّبُ منه.

إنَّ التَّعَجُّبَ من المشْهُودَاتِ أو المدرَكَاتِ بِالْعِلْم، يقْتَصِر على الإعظام والإكبار إلى حدِّ الدَّهْشَة، أو يَقْتَصِرُ على مُجَرَّدِ الاستحسان لنُدْرَةِ حُدُوثِه مُطلقاً، أو قلَّةِ حُدُوثه نسبيّاً.

وإذا كان التعجُّبُ أو الْعَجَبُ من خَبَرٍ أو ادّعاءٍ رافقه في كثير من الأحيان الشَّكُّ، أو الإنكار والتكذيب، مع تصوُّر عدم الإمكان، أو دون

تَصَوُّر عدم الإمكان، وقد يكونُ مثل هذا التعجُّبِ مصحوباً بالتَّصديق دون طمأنينة، فإذا حدثَتِ الطُمَأنِينة كان التعجُّب مُجَرَّدَ إعظام وإكبار.

تعجُّبُ المشركين الوارد في هذا الدرس:

وتعجُّبُ مشركي مكة المكذبين لرسول الله محمد ﷺ، والمكذبين بيوم الدّين تعجُّبٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ:

القضيَّة الأولى: تعجُّبُهم من أن يكون الرَّسُولُ من عند الله بشراً من البشر، متوهّمين أنّ كَوْنَ الرَّسول بشراً يُنافي الحكمة الربَّانيَّة، أو مُتَوَهِّمِينَ أنّ البشر لا يَصْلُحون للاتّصال بعالم الغيب.

وكلا التوهُّمَيْن باطلان، ولدى البحْثِ التحليلي لكشف دوافع نفوس المكذبين يظهر أنّها دوافع تنبع من منابع الكِبْرِ أو الحَسدِ أو الرَّغْبَةِ في الفُجور.

القضيَّةُ الثانية: تعجُّبُهم من أن يكون في الإمكان الإعادَةُ إلىٰ الحياة بعد الموت والفناء، متوهّمين أنّ هذا الأمر غير مُمْكن،

وتعجُّب المشركين الكافرين من هاتَيْنِ القضيَّتين تعجُّباً يُفْضي إلى إنكارهما، تَعَجُّبٌ في غَيْرِ محلّه مطلقاً.

- أما كَوْنُ الرَّسُولِ إلى البشر بشراً منهم، فهو الأمْرُ الحكيم، فلا داعي إلى التَّعجُّب منه، بل التَّعَجُّبُ منْهُ هو الذي يستَدْعي الْعَجَب.

- وأمّا الإعادة إلى الحياة بَعْدَ الموتِ فهي نظير بَدْءِ الخَلْق، أو هي أهْوَنُ منه في تجارب النّاس، فالتعجُّبُ منه يَدْعو إلى الإعظام والإكبار، لا إلَىٰ النفي والإنكار.

إنّ تعلُّلَ مكذّبي الرُّسُل في تكْذِيبهم لهُمْ بعلَّةِ بَشرِيَّتِهِمْ، ظَاهِرَةٌ تَكَرَّرَتْ في الأمم الأولى، وتكرُّرُها يَدُلُّ علَىٰ تشابُهِ قُلوب الكافِرين المكذّبين لرُسُل الله رَبِّ العالمين، وتشابُهِ نفوسهم وأفكارهم.

وبحث اعتراض الأمم على كون رُسُلهم بشراً مستوفىً في ملاحق تدبُّر سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول)⁽¹⁾.

● وجاء في العبارة استعمال وصف الرسول ﷺ بأنَّهُ مُنْذِرٌ، فقال الله تعالى، مبيِّناً اعتراضهم على بشرية الرسول محمد ﷺ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

مع أنَّ الرَّسُول ﷺ مبشِّرٌ أيضاً ومبلِّغٌ وهادٍ وأُسْوةٌ حسنة، وداعٍ إلى الله ومُرَبٍّ، إلى غير ذَلِكَ مِنْ وَظائف رسالته، فما الحكمة من هذا الاختيار؟

أقول: لمَّا أعْلَنوا كُفْرَهُمْ، بَعْدَ أن اتَّخذ الرسول ﷺ معهم كلَّ وسائل التبليغ والإقناع والمعالجات التربَويَّة المختلفة، ومنها المعالجة بالترغيب، لم يَبْقَ لديه من وسائل معالجتِهِمْ إلاَّ المعالجة بالإنْذارِ، بعذاب الله وعقابه المعجَّل والمؤجَّل، فهو بالنسبة إليهم بَعْدَ أن وَصَلُوا إلى دركة العناد، والإصرار على الكفر وجحود الحقّ، مُنْذِرٌ فقط، فاقتضت الحكمة البيانيّة الاقتصار على وصفه هنا بأنّه مُنْذِر.

أمّا من آمن واتَّبع وأطاع فيلائمه من صفات الرسول ﷺ أنّه مُبَشِّر.

﴿مُّنذِرٌ﴾: اسم فاعل من فعل «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إنْذاراً».

والإنذار: هو الإخبار والإبلاغ والإعلام بما هو مخوفٌ منه، كعقابٍ، أو مصيبة، أو شرّ عدوٍ مُداهم، أو نحو ذلك.

فالمُنذِرُ: هو المخوِّف المحذِّر، والمخبر بخطرٍ مداهِم، والْمُعْلِمُ بأمْرٍ مكْرُوه قادم، سواءٌ أكان ذلك على وجْه العموم، أمْ في حالةِ فعْلِ شيءٍ أو ترك شيء.

---

(١) انظر الملحق الثامن من ملاحق تدبر سورة (الفرقان) للمؤلف.

والرسُولُ منذر بعقاب الله الخالد في جهنَّم بالنسبة إلى الكافرين، ومنذر بعقاب دون ذلك بالنّسبة إلى عصاة المؤمنين.

ويَحْسُنُ بالمتدبّر أن يُدْرِكَ ما في هٰذِهِ العبارة بعد القَسَم بالقرآن المجيد، من أداء كلاميٍّ بديعٍ قائم على حذف ما يمكن أن يُدْرَكَ باللَّوازم الذهنيَّة، وبما تقتضيه الروابطُ الفكريَّة واللَّفظيَّة، على أنّ المكذِّبين للرَّسول والمكذِّبين بيوم الدّين قد أدركوا بُرْهان إعجاز القرآن، فلَمْ يقبَلُوا دَلالته، بل كذّبُوا، ولم يكن لهم دليل يصلُحُ للاحتجاج به، فلجَؤوا إلى ادّعاء أنّ بشريَّة الرَّسول، وإنْذَارَهُ بعقاب الله يوم الدّين، من الأمور المستَبْعَدَةِ المثيرة للعجب، فاستخدموا التعجُّبَ للدلالة على أنّهم مُكَذِّبُون، وعلى اعتباره دليلاً صالحاً للاحتجاج به، مع أنّ التعجُّبَ لا يتضمَّن أيّ دليل مهما كان ضعيفاً غير ادّعاء عدم الإمكان، وتوهُّماتٍ لا تَثْبُتُ أمام مناظرة إقناعيَّةٍ تعتمد على الاحتجاج بأدنى الحجج المنطقيَّة.

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: **الكافر**: «اسم فاعل» من فعل «كَفَرَ يَكْفُرُ كُفراً وَكُفْراناً». ويقال لغةً: كَفَرَ الشيْءَ، وكَفَرَ عَلَيْهِ كَفراً، أي: سَتَرَهُ وغَطَّاهُ، وكَفَرَ التُّرَابُ ما تَحْتَهُ، أي: غطَّاهُ وَسَتَرَهُ ولهذا يُقال للزّراع: كافر، وتُسَمِّي العرب الزُّرَّاعَ كُفَّاراً، لأنَّهم يكْفُرُونَ الحبَّ المبْذُور بتراب الأرض.

ويأتي الكُفْرُ في اللُّغَةِ بمعنى جُحودِ النعمة، وهو ضدُّ الشكر. يقال: كفَرَ بالنعمة إذا جحدها وسترها.

فأصل الكفر في اللّغة تغطيَةُ الشيء تغطيةً تَسْتَهْلِكُهُ، فلا تبقى منه شيئاً مكشوفاً.

والكُفْر بالدّين: هو موقف الرفض والجحود بعد معرفة الحقّ ببراهينه، ويَقُومُ على سَتْر الأدلّة التي تُثْبِتُه، بطَرْحِ الشبهات، وإلقاء عبارات التعجُّب، وادّعاء أنّ الأمر غير مقبولٍ عقلاً، والتشكيك في الأدلة الكثيرة، إلى غير

ذلك من حِيَلٍ ومغالطات يَصطنعها المبطلون اصطناعاً، ويُلفّقُونها تلفيقاً، ويُزَخْرِفُونها بالأقوال المنمَّقة الخادعة.

وليس الكافر من كان خالي الذهن من أدلّة الإيمان، ولا من هو يبحث عنها، ولا المتريّثُ حتّى تتَّضِحَ له أدِلَّة الإيمان، بل هو العارف بحقائق عناصر الإيمان، الّذي وضَحَتْ له أدلَّتُها وبراهينُها، إلاّ أنّه غَطَّىٰ عليها بحِيَله حتَّى سَتَرها ظُلْماً وَعُدْواناً.

والمقصودون بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ هم من كانوا عارفين الحقّ، السّاتِرِين لَهُ ولأدلَّتِه بما يصطنعون من زُخْرفِ القول، من الذين لم يستجيبوا لدعوة الرّسولِ إبان نزول سورة (قٓ).

والمشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هو فيما يظهر لي كونُ محمّدٍ الّذي قال لهم إنّي رسول الله إليكم بشراً منهم، زاعمين أن رسول الله لا يصحُّ أن يكون بشراً من البشر، مُتَعامِين عن أنّ جميع رُسُلِ الله السابقين قد كانوا بشراً، وهذه هي القضيةُ الأولى من القضيتين اللَّتين أثارهما كُفارُ مكَّة إبّان نزول سورة(قٓ).

أمّا القضيَّةُ الثانية فهي ما دلّ عليه قَوْلُهم كما جاء في التعبير القرآني.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

في هذه العبارة استفهامٌ تعجُّبيٌّ يتضمَّن إنكار البعث، بدليل كونه أمراً عجيباً بعيداً عن التصوُّر، إذْ لم يشاهدوا مَوْتَى رَجَعُوا إلَى الحياة بَعْد مَوْتهم، ولا سيما بعد فناء أجسادهم وصَيْرُورَتِها رُفاتاً مختلطاً بتراب الأرض، وجُزْءاً منه.

وقد طوى النَّصُّ من مقالتهم جواب [إذا] الشرطيَّة، إذْ دلَّتْ عليه مقالتُهم ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

وباستطاعتنا أن نُبرز جواب [إذا] المطويّ الذي يستدعيه الذهن بأدنى تأمُّل، فنقول: أإذا مُتنا وكُنَّا تُراباً نُرْجَعُ إلى الحياة مرَّةً أُخْرَى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، علَى ما قَدَّمنا وأخَّرْنا في الحياة الدنيا؟؟!!

ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.

أي: هو مستَبْعَدُ الحصول عقلاً، وكيف لا يكون كذلك وهو غير مشهود الوقوع فعلاً، بحسب مشاهدات الحياة الدنيا بالنسبة إلى الأحياء الحيوانية.

ولمّا ادَّعوا أنّ هذا الْبَعْثَ مستَبْعَدٌ استبعاداً يخرجُهُ عن حدود الممكنات، أشاروا إليه باسم الإشارة الخاصّ بالمشار إليه البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾.

وهذا القول قد يكون حكايةً لقولهم مع بعض تصرُّفٍ بالحذف، وقد يكون ترجمة بليغةً مطابقةً في المعنى المراد لما عَبَّروا عنه بعباراتهم، والله أعلم.

﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، أي: إرجاعٌ إلى الحياة بَعيدٌ عن دائرة المعقول والممكن. رَجْعٌ مَصْدَرُ رَجَعَهُ، أي: أرْجَعَه، يُقالُ لغةً: رَجَعَ فلانٌ الشَّيْءَ إلى ما كان عليه قبل تلَفِه، رَجْعاً، ومَرجِعاً، ومَرْجِعَةً، ورُجوعاً، ورُجْعاناً.

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيتان (٤ ـ ٥)

قال الله عزّ وجل:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

في هذا الدرس دفعٌ لبعض توهُّماتِ الكافرين منكري البعث، وسَيأْتي

دفْعُ توهُمَاتهم الأخرى، فمن ذلك ما سيأتي في سورة (قٓ) ومنه ما سيأتي في غيرها ممّا نَزَل بعدها في نجوم التنزيل، مراعاةً لمعالجة ما هو ماثل في تصوُّراتِ المعالَجينَ إبّان نزول النجم القرآنيّ، وعملاً بالسُّنَّةِ القرآنيّة في تجزئة الموضوعات وبثّها في السُّور، مع التكامل البديع فيما بيْنَها، وهذا أحد عناصر إعجاز القرآن، مع ما في التجزئة من حكمة التدرّج التعليمي، والتكليفي، والتربويّ.

ونلاحظ هنا في هذا الدرس أنّه قد اشتمل على دفْعَ تَوَهُّم من توهُّماتِ المنكرين للبعث، دون ذكْرٍ لهذا التوهُّم، لأنَّ دفْع التوهُّم يُشْعِرُ بوجوده في خواطر المنكرين وأحاديث نفوسهم، سواء عبَّرُوا عنه بأقوالهم أمْ لم يُعَبِّروا، وهذا من بديع الإعجاز في القرآن الكريم.

ونجد نظيره في الإجابة على سؤال غير مذكور في اللفظ، وفي حلّ إشكَالٍ غير مذكور في اللّفظ أيضاً، إلاّ أن الموضوع يستدعي ذَلك، فمن الجلِيّ في أساليب القرآن المجيد الرائعة، التي يُدْرِكها المتدبّر اللَّمّاح أنَّ النَّصَّ القرآنيَّ قد يدفَعُ تَوَهّماً، أو يَحُلُّ إشكالاً، أو يجيب على سؤال، دون ذِكْرِ الشيء الذي يُعالجُهُ النَّص، إيجازاً في العبارة، واكتفاءً بدلالة المعالجة عن ذكر الداعي إليها، واعتماداً على ذكاءِ أهْلِ التَّدَبُّر الأكفاء.

فمِنَ التوهُّماتِ الّتي تُفسِدُ تَصَوُّراتِ المشركين حول موضوع البعث إلى الحياة بعْدَ الموت وفناء الأجساد، وتفرُّق ذرّاتها في تراب الأرض، توهُّمُهُمْ أنّ الله عزّ وجلّ لَيس لدَيْه عِلْمٌ كاملٌ بكُلّ ذرّاتِ أجساد الموتَىٰ، وبكُلّ صفاتهم النفسيَّة والفكريَّة والجَسَدِيَّة، حتَّىٰ يُعِيدَهُمْ إلى مِثْل ما كانوا عليه تماماً، فجاء البيان القرآنيُّ في هذا الدَّرْس دافعاً لهذا التوهم الباطل، فقال الله عَزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾، أي: سَبَقَ في علْمِنا، بما قَدَّرْنا وقَضَيْنا قَبْلَ خَلْقِ النَّاسِ وإحيائِهِم، ثم إماتَتِهِم ما تَنْقُصُ الأرضُ من أجسادهم بَعْدَ مَوْتهِمْ، وقد جاء هذا البيان بصيغة الفعل الماضي مع تأكيده بحرف التحقيق ﴿قَدْ﴾ للدلالة على سبق العلم بخُطَّةِ التكوين قبل تنفيذ عمليات الخلق المتابعة بناءً وإفناءً.

وجاء استعمال ضمير المتكلم العظيم إشعاراً بأنّ هذا العلم هو من خصائص رُبوبيَّةِ الرَّبِّ الّذي لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ معلومٌ ما، مهْمَا كان صغيراً وجزئياً ممّا كان وممّا هو كائنٌ وممّا سيكون، لأنّه هو سبحانه واضع خُطَّةِ التكوين كُلِّها قَبلَ بَدْءِ الخلْق، مع تَحْدِيدِ مراحل تنفيذها بناءً وإفْناءً.

وضمير المتكلم العظيم نجده في: [عَلِمْنا ـ عِنْدَنا].

إنَّ أمْرَ الإيجاد، والإحياء، والإماتة، والإفناء، والإعادة بالبعث، والإيجاد بَعْدَ البعث، وسائر التصاريف في الكون، إنّما تتمُّ في الكون، ضِمْنَ خُطَّة القضاء والقدَر العامّ، فَمَا من شيءٍ يحدث في الكون بنفسه، إنّما يَحْدُث بقضاءٍ وقدرٍ من الخالق الرَّبّ جلّ جلاله، سواءٌ أكان ذلك الشيء كبيراً أم صغيراً.

إنّ سَبق العلم بما سيَحْدُثُ، وربْط كُلِّ ما يَحْدُثُ بتقديرٍ حكيم، وإرادةٍ ماضية، وخَلْقٍ يَتِمُّ به تَنفِيذُ المراد، أمُورٌ تَدْفَعُ كُلَّ التوهُّماتِ المتعلِّقةِ بصفَةِ عِلْم الله سبحانه وتَعَالىٰ عَمَّا يَتَوَهَّمُ الَّذِينَ لا عِلْمَ لهم بالله جلَّ جلالُه، وعَظُمَ سلطانُه، وأحاطَ علْمُه بكلّ شيءٍ كان أوْ هو كائن أوْ سيكونُ ضِمْنَ خطَّةِ التكوينِ العامّ.

وناقصو المعرفةِ بالله وبمُجْرَياتِ أحداث الكون، يتوهَّمُونَ أنَّ الله سبحانه عمَّا يَصِفُونَ لَيسَ لدَيْهِ إحصاءٌ كامِلٌ لمَا يَتَناقَصُ تِباعاً من أجساد الموتى، بسبب ما يَحْدُثُ لها بَعْدَ الدَّفْنِ في الأرض، فتتغيَّرُ بذلك صفاتُها

الَّتي كانت تتصف بها وهي ذاتُ حياة، ثُمَّ تَتَفَتَّتُ وتتفرّقُ ذرّاتُ أجسادهم، ضِمْنَ سُنَنٍ سَبَبِيَّةٍ مَرْسُومة ومَوْصُوفَةٍ ومَعْلُومَة، والفَعَّالُ الحقيقيُّ من باطن قَنواتِ الأسباب هو الخلاّقُ العَلِيم، خالقُ الأسبابِ والمسبَّبات، المحْتَجبُ عن الأنظار بِعالمِ الظواهر، تقدَّسَتْ وتَمَجَّدَتْ أَسْمَاؤه وصفاته.

وكما كان بَدْءُ خَلْقِ الناس، وبناءُ أجسادهم ضِمْنَ خُطَّة خَلْقٍ مسْبوقةٍ بعِلْمٍ شامِلٍ لكلِّ صَغيرةٍ وكبيرة، فمَوْتُهُمْ وإفناءُ أجسادهم، وكلُّ التصاريف التي تجري فيها وفي نفوسهم مسْبُوقٌ بعِلْم شاملٍ، وخُطَّةٍ في الإفناء تتناوَلُ كلَّ صغيرة وكبيرة، ويَجْري تنفيذ كل ذلِكَ بقُدْرَةِ الله على وفْقِ عِلْمِهِ السَّابق الّذي شَمَلَ كلَّ ما قَدَّرَهُ وقَضَاه من أطوار الإيجاد والإعدام، والبناء والهدم، والتركيب والحلّ، والإفناء والْبَثّ، والجمع والإعادة.

﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أي: ما تنقص الأرض من أجساد الموتى بالإفناء. تقول لغة: نَقَصَ الشَّيْءُ يَنْقُصُ نَقصاً ونُقْصاناً على أنّ الفعل لازم، أي: ذَهب من مقداره شيءٌ ما قلَّ أو كثر، وتقول: نَقَصْتُ الشيءَ على أن الفعل مُتعَدٍّ، أي: أخذت منه مقداراً ما.

إنّ مَنْ آمَنَ بالله عزّ وجلّ رَبّاً خالقاً، قادراً عى أن يخْلُقَ ما يشاء، مُحْيِياً مُميتاً لا يجري شيءٌ في كونه إلاّ بعِلْمِهِ، وقضائه وقَدَرِهِ، أو إذْنِهِ ضِمْنَ قَانُونِ التَّسْخِير، كَيْفَ يَتَوَهَّمُ أنْ يَنِدَّ عَنْ عِلْمِهِ جَلَّ جَلالُه. ما تنقُصه الأرضُ من أجساد الموتى.

إنّ ما يحدُث في الكون كلّه تطبيق لما سبق به عِلْم الله بأنه سيقع وبَعْد الوقوع يعلَمُ الله أنّه قد وقع فعلاً.

يضاف إِلَىٰ هٰذا أنّ الْعِلْمَ بكُلِّ ما سيَحْدُثُ مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ بكُلِّ دقائِقه في كتابِ حفيظٍ، دَلَّ علىٰ هذا قولُ الله عزَّ وجلَّ في الآية التي نتدبَّرُها: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ إنه اللَّوْحُ المَحْفوظ بحفظ الله له، وقد يشمل غيره من الكتب، ككتُبِ أعمال العباد.

﴿حَفِيظٌ ﴾ على وَزْن «فَعيل» وهٰذا الوزن يأتي بمعنى اسْمِ الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، مع الدلالة على الكثرة والمبالغة فيهما.

فعلى المعنى الأول: هو حافِظٌ غايةَ الحفظ لكُلّ معلوم، لا يضلُّ عنه ولا يتغيّر ولا يتبَدَّل فيه معلومٌ ما، إلاَّ مَا يشاءُ الله أن يمْحُوهُ منه ويُثْبِتَ غيره، وعنده «أم الكتاب» هو عِلْمُه جلَّ جلاله الذي لا يتعرَّضُ لمَحوِ أو تَغْيير مطلقاً، وكذلك الحقائق الوجوديَّة الَّتي حَدَثَتْ فِعلاً، لا تَتعرَّضُ في اللَّوْح المحفوظ إلى تغيير أو تبديل.

وعلى المعنى الثاني: هو محفوظٌ غايَةَ المحفُوظيَّة، بحفظ الله له، من أن يؤثِّرَ عَلَيهِ أيُّ شيءٍ في كلّ الوجود من دون الله عزَّ وجلّ.

وجاء استخدام لفظ ﴿حَفِيظٌ ﴾ بالمعْنَيَيْنِ، وهذا من الإيجاز القرآنيّ البديع.

ويضاف إلىٰ ما دلّت عليه هذه الآية من بَيَانٍ خَبَريّ عن علم الله، وعن الكتاب الحفيظ لكلّ معلوم، والمحفوظ بحفظ الله له، دليلٌ عقليٌّ تقدّمه الظاهراتُ الكونية في السماوات والأرض، إنّ ظَاهِرَةَ إتْقان الخلْقِ كُلّه في الإنشاء والإفناء، والإيجاد والإعدام، والبناء والهدم، والتصاريف والتَّغْييرات المرافقات لأصغر الوحدات الزمنيَّة، ضِمْنَ خُطَطِ قضاءٍ وقَدَرٍ صارمَةٍ في كُلِّ الكَوْن، شاهِدٌ دائم على شمول عِلْم الله لكلّ شيء، فلا يَعزُبُ عن عِلْمِه مثقالُ ذَرَّةٍ في السَّماوَاتِ ولا في الأرْض، وهو العزيز الحكيم.

وظاهرة فناء الأجساد بعد موتِ الأحياء جزءٌ يسيرٌ قليل جدّا، بالنسبةِ إلى سائر أحداث الكون الكبير في السّماوات والأرْض، من أكبر مجرّةٍ إلىٰ أصْغَرِ ذَرَّةٍ فما دُونها، وكلُّ ذلك مَشْمُولٌ بعِلْم الله، وقضائه وقَدَرِه، ما تَسْقُطُ من ورقةٍ من أيّة شجرةٍ، وما تتحرَّكُ ذَرَّةُ ولا إلكترون في الكَوْن

كلّه، إلاّ بعلمه، وقضائه وقدره، وخلقه تباركتْ أسماؤهُ، وتَمجَّدَتْ صفاته.

فالتشكُّكُ حول شمول عِلْم الله بما تنقُصُ الأرض من أجساد الموتَى، جنُوحٌ سَخِيفٌ، عن منطق العقل الحصيف، حَوْلَ رُبوبيَّة الرَّبّ المهيمنَة على كلّ شيءٍ في الوجود، مهما كان جسيماً كبيراً، أو صغيراً حقيراً.

شمول علم الله كلّ شيء:

وقد جاء بيان حقيقة شمول علم الله عزّ وجلّ كلَّ شيءٍ مفصَّلاً في نُصوص كثيرة جدّاً من القرآن المجيد، وهذه النّصوص موزعة في معظم سُوَره، لأنّ صفة علم الله الشامل من صفات الله العظمىٰ، إذْ تَتعلَّقُ بكلِّ واجبٍ عقلاً، وبكلّ مستحيلٍ عقلاً، وبكلِّ ممكنٍ عقلاً، وتتعلّق بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون، مما يتمّ بقضاء الله وقَدَره، وممّا يكون من أفْعَال العباد الاختيارية.

وهذه النصوص قد أبانت أنّ الله عزّ وجلّ يَعْلَم غَيْبَ السَّمَاوات والأرض، ويَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرض، وما يخرُج منها، ويَعْلَمُ ما في الأرْحَام، ويَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أنثَىٰ، وما تَغِيضُ الأرحام وما تزداد، ويَعْلَمُ ما في البرّ والبحر، ويَعْلَمُ ما بين أيدي الخلائق (أي: ما مضى) ويعلم ما خَلفهم (أي: ما يأتي في المستقبل) ويَعْلَمُ ما تُسِرُّ الخلائق وما تُعْلِنُ، ويَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ به النفوس، ويَعْلَمُ مَا تُكِنُّ الصُّدُور، ويَعْلَمُ السِّرَّ وأخْفَىٰ.

ونظراً إلى كثرة النُّصوص القرآنيَّة حول هٰذا الموضوع، فإنّي أذْكُرُ أكثرها جمعاً ودلالات، مع نظراتٍ تدبُّرِيَّة.

النص الأول: قول الله عَزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في سياق الحديث عن صفات الله الجليلة ذات الآثار العظيمة في كونه:

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ أي: انفرد الله عزَّ وجلَّ بأنه مَالِكُ مَفَاتِيحَ الغيب الأعظم، وهذه المفاتيحُ لا يَعْلَمُها إلاَّ هُو، فلا يَعْلَمُها نبيٌّ مُرْسَلٌ، ولاَ مَلَكٌ مُقَرَّب.

أمّا المغيَّباتُ النسبيَّة فلمَعْرِفَتِها مفاتيح مكَّنَ الله من استخدامها بعض عباده دون بعض، فعند الملائكة مفاتيح قد يستخدمونها لمعرفة بعض المغيبات عن الناس، وعند الجنّ مفاتيح، وعند الإنس مفاتيح يعلمون بها من حقائق الكائنات غائبَاتٍ عن الحواسّ، بما سخَّر الله لهم من وسائل، وهذ المفاتيح لا يَمْلِكُ نظيرها غيرهم، وهي مفاتيح الاستنباط والاستدلال من الصفات الظاهرات على وجود الأشياء الباطنة، وصفاتها وخصائصها.

وهذه المفاتيح قد أوصلت الباحثين من عباقرة البشر، إلى العلوم الذَّرّيّة وعلوم الخلايا الحيَّةِ ووظائفها، ودلّت هٰذه العلوم على أنّ كلَّ حركةٍ من حركاتِ دقائق أجزاء الذَّرَّاتِ في كلّ شيءٍ، محكومةٌ بخُطَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ مُدْهِشَةٍ في الإحْكام والإتقان والتوجيه، ومَشْمولَةٌ بعِلمٍ محيط لا ينِدُّ عنْهُ شيءٌ مَهْما كان دقيقاً صغيراً.

فتبارك الله الّذي أحَاطَ بكلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

فأبان هذا النَّصّ أنّ الله عزّ وجلّ الذي هو رَبُّ كُلّ شيءٍ، يَعْلَمُ ما تُكِنُّهُ صُدُورُ النّاس، فتُخْفِيهِ فيها، ويَعْلَمُ مَا يُعْلِنُونه.

وجاء تأكيد هذا الخبر عن شمول علْم الله عزَّ وجل بالمؤكّدات التاليات: «إنّ» و«الجملة الاسميّة» و«اللاّم المزحلَقَةُ للخبر» كما يقول البلاغيّون.

وأبَان هذا النَّصُّ أنَّهُ ما مِنْ غائِبَةٍ على أحَدٍ من خَلْقِ الله لَهُ إدْرَاكٌ عِلْمِيٌّ ما، إلاَّ هي مُسجَّلةٌ مُدَوَّنةٌ في كِتَابٍ وَاضِحِ الدَّلاَلَةِ مُبِينٍ، ولهذا البيان لازمان عقليّان.

الأول: أنَّ كلَّ مَا هُوَ قابلٌ لأن يُعْلَم مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبين، إذْ ما من صغيرةٍ ولا كبيرة إلاَّ هي غائبة عن بعض خَلْقِ الله، ولو كانت معلومة لآخرين، فشملت كلمة ﴿غَآئِبَةٍ﴾ كُلَّ ما هو قابل لأن يُعلم.

الثاني: أنّ كلَّ ما هو مسجَّلٌ مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبين، لا بُدَّ أن يكون معلوماً لله عزّ وجل.

النص الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾.

﴿وَمَا يَعۡزُبُ﴾، أي: ومَا يَبْعُدُ وَمَا يَخْفَىٰ. يقال لُغَةً: عَزَبَ الشَّيْءُ يَعْزِبُ ويَعْزُبُ عُزُوباً، أيْ: بَعُدَ وَخَفي، وفي يَعْزُبُ قراءَتان بضم الزاي وكسْرِها.

﴿مِن مِّثۡقَالِ﴾: «من» حرف جر جيء به لتأكيد عموم النفي في: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ﴾ ويسمى حرف جرٍّ زائدٍ وهو داخل هنا على الفاعل.

﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾، أي: مِنْ مقدار ذَرَّةٍ.

﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، أي: ولا أصْغَر من ذَرَّةٍ ولا أكبر. وفي «رَاءِ» أصغر وأكبر قراءتان، قراءةٌ بالفتح، وقراءة بالضمّ.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾، أي: وما شيءٌ من ذلك المشمول بعلْم الله إلاَّ مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ في كتابٍ مُبِينٍ ذي دلالةٍ واضحةٍ كدلالة أشرطةِ تسجيل الصُّورَةِ والصَّوْتِ، مع الخواطر والنيّات والأشياءِ والأعْمالِ الظاهرة والباطنة، حتى أعمال القلوب والنفوس والأفكار وحركاتها.

حُذِف المستثنى منه لدلالة الجملة السابقة عليه.

النصّ الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في معرض الحديث عن الله عزّ وجلّ:

﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾.

فأبانَ هٰذا النَّصّ: أنَّ الله عزّ وجلَّ يَعْلَمُ ما يُسِرُّ النّاسُ ويُعْلنُون، وأنّه عَليمٌ بالغٌ غايَةَ الْعِلْم بذاتِ الصُّدُور.

ذات الصدور: ، أي: صاحِبَةُ الصُّدُور، وهي الخواطر والنِّيَّات وأعمالُ القلوب كالحقد والحَسَدِ، وابتغاء الخير أو الشرّ، وكالحبّ في الله والكُرْه في الله، والأهواء والشهوات ونحو ذلك.

وأبَانَ أنّهُ يَعْلَمُ مُستَقَرَّ كُلّ دَابَّةٍ في ظهور الذكور، ومستودَعَ كلِّ دابَّةٍ في أرحام الإناث، وأنّ عليه رزْقَ كلّ دابّةٍ.

وأبَانَ أنّ كُلَّ هٰذِهِ المعلومات مُدَوَّنَةٌ مُسَجَّلَةٌ في كتابٍ مُبِينٍ، كاشفٍ لكُلِّ صغيرة وكبيرة حتَّىٰ خَفَايا الصُّدُور.

أفَبَعْدَ هٰذا العلم المحيط الشّامل المسَجّل المُدَوَّنِ في كتاب حفيظ مبينٍ، مجال لتوهُّمات وشبهاتٍ وشُكوكٍ حول قضيةٍ صُغرىٰ، هي جزئيَّةٌ من جزئيَّات هٰذِهِ الحقيقة الكُبرىٰ الشاملة، المتَّصِلَة بِصفَةِ عِلْمِ الله المحيطِ بكُلِّ شيء؟!

ويضاف إلى هذا البيان الإخباريّ، أنّ أدلّة هٰذا العلم الشامل منبثّةٌ في ظاهرات هذا الكون الكبير.

● قول الله عزّ وجل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

بعد أن أبانت الآية الرابعة من سورة (قٓ) شمول علم الله لما تنقص الأرض من أجساد الموتى، وأن كلّ ذلِكَ مُسَجَّلٌ في كتابٍ على ما سبق شَرْحُه، كان من المناسِب فَضْحُ حقيقة ما في نفوس وقلوب الكافرين المكذبين، مع الإشارة إلى أنَّ أقوالهم التعجبيَّة، ليست ناتجةً عن شكُوك حقيقيَّة، وشُبُهاتٍ تشغل أذهانَهُمْ بصِدْق، بَلْ هُمْ يعلَمُونَ أنَّ محمّداً رَسُولٌ من رُسُلِ الله، يبلِّغُ عن ربّه صادقاً مُنْذُ دَعاهم إلى الإيمان والإسلام، لكِنَّهُمُ اسْتَكْبَرُوا عن اتّباعه، أو لَمْ يُريدُوا أنْ يَتْرُكُوا مَا هُمْ فِيهِ من فجُورٍ واتّباعِ للْهَوىٰ، فكذَّبُوهُ ظُلْماً وَعُدْواناً وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ ما جَاءَهُمْ بِهِ هو الحقُّ من رَبِّهم. دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾،

﴿بَلْ﴾ هُنا نظيرُ [بَلْ] في: [**بَلْ عَجِبُوا**]. والإضرابُ بحرف بل هنا إضرابٌ عن كلامٍ مَطْويٍّ مُقَدَّرٍ ذِهناً.

والمعنى: لَيْسُوا في الحقيقة شاكّين، بلْ كذَّبُوا بالْحَقِّ الَّذي وضحَ لهم، لَمّا جَاءَهُمْ.

﴿لَمَّا﴾ ظرفٌ بمعنىٰ الحين، أي: بلْ كذّبوا بالحق حينَ جاءَهُمْ، وعَرَفوا أنَّهُ حقٌّ، ولم يكُنْ تَشكُّكُهُمْ وتَعَجُّبُهُم أكثر من طرحٍ جدَليٍّ لسانيّ، وإنْ سايَرَهُمُ البيان القرآني في إقامة الأدلَّةِ الإقناعيَّة لهم مجَارَاةً لظاهرهم، والمعنيُّونَ بالخطاب فئة القادَةِ الكفَرَةِ المكذبين بالحق، مع علْمِهم بأنّهُ حقٌّ.

ونستطيعُ أنْ نُدرِك ذهناً أنّ دافعهم لاتّخاذ هذا الموقف كوْنُ هذا الذي جاءهم به رَسُولُ الله يُخَالفُ أهواءَهم وَمَا يَشْتَهُونَ، أو أنّهم اسْتَكْبَرُوا عَن الإيمان به واتّباعه.

وإذْ كَذَّبُوا بالحقِّ وهو ذو وجْهٍ واحِدٍ يُؤْمنُ به كلُّ فرْدٍ من الأمَّةِ المؤمنَةِ بالله ورسوله، فهَلْ كان الكافرون مُجْتَمِعين في عقائدهم ومفهوماتهم وأفكارهم حول الوجود والحياة والنشأة والمصير على مَذْهبٍ واحدٍ، ورأيٍ واحدٍ بيّنٍ واضحٍ جليٍّ تَدْعَمُهُ براهين، أو حُجَجٌ مقبولة؟؟!.

سؤال مطويٌّ في النّصّ غير مُصَرّحٍ به، لكِنْ جاء الجوابُ عليه في قوله عزّ وجلّ في الآية: ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾.

﴿مَّرِيجٍ ﴾ كلمةٌ تَدور حول المعاني التالية: «مُلْتَوٍ أعْوَج ـ مُلْتَبِسٍ مُختَلِطِ ـ مُخْتَلِف ـ مضطرب ـ قَلِق ـ فاسد».

ولدى متابعة مذاهب الكافرين بالحقّ الرَّبّاني، والتفكُّر في عقائدهم ومفهوماتهم، حول الوجود والحياة والنشأة والمصير، نَجِدُ أنَّ كلَّ معاني كلمة «مَرِيج» تنطبق عليهم بوجه عامّ، على التوزيع، وبعضها ينطبق عليهم جميعاً.

إذْ لا نجد في مذاهب الناس المخالفة لدينِ الله الحقّ، إلاَّ الالتواء والعِوَج، والتباسَ الحقّ بالباطل، واختلاط الأمور، والاختلاف والاضطراب، والقلَقَ وعدَمَ الثّبات، وأخيراً الفسَادَ والإفساد.

فالكافرون كما قال الله عزَّ وجلّ هم في أمرٍ مَرِيج.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٦ - ١١)

قال الله عزّ وجل:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

- قرأ أبو جعفر: [مَيِّتاً] بتشديد الياء المكسورة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَّيْتًا﴾ بإسْكان الياء، وهو تخفيفٌ في النُّطق.

* * *

نظرة تدبُرِيَّةٌ عامَّة حول العناصر التي اشتمل عليها هذا الدرس:

في هذا الدرس توجيهُ نظر الكافرين المكذبين وسائر الناس، لطائفة من آيات الله عزّ وجلّ في كونه، الدّالاّت على كمال قدْرَتِه، وعلْمه المحيط بكل شيء، وعلى عظيم حكمته، وبالِغ إتقانه لكلّ ما خلَق، وعلى جَليل رَحْمَته وعنايته بعباده، وهيمنَتِهِ على كلّ صغير وكبير في الوجود، ممّا دون الذَّرَّة، إلى أكْبَر وأعظم مجرَّة، إلى ما هو أعظم وأجلُّ وأكبر من هذا الكون كلّه، والدّالأت على قَيُّوميَّة الله جَلّ جلاله لكلّ شيءٍ في السماوات والأرض، بالحفظ والرّعاية والْهَيْمَنَة والمَنّ والسلطان العظيم.

فما يَتَحَرَّكُ متحرّكٌ، ولا يسْكُنُ ساكن، ولا يَحْدُثُ حَدَثٌ، ولا يتغيَّرُ

شيءٌ، ولا يفنى شيءٌ، ولا يُوجَدُ شيءٌ إلاّ بعلمه، وبقضائه وقَدَرِه وأمره، أو بإذْنِهِ وتسخيره للمسَخَّراتِ في كونه لبَعْضِ عباده.

إنّ موضوع السُّورة قد سبق بيانه في الدرس الأوّل من دُروسها وهو يَدُور حول قضيَّتين:

القضيَّة الأولى: تكذيبُ مشركي مكَّةَ رسولَ الله محمّداً في كَوْنِهِ نبيَّ الله ورسُولَهُ، مُتَعلِّلِينَ بأنَّهُ بَشَرٌ مِنهُمْ، وهي تِعلَّةٌ ذرائعيّةٌ لا تَستَنِدُ إلىٰ أيّ دليل.

القضية الثانية: تكذيب هؤلاء المشركين بنَبأ البعث إلى الحياة بعْدَ الموت، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدّين، متعلّلِين بأنّ الإعادة إلى الحياة بعْدَ الموت والفناء، أمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ لا تَقْبَلُه العقول، وهٰذه أيضاً تَعِلَّةٌ ذرائعيَّةٌ، لا تستَنِدُ إلى أيّ دليل يُثْبِت أو يُرَجِّح ما زَعُموا، كما سبَقَ بيانه.

وأمثالُ هٰؤلاء المكذِّبين موجودُونَ في كلّ عصْرٍ حتى آخر الدَّهر، من أزمانِ الحياة الدنيا حياة الامتحان.

وقد جاء في الدرس الثاني من دروس السُّورة دفْعُ تَوَهُّماتِ المكذبين الماثلة في أذهانهم إبان نزول السورة، بالنسبة إلى القضيّة الثانية.

وإذْ كانت حقيقةُ سَبْق العلم الرّبّانيّ بكلّ ما يجري في الكَوْن من صغير وكبير، مرتَبِطَةً بقضاء الله وقَدَرِهِ السّابقَيْن لكلّ حوادث الوجود، وهٰذه الحقيقة من الحقائق التي يُنْكِرُها أو يَجْهَلُها الكافرون بالله ورُسُلِهِ واليوم الآخر في كلّ العصور الماضية والحاضرة والآتية، كانَ من الحكمة البيانيَّةِ لَفْتُ الأنظار إلى ما يَدُلُّ عَلَيْها في ظاهرات الكون الّتي هي آياتٌ من آيات الله الْمُبَصِّرَاتِ ابتداءً، والمذَكِّرَاتِ دواماً.

فظاهراتُ الكَوْن دالاّتٌ على الخالق الرّبّ، وعلىٰ جليل صفاته، ومن

تفكَّر فيها بإمْعَانٍ ورغبةٍ في الوصول إلى الحقّ اتَّضَحَتْ لَهُ هَيْمَنَةُ الله علىٰ كُلِّ شيءٍ، وقيُّوميَّته لكلِّ شيءٍ، واتَّضَحَ له أنَ أيّ شيءٍ يَحْدُثُ في الكون لا بُدَّ أن يكون مَسْبُوقاً بعلمه الشامل، وبحكمتِهِ الْبَالغة، وبقَدَرِهِ وقضائه، أو بإذْنه وتسخيرِه للمسَخَّراتِ في كَوْنِهِ لِبَعْضِ عباده.

فجاء هذا الدرس الثالث من دُروس السورة متضمناً توجيه الأنظار للتفكُّر في ثلاث آياتٍ مِنْ آيَاتِ الله الكونيّة المتعلّقة بالسماء، وثلاث آياتٍ أخرى من آيات الله الكونيَّة المتعلقة بالأرض.

الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالسَّماء:

الآية الأولىٰ: آيَةُ بِنَاء السَّماء المحكم، ولا بُدّ أنْ نَضَعَ في تصوُّرِنا أنَّ بناء كلّ شيءٍ يكون بحسَبِ طبيعته، وبحسب الغاية منه، فبناء الْقُصُور غَيْر بناء الخيام، وهما على غير بناء الذّرّة وعلى غير بناء الخليّة، وعلى غَيْرِ بناء بَيْتِ العنكبوت، وعلى غير بناء بيت النمل، وعشّ الطائر، إلى غير ذلك.

وقد يكون تماسك الأجرام السّماويَّة بالجاذبيّات، أو بطاقات أخرىٰ غَيْرِ معروفة حتَّىٰ الآن، هو المقصود ببنائها، والله أعلم.

الآية الثانية: آيَةُ تَزْيين السَّماء بالنجوم والكواكب بالنِّسْبَةِ إلى سُكّان الأرض، والتزيين هو التجميل بالزِّينات الجماليّة الّتي تُمْتِع النفوس.

وقد جاء التصريح بتزيين السّماءِ الدُّنيا في السّور التالية: (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول ـ والصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول ـ وفُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول ـ والمُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

الآية الثالثة: أنّ نظام السّماءِ المتماسك لاَ فُرُوجَ فيه، أي: لا شُقُوق فيه، ولَوْ كان فيه فروجٌ لحصَلَتْ أنواع من الخَلَلِ عَبْرَ ملايين أو مليارات السِّنين الّتي مَرَّت عليها.

الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالأرض:

الآية الأولى: مَدُّ الأرض، كما يتمدَّدُ السِّقَاء من الجِلْدِ الممتَلئ ماءً، وكذلك كان شكل الأرض قبل تثبيتها بالجبال التي أُلقِيت فيها. وقد يكون المرادُ بالمدّ الإمداد بالعناصر الصالحة لنفع الناس، بالأرْزاق وغيرها من مطالب الحياة الدنيا، كالمعادن المختلفة.

الآية الثانية: تثبيتُ الأرض بالرَّواسي الّتي ألقاها الله عزّ وجلّ بأمْرِهِ التكوينيّ، لئلاَّ تميد بسُكَّانها، فتتحرّكَ أجزاءٌ منها وتضطرب، كما تميد الفُلْكُ بأمواج الْبَحْر وتتخبَّط.

الآية الثالثة: إنباتُ أنواعِ النباتات وأصنافها من كلِّ زَوْج(أي: من كلِّ نَوْعٍ أو صنف) بَهِيج، أي: ذي بَهْجَة. **البهجَةُ** هي الحُسْنُ والنضارة. وحرف ﴿مِن﴾ في عبارة ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ للتبعيض، لأنّ احتمالات الأنواع والأصناف الممكنة لا تنحصر فيما أنبت الله منها، فما أنبت الله هو بعضها المقدَّرُ والمقضيُّ.

وفي هذه الظواهر الّتي هي من آيات الله الكونيَّة في السّماء والأرض، تَبْصِرَةٌ ابتداءً، وتَذْكِرَةٌ دواماً، لأهل الأفكار المتدبّرة الواعية المنيبين إلى بارئهم، بما فيها من دلائل تَدُلُّ على صفات الرَّبّ الخالق البارئ العليم الحكيم، الّذي أتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صُنْعاً.

فجاء في النصّ عقب ذكر الآيات قول الله عزّ وجلّ:

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ⑧﴾.

التبصرة في اللّغة: التَّعْليمُ والتفهيم، فَمَنْ يُدْرِكُ دلائل هذه الآيات في السَّماء والأرض، تَكُونُ لَهُ تَبْصِرَةً وتعليماً ابتداءً، ثم تكون له ذِكْرَىٰ دوماً.

تقول لغة: بَصَّرَهُ الأمْرَ تبصيراً وتَبْصِرَةً، أي: فَهَّمَهُ إيَّاهُ، وعَرَّفَهُ بِهِ، وأوضَحَهُ له.

والتبصير: التعريف والإيضاح، والتبصُّرُ التأمُّلُ والتعرُّف. وآيات الله في كونه تُعرّف بصفات خالقه ومتقنه ومُحْكِم أمْرِه، وهي تُعلّم دواماً من لم تكُنْ قد عَلَّمَتْه، وتَهدِي مَنْ تفكّر فيها إلى إدراك صفات الله جلَّ جلاله، ففيها تَبْصِرَة.

وبَعْدَ التَّبْصِرَةِ التعليميَّةِ تَكُونُ مُشَاهَدَتُها المتكرّرة ذِكْرَى أي: تكُونُ تذكيراً متكرّراً بما دلَّت عليه في التعليم الأول.

وكلّما شَهِدَ المتفكرُ المتأمِّلُ آيات الله في الكون، تعلَّمَ منها أشياءَ جديدةً، زادَتْه مَعْرِفةً بحقائِقَ عَن خالقها ومُبْدِعها، وذكَّرَتْهُ بما كان قَدْ عَرَفَهُ منها سابقاً، فتكونُ له بذلِكَ تَبْصِرَةً وَذِكرى.

ذِكْرَى: في اللُّغَة كالذِّكْر، بمعنى التذكُّر الذي هو ضدُّ النسيان. وبمعنَىٰ التذكير بالشيء، تقول لُغَةً: أذْكَرَهُ إيّاهُ وذَكَّرَه، والاسم من ذلك: «الذِّكْرَى».

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾، أي: لكلّ عَبْدٍ يَرْجعُ إلى آيات رَبِّه بالتفكُّر حِيناً فحيناً بصفةٍ مُتكرِّرَة، فتكون له تبصرة بالتفكُّر الأوّل، وذكْرى بالتفكرات اللاحقات.

منيب: اسم فاعل من فعل «أنابَ يُنيبُ» أي: رَجع يَرْجع، واسم الفاعل يُشبِه الفعل المضارع في المعنىٰ، يَدُلُّ على الحال والاستقبال والتكرار(١).

وبَعْدَ توجيه الأنظار إلى ثلاث آياتٍ من آياتِ الله الكونيّة في السَّماءِ، وثلاث آيات أخرى من آيات الله في الأرض، جاء في النصّ التنبيه على

---

(١) هذا ما وضح لي في الاستعمالات القرآنيّة، ولم أَرَ فيها أنّ دلالة اسم الفاعل على الاستقبال دلالةٌ مجازيّة، بل هي دلالة حقيقيّة من أصل الوضع، مثل: [وما كانوا مؤمنين] أي: وما كانوا مستعدّين لأن يؤمنوا متسقبلاً فأهلكهم الله.

ظاهرة عنايَة الله بالنّاس على ظهر الأرض، بذكر ثلاث نِعَمٍ مُفَصَّلات، تتعلّقُ بموضوع الأرْزَاق الّتي يحتاجها الأحياء عليها، وهي:

النعمة الأول: نِعْمَة إنْزال الماء المبارك من السّماء.

النعمة الثانية: إنباتُ الجنّاتِ ذوات الأشجار، ولا سيما النَّخلُ الباسقَاتُ الّتي لها طَلْعٌ نَضِيد.

باسِقَات: أي: طِوالٌ مُرْتفعاتُ القامات.

طَلْعٌ نَضِيدٌ: أي: حَمْلٌ مُتراكبٌ بعضُهُ على بعض باتّساقٍ وتراصف وانتظام.

النعمة الثالثة: إنْبَاتُ الزُّرُوع ذوات الحبّ الذي به أقوات ومنافع النّاسِ والدوابّ، وهذا الحبُّ يجمع بالْحَصَاد، فيكُونُ حصيداً.

وأبان هذا الدّرْسُ أنّ من عظات ظاهرة إنبات الزُّرُوع، ودلالات تكرار إحْيَاءِ الأرْضِ بها بَعْدَ مَوْتها، قياسَ بَعْثِ النّاسِ للحياة الأخرى، بعد موتهم وفناء أجسادهم، على إعادة حياة النباتات من بذورها، بالماء وتراب الأرْض إذا اختلطا وأحَاطَا بها، مع شروطٍ أخرى كالحرارة ومرور الزمن، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

أي: كذلك الذي يحدُثُ للنباتات من بُزُورِها في سُنَّةٍ من سُنَنِ الله المتكرّرة في الأرض، يكون خروج الموتى إلى الحياة يوم القيامة مَرَّةً أُخْرىٰ، من الأرض، للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء. ويُلاحظُ في كلّ هذا الدّرس أنّه قد جاء فيه استعمال ضمير المتكلّم العظيم، لأنّه يَتَعَلَّقُ ببيَانِ آيات رُبوبيَّةِ الله في كونه، فكان من المناسب الإشارة إلى عظمة هذه الربوبيّة باستعمال ضمير المتكلّم العظيم: «بَنَيْنَاها ـ زَيَّنَّاها ـ مَدَدْناها ـ ألقينا ـ أنبتنا ـ نزلنا ـ أحيينا».

* * *

نظرات تدبُّريَّةٌ تحليليَّةٌ تفصيلية لفقرات هذا الدَّرس الثالث:

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾.

يَبْدأ هذا الدّرْس باستفهامٍ فيه معنى الاستنكار والتلويم للمكذبين الكافرين بالرسول وبيوم الدّين، على إعراضهم عَنْ آيات الله الكونيّة الدّالاّتِ على قضيَّةِ الإيمان الأولى، الّتي تنقُلُهم إلَىٰ ما وراءَها من لَوازِمَ فِكْرِيَّةٍ، حَتَّى تُوصِلَهُمْ إلَىٰ الإيمان بقانون الجزاء الرَّباني، فالإيمان بيوم الدِّين، والإيمان برُسُل الله المؤيَّدين بمعجزات وآيات باهراتٍ من لَدُنه.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾، الْهَمْزَة استفهاميَّة، و«الفاء» حرفُ عطف، ولكن لا نجدُ في السَّوابق ما هو ملائمٌ للعطف عليه، والتأمُّل المتأنّي في النّصّ يَهْدِي بتوفيقِ الله إلى أنّها تعطِفُ على محذوف، وإيجادُها في الكلام يُفصِحُ عنه، فهي على ما يقول النحاة الفاء الفصيحة.

ويمكن استخراج هذا المحذوف بالتأمل أيضاً، والقرائن الفكريّة المحيطة بموضوع النّصّ تَدُلُّ على أن لدَىٰ المتحدَّث عنهم أدواتِ النظر التفكُّرِيّ الّتي وهبها الله للناس، وفضَّلهم بها على سائر خلقِهِ تفضيلاً عظيماً، وهٰذه الأدوات كان من الواجب عليهم أن يستعْمِلُوها للوصول إلى معرفة خالقهم ومُمِدّهِمْ بفُيُوضِ عطاءاته، وإلى مَعْرِفَةِ طائِفَةٍ من صفاته الجليلة، وإلى مَعْرِفَةِ الغاية من خَلْقِهم، وما يجبُ عليهم تُجاه بارئهم.

وهُنَا لا بُدَّ أنْ يَرِدَ السّؤال الأوّل حول عَدم انتفاع الكافرين بما وهبهم الله عزّ وجلّ من أدوات نظر تفكُّرِيّ وهو: أَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا ما لَدَيْهِمْ من أدواتِ نظر تفكُّرِيٍّ في أعظم القضايا الّتي خُلِقُوا من أجْلها، فَلَمْ يَنْظُرُوا إلى آياتِ الله في كونِه، ومنها ما جاء ذِكْرُهُ في هذا الدَّرْس.

إنّ النظر في آياتِ الله الكونيّة هو الحَلْقَةُ الأولى في سلسلة التفكير

الإيماني لمن رفضَ التسليم ببلاغات المرسَلين. إذْ آياتُ الله عزّ وجلّ الكونيّة دالأتٌ على الرَّبّ الخالق، وعلى طائفة من عظيم صفاته جلّ جلالُه، ومنْ آمَنَ بالله عزَّ وجلَّ وبصفاته فلا بدَّ أن يُدْرِكَ حكمَةَ الله الجليلةَ من الخلْقِ، ومن حكمتِهِ أنْ لا يخلُقَ الكونَ باطلاً، وأن لا يخْلُقَ الإنسانَ عبَثاً، ولا شيْءَ يرفع احتمال العبث إلاَّ أن يكون قد خَلَقَ النّاس في ظروف هذه الحياة الدّنيا ليبلُوهُمْ بالإيمان والعمل، ثم ليحاسِبَهم، ويفصل القضاء بينهم، ويجازيهم، في حياةٍ أخرىٰ بَعْدَ حَياةِ الابتلاء الأولىٰ، وهذا يُوصِلُ المتفكّرين إلىٰ الإيمان بيَوْمِ الدّين.

ومن حكمَتِه بَعْدَ أن قَضىٰ أن يخْلُقَ الناسَ ليَبْلُوهم أنْ يُرسِلَ إليهم رُسُلاً مِنهُمْ، يُبَيِّنُونَ لَهُم موادَّ امتحانهم، وما هُمْ مسؤُولونَ عَنه في حياتِهم لَدىٰ بارئِهم، وهٰذا يُوصِلُهم إلى الاقْتِناع بحكْمةِ إرْسَالِ الرُّسُل، ولا يَبْقَىٰ أمَامَهُمْ إلاّ التأكُدُ من صحَّةِ دَعْوىٰ من يَدَّعِي أنَّهُ رَسُولُ الله، ويتحقَّقُونَ منْ صِدْقه بما خصَّهُ الله به من معجزة أو مُعْجزاتٍ تَشْهَدُ لَهُ بأنّه صادقٌ فيما يبلّغُ عن رَبّه، كمعجزة القرآن لمحمد ﷺ، وكمعجزاتِ موسىٰ وعيسىٰ عليهم الصَّلاة والسَّلام.

فالله عزَّ وجلَّ في هذا الدرس يُعيدُ الكافرين إلى الحلْقة الأولى من سلسلة التفكير الإيماني، ويُحمِّلُهُمْ مَسْؤوليَّة النَّظَرِ التأمُّليّ في آيات الله الكونية.

ففي قوله عزّ وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾؟ مع الاستنكار والتلويم حثٌّ على النظر التفكُّريّ، إذا لم يَسْبقْ لهم أنْ نظروا هذا النظر.

﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾، أي: أفَلَمْ يَنظُرُوا إلى هٰذه السَّمَاء العظيمة العجيبة، في الامتداد الّذي لا يُدْرِكون غايتَهُ فَوْقَهُمْ.

السَّماءُ: تُطْلَقُ لغةً على كلّ ما ارتفع وعلا، أو كان في جهة العُلُوّ،

من فعْل «سَمَا يَسْمُو سُمُوّاً فهو سَام» أي: ارْتَفَعَ مادّياً أو معْنويّاً، وسَمَاءُ كُلّ شيءٍ أعلاه، والسّمَاءُ سَقْفُ كُلِّ شيءٍ وكُلّ بيت، والسَّماءُ بهذا المعنى مذكّر.

أمّا السَّمَاءُ الّتي تُظِلُّ الأرض فهي مؤنثة عند العرب لأنّها اسم جنْسٍ جمعيّ مفرده سَمَاءة. وقال الجوهري: السماء تذكر وتؤنث. وكثُر في القرآن المجيد إطلاق لفظ «السّماء» على السَّحاب، وهو إطلاقٌ منطبق على مفهوم لفظ السماء لغة.

أقول: والغلاف الغازيّ المحيط بالأرض هو بالنسبة إليها سماء لغة، حتّىٰ القريب الملاصق لها. وكل مجموعة من المجرّات مترابطة بنظام في بنائها وحركتها وجاذبياتها هي سماء.

أما السماوات السَّبع فَلا نستطيع تقدير حدود كلّ سماءٍ منها.

وقد يُطْلَقُ على المطر لفظ «السَّماء» لأنه يَنْزِل من جهتها، وهذا إطلاقٌ مجازي. من نوع المجاز المرسل.

﴿فَوْقَهُمْ﴾ حال من السماء، وهي حال مؤكّدة، وفائدة [**فوقهم**] شَدُّ أنظارهم إلى الارتقاء.

﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾، كيف: اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن حالة الشيء، وهو مبنيٌّ على الفتح في محل نَصْبٍ على أنّه هُنَا نَائب عن مفعول مطلق للفعل في ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ والتقدير: بنيناها بناءَ ذا حالةٍ مُدْهِشَةٍ، جديرة بأن يستفهم عنها بإعجاب باسم الاستفهام «كيف» ووجب لغةً تقديمها في العبارة، لأنها استفهاميّة، ومعلوم أنّ الاستفهام له الصدارة. ويمكنُ إعرابُها بوجه آخر.

﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ يقالُ لغة: بنَىٰ وابْتَنى. وبناء كلّ شيء يكون بحسب

الحاجة الداعية إليه، فبيوت العرب في البوادي تُبْنَىٰ من الجلود والأصواف والأوبار المنسوجة، ونحوها، وبيوت المدن والقرى تُبْنىٰ من الحجارة والآجُرّ والطين والجصّ والخشب والإسمنت والحديد ونحوها. والعنكبوت تبني بَيْتَها من خيوط دقيقة جدّاً تفرزها من غُدَّة في جسدها.

وتقول العرب: بنىٰ الطعامُ لَحْمَ آكله. أي: أكْثَرَ لَحْمَهُ فَعَظُمَ من الأكل.

وجسم الكائن الحيّ بناء الرَّبّ جلَّ جلالُه، وهو مبنيٌّ من الخلايا، الّتي يتكوّنُ مِنْها العظم واللَّحم والشّحْم والأعصاب وتُوَزَّعُ في الأعضاء، بمقتضى حكمة الله.

فبنَاءُ السَّمَاء ينبغي أن يكون بحسَب نظام التماسك بين أجرامها. والغلاف الجوّيُّ المحيط بالأرض مبنيٌّ كما هو مشاهدٌ من الغازات. والمجرّاتُ مبنيَّةٌ كما هو مشاهد بالمناظير والمجاهر لعلماء الفلك الرّاصدين من النجوم والكواكب، وتماسُكها حاصل بقانون الجاذبية التي جَعَلها الله فيها.

وقد تكون مَجْمُوعةُ مجرّاتٍ مترابطةٍ بنظامٍ فيما بينها إحدىٰ السّماوات السَّبْعِ الكبرى، والله أعلم.

ونترك للبحث العلميّ الإنساني ما يتوصّلُ إليه في هذا المجال، بشرط أن يكون ما يتوصّلُ إليه علماً يقينياً بأدلّة مقطوعٍ بها.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ التزيينُ التجميلُ والتحسين، وقد زيَّنَ الله عزّ وجلّ السَّماء بالنُّجوم والكواكب، وقد يكون تزيين الشيء بجعل بعض أجزائه زينة له. وقد اقتصر النصّ هنا في سورة (قٓ) على ذكر التّزيين، دُونَ بيان الأشياء الّتي زُيّنَتْ بها السّماء.

ولكن جاء بيان هذا في نجوم التنزيل الّتي نزلت بعد سورة (قٓ) ونجد

في القرآن المجيد نصوصاً خمسة حول تزيين السَّماء للنّاظرين في الأرض، وهي نصوص متكاملة الدلالات فيما بينها وفق المنهج القرآني.

النص الأول: هو هذا النصّ الذي نتدبّره من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

النص الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ (١٦)﴾.

﴿بُرُوجٗا﴾ البروج منازل الكواكب والنجوم السَّيَّارة، وأصل معنى البروج في اللّغة: القصور العالية المشرفة المتطاولة في السماء.

وقد أضاف هذا النّصّ ذكر «البروج» وهي منازل حركة النجوم والكواكب، وهذه المنازل تمثّل جزءاً من الزينة العامة. وأضاف أيضاً أنّ هذا التّزيين إنما هو للناظرين، الذين يُدْركون بحاسة النظر الجماليات الّتي تُدْرَكُ بالأبْصار، والبشَرُ هُمُ المقصودون الأوّلون بهذا التزيين.

النصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ (٦) وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ (٨) دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ (١٠)﴾.

فأضاف هٰذا النّص بيان قضيَّتَيْن:

الأولى: أنّ التزيين للناظرين هو للسّماء الدنيا بالنسبة إلى سكان الأرض.

الثانية: أنّ من الأشياء التي يحصُل بها التزيين منثوراتِ الكواكب، مع ما لها من وظائف أخرىٰ، ومنها أن تكون أدوات حفظ، تحفظ أهل الملأ

الأعلى من أن تقترب منهم الشياطين، فيتسمّعوا منهم الأنباء من المقادير الرّبانيّة لِيَنْقُلوها إلى قُرنائهم من الإنس.

وهي الّتي تَهْوِي منْها الشُّهبُ في اتّجاه الغلاف الجويّ فتلتهب، ثم تهوي في اتّجاه الأرض أسهماً ناريّة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، أي: ولهم عذابٌ دائم غير الاحتراق بالشهب التي تُصِيبُهُم.

النص الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلَت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول).

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ⑫﴾.

فأضاف هذا النصُّ بيان قضيتين:

الأولى: وصف الأجرام التي جعل الله تزيين السّماء الدنيا بها، بأنها تُشْبِهِ المصابيح، سواءٌ أكانت نجوماً ملتهبة، أم كواكب عاكساتٍ للنور.

الثانية: أنَّ كُلًّا من التَّزيين والحفظ من الشياطين قدْ تَمَّ بتقدير الْعَزِيز الْعَلِيم.

العزيز: أي: القويّ الغالب الذي لا يُغلب.

العليم: أي: الواسع الْعِلْم.

النصّ الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ⑤﴾.

[رُجوماً]: **الرُّجوم**: ما يُرْجَمُ من حجارة وغيرها، مفردُها «الرَّجْم». وقد أضاف هذا النصّ دَلالاتٍ ثلاثاً.

الأولىٰ: تأكيد أنّ الله جَلّ جلاله بعظمة ربُوبيته وسُلطانه زَيَّنَ السَّماء الدنيا بمصابيح بعبارة [لقد].

الثانية: أنّ حفظ السماء من الشياطين يكون برَجمِهم بما زَيَّنَ به السَّماءَ الدُّنيا من مصابيح.

الثالثة: أنّ العذاب الْوَاصِبَ الدّائم الذي أعَدَّهُ الله لهم هو عذاب السعير في جهنم.

* * *

قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾.

الفروج: الشُّقُوقُ المفتوَحة، والمنافذ الّتي تكون بانفصام الالتحام بين عناصر الشيء الذي له وحدة كُليّةٌ متماسكة.

والسَّماءُ بنظامها المتماسِك خاليةٌ من الشقوق والمنافذ، الّتي تيسّرُ دُخُول أشياء قضىٰ الله بنظامه العامّ لها أن لا تدخُلَ فيها، أو تُعَرِّضُ تماسُكَها لحُدوث خلَلٍ فيه يُفْسِدُ نظامها.

وتَمَاسُكُ كلّ شيءٍ يكون بحسب نظامه، وشقوق كلِّ شيءٍ تكون بحسبِ نظامه، والفروج تكونُ في كلِّ شيءٍ بحسب نظامه.

إنَّ تماسُكَ أجرام المجموعة الشمسيّة بقانون الجاذبيّة الرَّبّاني، ليس فيه شقوقٌ ولا فروج ـ ولو كان فيه شيء من ذلك لاخْتَلَّ التماسُكُ والتجاذُبُ بينها، ولحدث فيها فسادٌ في أبعادها وفي مداراتها، وفي أبراجها، ومن شأن هذا الفساد أن تبتلِعَ الشَّمْسُ مَجْمُوعَتها، أو تضل أجرامٌ منها في أبعاد فسيحة من مَجَرَّتها، فتلتحق بنجومٍ أخرىٰ، أو تبتلِعَها نجومٌ أخرىٰ.

إنَّ الفروج في النباتات تفطُرات وتشقُّقَات في أجرامها بحسب

مقاديرها. وإنّ الفروج في الأجساد فَتَحاتٌ فيها، وإنّ الفروجَ في الأرض وفي الجبال شقوقٌ قد تكون عظيمة جدّاً، تنشأ عنها في الجبال وِدْيان سحيقة، وفي سائر الأرض بحارٌ عظيمة، وإنّ الفروج في الغلاف الغازيّ المحيط بالأرض تشقُّقاتٌ إذا حَدَثَتْ وصَلَتْ إلى الأرض أشعَّةٌ شديدة الخطر والضرر على الأحياء والنباتات، من الشمس ومن أشعة كونيَّةٍ أخرى، وسبق أن عرفنا أن الغلاف الغازي المحيط بالأرض يطْلق عليه في اللّغة سماء.

وهنا أتساءَلُ: هل يَصْلُح أن يكون هذا الغُلاف الغازي هو المراد بالسَّماءِ الدُّنيا، مع دلالة قوله تعالى في الآية: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لأنّهُ هو المحيط بهم من فوقهم، إذْ لو لَمْ تَكُنْ لهذه الفوقيّة دلالةٌ خاصَّة لكانت من فضول القول، فكُلُّ السَّماوات هي فوق الناس الساكنين في الأرض والله أعلم؟؟ وسبَقَ بيان أنّ عبارة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ تفيد شدّ أنظار الناس إلى الاتقاء عن مواطئ الأقدام، إلى ما فوق الرؤوس من أبعاد.

قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، أي: جعلْناها ذاتَ امْتِدَاد في بُعْدَيْن مُتَقابِلين، كتَمَدُّدِ السّقاء، وهو ظَرْفُ الماء المتَّخَذُ من الجلْد، وهو ما يُسمَّىٰ بالقِرْبة.

ويقال لُغَةً: تمدَّدَ الرَّجُلُ، أي: تَمطَّىٰ وتطاول، وأصْلُ المدّ في اللّغةِ الجذْب.

وقد يكون المرادُ أيضاً بمَدِّها مَدَّها بالخيرات، والمعادن وموادّ الخِصْب، والعناصر النافعة للعباد.

تقول لغة: مَدَدْتُ الأرض مدّاً، إذا زدْتَ فيها تراباً أو سماداً من غيرها، ليكون أعْمَر لها وأكثَر رَيْعاً لزَرْعها.

ويقال في اللّغة للرّمَال وللسَّمادِ: مِدَادُ الأرض.

ومنه يقال لما يُرْسَلُ من محاربين للجيش المقاتل: مَدَد.

وواقع حال الأرض الّتي جعلها الله عزّ وجلّ دار سكنىٰ الناس في الحياة الدنيا، يَشهدُ بأنّها مَتَمَدِّدَة كَتَمَدُّدِ السّقاء، وأنّ الله جلّت حِكَمُه وعظمت نِعَمُه، قد أمدّها بعناصر وفيرة لرزق العباد ومنافعهم.

والتدبُّر الأمثل يَدْعُو إلى حَمْل اللّفظ على مَعْنَيَيْه، فكلٌّ مِنْهما يَدُلُّ عَلَىٰ إتقان صُنْع الله، وكمال حِكْمته، وعَظيم رحمته وعنايته بعباده.

قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾، أي: وألْقَينا في الأرض جبالاً ثوابت رواسخ ثَبَّتَتْ قِشْرتَها.

يقال لغة: رَسَا الشيءُ يَرْسُو رَسْواً ورُسُواً، أي: ثبت. ويقال: رسا الجبَلُ، أي، ثبت أصْلُه في باطِنِ الأرض.

وكلمة ﴿رَوَاسِيَ ﴾ هي في الأصل صفة لموصُوف محذوف، هي الجبال، ولكثرة استعمالها صفة للجبال استغني عن ذكر الموصوف، ونُزّلَت الصّفة منزلَتَهُ في أصل الدلالة، مع زيادة معنىٰ الثبوت والرُّسوخ.

ولعلَّ في كون الجبالِ مُلْقَاةً إلْقَاءً إشَارَةً إلىٰ أنَّ الأرض كانت مُمَدَّدَة كالسّقاء، ثُمَّ حصلَتْ فيها تفجُّرات بركانيَّة، نجم عنها ترامي حُمَم بُركانيَّة في الجو، وأُلقِيَت هذه الْحُمَم في الفجوات الّتي أحْدَثَتْها البراكين العُظْمىٰ، فكانت الجبال الرَّواسي.

ما جاء في القرآن بشأن امتنان الله على عباده في الأرض بالجبال الرواسي:

نطالع في القرآن المجيد أحد عشر نَصّاً يمتَنّ الله فيها على عباده بالجبال الرواسي، عشرةٌ منها مكيّة، والحادي عشر منها مدني، وهي ما يلي مرتبة بحسب ترتيب نزول سورها:

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) في معرض الحديث عن الأرض:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾

فوصَف الله في هذا النّص الجبال بوصفين لها: وصف الرُسُو، ووصف الشموخ، وهو العلوّ والارتفاع.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) الّتي نتدبَّرُها في معرض الحديث عن الأرض: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾.

فأضاف هذا النّصُّ فِكْرَة الإلقاء، الذي يشير إلى كيفيّة تكوين الجبال.

النص الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فجاء في هذا النّص ذكْر الجبال الرواسي، ضمن تعليم جدليّ لمناظرة المشركين، حول توحيد الرُّبوبيّة، الذي يلزم عنه عقلاً توحِيدُ الإلهيَّة لله جل جلاله.

والمناظرة قائمة على طرح أسئلة على المخالف، رغبةً في انتزاع اعترافه بأنّ الرُّبوبيَّة لا يُشارِكُ الله فيها أحد، إذَنْ فهو الذي يجب عقلاً أن تكون له وحْدَه العبادة، إذْ لا إله إلاّ هو، وهذا هو اللازم العقليُّ الأول لكونه لا رَبَّ في الوجود سواه.

النص الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾.

جاء هذا النَّصُّ ضِمْنَ عَرضِ طائفَةٍ من آياتِ الله عزَّ وجلَّ في كونه، ونِعمِهِ على عباده فيها، مُعَالَجةً للكافرين بإقامَةِ الأدلَّة لهم عَلَى عَظَمَةِ

رُبُوبيته، وعلى فيوض نِعَمِه عليهم رحْمَةً بهم، عَسَىٰ أن يؤمن منهم من لديه استعداد للانقياد والعبادة والطاعة.

وجاء فيه ذكر إلقاء الرواسي في الأرض باعتبارها إحدى آيات الله في الأرض، الدالّة على ربوبيته ورحمته ونعَمه على عباده.

النص الخامس: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠﴾.

﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، أي: مِنْ كُلِّ صنف من أصناف الثمرات ذي صفات حسَنة نافعة طيّبة.

وأضاف هذا النّصّ بالنسبة إلى الجبال الرواسي بيان وظيفة كونيّة من وظائفها، وهي مَنْعُ قِشْرَةِ الأرض من أن تُميدَ بمَنْ عليها. ماد الشيءُ. يَمِيدُ، مَيْداً، ومَيَدَاناً، أي: تحرَّك واضطرب.

النص السادس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) في معرض الحديث عن الأرض ضمن تعليم جَدَليّ يُناظِرُ به الداعي إلى الله المشركين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾.

فأضاف هذا النّصّ بالنسبة إلى الجبال الرَّوَاسِي، بيان كون هٰذه الرَّواسِي من فَوْقِ الأرْض، للدلالة على أن ارتفاع مقادير عظيمة مِنْها فوق سَطْحِ الأرض ذو نفع عظيم للناس.

النص السابع: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠

نزول) حديثاً عن الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑮ وَعَلَٰمَٰتٍ . . .﴾.

فأضاف هذا النصُّ أن من فوائد الجبال الرواسي أنّها بمثابة علامات يَهْتَدي بها الناس في أسفارهم وتنقلاتهم، وكذلك الأنْهارُ والسُّبُل.

النصّ الثامن: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ㉛ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ㉜﴾.

وهذا النّصّ جاء فيه الحديث عن الكافرين الغائبين، ولم يواجِهْهُمُ الله فيه بالخطاب. وجاء فيه بيان أنّ الرواسي إحدىٰ آيات الله في كونه، وأنّ الكافرين معرضون عن آيات الله. وهذه إضافات أسْلُوبيّة وفكريَّة.

النَّصُّ التاسع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول).

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ⑥ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦﴾.

أوتاد: جَمْعُ «وَتَدٍ» وهو الْعُود الّذي يُدَقُّ في الأرض لتَثْبِيت الخيمة به، أو لربْطِ عِنَانِ الدابة به.

فأضاف هذا النصُّ بيانَ أنّ الجبال في الأرض تُشْبِهُ الأوْتَاد لها، لما فيها من تثبيت، وأضافَ أنّ الجبالَ يَدْخُل منها قِسْمُ عظيم في الأرض، كما يَدْخُلُ الوتد، فقِسْمٌ منها فوق الأرض كما جاء في النصّ السادس، وقِسْمٌ منها مَغْمُوسٌ في الأرض كحال الأوتاد.

النصّ العاشر: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف ٨١ نزول):

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾.

فأضافَ هذا النص بيانَ أنّ أحداث دَحْوِ الأرضِ، وإخراج الماء والمرعى، وإرْساءِ الجبال، قد كانت بَعدَ رَفْع سَمْكِ السماء وتَسْوِيتها، وإغْطاشِ لَيْلِها وإخراجِ ضحاها.

النصّ الحادي عشر: قول الله عزّ وجل في سورة (الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصُّ عِدَّة بيانات تتعلَّق بالثمرات، والزوجيّة فيها، وأنّ النهار هُوَ الذي يغْشَى اللَّيْلَ فَيَسْترُهُ.

أمّا الإضافة المتعلِّقة بالجبال مع تعلّقِهَا بغيرها من آيات الله، فهي أنّ الذين يتفكّرونَ هم الَّذِين يُدْرِكُونَ ما في الظواهر الكونية من آيات الله الدّلاّت على صفاته الجليلة.

التعليق:

إنّ إلقاء الجبال الرواسي في الأرض لتثبيت قشرتها نِعْمةٌ عظيمةٌ، وعنايةٌ من الرَّبِّ الخالِقِ بسُكّان الأرض جسيمة، ولا يَعرِفُ قيمتَها إلاّ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ للزَّلازِلِ المدمِّرَةِ في مواضع من الأرض، ولولا الجبالُ لظلّت الزلازلُ والتَّشقُّقات في الأرض وظاهراتُ الخَسْفِ تتوالَىٰ على سُكّان الأرض مُهلِكاتٍ ومُدَمِّرات ومُريعات.

فلا عجب أن يوجِّه الله عزّ وجلّ للتفكُّر في ظاهرة الجبال الراسيات، ويمتَنَّ على الناس بها في أحد عشر نصّاً مع ما في الجبال من فوائد أخرى عظيمة، غَيْرِ تثبيت قِشْرَةِ الأرض، فهي خزّاناتُ مِياهِ الأنهر والعيون، وهي

مستودعات كنوز كثيرة من كنوز الأرض ـ وعليها تُبنىٰ القلاع والحصُون والمساكن المحميّة المشرفة الطيّبة الرياح، إلى غير ذلك من منافع كثيرة.

* * *

قول الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجِۢ بَهِيجٍ ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض من كلّ صِنْفٍ وكُلّ نَوْعٍ ممّا تُنبت الأرض من نباتٍ بهيجٍ.

الزّوج: يُطْلَقُ في اللُّغة على الصنفِ من كلّ شيء، وهذا هو المراد هنا. ويُطْلَقُ على ما يقابل الفرد ـ وكُلُّ شيئين مقترنين هُما زوجان ولو كانا مختلفين غير متشاكلين.

بَهِيجٍ: أي: ذي بهجة. **البَهْجَةُ:** الحسْنُ والنضارة والجمال. يُقال لغة: بَهُجَ الشَّيْءُ بَهْجَةً وبَهَاجَة وبَهَجاناً فهُو بَهِيجٌ، إذا كان ذا حُسْنٍ ونضارةٍ وجمال.

فدلَّ هذا البيان الرَّبَّانيُّ على أنّ الجمال في الكون أمْرٌ مقْصُودٌ في نظام الخلْق وخُطَّتِه. فَكَما زَيَّنَ الله عزَّ وجلَّ السَّماء الدّنيا بمصابيح مضيئةٍ أو مُنِيرَة، مع الغاية النفعيَّة منها، أنبت في الأرض من كلّ صنف أو نوع من النبات ما هو بهيجٌ حسَنٌ نضِرٌ جميل، للامتاع بجماله مَعَ ما فيه من رِزْقٍ أو نَفْعٍ آخر للعباد.

قول الله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾.

بعد توجيه الأنظار إلى آيات الله في السَّماء، وبعْضِ آياته في الأرض، وامْتِنانِ الله على عباده بما فيهما من منافع لهم، في حياتهم الدنيا، وما فيهما من امتاع جمالي، وجَّهَ الله عزّ وجلّ أنظار الناس لِمَا فيهما من هداية ذوي الألباب والعقول المتفكرة الواعيَة إلى قضايا الإيمان الكبرى، الّتي هي أولىٰ الواجبات الدينيَّة التي يُطالَبُ بها المكلّفون الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

إنّ هذه الآيات الرّبانيّة ذاتُ وظيفةٍ دُنيَويَّةٍ للنّاس، وذاتُ وظيفَةٍ دينيَّةٍ لهم، إذ تهدي أولي الألباب منهم ابتداءً إلى ما فيها من دلالات إيمانية، على طائفةٍ جليلةٍ من صفات الرّبّ خالِقِها والمهيْمن عليها دواماً بربوبيته، ثم إلى الإيمان بيوم الدّين وتصْديق المرسلين المؤيّدين منه بالمعجزات الباهرات. وتُذَكّرُ دواماً بما دلَّتْ عليه ابتداءً.

هذا ما دلّت عليه عبارة: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾.

فالتبْصِرَة: هي التعليم والتفهيم ابتداءً، لمن يُدْرِك دَلاَلاَتِها، يقال لغة: بصَّرَهُ الأمْرَ تبصيراً وَتَبْصِرَةً، أي: أفْهَمَهُ إيّاهُ، وعرَّفَه به وأوضحه له. **والتَّبصُّر**: التأمُّلُ والتعرُّف. **والتّبْصِيرُ**: التعريف والإيضاح.

وهكذا آياتُ الله في كونه، تُعلّم وتُفَهِّمُ أُولي الألباب، الذين يرجعون إليها متفكّرين متدبِّرين.

والذِّكْرَى: التذكير بالشيء، يقال لغة: أذْكَرَهُ إيّاهُ، وذكَّرَهُ، والاسم من هذا «الذِّكْرَىٰ».

وآيات الله في كوْنه تكونُ مُشاهداتُها المتكرّرات بعد التعليم الأوّل، ذِكرىٰ، أي: تذْكيراً مُتكرراً بما سَبَقَ أن عَلَّمَتْهُ أوّلاً.

مع ما في آيات الله الكونية من تجديدِ تعليميٍّ، وذلك أن المتفكّر اللَّبيب كُلَّما كرَّر نظره إلىٰ آيات الله الكونيّة بإمعان استفاد عِلْماً جديداً لم يكن قد توصَّل إليه بالمشاهدات السَّابقات، وهذا الأمر يظهر بجلاء لأهل البحث العلمي، الذين يَتعمّقُون في دراسة الظواهر الكونيَّة، وكلّما اكتَشَف هؤلاء جديداً زادهم هدايةً لاسْتبْصارِ مُذْهش يتعلَّق بصفات جليلةٍ من صفات الخالق البارئ المصوّر الحكيم، الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

ولكن مَنِ الّذي ينْتَفِعُ بالتَّبْصِرَة وبالذِّكرى؟

النَّصُّ يجيب ببيانه على هذا السُّؤال بقول الله عزَّ وجل: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

﴿مُّنِيبٍ﴾: اسم فاعل من فعل «أناب يُنيب» أي: رجع وتاب. وبالتفكّر نُدْرِكُ أنّ كُلَّ عَبْدٍ قد خَلقَهُ ربّه مُنْذُ فَطَرَهُ، على الإيمان بالحقّ في مشاعره الوجْدَانيَّة متىٰ أدْركَه، وأعظم حقٍّ في الوجود الربُّ الخالق البارئ وصفاته الجليلة.

ثم يبتَعِدُ العبْدُ عن مشاعر الإيمان بربّه، مُتَّبِعاً أهواءه وشهواتِه وزُخْرفَ الحياة الدنيا، وقد يَضِلُّ في تيهها وتجتالُه الشياطِين، فيكُونُ بذلك عبداً آبقاً.

وحينَ يَعْزِمُ على الرُّجوع إلى مَوْطن عبوديّته الإراديَّةِ، ويُحقّقُ ذلك بالرُّجوع الفِعْليّ، وهي الإنابَة، عندئذٍ يكون مُنيباً، أي: راجعاً إلى موطن عُبُودِيَّتِه الإراديَّة الاختياريَّة، وحينئذٍ تَلْفِتُ نظره آيات الله الكونيَّة، فتكونُ له تَبْصِرَة وذِكرى.

هٰذه المعاني قد أوجزها النصُّ عن طَريق اختيار الكلمات ذَوَاتِ الدَّلاَلاَتِ المطابقيّة، وذَوَات الدّلالاتِ اللُّزوميَّة التي يكشِفُها التفكّر والتّدبُّر، من خلال التعمق في فهم النَّصّ، بَعْدَ عرض طائفةٍ من آيات الله في كونه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾.

فما أبدع هذا البيان، وما أوجزه وأكْثَرَهُ دقَّة وعُمْقاً وامْتِداداً.

وتطبيقاً لأسلوب التكامل البيانيّ في القرآن نستطيع أن نقول: إنَّ كُلَّ نصٍ قرآنيّ جاء فيه عَرْض آية أو أكثر من آيات الله في كونه يَصْلُحُ لأن يقال في آخره: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ فإيرادُهُ في نَصّ منها يُغني عن إيراده في سائرها، ولكن لا نجْعله قرآناً يتلىٰ، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن القائم على التكامل في الأداء البياني.

- قول الله عز وجل:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

- ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجُمَل السابقة في هٰذا الدَّرْس، التّنْزِيل كالإنْزَال، هو الإهْبَاطُ مِنْ عُلْوٍ إلىٰ سُفْل، وفِعْلُ: «**نَزَّلَ**» مثلُ فعل «أنْزَل» والتعدية بالتضعيف، كالتعدية بالْهَمز، وقد يَدُلُّ الفعل المضعَّف على تكثير الإنزال أمّا فعل: «أنزل» فيدلُّ على الإنزال مطلقاً دون إرادة التكثير، وهما حالتان لإنزال المطر.

- ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السّحُب الّتي يُطْلق عليها لغة اسم السّماء، كما سبق بيانه، والمشاهدة تُثْبِتُ أنّ المطر يَنْزل من السَّحاب.

فلفظ السَّماء يُحْمَل في كلّ مَوْضعٍ على ما يلائمه.

- ﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي: ماءً فيه زيادةُ نَفْع وخير، فالبركة في اللُّغة: النماء والزيادةُ والكَثْرَةُ من الخير.

إنَّ الماءَ من أجَلِّ نِعَم الله على الأحياء في الوجود، وقد جعلَه الله عزّ وجلّ في الأرض غزيراً وفيراً، وما على الناس إلاّ أن يُحْسِنوا الانتفاع منه، بإجرائه، وتوجيهه، واستنباطه، وجمعه وتحليته واستغلاله وعدم الإسراف والتبذير به، ولو كان من أجل الطهارة الشرعية.

وقد وصف الله الماء الذي يَنْزِل من السماء في هذا النصّ بأنّه مبارَكٌ، ووصفه في موضع آخر بأنّه طَهُورٌ، أي: طاهر في نفسه مُطَهِّرٌ لغيره أخذاً من صيغة «فَعُول» التي هي من صيغ المبالغة والتكثير.

- ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾: الإنْبَات ظاهرةٌ مشهودة، لا تكونُ في الأرض إلاّ بوَسِيطٍ هُوَ الْمَاءُ، الذي تَنْحَلُّ فيه العناصر الغذائيّةُ الموجودةُ في

التراب، فتختلط به، فتمتصُّ الجذور الماءَ وما اختلطَ بِه، ويكون ذلك غذاءً للنبات فينمو.

وكلُّ الماء الْحُلْوِ في الأرض قد جاءت تَحْلِيَتُه عن طريق التبخُّر، وتَكَوُّنِ السُّحُب، ونزول الأمطار.

فَمِنَ الْمَاءِ الَّذِي نَزَلَ أو يَنْزِلُ من السَّماء يَنْبُتُ النَّبَاتُ، ضِمْنَ سُنَنِ اللَّهِ السببيّة، وَلَوْ أَخْذناه من العيون، أو الأنهار، أو الآبار، أو مُذَاب الثُّلُوج.

وظاهرة الْإِنْبَاتِ حركةُ إِنْشَاءٍ مُتَدَرِّجٍ، فذِكْرُ الإنْباتِ يُغْنِي عن ذِكْرِ الإنشاءِ المتدرِّج.

ولفظُ الإنْبَاتِ ينطَبِقُ علىٰ كلّ حَرَكةٍ نُمُوٍّ مَهْمَا صَغُرَتْ عَنْ إدْرَاكِ النَّظَر، مَعَ أصْغَرِ وَحَدَاتِ الزَّمَنِ، فاللَّهُ عزَّ وجلّ هُو المنبتُ دواماً مُنْذُ تَحَرُّكِ الخلِيَّةِ الأُولَىٰ الموجودة في نَوَاةِ الْبِزْرَةِ، حتَّىٰ اكْتِمَالِ الشَّجَرَةِ العظيمة، وكُلُّ ثَمَرَةٍ تَنْمُو فيها، وكُلُّ ورَقَةٍ تَنْمُو فيها، إنَّما تَنْمُو بإنْباتٍ من اللَّهِ، وهو يَدْخُلُ في عُموم قَوْل الله عزّ وجلّ ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾.

﴿جَنَّٰتٖ﴾: أي: أشجاراً مختلفَةَ الأنْواعِ، تَتَكَوَّنُ مِنها جَنَّاتٌ.

الجنّات: هي الحدائقُ والبساتينُ المكتظَّةُ بالأشجار، فهي ساترةٌ لِمَا تَحْتَها، وأصْل مادّة «جَنَّ» تدور حول السَّتْر بشيْءٍ ساتِرٍ، «جنّاتٌ» جمْعٌ مفرده «جنَّة».

- ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾: أي: وأنْبَتْنا به زُرُوعاً مختلفة، تُعْطِي عنْدَ نُضْجِها واسْتِحْصَادِهَا حبًّا، فيهِ نَفْعٌ للنَّاسِ وسائر الأحياء على الأرض، وتكوُّنُ الحبِّ نَفْسِه إنَّما يكونُ عن طريق الإنبات أيضاً.

الحبُّ: اسم جنْسٍ يشْمَلُ كُلَّ الحبُوبِ والْبُزُور الَّتِي تُنْتِجُها الزُّرُوع.

الْحَصِيد: هو المحصُودُ من الزَّرْع، أي: المقطوع بالمِنْجِل أو نَحْوِه، لِيُدْرَسَ، أو يُدَاسَ، ويُفرَزَ مِنهُ حبُّه، ويُكسَّرُ قَشُّهُ حتَّىٰ يَكُونَ تِبْناً عَلَفاً للدَّواب، أو يُنْتَفَعُ به في منافِعَ أُخْرَىٰ.

فَحَبُّ الْحَصِيدِ: هُوَ حَبُّ الزَّرْع المحصُود.

فدلَّ هذا على أنّ كَمَالَ نُضْجِ الحبّ إنّما يكون حينما يَصِيرُ الزَّرْعُ صالحاً لِأنْ يُحْصَد، وذلك باصْفِراره، ويُبْسِه، وذَهاب خُضْرَته ونضرته.

- ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⑩﴾.

النخل: اسم جنس جمعي، واحدته «النخلة» وشجر النّخل معروف يُثْمِرُ البلح الذي يصير تمراً، و(ال) في [**النَّخل**] للتنويه بهذا النوع من الشجر وكثرة منافعه.

﴿بَاسِقَٰتٍ﴾: أي: طِوالاً مُرْتفعاتٍ في جوّ الأرض، ذوات سيقان طويلة، واللفظ منصوبٌ على الحال.

تقول لغة: بَسَقَ الشيء يَبْسُقُ بُسُوقاً، إذا طال وارتَفَع وعلا.

﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾: قال صاحب القاموس المحيط: الطَّلْعُ من النَّخْلِ شيءٌ يَخْرُجُ كأنّه نَعْلَانِ مُطْبَقَان، والْحَمْلُ بَيْنَهُما مَنْضُود.

﴿نَّضِيدٌ﴾: أي: منضود، والمنضودُ هو الذي تراكب بعضه على بعض باتساق. يقال لغة: نَضَدَ مَتَاعَهُ يَنْضُدُهُ، ونَضَّدَهُ يُنَضِّدُهُ، إذا جعل بعضه فوق بعض باتِّسَاقٍ ونظام. فهو منْضُودٌ، ونَضِيدٌ، ومُنَضَّدٌ.

وهكذا واقع حال طلع النخل، متراكبُ الحبّ بعْضُه فوق بعْضٍ باتِّسَاقٍ وانتظام.

ولا يخفى ما في هذا البيان من لفت الأنظار إلى الظاهرات الجمالية في خَلْق الله، فلبُسُوقِ النخل ولِتَرَاكُبِ الطَّلْع بانتظام جمالٌ يُمتع الناظِرين.

- ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾: **الرِّزْقُ**: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ به من مأكولٍ، ومشروب، وملبوس، وغير ذلك، وقد يُطْلَقُ على ما هو سبَبٌ أو وسيلة لذلك إطلاقاً مجازِيًا، وبكثرة الاستعمال قد يصير مثل الحقيقة: كالعطاء، والرواتب من النقود.

والرَّزْق: بفتح الراء مَصْدَرُ فعل «رَزَقَهُ يَرْزُقُهُ رَزْقاً».

العباد: أُطْلِقَ لفظ الْعَبْدِ والْعِبَادِ والْعَبيدِ في القرآن على الإنْسِ والجنِّ والْمَلاَئكةِ، ومنه قول الله عزّ وجل في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول).

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

إذ هم مخلوقون له فهم مملوكون له، فكلُّ حيٍّ قابل لاكتساب العلم يُطْلَقُ عليه لفظ «عَبْدٍ» بهذا المعنى.

﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾: أي: أَنْبَتْنَا في الأرض من كلّ زَوْج بهيج، وأَنْبَتْنا جنَّاتٍ وحَبَّ الْحَصِيد، وأَنْبَتْنَا النخل باسقاتٍ لها طَلْعٌ نضيدٌ، واتَّخَذْنا الأسْبَابَ التي جعلناها في التنظيم العامّ أسْباباً نُجْري من خلالها الأشياء الَّتي قَدَّرْناها وقَضَيْنَاها، لأجْل رزقِ العباد كلّهم في الأرض، من كَانَ منهم مُنِيباً أم آبقاً، مؤمناً أَمْ كافراً، فحيَاةُ الامتحانِ لا بُدَّ أَنْ يكونَ الرزق فيها لجميع الممتَحَنين محسنِهم ومُسِيئِهِمْ، مؤمنِهم وكافِرهم، ضمن نظام الحكمة العامَّة.

﴿رِزْقًا﴾: مفعُولٌ لأجْله، فهو منصوب لذلك.

وتطبيقاً لأسلُوبِ التكامُلِ الْبيَانيّ في القرآن المجيد، نستطيع أن نقول: إنَّ كُلَّ نصٍّ قُرْآنِيٍّ جَاءَ فِيهِ عَرَضٌ ظاهرةٍ أو أَكْثَرَ ممَّا فِيهِ رِزْقٌ هيَّأَهُ الله لعباده في الأرض، يَصْلُحُ لأنْ يقال في آخِرِه: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ كما جاء في هذا النَّصّ قياساً مَّطرداً دون أن نجعله قُرآناً يتْلَىٰ، لأنَّ إيراده في نصٍّ مِنْها يُغْنِي عن إيرادِه في سائرها.

فما ذكَرَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذا النّصّ يَصْلُحُ تَعْمِيمهُ فكريًا علَىٰ سائر النّصوص، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن. القائم على التكامُلِ في الأداء البياني.

فيالروعة الأداء البيانيّ الْبَدِيعِ في القرآن المجيد، مع مطابقة الحقّ والواقع.

وظيفتا آيات الله في كونِه ونِعَمِه على عبادِه:

لقد دلّنا التَدبُّرُ المتأنّي على أنّ اللهَ عزّ وجلّ قد جعَلَ آيَاتِه في كَوْنِه، ونِعَمَهُ علَىٰ عباده، ذَوَاتِ نوعَيْن من الوظائف:

النوع الأوّل: الوظائف التي تكونُ لمصالح الدُّنيا، وهذه الوظائف يَنْتَفِعُ بها كُلُّ مَنْ يتَّخِذُ الوسائل للانتفاع بها، مؤمناً كان أمْ كافراً، تقيًّا كان أم فاجراً.

النوع الثاني: الوظائف الهاديَةُ بدلالاتها إلى الله عزَّ وجلَّ، وصِفَاتِهِ الْجَلِيلة، والمُبَصِّرَةُ بحِكْمَةِ الله والغاية من خلْقِ الناس، وأنّ على العباد أن يُؤْمِنوا بربّهم ويَعْبُدُوه. ثُمَّ المذكِّرَةُ بكُلِّ ذَلِكَ كُلَّما نظر إليها الناظِرُونَ بتفكُّرٍ وتَدَبُّر.

فهي وظائفُ لمصَالح الآخِرَة، أمّا المنتفعون بدلالاتها الَّتي تحقِّقُ مصالح الآخِرةِ فَهُمْ كُلُّ عَبْدٍ مُنِيبٍ إلى رَبّه غير آبِق.

* * *

- قول الله تَعالى:

﴿..وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

أي: وأحيَيْنا بالماء المبارك الذي نَزَّلْناهُ بَلْدَةً مَيْتاً، فَنما فيها النَّبَاتُ ذو الخُضرة والنُّضْرَةِ والثمرات النافعاتِ المختلفَاتِ، بَعْدَ أنْ كانَتْ الأرض تُرَاباً

قد تفرَّقَتْ فيه ذَرَّاتُ النباتات الّتي كانت قَبْلَ حينٍ مالئةً سَطْحَ الأرض بالخضرة والنضرة والحركة والنماء، وتفرَّقَتْ فيه بزورها حاملاتٍ خرائطَ تكوينها، وبرامجَ عودتها إلى ما كانت أُمَّهاتُها عليه، وخصائِصَ نَشْأتها ثانياً وثالثاً وإلى ما لا نهاية له، على الصفات الَّتي تمَّتْ بها نَشْأَتُهَا الأولىٰ.

الْبَلْدَةُ، والْبَلَدُ: المكان الواسع من الأرض، وقد يُلاحَظُ فيهما المكان المأهُولُ بالسُّكّان المحْتَاجين لنباتات الأرض وثمراتها.

وقد جاء في اللّغة لفظتا: «بَلَدٍ» بالتَّذكير، و«بَلْدَةٍ» بالتأنيث، للدّلاَلَة على كلّ قطعة أرضٍ ذَاتِ حُدُودٍ ما، سواءٌ كانت عامِرَةً أمْ غير عامرة، سكونَةً أَمْ غَيْر مَسْكُونَة، وتُطْلَقان على التراب، ويُطْلَقُ لفظ «الْبَلْدة» على الأرض، تقول العرب هذه بلْدَتُنَا، أي: هذه أرضنا.

وقَدْ وُصِفَتِ «الْبَلْدَةُ» ولَفْظُها مُؤنّث، بلفظ «مَيْت» أو «مَيِّتٍ» وهو مذكّر، إلحاقاً بما يَسْتَوِي فيه المذكر والمؤنث، فهو لا يحتاج أداة تأنيث.

قال الزَّجّاج: «الميْتُ» و«الميِّتُ» بالتخفيف والتشديدِ، والمعنَىٰ واحد، ويَسْتَوِي فيه المذكر والمؤنث.

أقول: لم يأتِ في القرآن وصْفُ الْبَلْدَةِ بالْمَوْتِ إلاّ بصيغة: ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ وهي في ثلاثة نصوص:

(١) في الآية (١١) من سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

(٢) وفي الآية (٤٥) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) وفي الآية (١١) من سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

أمَّا في غير لفظ «ميت» فقد جاء وصف «البلدة» في القرآن بالتأنيث.

وعلّل بعض المفسرين تذكير لفظ «ميّت» في وصف «بلدة» بقوله: لأنَّ الْبَلْدَةَ بمعنَىٰ البلد.

وأقول: ما ذكره الزجَّاج أحْسَنُ مما ذكره غيره من تأويلاتٍ لا داعي لها، فالاستعمال جارٍ في هذا اللفظ «ميّت» على ما يستعمله العرب، والقرآن شاهِدٌ عليه.

والمرادُ بإحْيَاءِ البَلْدَةِ إحيَاءُ النَّباتَاتِ فيها، من البزور والجذور المنبثَّةِ فيها، وهذا إطلاق مجازيّ من نوع المجاز المرسل، والعلاقة فيه إطلاق المحلّ وأرادة ما يَحُلُّ فيه، أو يخرجُ منه.

وهل المراد بالإحياء تَشْبِيهُ إنْمَاءِ النَّبَاتَات بإحياء الحيوانات ذَوَاتِ الحركات الإِرَادِيَّة، على ما أدرَكْنَا من صِفَاتها، أمْ أنّ الحياة في الكون ذات مراتب ودرجاتٍ في هذه المراتب، ويظهر لنا من هذه المراتب ما يلي:

الأولى: مرتَبَةُ حيَاةِ النباتات، ذوات الخلايا الخاصَّةِ بها.

الثانية: مَرْتبةُ حياةِ الْخَلَايَا في أجساد الحيوانات ذوات الحركاتِ الإراديَّة، وبعض الإحساسات.

الثالثة: مرتبة الحياة الكلّيَّةِ للحيَوانَاتِ ذوات الحركات الإراديَّة، وجُمْلَةٍ مُجْتَمِعَةٍ من الإحساسات المصحوبَةِ بمشاعر اللَّذَّةِ والألَم، ويَحتَلُّ أَعلى دَرَجات سُلَّمها الإنسان.

والأرجَحُ فيما أرَىٰ واللَّهُ أعلم: أن الحياة ذات مراتب متفاضلات، وذات درجات متفاضلاتٍ في كلّ مرتبة.

فالحياة جنسٌ كُلّيٌّ يَدْخُلُ تحته أنواع متفاضلة، ويدخل تحت الأنواع منها أصناف متفاضلة أيضاً.

وبَدْءُ هذا السُّلّم ذي المراتب والدرجات المتفاضلات يمكن تحديدُ أدناه من وحِيدِ الخليَّة بحسب مُدْرَكاتنا، فمتَعدّد الخلايا في وحْدَةٍ يحكُمُها نظامٌ عامّ.

والكائنات الّتي تنْمُو بتكاثُرِ خلاياها دُون ظُهُور حركات إرادَّيةٍ لها وإحساسات راقيات، تدخل في نوع النباتات.

والكائنات التي تَنمو بتكاثُر خلاياها، مع ظهور حركاتٍ إرادَّية لها وإحساسات راقيات تَدْخل في نوع الحيوان، ولهذه الحيوانات درجات متفاضلات. ويَحتَلُّ الإنسان قمّة هذا النوع.

وعلى هذا فالتعبير القرآنيُّ بالإحياء هو تعبير على وجْهِ الحقيقة، لا على التشبيه، أو المجاز بالاستعارة.

واللَّهُ أعلم.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾: أي: يكون خروج الموتَىٰ من الأرض، مثلَ ذلك الذي يَحْصُل لبُزور أو أصول جُذُور النباتات الموزعة في تُرابِ الأرض، والمستَقِرَّةِ أو المستَوْدَعَةِ فيها، والذي تكون معه الأرض خالية من الحياة النبانية، إذا نَزَلَ عليها المطر من السَّحاب، فاختلطَ الماءُ بتُرَابِ الْأَرْضِ، فوصَلَ الماء إلى البزور أو أصول الجُذُور، فامْتَصَّتْهُ، فدَبَّتْ فيها عوامل الحياة النباتيّة، فانتفخت وامْتَدَّتْ مِنْهَا مَاصَّاتُ الغذاء من التراب، ونامِيَاتُ النَّبَاتِ تَشُقُّ تراب الأرض آخذةً في الصعود لتمْتَصَّ الهواء والضياء، وتُتَابع التعاظم بالنماء، حتَىٰ تَعُودَ مثلَ ما كانت عليه في دورات حياتها السّابقة.

فإحياء الْمَوْتَىٰ يَوْمَ البعْثِ يكون من يُزُور أجسادهم، إذا أنزل الله عزّ وَجلَّ علَىٰ الأرض الماءَ الخاصَّ بإعادَة الأحياء الحيوانيّة إلى الحياة مرَّةً أخرى، فيَصِلُ هذا الماءُ المختلِطُ بالتُّراب إلى بُزُورِ الأجساد، فيحدُثُ فيها مثل الذي يحدُث لبُزور النباتات، فتنمو وتتعاظم، ويأمُرُ الله نافخَ الصُّور فيَنْفُخُ فيه، فتَنْطَلق الأرْواحُ إلَىٰ أَجْسادها بخَلْقِ الله.

وبِزرَةُ كُلّ جَسَدٍ حيٍّ الحاويَةُ لخريطة حياتهِ وصفاتِ ذاته الجسديَّة

والنفسية، مستودعَةٌ في باطن عَجْبِ الذَّنَب[١] الّذي لا يتعرَّضُ للفناء، وإن تعرض جِرْمُ الْعَجْبِ إلى تغييرات، فهي تغييرات سطحيَّةٌ لا تَصِل إلى عُمْقِ الْعَجْبِ الحاوي لخريطة حياتِهِ وصفاته، وبرنامج نمائه، فهي نواة صغيرة جدًّا لا تُدْرِكُهَا الأبْصَار.

على أنّ الله عزّ وجلّ لا يحتاج في خلْقِهِ الأوَّلِ وإعَادَةِ خَلْقِهِ إلى كُلّ هذه الأسباب، فخريطَةُ كُلّ كائنٍ مَعْلُومَةٌ لدَيْهِ، وصفاتُ جَسَدِه ونفسه مَعْلُومَةٌ لدَيْه، ولا تحتاج إعادةُ خَلْقِهِ أكثر من كَلِمة: «كُنْ» فهو يكون، على مُرَادِ الله، وفي الإعادة يكون كما كان في الخلْقِ الأوّل.

وإذا لاَحَظْنَا أَنَّ عَمَلِيّاتِ خَلْقِ اللَّهِ للأشياء آناً فآنا في كلّ أصْغَرِ وحْدَةٍ زمَنِيَّة هي خَلْقٌ مُتَجَدِّدٌ، دون أَنْ يُؤَثِّرَ هٰذَا على أصْلِ كيَانِ الْمَخْلُوق، في وحْدَةِ ذَاتِهِ وصفاته، فإنَّه يَهُونُ عَلَيْنَا جدًّا أن نتجاوز كُلَّ احتمالات انعدام كلّ ذَرَّاتِ الذَّاتِ الأُولىٰ، لو كان الواقع كذلك.

فإننا نُشَاهِدُ أَنَّ بَقَاءَ النُّور في المصابيح الكهربائيَّة قائم على التجدُّدِ المستمرّ، بالإمْدَاد المتَجَدِّد بالطّاقَةِ الكهربائية، فكُلُّ لحظةٍ من لحظات النور، يوجَدُ فيها نُورٌ جَدِيدٌ غَيْرُ النور السَّابق، دون أَنْ يُؤَثر ذلِكَ على وحدة الأصل.

وهكذا كُلُّ ما في الوجود من كائنات في السَّمَات والأرض، يُمْسِكُها اللّهُ عزّ وجلّ في الوجود باقية بإيجادٍ مُتَجَدِّد في تَوالي أقصر الّلحظات، وقد دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

---

[١] عَجْبُ الذَّنَب: هو جُزَيْءٌ في أَصْلِ الذَّنَب عند رأس الْعُصْعُص، ويُجْمَعُ على «عُجُوب» و«أعجاب».

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾.

أي: إنّه جلَّ جلالُهُ يُمْسِكُهَا في الْوُجود بما يُمِدُّهَا به من خَلْقٍ مُتَجَدِّد، وحين يُوقِفُ تجديد الخلْقِ تَعُودُ عَدَماً إلىٰ أصْلِها، وعندئذٍ لا أحَدَ يَسْتَطِيعُ أن يُمْسِكَهِا لتَبْقَىٰ مَوْجودة.

فَمَا العجبُ من إعادة أيّ مَخْلُوقٍ بخَلْقٍ مَتَجدِّدٍ ما دَامَ علْمُ الله به وبصفاته كُلِّهَا شاملاً عَامًّا، ومَا دَامَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ لَمْ يَحْدُثْ لها تغيير، ومن صفاته جلَّ جلالُهُ أنَّهُ إذَا أرَادَ شَيْئاً فَإنَّمَا يَقُول لَهُ: كن فيكون.

لكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لعمليات خَلْقِهِ أسْبَاباً فَهُوَ يَخْلُقُ مِنْ قَنَواتِها، الْتِزَاماً بما اختار هو سبحانه من نظام.

وكلُّ كلام في الأسباب لا يخرج عن محاولَةِ كشْف النظام السَّبَبيِّ الَّذي نَظَّمَ بِهِ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَمَلِيَّاتِ خَلْقِهِ بدءاً وإعادةً، أمّا الأسباب بذاتها فَلَا تفْعَل شيئاً، ولا تخلُق شيئاً.

ونُلَاحِظُ في عِبَارَة: ﴿. . كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ عَقِبَ بَيَانِ أسباب إنباتِ النباتات في الأرْضِ، أنَّ الله عزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أنْ وَجَّهَ الأنْظَارَ للتفكّر في دَلائل بَعْضِ آيَاتِه في كوْنِهِ، نَبَّهَ على ظاهِرةِ إحياء الأرْض بعْد مَوْتها الّذي يَتِمُّ بَعْدَ تَنْزِيلِ الماء المباركِ من السَّمَاءِ واختلاطه بتُرَابِ الأرْضِ الّتي فِيها بزُور النباتات، فَتَنْبُتُ بخَلْق اللَّهِ وقضائه وقَدَره فتَعُودُ حيَّةً بعْدَ أنْ ماتَتْ فيها الحياة السابقة.

وبعد التَّوْجِيهِ إلى هٰذه الظاهرة المتكرّرة في الحياة الدنيا، أرشد الله جلّ جلالُهُ إلى أنَّ حَيَاةَ الناس بَعْدَ الموتِ مِثْلُها، فلا فرق بين حيَاة شجرة عظيمة من نواةٍ لا تُدْرَك بالطَّرْفِ في بِزْرَتِهَا، وبيْنَ حَيَاةِ إنسان بَعْدَ مَوْته من نواةٍ لا تُدْرَكُ بالطرف، في عَظْمَةٍ من عِظامِ جَسَدِه الّذي بَلِيَ وتفتَّتَ، وتفرّقَتْ ذَرَّاتُه في تراب الأرض، وهي في عَجْبِ الذَّنَب.

فإذا كان المتَشكِّكُونَ حريصينَ على مُشاهدة مِثالٍ للحياة بَعْدَ الموت، فإحياءُ نباتاتِ الأرض بعْدَ موتها مثالٌ متكرّر الحدوث في الحياة الدنيا.

وأكّد الله عزَّ وجلَّ بيان هذا في قوله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱلنُّشُورُ﴾: هو الْإِحْيَاء بَعْدَ الموْتِ. وكذلك الإِنْشَار.

ثُمَّ أنزل قوله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخْرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثُمَّ أَنْزَل الله عزَّ وجلَّ قوله في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وظاهر تشبيه إحياء الموتى يوم القيامة بإِحياء النَّباتات من نَوَيَاتِ بزورها، يَدُلُّ على أنّ إحياء الموتى يكونُ كذلك من نوياتٍ تبقَىٰ فيها صلاحيَّةُ النشأةِ الأُخْرَىٰ، وحين يَأْتي يومُ البعث يُهَيِّئُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الظروف الصالحة لهذه النشأة، والأَسْبَابَ الّتِي بها تكون، فتنمو هذه النَّوَيات حتَّىٰ تكُونَ أجْسَاداً مُسْتَعِدَّةً لنفخ الرُّوح فيها، فيأمُر اللَّهُ ـ جلّ جلالُه وعظُم سلطانه ـ الْمَلَكَ المكلَّف بنفخ الصُّور الّذِي اجتمعت فيه الأرواح، فينْفُخُ فيه، فتنطَلِقُ كُلُّ رُوح وتَحُلُّ في جَسَدِها الّذي صار جاهزاً بالنشْأَةِ الأخرى للحياة والبعث، على وفق ما كان عليه في الحياة الدنيا، لأنَّ خريطة صفاته كُلَّها موجودة في نواته الَّتِي احتفظتِ الأرض بها، من جَسَدِهِ في الحياة الأولى.

وتَدُلُّ ظواهر النصوص القرآنيَّة على أنَّ اللَّهَ جَلَّ جلالُهُ وعظُم سُلْطانه ـ يُنْبِتُ أجْسادَ الموتى في الأرض، كما يُنْبِتُ النباتات الَّتي نُشَاهِدُ عودتها إلى الحياةِ في ظاهراتٍ مُتكرِّرات، إذْ يُنْزِلُ من السّماء ماءً صالحاً لتفجير نويات أجساد الموتى، فتأخُذُ في النِماء، كما تَنْبُتُ البقول أو الفُطُور في الأرض، حتّىٰ إذا اكتمَلَتْ نُفِخَتْ فِيها الأرواح.

وهَذا هو ما دلت عليه بيانات الرسول ﷺ فوجب اعتمادُه.

- روى مسلم بسَنَدِه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»[1].

قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟. قال: أبَيْتُ.

قالوا: أربعون شهراً؟. قال: أبَيْتُ.

قالوا: أربعون سنةً؟. قال: أبَيْتُ.

«ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ من السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَما يَنْبُتُ الْبَقْلُ».

قال: «ولَيْسَ مِنَ الإنْسَانِ شَيءٌ إلاَّ يَبْلَىٰ، إلاَّ عَظْماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنبِ، ومِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيامَة».

- وروى مسلم عن أبي هريرة أيضاً، أنّ رسول اللَّهِ ﷺ قال:

«كُلُّ ٱبْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وفِيهِ يُرَكَّبُ».

- وروى مسلمٌ عنه أيضاً، قالَ: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ في الْإنْسَانِ عَظْماً لاَ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أبداً، فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

---

[1] **النفختان:** هما نفخة الملك الأولى في الصُور الّتي يتمّ بها إماتة الأحياء إلاَّ من شاء الله، ثم يقبض الله أرواح هؤلاء، والنفخة الثانية هي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت.

قَالُوا: أيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ الله؟

قال: «عَجْبُ الذَّنَبِ».

- وروى البخاريُّ بسَنَدِهِ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«ما بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ».

قالوا: يَا أبا هُرَيرة: أَرْبَعُونَ يَوْماً؟ قال: أَبَيْتُ.

قالوا: أَرْبَعُونَ سنةً؟. قال: أَبَيْتُ.

قالوا: أربَعُونَ شهراً؟. قال: أَبَيْتُ.

«ويَبْلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إلاَّ عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ».

* * *

فلا داعِيَ بَعْدَ دَلاَلة ظواهِرِ الآيات الْقُرْآنيَّةِ، وصَرِيحِ دَلاَلَةِ هٰذِهِ الْأَحَادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ عن الرسول ﷺ للذَّهَابِ إلىٰ مُبَالَغاتٍ لا دَلِيلَ عَلَيْها حَوْلَ فِكْرَةِ إعَادَةِ الْأَجْسَادِ بَأعْيَانِها، ولا دَاعِيَ لِلْغُلُوّ والْمُمَاحكَةِ واللَّجَاجِ في هذا، فَهُوِيَّةُ الإنْسَانِ بنَفْسِهِ ورُوحِهِ الَّتِي تَكُونُ بها حَيَاةُ نَفْسِهِ، وخريطةُ نَفْسِهِ وبناءِ جَسَدِه موجودة في نواته، كَمَا أَنَّ خَرِيطَةَ الشجرة العظيمة موجودةٌ في نواتها، كامِنَةٌ فيها، ومتَىٰ تهَيَّأَتْ شُرُوط إنْبَاتِهَا شَجَرَةً، جَرَىٰ نَماؤُها على وفق خريطتِها، مُسْتفِيدَةً بناء جَسَدِها من عَنَاصِرِ تُراب الأرض.

ولَدَىٰ تَبْدِيل جَسَدِ الإنسانِ كُلَّ عَشْرِ سَنَوَاتٍ في الحياة الدنيا باسْتِثْنَاء ثوابتَ صغرىٰ فيه، فإنَّ هُوِيَّتَهُ وحقِيقَتَهُ لاَ تَتَغَيَّرُ، والمحكومُ عليه بضَرْبٍ لجُرْم ارْتَكَبَهُ لاَ يَصِحُّ أَنْ يَقُولَ إذا فَرَّ من السُّلطانِ وعَادَ بَعْدَ عَشْرِ سنواتٍ، إنِّي الْيَومَ أحْمِلُ جسداً غير الذي كنت ارتَكَبْتُ الجُرمَ به، فلا تَضْرِبُوه لأنّه بريء، إذ النَّفس هي التي أَجْرَمَتْ والجَسدُ أداة توصيل لَهَا.

* * *

(٨)

التدبُّر التحليليّ للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾.

وفي قراءة وَرْشٍ: **[وعيدي]** بإثبات ياء المتكلم في الوصل، وأثبتها يعقوبُ أيْضاً في الوصل والوقف.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قَبْلَ المكذِّبينَ الكافرينَ الَّذِين بدأَتِ السورة بمعالجتهم، فالضمير في: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ يَعُودُ عليهم، وسبَقَ أنْ عرفنا أنَّ السُّورة عَرَضَتْ مقالَتَهُمُ التعجبيَّةِ الإنكاريَّة لقضيتين:

الأولى: أنْ يجيئهم رسولٌ بشَرٌ منهم.

الثانية: نبأُ إحياء الموتَىٰ يوم القيامة بَعْد فناء أجسادهم، للحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وجاء هذا الدّرْس مشتملاً على ثلاث قضايا، مع عرض أمثلة تفصيليّة موجزة لها:

القضيّةُ الأولى: أنَّ رَسُولَ الله محمّداً لم يكن بِدْعاً في تاريخ البشريّة، فقد جاء قبْلَهُ رُسُلٌ كثيرون، إلى أُمَمٍ مختلفةٍ كثيرةٍ من أُمَم الأرض.

أي: فلاَ دَاعِيَ للتَّعجُّب مِنْ كَوْنِه بشراً إذ هي سُنَّة اللّهِ في خَلْقِه، وهو ما تقضي به الحكمة، ولَوْ جاء الرَّسُولُ غَيْرَ بَشر لكان بعْثُهُ منافياً لكمالِ الحكمة.

ألم يُرْسِلِ اللّهُ عزّ وجل نوحاً وهُوداً وصَالحاً، وموسى وهارونَ ولُوطاً وشعيباً من الْبَشَر؟!! فما وجْهُ الْعَجَب؟!

القضيَّة الثانية: أنّ الَّذِينَ كَذَّبُوا محمَّداً رسُولَ الله ﷺ بعْدَ بعثَتِهِ لَيْسُوا بِدْعاً أيضاً في تاريخ البشريَّة، فقد سبقَتْهُمْ أُمَمٌ كثيرَةٌ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهم، وكذَّبوا بنَبَأ يَوْم الدّين، وكانت مقالاتُهُمْ في التكذيب مشابِهَةً لمقالاتِ مُكذِّبي الرسول، تَشَابَهَتْ أفكارهم ونُفوسهم وقُلوبُهم.

أَلَمْ يكْفُرْ مِنْ قَبْلِهم قومُ نُوح، وقَوْمُ هُودٍ، وقَومُ صالح، وفِرْعَوْنُ ومَلَؤُهُ وقوْمُه، وقومُ لوط، وقومُ شُعَيب؟!!.

القضيَّةُ الثالثة: أنَّ سُنَّةَ الله في المكذِّبين الأوَّلينَ أَنْ يتَوعَّدَهُمْ بالْعَذَابِ والإهْلَالِ إذَا أصرُّوا علىٰ كُفرِهِمْ، وأَنْ يُحَقِّقَ فيهم وَعِيدَهُ متىٰ اقتضَتْ حالَتُهُم الَّتي وصَلُوا إلَيْها إنْزَالَ الْهَلاك فيهم، ويكون ذٰلِكَ حينما تَصِيرُ حالتهم حالةً مَيْؤوساً منها يأساً كاملاً ويكثُر إفْسَادُهم في الأرْض.

أي: والّذين كذّبوا محمّداً ﷺ تَنْطبِقُ عليهم هذه السنَّةُ من سُنَنِ الله، فلْيَرْتَقِبُوا إهْلاكَهَمْ مَتىٰ صَارَتْ حالَةُ عامَّتِهم ميْؤوساً منها، وكثُرَ إفسادهم في الأرض.

وقد دلَّ الواقع على أنَّ حالَتَهُم العامَّةَ لم تَبْلُغْ إلى هذا المستَوىٰ، ولهذا لم يُنْزل الله بهم الإهلاك العامّ، كما فعل بالمهْلَكين السّابقين، وإنّما أهْلك منهم وعاقب أفراداً، ونَصر في المعارك أولياءَه على أعدائه، وهٰذه ميزَةٌ امتازَ بِهَا الْعَربُ أيَّام بعثَةِ الرسول ﷺ، مع كلّ ما كان منهم من عنادٍ وإصرارٍ ومُشَاقّةِ لله ورسُولِه، فإنَّهُمْ لم يَصِلُوا إلى مستوىً يَسْتَحِقُّون به الإهْلاك العامّ الشامل.

وفي عرْض هٰذه السُّنَّةِ من سُنَنِ الله عزّ وجَلَّ تحذيرٌ ووعيدٌ للمكذبين، بأنَّهُمْ إذا وصَلَتْ حالَتُهم إلى المستوىٰ الذي يَسْتَحقُّونَ به الإهلاك الْعَامّ، فإنَّ اللَّهَ سَيُهْلكهم كما أهْلَكَ الّذين كذّبُوا بنبأ يوم الدين من أهل القرون الخوالي، ولَنْ يكونوا مَعْفيِّين من تطْبيقِ هٰذهِ السُّنَّةِ عليهم، وإهلاكهم إهلاكاً عامًّا شاملاً، فسُنَّةُ الله لا تَبْدِيلَ لَهَا.

وقد عرضَ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْسِ من المكذبين الأوَّلين الَّذِين أهْلِكُوا بسبب كُفرِهِمْ وإفسادهم في الأرض ثمانية أقوام، تعجّبُوا مِن أن يكونَ رسُولُ الله بَشَراً مثلهم، واستبعدوا قضية البعث ليوم الدين، وهُمُ:

(١) **قَوْمُ نُوحٍ عليه السلام**: وقد جاء ذكرهم في هذه السّورة مع بيان أنَّهم من الذين كذّبُوا الرُّسُل من أهل القرون الأولى، وأَنَّهم قد حَقَّ عليهم وعيد الله لهم بالإهلاك، فأُهْلِكُوا، وإذْ جاء بيانُ إهلاكهم مثَالاً لسُنَّةِ اللَّهِ في إهلاك مُكَذِّبي الرُّسل مُتَعَلِّلين بأنَّهم بَشَرٌ مِثْلُهم، والمكَذِّبين بيوم الدين مُتَعَلِّلين بأنَّهُ أمْرٌ مُسْتَغْرَبٌ عجيب لا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ، فلا بُدَّ أن يَكُون واقِعُ حَالِهِم كذلك، ولو لم يأت في هذا النَّصِّ تَصْرِيحٌ بهذا.

وحين نسْتَعْرِضُ قصَّة نوح وقومه في سائر سور القرآن، نَجِدُ في بعْضِها التصريحَ بهذا الأمر الذي فهمناه استنباطاً.

فقد جاء في عَرض لقطات من قصة نوحٍ عليه السلام مع قومه في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية قولِ نوح عليه السلام لقومه:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ حُجَّتَهُم في تكذيب رسول ربِّهم لم تكن أكثر من التعجُّب من كونه رَجُلًا بشراً منهُمْ، والتعجُّب من إنذاره لهم بيوم الدّين.

وتُشْعِرُ عبارة: ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأنّ الله قد أنزل على نوح عليه السَّلام كتاباً يجب أن يتَّخذَهُ قَوْمُه ذكراً، بَعْدَ أن يتلَقَّوْه، ويَعْقِلُوه ويتفَهَّمُوا دَلَالاته.

(٢) **أصْحَابُ الرَّس**: ولا بُدَّ أنْ يكون حالُ هؤلاء كحال قوم نوحٍ عليه السَّلام، في تعجبهم من أن يأتيهم رسولٌ منهم، ومن نبأ البعث.

الرَّسُّ: بئْرٌ عظيمة، ويُطْلَقُ لفظ «الرَّسّ» على عدَّةِ أماكن في بلاد العرب. ولم يأتِ في القرآن تفصيلٌ عنهم. ولا تعيين لاسم الرَّسُول الّذي أرْسل إليهم، وكلُّ ما جاء من بيان عَنْهُمْ في القرآن: أنَّهُمْ أصحاب الرَّسّ، وأنَّهُمْ كذَّبوا رسُولَ ربّهم، وأنَّهُمْ أُهْلِكُوا، وذِكْرُهُمْ في سورة (قٓ) ضمْن الأقوام الّذِين أُهْلِكُوا، يَدُلُّ على أَنَّ كُفْرهُمْ قد كان سَبَبُهُ تُعجُّبَهُمْ من كَوَن رسول الله لهم رجلاً منهم، وتعجُّبَهُمْ من نبأ الحياة بعد الموت يوم القيامة للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد جاء ذِكْرُهُمْ وبيان إهلاكهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

تتبيراً: أي: إهلاكاً فيه تكسيرٌ وتحطيم وَتفتيتٌ لهم.

وقد يَدُلُّ جمع «أَصْحَاب الرَّسّ» مع عَادٍ وثَمُود على أَنَّهُم قَوْمٌ مِنَ الْعَرَب، فيُبْحَثُ عن آثارهم في بلاد العرب، ولا سيما الأماكن الّتي تُسَمَّىٰ «الرَّسّ».

وجاء في بعض روايات المؤرخين أَنَّهُمْ قَوْمٌ قَدْ خُسِفَ بهم.

(٣) **ثمود**: وهم قومُ النبيّ الرسُول صالح عليه السلام، ولا بُدَّ أَنْ يكون حالُ هؤلاء كحال قوم نوح في تعجُّبِهم من أن يأتيهم رسولٌ منهم، وفي تعجبهم من نبأ البعث، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنْفِيذِ الجزَاء.

ومساكن ثمود معروفةٌ ظاهرةٌ في أرض تُسَمَّىٰ الْحِجْرِ من أرض العرب، وتُعْرَفُ بمداينِ صالح، ولهم في جبالِهَا آثارٌ ظاهرة.

وجاء في بيان تكْذِيبهِمْ رسُولَ ربّهم لأنّه بشرٌ مثْلُهم، قوْلُ الله عزّ وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) مُبَيِّناً مقالتهم له:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وفي بيان تكذيبهم لرسولهم، وتكذيبهم بما أنذرهم به، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وَسُعُرٍ: أي: وجُنُونٍ.

(٤) **عَاد**: وهم قوم النبيّ الرسول هود عليه السلام، ولا بُدَّ أَنْ يكون حَال هؤلاء مثَلَ حَال قوم نوح أيضاً في تعجُّبِهِمْ مِنْ أن يأتيهم رسولٌ منهم، وفي تعجُّبِهم من نبأ البعث.

وكانت مساكن عادٍ في الأحقاف من أرض العرب، والأحقاف تَقَعُ في شمالِ حضرموت، ويقَعُ في شمال الأحقافِ الرُّبْعُ الخالي، وفي شَرْقِها عُمانُ، وموضع بلادهم اليوم رِمَالٌ قَاحلة.

وفي بيان كفرهم، وتكذيبهم متعجّبين من أن يكون رسول الله لَهُمْ بشراً مِثْلَهم، وتعجُّبهم من إنذاره لهم بيوم الدّين، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) يحكي مقالة رسولهم لهم:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

وتَشْعِرُ عبارة: ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أنزل على هود عليه السّلام كتاباً يجب أنْ يتخذه قومُه ذِكراً، بَعْدَ أن يتلَقَّوْهُ، وَيَعْقِلُوهُ، وَيَتَفَهَّمُوا دَلالاته.

وقال الله عزّ وجَلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) مُفصِّلاً مقالة عادٍ لرسولِهِم هُودٍ عليه السلام:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

(٥) **فِرْعَوْن**: أي: وقومُهُ، وجاء إفرادُهُ بالذِّكْر لأنّ قوْمَهُ كانُوا له تَبعاً، ولم يكُنْ لَهُمْ رأيٌ غيْرُ رأيه، ولو أنّه آمَنَ لآمَنُوا، فَهُوَ يُمَثّل كلَّ قومه، وإذا قال كلمةً قالُوها.

قال الله عزّ وجلَّ في بيان تكذيبِهِم مُوسَىٰ وهارونَ عليهما السَّلام، مُتعلِّلِينَ بأنّهما بَشَران مثلُهم، في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

(٦) **قَوْمُ لُوطٍ**: وَهُمْ قَوْمُ الْقُرَىٰ الّتِي كَانَتْ في مكان الْبَحر الميّت، فقَلَبَ اللّهُ دِيارَهُمْ عَالِيَها سَافِلَها ودَمَّرَهُمْ وأهْلَكَهُمْ إهلاكاً وخيماً، لقبائحهم الّتي كانوا عَلَيْها مع كُفْرِهِمْ وتَكْذِيبِهِم رَسُول رَبّهم، وتكذيبهم بيَوْمِ الدّين.

وَلا بُدَّ أَنْ يكون حالُهُمْ مثل أحوال الأقوام الّذين ذُكِرُوا قبلَهُمْ.

(٧) **أصْحَابُ الأَيْكة**: ويُعْرَفُونَ بأنّهُمْ أهْلُ مَدْين، وهم قومُ النبيّ الرسُول شُعَيْب عليه السلام.

والأيْكَةُ غَيْضَةٌ تُنْبِتُ ناعم الشجر كانت لهم.

ولا بُدَّ أن يكون حالُهُمْ مثْلَ أحوال قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ومن ذُكِرَ بعْدَهم.

وقد ذكر اللَّهُ عزّ وجلّ تعلُّلَهم ببشَرِيَّةِ رَسُولِهم، واستبعادهم أنْ يُرسِلَ الله رسُولاً من البشر، فقال الله عزّ وجلّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

(٨) **قَوْمُ تُبَّعٍ**: وهم من عرَب اليمن: (حِمْيَر، وحضرموت، وسَبَأ).

و«**تُبَّع**»: لَقَبُ مَنْ كان يَمْلِكُ جَمِيعَ بِلَادِ الْيَمَن، وقد ذَمّ الله عزّ وجلّ قَوْمَ تُبَّعٍ هؤلاء، وذكَرَ إهلاكهم، ولم يَذُمَّ تُبَّعاً، ولَمْ يبيّنْ أنّ الإهلاكَ الجزائيّ قد شَمِله، لأنّه كانَ مؤمناً على دين إبراهيم عليه السَّلامُ، كما رُويَ عن النبيِّ ﷺ في حديث رواه الإمَامُ أحْمَد.

ولا بُدَّ أن يكون حالُ قوم تُبَّعٍ مثل أحوال الأقوام الذين جاء ذكرهم آنفا.

وقد أبان الله عزّ وجلَّ أنَّ كُلَّ الَّذينَ كَفرُوا بالمرسلين من قبل بَعْثَةِ محمّد ﷺ، كانَتْ تعِلَّتُهم استِبْعَادَ أن يَبْعَثَ اللَّهُ بشراً رسولاً، فقال الله عزّ وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في معْرِضِ الحديث عن الأقوام السَّابقين الذين كذّبوا رُسُلَ ربّهم:

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

وبَعْدَ أنْ ذَكر الله عزّ وجلّ هؤلاء الأقوام المهْلَكِينَ إهلاك عقاب وعذابٍ شامل، بسبب تكذيبهم رُسُلَ ربّهم، وتكذِيبهم بيوم الدّين بحجّةِ الاستبعاد والتعجّب من كون الرُّسل بشراً، والتعجُّب من الحياة بَعْدَ الموت، وضياع رفات أجسادهم في تراب الأرض، بعد أن ذَكَرَهم للاتعاظ بِهم، والاعتبار بما أنزل الله عليهم من وسائل إهلاك وعذاب، قال اللّهُ عزّ وجلّ في آخِرِ هَذا الدَّرْسِ الرابعِ.

﴿... كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

أي: فَوَقَعَ وَعِيدِي بِهِمْ، وهو الوعيدُ الّذي أنذرهم به رُسُلُ رَبِّهم، فَكَانَ حقًّا واقعاً، يَعْتَبِرُ به أولُو الأبصار.

* * *

(٩)

التدبُّر التحليليّ للدرس الخامس من دروس السّورة وهو الآية (١٥)

قال اللّهُ عَزَّ وجل:

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَفَعَيِينَا﴾: أي: أفعجزنا؟ يُقالُ لُغَةً: عَيَّ بالأَمْرِ عِيًّا، وعَيِيَ بالأَمْرِ عِيًّا، إذَا عَجزَ عَنْهُ، ولم يُطِقْ إحْكامَهُ، ويُقَالُ أيضاً أَعْيَاهُ الأَمْرُ، أيْ: أَعْجَزَه.

﴿بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾: أي: بهذا الخَلْقِ الذِي يَعِيشُ النَّاسُ فيه ضِمْنَ الحياة الدُّنْيا الأُولى.

و«الفاء» في: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ هي فيما أرى عاطفةٌ فصيحةٌ، وهي الّتي تَعْطِفُ على محذوف، فهي تُفْصِحُ عنه. والتقدير أقَدَّرْنَا وقَضَيْنَا فَعَيِينَا عند تنفيذ القضاء والقدر بالخلْقِ والإيجاد، لهذا الخلْق الأوّل عجْزاً عن تحقيق ما تمَّ به القضاء والقدر.

سؤالٌ اسْتِفْهامِيٌّ تَعْجِيبيٌّ يَطْرَحُهُ الخالقُ البارئ ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ مُسْتَخْدِماً ضمِير المتكلّم العظيم، علىٰ مُنْكِرِي البعث، الّذِين استَبْعَدُوا أنْ يكون الخالقُ قادراً على إعادة خَلْقِ النّاس، وإحياء أجسادهم بَعْدَ فنائها، ويتضمَّن هذا الاستفهامُ أيضاً الإنكار عليهم، وَاتِّهام مداركهم بالضحالة والسطحِية، أو اتّهام أخلاقهم بالجنوح عن منهج الحق، اتباعاً للهَوىٰ والشهوات.

إنَّ الخَلْق الأوَّل لم تكُنِ المخلوقاتُ به موجودةً أصْلاً، إلاَّ في علم الله ضِمْن خُطَط التكوين بالقضاء والْقدر، ثُمَّ تمت عمليات الخلْقِ الأول على وفْقِ ما سبقَ به العِلْم والقضاءُ والْقَدَر، فكانَت المخلوقات بالخلْقِ الأوّل حقيقَةً مشهودة.

أفَعَجزَ الخالق ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلَطانه ـ عن إيجاد الخلْقِ الأوَّل الذي لم يكن للمخلوقات به وجُودٌ في الواقع قبْلَه، ولَمْ يكونوا شيئاً مَذْكوراً؟!!.

إنّ الجوابَ الّذِي يَفْرِضُ نفْسَهُ من الواقع المشهود الذي تتكرَّرُ أحداثُه دواماً، هو: أنّ الخالِقَ عزّ وجلّ لم يَعْجِزْ عن إيجاد المخلوقات التي قَدَّرَها وقضاها في الخلْقِ الأوَّل، ولَمْ يَعْيَ به.

وهذا يَدُلُّ عن طريق اللُّزُوم العقليّ على أنّ مَنْ لم يَعْيَ بالخلْقِ

الأَوَّل. وهو مازال ولَنْ يَزَال من الأزل إلى الأبَدِ على ما هو عليه في ذاته وصفاته، لا يَعْيَا بإعادَةِ الْخَلْق بعْدَ فَنَائه، ولا يَعْجِز عنه.

إذَنْ: فكَيْفَ يَقَعُ في تَوَهُّم المكذِّبين بيوْمِ الدِّين، وبالبعْثِ للحساب، وفصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء، استِبْعادُ هذا الإحياء بعد الموت، استبعاداً يَجْعَلُه في تصَوُّرِهم أمْراً غَيْرَ مُمْكِنِ الوقوع؟!

هٰذا الدَّليلُ دليلٌ برهانيٌّ مُوجَّهٌ للَّذِينَ بدَأَتْ السّورة بالْحَدِيث عنهم، وهم الكافرون الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

● قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾.

اللَّبْسُ: بإسْكان الباء وفتحها في اللُّغة: اختلاط الأمْر. يُقَالُ لُغة: فُلانٌ في رأيه لَبْسٌ، أي: في رأيه اختلاط.

ويقال: الْتَبَسَ عليه الأمر، أي؛ اخْتَلَطَ واشْتَبه.

وجاء الإضراب بحَرْف ﴿بَلْ﴾ بعْدَ طَرْح السؤال الاستفهاميّ التَّعْجِيبيّ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾؟! لِيَدُلَّ هذا الإضرابُ على أنّ جوابَهُمْ سيَكُونُ حتماً: «لاَ»، لأنّ الواقع المشاهد دامغٌ لهم، وهُمْ لا يستطيعون جُحُودَه، ولو بالمكابَرَة، إلاّ إذا فَقَدُوا عقُولَهُمْ وحواسَّهم.

ولكِنْ يلْزَمُ من اعْترافِهم بعَدَم الْعَجْز في الخلْق الأوّل، أنْ يَعْتَرِفُوا بأنّ الخالق جَلّ جلاله لاَ يَعْجزُ عن الخلْق الجدِيد، الذي تَتِمُّ به إعادة الموتى إلى الحياة بَعْدَ فناء أَجْسَادهم، فهذا لاَزمٌ عَقْلِيٌّ حَتْمِيّ.

لكنَّهُمْ لم يَعْتَرِفُوا بهذا اللاّزم العقليّ، ولم يؤْمنُوا بوقُوعِهِ بَعْدَ البيانات الرَّبَّانيّة المنَزَّلَةِ على الرَّسُول المؤيّد بالمعجزات الباهرات. بَلْ هم في لَبْسٍ من خَلْقٍ جَدِيدٍ، بِتأثير رَغَبَاتهم وأَهْواء نفوسهم.

لقَدْ قطَعُوا الصِّلَةَ بَيْنَ القضيَّةِ المشهودة الحسّيَّةِ ولازِمِها المنطِقيّ

العقلِيّ الحتمِيّ، فَلاَ يأخذُونَ باللاّزم مع اعترافهم بالملزوم، فهم كَمَنْ يَعْتَرِفُ بطُلُوعِ الشَّمْس لكنَّهُ يُنْكِر وُجود النهار في الْأَرَاضي الّتي تُشْرِقُ عليها الشمس.

لقد الْتَبَس علَيْهِم الأمْرُ بالنسْبَةِ إلى خلْقٍ جديدٍ، على الرُّغْم من مُساواتِه للخلْقِ الأوّل مُسَاواةً تامَّةً، وعلى الرغم من أنّ المنطقيَّة العقليَّة تَفْرِضُ أن لا يكونَ لديهم أيُّ لَبْسٍ من خَلْقٍ جديدٍ مُسَاوٍ للخلْق الأوَّل.

وهذا الاستدلالُ استدلالٌ برهانيٌّ لاَ سبيل إلى ردِّه، أو نَقْضِه، أو إيرادِ أيّ احتمالٍ يُبْطِلُ الاستدلال به، أو يجعَلُ فيه شكًّا أو شُبْهَةً.

فمَنْ كان قادراً على شيءٍ إبْداعاً، كان قادراً على مثله، مَا دامَتْ صفاتُه على حالها، لَمْ تتغيَّرُ ولم تتناقَصْ.

وصوغُ الدليل بالأسلوب الرِّياضي المنطقي مما يسمّىٰ عند علماء المنْطِقِ بالقياس الاقتراني، نستطيع تقديمه بما يلي:

المقدّمة الصُّغْرى: الله عزّ وجلَّ قد خَلَقَ الْخَلْقَ الأَوَّل بِقُدرَتهِ وعلْمِه وحكمته، تنفيذاً لما سبَقَ به قضاؤهُ وقَدَرُه، وصِفَاتُه لا تتغيَّرُ من الأزل إلَى الأَبَد سبحانه.

المقدمة الكُبْرىٰ: وكلُّ قادرٍ على الخلْقِ الأوّل، دون أن تتعرَّض صفاته لأيّ تناقُصٍ أو تغيير، قادِرٌ على إعادة ما كان قد خلقه، إذا انْعَدَمَ أَوْ فَنِيَتْ ذرّاتُ جَسَدِه.

النتيجة: فالله عزَّ وجَلَّ الّذي لم يَتَغَيَّرْ من ذَاتِهِ ولا من صفاتِه شيءٌ، لأنّ ذَاتَه وصفاتِهِ واجِبَةُ الوجود من الأزل إلى الأبد، قادِرٌ حتماً على أنْ يَخْلُقَ نظيرَ الخلق الأوّلِ ابتداءً أو إعادة.

ولا مجالَ للتَّهرُّبِ من قَبُول هٰذهِ النتيجة بعْدَ التّسليم بمقدّمَتَيْها.

ويمكن صَوْغُ الدليل بطريقةٍ أخرى تُسمَّىٰ عندَ علماء المنطق، بالقياس الاستثنائي:

- لو لَمْ يكُن الله عزّ وجلّ قادراً على إعادَةِ ما كانَ قد خَلَقَ بعد أن ماتَ وفَنِي، وهو جلَّ جلالُه لم يتغيَّر من صفاته شيء، لمَا كان قادراً على بَدْءِ الخلْق.
- لكنَّه هُو الّذي بدأ الخلْقَ بصِفاته الّتي هي له دواماً من الأزل إلى الأبد.

النتيجة: فالله عزّ وجلّ قادرٌ حتماً على إعادة الخلْقِ بَعْدَ فَناءِ المخلُوق إلى مثل ما كان عليه.

لكنَّ أمثال هذه الصياغات الرّياضِيَّة لا تَلِيقُ بكتابٍ رَبَّانيّ مُعْجزٍ في بيانه وأُسْلوبه ومضامينه، فجاء فيه عَرْضُ هذا الاسْتدلالِ نفسِه بأسلوب السُّؤال الذي يَنْتَزِعُ الاعترافَ ويَدُلُّ على لوازمه العقليّة، وهو الطريقة المثلىٰ للمناظرة التي يُرادُ بها الوصول إلى الحقّ والاعترافُ به، لا المماراةُ بالباطل القائمة على السّفْسَطات والمغالطات.

وبهذا ظهر لنا أنّ إعادة الرَّبّ الخالقِ الموْتَىٰ إلى الحياة مرَّة أُخْرى، ومَرَّاتٍ كثيرات، قضيَّةٌ واضحةُ الإِمكان لا ينبغي أن يكون فيها لَبْس، ولا تحتاج أكثر من ثبوت الخبر عن الله، أوْ قِيام الدليل العقليّ الّذي يقتضي إعادة الحياةِ لتَحِقيقِ الْعَدْل الذي تقتضيه الحكمة.

وما دامَتِ القضيَّةُ بهذا الوضوح الفكريّ، فالّلبْسُ الّذي وقع فيه الكافرون المكذبون بالبعث للحياة الأخرى، ليْس مَنْزَعُهُ شُبْهةً فِكْرِيَّةً ذاتَ قيمةٍ، أو ذاتَ وزْنٍ في عالَم المفاهيم الفكريّة، حتَّىٰ تُناقَشَ وتُدْفَع بالحجَّة.

إنَّ هٰذَا اللَّبْسَ يتَسَاقَطُ تِلْقائيًا من نفسه، متَىٰ رجَعَ مُنْكرُ الْبَعْث إلى بصِيرَتِه الفكْريَّة الذّاتيّة، بَعْدَ التنبيه الذي يُحْدِثه في فكرِه السُّؤَالُ المطرُوح.

ولَمْ يكُنْ وَاقع الإنسانِ العربيّ بطبيعَتِه الفطريَّةِ، محتاجاً من الناحيَةِ الفكريَّة إلَىٰ أكْثر من هٰذا الاستدال، إذْ لـم تكن لَدَيْه شُبْهةٌ حوْلَ ثَبَاتِ صِفاتِ الرَّب الخالق جلّ جلالُه إذا هو آمَنَ به، فلَمْ يَنْزِلْ في الْعَهْدِ المكّيّ دفْعُ شُبْهِة اللُّغُوب، وهو: التَّعَبُ والكَلَلُ مِنْ مُمَارَسَةِ الخلْقِ الأوّل، الّتي أَثارها اليهودُ في العهد المدنيّ.

فأخَّرَ اللَّهُ إنْزَالَ النصِّ الّذي يُكَذِّبُ بهِ مَقَالَةَ اليهودِ، وضَمَّهُ إلى سورة (قٓ) المكيَّةِ، وجعله بَعْدَ كُلّ المعالـجات الّتي عالج بها المكذّبين من مشركي مكَّة في السّورة، وقبْلَ ما يَخُصُّ معالَجَةَ الرسُول ﷺ التربويَّة، وهو الآية (٣٨) من السورة.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السادس من دُروس السورة وهو الآيات من (١٦ ـ ١٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

بَعْدَ أنْ جَاءَ في السُّورة إثْبَاتُ قضيَّةِ البعثِ للحساب، وفَصْلِ الْقَضَاء، وتنفيذ الـجزاء. وبعد أن جاءَ فيها الإلْزَامُ بقُدْرَة اللَّهِ على الإحياء بعْدَ الموتِ، عن طَريق الحجَّةِ البرهانيَّة. يأتي هذا الدرس السادس منها لشَرْحِ قضيَّةِ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ والمكَلَّفين بالمراقبة من ملائكته، للإنسان في أعْماله الباطنة والظاهرة في الـحياة الدّنيا، لمُحاسَبَتِه يَوْمَ الدين على ما كان منْها من كسْبِهِ الإراديّ المسْؤول عنه، لأنَّه هو الذي جُعِلَ مُخَيَّراً فيه ذَا إرادة حُرَّةٍ، ليُبْتَلَىٰ عن طَرِيقه في ظُرُوفِ الْحَياة الدُّنيا.

وهذا الدرس السادس يُثبتُ أنَّ كُلَّ مَا يَعْمَلُهُ الإنسان، وكُلَّ شيءٍ يَحْدُثُ في جسَدِه أو نَفسِه أو فكْره، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُه وَسْوَسَةً خفيَّةً لا تَصِلُ إلى مُسْتوىٰ الفِكْرَةِ الجليَّةِ، مشْمُولٌ بعِلْم الرَّبّ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه. فَهُو خالِقُهُ العليم بكلّ دقائقه، المسَيِّرُ لكُلّ خليَّةٍ فيه، ولكُلّ أَجْزَاءِ كُلّ خِلِيَّةٍ فيه، وبأمْرِهِ أوْ بإذْنه عزَّ وجلَّ يحْدُثُ كُلُّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الإنسان وفي الوجود كُلّه، من أصْغَرِ جُزْءٍ في كُلّ ذرَّةٍ، إِلَىٰ أَكْبَرِ مَخْلُوقٍ في الْوُجود كُلّه.

ولولا شُمُولُ عِلْمِ اللَّهِ كُلَّ شيءٍ، وتسْيِيرُهُ لكلّ شيءٍ، وهيمنَتُه على كلّ شيءٍ، لفَسَدَ نظام الكَوْن، ولتضارَبَتْ حَرَكَاتُهُ، ولَمَا انْطَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ إلىٰ غايَتِهِ الْمَرْسُومَةِ لَهُ بإحكام وإتْقان، ولَدَمَّرَ بعضُهُ بعْضاً.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: في هذه العبارة تنبيهٌ على أنّ اللّهَ عزَّ وجلَّ بعظمة ربوبيّته، الّتي دَلَّ عليها ضَمِيرُ المتكلّم العظيم، لا بُدَّ أن يكون عليماً بكلّ دَقائِق ما يُسَيِّرُ أجزاءَه، مهما صغُرَت، وعليماً بكل مُتَحرِّكٍ فيه وساكن، وعليماً بما يَصْدُر عنه من حركاتٍ إراديّة، وسلُوكٍ إراديٍّ ظاهرٍ أو باطن، وعليماً بخواطِره، وعليماً بإراداتهِ الَّتي يُرِيدُها، وعزَمَاتِهِ الَّتي يَعْزِمُها، وشَهَواتِهِ الَّتي يشْتَهِيها، ونِيَّاتِهِ التي يَنْوِيها، وعواطِفِ قَلْبِهِ الَّتي يُحِسُّ بها، حتَّىٰ مَاتُوَسْوِسُ بِه نَفْسُهُ من أُمُورٍ قد لا تَصِلُ إلى مُسْتَوىٰ التفكير الواضِح. وجاء تأكيد هذه القضيّة بعبارة ﴿وَلَقَدْ﴾ لأنّ الكلام مُوَجَّهٌ للمكذّبين بيَوْم الدين.

إن الخالِقَ العظيم الجليل الّذي خلَقَ هذا الإنسان المتْقَنَ العجيب، الَّذي فضَّلَهُ عَلَىٰ غَيْرِه ممَّنْ خلَقَ، فجعَلَهُ في أحْسَنِ تَقْويم، وجعَلَهُ من خلايَا عَجِيبَةِ التركيب، وعجيبَةِ الْعَمل دَاخل جِسْمِه، ويُسَيِّرُ فيه كُلَّ دَقيقَةٍ: من دَمٍ، وغِذَاءٍ، وطاقَةٍ، وحرارة، وجُرْثُومَةٍ، وكلَّ دَقِيقَةٍ من الفضلاتِ الَّتي

ينبغي أَنْ تُطْرحَ وَيَتَخلَّص منها جِسْمُهُ، ويوجِّه كُلَّ جُزْءٍ مِنْ أجزائه مهما صغُر إلى مكانه المقدَّر له، بإتقانٍ وإحكامٍ غايةٍ في الإِبْدَاعِ والتنظيم والتَّسْيير، هل يُعْقَل أن لاَ يكون عليماً بأعماله الاختيارية، وعليماً بما تُوَسْوسُ به نَفْسُه؟!

إنّ البديهة العقليَّة تُثْبِتُ بما لا شَكَّ فِيه أَنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عليماً بكُلّ ما يَصْدُر عن الإنسان، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُه من خَواطِرَ عابرةٍ غَيْرِ مسؤولٍ عنها.

● قولُه تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾:

الْوَسْوَةُ: والْوِسْوَاسُ: حَدِيثُ النَّفْسِ. وأصل الوسوسة الصَّوْتُ الخفيُّ، ومنه صَوْتُ الْحُلِيِّ.

يقالُ لغة: وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ وَسْوَسَةً وَوِسْوَاساً.

والاسْمُ منه: «الْوَسْوَاس» ويُطْلَقُ هذا اللّفظ على الشيطان، لأنَّه يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النّاس، ويُطْلَقُ أيضاً على هَمْسِ الصَّيّاد الذي يُخْفِي صوته لئلا يُحِسَّ به الحيوان المرادُ صَيْدُه.

وذَكَر اللَّهَ عزَّ وجلَّ عِلْمَهُ بما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُ الإنسانِ من خواطِرَ خفِيَّةٍ جدًّا، للإشعار بأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ يَصْدُرُ عَنْ الإنسان، فَعِلْمُهُ بأخفى الأشياء يُدُلُّ على عِلْمِه بما هُوَ دُونَ ذَلِكَ في الخفاء، من باب أولى، فضلاً عن الأشياء الظاهرة الّتي لا خفاء فيها.

قوله تَعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾.

في هٰذِهِ العبارة تَقْرِيبٌ لفِكْرَةِ شُمُولِ عِلْم اللَّهِ لما يَعْمَل الإنسانُ في ظاهِرِه وباطِنِه، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُهَ.

وجاء في العبارة استخدام ضمير المتكلّم العظيم، لما في الموضوع المتحدّث عنه من عظمة رُبُوبيَّةِ الرَّبّ.

حَبْلُ الْوَرِيد: هو شِرْيان يُطْلِقُهُ الْعربُ على الْوَتِين الموصُولِ بالقلْب، وهو الشريان الذي يُغذِّي جسْمَ الإنْسَان بالدَّمِ النقيِّ الخارجِ من الْقَلْب.

والمعنىٰ أنَّ الله جلَّ جلالُهُ أقْرَبُ بعِلْمِهِ إلى هُوِيَّةِ ذَاتِ الإنسَان المفكِّرَةِ الْمُرِيدَةِ الْمُوَسْوِسَةِ الْعَامِلَةِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِه الموصولِ بقَلْبِه. أي: إنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أَقْرَبُ إلَىٰ الإنْسَانِ من الأوعِيَةِ الدَّمَوِيَّةِ الّتي تُمِدُّهُ بالحياة مع كُلّ نَبْضَةٍ من نَبَضاتِ قَلْبِه الَّتي تَظْهَرُ دَقَّاتُها فِي حِبَالِ أَوْرِدَتِهِ.

إذَنْ ألاَ يُعْلَمُ الله عزّ وجلّ ما يَعْمَلُ الإنسان بإرادَته الحرَّة واختياره، ليحاسبه ويفصل القضاء بشأنه ويجازيه يوم الدّين؟!

والجواب: بلىٰ، إنّ اللَّهَ بكُلّ شيْءٍ عَليم، إنَّه سُبْحانَهُ وتعالَىٰ مُحِيطٌ بكُلّ شيءٍ علماً.

- قولُهُ تَعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ومع علم الله الشامل الذي سبَقَ بيانُه في الآية (١٦) وما دلَّت عليه من لوَازِمَ وأبعادٍ في المفهومات، فقد أقام اللَّهُ عزّ وجلَّ على الإنسانِ شاهِدَيْنِ مِنَ الملائكة، يُسَجِّلان له أو عليه ما يَصْدُرُ مِنْهُ من كَسْبٍ إراديّ ظاهرٍ وباطن، في كتابٍ صادقٍ لا يَزِيدُ شيئاً، ولا يَنْقُصُ إلاّ مَا يَعْفُو اللَّهُ عنْهُ مِنْ سَيّئات.

وجاءت هاتان الآيتان (١٧ ـ ١٨) بياناً لهذه الرَّقابة الدّائمة، التي جَعَلَها اللَّهُ عزّ وجلّ مُرافقةً ملازمةً لكُلِّ إنْسَان في الحياة الدنيا، إلاّ أنّها خفيَّةٌ مَسْتُورةٌ عَنْ مُشَاهَدَةِ الإنسانِ الحسِّيَّةِ، وهو في حياة الابتلاء.

- ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ يضاف إلى الجمل وجوباً، والعامل فيه هنا فعل: ﴿نَعْلَمُ﴾

أو اسم التفضيل: ﴿أَقْرَبُ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. أي: حين يَتَلَقَّىٰ المتلقّيَانِ مِن الملائكة، المراقبانِ الْمُسَجِّلاَنِ لأعْمَالِهِ وأقواله.

﴿قَعِيدٌ﴾: أي: مُلازِمٌ لا يُفَارِق، من فِعْل «قَعَدَ يَقْعُدُ فَهُو قَاعد» وصيغَة «فَعِيل» من صيغ المبالغة لاسم الفاعل، وللدَّلالة على الملازمة الدائمة للمراقبة، حَسُنَ استعمال صيغة المبالغة: «قَعِيد».

ولم يأتِ في النصّ: قَعِيدان، باعتبار أنهما ملكان، لأنّ العبارة على تقدير: عَنِ اليمين قعيدٌ وعن الشمال قعيد، وحُذِفَت «قعيد» الأولى لدلالة الثانية عليها مع قرينة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

فَمَاذَا يَتَلَقَّىٰ المتلقّيَان من الملائكة المراقبان المسجّلان لأعمال الإنْسَانِ وأقواله؟؟

حُذِفَ مَفْعُولُ يَتَلَقَّىٰ لإفادة العموم، أي: يتَلَقَّىٰ المتلقيان كُلَّ مَا يَصْدُرُ عن الإنسان من عمل أو قول إراديّين.

وتُشْعِر مادَّة «التلقّي» بأنّ الملكين اللّذين يُسَجّلان أعمال الإنسان وأقواله، هما بمثابة آلة تسجيل تتلَقَّىٰ وتُسَجّلُ بِدُون كُلَفَةٍ وَلاَ مَشَقَّة.

- ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⑱﴾.

جاء في هذه الآية تخصيصُ تسجيل قول الإنسان بالذكر لدفع تَوهُّم أنّ الإنسان لا يؤاخَذُ على أقواله، ويدُلُّ على احتِمال وجود هذا التوهّم سؤال معاذِ رضي الله عنه رسول الله ﷺ، بقوله: وَإِنَّا لمؤاخَذُونَ بَما نتكلَّمُ به؟ فقال له الرسول:

«ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَال: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ، إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم: أي: مَا يَحْصُدُهُ مِنْجَلُ اللِّسانِ من كلام فيه إِثْمٌ ومعصية لله، وهذه العبارة من لطائف الاستعارات، إذْ شُبّه اللّسان بالمنجل وشبّهت الأقوال بالْحَصَائِد، ومعلومٌ أنّ المِنْجَلَ يَحْصُدُ كلَّ ما يقع حَدُّهُ عليه من نافع الزّرُوع وضارِّها.

﴿لَدَيْهِ﴾: أي: عنده. **لَدَىٰ**: ظرف مكان بمعني «عند».

﴿رَقِيبٌ﴾: أي: كثير المراقبة وَدَقيقُها، فهو صيغة مبالغة لاسم الفاعل.

﴿عَتِيدٌ﴾: أي: شديد قويٌّ مُهيَّأٌ للقيام بوظيفة مراقبة الإنسان طَوال حياته. كَلِمَةُ «الْعَتِيد» تأتي في اللُّغَةِ بمعنى «الْجَسِيم» وتأتي بمعْنَىٰ «الْمُعَدّ المُهَيَّئ الحاضر».

فَدَلَّت هاتان الآيتان (١٧ و١٨) على أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ جعل مع كُلّ مُكَلَّفٍ من النّاس رَقِيبَيْن، أَحَدُهُما عَنْ يمينه، والآخر عن شماله، وأنّهما يُسَجِّلَان حَسَنَاتِه وسَيِّئَاته، في كتاب أعماله، الذي سَوْف يُقَدَّمُ له يَوْم القيامة، ويقول الله له، كما جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

ويُؤْتَى النّاسُ كُتُبَهُمْ يَوْم القيامة عَلَىٰ وَجْهَيْن:

(١) ففريقٌ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيمانهم من قِبَلِ وُجوههم، وهم المؤمنون.

(٢) وفريقٌ يُؤْتَوْن كتُبَهم بشَمَائِلهم مِنْ جِهَةِ ظُهورهم، وهم الكافرون.

دلَّتْ على هذا نُصوصٌ قرآنيَّة في عِدَّةِ سُور.

وقد وَصَفَ الله عزّ وجلّ كُلًّا من هذَيْنِ الملكَيْن بأَرْبَع صفات:

الصفة الأولى: أنّه يتَلَقَّىٰ مَا يكْسِبُهُ الإنْسَانُ تلَقِّياً، فَكَأَنَّهُ جهازُ تَلَقٍّ دَائم التَّسْجِيل لكُلّ ما يَصْدُرُ عن الإنسان من قَوْلٍ وعَمَلٍ ظاهِرٍ وَبَاطِنٍ، وهذَا يَدُلُّ على أَنَّه يُسجّل بتِلْقَائِيَّةٍ طَبْعِيَّةٍ لا يَتكَلَّفُ لها.

الصفة الثانية: أنَّه قَعِيدٌ في مَكانٍ مَا مِنَ الإنسان، مُلاَزِمٌ لَهُ غير مفارق، أمَّا أحَدُهُما فَعَنْ يمينِه، وأمَّا الآخرُ فَعَنْ شِمالِه.

الصّفة الثالثة: أنَّهُ رَقِيب، أي: يَقِظٌ، مُوجِّهٌ كُلَّ أَجْهِزَةِ الإحساس لَدَيْه، لالْتِقَاط صُوَرِ الأعمال الظاهرة والباطنَة، وَصُورِ الأقْوال مهما كان شَأْنُها، حتَّىٰ الْخَواطر والنيَّات في الأَعْمال، وحتَّىٰ الآهَات والأَنَّات في الألْفَاظ.

وقَدْ قرَّبَتْ لنَا أجْهِزَةُ التقاط الصُّوَرِ والأصْواتِ هذه الحقيقة.

الصّفة الرابعة: أنَّهُ عَتِيدٌ، أي: شديد قويٌّ مُهَيًّا مستعدٌّ للقيام بوظيفته طوال حياة الإنسان المأمور بمراقبته.

فالمعنى الْكُلّي للنّص الذي نفهمه بالتَّدبّر:

ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ بسُلْطَانِ الرُّبوبيَّة العظيم، ونَعْلَمُ كُلَّ مَا يجري عليه أو فيه أو مِنْهُ حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ بِه نَفْسُه، ونَحْنُ بشُمُول عِلْمِنَا أَقْرَبُ إلَىٰ مَرَاكِزِ إرَادَتِهِ وَوَعْيِه وخَواطِرِهِ وأَحَادِيثِ نفسه، من أَوْعِيَة دَمِهِ الّذِي يُمِدُّه بِغذَاءِ استمرار حياته، حينَ يتَلَقَّىٰ المتلَقِّيَانِ من الملائكة، عن اليمين قعيدٌ منهما، وعن الشّمالِ قعيدٌ آخر، يُسَجّلاَنِ مَا أَمَرْنَاهُمَا بتسجيلِهِ من أعماله الظَّاهِرَةِ والباطنة، وأقوالِه، فَلا يَنِدُّ عنهُمَا شيءٌ ممّا يصْدُرُ عنه، فَمَا يعمل من عمل، ومَا يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلاّ كانَا رقيبَيْن له، مُتَهَيِّئَيْنِ جاهِزَيْنِ، مُسْتَعِدَّيْن حَاضِرَيْنِ لتسجيله، وفْق الْوَظِيفَةِ المسنَدَةِ إليهما.

وقد اقتضىٰ الإيجازُ في التعبير حذْفَ ما يقتضيه الكلام ويسْتَدْعيه الفِكْرُ بالتّدبُّر، أو يسْتَدْعِيه التقابل والتّناظر.

فلَمْ يُذْكَرْ في هذا النّصّ أنهما من الملائكة، لدلالة نصوص أُخْرَىٰ في القرآن، دَلَّتْ على أنّ الكتبة الّذين يكتبون صحف أعمال العباد هم رُسُلٌ لله، موجودون لَديهم وهم يكتبون أعمالهم، وأنَّهم حافظون، وكرامٌ كاتِبُون، وأنَّهُمْ يَعْلَمُون ما يفْعَلُ الناس، فمنها ما يلي:

(١) قول اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ولَمْ يُذْكَرْ وَصْفُ الْمَلَكِ الذي يكون على يمين الإنسان بأنّه قعيد، اكتفاء بدلالة وصْفِ نظيره الذي هو عن الشمال، فقد وُصِفَ بأَنَّهُ «قَعِيدٌ».

وحُذِف من النّص: «مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ» اعتماداً على ما يُفِيدُهُ التقابل، إذْ ذُكر في المقابل ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ فَحُسْنُ التَّدَبُّر يَهْدِي إلى أَنَّ تَسْجِيل الأعْمَال أجْدَرُ من تَسْجيل الأقوال، فإذا كانت الأقوالُ تُسَجَّلُ، فتسجيل الأعمال يُفْهَمُ من باب أولَى.

ودلَّ كوْن كُلّ من الملكَيْن رَقِيباً عَتِيداً علىٰ أنّهمَا يَقُومَانِ بوظائِفِهما التسجيليّة على أحْسَنِ وجْهٍ.

ودَلَّتْ النُّصُوص القرآنيّة الّتي جاء فيها بيان كتب أعمال الناس، علىٰ أَنّها لاَ تُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرة إلاّ أحْصَتْها بالتسجيل الكامل، ومن هذهِ النُصوص قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول):

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

فتكاملت دَلالات النصوص الموزّعَةِ في سور القرآن حول هذا الموضوع، كسائر الموضوعات القرآنية.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُروس السورة وهو الآيات من (١٩ ـ ٢٢)

قال الله تعالى:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذا الدرس السابع من دروس السورة عَرْضٌ لقَطَاتٍ مِنْ أحداث الرِّحْلَةِ بَيْنَ سَكْرَةِ الموت ومَوْقف الْحِسَاب يَوْمَ الدّين، بانتقال بديعٍ من الإقناع الفكريّ إلى هِزَّةٍ نفسيَّةٍ وجْدَانِيَّةٍ، تَحُومُ في فَلَكِ مِحْوَرِ الترهيب من عذاب اللَّهَ يَوْمَ الدّين.

﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: هي ما يَحْدُثُ للمحتَضَر سَاعَةَ نَزْعِ رُوحِه، إذْ تَغْشَاهُ غيبُوبَةٌ مِنَ الشِّدَّةِ الَّتي تَنْزِلُ بِه عِنْدَ مُفارَقَةِ الحياة، بانفصال الرُّوح عن النفس التي تَذُوقُ الموت.

فَسَكْرَةُ المَوْتِ، شِدَّتُه وغشيتُه. وَأَصْلُ السَّكْرَةِ: غَيْبَةُ العَقْل.

وثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنَّه لمَّا تَغشَّاهُ الموتُ جعل يمْسَحُ الْعَرَق عن وجْهِه ويقول: «لاَ إلَه إلاّ الله، إنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ».

أي: إنّ للْمَوْتِ لَغشيَاتٍ شَدِيداتٍ تَحْدُثُ مَعَها غيبوبَة، وبها يَفْقِدُ الْحِسُّ الشُّعورَ بما يَحْدُث.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة، قالت: كان النبيُّ ﷺ يقُولُ وهُو صَحِيحٌ.

«إنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الجنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ».

فلمّا نَزَلَ به، ورأسُه على فَخذِي، غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَأَشْخَص بَصَرَهُ إلى سَقْفِ البيت، ثُمّ قال:

«اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَىٰ».

فَقُلْتُ إذاً لاَ يَخْتَارُنَا، وعَرَفْتُ أَنَّهُ الحديثُ الذَّي كان يُحَدِّثُنا وهو صَحِيحٌ.

قالت: فكانت آخِرَ كَلِمَةٍ تكَلَّمَ بها: «اللَّهُمَّ الرَّفيقَ الأَعْلَىٰ».

واللقطات التي عرضها هذا الدرس من أحداث الرّحلة بين سَكْرَةِ الْمَوْتِ ومَوْقف الحساب، أَرْبَع لقطاتٍ بيانيَّة:

اللقطة الأولى: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾.

عَرَفْنَا آنِفاً ما هي سَكْرَةُ الْمَوْت، ونُلاحظ في هذا البيان استعمالَ الفعل الماضي في عبارة: ﴿وَجَآءَتْ﴾ مع أنَّ المخاطبَ بالنَّص وهو المكذِّبُ بيوم الدّين ما زَالَ يَعِيشُ في الحياة الدّنيا، لم تَأْتِهِ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بَعْدُ.

والحكمة البلاغيَّة الدَّاعيَةُ لهٰذا، هيَ الدَّلالَةُ على أنَّ الأَمْرَ مُتَحَقِّقُ الْوُقوعِ، حتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ وَقعَ فعلاً وانقضىٰ. ويُضَافُ إلى هٰذا ملاحظةُ أنه قَدْ وقع فِعلاً نظيرُه لمَنْ سبَقَ مْوتُه نُزولَ النّصّ من الناس، وهو سيقع لسائرهم حتَّىٰ آخرِ إنسان في الأرض.

وأقول أيضاً: إنَّ المقضيّ بالقضاء الرَّبَّانيّ الْمُبْرَمِ أمْرٌ وَاقِعٌ حتماً في النموذج الْمُعَدّ بِالقضاء والقدر، أمّا التطبيقُ في الواقِعِ العمليّ فَهُو الّذي يترَقَّبُ زَمَنه.

- ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: خلقناه

ووضعناه موضع الامتحان في رحلة الحياة الدنيا، وانتهىٰ أَجَلُهُ فيها، وجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بالْحَق.

فما هو الحقّ الّذي جاءت به سَكْرَةُ الْمَوْت؟

● المتبادر إلى الأفهام أنَّ سَكْرَة الموت جاءت بالموت، الذي هو الحقُّ الذي لا يَشُكُّ فيه أَحدٌ، وهو اليقين الذي يُوقِنُ به كلُّ إنسان، وإنْ كانَ يَحِيدُ عنْهُ وَيَفِرُّ منْهُ حُبًّا للحياة، وأصل العبارة على هذا. وَجاءت سَكْرَةُ الموتِ بالْمَوْتِ الحقّ، وحُذِفَ منها الموصوف وهو الموت اكتفاء بصفته، «الحقّ» فصارت: وَجاءت سَكْرَةُ الموت بالحق.

والأقْربُ أن تكون «الباء» في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للتّعديَّة، إذْ يقالُ لغة: جَاءَ فُلَانٌ بالشَّيء، بمعنى أحْضَرَه. كما يُسْتَعَمل فعل «جاء» لازماً، فيقال: جاء فُلَان، أي: حضَرَ.

● ويحتمل أن يكون الحقُّ الذي جاءت به سكْرَةُ الْمَوْتِ، مَا تُخْبِرُ به الملائكةُ المحتَضَرَ قُبَيْلَ مَوْته، عمَّا سيُلاقي بعْدَ موته ويَوْمَ الدّين من عذاب إذا كان من أهل النّار، ومن نعيم إذا كان من أهْلِ الجنة، وَمَا يُكْشَفُ له من مقْعَدِهِ الذي هو صائر إليه، في الجنة، أو في النار.

روى البخاري عن عُبَادَةَ بنِ الصامتِ عن النبيّ ﷺ، قال:

«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

قالت عائشة أو بعْضُ أزواجِ النبيّ ﷺ: إنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قال ﷺ:

«لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَه.

وإنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهُ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

فَدَلَّ هذا الحديث على أَنَّ سَكْرَةَ الموتِ تجيء بأمْرٍ يَعْلَمُ به المحتضَرُ عِلْمَ يقينٍ مَقْعَدَهُ منَ الجنَّةِ، أَوْ من النَّار، فالمؤمنُ يشتاقُ إلىٰ مقْعَدِه في الجنَّةِ، فَيُحِبُّ لقاءَ اللَّهِ يَوْم الحساب، فَيُحِبُّ اللَّهُ لقاءه، ويَنْزِلُ بِه الموت. أمَّا الكافِرُ فَيُصِيبُهُ الذُّعْرُ من مَقْعَدِهِ في النَّار، فيكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ يَوْم الحساب، فيَكْرَهُ اللَّهُ لقاءه، ويَنْزِلُ بِه الموت.

ويُمْكِنُ حمْلُ النَّصّ على المعنَيَيْن: الموت، وما يُبشَّرُ به عند سَكَراته.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾:

هذا خطابٌ يُوجَّهُ للكافر عند احتضاره، أي: جاءك الموتُ الذي كنتَ تكْرَهُهُ وتُحِبُّ أن يكونَ بعيداً عنك. وجاءَك الْعِلْمُ الحقُّ بعذابكَ الذي كُنتَ تَسْتَبْعِدُه، فَلا تُصَدِّقُ بِنَبأ البعثِ للحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتحقيق الجزاء.

﴿تَحِيدُ﴾: أي: تميلُ وتبتَعِدُ عنْهُ. يُقَالُ لُغَةً: حَادَ عَنِ الشَّيْءِ يَحِيدُ حَيْداً وَحَيَداناً ومَحِيداً، أي: مال عنه وعَدَل.

وعُدِّيَ فِعْل «تَحِيد» بحرف الجرّ «من» بدل «عن» لتضمين فعل «تحيد» معنى فعل «تفرّ» فأغنى هذا التضمين عن ذكر جملتين، فالمعنى ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَحِيدُ عنْهُ فارّاً منه.

والتضمينُ من لطائف الإيجاز في القرآن، أحَدِ عناصر إعجازه.

وجاء في العبارَة استعمالُ اسْمِ الإشارة الموضوع للمشار إِلَيْهِ البعيد، لأنّ الكافر يُحِبُّ أنْ يكونَ الموتُ بعيد الأجَلِ، على احتمال أنّ المراد

بالحقّ الموت. ولأنّ عذابه في جهنّم سوْف يكونُ يوم الدين. فالمناسب في الإشارة إليه: «ذَلِك» وهذا على الاحتمال الآخر.

ومع بشارة الكافر بمقْعَدِه من النار عنْد احتضاره، فإنّه يُعْرَضُ عليه مَقْعَدُهُ من النار بَعْدَ مَوْته غُدْوة وَعَشِيّاً، كما صحّ عن الرسول ﷺ.

روى البخاريُّ عن ابْن عُمَرَ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيًّا، إِمَّا النَّارُ، وَإِمَّا الْجَنَّةُ، فَيُقَالُ: هٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ تُبْعَثَ إِلَيْهِ».

بهذا تَمَّ تَصْوِيرُ اللّقطة الأولى المنتقاة من أحداث الرِّحْلَةِ بين سَكْرَةِ الموت، ومَوْقفِ الْحِسَاب يَوْم الدِّين.

اللّقطة الثانية: دلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾:

هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ واستعمال الفعل الماضي في ﴿وَنُفِخَ﴾ أقول فيه نظير الذي سبق قوله في استعمال الفعل الماضي في ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾.

الصُّور: مخلوق من مخلوقات الله كَهَيْئَة الْبُوق، أو كهيْئَةِ الْقَرْنِ، إِحْدىٰ جِهَتَيْهِ دَائرةٌ ضيّقة، والجهة الأخرى دائرة واسعة كبيرة، وباطِنُهُ فارغٌ يُمْكِنُ أن يُنْفَخَ فِيه فَيُصْدِرَ صوتاً بحَسَب مقداره وتكوينه.

وسماه الله عزّ وجل «الناقور» في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول).

● قال الحافظ ابْنُ حجر في الفتح: أخرج أبو داود، والترمذيّ وحسَّنه، والنسائي، وصحّحه ابْنُ حِبّانَ والحاكم، مِنْ حديثِ عبد الله بن عَمْرو بْنِ العاص قال: جَاءَ أَعْرَابيٌّ إِلَىٰ النبي ﷺ فقال: مَا الصُّورُ؟ قال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ».

- وروى الترمذيّ عن سعيد مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنَّهُ قَالَ:

«كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، واسْتَمَعَ الأُذُنَ، مَتَىٰ يُؤمَرُ بِالنَّفْخِ».

[قال الترمذي: حديث حسن]

- وروى أحمد والبيهقيُّ من حديث ابن عبّاس، أنَّ جِبْرِيلَ عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وهو صاحب الصور، يعني إسرافيل.

قال ابْنُ حجَر: واشتهر أنَّ صاحبَ الصُّور إسرافيل عليه السلام.

أقول: والنّفخَةُ الّتي وردَتْ في هذا النّصّ هي النفخة الثانية التي يكون بها البعث إلى الحياة، لتَلَقِّي أحداث يوم الدّين. بدليل قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿. . .ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾.

وجاء وَصْفُ يوم الدِّين بأنّهُ يَوْمُ الوعيد، مع أنَّه يومُ الوعْدِ والوعيد معاً، لأنّ الكافر بيوم الدين هو المقصود بالبيان، فهو بالنسبة إليه يَوْمُ الوَعِيدِ فقط.

وجاء في الآية الإشارة إلى يوم الوعيد باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، نظراً إلى أنّ نفخة البعْثِ يَكُونُ بعْدَها حشر وأحداثٌ كثيرة، ثم تكون أحداث الحساب، وفَصْلِ القضاء، ثم يأتي تنفيذ الجزاء فيَتَحَقَّقُ الوعيد، فكانَ من دقة البيان أن يُشار إليه باسم الإشارة «ذَلِكَ».

وجاء في القرآن في غير سورة (قٓ) بيان أنَّ الصُّورَ تُنْفَخُ فيه نفختان:

النفخة الأولى: هي النّفخة الّتي يَصْعَقُ بها كُلُّ مَنْ في السماوات والأرْض إلاّ مَنْ شاء الله، أي: يموت بها كلُّ حيٍّ خلقه الله إلاّ من شاء تأخيره، كنافخ الصور.

النفخة الثانية: هي النفخة الّتي يكون بها البعث إلى الحياة بعْدَ

الموت، وبها تنطَلِقُ الأرواح إلى أجسادها الّتي نبتَتْ في الأرض كما يَنْبُتُ البقل، على ما سبَق بيانه.

والدليل القرآني على هاتين النفخَتين، نَجدُهُ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وجاء في بيانات السُّنَّة أنّ الله عزّ وجلّ يُمِيتُ بَعْدَ النفخة الأولَىٰ من استثناهم من الصّعقِ، أي: من الموت بها.

وورد في وصف الصّور أنّ فيه ثُقُوباً بَعَدَد كُلّ روح مخْلُوقَةٍ ونَفْسٍ مَنفُوسَه، وفي هذه الثقوب تكونُ الأرْواح بحسب منازلها، وعند البعث يأمُرُ الله إسرافيلَ فينفخ فيه، فتنْطَلِقُ كُلُّ رُوحٍ فتَدْخُلُ في جَسَدِها.

اللقطة الثالثة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

جاء استعمالُ الفعل الماضي في هذه الجملة كما جاء في الجمل السابقة ونقول فيه ما سَبَقَ بيانُه في عبارة ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ﴾.

والمعنى: وسَوْفَ تَأْتي كُلّ نَفْسٍ بَعَثَها اللَّهُ عزّ وجلّ للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، مَعَهَا مَلَكَانِ:

(١) مَلَكٌ يَسُوقُها إلى المحشر.

(٢) ومَلَكٌ يَشْهَدُ عَلَيْها بمَا عَمِلتْ في الحياة الدُّنيا مِنَ السّيّئات.

السّائِقُ في اللُّغَة: هو الذي يحُثُّ الْمَسُوقَ من خلفه(١).

---

(١) بخلاف القائد، فهو الذي يمشِي أمام المقود ويجذِبُه ليَتْبَعه، وقائد الدابّة هو الذي يمشي أمامها آخذاً بمِقْوَدِها يَجُرُّها.

ونستطيع بالتأمُّل الاستنباطيّ أن نفهم أنْ السَّائِقَ هو المَلَكُ القَرِينُ الَّذِي كان في الحياة الدّنيا مأمُوراً بكِتَابَةِ الحسنات، وهذا لَمْ يُسَمِّهِ اللَّهُ شَهيداً، لأنَّه كانَ يُدَوّنُ الحسنات، وتكْفِي الإنسان، كتابَةُ الْمَلَكِ الشَّاملة لحسناته، ويكفيه قبل ذلك وفوقَهُ عِلْمُ اللَّهِ، والله لاَ يحتاجُ لمن يَشْهَدُ له أو عليه.

أمّا الشهيد فهو الملَكُ القرين الذي كَانَ في الحياة الدنيا مأمُوراً بكتابَةِ السّيِّئَات، وَلمَّا كانَ الإنسان أكْثَرَ شيءٍ جدلاً كانَ حالُهُ يتطَلَّبُ من يَشْهَدُ عليه بما جَنىٰ من سيّئاتٍ في الحياة الدُّنيا.

اللّقطَة الرابعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فِى غَفْلَةٍ﴾: أي: مُنْغمِساً في غَفْلَةٍ، إذِ الغَفْلَةُ مُحِيطَةٌ بِكَ إحاطة تامَّة، والخطاب يُوجَّهُ لِمَنْ كَان يكْفُر بيوم الدّين، فهو الذي كان في الحياة الدّنيا منْغَمِساً في غَفْلَةٍ شَدِيدة محيطةٍ به. أيْ: يقالُ لَهُ هذا القول.

الغَفْلَة عن الشيء: هي الانصراف الحسّيُّ والفكريُّ عن ملاحظته ومُراقَبَتِه، مع وُجوده في مجال الإدْراكِ، أو وجود أَدِلّته، وإمكان إدْراك ذَلِكَ لولا وُجود الصَّارِف، أو السَّهْوِ الّذي هو بمثابة إطباق الجفْنَيْنِ على العَيْنَيْنِ، ومَا تُطْلَبُ رُؤْيتُهُ حَاضِرٌ في مجال النظر.

يقال لغةً: غَفَلَ فُلانٌ عن الشيءِ يَغْفُلُ غُفولاً وَغفْلَةً.

والمكذِّبُ بيَوْم الدِّينِ شَغَلَتْهُ أهواؤُهُ وشَهَواتُه في الحياة الدنيا، فَغَشَّتْ على كُلِّ حَوَاسِّه الظَّاهِرة والباطِنَةِ، وكُلِّ قُدْراتِه الإدْراكيَّة، فَغطَّتْهَا تغطيةً تامَّةً، وَوَجَّهتْهَا لِلَذَّاتِ الحياة الدّنيا وزِينَاتِها وأنواع متاعها الزائل.

ولكنْ مَا الْحِكْمَةُ مِنْ وَضع حرف «مِنْ» بدَل حرفُ «عَنْ» في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؟؟

أقول: هذا جارٍ على قاعِدَةِ التضمين، التي تكْثُرُ أمْثِلَتُها في الْقُرْآن المجيد، إيجازاً في اللّفظ، إذْ تُغْنِي الجملَةُ عن جُملَتَيْنِ، والْإِيجازُ في القرآن أَحَدُ عناصر الإعجاز.

وفي حلّ هذا التضمين أقول: إنّ المكَذِّب بيوم الدِّين قد كان في الحياةِ الدنيا غارقاً في مَطَالِبِهِ مِنْها، مُنْصرِفاً عن كُلِّ ما سِوَاها، وحينَ تُعْرَضُ عليه أَدِلَّةُ يَوْمِ الدِّينِ، وما فيه من حساب، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتنفيذِ جزاء، يكون نافراً مِنْها، وكُلَّمَا ذُكِّرَ بِها لَمْ يَزْدَدْ إلاَّ نُفُوراً. ومعلومٌ أنَّ فِعْل «نَفَرَ يَنْفِرُ نُفُوراً» يتَعَدَّىٰ بحَرْف «مِنْ».

فَضُمِّنتُ كَلِمةُ «غَفْلَة» وهي مَصْدَرٌ يَعْمَلُ عمل فعله، مَعنى كَلِمَةِ: «نُفور» فَعُدِّيَتْ تَعْدِيتها. والتقدير يكون كما يلي: لَقَد كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ غارِقاً في متاع الحياة الدّنيا وزينتها، نافِراً مِنْ كُلّ بَلاغٍ ودليلٍ يَتعَلَّقُ بيَوْمِ الدّين، ومن كلّ تَذْكيرٍ يُذَكِّرُكَ به.

وقد جاء في عدّة نصوص قرآنيّة استعمال مادّةِ «النفور» من البيان ومن التذكير، بالنسبة إلى الكافرين المُصِرِّين على كُفْرِهم، فتقدير النفور يُلائِم الاستعمال القرآنيَّ في مواضع أخرى.

النُّفُور: هو الإعراضُ والصَّدُّ والابْتِعاد، كحالة المذعور الشارد، أو المتَمَنِّع المتراجِع بِحِرَان.

● ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾: كلامٌ صادرٌ عن الله عزَّ وجلَّ مستعملٌ فيه ضمير المتكلّم العظيم، ومُوَجَّهٌ لمن كان في الحياة الدنيا مُكَذِّباً بيوم الدّين.

أي: فكشَفْنَا الْيَوْمَ عَنْكَ الْغِطَاءَ الَّذي كَانَ يُغَشِّي على مَدَارِكِك وبَصِيرَتِكَ في الحياةِ الدُّنيا، وهو غطاء الأَهواء والشهوات والتَّعلُّق بمَتَاعِ الحياة الدنيا وزينتها، عند مشاهدتِكَ أَحْدَاث يوم القيامة، وبقَطْعِ مطامعك التي كانَتْ مَوصُولَةً كُلُّها بالحياة الدنيا، ومُنْحَصِرَةً فيها.

● ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: يُطْلَقُ الْبَصَرُ ويُرادُ به ما تراهُ الْعَيْنُ المبْصِرَة، ومَا يحدُثُ بِه الْعِلْم وهي القوىٰ التي تُدْرَكُ بها المعارف في نفس الإنسان.

ومعلومٌ أنَّ الّذِي كانَ مُغَطًّى في الحياة الدنيا من المكذِّب بيوم الدّين قُواهُ الإدْراكيّة، لاعَيْنُه المبصرة، فالّذي كَشَفَ اللّهُ عنه الغطاءَ، هٰذِه الْقُوى الإدْراكيَّةُ النفسية، وجاء التعبير عنها بالْبَصَر لأنها هي مراكز الإبْصَار في الحقيقة.

﴿حَدِيدٌ﴾: أي: قويٌّ نَافِذٌ يَرَىٰ بِدِقَّةٍ ما كان مُنْصَرِفاً عن آياته ودلائله الْفِكْرِيَّة العقليَّة، وغافلاً عنه، ونافراً من كلّ بيانٍ له، وتذكيرٍ به.

إنّ المكذِّب بيَوْمِ الدّين قَدْ شَغَلَتْهُ أهواؤه وشهواتُه ومطامِعُه في الحياة الدنيا، فغفل عن آيات الله في الكَوْن، وعن دلائل يَوْمِ الدين الفكريَّة العقليّة، وأعرض عن آيات الله المنزَّلَة ونَفَرَ منها، ومِنْ كُلِّ مُذَكِّرٍ بها، فضَلَّ وغَوَىٰ، ولم يُؤْمِنْ بالغيب.

لكنَّهَ يَوْمَ يُبْعَثُ يَكْشِفُ الله عن بَصِيرَته الأغشية الدنيويَّة، فيَرَىٰ مشاهد يوم الدّين، الْيَوْم الذي كان قد كذَّبَ به، وهو في حياة الامتحان.

* * *

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن من دروس السورة وهو الآيات من (٢٣ ـ ٢٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ

قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾: أي: الْمَلَكُ الّذي كان مُلازماً لَهُ عَنْ شِماله يُسَجّلُ عليه السّيّئات في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا.

﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾: أي: هذا ما عِنْدي ممَّا سجَّلْتُهُ عليه من سيّئاتٍ مُهَيَّأٌ مُعَدٌّ حاضِرٌ. **عَتِيدٌ**: أي: مُهَيَّأٌ مُعَدٌّ حَاضِرٌ.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾: أمْرٌ يُوَجَّهُ للملَكَيْن اللَّذَيْنِ كانا في الحاة الدنيا ملازمَيْنِ لَهُ، مَنْ كان قعيداً على يمينه مأموراً بتسجيل الحسنات، ومَنْ كان قَعِيداً على شِماله مأموراً بتسجيل السَّيّئاتِ. **وجَهَنَّم**: اسم علم من أسماء دار العذاب يوم الدين(١).

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾: أي: كُلّ بالغ في الكُفْر أسْفَلَ دَرَكاته، ليس في داخله مثقال حبَّةٍ من خَرْدَلٍ مِنْ إيمان صحيح مقبول عند الله ﴿كَفَّارٍ﴾ من صيَغ المبالغة.

﴿عَنِيدٍ﴾ أي: ذو عنادٍ شديد، فهو يَعْرِفُ الحقَّ ويُخالفه ويَرُدُّه، بجُرْأة ووَقاحة. **عَنِيد**: على وَزْنِ «فعِيل» فهو من صيغ المبالغة لاسم الفاعل. يقال لغة: عنَدَ فُلانٌ يَعْنِدُ عَنْداً وعُنُوداً، فهو عانِد، ويقال في المبالغة: عَنُود وَعَنيد.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: أي: كثيرِ المنع للخير الّذي يأمُرُ الله به.

﴿مُعْتَدٍ﴾: أي: ذُو عُدْوان على الناس، وعلى الحق وعلَىٰ كلّ خير وفضيلة.

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي: يوقع الناس في الرّيبة والشّكّ بوساوسه وإغوائه، وتَضْليلاَتِهِ، يقال لغة: أَرَابَ المضَلِّلُ الرَّجلَ، أي: أوقَعَهُ في الرِّيبة والشك.

---

(١) **جهنم**: ممنوعٌ من الصّرف للعلمية والتأنيث. ويقال لغة: **بئرٌ جهنم**: أي: بعيدة القعر.

أو أقلقه وأزعَجه، وحَمْلُ مُرِيب هنا على أن ذو شك غير مناسِب بعد إثبات أنه كفار.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾: هو الشيطان الذي كان ملازماً للإنسان في حياة امتحانه، وقريناً له يُوَسْوِسُ له وَيُسَوّل، وهو أحد جنود إبليس من كَفَرَةِ الجنّ.

* * *

في هذا الدرس الثامن من دروس السورة عرضُ لقطاتٍ مِنْ مَوْقِفِ المحكمة الرَّبانيّة يَوْمَ الدّين، التي يَجْري فيها الحساب، وفَصْل القضاء، وهٰذهِ اللّقطاتُ خاصَّةٌ بالكافِرين المكذّبين للرُّسُل، والمكذّبين بنَبَأ يَوْم الدّين، وقد جاء عَرْضُها مزيجاً بَيْنَ أُمورٍ ذُكِرَتْ على أَنّها وقَعتْ وانْقَضتْ، لتأكيد أنها سوف تقع لا محالة، وأُمُورٍ مقتَطَعَةٍ من الحدث نفسه، ومُقدّمةٍ في النّصّ كأنّها تقع الآن، وهٰذا مِنْ روائع المبتكَرات والإبداعَاتِ القرآنيّة.

وقد جاء ترتيب عرض هذه اللّقطاتِ في السّورَةِ عَقِبَ عَرْضِ لقطاتٍ من أحداثِ الرِّحْلَة بَيْنَ سَكْرَةِ الْمَوْتِ ومَوْقف الحساب الّتي جاءت في الدَّرْسِ السّابع من دُروس السُّورة، والّتي سبَقَ تَدَبُّرُها.

فالترتيبُ مُراعَى فيه التَّسَلْسُلُ المنطقيُّ، والترابط الفكرِيُّ فيه واضحٌ جليٌّ.

فلْنَتَدَبَّرْ فقرات الدرس الثامن، مستخلصين منها اللَّقَطاتِ المختارات للعرض، من شريطِ مَوْقف المحاكمة:

فاللقطة الأولى: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

مَنْ هُوَ هذا القرين؟

باستطاعة المتدبّر إذا تأمَّل في سِيَاقِ النَّصّ، أنْ يُدْرِكَ أنَّهُ المَلَكُ الّذِي كَانَ مَعَهُ في الحياة الدُّنيا قعيداً عن شِمَالِه، ومأموراً برصْدِ سيّئاتِه وتَسْجِيلِها، لأنَهُ هو الشَّهيد الّذِي يَشْهَدُ عَلَيْهِ من الملائكةَ يَوْمَ الدِّين.

أمَّا الملَكُ الآخَرُ الْقَعيدُ عن يَمينهِ والمأْمُورُ بِرَصْدِ حَسَنَاتِه، وتَسْجِيلِها، فقد دَلَّ الدَّرْسُ السَّابقُ على أنّ وظيفَتَه بين البعث وموقف الحساب، سَوْقُ الإنسانِ إلى مَوْقف حسابه، وبما أنَّهُ كاتِبُ حسناته فلا دَوْرَ لَهُ في الشهادة على الكافِرِ المكذِّب للرَّسُول، والمكذّب بنبأ يَوْمِ الدين.

إنَّ الملَكَ القرينَ راصِدَ السَّيِّئَاتِ ومُسَجّلَها بالصَّوْتِ والصُّورَةِ والنّيّاتِ، وحَرَكاتِ النفس معها، يُسَجّلُ كُلَّ الأقْوَالِ والأَعْمَالِ الظاهرة والباطِنة، الفكْرِيَّةِ والنفسيَّة والقلْبيَّةِ، لاَ يُمْكِنُ أنْ يَقُول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ دُونَ أن يُسْأَلَ مسائلَ تَتَعلَّقُ بالْوَظيفَةِ الْمُسْنَدةِ إليه بخُصُوصِ الْمَسُوقِ إلَىٰ المحاكمة، لكِنَّ البيانَ الْقُرْآنيَّ طوى أحداثاً تكُونُ قَبْلَ هٰذَا الْقَوْلِ، لأنَّ المتدبّر يُمْكِنُ أَنْ يستَنْبِطها بالتَّفكُّر، لِمَلْءِ الفراغاتِ بَيْنَ اللَّقَطات، واعْتَنَىٰ النَّصُّ بتَقْدِيم اللَّقْطَةِ الأجْدَرِ بالبيان، والملائمةِ لهذا النّجم القرآني.

فالْمُهِمُّ أَنْ يُقَدّمَ ما لدَيه من وثائق لإدانة هذا الإنسان الذي كان في الحياة الدنيا موضوعاً تحت المراقبة، وتُسَجّل عليه جرائمة وقبائحه وسيّئاته.

فالواو العاطفة في جملة: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ تَدُلُّ على أنّ في النَّصّ كَلاَماً مَطْوِيًا تَعْطِفُ الواو عليه كشَأْنِ الفاء الفصيحة الّتي ذكرها النحاة، فقد اكتَشَفْتُ خِلاَلَ تَدَبُّرِي الطَّويل لآيات كتاب اللّهِ المجيد، أنَّ العطف على محذوف لا يقتصر على الفاء الفصيحة الّتي ذكَرَها النحويُّون والمُفَسّرُونَ، بل قد يكون بغير الفاء من حروف العطف، والتدبُّر المتأنّي مع توفيق اللّهِ عزّ وجلّ كفيل باستخراج المطويات في النّصُوصُ القرآنيّة، ويُسْتَدَلُّ عليها أحياناً بذِكر حَرْفٍ من حروف العطف، أو بالاقتضاء الفكريّ،

أو باللَّوازم الذهنية، أو بالتقابل والتناظر، أو بغير ذلك، وقد لا تقتصر الدلالة على واحد من هذه الأمور.

ويمكن تقدير المطويَّات في مَثَاني النّصّ كُلّه، بدْءاً مِنْ خِطَابِ الكافر في محكمة العدل الرَّبَّانِيَّةِ بما يلي:

أيُّها الإنسَانُ الّذي كُنتَ تكذِّبُ بنَبَإِ يَوْم الدِّين، لَقَدْ كُنْتَ في الحياة الدّنيا غَارِقاً في غَفْلَةٍ بمطالِبِكَ من الحياة الدّنيا، ولذَّاتِها، وأنواع متاعها وزينتها، وكُنتَ نافراً من تقبُّلِ نَبَأ الْبَعْثِ إلى يوم الدّين، الذي صار الآن يُشَارُ إليه باسم الإشارة: «هذا» فَكَشفْنَا عنكَ الغطاء الذي كان يحجُبُكَ عن اسِتِبْصَارِ دلائلِ هذا اليوم الحق، بذهاب ظرُوف الحياة الدنيا، وانْتِزَاع دوافع أهْوَائِكَ وشهواتِكَ مِنْكَ، ووضعِكَ مَوْضِع المشاهِدِ لأحداث يوم الدّين، فَأَنْت الآنَ ذو بصَرٍ إدْراكيٍّ قويّ شِديد.

وهنا عند هذ المفصل يَدُلُّ سياقُ النصّ على أنَّ هذا الذي كان كافراً بيومِ الدِّين، يُقَالُ له وهو مَوْجودٌ في أَحْداثه: أَلَيْسَ هذا بالحق؟!.

فيقولُ: بلىٰ. فيقال للملك القعيد عن شماله في الحياة الدنيا لقد كنت تسجّل عليه سيئاته فماذا عِنْدَك؟ قال: نعم، لَقَدْ كُنْتُ في الدُّنيا أُسَجّلُ عليه سَيِّئاتِه وفْقَ الأمرِ الْمُوَجِّهِ لي، وقال: هذا ما لدَيّ عَتِيدٌ حاضِرٌ مُهَيَّأٌ مُعَدٌّ حسْبَ الأَمْرِ إعداداً تامّاً بدون تحريف ولا زيادة،.

فيُعْرَضُ عليه كتابُ أعمالِه ناطقاً بالحق.

ويقتصر البيان على اللّقطة الدّالّة باللّوازم الذهنيَّة على ما قَبْلَها وما بَعْدَها، فالإنسان المحاكَمُ كَانَ كافِراً بربِّهِ، مُكذّباً لرُسُلِه، ومُكَذِّباً بنَبَأ يوم الدّين، ولا جزاء له إلاَّ الحكم عليه بالعذاب الخالد، وبَعْدَ الحكم يَصْدُرُ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بإلْقَائِهِ في جهنّمَ، ولا تَدْعُو الحاجَةُ إلى إطالة مُحَاسَبَتِه وَمُنَاقَشَتِهِ الْحِسَاب.

ويمكن تَصْوير المحاكمة الّتي تُجْرَىٰ له على وجه التقريب بما يلي:

- كيف كانَتْ حالُهُ في الدنيا؟
- لقد كان كافراً مُجْرماً، وهٰذه الوثائق اليقينيَّة تُدِينُهُ وتُجَرِّمُه.
- فإن اعْتَرَفَ صدَر الحكْمُ عليه، وعلى قرينه الشيطان الذي كان يوسوس له.
- وإن أنْكرَ شَهِدَتْ عليه جوارحُه، وتتِمُّ إدانَتُه، ويَصْدُرُ الحكم عليه وعلى قرينه الشيطان بالخلود في عذاب النار.
- وبَعْد هذه المحاكمة يصْدُرُ الأمْرُ بتنفيذ الحكم.
- ويُفْرَزُ المجرمون إلى زُمَر بحسب مذاهبهم في الكفر، وبحسب أئمتهم، بانتظار استكمال محاكمة أمثالهم.

ومع كُلِّ مجرمٍ قريناه من الملائكة: السَّائقُ والشَّهِيد، وهما اللَّذان كانا مَأمورَيْنِ بملازمته في الحياة الدنيا، وكان الذي عن يمينه مأموراً بكتابة حسناته، وكان الذي عن شماله مأموراً بكتابه سيّئاته، وهما الآنَ مأموران معاً بضبطه وسوقه وحراسته، حتَّىٰ يَصْدُرَ الأَمْرُ بإلقائه في جهنّم مع زُمْرَتِهِ الّتي هو منها.

ومَعَ كُلِّ مُجْرِمٍ أيضاً قرينُه من الشياطين، وهو الَّذِي كان أتْبَعَهُ في الحياة الدّنيا، فزاده إغْواءً وضلالاً، ويكُونُ الحكْمُ على الشيطان القرين بالخلود في عذاب جهنّم، لأنَّهُ كَانَ كافراً مُضِلاًّ.

حتَّىٰ إذا انتهىٰ الحكم على المجرمين، وجُمِعُوا مُنْعزِلينَ زُمَراً، يأمُرُ اللّٰهُ عزّ وجلّ بسوقهم إلى جهنّم زُمَراً.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الزُمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

هذا ما يتعلّقُ باللّقطة الأولىٰ في هذا الدّرس.

اللقطة الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

هذه الآياتُ الثلاثُ قَدَّمَتِ اللّقطة الثانيةَ من هذا الدرس، والّتي تتضمَّن الأمْرَ العامَّ بإلْقاءِ الْمُجرمينَ في جهنَّم، إذْ يُوَجِّه الله عزّ وجلّ الأَمْرَ لكُلِّ ملَكَيْنِ قَرِينَيْن مُنْذُ بَدْءِ رِحْلَةِ الابتلاء في الحياة الدّنيا، والملازمينِ لَهُ في يَوْمِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، حتَّىٰ تنفيذِ الجزاء، بإلْقاءِ قَرِينِهِمَا المجرمِ من الإنْسِ مَعَ قَرِنيه الشيطان من الجنّ، في جَهَنّم، دار عذاب الكافرين المجرمين.

لقد جاء الأمر للقرينَيْن من الملائكة شاملاً كُلَّ قرينَيْن من أصْحَاب هذه الوظيفة، على طريقة الخطاب الشبيهة بالخطاب الإفرادي، والّذي يَفْهَمُ منه كُلُّ اثنين منهما أنهما مَقْصُودان بالخطاب.

ويَتِمُّ إلقاءُ الكافرين في جَهَنَّمَ زُمَراً كما جاء في النَّص الّذِي سَبَقَ الاستشهادُ بِه آنفاً من سورة الزُّمر، إذْ يُلْقِي كُلُّ مَلَكَيْنِ قَرِينهما الكافر من الإنس، وقرينَهُ الذي كان يُوَسْوِسُ له بالشَّرّ من الجنّ جُنود إبليس.

وقد جاء وَصْفُ هؤلاء الكافرين المجرمين عنْدَ الأمْرِ بإلْقَائِهم في جهنَّمَ مَبْسُوطاً، للدّلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ مِنهم قَدْ ثَبَتَ عَلَيْهِ لدَىٰ حِسَابه كُلُّ هٰذِهِ الصّفات، واشتمل قَرارُ الحكْم عليه بَعْدَ مُحَاكَمَتِهِ عَلىٰ كُلّ هٰذِهِ الصّفات، فأغْنَىٰ ذِكْرُها هُنَا عَنْ ذِكْرِها في المراحل قبل ذلك، وأغْنَىٰ ذِكْرُ

الْأَمْرِ بالْإلْقاءِ في جهنَّمَ عن التَّضرِيحِ بصيغة قرار الحكم، وكُلُّ هذا من بديع الإيجاز القائم على الإلماح، والاكْتِفاءِ بما يَدُلُّ على الْأَمْرِ دُونَ ذِكْرِه، وهو من رفيع الأدب.

أمّا الصّفاتُ الّتي تَدَنَّسَ بها كُلُّ واحدٍ من هؤلاء الكافرين المجرمين الْمَحْكُومِ علَيْهِم بالإلْقَاءِ في جهنَّم، فهي ما يلي:

الصِّفَةُ الأولى: أنَّه ﴿كَفَّارٍ﴾، أي: ذُو كُفْرٍ مُفْرِطٍ، بدليل صيغة المبالغة «فعَّال».

ولدى تحليل وَاقع حالِ الإنسان الكَفَّار نُلاحظُ أنَّه إنسانٌ عُرِضَتْ عليه أدلَّةُ الإِيمان الكثيرة، فَجَعَلَ يَسْتُرُها ويَدْفِنُها تباعاً، لئَلاَّ تُؤَثّر على نَفْسِه فَيُؤمن، فيُضطَّرَّ بإيمانه أنْ يخالف أهواءَه وشهَواتِه الحاكمة على إرادتِه في الحياة، خَوْفاً من عِقاب اللَّهِ وَعذابه.

الصفة الثانية: أنّه ﴿عَنِيدٍ﴾ أي: ذو عنادٍ شديد، فَهُو يَعْرِفُ الحقَّ ويَرُدُّهُ بِجُرْأَةٍ وَوَقاحَة، وتأتِيه الإنْذَارات بالْعذَاب فَلا يكْتَرِثُ لها، ويُصِرُّ على رفضِه لِلْحقّ، ويَمَسُّه بعضُ العقاب الْمَعجَّل فيظَلُّ مُصراً على رفضه لِلحقّ عناداً واستِكْبَاراً.

الصفة الثالثة: أنه ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: هو شحيح لا يَبْذُلُ من جَسَدِه ولاَ مِنْ مالِهِ ولا من جاهه، ويقفُ في طريق الباذِلين المحسنين، فيمْنَعُهُمْ من فعل الخير بشدّة، فصيغة «مَنَّاع» من صيغ المبالغة.

وهو أيضاً يمنَعُ دَعْوَة الحقّ الرّبّاني من الانتشار بين الناس، لأنّ انتشار الحقّ والخير في النّاس يُفوّتُ عليه التسلّط على عباد الله، وانتهابَ حُقُوقهم، ويقْطَعُ عليه سُبُلَ جرائمه وفواحشه.

والسَّبَبُ في كلّ ذَلك أنّه لا يُؤمنُ بالجزاء الرَّبّانيِّ المعجَّل والمؤجّل إلى يوم الدين.

الصّفة الرابعة: أنّه ﴿مُعۡتَدٍ﴾ أي: هو لا يكتفي بأنْ يمْنَع الْخَيْر، بل يمارسُ الْعُدْوان على الناس في حُقُوقهم المختلفة، الماليَّة والْأدَبيَّة، والجسديَّة، ففي المال يسْلُبُ وَيَظْلِم، وفي الأعراض يجرِّح ويَسُبُّ ويَشْتُم، وفي الأجساد يضْرِبُ ويَهْشِم، ويجرَحُ ويقتُل، ويحاربُ ويُهْلِكُ الْحَرْث والنّسْل، ويُفْسِد في الأرض.

الصفة الخامسة: أنّه ﴿مُّرِيبٍ﴾: من فعل أرَابَ غَيْرَه، إذا أوقَعه في الشّك والرِّيبة. أي: فهو لا يكتفي بأن يكفُرَ بالله واليوم الآخر، ويكفر بالرُّسُل وبالكتب وبسائر أركان الإيمان بل يجتهد حاشداً ما لديه من حِيَلٍ تضليليَّة زُخرفيَّة، ليُلْقي الشُّكُوكَ في أفكار النّاس وقلوبهم ونُفوسهم عن الدِّين كُلّه، ويوقِعَهُمْ في الرِّيب بما يَصْنَعُ من زخْرُف القول تزييفاً وتزويراً للحقائق.

الصفة السادسة: أنّه ﴿جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فهو يَعْبُدُه من دُون اللّهِ، أي: هو مُشْرِكٌ.

والشِّرْكُ أخَفُّ دَركاتِ الكُفْرِ خسَّةً وانحِطَاطاً. وأَقْبَحُ من الشِّرْكِ في العبادة الشِرْكُ في الرُّبُوبيّة، وأقْبَحُ مِنْهُما إسنادُ الرُّبوبيَّة لغير الله، وأخَسُّ الدَّرَكات وأحَطُّها إنكار وُجُودِ رَبٍّ خالِقٍ لهذا الكون مُطْلَقاً، وأصْحَابُ هذا الإلحاد الشنيع هم الذي يقولون: لا رَبَّ وَلا إلّه والكَوْنُ مادّة.

ومن ذِكْرِ صِفَة الشّرك التي هي أخَفُّ دَرَكَات الكُفر نَفْهَمُ عن طَريق اللُّزوم العقليّ أنَّ مَنْ كان ذَا دَرَكَةٍ أخَسَّ وأحطَّ من دركة أخفّ أنواع الكُفْر، مَشْمُولٌ من باب أَوْلى باستحقاق الإلْقَاءِ في جهنَّمَ خالداً فيها مُخَلَّدا، ولَهُ فيها دركةٌ تُلائم دَرَكة كُفْرِه.

أفلا يَسْتَحِقُّ كُلُّ مَنْ هٰذه صفاتُه في الحياة الدنيا، أنْ يَأْمُرَ اللّهُ الملكَيْن المأمورَين بمراقَبَتِهِ في الدُّنيا، وسَوْقِهِ والشَهَادَةِ عليه يوم الحساب،

بأنْ يُلْقياه في العذاب الشَّديد في جَهَنَّم وبِئْسَ المصير. فقال اللَّهُ عزّ وجل في آخر اللّقْطة الثانية:

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾.

اللّقطة الثالثة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

القرين هُنَا هو قَرين الكافر مِنْ شياطين الجنّ، وهو الذي كَانَ معه في الحياة الدنيا يُوسْوِسُ لَهُ، ويَحُثُّهُ على الكُفر وارْتكاب الجرائم، كيما يَزْدَادَ في غَيّةِ وفجورِه وكُفْرِه.

وحين يرىٰ هذا القرينُ من شياطين الجنّ، أنَّه سَيُلْقىٰ مَعَهُ في جهنَّم حَيْثُ العذابُ الشديد، يُحَاوِلُ أنْ يُبَرِّئ نَفْسه من جَرِيمَةِ إغْوائِهِ لقرينه الكافر من الإنس، فينادي قائلاً:

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي: رَبَّنَا ما أنا الذي جَعَلْتُهُ يَطْغَىٰ، أي: يُجاوز الحدَّ في الْعِصْيان، حتَّىٰ بلغ مُنحطًّا إلى الكُفر، وهابطاً في دَرَكاتِه، ولكِنْ وَجَدْتُهُ في ضَلاَلٍ بَعِيد عن حُدُودِ الْهِدَايَةِ والْإيمان، فأتْبَعْتُه وجَعَلْتُ أوَسْوِسُ له.

ويَحْصُل تَخاصُمٌ بَيْنَ الْكَافِرِ وَقَرِينة الشيطان.

كأنْ يَقُولَ الكافِرُ لقرينه الشيطان: أَنْتَ الْذي أطغيتني، بوساوِسِكَ وَتَسْوِيلاتِك لي، وإطْمَاعَاتِك الكاذبات.

فيقول له شيطانه: أنت الذي كنْتَ في ضَلاَلٍ بَعِيدٍ، ومَا كَانَ لي عَلَيْكَ مِنْ سلطان،، إلاَّ أنني كُنْتُ أدْعُوكَ فَتَسْتَجيبُ لي.

ويَشْتَدُّ بَيْنَهما التخاصُم والجدَال.

دلَّ على هذا التخاصُم المطويّ الذَّي لم يأتِ في النَّصّ تَصْرِيحٌ بأقوال أيٍّ من المتخاصِمَيْن، قول الله عزّ وجل في الآية التالية:

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: قال اللّهُ عزّ وجلَّ للّذِين يتخاصَمُون لَدَيْه من كفّار الإِنس وقرنائهم من شياطين الجنّ: لاَ تخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إليكم بالْوَعِيد. أي: فكل وَاحِدٍ منكم يناله من العقاب على مقدار جرائمه الّتي ارتَكَبَها في الحياة الدنيا، فلا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى، فَمَن كفر من الإنْس وطغىٰ وأجْرَمَ فقد اكتَسَبَ خطاياه وهو حُرُّ الإرادة، يَمْلِكُ الأهليَّةَ التامَّة للتكْلِيف والمسؤوليّة وتَحمُّلِ النتائج. ومَنْ كَفَر وأغْوىٰ من شياطين الجنّ ووَسْوَسَ بالشرّ، وسَوَّلَ مطمعاً بالباطل، فقد اكتَسَبَ خطاياه، وهو حُرُّ الإرادة، يَمْلِكُ الأهليّة التامَّة للتكليف والمسؤوليّة وتحمُّل النتائج.

وقانون الحساب، وفَصْلِ القضاء، والجزاء، وما تضَمَّنَ كلُّ ذلِكَ مِنْ وَعيد، قد كانَ مبيَّناً مُفصّلاً فيما أُنزَلْتُ مِنْ كتاب، وفيما بيَّنَهُ وشَرَحَهُ رَسُولِي.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: إنّ القول الذي سبَقَ مِنّي في بيان تكاليف الدِّين، وفي بيان الْوَعِيدِ الذي قَرَّرْتُهُ حتماً على الكافرين والمجرمِين، لاَ تَبْديلَ له، فلا مطمع لأحَدٍ بأنْ يَجِدَ لنفسه مخرجاً، أو معاذير يَعْتَذِرُ بها، أو جَدَلِيَّاتٍ يخاصِمُ بها، سواءٌ أكان من الإنْس أم من الجنّ.

وفي تنفيذ وعيدي لا أظْلِمُ عبيدي مثقال ذَرَّة.

قد يسأل سائل: لماذا جاء في النصّ استعمال «ظَلَّام» وهو من صيغ المبالغة، ونفي كونه ظلاّماً لا يقتضي نفْيَ كونه ظالماً؟!

أقول: جاء في القرآن بيان أنّ الله عزَّ وجلَّ لاَ يَظْلِمُ مِثْالَ ذَرَّة.

وقد أشارت عبارة «ظلّام» هنا وفي أمثالها إلى معنى دقيق، وهو أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ لا يظْلِمُ عَبيدَه عِنْدَ تنفيذ وعيدِه شيئاً، ولو ظلم كلّ واحدٍ منهم أقلَّ ظُلْمٍ وهو المتفرِّدُ بالحكم، وعَبِيدُه المستحقّونَ للعقاب كثيرون لكانَ ظلّاماً.

(١٣)

التدبّر التحليلي للدّرس التاسع من دروس السور وهو الآيات من (٣٠ ـ ٣٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

- قرأ نافع، وشعبة: ﴿يَوْم يَقُولُ﴾ بضمير الغائب.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ بضمير المتكلّم العظيم.

والقراءتَان من قبيل التّفنُّن البَيَانِيّ، فما قبْلَ الآية يلائمه قراءة الجمهور: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ إذْ قَبْلَها مباشرة قولُه تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

أمّا قراءة نافع وشُعْبَة فَقَدْ لُوحِظَ فيها الحديث عن الله عزّ وجلّ بضمير الْغَائِبِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: قال اللَّهُ عزَّ وجلّ.

- وقرأ ابْنُ كثير: [**هٰذَا مَا يُوعَدُونَ**] بضمير الغائبين.

وقرأ باقي الْقُرَّاء العشر: [**هٰذا مَا تُوعَدُونَ**] بضمير المخاطبين.

وبين القراءتين تكاملٌ بيانيّ، فقراءة ابْن كثير لوحظ فيها بيانُ الله غيْرُ

الموجّه لخطاب المكلّفين، وقراءة الجمهور خاطب الله بها المكلّفين.

في هذا الدرس من دروس السُّورة بيان أرْبَعِ لقَطَاتٍ مختارات من أحداثِ يوم الدّين، غير اللّقطاتِ التي جاء بيانُها في الدرْسَيْنِ السّابع والثامِنِ، وهي لقطاتٌ مُنتزَعَاتٌ من شريط أَحْدَاث ذَلِكَ اليوم:

اللّقْطَةُ البيانيّة الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْها قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

هٰذِهِ اللّقطة مُرَتَّبة تَرتيباً طبيعيًّا على ما جاء في الدّرس الثامن، من عَرْضِ اللّقطة البيانيّة الّتي فيها الأمر بإلْقاء مستحقّي الْخُلُودِ في أَشَدّ العذاب من جهنّم.

أي: وجرىٰ تنفيذ أمر الله بإلْقَاء هٰؤلاَء، وجاء دَوْرُ سُؤَال جَهَنَّمَ: هَلِ امتلأْتِ، فقد سَبَقَ القضاء الرَّبَّانيّ بأنْ يملأَ الله عزّ وَجلَّ جهنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنّاسِ أجمعين.

سؤالٌ لجهنَّمَ وَجوابٌ منها، أسلوبٌ من التعبير فيه إبداعٌ قائم على خطاب جهنَّم، وهي غَيْرُ ذاتِ حياة، لَكِنَّ الله جلّ جلالُهُ يُنْطِقُها، وهو الَّذِي أنطَقَ كُلَّ شيءٍ.

- يقولُ اللّهُ عزَّ وجَلّ لجهنَّمَ: هَلِ امْتَلأْتِ؟.
- فتقولُ جَهَنمُ: هَلْ مِنْ مَزيد؟

ويحتملُ أن يكون هذا القول تعبيراً عن لسان الحال، وهو أيضاً من فُنُون الأدب الرفيع.

ويدلُّ استعمال الفعل المضارع في: «نَقُولُ» وفي: «وتَقُولُ» على أنَّ هذا السؤالَ وجوابه يتكرَّرَانِ ويتجدّدَانِ بعْدَ إلقاء فَوْجٍ فَفَوْجٍ في جهنَّم.

﴿مَّزِيدٍ﴾: مَصْدَرٌ ميميّ بمعنى «زيادة» أي: هل من زيادة تُلْقَىٰ فيَّ؟

«مِنْ» حرف جرٍّ زائدٍ للتوكيد، وهو هنا داخل على المبتدأ بعد «هل».

لقد كان من الممكن أن يكون الجواب: لاَ لَمْ أمْتَلئ، أو: ما زَالَ يُوجد فيّ اتّساع لأفواج قادمة. أو نحو هذه التعبيرات.

لكنَّ هذه التعبيرات وأشباهَها تعبيراتٌ تِلْقَائيّة مباشرة، ليْسَ فيها سُمُوٌّ جماليٌّ، لاَ في الصِياغةِ، ولا في الفكْرَة.

أمّا التعبير القرآنيُّ المختار، فقد كان جواب السؤال فيه، علىٰ طريقة الإجابةِ على السؤال بسؤال يتضمَّن الجوابَ على قَدْرِ السؤال، وسؤالاً زائداً فوقه يتضمَّن أفكاراً زائدةً على الجواب المطلوب.

فقول جهنّم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ يُشعر بأنّها تَطْلُبُ المزيد، إذَنْ فهي لَمْ تَمتِلئ. ويُشْعِرُ بأنّها تتلَهّفُ للمزيد من الذين يُلْقَوْنَ فيها، كجائعٍ أو ظامِئٍ لمْ يَشْبَعْ من طعامٍ أكَلَه، أو شرابٍ شربَه، فيقول بتلهُّفٍ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

علىٰ هذا الوجه ينبغي أَنْ نَفْهَمْ هذا السؤال، فهو المطابقُ لما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ، أمّا المفهوماتُ الأُخْرىٰ فلا دليل عليها.

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالكٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ جهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ فيها ربُّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ قَدَمَهُ، فَتَقُول: قَطْ، قطْ وعِزَّتِكَ، ويُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ».

يُزْوَىٰ: أي: يُطْوَىٰ ويُجْمَع.

وفي روايةٍ أخرى:

«لاَ تَزَالُ جهَنَّمُ يُلْقَىٰ فيها، وتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فيها قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إلَىٰ بَعْضٍ، وتَقُولُ: قَطْ، قَطْ. بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ.

وَلاَ يَزَالُ في الجنَّةِ فَضلٌ، حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللَّهُ خَلْقاً فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ».

وعند البخاري وأحمد وأبي يَعْلَىٰ نحو ذلك، مع بَعْضِ خِلَافٍ فِي التعبير.

اللّقطَةُ البيانيّةُ الثانية: دلّ علَيْها قول اللَّهَ عزَّ وجَلّ:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

العَطْفُ في هذه العبارة من عطف الجمل الّتي تتضمّن بيان لقطاتٍ من شريط أحداث يوم الدين.

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: أي: وقُرِّبَتْ، فالإزلافُ في اللّغة هو التقريب، وفيه معنىٰ التقريب بلُطْفٍ أخذاً من الاستعمالات.

يقال لغة: زَلَفَ فُلَانٌ الشَّيْءَ وأَزْلَفَه، أي: قرّبه، وزَلَفَ فُلَانٌ إلى الشيء وازْدلَفَ، أي: دنَا إليه وقَرُبَ مِنْه.

وقد دلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ الجنَّة يُقَرِّبُها اللَّهُ عزّ وجلَّ إِلَىٰ جهة حَشْر المتّقِين يومَ الدِّين تكريماً لهُمْ حتَّىٰ تكون منهُمْ رأْيَ عَيْنٍ.

ولمَّا كان المحشَرُ على سَطْح أَرْضِنَا هٰذهِ كما بيّنت بعضُ أحاديث الرَّسُول ﷺ، ودلالات بعض آيات القرآن، فإنّ الله عزّ وجلَّ يُدْنِي الجنَّةَ إلى جهة مَحْشَر المتقين حتَّىٰ تكونَ قرِيبة منهم، يَرَوْنها، ويَسْهُلُ عليهم الوصول إليها مجتازين الصراط.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: أي: وأُزْلِفَتِ الجنَّةُ إزْلافاً غيرَ بعيد، فعبارة «غَيْرَ بَعِيدٍ» نَعْتٌ لمصدرٍ محذوفٍ هو مفعولٌ مُطْلَقٌ. ولمّا كان الإزْلافُ تقريباً مكانيًّا صحّ تنزيلُ الإزلاف منزلةَ المكان الذي قُرِّبَت الجنَّةُ إليه، ووصْفُهُ بأنّه غَيْرُ بَعيد.

وتَدُلُّ هذه العبارة على أنّ الجنّة تَصِلُ إلى مكان غير ملاصقٍ للأرض، لكنّه غير بعيدٍ نسبيًا عنها، فالمكان الذي يُمكنُ الوصول إليه بيُسْرٍ

وسُهُولة، ولو بوسيلَةٍ من الوسائل لا يُعْتَبَرُ بعيداً، وقد صِرْنا في هذا العصر الذي نعيشه، نستطيعُ أنْ نتصوَّر أنّ القَمَرَ قريب من الذين لديهم في الأرض الوسائل الموصلة إليه.

اللّقطة البيانيّة الثالثة: دَلَّ علَيْهَا قول الله عزّ وجلّ:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

هذا نَصٌّ مُقْتَطع من أحداث يوم الدّين، قُدِّم بصِيغته كمَا لَوْ كان الحدث يجري الآن، وهذا الأسلوب من روائع المبتكرات القرآنيّة في البيان الكلامي.

المشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الجنة الّتي صارت بإزلافها قريبةً من رُؤيتهم البصريّة، وإذْ يَرَوْن الجنَّة فقد يَرَوْنَ فيها بعضَ ما أَعَدَّ اللَّهُ فيها من نعيم مقيم لأصحابها.

وجاء اسم الإشارة الموضوع للمفرد المذكر مراعاةً للفظ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ فهو ما كانوا يُوعَدُونه في الدنيا بالكُتُب الربّانيّة، وعلى ألسنة المرسلين، واسْتُعمل الفعل المضارع لأنّ هذا الوعْدَ قد كان متجدّداً دواماً، وما زالُوا يوعَدُونه حتَّىٰ دُخولها.

لكنّه ليس وعْداً عامًّا لكلّ الناس، بل هو وعْدٌ لكلّ من استجمع عدّة صفاتٍ جاء بيانُها في هاتَيْنِ الآيَتَيْن، وهي الصّفات التاليات:

الصفة الأولى: أنَّهُ ﴿أَوَّابٍ﴾ وهو الرَّجّاع إلَىٰ الله بالتوبة والنّدم، في فِعْلِ «آبَ يَؤُوبُ» أي: رجَعَ. ولفظ «أوّاب» على وزْنِ «فعّال» من صيغ المبالغة، أي: هو كثير الرُّجُوع إلى ربّه بالتوبَةِ والنّدم والاستغفار، كلّما بدَرَتْ منه بادِرَةُ معصية. وهُوَ أيضاً سَرِيع الرُّجوع إلى ربّه، لا يتمادى في معاصيه.

الصفة الثانية: أنّه ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: كثيرُ المراقبة لأعْمالِهِ الظَّاهرة والباطنة، وأوامر الله ونواهيه المتعلّقة بها، وكُثير الحمايَةِ لنَفْسِه مِن مَزالِقِ المعاصي والآثام والمخالفاتِ، وكثير العنايَةِ بتغذية قلْبه ونَفسه وفِكْرِه، بما يُنَمّي فيها الارتقاءَ في معارج الْقُرْب من الله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه، والسعادة بعبادَته ومناجاتِه وتَدَبُّر آياته.

كلُّ هٰذه المعاني تَدخُلُ في عموم دلاَلَة كلمة ﴿حَفِيظٍ﴾.

فالحفيظ على مَالِهِ يراقبُه خَوْفَ العوارض والجوائح والمكاره، ويَحميه ويَعْتَني به بالتنمية حتّى لا تُفْنِيَهُ عوارض الزّمان، ومفنياتُ الأحداث مع توالي اللّيل والنهار.

ومن كان في قلبِه إيمان مَا وَلَمْ يكُنْ حفيظاً الحفظ الواجب، فإنَّ اللَّهَ يُدْخِلُهُ الجنَّةَ دون سابق وعد، أو يقال: هذا ما توعدون دون استحقاق عذاب قبله، جمعاً بين النصوص.

الصفة الثالثة: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾. إنّه لا يخشىٰ الرحْمٰنَ بالغيب إلاّ مُؤمِنٌ به صحيح الإيمان.

الخشية من الله: خوف من عقابه مصحوب بتعظيم وإجلال وحبّ وإذعانٍ له بالرُّبوبيّة والمنّة.

واختير اسم الله هنا للإشعار بأنّ الخشية ليْسَت خشيةً ملاحظاً فيها صفةُ الجبار المنتقم فقط، بل هي خشيَةٌ ملاحظٌ فيها صفة رحمة الله الّتي يَشمَلُ بها عباده، ويَمْنَحهُم بها فُيُوضَ عطاءاته وإحسانه.

والخشية النافعة هي الخشية الّتي تكونُ مقترنةً بالغيب حتى آخر حياة المكلّف، أي بغَيْبِ الرَّحْمٰن عن حواسّ العبد الذي يَخْشَىٰ رَبّه، إذْ تكونُ خشيتُه نابعَةً من الإيمان به في عُمْق فُؤاده، ملاحِظاً عَدْلَهُ ورحمته معاً.

والنافع منها هو ما استمرَّ حتىٰ يُدْرِكه الموت، ولو بَدَأَتْ قبل الموت بقليل، بشرط أن لا يشهد من حقائق ما بعد الموت شيئاً، لأنَّ التوبة لا أثر لها عندئذ.

ولا يكون الإنسانُ أوّاباً وحفيظاً، ما لَمْ يكُنْ ممَّنْ خَشِيَ الرَّحْمٰن بالغيب.

الصِّفَةُ الرَّابعة: دلّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: وجاء إلى رَبّه بَعْدَ مَوْتِه بقَلْبٍ رَاجعٍ إلىٰ رَبّه، تائب من ذنوبه، مُسْتَغْفِرٍ خاضعٍ خاشع.

اللّقْطة البيانيّة الرابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾: عبارة مقتطعَةٌ ممّا سَوْفُ يقالُ لهم عنْد توجيههم لدُخُول الجنَّة، أي: ادْخُلُوا الجنَّة مصحوبين بسلام.

السَّلاَمُ: يأتي في اللّغة بمعنى الأمان، وبمعنى البراءة من العيوب، وبمعنَىٰ التحيّة. وكلُّ هٰذه المعاني يكون أهل الجنّة مصحوبين بها دواماً فالأمان تامٌّ في الجنَّة، والمطالب متحققة فيها، والبراءة من العيوب كالمرض والعرج وسائر العاهات والمنغِّصَاتِ، والعجز والكسل والأوجاع والآلام حتى فضلات الطعام والشراب، متحققة لكل المنعمين فيها شبَّاناً دواماً، ويقال لمن يدخلُها: سلام عليكم طِبْتُم فادْخلوها خالدين. ويُلَقَّوْنَ فيها آنا فآناً تحيَّةً وسلاماً. وهذه المعاني قد دلَّت عليها نصوصٌ متعدّدة في القرآنِ والسّنة، واختصرت هنا بعبارة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾: أي: ذَلِكَ الْيَومُ الّذِي سَوْفَ يَدْخلُ فِيه أصْحَابُ الجنَّةِ هو يوم الْخُلُودِ الّذِي لا آخر له.

هذه العبارة يبدو أنَّها غير مُقْطَعةٍ ممَّا سَيُقالُ لهم، فليست هي من

توابع: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ بل هي بيان لمُتَلَقّي البيان القرآني في الحياة الدنيا، ويُرجّح هذا الفَهمَ استعمالُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، وعبارةُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ أي: لأصحاب الجنة الذين سَوْفَ يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ كلُّ ما يشاءُون فيها دون استثناء، مهما انطلَقَتْ أمانيهم تخيُّلاً وإسرافاً، فإذا انقطَعَتْ أمانيهم أعطاهم الله مزيداً لم تَبْلُغْ إليه أوهامُهم.

مَزِيد: مصدَرٌ ميمي بمعنى «زيادة».

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ؟!. فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟. فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً».

ومن المزيد إكرامُ الله لهم بأَنْ يَرَوْه رؤيةً يحصُل لهم بها سعادة تفوقُ كلَّ ما نالُوهُ في الجنّة من سعادات، كما ثبت في الصحيح أيضاً.

(١٤)

التدبُّر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآيتان (٣٦ و٣٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

في الدرس الرابع جاء تَلْوِيحٌ بإنْذار مُكذّبي الرَّسُول ﷺ، والمكذبين

بيوم الدّين، بسُنَّةِ اللّهِ عزّ وجلّ في الإهلاك الجماعي للأمم الّتي تَصِل في كفرها وجرائمها وإفسادها في الأرض، إلى مثل ما وصل إليه قوم نوحٍ وأصحاب الرَّس وثمود وعادٌ وفرعون وإخوان لوطٍ وأَصْحابُ الأيكَةِ وقَوْمُ تُبَّعٍ. وهذا التلْويحُ جُزْءٌ من العلاج النَّفْسيّ لهم بالترهيب. واقتضىٰ هذا العلاج استكمالاً، بإعطائهم جَرْعَةً علاجيَّة أخرىٰ في السورة نفسها، بعْدَ فَاصل اشتمل على إقناعات فكريّة، وبياناتٍ قدَّمَتْ صُورَ لَقَطَاتٍ غَيْبيَّة، تتَّصِلُ بقانون الجزاء الرَّباني، ممّا هو قائم في رحلة الابتلاء، ومما سَيأْتي بعدها، حتَّىٰ البعث والْحِسَاب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء من حقائق مُسْتقبليَّة.

وجاء هذا الاستكمال لبعض عناصر الترهيب بالإهلال المعجّل في الحياة الدُّنيا، مُشْتَمِلاً على تفصيلِ لبَعْضِ ما أُجْمِلَ في الْجَرْعَةِ العلاجيَّةِ الأُولى.

وفي هذا التفصيل جاء بيانُ كثْرَةِ الْمُهْلَكِين من أهل القرون الأولى، وبيانُ أنَّهم أَشَدُّ بَطْشاً من المكذّبين المعاصرين لتنزيل القرآن، وبيانُ أنّ في عَرْضِ قِصَصِ الْمُهْلَكِين الأوّلين لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كان له قَلْبٌ، أو أَلْقَىٰ السَّمْعَ وهو شهيد.

ومعَ غاية استكمال بعض عناصر علاج المكذبين، ففي هذا البيان طَمَأْنَةٌ لقَلْبِ الرسُول ﷺ وقُلُوب الَّذين آمَنُوا معه، بأنَّ نَصْرَ الله لرسوله وللمؤمنين قادمٌ لا محالة، كما نَصَر الله المرسَلِين السابقين والّذين آمَنُوا معهم، مع أنَّ المكذبين الأوّلِين كانوا أشدَّ من المعاصرين لتنزيل القرآن قُوَّةً وبَأساً، حتَّىٰ استطاعوا أن يُنَقِّبُوا في البلادِ بحثاً عمَّا يطْلُبُونَ لدُنياهم، فهذه الطمأنَةُ عُنصرٌ عِلاجِيٌّ للرَّسُول وللمؤمنين.

فإلى تَدَبُّر فقرَاتِ هذا الدَّرْس:

- قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾.

﴿كَمْ﴾ خبرِيَّةٌ. وهي اسْمٌ يقَعُ على العَدَد، وحين تكون خبرِيَّةً تكون بمعنى: «عدد كثير» وهي كلمة مُبْهمَةٌ تُمَيَّزُ باسْمِ مَجْرُورٍ، ويجوز أن يَدْخل عليه حرف الجرّ «مِنْ» كما في هذه العبارة: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾.

والمعنى: قُرونٌ كثيرةٌ أُهْلِكَتْ قبْلَ قَوْمِكَ يا مُحمَّد مِنْ مُكَذِّبي الرُّسُل السَّابقين.

﴿أَهْلَكْنَا﴾: أي: أَهْلَكْنَا إهْلاَكاً جماعيًا عقابيًا مقترناً بتعذيب.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾: كلمة «قَرْن» تُطْلَقُ على أهل زمانٍ واحدٍ، وتُطْلَقُ على زمَنٍ قَدْرُهُ مِئَةُ سَنَةٍ، وتُطْلَقُ على الذُؤَابَةِ من الشعر، وعلى الْخُصْلَةِ منه، وعلى الْقَرْن المعروف، وهُو العظم الذي يَنْبُتُ في رؤوس الحيوانات ذوات الْقُرُون.

والمقصود هُنا أَهْلُ زمانٍ بعَثَ اللَّهُ لهم رسولاً فكذَّبُوه، وكذّبوا بما جاءهم به عن ربّه.

- قولُ الله تعالى: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾:

أيْ: كان هؤلاء الأقوام الْمُهْلكُونَ من الْقُرُون الأولى أشدَّ بَطْشاً مِنْ قَوْمِكَ الذين كذّبوك يا مُحمّد.

الْبَطْش: هو في اللُّغةِ أخْذُ الشيء بِعُنْفٍ وقَسْوة. والبأْسُ والْقُوَّة. والتناوُلُ بشِدَّةٍ عنْدَ الصَّوْلَة. والأَخْذُ الشدِيدُ في كُلّ شيءٍ يُسَمَّىٰ بَطْشاً. يقالُ لغة: بَطَشَ يَبطُشُ ويَبطِشُ بَطْشاً.

- قول اللّهِ تعالىٰ: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾:

النَّقْبُ في اللُّغة: الثَّقْبُ. يقالُ لغة: نقبَ الشيْءَ يَنْقُبُه، أيْ: ثقَبَه. ومنه نَقْبُ المسالِكِ في الصُّخور والجِبال.

والنَّقْبُ: الطريق، أو الطريق الضّيّق في الجبل.

ويقال: نَقَّبَ في الأرض إذا ذهَبَ فيها.

والتَّنْقِيبُ: البحْثُ عن الأشياء المخفيّة، كأنَّ الباحِثَ عَنْها يَحْفرُ ويثْقُبُ حتَّىٰ يَصِل إليها.

فالمعنى يَدُورُ حوْلَ اسْتِعْمال أهل الْقُرونِ الْمُهْلَكه من كَفَّار القرونِ الأولَىٰ قُواهُمُ القادرة على الْبَطْشِ في البحث للوصُول إلىٰ ما يُريدون في البلاد.

● قول اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴾؟!

خَبَرٌ بأسلُوب الاستفهام، لانتزاع الجواب من المقْصُودين بالْخطاب، إذْ لاَ يملكونَ إلاَّ جواباً واحداً، وهو: لم يكنْ لهم محيصٌ.

وهذا من روائع الأساليب الإخبارِيَّةِ في فنُون الأدب البيانيّ.

﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴾؟!: أي: هَلْ من مَحِيدٍ، ومَعْدِلٍ، ومَهْرَبٍ؟!

والمعنى: هلْ كان لِلْمُهْلَكِين الأوّلين من أهل الْقُرون السابقة، حين أنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِم أسْبَاب إهْلاَكهم وتَعْذِيبهم من مَهْرَبٍ يَفِرُّونَ إليه.

يقال لغة: حاصَ فُلاَنٌ عن النازلة مثلاً يَحِيصُ حَيْصاً، ومَحِيصاً، وحَيَصَاناً، أي: حَادَ عَنْها، وعَدَلَ، والْمَحِيصُ: الْمَحِيدُ، والْمَعْدِلُ، والْمَهْرَبُ.

«مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زائدٍ للتوكيد، وهُوَ داخل على المبتدأ هنا بعد «هل».

● قـول الله تـعـالـى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾﴾:

جملة مؤكّدةٌ بحرف التأكيد «إنّ» و«الجملة الاسميّة» و«اللاّم المزحلقة» لأَنّ المقصودين بالخطاب تَتطلَّبُ حالُهم هذا التأكيد.

وجاء فيها استعمالُ اسْمِ الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ للدّلالة على أنّ إهلاك كُفَّار القرون الأولى إهلاكاً جماعيًا عقابيًا أَمْرٌ عظيم رفِيعُ الدلالة على عدل الله، وجليل حكمته، وكمال قُدْرته.

والمعنى: إنَّ في ذَلِكَ الأَمْرِ العظيم، ذي الخطَرِ الجسيم، الّذي تحقَّق فيه إهلاك قُرونٍ كثيرة، كذّبَتْ رُسُل رَبّها، وكذّبتْ ببلاغَاتِهم عنه، وكانوا أشَدّ بَطْشاً وَبَأْساً من صَنَادِيد مشركي مكة، الّذِين كذَّبُوا رسولَ الله محمداً وكذَّبوا بيوم الدّين، لَذِكْرَى.

الذِّكْرَىٰ: اسمٌ للتَّذْكِيرِ، ويَأْتِي بمعنىٰ التَّذَكُّر.

ومعلومٌ أنَّ إهلاك مُكَذّبي الْقُرون الأولى قد جاءت به الأخبار فأَعْلَمَتْ به، وبَقَاءُ نُصُوصِها مُتداوَلةً مُذَكّر به، وآثارُ دِيَارِهم شواهد على إهلاكهم، فهِيَ مُنبئَةٌ عنْهُ أوّلاً، ومُذَكّرَة به دواماً.

ومَنْ أحْضَر في تَذَكُّرِهِ هٰذِهِ الحقيقة، هزَّتْ قلْبَهُ بالموعِظَة، فاتَّعظَ، فأقْلَعَ عن كُفْره وتكذيبه، خوفاً من عقاب الله المُعَجَّلِ والمؤجّل.

ولٰكِنْ يُشْتَرط لحصول هذه الذِّكْرَىٰ، المؤَثّرة اتّعَاظاً وخوفاً من عقاب الله، وُجُودُ أحد أمْرَين:

الأمر الأوّل: أن يكونَ لِلإنسان قَلْبٌ واعٍ مُتَدَبّر، حرِيصٌ على اسْتِبصار سُنّةِ الله في عباده من آياته في كونه، فهذا الإنسان يَهْدِيه قلْبُه الواعي المتفكِّر المتدبّر، فيجعل سُنَنَ الله حاضرةً في تَذَكُّرِه آناً فآناً، وبذلك تكونُ واعظةً لهُ آناً فآناً.

والمرادُ بِالْقَلبِ عُمْقُ النَّفس، حيثُ تُوجَدُ أدواتُ التَّفكير والاسْتِنْباطِ

والْفَهم، ومَشَاعِرُ الرَّغَب والرَّهَبِ الواعيَةِ عن بصيرةٍ سليمة، لم تُفسِدْها الأهواءُ والشهوات وزيناتُ الحياة الدنيا، ولا أَقْوالُ المُضِلّين المزخْرفَةُ القائمة على تزييف الحقائق، وصناعة الأكاذيب.

الأمْر الثاني: أن يكون لذىٰ الإنسان استِعْدَادٌ ورَغْبَةٌ في أَنْ يُلْقِي سَمْعَه، لآيات التذكير بأنْبَاء المهلَكِين السَّابِقين فَيَتفهمها بإمعان، وأن يكون لدَيْهِ اسْتِعْداد ورَغْبَةٌ في أن يفتح عيْنَيْهِ لشُهودِ آثار بلادهم والتَّبَصُّر بها، وإدْراك أسْباب تدْميرها.

فإذا فَعَلَ ذَلِكَ بكُلِّ حِسَّيْ سَمْعِه وبَصَرِهِ نَفَذ التَّأثير إلى عُمْقِ قَلْبِهِ، فكانَتْ له ذِكْرَىٰ واعظة.

ونُلاحظ هنا أنَّ حاسَّتَي السَّمْع والْبَصرِ قد يقومان مقام القلب الواعي المتفكّر المتدبّر، ويظَلُّ القلْبُ مُحْتَلاً المرتبة الأولىٰ في هذا.

أَلْقَىٰ السَّمْعَ: أي: وَجَّهَ كُلَّ سَمْعِه لتلَقّي بيانات آيات الله بإمعان بشأن المهْلَكين السابقين.

وهُوَ شَهِيدٌ: أي: وهو مُعَايِنٌ آثارَ الْمُهْلَكِينَ السابقين مُعَايَنَةَ البصير الواعي.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من دروس السورة وهو الآية (٣٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَمَا مَسَّنَا﴾: الْمَسُّ أخفُّ وجُوهِ وُصُولِ سَطْحِ الشيء إلى سَطْحِ الشَّيْءِ الآخَر، كَمَسِّ ظاهرِ الْجِلْدِ بظاهر جِلْدٍ آخر، وأشَدُّ منْهُ النُّفُوذُ إلى ما تحت السَّطْح، وكلَّما زَادَ دُخُولُ الشَّيءِ في الشيء كَانَ أشَدَّ، كَدُخول السَّهْم في جَسَدِ الْمُصَاب به.

﴿مِن لُّغُوبٍ﴾: اللُّغُوب: التَّعَبُ والنَّصَبُ. و«مِنْ» حرف جَرٍّ زَائدٍ جِيء به لتأكيد التَّنْصيص على نفْي كُلِّ تَعَب.

كيف يَتْعَبُ رَبُّنَا وَمِنْ صِفَاتِهِ الثَّابِتَةِ له دَوَاماً، أَنَّهُ إذا أَرَادَ شيئاً فإنَّما يَقُولُ له: كُنْ فَيَكُون؟!!.

يُقَالُ لغة: لَغِبَ ولَغَبَ يَلْغَبُ ويَلْغُبُ لَغْباً ولُغُوباً، أي: تَعِبَ وكَلَّ، ونَزَلَ بِهِ إعياءٌ لَمْ يكُنْ.

أي: وَمَا مَسَّناً أَدْنَىٰ مَسٍّ مِنْ تَعَبٍ أو كَلَلٍ أو إعيْاء.

هذه الآية دَرْسٌ إلْحَاقيٌّ نَزَلَ في الْعَهْدِ المدني حين أَثار الْيَهودُ مقولَتَهُمُ الافترائيّةَ على اللّهِ عزَّ وجلَّ، الَّتي زَعُموا فيها أَنّ الله عزّ وجلّ بعد أن خلق السماوات والأرضَ في ستّةِ أيّامٍ جَلَسَ يَسْتَرِيح يَوْمَ السَّبت.

وَضُمَّ هذا الدّرْسُ إلى سُورة (قٓ) المكيَّة مُرَاعاةً لِلْمُنَاسبَةِ الفكرية، ولم يَنْزِلْ هذا الدرس في العهد المكيّ، لأنّ أهل مكّة ومَنْ حولهم من العرب لم تكن لدَيْهم مقولَةٌ عن الله تشبه هذه المقولة اليهوديّة.

وَوُضِعَتْ آيَةُ هٰذَا الدَّرْس بَعْدَ الانتهاء من الدروس الّتي اشتملت في السُّورَة على معالجة الْمُصِرّين على كُفْرِهم مِنْ مُشْرِكي مكة، لئَلاَّ يتصوّر المتدبِّرُ للقرآن المجيد أنَّ مقولة اليهود الافترائيّة هي إحدى شبهات مُشْرِكي مكة.

إنّ شُبْهَة أنّ اللّه قَدْ تَعِبَ وَكَلَّ، بَعْد أَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ والأرض وما

بينهما في سِتَّة أيَّام، وأنّه جَلَسَ ليستريح في اليوم السابع، فجعله مُقَدّساً، لَمْ تكن مَوْجودةً عند مُشرِكي العرب، فلَمْ تكُنِ الحاجَةُ داعِيَة لإنْزَال آيَةِ هٰذا الدَّرْسِ في الْعَهْدِ المكيِّ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ لليهودِ فيه مواجهةٌ لدعوة الرسول ﷺ.

ولمّا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينَة، ودَعَا اليهود فيها إلَىٰ الإسلام، أثار اليهود مقولَتَهُمُ الافترائيّة على الله، فأنزل الله عزّ وجل آيَة هذا الدرس في العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول ﷺ، وأمَرَ الوحيُ الرَّسُولَ ﷺ بأن يضَعَها في سورة (قٓ) وعقب الآية (٣٧) منها.

ولم يجعلها عَقِب: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾ لئَلاَّ يُفْهَمَ أنَّها مقولَةٌ قالَها عَرَبُ مكّة تَأثُّراً بمقالاَتِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أن يُهَاجر الرسول ﷺ إليها.

فكان تأخير موضِعِها الذي يُشْبه التعقيب والاستدراك، دليلاً على أنّها لم تكن مقولَةً عَرَبيَّة، وإنما كانت مقولة يهوديّة.

وقد رُوِي عن ابن عبّاس وقتادة أنّ هذه الآية من سورة (قٓ) مَدَنيّة، أمّا سائر آيات السورة فمن التنزيل في الْعَهْدِ المكيّ.

وقد دَسّ اليهود مقالتهم الكاذبة على الله عزّ وجلّ في سِفْرِ التكوين، في أوّل الإصحاح الثاني منه، فقد جاء فيه:

«فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. وَفَرَغَ اللّهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ، فَاسْتَرَاحَ في الْيَوْمِ السَّابع مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الّذي عَمِلَ. وَبَارَكَ اللّهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ. لِأَنَّهُ فِيه اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللّهُ خَالِقاً».

لَقَدْ كَذَبُوا عَلَىٰ الله، فإنّ اللّهَ عزَّ وجلّ لا يُتْعِبُهُ شَيْءٌ، حتَّىٰ يحتاجَ

إلى الاسْتِرَاحَةِ كمَا تحتاجُ مَخْلُوقاتُهُ الّتي خَلَقَها بصفاتٍ تحتاجُ معَها إلى الاسْتِرَاحَةِ إذا عَمِلَتْ عملاً فيه اجتهادٌ وكدْح وكدّ.

إنّما أمْرُهُ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه: إذَا أراد شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فيَكُون.

ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ فَقَاسُوهُ على أنفسهم، وتَعَالَىٰ اللَّهُ عمَّا قالُوا عُلوّاً كبيراً، وسُبْحانه عمَّا يَصِفُون.

* * *

(١٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني عشر من دروس السورة وهو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ (٤٠) وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾.

القراءات وتوجيهها:

- قرأ نافع، وابْنُ كثير، وحمزةُ، وأَبُو جَعْفَرٍ، وخَلَفٌ: ﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾ بكسر همزَة [إدْبار] وهو مصْدَرُ أدْبر بمعنى ذهب وولّى، أي: بَعْدَ انتهاء الصلاة، وهذا يعُمُّ كلَّ صلاة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ بفتح همزة ﴿وَأَدْبَـٰرَ﴾ وهو جَمْعُ «دُبُر» ودُبُر الشيء في اللُّغة عَقِبُهُ ومؤخَّره، أي: في أعقاب الصلوات.

أُطْلِق لفظ «السُّجودِ» وأُرِيد به الصلاة، لأنَّ السُّجُود أعْظَمُ أرْكان الصَّلاةِ الْعَمَليَّةِ، فأقرب ما يكون العبْدُ من ربّه وهُوَ ساجِدٌ له في الصَّلاةِ، ومُؤدّىٰ القراءتين واحد. وهما تفنُّنٌ في التعبير جميل.

- وقَرأ نافعٌ، وابْنُ كثيرٍ، وابْنُ عامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوب:

﴿تَشَّقَّقُ الأَرْضُ﴾ بتَشْدِيد «الشين» أصل الكلمة «تَتَشَقَّقُ» فأُدغِمَت التاء بالشّين فصَارَت شيناً مُشُدَّدَة، وهذا وجْهٌ عَرَبيٌّ لنُطْقِ الكلمة، يؤكّد معنى التكلّف في دلالة صيغة «يتَفَعّل».

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشين، أصل الفعل «تتشقق» حذفت التاء تخفيفاً، وإشارة إلى عدم الحاجة إلى التكلف في الحدث.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فبعض أماكن من الأرض صُلْبَةٌ قَاسِيَةٌ، يحتاج خُروجُ الموتى منها إلى أَنْ تتشقَّقَ الأرض عنهم بتكلُّفٍ وشِدَّةٍ، فجاءت قراءة ﴿تَشَّقَّقُ﴾ دالَّة على هذا، فالتكلّفُ من دلالات صيغة فِعْل «تَفَعَّلَ يَتَفَعَّلُ» ويزيد بالإدغام.

وبعْضُ أماكن من الأرْضِ رخوةٌ ليّنة، لا يحتاج خروج الموتىٰ مِنْها عند البعث إلاّ أَنْ يحْدُثَ فيها تشقُّقٌ يَسِير لا تكلُّفَ فيه، فجاءت قراءة: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشّين وحذف التاء دالّة على هذا.

- كلمة [يُنادِي] جميع القرّاء يَحْذفُونَ في الوصل يَاءَ الفعل الأخيرة، لالْتقاء السّاكنين.

وأمَّا في الوقف فلِلْقُرَّاءِ فيها وجْهان: الإثبات والحذف.

فابْنُ كثير لَهُ فيها الوجهان معاً. وأَمَّا يَعْقُوبُ فَلَهُ في الوقفِ وجهُ الإثبات فقط، وأمّا باقي القرّاء العشرة فلهم في الوقف وجْهُ الحذْف فقط.

وهي وجوه من الأداء تَبعَ فيها القُرَّاءُ ما تَلقَّوَه، إلى رسُول الله ﷺ، مُعَلِّم نُطْقِ كتاب اللّهِ الّذِي أنْزِلَ على سبْعَةِ أحرف.

- وكلمة [**المنادي**] للقرّاء في يائها وجهان: الإثبات والحذف.

أمّا نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، فقد أثبتوا الياء في الوصل، وحَذَفُوها في الوقف، بحسب ما تلقَّوْهُ من أداء.

وأمّا ابْنُ كثير، ويعقوب، فقد أثبتا الياء في الوصل والوقف، بحسب ما تلقَّيا من أداء.

- وأمّا باقي القرّاء فقد حذفوا الياء في الوصل والوقف بحسب ما تلقوا من أداء.

- وعبارة: [**وَعِيدِي**] للقرّاء في ياء المتكلم منها وجهان: الإثبات والحذف، بحسب ما تلقَّىٰ كُلٌّ مِنهم.

فقراءة «وَرْشٍ» على إثبات الياء في الوصل، وحذفها في الوقف.

وقراءة «يعْقُوب» على إثبات الياء في حالتي الوصل والوقف.

وقراءة باقي القرّاء العشرة على حذف الياء مطلقاً وصلاً ووقفاً.

التدبّر:

هذا هو الدرس الأخير من دُروس السّورة، وهو يشتمل على معالجة حالة الرسول ﷺ النفسيّة والقلبية في المقصد الأوّل، تجاه ما يلقاه من قومه الّذين كذّبوه في نُبوَّته ورسالته، وكذّبوا بِبَلاَغَاته عن ربّه.

ويشتمل في المقصد الثاني على تربية حَمَلَةِ رسالة الرَّسُولِ ﷺ من أمّته.

ويشتمل في المقصد الثالث على متابعة معالجةِ مُكذّبي الرَّسُول،

والمكذّبين بيوم الدّين، مع الإعراض عن مواجهتهم بالخطاب، إذْ ظاهر الخطاب مُوجَّهٌ للرَّسُول ﷺ.

- قول الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

في هٰذه الجملة تَرْبيةٌ من الله عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ، بأن يَصْبِر على مقالات المكذبين له من قومه، الَّتي يتّهمونه فيها، بالكَذِب في ادّعائه أنّه نبيُّ الله ورسولُه، وفي قَوْله: إنَّ القرآن الّذي يتْلُوهُ عليهم هو من عند الله عزّ وجلّ، أمرَهُ اللّٰهُ بأنْ يبلّغَهُ للناس، وفي بياناته عن البعث ويوم الدّين(١).

ففي الصبر تدريب للإرادة النفسيّة، يُكْسِبُها قُوّةً على تَحمُّلِ المَكَارِه، ومُواجَهة الصُّعوبات، ومقاومة هجمات المصارعين من المخالفين والأعداء، وقُدْرَةً على عدم الاكْتِراثِ للمزعجات النفسيّة، وعدم المبالاة بالمثيرات الوافدات من الخارج.

إنّ الصَّبرُ يُكتَسَبُ بالتَّصبُّر، والْحِلْمَ يُكْتَسَبُ بالتَّحلُّم، والْعِلْمَ يُكْتَسَبُ بالتَّعلُّم، وكلُّ ذَلِك على مقدار ما لدى الإنسان من قابليّةٍ فِطْرِيَّةٍ للاكتساب، والناسُ مُتَفَاضِلُون فيما بينهم في قابليّاتِ اكْتِسَابِ الفضائل، والرَّسُولُ محمّد ﷺ أكْمَلُ الناس خُلُقاً وَفطْنَةً وعقلاً، وأكْثَرُهم قابليّة لاكتساب الفضائل والاستزادة منها، بحسب الفطرة الرَّبّانيَّة الَّتِي فطَرَهُ اللّٰهُ عَلَيْها.

والخطاب الموجّه للرَّسُول في هذا، مُوَجَّهٌ تبعاً لحمَلَةِ رسالة الرَّسُولِ من أُمَّتِه، فَهُمْ مأمورون بالصَّبرْ، كُلَّما واجَهُوا ما يُسوؤهم من الّذِين يُؤَدُّونَ

---

(١) انظر «المقولة الثالثة» من «الفصل الأول» من «الباب الثاني» من كتاب «فقه الدعوة إلى الله» للمؤلف. وهي مقولة حول النّصوص القرآنية الموجهة للرّسول، التي يأمُرُه الله فيها بالصّبر، ففيها بيان شامل لكلّ النصوص الموزعة في السّور بحسب نجوم التنزيل.

الرّسالةَ الّتي يَحْمِلُونها لهم، دعْوَة إلى اللّهِ، أو نُصْحاً أو إرشاداً، أو أمْراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

إنّ الإرادة متىٰ بَلَغَتْ من القوة مبلغ الصُّمود الحكيم، تحطّمَتْ على كتلتها الألماسيَّة قُرُونُ أقوال مقاومي دعوة الحق، ومصارعيها، مهما كان فيها من شتائم واتهامات، وألوان هُزْء وسُخْرية.

● قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾.

بعْدَ أنْ أمَرَ اللّهُ رسُولَهُ ﷺ بالصَّبْر، ويُلْحَقُ به كُلُّ حَمَلَةِ رِسَالَتِه من أُمّتِه، أعطىٰ اللّهُ رسُولَهُ ومن هم مُلحَقُون به، الدَّواءَ اليوميّ الّذي يساعِدُ على التحلّي بالصَّبْرْ، ويصْرِفُ عن النفْس والقلْب والفكْر المشاعرَ والأحاسيس والأفكار غير السّارّة، الّتي تُؤلِمُ في العادةِ الصّادقَ حينما يُكَذَّب، والأمِينَ حينما يُخوّن، والْعَلِيمَ حينما يُجهّل، والْهَادِيَ المهتَدِيَ حينما يُضلَّل، والذَّكِيَّ الْحَصِيفَ العاقل الرّصِين حَامِلَ لِوَاء الحقّ والدَّاعِيَ إليه، حينمَا يُتَّهَمُ بالجنُون.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: أي: وسبّح رَبَّكَ تَسْبِيحاً مقْتَرِناً ومُلْتبساً بحَمْدِه، ومصاحباً له.

تسبيح الله: هو تَنْزِيهه وتقديسُه عن كلّ ما لا يليق به جلّ جلاله، من صفات النقص الّتي تتنافى مع أزليّته ووحدانيَّتهِ، وكمالِ صفاته الوجودية فالتسبيح تمجيدٌ بالصفات السلبيّة، بخلاف «التَّوْقِير» فهو التمجيد بالصفات الوجودية.

والحمد لله: هو الثناء على الله بما هو له أهْلٌ من صفاتِ كمالٍ، وبِما هو مُنَزَّهٌ عنه من صِفاتِ نقص.

والباء في: ﴿بِحَمْدِ﴾ معناها الملابسة والمصاحبة والمقارنة.

والعبارةُ الّتي يتحقَّقُ بها المأمور به من التسبيح المقرون بالحمد لها عدّة صيغ:

- سُبْحَانَ اللَّهِ والحمدُ لله.
- سُبْحَانَ اللَّهِ وبحَمْدِه، وهذه العبارة مختصرة من جُمْلَتَين تقديرُهما: أُسَبّحُ سُبْحانَ الله، وأَحْمد بحمْدِه.

وعبارة «سُبْحان الله» عبارة ارْتضىٰ الله لعباده أن يذكروه بها في تنزيهِ ذاته وصفاته عمّا لا يليقُ به.

وهاتان العبارتان مأثورتان، ومن المأثور في التسبيح: «سُبْحانَ رَبّي ـ سبحان الله رَبّ العرش عمَّا يَصِفون ـ سُبْحانَ رَبّكَ رَبِّ العِزَّةِ عما يصفون ـ سبحان الّذي بَيدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ وَإليه تُرْجَعُون..» إلى غير ذلك من عبارات تتضمَّن تسبيح الله.

واخْتير من أسماءِ اللَّهِ اسْمُ «رَبّ» في ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لأنّه الاسم الجامع لمعاني أسماء الله الحسنىٰ ذات العلاقة بالخلائق.

وجاء في هٰذا العلاج التوصيةُ باستعماله في جرعاتٍ يَوْميّة، بأوقاتٍ مبيَّنة في النصّ، هي:

(١) ما قَبْل طُلُوع الشمس، وهو وقت صلاة الفجر.

(٢) ما قَبْلَ غُرُوب الشمس، وهو الوقت الذي جاء تحديده فيما بعد لصلاة العصر.

(٣) في وقتٍ ما من اللّيل.

(٤) عَقِبَ الصّلوات.

وقَد أنزل الله هذا النّصّ قبل فرض الصّلوات الخمس، فالمراد بعبارة ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ بَعْدَ الصّلوات الّتي كان يُصَلّيها الرّسول ﷺ قبل فرض

الصَّلَواتِ الخمس الذي كان في ليلة الإسراء، وكان يُصَليها مثله من آمن به ودخل في الإسلام.

وعِلاَجُ النَّفْس بالتَّسْبِيح والذّكر لله عزّ وجَلَّ عِلاَجٌ عظيمٌ بالنِّسْبة إلى المؤمنين، فهو مُهَدِّئٌ، وغذاءٌ للجُمْلَة العصبيَّة يَنْبَعث من عُمْقِ الفؤاد، وصارِفٌ للفكر عن الاشتغال بما يُقْلِقُ ويُحْزِنُ ويُؤْلم.

إنّ الله عزّ وجلّ يُمِدُّ الذَّاكرين له، المسبّحين بِحَمْدِه بِمَدَدٍ من لَدُنه، يُريحُهم ويُسْعِدُهم، ولا سيما إذا كانت العوارض المؤلمة عوارضَ نَفْسيَّةٍ.

● قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾:

ظاهر الخطاب في ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ مُوجَّهُ للرَّسُول ﷺ، والمطلوبُ أن يَسْمَعه بيَانٌ رَبَّانِيٌ يَدُلُّ على لقطات لم يأت بَيَانُها فيما سبقَ من أحْدَاث بَعْثِ الخلائق إلى يوم الدّين، للحساب، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ويبدو أنّ المقصودَ ضمْناً بالخطاب بصيغة الأمرِ: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ هو منكر البعث، وهو خطاب موجّه لكل منكر على التناوب بأسلوب الخطاب الإفرادي، ولكنْ أعْرضَ الله عن مواجهته بالخطاب المباشر لعناده، ووجّه الخطابَ للرَّسُول بقوّة.

وهذا أسْلُوبٌ من أساليب علاج المكذبين الّذين يتّهمُونَ الرَّسُولَ بأنَّهُ يقولُ كلاماً غَيْر معقول، ويُخْبر بأنباءِ غير ممكنة الحصول، فجاء توجيه الخطاب الرَّبَّانِيِّ لَهُ مُبَاشرةً، بصورة تُشْعِر المكذّبين بأنّ الله يُرِيد تثبيت رسُوله على الإيمان بيوْم الدّين، مهما واجَهَ من كبراء قومه من تكذيب، فعليه أن لا يعْبأَ باتّهاماتهم وشتائمهم له.

أي: إنَّ محمّداً بَرِيءٌ من صناعة النّبأ، بل نَبَأُ يوم البعث للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يُمْلَىٰ عليه تنزيلاً من عند الله بارئه، وهذا

الخطابُ الرَّبَّانيُّ يُوَجَّه له بقوَّة وشدّة، فهو المخاطب به أوّلاً، ويجب عليه أن يؤمن به قَبْلَ سَائِر المكلفين أنْ يُؤْمِنُوا به، ثمّ هو مكلّفٌ أن يَدْعُو الناس إلى الإيمان به.

وهٰذا أسْلُوبٌ علاجيٌّ للإقناع بصِدْقِ الرسول ﷺ أكْثَر نفاذاً إلى عُمْقِ أَفْئدة مُكَذِّبيه، وإن أصرُّوا على مَوْقفهم عناداً ومكابرة.

والمعنى الذي يُومِئ إليه هذا الأسلوب يمكن التعبير عنه بما يلي: اسْتَمِعُوا أيُّها المكذّبون، هذا رَسُولُنَا نُخاطبهُ بهذا الخطاب الجازم الحازم بشَأْن بَعْض أحداث يوم الدّين، تثبيتاً له، بَعْدَ أن اتهَمْتموه وشَتَمْتُمُوه.

يُضَافُ إلى هذا أنّ من أساليب خطاب الأمّة خطابَ قائدها، أو إمامها أو رسولها.

فَخِطَابُ الله لرسوله في أَمْرٍ من أمور الدّين العامّة الّتي لا خُصوصِيَّةَ للرسول به، هو خطابٌ لكلّ أمّة دَعْوَته، مَن استجابَ ومَنْ لم يستجب.

وقد جاء في هذا البيان الرَّبَّانِيّ بيانُ ثلاثة أحداث متتاليات من أحداث البعث إلى يوم الحساب وفصل القضاء.

الحَدَث الأوّل: نداءٌ يصدرُ من مكانٍ قريبٍ يناديه منادٍ بأمر الله، لبَعْث الموتَىٰ إلَىٰ الحياة الأُخرى، وهٰذا النداء يَصِلُ إلى كُلّ مبعوث.

فهل هو نَفْخُ الصُّور النفخة الثانية، أو هو نداءٌ يَحْدُث بَعْدَها؟ الله أعْلَم، إذْ لَيْسَ لدينا بيانٌ عن الرَّسُولِ ﷺ في هذا، والنَّصّ يحتمل الأمْرَين، دلَّ عليه: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

الحدث الثاني: سماعُ كُلِّ الْمَبْعُوثين صَيْحَةَ النداء بالْحَقّ، وهو الخروج من الأجداث، والتوجُّه لمحكمة الْعَدْل الرَّبَّانية، دلَّ عليه: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ وبهذا السّماع يحْيَونَ كما يَسْتَيقظ النائم من نومه.

الحدث الثالث: استجابةُ المبْعُوثين للمطلوب منهم في النداء، إذْ يَخْرُجونَ من أجداثهم، ويتوجَّهُونَ لمَا أُمِرُوا بأنْ يتوجَّهُوا له، دلَّ علَيْه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ بعد رحلة البرزخ بين الموت والبعث.

فالمعنى: يَوْمُ النّداء، ويَوْمُ سَمَاع الصَّيْحة، هُوَ يَوْمُ الخروج، لملاقاة ظروف الحياة الأخرى. وبهذه المناسبة جاء البيان التالي:

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾.

في هذه الآية تذكير مع تأكيد مُشَدَّدٍ مقرون باستعمال ضمير المتكلّم العظيم خمْس مرّات، بعُنْصُرَيْن من عناصر القاعدة الإيمانيّة:

العنْصر الأول: أنَّ المحيي والمميت هو الله وحده بعظمة ربوبيّته، لا شريك له، فَمَنْ أحْيَا أوّلاً ثُمَّ أمات، فلا عجَبَ أن يُعيدَ من أماته إلى حَيَاةٍ أخرىٰ، ليُلَاقي حسابه، وجزاءه على ما قدّم في الحياة الأولى، الّتي كانت رِحْلَةَ امتحانه.

العنصر الثاني: أنّ المصير بعد رحلة الابتلاء في الحياة الدّنيا، إلى الرّب الخالق، الذي خلقَ الناس ليبلُوَهم أيُّهم أحسن عملاً.

هنا يردُ سؤالٌ فلسفيٌّ عقلي وهو: ما معنى كون المصير إلى الله عزّ وجلّ، والكائنات جميعُها خاضعة لسلطان ربوبيته دواماً في كلّ مراحل وجودها؟.

- ألسنا نحن الآن خاضعين لسلطان ربوبيته؟!!
- ألسنا في رحلة البرزخ خاضعين لسلطان ربوبيته؟!!
- وكذلك نحن يوم الحساب وفصل القضاء خاضعون لسلطان ربوبيته جلّ جلالُه، وعظم سلطانه.

إذَنْ فما معنى المصير إليه والمخلوقُ في كلّ مراحل وجوده حيًا وميتاً خاضع لسلطان ربوبيته دواماً؟!!

أقول:

لدى التأمُّل بتدبُّرٍ عميق نلاحظُ أنّ الممتَحَنِين المكلّفين في الحياة الدُّنيا، قد أعطاهُم الله جلّ جلاله حرِّيَّة الإرادة، التي يختارون بها ما يشاءُون من طريق الخير، أو مسالك الشرّ، وسخّر لهم في ذواتهم وفي الكون من حولهم الأشياءَ، والقوىٰ التي يُنفّذون بها مراداتهم، ما لم تتعارض مع قضاء الله وقَدَره العامّ، فهم يشْعُرُون بأنّ مصائر مطالب نفوسهم بأيديهم.

لكنَّهم يوم الحساب وفَصْل القضاء لا تكون لهم حرّيّة اختيار، إذْ كُلُّ ما يجري في ذلك اليوم خاضعٌ بالجبر لسُلْطان ربوبيَّة الرَّبّ جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه، وهذا مصير إليه وحْدَه بَعْدَ رحلة التخيير والتسخير، وقد كان الممتَحَن في هذه الرحلة يختار لنفسه على ما يشاء، إذْ جعل الله له ذلك، دون أن يتدخّل بالجبر فيما منَحَهُ فيه التخيير.

إذَنْ: فإلى اللّهِ وحده دون تَدَخُّل إرادة المخلوق يومئذٍ يكون المصير، على أنّ المصير إلى الله وحده يبدأ منذ انتهاء رحلة الحياة الدنيا، وابْتِداء رحلة البرزخ بين الموت والبعث، لأنّ بعْضَ الجزاء الجبري يبدأ عقب الموت مباشرة.

قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآية إضافة بيان ثلاثة أحداث أخرى من أحداث البعث إلى يوم الحساب وفصل القضاء.

الحدث الأول: تَشقَّقُ الأرض عَنِ الّذين كانوا مَوْتى لِيَنْبُتُوا منها كما يَنْبُتُ الزَّرْعُ في الأَرْض، دلَّ على هذا الْحَدَث: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ وسبق توجيه قراءتَيْ: ﴿تَشَقَّقُ﴾ **[تشّقّقُ]**.

الحدَثُ الثاني: خُرُوجُهُمْ مِنْ الأَرْض سِرَاعاً، دون إبطاء في الزّمن،

وهو يَدُلُّ على أنّ إنْبَاتَهُمْ في الأرض لبعثهم لا يحتاجُ زمناً طويلاً لتتكامل أجسادهم فيه، بل هي تتكامل بِسُرْعَة، دلَّ على هذا الحدث: ﴿سِرَاعًاۚ﴾ أي: خارجين من الأرْض سراعاً.

سِرَاعاً: جَمْعُ سَرِيعٍ، وجمع سَريعة. يقال لغة: سَرُعَ يَسْرُعُ سَرَاعَةً وسُرْعَةً وسَرْعاً، أي عَجِلَ، فهو سَرِيعٌ، وهي سَريعة، والجمع لهما «سِرَاع» وجاء اللفظُ في النص منصوباً لأنه حالٌ من الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ وقد يدلُّ هذا الْحَدَث على أنّ خَلْقَ أجسادهم يتكامل قبلَ أنْ تَعُودَ الأرواح إليها، والله أعلم. ثم تعود الأرواح إلى أجسادها.

الحدث الثالث: أنّهمْ بَعْدَ بَعْثِهم يُحْشَرُون، أي: يجمعون في المحشر، المخّصص لتجميعهم، ولو كان بعضُهُمْ قد نَبَتُوا في الأمكنة التي مَاتُوا فيها، بأطراف الأرْض بعيدين عن أرْض المحشَر.

وحَشْرُهم يكون في مكان جامع بحسب أصنافهم وزُمَرِهم.

الحشْرُ في اللّغة: الْجَمْعُ والسَّوْق. يُقَالُ: حشَرَ الأمير جُنْدَهُ يَحْشُرُهُمْ وَيَحْشِرُهم حَشْراً، أي: جَمَعُهم وساقهم.

ويوم الحشر، ويوم الْمَحْشَرِ، هو يوم جمع الناس وسوقهم للحساب، وفصْل القضاء، يوم القيامة، وبعدهما يكون تنفيذ الجزاء.

دلَّ على حدَث الحشر قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ والمشار إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مطويٌّ في النصّ غير مذكور، والتقدير: يوم تشقَّقُ الأرض عنهم، ويخْرُجون منها سِرَاعاً، ويُحْشَرُون في الأرْضِ المخصَّصَةِ للحَشْر، ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ، ومثل هذا الطيّ كثيرٌ في القرآن المجيد، وهو من الإيجاز المعروف والمتكرّر في أساليبه.

إنّ الخَالق القادر على أن يَخْلُقَ من العدم، والقادِرَ على الإعادة إلى الحياة بعد الإماتة، قادِرٌ على حشْرِ الناس في الأرض المخصّصةِ لجمع

الناس، توطئة لمحاسبتهم وفصل القضاء فيما بينهم، وهو حشْرٌ يَسيرٌ عليه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنَّ الناس يُحْشَرُون يَومَ القيامة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً (أي: غَيْرَ مَخْتُونين).

روى البخاري بسنده عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها. قالت: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً».

قالت: فقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، الرّجال والنساء يَنْظُرُ بعضُهُم إلى بعض، فقال:

«الأَمْرُ أَشدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاك».

● قول اللَّهِ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

● ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾: في هذه الجملَةِ تسليةٌ وطمأنةٌ من الله عزّ وجلّ، بعظمة ربوبيته ـ أخْذاً من ضمير المتكلّم العظيم ـ للرسول محمّد ﷺ، بشأن مقالات كُبَراء كفّار قومه فيه، المؤذيةِ لنَفْسه، بما فيها من اتّهامات وشتائم له.

أي: نَحْنُ أعلم منكَ ومن كُلّ عَلِيمٍ بما يقُولونَ من مقالات في تكْذِيبِكَ واتّهامِكَ وسِبَابك.

وفي هذا كِنَايَةٌ عَنْ أنه جلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه سيَنْتَصِرُ له منهم، وفيه أيضاً تهديدٌ ووعيدٌ من الله لهم، فلْيَتَرَقَّبُوا انتقام الله منهم إذا لم يَتُوبوا ولَمْ يُقْلِعُوا عن إيذاء رسوله، ومقابلتهِ على دعوته لهم بما يكْرَه.

● ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾: في هذه الجملة يُبَيّن اللَّهُ عزّ وجلّ لرَسُوله محمّد ﷺ أنّه رسُولٌ يُبلّغُ النّاسَ ما أَمَرهُ الله بأن يبلّغَهُمْ إياه، وأنّه

لم يُكلَّفْ أن يُجْبِرَ الناسَ على الإيمان والإسلام، فما هو مُرْسلٌ لأن يَكُونَ جبّاراً مُسَلَّطاً عليهم بالْقَهْر، ومُكْرِهاً لهم على اتّباعه.

أي: إنّهم في رحلة امتحان، والامْتِحانُ من لوازِمه العقليّة التخيير، أمّا الْجَبْرُ والإكْراهُ والْقَهر فأُمورٌ تَتَناقَضُ معَ الامتحان والتخيير، ولو شاء الله جل جلاله ذلك لسَلَبَهُم التخييرَ، ولَجَعَلَهُمْ مجبورين، وعندئذٍ فلا بُدَّ أن يكونوا جميعاً مطيعين له، لا يعْصُونَ اللّهَ فيما أمَرَهم به، ويَفْعَلُونَ دواماً مَا يُؤمَرون، كالملائكة، لكنهم نوع آخر، إنهم مخلوقون للامتحان، فهم ذَوُو إراداتٍ حُرَّةٍ تختارُ، دُونَ جَبْرٍ ولا إكراه.

- ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾: أي: وبما أَنَّكَ لَسْتَ علَيْهم بجبّارٍ مُكْرِهٍ لهم على الإيمان والإسلام، وَقَدْ سبَقَ أَنْ بلَّغْتَهُمْ مَا أَمَرَكَ الله بأن تُبَلِّغَهُمْ إيّاه، وهو مَا أنزلْنَاهُ عليك في نجوم التنزيل السابقة لسورة (قٓ) فإنَّ وظيفَتَكَ بالنِّسْبةِ إلى هٰؤلاء المكذبين المعاندين، هي التذكير بما سبَقَ أن بلَّغْتَهُمْ إياه، وهذا التَّذْكِير تُوَجّهه فقط لِمَنْ لم يَبْلُغوا إلى حالةٍ ميْؤوس منها. أمّا الذين بَلَغُو إلىٰ حالة ميؤوسٍ منها فَلاَ تُضِعْ وقْتَكَ وجَهْدَكَ بتذكيرهم.

إنّ الميؤوس من استجابتهم لدعوتك هم الذين تُدْرِكُ من تصرّفاتهم أنهم لاَ يَخافُونَ وَعِيدَ الله بالعقاب، بل يعاندون وَيُكابرون، وأنت لا ترجو مستقبلاً أن يحْصُل لديهم الخوف من وعيد الله وعقابه.

هذا ما يَدُلُّ عليه فعل المضارع ﴿يَخَافُ﴾ أي: تشعر بأنه يخاف الآن، أو ترجو أو تطمع بأن يخاف مستقبلاً، لأمارات خير تلاحِظُها فيه.

وبهذا انتهى تدبر السورة على ما فتح الله به.

* * *

ملاحق لسورة (قَ)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثاني: الوصف بالبركة في القرآن المجيد.

(١٧)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغية من السورة

في سورة (قَ) بلاغيات متنوعة، فتح الله عَليّ باسْتِخْراج ما يلي مِنها:

أولاً:

الْقَسَمُ بما يصْلُح لأنْ يكون دليلاً على صحة المقْسَم عليه وصدقه.

فقد جاء في صدر السورة القسم بالقرآن المجيد على أنّ محمّداً رسول الله حقًّا وصدْقاً، وعلى أنّ خبر البعث إلى يوم الدّين حقٌّ وصِدْق.

ومن المعلوم أنّ إعجاز القرآن في مبانيه وفي معانيه، دليلٌ قاطع لدَىٰ من تلقَّاه بَوعْيٍ وتدبّر، على صِدْق كون محمّدٍ نبيّاً ورسولاً مرسلاً من الله العزيز الحكيم، وعلى صِدْقه في كُلّ ما يبلّغه عن ربّه، ومنه نبأ البعث بعد الموت إلى يوم الدين.

ثانياً:

الإيجاز البديع القائم على طيّ عبارات يمكن أن يدرك المتدبر دلالاتها بالاستنتاج، إذْ تقتضيها المذكُورات في النّص، أو يُتَوَصَّل إليها باللَّوَازم الفكريّة، أو بدلالة التقابل التكامليّ في العبارة أو العبارات:

- فمن المطويّات: حذْفُ جواب القسم: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ وتقديرُهُ: إنَّ محمّداً لَرَسُول الله حقًّا وصِدْقاً، وهو صادقٌ فيما بلّغ عن ربّه، ومنه نبأ البعث إلى يوم الدين بعْدَ الموت.

- ومن المطويّات: ولم يستفد المكذّبون من دلالَة إعجاز القرآن، ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ . . .﴾.

- ومن المطويات: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ سَوْفَ نُرْجَعُ إلى الحياة مرّة أخرى ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

- ومن المطويات: من شُبَه هؤلاء الكافرين لإنكار البعث، توهُّمُهم أنّنا لا نَعْلَمُ ما يتفرَّقُ في الأرض مِنْ رُفَاتِ أجساد الموتى حتّى نَجْمَعَها ونُعيد خَلْقَها، والحقُّ أننا ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

- ومن المطويات: إنَّ مُنكري رسالة محمد من قومه ومنكري البعث، لم يكونوا باحثين عن الحقّ، ولا شاكّين من عُمْقِ قُلوبهم في صِدْق الرسول وصِدْقِ بلاغاته عن ربّه ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

- ومن المطويات: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ إنَّ الواقع المشاهد يَدُلُّ عَلىٰ أنّنا لَمْ نعجز بالخلْق الأوّل، فقد أوجدناه، ومَا نزال دواماً نُهَيْمِنُ عليه بسُلْطَانِ رُبُوبِيّتنا ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

- ومن المطويّات: ومن شبههم التي جعلتهم يُنْكرون الجزاء يوْمَ الدّين، تَوَهُّمُهم أننا لا نُحِيط علماً بكلّ أعمالهم، ولا سيّما ما يستخفون به، وما تُكِنُّهُ صُدُورهم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ﴾ بعِلْمِنا ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ فَنَحْنُ نحيط بكل شيءٍ عِلْماً ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ من الملائكة ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قعيد ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ وما يَعْمَلُ من عَمَلٍ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

- ومن المطويات: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ مِنْ شياطين الجنّ ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فاختصم الكافر وقرينه من شياطين الجنّ فـ﴿قَالَ﴾ الله ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

- ومن المطويّات: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ وحين أنزلْنا عليهم وسائل التعذيب والإهلال ﴿هَلْ﴾ كَانَ لَهُمْ ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾.

- ومن المطوِيَّات: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ فَيَخْرُجون ﴿سِرَاعًا﴾ ونَسُوقهم ونجمعُهم في الأرض المخصّصة محشَراً، مهما نأت عنه الأجداث الّتي كانوا فيها ف ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

ثالثاً:

استعمال ضمير المتكلّم العظيم في البيانات الّتي تتضمَّن التحدُّثَ عن ظاهرةٍ من ظواهر ربوبيَّة الله جلَّ جلالُه، وعَظُم سُلْطانه، نَجِدُ هذا فيما يلي:

﴿بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ و﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ و﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ و﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ و﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ و﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ و﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ و﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ و﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ و﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ و﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣﴾ و﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ و﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

رابعاً:

تأكيد الخبر ببعض المؤكّدات، لأنّ مقتضى حال المقصودين بالْخطاب يستَدْعي التأكيد، ونجد هذا فيما يلي:

(١) التأكيد بالْقَسَم في عبارة: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

(٢) التأكيد بـ «قد» في عبارَتي: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ و﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

(٣) التأكيد بـ «لقد» في عبارة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وفي عبارة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ وعبارة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

(٤) التأكيد بالمؤكّدات: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحلقة» في عبارة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾.

(٥) التأكيد بمؤكّدين: «إنّ والجملة الاسميّة، أو ضمير الفصل» في عبارة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾.

(٦) التأكيد بحرف الجرّ الزّائد «مِنْ» في عبارة: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ وعبارة: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

خامساً:

تقديم الأحداث المستقبليَّةِ مُسْتَقْطَعَةً من وقائعها التي سوف تَحْدُث، كأنّها أحْداثٌ تَجْرِي الآن، أو كأنَّها أحداث جَرَت فيما مضَىٰ، لتأكيد أنَّها ستقَعُ حتماً، وهذا فَنٌّ من مبتكراتِ الأساليب البيانيَّةِ في القرآن المجيد[1].

ونجد هذا الْفَنَّ فيما يلي من السّورة:

(١) ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

(٢) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾.

(٣) ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

(٤) ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

(٥) ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

(٦) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) انظر بيان هذا الفنّ في كتاب «البلاغة العربيّة» للمؤلف ج/ ٢ ص/ ٣٤٦.

(٧) ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ . . .﴾.

سادساً:

التضمين: وهو تضمين كلمة معنى كلمة أخرى، وجعل الكلام بَعْدَهَا مبنيًّا علىٰ الكلمة غير المذكورة، كالتعدية بالحرف المناسب لمعْنَاها فتكون الجملة بهذا التضمين بقُوّةِ جملتين، والعبارة بقُوَّةِ عبارَتين، دلَّ على إحداهما الكلمة المذكورة التي حُذِفَ ما يتعلَّقُ بها، ويُقَدَّرُ مَعْنَاهُ ذِهْناً، ودَلَّ على الأخرى الكلمة الّتي جاءت بَعْدَها المتعلّقة بالكلمة المحذوفة الملاحَظِ معناها ذِهْناً.

وهذا التضمين فَنٌّ رفيعٌ من فُنُونِ الإيجاز في البيان القرآنيّ.

ونجد في سورة (قٓ) من هذا التضمين ما يلي:

(١) في عبارة: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ أي: ذَلِكَ ما كُنْتَ تحِيدُ عنْه نافراً من كلّ بيان حوله.

(٢) في عبارة: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي: لقد كُنْتَ في غَفْلَةٍ غَارِقاً في متاع الحياة الدُّنيا، نافراً مِنْ كُلّ بلاغٍ ودليلٍ يتعلّق بيوم الدّين، ومن كُلّ تَذْكير يُذَكّرك به.

سابعاً:

الكناية: وهي اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له في اصطلاح التخاطُب، للدّلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحب له، أو يُشار به عادةً إليه، لما بينهما من الملابسة بوجه من الوجوه.

ونجد الكناية في سورة (قٓ) فيما يلي:

(١) في عبارة: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ كنايةً عن عبارة: لم أَمْتِلئ، جواباً للسؤال: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾.

(٢) في عبارة: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تَسْلِيَةٌ للرَّسُول تجاه ما يُلاقيه من كبراء كُفَّارِ قومِهِ من اتّهامات وشتائم، كناية عن وعْد الله لرسوله بأنّه سيَنْصُره، وتهديد الله للّذين يؤذون الرسُول بأقوالهم بأنَّهُ سيَنْتَقِمُ منهم وينْصُرُ رسُولَه.

* * *

(١٨)

الملحق الثاني
الوصف بالبركة في القرآن المجيد

مقدمة

البركة في اللّغة: هي النماء والزيادة، فمنها ما يكون في الحسيّات، كالبركة في الطعام والشراب والأموال والذرّيّة، ومنها ما يكون في المعنويَّات، كالبركة في العلم، والوقت، والفهم، والسعادة النفسية، وثواب العبادة ومضاعفة الأجْر عليها، والبركة في إنجاز الأعمال، والبركة في معونة الله لعبده، وتوفيقه له، وتسديده في أموره، والبركة في مضاعفة الانتاج للأعمال.

رُوي عن ابن عبّاسٍ: أنّ البركة هي الكثرة في كلّ خير.

والْمُبَارَك: اسم مفعولٍ من فعل «بَارَكَهُ اللّهُ» فهو مبارَك، أي: موصوف بأنّ الله قد منَحه البركة، إذْ جعله ذا نماءٍ وزيادة في خَيْرٍ ما، أو في خيراتٍ كثيرات.

يقال لغةً: باركَ اللّهُ الشَيْءَ، وبَارَكَ فيه، وبارَكَ عليه.

الموصوف بالبركة في القرآن المجيد:

(١) جاء في القرآن المجيد الوصف بالبركة العظمىٰ التي لا تَحُدُّها تصوُّراتُ المخلوقات كلّها، لذات الله وصفاته الجليلة السَّنيّة.

(٢) وجاء فيه وصف القرآن بأنّه مباركٌ، أي: في ثراء معانيه، وفي تأثيراته النافعات، لتحقيق الخيرات الجسيمات، كالشفاء، والأمن، وحصول السكينة، وفتح أبواب الرزق والعِلْم، والتوفيق والخلاص من الشدائد، وغيرها.

(٣) وَجاء فيه بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد منح بعض عباده من الرُّسل وآلِهِمْ البركة، فجعلهم مباركين، تظهر آثار البركة فيهم، وفي تصرّفاتهم وفي آثار أعمالهم، وفي إجراء المنافع والخيرات العظيمات، على ما يقولون وما يَعْمَلُون، وفي حصول المنافع بتأثير ما جَعَل الله تبارك وتعالى في ذواتهم من قوىً غير منظورة، ذات آثارٍ تظْهَرُ في الأحياء وفي الأشياء.

(٤) وجاء فيه بيان أنّ الله تبارك وتعالى قد جعل البركة في الأرض كلّها، وخصَّ بعض أماكن منها فجعل فيها بركةً مادّيَّةً ومعنويّةً زائدةً على ما في سائر الأرض، كالبركة في البيت الحرام ومكّة كلّها، والبركة في المسجد الأقصىٰ وما حوله، والبركة في البقعة الّتي كلَّمَ اللَّهُ عزّ وجلّ منها موسَىٰ عليه السَّلام تكليماً.

(٥) وجاء فيه بيان أنّ الله عزّ وجل نَزَّل من السماء ماءً مباركاً، إذْ جعل فيه بركة الإنبات والسُّقيا النافعة وخيرات كثيرات أخرى.

(٦) وجاء فيه بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل البركة العظيمة في ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر.

(٧) وجاء فيه بيان أن الله قد جعل شجرة الزيتون شجرة مباركة.

(٨) وجاء فيه بيان أنّ المؤمن إذا دَخَلَ بيتاً فسلَّمَ على نفسه، كان له ذلك تحيَّةً مباركَةً من الله، نافعةً في الدنيا، ومأجورةً من الله يوم الدّين.

وهذه البيانات لا تقتضي أنّ البركة منحصرة، بما وصَفَهُ الله بالبركة، إنّما تفيد التنويه بذكر من بارك الله فيهم، والتنبيه على الأشياء التي بارك الله بها، للانتفاع بما فيها من خيرات مباركات.

فالبركة قد يمنحها الله عزّ وجلّ لغير من جاء في القرآن بيان أنّ الله قد باركهم، أو منحهم من بركاته، وقد تكون موجودة في أماكن من الأرض، غير الأماكن الّتي جاء في القرآن بيان أنّ الله قد بارك فيها، وفي أزمانٍ غير ليلة القدر التي خصَّها الله ببركة عظيمة. كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي غير الأشياء التي وصفها الله بأنها مباركة، كالبركة الموجودة في القمح، وفي الحبَّة السَّوداء.

وفيما يلي استعراضٌ لما جاء في القرآن من نصوص البركة، مع بعض تَدَبُّرٍ لها:

أوّلاً
الوصف بالبركة العظمىٰ لذات الله وصفاته

جاء في القرآن المجيد وصْفُ ذات الله وصفاته بالبركة في تسعة نصوص، وبصيغة «تَبَارَكَ» أي: تنامىٰ وتزايد وتعاظم بالإطلاق العامّ فوق كلّ ما يصفه الواصفون، وهو على وزن «تَفَاعَلَ» من البركة:

النّصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً للنّاس:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يَجْعَلُ دَواماً النَّهارَ يَسْتُر اللّيْلَ بضياء الشمس حول الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ. فالأصل في الكون الظلمة، فإذا جاء الضياء غشِيَها فَستَرَها، وإذا ذهب الضياء عادت الأشياء إلى ظُلْمَتِها، أو مِقْدار ظلمتها التي كانت عليها.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: تنامى وتزايد وتعاظم اللَّهُ رَبُّ العالمين، في ذاته وفي صفاته عَنْ كُلّ تصوّراتِ كُلِّ خَلْقِهِ في السَّماوَاتِ والأرْض، تنامِياً وتزايداً لا تستطيع الخلائق تصوُّرَ حدٍّ له، مَهْمَا سبحت أوهامُهُمْ في الأبعادِ الّتي لا تتناهى.

فمن آثار صفاته جلّ جلاله هذه الظواهر الكونيَّةُ العظمىٰ الّتي نبَّه عليها هذا النصّ.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾.

أي: إنّ الْقُرْآن المجيد، الذي هو فرقان بين الحق والباطل، والخير والشرّ، والْهُدَىٰ والضّلال، والمعْجِزُ في مبانيه ومعانيه، لا يُنَزِّلُهُ إلاّ مَنْ تبارك فَوْقَ كُلّ تَصَوُّرات الخلائق في ذاته وفي صفاته الجليلة.

النص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً، دَفعاً لمقترحات كبراء مشركي مكة، أنّ الرسول ينبغي أنْ يُلْقَىٰ إليه كنزٌ، أو تكون له جنَّةٌ يأْكُلُ مِنْها تُغْنِيه عن المشي في الأسواق لاكتساب رزْقه:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ⑩﴾.

أي: تباركَ اللّهُ في قُدْرَتِهِ القادرة على أن يجعل لكَ يا مُحَمَّدُ خيراً ممّا اقترح المشركون أن يكون لك، إلاّ أنّ حكمته اقتضت خلاف ذلك في رسالتك، لئلا تكون مثل ملوك الأرض.

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

أي: تنامىٰ وتعاظم وتزايد اللَّهُ جلّ جلاله فَوْقَ كُلِّ تصَوُّرٍ لصِفَات علمه وحكمته وقُدْرته الَّتي كان من آثارها أَنْ جعل في السّماء بروجاً للنجوم والكواكب، فهي تنزل في بروجها بإتقان وإحكام. وجعل فيها لسُكَّان الأرض شَمْساً ذات ضياءٍ حارٍّ كالسّراج، وقمراً بارداً عاكساً للضوء بنور كاشفٍ للأشياء المظلمة.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: فتنامىٰ وتزايَدَ وتَعاظَمَ رَبُّ العالمين، فوق كُلِّ تَصَوُّرٍ لصفاتِ عِلْمِه وحِكْمَتِه وقُدْرَتِهِ ورَحْمَتِهِ، الّتي كان من آثارها أنْ جعل لكم الأرض قراراً لا تتعرّضون فيه لقلَقٍ واضطراب في إقامتكم عليها، وجعل لكم السماء بناءً مُتَماسِكاً لا خلل فيه ولا فُروج، فلا يتَهَاوَىٰ عليكم من أجرامها العظمىٰ ما يُبيدكُم. وكرَّمَكُمْ أيُّها الناس فصوّركم فَأَحْسَنَ صُوَرَكم، وجعلكم في أَحْسَنِ تَقْوِيم، ورحمكم فرزقكم من الطَّيبات.

النص السّادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة: (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذِي له مُلْكُ السّماوات والأرض وما بينهما، إذْ هُو خالقُهُما، وعِنْدَهُ عِلْمُ السّاعة، وإليه يُرْجَعُ الناسُ بعْدَ الموت والبعثِ للحساب، وفصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، لا بُدَّ أن يكون قد تبارك في ذاته وفي صفاته، فوْقَ كُلِّ تَوَهُّمٍ وتَصَوُّرٍ للخلائق عنهما.

النص السابع:

قوله الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمِنُونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إنَّ خالِقَ الإنْسَان في أمْثِلَةٍ مُتكرّرَة دواماً، ضمْن هٰذه الأطوار الّتي جاء بيانُها في هذا النَّصّ، لا بُدَّ أن يكون في ذاته وصِفاته، متزايداً متنامياً متعاظماً فوْقَ كلّ تَصَوُّرٍ عظيم تتصوَّرُهُ المخلوقاتُ مَهْما أوسَعُوا المدَىٰ.

النّصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾.

أي: تَنَامَىٰ وتزايَدَ وَتَعاظم في ذاته وفي صفاته الذي بِيَدِه الْملكُ كُلُّه، فهو يتَصَرَّف في الأكوان بعِلْمِه، وحكمته وقُدْرَتِه ورَحْمَتِه وَعَدْله على ما يشاء، وهو على كُلّ شيء قدير.

وهذه الظواهر الكونيّة آياتٌ على أنّ صفاتِه العظيمات الجليلات، لا يبْلُغُ إلى إدْراك مَدَاها الأقصَىٰ أَحَدٌ من المخلوقات.

النصّ التاسع:

قول الله عزّ وجل في آخر سورة (الرَّحْمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) الّتي اشتملت على عرض آيات كثيراتٍ من آياتِ آلآئِهِ (أي: نِعَمِهِ) العظيمة الكثيرة على عباده من الإنْسِ والجنّ:

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: تعاظَم وَتَنَامَىٰ وَتزايَدَ فَوْقَ كُلِّ تَصَوُّرٍ تتصَوَّرُه المخلوقات كلُّها، وَصْفُ رَبّك، المشتمل على خصائص الرّبوبيّة المتعلّقة بكلّ الكائنات، خلْقاً وإمداداً وتصاريفَ بدءاً من إيجادها واستمراراً مع بقائها.

﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: أي: المتصف بكمالِ الشَّرَف والعظَمَةِ والرِّفْعَةِ والْمَجْدِ والْحَسَب، والمتصف بكمال الإكْرام في عَطَايَاهُ وهباته، ومِنَحِه وجُوده وإحْسَانه.

ثانياً
وصف القرآن بأنّه كتابٌ مُبارَكٌ

وجاء وصف القرآن المجيد بأنه كتاب مباركٌ في أربعة نُصُوص قُرانيَّةٍ من التزيل المكيّ، وقد سبق في المقدمة بيان أظهر عناصر البركة الّتي جعلها الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

في هٰذه الآية وصف الله عزّ وجلّ القرآن بأنّه كِتَابٌ مُبَارَكٌ، وَدَلَّ

قول الله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على أنّ المراد بالبركة هنا كثْرَةُ دَلاَلاَتِ آيَاتِه على الْمَعَاني الوفيرة الغزيرة الفيّاضَة، الّتي يتجدَّد عطاؤُها كُلَّما تعمَّقَ المتَدبِّرون في استنباط المعاني واستخراجها من أعْمَاقِ بحُورِه الزَّاخِرَة، فلا تَنْتَهي عطاءاته الثَّرَّةُ، ولا تَفْنَىٰ عجائبه.

وتتجدّد مفهوماتٌ دَلَّتْ عليها آياتٌ قُرآنيَّةُ، باكتشاف النَّاس لحقائق من آيات الله التكوينيَّة، في كَوْنِه الواسِعِ الْفَسِيح العظيم.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي: ليَتَدبَّرُوها باهتمامٍ وتعمُّق أخذاً من إدْغام التاء بالدال.

التَدَبُّر: هو التفكّر الشامل المتَتَبّع، بَدْءاً من أوائل دلالات سَطْحِ النَّصّ الْقُرْآنِيّ، حتَّىٰ آخر ما يُمْكن أن يُعْطِي من دلالاتٍ ومفهوماتٍ، تَدُلُّ عليها اللّوازم الفكريَّة، أو ما يقتضيه النصّ من معاني مكمِّلة، ويسْتَطيع المتدبّر أن يسْتَخْرِجَها مِنْ مطويَّاتٍ في النَّصّ غَيْرِ مذكورات في اللَّفظ، ويستطيع أنْ يكْتَشِفَها من المثاني حينما يَبْسُطها وينْظُرُ في أعْماقها، فمن صفاتِ القرآن المجيد أنّه مثاني، أي: عباراتُه الملفوظة مكتوبة علَىٰ الظَّاهر الذي يُرَىٰ مِن المثاني، أمّا غير الملفوظة فهي في داخل الثنيات، وهي الّتي يحتاج استخراجُها إلى مُتَدبّر بحَّاثَةٍ، عَمِيق التفكُّر والتَّأمُّل، ذي قدرة على الغوْصِ والاستخراج المقرون بالدليل العقليّ، أو النَّصّيّ من نصٍّ آخر، يَدُلُّ على ما اسْتَخْرَجَهُ من عُمْقِ المثاني المطوية.

وأصل التدبُّر مأخوذ من النظر المستوعب للشيء حتّى دبُرِه، وأواخِرِه، وعَاقبته ببصيرة، حتّى الأطراف البعيدة الّتي يدلُّ عليها النص.

ومنه التدبير: وهو النظر في الأمور بدءاً من أوائلها، حتَّىٰ أواخِرها وعواقبها، ولهذا وصف الله عزّ وجلّ نفسه بأنّه يُدَبِرُّ الأمر في الكون كلّه، وبأنّه يُدَبِّر الأمْرَ من السَّمَاءِ إلَىٰ الأَرْض.

ولكن لا يصِلُ المتفكر إلى أواخِرِ دلالات النّصّ إلاَّ إذَا تَسَلْسَل مع الأفكار بدءاً من أوائلها، وتتبُّعاً لسائر فقراتها حتّىٰ أواخِرِها وأدْبارها.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: التَّذَكُّرُ يأتي في المراحل اللاحِقَةِ لِلْفَهم، وأكْمَلُهُ التَّدَبّر.

فمن تَلَقَّىٰ آياتِ القرآن المجيد، ففهمها فَهْماً سليماً مقبولاً، فالمطلوب منه أن يتذكَّرَها عند كلّ مناسبَةٍ داعية لتَذَكُّرِها، ليعمل بما تَهْدِي إليه من سلوك ظاهرٍ وباطن، ومن السُّلوك الباطن أعمال القلوب والنفوس وأجهزةُ التفكير والإدراك والفهم.

وهذا التذكّر هو من صفاتِ أولي الألباب، وهم أصحاب العقول الحصيفة الدَّرَّاكة، والإرادت العاقلة الرَّشيدة.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

فأضَافَ هٰذا النَّصُّ إلى كَوْنِهِ كتاباً مباركاً، أنه مُصَدِّقُ ما أنزل الله عزّ وجلّ منْ كُتُبٍ قَبْلَهُ لَمْ يَدْخُلْ فيها تحريفٌ أَوْ حَذْفٌ أو إضافة.

وأضاف أيضاً بيان أنّ وظيفة الرَّسُول أن يُبلِّغَهُ، وأنّ يَبَيِّنه، وأخيراً أنْ يُنْذِرَ بِه الكافرين، بدءاً من سُكَّان أمّ القرىٰ بلَدِ الرَّسول، فَمَنْ حَوْلَ أُمّ الْقُرَىٰ، في دوائر تتَّسِعُ حتَّىٰ يشْمَلَ ذَلِكَ النَّاسَ أجمعين. فأمّ القرىٰ مَرْكَزُ سَطْحِ الأرض، وكُلُّ ساكن في أيّ مكان من الأرض يَدْخل في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾.

وأضاف هذا النَّصّ أيضاً بيان أنَّ الّذِين يُؤْمِنُون بالآخرة إيماناً صحيحاً

من أيِّ ملَّةٍ سابقة لنزول القرآن، ويُؤمِنُون بأنَّهم مَدِينونُ يوم الدِّين من قِبَلِ رَبِّ العالمين، فلا بُدَّ أن يُؤْمِنوا بالقرآن، وأن يُحافِظُوا على صلاتهم لربِّهم، إذْ يجدون في الإيمان بالآخرة أقوى الدوافع والبواعث على الإيمان بهذا الكتاب المبارك، وعلى القيام بواجب عبادتهم لله بالصّلاة في أدنى الحدود.

النّص الثالث:

قول الله عزّ وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصّ إلَى كوْنِ القرآن كتاباً مُبارَكاً، أَمْرَ النَّاس باتّبَاعِهِ اعتقاداً وعملاً، وبأنْ يتّقوا عقابَ مخالفاتهم لأوامر ربّهم ونواهيه، جاعلين من دوافِعِهم رجاءَ أَنْ يرْحَمَهُم ربُّهم بالمغفرة وبالتوبة، وبدخول جنَّة الْخُلْدِ يَوْمَ الدّين.

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لمنكري رسالة الرسول محمد ﷺ ومنكري كون القرآن منزّلاً من عند الله مع كونه معجزاً، ومن إعجازه كونه مباركاً فيَّاضَ المعاني:

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!

أي: أكذّبتُم رسولي، واستكْبَرْتُم عن الإيمان به واتّباعه، فأنْتُمْ بسبب ذلك مُنْكرون أنْ يكونَ القرآن المجيدُ كتاباً مُنَزّلاً من رَبّكُمْ، مع كونه معجزاً مباركاً في معانيه ثَرَّ العطاء العلميّ، وافر الدلالات.

وسمَّىٰ اللّهُ عزّ وجلّ القرآن في هذه الآية ذِكراً اعتباراً بالمطلوب الثالث من مطالب الله بالنسبة إليه، وذكر هذا المطلوب يَدُلُّ باللُّزُوم الذهني على المطلوبين الأوّل والثاني:

- **فالمطلوب الأول**: تَلَقِّيه من الرَّسُولِ الَّذِي بلَّغه.
- **والمطلوب الثاني**: تَفَهُّمُ معانيه والتبصُّر فيها.
- **والمطلوب الثالث**: تذَكُّرُ ما جاء فيه عنْد كلّ مناسبة داعيةٍ لهذا التذكّر.
- فعند مواقيت الصلاة، يُطْلَب تذكُّر ما فرض الله على عباده من صلوات.
- وعند وجود المال الذي تجب فيه الزكاة، يُطْلَبُ تذكُّر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام فريضة الزكاة.
- وعند قدوم شهر رمضان، يُطْلَبُ تذكُّر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام فريضة الصيام.
- وعند اندفاع النفس إلى ممارسة محرَّمٍ من المحرَّمات، يُطْلَبُ تذكُّرُ حُكْمِ اللَّهِ في ذلك العمل.
- وهكذا إلى سائر ما اشتمل عليه الْقُرآنُ من عقائد، وشرائع، وأحكام سلوك ظاهرٍ وباطن.

ثالثاً

بيان أنّ الله قد منح البركة بعض عباده الصالحين

البركة على نوحٍ وعلى أُمَمٍ ممَّنْ معه.

جاء في القرآن المجيد بشأن نوح عليه السلام، وبشأن أُمَم ستأتي من نَسْلِ الذي معه في الفلك، قولُ الله عزّ وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ... ﴿٤٨﴾﴾.

أبانت هٰذه الآيَةُ أنَّ نوحاً عليه السَّلَام لمَّا انْتَهتْ أَحْداثُ الطوفان، وتَمَّ إغْرَاقُ أهل الكُفر في الأرض، وتَوَقَّفَتْ سفينتُهُ في موقفٍ ما على الجودي⁽¹⁾، قال الله عزّ وَجلَّ وحْياً: اهبط بسَلَامٍ مِنّا، أي: اهبط من السفينة إلى الأرض مصحوباً بسَلَامٍ يُحِيطُ بِكَ بأمْرٍ تكوينيّ منّا.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾: واهبط مصحوباً بِبَرَكاتٍ كثيراتٍ تتنزَّلُ عليك منّا، وتتنزَّلُ عَلَىٰ أُمَم ستوجَدُ في الأرض من نَسْلِ من مَعَكَ في السفينة، وكانت الأمم الباقية بَعْدَ نوحٍ عليه السّلام من ذُرّيات أبنائه، لقول الله عزّ وجل في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وقد ظهرت هذهِ البركات في الأنبياء والمرسلين والصالحين الذين انْحَدَرُوا من ذُرِّيَّات نوحٍ عليه السلام.

البركة على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته وعلى ابنه إسْحاق.

وقد جاء في القرآن بشأن إبراهيم عليه السلام وبشأن أهل بيته قولُ الله عزّ وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزولِ) حكاية لقول الملائكة الّذين جاءوه بالبشْرَىٰ بأنّ امرأته ساره ستحمل وتَلِدُ وهي عجوز:

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾.

قال الملائكة لسارة زوجة إبراهيم عليه السّلام: رَحْمَةُ اللّهِ وبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت.

---

(١) **الجودي**: اسم جَبَلٍ، ذكَرُوا أنّهُ قرِيب من الموصل، وقيل. كلمة الجودي تُطْلَقُ على كلّ جبل.

فإن كان هذا خَبَراً، فإنهم لا يُخْبِرُون إلاّ إذا عَلِمُوا أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد أفاض على أهل بيت إبراهيم من رحماته وبركاته.

وَإنْ كانَ دُعَاءً فإنّ دعاءَ الملائكة مستجابٌ.

وجاء أيضاً بشأن إبراهيم وولده إسحاق عليهما السلام قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

فأبانَ هذا النّصُّ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَارَكَ بعَظَمَةِ رُبوبيَّتِهِ على إبراهيم ووَلَدِهِ إسْحَاقَ عليهما السّلام

البركة على موسَىٰ عليه السلام.

وجاء في القرآن بشأن موسَىٰ عليه السَّلام وهو في رحلة العودة إلى مصر، ومعه أهله، قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أي: ناداه اللَّهُ، و«أَنْ» تفسيريه إذْ جاء ما بعدها مُفَسّراً لمضمون النداء الذي فيه معنى القول دون لفظه.

و﴿بُورِكَ﴾ أي: مُنِحَ الْبَرَكة، والمانِحُ للبركة هو الله تَبَارَكَ وَتعالى لاَ مَحالة.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لاَ بُدَّ أنْ يكونَ من الملائكة المقربين، وقد يكون جبريلَ أمين الوحي، وقد يكون غيرُهُ معه، والملائكة لا تتأثر أجسادهم النورانيّة بالنار، وهذه نارٌ، إلاّ أنها صافية من الأخلاط والشوائب، ولا أرى داعياً لتفسير النار هنا بالنُور، علَىٰ اعتبار أنّ موسَىٰ عليه السَّلام رآها ناراً وهي في حقيقتها نور، إذْ لاَ دليل على هذا، والله عزَّ وجلَّ قد سمَّاها ناراً، وللَّهِ حِكَمٌ في تصاريفه واختياراته.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: وهو مُوسَىٰ عليه السّلام، وقد يكون معه طائفة من الملائكة لم يكن موسَىٰ يَراهم، لأنّ مُوسَىٰ وحْدَه كان إلى جانب النار، ولم يكن حولها، لكنه مع جمع من الملائكة يصلح أن يكونوا حولها.

ولحكمةِ تثبيت فؤاد موسىٰ وطمأنتِه، أعلَمَهُ اللَّهَ جل جلالُهُ بأنَّ في النار ملائكة، ومعه حول النار ملائكة.

وقد مَنَحَ اللَّهُ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ البركة بمقتضىٰ دلالة هٰذا النّص، لأنَّه ممَّنْ كَانَ حَوْل النار.

وقد ظهرت البركة العظيمة التي أعطاها الله عزّ وجلّ لموسى علَيْه السَّلام في كلّ تاريخ حياته، منذ نشأته حتّىٰ وَافَتْهُ منيَّتُه، وكان من بركاته إجراء الآيات التِّسع العظيمة له، حتىٰ فلْقِ البحر له ولقومه وعبورهم، ونجاتهم، وإهلاكِ فرعون وملَئِه وجنوده.

البركة على عيسىٰ عليه السّلام.

وَجاء في القرآن بشأن عيسَىٰ عليه السّلام، قولُ الله عزّ وجل في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) حكاية لما أنطَقَه الله به، وهو طفلٌ رضيعٌ حَدِيث الولادة تحمله أمُّه:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَـٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي

جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾.

فدَلَّ هذا النّصّ على أنَّ الله تبارك وتعالى قد أنْطَق عيسى عليه السّلام، وهو طفل رضيع بأنَّ الله قد جعله مباركاً في أيّ مكان هو كائنٌ فيه.

وقد ظهر من بركاته عليه السلام آيات كثيرات، ومنها أنه كان يصنع من الطّين كهَيْئَةِ الطَّيْر، فينفُخُ فيه، فيكون طيراً بإذنِ الله وَأنّه كان يُبْرِئ الأكْمَهَ والأبْرَصَ ويُحْيي الموتَىٰ بإذْنِ الله، إلىٰ غير ذلك من آيات:

الأكْمة: أي: الأعْمَىٰ، ويطْلَقُ هذا اللفظ في اللّغة على الأَعْشىٰ أيضاً.

الرسول محمّد ﷺ.

لم يأت في القرآن المجيد نصٌّ صَريح بأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ مَنَحَ رسُولَه محمدًا ﷺ البركة.

لكنْ تواطَأت النُّصوص على أنه سيّد ولد آدم، وأفضل عباد الله عند الله، وإمام المرسلين وسيّدهم، وصاحب الشفاعة العظمىٰ يوم الدّين، وأتباعه من الناس هم الأكثر والأعظم بين أتباع الرُّسل، وأمَرَ الله المؤمنين بأن يُصَلُّوا عليه ويُسَلِّموا تَسْلِيماً، أمّا غيره من الرُّسل فقد جاء في القرآن بشأنِهم الترغيب في السلام عليهم فقط، مثل قول الله عز جل بشأن إبراهيم عليه السلام في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

وكلّ هذا يدلُّ على أنّ نَصِيبَه من بركات الله هو الأكثر والأجلّ، ولو لم يَرِدْ نَصٌّ صَرِيحٌ بذلك، ويكفيه من البركة العظيمة أن الله جلّ جلالهُ أنزل عليه أعظم كتبه كتاباً مباركاً معجزاً، وأنّ الله أكرمه بالعروج به إلى

السماوات حتى سِدْرَةِ المنتهىٰ، وكانت حياته زاخِرَةً ببركات من الله عليه، ومنها أنَّه منحه الفتح المبين، وجعل له ولأمّته العزّ والمجْدَ والتمكين.

رابعاً

بيان أنَّ الله عزّ وجلَّ قد باركَ في كلّ الأرض

قال الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

دلَّ هذا النصّ على أنّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ، قَدْ بَارَكَ في الأرض الّتي اختارها لسكْنَىٰ الإنسان، الذي خَلَقَهُ اللَّهُ في أحْسَنِ تَقويم، وكَرَّمَهُ، إذْ جعل فيها ما يُمِدُّ الأَحياء عليها بأرْزاقهم، ومطالب معايِشهم، وحاجات مصالحهم، وزيناتهم، وقُوَّاتِهم، وحاجات نفوسهم، مهما تكاثَروا على ظَهْرِها، إذا أحْسَنَ النّاس اسْتِغْلالَهَا بإتقان، وأحْسَنُوا الاستفادة ممّا وَهَبَهُمُ الله من قُدْرات فكريَّة، وطاقاتِ جَسَدِيَّة، ومُسَخَّراتِ كَوْنيَّة، في اسْتِنْبَاطِ خَيْرَاتها من خزائنها الكثيرة الوفيرة.

وقد جعل الله الأقوات في الأرض مساويةً لمطالب النّاس منها، بشرط أنْ يَبْحثُوا وَيَعْمَلُوا لاستخراجها. والسُّؤالُ هو الأمرُ الحاثُّ على القيام بكلّ خُطْوَةٍ فَخُطْوَةٍ من البحث والعمل والاسْتخراج، فجاء في النّصّ التعبير بالسَّائِلين للدّلالَةِ على كُلّ الخطوات الّتي يخْطُوها الْعَامِلُونَ للحصول على مطالبهم من الأقوات. وهذا من الإيجاز البديع في القرآن. وإدْراك المطلوب يَعْتَمِدُ على معرفة السلاسل السّببيَّة.

مثلاً: يسْأَلُ الإنسان من أيْنَ آكُل؟ فيُجيبه واقع الحال: من الأشجار المثمرة، والزّرُوعِ التي تُنبِتُ حبَّ الحصيد، ومن الصيد.

فإذا خشي النفاد سأل: ماذا أفعَل للحصول على القوت؟ فيجيبُهُ واقع الحال: احرث وابْذُر واسْق. أو اعمل على تربية الحيوانات الداجنة.

وهكذا كُلُّ مطلب لا يتحّقق إلاّ بعمل، وكلّ عَمَلٍ يبدأ بسؤالٍ ما، والسُّؤال يدفع إلى البحث ومعرفة الأسباب للوصول إلى المطلوب.

خامساً

البركة الزائدة الّتي جعَلَها الله تبارك وتعالى لأمكنة خاصّة

البركة في البيت الحرام بمكة:

لقد جعل الله عزّ وجلّ الكعبة البيت الحرام بمكة بيتاً مباركاً، وكان من الحكمة أنَّهُ أوّلُ بيت وُضِعَ للناس.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ومن بركات هذا البيت أنّ الصّلاة في حَرَمِه بمئَةِ ألْفِ صلاة ثواباً من عند الله.

ومن بركاته الأمن العامّ في الحَرم المكيّ⁽¹⁾.

ومن بركاته أنّه يُجْبَىٰ له ثمراتُ كُلّ شيء.

ومن بركاته أنّه كان مؤلِد خاتم النبيِّين وإمام المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ.

ومن بركاته أنّه كان أوّل مهابط وحْي الله لرسوله محمد ﷺ، وأوَّل مهابط نزول سُوَرِ القرآن المجيد عليه، وهو أعظم كتب الله للناس أجمعين.

---

(١) انظر تفصيل هذا الأمن في الملحق الثاني من ملاحق تدبُّر سورة (التّين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول).

ومن بركاته أنّه قبلةُ النّاس جميعاً، ومحجُ النّاس جميعاً، بشرط أن يُؤمِنُوا باللَّهِ ورَسُوله.

ومن بركاته فيوضاتُ العطاء الرّبَّانيّ لبعض عباد الله فيه، بعلُومٍ رَبَّانيَّة، وَإِكْرَامَاتٍ غيبيَّة ذَاتِ آثارٍ مَشْهُودة.

إلى غير ذلك من بركات كثيرات.

البركة في البقعة الّتي كلَّمَ اللَّهُ عندَها مُوسَىٰ عليه السلام:

قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) في الحديث عن موسى عليه السّلام، ومقدمه إلى النار الّتي آنَسَها مِنْ جانب الطّور الأيْمَنِ:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

فوصف الله عزّ وجلّ هٰذِهِ البُقْعة بأنّها مُبارَكة، ومن البركة العظيمة التي جعلها اللّهُ لها أنّها كانت مَكاناً شريفاً يُكلّم الله تبارك وتعالى عنْدَه مُوسَىٰ عليه السّلام تكليماً حقيقِيّاً، على ما يليق بصفاته الجليلة وسلطانه العظيم، وكان هذا في طريق عودته إلى مصر بعد فراره منها.

وكان من آثار هذه البركة العظيمة، الألْواحُ التعليميَّةُ الّتي آتاها اللَّهُ موسَىٰ عليه السَّلامُ، فكانت جزءاً من كتاب التوراة الذي أنزله الله عليه، وكان هذا بعد الخروج من مصر ببني إسرائيل، وغرق فرعون وجنوده.

البركة التي جعلها الله للمنزل الذي أنزل فيه نوحاً ومن معه بعد رحلة النجاة:

قال الله عزّ وجل في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول) في حكاية خطابه لنوح عليه السلام قبل أن يركب السفينة:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩)﴾.

لقد علّم الله عزّ وجل نوحاً أن يَدْعو بهذا الدُّعاء، وفي هذا إشعار له بأنّه سيستجيب له، فيُنْزِلُهُ مُنْزَلاً مُبارَكاً، وقد استجاب الله دُعاءه.

وفي هذا تعليم للمسافرين في البحر أو في البرّ أو في الجوّ، أن يَدْعُو ربَّهُمْ بأنْ يُنْزِلَهُمْ مُنْزَلاً مُبَارَكاً، فيه لهم خَيْرٌ غيبيٌّ ومَشْهُود.

البرَكة التي جَعَلَها اللَّهُ للمسجد الأقْصَىٰ وَما حوله:

جاء في القرآن المجيد خمسةُ نُصوص تَدُلُّ على أنّ اللَّه قد جعل مكان المسجد الأقصى، وما حوله من بلاد الشّام، أرضاً مباركة ببركات حسيَّةٍ ومَعْنَوِيَّة:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾.

والأرض التي بارك اللَّهُ فيها وأَوْرَثَها بني إسرائيل بعْدَ مُوسَىٰ عليه السلام هي بلاد الشام، حول مكان المسجد الأقصى في القدس.

ثمّ لـمّا عَصَوْا وَفَسَقُوا وأشركُوا وَطَغَوْا وبَغَوْا سلّط الله عليهم من سَباهم ومزّقهم، ومَلّكَ بِلاَدَ الشَّام مَكانَهم.

ثمّ لـمَّا ظهر الإسلام كان المسلمون هم الوارثين، وانطبق عليهم وعد الله لإبراهيم عليه السلام، لأنّ رسول الله محمّداً ﷺ من ذُرّية إبراهيم.

النّصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾.

﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: وبَارَكْنَا فِيه من باب أوْلَىٰ، لأنّه هو المقصود الأوّل بالبركة.

والبَرَكة التي جعلها الله في بلاد الشّام حول المسجد الأقْصَى تشمَلُ البركة المادّيَّة والمعنوية.

ومن آثار الْبركة المعنويَّة ما نَبَّأَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ في بلاد الشّام من أنبياء، وما بعث فيها من رُسل، وما أنْزَل فيها من كتب.

ومن آثار البركة المادّيّة ما في زروعها وأشجارها وثمراتها من خيراتٍ كثيرات.

النّصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام، وهجرته من أرض العراق:

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ⑦①﴾.

ومعلوم أنّ هجرتهما كانت إلى أرض الشام، فهي الأرض الّتي بارك الله فيها للعالمين.

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) أيضاً بشأن سليمان عليه السّلام:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

والمرادُ بالْأَرْض الّتي بارَكَ اللَّهُ فيها هي بِلَادُ الشَّام.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) في الحديث عن أهل سَبَأ في الْيَمن:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: وجعل الله جلّ جلاله بين أهل سبأ في اليمن وبين بلاد الشام التي بارَكَ فيها قُرَىٰ ظاهرة، فإذا أرادوا السَّفَرَ من بلادهم إلى بلاد الشام كان لهم مبيتٌ في قَرْية، ومَقِيلٌ في قَرْيَةٍ أُخْرَىٰ.

سادساً

البركة التي جعلها الله في زمان ليلة القدر

من الخواصّ الزّمانية أنّ الله تبارك وتعالى قد جعل ليلة الْقَدر ليلةً مباركة، ومن وفرة بركات الله فيها أنّها خَيْرٌ من ألف شهر، للذين يعبدون ربَّهم فيها، وأنّ الدعاء فيها مستجاب.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾.

وجاء في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول) بيان أنَّ هذه اللّيلة هي ليلة القدر⁽¹⁾.

---

(١) انظر ما سبق بيانه لدى تدبّر سورة (القدر).

سابعاً

البركة التي جعلَها الله في الماء الذي ينزّله من السماء

جاء في القرآن المجيد بيان أنّ الماء الذي يُنَزِّله الله تبارَكَ وتعالَىٰ من السَّمَاءِ ماء مبارك في نصَّيْن:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾.

وقد سبق التدبّر التحليلي لهذه الآية في موضعها من سورة (ق).

النّصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾.

ومن البركات التي يَفْتَحُها الله على أهل القرىٰ المؤمنين المتقين الْمَاءُ المبارك الذي يُنَزِّلُهُ لنفعهم ورزقهم من السّماء، أي: من السحاب، وقد يكون مع الماء بركاتٌ أخرى من أشعة الشمس والغبارُ المنتشر الذي يكون مدداً لنباتات الأرض، ومن فوق ذلك كلّه مقادير اللّهِ لهم المشتملة على وفير من المنح والعطايا الرَّبَّانية الَّتي يَقْضي بها لهم.

ثامناً

البركة التي جعلَها اللّهُ في شجرة الزيتون

قال الله عزّ وجل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى

زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

لقد أبانت هذه الآيةُ أنّ الله عزّ وجلّ قد جعَلَ شجرة الزّيتُونِ شَجَرَةً مباركة، بما فيها من غِذاءٍ عظيم، ودُهْنٍ نافع مفيد لا نظير له في كُلّ الدُّهون والزّيوت⁽¹⁾.

تاسعا

البركة الّتي جعلها الله في التحيّة الّتي يُسَلِّم المؤمن بها على نفسه إذا دخل بيتاً

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿... فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ...﴾.

أي: إذا دخلتم بيوتاً فسَلِّمُوا على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، لأنّ المؤمنين كالجسد الواحد، وإذا لم يكن فيها أحَدٌ فقولوا: السلام عَلَيْنا وَعلىٰ عباد الله الصالحين، الذين هم كأنفسكم، وهذه تحيَّةٌ من الله مباركة لكم.

وأخيراً: أكرّر أنّ هذه النصوص لا تُفِيدُ حصر البركة بما جاء في القرآن وصْفُهُ بالبركة، بل فيها التوجيه للاستفادة من البركات التي جعلها الله فيها.

* * *

---

(١) انظر تحليل هذا النصّ في كتاب «الأمثال القرآنية وصور من أدبه الرفيع» للمؤلّف.

سورة البلد

٩٠ مصحف ٣٥ نزول

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا
وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ
عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ
أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩)
وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤)
يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

٥و٧ ـ ● قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر:
﴿أيَحْسَبُ﴾ فيهما بفتح السين. وقرأ باقي القرّاء العشرة:
﴿أيَحْسِبُ﴾ فيهما بكَسْر السين، والقراءتان وجهان عَربيّان لنطق الفعل المضارع.
يقال لغة: حَسِبَ الشيءَ كذا يَحْسَبُهُ ويَحْسِبُه، أي: تَوهَّمَهُ، أوظَنَّهُ ظنًّا ضعيفاً.

٦ ـ ● قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ: ﴿لُبَّداً﴾ بتشديد الباء المفتوحة.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿لُبَداً﴾ بتخفيف الباء المفتوحة.
والقراءتان تَدُلأن على معنَىٰ الكثرة المجتمعة المتلَبِّدة على بعضها.

١٣ و١٤ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، والكِسَائِي: ﴿فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ﴾ على أن ﴿فَكَّ﴾ فعل ماضٍ، و﴿رَقَبَةً﴾ مفعول به و﴿أَطْعَمَ﴾ فعل ماض. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَكُّ رقبَةٍ أو إطْعَامٌ] على أن [فَكُّ] مصدرٌ، و﴿رَقَبَةٍ﴾ مُضَافُ إليه، و﴿إِطْعَامٌ﴾ مصدر أيضاً.
والقراءتان تَفنُّنُ في التعبير، ومؤداهما متماثل.

ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

٢٠ ـ ● قَرأ أبو عَمْرو، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف: ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ بتحقيق الهمزة السّاكنة بعد الميم، من فعل: آأْصَدَ الْبَابَ يُؤْصِدُهُ، أي: أغلقه، وقرأ باقي القراء العشرة: [مُوصَدَةٌ] مِنْ فِعْل أَوْصَدَ الْبَابَ يُوصِدُهُ أي أَغْلقه.

فالقراءتان وجهان عربيان، والمعنى واحد.

(٢)

موضوع السّورة

يدور موضوع سورة «البلد» حول «الابتلاء» الذي هو الغاية من خلْق الإنسان، والذي يسْتَتْبع باللّزوم العقلي التكْلِيفَ، والمراقَبَةَ طَوال مُدّة الابتلاء، ثم المحاسبة، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وجاءت هذه السّورة بأسلوب غاية في الإيجاز، إلى حدٍّ شبيهٍ بالطريقة الرمزيّة وليس منها، إذْ يعتمد على اللوازم الفكرية الدّقيقة جدًّا، الّتي تسْتَدْعيها ظاهِرَةُ كَوْن الإنسان مخلوقاً في كبَدٍ، أي: في ظروف لا تُنَال معايشُه فيها إلاّ بمشقة وشدّة وضيقٍ وكدحٍ وكدٍّ ونصَبٍ، وكأن المقصود بالخطاب بها أذكياء المتدبّرين والفلاسفة.

وهذه السورة تُتَابع استكمال الإقناع بقانون الجزاء الرّبّاني، الذي دار حَوْلَهُ موضُوعُ سُورَةِ (قٓ) وموضوع سورة (المرسلات) قبلها، وموضوع سورة (القيامة) وسُوَرٍ أخرى سبق نزولها.

إلاّ أنّ سورة (البلد) تُنَبّه على فكرة فلسفيّةٍ عميقة الدلالة، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

هنا يتساءل المتفكر المتدبّر: لماذا خلق الله العليم القدير الحكيم

الإنسانَ في كبَدٍ ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، مع أنه قَدْ خَلَقَهُ في أَحْسَنِ تَقْوِيم، كما أبان لنا جلّ جلالُه في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول)؟!.

إنّ كونَه مخلُوقاً في أَحْسَن تقويم يستدعي أن يكون مَسْكَنُه في جنَّاتِ النعيم، فهذا المسكن هو الملائم لصفته هذه.

لكنْ لمَّا جعله الرَّبُّ الخالق ضمن ظروف هذه الحياة التي يعيشها في كَبَدٍ، وهو الرَّبّ العليم القدير الحكيم، فلا بُدَّ أن يكون هذا لِحِكْمَةٍ جليلة اقتضتها إرَادة الرَّب الحكيم، الذي هو على كُلِّ شيءٍ قدير.

فما هي هذه الحكمة؟

ويهتدي المتفكّر المتدبّر إلى أنّ هذه الحياةَ ذاتُ زمن قصير جدًّا، كزَمَنِ مجتازِ جسْرٍ إلى دار الإقامة الدَّائمة.

وهنا يتفكّر في هذا الإنسان وصفاته الّتي فضّله الرَّبُّ الخالقُ العليم الحكيم القدير بها، فيُدْرِكُ بجَلاءٍ أنّ هذا الإنسان حُرُّ الإرادة، يَمْلِكُ قدراتٍ جليلةً من الفهم، لاكتساب العلم، وقد سخّر الخالقُ لَهُ في ذاته وفي الكون من حوله مسخّرات يتصرّف فيها بإرادته، ولَه أهواء وشهواتٌ ورغبات، وباستِطَاعَتِه أن يلتزم سُلوك طريق الخير، أو أن يَسْلُكَ مَسَالك الشرّ، إرضاءً لأهوائه وشهواته ورغباته.

عندئذٍ يظهر له أنّ هٰذِهِ الصفاتِ ضمْن ظروفِ هذه الحياة تَسْتَدْعي أنّه الآنَ في رحلة امتحان، لكشف استحقاقه الخلود في جنّاتِ النّعيم، الملائمة لكونه في أحسن تَقْويم، أو لا يستحقُّ ذَلِكَ لاستخدامه ما وهبَهُ اللّه في معصية خالقه الواهبِ، وجحود ربُوبيّته وإلٰهيته له.

وبَدَهيٌّ أنّ الامتحان لا يتحقّقُ إلاّ في ظروفٍ يُكابد فيها الممتَحنُ مشَقّاتٍ ومتاعِبَ تتطلّبُ منه إرادةً واعيةً حازمة، وصَبْراً على تَحَمُّلِها، وعليه

في تحمُّل هذه المشقَّاتِ والمتاعب أن يخالفَ أهواءه وشهواته ونَزَعاته ورغباته المخالفاتِ لأوامر ربّه ونواهيه في رحلة امتحانِه القصيرة، ليَنَال السعادَة الخالدة، في حياة أُخرى سوف تَتَحقق يوم الدّين.

وإلاّ سقط في الامتحان وخابَ وخَسِر.

وبعد هذا التَّنْبيه المشدَّد على هذه الظاهرة ذات الدلالة العميقة، التي يفهمها المتدبّر المتعمّقُ الحَصِيف، جاء في السُّورة بيانُ صارِفَيْن من صوارفِ النفس عن الإيمان بالجزاء الرَّبّاني، وبيوم الدين، لبعض المكذبين به:

الصارف الأول: اغترارُ المكذِّب بيوم الدِّين، إذا كان من أصحاب المال والأعوان والأنصار، بما لديه من قُوَّةٍ، حتَّىٰ يتوهَّمَ أنَّهُ محميٌّ بقوّته فلا يَقْدِرُ عليه أحدٌ، فيغْفُل عن خالقه العليم الحكيم القدير، وواجبه تجاهه، ويغفُلُ عن قدرته على مجازاته بما يستحقُّ من عقاب، إذا كفر وعصَىٰ وكانَ من المجرمين.

الصارف الثاني: توهُّمُ بعْضِ المكذبين بيوم الدِّين، أنَّه ليس عليه رقيب، إذا استخفىٰ عن أَعْيُنِ الناس بجرائمه وشُروره التي يرتَكِبُها.

وهذا ناشئٌ عن سذاجَةٍ وسطحيَّةٍ فكريَّةٍ يتوهَّمُ بها أنَّ ما لا يشاهده ببصره من حوله، فهو غير موجود.

وجاء في السّورة دفع هٰذين الصَّارفين ببيان أنّ الخالقَ هو الذي مَنَحَ ذا القوّة ما لدَيْه من قوّة، وما لَدَيْه من أسبابها، وهو الّذِي منح كُلَّ إنسان أدوات المعرفة، ووسيلة التعبير عنها، أفلا يكون سبحانَهُ قادراً على عقابِ الكافر والعاصي بما يَسْتحقُّ من عقاب؟! أفلا يكون سبحانه عليماً بكل ما يكسبُهُ عبيده في رحلة امتحانهم؟!

وجاء في السورة بيان معرفَةِ الإنسان بطريق الخير وطريق الشرّ، بما

لديه من فطرةٍ هاديَة، وبما أنْزَلَ الله على رسُلِه من رسالاتٍ، وبيانَاتٍ بمطلوب الله من عباده، في أوامره ونواهيه.

- وهُنَا يَسْأَلُ المتفكّر: مَا هو مطلوبُ الله من عبده المُمْتَحَن في رحلة امتحانه؟.

ويأتيه الجواب الرَّبَّاني: أنْ يقتحم عقبة نفسه الّتي تسيطر عليها أهواؤه، وشهواتُه، ورغباتُه من الحياة الدنيا.

- فإذا فهم هذا سأل: بمثل ماذا يكون اقتحام العقبة؟.

ويأتيه الجواب الرَّباني: بعتق رقبة عبْدٍ من الرّقّ، وبإطعام الطعامِ في يومٍ ذي مسغبة (أي: ذي مجاعَة) يتيماً ذا قرابةٍ ما، أو مسكيناً جائعاً شديد الفقْر، وفي اختيار العتق والإطعام مراعاةٌ للمرحلة المكية التي نزلت فيها السورة، إذْ كان توجيه الاهتمام فيها لمساعدة ذَوِي الضرورات والحاجات في المجتمع، والتحلّي بفضائل الأخلاق، عقب الدعوة إلى الإيمان الصحيح.

- وبعد هذا يأتي السؤال التالي: وهل يكفي الإنسانَ أنْ يعمل الحسَنَاتِ، ويتْرُكَ السيّئات؟

ويأتي الجواب الرّبّاني: لا، إذ لا بُدَّ أن يكون الإنسان من الَّذِين آمنوا بما أمَرَ الله بالإيمان به، وتواصَوْا بالصَّبْر، وتواصَوْا بالْمَرْحمة.

- وهنا يأتي السؤال التالي: فما هي النتيجة إذَا فعل الإنسان ما هو مطلوبٌ منه؟.

ويأتي الجواب الرَّبَّانيُّ: يكُونُ من أصحاب الميمنَة يوم الدين، وهم الذين يستحقُّون دخول الجنَّةِ دار النعيم.

- وبعده السّؤال التالي: وما هي عقوبة من كفَر بآيَاتِ رَبّهِ؟

ويأتي الجواب الرَّبَّانيُّ: أُولئك أصحابُ المشأمة، عليهم نارٌ مُؤْصَدَة.

وبهذا يظهر ترابط عناصر فِقَراتِ السّورة وآياتها ترابطاً فكريًا مَتِيناً، وقد أوصل إلى هذا إبرازُ المطويّات بين ثنايا فِقَراتها، استهداءً بإِدْراكِ اللّوازم الفكرية، وما تقتضيه العبارات المذكورة من تَتِمَّاتٍ غَيْرِ مَذْكُورةٍ إيجازاً، واعتماداً على تَدَبُّر أولي الأَلْباب.

* * *

(٣)

دروس السّورة

تشتمل هذه السورة على ثلاثة دروس:

الدرس الأول:

درسٌ اشتمل على قَسَمٍ بمُقْسَم به ذي اقتضاءَيْن: أحدهما يستدعي القسم به، والآخر لا يستدعيه، فجاءَ قَسَماً منفيًا.

والْمُقْسَمُ به: مكّة البلد الحرام، وكُلُّ والدٍ وما وَلَدَ.

والْمُقْسَمُ عليه: أنّ اللّه قد خلَقَ الإنسانَ في كبد، أَيْ: في شدّة وكدْحٍ وَمُكابَدة ومشَقَّة، ويلزم عن هذا عقلاً أنّه مُمْتَحن مكلّف مسؤول ومُجَازَىٰ.

وهو الآيات من (١ ـ ٤).

الدرس الثاني:

درس تضمّن بيان صارفين عن الإيمان بقانون الجزاء الربّاني، هما اغترار ذي القوّة بقوته، وتوهُّم ذي الغباءِ أنّ ما لاَ يُشَاهِدُه ببصره من حوله لاَ وجود له، مع التنبيه على فسادهما، وتضمَّنَ بيان هداية الإنسان إلى

معرفة طريق الخير وطريق الشرّ، ليُدْرِكَ أنه مكلّف ومَسْؤول ومُحاسَبٌ ومُجَازَىٰ.

وهو الآيات من (٥ ـ ١٠).

الدرس الثالث:

درس تضمن الإجابةَ على أسئلة مطويَّة يستثيرها ما جاء في الدرسين الأول والثاني.

وهو الآيات من (١١ ـ ٢٠).

* * *

(٤)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: سبَقَ في أوّل سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان الحكمة التي فتح الله بها عليَّ مِن ذكر القسم وإدخال حرف النفي «لا» عليه.

وأعيد هُنا ما سبق أن ذكرتُه هُنَاكَ مع زيادة شرحٍ وإيضاح، وبعض إضافات.

اختلفت أقوال المفسرين في الْقَسَمِ المسْبُوق بحرف النفي «لا» الوارد في القرآن المجيد ثماني مرات في سبع سُور بصيغة ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾.

- فمن المفسّرين من قال: «لاَ» زائدة، والتقدير «أقسم».
- ومِنَ المفسّرين من قال: «لاَ» نافية لكلامٍ مُقَدّرٍ، وليْسَ النفيُ مسلّطاً على القسم.
- ومنهم من قال غَيْرَ ذَلِكَ.

ولم أجد لأقوالهم في هذا مُسْتَنداً من بيان الرّسُول ﷺ.

ولم يَنقُلْ أحَدٌ أنَّ أحَداً من العرب الّذين لم يستَجيبوا لدعوة الرسول ﷺ اعتَرضَ على هذا الأسلوب البيانّي الذي يُذْكَر فيه القسم مسبوقاً بأداة النفي «لا» فدَلَّ على أنّهم لم يجدوا فيه شيئاً خارجاً عن أساليب البيان البليغ.

وقد سبَرْت بأناةٍ معانيَ النصوص الّتي جاءت فيها صيغةُ ﴿لَآ أُقۡسِمُ ﴾ فظهر لي بفتح من الله الوهّاب، أنّها أسلُوبٌ مبتكَرٌ، أدْرَكَ قيمتَهُ فُصَحاء العرب ضمن ما أدركوا من عناصر إعجاز القرآن، فأحْجَمُوا عن معارَضَةِ سُوَر القرآن بِخُطَبٍ أو مَقَالاَتٍ أو رسائل أو غير ذلك، لشعورهم بالعجز عن أن يأتُوا بمثله.

هذا الأسْلُوب البيانيُّ المبتكَرُ ﴿لَآ أُقۡسِمُ ﴾ قَدْ رُوعِي فيه اقتضاءان مُتَعَارضان:

الاقتضاء الأول: يَسْتَدْعي الْبَيَانُ البليغ معه الْقَسَمَ المؤكِّدَ للخَبَرِ الّذِي هو الْمُقْسَمُ عليه، والذي قد يتأثر به أولو الألباب.

الاقتضاء الثاني: يسْتَدْعي البيان البليغ معه، أنَّه لا فائدة من الْقَسَم، بالنسبة إلىٰ المقصودين بتوجيه الخطاب إبّان التنزيل.

فكان الحلُّ المبْتكر في أساليب البيان القرآنيّة، مراعاةَ الاقتضاءَيْنِ المتعارضَيْن معاً، باختيار ذكر الْقَسَمِ والْمُقْسَمِ به، مع سبقه بأداة النفي «لاَ» وإتْبَاعهما بالمقْسَم عليه.

فالوجهُ الّذي اقتضىٰ الْقَسَمَ رُوعِيَ حالُهُ بِذِكْرِ الْقَسَمِ والمُقْسَمِ به، تنبيهاً على ما في الْمُقْسَمِ به من تأكيد للْخَبَرِ الْمُقْسَمِ عليه، أو حُجَّةٍ هاديةٍ إلى أنّ الموضوع الذي يُرادُ تأكيده حقٌّ وصدْق.

والوجه الّذي اقتضى أنّه لا فائدة من هذا القسم، بالنّسبة إلى المعنيِّين بالخطاب إبَّان التنزيل، رُوعي حالُه بنفي القسم.

- ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

المراد بـ«البَلَد» مكة البلَدُ الحرام، حرسَهُ اللّه وزاده شرفاً. وجاء تعيينه باسم الإشارة «هٰذَا» لتَمْييزه عن سائر بلاد الدنيا، التي يصحُّ أنْ يُطْلَقَ على كلّ واحد منها لفظ «البلد» ولمَّا كانت مكَّةُ مهبطَ وَحْيِ هٰذِه السُّورة كان اسْمُ الإشارة «هٰذا» الّذي يُشار به إلى القريب هو الملائم الذي يُفِيدُ تعيينَ مكّة البلد الحرام.

وكان أهل مكّة يؤمنون بالْحُرْمَةِ العظيمةِ لبلَدِهمْ، وللمسجد الحرام فيها، ولا سيما الكعبةُ المشرفة بيتُ الله فيه، إلى حدّ أنّهم قَدْ يُقْسِمُون به على ما ظهر لي، لتوثيق أخبارهم، ووعودهم، وعهودهم.

ومن تعظيمهم لبَلَدِهم أنّهم كانوا يُؤَمِّنُونَ من دَخَلَه، ولا يَسْتَحِلُّون دمَهُ، ولا مالَهُ، ولا عِرْضه، وقَدْ عَقدُوا حِلْفَ الفُضُولِ لنُصْرَةِ المظلوم، وكان هذا في الجاهليّة قبْلَ بِعْثَةِ الرسُولِ محمّد ﷺ، وكان الرسول قد حضره قبل بعثته.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾: أي: وأنتَ يا مُحمَّدُ بْنَ عبد الله، ولا يُمْكِنُ أن يكون الخطابُ بضمير «أنت» لغيره، لأنّه هو الّذِي يُوْحَىٰ إليه، وهو الذي جعَلَه كُبَراءُ مُشركي قومه حِلًّا، أي: هدفاً، وفي هذا تكريمٌ وتسلية للرسول. وجاء لفظ البلد هنا مذكّراً، وهو أحد وجْهَيْنِ عَربيَّين له، إذ يجوز أن يؤنث.

﴿حِلٌّ﴾ هذا اللفظ يأتي في اللُّغَةِ بمعنيَيْن:

المعنىٰ الأول: الْغَرض، أي الهدَفُ الّذي تُرْمَىٰ إلَيْه السِّهام، يقال لُغَةً: اتَّخَذَهُ حِلًّا، أي: اتَّخَذَهُ غَرَضاً وَهَدَفاً يَرْمِي إليه سِهَامه.

المعنى الثاني: الحِلُّ الْحَلالُ، يُقَالُ لغة: هذا حِلٌّ لَكَ، أي: هذا حَلَالٌ لك.

والمعنى الأوّل هو المعنى الملائم هُنا، فكِبَارُ مُشْركي قوْم الرَّسول في مكّة قد اتَّخذُوه هَدَفاً وَغَرَضاً يَرْمُون هم وأتباعُهُمْ إليه سهامَ الإيذاء والاضطهاد، مُسْتَحِلّين حُرْمَة مكّةَ البلَدِ الحرام، الذي يعظمونه، ويَرَوْنَ حُرْمة العدوان فيه على أحدٍ من الناس، أو أحَدٍ من حيوانٍ برّيٍّ أو شجرةٍ ثابتة، ومخالفين اعتقادَهُمْ في حرمَتِه، ووجوب تأمين كلّ من فيه، وكُلِّ ما فيه، حتّىٰ الدَّاخلِ إليه من غير أهله، ومخالفين مبادئ حِلْفِ الفضول، فهم بهذا قد أسْقَطوا من نفوسهم حُرْمةِ هذا الْبَلَد، ولم يبْقَ لديهم منها ما يسْتَحِقُّ أن يُقْسِمَ الله به منْ أَجْلِه، فكانَ الملائمُ لحالِهم أن يقول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ① وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ②﴾:

أي: والحالُ: أَنْتَ مُتَّخَذٌ مِنْ كفَّارِ قومِك فيه غرضاً لسهام إيذائهم واضطهادهم، وأنت رسُولي إليهم وإلى الناس أجمعين، ولا يخفى مَا في هذا البيان من التشنيع عليهم لأنهم قد استحلوا حُرْمَةَ البلد الحرام الذي يعظّمونه، بإيذائهم وعدوانهم على رسول ربّهم فيه وعلى الذين آمنوا به فأسقطوا بعَمَلهم حرمة هذا البلد من قلوبهم.

وجاء في النّصّ تكرير عبارة: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ في الآية الثانية، لأَمْرَيْن:

الأول: التناسُق الجمالي بين الآيتين الأولى والثانية.

الثاني: التنبيهُ على أن المشركين اسْتَحَلُّوا الحرمَةَ العظيمة لهذا البلد، بإيذاء رسُول الله فيه، واضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه. فعبارة ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ في الآية الثانية تُشْعِر بعِظَم حُرْمَتِه، بَعْدَ تعيينه وتمييزه في الآية الأولى، فالمعنى: وأنت رسولي العظيم حلٌّ بهذا البلد العظيم الذي لا يجوز أن يكون أحَدٌ من الناس العادِيّين فيه حِلًّا. فكيفَ برسولي العظيم؟!

والخطاب في هاتين الآيتَيْن مُوَجَّهٌ للرَّسُولِ بصريح العبارة، لكنّ القضيَّة الّتي يُرادُ تأكيدُها مَسُوقَةٌ لإقناع المكذبين بقانون الجزاءِ الرَّبّاني، وبيوم الدّين، فهم المعنيُّون بمضمون الخطاب، وبما أنَّ هؤلاء المعنيّين إبَّانَ التَّنْزِيل قَدِ اسْتَحَلُّوا حُرْمَةَ البلد الحرام، إذْ جَعَلُوا رسُولَ اللَّهِ فيه حِلًّا لهم، يُسَدِّدون إليه سهام إيذاءاتهم، فالقسم بهٰذا البلَدِ لا يؤثّر في نفوسهم لتأكيد القضية المسوقةِ لإقناعهم، وهذا المعنى يلائمهُ أن لا يُقْسم اللَّه بهذا البلد.

غير أنَّ هذا البلَدَ ذُو حُرْمَةٍ عظيمة، فهو لهٰذِه الحرمَةِ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّه به.

ففيه أوَّلُ بيت وُضع للناس، وكانَ مَوْقعه أوَّلَ ما بَرَدَ من قشْرَةِ الأَرْض على ما ورد في بعض الأخبار، وما من نبيٍّ إلاّ حَجَّ إليه، وهو بلَدٌ ذو حُرْمَةٍ عظيمة في نفوس الْعَرب جميعاً، منْذُ عَهْدِ رسول الله إسماعيل عليه السّلام، ثم إنّ ذكريَاتِ بناء إبراهيم له مع ولده إسماعيل عليهما السّلام بأمْرِ الله، بَاقِيَةٌ متداولةٌ في العرب عَبْرَ أَجْيَالهم.

ومراعاةً لاقتضاء الْقَسَم بهذا الْبَلَد وعَدَم القسَم به معاً، قال الله عزّ وجلّ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ①﴾ وأبان الله سبَبَ هذا الإجراء بقوله خطاباً لرَسُوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ②﴾ وفي هذا تكريم عظيم للرَّسُولِ محمّد ﷺ أي: ولو لم تكُنْ حِلاً بهذا البلَد لكانت العبارة المناسبة: أُقْسِمُ بهذا البلد.

- ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③﴾ أي: وَكُلِّ والِدٍ، وكلِّ مَا وَلَدَهُ كُلُّ وَالدٍ من أنسالٍ، في كُلِّ الأحياء المتوالِدَةِ حتى الحشرات وما دونها.

إنّ ظاهرة الوالد وما وَلَدَ في عالَم الأحياء من ظواهر خَلْقِ اللّٰهِ العجيبة، الّتي تستحقّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها، لتوجيه أنظار المخاطبين إلى دليلٍ من الأدلّة على وجود اللّٰه وطائفةٍ من صفاته الجليلة وأسمائه الحسْنَىٰ، ووجوب الإيمان به، وبوجوب الإسلام له، ووجوب عبادته.

ودراسة هٰذه الظاهرة تحتاجُ باحثين من العلماء المتخصّصين في دراسة الأحياء، وكيف تتكوَّنُ النُّطَفُ في الآباء، والبييضات في الأُمَّهات، وكيْفَ تَنْعَقِد الأجنَّةُ في الأرحام، وكيْفَ تحصُل الأنسال.

(الواو) في: ﴿وَوَالِدٍ﴾ هي واو القسم، وهو من حروف الجرّ، والعامل محذوف لا يجوز عند النحاة مع الواو إظهاره، والتقدير: أُقْسِمُ أو أحْلِف، ووالد وما ولد.

والمعنى العام: لا أُقْسِمُ بهذا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بهَٰذَا البلد، أُقْسِم وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، أوْ وَأُقْسِمُ وَوَالِدٍ وَمَا ولد، على تقدير أنّ المحذوف حرف العطف وفعل «أُقْسِم».

واختير لفظ: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ بَدل لفظ: ومَوْلُود مُراعاة للنَّسَقِ اللَّفظي والتناظر في فواصل الآيات.

ولعلَّ في الجمع بين البلَدِ الحرام، ووالد وما ولَدَ، إشارةً إلى أنّ هذا البلَد أوَّلُ أرضٍ ظهرت عليها الحياة، وأول أرض ظهرت فيها السلالات الإنسانيةِ، أليس فيها أوَّلُ بيت وُضِعَ للناس؟!

- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾:

﴿فِى كَبَدٍ﴾: **الكَبَدُ**: الشّدَّةُ والمشقَّة والضّيقُ ومعاناة كلّ ذلك أو بعضه.

ومُكَابَدَةُ الْأَمْرِ: معاناة مشقَّتِه. يُقالُ لغة: كابَدَ الْأَمْرَ، أي: قاسَىٰ

شِدَّتَهُ ومشَقَّته. قال اللّيث: الرّجُلُ يُكابِدُ اللّيل، إذا ركب هوله وصعوبته. ويُقَالُ: كابَدَ الأمْرَ مكابَدَةً وكِبَاداً، أي: قَاسَاه. واسم الفاعل منه «كَابِد» على غير قياس فِعَله.

ولفْظُ «الْإِنْسَان» عنوانٌ لكلّ خصائِصِه الّتي ميَّزَهُ اللَّهُ بها، وخصائِصُ الإنسان وصفاتُه دليلٌ على الحكمة من خلقه في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، وهي حكمة الامتحان، والامتحانُ يقتضي عقباتٍ يُطْلَبُ من الممتَحَنِ أنْ يقْتَحِمَها حتى يظفر بالنجاح الأسمَىٰ، أو بدرجَةٍ من درجات النجاح على مقدار ما اقْتَحَمَ من عقباتٍ وضِعَتْ له في امتحانه.

والامتحان يستَلْزِمُ عقْلاً الحساب، وفَصْلَ القضاء، ثمَّ الجزاء، وهذا يأْخُذُ بيَدِ المتفكّر الّذي يَتَنَقَّلُ مع اللّوازم الفكريَّة إلىٰ أنْ يَصِلَ إلى الإيمان بيَوْمِ الدين.

وقد أبْرَز النَّصُّ من ظروف الامتحان الّتي وُجدَ الإنْسَانُ فيها أنَّه مَخْلُوقٌ في كَبَدٍ، فالكَبَدُ مُحِيطٌ بِه من كُلّ جَوانِبِه، مُنْذُ مِيلادِهِ عابراً رِحْلَةَ حيَاتِهِ في هٰذه الدنيا، حتَّىٰ وَفَاته.

إنّ الإنْسان مضطر في هذه الحياة أن يتحمَّلَ مُكَابَدَة الشدائد والمشقّات، وأنواع الضيق والمزعجات، وَأن يكون كادحاً في كثير من أوقاته، لِيَدْفَعَ عن نَفْسِه المخاطِرَ والْآلام، ويَجْلُبَ لنفسه أسْبَابَ العيش، وبعْضَ اللَّذَّات، يَدْفَعُهُ حُلْوُ الْأَمَل في أنْ يُحَقّقَ لِنَفْسِه بالكَدْح الشّديدِ مُخْتَلِفَ لذَّاتِ الْحَيَاةِ، وأنواعَ متاعها.

ومن الناس من تلْتَهِبُ في داخل نفسه نارُ الشوقِ الحامية، لانْتِهَاب اللّذاتِ، وتحقيق الرَّغبات، طمعاً في الظفر بالسَّعادة الّتي لا مَطْمَعَ في الظَّفَرِ بِها في ظُروف الحياة الدنيا، دون مُنَغِّصَاتٍ كثيراتٍ، ومُكدِّرَاتٍ ومُقْلِقاتٍ جَسِيماتٍ.

إنّ الإنسان يمرُّ في الحياة الدنيا على سِلْسلةٍ من المتاعِبِ والمشقّاتِ الّتي يُعانيها ويُكابِدُها مُنْذُ نَشْأَتِهِ حتَّىٰ وفاتِه.

ومُكابدَةُ الإنسانِ مَقْرُونَةٌ بِكَدْحٍ لا تَطُولُ الرَّاحةُ بَعْدَه إلا بمقدار الحاجة إلى التَّزَوُّد بطاقةٍ لِكَدْحٍ آخر.

والكدْحُ هو العملُ بتَكَلُّفٍ ومَشَقَّةٍ وَنَصِب في كَسْبِ خَيْرٍ، أو اكْتِسَاب شرّ.

لَقَدْ كابَدَ الإنسانُ قبْلَ أنْ يَعْرِف نفْسَهُ كُلَّ عقَبَةٍ حَوْلَهُ، حتَّىٰ صَارَ إنْسَاناً فَعَرَفَ نفسَه.

كابَدَتْ جُرْثومَتُه الْأُوْلَىٰ سِبَاقاً عنيفاً بينها وبين الملايين من أمثالها وأشباهها، حتَّىٰ استطاعَتْ أن تشُقَّ طَرِيقها إلى الحياة الإنسانيّة.

وحين تطوَّرَتْ بقضاء الله وقَدَره وخَلْقِه فصارت جنين إنسانٍ، كابَدَتْ مشقّاتِ السّجْنِ المحْدُود، والقَيْدِ المشدُودِ، في بطْنِ الأمّ.

ولمَّا تكامل الجنين ونَضَجَ، وأرادَ اللَّه عزّ وجلّ له أن يتنسَّم نَسِيمَ الحياة على الأرض الواسعة، كابَدَ مشَقَّاتِ النُّفُوذِ من المضايق الشّديدة عند الولادة.

ومَا أنْ دَبَّ علىٰ ظاهر الأرض حتَّىٰ أَحَاطَتْ به مشقَّاتٌ أكْبَرُ حجماً، وأكثَرُ عدداً، وَأشدُّ قَسْوَةً.

وكلَّما تَدَرّجَ في أطوار النُّمُوّ عظُمَتْ أمَامَهُ العقبات، وتطَلَّبَتْ منْهُ الحياةُ مُكابَدَةً أعظَمَ، لتحصيل الرّزق، ودفْع المخاطِرِ والآلاَم، وللمسابقة والمنافَسَة مع النظراء، لِلْحصُول على أكثر نصيب من متاع الحياة الدنيا.

وكلَّما زادَتْ لَدَيْه تجاربُ الكَدْحِ والمكابدةِ في مُصَارَعَةِ مشقَّاتِ الحياة، واجتياز عقباتها، ومُغَالبَةِ كُلِّ مُعَارَضَةٍ أَوْ مُنَافَسَةٍ، ظَهَرَتْ في نَفْسِه

دوافِعُ جديدَةٌ تَسُوقُه إلى مغامراتٍ جَدِيدَة، يُكابد فيها آلاَماً، فهو في تطلُّع مُسْتَمرٍّ إِلَى الاستزادة، وكلَّما انتهىٰ به كدْحُه إلى جديد، ولذَّ لَهُ ذَلِكَ الجديد، نما في نَفْسِه الحِرْصُ والطَّمع، فأخذ يُكابدُ مشقَّاتٍ أُخرىٰ لتحصيل مطالبَ أُخْرىٰ للنَّفس، أو للفكر، أو للجسَدِ، والعامل لدُنْياه يكْدَحُ من أَجْلِ الدُّنيا، والعاملُ لآخِرَته يكْدَحُ من أجل الآخرة، وكلٌّ منهما في مكابدةٍ مستمرّة، وكدْحٍ مُتَتَابع، وهما لا ينْتَهيان إلاَّ بمَوْتِه.

هذه حقيقةٌ مشهُودَة في السُّلوك الدائم للإنسان، وقد عبَّر عنها المعرِّيُّ بقَوْله:

تَـعَـبٌ كُـلُّـهَـا الْـحَـيَـاةُ فَـمَـا أعْـ جَـبُ إلاَّ مِـنْ رَاغِـبٍ فـي ازْدِيَـادِ

إنَّ الإنسان حريصٌ على البقاء بدافعٍ فِطْريٍّ غَرَزَهُ اللَّهُ في أعماقه، فَهُوَ يَتَحَمَّل من أجْل ذلك أنواعاً من المكابدَة والكدح الشَّاقَّيْنِ، للحصول على الرِّزق، وفي مكابدته وَكَدْحِهِ يَضْطَدِمُ بعقَباتٍ كثيراتٍ، فإنْ وصَلَ إلى مَا يُريد، كابَدَ مشقَّاتِ الحفْظِ والْحِمَايَة من أيدي الظالمين، وإنْ لم يَصل إلى ما يريد، كابَدَ آلام الْفَقْدِ والحرمان والْخَيْبَة.

هذا مثال، وفي حياة الإنسان أنواعٌ كثيرةٌ أُخرىٰ من المكابدات التي يُكابِدُها، لتحقيقِ ما يتجدَّدُ في نفْسِه من رغبات: فلِلْحُبِّ مكابدةٌ وكدْحٌ، ولِلْكَرَاهِيَةِ مكابَدَةٌ وكَدْح، وفي الْجُودِ مُكابَدَةٌ وكَدْح، وفي الشُّحِّ مُكَابدةٌ، وفي الصَّبْرِ مكابدة، وفي الضَّجَر مكابَدَة، وفي الطمع مكابدة، وفي القناعة مكابدة، وفي طاعة الله والْعَمَل بمراضيه، وفعل الخيرات، واجتناب المعاصي والمخالفات، مكابدةٌ وكدْح، وفي معصية الله، والعمل بمسَاخِطِه، وفعل الشرور، وارتكابِ الْمُوبِقاتِ، لإرضاء الشهوات، مكابدةٌ وكدح.

هكذا الحياةُ الدنيا للإنسان، تَكادُ تكونُ مسالكُها وطُرُقها مُكْتَظَّةً بما يتَطَلَّبُ من سالِكها مكابدةً وكدْحاً لاجتياز عقباتها، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ④﴾.

وكما قال عزّ وجل في سورة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول) خطاباً للإنسان مؤمناً كان أمْ كافراً، تقيًّا كان أمْ فاجراً:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ⑨ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ⑩ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ⑪ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ⑫ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ⑬ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ⑭ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ⑮﴾.

﴿يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾: أي: يَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يُهلِكَهُ هَلاَكاً أَبدِيًا، إذ يكونُ لَهُ الموتُ راحةً من العذاب.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ⑭﴾: أي: ظنَّ أنْ لَنْ يَرْجع إلى الحياةِ بَعْدَ الموْتِ.

إنّ الإنسان لمّا كان في ظروف الحياة الدُّنيا ضِمْنَ مُحيطٍ به مِنَ الكَبَد (=الشدّة، والمشقة، والضّيقِ، والمعاناة) كان بحاجَةٍ إلى الكَدْح (أي: إلى الكَدّ والْعَمَل الشّاقِ بنَصَبٍ وصَبْرٍ على المتاعِبِ والآلاَم) لتحقيقِ مطالبه العاجِلَةِ والآجِلَةِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فطالب الدُّنيا الّذي لا هَمَّ لَهُ إلاَّ مَتاعُها وَزِينَتُها والتفاخُرُ والتكاثر منها، يَكْدَحُ على مقدار استطاعته للوصول إلى مطالبه منها. وطالِبُ الآخرة الذي جعل هدَفَه رضوانَ الله وجنّات النعيم خالداً فيها مُخَلَّداً، يكدح على مقدار استطاعته للوصول إلى السعادة الخالدة.

وهُنَا وبَعْدَ ظهور هذه الحقيقة، يتساءَلُ المتفكّر المتدبّر: لماذا خَلَقَ اللَّهُ الإنسان ضِمْنَ ظروف الحياة الدّنْيَا في هذا الكبَدِ المحيط به، إحاطَة الكُرَةِ الشّاملة بما في داخلها؟

ويستطيع بالتأمُّل المقرون بهَدْي البيان القرآنيّ، أن يَعْرِفَ السَّبَب،

وهو أنّه مَخْلُوقٌ مُمْتَحَنٌ مُبْتَلَىٰ في ظروف هٰذه الحياة الدّنيا، والابتلاءُ يقتضي التَّكْلِيف، ولا معْنَى للتكليف بدون مشقَّةٍ وَكبَدٍ وَمُعَانَاةٍ، فجعل الله عزّ وَجَلّ ظروف الحياة الدنْيَا كذلِك، تُحيطُ الإنْسانَ بِالْكَبَد، كإحاطة الماء بالسَّمك في الْبَحْرِ.

ولهذا فميادينُ الامتحاناتِ وَسَاحَاتُها لاَ بُدَّ أَنْ تُبَثَّ وتُنْشَرَ فيها الْعَقَبَاتُ، والمفَازَات، والْحُفَرُ، والأشواك، والمخيفاتُ، والشدائد. إضافةً إلَىٰ مُرْضِيَاتِ الْأَهواءِ والشهوات ومُحَقِّقات بعضِ اللّذَاتِ الممنوعَةِ المحرَّمَة، وبعْضِ اللّذَّاتِ المباحات.

والظَّفَرُ يكون باقتحام العقبات واجتيازها، وتحمُّل المكابَدَةِ فيها والكدح، مع كراهية النفوس لذلك، باجتناب مُرْضيات الأهواء والشهوات، ومحقّقاتِ اللّذَّاتِ المحرَّمات، الْمُزَيَّنَاتِ للنفوس، والمُحَبَّبَاتِ لدَيْها.

وبهذا الامتحانِ الصَّعْبِ على النفوس يُكْتَشَفُ المقتَحِمُ الكَيّس، الذي يجتاز بنجاح، ويَسْتَحِقُّ دَار الكرامة، ومقام التكريم، بفضل ربِّ العالمين الذي وضَعَ النَّاسَ في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان. ويُكْتَشَفُ العاجِزُ المرتكِسُ الَّذِي يتَّبعُ هَواهُ، وتأسِرُه شَهَواتُه، ويكُونُ كُلُّ هَمِّهِ متَعَلِّقاً برَغباتِه من الحياة الدنيا، فيجتاز رحلة امتحانه ظالماً آثماً، عاصياً مستكبراً على ربّه، ومتمرّداً على أوامره ونواهيه، وتنتهي رحلةُ امتحانه بالخيبة، مُبْعَداً عن دار كرامة الرَّحْمن، ومقام التكريم عنده، ومستحقًّا العذابَ بالعدل في دار العذاب النّار.

ولو جعل الله الحياة الدّنيا كلَّها متاعاً لا كبَدَ فيه ولاَ كدْحَ ولا متاعِبَ ولا عقبات، لما كانت صالحةً لامتحان الإنسان فيها.

فواقع هَٰذه الحياة الدنيا، بما فيها مِنْ كبَدٍ وكَدْحٍ على نَجْدَيْنِ (أي: طريقين) نَجْدِ الخير ونَجْدِ الشر، هُوَ مِنْ كَمالِ الحكْمَةِ للغاية من خَلْقِ

الإنسان مُزَوَّداً بخصائصِه الّتي جعَلَهُ اللَّهُ بها في أَحْسَنِ تقويم، وهي قُدُراتُ الْعِلْمِ والْفَهْمِ والتَّفَكُّر، وحُرِّيَّةُ الإرادة، وغَرَائزُ النفس، ومشاعرها، وعواطفها، وأهواؤها وشهواتها، والحِسُّ الوجدانيُّ بالْخَيْرِ والشَّرّ، والْقُدْرَةُ على الانتفاع بالمسخَّرَاتِ له في ذاته، وفي الكَوْنِ من حوله.

وكلمة «الإنسان» المخلوق في كبد عُنوانٌ لكلّ خصائِصهِ الَّتي أشار إليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾.

وفصَّلَتْها بَيَانَاتٌ أُخرىٰ تتعلَّقُ بخصائص الإنسان التكليفيّة.

والمتَعمِّقُ في حكمة خلق الإنسان في أحْسَن تقويم، لا بُدَّ أنْ يُدْرِكَ أنّ اللَّه تبارَكَ وتعالى، قد أعدَّ له المسكن الخالد الملائم لهذا التفضيل العظيم الّذي فضَّلَهُ اللَّه به.

وحين يسْمَعُ أخبار الجنَّة وما فيها من نعيم مقيم، ومُلْكٍ عظيم، وأنَّها ذاتُ مَرَاتب ودرجات متفاضلات، يُدْرِكُ أنَّ هٰذِهِ الجنَّة هي المسْكَنُ الخالِدُ الملائم له، وأنَّ مراتِبَها وَدَرَجَاتِها المتفاضِلاَتِ لا بُدَّ أَنْ يكون استحقاقُها بأسبابٍ من الإنسان نفسه.

ولمّا كان الإنسان ذا إرادَةٍ حُرَّةٍ مع خصائِصِه النفسيَّة الأُخرىٰ، كان من الحكمة أنْ لا يَسْتحقَّ دخُولَ الجنَّةِ لِيَنْعَم بهذا المسكن الخالد العظيم، إلاَّ إذا آمَنَ بربّه الّذي خلَقَهُ وهيَّأَ له دار النعيم المقيم. وكان من الحكمة أيضاً أن لا يسْتَحِقَّ مَرْتَبَةً أو درجَةً مُرْتَقِيَةً من مراتبها أو درجاتها المتفاضلات، إلاَّ بأسبابٍ منه تجْعَلُه يَسْتَحِقُّها بفضل الوعد الرَّبَّاني.

وهنا تظهر لذي البصيرة فضائل الأعمال الظاهرة والباطنة، التي يَبْتَغِي الإنْسَانُ بها رضوان اللَّه عزّ وجلّ، على ما يُحِبُّ تبارك وتعالى من عباده، ويسْتَحِقُّ أن يتفضل الله عليه بالارتقاء في المراتب والدرجات، على مقدار

ما اختار في الامتحان، وهذا الاستحقاقُ مُسْتَنِدٌ إلى وعْدِ اللَّهِ الكريم المقرونِ بوضعه موضع الامتحانِ في الحياة الدنيا.

أمّا من كفر باللّه جُحُوداً، واستكبر عن الخضوع له بإعلان الإسلام له، وإعلان الطاعة لأوامره ونواهيه، فالحكمة الّتي تقتضي العدلَ، أن يعامله بارئه والمنعم عليه طَوال رحلة امتحانه بالطَّرْد من مجالات رحمته يوم الدين، وبإدخاله دار العذاب الّتي اعتدها للكَفَرةِ والمجرمين، والعاصين المسرفين في معاصيهم، بشرط إعلامه وإنذاره بذلك وهو في رحلة امتحانه.

إنّ مَنْ كَانَ من هذا الفريق الكافر الجاحِد المجرم، أو المتمادي في ارتكاب الكبائر الكبرى، قد كشَفَ عن نفسه أنّه لمْ يكُنْ مستحقًّا التفضيل الّذي فَضَّلَ الله به الإنسان.

وهنا تظهر لذي البصيرة رذائلُ الأعمالِ الظاهرة والباطنة، التي تُسْخِطُ اللّه عزّ وجَلَّ، وتكونُ على ما يجلُبُ مَقْتَ الله وغَضَبه على عباده. وعلى مقدارها يستحقُّ الانحطاط والتَّسَفُّل في منازلِ الجحيم ودركاتها، حتّى يَصِل بعْضُ المجرمين إلى الدرْكِ الأسفل من النار.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (٥ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

● ﴿أَيَحْسَبُ﴾ في الآية (٥) وفي الآية (٧) فيها قراءتان، إحداهما بفتح السين، والأُخْرىٰ بكَسْرِها.

فقرأ بفتح السين، ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بكَسْرِ السين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الفعل المضارع، أمّا الماضي «حَسِبَ» فبكَسْر السّين فقط بمعنى ظنّ ظنًّا توهُمِيًّا ضعيفاً، فهذه المادّة اللّغوية لم تستعمل في القرآن إلاّ بمعنى الظنّ الضعيفِ التوهميّ المرفوض، والتصورات الباطلات المخالفات للحقيقة.

● ﴿لُبَدًا﴾ فيها قراءتان، إحداهما بتخفيف الباء المفتوحة، وهي قراءة معظم القرّاء العشرة، والأخْرىٰ بتشديدِ الباء المفتوحة، وهي قراءة أبي جَعْفر.

والمعنى: أهْلكْتُ فأفْنَيْتُ بالإنفاق مالاً كثيراً في إعداد القوىٰ من الأنصار والْعَتاد، فأنَا بها عزيز لا يَقْدِرُ أَحدٌ على أن يَغْلِبَنِي ويُعَذّبني.

يُقَالُ لغة: مَالٌ لُبَدٌ، أي: كَثِير جمٌّ لا يُخَافُ فَنَاؤه، كَأَنَّهُ الْتَبَدَ بَعْضُهُ علَىٰ بعض.

وقراءة أبي جعفرٍ: [لُبَّداً]: هي جَمْعُ «لاَبِد» أي: كثيرٌ مُتَلَبِّدٌ بعضُهُ فوق بعض. والجمع يَدُلُّ على أنواع من المال كُلُّ واحدٍ منها لاَبِدٌ كثير.

وبين القراءتين تكامل قائم على التوزيع، فبعض ذوي العزّة يقول: أهلكْتُ مالاً كثيراً متلَبِّداً بعضُه على بعض، وبعض ذوي العزّة يقول: أهلكْتُ أموالاً كثيرة متنوعة، كلُّ نَوعٍ متَلَبِّدٌ بعضُه على بعض.

تمهيد:

في هذا الدرس إلْماحٌ شبيهٌ بالرّمز إلى بعض الأوهام الّتي تسيطر على

أقسامٍ متفرّقةٍ من الذين لا يُؤْمِنُونَ بالجزاء الرَّبّانيّ، إذْ تحجُبُهم أوهامهم عن إدراكِ براهين هذا الإيمان.

والإلماح إلى هذه الأوهام من المنهج الرّبّانيّ القائم على التتبُّعِ التفصيليّ الدقيق للموضوع الواحد، إذْ تكونُ عناصرهُ مُوَزَّعةً في عدَدٍ من سور القرآن المجيد.

والتتبُّعُ هنا ألْمَحَ أو أشار إلَىٰ ثلاثة تَوَهُّمَاتٍ تُوجَدُ موزّعَةً في أصنافٍ من الناس.

(١) فأصحاب القوّة والعزّة والجبروتِ في الأرض، يطْغَىٰ على تصوّراتهم أنَّهُمْ بلَغُوا من القوّة الغالبة مبْلَغاً يحميهم من أن يَقْدِرَ عَلَيْهِمْ في دوائر نفوذهِمْ أحَدٌ فيَغْلبَهُم، وينالَهُمْ بشَرٌّ أو بِسُوءٍ، كبَعْضِ ذوي القوّة العزيزة في مكّةَ إبّانَ التنزيل، وكَفِرْعَوْنَ ونُمْرُود والأكاسِرَةِ والقياصِرَة مِنْ قَبْلِهم.

هٰذا صنف من الناس حين يَشْعُر بأنَّه عزيزٌ لا يُغْلَبُ، يَذْكُرُ متفاخراً أنَّهُ قد أنْفَقَ مالاً كثيراً مُتَلَبِّداً بعضُه على بعض، أو أنواعاً من الأموال كُلُّ نَوْعٍ منها كثيرٌ مُتَلَبِّدٌ بعضُه على بعضٍ، حتَّىٰ جَمَعَ حوله من الأنصار والعتاد ما يحميه مستقبلاً من أيَّة قُوَّةٍ تُواجِهُهُ لتَغْلِبَه وتَتَسَلَّط عليه، وتُصيبَه بشرٌ أو سوء.

وهذا التوهُّم يَنْتَفِخُ في نَفْسِه انتفاخاً فاسداً، حتى يطْغَىٰ على مراكز البصيرة فيها، وعندئذٍ لا يُبْصِر آياتِ الله في كونه، ولا يسْمَع البيانات المنزَّلات من لَدُنه، ولا تَعْمَلُ موازينهُ الفكريَّةُ فيما خُلِقَتْ له، حتّىٰ يُمَيِّز الحقَّ من الباطل، والخيرَ من الشرّ. فيَنْسَىٰ خالقَه الّذي خلَقَ السماواتِ والأرض، وخلَقَ كلَّ الْقُوىٰ، وأنَّه هو الذي منَحَهُ القوَّة، ويسَّرَ لَهُ سُبُلَ جَمْعها، وأنَّهُ هو الّذي سيُهْلِكُهُ مع الهالكين، فمِنْ أعجب العجب أن يدفعَهُ

غرورُه فيَرْفَعَ عقيرَته قائلاً: لَنْ يَقْدِرِ عَلَيَّ أَحَدٌ، ويَقولَ مُتَفَاخِراً: لَقَدْ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً، إِنَّه غُرور يُوصِلُ أَصحابَه إلى جنُونِ العظمةِ(١).

ولمَّا كان هذا التوهّم غير ذي قيمةٍ فكريَّة صالحةٍ للرَّدّ عليها، لَمْ يشتمل النصّ على عبارةٍ تُشِيرُ إلى إسقاطه، فكَمْ من دُوَلٍ عظمىٰ سلفت في تاريخ الناس، دَمَّرَها اللّه بكُفرها وفجورها، وظلمها وطُغْيانها في الأرض، بل اقتصر على بيان توهم المعبّر عن غروره منهم.

- ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

(٢) وأصْحابُ الغباء الحسِّيُون الحمقى الذين يتوهّمون أنّ حواسَّهم المحدودَةَ الضّئيلَة تُحيطُ بكُلِّ ما حولهم، يتَوَهَّمُونَ أنَّ قبائحهم وشُرورهم الَّتي استَخْفَوْا بها عن أعْيُن الناس، لم يرَها أحَدٌ ممَّا وَرَاءَ المنظور بأعينهم، وكذلك ما يُضمِرُون في أنفسهم من نيّاتٍ سيّئات.

أي: فاللّهُ وملائكته لا يَعْلَمُونَ بما فَعَلُوا في الماضي، ولا بما يفْعَلُونَ في الحال والاستقبال، من خبائث وجرائم، وظلم وعدوان، وبغْيٍ وَطُغْيَانٍ، وفُجُورٍ وعِصْيَان، ولا يشْهَدُونَ بما عَلِمُوا من أحوالِهِمْ.

وهذا التوهُّم يجْعَلُهم يجْحَدُون قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، فَلا حسابَ، ولا قضاءَ، ولا جزاءَ، ويَوْمُ الدينِ أمْرٌ باطلٌ لا صِحَّةَ له، في تصوراتهم المعتَمِدَةِ على العمَىٰ في بصائرهم.

وإسقاطُ هذا التَّوهُّم يكونُ بإرجاع كلِّ واحدٍ منهم إلى الإيمان بخالقه، الذي جعل له عيْنَيْنِ يَرَىٰ بهما، وجعل لَهُ فماً ذا لسانٍ وشفتين يَنْطِقُ به.

---

(١) ومن الأمثلة المعاصرة لهؤلاء المغترّين دولٌ عظمىٰ تَملِكُ القوى الذرّيّة والهيدروجينية ذات التدمير الشامل، وتتفاخر بميزانيّاتها الضخمة المخصصة لجيوشها وأعتدتها، وتزعُمُ أنّه لن يَقْدِرَ عليها أحد.

وجاء هذا الإسقاط بأسلوب طرح سؤال على أهل العقل والرُّشْد، ومن شأن هذا السؤال أن يَسْتَدْعي إجابَةً تُوصِلُ لوازِمُها الفكريَّةُ إلى إقامة الحجَّة عليه، وإثبات نقيض توهُّمه، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾.

والجواب التلقائي يكون بكلمة «بَلَىٰ» فقد جعل الله له عيْنَيْنِ يرَىٰ بهما، ضمْنَ حُدُود الْقُدْرَةِ على الرؤية الّتي منحه الله إيَّاها، وجعل له فماً ذا لسانٍ وشفتين، فهو ينطق به، ويُعبّر به عمَّا يَعْلَم، في حُدُود اللُّغَةِ الّتي تَعلَّمَ رُموزها الكلاميَّة.

أي: فَهَلْ يمنَحُهُ اللَّهُ الخالق أدوات الإبصار، ويكونُ هو سبحانه فاقد البصر، وهل يمنَحُهُ الإبْصَار ولا يَمْنَح منْ يُراقبه من الملائكة أدواتِ إبصارٍ تَرَىٰ أعماله؟!

وهل يمنَحُهُ الخالقُ فماً ينْطِقُ به، ويكون هو سبحانه فاقد صفة الكلام، التي بها يُنَاقِشُه الحساب، ويفْصِلُ القضاءَ بشأنه؟!!

وهل يمنحه الخالقُ صفة النُطق الذي يُعَبِّر به عمّا في نفسه من المعاني، ولا يَمْنَحُ من يراقبُه من الملائكة القدرةَ على النُّطْقِ والتعبير، حتَّىٰ يَشْهَدَ عليه بما اكْتَسَبَ في رحْلة امتحانه؟!!

إنَّ هذا لأمْرٌ لا يقبله من لدَيْه مقدارٌ قليل منَ الفهم السَّوِيّ الصحيح، فضلاً عن إنسانٍ فضَّله الله بأدواتِ العلم واكتساب المعرفة، وجَعَلَهُ في أحْسَنِ تقويم.

ويمكن أن نستفيد من هذا الاستفهام المطروح حول قضيَّتي الرُّؤية والنُّطْق، نظيراً مَحْذُوفاً بشأن قضيَّة القوة، التي هي القضيَّة الأولى، فيُقَالُ بجانبها: ألم نَجْعَلْ له قوَّةً في جسمه؟!! ألَمْ نُسَخِّرْ لَهُ الأشياء في ذاته ومن حوله، حتَّىٰ صار بها عزيزاً ضمن دائرته؟!! أنَمْنَحُهُ ذَلِكَ ونَحْنُ لا نَقْدِرُ على أخْذِه، ومُعَاقَبَتِه على جرائمه؟!!.

وفي طرح مثل هذه الاستفهامات تأنيبٌ لهذا الأحْمَقِ المغرور على تَوَهُّمَاتِهِ الحمقاوات.

(٣) ومن النّاس فريقٌ يتوهَّمُونَ أنَّ التَّمْكِين من سُلُوك طريق الخير وطَريق الشرّ هو بمثابة إباحة سُلُوكِهِمَا، دون مسؤوليّة ولا حسابٍ ولا جزاء، فصاحب القدرة أو الحيلة هو المؤهل للظَّفر بالحظّ الأكْبَر من مطالب نفْسِه وجَسَدِه.

ويأتي دَفْعُ تَوَهُّم هٰؤلاء ببيَانِ أنَّ الخالِقَ العظيم قد دلَّهم علىٰ طَرِيقَي الخيْرِ والشَّرّ، وأعْلَمَهُمْ بأَنَّ طرِيقَ الخير حسَنٌ ونافِعٌ مُفيد، وبأنَّ عواقبه سعيدة، وبأنَّ طريق الشَّرّ قبيحٌ وضارٌّ، وبأنَّ عَواقِبَهُ وخيمة، وهٰذه الدَّلالَة مغْروزَةٌ في فِطَرِ نُفُوسهم، وفيما وهَبَهُم الله من قدرات فهم وإدْرَاكٍ واسْتِنْبَاط.

ثُم أبَانَ لهم بما أنزل على عباده من شرائع الدّين وأحْكَامِه طريقي الخير والشّرّ، وأعلمهم بأنّ من سلَكَ طريق الخير أرضى بسلوكه ربَّه، ونال الأجْرَ العظيم والثوابَ الجزيلَ يَوْمَ الدِّين من فضله، مع ما قد يمنَحُهُ من بعْضِ ثوابٍ مُعَجَّل في الحياة الدُّنيا، وأعْلَمَهُمْ بأنَّ مَنْ سَلَكَ طريق الشَّرّ أسْخَط بسلوكه ربَّهُ، واستحقَّ به عقابَ الله وعذابه على ما اكتسب من آثام، وحمَلَ من أوزارٍ في رحلة امتحانه في الحياة الدّنيا.

وجاءت الإشارة إلى دفع توهُّم هٰذا الفريق من النّاسِ في قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس بشأن كلِّ فَرْدٍ لَدَيه هذا التوهّم:

- ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾:

أي: وهدَيْنَاهُ طَرِيقَ الحقّ والخير، وطَرِيقَ الْبَاطِلِ والشَّرّ. **النَّجْدُ**: في اللُّغَةِ المرتَفِعُ من الأرْض، فالمراد: وهَدَيْنَاهُ الطَّرِيقَيْنِ المرْتفِعَيْنِ الواضِحَيْن البيِّنَيْن، فكلِمَةُ «النَّجدَيْنِ» صفَةٌ لموصُوفٍ محذوف، تَقْدِيرُه «الطَّرِيقَيْن» وقد

نابت الصِّفَةُ عَنْ الْمَوْصُوفِ بها، فاسْتُغْنِي بعبارة «النَّجْدَين». وهذا الوصف يُشْعِرُ بأنّ طَرِيق الحقّ والخير واضِحٌ جليّ، وبأن طريق الباطل والشرّ واضِحٌ وجَلِيٌّ.

وقد يَدُلُّ ارتفاعهما على حاجة سالك كُلٍّ منهما إلى كدحٍ ومكابدة.

أمّا طريق الحقّ والخيرِ فهو مَحْفُوفٌ بالمكاره، على مراحلِه طَوال عُمُرِ سالِكِه في مَسِيرَةِ حياته، ليظْفَر في نهاية المسيرة بالسَّعَادَة الخالدة، والنّعيم المقيم، والمجْد العظيم، وقد انبثت في هذا الطريق عقباتٌ ابتلائيّة يطالَبُ سالكه باقتحامها، ليظفر بالسعادة الخالدة.

وأمّا طريق الباطل والشّرّ فهو مَحْفُوفٌ بالشهواتِ والأهواء والمغريات والمزالق، وغايتُه عذَابٌ وشقاءٌ، وخيبَةٌ دائمة، وحَسْرَةٌ ونَدَمٌ.

وفي بيانِ هِدايَتِهِ إلى هٰذيْن الطريقين إشارةٌ إلى الغاية من خلقه، إذْ هو مُزَوَّدٌ بقُدْراتٍ علىٰ الْعَمل والكسْب في الْحَياة الدنيا، وبأدوات إحساس توصله إلَىٰ مشاهدة بَعْض آيات الله في كَوْنه، وبقُدْرَاتٍ فكريَّةٍ عِلْمِيَّةٍ، وَمشاعِرَ وِجْدَانِيَّة يُدْرِكُ بها الحقّ والباطل، والخَيْرَ والشّرّ، والصَّلاَحَ والفساد، والنافع والضّارّ، والمؤلِمَ والسّارّ، إلى سائر ما في نَجْدَي الحياة المتضادّين، مع ما هو مزوّدٌ به مِنْ إرادة حُرَّةٍ في اختياراتها.

هذه الغاية من خلقه هي ابتلاؤه وامتحانُه في ظروف الحياة الدنيا، وكَشْفُ اختياراته بإرادَتِه الحرَّة، الّتي يستخدم بها مسخَّرَاتِ اللّه له في ذاته، وفي الكون من حوله.

وإذْ جعَلَ اللّهُ الإنْسَانَ مَخْلُوقاً ممتَحناً في ظروف هذه الحياة الدُّنيا، وجعلَه لذلِكَ مُحَاطاً بالوسائل الّتي تسْتَدْعي منه أن يكابد في حياته ألْوانَ المشَقَّاتِ والمتاعب، وأن يكون كادحاً عاملاً كادّاً. فَقَدْ جعَلَهُ مُمَكَّناً من أن يَسْلُك باختياره الحرّ نَجْدَ الخير، ذي النهاية الْمُسْعِدة له، وأن يَسْلُك باختياره الحرّ نَجْدَ الشّرّ، ذي النّهايَة المشْقِيَةِ له.

ولهذا كان كلُّ جُزءٍ من أجْزاء مَيادِينِ وسَاحَاتِ امتحانِه في الحياة الدّنيا، المادِّيَّةِ والمعنويَّة، الجسَدِيَّة والنفسيَّة، ذا طريقين نَجْدَيْن واضحَيْن جَلِيَّيْنِ، والسّالِكُ في أيِّ واحدٍ مِنهما لا يتحقَّقُ له العبور إلاَّ بمكابَدَةٍ وَكَدْحٍ.

إنّ كون الإنسان مخلوقاً في كَبَد، وهو ما أبانَه الدرس الأوّل من دروس السورة بصورة مؤكَّدَةٍ جدًّا، يَدُلُّ ذوي الألْبَاب على أنه مخْلُوقٌ ممتَحَنٌ في ظروف هذه الحياة الدّنيا، وهذه القضيَّةُ ذاتُ لوازم فكريَّةٍ كثيرة.

- فمن لوازمها أنَّهُ لاَ بُدَّ أن يكون مزوّداً بكلّ الخصائص الّتي تُؤَهِّلُهُ لأنْ يكُون مخْلُوقاً ممتَحَناً، وقد جاء هذا مفصّلاً في عَدَدٍ من سُوَر القرآن المجيد.

- ومن لوازمها أنْ يُبَيَّنَ له ما يُطْلَبُ منه في رحْلَة امتحانه أن يَعْمَله، متحمِّلاً مكابدة عمله، وما يُطْلَبُ منه في رحلة امتحانه أن يتركَهُ أو يجتَنِبَه، متحمِّلاً مُكابدة تَرْكِه أو اجتنابه.

وقد جاء التنبيه على هذا في قول الله عزّ وجل:

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾:

أي: أبَنَّا لَهُ مَا يُطْلَبُ منه أَنْ يَعْمَلَهُ، وما يُطْلَبُ منْهُ أَنْ يَتْرُكَهُ أَوْ يَجْتَنِبَهُ، بالكتب المنزّلة، وببلاغات المرسَلِين، وببصيرة العقل، وبالحسّ الوجدانيّ، وهو واعظ اللّهِ في قلْبِ كلِّ مُؤمِن.

الحديث عن نوع الإنسان في هذه السُّورة مع إرادة العموم أو إرادة الخصُوص:

جاء الحديث عن نوع الإنسان في هذه السورة بقول اللّه عزَّ وجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ والمرادُ كُلُّ فَرْدٍ من أفراده، إذ الواقع يؤيّد

هذا العموم. وبَعْدَهُ جاء الحديث عنه بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ والمراد خصوصُ الكفرة من أهْلِ العزَّة والجَبَرُوتِ في الأرض، المغرورون بقواتهم الغالبة لمنافسيهم ممَّنْ حولهم من الناس، بدليل أنَّ الواقع يكشف أن من يَتَوَهَّمُ هذا التوهُّم فريقٌ من أهْلِ العِزَّة والجبروتِ في الأرض، وهؤلاء قلَّةٌ، لكن لو ملَكَ كثيرٌ من الضعفاء مثل هذه القوة لسَيْطَر عليهم هذا التوهُّم. وبعد هذا جاء الحديث عن الإنسان أيضاً بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ والمرادُ خصوصُ الكَفَرَةِ المادِّيين الحِسِّيِّين، الّذِينَ يُنْكِرُونَ وجُودَ غَيْرِ ما يَرَوْن في مَدىٰ رؤيَتِهِمْ، مع أنّ الوسائل العلميَّةَ تكْشِفُ لهم حيناً فَحِيناً وجُودَ أشياء كانَت خفيَّةً عليهم، وهي ضمن مدَىٰ رؤيتهم المباشرة، أو مع استعمال ما كانوا يملكون من مُكَبِّراتٍ ومَجَاهر.

فما الحكمة من هذا الإجراء؟

أقول:

إنَّه أسلوبٌ تَرْبَوِيٌّ يستعمله العظماء، وكُبَراء الأقوام، إذْ يُخاطِبُونَ جميع الأفراد خطاباً عامًّا بقضايا تَشْمَلُهُم جميعاً، ثُم يُوجّهونَ التلْويم لغَيْر مُعَيَّنٍ فيهم بأسْلُوبٍ عامٍّ أيضاً، والمقصودُون الموجَّهُ لهم الكلام هم الْفريقُ الّذين يَسْتَحِقُّون التَّلوِيم، لا جَمِيع الأفراد.

ونظيره: أن يقول الأبُ لأولاده وقد جَمَعَهُم لتأديبهِمْ: أنْتُمْ جميعاً أولادي، ربَّيْتُ كُلَّ واحدٍ منْكُمْ بِجَهْدِي، وعاطِفَتِي، وحَناني، ومَالي، وَكدِّي، وسَهَرِي.

أيحسَبُ ولَدِي الذي هو فِلْذَةُ كَبدي أنّي أكْرَهُه، وأنّي لسْتُ حريصاً على سعادته، وأنّي لا أُوثِر سعادَتَهُ على سعادتي؟!!

مع أنَّ المقصود بالكلام واحدٌ منهم بعَيْنِه، لكن لم يخُصَّه بخطاب، ليَدَعَ له مجالاً للتخلُّص من أوهامه، دُونَ تشهيرٍ به.

والحديث عن الإنسان في القرآن بصِفَاتٍ هي في قِسْمٍ من نَوْعِه، لا في كلّ نوعه، هو من أسلوب التعميم أو الإطلاق الذي يُرادُ به بعْضُ الأفراد لا جميع الأفراد، لغرضٍ بلاغيٍّ أو تَرْبَويّ.

ومن الأغراض البلاغيَّة إرادةُ الكَثْرَةِ الّتي تُنَاسِبُها المبالغة بالتعميم أو بالإطلاق.

ومن الأغراض إرادة أنَّ الظاهرة عامَّةٌ في النوع أو غالبةٌ إذا تُرِكَ كُلّ فردٍ منهم لنَفْسِه، دون مُعَدِّلٍ ومُقَوِّمٍ إيمانيٍّ إسلاميّ، قاعدتُهُ الإيمانُ بالله وباليوم الآخر، والخشيةُ من الله عزّ وجَلَّ، واتباعُ شريعَتِه ومِنْهاجِه لعباده، والإسْلاَمُ له.

ومن الأغراض التربويَّةِ مُدَاراةُ مشاعِرِ النُفُوسِ، بِعَدَم جَرْحِها بالتّشْهِير، وباستثارة حماسَتِها الذاتيَّةِ لسُلُوكِ سبيل الاستقامة الواضِحِ، دون حاجَةٍ إلى تأنيب مباشرٍ، أو سَوْقٍ بعُنْف.

ومن الأغراض جعل النصّ صالحاً للانطباق على كلّ من يتّصِفُ بالصِّفة المذمومة فيه مهما توالَتِ العصور، وتتابَعتِ الأجيال من الناس.

ومن الأغراض الإشعار بأنَّ الإنسان بحاجة إلى الدِّين الذي يهديه للّتي هي أقوم، ويُؤَثِّرُ على نَفْسِه من مِحْوَرَي مطامعها ومخاوفِهَا، بالتّرْغيب وبالتّرهيب، فلو تُرِكَ لنفسه دون إرسال رُسُلٍ وإنزال كتُبٍ، لكان أَغْلَبُ أفراده كفَّارين مُجْرِمِينَ طُغاةً بُغَاةً مُفْسِدِين في الأرض.

* * *

(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السّورة وهو الآيات من (١١ ـ ٢٠) آخر السّورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوۡ إِطۡعَٰمٌ فِي يَوۡمٍ ذِي مَسۡغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقۡرَبَةٍ (١٥) أَوۡ مِسۡكِينًا ذَا مَتۡرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ (١٧) أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩) عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠)﴾.

● قرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، والكِسائيُّ: [**فَكَّ رَقَبَةً * أَوْ أَطْعَمَ في يَوْم ذِي مَسْغَبَةٍ**]. على أنّ «فَكَّ» فعْلٌ ماضٍ، و«رَقَبَةً» مفعولٌ به. و«أَطْعَمَ» فِعْلٌ ماضٍ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوۡ إِطۡعَٰمٌ فِي يَوۡمٍ ذِي مَسۡغَبَةٍ (١٤)﴾ على أنّ لفظة «فَكُّ» مَصْدر، ولفظة «رَقَبَةٍ» مضافٌ إليه ولفظة «إِطْعَامٌ» مَصْدَرٌ أيضاً.

والقراءتان من قبيل التَّفَنُّنِ في التعبير، ومؤدّاهما متماثل.

● وقرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف: ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ بتحقيق الهمزة الساكنة بعد الميم، من فعل «أَأْصَدَ» بالهمز.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**مُوصَدَة**] من فعل «أَوْصَدَ» بالواو.

يقال لغة: أَأْصَدَ البابَ يُؤْصِدُه، وأوصَده يوصِدُه إيصاداً، أي: أغلقه.

تمهيد:

إنّ من لوازم كون الإنسان مخلوقاً في كَبَدٍ ضمن ظروف الحياة الدنيا، أن يكون مُمْتَحناً فيها، وإنّ من لوازم الامتحان في رحلة الإنسان في هذه

الحياة الدنيا، ذاتِ الكَبَدِ لجميع أفراده، أن يكون المطلوبُ منه اقتحامَ عقَباتٍ يَرَىٰ اقْتِحَامَها من الْمَكَاره، والإحْجَامَ عن سُلوكِ سُبُلٍ يرىٰ في سلوكها إرْضَاءَ أهواءه وشَهَواته، وتَحْقِيقَ لذَّاتٍ ورَغَباتٍ مُزَيَّنَاتٍ للنُّفوسِ، فهي تندفِعُ نَحْوَها بقُوَّةٍ، وهٰذا الإحجامُ من المكاره أيضاً.

وكُلٌّ من الاقتحام والإحجام يُقْصَدُ به ابْتِغَاءُ طاعَةِ الله الرَّبِّ العليم الحكيم الْمُجَازِي، السّميع البصير القدير، الذي خلق الموت والحياة للابتلاءِ في ظروف الحياة الدنيا، فالحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء يوْمَ الدّين، في ظروف حياةٍ أخرى.

ولا شكَّ أنَّ من لوازم الامتحان الحسابَ، وفصْل القضاء، وتحقيق الجزاء. إذ الامتحان بدون جزاءٍ مَسْبوقٍ بحسابٍ وفَصْل قضاءٍ عبَثٌ، وعَمَلٌ باطِلٌ لا جَدْوىٰ منه، ولا بُدَّ أنْ يَتَنَزَّهَ عَنْهُ الرَّبُّ العليم الحكيم القدير، ذو الأسماء الْحُسْنَىٰ، والصّفاتِ العظمى، جلَّ جَلاَلُه.

فالْقَسَمُ بالبلَد الحرام، مَرْكَزِ نَشْأة الأحياء في الأرض، مع القسم بظاهرة خَلْقِ الحياة ضِمْنَ سُنَّة التناسُلِ الّتِي يَجْمَعُها وَالِدٌ وَمَا وَلَد، في كلِّ سلالات الأحياء المشهودة على الأرض، ومنهم السُّلاَلَة البشريَّة التي بدأتْ بخَلْقِ آدم، على الْغَايَة من خَلْق الإنسان، الّتِي عُبِّرَ عنها ببَعْضِ لَوَازِمها، وهي كَوْنُ الإنْسَانِ مخلوقاً في كَبَد، ومَا استدعاهُ هذا اللاّزِمُ من لوازم أخرى في سلسلة متماسكةِ الحلقات، كلُّ ذَلك قد أوصل إلى السؤال عن المطلوب من الإنسان في رِحْلَةِ امتحانه، وعن المصير الجزائي المُعَدِّ له.

وقد جاء الدرس الثالث من دروس السّورة مُتَضمّناً بيان المطلوب الاعتقاديِّ، وأمْثِلَةً من المطلوب السُّلوكي في رحلة الامتحان، وبيان المصير الجزائي المعدِّ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، والمصير الْجَزَائِيّ المعدّ للذين كفروا بآيات الله.

● قول اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

الاقتحام: هو الدخول بشجاعَةٍ وجُرْأَةٍ في الأمور والمواضع الصَّعْبة الشّاقة، كارتقاء العقبات، والقفز لاجتياز المهاوي الخطرة، والمعترضات العسيرات.

يقال لغة: اقتحم الرَّجُل الأمر العظيم، وأقْحَمَ الفارسُ فَرَسَهُ النَّهْر، إذا أدخَلَهُ فيه مع خطورته، ويقالُ: اقْتَحَمَ السّجِينُ السّورَ، أي: هَجَم لاجتيازه بقُوَّة. وهكذا.

وشأن العقبات الصَّعْبَةِ أنْ تُقْتَحَم اقتحاماً.

والعقبة: هي مرقىً صعْبٌ من الجبال، وطريقٌ في الجبل وعْرٌ، وجمعها عقباتٌ، وعِقابٌ.

وهكذا التكاليف العمليَّةُ في رحْلَةِ الامتحان عبْرَ الحياة الدُّنيا.

وقد أخبر الله عزّ وجلّ عن الإنسان الذي تحدّثت عنه السورة، سواءٌ أكان مغروراً بعزَّته، أمْ قابعاً بغبائه في حدود محسوساته، أمْ يحسَبُ أنّ التمكين من سلوك طريق الخير أو طريق الشرّ بمثابَةِ الإباحة العامّة، بأنَّه لم يُحقِّقْ أقَلَّ مِقْدارٍ من المطلوب منْهُ في رحلة ابتلائه في الحياة الدنيا، فلا هو اقْتَحم فَسَلك نَجْدَ الحقّ والخير، ولا هو أحْجَم عن سلوك نَجْدِ الباطل والشر، بل اتَّبَعَ أهواءه، وشهواته، وسَلَكَ سُبُل الضلالة والشرّ.

﴿فَلَا﴾: الفاء حرف عطف فيه معنى الترتيب والتعقيب على هداية الإنسان المتحدّث عنه في السورة النَّجْدَيْن. و[لاَ] حرف نَفْيٍ إذا دَخلَ على الفعل الماضي لنفيه، وجب عند علماء العربية تكرارها، بعطف جملةٍ منْفيَّةٍ بحرف «لاَ» على جُمْلَتِها، مثل: لاَ أَكَلْتُ ولاَ شَربتُ، ومثل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾.

فكيفَ نوجّه عدم تكرارها هنا في قول الله عزّ وجل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾؟

قال أهل التفسير: هو على تقدير جملة محذوفة، أي: فلا آمَنَ ولا اقْتَحَم العقبة.

أقول: لمّا كان المطلوبُ منه بالنسبة إلى النَّجْدَيْن أَنْ يقتحم عقبة نجد الحقّ والخير، وأن يُحْجِمَ عن سُلُوك نَجْدِ الباطل والشرّ، كان من المناسب لهذا أن نُقَدِّر المحذوف كما يلي: فلا اقْتَحَمَ عقَبَةَ نجد الحق والخير، ولا أحْجَمَ عن سُلوك نَجْدِ الباطل والشرّ.

والمعنى: فلا فَعَل ما أمَرَهُ اللَّهُ به، فاقتحم بذلك عقَبَةَ نَفْسه، ومَا يشُقُّ عليها من مكاره، ولا تركَ مَا نهَاهُ اللَّهُ عَنْه، فأحجم عن اتّباع أهوائه وشهواته الجامحات الجانحات، الّتي تَغُرُّهُ بزيناتِها وحلاوة لذّاتها، وهي تهوي به إلى شقائه الأبديّ.

ومن الطبيعيِّ أنّ من لم يُجَاهِدْ نَفْسَه لاقتحام التكاليف الشاقّة، التي تجعلُه يسْلُكُ صاعداً إلى سعادته الحقيقيّة، فلا بُدَّ أَنْ يَنْزَلِقَ في المسالك الهابطة إلى السّعِير، وبئسَ المصير.

- قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ «مَا» اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ عن غير العاقل، وعن حقيقة الشيء وماهيّته، وهو في محل رفع مبتدأ، وجملة «**أَدْرَاكَ**» في محلّ رفع خبر. وهذا الاستفهام يُرادُ به في هذه الصيغة القرآنيَّة التعظيم والتعجيب، فهي من صيَغ التَّعجيب القرآنيّة المبتكرة، ضمْن أصُول وقواعد اللّسان العربي.

﴿مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾: جملةٌ مؤلَّفة من مبتدأ هو «مَا» وخبر هو «العقبة». وجملة «ما العقبة» في محل نَصْبٍ على أنّها مفعولٌ به ثانٍ للفعل في عبارة

«أدْرَاكَ». أي: ومَا أعْمَلَك مقْدَارَ اقتحامك العقبة عند ربّك؟!! فأنت لا تَدْرِي مقدار ثواب اقتحامها عند الله.

والمعنى: أعظم بأمْرِ هذه العقبة النفسيَّة، وأمْرِ اقتحامها عند الله، إعظاماً لا تَصِلُ إليه دِرايتُك مهْمَا فكَّرْتَ، وانطلقت مع تصوُّراتِك إلى أبْعَدِ ما لَدَيْها من مدىً تَصِلُ إليه، وإعظامُهَا إنَّما هُوَ إعظام للثواب الجزيل الجليل الّذِي يظفر بِه مقتَحِمُها عنْدَ رَبّه يوم الدِّين في جنَّاتِ النعيم.

وبعْدَ هذا التعظيم من شأن هذه العقبة النفسيّة، أي: من شأن اقتحامها الّذي يتضَمَّنُ التَّشْويق إلى هذا الاقتحام، ضربَ اللّهُ عزَّ وجلَّ أمْثِلَةً من عناصرها المبْنِيَّةِ على القاعدة الإيمانيّة.

- قول الله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾:

أي: تخليص الرقيق أو الرَّقيقة من إسَارِ الرِّقّ، ويكون هذا التخليص بالإعتاق، أو بالمساعَدَة عليه.

تقول لغة: فكَّ الرَّقَبَةَ يَفُكُّها فكًّا، إذَا أعْتَقَها، أو أعان على عِتْقِها.

وأصْلُ الْفَكّ الفصْل بين شيْئَيْن مترابطَيْن، وتخليصُ كُلٍّ منهما من الآخر.

وأُطْلِق على عتق الرقيق عبارة فكّ الرَّقبة، لأنَّ الأسِيرَ حين يُؤْسَرُ لِيُسْتَرَقَّ، تُرْبَطُ رقبَته، أو تُغَلُّ عُنُقُه، ويُسَاقُ بذلك أوْ يُقَادُ ويُسْتَرَقُّ، فجاءت الكناية عن عِتْقِ الرَّقيق بفَكّ الرَّقَبَة.

ومعلومٌ أنّه لا يُعْتِق الرَّقبةَ إلاَّ من يقتَحِمُ عقبةً من عقباتِ نَفْسِه، بحسب قيمة الرقيق المالية، أو بحسَبِ تعَلُّقِ مالكه به، وعِتْقُ الرَّقيق من أفضل أعمال البرّ.

ونُلاحظُ أنّ الإسلام مُنْذُ أوائل نُصُوصه التشريعيَّة والتعليميَّة، قد حَثَّ

على عِتْقِ الأرقّاء، وهذا يَدُلُّ على حِرْص الإسلام على تحرير الناس من العبوديَّة للعباد.

إنَّ عِتْقَ الرَّقيق إحياءٌ لحرّيَّةِ إنسانٍ ماتَتْ بالاسْتِرْقاق، وإحياءٌ لكرامته، وهما من أفضل العناصر التي يمتازُ بها الإنسانُ، بَعْدَ قُدْراتِ العلْمِ والْفَهْمِ والانتفاعِ من المسخَّراتِ له في ذاتِه وفي الكَوْنِ من حوله.

● قول الله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾: أي: في يَوْمٍ ذي مَجاعَةٍ عَامَّةٍ.

المسْغَبَةُ: الجوع، يُقَالُ لغة: سَغِبَ يَسْغَبُ، وسَغَبَ يَسْغُبُ سَغْباً، وسَغَباً، وسَغَابَةً، وسُغُوباً، ومَسْغبَةً.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾: **اليتيم**: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على الصَّغير الذي مات أبوه حتّى يبلُغ الْحُلُمَ، فإذا بلَغَ الْحُلُمَ زالَ عنه اسْمُ اليتيم، ويُجْمع «يَتِيم» على «أيْتَامٍ» و«يَتَامَىٰ».

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: أي: صاحِبَ قرابة، وهي قرابَةُ النَّسب.

﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾: المسكِينُ هو من تَبْدُو عليه عَلامَاتُ الفقر، وقد يكُونُ غير فقير في حقيقةِ أَمْرِه، هذا ما تَحقَّق لديَّ بعد استقراء النصوص وسبر معانيها.

﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: المتْرَبَةُ في اللُّغة الفقر، أي: ذا فَقْرٍ حَقيقيٍّ، وهذا وصْفٌ تَقْييدِيٌّ لعُمُوم لفظ: ﴿مِسْكِينًا﴾. وقد جاء هذا الوصْفُ التقييديّ لإخراج المتَظَاهِر بالمسكنة، وهو غير ذي فقرٍ حقيقيّ، والغرضُ من إخراجه رِعَايَةُ حقّ الفقراء الحقيقِيّين في يَوْمٍ ذي مجاعة عامَّةٍ، إذْ إطعامُ المساكين المتظاهرين بالفقر في أيَّام المجاعاتِ وهم في حقيقة أحوالهم غير

فُقَراء، يُفَوّتُ علىٰ الفقراء الحقيقيّين سَدَّ حاجاتهم، أَوْ ضروراتهم إلى الطعام.

فالحالُ في أيّامِ المجاعات ليْسَتْ كالْحَالِ في الأيَّام الأخرى، إنّ أيَّامَ المجاعاتِ يَجِبُ فيها التحرِّي عن الفقراء حقيقةً، حتى لا يأكُلَ المساكين المتظاهرون بالفقر وهُمْ غَيْرُ فقراء طَعَامَهُمُ الذي يُبْذَلُ لِسَدِّ حَاجَاتِهِم، أو ضروراتهم.

وجاء ذِكْر المسكين ذي المتربَةِ في هذا النَّصّ، دُون ذِكْرِ الفقير المتعَفِّف الَّذِي لا يَسْأَلُ النّاسَ إلْحافاً، لأنَّ أيّامَ المجاعاتِ أيّامٌ مُخرجاتٌ، تَجْعَل الفقراء المتعفِّفين يتحوّلُون إلَىٰ مساكين يُظْهرون حاجاتهم إلى الطَّعَام، فلا يَبْقَىٰ متعفِّفُون عن المسألة، لأنّ الضرورة فيها تَعْرِيضُ الأنفس إلى الموت من الجوع، ولا يَقْتصر الأمر على الرّضا بشظف العيش.

وقد خصّ الله عزّ وجلَّ بالذكر لدىٰ عَرْضِ بعْضِ عناصر اقتحام العقبة النفسيّة المبْنِيَّةِ على القاعدة الإيمانيَّة، من فضائل الأعمال الإنسانيّة التي تُرْضيه جلَّ جلالُه، عِتْقَ الرّقاب، وإطعام اليتامَىٰ من الأقربين، والمساكين من الفقراء الحقيقيين، في أيَّام المجاعَاتِ، اهتماماً بالتوجيه للفضائل الاجتماعيَّة العظمَىٰ ذَوَات الأولويات في تَدَرُّج أحكام الدّين، وذهن المتدبّر يضمّ إلى هذه الفضائل سائر شرائع الإسلام وأحكامه⁽¹⁾.

فالرَّحْمَةُ بالبائِسِينَ والضُّعفَاءِ وَذوي الضرورات والحاجات، والعطْفُ عليهم ومُسَاعَدَتُهُمْ، ورفْعُ البؤْسِ والضرورة والحاجة عنهم، بَعْدَ الإيمانِ وآثارِهِ المباشرة مع الله جلَّ جلاله، تَقَع في أُولَيَاتِ مطالب الرّبّ من عباده المؤمنين.

---

(١) وطيّ سائر شرائع الإسلام وأحكامه بعدم ذكرها في هذه السورة من بديع الإيجاز القرآنيّ، الذي يُدْركه المتدبّرون من أهل النظر الدقيق العميق.

وتخصيص التوجيه لإطعام ذوي المسغبة من اليتامىٰ الأقربين، والفقراء الحقيقيّين ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى، في يومٍ ذي مجاعةٍ عامّةٍ، يُلاحَظُ فيه أمْرَان:

الأمر الأول: أنَّ الأنْفسَ في أيّامِ المجاعاتِ تكُونُ أكْثر شُحًّا بالطعام من سائر الأيّام، لحاجَةِ المطْعِم إليه، أَوْ شِدَّة تعَلُّق نَفْسِه به، خَوْفَ حاجته المستقبليّة له، إذْ هو قُوتُ البقاء في الحياة، فتعظُمُ بذلك عقَبَةُ النفس التي تتطلّبُ اقتحاماً، فيكون الإطعام أدَلَّ على ابتغاء مرضاة اللّه جلَّ جلالُه، وأدَلَّ على قوّة تأثير الرحمة في قلب المطعِم على سلوكه.

الأمر الثاني: أنَّ حاجة البؤساء في أيّام المجاعات أشَدُّ وأَقْسَىٰ أَلَماً على نفوسهم، إذْ إنَّهم قد لا يجدون بقايا فضلات الأطعمة الّتي يرْمي بها النّاسُ عادة، ولو كانوا بُخَلاَءَ لا يَبْذُلون لذَوِي الحاجات.

فكلُّ إنسانٍ يكون شديد الحرص على ما لديه من طعامٍ، حتَّى إنّه يَدَّخِر فضَلاتِ طعامه، وكِسَرَ الخبْزِ الّتي تزيد عن حاجته من وجَبَاته اليوميَّة.

ومعظم النّاس يتسارعون في أيّام المجاعات إلى ادّخار ما يزيد على حاجاتهم كثيراً إلى عدّة شهورٍ، فيُحْدِثُون بادّخاراتهم الضائقَةَ في أرزاق الناس اليومية، الّتي تكفيهم لولا الادّخارات الّتي لا ضرورة لها، والدافع لحيازتها خَوْفُ حدوث النقص في المستقبل.

والمقصود بالإطعام بذْلُ الطعام ابتغاء وجْهِ اللّه ونَيْلِ رضوانه، سواءٌ أكان على سبيل الزكاة الواجبة، أم على سبيل البرّ، أم على سبيل الإحسان.

وجاء التوجيه للاعتناء بإطْعَام اليتيم ذي المقربة، لأنَّ هذا اليتيم أحَقُّ من غيره، إذِ اجتمع فيه سببان مُرَجّحان:

السبب الأول: الْيُتْمُ، وهو الأمر الذي يَفْقِدُ به اليتيم مُعِيلَهُ الحاني علَيْه.

السبب الثاني: القرابة النسبيَّة، ومعلُومٌ من قواعِدِ الدين ووصاياه الاجتماعيّة أنّ الأقربين أولَىٰ بالبرّ والإحسان.

ولمّا كان التوجيهُ مُخَصّصاً للإطعام في يوم المجاعة، كان من الحكمة تحميلُ الأقربينَ مسؤوليّة إطعام اليتامىٰ من ذوي قُرْبَاهم، توزيعاً للمسؤولية، وتحديداً لها، وحتّى لا يضيع الأيتام في عُمُوم المجتمع، وهم ضعفاء لا يستطيعون مع الكبار أخْذَ حظوظهم، التي يَسُدُّون بها ضرورات معيشتهم.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف يدلُّ على الترتيب مع التراخي، والترتيب والتراخي هُنَا يُلاحظ فيهما تتبُّعُ سائر العناصر غير المذكورة في النصّ، والّتي تشتمل عليها أحكام السُّلوك الإسلاميّ المطلوب في اقتحام عقبة النفس، ويتَنَقَّل الْمُتَتَبِّع فيها ضمن فروع شجرة الإسلام من فرع إلى فرع، حتى يصل إلى سُوقها، ثم أخيراً إلى جَذْرها الّذي تتمدّد أجزاؤه وعناصره الإيمانية داخل عُمْق الْفُؤاد، في حركة فكريّة متابعة الخطوات.

وهذا أحد الأساليب البيانيّة البديعة في القرآن، الّتي تعتمد البدء في البحث الفكريّ من الفروع الظاهرة، فأصولها، فأصول أصولها، ثمّ إلى الجذور، فعُمْقِ الجذور.

ومن أساليبه البيانيَّة أيضاً، الْبَدْءُ من عُمْقِ الجذور، فإلى الجذور، فإلى السُّوق، ثُمَّ إلى فروع الفروع.

والترتيب مع التراخي في سلاسل الأفكار، يُشْبه الترتيب مع التراخي في الأجزاء الزمنيّة، وفي المراحل المكانيّة.

وقد دلَّ استعمال فعل ﴿كَانَ﴾ دون فعل «يكون» للدلالة على وجوب سَبْقِ وجُود الجماعة المؤمنة، التي يتواصَىٰ أفرادُها بالصَّبْرِ والمرْحَمة، وهذا المقتحم لعقبة نفسه واحدٌ منهم.

فمع إرشاد الآية إلى لُزُوم تتبُّع الخطوات الفكريّة للتكاليف الدينيّة، الّتي يحتاج الالتزام بتعليماتها إلى اقتحام عقبة النفس، وهذه الخطوات توصل أخيراً وبصورة متلاحِقَةٍ نسبيًّا إلى الجذور، فإنّ الآيَة تدلُّ بإرشادِها هذا على أنَّ اقتحام عقَبَة النفس، بأداء التكاليف الدينيَّةِ الْعَمَلِيّة، والإحجام عن نجد الشرّ بالكفّ عن المحرّمات الدينيَّة، لا بُدَّ أن يكونَا مَسْبُوقين بقيام جماعة مؤمنة، تتلاقىٰ على وحْدَةٍ إيمانِيَّة، وتَتَوَاصَىٰ بالصَّبْر، وتَتَواصَىٰ بالْمَرْحَمَة.

- أمّا الإيمان فهو القاعدة العظمىٰ للدّين، وكلُّ عَمَلٍ صالح من غَيْرِ إيمان، لا أَجْرَ له عند الله يوْمَ الدّين، وثوابُهُ قاصر على مَنَافِعَ ينالُها العاملُ في الحياة الدُّنيا.

- وأمَّا التَّواصِي بالصَّبْر فهو ركْنٌ عظيم من أركان تماسُكِ الجماعة المؤمنة، لأنّ الصَّبْرَ هو طاقَةُ التحمُّل الّتي يحتاج إليها كُلُّ إنسانٍ دواماً في عَمَلِيَّتَي الاقتحام والإحجام، وتحتاج إليها الجماعة المؤمنَة لدى بنائها في تحمُّل أذَىٰ أعدائها، واضطهادِ طغاة الكفرة ذوي العزّة والجبَروت.

- وَأمَّا التواصي بالمرحمة (=بالرَّحْمَة) فهو ركْنٌ عظيم آخَرُ من أركان تماسُكِ الجماعةِ المؤمنة، لأنّ التراحُمَ بين المؤمنين أعظم وشيجة تربط بين أفرادهم، ولأنّ الرحْمَة أعظم شِحْنَةِ قوَّةٍ دافِعةٍ لفِعْل المعروف، وإقامة المجتمع الإسلاميّ المتعاون السعيد، الذي يكون بمثابة الجسَدِ الواحد، الّذي إذا اشْتَكَىٰ منه عضوٌ، تداعَىٰ له سَائِرُ الجسَدِ بالْحُمَّىٰ والسَّهر.

وسبق في سورة (العصر/١٠٣ مصحف/١٣ نزول) بيانُ رُكْنٍ ثالثٍ

من أركان تماسُكِ الجماعة المؤمنة، وهو رُكْنُ التواصِي بالْحَقّ، لأنّه يحْفَظُ لها التزامَها بالقاعدة الإيمانيَّة القائمة على الحقّ، ويَجْعَلُ الحقَّ في كُلّ الأُمور أسَاسَ مفهوماتها، وأساس أحكامها بالعدل.

- قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾.

بعد أنْ ذكَرَ اللّهُ عَزّ وجَلّ الّذين آمَنُوا وَتَواصَوْا بالصَّبْرِ، وتَواصَوْا بالْمَرْحَمَةِ، وأبَانَ أنّ من شأنِهِمْ في السُّلُوكِ أن يقتحموا عقَبَةَ نُفُوسهم، ويسْلُكُوا نَجْدَ الْحَقّ والخير، ويُحْجِمُوا عن سُلُوك نَجْدِ الباطل والشرّ، كان من الحكمة بيانُ عاقِبَتِهم الحسْنَىٰ، وبَيَانُ عاقبة الكافرين المكذِّبينَ بآيات اللّهِ، الّذين يسْلكُون مسالِكَ الضلال والشرّ ومَعْصِيَة الله بارئهم وربِّهم الّذي لا ربَّ في الوجود غيره، ولا إلّه بحقٍّ سواه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الّذين آمَنُوا وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ وتواصَوْا بالْمَرْحَمَةِ، اختير في الإشارةِ إليهم اسْمُ الإشارة الموضوعُ للمشارِ إليهم البعيدين، للدّلالة على ارتفاع منزلتهم، وعُلُوِّ مقامِهِمْ عند ربّهم.

[أَصْحَابُ الميمَنَةِ] أي: الذين لَهُمُ الْيُمْنُ، والّذين يأخُذُون كُتُبَ أعمالهم الّتي عَمِلُوها في الحياة الدنيا بأيمانِهِم يَوْمَ الدِّين.

الْمَيمَنَةُ: تأتي في اللّغة بمعنَيَيْن:

- فتأتي بمعنى الْيُمْنِ، الذي هو ضِدُّ الشُّؤْم.
- وتأتي بمعنى جِهَةِ اليمين.

وحمل كلمة: «الْمَيْمَنَةِ» على معنَيَيْها هو الأحَقُّ بالتدبّر، فكلاهما حقٌّ، ومُنْطَبِقٌ على الواقع.

وكلمة: «**أصحاب**» هي جمْعُ «صَحْبِ» وهذا جمع «صاحِب» وتجمع «أصحاب» على «أصاحيب» من صِيَغِ منتهىٰ الجموع.

الصاحب: في اللغة هو المعاشر المخالط المرافق. وقد حصل توسُّعٌ في استعمال كلمة «صاحب» وكلمة «أصْحَاب» فتستَعْملَان للدّلالة على مطْلَقِ الملازمة، أو الاقتران، أو الحلول في المكان، أو الانتماءِ إليه، أو الانتماءِ إلى أيّ شيءٍ، أو لتملّك الشَّيْء، أو لحيازَتِه، وتُطْلَقَان على أيّ علاقَةٍ بين شيئين.

واقْتَصَرَ النَّصُّ على ذِكْرِ أَنَّهم أصحاب الميمنَة، دُونَ التَّصْرِيح بمَا يُصِيبُونه منْ نعيم الجنَّة، اكْتِفَاءً بدلاَلَةِ التَّقَابُلِ الذي جاء فيه أنّ أَصْحَابَ الْمَشأَمَةِ عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ.

● ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: يتحدّثُ اللّهُ عزّ وجلّ عن نفسه بضمير المتكلّم العظيم، لأنّ آياته في كَوْنه، وآيَاتِهِ المنزَّلاتِ على رسُوله، آياتٌ عظيمات جَلِيلاتٌ جدًا، لاَ تَصْدُرُ إلاّ عنْ عظيم جليل، هو ربُّ السّمَاوات والأرض.

والّذين كَفرُوا بآيات الله هم الّذِينَ أدركُوا عظمتها، وفَهِمُوا دلالاتها، ثم جحدوها كِبْراً، أو رغبةً في الفجور واتّباعاً للأهواء والشهوات، واغترارًا بزينة الحياة الدنيا.

● ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩﴾: فرّق الله عزّ وجلّ في الصِّيغة البيانيّة بين الفريقين، فالذين آمنوا أشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين لِمَا سبَقَ بيانُه، والّذين كفروا قال تعالى بشأنهم ﴿هُمْ﴾ بالضمير العامّ الذي ليس له دلالة خاصّة.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: أي: هم أصحابُ الشؤمِ الذي يلازمهم، وهم أصحاب الشّمَالِ الذين يأخُذُون صُحُفَ أعمالهم يوم القيامة بشمائِلِهم، أو بشمائلهم ومن وراء ظهورهم إذا كانوا من غلاة المجرمين.

المشأمَة: تأتي في اللّغة بمعنَيَيْن:

- فتأتي بمعنىٰ الشُّؤم، الذي هو ضِدُّ الْيُمْن.
- وتأتي بمعنى جهة الشِّمال.
- ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ و[مُوصَدَةٌ] في القراءة الأُخْرى.

أي: تَتَابَعُ عليهم، أو تُسَلَّط عليهم، أنواع عذابِ نارٍ في دار عذاب مغلقة، وهي دار تَعْذِيب الكفرة المجرمين يوم الدين، والْعُصَاةِ المسرفين على أنفسهم.

مُؤْصَدَةٌ: أي: مغلقَةٌ عليهم، فلا مَخْرَج لهم منها، وَوُصِفَت كلمة «نار» بأنّها مؤصدة، على سبيل المجاز المرسل، إذ المراد أن دار التعذيب بالنار هي المؤصدة، وهو من أطلاق الحالّ وإرادة المحلّ، ولو كان المراد بلفظ «نار» دار العذاب لكان التعبير الملائم أن يقال: في نارٍ مؤصَدة.

* * *

(٧)

لطيفة تربويّة

(١) تحدّث الله عزّ وجل بشأن المكذب بيوم الدين لإقناعه في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول) بأسلوب الحديث مع المخاطب، فقال تبارك وتعالى فيها موَجِّهاً له الخطاب:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

(٢) ثم تحدّث عن المكذب بيوم الدّين بأسلوب الحديث عن الإنْسَانِ بوجْهِ عامّ، في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ - ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

(٣) ثُمَّ واجَهَ المكَذِّبِينَ بيَوْم الدِّين بأسلوب الخطاب في سورة (المرسَلَات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) فجاء فيها:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ - ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾.

(٤) ثمّ تَحدَّثَ اللّه عزّ وجلّ عن المكذّبين بيَوْمِ الدين بأُسْلُوبِ الحديث عن الغائبين، في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) إعراضاً عن مواجهتهم بالخطاب، فجاء فيها:

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ ﴾ - ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ - ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

(٥) ثم تَحدَّثَ عَنِ المكذِّبِ بيوم الدّين المنكر له، بأُسْلُوبِ الحديث عن الغائبِ إعراضاً عن مواجهته بالخطاب، فيما اشتملَتْ عليه سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

ولا يخفىٰ ما في أُسْلُوب مُوَاجَهة المكذّب بيوم الدين في المرحلة الأولى، من تكريم وتأنيس، ثم ما في أسلوب الحديث عن المكذبين الغائبين بالجمع، أو المكذّب الغائب بالإفراد، من حِكَمٍ تَرْبويَّةٍ جَلِيلَةٍ يُدْرِكُها أهْلُ الفِطْنَة.

* * *

(٨)

نظرة عامَّة إلى ما اشتملت عليه السورة

إنّ كوْنَ الحياة الدّنيا حَيَاة مُكَابَدَةٍ، يُكابدُ فيها الإنسانُ منْذُ ميلاده حتّىٰ وفاته، دليلٌ - بَعْد الإيمان بالرَّبّ الخالِقِ العليم الحكيم القدير على تنفيذ ما يشاءُ ويختار - على أنَّ ظُرُوفَ هذه الحياة الدُّنيا، ليسَتْ كُلَّ شيءٍ في خُطَّةِ تكوين الْإنسان وخَلْقه في أحْسَنِ تقويم، بل هي مرحلةُ امْتِحانٍ، وحكْمَةُ

الحكيم العليم القدير تستَلْزم حتماً أن يكون بَعْدَها حيَاةُ حِسَابٍ وفَصْل قضاءٍ وتنفيذ جزاء، وَإلاّ كانت هٰذه الحياة الدُّنيا عَبَثاً وَباطلاً، وقد تَنَزَّهَ الرَّبُّ العليم الحكيم القدير عن الْعَبَثِ والباطل.

هذا ما أشار إليه قول الله عزّ وجل في السّورَة بَعْدَ الْقَسَم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

وسَبَقَ أن قال في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

أي: وإذا كانَ الإنسانُ في أَحْسَنِ تَقْويمِ وفي كَبَدٍ، فَهُوَ في رحلة امتحانٍ حتماً.

ولو كانت الحياة الدنيا هي الغاية النهائيّة من خلْق الإنسان في أحْسَنِ تقويم، لكانت الحكمة تستدعي أنْ تُخلَقَ له ظروفُ حياةٍ سَعِيدَةٍ لا كبَدَ فيها ولاَ كَدْحَ، كَحيَاة أهْل الإيمان والتقوىٰ في الجنة، فهي الحياة الّتي تتلأَمُ مَعَ خَلْقِه في أَحْسَنِ تَقْويم.

وهكذا كان الإنسَانَان الأَوّلان (آدم وزَوْجُه عليهما السلام) في أوّل الخلْق، فلمّا عصيَا بالأكل من الشجرة التي نُهِيَا عن الأكْلِ منها أُخْرِجا من الجنة، وَوُضِعَا هُما وَذُرّيّاتُهُما في حَيَاة الكَدْحِ والْمُكابَدة للابتلاء، فمَنْ آمَنَ وأطاع اسْتحقَّ الجنّة الّتي أُعِدَّتْ لِلمتّقين.

لكِنَّ هذا الْإنسان قد ظهر من أفراده فريقٌ كَفَرَ بحكْمَةِ الرَّبّ الخالِق، فجَحد الابتلاء والحسابَ وفَصْل القَضاء والْجَزاء، وأنْكَرَ يوم الدّين، وقال: لا بعث بعد الموت، وكذّبَ بيوم الدّين.

ومن هؤلاء فريقٌ نفخ الْغُرُورُ في رؤسِهم وصُدورِهم رياحاً غليظةً منتنةً سامَّةً، فَطَلَبُوا الْعُلُوّ في الأرض، فانطلقُوا يجمعون الأموال وينفقونها إنفاقاً

مُسْتَهْلِكاً لها، في إعداد القوىٰ الّتي تجعلهم بيْنَ الناس أقوياء أعزّاءَ غلّابين لمنافِسِيهم، أو تجعلهم يتَصَوَّرُون ذلك ولو لم يكونوا في الحقيقة كما تَصَوَّرُوا.

والواحِدُ من هؤلاء حين يتملَّكُهُ الغرور بالقوّة الّتي تُشْعِرُهُ بالتفوُّقِ على مُنافِسيهِ من الناس، يزيد انْتِفَاخاً وغُرُوراً، فيزعُم أنّه لا تُوجَدُ قوّةٌ غيبيَّةٌ عن عالَم المشْهُودِ تَقْدِرُ عليه لا في الحال، ولا في الاستقبال.

ومن هؤلاء فريقٌ حِسّيُّون مادّيُّون أغْبياء، يتَوَهَّمُون أنّ مَا لا يُحِسُّون به في مدىٰ إحْسَاسَاتهم، لا وُجودَ له، فَأَقوالُهُمْ وأَعْمالُهم ونِيّاتُهُمْ لا يَطَّلِعُ علَيْها أَحَدٌ من عالم الغيب، فَلا محاسب لهم، ولا مجازيَ لهم، مهْمَا طَغَوْا وبَغَوْا وظَلَمُوا وأجْرَمُوا وتَجَبَّروا.

فالواحد من هؤلاء الحسِّيِّينَ الحمقَىٰ يُغَشِّي الغُرورُ على بصيرته وبصَرِه، فَيَتَوَهَّمُ أنَّ أحداً من عالَم الغيْبِ لم يَرَهُ، ولَمْ يَرَ طغيانَهُ وظلْمَه، وفواحِشَهُ، وأنّه إذا استخفىٰ ضِمْنَ مخابئِه، ومارَسَ في حُجُبِها قبائحَه ورذائلَه وفواحشَهُ وشُرُورَه وخبائثه، فإنَّ أحداً لم يَرَهُ من عالم الغيب.

وتوهُّمُه هذا يجعله مطمئنًا آمِناً من حسابٍ، وفَصْلِ قضاءٍ، وتَنْفيذِ جزاء، فهو غير متابَعٍ بعقابٍ من قُوَّةٍ قاهِرَة، هي قوّةُ العليم الحكيم القدير الرَّبّ الخالق عزّ وجلّ.

هذا هو توهُّم المادّيّين الحِسِّيِّين الحمقىٰ من أهل الغرور، الَّذِين لا يتفكّرُونَ بدلائل ما خَلَقَ اللَّهُ في أنفسهم، وفيما خَلَقَ الله من كلِّ شيءٍ من حولهم.

إنّ الّذي خلَق له عينَيْن يَرَىٰ بهما، فأعطاهُ طرفاً من كمالِ مُشَاهدَةِ الأشياء، لا بُدَّ أن يكون بصيراً يَراهُ، ويعْلَمُ مَا تُكِنُّ نفسه، وهو سبحانه قادرٌ على أن يَخْلُق ملائكة يراقبون الإنسان ويعْلَمُونَ ما يفْعَلُ، يَرَوْنه من

حيث لا يراهم، ويسجّلُونَ عليه أقوالَهُ، وأعماله الظاهرة والباطنة، ونيَّاتِه.

وإنّ الذي خلَقَ له لساناً وشفتَيْن للنُّطْق والتعبير عمّا في نفسه وفِكْرِه، برموز الكلمات، والمجادَلَةِ والدّفاعِ عن نَفْسِه، ومحاسَبَةِ من هم تحت سُلْطانه، على أعمالهم ومخالفاتهم له، لا بُدَّ أن يكُون هو سُبْحانه مُحَاسِباً لعباده على ما يكْسِبُونَ في الحياة الدُّنيا، إذْ خلقهم جلّ جلاله فيها عابرين رحلة امتحان، وهو سبحانه قادرٌ على أنْ يخْلُقَ مراقبين له، يعلَمُون ما يفْعَلُ، وهو لا يَرَاهم، فإذا دُعُوا يوم الدّين للشهادة عليه بما اكتسَبَ في الحياة الدُّنْيَا، قدّمُوا شهاداتهم عن مشاهداتهم، فانضمّتَ شهاداتهم إلَىٰ أدلّةِ إدانته بجرائمه.

وجاء ذكر اللّسان عنواناً للحروف الّتي يكون للّسان تأثير ما فيها، وجاء ذكر الشفتَيْن عنواناً للحروف الشفوية، وللحرف الّتي يكون للشفتين تأثيرٌ ما فيها، واكتفى النّصّ بذكر اللّسان والشفتين، ليستكمل الذهن سائر الحروف كحروف الحلْق.

وإنّ الرَّبّ الّذي خلق للإنسان جهاز التفكير والْعِلْم والتذكُّر وإدْراك المعارف، وخلَقَ له الوسائل الّتي يكتَسِبُ بها المعارف والعلوم، وبعَثَ له الرُّسُل، وأنزل له الكتب والبيانات التي تُبَيِّن له الغايةَ من خَلْقِه في الحياة الدنيا، وتبيّن له مسئوليَّتَهُ فيها، ومَا هو المطلوبُ منه أن يَعْمَلَهُ، وما هو المطلوب منهُ أن يتْرُكَهُ أو يجتَنِبَه، فهداه بذلك النَّجْدَين: أي: الطريقين الواضحَيْن الجلِيَّيْن، طريق الحقّ والخير والنّفع والصَّلاح. وطريق الباطل والشّرّ والضُّرّ والفساد، لتكونَ أمَامَهُ فرصَةُ أَنْ يرىٰ الحقَّ حقًّا فَيُؤْمِنَ بِهِ ويَسْتَمْسِكَ بأسبابه، ويَرَىٰ الخَيْرَ والنفع والصلاح فيَعْمَل بما تهدي إليه. وأن يرَىٰ الباطل باطلاً فيكْفُر به ويجتنبه، ويجتَنِبَ كلَّ ما يُوصِلُ إليه، ويَرَىٰ الشرَّ والضُّرَّ والفساد، فيجتنبَها ويجاهد لمقاوَمتِها.

كلُّ ذلك ضمن حدود استطاعته فِعْلاً أو تركاً.

إنّ الرَّبَّ الذي خلقَ له ذلك لا بُدّ أن يكُونَ بحكْمته قد خلقَهُ ليمتحِنَهُ في ظروف الحياة الدنيا. وحكمة الامتحان تستَتْبِعُ حتماً الْحِسَابَ، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، في خُطّة العليم الحكيم القدير.

ولولا هذه الغاية لكان أمْر الخلْقِ عبثاً وباطلاً، وقد تنزّه الرَّبُ الخالقُ العظيم عن العبَثِ والباطل.

ولمّا كانت ظروفُ الحياة الدنيا غَيْرَ مُشْتَمِلَةٍ على مَرْحَلَةِ الْحِساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، إلاّ ما تقتضيه حكمة إقامة الدليل على الجزاء الأكبر يوم الدين، فإنّ مَنطِقَ الْعَقْل المستند إلى حكمة الرَّبّ العليم الحكيم القدير، يقضي بأنّه لا بُدَّ حتْماً من ظروفِ حياة أخرى، يتمّ بها الجزاءُ الأوفَىٰ، وهٰذه الحياة تكُونُ بعْدَ اسْتِكمالِ رِحْلة الحياة الدنيا، واسْتِكْمَالِ ظروف الامتحان فيها.

وقد اقتضت الحكمة العظيمة، أن يكون الموتُ والفناء هو البرزَخَ الفاصل بين حياة الابتلاء، وحياة الحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء.

هذه العناصر الفكريّة قد دلَّت عليها السّورة بعبارات موجزاتٍ، تستدعي لوازم فكريَّةً كثيرة، وهذه العبارات الموجزات هي بمثابَة مفاتيح لأَبْواب وراءَها جَمٌّ غفير من المعاني الّتي تُوصِلُ إليها سلاسل فكريَّةٌ مترابطة.

وحين يُدْرِكُ المتدبّر لهذا البيان العجيب، ذي الدلالات الدقيقة العميقة، الذي اشتملت عليه سورة (البلد) تتولّد لدَيْه قناعة تامَّةٌ بِأنَّ القرآن المجيد، حين يُوجّه بيانه شطر أئمة الكُفْر، فينْسِفُ أوهامهم نَسْفاً، ويُقِيمُ عليهم الحجَّةَ الدامِغَةَ، فإنّه يُقَدّم الإقْنَاعَ الضّمْنِيَّ لأتباعهم الّذِين ليْسَ لهم مقالات تُعْرَضُ لإسقاطها، ولبيان فسادها، إنّما يُرَدّدُونَ مقالاَتِ أئِمّتهم، فإذا

سَقَطَتْ مقالاَتُ الأئمة وأوهامُهُمْ، لم يَبْقَ للأتباع شيءٌ يَغُرُّهم، ويُغْرِيهم بالتزام الباطل.

وتمَّ بعون الله وتوفيقه وفتحه تدبّر سورة (البلد)

* * *

ملاحق لتدبر سورة البلد

الملحق الأول: حول بلاغيات في السورة.

الملحق الثاني: ما جاء في نجوم التنزيل بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

(٩)

الملحق الأوّل

حول بلاغيّات في السّورة

سورة البلد تكاد تكونُ رمزيَّةً في دلالاتها العميقة، واللّوازم الفكريَّة الّتي تَسْتَدْعيها وتقتضيها عباراتها، فهي غاية في الإيجاز.

ومن البلاغيات التي يسهل استخراجها من السورة ما يلي:

(١) القسم المنفيّ بحرف «لا» مع ذكر المقسم به والمقسم عليه، وهذا من المبتكرات البلاغيّة القرآنيّة، القائم على مراعاة اقتضاءَيْن:

- أحَدُهما يقتضي أنّ الْقَسَمَ ذو فائدة تأكيديَّة بالنسبة إلى بعض المتلَقّين المعاصرين لتنزيل القرآن، أو الذين سيأتون بعدهم.

- والآخر يقتضي أنّ الْقَسَم غير ذي فائدةٍ تأكيديَّةٍ بالنِسْبَة إلى المقصودين الأوّلين بالخطَاب إبّان التنزيل.

فكان الحلُّ القرآنيّ البديعُ بإيراد القسم والمقْسَم به، ونفي الْقَسَم بحرف «لا» فقال الله عزّ وجلّ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ①﴾.

(٢) الكناية عن أشياء بذكر بَعْض لوازمها، ومنها في السورة:

- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾: أي: هو مخلوقٌ مُمتَحَنٌ في ظروف الحياة الدنيا، ولولا ذلك لكانت الجنّةُ هي الدار الملائمة لخلقه في أحسن تقويم.

والامتحان له لوازم عقليّة يقتضيها كون الربّ عليماً حكيماً قديراً، إذْ يلزم عن الامتحان الحسابُ، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، ولا بُدَّ أن يكون هذا في حياة أُخْرَىٰ غيْرِ هٰذِهِ الحياة.

- ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: أي: لِيَعْرِفَ أَنَّهُ مُمْتَحنٌ فِي ظروف الحياة الدنيا، فمن عرف طريق الحق والخير، وعرف طريق الباطل والشرّ، وأدرك أنّه مُمَكَّنٌ من سلوك ما يختار منهما، أدرك عن طريق اللُّزوم العقليِّ أَنَّه في ظروف امتحان.

فهداية الإنسان النجدين كنايَةٌ عن هذه اللّوازم الفكريَّة.

(٣) الإيجاز بذكر بعض فقراتٍ من الأفكار الّتي يُرادُ الإعْلَام بها، وترك المتدبّر يستخرج الأفكار الّتي لم يأت في النّص التصريح بها، ومن هذا الإيجاز في السورة:

- ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾: أي: أفْنَيْتُ مالاً كثيراً في جمْعِ الجنُودِ والْقُوىٰ العسكريَّة الحربيَّة والعتاد اللاّزم، حتَّى صِرْتُ عزيزاً لا يَقْدِرُ عليَّ أحَدٌ من مُنَافِسِيَّ في دوائر سلطاني.

- الاقتصار على العتق والإطعام من أمثلة اقتحام عقبة النفس، وترْكُ المتدبّر يقيس عليها سائر تكاليف الدين، ممّا يَجب على الإنسان الممتَحَنِ في ظروف الحياة الدنيا أَنْ يفْعَلَهُ، وممّا يَجِبُ عليه أن يَتْرُكَه.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾: أي: الّذين يُجازَوْنَ بجَنّاتِ النّعيم يوم الدين، بدليل التقابل بينهم وبَيْنَ أصْحَاب المشأمَة، الّذِين قال الله بشأنهم: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾.

- ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: من الّذين آمنوا باللّهِ وبكُلِّ ما أَمَرَ الله بالإيمان به.

(٤) الاستعارة: ونجدُها في إطلاق لفظ: ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ - النَّجْدُ هو ما ارتفع من الأرض وكان واضحاً - على ما يكونُ الإنسانُ ممكَّناً مِنْهُ، من سُلوكِ ظاهر وباطن، خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ في أزمان حياته طوال رِحْلَةِ امتحانه.

ونجدُها في إطلاق لفظ ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ - وهي المرقَىٰ الصَّعْبُ في الجبل ونحوه - على الموانع في داخل نفس الإنسان، الّتي يَعْسُر على الإنسان أن يتخطَّاها بإرادة حازمة، ويَسْلُكَ في حياته على غَيْر مطْلُوبَاتها.

ونجدها في إطلاق [**الاقْتِحَام**] - وهو الدُّخولُ بشجاعة وجُرْأَة في المواضع الصّعبَةِ الشَّاقَّة، كاقتحام صفوف الأعداء في القتال - علَىٰ مخالفة الأهواء والشهوات ورَغَباتِ النفس التي فيها معصيَةٌ للّه عزّ وجل، بالتزام العمل بطاعته ومراضيه ابتغاء وجهه الكريم.

وهذه الاستعارات المتتابعاتُ مُتَلائماتٌ يُرَشِّحُ بعضُها بعضاً، أي: يقوّى جانب الاستعارة فيها.

ويقابلُ الترشيحَ التجريدُ، وهو ذكر ما يُلائم المستعارَ له.

(٥) المجاز المرسل: ونجده في إطلاق الحالّ وإرادة المحَلّ، في عبارة ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ فقد جاء فيها وصف كلمة «نار» بأنها مؤصَدَةٌ، مع أنّ المؤصَدَ المغلق دار التعذيب بالنار، إذ المراد بكلمة: «نار» هنا مَا يُطْلَقُ عليه نارٌ في اللّغة، لا دار التعذيب بها، ودارُ التعذيب هي محلٌّ لهذه النار، والاسم العلم على دار التعذيب يوم الدّين هو لفظ «النّار» مُعَرَّفة، لا لفظ «نار» نكرة، والمعنى: عليهم مؤصَدَةٌ أبوابُ دَارِها يوم الدّين.

* * *

(١٠)

الملحق الثاني

ما جاء في نجوم التنزيل بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال

وصف الله عزّ وجلّ في القرآن المجيد المؤمنين بأنَّهُمْ أصْحَابُ اليمين، ولو كانوا عصاةً ويستحقُّون التطهير بالعذاب قَبْلَ دخُولِ الجنَّة، لأنَّهم يأخذون صُحُف أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم.

ووَصَفَ الكافرين بأنَّهم أصحاب الشِّمَال، ولو كانت لَهُم أعْمالٌ نافِعَةٌ في الحياة الدّنيا، إذْ لم يكن الباعثُ إلى قيامهم بها إيماناً باللّه واليوم الآخر، فشَرْطُ النجاة من الْخُلودِ في العذاب والظَّفَرِ بالجنَّةِ يوْمَ الدِّين، الإيمانُ الصّحيح بالرَّبّ الخالق، وبما أوجب على عباده أن يُؤْمِنُوا به.

وقد جاء في القرآن المجيد بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال عدّةُ نُصُوصٍ، وفيما يلي استعراضها مع نظراتٍ تَدَبُّرِيَّةٍ حولها، مُقْتَصِراً على النصوص التي جاء فيها التصريح بأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، دون عمُوم أصحاب الجنة وأصحاب النار:

النّصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩) عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠)﴾.

وقد سبق تدبّر هذا النّصّ مع تدبُّر دُروس السورة، على مقدار أوعيتنا الفكريّة.

* * *

النص الثاني:

ما جاء بشأنهم في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩)﴾.

الْمَيْمَنَة: تأتي بمعنىٰ الْيُمْنِ الذي هو ضدُّ الشُّؤم. وتأتي بمعنى جهة اليمين.

المشْأَمة: تأتي بمعنىٰ الشؤم الذي هو ضِدُّ الْيُمْن. وتأتي بمعنى جهة الشِّمال.

««أصحابُ الْمَيْمَنَةِ» مبتدأ ومضاف إليه، وَجملة «مَا أصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» في محل خبر. «ما» اسم استفهام جيء به للتعجيب من أَمْرِ ثوابهم العظيم في جنات النعيم يوم الدين.

ونظير هذا: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩)﴾ إلاَّ أنّ التَّعجيب موجَّه لاختيارهم ما يوصلهم إلى عذاب جهنم الخالد.

وبعد هاتين الآيتين ذكر الله عزّ وجل في السورة السَّابقين السابقين، ووصفهم بأنّهم المقرّبون، وأبانَ أنهم ثُلَّةٌ من الأوّلين، وقليلٌ من الآخرين، وقدَّم صُوَراً من ثوابهم في جنّاتِ النعيم.

وبعد ذلك ذكر الله عزّ وجَلَّ بتفصيل بعْضَ ثوابَ أصحاب اليمين، وأعقبه بتفصيل بعض عذاب أصحاب الشمال، فقال عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَٰبُ

ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وجاء فيها أيضاً بشَأْن شديدي الضلال والتكذيب والعناد من أصحاب الشمال، قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾﴾: أي: في جنَّةٍ انبَثَّتْ فيها أشجار السِّدْر، وهي أشجار النَّبِق. **مخضود**: أي: منزوع شوكه، فلا شَوْكَ في أغصان وفُروعِ هذا الصِّنْفِ من شَجَر السِّدْر في الجنّة، على خلاف أشْبَاهها من أشجارِ الدُّنيا، ومع الفرق العظيم بين أشجار الجنّة وأشجار الدنيا.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾﴾: **الطَّلْح**: نوع من الشجر العظام. ويُطْلقُ على الموز أيضاً.

مَنْضُود: أي: مَضْمُوم متراكب بعْضُه فوق بعض باتّساق، وإتقانٍ رفيعٍ، ونظام بديع، وهذا ينطبق على ثمر شجر الموز.

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وظِلٌّ دائم لا تنسَخُه شمس، وهذا وصْفُ جنّاتِ النّعيم، إذْ هِيَ ظِلٌّ، لاَ غَلَسٌ مُظْلِمٌ، ولاَ ضِحٌّ تَضْرِبُه أشِعَّةُ الشمس.

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾﴾: أي: ومَاءٍ يُصَبُّ من أعلى إلى أسفل، كالشّلاّلات، وهذا أجمل ما يكون عليه الماء.

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ ﴾: **لاَ مَقْطُوعَة**: أي: لا يأتي عليها وقتٌ تنقطع فيه، إذْ مَوَاسِمها دائمة، وأشجارها ذاتُ إنْتاجٍ لا ينقطع في زمن مِنَ الأزْمان.

ولاَ مَمْنُوعَة: أي: ولا يَمْنَعُ من تناولها والأكل منها مانِعٌ ما، فهي مبْذُولة دواماً لأهل الجنَّة أصحاب اليمين.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾: أي: وحَشَايا مَرْفُوعَةٍ على أسرّة.

واكْتَفَىٰ النصّ بذكر الفُرُش المرفوعة عن التصريح بذكر الزوجات، من الحور العين اللّواتي ينتظرن أزواجَهُنَّ عليها، استغناء بذِكْرِ الشيءِ عن ذِكْر ما يُرافقه أو يكونُ عليه، وهذا من الأدب الجميل، والبلاغة الرَّفيعة.

ودَلَّ على هذا الاستغناء في اللَّفظ مع إرادة المعنىٰ إعادَةُ الضَّمِير على الْفُرُش المرفوعة، كأنَّها الحورُ العين أنْفُسُهنَّ، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾: أي: إنشاءً خاصًّا لأصحاب اليمين.

وأرى أنّ هذا الأسلوب من التعبير، يدخل في البديعة المعنوية الّتي يسميها علماء البديع الاستخدام، مع بعض تعديلٍ في تعريفهم للاستخدام.

وقد دلَّ هذا النصُّ على أمْرَين:

الْأَمْرُ الأول: أنّ خَلْقَهُنَّ ليس على سبيل البعْثِ لِنِسَاءٍ خُلِقْنَ في الحياة الدنيا، بل هُنَّ مَخْلُوقَاتٌ لأصحاب الْيَمِين منْذُ خَلْقِهِنَّ.

الأمر الثاني: أنَّ خَلْقَهُنَّ قد تَمَّ على طَرِيقة الْإنشاء المتَدرِّج حتَّىٰ بلَغْنَ النُّضجَ الْأُنْثَوِيّ.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾: **أبكاراً**: جمع بِكْر، وهي العذراء التي لم تُعَاشِرْ ذكراً، فَعُذْرَتُها ما تزال على أصل خلقتها.

وجاء وصفهنّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) بأنَّهُنَّ لم يَطْمِثْهُنَّ قَبْلَ أزواجهنّ من أصحاب اليمين إنْسٌ ولا جانٌ، فقال تعالى فيها:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾.

الطَّمْثُ: جماعٌ تُفَضُّ به بكارة البِكْرِ، وتحصُلُ به التَّدْمِيَة، ومِنْه قيل للحائض: طامِث.

﴿عُرُبًا﴾: عُرُب جمع «عَرُوب» وهي المتَحَبِّبَةُ إلى زوجها، وقيل: العاشِقة له.

﴿أَتْرَابًا﴾: جمع «تِرْب» والأتراب هُنَّ الأقْرَانُ في السّنّ، أعمارُهُنَّ واحدة. وهذا يَدُلُّ على أنّ إنشاءَهُنَّ قد كان في وقْتٍ واحد، أو أن تطوُّر تنامِيهنَّ في الجنَّة يتوقَّفُ عند سِنّ نُضْجِهِنَّ، فيظْلَلْنَ دواماً على أحْسَن ما تكونُ عليه الزوجاتُ حيَوِيَّةً وأُنوثَةً وتحبُّباً للأزواج.

﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾: أي: هُنَّ مُخَصَّصاتٌ لأصْحابِ الْيَمِين، الّذين يأخُذُون صُحُفَ أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: أصحاب الْيمين هم ثُلَّةٌ من الأوّلين قَبْلَ بَعْثَةِ محمد ﷺ، وثُلَّةٌ من الآخِرين الّذين يكونون من أصحاب اليمين بعْد بعثته.

الثُّلَّة: الجماعَةُ من الناس.

ودلّ التنكير في لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ على أنهم جماعة ليست بالكثيرة، وهذا ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ صراحةً في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾: «أصْحَابُ الشِّمال» مبتدأٌ ومضاف إليه، وجملة «مَا أصْحَابُ الشِّمَال» في محلّ خبر. «مَا» اسم استفهام جيء به للتعجيب من أمرهم في رحلة امتحانهم، إذْ اختاروا فيها ما يُوصِلُهُم إلى عذاب أليم دائم في دار العذاب يوم الدين.

﴿فِى سَمُومٍ﴾: السَّمُومُ الرّيح الشديدة الحرّ اللاّفحة التي تَنفُذ في مَسَامّ الجلد. أي: في جهنّم الّتي يَلْفَحُهُمْ فيها سَمُومٌ متَتَابع.

﴿وَحَمِيمٍ﴾: أيْ: وفي ماءٍ شديد الحرارة، يشْرَبُونَ منه.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾: أي: ويكونون في جهنّم مُنْغَمِسِينَ في ظِلّ دُخانٍ شديد السّواد والحرارة.

اليَحْمُومُ: هو في اللّغة الدُّخان، والأَسْودُ من كلّ شيءٍ. ودَلَّ على حرارته أنَّه دُخان نارٍ مصحوبٌ بشَرَر كالْقَصْر، كأنه جِمالَةٌ صفر، وهو جاء بيانه في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للمكذّبين بيوم الدين:

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾: أي: هـٰذا الظّلُّ من الدُّخانِ الأَسْودِ لَيْسَ ظِلّاً بَارِداً، بل هو ظِلٌّ حَارٌّ. ولَيْسَ ظِلّاً كَرِيماً، كالظّلّ الّذي يكون في الجنّةِ لأصحاب الْيَمين. أو أنّ اليحموم ليس بارداً ولا كريماً، ونفي كونه كريماً هو نفيٌ لكلّ صفةٍ حسنة عنه، فلا هو حسَنُ المنظر، ولا هُوَ طيّب الرائحة، ولا هو واقٍ من سُوء أو أذى.

وخصّ الله عزّ وجلّ في السّورة الْغُلاَةَ في ضلالهم وتكذيبهم بقوله:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

شَجَرةُ الزَّقُّوم: شجرة خبيثَةٌ تَنْبُتُ في أَصْلِ الجحيم، جعلَها اللّه عزّ وجَلَّ بعَدْلِهِ طَعَامَ الأثيم شديد ارتكاب الآثام في دار العذاب يوم الدين.

إنَّ الضّالين المكذّبين يشتَدُّ جُوعُهم في جهنّم، فَتُلْجِئُهم الضرورة إلى أن يأكلوا من شجر من صنف شجر الزّقوم، فيملَؤُون مما يأكُلُونَ بُطُونهم،

فيشتدُّ ظمؤُهم من هذا الطعام الخبيث، فيبحَثُونَ عن شراب، فلا يجدون إلاّ حميماً (=ماءً شديد الحرارة) فَيَشْرَبُونَ منه كثيراً، دون أن يُحْدِثَ لهم ريًّا، هذا ما دَلَّ عليه قولُهُ عز وجل:

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿عَلَيۡهِ﴾: أي: على ما أَكَلُوا من شجر الزَّقُّوم، بسبب ما أحدث لهم من ظمأٍ شديد، فهم يلجؤُون إلى إطفاء لهيب ظَمَئِهم بأي ماء يجدونه، ولا يجدون إلاّ ماءً حَميماً شديد الحرارة.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: أي: فشاربون مثل شُرْبِ الإِبِلِ الْهِيمِ، وهي الّتي يُصِيبُها داءُ الْهُيَام، فهي لا تَرْوىٰ مهما شَرِبَتْ. يُقَال: بَعِير أَهْيَم، ونَاقَةٌ هَيْماء، وإبلٌ هِيمٌ.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾: أي: هذا القِرَىٰ الذي يُقَدَّم إليهم في مكان إقامتهم الدائمة يوم الدّين. ويطْلَقُ النُّزُل على مكان الضيافة، واستعماله هنا فيه معنى التهكّم بهم، إذ هو مكان سِجْنهم وتعذيبهم، وطعامهم الذي يزيد من عذابهم.

النُّزُل والنُّزْل: ما يُعِدّه الرَّجلُ لضيفه إذا نزل عليه. فُلانٌ حسَنُ النّزُل: أي حسن الضيافة.

● ثم أنزل الله عزّ وجل أيضاً بشأن شجرة الزَّقُّوم قوله في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/٥٦ نزول) بعد وصف بعض نعيم أهل الجنة:

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

شَجَرَةُ الزَّقُّوم: هي في الدنيا شجرة من أَخْبَثِ الشَّجَر المرّ، تَنْبُتُ بتِهَامَة، وهي في الآخِرَة من أَخْبَثِ أصناف الأشجار المخصّصة لطعام المعذَّبين في جَهَنَّم، وهي تَنْبُتُ في أَصْل الجحيم، أي: في قَعْرِ جَهَنّم.

وقد جعَلَها الله عزّ وجلّ في جهنَّم شجَرةً يأكُلُ منها الظالمون مُلْجَئِين، فإذا أَكَلُوا مِنْها ومَلَؤُوا بُطُونهم صار ما أكَلُوه يَغْلِي في بُطُونهم كغَلَيَان الماء الشديد الحرارة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾: أي: عذاباً يذُوقُونَ شِدَّةَ حرارته في بُطونهم، مثل عذاب حَرِيق النار.

أصْلُ الفتنة في اللّغة الإحراق، قال الخليل: الْفَتْنُ الإحراق. ولمّا كان الصائغ يَعْرِضُ الذَّهب ونحوه على النار ليختَبِر جودته، ويَمْتَحِنَ أوصافه، صار كلّ امْتِحانٍ واخْتِبَارٍ كاشفٍ فِتْنَةً، والأصل في معنى الكلمة الإحراق.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾: أي: يَنْبُتُ هذا النوع من الشجر في قَعْرِ الجحيم، ومنه تخرج، ثم تمتدُّ فروع أشجاره وأغصانها مرتفعةً إلى بعضِ دَركاتِ جهنَّمَ السُّفْلىٰ.

الْجَحِيم: اسم من أسماء دار العذاب يوم الدّين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مَهْواةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾: طَلْعُها: أي: مَا يُؤكَلُ من ثَمرها أو وَرَقِها. **أصل الطَّلع**: غلافٌ يشبهُ الكُوز، ينفتح عن حَبٍّ منْضُودٍ، فيه مادّة إخصاب النخلة.

وهذا الطَّلْعُ الذي يُؤكَلُ من شجر الزَّقُّومِ ذو منظر كريهٍ، كأنَّهُ رؤُوسُ صِنْفٍ من الحيّات تُسَمَّىٰ الشياطين، واحدها شيطان، وهذا الصِّنْفُ ذُو عُرْفٍ قبيح.

أو تَشبيهٌ لهذا الطَّلْع بما يتخيَّلُ النّاس من منظر كريهٍ شديد القُبْحِ لرُؤوس شَياطِينِ الجنّ.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: فإنّهم مُلْجؤون لِلأَكْلِ من هذه الشَّجَرةِ إلْجاءً ذاتِيًا، وهذا يَدُلُّ على أَنَّهم يشْتَدُّ بهم الجوع الذي يَرونه أشدّ عليهم من مَلْء بُطونهم منها، مع ما فيه من تَعْذِيبٍ شديدٍ لَهُمْ، هو نَوْعٌ من عذابِ الحريق الداخليّ.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾: وَبَعْدَ أن يَمْلَؤُوا بطونَهُمْ من طَلْعِها، وتمُرَّ مُدَّةٌ يتفاعَلُ مَا أكلوه منها بالهواضم، وتلْتهِبَ بطونَهم بما يشبه الحريق بالنّار، يشتَدُّ ظَمَؤُهم، فيَسْعَوْنَ إلَىٰ مصادر المياه للشُّرب، فلا يَجِدُون إلاّ مَاءً حَميماً شديد الحرارة، فيَجِدُون الشُّرْبَ منه أَهْوَنَ عليهم من حرارة ما في بطونهم، فيخْلِطُونَ الطَّعامَ النّارِيّ بالماء الحميم.

الشَّوْبُ: في اللُّغة هو الخلْطُ، والشائبَةُ واحدة الشوائب، وهي الأقذار والأدناس، أي: هو سائل من الشوائب مخلوطٌ بماء حار.

الحميم: الماء الحارّ.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾: أي: إنّهم يكُونُون أوّلاً في سَواءِ الجحيم، أي: في وسط الجحيم، كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) نفسها بشَأْنِ مكان عذاب المكذّب بِيَوْم الدّين:

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: أي: في وسط الجحيم.

فيشتَدُّ بهم الجوعُ فَيَهْبِطُونَ إلَىٰ قَعْرِ الجحيم ليَأْكُلوا من طَلْع شَجَرِ الزَّقّوم، فَيَأْكُلونَ ويمْلَؤُونَ بُطُونهم، ثُمَّ يَشْرَبون من مصادر المياه الحارّة في الجحيم، ثُمَّ يَرْجِعُون إلى منازِلهم في سواء الجحيم.

رِحْلَةٌ إلى الْقَعْرِ للأَكْل، ثُمّ رِحْلةٌ إلى مصادر المياه الحارَّة للشرب، ثم رَجْعَةٌ إلى منَازلهم في وسَطِ الجحيم، عذابٌ فعذَاب، وَهذا حالهم على التداوُل.

● ثم أنزل الله عزّ وجل بشأن شجرة الزّقوم في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ بِشَأْنِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم ثلاث دَلالات:

الدّلالة الأولى: أَنَّ شَجَرَة الزَّقّومِ هي طعامُ الأثيم، أي: هي الطعامُ الوحيد للأثيم، فلا طعام له من غيرها، أخذاً من تعريف طَرَفي الإسناد، إذ المضاف إلى معرّف يكتسبُ منه التعريف.

الأثيم: هو المسرف الغالي في ارتكاب الآثام. **والإثم**: هو الذّنْبُ. **فالأثيم**: هو المبالغ في ارتكاب الذنوب والمعاصي، ومن كون شجرة الزقّوم طعام الأثيم، وطعام الضّالين المكذبين للرسول ﷺ، والمكذّبين بيوم الدين، ومن كونها عذاباً للظّالمين بحريقٍ في بطونهم، نستدلُّ على أن المراد بالأثيم، الكافر الفاجر المخلّد في عذاب النار.

لفظ «أثيم» من صيغ المبالغة والتكثير.

الدلالة الثانية: أنَّ ما يُؤكَلُ من شجرة الزَّقُّوم شيءٌ كالْمُهْلِ. **الْمُهْلُ**: القَطِران، ودُرْدِيُّ الزَّيت، أي عكَرُه الّذي يترسَّب في قاع آنيته. والنحاسُ المذاب. والقيحُ والصَّدِيد.

الدلالة الثالثة: أنّ مَا يُؤكَلُ من شجرة الزَّقُّوم يغلي في البطون، كغَلْي الحميم، أي: كَغَلْي الماء الذي يُسَخَّنْ بالنّار حتّىٰ يَغْلِي من شدّة حرارته، ويتصاعد منه البخار.

* * *

النصّ الثالث:

ما جاء بشأنهم في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ بيان أنّ أصحاب الْيَمِين يُؤْتَوْن كتُبَهُمْ بأَيْمَانِهِم، وأَنَّهُمْ يقْرَؤُونها، فلا يجدون أنّهم قد ظُلِموا من أعمالهم الصالحة فيها فتيلاً.

فتيلاً: أي: مقدار فتيل، وهو الخيط الرفيع الذي يكون في شقّ النواة.

إِنّهم يومئذٍ يتَذَكَّرُون كلَّ أعمالهم الّتي عملوها في الحياة الدنيا، فيُطابقون بين ما تذكّروا وبَيْنَ مَا يَقْرَؤُون في كتُبهم، فيجدون أَنَّهم لم يُظْلَمُوا مقدار فتيل.

وقد جاء التصريح بأنّ الإنسان يتذكّر يوم الدّين كلّ ما عمل في الحياة الدنيا، في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾.

ولم يأت في هذا النصّ التصريح بأنّ أصحاب الشّمال يأخذون كُتُبَ أعمالهم بشمائلهم، أوْ مِنْ وَرَاءَ ظُهورهم، وإنّما جاء فيه بَيَان أنّهم يكونُون عُمْياً يوم الدين كما كانوا عُمْياً في الحياة الدنيا، ويَكونون أضلّ سبيلاً، فقال تعالى فيه:

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

أَعْمَىٰ: أي: كافراً ضالاً بكُفْرِه عن سَبِيلِ سعادته العاجلة والآجلة.

فالمعنى: ومن كان في هذه الحياة الدُّنيا كافراً ضالاً بكُفْره عن سبيل سعادته، باختياره الحرّ، فَهُو في الآخِرَة محكُومٌ عليه بأنَّه أَعْمَىٰ، أي: كافر، وهو يَوْمئذٍ أَضَلُّ سبيلاً، لأنَّهُ لا يستطيع يومَئذٍ أن يتدارك أمره، فقد انتهى زمن الامتحان، فلا حيلة له في أَنْ يهتدي إلى سبيل سعادته في جنَّاتِ النعيم، بينما كان في الحياة الدّنيا قادراً على أن يتدارك أمْرَه بالإيمان والعمل الصالح قَبْلَ أنْ تأتيه ساعة الموت، فهو في الآخرة أَضَلُّ سبيلاً، إذ لا يجد لنفسه طريقاً يسْلُكُهُ إلاَّ طريق جهنّم خالداً فيها، كما قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

* * *

النصّ الرابع:

ما جاء بشأنهم في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فقد جاء فيها قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

جاء في هذا النّص تشْبِيهُ ما يَكْسِبهُ الإنْسَانُ بإرادَتِه في الحياة الدّنْيا بالطائر، فقَبْلَ أنْ يكْسِبَ كسْبَهُ وَيعْمَلَ عَمَلَه الإراديَّ يكونُ حبيساً في داخل نفسه، ويكُونُ الإنسانُ مالكاً لَهُ، وقادراً على ضَبْطه، وغير مسؤول عنه، فإذا عمل عمله وكسب كسْبَهُ الإراديّ الظَّاهِرَ أو الباطن، طارَ من مَحْبِسِه، وأفْلَتَ من يَدِه، وصَارَ الإنْسانُ عاجزاً عن إرجاعِهِ إلى حَظِيرَتِه، ويَكُونُ عندئذٍ أَسِيراً له، إذْ يجْعَلُ اللَّهُ عزّ وجلَّ مَا يَكْسِبُهُ الإنْسَانُ بمثابة الآسِرِ له بطَوْقٍ أو حَبْلٍ في عُنُقِه، يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الدِّين.

﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾: أي: جعلنا مسؤوليّته عن عَمَلِه وكسْبِه الإرادي ملازِمَةً عُنُقَهُ، كمُلازَمَةِ حَبْلِ الآسِرِ لعُنُقِ الأسِير، حتَّىٰ يتِمَّ حِسَابُهُ وَفَصْلُ القضاء بشأنِهِ يوم الدّين.

فلفظ «طائر» مُسْتَعَارٌ للدّلالة على ما يكْسِبهُ الإنسان بإرادته في الحياة، وهذه الاستعارة البديعة قائمة على تشبيه ما يعْمَلُه الإنسان بإرادته بإطْلَاق الطائر من مَحْبِسِه إلى الجوّ، وعندئذٍ تتعلَّقُ بِه المسؤوليّة عن إطلاقه، وهذه المسؤوليةُ آسِرَةٌ لَهُ حتّى يتِمّ حِسَابُه وفَصْلُ القضاء بشأنه.

ولمّا كانَ الْعُنُقُ هو الْمَكَان المفضّل لرَبْطِ الأسير حتَّىٰ لا يَفْلَتَ من آسِره، جاء التعبير به للدَّلالة على مَنَاط المسؤوليَّة عن السلوك الإراديّ في الإنسان.

﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ جاء استعمال حَرْف «في» للدّلالة على دُخُولِ حَبْلِ المسؤولية في داخِل مناطِ المسئولية فيه.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾: هذا الكِتَابُ هو صَحِيفة كَسْبِهِ الَّذي أطْلَقَ كُلّ واحدٍ منه بإرادَتِهِ من حظيرَته، فطَارَ ولم يَسْتَطِع أن يُرْجِعَه، ولكنْ ألْزَمَهُ اللّهُ المسؤولية عنه، لأنّه قَدْ كان في رِحْلَةِ امتحان، وأمَرَ الملَكَيْنِ الْمُلاَزِمَيْنِ له بتسجيلها، لعرضها عليه يوْمَ الدّين، فهو يَلْقَىٰ هذا الكِتَابَ مَنْشوراً غَيْرَ مطْويّ.

وتكفِي صحيفة يَضُمُّ الإنسانُ عليها كفَّهُ لتسجيل صورة تامّة عن كلّ حياته في رحلة امتحانه، ويُعْطَىٰ يَوْمَئذٍ الْقُدْرَةَ على قِراءَة ما في صحيفته مهما كانت وسيلةُ تَسْجِيلِهَا مضْغُوطة، وبصَرُهُ يومئذٍ يكُونَ حَدِيداً.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾: أي: يُقَالُ لَهُ يَوْم القيامة هذا كتابُكَ في يَدِكَ فاقرأْهُ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ على ذُنُوبك ومعاصِيك وجَرَائِمِكَ ومخالفاتك لأوامر ربّك ونواهيه.

وكفَىٰ بنفْسِكَ الْيَوْمَ المجرّدَةِ عن الأهواء والشّهواتِ والرَّغَبَاتِ من زينَة الحياة الدنيا، حَاسِباً دقيق الحساب، وكفى بنفسك قاضِياً عَلَيْك بالْعَدْلِ، وَحَاكِماً عَلَيْكَ بِمَا تَسْتَحِقُّ من جزاء.

كفَىٰ بنفسك: الباء حرف جرّ زائد للتوكيد، ونفسك فَاعل لفعل «كَفَىٰ».

* * *

النصّ الخامس:

ما جاء بشأنهم في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

- ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: أي: وعُرِضَ النَّاسُ في يَوْم الحشْرِ على رَبِّكَ أَيُّها المتلَقّي أو التالي لهذه الآيات عَرْضاً صَفًّا، أي: بصُفُوفٍ مُنْتظمة، لا بطريقةٍ عشْوَائيَّةٍ أو فوضويَّة.

- ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾: أي: يقول اللّهُ عزَّ وجلَّ لَهُمْ بضَمِيرِ المتكلّم العظيم يومئذٍ، وهم في المحشَرِ، لَقَدْ بَعَثْنَاكُمْ بَعْدَ مَوْتِكم وفَنَاءِ أجْسَادِكُمْ، بخَلْقٍ جَدِيدٍ، وجئْتُمُونا تَامّي الْخَلْقِ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي الحياة الدُّنيا.

- ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: هذا خطابٌ يُوجَّهُ لمن كانُوا في الحياة الدّنيا يُكَذِّبُونَ بِنَبأ الْبَعْثِ ويَوْمِ الدّين. أي: لم تَكُونُوا تُصدِّقُون

بأنّي سَوْفَ أَبعثُكُمْ إِلَىٰ الحياة بعد الموت، وأحاسِبُكُمْ، وأفْصِلِ القضاءَ بَيْنَكُمْ، وأُجَازِيكم على اختياراتكم في الحياة الدُّنيا، بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لكُمْ مَوْعداً لهذا كُلِّه، أي: لن نجعل لكم زماناً ولا مكاناً نحقق فيها ماسَبَق أن وعدناكم به في الحياة الدنيا.

الموعد: يطلَقُ على الوعد، وعلى مكانه، وعلى زمانه.

● ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: أي: وَوُضِعَ بأمْرِ اللّهِ جنْسُ الكتاب إذْ يُطْلَبُ من كلِّ مَنْ كان مسؤولاً عن أعماله وأنواع كَسْبِه في رحْلَةِ امتحانه، أَنْ يَقْرأَ صَحِيفَةَ مَا كَسَبَ في الحياة الدُّنيا بإرادَتِه الحرَّةِ، بعد أن تَسلَّمَهُ منْشُوراً، وقِيلَ لَهُ: اقرأْ كتابك.

وعَقِبَ وَضْعِ الكتَابِ تَرىٰ أيُّها الرَّائي أيّا كُنْتَ زُمَر الْمُجْرِمِين مُشْفِقِينَ أي: خائفين، ممَّا فِيهِ من تَسْجِيلٍ كَاملٍ لِجَرائِمِهِمْ، وهذا يكون يَوْمَ الحشر.

المجْرِمُونَ: هم أصحاب الخلود في عذاب جهنّم، في المصطلح القرآنيّ.

● ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾:

﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾: **الويلُ**: في اللُّغَة كلمةُ عذاب، وتُسْتَعمل في النُّدْبَةِ، والتفَجُّعِ، والتَّوَجُّعِ. وعبارة ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ هنا عبارةٌ يَنْدُبُ فيها المجرِمُون أنفسهم، ويُعْلِنُونَ بها توجُّعَهم وتفجُّعَهُمْ خوفاً من المصير الذي هم صائرون إليه في جهَنَّم بعد محاسبتهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والأمْر بتنفيذِ الجزاء، وسَوْقِهِمْ إلى جهنَّم زُمراً.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾: استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ مِنْ دقّتِهِ الْبَالغةِ غايَةَ المتابَعَةِ في تسجيلِ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَة.

﴿لَا يُغَادِرُ﴾: أي: كَانَ لاَ يَتْرُكُ.

﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾: جاء تقديم الصَّغِيرَةِ على الكَبِيرةِ، جرياً على عادة العرب في مثل هذا التعبير، واهتماماً بذِكْر ما قَدْ يتهاون الناس بتسجيله عادةً، قبْلَ ذِكْرِ ما لا يتَهاوَنُون بتسجيله ممَّا يُهِمُّهم تسجيله، وتَسْجِيلُ الأشيَاءِ الصغيرةِ هو الذي يَجْذِبُ الانتباهَ أوّلاً.

﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾: أي: إلاّ سَجَّلَها للمحاسبة عليها، وحَفِظَها، يُقالُ: لُغَةً: أَحْصَىٰ الشيءَ، أي: عَرَفَ مقداره، وأحْصَىٰ الكِتَاب، أي: حَفِظ جميع ما فيه.

- ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾: أي: وَوَجَدُوا كُلَّ مَا عَمِلُوا في الحياة الدنيا من أعمالٍ إراديَّةٍ هُمْ مَسْؤُولونَ عنها، حَاضِراً أَمَامَهُمْ في صُحُفِ أعمالهم، بِالصُّورَةِ، والصَّوْتِ، والغايات والنِّيَّات، وكلّ ما يُرافِقُها من حركاتِ نفوسهم الإراديَّة.

- ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾: أي: وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أيُّها المتلَقِّي لهذا البيان أحداً في المحاسبة، أو في فصْل القضاء بشأنه، أوْ في الجزاء، فَلاَ يَجْزِيه علىٰ عَمَلٍ مَا ظاهرٍ أوْ باطِنٍ لاَ يُعْتَبَرُ مسؤولاً عَنْه، من الأعمال السيِّئَة، وَلاَ ينقُصُهُ ممَّا عَمِلَ من صالحاتٍ ابتغاءَ وجْهِهِ شَيْئاً. ولا يُحَمِّلُ نَفْساً وِزْرَ نَفْسٍ أخْرَىٰ، وميزانُ الْعَدْلِ الرَّبَّانيّ بالِغُ الدِّقَّةِ، ويعْفُو سبحانه وتَعَالَى عَنْ كَثِير.

* * *

النصّ السادس:

مَا جاء في سورة (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) فقد جاء فيها قوال اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى

جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ
ٱلْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا
حِسَابِيَهْ (٢٦) يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى
سُلْطَـٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا
فَٱسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ
(٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا
ٱلْخَـٰطِـُٔونَ (٣٧) ﴾.

الهاء في: [كِتَابِتَهْ ـ حِسَابِتَهْ ـ مَالِيَهْ ـ سُلْطَانِيةْ] هي هاء السّكت

أضاف هذا النصّ على ما جاء في النصوص السابقة ما يلي:

(١) أنّ من كان من أصحاب اليمين فأُوتي كِتَابَهُ بيمينه، فإنه يكُونُ شديد الْفَرحِ بما قرأ في كتابه، ومن شدّة فَرَحِهِ يقولُ لمعارِفِه وأصحابه أو لِمَنْ حَوْلَهُ في الموقف:

- ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠)﴾.

﴿هَآؤُمُ﴾: أي: خُذُوا. «هَا» اسم فعل أمر بمعنى: «خُذْ». وهو يسْتَعمل مقْصُوراً «هَا» ومَمْدُوداً «هَاءَ» فيُقَالُ: هَاءِ يا رَجُل، وهَاؤُما يا رجُلان، وهاؤُمْ يا رجال، وهَاءِ يا امرأة بكَسْرِ الهمزة، وهائِيا يا امرأتان، وهاؤُنَّ يَا نِسْوةُ.

وقد تُوضع كافُ الخطاب بدَلَ الهمزة، فيُقَالُ: هَاكَ وَهَاكِ وهَاكُما وهاكُمْ وهَاكُنَّ... وفيها لُغاتٌ أخرى.

﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠)﴾: أي: كان عندي احتمالان:

- احتمالُ أَنْ يُدْخلني الله عزَّ وجلَّ الجنَّة بعفْوِهِ دُونَ حِسَاب.

- واحتمالُ أن يُحاسِبَني حسَاباً يسيراً. وكنْتُ ظَنَنْتُ أنّي مُلاقٍ

حِسابيَ الذي أنتظره في موقفي هذا، مع وجود رَجَاءٍ بأن يُدْخِلَني الله الجنَّة بغَيْرِ حِسَاب، إذْ كان مُؤْمِناً وَمات على الإيمان، ويَحْمِلُ بعضَ الأوزار.

فالظَّنُّ الوارد في هذه الآيَة هو على حقيقتّه اللّغويَّة، وليس بمعنى اليقين. وانْصَرَفَ ذهْنُ طائفة من المفسِّرين عن تصوُّرِ الاحتمال الأوّل، فَحَمَلُوا الظَّنَّ هُنا على الْعِلْم اليقيني، مع أنَّه ليس منه، بل هو من الظنّ الراجحِ الذي يُقابِلُه احتمالٌ آخر مَرْجُوح.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

عِيشَةٍ: مصْدَرٌ من مصادر فعل «عاش». تقولُ لُغة: عَاشَ يَعِيشُ عَيشاً، ومَعاشاً، ومَعِيشَةً وعِيشَةً. وهي بمعنى الحياة.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾: أي: فهو في حياة راضٍ بها كُلَّ الرِّضا، جاء في هذه العبارة وَصْفُ المؤمِن في الجنَّة بأنّ عيشته راضيه، والأصل أن يكون هو الراضي بها، فأُسْنِدَ الرضا إلىٰ الْعِيشَة على سبيل المجاز في الإسناد، ويُسَمَّى عند علماء البيان «المجاز العقلي» وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاد المتكلّم. والملابسة التي سوّغَتْ هذا المجاز كون المؤمن هو صاحب هذه العيشة، فهي جزءٌ من ذاته.

والغرض البيانيّ الإشعار بمصاحبة الرضَا لكلّ أجزاء عيشَةِ المؤمن في الجنَّة، فلا يُوجَدُ جزءٌ منْها ولا عنصرٌ من عناصِرِها خالياً من الرضا، وهذا المعنى لا تُؤَدِّيه عبارة: فهو راضٍ عن عيشته.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: في جنَّةٍ عالية المكان، عالية المنزلة، وعَاليةِ الصّفات، عاليَةِ كلِّ نعيم يكون فيها للمؤمنين.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: **القُطُوف**: جمْعُ **القِطْف**، وهو يُقْطَفُ من ثمر الشّجرة سَاعَةَ قَطْفه. **والقِطْفُ**: عنقود العنب يُقْطفُ من شجرته.

دانِيَة: أي: قَرِيبَةٌ، يتَنَاوَلُها أهل دار النعيم بأيْديهم من أشجارها في كُلّ أوضاعهم بدون مشقَّة.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: يُقَالُ لَهُمْ تَكْرِيماً وتَرْحِيباً وَدُعَاءً طَيِّباً: كُلُوا من مآكلِ الجنَّةِ واشربوا من أنواع شرابها الطيّب النفيس هَنِيئاً.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾: أي: سائغاً لَذِيذاً. يُقالُ لُغَةً: هَنِئَ الطَّعَامُ أو الشَّرابُ يَهْنَأُ هَنأً وَهَنَاءَةً، أيْ: ساغَ ولَذَّ.

﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾: أي: بسَبَب ما سَبَقَ أَنْ قَدَّمْتُم من إيمانٍ صَحِيح صادقٍ، وعَمَلٍ صَالِحٍ كُنتُم تَبْتَغُون به مَرْضَاة اللّهِ وَثوابَه، في الأيَّام الْخَالِيَةِ، حينَ كنتُمْ في رحلة الامتحان في الحياة الدنيا.

يُوَجَّهُ لهم هذا القول من الملائكة الذين يُحَيُّونَهم في الجنَّة ويُكَرِّمُونَهُم، بأمْرِ الله جلّ جلاله.

وقد يأْتِيهم هذا الخطابُ من الرَّبّ جلَّ جَلاَلُهُ، تكريماً لهم وإسْعَاداً.

- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾: أي: في موقف الحشرِ يوم القيامة، لِأَنَّهُ من أهْلِ النار الخالِدِينَ فيها.

- ﴿فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾.

مقالاتٌ يَقُولُهَا وَيُكَرِّرُها مَنْ أُوتِي كتابَهُ بِشِمَالِه، قبل أن يُحَاسَبَ لأنّه يعْلَم ساعَتَئِذٍ أنّهُ من أهل النار بمُجَرّد أَنْ يتسلَّم كتابه بِشِمَاله.

فهو يتمنَّىٰ أَنْ يكون قَدْ بقي كما كانَ في البرزخ ولَمْ يُبْعَثْ، ويتمنَّىٰ أنْ تكونَ مَوتَتُه التي ماتَها هي القاضِيَةَ على وجوده كُلِّه إلى الأبد.

دلَّ على هذا ما أبانَ النصّ أنَّهُ يقولُهُ مكرّراً له: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾.

● ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾: «يا» حرف نداء، داخلٌ على عبارة التَّمَنِّي «لَيْتَنِي» فأيَّ شيءٍ ينادي؟

قالوا: المنادَىٰ محذوف تَقْدِيرُه نحو: يَا رَبِّ.

وقيل: هو نداءٌ للكلام الدَّالِّ على التمنّي، بتَنْزِيل الكلمة منزلة العاقل الذي يُطْلبُ حُضُورُه، لأنَّ الحاجة تدعُو إليه في حالة الندامة.

وقيل: هو حرف تَنْبيهٍ.

أقول:

حرف «يا» في مثل هذا الاستعمال أَشْبَهُ بأن يكون حرف نُدْبَةٍ وتَحَسُّرٍ وتفجُّعٍ وتَوَجّع، على تقدير أن جملة «لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابَيْه» واقعة موقع عبارة «مُصِيبتي العظمىٰ في يأسِي من نجاتي» ولم يَذْكُر المفسرون ولا النحاة مثل هذا. أو تكُونُ العبارة على تقدير: «يا أُمْنِيّتي التي لا سبيل إلى الحصول عليها».

● ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾﴾: قالوا «ما» اسم استفهام وهو مبتدأ وخبرُه حسابي والهاء للسكت عند الوقوف. وفعل «لَمْ أَدْرِ» معلَّقٌ عن العمل لأنّ الاستفهام له الصدارة.

أقول: أليس الأولى أن نعتبر «ما» قد تجرّدت عن الاستفهام، واقتصَرَتْ دَلاَلَتُها على الماهيّة، فيكون المعنى: ولم أَدرِ حقيقةَ حسابِيَهْ، فهذا هو المتبادر من معنى العبارة.

● ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾: تحليل عبارة ﴿يَٰلَيۡتَهَا﴾ نظير ماسبق آنفاً في [**ياليتني**]. والضمير في [لَيْتَهَا] يعودُ على مَلْحوظٍ ذِهنا، وهي حالة الموْت الّتي كانَ فيها بين الموت والبعث، أو حالة إنْهَاءِ الحياة الأولى.

﴿كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾: أي: يالَيْتَها كانت المنهيَةَ وُجودي كُلَّه إلى الأبَد.

القضاء في اللُّغة: إمضاءُ الشيء وإتمامُهُ وإنْهاؤه. والقاضِيَةُ هي الْمُنْهِيَة.

● ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾: أي: ما أغْنَىٰ مالي الّذِي كان لي في الدنيا شيئاً، فصَرْفَ العذابَ والْعِقَابَ هذا اليوم عِنِّي.

أصْلُ معنى «أغناهُ» كفَاه، والكفايةُ عند الحاجة إلى ما يدفع المكروه تتضمّن معنى الصَّرْفِ، فيُعَدَّىٰ تَعْدِيته.

فالمعنى: ما أغناني مالي شيئاً فَصَرَفَ عَنِّي شَيْئاً من العذاب والعقاب يقول هذا القول مَنْ كان ذا غنًى بأمواله في الحياة الدنيا.

● ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾: أي: هَلَكَ بالفناء سلطاني الذي كانَ لي في الدنيا، وابْتَعَد عنّي إلى الْعَدم بُعْداً أبَدِيًّا.

ضُمِّنَ فعْلُ «هَلَكَ» مَعْنى فِعْل «ابْتَعَد» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغْنَتِ الجملةُ عن جملَتَين.

يَقُول هذا القول من كان ذا سُلْطانٍ في الحياة الدُّنيا.

● ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾.

● ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾: الغُلُّ: طوقٌ من حديد أو جِلْدٍ، يُجْعل في عنق الأسير أو يَدِه، أو تجمعان وتَطوّقان بالْغُلّ: **فَغُلُّوهُ**: أي: فاجْعَلوا الْغُلَّ في عُنقِهِ أو في يَدِه أو فيهما معاً، يقال لُغَةً: غَلَّهُ يَغُلُّه.

هذا الخطاب يُوجَّهُ لملائكة التعذيب المكلّفين أنْ يقوموا به، بعد صُدُور الحكم عليه بأنَّهُ من أهل الْخُلُود في جهنَّم.

● ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾: أي: ثُمَّ أَدْخِلُوهُ جَهَنَّمَ لِيَصْلَىٰ نَارَهَا، أي: لِيُعَذَّبَ بالاحتراق بِلَهَبِها وبجمرها.

يُقال لغةً: صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِيَ بها، إذَا احْتَرقَ بتَسْلِيط مادَّتِها على جَسَدِه، ويُقَالُ: أصْلاَهُ النّارَ، وَأصْلاَهُ بها وفيها، وصَلاَّهُ، أي: أَدْخَلَهُ النارَ ليَحْتَرِقَ بِها.

- ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾: أي: فأدْخلوه، يُقَالُ لُغَةً: سَلَكَ الشيء في الشَّيْءِ، أي: أدْخَلَهُ فيه وجَعَلَهُ يَعْبُرُه.

وباستطاعَتِنا تَصْوِيرُ هٰذه السِّلْسِلَةِ التي يُعَذَّبُ بها مَنْ يُكْرَهُ على سُلُوكها من أصحاب الشّمال، بأنّها دوائر تُضَمُّ وتُبسطُ بروابط بَيْنَهَا، مع تجويفِ داخِلَها قابلٍ لأنْ يَسْلُكَهُ عابرٌ فيه، وعُبورُ تجويف هٰذه السِّلْسِلَةِ أشَدُّ عذاباً من مُجَرَّدِ الدُّخول في لَهَبِ النار، أو التقلُّب على جَمْرِها.

- ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾: أي: طُولُها سَبْعُونَ ذِراعاً. يقال لُغة: ذَرَعَ الشَّيْءَ يَذْرَعُهُ ذَرْعاً، إذَا قاسَ طُولَهُ بالذِّراع. ولاَ يُهِمُّ المتدبّر أن يَعْرِف مِقْدَار طُولِ الذِّرَاع، فهذا أَمْرٌ من أُمُور الآخِرَة.

- ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾.

جاء هذا البيان إجابَةً علىٰ سؤالٍ مَطْوِيٍّ مفادُه: لِمَ هذا التعذيبُ الشديدُ له؟! فجاء الجواب:

- ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾: أي: فَقَدْ كانَ في رِحْلَة امتحانِه يجْحَدُ وُجودَ اللَّهِ رَبّه. أو يجحد صفاته العظمَىٰ وأسماءَهُ الحسنَىٰ، أو يجْحَدُ بعْضَها، مُشْرِكاً بِرُبُوبيّته أو بإلٰهيَّتِه، أو لا يُؤْمِنُ برُسُلِه المؤيّدين بالْمُعْجِزاتِ الرَّبَّانِيَّة، والآياتِ البيّنات، ولا ببَلاَغاتِهم عنْهُ جلَّ جَلاَلُه.

وجاء لفظ ﴿الْعَظِيمِ﴾ لِلإشارة إلى أنَّ عظَمَةَ اللَّهِ ظاهرةٌ جليَّةٌ في آثارِه في كَوْنِهِ مَا كانَ مِنْهُ صغيراً أَمْ كبيراً، فلا عُذْرَ لِمَنْ آتاه ربُّهُ أدواتِ

الإحساس والتفكير في أَنْ يَجْحَدَ مَنْ خلَقَهُ وخلَقَ الكونَ من حَوْله، ولا سيما بَعْدَ بَعْثِ الرُّسُل وإنْزال الكُتُب.

- ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾: أي: وكَانَ في رِحْلَةِ امتحانه غير ذي رحْمَةٍ بالضعفاء والبؤساء، بل كان قاسِيَ القلْبِ، فلَا يتحرَّكُ لسانُهُ بتوجيه حضٍّ على إطعام الْمِسْكِينِ الجائع حقيقةً بسبب فَقْرِه الشّديد. **الحضُّ على الأمر**: الحثُّ عليه وطَلَبُهُ بشدَّةٍ والحاح.

- ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

الْحَمِيمُ: القرِيبُ الذي تودُّه ويُوَدُّكَ، فهو يَنْصُرُكَ ويُدافع عَنْكَ، كما تنْصُرُه وتدافع عنه.

غِسْلِين: يعجبني في تفسير هذه الكلمة قول من قال من المفسّرين: هو نوع من الشجر يَنْبُتُ في جهنّم.

قال مجاهد: هو طعامٌ من طعام أهل النار.

وقال الضَّحَّاك: هو شجر في النار.

وهذا التفسير يتَّسِقُ مع أنواع طعام أهل النار، بحسَب دركاتِهِم في العذاب، فأشَدُّهم عذاباً يكونُ طَعَامُهُمْ من الشجرة الملْعُونة في القرآن، وهي شجرة الزَّقّوم. والأَخَفُّ عذاباً يكون طَعَامُهم من «غِسْلِين» والأخف منهما يكون طعامُهُمْ من ضَرِيعٍ، وهو نوعٌ من الشَّجَر لا يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي من جوع.

ويُلَاحَظ أنّه لم يأت في وصْف «غِسْلِينَ» نظير ما جاء في وصْفِ ما يُؤْكَلُ مِنْ شَجَرَة الزَّقوم، من أنَّه كالمهْلِ يغْلِي في البطون كغلْي الحميم، وأنه طعام الأثيم.

وأمّا الضريع، فقد جاء وصْفه في سورة (الغاشية) بأنه لاَ يُسْمِنُ ولا يغني من جوع، فهو أهون أطعمة جهنم تعذيباً لآكليها.

والمعنى: فليس لمن أخذ كتابه بِشِمَالِهِ يَوْمَ الدّين قَرِيبٌ ينْصُرُه، أو

يَوَدُّه، وليس له طَعَامٌ إلاَّ من نوع شجرٍ في دار العذاب يُقَالُ له: «غِسْلِين» وهذا الطعام لا يَأْكُلُهُ إلاَّ الْخَاطِئُون.

الخاطِئ: مُرْتَكِبُ الذّنب مطلقاً، ولكن من حَكَمَ اللَّهُ عليه يوم الدين بأنّه خاطِئ، ولم يشْمَلْهُ بعَفْوٍ وَلاَ مَغْفِرَةٍ وَلاَ تَخْفِيفٍ، فهو من مستحقي الخلود في عذاب النار، ويكُونُ طعامُه فيها من غِسْلِين، وهو وَسَطٌ أشدّ من الضريع، وأخف من شجرة الزَّقُوم، أخذا مِنْ سباقات النصوص وسياقاتها، ومن التكامل فيما بينهما. كما ظهر لي أنفاً.

* * *

النّصّ السابع:

ما جاء في سُورَة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول) فقد جاء فيها بالنسبة إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قول الله عزّ وجلّ.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا (١٥)﴾.

أضاف هذا النصّ على النصوص الّتي سبقَتِ النَّظراتُ التدبّريّة حَوْلَها، ما يلي:

(١) أنّ من يُؤتَى كتابه بيمينه يوم العرض للحساب وفصل القضاء، يَنْتَظِر مُدَّةً في الموقف، ثمّ يحاسَبُ حساباً يَسِيراً، بِدَليل قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)﴾: فكلمة سَوْفَ تَدُلُّ على مرور مدَّة طَوِيلة بين استلامه كتابه، وبين محاسبته حساباً يَسِيراً.

(٢) وأنَّهُ يَنْقَلِبُ من موقف حسابه، وفصْل القضاء بشأنه، إلى أَهْلِه في الجنة مَسْروراً.

يَنْقَلِبُ: أي: يَذْهَبُ وَيَنْصَرِفُ. ويأتي بمعنى: يَرْجع، والمعنى الأول هو المناسب هنا.

والمراد بأهْلِه زَوْجَاتُه من الحور العين، وسائرُ أهله في الدنيا إذا كانوا من أهل الجنة.

مَسْرُوراً: أي: بماظَفِر به من ثوابٍ عظيم وأجْرٍ جسيم.

وقد أبان الرسول ﷺ أنَّ هذا الحساب الْيَسِير هو نَوْعٌ من الْعَرْضِ الّذِي لاَ تكونُ معه مُنَاقَشَةٌ.

روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ».

قالت عائشة: فقُلْتُ: أَفَلَيْسَ قال اللّهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾؟! قال:

«لَيْسَ ذَاكِ بالْحِسَاب، وَلَكِنْ ذَلِكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ».

(٣) أنّ مَنْ يُؤْتَىٰ كِتَابه بشِمَالِهِ ولكِنْ من وراء ظهره، ويكونُ هذا بجعل يده اليمنىٰ مغلولةً مع الغُلّ الذي في عُنُقه، وبشَدِّيَدِهِ اليُسْرىٰ إلى جهة ظهره، ويُناول كتابه بها، فإنَّهُ ينتظر مُدّة في الموقف، ثمَّ يُحَاسَبُ حِسَاباً عسيراً، فَيُنَاقشُ الحسابَ على كفره وجرائمه، ويَقْضِي الله بشأنه، ويُصْدِرُ الحكم عليه بأنَّه من أهل النّار، فَيَدْعُو على نَفْسِه بالهلاكِ الأبدي على سبيل التمنّي.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾: أي: فهو ينتظر طويلاً، ثم يجري حسابه، وفَصْلُ القضاء في شأنه، فيدعو على نفسه بالثبور.

الثُّبُور: هو الهلاكُ، إنَّهُ يتمنَّىٰ حينئذٍ أن يموت مَوْتاً أبديًّا، فيصير تراباً، لكنّه لا مَوْت لأهل النّار، ولا لأهل الجنَّةِ بعْدَ البعث، فيَوْمُ الدّين هو يوْمُ الخلُود.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾: أي: يَدْخُلُ جهنَّمَ، ذَائِقاً فيها عذابَ الْحَرِيق.
﴿يَصْلَىٰ﴾: أي: يَدْخُلُ ويَحْتَرِقُ ليذوق عذاب حريق النار.

السّعِير: لَهَبُ النار. أي: يَصْلَىٰ ناراً ذَاتَ لَهَبٍ مُنْتَشرٍ ومُسَلَّطٍ عليه.

وقرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عامر، والكسائي: ﴿وَيُصَلَّىٰ سَعِيراً﴿١٢﴾﴾ أي: وَيُدْخَلُ بإكراه وعُنْفٍ في دار العذاب، ويُحَرَّقُ بالسَّعِير.

وبين القراءتين تكاملٌ في المعنى، لأنَّهُ إذا أُدْخِلَ بعُنْفٍ مُكْرَهاً، دخَلَهَا وهُوَ كَارِهٌ، ويضيف الفعل المضعّف معنى شدَّة التعذيب لكبراء الكفرة المجرمين الطغاة البغاة.

(٤) بيان أنّ من يُؤْتَىٰ كتابَهُ بِشِماله قد كان في الحياة الدنيا مَسْرُوراً ضِمْنَ أَهْلِه، غافِلاً عَنْ أَمْرِ آخِرَتِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ مستغرقاً فيما هو فيه، غَيْرَ مُهْتَمٍّ بالعمل لما ينجيه ويُسْعِدُهُ في آخِرَته، يتقلّبُ في نعم الله عليه، وهو كافرٌ به، غير معترف بمسؤوليتهِ تجاهه.

(٥) بيان أنّه ظَنَّ حينَ كان في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، أنَّهُ لَنْ يرجع إلى الحياة بَعْد مَوْته وفناء جسَدِه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إنَّهُ ظنَّ ظنًّا توهُّمِيًّا أنَّهُ لَنْ يَرْجع إلى الحياة بَعْدَ الموت، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿يَحُورَ﴾: أي: يرجع. تقول لغة: حَارَ يَحُورُ حَوْراً، أي: رجَع. والمَحَارُ: الرُّجوع.

فهو إذنْ كافِرٌ بالله، وكافرٌ بيوم الدين، وبَطِرٌ مُتَفَاخِرٌ مَسْرُورٌ بما يمارِسُ في الحياة الدنيا من آثامٍ وسَيِّئاتٍ وذُنُوب.

ومن استعراض النصوص الّتي جاء فيها الحديث عن أصحاب اليمين وأصْحاب الشمال في القرآن المجيد، ينكشف لنا أنَّ أهل الجنّة في الجنّة على مراتب ودرجات متفاضلات، فمنهم المقرّبُونَ، مُحْسِنُونَ وأبرار على درجاتهم. ومنهم المتقون على درجاتهم. وأنّ أهل النار في النار على منازل ودركات، وأشدُّهم عذاباً من كان منزله في الدرك الأسفل من النار.

أمّا النصوص التي جاء فيها الحديث عن أهل الجنة وأهل النار فكثيرة جدّاً، وقد اقتصرت هنا على النصوص التي جاء فيها الحديث عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال فقط.

اللّهم إنا نسألك الجنّة وما قرَّبَ إليها من قول أو عمل، ونَعُوذُ بك من النار وما قرّب إليها من قولٍ أو عمل.

* * *

سُورَةُ الطَّارِقِ

٨٦ مصحف ٣٦ نزول

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾
إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾
خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ
عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا
نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ
لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ
كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

---

٤ ـ ● قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحَمْزَة، وأبو جَعْفَر: **﴿لَمَّا﴾** بِتَشْدِيد الميم.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[لَمَا]** بتخفيفِ الميم.

﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى «إلاَّ» فهو حرف استثناء.

و [لَمَا] بالتخفيف، اللاّم في لما هي لام الابتداء المزحلقة إلى الخبر. و «ما» جيء به للتأكيد، فهو حرف زائد للتأكيد.

والقراءتان تشتملان على أسلوبين من أساليب تأكيد الخبر، أحدهما عن طريق النفي والاستثناء، والآخر عن طريق أدوات التوكيد.

(٢)

مما ورد في الحديث بشأن سورة الطارق

(١) من الروايات الواردات بشأن تلويم الرَّسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه على إطالته الصلاة وهو إمام بالناس، ما رواه النَّسائيُّ بسَنَدِهِ عن جابر قال:

صَلَّىٰ مُعَاذُ الْمَغْرِب فقرأ البقَرَة والنِّسَاء. فقال النبيُّ ﷺ: «أفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟. مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تقرأ بالسَّمَاءِ والطَّارِق، والشَّمْسِ وضُحَاها، ونحوها؟».

(٢) وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة: «أنّ رسُولَ الله ﷺ كان يَقْرأُ فِي العِشَاءِ الآخِرَةِ ذات البروج، وَالسَّمَاءِ والطَّارِق».

* * *

(٣)

موضوع السّورة

يَدُورُ مَوْضُوع هذِه السُورَة حوْلَ تَأكيد ثلاث قضايا مِنْ قضايا قانون الجزاء الرَّبَّانِيِّ يَوْم الدِّين، وبَعْض مقتضياته السَّابِقَةِ لَهُ في ظُرُوف الحياة الدنيا، وهذا التأكيد مقرونٌ بأدلَّةٍ كَوْنيَّةٍ عَامَّةٍ.

وأُلْحِقَ بهٰذِه الْقَضَايا بَيانٌ مؤكَّد بالْقَسَم يَتَضَمَّنُ أنَّ مَا جَاءَ في هذه السُّورة وفي غيرها من سُوَر القرآن مِنْ أحاديثَ عن الجزاء الرَّبَّانِيّ يوْمَ الدّين، إنّما هو قَوْلٌ حَقٌّ وَجِدٌّ وفَصْلٌ، لاَ تَلاعُبَ فِيه ولا هَزْل.

وأُتْبِعَ ذَلِكَ بِبَيَانِ مَوْقف كُبَراءِ مُشْرِكي مكَّة من الرَّسُول محمّدٍ ﷺ ودَعْوَتِه إبَّانَ نُزُولِ السُورَةِ، وبيان التدبير الرَّبّاني المقابل له، وبيانِ الموقف الّذِي ينْبَغِي للرسول أنْ يواجِهَهُمْ به في هذه المرحلة من تاريخ دعوته، ومعه الّذين آمنوا به واتَّبَعُوه.

- فالقضايا الثلاث المتعلّقَةُ بقانون الجزاء الرَّبَّانيّ يوم الدّين ومقتضياته من قبله، هي ما يلي:

القضيَّة الأُولى: تأكيد أنَّ الإنسَانَ الممتَحَنَ المكلَّفَ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، مُرَاقَبٌ مُرَاقَبَةً تَامَّةً، فيها تَسْجِيلٌ كامل، يحفَظُ حِفْظاً دقيقاً كُلَّ مَا يَصْدُرُ عنْهُ من سُلوكٍ إرادِيٍّ، هو مسؤولٌ عنه في رَحْلَةِ امتحانه، دلَّ على هذه القضيَّة قول الله عزّ وجلَّ في السُّورَةِ:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

القضيَّةُ الثانية: تأكيد أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قادِرٌ على إرْجاع الإنسانِ إلى الحياة بَعْدَ مَوْتِهِ وفَنَاءِ جَسَدِهِ، لمحاسبته، وفَصْل القضاءِ بشأنِهِ، وَمُجَازاته، بالعدل أو بالفضل، وهذا التأكيد موجَّهٌ لمنكِري البعث، أو الشّاكّين فيه، دلَّ على هذه القضية قول الله عز وجلّ في السُّورَةِ:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾.

القضيَّة الثالِثة: بيان أنَّ الإنْسَانَ حينَ تُكْشَفُ سرائِرُهُ، وهي نيَّاتُهُ من أعْمَالِه الظَّاهرة والباطنة، لدى محاسبته ومجازاته يوْمَ الدّين، يَكُونُ عاجزاً عن أن يدفَعَ عن نَفْسِه شيئاً من عقاب الله عزّ وجلَّ له، إذا قضَىٰ اللَّهُ عليه بالعقاب، وأنَّه يومَئِذٍ لاَ تَكُونُ لَهُ قُوَّةٌ ما يَدْفَعُ بها عَنْ نفسِه شيئاً من العذاب، ولا يكونُ لَهُ أيُّ ناصرٍ يَنْصُرُهُ فَيَدْفَعُ عَنْهُ من عذاب اللَّهِ شيئاً، دلَّ على هذِهِ القضيَّة قول الله عزّ وجلّ في السُّورة:

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾.

■ وَأمَّا البيانُ الَّذي يتَضمَّنُ تأكيد أن الأحاديث المتعلّقَةَ بالجزاء الرَّبَّانيّ يَوْمَ الدّين، في هذه السُّورَةِ وَفي غَيْرِها، قولٌ حقٌ وصِدْقٌ وجِدٌ وَفَصْل قاطِعٌ مُمَيِّزٌ للحقيقة، لاَ تَلاَعُبَ فِيه ولا هزل، فَدَلَّ عليه قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ في السُّورَةِ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.

■ وأمَّا مَوْقِفُ كُبَرَاءِ مُشرِكي مكَّةَ إبَّانَ نُزُولِ السُّورَة، وهو موقف الإعْدَاداتِ الكَيْدِيَّةِ ضِدَّ الرَّسُول ﷺ، وضدّ الّذين آمَنُوا بِهِ واتّبَعُوهُ، وضدّ انتشار دعوته، فَدَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾.

■ وأمَّا التَّدْبير الرَّبَّانيُّ المقابل لكَيْدِهم، فدَلَّ عليه قول الله عزّ وجلَّ في السُّورَةِ:

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ⑯﴾.

■ وأمَّا الموقف الَّذِي يَنبَغِي للرسول ﷺ أن يواجِهَهُم به، ومعه الَّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فهو مَوْقف التَّمَهُلِ والانتظار وعَدَمِ التعجُلِ باتّخاذِ أيِّ مَوْقفٍ تَصادُميٍّ مع من يكيدُهُمْ من المشركين.

وقَدْ دلَّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ تأكيدِيَّةٍ غايَةٍ في الإلْزَامِ، بالنسبة إلى هذه المرْحَلَةِ من تاريخ الدّعوة، قول الله عز وجلّ في آخر السورة:

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ⑰﴾.

وهكذا فالسورة ذاتُ موضوع واحدٍ متعانق الفقرات.

* * *

(٤)

دروس السّورة

بعد اكتشاف موضوع سورة (الطارق) الّذِي سبَقَ بيانه، باستطاعة المتدبّر المتأنّي أن يُحَدِّد دُرُوسَها في مفاصل واضحةٍ منها، وهي لدى التأمّل أربعة دُرُوس:

الدرس الأول:

دَرْسٌ يشْتَمِلُ على قَسم بالسَّماء ذَاتِ النُّجوم الثواقِب الَّتِي تَصِلُ أَضوَاؤُها إِلَىٰ الأرض، على أَنَّ كلَّ نَفْسٍ مُمْتَحَنَةٍ مُكَلَّفَةٍ في ظروف الحياة الدنيا، مُرَاقَبَةٌ مُرَاقَبَةً تَامَّةً، تُسَجَّلُ عليها فيها مكْتَسَباتها الإراديَّة الظَّاهِرَةُ والباطِنة، ومِنْها سرائرها، كالنِّيَّاتِ وَمَا تُخفي الصُّدُور من إيمان أو كُفرٍ أو نِفَاقٍ، أو غَيْرِ ذلِكَ من مكتَسَبَاتٍ إرادِيَّة.

ومَعْلَومٌ أنَّ الالْتِزَامَ بالْمَرَاقَبَةِ التَّامَّة مَعَ تَسْجِيلِ كلِّ المكتَسَباتِ الإراديَّة، يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً سَوَابِقَ وَلَواحِقَ، فَمِنَ السوَّابِقِ كوْنُ النَّفْسِ مَخْلُوقاً ممتحناً مُبْتَلَىٰ في ظروف الحياة الدنيا، ومن اللَّوَاحِقِ كَوْنُ هذا المخلوق مبعوثاً لحياة أخرى بَعْدَ الموت والفناء، للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، على ما قَدَّمَ وأخَّرَ في رحلة الابتلاء.

وهو الآيات من (١ ـ ٤).

الدرس الثاني:

درسٌ يشْتَمِل على لَفْتِ أنظار الَّذِين كذَّبوا بِنَبأِ البعث، وإرجاع الميّت الفاني للحياة مرَّةً أخرى، إلى دليل التَّسْوِية بين الإعادَة والْبَدْءِ، وذلك بتوجيه أنظارِهم لوَاقِعِ خَلْق الإنسانِ من ماءٍ دافقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والترائب.

والمعنى: أنَّ إعادة خلقه من التّرَابِ بَعْدَ أن كان واقعاً مشهوداً، أهْوَنُ من بَدْءِ خلْقِه من ماءٍ مَهِين، يَرْجِعُ إلى سلسلة تطَوُّرِيَّةٍ، من حَلْقَاتِها الطين، الذي هو ترابٌ وماءٌ.

وهو الآيات من (٥ ـ ١٠).

الدرس الثالث:

درسٌ يشتمل على قَسَمٍ آخر بالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ النافع لسُكَّانِ الأرض، وما في هذا من اتقانٍ تامٍّ، وإحكامٍ عجيب، وتنظيم رائع، وقَسَمٍ آخَرَ بالأرض ذات الصَّدْع (= الشَّقّ) وما في تنظيم عمليات الصَّدْعِ فيها من اتقان وإحكامٍ مُذهِشَيْن، وما فيه من نفع عظيم للعباد السَّاكِنين عليها، إذْ يكونُ به إنباتُ النَّباتِ، وتفجير العيون، وإجراء الأنهار، وإخراج كنوز الأرض من معادن وغيرها.

على أنَّ أنباء الجزاء يَوْمَ الدّين وَلوازِمَهُ السَّابقة لَهُ، قَوْلٌ حَقٌّ وصِدْقٌ،

لا بَاطِلَ فيه ولا كذب، وَقَوْلٌ جِدٌّ، لاَ تَهْوِيلَ فيه ولا هزْلَ ولاَ لَعِب.

وهو الآيات من (١١ ـ ١٤).

الدرس الرابع:

درس يشتمل على بيان الموقف الذي وصل إليه كُبراء مشركي مكّة إبّان نُزُول سورة (الطارق) وهو موقف الكَيْدِ الشديدِ ضِدَّ الرَّسُول ورسالتِه، وضِدَّ الذين آمنوا به واتَّبَعُوه، والكَيْدُ يُطْلَقُ على الحرب، وإعداد الوسائل لها، واتّخاذ الأعمال والتدبيرات الحربيَّة المختلفة.

ولم يَصِلُوا إلىٰ هذا الموقف إلاَّ بَعْد أَنْ تَنَقَّلُوا في المراحِلِ تَنقُّلاً تَشَدُّدِيًّا، من مرحَلةِ الإعراض، إلى مرحلة الإدْبَار، فمرْحلة إعلان الخصومة، فمرْحَلَةِ العِدَاءِ، فمرْحَلَةِ الإيذاءِ والمضايقة، فمرحلة المحاصرة والإضرار، فمرحلة الإضطهاد الموجّه ضِدَّ ضعفاء المؤمنين، فمرحلة الإعدادات الكيديَّة الحربيَّة.

ويشتمل على بيان التدبير الرَّبَّانيّ لإحباط كيدهم، وبيان الموقف الذي ينبغي للرسول أن يَتّخذَهُ هو والذين آمنوا معه واتبعوه في تلك المرحلة، وهو موقف التمهُّل والانتظار وعدم التعجّل باتخاذ أيّ موقف تَصَادُميّ مع المشركين، وهذا يستدعي شِحْنَةً كبيرَةً من الصَّبْر.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٤)

قال الله عزَّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ (١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ (٢) ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾.

يُقْسِمُ رَبُّنَا بالسَّماءِ، وبالنجم الثاقب الذي يظهر فيها، أي: بجنْسِ النجم الشّامل لِكُلّ النجوم الّتي تُرَى في السّماء، بالنسبة إلى سُكّان الأرض، على أنّه ما من نَفْسٍ خَلَقَها لِيَبْلُوَهَا إلاَّ عَلَيْها حَافظٌ يُحْصِي عليها ما تكسب بإرادتها، والعبارَة تشمل كلّ نفس، وكل ما يصْدُر عنها.

ووصف الله جِنس النَّجْم الذي يظهر لسُكّانِ الأرضِ في السَّمَاءِ بوَصفين:

الوصف الأوّل: أنّه الطَّارِقُ دواماً، وعظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ بعبارَة التعجيب القرآنية فقال بشأْنِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾. الطارق: هو الذي يأتي لَيْلاً.

الوصف الثاني: أنّه الثَّاقِبُ، أي: المضِيءُ الّذِي يَظْهَرُ ضَوْؤه كأَنَّهُ خارِقٌ ثَقْباً في السماء، دون أن يكون له انتشارٌ ضَوْئي شامل.

الشرح التحليلي:

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ الواو هي «واو الْقسم» وهو من حروف الجرّ، والعامل محذوف لا يجوز عند النحاة مع الواو إظهارُه، والتقدير: أقسم أو أحلف والسَّماء.

السَّمَاء: تُطْلَقُ لغة على كلّ ما ارتفع وعلا، أو كان في جهة العلو من فعل: سما يسْمُو سُمُوًّا فهو سامٍ، أي: ارتفع وعلَا ارتفاعاً مادّيًا أو معنويًا، وسماءُ كلّ شيءٍ أعلاه، والغلاف الغازي المحيط بالأرض يدخُلُ فيما يُطْلَقُ عليه لغة لفظ «سماء».

والمراد بالسماء هنا السَّماءُ البعيدة التي تظْهَرُ فيها النُّجوم الثواقب، بدليل اقتران القسم بها بالقسم بالطّارق الذي هو النَّجْمُ الثاقب.

﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: وهذا قَسَمٌ بالطَّارقِ. وكلمة «طارق» اسم فاعل من فعل: طَرَقَ يَطْرُقُ طُرُوقاً، أي: جاء لَيْلًا. فهو طارق.

وكلُّ آتٍ ليلاً يُقال له في اللُّغَة: طَارِق، وجمعه: «طَوَارق» وقَدْ يُجْمَعُ أيضاً على أَطْرَاق.

وجاء في الحديث أنّ الرسول ﷺ نهىٰ المسافِرَ إذا رجَعَ من سَفرِه عَنْ أن يَطْرُقَ أهله طُروقاً، أي: عن أَنْ يأتيهم لَيْلاً، وكان الرسول ﷺ لا يفعل ذلك.

ولمّا كانت النجومُ الثواقبُ في السماء إنّما تظهر لسُكّانِ الأَرْضِ لَيْلاً، وكان هذا دأبَها في كلِّ ليْلَةٍ، كانَ من المناسب أن يُطْلَقَ على كلِّ واحدٍ منها وصْفُ الطارِق.

وإذْ كانت «ال» في الطارق للجنس، كان لفظ «الطَّارِق» يَعُمُّ كُلَّ نَجْمٍ يُرَىٰ ليلاً في السَّماءِ، فالتقدير: أَقْسِمُ والنُّجُومِ الطوارقِ ليلاً.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾: في هٰذِه العبارة يُعَظِّمُ الله عزَّ وجلَّ من شَأْن هٰذه النُّجوم الَّتي تُرىٰ في اللَّيلِ، وهي العبارة المتكرّرة للتعْجِيبِ والتعظيم في القرآن المجيد.

أي: أعظم أيُها المخاطَبُ أيّا كُنْتَ بأمْرِ هٰذا الطَّارق الذي هو النَّجْمُ الثاقِبُ، إعظاماً لاَ تَصِلُ إليه دِرَايتُك مهما عظمت مناظيرك، ووسَائلُك الّتي تَرْصُدُ بها مُشَاهَدةَ هذِه النجوم، متَتَبِّعاً دراسَتَها.

وقد سبق شرْحُ هذه الصيغة القرآنيّةِ المبتكرة في التعجيب والتعظيم، وتحليل عناصرها بمقتضى القواعد العربيّة.

وفي هذا الاستفهام التعجيبي تشويقٌ للمعرفة، فتأتي الإجابة على مواقع الشوق لها. ولمّا كان الطارق يُطلقُ على كلّ آتٍ باللّيلِ، وجاء الاستفهام عنه لتعظيم أمره، كان لا بُدَّ من بيان المراد به.

﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾: فَسَّرَ الله عزّ وجل بهذه العبارة المرادَ بالطَّارِق

الذي أقْسَم به، أي: هُو النَّجْمُ الثّاقِب، ودَلَّتِ القرائن على أن المراد جنْسُ النجم الثاقب إذ «ال» لإرادة الجنس، فيشْمَلُ كلَّ النُّجوم الّتي يَراهَا الراؤُون ليلاً، وهُمْ على سَطْحِ الأرض، فكأنه قال: والسَّمَاءِ والنُّجُومِ الثواقب فيها.

ولمّا كان من النجوم نجومٌ بَعِيدَةٌ جدًّا في أبعاد السَّمَاءِ السّحيقة، وهي لا تُرَىٰ بالنِّسْبَةِ إلى سُكَّان الأرض، اقتصرَتِ السُّورَةُ في لفت نظر الإنسان على ما يرَاهُ منها ليْلاً، فهيَ الّتي تَطْرُقُ ليْلاً.

النجمُ: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو النَّجْم، **الثاقبُ**: نعتٌ للنجم.

الثاقب: هذه الكلمة تأتي في اللُّغة بمعنيَيْن: بمعنى «مُضِيئ» وبمعنى «مُحْدِث للثَّقْب» **الثَّقْبُ**: هو الخرقُ النافِذُ في الشيء حتَّىٰ غاية الْوَجْه الآخر له.

ويظهر أنّ معنى الإضاءة لكلمة «الثاقب» يرادُ به إضاءَةٌ نافذة كالخرق، وليس لها انتشارٌ واسعٌ.

ويقال لغة: زَنْدٌ ثاقب، وهو الذي إذا قُدِح ظهرت ناره على شكْلِ شَرَارات ذات إضاءة ثَاقِبَةٍ دون انتشارٍ لها.

فمعنى «ثاقب» يَدُور لغة حول ما يثقب الشيء ثَقْباً خارقاً له، والإضاءة الّتي لا انتشار لها، فهي تُشْبه الثَّقْب في ستارة سوداء. والمثقوبُ بأضواء النجوم ظُلْمةُ اللّيل.

وعلى هذا المعنى وصَفَ الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) الشهاب الذي يُتْبِعُ الشيطانَ الذي يحاول أن يَسْتَرِق السَّمْعَ من الملأ الأعلى بأنّه شهابٌ ثاقب، فقال تعالى فيها:

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑩﴾.

وفي وصف النجوم في السّماء بأنها مُضيئةٌ إضاءةً تُشْبِه الأضواء الّتي تظهر نافذةً من ثُقُوبٍ في ستارة سوداء، إشارةٌ إلى ما فيها من منافع لسُكّانِ الأرضِ، إذْ تهديهم مواقعها إلى طُرُقاتهم في ظُلُماتِ البرّ والْبَحْر.

والقسَمُ بالسَّمَاءِ وبالنجوم الثواقب فيها، قسَمٌ بآيَةٍ عظيمةٍ كبرىٰ من آيات الله في كونه، وهي آيَةٌ تَدُلُّ علَىٰ أنّ علْمَهُ مُحِيطٌ بكُلِّ شيء، وأنَّ إرادَته في الخلْقِ والتَّدْبير إرادةٌ حَكيمَةٌ جليلة، وأنّ قُدْرَتَهُ عظيمةٌ لاَ يُعْجِزُهَا شَيْءٌ تتعَلَّقُ بإيجادِه إرَادَتُه، صغيراً كان أم كبيراً.

إنّ السَّمَاءَ والنجوم فيها، والتي تُعْتَبَرُ الأرضُ كُلُّهَا بالنِّسْبَة إليها بمثابة رَمْلَةٍ صَغِيرةٍ بالنِّسْبَةِ إلى سائر الأرض، ويذكر علماء الفلك أنّ بعض النجوم في السماء التي نراها بمقدار عَيْنٍ صغيرة، أكْبَرُ من الأرض بمَلاَيين المرَّات، وإنَّما صغَّرَهَا فِي أعيُنِنَا بُعْدُها عنّا. والنجومُ في السماء ذواتُ حَرَكاتٍ ومَسِيراتٍ وأفْلاَكٍ عجيبات في إتقانها وإحكامها.

فَمِنَ الحكمة أن يُقْسِمَ اللّهُ عزّ وجلّ بِهَا للتَّنْبِيه على ما فيها من دَلاَلاَتٍ على عظمة الرَّبّ الخالق العليم الحكيم القدير.

وقد جيء بهذا الْقَسَم لتَأْكِيدِ خَبَرٍ عن بَعْضِ تَدْبيراته الصغيرة الهيّنَةِ بالنِّسْبَة إلى خَلْقِه السَّمَاءَ والنجومَ الّتي لا تَسْتَطِيع الخلائق حصرها، ولا إدْراك أبعادِها، وإلى تدبيره حَرَكاتِها ومَسِيراتها وتأثيراتِها في هذا الكون العظيم.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى [لَمَا].

هٰذا هو المقسم عليه المؤكَّدُ بالْقَسَم. أي: ما مِنْ نَفْسٍ خَلَقَهَا اللّهُ إلاّ جعَلَ عليها حَافظاً يحفَظُ مَا يَصْدُرُ عَنْها من أقوالٍ وأعمال وحركاتٍ نفسيّةٍ وفكريَّةٍ وَقَلْبِيَّةٍ ونِيَّاتٍ، ولا يكونُ حافظاً إلاّ إذا كان مُرَاقِباً دواماً، مُشَاهِداً

لِكُلِّ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ حِفْظُه أفيَعْجِزُ الرَّبُّ العظيم الجليل الّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ العظيمة، وخَلَقَ هٰذِه النجوم المدهِشَةَ بِتَكوينها وأعدادها وإتقان مسيراتها وحركاتها في أفلاكها، عن أن يَجْعَل على كلِّ نَفْسٍ حَافِظاً مُراقباً، يُسَجِّلُ عليها كُلَّ مَا يَحْدُثُ فيها وكُلَّ مَا يَصْدُرُ عنها؟!

تَعالَىٰ اللَّهُ عن أن يكون عاجزاً عُلُوًّا كبيراً، والشّاكّون بمِثْلِ هذا الخبر ما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه.

والمناسبة بين الْمُقْسَم به والمقْسَم عليه هي التشبيه، فالسَّمَاءُ محيطَةٌ بالأرض، والنجومُ فيها كثيرة نافِذَةٌ عَيُونها من ثُقُوب ستارة اللّيل إلى الأرض، وكُلُّ نَفْسٍ مُحَاطَةٌ بالعلم الرَّبَّاني الّذي لا يَخْفَىٰ عليه منها خافية، وعَلَيها أيضاً مُرَاقِبٌ ثَاقِبٌ لحجبُها، يراقبها في خلواتها، حتّى داخل سرائِرِها من نياتٍ ومَكْنُوناتٍ مُضْمَرَاتٍ في صُدُورها، والّتي سَوْفَ تُكْشَفُ يَوْم الحسابِ في محكمة العدل الرَّبَّانيَّة.

ودَلَّتْ عبارَةُ ﴿عَلَيْهَا ﴾ على أنَّ المراد بكَلِمَةِ ﴿حَافِظٌ ﴾ مُرَاقِبُ أعمال الإنسانِ ومُسَجِّلُها، إعداداً للحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذِ الجزاء، إذْ هي القضيَّةُ الّتي جيءَ بالقسم لتأكيدها، وإنْ كانَتْ كلمة ﴿حَافِظٌ ﴾ صالحة للدّلالة على معنى حفظ الإنسان من المخاطر والمؤذيات، إلاّ ما فيه من الله عزّ وجلَّ قضاءٌ وقدَرٌ، غير أنّ هذا المعنى يُنَاسِبُه عبارة: «لَهَا» لا عبارة: ﴿عَلَيْهَا ﴾.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ ﴾: أي: ما كُلُّ نَفْسٍ «إنْ» حَرْفُ نَفْي، مثل «ما».

﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾: ﴿لَّمَّا ﴾ أداة استثناء بمعنى «إلاّ».

والنفيُ والاستثناء يفيد الحصر والقصر، وهو من قصر الموصوف على الصفة، وهو هُنَا قَصْرٌ إضافيٌّ، لأنّ الْمَقْصُودين بالخطاب مُنْكِرو وُجُودِ مُرَاقَبةٍ دائمةٍ لأعْمَالِ الناس الظاهرة والباطنة، أو الشّاكُّونَ فيها، فجاء القصْرُ لرَدّ تَوَهُّمِهم.

وعلى قراءة [لَمَا] تكونُ ﴿إن﴾ هي المخفَّفَة من الثقيلة، وتكون اللّام في [لَمَا] هي اللّام المزحلقة إلى الخبر، وتُسَمَّىٰ هُنَا اللَّامَ الفارقة، لأنَّهَا فارقة بين «إنْ» المخفّفة من الثقيلة، عن «إنْ» النافية.

قالوا: و «ما» في [لَمَا] زَائِدَةٌ للتَّأْكيد. **أقول**: ما المانِعُ أنْ يَكونَ لفظ «مَا» هنا اسماً نَكِرَةً، وهو مُفَسَّرٌ بما قبله، ويكون المعنى: إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَنَفْسٌ عليها حافظ.

ففي القراءتَيْن أسْلُوبَانِ من أساليب تأكيد الخبر، أَحَدُهُما عن طريق النفي والاستثناء، والآخَرُ عن طريق أدوات التأكيد (إنْ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحلقة).

الأسلوب القرآنيّ في تأكيد الأخبار الغيبيّة:

يُسْتَفاد من أُسْلُوب التأكيد القرآنيّ في هذا الدَّرْس وفي غيره من سور القرآن، أنّ البيانَ حينما يكون متعلّقاً بخَبَرٍ غَيْبِيٍّ، لا سبيل إلى علم المقصُودِين بالخِطاب به المنكرين لَهُ إلاَّ عَنْ طَرِيق الخبر، فإنّ الْخَبَر يأتي مُقْتَرِناً بالمؤكّداتِ الخبريَّة، وَأعلاها القسم.

ويأتي التصرُّفُ الرَّبَّانيُّ الحكيم فيمَا يَصْلُح لأنْ يُقْسِمَ اللَّهُ به، باختيار الْقَسَم بما يتضمَّن نَوْعَ حُجَّةٍ تَتَّصِلُ بالْقَضِيَّةِ الّتي يُؤَكّدُها اللَّهُ عزّ وجلّ بالقسم، أو بماله بها مُنَاسَبَةٌ ما، ولو كانت على سبيل التشبيه أو التنظير لِتَقْرِيب الْمُقْسَمِ علَيْه إلى أفْهام المقصودين بالخطاب، ولَيَقِيسُوا ما يَجْحَدُونَهُ من غَيبيّ، على ما لا يَقْدِرُونَ على جُحُودِه وإنكارِه من مَشْهود.

ومن هذا القبيل الْقَسَمُ بالسَّماءِ والطَّارِقِ، على وجُودِ حَافِظٍ له مُشَاهَدَةٌ دَائِمَةٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ خَلَقَها الله، فهو مُراقِبٌ لها دواماً، ويُسَجِّل كُلَّ ما يَصْدُرُ عنها من أنْوَاعِ وأفرادِ سُلُوكٍ إراديّ، جَسَدِيٍّ، أو فكريٍّ، أو قَلْبِيٍّ، أَو نَفْسِي.

والمنَاسبةُ هُنَا هي تَشْبيه الْعِلْمِ الرَّبَّاني الذي لا يَعْزُبُ عَنْهُ مثقال ذَرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، بالسَّماءِ الْمُحِيطَةِ بالأَرْض، وتَشْبِيهُ الرُّقَبَاءِ من الملائكة بالنُّجُومِ الثواقِب.

الأسلوب القرآني في تجزئة العناصر الفكريّة للموضوع الواحد وتوزيعها في دروس التنزيل:

المتدبِّر المتأنّي المتَتَبِّع للموضُوعات القرآنيّة يُلاحظُ أنَّ الموضوع القرآني الواحد، ذا العناصر والأجزاء المتعدّدة، لا يأتي القرآن بكلّ عناصره وأجزائه في دَرْسٍ واحدٍ من دُرُوسِ التنزيل، بل يلاحِظُ أنَّ هذه العناصر والأجزاء المتعدّدة، مفصّلة وموزعة في دروس متعدّدة، ضمن عَدَدٍ من سُور القرآن غالباً، وتأتي على مراحلَ في نجوم التنزيل، وما يأتي من هذه العناصر في درس من دُرُوس التنزيل يأتي مقترناً ببعض الحجج الّتي من شأنها أن تُقْنِع طالب الحق، إذا كانت القضيّة ممّا يمكن إثباته عن طريق العقل أو شواهد الحسّ.

أمّا إذا كانت القضيّة من الأمور الغيبيّة الخبريّة الّتي ليس لها حُجج عقليّةٌ مباشرة، فيأتي الإخبار بها مقترناً بالمؤكّدات الّتي تعَارَفَ الناس على تأكيد أخبارهم بها، وأعلاها الْقَسَم، وأَحْكَمُ الأقسام ما لَه صلَةٌ بكمال المقْسِمِ صاحب الخبر، وله مُنَاسَبَةٌ تَصِلُهُ بالْمُقْسَم عليه، كالقسم الذي تدبّرناه في هذا الدرس من دُروس سورة (الطارق).

وهذا الأسلوب القرآنيُّ الذي نُلاحِظُه من تَتَبُّع دروس التنزيل وفق ترتيب النُّزُولِ، يُعَلِّمُنا مَنْهجاً تَرْبَويًا وتعليميًا ملائماً للطبائع البشريَّة. ويَدُلُّنا ضِمْناً على أنّه هو المنهج الأحكم والأقوم، إذ اختاره الله لنفسه في تعليمه عناصر دينه الذي اصطفاه للناس، وفي تَرْبيته لمتلقّي هذه الدُّرُوس، ومعالجته أصنافهم المختلفة، بالإقناع الذي يتَتَبَّعُ الأَجْزَاءَ والعناصر الفكريّة،

للموضوع الكلّيّ الواحد، فيُحيطُ كلَّ جُزْءٍ منها بما مِنْ شأنه أنْ يوصِلَ الْعُمْقَ الفكريّ والنَّفْسِيَّ إلى الاقتناع، إذا كان الإنْسَانُ المتلَقِّي مُسْتَعِدًا استعداداً إراديًا للتعرّف على الحقّ، وقَبُوله متَىٰ ظَهَر له، والإيمان به متَىٰ اقتنع به.

أمّا إذا كان المتَلَقِّي صاحبَ هوى، أو متصلِّبَ الفِكْر عنْدَ سوابق عقائد، أوْ مستكْبراً، أو ذا علَّةٍ أخرى من عِلَلِ النفس، فإنَّه أحَدُ شَخْصَيْن:

- إمّا أن يكون غَيْر مُسْتَعِدٍّ لقَبُولِ الحقّ والالتزامِ به، ولو ظهر له، وعرَفَ أنَّه حقٌّ.

- وإمَّا أَنْ يكون غَيْر مستعِدٍّ ابتداءً لأنْ يَفْتَح نوافِذَ فكره ونَفْسِه وقلْبه، للتعرُّفِ على الحقِّ، واستقبالِ أنواره، رضاً بما هو فيه من أدناسٍ فكريَّةٍ ونَفْسِيَّةٍ، وتوهُّماً منه أنّ ما هو عليه هو الحقّ، فهو لا يُريد أَنْ يُجْهِدَ ذِهْنَهُ بالتَّفكُّرِ في غَيْرِه، ولا يُريدُ أنْ يغَيِّرَ ما هو عَلَيْهِ من مألوفٍ فكريّ، أَوْ مألْوفٍ نَفْسِيّ، أو مألوفٍ سلوكيّ، مهما كان الأمْرُ الذي يُدْعَىٰ إليه هو الأمْر الذي يجب عقلاً الإيمان به، والْعَمَلُ بمقتضاه.

أمّا الفريق الأول: فهو فريقٌ معانِدٌ مكابِرٌ، أفرادُهُ ساقِطُون في دركةٍ من غضب اللَّهِ عليهم، تجعلُهُمْ في أسفل سافلين من دَرَكاتِ الجحيم.

وأمّا الفريق الآخر: فهو فريقٌ استَحَبَّ العَمَىٰ على الْهُدَىٰ، وطمَسَ بإرادته ما وهبَهُ رَبُّه الخالق الحكيم من أدواتِ إدْرَاكٍ يستطيع أن يَعْرِف بها الحقَّ والباطل، والخير والشرّ، والحسَنَ من السلوك والقبيح منه، والصَّلاَحَ والفساد، والنقْصَ والكمال.

وأفْراد هذا الفريق لا يسْمَحُون للمعرفة الحقّ أن تنفذ إلى أعماق نفوسهم وقلوبهم، فهم رافِضُون للمعرفة، راضون بالجهالة والعمى، لا

معاندون للحقّ بعد معرفته، وهم ساقطون في دركة الضالّين ضلالاً إراديًا، ويحْمِلُون تَبِعَة ضلالهم عن الحق والخير والهدىٰ.

إنَّ أفراد هذا الفريق قَدْ ألْغَوْا من إنسَانيتهم أهَمَّ عناصِرِ كمالِها، فَجَعَلُوا أنفسهم بإراداتهم كالأنعام، بل أضَلَّ سبيلاً.

إنَّ الأنعام لم تَؤْتَ أدواتِ الإدراكِ التي وهبها اللَّهُ للناس، فهي لا تُسْأَلُ عمّا ليْسَ لديها أدواته، أمّا هَؤُلاء فَقَدْ أُوتُوهَا وعطَّلُوها، وأصَرُّوا على تعطيلها، رضاً بما هُمْ فيه من مُشَارَكةِ حيوانِيَّةِ للأنعام.

هذا ما يتَعَلَّقُ بوسائل الإقناع الفكريّ.

العلاج النفسيّ بالترغيب والترهيب:

وأمّا ما يتَعلّقُ بمعالجة النفوس بالترغيب والترهيب، فقضيَّةٌ تَرْبَوِيَّةٌ تُشبه الْغِذَاء اليوميَّ، لذلك نُلاحظ في نجوم التنزيل القرآني، أنّها لاَ تَخْلُو في الغالب من صُوَرِ الترغيب والترهيب، بألوان مختلفة، وأساليب مُتَنَوِّعة، وتصاريفَ عجيبة، لا تَدَعُ احتمالاً مما يُمكِن أن يكون له تأثيرٌ ما إلاّ استخدمته، وهي تُشْبِهُ صُنوفَ المطاعم والمشارب الّتي يتناولُها الناس، والمقصودُ الغذائيُّ واحد.

فيقتطع النَّجم القرآنيُّ المنزّلُ فِكْرَةً من جُمْلَة الأفكار الكليّة عن الثواب والعقاب، أو مَشْهداً مِنْ مَشاهِدِهِ الّتِي سَوْفَ تَحْدُث حتماً، فَيعْرِضُها، تَرْغِيباً فَتَرْهيباً، أو تَرْهيباً فَتَرْغيباً.

وحين نجمع هذه الأفكار الجزْئيّة، وهٰذِهِ الصُّوَرَ والمشاهد، نستَطِيع تَصَوُّرَ كَامِلِ عناصر الموضوع الفِكْرِيِّ، وكامِلَ المشاهد.

فما أبدع القرآن المجيد، وما أبْدَعَ بياناته التعليميَّة والتربويّة.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (٥ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ (٩) فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾.

تمهيد:

في هذا الدّرس أمْرٌ جازمٌ للإنسان المنْكِر للبعث، أو الشّاكّ فيه، تَوَهُّماً منه أنَّ إعادة الموتىٰ إلى الحياة بعْدَ الفناء أَمْرٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ عليه، بأن ينظُر نَظَرَ متفكِّرٍ مُتدَبّرٍ، في حَلْقة من حلقاتِ سِلْسِلَة نَشْأَتِهِ، وهي حَلْقَةُ الماء الدافق، التي قَذَفَها أَبوهُ مَنِيًّا، خارجاً من بين الصُّلْبِ والترائب، ولم يَكُنْ شيئاً مَذْكُوراً قبْلَ أَنْ يَخْلُقَه الله بدءاً من الماء والتراب، حتَّىٰ صَيَّرَهُ رَبُّه غذاءً، ثم صَيَّرَهُ دماً، ثُمَّ صيّره منيًّا في داخل جسم أبيه، ثمّ قَذَفَهُ أَبوه لِيَنْمُوَ إنساناً في مُسْتَودَعِ أُمِّه، حَلَقَاتٌ عَجيباتٌ في سلسلة أطوار خَلْقِه، تُذهِشُ كُلَّ بَاحِثٍ عالمٍ مُتَفَكِّر.

أفيليقُ بإنسانٍ متفكِّرٍ مُتدبّرٍ عاقل، يَنْظُرُ في أطوار نشأته وعجائب خلْقِ الله له، أن يَسْتَبْعِد أو يُنْكِرَ إعادة الله له إلى الحياة، بعد أن يَرْجِع إلى مَا كان عليه، وواضِحٌ في تصوُّراتِ الناس أنّ إعادة خلْقِ الشّيءِ على مثالٍ سبَقَ، أهْوَنُ من بَدْئِه على غير مثالٍ سبق؟!.

إنَّ متفكِّراً مُتأَمِلاً عَاقِلاً لاَ يَليقُ بذكائِه وفَهْمِه وفطْنَته، أن يَسْتَبْعِدَ هذِهِ القضيَّة، ويُخْرِجَها عن دائرة الإمكان.

وإذَا آمَنَ بالرَّبّ الخالِقِ وقُدْرَتِه وحِكْمَتِه، فإنَّ عَلَيْه أن يُثْبِتَ هٰذِهِ القضيَّة ويَنْصُرَهَا بما يَمْلِكُ مِنْ حُجَّةٍ، لاَ أن يَجْحَدها، ويكَذِّبَ الأخبار

الوارِدَةَ بإثباتها، والّتي جاءت بها الأديان الرّبّانيّةُ الحقّ، ونَطَقَ بها بلاغاً عن الله رُسُلُ اللّهِ الصادقون، المؤيّدونَ منه بالآياتِ البيّنات، والمعجزات الباهرات.

● ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أمْرٌ للإنسان المنكر للبعث أو الشّاكّ فيه، بأن يَنْظُر نَظَرَ تَفَكُّر وتَدَبُّرٍ وتحليلٍ للظواهر والبواطن وأسْبَابِهما.

أي: إنْ كان لدى هذا الإنسانِ شُبُهَاتٌ، حَوْلَ كون البعث من الأمور الممكنة الّتي تخضَعُ لسُلْطَانِ قُدْرَةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وتوهُّمَاتٌ تجعلُه يُسْتَبْعِدُ إمكانَ إحياءِ الموتى بعد فناء أجسادهم، فَلْيَنْظُرْ مِمَّ خُلِقَ.

● ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾؟: في هذه العبارة توجيه لهذا الإنسان أنْ يَسْأَلَ نَفْسَهُ هذا السؤال، فهو يَهْدِيهِ إلىٰ التّأمُّل في أصْلِ نَشْأَته، الّتي تُقْنِعُه بقُدْرَةِ اللّهِ على رَجْعِه إلى الحياة بعْدَ إماتَتِه وَإِفْنائِه.

والسؤال عن الأشياء وحقائقها هو مفتاحُ كُلِّ بحْثٍ علمي، وكلُّ إجابة صحيحة تجرّ إلى سؤال جديد، حتّىٰ تنتهيَ سلسلة الأسباب إلى السَّبَبِ الأوّل الفعّال بإرادته على مقتضىٰ حِكْمَته.

﴿مِمَّ﴾ «من» حرْفُ جرّ «مَا» اسم استفهام حذفت الألف منه حسب القاعِدَة الإملائيّة إذا كان متّصلاً بحرف جرٍّ.

● ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾: في هذه العبارة تذكير للإنسان بما يصْلُحُ جواباً على السُّؤَال: [مِمَّ خُلِق]؟

واختِيرَ في هذا التذكير من مَراحِلِ نشأتِه مَرْحَلَةُ الْمَاءِ الدَّافق، وهِيَ مَرْحلةٌ وَسْطَىٰ من مراحل أطوار خَلْقِه، وهذه المرحلةُ معروفَةٌ لكلِّ إنسانٍ بلَغَ الْحُلْم.

الماء الدَّافِق: هو مَنيُّ الذَّكَر الذي يَخرج منْصَبًّا مَقْذوفاً، بموجات من

الصَّبِّ مُتَتابعة، وسَمَّاهُ الله ماءً لأنّه نوع من أنواع المياه ذوات الخلائط المختلفة، وأُطْلِقَ عليه في نصوص أخرى اسْمُهُ المعروف، وهو كلمة «مَنِيّ».

دَافِق: قال الأزهري: الدَّفْقُ في كلام العرب: صَبُّ الماء، وفعل «دَفَقَ» مُتَعَدٍّ.

وقال الفيروزبادي: («دَفَق» مُتَعَدٍّ عند الجمهور) وهذا يدُلُّ على أنَّ بعض أهل اللُّغَةِ يَرَوْن جَوَاز استعماله لازِماً.

وبناءً على اعتبار فِعْلِ «دفَقَ» فعْلاً متعدِّياً ذَهب أكْثَرُ أهل التفسير إلى تأويل كَلِمةِ «دافِقٍ» وجعلها بمعنى: «مَدْفُوق» ويدخل هذا فيما يسمَّىٰ عند علماء المعاني بالمجاز العقلي.

ويرى سيبويه أنه بمعنى «ذي دفق» كقول العرب «لابن» أي: ذو لبن، و «تَامِر» أي: ذو تَمْر.

أمّا على رأي من يرى من اللّغويين أن فعل دفَقَ يستَعْمَلُ مُتَعَدِّياً ويستعمل لازماً أيضاً، فكلمة «دافق» اسم فاعلٍ من اللاَّزم، بمعنى يتَدَفَّق، وبناءَ على هذا فلا حاجة إلى التأويل.

● ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾: أبانَتْ هذه العبارة أنّ الماء الدافق (= المني) الذي يَقْذفَهُ الذكَرُ يَخْرُجُ من مَكانٍ ما بَيْن الصُّلْب والترائب.

الصُّلْبُ: هو العمود الفِقَرِيُّ، وهو الفِقَرات العظميَّةُ في الظَّهْر، من لَدُنِ الكاهِلِ إلىٰ عَجْبِ الذَّنَب. وجمع «صُلْب» أصْلاَب، وأَصْلُب.

الترائب: هي عظام الصَّدْر، وأعْلاَها موضِعُ القلادة من الصَّدْر. الواحدة منها: «تَرِيبَة».

أمّا كون الماء الدافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب، فهو من الْخَفَايا العلميّة الّتي جعَلَها اللّهُ عزّ وجلّ من الكنوز القرآنيَّة المدَّخرة، لتَكُونَ إعجازاً عِلْمِيًّا فيه، يُكْتَشَفُ حين يَتَوَصَّل الباحثون العلميّون إلى حقيقته التكوينيَّة في الواقع.

وقد وقع كثير من المفسّرين الأقْدَمين في الخطأ لدَىٰ تفسير هذه العبارة، فقالوا: من صُلْبِ الرَّجُلِ وتَرائِبِ المرأة، إذْ لم تَكُنِ الحقيقةُ العلميَّةُ معلومةً لهم، حَتَّىٰ يُفَسِّرُوا النَّصَّ بها، وإنْ كان المنهج العملي يقضي بأن نقول فيما نجهل حقيقته: اللّهُ أعلم بمراده. وغايَةُ مَا يمكِنُ قَوْلُه فِيمَا نجهل حَقِيقَتَهُ طَرْحُ الاحتمالات الّتي يُمْكِنُ أن يَدُلَّ عليها النَّصّ دُونَ جَزْمٍ بواحد منها، وتَرْكُ التَّحْدِيد لما تثبتُهُ الحقائق العلميَّةِ الَّتي تُكْتَشَفُ بالوسائل الإنسانية.

فالله عزّ وجلَّ قَدْ جعل في كتابه كُنوزاً إعجازيَّةً ادَّخَرَها للعصور المستقبلة الّتي تأتي بَعْدَ عَصْرِ التنزيل، وهي تَكْتَشَفُ تِباعاً مع تقَدُّمِ المعارف الإنسانيَّة، التي يُلْهِمُ اللّهُ الناسَ البحث عنها، والْوُصُولَ إلى معرفة حقيقتها، ولو كانُوا من الكافرين به.

وهذا من البيان الرَّبَّانيّ الذي ذكره اللّهُ لرسوله في قوله في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

فدَلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ اللّهَ عزَّ وجلّ تَكفَّلَ بِبَيَانِ خَفَايَا الْقُرْآنِ العلميّة على التراخي، الّذِي دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾.

أمَّا مُقَرَّرَاتُ البحث العلميّ حول كَوْنِ الماءِ الدافقِ، وهو مَنِيُّ الذكر، يَخْرُجُ من بين الصُّلْب والترائب، فلا أُريد أن أَتطَفَّلَ على مَا لَيْسَ لي فيه

اختصاص، ولكن أنْقُل ما كتبه باحثٌ عالم مُسْلِمٌ طبيب ذو اختصاص في هذا الفنّ. إنّه الدكتور «محمد علي البار» فهو يقول في كتابه «خلْقُ الإنسان بين الطِّبّ والقرآن» جَزَاه الله خيراً وأحْسَن إليه: ما يلي[1]:

«تقول الآية الكريمة: إنّ الماءَ الدافق يخرج من بين الصُّلْبِ والترائب.

ونحن قد قُلْنَا: إنّ هذا الماء (المنيّ) إنَّما يتكَوَّنُ في الخصْيَة ومُلْحَقَاتها، كما تتكَوَّنُ الْبُيَيْضة في المبيض لدى المرأة.

فكَيْفَ تتطابقُ الحقيقةُ العلميَّة مع الحقيقة القرآنيّة؟

إنّ الخصية والمبيض إنّما يتكَوَّنَانِ من الحدَبَةِ التناسُلِيَّةِ بيْنَ صُلْبِ الجَنِين وترائبه.

والصُّلْبُ هو الْعَمُودُ الفِقَرِيّ. والترائبُ هي الأضلاع (أي: أضلاع الصَّدْر).

وتتكوّن الخصيَةُ والمبيض في هذه المنطقة بالضبط، أي: بين الصُّلْب والترائب. ثم تنزل الخصيَةُ تدريجيًا حتَّى تَصِل إلى كيس الصَّفَن (خارج الجسم) في أواخر الشهر السَّابع من الحمل. بينما ينزل المبيضُ إلى حوض المرأة، ولاَ يَنْزِلُ أسْفَلَ مِنْ ذَلِك.

ومَع هذا فإنّ تغذيَة الخِصْيَةِ والْمَبِيضِ بالدماء والأعْصَاب واللَّمْف تَبْقَىٰ من حيث أصْلُها، أي: من بين الصُّلْب والترائب.

فَشِرْيَانُ الخصية أو المبيضِ يأتي من الشريان الأبْهَر (الأوْرَطي البطني) من بين الصُّلْب والترائب، كما أنَّ وريد الخِصْيَة يَصُبُّ في المنطقة نفسها.

---

[1] (١) انظر الفصل السابع (النطفة) ولا سيما الصفحات من (١١٤) إلى آخر الفصل.

يَصُبُّ الْوَرِيد الأيْسَر في الوريد الكُلَوي الأيْسَر، بينما يَصُبُّ وريد الخصية الأيْمَنِ في الوريد الأجْوَفِ السُّفْلي.

وكذلك أوْرِدَةُ المبِيض وشريانها تَصُبُّ في المنطقة نفسها، أي: بين الصُّلْب والترائب.

والأعْصَابُ الْمُغَذِّيَةُ للخِصْيَةِ أو الْمَبِيض تأتي من المجموعة العصبيّة الموجودة تحْتَ الْمَعِدَةِ من بين الصُّلْب والترائب.

وكذلك الأَوْعِيَةُ اللِّمْفَاويَّةُ تَصُبُّ في المنطقة نفسها، أي: بين الصُّلْب والترائب.

فهَلْ يبقَىٰ بعْدَ هذا شَكٌّ في أنّ الخِصْيَةَ أو الْمَبِيض إنَّما يأخُذَان تَغْذِيتَهُما ودِمَاءَهُمَا وأعْصَابَهُمَا من بَيْنِ الصُّلْبِ والترائب؟؟!

فالحيواناتُ المنويَّةُ لدَىٰ الرَّجُل، أو البييضَة لدى المرأة، إنّما تستقي موادّ تكوينها من بين الصُّلْب والترائب، كما أنّ منْشَأَهَا ومَبْدَأَهَا هو من بَيْن الصُّلْب والترائب.

والآية الكريمة إعجازٌ كامل، إذْ تقول: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ ولَمْ تَقُلْ من الصُّلْب والترائب. فكلمة ﴿بَيۡنِ﴾ ليسَتْ بلاغِيَّةً فحَسْب، وإنَّما تُعْطِي الدِّقَّةَ العلميَّة المتناهِيَة.

أقول:

بعد هذا التحقيقِ العلميّ الّذي يَكْشِفُ التوافُقَ الْكَامِلَ بَيْنَ مَا جاءَ في القرآن المجيد، وما تُقَرِّرُه الدراسَات العلميّة الإنسانيَّة، حول كوْنِ الماء الدافقِ يخْرُج من بين الصُّلْب والترائب، لا بُدَّ أن تدفَعَنا الدوافِعُ الإيمانِيَّة إلى الخضوع الكامل لجلال اللّهِ الرَّبّ الخالِق، والإذْعَانِ الكامِلِ إلَىٰ أنَّ القرآن المجيدَ كلامُ اللّهِ جلَّ جلالُه، وتباركَتْ أسماؤه وصفاته. إنَّهُ لَكِتَابٌ

عزيز لا يأتيه الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا من خَلْفِه، تَنْزِيلٌ من حكيم حميد.

وما على المتدبّرين إلاَّ أنْ يُحْسِنُوا تدبُّره، أو يتَرَيَّثُوا حتَّىٰ يُهَيِّئَ اللَّهُ تَبَارك وتَعَالىٰ وسائِلَ بيانِ ما جَهِلُوا أو خَفِيَ عليهم أو اشتَبه عليهم منه، فقد تَكَفَّلَ جَلَّ وعلا بِبيَانِه، كما ذَكَرَ في قرآنِه.

- ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير يَعُودُ على الرَّبّ الخالق المفهوم ذهناً من عبارة: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ ففِعْلُ «خُلِقَ» المبني على ما لم يُسمَّ فاعله، يَتَضَمَّنُ الدّلالةَ على خالقٍ، وهو الرَّبُّ جلَّ جلاله الذي لا خالِقَ في الوجود للكائنات غيْرُه، ولا رَبَّ سواه.

﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾: أي: على إرْجاعه إلى الحياة بعْدَ إماتَتِه وإفناء جَسَدِه لَقَادِرٌ.

جاءت جملة ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ مؤكَّدَةً بمؤكداتٍ ثلاثة (إنَّ ـ والجملة الإسميّة ـ واللاّم المزحلقة إلى الخبر) وفيها توجيه الاهتمام للمقدور عليه وهو الرّجع بتقديمه على عامله **[قادر]**.

يقال لغة: رَجَعَ بمعنى انْصَرف، على أنّ الفعل لازم.

ويقال لغة: رَجَعَهُ بمعنَىٰ أعاده، على أن الفعل مُتَعَدٍّ.

ويقال في مصْدَرِهما: «رجْعٌ» والمراد بالرَّجْع في الآية الإرجاع على التعدية، من رَجَعَهُ يَرْجِعُهُ رَجْعاً.

وجاءت هذه الآية بمثابة نتيجة عقليّة للدّليل الذي تضمَّنَهُ قَوْلُ الله عزّ وجلّ قَبْلَها: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

أي: هذه الظاهرة الكونيّة المتكرّرة المشهودة تقدّم إقناعاً من وجْهَيْن:

الوجه الأوّل: أنّ الخالق الذي قَدَرَ على خَلْق الإنسان المكتمل في أحْسَنِ تقويم، من مَاءٍ دَافِقٍ يخْرُجُ من بين الصُّلْب والترائب، قادِرٌ على إعادته إلى الحياة بعد إماتته وإفناء جَسَدِه، كيف يَشَاء وعلى ما يَشاءُ، وفي أيِّ زَمَنٍ يشاء، وفي أيّ مكانٍ يَشَاء، فخريطةُ بنائه معلومةٌ ومَوْجُودةٌ لَدَيْه، وَنَوَاتُه مَحْفُوظَةٌ، وفيها كُلُّ صفاته الجسدية والنفسيَّة، وفيها سِجِلُّ حياتِه منذ نَشْأَتِهِ حتَّىٰ مماته.

إنّ هذه الحجَّةَ حُجَّةٌ بُرهانيَّةٌ دافعةٌ لكُلِّ تَوَهُّمَاتِ السُّفَهَاء، ناقصي الْعُقُول، الَّذِين تَغْلِبُهم أهواؤهم وشهواتُهم، فَتَطْغَىٰ على مراكز التَّفْكير السليم لدَيْهم، وعَلَىٰ موازِينِ الْعَقْل الصحيح الذي جَعَلَهُ اللَّهُ في فطرتهم، فتجعلهم يستَبْعِدُون الإعادة إلى الحياة بعد الموت والْفَناء، على الرُّغْمِ من مشاهداتهم المتكرّراتِ لخلْق الإنسان من مَاءٍ دافق.

الوجه الثاني: أنّ من أخبر بحَقِيقَةٍ علميّة، وهي هُنَا كَوْن الماء الدافق يَخْرُجُ من بيْنِ الصُّلْبِ والترائب، على مَا سَبَق تحليله، وهذه الحقيقة لم تُعْرَفْ للباحثين العلميّين إلاَّ بَعْدَ نُزُولِ الخبر بها بما يزيد على ثلاثة عشر قرناً، لا بُدَّ أن يكون صادقاً حتماً في كلِّ ما أخبر به من أخبار عمَّا مضىٰ وعمَّا سيأْتي، ومن الأَخْبَارِ خَبَرُ البعث إلى الحياة بَعْدَ الموت والفناء، وأخبار يوم الدّين المعَدِّ للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وما في الدار الآخرة من مراتب ودرجاتِ جنَّاتِ النّعيم، ومنازل ودركاتِ الجحيم.

إنّه جلَّ جلاله واضِعُ خُطّة التكوين، ومُقَدِّر مقادير كلِّ شيْءٍ، والقادر على خلق ما يَشاء، وهو العليم الحكيم، وهُوَ المخْبِرُ جلَّ جلالُهُ بما قَدَّرَه وقضاه، وسوف يخلقه في الأجل المحدّد له.

وهذا الوجه يفهم ضمناً وباللُّزوم الذهني، من الرَّبط بين الخبر، والأمر بالنظر في قضيَّةٍ أخرى خَبَرِيَّةٍ هي من دقائِقِ الإعجاز العلميّ في

القرآن، ولا يُخبِرُ عنها بصِدْقٍ إلاَّ العليم بها، وهو واضع خُطتها، وخالِقها، وواضِعُ خُطَّةِ الوجود كُلِّهِ، ويخْلُقُ كلَّ شيءٍ في أجَلِه المحدَّدِ له.

- ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾:

﴿تُبْلَى﴾: أي: تُكْشَفُ وَتُظْهَرُ، أَصْلُ الابتلاء الاختبار للكَشْفِ، وَإِذْ حصَل الاختيارُ في الحياة الدنيا، فإنّه لم يَبْقَ في الآخِرَة إلاَّ الكَشْف.

رُوي عن ابن عمر: يُبْدِي اللَّهُ يوم القيامة كُلّ سِرٍّ منها، فيكُونُ زيْناً في الوجوه، وشيناً في الوجوه.

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: جمع «السَّريرَة» وهي ما يكتمه الإنسانُ ويخفيه في نفسه، ومعلُومٌ أنَّ النيَّاتِ من وراء الأعمال سرائر، وثبت في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ:

«إِنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ».

وإنما تُبْلَىٰ السّرائر لأنَّ الحساب يوم الدين يجري على النيَّات من وراء الأعمال.

هـذه الآيـة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ هـي جُزْءُ قَضِيَّة، فأيْـنَ جُزْؤُهـا الآخر؟ هَلْ نجْعَلُه تابعاً للآية السَّابقة: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ فنقْصُرُ من أبعاد هذه الآية، ونَنْقُصُ من دَلاَلَتِها الكليّة، فنَجْعَلُ هذه القُدْرَة خاصَّةً بالإرجاعِ يوْمَ الدِّين، مع أنَّ قُدْرَة اللَّهِ عَامَّةٌ شاملة، وإنْ كانت خُطَّتُهُ عزّ وجلّ قد جَعَلَتِ الإرجاع العامّ لِلْمَوْتَىٰ أمراً مؤجّلاً إلى يوم القيامة، أمّا الإرجاع الخاص فقد أجراه الله عزَّ وجلّ للألوف الذين خَرَجُوا من ديارهم حَذَرَ الموت، إذْ أماتهم ثم أحياهم، وأجراه للعُزَيْر، وجَعَلَهُ آيَةً لعيسَىٰ عليه السَّلام، إذْ كان يُحْيِي الموْتَىٰ بِإذْن الله.

أم نَجْعَلُه مُرْتَبِطاً بما بَعْدَهُ، وهو قول الله عز وجل:

● ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾؟ وبالتأمُّل يَتبَيَّنُ لَنا أنَّ هذا القولَ مُرَتَّبٌ تَرْتِيباً فِكْرِيًّا على قضيَّةٍ تامَّةٍ دَلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾ وَلاَ يُنَاسِبُ أن يكُونَ هذا الترتيب على جُزْءِ قضيَّة.

إذن: فكَيْفَ نَستكْمِلُ القضيّةَ الّتي دَلَّ على جُزْءٍ منها قول الله عزَّ وجَلّ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾؟.

وبقليل من التفكّر نُدرِك أنّ جُزْءَ الْقَضِيَّةِ الآخَر محْذُوفٌ دلَّ عليه السِّبَاقُ والسِّيَاق، وفْقَ الأسلوب القرآني في اعتماد الحذف الملاحَظ ذِهْناً، لكلّ ما يُمْكِنُ إدراكُهُ، ولا يَشْتَبِه فيه المراد.

وباستطاعتنا تقدير المحذوفات الملاحظات ذِهْناً على الوجه التالي:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾ وإنَّهُ لَمَبْعُوثٌ إلى الحياة بَعْدَ موْتِه وفناءِ جَسَدِه، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾ وحين يُجَازَىٰ على ما قَدَّمَ وأَخَّرَ في الحياة الدنيا من كبائر وجرائم ومَعَاصِيَ ومُنْكرات ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ يَوْمَئِذٍ ﴿مِن قُوَّةٖ﴾ مَا، مهما كانت قَلِيلةً ضَئِيلَةً، يَدْفَعُ بها عن نَفْسِه ما اسْتَحقَّ من عقاب اللَّهِ المقضِيِّ عليه به، ولا شيئاً منه ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾ يَنْصُرُهُ، فَيَدْفَعُ عنه الحكْمَ بالعقاب، أو يَدْفَعُ عنه شيئاً من عقاب الله المقضيّ عليه به.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾: «مِنْ» حرف جرٍ زائدٍ جِيء به للتنصيص على إرادة العموم المستغرق لكُلّ أفْراد القوة وعناصرها، ولكلّ ناصِرٍ يُمْكن أَنْ يَنْصُرَه.

مَنْ هٰذَا الذي يَمْلِكُ قُوَّةً يُغَالِبُ بها قُوَّةَ الرَّبّ الخالق، ولا سيما يوم القيامة، يوم تأتي كُلُّ نَفْسٍ لاَ قُوَّةَ لها وَلاَ سُلْطان، تأتي مَغْلُولَةَ الْقُوىٰ، تَتَرَقَّبُ حُكْمَ الْمَلِكِ العزيز القَهَّارِ الدَّيَّان؟!.

يوْمَ يأتي كلُّ إنسَانٍ فَرْداً لا نَصِيرَ لَهُ وَلاَ مُعين، ولاَ خِلٌّ ولا خَدِين، وليس لَهُ شفيعٌ يشْفَعُ لَهُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ ورَضِيَ له قَوْلاً؟!

وقد قال اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾.

وقال تعالى في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (١١ ـ ١٤)

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ (١١) وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ (١٤)﴾.

تمهيد:

في هذا الدَّرس قَسَمٌ بظَاهِرَتَيْنِ كونيَّتَيْن مُترابِطَتَيْنِ، لتحقيق غايَةٍ في الحياة الدنيا على الأرض، تتّصِل بحياة الأحياء فيها، وهما من آياتِ اللَّهِ الكَوْنيَّةِ الدَّالاَّتِ على عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وكمالِ قُدْرَتِه، ورَحمته بعباده، على قضيَّتين فِكْرِيَّتَيْنِ مُترابطَتين أيضاً، ذَواتَيْ مَضْمُونٍ يُؤَكِّدُ خبراً يتعلَّقُ بالْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ، الّتي يتحقَّقُ فيها ثَمَرَةُ الامتحان في الحياة الدّنيا، وهي الحساب، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذُ الجزاء.

الظاهرة الأولَى: السَّمَاءُ القريبة ذَاتُ الرَّجْعِ، وهِيَ غير السَّمَاءِ البعيدة ذات النُّجُوم الثواقب.

● ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١﴾: إنَّ السَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ هي في أَقْوَىٰ الأمارات الهاديات للمتدبّر، الغلافُ الغازيُّ المحيطُ بالأرض، وكُلُّ مَدىً خاضِعٌ لجاذبيَّةِ الأَرْضِ حوْلَها، وقد عرفنا عدّة مرّات أنّ السَّماء تطلقُ لغة على كل ما ارتفع وعلا.

ونتساءل عن السَّبب الداعي لِوَصْفِ هذه السماء القريبة منا بأنَّها ذَاتُ الرَّجْعِ، أي: ذاتُ الإرْجَاع، من فعل: رَجَعَهُ يَرْجِعُهُ رَجْعاً.

■ وتجيبنا الظّاهرة المتكرّرة الّتي أدْركها الأقدمون، وهي ظاهرة تبخّر المياه وتصاعُدِها إلى طبقاتٍ ما من الغلاف الغازي حول الأرض، وهو الذي تتكَوَّن منه السَّمَاءُ القريبةُ الملتصقة بها، ضمن سُنَنٍ وأسبابٍ مُحْكَمةٍ بقضاء الله وقَدَرِه، ويَرْجع إلى الأرض مطراً، ماءً حُلْواً، أو ثَلْجاً، أو بَرَداً، لسُقْيَا الناس والدواب، ولإحياء الأرض بالنباتات المختلفات، من البزور والجذور المنبثة فيها.

فهٰذه السَّمَاءُ القريبةُ ذَاتُ رَجْعٍ لما يَصْعَدُ إليها من الأرض من بخار الماء.

■ وكُلُّ النَّاسِ يُلاحِظُونَ أنَّ أيّ شيءٍ يَصْعَدُ في هذه السماء القريبة من الأرض والملاصقة لها بِقُوَّةٍ مَا، دون أنْ يَنفذ ويكونَ بعيداً عنها في الفضاء الكوني، فلا بُدَّ أنْ يَرْجِعَ إلَىٰ الأرْض متَىٰ تلاشَتِ القوّةُ الّتي جعلته يصْعَدُ فيها، وقد عرف الباحثُون العلميون سبب ذلك، منذ أدركُوا قانون الجاذبيّة بين الأشياء.

فهٰذِه السَّمَاءُ القريبةُ ذَاتُ رَجْعٍ لكُلّ ما يصعد فيها من الأرض، إذْ هو يَرْجِعُ إليها بقُوَّةِ جاذبيّةِ الأرض له، وعَدَمِ إمساكِ هذه السَّمَاءِ له، ما لم

تكن القُوَّةُ الدافعة عظيمةً جدًّا إلى حدٍّ إخراج المقذوف الصاعد من الغلاف الغازي كُلِّه، إلى الْفَرَاغِ الكوني بعيداً عن جاذبيَّة الأرض.

■ وذكر العلماءُ الكونيُّون أنَّ الأشعة الضوئية الّتي تلامِسُ الغلاف الغازيّ حول الأرض، والذي هو السماء القريبة الملاصقة لها، تنشطر إلى ثلاثة أقسام:

(١) فقِسْمٌ قليل يسمح هذا الغلاف بعُبُوره ومروره حتّى يَنْفُذَ منه، ويَصِل الى الأرض إذ فيه نفع وفائدة لِلأرْض ونباتاتها وسُكّانها.

(٢) وقسم آخر يمتصُّه هذا الغلاف، ويستفيد منه حرارة نافعةً، يَصِلُ أثرها إلى الأرض بتصاريفَ مختلفةٍ، ومنها تحريك الرّياح.

(٣) وقسم ثالث تردُّه هذه السّماء، وتُرْجِعه، فلا تَسْمَحُ له بالمرور، ولا تمتصُّه.

وهذا القسم الذي ينالُه الرَّجْعُ قسْمٌ ضارٌ مؤذٍ، وإذا كثُرت نسبته أهْلَك سُكّانَ الأرض ونباتاتها.

وقد أحكم الخالق العظيم بقضائه وقَدَرِه صُنْعَ هذا الغلاف، لإرجاع المؤذيات والضَّارَاتِ من الأشِعَّةِ الكونية القادمة في اتّجاه الأرض إلى الْفَرَاغ الكوني.

وبهذا يَظْهَر لنا نوعٌ من الرَّجْعِ لم يَكُن معروفاً للناس، لَوْلاَ الدّرَاسَاتُ العلميَّة الإنسانيَّةُ الّتي أثْبَتَتْهُ.

فهي إذن ثلاث صُوَر من الرَّجْعِ الّذي تتّصفُ بِهِ السَّمَاءُ القريبة من الأرض، والملاصِقَةُ والمحيطةُ بها، وهو الغلاف الغازي حَوْلها.

■ رجع المطر.

■ ورجع كُلِّ ما يصْعَد من الأرض بقوّة زائدة على قوة جاذبيتها، إليها بعْدَ تلاشي أثر القوّة الدّافعة.

■ ورَجْعُ قِسْمِ الأشعة الكونيّةِ المؤذية والضارَّةِ بعدم السماح لها بالنفوذ في الغلاف الجوّيّ إلى الأرض.

وبهذا يظهر لنا أنّ من الحكمة البيانيّة الرَّبَّانيَّة أنْ يُقْسِمَ رَبُّنا جلّ جلالُه بالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجعِ، لأنَّ صِفَتَها هٰذِه تدلُّ على شمول علم الله كُلَّ شيء، وتدُلُّ على جليل حكْمَتِه، وعظيم قدرته وإتقانِه لخلْقه، وفَيْضِ إنعامه على عبادِهِ سُكَّانِ الأرْض.

وقد بدأ الناس يُفْسِدُونَ بما كَسبُوا هذا الغلاف الحافظ الواقي، ذا الرَّجْع.

الرَّجْعُ: مَصْدَرُ فِعْلِي: «رَجَعَ» اللّازم، و «رجَعَ» المتعدّي.

تقولُ لغة: رَجَعَ هو يَرْجع، وتقول: رَجعتُه أَرْجِعُهُ، رَجْعاً ورُجوعاً ورُجْعَىٰ ورُجْعَاناً ومَرْجِعاً.

ويُقال في لُغَةِ هُذَيلٍ: أرجَعَهُ يُرْجِعُه.

● ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾:

الصَّدْع في اللُّغَة: الشَّقُّ في الشيء الصُّلْب، كالحجَرِ والحائط والزجاج. وكذلك الشَّقُّ في الأرض.

يُقَالُ لغة: صَدَع الشَّيءَ يَصْدَعُهُ صَدْعاً، وصَدَّعَهُ تَصْدِيعاً. فانْصَدَعَ وتَصَدَّعَ. أي: شقَّهُ فانْشَقَ.

ويُطْلَقُ الصَّدْعُ على نباتِ الأرض، لأنَّه يَصْدَعُها، أي: يَشُقُّها لَيَخْرُجَ إلى النُّور والْهَوَاء، فهي تنْصَدِعُ به.

ويقال تَصَدَّعَتِ الأرض بالنباتات، أي: تَشَقَّقَتْ.

ويُقْسِمُ اللّهُ عزّ وجلّ: بالأرض ذات الصَّدْع، لأنّها آيةٌ من آياتِه كالسَّماءِ ذَاتِ الرَّجع.

يَنْزِلُ مَاءُ المطر، فيتَغَلْغَلُ في تراب الأرض، فيَخْتَلِطُ به نَبَاتُ الأرض، فَيَصْدَعُها، ويَنمو أَشْجَاراً ونباتاتٍ مختلفاتٍ، وثمراتٍ نافعاتٍ.

ولا أرى مانعاً من تعميم دلالة كلمة (الصَّدْع) ليشْمَلَ كُلَّ صَدْعٍ نافع، كالتّصَدُّعَاتِ البركانيّة، الّتي يكون بها إخراجُ بَعْضِ كُنُوزِ الأرض ومَعَادِنِها، ويكونُ بها إمْدَادُ قِشْرَةِ الأرض بعناصر جديدة فَقَدَتْها عَبْرَ القرون بما اسْتَهْلَكَتْهُ مِنْها النباتات المختلفات، وكالتَّصَدُّعَاتِ الّتي تَتَفَجَّرُ بها الْعُيُون والْيَنَابيع العظيمة التي تَجْري أنهاراً، وكالتصدّعات التي تَمْتَلِئُ بالمياه فتكون بحاراً أو بُحَيْرات، وكالتَّصَدُّعَاتِ التي تتفجّرُ مِنها ذائباتٌ تَدُلُّ أهل البحث العلمي على ما في باطن الأرض، ومِنْها تَصَدُّعَاتٌ تُشَقُّ بها طُرُقٌ بَرِّيَّةٌ وبَحْرِيَّةٌ للسَّالكين، وتَنْفَصِل بها قارّات، إلى غير ذلك.

غيْرَ أنَّ المناسَبَةَ بيْنَ الْقَسَم بالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ، والْقَسَمِ بالأرض ذَاتِ الصَّدْع تُوجِّهُ النّظَر بالدرجة الأولى، للسُّقيا التي تحدُث بالرَّجْعِ الذي هو المطر الذي نَتَجَ عَنْ تَجَمُّعِ بخار الماء سُحُباً، وللصَّدْع الذي يُحْدِثُه النبات في الأرض عند بُروزِه من باطن الأرض إلى سطحها.

وبَعْدَ الْقَسَم بهاتَيْنِ الظّاهِرَتين من آياتِ الله عزَّ وجلَّ في كونه، ذكَرَ الله جلَّ جلالُهُ الْمُقْسَمَ عليه، فقال تعالى:

- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾:

﴿إِنَّهُ﴾: الضمير يَعودُ على قول الله تعالى في الدرس الأول: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ وقوله تعالى في الدرس الثاني: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ وبالأخرىٰ يَعُودُ على ما يُفْهَمُ مِنْهُما مِنْ أَنَّ الْبَعْثَ بَعْدَ الْموتِ وَالفناءِ حقٌّ، ليَوْمِ الدِّينِ الذي يَكُون به الْحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، والجزاءُ

بِالثَّوابِ أو بالعقاب، في الجنّة دار المتقين، أو في النار دارِ عذَابِ المجرمين الكافرين الأبديّ، وتَعْذِيب العصاة المذنِبينَ على مقَادِيرِ استِحْقَاقاتهم للجزاء بالعدل، لتطهيرهم قبل نَقْلِهِمْ إلى الجنَّةِ دار نعيم المؤمنين، إذا كَانُوا مؤمنين بالله.

﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾: أَصْلُ الْفَصْل الْبُعْدُ بَيْنَ شيْئَين، والحاجِزُ بَيْنَ شيئَيْن، وقَطْعُ الشيء إلى شَيْئَيْنِ وإحْدَاثُ بُعْدٍ بينهما.

واسْتُعْمل الْفَصْلُ بمعنى القضاء والْحُكْم، ومنه: يَوْمُ الْفَصْل، أي: يَوْمُ الْفَصْلِ بَيْنَ العِبَاد، فالمتقونَ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ بحَسَبِ مراتبهم ودرجاتهم، ومُسْتَحِقُّوا الْعَذَابِ يُفْصَل بَيْنَهُمْ بحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ ودَرَكاتهم.

ويُقَالُ لُغَةً: فَصَلَ الأَمْرَ، أي: قضاه وأَبْرَمَهُ وَبَتَّهُ.

والآيات المفَصَّلاَتُ هِيَ ذَوَاتُ البياناتِ الكاشفاتِ لأجزاءِ الموضوع وعناصِرِه.

وإذا كانَ هذا القوْلُ فَصْلاً فَهُو بَيِّنٌ واضِحٌ، لَيْسَ بغامضٍ وَلا بملتبسٍ بغيره، وهو القولُ القاطع الفاصل الْمُبْرَم.

ولمّا كانت عبارة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ رُبَّمَا تُحْمَلُ دَلاَلَتُها علَىٰ مُجَرَّدِ البيان والوضوح وعدم الْتِبَاسِ المضمون الفكريّ بغيره، دُونَ الدّلاَلَة على جِدِّيَّة إرادة التَّنفِيذِ اقتضَتِ الحكمةُ البيانيَّةُ إثْبَاتَ أَنَّ هذا الْقَوْلَ لَيْسَ بِالْهَزْلِ فقال الله تعالى:

- ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾: أي: هُو جِدٌّ وحقّ، ولَيْسَ قولاً هَزْلِيًّا تَمْثِيلِيًّا، للتَّصْوِير الأَدَبِيّ، أو لمجرّد التخويف والإرهاب، دُونَ قَصْدِ وقُوع المضْمُونِ فِعْلاً.

الْهَزْل في اللّغة: ضِدُّ الجدّ، أي: فهٰذا القول جِدٌّ يُبَيِّنُ قضيَّةً حَقِيقيَّةً

سَوْفَ تَقَعُ حَتْماً لا مَحَالة، متىٰ حَانَ أجَلُ وقوعها المقرّر بقضاء اللَّهِ وقَدَرِه.

أمّا المناسبةُ بَيْنَ الْمُقْسَم به والْمُقْسَمِ عليه فَمِنْ وَجْهَيْن: لفظيّة ومعنوية:

● **أمّا اللّفظيّة:** فَمُلاَحَظَةٌ في كَلِمَةِ: ﴿ٱلرَّجْعِ﴾ إذْ هِيَ مُنَاسِبَةٌ للمُقْسَم عليه وهو الرُّجوع إلى الحياة بَعْدَ الموت وفناءِ الأجساد. ومُلاَحظةٌ في كَلِمَةِ ﴿ٱلصَّدْعِ﴾ وهو الشّقّ، إذ هو مُنَاسبٌ للمُقْسَمِ عليه، فالمبْعُوثون إلَىٰ يَوْمِ الدِّين تَتَشقَّقُ الأرضَ عنهم فيخْرُجُون سِرَاعاً قائمين، ويَنْبُتُونَ في الأرض كالنَّبَاتِ.

● **وأمّا المعنويّة:** فَمُلاَحَظَةٌ فيما يَتَضَمَّنُهُ إحْيَاءُ الأرض الميّتة بِمَا يَنْزِل من السماء من ماء، ومَا يكونُ لدى إحياء الموتى من إنباتِهم بماء خاصٍّ ينزل من السّماء إلى الأرض، ويُضَاف إلى هذا أنّ ذا الفكر البصير يقيس البعْثَ غير المشهود على إحياء النبات المتكرّر في عالَم الشهود، وهذه من الحجج القرآنيّة القويّةِ على البعث.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٥ ـ ١٧)

قال الله عز وجلّ:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ⑮ وَأَكِيدُ كَيْدًا ⑯ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ⑰﴾.

هٰذَا هو الدرس الأخير من دُرُوس السورة. وهو يشتمل على بيان الموقف الذي وصل إليه كبراء مشركي مكة إبّان نزول هذه السورة، وهو

موقف الكَيْدِ الشديد ضدّ الرَّسُول ﷺ، وضدّ رسالته، وضدّ الّذين آمَنُوا به واتبعوه.

ويشتمل على بيان التدبير الرَّبَّاني لاحباط كيْدِهم، وبيان الموقف الذي ينبغي للرسُول ﷺ أن يتّخذه هو والذين آمنوا به واتّبعوه في تلك المرحلة من تاريخ دعوته.

● ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾: الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ يَعُودُ على من اشتَمَلَتِ السُّورَةُ على تأكيد أنباء يوم الدّين لهم بالْقَسَم بآيَاتٍ من آياتِ اللَّهِ في كونهم، لأنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين، وقَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ طَوْرِ اتّخاذِ المكَايد وتَدْبِيرِها، ضدَّ الرسُولِ ودَعْوَتِه وضِدَّ الّذين آمنوا به واتَّبَعُوه.

إِنَّهُمْ لَمْ يُذْكَرُوا في السُّورَةِ صَراحَةً، لَكِنَّ آياتِهَا ظَاهِرَةٌ في الدَّلَالَة عليهم.

ومن الذي يُدَبِّرُ المكايِدَ ضِدَّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِهِ غَيْرُ الكافرين بالرَّسُول ورسالته، والمكذبين بنَبَأِ يَوْمِ الدِّين وما فيه، وهُمْ أئمة الكفر والشِّرْكِ في مكّة إبّان نزول السّورة؟!

إنّ الطّوْر الذي وصل إليه هؤلاء هو العمل المتتابع في تَدْبير المكايد الّتي يَسْتَطِيعُونَ إعدادها، بَعْدَ أَنْ يَئِسُوا من إيقاف امتداد دعوة الرّسُولِ ﷺ، وإيقاف انتشار الإسلام، وتكاثُرِ الداخلين فيه بإيمان صادق، بالوسائل الخفيفة الدعائيّة والتنفيرية من الاستجابة لدعوته، والاضطهاديَّة لضعفاء المؤمنين، وبوسائل الاستهزاء والسُّخْرِيَّة، والاتهامات الباطلات، وصناعَةِ الأكاذيب.

الكَيْدُ فِي اللُّغَة: يُسْتَعْمَل للدلالة على التدبير الخفيّ أو الظاهر، بحقٍّ أو بباطل، وفيه مَكْرُوه لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه. وللدَّلالة عَلَىٰ الْحَرْبِ وإعْداد وسائلها. وللدّلالة على الاحتيال والاجتهاد. وللدَّلالَةِ على كُلِّ تَدْبِيرٍ يُحَقِّقُ لِصَاحِبِهِ النَّصْرَ أو النَّجاة.

فمادَّة كَادَ يكِيدُ كيْداً تَدُورُ حَوْل اتّخاذ أَعْمَالٍ وَتَدْبيراتٍ تُوقِعُ الْمَقْصُودِين بالكيد بما يكْرَهون، حتَّىٰ الهلاك.

ويَكُونُ الكَيْدُ في الشَّرّ، مثل كَيْدِ الكافِرينَ ضِدَّ الحقّ وضِدَّ الّذين آمنوا به. ويكون في الخير، مثل كَيْدِ المؤمنِينَ لإحباط مكايدِ الْكافِرين، ورَدِّ سِهَامِهِمْ إلى نحورهم.

ومن الكيد في الخير كَيْدُ الرَّبّ جلّ جلاله، لِنُصْرَةِ رسُوله، ونُصْرَةِ المؤمنين، ونُصْرَةِ دَينه، وإعْلَاءِ كَلِمَتِه في الأَرْض.

إنّ الكافرين يَكِيدُونَ في الشّرّ، لأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بمكايدهم لإدْحَاضِ الحقّ، وإقامة الباطل في الأرض.

وإنّ المؤمنين يَكيدُونَ في الخير، لأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بمكايِدهم الشريفة، لإحقاق الحقّ ونُصْرَته، وإبطال الباطل وإزهاقه.

ودَلَّ فعل المضارع ﴿يَكِيدُونَ﴾ على أنّ قَادةَ مشركي مكَّة إبَّانَ نُزول السُّورة، كانُوا يَعْمَلُونَ بَحَرَكَةٍ تَتَابُعِيَّةٍ في تدبير المكايد العظيمة ضدّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِه، ففِعْلُ المضارع يَدُلُّ على التجدُّد والْعَمَلِ المتتابع، وَجاء تأكيده بالمصْدَرِ الّذي هو مفعولٌ مُطْلَقٌ، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ للدَّلَالَةِ على عِظَمِ الكيد الّذي يَكِيدُونه، أي: يَكِيدونَ كَيْداً كثيراً وعظيماً وَذَا خَطَرٍ كبير.

وأبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلّ أنَّ هذا الطَّوْرَ الّذي وَصَلَ إليه قادَةُ أَهْلِ الكُفْرِ والشِّرْك في مَكَّة، يُحْبِطُه اللَّهُ بكَيْدٍ متتابعٍ يَجْعَلُه مَرْدُوداً عَلَىٰ مُدبِّرِيه، فقال تبارَكَ وتَعَالى:

- ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾: ومَعْلُومُ بالبداهَةِ أنَّ كيْد الله غالِبٌ ومَحْبِطٌ كَيْدَ الْكافِرِينَ، أي: وَأَكِيدُ عَلىٰ سَبِيلِ التَّتابُعِ كَيْداً أُحْبِطُ بِهِ وأفسِدُ كَيْدَ الْكَفِرِينَ، أعداءِ رسُولي والّذِينَ آمَنُوا به واتبعوه، وأعداء ديني الذي حمَّلْتُ رَسُولي والذي آمنوا به أَعْبَاءَ تبليغه للناس، فَأَنَا أتابع كلَّ حركةِ كَيدٍ شديد منهم بكَيْدٍ شَدِيدٍ غالب له.

والْغَرَضُ مِنْ هذا البيانِ طَمْأَنَةُ الرَّسُولِ والذين آمَنُوا بِهِ، بأنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُمْ وَنَاصِرُهم وَمُحْبِطُ مَكَايِد أعدائِهِمْ، وإلْقَاءُ الْوَهْنِ والضَّعْفِ في قُلُوب أئمَّةِ المشركينَ وأنصارِهم وجُنُودِهم، إذْ لاَ بُدَّ أنْ يُؤَثِّر في أعْمَاقِ قُلوبهم أنَّ اللَّهَ خَاذِلُهُمْ، ومُحْبِط مكايِدهم، نظراً إلى أَنَّ كُفْرَهُمْ كُفْرٌ عِنَادِيٌّ جُحُودِيٌّ، ولَيْسَ كُفْرَ مَنْ يُؤْمِنُ بأَنَّهُ علَىٰ حَقٍّ، فقد عَلِمُوا بأنّهم على باطل، ولكنَّهُمْ مُصِرُّون على باطلهم اتّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وإيثاراً للحياة الدنيا وما فيها.

فهم إذَنْ يُدْرِكُونَ من هٰذه العبارة معنى التَّهديد والْوَعِيد بأنَّهم مَغْلُوبُون.

ودلَّ قول الله عزّ وجل: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ في مُقَابِلِ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ على أنّه جَلَّتْ حِكْمَتُه يُعَامِلُ عبادَه في حياة الابْتِلاء هٰذه التي يَعيشُونها ضِمْنَ قانُونِ قُدْرَاتِهم الممنُوحَاتِ لَهُمْ في الحياة الدُّنيا، ولا يُعَامِلُهُمْ بمُقْتَضَىٰ قُدْرَتِه الكليّة.

إنَّ قُدْرَة اللَّهِ الكليَّةَ، لاَ تَحتَاجُ منه تبارَكَ وتَعالَىٰ أَنْ يَكيد كيْداً كبيراً، ضدّ كيد أعداء رسُولِه ودينه وأوليائه المؤمنين، إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يَقُولَ لَهُ: «كُنْ» فَهُو «يَكُون» بأمْرِ التكوين، ولو كَانَ أمْرُ التكوين مُوَجَّهاً لِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْض، أو لإزالتهما من الوجود.

لكِنَّ للَّهِ عزّ وجلّ سُنَناً في كونه يُعَامِلُ عبادَهُ بمقتضاها، وهم في حياة الابْتِلاء.

فَيُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرين ويُحْبِطُهُ بمُقْتَضَاها، ويَكيدُ لصالح أوليائه وأنصاره وأحْبَابه بمقتضاهَا، ويَنْصُرُهم بمُقْتَضَاهَا، ولا يَتَدَخَّلُ بالخوارِق العظمىٰ إلاَّ نادِراً، وبِقَدْرٍ مَحْدُودٍ.

وحين أَيَّدَ اللَّهُ المؤمنِين في غَزْوَةِ بَدْرٍ بألافٍ من الملائكة، أَبَانَ جلَّ جَلاَلَهُ أنَّهُ لم يَجْعَلْ ذَلِكَ إلاَّ بُشْرَىٰ لهم، ولتطمئِنَّ قُلُوبهم به، وليَقْطَع طَرَفاً

من الّذِينَ كَفَرُوا، أوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبين، ولَمْ يُعْطِ اللَّهُ الْمَلاَئِكَة صَلاحِيَّةً أكْثَرَ من ذَلِكَ، ولَوْ أعْطَاهم لأبادُوا الكافِرين بأقْصَرِ زمَنٍ، فقالَ اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في معرض الحديث عن الملائكة الّذين أمَدَّ الله بهم المؤمنين في بدر، وخطاباً للمؤمنين:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

وبعد أن طَمْأنَ اللَّهُ رَسُولَهُ والذين آمنوا به واتَّبَعوه بأنَّهم مؤيَّدُون بنَصْرِه، أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ ويُلْحَقُ به الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعوه، بأنْ يُمَهِّلَ الْكَافِرين فلا يقاوِمَهم، ولا يحارِبَهم، ولا يتّخِذَ الوسائل لمقاومتهم ومحاربتهم، بل يَصْبِر ولْيَضْبط نَفْسه، حتَّى يأذن اللَّهُ له، ومن خلال سلاسِل الأحداثِ، يَكْتَسِبُ المؤمِنُون خِبْرَاتٍ بشَأْنِ المراحِلِ الَّتِي تَرْتَقِي فيها تَدْبيراتُهم، للْوُصول إلى مرحلة المواجهة الحربيَّة الظافرة، ضمن الأنظمة السَّبَبِيَّة، لأطوار المجتمعات الْبَشَرِيَّة.

فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ خِطَاباً لِرَسُوله:

- ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾:

مَهِّلْ وأَمْهِلْ: أَنْظِرْ، وتَرَفَّقْ، وأجِّلْ. أي فأنْظِرِ الكافِرينَ، وتَرَفَّقْ بهم، وأَجِّلْهُمْ.

جاء توجيه الأَمْرِ بالإنظار والترفُّق والتأجيل بالفعل المضَعَّفِ والفِعْل المهموز، توكيداً وتحْذِيراً من المخالفة.

رُوَيْداً: بمعنى أمْهِلْ، وفي هذِهِ العِبَارة زيادةٌ في التوكيد والتحذيرِ من المخالفة.

ثلاثُ عِبَارَاتٍ مُتَتابِعَاتٍ والمعنى واحد، وفي ظَنِّي أَنَّنا لاَ نَجِدُ في القرآن المجيد تأكيداً على أَمْرٍ واحِدٍ مثلَ هذا التأكيد الّذي يوحي بالتحذير من المخالفة، والغرضُ تحذيرُ المؤمنين من التَّعَجُّل في اتّخاذ وسائلَ

انتقاميَّةٍ، توقِعُهُمْ في ورطاتٍ يكُونُونَ فيها من الفاشلين، أو الخائبين، وإلزامهم بالصّبر، انتظاراً لما يقضيه الله من أمْر، فالوقت إبّان نزول السُّورة لا يَصِحُّ فيه القيام بمواجهاتٍ انتقاميَّة، إذِ المسلمون يَوْمَئِذٍ لاَ يَمْلِكُونَ من سُنَن الأسْباب القدرات الكافيات لمواجهة قُوىٰ مشركي مكة، وخَوْضُ المسلمين حِينئِذٍ معارك قتالية معهم عَمَلِيَّة انتحاريَّة لم يأذن الله بها.

كلمة ﴿رُوَيۡدًۢا﴾ هي مُصَغَّر «إِزْواد» مصدر فعلِ «أَرْوَد يُرْوِدُ إِرْوَاداً» وهو بمعنى «أَمْهَلَ».

فكلمة ﴿رُوَيۡدًۢا﴾ بمعنى «أمْهِلْ» وهي مفعولٌ مطلقٌ لفعل محذوف تقديرُه: أَرْوِدْ رُوَيداً، أي: أمْهِلْ إمْهَالاً.

تقول: رُوَيداً بَكْراً، أي: أمْهِلْ بَكْراً إمْهالاً. صَغَّرُوا الْمَصْدرَ بعد حَذْفِ زَوَائِدِه، وأقامُوهُ مقام فِعْلِه.

بهذه الآية تنتهي السورة:

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًۢا ١٧﴾.

فما أعجب هذا الإلْزَامَ بالصَّبْرِ على الكافرين، وإنظارِهم والترفُّق بهم، وعَدَمِ اتّخاذ وسائِلِ عُنْفٍ وشدَّةٍ وانتقامٍ معهم، على الرُّغْمِ من شِدَّة أذاهم ومُعَاداتِهِم للرسول ودعوته، واضطهادهم لضُعَفَاء المؤمنين.

إنَّ حكمة الله عزَّ وجلَّ قَضَتْ بأن لا تكون عُمْدَةُ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ على الخوارق والمعجزات، وإنّما شَاءَتْ حِكْمَتُه أن تكون عُمْدَتُهم على الأسباب الكونيَّة الخاضِعَةِ لسُنَنِ اللَّهِ الدّائمة، المصْحُوبَةِ بالمعونات المحدُودَات التي يَجْعَلُها اللَّهُ للمؤمنين بمقتضىٰ هٰذِه السُّنَن، وأعطَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الّذين آمنوا الوعْدَ بأنْ يُمِدَّهُمْ بها.

وقَدْ تَمَّ تَدَبُّر السُّورة بما فتح الله به،
وبما أمَدَّ من معونة وتوفيق.

* * *

ملاحق لسورة الطارق

الملحق الأوّل: مستخرجات بلاغية من السُّورة.

الملحق الثاني: حول بَيَانِ بعْضِ أَطْوار خَلْقِ الإنسانِ في القرآن.

الملحق الثالث: حول كون الإنسان مُرَاقَباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر.

الملحق الرابع: حول كلمة يوم في القرآن مراداً بها يومُ الحياة الأخرى.

(٩)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغيّة من السّورة

في سورة (الطارق) اختيارات بلاغية عَدِيدَة أذكر منها ما يلي:

(١) الْقَسَمُ بآيات رَبَّانيَّةٍ مشْهُودَة على حقيقة غَيْبيَّة خَبريّة غَيْرِ مُشْهُودة لتَوْكيدها، وهذا في الآيات من (١ ـ ٤).

والْقَسَمُ بآيَات رَبَّانِيَّةٍ مَشْهُودَةٍ، لتَوْكيد أنَّ نَبأَ يَوْمِ الدِّين للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، حقٌّ وصِدْقٌ، وجِدٌّ لا هَزْل فيه ولاَ عَبَث ولاَ تَهْوِيل، وهذا في الآيات من (١١ ـ ١٤).

والمقصودُونَ بإيراد كُلٍّ من الْقَسَمَيْن، الكافِرُونَ والشّاكُّون بحقائق يوم الدّين، وما يقتضيه ذلك اليوم من مُرَاقَبةٍ وتسجيلٍ غَيْبِيَّيْن في الحياة الدّنيا.

(٢) إيرادُ دليل الحسِّ ذي اللَّوَازِمِ العقليَّةِ القطعيّة، التي تُثْبت صِدْق الخبر، وهو ما يُسَمَّىٰ عند علماء البديع «المذهَبَ الْكَلَامِيّ» أي: على طريقة علماء الكلام في إيراد الأدلَّة والبراهين العقليّة، لإثبات قضاياهم.

وهذا في الآيات من (٥ ـ ٨).

(٣) التوكيد بأدوات التوكيد وأساليبه في اللّغة العربية:

أ ـ بالنفي والاستثناء المفيدين للتوكيد والحصر، في ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾: أي: ما كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عليها حَافظ.

ب ـ بالمؤكّدَات: (إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللاّم المزحلقة) في: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ وفي: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾.

وبالمؤكّدات: (إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ والْمَفْعُول المطلق) في: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾.

جـ ـ التوكيد مع التَّنْصِيصِ على العموم الشامل، بحَرْف الجرّ الزائد «مِنْ» في: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾.

د ـ التوكيد بعبارات متتابعاتٍ ذواتِ دلالَةٍ واحدة في: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

(٤) الإيجاز بالحذف في: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾:

والتقدير: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ وَإِنَّهُ لمبعوثٌ إلَىٰ الحياة بَعْدَ مَوْتِه وفناءِ جَسَدِه للحساب، وفَصْل القضاء وتَنفيذ الجزاء ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ﴾ يَوْمَ يُقْضَىٰ عليه بالعذاب ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ تَدْفَعُ عَنْهُ شيئاً من قضاء اللَّهِ وَتَنْفِيذِه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يَنْصُرُهُ بأيِّ شَيْءٍ، فيخفف عنه شيئاً من القضاء، أو من الجزاء.

* * *

(١٠)

الملحق الثاني

حول بيان بعضِ أطوَارِ خَلْقِ الإنسانِ في القرآن

ضِمْن مَنْهجِ القرآن في تجزئة الأفكار حول موضوع واحد، وتوزيع البيانَاتِ حوْلَها علَى نُصوص متعدِّدةٍ منه، أتابعُ تدبُّر النُّصُوص الواردة بشأن توجيه الفكر للنَّظَر في أطوار خَلْقِ الإنسان في القرآن.

النصّ الأوّل:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) مُبَيِّناً ما جاء في صُحُفِ مُوسَى وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وفَّى، بشأنِ خلْق الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرِ والأُنْثَى، من نُطْفَةِ الرَّجُلِ إذا قَذَفَهَا سالكةً طريقَها إلى رحِمِ المرْأة:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

فأَوْرَدَ اللَّهُ عزَّ وجلّ هٰذا البيانَ حِكَايَةً لِمَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَهُ في صُحُفِ إبراهيمَ وموسَىٰ عليهما السلام.

وفي هذا البيان توجيه للتفكُّر في قَضِيَّةٍ واحدة من قضايا الْخَلْقِ الرَّبَّاني من أطوار خَلْق الإنسان، وهي أنَّ الذكر والأنثَىٰ من المواليد يتكَوَّنَانِ من نُطْفَةِ الرَّجل، بَعْدَ أَنْ تُمْنَىٰ في مهْبَلِ المرأةِ، إذ تأخذ النطفة طريقها للقاحِ البُيَيْضَةِ التي يخرجها مَبِيض المرأة بعد الانتهاء من الدورة الشهريَّة، وفي الأواسط ما بين بَدْءِ الحيْضِ حتَّى آخر مُدَّةِ الطُّهر.

وهذه حقيقة أثبتها العلم المعاصر، فنُطْفَةُ الرَّجُلِ هي الحاملة للقاحات الذكورة والأنوثة، وَبُيَيْضَةُ المرأةِ حياديَّة، صالحة لاستقبال لِقَاحِ الذَّكر من نطفَةِ الرَّجل، أو لِقَاحِ الأنثى، وهذا اللِّقَاحُ حُيَيْوِينٌ صَغِيرٌ جدًّا، مُذَكَّرٌ أَوْ مُؤَنَّث.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

فجاء فيه بَيانُ أنّ الإنسان مخلوقٌ من مَنِيٍّ يُمْنَىٰ، وبعْدَه يُطوِّرُهُ اللَّهُ

إلىٰ عَلَقَةٍ فَخَلْقٍ سَوِي، وأَنّ مَنِيَّ الذَّكَرِ يَخْلُقُ الله منهُ الذَّكَرَ والأُنْثَىٰ، بأسْلُوبِ الاستفهام لانتزاعِ الجواب من المقصود بالخطاب، ولإقناعه بأنّ يَوْمَ الدين حقٌّ، إذْ إنكارُه قائم على استبعاد الإحياء بعْدَ الإماتة والإفْناءِ، لكنّ الدَّلِيلَ العقليَّ يُثْبتُ أنَّ الّذِي بدَأ خَلْقَ الإنْسَانِ من مَنِيٍّ يُمْنَىٰ قَادِرٌ علىٰ أنْ يُحْيِيَ الموتَىٰ.

وأضافَ البيانُ هُنَا أنَّ هٰذهِ النُّطفة مَرَّتْ عَلَيْها مُدَّةٌ بَعْدَ التلقيح فَكَانَتْ عَلَقَةً، فتبِعَها خَلْقٌ فَتَسْوِيَة. وأكّدَ أنَّ خلْقَ الذَّكر والأُنْثَىٰ يكون من النُّطْفَة الّتي يَقْذِفُها الذكر.

النّصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) خطاباً للناس:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ أنَّ النطفة الْحَاوِيَة لِلِّقَاحِ مَوْجودة ضِمْن مَاءٍ مَهِينٍ، أي: ضِمْنَ ماءٍ قليلٍ حَقِيرٍ ضعيفٍ.

وأضاف أيْضاً من أجزاء الموضوع أنّ الله عزّ وجلّ جعَلَهُ في قرارٍ مَكينٍ، إلَىٰ قَدَرٍ مُحَدَّدٍ في خُطَّةِ التكوين، أي: جعله بعد اللّقاح عَالِقاً في مكان استقرارٍ ملائم لحفظه في رَحِمِ الأُمّ، حَتَّىٰ يَسْتَكْمِلَ نُضْجَه، ويولَدَ طِفْلاً مُسْتَوْفياً كَامِلَ شُرُوط الحياة على الأرض.

كُلُّ ذَلِكَ ضِمْنَ مقَادِيرَ تَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ يَتعَلَّقُ به.

أمَّا الْغَرَضُ الدينيُّ من هذا البيان حول الواقع التكويني، فَهُوَ ربْطُ الظّاهِرَاتِ الكونية بدَلالاَتها الهاديات إلى صفات اللّهِ الجليلة، والهادياتِ

أيضاً إلىٰ أنَّ الخالِقَ الَّذِي قَدَرَ على خَلْقِهَا دُون مثالٍ سَبَقَ، قادِرٌ على خَلْقِ أمثالِها، وقادِرٌ على إعادتها إلى الوجود بَعْدَ العدم، وعلى إعادتها إلى الحياة بعْدَ إماتتها وإفنائها، وبذلك تندفع أوْهَامُ المكذِّبين بيَوْمِ الدِّين، إذا كان تكذيبُهُم قائماً على شُبَهات.

النصّ الرابع:

قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) خطاباً للإنسان المكذّب بيَوْمِ الدّين استبعاداً لقضيَّة الإحياء بَعْدَ الموت:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾.

فأضاف هذا البيانُ وصْفَيْنِ لِلْمَاءِ الَّذِي يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْهُ الإنسان:

الوصف الأول: أنَّهُ مَاءٌ دَافِقٌ، أي: يَخْرُجُ دَفْقاً، على طريقَةِ الْقَذْفِ الْمَوجِيِّ المتَدَافع، لا على طريقة السَّيَلان، ولا على طَريقة الرَّشْح.

الوصف الثاني: أنَّهُ يَخرج من بين الصلب والترائب.

وقد سبق خلال تدبّر هذه السورة شَرْحُ هٰذه الحقيقة العلمية الّتي أثبتَتْها الدراسات العلميّة المعاصرة، فأبانت التطابق بين البيان القرآني، والحقائق العلميَّة حول هذا الموضوع.

وقد جاء أسْلُوبُ البيان في هذا النّص على طريقة الأمْر الجازم الحازم، بالنظر في هذه الظاهرة من ظواهر الخلْق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ والمرادُ النَّظَرُ التفكُّرِيُّ، بعد أنْ تَدَرَّجَ البيان، من مُجَرَّدِ الخبر حكايةً لما أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ في الكتب السابقة، إلى لَفْتِ النظر بطَرِيقَةِ الاسْتِفْهَام الرَّقيق دُونَ مُوَاجهة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ فإلى الشَّدِّ إلىٰ التأَمُّلِ في هٰذِهِ الظاهِرَة، بطَرِيقةِ الاسْتِفْهَام الْعَنِيفِ الذي فيه معنى التلويم، مع المواجَهَةِ بالخطاب: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) خطاباً للمكذبين للرَّسُول ﷺ، والمكذبين بيوم الدين، بَعْدَ تقديم مَشْهَدٍ مُقْتَطَعٍ من مشاهد عذابهم في الجحيم يوم الدّين:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

فأضاف هذا النّصُّ أنَّ المنِيَّ الَّذِي يُمْنِيه النَّاسُ شهوةً، وتُخْلَقُ منه السُّلاَلاَتُ البشرِيَّة، لاَ يَخْلُقُ الناسُ منه شيئاً، بل اللَّهُ عزَّ وجلَّ هو الخالق له.

وفي التوجيه الاستفهاميّ في هذا النّصّ معنَىٰ التوبيخ والتقريع، ومعنى التعجيز والتحدِّي.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (السّجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) متحدّثاً عن بعض صفاته جلَّ جلاله، وبعض ظواهر خلقه:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

جاء هذا النَّصُّ خِتاماً للنصوص القرآنِيَّةِ التي تحدَّثَتْ عن بعض أطوار خَلْقِ الإنسان، بَعْدَ أنْ وَصَلَ الْبَيان القرآنِيُّ إلى ذِرْوَة الإقناعِ الكلاميِّ الحارِّ العنيف، فكان من الحكمة خَتْمُ الموضوع ببيانٍ خَبَرِيٍّ هادِئٍ بارِدٍ شَبِيهٍ بالبيان الذي بدأت به النُّصوص بحَسَب تَرْتيبِ النُّزُول.

وأضاف هذا النصُّ بيان أَنَّ الجرْثُومَةَ الصُّغْرىٰ التي يُنْشِئُ الله عزّ وجلّ

الإنسانَ منها، بَعْدَ أن بَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ الأول من طين (ماءٍ وَتراب) وبعد أن خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَه، يَسْتَلُّهَا اللَّهُ جلَّ جلالُهُ اسْتِلَالاً مِنْ مَاءٍ مَهِين.

أي: تُنْزَعُ انْتِزَاعاً بِرِفْقٍ من ماءٍ مَهِينٍ، هو النطفة المنَوِيَّة.

وأيُّ رِفْقٍ عَجِيب هذا الرِّفْقُ الَّذِي يُنْتَزَعُ بِهِ الْحُيَيْوِينُ المنَوِيُّ، الملَقِّحُ لبُيَيْضَةِ الأنْثَىٰ من داخل النطفة، وتُتْرَكُ نُظَرَاؤُه التي قد تَصِلُ أعدادُها إلى نحو مئتي مليون.

ما أعجب صُنْعَ اللَّهِ العليم الحكيم القدير؟! وما أدَقَّ بياناته التكامُلِيَّةَ وَأحْكَمها؟!

وبهذا تَمَّ عِقْدُ الموضوع وإقفالُه عند نُقْطَةٍ هادِئَةٍ مِثْلِ النُقْطَة الْتي بدَأَ بها.

هذه النصوص كلُّها تَدُور حول حلْقةٍ وسْطَىٰ من سلسلة الأطوار الّتي يمُرُّ بها خَلْقُ الإنسان مَرْحَلةً فَمَرْحَلَة، وهذه الحلقة قد سبقتها حلقات، ويَأْتي بَعْدَها حلَقات، وقد جاء في القرآن بيانات موزَّعَاتٌ فيه حول معالمَ بارزَةٍ منها، وطُوِيَتْ أطوارٌ خفيَّةٌ على الناس تقع بينها، اكتفاءً بذِكْر الظَّاهرات، لأنّ الفكْرَ العلميَّ يسْتطيع استدعاء بعض ما لم يُذْكَرْ صَراحة، ثم يَكُونُ للبحث العلميّ التجريبي أدوارٌ مُهِمَّة في اكتشاف عجائبِ صُنْعِ اللَّهِ عزّ وجلّ، في الأطوار الخفيَّة الّتي يحتاج اكتشافُها إلى أجهزة وأدواتٍ ووسائلَ، لا يَصِلُ النَّاسُ إليها إلاّ بعد تطوُّراتٍ حضاريَّةٍ واسعة، في أحقاب زَمَنِيَّةٍ متعدّدة.

ومن المعالم البارزة التي جاءت في القرآن موزَّعةً حول أطوار خلْقِ الإنسان المعالم التالية:

الْمَعْلَمُ الأول:

خَلْقُ الإنسان وكلِّ دابَّةٍ على الأرض من ماء، دلَّ على هذا الْمَعْلَم قول الله عزّ وجل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

الْمَعْلَم الثاني:

خَلْقُ الإنسان من ترابٍ، دلَّ على هذا المعْلَمِ قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

الْمَعْلَمُ الثالث:

خَلْقُ الإنسان من طينٍ، أي: من مزيج من ماءٍ وتراب، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

المعلم الرابع:

مَرْحَلَةُ الطِّينِ اللاَّزِبِ، أي: الطّين اللّزج اللاّصِق، دلَّ على هذا المعلم قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿... إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾.

المعْلَمُ الخامس:

مَرْحَلَةُ الْحَمَأ المسْنُون، الّذِي أخذ يتحوَّل إلى صَلْصَالٍ، دَلَّ على هذا المعلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

الْحَمَأُ: هو الطِّينُ الأَسْوَدُ الْمُنْتِن.

الْمَسْنُون: أي: المصَوّر المصقول المملّس.

الصَّلْصَال: الطين اليابس الذي إذَا نُقِرَ بشيْءٍ أعطىٰ صَوْتاً فيه تَرْجيع.

المعْلَمُ السّادِس:

مرحلة الصَّلْصَالِ الذي صَارَ كالفخَّار، دلَّ على هذا المعلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

المعلم السابع:

مرحلة ظهور الإنسان الأوّل الذي خلقَ الله عزّ وجلّ منه زَوْجه، دلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . . ﴿١﴾﴾.

المعلم الثامن:

مرحلة التغذية من نبات الأرْض، دلَّ على هذا المعْلَم قول اللّهِ عزّ وجل في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

المعلم التاسع:

مرحلة النُّطْفةِ الأمْشَاج، أي: ذاتِ العناصر المختلفة المختلطة، دلَّ على هذا المعْلَم قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾.

المعْلَمُ العاشر:

مرحَلَةُ الماءِ الدافق الذي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْب والترائب، دلّ على هذا المعْلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

وقد سبق شرح هذا النصّ باستِفَاضَةٍ لدى تدبُّر السّورة.

المعْلَمُ الحادي عشر:

مرحلة تَحْدِيد الذّكُورَةِ والأُنوثَةِ عِنْدَ اللّقاح، دلَّ على هذا المَعْلَمِ قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾.

وقد سبق تدبُّر هذا النّص، وتحليلُ ما جاء فيه، وما دَلَّ عليه من دَلالات.

المعْلَمُ الثاني عشر:

مَرْحلة العلقة في بطْنِ الأمّ، دلَّ على هذا المعْلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول):

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

المعلَمُ الثالث عشر:

ظَاهِرَة التقدير الحكيم تكْويناً مِنَ النُّطْفَة، دلَّ على هذا المعْلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾.

المعلَمُ الرابع عشر:

مَرْحلة جعْلِهِ في رَحِمِ أُمِّهِ في قرَارٍ مَكِينٍ إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، دَلَّ علىٰ هذا المعْلَم قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سُورة (المرسَلاتِ/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

المعلم الخامس عشر:

ظاهرة تَحْسِين صُورةِ الإِنْسِان، وجَعْلِ كُلّ فَرْدٍ بصُورَةٍ مُتميِّزَة، دلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجلّ في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

المعلَم السادس عشر:

ظاهرة المضغة المخلّقةِ وَغَيْرِ المخَلّقَة، مع بيان الفواصل الزمنيَّة المتراخيَة بين بعض المراحل البارزة من خَلْقِ الإنسان، ومرحلة الطفولة، ومرحلة الرّدّ إلى أرذل الْعُمر، دلّ على هذه المراحل قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وأضافت سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) مرحلَة الشَّيْخوخة بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وجاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بيانٌ يُشِير إلى أطوار الشيخوخة وما بَعْدَها حتى أرْذَل العمر، فقال الله عزّ وَجلَّ فيها:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

نُنَكِّسْهُ: أي: نَجْعَلْهُ متنازلاً شيئاً فَشيئاً حتى يكون أَعْلَاه هابطاً إلى مستوى أسفله، على عكْس نَشْأتِه الأُولى، إذْ يكونُ فيها مُتَصاعداً شيئاً فشيئاً حتَّىٰ يبْلُغ أشُدَّه.

المعْلَمُ السابع عشر:

ظَاهِرَة الترتيب مع التراخي النِّسْبيّ أو مع التعقيب النسبيِّ، بين آخر بعْضِ المراحل السابقة وأوَّل تالِيَاتِها، مع إضافة ذكر معالم لم تذكر في نُصُوصٍ أخرىٰ، جاء هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

السُّلَالَة: ما اسْتُلَّ مِنَ الشَّيْء وانْتُزِعَ برِفْق، كانْتِزَاع الشَّعْرَةِ من العجين اللّيِّن الطَّرِي. وهكذا تُسْتَلَ أغْذِية النباتات من الطين، وعناصر بناءِ الأجساد من الأَغذية، وعناصر النطفة المنويّة من الْجَسَد.

الْعَلَقَة: قِطْعَةٌ من الدَّم الغليظ المتماسك.

المغلَمُ الثامن عشر:

ظاهرة جعل الإنسان في أحْسَنِ تَقْويم، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾.

المغلَم التاسع عشر:

تَسْوِيَة الإنْسَان، ونفْخُ الرُّوح فيه، وخَلْقُ سمعه وبَصَرِه وفُؤاده، دل على هذه الأمور قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾.

المغلَمُ العشرون:

بَيَانُ أَنَّ الأَطْوَار الَّتي يَمُرُّ بها خَلْقُ الإنْسَان إنَّما تَتِمُّ بِعَمَلِيَّاتِ خَلْقٍ متتابع لا بِالتِّلْقائيَّةِ السَّببيَّة. مع التنبيه على الظلُمات الثلاث التي يكُونُ فيها الجنينُ وهو في بَطْنِ أُمّه، دلَّ على هذه الحقائق قولُ الله عزَّ وجل في سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿... يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾.

المعلم الحادي والعشرون:

ظاهرة الفرق الشاسع بين طَوْرين متباعِدَيْن: النُّطْفَة، والخصيم المبينِ المعبّر عمّا في نَفْسِه، دلّ على هذه الظاهر قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

الخصيم: المخاصم المجادل المنازع لنفسه أو لغيره بحقٍّ أو بباطل في خصومة بين فريقين.

المعْلَم الثاني والعشرون:

آيَةُ التزاوُج بين الذكُور والإناث، دلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وبعد ذكر هذه المعالم الدّالّة على خَلْق الإنسان ضمن سِلْسِلَة أطوار، يحْتَاجُ شَرْحها إلى سِفرٍ كامل، أقول:

لَقَدْ كان نوحٌ عليه السَّلامُ حكيماً فيلسوفاً إذْ قال لقومه كما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: مَا لَكُمْ لاَ تخافُونَ عظمة الله، ولا تَتَرَقَّبُونَ عَدْلَهُ وَعقابَهُ الحكيم، إذَا أنْتُمْ أصْرَرْتُمْ على الكُفْرِ ومُعَانَدَةِ الحقّ، وأنْتُمْ تُلاَحِظُون خَلْقَ اللَّهِ لَكُمْ في أطوارٍ مُسَايِرَةٍ لحياةِ كلِّ واحدٍ منكم؟!.

* * *

(١١)

الملحق الثالث

حول كون الإنسان مراقَباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر

لدينا قضيتان:

القضيّة الأولى: كَوْنَ الإنسان في حياة الابتلاء مُرَاقباً دواماً، علَيْه حفظَةٌ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ، ويُسَجِّلُونَه، ويَحْفَظُونه، حتَّىٰ يَشْهَدُوا به يَوْم الدّين.

الْقَضِيَّةُ الثانية: كَوْنُ الإنسان محفُوظاً بِعِنَايَةِ اللَّهِ وَحفْظه، ممَّا يُحِيطُ بِهِ من مخاطر ومهلكات، وقد جعل الله له من الملائكة من يحْفَظُه بأمْرِ من الله عزّ وجلّ، وعلى وفْقِ قضائه وقَدَرِهِ فيه.

■ **أمّا القضيَّةُ الأولىٰ**: فَنُلاحظُ فيها، أنّ الله عزَّ وجلّ اختار أن يُسَمّي المُرَاقِب العالم المسجِّل الحافِظَ لمَا سَجَّلَ مِنْ كسب الإنسان في حياة امتحانه، والشَّاهِدَ به علَيْهِ يَوْمَ الدِّين بأحد أوصافه، وهو وصف «حَافظ» لأنّه يَلْزَمُ مِنْ كوْنِه حَافظاً أَنْ يكونَ مُراقباً وعالماً وَمُسَجّلاً، فاسْتَغْنَىٰ بوصف «حافظ» عن ذِكْر هذه اللّوازم.

وعُلِمَ الْغَرَضُ من هذا الحفظ، وهو الإعدادُ ليوم الحساب وفَصْلِ القضاء، وتقديمُ ما أعَدَّ، والشَّهَادَةُ بِه، من النُّصُوصِ الكثيرة، الَّتِي دَلَّتْ عَلَىٰ أنَّ الإنسانَ مُمْتَحَنٌ في هذهِ الحياة الدنيا، ومُحَاسَبُ على ما كَسَبَ فِيها، ويُقْضَىٰ لَهُ أو عليه على وفق ما كسب.

ثُمَّ يُجَازَىٰ علَى وفْقِ القضاء، وَعُلِمَ أيضاً من النُّصوص الّتي دلّتْ علىٰ أنّ الحفظَةَ يَشْهَدُونَ يوْمَ الحساب بما حَفِظُوا على الإنسان، من مكتَسَباتٍ إرَادِيَّةٍ فِي الحياة الدنيا.

وأتَابعُ اسْتِعْراضَ نُصُوصِ هذه القضيّة بشيء من التدبُّر فيما يلي:

النصّ الأول:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

فقد أبان هذا النَّصُّ أنَّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ عَلِيمٌ دَواماً بِكُلِّ شَيْءٍ من سُلوك الإنْسَانِ، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نفسه. وأنّه جَلَّ جلالُه جعَلَ عليه ملَكَيْن رَقِيبَيْنِ، يَتَلَقَّيَانِ ما يَصْدُرُ عنه، بالتَّسْجيلِ والحِفْظ، فما يَعْمَلُ من عَمَلٍ وَمَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ تَمَّ تَسْجِيلُهُ وحِفْظُه من قِبَلِ رقِيبٍ مِنَ الملائكةِ عَتِيدٍ شديد تامِّ الاستعداد للقيام بوظيفته.

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هذا النَّصّ لدى تَدَبُّرِ سورة (ق).

النّصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

وقد سبَق تدبُّر هذه الآيَة، خلال تدبُّرِ هذه السورة على ما فتح الله به.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

دَلَّ هذا النّصُّ على أنَّ الإنْسَانَ مُحَاطٌ بالْعِلْمِ الرَّبَّانِيّ، وَوَاقِعٌ تَحْتَ سُلْطَانِ الرَّبِّ الْقَاهِرِ.

ودَلّ أيْضاً على أنَّ اللَّهَ جَلَّ جلالُهُ يُرْسِلُ على عبادِهِ حفَظَةً من الملائِكَةِ يَقُومُونَ بوظيفة المراقبة والتَّسْجيل والحفظ، مع عِلْمِ كُلٍّ مِنْهُم بِمَا يُسَجِّلُ وَيَحْفَظُ لِيَشْهَدَ بِهِ يَوْم الدِّين، أخذاً من دَلاَلَةِ نَصٍّ آخر.

﴿مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾: أي: ما كَسَبْتم من كسْبٍ إراديّ، وذكر النهار للأشعار بأنّ النهار للعمل، والليل للراحة، أما علم الله فهو شاملٌ لما يَكْسِبُ الناس باللّيل والنهار كما جاء في نصوصٍ أخرى.

النَّصُّ الرابع:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الإنفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

فأضاف هذا النصّ أنَّ الحافظين من الملائكة كِرَامٌ، أي: يُسْرِعُونَ في تسجيل الحسنات، وقد يتمهَّلُونَ في تَسْجِيلِ السَّيِّئَاتِ، رجاءَ توبة المذنب واسْتِغفاره.

وأضاف أَنَّهُمْ كاتِبُونَ، أي: فَهُمْ يَتَلَقَّوْنَ، ويَكْتُبُونَ ما تَلَقَّوْهُ مِنْ كَسْبِ الإنسانِ الإراديّ.

وأضاف أنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ الناسُ المراقَبُونَ، أي: فَلَيْسُوا مُجَرَّدَ أَدَوَاتِ تَسْجِيلٍ لا تَعْلَمُ مَا تُسَجِّلُ، بَلْ هُمْ يَعْلَمُون مَا يُسَجّلون، لأَنَّهُمْ يُسَجِّلُونَ النيّات من الأعمال، ويُسَجِّلُونَ مَا تُكِنُّهُ الصُّدُور.

- وأمّا كَوْنُ الإنْسَانِ مُرَاقباً مِنْ قِبَلِ رَبِّه العليم فبيانه قد جاء في عدّة نصوص، منهَا النُّصُوصُ الكثيرة الَّتي تُثْبِتُ أنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور،

ومنها ما جاء في النصّ السابق من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وفي النصّ السابق من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) ومنها النصوص التالية:

النص الأول:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايَةً لما قالَهُ هُودٌ عليه السَّلاَمُ لِقَوْمِهِ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: إنَّ رَبِّي مُهَيْمِنٌ وَمُسَيْطِرٌ بِسُلْطَانِهِ علَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وهو حَفِيظٌ لِكُلِّ ما يَجْرِي فيهِ أو مِنْهُ أَوْ عَلَيهِ، ومنه حفظ ما تَكْسِبُونَ في رحلة امتحانكم.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سَبَأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

النصّ الثالث:

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

النصّ الرابع:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿. . . إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

■ **وَأَمَّا الْقَضِيَّة الثانية:** وهي كَوْن الإنسان محفوظاً بعِنَايَةِ اللَّهِ وَحِفْظِهِ

مِمّا يُحِيطُ بِه من مَخاطِرَ وَمُهْلِكاتٍ، فقد دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الرَّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ . . . ﴿١١﴾﴾.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ﴾: أي: للإنسان مُعقِّبات، وهم جَماعات من الملائكة يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِيَقُوموا في الناس بما كلَّفَهُمْ الله إيّاه من وَظائف، ومنها حفظ كلّ إنسان ممّا يحيط به من مخاطر.

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هُرَيرة، أنّ الرسول ﷺ قال:

«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ باللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بالنَّهارِ...».

ومن وَظائف هؤلاء ما جاء بيانه في الآية (١١) من سورة (الرّعد) من أنهم يَحْفَظُونَ كُلّ إنسان بأمْرِ الله، من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ خَفِيٍّ أوْ ظاهر، ومن أذىٰ كلِّ ذي أذى في خِضَمِّ هذا الكَوْنِ المشْحُونِ بالمخاطر، فَلا يُصِيبُ الإنسانَ مِنْها شيءٌ، إلاَّ بقضاء الله وقَدَرِه، أو بإذْنه.

* * *

(١٢)

الملحق الرابع

كلمة يوم في القرآن مراداً بها يوم الحياة الأخرىٰ

جاءت تَسْمِيَةُ يوْمِ الحياة بعد الموت وفناء الأجساد في القرآن المجيد، بأسماءٍ كثيرة مشتقة من أوصافه أو ممّا يجري فيه.

وأسْتَعرض منها في هذا الملحق ما جاء مضافاً إليه كلمة «يَوْم».

وبعده أسْتَعْرِضُ النصوص التي جاء فيها بيانٌ لبعْض ما يجري في هذا اليوم.

■ **أمّا ما جاء مضافاً إليه كلمة يَوْم،** ففيما يلي:

(١) فَمِنْ كون هذا اليوم آخِرَ الْيَوْمَيْنِ الْمُقَرَّرَيْنِ لامتحان المكلّفين وحِسَابهم وجزائهم، سمَّاه الله عزّ وجلّ: «**الْيَوْمَ الآخِرَ**».

ونجد هٰذه التسمية في (٢٦) نصًا قُرْآنِيًا.

(٢) ومن كونه اليومَ الذي يَتِمُّ به الدِّين (أي: الجزاء) سمَّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الدّين**».

ونجد هٰذه التسمية في (١٣) نصًا قُرْآنِيًا.

(٣) ومن كونه اليوم الذي يقومُ فيه الموتى إلى الحياة بعد الموت والفناء سمّاه اللّهُ عزّ وجلّ: «**يَوْمَ القيامَة**».

ونجد هذه التسمية في (٧٠) نصًا قرآنيًا.

(٤) ومن كونه اليوم الذي يُبْعَثُ فيه الخلائق من أَجْدَاثهم بعد الموت والفناء، سمّاه اللّهُ عزّ وجل: «**يَوْم الْبَعْث**».

ونجد هذه التسمية في نصَّيْن من القرآن المجيد.

وذُكر في القرآن بعبارة: «**يَوْمَ يُبْعَثُونَ**» ستّ مرّات.

(٥) ومن كونه اليوْم الّذي يحاسب الله عزّ وجلّ فيه العباد على ما كَسَبُوا في رحلة امتحانهم، سمّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الحِسَاب**».

ونجد هذه التسمية في (٤) نصوص قرآنيّة.

(٦) ومن كونه اليوم الذي يفْصِلُ الله عزّ وجلّ فيه حُكْمَهُ في

المُمْتَحَنِين في الحياة الدنيا من عباده، سمّاه الله عزّ وجل: «**يَوْمَ الفَصْل**».

ونجد هذه التسمِيَة في (٦) نصوص قرآنيّة.

(٧) ومن كونه اليوم الذي تتلاقَىٰ فيه الخلائق أوّلُها وآخِرُها، ظَالِمُها وَمظلُومها، مَشْهُودُها وغَيْر مَشْهُودِها، سمّاهُ الله عزّ وجلَّ: «**يَوْمَ التَّلاقي**».

ونجد هذه التسمية في الآية (١٥) من سورة (غافر/ ٤٠).

(٨) وَمن كون وقائعه وأحداثِه قريبة بالقياس على سلف من عُمْرِ الحياة الدنيا كلّها، وقريبة بالنسبة إلى إحساس الخلائق بين الموت والبعث، إذْ يُلْغَىٰ من إدراكهم الإحساس بمرور الزمن، سَمَّاهُ الله عزّ وجلّ «**يَوْمَ الآزِفة**».

الآزفة: هي القريبة لغة.

ونجد هذه التسمية في الآية (١٨) من سورة (غافر/ ٤٠).

(٩) ومن كوْنه يَوْماً يكْثُرُ فِيه التنادِي بَيْنَ الخلائق، سَمّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ التَّنَادِي**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٣٢) من سورة (غافر/ ٤٠).

(١٠) ومن كوْنه يَوْماً تُجْمَع فيه الخلائق، سمَّا اللَّهُ عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الْجَمْع**».

ونجد هذه التسمية في نَصَّيْنِ من القرآن الكريم.

(١١) ومن كونه يوماً يخرج فيه الناس من الأجداث إلى ربّهم ينسِلُونَ، سماه اللَّهُ عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الْخُرُوج**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٤٣) من سورة (ق/ ٥٠).

(١٢) ومن كوْنه اليوم الّذي يتحقَّقُ فيه وعِيدُ الله للكافرين المكذبين

بما جاءهم به رسول الله ﷺ، سمَّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الْوَعِيدِ**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٢٠) من سورة (ق/ ٥٠).

(١٣) ومن كونه اليوم الذي وعَدَ الله عباده، سمّاه الله عزّ وجلّ: «**اليَوْمَ الْمَوْعُود**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٢) من سورة (البروج/ ٨٥).

(١٤) ومن كونه اليوم الّذِي يَخْسَرُ فيه الكافرون والعصاة منازلهم ومراتبهم الّتي كانت مُعَدَّةً لهم في الجنّة، وكانوا يستحقُّونها لو أنَّهم آمَنُوا وأطاعوا، فيقَعُ علَيْهم الْغَبْنُ الّذي غَبَنُوا بِه أنْفُسَهم، إذْ يُورِثُ الله عزّ وجلّ المؤمنين مراتبهم ومنازلهم فيها، سَمَّاه اللَّهُ عزَّ وجل: «**يَوْمَ التَّغَابُن**» أي: هو يَوْمٌ يَخْسَرُ فيه الكافرونَ خُسْراناً عظيماً، ويَرْبَحُ فيه المؤمِنُونَ رِبْحاً عظيماً.

ونجد هذه التسمية في الآية (٩) من سورة (التغابن/ ٦٤).

■ **وأمّا النصوص الّتي جاء فيها بيانٌ لبعض ما يجري في هذا اليوم،** ففيما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ... ﴿٣٠﴾﴾.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

(٣) قول اللّهِ عزّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢):

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴿١٠٩﴾﴾.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢) أيضاً:

﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ... ﴿١١٩﴾﴾.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ... ﴿٧٣﴾﴾.

(٦) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ... ﴿١٢٨﴾﴾.

(٧) قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن المنافقين:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ... ﴿٧٧﴾﴾.

(٨) قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

(٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿... مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

(١٠) قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) حكاية لدعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

(١١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) أيضاً:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾.

(١٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿... وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٠٠﴾.

(١٣) قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... ٨٤﴾.

وقوله تعالى فيها خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... ٨٩﴾.

(١٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ٨٦﴾.

(١٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ٢٧﴾.

(١٦) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ٥٥﴾.

(١٧) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزّمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾.

(١٨) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ٧﴾.

وقوله فيها حكاية لقول الأبرار:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾.

(١٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾.

(٢٠) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطّارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾.

وسبق تدَبّر هذه الآيَة لدى تدبر سورة (الطارق).

والحمد لله رَبّ العالمين

* * *

سُورَةُ القَمَر

٥٤ مصحف ٣٧ نزول

سورة (القمر) سورة مكيّة كلُّها. وقيل: إلاّ الآيات (٤٤ و ٤٥ و ٤٦) لكن جاء في صحيح البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها أنّ الآية: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦)﴾ قد أُنزِلَت في مكة، وهي جاريةٌ تلعب.

وعلى هذا فالمدَنِيّ مِنها إنْ صَحَّ مُقْتَصِرٌ على قول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ (٤٤) سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥)﴾.

* * *

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ
وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ
وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا
فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾
فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا

٣ ـ ● قرأ أبو جعفر: [مُسْتَقِرٍّ] بالجرّ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مُسْتَقِرٌّ﴾ بالرَّفع.

قراءة الجمهور واضحة فمستقِرٌّ خبر «كل».

وقراءة أبي جعفر تحتاج تأويلاً، ومنها أن خبر «كلّ» مطويٌّ مقدَّرٌ ذهناً، والمعنى: وكلُّ أمْرٍ مُسْتَقِرٍّ بالقضاء حاصل لا محالة في أجله.

٥ ـ ● قرأ يعقوب: [فَمَا تُغْنِي] بإثبات الياء في الوقف.

وقرأ الباقون بحذفها في الوصل والوقف.

٦ ـ ● قرأ ورش، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [الدَّاعِي] بإثبات الياء في الوصل فقط.

وقرأ البزّي ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.

وقرأ باقي القرّاء العشرةِ بحذفها في الحالين.

٦ ـ ● قرأ ابن كثير: ﴿نُكْرٍ﴾ بإسكان الكاف. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نُكُرٍ] بضمها.

٧ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿خُشَّعاً﴾ جَمْع «خاشع». =

أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ
إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ
قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي
مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا
ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ
ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾
وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ
﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتۡ
عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا
فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ
﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ

= وقرأ باقي القراء العشرة: **[خَاشِعاً]** على الإفراد، تنزيلاً لاسم الفاعل منزلة الفعل.
والقراءتان وجهان عربيان جائزان، وكلاهما فصيح لأنَّ «خُشَّعاً» جمع تكسير.

٨ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو وأبو جعفر: **[إلى الدّاعي]** بإثبات الياء وصلاً.
وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذفها في الحالين.

١١ ـ ● قرأ ابن عامر، وأبو جعفر ويعقوب: **﴿فَفَتَّحْنَا﴾** بتشديد التاء.
وقَرَأ باقي القرّاء العشرة: **[فَفَتَحْنَا]** بتخفيف التاء.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ هما على التوزيع في الأزمنة والأمكنة.
فالمبالغة تناسب قِسْماً من الحدث، والقراءة الأخرى تناسب قِسْماً آخر من الحدث.

١٢ ـ قرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وشُعبة، وحمزة، والكسائي: **[عِيُوناً]** بكسر العين.
وقرأ باقي القراء العشرة بضمها. والقراءتان وجهان عربيان.

١٦، ١٨، ٢١ ـ أثبت الياء في كلمة **[وَنُذُرِي]** في المواضع السّتة من السّورة: ورْشٌ وصْلاً، ويَعْقُوب في الوصل والوقف. =

مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا
نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا
بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ
﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ
أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ
فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ
وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ
مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ
حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ
نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾

= وحذفها باقي القراء العشرة، في الحالين.
وهي وُجوه عربيّةٌ في النطق جائزة.

٢٦ ـ ● قرأ ابْنُ عامرٍ، وحمزة: [سَتَعْلَمُونَ] بتاء المخاطبين.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياء الغائبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.
فقد خاطبهم الله عن طريق رسولهم بقوله: [سَتَعْلَمُونَ].
وخاطب رسوله صالحاً والذين آمنوا به بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾.

٣٠، ٣٧، ٣٩ ـ أثبت الياء في كلمة [وَنُذُرِي] في المواضع السّتة من السّورة: ورْش وصْلاً، ويَعْقُوب في الوصل والوقف.
وحذفها باقي القراء العشرة، في الحالين.
وهي وُجوه عربيّةٌ في النطق جائزة.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ
ٱلنُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ
نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥) بَلِ
ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ
وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ
(٤٨) إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ
كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ
وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِى مَقْعَدِ
صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ (٥٥)

(٢)

ممّا ورد في السُّنَّة بشأن سورة (القمر)

روىٰ الإمام أحمد ومُسْلِمٌ وأهل السُّنَن عن أبي واقِدِ اللَّيْثي قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقرَأُ في الْعِيدِ بقاف واقْتَرَبَت».

أي: كان يقرأ في عِيدَي الفِطْرِ والأَضْحىٰ بسورة (ق) وسورة (الْقَمر) المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

❁ ❁ ❁

(٣)

سبب نزول السورة

سألَ أهْلُ مكة النبيَّ ﷺ آيَةً تُثْبِتُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حقًّا، فأشَارَ بأصبعه إلى القمر في ليلةٍ كان فيها بدراً، فانْشَقَّ شِقَّيْنِ، حتَّىٰ رأَوْا جبلَ حراء بين الشِّقَّين، فقال لهم الرسول ﷺ: «اشْهَدُوا اشْهَدُوا».

فقالوا: سَحَرَنا مُحَمَّد، وقالوا: إنْ كان سَحرنا فإنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أن يَسْحَرَ الناس كُلَّهم، فاسألوا المسافِرين، وحين قَدِمَ المسافِرون من كلِّ جِهَةٍ سَأَلُوهم، فقالوا رأَيْنا أنّ القمر قد انْشَقَّ.

وأصَرَّ قادَةُ مشركي مكة على كُفْرِهم، وزعَمُوا أنَّه سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ قَوِيّ، بَلَغ من قُوَّتِه أنْ يُؤَثِّر على الناس خارج حدود مكَّة البعيدين في أسفارهم عنها.

فأنزل الله عزّ وجلّ سورة (القمر) لمعالجة موقف المشركين المعاند لهذه الآية العظيمة، وتحذيرهم من عقاب شامل، كما حصل لمجرمي الأمم السّابقة.

وروايات انشقاقِ القمر آيةً للرسول ﷺ، في أواسط العهد المكيّ من تاريخ بَعْثَتِه بلَغتْ مبْلَغَ التواتر عند المحدِّثين.

وسيأتي إن شاء الله ذكر طائفة منها لدى تدبّر قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾.

* * *

(٤)

موضوع السورة

يَدُور موضوعُ سورة (القمر) حول بيان الموقف العناديّ المكابِرِ الّذِي وقفَه قادة كُفّارِ قُرَيشٍ، من آية انشقاق القمر العظيمة، بَعْدَ أنْ طَلبُوا من الرسول ﷺ آيَةَ ماديَّةً كُبرَىٰ تُثْبِتُ صِحَّةَ نُبوّته، وصِدْق رسالته، وبيانِ موقفهم العناديّ من الأنْبَاء الزاجِرَة، الَّتِي سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ توجيهُهَا لهم. وبيانِ الموقف الذي يُوصِي الله رسُولَهُ بأنْ يَتَّخِذَهُ مَعَهُمْ، بَعْدُ أنْ وصَلُوا إلى حالةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْها غالباً، وهو التولّي عنهم، بإدَارَةِ ظهره إليهم، والاشْتِغَال بآخرين لم يَبْلُغُوا بَعْدُ مَا بلغ إليه هؤلاء من عِنَادٍ ومكابرَةٍ واسْتِكْبَار ومُعَاداةٍ لدعوة الحقّ الرَّبَّانِيَّة.

وبعد هذا تشتمل السورة على معالجتهم ومعالجة أمثالهم، بالترهيب، وبالبيان الإقناعيّ، وبالترغيب.

فجاء فيها الترهيب بإيجاز من بعض أهوال يَوْم القيامة.

وبعده جاء التحذيرُ من إنزال العقاب المهلك إهلاكاً عامًّا في الدنيا، بأُسْلُوب عرضِ موجزاتٍ من قِصَصٍ بعض المهلَكِين الأولين من كُفَّارِ القُرون الأولى، في خمس فقرات، تناولت بإيجاز:

إهلاك قوم نوح عليه السّلام، وإهْلاَكَ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ عليه السلام، وإهْلاَكَ ثمود قوم صالح عليه السلام، وإهلاك قوم لوط عليه السلام، وإهلاك فِرْعَونَ وآله وجنودهم.

مع المعالجة بالإقناع لكفار قريش، بأنّهم ليسوا عند الله خيراً من المهلكين الأولين.

وبعده جاءت طمأنة الرّسُول والمؤمنين بأنَّ جَمْعَ كُفَّار مكّة سيُهْزَمون في معاركَ قتاليةٍ مستقبليّةٍ، فأنزل الله في العهد المدنيّ آيَتَيْن أُضِيفَتا إلى

سورة (القمر) كما ذكر مُقَاتل من المفسِّرين، وهُمَا عند الجمهور من التنزيل المكيّ مع تنزيل آيات السورة، وهُما:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

وبعْدَ هذا البيان جاء الترهيب بتقديم لقطة مخيفة من عذاب المجرمين في النار يوم الدين، وهو مقرون ببيانِ أَنَّ كُلَّ شيْءٍ قد خلقه الله جلّ جلاله بقَدَرٍ، وأنّ نَفَاذَ أمْرِه يكون مثل لَمْحٍ بالْبَصَر، وأَنَّ أفْعَالَ الناسِ مسجَّلَةٌ عليهم صِغَارَها وكبارَها، أي: فهم سَيُحَاسَبُونَ عليها.

وأخيراً جاء ترغيب الذين آمنوا واتَّقَوْا بأنهم سوف يكونون يوم الدّين في جنَّاتٍ ونَهَر، في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مَليكٍ مقتدِر.

وبهذا ظهَرتْ لنا وحْدَةُ مَوْضُوعِ السُورَةِ مُتَماسِكَةَ العناصر، متعانقة الفِقَرات، بديعةَ الترابط.

* * *

(٥)

دُرُوسُ السُّورَة

تشتمل سورة (القمر) على خمسة دروس متعانقة حول موضوع واحد كما سَبَقَ بيانُه.

الدرس الأول:

درسٌ يشْتمل على بيان موقِفِ أئمة الكُفْر والشِّرْكْ في مكّة إبَّان تنزيل السورة، بعْدَ طلَبِهم آيَةً حِسِّيَّةً كُبرىٰ، فأشَارَ الرَّسُول ﷺ إلى الْقَمَر ليلة البدر، فانْشَقَّ نِصْفَيْن مُتَبَاعِدَيْنِ، وبيانِ موقِفِهِمْ من الأنباء الزواجر التي أنزلَها الله عزّ وجلّ في نجوم التنزيل، قبل إنزال سورة (القمر).

فموقِفُهُمْ قد كان موقف المكابرة والعناد والإصرار على الكفر،

زاعمين أنَّ الرَّسُولَ ﷺ سَحَرهم، مع الاستمرار على موقفِ العِدَاء وتدبيرِ المكايد التي جاء بَيَانُها في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول).

ويشتمل أيضاً على بَيَانِ الموقف الّذي يُوصي الله عزّ وجلّ رسولَهُ بأَنْ يَتَّخِذَهُ معهم، وهو التولّي عَنْهُمْ بإدارة ظَهْرِهِ إليهم، ليتابعَ بَذْلَ جَهْدِهِ واجتهاده لدعوة آخرين لم يَصِلُوا إلى حالة ميؤوس منها.

وهو الآيات من (١ ـ ٥ وعبارة: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ من الآية ٦).

الدرس الثاني:

يشتمل على تَرْهِيبٍ بإيجاز من بعض أهوال يوم القيامة وهو من: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ وحتى غاية الآية ٨).

الدرس الثالث:

يشتمل على تحذير الكفرة المعاندين المصرّين على رفض الحق، وعلى اتّباع الباطل، من إنزال العقاب المهلك لهم إهلاكاً عامًّا في الدنيا، إذَا وصَلُوا إلى درَكَةِ استحقاقهم هذا الإهلاكَ العامَّ، بإسْلُوب عَرْضِ موجزاتٍ من قِصَصٍ بعض المهلَكِين السَّابقين من كُفَّار القرونِ الأولى، وجاء هذا الدَّرْسُ مُفَصَّلاً إلى خمس فقرات:

الفقرة الأولى موجَزُ قِصَّةِ إهلاك قوم النبيّ الرسول نوح عليه السلام.

الفقرة الثانية: موجَزُ قِصَّةِ إهْلَاك «عَادٍ» قومِ النَبِيّ الرسول هود عليه السلام.

الفقرة الثالثة: موجَزُ قِصَّةِ إهلاك «ثمود» قَوْمِ النبيّ الرسول صالحٍ عليه السلام.

الفقرة الرابعة: موجزُ قِصَّةِ إهلاكِ قَوْمِ النبِيّ الرسول لُوطٍ عليه السَّلام.

الفقرة الخامسة: لمحةٌ من إهلاك فرعون وآله وجنوده.

وهو الآيات من (٩ ـ ٤٢).

الدرس الرابع:

يشتمل على معالجة معاندي كُفّار قريش باقناعهم بأنَّهم ليْسُوا عند الله خيراً من المهلَكين الأولين، الذين أُهلِكُوا بسبب كُفْرِهم وعنادهم وطغيانهم.

ويشتمل على طَمْأَنَةِ الرَّسول ﷺ والذين آمَنُوا به واتَّبعُوه، بأنّ جمْعَ قادة كُفَّارِ مكّة سيُهْزَمُون في معاركَ قتاليَّةٍ مستقبلية قادمة، وبَيَانِ أنّ السَّاعَةَ موعد تعذيبهم العذابَ الأكبرَ والأشَدَّ من الهزائم التي سَتَلْحَقُ بهم، ومن القَتْلِ التي يُقْتَلُ به صناديدهم وعُتاتُهم.

وهو الآيات من (٤٣ ـ ٤٦).

الدرس الخامس:

- يشتمل على بَيَانِ ترهِيبِيّ بأسْلُوبِ تقديم لقْطَةٍ تصويريَّةٍ مخيفَةٍ من عذاب المجرمين في النّار يوم الدِّين، وهذا البيان مقرون بما يلي:

(١) ببيانِ أنَّ كُلَّ شيءٍ قد خلقه اللَّهُ عزَّ وجلَّ بقَدَر، وهذا القدر يشْمَلُ كُلَّ ما يَخْضَعُ للتَّقْدِير في الْكَمّ والكَيْف والزّمن وسائر الأشياء القابلة لأنْ تكون ذات مقادير.

(٢) وببيان أنّ نَفَاذَ أمْرِ الله يكُونُ مثْلَ لَمْحٍ بالْبَصَر.

(٣) وببيان أنّ أفعالَ العباد الظاهِرَةَ والباطنَةَ مسجَّلَةٌ عليهم صِغَارَها وكبارَها، أي: والمكلَّفُون منهم سَوْف يحاسَبُونَ عليها.

- ويشتمل على بيانٍ ترغيبيٍّ للّذِينَ آمَنُوا واتّقَوْا، بأنَّهم سيكونون منعمين يوم الدّين في جَنَّاتٍ ونَهرٍ، في مَقْعَدِ صِدْقٍ عنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ، في مقابل الْبيَانِ التَّرْهِيبيِّ للمجرمين.

وهو الآيات من (٤٧ ـ ٥٥ آخر السورة).

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٥ مع عبارة ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ من الآية ٦)

قال الله عزّ وجل:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾.

- قرأ جمهورُ القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ بالرَّفع، على أنّه خَبَرُ [كُلّ].

وقرأ أبو جَعْفر: [مُسْتَقِرٍّ] بالجرّ، وهذه القراءة تحتاج إلى تأويل، وأحْسَنُ التأويلات فيما أرىٰ أنْ يكون خَبَرُ [كُلُّ] مَطْوِيًا مُقَدّراً ذِهناً، والمعنى: وكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍ بالقضاء غَيْرِ مَنْسُوخٍ حاصِلٌ لاَ مَحَالَةَ فِي أَجَلِه.

- وقرأ جمهورُ الْقُرّاءِ الْعَشَرَةِ ﴿فَمَا تُغۡنِ﴾ بحَذْفِ الياء في الوصل والوقف تخفيفاً، وهو من اللّهجاتِ العربيَّةِ الإيجازيّة.

وقرأ يَعْقُوبُ بإثْبَاتِ الياء في الوقف [فَمَا تُغْنِي] على الأصل دون حَذْف.

والقراءتان من التيسير على الناطقين، وهما تدخلان في الأحرف السبعة التيسيريَّة، على الناطقين العرب بحسب لهجاتهم.

- قول الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾.

اقْتَرَبَتْ: أي: دَنَا وَقْتُ وُقُوعِهَا، يُقَالُ لُغَةً: اقتربَ الْوَعْدُ، أي: دنا

وقتُ وُقوعه. واقترب القوم: أي: دنا بعضهم من بعض.

السّاعة: جزءٌ من أجزاء الوقت، وإن قلَّ. وأطلقت في الاصطلاح الديني على الوقت الذي قضىٰ الله عزّ وجلّ أن يُنْهِيَ به ظروف هذه الحياة الدنيا وأنظمتها، وعلى الوقت الذي يبعث الله فيه الموتى إلى الحياة الأخرى، والقرائن تُبَيّنُ المراد، وتُطْلَقُ في القرآن أيضاً على وفق المعنى اللّغويّ، ولكن منكَّرَةً دُون تعريف.

وانْشَقّ: أي: وانْصَدَعَ. فابْتَعَدَ قِسْمٌ منه عن قِسْمٍ آخر.

في هذه الآية بيانُ قضيَّتَيْن:

القضيَّة الأولى: اقترابُ السَّاعَةِ، الّتي تأتي بَعْدَهَا أحداث يَوْمِ القيامة، وما فيه من حساب، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتنفِيذِ جزاء.

القضية الثانية: انشقاق القمر آيةً حِسِّيَّةً كُبْرىٰ للنبيّ الرسُولِ محمّد ﷺ، وهي دالّةٌ على أنَّهُ نبيُّ اللَّهِ حقًّا وصِدْقاً، وأنَّه رسُولُه الأَمِينُ، فهو يُبَلّغ عنْهُ مَا يأمُرُه بتبليغه للعَالمين.

وجاءت القضيّة الثانية هذه بمثابة البرهان على صدق القضيَّة الأولىٰ، قضيَّةِ السَّاعَةِ المسْتَتْبِعَةِ لبَعْث الموتىٰ إلى الحياة الأخرى التي يكون فيها الحسابُ، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذُ الجزاء، بالنسبة إلى الّذين وُضِعُوا مَوْضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، من الإنس والجنّ.

فخَبَرُ السَّاعَةِ وخَبَرُ اقترابها بالنَّظَر إلى بَدْءِ نَشْأَةِ الحياة الدنيا، وبالقياس على الزَّمن الذي مضى منها، يَشْهَدُ لصِدْقه وصِحَّتِهِ إجْراءُ مُعْجِزَةِ انشقاق القمر لِمُبَلّغ هذا الخبرِ عن رَبّه، لأنَّ انشقاق القمر في السَّماءِ لاَ يُمْكن أن يَفْعَلَهُ إلاَّ اللَّهُ خالِقُ السَّمَاوات والأَرْض، فإذا أَجْرَاه لبعض عباده فإنَّه يَدلُّ بذلك على أنَّهُ صَادقٌ فيما يُبَلّغُ عن ربّهِ من غيبيَّات.

شرح القضيَّة الأولى:

إنَّ جُمْلَةَ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ خَبَرٌ عن أمْرٍ غَيْبِي بالنِّسْبَةِ إلى المخاطبين، وهم لا يَسْتَطِيعُون أَنْ يُدْرِكُوا ما يَدُلُّ عليه هذا الخبر، لا عن طريق العقل المجرَّد، ولا عن طريق الدّلائل العلميَّة الكونيّة، وظاهراتِ الأَشياء وأماراتها.

لكِنَّ حادثَةَ انشقاق القَمَرِ في السماء، الّتي وقَعَتْ بحضور طالبي آيَةٍ كبرى من الرسول ﷺ، فأجراها لهم بإشارة إلى الْقَمَرِ بأصبعه، تَشْهَدُ لَهُ بأنَّه نبيُّ الله ورسولُهُ حقًّا وَصِدْقاً.

إنَّها قضيَّةٌ حِسِّيَّةٌ مَشْهُودَة، ذَاتُ دَلاَلَةٍ عَقْلِيَّةٍ مُلْزِمَةٍ لذوي العقول المنْصِفَة، بأنَّ مَنْ أجْرَاها اللَّهُ عزّ وجلّ له نبيُّهُ ورَسُولُه، فَمَا يُخْبِرُ به عن الله لا بُدَّ أن يكون حقًّا وصِدْقاً، ومنه الإخبار باقتراب السَّاعة.

فذكر القضيَّتين مُقْتَرِنَتَيْن في صدر السّورة بيانٌ يتضَمَّنُ الخبر والدّليل على صِدقه، وهذا الأسلُوبُ القرآنيُّ هو من روائع الإيجاز في الاستدلال القائم على عرض القضيَّةِ، وعرض ما يَدُلُّ على صِدْقِها، مقترِنَيْن، دون التصريح بأنَّهُ دليل عليها. كَمَنْ يَتَحدَّى المصارعين وَيأتي إلى جِدَار لم يَسْتَطِعْ إمالَتَهُ عَدَدٌ مِنهم، فيدفَعُهُ بِيَدِهِ فَيُسْقِطه.

قضيّة الساعة واقترابها:

لقد أخفى الله عزّ وجلّ وقت قيام السّاعة عن كلّ خَلْقِه، فهي لا تأتي إلاَّ بَغْتَةً بصُورَةٍ مُفاجِئَةٍ، وقد ثَقُلَ عِلْمُ وَقْتِ حُدُوثها في السَّماواتِ والأرْض.

وإذْ أَخْفَى الله عزّ وجل الْعِلْمَ بوقت قيام السَّاعَةِ عن كلّ خَلْقِهِ، حَتَّى عن الملائكة المقرَّبين، فإنّ مَعْرِفَة قُرْبِ وَقُوعِها أو بُعْدِهِ، لا يُمْكِنُ أنْ يُدْرَكَ

ما لَمْ يأتِنا الْوَحْيُ عن الرَّبّ الّذي قَضَىٰ وَقَدَّرَ، ببيان يَدُلُّ عليه.

وقد أخبرنا الله عزّ وجلّ في قرآنه باقترابها، وبلَّغَنا ذَلِكَ نَبِيُّهُ ورَسولُه المؤيَد مِنْ قِبَلِه بالمعجزات والآيات الباهرات، ومنها معجزةُ انشقاق القمر، فوجب التسليمُ بصحّة الخبر وصدقه.

والغرض من الإعْلام باقتراب الساعة التخفيف من استبعاد وقوعها، أو استبعادِ وقْتِ وُقُوعها الَّذِي يُولّدُ في النفُوسِ الغفلة عنها، اشتِغَالاً واهتماماً بالقضايا الْقَرِيبة المستَعْجَلَة من أمور الحياة الدنيا، مع بيان حقيقة من الحقائق المستقبليّة التي لا تُعْلَمُ إلاَّ عن طَرِيق الْوَحْي الرَّبَّاني، لِخِدْمَةِ أغْرَاض الدّين.

ويَسْأل سَائِلٌ مَا الـمُرادُ بالسَّاعةِ المذكورة في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾؟

فأقول: يُمْكِنُ أنْ يكُون المرادُ بها ساعَةَ إنْهاءِ ظرُوف هذِه الحياة الدّنيا، وهذا الإنْهاءُ يَسْتَلْزِم عقلاً الإعْلاَمَ باقترابِ ساعةِ القيامة، والبعثِ للحياة الأخرىٰ، الّتي يَكُونُ فيها الحسابُ، وفَصْل القَضَاء، وتنفيذ الجزاء، إذْ يَوْمُ الْبَعْث والْحِسَاب ومَا يَجْرِي فيه هو المقْصُودُ بِبَيَانِ اقْتِرابه فَبِهِ تَتَحَقَّقُ الغايَةُ من الامتحان في رحلة الحياة الدنيا.

ويُمْكِنُ أن يكُونَ المرادُ بِها ساعةَ القيامة والبعث، وهذا يتضمَّنُ الإعلامَ باقترابِ ساعَةِ إنْهاء ظروف هذه الحياة الدنيا، الذي هو مُقدّمة من مقدّمات الإعداد الكَوْنيّ لظُرُوف الحياة الأخرى.

وجاء النَّصُّ مُطْلقاً لأن كُلاًّ من المعنَيَيْن صالحٌ ومستلزمٌ للمعنى الآخر، وهذا من بديع الإطلاقات القرآنية، الّتي تستفادُ منها عدَّة معانٍ صالحةٍ ومُرَادَةٍ.

والمراد باقترابها الاقترابُ النِّسْبيّ الذي يلاحظ فيه عُمْرُ الحياة الدينا مُنْذُ بَدْءِ الحياة على الأرض حتى إنهائها، فإذا بقي الرّبْع أو الخمس أو

السّدْس أو أقلُّ من ذلك مهما بلغ من القرون، فإنّ المرتَقَبَ بعْدَهُ أجَلٌ قريب بالنسبة إلى ما مَضَىٰ من الحياة على الأرض.

نصوص قرآنية بشأن اقتراب الساعة:

النصّ الأول: ما جاء في أوّل سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزل) وهو ما تدبّرناه آنفاً.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بشأن منكري البعث:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا (٤٩) ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا (٥٠) أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا (٥١) يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا (٥٢)﴾.

﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾، أي: فسيُحرِّكونها حركة المُسْتَبْعِدِ المتعجِّبِ المنكِر.

﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾، أي: أرجو وأترقَّب أنْ يكون قريباً وهو تعبير مضمونه الجَزْمُ، وظاهره الرجاء والترقُّب للأمر القريب لأن المحادثة مع منكري البعث إنكاراً كليًّا، وهم يُماحِكُونَ في السُّؤالِ عن وقْتِهِ بِشَكْلٍ مُحَدَّدٍ، وقد أخفاه الله عزَّ وجَلَّ عن كلّ عباده في الأرض وفي السماوات.

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾، أي: يَوْمَ يَدعوكُمْ رَبُّكُمْ لمحكَمَةِ الْعَدْلِ فتستجيبون لِدَعْوَتِهِ وتحضرون للحساب، وأنتم لا تملكون غير ذلِكَ يَوْمَئِذٍ، وتَجْعَلُونَ استجابَتَكُمْ لربّكمْ مَقْرُونةً بِحَمْدِهِ والثناء عليه لعلّه يخفّفُ عنكُم.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، أي: وحينَ تُبْعَثُونَ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ مَا

لَبِثْتُمْ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إلاَّ زَمَناً قليلًا، كَسَاعَةٍ مِنْ نهار، لأنّ المَوْتَى يُلْغَى من نُفوسِهِم الاحْسَاسُ بمرور الزَّمن، فاللحظةُ ومِلْيَاراتُ السِّنِينَ بالنِّسْبَةِ إليهم سواء، ومن مات في عهد آدم ومَنْ مَاتَ آخر الناس، يكون إحْسَاسُهُمَا بما مضى من الزمن سواءً.

النصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة(الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾، أي: أنزل الكتاب مشتملاً على قسمين، فما فيه من أخبار وأنباء فهي حقٌّ مطابق للوقع، وأنزل الميزانَ، فما فيه من تشريعات وأحكام وتكاليف فهي قائمة على العدل، وجاء التعبير عن العَدْلِ بالميزان، لأنّ الميزان رَمْزُ العدل، الذي هو إعطاء كُلّ ذي حقٍّ حَقَّهُ.

وهذه العبارة داخِلَةٌ في عموم قول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؟ جاء التعبير هنا عن اقتراب السَّاعَةِ بأسْلُوب طرحِ احتمالِ قُرْبها، الّذي يُرادُ به الإعلامُ بقُرْبِها بأسْلُوب فَنيٍّ أدبيّ، مُقَدَّمٍ بصيغة سُؤال.

أي: وأيُّ شيءٍ يجعلُك تَدْري أنّ السَّاعَةَ غَيْرُ واقِعَةٍ أيُّها المكذِّب بها، أوْ أنّها بَعِيدَةُ الْوُقُوع، إنّكَ لا تَمْلِكُ أيَّ دَليل، وإذا كان الأمر كذلك فالاحتمالات سواءٌ بالنِّسْبَةِ إليك، ومن البصيرة العقليّة الاحترازيّة أنْ تَضع

نُصْبَ عينيكَ احتمالَ قُرْب وُقوعِها لِتَتَّخِذَ حِذْرَكَ، وتبادِرَ إلى ما يَقِيكَ من عذابِ الله الذي يُمْكِن أن يُوَاجِهَكَ بَعْدَهَا، إذا قَدَّمْتَ أَوْ أَخَّرْتَ ما يُفْضِي بِكَ إليه.

وهذا الأسلوب الاستفهاميُّ التعجيبي أُسْلوبٌ بارِعٌ بَدِيعٌ من طُرُقِ الإقناع بِتَوَقّي عقاب الله يَوْمَ الدين.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: يَسْتَعْجِلُ وُقوعَ السَّاعة مُسْتَهينين بها وبأنْباءِ قِيامها، الّذين لا يُؤْمِنُونَ بها. فاستعجالهم أسلوبٌ من أساليب الجدَلِ الكلاميّ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾.

﴿أَلَآ﴾ ألا أداة استفتاح وتنبيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: إنّ الذين يجادلون بشأن قيام السّاعة شاكّين أو مشكّين بها، ورافضين الإيمان بها.

المماراة: المجادلة القائمة على المخالفة والالتواء عن الحق. يقال لغة: مَارَىٰ فُلانٌ فُلاناً يُماريه، أي: ناظره وجادله. وخالَفَهُ وتَلَوَّى عليه.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: لَواقِعُونَ في ضَلالٍ بعيدٍ عن مَوْقعِ الْحقّ.

النص الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) بشأن العذاب الواقع للكافرين يَوْمَ الدّين:

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾، أي: إنّ بَعْضَ الْكافِرينَ يَرَوْنَ عَذَابَ يَوْمِ الدّينِ أمراً بَعيداً على فرض أنَهُ حَقٌّ، فَبَيْنَ زَمَنِ وُجودِهم في الحياة الدُّنيا وَزَمَنِ حُصُولِهِ يَوْمَ الدّين إنْ صَحَّ الخَبَرُ بهِ، قُرونٌ، وأحقابٌ طويلة جدّاً.

لكنّ الله بِجَلالِ رُبُوبيّته وَبِعِلْمِهِ الشامل يَراه قَرِيباً، إذْ لَيْسَ بَيْنَ الموت

والبعث الذي يَحْصُل فيه هذا العذاب إلاّ فاصل البرزخ، وهذا الفاصل بالنسبة إلى إحساس نُفُوسِ الموتىٰ قليلٌ جدّاً، إنّهم حين يُبْعَثُونَ يُقَدِّرُون أنَّهُم لم يَلْبَثُوا بيْنَ الموت والبَعْثِ إلاَّ عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا، أي: كَنَوْمَةٍ في الضُّحىٰ، أو نومةٍ في الْعَشِيّ، والحقُّ أنّ العِبْرَةَ بإحساس النفوسِ لا بِطُولِ الزَّمن خارج إحْسَاسِهَا.

النصّ الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) خطاباً للكافرين.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

فأبانت هذه الآية أنّ الْعَذابَ الذي يُوجّهُ الله عزَّ وجل الإنْذَارَ به لِلْكَافِرين سَيَكُونُ قَرِيباً بالنِّسْبَةِ إلى إحْسَاسَاتِهم، لأنَّهمْ لاَ يَشْعُرُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلاّ بِسُرْعَةِ ملاقاتهم له يوم الدين، غير الّذِي يُلاقُونَهُ مِنْ عَذَابٍ نَفسِيٍّ في مُدَّةِ البرزَخِ الّتي لاَ يَشْعُرُون بمُرُور الزَّمَنِ فيها.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: يَنْظُرُ بِعَيْنَيْهِ ما كَسَبَ في الحياة الدُّنيا من كَسْبٍ إرَاديّ، يُعْرَضُ عليه فيه شَرِيطٌ كامِلٌ بالصُّورَةِ والصَّوتِ والنِّيَّاتِ وحركاتِ النفس كُلِّها.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾، أي: ويقول الكافر متمنّياً أن يكون مثل البهائم الّتي يَقُولُ الله عزَّ وجَلَّ لها: كوني تراباً، فتكون بَعْدَ أنْ يَقْتَصَّ للمَظْلُومَاتِ مِنْهَا مِنْ ظَالِمَاتها في الحياة الدُّنيا.

النصّ السادس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزولاً) خطاباً لرسوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: يَسْأَلُكَ الناس عن وقْتِ وُقُوعها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: قُلْ يا مُحَمَّد ما عِلْمُ وقْتِ وُقُوعِها عِنْدَأحدِ إلاّ عِنْدَ الله، فَهُوَ وَحْدَهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ العليم بوقت وقوعها.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، أي: وقُلْ يا مُحَمَّدُ للسَّائِلُ الذي يَسْأَلُكَ عن وَقْتِ وُقُوعِ السَّاعَةِ، لَعَلَّ السَّاعَةَ تكونُ قَرِيباً.

وشَرْح هذه العبارة وتحليلها سَبَقَ لدَىٰ شَرْحِ شَبِيهها آنفاً في النَّصّ الثالث من هذه النصوص.

* * *

أمّا قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ لرسوله أيضاً في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول)،

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: فإنْ أصرّوا على إدارة ظهورهم لدعوتك يا مُحمَّد، والابتعادِ عنها ابْتِعَاداً كُلّياً، فقل لهم: آذنتُكُمْ، أي: أعْلَمْتُكُمْ إعلاماً على سواءٍ بَيْني وبَيْنَكم، بأنَّ الحالة بَيْنَنا حالَةُ حَرْبٍ، لا حَالَةُ سِلْم، واعْلَمُوا بأنَّكُمْ سَتُهْزَمُونَ، وما أدْري أقريب أم بعيد ما تُوعَدُون من هَزِيمتكُم.

فهذان النَّصّان متعلّقان بما وُعِدوا من عقاب معجَّل في الحياة الدنيا.

* * *

ما ورد في السنة بشأن اقتراب الساعة:

١ ـ روى البخاريُّ ومسلم وأحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهاتَيْنِ».

وَرَوَى البخاري ومسلم وأحمد عن سَهْل بن سَعْد مثله.

كَهَاتَيْن: أي، كالفَرْقِ ما بيْنَ الإصبع السَّبابة والإصبع الوسطى، فما بقي من الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما مضىٰ منها، كالفاضل من الوسْطَىٰ بالنسبة إلى السَّبَّابَة.

قال راوي الحديث عن قتادة عن أنس، وسمعْتُ قَتَادَةَ يقولُ في قصصه: «كفَضْل إحداهما على الأخْرَى» فلا أدري أذكَرَهُ عن أَنَس أو قاله قتادة(١).

٢ ـ وروى الترمذيُّ عن الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدّاد، عن النبي ﷺ قال: «بُعِثْتُ في نَفَسِ السَّاعَةِ فَسَبَقْتُهَا كَمَا سَبَقَتْ هٰذِهِ هٰذِهِ وأشَارَ بأصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ والْوُسْطىٰ».

٣ ـ وروى البيهقيُّ في شُعَبِ الإيمان عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ(٢).

«مَثَلُ هٰذِهِ الدُّنْيا مَثَلُ ثَوْبٍ شُقَّ من أوَّلِهِ إلىٰ آخرهِ، فبقي مُتَعَلِّقاً بِخَيْطٍ في آخِرِهِ، فَيُوشِكُ ذَلِكَ الخيطُ أن يَنْقَطِع».

* * *

شرح القضية الثانية (وهي انشقاق القمر):

إنَّ جملة ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ خَبَرٌ عن أمرٍ وَقع وشَهِدَهُ طالِبُوا آيةٍ حسّيَّة من الرسُول ﷺ، فأجرىٰ الله آية انشقاقِ القَمرِ العظمىٰ، وشَهِدَها مُسافِرُون

---

(١) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٥٠٩.

(٢) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٥١٥.

كانُوا خارِجَ مكَّة في أسفارهم البعيدة، وشَهِدَها من شَهِدَها من المسلمين.

والأصْلُ حَمْلُ الكلام على حقيقته، ولا يُصارُ إلى تأويله إلاّ إذا ثبت خلاف ذلك.

وما جاء في الأحاديث المرويَّة الصّحيحة يُثْبتُ بيقينٍ أنَّ القمر قد انْشَقَّ للنبيّ محمّد ﷺ، إذْ طَلَبَ كُبَراءُ قَوْمِهِ أنْ يأتِيَهُمْ بآيَةٍ حِسّيَّةٍ، فجاءَهُمْ بها، إذْ أشَارَ إلى القمر أمام طالبي الآية منه، فانْشَقَّ نِصْفَيْن، فكان فِلْقَتَيْن، فِلْقَة ظَهَرَتْ أمَامَ الجَبَلِ، وفِلْقَةٌ ظَهَرَتْ وَراءَهُ، وظَهَرَ الجبَلُ بَيْنَ الْفِلْقَتَيْن.

قال كثيرٌ من مُتَتَبِّعي الرّوايات: إنّ خَبَرَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ للرسُولِ ﷺ مُتَوَاتِرٌ، فهو أمرٌ قَدْ وَقَعَ يَقِيناً.

ومن الرّوايات الواردة بشأن انشقاقه ما يلي:

١ ـ روَىٰ البخاريّ ومُسْلِمٌ عن أنس، قال: إنّ أهلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُول الله ﷺ أنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فأراهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتىٰ رَأو حِرَاءَ بَيْنَهُمَا»[1].

٢ ـ وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن ابن مسعودٍ قال: انْشَقَّ القَمَرُ عَلى عَهْدِ رَسُول الله ﷺ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةً فَوْقَ الجَبَلِ، وفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اشْهَدُوا»[2].

٣ ـ وروى الإمام أحمد عن أنسٍ قال: سأل أهْلُ مَكَّةَ النبيَّ ﷺ آيَةً، فَانْشقَّ الْقمَرُ بِمَكَّةَ مرَّتَينِ، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

٤ ـ وروى الإمام أحْمَدُ عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِم عَنْ أبِيهِ قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةً عَلَىٰ هٰذَا الْجَبلِ، وفِرْقَةً عَلىٰ هٰذا

---

[1] انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٨٥٤.

[2] انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٨٥٥.

الْجَبَلِ، فَقَالُوا: سَحَرَنا مُحَمَّد. فَقَالُوا: إنْ كَانَ سَحَرَنَا فإنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ.

٥ ـ وروى ابْنُ جَرير بِسَنَدِهِ عَن ابْنِ عَبَّاس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ قال: قد مَضَىٰ ذَلِكَ، كَانَ قَبْلَ الهجرة، انْشَقَ الْقَمَرُ حَتَّى رَأَوْا شِقَّيْهِ.

٦ ـ وروى البيهقيُّ عن عبْد الله بْنِ عُمَر في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ قال: وقَدْ كان ذَلِكَ على عَهْدِ رَسُولِ الله، انْشَقَّ فِلْقَتَيْنِ، فِلْقَةً مِنْ دُونِ الْجَبَلِ، وفِلْقَةٌ مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ، فقال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»،

وهكذا رواه مسلم والترمذيُّ من طُرُقٍ عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد.

٧ ـ وعند البخاريّ عن عبد الله بن مَسْعُود قال: انْشَقَّ القَمَرُ على عهد رسول الله ﷺ، فقالَتْ قُرَيْشٌ: هٰذا سِحْرُ ابنِ أبي كَبْشة. قال: فَقَالُوا: انْظُروا مَا يأْتِيكُمْ بِهِ السُّفَّار[1]، فإنَّ مُحَمَّداً لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْحَرَ النَّاس كُلَّهُمْ، قال: فَجاءَ السَّفَّارُ، فَقَالُوا ذَلِكَ.

٨ ـ وروى البيهقيُّ عن مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْد الله، قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ حَتَّىٰ صَارَ فِرْقَتَيْنِ، فَقَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: أَهْلَ مكَّةَ، هٰذا سِحْرٌ سَحَرَكُمْ بِهِ ابْنُ أبي كَبْشَةَ[2]، انْظُرُوا السَّفَّارَ، فإنْ كَانُوا رَأَوْ ما رَأَيْتُمْ فَقَدْ صَدَقَ، وإنْ كَانُوا لم يَرَوْا مِثْلَ ما رَأَيْتُمْ فَهُوَ سِحْرٌ سَحَرَكُمْ بِهِ.

---

(١) **السُّفَّار**: المسافرون.

(٢) **ابن أبي كبشة**: يعنون محمّداً نِسْبَةً إلى أبيه من الرضاعة، زوج مرضعته حليمة.

قَالَ: فِسُئِلَ السَّفَّارُ. قال: وَقَدِمُوا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَقَالوا: رَأَيْنا.

٩ ـ وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ حتَّىٰ رَأَيْتُ الْجَبَلَ مِنْ بَيْنِ فُرجَتَيْ الْقَمَرِ حينَ انْشَقَّ.

فهل بعد هذه الرّوايات الثابتاتِ من أسانيد مختلفة مجالٌ لتشكُّك بَعْضِ المتشككينَ الذين يحاولون تأويل النّصّ القرآني، وحَمْلَهُ على أنّهُ خَبَرٌ عمّا سَيَحْدُثُ مُسْتَقْبلاً عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَة، أو قُبَيْلَها.

خطأ ابن كيسان:

زعم ابن كَيْسان أنَّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ على التقديم والتأخير، وأنّ الأصل انْشَقَّ الْقَمَرُ واقْتَرَبتِ الساعة، مُتَوَهِّماً أنّ انشقاق القمر سابقٌ لاقتراب السّاعة.

لقد ظنّ أنَّ اقترابَ السَّاعة هو وقُوعُها، فوقَعَ في الخطأ، مع أنّ اقتراب السّاعَةِ شَيْءٌ، ووقُوعَ السَّاعَةِ شَيّءٌ آخرُ، فاقْتِرابُ السَّاعَةِ حَاصِلٌ قَبْلَ انْشِقَاقِ الْقَمر حتماً.

* * *

قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

بعد الإعلام بالقضية الأولى، والتّنبيه على القضيّة الثانية، أبان الله عزَّ وجلّ أن من صفات المكذّبين بالحق، الكافِرين به كُفراً إرادياً. بتأثير عوامل نفسيَّةٍ غير منطقيَّةٍ ولا عقليَّةٍ، أنْ لا يُوَجّهوا أَنْظَارَهُمْ لرؤيَةِ الآيات الدَّالاّتِ على صِدْقِ الرّسول، وصِدْقِ مَا جاء به عن ربِّه، إلاَّ عَلى سبيل النُّدْرَة، دَلَّ على هذا استعمال حرف الشرط [إن] دون حرف الشرط «إذا».

والسبب في نُدْرَةِ تَوْجِيههم أنظارهم لآيات الله اتّبَاعُهُمْ لأهواء نُفُوسهم وشهواتها، ونوازِعِها واستجابتُهم لنوازغ الشياطين، وهٰذه عوارض مَرَضِيَّةٌ

تُغْشِي أَبْصَارَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ، أو تُعْمِيها فهم لا يَرَوْنَ آيات الله.

وإنْ يَرَوْهَا على سَبيل النُّذرة، وذلكَ حين تكونُ حِسّيَّةً وظاهِرَة للجميع، فلا يُنْكِرُها إلاَّ أعْمَى أصَمُّ، فإنَّهُم يُعْرِضُونَ عنها، فَيُعْطُونَها عارضهم، وهو جانبهم، ولا يُوَاجِهُونَهَا، ثُمَّ يُوَجّهُونَ النَّاس للتَّشْكيكِ فيها، فيَصِفُونها بما يُخرِجُها عَنْ كَوْنِها آيَةً حَقيقيَّةً، تَحْمِلُ دَليلاً بُرْهَانِيًا على صِدْقِ الرَّسُول في رسالته، وفيما جاء به عن ربّه، كأنْ يَصِفُوها بأنّها عَمَلٌ من أعمال السِّحْر، أو أثرٌ مِنْ آثاره.

ففي شأن أئمة الكفر من مشركي قريش، الَّذين لم يَسْتَفِيدوا مِنْ معجزة انشقاق القمر لرسول الله ﷺ، ولا يستفيدون من أيَّةِ آيَةٍ يَرَوْنها، لأنَّهم كافِرونَ عن تصميم إراديّ، علىٰ الرُّغم من أنّهم مُسْتَيْقنُونَ داخِلياً من صِدْقِه، وصِدْق ما جاءهم به عن رَبّه، إذْ نُفُوسُهُمْ وأهْواؤُهم وشَهَواتُهُمْ نَافِرَةٌ، أنْزَل الله عزّ وجلَّ هٰذِهِ الآيَةُ.

فالمعنى: لَقَدْ رَأَوْا آيَةَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، فأعْرَضُوا وقالُوا: سَحَرَكُم محمد، كَما جاء في بعض الرّوايات التي سَبَقَ ذِكْرُها.

وإنْ يَرَوْا مُسْتَقْبَلاً على سبيل النُّذرة آيَةً ما، مع التَّشْكِيكِ في أن يُوَجّهوا أنظارهم وعقولهم لها، يُعْرِضُوا عنها، ويَقُولُوا مثل ما قالوا في آيَةِ انْشِقاقِ القَمَرِ، سَحَرَكُمْ مُحمَّد.

وبالتأمل نُلاحِظُ أنّ بَيْنَ الآيةِ الأولى: والآية الثانية. كلاماً مطويّاً مُقَدَّراً، يُمْكِن اسْتِنباطُهُ باللَّوازِمُ الذِّهْنِيَّةِ، وتقديرُهُ كما يلي:

اقتربَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ، فأعْرَضَ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشّركِ في مكَّة عن آية انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وقالوا: هذا سِحْرٌ، وهو دِيْدَنُهُم مع كلّ آيَةٍ سَيَرَوْنَها، إنْ سَمَحُوا لأنْفُسِهم بأنْ يَرَوْها، أو غَلَبَتْهُمْ الآيَةُ باعتبارها حِسّيَّةً أوْ عَقْلِيَّةً قاهِرَة، وإن شأنَهُمْ أنْ يُعْرِضُوا غير مُبَالِينَ بدلالات آياتِ الله المُقْنعاتِ مَنْ لديهم استعدادٌ لقبول الحقّ واتباعه.

الإعراض: إعطاء الجانب، وهو منزلَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقبالِ والإدبار، عُرْضُ الشيء في اللّغة، جانبه، وعارضا الإنسان صفحتا خدَّيه.

مُسْتَمِرٌ: جاء في تفسير هذه الكلمة، أنّها بمعنى: «ذاهب» أيْ: يَمُرُّ ويَمْضِي، فلا يبقىٰ، شأنه كشَأنِ كُلِّ أعمال السَّحَرَة.

وجاء في تفسيرها، أنّها بمعنى: «شديد قويّ» اشْتقاقاً من المِرَّةِ وَهِيَ في اللّغة القوّة والشِّدَّة.

وتأتي هذه الكلمة في اللُّغة، بمعنى: «مُعْتَاد متكرر على طريقة وَاحِدَة» وهذا المعنى أَلْصَقُ المعاني بمفهوم النّصّ فيما أرى، بَعْدَ أن اكتَشَفْنا ما فيه من مطويَّاتٍ.

على أنّ المعانيَ الثلاثَةَ كُلَّها ممّا يُمْكِنُ أنْ يتَحَدَّثُ به أئمة الكُفْرِ والشّرْكِ هؤلاء، ويكون الأمْرُ على التوزيع فيما بينهم.

وقد يكون من التدبُّر الأمثل حَمْلُ اللفظ على هذه المعاني كُلِّها، فبعضهم يزْعَمه سحراً يمُرُّ ويَمْضِي، وبعضهم يراه شديداً قوياً، وبعضهم يزْعُمُ أنه من الأمور المعتادة المتكرّرة الّتي يأتي بِمِثْلِها السَّحَرَة.

وقد عرفنا أنّ من أساليب القرآن الإيجازيّة استعمال اللّفظ الواحد في معانيه المتعدّدة، إذا كانت قابلةً للاجتماع بوجْهٍ من الوجوه، إذْ لا تنافُرَ بينها ولا تضادّ. وهذا من عوامل وَفْرة المعاني في القرآن المجيد، ومن عناصر الإعجاز فيه.

* * *

قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ أي: أعْرَضُوا عن آية انشقاق القمر ودَلالتها، وكان عليهم أن يسْتفيدُوا منْها الدَّلالة على أنّ محمّداً رسُولُ الله حقاً وصِدْقاً وأنّ ما جاءَ به

عن ربّه بلاغٌ حَقٌ وصدْق، ولكنّهم كذّبوا رَسُول الله محمّداً، وكذّبُوا ببلاغاته عن رِبّه، فلم يؤمنوا بالقرآن، ورفَضُوا اتّباع الرَّسُول فيما جاءهم به.

وإذْ رَفَضُوا اتّباع الرَّسُول على صراط الحقّ والخير والْهُدَىٰ والفضيلة، لم يكُنْ لهم إلاّ أن يَتَّبِعُوا أهْوَاءهم، لأنّهم ما داموا أحياء في هذه الحياة الدينا فلا بُدَّ أنْ يَتَحَرَّكُوا في اتّجاهٍ ما، فإذْ لَمْ يتحرَّكُوا متّبعينَ الرَّسُول على صراط الله، فلا بُدَّ أنْ يَتَحَرَّكُوا مُتَّبِعِينَ أهْوَاءَهم، أمّا السُّكُونُ بلا حَرَكَةٍ فَهِيَ طَبيعةُ المَوْتى.

هذا ما دَلَّ عَلَيْهِ قوله تعالى؛ ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾. أي: ولو صَدَّقُوا بأنّ محمّداً رسول الله، وَصَدَّقُوا بما جاءَهُمْ به عن ربّه، لاتَّبَعُوه، وسَلَكُوا صراط الله المستقيم.

واتّباعُ الأهواء يشْمَلُ اتّباعها في القضايا الفكريّة، واتباعَها في القضايا الاعتقاديّة، واتّباعها في القضايا النفسيّة، واتباعها في القضايا العاطفيّة، واتّبَاعَها في القضايا السُّلُوكية في مُخْتَلِف شُؤُونِ الحياة.

وبما أنّ أهْواء النّاس لا تَتطابَقُ غالباً، فلا بُدَّ أن يكون مُتَّبِعُو أهوائهم في أمْرٍ مَرِيجٍ مختلط من أمُورٍ غير متجانِسة، ولا مُتوافقة، كما قال تعالى فيما سَبَقَ أنْ أنْزَلَ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

فتكامل النَّصّان في الدّلالة، والمعنى: وكَذّبوا بالحقّ لما جاءهم واتَّبَعُوا أهْوَاءَهم فَهُمْ فِي أمْرِ مَرِيج.

قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

مُسْتَقِرّ: أي: ثابتٌ مُتمكّنٌ، لا شيء يُغيّره عن ثباته، ولا شيء يُزَلْزِله، يقال لُغَةً: استقرّ الشيء، أي: ثبت وتمكّن. واستقرَّ بالمكان، أي:

تمكَّنَ فيه وثبت. **مُسْتَقِرّ**: اسم فاعل من استقر بمعنى ثبت وتمكن وقرّ في مكانه.

فما المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

أقول: إذا خَرَجَتْ شِرْذِمَةٌ قليلةٌ من الشعب على نظام الدّولة القويّة، وجَحَدَتْ سُلْطَتَها، واتَّبَعَتْ أهواءها، وقد رَتَّبَتْ الدولةُ لمُحَاسَبَتِها ومُعَاقَبَتِها يَوْماً مُحَدَّداً لَمْ يَحِنْ حينُه بَعْدُ، وتَرَكَتْ لَهَا فُرْصَةَ التَّوْبَة وإصْلاحِ شُؤونِها وَطَاعَةِ الدّولة وَنظامها.

وهذه الشّرذِمة في خروجها على الدولة ونظامِها لا تُؤثّر على شيءٍ من أمور الدولة المستقرّة الثابتة، ولا تَضُرُّ بأعْمَالِها إلاَّ أنْفُسَها.

ولإشعار هٰذهِ الشرذمة المتمرِّدة بعَدَمِ تأثيرِ تَمَرُّدِها على شيءٍ من أنظمة الدَّولة وأمُورها الثابتة المستقرّة، قال الرّئيس: إنّ شَرْذَمَةً جَحَدَتْ دولتَنا، وكذّبَتْ مبْعُوثِينا، وبَلاَغَاتِنا، واتَّبَعَتْ أهْوَاءَها، فَلْتَعْلَمْ أنّ دَوْلَتنا وأنْظمَتنا وكُلَّ أُمُورِنا مستقرَّةٌ مَحْمِيَّةٌ، لا يُؤثِّرُ على شيءٍ منها أيّ خارجٍ على نظامِنا، ومُتمرِّدٍ على طاعَتِنا، وحِينَ يأتي وقْتُ الحساب والعقاب فإنّنا نأتي بكلّ خارجٍ منهم مكبّلاً بالحديد مَسُوقاً، لَيَلْقَىٰ جزاءه، وهو لاَ يستَطِيعُ أنْ يَفْلَتَ منّا.

أليس هذا الكلام مُناظراً لقول الله عزّ وجلّ بشأن الكافرين المعاندين ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾؟؟

إننا نفهم من هذا القول، أنَّ تكذيبهم واتّباعهم لأهوائهم لا يُغيّر من أنظمة الكون وقوانينه المستقرّة الثابتة شيئاً، ولا يُخرِجُ شيئاً من مُسْتَقِرّاتِ أُمُور الله عن استقراره، فلنْ يَضُرّوا الله شيئاً.

إنهم لا يَضُرُّونَ إلاّ أنفُسَهم، فكُلُّ أمْرٍ لله في كَوْنِهِ ثابت مُسْتَقِرّ، لا يُقَلْقِلُهُ ولا يُغَيّرُه تكْذِيبُ المكذّبين، ولا تمرُّدُ المتمرّدين. ولا اتباعُهُمْ أهواءهم، مهما اجتمعوا لذلك وحَشَدُوا كُلَّ قواهم.

إنّهم لا يَسْتَطِيعُون أنْ يُغيّروا شيئاً من قوانين الكَوْن وأنظمته، في السّماوات والأرض، لأنّها من أمْرِ الله عزَّ وجلّ، وكلّ أمْرِ لله جلَّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه مستقرٌّ، فهم بأعمالهم لن يضرّوا الله شيئاً.

إنَّهم لا يَسْتَطِيعون أن يَمْنَعُوا عن أنفسهم عقاب الله إذا جاءَ أَجَلُهُ، لأَنَّهُ من أمْرِ الله، وكلُّ أَمْرِ لله جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُهُ مُسْتقرّ، فهم بأعمالهم لن يضرّوا الله شيئاً.

إنّهم لا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَمْنَعُوا ظُهُورَ دين الله على الدّين كُلِّه، لأنّه من أمْر الله، وكُلُّ أمْرِ لله جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه مُسْتَقرٌّ، فهم بأعمالهم لنْ يَضُرّوا الله شيئاً.

إنهم لا يَسْتَطِيعُون أنْ يَظْفَروا بالانتصار أخيراً على رسُول الله والذين آمنوا معه، فقد قضىٰ الله أنْ يَنْصُرَ رسُولَهُ والمؤمنين، وهذا من أمرْ الله، وكُلُّ أمْرِ لله جلَّ جلالُه وعَظُمَ سلطانُه مُسْتَقِر فهم بأعمالهم لن يضرّوا الله شيئاً.

وهكذا إلى سائر القضايا الّتي هي من أمْرِ الله في ظاهراتِ الكَوْنِ، أو في قانون الاجتماع البشري، أو في تاريخ الناس مما هو من أوامر الله فيهم.

المكذبون الذين اتّبعوا أهواءهم وعصاة المؤمنين لن يَضُرّوا الله شيئاً:

فالذين كذَّبوا واتَّبعُوا أهْواءَهُم لا يَضُرُّونَ الله شيئاً، وكذلك عصاة المؤمنين، وقد جاء التصريح بهذا المعنى في عدّة نُصُوصٍ قرآنيّة:

النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أي: فإن تتولَّوْا مُدْبرين.

إنّ ربيّ مُهيمنٌ بِسُلْطَانِه على كُلِّ شيءٍ، وهو عظيم الحفظ لكلّ شيء في ملكوت السّماوات والأرض، فلا تَسْتَطيعون تغيير أي شيءٍ من قوانينه، وأنظمته، وسُنَنِه.

النص الثاني:

قول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للمؤمنين:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

النص الثالث:

قول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً خِطاباً لرسوله ﷺ بشأن المنافقين أو المرتدين:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

النص الرابع:

قول الله عزّ وجل في سورة (مُحمّد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾: أي: ووَقَفُوا مَوْقف المحاربينَ الأعداء، في شِقٍّ مُقَابلٍ لشِقِّهِ، يُدَبّرون المكايد ويمكُرون.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: أي: وسيُبْطل الله أعمالهم الَّتي يُعِدُّونها ويكيدونها ضدّ الرّسول والذين آمنوا به واتّبعُوه.

النصّ الخامس:

قوله الله عزّ وجلّ في سُورةِ (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول) خطاباً للذّين آمنوا مُحَذِراً لهم من التخلّف عن الخروج إلى القتال ناصِرِين لرَسُوله، إذا أُمِرُوا بالخروج أمْرَ إلزام:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

* * *

قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

أي: وأُأَكّدُ أنّ المتحدَّث عنهم وهم كبراء كفّار قريش إبّان تنزيل السورة جَاءهم من أخبار الأولين وقِصَصِهم ما يكْفي لازْدِجَارهم عن كُفْرِهِمْ وعِنَادهم ومعاداة الرَّسول والذين آمنوا به واتْبَعُوه، وازْدِجَارِهم عن اتّباعِهِمْ أهواءَهُم.

فعْلُ «جَاء» يُستَعْمل لازماً، فتقول: جاء الرَّجلُ. ويسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّياً، فتقول: جاء النّبأُ الرَّجُلَ.

تقول: جاء يجِيءَ جَيْئاً، ومَجِيئاً، وجَيْئَةً، أي: أَتَى.

وتَقولُ: جَاءَهُ يجيئه، بمعنى: جاءَ إليه.

وتقول: جاءَ بالشيءِ، أي: أتَى به وأحْضَرَه.

والفعل في الآية هنا على التعدية.

﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾: الأنباء جَمْعُ «النَّبأ» وهو الخبر، واشتقاقُه من نَبأَ الشّيْءُ، إذا ارْتفع وظهر، ففي الأنباء من عُموم الأخبار ما يلْفِتُ الأنظار إليها، لارتفاع مضامينها، ولأهَمِيّتِها، وكذلك أخبار الأوّلين التي جاءت في القرآن، فهي ذَوَاتُ بُروز وأهَمِّيَّة، لما فيها من عِبَرٍ وعظاتٍ جليلات.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾: أي: ما فيه ازْدِجار، على أنَّ «مُزْدَجراً» مصْدَر ميمي، وهذا أحْسَن الوجوه، وأبْعَدُها عن التكلّف، والمعنى ما فيه كَفٌّ وامتناع، فعله «ازْتَجر» على وزن «افْتَعَل» مطاوع فعل: «زَجَرَهُ» وهو مثل «انْزجَرَ» في المعنى، تقول: زجَرْتُهُ فانْزَجر، وازتَجَر، وتُقْلَبُ تاء «افتعل» دالاً، بعْدَ الزاي، والدَّال، والذّال، وبهذا صار فعل «ازْتَجَرَ» بصيغه «ازْدَجَرَ» والمصدر الميمي منه مُزْدَجَر.

الزّجر: الكَفُّ، والمنْعُ، والنهْيُ، والنَّهْرُ.

والازْدِجَارُ: الامتناع والامْتِثال للزواجر.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾: بدل من «ما» في عبارة: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾. أي: إيْرادُ أنباءِ الأوّلين التي فيها مُزْدَجَرٌ لِمَنْ يتلقّاها بوعْيٍ وعقْلٍ وَرُشْدٍ، هو من أساليب الدَّعْوة والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحكيمَةِ جدّاً، فهي في الحقيقة حكْمَةٌ بالِغَةٌ غايَة ما يُمْكِنُ اتخاذُه من أسَالِيبَ حكيمةٍ، تَدُورُ على مِحْوَرَي الرَّغَب والرَّهَبِ في النفوس، لمَا فيها من إثارَةِ الْخَوْفِ في عُمْقِ النفس إثارةً تَجْعَلُ العاقل الرّشيد يَزْدَجِر.

فمن كَانَ لدَيْه استعدادٌ ما للتأثُر بما يُحَرِّكُ في النفس مركز الخوف لدَيْها، وسَمِع أنبَاءَ الأوَّلين، وما جرى لهم من عقوبات ربَّانيّةٍ أهْلَكَتْهُمْ إهلاكاً عامّاً، لاقَوْا فيه عذاباً أليماً، بسبب كِبْرِهم وعنادهم وكُفْرِهم وطغيانهم، فلا بُدَّ أنْ يَزْدَجِرَ عن كُفْرِه وطغيانه، ويُقْلِعَ عن عناده وكِبْرِه.

الحكمة في الأمور(١): وضعُ الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أَوْ مَعْرِفة، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من صُوَر السُّلُوك الإرادي.

وتكون الحكمةُ باختيار أفضل الأشياء وأتْقَنِها وأحْسَنِها من كُلِّ ذلك، لِمَا تُخْتَارُ له.

والله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه، أحْكَمُ الحاكِمين، وأحْكَمُ المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحِكْمتُه بالِغَةٌ الغايةَ دواماً في كُلِّ شيء.

والحكيم: هو الّذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويَخْتارُ أفضل الأشياء وأتْقَنَها وأحْسَنَها في الأمور المختلِفَةِ، لما يُعْطِي أحْسَنَ نتيجة.

والسّبب في كَوْنِ عَرْضِ قِصَصِ الأوَّلِينَ، للاتّعاظ والاعتبار بما جَرَىٰ لهم بمقتضى سُنَنِ الله في عباده، حِكْمَةً تَرْبَويَّةً بالغةً، أنَّ مُعْظَم الناس يضعُفُ عندهم تأثير الإقناع الفكْرِيّ وحْدَه، ويَضْعُفُ عندهم تأثير الترغيب والترهيب عن طريق الكلمةِ والوَعْدِ والْوَعيد فقط، حتّى إذا شاهَدُوا الْعَوَاقِبَ في غَيْرِهم كانَتْ هذه المشاهدة للعواقب بالغةً في التأثير بهم غاية ما يُمكِنُ أن يُقدّمه توجيه تَرْبَوِيٌّ، ولَيْسَ فوقَهُ من وسيلة إلاّ إنزال العقاب الفعلِيّ، أو تقديم الثواب الفِعْليّ، لِمَن يُرَادُ إقناعه.

لكِنّ هذا يتنافى مع حكمة الابتلاء لتحقيق الحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، والجزاء، بعْدَ انتهاء ظروفه كُلِّها، وهو غير داخلٍ في الخطّة أصلاً.

فثبتَ أنّ عَرْضَ قِصَصِ المهْلَكِينَ من أهل القرون الأولى القائمة شواهدها في آثار دِيَارِهِمْ حِكْمَةٌ بالغةٌ حقّاً، أي: بالغة غايَةَ ما يُمْكِنُ اتّخاذُهُ من وسَائِلَ إقناعيَّةٍ تربويَّةٍ ذاتِ تَأْثِيرٍ في النُّفُوس المستعدَّة للتأثُّر بالمخيفات.

أمّا الْعُقُوباتُ الْجُزْئِيَّةُ التَّرْبَوِيَّةُ الّتي يُنْزِلُهَا اللّهُ بالْعُصَاة المعَانِدِين، دُونَ

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (القمر) حول الحكمة في القرآن المجيد.

إهْلَاكٍ عامٌ، كأنْواع الرِّجْزِ الّتي أنزلَها الله عزّ وجلّ أيّامَ مُوسَىٰ عليه السّلام، على آل فِرْعَون ومُتَابِعيهم في مصر، فهي تَدْخُلُ في قائمة وَسَائِلِ الحكمة البالغة، لكِنَّهَا تُصَنَّفُ ضمن الوسائل الْعَمَلِيّة، لا ضِمْنَ الوسائل الإقناعِيَّةِ البيانيَّة، فتِلْكَ لها تَصْنِيفٌ خاصٌ، فيظَلُّ عرضُ قِصَصِ الأوّلين الّتي تُقَدِّمُ للمخاطبين بمَضَامِينِها عِبَراً وعظاتٍ، في مجال التوجيه والنُّصْح البيانيّ حِكْمَةً بَالِغَةً.

وهذه القصص تُقَدّمُ إنْذاراً بالنَّظِير مُقْرُوناً بشاهدٍ تاريخيٍّ مأخُوذٍ مِنَ الْوَاقِعِ، ومَعَهُ أدِلّةُ إثباته، فَهَلْ فَوْقَ هذا وسيلةٌ إقناعيّة؟!.

لكنَّ الّذين كذّبوا الرسول محمّداً ﷺ، وكذّبوا بما جاءهم به عَنْ رَبّه، من كبراء كُفّار قُرَيشٍ إبَّانَ تنزيل السُّورَة لم يَنْتفِعوا بالنُّذُرِ القوليّة، ولا بِعَرْضِ قِصَصِ الأولين فيما سبَقَ إنزالُه من سُور، وهي السُّور التالية:

- (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول).
- (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).
- (الفيل/ ١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول).
- (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول).
- (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول).
- (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وبياناً لعدم انتفاعهم بعَرْضِ طائفةٍ من قِصَصِ الأولين في هذه السُّور، قال اللَّهُ عز وجل:

- ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾: أي: فلَيْسَ للنُّذُرِ مَعَ وَفْرَتِها غَنَاءٌ عِنْدَ هؤلاءِ.

عبارة: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ تدلُّ على كلامٍ مطويٍّ، والمعنى: فما

أغنَتْ هؤلاء ما تضمّنَتْه هذه الأنْباءِ مِنْ نُذُرٍ، وقَدْ كَشَفُوا عَنْ عِنَادٍ وإصرارٍ على الباطلِ شَدِيدَين، ولا تُغْنِيهِمْ مَعَهُما في المستقْبَلِ النُّذُرُ، مهْما كان شأنُها، وَمَهْما كان إزْهابُهَا وتخْوِيفُها، فَدَلَّ تَعْرِيفُ النُّذُرِ بأداة التعريف الكماليَّة، على كمال هذه النُّذر ببُلُوغها غاية الإرهاب والتخويف.

ومعنى: ﴿فَمَا تُغۡنِ﴾ فَمَا تكْفِي وما تَنفَع، يُقال لغةً: أغْنَىٰ الشيءُ إذَا كفَىٰ ويُقال: ما يُغْنِي عنْكَ هذا، أي: مَا يُجزِئ عنْكَ وَمَا يَنْفَعُك.

﴿ٱلنُّذُرُ﴾: جمع «النَّذِير» وهو يأتي اسْماً للإنْذَار مصْدر «أنْذَر» ويأتي بمعنى «المنْذِر».

الإنْذَار: هو الإخبار بالعواقب غير السَّارَّة، التي فيها شرٌّ، أو ضُرٌّ.

المنذر: هو المخبر بالعواقب غير السَّارّة.

وإذا حَمَلْنَا لفظ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ على معنَيَيْنه، طبقاً لأسْلُوب القرآن في استخدام اللَّفظ ذي المعاني المتعَدِّدَةِ في معانيه، ما لَمْ تكُنْ متعارضةً لاَ تَجْتَمِع، كَانَ المرادُ: فما تُغنِي هؤلاءِ الإنْذاراتُ ولا المنذِرُونَ، وهذا من عوامل وفْرَة المعاني في النَّصّ القرآني.

● قول الله عزّ وجل: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ هذهِ آخِرُ فقْرَةٍ من فقرات هذا الدرس الأول من دُروس السّورة، أي: فأدِرْ وجْهَك عن هؤلاء، وَوَلِّهِمْ دُبُرَك، وانْصَرِفْ إلى دعوة غيرهم من الذين لم يَصِلُوا إلى حالة ميؤوسٍ منها كحالتِهم.

التولّي: أمْرٌ أشَدُّ من الإعراضِ فلا يُفَسَّرُ به، إنَّه إعْطاءُ الدُّبُر، والانصراف لشأن آخر، أمَّا الإعراضُ فهو إعْطاء عَارِضَةِ الوجه، وهي صفحة الخدّ، والمرادُ بالإعراض إعطاء الجانب دُونَ مواجهةٍ، أمَّا التولّي فيكون بإدَارَة الظهر للمتولَّىٰ عنه، وإعطائِهِ الدُّبُر مع الانصراف.

فالإعراض وَسطٌ بين المواجهة والتولّي.

وإذِ انكشف أنَّ المعنيّين من كبراء كفَّار قريش قَدْ وصَلُوا إلى حالة ميؤوس منها، إبَّان تنزيل السّورة، كان من الحكمة أن يأمُر الله رسوله بأن يَتَوَلّىٰ عنهم، لينْصَرِفَ إلى غيرهم، ويُوَجّه جَهْدَهُ واجْتِهَادَه لآخَرِينَ يُرْجَىٰ أنْ يُوجَدَ فيهم مَنْ يسْتجيب.

إنَّ حالَ هؤلاء قَدْ تَصَلَّبَ إلى الحدِّ الّذِي صاروا فيه قوماً ميؤوساً من استجابتهم لدَعْوَةِ الحقّ، فقد ظهر بالامتحان والتجربة، أنّهم كَفَرَةٌ مُعَانِدُون مكابرون مُصِرُّونَ على باطِلِهِمْ، مَهْما ظَهَرَ لَهُمْ أنّ الْحقّ هو ما أنت عليه يا مُحمّد، لا ما هم عليه، فَمِنَ الْخَيْرِ لك، ومِنْ تَوْفير الْجَهْد، وعَدَم ضياع الوقت سُدىً، في مُتَابَعَة اجْتِذَابِهِمْ إلى الإيمان والإسلام، أَنْ تتولّىٰ عَنْهُمْ مُدْبِراً، وتَنْصَرِفَ إلى مُجاهَدَةِ غيرهِم مِمَّن لَمْ ينْكَشِفْ بَعْدُ من أمْرِهِمْ ما انكَشَفَ من أمْرِ هؤلاء.

وهذا التولّي هُوَ من الحكْمَة في سُلُوكِ الدّاعي إلى سَبيلِ رَبّه، بالنسبة إلى مَنْ أدْبَر وانْصرَف مُسْتغرقاً في ضلالٍ بعيد، ومعانداً مكابراً.

ولمّا لَمْ يكُنْ هَؤُلاءِ قَدْ وَصَلُوا إلى حالة ميؤوسٍ مِنها إبَّانَ نُزُول سُورَة النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) أَمَرَ اللَّهُ رسُولَهُ بالإعراضِ فقَطْ عمَّن تولّىٰ، فقال الله له فيها:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: أعْطِ عَارِضَكَ فقط لمَنْ أعْطَاكَ ظَهْرَهُ وتولّى، أمّا من عانَد وكابر وأظهرَ عِدَاءَه ومُشَاقَّتَه، ووصل إلى حالة تدبير المكايد، فَتولَّ عَنْه.

ومن هذا التوجيه القرآنيّ: نستَفِيدُ أنّ مَوْقفَ الداعي إلى سبيل ربّه ينبغي أنْ يكون مع غير المستجيبين لدعوته موقفاً متوسِّطاً لا موقفاً مكافئاً، يُقَابل فيه الموقفَ بنظيره تماماً.

فلا يُقابِلُ المتولّيَ المدْبِرَ بالتولّي والإدبار، بل بنِصْفِ هذا المقدار، والنصف هو الإعراض.

ولا يقابل الكافرين المكابرين المعاندين المكايدين، الذين دخلوا مرحلة المضايقة والأذى، وممارَسَةِ صُوَرٍ أُولَى من المقاومة وتدبير المكايد، بمثل أعمالهم، بل يقابلهم بالتولّي والإدبار فقط، أو مع الانصرافِ عنهم، للاشتغال بقومٍ مطموعٍ في استجابتهم، لم تَصِل تجربتهم إلى مرحلة اليأسِ من استجابتهم.

وهكذا تعطينا دقائق البيانِ القرآني مَا ينبغي للدُّعَاةِ أن يتحلَّوْا به، وما هو المطلوبُ منهم من سلوكٍ في سبيل الدَّعوة إلى سبيل رَبّهم.

وهذا من الحكمة التي أمر الله عزّ وجل بها في الدعوة.

وبهذا انتهى تدبّر الدرس الأول من دروس سورة (القمر) وقد اشتمل على البيانات التاليات:

(١) بيان أن عتاة مشركي مكة إبَّان تنزيل السورة، قد وصلوا إلى مرحلة الأعراض عن أيَّةِ آيَةٍ يَرَوْنها، وعَدَمِ التأثر بها، والإصرارِ على موقفهم العِنَاديّ المتعنت، واصفين الآيات العظمىٰ بأنها سِحْرٌ مستمرّ.

(٢) بيان موقفهم من الرسول ورسالته، وهو موقف المصِرّ على التكذيب والعناد والمكابرة.

(٣) بيان موقفهم الحركي في تصرُّفاتهم، وهو اتباعهم أهواءهم المختلفة.

(٤) بيان أنّ اتّباعهم أهواءَهُمْ لا يؤثّر على أيّ أمْرٍ من أمور الله في كونه، فكلُّ أمْرٍ مسْتقرٌّ على فوق النظام الرّبَّانيّ، وهم لا يضُرُّون إلاَّ أنفسهم.

(٥) بيان أن موقفهم تجاه أعظم الزواجر البيانية البالغة، هو موقف متبلّد حِسّ الخوف من العواقب الوخيمة المهْلِكة، التي أنزلها الله بكفار القرون الأولى.

(٦) بيان الموقف الذي ينبغي أن يُعامِلَهُمُ الرَّسُول به وهو موقف التولّي عنهم للانصرافِ إلى مجاهدةِ غيرهم من الذين لم يَصِلُوا إلى حالة مَيْؤُوس منها.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو من (بعض الآية ٦ ـ ٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

- قرأ ورْشٌ، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي]** بإثبات الياء في الوصل فقط. وقرأ البزّي ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.

وقرأ باقي الْقُرّاءِ العشرة بحذفها في الحالين ﴿ٱلدَّاعِ﴾.

وهي وجوه عربيّة جائزة في النطق.

- وقَرَأ ابْنُ كثير: **[نُكْرٍ]** بإسْكان الكاف. وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: **[نُكُرٍ]** بضم الكاف، وهما وجهان جائزان لغة والإسكان تخفيف.

- وقَرَأ نافع، وابْنُ كثير، وابنُ عامرٍ، وعاصِمٌ، وأبو جعفر ﴿خُشَّعًا﴾ جمع «خاشِع».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[خَاشِعاً]** على الإفرادِ تنزيلاً لاسم الفاعل منزلة الفعل.

والقراءتان وجْهانِ عرَبيّان جائزان، وكلاهُما فصِيح، لأنّ خُشّعاً جمع تكسير، بخلاف خاشعين، فلو جاءت القراءة خاشعين أبْصارُهم، لكان ينبغي حمْلُها على لُغة أكلوني البراغيث.

لكن جاءت ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾. والمعنى على القراءتين واحد.

تمهيد:

في هذا الدرس ذكر خَمْسِ لقَطَاتٍ تَصْويريّة بيانيّة تُصَوِّر مقاطع من أحداثِ يوْمِ البعث، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء:

اللّقطة الأُولى:

دعْوةُ الدّاعي من الملائكة النّاس المبْعُوثين منْ أجْدَاثِهم إلى شَيْءٍ شديدٍ عظيم، هو موقف الحسَاب للمحاكمة، وفَصْل الأحْكام، بالاستنادِ إلى مَا قَدَّموا مِنْ أعمالٍ أوْ أخرُّوا.

اللّقطة الثانية:

مشهَدُ خُشُوع أبْصار أهل الحشر، **خاشِعُ البصر**: هو الذي يَرْمي ببصَرِه إلى الأرض، ويَخْفِضُ طَرْفه.

اللّقطةُ الثالثة:

خروجُ المبعوثين من قُبُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ.

اللّقطة الرابعة:

إقبالُ المبْعُوثين شَطْرَ مَكانِ الداعي، يَعْدُونَ مُسْرعين خائفين، يَمُدُّونَ أعْنَاقهم، ويَخْفِضُون رُؤُسَهم، وينْظُرُونَ بانْكسَارِ وَذُلّ وخُشُوعٍ.

اللقطة الخامسة:

تَرْديدُ الكافرين قولَهُم: «هَذا يَوْمٌ عَسِرٌ». أي: يَوْمٌ صَعْبٌ شديد، والمرادُ شِدَّة ما فيه من مخاوف على الكافرين.

وهذا يَدُلُّ على أنّ المؤمنين يُيَسِّرُ اللَّهُ لَهُم أمور هذا اليوم، فهم لا يقولون: هذا يومٌ عَسِر.

* * *

● قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾.

أي: «اذْكُرْ» أيُّها المتلقّي لهذا البيان، بمعنى: ضَعْه في ذاكرَتِكَ لتستحضِرَه حيناً فحيناً مَا حَيِيتَ: يَوْمَ يَدْعُ الدّاعي من الملائكة بَعْدَ البعث، إِلَىٰ شيءٍ نُكُرٍ شَديدٍ صَعْبٍ.

إنّ هذا الداعي من الملائكة الذي يصيح صيْحةً واحدةً، يَنْبَغِي أن يَدْعُو الناسَ إلى موقف الحساب، وفَصْلِ القضاء، ويأتي بَعْدَهُما تنفيذُ الجزاء.

إِنَّهُ لَمَوْقفٌ شَدِيدُ الْهَوْلِ، عظيم المخاطر، ترجُفُ من هوله القلوب، إلاّ من طمأنه اللَّهُ بأنّه من الناجين من العذاب.

﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾: قال أهل اللُّغَة: النُّكُرُ والنُّكْرُ بضم الكاف وإسْكانها، هُو الأمْرُ الشّدِيد الصَّعْب.

وموقف الحساب لفَصْلِ الحكم يوم الدّين، شيءٌ صَعْبٌ شديد على الكافِرِين والْعُصَاةِ المسرفين على أنفسهم، ومن الحقِّ أن يُقالَ بشَأْنِه شيءٌ نُكُر.

ويَدُلُّنَا على أنَّ دَعْوَة الدَّاعِي هٰذِه تكونُ بعْدَ البعْثِ وصْفُ الله عزّ وجل لحظات البعث، بأنّها لحظاتٌ يَخْرُجُ فيها الناس أحياءَ فإذا هُمْ قيامٌ

يَنْظُرون، فينْسِلُون، أي: يُسْرِعون في اتّجاهات مختلفَات، كأنهم يُوفِضُون (أي: يُسْرِعُون) سَعْياً إلى نُصُبٍ في أماكن مختلفة، كما كان المشركون في الدنيا يُوفضون إلى معبوداتهم من الأوثان عنْدَ المخاوف الّتِي لا يملكون دفعها، وقد جاء هذا الوصف في عدة نصوص:

- ففي سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾: أي: من رُقادنا، أو من مكان رُقادنا. **الرُّقاد**: النّوْم.

ويمكن أن تكون الصيحة التي جاءت في هذا النصّ هي صيحة الدّاعي إلى شيءٍ نُكُر.

- وفي سورة الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قال الله عز وجل:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

فالخروج من حالة الموت إلى الحياة، فالْوُقُوف والنَّظَرُ بَدَهْشَةٍ، كحالة المستيقظ مِنْ نَوْمٍ يَجدُ نَفْسَه في أرْضٍ لا عَهْدَ له بها، أمُور سَابقَةٌ لدعوة الداعي، إلى الأمر الخطير الصَّعْب الشديد، وهو موقف الحساب، وفَصْلِ القضاء.

- وفي سورة المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: **أجْدَاث**: جمع «جَدَث» وهو القبر.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾: **النُّصُبُ**: حجارة كان المشركون يذبحون ذبائِحَهُمْ عليها، وكل ما عُبِدَ من دون الله من أصنام، قيل هو مفرد، وقيل: هو جمع.

- **يُوفِضُونَ**: يسْرِعون. والمعنى: كأَنَّهُمْ يُسْرِعُون إلى معبودات مختلفات من الأصنام، في أماكن شتى، فكلُّ فريق يسعىٰ مُسْرعاً إلى جهةٍ هائماً، لا يَدْري إلى أيْن يَسْعَى من فَرْطِ الدهشة والخوف.

وهذا يكون سابقاً لدعوة الدَّاعي إلى شيءٍ نُكُر، لأَنَّهم إذا صاح بهم الدَّاعي صيحةً واحدة كانوا جميعاً عند ربّهم مُحْضَرين.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: مُنْكَسِرَةً يَنْظُرُونَ بأَعْيُنِهِمْ إلَىٰ الأرْضِ مِنْ ذِلّتِهِمْ، وأجْفَانُهم مُنْخَفِضَة.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي: تَغْشَاهُمْ وَتَعْلُو حَواسَّهُمْ ذِلَّةٌ.

فَدَلَّتْ هذه النُّصُوصُ بما تضمَّنَتْه من مفهومات، على أنَّ دَعْوَة الداعي إلى شيءٍ نُكُرٍ تكُونُ بَعْدَ البعث وإسْراع المبعوثين إلىٰ جهاتٍ مختلفات من دَهْشَتهم وحيرتهم في أرض القيامة.

* * *

قول الله تعالىٰ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦﴾.

﴿خُشَّعًا﴾: جَمْعُ «خاشع» وهو من يَرْمي ببَصَرِه نحو الأرض، ويغضُّ طرفه. ويقال: خَشَعَ بَصَرُ الرَّجُل، يخْشَعُ خُشوعاً، أي: انْكَسَر.

وسبق توجيه قراءة [**خَاشِعاً**].

والمعنى: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلقّي يَوْمَ يَدْعُ الداعي مَدْعُوّين من المبعوثين خُشَّعاً أبْصَارُهم، يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كأَنَّهُمْ جَرادٌ منتشر، وليس هكذا يكونُ كُلُّ المبعوثين، بل يكون للخائفين من المصير التعيس.

خُشَّعاً: مفعول به لفعل [**يَدْعُو**] ونُزِّلَ ﴿خُشَّعًا﴾ أو [**خَاشِعاً**] الوصف منزلة الموصوفِينَ به، اكتفاءً بالصِّفة.

﴿أَبْصَـٰرُهُمْ﴾: فاعل لـ ﴿خُشَّعًا﴾ أو [**خَاشِعاً**] إذْ هو يعمل عمل فعله.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾: الأظهر من جهة المعنى أنْ تكون هذه العبارة على الاسْتِئناف، أي: هؤلاءِ الخائفون الخاشعة أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنّهم جرادٌ مُنْتَشرٌ.

جاء وصفهم بالجراد إشارةً إلى أنّ نَوَيَاتِ أجسادهم في مدافنهم تفْقِسُ عنهم، فينْبُتُونَ ويكبرُون، ويخرجون، كما يخْرُجُ الجراد وينتشر، بعد أن تفقس عنه بيوضِه.

إنَّهُمْ حِينَ يُبْعَثُون، فيَكُونُونَ قياماً يَنْظُرُون، فيُسْرِعُون هائمين مُنْتَشِرين في مختلِف الاتجاهات، يكونون عِنْد خروجهم من قبورهم مثل الجراد المنتشر الطائش.

وبعد أن ينتَشِرُوا ويَتوَزَّعُوا في الجهات، تكُونُ لقطة مَشْهَدِهم كالفراشِ المبثُوث، وهو ما جاء بيانه في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾.

وتجري الأحداثُ سَرِيعَاتٍ مُتَتابعَاتٍ حَتّىٰ كأنَّها تَحْدُثُ في وقْتٍ واحد، دلَّ على هذا سَوْقُ الْجُملَ دُونَ حَرْفِ عطْف، بينها.

● قول الله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾: أي: فإذا سَمِعُوا صيحة الداعي تَوَجَّهُوا له، وأسْرَعُوا إلى جهته يَعْدُون، بذلٍّ وخضوعٍ، يَمُدُّونَ أعناقهم، ويخفضون رُؤُوسهم، ويَنْظُرون بانكِسَارِ نَحْو الأَرْض، وَيَغُضُّون من أجفانهم.

مُهْطِعْ: اسم فاعل من فعل «أَهْطَع» وجاء في معنى هذا الفعل عند

أهل اللُّغة: «أقْبَلَ علَىٰ الشيْءِ بِبَصرِه فلَمْ يرْفَعْهُ ـ نَظَرَ في ذُلٍّ وَخُشُوعٍ ـ أقْبَلَ مُسْرِعاً خَائِفاً ـ مدَّ عُنُقَهُ وصَوَّب رَأْسَهُ، أي: خَفَضَهُ وأمَالَه ـ أسْرَعَ فى الْعَدْو».

وكلُّ هذه المعاني صالحةٌ لتفسير: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ بها.

● قول الله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾: أي: يُرَدِّدُ الكافرون قولَهُمْ: هذا يَوْمٌ عَسِرٌ، أخذاً من الفعل المضارع ﴿يَقُولُ﴾ الدَّال على التكرير المتجدد.

كلمة ﴿عَسِرٞ﴾ مثل كَلِمةِ «عَسِير» أي: هذا يَوْمٌ شَدِيدٌ صَعْبٌ على الكافرين.

ومن بيان أنَّها مقولة الكافرين عَلَىٰ وجه التحديد، نفهم أنَّ الذِّين آمَنُوا في الحياة الدنيا ومَاتُوا على الإيمان لا يقولونها، لأنَّهُمْ وإنْ كانُوا عُصَاةً فقد ضَمِنُوا الجنة بوعد اللَّهِ، ولو بعد أنْ ينالوا ما يستحقُّون من عذاب على كبائرهم، ويطمعون في أن يغفر الله لَهُمْ ويَرْحَمَهُم، أو أَنْ يخفِّفَ من عذابهم الذي يستحقّونه بحسَبِ ذُنُوبهم وآثامهم.

يضاف إلى هذا أنّ الله جلَّ جلاله وعظُمَتْ رَحْمَتُه، يُيَسِّرُ على المؤمنين أمْرَ هذا اليوم الْعَسِر الْعَصيب، وهُمْ يَشْعُرون بهذا منذ ساعَةِ بعثهم.

ودلَّ على أنّ هذا اليَوْمَ عَسِيرٌ علىٰ الكافِرينَ فقط، قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾.

أي: أمَّا المؤمِنُونَ فَيُيَسِّرُهُ الله لهم.

وقول الله عزّ وجل في سُورَةِ (الْفُرْقَانِ/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن يَوْم القيامة:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

نظرة عامة حول هذا الدرس:

نلاحظ في هذا الدرس الثاني من دُروس سورة (القمر) أنَّ الله عزّ وجلّ قَدَّمَ لنَا لقطاتٍ مِنْ أحوال الكافرين يَوْمَ البعث.

- فَهُم يخرجون من مدافنهم كالجراد التي تَفْقِسُ عنه بيوضه، ويُسْرِعُون مُنْتَشِرين هائمين في كلّ اتّجاه، كالجراد المنتشر.
- وحين يسْمَعُونَ الداعي من الملائكة يَدْعُوهم، يُسْرِعُون مُهْطِعِينَ، مقبلين شَطْرَ الجهة التي دعَاهم إليها، خاشعةً أبصارُهم مِنكَسِرَةً أجفانُهم، يَرْمُون أبصارهم إلى جهَةِ أرض المحشر تَذَلُّلاً وخُضُوعاً، ويخافون من هول الموقف، إذْ هم مَدْعُوُّون إلىٰ شَيْءٍ نُكر شدِيد صَعْبٍ عَسِير.
- وهم في سعيهم إلى الجهة الّتي دَعَاهم الداعي إليها يُرَدِّدُون: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴾.

وهذه اللّقَطاتُ الّتي أبرزها هذا الدّرس، قَدْ أَلْمَحَتْ إِلَىٰ مَطْوِيَّاتٍ فيما بَيْنها، وقد استطَعْنَا مِنْ غَيْرِ تكَلُّفِ اكْتِشَاف بعْضِها.

هذه اللّقَطاتُ هي بمثابَةِ مَنْ لَدَيْهِ شَرِيطُ صُوَرِ مشاهد، فثنَىٰ بعْضَهُ على بَعْضٍ، فجَعَل في مكانِ الإراءَة الظَّاهِرَة مقاطِعَ مُنْتَقياتٍ، وطَوَى في الأثناء مَقَاطِعَ كثيرة، بَعْضُها يُمْكِنُ الاسْتِدْلاَلُ عليه من المعروض من الشريط للنظر، وكثيرٌ منْها يصْعُبُ الاستدلال عليه، لكِنَّ نُصُوصاً أُخْرَىٰ في القرآن قد كشَفَتْه، فعَرَضَتْ مَقَاطِعَ أُخْرَىٰ مُنْتَقَيات، وطَوَتْ بين المثاني مقاطِعَ، فَمَنْ اسْتَطاع أَنْ يَجْمَعَ هذِهِ النُّصوص المتعَدِّدة، واستطاع أنْ يُؤلّف بَيْنها

تأليفاً مُتَلائِماً، أمكنه أن يَمُدَّ من شَرِيط المشهد الطّويلِ، ما يُحْسِنُ به التأليف التَّتابُعِيَّ بَيْنَ اللّقَطَاتِ المعْرُوضاتِ في الإرَاءَات الْمُتَعَدِّدات الموزّعاتِ في السُّوَر.

عِنْدئذٍ يراها متكاملاتٍ غَيْر مُتَنَاقِضَاتٍ وَلاَ مُتَعارضات. وهذا الأسْلوبُ القرآنيُّ هو من عناصر الْعُمْق فيه، ومن عناصر الإعجاز البديع، إذْ هو كتَابٌ حقٌّ لاَ يأْتِيه الباطل من بين يَدَيْه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حَمِيد.

ولعلَّنَا بهذا نَستَطِيعُ أنْ نَفْهَمَ معنَىٰ وصْفِ القرآن بأَنَّهُ مثاني، في قَوْل اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

وبهذا نَنْتَهِي من تدبُّر الدرس الثاني على قدر الاستطاعة من دروس سورة القمر، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآيات من (٩ ـ ٤٢) وفيه خمس فقرات

تمهيد:

هذا الدرس يشتمل على الإقناع بقانون الجزاء الرّبّاني، والإنْذار به، عن طريق عرض أمثلة تاريخيَّة، من عقوبات الله العظمىٰ، بالإهلال العامّ الشّامل، لأقوام من كبار مجرمي الأمم السابقة. الذين كذَّبُوا رُسُل ربّهم، وكذّبُوا بالنُّذُر الّتي أَنْذَرُوهم بها تَبْليغاً عن الله ربّهم جلَّ جلالُه وعظم سُلْطَانه.

وقد جاء عرض هذه الأمثلة في هذه السّورة مصحوباً بموجَزاتٍ من قِصَصِهم مع رُسُلِ رَبّهم، تحقيقاً لِهَدَفِ التذكير بتكذيب الأوَّلين بالنذر، وابتعاداً عن التكرار التطابقي، بتوزيع لقطاتٍ مختلفَاتٍ من قِصَصِ الأمم المهلكة، على جملة من سُور القرآن المجيد، بمناسباتٍ تستَدْعي التذكير بعقاب اللّهِ لهم، مع اختيار اللّقطات الملائماتِ للأحوال التي وصل إلَيْها القوم الذين كان التنزيل يُعالِجُهُمْ بالدَّرَجَةِ الأولى، ويَرْسُم الله عزّ وجلّ لنا بذلك منهج العلاج الأحسن والأقوم للذين نوجّه لهم أساليب الدَّعوة إلى سبيل ربّنا، ومنْهاجِ دينه القويم.

واشتمل هذا الدرس على خمس فقرات سبقَ ذكرها لدىٰ بيان دُروس السورة، وهي تتعلّق بموجزات من إهلاك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط عليهم السلام، والفقرة الخامسة تتعلّقُ بإهلاك فرعون وآله وجنوده، وهم بَعْضُ قوْمِ موسَىٰ وهارون عليهما السلام.

وبفَنِّيَّةٍ بديعة فصَل الله عزّ وجل بين الفقرات بآية:

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

فجاءت مُكرَّرَةً أرْبَع مَرَّات للإشارة إلى أنّه دَرْسٌ واحدٌ من خمس فقرات، وقد فصّله الله عزّ وجل تيسيراً للذِّكر على طريقة الله في القرآن الذي يَسَّرَه كُلَّهُ للذِّكرِ.

أوّلاً: الفِقَرة الأولى

إهلاكُ قَومِ نوح عليه السّلام

الآيات من (٩ ـ ١٧)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا

فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا
جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾.

- قرأ ابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويعقوب: **[ففتَّحْنا]** بتَشْديد التاء.

وقرأ باقي القُرّاء الْعَشرةِ: ﴿فَفَتَحْنَآ﴾ بتخفيف التاء.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ هُمَا على التوزيع في الأزمنة والأمْكِنَة، فالمبالغة التي دلَّ عليها التشديد تناسب قِسْماً من الْحدَث، والقراءة الأُخْرىٰ بالتخفيف تناسِبُ قِسْماً آخر من الحدث.

- وقرأ ابن كثير، وابْنُ ذكوان، وشعبة، وحمزة **[عِيُوناً]** بِكَسْرِ الْعَيْن.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿عُيُونًا﴾ بضمّ العين.

والقراءتان وجْهَان عَربيان جائزان.

- أثبت الياء في الوصل من كلمة: ﴿وَنُذُرِ﴾ وَرْشٌ، فقال في الوصْلِ **[فَكيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُرِي ولقدْ يَسَّرْنا]**.

وأثبت هذه الياء في الوصْلِ والوقف، يعقوب فقَرَأَ في الحالين: **[وَنُذُرِي]** وحذَف هٰذِه الياء في الحالين باقي القرّاء العشرة.

وإثباتُ ياء المتكلّم وحَذْفُها في النُّطْق وجْهَانِ عربيّان جائزان، ويَكْثُرُ في القرآن حذفها للإيجاز، ولدَواعٍ جَماليّةَ في اللفظ.

هذه الفقرة تُقَدِّمُ بإيجازٍ بيَانَ بعضِ مَشاهدَ من أحداث إهلاك الله لقَوْمِ نُوحٍ عليه السَّلام بالإغراق الشَّامِلِ الرَّهيب.

وقبل هذه الفقرة بشأن قوم نوحٍ عليه السلام، جاء نَصّانِ مقتضبان:

النص الأوّل: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾.

النص الثاني: قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾.

أي: فحقّ ما أنْذَرْتُهُمْ بِهِ مِنْ وَعِيدِ بالإهْلاَك فأهْلَكْتُهُمْ.

ومَا جاء في سُورَةِ (القمر) قَدْ جاءَ مَبْنِيّاً عَلَىٰ الْبَيَانَيْنِ السَّابقين في نجوم التنزيل، الّذَيْن جاءا في سورتي: (النجم) و (ق).

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾: أي: كذّبتْ قبل كبراء مشركي قريش المعاندين المكابِرِينَ المصرّين على كُفْرِهم، قَوْمُ نوح عليه السلام.

هذه الجملة قد جاءت في النّص الّذي في سورة (ق) لكنْ لم يأتِ في سورة (ق) بيان أيّ تفصيلِ عن تكذيب قوم نوح عليه السلام، فجاءت سورة (القمر) تُعْطِي شيئاً من التفصيل، إذْ جاء فيها:

● قول الله عزّ وجل: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾.

فجاء في هذا النصّ بَيَانُ ثلاثِ قضاياً مفرَّعةٍ بالفاء لتفصيل البيان المجمل في: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾:

القضية الأولىٰ: دلَّ عليها قول الله تَعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ أي: فكذّبُوهُ في أنّه نبيُّ اللَّهِ ورسُولُه، وكذَّبوا بما جاءَهُمْ به مِنْ بلاغات عن رَبّه، وكَذَّبُوا بالوعيد الذِي أنذرهم به في الدّنيا وفي الآخرة.

وشَرَّف الله عزّ وجلّ نوحاً بقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ فأبان بهذا أنَّ نُوحاً عليه السَّلام قد كان متحقِّقاً بعبوديَّتِه الصَّادِقة لعظَمَةِ رُبوبيَّة الله جلّ جلاله.

القضيَّةُ الثَّانية: دَلَّ عليْها قول اللَّهِ تعالىٰ: **[وَقَالُوا مَجْنُونَ]** أي: وقال قومُه الذين كذبُوه: هذا رجَلٌ مَجْنُونٌ، مريضٌ بداء الجنُون.

هذا الاتّهام بالجنون ذَرِيعةٌ يلْجأُ إليها كُبَراء كُفَّارِ قوم كلِّ رَسُولٍ، حينما تَدْمَغُهُمُ الحجج البرهانيّة، ولا يَجِدُون حُجَجاً صحيحةً يَدْفَعُون بها حجج رُسُلِهم العقليّة المنطقية، ويَحْرِصُون على أَنْ يَسْتُروا عَجْزَهُمْ عن أَتْبَاعِهم من عَامَّةِ قَوْمِهِمْ، فيُطْلِقُونَ على رسُولِهِمْ عبارة: مجنون. وتُرَدِّدُها جماهيرهم تَرْدِيداً ببغاوِيّاً، ظانّين أنّ رَسُولَهُمُ الذي يدعوهم إلى الإيمان بربّهم ونَبْذِ الشِّرْكيّات الّتي كان عليها آبَاؤهم وأجدادهُمْ، والْبُعْدِ عن السُّلُوكِيَّاتِ الّتي فيها ظلْمٌ وعُدْوان، وبغي وطُغيانٌ، وفُحْشٌ وخُسْران، هو مجنونٌ فِعلاً كما قال لهم قادتُهُمْ وأئِمَّتُهم.

والاتّهامُ بالجنُونِ شتيمةٌ يلْجَأُ إليها كلُّ مفتَرٍ مُراوغٍ مُجْرِمٍ مخاصم بفُجور، لا يَمْلِك قُدْرَة على مقارعَةِ الحجَّةِ بالحجَّةِ المكافئة، والمنطق العقليّ بمنْطِقٍ عقليٍّ مثله.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ الله عزّ وجل: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: ومُنِعَ من مُتَابعة دَعْوَتِه إلى رَبّه، وانْتُهِرَ بعُنْفٍ مصحوبٍ بتهديد.

وقد دَلَّ على تَهْدِيدِهِ بالقتل رجماً بالحجارة، قول اللَّهِ عزَّ وجل في سورة (الشُّعَراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في معرض الحديث عن نوحٍ عليه السلام وقومه:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾: أي: لَنَرْجُمَنَّك أنتَ ومَنْ آمَنَ بِكَ واتَّبَعَكَ.

وكان هذا الزَّجْرُ المصحوبُ بالتَّهدْيدِ بالرجم، في أواخرِ حياة نوح مع كُفَّارِ قَوْمه، قَبْل إهلاكِهِمْ بالْغَرْق الذي جاءهم به الطوفان.

الزَّجْرُ في اللُّغَة: المنْعُ والنهيُ والانْتِهَارُ، وازْدَجَرَه، أي: أسرف واشتَدَّ عليه في ذلك، أصْل فعل «ازْدَجَر» هو «ازْتجرَ» على وزن «افتعل» من فعل «زَجَر». قُلِبَتِ التاء دالاً لوقوعها بعْدَ الزاي، وهو قياسٌ مطّرِدٌ في صيغة «افْتَعَل» ممّا فاء كلمة الفعل فيه: «زايٌ ـ أو دالٌ ـ أو ذَال».

هَلْ كانَ نُوحٌ عليه السَّلام أولَ رُسُلِ اللّهِ للناس؟

للعلماء في هذهِ المسألة رَأْيَان:

- فالذين يَرَوْن أنّ نوحاً عليْه السَّلامُ أوّلَ الرّسُل، أخذاً بظاهر حَدِيث الشّفَاعَةِ يُؤَوِّلون النُّصُوص الّتي تَدُلُّ على خِلَافِ هٰذا الرأي تأْويلاتٍ لاَ يَخْلُو بَعْضُهَا من التَّعَسُّف.

وحديث الشفاعةِ عند البخاريّ ومسلم عن أنس رضي الله عنه في بَعْضِ رواياته قال: قال رسُولُ الله ﷺ:

«يَجمَعُ اللّهُ النّاسَ يَوْمَ القيامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَىٰ ربِّنَا حَتَّى يُرِيحَنا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فيقولُون: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللّهُ بِيَدِه، ونَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وأَمَرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا، فيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ويَقُولُ: ائْتُوا نُوحاً أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللّهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ويَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذي اتَّخَذَهُ اللّهُ خَلِيلاً، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا مُوسَىٰ الَّذِي كَلَّمَهُ اللّهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا عِيسَىٰ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّداً ـ ﷺ ـ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِداً، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللّهُ، ثُمَّ يُقَالُ لي: ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لي حَدّاً. . .» إلى آخر الحديث.

وجاء في روايَات أخرَىٰ عِنْد البخاري ومُسْلِم ليْسَ فيها أنّ نُوحاً عليه السَّلامُ أوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله.

● والّذينَ يَرَوْن أنّ نُوحاً عليه السَّلام ليْسَ أوّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللّهُ للنَّاس يَسْتَدِلُّون بقَوْل الله عزّ وجلّ في سورة (الْفُرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول:

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾﴾.

فهذا النَّصُّ يَدُلُّ دَلالَةً ظَاهِرَةً علَىٰ أنَّ قَوْمَ نُوحٍ كَذَّبُوا رُسُلاً، لا رَسُولاً واحداً، وإخراجُ هذا النّصّ الْقُرْآنِيّ عَنْ ظَاهِرِه، يَحْتَاجُ إلَىٰ تَأْويلٍ مُتَكلِّف، وأهْوَنُ منه تأويلُ مَا جَاءَ في بَعْضِ رِوَايات حَدِيث الشَّفَاعَة.

فَروايات أحاديث الشفاعَةِ لَمْ تَذْكُرْ من الرُّسُل إلاّ أولي العزم العظام، (نُوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومُحَمّد عليهم الصلاة والسَّلام) ويُمْكِن حَمْلُ عِبَارة: «ائتوا نوحاً أوّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللّهُ» في بَعْضِ الرّوايات، على أَنَّهُ أوّلُ الرُّسُلِ الْعِظَامِ من أُولي العزم، بِدَليلِ أنّ الرُّسُلَ كَثيرون. ولَمْ يَجْرِ التوجيهُ في كُلِّ رِوَاياتِ الحديث لِغِيْرِ أولي الْعَزْمِ من الرُّسل.

ويبقَىٰ بِهَذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ على ظاهِرِه، ونفهم منه أنّ قوْمَ نُوحٍ قَدْ تتابَعَتْ عليهم رُسُلٌ وأنبياء مُتَعَدِّدُونَ، وكان نُوحٌ عليه السَّلامُ آخِرَهم، أوْ كان مع نوحٍ في مراحلِ دَعْوَتِه الأولىٰ لِقَوْمِهِ رُسُلٌ، كما كان هارونُ مع موسى عليهما السلام، وقضَىٰ هؤلاءِ الرُّسُل آجالَهُمْ، وبقِيَ نوحٌ عليه لسَّلامُ في قَوْمِه حتّى الطُّوفان، فَما بَعْدَه، وهو الّذي خصَّهُ اللّهُ عزّ وجلّ بالذِّكْر.

ويُرَجّحُ هذا الفهْمَ أنَّ إدْرِيسَ عليه السَّلامُ (= خنوخ وعُرِّبَ أَخْنُوخ) من الْمُرْسَلِين، وأنَّهُ كَانَ قبل نوح عليهما السّلام عنْدَ أكثر العلماء المحققين.

ويُرَجّح هذا الفَهم أيضاً أنَّهُ قَدْ ثَبَتَ في نصوص القرآن المجيد، أنَّهُ ما من أمَّةٍ في تَاريخ النَّاسِ إلاّ جاءَهَا نبيٌّ رَسُولٌ أَمَرَها بعِبَادَةِ الله واجتناب الطّاغوت، وحَذَّرها وأنْذَرَها بعِذاب اللَّهِ يَوْمَ الدِّين، مع احتمال معاقبتها بعذابٍ مُهْلكٍ في الدّنيا، إذا قضَتْ حكْمَةُ اللَّهِ إبَادَتهم.

● فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سُورَةِ(فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ومَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّابقَةِ إلاَّ مضَىٰ فيها نبيٌّ رسُولٌ بعَثَهُ الله مُبَلِّغاً مَطْلَوبَهُ من عباده الممتَحِنينَ في الحياة الدنيا، ومُبَشّراً لمن اسْتَجاب وأطاع بالثواب العظيم، ومُنْذِراً لِمَنْ أَبَىٰ وعَصَىٰ بالْعَذَاب الأليم.

ويدخُلُ في هذا العموم من جاء قَبْل نوحٍ عليه السَّلام من الأمم.

● وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النَّحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾: أي: فمِنْهُمْ من حَكَمَ اللَّهُ له بالْهِدَايَةِ، بالاسْتِنَادِ إلَىٰ مَا قَدَّم في رحلة امتحانه من إيمانٍ وَعَمَلٍ صالح.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: أي: ومِنهُم مَنْ حَقَّتْ وثَبتَتْ عليه عقوبَةُ ضَلاَلَتِهِ الْمُعَجّلة، إضافَةً إلى عُقوبته المؤجَّلة إلى يوم الدّين، بالاسْتناد إلى ما قَدَّم في رحلة امتحانه من كُفْرٍ وعُصيان، وَبَغْي وعُدْوان، وتَكْذِيب لِرُسُلِ الْمَلَكِ الدَّيَّان.

﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: أي: من أهل القرون

الأولى، فآثارُ إهلاكهم وتدمير دِيارهم بَاقِيَةٌ تَدلُّ على انْتِقَام اللَّهِ منْهُمْ بالإهلال الشَّامل.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فدعا نوحٌ عليه السَّلامُ عَقِب زَجْرِهِ بِشِدَّة، وتَهْدِيدِه بالقتل رجْماً بالحجارة إذَا لَمْ يَكُفَّ عنْ مُجَاهَدَته في الدعوة إلى ربّه، وكان قَدْ صَبَرَ عَلَيْهم صَبْراً طويلاً جداً قُروناً مُتَتَابِعةً بلغَتْ ألْفَ سنةٍ إلاّ خَمْسِين عاماً، فلمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ جادُّون فيما هَدَّدُوهُ به، دَعَا رَبَّهُ بِأَنِّي مَغْلُوبٌ في دَعْوَتي لِقَوْمِي، لَمْ أظْفَرْ مِنْهُم بمسْتَجِيبين للدّين الّذي أَمَرْتَني يَا رَبِّ بأنْ أُبلّغهُمْ إيَّاهُ غير القِلّة القليلة جداً، ومغْلُوبٌ في مجال متابعة دعْوَتي، إذْ زَجَرَني كُبَراء قَوْمي بِشِدَّةٍ عن الاستمرار في دَعْوَتي، وهم أصْحابُ قُوَّةٍ لا أمْلِك بقوايَ التّغلُّبَ عليها، أو مُقَاوَمَتَها، فانْتَصِر يا رَبّ لِدِينِكَ وَلِرَسُولك.

وطَوَىٰ النَّصّ أحْدَاثاً كثيرة لَمْ يأتِ فيه ذِكْرُها، منها أَمْرُ الله له بأن يصْنَعَ الْفُلْكَ، ومِنْها سُخْرِيَةُ مَلأ قومه منه كُلَّما مَرُّوا عليه وهو يصْنَعُها إلى غير ذلك من أحداث⁽¹⁾ إذِ اقْتَضَت الحكمة البيانيَّة التربوية توزيع لقطات قصّته على مواضع متعدّدةٍ من القرآن المجيد، وإنزالها منجمّة علىٰ مراحل من سَيْر دَعْوَةِ الرَّسول محمد ﷺ لقومه.

وفي هذا تعليم للدُّعاة إلى دين الله كيْفَ يُبَلّغون، وكيْفَ يُعَلّمُونَ، وكيف يُرَبُّون.

● قــول الله عــزّ وجــل: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا

---

(١) انظر كتاب «نوح عليه السلام وقومه في القرآن» للمؤلف وهو يشتمل على كلّ النصوص القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع مع نظرات تدبُّريَّة تكاملية.

ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

في هذا النص بيانُ تِسْعِ قضايا أوجزت الحدث العظيم، الذي أغرق الله عزّ وجلّ به كُفَّارَ قَوْمِ نوحٍ عليه السَّلام، إيجازاً فنّيّاً بَدِيعاً، مع التَّنْبِيهِ على العبرة الجليلة التّي يَجِبُ أنْ يَنْتَفِعَ بِهَا كُفَّارُ القرون اللاّحقة، فيتَّعِظُوا بها، ويَحْمُوا أنْفُسَهم من أمثالها بالإيمان والعمل الصالح، واتِّباع الرَّسول فيما جاء به عن ربّه.

تحدَّث الله في هذا النّص بضمير المتكلّم العظيم، الدالّ على عزّةِ رُبوبيّته، وسلطان جبروته وقهرِه.

القضيّة الأولى: دَلّ علَيْها قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾: **مُنْهَمِرٍ**: أي: منصَبٌ بِشِدَّةٍ وَتَتَابع.

أي: استجبنا لدُعَاء نوح، فأجْرَينَا الأحداث الّتي أغْرقْنَا بها كُفَّار قَوْمِه، ونَصَرْنَاهُ، فَأَنْجَيْناه والَّذِين آمَنُوا مَعَه بتَدْبِيرنا الحكيم، وعِنَايَتِنا المرافقة لكلّ صغيرة وكَبيرَةٍ، بَدْءاً مِنْ أمْرِنا له بأن يَصْنَعَ الْفُلْكَ، حتَّىٰ غايَةِ رِحْلتِه الْبَحْرِيَّة ورُسُوِّ الْفُلْكِ، وهُبُوطِ ركَّابِه على أَرْضٍ طيّبَةٍ مُباركة، وقَدْ تَمَّ إغْراقُ الْكَافِرِين.

وجاء التعبير البديع عن إنزال الأمطار الْغَزِيرة بعبارة: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾: فدلَّ هذا التعبير على أنّ السَّماءَ كانت بمثابَةِ خَزَّانٍ عظيم، مَلِيءٍ بالْمَاء المشابه في سَعَتِهِ وكثرة الماء فيه ببحْرٍ واسِعٍ كبيرٍ على قَدْر السّماء، ولهذا الخزّان أبوابٌ موزَّعة على ساحة السماء.

وفتح الله جلَّتْ قُدرَتُه وَعَظُمَ سلطانُه، هذِهِ الأَبْوابَ الكثيرة المنتشرة

كَعُيُونِ الغرابيل، فانْهَمرتِ المِيَاهُ على مَقَادِيرِها، مُنْصَبَّةً كَأَنَّها شَلَّالَاتٌ مُوَزَّعَاتٌ توزيعاً مُنْتَظِماً على مواقِعِها من الأرض.

إنّها لَصُورَةٌ تمثِيلِيَّة رائِعَةٌ، تُقَدِّمُ بصِدْقٍ فنّي مَا يَشْعُرُ به مُشَاهِدُ المشْهَدِ بعيداً عن أن يكون في داخله.

القضيّة الثانية: دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾:

فَجَّرَ الشَّيْءَ: أي: جعَلَ الشّيءَ يَنْبَعِثُ من الباطن إلى الظاهر بقُوَّة وشِدَّة. فَتَفْجِيرُ عيُونِ الماء في الأرض، جَعْلُ الماء يخْرُج من ثُقُوب الأرض بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، فيَدْفَعُ كلُّ تَالٍ منه السَّابقَ له دَفْعاً قَوِيّاً، مَا دامَتِ الدَّفَقَات المائيَّة تَخْرُج من الثقوب والشقوق بتَتَابع.

والتعميم في إسناد التفجير إلى كُلّ الأرض، يُوحِي في دلالَتِهِ الأولى، بأنَّ سَطْحَ الأرضِ كُلَّهُ قَدْ تفجَّرَ مَاءً، وجاء لفظ «عُيوناً» عَقِبَهُ تمييزاً، فحدَّدَ الصُورَة الّتي تَمَّ تَفْجِيرُ الْأَرْض على وفْقِهَا، وهي صورةُ عُيُونٍ مائِيَّةٍ مُتَفَجِّرة مُوزَّعَةٍ على كلّ مَسَاحَةِ الْأَرْضِ، كَعُيُونِ الْغِرْبال، والغرَضُ الدَّلَالَةُ علىٰ كثرة الْعُيُونِ المتفَجِرَةِ، الّتي يتَخَيَّلُ مَعَها الناظر أَنَّ الْأَرْضَ كُلَّها تَحَوَّلَتْ عُيُوناً مَائِيَّةً مُتَلاصِقَةً تَتَفَجَّر.

ولا أُحِبُّ هُنَا مُتَابَعَةَ النحويّين في قولهم: أي: وفَجرَّنَا عُيُون الأرض، فقولهم هذا يُلْغِي دَلَالَة الصُورَةِ البلاغيّة الأدبيّة الرَّائعة، ويَجْعَلُ التعبير صِيغةً من صيغ تحويل المفعول به إلىٰ تمييز. مع أنّ العبارة تَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ جَعَلَ كُلَّ مَوْقِعٍ في الأرض عيناً تتفجرُّ ماءً مُتَدَفّقاً، لا أنَّهُ جعَلَ الْعُيُون الّتي فيها تتفَجَّرُ وتتدفّق، وفَرْقٌ كبيرٌ بَيْن الدَّلَالَتَيْن، وهذا الفَرْق يُدْرِكه أصحاب الحسّ الأدبيّ الرفيع.

ولا مانع من فهم الجملة وفق أسْلُوب التضمين، الذي يكون تأويلُها معه كما يلي: وفَجَّرْنَا الأَرْضَ علىٰ امتداد سُطُوحها، فجَعلْنَاها عيُوناً مائيَّةً مُتَدفّقة.

ولا مانع أيضاً من اعتبار «عيوناً» نائباً مناب مفعول مُطْلق مبيِّنٍ لنَوْعِه، والتقدير: وفَجَّرْنَا الْأَرْض تفجيراً عَيُوناً، أي: فنَوْعُ التفجير كان بِبَعْثِ العيون المتدفّقة، ونظيره: خطْتُ القُماشَ سراويل، وقطَّعْتُ اللَّحْمَ إرْباً إرْباً.

ولا شكّ أنّ إبقاءَ النَّصّ مُوحِياً بدلاَلَتِه الأدبيَّة البلاغيّة الرائعة خَيْرٌ من التأويل الذي يُلْغي منه هذه الدلالة.

القضيَّة الثالثة: دلّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾: أي: فالتقىٰ دون تراخٍ في الزمَنِ الماءان: الماء المنهمر من السَّماء، والماء المتفجِّرُ عُيوناً من الأرض، على أمْرٍ من أمُورِ اللَّهِ الحكيمة، قدْ قُضِيَ بقضاء اللَّهِ، بَعْدَ أن قُدِرَ بتَقْدِيرِه لكل عناصِرِه وصفاته.

وجاء الاستغناء بلفظ الأمْرِ عن القضاء، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يأْمُرُ بأمْرِ إيجادٍ أَوْ إعدامٍ إلاّ إذا قضاهُ وبَتَّ القرار به، فالأمْرُ بقول: «كُنْ» من العزيز القهار، تابعٌ للقضاء، وقضاءُ الله جلَّ جلالُه مُسْبُوقٌ بتَقْدِيرِه لكلّ صغيرٍ وكبيرٍ ممَّا قَضَاهُ وفْقَ حِكْمته وعِلْمِهِ سُبْحانه.

فاقتضت الحكمة البيانيَّةُ الإعْلاَمَ بأنَّه قَدْ قُدِرَ، وجاء ختم الجملة بعبارة ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ مناظراً لرُؤوس الآيات في هذه الفقرة، وبفَنِّيَّة رائِعةٍ، فيها إيجازٌ وإبْداع، ووَقْعٌ مُحَبَّبٌ على الأسماع.

وجاء فعل ﴿قُدِرَ﴾ مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعلُه إيجازاً، للعلم به بداهَةً، إذْ لا أحد يُقَدِّرُ مثْلَ هٰذهِ المقادير إلاَّ اللَّهُ عزّ وجلّ. وجاء مؤكّداً بلفظ ﴿قَدْ﴾ الدَّالّ على تحقّق ثبوت الخبر الذي تضمَّنه البيان، لرفع توهّم أنّ ما حَدَثَ ظاهرةٌ من الظواهر الكونيّة الطبيعيَّة، كَمَا يزعُمُ الدهريّون الطبيعيون. أي: نُؤَكّدُ لكم أنَّ انْهِمَارَ الماء من السَّمَاءِ، وتَفَجُّرَهُ مِنَ الأرْض عيُوناً أَمْرٌ قَدْ قُدِرَ بالتقدير الدقيق الحكيم الشَّامِلِ لكلّ الدَّقائق والتفاصيل، قَبْلَ الأَمْرِ

بِهِ إيجاداً، وقَبْلَ قَضَائه وإمضائه، وظاهرٌ أَنَّ خبراً من هذا القبيل يحتاج تأكيداً، لدفع الأوهام والشُّكُوك.

فما هي الغايةُ من الأَمْرِ العظيم الّذِي قَدْ قُدِرَ والْتَقَى الماءُ على تَحْقِيقِها؟

إنّ الذّهْنَ لَيَسْتَدعيهَا بدَاهَةً، ولو لم تُذْكَرْ في النصّ، إنَّها إهْلَاكُ كُفّارِ قَوْمِ نُوحِ الّذين كَذَّبُوهُ، وزَجَرُوه، وتَوعَّدُوه بأن يَرْجُموه إذا لم يكُفَّ عمَّا هو فيه من دعوة إلى دين ربّه مجاهداً مجادلاً.

وفي عبارة: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ من إبداع وفنيّته مَا يُثِيرُ قِمَّة العجب، إذْ لَمْ يأتِ التعبير عن أهلاك قوم نوحٍ بالأسْلُوب المباشر، بل بالرّمْزِ والإشارة واللّمح، واقتضى التَّعْبِيرِ بانْهِمار الماء من السّماء، وتفجِيره من الأرض عُيوناً، اسْتِدْعَاءَ التساؤل عن الرابط بين الْمَاءَيْن، والتَّسَاؤُلِ عن الغاية من ذلك، فجاء البَيَانُ على مقدارِ تَشَوُّفِ نَفْسِ المتلَقّي وَتَساؤلِهَا، أي: إنّ التقاء الماء المنهمر من السّماء، والماء المتفجّر من الأرْض، قَدْ كانَ على أَمْرٍ قد قُدِرَ، فَهُما آيَتَانِ عظيمتان من آيات الله التقتا على تحقيق أمْرٍ من أمُور الله قَدّرَه الله وقضاهُ، وأنْجزَ تَنفِيذَهُ بالتكوين.

أمّا بيان هذا الأمر فَلَا لُزُوم للتصريح به:

- ألم يَدْعُ نوحٌ رَبَّه، أنّي مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ، وقد انتصر الله له، فعلَىٰ مَنْ يَنْتَصر؟ وَمَاذا يُحقِّقُ في هذا الانتصار، إذا مَلأَ الأرض ماءً بما أنْزَلَ مِنَ السّماء وبما فَجَّرَ مِنَ الأرض؟

لا شَكَّ أنّه إهْلَاكُ كُفَّارِ قَوْمِ نوحِ الّذِين كفَرُوا وظَلَمُوا وطَغَوْا، بالطوفان الذي كانوا فيه مُغْرَقين.

القضيّة الرابعة: دلّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ⑬﴾: أي: وحَمَلْنَاهُ لِنُنْجِيَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ على مَرْكَبَةٍ بَحرِيَّة تَطْفُو على الْمَاءِ، وتَجْرِي فيه.

ولَمْ يَأْتِ التَّعْبيرُ عن هذه المركبةِ البحريَّة في هذا النَّصِّ باسْمِ السفينة، أو الْفُلك، وإنّما جاءت الكنايَةُ عَنْهَا بذِكْرِ الأشياء الأساسيّة التي صُنِعَتْ مِنْهَا، وهي الألواح الخشبيَّة الّتي أَعَدَّها نُوحٌ النجّارُ الماهر بِنَفْسِه، متّبِعاً إرشاداتِ الوحْي الرّبّاني له، والدُّسُر.

الدُّسُر: هي المسامير التي تُثَبّتُ بها الألواح بَعْضُها ببعض، وهي أيضاً الخيوط والحِبَال اللّيفِيَّةُ الّتي تُشَدُّ بها الألْوَاح بَعْضُها إلى بَعْض.

وقد يُصَاحِبُ ذلك غَمْسُ الألواح والدُّسُر بما يَمْنَعُ تَسَرُّبَ الماء إلى دَاخل السفينة، ولا يَنتحَلُّ بالماء كالزِّفْتِ ونَحْوه.

ومن الإلماح البلاغيّ البديع الكنايةُ عن الشيء بذكر بعض الموادّ التي يتألّفُ منها، فَهٰذِهِ الكنايةُ وأمثالُها ممّا يُرْضي ويُمْتِعُ ذَكَاء أصحاب الذوق الأدبيّ الرَّفيع.

القضيّة الخامسة: دلَّ عليها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا . . .﴾: أي: وهٰذِهِ المركبة التي حَمَلْنَاهُ وَمَنْ معه عليها، ذَاتُ الألواحِ والدُّسُرِ، مِنْ صِفَاتِهَا السَّبَبِيَّةِ أَنَّها تَجرِي عَلَىٰ المَاءِ، ومِنْ صِفَاتِها المحاطَةِ بعِنَايتِنا ـ علىٰ الرُّغم من كونِهَا عَملاً بِدَائِياً في صِنَاعَةِ الْفُلْك يَحْمِلُهَا بَحْرٌ مِنَ الماء عظيم متلاطِمُ الأَمْوَاج ـ أَنَّهَا تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا، أي: تَجْري مَحْفُوفَةً بأكْملِ الحفظ والرِّعَايَةِ والحماية من أيِّ شيءٍ يَضُرُّها أَوْ يُؤْذيها، أو يُعَرِّضُ راكبيها لأيِّ خطر أو ضَرَرٍ.

إنّ العين فيما يَعْلَمُ الناسُ أرَقُّ وأَلْطَفُ حَاسَّةٍ تُحْفَظُ مِنْ أَقَلّ الأقْذَاءِ وأَصْغَرِها، وهي أكمل حاسَّةٍ للمراقبة تُحيطُ إحاطَةً شَاملةً بما تراقبُهُ لحفظه، فإذا كانَتْ مَرْكبةُ نوحٍ عليه السّلام تَجْرِي بأعين الله الرَّبّ القدير على ما يشاء، فَذلِكَ يَدُلُّ علىٰ أنّها في غايةِ الحفظ والرعاية والحماية والمراقبة التَّامَّةِ لِكُلّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَاكاتها على توالي اللّحظَاتِ، وأصغر الأجزاء الزمنيَّة.

القضيّة السّادسة: دلَّ عليها قول اللّهِ عزَّ وجلّ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ في هذه العبارة إضافة بيان يَدُلُّ على الغايَة الجزائيّة من هذا الاهتمام الشديد بحُفظِ سفينة نوحٍ عليه السلام كُل هذا الحفظ، إنّها مكافأتُه بثوابٍ معجّلٍ له ولمن معه في الحياة الدُّنيا، جزاء كَوْنِهِ جاهد في الله حَقَّ جهاده في دعوته إلى الله، فَكُفِرَ منْ قِبَلِ قَوْمِه.

كُفِرَ: أي: جُحِدَ وَكُذّب.

لم يأت في هذه العبارة: جزاءً لِنُوح، وإنما جاء فيها: جزاءً لمن كانَ كُفِرَ، لبيان أنّ الجزاءَ لوحظ فيه كونُه كُفِر، أي: أمّا صَالحاتُه الأُخرى ومُجَاهَداتُه من أجل ربّه فجزاءُها فوْقَ ذلِكَ يَوْمَ الجزاء الأَكبر، وقد تكون عبارة ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ تَعُمُّ من رَكِبَ معه في السّفينة، وهم الّذِين آمَنُوا به، فقد كانوا دعَاةً إلى اللّهِ مَعَهُ، وكُفِرُوا مِنْ قِبَلِ قَوْمَهِ أيضاً، وتعرَّضُوا للزَّجْرِ والتهديد بالرَّجْم أيضا.

القضيّة السَّابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ ءَايَةً﴾: أي: ولَقَدْ ترَكْنا فُلْكَ نُوح آيَةً، بَاقيةً زمَناً طويلاً من بَعْدِه، لتكون علامة على حادثَةِ الطوفان، ومذكِّرَةً بقصّةِ نوحٍ عليه السَّلاَمُ وقَومِه، وشاهداً على عقاب الله عزّ وجلّ للمكذّبين الظالمين الطُّغَاة، وعِبْرَةً لمَنْ يعتبر، وذكرى لمَنْ يَدَّكر.

جاء في صحيح البخاري، قال قتادة: بَقِيتْ بَقَايا السفينة على الجوديّ، حتّى نظرَتْهَا أوائل هذه الأمّة.

وقد رأى هذه الآية من رآها، وسَمِع بها مَنْ سمع، وظلّت الأُمَمُ تَتَوارث خبر طوفان نوح عليه السلام.

وهذه العبارة: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ ءَايَةً﴾ مع دلالتها على ما تقدّم شرحه فهي أيضاً كنايةٌ عن وصولها إلى مستقرٌ ملائم، ونُزولِ نوح عليه السّلام

منها إلى أرْضٍ جَافَّةٍ صالحة، ونزول مَن كانوا معه، وإنْزَالِهم الحيوانات الّتي كانت في السفينة لتجد أرْزاقها في نباتات الأرض، وليَبْدَؤوا حياة استقرارٍ على اليابسة.

هذا المطويُّ المدلُول عليه بالكِنَايةِ في هذه السورة، قد جاء التصريح به في سورة (العنكبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

القضيَّةُ الثامِنَةُ: دلَّ عليها قولُ الله عزّ وجل: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟: يَدُلُّ هٰذا التّسَاؤل البديعُ على الغرضِ الدينيِّ مِنْ تَرْكِ سفينة نوح عليه السَّلام آيَةً بَاقيةً أزماناً طَوِيلة، شَهِدَتْهَا فيها أجْيَال مُتَتَابعةٌ من بعده. وهو أن تكون للادّكار، أي: للتذكّر الآخذ بيد المتذكّر للاتعاظ، إذا كان لدَيْه استعدادٌ للاتّعاظ الإراديّ ورغبَةٌ فيه. مع ما في هذا التَّسَاؤُلِ من حضٍّ عى الادّكار والاعْتِبَارِ بما جَرىٰ لقوم نوح عليه السلام، وقد جاء هذا الحضّ بأسْلُوب الاستفهام. ومع ما فيه أيضاً من إشْعَارٍ بقلّةِ المدَّكّرين، لأنّ السُّؤالَ يَسْأَلُ عن واحدٍ مُدَّكرٍ يعتَبر بما جرىٰ للأوّلين من عقابٍ رَبَّانيّ.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ «هل» حرف استفهام يُسْتَفْهَم به عن التصديق الإيجابي (أي: عن وقُوعِ النِّسْبَة بين المسْنَدِ والمسند إليه). «مِنْ» حرف جرٍّ زائدٍ جيءَ به للتَّنْصِيص على الاستغراق الشامل لكلّ أفراد العام «مُدَّكِرٍ» مُبْتدأٌ مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ مَحلاً، والخبرُ محذوف مقدَّرٌ ذِهناً، أي: فَهَلْ من مُدَّكِرٍ مَوْجودٌ؟

لفظ «مُدَّكِر» أصْلُهُ «مُذْتَكِر» من فعل «اذْتَكر» على وزن افتعل، وقُلِبَتِ التاءُ دالاً إذْ جاء قبلها ذالٌ، وهذا قياسٌ مُطرِدٌ، ثُمَّ قُلِبَتِ الذال دالاً وأُدْغِمَتْ بالدَّال بَعْدَها، فصار الفعل «ادَّكَرَ» واسْمُ الفاعل مِنْهُ «مُدَّكِر». وأَصْلُ فعل «اذْتَكر» ذَكَرَ، أضيفَتْ إليه تاء «افْتَعل».

القضيَّة التاسعة: دلّ عليها قول الله عزَّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾؟:

أي: فعَلَىٰ أيَّةِ حالٍ كان عَذَابِي لكُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ؟. وعلى أيَّةِ حَالٍ كانَتْ نُذُرِي لِقَوْم نُوحٍ؟

نُذُرِي: أي: إنذاراتي الّتي بلّغَهُمْ إياها رسولي نوح. **الإنْذار**: الإعلام والإخبارُ بعواقب غَيْرِ سَارَّةٍ.

في هذه الجملة سؤالٌ ينتَزِعُ الجواب انْتزَاعاً منْ كُلّ ذي فكر عادِيّ يَفْهَمُ المسائل السّهلة، دون حاجة إلى رَوِيَّةٍ وَتَأَمُّل فيقُول:

- لَقَدْ كانَ العذابُ عذاباً شَدِيداً مخيفاً، يُثير الرَّهَبَ والاتّعاظ والادّكار.

- ولقد كانت النُّذُرُ الَّتي أَنْذَرَ اللَّهُ بها قَوْم نُوحٍ على لسَانِ رسولهم نُذُراً صادقةً، حقَّقَ الواقِعُ الثابتُ في التاريخ ما جَاءَ فيها بلا نُقْصَان، وَظَلَّتْ آيَتُهُ بَاقِيَةً حقباً كَثِيرَةً وشَهِدَتْها أجيالٌ فَأَجْيَالٌ من الناس.

فما أبْدَعَ هٰذا الإيجاز وَما أحْكَه؟!! وَما أَغْزَرَهُ دَلالَاتٍ وَأَوْفَاه بالمقصود من البيان في المرحلة الّتي نزلَتْ فيها سورة القمر؟!!

- قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾؟

التَّيْسِير: التسهيل والتخفيف.

للذِّكْرِ: أي: للحفظ والتذكُرِ، عِنْد كلّ مُناسبَةٍ داعيَةٍ لتذكُّر ما يُلائم المناسَبةَ من آياتِ القرآن.

وقد جعل الله عزّ وجلّ هذه الآيَةَ فاصلاً يَتَكَرَّرُ بِفَنِّيَةٍ بَيَانِيَّةٍ أَدبِيَّةٍ، دَالاً بهَذَا الصَّنِيع علىٰ أنَّ توزيع لَقَطَاتٍ مختلفاتٍ منْ قِصَصِ المهلَكين الأوّلين على نُجُوم التنزيل، وبمناسباتٍ مختلفات، لَهُ حِكَمٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْها تَيْسِيرُ القرآن للحفظ والذِّكْرِ، بالنسبة إلى من يُهِمُّهم أن يحفَظُوه، ويُرَتِّلُوهُ، وَيَتذَكُّروه.

ولا يخفىٰ ما في هذا من دعوة لحفظ القرآن وتدبُّرِهِ وَتَذَكُّره، والاتعاظ بمواعظه، والاعتبار بعِبَرِهِ، وتَفَهُّمِ دَلاَلاته، والعمل بوصاياه، بأداء ما أوجب الله على عباده، واجتناب ما نهاهم عن فعله أو عن الاقتراب منه.

ومن تيسير الله عزّ وجل القرآن للذكر سَلاسَةُ آياته، وحُسْنُ انتقاء كَلِمَاته، وإتقانُ تراكيبه، وما فيه من صُوَرٍ بيانية رائعة، تَثْبُتُ في الذاكِرَةِ لحُسْنِهَا وإبْدَاعها، وَمَا فيه من كنايات بَعِيداتٍ عَنِ التعبير المباشر، وما فيه من مَطْوِيّات مختلفاتِ الْعُمْقِ، الَّتي يحتاج استخراجها إلى مقادِيرَ من ذكاء المتلَقِّين، فمنها ما يُسْتَخرَج بالذكاء القليل، ومِنْها عميقٌ يَتطَلَّبُ ذَكاءً من مُسْتَوىٰ ذكَاءِ العباقرة، وما فيه أيضاً من إعجاز بلاغِيٍّ فَرِيدٍ مُعْجِبٍ، تَعْشَقُهُ النفوس، وتلْتَقِطُهُ بلَهْفَةٍ، وتحفَظُه.

وكلُّ ذي حسٍّ أَدَبيٍّ يُدْرِكُ أنَّ النُّصوصَ الأدبيَّة الرَّفيعة المثيرة للإعْجَاب، تتَعَلَّقُ بها النفوسُ والقُلُوب، فتحفَظُها، وتردّدها، وتتذَكَّرُهَا حيناً فحيناً.

ومن هذا كانت الأمثالُ الدّارِجَةُ أَكْثَر النُّصُوص ثباتاً في ذاكِرَةِ الناس، وكذلك روائع أبيات الشعر، وروائع قصائِده، وجُمَلُ الْحِكَم البديعة المحرَّرَة.

* * *

ثانياً: الفقرة الثانية

موجز إهلاكِ عَادٍ قوم النبيّ الرسول هود عليه السّلام

الآيات من (١٨ ـ ٢٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

● أثبت يَاءَ المتكلّم في كَلِمةَ: ﴿وَنُذُرِ﴾ في الآيتين (١٨) و (٢١) ورْشٌ في حالة الوصل ويعقوب في حالتي الوصل والوقف. وحذفها في الحالين باقي القرّاء العشرة، وهي وجوه عربيَّةٌ جائزَةٌ، والياء في حالة الحذف مقدْرَة ذهناً، وفي حذفها إيجازٌ وجمال في النطق، ولا سيما إذا اقتضاه تناظُر رُؤُوس الآيات.

تمهيد:

هذا النصّ رابع نصٍّ نزل بشأن عادٍ قوم هود عليه السلام، سبقه ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) ثُمَّ مَا جاء في سورة النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) ثُمَّ مَا جاء في سورة(ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وجاء في هذهِ النُصوص تَدَرُّجٌ ارْتِقَائِيٌّ تكامُلِيٌّ في البيان، بحسب المناسبات الداعيات، دون تكرارٍ في العناصر، باستثناء ما يقتضيه الرَّبْطُ والتوجيه للعظة والاعتبار، فالتوجيه للعظة والاعتبار هو بمثابة الجرْعَات الدوائيّة التي يَسْتَدْعِيها العلاج الدعويُّ التربويّ.

وفي هذا النَّصّ الرابع من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بَيَانٌ موجَزٌ جدّاً لوسيلة إهلاكهم، مع إلماحٍ خاطفٍ لمشهد إهلاكهم، بإبراز لقطة تَصْوِيريَّةٍ مِنْهُ، تَكَرَرَتْ طَوَال يَوْم نَحسٍ مُسْتَمرّ عليهم.

فبعد عبارة العنوان ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ الَّتي لا بُدَّ مِنْها مَدْخَلاً للحديث عن إهلاك القوم، جاء البيان الموجز الّذِي سبقت الإشارة إليه.

«عادٌ» أُمَّةٌ من العرب البائدة، مُسَمَّاةٌ باسم جدّها «عاد» وهو من سُلالة سام بن نوح عليه السلام. وكانوا يسكُنُون الأَحقاف. وهي أرض من جنوب شبه الجزيرة العربيّة، تقع في شمالِ حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الرّبع الخالي، وفي شرقها عُمان، وموضع بلادهم اليوم رمال قاحلة، وهي مُطِلَّةٌ علىٰ البحر يقال لها الشّحْر، واسْمُ واديهم «مُغِيث».

بفَنِّيَّةٍ بدَيعة جاء البيان الموجز عن إهلاك عادٍ مَحْصُوراً بحاصِرَيْنِ مُتَماثلين، كَقَوْسَيْنِ نَضَعُهما في كتاباتنا المعاصرة للتَّمييز والتَّنبيه ولَفْتِ النظر، لكِنَّ أقواسَنَا خُطُوطٌ رَمْزِيَّة لا معنىٰ لها في ذواتها، أمَّا الحاصِران المتماثلانِ في هذا البيان الموجز فقد جَاءَا في جُمْلَةٍ كلاميَّةٍ تَنْتَزِعُ الاعتْرافَ بصيغتها الاستفهاميَّة، وتُوجّه للعظة والاعتبار والادّكار، وهي قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾؟ قَبْلَ عرض اللقطات المختارات من مشهد إهلاكهِمْ، وبعد عرضِها، فما كان قبل عرضها فهو توطئة لتقديم الجواب، ويتبعه بيان كيف كان العذاب وكيف كانت عاقبة النذر، وما كان بعده فهو لانتزاع الجواب من المتلقي، وهذا الاستفهام استفهام تقريري يُوجَّهُ لانتزاع الاعتراف بعظَمَةِ العذاب، وصِدْقِ أنْبَاءِ النُّذور، (أي: الإنْذَارَات).

والمعنى: فعلىٰ أيّ حالٍ كانَ عذابي لقَوْمِ عادٍ؟ وعلى أيّ حال كانت نُذُرِي لقَوْمِ عاد؟

وقد سبق آنفاً تحليلُ هٰذِهِ العبارة.

وبين هاذَيْن الحاصرين جاء قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

جاء تأكيد هذا النبأ بمؤكّدَين: «إنَّ» والجملة الإسمية، لأن المقصود بالخطاب المكذبون.

الرّيحُ الصَّرْصَر: هي الرّيح الشديدة البرودة، القويّة السَّريعة، الّتي تَصْطَدِمُ بالأشياء، فتنْطَلِقُ بِهَا أصواتٌ يتواتَرُ فيها ما يُشْبِهُ حَرْفَي الصّاد والرَّاء، فَسُمِّيَتْ صَرْصراً.

في يَوْمِ نَحْسٍ: أي: في يومِ جَهْدٍ وَضُرٍّ وَعَذَابٍ وَشِدَّةٍ وآلام،

وإضافةُ «يَوْم» إلى «نَحْس» على معنَىٰ الاختصاص، والمعنى: في يوْمٍ اختصَّ بالنَّحْسِ المنْصَب على عادٍ قَوْمِ هُودٍ عليه السَّلامَ إذْ كَذَّبوا رسُولَ ربّهم، وكَذَّبُوا بما جاءهم به عن رَبّه، وظَلَمُوا وطَغَوْا وَبغَوْا.

فوسِيلةُ تَعْذِيب وإهلاك عادٍ كانَتِ الرِّيحَ الصَّرْصَر.

مُسْتَمِرٌ: أي: شَدِيدٍ قَوِيّ، ومُتَكَرِّرٍ في نوازِل النَّحْسِ بتَتَابُعٍ وَتَلاَحُقٍ، حتَّىٰ تَحقَّقَ إهْلاَكُ القوم جَمِيعاً.

جاء في هذا النصّ بيانُ أنَّ الرّيحَ الصَّرْصَر تتابعَتْ على عادٍ في يوم نَحْسٍ مُسْتَمِرّ، للإشارة إلى أنَّ إهلاكَهُمْ قَدْ تَمَّ في هٰذَا اليوم.

لَكِنَّ الرِّيح وأسْبَابَ النَّحْسِ لم تَنْتَهِ في هذا اليوم بل بَقِيَتْ سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ حُسُوماً، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول):

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

وقد جاء هذا التكميل البيانيُّ وفق أسلوب التَّدَرُّج البياني في النصوص القرآنيّة والتكامل في توصيلِ المعلوماتِ المراد بيانُها.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: أي: تَقْتَلِعُهم اقْتلَاعاً بشِدَّة، مهما استمسكوا بثوابت في الأرض. فإذا نَزَعَتْهُمْ وَرَفَعَتْهُمْ طَرَحَتْهُمْ صَرْعَىٰ، أي: هَلْكَىٰ مَقْتُولينَ مَطْرُوحين.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾: أي: فيكُونُونَ بَعْدَ انْتزاعهم ورفعِهم وطَرْحِهِمْ وإهلاكهم وتناثُرِهم صَرْعَىٰ، كالنَّخل إذَا قُلِعَتْ مِنْ جُذُورها، وطُرِحَتْ أَرْضاً، وعَدَتْ عَلَيْها الأواكِلُ فَأَكَلَتْ بُطُونَها فَجَوَّفَتْها.

﴿أَعۡجَازُ﴾: جَمْعُ «عَجُز» وهو مؤخرَّ الشيء وأسفله، وأعْجازُ النَّخْلِ هِيَ أُصُول شَجَر النَّخْل.

﴿مُّنقَعِرٍ﴾: أي: مُنقَلِع من أُصوله، ومُنْقلِب مطروحٍ على الأرض، ويأتي لفْظُ «مُنْقعِر» بمعنىٰ قَدْ أُخْرِج ما في بَطْنِه، فَهُو مَنْزُوعُ الجوف.

وُصِفَ النخلُ هنا بالتذكير ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ ووصف في سورة (الحاقة) بالتأنيث ﴿خَاوِيَةٍ﴾ لأن لفظ النخل اسم جنس، يصحّ فيه التذكير والتأنيث، فالتذكير يلاحظ فيه اللّفظ، والتأنيث يلاحَظُ فيه المعنى.

قول الله عزّ وجل: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ قد سبق تحليل هذه العبارة.

قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾.

سبَق تَدبُّرُ هٰذَا النَّصّ في آخِرِ موجز إهلاك قوم نُوحٍ عليه السلام.

* * *

ثالثاً: الفقرة الثالثة

موجز إهلاك ثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام

الآيات من (٢٣ ـ ٣٢)

قال الله عزّ وجل:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾﴾.

● قرأ ابْن عامر وحمزة: [**سَتَعْلَمُون**] بتاء المخاطَبين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياء الغائبين.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البيانيّ، فقراءة الجمهور تتحدّث عن كُفّار «ثَمُود» الغائبين خطاباً لرسُولِهم والّذِينَ آمنوا به واتَّبَعُوه.

وقراءة ابن عامر وحمزة تخاطب كُفَّار ثَمُود خطاباً مباشراً، وفيها حكايةٌ لما وقع.

وكلا الأمْرَيْنِ مَقْصُودَان في البيان.

● وكلمة: ﴿وَنُذُرِ﴾ في الآية رقم (٣٠) فيها القراءات السّابقات في أمثالها من السُّورة بالنسبة إلى إثبات ياء المتكلم أو حذفها.

تمهيد:

هذا رابع نصّ نزل بشأن ثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، سبقه ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) وهو قولُ الله عزّ وجلّ فيها بشأنهم وشأن عاد وفرعون ويلْحَقُ به قومه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣)﴾.

ثُمَّ ما جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن إهلاك اللّهِ أُمَماً سابقة:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى (٥١)﴾.

ثُمَّ مَا جاء في سُورَة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وقد سَبَقَ تدبُّر هذه النّصوص خلال تَدَبُّرِ سُورِها.

وقد جاء في هذهِ النصوص تَدَرجٌ ارْتِقَائِيٌّ تَكامِلِيٌّ في البيان بِحسَبِ المناسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، وقَدْ جَاءَ البيانُ مجزَّأً مُتكاملاً لا مُكَرَّراً.

في هذا النّصِّ الرابع من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) جاء تقصيلٌ موجزٌ لقصَّةِ ثمود الّتي انتهَتْ بإهلاكهم بالصَّيْحة، وفيها لقطاتٌ مُنْتَقيات تشتملُ علىٰ بيان تكذيبهم رسُولَ رَبِّهم، وتكذيبهم بما جاءهم به عن الله، وعلى بيان ذريعتهم الَّتي تَذَرَّعُوا بها، لرَفْضِ الإيمان الّذي دعَاهم إليه رسُولُهم صالح عليه السّلام، ورَفْضِ اتّباعه في طاعة الله، وفي الإسلام له، وعلى بيان امْتِحَانهم بالآيةِ الَّتي طَلَبُوها، وهي آيَةُ النَّاقة، وعلى بيان عَقْرِهِمْ لها، وعلى بيان إهلاك الله لهم بالصيحة.

موجز قصة ثمود مع رسولهم صالح عليه السلام:

ذكروا أنّ كبراء ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم نبيُّ الله ورسُولُهُ صالحٌ عليه السلام، فدعاهم إلى سبيل ربِّهِمْ، ووعظهم، وذكَّرَهم بأنْباءِ الْمُهْلَكينَ من قبلهم، قوم نوح، وعادٍ قوم هود.

وقال لجماهيرهم: اتَّقُوا الله وأَطِيعون، ولا تُطِيعُوا أَمْر المُسْرِفين، الّذين يُفْسِدونَ في الأرْضِ ولاَ يُصْلِحُون.

فقالوا له: مَا أَنْتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا، فأْتِنا بآيَةٍ إن كُنْتَ من الصادِقين.

وقالوا له: إنْ أنْتَ أَخْرَجْتَ لَنَا مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً، وَأَشَارُوا إلى صَخْرَةٍ مُعيَّنَةٍ لَدَيْهِم، وحَدَّدُوا لَهُ أَوْصَافَهَا الَّتي طَلَبُوا أن تكون مُتصِفَةً بها،

وشدَّدُوا مُتَعَنّتِينَ في بيان الصّفات التي يجب أن تكونَ علَيْهَا، ومنها أن تكُون حُبْلىٰ عُشَراء[1] طويلة.

فقال لهم رسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام: أرَأَيْتُمْ إنْ أجبتُكُمْ إلى ما سَأَلْتُمْ، وفْقَ الأوصْافِ الّتي وصَفْتُمْ، أتُؤْمِنُونَ بأنّي رَسُولُ اللّهِ إليكم، وتُصَدِّقُوني فيما أُرْسِلْتُ به؟؟.

قالوا: نعم.

فأخذ عُهودَهُمْ وَمَواثِيقَهُمْ على ذلك.

ثم قام صالحٌ عليه السَّلام إلىٰ مُصَلاَّهُ، فصَلّىٰ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، ثمَّ دَعَا رَبَّهُ أن يُجِيبَهُمْ إلى ما طَلَبُوا.

فَأَمَرَ اللّهُ تِلْكَ الصَّخْرَة الَّتي عَيَّنُوهَا أن تَنفَطِرَ عن ناقَةٍ عظيمة عُشَراءَ[1] مُتَصِفَةً بالصِّفَاتِ الَّتي طلبَهَا القوم.

فلَمَّا عَاينوها قد انفطرت عَنْها الصّخرة، وجاءت على وفق الأوصاف الّتي طَلَبُوها دَهِشُوا، إذْ رأَوْا أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد استجاب لدعاء صالح عليه السلام، وأثبت لهم بهٰذه الآية أنّه رسول ربّهم حقاً وَصِدْقاً.

فآمَنَ فَرِيقٌ مِنهُمْ، وبقي أكْثرُهُمْ على كُفْرِهِمْ وشِرْكِهِم وعِنَادِهِمْ.

وقال لهم الرسولُ صالح عليه السلام: هذه نَاقة اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تأْكُلْ في أرض الله، ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قريبٌ أليمٌ، في يوم عظيم.

وقال لهم: إنّ الله قد جعل ماءَكم قِسْمةً بينكم وبينها، فلها شِرْبُ يَوْمٍ معلوم، لا تستَقُونَ أنتم فيه، ولَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، لا تأتيكُمْ هي فيه فَتُشَارِكَكُمْ سُقْيَاكم.

---

[1] (١) عُشَراء: أي: حُبْلَىٰ مضىٰ على حملها عشرة أشهر.

فقد جعل الله جلَّتْ قدرتُهُ وعظُمَتْ حكمتُه هذه الناقة الّتي أخْرَجَهَا لهم على وَفْق ما طلبوا، فِتْنةً لهم، أي: امتحاناً كاشفاً لما في نفوسهم، فَجَعَلَ لَهَا فيهم شروطاً:

الشرط الأول: أَنْ تُتْرَك سَائمةً تأكُلُ مِنْ أَرْضِ الله كما تَشاء، فهي ناقَةُ الله.

الشرط الثاني: أنَّ الماء الذي يَشْرَبُونَ منه في دِيارِهم قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ وبَيْنَها، فهم لا يُشَارِكُونَها في نَوْبَتِها، وَهي لا تُشَارِكُهُمْ في نَوْبتِهِمْ.

الشرط الثالث: أنْ لا يَمَسُّوها بِسُوءٍ، فإذا فَعَلُوا أهلَكَهُمُ اللَّهُ بعذاب يومٍ عظيم في الحياة الدنيا، دون إمهالٍ إلى يوم الدّين مع ما سوف يلاقون من عذاب خالدٍ يوم الدّين.

وهذا شأن الخوارق الّتي يُرْسِلُها الله وفْقَ طَلبِ الأقوام، بخلاف الآيات الّتي يُؤَيّدُ اللَّهُ بها رُسُلَهُ على ما يَشاءُ هو، دُونَ تَحْدِيد تَعَنُّتِيّ من القوم.

فلَمَّا عَقَرُوا الناقة أهلكهم الله بالصيحة المقْتَرِنة بالرَّجْفة وبالصاعقة.

وعند المؤرخين في قصتهم تفصيلات، أرجو أن أذكُرَها في موضع آخر من عرض لقطات من قصتهم في القرآن المجيد.

* * *

التدبّر التحليلي للنصّ.

- قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ثَمُودُ﴾: قَوْمٌ من الْعَربِ البائدة، يُنْسَبُون إلى أَحَد أَجْدادهم «ثمود» نَشَؤُوا وتَكَاثَرُوا بعْدَ «عادٍ». وكانُوا خُلَفَاءَ في أرْض الْعَرب من بعَد قوم عادٍ الّذِي أُهلِكُوا. ورُبّما كان الّذين آمَنُوا بِهُودٍ عليه السّلام، ونَجَوْا من الهلاك معه أجداداً لهم، أو من أجدادِهم، وقَدْ تكونُ ثَمُودُ هي عاداً الأخرى، إذْ قَوْمُ هُودٍ هم عادٌ الأولى.

وثمود هم قوم النبي الرسول صالح عليه السلام، وكانُوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ، وهو بيْنَ الحجاز وتبوك، وتُعْرَفُ مَسَاكِنُهم بمدائن صالح، وآثارهم فيها ظاهرة حتى الآن، يزورها محبُّو زيارة الآثار.

ولفظ «ثمود» اسم جمع لجماعة من الناس، فيجوز في العربية تذكيره وتأنيثه، كنُظَرائه، وقد كثُر في القرآن تأْنيثه، وجاء مصروفاً وممنوعاً من الصرف.

﴿بِٱلنُّذُرِ ﴾ النُّذُر هنا جمع «النذير» الذي هو اسم مَصْدَرِ فعل «أَنْذَر يُنْذِرُ إِنْذَاراً». فالمعنى: كذَّبوا بالإنْذَارات الّتي أنذرهم بها رسُولهم صالح عليه السلام، فهي إذن إنذارات مُتَعَدِّدات أَنْذَرَهُمْ إيَّاها عَاجِلَةٌ في الحياة الدُّنيا، وآجلةٌ إلى يوم الدين.

ولا يَصِحُّ هُنَا حَمْلُ النُّذُرِ على الرُّسُلِ المنْذِرين، لأنَّ الاسْتقراء للاستعمال القرآنيّ دلَّ على أنَّ التكذيب إذا كان لمبَلّغ الخبرِ أو البيان تعدّى الفعل إليه بنَفْسِه دُون وساطة حرف جرّ، أمّا إذا كان للخَبَرِ أو للبيان نَفْسِه، فإنّه يتعدَّىٰ إليه بحرْفِ الباء. مثل: ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ﴾ ـ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾.

ولمَّا كانَت الإنْذاراتُ لاَ تُوَجَّه إلاَّ بَعْدَ الدَّعْوَةِ إلى الإيمان وأركانه، والدَّعْوة إلى الإسْلام والطَّاعة، كانَ ذِكْرُ النُّذُرِ هُنَا دَالاً عَنْ طريق اللُّزوم الذهْنِي على أنَّهم كَذَّبوا رسُولَهُمْ صالحاً عليه السّلام، وكذّبوا برِسالته، وكذَّبوا بما جاءهم به عن رَبّه، وأخيراً كَذَّبُوا بإنْذَارَاته.

فكان من الإيجاز البديع الاقتصار على بيان تكذيبهم بإنْذاراتِ رسُولهم، لما فيه من دلالَةٍ عَقْلِيَّةٍ على تكذيبهم بما تقتضي دَعَوَاتُ المرسَلِين بيانَه قَبْل إخْبارِهم بالإنْذارات، وإذْ كذَّبوا بإنْذَاراتِ الرَّسُولِ فَقَدْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ لُزوماً، وكذَّبوا بكُلِّ مَا جاءَهُمْ به عن ربّه.

● قول الله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

في هٰاتَيْنِ الآيتَيْن تلخيصٌ لأرْبَع مقالات قالَهَا كُبَراءُ كُفَّارِ ثمود، ورَدَّدَتْهَا جماهيرُهُمْ التابعون لهم في مواجهة دعوة نبيّ الله ورسُولِه إليهِمْ صالحٍ عليه السلام، مُعْلِنين بها استكبارهم عن الاستجابة له.

وجاء عطفُ مقالاتهم هذه بحرف «الفاء» الذي يدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، نظراً إلى أوّل مراحِلِ تكذيبهم لرسُولهم، لا إلى مرحلة تكذيبهم بالنُّذُرِ الَّتي أنذرهُمْ بها، إذْ إنّ ذِكْرَ النُّذُرِ قد دلَّ على ما قبلها من مراحل باللُّزوم العقلي.

● فَهُمْ قَدْ كَذّبوا رَسُولَهم مُنْذ أبْلَغهُم بأنّ الله عزّ وجلّ قد جعله نَبيّاً، وبَعَثَه رَسُولاً إليهم، فاقتضت دقَّةُ البيان أن يكون العطف بحرف «الفاء» الدّالَّة على الترتيب مع التعقيب، وهٰذا التكْذِيبُ قَد جَرَّ سِلْسِلة تَكْذِيبات كانت الحلقة الأخيرة منها تكذِيبَهُم بالنذر.

وفيما يلي مُتَابَعَةٌ تحليليَّة تَدَبُّرِيَّة للمقالات الأربع الّتي قالُوها:

المقالة الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾؟! استفهامٌ تعجُّبِيٌّ استنكاري، يَنِمُّ عن مُنْتَفِخِ الكِبْرِ في صدورهم، إنَّهم يُعْلنُون بهذا رَفْضهم لاتِّباعِ رَسُولٍ بَشرٍ مِنهُمْ، وهُوَ واحِدٌ ليْسَ بجماعة، أي: فكَيْفَ يتَلاءَمُ مَعَ مكانَتِهم العظيمة، ومَنْزلَتِهم الرَّفيعة، أنْ يَتَّبِعُوا بَشراً منهم واحداً يَزْعُمُ لَهُمْ أنّه رَسُولُ الله إليهم.

فَهُمْ يَرفُضُون أوَّلاً أن يكون الرَّسُولُ من البشر. وعلى فَرْضِ قَبُولِهم أن يكون من البشر، فإنَّهم يَرفُضُون أنْ يكُونَ شخْصاً واحداً، ليْسَ مَعَهُ رَسُولٌ آخرُ أَوْ عَدَدٌ من الرُّسُل.

﴿أَبَشَرًا﴾ منْصُوبٌ على الاشتغال، أي: أَنَتَّبِعُ بشراً واحداً حالةَ كَوْنه منّا، أي: من جنْس البشر نَتَّبِعُهُ.

المقالة الثانية: دلَّت عليها عبارة: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾.

بهذه العبارة أكّدوا زاعِمِينَ أَنَّهم إذا اتَّبَعُوا بَشراً واحداً من البشر، فإنّهم يكونُون إذاً لَفِي ضَلاَلٍ في مَسِيرتِهم في حياتهم، وفي جُنُونٍ في عقُولِهم وأفكارهم، وهٰذا أعْظَم ما قَدَّمُوه من ذريعةٍ، لتزيين نُفْرَتهم واستنكافهم عن اتّباع رَسُولهم.

﴿إِذًا﴾ حَرف يدلُّ على المفاجأة في الحال، ويَختَّصُ بالجمل الإسميّة، ولا يحتاج إلى جواب، ولا يقع في ابتداء الكلام.

﴿لَّفِى ضَلَـٰلٍ﴾: أي: لفي جَهْلٍ وضَيَاعٍ، وَبُعْدٍ عمّا هو حقٌّ وخَيْرٌ وَرُشْد.

﴿وَسُعُرٍ﴾: أي: وفي جُنُون، فالسُّعر يأتي في اللّغة بمعنى الجنون، وَيصِفُ الْعَربُ الناقَةَ الْهَوْجاء بأنّها مسعورة، كأنّ بها جنوناً.

ويظهر أنّ هذه المقالة صادرة عن كبراء ثمود، ليصُدُّوا بها جماهيرهم عن اتّباع رسُولهم، أي: فمن اتّبعه وهو بَشَرٌ واحِدٌ منهم كانَ منْغَمِساً في جَهْلٍ وَضياع، وكان مُنْغَمساً في جُنُون، ومعلوم أنَّ الأَتْبَاعَ يَرون قادتَهم أَهْلَ عقل ورُشْدٍ وحسن فهم للأمور، وإدراك للحق والباطل، والخير والشرّ.

دلّ حَرْف «في» علىٰ أنّ الضّلالَ والسُّعُرَ يكون بمثابَةِ ظرفٍ مُحيطٍ بمن اتّبَعَ بَشَراً واحداً مِنْهم.

ويُلاحَظُ أنَّهُمْ أكّدُوا مقالتهم هذه بالمؤكدات التالية: «إنَّ ـ والجملة الإسْميَّة ـ واللاَّم المزحْلَقَة» ليقْبَل كلامَهُمْ أتباعُهم، وليُشْعِرُوهُم بأنّهم مؤمِنُون بما يقولون، غيرُ شاكّين، ولا ظانّين، وهذا مِنهم مبالغة في المكر ومعانَدَةِ الحقّ.

المقالة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!!.

وفي هذه العبارة استفهام تعجُبيٌّ إنكاريٌّ أيضاً، وهي تدلُ علىٰ

إنكارِهم الشَّدِيد أنْ يَكُونَ هذا الواحد منهم، وهو صالحٌ عليه السلام، مُخْتَاراً اختياراً خاصّاً مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ قِبلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، ولإلْقَاءِ الذِّكْرِ عليه، وهو الكتاب الرَّبَّانيّ، المطلُوبُ منهم أَنْ يتلَقَّوْه ويتفَهَّمُوا دلالاتِه، ويحفَظُوهُ، وَيَذْكُرُوا أوامره ونواهيه ووَصَاياه عِنْدَ المناسَبَات الداعيات، ليعملوا بها.

ولا يخفى على المتدبّر أنّه قد حصل الاسْتِغْنَاءُ ببيان إلْقاء الذِّكْر عليه، عن التصريح بالتعجُّب من اختياره للنُّبُوَّة والرِّسالة، نظراً إلى أنّه لا يُلْقَىٰ الذِّكْرُ الرَّبَّانِيُّ عليه، إلاَّ بَعْدَ اصطفائه بالنّبُوّةِ والرّسالة.

وهذا الاستفهام التعجُّبِيّ الإنكاريُّ من قادة ثمود، الدَّالُّ على معنىٰ إنكار نبوّته ورسالته، يتضمَّن إشعاراً بأنّ غَيْرَه من كُبَرَاءِ قَوْمِه أحقُّ منه بذلك، فليس من المعقول أن يختاره الله بالخصوص من بَيْنِ مَنْ هُمْ أَحَقُّ بِذَلِكَ من قومه، في زَعْمِهم ومفاهِيمِهِم الطَّبقيَّةِ الاستكْبارِيَّة.

إنَّ تَصَوُّرَاتِهم الباطِلَاتِ في حدود مفهوماتهم المرتَبطَاتِ باعتباراتٍ دنيوية، تَجْعَل حقَّ الامتياز في القوم لأهل المال، أو أصحاب الْعُزْوة والجنود والأنصار، أو أَرْبابِ الأنْسَابِ والأمجاد والمفاخر المتوارثَةِ في الأعراق وفي الأسر، وهذه كلُّها تصوُّراتٌ ومفهوماتٌ باطلات لا وزن لها في ميزان الحقيقة.

إنّ الله عزّ وجلّ لا ينْظُرُ إلى هٰذه الاعتبارات الّتي لا ترفع في الحقيقة قيمة الإنسان عنْدَه، إنّما ينْظُر جلَّ جلاَلُه إلى قِيَم الفضائل الذّاتِيّةِ، والفضائل الإرَادِيّة في الْتِزَام الحقّ وسلوك سبيل الْهُدَىٰ والخيرِ والكمالِ، في الإنسان الذي يَصْطَفِيه لنبوَّتِه ورسالته، وهو جلّ جلالُهُ أعلم بعباده وما في قلُوبهم مما يُؤَهلهم للاصطفاء، أو لا يُؤَهِّلُهُمْ له، كما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... ﴿١٢٤﴾﴾.

ودلَّ فِعْلُ ﴿أَلْقِىَ﴾ على أنّ الكتاب الَّذِي أُنزِلَ على صالح عليه السّلام قد أُنْزِلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فالإِلْقَاء فيه مَعْنَىٰ الطَّرْح بمرَّةٍ واحِدةٍ، بخِلاف معنَىٰ الإنْزَالِ، والتَّنْزِيل، فلا يَدُلأن على معنى الإلقاء جُمْلَةً واحدة.

ومادة «الإلقاء» في القرآن قد استعملت وهي تُشْعِرُ بمعنى الطَّرْح جملة واحدة في نُصُوصٍ متعدّدة، فمنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لموسَىٰ بما امْتَنَّ به عليه وهو طِفْلٌ يجري به التابوت على شاطئ النيل:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأنِ مباراته مع سَحَرةِ فِرْعَوْن:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجل في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

ومن الظاهر أنّ كُلَّ مَنْ يُلْقي اللَّهُ في قَلْبِه الرُّعْبَ يُلْقِيه فيه دُفعةً واحدة.

وإذْ أَنْكَرَ كُبَراءُ كُفَّارِ ثَمُود أن يكون صالحٌ عليه السّلام نبيّاً رَسُولاً مختاراً من الله، قامَتْ في أذهانِهم احتمالاَتٌ أُخرى، تُبْعِدُ عنه أن يكون كذَّاباً، لكنَّهُمْ رَفَضُوا هذِه الاحتمالاَت حَتَّىٰ لا تَخِفَّ عَدَاوَتُه والحَنَقُ علَيْه في نُفُوسِ أَتْبَاعهم، فقالوا: لاَ عُذْرَ له بَلْ هُوَ كذَّابٌ مُسْتَكْبِرٌ يُرِيد الْعُلُوَّ في الأَرْض، ومنازعَة الكُبَراءِ مَكَاناتهم، وهذا ما دَلّت عليهم مقالتهم الرابعة.

المقالة الرابعة: دلَّت عليها عبارة: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾.

طوى النّصّ ما قام في أذهان كبراء كُفَّار ثمود، من احتمال أنْ يكونَ مَعْذُوراً في ادّعاء أَنَّهُ نبيٌّ رَسُولٌ، كأَنْ يَكونَ قَدْ تهَيّأَ لهُ ذَلِكَ، أو أَثَّرَتْ عَلَيْه الجنّ، أو أَثَّرَتْ عليه أعمال سِحْرِيَّة، لكنَّهُمْ رفَضُوا التصريحَ بها، ورفَضُوها جملةً وتفصِيلاً بدلالة حرف «بل».

أي: لا عُذْرَ لَهُ فيما ادّعاه بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ.

﴿كَذَّابٌ ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «كاذب» إنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بأنْ يَقُولوا هو كاذب، بل اتَّهَمُوه بأَشْنَع دَرَكات الكذِب، مع أَنَّهُمْ ما عرفُوه في حياته معهم قبل النبوّةِ إلاّ صادقاً أميناً.

﴿أَشِرٌ ﴾: أي: مُسْتَكْبِرٌ بَطِر، يُقالُ لغة: أَشِرَ فُلانٌ أَشَراً فَهُوَ أشِرٌ، أي: بَطِرَ واسْتَكْبرَ، ومُرَادُهُمْ اتِّهامُهُ بأَنّ ادّعَاءه أَنَّهُ رسُولُ الله نابعٌ من كِبْرِه في نفسه، ورَغْبته في أَنْ تكونَ لَهُ السّيادة في قومه، وأن تكون لَهُ القيادة والرّيَاسة والسُّلْطَانُ والأَمْر والنَّهْيُ، فلا هو صادقٌ في قوله: إنَّهُ رسُول الله، ولا هو معذور بادّعائه، على احتمال أن تكون قد جرتْ له أمورٌ وَرُؤىً أَوْهَمتْه أنّه نبيٌّ ورسولُ، كالّذِي يَأْتيهِ رَئِيٌّ من الجنّ، فيُخْبِرُهُ بأشياء، يَزْعُم له فيها أنَّها من أمُورِ الغيب، بَلْ هو كذَّابٌ أَشِرٌ.

لكنَّهُمْ في الحقيقة هُمَ الكذَّابُون الأَشِرُون، كذَّابُونَ في إيهامهم وتَزْوِيرِهم على جماهيرهم، بأَنَّهُ لَيْسَ رَسُولاً من عنْدِ رَبّهم، مع اقتناعهم في أَعْمَاقِ نفوسهم وقُلُوبهم بأنّه رسُولٌ صادقٌ وليس بكاذب.

وأشِرُونَ، أي: مستكْبرونَ بِطِرُونَ، يُرِيدُونَ بتَكْذِيبِه ورفْض اتّباعه، وتَحْرِيضِ جماهيرِهم على تكذيبه والتَّوَلّي عنه، المحافَظَةَ على زَعَاماتهم ورِياسَاتِهم في قومهم، وعلى مصالحهم الدنيويّة الّتي يَخْشَوْنَ فواتَها إذا آمَنُوا به واتَّبعوه، وهذا ما أبَانَه الله عزَّ وجل بقوله لرسوله صالح عليه السَّلاَمُ إبَّانَ الحَدث:

- ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾.

وخاطَبَهُمْ على لسان رسُوله صالح عليه السّلام بقوله لهم إبّان الحَدَث:

- ﴿سَتَعْلَمُونَ غداً مِنَ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾.

كما جاء في القراءة الأخرى المتواترة.

وفي هذا البيان، إيماءٌ لحالَةِ الرَّسُولِ محمد ﷺ، وحالَةِ من كَذَّبَهُ مِنْ قومه وزعَمَ أنَّهُ طَالِبُ زَعَامَة، فكَأَنَّ الله عزَّ وجلَّ يخاطِبُهُمْ بمثل ما خاطب به ثموداً قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام.

وقد جِيءَ بهٰذِه الجملة مقتطَعةً مُخْتزلَةً مِنْ فَصْلٍ مِنْ فُصُولِ قِصَّةِ صالحِ عليه السّلام وقومه ثَمُود، ومُوَجَّهَةً كأَنَّ الحَدَثَ يَجْرِي الْلآن.

وهذا الأسْلُوبُ من مبتكرات القرآن المجيد.

وجاءَتْ كلمة ﴿غَدٗا﴾ فيها دالَّةً على الزَّمَنِ المسْتَقْبلِ حِينَ ينزل بهم عقابُ الله، ويَنْصُرُ الله رَسُولَه، وعلى يوم الدّين، باعتبار أنّ الحياة الدنيا كُلَّها يَوْمٌ، وأنَّ الآخِرَةَ يَوْمٌ بَعْدَه، فَهُو الْغَدُ بالنسبة إلى يوم الحياة الدُّنيا.

- قول الله تعالى حكاية لقوله لصالح عليه السّلامُ مُقْتَطعاً من الحدث الذي جرى في زمانه:

﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾﴾.

سيأتي إن شاء الله عَرْض قصّة الناقة التي أرسلها الله آية لَهُمْ بناءً على طلبهم بعد تحليل النصّ، وجاء تعريف الناقة بـ (الـ) العَهْدِيَّة، للإشارة إلى شروطهم التي وضعوها لها.

﴿فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾: أي: امتحاناً لهم واختباراً، فقد طلَبُوا معجزة النّاقة فأجرها الله عزَّ وجل لصالح عليه السلام آيةً تشهد له بأنهُ نبيُّ الله ورسوله حقّاً، وهي مع ذلك امتحان لقومه بشروط حياتها فيهم، إذْ تعنتوا بتحديدها، وتحديد أوْصَافِها، ومكان خروجها من صخرة معيّنة.

﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾: أي: فانتظرهم، واجعلهم تحت مراقبتك وملاحظتك لما سيكون منهم، كالحارس الذي يرعىٰ ما يحرسُه بمراقبته وحفظه،، يقال لغة رقبه: أي: انتظره ـ لاحظه ـ حَرَسَهُ ـ حفظه ـ.

وفي هذه الصيغة التي أضيفت إليها تاء الافتعال التوجيه للعناية التَّامَة بتكلُّفِ الانتظار مع المراقبة وشِدَّة الملاحظة، دون استعجال. **ارْتَقَب**: على وزن «افتعل» من فعل: «رَقَبَ» قبل الزيادة.

﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾: من فعل «اصْطَبرَ» اصْتبر، بإضافة تاء افتعل لفعل «صبَر» ثم قلبت التاء طاءً لتتلاءم مع الصاد.

أي: واصْطَبرْ بتكلُّفٍ ومُجَاهَدَةٍ لنفسك على أذاهُمْ وكُفْرِ مَنْ أصَرَّ على الكُفْرِ مِنهم، ولا تَسْتَعْجِلْ لهم أيّ أَمْرٍ، إنَّهُمْ سيضيقون ذَرْعاً بامتحانهم بالنَّاقة المعجزة ضمْن الشروط الّتي وُضِعَتْ لهم، وسيَعْمَلُونَ مَا يُسَبِّب إهلاكهم إهلاكاً عَامّاً شَامِلاً، على وفْقِ الْوَعِيد الَّذِي أُعْلِمُوا به.

- قول الله تعالى حِكَايَةً لقوله أيضاً لصالحِ عليه السَّلام مُقْتَطعاً من الحدث الذي جرىٰ في زمانه:

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾﴾.

أبان الله عزّ وجل في قوله هذا لرسولهم الشرط القاسي في امتحانهم بمعجزة الناقة الّتي أخرجها لم من صخرة عيَّنُوها، ووفق الصفات التي حَدَّدُوها.

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي: وخَبِّرْهم بهذا الخبر البارز ذي الشأن الشّديد عليهم.

﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾: أي: مقْسُومٌ بَيْنَهم وبين النّاقة المعجزة على نِصْفَيْن، والمراد بالماء ماءُ الشُّرب الذي تشرب منه قبيلة ثمود كُلُّها في موطن إقامتهم.

يقال لغة: اقْتَسَمَ الرَّجلان الشيءَ بينهما اقتساماً، أي: أَخَذَ كُلٌّ مِنْهُما نَصِيبَهُ منه. **والقِسْمَة**: اسم من اقتسام الشيء، وتُطْلَقُ الْقِسْمَةُ عى النّصيب.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: **الشِّرْبُ**: بكسر الشين، نَوْبَة الاستقاء من الماء. والنَّصِيبُ الْمُعَيَّنُ للشارِب منه.

مُحْتَضَرٌ: أي: يحْضُرُهُ مَنْ لَهُ نَوْبتُه، أو يحضُرُهُ مُسْتَحقُهُ دون مَنْ لاَحَقَّ له فيه، وجاءت صيغة «مُحْتَضَر» من احتضر على وزن «افتعل» الدّال على التكلف والمبالغة، لتدلّ على أنّه يلزم ضبط مواعيد حضورهم وحضور الناقة لورود الماء بانتظامٍ دون اختلاف ولا عدوان.

وما لم يُصَرّحُ به في هذا النّصّ جاء بيانه في غيره من النّصوص الموزعة في القرآن المجيد.

- ففي سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩) قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصّ بيان شَرْطٍ آخر من شُروط استجابة الله لهم في آيَة النـاقَة الّتي طَلَبُوها، وهو أن تأْكُلَ من أرْض الله على ما تشاء، وأن لا يَمَسَّهَا أحدٌ بِسُوءٍ، فإذا مَسُّوها بسُوءٍ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بعذابٍ أليم.

● وفي سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال الله عزّ وجلّ ضِمْن عرض لقطات من قصّة صَالِحٍ عليه السلام، وقومه ثمود:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾: أي: لها شِرْبُ يَوْم مَعْلُوم من مَاءِ ثَمُود، ولكُمْ شِرْبِ يَوْم آخر معلوم، على سبيل المهايأة اليوميّة فأضاف هذا النص بَيانَ المراد بكون الماء قِسْمةً بَيْنهم، الّذي جاء في سورة (القمر). التي نتدبرها.

وأضاف هذا النّص بيان أنّ إجراء آية النّاقة قد كان استجابة لِطَلبهم آية.

قالوا: وكانت هذه الناقة تَرْعَىٰ حيْثُ شَاءَتْ من أَرْض ثَمُود، وَتَرِدُ الماء يَوْماً بَعْدَ يوم، وكانَتْ إذا ورَدَتِ الماءَ تَشْرَبُهُ كُلَّه في يومها، وكانُوا يأخُذُون حاجتَهُمْ مِن الماء في يَوْمهم لِغَدِهم.

قيل: وكانوا يَشْرَبُونَ جميعاً من لَبَنِها كِفَايَتَهُمْ، واللَّهُ أعلم.

● قول الله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

على الرُّغْم مِنْ آيَةِ الناقَةِ الّتي أجراها اللَّهُ عزّ وجل لرسوله صالح، على وَفْقِ طلبِ قومه، فإنّ معظَم قومه ثَمود لم يُؤْمِنُوا وأصَرُّوا على كفْرِهم وعنادهم، لكنّهم كانوا بالنسبة إلى ناقة الله على حذر، فالتزمُوا بِمُراعاةِ

شُرُوطِها حيناً من الدَّهر، ثُمَّ ضَاقَتْ صُدورهم، فعَزَمُوا على أن يتخلَّصُوا مِنْها، غير أنَّ كبراءهم خافوا أن يباشِرُوا عَقْرَها بأنفسهم، فنادَوْا صاحِبَهُمْ، وهو أشقاهم، كما جاء في سورة الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) بقول الله عزّ وجل فيها:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ⑪ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ⑮﴾.

قيل: واسْمُ أشْقَىٰ ثمود: «قُدَارُ بْنُ سالِف».

وقد سبَقَ تدبُّرُ هذا النّصَ ضمن تدبُّر سورة (الشمس).

وأَشْقَىٰ «ثمود» هو الذي جاء التعبير عنه في سورة (القمر) بعبارة ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ للإشارةِ إلىٰ أنّ كُفَّارَ ثمود كُلَّهُمْ أشْقِياء، إلاَّ أنّ الّذِي عَقَرَ الناقةَ مِنهُمْ قد كان أشْقَاهُمْ، وكانَ هٰذا أخْبَثَ تسْعةِ رَهْطٍ أشقياء من ثَمُود، وهو قائِدُهُم، وكان هؤلاء أكثر قومهم سَفَاهَةً، وجُرْأَةً على الشّرّ وارتكاب كبائر الإثم.

ونَسْتفيد من عبارة ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ أنَّ الصُحْبَةَ لاَ تَتَحقَّقُ إلاَّ بالمشَارَكةِ في جملَةٍ من الصّفات.

ودَلَّ مَا جاء في سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) على أنّ هذا الأشقىٰ ورهْطَهُ تقاسَمُوا بالله على أنْ يقْتُلُوا صالحاً وأَهْلَهُ بَياتاً، بَعْدَ أن عَقَرَ قائِدُهُم الناقة، فقال الله عزّ وجلَّ فيها ضمن عرض لقطات من قصة صالح عليه السَّلامُ وَقَوْمه ثَمُود:

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ㊽ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (49) وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَٱنظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

- ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾: يُقَالُ لغة: تَعَاطَىٰ الرَّجُلُ، أي: قامَ على أطراف أصابع رِجْلَيْهِ، ورفَعَ يَدَيْهِ إلى الشيء ليأخُذَهُ.

ويقال: تَعَاطَىٰ الشَّيْءَ، أي: تناوله. وتعَاطَىٰ الْأَمْرَ أي: رَكِبَه.

فَعَقَر: أي: فَعَقَرَ النَّاقة الّتي أخرجها الله عزّ وجلّ آيةً لصالحٍ عليه السَّلام. وجَعَلها فِتْنَةً، أي: امتحاناً كاشفاً لكُفَّارِ قَوْمِه.

العَقْر في اللُّغة: يأتي بمعنى قَطْعِ إحْدَىٰ قوائم البعير ليَسْقُطَ على الأرض، ويتمكَّنَ الْعَاقِرُ مِنْ ذَبْحِه، ويقال: عَقَرَ الحيوانَ، إذا ذَبَحَهُ.

ويُمْكِن تَصْوِير ما قام به قُدار، أشقى ثمود، أخذاً من قول الله تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ أنّ هذا الأشقى أسْرَع عقب مناداة قَوْمِهِ له مُحَرضِين إيَّاه على التخلُّص من الناقة، فتناول سلاحَهُ بخفَّةٍ، وأقْبَلَ مُتَبَاسِلاً يَمْشِي على رؤوس أصابع رِجْلَيْهِ، مَادّاً يَدَيْهِ بسلاحه إلَىٰ الأعْلَىٰ، وأقبل بجُرْأَةٍ إلىٰ الناقة، فَعَقَرَهَا أوّلاً حتَّىٰ سقَطَتْ على الأرض، وعَقَرَهَا ثانياً فذبَحها.

فما أبدع هذا التصوير الذي دلَّت عليه بإيجاز جميل عبارَةُ ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾.

- قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾؟.

سبق تدبُّر هذه العبارة، إذْ جاء نظيرها في موجز إهلاك قوم نوح عليه السلام، وموجز إهلاك عادَ قوم هود عليه السلام.

وفي كلمة﴿ٱلنُّذُرُ ﴾ القراءات الّتي سبق بيانها في النظائر بشأن إثبات ياء المتكلم أو حَذْفِها.

- قول الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

في هذه الآية جواب السؤال الذي تضمّنَتْه الآية السابقة، وهي عبارة مؤكَّدَةٌ بـ (إنَّ، والجملة الإسمية» جاء فيها استعمال ضمير المتكلم العظيم، للدِّلاَلةِ على عزّة الرُّبوبيّة، وسُلْطان الجبَّار القاهر فوق عباده، الذي هو على ما يشاءُ قدير.

﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: أي: صَوْتاً عظيماً واحداً، كافِياً للإهلاك والإبادة.

﴿فَكَانُوا۟﴾: أي: فَكَانَ كُفَّارُ ثَمُود.

﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: **الْهَشِيمُ في اللّغَةِ**: يأتي للدَّلاَلة على عدة معانٍ:

- يأتي بمعنى الْمَهْشُوم المتكَسِّرِ من النباتات والأشجار وغيرها من الأشياء.
- ويأتي بمعنى الشجرة البالية، الّتي يأخُذُها الحاطب كيْفَ يشاء.
- ويأتي بمعنى اليابس من كُلّ شيءٍ، ولا سيما الأشجارُ والنباتات.

المحتظر: هو الذي يُريد أن يصْنَعَ حَظِيرَةً لمَاشيته، فيجْمَعُ أعواداً، وأشجاراً يابِسَةً قَدِيمَةً، وأشواكاً من الهشيم، ويَجْعَلُها أكواماً، ليُقِيمَ مِنْها السِّيَاجَ حَوْلَ حظيرَته.

شبّه الله عزّ وجلّ قتلَىٰ ثَمُود بَعْدَ إهلاكهم بأَكْوامٍ من الهشيم الّتي يجمعها المحتظر لإقامَةِ حظيرَته.

وهذه الصيحةُ الصَّوْتِيَّةُ قَدْ كانت مصحوبةً بالرَّجْفَةِ الّتي تَزَلْزَلَتْ بها الْأَرْضُ من تحتهم، ومصْحُوبَةً بصَاعَقَةِ عذاب عظيمة:

دلَّ على الرَّجْفَة قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول): بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

ودَلَّ على الصاعقة قول الله عزّ وجل في سُورَةِ (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول): بشأنهم:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾: **الْهُون**: الذُّلّ، والخزْي، وهو مصدر «هَانَ، يَهُونُ، هُوناً، وهَوَاناً، ومَهَانَة» فهو من قبيل الوصف بالمصدر على التأويل بمشتقّ، أي: العذاب الْمُهِين، أو هو بدلٌ من العذاب، فيكون المعنى: فأخذتهم صاعَقَةُ العذاب، وهي أيضاً صاعِقَةُ الْهُون، أي: صاعقة الذّلّ والخزي.

وانتهىٰ الأمْرُ بطَحْنهم وَتَسْوِيَةِ الأرض فَوْقهم، كما جاء في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) فقال تعالى فيها بشأنهم مع رسولهم وناقة الله:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾.

يقال لغة: دَمْدَمَ الْقَوْمَ، وَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ، أي: طَحَنَهُمْ مُهْلِكاً لهم.

ويقال: دَمْدَمَ عليْهِ الْقَبْرَ أو الأرض، أي: أَطْبَقَهُ عليه، وسَوَّىٰ الأرض فَوْقَهُ.

- قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾:

هذه الآية الفاصلة بين فقرات المهلَكين الأولين المختارين للذّكْرِ في هذه السّورة، والتي تكرّرت أربع مرّات، وقد سبق تدبُّرُها في آخر فِقْرَةِ إهلاك قوم نوح عليه السلام على قَدْرِ أوعِيَتنا الفكريّة.

* * *

رابعاً: الفقرة الرابعة
موجز إهلاك قوم النبيّ الرسول لوط عليه السّلام
الآيات من (٣٣ ـ ٤٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

● في كلمة: ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ في الموضِعَيْنِ القراءاتُ الّتي سبق بيانها في النظائر بشأن إثبات ياء المتكلّم أو حَذْفها.

هذا النّصّ هو ثاني نَصّ نزل بشأن قوم لوطٍ عليه السّلام، بحسب ترتيب النزول، فقد سبقه ما جاء في سورة (ق/ ٠٥ مصحف/ ٣٤ نزول).

فقد ذُكِرُوا فيها بعنوان «إخوان لوط» ضِمْن مجموعةٍ ممَّن كذَّب الرُّسل فحَقَّ علَيْهم وعيد الله.

لَمْحةٌ عن لُوطٍ عليه السلام وقوْمِه:

لوطٌ عليه السّلام هو ابْنُ أخي إبراهيم عليه السلام، فلُوطٌ هو ابْنُ هارَان، وهاران أخو إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد كان لُوطٌ قبل نُبُوَّته من المؤمنين، آمن بعمّه إبراهيم، وهاجر مَعَه حتَّىٰ اسْتقرَّا في أرْضِ فلسطين من بلاد الشّام.

ثُمَّ أَمَرَ إبراهيم عليه السلام ابْنَ أخيه لُوطاً، أن ينْزَحَ بما يَمْلِكُ من أموال عن مَوَاطن إقامَتِه مع عَمِّه، ويَذْهَبَ إلى أَرْضِ الْغَوْر، المعروف بِغَوْرِ

زُغَر، فارْتَحَلَ وأَقام بمَدِينةِ سُدُوم من ذَلِكَ الْغَوْر، وهي مدينة تَتْبَعُها عِدَّة قُرى، هي: «صَبْغَة ـ عَمْرَة ـ أَدْما ـ صَبُويم ـ بالِع».

وسَدُوم وقراها كانت في مكان البحْرِ الميّتِ المعروف الآنَ في الأرْدُنّ.

فنزل لوط عليه السّلام في أرض سَدُوم، وليس بينه وبين أهلها نَسَبٌ.

واصطفاه الله بالنبوّة، وأرسله رَسُولاً إلى أهل مدينة سَدُوم وما حولها من قُراها. وكان أهل هذه الأرض من أفجر الناس، وأكْثَرِهم كُفْراً وظُلماً، كانُوا قَوْمَ سُوءٍ فاسِقِين، يَعْمَلُون الخبائث، ويَأْتُونَ الرِّجال شَهْوَةً مِنْ دون النساء، ويَقْطعُون السَّبِيلَ، ويَأْتُون في نَادِيهم المنكر، ولم يَكُنْ فيهم رَجُلٌ رَشيد.

فدعاهم لوطٌ عليه السلام إلى الإيمان والإسلام، ونَهَاهُمْ عن سَيِّئاتهم وفواحِشهم ومُنْكراتهم، ونَهَاهم عن ظُلْم عباد الله وقَطْعِ سبيل المسافِرين، فَكَذَّبُوه، وكَذَّبُوا بما جاءهم به عن ربّهم.

فأنْذَرَهم عقابَ الله وعذابه ومعجَّل نِقْمَتِه، فكذَّبوا بالنُّذُر، أي بالإنْذَارات الّتي أنْذَرَهُمْ بها.

ولمَّا أكْثَر علَيْهِمْ مواعظه، ونُصْحَهُ لهم، قال بعضُهم لبَعْضٍ أخْرِجوا لُوطاً ومَنْ آمَنَ به من أَرْضِكُمْ، إنَّهُمْ أُنَاسٌ يتطَهَّرُون.

ثُمَّ قال له كُبَراءُ قَوْمه: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لتكُونَنَّ من المخْرَجِين، ثم قالوا لعامّتِهِمْ: أَخْرِجوا آل لُوطٍ من قَرْيَتِكُمْ، إنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرون.

ووضع كُبَراءُ قَوْمِهِ عليه عزْلاً اجتماعِيّاً، فَنَهَوْه عن أَنْ يَلْتقي بأحَدٍ من الْعَالِمِين، من قومهم ومن خَارِجِ قومهم.

ولمّا صار اختيارُهم بإراداتهم سَبِيلَ الْهُدَىٰ أمْراً ميؤوساً منه، فلا أحد مِنْهُم لدَيْهِ استعداد لأنْ يستجيب لدعوته، وعَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ فيهم، قضَىٰ جلَّتْ حكمَتُه وعَظُمَ سلطانُه أن يُهْلِكَهُمْ إهلاكاً جماعيّاً عامّاً.

فبَعَثَ اللَّهُ من رُسُلِه من الملائكة من يُعَذِّبُهم ويُهْلِكُهُمْ ويَقْلِبُ بلادهم عَالِيَها سافِلَها. وأمَرَهُمْ بأن يَمُرُّوا بإبراهيم عليه السلام مبشرين إيَّاه بإسْحَاق من زوجته العاقر سَارة، ومُبَيّنِينَ له أن الله سيُصْلحها لِلْحَمْلِ والولادة، ومُبَلّغين إياه بما كلَّفَهُمُ اللَّهُ إياه من إهلاك قوم لوط، باعتباره شيخ النبوّة والرِّسالة في زمانه، وباعتبار لُوط موجهاً بقيادتِه إلى أهل سدوم. وحاول إبراهيم عليه السَّلام أن يسألَ رَبَّهُ إمْهَالَهُمْ، فقالوا له: يا إبراهيم أعْرِض عن هذا إنّه قد جاء أَمْرُ ربّك وإنهم آتيهِمْ عذاب غيرُ مَرْدُود.

وكان الملائكة قد جاءُوا إبراهيم بصورة ضُيوف، ولمَّا لَمْ يَمُدُّوا أيْدِيَهُمْ إلى ما أعَدَّ لهم من طعام، أوْجَسَ منهم خِيفَة، عندئذٍ كَشَفُوا له عن حقيقة أمرهم، وبشَّرُوه وبَلَّغُوا.

ثم ذهبوا إلى لوطٍ عليه السلام في منزله في سَدُوم، فَدَخَلُوا عليه، وكانوا على صُوَرِ شباب مُرْدٍ حِسان، فَرَحَّبَ لوط عليه السلام بهم، وعَلِمَ كُبراء قَوْمِهِ بأنَّ لُوطاً استضاف شباباً مُرْداً حِسَاناً، فأقْبَلُوا إليه وقالوا له: ألم نَنْهَكَ عن العالمين.

وأرادوا الدُّخول عَنْوَةً إلى داره لاغتصابِ ضُيُوفه، وممارسة الفاحشة بهم، فحاول منعهم فلم يستجيبوا له.

عندئذ قال له ضيوفه: إنّا رُسُلُ رَبّكَ أَرْسَلَنَا لإهلاك قَوْمِكَ ورمَوْا في وجوه المحتشدين على باب داره مَا أحْرَقَ عيونهم، وطَمَسَ أبصارَهُم، فانْكَفَؤُوا عن دَارِهِ يَذُوقُون عَذابَ حَرْق العيون والوجوه.

وقال الملائكة لِلُوطِ عليه السَّلَام إنّ إهلاك القوم العامّ سيكون عند

الصُبْح، وقَدْ قضىٰ الله بأن ينجيكَ وَأهْلَكَ ممَّا سَيُنْزِلُه بقومك، إلاّ امْرَأتَك، فإنَّها سَتَكُونُ من الهالكين مع قومها، لأنَّها كانَتْ مُشَايعةً لهم على جرائمهم.

ولمَّا دَنَا الوقْتُ قالوا له: اخْرُجْ أنْتَ وَأَهْلُكَ قَبْلَ الصُّبْح، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب، وابْتَعِدْ عن كُلّ حُدُودِ أَرْضِهِمْ، فإنّ العذاب نازلٌ عنْدَ الصُبْحْ، فخَرَج بأهله، وأنْزَل اللّهُ وسائل الإهلاكِ العامّ بقومه، فَأرسَلَ عليهم حاصباً من السَّمَاء، وأمْطَرَهم بحجارة مُحْرِقة، مُسوَّمةٍ عند الله، وأخَذَتْهُمْ الصيحة مُشْرِقين، وأذاقهم الله عذاباً أليماً في الدنيا، دون العذاب الأكبر، وقلبَ أَرْضهم عالِيَها سافلها، ودَ فَنهُمْ في باطِنِها، فَهُمْ وبلادُهم في قَاعِ الْبَحْرِ الميّت.

وأنجىٰ اللّهُ لوطاً وَأهْلَهُ إلاّ أمْرأتَهُ كانت مع الهالكين.

التدبّر التحليليّ للنصّ:

- قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَوْمُ﴾: لفظ يُطْلَقُ على جماعة من الناس تجمعهم جامِعةٌ يَقُومُون لها.

﴿بِٱلنُّذُرِ﴾: هُنَا جَمْعُ «النذير» الذي هو مصْدَرُ فعل «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إِنْذاراً» أي: كذَّبوا بالإنْذارات التي أنذرهم بها رسُولُهُمْ لوطٌ عليه السّلام. فهي إنذاراتٌ متعدّدات أنْذَرهم إيَّاها، عاجلةٌ في الحياة الدُّنيا، وآجِلَةٌ إلى يوم الدِّين.

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾: جاء في هذه العِبَارَة اسْتِعْمال ضمير المتكلّم العظيم، إشعاراً بعظمة رُبوبيَّةِ الرَّبّ، وسُلْطانِ جبروته وقَهْرِه، إذِ الموضوع يتعلَّقُ بإهلاك المجرمين، وهم قوم لوط عليه السلام.

الإرْسال: هو التوجيه لأداء مهمَّةٍ ما بتُؤدَةٍ وَترَفُّقٍ وأَنَاةٍ وتَعَقُّلٍ وحِكْمةٍ.

﴿حَاصِبًا﴾: أي: ريحاً شَدِيدةً بَلَغَتْ شِدَّتُها أَنْ تَحْمل الحصباء من الأرض، وهي الحجارة الصغيرة. وتَرْفَعُها في الْجَوِّ، ثُمَّ تَهْوِي بها حاصِبَةً، أي: رامِيَةً ما تَقَعُ علَيْه من أحْيَاءَ وأشياء، فَهِيَ من صُوَر العذاب الَّتِي يُرْسِلُها الله على مَنْ يُرِيد تعذيبَهُم وإهْلاَكَهُم. وقد وصف الله هذا الحاصب بأنَّهُ عَذَاب، أي: وسِيلَةُ عَذَاب، كما جاء في الآية (٣٩) من هذا النَّصّ.

وجاء في نصوصٍ أُخْرى وَصْفُ هذا الحاصِب بأنَّهُ مَطَرٌ من حجارة من سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (أي: من طين مَتَحجِّر مُجْتمع مُتَّسِق) وقد يكون للنّار أثرٌ في تحجُّرِه. وجاء وصف هذه الحجارة بأنَّها مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ الله، أي: مُعَلَّمه بعلامات خاصَّةٍ تميِّزُها عمَّا سِوَاها.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾: أي: إلاّ لوطاً عليه السلام وآله، فقد نجَّاهم الله عزّ وجل بوقت السَّحَر، إذْ صَبَّحَ اللَّهُ القوم بالعذاب فأنزل عليهم وسائله بعْدَ الصُّبْحِ.

كلمتا أهل وآل في دلالات النصوص القرآنية:

ولم تدخل زوجَةُ لوط عليه السَّلام في هذا الاستثناء، وإنْ كانَتْ من أهله، لأنَّها في المفهوم الدّينيّ ليْسَتْ من آله، إذْ كلمة (آل) لا تُسْتَعْمَلُ غَالباً إلاَّ في أشراف القوم، ولمَّا كانت امرأة لوطٍ كافِرَةً، لم تسْتَحِقَّ أنْ تكُونَ مُكْتَسِبَةً شَرَفَ لُوطٍ والتابعين له، فَلَمْ يُنْظَرْ في هٰذا النّص إلى اسْتِثْنَائِهَا من آله الناجين، إذْ هي في الحقيقة لا يَصِحُّ أن تكون من آله.

لَكِنْ جاء اسْتِثْناؤُها من عموم أهله، في نصوص (الأعراف) و(الشعراء) و (النمل) و (هود) و (الصَّافَات) و (العنكبوت) إذ ذُكِرَ في هٰذِهِ النّصُوصِ لفظ «أَهْلِ» لا لفظ «آل». وقد دلَّنَا هٰذا الاستعمال القرآنِيُّ على أنَّ الكَفَرَةَ من أهل النبيّ لاَ ينبغي أن يَدْخُلُوا في عُمُومِ آلِهِ بحَسَبِ المفهوم

الدينيّ، وإنْ كَانُوا يَدْخُلون في عُمُومِ أَهْلِه، باعتبار النسب أو المصاهرة دون ملاحظة الشَّرف والمشاركة في الفضيلة الدّينيَّة.

ولمَّا قَطَعَ ابْنُ نُوحٍ عليه السَّلام، الذي دعاه أبوه للرُّكوب في السَّفينة صِلَتَه النسبيّة بأبيه بكفره، إذْ عَلِمَ الابن أنّ الرُّكوبَ في السفينة شَرْطُهُ الإيمان، قال: سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي من الماء، فهو بكُفْرِه قدْ قَطَع صِلَتَهُ النسبيَّة، فكان من المغرقين، ولم يكُنْ نوحٌ عليه السَّلامُ يَعْلَمُ أنَّ ابْنَهُ هذا كان من الكافِرين، وكان اللَّهُ عزّ وجَلَّ قَدْ وَعَدَهُ بِأَنْ يُنْجِيَهُ وَأَهْلَه، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) فقال اللَّهُ له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: فَهُو بكُفْرِه وسُلُوكِه عَمَلٌ غير صالح، فهو ليس من أهْلِكَ الذين وَعَدْتُكَ بأنْ أنجيهَمْ معك.

أمّا ما جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزل) في الآيتين (٥٩ ـ ٦٠) من استثناء امرأة لوط من عموم آله فهو جارٍ على مفهوم الناس الذين لا ينظرون إلى المفهوم الدينيّ الأحقّ بالاعتبار، كما جاء استعمال الآل بالنسبة إلى أهل فرعون، مجاراة لمفاهيم الناس.

وبهذه النَّظْرة الشّاملة أدركنا التكامل في الأداء البيانيّ القرآنيّ بشأن كلمة الآل، استعمالاً وتوجيهاً إلى ما هو الأحقُّ بالاعتبار.

وذَكر الله عزّ وجلّ في النصّ الذي نتدبَّره من سورة (القمر) آل لوطٍ، ولم يذْكُرْ لوطاً نفسه، لأنَّ لُوطاً عليه السلام يُفْهَمُ باللُّزوم العقليّ أنّ الله قد أنْجَاه، إذْ هو الأحَقُّ والأَوْلَىٰ بالنجاة، فَدَلَّ هذا الصنيع القرآنيُّ على أنَّ من الأدلة في أساليب الكلام مَا يُسْتَدلُّ عليه بأنّه هو الأولى بالأمْرِ ممَّن ذُكر، أوْ ممّا ذُكِرَ بصريح العبارة.

- قول اللَّهِ تعالى: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

أبان الله عزّ وجلّ في هذه الآيَةِ أنّ نجاة آل لُوطٍ من العذاب الذي

قَضَاهُ على كُفّار قَوْمِهِ قَدْ كانَ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِهِ أَنْعَمَ بها عليهم، وأنّها قَدْ كانت جزاءً مُعَجَّلاً أثابَهُمُ الله به في الدُّنيا، استنباطاً من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ وهذه الجملة تَدُلُّ على أنّ من سُنَنِ اللّهِ عزّ وجلَّ أنْ يَجْزِيَ في الحياة الدنيا جزاءً مُعَجَّلاً كُلَّ مَنْ شَكَرَ، بما تقضي به حِكْمَتُهُ مِنْ جزَاءٍ يَسُرُّ الشَّاكِرِين.

والمعنى: نجيَّنَا آل لُوطٍ نَجاةً نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا، وهذه النعمة جارِيَةٌ وفْقَ سُنَّتِنَا لعبادنا الشَّاكِرِين.

ولا يخفى الغَرضُ من استعمال ضمير المتكلم العظيم هنا الدّال على جلال الربوبيَّة.

الشُّكْرُ: مُقَابلَةُ إنْعَامِ المنعِمِ بما يُرْضِيهِ منْ فعْلٍ أو تركٍ، أو أي شيء، وقد يشمل القول الذي يُرْضي المنعم، وتختص عبارات تمجيد المنعم بعنوان «الحمد» أو «الثناء» أو «المدح».

- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ جيء بها لتأكيد مَضْمُون الجملة بعدها وتحقيقه.

﴿أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾: أي: أَخْبَر لوطٌ قومَه بأَنَّنا سَنَبْطِشُ بِهِمْ بطْشَةَ انتقامٍ كُبْرَىٰ، إذَا لَمْ يُقْلِعُوا عمَّا هُمْ فِيه من كُفْرٍ وبَغْيٍ وفُحْشٍ كانوا فيه من المسْرِفين السَّابقين فيه كُلَّ الناس، بمَجَانَةٍ ومُجَاهرةٍ ووقاحة بالغة الغاية.

الْبَطْشَة: هي المرّة من البطْش، والبَطْشُ الأخْذُ بِقُوَّةٍ وعُنْفٍ وشِدَّةٍ عنْدَ الصَّوْلَة. السَّطْوُ في سُرْعَةٍ.

يُقَال لُغَةً: بَطَشَ بالشَّيْء، إذا أمْسَكَهُ بِقُوَّةٍ، ويقالُ: بَطَشَ عليه، إذا سَطَا في سُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ.

ومعلومٌ أنَّ بَطْشَةَ اللّهِ العزيز الجبّار لاَ تُبْقي وَلاَ تَذَر.

﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾: أي: فكَذَّبُوا بالنُّذُر، أي: بالإِنْذارات الّتي كرَّرَها عليهم لوط عَلَيْه السّلام. فَسَّرَ الفَرَّاءُ التماريَ بالتكذيب في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ وهذا المعنى هو الملائم هنا فيما أرى، لأنّ الله عزّ وجلّ قال بشأنهم في أوّل النصّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣﴾.

التَّمارِي: يأتي في اللُّغَةِ بمعنى المجادلة، ويأتي بمعنى التشكُّكِ.

والمجادَلَة تُشْعِرُ بالتكذيب، فهم قد كذَّبوا بالنُّذُرِ وجادَلُوا لوطاً عليه السَّلام بشأنها.

- قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧﴾.

﴿رَاوَدُوهُ﴾: تأتي المراودة في اللّغة بمعنى المخادَعَةِ والمراوغة، وتأتي بمعنى طَلب الْفُجور والفاحِشَة، يقال لغة: رَاوَدَ المرأة. أي: طَلَبَ أنْ يَفْجُرَ بها.

فكُبَرَاءُ قوْمِ لوط طلَبُوا منهُ أَنْ يفْجُروا بضيوفه الشباب الحسان.

فمعنى ﴿رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾: طَلَبُوا منهُ أن يُخلِّي بَيْنَهُمْ وَبيْنَ ضَيُوفه، وَيُمَكّنَهُمْ مِنْ أَنْ يَفْجُرُوا بهم، وأنْ يبتَعِدَ عن طريقهم، لِيَصِلُوا إلى ما يبتغون في ضيفه.

كلمة «ضَيْف» يستوى فيها المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر والمؤنث، ويُحْمَلُ لفظُها في كُلِّ استعمالٍ على ما يُنَاسبه.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾: أي: فأعْمَيْناهم. أصل الطَّمْس، المحْوُ والإزالة. يقال لغة: طَمَسَتِ الرّيحُ الأثَرَ، أي: أزالته ومَحَتْه.

وطَمَسَ الْغَيْمُ الكواكب، أي: حجَبَ ضَوْءَها. ويقال: طَمَس عيْنَهُ وَطَمَسَ على عينه، أي: أَعْمَاها.

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾: هذا ما قالَهُ أَمْرُ الله التكوينيّ، الذي دلّهُمْ عليه واقِعُ حالهم عنْدَ طَمْسِ أعْيُنِهم، وَإذاقَتِهم آلامَ الطَّمْسِ بموادّ حارقة، إذْ شَعَرُوا بصِحَّةِ النُّذُر الّتي أنذرهم بها رسُولُهُمْ لوطٌ عليه السّلام، وقال كلُّ واحد منهم في نفسه: صدَق لوط، وصَدَقَتِ النُّذُرُ الّتي بلَّغَها عن ربّه، وهَا نَحْنُ نَذُوق عذابَ الله وعَاقِبَةَ نُذُرِه.

لمّا جاءت الملائكة المأمُورُون بإهلاكِ قوم لوط، وإنزال العذاب بهم، وقَلْبِ أرضهم عاليها سافلها، جاءوا إلى لوطٍ عليه السّلام بِصُوَر شباب مُرْدٍ حِسَان، فلَمْ يَعْرِفْهُم لوطٌ أنَّهُم رُسُل من الملائكة، فخاف عليهم من قومه أن يبْتَغُوا فيهم الفاحشَةَ، فَسِيءَ بهم، وضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً، وقَال هذا يَوْمٌ عَصِيب.

وعلم قومُهُ بضُيُوفه، فجاء كُبَراؤهم إليه يُهْرَعُون، يبتَغُون الفاحِشَةَ الشّاذَّة عن سَوَاء الفِطْرة، فَحَاوَلَ لُوطٌ عليه السّلام دفْع قَوْمه عن ضيوفه بما يَمْلكُ من وسائل، وصار المحاصرون لداره من قومه يُنَازِعُونَهُ ويدافِعُونه، ليدخُلُوا إلى داره عَنْوةً، عندئذٍ كَشَفَ الرُّسُل من الملائكةِ للوطٍ حقيقتهم، فقالوا له كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢):

﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

لقد كان الوقت ليْلاً، وكانَ قَوْمُهُ الطُّغَاةُ الفاسِقُون يُريدون اقتحام بابه، ليصلوا إلى ضُيُوفِهِ داخِلَ داره، فنالَهُمْ من الله عذابُ طَمْسِ العيون.

- قول الله تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: عبارة تأكيد وتحقيق للخبر الذي تَضمّنَته الجملة.

﴿صَبَّحَهُم﴾: جاءَهُمْ في وقْت الصّباح، وهو أوّل النهار عند الصُّبْح.

﴿بُكْرَةً﴾: الْبُكْرَةُ هِيَ أَوّلُ النَّهار إلى طُلوع الشمس.

﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾: أي: عذابٌ ثابتٌ مُتمكّنٌ تمكُّناً تامّاً من الّذِين نُزَلَ بهم، فهُو غير متقطّع، ولاَ تخفُّ شِدَّتُه، ولا يتذبذب بين القوّة والضعف.

يقال لغة: استقرّ بالمكان، أي: تمكَّنَ فيه وسَكن وثبت.

دلّت هذه العبارة على أنّ العذابَ الذي نزل بهم بدَأَ عنْدَ طلوع الصبح، واسْتمرَّ مُسْتَقِرّاً يَذُقونه وهم أحياء حتّى الإشراق، لأنَّ الصيحة التي أهلكتهم قَدْ أَخَذَتْهُمْ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْس، كمَا قَال اللّهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الحجر/ ١٥/ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

- ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾: سبق تدبُّرُ هٰذه العبارة، والتعبير بها هُنَا يُؤَكّد أَنّهم ذَاقُوا الْعَذابَ وهم أحياء، كَما ذاق العذاب الّذِين طُمِسَتْ عُيُونُهُمْ، ثم جاءتهم الصيحة الَّتِي أَهْلَكَتْهُمْ، ودَمَّرَتْ ديارهم، وجاءت الرجفَةُ، والصَّاعقة، والتفجيرات التي جَعَلَتْ بلادهم عالَيها سَافِلَها.

- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هذه الآية الفاصلة بين فقرات المهلَكين الأوّلين، المختارين للذِّكر في هذه السّورة، والتي تكرّرَتْ فيها أربع مرّات، وقد سَبَقَ تدبُّرها بتوسُّع في آخر فقرة إهلاك قوم نوح عليه السلام، على مقادير أوعيتنا الفكريَّة.

* * *

خامساً: الفقرة الخامسة

موجز مختَزَل بشأن إهلاك فرعون وآله

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

تمهيد:

قصّة فرعون وآله مع موسى وهارون عليهما السّلام قصّة طويلة جدّاً، وقد جاءت موزَّعَةً في القرآن بنصوص متعددة من سُوَره، والْغرضُ المناسبُ لحال كفّار قريشٍ إبّان تنزيل هذه السّورة التي نَتَدَبَّرُها، هو عَرْضُ لقْطَةِ تَكْذِيبِ فرعون وآله بالنُّذر المتعدِّدة الّتي أنذرهم بها موسَىٰ وهارون عليهما السلام، لمعالجة كُفّار قريشٍ في قضيّةِ تكْذِيبهم بالنُّذر التي أَنْذَرَهُمْ بها رسول الله ﷺ.

وهذا يَدُلُّنا على أنَّ من أَسَاليبِ العلاج الدعوي للكافرين تجزئةَ عناصِرِ العلاج، بتجزئة القضايا الكُبْرىٰ الّتي يعالجها الداعي، إلى قضايا صغرى، ومعالجة كلّ واحدة منها معالجةً خاصَّةً بها، ولو كانت من الأُصُول الاعتقادِيَّةِ الجذُور، مع لزوم التقيُّد بالتَّدرُّج، والأخذ بالأَوْلَويّات، بالبدء بما هو الأولىٰ في ترتيب البناء الفكري، أو بما هو الأولى بأن يُبْدأَ به من وسائل العلاج، وهكذا بالتصاعد المتدرّجَ، حتّىٰ الفروع ففروع الفروع تسَلْسُلاً مع الشجرة الفكريّة، وتسلسلاً ارتقائياً مع الوسائل العلاجيّة.

إنّ تَصْديق المدعُوِّينَ بالنُّذرِ الرَّبَّانيَّةِ الّتي يُبَلِّغُها الرَّسُول عن ربّه، من الأصول الاعتقادية، وهو جُزئيّة من جزئيات وجوب التصديق بكلّ ما يُبَلِّغ عن رَبّه، والتكْذِيبُ بها يوقِعُ في الكُفرِ لا محالة، والكُفْرُ جزاؤه الخلود في النار يوم الدين.

لكِنَّ مُعَالجة هذه الجزئيَّة تأتي بَعْدَ معالجة الإيمان بالله وبصفاته،

وبوحدانيّته في ربُوبيّته وإلهيّته، وبَعْدَ معالَجةِ صِحّة رسالة الرَّسُول، وبَعْدَ معالجة الإيمان بيَوْم الدّين.

فالإنذار بالعقاب المُعَجَّل في الدنيا، من الجزئيات العقَدِيَّة المتأخِّرَةِ في تَدَرُّج البناء الفكري، عن القَضَايا التي سبق ذكرها.

ونُلاحظُ أن السُّوَر السَّابقة لسُورَةِ (القمر) في ترتيب النزول، قد نزل فيها التَّلْويح والتَّصريح بالعقوبات المعَجَّلات إنْذاراً للكافرين، ثم كان من المناسب في العلاج إبّانَ نُزُول سورة (القمر) أنْ تكون هذه السُّورة مُشْتَمِلَةً على معالجةِ جُزْئِيَّةِ تَكْذِيب كُبَرَاءِ كُفّارِ قريشٍ بالنُّذُر الّتي أنْذَرَهُمْ بها رسُول الله محمّد ﷺ.

وأفْضَلُ علاجٍ يُؤَثِّر فيمَنْ لَدَيْه استعدادٌ إرادِيٌّ للتأثُّرِ هو عَرْضُ أمْثِلَةٍ مِنَ الواقع، تَشْتَمِلُ علىٰ تكْذِيب الأُمَم بِنُذُرِ رُسُلِهِمْ، فكانَتْ عَواقِبُ تكذِيبهم بها أنْ تَمَّ تَحقُّقُ مَا أَخْبَرَ به الرُّسُلُ من إنذاراتٍ بِعُقُوباتٍ مُعَجَّلاتٍ في الدنيا، كان بها تَعْذِيبُ الأقوام وإهلاكُهُمْ.

فالعناية في سورة (القمر) قد كانت مُوجَّهةً لِعَرْضِ فِقَراتٍ من إهلاك بعْضِ المكذبين الأولين بالنُّذُر، مع ما جاء فيها من ذكر مرافقاتٍ تدعو الحكمة البيانيّة والعِلاجيَّةُ أن تُذْكَرَ فيها.

- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: عبارة فيها تأكيدٌ وتحقيق لمضمون الجملة بعدها.

﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾: «النُّذُرُ»: فَاعِلُ «جاء» و«آلَ فِرْعَوْن» مَفْعُول به مُقَدَّمٌ على الفاعل، والْغرَضُ البلاغي من هذا التقديم توجيهُ اهْتِمَام المتلَقّي للمتحدَّثِ عَنهُمْ ضِمْنَ المكذّبين الأوّلينَ بالنُّذر، فالتكذيب بالنُّذُر عنوان عُرِفَ مُنْذُ بيان تكْذِيب قَوْمِ نوحٍ بالنُّذر، فنَفْسُ المتلقّين تتطَّلَعُ مع كُلّ فِقَرَةٍ لِلْمُكَذِّبين، فهم الأولىٰ بالتقديم في العبارات المسوقات لبيان إهلاكهم.

مع ما في تأخيرِ كلمة ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ من مُراعاة نَسَقِ رؤوس الآيات وتَناظُرِها.

إنّ فِرْعَوْنَ هو رأس آله، فَهُو أوّلُ من جَاءَتْهُ النُّذُر، وقَدْ دَلَّ الفكْرُ على دُخُولِه فيمن جاءَهُمُ النُّذر، إذْ هُوَ أَوْلاَهُمْ بالإنْذارِ، وقَدْ عَلَّمَنا اللَّهُ عزّ وجلّ بهذا الأسْلُوب من التعبير، أنَّ من البيان الرفيع حَذْفَ مَا يُفْهَمُ أنَّه مَشْمُولٌ بِحُكْم القضيَّةِ من باب أولى.

﴿ٱلنُّذُرُ﴾: هي الإنذارات بعقوبات اللّهِ المعجَّلات في الدنيا، والمؤجَّلات إلى يوم الدّين.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

ذكْرُ آلِ فِرْعَون يسْتَتْبع جنودَهُمْ، وكلَّ مَنْ يتأثَّرُ بهم في عقائدهم ومبادئهم واتّجاهاتهم وقراراتهم، ويَقَعُ في مُقدّمَتِهم فرعون نفسه، لأنّ ما يَقُولُهُ فِرعَوْن قَدْ كان يقُولُه كُلُّ آلِهِ، وكُلُّ شعبه، باستثناء القِلَّةِ النادرة، كزَوجَةِ فِرْعَوْن، ومُؤمِنِ آل فِرْعَون

فكُلُّ شَعْبِ مصر الخاضعين بالْوَلاَء التامّ لِفرعَوْنَ وآلِهِ، قَدْ كانوا يقولُون مثل مقالة فرْعَون وَآلِهِ بالنِّسْبَةِ إلى الآيات الّتي أجْراها اللَّهُ لموسىٰ وهارون عليهما السلام، ومجموعُها تِسْعُ آياتٍ كُبْرَىٰ، إلاَّ أنَّ الذِينَ أَغْرَقَهُمُ الله في البحر هُمْ فِرْعَوْنُ وآلُهُ وجُنُودُهُمْ الّذين جنَّدُوهم لِمُتَابَعَةِ بَنِي إسْرَائيل، حين أَمَر الله موسَىٰ عليه السَّلام بأنْ يُخْرِجَهُمْ من مِصْرَ، ويَتَوَجَّه بهم شَطْر سِيناء، في طريقهم إلى دخول الأرض المقدَّسة في فلسطين، إنْ أطاعوا التوجيه.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا﴾: أي: كَذَّبَ فِرْعُونُ وآلُهُ وَمَنْ يتْبَعُهم من شعْب مصر، بالآيَات العظمىٰ التي أجراها اللَّهُ في مِصْرَ بعَظَمَةِ ربوبيّتِهِ التي يناسِبُها ضَمِيرُ المتكلّم العظيم، على يَدِ مُوسىٰ عليه السَّلام وَوَزيره أخيه هارون النبيّ الرسُول عليه السلام:

وتكذيبُ المكذّبين هؤلاء بكلّ آياتِ الرَّبِّ الجليل العظيم، الّتي أجراها اللَّهُ تأييداً لصدق موسى وهارون، بأنَّهما نبيّان ورسُولان لله الرّبّ الخالق جلّ جلاله، ليْسَ إنكَاراً لِوُجُودِ أَعْيَانِها، فقد كانَتْ أعيانُها حقائقَ مَشْهُودَةً للجميع، إنّما كَذَّبُوا بكَوْنِها آياتٍ رَبَّانِيةً يُؤَيّد الله بها رَسُولَيْه مُوسَىٰ وَهارون.

وهٰذه الآياتُ قَدْ كانَتْ أيضاً بمثابَةِ إنْذاراتٍ بِعَذَابٍ شاملٍ مُهْلِكٍ، لأنّها كانت مُخِيفَاتٍ، ومُشْتَمِلاتٍ على إنْذاراتٍ غَيْرِ مُهْلِكَاتٍ إهْلاَكاً عامّاً شاملاً.

والآيات الّتي كذّبوا بها هي بعْضُ الآيات التِّسْع الّتي أعطاها اللَّهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السّلام، وقد جاء تفصيلُها مُوَزَّعاً في سُوَرٍ متعدّدةٍ من القرآنِ المجيد.

الآياتُ الّتي آتاها الله عزّ وجل لموسى عليه السّلام:

الآية الأولى: انقلاَبُ عَصَاهُ حيَّةً مخيفَةً تَسْعىٰ، ثُمَّ ابْتلاعُهَا حبَال سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ وَعِصِيِّهُمْ.

وتَكْذِيبهم بهذه الآيَة، قَدْ كان بإنْكارِ أَنْ تكون آيَةً رَبَّانيَّةً، وبادِّعاء أَنَّها عَمَلٌ من أعمال السِّحر، الذي اشتهرت به مصر في أيّام الفراعِنَة.

الآية الثانية: أن يُدْخِلَ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ يَدَهُ في جيبه، فَيُخْرِجَها بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، تَتَلأْلَؤُ نوراً.

وتكذيبهم بهذه الآية قد كان بادّعاءِ أَنَّها عَمَلٌ مِنْ أعمال السّحر أيضاً.

الآية الثالثة: أيَة «الرِّجزِ» وهو العذاب، فقد ابتلاهم اللَّهُ عزّ وجلّ بأنواعِ عامَةٍ من الرّجزِ، وكان كلُّ واحد مِنها مَسْبُوقاً بإنْذَارٍ من موسىٰ عليه السّلام، وهي ما يلي

(١) رِجْزُ سَنَواتِ الجدْبِ والقحط، وكان ذلك بسبب قلّة مياه النيل، وانحباس أمطار السَّمَاء عن أرض مصر.

(٢) رجْزُ نَقْصِ الثمرات، وكان ذلك بسبب ما يُرْسِلُ اللّهُ عَلَيْها من جوائح وآفات.

(٣) رجْزُ الطُّوفَان، وكان ذلك بسبب ارتفاع فيضان النيل ارتفاعاً أتْلَفَ الزُّرُوع وهدَمَ المساكن، أو بسبب أمطارٍ غَزيرَةٍ نَشأَ ذلك عنها.

(٤) رجْز الجراد، وكان ذلك بإرْسال جيوش الجراد الجرَّارَة المتكاثرة، الّتي لا تمرُّ على زرْع أو ثمر أو شَجَرٍ أو أيّ رزقٍ إلاّ أكلته.

(٥) رِجْزُ الْقُمَّل، وهو نوعٌ من الحشرات الصغيرات، اللّواتي تُقِضُّ مضاجِعَ الناس إذا انْتَشَرَت فيهم.

قيل: هو كبارُ القراد. وقيل: هو صغار الجراد. وقيل: هو البقُّ. وقيلَ: هو حَشَرَة تَغْمِسُ نَفْسَها في جِلْدِ الإنسان وتأكُلُ مِنْهُ وتتوالد، ويكون ظهرها مُسَاوِياً بعد انعماسها لِسَطْحِ جِلْد الإنسان، وقيل غير ذلك.

(٦) رجْزُ الضَّفادع، وكان من أمْرِها أنَّها كَثُرَتْ عندهم كثْرَةً نَغَّصَتْ عليهم مَعيشَتَهُمْ، فكانت تَسْقُطُ في أطْعِمَتِهم، وَفُرُشِهم، وملابِسِهم.

(٧) رجْزُ الدَّم، وكان ذلك باستحالة الماء لأهل مصر دماً، أو مختلطاً بالدَّم. وقيل: سلَّطَ اللّهُ عَلَيْهِم الرُّعاف. وقيل: أُصِيبُوا بوبَاءِ الدُّمّل، حتَّىٰ فَشَا في الناس وفي البهائم.

وتكذيبهم بهذه الأنواع من الرِّجْزِ الّتي أنزلها اللّهُ عزّ وجلّ بهم قد كان بادّعاء أنَّها ظواهِرُ طبيعيَّة من ظواهر الكَوْن، وليسَتْ آثارَ قَصْدٍ رَبَّانيّ يُؤيّدُ الله بها رسُولَه مُوسَى وأخاهُ هارُون، ويُنْذِرُ بها فرعونَ وآلَه وجنودَهُما بعذابٍ مُهْلِكٍ شامل.

أمَّا بقيّة الآيَاتِ التِّسع، فقد أجراها الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام، بَدْءاً من يوم عبور البَحْرِ وإغْرَاقِ فِرْعَوْن وآله وجنودهما، وما بَعْدَ خُرُوجه من البحر مع بني إسرائيل نَاجين إلى صحراء سِيْنَاء.

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: اسْتُعْمِلَ أخْذُ اللَّهِ للنّاس في القرآن كنَايَةً عن الانتقام مِنْهُمْ بعذَابٍ مُهْلِك.

الأَصْلُ في الأخذ تناوُل الشيء والقبضُ عليه وحيازَتُه، ويَحْمِلُ الأَخْذُ أحياناً معنىٰ مَا يُؤخَذُ له الشيء، فأخذ المذنب يحْمِلُ معنىٰ مُعَاقَبتِهِ بذنْبه، ولو لم يحْصُل أخْذٌ جسَدِيٌّ.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم لأنَّ الحدَثَ الّذِي أنْجَىٰ الله عزَّ وجلّ به موسَىٰ وبني إسْرَائيل، وأغْرَق بِهِ فِرْعَوْنَ وآله وجنودَهما، قد كان حَدَثاً عظيماً لا يَفْعَلُه إلاّ الرَّبُّ الجليل العظيم القدير المقتدر العزيز.

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: مفْعُولٌ مُطْلَقٌ مُبيّنٌ لنَوْع الأَخْذ بإضَافَتِه إلى اسْمَيْن من أسماء الله الحسنىٰ، هما: عزيز، ومقتدر.

الْعَزِيزُ: هو القوي الغالبُ الذي لا يُغْلب.

المقْتَدِر: هو ذو القدرة البالغة الغاية، فَصِيغَةُ «المقْتَدِر» أبلغ من صيغة «القَادر» أخْذاً من زيادة المبنى الّتي تَدُلُّ على زيادَة المعنى.

وقَدْ كَانَ أخْذُ الله لهم بمُعْجِزَةِ فَلْقِ الْبَحْرِ لِمُوسَىٰ عليه، وَدُخُول بني إسْرَائيل عَابِرِين سَالِمِين مِنْ مَكانِ الْفَرْقِ، واتّباع فِرْعَونُ وآله وجُنُودِهم بني إسْرَائيل من المكان الذي عَبَرُوا مِنْه، ولمَّا نجا بنوا إسْرَائيل وخَرَجوا من البحر عن آخِرِهم، وتَوَسَّطَ فرعون وآله وجُنُودُهم طَرِيقَ الْعُبُور، أَمَرَ اللَّهُ البحر بأن يَنْضَمَّ بعْضُه إلى بَعْضٍ، فأهلكهم الله جميعاً، بسُلْطَان عزّتِهِ واقتداره، فكانوا غرقىٰ هَلْكىٰ، وأَخَذَ الله جسَدَ فرعون إلى الشاطئ، ليكون عبرَة لمن يعتبر من جبابرَة الأرض، كما جاء في نصٍّ آخر.

* * *

(٩) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُرُوس السّورة وهو الآيات من (٤٣ ـ ٤٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

تمهيد:

بعد أن جاء في السّورة عرض أمْثِلَةِ خمسةٍ من المكذّبين بالنُّذُر، من كُفَّار القرون الأولى، وكيْفَ أهلكهم الله جلّت قُدْرَتُه وعَظُم سُلْطانه، إهلاكاً شاملاً، بعَدْلِه وحكمته، فحقَّق فيهم نُذُرَه الّتي بلَّغهم إيَّاها رُسُله، وأنزَل بهم ما كانوا به يُكَذِّبون، وفي هذا العرض بيانٌ للّذِين كَذَّبُوا بالنُّذُر الَّتي أنْذَرَهُمْ بها رسُول الله مُحمَّدٌ ﷺ، وفي مُقَدّمتهم كُبراء قُرَيش، بأنَّهُمْ إِذَا أصَرُّوا على موقف التكذيب الّذي اختاروه لأنفسهم، جعَلُوا أَنْفُسَهم عُرْضَةً لأنْ يُجْرِي الله فيهم سُنَّته الّتي سَبَقَ أن أجراها في أمثالهم من أهل القرون الأولى، فَسُنَّةُ الله في عباده واحدة، وبهذا المفهوم يكون الخطابُ مُوجَّهاً بالْقَصْدِ الأول للمكذبين بنُذُر الرسول إبَّان تنزيل سورة (القمر) ثمّ لكلّ مَنْ يُكَذِّب من بَعْدِهم حتَّىٰ انتهاء مدَّة امتحان الناس في الأرض.

- ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾؟!.

سُؤالان يُوَجِّهُهُما الرَّبّ جلّتْ قُدرتُه وعَظُمَ سُلْطانُه للمكذبين المعاصرين للتنزيل، فَمَنْ بَعْدَهم.

وهذان السُّؤالاَن مبْنِيّان على قاعدةٍ أساسيَّة: هي أنّ سُنَّةَ الله في عباده واحدة، إذْ كُلُّهُمْ خَلْقُه وصَنْعَتُه وعَبِيدُه، وكُلُّ الممتَحَنين من خلْقه في الحياة الدنيا على سواء، يخْضَعُون لسُنَّةٍ ربَّانِيَّةٍ واحدة، فلاَ فَضْل لِفَرِيقٍ منهم على فريق آخَرَ بعُنْصُر، أولَوْن، أو لُغَةٍ، أو أرض، أو مساكن ومنازل، أو أعراق

أو أنسَاب، إنّما يكون التفاضُل فيما بينهم بالأعمال الاختياريَّةِ المكْتَسَبَةِ، من أعمال قلبيّة ونفسيَّة وفكرية، وأعمال ظاهرة بالجوارح تُعبِّر عن الإرادات في داخل النفس، وتُعَبّر عن الغايات والمقاصِدِ والنّيّات، وتُتَرْجِمُ العَقَائِدَ والمفهومات الراسخات، أو تكون آثاراً لفضائل الأخلاق ورذائِلها بأعْمَالٍ إراديَّة.

وبناءً على أنّ سُنَّةَ اللَّهِ في جميع خَلْقِه واحدةٌ، كَانَ مِنَ الإلزام في مناظَرَتِهِمْ طَرْحُ هَذَيْن السُّؤالَيْن عليهم:

السؤال الأول: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؟!.

أي: أكُفَّارُكُمْ أيّها المكذّبُونَ بالنُّذُرِ الَّتِي أنْذَرَكُمْ بها مُحَمَّدُ بن عبْدِ الله، رسُولُ الله إليكم، خَيْرٌ من كُفَّارِ أهل الْقُرون الأولى، الذين كذّبوا رُسُلَ ربّهم، وكذَّبُوا بالنُّذُرِ الَّتي أنْذَرُوهم بها بلاغاً عن ربّهم، وأَصَرُّوا على كُفْرِهِمْ وظُلْمِهم وطغيانهم، فأخَذَهُم الله بذُنوبهم، وأهْلَكَهُمْ إهلاكاً عَامّاً شاملاً، حينما كانت أحْوالُهُم الميؤوس منها تَسْتَدْعي تعذيبهُمْ بالْعَدْل، وإبادتَهُمْ حَسْماً لشُرُورهم وطغيانهم.

فبماذا يجيب المطروح عليهم هذا السؤال؟.

فإن قالوا: نعم كُفَّارُنَا خَيْرٌ من كُفَّار الْقُرون الأولى الذين أهلكهم الله إهلاكاً عَامّاً.

قيل لهم: بماذا؟

فإن قالوا: بالعرْقِ، أو باللُّغَة، أو باللَّون، أو بكونهم سُكَّانَ البلد الحرام، أو بكونهم ذُرّيَّة النّبي الرّسول إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، أو بغَيْر ذلك.

كانَ الجوابُ المفحِمُ لَهُمْ: إنَّ مُهْلَكِي الْقُرون الأولى، كلّهم بشَرٌ

مِثْلَكُمْ أبُوهم آدم وأُمُّهم حواء، والّذين نَشؤُوا بعْدَ نوح عليه السَّلام هُمْ ذُرِّيَّة نوح عليه السلام، وهو رسولٌ من أولي العزم، وعادٌ وثمودُ وقوم لوطٍ سامِيُّون وعَرَبٌ مِثْلكُمْ وقد أهلكهم الله.

وإذْ قد اشتركتم معَهُمْ في صفَةِ الكُفْر بالله وبرسُوله وبما جاء به الرَّسُولُ عن رَبّه، فلا فَضْلَ لكم علَيْهم بشيءٍ عند ربّكم، فسُنَّةُ الله فيهم هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فيكُمْ.

وهذا جوابٌ مُسْكِتٌ مفْحِمٌ دامِغٌ، لا يَجِدون من مُحاصَرَته لهم مَهْرَباً.

وبسُقُوط احتمال كَوْنِهم خيراً من كفّار القرون الأولى، يأتي السُّؤال الثاني، لإسقاط الاحتمال الآخر الذي ليس بعده احتمال ثالث، وهو أن تكون لهم براءة خاصَّةٌ فيما أنزل الله من كتب.

السؤال الثاني: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾؟!.

أي: بَلْ أَلَكُم بَيَانُ براءَةٍ من عذاب الله إذا كفَرْتم بِهِ وبرسوله، وكذَّبْتُم بالنُّذُرِ؟!.

أو: ألكُمْ بَيَانُ براءَةٍ من التكاليف الدّينيّة، أو من الامتحان في الحياة الدُّنيا؟!

ويُشْتَرَطُ في بَيَانِ البراءة إذا ادَّعَيْتُموه، أن يَكُونَ في أيّ كتاب من الكُتُب الرَّبَّانِيّة السَّابقة، المنزَّلَةِ على رُسُلِهِ السّابقين.

إنَّهم لن يَسْتطيعوا أنْ يأتوا ببيان في كتابٍ منْ كُتُب الله المنزّلة يُثْبِتُ بَرَاءَتَهُمْ من عذاب الله إذا كَفَرُوا. أوْ يُثْبتُ إعفَاءَهُم من التكاليف الدّينيَّة، أو إعفاءهم من الامتحان في الحياة الدنيا.

البراءة في اللّغة: هي الخلاصُ والسَّلامة، والمراد الخلاصُ والإعفاء من المسؤوليّة والجزاء.

الزّبُر: جمع «الزَّبُور» وهو الكتاب المزبور، يقال لغة: زَبَر الكاتبُ الكِتَابَ، أي: كتبه، أو أتقن كتابته فَهُو مَزْبُورٌ وزَبُور.

وكلمة ﴿أَمْ﴾ هُنَا هي: «أم المنقطعة» وهي بمعنى «بل» وهٰذِه تتضَمَّنُ استفهاماً مُسْتَأْنفاً بَعْدَ كَلَامٍ يَتَقدَّمُها.

والمعنى: أكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ من أُولئكُمْ؟! بل ألكُمْ براءةٌ في الزُّبُر؟!

فالكلام جارٍ على طَرْح استفهام حولَ قَضِيَّةٍ، فالإضرابِ عنه وطرح استفهامٍ آخر حول قضيَّةٍ أخرى، ضمن الموضوع نفسه.

فبماذا يُجِيبُون عَلىٰ هذا السؤال الثاني؟

إنّهم لا يستَطِيعُون أن يَدَّعوا ويُثْبتُوا ادّعَاءَهم، بأنَّ الله عزّ وجلَّ قَدْ مَنَحَهُمْ براءة من عذابه، أو براءة من التكاليف الدّينيَّة، أو براءة من الامتحان في الحياة الدنيا.

وبَدَهِيٌّ أنَّهُمْ لو ادَّعوْا هٰذِهِ البراءة، فإنّ ادّعاءَهُمْ لها لاَ يكون صَحِيحاً، ما لَمْ يَكُنِ النَّصُّ المثبتُ لها مُنَزّلاً من عند اللّهِ جلَّ جلاله، في كتاب من كُتُبه الثابتة بيقينٍ عن رسولٍ من رُسُل الله جل جلاله.

وأنَّىٰ لَهُمْ أَنْ يُثْبتُوا ذلك، فكُلُّ الكُتُب الرَّبَّانِيَّة المنزّلة، تُثْبِتُ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعاً مَوْضُوعُونَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، والممتَحِنُ لهم هو الرَّبُّ الخالق جلَّ جلاله.

والامتحان يتناول قضيَّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ:

القضية الأولى: الإيمانُ بما أَوْجَبَ الله عزَّ وجَلَّ الإيمانَ به، الشّاملُ لأركان الإيمان وفروعها وتفصيلاتها على ما أنزل على رسوله.

القضيَّة الثانية: الإِسْلام لله في أوامره ونواهيه وأحكام شريعته ومنهاجه لعباده، وطاعَتُهُ، وشُكْرُهُ بالعبادات الّتي شَرَعَها لَهُمْ.

فلا أحَدَ من الناس معفيٌّ من مسؤوليّة هذا الامتحان، إذا كان مُسْتَوْفِياً شُرُوطَهُ، وهي الشروط الّلازمة لتوجيه التكاليفِ الاعتقاديّة، والفكريَّة، والنفسيَّة، والجسَديَّة، من كلِّ عَمَلٍ إراديٍّ بَاطنٍ أو ظاهر.

إذَن: فلا براءة لهم في الزُّبرُ من مسؤوليّة التكاليف الدينيَّة، ولا براءة لهم من الجزاء بالعدل، على عدم التزامِهِمْ بمسؤوليّاتهم الدّينيَّةِ فعلاً أَوْ تَرْكاً.

وإذْ ثَبَتَ أنَّهُ لا امتيازَ لهم ولا لغيرهم على سائر النّاس بخيريَّةٍ خاصَّةٍ عند الله، تَجْعَلُهُم فوقَ المسؤوليّات والعقُوبات، وإذْ ثَبَتَ أنّه لا براءة لَهُمْ في الزُّبُر، فقد فَقَدُوا كُلَّ مَهْرَب من عذاب الله عزّ وجَلّ، يُمْكن أن يتصوَّرُوا أَنْ يكون لهم مَهْرباً.

وبعد هذا فما الذي يجْعَلُهُمْ يُصِرُّون على كُفْرِهِمْ وتكذيبهم بالنُّذُر، والحالُ أنَّهُمْ مُحَاصَرُونَ بما لا مَهْرَبَ لَهُمْ منه؟.

مثْلُ هٰذه المحاصَرة الفكريَّة كافِيَةٌ لإقناع مَنْ يُريدُ الاقتناع، وإلزامِ وإفْحامِ المكابرين، وكشفِ عنادِ المعاندين، وبيانِ ضعف عقُولِهم وضَآلَتِها، وَضعْفِ إراداتهم أَمَام أهوائهم وشَهَواتِهِمْ وكِبْرِهم وغُرورِهم بأنفسهم، تأثُّراً بأوْهامِهِمْ ومفهومآتهم السَّخِيفات.

فلْيَرْتقِبُوا عِقابَ الله لهم إذا لم يَتُوبوا، أُسْوةً بمن أنزل الله بهم عذابه وعقابه من مجرمي القرون الأولى.

وقد نَزَلَ فعلاً بمجرميهم فيما بَعْدُ، ما يسْتَحِقُّونَ من عذابٍ وعقاب، بحكمة الله العليم العزيز المقتدر، حينما نَصَر اللّهُ رسُولَهُ والمؤمنين في المواجهات القتاليّة الّتي أظفر اللّهُ بها أولياءه على أعدائه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ مثل سابقتها في الآية (٤٣).

﴿جَمِيعٌ﴾: اسْمٌ للجماعة المجتمعة على أَمْرٍ واحد، المتماسكة في وَحْدَةٍ.

والجَميعُ: المجتَمِعُ، يُقال: حيٌّ جميع، وقَوْمٌ جَمِيع، أي: مجتمعون مُتماسِكُون، مُتَّحدُو الرأي والهدف، مترابطو القوى.

ويُوَلُّون الدُّبرَ: أي: وَيَجْعلون مُحاربيهم من المسلمين يَلُونَ أَدْبَارهم، أي: يَتْبَعوُنها قتلاً وأَسْراً.

والمعنى: بل أيقول قادة وأئمة الكُفْرِ في قُرِيشٍ نَحْنُ كتلَةٌ واحِدَةٌ مجتمعون مُتَمَاسِكُون، متَّحِدُو الرأي والهدف، أَقْوياء، فإذا اجتمعنا وحاربنا محمّداً والّذين آمَنُوا معه، فلا بُدَّ أن ننتصر.

ويُطَمْئِنُ اللَّهُ العزيز القّهار، الّذِي بيده النّصر، وهو على ما يشاء قَدير، رسُولَهُ والمؤمنين بأنّ الْجَمْع الذي يَجْمَعُه مشركو مكة لحربهم، سَيُهْزَمُون، وسَيُولُّونَ الأدبار، أي: وسيجعلون المسلمين يَلُونَ مُتَابِعَينَ أَدْبَارَهم قتلاً وأَسْراً.

الدُّبُر: الظَّهْرُ، ومن كلّ شيءٍ عَقِبُه ومُؤَخّرُه، وهواسْم جنْس إفرادي، يَصْدُقُ على القليل والكثير، فيُوَلُّون الدُّبُر، مثل يُوَلُّون الأدبار في الدَّلاَلة، وفيه معنىٰ أنَّهم سيكونُون جَمِيعاً في الفرار والإدْبار، كأَنّ لهم دبُراً واحداً.

وجاء وصف «جميع» بكلمة «منْتَصِر» على الإفراد مراعاة للفظ «جميع» وإن كان معناه جمعاً غير مفرد، ومثل هذا مما يجوز فيه الوجهان.

منتصر: اسم فاعل من فِعْلِ «انْتَصَر يَنْتَصِر» فهو مثل الفعل المضارع في الدلاَلَةِ على الحَالِ والاسْتِقْبال، والمراد هُنَا الدَّلالة على الاستقبال، ونظيرُهُ، كثير في القرآن.

وأبان الله عزّ وجل بقوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ أنهم سيكونُون جَمْعاً ولا يكُونُون جميعاً، لأنهم عندئذ لا يكونُون على رأيٍ واحدٍ، ولا على هدف واحد، ولا على قلبٍ واحد، فالْجَمْع يُطْلَقُ على أي عَددٍ مجتمع، ولو كانت أفْراده متنافرة، ولَيْسَ بينهم جامعة تربطهم بقوة.

يقال لغة: هُزِمَ الْعَدُوُّ، أي: كُسِرَتْ شَوْكَتُهُ وغُلِبَ.

وإذا صَحَّ أنّ هاتين الآيتَيْن (٤٤ ـ ٤٥) من التنزيل المدني، فإنَّ ضَمَّهما إلى سُورَة (القمر) يُشْعر بأنَّ كبراء مشركي مكَّة جَعَلُوا يُرَدِّدُون قولهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ قبيل نزول هذه السّورة، وأخَّرَ الله عزّ وجلّ إِنْزَالَ البيانِ حَوْلَها، وبِشَارَةَ الرَّسُول والمؤمنين بالنصر إلى الْعَهْدِ المدني، أَخْذاً بِحِكْمَةِ كِتْمَان التدبيرات الْحَرْبِيَّة، إذْ إنّ سماعَ المشركين في العهد المكيّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ قَدْ يُشْعِرُهُم بأَنَّ خِطَّةَ الرَّسُولِ تَعْتَمِدُ على تَدْبِيرِ أمُورٍ حَرْبِيَّةٍ مُسْتَقْبَلِيَّة، ويجري الإعداد لَهَا سِرّاً، فيعْمَلُون علىٰ مبادَرَتهم بحرْب الرسول والمؤمِنين، قبل أن يُعِدُّوا لحَرْبهم ما يَلزَمُ مِنْ إعدادات.

ويظهر أنّ نُزُولَهُما في العهد المدَنِي قد كَانَ قَبْلَ غَزْوة بَدْرِ الكُبْرى فَقَدْ صَحَّ أَنَّ النبيَّ ﷺ خَرج من العريش يوم بَدْرٍ، وهو يَثِبُ في الدِّرْع ويَقُول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

وأمّا مَا رُوي عن مقاتل مِن أنَّ الآية (٤٦) من التنزيل المدني أيضاً مع الآيتين (٤٤ و ٤٥) فَمُعَارضٌ بما صَحّ عن عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها.

- روى البخاريُّ بسنده عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَك، قال: «إنّي عند عائشة أُمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ إذْ جاءها عراقِيٌّ فقال: أيُّ الكَفَنِ خَيْر؟

قالت: وَيْحَكَ، ومَا يَضُرُّك؟.

قال: يَا أُمَّ المؤمنين أَرِني مُصْحَفَك.

قالت: لِمَ؟

قال: لعلّي أُؤلّف القرآنَ عليه، فإنَّهُ يُقْرَأُ غير مُؤَلّف(١).

قالت: وَمَا يَضُرُّك أيَّهُ قَرأتَ قبل، إنّما أُنزلَ أَوَّل مَا أُنْزِل منه سُوَرٌ مِنَ المفَصَّلِ، فيها ذكْرُ الْجَنَّة والنَّارِ، حَتَّىٰ إذا ثَابَ النَّاسُ إلى الإسلام، نزل الْحَلاَلُ والحرامُ، ولَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الْخَمْرَ أَبداً، ولَوْ نَزَل: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزّنا أبداً، لَقَدْ نَزَلَ بمكَّةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وإنّي لَجَارِيَةٌ ألْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ ومَا أُنْزِلَتْ سُورة (البقرة) و (النّساء) إلاَّ وأنا عنْدَه.

قال: فأخْرَجَتْ لَهُ المصحف، فأمْلَتْ عليه آيَ السُّور(٢)».

فدلَّ هذا الحديث على أنَّ هٰذِهِ الآيَةَ من التنزيل المكيّ.

● وقد روى أهل السِّيرَ والمغازي، أنَّ النبيّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، اشتدّ في دعائِه لِرَبِّه في الْعَرِيش الّذي نُصِبَ له، وجَعَلَ يُنَاشِدُ رَبَّهُ مَا وَعَدَهُ من النّصْرِ، ويقول فيما يَقُول:

«اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هٰذِهِ الْعِصابَةُ الْيَوْمَ لاَ تُعْبَدُ، اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَداً».

وبالَغ الرّسُول ﷺ في الابْتِهال، وَمَدّ يَدَيْه إلى السَّمَاءِ، حتَّىٰ سَقَط رِدَاؤُه عَنْ مَنْكِبَيْهِ، وأبو بكر يَقُولُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بَعْضَ مُنَا شَدَتِكَ رَبّك،

---

(١) أي: غير مؤلّف السُّور، ويظهر أنّ هذا كان قبل أن يرسل عثمان المصاحف الموحَّدَة إلى الآفاق، كما قال ابْنُ كثير.

(٢) رُبما تكون قد أمْلَتْ عليه أوائل آي السُّور، وأواخِرَها، للْفَصْلِ بين كلّ سُورَةٍ والّتي تليها بحسب مُصْحَفِها تلبيَةً لطلبه.

فَإنَّ الله مُنجِزٌ لَكَ مَا وَعدَك، حَسْبُكَ يَا رَسُولَ الله، أَلْحَحْتَ علىٰ رَبِّك، وَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَىٰ مَنكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِن وَرَائِهِ.

وخَفَقَ رَسُولُ الله ﷺ خَفْقَةً وَهُوَ في الْعَرِيش(١)، ثُمَّ انْتَبَهَ فقال: «أَبْشِرْ يَا أَبا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ الله، هٰذا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ، علىٰ ثَنَايَاهُ النَّقْعُ(٢)».

ثُمَّ خَرَجَ الرَّسُول ﷺ من الْعَرِيش، واتَّجَهَ نَحْو المقاتلين، وَجَعَل يَثِبُ في الدِّرْع ويقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

● وروى البخاري بسَنَدِهِ عن ابنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رسُول الله ﷺ خَرَجَ مِنَ الْعَرِيش يَوْمَ بَدْرٍ، وهو يَثِبُ في الدِّرْعِ، ويقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾(٣).

قال ابن حَجَر في الفتح: وقد روىٰ عبد الرزّاق عن مَعْمَر، عَنْ أَيُّوب، عن عِكْرِمة: أَنَّ عُمرَ قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ جَعَلْتُ أَقُولُ: أَيُّ جَمْعٍ يُهزَم؟ فلَمَّا كَانَ يَومُ بَدْرٍ، رأيتُ النبيَّ ﷺ، يَثِبُ في الدِّرْع وهو يَقُولُ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾.

فدَلَّ هذا على أَنَّها نَزَلَتْ قَبْلَ مَوْقِعَةِ بَدْرٍ، وقَبْلَ الخروج إليها، فهي مدَنِيَّةٌ فيمَا يَظْهَرُ والله أعلم، وكانت من بَشَائر ما سَيَحْدُثُ من نَصْرِ الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ على عَدُوِّهم، قبل موقعة بدر حتماً.

● قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

---

(١) أي: نام نومَةً يَسِيرَة.

(٢) **النَّقْع**: أي: الغبار.

(٣) انظر فتح الباري لابن حجر، الحديثان: (٤٨٧٥ ـ ٤٨٧٧).

[بل السَّاعة مَوْعِدُهم]: أي: سَاعَةُ البعث للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿أَدْهَىٰ﴾: أفْعَلُ تَفْضِيلٍ من الداهية، وهي الأمْر المنكَرُ العظيم من الشدائد، والنوائب، والمصائب.

يقال لغة: دَهَتْهُ دَاهِيَةٌ دَهْيَاءُ وَدَهْوَاء.

﴿وَأَمَرُّ﴾: أي: أشَدُّ مَرَارة، يقال لغة: مَرَّ الشيء يَمُرُّ مَرَارَةً، وأفعل التفضيل منه «أَمَرُّ».

وأيُّ شيءٍ أشَدُّ مرارَةً على الكافرين من عذاب يَوْمِ الدِّين؟! وأيُّ داهِيَةٍ أدْهَىٰ مِنْهُ؟!

والمعنى: لا نَصْرَ لَهُمْ في الدنيا، بَلْ هم سَيُهْزَمُونَ ويغْلَبُون، ولا نجاة لهم في الآخرة، بل هم سوف يُعَذَّبُونَ عَذَاباً أَلِيماً خالداً، في جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المصير، وهذا سَوْف يكون أشدّ وآلم وأقسَىٰ وأشدّ مَرَارَةً من هزيمتِهِمْ يَوْم غَزْوةِ بَدْر.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس السُّورة وهو الآيات من (٤٧ ـ ٥٥) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

تمهيد:

هذا آخر دَرْسٍ مِن دُرُوس السُّورة، وهو دَرْسٌ يشْتَمِلُ على كُلّيّاتٍ ومفهوماتٍ عَامَّاتٍ، من قَضَايا القاعدة الإيمانيَّة في الدِّين المنزّل من لَدُن رَبّ العالمين، الذي اصطفاه الله العليم الحكيم للناس أجمعين، وهذه الكليّاتُ والمفهوماتُ حقائقُ لا نَقْضَ لها، ولها ارتباط فِكْرِيٌّ تَأْصِيليٌّ بما جاء في دُروس السُّورة قبل هذا الدَّرْسِ الأَخير، فما جاء في هذا الدرس هو بمثابة الحصيلة الختامية، الّتي ينبغي أن تقَدَّم في موادَّ دُسْتوريَّة، فما أحكم القرآن وأبلغه.

- ففي هذا الدرس بيانُ عَاقِبَةِ المجرمين والمتَّقِينَ يَومَ الدِّين مع عرض لقطَةٍ من عذاب المُجْرِمِينَ في دار العذاب، مَقْرُونَةٍ بحكاية ما يُقالُ لهم وهم يُعَذَّبُون، مُقْتَطعاً من الحَدَثِ نَفْسِه، ومَذْكُوراً ضِمْن هذا الدَّرس كأنَّه يُقَالُ لَهُمْ الآن، ومعَ عَرْضِ لقطةٍ من نعيم المتقين في دار النّعيم، مَقْرونَةٍ بِتَكْرِيمٍ من الرّب الكريم المليك المقتدر.
- وفي هذا الدَّرس حُكْمٌ علَىٰ المُجْرِمين بأَنَّهُمْ يتَخَبطُونَ في ضَلَالٍ في الحياة الدُّنيا، وبأَنَّهُمْ في جُنُونٍ يُشْبِهُ جُنُونَ النُّوقِ المسعورة الْهَوْجاء.
- وفي هذا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ في الوجود أو قضىٰ بأن يَخْلُقه، فَهُو مَسْبُوقٌ بِقَدَر، أي: بتَقْدِيرٍ شَاملٍ مُحَدِّدٍ لكُلّ المَقَادِيرِ في الذَّوَاتِ والصِّفَاتِ، والأمكِنَةِ والأَوْقاتِ، لكُلّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ في الوجود، مَا مضَىٰ، ومَا هُوَ مَوْجُودٌ، ومَا هُو آتٍ.

وبهذا التَّقْدِير الحكيم ينَالُ الْمُعَذَّبُونَ عذَابَهُمْ في النَّارِ، ضِمْنَ نظام غَيْرِ نظام الحياة الدُّنيا وتَقْدِيرِ المقادير فيها، فالَّذِين يُسْحَبُونَ في النَّارِ على وجُوهِهِمْ يُعَذَّبُون دون أنْ يَتَعَرَّضُوا للْمَوْتِ والفَنَاء، لأنّ مَقَادِيرَ يَوْم الدِّين غَيْرُ مَقَادِيرِ الحياة الدنيا، وذوات المعذبين تتلاءم مقادِيرُها مع مقادير العَذَاب في الجحيم.

وبهذا التقدير الحكيم ينال المنعَّمُون أنواعَ نعِيمهم في الجنَّة خالدين، ضِمْن نظام غَيْرِ نظامِ الحياة الدُّنيا وتقدير المقادير فيها، فأنْواعُ السَّعَادَاتِ واللَّذَّاتِ العظيمات الخالدات، تتطَلَّبُ مقادِيرَ في ذَواتِ المنعمين غَيْرَ المقادير الَّتي كَانُوا عليها في الحياة الدنيا، لِتكُونَ إحْسَاسَاتُها ملائماتٍ للَذَّاتِ العظيمات الخالدات، وأنْ تكون غير عرضَةٍ للأعْراضِ والأمْرَاضِ والآلام والموتِ والفناء، فمقاديرُ يوم الدِّين غير مقادير الحياة الدنيا.

● وفي هذا الدَّرْس بيان أنَّ أَمْرَ التكوين الرَّبَّاني إنَّما هو كلمة واحدَةٌ يَتِمُّ بها تَكْوِينُ المقضِيِّ المقدَّرِ، بزَمَنٍ مُبَاشرٍ لَهَا، كَلَمْحِ بالْبَصَرِ فيما يُدْرِكُهُ النَّاسُ من تنفيذ إرادة الرُّؤيَة بحَرَكَةِ اللَّمْحِ البصري.

● وفي هذا الدَّرْس تذكِيرُ المجرمين الذين ما زالُوا على قَيْدِ الحياة، بإهْلَاكِ اللَّهِ أمْثَالَهُمْ في الْقُرُونَ السَّالفَاتِ، وفي هذا التذكير تَنْبيهٌ ضِمْنِيٌّ على سُنَّةِ اللَّهِ الثابِتَةِ في عباده، أوَّلِهِمْ وآخِرِهم، فَلْيَتَذَكَّرُوا، ولْيَتعِظُوا.

● وفي هذا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ أعْمَالَ الْعِبادِ الظَّاهِرَة والباطِنَةَ مُسَجَّلَةٌ في كُتُب مَلائِكَةِ المراقَبَةِ والتسجيل.

أي: فهي سَوْف تُعْرَضُ عليهم يوْمَ الدِّين، وسَوْفَ يُحَاسَبُون عليها، وسَوْف تكُونُ قراراتُ الجزاء بمقْتَضَاهَا، ضِمْن مَبْدَأي الْعَدْلِ، والفضل، وبالفضل يعفو اللَّهُ عن كثيرٍ من الذُّنُوب، ويغْفِرُ كثيراً منها.

● وفي هذا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ كُلَّ صَغيرٍ وكبيرٍ في الوجود، ما كان، وما هو كَائِنٌ، وما سيكون، أو سوف يكون، كُلُّه مُسْتَطر، أي: مكْتُوبٌ كِتَابَةً راسِخَة ثابِتَةً، لاَ تتآكَلُ، وَلا تَتَعرَّضُ لِمَا يُتْلِفُها، إلاَّ بأَمْرِ الله جلّ جلالُه في المحْوِ والإثبات، يمحو اللَّهُ ما يشَاءُ ويُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمَّ الكتاب، وهو علْمُهُ جلّ جلالُهُ.

التدبُّر التحليلي:

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

سبق في السّورة أنّ ثمودَ قومَ النبيّ الرسول صالح عليه السلام، قالُوا بشأن رسُولهم:

﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: إنّنا إذا اتبَعْنَا بَشراً منّا واحداً وهو «صالح» فإنّنا نتخبَّطُ في ضَلالٍ مِنْ أَمْرنا غَيْر مَهْدِيّين، وتكُونُ أَذْهَانُنا وأَدْمِغَتُنا مَغْمُوسَةً في جُنُون يجْعَلُنَا نَتَصَرَّفُ في حياتنا على غير هدى، كَتَصرُّفِ النّاقةِ المَسْعُورَةِ الْهَوجَاء.

فقال الله عزّ وجلّ بَعْدَ عَرْضِ إهلاكِ طائفة من المجرمين الأوّلين، الّذين كذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم، وكذَّبوا بِنُذُرِهم، وبما جاءوا به بلاغاً عن الله عزّ وجل ومنهم ثمود:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: إنَّ الّذين كذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم، وكذَّبوا بما بلَّغُوهم إيَّاه من النُّذُرِ، هم المنغَمِسُونَ في ضَلَالِ وَسُعُرِ (أي: وجُنُون).

وهم بتَكْذِيبهم ومعانَدَتِهم الحقَّ الّذي جاءهم من رَبِّهم صاروا مُجْرِمِين.

المجرم في اللّغة: فاعل الْجُرْمِ ومُرْتكبُه، وهو المتعدِّي بذنْبٍ كبير، **والْجُرْمُ:** التَّعدِّي بغير حقّ.

وجاء لفظ «المجرمين» في القرآن عنواناً مُقَابِلاً للمسلمين، ووصْفاً للكافرين الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ الله في الدنيا، ووصفاً للمعذبين في النار عذاباً خالداً.

ولدى تتبُّع النُّصُوص نُلاحظ أَنَّ المجرِمَ في لسان الشرع، يُطْلَقُ على الكافر، كما أَنَّ كُلّ كافر يُطْلَقُ عليه أَنَّه مُجْرم، بَدْءاً من المشركين، حتَّىٰ أَخَسِّ دَرَكات الكافِرين، وهم أهل الدَّرْك الأَسْفل من النار.

أليس الّذي يُعَرّضُ نَفْسَه لعقاب الرَّبّ عزّ وجلّ في الدنيا، وللخُلُودِ في النار دار العذابِ يوم الدّين، مُنْغمِساً في الضَّلالِ والضياع والتخبُّطِ على غير هُدىً؟!

أليس منْغَمِسَ الفكر والرأي وأدواتِ الإدراك لديه في جنُونٍ، يَصْرِفُهُ عن إدْرَاك الحقّ.

كَلِمَةُ «**سُعُر، وسُعْر**» بضمّ العين وإسكانها تأتي في اللُّغَةِ بمعنى: «الجنون» كما سبَق بيانُه في تدبّر الآية (٢٤) من السورة.

وبهذا المعنى فسَّر أبو عليٍّ الفارسيّ عبارة ﴿وَسُعُرٍ﴾ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ وليْسَتِ الكلمة جَمْعَ «سَعِير» بمعنى النار.

أقول:

ما قاله «أبو عليّ الفارسيُّ» صَحِيحٌ، وهو الذي يُنَاسِبُ معنى الآية، ولا سيما أنَّ أمْرَ عَذَابِهِمْ في الآخِرة، قَدْ نُصَّ عليه في الآيَة التالية، ومن أسْلُوب القرآنِ أن يُضِيفَ المعانيَ تأسِيساً، ولا يُكَرِّرَهَا تأْكيداً.

ويَأْتي السُّعُر في اللُّغَةِ بمنىٰ الْعَنَاءِ والعذاب، ويأتي بمَعْنَىٰ الشَّهْوَةِ مع الجوع.

وهٰذان المعنيان يُوافِقَان حال المجرمين في الدنيا، فهم في عناءٍ نَفْسِيٍّ دائم، وفي شَهْوَةٍ وجُوعٍ لِمتَاعِ الحيَاةِ الدّنيا، وهُمْ في عذابٍ نَفْسِيٍّ تَتَواتَرُ عَلَيْهِم لَفَحاتُ آلامه.

فتُحْمَلُ كلمَةُ «سُعُر»في هذه الآيَةِ على كُلّ هٰذِه المعاني، وهذه المعاني قَدْ تُوجَدُ مجتمعةً عند بَعْض المجرمين، وقد تُوجَدُ مُوَزَّعَةً على أفْرادهم، بحَسَبِ حالة كُلٍّ مِنْهم.

● قول اللّهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يُسْحَبُونَ﴾: السَّحبُ: جَرُّ الشيءِ على الأرض، يقال لغةً: سَحَبَ الشيءَ يسْحَبُه سَحْباً، أي: جَرَّهُ على الأَرْض، فانْسَحَبَ، أي: فانْجَرَّ على وجه الأرض.

ومنه سحْبُ البساط، إذ يكون بجرِّه على وجْهِ الأرض مبسوطاً والمعنى أنَّ المجرمين يوم الدّين يُسْحَبُونَ في النار دار العذاب يومئذٍ على وجوههم، زيادةً في تَعْذِيبهم الذي يتجدَّد بالسَّحْب، وإهانَةً وتحقيراً لهم، لأنّهم في مُدّة امتحانهم في الحياة الدنيا وَلُّوا ظُهُورَهُمْ، لَدعْوةِ رُسُل رَبّهم، ولم يستجيبوا لها جُحُوداً واستكباراً، وعَادَوْها وقاوَمُوها، وحاربُوها، وأرادوا نُصْرَةَ الباطلِ وإزهاقَ الحقّ الرَّبّاني.

والسَّحْبُ على الْوُجوه يقتضي جَمْعَ الأيْدِي والأَرْجُلِ من وراء، ورفْعَها حتَّىٰ تبقى الوجوه والصُّدُورُ والْبُطُون على الأرض.

﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾: أي: وَيُقالُ لهم وهم يُسْحَبُون في النَّارِ على وجُوهِهِمْ بلسَانِ الحالِ وبلسَانِ المقَالِ: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾: أي: ذوقُوا آلَامَ مَسِّ حَرَارَة ما تُسْحَبُونَ عليه من أرْضِ «سَقَر».

هذه العبارة مقتطَعَةٌ من الحدث المستقبليّ الذي سوف يكون حتماً، ومقدَّمَةٌ في النّصّ، كأن المجرمين يخاطبون بها الآن، وهذا من الإبداعات القرآنيَّة الّتي لم تكن معروفة عند البلغاء، ويُقَدِّرُ النحاة لمثل هذه العبارة فِعْلاً على الوجه التالي: أي: يقال لهم يومئذٍ: ذُقُوا مَسّ سَقَر. وأرى أنّ مثلَ هذا التقدير يُضْعِفُ من قيمة إبداع الاقتطاع والمفاجأة به.

﴿مَسَّ﴾: المسُّ في اللّغة إلصاق الجسم بالجسم مع حركة.

﴿سَقَرَ﴾: اسْمُ علم من أسماء جهنّم دار عذاب المجرمين يوم الدّين، وهو ممنوع من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ومادّة هذه الكلمة في اللّغة تَدُورُ حَوْل معنيَيْن:

المعنى الأول: الْبُعْدُ، ومعلومٌ أَنَّ جَهَنَّمَ عَمِيقَةٌ جداً، بَعِيدَةُ الغُورِ.

المعنى الثاني: شِدَّةُ الحرارة، وكذلك حال جَهَنَّمَ.

يقال لغة: سَقَرَ الشيءُ يَسْقُرُ سَقْراً، أي: بَعُدَ.

ويقال: سَقَرَتِ النارُ أو الشَّمْسُ فُلاَناً، أي: لَوَّحَتْ جِلْدَهُ، وغَيَّرَتْ لَوْنَهُ، وآذَتْهُ وآلَمَتْهُ بِحَرِّها.

فاشْتُقَّت كلمة «سَقَرَ» علماً على جَهنَّم من هذه المادّة اللّغوية.

وبِسَحْبِ وُجُوه المجرمين على أَرْضٍ صُلْبَةٍ حارَّةٍ من أرضِ جَهنَّم يحْدُثُ تَماسٌّ يكوي وُجُوههم بالحرارة، فَيَذُوقُون لَذْعَهَا ذا الإيلام الشديد.

وقد اسْتُعْمِلَ الذَّوْقُ في القرآن المجيد لكُلّ ما يُحِسُّ بِه ذَوُو الأحساس من آلاَمٍ وَلَذَّاتٍ ظاهراتٍ وباطنات.

وأصل الذَّوْقِ في اللُّغةِ يُعَبَّر به عن ذَوْق طُعُومِ المآكل والمشارب، ثُمَّ عُمِّم على الإحساس بما يلَذُّ ويُمْتِعُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، والإحْسَاسِ بما يُؤْلِمُ أو تَنْفِرُ مِنْهُ النفوس من كلّ شيءٍ، حتَّىٰ الموت، فقد قال الله عزّ وجلّ بشأنه في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾.

هذه الآية قد قدَّمَتْ لقْطَةً من صُوَرِ عذاب المجرمين يوم الدين في سَقَر. وصِلَتُها واضِحَةٌ بِدُرُوس السُّورَةِ، إذْ بدأت بالحديث عن المجرمين الذين كذّبُوا بالنُّذُر التَّي أَنْذَرَ بها رسول الله محمد ﷺ، ثم ضَرَبَتْ أَمْثِلَةً مِن المجرمين السّابقين من أهل القرون الأولى، وكيف أنزل الله عزّ وجل بهم عقابه المعجل في الحياة الدنيا، فلا بُدَّ من عَرْض صُوَرٍ مِنْ عذابهم يَوْمَ الدِّينِ ليتكامل الموضوع تكاملاً ملائماً للإقناعِ والموعِظَةِ الحسنة.

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾:

يتحدّث الله عزّ وجل في هذه الآية بضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ أَعْمَالَ الخلْقِ المقدّرِ بغايَةِ التقدير الحكيم، لا يَعْمَلُها إلاّ الرَّبُّ الخالقُ العظيم الجليل، الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ عِلْمًا، وهُوَ على ما يَشاءُ قدير.

أي: إنَّا بِكَمالِ وعظَمَةِ صفاتِ الرَّبُوبيَّة قَدْ خَلَقْنَا كُلَّ شيءٍ بقَدَر، أي: بتَحْدِيدٍ تَمَّ فيه تقديرُ كلِّ صَغِيرٍ وكبير من ذاتِ وصفات، ومكانِ وُجودِ وَزمانه، وكُلِّ ما يخضع لتقدير أجزائه.

إنّ التكوين لا بُدَّ أن يكون مسبوقاً بعِلْم شامل، وتقديرٍ كامل، لكلّ جزء مِنْ الأجزاء التي تحتاجُ تحديداً، وبَعْدَهُ يتِمُّ القضاء، وهُوَ بمثابَة القرار بالتكوين، ثُمَّ يكونُ الْخَلْقُ في المكان والزّمانِ المحدَّدَيْنِ، بأمْرِ التكوين الرَّبَّاني: «كنْ» فهو «يكون» على وقف المقادير التي قضاها الله عزّ وجلّ.

والقضيَّةُ الّتي أبَانَتْها هذه الآيَةُ لَهَا صِلَةٌ بكُلِّ مَا جاء في السُّورة مما يحتاج إلى تقديرٍ حَكيم، من الرَّبّ العليم الحكيم القدير، حتّىٰ عَدَدُ قَطَراتِ الماء التي نزلت من السماء أو نبعت من الأرض في طوفان نوح، وحتّى عَدَدُ الحجارة الّتي أمطرها الله على قوم لوط، وحتّى كلُّ جزئيَّةٍ من جزئيَّات الريح الّتي أهلك الله بها عاداً، وحتّىٰ مقدار قوة الصيحة التي أهْلَكَ الله بها ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام.

وقد يخْطُر في بعض أَذْهَانِ المتلَقِّين سؤالٌ حوْلَ سَحْبِ المجرمِينَ يَوْمَ الدّين في النار على وجُوههم، واضِعِينَ في تصوُّرهم نِظَامَ الحياة الدّنيا، ونظام مقاديرها، فجاءت الإشارة بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ إلى أنّ مقادير نظام يوم الدين، مختلفة عن مقادير نظام الحياة الدنيا، فلا يُقَاسُ مَا في الآخرة عَلَىٰ ما في الدنيا بالنّسْبة إلى تَحْدِيد المقادير.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾:

أي: وَما أمْرُنا التَّكْوِينيُّ في إيجاد الأشياء أو إعدامها، الذي يسْبِقُهُ قَدَرٌ فقضاء، إلاَّ كَلِمَةٌ واحدة، وهي كلمة: «كُنْ» كما جاء بيانه في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾.

فإذا قال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ لما أَرَادَ تكوينَهُ: ﴿كُن﴾ كان المراد على ما قضاه، ووفق مقاديره، دُون فاصِلٍ زمنِيّ، بل يُوجَدُ بَعْدَ أمْرِ التكوين كلمْحِ بالْبَصَرِ لِمُريد هذا اللَّمْحِ.

والتشبيه بلَمْحِ الْبَصَر تشبيهٌ تقريبيٌّ، لتعريفنَا كيْفَ يكُونُ إيجاد المكوّنَاتِ مَهْمَا عظُمَتْ عَقِبَ أمْر التكوين فوراً.

فقد جاء في نصٍّ آخَرَ بيانُ أنّ المكَوَّناتِ تُوجَدُ بعد أَمْرِ التكوين الرَّبَّانيّ بأَقْرَب من لمْحِ الْبَصر، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: وما أمْرُ وُجود السَّاعةِ بَعْدَ أَمْرِ التكوين الرَّبَّاني، سواءٌ أكانت ساعَةَ إِنْهَاءِ نِظَامِ يَوْم الحياة الدنيا، أم كانت ساعَةَ إيجادِ نظام اليوم الآخِر وَبَعْثِ الأحياء بعد الموت، إلاَّ كَلَمْح الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ من سُرْعَةِ لَمْحِ الْبَصَر لمن تتوجَّهُ إرادته لأنْ يَلْمَح ببَصَرِهِ.

وصلة هذه الآية (٥٠) بما سبَقَ أن جاء في دُرُوس سورة (القمر) تابعٌ لِصِلَةِ الآيةِ (٤٩) الّتي قبلها، والّتي سبَقَ بيانها.

وفي هذه الآية (٥٠) الإعلامُ بأنَّ السَّاعَةَ الْمَقَدَّرَةَ المقضيَّة بالقضاء

الْمُبْرَم، لاَ تَحْتَاجُ أكْثَرَ مِنْ أَمْرِ التكوين الّذي تَحْدُثُ به فَوْراً. وَبأنَّ انشقاق القمر، وكلَّ الأحداث الّتي كان بها إهلاك المكذّبين بالنُّذرِ من كُفَّارِ الْقُرون الأولى، لم تَحْتَجْ أكْثَرَ من أَمْرِ التكوين، فكانَتْ بَعْدَهُ فَوْراً حَسَبَ مَقَادير ذواتها وَصِفَاتها وأَزْمِنَتِها وأمْكِنَتِها.

وهكذا كُلُّ أوامر الله التكوينيَّة المسبوقة بقَدَرِهِ فقضائه، فَلْيَحْذَرِ المكذّبون المعاندون، أنْ يُصِيبَهُمْ من اللَّهِ ما أصَاب الّذين من قبلهم.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾؟!.

الكلام في السورة يدور حول المكذّبين بالنُّذُرِ التي أنْذَرَ بها محمّد ﷺ، وأوّلُ المقْصُودين هم معاصرو التنزيل، وفي مقدمتهم كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مكّة الّذين أصَرُّوا على العناد ورفْضِ الحق الربّاني.

على أنَّ السُورَة تُعالجُ كُلَّ المكَذّبين إلى أنْ تَقُومَ الساعة.

وفي هذه الآية يخاطب الله عزّ وجلّ المكَذّبين بالنُّذُر خطاباً مباشراً، فيقول لهم مُؤَكِّداً بعبارة: «لَقَدْ»: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾.

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾: **أشياع**: جَمْع «شِيَعٍ» ومُفْرَدُها «شيعَة» فأشياع جَمْعُ جَمْعٍ، وتُطْلَقُ الأشياع على الأشباه والأمثال.

الشّيعةُ: القوْمُ أو الجماعَةُ من الناس الذي يجتمعون على أمْرٍ ما. وكُلُّ قَوْمٍ أَوْ جماعَةٍ لهم أَمْرٌ واحِدٌ مُتَّفِقُون عليه، أو لهم مذهَبٌ واحِدٌ يَسِيرُونَ عليه، أو لهم طريقَةٌ واحِدَةٌ يَتَّبِعُونها، وَلوْ لَمْ يُنَاصِرْ بعضُهُمْ بعضاً، ولو لم يكُونُوا في زَمَنٍ واحدٍ.

فاللّاحقُون الذين هم على مذهب السَّابقين هم من شيعتهم، والسَّابقون الَّذِين هم على مذهب اللّاحقين هم من شيعتهم أيضاً.

والشيعة في الغالب يُنَاصر بَعْضهم بَعْضاً فيما اجتمعوا عليه.

ويُشيرُ لفظ ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ بالجمع إلى أنّ كفّار القرون الأولى كانوا مختلفي المذاهب الكُفْرِيَّة، لكنهم مجتمعون على التكذيب بالنُذُر⁽¹⁾.

والمعنى: ولقد أهلكْنا أمْثَالَكُمْ وأشْبَاهَكُمْ الَّذِين تَجْتَمِعُونَ معهم على طريقة واحدة في التكذيب بالنُّذُرِ، الّتي جاءتهم عن ربّهم، على ألسنة الرُّسُل الذين بَعَثَهُمُ الله إليهم.

وبما أنَّ سُنَّتَنَا في عبادِنا السَّابقين واللاَّحقين واحدة، فاعلموا أنَّكُمْ إذا وصَلْتُمْ إلى مثل الذي وصل إليه المهْلَكُون السابقون من كُفْر وطُغْيان، وظُلْم وَعُدْوان، فإنَّنَا سَنُنزِلُ بِكُمْ إهْلاَكاً عامّاً شَامِلاً، مُمَاثِلاً لمَا أَنْزَلْنَاهُ بِالْمُجْرِمينَ السَّابقين.

● ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: أي: فَهَلْ مِنْ مَتَذَكِّرٍ يَضَعُ في ذاكِرَتِهِ سُنَّتَنَا هذه في عبادنا، لتكون واعظَةً لَهُ، فيَجْتَنب ما يجعله من المجرمين، الذين يستحقُّون الإهلاك العامّ المعجّل في الحياة الدنيا، ثُمَّ العذاب الأبديَّ الخالد يَوْمَ الدِّين في سَقرَ.

استعمل الاستفهام في الحضّ والحثّ على التذكُّر الدافع إلى الاعتبار والاتعاظ.

إنَّ وضْعَ الفكرةِ ذاتِ التأثير النَّفْسِ في الذَّاكِرة حيَّةً دواماً، أو متناوبَةً آناً فآناً، أو آنا ثُمَّ آناً، من شأنِه أن يَجْعَلَها مُتَتابعَةَ الطَّرقاتِ على غُدَدِ التَّحْرِيضِ في النَّفْسِ، وبهٰذا التتابُعِ التَّحْرِيضي يتَّجهُ ذو الإرادَةِ الواعيَةِ العاقِلَة إلى تَحْقِيقِ ما يَنْفَعُهُ ممّا آمن بمَنْفَعتِه، واجتناب ما يَضُرُّه ممّا آمَنَ بمضَرَّتِهِ، وهكذا يكُونُ الاعْتِبَارُ والاتعاظ.

---

(١) فما أبدع الدّقة في البيان القرآني، والقرآن حينما يتحدّث عن فِرَق أهل ملة واحدة، يأتي بلفظ «شِيع» وحينما يتحدّث عن فرقة معينة ذات مذهب واحد يأتي بالمفرد «شيعة».

مُدَّكِر: أصلها مُذْتكِر، من صيغة «اذْتكَر» على وزْنِ «افتعل» تحويلاً من فعل «ذَكَر». وقلبت التاء دالاً بَعْدَ الذّال، ثم قلبت الذال دَالاً، فصارتَا دالاً مُشَدَّدَةَ «ادَّكَرَ» واسم الفاعل منه «مُدَّكِر».

- قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: وكُلُّ شَيْءٍ فَعَلَهُ الموضوعُونَ في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدين، مكْتُوبٌ ومُسَجَّلٌ في الزُّبر.

الزُّبُر: هي الكتب، جمع «زبور» وهو الكتاب المزبور.

والمراد بالزُّبُرِ هنا صُحُفُ ملائكة تسجيل أعمال العباد وكتُبُهُم.

وقد صَرَّحَ هذا النَّصُّ بالأفعال، وبما أن القول فعْلٌ منْ أفعال اللّسان، فهو يَدْخُل في عموم الأفعال.

وسبق أن جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) التصريح بتسجيلِ الأقوال، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

والتصريح بسجيل الأقوال يتضَمَّنُ باللُّزُوم الذهنيّ تَسْجيلَ سَائِرِ الْأَفْعَال، لأنّ الأفعالَ ذَاتَ الآثار الماديَّة، أَدلُّ في ظروف الحياة الدُّنيا على تَوجُّه الإرادة الموضوعة موضع الاختبار، من الأقوال الّتي هي أفعال في اللّسان معبِّراتٌ عن معاني قد يكون اللّسان فيها صادقاً وقد يكون غيْرَ صادق، على أنَّ الأعمال ذات الآثار الماديَّة قد يدخُلُ فيها النفاق أيضاً، ولكن بصورة أقلّ من الأقوال.

وبعد تنزيل سُورَة (القمر) أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ بيانات أخرى بشأن كتب تسجيل أعمال العباد، فيها تفصيلات مُكَمِّلَاتٌ لمَا أنزل الله في سُورَتي (قّ)

و (القمر) ومنها قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾:

﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾: أي: جعَلْنا كلَّ عَمَلِه وكَسْبِهِ في الحياة الدُّنيا الّذي هو بمثابَة الطائر الي يَطير من قَفَصِهِ، مُعَلَّقاً بمَنَاطِ المسؤوليّة لدَيْه، المعبَّرِ عَنْهُ بالْعُنُقِ، فَهوُ يوم الدين مسؤول عنه ومحاسَبٌ عليه.

وارتباط قول الله تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ بما جاء في دروس السّورة، أنَّ المكذبين بالنُّذُر، قد يقع في توهمهم أنَّ أفْعَالَهم الّتي يفْعَلُونَها تُنْسَىٰ فَلاَ يُحَاسَبُونَ عليها، ولا يجازَوْنَ، فكان من الحكمة البيانيَّة التصريح في الدرس الأخير من دروس السورة بأنّ كُلَّ شيءٍ فَعَلُوه بإراداتهم من أفعال ظاهرة أو باطنه، مُسَجَّلٌ مُدوَّنٌ في الكتُب المخصَّصَة لتسجيل أعمال العباد جميعاً، فلا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ منهم أنَّ أفعالَه متروكة منسيَّة، ليس وراءها حسابٌ، وفَصْل قضاء، وتنفيذ جزاء.

- قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿مُّسْتَطَرٌ﴾: أي: مكتوبٌ مُسَجَّلٌ تسجيلاً ثابتاً، لا يتَعَرَّضُ للتآكل والْمَحوِ مهما تطاولت الأزمان.

والمعنى: أنَّ كُلَّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الوجود، ما كان ومضى، وما هو كائنٌ الآن، وما سيكونُ أو سَوْف يكون في المستقبل مكتوبٌ مُسَجَّلٌ مُسْتَطر.

السَّطْر في اللُّغة: الخطُّ والكتابة، وهو مصدَرُ سَطَر الكتابَ يَسْطُرُهُ سَطْراً، أي: خَطَّهُ وكتبه.

ويقالُ في التوكيد: سَطَّرَه، أي: كتبه بعناية.

ويقال عند شدّة العناية المصحوبة بتكلّف استَطَر الكتاب، ومنه اسم المفعول: «مُسْتَطَر».

والغرض بيانُ ثباتِ المستَطَرِ عند الله، وعَدَمِ تعرُّضِه للتآكل والمحو.

ولمّا كانت الأمور الصغيرة مما يتهاون الناس به في حياتهم، جاءَتِ البيانات القرآنيّة منبِّهَةً على الصغير قبل الكبير، لتَدُلَّ على أنّ اللّهَ عزّ وجلّ لَيسَ لَدَيْهِ تَهاوُنٌ بشيءٍ في كونه، فكلُّ صغير وكُلُّ كبير مشْمُولٌ بالتقدير والقضاء، والإيجاد والإعدام، بِنِسْبَةٍ واحدة من العناية.

وما دلّتْ عليه هٰذِه الآيةُ بعُمُومِها، قد جاء تفصيلُه في عدّة نصوصٍ قرآنيّة، فمنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾.

(٦) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾.

هذا الكتاب المبين هو اللَّوْح المحفوظ، وهو كتاب علم الله الشاملِ كلَّ شيء.

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾:

في مقابلِ بيانِ لقْطَةٍ من عذاب المجرمين يوم الدين، اقتضىٰ البيان الحكيم تقديم لقْطَةٍ من نعيم المتقين، وفق المنهج القرآني الذي يُتْبِعُ الترهيب بالترغيب، والعكس، فما اقتضىٰ السّياق ذكره أوّلاً منهما، فالآخر يأتي بَعْدَه، لأنّ الموعظة الحسنة ترغيب وترهيب، على مِحْوَرَيْ الرَّغَبِ والرَّهَبِ في النفس، وهما في النَّفْس مُتَلازِمَان.

وإذا كان العقابُ الرَّبَّانيُّ قائماً على صفة الْعَدْل، فالثوابُ الرَّبَّانيُّ قائم على صِفَات الفضل والجود والمنّ والكرم.

وكما جاء تأكيد عقاب المجرمبن بمؤكدين: «إنّ ـ والجملة الاسمية» جاء تأكيد ثواب المتقين بهذين المؤكدَيْن أيضاً، مراعاة لحال المخاطبين في الأمْرَين، وليتَّسِق البيانان في نَسَقٍ متماثل متكافئ، وهما حاصران للدرس الأخير من دروس السّورة، ببَيان صُورةٍ من صُور عقاب المجرمين في أوّله، وبيان صُورَةٍ من صُور ثواب المتقين في آخره.

[المتقون]: هم أهل مَرْتَبة التقوى، وهٰذه المرتبة ذات درجات متفاضلات كثيرات.

وأدنىٰ درجاتها دَرَجَةُ الإيمان والبراءَةِ من الشِّرْك، الّذي هو أخف

دَرَكاتِ الكُفْر وأهونُها، وأَخَسُّ منه إنكار وجود ربّ خالق، والجمع بين الكفر والنفاق.

وبالبراءة من الشرك يَحْمي المتقي نَفْسَه من الخُلود في النار.

وتَرْتَقِي دَرَجَاتُ المتقين، وأعْلاَها دَرَجَةُ تأدِيَةُ كُلّ الواجبات الدينيَّة، وَتَرْكُ كلِّ المحرَّمات الدينيَّة.

وفوق مرتبة المتقين تأتي مرتبة الأبرار، وهم الذين يتوسعون في أَعمَال البرّ من المندوبات والنوافل، ولهذه المرتبة درجات متفاضلات كثيرات.

وفوق مرتبة الأبرار تأتي مرتبة المحسنين، وهي ذات درجات متفاضلات كثيرات.

وقد عرَّف الرسول ﷺ الإحسان بقوله: «أن تعبدُ الله كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تكن تَرَاهُ فإنَّه يراك» فالإحسان حالة كيفيَّةٌ تكمن بإتقان العبادة مع كمال الإخلاص لله فيها.

وكُلٌّ من الأبرار والمحسنين يوصفون بأَنَّهم متَّقُون، لأَنَّهم مُتَّقُون وزيادة، والدَّرَجَةُ الأدْنَىٰ شَرْطٌ طبيعيٍ للدَّرجَةِ الأعلى، فلا يكون المؤمن من الأبرار حتى يكون من المتقين، ولا يكون من المحسنين حتى يكون من المتقين، وحتى يكون من الأبرار غالباً.

فالجميع يدخلون في عُمُوم المتقين، فالثواب المذكور في النَّصِّ وعْدٌ لهم به جميعاً.

﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾: الجنات جمع «جَنَّة» وهي ما يحتوي على أشجارٍ وثمارٍ وزُرُوع وأنهار وقُصُورٍ، وكلّ مَا يُمتِعُ النَّفْس والحواسّ.

ودار النعيم يوم الدّين فيها جنَّاتٌ متعدِّدَاتٌ، ويجْمَعُها جَمِيعاً اسم

«جنَّة» باعتبار أنَّها كُلَّها بمثَابَةِ دارٍ للنعيم، كشَأْنِ دَارِ الحياة الدنيا بكُلّ ما فيها من أَرْضٍ وسَمَاوَاتَ.

وهذه الجنَّة الجامعة العامّة عَرْضُها السَّماواتُ والأرض، أُعِدَّتْ للمتقين.

﴿وَنَهَرٍ﴾ يقال لغة: نَهْرٌ ونَهَرٌ بإسْكان الهاء وفَتْحِها، والْفَتْح أفْصَح، وهو مَجْرَى الْمَاءِ المنخفض عن سَطْح الأرض، وجَمْعُهُ «أَنْهَارٌ» و «نُهُرٌ» و «نُهُور».

ويقال لغة: نَهَرَ الماءُ، إذا جَرَىٰ في الأرض، وجعل لنفسه نهراً، وتقول: نَهَرْتُ النَّهْرَ، إذا حَفَرْتَه.

قال الفرّاء: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ معناه أنهار، أي: أُطْلِق المفردُ وأريد به الجنس، فيشْمَلُ كُلَّ الأنهار الّتي في الجنّة.

وجاء في نصوص كثيرة جدّاً في القرآن الكريم وصْفُ الجنّة بأنّ فيها أنهاراً تجري من تحتها.

وجاء في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ في وصف الجنة:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ . . . ﴿١٥﴾﴾.

وقد يكون النَّهَرُ الْمُرادُ في سُورَةِ (القمر) نهراً عظيماً يمرُّ في جميع الجنَّاتِ على تعَدُّدِها، وهو غير الأنهارِ الّتي جاء ذِكْرُها في سائر النُّصُوص، فهي موزّعةٌ في الجنّاتِ دُونَ أن يكون كلُّ واحدٍ منها مارّاً فيها جَمِيعِها.

- ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: المقْعَدُ: هو مكان القعود. أي: في مكان إقامَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ مُريحَةٍ لاَ عَنَاءَ فيها.

يقولُ العرب: رجُلُ صِدْقٍ، أي: رجُلٌ نِعْمَ هُوَ رَجُلاً، وامرأَةُ صِدْقٍ، أي: امرأةٌ نِعْمَتْ هي امرأةً.

فهي صيغة من صِيَغِ الثناء والمدْح، فعبارة ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ على هذا هي بمعنى: في مقْعَدٍ نِعْمَ هو مقعداً.

وهذا التعبير هو من إضافة الموصوف إلى صفته، وأصْلُه: رجُلٌ صِدْق، وامرأةٌ صِدْقٌ، ومَقْعَدٌ صِدْقٌ، وقَدَمٌ صِدْقٌ.

أي قد حقَّقَ الموصُوفُ في الواقع كُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْ كمال صفاته، فاسْتَحقَّ الثناء والمدح، بما يَدُلُّ على كمال المطابقة بينه وبين الصُّورة المثْلَىٰ لنَوْعِه، وذلك هو الصِّدْقُ حَقاً، إذْ لم يَكْذِبْ في واقِعِهِ أن يُطَابِقَ بين الاسم وكَمَالِ المسمَّىٰ.

- ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾:

﴿مَلِيكٍ﴾ من صِيَغِ المبالغة لمالك، ولفظ «مَليك» على وزْنِ «فعيل»، ونظيرُهُ «مَلِك» على وزن «فعِل». ومعنى المليك والمِلك: المتصرف بالأمر والنهي في عباده، وهو المالك لكل شيء.

﴿مُّقْتَدِرٍۭ﴾ هُوَ من أسْمَاء الله الحسنى، أي: ذو القدرة الكاملة. والمقْتَدِرُ أبْلغُ من القادر أخْذاً من زيادة المبنى.

وجاء هذا الاسم أيضاً في قول الله عزّ وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾..

سوابق الحديث في نجوم التنزيل عن ثواب المتقين في الجنة.

جاء الحديث عن ثواب المتقين في (نجوم التنزيل قبل سورة القمر) في ست سُوَر، كما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢)﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤)﴾.

فأبان هذا النصّ أن جنَّاتِ النَّعِيم يَوْم الدّين، قد جعَلَها الله ثوابَ المتقين، أي: فمن فوقهم من الأبرار والمحسنين.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠)﴾.

فأبان هذا النصّ أَنَّ نفوس أصحاب الجنة تكون مطمئنّة، ورَاضِيَةً بما هي فيه من نعيم، ومَرْضيَّةً مِنْ قِبَلِ رَبّها.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١)﴾.

فجاء في هذا النّصّ شَرْحٌ للمتَّقِينَ، بأنّهم الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات، وجاء فيه بيان أن جنّات النعيم تَجْري من تحتها الأنهار، وأنّ أصحابها فيها قَدْ فَازُوا فَوْزاً كبيراً.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٤٤)﴾.

فأضاف هذا البيان أشياء لم تأتِ في النصوص السابقة، وهي واضحة.

(٦) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾.

وفي هذا البيان تفصيلاتٌ لم تذكَرْ في النُّصوص السَّابقة.

فإذا أضفنا إليها ما جاء في آخر سورة (القمر) الّتي سبقَ تَدبُّرها بما فتح الله وهو قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ (٥٥)﴾.

ونظرنا إليها نظرةً تدبُّريَّة مُتَأنِّية، وجدْناها مُتَكامِلَةَ الدَّلاَت فيما بيْنَها، غَيْرَ مُكرَّرَات، وهٰذَا مِنْ عَنَاصِرِ إعْجَاز الْقُرْآن المجيد.

وبهذا تمَّ تَدَبُّر سُورَةِ (القمر) على ما فتح الله وألْهَمَ وأمَدَّ بعونه وتوفيقه، والحمدُ لَهُ على ما يَلِيق بجلاله وعظيم سلطانه.

* * *

ملاحق لسورة القمر

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيّة من السورة.

الملحق الثاني: حول إعراض الكافرين المعانِدِين عن آيات الله.

الملحق الثالث: حول الحكمة في القرآن المجيد.

(١١) الملحق الأوّل
مستخرجات بلاغية من سورة القمر

تشتمل سورة (الْقَمر) على جماليات وروائع بلاغيّة متعدّدة، أُقدِّم منها في هذا الملْحَقِ المسْتَخْرَجات التاليات:

أوّلاً:

آيات سورة (القمر) مُقَدَّرةٌ بكَلِمَاتِها وَفَواصِلِها عند رؤوس الآيات منْها تقديراً حكيماً بَدِيعاً، فيه سَلاسَةٌ جميلة في الأسْماع، فلا تَجدُ فيها كَلِمةً غَيْرَ مُحْتَلَّةٍ موقِعهَا الْجَميل في اللّفظ، وغَيْر محتلَّةٍ مَوْقِعَها الجميل في النفس، مع كمال الدّقَّة في أداء المعاني.

وعلى الرُّغْم من أَنَّها تُشْبِهُ السَّجْعَ، إذ جاءت رؤوس آياتِها على حرف الراء، إلاَّ أنَّها لاَ تَنْزِلُ إلىٰ مُسْتَوىٰ سَجْعِ أعْظَم فُصَحاءِ العَرب، ولا تُشْبِهُ سَجع الكُهَّانِ بحالٍ من الأحوال، فهِي نَمَطٌ فَريدٌ بَدِيعٌ من التَّسْجِيع، الذي لا حشْوَ فيه ولا لَغْو، ولَيْسَ فيه اسْتِدْعاءُ كَلِمَاتٍ بمعانيها استدعاءَ يَحْسُنُ الاستغناءُ عنه.

ثانياً:

وفي السُّورَةِ إيجازَ القِصَرِ، وإيجَازُ الحذْفِ:

فمن إيجاز القِصَرِ مَا يلي:

(١) كَلِمةُ: «مُسْتَمِرّ» من قَوْلِ الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ فيها إيجاز الْقِصَر، لدَلاَلَةِ هذه الكلمة على المرور والمضي، وعلى العادة المتكرّرة، ولِدَلاَلَتِهَا عَلَىٰ الْقُوَّةِ والشّدَّة المأخُوذَة من المِرَّة وهي القوة، كما سبق في التدبر.

(٢) وكلمة: السّاعة الصالحة للدلالة على ساعة إنهاء ظُرُوف الحياة الدنيا، وللدلالة على ساعة البعث.

(٣) وجُمْلَةُ ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ من الجُمَلِ الكلّيّةِ العَامَّة، التي تشْمَلُ كُلَّ أَمْرٍ مِن أمُورِ الله وَقَوانِينِه وأنظمته في الوجود، وبيَانِ أَنَّهُ مُسْتَقِرٌّ لا يتأثَّرُ بِكُفْرِ الكافِرين، ولا تكذيب المكذِّبين، ولا معانَدَة المعانِدِين، ولا جَبَرُوتِ الجبَّارِين، فهٰذِه الكليَّةُ من إيجاز القِصَرِ.

ومعظم الكليّات الكبرى في هذه السُّورةِ من إيجاز القصر، إذ كانَ من الممكن صياغةُ عباراتٍ أطْوَلَ مِنها دون حشْوٍ، وعباراتٍ أُخْرَىٰ فيها إطْنَاب.

وفي السّورَة من إيجاز القِصَر قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ وليس من الإطناب تفصيل «شيْءٍ» إلى «صَغِيرٍ وكَبِيرٍ» لأنّ الغرض في البيان دفْعُ تَوَهُّم التَّهاوُنِ بكتابَةِ الصغير.

وَتوجد أمثلة أخرى من إيجاز القِصَر في السُّورة تركْتُها لاستخراج دارسها بتدبر.

ومن إيجَازِ الحذْفِ ما يلي:

(١) عبارةُ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ وعبارةُ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾.

والمحذوف فيها فعل «اذْكُر» العامل في الظرْف «يَوْمَ».

(٢) وعبارة: ﴿...أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: بل أَلَكُمْ بَيَانُ براءَةٍ في الزُّبُر، أو صَكٌّ براءة في الزُّبُر من التكاليف الدينيّة، أو من الامتحان في الحياة الدنيا.

(٣) عبارة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾ أي: ولقد جاء فرعون وآلَهُ وأتباعهم النُّذُر.

(٤) عبارة: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ أي: عند هؤلاء المعنيّين بالخطاب.

وفي السورة مطويّات كثيرات لم تذكر بصريح العبارة جاءَ بيانها في تدبّر السورة، وفيها من إيجاز الحذف أمثلة أخرى تركتُها لاستخراج دارسها بتدبر.

ثالثاً:

التشبيه المرسل المجمل في قول الله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)﴾ وفي قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ (٥٠)﴾:

- أمّا كوْنُ التشبيه فيهما مُرْسَلاً فلِذِكْرِ أداة التشبيه.
- وأما كوْنه فيهما مُجملاً، فَلِعَدَم ذِكْرِ وَجْهِ الشَّبَه.

والغرض من التشبيه فيهما تَقْرِيب صورة الحدَثِ بِصُورَةٍ مشهودة بالْحِسّ.

رابعاً:

استقطاع النّصوص من أزمانها الماضية أو المستقبلَة، وعَرْضُها بألْفَاظها دُونَ الإشارَة إلى أنَّه كان كذا فيما مضىٰ، أو أنَّه سيَكُونُ كَذَا فيما سَيأتي، أو سَوْف يكون.

ونجدُ هذا الفنَّ البديعَ في قول الله عزّ وجلّ:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨)﴾.

ونجده في قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٧)﴾ ونظيرها في الآية (٣٩).

وفي قول الله عزّ وجلّ:

﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾.

خامساً:

خروج الاستفهام عن أصل دلالته، للدلالة على معاني أخرى:

فجاء الاستفهام مستخدماً للدلالة على الإنكار في النُّصوص التالية:

(١) في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ . . (٢٤)﴾؟.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا . . (٢٥)﴾؟.

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ (٤٣)﴾؟

سادساً:

استخدام ضمير المتكلّم العظيم في كثيرٍ من آيات السُّورَة، لأنّ البيان الوارد في السّياق يشتمل على أعمال خَلْقٍ لا يفْعَلُها إلاَّ من له الرُّبوبيَّةُ العظمىٰ القادرة على كلّ شيء، مِثل: [**فَفَتَحْنَا ـ وفَجَّرْنَا ـ وحَمَلْنَاهُ ـ إنَّا أَرْسلنَا ـ ولَقَدْ يَسَّرْنَا ـ كذَّبوا بآيَاتِنا ـ بَطْشَتَنَا ـ وَمَا أَمْرُنَا**].

سابعاً:

تأكيد بعْضِ الجُمَل ببَعْضِ المؤكّداتِ، لأنّ أحوال المقصودين بالبيان تقتضي تأكيد البيانات الوارداتِ في السّياق لهم.

- فجاء التأكيد بعبارة [لَقَدْ] في السّورَة عِدَّة مرَّاتٍ.
- وَجاء التأكيد بمؤكِدَيْنِ: «إِنَّ والجملة الاسميَّة» في عدّة مواضع من السُّورة.

ثامناً:

الابتعاد عن التعبير المباشر باستخدام الكنايات، والإشارات اللَّمحيّة، في عدَّة مواضع جاء شرحها خلال تدبُّر السُّورة.

إلى غير هذه العناصر البلاغيّة ممّا يُمكِنُ اسْتِخْراجُهُ بالتَّأمُّل من السُّورة.

* * *

(١٢)

الملحق الثاني
حول إعراض الكافرين المعاندين عن آيات اللّٰه

تحدَّث القرآن المجيد حول موضوع إعراض الكافرين المعاندين المكابرين الذين يستكْبرون في الأرض، ويتَّبِعونَ أهواءهم وشهواتهم، ونزعاتهم، ويستجيبون لنزغَاتِ الشياطين، عن آياتِ الله الكونيّة وآيَاتِهِ الْإعجازية، وآيَاتِهِ الْبَيَانيّة المنزّلة، وآياته الجزائية، في نُصُوصٍ متعدّدة موزعة في طائفة من سُوَرِه.

وأتابع في هذا الملْحَقِ استعراضَها بشيءٍ من التدبر:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن أئمة الكفر والشرك في مكة، إبَّان نزول السورة، وبمناسبة ذكر آيَةِ انشقاق القمر للرسُول محمد ﷺ:

﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

وقد سبق تدبُّر هذا النَّصّ، ضِمْن الدراسة التدبُريَّة لهذه السّورة.

النص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مُبيِّناً ما قالَهُ آل فِرْعَوْنَ لموسَىٰ عليه السَّلام، بعد أنْ أخذهم الله بالسنين المجدِبَة، ونقص من الثمرات، لعلّهم يتَذَكَّرُون:

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾.

وفي التعقيب على قَوْلِهم هذا كان الإجراء الرَّبَّاني ما أبانه اللّٰهُ عزّ وجلّ في الآية التالية:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

فَقَدَّمَ اللَّهُ عزَّ وجلّ بهذا لكفَّارِ قريش المعاندين المستكبرين، ولكلّ أمثالهم المعاصرين والآتين في العصور اللاّحقة، ما فيه عبْرَةٌ وعِظَةٌ بما كان من الذين سَلَفُوا من كُفَّار القرون الأولى، وبما أنزل الله بهم من عقاب.

النصّ الثالث:

قَولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً مُبيّناً بَعْض ما كتبَهُ في الألواح الّتي آتاها موسى عليه السلام.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

فأبان اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا النّصّ أَنَّ مِنَ الْقَوانين والسُّنَنِ الْعَامَّةِ الّتي فطَرَ الله النّاسَ عليها، أَنَّ مَنْ تَكَبَّرَ في الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ، طَمَسَ كِبْرُه على بَصِيرَته، فجعَلَهُ يَنْصَرِفُ عن آيات اللَّهِ، وبهذا الانصرافِ عن آياتِ اللَّهِ وعَدَم التأثر بها والاستفادة من دلالاتها، يكون من شأنه أنّه إنْ يَرَكُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُ بها، وأنّه إنْ يَرَ سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخذْه سبيلاً، وأَنَّهُ إنْ يَرَ سَبيلَ الْغَيّ يتّخِذْه، سبيلاً.

فالتكبُّرُ في الأرض بغير الحقّ يُوَلّد كُلَّ هٰذهِ القبائح والمنكراتِ والكُفْرِيَّات.

وفي هذا تحليلٌ تَعْرِيضيٌّ غير مباشر لحَالِ مُتكبِّري كُفَّارِ مَكَّة، الذين كذَّبُوا رسُول الله محمّداً ﷺ، وكذَّبُوا بما جاءهم به، ضمن بيان سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ العامَّةِ في النفوس الإنسانيّة.

النصّ الرابع:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأن الذين كذَّبوا رسُولَ الله محمّداً ﷺ، وكذّبُوا بالقرآن الذي جاءهم به عن ربِّه جلّ جَلاَلُهُ وعظُمَ سُلْطانه:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤٦﴾ فأبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا النصّ دَأبَ الكفَّار المعاندين الذين كذّبوا رسُول الله، وكذبوا بما جاءهم به عن ربّهم، وهو أنَّهُمْ ما تأتهم من آيَةٍ إعجازيَّة، أَوْ آيةٍ قُرْآنِيَّةٍ بُرْهَانِيَّةٍ، إلاَّ كانُوا عَنْهَا مُعْرِضين، غير مكْتَرِثين لها، ولا عابئين ولا مبالين بها.

النص الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) خطاباً لرسول الله ﷺ:

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾.

تحدّث هذا النّصّ عن آيات اللّهِ الدَّائِمَاتِ في ظاهِراتِ الكون، لا عن آياته الطَّارِئَاتِ الخارِقاتِ لنظام الكَوْنِ الْمُعْتاد.

فالآياتُ الدَّائماتُ في ظاهرات الكَوْن تَدُلُّ على طائفة من صفات اللَّهِ الجليلات، وتدُلُّ على رُبُوبيّته الدّائمة لكلّ ما سواه، وعلى وَحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبيّته، المستلزمةِ لوحدانيّته في إلَهِيَّتِهِ.

لكِنَّ الكافرين المعاندين المكابرين يَمُرُّون على آياتِ الله الكثيرات الْمُنْتَشِرَاتِ في السَّمَاوَاتِ والأرض، فيُعْرِضُون عنها غير مُكْتَرِثين لها، ولا عَابئين بدلالاتها.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بشَأنِ أئمةِ الكفر والشرك في مكّة إِبَّانَ التنزيل:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾.

أي: فَسَوْفَ يأتِيهم يَوْم القيامة تحقيقُ أَنْبَاءِ مَا كانوا به يَسْتَهْزِئُون، مُنْكِرِينَ البعث، والْحِسَابَ، وفصلَ القضاء، وتحقيقَ الجزاء في الجنة دار نعيم المتقين، أو في النار دار عذاب الظالمين.

والمراد بالآيات الّتي تأتيهم الآياتُ الإعجازية الكونيّة، والآياتُ البيانية القرآنية.

النص السابع:

قول الله عزّ وحل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

إنّ كِبْرَهُمْ واتِّباعَهُمْ لأهوائهم وشهواتِهم ونزعاتهم، واستجابتهم لنزغاتِ الشياطين، أمورٌ جعلَتْ عَلَىٰ قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً(١)، ضِمْنَ أنظمة الله وَقَوَانِينه وسُنَنِهِ السَّبَبِيَّةِ، فمنعَتْها من أَنْ تَفْقَهَ دَلَالَاتِ آيات كتابِ الله المنزَّل، وجَعَلَتْ أيْضاً في آذانِهِمْ وَقْراً(٢)، فحجَبَها عن استماع آيات الله المنزّلَات على رسوله.

---

(١) **أَكِنَّة**: جمع «كِنَان» وهو كلُّ غطاءٍ يحجُبُ ويَسْتُر.

(٢) **وَقْراً**: الوقْرُ الصَّمَمُ، أو ثِقَلٌ في السَّمْع قريبٌ من الصمم.

وأَبَان هذا النصّ أنَّ هؤلاء قد انْطَبَقَ عليه قَانُونُ السُّنَنْ السببيَّة، الذي جاء بيانه في النّص الثالث من هذه النصوص، وهو ممَّا كَتَبه الله عزّ وجلّ لموسَىٰ في الألواح، وهو الآية (١٤٦) من سورة (الأعراف) فهؤلاء إنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بها، والسَّبَبُ أَنَّهُمْ يَتَكبَّرونَ في الأرض بغَيْرِ الحقّ.

وهم يجادلُونَ في آيَاتِ اللَّهِ المنزّلاَتِ في كتابه، فيقولونَ عنها: إنْ هذا إلاَّ أَسَاطِير الأوَّلين، أي: مَكْتُوبَاتُ الأوّلَين، أَوْ خرافاتُ وَأكاذِيبُ الأوّلين.

النص الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً بشأن كُبَراء كفّار ومجرمي مكّة إبَّان تنزيل السورة:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

إنّ كُفْرَ هؤلاءِ كُفْرٌ عِنادِيٌّ سَبَبُه مَا في نفوسِهِمْ مِنْ كِبْرٍ، يمنعهم من أن يُؤْمِنُوا بِمَنِ اصطفاه الله رسُولاً، ومن أن يَتَّبِعُوه، ويَجْعَلُونَ إيمانَهُمْ مَشْرُوطاً بأَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ مِثْلَ مَا آتاه لِرُسُلِهِ.

فجاء في البيان الرَّبَّاني: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وجاء البيان الرَّبَّانيّ بأنَّ هؤلاء المستكبرين سَيُعَاقَبُون بِصَغَارٍ عند الله يوم الدِّين، وبعذاب شديد بسبب ما كانوا يُمكُرُونَ ضدّ دين الله، ورسُولِه والذين آمنوا به واتّبَعُوه.

النصّ التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

يَسْتَسْخِرُون: أي: يَسْتَهْزِئُونَ.

فأضافَ هٰذا النَّصّ أَنَّهُمْ تَجاوَزُوا دَرَكَةَ الإعْراضِ، وانْحطُّوا إلى دَركة الاستهزاء بآيَاتِ اللَّهِ الباهرات، ويُكَرِّرُونَ مَقَالَتَهُمْ القديمة: إنْ هٰذا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ.

النص العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوّل سورة مدَنيَّة التنزيل بشأن أهل الكتاب، وخطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ... ﴿١٤٥﴾﴾.

هذا البيان يَدُلُّ على أنّ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ وهم اليهود بالدرجة الأولى، ثم النصارىٰ، لا يَنْقُصُهُم الاقتناعُ بصِدْق رسالتك، ولكِنْ يَحْجُبُهُمُ التَّعَصُّب الأَعمى، والمصالح الدُّنيويَّة الخاصَّة، عن الإيمان بكَ نَبيّا رسُولاً، وعن اتّباعِ شَرِيعَتِكَ، والتَّوَجُّهِ في الصَّلاة لقبلتِك.

النصّ الحادي عشر:

نصٌّ جاء في سُورَةِ (يُونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نُزُول) خِطاباً من الله لرسوله بحسب الظاهر، وهو في الحقيقة خطابٌ لكُلِّ مُكَلَّفٍ يُدْرِكُ دَلاَلاَتِ هذا الخطاب.

وهو نصٌّ مَدَنِيُّ التنزيل، ضُمّ إلى سُورَةِ (يونس) التي هي من أواسط التنزيل المكيّ، مُرَاعَاة للمناسبة الفكريَّة الَّتي اقتضت ضَمَّهُ إليها، وتأخير تنزيله قَدْ رُوعي فيه مقتضىٰ حال وجود الرسول في المدينة. وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

لقد خاطب الله رسُوله بهذا النّصّ بحَسَب الظّاهر، باعتباره أوّل المكلّفين المأمُورين بالإيمان وبالإسلام لمَا أنزل الله، والغرضُ أن يَسْمَع هذا الخطاب الموجَّهَ للرّسُولِ غَيْرهُ من المكلّفين، ليعْلَمَ أنّ الرسول مكلّفٌ أنْ يكونَ أوّل المؤمنين المسلمين، وأنَّهُ غَيْرُ مُسْتثْنىٰ من قانون العقاب والجزاء، لو عَصَىٰ أو كذَّب، لكنّه لا يَفْعَل ذَلِكَ حتْماً، لأنّ الله لم يصْطَفِه لِرَسالَتِه الخاتمة إلاَّ عَالِماً بما يتحلَّىٰ به من كمالٍ بَشَرِيّ.

ويُعْتَبرُ هذا الخطابُ من أرْوع الأساليب التربويَّةِ وأَحْكمها للآخرين، إذْ يُدْرِكُونَ به أنَّ الرَّسُولَ مع ارتفاع منزلته عِنْدَ رَبّه، وعُلُوّ مقامِهِ وَشَأنِه، لَمْ يَرْفَع الله عنْهُ موادَّ التكاليف الموجّهة لِغَيْرِهِ، ولاَ قَانُون العقاب لو كذَّبَ أو شكَّ أَوْ عصَىٰ.

فَلْيَعرِفْ كُلُّ مُكَلَّفٍ مَوْقِعَهُ بيْنَ يَدَيْ رَبّه جلّ جلاله، وأَمَامَ تكالِيفِ الدِّين الموجَّهَةِ لجميع المكلَّفين على سواء.

إنَّ رسُولَ الله محمّداً ﷺ لاَ يُمْكن أن يكون من الشاكّين، ولا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ من الّذين كذّبوا بآيَاتِ الله، لكِنْ إذا سَمِعَ الشَّاكُونَ والمكذِّبُونَ هذا الخطاب للرسول أيْقَنُوا أنّ الأمْرَ شامِلٌ وَجدٌّ.

فإذا كانَ الرَّسُول نفسه ﷺ مع ارتفاع منزلته عند رَبّه وعُلُوّ مقامه، غير مَعْفِيٍّ من قضايا الإيمان والإسلام، فَمَا يكونُ شأنُ سائر الناس؟.

إنّه أسْلُوبٌ يُعْطِي الإقناع، ويُلْقِي الخوفَ في قُلُوب الشاكّين والمكذبين.

أمّا قول الله عزّ وجلّ في هذا النصّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

فهو يَدُلُّ على أنَّ الّذين حقَّتْ عليهم كَلِمَةُ اللّهِ بأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا آخر ظرُوف امتحانهم، وتَقَلَّبَتْ علَيْهِمْ كُلُّ صُورِه ووسائله، فأصَرّوا على الكُفْر، وعلى معانَدَةِ الحقّ الذي دمغتهم حُجَجهُ، فَلَزِمَهُمْ الحكْمُ علَيْهِم بالإدانَةِ واسْتِحقَاف العقاب على الكُفر، هٰؤلاء لا يُؤْمِنُونَ مَهْمَا أمْهِلُوا، فإيمانُهُمْ مَيْؤُوسٌ منه، بعْدَ أنْ مَرُّوا في كُلِّ ظُروفِ امْتحانِهِمْ، إقْنَاعاً وتَرْغيباً وَتَرْهيباً، ومُعَالجةً تَرْبويَّةً، بِكُلّ ما يُورِث استجابَة مَنْ لديه استعدادٌ ما للإيمان.

إنّهم لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ تُورِثُ في الْعَادة اقتناعاً فِكْرِيّا، أَوْ تُحَرِّكُ النفوسَ بِرغبةٍ أو بِرَهبة.

وإيمانُهُمْ لاَ يكونُ إلاّ إذا رَأَوْا بأعْيُنِهِمْ وَأَحَسُّوا بأجْسَادِهم العذابَ الأليم.

لكنّ هذا الإيمان لا يَنْفعُهم حينئذٍ، لأنَّ العذاب الأليم إنّما يأتي حينما تَنْتَهي مُدَّةُ الامْتِحان، ويأتي دور الحساب، وفَصْلِ الْقَضاء، وتنفيذ الجزاء.

* * *

عدم استجابة الله لما يقترحه الناس من آيات حسيَّةٍ

وقد أبان الله عزّ وجلّ حكْمتَهُ في عدم تلبيته طَلَبَ الناس الآيات الّتي يقْتَرِحُونها على الرسول، وهي أنَّ تجربَة الأمم السابقة قد أثبتَتْ أنَّ إجابَة مطالِبِهِمْ في إنْزَالِ الآيات على ما يَقْترحون، لم تجعلْهم يُؤْمِنون، بل كذَّبُوا بها، فاقتضىٰ قانون الابتلاء في الحياة الدُّنيا، إنْهاءَ مُدَّةِ امتحانهم، وإنْزَال الهلاك الشامل بهم، إذا استجاب لطلبهم فلم يُؤْمِنوا، كما حَصَلَ لثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

وموضوع آيات الله الكونية، والإعجازيّة، والجزائيّة، والبيانيّة، موضوع طويل جدّاً.

وأكْتفي الآن بهذا الملْحق، عسىٰ أن يفتح الله بِملاَحِقَ أُخْرى في سُورٍ أخرى.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

* * *

الملحق الثالث
حول الحكمة في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد استعمالُ لفظ الحكمة في عدّة نصوص، أتابع استعراضها بشيء من التدبر، بعد بيان المراد بلفظ الحكمة، ولفظ الحكيم.

الحمة في الأمور: وضْع الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أو مَعْرفةً وفَهْماً وَفِقْهاً، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من صُوَر السُّلُوك الإرَاديّ.

والحكيم: هو الذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتْقَنها وأحْسَنَها في الأمور المختلفة، لمَا يُعْطي أحْسَنَ نتيجة.

والله جلّ جلاله وعظم سلطانه، أحْكَمُ الحاكِمين، وأحْكم المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحِكْمتُهُ بَالِغةٌ الغايةَ دواماً في كلِّ شيء، في الْخَلْق والإبداع، والتكليف، والمحاسبة، وفصل القضاء، والجزاء، وغير ذلك من كلّ أمْر.

والحكمة ترجع إلى جذرَيْن:

الجذْرُ الأوّل: الحكمة في المعرفة، وتكون بمطابقة العلم للواقع، أو لأحسن صورة ممكنة تقترب من مطابقة ما هو الكمال في الشيء.

الجذر الثاني: الحكمة في السّلوك، سواءً أكان خُلُقاً، أم عملاً فكريّاً أو جسديّاً، أم تصرّفاً في قول، أو إفتاء، أو حكم، أو سياسة، أو إدارة، أو تجارة، أو حرب، أو غير ذلك.

وتكون الحكْمةُ في السُّلوك بممارسة الأحسن والأفضل دَوَاماً، ممّا تُوَجّه له الحِكمة في المعرفة، بحسب الاستطاعة، وضمن حدودها.

- فمن الحكمة في المعرِفَة مَعْرِفَةُ أحسن الوسائل لصيانة الأشياء مِمَّا يؤذيها أو يُتلفُها. ومَعرفَةُ أحسنِ الوسائل والخطط الحربيَّة لتحقيق النصر والظفر. ومعرِفَةُ أحسن العلاج للشفاء من المرض. ومعرفة أحسن الطُرق لإصلاح اقتصاد الأمّة وتنمية ثرواتها. ومعرفة وجوه الإنفاق الرابح الجالب للخير العاجل والآجل، ومعرفة وجوه الإنفاق الخاسر الجالب للشرّ والضرّ العاجل والآجل، ومعرفة الأحكام التي هي الأقرب إلى تحقيق كمال العدل والإنصاف. وهكذا بلا حصر.

- والحكمة في السُّلوك تكون بتطبيق وممارسة ما تقتضيه الحكمة في المعرفة، كمُمَارسة أحسن الوسائل لصيانة الأشياء مما يؤذيها أو يُتْلِفُها، ومُمَارسة أحْسَن الوسائل والخطط الحربيّة لتحقيق النَّصْرِ والظفر، وهكذا إلى سائر الأشياء.

فالحكيم في الطبّ يستخدم أحسن العلاج مما هو متَاحٌ له لشفاء مريضه.

وذو المال الحكيم يُنْفِق من ماله في سبيل الله ليظفر بالأجْر العظيم المضاعف عنْد ربّه أضعافاً كثيرة، ولا ينفق شيئاً من ماله في معصية الله، وإن جلَبَ له لذَّات عاجلاتٍ.

والقاضي الحكيم يَحْكُم بما هو الأقرب لإحقاق الحقّ، وتحقيق الإنصافِ إذا لم يستَطِعْ إحْقاقَ كمال الحقّ والْعَدْل.

والسّياسي الحكيم هو الذي يُحْسِنُ إدارة رعيَّتِه بما يحقّقُ الأمْنَ والخَيْر والسّعادة والرفاهية للمجموع الأغلب، وفق المقدار الممكن في الظروف الداخليّة والخارجيّة.

وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال:

«لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنتَيْنِ: رَجُلٍ آتاهُ اللَّهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ في الْحَقِّ، ورَجُلٍ آتاه اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يقضي بها ويعلّمُها».

فدلَّ هذا الحديث على الحكمة في المعرفة في قول الرسول: «ويُعَلّمُها» وعلى الحكمة في السُّلوك في قوله: «فَهُوَ يقضِي بِهَا» والقضاء بالحكمة نوع من أنواع السُّلوك الحكيم.

وفيما يلي استعراض النصوص بشيء من التدبّر:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن كبراء مشركي قريشٍ إبّان التنزيل:

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ..﴾.

وقد سبق تدَبُّر هذا النّصّ باستفاضة في موضعه من السّورة.

النّص الثاني:

قول الله عزّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول): بشأن دَاوُد عليه السّلام:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

والحكمة التي آتاها الله عزّ وجلّ داوَدَ عليه السّلام هي تعاليم الدّين الحكيمة، وحُسْنُ الإدارَة والسِّيَاسَةِ في مُلْكِه، وحكْمَتُه في أَحكام الْعَدْل، والحكْمِ بالحقّ، وعَدَمِ اتّباع الهوى.

النص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ ...﴾.

المشَارُ إليه بعبارَة [**ذَٰلِكَ**]: «أحكام معاملة الوالِدَين ـ الأمْر بإيتاء ذوي الحقوق الاجتماعيّة حقوقهم ـ النَّهْيُ عن التبذير ـ مخاطبةُ السَّائِلين الّذين يَرَىٰ المسؤول الإعراضَ عنهم ابتغاء رحمة يرجوها من ربّه بالرِّفْق والقَوْلِ الحسَنِ الميْسُور ـ التوسُّط في الإنفاق بين القبض الشديد والْبَسْط المسْرِف ـ النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر ـ النهي عن الاقتراب من الزّنى ـ النهي عن قتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ـ الإذن بالقصاص بالعدل دون إسراف ـ النهي عن اقتراب مال اليتيم إلاّ بالّتي هي أحْسَن ـ الأمر بالوفاء بالعهد ـ الأمر بإيفاء الكيل والوزن ـ النّهي عن اتّباع ما ليس للإنسان به علم ـ النَّهي عن المشي في الأرض مرحاً ـ».

ويُقاس على هذه الأمور سائر الأوامر والنواهي الرَّبَّانِيَّةِ التي اشتملت عليها آيات القرآن المجيد.

النّص الرابع:

قول الله عزّ وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾.

وقد اشتملَتِ الآيَاتُ في هٰذه السُّورةِ بعْدَ هاين الآيتين، وحتى غاية الآية (٩) على أوامر ونواهيَ رَبّانيَّة، ووصَاياً أوصَىٰ بها لُقْمَانُ الحَكِيمَ ابْنَه، وهي جميعها داخِلةٌ تحت عنوان الحكمة، وهي بالتَّتَبُّعِ من أوَّل النَّصّ حتّىٰ آخِرِه ما يلي:

«الأمر بالشُّكر لله والنَّهيُ عن مقابلة نعم الله بالكُفْر والجحود ـ النّهي عن الإشراك بالله في رُبُوبيّته وإلَهيَّته ـ الأمْرُ بالشُّكْرِ للوالِدَيْن ـ النهي عن طاعتهما في معصية الله ـ الأمْرُ بمُصَاحَبتِهما في الدنيا بالمعروف ـ الأَمْرِ باتّباع سبيلِ من أناب إلى الله ـ النَّهْيُ عن معصية اللّهِ مَهْمَا كانت بالاستخفاء التامّ، فالله مُحِيطٌ بكلّ شيءٍ عِلْماً ويُحْضِرُه يوم الْحِسَاب ولو كان في باطن صخرة ـ الأمر بإقامة الصّلاة ـ الأمْرُ بالْأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر ـ الأمر بالصَّبْرْ على المصائب ـ النَّهْيُ عَنْ الكِبْرِ بتَصْعِيرِ الْخَدِّ للناس أو المشي في الأرض مرحاً ـ الأمر بالْقَصْدِ في المشي وهو التوسط بين البطء والاستعجال ـ الأمْرُ بالغضّ من الصَّوْت».

ويُقاسُ على هذه العناصر المشمولة بعنوان «الحكمة» كلُّ ما جاء في الإسلام من شرائع وأحكام وأخلاقٍ وآداب.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

إنّ ما جاء به عيسَىٰ عليه السَّلامُ الداخلَ تَحتَ عُنْوان «الحكمة» أوامرُ ونواهي ووصايا تتعلّق بالقاعدة الإيمانية، وتتعلّق بأنواعِ السُّلوك الباطِنِ والظّاهر، والالتزام بصراط الله المستقيم، عبادةً لله، وطاعةً له، واتّقاءَ لعقابه

على المعصية والمخالفة. ويدخل في هذه كُلُّ شَرائع الدّين، وأحكامه، وأخلاقه، وآدابه.

النص السادس:

قول الله عزّ وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً للرسول ﷺ، ولكلِّ داعٍ إلى الله من أُمَّته:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

دَلَّتنا النُّصوصُ السَّابِقَةُ على أنّ المُوعِظَةَ الحَسَنة، والمُجادَلَة بالّتي هي أحْسَنُ مِنَ الحِكْمَة، إلاَّ أنَّ هذا النَّصّ المتَعلّق بالتَّوجيه لأساليب الدَّعْوَة إلى سبيل الله، خَصَّصَ الحِكْمَة بالأساليب والوسائل الفكريَّة الّتي تُوصِلَ العقُول إلى الاقتناع بالحقّ، أو بما هو خَيْر وأحْسَن وأفضل، وخَصَّصَ الموعظة الحسنة بما يؤثر على الأنفس بالترغيب والترهيب، وأفْرَزَ الجدال بالّتي هي أحْسَن بعنوان خاصٍ به ـ مع أن الحوار الجدليّ لا يخرج عن وسائل الإقناع الفكريّة العقلية، ووسائل الترغيب والترهيب ـ للتّنبيه على وجوب التزام الدّاعي إلى سبيل رَبّه بالطريقة التي هي أحْسَنُ في التأثير على العقل والنفس، وأحْسَنُ في آداب البحث والمناظرة، من الطريقة التي يَسْلُكُها الخَصْمُ المُجادِل.

وهذا تخصيص اصطلاحيٌّ في مجال الدَّعوة إلى سبيل الله.

الجمعُ بين لفظتي الكتاب والحكمة في طائفة من النصوص القرآنية:

جاء في القرآن المجيد عشرة نصوص اقترنت فيها لفظتا «الكتاب» و«الحكمة» مثل قول الله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

وإذْ قد سبَقَ أنْ عَرَفْنَا من بيانات النّصُوص التي جاء فيها تفصيل لكثير من مفرداتِ الحكمة، أنّ «الحكمة» عنوانٌ ينضوي تحته الأوامر والنواهي والوصايا التي تتعلّقُ بالقاعدة الإيمانيَّة توجيهاً للإيمان بأركانها وعناصرها، وهذا الإيمان سلوكٌ إراديٌّ قلْبيٌّ، وتتعلّقُ بأنواع السّلوك الأخرىٰ، من السّلُوك الظاهر والباطن، الشامل لشرائع الدين وأحكامه وأخلاقه وآدابه، فيُمكنُ أن نفهم أنّ المرادَ بالكتاب فيها من عموم ما أنزل الله، ما يشْمَلُ الحقائقَ العلميّة إثباتاً أو نفياً، دون أنْ يكون فيها أمْرٌ أو نهيٌ أو توجيهٌ لسلوك إراديّ حكيم ظاهرٍ أو باطن، وما يَشْملُ الأخبار التي لا تُوجِّهُ ضمناً لسلوك إراديّ حكيم، ولا تُحَذِّرُ ضِمْناً من سلوك إراديّ غير حكيم.

ويجوز أن يكون عطفُ «الحكمة» على الكتاب من عَطْفِ الخاصّ على العام، لتوجيه عناية المكلّفين للالتزام بالوصايا الرّبَّانيَّة المتعلّقة بالسُّلوك الإرادي الظاهر والباطن.

الجمع بين عبارتي: «آيات الله» و«الحكمة».

وجاء في نصّ واحد من نصوص القرآن المجيد الجمع بين عبارتي: «آيات الله» و «الحكمة» وهو قول الله عزّ وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لنساء النبيّ ﷺ وعلى آله:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

الذي يظهر لي في هذه الآيَة أنَّ عَطْفَ «الحكمة» على «آياتِ الله» فيها، هو من قبيل عطف الخاصّ على العامّ، لتوجيه عنايَةِ نِساءِ النبيّ للْحِرْصِ على الالتزام بالْوَصايا الرَّبّانيَّة المتعلّقة بالسُّلُوك الإرادي الظّاهر والباطن.

إذْ جاءَ قَبْلَ هٰذه الآيَةِ تَخْصِيصُ نِساءِ النبيّ بوصايا مُشَدَّدة نظراً إلىٰ أنَّ

المطْلُوب مِنهُنَّ أنْ يَكُنَّ أسْوَةً حَسَنةً لسَائِرِ النِّساءِ، فقد جاء قبلها قول الله عزّ وجلَّ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: إنّما يُريدُ الله بإلزامِكُنَّ المُشدَّدِ، بهذه الأوامر والنواهي، لِيُذْهِبَ عنكُمُ الرِّجْسَ يا أهل بيت النبيِّ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً زائداً عن تطهير غَيْرِكُنَّ، إذا اسْتَجَبْتُنَّ فَأطَعْتُنَّ الله ورسوله، وَعَمِلْتُنَّ بوصايا الله لَكُنَّ.

ومَنِ يُؤتِ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتي خيراً كثيراً.

وجاء في القرآن المجيد نَصٌّ واحِدٌ تَحدَّثَ الله فِيه عَنِ الحِكْمَةِ في إنْفَاقِ الأمْوَالِ ابْتِغَاءَ مَرْضاةِ الله، واتْبَعَهُ بالثناء على مَنْ أُوتِيَ في سُلُوكه في حياته الحكمة، وأبان جلَّ جلالُهُ أنْ مَنْ أُوتي الحِكْمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً، وهو قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بَعْدَ حَدِيثٍ طَويل حول إنْفاق الأموال في سبيل الله وأجرِ المنفقين العظيم، وبيان شُرُوط الإنفاق السَّليم وآدابه، الّتي يتحقّقُ بها الثواب العظيمُ عند الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

وشرح هذا النصّ وتحليله تحليلاً تدبُّرياً يحتاج صفحات مطوّلات لا تتناسب مع هذا الملحق، والله وليُّ التوفيق والسداد.

* * *

سُورَة ص

٣٨ مُصْحَف ٣٨ نزول

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ
(٢) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ (٣)
وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ
(٤) أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (٥) وَٱنطَلَقَ
ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ
(٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (٧)
أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ
عَذَابِ (٨) أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ (٩) أَمۡ
لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ
(١٠) جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ (١١) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ
قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ

---

١ ـ ● قرأ ابنُ كثير [والقُرَانِ] بتسهيل الهمزة، وحمزة في حالة الوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿والقُرۡءَانِ﴾.

٨ ـ ● قرأ يعقوب [عذابي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿عَذَابِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الحالين.

وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا
لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ
﴿١٦﴾ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ
﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ
مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ
وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ
ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ
خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ
وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ
نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾
قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ

---

١٣ ـ ● قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر، وابن كثير: [وَأَصْحَابُ لَيْكَة].
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾.

١٤ ـ ● قرأ يعقوب [عقابي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القراء العشرة ﴿عِقَابِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الحالين.

١٥ ـ ● قرأ حمزة، والكِسائي، وخَلَفٌ: [فُوَاقٍ] بضمّ الفاء.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿فَوَاقٍ﴾ بفتح الفاء. والضمّ والفتح وجهان عربيان للكلمة.

٢٢ ـ ● قرأ قنبل، وحمزة: [السِّرَاطِ] بالسين.
وقرأ خلف عن حمزة: [الصراطِ] بإشمام الصاد صوت الزاي.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الصِّراطِ﴾ بالصاد. وهي لهجات عربية.

لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا
هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩
﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾
يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا
تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقۡنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ
أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾
وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ
بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن
ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا
بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ
جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي

---

٢٩ ـ ● قرأ أبو جعفر: [لِتَدَبَّرُوا] أصلها: لتتدبَّروا.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ بضمير الغائبين،، وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٣٢ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إنِّيَ أَحْبَبْتُ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إنِّي أَحْبَبْتُ﴾ بإسكان ياء المتكلم ومدِّها.

لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي
بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾
وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ
بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ
عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم
مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا
فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ
﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ
﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ

---

٣٥ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو وأبو جعفر: [مِنْ بَعْدِيَ إِنَّكَ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مِن بَعْدِي إِنَّكَ﴾ بإسكان ياء المتكلّم ومدها.

٣٦ ـ ● قرأ أبو جعفر: [الرِّيَاحَ] بالجمع.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الرِّيحَ﴾ بالإفراد.

٤١ ـ ● قرأ حمزة: [مَسَّنِي الشيطانُ] بإسكانِ ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مَسَّنِيَ الشيطان﴾ بفتح ياء المتكلم.

٤١ ـ ● قرأ أبو جعفر: [بِنُصُبٍ] بضم النون والصاد، وضم الصاد إتباع لضم النون.
وقرأ يعقوب: ﴿بِنَصَبٍ﴾ بفتح النون والصاد.
وقرأ باقي القراء العشرة: [بِنُصْبٍ] بضَمّ النون وإسكان الصاد.
والمعنى في القراءات الثلاث واحد، وهو المشقة والتّعب والإعياء.

٤٥ ـ ● قرأ ابن كثير: [عَبْدَنَا] بالإفراد.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿عِبَادَنَا﴾ بالجمع.
والمعنى في القراءتين على الجمع.

٤٦ ـ ● قرأ نافع، وهشام، وأبو جعفر: [بِخَالِصَةِ ذِكْرَىٰ] على الإضافة، دون تنوين. =

ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ
مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾
جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا
بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ
﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ
مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ
يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾
وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا
بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ
قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ
عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم
مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾

= وقرأ باقي القرأ العشر: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَىٰ﴾ بتنوين خالصة.
وهما وجهان عربيان والمعنى احد.

٥٣ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [مَا يُوعَدُونَ] بياء الغائبين.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿ما تُوعَدُون﴾ بتاء المخاطبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٥٧ ـ ● قرأ حفصٌ، وحمزة، والكسائي، وخلف: [وَغَسّاقٌ] بتشديدِ السّين.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَغَسَاقٌ﴾ بتخفيف السين.
وهما وجهان عربيان للكلمة.

٥٨ ـ ● قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [وَأُخَرُ] جمع أُخرَىٰ.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَآخَرُ﴾ والآخر هو أحد الشيئين.

٦٣ ـ ● قرأ نافع، وحمزة، والكِسائي، وأبو جعفر، وخَلَف: [سُخْرِيًّا] بضم السّين. =

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ (٦٤) قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ
إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ (٦٦) قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ
(٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰٓ
إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٧٠) إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ
بَشَرٗا مِّن طِينٖ (٧١) فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبۡلِيسَ
ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٧٤) قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ
لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا۠
خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ (٧٦) قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا
فَإِنَّكَ رَجِيمٞ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ
فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ

= وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سِخرِيًّا﴾ بكَسْرِ السين.
وهما لغتان لمصدر سَخِرَ منه وسخر به.

٦٩ - ● قرأ حفصٌ: [لِيَ مِنْ عِلْم] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِي مِنْ عِلْم﴾ بإسكان ياء المتكلم.
وهما كما سبق بيانه وجهان عربيان.

٧٠ - ● قرأ أبو جعفر: [إلاَّ إِنَّمَا] بكَسْرِ همزة إنّما.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿إلاَّ أَنَّمَا﴾ بفتح همزة أنّما.
وتخريج الكسر عند أبي جعفر كون الجملة على سبيل الحكاية.

٧٨ - ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [لَعْنَتِيَ إِلَىٰ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَعْنَتِي إِلَىٰ﴾ بإسكان ياء المتكلم.

يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾
لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ
عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ
﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾

---

٨٣ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن عامر: [الْمُخْلِصِينَ] بكسر اللام.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الْمُخلَصِينَ﴾ بفتح اللاّم.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٨٤ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة وخلف: [قَالَ فَالْحَقُّ] برَفْعِ الْحَق.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿قَالَ فالحَقَّ﴾ بنَصْبِ الْحَق، ولتخريج هذا وجُوهٌ عند النحويين، وبما أنّه خطابٌ لإبليس فأرى أنَّهُ على تقدير: فأُقسِمُ الْقَسَمَ الحقَّ، ولاَ أقول إلاَّ الحقَّ، لأَمْلأَنَّ جَهنَّمَ مِنكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجمَعِين، فهذا هو الحقُّ الّذي أَطْلُبُ مِنْكَ أن تعلَمه.

(٢)

الأطوار التي تنقَّلت فيها مواقف أئمة الكفر في مكة حتّى نزول سورة (صٓ)

مرّت حركات أئمة الكفر في مكة، حتى نُزُولِ سورة (صٓ) ضِدّ دعوة الرسول محمد ﷺ، في أطوار تصاعُدِيَّة حتَّى بَلَغُوا مبلغ من هو في عِزَّة وشقاق، وكان هذا الطور الأخير إبّان نزول سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

وتَتَبُّعاً لِما جاء في السُّوَر المنزَّلَةِ حتى نُزُولِ سورة (صٓ) تتكشَّفُ للباحث المدقِّقِ الأطْوارُ التي تَنَقَّلَتْ فيها مواقف أئمة الشِّرْك والكُفر في مكة، بدأً من إعلان الرَّسُول محمّد ﷺ دَعْوَته، وهي الأطوارُ التالية:

الطور الأول: كانُوا أوّل الأمْرِ في طَوْرِ بُروز بعضِ القيادات المكذِّبَة، الناهية للرسُولِ عن متابعة دَعْوَته، مع رغبتِهِم في المداهنة.

وكان هذا إبّان نُزُول سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول).

وقد دلَّ على هذا الطّوْر قول الله عزّ وجلّ لرَسُوله فيها:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

ورافَق هذا الطَّوْرَ مُحاولاتُ أُولَى لِفتْنَةِ مَنْ آمَنَ بالرَّسُول عن دينه، وصِدِّ الذين لديْهم استعدادٌ للإيمان به واتّباعه عن أن يؤمنوا به ويَتَّبِعُوه، مع اتِّهامِهِمْ الرَّسولَ بأنّه مجنُونٌ إذْ دعا إلى أمْرِ جديدٍ خالَفَ فيه قومه.

ففي سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) نجدُ قولَ الله عزَّ وجل:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

وفي سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) نجد قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾

الطّوْر الثاني: طورٌ ظَهرَتْ فيه بعضُ الدِّعَايَاتِ الإعلاميّة المضادّة، وبعض الحركات العدائية، دلَّ علي هذا الطّوْر ما جاء في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول)، إذ جاء فيها قولُ الله عزّ وجلّ بشأن الوليد بن المغيرة:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

ودلّ عليه ما جاء في سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) وما دلّت عليه من أعمال أبي لَهبِ وامرأته.

الطّور الثالث: طورٌ ظهرَتْ فيه حركَةُ تَصَيُّدِ ما يُمْكن أن يُثير به الكافرون وَخَزاتٍ إعلاميَّة، ضدّ دَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ ورسالته، وكان هذا الطور إبّان نزول (الضحى/٩٣ مصحف/١١ نزول) إذْ أشاع بعضهم أنّ رَبَّ محمّد قَدْ قلاَه، فقال الله له فيها:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

الطُّور الرابع: طَوْرٌ ظَهَر فيه بعض المجاهرين ببغض الرَّسُول محمدّ ﷺ، وكان هذا الطور إبّان نُزُول سورة (الكوثر/١٠٨ مصحف/١٥ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

شانِئَكَ: أي مُبْغِضَك.

الطور الخامس: طوْرٌ ظهرت فيه من أئمة الكفر المفاوضات الاستدراجية للرَّسُول ﷺ، عسَىٰ أن يتنازل عن بعض دَعْوَته، وكان هذا الطور إبّان نزول سورة (الكافرون/١٠٩ مصحف/١٨ نزول).

الطور السادس: طَوْرٌ دَارَتْ فيه حَرَكَاتُ الحسَد، ورغَباتُ الكيد سِرّاً، وانْطَلَقَتْ فيه الوَسَاوسُ تَنْفثُ في صُدور النّاسِ لتَصُدَّ عَنْ دين الله، وكان ذلِكَ إبَّان نُزول سورة (الفَلَق/١١٣ مصحف/٢٠ نزول) وسورة (الناس/١١٤ مصحف/٢١ نزول).

الطور السابع: طورٌ انطلقَتْ فيه عبارات التعجّب من مبادئ التوحيد، وأنباء يوم الدين، والتعجُّب من خبر حادثتي الإسراء والمعراج للرسُول محمد ﷺ، وكان هذا الطّور إبّان نزول سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾.

الطور الثامن: طَوْرُ فِتْنَة بعض جبابِرَة مَلأ مُشْرِكي مكَّة لِعَبِيدِهِمْ وإِمَائِهِمْ بالتَّعْذِيب الشَّدِيد، لإكراههم على تَرْكِ الدّين الَّذِي آمَنُوا به، واتَّبَعُوا فيه رسول الله ﷺ محمَّداً ﷺ وبدأ في هذا الطور اسْتِغْراقُ هؤلاء الجبابِرَة في التكذيب وكانَ هذا الطَّوْرُ إبّان نزول سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) وقد دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

الطور التاسع: طورٌ ظَهَرَ فيه الْهَمْزُ واللَّمْزُ والطّعْنُ الخفيُّ بِالرَّسُول وبالَّذِينَ آمنوا به واتّبَعُوه.

وقد ظهرت هذه الحركاتُ الكيديّة من قِبَلِ ذوي الغنى والوجاهة والاستكبار من أئمة الكفر.

وكان هذا الطور إبّان نزول سورة (الهمزة/ ١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول).

الطور العاشر: طوْرٌ انْطَلَقَتْ فيه عبارات التكذْيب الصريح العلنيّ الجازم، والاتّهام العلَنِيّ للرَّسُولِ بالافتراء على الله.

وكان هذا الطّوْر إبّانَ نُزُول سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول). إذ جاء في صدرها قول الله عزّ وجل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وجاء في أواخِرِها قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

الطور الحادي عشر: طورٌ اتَّخَذَ فيه أئمة الكُفْر في مكّةَ رسُولَ الله هَدَفاً وَغَرَضاً مُسْتَحِلِّينَ في البلد الحرام إيذاءَهُ، غير عابئين به ولا بحُرْمَةِ البَلَدِ الحرام، ولكن ذلك لم يَصِل إلى مستوى إعلان المواجهة بالقُوَّة الغالبة، ذات السلطان.

وكان هذا الطَّوْرُ إبّان نزول سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

وقد دلَّ على هذا الطوْر قول الله عزّ وجل فيها:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (٢)﴾.

أي: والحال قد اتَّخَذَكَ بعضُ أئمته هدفاً وغرضاً، فهم يستحلّون فيه إيذاءَك، ورَمْيَ سِهَامِ كَيْدِهم عَلَيْكَ، وتوجيهها إليك.

الطور الثاني عشر: طوْر تدبير ملأ كفّار قريش المكايد ضِدَّ الرسُول ﷺ وضدّ الذين آمنوا به واتبعوه.

وكان هذا الطَّوْر إبّان نزول سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) وقد دلَّ على هذا الطور قول الله عزّ وجلَّ فيها لرسُوله:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا (١٧)﴾.

الطور الثالث عشر: طَوْرُ الإصرار العنيد على رفض تصْدِيق الرسُول مع ظهور آية انشقاق القمر بناءً على طلَبهم، وطَوْرُ التَّوجّه لإعداد العدّةِ بغية التخلّص من الرسول، ودعوته، خوف انتشارها، ووصُولِ الذين يؤمنون بها إلى مستوىً يَعْجزون عن قمْعِه والانتصار عليه.

وكان هذا الطور إبّان نزول سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وقد دلَّ عليه قول الله عزَّ وجلّ بشأنهم:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥)﴾.

الطور الرابع عشر: طورُ إبراز الْقُوَى المادّيَّة الغالبة، وإظهار العداء

للرَّسُول وَدَعْوَتِه والَّذِينَ آمنوا به واتبعوه، وطوْر الوقوف في شِقّ مَنْ يَهُمُّ بأن يُعلِنَ حَرْباً إذا اسْتَدْعىٰ الأمر ذلك.

وكان هذا الطَّوْرُ إبَّان نزول سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وقد دلّ على هذا الطور قول الله عزّ وجلّ في صدرها: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

* * *

(٣)

موضوع سورة (ص) وسبب نزولها

وصَلَ كُبَراء مشركي قريش إبَّان نُزول سُورة (صٓ) إلى طَوْر الْمُعْتَزِّ بقُوَّتِهِ المتفوِّقَة الْغَالِبَةِ، الْمُعْلنِ عداوتَه، والواقف في شِقّ الْمُسْتَعِدّ للحرب، بغيةَ إيقافِ مَسيرة دعوة الرسول محمّد ﷺ، والتَّنْكِيل بِمَنْ آمَنَ به واتَّبَعه، والتَّخَلُّصِ منهم ومن الرسول.

فاقتضى هذا الطَّوْرُ إنْزَالَ هذهِ السُورَة لِبَيَانِهِ، وبيان مقَالاتِ أئمة الكُفْرِ فيه الَّتي يَتْبَعُهُمْ فيها جماهيرهم، ويُرِدُّونَها بِغَباءٍ، واقتضت معالجَتهُم من خلال الطور الذي وَصَلُوا إليهِ علاجاً فِكْرِياً، وعلاجاً نفسيّاً، واشتمل العلاج النفسيُّ لهم على الإنذار بعذابٍ من الله يُنْزِلُه الله عليهم، وعلى تثبيطِهِمْ وإضعاف عزائمهم، بأنَّهُمْ إذا أعَدُّوا جيشاً لقتال الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا مَعَهُ فَهُمُ المَهْزُومُون المغْلُوبُونَ، واشتمل على التلويح بإهلاك شامل لهم، كما حَصَلَ للمهْلَكِينَ السَّابقين من مُجْرِمي القرون الأولى، إذا أصَرُّوا على ما هم فيه، ووَصَلُوا إلى مِثْلِ ما وَصَلَ إليه المهْلَكُونَ السَّابقون.

واقتضى هذا الطَّوْر الْعِدائيُّ الذي وصل إليه كُبَراء وأئمة مشركي مكّة، والَّذِي جعَلَهُم يُفَكِّرُون بأن يُعِدُّوا الوسائل الحربيّة، ويَقِفُوا مَوْقِفَ الْمُشَاقِّ الْمُحَارِبِ، ويُطْلِقُوا الأقوال الجارحة المؤلمة للرَّسُول ﷺ، والمحرِّضة

لأتباعهم على معاداته وحَرْبه وحَرْب الَّذِينَ آمَنُوا به، أَنْ يُوَجِّهَ الله عَزَّ وجَلَّ لرسوله علاجاً تَرْبَوياً، فيأمُرَهُ أوّلاً بالصَّبْرِ على ما يَقُولون، وأن يذكُر له نماذج ثلاثةً من رُسُلِهِ السَّابقين، وفي كُلّ نموذج ثلاثة رُسل.

أمّا النموذج الأوّل: فذكَرَ الله عزّ وجل فيه الرُّسُلَ: داودَ، وسليمان، وأيوب عليهم السلام، مع بعض تفصيلٍ عن قِصَصِهم، وما تعرَّضوا له من بلاء، وأثنى عليهم بأنهم أوّابون، أي: رجّاعون.

وأما النموذج الثاني: فذكر الله عزّ وجل فيه الرّسل: إبراهيم، وإسْحاق، ويعقوب عليهم السلام، وأثنىٰ عليهم ثناءً عظيماً، وأبان أنّهم عنده من المصطَفَيْنَ الأخيار، وأنّهم لا هَمَّ لَهُمْ إلاَّ ذِكْرَىٰ الدار الآخرة.

وأمّا النموذج الثالث: فذكر الله عزَّ وجل فيه الرّسلَ: إسماعيل، والْيَسَعَ، وذَا الكِفْل عليهم السلام، وأثنى عليهم بأنّهم من الأخيار.

وفي ذِكْر هٰؤلاءِ النماذج الثَّلاثَة من الرُّسل إشعارٌ ضِمْنيٌّ غَيْرُ مُصَرَّحٍ به للرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بأنْ يختار لنفسه النموذج الذي يُرْضيه، حتَّىٰ يَهَبَه الله إيّاه، ويَبْلُوهُ من خلاله.

هَلْ يريد نموذج أهل المال والملك، فيتعرَّض لامتحانات، وابتلاءات، يكون الثناء عليه في آخر الأمر: «إنَّهُ أوّاب» كما أثنى الله على داود، أو «نِعْمَ الْعَبْدُ إنَّهُ أوّاب» كما أثنى الله على سليمان وأيُّوب.

أم يريد نموذج الذين لا هَمَّ يَشْغَلُ نفوسَهُمْ وأفكارَهُمْ إلاّ ذِكْرَىٰ الدار الآخرة، والعملَ لَهَا، حتَىٰ يكون ثناء الله عليه في آخر رحلة امتحانه، مثل الثناء الذي أثنىٰ به على إبراهيم وإسْحَاقَ ويعقوب عليهم السلام، وهو قوله جلّ جلاله بشأنهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

أم يُرِيد نَمُوذَجَ الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ بَيْنٍ، فيكون الثناء عليه في آخر رحلة

امتحانه، مثل الثناء الذي أثنى الله به على إسماعيل والْيَسَعَ وذِي الكفل عليه السلام، وهو قوله جلّ جلالُهُ بشأنهم: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾.

وقد أثْبَتَتْ سيرة الرسول محمد ﷺ في حياتِه أنّه اختار لنفسه النموذج الأسمىٰ، نموذجَ إبراهيم وإسْحٰق ويعقوب عليهم السلام، وارتَقَىٰ إلىٰ أعْلَى ذِرْوَةِ هٰذا النموذج، فكان سَيِّدَ الأوَّلين والآخِرين.

واقتضى الْبَيَانُ الحكيم في السُّورَةِ بَعْدَ تَرْبية الله لرسوله وتخييره تقديم لقطات مِنَ الجزاء الأخرويّ بالثواب، ولقطات من الجزاء الأخرويّ بالعقاب، مُكَمِّلات لما نزل قَبْلَها في نجومِ التنزيل.

واقتضىٰ البيان الحكيم في السُّورة الإعلام بأنّ الْغَايَةَ من خَلْقِ ذوي الإرادات الحرّة ابْتِلاؤهم بالإيمان بأنّ الله هو الإلٰهُ الواحد المعبود بحقٍّ، إذْ هُو الرَّبُّ الواحد الذي لا ربَّ سواه، وابتلاؤهم بالإسلام له والسَّمْعِ والطاعة.

وقصّة خلْقِ آدم والأمْرُ بالسجود له، واستكبارُ إبليس عن الطاعة لأمر الله، وطَرْدُهُ، وجَعْلُه مع مَنْ يتَّبعُه في جهنَّم يوم الدّين، أولىٰ مراحِلِ ابتلاء ذوي الإرادات الحرّة، بشأن توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الإلٰهيَّة لله عزّ وجل، والسَّمْعِ والطَّاعَةِ والإسلام له، دُونَ مُعَانَدةٍ ولا اسْتِكْبار.

فجاء عرض هذه القصّة لإبراز هذه الحقيقة.

وجاء ختم السورة بعدها بتعليم الله رسوله ما يقُوله لقومه، لدفع اتّهامِهِمْ له بأنّه ذو غَرَضٍ دُنيوِيّ يسْعَىٰ إليه في قومه، وبيان أن ما جاء به ليس ذكراً لهم وحدهم، بل هو ذكر للعالمين كُلِّ العالمين، وبأنّ ما اشتمل عليه هذا الذكر وهو القرآن من أنباء مستقبليّة سيعلمون تحقُّقها بعد حين.

وبهذا ظهر لنا أن عناصر سورة (صٓ) تدور حول موضوع واحدِ، وهي عناصر مترابطة ترابطاً فكرياً وثيقاً.

* * *

(٤)
دروس سورة (صٓ)

تشتمل سورة (ص) على أربعة دُروسٍ:

الدرس الأول: يشتمل هذا الدرس على بيان الطّوْر الّذي وصل إليه كُبَراءُ مشركي مكة، ويُلْحَقُ بهم أتباعهم، تجاه الرّسُول محمّد ﷺ ودعوته، والذين آمنوا به واتّبعوه، إبّان نزول السورة، وهو طَوْرُ مَنْ هو في عِزَّةٍ بقوته، وشقاقٍ ظاهرٍ في عداوته.

ويشتمل على بيانِ مقالاتهم في هذا الطَّوْر، ومعالجات مختاراتٍ لهم فيه، ببيانات من الرَّبّ العزيز الحكيم.

وهو الآيات من (١ ـ ١٦)،

الدرس الثاني: ويشتمل هذا الدرس على معالجة نفس الرسول ﷺ، تجاه الطور الذي وصل إليه قومه في بلده، وهم أهْلُه وعشيرته، إذْ آلَمتْهُ وأحْزَنَتْهُ أقوالُهُمْ ومواقِفُهُمْ من دعوته، وبوادر توجُهِهم لاستخدام القوَّةِ الحربية، لقَمْعِ دعوته، واضطهاد الذين أمنوا به واتبعوه.

فأمر الله رسوله بأن يَصبِر على أقوالهم، وعرض عليه ثلاثة نماذج من المرسلين السّابقين، مشعراً له ضِمْناً بهذا العرض أن يختار لنفسه النموذج الذي يُرْضِيه منهم، حتَّىٰ يقضي الله له به.

وهو الآيات من (١٧ ـ ٤٨).

الدرس الثالث: ويشتمل هذا الدرس على عرض لقطات ترغيبيَّة من نعيم المتقين في جنّات عدْنٍ يوم الدّين، وعرض لقطات ترهيبيَّةٍ من عذاب الطاغين في جهنَّم يوم الدّين.

وكلٌ من اللَّقطات الترغيبية، واللقطات الترهيبيّة، لقطاتٌ فيها بيانٌ

تكامُليٍّ مَعَ مَا سَبَقَ أن جاء في نجوم التنزيل النازلة قبل سورة (صَ) على منهج القرآن في بياناته التكامليّة المجَزَّأة على مراحل من التنزيل، ضمْن حَرَكِيَّة حَكِيمَةٍ، تعليميَّة وتربوية.

وهو الآيات من (٤٩ ـ ٦٤).

الدرس الرابع: درس يعلّم الله عزّ وجل فيه رسوله محمداً ﷺ ثم كلّ داعٍ إلى الله من أمّته، ما يقوله للناس بشأن توحيد الإلٰهية وتوحيد الرُّبوبية لله عَزَّ وجل، مع ذكر قصَّةِ خَلْق آدم واستكبار إبليس عن طاعة الله بالسُّجُودِ لآدمِ، وطرده ووعيده بأن يكون هو ومن اتّبَعَه من الإنس والجنّ في جهنم خَالِدِين يَومَ الدّين، وهذه القِصَّة أبانت أنّ إبليس مؤمِنٌ بربّه إلا أنّه جَحَد إلٰهيَّتَهُ استكباراً، فلعَنَهُ الله إلى يوم الدين، وأوعده بالعذاب الأبديّ الخالد في جهنّم وبئس المصير، وكذلك كلُّ من جحد إلٰهيَّة الله واسْتَكْبَرَ عن عبادته.

ويعلّم الله في هذا الدرس رسوله أن يبيّن لقومه أنَهُ مَا يطْلبُ من الناس أجراً على دعوته، وأنّه يتلقّىٰ الذكر عن ربُه، وليس هو من المتكلّفين المتصنّعين كالسحرة، وأن هذا القرآن ذكر للعالمين كلِّهم لا للعرب فقط، وأنّ أنباءه سَيَعْلَمُ الناس أنها حقٌّ.

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأوّل من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ (٥)

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا
بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى
شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو
ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا
كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن
فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾.

تمهيد:

جاء في هذا الدرس بيان الطور الذي وصل إليه أئمة الكفر ومَلَؤُهم من مشركي مكة، إبّان نزول سورة (صَ) وهو طورٌ يشتمل علىٰ مواقف قديمة ما زالُوا يُصِرُّونَ عليها، ويكابرون فيها، ويعاندون الحقّ مُتَشَبِّثين بها، ومواقف جديدة تَطَوَّرُوا إليها في حركة حياتهم الكُفْرِيَّةِ العناديَّة.

أولاً: فمن مواقفهم القديمة التي ما زالُوا يُصِرُّون عليها ما يلي:

١ ـ موقف الكفر بالرّسُول وبما جاء به عن ربّه، على الرُّغم مِن أنّ القرآن المجيد آيةٌ عُظْمَىٰ على صِدْقه، لو تَدَبَّرُوا آياته، وتَبَصَّرُوا بدلالاَتها، وانْتَفعُوا من عظاتها في الترغيب والترهيب، ومن عِظَاتها أنباءُ المُهْلَكِينَ من كُفَّارِ القرون السَّابقة.

وقد جاء بيان هذا الموقف في الآية (١) وبعض الآية (٢).

٢ ـ موقف الإصرار على التكذيب بيوم الدّين، إذْ طَلَبُوا تعجيلَ ما يُحبّون من حظوظهم وجعلَها في الحياة الدنيا، إشعاراً بأنّهم لا يُؤْمِنُون بيَوْم الدِّين، رَدًّا على تَرْغيبهم فيما عند الله من نعيم عظيم في جنّات النعيم يَوْمَ الدّين.

وقد جاء بيان موقفهم هذا في الآية (١٦).

ثانياً: ومن مواقفهم الجديدة الّتي تطوَّرُوا إليها في حركة حياتهم الكُفْرِيَّةِ العنادية ما يلي:

١ ـ أنَّهم قد وَصَلُوا إلى طَوْرِ المعتزّ بقوَّته الغالبة، الواقف في شِقّ المعادِي الذي يُفَكِّرُ في الإعداد للْحَرْب، وقَمع دعوة الرسول محمّد ﷺ بقُوَّةِ السِّلاح، واضطهاد الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ والتَّخلص منْهُمْ قتلاً أو أسْراً وتَشْتِيتاً.

٢ ـ توجيه الدّعاية الإعلاميَّةِ بأنَّ محمّداً ساحِرٌ كَذَّاب. وقد سبق في نجوم التّنزيل بيانُ أنّهم كلَّما رأَوْا آية من آياتِ الله الّتي يُؤَيّدُ الله بها رسوله، زَعَمُوا أنّها سِحْر. وأنَّهم كَذَّبُوا ببلاغاته لهم عن رَبّه.

لكنّ الموقف الجديد هو تحريك الدّعاية الإعلاميّة النَّشِطَةِ بأنّه ساحِرٌ كَذَّاب، خوفاً منهم على جماهيرهم، أن يُؤْمنُوا به ويتَّبعُوه، وصدّاً لسائر الناس عن النظر إلى دعوته والتفكّر فيها.

٣ ـ الترويج الدعائيُّ التضليليُّ لجماهيرهم بعبارات التعجب من أنّ محمّداً جعَلَ الآلهة المتعدِّدةِ إلٰهاً واحداً، وإطلاقُ عبارة: «إنَّ هذا الشيْءُ عُجابٌ».

٤ ـ أنَّهم لمّا شَعَرُوا بالهزيمة الفكرية القائمة على عقيدة الشِّرْكِ، أمَامَ دعْوَةِ التَّوْحِيد، تكاتَفُوا ومَشَوْا مُتَعَاضِدِينَ مُتَجَلِّدِين، يُوصي بَعْضُهُمْ بعضاً أنْ يُتَابِعُوا مَسِيرَتَهُم الشركيَّة، ويَصْبِروا على آلِهَتِهِمْ، مُتَّهِمِينَ الرَّسُولَ بأنَهُ طالِبُ مُلْكٍ وسُلْطان، ومتذَرِّعِين لِتَحْسينِ مَا هم فيه من شِرْكٍ واسْتِبْعَادِ فِكْرَةِ الرَّبّ الواحد، الذي هو الإلٰه الواحد، بأنَّ الملّة النصرانيَّة الّتي هي الملَّة الآخِرَةُ قبل دعوة محمد، والّتي تؤمن بها وتَتْبَعُها أُمَمٌ كثيرة، ولها دُولٌ قويَّةٌ في الأرض، قائمةٌ على تَعَدُّدِ الآلِهَةِ، وليس فيها هذا التوحيد الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله.

ثالثاً: وقد جاء في هذا الدَّرْس ثم في دروس السورة بعده، حتّىٰ الدرس الأخير منها، علاجٌ رَبَّانيٌ لهذه المواقف القديمة والجديدة.

ومن هذا العلاج ما جاء مُلْحقاً باللّقطات المختارات من قصّة داود عليه السلام في الدرس الثاني من دروس السورة.

ومن هذا العلاج ما جاء في الدرس الثالث من دروسها، إنْ هو درس جاء فيه عرضُ لقطات ترغيبيَّة، من نعيم المتقين في جنّاتِ عَدْنٍ يوم الدّين، وعرض لقطات ترهيبيّة من عذاب الطّاغين في جهنّم يوم الدين.

ومن هذا العلاج ما جاء في الدرس الرابع من دروسها، إذا اشتمل على تعليم الله للرسول ﷺ ما يقولُه للمعاندين من قومه، مع عرض لقطات من قصَّة خَلْقِ الإنسان الأول، وما فيها من بياناتٍ تتعَلَّقُ بتَوْحِيدِ الرُّبوبيَّة وتوحيد الإلـهيَّة لله عزّ وجلّ، وما يَقُوله أخيراً لهم، من ردٍّ خِتاميٍّ على اتِّهامه بأنّ له مصلَحَةً شخصيَّة دُنْيَوِيَّة من دعوته، بإعلان أنّهُ ما يسْألهم من أجْرٍ، وبأنّ ما يُبَلّغُهم عن ربّه من آيات القرآن ليس من عنده ولا من تصَنُّعِه، وأنّ هذا الذّكْر الرّبّاني ليس لهم وحْدَهم دون الناس، بل هو ذكر لكل العالمين، وأنّ أنباءَهُ المستقبليَّةَ والتاريخية والكونية سيعلمونها بعد حين.

* * *

التدبر التحليلي:

● قول الله عزّ وجلّ ﴿صٓ﴾ افتتح الله عزَّ وجلَّ هذه السورة بحرف «ص» والله أعْلَمُ بالمراد به، وبسائر الحروف المقطّعة الّتي افتتح الله بها أوائل بعض السّور، وقد سَبق بيانُ وجوه التأويل المطروحة احتمالاً بشأنها لَدَى تَدَبُّر أوّل سورة (القلم).

وسمّيت هذه السّورة بحرف(صَ) من حروف ا لتهجّي.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾.

أقْسَمَ الله في هذه العبارة بالْقُرْآن الّذي وَصَفَهُ جَلَّ جلالُه بأن ذُو الذِّكْرِ، أي: المتَّصِفُ بأنّه يَسْتَحِقُّ أنْ يكُونَ ذِكْراً للعالمين، وهذا الاستحقاق ملازم له ملازمة الصاحب الذي لا يفارق صاحبه.

﴿ذِي﴾ أي: صاحب، يُرْفَعُ بالواو، ويُنْصبُ بالألِف، ويُجَرُّ بالياء، وهو أحد الأسماء السّتّة التي لها هذا الحكم بشروط.

فدلَّ هذا الوصْفُ للقرآن المجيد على أنّ من خصائصه أنّهُ كتابٌ يَصْلُح بَعْدَ تَلَقّيه واستجماع آياته لأن يُذْكر دواماً، في الألسنة، والقلوب، والأذهان، في كلّ زمانٍ ومكان.

ولا يقتصر الإعجابُ به، والانجذاب إليه، والانتفاعُ بمضامينه على أزمان تلقّيهِ، بلْ يظلُّ كذلك دواماً، لأنّه لا يَبْلَىٰ علىٰ كثْرَةِ ترداَدِ ذِكْرِهِ ولا يَخْلَقُ، بسبب حلاوة لفظه، وكمال معانيه، وعُمْقِ دلالاته التي تَتَجدَّد كُلَّما تعمَّقَ المتفكرون المتدبِّرونَ المستنبطون بحثاً عنها، وبسَبَب كَوْنِه مُيَسَّراً للذّكْرِ، وحقاً وصِدْقاً وهادياً للّتِي هي أقوم، وهذه أمورٌ لا تَبْلَى ولا تخْلَقُ مهما مرَّت الدُّهور، وكرّت العصور، ولا سيما إذا كانَتْ من الكلّيّات العامّة الّتي تنطبق على أفرادٍ لا تُحْصَر، ومتجدّدات من الأحداث والأشياء لا تَقِفُ عند حدّ.

فما اشتمل من الكلام على الحقّ والصّدْقِ والْعُمْق والهداية للّتي هي أقوم، مع كمال صياغته، وحلاوة لفظه، وتيسيره للذّكْر، يكون صالحاً بعْد تَلَقّيه لأنْ يُذْكر دواماً، على كرّ العصور، وتتابعُ الدُّهور، للاستمتاعِ بحلاوته، واسْتجلاء ما في أعْماقه، واستنباط ما في باطنه، واكتشاف خفَايا دلالاته، وما يشتمل عليه من معاني ثَرَّةٍ مُتَجدِّدةٍ جَليلة.

بخلافِ النُّصوص الَّتي لا تشتمل على الحقّ والصّدق والْعُمْقِ والهداية للَّتي هي أقوم، أو اختلَطَ فيها الحقُّ بالباطل، والسّمينُ بالْغَثّ، أو كانت مُعَقَّدَةً غير مُيَسَّرَة، أو كانت سَطحيَّةً لا عُمْقَ فيها، فإنّها مَهْما كانت ذاتَ صياغة حسنة بليغة، لا تَعْدُو أن تكون نُصوصاً زمنِيَّةً، تُذْكَرُ في حينِ الانبِهار بها، ثُمَّ يخْبُو وهَجُها، ثُمَّ تَنْطَفِئ، ثم تَمْحُوها الأيَّامُ والشُّهورُ والدُّهور، فلا تكُون ذِكراً في الألسنة والأذهانِ والْقُلوب، فلا تَصْلُح لأن تكون ذِكْراً دواماً.

وقد اعْتَاد النَّاسُ أنْ تكُونَ جُمَلُ الْحِكَم، وجُمَلُ الأمثال، وبعْضُ فرائد أبيات الشِّعْر، دَائِرةً على ألْسِنَتِهِمْ، حاضِرَةً في ذاكرتهم، عند المناسبات الّتي تُلائمها، لتَميُّزِها ببعض الصّفات اللّواتي سَبَقَ بيانُها للقرآن المجيد.

ولَنْ يجد المتَتبّعُونَ هذه الْجُمَل من الحِكَم والأمثال، وهٰذه الفرائد من مُقلَّداتِ الشِّعْر، إلاَّ حصيلَةَ منتقيات نادرات من آداب أُمَّةٍ بكاملها.

لكِنَّ القرآن المجيدَ صالحٌ لأن يكون كُلُّه كذَلِكَ ذِكْراً دواماً، مع تَمَيُّزِ حِكَمِهِ، وأمْثَالِهِ وآياته بكلّ الخصائصُ الّتي تُؤهّل النَّصّ البيانيَّ لأنْ يكون ذِكراً دواماً، في الألسنة والأذهانِ والقلوب.

فمن الحقّ والدِّقَّةِ في الوصْفِ أن يَصِف الله عزّ وجلّ القرآن المجيد بأنّه ذو الذّكر، وبأَنْ يُسَمِّيَه ذكراً، وبأن يَصِفه بالذِّكْرىٰ (الذِّكرىٰ: مصْدَرٌ كالذِّكر) وبأن يِصِفَهُ بأنَّه تَذْكِرَة (أيْ: كبطاقةٍ مُذَكِّرَةٍ بأمْرٍ مُهِمّ).

أمّا ما في القرآن من عُمْقٍ تتدفَّقُ منه دواماً معَاني جديدة، فهو أمْرٌ يجْعَلُهُ لدى ذوي الأذهان الْقَادِرَة على استنباط المعاني العميقة، نصّاً يَذْكُرُونه آناً فآناً، مهما تَدَبَّرُوه وتفكّروا في معانيه، ودَلالاتِ مَبانِيه، ولَوازِمِها الفكرية، فيكون لديهم جَدِيداً ممتعاً حُلْواً، كُلّما تكشَّفَتْ لهم فيه معاني

جديدة، يَهْدِيهم إليها ذكْرُهُ بذاكرتهم، أو تَرْدِيدُ آياته بألسنتهم.

وبهذا يحتفظ القرآن بكونه ذكراً دواماً، بخلاف سائر النُّصوص.

إنَّ هٰذه الخصوصيَّة لا نجدُها في غير القرآن المجيد من كلام الناس، وكذلك أيضاً استحقّ أن يكون ذا الذّكر، أي: ذا الشّرف العظيم.

فالْقَسَمُ بالْقُرآنِ ذِي الذّكر قَسَمٌ به من خلال ملاحظةِ إحدى خصائصه الكُبْرى، وهي كونُه كتاباً صالحاً لأنْ يُذْكَرَ دواماً، وكتاباً يجب على الذين آمنوا بالله ورسُوله أنْ يَذْكُرُوهُ آناً فآناً، لِيَسْتَنْبِطُوا معَانيه، ويَعْمَلُوا بأحْكَامِهِ وَوَصاياه.

وفي القسم بالقرآن ذي الذّكر توجيه لأنظار المتفكّرين إلى أنه آيةٌ معجزةٌ مِنْ آياتِ الله الكُبْرىٰ، الّتي تَستَحِقُّ أن يُقْسِمَ الله بها، وكوْنُه معجزةً دليلٌ على أنّ محمّداً الّذي يُبَلِّغُهُ عن رَبّه صادقٌ في نُبُوَّتِهِ، وصَادِقٌ في رسالته، فهذا القرآن لا يستطيع البشَرُ مُتَفَرّقين ولا مُجْتَمِعين أنْ يأتُوا به ولا بمثْله، بل هو تنزيل من الله العزيز الحكيم.

وقد تضمّن هذا القسم توجيهاً إقناعياً، ودليلاً هادياً لمن تفكّر وتَدَبّر، إلىٰ الإيمان بالرَّسُول، وبما جاء به عن ربّه.

والمقْسَمُ عليه محذوف تقديره: إنّ محمّداً الذي يبلّغ هذا القرآن ذا الذّكر عن ربّه صادقٌ في نبوّته، وصادق في رسالته، لأنّ هذا القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله بشر، فليس محمّدٌ ساحراً ولا كذاباً.

ممّا جاء عن القرآن في مراحل التنزيل حتّى نزول سورة (صَ):

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: يتَلقَّونه أوّلاً، فيتفكّرون في معانيه ويتدبَّرونه ثانياً، فيَعْمَلُون بِمَا يَهْدِيهِمْ إليه ثالثاً، ثُمَّ يَجْعَلُونه ذِكْراً لهم آناً فآناً، يراجعون آياته، ويذكُرُون منه دواماً ما يلائم الأحوال، والمناسبات، التي تَسْتَدْعي منه بياناً بشأنها.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول).

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

فجاء في هذا النّصّ وصْفُ القرآنِ بأنّهُ مجِيدٌ، أي: جامعٌ لكُلّ الصّفات السّامِيات العظيماتِ الجليلاتِ، التي تُناسِبُ نصاً بيانياً، تردّدُه الألسنة، وتحتفظ به الذّاكرات.

وجاء فيه وصْفه بأنّه مسْطُورٌ في لَوْحٍ محفُوظٍ عند الله بحفظه.

النص الثالث: قول الله عزّ وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾.

فأقْسَمَ الله عزّ وجلّ بالقرآن باعتبار أنّهُ مَجيدٌ، وآيةٌ عظيمة جليلة من آياته جلّ جَلاَلُه.

النصّ الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

وقد جاءت هذه الآية مكرّرة في سورة (القمر) أربع مرّات، مقطعاً فاصلاً بين عرض موجزات من قصص بعض المهلكين السابقين، الذين كذّبوا بالنُّذُرِ الّتي أنذرهم بها رُسُل رَبّهم.

النصّ الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ①﴾.

فأقسم الله عزّ وجل بالقرآن باعتباره كتاباً مؤهّلاً لأن يكون ذكراً للعالمين جميعاً، كما سبق بيانه لدى تدبّر هذه الآية.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ②﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: المعنيّون بهذه العبارة الملأ من مشركي قريش، وأتباعُهم اللاّحقون بهم.

﴿فِى عِزَّةٍ﴾، العِزَّة: القوّة الغالبة، يقول العرب: مَنْ عزَّ بزَّ، أي: مَنْ غَلَب سَلَب.

فالمعْنِيُّون من الذين كفروا، وهم الملأ من مشركي مكة، وقد بَدَؤوا يتحدَّثون فيما بينهم أنّهم في مَنَعَةٍ بقُوَّتِهم الغالبة للرسُول والّذين آمَنُوا به واتّبعوه، وأنّه قد صَارَ من مصلحتهم للمحافظة على مكانتهم الاجتماعيَّة أن يَلْجَؤُوا إليها، وأن يسْتَخْدِموها في اضطهاد المسلمين وتشتيت شملهم، وفي مقاومة دعَوَة الإسلام.

﴿وَشِقَاقٍ﴾: الشّقاق في اللّغة، العداوة والخلاف. يقال لغة: شاقَّهُ مُشاقَّةً وشِقاقاً، أي: خالَفَه وعاداه.

قال الزَّجّاج: الشِّقاق، العَدَاوة بين فريقَين، والخلافُ بيْنَ اثْنين، سُمِّيَ ذلك شقاقاً، لأنَّ كلَّ فِريقٍ من فِرْقَتي الْعداوةِ قَصدَ شِقاً (أي: ناحيةً) غير شِقِّ صاحِبِهِ.

وفي التعبير عن هؤلاء المعنيّين أنّهم في عزّةٍ وشقاقٍ، إشْعارٌ بأنّهم في محيطٍ يُحِيطُ بنُفُوسِهم وتصَوُّرَاتِهم، من مشاعِر اعتزازِهم بقُوَّتِهم الغالبة. ومَشاعِرِ عداوتهم للرسول ودعْوَته وللَّذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، وهذا المحيط

بنُفُوسهم وتصوّراتِهم لا بُدّ أنْ يَصْرِفَهُمْ عن كلّ حقٍّ وبَصِيرةٍ سليمة ورُشْد.

لقد كان الواجب العقليُّ على هؤلاء الذين هم في عزّةٍ وشقاقٍ، أنْ يسارعوا إلى تصْدِيقِ الرَّسُول والإيمان به واتّباعِه، باعتبار أنّ ما نزل من القرآن قبل إنزال سورة (صَ) كافٍ لإقناعهم بأنّ مُبَلِّغَهُ عن ربّه نبيُّ الله ورسُولُه حَقاً وصِدْقاً، فما فيه من مَجْدٍ وشَرَفٍ عظيمٍ مُعْجِزٍ، وما فيه من بيان لاَ يستطيع أن يأتي بمثله بشرٌ منفردِين ولا مجتمعين، كَافٍ لأنْ يكونَ شاهداً فكْرِياً عَقْلِياً، علىٰ أنّ محمّداً الذي يُبَلّغُهُ عن رَبّه نبيُّ الله ورسُولُه حقًّا وصِدْقاً.

وهذا الشاهد الفكْريُّ العقْلِيُّ شاهِدٌ بُرْهانيٌّ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ وتفكّر فيه، واستَبْصرَ وُجُوه إعْجَازِه.

لكنَّ الملأ من مشركي قريشٍ أصَرّوا على تكْذِيبِ الرَّسُولِ محمد ﷺ حتّى نزول سورة (صَ) إذْ لم يَعْبؤوا بهذا الشّاهد الفكريّ العقليّ الذي اشتمل عليه القرآن المجيد، ولم يتوجّهُوا للاستفادة منه، بل انْصَرفوا عنه غير مكترثين له، ووصَلُوا في مواجهة الرسول ودَعْوَتهِ والّذينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه إلى طَوْرِ الشُّعُور بالاعتزاز بالقوّة الغالبة، القادرة على إيقاف الدّعوة الإسلاميَّة، ومَنْعِ انتشارها، وطَوْرِ الْعَدَاوَة والشّقاق، والمواجهة بالقُوّة العسكريَّة المسلّحة.

هذا ما دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

فأشار حرف الإضراب «بل» إلى مطويّ لم يُصَرَّحْ به في اللفظ، وهو أنّ المَعْنِيِّين بعبارة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لم يستفيدوا من إعجاز ما نزل من القرآن، بل لَزِمُوا مواقفهم الأولى الّتي أعْلَنُوا فيها تعجُّبَهُمْ مِنْ أن يَجيئهم مُنْذِرٌ مِنهم، وأعْلَنُوا فيها أنّ محمّداً ساحِرٌ كذّابٌ، ووَصَلُوا إلى طَوْر المعتزّ بقوته الغالبة، والواقف مواقف المواجهة بالعداوة والمخالفة والشقاق.

وتدلُّ عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ علىٰ أنَّ هؤلاء قد كان تكذيبُهم للرسُول ودعوته ناشئاً عن سَتْرِ أدِلَّةِ الإيمان، وسَتْر شواهد الحقّ الّتي ظهَرَتْ لهم، ودَفْنِها، لأنّ أصْلَ الكَفْرِ الدَّفْنُ والسَّتْر. والكُفْرُ هو جُحودُ الحقّ مع العلم بأنه حقٌّ.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

إنّ الموقف العِدَائيّ الّذي تطَوّرتْ إليْه مواقف أئمة الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة، إذْ وصَلُوا إلى حالة من هو في عزَّةٍ وشقاق، يلائمه من العلاج تذكيرهم بمَا كانَ من الله العزيز الحكيم الْقَهَّار، من إهلاك أمْثالهم ومن كانوا أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً من كُفَّار الْقُرُون الأولى.

فجاءت هٰذه الآية متضمّنةً هذا العلاج الحكيم.

﴿كَمْ﴾ هذه «كَمْ» الخبريّة، ومعناها عَدَدٌ كثير، وهي في محل نصبٍ على أنّها مفعولٌ به مقدّم على عامِلِهِ، والتقدير: عدداً كثيراً من الأمم، أهلكنا من قبلكم.

﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: إهلاكاً جماعياً عِقابياً في الحياة الدنيا، وجاء في هذه العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ موضوع الإهلاك الجماعيّ العقابيّ يلائمه الإشعارُ بعظمة الرُّبُوبيّة وسلطانها وجبروتها وقَهْرِها وجَليلِ حِكْمَتها.

أي: عَدَداً كَثيراً من كُفّار أهْل القرون الأولىٰ أهلكناهم مِنْ قَبْل هؤلاء الذين وصلوا إلى طور من هُمْ في عزَّة وشقاق، وذلك حينما وصَلُوا مع رُسُل ربِّهم إلى طور استخدام الْقُوَّةِ المسَلَّحَةِ لِقَمْعِهم واضطهاد الذين آمنُوا بهم واتَّبَعُوهم، والتنكيل بهم، بغية إطفاء أنوار الدَّعْوَة الرَّبّانيّة بالْقُوّة، والتخلّص الماديّ من الرّسل.

وهذه الآية تُشْعِرُ بأنّ من سُنَنِ الله الدائمة في الأمم، أن يُهْلِكَ الأقوام الذين يَصِلُون إلى طَورِ الميؤوس من استجابة فئاتٍ منهم حيناً فحيناً لدَعْوَةِ رُسُل

ربّهم، الواقفين موقف القمع والاضطهاد والتهديد للتخلّص من الرسول ودعوته.

فالله جلّ جلاله وعزّ سلطانه لن يترُك رسوله محمّداً والذين آمنوا به واتَّبَعُوه، دُونَ أنْ يُؤيّدهم بنَصْرِه، ولو بإهلاك القوم المعادين لهم إهلاكاً عقابياً جماعيّاً عامّاً، إذا اقتضَتْ حِكْمَتُه ذلك.

وفي هذا التذكير وَعْدٌ ضِمنيٌّ للرسُول والَّذِين آمنوا معه بأنّ الله ناصِرُهم، وإنْذارٌ للذين هم في عزَّةٍ وشقاقٍ بأنّ الله خاذِلُهم، أو مُهْلِكُهُمْ، إذا اقتضت حكمته ذلك، فليكُفُّوا عن الموقف العدائيّ الذي هم فيه، مُغْتَرِّينَ بما هم فيه من مشاعر العزّة والقوّة الغالبة التي تنفث سُمُومُها في صدورهم، وتُحرضُهم على الوقوف في شِقّ المحارب المقاتل.

وهذا التهديد الضّمْنيُّ المنذرُ بإهْلاكها إذا وصَلوا إلى مثل ما وصل إليه السابقون من الأساليب البيانية الحكيمة في التربية.

﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ أي: مِنْ قبْل هؤلاء المعنيّين في السّورة.

«قَبلُ» ظرفٌ لمكانٍ مُبْهم، ثم استعير ظرفاً لزمانٍ مُبْهَم، ويكُونُ منصوباً على الظرفية، وقد يجرُّ بحرف الجرّ «مِنْ» تصريحاً بالْعَامل.

وارتقى النّصّ هنا تأكيداً بالتصريح بلفظ «مِنْ» في ﴿مِنْ قبْلِهِمْ﴾ عن النصّ المشابه الذي جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) السابقة نزولاً، فقد جاء فيه قول الله عزّ وجل: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ . . . ﴿٣٦﴾﴾ ولم يأت فيه: وكم أهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِم، مراعاةً لحكمة الارتقاءفي المؤكدات بلاغيّاً.

﴿مِّن قَرۡنٍ﴾ القرنُ من الناس، أهل زَمَانٍ واحِدٍ، وسُمّوا في اللُّغَةِ قَرْناً، لأنّهم اقْتَرَنُوا معاً في ذلك الزمان، وكلُّ أُمّةٍ لرسُولٍ عاشُوا في زمانه هم قَرْنُه.

وجاء في كلام الرسول ﷺ، عن عمران بن حصين، قوله: «خَيْرُ النّاسِ قَرْني، ثُمّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمّ الَّذِينَ يَلُونهم. . .»(١).

---

(١) صحيح الجامع الصغير رقم ٣٢٩٤.

قَرْني:، أي: أصحابي.

ثم الّذين يلونهم: أي: التابعون.

ثم الّذين يلُونهم، أي: تابعو التابعون.

والمراد المجموع العامُّ لا الجميع.

لفظ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييزُ لبيان المبهم الّذي دلَّت عليه كلمة **[كم]** بأنّه ذو عدد كثير، أي: قُروناً ذواتَ عَدَدٍ كثير أهلكْنَا من كُفَّارِ سابقين كانوا في عزَّةٍ ضِدّ رُسُل رَبّهم، وفي شقاقٍ لهم.

والمراد بفعل: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ قضينا أن يُهْلَكُوا انتصاراً لرُسُلنا والّذين آمنوا معهم، وأَمَرْنا بتنفيذ إهلاكهم في الأوقات المحدَّدة في القضاء، بدليل قول الله عزّ وجل في الآية: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

أي: فَنَادَوْا حينَ رَأَوْا بوادِرَ مُهْلِكاتِهم مُقْبلةً شَطْر دِيَارهم، مستغيثين مُسْتَصْرِخينَ بهٰذا النداء، عَسَىٰ أن يَجِدوا مَنْ يُغيثهم ويُنْجدهم فيصْرِف عنْهم، أو يُساعدُهم على أنْ يَنُوصُوا، أي: أن يتَحرَّكوا فارّين عن منازل المهلكات.

[لات]: كلمة «لا» هي النافية، زيدَت عليها التاء لتأنيث اللفظ، أو للمبالغة وتأكيد النفي وهو الأرجح فيما أرى⁽¹⁾.

﴿مَنَاصٍ﴾، أي: ملجأ ـ مفرّ. مَهْرَب. تقول لغة: ناصَ الرَّجُلُ إذا تحرّك فاراً، وناصَ الفرَسُ، إذا رفع رأسه نافراً، ويقال: نَاصَ إلى الشيء إذا الْتَجى إليه.

---

(١) «لا» من «لات» يعمل عمل ليس بشرطين: كون معموليها اسْمَيْ زمان، وحذف أحد معموليها، والغالب أن يكون المحذوف اسْمَها كما في الآية هنا، والتقدير: وَلَاتَ الحينُ حينَ مناص.

ولكنَّ نجاتَهُمْ قد كان ميؤوساً منها، إذْ قَضَىٰ الله إهلاكهم، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ولَيْسَ هذا الحينُ الذي نادوا فيه مستغيثين حين مناصٍ لهم.

والمعنى: أنّ هؤلاء القرون الّتي قضىٰ الله أن يهْلِكَهُم لم يكنْ لهم مفرٌّ أو مَهْرَبٌ أوْ مَلْجأٌ يلْجؤون إليه، ولا مُغِيثٌ يُغيثُهم، ويُساعِدُهم على النجاة.

إنّ قضاء الله لا مُنْجِيَ مِنه غَيرُه جلَّ جلاله، ولا مَفَرَّ منْهُ ولا مَنْجَا ولا مَلْجأ، بل هو نافِذٌ لا مَحالة، وَتَحْقِيقاً لقضاء لله تمَّ تنفيذُ إهلاك المهْلَكينَ مِنْ كُفَّارِ القرون السَّابقة.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

الحديث عن أئمة الكُفْر والشِّرْك في مكّة إبّان نُزُولِ السّورة، وقد سبق بيانُ موقفهم العَمليّ في الآية الثانية، وهو أنّهم في عِزَّةٍ وشقاق.

أما موقفُهم الفكري والإعلاميّ ضدّ الرسُول ودعوته فقد جاء في الآيات من (٤ ـ ٨).

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ هٰذه الجملة معطوفة على ما جاء في الآية الثانية من كونهمْ في عزَّةٍ وشقاق، أي: وصَلوا إلى حالة من هم في عزَّةٍ وشقاق في تَدْبيراتهم العملية، وعَجِبوا أنْ جاءهم مُنْذِرٌ مِنهم.

﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ الْعَجَبُ المراد هُنا هو اسْتِبْعادُ واستنكار أنْ يكون الرّسول بشراً مِنهم، مع إطلاق التَّعْبِير عن تكذيب الرسول بعبارات التعجُّب والاستبعاد المشعر بأنّه مِنْ غير الممكن أن يكون رسُولُ الله بَشَراً من البشر.

وجاء التعبير عن الرَّسول بعبارة «مُنْذِر» لأنّ الرَّسول محمَّداً ﷺ قد بَلَّغَهُمْ، وبَيَّنَ لهم، وأقام لهم الحجج والبراهين، وقدّم لهم الآيات الباهرات، ووصَلَ في آخر الأمْرِ مَعَهم إلى مرحلة الإنذار بعذاب الله، فهو في هٰذه المرحلة بالنسبة إلى المعنيّين في السُّورة مُنْذِر.

الإنْذار: الإعلام بما هو مخوفٌ منه، ويتّقيه أُولُو الألباب. وموقفهم التعجُبيُّ هذا قد سَبَقَ بيانُه في صَدْرِ سُورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقول الله تعالى:

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ...۝٢﴾.

فدلّ قوله تعالى في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ...۝٤﴾.

على أنّهم ما زالوا مُصِرّين على مَوْقِفِهم الفكريّ السَّابق، وهو مُجَرَّدُ التعجُّبِ والاسْتِغْرابِ، ولم يَسْتَطِيعُوا أنْ يُضيفوا حُجَّةً قابلةً للمناقشة والمناظرة، ومَعْلُومٌ بِالبَدِيهَةِ الْعَقْلِيّة أنّ التعجُّبَ المجرَّدَ عن دليلٍ يَنْفِي وقُوعَ المتعجَّب منه، لا يصِحُّ الاعتماد عليه للنَّفْي والإنكار، إذا كان المتعجَّبُ منه من الممكِنَات العقلية، فكيف به إذا كان من مُقْتَضَياتِ الحكمة، ونظائِرُه ثابتةٌ في التاريخ، وآياتُ صدقه قاطعة.

﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: منذرٌ بَشَرٌ منهم.

- ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

كان مقتضىٰ الظاهر أنْ يُقال: وقَالُوا هذا ساحرٌ كذاب، لأنّ الحديث ما زال مقصوداً به أئمة الكفر والشّرك في مكة إبّان التنزيل، فاستعمال الضمير هو الملائم لمقتضىٰ الظاهر، ولكن خُولِفَ هذا المقتضى واسْتُخدِمِ الاسم الوصْفيُّ المنطبقُ عليهم وهو ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للدّلالة على أنّ الكُفر

العناديَّ الإداريَّ السَّاتِرِ لأدلّة الحقّ قد صار علامةً بارزة دالَّةً عليهم.

﴿هَٰذَا﴾ في استخدام الكافرين اسْمَ الإشارة «هذا» مراداً به رسولُ الله محمد ﷺ، ما يَدُلُّ على أنَّهم قد وصَلُوا إلى حالة الاستهانة به أمَامَ النَّاسِ، لدى الحديث عنه.

﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، **ساحِرٌ**: أي: بالنسبة إلى الآيات الباهرات الدّالاّت على صِدْق نُبُوَّتِه ورسالته. **كَذَّابٌ**: أي، بالنسبة إلىٰ مايُبَلِّغه عن رَبّه.

ولا نَجِدُ بياناً صريحاً فيما نزَل قبل سورة (صٓ) قال فيه الكافرون عن الرَّسُول: «هذا ساحِرٌ كَذّابٌ» ولكن جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قولهم عن آية انشقاق القمر: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وجاء في سُورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) قول بعضهم عن القرآن ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، وجاء في سورتي (ق) و(القمر) بيان أنّهم كذَّبوا، ولكِنَّ تكذِيبَهُمْ بمَضْمُون ما جاء به الرَّسُولُ لا يَلْزَمُ مِنْهُ حتماً أن يكونُوا قد اتَّهَمُوهُ جازِمين بأنّه ساحِرٌ كذَّابٌ، لاحتمال أنْ يكونُوا قد تَصَوَّرُوا أنَّ ما هو فيه ناتجٌ عن تَهيُّئاتٍ خاصَّةٍ، أو بتأثير مَسٍّ من الجنّ.

فقولهم: «هٰذا ساحرٌ كذّابٌ» موقِفٌ فكريٌّ مُضافٌ إلى مواقفهم السَّابقة.

- ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

﴿عُجَابٌ﴾، على وزه «فُعال» كلمة تستعمل فيما يُثيرُ أعظم التعجُّب والاستغراب، للإشعار بإنكار النفوس والأفكار له.

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ﴾؟! استفهامٌ تعجُّبيٌّ إنكارِيٌّ، أي: كيف ينفي محمّدٌ وجُودَ آلهة متعدّدة، ويَجْعَلُ العباداتِ كُلَّها في دَعْوتِه الجديدة مستَحَقَّة لإلَهٍ واحدٍ لا شريك له؟! إنّ هذا الأمْرَ الّذي يَدَّعِيه لشيءٌ يُتَعَجَّبُ منه أشَدَّ العجب!!

وهذا العنصر منْ عناصر مَوْقِفِهم الفِكْرِيّ في هذه المرحلَةِ لَمْ يُثْبتِ البيَان القرآنيُّ فيما نزل قبْلَ سُورة (صٓ) أنّهم قَدْ صَرَّحوا به، فهو موقفٌ فِكْرِيٌ مُضَافٌ بصريح الْعبَارة، وهو على ما يظهر ممّا بزر في هذا الطور من أطوارهم تجاه الرسول ﷺ ودَعوته.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ . . .﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، أي: ذهَبُوا مُسرِعين، الانْطِلاقُ الذهابُ بِسُرْعَة، لأنّ «انْطَلَقَ» مطاوع «أطْلَق» وأصل الإطلاق التحرير من القيد، ومن عادة المقيَّد إذا أُطلق مِنْ قَيْدِه أنْ يذهب مسرعاً بعيداً عن المكان الذي كان مقيداً فيه.

الملأُ: أشْرافُ الْقَوْمِ وسَرَاتُهم الّذِينَ يَمْلَؤُون عُيُون العامّة.

جاء في سبب النزول ما رواه الترمذيُّ وحسَّنه عن ابنِ عبَّاسٍ قال: مَرِضَ أبو طالبٍ، فجاءَتْهُ قُريشٌ، وجاءه النبيُّ ﷺ، وعند أبي طالبٍ مَجْلِسُ رجُلٍ، فقام أبو جَهْلٍ كي يمنَعَ النبيَّ ﷺ من أن يجلس، وشَكَوْه إلىٰ أبي طالب.

فقال: يا ابْنَ أخي، ما تُريد من قَوْمِكَ؟

قال: إنّي أُريدُ مِنْهُم كلمةً واحِدةً تَدينَ لَهُمْ بهَا الْعَربُ، وتُؤدِّي إليهم الْعَجَم الجزية.

قال: كَلِمةً واحدةً!!

قال: يا عَمِّ، يقُولُوا: لا إلٰه إلا الله.

فقالوا: أإلهاً وحداً؟! ما سَمِعْنَا بِهٰذا في الملَّة الآخِرَة، إنْ هٰذا إلاّ اخْتِلاقٌ.

قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ (٢) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ (٣) وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (٥) وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (٧) أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ . . .﴾.

هذا الذي ورَدَ في سبب النزول يَدُلُّنا عَلَىٰ أنَّ مَلأَ قُريشٍ خَرَجُوا بَعْدَ عيادَةِ أبي طالب في داره مُنْطَلِقِينَ مُسْرِعين في خُطَواتهم، ويَدُلُّ أيضاً على أنّ أفكارهم قَدْ أخَذَتْ تتأثّر بدَعْوَةِ الرسول ﷺ إلى التَّوْحيد، لَكِنَّ نُفُوسَهُمْ أبَتْ ذَلِكَ، فانطَلَقُوا مُسْرِعينَ هُرُوباً مِنْ شَيْءٍ بَدَأَ يَتَسَلَّلُ إلى داخِلهم، وجعَلَ بعضُهم يُثَبِّتُ بعضاً وهُمْ منطلقون.

لقد انْطَلَقَ هؤلاء الملأُ قائِلين فيما بينهم متواصِين، وقائِلينَ لأتباعهم ومَنْ يتأثّرُ بهم: امْشُوا على تقاليدِ ملَّتِكُمْ، واصْبِرُوا علىٰ عبادَةِ آلِهَتِكُمُ المُتَعَدِّدَةِ، ولا تتأثَّرُوا بدَعْوَةِ التوحيد التي جاءكم بها محمد، فَتُزَحْزِحَكُمْ عن عقيدتكم في آلِهتكم، أمّا دَعْوَتُهُ إلى عبادة الله وحْدَه لا شريك له، وإنكارُه صِحَّةِ عبادة الأصنام، وادّعَاؤه بأنّها لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ فهو شيءٌ يُريدُ به أغراضاً خاصَّةً لنفسه، إذْ يَجْعَلُ نفسه بدَعْوَتِهِ الجديدَة هو السيِّد والقائِدَ وصاحب الأمر والنهي والسُّلْطانِ فيكم.

وقائلين أيضاً: مَا سَمِعْنا بهذا التوحيد الذي جاء به محمّد في المِلَّة الآخرة، وهي النصرانية المثلَّثة. وقائلين: إنْ هذا إلاّ اختلاقٌ يفتريه محمّدٌ على الحقيقة، وقائلين على سبيل التعجُّب، وبأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التعجُّبيّ: أأُنْزِلَ عليه الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا؟!!

وتتخلَّص مَقُولاتُهم الّتي قَالُوها وهم منطَلِقُون مُتَماسِكُونَ يُثَبِّتُ بعضُهُمْ

بَعْضاً، على الصَّبْرِ على عقائِدِهم ومفهوماتهم الشركيّة، وعباداتهم لآلِهَتِهِم من الأوثان، بمقولاتٍ سِتٍّ مُفَصَّلاتٍ جاءت بَعْدَ «أنْ» التفسيرية في عبارة: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ﴾ أي: انطَلَقُوا قائلين أقوالاً تَفْسيرُها فيمَا يلي:

المقولَةُ الأولىٰ: دلَّ عليها ﴿ٱمْشُوا﴾، أي: امْشُوا على طريقة آبائِكُمْ وأجْدادِكُمْ، ومِلَّتِهِمْ من الشِّرْك، وما ورِثْتُموهُ عَنْهُمْ من مفهومات وأعمالٍ وتقاليد.

المقولة الثانية: دلَّ عليها: ﴿وَٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، أي: واثْبُتوا صابرين على عبادة آلهتكم، ولا تتأثَّرُوا بما جاء به محمَّد مِنْ دعوةٍ إلىٰ التوحيد، ومِنْ جدَليات تُبيِّن أنّ آلهَتنا لا تنفع ولا تضرُّ.

المقولة الثالثة: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾، أي: إنَّ هٰذا الذي يدْعوكم إليه محمّد من التوحيد، ونَبْذ عبادة الأصنام، ووجوب القيام بعبادة الله وحْده لا شريك له، لَشَيءٌ يُرادُ لمصلحة خاصَّةٍ له، وليس لأنّه هو الحقُّ والصِّدْق.

وأكَّدُوا مقولتهم هذه بمؤكّداتٍ ثلاثة: «إنّ ـ والجملة الاسمّية ـ ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر.

المقولة الرابعة: دلَّ عليها: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ما سَمعنا بهذا التوحيد، وجَعْلِ الآلِهةِ إلٰهاً واحداً، في الملّة الآخرةِ من مِلَلِ أهْلِ الكتاب، وهي ملَّةُ النصارى، إذْ كانُوا يَعْرِفُونَ أنَّ النصارىٰ مُثَلِّثُون، يَعْبُدونَ الله ومريم وعيسى.

أمّا هم فيَرَوْنَ أنّهم على ملّة إسماعيل وإبراهيم، وهي من المِلَل الأولى.

وتَفْسِيرُ الملّة الآخرَةِ بالنَّصْرانِيَّة مَرْوِيٌّ عن ابن عبَّاسٍ وأصحابه.

فملأُ مشركي مكّة يُحاوِلُون بهذا القول تثبيتَ أنفسهم على عقيدة الشرك وتَعدُّدِ الآلهة، وتحسين ما هم فيه قياساً على المشهور عندهم من عقيدة النصارى.

المقولة الخامسة: دلّ عليها: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾: ﴿إِنۡ﴾ حرف نفي مثل «ما». ﴿هَٰذَا﴾، أي: التوحيد الذي جاء به محمّد.

﴿إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ **الاختِلاقُ**: افتِراء الكَذِبِ وتَعمُّده.

أي: ما هذا الذي يَدَّعيه محمَّدٌ من أنه لا إلٰه إلا الله وحْدَه لا شريك له، إلاَّ اختلاقٌ يَخْتَلِقُه من عنده، أي: قولٌ يفتريه ويخترعه من عند نفسه.

المقولة السادسة: دلّ عليها: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾؟!!

أي: أيُعقَل أنْ يَخْتَارَ الله مُحمَّداً بخصوصه من دون كلّ عظماء قومه وحكمائهم، وأذكيائهم ومَلَئِهِم، فيُنْزِلَ عليه القرآن، الذي يُرِيد منّا أن نجعله ذِكْراً نَذْكره آناً فآناً، وننتفع به دواماً؟!!.

إنّ هذا لَأَمْرٌ مستنكرٌ وغير معقول، فمحمَّدٌ إذَنْ غَيْرُ صادقٍ في دعوته، وهو في بيانه الآسِرِ، وفي الآيات الّتي يأتي بها ساحرٌ، وهو في دعوته الّتي يَدْعُو إليها كذّاب.

وبالرُّجوع إلى ما نَزَلَ من قرآنٍ قبل سورة (صٓ) لا نَجِدُ أنّ كُفَّارَ مكَّة قد صرَّحوا بهذه المقولاتِ السّتّ من مَوْقِفِهم الفكريّ الّذي وَصَلُوا إليه في مَرْحَلَةِ نزول هذه السّورة، فهي من المقولات المضافة في بيَانِ موقِفِهم الفكري، ومن العناصر المضافة في البيان القرآنيّ عنهم، والله أعلم.

- قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿...بَل هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾﴾.

بعد بيان الموقف الحركيّ الماديّ لأئمة الشّرك والكفر في مكّة، والموْقِفِ الفكريّ، في الطّور الّذي وصَلُوا إليه إبَّانَ نُزول هذه السّورة، كان من الحكمة مُتَابَعَةُ مُعَالَجَتِهِم بالإقناع وبالترهيب. وكان من الحكمة معالجة الرَّسُول ﷺ والذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، بأنّهُمْ سَيُواجِهُونَ مُضطَّهِدِيهم، ومُهَدِّديهم بالحرب، في معارك قتاليّة، وسيكونون هم المنتَصرين عليهم، وسَيَكُون هٰؤلاء الذين هم الآن في عزةٍ وشِقاقٍ هم المهْزُومِين والمغلوبين.

● قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ﴾ أي: بل هُمْ في شكٍّ من القرآنِ الّذي أُنَزِّلُهُ علىٰ محمد، والّذي هو بيانيْ الذي يجب عليهم أن يذكُرُوه آناً فآناً، ليُحْيُوا في ذاكرتهم مطلوباتي منهم في رحلة امتحاني لهم.

يُشْعِرُ حرفُ ﴿بَلْ﴾ بمحذُوفٍ مطويٍّ في الكلام بين قولِه تعالى حكايةً لمقولَتِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾؟!!

وبين قوله تعالى في العلاج: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ﴾ فما هو هذا المحذوف المطويُّ؟

جاء في صَدْرِ السّورة القسَمُ بالقرآنِ ذِي الذّكرِ على أنّ الرَّسُولُ محمداً صادقٌ فيما يُبَلّغ عن ربّه، وفي هذا القسَم توجيهٌ لتدبُّر القرآنِ نفْسِه، دون النظر إلى مُبَلّغِه، فهو بيانٌ عظيم يجب أنْ يُدْرَسَ ويُفْهَم بحَدِّ ذاته، دون النظر إلى النبيّ المختار لإنزاله عليه، بسبب ما فيه من سمُوّ وكمالٍ وبيان مُعجز لا يَسْتطيع أنْ يأتي به ولا بمثلِه بشرٌ، وهذا كافٍ لأن يُؤسِّس الاقتناع في الأفكار والقلوب الواعية، بأنّه ليْس كَلامَ بشر، وإنّما هو تنزيلٌ مِنْ لَدُن عزيز حكيم، ربّ السّماوات والأرض، وربِّ كلِّ شيء.

فلو أنّ الناسَ وَجَدُوهُ في صُنْدوق، أو في حفيرة، أو في جُبّ، أو في صحراء، أو في مغارة، أو علىٰ جَبَلٍ لكان عليهم بعدَ قِراءَته، وتدبُّر ما جاء فيه أن يُؤمِنوا بأنّه منزّلٌ من عند الله بوسيلة ما.

أما وسيلة التوصيل فغير ذاتِ أهميَّةٍ في الموضوع. أليسوا يفعلون كذلك فيمايستخْرِجُونَه من كنوز، وفيما يَجِدُونَ من جواهر نفسية في أماكن محتقرة، أفيُهْمِلُونها ولا يعبؤون بها، إذا وجَدُوها في المقابر، أو في المستنقعات، أو نحو ذلِكَ؟!!

فكيف بهم إذا وجدوها في أماكنَ شريفة، أو قدّمها لَهُمْ كريم ذو خُلق عظيم، وفضائلَ شامخات؟!!

هذا الإقناع يُسْقِط عجبهم من أن يأتيهم منذرٌ بشرٌ منهم ويُسْقِطُ مقولتهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ ﴾؟!! مستنكرين ذلك، لو شاءُوا أن يقتنِعُوا بالحقّ.

أي: فمالَهُمْ وللرَّسُول المصْطَفىٰ الّذي اختير للنّبُوَّةِ والرِّسالَةِ الخاتمة؟ لِيَنْظُروا فيما جاءهم به، ولْيَنْظُرُوا مُتَدَبِّرين هٰذا القرآن الّذي يُبَلِّغُهم إيّاه، فإنّهُم إذا تَبَصَّرُوا به وتفهموا آياته بتدَبُّر، اقْتَنَعُوا بأنّه تنزيلٌ من رَبّ البشر وليس من كلام البشر، واقْتناعُهُمْ هٰذا يَهْدِيهِم إلىٰ أنَّ مُبَلِّغَهُ عن ربّه نبيُّ الله ورَسُولُه حقاً.

لكنّهم ليسوا في التفكّر في معانيه ولا في مبانيه، وهو ذكري لهم، وهُمْ مُنْغَمِسُونَ في شَكٍ مِنْ كَوْنِه ذكْرِي، صارِفٍ لهم عن تَدَبُّرِه والتفكُّرِ فيه.

وليسوا مَعْذُورين في أن يَجْعلُو الشَّكَّ بأنّه ذكْرٌ مِنْ عند الله، لِعَوَارِضَ خارِجَةٍ عن جَوْهره، صارفاً لهم عن تدبُّره، وتفهُّم دلالاتِ آياته.

فَهَلْ من العَقْل أن يَرْفُضَ الإنسانُ كَنْزاً في صُنْدوق قدّمه إليه من لا يَراهُ أهْلاً لِحَمْلِ كَنْزٍ نَفِيسٍ ثمين؟!!

إنّ علَيْه أن ينظُر بعَقْلٍ ورَوِيَّةٍ وحِكْمَةٍ فيما في الصُّندوق، وأن يتبصَّرَ

به، ثُمَّ يَحْكُمَ، وليس من العقل والفهم الصحيح في شيءٍ، أنْ يَرْفُضَ الصُّنْدوقَ ابتداءاً، وأماراتُ كوْنِهِ كنزاً عظيماً بادِيَةٌ عليه، لمُجَرَّدِ أنّه لم يُعْجِبْهُ حامِلُ الصندوق، ومُقَدِّمُه إليه، أو جاء هذا الحامل للصندوق على خلاف ما يُحِبُّ ويَهْوَىٰ، كأنْ كَانَ يَهْوَىٰ أنْ يكون حامل الصندوق مَلِكاً، أو أميراً، أو زعيماً، أو كبيراً من كبراء قَوْمه.

هٰذه المَعاني المطويَّة أغنىٰ عن التصريح بها، الْقَسَمُ بالقرآن ذي الذكر في صَدْر السورة، وقَوْلُ الله عزّ وجلّ في الآية (٨) ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى . . .﴾.

- قول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

وقرأ يعقوب [**عذابي**] بإثبات يَاءِ المتكلّم في الوصل والوقف.

كلمةُ ﴿بَل﴾ في هذه الجملة تُشير أيضاً إلى كلامٍ مطويٍّ غَيْرِ مذكُورٍ في اللّفظ، وبالتفكُّرِ والتَّدَبُّر نَسْتَطيعُ أن نُدْرِكَ معاني هذا المحذوف.

أي: وإنّ ما في ذِكْرِي وهو القرآن الذي يبلّغه رسولي محمّد، من إنذارٍ لهم بعذابي، إذا لم يُؤْمِنُوا ولم يُسْلِمُوا ولم يكُفُّوا عن مقاومة رسولي ودعوته، واضطهادِ الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، كافٍ لإثَارَةِ مخاوفِهِم، فإيقاظهم من غَفَلاتِهِم، وما هم فيه من مُلْهيات الحياةِ الدُّنيا، فَهَزِّ نُفُوسِهِمْ، ونَفْضِ ما تراكم عليها من غاشيات، وتَوْجِيهِهِم لاستبصار الحقّ الذي يشتمل عليه ذكري.

لكنَّهم في حَالَةٍ هُمْ مَعَها أعْنَدُ وأقْسَىٰ وأشدُّ من أنْ يكفِيهُمُ الإنذارُ الكلاميُّ، المؤيَّدُ بالشواهد الفكريَّةِ والأدلَّةِ التاريخيَّة مِنْ أحداث الماضي.

بل هم بحاجَةٍ إلى أكثر من ذلك، حتَّىٰ يَستَيقظُوا، وهذا الأكثر هو أن يَذُوقُوا بعض عذابي، وهو الأمْر الَّذي تقضي الحكمة التربويّة بإذاقتهم إيّاهُ بَعْد زمَنٍ قريب، فهُمْ على مَقْرُبَةٍ من أن يَذُوقُوا عذابي.

هذه المعاني المطويّة أغْنىٰ عن التصريح بها قول الله عزّ وجلّ ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾، أي: عذابي كما جاء في قراءة يعقوب. وهذا القول قد دلَّ على قضيتين.

القضية الأولى: أنّهم لم يَذُوقوا بَعْدُ عَذَابَ الله، وهم من الناس الّذين لا تكفيهم الإنذاراتُ الكلامية، المؤيّدةُ بالشواهد التاريخية الدالَّةِ على سُنَّةِ الله في الأمم.

القضيّةُ الثانية: أنّ زمنَ إنزالِ عذابِ الله فيهم قد صار وشيكاً قريباً، بحسَب مقتضىٰ الحكمة التربويّة، إذا لم يتداركوا أنفسهم بالتَّوبة والإيمان الصحيح الصادق، فَلْيَتَرَقَّبُوا عذابَ الله الذي سَيَنْزِل بهم بعْدَ حين ليس بالبعيد.

- فمعنى النفي في [لمّا] دَلَّ على القضية الأولى.
- ومعنى اقتراب وقوع المنفي بها دلَّ على القضية الثانية.

وكلمة [**بل**] أشارَتْ إلى المحذوفات المطويّاتِ الّتي يصلُ إلى إدراكها المتدبِّر المتأنّي الْبَاحِثُ في الْعُمق، تتبُّعاً للوازم الكفريّة، وما يقتضيه اللّفظ المصرَّحُ به من معانٍ لم يُصَرَّحُ بها.

إنّ التَّلويح باقتراب أيّام تعذيبهم، علاجٌ يلامِسُ مَحَاوِر الخَوْف في نفوس الّذين لَدَيْهِم ظنٌّ باحتمال كون ما جاء في الإنذار حَقاً وصِدْقاً، وهذا العلاج مِنْ شأنه أن يَهْدِمَ أوْهامَ العناد، ويُهيلَ رُكامَاتِ الإصْرار على التقاليد العمياء.

فالخوفُ في داخل النفوس من العوامل التي تهزُّها هزّاً عَنِيفاً، فتنفُضُ عَنْهَا رَكاماتِ الْقَتَرِ والغبارِ والغِشَاوَاتِ، وتَجْلُو رُؤْيَتَها عسَىٰ أنْ تَسْتَبْصرَ الحقّ.

- قول الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ⑨﴾؟!!

﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى «بل» الدّالّة على الإضراب، منضماً إليه معنى الاستفهام، فيصير المعنى: بل أعندهم. . .؟

أي: بل، أَعِنْدَهم خزائن رَحْمَة ربّك تفويضاً من قبله، فهُمْ يتصرّفُون بها على ما يشاؤون، حتّىٰ يُعْطوا منها أو يُمْسِكُوا بِحَسَبِ أهوائهم، وهو جلّ جلاله وعَظُمَ سلطانه الْعَزِيزُ الْغَلاَّبُ، الذي لا يحتاج في كونه إلى أوْصِياء على خزائن رحمته، ولا يحتاج إلى مُعِينينَ له في التصرّف فيها. وهو سبحانه الوهَّابُ، الذي يَهَبُ من خزائنِ رحمتِه بحَسَبِ حكْمَتِه، لا بحَسَبِ أهواء عباده؟!!

فأيُّ شأْنٍ لهم في تصرُّفاتِ الله بخزائن رحمته، ومُنْها اصْطِفاءُ مَنْ يَشاءُ من عباده لِرسالاته وَوَحْيِهِ؟!!

لقد كان علَيْهم أنْ يَعْرِفُوا حُدُود أنفسهم، فلا يقُولُوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ﴾؟!! لكِنَّهم لَمْ يَفْعَلُوا بل كان منهم اعتراضُ مَنْ يتوَهَّمُ أنّه يَملِكُ الاقتراح على الله العزيز الوهاب، فيما يتصرَّفُ به من خزائِن رحمته، وهم في الواقع لا يملكون شيئاً من ذلك، لأنَّ الأمْرَ كُلَّه في الوجود كُلِّه لله وحْدَهُ، جلَّتْ قُدْرَتُه وعظُمَ سلطانه، وهُمْ عَبِيده وخلْقٌ من خلقه، وهو بحكمته يفعل ما يشاء ويختار.

- قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ⑩﴾.

أي: بل. أَلَهُمْ مُلْكُ السَّماوَاتِ والأرْضِ وَمَا بَيْنهما، حتَّىٰ يكون من حقِّهم أنْ يعْتَرِضُوا على الرَّبّ الخالِقِ فيما يَمْنَحُ منهما أو فيما يَمْنَعُ. أو أن يعْتَرِضوا عليه في اصطفائه من يشاء من عباده بالوحْي والرّسالة، وفي حَجْب ذلِكَ عَمَّنْ لا تقتضي حكْمَتُه مَنْحَه.

لقد كان عليهم أنْ يَعْرِفُوا حُدُود أنفسهم، فلا يعترضوا على اصطفاءاتِ الرَّبّ، لكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

بل كان منهم اعتراضٌ يشبه اعتراض من له مُلْكُ السَّماوات والأرض وما بينهما.

وإنْ بلَغَ بِهِمْ الغرورُ إلى زَعْمِ أنّ لهم مُلْكَ السَّماوات والأرض، إذْ وجَدُوا أنّ الأسباب الّتي توصّلوا إليها باكتشافاتهم، ممّا سخَّر الله للنَّاس في كَونه، تُمَكِّنُهُمْ من اجتياز الفيافي والقفار، وعُبُورِ البحار، والصُّعُودِ إلى ما فوق السُّحُب، والوصول إلى بعض الأفلاك والأقمار ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ﴾ أي: فلْيَسْتَخْدِمُوا الأسْباب المسخَّرَة لَهُمْ، على طريقة الارتقاء من سبَبٍ إلى سبب آخر فوقه، ثم إلى سبب آخر فوقهما، وهكذا تَسَلْسلاً مع الأسْباب ضمن سلَّم الأسباب الّتي جعَلَها الله لَهُمْ مُسَخَّراتٍ في كونه، فهل يستطيعون بعد رحلة الارتقاء في سلّم الأسباب حتّى آخر الدَّهر المقضيّ لحياةِ الناس، أن يُثْبِتُوا أنّ لهم مُلْكَ السَّمَاوَاتِ والأرض وما بينهما، دون أن يكونوا خاضعين لسُلطان رَبِّهم وَرَبُّ السّماوات والأرض وما بينهما ومالِكِ كُلّ شيءٍ ومَليكه، ودون أن يكونوا خاضعين لسُلطانِ قوانِينِه في عوالم الموجودات؟؟.

السبب عند أهل اللُّغة: كلُّ شيءٍ يتوصَّلُ به إلى مطلوبٍ ما كائناً ما كان.

وتدلُّنا عبارة: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ﴾ على قاعِدَةٍ كونيَّةٍ تعتمد عليها المبتكراتُ والمخترعاتُ الصناعيّة، وهي أنّ للأسْبابِ في الكون سُلَّماً ارتقائيّاً، وأنّ كُلّ دَرَجَةٍ سببيَّة هي شرطٌ للارتقاء إلى الدَّرجَةِ السببيَّة التي فوقها.

وتدلُّنا هذه العبارة أيضاً على التوجيه الرّبّانيّ للأخذ بأسْبابِ الارتقاء

العلْميّ والْعَمَلي الذي لا يتناهى، ما بَقِيتْ في الكون أبعادٌ يَطْمَحُ الإنْسان إلى اكتشافها، ومعرِفَةِ أسرارها وقواها، وما بقيت في الكون أسْبابٌ مُسَخَّرة له.

وهذه العبارة نفسها تُشْعِرُ ضِمْناً بما تَوصَّل إليه الناس في هذا الْعَصْرِ، من استخدام الأسباب التي سخَّرَها الله لهم، حتّى عرَفُوا كثيراً من طاقاتِ الكَوْن، واسْتَخدَموها لِنَسْفِ الجبال، واستخراج كثير من كنوز الأرض، وعُبُورِ الأجواء، والوصول إلى القمر وبعض الأفلاك، فهلْ تستطيع الدُّولُ العظمىٰ، المستخدمة لهذه الأسباب، أن تَدَّعي أنّ لها مُلْك السماوات والأرض وما بينهما، وتتمرَّدَ على قوانين الله وأنظمته في كونه، وأنْ تكونَ مشاركةً لله في رُبوبيَّته لكل شيء؟؟!

وهل تستطيع أن تفرض على الله اختياراتِها وأهواءَها، فيترك من أجلهم ما يشاء ويختار؟!!

ولو اتّبعَ الله الْمَلِكُ الحقّ أهواءَهُمْ لفسدت السموات والأرض، ومن فيهن، كما قال الله عزّ وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . . ﴿٧١﴾﴾.

وبهذا تَمَّ الحصار الفكريُّ لمكَذِّبي الرسُولِ في دفع مقولتهم الفاسدة، بشأن محمّد ﷺ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!!

فقد تضمّن هذا الحصارُ الفكريُّ التَّنبيه على أنّ الاصطفاء بالنبّوة والرّسالة، لا يَخْضَع لأهواء الناس ومفهوماتهم الطَّبَقِيَّة، بلْ إنّ الله عزّ وجلّ يصطفي بحكمته لرسالته من يشاء من عباده، وهُوَ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه أعْلَمُ بعباده، وأعلم بمَنْ يَصْلُحُ منْهُمْ لذلك.

فاستنكافُ كُبَراء كفار مكّة عن الإيمان بِنُبُوّة محمّد ورسالته، على الرُّغم من وجود الآيات الباهرات الدّالاّت عليهما، واستنكارهم أن

يَصْطَفيَهُ الله من بينهم، فيجعَلَه نبيّاً ورسولاً، ويُنَزِّلَ عليه الذِّكرَ، ولا يختار عظيماً من عظمائهم لهذه المهمَّة العظيمة، واقتراحُهم أن يكون النبيُّ الرسُول المختارُ رجلاً من عظماء رجالهم، إنّما هو تَدَخُّلٌ منهم في خصائص رُبوبيّة الله في مُلْكِهِ، وفي تصرُّفاتِه في خلقه، الّتي يتصرَّفُها بمقتضىٰ حكمته المقترِنَة بعلمه الشامِلِ كُلَّ شيء.

والله جلَّ جلاله وعظُمَ سلطانُه، لم يجْعَلْ خزائِنَ رحْمَتِهِ الّتي يمْنَحُ مِنْها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده، ما يشاء بحسَب حكمته وعلمه بهم تَحْتَ تَصَرُّفِ أَحَدٍ مِنْ عباده، ولَوْ كَانَ مَلَكاً مُقَرَّباً، فكيف بهؤلاء المعْتَرِضينَ أصحابِ الأهواء؟! كيف تكونُ لهم مُقْتَرَحاتٌ مقبولاتٌ لدى العليم الحكيم العزيز في اختيار من يُعْطي من رحمته، ومَنْ يُسمِكُ عَنْهُ فلا يُعطِيه.

وعلى طريقَةِ الحصَارِ الفكريّ حوْلَ هذا الاعتراض بالذَّاتِ أبان الله عزّ وجلّ لهم أنّ هذا الاعتراض يمكن أن يكون مقبولاً في إحدى حالتين.

الحالة الأولى: أنْ يُوجِّهَهُ مُفوَّضٌ بالتَّصرُّف، ومَنْ له حقُّ الاعتراض، وقد جاء إسْقاط احْتِمالِ التَّفْويض بالتصرّف، واحتمال أن يكون لهم حقُّ الاعتراض، في قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ وقد سبق شرح هذه الآية.

الحالة الثانية: أن يُوجّهَهُ مَنْ له مُلْكُ السَّماواتِ والأرْض وَما بينهما، فإن كانُوا يَزْعُمُونَ أنَّ لهم مُلْكَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما، فليقوموا بِعَملٍ ما يُثْبِتُونَ به أنّهم يملكون ذلِكَ بحقّ، لكنّهم لا يستطيعون مع تسخير الأسباب لَهُم، وقد جاء إسْقاط هذا الاحتمال في قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ وقد سبق شرح هذه الآية. وسبق بيان أنهم لا يستطيعون أن يخالفوا قوانينَ الرَّبِّ الخالِقِ في كونه، فهو الحاكم عليهم بقوانينه فيما سخَّر لَهُمْ، وأمْرُهُ وسُلْطانُه في المسخَّرَاتِ هو النافذ، وقُوَّته هي الْقَاهِرة الْغَلاَّبَة.

● قول الله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾ جاء في صدر هذه السّورة بيان أنّ الذين كفَرُوا (أي: كبراؤهم وأئمّتهم) في مكّة قد وصلوا إلى طَوْرِ الّذين هم في عزّة وشقاق، أي: في استشعارهم بأنّ لهم القوّة الغالبة تجاه بدء تكاثر أعداد الذين يُؤْمِنُون بالرسول ويتّبعونه، وفي تهيُّؤ نفوسهم للقَمْعِ قبل أن يَصِلَ المسلمون بالتنامي والتكاثر إلىٰ أن يكونوا هم أصحاب القوّة الغالبة.

واقتضى هذا البيان علاجَ الذين كَفَروا، بالتَّلْويح بأنّهم إذا تفاقم أمْرُهم أنْزَل الله عزّ وجلّ بهم إهلاكًا عامّاً شاملاً، كما أهْلَكَ أقواماً سابقين استحقوا الإهلاك بكفرهم، ومقاوماتهم لدعوات رُسُل ربّهم، فقال الله عزّ وجلّ في هذا العلاج:

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾.

وقد سبق شرح هذا العلاج.

واقتضىٰ هذا البيان أيضاً عِلاجَ الرّسُول والّذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، بما يُطَمْئِن قُلُوبَهُمْ بأنّهُمْ هُمُ المنصُورون، وبأنّ الذين هم اليوم في عِزَّةٍ وشقاق هُمُ المهزومون المغلوبون، حين يحين وقت المواجهة القتاليّة بين الفريقين، فقال عزّ وجل: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾ فكان هذا وَعْداً وبشارةً من الله جلّ جلالُه للرّسُول واللذين آمَنُوا به واتَّبعُوه، بانتصارهم على هٰؤلاء الذين كَفَرُوا، والذين هُمُ اليوْمَ في عزّةٍ وشقاقٍ تُجاهَهم.

وفي هذه الآية تَعْيينٌ للأمر الّذي يَتِمُّ به تأييدُ الله لأوليائه، وخَذْلُه لأعدائه، فهِيَ مَعَارِكُ في مُواجَهاتٍ قتاليَّة، يتحقَّقُ فيها نَصْرُ الله للرسُول والمؤمنين معه، ويتحقَّقُ فيها خَذْلُ الله للّذين هم اليوْمَ في عِزَّةٍ وشقاق. وهَزِيمَتُهم وانْكِسَارُهم أمام المؤمنين الّذين يَرَوْنَهم في قِلَّةٍ وَذِلَّة.

وقبل سورة (صٓ) جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بيانُ

أنّ هٰؤلاء الّذين هم في عزّةٍ وشقاق صاروا يقولون، «نَحْنُ جميع مُنْتَصِرٌ» فقال تعالى فيها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا النصّ لدى تدبُّر سُورَةِ (القمر).

والوعْدُ بنَصْرِ المؤمنين وهزيمة الّذين هم اليوم فِي عزَّة وشقاق، في قول الله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ قدْ جاء بأسْلُوبٍ رَمْزِيٍّ عامّ، يفْهَمُهُ الرّسُولُ ﷺ، ويفْهَمُهُ أهْلُ الْفطَانَةِ، والذّكاء والألمعيّة من المؤمنين.

﴿جُندٌ مَّا﴾ صيغة مبهمةٌ عامَّةٌ، صالحةٌ لأنْ تَنْطَبِقَ على ذوي العزّةِ والشقاق، وعلى غيرهم.

جُنْد: اسم جنْسٍ جَمْعِيّ يُفرَّقُ بينه وبين واحِدِهِ بالياء، فواحده: جندِيّ، واسم الجنس الجمعيّ يطْلَقُ على القليل والكثير، ويجوز في نعته التذكير والتأنيث. **والجُنْدُ** العسكر.

[ما] هذه في عبارة «جُنْدٌ ما» وأشباهها تُسمّى عند النحاة: «ما الإبْهاميَّة» وهي الّتي إذا اقترنَتْ باسْمِ نكرةٍ زادَتْهُ إبْهاماً وشيوعاً. وهذا الإبهام هو المسوّغ للابتداء بالنكرة.

«جُندٌ ما» مبتدأ «مَهْزُومٌ» خَبَره.

﴿هُنَالِكَ﴾ في هذه العبارة إشارةٌ إلى المكان الذي سَيُهْزَمُ فيه جنْدُ الذين كفروا والذين هم في عزَّةٍ وشقاق، فهو مكان بعيدٌ عن مكان نزول النصّ في مكة، لاستعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، فاللّام في «هُنَالِك» للبُعْد، والكاف لخطاب الرّسول، وخطابِ كُلّ مُؤْمِنٍ يُدْرِكُ رَمْزَ الخطاب، ومَضْمُونَ الوعْدِ المطَمْئن، على سبيل الخطاب الإفراديّ.

﴿مَهۡزُومٞ﴾ اسمُ مفعول من فعل «هزم» الْعَدُوَّ، إذا كَسَرَ شَوْكَته وانْتَصَرَ عليه. واسْمُ المفعول يدُلُّ على ما يدلُّ عَلَيْهِ الْفِعل المضارعُ المبنيُّ لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، إذْ قد يَدُلُّ على الحال، وقد يَدُلُّ على الاستقبال، والقرينَةُ هي التي تكشف المراد.

وقد تحقَّق فيما بَعْدُ انْهِزَامُ جُنْدِ كُفَّارِ قُريش، في غزوة بَدْرٍ الكبرى، ثم في غَزْوَةِ الأحزاب، ثمّ في فتح مكة.

وهذا الخبر من مُعْجِزات القرآن الخبرية، الّتي أخبر الله عز وجلّ عنها فيه، وتحقَّقَتْ كما جاء في خبره.

﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، أي: من أحزاب الكفر ذوي المذاهب المتفرّقة، والتكتُّلات المختَلِفات، بخلاف المؤمنين بالله ورُسُلِه وكُتُبه، وبما جاءهم من عند الله على لسان رُسُله فَهُمْ جَميعاً حِزْبُ الله عَبْرَ تارِيخِ البَشريَّة، ولَيْسُوا بأحزاب، وهُمْ جميعاً أمّةٌ واحدة، وليسوا بأُممٍ مختلفة، كما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

فالأُمَّة الرّبانيّة حزبُ الله على صراطٍ واحدٍ هو صراط الله المستقيم، من عَهْدِ آدم إلى أن تقوم الساعة.

والّذين كَفرُوا برُسل الله أو ببعضهم أَوْ ببَعْضٍ ما جاءوا به عن ربّهم، هم أحْزابٌ شَتَّى متفرّقة، تجرُّهم أسبابٌ متعدّدة موصولة جميعها بالشيطان، فكلٌّ منها يَصِحُّ أن يقال فيه: هو من حزب الشيطان، على الرُّغمِ من اختلافه مع سائر الأحزاب المتعادية فيما بينها، والّتي هي في الواقع أحزابٌ متفرّقة، فالشيطانُ له مناهج وسُبُلٌ ضالة متباينة، وليس له صراط واحد، لكن كلّ سبُله ومناهجه توصل إلى الجحيم يوم الدين.

● وكون الّذين كفروا أحزاباً لا حِزْباً واحداً، من القضايا التي دلّتْ عليها بيانات قرآنيّةٌ مُتعدِّدة، فمنها ما يلي:

١ ـ ففي سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) التي نتدبَّرُها ذكَرَ الله عزّ وجلّ قوْمُ نوحٍ وعاداً وفِرْعَوْنَ ذَا الأوتاد وثمودَ وقومَ لوط وأصحاب الأيكة، وقال بشأنهم ﴿. . .أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾، أي: أولئك الأحزاب من الكفّار المكذّبين الّذين واجَهوا رُسُل ربهم فيما مضى بالتّصدي للقمع بالقوة المادّيّة المسلّحة، واستعمل اسم الإشارة الخاص بالبعيدين لبُعد زمانهم، ولبعد منزلتهم في اتجاه الدرك الأسفل من النار.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: ما كلُّ حزب منهم إلاّ هو حزبٌ كذّب الرُّسل، أي كذّب رسُولَه وكذّبَ سائرَ الرُّسل، فجرَّه تكذيبه إلى قبائح وشرور وفساد في الأرض أدّت إلى إهلاكه(١).

٢ ـ وفي سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) ذكر الله عزّ وجلّ الّذين كَفرُوا بعِيسىٰ عليه السلام، ولم يُؤمِنُوا بأنه عبْدُ الله ورسوله، فقال فيها بشأنهم:

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾.

٣ ـ وفي سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) ذكر الله عزَّ وجلّ رسولَهُ محمّداً ﷺ بأنّهُ علىٰ بيِّنَةٍ من ربّه، وبأنّهُ يَتْلُوهُ شاهدٌ مِنْ ربّهِ، هو القرآنُ المُعْجِزُ الذي يشْهَدُ لَهُ بأنّه رسُولُ الله حقّاً وصِدْقاً، وبَعْدَ هذا قال الله تعالى:

---

(١) الذي ظهر لي في الإعراب هو ما يلي: «أولئك» مبتدأ «الأحزابُ» بدَلٌ منه، وجملة «إنْ كلٌّ إلاّ كذّبَ الرُّسل» خبرُ المبتدأ. وبهذا نَتَفادىٰ تأويلاتٍ ذكرها بعض أهل التأويل، وهي لا دَاعِيَ لها.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ . . . ﴿١٧﴾﴾.

٤ ـ وفي سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) ذكر الله عزَّ وجلَّ الّذين كفَروا بمُحَمَّدٍ وبما جاء به عن ربّه، وقال بَعْد ذلك:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

ولـمّا كانت الأمة الرَّبَّانِيَّةُ أمّةً واحِدَةً وإنْ كانت أتباعَ رُسُلِ الله متعدِّدين، كان لا بُدَّ أنْ يَكُونَ صِراطُها واحداً، أمّا مِلَلُ الكُفْر، فهم أُمَمٌ، وهُمْ يَتبَعُونَ سُبُلاً مُتَفَرِّقَةً متضادّة، وقد أبَانَ الله عزّ وجلّ هذا الواقع في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بقوله:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

وقرأ يعقوبُ: [**عِقَابِي**] بإثباتِ ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي: فثبت ووقع عقابِي لهم حتى صارَ أمراً واقعاً حقّاً، لأنهم استحقوه.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: وفرعَوْنُ صاحبُ المباني العظيمة التي تشبه الْجِبَال، وتُعْرفُ هٰذِهِ في مصر بالأهرامات. وقد وصَفَ الله الجبال بأَنَّها أوتاد، أي: بمثابة الأوتاد المثبّتة لبيوت الشعر، إذ هي منغمسة في الأرض ومُثَبِّتَةٌ قشرَتَها حتّى لا تميد بمَنْ عليها.

أو وفرعَوْنُ صاحب الملك القويّ الثّابِتِ، شبِّهَتْ أسباب تثبيت ملكه بالأوتاد.

الوتد: هو عودٌ قويٌّ يُدَقُّ أكثَرُ من نصفه في أرض متراصَّة، ثُمَّ يُرْبَطُ بما بَقِي منه فوق الأرض حَبْلٌ من حبال بيت الشَّعر، أو مِقْوَدُ الفرس، أو غيرُ ذلك لتثبيت المربوط به.

واستُعِيرَ لَفظُ «الأوتاد» للجبالِ، وللْمَبَاني العظيمة، ولوسائل القوَّة الّتي يُثَبِّتُ بها الملوكُ مُلْكَهُمْ، وأَصْحابُ السلطان سلطانهم.

وذُكِرَ فرعَوْنُ دُونَ أركان مُلْكه، وجُنودِه، وسائرِ قومه، لأنّه كان صاحب الكلمة النافذة فيهم جميعاً، دون معارض، الأمر الذي جعله يقول لكبراء مملكته: ما علمت لكُمْ من إلَهٍ غيري، كما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى . . . ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: الأيكَةُ الشَّجَرُ الكثيف الملتفُّ، ويخفَّفُ اللّفظُ فيقال فيه: «لَيْكة» وأصحاب الأيكة هم مَدْيَن» قوم النبيّ الرسول شُعَيْبٍ عليه السلام، وهل الأيكَةُ اسم غيضتهم أو اسم قريتهم؟ احتمالان أوردهما المفسرون. وقد تكون قريتُهم قد سُميّت باسم غيْضَتِهم، والله أعلم.

والحديث عن هؤلاء الأقوام الّذِين جاءوا في هذا النصّ، قد سبق لدى تدبُّر السُّوَرِ التي جاء فيها ذكرهم.

فقد سبق فيما نزل من القرآن قبل سورة (صَ) توجيه أنظار الذين كفَرُوا للاعتبار بما جرى لقوْم نوحٍ وعادٍ وفِرْعَوْنَ ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكَة من إهلاكِ الله لهم بسبب كفرهم.

ولكِنَّ توجيه الأنظار للاعتبار بِمَا جَرىٰ لهُمْ للاتّعَاظ بهم قد جاء في مُنَاسباتٍ مختلفات، وفي مَعَارضِ أَنْواعٍ من كفْرِهِمْ وسوء أعمالهم.

- ففي سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) جاء توجيه الأنظار

لإهلاكهم بغية الاعتبار بهم، في معرض تكذيب كفَّار مكة بالبعث ليوم الدين، يَوْمِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وهذا الصنيع البيانيُّ يدُلُّ علىٰ أنّ هؤلاء الأقوام كذّبوا بالبعث ليوم الدين، فجرّهم هذا التكذيب إلى أعمال كفريَّة شَنِيعةٍ، كان من نتائجها عقابُ الله المعجّل لهم بالإهلاك العامّ الشّامل.

● وفي سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) جاء أيضاً توجيه الأنظار لإهلاكهم مع بعض تفصيل لأقوالهم وأعمالهم، بغية الاعتبار بهم، في معرض تكذيب كفّار مكّة للرسول محمد ﷺ، وعدم الإيمان بنبوّته ورسالته، وجاء في تفصيلات توجيه الأنظار للاعتبار بقصص هؤلاء المهلكين الأوَّلِين، أنَّهم كذّبوا رُسُلَ ربّهم، فوقع علَيْهم ما أُنْذِرُوا به.

فدلَّ هذا الصّنيع البيانيُّ. على أنّ هؤلاء الأقوام كذّبوا رُسُلَ رَبّهم، فجرّهم ذلك إلى أعْمالٍ كفريَّةٍ شَنِيعة، كان من نتائجها عقاب الله المعجّل بالإهلاك العامّ الشامل، ونزل بهم ما أنذرهم به.

● وفي سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) الّتي نتدبَّرها، جاء أيضاً توجيه الأنظار لإهلاكهم بصورة مجملة، في معرض بيان أن كفّار مكة قد وصَلُوا إلى طور ذي عزّة وشقاق، طور الواقف من الرسول ودعوته والذين آمنوا به واتّبعوه موقف المعتزّ بقوّتِه، المهدِّدِ بالقمع المسلّح.

فدلَّ هذا الصنيع البياني على أنّ هؤلاء الأقوام قد وصَلُوا مع رُسُلِهم إلى طَوْرِ ذي عزّةِ وشقاقٍ، وتصَدٍّ لقمع الرسُل وإسكاتِ دعوتهم بالقوّة المادّية المسلّحة، فأنزل الله بهم عقابه، فأهلكهم، وأنْجَىٰ رُسُلَه والذين آمنوا معهم، من كيد الكافرين وسلطانهم القويّ الغالب.

وهنا أقول: إنّ القصّة الواحدةَ يُؤْتَىٰ بها للاعتبار والاتعاظ، بمناسبة موضوع مُعَيّن، ويُؤْتَىٰ بها للاعتبار والاتعاظ بمناسبة موضُوع آخر، ثم يؤتى بها للاعتبار والاتعاظ بمناسبة موضوع ثالث، وهكذا.

ومع ذلك نجدُ في توجيه الأنظار للاعتبار والاتعاظ بقصص الأوّلين في القرآن تَكَامُلاً في عناصرها، لا تكراراً متطابقاً، ففي كلِّ مرّةٍ نجد تَغْييراتٍ وإضافاتٍ، فإذا نظرنا إليها متدبّرين نظرة كليّةً جامعة، وجدناها فيما بيْنَها متكاملات غير مكَرَّراتٍ تكريراً تطابقياً.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ⑮﴾. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [مَا لَها مِنْ فُوَاقٍ] بضم الفاء، وهما لُغَتان عربيتان للكلمة.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾: أي: وما ينتظر. يقالُ لغة: نظَرَ فلانٌ الشّيْءَ، أي: انتظَرَه، وفي المثل: «وَإِنَّ غداً لِنَاظِرِه قَرِيب» أي: لمنتظره.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: المعنيون من كفّار قريش الذّين وصلوا إلى طور مَنْ هم في عزّةٍ وشقاق.

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: صيحة واحدة تُهْلِكُهُمْ، كالصّيحَةِ الّتي أهْلَكَتْ ثمودَ، للْمُقَاربَةِ بين حالهم وحال ثمود، الذينَ طلبوا آية الناقَة، فبعثها الله على وفق ما طلبوا، فلم يُؤْمِنُوا، ثم عقروا الناقة، فأهلكَهُمُ الله بالصَّيْحة وهؤلاء طلبوا آيَةً حسّيَّة، فأجرى الله لرسوله آيَةَ انْشِقَاق القمر، فزعموا أنّها عمل من أعمال السّحر، وأصَرّوا على كفرهم، فأوشكوا أن يَسْتَحِقُّوا إرسال الصيحة المهلكة المماثلة للصيحة الّتي أهلك الله بها ثموداً.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ الْفَوَاقُ، والْفُواقُ، بفتح الفاء وضمّها، الْمُهْمَلَة، أي: ما ينتظر هؤلاء إذَا كانوا ينتظرون شيئاً من ربّهِم، مُقَابِلَ إصرارهم على كفرهم وعنادِهم، ووقوفهم من الرَّسُولِ والمؤمنين موقف ذي عزّةٍ وشقاق، إلاّ صيحةً واحِدَةً تُهْلكُهُمْ، ولس لهذه الصيحة مُهْلَة، بين انطلاقها وإهلاكهم.

ويُطْلَقُ الفَواق والْفُواق على الوقت بين قبضتي الْحَالب للضَّرْع، وعلىٰ

ما يأخُذُ المحتَضَرَ عنْد النَّزْع، وكلّ المعاني ترجع بالتأويل إلى أنَّ صيحة الإهلال تَأْخُذُهم أخْذَةً واحدةً كَقَبْضَةِ الحالب للضّرْع، وهذه القبضة ليس لها فواق بعدها، فهي صيحة مهلكة بزَمَنٍ يَسِير جدّاً.

● قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾:

إنّ هؤلاء المعنيّين في السورة قَدْ كذَّبُوا الرَّسُول، وكذَّبُوا بما جاء به عن ربّه، وكذّبوا بنَبأ يوم الدّين، وكذّبُوا بالنُّذُر المعجلة.

قيل: وقد طَلَبُوا على سَبِيل الاستخفاف بالنُّذُر المعَجَّلة، استعجال ما أُنْذِرُوا به مِنْ عقابٍ في الدنيا، كالعقاب الذي أنزله الله عزّ وجلّ بالمهلَكِين الأوّلين، فقالوا أمام الرَّسُولِ وبعض المؤمنين: «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَاب» قالوا هذا القول على سبيل الاسْتِخْفَافِ والتحدّي للرَّسُول، وهم في الحقيقة لا يسألونَ الله أن يُنَزِّلَ بهم عقابه، ولكنّهم يَرَوْن كذِبَ الرَّسُول ويتحدَّوْنه، فقالوا مقالتهم هذه تعبيراً عن تكذيبهم، وتحدِّيهم للرسول.

القِطُّ في اللّغة: النصيب، وأصله الصَّكُّ الّذي تكْتَبُ به الجوائز والأرْزاق، وكان يكتب على قطعة من الجِلْدِ قُطَّتْ من جلْدٍ كبير.

فهم يستعجلون نصيبهم من العذاب تكذيباً واستخفافاً، ويتوهَّمُونَ أنَّ ما سيأتيهم من الله إنّما هي جَوَائِزُ وأرْزاقٌ، لا عَذابٌ وعقابٌ كما يُنْذِرُهم الرّسول.

وربّما يكون المراد أنّهم يسألونَ ربَّهُمْ أَنْ يُعْطِيَهُمْ كُلَّ حظوظهم في الدنيا، على اعتبار أنّهم يكَذِّبُون بأنباء يوم الحساب، وبهذا قال جماعة من أهل التأويل، ورجَّحَهُ ابْنُ جرير الطبري. والله أعلم.

* * *

(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (١٧ ـ ٤٨)

وتضمّن هذا الدرس معالجة الرسول محمّد ﷺ وتخييره بين نماذج من الرُسل، فما يختارُ من نموذجٍ يُيَسِّرُه الله له، ويَبْتَلِيهِ من خلاله، وفيه بعض بيانات علاجية للكافرين.

وقد قسَّمْتُ هذا الدَّرْس إلى خَمْس فقرات:

الفقرة الأولى: تتعلق بأمر الرسول محمد ﷺ بالصبر، وَعرض بعض قصة داود عليه السلام، وما جَرَىٰ له من امتحان، ومَا وصَّاه الله به بعد أنْ غفر لَهُ وجعلَهُ خليفةً في الأرض، مع ملحقات نافعاتٍ، ولها صلة بما جاء في الدرس الأول، وفيها بيانٌ للرسول محمد ﷺ.

وهي الآيات من (١٧ ـ ٢٩).

الفقرة الثانية: فيها عرض بعض قصَّةِ سليمان، وما جرى له من امتحان، وما وهبه الله من مُلْكٍ لا ينْبَغِي لأحد من بعده، بعد أن غفر له. وهي الآيات من (٣٠ ـ ٤٠).

الفقرة الثالثة: فيها عَرْض بَعْضِ قصَّةِ أيّوب عليه السلام، وما ابتلاه الله به، ثم رفَعَ عَنْه البلاء برَحْمَتِه، وأثنىٰ عليه بالصَّبْر وبأنَّه أوَّاب. وهي الآيات من (٤١ ـ ٤٤).

الفقرة الرّابعة: فيها الثناء العظيم، والتقويمُ الرَّفيع لإبْرَاهيم وإسْحٰق ويعقوب عليهم السلام، وفيها تَوْجِيهٌ ضمنِيٌّ للرسول محمدٌ ﷺ أن يختار لنفسه الاقتداء بهٰؤلاء الرُسل، بعيداً عن الْمُلْكِ والْغِنَى. وهي الآيات من (٤٥ ـ ٤٧).

الفقرة الخامسة: فيها الثناء على إسماعيل واليسع وذي الكفل عليه السلام بأنهم من الأخيار. وهي الآية (٤٨).

أوّلاً

التدبر التحليلي للفقرة الأولى من الدرس الثاني من دروس السورة وهي الآيات من (١٧ ـ ٢٩)

قال الله عزَّ وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ
مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ (١٨) وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ
ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ (٢٠) ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ
وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ
فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا
فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ (٢٥) يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ
(٢٦) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ
(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ
كَٱلْفُجَّارِ (٢٨) كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٩)﴾.

تمهيد:

في هذه الفِقرة يأمُرُ اللّٰهُ عزّ وجلّ رسُولَهُ بالصَّبْر، ويَعْرِضُ علَيْه فيها، نموذَجَ مَلِكٍ رسُولٍ هُوَ دَاوُد عليه السلام، وما تَعرَّضَ لَهُ خلال سُلْطَانِ مُلْكِهِ من فِتْنَةٍ وابْتِلاَءٍ، مع بَيَانِ التَّقْوِيم الرَّبَّانِيّ الّذي وضعه اللّٰهُ له، وجعله فيه على درجة من دَرَجَاتِ المحسنين، فوصَفَهُ بأنّه أوّابٌ، وقال بشأنه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

وفي هذه الفقرة يُبيّنِ اللَّهُ عزّ وجَلَّ أَنَّه جعَلَ داوُد خليفة في الأرضِ لِمَلِكٍ قَبْلَه، وخلافَتُه هٰذِه خلافَةٌ دينيةٌ مُعَانَةٌ، وأوصاه في خلافته بوصايا.

وفي هذه الفقرة بيانُ حِكْمَةِ الجزاءِ يوم الدّين، بعد الحساب وفصل القضاء، وبَيانُ أنّه ليس من الحكمة التسوية بين المصلحين والمفسدين، ولا بين المتقين والفجّار.

وختم الله هٰذه الفقرة ببيانٍ مُوَجَّهٍ للرَّسُول بصريحِ الخطاب، بشأن القرآن ذِي الذكر، وأبانَ لَهُ أنه كتابٌ مُبارَكٌ ليتَدَبَّر الناس آياته، وليتَذَّكرَ مَا فِيهِ أولُوا الأَلْباب فَيَعْمَلُوا بأوامره ونواهيه ووصاياه، ويَبْتَغُوا رِضْوانَ الله وجناتِ النعيم الخالد يوم الدين، في دَارِ كَرَامَةِ ربّ العالمين.

● قول الله تعالى لرسوله محمّد ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

جاء في الدرس الأوّل من دروس السورة، بيانُ أَنّ كُبَراءَ الّذين كفروا في مكّةَ اتَّهَمُوا الرسُول بأنّهُ سَاحِرٌ كذَّابٌ، وبأنّهُ ذو مصْلَحةٍ شخصِيَّةٍ مِنْ دَعْوَته، كَرَغْبَةِ الملْكِ وَحُبّ السُّلطان والْعُلُوّ في ٱلأَرض، وَبأَنَّ مَا جاء به من دَعْوَةِ التَّوحيد هو من افتراءاته الّتي اختلقها بدليل أنّ الملَّةَ النصرانيَّة الّتي وصَلَتْ إليهم تَحْرِيفَاتُهَا قائمةٌ على التثليث لاَ التوحيد، وزَعَمُوا أَنَّهُ غَيْرُ مؤهَّلٍ بحسَب وَضْعِهِ الاجتماعيّ في قَوْمِهِ لأَنْ يَصْطفِيَه اللَّهُ من بيْنِ قَوْمِهِ بالنُّبُوّة والرِّسَالة، فَيُنْزِلَ عليه القرآن الّذي يجب على الناس أن يجعلوه ذِكْراً لهم.

فأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بأَنْ يَصْبِرَ على ما يقولُونَ بشأنه، فلا يغْضَبَ ولا ينفعلَ ولا يَثُور، ولا يقابلَ شتائمهم بشتائم مُضَادّة، بل يُواجِهُهم بالْحِلْم والتغاضي، ومتابعة ما هو فيه من تبليغ رسالته للناس، والدَّعْوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالّتي هي أَحْسَن.

واستعمال الفعل المضارع: ﴿يَقُولُونَ﴾ يَدُلُّ على أنها أقوالٌ يكرّرُونها إعلامياً للصدّ عن الرسول ودعوته، ولتثبيطِه عن متابعة تأدِيَة رسالته، بإيذائه واستثارة غضبه.

والصّبْرُ المطلوب هُنَا يكُونُ بضبط نَفْسه عن عدّة أمور:

(١) بضبط نفْسِه عن مقابلة أقوالهم بمثْلِها، أو بأشَدَّ منها، أو بأقَلَّ وأخفَّ مِنها، لأَنَّ هٰذهِ المقابلَة تَجُرُّ إلى تَصْعِيد الشتائم، وتحوُّلِ الدَّعْوَةِ عَنْ مَسِيرِها.

(٢) وبضبط نَفْسِه عن إظهار الغضب والتأَثُّر والانْفِعَالِ منها، لأنّ ذلِكَ شيءٌ يَسُرُّهم، ويَشْفِي غَيْظَهُمْ، ويَجْعَلُهم يَزِيدونَ من توجيه هذا السّلاح القائم على السِّبَاب والشتائم ضدّه، وضدّ الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

(٣) وبضبط نَفْسه عن التحرُّكِ العمليّ للمقاومة بوسائل القوّة المادّيّة، فهٰذا من شأنِه التعجيلُ بإحداث المواجهاتِ المسَلَّحَةِ بين المسلمين وأعدائهم، قبل الاستعداد المكافىءِ لهذه المواجهات ضمْن سُنَنِ الله السَّبَبِيَّة، وهذا التعجيل رُعُونَةٌ تُفْضِي إلىٰ مَا لا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ في مسيرة الدعوة وانتشارها، وتُمَكِّنُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَمْعِها، مع اتّخاذ الذّرائع الإعلاميّة لهذا القمع مَهْمَا كان عنيفاً شدِيداً.

● وقد سبق أن أمَرَ اللّٰهُ عزّ وجل رسوله بالصَّبْرِ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) فقال اللّٰهُ له فيها: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

وهذا أَمْرٌ بالصَّبْرِ عامٌ غير خاصٍّ بما يقولُهُ الكافِرون عنه، وما يوجّهونه له من شتائم.

ثمّ في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فقال الله عزّ وجل له فيها:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾.

وتتابَعَتْ أوامر الله لرسوله بالصَّبْر، في مراحل التنزيل المكّيّ، والتنزيل المدني، ويُلْحقُ به حملة رسالته من أمته(١).

---

(١) انظر الفصل الأول (وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة الصبر) من الباب الثاني من كتاب «فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للمؤلف.

- قول الله تعالى: ﴿. . وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

ما جاء في هذه السورة بشأن داود عليه السلام، هو أول نصٍّ أنزله الله عزّ وجلّ في القرآن بشأنه، ثمّ أَنْزَل بَعْدَهُ تِسْعَةَ نُصُوصٍ أُخْرَى في مُنَاسَبَاتٍ متعدّدات، إلاّ أَنَّ ما جا عنه في سورة (ص) أكثرها بياناً عنه، وهي جميعاً فيما بَيْنَها متكامَلاَتٌ غَيْرُ مُكَرَّرَاتٍ، وعرضُها في دراسة متكاملةٍ يكْشِفُ هٰذه الحقيقة.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ فعل أمْرٍ معطوف على فعل: [اصْبِرْ] أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ ما سَنُبَيِّنُ لِكَ.

﴿عَبْدَنَا﴾ أي: الّذي صَدَق في عبُودِيَتِه لَنَا، مُسْتَشْعِراً عظَمة رُبُوبيَّتِنا، ومجتهداً في عبادَتِه لَنِا وطاعته لأوامرنا ونواهينا، دلّ على هذا إضافة «عبْد» للمتكلّم العظيم الرَّبّ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانه. وفي هذه الإضافة تشريف وتكريم له.

﴿دَاوُۥدَ﴾: هو النبيّ الرَّسُولُ الملِكُ، وهو من الرُّسُل المذكورين في القرآن المجيد، وهو من بني إسرائيل، من سبْط «يَهُوذا» بن «يعقوب» وهو إسرائيل عليه السّلام، بن «إسحاق» بن «إبراهيم» عليهما السلام.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾: أي: صاحبَ القُوَّةِ والشّدَّةِ بالنسبة إلى البشر.

الأيْدُ، والأْدُ في اللُّغة: القُوَّة. يقال لغة: آدَ فُلاَنٌ يَئِيدُ أَيْداً وآداً، إذا اشتَدَّ وقَوِي. ويقال: رَجُلٌ أَيْدٌ. أي: قَوِيّ. والتأييد التقوية، يقال لغة: أَيَدَهُ يُؤَيِّدُه تأييداً إذا قوَّاه.

وكان لداوُد قوّتان: قوّةٌ جسَدِيَّةٌ نادرة، وقوّة نفسيَّةٌ وإراديّة فائقة، فبقوته الجسديّة والنفسيّة قتل الجبّار المصارع المخيفَ «جَالُوت» بحجَرٍ رَمَاهُ به من مقلاعه، وبقوّته الجسَدِيّة كان يصْنَعُ بيَدَيْه الدُّروعَ من زَرَدِ الْحدِيد، وكانت له قُوىً جَسَدِيَّةٌ أُخْرَىٰ.

وكانت له عليه السّلام قُدْرَةٌ جسديَّةٌ ونفسيَّةٌ على قيام اللّيل طويلاً،

فقد كان يقومُ ثُلُثَ اللَّيْل يُصَلّي، كما في صحيح البخاري. وقُدْرَةٌ فائقة على الجهاد في سبيل الله ببسالة وشجاعةٍ وإقدام، فلا يَفِرُّ إذَا لاَقَىٰ العدوّ. وقُدْرَةٌ على الصّيام، إذْ كان يصُومُ يوْماً وَيُفْطِرُ يوماً. وكان يأكلُ من عَمَلِ يَدِهِ في صناعة الدُّرُوع. وكان له صوت قويٌّ عظيم، فائق الحسْنِ والجمال، يتَرَنَّمُ به في تَسْبيح الله وذِكْرِه في الوديان بُكْرَةً وعَشِيّاً، فتُرَدِّدُ الجبال صدَىٰ تَسْبِيحه وذِكْرِه لرَبّه بترنيم بديع.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: أي: إنَّهُ كان كَثِير الرُّجوع إلى مراقبة الله وَذِكْره وَطَاعَته، كلّما ابتَعَدَ عن ذلك ولو ابتعاداً قليلاً.

﴿أَوَّابٌ﴾: صيغة مبالغةٍ لاسم الفاعل «آيب» من فعل: آبَ يَؤُوب أوْباً وإياباً وَأَوْبَةً وأيْبة، إذا رجع، فمعنى «أوّاب«كثير الرُّجوع.

وقد أثنى اللّهُ عزّ وجلّ في القرآن على الأوّابين، أي: على الرّجاعين بالتوبة إلى الطاعة والاستقامة، وأبان أنّه غَفورٌ لهم، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

ووعد الله الأوّابين الحفيظين بالجنّة يوم الدين، فقال الله عزّ وجل في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: لكلّ رَجّاعٍ إلى رَبّه بالتوبة والاستغفار، حفيظٍ على حُقُوق الله عليه، مُهتَمّ بأدائها.

وفي سورة (صَ) الّتي نَتَدَبَّرُهَا وصف الله عزّ وجلّ كُلاًّ مِنْ دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ بأنَّهُ أَوَّابٌ، أي: كثير الرُّجُوعِ إلى الله، ولا يكونُ كثير الرُّجوع إلاَّ مَنْ كَانَ كثير عوارض الابتعاد، ولم يَرِدْ مثْلُ هذا الوصف في القرآن لِغَيْرِهم من الرُّسُل، إنمّا جاء وصف إبراهيم عليه السَّلامُ بأنَّه مُنِيبٌ،

من فعل «أَنَاب» بمعنى رجَعَ، ولم يأت في وصفه أنَّهُ «أوَّابٌ» بمعنى كثير الرجوع.

فهل في هذا الصنيع القرآنيّ إشارةٌ إلى أنّ اشتغال داود وسُلَيمانَ بالمُلْكِ وما فيه من زينة الحياة الدّنيا، واشتغالَ أيُّوبَ بأمور الدُّنيا، وجمْع الأموال الوفيرة، قد كان يُشْعِرهُمْ بأنّ ذلك يصرفُهم عن مُرَاقبة الله دَواماً، وذكْرِ الله دواماً، فيؤُوبُون إلىٰ الله تعالى ذاكرين مُرَاقبين له، ومُحَاسِبين لأنفسه، كُلَّما وجَدُوا أنفسهم مشغولين بأُمُور دُنياهم، وبالنَّظَرِ إلى تكرُّرِ هذا الأمر منهم، لتكَرُّر ما يكون منهم من اشتغالٍ بأُمُور دُنْيَاهم، خصَّهُم الله عزّ وجل بهذا الوصف «أوَّاب» دون سائر المرسَلِين المذكورين في القرآن المجيد؟؟.

هذا الفهم غير بعيد، ولعلَّ فيه توجيهاً ضمنيّاً للرسول محمد ﷺ أنْ لا يَطْلُبَ المُلْكَ، ولا المال الوفير من الدُّنيا، لئلاَّ يَشْغَلَه ذلك، فيَصْرِفَه عن مُراقبةِ الله وذكْرِه دواماً، فيحتَاجَ أن يكُون أوّاباً إلى رَبّه آناً فآناً.

ولهذا لمَّا عُرِضَ عليه المالُ الكثير الوفير، وأنْ تكون له جبال من الذهب، آثر الكفاف صلوات الله وسلاماته عليه، حمايَةً لِنَفْسِه من أن تشغله أمُورُ الدنيا عن رَبّه ومُراقبته والحضور معه دواماً.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾:

العشيُ: هو الوقت من الْعَصْر إلى غروب الشمس في الأرجَح.

الإشراق: هو الوقت الّذي يظهر فيه ضوْءُ الشَّمس واضِحاً بَعْدَ شروقها، وهو أوّلُ وقت الضُّحَىٰ.

تدلّ هٰذه الآية على أنّ الله عزّ وجلّ قد آتى داود عليه السّلام صوتاً نديّاً عظيماً حسناً، يملأ الوادي المحاط بالجبال، إذْ كانَ يترنّم به مسبّحاً ذاكراً رَبّه بالزَّبُور بالعشيّ والإِشْرَاق، فتُرَدِّدُ الجبالُ صدَىٰ صوته تسبيحاً

وذِكراً، بما جعل الله عزّ وجلّ فيها من تسخير لرَجْعِ الصَّوْت، إذْ تحكي تسبيحه، فيتردَّدُ التسبيح والذّكْرُ بين الجبال على مثْلِ ما ينطلقان منه، دلّ على هذا قول الله تعالى: ﴿مَعَهُۥ﴾ ولم يقُلْ: له.

وكان من عادة داوُد عليه السّلام أن يتَرنَّم بتسابيحه وذِكْرِه بمزامير الزّبور بالْعَشِيّ والإشراق في الوِدْيان بصوْتٍ عالٍ جميل صدّاح، فترجّع الجبال صدَىٰ صوته النَّدِيّ الحسن.

فدلّ هذا البيانُ على أنّ الله عزّ وجلّ قد منح داوُد هذا الصوت المتميّز، وأنّ داوُد كان يستَعْمِلُه في التّسْبيح والذّكر مترنّماً بآياتِ الله في الزَّبُور، بالعشيّ والإشراق.

ولهذا التسخير الوارد في الآية احتمالان:

(١) إمَّا أن يكون بمَنْح داوُدَ الصَّوْت العظيم، الّذي تَنْتجُ عنه مُسَخَّراتُ الأصْداء، وهُو الأرجح.

(٢) وإمَّا أن يكون بجَعْلِ الجبال تُرَجِّعُ معَهُ زِيَادَةً على قانونها المعتاد في التسخير، والله على كلّ شيءٍ قدير.

● قول الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٩﴾:

أي: وسَخَّر الله عزَّ وجلَّ أيضاً لداوُدَ عليه السَّلام الطَّيْرَ مَحْشُورَةً (أي: مجموعة له) لاستماع ترانيمه الحسنة النديّة المطربة، فتسْكُنُ صَوَافَّ في الجوّ مستَمِعَةً لصوته، وقد تترنّم معهُ وتصلّي وتسبّح، فإذا انتهىٰ انصَرفت إلى مواطنها وأعشاشها وأرْزاقها، وفي الوقت المخصَّص لنَوْبَة الإشراق أو العشيّ التي يترنّم فيها تؤُوبُ له، فتسْكُنُ صوافَّ في الجوّ لتَتَسَمَّعَ وتترنّم وتسبّح وتصلّي، كلُّ قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه.

الحشر: هو الْجَمْع والسَّوْق. **فالمحشور**: هو المجموعُ المسُوقُ

لمكان الحشر، فدلَّ هذا على وجود حاشرٍ يحشُرُها، وقد يكون دافعاً ذاتيّاً فيها خلقه الله في أجهزتها الداخليّة، وهي دوافع نفسيَّة فيها.

والمراد بعبارة: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ جنس الطير، وهو ينطبق على صنف من الطير يَقْطُنُ في مدَىٰ صَوْته، وعلى أصنافٍ من الطير، وليس المراد كلَّ الطَّيْرِ في عُموم الأرض.

﴿مَحْشُورَةً﴾: أي: وسخّرْنَا له الطير حالةَ كَوْنِها مَحْشُورة.

وقد جاء في أخبارٍ متعدّدَةٍ عن جماعةٍ من السَّلَف، أنَّ داوُد عليه السّلام قد أُعْطِيَ من حُسنِ الصَّوْتِ ما لَمْ يُعْطَ أحَدٌ قَطُّ، حتى إنّ الطَّيْر والْوَحْشَ ينْعَكِفُ حولَه لاستماع ترانيمه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنّ أبا موسَىٰ الأشعريَّ قد أُعْطِيَ مزماراً من مَزامير داوُد عليه السلام، أوْ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُد.

رواه أحمد وابن ماجه في سننه وغيرُهما، وله أصل في صحيحي البخاري ومسلم.

رواه أحمد وابن ماجه في سننه وغيرُهما، وله أصل في صحيحي البخاري ومسلم.

فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال له:

«يا أَبَا مُوسَىٰ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْماراً مِنْ مَزَامِير آلِ دَاوُد»(١).

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: التنوين في لفظ ﴿كُلٌّ﴾ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: كُلُّ الطَّيْرِ المحشورة لاستماع ترنيماته في التسبيح والذّكْرِ، أوَّابٌ لَهُ

---

(١) الجامع بين الصحيحين رقم الحديث (٣٦٦) جمع وترتيب «صالح الشامي».

كُلَّ صباحٍ ومساء، فدلّت صيغة «أوَّابِ» التي هي من صيغ المبالغة. على كثرة رُجُوعِها له في نوبات تسبيحه وذكره في العشيّ والإشراق.

- قول اللّهِ تعالىٰ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

في هٰذه الآية بيان ثلاث مِنَنٍ امْتَنَّ الله بها على داود، غير منّتَيْ تَسْخير الجبالِ يُسَبّحن معه بالْعَشيّ والإشراق، وحَشْرِ الطَّيْرِ كلٌّ له أوَّاب، اللّتين سبَقَ شَرْحُهما وتَدَبُّر ما يتعلّقُ بهما.

والمنَنُ الثلاث المبيَّنةُ في هذه الآية (٢٠) هي ما يلي:

المـنّةُ الأولى: دلَّ عـليـهـا قـول الله تـعـالـى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: أي: جعلنا مُلْكَهُ مُلْكاً شَدِيداً قويّاً، وأعَنّاهُ على القيام به ثابتاً قَوِيّاً.

يقال لغة: شَدَّ الشَّيْءَ وشَدَّدَه، أي: قَوَّاهُ بِمَعُونَتِهِ ومؤازَرته وإمْداداته.

وشدُّ مُلْك داود عليه السلام قد كان:

- بمنْحِهِ الْهَيْبَةَ وَقُوَّةَ السُّلْطان.
- وبمَنْحِهِ الجُنْدَ والأنْصارَ والمحبّينَ والأعوان.
- وبخَذْلِ أعدائه وخُصُومِه ومُنَافِسِيهِ، وإلقاء الرُّعْبِ في قُلُوبهم من سَطْوَتِه وَقُوَّةِ جُنْدِه وسلطانه.

المنّة الثانية: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾:

الحكمة الّتي آتاها الله عزّ وجل لداود ترجع إلى العناصر التالية وهي:

(١) تعاليم الدّين الحكيمة، والالتزام بها، والعمل بوصايا الله التي أوصاهُ بها.

(٢) حُسْنُ الإدارة والسِّياسة في مُلْكِه.

(٣) التزامه بأحكام العدل، والحكم بالحقّ، وعَدَم اتّباع الهوى.

(٤) الدَّعْوة إلى سبيل الله باستعمال أحسن الأساليب التي يُرْجَىٰ منها أَنْ تُعْطي أفضل النتائج.

(٥) معرفة أفضل الأشياء مُلأَمَة أو مُطابَقَةً لما تُطْلَب له.

والحكمة ترجع إلى جذرين:

الجذْرُ الأول: الحكمة في المعرفة.

الجذر الثاني: الحكمة في السُّلوك، سواءٌ أكان خُلُقاً، أم عملاً جَسَدِيّاً، أم تصرُّفاً في قولٍ، أو إفتاء، أو حُكْمٍ، أو سياسة، أو إدارة، أو تجارة، أو غير ذلك.

وتكون الحكمة في السُّلوك بممارسة الأحسن والأفضل دواماً، ممّا توجّه له الحكمة في المعرفة، بحسب الاستطاعة، وضمْن حدودها(١).

المنّة الثالثة: دلّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: أي: وآتيناهُ الخطَابَ الْفَصْل، وهو الكلام البليغُ المحرَّرُ المعاني: الفاصِلُ في القضايا الّتي يُبيّنُها في كلامه. المطابق للحكمة المعرفيّة الّتي آتاهُ اللّهُ إيّاها.

* * *

قول الله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

تمهيد:

خطابٌ للرسول ﷺ أوّلاً، فلُكُلِ مُتلَقٍّ على سبيل الخطاب الإفرادي، وفي هاتين الآيتين شروعٌ في عَرْضِ قصَّةِ تَنْبيهٍ رَبانيّ نَبَّهَ الله عزّ وجلّ به داود عليه السلام، بشأن سلوكٍ جرَىٰ منه استدعىٰ هذا التَّنْبيه، من خِلالِ

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (القمر/ ٣٧ نزول) حول الحكمة في القرآن.

تحكيمِه في قضيَّةٍ مشابِهَةٍ لما جَرَىٰ منه، عَرَضها عليه خَصْمَانِ اقتحما علَيْهِ خلوته في محرابه وهو يَعبُدُ ربَّه، ولم يكن من عادته أن يقتحم عليه وهو في خَلْوَته أحد، إذْ كان يمنع من ذلك، ويأمرُ حُرَّاسه بأن لا يأذَنُوا لأحد بالدُّخول عليه. والحكمُ الّذي لا بُدَّ أن يحكم به في هذه القضيَّة يُشْعِرُه بأنّه يحكُم به على نفْسِه في السلوك الذي جرى منه.

وهي طريقةٌ حكيمةٌ من طُرُق التربية الرَّبَّانيَّةِ للمقرَّبين، إذا وقَعَتْ منْهم هفواتٌ لا تليقُ بمقاماتهم.

وقد تزيَّد الإسرائيليُّون في رواية الهفوة التي جَرَتْ من داوَد عليه السّلام، كعَادتهم في اتّهام أنبيائهم ورُسُلِهم بالكبائر، ذريعةً لتهوين كبائِرهم وموبقاتهم الّتي يرتكبُها كَهَنَتُهم وأحبارُهم ورُؤساؤهم ومُلوكهم.

وقد جاء بيان هذه القصّة الّتي تزيّد الإسرائيليُّون فيها، في الإصحاحين الحادي عشر، والثاني عشر، من سِفْر صَمُويل الثاني، فَنسبُوا إلى داود عليه السّلام أنّه ارتكبَ الفاحشة مع زوجة أحد قادَتِه الكبار المخلصين، واسْمُه: «أُورِيَّا الْحِثّي» ثُمّ دبَّر ضدَّه مكيدة التخلُّص منه في مَعَارِكِ الجهادِ في سبيل الله، ثُمَّ تَزَوَّجَ من زَوْجته وضَمَّهَا إلى نِسائه، وأَمَاتَ الله الولَد الّذي حمَلَتْ منه بالزّنا، ثم ولَدَتْ له ولداً سمَّاه: «سُلَيْمان» وهو الذي وَرِثَ المُلْكَ بَعْدَ أبيه.

فإذا جرَّدْنَا من هذه القصَّة الإسرائيليَّة ما زاده الإسرائيليون افتراءً على داوُد عليه السلام، ممّا لا يليق بمقام النبوّة، وأضَفْنَا ما تَدُلُّ عليه قصَّةُ خَصْمَي التحكيم القرآنيَّةِ، بقي من الْقِصَّةِ ما يُمْكِنُ أن ينْسَجِم معه ما جاء في القرآن من مُعَاتَبة الله عزّ وجلّ لداودَ على سلوكٍ جرَىٰ منه.

وبالتجريد من الزوائد الإسرائيليّة يمكن أن نُصَوِّر القصّة على الوجه التالي:

رأى داوُد عليه السّلام عرضاً ومن دون قَصْدٍ منه زوجة «أُورِيَّا الحِثّي» أحد قواده الكبار، وكانت امرأةً حَسْناء، فاستحْسَنَها وتمنّاها، وخَطَرَتْ له خواطِرُ من الأماني، ورُبّما سأله أَنْ يتنازَلَ له عَنْها، فلمّا سقط «أُورِيَّا الحِثّي» قتيلاً في المعارك الجهاديَّةِ وجد في نفسه راحَةً بما جَرَىٰ، ثُمّ خَطبَ هذه المرأة الّتي اسْتَحْسَنَها ضمن أحكام الزواج الشرعي، وضمّها إلى نِسائه بزواجٍ شَرْعيٍّ، فولَدَتْ له سليمان عليهما السلام.

وجاء في سِفْر «صَمُويل الثاني» أنّ اسْمَ هٰذه المرأةِ «بَثْشَبَع بنت أَلِيعَام».

وغيرَّ الإسْرَائيليُّون في قصَّةِ الخصمَيْن، وأوردوها حكايةً عرَضَها فيما زعمُوا النبيُّ «نَاثَان» على داوُد، فغضب من حالِ الخصْم المعْتَدِي على صاحبه، فأمَرَ بقتله، فقال له: «نَاثَان»: أنْتَ هو الرَّجُلُ الذي فعل ذلك.

إلى غير ذلك من تغييرات وتلفيقات وتحريفات، وهم يَزْعمونَ أنّ داود عليه السّلام مَلِكٌ فقط وليس نبيّاً ولا رسولاً.

أمّا قصّةُ الخصْمَيْن كما جاءت في القرآن، وأشارت ضِمْناً إلَىٰ ما كان من داوُد عليه السلام، دون بيانٍ لها، فهي أنّ داود عليه السلام كان في خَلْوَته في محرابه، في يوم أو وقت لا يأذَنُ لأحدٍ بأن يدخُل عليه فيه، لئلاّ يعكِّرَ علَيْه خلوته بربّه، وهو مجْتَهِدٌ في الذّكر والتسبيح والْعِبَادة وتلاوة آيات الله المنزّلات، ولا بُدَّ أنْ يكون قد جعل على الأبواب حُرَّاساً، فهم لا يمكّنُون أحداً من الناس أن يَدْخُلَ عليه في أوقات خلوته.

فبعث الله ملائكةً علىٰ صورة بشرٍ، فتسَوَّرُوا عليه سُور مَكَانِ خلْوته، من أَمْكِنَةٍ لا تقع عليها عُيُونُ الحرّاس، واجتازوا السّاحة، ودخَلُوا الغرفة الخاصّةَ بخلْوته الّتي يَعْبُد الله فيها، دون استئذان منه.

فأفْزَعَتْهُ منْهُم هذه المباغَتَةُ، وسبَقَ إلى ظَنّهِ أنّهم يُريدون به شرّاً، للتخلّص من مُلْكِه.

إنّ عارضةَ الْفَزَع هذه في مثل الحالَةِ التي هو فيها، ولا سيما إذا كانت ليلاً، تكون رَدَّ فعْلٍ تِلْقَائيٍّ طبيعيّ، ولو كان من أشجع الناس وأكثَرِهم بأساً، ولو كان نبيّاً رسولاً، ولا سيما إذا كان مستغرقاً في ذكره وتأمُّلاته ومُنَاجَاته لرَبّه.

وأدرك الملائكة الداخلون عليه ما أصابَه من فزع، ومع أوّل اللّحظات قالوا له: لا تخف. أو قال متكلّمهم عنهم جميعاً ذلك. وأتْبَعُوا طمأنته ببيان الغاية من دُخولهم علَيْهِ قائلين: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

﴿خَصْمَانِ﴾: أي: نحْنُ أصحابَ الغرض من الدُّخولِ عليك خَصْمان جِئْنَا نَتَقَاضَىٰ عِنْدَكَ، فاحكُمْ بَيْنَنا بالْحَقّ، ولا تَجُرْ، واهْدِنا إلى الصراط المستقيم بعْدَ نُطْقِك بالحكم.

فحكم بينهما، وانصرف الخصمان، وراجع داود نفسه، ففطِنَ إلى أنّ الله عزّ وجلّ قد امتحنه ونبَّهَهُ بهذا الإجراء على خَطِيئَتِه، فاستغفر ربَّهُ وخرَّ راكعاً، وأنابَ ساجداً، فغَفَرَ الله له ذلك الذي كان منه.

التدبُّر التحليليّ للنصّ:

- قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ في هذه العبارة شروع في عرض قصّةٍ تتعلّق بداود، بأسلوب الاستفهام عن العلم بنبأ حادثة جرَت له.

ونُلاحظ في اختيار هذا الأسلوب التنويعَ البديع، فقد كان الكلام قبله في السّورة عن داود بأسلوب الرّواية الخبريَّة، وبعْدَه انتقل إلى أسلوب الاستفهام عن نبأ حادثة جرَت له.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾؟ أي: يَا محمَّد، ثُمَّ يا كُلَّ مُتَلَقٍّ لهذا البيان، فهو خطاب لكلّ متلَقٍ بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، ﴿أَتَىٰكَ﴾ أي: جاءَكَ.

الإتيانُ والمجيءُ يستعملان في الحسّيّات المادّية، وفي غيرها من المعنَوِيّات والفِكْرِيّاتِ.

﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾: **النَّبأُ**: هو الْخَبَرُ البارزُ ذو الأهميَّةِ اللاّفِتُ للانتباه.

الْخَصْمُ: هو المخاصِمُ حول قضيّة من قضاياَ الحقّ، مطالباً، أو مَدافعاً، أو مدّعياً البراءة، أو نحو ذلك. ولفظ «**الْخَصْم**» يسْتَعمل هكذا في المفرد والمثنىٰ والجمع والمذكّر والمؤنّث، وقد يُثَنَّىٰ فيقالُ: خَصْمَان، وقد يجمع على خصوم، وخُصَماء، وخُصْمان، ويطّرِدُ فيه «خِصام» مثل: كلْبِ وكلاب، وصَعْبِ وصِعَابِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾. أي: ألَدُّ المخاصِمِين.

- ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: وقْتَ تَسَوُّرِ جماعَةِ الخصمين المحراب. دلَّتْ هذه العبارة على أنَّهُمْ كانُوا جماعَةً، وهم المتخاصِمَانِ، وبيّنَةُ المدَّعِي (شاهدان علىٰ الأقل).

﴿تَسَوَّرُوا۟﴾: أي تَسَلَّقُوا سُورَ المحراب، ودخَلُوا إلى الساحَةِ الداخليّةِ بوسيلةِ تَسَلُّق السُّور واجتيازه، لاَ عن طريق الأبواب، لأنّ الأبواب مقفَلَةٌ ومحروسة، ولحكمةٍ ما فَعَلُوا هذا، إذْ كان باستطاعتهم وهم ملائكة أن يكونوا داخل المحراب دون وسيلَةِ التسلّق، ولعلَّ الحكمة أن يراهم بعض الناس من غير الحرّاس، فيُشيعُوا أنّ بعض المتسلّقين دخلوا على داوُد وهو في خَلْوته في محرابه.

السُّور: هو كلُّ ما يحيط بشيء، ويكون مانعاً من العبور الطبيعيّ دخولاً وخروجاً، سواءٌ أكان بناء أمْ غير بناء، ويُجْمَع «سُور» على «أسوار» كأسوار المدُن، وأسوار القصور، وأسوار الحدائق والبساتين، ونحو ذلك.

﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: قالوا: المحرابُ ارْفع مكانٍ في الدّار أو المسْجِد، وهو في البيوت غُرْفةٌ عالية منعزِلَةٌ يُرْتَقَىٰ إلَيْها. ومحراب المسجد صَدْرُه، وأشْرَفُ مَوْضِع فيه.

وقيل: المحرابُ الموضع الذي ينْفَرِدُ فيه الملِكُ، فيتباعد من الناس.

قال الأزهريُّ: وسُمّي المحرابُ مِحْرَاباً، لانفراد الإمام فيه وبُعْدِه عن الناس.

من هذا نستدلُّ على أنَّ محراب داود عليه السلام قد كان بناءً خاصّاً لخلوته بربّه وعباداته، وكان ضِمْن ساحةٍ مُحَاطَةٍ بسُورٍ له بابٌ أَوْ أبوابٌ تُقْفل وتُحْرَسُ.

رُوِي عن ابن عباس⁽¹⁾، أنّ داوُد عليه السلام جزّأ أَزْمانَهُ أَرْبعَةَ أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواصّ أموره، ويوماً لجميع بني إسرائيل، فيعِظُهُمْ ويُبْكِيهم.

● ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾: يدلُّ تكرير «إذْ» الظرفيَّة الزَّمانيَّة، في العبارتين: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ على أنّ مِحْرابَهُ يقَعُ في بناءٍ حولَهُ ساحةٌ فارِغَةٌ، وهذه السَّاحة مُحاطَةٌ بسُورٍ، وأنّ هؤلاء الملائكة الّذين جاءُوا علىٰ أشْكَالِ وصُوَرِ بشر، تَسَوَّرُوا أوّلاً السُّور، واجتازُوهُ إلى السَّاحة، وأنّهم مَشَوُا المسافة حتّى بلغُوا مكان محرابه، ففتحوا الباب الذي لا حُرَّاسَ عليه، ولا قفل له ودَخَلُوا عليه.

فكلمة «إذ» الأولى دلّت على وقت التسوّر، وكلمة «إذْ» الثانية دلّت على وقت دخولهم المحراب، وبهذا الفهم نتفادى التأويلات الّتي لا داعيَ لها.

● ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾: أي: حصل له فزعٌ تِلْقَائِيٌّ من مباغَتَتِهِمْ له، بدُخولهم عليه وهو في خلْوَتِه، واستغراقه في عباداته ومناجاته لربّه، وهذا أَمْر طبيعيٌّ يحصُلُ لكلُّ الناس مهْما كانوا شُجْعاناً، ولو كانوا أنبياءَ ومُرْسلين، فَلا يتنافَىٰ هذا الفزع من كمالات النبوّة.

---

(١) كما جاء في البحر المحيط وغيره.

والظُّنونُ الجالبة لهذا الفزع في مثل الحالة الّتي كان عليها داود عليه السّلام في محرابه كثيرة.

الفزع: الخوفُ والذُّعْرُ.

- ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾: أي: لا داعيَ للخَوْف، فإنَّنا لمْ نَدْخُلْ عليك بِشَرٍّ أو ضُرٍّ أَوْ أذىٰ.

- ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: أمرنا أو شأننا أننا خصمان، بغَىٰ بعضُنا على بعْضٍ.

البغيُ: تجاوز حدّ الحقّ، والاعتداءُ، والظُّلْم، يقال لغة: بغَىٰ عليه يَبْغِي بَغْياً، ولا بدَّ أن يكون الناطقُ بهذا القول من الخصْمَيْن هو مَنْ يدّعي أنَّ الظُلْم وقَعَ عليه، ولكِنْ أبْهَمَ فقال: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لِيَتْرُكَ لداود حُرِّيَّة إصدار الحكم الذي يَراه في قضائه بينهما.

- ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾: طلبوا منه أَمْرَيْنِ:

الأول: أن يَحْكُمَ بالحقّ، أي: بما يَراهُ حقّاً، وهذا إيجابي بجانب الحق.

الثاني: أنْ لا يُشْطِطَ، أي: أن لا يجوز ولا يَظْلِمَ، وهذا سَلْبِيٌّ لتحذيره من الظلمْ والجور.

الشَّطَطُ: مجاوزة القَدْر والحدّ في كلّ شيءٍ له قَدْرٌ وحَدٌّ.

والشَّطَطُ: الظلْم والجورُ في الحكم.

يقال لغة: «**أشَطَّ**» في حُكْمِهِ أو في قَضَائه، ويقال أيضاً: «شَطَّ» أي: جار وخرج عن واجب العدْل.

ويقال: «شَطَّ» و «أَشَطَّ» في سِلْعَتِه، إذا جاوز القدْر وتباعَدَ عن الحقّ.

ولكن ما فائدة مطالبتهم له بأن يَحْكُمَ بالحقّ، وبأن لا يَجُورَ في حكمه، ومثل داود عليه السلام لا يُنْتَظَر منه أن يحكُمَ بالباطل، ولا أنْ يَجُورَ؟.

أما كان يكْفِي الاقتصار على أحد الأمْرَين، لأنّه إذا حَكَمَ بالحقّ لم يكُنْ جائراً؟؟.

أقول: لمَّا كان المتقاضيان عنده مَلَكَيْن في حقيقة أمْرِهما، وقَدْ جاءَا لِمَوْعِظَتِه، وتنبيهِهِ على ما كان منه في مشابه قضيتهما، ولمَّا كان من معاني الشطط تجاوُزُ القَدْرِ الذي يليق بمثله، إلى ما لا يليق بمثله، ولو لَمْ يكن فيه مجاوزة لحدود الحقّ، كان من الحكمة أن يُقَدِّما له في الكلام ما يتضمَّنُ دَلالات رَمزيّةً علىٰ أنّ ما كان منه قد كان من قبيل الشطط في التصرّف، باستغلال سلطته في الملك، ولو لَمْ يجاوز فيه حُدودَ الحقّ فيما يظهر، فمن الحقّ ما هو شطَطٌ لا يليقُ بنَبِيٍّ رسُول، مسْؤول عن المحافظة على مرتبة المحسنين.

● ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: أي: وبَعْدَ أن تَنْطِقَ بالحكم الّذِي تَراهُ في قضيتنا، وَجِّهْ لنا الإرْشادَ والنُّصْح المناسب الذي يَهْدِينا إلى التزام سواء الصِّراط، هدايةَ دلالَةٍ وإرشادٍ وترغيب في الخير، وترهيب من الشرّ والإثم.

سواءُ الصراط: هو الصراط المسْتَوِي المستقيم الّذي لا الْتِواء فيه، ولا تعرُّجات ولاَ تَشَعُّبَات.

والمراد صراط السُّلوك في الحياة، وأصْلُ الصراط الطريق الواسع الواضح، ونُقِلَ في الاصطلاح الدينيّ إلى ما ينبغي أن يَعْمَلَه الإنسان في حياته من سلوك نفسي وفكريٍّ وجَسَديٍّ ظاهر.

وهذا الطلَبُ التوجيهيُّ يرمُزُ ضمناً إلى أنّ الخصمين ومن معهما هم رُسُلٌ من الملائكة، أرْسَلَهُمُ الله إليه لتذكيره، وموعظته، وتعليمه أصُول

القضاء، ولإشعاره بخطيئته الّتي كانت منه، لذلك كان في كُلِّ قولٍ وعَمَلٍ منهم دلالَةٌ رمْزِيَّة لمَا جاءُوا من أجْلِه.

ويظهر أن دَاوُد عليه السلام لمّا هدأَت نَفْسُه، أجْلَسَ الخصْمَيْن ومن معهما في مجلس قضاء، لِيَقضي بينهما، وسأَلَهُما عن خصومتهما.

ونلاحظ من حِلْمِه وسَعَةِ صدْرِهِ وكمالِ عقْلِهِ أنّه لم يُعَاتب القوم على الدُّخول عليه بغير استئذانٍ في وقْت خلْوته، ولم يسأَلْهُمْ كيفَ دخَلُوا عليه مع أنّ الأبواب الخارجيَّةَ مقْفلَةٌ، والحرَّاسَ يراقبون ولا يمكّنُونَ أحداً من الدُّخول عليه بغيْرِ إذْنٍ منه.

● ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: قال المدّعي مِنَ الخِصْمَيْن الّذِي يشْكُو خَصْمه: إِنَّ هٰذا أخي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً ولِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ.

لقَدْ ذكَر أنَّ خَصْمَهُ أخٌ له، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ ويُريد بذلك أنَّهُ أَخُوه في الدّين على ما يظهر، أي: ليس هو من الكفّار الأعداء، ولسْتُ أنا من الكفّار الأعداء المقاتلين حتَّىٰ يسْتَبيح حُقُوقي.

وأشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ ليَبيِّن أنَّه يَدَّعي عليه حضُوريّاً، وأنَّهُ هو عينُه المدَّعىٰ عليه، ولَيْسَ وكيلاً ولاَ نَائباً عنه.

﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: قرأ حَفْصٌ ﴿وَلِىَ﴾ بفتْحِ ياءِ المتكلّم، وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

النَّعْجَةُ: هي في اللّغةِ الأنثَىٰ من الضَّأْن والظّبَاءِ والشَّاءِ الْجَبَلِيّ، والبقر الوحشيّ، والجمْعُ نِعَاجٌ، ونعجات.

والعربُ تُكَنّي بالنَّعْجَةِ والشَّاةِ عن المرأة.

روىٰ ابْن جريرٍ الطبريّ عن السُّدّيّ أنّ داوُد عليه السّلاَمُ كانَ له تِسْعٌ وتِسْعون امرأة، فإنْ صحّ هذا الخبر فإنَّنا نَلْمَحُ أنَّ الملَكَ المتمثّلَ بصُورَةِ المدَّعي على أخيه قد استخدم العدد المطابق لعَدَد نساء داود عليه السلام، أمّا هو فليس له إلاّ نعجةٌ واحدة، كما أنّ «أورِيَّا الْحِثّيّ» لَيْسَ له إلاّ زَوْجَةٌ واحدة. ونلاحظُ أيضاً أنّه استخدَمَ لفظةً تَدُلُّ على الأنْثىٰ من الضَّأنِ أو الظباء أو نحوهما، وتدلُّ بالتوسُّعِ على المرأة، لِيتمَّ التّتابُعُ الرَّمزيُّ في عَرْض القضيّة.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾: أي: فقال لي أخِي هـذا: ﴿أَكْفِلْنِيهَا ﴾: أي: اجْعَلْها تحت كفالَتي، ضِمْنَ حَظِيرة نعاجي، وتنازَلْ أنْتَ عنها.

ولم يأت في التعبيرِ ملّكْنِيها، ولاَ هبني إيَّاها، ولا بِعْنِي إيَّاها، ليدُلَّ التعبيرُ على المعنَيَيْنِ: الْمَعْرُوضِ في الظاهر، والمرموز له في الباطن.

فالمعروضُ في الظّاهر أنّ صاحب النعاج التِّسْعِ وتسعين، قَدَّم طلَبَهُ نعجَة أخيه مقْرُوناً بذَرِيعةٍ تُقْبل، إذْ قال لأخيه: إنَّك صاحِبُ نَعْجَةٍ واحِدَةٍ، وليس لديْكَ استعداداتٌ لرِعايَتِها وحِمَايَتِها والقيامِ بما تحتاج إليه، أمّا أَنَا فعِنْدي كُلُّ الوسائل لذلك، وأنَا أُعَوِّضُكَ بما يجْعَلُكَ في غِنىً عنها، هذه ذريعة يمكِنُ أنْ تُقْبل.

والمرموز إليه في الباطنِ أنَّ داود الّذي لَدَيْه تِسْعٌ وتِسْعُون امرأةً، واسْتَحْسَن أنْ يَضمَّ إلَيْهِنَّ زَوْجَةَ «أورِيَّا الْحِثّيّ» بوسيلةٍ ما، وقد تكون هذه الوسيلة أن يطلب منه أن يطلّقها برضاه دون إكراه، فإذا صارت خليّة من زوج، وجاز لداود أن يخطبها ويتزوّجها، ضمَّها إلى زوجاته، وتُشِيرُ عبارة: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ إلىٰ أنّها إذا صارت زوجةً له كانت في كفالَتِه، لا في مِلْكه، فإنَّ الزوجات لا تُمْلَك.

ورُبّما كانت ذَريعته في الظّاهر أنّه قال لزوجها «أُورِيَّا الْحِثّي» أنت

رجُلٌ من المجاهدين الأبطال، وأنت في مُعْظَم أوقاتك منْصَرِفٌ إلىٰ الجهاد في سبيل الله، وفي معارك القتال، وزوجتُك في بيْتِكَ وحيدةٌ لا حامِيَ لها ولاَ حارسَ، وليسَ عندَها مَنْ يكْفُلُها، فَمِنَ الأحسن لك ولها أنْ تكون ضِمْنَ نِسَائي، في كفالَتي وتحت حمايتي، ومتى عزمت على الاستقرار عوضناك بمن تُحِبُّ من النساء.

فدلّت هذه العبارة على المعْنَيَيْن: المعنى الظاهر، والمعنى المرموز إليه، بطريقة بارعة بديعة جدّاً، فكأنَّها سهْمٌ ذو فرعْين يصيبان هدفين برمية واحدة.

﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾: أي: وغلبني وقَهَرني في مخاطبته ومحادثته لي.

يقال لغة: عزَّهُ يَعُزُّهُ عَزّاً، إذا قَهَرَهُ وغَلَبَهُ.

وهُنَا نتساءَلُ: كيف تكونُ الغلَبَةُ والْقَهْرُ في الخطاب، مع أنَّ الحقّ في القضيَّة المعروضة ظاهرٌ لصاحبِ النَّعجة الواحدة، وليْسَ فيها شُبُهاتٌ يتمكَّنُ منْ خِلاَلِها الطَّامعُ بالنعجة الْمُكَمِّلَة المئة عنْده، أن يُزَيِّنَ بحُسْنِ بيانه وعرضِه حُجَجاً يَغْلِبُ بها أخاه، الذي هو خَصْمُه في هذِهِ القضيَّة؟؟.

وبالتأمُّل التّدبُّريّ ينكشِفُ لنا أنّ بعْضَ الكلام يكون ظاهِرُه عرضاً، ولكِنَّهُ في باطِنِه مُلْزِمٌ، لأنَّ مَنْ يُوجَّهُ له لا يَسْتَطِيعُ مخالفته.

كأن يطْلُبَ الأَبُ على سبيل العرض من ابْنِه أمْراً أو شيئاً، أو يَطلُبَ الأخ الأكبر ذو الولايَةِ من أخيه الأصغر الذي ما زال تحت ولايته أمراً أو شيئاً، فالابْنُ البارُّ، والأخ الأصغر البارُّ، لا يملكان إلاّ الطَّاعة، وهما كارِهَانِ مَغْلُوبَانِ، على الرُّغْمِ من أن الطَّلبَ قد جاء على سبيل العرض مع التخيير بحسب الظاهر.

وأشدُّ من ذلك أن يطلُبَ ذو السُّلْطانِ أو الملِكُ من بعْضِ مُحِبّيه

ومعظّميه من رعيّته أمراً أوْ شيئاً لنفسه، فإنّه لا يَمْلِكُ إلاّ الموافقة السَّريعةَ والطّاعة، ولو كان طلبُه على سبيل العرض لا الأمْرِ الإلزاميّ، وهو مع موافقته الظاهرة قد يكون كارهاً غَيْر راضٍ.

فإذا سُئِلَ: كيْفَ وافقتَ وأنت كارهٌ؟. قال: وهل أمْلِكُ أن لا أوافق، أنا مضطَرٌّ مغلُوب، فلو أنني رفضتُ لأغضَبْتُ سلطاني أو مَلِكيّ، فتعرَّضْتُ بسبب غَضبه لأُمورٍ هيَ أشَدُّ عليّ ممّا أتخلّىٰ عنه لأجْلِه، وأنا في قَلْبي كارهٌ غَيْر موافق.

فكان من الإبداعِ في البيان، للدّلالة على العرض التَّخْييريّ في ظاهره، الملْزِم في باطنه، عبارة ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ ولكِنَّ هٰذِه المعاني التي سَبقَ بيانُها لا تُسْتَخْرَجُ إلاّ بالتَّأمُّل الدقيق.

ولا بُدَّ أن يكونَ دَاوُد عليه السّلاَمُ قد تَثَبَّتَ من أنّ صاحب النعْجَةِ الواحدة هو صاحبُ الحقِ، عن طريق البيّنة، أو عن طريق اعتراف المدَّعَىٰ عليه من صِدْق الادّعاء، أو اجتمعا معاً، إذْ لا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ أن يتسَرَّعَ في الْحُكْم قَبْل التثبُّت، وقد وصفه الله عزّ وجلّ في صَدْرِ الحديث عنه، بأنّه آتاه الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ، ومعلوم أنّه ليس من الحِكْمَةِ إصدار الحكم بناء على السّماع من أحَدِ الْخَصْمَيْن، دُون التثبُّتِ من صِدْقِ الادّعاء، فمثْلُ هذا لا يفعَلُه أقَلُّ القُضاة حكْمَةً، فضلاً عن نبيٍّ رسُولٍ حكيم، لَهُ مَجْلِسٌ يَقْضي فيه بين الناس.

- ● ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾:

في هذه العبارة مثالٌ من أمثلة فصل الخطاب الذي آتاه الله عزّ وجل داود عليه السلام، ففيها تأكيد أن طالب النعجة من أخيه مستنداً إلى سلطته في خطاب العرض، قد ظلَمَهُ بهذا الطلب الملزم في باطن الأمْر. وجاء التأكيد بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾.

﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾: أي: بسُؤَالِهِ نَعْجَتَكَ، فالسُّؤَالُ مَصْدَرُ فِعْلِ سألَ، بمعْنَىٰ طلَبَ، يُقال لُغةً: سَأَلَ فُلَاناً الشيَ، أي: استعطاه إيَّاه، ولفظ «سُؤال» في العبارة مضافٌ إلى مفعوله، فالمصدَرُ قد يُضافُ إلى فاعله، وقد يضافُ إلى مفعوله، وهنا من إضافته إلى مفعوله.

أمّا تَعْدِيةُ السُّؤال بحرف الجرّ «إلىٰ» في قوله تعالى: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فَهُو على تَضْمِينِ معنَىٰ «يَضُمُّ» أو نحوه، والتقدير: لَقَدْ ظَلَمَكَ بسُؤَالِهِ نَعْجَتَكَ ضَاماً لَهَا إلى نِعَاجِه.

● ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ... ﴿٢٤﴾﴾.

استجاب داوُدُ عليه السلام في هذا الْقَول لطَلَبِ المدَّعِي من الخصْمَيْن، في قوله له: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ فَبَعْدَ أن نطَقَ داوُدُ بالحكم أبان أنّ كثيراً من الْخُلَطاء لَيَبْغِي بعضُهم على بعض إلاّ الّذين آمَنوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ وقَلِيلٌ ما هُمْ.

الْخُلَطَاء: جَمْعُ «خَلِيط» ويُطْلَقُ الْخَلِيطُ على الشّريكِ الّذِي يخْلِطُ مالَهُ بمالِ شَريكه. ويُطْلَقُ على القوم الّذين أَمْرهُمْ واحِدٌ، وهذا المعنى الثاني هو الأنسَبُ فيما أرَىٰ لمضمونِ النصّ من المعنىٰ الأوّل.

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: ليَعْتَدِي بعضُهُمْ على بَعْضٍ فَيَظْلِمُهُ في حقُوقِه، فيتعرَّضُ لعقاب الله العادل.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾: أي: وقليل جدّاً هم الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات الّذين لا يَبْغُونَ على إخوانهم.

لفظ ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا﴾ نَكِرَةٌ إبْهامِيَّة يُؤْتَى بها للدّلالة على التكثير، أو التعظيم، أو التّعجُب، أو تأكيد ما وُصِفَ بها.

والمناسبُ هُنَا إرادةُ تأكيد التعبير عن القلّة الشديدة، حتَّىٰ كأنَّهمْ نادِرُون.

- ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾:

بعد أن نطَقَ داود عليه السلام بالحكم الحق في القضيَّة الّتي عرضها عليه الخَصْمان، وقدّم النُّصْحَ المناسبَ للقضيَّة التى قضىٰ فيها، أخذ يتفكّرُ في هذا الحدث الذي جرى له.

وطوى النَّصُّ أن الْخَصْمَيْن قَبِلا حُكْمَهُ ونُصْحَه وهَدْيه، وانْصَرفوا من حيث دخَلُوا، فلمَا عاد داوُد إلى خَلْوَتِه أخذ يتفكّرُ في هذا الأمر الّذي حدثَ له وهو في عُزْلَتِه وخَلْوَتِه، وأَخَذ يُحَاسِبُ نَفْسَه، ويَسْتَرْجِعُ ما كان من عَمَله، ويقولُ في نَفْسِه: كيْفَ دخلَ عليَّ هؤلاء في وقْتٍ لا يَدْخُلُ عَلَيَّ فيه أحد، والْحُرَّاسُ لا يمكّنُون أحداً من الدُّخول عليّ فيه؟! وكيف خرجوا من عندي دون أن يُحْدِثوا حَدَثاً يَدُلُّ عليهم؟!

هُنَا أَخَذَت الظُّنُون تَتَوارَدُ علَىٰ تفكيرِه بعد هذه المراجعة، فظَنَّ ظنّاً قَوِيّاً راجِحاً، يُفِيدُ عِلْماً ظَنّياً، أنّ الّذين دخَلُوا عَلَيْه هم ملائكة جاءُوا على صُوَرٍ بَشَرِيَّةٍ، وأنّ الله عزّ وجلّ لَمْ يرسِلْهُمْ إلاّ لِكَشْفِ ما امْتَحَنَهُ بِه في قضِيَّتِه الخاصَّة، ولِكَشْفِ ما امتحنه به من قضاءٍ في قضيَّةٍ مُنَاظِرَةٍ لقضيَّتِه الخاصَّة، الّتي ما كان يليق به وهو نبيٌّ رسُولٌ من أهل مرتبة المحسنين أن تَصْدُر عَنه.

لقد نجح في الامتحان الثّاني، فحكم بالحقّ، ولم يتَّبع الهوى، ولَمْ يقِسْ صاحِبَ النِّعاج التّسع والتِّسْعِينَ على نَفْسِه فيما بَدَرَ منه من خطيئةٍ لا تليق بمثله، فلَمْ يُخَفِّف عنه في إصادار الحكْم رغبةً في التخفيف عن نَفْسِه.

وبعد أن وضَحَ له الأمْرُ، إذْ قَابلَ النظير بالنَّظِير، ظهَرَ لَهُ أنَّه لم يكن كما ينبغي أن يكون في الامتحان الأوَّل، وأَدْركَ أن الأمْرَ عِتَابٌ من الله له على ما كان منه ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾: أي: سأل ربَّه أنْ يَغْفِرَ له مَا كَانَ منه ﴿وَأَنَابَ﴾: أي: ورجع إلى اللّهِ بالتَّوبَة، بَعْدَ أن ابتَعَدَ قليلاً عن مقام القرب، بفِعْلِ ما لا يليقُ بمثله، وإنْ لم يكن معصيةً بالنسبة إلى غيره من المتَّقين، أو الأبرار، إذْ هو من المحسنين أهل المرتبة العليا.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾: أي: غلَبَ على ظَنِّه، دون أن يكون ما وصَلَ إليه عِلْماً يقينيّاً، وغلبَةُ الظَّنّ كافيَةٌ لأَنْ تُشْعِرَهُ بأَنَ اللّهَ عزّ وجل قد امتحنه.

﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: «أنّما» أداة حصر، أصْلُها «أنّ» الّتي تنصِبُ الاسم وترفع الخبر، و «مَا» الكافة لحرف «أنّ» عن عمل النصب والرفع، ومعناها الحصر.

«فتنّاهُ»: أي: امتحنّاه واختبرْنَاهُ وابْتَلَيْنَاهُ. إنَّ مادَّة: «فتَنَ» ومُشْتَقاتها تَدلُّ في الغالب على معنى الامتحان والابْتلاء، وقد تدُلُّ على معنى الإحراق والتعذيب بالنار وعلى معنى الإغراء والإغواء للإيقاع في الإثم، وعلى غير ذلك من المعاني.

لقد امْتُحِنَ داود عليه السلام امتحانَيْنِ، امتحاناً في سلوكه الشَّخصيّ، فصدَر عنه ما لا يليق بأهل مرتبة المحسنين. وامتحاناً في الحكم والقضاء، فحكَمَ ولم يَتَّبع الهوىٰ، وكأنَّه قد حَكَمَ على نَفْسِه، فكان في هذا الامتحان من ذوي الدَّرجَةِ العليا من درجات الإحسان.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾: أي: فَعقِبَ وُضوحِ الظَّنِّ الرّاجح لدَيْهِ سألَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ خطِيئته.

الاستغفار: طلبُ المغفرة، أي: السَّتْر، يُقَال لغةً: غَفرَ الشَّيءَ يَغْفِرُهُ غَفْراً وغُفْرَاناً ومَغْفِرَةً، إذا سَتَرَه، وغُفْرَانُ الخطيئة يقتضي عدَمَ المؤاخَذَةِ عليها.

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾: خرَّ: أي: أسْرَعَ في الْهوِيِّ للرُّكُوعِ دون بُطْءٍ.

يقال لغة: خَرَّ الشيءُ يَخِرُّ وَيَخُرُّ خَرّاً وخُرُوراً إذا هوى من عُلْوٍ إلى الجهة السُّفْلَىٰ.

رَاكعاً: حالٌ مقَدَّرة، أي: ليستَقِرَّ راكعاً. **الرُّكُوع**: الانحناء، وأقْصَىٰ الركوع أن تَمَسَّ الرُّكبتان الأرض.

﴿وَأَنَابَ ﴾: معنى «أناب» في اللّغة «رجَعَ» والمراد الرجوعُ بالتَّوْبَة، واسم الفاعل منه «منيب» وقد جاء في القرآن بمعنى الرجوع إلى الله بالتوبة والطاعة.

وأرىٰ أنّ فعل «وأَنَاب» يُعْطِي دَلاَلَتَيْن بالنِّسْبَةِ إلى دَاوُد عليه السَّلام، بدليل وجود حرف العطف الدّال على فكرة جديدة مضافة.

الأولى: أن دَاوُد رجع إلى ربّه بصِدْق التوبة والنّدم، والحِرْص على أن يحافظ على شروط مرتبة المحسنين وذلك من عُمْق قلبه.

الثانية: أنّه عليه السَّلام سجَدَ بعْدَ أَنْ أخذ حظَّهُ من الرُّكُوعِ، فيكون المعنى: وأناب ساجداً، لأنَّ السُّجُود أدَلَّ على كمال الخضوعِ والذّل لله، وقد كان السُّجود معروفاً في عبادات بني إسرائيل، وهو موروث فيهم منذ عهد إبراهيم عليه السلام، إذ أمره الله بأن يطَهِّرَ بيْتَهُ في مكةَ للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجُود، وصحّ عن الرسول محمد ﷺ أنّ أقرب ما يكون العبْدُ من رَبِّه وهُوَ سَاجدٌ.

روى مسلم وأبو داود والنَّسائي وغيرهم عن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«اقْرَبُ مَا يكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ».

أي: فأكثروا الدُّعاء وأنتم ساجدون لِرَبّكم في صلواتكم، وبهذا تَتَحقَّقُ الإنابَةُ لله في حالة الجسد، وفي حالة النفس والقلب.

فالعبارة على تقدير: فاستغفَر ربَّه وخَرَّ راكعاً وأَنَابَ ساجداً، فحصل في النَّصِّ الحذفُ اكتفاءً بدلالة ما قبله.

- ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾: أي: ذلِكَ الّذي كان منه، جاءت الإشارة إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لاستبعاد شبهة أنّه حكم استناداً لاستماعه من أحد الخصمين دون الآخر، فالمشارُ إليه أمْرٌ آخرَ بعيد عن ظروف قضائه بين الْخَصْمَيْن.

- ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾:

الزُلْفَىٰ: اسْمٌ يأتي بمَعْنَى القُرْبةِ والدَّرَجَةِ والمنْزِلَة، ومادّة الكلمة تدلُّ على الْقُرْب والتقريب. يقال لغة: أَزْلَفَ الشيءَ وزَلَفَهُ وزَلَّفَهُ، إذا قَرَّبَه. ويقال: زَلَفَ إليه وازْدَلَف، أي: دنَا إليه وقرُبَ منه. **والزُّلْفَةُ**: الطَّائِفَةُ من أوَّل اللّيل لقُرْبها.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾: وَحُسْنَ مَرْجِع، وحُسْنُ المرجع إنّما يكون في جنَّات النعيم، وفيما قبل دخولها بعد البعث.

حُسْنَ: مصْدَرُ «حَسُنَ يَحْسُنُ» وهو ضِدُّ القبح. وإضافَةُ «حُسْن» إلى «مَآب» من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: وحَسُنَ مآبُ دَاوُد يوم الدِّين. أو من إضافة الصِّفَة إلى الموصوف، على تأويلِ المصْدَر بمشتقّ والوصْف به، والتقدير: ومآبٌ حُسْنٌ، أي: هو كُلُّه حُسْنٌ.

وجاء تأكيد الجملة بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة».

- قول الله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

خَلِيفَة: على وزن «فَعِيلَة» إذا كان بمعْنَىٰ «فاعل» فَهُوَ مَنْ يخْلُفُ غَيْرَه في شيءٍ من الأشياء، أَوْ في أَمْرٍ من الأَمُور. كالوارث يخْلُفُ مَنْ وَرِثَهُ في أمواله بَعْد موته، وكالسُّلْطَان يخْلُفُ السُّلْطَان الذي كان قَبْلَه على كُرْسيّ الحُكْم، والأجيالُ الناشئة تخْلُفُ الأجيال السابقة لها، في الانتفاع بالأَوْطَان، وامتلاكِ الأشياء التي كانت لها، وإذَا كان لَفْظُ «خَلِيفَة» بمعنى «مَفْعُول» فكُلُّ مُنْتَفع بشيءٍ أو مالِكٍ له من عباد الله، سيكون مَخْلُوفاً من قِبَلِ ذِي انتفاعٍ جديدٍ، أو ذِي مِلْكٍ جَدِيد، إذا مات السابق، أو انتهت مُدَّةُ انتفاعه به، أو انْتَهَتْ مِلْكِيَّتُهُ له.

والدَّوْلَةُ المسلمة خَلَفَتْ دُوَلَ الفرسِ والرُّومان والأحباش وغيرها من دَوَلِ الأرض، حينما مَكَّنَ الله المسلمين من إسقاط هذه الدُّوَل واستخلاف المسلمين، إذْ جعل في أيديهم الحكْمُ والسُّلطان في كثير من مشارق الأرض ومغاربها.

وقد جعل الله دَاودُ عليه السلام مَلِكاً على بني إسرائيل وغيرهم، خَلَفاً لطالوت، وكان قد جعل جلَّ جَلاَلُه «طالُوتَ» خليفةً بعْدَ مقتل الملك الوثني الجبار، «جالُوت» على يَدِ داود عليه السلام.

إنّه بعد استِغْفارِ داوُد عليه السلام. وركُوعِه، وإنَابَتِه لربِّهِ سَاجداً تائباً من عارضة الخطيئة الّتي كانت منه، ممّا لا يليق بأهْلِ مَرْتبة المحسنين، وبَعْدَ نَجاحِه في الحكم بالْحَقّ في قَضِيَّةِ الْخَصْمَيْن، الذي كان بمثابَةِ الحكْمِ على نَفْسهِ في القضيَّة المناظِرَة، استحقَّ أَنْ يجعَلَهُ اللّٰهُ خَلِيفَةً في الأرض لِمَنْ سَلَفُوا من قَادَةِ المؤمنين، ذوي السُّلْطَان الّذين يقيمون الحقّ والْعَدْلَ بين الناس، والمؤَيَّدين من عِنْدَ الله عَزَّ وجلَّ بالمعونة والتمكين، والتوفيق والتسديد.

فكان هذا استخلافاً مُعَاناً، فَوْق المُلْكِ الّذي سبَقَ أن آتاه اللّٰهُ إياهُ، فكان فيه خليفة لطالوت.

فوجَّه الله له بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ وَظيفَةَ الاستخلاف المؤيَّد المعان، ضِمْنَ سلْسِلَةِ ذَوِي السُّلْطانِ المستخلَفين من القادة والملوك المؤمنين.

ولم يَجْعَلْه الله خليفة عنْهُ، كما يتَوَهَّمُ بَعْضُ الّذِين خَدَعَتْهُمْ هذه المقالة، المتسلِّلَةُ إلى فريق من المسلمين تسلُّلاً خبيثاً، مناقضاً لأسس العقيدة الإسلاميَّة.

فالله جلّ جلاله قَيُّومُ السماواتِ والأرض، المهيمنُ على كلّ شيءٍ، وبيَدِه الأمْرُ كلُّه، لَهُ الخلْقُ، ولَهُ الأَمْر، وله الحكْمُ والقضاء في كلّ شيءٍ، وَلَمْ يسْتَخلِفْ عنه أَحَداً.

وإذْ جَعَلَ الله عزّ وجلّ دَاوُدَ خليفةً، أي: حاكماً في الأرض ذا سلطان مُعَانٍ مؤيَّدٍ بتأييد الله منْصُورٍ بنصره، فإنَّ عليه في هذا السلطان واجباً لا خيرَة لَهُ من أمْرِه فيه، وهو أن يحكُمَ بين الناس بالحقّ، وأن لا يتَّبع الهوىٰ، فإذا اتَّبعَ الْهَوَى أَضَلَّهُ عن سبيل الله.

- ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾: أمْرٌ من الله جَلَّ جلالُه لداود عليه السَّلام بأنْ يَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بالْحقّ، والحكْمُ بالحقّ من ظواهره الالتزام بالعدلْ، والعدل هو إعطاء كلّ ذي حقٍّ حَقَّه، والحكْمُ بالحقّ هو سبيل اللّهِ في الحكم.

يقال لُغَةً: حَكَمَ بالأمر يَحْكُم حُكْماً، أي: قضَىٰ به، فالباء للتعدية، والمعنى: قضَىٰ الحقَّ، أي: أمْضَاهُ بنُطْقِه بالحكْم الّذي هو الحق.

- ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

الْهَوىٰ: مَيْلُ النَّفْسِ إلى ما تُحِبُّ وتشتهي ولو كان فيه شرٌّ وضرٌّ وإثْمٌ وعِصْيَان، وفي الْهَوَىٰ معْنَيُ السُّقُوطِ والْهُبُوطِ من علُوٍّ إلى سُفُولٍ غالباً، وقد يرتقى الإنسان فيكون هَوَاهُ تَبَعاً للحقّ والخير والفضيلة ومرضاة الله عزّ وجلّ.

وفي هَذه العبارة بيانُ أَنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَىٰ يُبْعِدُ الْحَاكِمِ عَنِ الحكْم بالحقّ، فالْهَوَى في النفوسِ لَهُ مُيولاَتٌ وانحرَافَاتٌ لاَ تُحْصَر، واتِّباعُهُ يُخْرِجُ عنْ سبيل اللَّهِ، إلى سُبُلٍ ومتعَرِّجَاتٍ ومتَاهَاتٍ ومَهَالِكَ، وضلالات، تتلاعَبُ فيها الشَّيَاطين وتقُود سالكيها أو تسُوقَهُمْ إلى عواقب وخيمة، وعقوباتٍ من الله جسيمة، واتِّباع الْهَوىٰ يوصل إلى اعتناق الباطل، والاسْتِمْسَاك بالأفكار والمفهومات الفاسِدات، ويُوصِلُ إلى الظُّلْم والْعُدْوان والْبَغْي والفساد العريض في الأرض.

وحينما يَتَّبعُ الإنسانُ الْهَوىٰ تَغْشَىٰ بصيرَتُه، وتُظْلِمُ نَفْسُه، وتكون تطلّعاتُه إلى زِيناتِ الحياة الدُّنيا وحُبُّ الشهوات منها شُغْلَه الشَّاغِلَ، فينْسَىٰ اللَّهَ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ويَوْمَ الْحِسَاب، فيسْقُطُ في الخطايا والموبقات، ويرتكب كبائر الذُّنُوب والآثام، ويسْتَحِقُّ بذلك العذاب الشديد عند ربّه جلّ جلالُه جزاءً وِفَاقاً.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: يُقَالُ لُغَةً: ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ، إذَا جَارَ وخرجَ عن حُدُودِه ذاتَ اليمين أَوْ ذَاتِ الشِّمَالِ، وسبيل الله صراطه المستقيم⁽¹⁾، وهُوَ تعليماتُ دينه الذي اصطفاه لعباده.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾: أي: لَهُمْ عَذَابٌ شديدٌ عنْدَ رَبّهِم، بسَبَب جَوْرِهِم عن سبيل الله، وسُقُوطِهم في المعاصي والمخالفات وارْتِكَاب كبائر الإثم، أمّا السَّبَبُ الأول فقد جاء في قوله تعالى:

﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾: أَصْلُ النّسيَانِ في اللُّغَة التَّرْكُ، وتَرْكُ الشَّيْءِ وإهمالُه يصْرِفُهُ عن الذَّاكِرَة، فلا يخْطُر في البال.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق سورة الفاتحة حول تدبر آيات الصراط ونحوه في القرآن.

والمرادُ بنِسْيانِ يَوْم الْحِسَابِ تَرْكُ الْعَمَل بما يُحقِّقُ النجاة من العذاب، والظَّفَرَ بالنعيم المقيم في جنَّاتِ النّعيمِ يَوْمَ الدّين، بَعْدَ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضاء، فالعذاب الشديد لهم سَبَبُهُ الأولُ نِسْيان يوم الحساب.

جَاءَتْ تَسْمِيَةُ يَوْمِ الدِّينِ بيَوْمِ الحسَاب، لأنّ الْحِسَاب بعْضُ ما يجري في ذَلك اليوم، وجاء التذكِيرُ هُنَا بالحسَاب لأنه مُقَدِّمَة فَصْلِ القضاء، الّذي يكون بمقْتَضَاهُ تَنفِيذُ الجزاء، وبتَنفِيذ الجزاء يكون العذاب الشديد للّذين تَركُوا في الدنيا الْعَمَلَ ليوْم الدّين، يوم الحساب، وفَصلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ويُلَاحظ في هذا النّصّ ترتّبُ حلقات سِلْسِلة الأسباب بعْضِهَا على بعض، فاتّباع الهوىٰ يُنْسِي العمل للنجاة والظفر يومَ الدّين الذي يكون فيه الحساب. وفَصْلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء، وهٰذا يؤدّي إلى الضلال عن سبيل الله والسقوط في المعاصي وكبائر الذُّنوب، تنازُلاً حتَّىٰ دَرَكَة الكُفر بِاللّه وجحود يوم الدين، وهذا يؤدّي إلى استحقاق العقاب والعذاب الشديد بِقَدْر تنازل الدركات، ويكون لكلّ مُذْنب استحقَاقٌ من العَذاب بما يُلائم الدركَة التي انحدَرَ إليها.

وفي هذه الآية بيان ضمنيٌّ تعريضي للذين كذبوا بإنذارات الرسول محمد ﷺ، بأن ما جاءهم به هو إحدى القضايا الدينيّة الاعتقادية التي جاء بها المرسلون من قبله.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

في هاتَيْن الآيتَيْن استثمار لبعض ما جاء في قصّة داوُد عليه السّلام، المعروضة في هذا الدرس الثاني من دروس السّورة، لإقامة الدليل العقليّ

على قضيَّة الجزاء يوم الدّين، الّتي جَحَدَها وتَعَجَّبَ من نَبَئِها الْمُصِرُّونَ على كُفْرِهم من كُبَرَاءِ مكَّة، الَّذِينَ جاء بيانُ تعجُّبِهِم في الدَّرْس الأوّل من دُرُوس السورة في قول الله تعالى في أوائلها:

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

فمع كوْنِ هَاتين الآيَتيْن من توابع الدرس الثاني فقد جاءَتَا موصولتين ببعْضِ ما جاء في الدرس الأوّل منها، وهذا من عناصر وحدة موضوع السّورة القرآنيّة.

عرض الدليل العقلي الذي جاء في هاتين الآيتين بعبارة مبسوطة:

(١) يَبْدَأ الاستدلالُ من أرْضيَّةٍ فكريَّةٍ يَقِفُ عليها المعنيُّون بالخطاب، وهم مشركو مكة إبَّانَ التنزيل.

إنّهم كانوا يؤمنون بأنّ الله جلَّ جلالُهُ خالقهم وخالق السَّماء والأرض ومابينهما، إذَنْ فَهٰذه قضيَّةٌ مفروغٌ منها، لا يحتاجون إلى إقامة دليل عليها.

(٢) وبناء على أنَّ الله عزّ وجلّ هو خالق السَّماء والأرض وما بَيْنهما، وخالِقُ ما فيهما من أشياء وأحياء ونباتات، وخالقُ الناس أجْمعين، فهل يَجِدُونَ في شيءٍ من خَلْقِ الله مَخْلُوقاً غَيْرَ مُتْقَنٍ وغير حَكِيم؟.

لا بُدَّ أن يكون الجوابُ القطعيُّ ولو بَعْدَ تأمُّلٍ وبَحْثٍ وتفكير: لا نَجِدُ في هذا الخلْقِ الرَّبّانيّ شيئاً غَيْرَ مُتْقَنٍ وغَيْرَ حكيم.

إنَّهُ صُنْعُ الله الَّذِي أتقَنَ كُلَّ شيْءٍ، وأحكمَ كُلَّ شيء، وإتقان الأشياء، ووضع كلّ شيءٍ في موْضِعه الملائم له بحِكْمَةٍ تامَّة، لاَ بُدَّ أن يكُونا مصحوبَيْن بِعِلْمٍ شامل.

إذَنْ فالخالق جلَّ جلاله مُتْقِنٌ حكيمٌ عليم، وهذه نتيجةٌ منَ الضَّرُوريّ أن يُسَلَّم بها، ويعْتَقِدَهَا كُلُّ عاقِلٍ مُنْصفٍ يَنْشُد الحقّ، وليْس له هوىً على خلافه.

(٣) عند هذه المرحلة الإقناعيَّة يحْسُنُ طرحُ السُّؤال التالي:

أليسَ في النّاس مَؤْمُنُونَ باللّٰهِ ويَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ الَّتي تُرْضيه، وآخَرُون كافرون بالله، ويُفْسِدُون في الأرض، أو مؤمنون إلاّ أنَّهم يُفْسِدُونَ في الأرض فِسْقاً وظُلْماً وعدواناً؟؟.

أليس في الناس مؤمنون بالله ويتَّقُون مَا يُسْخِطُهُ، ويتّقون عقابه. وآخَرُون فُجّارٌ ينْطَلِقُونَ على أهوائهم وشهواتهم في المعاصي والشرور، دون خَوْفٍ مِنْ جزاءٍ وعقاب؟؟.

لا بُدَّ أن يكون الجواب التّلْقائي دون تأمّلٍ وتفكير طويل: بلَىٰ، فهذه الأقسام من الناس موجودة كلُّها.

(٤) وعند هذه المرحلة الإقناعيَّة يحسُنُ طرح السؤال التالي:

ألَيْس الخالقُ المتْقِنُ الحكيم الْعَلِيمُ هو الذي خلَقَ النَّاسَ، ومَنَحَهُمْ قدرات الفهم والعلم، ومَنَحَهُمْ إرادَاتِهِم الحرَّةَ المختارة، الَّتي يختارون بها أنواع سُلُوكهم في الحياة من خَيْرٍ أو شَرّ، ونفْع أو ضَرّ، وَعدْلٍ أو جَوْر، وإحسانٍ أو عدوان، وغير ذلك من أضدّاد، وسَخَّرَ لهم بقضائه وقدره وخلقه مع ذلك، ما في الأرض وما في السَّمَاءِ وما بيْنَهما؟؟

لا بُدَّ أن يكون الجواب العقليُّ المنطقيُّ: بلى. فالخالق هو الذي منحهم كلَّ ذلك، ومكَّنَهُمْ من سُلُوك طريق الخير، وطريق الشرّ، وعرَّفهم بهما، وبيّنَ لهم حُسْنَ سُلُوكِ طريق الخير، وقُبْحَ سُلُوكِ سُبُلِ الشرّ، وجعلَهُمْ يُدْرِكون أنّ فاعل الشرّ ينبغي أن يُعاقب، وأن فاعل الخير ينبغي أن يُوقَىٰ العذاب، ويُكْرَمَ ويُثَاب.

(٥): وعند هذه المرحلة الإقناعيَّةِ يُحسُنُ طَرْحُ السؤال التالي: هَلْ يليقُ بالخالق المتقن الحكيم العليم أن يَخْلُقَ الناس بهذهِ الصفاتِ، الّتي من ظواهر اختياراتهم الحرّة معها، أن يُوجَدَ فيهم مؤمنون وكافِرون، ومُسْلِمُونَ

ومُجْرِمُونَ، ومُصْلحونَ ومُفْسِدُونَ، ويَتْركَهُمْ سُدىً، دون أن يُثيبَ مُحْسِنيهِمْ، ويعاقب مُسِيئيهم؟؟.

لا بُدَّ أنْ يكون الجوابُ حتماً: هذا لا يليق، ولا يُمْكن أنْ يكون، فصفاتُ الرّبّ العظيم الجليل الحكيم العليم القدير تأبَىٰ ذلك، بل هو أمْرٌ غير ممكنٍ عقلاً.

(٦) وعند هذه المرحلة الإقناعية يحْسُنُ طرح السُّؤال التالي:

ألَسْنَا نَجِد مُفْسِدين مُجْرمين كفَّاراً جبّارين يموتون قبل أن ينالُوا عقابَهُمْ العادل؟

ألَسنَا نجد مسلمين مؤمنين مُتَّقِين وأبراراً ومحسنين يموتون قبل أن ينالوا ثوابهم على أعمالهم الصالحة؟.

لا بُدّ أن يكون الجوابَ الحتميُ: بلَىٰ. فهذا أَمْرٌ مَشْهُودٌ ومتكرِّرٌ دواماً.

(٧) وعند هذه المرحلة الإقناعية يحْسُنُ طرح السؤال التالي:

فأيْنَ إذَنْ تطبيقُ حكْمة الله في فَضْلِه وعَدْله، وهو الأمْرُ الذي لا بُدَّ أَنْ يكون بمقتضىٰ برهان العقل، من خلال النظر في صفات الرّب العظيم الجليل الحكيم العليم القدير العدل الرحيم ذي الجلال والإكرام والإنعام؟؟

هُنَا يتيقَّظُ فِكْرُ العاقل الحصيف المنصف الذي ينْشُد الحقّ، وليس له هوىً على خلافه، فيقُول:

لا بُدَّ أن يكون الخالق الحكيم قد أعدّ في خُطّتِه ظُروفَ حياة أُخْرى غير هذه الحياة الدنيا، ليُقيم فيها الجزاء بالعدل أو الفضل على مقتضى حكمته وواسع فضله ورحمته، وعظيم عدْله.

(٨) وهنا نَصِل إلى المطلوب، ويكون الدليل العقلي الذي تنقَّل بنا

في مراحل، كلُّ مرحلةٍ منها يلْزَم عنها المرحلة الّتي تليها، دليلاً برهانيّاً مُلْزِماً، مُثْبِتاً ضرورةَ يوْمِ الدين بالدليل العقليّ البرهاني.

ومن أنكر هذا فلا بُدَّ أَنْ يَلْتَزم مقولَةً عن الله أخرى تنفي حكمة الله في الخلْق، وتثبت أنّ خلْقَ السَّماء والأرض وما بينهما، وخلْق الإِنس والجنّ باطِلٌ وعَبَثٌ من العبث.

هذا ما دلَّتْ عليه الآيتان:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

ينفي اللَّهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه، باستخدام ضمير المتكلّم العظيم، أَنْ يكون قد خلق السَّماءَ والأَرْضَ وما بينهما من إنسٍ وجنٍ وملائكة وحيوان ونبات وغير ذلك باطلاً دون قَصْدٍ حكيم، وغايَةٍ حكيمة، ويبيّن أنَّ ذلك التصوُّرَ المستَبْعَدَ إلى ظُلُمَاتِ المستحيلات العقلية ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، وهو حتماً ظَنٌّ ضعيف جدّاً من دَرَكَةِ التوهُّمَاتِ الباطلات.

باطلاً: الباطِلُ ضِدُّ الحقِّ، والعملُ الباطلُ، هو الذي لا يُؤَدّي إلى غايَةٍ حكيمة، ومن العمل الباطل إجراءُ اختبارٍ يكون فيه ظالم ومظلوم، ومُسْلِمٌ ومُجْرم، ومُحْسِن ومُسِيء، ثُمَّ ينتهي الامتحان دون حساب، وفَصْلِ قضاء، وتحقيقِ جزاء، هذا أمْرٌ لا تسْتَسِيغُه نُفوسُ الأطفال الصّغار، فضلاً عن أهل العقل والرشد والرأي السديد. ومن العمل الباطل تضييع الأوقات والطاقات سُدَىٰ بلا فائدة تجنىٰ، كالمرأة الحمقاء الّتي تنقض غَزْلها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أنْكَاثاً، وكالرجل الأحمق الذي يَهْدِم بنياناً لا ليقيم مكانه بُنْياناً أفضل منه، إنما يَفْعَلُ ذلك لمجرَّدِ العبث.

فهل تقبلُ العقول أن يخلُقَ الله الإنسانَ في أَحْسَنِ تقويم، ويُسَخِّرَ له

ما في الأرض والسماء، فهو يتصرّف بالأشياء ضِمْن قوانينها وأنظمتها باختياره الحرّ، وهذا التصرّف ينجم عنه ظالِمٌ ومظلوم، وذو غِنىً ومَحْروم، ومُسِيءٌ ومُحْسِن، وكافِرٌ ومُؤمن، وتقيٌّ ومُجْرِم، ثُمَّ لا يكون بعد ذلك حسابٌ، ولا فَصْلُ قضاء، ولا جزاء؟!!

إنَّهُ تمكين لذَوي القوَّةِ من أن يكون الباطل هو العزيز الفائق، وأَنْ يكون الحقّ هو الذَّليل الزاهق، وهذا عند كلّ العقول السليمة عملٌ باطل، وكلُّ ما يُؤَدّي إلى باطلٍ فهو باطل.

إذا كانت الغاية من الخلْق هذا الأمْرَ الباطل، فإنّ الخلْقَ نفسه عمل باطل، يُفْضِي إلى تمكين الباطل من إزهاق الحقّ.

فمن زعم أنه ليس بعد هذه الحياة الدّنيا حساب، ولا فَصْل قضاء، ولا تنفِيذُ جزاء، لزِمَهُ أن يَدّعي أنّ الله جلّتْ قُدْرَتُه وعظمت حكمته، قد خلَقَ هذا الخلْقَ باطلاً وعبثاً، وهذا جحودٌ لكمال صفات الله عزّ وجلّ، وهو من الكُفْر بالله، وإنّ الّذين يقولون هذا ما قدروا اللَّهَ حقَّ قَدْره، إنّهم بهذا الزعم ليس لهم إلاّ الأوهامُ التي هي أضعف الظُّنون الساقطة بالبداهة، وهي أوهام زيَّنَتْها لهم رغباتهم الفاجرات بالتحرُّر من قيود الحقّ والخير والفضيلة، ورغباتهم باتّباع أهوائهم وشهواتهم.

﴿. . فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾: **فويلٌ**: أي: فعذابٌ شديدٌ لهم من عذاب النار، الذي يذوقون فيه عذابَ الحريق.

و «ويل» وادٍ في جهنّم، كما سبَقَ بيانه لدى تدبر سُوَرِ (الماعون والهمزة والمرسلات) «ويْلٌ» مبتدأ. «للذين كَفرُوا» في محلّ رفع خبر.

وفي هذه العبارة وعيد من الله جلّ جلاله لهم بعذاب شديد في النار يوم الدين.

● ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: بَلْ أَنَجْعَلُ المؤمِنينَ الصَّالحين كالكفَرَةِ المفسدين في الأرض، سواءً محياهم ومَمَاتهم، فَنُنْهِي رحلة امتحان هؤلاء وهؤلاء، دُونَ وضع خُطَّةٍ مستقبليّة يكون فيها حسابٌ وفَصْلُ قضاء وتنفيذ جزاء؟؟!.

بل. أنجعل المتقين عقابَ رَبّهم، كالْفُجَّار الذين يَنْبعِثُون لارتكاب الجرائم والآثام الكبرى، بكلّ ما لديهم من طاقات وقُوىٰ، واندفاع إلى الشّرّ بوقاحة ومَجَانة، دون مُراقبة لحساب ولا جزاء؟؟!.

«**أَمْ**» فيها معنى الإضرابِ والاستفهام في الجملتين، والاستفهام هنا استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى التعجيب من ظَنِّ الّذين كفروا.

والمعنى أنّ حكمة الله الرّب الجليل العظيم خالق الكون بحكمته، تَأبَىٰ هذا الباطل وهذا العبث، بل هو سَيُقِيم عَدْلَهُ وفضله يوم الدين، كما أنذر وبشَّرَ في كلّ ما أنزل من كتاب على رُسُله.

﴿ٱلْفُجَّارِ﴾: جمع «الفاجر» وهو المنبعث انبعاثاً وَقِحاً في فعل الشرّ والضرِّ والظلم والعدوان، وارتكاب كبائر الإثم والعصيان.

وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه التقابل، فالذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات، يقابلهم الكافرون المفسدون في الأرض، فجاء في الآية الاكتفاءُ بعبارة: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن التصريح بعبارة كالكافرين لأنَّ التقابل يَدُلُّ على المحذوف.

ومرتبة «المتقين» يقابلها دَرَكَةُ «الْفُجّار» أي: الذين ليس لديهم أدنَىٰ درجات التقوىٰ المنجيَةِ من الخلود في عذاب النار.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

وقرأ أبو جَعْفر: **[لِتَدَبَّرُوا]** بالتاء بدَلَ الياء، وبتخفيف الدّال، وأصلُها «لتَتَدَبَّرُوا» ثَقُلَ تكرار التاء فحذفتِ الثانية، وهي تاء الفعل تخفيفاً. ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾

وهي قراءة باقي القراء العشرة، أصْلُها «لِيَتَدَبَّرُوا» قُلِبَتِ التاء دالاً لقُرْب مَخْرَجهما وأدْغِمَتْ بالدّال بعدها.

وفي القراءتين تكامُلٌ بيانيّ، فالّتي بتاء الخطاب يخاطبُ الله بها الرسُولَ والذين آمنوا، والّتي بياء الغيبة يتحدَّثُ اللَّهُ بها عن الآخرين الذين لم يُؤمِنُون، أي: ليَتَدبَّر مِنهم آياته الّذِين لديهم استعداد للاستجابة للحقّ.

هذه الآية من الدرس الثاني ذات اتصالٍ بأول عُنْصُرٍ من عناصر موضوع السورة الوارد في أوّل آيات الدرس الأول منها، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ①﴾ وقد سبقَ تدبُّر هذه الآية.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾: خِطاب للرّسول محمد ﷺ، أي: القرآن المجِيدُ ذُو الذّكر هو كتابٌ أنزلْنا بعْضَه إليك وسنُنْزِلُ سَائرهُ إليك تباعاً بحسَب مقتضيات الحكمة التعليميّة والتربويّة، فَإنْزَالُهُ جميعاً قد تَمّ به الْقَضاءُ فَهُو في حُكْم الَّذي قَدْ أُنزِلَ كلُّه باعتبار ما سَيؤُول إليه الأمْر. وأنزلناه محفوظاً حتَّىٰ وصَلَ إليك كما أَنْزَلْناه وقد سمَّىٰ الله عزّ وجلّ القرآن «كتاباً» وعرَّفه بأداة التعريف «الكِتَاب» في عِدَّةِ نُصوص، تَوجيهاً لكتابَتِهِ، وتكليفاً بها، حَتَّىٰ يَكُونَ نصًّا قطعيَّ الثبوت، مُدوّناً مُبيّناً في كتابٍ مكتوب، محفوظٍ من التحريف والتبديل، في أيّ حرْفٍ من حرُوفه، وأيّ كلمة من كلماته.

وسَمَّاه اللَّهُ «قُرْآناً» وعرَّفه بأداة التعريف «القرآن» في كثيرٍ من النصوص، توجيهاً لجْمعِهِ وَقِراءَتِه من المصْحَفِ المكتوب المدوَّنِ المحَرَّر المحْفُوظ.

وسَمّاهُ الله «ذِكْراً» وعرَّفه بأداة التعريف «الذِّكْر» في عدّة نصوص، توجيهاً لحفْظِهِ وتذكُّرِه واستحضار آياته في الذاكرَة، عند كُلّ مناسبة داعية.

وسمّاه الله «الفرقان» للدّلالة على ثلاثة أمور.

الأمر الأوّل: أنّه مُفرّقٌ مُفصّلُ في آياته ومعانيها تفصيلاً محكماً.

الأمر الثاني: أنّه يَفرِقُ ويَفصِلُ بين الحق والباطل، والخير والشرّ، وبين ما فيه سعادة الناس وما فيه شقاؤهم.

الأمر الثالث: أنَّهُ حُجَّةُ اللَّهِ على عباده بما فيه من إعجاز وحُجَجٍ برهانية دامغة.

فالْفُرْقَان في اللّغة مصْدَر فَرَقَ الشيءَ يَفرُقُه ويَفرِقُه فَرْقاً وفُرْقَاناً، والمصدر يُسْتَفادُ منه أنّ القرآن فارِقٌ ومَفْرُوق.

ويأتي الفرقان في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ الحجَّةِ والْبُرْهَان.

وقد جاء في القرآن تعبيران حول إنزاله، ففي بعض النصوص قال الله عزّ وجل: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ فجاءت التعدية فيها بحرف «إلى» وفي نصوص أخرى قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ فجاءت التعدية فيها بحرف «على» فما الحكمة من هذا التنويع؟.

الذي يظهر لي أنَّ التعدية بحرف «إلى» قد جاءت للدلالة على معنى توصيل المنزّل من القرآن إلى الرسول كما أنزله اللَّهُ من لَدُنْه. وأنّ التعدية بحرف على قد جاءَتْ للدّلالَة على ما في القرآن من تكاليف يجب على الرسول وسائر المؤمنين أن يَحمِلُوها بقُوَّةٍ، ويَعْمَلُوا بها، فهي أحمالٌ وأعباءٌ ملقاة على ظهورهم، وهم مسؤولُون عن واجباتها.

﴿مُبَٰرَكٌ﴾: وصف الله عزّ وجلّ هذا الكتاب (القرآن) بأنه مبارك، أي: ذُو بركة.

البركة: هي النماء والزيادة في الحسيّات وفي المعنويّات. ورُوِي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنَّ البركةَ الكثرة في كُلّ خَيْر.

ويقال لغة: بَارَكَ اللَّهُ الشيءَ، وبَارَكَ فيه، وبارَكَ عليه، أي: وضع فيه البركة.

ومعنى كوْنِ القرآن مباركاً أنّه لاَ تَنْضَبِ فيوض معانيه، وأنّه ذُو خَيْرَاتٍ كثيراتٍ جِدًّا فكريّة ونَفْسِيَّةٍ وشفائيّة وغير ذلك.

لكنّ هٰذِهِ المعانيَ المباركة الثرّة لا يقتَبِسُ منْهَا إلاَّ الَّذِين يَتدَبَّرونَ آياته.

- ﴿.. لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾:

في هذه العبارةِ بَيَانُ أنّ من أغراض إنْزال هذا الكتاب غرضَيْن:

الغرض الأول: تدبُّر آياته.

الغرض الثاني: تذكُّر أولي الألباب.

تدبُّر النصّ: هو التّفكُّر الدّقيق العميق الّذي تُلاحَظُ فيه العواقب ببصيرة، حتَّىٰ الأطراف البعيدَةُ التي يدُلُّ عليها النّصّ، وبالتدبّر السليم تَحْصُل المعرفة الشّامِلةُ للنصّ، من أوائله حتى أواخره، ويدخُل فيها اللّوازم الفكريّة الّتي يقتضيها النّصُّ قبل مَعْنَاه المطابق لِلَفْظِه، وبَعْدَ معناه المطابق للفظه.

والتدبُّر: هو النظر في عواقب الأمور وأدبارها وما تؤُول إليه.

ومنه التدبير، وهو وضع الخطط الشاملة للأمور من بداياتها حتى أدبارها.

فتدبُّر كلمة «الذِّكْرِ» عنواناً للقرآن المجيد، يتطَلَّبُ استدعاء اللّوازم التي يستدعيها الفكر، والّتي تكون قبل كونه ذِكْراً، وهي تَبَلُّغه باصغاء، والإيمانُ به، وتَفَهُّم معانيه، وحفْظُها في الذاكرة، وحفظ مَا يجِبَ حفظه من نصوصه، وتذكُّر ذلك عند المناسبات الداعيات للعمل بها، وهذه هي الحلقة الأخيرة من سلسلة اللّوازم الفكريّة، فأطْلِقَ على القرآن أنه ذِكْرٌ للعالمين.

وتدبُّر عبارة «رَبّ العالمين» يتطلَّبُ استدعاء اللّوازم الفكريَّة الّتي تلزم عن كونه ربّ العالمين، وهي وحدتُه في ربُوبيته فلا شريك له فيها، وكونُه مالكاً لمَنْ هو ربُّهم، فهم عبيده، وَمَلِكاً علَيْهم فلا حُكْمَ إلاَّ حَكْمُهُ ولا سُلْطانَ إلاَّ سُلْطَانُه، وكَوْنُهُ إلَهاً لهم، فلا معبود بحقٍّ للعالمين سواه. كلُّ هذه اللّوازم الفكريّة تأتي عَقِبَ فهْم كوْنِ الله رَبّ العالمين بالتَّتَبع التدبُّرِي الذي جرَّ إلى آخر حلقات سلسلة اللّوازم الفكريَّة.

وهكذا يَنْبغي أن يكون تَدَبُّر آيات القرآن المجيد ذي الذكر.

ولكن ليس الغرض من تدبُّر آيات الله مجرَّدَ التَّرَف الْعِلْمِيّ، والافتخار بتحصيل المعرفة، والتوصُّل إلى كشْفِ المعاني للتَّعالي بمعْرِفَتها واكتشافِها، إنَّما وراء الفهم غَرَضُ التَّذَكُّرِ عند المناسبات الدَّاعيات، ومَعَ التذكُّر تكون العِظَة، ويكون العمل بموجب العلم، وهذا التذكر المقصودُ لا يحظَىٰ بِه إلاّ أُولو الألباب، وهم أهل العقول الحصيفَة، والأذهان النظيفة، والنّفوس الشريفة. وهذا ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

لُبُّ الرَّجُل: ما جُعِلَ في قَلْبِه من العقل، ولُبُّ كلِّ شيءٍ خالِصُهُ وخيارُه فالذين لا يتدبَّرون القرآن ولا يتذكَّرون ما يجب أن يتذكروه منه، ليسوا بأولي ألباب.

* * *

التدبر التحليلي للفقرة الثانية
من الدرس الثاني من دروس السورة وهي الآيات من (٣٠ ـ ٤٠)

قال الله عزَّ وجل:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ

بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

تمهيد:

اشتملت هذه الفقرة على مقتطفاتٍ مختزلاَت من قصّة حياة سليمان بن داود عليهما السلام، وهي معطوفة على المقتطفات المختزلات من حياة أبيه داوُد، دون أن تُستَفْتَح بعبارة: «واذْكرْ» مثل أشباهِهَا في السّورة، لأنّ حال سليمان كحال أبيه عليهما السّلام، فكُلٌّ منهما قد آتاهُ الله الملْكَ، وكلٌّ منهما قد خصّه الله بتَسْخِير بعض ما خلَق تسخيراً خاصًا، وكلٌّ مِنهما أوَّابٌ كثِيرُ التوبة والرُّجُوعِ إلى الله، وكلٌّ منهما قد امْتُحِنَ فوقع منه ما لا يَنْبَغِي أن يَقَع من مثله، وكلٌّ منهما أناب إلى ربّه مسْتَغْفِراً تائباً فغفر الله له، وكلٌّ منهما قال اللَّهُ عزّ وَجَلَّ بشأنه:

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾.

إذن فالتذكير بقصة حياة سليمان نظير التذكير بقصّة حياة أبيه داود عليهما السّلام، من حيثُ الغرضُ من هذا التذكير الموجَّهِ للرسول محمّد ﷺ للتأسّي، واختيار ما يُحِبُّ لنفسه من أحوال الرُّسُل عليهم السّلام، فكان مُجرَّدُ العطف هو المناسِبَ، لتشابُهِ مضمون القِصَّتَيْن.

وفي عبارة: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ ربْطٌ بقِصَّة داوُد، وتوطِئَةٌ لذِكْر مقتطفاتٍ من قصَّةِ سليمان تُلائِمُ الْغَرضَ مِنَ التذكير بهما.

إنّ الإنسانَ يُحِبُّ الولَدَ الوارثَ لأَمْجادِه، إذْ يَشْعُرُ أنّه امتدادٌ لبَقَائِه، فَيُعَوِّضُ به عَنْ رغْبَته في اسْتِمْرار البقاء في هذه الحياة الدُّنيا، ولو كانَ علَى يَقِينٍ بأنّه سَيَخْلُد يومَ الدين.

وٰهذِهِ الرَّغْبَةُ من الفِطَر الإنسانيَّة الّتي تُلازِم النّاسَ، ولو كانوا أنبياء ومُرْسَلِين.

والإنسانُ قد يُحِبُّ أن يكونَ ولَدُهُ الوارثُ لأمجاده من الزّوجَةِ الّتي أحَبَّها، وكان لداودَ عليه السلام أولادٌ من زوجاتٍ سابقات للمرأة الّتي تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بها، فتَزَوَّجَها، فولَدَتْ له سليمان.

ونلْمَحُ من الدَّلالات الضِّمْنِيَّة لقَوْلِ الله تعالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ ﴾ ومن استعمال ضمير المتكلّم العظيم أنّ الله جلّ جلاله وعظم سلطانه قد حقَّقَ لداود عليه السّلام الرَّغْبَتَيْن: فجعل وارِثَ الْمُلْكِ والأَمْجَادِ وأهمُّها الأمْجَادُ الدينيّة مِنْ أَوْلَادِه، وجعَلَ هذا الوارثَ من الزّوْجة الّتي تعلَّقَتْ بِهَا نَفْسُهُ.

وبهذه العبارة الرابطة دخَلَ الْبَيَانُ بابَ الحديث عن سليمان.

التدبر التحليلي:

● قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا ﴾: **الهبَةُ**: الْعَطِيَّةُ الخالية من الأعْواضِ والأغراض، يقال لغة: وهَبَ لَهُ الشَّيْءَ يَهَبُهُ وَهْباً وَوَهَباً وَهِبَةً.

وعطاءات الله جلّ جلالُهُ كلُّها هِبَات، إنّه هو الكريم الوهَّاب.

ومَنْحُ الذُّرِّيَّة الصالحة الماجدَةِ مِنْ أعظم هباتِ اللّٰهِ لعَبْدِه.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾: هذا هو عنوان البيان الآتي في السورة عن سليمان، وفيه وَصْفَانِ له:

الوصف الأوّل: وصف يَسْتَحِقُّ أنْ يُمْدَحَ من أجله، وهو تحَقُّقُهُ بعبوديَّةٍ لرَبّه وهذه يَسْتَحِقُّ من أجلها أن يقول اللّٰهُ بشأنه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ ﴾.

إنّ عبارةَ المدْحِ الدَّارِجةَ في اللِّسَان العربيّ هي عبَارَةُ: نعم الرَّجُلُ فُلان، ونحوها.

قال النحاة من علماء العربية: «نِعْمَ» فعلٌ جامدٌ لإنْشَاءِ المدح على سبيل المبالغة، أي: مع غرَضٍ تعظيم هذا المدح، وبيان أَنَّه كبير، وفاعل فعل المدح «نعم» هُنا كلمة «الْعَبْدُ» فالفاعل هنا اسم ظاهرٌ معرَّفٌ بـ «ال» الجنسيّة، وجملة المدح هذه تحتاج إلى اسم يكون هو المخصوص بالمدح، ويُعْرِبُهُ النحاة مبتدأً متأَخِّراً، والجملة من «نِعْمَ» وفاعِلِه في محلّ خبر متقدّم.

لكن المخصوص بالمدح في الآية وهو لفظ «سليمان» محذوفٌ إيجازاً، للعلم به من الجملة السّابقة.

وجاء بعد ذلك في عرض مقتطفاتٍ من قِصَّةِ حياتِه مثالٌ مما استحقّ به عبارة المدح، وهو رغبتُه في إعْدَاد خيول الجهاد في سبيل الله، لنشر دين الله، واهْتِمَامُهُ بها تَدْرِيباً واستعراضاً لها، وحَثًّا على اقْتِنَائها، وهذا أَمْرٌ يستحقُّ المدْحَ المبالغ فيه.

الْوَصْف الثاني: بيانُ أنّه أوّابٌ، أي: رجَّاعٌ إلىٰ الله بالاستغفار والتوبة وذِكْرِ الله، كلّما شَغَلَتْهُ شَواغِلُ الْمُلْكِ والسُّلْطان، أو تعرَّضَ لمَا لاَ يليقُ بمَقَامِ نُبُوَّتِه وَرِسَالَتِه، مِمَّا قَدْ يُبْعِدُهُ عن مقَامِ قُرْب المقربين الْمُحْسِنين، ولو كَانَ من الأعمال الّتي لا تُسْتَنْكَرُ من المتقين، ولا من الأَبْرار.

وجاء بعْدَ ذلك في عَرْضِ مقتطفاتٍ من قِصَّةِ حياتِه، مثَالٌ غامِضٌ ممَّا فُتِنَ به، أي: امْتُحِنَ به، فكان منه ما لاَ يليقُ بأمثاله من الأَنبياء والمرسَلِين، ثُمَّ أنابَ إلى ربّه، وقال: ربّ اغفِرْ لي، ولَمْ يتنازَلْ عن رغْبَتِه في مُلْكٍ وسُلْطَانٍ أوْسَعَ ممّا لديْه من ذلك، فَأَتْبَعَ اسْتغفارَهُ بقوله في دعائه لربّه:

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

إذن فالبدء بالحديث عن سليمان عليه السلام قد كان عنواناً مِنْ شقَّيْن.

وتفصيل الحديث عنه قد كان بضرب مِثالَيْن: فالمثال الأول مثالٌ للشّقّ الأوّل من العنوان، والمثال الثاني مثال للشّقّ الثاني من العنوان.

وبعد عرض المثالَيْن قال الله عزّ وجلّ بشأنه مثل قوله بشأن أبيه داود عليهما السلام: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾.

هذا ما تكشفه النظرة الكُلِّيَّةُ الإجمالية، لما جاء عن سليمان عليه السلام في هذه السّورة.

أوّلاً: تدبُّر المثال الأول لما استحقَّ به المدْحَ

- قول الله تعالى بشأن سليمان:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾.

- قرأ نافِعٌ، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: ﴿إِنِّيَ أَحْبَبْتُ﴾ بفتح ياءِ المتكلم، وقرأ الباقونَ بإسْكَانِها.

﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: هو الوقْتُ من الْعَصْرِ إلى الغروب.

﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ﴾: صِفَةٌ للخيل، استُغْنِيَ بِذِكْرِها عَنْ ذكر الموصوف، الصَّافِنُ من الخيْلِ هو القائم على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طَرَفِ الحافِرِ، أو قَلْبَ حافِرَ الرابعة، وهذه حَرَكَةٌ تفعلُها الخيْلُ عند سُكونِها واقفةً، ولا سِيَّمَا عِنْدَ تَهيُّئِها لِلْجَرْي.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جَمْعُ «الجواد» وهو الفرسُ السَّابقُ، يقال لغة: «جواد» للذكر والأنثىٰ، ويجمَعُ «جَواد» على «جِياد، وأَجْيَاد، وأجاويد».

وقصّة هذه الحادثة الّتي ذكرها الله عزّ وجلّ بصُورَةٍ مُوجَزَةٍ مُخْتَزلَةٍ، أخذاً من دلالات البيان القرآني الدّالّ عليها في هذه السورة:

كان سليمان عليه السَّلام مولَعاً باقْتِنَاء الْخُيُولِ واستعراضِهَا، لأنَّها من أفعل الوسائل في الْعُصُور السالفة للجهاد في سبيل الله، بغيَةَ نَشْرِ دين الله، وقَمْع الكُفْر والشِّرْكِ والْمُشْرِكين والمفْسِدِين في الأرض.

وفي عشيَّةٍ من الْعَشَايا، وهي في العادة تكون بعد وقت العصر، حتَّىٰ غُروب الشمس، طلب سليمانُ عَرْضَ موكب خيوله عليه، فَعُرِضَتْ عليه أَرْتَالاً، ورُبَّما رَافَقَ ذلِكَ سِبَاقَاتٌ بيْنَ بَعْضِها.

ولا بُدَّ أَنْ تَسِيرَ مارَّةً قُرْبَ مَجْلِسِهِ في اسْتِعْرَاضِها، متَّجهةً في طريقها ومُنْصَرِفَةً نَائِيَةً عنه، وهِيَ مِنْ نُقَايَاتِ الخيول وجيادها، ورُبما كانت مُسْرَجَةً مُلْجَمةً علَيْها فُرْسانُها، واستمرت مَسِيرة عَرْضِ الخيول حتّىٰ اسْتَتَرَ آخرُ أَرْتَالِهَا عن نَظَرِه، انْعِرَاجاً ذاتَ الْيَمِينِ أو ذاتَ الشّمال، أو هبوطاً في طريقٍ نَازِلَةٍ، أو نحو ذلك.

وشعَرَ سليمانُ عليه السَّلامُ وهو يسْتَعْرِضُ خُيُولَهُ، أنَّه ابْتَهَجَ بهذا المشْهَدِ الرائع، وسُرَّ بِه، وخَافَ أنْ يكونَ قد مالَ إلى مباهج الحياة الدُّنْيا، ورغبَةِ الْعُلُوّ في الأرض، وخاف أنْ يَفْهَمَ شَعْبُه ذلك عنه، فقال لحاشِيَتِه والنَّاسِ مِنْ حَوْله: إنِّي أَحْبَبْتُ اقْتِنَاءِ جِيَادِ الخيُولِ وَتَدْرِيبَها واسْتِعْراضَهَا حُبَّ الْخير، أي: لاَ حُبَّ التَّفَاخُر والتَّعَاظم والْعُلُوّ في الأرض الّذِي لا يَلِيقُ بأهل الْقُرْبِ من الله جَلَّ جَلاَلُه، وهذا الْخَيْرُ هو الجهادُ في سبيل الله لنشر دين الله وإعلاء كلمته.

وهذا الحبُّ الّذي أحْبَبْتُه للخُيُولِ ناشيءٌ وصادرٌ عن ذِكْرِ رَبِّي، لا عن انْشِغَالِ نَفْسِي بمباهج الحياة الدنيا وزِينَتِهَا وَمَفَاخِرِها.

ثـمّ طَلَبَ من أُمَرَاءِ سَاسَةِ الخيُولِ أَنْ يَرُدُّوها عليه، فَرَدُّوها، فلَمَّا وَصَلَتْ إلى مكان الْعَرْضِ قافلةً، قامَ من مجْلِسِه ونَزَل إلى طريق الْعَرْضِ، وأَخَذَ يُعبِّرُ عن تكريمه لها إشعاراً بتكريم الغايةِ منها، فجعل يَحْنِي ظَهْرَهُ تواضُعاً فَيَمْسَحُ بِسُوقِها، ويُقيمُ ظَهْرَهُ فيَمْسَحُ بأعْنَاقِها.

أمّا ما ذكَرَهُ بعْضُ أهْلِ التأويل حوْلَ هذه الحادثة، فليس لهم فيه خبَرٌ مرفوع إلى الرسول محمّد ﷺ، بلْ فيه إشْكَالاَتٌ فكرِيَّةٌ لا تتلاَءم مع سُمُوِّ هذا النّصّ القرآنيّ الجليل، وفيه نِسْبَةُ تَرْكِ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ صَلاَةَ الْعَصْر مِنْ أجْلِ اسْتِعْرَاضِ خُيُولِه حتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، بدُون دليلٍ عن الرسول ﷺ، وفيه أنّه عَقَرَ الخيولَ وقتَلَها لأنّها شَغَلَتْهُ عن صَلاةِ الْعَصْرِ دُون دليل أيضاً، وفيه اعتبار المثلَيْنِ وَارِدَيْن لشِقٍّ أنَّهُ أَوَّابٌ من العنوانِ المشتَمِل على شِقّيْنِ، وهذا ممّا يَنْبُوا عنه أسْلُوبُ البيان القرآنيّ الرفيع السَّامِيّ.

وهل في غَضَبِه وعَقْرِ الْخُيُول وقَتْلِها فضيلَةٌ تكَفِّرُ عن خطيئَةِ تأخير الصلاة عن وقتها، وما ذَنْبُ الخيولِ وهي ذوات أثمانٍ باهظة، وتُعَدُّ للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله.

إنّه لأمْرٌ مستَنْكَرٌ أن يُورد بعض أهل التأويل هذا الْوَجْهَ الذي لا دليل عليه.

لكلّ ما سَبَقَ كان الالتزام بما في النّصّ من دلالاتٍ لا تَكَلُّفَ فيها، ولا تحتاج إلى تأويلاتٍ غير مُسْتَسَاغات، هو الأحرىٰ بأَنْ يكُونَ عُمْدَةَ التَّدَبُّرِ الأَمْثَلِ لِكِتَاب اللَّهِ عزّ وجلّ، والله أعْلم.

وخلاصة ما يدُلُّ عليه النَّصُّ هو ما عَرَضْتُه من قصَّةِ هذه الحادثة التي ذكَرَتْها الآيات من (٣١ ـ ٣٣) فلنتَدَبَّرْ هذه الآيات تَدَبُّراً تحليليًا:

- ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾:

﴿إِذْ﴾: ظَرْفٌ لزَمَنٍ مَاضٍ، وهذا الظَّرْفُ مضاف هُنَا إلى الجملة الّتي بَعْدَه، أي: حينَ عَرْضِ الصَّافِنَاتِ الجيادِ عليه بالعشيّ.

والمعنى: نِعْمَ العبْدُ سليمانُ حينَ عَرْضِ الصَّافِنَاتِ الْجِيَادِ عَلَيْهِ بالْعَشِيّ، وكان منه ما كان من تكريم لأهَمّ وسائل الجهاد في سبيل الله يَوْمَئِذٍ، وتَصرُّفٍ نَاشيءٍ عن ذِكْرِ رَبّه، وناشيءٍ عن حُبِّهِ لِلْخَيْرِ ابتغاءَ مَرْضَاة ربّه.

أو: اذْكُرْ مثالاً من أمْثِلَةِ مَدْحِهِ بعبارة «نِعْمَ الْعَبْدُ» إذْ عُرِضَ علَيْهِ بالْعَشِيّ الصَّافِنَاتُ الجياد.

الْعَرْضُ في اللّغة للجُنْدِ أو الخيُولِ ونَحْوِهَا: هو إمْرَارُهم واحداً فواحِداً، أو صَفًّا فَصفًّا، ثُنائِيًا أوْ ثُلاثِيًا أَوْ أكْثر، للمشاهَدَة والتَّفَقُّد.

- ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي... ﴿٣٢﴾﴾:

أي: فقال: إنِّي أحْبَبْتُ اقْتِناءَ الخيلِ، وتَرْبيَتَها، وتَدْرِيبَهَا، واسْتِعْرَاضَهَا، حُبَّ الْخَيْر، وهذَا الخير هو الجهاد في سبيل الله، لإعْلاء كَلِمَته. أيْ: لا حُبَّ التّعَاظُمِ والتَّفاخُرِ بها، وحُبَّ الْعُلُوّ في الأرض.

إنّه لو كان حبّهُ لِلْخَيْلِ حُبَّ هذه الأمور من زينَةِ الحياة الدّنيا، لكان أمْراً غَيْرَ مَحْمُود، وغَيْرَ لائِقٍ بمقام النُّبُوّةِ والرّسالة.

وكلمة «حُبَّ» من عبارة «حُبَّ الْخَيْر» منصوبَةٌ على أنَّها مفعُولٌ مُطْلَقٌ، مُبَيّنٌ لِنَوْعِ عامله.

أي: إنَّ حُبَّهُ لِلْخَيْلِ هو من نَوْعِ حُبّهِ لِلْخَيْر، وهو الجهادُ في سبيل الله لإعلاء كلمته، لا من نَوْع حُبِّ زِينَةِ الحياة الدُّنيا، كالتفاخُرِ، والتباهي، وابتِغَاء العلُوّ في الأرض.

﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾: حرف الجرّ «عَنْ» هنا في هذه العبارةِ يَدُلُّ على العامل المحذف الذي يقتضيهِ المعنى، أي: حُبًّا ناشئاً أو صادراً عَنْ ذِكْرِ رَبِّي.

ويُمْكِنُ حَمْل حرف «عَنْ» هُنَا على معنَىٰ التعليل والسببيَّة، أي: بسبب ذِكْرِي رَبِّي، أو لأجْلِ القيام ببعض واجباتِ ذِكْري لِرَبِّي.

«عن» في اللّغة يأتي بمعنى «المجاوزة» وهذا المعنى يلائمه أن نقول فيه: ناشئاً أو صادراً عَنْ ذِكْرِ رَبّي. ويأتي بمعنى التعليل، وهذا المعنى

يلائمه: بسبب ذِكْرِي رَبّي، أو لأجْلِ القيام ببعض واجبات ذكري لِرَبِّي.

- ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾: أي: حتَّىٰ توارَتْ أرْتانُ الخَيْلِ بالحجاب.

توارَتْ: أي: اسْتَتَرَتْ.

بالْحِجَابِ: الحِجَابُ هُوَ الشيءُ السَّاتِرُ أيًّا كان، ويُطْلَقُ الْحِجَابُ على ما أشْرَفَ مِنَ الْجَبلِ.

والمعنى: كان تواريها بِسَبَب الحجابِ السَّاتِرِ، لا بسببِ الْبُعْدِ الزّائِدِ الذي تختفي فيه الأشخاصُ عن الأعين.

- ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

- ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾: أي: قال سُلَيْمانُ عليه السّلام لأمراء ساسة الخيْلِ، بَعْدَ أنْ توارَتْ عَنْ نَظَرِهِ بالحجاب في آخر العرض: رُدُّوهَا عَلَيَّ.

ولعلّه استعمل عبارَةَ ﴿عَلَيَّ﴾ دون عبارة «إليَّ» للإشارة إلى أنّها انْطَلَقَتْ مِنْ مَكانِ استعراضه لها في طريقٍ صاعِدَةٍ، ثم توارَتْ في منْعَطَفِ جَبَلٍ، أو في طريقٍ نازِلَةٍ، فكان المناسِبُ أن يَقُولَ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ لأنّها متَّىٰ ظَهَرَتْ مُقْبِلَةً من مَكانِ احْتِجَابِها أقْبَلَتْ عَلَيْه مِنْ عُلوّ.

- ﴿.. فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾:

طَفِقَ: من أفعال الشروع، أي: شَرَعَ يمْسَحُ مُتَابعاً عملَهُ.

وأفعال الشروع تعْمَلُ عمَلَ «كَانَ» فتَرْفَعُ المبتَدَأ وتَنْصِبُ الخبر، إلاّ أن خَبَرَهُنَّ يَجِبُ أن يكونَ جُمْلةً.

واسْمُ «طَفِقَ» هُنَا ضَمِيرٌ يَعُودُ علىٰ سليمانَ عليه السَّلام، وخَبَرُهَا جملَةٌ مَحْذُوفة، دلَّ عليها المفْعُولُ المطْلَقُ الباقي منها، وهو كَلِمَةُ ﴿مَسْحًا﴾ والتقدير: فطَفِقَ يَمْسَحُ مَسْحاً بالسُّوقِ والأعْنَاق.

السُّوق: جَمْعُ «سَاقٍ» وهو من الحيوان ما بَيْنَ الرُّكْبَةِ والْقَدَم. وقراءَةُ «قُنبُلٍ» عن «ابْنِ كَثِير»: [**بالسُّؤْقِ**] و [**بالسُّؤُوقِ**] لُغَةٌ من لُغَاتِ العرب، قاعِدَتُها هَمْزُ كُلِّ واوٍ ساكنة قَبْلَها ضمَّةٌ[1].

الأَعْنَاق: جمع «عُنُق» وهو الواصِلُ ما بين الرأس وسائر الجسد، «ال» في كَلِمَتَي السُّوقِ والأعناق هي «ال» التي تأتي بدلاً من الإضافة، أي: في سوقِها وأعْنَاقِها.

دلَّ مَسْحُهُ سُوقَها على تواضُعِهِ، إذْ كان يَحْنِي لِذَلِكَ ظَهْرَه.

هذا هو النصّ، وهذا ما دَلَّت عليه فقراته، ولا داعيَ بَعْدَ هٰذَا لاتّباع رواياتٍ لَمْ يُرْفَعْ شَيْءٌ مِنْهَا إلى الْمَعْصُوم، وهي لا تليق بمقام النبوَّةِ ومقام الرِّسالة، مع التكلُّفِ في حَمْلِ النَّصِّ علَيْها.

ثانياً: تدَبُّرُ المثالِ الثَّانِي مِنْ أمثِلَة وَصْفِ سُلَيمَان عليه السَّلَامُ بأنَّهُ أَوَّابٌ

● قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَتَنَّا﴾: قال أهْلُ اللُّغَةِ: الفِتْنَةُ تَرْجِعُ إلى معنى الابتلاءِ والامْتِحَانِ والاخْتِبَارِ، في مختلِفِ الاستِعْمَالِ الأصْلِيّ لمادّة هذه الكلمة، ومشتَقاتها.

ولمَّا كانت معادنُ الذّهب والفِضَّةِ ونَحْوِها إذَا أرادَ فَاحِصُوهَا امْتِحانَها لِمَعْرِفَةِ جَيِّدِها من رَدِيئِهَا، أَوْ أرادوا نَفْيَ خبثِها، أذابُوها بالنّار، أو أَحْمَوْها بها، حتَّىٰ تكونَ كُتْلَةً جَمْرِيَّة، وبهذا يَنْكَشِفُ لهم الجيِّدُ من الرّديءِ، ويَمْتَازُ

---

[1] ذكر هذه القاعدة أبو حيّان الأندلسيّ في تفسيره: «البحر المحيط».

الْخَبَثُ فَيَعْزِلُونه، ويَصْطَفُون الخالص من المعدن، ومن هذا أَطْلَقَ العرَبُ لفظ «الفِتْنَةِ» ومشتقّاتها على الإحراق بالنار، أو العرض على النار، سواءٌ أكان للاختبار والامتحان، أم كان للتعذيب والإكراه على فِعْلِ أمْرٍ أو تَرْكِ أمْرٍ.

ولمَّا كانَتِ الأشياءُ المحبُوبَةُ المرْغوبَةُ للنفوس إذا امْتُحِن الإنسانُ بها مَالَ إلَيْها، وتَعلَّقَ بها، كالنّساء والأموال والْبَنِين، فتنكَشِفُ بالامْتِحانِ اسْتِقَامَتُه، أو مَيْلُه وعَجْزُهُ عن المقاومة، أَطْلَقَ الْعَربُ علَيْها أنَّها فِتْنَة.

وكذلك الأشْيَاء المكروهةُ الّتي تَنْفِرُ النفوسُ مِنْها، وتَمِيلُ عَنْها، تُسمَّىٰ «فِتْنَةً» أيضاً، باعتبارها من الأشياء التي يحصُل بها الامتحان.

وأَطْلَقَ العربُ «الفتنةَ» على مُجَرَّدِ الميْلِ والإعجاب. وقالوا: «فُتِنَ فُلَان» إذا ذهَبَ عَقْلُه بالشيء الذي فَتَنَهُ فمالَ إليه.

وقالوا: فُتِنَ فُلَانٌ، وافْتُتِنَ، وافْتَتَنَ، إذا لم يَصْمُدْ في الامتحان، بل سقَطَ فيه، ولَمْ تَظْهَرْ من مَعْدِنِه القوّةُ ولا الاستقامة تُجاهَ ما امْتُحِنَ به.

فبالتوسُّعِ أُطْلِقَتِ الفِتْنَةُ ومشتقّاتُها على وسيلة الامتحان، وعلى العرض على النار، وعلى الإحراق بها، وعلى السُّقُوطِ في الامتحانِ وعدم النجاح، وهو من إطلاق السَّبب على المسبَّب، أو من إطلاق الوسيلة على إحدى الغايتين فقط، وهي السقوط والْخَيْبة.

فمعنى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾: ولَقَدِ امْتَحَنَّا سُلَيْمَانَ واخْتَبَرْنَاهُ وابتلَيْنَاهُ، وجاء التأكيد بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾ لِدَفْعِ تَوهُّم أنّ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ لاَ يُمْتَحَنُونَ بسبب العِصْمَةِ الّتي عَصَمَهُمُ الله عزّ وجلّ بها، بل يُمْتَحَنُونَ بشِدَّةٍ، ولكِنْ في حُدُودِ مرتَبَتَي الأبرار والمحسنين، لاَ في حُدُودِ مَرْتَبةِ المتّقِين، إذْ هم في حُدُودِ مرتَبَةِ المتقين مَعْصُومون، وعلى النّاس أن يتأسَّوْا بِهِمْ فيها.

فلا بُدَّ أنْ يكونَ امتحانُ سُلَيمانَ عليه السَّلَام، بما تكونُ مقاوَمتُه فيه أضعفَ المقاومات في كيانه، مع أنّه شديدُ المقاومة بوَجْه عامٍّ في سائر أُمُورِه، لاصطفاء الله له بالنُّبُوَّةِ والرّسالة.

ومن دراسة تاريخِ حياته عليه السّلام، نَجِدُ أنَّ احْتِمَالَ ضعف مقاومته يَتَردَّدُ بيْنَ أمْرَين:

الأمْرُ الأول: رغْبَتُهُ فِي النِّسَاء، وقُدْرَتُه النَّادِرَةُ أو الْفَرِيدة على الجِماع.

فقد ثبت في صحيح البخاريّ أنَّ سُلَيْمانَ عليه السّلام طافَ في إحدى لياليه على تِسْعِين امرأةً من نسائه، رجَاءَ أن يَحْبَلْنَ منه جميعاً في تِلْكَ اللّيلة، فيأتينَ بِفُرْسَانٍ يُقَاتِلُونَ في سبيل الله، ولم يقُلْ: إنْ شاء الله، فلم تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إلاّ امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشِقّ رَجل.

قال رَسُولُ الله ﷺ:

«وَايْمُ الّذِي نفسُ محمّد بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَاناً أَجْمَعُونَ».

وفي عَدَدِ النّسَاءِ اللاَّتي قال سُلَيْمانُ لأَطُوفَنَّ اللّيلةَ بِهِنَّ روايات، كلُّها في الصحيح، فهنّ «مائَةٌ، أو تِسْعُونَ، أو سَبْعُونَ، أبو سِتُّون» والله أعلم، وقُدْرَتُه على يَطُوفَ علَىٰ سِتّينَ زَوْجَة في لَيْلَةٍ واحِدَة، عَجَبٌ عُجَابٌ في قُدْراتِ الرّجال.

وجاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأوّل عند أهل الكتاب:

«٣ ـ وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِي، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ».

ويفترِي الإسرائيليون على سليمان عليه السَّلام أكاذيب حول مَيْله لآلِهَةِ نِسَائِهِ الْوَثَنِيَّات، تأثُّراً بمَيْلِهِ لِمَنْ أحبَّ مِنْهُنَّ.

أقولُ: فلعَلَّ امْتِحَانَ سُلَيْمَان عليه السَّلامُ منْ جهَةٍ من أَحبَّ مِنْ نِسَائِهِ الْوَثَنِيَّاتِ، أنَّه لم يشْتَرِطْ عَلَيْهِنَّ الإِسْلاَمَ وإلاَّ طَلَّقَهُنَّ، وهذا يلْزَمُ منْهُ الرِّضَا بِبَقَائِهِنَّ وثنيَّاتٍ يَعْبُدْنَ أَوْثانَهُنَّ وهُنَّ على عِصْمَتِه.

ومثلُ هذا الأمْرِ إنْ جاز من آحَادِ المؤْمِنينَ المسلمين، بالنسبة إلى شريعة أهل الكتاب، فإنَّه أَمْرٌ لا يَليقُ بمقامِ نبيٍّ رسولٍ مثْلِ سليمان عليه السلام، وهذا مِنْ مِثله يحتاج إلى إنابة إلى الله تعالى واستغفار، لأنّ واجبات أهْلِ مرتبةِ الإحسان فَوْقَ واجباتِ أهل مرتبة البرّ، وواجباتُ أهْلِ هَاتَيْنِ المرتَبَتَيْن فوق وَاجِباتِ أهْلِ مرتبة التقوىٰ.

الأمر الثاني: حُبُّهُ لِلْمُلْكِ والسُّلْطان، وهذا ظاهرٌ ممَّا في القرآن المجيد عنه، إذْ جاء في النّصّ الّذي نتدبَّرُه دُعَاؤُهُ لِرَبّه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

وقد نُعَلِّل هذا الْحُبَّ برَغْبَتِهِ في نُصْرَةِ دِين الله عن طَريق الْمُلْك.

ولكن كيف كان امتحانُ سُلَيْمان عليه السلام في هذا الأمْر الّذي قد تَضْعُفُ مقاوَمَتُه تُجاهَهُ، إذا تعرَّضَ فيه لشيءٍ يخْشَى منْهُ أنْ يكون سبباً في انْتِزَاع مُلْكِه منه؟.

جاء في سفر الملوك الأوّل من كتب أهل الكتاب الإصحاح (١١).

(١٤) وَأَقَامَ الرَّبُّ خَصْماً لسُلَيْمانَ «هَدَدَ الأَدُومِيّ» كان من نَسْلِ الملِكِ في «أَدُوم».

(٢٣) وأَقَامَ اللَّهُ لَهُ خَصْماً آخَرَ «رَزُونَ بْنَ أَلِيدَاعَ».

وجاء فيه أنَّ يَرُبْعَامَ بْنَ نَابَاطَ الأَفْرَايِيمِيّ قَامَ ضِدَّ سُلَيْمانَ لِيَنْتَزِعَ مِنْهُ

الْمُلْكَ، وحَاوَلَ سليمانُ قَتْلَه، إلاَّ أنَّ «يَرُبْعَامَ» هَرَبَ إلى «شِيشَق» مَلِكَ مِصْرَ يَوْمَئِذٍ، وَبَقِي في مِصْرَ إلَىٰ وَفَاةِ سُلَيْمَانَ.

قد يُشيرُ هذا التاريخ إلى نَوْعِ امتحان الله عزّ وجلّ لسليمان عليه السّلام في مُلكه الّذي له شغفٌ به.

- قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ... ﴿٣٤﴾﴾.

تُشِيرُ هٰذِه العبارة إلى حادِثَةٍ أجْرَاها الله عزّ وجلّ لسليمان عليه السَّلام تتعلَّقُ بكُرْسيِّ مُلْكِهِ، وإشْعَارِهِ بإبعادِه عَنْ مُلكِه، لاختبار حالَتِه النفسيَّة مع رَبِّه خِلاَلَ هذِه الحادثة، الّتي قضىٰ الله عزّ وجلّ أن تكونَ عَرَضاً طارئاً، لكنَّهُ لَمْ يَكُنْ يعْلَمُ بأنّه عرضٌ طارئٌ.

والاختبار قد كان بإلْقَاء جسَدٍ في صورة سُلَيْمانَ على كُرْسِيّه، في سَاعَةٍ كان يقضي فيها بعض حاجاته الخاصَّة بَعِيداً عن كُرسيِّ مُلْكِه، فلمَّا رجَع إليه وجَدَ هذا الّذِي هو على صُورَتِه جالساً عَلَيْه بِلِبَاسِ الْمُلْك، والنّاسُ والحاشيةُ والأَجْنَادُ يأتَمِرُونَ بأمْره، وهم يَعْتَقِدُونَ أنّه سليمان.

وجاء في الروايات أنّه جنّيٌّ، وأنّه استَطَاع أنْ يحْتَالَ حتَّىٰ أخَذَ خَاتَمَ مُلْكِهِ الَّذِي جعلَ الله فيه سِرَّ الْمُلْكِ، وجَلَسَ على كُرْسِيِّ مُلْكِه أرْبَعِين يوْماً، كانَ سُلَيْمانُ خِلاَلَها يَعْمَلُ كآحادِ النّاس لِكَسْبِ طعامه بالخِدْمَة، حتَّى سقَط خاتم سليمان من الجنّيّ في البحر، فابتلَعَتْه سمكَةٌ، ووقَعَتْ هذه السَّمَكَةُ في شَبَكِ بعْضِ الصيادين، وقضىٰ الله أنْ تَصِل هذه السَّمكَةُ إلى سُلَيْمانَ عليه السلام، فَشَقَّ بطْنَها فوجَد خاتمه، فعادَتْ له هيْبَتُه ومُلْكه.

أقول: لا نَجدُ دَاعِياً لتصديقِ هذه الرّوايَاتِ الّتي لا تستَنِدُ إلى خَبرِ عَنِ المعصوم، فَمِنَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والحكْمَةِ أن لا نعبأ بها، وأن نقتَصِر على ما دَلَّ عليه النَّصُّ القرآنيُّ، وما يَقْتَضِيه من لوازم.

إنّ تَسْمِيَةَ الّذِي أَلْقاه الله عزّ وجلّ على كُرْسِيّ سليمان عَلَيْهِ السَّلامُ

جَسَداً، يَدُلُّ علىٰ أنَّهُ لاَ يأكُلُ ولا يُعَاشِرُ النِّسَاء، فهو ليس جِنِّيًا، لأنَّ الجنّ كالإِنْسِ يأكُلون ويَشْربون ويُعَاشِرُون النِّساء، وليْسَ وَثَناً، لأنَّهُ لو كان وثناً أو دُمْيَةً لاكْتَشَفَ سُلَيْمَان أَمْرَهُ سَرِيعاً، ولمَا كان في الأَمْرِ اختبارٌ له.

وفي معرض طلب المشركين أن يكون الرَّسُولُ مَلَكاً مُعْتَرِضِينَ على بَشَرِيَّتِه، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بعد بيان أنَّ الرُّسُلَ جَمِيعاً رِجالٌ يُوحي الله إليهم:

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ . . . ﴿٨﴾﴾.

وهٰذا ينْطبِقُ على الملائكة، فَهُمْ أجْسَادٌ نُورانية، لا يأكلُونَ الطعام، وليس لهم سائر الصِّفات الحيوانيّة البشرية، لكنَّهُمْ مخلوقات نورانيّة، قد يتشكَّلُونَ بالأشكال الجسَدِيّة بقدرات أعطاهم الله عزّ وجلّ إيَّاها.

فالظاهر من كون الله تبارك وتعالى ألقاهُ على كرسِيِّ سليمان، ومِنْ تسميَتِه جسداً، أنَّهُ مَلَكٌ أنزله الله بأمْرِه، فتشكَّلَ جسداً على صورة سُلَيْمان، وتَمَّ به امْتِحانُ سُلَيْمانَ في خُصُوصِ كُرْسِيِّ مُلْكه، ولا أحَدَ من النَّاسِ غَيْرُ سليمان يدري بالأمر.

ولسْنَا بحاجَةٍ بعْدَ هذا لمعرفةِ تفصيلاتِ رجْعَةِ كُرْسِيِّ الْمُلْكِ إليه، وإنْهاءِ حادِثَة الامتحان، ويكْفِي أنْ يَنْصَرِفَ هذا الجسَدُ عنه، ليَجِدَهُ سليمان عليه السّلام فارغاً، فيلْبَسَ لِبَاسَ الملْكِ كَعَادَته، ويَجْلِسَ علَيْه في الأوْقَات الّتي اعتادَ أن يجْلِسَ عليه فيها.

● قوله تعالى: ﴿ . . . ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾: يَدُلُّ علَىٰ أنَّهُ قَدْ مَضَتْ مُدَّةٌ عَلَىٰ سُلَيْمانَ كَانَ فيها هائماً شارداً، حتّىٰ أنابَ إلى ربِّه، واستَغْفَر، فغفر الله لَهُ، فأعَادَهُ إلى ما كَانَ عَلَيْهِ من الْمُلْكِ والسُّلْطان.

لقد أَدْرك سليمانُ عليه السّلامُ بعْدَ مُدَّةٍ أنَّهُ ارتَكَبَ بَعْضَ أخْطَاءٍ لا تليقُ بمِثْلِه وهو نَبِيٌّ ورسُول، وأنّه كان يَنْبَغِي له أنْ يُحَافِظ على كمالِ مَرْتَبَةِ

المحْسِنين المقرّبين، ولا يَنزِلَ في بعْضِ أعْمالِه وتَصرُّفاتِهِ إلى مَرْتَبةِ الأبْرار أو المتقين، فأنابَ إلَى رَبّه.

وهذه الإنابة القلبية الّتي أنابَها منْ أعْمَاقِ كِيانِه، رافقَها أنْ صَرفَ اللّهُ الشّبيه من الملائكَةِ المتَجسِّدَ على مِثَالِ صورة سليمان، وعادَ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلام إلى كُرْسِيِّهِ مَلكاً، والناس لم يَعْرِفوا شيئاً، لأنَّهم لم يُفرِّقُوا بَيْنَ الشَّبيه الْمُماثل والأصل، إلاّ أن زَوْجاته رُبّما استَنْكَرْتَ أنَّهُ انْقَطَعَ عنْهُنَّ وهُوَ المولَعُ بالنِّساء.

وإذْ أنابَ سليمانُ عليه السَّلام إلى ربّه إنَابَةً صَحِيحَةً صادقَةً، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

وأدْرَكَ أنّ الْمُلْكَ عُرْضَةٌ للسَّلْب بطَرْفَةِ عَيْنٍ متىٰ شاء الله سَلْبَه، وهو يَعْلَمُ أنَّ المُلْكَ بِيَدِ الله يُؤتيه من يشاءُ، ويَنْزِعُهُ مِمَّنْ يشاء، فأتَمَّ دُعاءه لربِّهِ قائلاً:

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: وهَبْ لي مُلكاً لاَ أُسْلِبُه في حياتي، ولاَ يَنْبَغي مِثْلُه لأَحَدٍ مِنْ بَعْدي، فدلّتِ عبارة: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ على الأمْرين معاً، أمّا أحَدُهما فَبِصَريحِ اللّفْظِ، وأمّا الآخرُ فبِلاَزمِهِ الذّهني، لأنّه إذا كان لا ينبغي هُو أو مثْلُه لأحَدٍ مِنْ بَعْدِ حياته، فرغبتُه في بقاء مُلْكِه لَه طَوال حيَاتِه مُضَمَّنَةٌ في الدُّعاء لزوماً ذهْنِيًا، ومن «بَابِ أَوْلَىٰ» فلا داعيَ لِحَمْلِ العبارة على أحدهما فقط: إذِ الآخَرُ مفهومٌ بدلالة اللُّزوم الذهنيّ كما ذَكَرْت.

وبناءً على المعنَىٰ الّذي يَدُلُّ علَيْه منْطُوقُ اللّفظ تَرَكَ الرَّسُول محمَّدٌ ﷺ الْعِفْرِيتَ من الجِنِّ الّذي أمكَنَهُ اللّهُ عزّ وجلّ منه، لئلاّ يُشَارِكَ سُلَيْمَانَ عليه السّلامُ ببَعْضِ خصائص مُلْكِه في التَّسلُّط على الجنّ، فيتَوَهَّمَ النَّاسُ عدمَ تفرُّدِ سليمان بمَا خصَّهُ الله به.

روى البخاري عن أبي هريرة، أنْ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ عِفْرِيتاً مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ ـ أَوْ كَلِمَةً نَحْوها ـ لِيقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ، فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ سَارِيَة مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّىٰ تُصْبِحُوا وتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ . . ﴿٣٥﴾﴾»⁽¹⁾.

قال رَوْح أَحَدُ رُواة الحديث في روايته له: «فَرَدَّهُ خَاسِئاً».

يقال لغة: **لاَ يَنْبَغِي لَه**: أي: لا يَسْهُلُ له وَلاَ يُطَاوِعُهُ، ولاَ يَتَيَسَّر له. أو لا يَصْلُحُ هوله، ولاَ يكُونُ بَيْنَهما تَلاَؤُمٌ أَوْ قَبُول، أو لا يَلِيقُ به.

- ﴿. . إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾:

«**الْوَهَّاب**» من صيغ المبالغة لاسم الفاعل «واهب». **والهبة**: الْعَطِيَّةُ الخالية من الأعواض والأَغْراض. يقالُ لغة: وهَبَ لَهُ الشَّيْء يَهَبُهُ وَهْباً وَوَهَباً وهِبَةً فَهُوَ واهبٌ وَوَهَّابٌ وَوَهُوبٌ ووَهَّابَةٌ.

- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

- وقرأ أبو جعفر «الرِّيَاحَ» بالجمع.

أي: فغفَر اللَّهُ له ما كان مِنْهُ مما لا يَلِيقُ بمقام أهْل مَرْتَبة الإحسان، واستجاب دُعَاءَه بعظَمَةِ رُبِيَّتِه وقُدْرَته على ما يشاء، فثَبَّتَ له مُلْكَهُ طَوال حياته، ووهَبَ لَهُ مِمَّا طلَبَ مِنْ مُلْكٍ زائِدِ عَلَىٰ ما كَانَ لَدَيْهِ مِنْهُ سُلْطَاناً على الريح ذاتِ الأنواع، فهي رياح بحسَب أنواعها، رِيحٌ بحَسَبِ جِنْسِها، وسُلْطَاناً على الشياطين.

---

(١) انظر فتح الباري رقم الحديث (٤٨٠٨).

التسخير: تذليل الشيء لعملٍ مَا، أَوْ لأمْرٍ مَا، وجَعْلُ الشَّيْء مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ به ضِمْن قانون تسخيره، وهذه المطاوعة قد تكون بالطبع، كتَسْخِير الأشياء، وقَدْ تكونُ بالْقُوَّةِ مع التذْليل، كتسخير الْعَجْماوات للناس، وقَدْ تكونُ بالاختيار الحرّ لِمَا في المطاوعة من مصلحةٍ للمطاوع، كتسخِير بعض الناس لبعض الناس بإراداتهم الحرَّة.

وتسخير الله عزّ وجلّ الريح لسليمان عليه السَّلَام، وتسخير الشَّيَاطين له فضلاً عن سائر الجنّ، قد كان بمَنْحِه قُدْراتٍ خاصَّةً، يستطيع بها التَّسَلُّطَ على ما سخّر الله له.

وبهذا التسخير الرَّبَّانِيّ صارت الرّيحُ تتحرَّكُ بأمْره، وصَارَتِ الشَّياطين تُطيع أَمْرَهُ، فتقومُ بما يأمُرُها بِه من عَمَلٍ يَدْخُلُ في قُدْرَاتِها، ومَنْ يَعْصِي منهم اسْتَطَاعَ أن يَسْجُنَهُ، ويُقَيّدهُ بالسَّلاسل القادرة على الإمساك به مُقَيَّداً سَجِيناً، وعُرْضَةً للتَّعْذِيب الْمُهِين.

- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿رُخَآءً﴾: أي: ليّنَةً، وهٰذِه لا تكون شديدةَ قاصِفَةً ولا عاصفة ولا حَاصِبَةً، بل هي ليّنَةٌ لا تُزْعِجُ ولا تؤذي.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾: أي: حيْثُ قَصَدَ وأرَاد، والصَّوْبُ الجِهَةُ، والمعنى: تجري الرّيح بأمْرِ سُلَيْمَانَ إِلَىٰ الجهة الّتي أراد.

ولعلَّ في اخْتبار كلمة «أَصَابَ» إشارةً إلى أنّه قَدْ وُجّهَ لاستخدامها مُتَحرّياً الصَّوابَ في التصرُّفِ بتوجيه الرّيح.

وجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أنّ الريح العاصفة قد سُخِّرَتْ له أيضاً، وفي قراءة أبي جعفر [**الرِّياح**]. (انظر الآية: ٨١)

- ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: وسَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطين بسُلْطانٍ جعلْنَاه له عليهم، فَهُوَ يَسْتَخْدِم من يشاءُ منهم في بناء القصور والْقِلَاعِ الحصينة، ويستَخْدِمُ من يشاء منهم في الغوص في البِحَار، ليسْتَخرجوا له من كنُوز البحر وجواهره ما يريد.

وقد جعل الله له سُلْطاناً على الْعُصَاة منهُم، فيُقَيِّدُهُمْ في الأَصْفَاد، ويُؤَدِّبُهم بالإذْلَالِ والتَّعْذِيب، وهُمْ من مَرَدَةِ الجنّ.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾: الشياطين جَمْع شَيْطَانٍ، على وزن «فَيْعَال» من فعل «شَطَنَ» أي: بَعُد. والشيطان في اللّغة: كُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ من الجنّ والإنْسِ والدَّواب، وهو اسم جنس يقَعُ على كلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ متمرّد مُفْسدٍ من الجنّ والإنس.

يقال لغة: شطَنَ يَشْطُنُ شَطْناً، وهذا الفعل يأتي بمعنيين:

الأوّل: بمعنى بَعُدَ، تقول شَطَنَ عنه، أي: بَعُد، وأشطنَهُ أي: أبْعَدَهُ.

الثاني: بمعنى شَدَّ بالشَّطَن، وهو الحبْل الذي يُشْطَنُ به الدَّلْوُ في البئرِ، ويجْمع على «أشْطَان».

ولمَّا كان الشيطان اللّعين بعيداً عن الحقّ، ومُبْعِداً عنه بالوسوسة والإغراء والإغواء، وكانت له «أشْطَان» أي: حبائل للإغواء، كان حَرِيًا بهذا الاسم.

والشياطين المسخّرة لسليمان هم شياطين الجنّ، فهم الّذين خَصَّ الله عزّ وجلّ سليمان عليه السلام بالتسلُّط عليهم، فيسْتَخْدِمُ فريقاً منهم ذوي مهارةٍ في العمران وقُدْرَةٍ عليه في البناء، ويَستَخْدِم فريقاً آخَر منهم ذوي مَهَارَةٍ وقدرة على الغوص في البحار، فيكلّفهم الغوص ليستخرِجُوا له ما في البحار من كنوز، ومن عَصَاه منهم قيّده بالسّلاسِل وسجَنَه، ووجّه له عذاباً مُهيناً.

﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾: بَنَّاء: صيغة مبالغة لاسم الفاعل من بَنَىٰ يَبْنِي فهو بانٍ، والمراد أنَّه شديدُ القدرة على البناء ماهرٌ فيه و ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدَل من **[الشَّياطِين]** بدَلُ بعْضٍ مِن كلٍّ.

﴿وَغَوَّاصٍ﴾ غوّاص: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل من غاصَ يغُوصُ فهُوَ غائصٌ. أي: وكُلَّ غوَّاصٍ مِنَ الشَّياطين في البحار.

- ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: أَيْ: مَشْدُودِينَ فُرادَىٰ أو مُقْتَرنين في السَّلاسِل والأغلَالِ.

الْقَرَنُ: الحَبْلُ الّذي يُشَدُّ به الأسِيرُ، يقال لُغةً: قَرَنَ الأسِيرَ بالحبْلِ، أي: شَدَّه به. وقَرَّنَهُ إذا شَدَّدَ علَيْه الْوَثَاقَ به.

ويُقالُ لغة: قَرَّنَ الأسِير بالأسير، أي: جَمَعَهُما في وَثاقٍ واحدٍ.

الأصفاد: هي السَّلاسِلُ والأغْلالُ، مفرَدُها، الصَّفَدُ والصِّفَاد.

فقد يكونُ معْنَىٰ ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ مَجْمُوعِين في السَّلاسِلِ والأغْلَال بقُوَّةٍ، مُقْتَرِنين أزواجاً أو جماعات.

- ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: قال الله عزّ وجلّ لسليمان عليه السَّلام بعد أن استجاب له دعاءه، فوهَبَهُ ما أبانه في الآيات (٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨) هذا القول.

هذا القول مستقطعٌ من الحدَثِ الْمَاضِي، ومُقَدَّمٌ في هذا النَّصِّ، كأنَّ الله عزّ وجلّ يخاطبِ به سليمان الآن، وهذا من الفنون البديعة الّتي جاءت في القرآن، دون أن تكون من أساليب الْعَرَب البيانيّة قبله.

والمعنى: هذا عطاؤنا لَكَ يا سليمان إذْ طَلَبْتَ مُلْكاً لا ينْبَغِي لأحَدٍ من بَعْدِك، وأنْتَ فيما أعْطَيْنَاكَ من هذا الملْكِ مأذونٌ لَكَ إذْنَ إباحَةٍ غيْرِ

مُسْتَتْبَعَةٍ بحِسَابٍ، في أنْ تُعْطِي بالْمَنِّ كما تَشاء، وفي أن تُمْسِكَ عَنِ الْعَطاءِ على ما تَشاء.

﴿فَٱمۡنُنۡ﴾: أي: فأعْطِ على وجْهِ الإحْسَان والإكرام، وهذا المعْنَىٰ هو المناسِبُ هنا، لا المعنَىٰ الآخر، وهو الافتخار بالإعطاء، والتحدُّث به استِعْلاءً وإشعاراً بالتفضُّل، أو تذكيراً بِهِ للإذْلاَلِ والتسخير.

المنّ في اللّغة يأتي بمعنَيْين:

الأوّل: الإنعامُ والإحسان والإكرام، يُقال لغة: مَنَّ فُلانٌ على فلانٍ يَمُنُّ مَنًّا، أي: أنعم عليه نِعْمَةً طيبَة، وأحْسَن إليه بعطِيَّة.

الثاني: التحدُّث على سبيل التفاخُرِ بالعطاء، أو الإشعارِ بِدُونيَّةِ آخِذِ العطيَّةِ إهَانَةً له.

﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾: أي: أو امْنَعْ عَطَاءَكَ بحَسَبِ ما ترىٰ.

﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: أي: قد أبَحْنَا لَكَ المنَّ والإمْسَاكَ، بغَيْرِ حسابٍ نُحَاسبُك فيه على ما تفعل، سواءٌ منَعْتَ أمْ أمْسَكْتَ.

والتقدير: فامْنُنْ كما تَشاءُ مَنًّا مصْحُوباً بغير حسابٍ لك، أَوْ أمْسِكْ كما تَشَاءُ إمْسَاكاً مَصْحُوباً بغَيْرِ حِسَابٍ لَكَ عَلَيْه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾﴾.

يَلْتَفِتُ النصُّ فيقول الله عزّ وجلّ للمتَلَقِّين مُتحدِّثاً عن منزلة سُلَيْمان عنده، فيُبَيِّن أنَّ لَهُ عندَ رَبِّه قُرْبَىٰ، وحُسْنَ مآبٍ، كما سبَقَ أنَّ قال بشأنِ أبيه داود عليه السلام في الفقرة الأولىٰ من هذا الدَّرْس.

أي: وإنْ لَهُ عنْدَنَا لَدَرَجَةً وَمَنْزِلَةً ذاتَ قُرْب، وإنَّ لَهُ عندنا لَحُسْنَ مَرْجعٍ في جنَّاتِ النعيم.

الزُّلْفَىٰ: اسْمٌ يأتي بمَعْنَىٰ الْقُرْبَةِ والدَّرجَةِ والمنزلة.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: أي: وحُسْنَ مَرْجِعٍ، وهذا إنما يكون في جنَّاتِ النعيم.

وإضافة «حُسْن» إلى «مآبٍ» من إضافة المصدر إلى فاعله، أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، على تأويل المصدر بمُشْتَقّ والوصفِ به، والتقدير، ومآبٌ حَسَنٌ، أو هو كُلُّهُ حُسْنٌ.

وجاء تأكيد الجملة بـ «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللّام المزحلقة» وقُدِّمت عبارَةُ ﴿عِندَنَا﴾ على ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ لإفادَة تخصِيص الزلْفَى وحُسْنِ المآب بما يكون له عند ربّه يَوْم الدّين، مع تَعْظِيمهما، لأنّ ما يكون عند الله يوم الدّين شيءٌ عظيمٌ جدًّا.

هذا ما جاء عن سليمان عليه السَّلام في سورة (صَ) وقد وزَّعَ الله عزّ وجلَّ بقيَّة ما أراد أن يُنزِل عنه في القرآن في سور (النَّمْل ـ الأنعام ـ سَبَأ ـ الأنبياء ـ البقرة ـ النّسَاء) بحسب دواعي المناسبات الفكرية، وأغراض تنزيل القرآن منجّماً.

* * *

التدبر التحليلي للفقرة الثالثة
من فقرات الدرس الثاني من دروس السورة
وهي الآيات من (٤١ ـ ٤٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

- وقرأ حمزة: [مَسَّنِي] بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.
- وقرأ أبو جَعْفر: [بِنُصُبٍ] بضم الصَاد مع النون وهو على سبيل الإتباع.

وقرأ يعقوب: [بِنَصَبٍ] بفتح النون والصاد.

«نُصْب، ونُصُب، ونَصَب» المشقة والتَّعب والإعياء، فالمعنى في القراءات الثلاث واحد.

تمهيد:

في هذه الفقرة عَرْضٌ مقتضَبٌ مخْتَزَلٌ اخْتِزالاً شديداً من قصَّةِ ابْتِلَاءِ النَّبِيِّ الرّسُول أيُوبَ عليه السَّلام بالمكاره، الّتي امْتَحن اللَّهُ عزّ وجلّ بها صَبْرَهُ امتحاناً شديداً، فوجَدُه فيما ابتَلَاه به صابراً، فأثْنَىٰ عليه، وجَعَلَهُ ضِمْنَ فِئَةِ الأوَّابِين من الرُسل عليهم السلام، مثل داوُدَ وسليمان، دون أن يَذْكُرَ شيئاً أوْ يُلْمح إلى شيءٍ بعَيْنِه، مثالاً على كونه أوَّاباً، أي: رَجَّاعاً إلى مرتبة الإحسان الّتي يَنْبغي للرسول أنْ يحافظ على شروطها وواجباتها دَواماً.

وجاء عنه أيضاً عرضٌ مقتضبٌ مخْتَزَلٌ من قِصَّةِ بلائه بالمكاره، في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

- وقرأ حمزة: [مَسَّنِي] بإسْكانِ يَاءِ المتكلّم.

وجاء ذكر اسمه ضِمْن مجموعَةٍ من الرُسُل في الآية (٨٤) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) مع بيان أنّه من ذُرِّيَّةِ إبراهيم. وفي الآية (١٦٣) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) مع بيان أنّ الله قد أوحى إليهم، وأنّهم رُسُلٌ مُبَشِّرُونَ ومُنْذِرُون.

ويَحْسُنُ بنا أنْ نَتَدَبَّر نَصَّيْ (ص) و (الأَنبياء) تدبُّراً تكامُلِيًّا.

موجز عن حياة أيوب عليه السّلام:

كان أَيُوبُ عليه السّلام رجُلاً من الرُّوم، ويتّصل نسبُهُ بعِيص بْن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وعِيصُ هو أخو يعْقُوبَ (= إسْرائيل) عليه السلام.

فأيُّوبُ ليس من بني إسرائيل، لكنَّهُ من ذرّيّة أخيه عيص، ويُقالُ له: «عِيسُّو».

وكان أيوب عليه السّلام كثير المال من الأرض والْعَبيد والنَّعَم وسائر المواشي، وغير ذلك من صنوف المال.

جاء في سِفر أيوب من أسفار العهد القديم عندِ أهْل الكتاب تَعْدَادُ ما كان له من غَنمٍ وإبلٍ وبقَرٍ وحَمِير، وجاء فيه أنَّه وُلِدَ له سَبْعَةُ بَنين، وثلاثُ بنات.

وذكر المؤرخون والمفسّرون أنّ أيُوبَ كانَ كثير المال من كلّ صنوفه وأنْواعه، وكانت أراضيه الواسعة جدًّا في حورانَ من بلاد الشّام.

وعلى الرُّغم من كلّ ما آتاه الله عزّ وجلّ من مالٍ كثير لم يَكُنْ منْهُ طُغْيانٌ ما فيه، أو بسببه، فلم يُطْغِه ماله بشيءٍ يخْرجُه عن الكمال والاستقامة والتقوى والتواضع، ورعايَة حُقُوق الله، والإحسان للناس، وعمَلِ البرّ حيْثُ وَجَدَ لِلْبِرّ وفِعْلِ الخيرْ سبيلاً.

وعمل الشيطان بكل وسائله لإغوائه وإخراجه عن صراط الاستقامة، فخابَ في كل مساعيه، فقال الشيطانُ في نَفْسه: هذا قد ابتلاهُ الله بالنِّعْمَة فشكر، فلَمْ تُبْطِرْهُ النّعمة، وَلم يُطْغِه الغِنىٰ، ولكن لو ابتلاه الله بالفقر والمرض، حتَّىٰ هجره إخوانُه وأحْبابُه، لما صَبَر على هذا البلاء، ولأخْرَجَتْهُ

الشدائد، فتغيَّرَ قلْبُه عن الله، وانْطَلَقَ لسَانُه بالتَّسخُّط على مقادير الله، والطَّعْنِ في حكمته.

فشاء الله عزّ وجلّ أنْ يُبَاهِيَ بعَبْدِهِ أيُّوبَ في امْتِحَان الصَّبْر، كما بَاهَىٰ به في امتحان الشكر.

فبعَثَ الله جلَّتْ حكمَتُه علَىٰ أموالِه غُزَاةً، فسَلَبُوها مِنْ جهَاتٍ مختلفات، فلَمْ يبْقَ له أنْعامٌ وَلا رَقيقٌ، ولا غِلْمانُ خِدْمة، حَتّىٰ أبناؤه وبناتُه لم يَجِدْ لهم أثراً، ويظْهَرُ أنَّهم تعرَّضوا للأسْر مَعَ من سُلِبَ من غِلْمَانِهِ ورقيقه.

ثُمَّ أنزل الله جلّت حكمتُه به الأوجاع، فابتلاه بالمرض، ومَكَّن الشيطانَ من أن يتعرَّض له بما يُغْرِيه بسُوءِ الظَّنِّ في الله، وبما يحرّضه على أنْ يُطْلِقَ لسَانَه بالتسخُّطِ على الله، واتِّهَامِه فِي حكمَتِه بما أنزل به من بلاء، على الرُّغم من استقامته في أيّام امتحانه بالنعمة والصِّحَّة، وكثْرَةِ الأحباب والأنصار والأولياء.

وطال به المرَضُ، وتراكبَتْ علَيْه البلايَا والآلام، وابْتَعَد عنه كُلُّ الَّذِينَ كانُوا حوْلَه يَرِدُون من مَوْرِده الْعَذْب أيّامَ نعْمَتِه وَصِحَّتِه وعطاءاتِه الكثيرات.

ولم يَبْقَ حوْلَه غير زَوْجته الوفيَّةِ، الَّتِي تأتي لخِدْمَتِه وطَعَامه وشرابه، مع كلّ ما فيه من بلاء.

قالوا: وكانت زوجتُه تعْمَلُ بالخدمة عند الناس، لتشتري له ما يأكُله، ولم تجدْ في بعْضِ الأيّام عملاً، فاضْطُرّت أن تَبيعَ ضفيرتَيْ شَعْرها لبَعْضِ نِسَاءِ الأثْرياء، من اللّواتي يُحْبِبْن أنْ يتزَيَّنَّ بالشَّعْر الطويل، لتَجْلُبَ له طعَامَه، فسَألَها أيُّوبُ عليه السَّلامُ كعادته: منْ أيْنَ جلَبْتِ هَذا الطَّعَامَ؟ فأخبرته، فساءَهُ مَا فَعلَتْ، وحَلَفَ ليَضْرِبَنَّهَا مائة ضَرْبَةٍ بالسُّوْط، متى اسْتَطاع أن يفْعَل ذلك، وقيل غيْرُ ذلك والله أعلم.

ولمّا طَالَ علَيْهِ البلاء، واشْتَدَّتْ عليه إغراءات الشيطان ووسائلُ كيده ومكره، ليَدْفَعَهُ إلى سُوء الظَّنِّ باللَّهِ والطَّعْنِ في حِكْمَتِه، نادى ربَّه مُسْتَجْدياً رَحْمَته، بكلامٍ تفسيرهُ:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: أي: بمشقَّةٍ نفسِيَّةٍ وتَعَبٍ وإعياء، حَتَّىٰ خَشِيتُ على نفْسِي من كَثْرَةِ وساوسِه، وإغراءاته الكيديَّة، ومَكرِه الشديد.

فحماه الله من التأثُّر بالشَّيْطانِ، فأمَدَّه بالصُّمودِ والصَّبْر.

قيل: استمرّ بلاؤه ثلاث سنين. وقيل: سبعاً وأشْهُراً.

وقيل: ثمانية عشرة سنة، وليس في شيءٍ من هذه الأقوال ما يَصِحُّ اعتماده، ولكن قد اجتاز امتحان الصَّبْر بنجاحٍ باهر.

وشفاه الله ووهب له أهْلَه ومثْلَهُمْ معهم، وعادَ لَهُ إخوته وأصحابه الذين اعتزلوه وهجَرُوه أيَّامَ بَلائه، ووسَّعَ اللَّهُ عليه في الرّزق والمال، حتّى صارَ عنْدَهُ ضِعْفُ ما كان عنده سابقاً.

تدبُّر نَصَّيِ (صٓ) و (الأنبياء) تدبُّراً تكامُليًا

- ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾: أي: وضَعْ في ذاكرَتِكَ للانتفاع وتقدير الأمور حقَّ قَدْرِها، ما نَقُصُّهُ عليك من قِصَّةِ بلاء أيُّوب، ذي الغنىٰ والمال الكثير والأنصار والأعوان، وما تعرَّضَ له من صنوف ابتلاء.

المخاطبُ الأوَّل في هذا النَّصّ نبيُّنا ورسولُنا محمَّد ﷺ، ثم كُلُّ أهل للخطاب بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ.

وقد شرّف الله عزّ وجلّ أيوبَ عليه السلام بقوله: ﴿عَبْدَنَآ﴾ إذْ تحقَّقَ بعبوديَّةٍ صادقةٍ ممتازة في امتحان الشكر، وفي امتحان الصبر.

- ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظَرفٌ لماضٍ من الزّمان، وهو هنا مضافٌ لجملة: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: وقت دُعائه رَبَّه دُعَاءً مضْمُونُه ومَعْنَاهُ:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾:

النُّصْب: التَّعبُ والإعياء.

العذاب: هو كُلُّ مَا يَشُقُّ على النفس ويؤلمها. ويأتي العذاب بمعنى العقاب والنكالِ، وهذا غيْرُ مرادٍ هنا.

أي: إذْ نَادَى ربَّه بأنّي قَدْ مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بمَشقَّةٍ نفسيَّةٍ وتَعبٍ وإعياء، من كَثْرَة وساوسه وإغراءاته ووسائل كَيْدِهِ ومَكْرِه، لِيَدْفَعَنِي إلى سُوء الظَّنِّ بِكَ، والطَّعْنِ في حكْمَتِك، بسبب ما أنزلْتَ بي مِن بلاء في مالي وأَهْلِي وجَسَدِي.

وجاء في سفر «أيوب» عند أهل الكتاب أنّ الله عزّ وجلّ سلَّط الشيطان على أَيُوبَ لِيَمْتَحِنَ صَبْره، إذْ زَعَم الشيطان أن استقامة أيُوب وبرّهُ قد كانا بسبب أنّ الله قد وسّعَ عليه رزقه وحمّاه وحفظه، فثبت أيوبُ في امتحان الصَّبْر، كما ثبت في امتحان الشُّكر.

وأَظُنُّ أنَّ تَسْلِيطَ الشَّيْطانِ على أَيُوبَ عليه السّلام، من تزيُداتِ من كتَبَ سفر «أيُوب» من كتب العهد القديم عند أهل الكتاب، لأنّ الله عزّ وجلّ قد قال للشيطان منذ عهد آدم عليه السَّلام: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

وأبان النَّصُّ الذي جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أنّ أيُوب عليه السَّلام تلطَّفَ بعد أنْ شكىٰ لربّه ما مسَّهُ به الشيطانُ بوساوسه ووسائل كيده، فدعا بدعاءٍ تَضَمَّنَ عَرْضَ مَا مَسَّهُ من ضُرٍّ، مع الثناء على رَبّه بأنَّهُ أرحم الراحمين، دون أن يُصَرِّحَ بسؤال رفع الضُّرِّ عنه، فنادى ربَّهُ

في اسْتِجداء، كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

الضُّرُّ: سُوءُ الحال في الْبَدَنِ أو المال أو الأهل أو نحو ذلك.

ونلاحظ أنّه قال عليه السّلام: ﴿مَسَّنِىَ﴾ ولم يَقُلْ أصابني، على الرغم من شِدَّة ما نزل به من بلاء، وهذا من رفيع أدبه مع ربّه.

فاستجاب الله دُعَاءَهُ فَرَفَعَ عَنْهُ ما أنزل به من بلاء، كما قال تعالى في النصّ الذي جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ... ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَكَشَفْنَا﴾: فَأَزَلْنا ما بِهِ من ضُرٍّ في نفسه وماله وأهله وولده.

● **أمّا المرَضُ** الذي كان نازلاً بجسَدِه، فقد أَمَرهُ الله بأن يتّخِذ سبباً عِلاجيًّا قضىٰ اللّهُ أن يكون به الشفاء، فقال له كما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾:

الرَّكْضُ: هو ضَرْبُ الشَّيء بالرِّجْلِ أو نحوها، ويقال لَهُ الرَّفْسُ. وحينما يَعْدُو الإنسان، أو تَعْدُو الخيل ونَحْوُها، فإنَّ الأرْجل تَضْرِبُ في الأرض، ولهذا سُمّي الْعَدْوُ رِكْضاً.

ويقال لغة: رَكَضَ الطَّائِرُ جناحَيْه، أي: حَرَّكَهُما وجعَلَ يَضْرِبُ بهما جنْبَيْه.

ويظهر أنّ الله عزّ وجلّ قد أوحى لأيُوب عليه السَّلام أن يَضْرِبَ برِجْلِه مكاناً معيّناً في الأرض، ورُبما كان ذلك بأَدَاة فيها حَدِيدةٌ تَحْفِرُ في الأرض، ففعل عليه السّلام ما أَمَرَهُ الله به، فَتَفَجَّرَتْ له عين ماءٍ بقضاء الله وقدَره، فلَمّا رأىٰ الماء قَدْ تفجّر أوحَىٰ الله إليه:

﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: فاغْتَسِلْ بهذا الماء، واشْرَبْ مِنْهُ، يكُنْ بهذا السَّبَب شفاءُ اللّٰهِ لك. ففعل أيوبُ ما أمَرَهُ الله به فَشَفَاهُ الله عظمَتْ قُدْرَته، وجلَّتْ حِكْمتُه.

● وأمَّا بَلاَؤُهُ بأهْلِهِ فقد كشَفَهُ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ بِرَدِّهِمْ عَلَيْهِ مِنَ الأسر، ثُمَّ زَادَهُمْ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ، فقال الله تعالى في النصّ الذي في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿.. وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا .. ﴿٨٤﴾﴾.

وقال تبارك وتَعالى في النصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا .. ﴿٤٣﴾﴾.

هذان النَّصَّان متكاملان في الدلالة على المراد، فعِبَارَة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ دلّت على معنَى إمْضَاءِ إرادَةِ الْعطاء بالفيض الرَّبَّاني، دون النَّظر إلى معنى استحقاق هٰذا العطاء، وناسبَ هٰذِه الهِبَة أنْ يَقُول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾. وعبارة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ دلَّت على معنى إيصال هذا العطاء الرَّبَّانيّ إليه، بعْدَ إمضاء الإرادة به، وناسَبَ هذا الإيصالَ لذوات ما وهبَ الله له أنْ يقول في آية (الأنبياء): ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: رحْمَةً ذات أثرٍ في إيصال مَا وهبناه إليه، ومعلومٌ أنَّ كلَّ ما هو في الوجود، ولو كان في حوزة الباغين الآسِرين، هو عند اللّٰه جلَّ جلاَلُه، وعظم سلطانه، فهو مَالك كلِّ شيءٍ وَمَلِيكُهُ.

فدلّ هذا الصنيع البيانيُّ العجيب على أنّ الهِبَةَ مِنْ عطاء الإرادة، وهي من آثار صفاتِ الذّات الرَّبَّانيّة. ودلّ علَىٰ أنّ الإيتاء، وهو توصيلُ الأشياء الموهوبة، آتٍ ممّا عند الله في كونه، ممّا هو له مِلْكٌ، وليس صفة من صفات الذّات، وإنما هو من صفَاتِ الأفَعال.

- وجاء في النصّ الذي في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿.. وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ بَعْدَ قَوْل الله فيه: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

- وجاء في النَّصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿.. وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ بعد قول الله فيه: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

الذِّكرىٰ: اسْمٌ للتَّذْكِير، أي: وتَذكيراً للعابدِين وتَذكيراً لأُولي الألْباب.

فدلَّت عبارة: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ علَىٰ أنّ القضاء الرَّبَّانِيَّ بالْهِبَة هُو ذِكْرىٰ يَعْلَمُها وَيَتَذَكَّرُها أولوا الألباب، وهم أهل العقول الدَّاركَة الحصيفة، الّذين يُدْرِكون المعاني من وراء الظواهر التكوينيّة.

ودلَّتْ عبارة ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ علَىٰ أنَّ الإيصال الماديَّ المشهودَ للْعَطَاءات الرَّبَّانِيَّة، هو ذكرىٰ يُدْرِكُهَا وَيَتَذَكَّرُها الْعَابدون لرَبّهم، فيكون ذلك دافعاً لهم للثَّبات على عِبادَة الله بالشكر وبالصَّبْر، وهؤلاء لاَ يشترط أن يكونوا من أُولي الألباب الدَّرَّاكين لبواطن الأمور.

- وانفرد النصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بالإشارة إلى يمين حلَفَها أيُوبُ عليه السّلام أن يضرب زوجته الوفيّة الرضيّة الصابرة على خِدْمَتِه طَوالَ مُدَّةِ بلائه، مئةَ سَوْطٍ، لأنّها فعلَتْ شيئاً ما قد كرِهَهُ منها ولم يَرَه أمراً حسناً، فقال الله عزّ وجل فيها مبيّناً ما قاله لأيُّوب ومقتطعاً مِنَ الحدَثِ الماضي كأنّه يجري الآن:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ .. ﴿٤٤﴾﴾.

لقد أفتاه الله عزّ وجلّ بهذا فتوىٰ يتحلّل بها من يَمِينه، فَيُجْرِي عملاً فيه ضرب صوريٌّ لزَوْجَتِه، وهو ضربٌ لا يُؤلمها ولا يُؤْذِيها بشيء.

إنّ اليمينَ الّتي حلَفَها أيُوبُ عليه السّلام أمْرٌ ألْزَم به نَفْسَه، وليْسَ له

طبيعة الأحكام الشرعيّة المطلوبة لذاتها، ومن أجل هذا أعْطاهُ اللّه طريقَةً شكلية يَبَرُّ بها يمينه، ولا يؤذي ولا يؤلم بها زَوْجته الوفيّة البارّة.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثًا﴾: الضّغْثُ حُزْمَةٌ من أعوادٍ يُقْبَضُ عَلَيْها بِجُمْعِ الكَفِّ، كأعواد شمراخ التَّمْر، فإذَا ضَرَبَ بها ضَرْبةً واحدةً أو ضَرْبتين بحسَب عَدَدِ أعوادها، أغْنَتْه عن ضَرْب مِئَةِ سوْط، وبرَّ بذلك يَمينَه ولم يحْنَثْ.

وهذه الطريقة هي من الحيل المشروعة الّتي ليس فيها تغيير لمطلوبٍ لذَاتِه في أحكام الدّين، فلا يصحُّ إجْرَاءُ مثْلِها في حدٍّ شَرْعيّ، كجَلْد الزّاني غَيْرِ المحْصَن، لأنّ الجلْدَ المؤلِمَ وفْقَ العدد المأمور به، ممَّا هو مطلوبٌ لِذَاته في أحكام الدّين.

وقد جاء في الإسلام الأمْرُ بالتكْفِيرِ عن اليمين التي يرى الحالف أنّ غَيْرَها خَيْرٌ منها.

روى مسلم وغيرُه عن أبي هريرة، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ حَلَف عَلَىٰ يَمِينٍ، فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ».

وختم الله عزّ وجل النَّصّ الذي جاء في سورة (ص) بقوله:

- ﴿.. إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذا الختام ثناءٌ مؤكّدٌ على أيُّوبَ عليه السَّلامُ بأنّه كَانَ صابراً طَوال مُدَّةِ ابتلائه بالمكاره، وقد جاء التوكيد بـ(إنّ ـ والجملة الاسميَّة) مع استخدام ضمِير المتكلّم العظيم المبتَلِي بحكمَتِه وسُلْطَانِ رُبوبيته: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾.

وجاء في هذا الختام أيضاً تَقْويم دَرَجَتِه ضِمْن مَرْتبة الإحسان، بعِبَارَةِ: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾.

وهذا نظير التقويم الّذي منَحهُ اللّهُ عَزَّ وجلّ لسُلَيمان عَلَيْه السَّلام، وقد سَبَق تحليل عبارته.

أمّا داود عليه السَّلاَمُ فقد وصَفَهُ الله بأنّه أوّابٌ، وقال بشأنه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.

وكذلك قال بشأن سليمان في الآية رقم (٤٠).

وإذِ اشتركَ أيُوبُ وسليمانُ عليهما السَّلاَم في تقويم الدرجة، بعبارة: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ فقد دَلَّ هذا على أنّ أيُوبَ عليه السّلام مشمولٌ بمضمون عبارة: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ولَوْ لم يأْتِ التصريحُ بهذا في أيٍّ من النَّصّيْن المخصَّصَيْنِ للحديث عنه في القرآن المجيد.

فَداودُ وسُلَيمانُ وأيوبُ عليهم السلام أوّابون، ولَهُمْ عند الله زلْفَىٰ وحُسْنُ مَآب.

ما جاء في السنة بشأن أيّوب عليه السلام:

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«بَيْنَما أيُوبُ يَغْتَسِلُ عُرياناً خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فجعَلَ أَيُوبُ يَحْثِي في ثَوْبِهِ، فَنادَاهُ رَبُّهُ عز وجلّ: أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ؟. قال: بَلَىٰ، وَلَكِنْ لاَ غِنَىٰ لِي عَنْ بَرَكَتِكَ».

* * *

رابعاً

التدبّر التحليلي للفقرة الرابعة من الدرس الثاني من دروس السّورة وهي الآيات من (٤٥ ـ ٤٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المخاطَبُ الأَوَّلُ في هٰذا النَصّ رَسولُنا النبيُّ محمد ﷺ، ويُلْحَقُ به مَنْ يشاءُ أنْ يَتَأَسَّىٰ به.

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ للتأسّي والاتّباع ثَلاَثَةً مِنَ الرسُل، شَرَّفْنَاهُمْ بِعُبُودِيتهم لنَا، وأعْطَيْنَاهُمْ ثَنَاءً خاصًا، وأرفَعَ تَقْدِيرِ مِنْ دَرجات مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين، هُمْ إبراهيم، وإسحاق، ويَعقوب عليهم السّلام.

إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء من بعده، وإسحاقُ ولَدُهُ من زَوْجَتِهِ سارة، ويعقوب ولَدُ إسحاق من زوجته رِفْقَة، وسَمَّاه الملكُ الذي صارَعَه كما ذكروا «إسرائيل» أي: «يُجَاهِدُ معَ اللّه» باللّغة الْعِبْرِيَّة.

هؤلاء ثلاثة رسُلُ ذكَرَهُمُ اللّه عزَّ وجَلَّ لرَسُولِه محمّد ﷺ، بعد أنْ ذَكر له «داود وسليمان وأيّوب» وما تَعَرَّضوا له من فتنة وبلاء، وكيف كان تقويم درجتهم.

أمّا إبراهيمُ وإسحاق ويعقوبُ عليهم السَّلاَمُ فقد وصَفَهم الله عزّ وجلَّ بصفاتٍ ترفعهم إلى أعلى درجات مرتبة المحسنين:

- فأثنىٰ عليهم بقوله: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾: أي: أصْحاب الأيْدي القَوِيَّةِ العاملة الناصِبَةِ في الخيرات، والمجاهِدَةِ في طاعة الله، والمحْسِنَةِ لعباد الله ابتغاء مرضاة اللّه، وأصحابُ الأبْصار الدّرّاكة الواعيَة، وهي أبْصَارُ بصيرتهم النافذة إلى معرفة حقيقة الحياة الدُّنيا، ووظيفة الإنسان فيها، وإلى معرفة حقيقة الآخرة، وواجب الإنسان نحوها، وما هو الخير والأَفضل له للظفر بالمنازل الرَّفيعة في الفردوس الأعْلَىٰ من جنّات النّعيم المقيم، والنافذة إلى معرفتهم بالله وبحكمته.

دلَّ على هذه المعانِي تعريفُ كلٍّ من «الأيدي والأبصار» بأداة التعريف «الْ» الّتي قد يُؤتى بها للدّلالة على الكمال، وقد جيء بها في اللّفظتين هنا للدّلالَة على كمال الأيدي وكمال الأبصار، وكمالُهما إنَّما يتحقّق بما سبَقَ بيانُه عن أيديهم وأبْصارهم.

● وذكر الله عزّ وجلّ أنّه أَخْلَصَهُمْ، أي: اصطفاهم ونَقَّاهُمْ من الشوائب، بسبب خَصْلَةٍ وعبادة خالصَةٍ مِنْهم لله عزَّ وجلّ، هي حُضُورُ الدّار الآخِرَةِ دواماً في ذِكراهم، وكانت هذه الذكرىٰ هي الموجِّهة لكلّ تَصَرُّفَاتهم في الحياة الدُّنيا، فقال الله تعالى بشأنهم:

● ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾: أي: إنَّا بعظَمَة الرُّبُوبيَّة وجلالها اصْطَفَيْناهم ونَقَّيْنَاهم من الشوائب.

﴿بِخَالِصَةٍ﴾: أي: بسبب خصْلَةٍ وعبادَةٍ خالِصَةٍ مِنهُم لنا.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾: اسْمٌ للتذكُّر هنا.

﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: عطف بيان أو بدل من «خالصةٍ» أي: وهذه الخصلة الخالصة النقيّة من الشوائب، هي الاشتغال بتذكُّر الدار الأخرة دواماً، إذْ هي الدار الجديرة بأنْ تكون هي الدّار الّتي تشغل أَلْبَابَ أولى الألباب، وذكرىٰ الدار الآخرة دواماً يدْفَعُ إلى العمل للظفر بأسْمَى المراتب وأعلى الدَّرجَات في جنّاتِ النعيم فيها.

إنَّ الدّار الآخرة هي الدَّارُ الجديرَةُ بأن تُعرَّف بـ (اَلْ) التي للكمال، أمّا دار الحياة الدّنيا، فالحياة فيها حياة قَليلَةٌ ضئيلة مُنغصةٌ بالأكدار، وفَانِيةٌ سريعة الزّوال، وهي لا تَسْتَحقُّ أَنْ توصَفَ بشيءٍ يُشْعِرُ بكمالها أو بالثناء عليها.

فمن كان من أولي الألباب أحْضَر الدار الآخرة في ساحة التذكُّرِ لديه دواماً، مع كُلِّ تَوجُّهٍ لعمل من أعماله الظاهرة والباطنة، الفكريّة والنفسيّة والقلبيّة والجَسديَّة، وهذا يجعل توجُّهَهُ مُنْحَصِراً في ابتغاء مراضي الله، والابتعاد عن مساخطه، وفي اختيار الأكْثَرِ ثواباً عنده، والأرفع منزلةً لديه، والأكثر قرباً منه.

وهكذا كان حال «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» الّذين جئ بهم مثلاً لهذا الصِّنْفِ الممتاز من الرّسل.

وإضافة «ذكْرىٰ» إلى «الدار» من إضافة المصْدَرِ إلَىٰ مفعوله، أي: تذكرّهم الدائم الدار الآخرة.

وأمّا قراءة: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ بدون بتنوين لفظِ خالصة، فهو من قبيل الإضافة على تقدير «مِنْ» نظير «بابُ ساجٍ» أي: بابٌ من ساج، ونقول هنا: بخالِصَةِ ذِكْرىٰ الدار. أي: بخالصةٍ من ذكرىٰ الدار.

وجاء في ختام هذه الفقرة تقويم الدّرجَةِ الرَّفيعة من مرتبة المحسنين، لكلّ من «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» فقال الله عزّ وجل بشأنهم:

- ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾: جمع «المصْطَفَى» وهُو المفضَّلُ المختار.

﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾: جمع «الْخيِّر» وهو ذُو الخير الكثير.

فمنَحهم الله بهذا التقويم المؤكد صِفَتَيْنِ عظيمتَيْن:

الصّفة الأولى: أنّهم مِنَ الّذين اصْطَفاهُمْ اللّهُ عزَّ وجلَّ ففضَّلَهُمْ واختارهم لمنازل الْقُرْبِ منه، ولاحتلال أرْفَعِ المراتب والدرجات فيها، وهذا الاصطفاء قد كان ثواباً لهم على مَا كانَ منهم باختيارِهم الحرِّ، إذْ كانت ذكرى الدار الآخرة شَغْلَهم الشاغل، وهمَّهُمُ الأكبرَ المالئَ كُلَّ جوانب نفوسهم، وليست هي العصمة الّتي عصمَهُمُ اللّهُ بها بسبب النُّبُوة والرسالة، إذ الْعِصْمَةُ ممنوحة لكلُّ الأنبياء والمرسلين، إنّما التفاضُل فيما بينهم في درجات مرتبة المحسنين ثَمَرَةُ اختياراتهم الْإِرادية الحرَّة، فوق العصمة، وبعد تَحَلِّيهم بها، إذا العصمةُ خاصَّةٌ في حدود مرتبة التقوى وحقوقها.

الصفة الثانية: أَنَّهم منَ الْأَخْيَار، الذين اكْتَسَبُوا بأَعْمَالهم الظاهرة والباطنة الاختياريَّة خَيْرِيَّةً كبْرَى.

وهذا أعظم تقويم منحه اللَّهُ عزّ وجل لزُمْرَةٍ من عباده المرسلين، وفيه إلماحٌ ضِمِنيٌّ لخاتم المرسلين أن يختار طريقة هؤلاء، لا طريقة أصحاب الْمُلْكِ والغنى من متاع الحياة الدنيا ولو كانوا من المرسَلِين.

خامساً

التدبّر التحليلي للفقرة الخامسة من الدرس الثاني من دروس السورة وهي الآية (٤٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

وفي هذه الفقرة ذِكْرُ ثلاثَةٍ من المرسلين، وقد مَنَحَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ تقويماً واحداً فقال بشأنهم: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ وهذا الاختيار البيانيّ يُشْعِرُ بأَنَّهُمْ قد جيءَ بهم مثالاً لصِنْفٍ ثالث من الرُّسُل، لا يدخُل في صنف: «دَاوُد وسليمان وأيوب» ولاَ يَدْخُلُ في صنف: «إبراهيمَ وإسْحَاق ويَعْقُوب».

وبالتأمل نلاحظ أَنّهم لم يأت في وصْفهم أَنَّهُمْ «أوّابُون» إذَنْ فهم في المحافظة على حقوق مَرْتَبةِ المحسنين أكثر التزاماً من صنف: «داود وسُلَيْمان وأيُوب». ولم يأتي في تقويم درجتهم أنّهم «من الْمُصْطَفَيْن» بل اقتصر النصّ على أَنّهم «مِنَ الأَخْيار» فَهُمْ لم يرتقوا في مرتبة المحسنين إلى درجة صنف «إبراهيم وإسحاق وَيعقوب».

فهم إذن صِنْفٌ مَتَوَسّطٌ بين الصنفين الآخرَيْن، ودرَجَتُهم في مرتبة المحسنين دُونَ درجة صنف «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» وفوق درجة صنف «داود وسليمان وأيُوب».

إسماعيل: هو الابْنُ البكر لإبراهيم عليه السّلام، من هاجر المصريّة، الّتي وَهَبَها فرعَوْنُ مصر لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام، فوهبتها سارة

لزوجها إبراهيم، فَولَدَتْ له إسماعيل، وسافر بهما فأسْكنهما بمكّة بأمْرٍ من الله.

ولمّا كبر وبلغ أشدّه جعله الله نبيًّا ورسولاً.

الْيَسَع: هو الْيَسَعُ بن أخْطُوب، آمَنَ بالرَّسول إلياس واتبّعه، ثم جعله الله نبيًّا ورسولاً.

وقد أثبت القرآن نبوّته ورسالته، وأنّه ممّن فضَّلهم على العالمين. ولم يذكر المؤرخون أخباراً عنه.

ذو الكفل: قال أهل التاريخ: هو ابْنُ أيّوب عليه السلام، واسْمُه في الأصل: «بِشْر» وقد بعثه الله بعد أيّوب، وسمّاه «ذَا الكِفْل» وكان مقامُه في الشّام، وأهل دمشق يتناقلون أنّ له قبراً في جبل قاسِيُون، والله أعلم.

والقرآن لم يزد على ذِكْرِ اسمه في عداد المرسلين، ولم أقف على تَرْجَمةٍ مبسوطة له.

وروى عن مجاهد، أنّه كان قد تكَفَّلَ لبني قومه أَنْ يكْفِيَهُمْ أمْرَهُمْ، ويَقْضِيَ بينهم بالعدل، فَسُمِّي ذا الكفل.

* * *

الغرض الرئيس من هذا الدرس بفقراته الخمس:

ذكر الله عزّ وجلّ لرَسُوله محمد ﷺ في هذا الدرس من دروس السّورة ثلاثَة نماذج من المرسلين، وفي كلّ نموذج ثلاثَةٌ من الرُّسُل، تشابهَتْ صفاتهم وأحوالهم، وتقويم درجتهم عند ربّهم ضمن درجات مرتبة المحسنين.

ووضَعَ الرّسولَ محمّداً ﷺ أمامَ إحدى اختيارات ثلاثة يختارُها لنفسه، وألمح إليه ضمناً أن يختار ما يوصله عند ربّه إلى أسمَىٰ درجات المحسنين، على أنّ له أن يختار ما يشاء.

فإن اختار نموذَجَ صِنفِ: «داودو وسليمان وأيُّوب» فعليه أن يُعِدَّ نفسه لمثل ما فُتِن به هؤلاء الرُّسُلُ الثلاثة، ولمثل ما تعرَّضوا له من بلاء، وهل باستطاعته مع الملك والسلطان أو الغنى الواسع، أنْ يكون دائم الاستقامة على حقوق مرتبة الإحسان بكلّ درجاتها، دون أن يتعرَّض لما يجعله من الأوّابين؟.

وإن اختار نموذج صِنف «إسماعيل والْيَسَع وذى الكفل» فَلْيُعِدَّ نفْسَه أن يكون تقويمُ درجته عند رَبّه أنَّهُ من الأخْيَار، دون أن يكون من المصطَفَين الأخيار».

أمّا إذا اختار لنفسه نموذج صنف «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» فلْيَبْتَعِدْ عن طلب الملك والسلطان الدنيويّ، وعن طلب الغنىٰ والثراء الكثير، وعليه أن تكون ذكرى الدار الآخرة أكْبَرَ هَمِّه، وأعظم ما يَسْعَىٰ له في مسيرة حياته، حتَّىٰ ينالَ ميزة:

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ .

وأمَام هذه التخييرات الّتي وضعها الله عزّ وجلّ أمام رسُولِهِ محمد ﷺ، وقد دلَّ عليها العرض في الدرس الثاني من دروس السّورة بفحواه ولوازمه الذهنيَّة، نُدرك أنّ الرسول محمّداً ﷺ قد اختار لِنَفْسِه أَنْ يكون عبداً رَسُولاً، وآثر نموذج «إبراهيم وإسْحَاقَ ويعقوب» وتشهد لهذا سيرته صلوات الله عليه وسلاماته.

روى في شرح السّنة عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يا عَائِشَةُ لَوْ شِئْتُ لَسَارَتْ مَعِي جِبَالُ الذَّهَبِ، جَاءَنِي مَلَكٌ إنّ حُجْزَتَهُ⁽¹⁾ لَتُسَاوِي الكَعْبَة، فقال: إنَّ رَبَّكَ يَقْرأُ عَلَيْكَ السَّلام، ويقول لك:

---

(١) حُجزَته: مَعْقِد إزاره.

إنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْداً، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكاً. قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ. قَالَ: فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ ضَعْ نَفْسَكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: نَبِيًّا عَبْداً».

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه: فالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى جبريل كالْمُسْتَشِيرِ لَهُ، فَأَشَارَ جِبْرِيلُ بِيَدِهِ أَنْ تَواضَعْ، فَقُلْتُ): نَبِيًّا عَبْداً».

قالَت عَائِشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لاَ يَأْكُلُ مُتكِئاً، يقُول:

«آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»[1].

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السّورة وهو الآيات من (٤٩ ـ ٦٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾
مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾
هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ
حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْۖ لَا مَرْحَبًۢا
بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ
﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا

---

[1] انظر مشكاة المصابيح رقم الحديث ٥٨٣٥، ومسند أبي يَعْلَىٰ الجزء الثامن ص٣١٨ رقم الحديث ٤٩٢٠ قيل: سنده ضعيف. وأقول دلالاته مطابقة لما يشير إليه الدرس الثاني من دروس سورة (ص) ضمناً.

نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

تمهيد:

هذا الدرس الثالث من دروس السُّورة، دَرْسٌ يشتمل على بيان لقطاتٍ من جَزَاء المتَّقين في جَنَّات عَدْنٍ يَوْم الدين، وعلى بيان لقَطَاتٍ من جزاء الطَّاغِين في جهَنَمَ يَصْلَوْنها يَوْم الدين، وعلى مَشاهِدَ وَمَوَاقف لهم فيها.

وصلة هذا الدرس بموضوع السّورة واضح، فموضوع السُّورة يَدُور حول الموقف الَّذِي وصل إلَيْه أئمة مشركي مكّة إبّان نزولها، وهو موقف مَنْ هُوَ في عِزَّة وشِقاق، وحول حال الرسول ﷺ تُجاه هذا الموقف، وحال المؤمنين معه، ومعالجة نفس الرَّسُول والمؤمنين، ومعالجة الكافرين بالإقناع وبالترغيب وبالترهيب.

ولمّا كانَ من عناصر موقف الكافرين إصرارُهم العنادي على التكذيب بيَوْم الدّين، والتكذيب بالإنذار الذي أنذرهم به الرسول ﷺ، إذْ أنْبَأَهُمْ أنَّهُمْ مَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وأنّ لهم جهنم يَصْلَوْنَها يوْمَ الدّين، إذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بما جاءهم به عن ربّهم ويُسْلِمُوا ويتَّبِعُوا ما أنزل الله.

كانَ من المنَاسِب تَحْرِيكُ أوْتار الطَّمَع والْخَوْفِ في نفوسِهِمْ، بَعرْضِ لقَطَاتٍ من جزاء المتقين في جنَّاتِ عَدْنٍ يَوْم الدّين، ولقطاتٍ من جزاء الطّاغين في جَهنَّم يصْلَوْنها يوم الدين، مع مشاهِدَ وَمَوَاقفَ سَوْفَ تكون يومَئذٍ.

إنَّهُمْ لَمْ يَطْرَحُوا بَعْدُ شيئاً جَدِيداً من إشكالاَتٍ وجَدَليَّاتٍ حَوْل نَبأ يوْمِ الدّين، فاقتصَرَتِ السُّورَة على تحريك أوتار الطَّمَعِ والخوفِ في نُفُوسهم بالْعَرْض الخبري.

● قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾: المشار إِلَيْهِ مَا جاء في الدرس الثاني من دروس السّورة، المشتمل على التذكير بأحوال أصناف الرُّسل الثلاثة:

(١) صنف «داود، وسليمان، وأيّوب».

(٢) وصنف «إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب».

(٣) وصنف «إسماعيل، والْيَسَعَ، وذِي الكِفل».

على ما سبق بيانُه وشرحه، فجاءت عبارة: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ لتُؤَدّيَ وظيفتين:

الأولى: التوجيهُ لجعْلِ ما جاء في الدرس الثاني ذكراً حاضراً في الذّاكرة، للانتفاع به، ولاستدعائه عند المناسبات الداعيات.

الثانية: الإشعارُ بانْتِهَاءِ الدَّرْسِ السّابق والبدْءِ بدرس جديد.

لقطات من ثواب المتقين.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾:

هذه الجملة معطوفة على ما تضمَّنه الدرس الثاني من ثواب المرسلين المحسنين، صراحةً أو ضمناً، فالصريح فيه قول الله عزّ وجلّ بشأن داود، ثم بشأن سليمان: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ويُدْرَكُ بالقياس عليهما أنّ لأيُوبَ عليه السّلامَ كذلك، لمشاركته لَهُما بعبَارَة: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

أمّا الصِّنْفَان الآخَران اللّذان هما أرفع درجة في مرتبة الإحسان، فَيُفْهَمُ مِنْ بَابِ أولى أنّ لهما عند الله مثلَ ذلِكَ وزيادةً تُلائِم درَجةَ الارتقاء الّتي ارتقوا إليها.

وهنا يَرِدُ سؤال: فمَا للمتّقين من غير المرسلين؟.

فجاء الجواب بأسلوب العطف: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾.

في هذه العبارة تأكيدٌ منَ الله عزّ وجَلّ لعباده، بأدَوَاتِ التأكيد: «إنَّ» و «ولام الابتداء» و «الجملة الاسمية» بأنّ المتقين لهم مآبٌ حَسَنٌ عند الله.

المتَّقُون: هُمُ الّذينَ اتَّقوا بإيمانهِم وعَمَلِهم ما رَتَّب اللَّهُ من عقابٍ على مُخَالَفة واجبٍ اعتقادي، أو واجب عمليّ ظاهرٍ أوْ بَاطِن.

ويُطْلَقُ لفظ «المتقي» على من اتَّقَىٰ بعض العقوبات الربَّانية، ولو لَمْ يتَقِ عُقوباتٍ أخرى.

فمن اتَّقىٰ الخلودَ في النار بالإيمان والإسلام، وكان من مرتكبي الكبائر، من دون الكفر، فهو يَدْخُلُ في عموم المتقين، إذِ اتَّقَىٰ الخلود في النار.

والمتقون على درجاتٍ متفاضلات، أدناها من اتقى الخلود في النار، إذْ كَانَ بريئاً من كلّ المكفّرات، وأعلاها من استكمل في حياته حقُوقَ كلّ درجات مرتبة التقوى، بأداء كلّ الواجبات، وترك كلّ المحرّمات، أو بتدارك حاله قبل الموت بالتّوبة الصحيحبة الصادقة، مع الإصلاح والاستقامة، فمن تاب صادقاً وأصْلَحَ واستقام تاب الله عزّ وجلّ عليه، فحمَىٰ نفسه من العقاب على ما ارتكبَ من خطايا.

واللام في ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هي لام الاختصاص، أو لام التمليك الرَّبانيّ لهم.

حُسْنُ المآب: هو حُسْنُ الْمَرْجِع إلى اللّهِ بَعْدَ الموْتِ والبعث ليوم الدّين.

المآب: مصْدَرٌ مِيميٌّ بمعنى «الأوْب» وهو الرجوع، تقول لغة: آبَ،

يَؤُوبُ، أَوْباً، وإياباً، وأَوْبَةً، وأَيْبَةً» أي: رجع، والمصدر الميمي القياسيُّ «مَآب».

والإضافة في عبارة: ﴿لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾ على تقدير «مِنْ» أي: لَحُسْناً مِنْ مَرْجِعٍ يَرْجعُونه بعد الموت، لحياة الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

والْحُسْنُ مَصْدَرُ «حَسُنَ، يَحْسُنُ، حُسْناً» أي: جَمُلَ. والْحُسْنُ الّذي يُوجَدُ في الرُّجوع إلى الله بالنسبة إلى المتقين، يشْمَلُ حُسْنَ الْبَعْث، وحُسْنَ الْحَشْر، وحُسْنَ الحساب، وحُسْنَ فَصْل القضاء، وحُسْنَ التكريم بالأمر بدخول الجنة، وحُسْن الاستقبال فيها، وحُسْنَ الإقامة الأبديَّةِ في أنواع نَعِيمها وصُنُوفه.

وهذا أوْلَىٰ من حمل «المآب» على مَكان الرجوع فقط على أنَّه مقبول وصحيح.

وظاهر أن الجملة مؤكدة بـ «إنّ ـ ولام الابتداء ـ والجملة الاسمية» لأن مجموع المخاطبين يحتاجون إلى التأكيد.

- قول الله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: بدلٌ من ﴿وَحُسْنَ مَئَابٍ﴾ بدلُ بعض من كلّ، إذا قُلْنا: ﴿مَئَابٍ﴾ مصدر ميمي، وبدلُ كلّ من كلٍّ إذا قلنا: ﴿مَئَابٍ﴾ اسْم مكان الأَوْبِ.

جنّات: جمع «جَنَّة» والجنة في اللّغة الحديقة المكتظَّةُ بالأشجار. ولمّا كانت الجنة يوم الدّين ذاتَ أقسام كثيرةٍ جداً، وكان كلّ قِسْم منها يَصِحُ أن يُطْلَقَ عليه اسم جنّة، كانت دار النعيم يوم الدين جنّاتٍ باعتبار أقسامها، وصَحَّ أنّ لكلّ مؤمنٍ فيها جنّاتٍ أيضاً، أي: أَقساماً عَدِيدة، كلُّ واحدٍ منها يَصِحُّ أن يُسَمَّىٰ جنّة.

عَدْنٍ: أي: استقرار وثبات وخُلُود، يقال لغة: عَدَنَ بمكان كذا عَدْناً، أي: أقام به واستقرّ فيه.

وينال الأبرار والمحسنون المراتب والدرجات الرفيعات من جنّات عَدْنٍ بحسب ارتقائهم في درجاتِ مرتبة البر، أو درجات مرتبة الإحسان، لأنّ الأبْرَار متَّقون وزِيَادةٌ من أعمالِ مرْتَبَةِ البرّ، ولِأَنَّ المحسنين متقون وأبرار، وزيادةٌ من أعْمال مرتبة الإحسان.

روىٰ الترمذيّ بإسنادٍ صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«فِي الْجَنَّة مِئَةُ دَرَجَةٍ، ما بَيْنَ كلُّ دَرَجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ، والْفِرْدَوْسُ أعْلاَهَا دَرَجَةً، مِنْهَا تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمُوا اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ».

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ آمَنَ باللَّهِ وَرَسُولِهِ، وأَقَامَ الصَّلاَةَ، وصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقّاً عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ في سَبيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا».

قالُوا: أَفَلاَ نُنَبِّىءُ النَّاسَ بذَلِكَ؟. قال:

«إِنَّ في الجنَّةِ مِئَةَ دَرَجة أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الْجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»(١).

﴿... مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾: أي: إذا جَاءُوها وَجدوا أبوابَها مُفَتَّحةً لَهُم مِنْ قَبْلِ وُصُولِهِم إليها، وهذا تكريمٌ لهم بالاسْتِقْبال الحسَن.

---

(١) انظر «فتح الباري» الحديث (٧٤٢٣ و ٢٧٩٠).

مفتحةً: حَالٌ لجَناتِ عَدْن، أو نَعْتٌ لها.

و «اَلْ» في ﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ بدلٌ عن الضمير، أي: مفتَّحةً لهم أبْوابُها. ﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ نائب فاعل لاسم المفعول ﴿مُّفَتَّحَةً﴾.

وعلى هذا المعنى وهو كون أبواب جناتِ عَدْنٍ تُفتَّحُ قَبْلَ وصُولِ أصحابها إليها يُحْمَلُ قَولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الزُمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: حتَّىٰ إذا جاءُوها مقتربين منها، وفُتحَتْ أبْوابُها قبْلَ وصولهم إليها مباشرةً، تكريماً لهم.

بخلاف أهل جَهنَّم فَإِنَّ أَبوابَهَا تكُونُ مقفلَةً عَلَىٰ مَا في داخِلها، حتَّىٰ إذا وَصل إليها الكافرون المسُوقُون لإدْخالهم فيها فُتِحتْ لهم أبوابُها عِنْدَ وُصُولهم إليها، كما نشاهد في الأبواب الحديثة الّتي تنفتح عنْدَ الإحساس بوصول جِسْمٍ مقبل.

قال الله عزّ وجل في سور (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) أيضاً:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

نظرة شاملة لما جاء في القرآن من عبارَتَيْ «حُسْن مآب» و «جَنّات عَدْن»:

(١) جاءت عبارَةُ: «حسن مآب» في القرآن ثلاث مرّات في سورة (صَ) في مَعْرِض بَيَان ثواب داود يوم الدين، وفي معرض بيان ثواب سليمان، وفي معْرضِ بيان ثواب المتقين.

ثم جاءتْ في معرض الدّعوة الضمنيَّة إلى عدم تعليق القلب بمازُيِّنَ للنّاس في الحياة الدنيا، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿. . . ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

ثم جاءت في معرض بيان ثواب الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الرّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

فَحُسْنُ المآب وصْفٌ يَشْمَلُ ثوابَ المتقين على تفاضل درجاتهم، وثواب الأبْرار على تفاضل درجاتهم، وثواب المحسنين على تفاضل درجاتهم.

(٢) وجاءت عبارة: «جنّات عَدْن» في القرآن إحدى عشرة مرّة، بياناً لثواب المؤمنين والمؤمنات، وثوابِ أولي الألباب، وثواب المتقين، وثواب الّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات، وثواب من تاب وآمَنَ وعَمِل صالحاً، وثوابِ من أَتَىٰ رَبَّهُ مُؤْمِناً قَدْ عَمِل صالحاً، وثواب كُلِّ المؤمنين من أمَّة محمدٍ على اختلاف درجاتهم: ظالِمين لأنفسهم، ومقتصدين، وسَابقين في الخيرات، وثواب المتقين على اختلاف درجاتهم.

وجاءت ضمن بيان دُعَاء الملائكة للمؤمنين الّذين تَابُوا واتَّبَعُوا سبيل الله، ووعْداً من الله للمؤمنين، وجزاءً للّذين آمنوا وعَمِلُوا الصّالحات.

فدلّت هٰذه النّصوصُ على أنّ كلَّ الّذين يدخلون الجنّة بفضل الله عزّ وجلّ يكُونُون في جنّاتِ عَدْنٍ.

* * *

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ (٥١) ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ (٥٢)﴾.

في هذا وَصْفٌ لنعيم أهْل جنّاتِ عَدْنٍ وهم فيها، بثلاث صفات مُلْتَقَطاتٍ من سائر أنواع وصُنُوف وصُوَرِ نعيمهم الّتي جاء بيان بَعْضِها موزّعاً في سُوَر القرآن المجيد.

الصفة الأولَىٰ:

هي الصفة التي دلّ عليه مَشْهدَ اتِّكَائِهم المبيَّنِ في قوله تعالى:

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾: الضمير في عبارة: ﴿فِيهَا﴾ يَعُودُ على جنَّاتِ عَدْن.

الاتّكاء: هو الْجُلُوسُ بِتمكُّن عَلَىٰ مَجْلِسٍ وَثير، ويُصَاحِبُهُ غالباً وضْعُ الْيَدِ أو الْيَدين علىٰ ما يَحْمِلُهُما للرَّاحة، بإلْقَاءِ ثِقَلِ قِسْمٍ من الْجِسْمِ علَىٰ المتّكأ. والاتكاء يسْتَدْعي ذِهْناً مُتكأً عليه.

والمتّكِيءُ: هو مَنْ يسْتَوي قاعداً على وِطَاءٍ مُتَمكّناً.

● وقد جاء البيان التفصيلي لهذا الاتكاء مُوزّعاً في عَدَدٍ من سُور القرآن المجيد:

(١) ففي سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧)﴾.

فأبان هذا النّصّ أنّ من أحوالهم في الجنّة، أنْ يَكُونوا في ظِلال أشجارها متّكئين على الأَرَائك.

الأرائك: جمع «الأريكة» وهي المقْعَدُ المنَجَّد الوثير في قُبَّةٍ أوْ قصْرٍ أوْ نَحْوِ ذلك.

(٢) وفي سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) قال الله عزّ وجل في وصْفِ بعْضِ أحوال المنعَّمين في الجنة من السّابقين المقرَّبين من أصحاب اليمين أنّهم يكونون:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ (١٦)﴾.

﴿مَّوْضُونَةٍ﴾: أي: منسوجَةٍ كما تُنسَجُ الدُّروع.

فدلَّ هذا النصُّ على أنّ الاتّكاء قد يكون على السُّرُر.

(٣) وفي سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾.

سُنْدُس: نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير.

﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾: نوع من الثياب الغليظة المنسوجة من الحرير.

وكلاهما من أصْنَاف الدِّيباج.

فأضاف هذا النصّ إلى ما جاء في سورة (ص) صُوراً ومشاهد لم تُذْكَرْ فيها.

(٤) وجاء في سورة (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) وصْفٌ لبعض أحوال المتقين في الجنّة، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾.

﴿فَٰكِهِينَ﴾: أي: ناعمين فَرِحينَ مَسْرُورِينَ، يتناوَلُونَ لذَّاتِهِمْ طيّبةً بِهَا نُفُوسُهُمْ، مُعْجَبِين بما آتاهم ربّهم.

فجاء في هذا النصّ وصْفُ السُّرُر الّتِي يَتَّكِئُون عليها أنّها سُرُرٌ مَصْفُوفَةٌ، وهذا الوصف يقتضي أنّها موضوعة بعِناية ضِمْنَ صُفوف مُتَناسقة.

(٥) وجاء في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) قول الله عزّ وجلّ بِشَأْن من خاف مقام ربّه، وفي وصف بعض أحواله في الجنّتَين اللّتَيْن له:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾.

فأبان هٰذا النصّ أنّ السُّرُر التي يتّكِئُونَ عليها فَوْقَها فُرُشٌ بَطَائِنُها من إسْتَبْرق، وقد سبق بيان الإستبرق قرِيباً.

وجاء في هذه السورة أيضاً في وصف بعض أحوال من لم يَرْقَ إلى درجَة من خاف مقام ربّه، أنّ له جنتين من دون الجنَّتَين اللَّتَيْنِ لمن خاف مقام رَبّه، قول الله عزّ وجلّ:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾.

الرَّفْرَف: نوع من الثياب نفيس.

والعَبْقَرِيّ: المراد نوع من أقمشة الديباج الثِخَانِ المنسوجة من الحرير، والطَّنَافِسِ الثِّخَان، وهي البسط.

فَجَوْدَة الرَّفْرَف والعبقريّ الحسان، دون جَوْدَةِ فُرُشٍ بطائِنُها من إستبرق.

(٦) وأخيراً أنزل الله عزّ وجل، في بَيَانِ أنّ من أحوال أهل الجنّة يوم الدّين أن يكونُوا مُتّكِئينَ فيها، قوله في سورة (الإنْسَان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأن ثواب الأبرار:

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ⑫ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسًا وَلَا زَمۡهَرِيرًا ⑬﴾.

فأبانت هذه النصوص أنَّ مِنْ مشاهد المتَّقِين، والأبْرَار، والسّابقين المقرّبين، أَنْ يكونُوا مُتكِئِينَ، ولكنّ الأشياء التي يتّكئون عليها متفاضلة في صفاتها.

- فالمتقون لهم مستوىً يلائم درجتهم في التقوى.
- والأبرار لهم مستوىً أرفع من مستوى المتقين فقط.
- والسّابقون المقرّبون وهم أهل مرتبة الإحسان لهم مسْتَوى أرفع من مستوى المتقين، ومن مُسْتَوى الأبرار.

الصفة الثانية:

هي الصفة التي دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا﴾: أي: يَطْلُبُونَ وهم في جَنّاتِ عَدْنٍ مجرَّدَ طلب، فيأتيهم ما يَطْلُبُون.

يُقَال لُغَةً: دعَا بِالشَّيء، يَدْعُو، دَعْواً، وَدَعْوَةً ودُعَاءً، ودَعْوَىٰ، أي: طَلَبَ إحضَارَه.

الفاكهة: الثّمار اللّذِيذَةُ، وغالباً ما تكون حلوة.

أي: فهم يطْلُبُونَ مَا يَشَاءُون من فاكِهَةٍ كثيرة وشرابٍ، فيأتيهم ما طلبوه، دون أن يحتاجوا إلى إحضاره بأنفسهم.

ووصفُ الفاكهة بأنها كثيرة يدُلُّ على كثرة الأنواع والأصناف، وكثرة الأعداد والأفراد.

وتنكير الشراب يَدُلُّ على نفاسته، وكثرة أنواعِه وأصنافِه، وكَثْرةِ كَمّيَّتِه، أي: وشرابٍ نفيسٍ متنوّعٍ وكثير.

الصفة الثالثة:

هي الصفة التي دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: وعندهم من نساء الجنة زوجاتٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لا ينْظُرْنَ لغير أَزْوَاجِهِنَّ، وهُنَّ مُتَسَاويات في السّنّ، متساويات في الْحُسْن، متحابّاتٌ بَيْنَهُنَّ.

قاصِرَات الطَّرْف: صفة لموصوفٍ محْذوف، أي: زوجات قاصرات الطرف.

الطَّرْفُ: يطْلَق لغة على: تحريك الجفن، وعلى العين، وعلى النظر.

وذاتُ الطرف القاصر، وهي العفيفةُ الّتي لا تنظُر إلى غير زوجها.

والمعنى: أنَّهُنَّ عفيفاتٌ لا يَنْظُرْنَ إلى غير أزواجهِنَّ في الجنّة، فتقصرُ كُلُّ واحدَةٍ مِنْهُنَّ طَرْفَها على النظر إلى زوجها لا تتعدَّاه.

أَتْرَابٌ: جمع «تِرْب» والأتراب هنّ الّلواتي يكُنَّ على سِنّ واحدة، وهنَّ في الجنّة متساوياتٌ في الحسن، ومتحابّاتٌ لا تُفْسِدُ بينَهُنَّ الغَيْرَة.

والتِّرْبُ: عند أهل اللّغة المتماثل في السّن، وأكثر ما يُسْتَعْملُ في المؤنث.

* * *

قول الله عزّ وجل:

﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

الخطاب موجَّهٌ هُنا لكلّ مُمْتَحنٍ في رحلة الحياة الدنيا إذَا كان من المتقين.

﴿هَٰذَا ﴾: المشار إليه ما سَبَق بيانه في الآيات من (٤٩ ـ ٥٢).

﴿مَا تُوعَدُونَ ﴾: الوعد في اللّغة: هو الإخبار بما تمّ العزْمُ على فِعْلِه، فإذا ذُكِرَ فِعْلُ «وعَدَ» دون بيان الموعود به فهو وعْدٌ بالخيْر، لا بالشّرّ، على أنَّ المشارَ إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا ﴾ يُعيِّنُ أنَّهُ وَعْدٌ بالخير حتما.

﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: أي: مؤجّلاً ليوم الحساب، ويوم الحساب يشْمَلُ الحسابَ، وفَصْل القضاء، وتحقيقَ الجزاء.

أي: هذا الجزاء العظيم المبيّن للمتقين هو ما وعَده الله الممتحنين في رحلة الحياة الدنيا، مؤجّلاً ليَوْم الحساب، وهذا الوعْدُ يتجدّد دواماً ما دامت حياة الابتلاء.

- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا ﴾ المشارُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا يَدْعُو به المتقونَ في الجنّة من مأكول ومَشْروبٍ، وغيرِ ذلك من وسائل النعيم فيها، مَهْما توالت الأزمان التي لا نهايَةَ لها فيها، لأنّها دَارُ الخلود، فوسائل النَّعيم فيها رِزْقٌ يَرْزُقه اللَّهُ عبادَهُ المنعَّمِين.

الرّزْقُ: في اللّغة كُلُّ ما يُنْتَفَعُ به.

﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾: أي: ماله من فَنَاءٍ ولا انتهاء.

النفادُ: في اللّغة، الفناء والانتهاء، أي: انتهاء النَّوْع عن آخِرِه، يقال لغة: نَفِدَ الشَّيْءُ يَنْفَدُ نَفَداً ونَفاداً، أي: فَنِيَ وذَهَبَ وانتهىٰ عن آخره.

جاء في هذه الآية تأكيد عدَمِ نفاد رزق الله عزّ وجلّ في الجنّة لأصحابها بالمؤكدات «إِنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة للخبر».

وجاء التنصيص على استغراق نَفْي النّفاد لكلِّ أَفْراد رزق اللَّهِ كمًّا وكَيْفاً، بإضافة حرف الجرّ الزائد «من» في العبارة، وجرّ كلمة «نفاد» بها.

* * *

لقطات ومشاهد من جزاء الطّاغين:

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾.

هذه الجملة معطوفةٌ على جملة: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾. وتحليلُ العبارة هُنَا مناظرٌ لما سَبَقَ من تحليل العبارة المعطوفة عليها، فَهُما مُتَماثلتان في الأسلوب، وفي الصّياغة، إلاّ أنّ السابقة جاءت لبيان حال المتقين، وهذه جاءت لبيان حال الطّاغين.

ففي هذه العبارة تأكيد من الله عزّ وجلّ لعباده، بأدوات التأكيد:

«إنّ» و «لام الابتداء» و «الجملة الاسمية» بأنّ الطّاغين لهم شَرُّ مآبٍ عِنْدَ الله يوم الدين، لأن مجموع المخاطبين يحتاجون إلى هَذَا التأكيد.

ولا تخفىٰ على المتدبّر فنيَّةُ التَّقَابُلِ المتناظُر بين العبارتين.

الطّاغون: جمع «الطّاغي» وهو كلُّ متجاوز الحدّ المقبول منه. يقال لغة: طغَىٰ الشَّيءُ، إذا تجاوز حدَّه المقبول منه، فنتج عن هذا التجاوز سُوءٌ، أو ضُرٌّ، أو شَرٌّ، أو خروج عن الحق أو الواجب، وعِصْيَانٌ وإثم.

والمراد بالطاغين من أوصلهم طُغْيَانُهُمْ إلى دَرَكِ الكفر، ويكون مقدار طغيانهم بحسب تسفُّلِهم في الدركات.

ونُلاحظ في القرآن أنّ الله عزّ وجل:

(١) قد وصف فرعون في القرآن بأنَّهُ طغىٰ.

(٢) ووصف عاداً وثمود وفرعون بأنهم طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفَسَاد.

(٣) ووصف الذين قالوا عن رسولهم: ساحرٌ أو مجنون بأنهم قوم طاغُون.

(٤) ووصف الكافرين بأنهم قوم طَاغون.

(٥) وقال تعالى في سورة (النّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول).

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿جَهَنَّمَ﴾: هي دار عذاب الكافرين الطّاغين، ولفظ «جهنم» اسم علَمٌ من أسماء دار العذاب يوم الدين، وهو ممنوع من الصّرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال لغة للقَعْرِ البعيد: «جهَنَّم». وبئرٌ جهنم، أي: بَعِيدَة القَعْر.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي: يُعَذَّبون بالْحَرِيق فيها. يُقالُ لغةً: صَلِيَ النّار، وصَلِيَ بها، إذَا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

والنَّارُ لاَ يَصْلاَها مُعَذَّباً بِحريقها، إلاّ الأشقى الّذِي كذّب وتولّىٰ، ومن لم يَصِلْ إلى دَرَكَةِ «الأشقى» من الّذين يستحقُّون العذاب، فإنّهم يُعذَّبون فيها عَذاباً أخفَّ من عَذاب الحريق.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: أي: فبِئْسَ الْمِهَادُ مِهادُهُمْ في جَهَنَّم.

بِئْسَ: فعْلٌ جامِدٌ لإنشاء الذم، وهو منقول للدلالة على معنى الذم من فعل «بَئِسَ» إذا أصابَ بُؤْساً.

الْمِهَادُ: هو المكان الممهَّدُ الموطَّأ، وأُطْلِقَ على مكان الطّاغين في جهنّم لفظ «مِهادٍ» على سبيل التهكّم بهم، أو تَلْويمهم على سوء اختيارهم في الحياة الدنيا، أو فَسَادِ تصُورِهم بأنَّهُمْ بكُفْرِهم يَسْعَوْنَ لنيل مِهَادٍ كريم في حياتهم، لكنّهم في الحقيقة يسْعَوْن إلى احتلال مكانٍ فيه بُؤسُهُمْ وعذابهم.

● قـول الله عـزّ وجـل: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة، وهو مبتدأ، والمشار إليه: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾. وجملَةُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ معترضة بين المبتدأ والخبر، للدّلالَة على أنَّ الطّاغين في جهنّم يُلْجَؤُون مضطّرين إلى أَنْ يذُوقُوا هٰذه الأصْنَافَ الكريهة من الشّراب. فالأمر في الجملة المعترضة أمْرٌ تكوينيٌ يُشْعِرُ بأَنَّهُمْ مجبُورون، على شُرْب هذه الأصناف الكريهة اضطراراً، إذْ قد يكون ما هم فيه من ظمأ أشدَّ عليهم من شُرْبِها، على أنّها لا تُغْنِيهم ولا تُرْوِيهم، بل تَزِيدُ من عذابهم.

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: ماءٌ حارٌّ سَاخِنٌ شَدِيد الحرارة.

﴿وَغَسَّاقٌ﴾ وفي القراءة الأخْرَى **[غَسَاقٌ]** بتخفيف السّين، هو سائل أصْفَر يشبه الماء الأصفَرَ الّذي تُفْرِزُهُ الجلودُ إذَا تقرّحَتْ واحْتَرَقَتْ.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: أي: وشرابٌ آخَرُ من مِثْل شَراب الغَسَّاقِ وشَبيهٍ بهِ كَرِيه.

وفي القراءة الأخْرَى: **[وَأُخَرُ]** جمع «أُخرَىٰ» أي: ومَشْرُوباتٌ أُخْرَىٰ من شَكْل الغسّاق، أي: من مِثْله في الخِسَّةِ والكراهيةِ.

ومؤدّى القراءتين واحد.

﴿أَزْوَٰجٌ﴾: أي: هي أصناف من الشراب للطّاغين، كلُّها كَرِيهَةٌ خَسِيس.

يطْلَقُ «الزَّوْجُ» في اللّغة على الصِّنْف من كلِّ شيء، وجمعه «الأَزْواجُ». فمعنى: أزواج من الثمر، أصْنافٌ من الثمر، وهكذا إلى سائر الأشياء. وهذا غير إطلاق «الزّوج» على معنىً أنّه خلاف الفرد.

قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

في هاتين الآيتَيْن بيانُ مَشْهَدِ حَدَثٍ آخر من مَشَاهِدِ أحداثِ جَهَنَّم، الّتي سَوْف تكونُ يَوْمَ الدّين، وقد جاءت فنّيَّةُ عَرْضِه على طَرِيقَهِ الاستِقْطَاعِ مِمَّا سَوْفَ يكونُ وتقديمه كأنَّه يَجْرِي الآن.

إنّه مَشْهَدُ فَوْجِ الأَتْبَاع الّذي يُلْجأُ إلى أَنْ يَقْتَحِمُ مُكْرهاً دُخول جهنّم، حتَّىٰ يكُونَ مع الّذِينَ كانُوا أئِمَّتَهُمْ وقَادتَهم الّذِينَ أَضَلُّوهم في الحيَاةِ الدنيا، وقَدْ سَبَقُوهم إلى الاستقرار في مُسْتقرَّاتِ عَذَابِهم في جَهَنَّم.

إنَّ أفْرادَ فَوْجِ الأَتْبَاع يُدْفعُونَ دَفعاً جَبْرِيّاً، إلى مشاركة أئمتهم وقادَتِهم في مستقرّاتِ عَذَابهم في جهنّم.

وبيَانُ المشْهَدِ يَحْكِي أنّ الملائكة من خزنَةِ جهنّم يقولُون للأئمَّةِ السَّابقين إلَيْها عَنِ المقْتَحِمين الجدُد من أتباعهم:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ﴾:

أي: لأنّهم كانوا في الدّنيا أتباعَكم وكُنْتُمْ أَنْتُم قادَتَهم المضلّين لهم معكم، فهم مقتحمونَ النّارَ ليكونوا فيها معكم.

الفوج: الجماعة من الناس القادمون معاً بسُرْعة.

المقتحم: هو من يَرْمي بنفسه في عظيمة من العظائم، وفي أمْرِ شَدِيد، والمقتحم يدخُل في الأمر العظيم بجرأة وبشجاعة.

ولكن كيف يوصفون بأنهم مُقْتَحِمُون، وهُمْ يُلْجَؤُون إلجاءً إلى الدخول في جهنّم؟

أقول: جاء هذا التعبير للدّلالة على أمرَين:

الأمر الأول: أن الصُّورة الّتي يكونون عليها عنْد إلجائهم إلى الدُّخول فبي جهنّم تكون مُشَابِهَةً لصُورة المقتحمين، فمُشَاهِدُهم يرىٰ صورة فوجٍ يقتحم اقتحاماً.

الأمر الثّاني: أنَّهُم كانوا في الدُّنيا يقْتَحِمُون اقتحاماً عَظائمَ الكُفْرِ والطغيان، الّتي هي أَسْبَاب دُخولهم في جهَنَّم خالدين، فأُطْلِقَ وَصْفُ السَّبَب على المسَبَّب. إنّ مَنْ يقتَحِم أمْراً عظيماً يحبُّه، لكِنَّ عقوبتَه الْقَتْل، فإنَّهُ يقتحم عقوبة القتل.

فَيَرُدُّ الأئمة والقادَةُ السّابقون في اقتحام دخول عذابهم إلى مستقرّاتهم فيها قائلين:

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾.

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْۚ﴾: أي: لا نُريد أن يكونوا شُرَكاءَنا في مُسْتَقَرّاتِ عذابنا، فنحن لا نُريد أن يتَّسع المكان لهم حتَّى يكونوا معنا فيه.

يقولون هذا كِبْراً وتَرَفُّعاً عن مشاركة أتباعهم لهم في مستقرّاتِ عذابهم، وتبرُّءاً من أنّهم قد كانوا السبب في إضلالهم.

كلمة: «مَرْحباً» كلمةُ دعوةٍ لتكريم الضيْف بمكانٍ رَحْبٍ واسع. يقال لغة: رَحِبَ المكانُ يَرْحَبُ رَحْباً، ورَحُبَ المكانُ يرُحُبُ رُحْباً وَرَحَابةً، أي: اتّسع، و«مَرحَب» اسم مكانٍ يطلَقُ على المكان الواسع.

وللتبرُّءِ من أنّهم قد كَانُوا السّبَب في إضلالهم، قالوا بشَأْنِ أتباعهم: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾: أي: إنهم مُعَذَّبُون بعذاب الحريق في النار بأسْباب من أنفسهم.

قالوا هذا ليُبْعِدُوا عن أنفسهم عقُوبةَ الإغواء والإضلال، حتَّىٰ لا تُضَافَ إلى عُقُوبة طُغْيانهم بأنفسهم، وليُبْعِدوا أتباعهم عنهم حتّى لا يُخَاصِمُوهم.

ويَسْمَعُ الأَتْبَاعُ مقَالَةَ الذينَ كَانُوا أئِمَّتَهُم وقادتَهُمْ في الحياة الدّنيا، فيكونُ رَدُّهُمْ علَيْهم ما أورَدَهُ الله عزّ وجلَّ حدَثاً مقتطعاً من أحداث يوم الدّين، ومُقَدَّماً كأنّه قد حدث فعلاً بقوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: بَلْ نَحْنُ الّذين لا نُريد أن تكونوا معَنا في منازِلِ عذَابِنا، بل نُرِيدُ أَنْ تكونُوا في قرَارِ الجحيم، فأنْتُم بإغوائِكم وإضْلالِكُمْ قدَّمْتُمْ هٰذا العذابَ لنا.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾: أي: فَبِئْسَ القرارُ قَرارُكُمْ في قَاعِ الجحيم.

القرار: المكان المنخفض الذي تَنْحَدِرُ إليه المياه، وتستقِرُّ فيه.

بِئْسَ: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشاء الذّم، وحُكْمُهُ صِيغَةً وإعراباً مثل فعل «نِعْم» عند النحويين.

﴿لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾: أي: لا مَكانَ يتَّسع لكم مَعَنا، ولا كانت لكم أمكنة رحْبَةٌ واسِعَةٌ في مستقرَّاتكم، بل جعلها الله ضَيِّقَةً عليكم، حاصِرَةً لحرَكاتكم.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

أبانت هٰذه الآية أَنَّ فَوْجَ الأتباع لا يَرَوْن جدوى من مخاصمة من كانوا في الحياة الدنيا أئمَّتَهُمْ وقادتهم، فيتوجّهُونَ لربهم سائلين داعين، فقالوا:

رَبَّنَا قَدَّمَ لنَا هذا العذابَ بإغوائه وإضلاله وتحريضه، على أن نقتحم شنيعةَ الكُفْر وكبَائِر الإثم، فزِدْهُمْ عذاباً ضِعْفاً في النّار، عذَاباً لغَوَايَتِهِمْ، وعذاباً لإغوائهم لنا.

ضِعْفاً: ضِعْفُ الشَّيْءِ أو العدد في اللّغة، مِثْلُه.

فالمعنى: رَبَّنا زِدْهُمْ عذاباً آخرَ في النّارِ مِثْلَ عَذَابِهِم الذي استحقُّوه على ضَلالِهِم وغوايتهم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

دلَّتْ هاتان الآيتان على أنّ فوج الأتباع بعْدَ أن يستَقِرُّوا في مستقرّاتِ عذَابِهم في جَهَنَّم، يَتلفَّتُونَ باحِثِين عن معارفهم في الدّنيا، فيتساءَلُون عَنْ رجالٍ كانُوا يعُدُّونهم، أي: يظُنُّونَهم في الدّنيا من الأَشرار، بتأثير زُخْرُفِ أقوال أئِمَّتِهم في الكفر، وهؤلاء الرجال هم من ضعفاء المؤمنين وفقرائهم، وربّما كانوا مُتَّهَمِينَ بارتكاب قبائح الذنوب لدى أئمة الكفر، فلا يَجِدُونَهُمْ من أصحاب النار الذينَ يُعَذَّبون فيها، فيطْرَحُون احتمالَيْن:

الاحتمال الأول: أنّهم كانوا يتّخِذونهم سخريّاً، ويستهزئون بهم ظالمين لهم، جاهلين بحقيقَةِ حالهم الّتي يجب أن لا يُسْخَرَ مِنْها، لأنّهم كانوا على حقّ وصِدْق وخير.

دلَّتْ على هذا الاحتمال عبارة: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾؟.

وفي قراءة لعَدَدٍ من القرّاء: **[اتَّخَذْنَاهُمْ]** بالإخبار دون همزة استفهام.

فَدَلّت القراءتان على أَنَّهُم يستَفْهِمُونَ أوّلاً، ثُمَّ يَعْتَرفون بأنهم كانوا يسْخَرُونَ مِنهم ظُلْماً وعُدْواناً.

وفي قراءة لعَدَدٍ من القرّاء: **[سُخْرِيّاً]** بضَمّ السين.

سِخْرِيّاً وسُخْرِيّاً: من مصادر «سَخِرَ مِنْه وسَخِرَ به» أي: هَزِئ به وَيُقَالُ لغةً: سَخِرَ منْهُ، وسَخِرَ به، يَسْخَرُ سَخْراً، وَسَخَراً، وَسُخْرِيَّة، وسُخْرِيَّة، أي: هزئ به.

الاحتمال الثاني: أنّهم موجُودون في النّار، لكن زاغَتِ الأبصار عن رؤيتهم، بسبب حرٍّ جَهَنَّم وما فيها ممّا تزيغُ به الأبصار.

دلَّت على هذا الاحتمال عبارة: ﴿...أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

«اَلْ» في: ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ عوض عن الضمير، أي: أم زاغت عنه أبْصارُنا.

زاغَت الأبصار: أي: مالَتْ عن سَوَائِها وصِحَّةِ نظرها. يقال: زاغ يزيغ، أي: مال، ويُقَال: زاغ عنه، أي: مال وعَدَل عنه.

● قول اللّهِ عزّ وجل: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾: بعد أن جاء في النصّ بيانُ صُورَةٍ من صُوَر التخاصم، الذي سوف يكون بين أئمة الكفر وبين الذين كانوا أتباعهم في الدنيا، وكان ممّا قَدْ يَتخيَّلُه بعضُ المتَلَقِّين، أنّ هذا المشْهَدَ الّذي عرضَه النّصّ مُجرّدُ مَشْهَدٍ لصُورةٍ خياليَّة أدَبيَّة، نظير الصور الخيَاليَّة الأدَبِيَّة التي يصْنَعُها القصّاصون المهرَة، كَانَ من مقتضى كون القرآن المجيدِ حقاً وصِدْقاً لا يأتيهِ الباطلُ من بيْنِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه، توكيدُ أنَّ هذا التَّخاصم الّذي جاء في النَّصّ عَرْضُ صُورَةٍ منْهُ هو تخاصم حقٌّ.

وجاءت الإشارة إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، لأنّه أمْرٌ سَوْفَ يكون يوم الدين، وجاء توكيد الجملة بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة إلى الخبر» فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ وجاءت عبارة: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ جملة مُبَيِّنَةً للمشار إليه البعيد.

﴿تَخَاصُمُ﴾ خبر مبتدأٍ محذوف، أي: هو تخاصُمُ أهل النار. وهذا من بديع الأساليب البيانيّة.

التّخاصُم: التّنازُع والمجادَلَة، في ادِّعَائَيْن مختلفين بين فريقين، كلٌّ فريق منهما حريصٌ على إثبات ادّعائه وإبطال ادّعاء خَصْمه.

ومن صور التخاصم الذي سوف يكون بَيْنَ التابعين والمتبوعين، ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مسحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ (١٦٧)﴾.

* * *

(٨)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (٦٥ ـ ٨٨) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ (٨٨)﴾.

تمهيد بنظرة عامّة حول هذا الدرس الأخير من دروس السّورة:

تضمّن هذا الدرس تعليماً من الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ، فَلِكُلّ داعٍ إلى دين الله من أمّته، كيف يرُدّ على أقوال الكافرين الّتي جاء بيانها في الدرْسِ الأوّل من دروس السّورة.

وفي هذا التعليم مُتَابعَةٌ دقيقة لأقوالِهم بَعرْضِ الرُّدُودِ عليها، دون إعادتها أو الإشارة إليها، وهذا من الْعُمْقِ القرآني، الذي يفهمه الرسول ﷺ تِلْقَائيّاً، ويفْهَمُه منْ يفتح الله علَيْه من أهْل التَّدبُر.

● جاء في الدرس الأوّل بيان تعجُّب أئمةِ المشركين في مكّةَ من أن يأتيهم منذر منهم، وهذا البيان يتضمَّن قضيّتَين:

القضيَّةُ الأولى: أنّه يُنْذِرُهم بعذاب الله يوم الدّين إذا أصَرُّوا على كُفْرِهِمْ وعِنَادهم، ويُنْذِرُهم بعذابٍ مُعجَّل مصْحُوبٍ بإهلاكهم إهلاكاً جماعيّاً شاملاً، كما حصل لمكذبي القرون الأولى، إذا وصَلُوا في شرورهم إلى مثل ما وصل إليه المُهْلَكُون السّابقون.

القضية الثانية: أنَّهُ يَدَّعِي وهو واحِدٌ منهم أنّه رسُولٌ مُرْسَلٌ من الله عزّ وجلّ إليهم، يوحِي الله إليه، فَهُو يُبَلّغُهم ما يُنَزِّلُ الله علَيْه لِيُبَلّغَهُمْ إيَّاه.

● وجاء في الدرس الأوّل أيضاً بيانُ تعجُّبِهم الشديد من أن يدعُوهُم إلى عبادة إلَه واحدٍ هو ربُّ السّماوات والأرض، وإلى نَبْذِ أوثانهم وسَائر آلِهَتِهم الّتي يعْبُدُونها من دون الله.

ولم يقدّم الذين كفروا حول هذه القضايا غيْرَ عبارات التَّعجُّب، ومعلومٌ أنّ التعجُّبَ من أمْرٍ ما لا يصحُّ دليلاً على إبطاله، أو التشْكِيكِ فيه.

فقال الله عزّ وجلّ في تعليم الرَّدّ على تعجُّبهم بشأن هذه القضايا الّتي تعجَّبُوا مِنْها:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾.

لقد سبَقَ في صَدْرِ السّورة التَّنْبيهُ على إعجاز القرآنِ عن طريق الْقَسَم به في قول الله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (١)﴾.

فهو دليل على صِدْقِ رسالَةِ محمّد وصِدْقِ بلاغاتِه عن ربّه بما فيه من إعْجاز.

وبما أنّ الّذين كفرُوا لم يُقدّمُوا دليلاً مَا، واقتصَرُوا علىٰ التَّعَجُّب، كان من المناسب أن يقتصر الرَّدُّ على ما هو مكافىءٌ لمقالاتهم.

إنّهم لَمْ يُقدِّموا دَليلاً غير مُجَرَّد التعجُّب، فما على الرَّسُولِ إلاّ أنْ يُؤَكّد لَهُمْ أَنَّه رَسُولٌ بعثه الله ليُبيِّن للناس ما أُنزل إليهم، وأنّه جازمٌ بإنْذارِه لهم، ويُصِرُّ على إنْذارِه، ويتحدّاهُمْ به، فقال الله عزّ وجلّ له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ بهذا التعبير الحاصر، أي: ما أنا بالنسبة إليكم، بعْدَ رَفْضِكم دعوتي وبَرَاهيني عليها، ورفضكُم بشارَاتي لمن آمنَ واسْلَم وعَمِلَ صالحاً، إلاّ رسُولُ إنْذارٍ بعقاب اللّهِ لكُمْ، في آجلِ أمْرِكُمْ، ورُبّما في عاجله أيضاً، إذا لزِمْتُمْ إصرارَكُمْ على الكفر والتكذيب، ومقاومة رسالتي بعِزَّة وشِقَاق.

والمعنى: أنتم تكذّبونَ استناداً إلىٰ التَّعَجُّب فقط، وأنا أُصِرُّ على دعْوايَ، ومَعِي مُعْجزَةُ الْقرآنِ، وبيْني وبينكم التحدّي للمستقبل.

أمّا تعجُّبُهم من نَبَإِ يوم الدّين، وبعْثِ النَّاسِ إليه، إذا حان حينه في علْم الله جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه، فقد جاء في التّعليم حوله قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾.

أي: قُلْ لهم إنّ نَبأَ البعث ويوْمِ الدّينِ للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، نَبأٌ عظيمٌ أُخْبِرُكُمْ بِهِ عَنْ رَبّي، وكَانَ يجب عليكم أن تَهْتَمُّوا به جدّاً، وتتفكَّرُوا في أدلّتِه الّتي سبَق في مراحل تنزيل القرآن عَرْضُ طائفَةٍ منها، تتَعَلَّق بضرورة تَحْقيقِ الجزاء. إذَا تفكّرتُمْ حقيقةً في معاني صفات الله جلَّ جلالُه وعظُم سلطانه، ومنها حِكْمَتُه وعَدْلُه، وأنّه لا يَتْرُكُ النّاسَ سُدَىٰ، وإذا تفكرتم في الآيتَيْن (٢٧ و ٢٨) من سورة (صَ) وما جاء فيهما من أدلَّةٍ كافيةٍ لإقناع من يُريد الحقّ.

لكنَّكُمْ مع كلِّ هٰذِهِ الْبَيَانات والأدلّةِ البرهانيّة، عن هذا النبأ العظيم الّذي يتعلَّقُ بمصيركم الأبديّ مُعْرِضُون، لا تَلْتَفِتُونَ إلَيْه، ولاَ تتفكَّرُونَ في أدِلّته.

فماذا تُرِيدُون أنْ نُقدِّمَ لكُمْ شيئاً أكْثَر من إنْبائِكُمْ بهذا النَّبأ العظيم الّذي يَهُزُّ وِجداناتِ أولي الألْبَابِ وَمَخَاوِفَهُمْ، مقْرُوناً بالأدِلَّةِ الْبُرْهَانيَّةِ الّتي سبَقَ إعلامُكُمْ بها؟!

ماذَا نَفْعل لإقناعِكُمْ أكْثر مِنْ هٰذا؟!

واعْلَمُوا أنَّ هٰذا النبأ العظيم هو أحدُ عَنَاصر الخبر التاريخيّ الّذِي أُوْحِيَ بهِ إليَّ حَوْلَ خلْقِ الإنسانِ الأوّل، وإخبار الله عزّ وجلّ مَلائكته بخَلْقِه، وسؤالِهم عن الغرض من خَلْقه، وعن صفاته، وماذا سيكون من سلالَته.

فقد تضمّنَتْ قِصّةُ خَلْقِ الإنسانِ الأوّلِ بَيانَ قَانُونِ الجزاءِ يوْمَ الدّين، إذْ جاءَ من عناصرها بيانُ أنَّ إبْلِيسَ طلَبَ إنظارَهُ إلَىٰ يَوْم يُبْعَثُ الخلائق للحساب وفَصْلِ القضاء وتَحقِيق الجزاء.

فأنا بما جاءني عن الوحْي أُنَبِّئُكُمْ، أفَلا تَجِدُون في كلِّ هذا باعثاً علىٰ تَصْدِيقي، وهو من الحقائق الّتي التقت عليها الأدْيانُ الرَّبَّانيَّةُ كُلُّها مُنْذُ عَهْدِ

آدم، وقَبْلَ عَهْدِ آدم، إذْ كَانَ الجنُّ يَعْلَمُونَ هٰذا النَّبأ العظيم، وهم أُمَّةٌ مخلُوقُونَ قَبْلَ الإِنْسِ، وكانَ إبْلِيسُ من الجنّ ففَسَقَ عن أَمْرِ رَبِّهِ، ولَدَيْه عِلْمٌ بهذا النبأ العظيم؟!.

أفلا تجدُونَ في كُلِّ هذا باعثاً على التفكِير في الأَدلّة العقليّة البرهانيّة الَّتي تُبيِّن ضَرُورَة وجُودِ قانون الجزاء، وضرورة كون البعث للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، إحدى عناصر خُطَّةِ الخلْقِ الرَّبَّانيَّة.

وأُأَكِّدُ لَكُمْ بَعْدَ هٰذا فأقول لَكُمْ:

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾.

أي: بالنِّسبَةِ إلى مَنْ أصرَّ على عِنادِه وكُفْرِه، ومُبِينٌ مَا أوحىٰ الله به إليّ.

● وجاء في الدَّرْس الأوَّل بيان اتّهامِ أئمة الشّرك والكُفرِ في مكة إبَّان نزول السّورة، بأنَّ محمَّداً صاحِبُ مصلحة شخصيَّةٍ من دَعْوَتِهِ، إذْ قَالُوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ أي: يُرادُ لمصلحته الشخصية من مال وزعامة وحبّ سلطان.

فجاء في آخر الدّرْسِ التّعْليميّ الّذي تضَمَّنَ الرُّدُود على مقالاتهم:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾.

وجاء هذا التعليم في آخِرِ آياتِ السّورة لأَنَّ الاتّهام يتعلَّقُ بشَخْصِه، لا بمضمون دعوته، وفيه تَعْلِيم لحمَلَة رسالة الرسول ﷺ من أُمّتِه، أن يَبْدَؤُوا بالدّفاع عن مضمون الرسالة قبل تبرئة أشخاصهم من اتِّهامَاتِ أقوامهم لهم.

التدبُّر التحليليّ لفقرات هذا الدرس:

● قول الله عزّ وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦﴾.

﴿قُلْ﴾: أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ رَدّاً على تَعَجُّب أئمة مُشركي مَكَّة إبَّانَ نُزُول السّورة مِنْ أَنْ يَجِيئَهُمْ مُنْذُرٌ بشَرٌ منهم، فيشْتُموهُ بأنّه سَاحِرٌ كذّاب، كما جاء بيانُ مقالتهم في الآية (٤) من هذه السورة قل لَهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾.

﴿إِنَّمَآ ﴾ أداة حَصْرٍ تَنحلُّ في معناها إلى «ما» و «إلاّ» أي: مَا أَنَا إلاّ مُنْذِرٌ، وهذا الحصر حَصْرٌ إِضَافي، أي: ما أنا بالنسبة إليكم بعد أن رَفضتم بلاغاتي عن ربّي، وبشارتي لمن آمن وأسْلَم وعمل صالحاً، وبعد أن عَانَدْتم وأصْرَرْتُمْ على الكفر، إلاّ مُنْذِرٌ، إذْ لَمْ يبْقَ لديَّ شيءٌ أعَالجكُمْ بِهِ إلاّ أَنْ أَوَجّه لكم الإنْذار بالعذاب المؤجّل إلى يوم الدّين، مع احْتِمَال مُعَاقَبتِكم بعذاب مُعَجّلٍ يَنْزِلُ بكم في الحياة الدّنيا، كالّذي أنزلَهُ اللَّهُ بمن أهلكَهُمْ من أهل القرون الأولى.

الإنْذار: الإخْبار بمكروهٍ سيأتي ضِمْن الشروط والصّفات المبيَّنة فيه.

وقل لهم أيضاً: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦﴾.

أي: وَمَا مِنْ إلَهٍ هُوَ رَبٌّ يسْتَحِقُّ بِرُبُوبِيَّتهِ أَنْ يُعْبَدَ، وَيجِب على مَرْبوبيه أَنْ يَعْبُدُوه إلاّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الّذي لا شريكَ له في ربوبيّته لكلّ شيءٍ في الوجود من دونه، الْقَهّارُ الغالبُ لكلّ شيءٍ المُجْبِرُ بالْقَهْرِ والغلبة، فهو يفعل في كلّ شيءٍ ما يشاء.

﴿مِنْ﴾ حرف جرّ زائدٍ جيءَ به للدلالة على الاستغراق والتّنْصِيص عليه.

﴿إِلَٰهٍ﴾: أي: مَعْبُودٍ بحَقٍّ، ولاَ مَعْبُودَ بحَقٍّ في الوجود إلاّ مَنْ هو ربٌّ، ولا رَبَّ في الوجود كُلِّهِ إلاّ الله الواحِدُ، الذي من صِفَاته أَنَّهُ قَهَّارٌ، وهو مبتدأ مجرور لفظاً مرفوعٌ محَلاًّ.

﴿ٱللَّهُ﴾: اسم علمٌ على الأزلي الأبَدِي الخالق الرّبّ الذي له كلّ الأسماء الحسنىٰ والصّفات الْعُلْيا، ولفظ «الله» خبر المبتدأ.

﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾: أي: الذي لا شريك له في ربوبيّته، وهو صفة لله.

﴿ٱلْقَهَّارُ﴾: أي: الغالبُ الذي يفعَلُ بالغلبة والْجَبْرِ في كلّ شيءٍ مَا يشاء، وهو صفة لِلَّهِ أيضاً.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: أي: خالِقُ السَّمَاوات وخَالِقُ الأرض وخالِقُ كلّ ما بينهما، والمتصرّف بكلّ ذلك دوماً بربُوبيَّته في كلّ ما يجري فيه، من حركةٍ وسكون، وزيادةٍ ونقص، وإيجادٍ وإعدام، وتغيير في الصفات والأحوال والأوضاع، وثوابٍ وعقاب، وعفْو وغفران، أو محاسبة وجزاء، وغير ذلك، ومن كان وحْدَهُ هو الخالق لكلْ ما سواه فهو المُمِدُّ له بالوجود والبَقَاءَ، والممسِكُ له دوماً، وهو المتابع لخلق أحداثه دواماً بربوبيّته، فلا إله سواه.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: القويُ الغالِبُ الذي لا يُغْلَب.

﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾: أي: الكثير المغفرة لعباده المذنبين. «غفَّار» صيغَةُ مبالغة لِغَافر.

وفي هذا البيان دليل عقليٌّ علَىٰ أَنَّهُ ما من إلَه إلاَّ الله، فالدَّعْوىٰ مقترنة بالدليل عليها.

- ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

هذا تعليم آخَرُ من تعليمات الرُّدُود على مقالات الذين كفروا، التي جَاءَ بيانُها أو الإشارة إليها في الدس الأول من السورة، وهو بشأن يوم الدين.

﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾: أي: نَبأُ الْبَعْثِ بَعْدَ الموت للحساب وفَصْلِ القضاء

وتحقيقِ الجزاء نَبأ عَظِيمٌ، إذ هو يتعلَّقُ بمصيركم الأبديّ، ولا يَتعلَّقُ بأمور عارضة تمرُّ وتَنْقَضِي.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: أنتم تخصُّونه بالإعراض عنه، لئلا يكون كالْعَقَبَة المانعة عن مُمارسَاتِكم الآثِمَاتِ الظَّالِمَاتِ، أو لئلا تجدوا في نفوسكم حَرَجاً لدى هذه الممارسات.

الإعراض: إعطاء عارضة الوجْه، وفي إعراضكم إِشْعَارٌ بَعَدمِ أكترائِكُمْ لهذا النبأ العظيم، وعَدَمِ توجُّهكم للاهتمام به.

- ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: وقل لهم هذا النبأ العظيم ليْسَ أمْراً جديداً ولاَ مُسْتَغْرَباً في تاريخ الْخَلْق، بل هو مَعْلُوم مُنْذُ بدْءِ خَلْقِ ذَوي الإرَادَات الحرَّةِ الممتَحَنين، وهُوَ معلومٌ للملائكة والجنّ قبل خَلْق آدم الإنسان الأوّل.

وله شاهدٌ في قصّةِ خلْقِ آدم وَما جَرَىٰ في الملأ الأعلَىٰ لدىٰ بَدْء خَلْقِه من اختصام حول خَلْقِه، وتَساؤلٍ عن حكْمَةِ خَلْقِه، وانقسامهم إلى مطيعين نَفَّذُوا أمْرَ اللّهِ بالسُّجُودِ لآدم، واستكبارِ إبْلِيسَ الّذي كانَ مُنْدَسّاً فيهم، وهو ليْسَ من عنْصُرِهِمْ، بلْ كانَ من الجنّ الكافرين بإلَهيَّةِ الله باطناً، فكشَفَهُ الامتحانُ حين أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

والمعنى: ما كان لي قبل الوحي الربانيّ شيءٌ ما من علْم أو شعورٍ بموضوع المراجعات والاختصام بين الملأ الأعلى، ومن أدخل نفسه فيهم بنفاقه وهو إبليس.

عَلِمَ الشيء وعَلِم به: إذا شَعَرِ به ولو دون إحاطة.

الملأ الأعلَى: هم كُبراءُ الملائكةِ وعُظَماؤهم، ويَدْخُلُ في عُمُومِهِم إبْلِيسُ الّذِي كَانَ بنِفَاقِه في الطاعة والعبادة مُنْدَساً فيهم، ليَنَالَ عند الله عزّ

وجلَّ قُرْباً، وحُظْوةً يكُونُ بها ذا رِئَاسَةٍ وأمْرٍ ونَهْيٍ على من دُونَ المـلأِ الأعْلَىٰ من الملائكة.

الملأ: هُمُ الكبراء الّذين يملَؤُونَ عُيُون النَّاظِرينَ إليهم من الدهماء.

وجاء في قصّة خَلْق آدم أنَّ الله عزّ وجلّ حَاكَم إبليس على معصيته واستكبارِه عن طاعة الله، إذْ أمَرَ اللَّهُ ملائكةَ الملأ الأعلى بالسُّجودِ لآدم، ويشْمَلُ هذا الأمْرُ من كان مُنَافقاً ومُنْدساً فيهم، ويَعْتَبر نفسه واحداً مِنْهُمْ، وبَعْدَ أنْ أصرَّ إبليس على استكباره، وَأعْلَن كُفْرَهُ بإلٰهيَّةِ اللَّهِ لَهُ، طَرَدَهُ الله من منازل أهْلِ الملأِ الأعلى، وقال لَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ وإذْ كَانَ إبْليسُ علىٰ عِلْمٍ بالبعْث بَعْدَ الْمَوْتِ إلى يَوْم الدِّين ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾ أيْ: أبقني حيّاً إلى يوم البعث، فأنْظَره اللَّهُ إلَىٰ يوْم السّاعة الأُولَىٰ الّتي يكون بها إمَاتَةُ جَمِيع الأحياء في الأرض وفي السّماوات، حتّىٰ الملائكة المقرّبين، لا إلىٰ يوم البعث.

جاء هذا البيان مُجملاً مقْتَضباً في الآية (٦٩) لكنّه بَعْدَ الآية (٧٠) جاء له بعضُ تفصيل في لقطات، ضمن الآيَاتِ من (٧١ ـ ٨٥) فأجاب هذا التفصيل على أسئلة أثارها الكلام المقتضب في الآية (٦٩) بَعْد إنهاء عبارات التعليم، لئلا يكون عرض القصة استطراداً ضمن عرض الفقرةِ التعليمية.

- قول الله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾:

أي: وقُلْ لهم هذا القولَ مُصِرّاً علىٰ مَوْقِفِك، وبَيِّنْ لَهُمْ أنّه ما يُوحَىٰ إلَيْكَ بالنسبة إلى هذا الموقف إلاَّ أن تقول للكافِرِينَ المعنيّين في هٰذه السّورة: ما أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ مُبين بالنسبة إليكم، فليس لديَّ بيانٌ لَكُمْ غَيْرُ هٰذا إذْ لم تأتوا بجدَليَّات جديدات أُبيّن لكُمْ خطأكُمْ وضلالكُمْ فيها، بل توقَّفْتُم عند إعلان تعجُّبِكُم وشَتَائِمِكُم.

أمّا التعجُّب المجرّد فلا يصْلُح لأنْ يكون حُجَّةً أصْلاً.

وأمّا شتيمتكم لي بأنّي ساحرٌ كذّابٌ فإنّي لا أرُدُّ علَيْها، بَلْ أُدْبِرُ عنها، وأتَرَفَّعُ عن أَنْ أواجِهَكُمْ بمثلها.

قصة خلق آدم واستكبار إبليس عن السجود له

تمهيد:

(١) جاءت في هذه السّورة لقطاتٌ من قصَّةِ خلْق آدم، واستكبار إبليس عن السّجود له مع ملائكة الملأ الأعلى، حينَ وجَّه اللَّهُ عزّ وجلّ الأمْرَ لَهُمْ ولمَنْ كانَ مندَسّاً فيهم، ومختلطاً بهم، إِذْ دَعتِ المناسبة بيَانَ أنَّ البعْثَ وَيَوْمَ الدّين ممَّا كان معلوماً في تاريخ الخلْق قبل خلْق آدم لدى الملائكة، ولدَىٰ الجنّ الموضوعين في الحياة الدُّنيا قبل الإنْسِ مَوْضِعَ الامتحان، الذي يستَتْبعُ الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد جاءت هذه اللّقطات في الآيات من (٧١ ـ ٨٥) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

(٢) ثم أنزل الله عزّ وجل بياناً حول هذه القصة مشتملاً على لقطاتٍ أخرى في سورة الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) إذْ استدعت المناسبة ذكرها، وقد جاء هذا البيان في الآيات من (١١ ـ ٢٥).

(٣) ثم أنْزَل الله عزَّ وجلّ بياناً ثالثاً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطات أخرى فيها إضافات، وذلك في أواخر سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) إذِ استدعت المناسبة ذكرها، وقد جاء هذا البيان في الآيات من (١١٦ ـ ١٢٦).

(٤) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ بياناً رابعاً حوْلَ هذه القصة مشتملاً على

لقطات أخرى فيها إضافات، لم يَسْبِقْ ذكْرُها، وذلك في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول). وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٦١ ـ ٦٥).

(٥) ثُمَّ أَنزل الله عزّ وجل بياناً خامساً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطات أخرى فيها إضافات لم يَسْبِق ذكرُها، إذِ استدعت المناسبة ذكرها، وذلك في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٢٦ ـ ٤٤).

(٦) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ بياناً سادساً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطاتٍ فيها إضافاتٌ لم يَسْبِق ذِكْرُها، إذِ اسْتَدعَتِ المناسبة ذكرها، وذلك في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٣٠ ـ ٣٩) وهذا آخر بيان أنزله الله حول قصة خلق آدم، واستكبارِ إبليس عن السجود له، وما ذا كان من إبليس مِنْ إغْوَاء آدم وزوجه والتسُّبِ في إخْراجهما بوساوسه من الجنّة.

ودراسة هذه النّصُوص في نظرة تكاملية شاملة، تتطلّب بحثاً مستقلاً يجده القارئ إن شاء الله في الملحق الرابع من ملاحق سورة (صٓ) التي نتابع تدبُّر.

وأقْتصر هنا على تدبّر النصّ الوارد في سورة (صٓ).

- قول الله عزّ وجل:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

- ﴿إِذْ﴾ ظرف لزَمَنٍ ماضٍ في محل نصْبٍ على الظرفية بفعل محذوف تقديره «اذكر» والمعنى: ضَعْ في ذاكرتِكَ أيُّها المتلَقّي الحدثَ الذي

نقصُّه عليك، والذي كان في زمن ماضٍ ﴿إِذْ﴾ مضافٌ والجملة الّتي جاءت بعده مضاف إليه.

● ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: المراد بالملائكة ملائكةُ المَلأِ الأَعْلَى كجبريل وميكائيلَ وإسْرَافيل، ومن كان معهم ومندسّاً فيهم منافقاً، وهو إبليس، بدليل ما جاء في الآية (٦٩) وهو قوله تعالى فيها: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ كما سبق بيانه لدى تدبُّرِ الآية.

● ﴿. . . إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: أي: إنّي سَأَخْلُق مَخْلُوقاً جديداً بشراً مِنْ مَاءٍ وَترابٍ مُخْتَلِطَيْنِ، وباختلاطهما يَصِيران طِيناً، اسم الفاعل «خالق» يدُل على الاستقبالِ كالمضارع، كَمَا قد يدلُّ على الحال، والخلْق يكون بمعنى التقدير وبمعنى الإبداع.

البشر: هو الإنسان (الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث سواء) وقد يثنّى فيقال فيه بشران، وقد يجمع على أبشار. ولعل التسمية مأخوذة من كون بَشَرَتِه بأديَةً غير مستورة بشعرٍ أو غيره. فالبشَرَةُ ظاهر الجلد.

● ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ «إذا» ظرف لما يستَقْبَلُ من الزّمن **والتَّسْوية**: إبلاغُ الشيء الغاية المقدّرة والمقضيَّةَ له، حتّىٰ يصير تامّاً مستوياً، بالغاً الغاية المقصودة من صُنْعه.

● ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾: **النَّفْخُ**: دفْع الرِّيح بشيء من القوة، من مكان مُتَّسِعٍ عَبْرَ فوهة ضيقة، كالنَّفْخِ بالفم، أو النَّفخ بأداة تُسمَّىٰ المِنْفاخ. ﴿فِيهِ﴾ أي: في داخل كُلِّ جَسَدِهِ بَعْد تسْوِيَته. ﴿مِن رُّوحِي﴾: أي: نفحةً من جِنْسِ المادَّةِ اللَّطِيفَة الّتي خلَقْتُها لتكُون بها حَيَاةُ الأنفس، وسمَّيْتها رُوحاً.

الرُّوح: أَلْطَفُ المخلُوقَاتِ اللَّطيفَةِ في الوجود، وأَخْفَاها عن إدْراك ذوي الإدراك من دون الرّبّ الخالق، وهي من أمْرِ اللّهِ التكويني مُبَاشَرة،

والرُّوحُ ما تكون به حياة الأنفس، وحقيقَتهُ سرٌّ من أسرارِ الإبداع الربّاني.

والإضافة في ﴿رُّوحِى﴾ ليست على معنى أنّها جزء من رُوح ذاتِ الله سبحانه وتعالى، بل هي على معنىٰ الْمِلْك، كما أنَّ كُلَّ شيءٍ في السماوات والأرض وما بينهما مِلْكٌ لِلَّه، فلِلَّهِ ما في السماوات والأرض، وهذا التعبير نظير التعبير في «سمائي. وأرضي، وجنّتِي ونَارِي» أو على معنى الاختصاص بأمْرٍ منْ أُموري، مثل: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾.

وبسبب الْفَهْمِ الخطأ في هذه الإضافة سَقَطَ النصارىٰ في تَوهُّم أنّ عيسَىٰ عليه السَّلامُ جُزْءٌ من ذاتِ الله، سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفُون.

وقد أطْلَقَ الله عزّ وجلّ على جبريلَ عليه السّلام عبارة ﴿رُوحَنَا﴾ فقال تعالى في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) في معرض الحديث عن مريم عليها السلام:

﴿. . . فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾.

● ﴿. . فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: أي: فاسْقُطُوا بإحناء أعاليكم حتَّىٰ تكونوا ساجدين واضعين جِباهَكم على الأرض، والمرادُ السُّجودُ لجهَتِه لا لعبادته فالعبادة لا تكونُ إلاّ لله جلَّ جلاله، وهو نظير السجود لِجهَةِ الكَعْبة، والغرضُ تكريمُ آدم واحترامُ الْعِلْم الذي علّمه الله إيّاه، والتكفير عن التَّساؤل عن الحكمة من خلقه الذي فيه رائحة الإشعار بأنّهم لم تَظْهَرْ لهم الغايةُ الحكيمة، من قضاء الله وقدره بخَلْق هذا المخلوق الجديد، وهم يقومون بالتسبيح بحَمْدِه والتَّقْدِيس له.

و «الفاء» في عبارة: ﴿فَقَعُواْ﴾ تَدُلُّ على وجوب السجود له مباشرة عقب نفخ الرُّوح فيه، وجَعْلِه كائناً حيّاً.

● ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣﴾: أي: فنفذ الملائكة أمر الله تعالى لهم بالسّجود لآدم فوراً عقب نفخ الروح فيه، الّتي سرَتْ بلُطْفِها في كُلّ ذرّةٍ من ذرّاتِ جَسَدِه.

ويتساءل المتدبر: ما الحكمة البيانيَّةُ من جَمْعِ مؤكِّدَين في هذه العبارة: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾؟

أقول: لقد تنبَّهَ الزمخشرِي في كَشَّافِه للجواب فقال: «أفادا معاً أَنَّهُمْ سَجَدُوا عَنْ آخِرِهم، ما بقي منْهُمْ ملَكٌ إلاَّ سجد، وأَنَّهُمْ سَجَدُوا في وقْتٍ واحِدٍ غَيْرَ مُتَفَرِّقين في أَوْقَاتٍ» هـ

أي: فالتأكيد بعبارة: ﴿كُلُّهُمْ﴾ أفاد أنّهم سجدوا عن آخِرِهم، ما بَقِيَ مِنْهُمْ مَلَكٌ إلاَّ سَجَدَ. والتأكيد بعبارة: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أفَادَ أَنَّهُم سجَدُوا مجتمعين في وقتٍ واحدٍ غير مُتَفَرِّقين في أوقات، تنفيذاً للسجود الفوريّ الذي أَمَرَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ به في قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

● ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

استثناءُ إبليسَ هُنا هو من قبيل الاستثناء من عموم من أمَرَهم الله بالسجود لآدم، إذْ قَدْ وجَّهَ الله عزّ وجلّ الأَمْر بالسجود لملائكة الملأ الأعلى ولمَنْ كان مُنْدَسّاً فيهم بنفاقه، ومُخْتَلِطاً بِهِمْ، معتبراً نفسه أنّه واحدٌ منهم، مع أنّه قد كان من جنس الجنّ الّذين يملكون بخلْقِ الله الْقُدْرَةَ على الطاعة والمعصية، وهم مخلوقون من مارج من نارٍ، أي: من أخلاطٍ ناريّة، بخاف الملائكة، فإنّهم بفِطْرَتهم لا يعصون الله ما أمرهم ويَفْعَلُون ما يُؤمَرُون، وهُمْ مخلوقون من نور صافٍ نقيّ.

فالاستثناء هو من قبيل الاستثناء المتَّصِل، لا من قبيل الاستثناء المنقطع، وحمل لفظ «الملائكة» على أنّه يشْمَلُ الملائكة والجنّ خطأ مخالِفٌ لدلالات النصوص القطعيّة.

فخطاب التكليف بالسّجُود الموجّه للملائكة، موجّه للملائكة ولمن كان مُدَّعِياً أنّهُ منهم، أو معتبراً نفسَهُ بنفاقه واحداً منهم.

وقد كشف الامتحانُ إبليس، فأَبَانَ كُفْرَهُ بإلَهيّةِ رَبّه، وأبانَ أَنَّ عُنْصُرَهُ

لَيْسَ من عنصر الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، والذين يفعلون ما يُؤْمَرُون، والّذين هم مخلوقون من نور، بل هو مخلوق من نارٍ.

﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾: أي: اشتَدَّ في كِبْرِه عن السُّجُودِ لآدم، شِدَّةً جَعلَتْه يَجْحَدُ إلٰهيَّة الله له، الّتي هي حَقٌّ رُبوبيّته لكلّ الموجودات من دونه.

[الإلٰه]: هو المعبود، وأوّل عناصر عبادة العبد لربّه الإذْعَانُ لَهُ بحقّهِ في طَاعَةِ أوامِره ونواهيه، فمن جحد هذا الحقّ فهو من الكافرين به، لأنّ رُبوبيَّتَهُ تستَلْزم إلٰهيَّته حتماً لزوماً عقليّا، ولا إلٰهَ هو ربٌّ يُعْبَدُ بحقٍّ في الوجود إلاّ اللَّهُ عزّ وجلَّ وحْدَهُ لا شريك له.

● ﴿. . . وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾: أي: وكان إبليس من قَبْل أن يكْشِفَهُ الامتحان، من الكافرين بحقِّ اللَّهِ في إلٰهيّتِهِ لعباده، مع إيمانه بأنَّهُ رَبُّهُ ورَبُّ كُلّ شيءٍ في الوجود من دونه جلّ جلاله.

والإيمان لا يكون صحيحاً مقبولاً عنْد الله ما لَمْ يتحقَّقْ الإيمان الكامل بربوبيَّة الله عزّ وجلّ، وبإلٰهيَّتِه، دون إشراك بهما أو بأحَدِهما.

وكُفْرُ إبلس قد كان كُفْراً بإلٰهيَّةِ الله، وطَعْناً في حكمته في أوامرِهِ ونواهيهِ وإباءً واسْتِنْكَافاً عن طاعته فيما خالف هواه، وقَدْ كان هذا موجوداً في نفسه قبل كَشْفِهِ بالامتحان، مع أنه قد كان بنفَاقِهِ وشِدَّة مَكْرِه مُنْدَساً في الملائكة، حتّىٰ وصل إلى ملائكة الملأ الأعْلَىٰ، وانْدَسَّ فيهم، باعتبارِ أنَّ الجنَّ كانوا مُمَكَّنِين بحَسَب طبيعة أجسادهم الشفَّافة اللّطيفة القادرة على التشكّل، أنْ يَدْخُلوا في جموع الملائكة، وأنْ يتظاهَرُوا بأنَّهُمْ منهم، ثُمَّ مُنِعُوا من ذلِكَ، ومن الصُّعُود لاستراق السّمع من ملائكة السماء.

ولا يصحُّ هُنَا حَمْلُ «كان» على الكينونَةِ الحالية الّتي ظهرت بعد الامتحان، لأنّ الامتحان يكشف ما هو موجودٌ سابقاً في النفوس، أمّا التَّقَلُّبَات الظاهريَّةُ فلا وزن لَهَا عند الله عزّ وجل، ولا قيمةَ لها.

- ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآية بيانُ مَشْهَدٍ من مشاهد مُسَاءَلَةِ إبليس لمُحَاكَمتِه، بشَأْنِ امتناعه عن طاعة أمْرِ الله له بالسجود لآدم.

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبليس في مَجْلِس من مجالس محاكمته:

﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾: نداءٌ له باسْمِه الشَّخْصِيّ، لأنّه هو وحْدَهُ الشخْصُ المحاكم، باعتبار أنَّه هُو وحْدَهُ الّذي لم يُطِعْ أمْرَ الله بالسّجود لآدم، وصَارَ فيما بعْدَ عِنَادِهِ وإصراره على كفره رأسَ الشياطينِ وإمَامَهُمْ، وصارَ يُطْلق لفظ إبليس على كلِّ عاتٍ متمرّد.

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾: أي: ما الّذي منعكَ من السجود لمخلوق أوليتُه عنايتي وتكريمي فخلقْتُ جسَدَه بِيَدَيَّ، وقد كُنْتَ داخلاً في عُمُوم الّذِين أمَرْتُهم بالسجود له، باعتباركَ ألحقت نفسك بالملائكة، حتَّىٰ تسلَّلْتَ إلى مَلَئِهم بقيامك بمثل ما يقومون به من عباداتٍ وطاعات، فكان عَلَيْك أن تُطِيع فيما يكلَّفُونَه، فاكتسابُ الانتماء يُصاحِبُه تَحَمُّلُ مسؤوليّات التكاليف، وما تَسْتَتْبع مِنْ جزاءٍ وعقوبات على المعاصي والمخالفات.

وبما أنَّ المحاكَمةَ موجَّهَةٌ له من أجْل عدم سجوده لآدم، فلا بُدَّ أنْ يُسْأَلَ عن المانع له من السجود، فلعلَّه يُبَيِّن عذراً مقبولاً، يُعْفِيه من ترتُّب العِقَاب، أو يَسْتَغفر ويتوبُ ويَنْدَمُ فيخَفَّفُ عنه من عقابه.

- ﴿... أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾؟.

وضَعَ الرَّبُّ جلَّ جَلاَلُهُ إبليس بهذا السؤال أمَام أَمْرَين لا ثالث لهما:

الأمر الأول: أن يكون قَدْ منَعَهُ من السجود لآدم اسْتِكبَارُه. أيْ: هو

يُعَظِّم نَفْسَه بغَيْرِ حقٍّ، ويُريدُ أنْ يَجْعَلَها في مرْتَبَةٍ أعْلَىٰ من مَرْتَبة الملائكة الَّذِينَ أطَاعُوا فَسَجَدُوا.

الأمر الثاني: أن يكون امتناعه من السجود مَبْنيّاً على أنَّهُ بتكوينه وفطرته أعْلَىٰ مَنْزِلَةً، وأَرْفَعُ مَرْتبةً من الّذِين كُلِّفُوا أن يَسْجُدوا له.

والمعنى: أجَعَلْتَ نَفْسَك بغير حقٍّ في مرتَبةٍ فوق مرْتَبَتِكَ الّتي هي لكَ بخَلْق رَبك؟. أمْ كُنْتَ في تصوُّرِكَ من العالين حقيقةً في المرتبة، فرأيْتَ أنَّهُ لا يليقُ بكَ أن تَسْجُد لآدم، ولو كان ذَلِكَ طاعَةً لرَبِّكَ خالِقِك؟

- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾:

في إجابة إبليس هٰذِهِ تَهَرُّبٌ من الاعتراف بالاستكبار، والتزامٌ بادّعاء القضيَّة الثانية، استناداً إلى وهْم التفوّقِ العنصري، المستَنِد إلى ادّعاء أنّ عُنْصُر المادّة الّتي خلَق الله إبليس منها وهي النارِ، أشرفُ وأعظم منزِلةً ومرتَبَةً من عُنْصُر الطين الذي خلَق الله جسَدَ آدم منه.

لقد زَعَمَ أنّ عُنْصرَ النّار خَيْرُ من عنصُرَي الماء والتراب، الذين يتكوَّن من اختلاطهما ببَعْضِهما الطين، فهو أعْلَىٰ بعُنْصُرِه الذي خلقه الله منه، من عُنْصُر الطين، فلَيْسَ من الحكمة أنْ يُؤْمَرَ بالسُّجودِ التكريميِّ لآدم.

هذه النزعة الإبليسيَّةُ هي أسَاسُ مزاعم التفوُّقِ العرقي، والتعالي العُنْصُري، والاسْتِكْبَارِ القوميّ، وهي نزعة قائمة على وهْمٍ باطلٍ لا صِحَّةَ له بوجْهٍ من الوجوه، إذ التفاضُلُ بين المخلوقات إنّما يكون بالصّفاتِ الفاضلة الموجودة في المخلوق بعد تكوينه، لا بالْعَنَاصِر الأولى الّتي تكوَّنَ مِنها، ما لم يكن لها تأثيرٌ في وجود الصّفات الفاضلة الموجودة فعلًا في المخلوق، بعد إيجاده.

- ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: قال اللّٰهُ عزّ وجلَّ لَهُ في هذِهِ الجلْسَة من جلسات محاكَمتِه: إنَّ ادّعَاءَكَ التَّفَوُّقَ الْعُنْصُرِيَّ ادِّعَاءٌ باطل، لا صحة له بوجه من الوجوه، ومعْصِيَتك بالاستناد إلى وهْمِ التفوُّقِ العنصري طَعْنٌ بحكمة رَبّك، وهو من الكفر ببَعْضِ صفاتِ الكمال الواجبة له، وفيه جعْلُ العناصِرِ التي خلَقَها هو، وخلَقَ خصائصها ووظائفها ذوات تأثير في إلزامه جلّ وعلا بأن يُوَجِّهَ أوامِرَه ونواهيَهُ لعباده متقيّداً بمراعَاةِ التفاضل العنصريّ فيما بينها، وفيه جحودٌ لإلٰهيَّة ربِّك لك، فاخْرُج من مواطن الملائكة التي جعلناك تجول فيها بحريَّة في السماء فإنَّه لا حقّ لك بعْدَ انكشافِ كِبْرِكَ وكُفْرِك في أن تَدُسَّ نَفْسَكَ بالنّفاق ضِمْن الملائكة الكرام، الّذين لا يعْصُونَ الله ما أمَرَهُمْ، ويفعلون ما يُؤْمَرُون.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾: أي: فإنَّكَ مَرْجُومٌ مَطْرُود.

الرَّجم: هو في اللّغة الرَّمْيُ الطَّرْدِيُّ الإبعادي، بقولٍ أوْ فعل، وقد جعَلَهُ اللّٰهُ رَجيماً إِذْ طَرَدُه من رحمته، ولعَنَهُ، ثُمَّ رَجَمَهُ بالشُّهب الثواقب كلما أراد أن يقترب من منازل الملائكة في السماء.

واللَّعْنُ: هو الطرْدُ من دائرة الرَّحمة والإبعادُ عنها.

وقَدْ أصْدَرَ اللّٰهُ حُكْمَهُ عليه بالرَّجْمِ واللَّعْن إلَىٰ يَوْمِ الدّين، الذي تجري فيه محاكمَتُه لجَعْلِه خالداً في جهنَّمَ دَارِ عذاب الكافرين المجرمين، أمّا في الدُّنيا فقد تَمَّ الحكْمُ علَيْهِ بالرَّجْمِ واللّعْن.

وهٰذه إحدىٰ مُحَاكماتٍ ثلاث، أجْراها الله عزّ وجل له، دلّت عليها النظرة الكليّة التكاملية للنصُوصِ السّتة الموزعة في ست سُورٍ من القرآن المجيد سَبَقَ ذكرها، وهذه النظرة الكلية التّكامُليَّة سأُقَدمُها إن شاء الله في الملحق الرابع من ملحقات هذه السّورة الّتي أُتَابع تدبُّر دروسها وفِقَراتها.

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾:

أي: ﴿قَالَ﴾ إبْلِيسُ مُعْتَرِفاً لله برُبوبيته وبأنّه خالِقُ الحياة والموت.

﴿رَبِّ﴾ (بحذف ياء المتكَلِّم إيجازاً) بمَا أنَّك حكَمْتَ عليَّ بالرَّجْم واللَّعْنِ إلى يوم الدين، ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ﴾ يُبْعَثُ الخلائق بَعْدَ الموتِ لملاقَاتِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنْفِيذِ الجزاء.

لقد كانَ عالماً بأنَّه يُوجَدُ بعْثٌ إلى الحياة بَعْدَ الموتِ، لتحقيق الجزاء الرّبَّانِيّ بَعْدَ رحْلَة الحياة الدُّنيا، رحْلَةِ الامتحان لمِنْ وضِعُوا فيها موضع الامتحان بشروطه، فَطَلَبَ إمْهَالَهُ وإبقاءه حيّاً إلى ذلِكَ اليوم، وكانَ الجِنُّ موضُوعين موضِعَ الامتحان في الحياة الدنيا قبل الإنس، ثم خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وزوجَهُ، فبدأت رحلةُ امتحانِهما وامتحان ذُرّياتهما منذ ذلك الوقت.

﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾: أي: فأمْهِلْني وأخِّرْني باقياً حيّاً.

- ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٨١﴾.

أي: قال اللَّهُ عزّ وجلّ لإبليس: استَجَبْنَا لبَعْضِ طَلَبِك، فَأَخَّرْنَا إماتَتَك وأمْهَلْنَاكَ، وجَعَلْنَاكَ بقضائنا وَقَدَرِنَا من الّذين طَوَّلْنَا أعْمَارَهُمْ، ولَكِنْ لاَ إلى يَوْمِ البعث، بل إلي يوم الْوَقْتِ المَعْلوم، الّذي تَقُومُ فيه السَّاعَةُ وتَنْتَهِي فيه ظروف الحياة الدُّنيا كُلُّها، وأُمِيتُ فيه كُلَّ ذِي حياة في السَّماوات والأرض.

ومن المتحقّق أنّ من الْمُنْظَرِينَ طائفةً من ملائكة الملأ الأعلى كجبريل وإسرافيل وميكال وقد أنظره الله ليستكمل به ظروف الامتحان الأمثل للناس.

- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾.

لـمّا اطْمَأَنَّ إبْليسُ إلى إنْظَار الله له في الحياة الدنيا حتى انتهاء ظروفها، أعَدَّ نفسه لإغواء آدَمَ وزَوْجِه وذرّياتهما، حتّىٰ آخر حياة الناسِ في الأرض، وبعد أن عزم على هذا الأمر ﴿قَالَ﴾ لربّه: لقَدْ أنظرتني وأخّرْتَ

إماتتي حتى آخرِ حياة الناس في الأرض ممتحنين ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: أي: فبِقُوَّتِكَ الْغَالِبَةِ الّتِي بها يكونُ لي حَوْلٌ وقُوَّةٌ ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

في هٰذه العِبَارة: قَسَمٌ بعِزَّة الله، واعْتِرافٌ لله بربوبيّتِه، وبأن أيَّ مَخْلُوقٍ مهما بلَغَتْ قُوَّتُهُ وحيلَتُه، فَلَا حَوْل لَهُ ولا قوة إلاّ بالله. ولكنَّ كُفْرَ إبليس كان من نوع جُحُودِ إلَٰهيَّةِ الله له، وهذا الجحود سببُهُ الاستكبار والغرور بالنَّفْس.

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾: أي: لَأُوقعنَّهُمْ بوَسَاوِسِي ووساوسِ جُنُودي وتسويلاتنا وحبائلنا في الغَوَايَة، وهي الإمعان في الضلال والْبُعْدِ عن صراطِكَ صِرَاطِ الحقّ والْهُدَىٰ.

﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيدٌ معْنَويٌّ لضمير «هُمْ» في: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ والغرض من مثل هذا التوكيد دفْعُ توهُّم إرادةِ بعْضِهم دون جميعهم.

● ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾: وفي القراءة المتواترة الأخرى [الْمُخْلِصين] بِكَسْرِ اللاّم، وبَين القراءَتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

الْمُخْلَصُون، بفَتْحِ اللاَّم، هم المصطَفَونَ المنَقَّوْنَ مِنَ الشوائب والمختارُونَ، وهم الذين عَصَمَهُمُ الله عزّ وجلّ من الْغَوَاية، لِمَا عَلِمَ في قلوبهم من خَيْرٍ يؤهّلهم لأن يكونوا مَعْصُومِين كالأنبياء.

الْمُخْلِصُونَ: بكَسْرِ اللاّم: هم الذين أخلصوا أعمالهم ونيَّاتِهم من الشوائب، فجعلوها خالصة لله عزّ وجلّ وابتغاء مرضاته.

لقد كان إبليس بعبارَته حَذِراً، فاستثنىٰ مَنْ يَصْطَفِيهم الله ويسْتَخْلِصُهم، فيحميهم من تأثير إبليس وجنوده عليهم بالإغواء، واستثنىٰ من يستطيعون بإرَادَاتِهِم القويّة أن يكونوا مُخْلِصين في أعمالهم ونيّاتِهم لرّبهم، طمعاً بالمنازل الرفيعة في جناتِ عدْنٍ يوم الدين، فَيُعِينُهُم الله عزَّ وجَلَّ فيَحْمِيهم من تأثير إبليس وجنودِه عليهم بالإغواء والإضلال، كُلٌّ على مقدار إخلاصه لربه وصدقه، وقُوَّةِ إرادته.

- ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ وفي القراءة الأُخرَىٰ: «قَالَ فَالْحَقَّ بالنَّصْبِ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: قال اللَّهُ عزّ وجَلَّ لإبليس: اتّخِذْ ما شئت من وسيلةٍ للإغواء وقد أفْصَحَتْ عَن هذا المطويّ الفاء في: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ والمعنى: فَقَسَمِي الْحَقُّ، مُبْتَدأ وخبر، وجوابُ الْقَسَمِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ إلىٰ آخِرِ الْعِبَارة.

﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾: جملَةٌ معترضة بين القسم وجوابه، والمعنى: وَلاَ أقولُ إلاَّ الْحَقَّ، هذا الحصْرُ اسْتِفِيدَ مِنْ تقديم المعمولِ علَىٰ عَامِله.

وأمّا على قراءة: [فَالْحَقَّ] بالنصب، فهي فيما أرى علىٰ تقدير: فأقْسِمُ الْقَسَمَ الحقَّ، ولاَ أقُولُ إلاَّ الحقّ لأَمْلأَنَّ جَهنَّمَ مِنْكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ منْهُمْ أجمعين.

كيف نفهم الجمع بين قَسَمِ اللَّهِ بأنْ يمْلأَ جهنَّمَ من إبليس، وممَّنْ تَبِعَهُ من الموضوعينَ موْضِعَ الامتحان في الحياة الدنيا، وبيْنَ ما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) من بيان أنّ جهنَّمَ تقول:

﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ مَهْمَا أُلْقِي فيها من أفواج المعذبين المجرمين؟.

أقول: لقد جاء في بيانِ الرّسول ﷺ أَنَّهُ لا تزال جهنّمَ تقول: هل مِنْ مَزِيد حتَّى يَضَعَ فيها رَبُّ العِزَّة قَدَمه، فتقول: قَط قَطْ وعزَّتِكَ، ويُضَمُّ بعضُها إلى بعض، وبذلك تمتَلِئ.

فتَحِلَّةُ القسَم الوارد في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) تكون بهذا منْ ربّ العزّة، جلَّ جلالُه، وعَظُمَ سُلْطَانه.

روى مسلمٌ في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا رَبُّ العزّةِ تَبَارَكَ

وتَعَالى قَدَمَهُ، فتَقُولُ: قَطِ. قَطِ وعزَّتِكَ، ويُزْوىٰ بَعْضُها إِلَىٰ بَعْضٍ».

يُزْوَىٰ: أي: يُطْوَىٰ ويُجْمَعُ.

● قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

في هذه الآيات الثلاث الّتي ختم الله عزّ وجلّ بها السّورة، استكمالٌ لعناصر الرَّدِّ على مقالات الذين كَفَرُوا الواردة في الدرسِ الأول من دروسها، والحكمةُ من تأخيرها كونُها متعلّقةً بالرّدِّ على اتّهام شخص الرسول ﷺ بأنّه ساحِرٌ كذّاب، وبأنّه يختلقُ ما يأتي به اختلاقاً، ويَزْعُمُ أنّه يُوحىٰ به إِلَيْهِ من ربّه، وبأنّ لَهُ غَرَضاً دُنيويّاً خاصّاً كالْعُلُوّ في الأرض فما يتعلّق بشخص الداعي ينبغي أن لا يهتَمَّ له، فإذا كانَ له صلةٌ ما بمضمون رسالته، وتقتضي الحكمة الرّدّ عليه، فلْيكُنْ في آخر ما يَهْتَمُ له ويُوَجّهُ له عنايته.

(١) فقولهم الذي ذكره الله في الدرس الأول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾.

أي: إنّ هذا الّذي يدعو إليه محمّد من جعل الآلهة، إلَهاً واحداً، وما يدَّعيه من النبوّة والرّسَالة، والإِنْذَارِ بعقاب الله المؤجّل إلى يوم الدِّين، مع عِقَابٍ ربّما يُعَجّلُ في الحياة الدنيا، أمْرٌ يُرادُ لمصلحته الشخصيَّة الدّنيوية، كالمال والزعامة وحبّ السلطان، يتطلّبُ رَدّاً ملائماً قاطعاً لاتهامهم له.

فعلّم الله عزّ وجلّ رسوله أنْ يقول لهم جواباً قاطعاً لاتهامهم له بالمصالح الشخصيَّة الدنيويَّة: ﴿مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ... ﴿٨٦﴾﴾.

وقد سبَق أنْ أنزل الله عزّ وجَلَّ قبلْ هذا التعليم قولَهُ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾؟!

والمعنى أَنَكَ لا تَسْأَلُهُمْ في الواقع أجراً ما، مع التعريض لَهُ ضِمْناً بأنْ يكُونَ حَذِراً من أن يسألَهُمْ أقلَّ شيءٍ يُشْعِرُ بأنَّه مِنْ مَقَاصِدِ ما يقومُ به في دعوته، حتّىٰ لا يكون ذلك ذريعةً للطَّعْنِ في دعوتِه بأنّه صاحبُ مصالح خاصّةٍ منها عنْدَ قَوْمِه.

وهُنا في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) أَمَرَ الله عزّ وجلّ رسوله بأن يُصرّح لهُمْ تَصْريحاً وِجَاهيّاً قَائِلاً لهم: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ.

وفي هذا رَدّ كافٍ على اتّهامه بأنّه ذو مصلحةٍ شخصيَّةٍ دنيوية من دعوته، وادّعائِه النبوّة والرّسالة.

(٢) وقولهم الذي ذكره الله عزّ وجلّ في الدرس الأوّل: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾: أي: هذا سَاحِرٌ في بيانِه الذي يقول بشأنه هو من عند الله، وكذّابٌ في ادّعائه أنَّهُ كلام الله، وأنه وحْيٌ أوحى الله إليه به. وقولهم عن مقالاته في التوحيد وإبطال الشرك: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾: أي: ما هٰذا إلاّ قوْلٌ كَذِبٌ يفْتَرِيه على الحقيقة، ويفتريه على الله، يستَدْعِيَان ردّاً مُحْكَماً مُسْقِطاً لهما.

فعلّم الله رسولَه أنْ يقول لهم جَواباً عليهما:

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

الْمُتَكَلِّف: هو الّذي يتَصَنَّعُ أَمْراً بالكُلفةِ علَىٰ خلاف فطرته وعادته الدائمة. والسَّاحِرُ من أكثر النّاسِ تكلُّفاً وتَصَنُّعاً وتزويراً، والكذَّابُ الذي يختلق المفتريات ولا سيما المفترياتُ على الله، هو كذلك من أكثر الناس تكلُّفاً وتصنُّعاً وتزويراً.

وقد عاش رسولُ الله ﷺ في قومه أكثر من أرْبعين سنة، لم يَعْرِفُوا منْهُ فيها إلاّ الصِّدْق والأمانة والصّرَاحَةَ في أموره كلّها، ولم يَعْرِفوا منه تصنُّعاً ما، ولا تكلّفاً ما، ولا أمراً يُشْتَبَهُ به منه في أموره كلّها.

أفيكون كذلك طَوَال عُمره قبلَ النُبوّة في قَوْمه، غَيْرَ متكلّف ولا مُتَصَنِّع في أمْرٍ ما من أمُوره، ويَبْقَىٰ على صفاء فطرته لا يكذبُ ولا يَتَعاطَىٰ لوناً من ألوان السِّحْر، ولا يفتري على أحَدٍ فِرْيَةً ما يَصْطَنِعُها اصطناعاً، ويتكلَّفُهَا تَكلُّفاً، حتَّىٰ إذا أوحَىٰ اللَّهُ إليه بعْدَ هذِهِ الْبَراءَة التامّة، والصَّفَاءِ الكامِلِ، في خُلُقِه وعاداته، يقولُ قَومُه عَنْهُ، وهم الخبيرونَ به: ساحِرٌ كذَّابٌ يفتري على الله.

إنّ من عاشَ عُمْراً بلَغَ فيه أربعين سنة، لا يتصَنَّع في أَمْرٍ ما من أموره وَلاَ يتكلّف، ولا يَفْتَري ولا يكذب، لا يستطيع أن يخالف طبْعَهُ وعاداته، فيتصَنَّعُ ويفتري ويكْذِب، ولا تُطَاوعه فِطْرَتُهُ على ذلك، وهذا مشاهَدٌ في كلّ الناس.

فإذَا ذكَّرَهُم الرسُول ﷺ بأنّه ليْسَ هو من المتكلّفين المتصنّعِين، كما يَعْلَمُونَ ذلِكَ من خُلُقِه وعادَتِهِ وطَبْعِهِ، كانَ ذلِكَ حُجَّةً عليهم، ودفعاً بغاية الرفْقِ لاتّهامهم الشَّنيعِ له بأنّه ساحِرٌ كذَّابٌ مُخْتَلِقٌ علىٰ الله.

أمّا القرآنُ الّذِي زَعَمُوا أنَّه نوعٌ من أنواع السِّحر، وأنَّه مُخْتَلَقٌ مُفْتَرَىٰ على الله، وهو المتضمِّن لدَعْوَةِ الرَّسول، فقد علَّمَ الله عزّ وجلّ رسُوله أنْ يقول لهم بشأنه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: إذا رفَضْتم آيات إعجاز القرآن البياني، الدّلاّت علَىٰ أنّهُ كلامُ الله، وتنيزلٌ من لدُنْه، مُدَّعين أنّ إعجازه البيانيَّ نوعٌ من أنواع السّحر، فإنّ أمامَكُمْ فيه المضامين الفكريَّة المعجزة، والّتي يجب على كلّ ذي فِكْرٍ من العالَمِين أجْمَعين أنْ يَعْلَمَها، ويتفَهَّمَها، ويَتَدَبَّر معانيها، ثم يجعلها في ذاكِرَتِه، ليتّبعَ هَدْيَها في مَسِيرَةِ حياته، ولتكونَ له سراجاً هادياً يَهْدِي إلى صراط السعادة والمجْدِ العظيم.

فإذا فحصْتُمْ مضامينَ هذا البيان القرانيّ العظيم تتبُّعاً لجُزْئياته الفكريَّة، لم تجدُوهُ إلاَّ ذِكْراً لِلْعَالَمِينَ أَجْمَعِينَ، لا لَكُمْ فقط، ولا للعرب فقط، بل للعالَمين كلّ العالَمِين.

وهذا برهان عَلىٰ أنّه تنزيلٌ من عِنْد الله ربّ العالمين، إذْ لا يوجَدُ كتابٌ في الدنيا من عِنْدِ غير الله، يصْلُح لأَنْ يكون كُلُّ ما فيه ذِكْراً لكُلّ العالَمِين.

فما أعْجَبَ عُمْقَ هذا الاستدلال على أنّ القرآن كلام الله عزّ وجلّ، وأنَّهُ ليْسَ منْ صُنْع محمّد، فلَيْس هو سِحْراً، وليس شيءٌ فيه اختلافاً ولا كذِباً.

والمعنى: ما هو في حقيقة عناصِرِه الفكريَّةِ، غير تعليم حقٍّ يجب أن يجعله مُفكّرُو العالَمِين أجمعين ذِكْراً لهم، يهْتَدُونَ بِهَدْيه دواماً.

أمّا مضامين القرآن الخبرّيةِ، وما يشتمل عليه من أنباء، ما مضَىٰ مِنها، وما هو قائم في كوْن الله منها، لكنّ النّاس لم يعلموه بَعْدُ، لِعَدَمِ تَوَصُّلِ وسائلهم العلميّة إلى كَشْفِه لمعرفته، وما سيأتي منها أو سَوْف يأتي، فقد علّم الله عزّ وجلّ رسوله أن يقولَ لقومه بشأنها، وهو قول مُوجَّهٌ لكلّ الناس، مهما توالت العصور وتعاقبت الدُّهور:

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: ولتَعْلَمُنَّ بَعْدَ حينٍ من الدَّهْر مُطَابقَةَ كلّ ما جاء فيه من أنباء للواقع والحقيقة.

فالماضي تكشِفُهُ دلائل الآثار، والواقع الخفيُّ القائم في الكَوْن تَكْشِفُه وسائلَ البحث العِلْمِيّ الإنسانيّ تباعاً، مع تقَدُّم العلوم، وارتقاء الوسائل وتقدُّمِها، والمستقبل منه سيَحْدُثُ أو سوف يحدُث كما جاءَ في الأنباء القرآنية.

وفي هذا تَنْبِيهٌ على بُرْهانٍ دَامِغٍ يُثْبِتُ في كلّ عَصْرٍ أنّ القرآنَ كلامُ الله، وتنزِيلٌ من لَدُنْه.

﴿نَبَأَهُ﴾: أي: خَبَرَهُ: النَّبأُ: الخبر الذي تتوجّه الأنظار إليه لبروزه وظهوره وهو اسم جنس يصْدُقُ على القليل والكثير، وبإضافته إلى ضمير القرآن صار يَعُمُّ كلّ أنبائه.

وقد تمّ بعون الله وتوفيقه وفَتْحِه تدبُّر سورة (صٓ) والحمد لله على ما تفضل به وأنْعم.

* * *

ملاحق لسورة (صٓ)

الملحق الأول: نموذج من التدرج الارتقائي في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل.

الملحق الثاني: مستخرجات بلاغيّة من السّورة.

الملحق الثالث: تدبّر بقية ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه السلام.

الملحق الرابع: قصة خَلْق آدم في القرآن المجيد وما رافق خلقه من أحداث.

(٩)

الملحق الأول

نموذج من التدرج الارتقائي في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل

جاء إعلام أئمة الشِّرك والكفر في مكة بإهلاك كُفَّارِ الْقُرونِ السابقة، تَلْوِيحاً بالْإِنْذَارِ، ثم تَذْكِيراً بِهِ، في نُجُوم التنزيل حتى نزول سورة (ص) ستّ مرّات.

ويُلاحِظُ المتدبِّر أنّه قد جاء التعبير عنه في هٰذه النصوص السّتة متدرجاً تدرُّجاً ارتقائيّاً في أسْلُوب البيان المختار، وفيما يلي استعراض لما جاء في هذه النصوص السّتة.

(١) جاء هذا البيانُ أوّلاً بأسْلُوب الْعَرْض الاسْتِفهاميّ خطاباً موجَّهاً لشَخْصٍ غَيْرِ مُعَيّن، فهو يشمل كلّ مُتَلَقٍ على سبيل الخطاب الإفراديّ.

وهو ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾./

(٢) ثمّ جاء هذا البيان بأسلوب العرض الخبريّ بشأن إهلاك أصحاب الأخدود، وجاء هذا العرض الخبريُّ متّسماً بالعنف والشدّة.

وهو ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

(٣) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الاستفهام الموجّه للمكذّبين الّذين كذّبوا الرسُول وكذّبُوا بيَوْم الدّين على وجْهِ العموم.

وهو ما جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

(٤) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عن كُفَّارِ مَكَّةَ صراحةً، مع التلويح بالإنذار بإهلاكهم إذا وصلت أحوالهم إلى مثل الأحوال الّتي وصَلَ إليها المهْلَكُونَ السَّابقون.

وهو ما جاء في سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وقول الله عزّ وجل فيها أيضاً:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

(٥) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عنهم مع التلويم والتثريب، إذْ لم يَتَّعِظُوا ولَمْ يَزْدَجِرُوا، على الرغم من أَنَّهُم قد جاءهم من الأَنْبَاءِ ما فيه مُزْدجر.

وهو ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (الْقَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

وبعد هذا جاء عَرْضٌ فيه بعضُ تفصيل لِقِصَصِ بعض المهلكين الأوّلين.

(٦) ثم جاء هذا البيان في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) مشابهاً لما جاء في سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) ولكنْ جاء في سورة

(ص) زيادةُ تأكيدٍ في اللّفظِ، وإضافةِ فكرةِ أنّ المهلَكين السّابقين نادَوْا حينَ أنْزَلَ الله عزّ وجلّ بهم وسائل إهلاكهم، فلم يستجب أَحَدٌ لندائهم، ولم يكن لهم مناصٌ من تَلَقّي عذابِ الله العادل.

فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

فجاء في سورة (ص): ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ بإظهار حرف «من» أمّا في سورة (ق) فجاءت العبارة. [**قَبْلَهُمْ**].

وتكامل النَّصّان الذي في (ق) والذي في (ص) في تصوير عدم استطاعة المهلَكين التَّخَلُّصَ من تلَقّي عذاب الله، ففي سورة (قٓ) جاءت العبارة: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ وفي سورة (ص) جاءت العبارة: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

ويستفيد الباحثون في علم الترتبية، من هذا المنهج التدرُّجيّ الارتقائيّ الربّانيّ، الذي جاء في هذا الملحقِ بيَانُه، لأنْوَاع العلاجِ التربوي.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه

* * *

(١٠)

الملحق الثاني
مستخرجات بلاغية من السّورة

في هذه السورة اختيارات بلاغيّة كثيرة، وأُنَبِّه في هذا الملْحَق على طائفةٍ منها. ويَجِدُ القارئ خلال تدبُّر السّورة بيانَ بلاَغِيَّاتٍ أخرى لم أذكرها هنا.

(١) الْقَسَمُ بما يتَضَمَّن دليلاً على صِدْقِ وصحَّة المقْسَمِ علَيْه في

قول الله عزّ وجل: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ فالقسم بالقرآن ذي الصفات الّتي تؤهِّله لأن يكون هو الذِّكرَ الأعظم للعالمين، دليل على أنّ المقسَم عليه حقٌّ، وهو كون محمّد الذي بَلغهُ عن ربّه صادقاً في ادّعائه النبوّةَ والرّسالة. وهذا المقْسَمُ عليه محْذُوفٌ في اللفظ إيجازاً، ومقدّرٌ في المعنىٰ تقديراً تدُلُّ عليه القرائن، ويُدْرِكُهُ المتدبر دون كُلْفة.

(٢) الإيجاز بالحذف، وهو كثير في هذه السورة.

- فمنه ما هو في: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾: أي: وانْطَلَقَ الملأ منهم وهُمْ يتحدَّثُونَ فيما بَيْنهم أنِ امْشُوا. . . .

- ومنه ما هُوَ في: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ . . . ۝٨﴾: أي: إنّهُم لا يشكُّون في بُعْدِ محمّد عن الكذب، بل هم يشُكُّون في مضمون ما جاءهم به، وهو ذكري الّذي أنزلتُه لهدايتهم، لأنه يخالفُ أهواءهم.

- ومنه ما هو في: ﴿. . .وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۝٢٤﴾ بشأْن داود عليه السلام، أي: وخَرَّ راكعاً وأنابَ سَاجِداً.

وغيرها مما جاء بيانه في تدبُّر السورة.

(٣) تأكيد الإسناد في عدد من الجمل الخبريّة مراعاة لمقتضى الحال، بمؤكدات منها «إنّ ـ الجملة الإسمية ـ اللاّم المزحلقة ـ من الزائدة لتأكيد الاستغراق أو التنصيص عليه ـ اللاّم الموطئة للقَسَم».

وأترك لذي الخبرة البلاغيّة استخراجها.

(٤) الحصر والقصر:

- في: ﴿. . . إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧﴾: أي: ما هذا الذي جاء به محمّد ويدَّعي أنّه من عند الله إلاّ اختلاق من عنده.

وهذا من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى صفتي الصّدْقِ والاختلاق.

- وفي: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ بشأن طائفة من الّذِين أُهْلِكُوا من كُفّارِ القرون السّابقة.

وهذا أيضاً من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى دعوات رُسُل ربّهم.

- وفي: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً . . . ﴿١٥﴾﴾ أي: تهلكُهم.

وهذا أيضاً من قبيل الْقَصْرِ الإضافي. . . أي: لا يُنْتَظَرُ منهم أن يستجيبوا لدعوة الرسول، فكأنهم لا يترَقَّبُون إلاّ صَيْحَةً مهلكة لهم بالإضافة إلى قضيَّةِ تكذيبهم للرسول، وقد يكون إهلاكهم بغير الصيحة، وقد يُمْهلُون.

- وفي: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ . . . ﴿٦٥﴾﴾: أي: لم يبق من دعوتي بالإضافة إليكم إلاّ الإنْذَار، فأنا بالنسبة إليكم منذرٌ فقط.

ونظيره: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

فهما من قبيل القصر الإضافي.

وفي: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾:

أي وَما مِنْ إلَٰهٍ لَهُ صفةُ الإلَٰهيَّة الحقيقية، إذْ هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما، إلاّ الله الواحد القهّار.

وهذا مِنْ قبيل القصْر الحقيقيّ، لأنّ صفة الإلهيَّة الحقيقيَّة مقصورَةٌ عليه جلّ جلالُه وعظم سلطانه، وهو من قصر صفة على موصوف.

(٥) الإلماح الذي لا يُدْرِكُ الْقَصْدَ منه إلاّ الرسُول ﷺ، وربّما بعض فُطَنَاء أصحابه، في قول الله عزّ وجلّ:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾:

ففي هٰذه الآية إلْماحٌ للرَّسُول بأنَّه سيواجِهُ في المستقبل عُتَاةَ مُشركي مكة في معارك قتاليَّة، وسينصُره الله عليهم، ولَمْ يتَنَبَّهْ إلى هذا الإلماح أذْكياءُ المشركين، إذا الغرضُ إخفاؤه عنهم، حتّى لا يتداركُوا الأَمْر بخُطَط حربيَّةٍ يواجِهُون بها الرسُول وأصحابَهُ، وهم ما زالوا تحت أيديهم في مكّة، وقد جاء تغليف هذا الإلْماح بذِكْرِ طَائفةٍ من أحزاب الّذين أُهْلِكُوا في القرون الأولى، قوم نوح وعاد وفرعون وغيرهم، وغُلِّفَ أيضاً بعبارة: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾ لأنَّ هٰذِهِ الصيْحَةَ لاَ تكونُ إلاّ رَبّانيَّة.

(٦) الاستفهام الذي يرادُ به إثارة الانْتِبَاه لتلقّي الْخَبَرِ في:

﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾؟.

(٧) اقتطاع النَّصّ من وقت توجيهه في الماضي أو في المستقبل، وتقديمه بصورته، دون ذِكرِ ما يدُلُّ على أنّه حكايةُ أمْرِ جرى، أو سيجري، أو سوف يجري.

وهذا من الإبداعات البلاغيّة في القرآن الّتي لم تكن معروفةً عند البلغاء، وقد ظهر لها نظيرٌ في الفنون التمثيليّة المعاصِرَة لنا.

ونجد هذا الأسلوب البيانيّ في أمكنة متعدّدة من هٰذِه السورة:

- فمنه خطابُ الله عزّ وجلّ لسليمانَ عليه السلام في قوله تعالى:

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾.

- ومِنْهُ خطاب الله عزّ وجلّ لأيُّوب عليه السلام في قوله تعالى:

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾.

وفي قوله تعالى:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ . . .﴾.

وكلّ هذه النصوص مستَقْطَعَةٌ ممَّا جَرَى في زمانٍ مضى.

● ومنه ما سوف يكون من خطابٍ سوف يوجَّهُ لأهل جهنَّم، وَمَا يجيبُ به أَئِمَّةُ الكافِرينَ:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.

(٨) حكاية الحدَثِ الذي سوْفَ يكونُ في المستقبل بأسْلُوب حكاية أمْرٍ مضىٰ للإشعار بأنَّهُ سَوْف يَحْدُثُ كذلِكَ في المستقبل حتماً.

ومنه حكاية قول أتباع أئمة الكُفْرِ وهم يُساقون ليكونوا معهم في دار العذاب: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ وثلاث آيات بعْدَها في السورة.

* * *

(١١)

الملحق الثالث

تدبُّر بقية ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه السلام بنظرة تكامليّة

جاء في القرآن المجيد بشأن داود عليه السّلام تسعة نُصُوصٍ في تِسْعِ سُورٍ، هي السُّور التالية (صٓ ـ النمل ـ الإسراء ـ الأنعام ـ سَبأ ـ الأنبياء ـ البقرة ـ النّساء ـ المائدة).

وأُحَاول دِرَاسَةَ جميع النّصوص الواردة في هذه السّورِ، وتدبُّرها ضمن منهج التفسير الموضوعي، في هذا الملحق إنْ شاء الله.

النصّ الأول:

هو النص الذي جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وهو

الآيات من (١٧ ـ ٢٦) وقد سبَق تدبُّره خلال تدبّر هذه السّورة، فلا حاجة إلى إعادة تدبّره.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾.

فأضاف هٰذَا النَّصُّ إلَىٰ ما سبَقَ إنزالُهُ في سورة (ص) أربعَ قَضَايا:

القضيَّةُ الأولى: أنّ الله عزّ وجلّ لقد آتىٰ داوُدَ وكذلِك ولده سليمان عليهما السلام عِلْماً.

ويظهر أنَّ هذا الْعِلْمَ شيءٌ آخَرُ غيْرُ «الحكمة وفَصْلِ الخطاب» الّذيْنِ آتاهما الله تبارَكَ وتعالى داوُدَ عليه السّلام، والّذيْن جاء بيانهما في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

والتنكير في لفظ ﴿عِلْمًا ۖ﴾ قَد يُشعْرُ بمعنَىٰ الخصوصية في النوع، أي: نوعاً من العلم اختَصَّهما الله به.

القضية الثانية: أنّ داوُدَ وكذلِكَ وَلَدُهُ عليهما السَّلام، قَدْ حَمِدا الله قائلين:

﴿... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ونستطيع أن نفهم أنّهما قيَّدا ما فضَّلَهما الله به بكثير من عباد الله المؤمنين، لأمور:

(١) منها أنّ المؤمِنينَ مفضَّلُونَ علَىٰ كلّ غير المؤمنين بالفضائل الإيمانيَّة، فهما مُفَضّلان بها لزوماً على جميع الناس غير المؤمنين.

(٢) ومنها أنّ ما فُضِّلاَ به من أُمُور الدُّنيا قَدْ يكون لَدىٰ غَيْر المؤمنين أو بَعْضِ المؤمنين أشْيَاءُ قَدْ أعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنْها أكْثَرَ ممَّا أعْطىٰ داوُدَ وسُلَيْمان عليهما السّلام، كالمال والسُّلْطانِ الواسع في الأرض، ونحو ذلك، ومن هؤلاء بعضُ الفراعنة والأكاسرة والقياصرة، وذُو القرنين.

فهما يحترسان بهذا الْقَيْدِ عن الوقوع في الخطأ ومخالفة الواقع، وكذلك ينبغي أنْ يكون حالُ من رأىٰ لِنَفْسِه فضلاً، أن لاَ يظُنَّ تَفَرُّدَه به، وأن لا يَدَّعِيَ ذلِكَ، وأَنْ يقول مَا يَعْلَمُ مِنَ الحقّ.

القضيّة الثالثة: أنّ الوارِثَ الذي وَرِثَ داوُدَ من بَعْدِه في الْمُلْكِ وفي سَائِرِ الخصائص هو ولَدُهُ سلَيْمَانُ عليهما السلام.

القضيّة الرابعة: نَلْمَحُ أَنَّ النَّصَّ يُشِيرُ إلىٰ أنَّ الحمْدَ الذي حَمِدَهُ داوُد وولَدُه سليمان عليما السّلام، قد كان في أواخرِ حياة داود وأوائلِ اكتمالِ سليمان، عند ما صارَ مُهيّأً لأن يَرِثَ الملْكَ عن أبيه.

فقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥﴾ يُشْعِرُ بأنَّهُ كان دُعاءً مُشتَرَكاً، وظاهِرٌ أنّ سليمان لاَ يشُارِكُ أباه في هذا الدُّعاء إلاَّ وهو ذُو نُضْجٍ.

قال المؤرخون: ومَلَكَ سليمانُ عليه السَّلامُ وهو يافع، على اختلاف الرّوايات في عُمْره حينَ صَارَ ملكاً ما بين (١٢) سنة و (٢٢) سنة.

وقد جاء عقب هذا النصّ مِنْ سورة (النمل) قول الله عزّ وجل:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦ . . .﴾ فهذا الإتباعُ في البيان يُشْعِرُ بعدم وُجُودِ فاصلٍ زمَنِيٍّ طويلٍ بين الدُّعاء وَوِرَاثَة سُلَيْمانَ المُلْكَ من أَبيه.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

الفضل: هو في اللُّغةِ الزّيادة ممّا يُحْمَدُ غالباً، **والتَّفْضِيلُ**: هو الإعطاء الزائد على النُّظراء أو شبْهِهِم ممّا يُحْمَدُ، مِنْ مادِّيّاتٍ أَوْ مَعْنَوِيَّات.

فقد يكون التفضيل بإيتاء زيادةٍ من ٱلعِلْم، أو بإيتاء زيادة من الفهم والحكمة، أو زيادةٍ من القوّة والسُّلطان، أو زيادةٍ من الخُلق الرفيع والفضائل النفسيّة، أو زيادةٍ في الرزْقِ وفيوض النّعم.

لكِنَّ تفضيل بعْضِ النبيّين على بعضٍ لا بُدَّ أن يكون بزياداتٍ من خصائص النبوّة وفضائلها، كتخصيص موسى عليه السّلام بتكليم الله عزّ وجلّ له، وكتخصيص بعْضِ الرُّسل بإنْزَال كُتُبٍ عليهم ذَواتِ شأن عظيم، وكإلْهَام بعض النبيّين وتوفيقهم إلى أقوالٍ وحكَم نفيسة يقولونها، فَتُدَوَّنُ فتكونُ كُتُباً مأثورةً عنهم، كمزاميرِ داود، وأمثال سليمان عليهما السلام.

أمّا قول الله عزّ وجل في هذا النّصّ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ بعْدَ بيان تفضيلِ بعض النبيّين علَىٰ بَعْضٍ، فَهُو يَدُلُّ علىٰ أنّ هٰذا الزّبور ممّا فضّل الله به داوُدَ على بعض النبيين.

الزَّبُور: هو في اللُّغة الكِتَابُ المزْبُور، أي: المكتوب باتقان، يقال لُغةً: زَبَر الكِتَابَ إذَا كتَبه، أوْ إذا أتقن كتابته، وجمع «زبور» يأتي على «زُبُرِ» أي: «كتب».

وقد جاء لفظ زبور في النصّ هنا منكراً: ﴿زَبُورًا﴾ ولم يأتِ معرَّفاً بأداة التعريف، كما عبَّر الله عزَّ وجلّ بشَأن التّوراة والإنجيل والقرآن، للإشعار بأنّ كتاب داوُد لم يرْقَ إلى المنزلة الرفيعة العظيمة الّتي بلَغتْها هذه

الكتُبُ الثلاثة، مع وجود التفاضل بين هذه الكتب الثلاثة الرّبّانية، إذ القرآنُ أجلُّها وأعظمها منزلة، وأكْثَرُها جمعاً لما فيه هِدَايَةُ الناس وسعادتُهم في الدنيا والآخرة.

فأضاف هذا النصّ على ما نزل قبله بشأن داود عليه السلام بيان أن الله عزّ وجلّ قد آتاه زبوراً، أي: كتاباً فيه إتقان.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بعد بيان أنّ داود من ذُرّيَة إبراهيم الذين هداهم الله وآتاهم النبوة والرسالة، وأنّهُ معهم من المحسنين، أهل مرتبة الإحسان:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ ... ﴿٨٩﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ بشأن داود عليه السّلام ما يلي:

(١) أنّ داود من ذُرّيَة إبراهيم عليهما السلام.

(٢) أنّه من الّذين آتاهم الله الكِتَابَ والْحُكْمَ والنُّبُوة.

الحُكْمُ: أي: القدرة على فَهْمِ القضايا، ومنها قضايا المتخاصمين، وإصدار الحكم الحقّ بها، أو المُمْكِن الأقرب للحقّ والعدل. **والحكْمُ**: فقه الأمور، والقضاء بالْعَدْل، وحُسْنُ الإدارة.

(٣) أنّه من المرسلين، لِذكْرِه ضِمْن الرُسُل من ذُرِّيَّةِ إبراهيم عليهم السلام.

(٤) أنّه من المحسنين، أي من الّذين ارْتَقَوْا إلى مرتبة «الإحسان» ودونها مَرْتبة «البرّ» ودونَهُمَا مرتبة «التقوى».

النّصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

جاء في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أنّ اللّٰهَ عزّ وجلَّ سَخَّرَ الجبالَ مع داود يُسَبِّحنَ بالْعَشِيّ والإشراق، وسَخَّرَ الطَّيْرَ محشورةً كلٌّ له أوّاب.

أمّا النصّ الذي من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) ففيه بيان أنَّ الله عزّ وجلّ لقد آتىٰ دَاوُد منه فضْلاً، أي: عطاءً زائداً خصَّهُ به، وفكرةُ الفضل هذهِ لم يَسْبِق لها ذكْرٌ فيما نزل قبل سورة (سبأ) بالنسبة إلى داود عليه السلام، واستدعَىٰ ذكْرُها بيان بعض مفردات هذا الفضل، فأبان الله عزّ وجلّ أنَّ تسبيح الجبال، وحَشْرَ الطير وتسبيحَها مَعَهُ من هذا الفضل الذي منحه الله إياه، وأضاف مع ذلك قضيّتَيْنِ:

القضية الأولى: أنّ الله عزّ وجلَّ أمَرَ الجبال بأن تُسَبّح معه، وبيانُ هذه القضيّة بيانٌ لبَعْضِ عناصر العقيدة الإيمانيّة، إذْ كلُّ ظاهرَةٍ جَبْرِيَّة، في الوجود إنّما توجَدُ بأمْرِ التكوين الرَّبَّاني.

القضية الثانية: أنّ تسبيح الجبال معه قد كان صدا تَسْبيح داود وترنيماته.

دلَّ على هاتين القَضيّتَيْن قول الله في هذا النصّ: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾: **أَوّبي**: أي: رَجِّعِي: يقالُ لُغَةً: أوّبَ إذا رَجَّعَ الصَّوْت. وهذا الأَمْرُ للجبال هو من قبيل الأمْرِ التكويني الجبريّ.

وجُمْلَةُ ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ بدلُ بعضٍ من قوله تعالى: ﴿فَضْلًا ۖ﴾ فهي في محلّ نصْب، والغرض بيان بعض مفردات هذا الفضل الذي آتاه الله إياه.

والمعنى: ولَقَدْ آتينا داوُد منّا فضلاً تَرْجيعَ الجبال بأمْرِنا صدا صوتِه الشجيّ النديّ في تسابيحه، قَائِلين: يا جبالُ أَوِّبي معه.

وأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ، تَرْجيعَ الطيْرِ معه التسبيح، فقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ فهو معطوفٌ على الْبَدَلِ السّابق، فالاقتصار على ذكر الطَّيْر معطوفةً بالنَّصْبِ على مَحلِّ جُمْلَةِ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ يَدُلُّنا على أنّ الأمْرين متماثلان، أي: آتيناه فَضْلَ تَرْجيع الجبال معه بِأَمْرِنا إذْ آتيناهُ صَوْتاً عالياً نديّاً، وفَضْلَ تَرْجيع الطَّيرِ التي تُحْشَرُ لَهُ، إذْ آتَيْناهُ صَوتاً حَسَناً تَطْرَبُ منه بعْضُ أصناف الطيور، فتُرجّعُ معه بعض ترنيماته.

إذا دقَّقْنَا في هٰذه المعاني وجدناها مضافة إلى ما سبَقَ بيانه في مراحل التنزيل عن داود عليه السلام، ووجدناها غير مكرّرة، فالموضوع واحد، لكنّ عناصر معانيه مجَزّأةٌ موزّعة متكاملة فيما بينها.

وأضاف هذا النصّ بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد ألان لداود الحديد، وأمَرَه أنْ يجعَلَ من الحَدِيد دُروعاً سابغات، فقال تعالى فيه)

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ . . . ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾: أي: وجَعَلْنَا الْحَدِيدَ لَيّناً في يَدَيْهِ، قالوا: فكان كالعجين أو كالشّمْع في يَدَيْه وقت عَمَلِهِ به، ثُمّ يَعُودُ الحديدُ إلى صلابته.

وبيان هذه القضية من القضايا المضافة إلى ما سبَق بيانه في مراحل التنزيل.

ونتساءل: هل المرادُ بِإلاَنَةِ الحديد له تغيير خصائص الحديدِ الصُّلْبة له حال عَمَله فيه، أمْ إعْطَاؤه القوّة الجسَدِيَّة العظيمة الّتِي يلين بها الحديد، أمْ إعطاؤهُ طَاقَةً إشعاعيَّةً تَنْطَلِقُ من جسَدِه لَهَا خُصُوصِيَّةُ إلاَنَةِ الحديد؟؟.

أقول: لا نَمْلِكُ دليلاً يُحَدِّدُ واحداً منها ولعلّ آخِرَهَا مع قوّته الجسَدِيَّةِ المعرُوفة هي المرادة، فهي الأقرب لما نَعْرِفُ من تجاربِ العلوم، وخصائص الطّاقاتِ الإشعاعيَّة، والله أعلم.

وإذْ ألاَنَ اللَّهُ عزّ وجلَّ لداود عليه السّلَامُ الحديدَ، أَمَرَه بأن يستخدم ذلك في صناعة الدّروع الواقية من ضرَبَات السُّيوف والرّماح والنبال وغيرِها في الحرب.

ونلاحظ في أمر الله عزّ وجلّ داود بصناعة الدّروع أنَّه جلّ جلالُه آثر التوجيه للوقاية من شرور القتال، إذْ لم يأمُرْ بصناعة السُّيوف والرّماح والنبال ونحوها، والسَّبَبُ في هذا على ما يظهر أنّ النّاس يَتَفنَّنُون في صناعة أدوات القتال برغبة التسلّط، والْعُلُوّ في الأرض، والله عزّ وجل جعَلَ الدَّار الآخرة المملوءَةَ بأنواع السّعادات للّذين لا يُريدون علُوّاً في الأرض ولا فساداً.

وأمْرُ الله الذين آمَنوا بأنْ يُعِدُّوا ما يَسْتَطِيعُونَ من قوة، إنّما هو للحِمَايَةِ والإِرْهَاب المعنوي، لا ليكُونَ وسيلةً للعلُوّ في الأرض، ولمُمَارَسَةِ الْفَسادِ والإفساد.

والدُّرُوعُ الّتي علَّم اللَّهُ دَاودَ عليه السّلامُ ابتكارَهاَ هي دُرُوع الزَّرَدِ التي تُلْبَسُ كالثّياب، وقَدْ كانت الدروع قبْلَه صفائح من حديد.

- ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي: أن أعْمَلْ يا داود دُروعاً سابغات، استغني بالصفة عن الموصوف، وشاعت كلمة «سابغات» للدلالة على الدروع.

سَابِغات: أي: تامّات كامِلَات ساترات لِمَقَاتِل الْمُقَاتل.

السُّبُوغ في اللّغة: التمام والكمال، يقال: شيءٌ سابغٌ، أي: كاملٌ وافٍ. سَبَغَ يسْبُغُ سُبُوعاً، أي: طال إلى الأرض واتّسع. وأَسْبَغَهُ يُسْبِغُهُ، أي: جعلَهُ طويلاً واسعاً.

وإِسْبَاغُ الوضوء، إتمامُهُ وإكمالُه وإعطاؤه حقَّهُ، مع زيادة تحقُّقُ فِعْلَ المطلوب.

- ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: أي: وأحْكِمْ مَقَادِير حَلَقِ الدُّروع، ومقاديرَ الثقوب عند مواطن اتّصالها ببعضها، ومقاديرَ مسامير الرَّبط بيْنَها، حتَّىٰ تُؤَدِّي الغرض منها أداءً حسناً، وأحْكِمْ تفصيلَها على مقادير أجساد لاَبِسِيهَا، حتّىٰ تكون وافية الوقاية، تامّة الصنعة

السَّرْد: إتباع الشيء بشيءٍ نظيره، حتّىٰ يكون الكلُّ مؤلّفاً من وحدات متّسِقَاتٍ متَتَابِعَاتٍ متماثلات.

ويطلق لفظ «السَّرْدِ» على الدّروع، وعلى سائر الحلق، ويُطْلَقُ علَىٰ الثَّقْب. يقال لغة: سَرَدَ الشيءَ وسَرَّدَهُ وأَسْرَده، أي: ثقبه.

والسِّرَادُ والمِسْرَدُ: المِثْقَبُ. **والمَسْرُودَةُ**: الدّرْع المثقوبة ويقال لصانع ذلك: سَرَّاد، وزرّاد، بإبدال السين زاياً.

و «أنْ» في: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تفسيريّة، والمفسَّرُ مطوي يكشفُه التدبّر، والتقدير: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ مُوصين إيّاهُ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ فأبان له الغاية من إلانَة الحديد له.

- ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ⑪﴾:

كان الكلامُ مُوَجّهاً لداود، وجاء في هذه العبارة قول الله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ موجّهاً لجماعَةٍ، ويُفْهم من هذا أنَّ الأعْمَال الصّناعيَّة تحتاجُ إلى رئيسٍ مُعَلّم مُحْكِم للصنْعَةِ ومُشْرِفٍ عليها، وتحتاج إلى مُعَاوِنين يُسَاعِدُونه في العمل ويتدَرَّبُون عنْدَهُ وبإشرافه، لتوفير الإنتاج الأكثر.

وفي هذه العبارة توجيهٌ للّذين يَعْمَلُونَ معه للتعاون فيما بينهم تعاوناً تَكَامُلِيّاً وتوجيهٌ لإتقان العمل، فالعمل الصالح في الصناعات هو العمل المتقن.

وفي هٰذا التوجيه إشارةٌ إلَىٰ أنَّهُ ينْبَغي لمَنْ يَبْتَكِرُ أَوْ يُلْهَمُ أو يُعَلَّمُ

صَنْعَةً من الصناعات النافعات، أن يَجْعَل تَحْتَ يَدَيه من يَتَعَلَّمُها، لتكُون ميراثاً حضارياً بشرياً، تتقدَّمُ به وترتقي الحضَارَةُ الإنسانيَّةُ ووسائلها.

أمّا من يحتكر سِرَّ صناعَتِه لنَفْسِه، فلا يجعل تحت يَدَيْه وإشرافه من يتعلّمها، فإنَّ صنَاعتَهُ الراقية ومهَارتَهُ تموتُ بمَوْتِه، ثُمَّ يَحتَاجُ المجتمع البشريّ أن تمرّ أزمانٌ طويلة حتّىٰ يظهر في النّاس نظيرُهُ، فيتعلّم الناس منه، إذا أذِنَ لَهُمْ بأنْ يَقْتَبِسُوا منه ما وهَبَهُ الله.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾: هذه العبارة تَدُلُّ لزوماً على وعْدِ الله للذين يَعْمَلُون صالحاً بالثواب على العمل الصالح، وبالعِقاب على العمل السّيّئ، لأنَّ من صفات الله جلّ جلاله، أنّه يتفضَّل على عباده بالثواب إذا أحْسَنُوا وأنّه يجازي بالعدل المسيئين من عباده، إذا لَمْ تَقْتَضِ حكْمَتُهُ الْعَفْوَ عنهم.

واقتبس الناس من داود عليه السّلام صناعة دُرُوع الزّرد، وانتشرَت من بعده.

وتدلُّنا نُصُوصٌ قرآنيَّةٌ متعدّدة على أنّ أصُول كثير من الصناعات البشريّة قد كانت على أيدي بعض أنبياء الله ورُسله، بأمْرٍ من الله وتَعْلِيم، واقتبَسَها الناس عنهم فيما بعد، ثمّ طَوَّرُوا فيها وأضافوا، ضمن سلّم الارتقاء الحضاريّ التراكُميّ.

- فصناعةُ السُّفُنِ البحريَّة قد بدأتْ بتَعْليم من اللّهِ عزّ وجلّ لنوح عليه السلام، وهذا فتح عظيم في مهنة النّجارة، فقد كان نوحُ نجّاراً.

- ويوسفُ عليه السّلامُ قد كان المعَلِّمَ الأوّل لوزارات التموين في دُول شعوب الأرض.

- ووَرد أنّ إدْريس عليه السّلام أوّلُ من خطَّ بالقلم، وأوّلُ منْ خاط ونسَجَ.

وهكذا ظهر لنا أن عناصر هذا النصّ من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) عناصِرُ مضافة كلُّها إلى ما سبَقَ إنزالُه بشأن داود عليه السلام.

فمن حكمة الله في تعدُّدِ النصوصِ تجزِئَةُ الأفكار، وتقديمُ كلِّ فكرة منها في المناسبة الداعية إلى ذكرها، مع تكاملها فيما بينها.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ (٨٠)﴾.

يشتمل هذا النصّ على ثلاث قضايا:

القضية الأُولى: حُكْمُ داوُد عليه السَّلامُ في حادِثة تَعَدٍّ مِن غنم بعض القوم على حرث آخرين فأفسَدَتْه كلَّه، فَعلِمَ ابنُه سليمان عليه السلام بحُكمِ أبيه، فرأىٰ رأياً آخر، فأقرّهُ أبوه عليه، ورجَع عن حكمه.

القضية الثانية: بيان تسخير الله عزّ وجلّ الجبالَ والطَّيْرَ مع داوُد عليه السلام، بقضاءٍ سابقٍ، وتنفيذٍ لاحقٍ.

القضيّة الثالثة: امتنانُ الله على الناسِ بتَعْليمه داود صِنَاعَةَ الدّروع الواقيات في الحرب، من السيوف والرّماح والسّهام ونحوها، وهذا العلْم قدْ أخَذَهُ النّاسُ عنه، فانتفَعُوا به، فوجب عليهم أن يشْكُروا الله عليه.

● أمَّا القضيّة الأولى، فقصَّتُها جمعاً ممَّا روى الطبريُّ بأسانيده عن ابن مسعودٍ وابْن عباس، في روايات متعدّدات، أَنَّ أصْحابَ غَنَمٍ تركُوا غَنَمَهُمْ ليلاً دُون حِراسَةٍ ولا رعاية، فدخلت هذه الغنم في أرضٍ محروثةٍ

مبذُورة قد نَبَتَ زَرْعُها، فأكلَتْ ما أكلَتْ من الزرع وأفْسَدَتْ سائره.

فتَرافَعَ الخصْمَانِ بقضيَّتِهما إلى داود عليه السّلام، وتحقَّق من وقوع الحادثة، ويظهرُ أنَّهُ رأىٰ أنّ قيمة الغنم تُساوِي قيمة ما أكَلَتْ وأفْسَدَتْ من الزّرْع، فحَكَمَ بِدَفْعِ الْغَنَم كلّها لأصحاب الزّرع تعويضاً لهم، بسبَبِ أنّ أصحاب الغنم تركوا غنَمَهُم ليلاً دون حماية ولا رعاية، حتّىٰ اعتَدَتْ على زَرْع أصحاب الحرث، فأكلَتْ وأفْسَدَت.

وعَلِمَ سُلَيْمانُ عليه السّلام بحُكْم أَبِيه وكان فتىً يافعاً مُلْهماً ذا فَهْمٍ وَحِكْمة، فقال لأبيه: أرىٰ أن يكون القضاء غَيْر الّذي قَضَيْتَ، فقال داوُد: كيف؟.

قال سليمان: إنّ الحرث لا يخفىٰ على صاحبه ما يخرج منه في كلّ عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها، حتى يستَوْفي ثمن الحرث، فإنّ الغنم لها نَسْلٌ في كلّ عام.

وجاء في روايةٍ أخرى أنّ سليمان قال: تُدْفَعُ الغنم لأهل الزّرع، يستثمرون ألبانها وأصوافها وأولادها، وتدْفع الأرض لأهل الغنم يبذرون لِأَهْلِ الحرث مثْلَ حَرْثهم، فإذا بلَغَ الحرث الّذي كان عليه أخذ أصحاب الحرث حرثهم، وردّوا الغنم إلى أصحابها.

فقال داود لابنه سليمان: قد أصبتَ، القضاءُ كما قضيْت، فألغى داود قضاءه الأوّل، وحكم بما قضى به ابنُهُ سليمان، ولم يجد في نفسه غضاضةً أنْ يَرْجِعَ إلى ما هو الأقرب إلى كمال العدل، على الرغم من حداثة سنّ ولده سليمان.

- ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ . . .﴾:

أي: ونذكرُ قصّةَ داود وسليمان إذْ يَحْكُمَان في قضيّة الحرث..

الحرث: هو العمل في الأرض لاستنبات زرعها، أو غرس شجرها، ويُطْلَقُ أيضاً على الزّرْع النابت نَفْسِه كما ذكر الزّجاج.

قال الأزهري: الحرْثُ قذفُكَ الحبَّ في الأرْضِ لازْدراعٍ، والحرْثُ الزّرْع.

- ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ . . .﴾:

أي: يحكمان في الحرث وقْتَ أن نفشَتْ فيه غنَمُ الْقَوْمِ (ال) في ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ للدلالة على الجنس فقط.

﴿نَفَشَتْ﴾: أي: رعَتْ ليلاً دون راع. يقال لغة: نَفَشَتِ الإبل أو الغنم أو نحوهما تَنْفُشُ وتَنْفِشُ نَفْشاً ونُفُوشاً، أي انتشرت ليْلاً فرعَتْ بغير راعٍ. والواحد منها «نافش».

ويقال: أنْفَشَ الراعي ماشيَته، أي: أرسلَها ترعىٰ باللّيل ونام عنها.

فإذا فعلت الماشية مثل ذلك نهاراً، قال العرب، هَمَلَتْ، ولا يقولُون: نَفَشَت. يقال لغة: هَمَلتِ الماشية تَهْمُلُ وَتَهمِلُ هَمْلاً، إذا سَرَحَتْ بنفسها نهاراً دون راع. الواحد منها «هَامِل». ويقال: أهْمَلَها صاحبُها إذا تركها تَسْرَحُ بنفسها دون أن يرعاها.

- ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾:

في هذه الجملة بيان لإحْدَىٰ مفردات قضيَّةٍ كُلّيَّةٍ عامَّةٍ، من القضايا الّتي تتعلّقُ بصفات الله عزّ وجلّ، وهي شُهُودُ اللّهِ عزّ وجَلَّ لِكُلِّ شيءٍ، ولكل حَدَث يَحْدُث في الوجود كلّه.

الشاهد: الحاضِرُ العالم بالمشهود.

وهذه القضيّةُ الكليّة العامّة قد جاء بيانُها في عدّة نُصُوصٍ قرآنية، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾.

وشهودُ الله هو حضورُه مُحِيطاً بعِلْمه ومراقبته على أكْمَلِ وجْهٍ وأتَمِّهِ.

- ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾: أي: فَفَهَّمْنَا القضيَّة والْحُكْمَ الأقْرَبَ لكمال العدل فيها سُلَيْمان، وهذا التَّفْهيمُ من الله لسليمان قَدْ كان على سبيل الإلْهامِ الرّبّانيّ، بمعونَةٍ غَيْرِ مُدْرَكَةٍ بالحسّ، لكِنْ يظْهرَ أثَرُهَا بحصُول الْفَهْم، والإلْهامُ شيءٌ خفيٌّ غير الوحي.

فقدَّم سليمانُ رأيَهُ في ذلك لأبيه داود عليهما السلام، فقبله، وقضى به.

- ﴿... وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ...﴾ أي: وكُلاً من داوُد وسليمان آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً.

الْحُكْمُ: فقه الأمور، والقضاء بالْعَدْل، وحُسْنُ الإدارة.

أمّا الْعِلْم، فَهُو سُلَّم لا نهاية له من المعرفة، قابِلٌ لأن يتنامَىٰ دوَاماً.

وجاء التنكير في كَلِمَتَيْ: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ للإشعار بأنّ الله قد آتاهما مقداراً ما من الْحُكْم والْعِلْم، كانا فيهما متفوّقَيْن على نظرائهما، أمّا كمال الْحُكْم والْعِلْم فهو لله عزّ وجلّ وحْدَه، ومعلومٌ أنّ البشر كلَّهُمْ لم يُؤْتَوْا من الْعِلْم إلاّ قليلاً، وكمالُ الْحُكْمُ لا بدّ أن يعتَمد على شمولِ الْعِلْمْ.

وأمَّا القضيّة الثانية فقد جاء بيانها في قول الله تعالى:

- ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾:

التَّسْخِير: التَّذْلِيلُ لعَمَلٍ ما، أَوْ أَمْرٍ ما، وجَعْلُ الشيء، مطاوعاً لما يُرادُ منه، ضِمْن قانون التسخير الرَّبَّانيّ له.

وهذه الْمُطَاوَعَةُ تكونُ على وجوه:

(١) فإمَّا أنْ تكونَ بالطَّبْع والفِطْرَةِ ضِمْنَ قانون التكوين الجبريّ، كالرّياح، والمياه، والنار، والأرْضِ، وكلّ ما فيها، فهي مُسَخَّراتٌ للإنسان ضمن قوانين تسخيرها، وفق مقتضىٰ طبعها الجبريّ وما جبِلَتْ عليه.

وكالشمس والقمر في السَّمَاء، وكالسّحَاب بين السّماء والأرض، فهي مُسَخَّرَاتٌ لمنافع الناس في الأرض ضمْنَ أنظمتها وقوانِينِها الجبرية، وفق مقتضىٰ طَبْعها وما جُبلَتْ عليه.

ومن هذا تسْخيرُ الجبالِ والطير لداود عليه السلام.

(٢) وَإِمَّا أن تكون المطاوعة بالْقُوَّةِ والإلزام والْقَهر، مع التذلِيل بالشُّعُور بالضعف، كَتَسْخِير الْعَجْمَاوَاتِ من البهائم بالتذليل والمطَاوعة الإلزامية للإنسان.

(٣) وإمَّا أن تكون المطاوَعَةُ بالاختيار الحرّ، لمَا في المطاوعَةِ من مصلحةٍ أَوْ فائدَةٍ للمطَاوعِ، كاتّخاذ النّاس بعضهم لبَعْضٍ سُخْرِيّاً.

فالناسُ بعضُهُمْ لبَعْضٍ مُسَخَّرُونَ بالاختيار الحرّ، وكلُّ إنْسانٍ مُسْتَعِدٌّ لأنْ يُسَخِّرَ نفسه لغيره فيما له به مصلحة، أو فائدة عاجلَةٌ في الدنيا، أو آجلَةٌ إلى يوم الدين، أو بدافع حبُّ الخير، والقيام بفضيلة المعونة، والسّعادة بلَذَّةِ ممارَسة الفضيلة.

وفكرة تسخير الجبال والطَّيْرِ يُسَبِّحْنَ مع داود عليه السلام، يظهر في بادي الرأي أنّها مُكرَّرَة، إذْ سبَقَ فيما نزل من قرآن قبل سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٢ نزول) بيانها، فقد جاءت مبيَّنَةً في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/

٣٨ نزول). لكنّ قول الله عزّ وجل في سورة (الأنبياء): ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قد دلّنا على أنَّ ما جاء فيها قد جاء مقترناً بفكرةٍ جديدة مضافة، وهي أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ وأرَدْنا وقَدَّرْنَا وقَضَيْنَا، وهذهِ أمُورٌ سابقةٌ لتنفيذ الفعل، فجاء قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ دالاً على أنّ ما كان قد قضاه الله قدْ تحقق تنفِيذُه بالأمْر التكويني، فتَمَ تَحقُّقُ هذا التسخير في الواقع.

وفي هذا بيانُ أنّ ما يجري من أحداثٍ في الكون مسْبُوقٌ بقَدَرٍ وقضاء، ثمّ يكون تنفيذُه وفِعْلُه بعْدَ ذلك بالأمر التكويني.

وأمّا القضية الثالثة فقد جاء بيانها في قول الله تعالى:

- ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟.

اللَّبُوس: اسْمٌ يقع على كلّ ما يُلْبَسُ سَاتِراً لكلّ الجسم أو بعضه، وجمعُهُ «لُبُس».

ويُطْلَقُ اللَّبُوسُ على الدِّرْع وهو المرادُ هنا.

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾: أي: لِتَقِيَكُمْ من بأسِكُمْ، ولتَحْمِي أجْسَادكُمْ من ضربات سُيوف ورماح وسِهَام بعضكم لبعض في الحرب، وابتغاء سلامَتِكُمْ.

البأسُ: الحرْبُ، والشدّة فيه.

وقد يَبْدُو أنّ فكرةَ أمْرِ الله عزّ وجلّ لداود بصناعة دروع الزّرَد، فكرة مُكَرَّرَة قد سَبَقَ بيانُها في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول): لكنّنا إذا دَقَّقْنا وأمْعَنَّا النظر في دلالاتِ النصّ هنا في سورة (الأنبياء) وجَدْنا أفكاراً مضافةً ذاتَ شأن.

الفكرة الأولى: أنّ صُنْعَ داود عليه السّلام للدُّروع قد كان بتَعْلِيم من الله له.

الفكرة الثانية: أنّ الله عزّ وجلّ يمتَنُّ على عباده بتعليمهم عن طريق رسُولٍ من رُسُله، وسيلةً من وسائل إحصانهم من شرور حَرْب بعضهم لبعض، ولم يذكر الله أنّه علّم عبَادَه عن طريق الوحي صناعةَ أدوات القتال.

الفكرة الثالثة: دعوة الله عباده أن يشكُرُوه على نعْمةِ هدايتهم إلى وسائل سلامتهم، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾؟.

استفهامٌ يراد به الترغيب في الشكر والحثُّ عليه.

وهكذا ظهر لنا أن النصّ مع إعَادَة أصْل الموضوع فيه قد اقْتَرَنَ بأفكار مُضَافَةٍ إلىٰ مَا سبَقَ تنزيله.

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) ضِمْن عَرْضِ قِصَّة حَرْبِ بني إسرائيل بقيادة «طالوت» للوثنيّين في الأرض المقدَّسَة بقيادة «جالوت».

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾.

جاء في هذا النصّ لقطةٌ من قِصَّةٍ من قصص بني إسرائيل، تتعَلّقُ بطَلَب بني إسرائيل من نبيٍّ لهم، جاء في كتُبِهم أنّه «صَمُويل» أن يحكُمَهُمْ مَلِكٌ، ليقاتلوا بقيادته لاسْترجاع ما كان تَحْت أيديهم، وأرادوا أنْ يتخلّصُوا

من سِياسة أَنْبيَائهم لهم، فسألَ «صَمُويل» رَبَّهُ من أَجْلِهم أنْ يختار لَهُم مَلِكاً، فاسْتَجَاب الله دُعاءه، فاختار لهم «طالُوت» من سِبْط «بنْيَامِين» أَقَلِّ أَسْباط بني إسرائيل عدَداً ومَالاً ومكانةً اجتماعيّة بينهم، فدَعَاهُم «طَالُوت» لقتال «جَالُوت» وجُنُودِه، وامْتَحَنَهُمْ، واصْطَفَىٰ منْهم قِلّةً صادقةً مؤمِنةً، ودخل في جنوده فتىً شابٌّ من بني إسرائيل من سِبْط «يَهُوذا» اسْمُه «دَاوُد» فقضى الله أن يكون مقْتَلُ «جَالُوت» الجبار بيد «داود» بحَجرٍ رَمَاهُ علَيْه من مقْلاَعِهِ، بعد أن أعلن «طالوت» أنّ جائزةَ من يقْتُلُ «جالوت» أن يُزَوّجَهُ ابنَتَهُ، وأن يكون هو مَلِكَ بني إسرائيل من بَعْدِه.

وحاول «طالُوت» بعْدَ ذلك أن يتخلَّصَ من «دَاوُد» ليَجْعَل ميراث المُلْكِ في أولاده، لكِنَّ قضاء الله وتصاريف تدبيره عزّ وجلّ لم تُسَاعِدْ «طالوت» على تحقيق مراده.

وأتَمَّ الله بألطافه ما قضى، فكان «داود» بعْد أحداثٍ متعدّدة ذكرها الإسرائيليون في كُتُبِهم هو المَلِك على بني إسرائيل. بعْدَ موت «طالُوت».

وقد جمع الله عزّ وجلّ لداود الْمُلْكَ والنبوّة والرّسالة، فكان نَبيّاً ورسُولاً ومَلِكاً على بني إسرائيل، وقد عَرَفْنا أنّ هوىٰ بني إسرائيل أنْ تَسُوسَهُمْ مُلُوكٌ لا أنبياء، لأنّهم مع الملوك يتحرَّرُون من قيود الدّين بحَسَب أهوائهم، وتُسَايِرهُم ملوكُهُمْ على ذلك، أمّا مع الأنبياء، فإنَّ أنبياءَهُمْ يَقِفُون عنْد حُدُود الله، ولا يُسَايِرُونَهُمْ على فِسْقِهم وشرِّهم وإفْسادهم في الأرض.

وقد أضَافَ هذا النصّ الذي جاء في سورة (البقرة) بشأن داود عليه السّلام إلى ما سبَق أن نزل بشأنه في نجوم التنزيل عدّة بيانات:

البيان الأول: أنّ داود عليه السلام قتل «جالوت» في حرب بني إسرائيل للوثنيين، بقيادة «طالوت»، وهذا بيان مُضاف لم يسْبِقْ ذِكْرُه فيما نزل قبل هذا النصّ بشأن داود.

البيان الثاني: أنّ الله عزّ وجلّ قد آتاهُ الْمُلْكَ، وهذا بيان مضاف لم يَسْبِقْ ذكره فيما نزل قبل هذا النصّ بشأن داود.

وفيه دلالة على أنَّ وُصُوله إلى الملك قد كان عطاءً من الله عزّ وجلّ محاطاً بعِنَايةٍ منه.

أمّا الذي جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) فقد تضمَّن بيان تقويةِ مُلْكِه في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

وأمّا قوله تعالى في سورة (ص) أيضاً: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو يَدُلُّ على معنىً غير الْمُلْكِ، لأنَّ اسْتِخْلاَفَهُ هٰذا قَدْ كان وَهُو مَلِكٌ قَائِمٌ، فَهوُ عَطاءٌ زائِدٌ فيه معانٍ مُضَافةٍ إلى الْمُلْك، من مظاهرها أنْ يَحْكُمَ بَيْنَ الناس بالْعَدْل، وأَنْ لا يَتَّبعَ الْهَوَىٰ.

البيان الثالث: أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ آتاه الْحِكْمَةَ، ويَبْدُو أنَّ هٰذا الْعَطَاءَ قد سبَق بيانه في سورة (ص) فَيَسْبِقُ إلى الذّهْن أنّه بيانٌ مُكرَّر، لكنْ لنا أن نقول انسجاماً مع أُسْلوب القرآن: إنْ الحِكْمَةَ من الفضائل القابلة للزيادة، والقابلة للتنوّع بِحَسَب المجالات والموضوعات، فتكريرُ بيانِ إيتائه الحكمةَ يدُلُّ علىٰ أنّ الواقع قد جرىٰ فيه نظير ذلك، على سبيل الزيادات والإضافات في النِّسْبَة، وفي المجالات والموضوعات المختلفات.

وبهذا الفهم يظْهَرُ لنا أنّه لا تكرير.

فعنْدَ بَدْءِ الملْكِ آتاه الله عزّ وجلّ قَدْراً أو نوعاً من الحكمة، وبعد أن تَوَطّدَ مُلْكهُ وعَظُمَ سلطانه، آتاه الله نوعاً آخر وقدراً مُضافاً جديداً من الحكمة.

البيان الرابع: أنّ الله عزّ وجلّ علّمَهُ ممّا يشاء، وقد سبَق في سورة (النمل) وفي سورة (الأنبياء) أنّ الله آتاه علماً.

وأقول هنا نظير الذي سبق بيَانُه بشأن الحكمة، فالعلم ذو نسَبٍ متفاضلة، تتنامىٰ قَدْراً، وذو مجالات مُتَنَوّعاتٍ كثيرات.

فتكرير بيانِ إيتائه العلم يدُلُّ على زيادات العطاء منه في المجالات. والأنواع، والمقادِير. وهذا يَدُلُّ على أنّ داود عليه السلام قد كان يزداد معرفة وعِلْماً معَ مَراحِل عُمْره، ولم تتوقف لديْهِ المعرفة عند المقدار الذي آتاه الله إيَّاهُ في أَوَّل نشأته، أو في أوّل مُلْكِه.

وبهذا نفهم أنه لا تكرار في النصوص الواردة بشأنه.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) لرَسُوله محمد ﷺ:

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ عن داود عليه السلام أنه نبيٌّ ورسولٌ بصريح العبارة، وبِجَمْعِه مع عدد من الأنبياء والمرسلين.

وأضافَ بَيَان أنّ الله قد أوحى إليه، كما أوحى إلى نوح وإبراهيم ومن ذكر بعدهما فيه.

وأضاف التصريح بأنّ الله عزّ وجل قد آتاه زُبوراً، أي: كتاباً عن

طريق الوحي إليه، فهو كتاب تلقّاه بالوحي عن ربّه، وليس مجرّد عطاء كما أعطاه الله الملْكَ.

أمّا النصّ الذي جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فليس فيه التصريح بأنّ الله آتاه زبوراً بالوحي، فاقتضى البيان مجيءَ نصٍّ فيه هذا التصريح.

النص التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨﴾.

فأضاف هذا النصّ عن داود عليه السلام بيان أنَّ الّذين كفَرُوا من بني إسرائيل قد لُعِنُوا على لِسَانِه، ولُعِنُوا أيضاً على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام.

أي: جاء فيما أوْحَىٰ الله به إلَيْهِما هذا اللَّعْن، وكانا هُما مُبَلِّغَيْن بألْسِنَتِهما، ولو كان اللّعْنُ صادراً عنهما دون وحْيٍ لكان المناسب أن يكون النصّ كما يلي: لَعَنَ داود وعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ الذين كفروا.

وبهذا تَمَّ استكمال ما جاء في القرآن كلّه بشأن داود عليه السلام بتدَبُّر كشَفَ التكامل بين النصوص، وأنّه لا تكرار في عناصرها وبياناتها، إلاّ ما يستدعيه الدخول إلى الموضوع، أو الرَّبْطُ بين سلاسل الأفكار.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه

* * *

(١٢)

الملحق الرابع

قصّةُ خلق آدم في القرآن المجيد وَمَا رَافقَ خلْقَهُ مِنْ أحداث

جاء في القرآن المجيد ستة نُصُوصٍ مطوّلة حول قصّة خَلْق آدم عليه السلام، وما رافق خلقه من أحداث، منها عَرْضُ الله عزّ وجلّ قضاءه بخلقه على ملائكة الملأ الأعلى، وكَانَ معهم إبليسُ الّذي هو من الجنّ لا من جنْس الملائكة مُنْدسّاً فيهم نفاقاً بتمكين الله له، ومُتَسَلّلاً سَمَاءً فَسَمَاءً بما كان يتظاهَرُ به من عبادات مع أصناف الملائكة. ومنها سُؤالُ ملائكة الملأ الأعلىٰ ربّهم عن الحِكْمَةِ من خلْق هذا المخلوق الجديد، ثم أَمْرُ الله للملائكة بالسّجود لآدم، وإباءُ إبليس وإصرارُه على رَفْضِ السجود، ومحاكمتُه وطردُه ولَعْنُه، وطَلَبُ إبليس من ربّه أن يُمْهله حيّاً فلا يُميته إلى يوم البعث، فأنْظَرَهُ الله إلى يوم إنهاء ظروف الحياة الدنيا، لا إلى يوم البعث، فأخذَ إبْليسُ الْعَهْدَ الموثّقَ على نفسه بالْقَسَم، أنْ يَغْوِي آدم وزوجه وأَنسالهما إلاّ قليلاً منهم، فمكَّنَهُ الله من الإغواء، دون أن يكون له سُلْطانٌ يُلْغِي به إراداتهم الحرّة، وأوعده هو ومن اتَّبعَه بأن يكونوا بكُفْرِهم خالدين في عَذَاب الجحيم يوم الدّين بعْدَ البعث.

والتدبُّر المتأنّي بنظرة كُلّيَّةٍ جامعةٍ، يَكْشفُ أنّ هذه النصوص السّتة المطولة، مع سائر النصوص القصيرة الموزعة في سور القرآن المَجِيدِ، هي متكاملةٌ فيما بينها دون تكرير باستثناء ما يقتضيه الرَّبط أو التمهيد، أو بَيَانُ أنَّ الواقع كان مُكَرّراً وتوجَدُ مطْوِيّاتٌ إيجازاً، ويقتضيها النَّصُّ بالْلزُوم الْعَقْلي، ويَكْشِفُها التأمُّل التدبُّريّ.

وفي هذا الملْحَق أعْرِضُ ما انْتَهىٰ إليه بتوفيق الله وفتحه تَدَبُّري لهذه النُّصوص، تدبُّراً تكامُلِيّاً مُتَأنّياً، نَاظراً إلى ما في هذه النصوص من فروق في الألفاظ ولو كانت طفيفة، وناظراً إلى ما يقتضيه التَسَلْسُل المنطقِيُّ

للأحداث، وإلى ما يلزم عن الفكرة المنصوص عليها من أفكار أُخرى مَطْوِيَّةٍ إيجازاً.

وما انتَهيتُ إليه هو بمثابة خطوة في طريق التدبُّر التكامُليّ لكتاب الله عزّ وجلّ، وهو طريق طويل. والنصوص الستة الموضوعة لهذه الدراسة هي:

(١) الآيات من (٧١ ـ ٨٥) من سرة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

(٢) الآيات من (١١ ـ ٢٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

(٣) الآيات من (١١٦ ـ ١٢٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

(٤) الآيات من (٦١ ـ ٦٥) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).

(٥) الآيات من (٢٦ ـ ٤٤) من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

(٦) الآيات من (٣٠ ـ ٣٩) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

وقد تُجْمَعُ مَعَها نصوصٌ قصيرة مكمِّلة موزعة في سُورٍ من القرآن المجيد.

وأنْقُلُ هذه النصوص من المصحف أوّلاً ثم أشرع بتدوين ما انتهىٰ إليه تدبُّري، بالمقدار الذي فتح الله به عليّ، ويسَّرَهُ لي، وأتْرُكُ لمن يأتي على الطريق نفسه من بَعْدِي، ما يفتح الله به عليه من إضافات أو تعديلات أو تصويبات، فسنَّةُ الله في العلم الإنسانيّ أنْ تكُونَ حركاتٍ تراكميّةً وتعديليّةً أو تصحيحيّة.

النص الأول

الآيات من (٧١ ـ ٨٥) من سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول)

قال الله عزّ وجل فيها:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ
فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ
﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ
وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

النّص الثاني

الآيات من (١١ ـ ٢٥) من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا
مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ
وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

النّصّ الثالث

الآيات من (١١٦ ـ ١٢٦) من سورة (طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

النّصّ الرابع

الآيات من (٦١ ـ ٦٥) من سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول)

قال اللّهُ عزَّ وجل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ

وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)﴾.

النص الخامس

الآيات من (٢٦ ـ ٤٤) من سورة (الحجر/١٥ مصحف/٥٤ نزول)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣١) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾.

النصّ السادس

الآيات من (٣٠ ـ ٣٩) من سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى

بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ
قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
(٣٤) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ
وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ
ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٩)﴾.

وتُوجَدُ مُتَفرّقاتٌ من نُصوصٍ قصيرة، قد أَسْتَشْهِدُ بِبَعْضٍ مِنْها أَثْناءَ تَدَبُّر هذه النصوص المطوَّلةِ إكْمالاً للدّراسة، ولكن دون استيعاب، واللَّهُ وليّ التوفيق والتَّسْديد.

* * *

(أ)

إعلام الله الملائكة بقضائه أن يخلُقَ السُّلالَةَ البشرية

أوّلاً:

جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن هذا الإعلام قولُ الله عزّ وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾.

أي: إني سَأَجْعَلُ ممَّا أَخْلُقُ نَوْعاً من مَخْلُوقاتي يخْلُفُ بعضهم بَعْضاً، فيكونُ النَّسْلُ اللاَّحِقُ خلَفاً لمَنْ سبقَهُ في الوجود وانتهت مدّة حياته.

خَلِيفَة: على وزْنِ «فَعِيلَة» بمعنى اسم الفاعل «خالف» وبمعنى اسم المفعول «مَخْلُوف» فهذا النّوع خالفٌ ومخْلُوف، فالْمَخْلُوفُ تنقَضِي حَيَاته في الأرْض بالموت، والخالِفُ يحُلُّ محَلَّ المخلُوفِ في المِلْكِ والانْتِفَاع.

وهذا النوعُ ينْطَبِقُ عليه نظامُ التناسُل المشهود في كلّ المخْلُوقاتِ الحيَّةِ الموجودة في الأرْضِ قبل خَلْقِ الإنسان.

ودَلَّ على أنّ المرادَ بالملائكةِ ملائكةُ الملأ الأعلىٰ كجبريل وميكائيل وإسرافيل ونَحْوِهم، وَكان إبليسُ الجنّيُّ الخلْقِ والنشأةِ مُنْدَسًّا فيهم بنفاقه بتمكين الله لَه، قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) يُعَلّم رسُوله محمّداً ﷺ أن يَقولَ لجاحِدي نُبُوَّته ورسالته:

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وجاء بعد هذا النصّ عَرْض لقطَاتٍ من قصّةِ خلْق آدم، وفيها عرْضُ لقْطَة من هذا الاختصام، وهي لقطَةُ اسْتِكْبَار إبْليسَ عن طاعة أمْر الله بالسُّجُودِ لآدم، وعنادِه، ومخاصَمتِه ربَّهُ، طاعناً في حكمته بأمْرِ ملائكةِ الملأ الأعلى ومن كان معهم ملْتحقًا ومُندسًّا فيهم أنْ يَسْجُدوا لآدم.

ويُوجَدُ بين قول الله للملائكة في النص: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وَبين قوله تعالى فيه: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ...﴾ كلامٌ مَطْويٌ يُمْكنُ أنْ نُعبّرَ عَنْه بما يلي:

فَسَأَل الملائكةُ رَبّهم: مَا صِفَةُ هذا المخلوق الّذي قضَيْتَ رَبَّنا أن تخلُقَهُ ومَا خصَائصهُ؟ فأبانَ الله جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه لهم صِفَاتِه، ومنْها

أنَّه يكونُ ذا إرادةٍ حُرَّة وقَدْراتٍ لاكتساب المعارف والعلوم، وذا صِفاتٍ نفسيَّةٍ فيها أهواءٌ ورغباتٌ وشهوات ونوازعُ لتحقيق الأهواء والشهوات، ولو بارتكاب المعاصي والآثام وفعل الشرّ، وهذه الصفاتُ يَنْتُجُ عنْها الإفساد في الأرْض وسفْكُ الدِّماء ظُلْماً وعدواناً.

قال الملائكة: أَتَجْعَلُ في الأرض مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاء، ونَحْنُ في كُلِّ مَوْقِعٍ لَكَ عَابدون، نُسَبِّح بحَمْدِك، أي: تنزهُكَ تنزيهاً مُلْتَبساً وَمقْتَرِناً بِحَمْدِك، وَنُقَدِّسُ لَكَ، أي: نُطَهِّرُ أنْفُسَنا من كلِّ رِجْسٍ لَكَ ابتغاءَ مَرْضَاتك، ونُعظِّمُكَ ونُكَبِّرُك، والمعنىٰ: فَلِمَ قضيْتَ بأنْ تخْلُقَ هذا المخلوق الذي هذه صِفاته؟.

قال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَيدْخُلُ في عموم مَا لاَ يعْلَمونَ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ والأرض، فَكَيْفَ بما يعلَمُونَ وَمِنْهُ مَا يُبْدُونَ وَمَا يكْتُمونَ في نفوسِهم من أقوالٍ لا يقولونها أدَباً مع رَبّهم، أوْ خَواطِرُ لا يُعَبّرون عنها كذلك، وهذه لا تدخُل فيما هم معصومونَ عنْهُ، فَعِصْمَتُهم هي في حدود: لا يَعْصُونَ الله ما أمَرَهم ويفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون.

روى الطبريُّ عن «موسى بن هارون» قال: حدَّثنا عَمْرو بن حمّاد، قال: حدّثنا أسْباط عن السّدّي، في خَبرٍ ذكَرَهُ عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابْن عبّاس. وعَنْ مُرَّةَ عن ابْن مَسْعُودٍ، وعن نَاسٍ من أصْحَاب النبيّ ﷺ، أنَّ الله جلّ ثناؤه قَال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالُوا: رَبَّنا، وَمَا يكُونُ ذَلِكَ الْخَلِيفَة؟ قالَ: يكُونُ لَهُ ذُرِّيَّةٌ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ، ويَتَحاسَدُونَ، ويقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً» هـ.

أي: وعندئذٍ قال الملائكة لربّهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟. فقال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثانياً:

وتَنْفِيذاً لخُطَّة خلْق الله عزّ وجلّ لآدم، جَمَعَ الله جلّ جَلالُه، وعظُمَ

سلطانُه، لتكوينِ جَسَدِ آدم مِقْداراً ما من مختلف عناصر المادّة الّتي تتكوّنُ مِنْها الأَرض، وأضاف إليه ماءً وخَلَطَهُما حتّىٰ صار المجموعُ طيناً.

روى أحمد وأبُو داود والتِّرمذيُّ عن أبي موسى أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَميعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الأَرْضِ، مِنْهُمُ الأَحْمَرُ، والأَبْيَضُ والأَسْوَدُ وبَيْنَ ذَلِكَ، والسَّهْلُ والْحَزْنُ، والْخَبِيثُ والطَّيِّبُ» إسناده صحيح.

الْحَزْن: هو من الأَرْض ما غَلُظَ، وَكانَ المشْيُ فيه صَعْباً.

وكوْن جسد الإنسان مخْلُوقاً من طينٍ قضيَّةٌ ظاهِرَةٌ، فَمُرَكَّبُ جسْم الإنسان ماءٌ وحفنة من عناصر ذرّاتِ الأرْض، وهذا ما أَثْبَتَتْه التحليلاتُ الكيمائيَّةُ لدَىٰ عُلَمَاء الكيمياء، وهُوَ الأمْرُ المشاهد في بناء الأجساد الحيَّةِ من عناصر الأرض عن طريق النباتات، وفي عَوْدَةِ الأجساد بفنائها إلى عناصر الأرض إذْ تكونُ تُراباً، ويتَبخَّرُ الماءُ فيَعُودُ مختلطاً بالمياه الأخرى، سُحُباً وبحَاراً وأنهاراً.

وفي هذا الطَّوْر الّذِي كانت فيها مادَّةُ جسَدِ آدمَ طِيناً، قال الله عزّ وجلّ للملائكة: إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ، دلَّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: أي: سَأَخْلُقُ بشراً من عناصر تراب الأرض ممزوجةً بماء.

البشر: هو في اللّغة الخلْقُ، ويُطْلَقُ على الإنسان (الواحد والمثنّىٰ والجمع والمذكّر والمؤنث سواء) وقد يثنّىٰ، وقد يُجْمع على أبشار.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أي: فإذا أتْمَمْتُ تَقْوِيمَهُ وتَعْدِيلَ خلْقِه، حتَّىٰ صار سَوِيًا مُكْتَمِلاً للْغَايةِ المخلُوقِ لها، وهي الصورة البشريَّة الكاملة.

يقال لغة: سَوَّىٰ الشيءَ إذَا قَوَّمهُ، وعَدَلَ بَيْن أجزائه، فجَعَلَهُ سَوِيًا. ويُقَالُ للغلَام إذا تَمَّ شَبَابُه قد اسْتَوىٰ.

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: الوقوعُ والسُّقوطُ والْخُرور يراد بها سرعة الهبوط والنزول حتى يكونوا ساجدين. وهذا السجود طاعَةٌ لأمر الله وتكْرِيمٌ وتَوْقِير لآدمَ، وتَكْفِيرٌ عمّا كانوا كتموه من أنهم أفضل من هذا المخلوقِ الجديد، فَمَا الدَّاعِي إلى خلقه؟.

وقد سبق تدبُّر هذا النّص خلال تدبّر دروس سورة (ص).

فأبان هذا النّصّ أنَّ الله عزّ وجلّ، قد زَادَ الملائكةَ في هذا الإعلام اللَّاحق، بَيَانَ أنّ المخلُوقَ الجديد الّذي قَضَىٰ بأنْ يخْلُقَه هو:

(١) بَشَرٌ مِنْ طين، أي: من ترابٍ وماء مختَلِطَيْن.

(٢) وأنَّهُ يَجِبُ عليهم أن يَقَعُوا له سَاجِدِين، متَّىٰ تمّتْ تَسْوِيتُه له، ونفَخَ فيه منْ جِنْسِ الرُّوح الذي خلَقَهُ، وجعَلَهُ بحكْمَتِه السِّرَّ الْخَفِيَّ الّذِي تَكُونُ به المخلُوقات كائنات حيَّة.

رُوحُ الله: هو خَلْقٌ من خَلْقِه، يكُونُ وُجوده بأمْرِ التكوين المباشر، دون وساطة أسْبَاب من مخلوق سابق له. فإذا نُفِخَتْ ذرَّةٌ منه في شيءٍ صار حيًّا وفق التكوين الذي خُلِقَ له، وإضافة روح إلى ياء المتكلم الواحد الأحد هي على معنى المِلْك، إذ كل ما خَلَقَ هُو مِلكه(١).

ثالثاً:

ومَرّتْ مُدَّةٌ علَىٰ طِينَةِ هذا المخلوق الجديد، تحوّلَتْ خلالها بخَلْقِ الله، فصَارَتْ حَمأً مَسْنُوناً، ثُمّ جَفَّتْ فصارت صَلْصالاً.

---

(١) وهو نظير قول الله تعالى: **﴿إنّ أرضي واسعة﴾** و **﴿وأدْخلي جنتي﴾** و **﴿وأن هذا صِرَاطي﴾** إلى غيرها من نظائر.

الحَمَأُ: الطِّين الأَسْوَدُ المنْتِنُ.

المَسْنُون: المصْقُولُ المُمَلَّس.

الصَّلْصال: الطِّينُ اليابِسُ الّذي إذَا نُقِرَ بِشَيْءٍ أعْطَىٰ صَوْتاً فيه ترجيعٌ.

وفي هذا الطور الذي صارت فيه طينَةُ هذا المخلوق الجديد صَلْصَالاً من حَمأ مسنون، قال الله عزّ وجلّ للملائكة ما جاء بيانه في سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الجانّ: هو أبو الجنّ، وإبليس من ذُرِّيَّته، بدليل قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) خطاباً لبني آدم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾: أي: فعصَىٰ خارجاً ومُبْتَعِداً عن طاعَةِ أمْرِ رَبِّه بالسُّجود لآدم مع الملائكة المأمورين بأن يسجدوا له.

نار السَّموم: هي النّار الّتي تُحْدِثُها الرّيحُ الحارَّة.

فأبان هذا النّصّ الذي جاء في سورة (الحجر) أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أكَّدَ للملائكة في هذا الإعلام اللاّحق، حين صارَتْ طينَة المخلوق الجديد في طَوْرِ صَلْصَالٍ مِنْ حَمأٍ مَسْنُون، بأنَّهُ خالِقٌ بشراً مِنه، وأكّدَ لَهُمْ الأمْرَ بأنْ يَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين، إذَا سَوَّاهُ ونَفَخَ فيه من روحه.

وفي بَيَان أنّه من صَلْصَالٍ من حمأ مَسْنُون، غَمْزٌ على مواطن الكِبْرِ

في نَفْسِ إبليس المنْدَسِّ بَيْنَ ملائكة الملأ الأعْلَىٰ، لامتحان طاعَتِه لو شاء أنْ يَقْتَحِم عقبة الكِبْرِ العظمىٰ في نفسه.

وفي بيان خَلْقِ الملائكة من نور، وخَلْقِ الجانِّ من مارجٍ من نار، روى مُسْلِمٌ عن عَائشة رضي الله عنها، أنّ النبي ﷺ قال:

«خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ من مارجٍ من نارٍ وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

من مَارجٍ من نار: أي: من أخلاط نارٍ صافية، **المارج**: المختلط من عناصر مختلفة.

رابعاً:

ومرّت مُدّة جعل الله عزّ وجلّ فيها الصلصال المعدّ ليكون جسد آدم، ذا صورة، وهي الصورة التامّة لآدم قبل نفخ الرُّوح فيه.

يقال لغة: صَوَّر الشيْءَ، أي: جعَلَ له صُورةً مجَسَّمة.

وهذا هو الطور الأخير الذي وصلت إليه طينة آدم قبل نفخ الروح فيه.

وحول هذا الطور روى مسلم عن أنس أنّ النبي ﷺ قال:

«لمَّا صَوَّرَ الله آدَمَ في الجنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ وَيَنْظُرُ إلَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لاَ يَتَمَالَكُ».

ورَوَىٰ البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال:

«خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِراعاً».

وجاء في هذا الحديث:

«فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّىٰ الآنَ».

ولفظ مُسْلِم: «خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ...» الحديث.

ودَلَّ على هذا الطَّوْر، وهو طَوْرُ جَعْل جسَدِ آدَمَ ذَا صُورَةٍ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ... ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾: أي: ولَقَدْ أَعْطَيْنا أَجْزاءَ جَسَدِ آدَمَ مقادِيرها بإتْقانٍ وإحْكام، ولمَّا كَانَ آدَمُ هُوَ الإِنسَانَ الأول الّذي جَمَع الخالِقُ الرَّبُّ فيه كُلَّ السُّلالَةِ الْبَشَرِيّة، بدْءاً بحوّاءَ زَوْجه، ثُمَّ ما بَثَّ منْهما من ذُرّيات، وما يَبُثُّ إلى أن تَقُومَ الساعة، خاطبَ الله عزّ وجلّ الناس في هذا النّصّ بقوله لهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾.

الْخَلْقُ: إعْطَاءُ أجْزَاءِ الشيْءِ مقاديرَها بإحكامٍ وإتقان.

التصوير: جَعْلُ الشيء ذَا صورة مُجَسَّمة.

خامساً:

ثُمَّ نفخ الله عزّ وجلّ في جَسَدِ آدم الّذي اكتمل خلْقُه وتَصْويرُه من روحه، أي: نَفَخَ فيه من جنْس الرُّوح الّذي هو خَلْقٌ عظيم من خَلْقِه، فهو مِلْكُهُ جلَّ جلالُه، وبه تكُونُ المادَّة حيَّةً بحَسَب الخصائص النفسية الّتي فطَرَهَا عليها.

وقد جاء بيان أنّ الله عزّ وجلّ نفخ فيه من روحه في سورة السجدة/ ٣٢مصحف/ ٧٥ نزول) فقال تعالى فيها: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

وجاء مطويًا لفظاً مَفْهوماً اقتضاءً مِنْ تَرْتِيب حادثة سجود الملائكة على عبارة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ في الآية (٧٢) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وفي الآية (٢٩) من سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

والمطويُّ الّذي يُسْتَخْرَجُ بالتفكر يمكن التعبير عنه بما يلي: فَنَفَخَ الله

في الْجَسَد المصوَّر المعدّ لأنْ يكون إنساناً حيًّا، فقامَ مَخْلُوقاً تَامَّ الْخَلْقِ كَامِلَ التَّسْوِيَةِ حيًّا له صفاتُ كائنٍ حَيٍّ مُتَميِّزٍ بَيْنَ الخلائق، وهو آدم عليه السَّلام أبو البشر جَمِيعاً.

سادساً:

وبَعْدَ أنْ صَار آدَمُ إنْساناً حيًّا تَامَّ الخلْق، قابلاً للتَّعَلُّم بما خلَقَ فيه من جهازٍ دِمَاغِيٍّ مُفكِّر عَجِيب، مُسْتَعِدٌّ لاكْتِسَاب الْعِلْم، علَّمه الله عزّ وجلَّ أَسْماءَ الأشياء الّتي يَقَعُ عَلَيْها حسُّهُ البصَريّ.

اسم الشيء: يُطْلَقُ على صِفته، ويُطْلَقُ على اللّفظ الّذي يُميّزه عن غيره، وقد يكون مشتقًّا مِنْ صفته.

وتعليمُ الأسماء الّتي يجري التعبيرُ عنها بالألفاظ، يستلْزمُ عقلاً تعليمَ النُّطْق، وتعليم الكلام الّذي يُعَبّر عمّا في النفس من معاني.

وقد دلّ على هذا الطَّوْر قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا . . . ﴿٣١﴾﴾.

ونَسْكُتُ هُنَا عَنْ تَحْدِيد المسَمّيَاتِ الّتي علَّمَ اللَّهُ آدمَ أسماءها، إذْ لَمْ يَرِدْ عن الله ورسُوله في هذا شيءٌ، فالواجِبُ عدَمُ الْخَوْضِ فيه بالرّأي.

لكن نَفْهم ممّا سَيأتي ذكْرُهُ من تتمّة الآيةِ، أنّ الله عزّ وجلّ علَّمَهُ أسْمَاءَ ما عَرَضَ عليه مِمَّا يَرَاهُ بِبَصره، وقد جاءت الإشارة إليهم بعبارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

سابعاً:

ومرَّتْ مُدَّةٌ مُتراخية لم يأتنا عِلْمٌ بمقدارها، وبَعْدَها عَرَضَ الله عزّ وجَلّ المسمَّيَاتِ الّتي علّمَ آدم أسماءَها على الملائكة، ومَعَهُمْ إبْليسُ مُنْدَسًّا فِيهم نِفَاقاً، وأجْرَىٰ الله بينهم وبين آدَم مسابقةَ تفوُّقٍ في العِلْم، فقال لهم مَا جاء بيانه في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بقوله تعالى:

﴿... ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

دلَّ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ على تَرَاخِي حَدَثِ هذا الْعَرْضِ عن تعليم آدمَ أسماء الْمُسَمَّيات الّتي عرضها عَلَيْهم.

﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾: أي: أَخْبِرُوني واذْكُرُوا لي.

﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: بصفاتِ هؤلاء المشار إليهم ممّا يُدْرَكُ بالأبْصار، وبالألْفَاظِ الّتي تُميّزُ كُلاً منْهم.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: تَدُلُّ هذه العبارةُ على أنّهم حين قالُوا لربّهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .. ﴿٣٠﴾﴾؟ كَانُوا يكْتُمونَ فِي أنفُسِهِم أَنَّهُمْ أَفْضَلُ من هذا المخلوق الجديد الّذي قَدَّرَ الله وقَضَىٰ أَنْ يَخْلُقَه، وهذا الأَمْرُ لا يُعارِضُ عِصْمَتُهم الفِطْرِيَّة عن معصية الله، فهم لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون.

أمّا إبْلِيسُ فقد كان ما يكْتُمه أشدّ من هذا، إذْ كان يَكْتُمُ في نفسه أنّهُ لن يُطِيعَ اللّهَ في أَمْرِه بالسُّجود لآدم.

فَأجاب الملائكة بما جاء بيانُهُ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: تنزَّهْتَ ربَّنا عَنْ مُجَانبة الحكمة فيما تُقَدِّرُهُ وتقضيه وتخلقه، فإنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الحكيم.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾: أي: ليس لدينا صِفَةُ استنباط الصفاتِ الباطنة للمخْلُوقاتِ، استدلالاً ممّا في ظاهرها من علاماتٍ وأمارات، فَعِلْمُنا قَاصِرٌ علَىٰ مَا عَلَّمْتَنا إيّاهُ تَعليماً مباشراً.

ثامناً:

عندئذ أمر الله عزّ وجلّ آدم بأن يُنبئَهُمْ بأسْمائهم، فأنبَأهم بأسمائهم، مبيّناً صِفَاتهم، والألفاظ الخاصّة الدالّة على ذَواتهم وعلى صفاتهم.

فلمّا أنبَأهُمْ بأسْمائهم ذَكَّرَ الله عزّ وجلّ الملائكة بما كان قد قال لهم تعقيباً على قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . . ﴿٣٠﴾﴾ إذْ قال لَهُمْ ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

دلَّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فأبانَ بهذا البيان المطوّل، أنّ قولَهُ السَّابقَ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو اخْتِصَارٌ وإيجازٌ لِقَولِهِ اللاّحِقِ لَهُمْ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا تحتَ «أوَلاً» من فقرة (أ).

تاسعاً:

عنْدئذٍ جاء دور توجيه الأمر للملائكة بتَنفِيذ السُّجود لآدم، الذي كان من قبْلُ أمْراً مُعَلَّقاً على وجود شَرْطَيْن:

(١) تسويَةُ الله عزّ وجلّ لهذا المخلوق الجديد.

(٢) نفخ الله عزّ وجلّ فيه من رُوحِه.

ونفهم من ترتيب الأحداث ترتيباً منطقيًّا أنَّ نفخ الروح في آدم قد كان سابقاً، وأنَّ كمال تسْويته للوظيفة الّتي أعدَّه الله لها قد كان بعد تعليمه أسماء المعروضات التي علّمه أَسْماءها، فحرف العطف (الواو) في ﴿فَإِذَا

سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ هو لمطلق الجمع. إذ التسوية في اللّغة هي إِبْلاَغُ الشَّيْءِ الْغَايَةَ المقْضِيَّةَ له، بجعله تامًّا مُسْتوياً بالغاً الغاية المقصودة من صُنْعِه، وظاهِرٌ أن تعليمه الأسماء جزْءٌ من هذه التسوية.

وقد دلّ على توجيه الأمر للملائكة بتنفيذ السّجود لآدم، قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ... ﴿٣٤﴾﴾.

ونظيره في الآية (٦١) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) وفي الآية (١١٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

وقد جاءت هذه العبارة مكرّرة فيهما، لأنّها كانت مفتاح الحديث عن قضيّة السُّجود لآدم واسْتِكْبَارِ إبليس وإبائه.

أمّا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ... ﴿١١﴾﴾ فقد جاء عقب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فدَلَّ هذا الإجراء البيانيّ على أنّه مَرَّ زَمَنٌ متراخٍ بعْدَ التَّصوير، إذْ بَيْنَ التّصوير وبين الأمر بالسُّجود مُدَّةٌ جرىٰ فيها نفخ الرُّوح في آدم، ثم استكمالُ تَسْوِيته بتعليمه أسماء المعروضات كلّها، فكان من الدّقة والصّدْقِ في البيان أن يقول اللّهُ عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ... ﴿١١﴾﴾.

عاشراً:

وعقب توجيه الأمْر للملائكة ولمَنْ كان معهم مندسًّا فيهم نفاقاً، بتَنْفِيذِ السجود لآدم، سجَدَ الملائكة المأمورون بالسُّجُودِ كلُّهُمْ أجمعونَ، في وقْت واحد مجتمعين غير متفرِّقين، إلاَّ إبْلِيسَ لم يَكُنْ من جنْسِ الملائكة

الّذين لا يَعْصُونَ الله مَا أمَرَهم ويَفْعلُون ما يُؤْمَرون. وكشَفَ إبليسُ بما فَعَل عمّا في نفسه.

دلَّ على هذا الحدَث عدّة نصوص قرآنية متكاملة فيما بينها.

(١) فجاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ .. ﴿١١﴾﴾.

فاقتصر هذا النصّ على استثناء إبليس.

(٢) وجاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ بيانَ أنَّ إبليسَ أبَىٰ أَنْ يَسْجُد.

(٣) وجاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

فأَبان هذا النّصّ أنّ الملائكة المأمورين بالسُّجُودِ قد سَجَدُوا كلُّهم أجْمَعُونَ، أيْ: لم يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ أحَدٌ، وسَجَدوا في وقْتٍ واحد.

وأبانَ أيضاً أنَّ إبليسَ لم يَسْجُدْ، ووصفه الله عزّ وجلّ في هذا النصّ بصِفَتَيْن:

الأولى: أنّه اسْتَكْبَر عن السُّجودِ لآدم، فالباعِثُ له على ما اختار لنفسه شِدَّةُ مشاعِرِ الكِبْر في نفسه.

الثانية: أنّه كان من الكافِرين باطِناً بإلَهيَّة الله لمربُوبيه، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ دخوله في صفوف الملائكة، مُسْتَغِلاً التّشابُهَ في بعض الصفات الظاهرة

بين الجنِّ والملائكة، قد كان نِفَاقاً، وقد استطاع بهذا النّفاق أن يترقّىٰ في التّسلُّل حتى دخل في ملائكة الملأ الأعلى، وغَرَضُه من ذلك أن يكون ذا حُظْوة عند ربّه، وأن يجْعَلَهُ في الملائكة ذا أمْرٍ مُطاعٍ كجبريل عليه السلام.

(٤) وجاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ إلى ما جاء في سورة (صٓ) بيان أنّ إبليس أبَىٰ، أي: رفض أن يَسْجُد لآدم امتثالاً وطاعةً لأمر ربّه.

(٥) وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

فأبان هذا النّصّ أنّ إبليس لم يَكُنْ منْ جنْسِ الملائكة السَّاجدين، الّذين لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهم، بل هو من جِنْس الجنِّ الممتَحَنِين في ظروف الحياة الأولى، فهو ذو إرادة حُرَّة، يَمْلِك بها أن يُطيعَ وأن يعصي.

(٦) وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فأبان هذا النّص أنّ إبليس قد كان باستطاعته أن يستمرّ على نفاقه مُنْدسًّا بين ملائكة الملأ الأعلى، فيَسْجُدَ معهم كما سَجَدُوا، وَلو لَمْ يكُنْ من جنْسِهِمْ، لكنَّهُ أبَىٰ أن يكون معهم، ورُبّما يَرَىٰ في داخل نفسه أنّه خَيْرٌ مِنْهم أيضاً.

(٧) وجاء في سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾﴾.

يظهر أَنَّ إبليسَ قالَ في نفسه مُوَجِّهاً خِطَابه لرَبّه حين أَبَىٰ أنْ يسْجُدَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْت طِيناً، أي: خلَقْته طيناً عند بدء خَلْقِكَ له.

(ب)
محاكمة إبليس والحكْم عليه وما كان منْهُ عَقِبَ ذلك

دلّت النّصوص بما فيها من عباراتٍ ذاتِ دلاَلاَتٍ متعدّداتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مُتَنَوّعات على أنّ الله عزّ وجلّ قد عَقَدَ لمحاكمة إبليس ثلاثَ جلَسَاتٍ، ليمكّنَهُ من التراجع عن موقِفه العناديّ الاستكباريّ، فيَعْتَرِف بذَنْبِهِ ويسْتَغْفِر، وكان الحكم عليه في كلّ واحدة منها الرَّجْمَ والطّرد، لكِنَّ إبليسَ لم يكن منْهُ في كلٍّ واحدة منها إلاّ الاستكبار، والإصرار على العصيان، وإعْلاَن الكُفْرِ بحكْمَةِ الله جلّ جلاله، والكفر بإلَهِيَّته.

الجلسة الأولى:

جلسةٌ دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: قال الله جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطَانه لإبليسَ مُتَرَفِّقاً بمُسَاءَلَتِه، ومُخَاطِباً له باسْمِه المعروفِ به بين الملائكة، والمعْرُوفِ به بين الجنّ.

﴿..مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾: أي؛ أيُّ عُذْرٍ لَكَ حَمَلَك

على أن لا تكونَ سَاجداً مع السَّاجدين مِنْ ملائكة الملأ الأعْلَىٰ، وقد تَسَلَّلْتَ في صفوف الملائكة مُتَرَقِّيًا حتَّىٰ اعْتَبَرْتَ نَفْسَك واحداً منهم، حريصاً على أن يكون لَكَ من الفضل والمنزلة الرَّفيعة مثل ما لهم، ولو لم يكن عنصُرُك من الملائكة بلْ أنْتَ من الجنّ.

فلَمْ يُخْفِ إبليس في جوابه احتقارَهُ لآدم نَاظِراً إلى أَحَدِ أطْوَارِ خَلْقِ جَسَدِه، وإلى كونه بشراً.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

فأبَانَ أنَّهُ بَشَرٌ شبيهٌ بأجْسَادِ حَيوانَاتِ الأرْض في عَدَم قُدْرَتِهِ على اخْتِرَاقِ الفراغات العليا والوصول إلى السماوات، كالملائكة وبعضِ الجنّ. وذكَرَ المرحلةَ الأخيرة من أطوار خَلْق جسده، وهي مرحلَةُ: ﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

وهذا يُعَبِّر عن استكبارِ إبليس، وترفُّعِه واستِنكافِه عن أن يسجُدَ لِمَنْ يَعْتَبِرُه دُونَه في الخلْق، ويُعَبِّر عن شكّه في حِكْمَةِ الله في تَوْجِيه الأَمْرِ بالسُّجُود له.

إنّ إبليس لم يذكر لنفسه عُذْراً حقيقيًّا، بل أجاب بما يكْشِفُ عن كبره ووقاحته مع ربّه.

فكان لا بُدَّ من إصدار الحكْم عليه بالإخراج من منازل الملأ الأعلى من الملائكة، وبالرَّجْم للطَّرْدِ والإبعاد، مع صَبِّ اللّعْنَة عليه.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وفي يَوْمِ الدّين يجري حسابُكَ علىٰ كُفرِك، وإصدارُ الحكْمِ علَيْكَ بما تستحقُّ مِنْ عذابٍ.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: قال إبليس معترِفاً للّهِ بِرُبُوبيته، ربِّ بما أنَّكَ حكَمْتَ عليَّ بالإخراج والرَّجْم واللَّعْنَةِ إلَىٰ يَوْمِ الدّين، فأمْهِلْنِي حيًّا إلَىٰ يوْمِ يُبْعَثُونَ، وقَدْ كان يوم البعث للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء معلوماً للجنّ والملائكة قبل خَلْقِ آدم، لأنَّ الجنَّ مخْلُوقونَ مُمْتَحَنِين في ظروف الحياة الأولى قبل الإنس، ويعلمون أنّ الجَزَاءَ يكون بعد الموت والبعث منه.

وقرّر إبليسُ في نفسه أنْ يُغوِيَ آدم وكلّ ما يُخْرِجَ الله منه من نَسْل.

فأعطاه الله عزّ وجَلَّ بَعْضَ طَلَبِه، ووعَدَه بأن يُنْظرَهُ إلى ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وإماتَةِ كلّ ذي حياة فيها، وجعَلَهُ من المنظرين إلى ذلك الوقت المعلوم لديه جلّ جلاله.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: قال: بَعْضُ مَا طَلَبْتَه مُجابٌ، فإنّكَ من الأحياء المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، كجبريل وإسرافيل وميكائيل.

ولمّا اسْتَوثَقَ إبليسُ من إمْهال الله له في الحياة الأولى إلَىٰ ساعة إنهاء ظروفها، أعلَنَ عزْمه على أن يَعْمَل بكلّ ما أوتي من وسائل إغواء وإغراء وتزيين، لإغواء آدَمَ وما يُخرِجَ الله منه من نَسْل حتّى قيام الساعة إلاَّ من كان مُخْلِصاً أوْ مُخلَصاً لله.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

● قُرِئ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتْح اللاّم، أي: الذين تَسْتَخْلِصُهم وتَصْطفِيهم، فَتَعْصِمُهُمْ مِن الْغَواية، بسبب ما فطرتَهُمْ علَيْهِ من الكمال، لتُؤَهِّلَهُمْ للنُّبُوّةِ أو الرِّسالة.

وقُرِئ [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْر اللاّم، أي: الَّذِينَ أَخْلَصُوا لكَ الإيمان والْعَمَل، فَأنْت تحْميهم من الْغَوَايَةِ بسبب إخلاصِهم.

﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُـزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبليس اللّعين: هذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ بَيانُه لكلّ الّذين أضَعُهُم مَوْضِع الامتحان في ظروف الحياة الدّنيا، فيما أنزل على رُسُليَ وهو صراطٌ مستقيم.

وقرأ يَعْقوب: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ﴾ والمعنى على هذه القراءة: هذا صِرَاطٌ عَلِيٌّ رَفِيعٌ على قِمَّةٍ، ودُونَهُ من ذَاتِ اليمِينِ وذَاتِ الشِّمَال سُبُلُ الضلاَلَة والْغَوَايَة، وهِي مُنْحَدِرَةٌ إلى الْمَهَالِكِ، وموصِلَةٌ إلى عذاب جَهَنَّمَ.

فبين القراءتيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

وقال عزّ وجلّ له: إنَّ عبادي الذين هم خَلْقِي ومِلْكي لا أَجْعَلُ لَكَ عَلَيْهم سُلْطاناً تُؤَثِّرُ به عليهم، تأثيراً جَبْرِيًّا تُلْغِي به إرادتهم الحرَّة، فَهُمْ مَحْمِيُّونَ منْكَ بحمايَتِي لهم، إلاّ من اتَّبَعَك من الْغَاوين بإرادَاتِهم الحرَّةِ غَيْرِ المجْبَرَة، فهؤلاء لا أَتولَّى حِمَايَتَهُمْ منْكَ، وإنَّ جهَنَّمَ لموْعِدُ هؤلاء الغاوين الكافرين يجتَمِعُونَ فيه ويذوقون العذاب فيه أجمعين.

لَمَوْعِدُهُمْ: أي: لَهِيَ المكانُ الموعُودُنَ بالعذاب فيه أجمعين.

ووصف الله عزّ وجلّ جهنّم بأنّ لها سبعةَ أبواب، بحسب أنواع الجرائم العظمىٰ الّتي كان الغاوون قد ارتكبُوها في حياة الابتلاء، فلِكُلّ بَابٍ جزءٌ منْهُمْ مَقْسُومٌ له، وكلُّ جُزْءٍ منهم يدخل من الباب المخصَّصِ له من أبوابها السبعة.

ولم يُصَرِّحِ الله عزّ وجلّ لإبليس في هذه الجلسة بأنّه سيكون في جهنّمَ مع الغاوين، إلاّ أنّه قَدْ يُفْهَمُ من النصّ باللّزوم العقليّ.

الجلسة الثانية:

وبعد جلسة محاكمة الله عزّ وجلّ لإبليس الأولى، منحه الله فرصة مراجعة نفسه إن شاء أن يَعْتَرِف بذنبه ويَتُوبَ، فعقد له جلْسَة محاكمة ثانية،

دلَّ عليها ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وبدأت هذه الجلسة بسؤال الله عزّ وجلّ إبليس عن المانع له من السجود، على الرغم من عناية الله بآدم إذْ خلقه بيدَيْه:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

كانت الجلسة الأولى متضمّنة سؤال إبليس عن العذْر الذي حمله على أن لا يكون مع الملائكة السَّاجدين وهم أهل الملأ الأعلى، مع أنّ الأمر بالسُّجود لآدم قد كان موجّهاً لهم وله، إذْ هو مندَسٌّ فيهم كواحدٍ منهم.

أمّا في هذه الجلسة الثانية فقد سأل الله عزّ وجلّ إبليس عن المانع له من السُّجود، مع أنّ المأمور بالسجود له مخْلوقٌ خلقه الله بِيَدَيْه دون أن يأمُر أحداً من ملائكته بجمع ترابه وخلطه بالماء، ولا بمتابعة أطوار تكوينه، ولا بصُنْع صورة جسَدِه، وهذا من عناية الله جلّ جلاله بهذا المخلوق الجديد، وهي عنايةٌ تقتضي تكريمَه من قِبَلِ أهل المعرفة من عباد الله، ولو لم يأمُرْهُمْ بذلك.

وحصر الله عزّ وجلّ إبليس بين احتمالين:

أحَدُهُما: أَنْ يكون إبليس قد استكبرَ عن السجود لآدم، دون أَنْ يكون له حقٌّ في هذا الاستكبار.

والآخر: أن يكون إبليس مُعْتَقِداً أنّه من العالِين الذين لا يَليقُ بهم السُّجودُ لآدم، وفي هذا اعْتراضٌ ضِمْنِيٌّ على حكْمَةِ الله في أمره، ورفْضٌ لإلَهيَّة الله له.

وآثر إبليس ادِّعاءَ الاحتمال الثاني، مدَّعياً أنّ أصْلَه النّاريّ خَيْرٌ من أصل آدم الطينيّ.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾﴾.

وفي هَذَا إصرارٌ من إبليس على موقفه السّابق الّذي أعلنه في الجلسة الأولى، إلاَّ أنّهُ ذَكَرَ من أطوار خَلْق جسَدِ آدم مَرْحلةَ الطّين، وسَكَتَ عن

ذكر مَرْحلة الحمأ، وهو الطين الأسود المنْتِن، تخفيفاً ممّا يُشْعِر بأنَفَتِه.

وأمام هذا الإصرار العناديّ الاستكباريّ كان لا بُدَّ مِنْ إعادة إصدار الحكم عليه بالإخراج من منازل الملأ الأعلَىٰ من الملائكة، والرَّجْم للطَّرْدِ والإبْعاد، مع إضافة أنّ اللّعنةَ المنصبَّةَ عليه هي لعْنَةُ الله.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبْلِيس: لَزِمْتَ موقفكَ وَلم تعترف بذنْبِك فاخْرُجْ منها فإنَّك رَجِيمٌ.

وكانت العبارة في الجلْسَةِ الأولى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ فجاء التشديد في الجلْسةِ الثّانية فقال الله له: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

فاللَّعْنَةُ الصّادرَةُ عَنِ اللّهِ العزيزِ الجبّار، والمنْصَبَّةُ علىٰ إبليس، أشَدُّ من عموم الحكم عليه باللَّعْنَةِ، لاحتمال أنْ تكون تكليفاً من الله للملائكة بأَنْ يَلْعَنُوه، دون أنْ تنصَبَّ علَيْه لعنةُ الله.

وكرّر إبليس طلَبَهُ من ربّه أن يُمْهِلَه حيًا إلَىٰ يَوْم يُبْعَثون، طامعاً في أن يستجيب الله عزّ وجلّ طلَبَه، فيُمْهِله إلى يوم البعث، وكان قد استوثق من ربّه بأنه سيُمْهِله إلى ساعَةِ إنْهاء ظروف الحياة الدّنيا، وإماتة كلّ ذي حياة فيها.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

أي: قال إبليس: رَبِّ بما أنَّكَ حكَمْتَ عليّ للمرّة الثانية بالإخراج والرَّجْم وأنزلْتَ عليَّ لعْنَتَكَ، فأمْهِلْنِي حيًا إلَىٰ يومِ البعث.

لكنّ الله جلَّ جلاله، وعظم سلطانه، وبلَغَتْ حكْمَتُهُ الغاية، لم يُعْطِه من الإمهال أكثر ممّا كان أعطاه في الجلسة الأولى، فَأعاد له نصَّ حُكْمه السابق.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبليس: بما أنَّكَ لَزِمْتَ مَوْقِفَكَ ولم تَعْتَرِفْ، ومَا زِلْتَ تطالبُ بانظارك إلى يوم البعث، فإني لا أنظرك إلاّ إلى يوم الوقت المعلوم الذي تنتهي عنده ظروف الحياة الدنيا، ويموت فيه كلُّ مخلوقٍ حيّ.

فأعْلَنَ إبليسُ إصراره على إغواء الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدُّنيا.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: قال إبليس لربّه: بما أنَّك حكَمْتَ عليَّ بالْغَواية، فقد عزَمْتُ على إغواءِ آدم وما يَخْرجُ منه من نَسْل.

﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: أي: فبِقُوّتِك الغالبَةِ الَّتي تُمِدُّني منها ما أبقيتني حيًّا، ولا تقْطَعُهَا عنّي لأُغْوِينَّهُمْ أَجْمَعِينَ، فأجْعَلَنَّهُمْ بوسَاوسِي، وتسويلاتي، وإغراءاتي، وتزييناتي، وحَبَائِلي، غاوين أجمعين، واستثنىٰ فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بفتح اللام، وفي القراءة الأخرى: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْرِ اللاَّم، وقد سبَق بيان المراد بالقراءتين.

فكان جواب الله له، ما تضمَّنَهُ قولُه تبارك وتعالى:

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

فجاء في هذا النّصّ التصريح بالْحُكْم علىٰ إبليس بدخول جهَنَّم دار عذاب المجرمين، ومعه كلُّ الذين يتّبِعُونه كافِرِينَ مجرمين.

وفي هذا البيان شدّة في الحكم بصريح اللّفظ، وهذه الشدّة تَدلُّ على أنَّ هذه الجلسة قد كانت الجلسةَ الثانية من جلسات محاكمته.

الجلسة الثالثة:

ومنح الله عزّ وجلّ برَحْمَتِه الواسعة إبليسَ، فُرصَةً أخرى لمراجعة

نفسه، وإعلان اعترافِه بذَنْبه وتوبته واستغفاره، فعقد له جلسةَ مُحاكمة ثالثه، دَلَّ عليها ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

وبدأت هذه الجلسة بسؤال الله عزّ وجلّ إبليس عن أمرين: عن المانع له من السجود، وعن الحامل له على عدم السجود، على الرُّغم من أنّ الله رَبّه قد أمَرَهُ بالسُّجُودِ أَمْرَ إلْزَامٍ ووجوب، مع الملائكة الذين كان قد دسَّ نَفْسَه فيهم، واعتبر نفسه واحداً منهم، وأَمْرُ الله لعباده أَحَدُ عناصر إلَهِيَّتِهِ لهم، الّتي تستلزِمُها عَقْلاً رُبُوبِيَّتُهُ جلّ جلالُه وعظم سلطانه، فَمَنْ رفَضَ طاعة أمْرِ الله عناداً كان بإلَهِيّتِه كافراً.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . . (١٢)﴾.

فذكر الله عزّ وجلّ من مُقْتضياتِ الطاعة بالسُّجود، أنّه أمْرٌ إلزاميٌّ صادِرٌ عن الرَّبّ الخالق.

ولم يخاطب الله عزّ وجلّ إبليس في هذه الجلسة باسمه، إهانة لَهُ واحتقاراً، واكتَفَىٰ بضمير المخاطب، أمّا في الجلستين السابقتين فقد خاطبه الله عزّ وجلّ باسْمِه تلطُّفاً به.

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾: أي: مَا مَنَعَكَ عَنِ السُّجُودِ؟ وَمَال حَمَلَكَ علىٰ أنْ لا تَسْجُد، فَسَأله بهذه العبارة عن المانع له عن السُّجود، وعن الحامل له على عدم السُّجود.

لقد جاء في هذه العبارة تضمين فِعْل «مَنَعَ» معْنَىٰ فعل «حَمَلَ» فَعُدِّي تَعْدِيتَه، فأغْنَتِ الجمْلَةُ الواحدة عن جُمْلَتَيْن، وهذا من بدائع الإيجاز القرآنيّ.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: أي: وقتَ أَمْرِي إيَّاكَ بالسُّجود مع من أمَرْتُ من ملائكة الملأ الأعلى، الّذين دخَلْتَ فيهم واعتبرتَ نَفْسَك واحداً منهم.

فأبان الله في هذه الجلسة لإبليس بهذا السؤال مخالفته لواجب طاعة العباد لربّهم، بمقتضىٰ أنّه إلَٰهُهُم الّذي يجب عليهم أن يَعْبُدوه، ومن عبادتهم الأُولَىٰ له بعد الاعتراف له برُبُوبيّته وإلَٰهِيَّتِه، أن يطيعوه، فَيَفْعَلُوا ما أمرهم به، ويَنْتَهُوا عمَّا نهاهم عنه.

لكنّ إبليس لم يُعْتَذِر بأنّه لم يكُنْ يعْلَمُ أَنَّ أمْرَ الله موجَّهٌ لَهُ ضِمْنَ من هو معهم من الملائكة، بل أصَرَّ على عِناده ولَزِمَ موقفه الأوَّل، ولم يُراجِعْ نفسه، وأعْلَنَ بهٰذا الإصرار أنّه غَيْرُ مؤمِنٍ بإلَٰهيَّة الله له، وأنَّه مُعْتَرِضٌ على أمر الله له بالسّجود لآدم، ويَراهُ أمْراً غير حكيم، ويَرىٰ أنّه ليْسَ مِنْ حق الرَّبّ أن يُوجّه لعباده المملوكين له مثل هذا الأمر.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

عندئذٍ كان لا بدَّ من إصدارِ الحكْم الختاميّ عليه في هذه الجلسة الثالثة، فأمَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنْ يَهْبط هبوط مَهانة وذُلٍّ وصَغَار، ولمْ يقتصر الأمْرُ على الإخراج فقط، كما حَصَل في الجلْسَتَيْن الأولَىٰ والثانية، بل جاء الأمْرُ له بالهبوط والإخراج، مع الحكم عليه بالصَّغار.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

الهبوط: النزول من أعْلَىٰ إلى أسفل. ويُقالُ: هبَطَ فُلانٌ، أي: ذَلَّ واتَّضَعَ وسَقَط.

الصَّاغِر: الراضي بالذّلّ والضَّعَةِ والْمَهانَة، يقال لغة: صَغُرَ يَصْغُرُ صَغَاراً فهو صَاغِرٌ، أي: رضِيَ بالذُّلِ والضَّعَة.

فكرَّر إبليس بوقاحة طلبه من ربّه أن يمهله حيًّا إلى يوم يُبْعَثُون.

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ولم يدْعُ الله ربَّه في هذه الجلْسَةِ مُعْلِناً اعترافه بأنَّهُ رَبُّه، ومُتَذَلّلاً له

بالْعُبوديّة، بل قال: ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾ أمّا في الجلْسَتَين السّابقتين فقد قال فيهما: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾.

لقد بلغ به العِنَادُ والاستكبارُ والحِرَانُ إلَى أَنْ يسأل الله رَبَّهُ دون أن يقول له: رَبِّ.

فاكْتَفَىٰ الله عزّ وجلّ في جوابه بعبارة: «إنَّكَ مِنَ المنْظَرِينَ» أي: إنّكَ واحِدُ مِنْ المنظرين، كما سبق أن قضينا لك، دلَّتْ على هذا عبارة:

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن انتهت جلسات محاكمة الله عزّ وجلّ لإبليس الثلاث، أعلن إبليس لرَبّه خُطّته الّتي رسمها للإغواء:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: فبِسَبَبِ حُكْمِكَ القطعي عليَّ بالْغَواية، وهي الإمعانُ في الضلال والبُعْدِ عَنْ صراط الحقّ والهدى، والخيبة والفساد وترك سبيلِ الرشاد عن قصْدٍ وتعمّد، اتّباعاً للهوىٰ ونوازع النفس الطاغية.

﴿. . لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾: أي: أُقْسِمُ لأَقْعُدَنَّ لإغوائِهِمْ مُلاَزِماً صِرَاطَك المستقيم الذي ستُبَيِّنُه لهم، وتأمُرهم أن يسْلكوه ويلْتَزموا حدوده.

ضُمِّنَ فعل «أَقْعُد» معنى فعل «أُلاَزم» فَعُدِّي تعْدِيته، فانتصَبَ لفظ «صراط» على أنه مفعول به، فأغنت الجملة الواحِدَةُ عن جُمْلتين، والمعنى: لأقْعُدَنَّ لهم ملازماً صراطَكَ المستقيم.

فأبان بالْقُعُود معنى التمكُّن، وأضاف إليه بالتعدية معنَى الْمُلاَزمة، فتمَّت المرابَطَةُ كامِلَةَ العناصر.

وهذا الْعَزْمُ الخبيثُ الذي أعلنه إبليس، قد قدَّمه ملاحظاً فيه ذُرِّيَّته من

الجنّ وجنودَهُ من الشياطين، لأنّه لا يستطيعُ أن يقوم بكلّ الأعمالِ بنفسه، وقد دلّ على أنّ ذُرّيّته سيكونون جيْشَ إغواء تَحْتَ أَمْرِه وسُلْطانه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

ودَلَّ على أنّ لإبليسَ جنُوداً، وَيظْهَرُ أنَّهُمْ من شياطين الجنّ والإنس الّذِين يُجَنِّدُهم من غَيْر ذُرّيّته، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن مصير الكافرين والمشركين في الجحيم:

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

ومعلُومٌ أنّ المرابطة بتمكُّن وملازَمَةٍ وَتَرَصُّدٍ هي أوّل شروط أعمال الإغواء والإغراء، للإبعاد والصَّرْف عن صراط الله المستقيم.

واختار إبليسُ بذكاء أنْ تكون مرابطتُه عنْد صراط الله المستقيم، لأنّ همَّه الأكبر هو أن يَصْرِف عنه المتوجِّهين لسُلوكه، وأنْ يُخْرِجَ منه السَّاكين فيه.

أمّا الآخرون فإنَّهُمْ في سبُلِهم المختلفة التي انحرفت عن صراط الله عزّ وجلّ ضالُّون غاوُون، قَد كَفَوْا إبليس وجنوده مُهِمَّة إغوائهم، بل هم مُتَهيِّئُونَ لأن يكونوا من جنوده شياطِينَ إنْسٍ مع شياطين الجنّ.

وبعد المرابطة عند صراط الله المستقيم نُلاحِظُ أنّ أعمال المغْوِين تَنْحَصِرُ بأربع جهات.

الجهة الأولى: هي الواقعة بين يَدَي السّالِكِ، لصدّه عن الدُّخول في الصراط.

الجهة الثانية: هي الواقعة خلْف السالك، لمنْعِهِ بالجذْبِ عن الدُّخول في الصراط.

الجهة الثالثة: هي الواقعة عن يمين السّالِكِ، لتحويله ذَاتَ الْيَمينِ بعيداً عن الصِّراط.

الجهة الرابعة: هي الواقعة عن يسار السَّالك، لتحويله ذات الشمال بعيداً عن الصراط.

أمّا جهة ما فوق الصراط، وجهة ما تحت الصراط فلا دفْع فيهما ولا جذب، إذْ مَوْقِعُ صراط الله كُلُّه من فوقه ومن تَحْتِهِ هُوَ من صراط الله.

فمن كان سالكاً على صراط الله المستقيم فكُلُّ عُلْوٍ فوقه هو من الصراط، وكلّ عُمْق تحته هو من الصّراط.

ومعلومٌ أنّ هَمَّ الشّياطين هو الصدّ عن كلّ موقع الصراط أو الإخراج منه.

﴿. . وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾: أي: ولاَ تَجِدُ في المستقبل أكْثَر ذُرّيّة آدم شاكرين، بل تَجِدُ أكْثَرَهُمْ كَفُورِين.

شاكر: اسم فاعل يَصْدُقُ على مَنْ يَتَحقق فيه أقلُّ مِقْدَارِ من الشكر، ويكون بالإيمان المنجي من الخلود في عذاب النّار.

لقد غلَبَ على ظنّ إبليس أنّه سَيَسْتَطِيع بوسائل إغوائه الشيطانية أن يُؤثّر على أكثر ذُرّيّة آدم، حتى يكونوا كَفُورين من الخالدين في عذاب الجحيم، وهو ظنٌّ مَبْنيٌّ على عِلْمِه بما لدىٰ الإنسان من أهواء وشهواتٍ ونزَعَات قد تطمس بصيرَته.

ولهذا قال الله عزّ وجلّ بِشَأن كُفَّارِ سَبأ، في سورة (سَبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وبَعْدَ أن أعْلَن إبليس لعَنَهُ الله خُطّته في أغواء بني آدم، وجَّهَ الله عزّ وجلّ له ما جاء في قوله في سورة (الأعراف):

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَذْءُومًا﴾: أي: مَذْموماً، مَعِيباً، مُحْتَقراً، مَخْزِيًّا، مطروداً.

﴿مَّدْحُورًا﴾: أي: مَطْرُوداً طرداً مقترناً بدَفْعٍ عَنِيف.

وقد أكّد الله عَزّ وجلّ في هذه الجلسة الثالثة، حُكْمَهُ الّذي سبَق أن أصْدَره في الجلسة الثانية، وهو ما جاء بيانُه في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله تعالى:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

* * *

(ج)

حوارٌ جَرَىٰ بعْدَ انتهاء جلسات المحاكمة

وجاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بيان حوار جرى بعد جلَسات المحاكمة، بدأهُ إبليس وهو يذوق مشاعر عذاب الطرد واللَّعْن والصَّغار، مخاطباً ربَّه:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

خاطبَ إبليس ربَّه معترضاً عليه بوقاحة قائلاً: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: أي: أرأيْتَ نَفْسَكَ وَمَا فَعَلْتَ إذْ كرَّمْتَ عَليَّ مَنْ لا يَستحقُّ التكريم، لأنَّكَ خَلقْته من طين.

أو الكاف تأكيد للخطاب الّذي دلّتْ عليه تاء المخاطَب.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: هذه العبارة بدَلٌ من كاف الخطاب في: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾. ﴿هَٰذَا﴾: المشارُ إليه هو آدم، واستُعْمِل اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هنا للإشعار باحتقار إبليس لآدم.

﴿كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: أي: جعلْتَه أكرَمَ مِنّي، وفضَّلْتَهُ عليّ.

﴿.. لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: اللّام في ﴿لَئِنْ﴾ واقعة في جواب قَسَم محذوف، وتُسمَّى مُوَطّئةً للقسم، أي: أُقْسِمُ لَئِنْ أمهلتني فعلاً، فأبْقيتَنِي حيًّا كما وعَدْتني إلى يوم القيامة، وهو يوم قيام السّاعة التي تنتهي بقيامها ظروف الحياة الدنيا كُلُّها و ﴿أَخَّرْتَنِ﴾: فعل الشرط في ﴿لَئِنْ﴾.

﴿.. لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

جواب الشرط: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: أي: لأضعَنَّ اللُّجم في أَحْنَاك ذُرِّيَّة آدم، كما تُوضَع اللُّجم في أحناك الدَّوابّ، لتطويعها وقيادتها أو سَوْقِها إلى حيْثُ يريد مطوّعها.

في هذه العبارة استعارةٌ مَكْنِيَّة، إذْ شَبَّهَ إبليسُ ذُرّية آدم بالدَّوابّ الّتي تُطَوَّعُ للركُوب والقيادة والسَّوْقِ، ولم يُصَرّح بلفظ الدّواب، بل جاء بشيْءٍ من خصائصها يدُلُّ عليْها، وهو احْتِنَاكُها لتَطْوِيعها.

يقال لغة: احتَنَكَ صاحبُ الدّابّة دابّتَه، أي: وضَعَ الحبْلَ أوْ اللّجام في حَنَكِها ليُطَوّعها للرُّكوب، والقيادةِ، والسَّوْقِ.

والمعنى: لأجْعَلَنَّ ذُرّيّة آدم كالدّوابّ الّتي تُطَوَّعُ بوضْع اللُّجُم في أحْناكها، ولأسيِّرَنّهمْ في هذه الحياة الدنيا عصاةً لك، ولأنْقُلَنَّهم خُطْوة فَخُطْوةً، حتى أُوصِلَ من يستجيب لي منهم إلى دَرَكَةِ الْكَافِرِين المجرمين الّذِين يستحقّون العذاب الأبديَّ الخالد في الجحيم.

واستثنى إبليس فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مُرِيداً بالقليل مَنْ لا يتأثّر بوساوِسِه وتسويلاته مطلقاً، وهُمُ الأبرار والمحسنون وكامِلُو التَّقْوىٰ، وهُمْ «الْمُخْلَصُونَ» و «الْمُخْلِصُونَ» بفتح اللاّم وكَسْرِها، كما جاء في النُّصوصِ السّابقة.

فكان الرَّدُّ الرَّبَّانيُّ على إبليسَ اللّعين:

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

أي: اذْهَبْ فأنْتَ مُمَكَّنٌ مِمَّا أعْدَدْت نَفْسَك للقيام به من إغراء وإغواء، دون أن يكون لك عليهم سُلْطان يُلْغِي إراداتهم الحرّة، فَمَنْ تَبِعَك في كُفرك وتمرُّدِكَ من ذُرّيَّة آدم فإنَّ عذاب جَهَنَّم جزاؤكم جَميعاً حالَةَ كونه جزاءً مَوْفُوراً، أي كثيراً واسعاً، يأخُذُ كلُّ واحدٍ منكم جزاءه بالعدْل فيها.

ولله جلّ جلاله وعظُم سلطانهُ حكْمةٌ بالغة، في هذا التمكين لإبليس وجنوده من الإغراء والإغواء بالوسوسة واستثارة الأهواء والشهوات، دون أن يكون لهم سُلْطان يؤثّرون فيه بالجبر على الموضُوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

وهذه الحكمةُ تظهر لنا حينما نُدْرِك أنّ إراداتهم الحرّة، تكون في الحياة الدُّنيا عند الإشارة المتوسطة تماماً، بين طريق الخير وطريق الشرّ، بين نَجْدِ الْهُدَى ونجد الضلال، وفي كلّ واحدٍ منهما ما يَجْذِبُ إرادة الإنسان إليه.

ففي نجد الخير والهدى منْطِق العقل والحكمة والرشد، والإغراء بالسَّعادة الحقيقيّة العاجلة والآجلة، والخلود الأبديّ في جنّاتِ النعيم، مع

الخلاص والنجاة من عذاب الجحيم، كما جاء في بيانات الله ورسوله المطمئنة المقْنِعَةِ بالأدلّة البرهانية القاطعة، والمتضمّنة وعْدَ الله الحقّ، الذي هو مالِكُ الوجود كلّه، ورَبُّ كلّ شيء.

وفي نجد الشرّ والضلال زيناتُ الحياة الدّنيا وشهواتُها ومُغْرياتها العاجلات، وزُخْرُفُ وساوس الشياطين وتسويلاتهم وإطماعهم بالباطل، ووعودُهم الكاذبات، وحُجَجهم الباطلات مغلّفةً بالإغراء بتحقيق عاجِل الأهواء والشهوات.

وبهذا يتمّ التكافُؤُ بين جواذب طريق الخير والهدى، وجواذب طريق الشرّ والضلال، في التأثير على الإنسان.

وعندئذٍ تكونُ الإرادة المقترنة بالْقُوَّةِ الإدراكيّة الواعية في المخلوق الممتحن هي المرجّحة في السَّير في طريق الخير والهدى، أو السَّيْرِ في طريق الشرّ والضلال، خلال رحلة الامتحان، في مسيرة الحياة الدنيا.

والتمكين الّذي أعطاه الله جلّ جلاله وعظم سلطانه، لإبليسَ وجنُوده، دون أن يكون لهم سلطانٌ جَبْرِيٌّ على العباد الموضوعين موضع الامتحان، يتلخّص بأرْبَعةِ مجالات:

المجال الأول: هو المجال الإعلامي الدّعائي بالوساوس والتسويلات وأنواعٍ لا تُحْصَرُ من زُخْرُف القول.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ خطاباً لإبليس:

﴿. . وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ . . ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾: أي: واعْمَلْ بوسائِلِك الصوتية الإعلاميّة لتَسْتَفِزَّ بها مَنْ تَسْتَخِفُّ منهم، فَتُنْهِضَهُ من مكان استقراره، وتجعلَهُ يَتَّبِعُكَ برعونة.

يقال لغة: اسْتَفَزَّهُ الخوف، أي: استخفَّهُ فأنهضه. ويقال: اسْتَفَزَّ

المنادي قومَه، أي: أثارهم وأزْعَجَهُمْ بنِدائه، وجعلهم يَنْهَضُونَ ويَنْشَطُونَ لتلبية النداء. ويُقال: اسْتَفَزَّه، أي: استخفَّهُ بالمخيفات والمفزعات، واستخْرجَه وخَتَلَه حتّىٰ ألقاه في مَهْلكة.

ومن الملاحظ أنّ شياطين الإنس الّذين يتلَقَّوْنَ بالإيحاء من شياطين الجنّ تعليماتهم، ويُضِيفون إليها إضافاتٍ لا يَسْتَطِيعُها أولياؤهم من الجنّ، قد استخدموا في هذا العصْر وسائل الإعلام المختلفة، للإغراء والإغواء والتضليل والإخراج عن صراط الله، والسَّوق إلى سُبُل الجحيم، وهي جميعها تدخل تحت عنوان «الاستفزاز الصَّوْتي».

ويَدْخل في الاستفزاز الصوتي كُلُّ وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمشاهدة، إذ القاعدة الأولى لكلّ ذلك: زُخْرُف القولِ الذي يطْلَقُ بالصوت.

المجال الثاني: جمع الجنود والأعوان والأنصار للإغراء والإغواء، من شياطين الجنّ والإنس.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين: ﴿. . وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَأَجْلِبْ﴾: يقال لغة: أَجْلَبَ العدوُّ على عَدُوّه، أي: جَمعَ جنُوده وأنْصارَه وأعوانه، لتحقيق غايته.

﴿بِخَيْلِكَ﴾: أي: مُتَقَوّياً بخيلِك، وذكر الخيل كناية عن الفرسان، أي: متقوياً بفُرْسانك الّذين يقاتلونَ على الخيول.

﴿وَرَجِلِكَ﴾: فيها قراءتان: «رَجْلِكَ» بإسكان الجيم و «رَجِلِكَ» بكسر الجيم، أي: ومتَقَوّياً بالجنود المشاة على أرجلهم.

وقد كانت جيوش المحاربين تتألّف من مقاتلين فرسان يمتطون

الخيول، ويقاتلون وهم على ظهورها، وهم القوّة الأشد، ومن مقاتلين رِجالٍ يمشُونَ على أرجلهم، يقاتلون حينما تلتحم الصفوف.

والمعنى: واجْمع لتحقيق ما عزمْتَ عليه من إغراءِ وإغواء كُلِّ قواتك، فعبارة: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ كنايةٌ عن تمكينه من جمع كُلّ قوّاته الّتي يستطيع جَمْعَها.

ومن الملاحظ أنّ جنود إبليس من الإنس يجْمَعُون قوّاتٍ عظيمة، ويبذلُونَ في جمعها أموالاً كالجبال للقيام بمهمات الإغراء والإغواء والإضلال، للإبعاد عن صراط الله المستقيم والإخراج منه.

المجال الثالث: المشاركة في الأموال والأولاد.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين:

﴿. . وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ . . ﴿٦٤﴾﴾.

أمّا مشاركة إبليس للناس في الأموال فتكون بإغرائهم حتى يأكلوا أموال بعضهم بالباطل، وحتى يَسُنُّوا قوانين طاغوتية تخالف شريعة الله لعباده.

ومن أمثلة هذه المشاركة الّتي ظهرت في النّاس البنوك الربويّة، التي يُغْري شياطين الجنّ والإنس الناس بالتعامل عن طريقها، حتى أمست أمْوالُ معظم الناس في أيدي أصحاب هذه البنوك، يتصرّفون بها على مناهج إبليس، وهذه من مشاركة الشيطان بمناهجه للناس في أموالهم.

ومن أمثلتها أيضاً المضاربات المحرَّمة، والاحتكارات، والغش، وأنواع القمار، وقرارات التأميم الاشتراكية والرشوات والسرقات.

فقد صار الشيطان شريكاً للنّاس بمناهجه المخالفة لصراط الله المستقيم، في معظم أعْمالِ اكتساب المال وجمْعِه ومَنْعِه.

وأمّا مُشارَكَتُه للناس في الأَوْلاَد، فتكونُ بإغرائهم حتَّىٰ يخالفوا صراط الله المستقيم، فيما زَيَّنَ الله لهم من حبّ الشهوات من النساء والبنين.

ومن الملاحظ أن دَعَواتِ إباحيَّة الجنس، وانتشارَ هذه الإباحيّة في العالم، بتأثير الدّعاة المنتشرين الداعين إليها، قد أمست لعبة شياطين الجنّ والإنْسِ في عالمنا المعاصر، وقد كان لهم نظراء في مختلف أُمَمِ الأرض وشُعُوبها في العصور الغوابر.

وممارسة الناس الإباحيات في هذا المجال، هي من مشاركة إبليس لهم في أولادهم الّذين يولَدُونَ من غير طريق الزواج الذي شرعه الله عزّ وجلّ للناس.

المجال الرابع: مواعيد إبليس وجنوده للناس القائمةُ على التغرير بهم، لاستدراجهم إلى مهالكهم، أوْ إزلاقهم إلى نكد الحياة الدنيا ومتاعبها، والحرمانِ من سعادة النفس، وراحة الضمير، ثم إلى عذاب الله يوم الدّين.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين:

﴿وَعِدْهُمْۚ﴾: أي: وَزَيّن لهم بما تقدّم لهم من وعود كاذبَة الابتعادَ عن صراط رَبِّكَ المستقيمِ لعباده.

وفي تحذير الله عزّ وجلّ النّاسَ من مواعيد الشيطان الكاذبة، قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾:

الغرور: الخداع والإطماعُ بالباطل.

ومن أمثلة وعد الشيطان للإنسان أن يوسوس له بأنَّ المال هو وسيلة

السّعادة في الحياة، فيغترّ الإنسان بهَذِه الوسوسة، فَيَسْعَىٰ في جمع المال من كلّ وسيلة محرّمة، يكون فيها ظالماً آثماً معتدياً.

ومن الأمثلة أن يخوّفه من البذل في وجوه الخير ابتغاء مرضاة الله، حتَّىٰ لا يفتقر فيكون عالةً على غيره، وأَنْ يُغْرِيه بالبذل في الشهوات واللّذّاتِ وتحقيق الأهواء، لاغتنام مُتَعِ الحياة الدّنيا قبل أن يأتيه الموت المحتوم.

ومن الأمثلة أن يَعِدَهُ بالظفر بمجد السُّلْطَان والْعُلُوّ في الأرض، إذا أقام الحروب، أو انتمىٰ إلى دولة كافِرَةٍ عظمى، أو انتمىٰ إلى جماعة سِرِّيَّةٍ لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، إلى غير ذلك من وعود لا آخر لاحتمالات صورها.

ولقد انطلق الشيطان في هذا المجال انطلاقاً واسعاً يَعِدُ الناس ويُمَنِّيهم بالغرور.

فقول الله عزّ وجلّ التحذيريّ: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: وما يَعِدُهُم الشيطان إلاَّ وَعْداً غروراً، خداعاً وإطماعاً بالباطل.

«غروراً» صفة لموصوف محذوف هو مصدر «يَعِدُهُمْ». وقَدْ جاء الوصف بالمصدر للمبالغة، حتَّىٰ كَأَنَّ الْوَعْدَ هو غرور، من شدَّة ما فيه من تغرير وخداع وإطماعٍ بالباطل.

وبعد البيان السابق قال الله عزّ وجلّ لإبليسَ اللّعين:

﴿.. إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ .. ﴿٦٥﴾﴾:

أي: إنّ عبادي الّذين يستعيذون بي، ويَحْتَمونَ بحمايتي مؤمنين بي، ليس لك عليهم سلطانٌ تؤثر به عليهم، لأنني سأوَفِّقهم إلى تحقيق نهاية سعيدة.

ويمكن أن نفهم من هذا النص ما يلي: إنّ عبادي كلّهم لا أجعل لك

سُلطاناً جبريًّا عليهم، تلْغي به إراداتهم الحرّة، ولا يكون منك لهم أكثر من اتخاذ الوسائل الإغرائية غير الإكراهية.

ونجمع بين هذا النصّ وبين النصّ الذي في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

بأن النَّصّ الذي في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) يُرادُ به السُّلطانُ الجبريّ، وهو مقدار من القوّة يُلْغِي حُرّية إرادة الإنسان تجاه الْعَمل الذي يريد الشيطان استدراجه إليه، وإيقاعه به.

وبأنّ النّص الذي في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) يُرادُ به الانقيادُ الطَّوْعيُّ، الذي يطاوع به الغاوي الشيطانَ في قيادته له، أو سوقه له، حتّىٰ يَسِير في السُّبُل المغرية الموصلة إلى عذاب الجحيم.

وأخيراً علّم الله عزّ وجلّ عبادَهُ اتّخاذَ سَبَبِ التّوكُّل عليه، لحماية أنفسهم من تأثير الشيطان عليهم، فقال الله تعالَىٰ في آخر النصّ:

﴿..وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

أي: فتوكَّلُوا على رَبّكُمْ يَحْمِكُمْ وَيَحْفَظْكُمْ من إغواء الشيطان لكم، وكفىٰ به وَكِيلاً لِمَنْ تَوَكَّلَ عليه وجاء الخطاب بأسلوب الخطاب الإفرادي والمراد جميع الصالحين للخطاب.

* * *

(د)

وصيّة الله لآدم وزوجه قبيل إدخالهما الجنة

كان إدخال آدم وزوجه الجنّة إدْخالَ امتحانٍ واختبار، لا إدخال خلود وجزاء، وقد جعَل الله عزّ وجلّ الجنّة السّكن الخالد الأبديّ للمؤمنين

المتقين، ولا ينكشف الإيمان والإسلامُ وطاعة الله في أوامره ونواهيه إلاّ بعد الامتحان.

ولمّا عصيا فأكلا من الشجرة الّتي نهاهما الله عنها بتأثير وساوس إبليس وتسويلاته، وإزلاقاته، أخرجهما الله من الجنة، وأبانَ لَهُما ولذرّيّاتهما أنّ دخول الجنة للخلود في نعيمها لا يتحقّق إلاّ لمن آمن وأسلم واتّقىٰ ولو من أدنى درجات التقوىٰ، ولم يُشْرِك بربه شيئاً.

وقد أوصى الله عزّ وجلّ آدم قبل إدْخاله الجنّة بوصيّة حذّرَهُ فيها من إبليس اللّعين.

■ وقد جاء بيان هذه الوصية بقول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

دلّت «الفاء» الّتي للترتيب مع التعقيب في: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ على أنّ هذا القول لآدم قد كان عقب إباء إبليس أن يُطيع الله في السجود لآدم.

ولا بُدّ أن نفهم أنّ هذا الإباء يُرادُ به الإباءُ الّذي اسْتقَّر عليه إبليس بعد آخر جلْسَةٍ من جَلَسَاتِ مُحَاكمة الله له، والّذي استقَرَّ بناءً علَيْه حُكْمُ الله عليه بالإخراج والإهباط والطّرْد، ولعْنَةِ الله المنصبَّة عليه، وحكْمِ الله عليه وعلى من اتّبعَه بأنّ جهنّم جزاؤهم جزاءً مَوْفوراً.

لقد حذّر الله عزّ وجلّ آدم وزوجه الّتي اشْتَقَّها مِنْ ضِلَعٍ من أضلاعه، مِنْ مكايد إبليس، وأبانَ لآدم أنّه عدُوٌّ له ولزوجه، لأنّها في تكْوِينها جزءٌ مستخرجٌ منه، فعدَاوة إبليس له تَسْرِي لزَوْجه، وفي بعض النّصوص الأخرى، أبان الله عزّ وجلّ عداوة إبليس لآدَم ولكلّ ذُرّيته.

والعدوّ الّذي كانت عداوتُه بسبب أُمورٍ أَفْضَتْ بِهِ إلَىٰ العذاب الخالد في الجحيم، لا يُريد بِعَدُوّه إلاّ السوء والشّر، والمصير الأبديَّ في الْعَذاب معه، لِيَنالَ مثْلَ عذابه. أو أشدَّ مِنْ عذابه.

● قوله تعالى لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ يَدُلُّ على وجود مطويٍّ محذوفٍ، وعَدَ الله عزّ وجلّ فيه آدم أن يُدْخِلَهُ وزوْجَهُ الجنَّةَ دُخول ابتلاء، لا دُخول خلودٍ وبقاء، ويمكن تقديره بما يلي:

وقُلْنَا يا آدمُ سَنُدْخِلُكَ وَزَوْجَكَ الجنَّة دُخُول ابتلاء، فإذا دَخَلْتُما فيها فلا تمكِّنَا إبْلِيسَ مِنْ إغوائِكُمَا، وإيقاعِكُما في معصيَةِ رَبِّكُما، فَيَتَسَبَّبَ في إخْراجِكُمَا من الجنَّةِ عُقُوبة لكُما، وعِنْدَئذٍ تتعرَّضُ يا آدم لتحمُّلِ الشقاء ومتاعِبِهِ في الأَرْض، وتتحمل زوْجُك وذُرّياتكُما فيها مثل ذلك.

وفي هذا إعْلاَمٌ ضِمْنِيٌّ، بأَنَّ مَعْصِيَتَهما لأوامر الله ونواهيه وهما في الجنّة عقابُه الإخراج منها إلى الأرض.

الشقاء: يُطْلَق على كلّ ما لا يَسُرُّ الإنسان من أمور، وعلَىٰ ما يُخالفُ رغبته ومطلوبه، من أدنَىٰ المكَارِهِ إلى أشَدّ المؤلمات.

والمراد بالشقاء في الحياة الدّنيا على ظهر الأرض، ما فيها من متاعب الكدّ والكدح في العمل لاكتساب الرزق، وما فيها من متاعب الأوجاع والأسقام، وتحمُّلِ مَكارِهِ القلق والخوف والهم والحزن ونحو ذلك.

ولمّا كان الرّجل هو المسؤول الأوّل عن كسب رزقه ورزْقِ أسْرَته على ظهر الأرض، قال الله عزّ وجلّ لآدم: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ ولم يَقُلْ له فَتَشْقَيَا، أي: فستُضطر لأن تكون الأكثر تحمُّلاً لعناء الكدّ والكدْحِ في العمل لاكتساب رزْقِك ورزقِ أسْرَتك.

■ وأبان الله عزّ وجلّ لآدم ميزة بقائه في الجنَّة إذا حافظ على طاعة الله فيها، وتُلْحَقُ به زَوْجَتُه، فلم يعصيا ربّهما، فقال له في سورة (طه) أيضاً:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾: أي: ولا يَمَسُّكَ فيها حرُّ الشَّمس، يقال لغة: ضَحِيَ يَضْحَىٰ ضَحْواً، وضُحُوّاً، وضُحِيًّا، وضَحاً، أي: أصَابه حرُّ الشمس.

إنّه بَعْدَ أَنْ يسْكُنَ الجنَّةَ الخاليَةُ من عوامل الأوجاع والأسقام، مع زوجته التي يسْكُنُ إليها، ويأنَسُ بها وتأنَسُ به، لا يكون له من مطالب العيش إلاّ المطالب الأربعة الّتي ذكرها الله له:

المطلب الأول: أن لا يجوع، فالطّعامُ في الجنّة وفير لا ينْفَد.

المطلب الثاني: أن لا يَعْرَىٰ، فاللّباس الفاخر الفارة في الجنّة كثير.

المطلب الثالث: أن لا يَظْمأ، فالماء وأنواع الشراب اللّذيذ الأخرى لا تنفد.

المطلب الرابع: أن لا يضحَىٰ، فلا تَمسَّهُ فِيها حرارة أشعة الشمس، إذ الجنّة ظلٌّ ظليل دائم، ونفي التأذّي بحرارة الشمس يدُلُّ على نفي التأذي بالْبَرْدِ عن طريق اللّزوم الذهني، وقد جاء في القرآن التصريح بأنه ليس فيها زمهرير.

وهذه قصوى مطالب الجسد في حياة الامتحان، وقد سبق أن علمنا أنّ دخول آدم وزَوْجِه الجنَّةَ، قد كان دخول ابتلاء، لا دخول جزاء وبقاء.

(هـ)
بيان إسكان الله آدم وزوجه الجنة وبيان ما أباحه وما حرّمه عليهما

(١) جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن إسكان الله عزّ وجلّ آدم وزوجه الجنة، بيانُ ما قاله الله تعالى لآدم، مقتطعاً من الحدث نفسه، وفْقَ الأسلوب الذي انفرد به القرآن.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾.

﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ تَضَمَّنَتْ هذه العبارة التوجيه لآدم وحواء أن يَسْكُنَا الجنَّةَ، وتَضَمَّنَتْ تَزْويجَ الله آدم من حواء بعقد زواج صادر عنه جلّ وعلا، أخذاً من عبارة: ﴿وَزَوۡجُكَ﴾.

﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾: أي: فَكُلَا عَقِبَ دُخولِكُما من أيِّ مكان في الجنَّة شئتما، ما يُؤكل من ثمراتها وطيباتها.

﴿. . وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: في هذه العبارة نهاهما الله جلّ جلاله عن أن يأكُلا من شجرة مُعَيَّنةٍ، أو من صنف من أصناف الشجر والله أعلم، ومبالغةً عن أن لا يأكلا منها نهاهما عن أن يقرباها، حمايةً لهما من الانزلاَق إلى المعصِيَة فيأكلا منها.

ودلّ هذا النهي مع الحكم عليهما بأنهما سيكونان من الظالمين إذا أكلا منها، على أن إدخالهما الجنَّة قد كان إدخال ابتلاء، لا إدخال خلود وبقاء.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: فتكونا من الظالمين لأنفسكما بمعصِيَتكما، وظُلْمُكما هذا يُسَبِّب لكما الإخراج من الجنّة، والإهباط إلى الأرض، الّتي تتحمّلان فيها متاعب الامتحان الأشدّ أنتما وذرِّيّاتكما.

دلّت على هذه المطويات نُصُوصٌ أخرى، مع النظر إلى واقع الحياة الدنيا.

(٢) وجاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾.

● فجاء هذا النصّ بأسْلُوب حكاية قولٍ مضىٰ: ﴿وَقُلْنَا﴾ للإشعار بأنّ نصّ (الأعراف) قد جاء نصًّا مقتطعاً من الحدث الماضي.

● وجاء في سورة (الأعراف): ﴿فَكُلَا﴾ للدّلالة على أنّ الإذن لهما بالأكل من الجنة لا يحتاج انتظار شيءٍ من الأشياء، بل لهما مباشرة الأكل عقب الدخول فوراً، لأنّهما سيَصِلاَنِ عَقِب الدخول إلى ما يُؤكَلُ فيها.

● أمَّا في سورة (البقرة) فجاء: ﴿وَكُلَا﴾ للدلالة على الإباحة المطلقة، سواءٌ أكان الأكل عقب الدخول أم بعد ذلك على ما يشاءان.

● وجاء نصّ (الأعراف): ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

● وجاء نصّ (البقرة): ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

رَغداً: أي: كثيراً طَيِّباً مُتَنَوِّعاً رَفِيهاً، أي: وكُلاَ منها مأكولاً رَغداً كثيراً طيباً مُتَنَوِّعاً رَفِيهاً.

فأضاف نصّ (البقرة) وصْفَ المأكول في الجنَّةِ بأنّه رَغَد.

(و)

مكايد إبليس الشيطان لهما في الجنّة

(١) جاء في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾:

﴿فَوَسْوَسَ﴾: الوسوسةُ في اللُّغَة: الصَّوْتُ الخفيُّ، والوسْوسَةُ والْوِسْوَاسُ: حديث النفس.

ووساوس الشيطان الذي يجري من ابْنِ آدم مجْرَىٰ الدّم، تَأتي على صورة خواطر تُزَيِّن فِعْل الشرّ والإثم، لحمْلِ الإرادة على التنفيذ. ولا نَدْري

كيف وسْوَس الشيطان إلى آدم، وقد يكون قد ظهر له بصورة مَلَكٍ من الملائكة، أو بصورة جنّيٍّ من الصالحين، أو غير من شَكْلِه تَنَكُّراً والله أعلم.

ويظهر أنّ ما تضمّنه هذا النصّ هو بِداية الحركة الكيديّة الإغرائيّة من إبليس الشيطان بالوسوسة، الّتي اتَّخذَت أسلوباً غير مباشر، حتَّىٰ تَصِل إلى مراكز التأثير في نفس آدم، بدليل استخدام حرف الجرّ «إلى» في قول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. حرف الجرّ «إلى» يدلُّ على بُعْدِ مَا بين بدء الحركة والوصول.

وجاء الحديث في هذا النصّ عن آدم منفرداً عن زوجته، وذكر الله عزّ وجلّ فيه إبليس باسمه الوصفيّ الجديد «الشيطان» المأخوذ من فعل «شَطَنَ» بمعنى بَعُد، والمأخوذِ من الشَّدّ بالشَّطَنِ، وهو الحبْلُ الّذي يُدَلَّىٰ بِه الدَّلْوُ إلى البئر. وقد استحق إبليس هذا الاسم الوصفيَّ الجديد إذْ قَدْ هيّأَ نفسه للإغراء والإغواء والإضلال عن صراط الله المستقيم، وممّا لا شكّ فيه أنّ إبليس قد صار بذلك بعيداً عن الحقّ، مطروداً من دائرة رحمة الرحمن الواسعة، ومُبْعِداً عباد الله عن الصراط المستقيم بوساوسه وتسويلاته، وهو يَتَّخِذُ حبائل كثيرة يُدَلّي بها عباد الله إلى جحيم المعاصي والآثام، حتّىٰ حضيض الكفر بالله جلّ جلاله.

وحين تكون الدعوة إلى الإثم والعصيان وسوسةً في الصدر من مُحَدِّثٍ غير مَرْئي، فإنّ الإنسان يَشْعُر بأنّها من قبيل حديث نَفْسِه لذاتها، وهذا أَدْعَىٰ إلى الاستجابة والاندفاع إلى ما تَدْعُو إليه الوسوسة.

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

بدأ إبليس الشيطان آدَمَ بأسْلوبٍ استدراجي، تجاهَلَ فيه أنّه يَعْلَمُ أنّ الله عزّ وجلّ نَهاهُ وَزَوْجَهُ عن أنْ يأكُلاَ من الشجرة، فقدَّم إغراءه له بأسلوب العرض الاستفهاميّ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾ وأوْهَمَهُ أنّه لا يعْلَم شيئاً عن قصّة

الشجرة المحرّمة عليهما، وأنّه خالي الذهن من هذه القضيَّة تماماً، وأنَّه حريصٌ على نُصْحِه، فهو أسْبَقُ منْهُ وُجوداً، وأعْلَمُ بحقائق كثيرٍ من الأمور، وبصِفاتِ الأشياء وخصَائِصها، وأغراه بالخلْدِ في الجنَّة، بحياةٍ أبديَّةٍ دائمة لا تنقطع مع نَعِيم عظيم ومُلْكٍ لا يَبْلَىٰ وَلا يفنى.

أمّا الخلْدُ فبتَأْثير عَنْصُرٍ أو مجموعة عناصر تشتمل عليها شجرة الْخُلْد، وسمَّاها إبليس شجرة الخلْدِ قَبْلَ أَنْ يَدُلَّ آدم عليها، لإشْعَارِه بأنّ هذا الاسم الوصفيّ هو اسْمُهَا المعروف عند أهل الملأ الأعلى، وهي شجرةٌ من أشجار الجنَّة.

فاستَثَار إبليسُ بهذا العرض طَمَع آدم وتَشَوُّقَه لمعرفة هٰذِه الشجرة، حتّىٰ يأكُلَ منها.

ومعلومٌ أنّ النفس الإنسانيّة متَىٰ تعلَّقَتْ بمَجْهولٍ فيه مطْلَبٌ عظيم من مطالب النفس، أخَذَتْ تَغْلِي مراجِلُها للتَّعرُّفِ عليه، والوصول إليه، واستعماله لتحقيق مطلوبها العظيم.

وهذا هو أسلوبُ التَّشْوِيق للرَّبْطِ والإزلاق.

وأمّا الملْكُ الّذي لا يبلىٰ، أي: لا يفنىٰ ولا يهترئ كما تَبْلَىٰ الثياب، فهو فيما يظْهَرُ إغراؤه بسلطانٍ دائم على ذُرّيَاته الّذين يتناسَلُونَ منه فيها، بعْدَ أن يأكُلَ من شجرة الْخُلْد فيكون من الخالدين، وإغراؤُه بسلطان دائم على أهل الجنة وسكانها من غير ذُرّياته.

بعد هذا التشويق والتعليق للرَّبْط والإزْلاَق، لا بُدَّ أن يكون آدم قد قال لإبليس: نَعَمْ، دُلّني عليها. ولكنّ النصّ سكت عن هذا إيجازاً.

وهنا يأتي دور إبليس في إلْهَاب أشواق آدم للتعرّف على شجرة الخلْد، ومع لهيب الشَّوْق يحْصُل في البصيرة غشاوةٌ وسُلْطانُ هوى، لكنّ هذه الأطوار قد طواها القرآن، لإمكان التوصُّل إليها بالتدبُّر والتفكير العميق.

وندركُ ذهْناً أنّ إبليس اللّعين، لمّا وَجدَ الحالة النفسيَّة لدى آدم ملائِمةً لتعريفه بالشجرة الّتي سمّاها له شجرةَ الخلْدِ، مع أنّها في الحقيقة شجرةُ الطَّرْدِ والإخراج من الجنّة، عَرَّفَهُ بها.

ولمّا عرّفه بها وهي قريبة منه، قال آدم لإبليس: لقَدْ نَهَانَا رَبُّنَا عن أَنْ نأكُلَ مِنْها، فإذا أَكَلْنَا منْها كُنَّا مِن الظالمين لأنفسهم بمعصية الله، وتَعَرَّضْنَا للإخراج من الجنّة.

عندئذٍ استغلّ إبليس حالة التوتر النفسيّ لدى آدم وزَوْجه، وَحالَةَ القلَقِ الناتج عن حرصهما على الخلود وعلى المُلْكِ الذي لا يَبْلَىٰ، وخَوْفِهما من المعصية والإخراج من الجنّة على احتمال أنْ يكونَ هذا النّاصِحُ الموسْوِسُ لهما كاذباً عليهما، في ادّعائه أنّها شجرَةُ الخلد، فاستطاع إبليس أن يختصر الطريق على نفسه، فيَصِلَ إلى الوسوسة لهما معاً ومباشرة.

وهُنَا تأتي دلالة البيان الذي جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا . . ۝٢٠﴾.

كان إبليس يوسوس إلى آدم بأسلوب غير مباشر، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بدليل استعمال حرف «إلى».

فصار يوسوس لآدم وزوجه بصورة مباشرة، دلّ عليها استعمال حرف اللّام في: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ مع استعمال الضمير العائد على آدم وزوجه.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾: أي: ليُظْهِرَ لَهُما.

﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾: أي: مَا سُتِرَ وأُخْفِي عَنْهُما من سَوْءَاتِهِما.

كان إبليس اللّعين يعْلَم أنَّ الأكْلَ من هذه الشجرة المحرّمة، سيكون

من آثاره السببيّة في جلودهما تَساقُطُ ما كان يسْتُرُ جلودهما من كُسْوَةٍ عليها.

وبتساقُطِ هذه الكُسْوَةِ السَّاترة تنكَشِفُ سوْآتهما، وتظهر عليهما آثار مَعْصِيَتهما، إذْ لكلّ معصية آثارٌ تظهر بحسَبِ سُنَنِ الله السببيَّة، وحين تظهر لهما سوْآتهما ينكشِفُ لهما أنّ إبْليس خَدَعَهُما، وغرَّرَ بهما، وكان أقوى مِنْهما بمخادعته وحيلته، وأنَّه شَفَىٰ غيظه منهما.

وبهذا يتَسنّىٰ لإبليس أن يدّعيَ أنّه قد كان معذوراً في رفضه السجود لآدم، فعلَىٰ آدم وزوْجِه أن يتحمَّلا نتائج معصيتهما إخراجاً من الجنّة، وإهباطاً إلى الأرض، كما طُرِدَ هُو بمعصيَته من منازل أهل الملأ الأعلى من الملائكة.

وأدرك إبليس اللّعين أنّه متَىٰ انكشَفَت سَوْآتُ آدم وزوْجه المادّيّة، انكشفت بانكشافها سوْآتهما النفسيّة الّتي من جبلّتِها الميلُ إلى المعصية بتأثير الأهواء والشهوات والرّغبات.

كان إبليس مُتَلَهِّفاً لأنْ يرىٰ أوّل ظاهرة من ظواهرِ معصيتهما، وهي ظاهرة بُدُوّ سَوْآتهما، وما يصاحبُه مِنْ حزنهما وَآلاَمِهِمَا، وخوفهما من الإخراج من الجنة، فقد سبَق أن حذَّرهما ربُّهما من ذلك.

وسعىٰ إبليس يُزيِّن لهما بوساوسه وتسويلاته أن يأكُلاَ من الشجرة المحرّمة، فقدّم لهما إغراءات كثيرات.

ويظهر أنّ إغراءاته لهما لم تؤثر عليهما، حتَّىٰ ظفِرَ بنقطة ضعف لديهما، وهي رغبَتُهما في أن يكون لهما مثل انطلاق الملائكة في السماوات بأجسادٍ نورانية، مع رغبتهما في أن يكونا خالدين فيما هما فيه من نعيم في الجنّة، إذْ هما يَعْلَمان أنّهما في سُكْنَىٰ ابتلاء، لا في سُكْنَىٰ دوامٍ وبقاء.

عندئذ زرع إبليس اللّعين الشَّكّ في قلوبهما حول الغرض من نهي الله

لهما عن أن يأكُلا من الشجرة المحرّمة، وفي بيان هذه الحيلة الإغرائية الشيطانية قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ما نَهاكما رَبُّكما عن أن تأكلا من هذه الشجرة إلاّ مَنْعَ أَنْ تكونا مَلَكَيْنِ نورانيَّيْنِ تنطلقان حيْثُ تَشَاءان في أرجاء السماوات وفي آفاق الجنّة، أوْ مَنْعَ أن تكونا مِن الخالدِين، وزعَمَ لهما في هذا أنّه توجد مخلوقاتٌ حيَّةٌ خالدة، مع أنّ برنامج خطة الله عزّ وجلّ للحياة الأولى تقضي بإماتة كلّ مخلوق حيّ، كما قال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿... كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

فزرع إبليس بهذه الوسوسة الشّكّ في قلوبهما، إذْ أَوْهَمَهُمَا أنّ للأشياء طبائع ذاتيّةً أصليّة ثابتة، والله يخلُقُ من خلالها.

وهذه الفكرة الشيطانية الإبليسيّة القديمة المكَفِّرَة، هيَ الفكرة الّتي سقط في حبائلها الطبيعيون، والملاحدة المادّيون، اغتراراً بأنّ الله عزّ وجلّ جعل تصاريف خلقه مقيَّدة بالأسباب الّتي وضعها هو سبحانه في الأشياء، ليمتَحِنَ عباده في الإيمان به خالقاً من وراء الأسباب، وأنّ الأسباب لا تَزِيدُ على كونها بمثابة قنواتٍ يمُرُّ الخلْقُ الرَّبّاني من خِلاَلها، ولو شاء الله عزّ وجلّ لخلَقَ ما شاء بأمْرِ التكوين، دون أنْ يمُرَّ خلْقُه من قنوات الأسباب، إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فَهُوَ يكون بأمْرِ التكوين، والأسباب سواتر للخلق الرَّباني المباشر للأشياء.

لقد زعم إبليس في وسوسته وتسويله لآدم وزوجه أنَّ عنصر الشجرة المحرّمة يُحَوِّل الآكل منها إلى مَلَكٍ نورانيٍّ يَعْبُر أقطار السماوات بخفّة الأنوار، أو بخفة الأرواح المجرّدة، أو يجعله خالداً يعيشُ أبداً دون أن

يُدْرِكَه الموت، وأوْهَمَهُما أنّ ربّهما لا يُريد لهما أن يكونا ملَكَيْن، أو من الخالِدين، فحرَّمَ عليهما أن يأكلا من هذه الشجرة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ قبول هذا التصوُّر يوقع في معصيَتَيْنِ هُما من أكبر الكبائر، فإنْ قَبِلا فكرة أنّ الشجرة ذات عُنْصُرٍ ذاتِيٍّ فَعَّالٍ في أن يكونا مَلَكَيْن أو يكونا مِن الخالِدِين، فقد جعلا طبائع الأشياء شُرَكاء لله عزّ وجلّ في رُبوبيته.

وما أظنّ أنّ آدم وزوجه قد سقطا في هذه الكبيرة الشركية.

وإنْ تصوّرا أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل في هذه الشجرة هذه الميزة الخاصة، وأنّه حرَّم عليهما الأكل منها لئلا يكونا ملَكَيْن أو يكونا من الخالدين، فقد وقَعا في غفْلَةٍ عن أنّ الله جلّ جلاله مُطَّلِعٌ عليهما، عليم بكل حركة يتحرّكانها، وبكلّ سكَنَةٍ يسْكُنَانها، وأنه لو كان لهذه الشجرة هذه الميزة بخَلْق الله، والله لا يُرِيد أن يكونا مَلَكَيْنِ أو يكونا من الخالدين، فإنّه جلّ جلاله لا يُمَكِّنُهُمَا من الأكْل منها بصورة جبرية، أو بوسيلة من وسائله القهرية.

والذي أوقَعَهُما في هذه الغفلة القبيحة شِدَّة رَغبتهما في الخلود، أو في أن يكونَا مَلَكَيْن، ومعلومٌ أنّ شِدَّة الرَّغْبَةِ تتحوّلُ إلى هَوىً، ومِنْ شأن الهوى أن يُغَشِّيَ على مراكز التفكير السليم.

ولم يُصَدّقْ آدم وزوجه هذه المقولة الإبليسيّة الشيطانية، وبقيا حَذِرَيْن خائفين من السقوط في المعصية.

ويَبْدُو أنّ آدم طلَبَ من إبليس أن يُقْسِمَ بالله على أَنَّ ما يقوله حقٌّ، فوجد إبليس هذا فرْصَةً مواتية ليقسم الأقسام المغلّظة على أنّه من الناصِحين لهما.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وشدّدَ القسم لهما، لأنّ صيغة «فاعل» تدلُّ على المشاركة مثل: «قَاتَل» فإذا كان الفِعْلُ من طرف واحد، كانت الصيغة دالَّةً على المبالغة في الفعل، ومع التشديد في القسم أكّدَ إبليس ادّعاءه بأدوات التوكيد المتعدِّدة: «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللاّم المزحلقة ـ تقديم المعمول على عامله».

فاستجابا له بعض استجابة، كالاقتراب من الشجرة، فأحسّ إبليس بأنه سيظفر بإغوائهما، فتابع مَكيدته الاستدراجية شيئاً فشيئاً، خطوة فخطوة، هذه المكيدة قد جاء التعبير القرآنيُّ عنها بقول الله تبارك وتعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ... ﴿٢٢﴾﴾.

يُقال لغة: دلَّىٰ الدَّلْوَ وَأَدْلاه، إذا أَرسَلُه في البئر بشَطَنِه، أي: بحبله، ويُقالُ: دلَّىٰ الشيءَ في الْمَهْوَاة، أي: أَرْسَلَهُ فيها.

أي: فربطهما بشطَنٍ من أشطانِه الإغرائية الكاذبة، ودلاّهما في بئر المعصية، كما يُدَلَّىٰ الدَّلْو في بئرٍ ما شيئاً فشيئاً، مُغَرِّراً بهما، خداعاً وتلبيساً وإطماعاً بالباطل، ورُبّما قال لهما: لا تأكُلاَ من الشجرة، ولكن ذوقا طعمها بألْسِنَتكما.

هذه التدلية هي الوسيلة الشيطانيّة المتّبعةُ عند جميع شياطين الجنّ والإنس، من بعد إبليس، وهي المعبّر عنها بأسلوب: «خطوة فخطوة» فحيلة الإغواء الكبرى هي حيلة التدلية بالخطوات المتتاليات، خطوة فخطوة.

وهنا يأتي قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ . . ﴿٢٢﴾﴾ .

وهنا نتساءل: هل ألْقَيَا ما وضعاه على ألسنتها منها بَعْدَ الذّواق أم أَكَلاه وابْتَلعاه؟.

ويأتي البيان الرّبّانيّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) فيكْشِف أنهما قد أكلاه، قال الله عزّ وجلّ فيها

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ ﴿١٢١﴾﴾ .

﴿سَوۡءَٰتُهُمَا﴾: **السَّوْأة**: هي العَوْرَة، القُبُل والدُّبر، وكُلُّ عمل وأمْرِ قبيح شائن، والْخَلَّةُ القبيحة.

﴿وَطَفِقَا﴾: أي: وَشَرَعا عنْدَ بُدُوِّ سَوْآتهما.

﴿يَخۡصِفَانِ﴾: أي: يُلْصِقان على سوْآتهما ﴿مِن وَرَقِ﴾ أشجار ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ لِسَتْرِ ما بدا منهما من سَوْآتهما الّتي كانت مكْسُوَّةً بخلْق الله بما يسْتُرُها.

ودلّ البيان القرآني على أنّهما ابْتَعدا عن مَسْرَحِ المعصيةِ، فَارّيْنِ إلى أمَاكِنَ أخرى في الجنّة، ليْسَ فيها صنف الشجرة المحرّمة، كما سيأتي بيانه.

(ز)

محاكمة الله لآدم وزوجه على معصيتهما والحكم عليهما بالهبوط إلى الأرض

(١) جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ بعد بيان أنّهما ذاقا الشجرة، وبدَت لهما سَوْآتهما، وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهما من وَرَق الجنّة:

﴿. . . وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾:

لَقَد ابْتَعَدَا عن الله عزّ وجلّ فَاسْتَحَقَّا أن يُنَادِيَهُما نِدَاءً، إذْ جاء التعبير في النصّ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ ولم يأت بأسْلُوبِ: وقال لهما ربُّهما.

وتَبْدَأ مُحاكَمَتُهما بطَرْح سؤالَيْن عليهما:

السؤال الأول:

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؟.

كان التعبير عند النهي عن الأكل من الشجرة المحرّمة مشتملاً على استعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب: ﴿هَٰذِهِ﴾ وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

وبَعْدَ أن أكلا منها وبَدَأت محاكَمَتُهما جاء التعبير مشتملاً على استعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد: «تِلْكَ» وهو قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾.

فدَلَّ هذا الإجراء الْبَيانيُّ، على أَنَّهما ابْتَعدا فارَّيْن عن مسْرَحِ المعصية الّتي تقع فيه الشجرة المحرّمة، وهذا من بديع البيان.

السؤال الثاني:

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؟.

أي: وألم أُحذِّرْكُما من أن يُؤَثّر علَيْكُمَا إبليس الشيطان بالإغراء والإغواء، إذْ هو عَدُوٌّ لَكُما، فيكون بوساوسه وإغراءاته سبباً في معصيتكما، وإخراجِكُمَا بِها من الجنّة؟.

فَلَمْ يكن من آدم وزوجه اعتذارٌ بشيءٍ، ولا مُجَادَلَةٌ لتبرئَة أنْفُسِهما مِنْ مَعْصِيتهما، ولا إصرارٌ علىٰ حَقِّهما في الأكل من الشجرة ولا عناد، بل كان منهما اعترافٌ بذَنْبِهما، ونَدَمٌ، واستغفار، وتَذَلُّلٌ، وسألاَ رَبَّهما أنْ يَرْحَمَهُمَا، فإنْ لم يَرْحَمْهُما كَانَا من الخاسرين.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

فاعترفا بأنّهما قد عَصَيا رَبَّهما، وظَلَما أنفُسَهُما بهذه المعصية، وسَألاَ الله المغفرة والرَّحْمَة، واسْتَعْطَفاه، مؤكِّدَيْنِ بأنّه إنْ لم يَغْفِرْ لَهُمَا وَيَرْحَمْهُما كَانَا حتماً من الخاسِرين، أي: وبما أنَّهُ غفورٌ رحيم فإنّه سيَغْفِرُ لَهُما وَسَيَرْحَمُهُمَا، حتَّىٰ لا يكونا من الخاسِرين الَّذِين خَسِرُوا بكُفْرِهم سعادتَهُمُ الأبَدِيَّة، وعرَّضوا أنْفَسُهُمْ للجزاء العقابيّ العادل.

(٢) وأبان الله عزّ وجلّ أنَّ آدم عَصَىٰ رَبّه، فوقَع بمعصيَتِه الإراديّة في الْغَوَاية، وهي الضلال والابتعاد عن صراط الله المستقيم، ودَلَّ على مَعْصِيَةِ زَوْجه ضِمْناً وَتَبعاً لمعصيته.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾:

﴿فَغَوَىٰ﴾: أي: فَوَقَع في الْغَوَاية، وهي الضلال والخيبة وترك سبيل الرّشاد، والابتعادُ عن صراط الحق والْهُدى.

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا﴾: أي: فأزْلَقَهُما مُبْعِداً لهما عن الجنة، بوسَاوِسِه، وتَسْوِيلاته، واستهواءاته لهما، المتنقلة في الخطواتِ الإزْلاقيَّة، من خُطْوةٍ إلى خُطْوَةٍ أخَسَّ وأحَطَّ.

والمعنى: فأزَلَّهما مُتَسبِّباً في إبعاد الله لهما عن الجنّة بحُكْمِه الجزائيّ عليهما.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: أي: فكان السَّبَبَ في الحكْمِ عَلَيْهِما

بالإخراج مما كانا فيه من نعيم الجنَّة، لأنَّ وُجودهما فيها قد كان وجود امتحانٍ وابْتِلَاء، لا وُجُود دوامٍ وبقاء.

وصَدَرَ حُكْمُ الله عزّ وجلّ عليهما بأن يَهْبطَا من الجنّة إلى الأرض، هما وما أوْدَعَ الله فيهما من ذُرّياتهما، وأنْ تكونَ الأرْضُ مُسْتَقراً وَمَتَاعاً لهم، مقداراً من الزمان يكونُ فيه امتحانُهم، وهو بالنسبة إلى الأفراد، ما قضىٰ الله لكلّ واحدٍ منهم من عُمْر في الأرض، وبالنسبة إلى عموم البشر الّذين يتناسَلُونَ عليها يَسْتَمِرُّ إلى حينِ إنهاءِ ظروفِ الحياة الدُّنيا بقيام سَاعَةِ الإفناء.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

هذان النصّان يَدُلاّن على ما وجّه الله عزّ وجلّ من قول لآدم وزَوْجه، وما أودع فيهما من ذُرّياتٍ سَتَتَناسَل، حتّىٰ آخِرِ مَقْضِيٍّ له بالحياة من البشر.

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: قرار وثبوت.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾: المتاع ما يُنْتَفَعُ به وَالفناء يأتي عليه.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي: إلى زَمَنٍ مَعْلُومٍ لِلَّهِ عزّ وجلّ، وهو ساعة موت كلّ إنسان في أجَلِه المقدّر له بالنسبة إلى الأفراد، وهو يوم قيام ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا بالنسبة إلى عُمُوم البشر.

(٤) وَتَوجّه آدمُ لِرَبّه مُسْتَغْفِراً تَائباً نادماً، سائلاً أن يكَفِّرَ عنه خطيئته

ويَتُوب عليه، فأوحى الله إليه بكلماتٍ يقولُهنّ، ويَعْمَلُ بالتكليف الّذي اشْتَمَلْنَ عليه، فأدّى ما أَمَرَهُ الله به فيها، فتابَ عليه إنَّهُ هو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: فتلقَّىٰ آدم من ربّه كلماتٍ فأتَمَّ الْعَمَل بما أمَرَه الله به فيها، فتاب عليه بفضله ومَنِّه وَكَرَمِهِ، إذْ إنَّهُ هُو التَّوَّابُ الرَّحيم.

تاب: أي: رَجع إلى الطاعة بعد أن عدَلَ عَنْ صراطها. وإذا تاب العبد إلى ربّه توبةً صادقةً تَابَ اللَّهُ عَلَيْه، أي: رجَعَ جَلَّ جلاله يُفيضُ عليه من رحماته وعَفْوِه، وشَمَلَه بجوده وكرَمِه وفضله.

(٥) وبعد أن تاب الله على آدم ومَرَّ زَمَنٌ متراخٍ، اجتباه رَبُّهُ، وهَدَاهُ بما أنزل عليه من بياناتٍ دينيّةٍ يَعْمَلُ بها، وَيُبَلِّغُهَا لِزَوْجه وَذُرّيَاته، فكان بذلك نبيًا ورَسُولاً.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾: أي: اصطفاه واختاره. وجاء فعل «اجتَبَىٰ» في القرآن مستعملاً بمعنى الاصطفاء للنبوّة والرّسالة، إذا كان اجْتِباءً للأفراد.

وجاء مرّةً واحدة بمعنىٰ اصطفاء أُمَّةِ مُحَمَّد بمجموعها لحَمْلِ رِسالته مِنْ بَعْدِه، والمراد أنّهم مسؤولون عند الله عن تبليغ رِسَالته للناس، كما كان الرسول محمَّدٌ ﷺ مسؤولاً عن تَبْليغ ما أَمَرَهُ الله بتبليغه للناس، وأَنَّهم بهذا الاجتباء مَعْصُومُونَ عَنْ أن يَجْتَمِعُوا على ضلالَة.

ونستدلُّ من معنىٰ الاجتباء الوارد في القرآن، على أنَّ آدم عليه السَّلام قد اجْتَباه الله نَبيًّا ورَسُولاً، لأوَّلِ مجتمع بَشَرِيٍّ من ذُرِّيّتِه.

(ح)

الأمر التنفيذي بالْهُبُوطِ إلىٰ الأرض

بعد أن أصدر الله عزّ وجلّ حُكْمَه بإهباط آدم وزوجه وما أوْدَع فيهما من ذُرِّيّاتهما إلى الأرض، ومرَّت مُدَّةٌ تَابَ فيها آدم، وتاب الله عليه، جاء دور إصدار الأمر التنفيذيّ بالهبوط.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

هذانِ النَّصّان متكامِلاَن في الدّلالة على المراد، مع تكامل في الأسلوب البياني.

- فجاء في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ﴿١٢٣﴾﴾.

خطاباً لآدم وزوجه، ولوحظ فيهما ذُرِّيّاتهما بعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) جاء قول الله تعالى:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا . . . ﴿٣٨﴾﴾.

فجاء التعبير باستعمال ضمير المتكلم العظيم: ﴿قُلْنَا﴾ إشعاراً بسُلْطَانِ رُبُوبيّة الرّبّ الحكيم جلّ جلاله، ولوحظ في خطابهما ذُرّيّاتُهما معهما بعبارة ﴿ٱهْبِطُواْ﴾.

● وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾:

أي: فإمّا يأتينّكُمْ مِنّي تَعْلِيمَاتٌ مُنَزَّلاَتٌ تبيّن لكم ديني الّذي اصطفيته لكم، وفيها هدايتكم، فاتَّبِعُوها، واعملوا بما تشتمل عليه من أوامر ونواهي ووصايا.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾: أي: فمن حرص على اتّباع هُدايَ بقوة وعناية والتزام باهتمام.

دلّ فعل ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ بوزن «افتعل» على الالتزام بقوة وعناية، لأنّ هذا الوزن يدلّ على التكلّف وتحمّل مشقة الانقياد والالتزام بالتكاليف الدينية.

﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾: أي: فلا يَضِلُّ عن صراط الله المستقيم، ولا يَضِلُّ في السُّبُل المبتعدة عنه ضائعاً في متاهاتها، ولا يُعَرِّضُ نَفْسَه للمتاعب والمشقّات المشقيات، لأنّ الله جلّت قدرتُهُ وعَظُمَتْ حِكْمَتُه يُهَوِّنُ عليه، ويُدَافع عنه، ويمنح قلبه ونفسه الطمأنينة والسعادة في حياته، وإنْ تعرَّضَ فيها للمكاره.

ويلْزَمُ من ذلك أن يكون من الفائزين الناجين من عذاب الله يوم الدّين، ومن أهل السّعادة الخالدة في جنّات النعيم.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قال الله تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾: هذه العبارة نظير العبارة التي جاءت في سورة (طه) فلا حاجة لتحليلها وشرحها.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾: جاء في هذه العبارة فعل ﴿تَبِعَ﴾ ومضارعه «يَتْبَعُ» على وزن «فَعِلَ يَفْعَلُ» المجرّد من الزوائد.

أي: فَمَن تَبِعَ دون تكَلُّفٍ والتزامٍ بقوّةٍ وعناية، فاختلفت هذه العبارة في دلالتها عن العبارة الّتي جاءت في سورة (طَه) إذْ أبانت أحوالَ زُمَرٍ من المؤمنين لم يُحَقِّقُوا كمال المطلُوب مِنْهُمْ في أن يَلْتَزِموا به في حياة الابتلاء، فكان من المناسب أنْ يكون جزاؤهم في حدود:

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: فلا خَوْفٌ ضَاغِطٌ عَلَيهم يوم القيامة من التعرُّضِ للحريق بعذاب النار، ولا هُمْ يحْزَنُونَ على ما فاتهم من أنواعِ متاعٍ في الحياة الدنيا، لأن ما سينالونه من نَعِيمٍ في الجنَّةِ عظِيمٌ جدًّا، وخالدٌ لا انقطاع له.

ولم يَأْتِ في هذا الوعد أنّه لا يَضِلُّ مُطْلقاً، لأنَّ زُمَر هذا الفريق من المؤمنين قد يَقَعُ في ضلالٍ غير بعيد، وهو ضلال المعاصي والذنوب والخطايا. ولم يأتِ فيه أنّه لا يَشْقَىٰ، لأنّ زُمَرَ هذا الْفَرِيق من المؤمنين قد يَتْعَبُونَ وينْصَبُونَ وَيَشْقَوْنَ في الحياة الدُّنيا، وقد يَشْقَوْنَ بعذابٍ في الآخرة على مقادير معاصيهم، إذْ لم يُحَمِّلُوا أنْفُسَهم كُلفةَ الالتزام بقوة وعناية، بالْهُدَىٰ الّذي جاءهم من الله عزّ وجلّ ببلاغات الرُسُل عنه.

● وَجاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

هذا البيان يتعلّقُ بمؤمن أعْرَض عن ذكر الله، وترك العمل بما جاء

في هُدَى الله المنزل، فكان سلوكُه مشابهاً سلوك الكافرين، فعاقبه الله عزّ وجلّ في الدنيا، فجعل له معيشةً ضَنْكاً.

الضَّنْك: الضيق في كلّ شيء، يستوي فيه المذكر والمؤنث، تقول: عَيْشٌ ضَنْك، ومعيشةٌ ضَنْك، أي: ضيّقةٌ لا سَعَةَ فيها، وقد يكون ضِيقاً نفسيًا، ولو كان المضيَّقُ عليه ذا سَعَةٍ من المال. وقد يأتي هذا الضَّنْكُ من أهله وأسرته وأولاده، أو وسائل كسْب رزقه، أو من أمراض وأوجاعٍ تتراكبُ عليه، أو من غير ذلك.

ويُعَاقِبُه الله يوم القيامة بعد البعث، فيحشُرُهُ أعْمَىٰ، نظير حَشْرِ الكافِرين، لمشابَهَتِه لهم في أعمالهم، فقال تعالى:

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾: أي: على مِثْلِ ما يُحْشَرُ عليه الكافرون، مع أنَّه لم يكن كافراً في الحياة الدنيا.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾؟:

أي: لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ كالكافرين، وقد كُنْتُ في الحياة الدنيا بَصِيراً، أي: مؤمناً غير كافر.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾:

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: مِثْل ذلك الّذي كان مِنْكَ في الحياة الدنيا، والمعنى: حَشْرُك أعْمَىٰ كَحشْرِ الكافِرين مُمَاثِلٌ لما كان مِنْكَ في الحياة الدُّنيا، إذْ إنَّك مع كونِكَ مُؤْمِناً بي لَمْ تَتبَعْ هُدَاي الّذي أَمَرْتُكَ بأن تَتْبَعه، ولم تُؤَدِّ ما أَمَرْتُكَ به، ولَمْ تَنْتَهِ عمَّا نَهيْتُك عنه، وتَرَكْتَ الْعَمَل بآياتي، فَصِرْت في حياتك مثل الكافرين في السُّلُوك.

﴿فَنَسِيتَهَا﴾: أي: فَتَرَكْتَها، وتَرَكْتَ العمل بها، أصل النسيان في اللُّغَة الترك، وتَرْكُ الشيء زمَناً طويلاً يَمْحُوه من الذاكرة، فلا يَخْطُر على البال.

﴿... وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾:

أي: ومثل تركك في الدنيا الْعَمَلَ بآياتِ رَبِّك المنزَّلات المشتملات

على هُداه، تُتْرَكُ اليوم في موقف الحشر فلا يُعْتَنَىٰ بك، وتُعَامَل معاملة الكافرين الذين يُحْشَرُونَ عُمْياً، لقد أغْمَضْتَ عينَيْك عمَّا قَدَّمْنَا من بيانات هداية لعبادنا، فجزَاؤُك اليوم يكون من جِنْسِ عَمَلِك، ولا يُفيد هذا الترك له يوم الحشر أَنَّه يكون من الخالدين في النار كالكافرين.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾:

جاء هذا البيان عقب ذِكْر مَنْ تَبعَ هدىٰ الله دون التزام بقُوَّةٍ وحِرْصٍ وعناية، وَهؤلاء يتَفَاوَتُون في درجاتهم حتى أدنى دَرَجَاتِ المتقين، فالمقابل لهم هم الكافرون الّذين كَفَرُوا بالرَّسُول، وكذَّبُوا بآيات الله، فعقوبَتُهُمُ الحتْميَّة هي أنَّهم أصحاب النار، وأنّهم فيها خالدُون.

* * *

لقد ظهر لنا في هذا الملحق التكامل في النُّصوص الواردة بشأن خَلْق آدم عليه السلام، وما رافق خلْقَه من أحداث، حتّى إهباطه هو وزوجته من الجنّة إلى الأرض.

وقد تمّ لنا من جَمْع النُّصوص وتدبُّرها تدبُّراً تكامليًّا، إدْراكُ أبْرَزِ عناصر ما جرىٰ بصورة تكاملية، وهَدانَا التأمُّل إلىٰ ملء الفراغات المطلوبة من اللّوازم الذهنية، ومقتضيات حركيَّة الحدث الّتي نفهمها من الأشباه والنظائر، والترتيب المنطقيّ لطبائع الأشياء.

وتوجد نصوص أخرى في القرآن تتعلّق بالشيطان، وهي مكملة لما جاء في هذا الملْحق، وتتطلّب دراسة مستقلّة.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه

* * *

وكان الفراغ من كتابة هذا المجلّد في يوم الخميس/ ١٣ رمضان/ ١٤١٩هجرية الموافق لآخر كانون الأول ١٩٩٨ ميلادية.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

(٣٤)
سورة (قٓ)
٥٠ مصحف/٣٤ نزول

(١) نص السورة ٧

(٢) مما ورد في السنة بشأن سورة (قٓ) ١٠

(٣) موضوع سورة (قٓ) ١١

(٤) دروس سورة (قٓ) ١٢

(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٣) ١٥

- ﴿قٓ والقرآن المجيد﴾ ١٦
- ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم...﴾ ١٨
- تحليل بواعث التعجب.. .... ٢١
- تعجب المشركين الوارد في هذا الدرس ٢٢

(٦) التدبر التحليليّ للدرس الثاني، الآيتان (٤، ٥) ٢٦

- ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ ٢٦
- شمول علم الله عزّ وجلّ كلّ شيءٍ من خلال تدبر أربعة نصوص قرآنية ٣١
- ﴿بل كذَّبُوا بالحقّ لمّا جاءهم فهم في أمْرٍ مَرِيجٍ﴾ ٣٥

(٧) التدبر التحليليّ للدرس الثالث، الآيات من (٦ ـ ١١) ٣٧

- نظرة تدبرّية عامة حول العناصر التي اشتمل عليها هذا الدرس ٣٧
- الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالسماء ٣٩
- الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالأرض ٤٠
- نظرات تدبرية تحليليّة لفقرات الدرس الثالث ٤٣
- ﴿أفَلَم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها..﴾ ٤٣

نصوص تزيين السماء للناظرين في الأرض ٤٧

- ﴿ومالها من فُروج﴾ ٤٩

الموضوع **الصفحة**

- ﴿والأرض مددناها..﴾ ٥٠
- ﴿وألقينا فيها رواسي...﴾ ٥١

ما جاء في القرآن بشأن امتنان الله على عباده بالجبال الرواسي ٥١

التعليق حول نعمة إلقاء الجبال الرواسي ٥٢

- ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ ٥٣
- ﴿تبصرة وذكرى لكلّ عبد مُنيب﴾ ٥٦
- ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً...﴾ إلى الآية (١١) ٥٩

وظيفتا آيات الله في كونه ونِعَمِه على عباده ٦٣

- ﴿كذلك الخروج﴾ ٦٣

دلالة تشبيه إحياء الموتى يوم القيامة بإحياء النباتات من نويات بزُورها . ٦٣

(٨): التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤) .. ٧٢

- ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ..﴾ إلى الآية (١٤) ٧٢
- قوم نوح عليه السلام ٧٤
- أصحاب الرسّ ٧٤
- ثمود ٧٥
- عاد ٧٦
- فرعون، قوم لوط، أصحاب الأيكة ٧٧
- قوم تُبّع ٧٨
- ﴿كُلٌّ كذّب الرُسُل فحقّ وعِيد﴾ ٧٩

(٩) التدبر التحليلي للدرس الخامس، وهو الآية (١٥) ٧٩

- ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ ٧٩

صوغ الدليل الذي اشتملت عليه هذه الآية بقياس منطقي اقتراني، أو بقياس استثنائي ٨١

(١٠) التدبر التحليلي للدرس السادس، الآيات من (١٦ ـ ١٨) ٨٤

- ﴿ولقد خلقنا الإنسان..﴾ ٨٥
- ﴿ونعلم ما توسوس به نفسُه...﴾ ٨٦
- ﴿ونحن أقرب إليه من حبْلِ الوريد﴾ ٨٦
- ﴿إذْ يتلقّى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ ٨٧
- ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾ ٨٨

(١١) التدبر التحليلي للدرس السابع، الآيات من (١٩ ـ ٢٢) ٩٢

- ﴿وَجاءت سكرة الموت بالحقّ ذلك ما كنت منه تحيد﴾ ٩٣

الموضوع الصفحة

- ﴿ونفخ في الصور ذلِكَ يومُ الوعيد﴾ ٩٦
- ﴿وجاءت كلُّ نفس معها سائق وشهيد﴾ ٩٨
- ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبَصَرُكَ اليوم حديد﴾ ٩٩

(١٢) **التدبر التحليلي للدرس الثامن، الآيات من (٢٣ ـ ٢٩)** ١٠١

- ﴿وقال قرينة هذا ما لَدَيّ عتيد﴾ ١٠٣
- ﴿ألقيا في جهنّم كلّ كفّارٍ عنيد * منّاع للخير معتد مريب * الذي جعل مع الله إلّهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾ ١٠٧
- ﴿قال قرينه رَبّنا ما أطغيته ولكن كان في ضَلَال بعيد * قال لا تختصموا لديّ وقد قدّمتُ إليكم بالوعيد * ما يُبَدَّلُ القول لدَيَّ وما أنا بظَلَّام للعبيد﴾ ١١٠

(١٣) **التدبر التحليلي للدرس التاسع، الآيات من (٣٠ ـ ٣٥)** ١١٢

- ﴿يَوْمَ نقولُ لجهنّم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد﴾ ١١٣
- ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ ١١٥
- ﴿هذا ما توعدون لكلّ أوّابٍ حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ ١١٦
- ﴿اذخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ ١١٨

(١٤) **التدبر التحليلي للدرس العاشر، الآيتان (٣٦، ٣٧)** ١١٩

- ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن...﴾ ١٢١
- ﴿فنقّبُوا في البلاد هل من محيص...﴾ ١٢١
- ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقىٰ السَّمْعَ وهو شهيد﴾ .. ١٢٢

(١٥) **التدبر التحليليّ للدرس الحادي عشر، الآية (٣٨)** ١٢٤

- ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيّام وما مسَّنا من لُغُوب﴾ ١٢٤

(١٦) **التدبر التحليلي للدرس الثاني عشر، الآيات من (٣٩ ـ ٤٥)** ١٢٧

- ﴿فاصْبر على ما يقولون...﴾ ١٣٠
- ﴿وسبّح بحمد رَبّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود﴾ ١٣١
- ﴿واستمع يوم ينادِ المنادِ من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾ ١٣٣
- ﴿إنّا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ ١٣٥
- ﴿يوم تشَقَّقُ الأرض عنهم سِراعاً ذلك حشرٌ علينا يَسِيرٌ﴾ ١٣٦
- ﴿نَحْنُ أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبّارٍ فَذَكِّر بالْقُرآن من يخاف وَعِيدِ﴾ ١٣٨

الموضوع **الصفحة**

(١٧) الملحق الأول لسورة (قٓ): ١٤٠
مستخرجات بلاغيّة من السورة ١٤٠
(١٨) الملحق الثاني للسورة: ١٤٥
الوصف بالبركة في القرآن المجيد ١٤٧
وصف القرآن بأنه مبارك ١٥١
بيان أن الله قد منح البركة بعض عباده الصالحين ١٥٥
بيان أن الله قد بارك في الأرض ١٦٠
البركة الزائدة التي جعلها الله لأمكنة خاصة ١٦١
البركة التي جعلها في ليلة القدر ١٦٥
البركة في الماء النازل من السماء ١٦٦
البركة في شجرة الزيتون ١٦٦
البركة في التحية التي يسلم المؤمن بها على نفسه ١٦٧

((٣٥))
سورة البلد
٩٠ مصحف/٣٥ نزول

(١) نصّ السورة ١٧١
(٢) موضوع السورة ١٧٢
(٣) دروس السورة ١٧٦
(٤) التدبّر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٤) ١٧٧
- ﴿لا أُقسِم...﴾ تحليل معنى القسم المنفي في القرآن ١٧٩
- ﴿لاَ أُقسِمُ بهذا البلَد * وأنت حلٌّ بهذا البلد﴾ ١٧٩
- ﴿ووالد وما ولد﴾ ١٨١
- ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ ١٨٢

(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (٥ ـ ١٠) ١٨٩
- **تمهيد:** حول آيات هذا الدرس ١٩٠
- ﴿أيحسَبُ أنْ لن يقدر عليه أحدٌ * يقول أهلكت مالاً لُبداً﴾ ١٩٢
- ﴿أيحسب أن لم يرَهُ أحد * ألم نجعل لَهُ عينَيْن * ولِسَاناً وشفتين﴾ .. ١٩٣
- ﴿وَهَدَيناه النجدَيْن﴾ ١٩٤

الحديث عن نوع الإنسان في هذه السورة مع إرادة العموم أو إرادة الخصُوص ١٩٦

الموضوع **الصفحة**

(٦) التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (١١ ـ ٢٠) ١٩٩
- ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ ٢٠١
- ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ ٢٠٢
- ﴿فكّ رقبة﴾ ٢٠٣
- ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة﴾ . ٢٠٤
- ﴿ثُمَّ كان من الذين آمنوا وتواصَوْا بالصبْر وتواصَوْا بالمرحمة﴾ ٢٠٧
- ﴿أولئك أصحاب الميمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نارٌ مؤصده﴾ ٢٠٩

(٧) لطيفة تربوية ٢١١
(٨) نظرة عامّة إلى ما اشتملت عليه السورة ٢١٢
ملاحق لسورة البلد ٢١٧
(٩) ملحق حول بلاغيات في السورة ٢١٧
(١٠) ملحق أصحاب اليمين وأصحاب الشمال في القرآن ٢٢٠

(٣٦)

سورة الطارق

٨٦ مصحف/٣٦ نزول

(١) نصّ السورة ٢٤٩
(٢) ممّا ورد في الحديث بشأن سورة الطارق ٢٤٩
(٣) موضوع السورة ٢٥٠
(٤) دروس السورة ٢٥٢
(٥) التدبر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٤) ٢٥٤
- ﴿والسماء والطارق﴾ ٢٥٤
- ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ ٢٥٥
- ﴿النجم الثاقب﴾ ٢٥٦
- ﴿إنْ كل نفس لمّا عليها حافظ﴾ ٢٥٨
- الأسلوب القرآنيّ في تأكيد الأخبار الغيبية ٢٦٠
- الأسلوب القرآني في تجزئة العناصر الفكرية للموضوع الواحد وتوزيعها في دروس التنزيل ٢٦١
- العلاج النفسيّ بالترغيب والترهيب ٢٦٣

(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (٥ ـ ١٠) ٢٦٤

الموضوع **الصفحة**

- **تمهيد**: ٢٦٤
- ﴿فلينظُر الإنسَانُ ممّ خُلِق﴾ ٢٦٥
- ﴿خُلِقَ من ماء دافق﴾ ٢٦٥
- ﴿يخرج من بين الصُّلْب والترائب﴾ ٢٦٦
- مقرّرات البحث العلمي حول كون الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب ٢٦٧
- ﴿إنّه على رجْعه لقادرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السّرائرُ﴾ ٢٧٠
- ﴿يوْمَ تُبْلى السّرائر﴾ ٢٧٢
- ﴿فَما لَهُ من قوّة ولا ناصِرٍ﴾ ٢٧٣

(٧) **التدبّر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (١١ ـ ١٤)** ٢٧٤

تمهيد: ٢٧٤

- ﴿والسّماء ذاتِ الرجْع﴾ ٢٧٥
- ﴿والأرض ذات الصَّدْع﴾ ٢٧٧
- ﴿إنّه لقولٌ فصل * وَما هو بالْهزل﴾ ٢٧٨

(٨) **التدبّر التحليليّ للدرس الرابع، الآيات من (١٥ ـ ١٧)** ٢٨٠

- ﴿إنّهم يكيدون كيداً﴾ ٢٨١
- ﴿وَأكيد كيْداً﴾ ٢٨٢
- ﴿فَمهّل الكافرينَ أمْهِلْهُم رُوَيْداً﴾ ٢٨٤

ملاحق لسورة الطارق ٢٨٦

(٩) **الملحق الأول**: مستخرجات بلاغية من السورة ٢٨٦

(١٠) **الملحق الثاني**: حول بيان بعض أطوار خلق الإنسان في القرآن ٢٨٧

(١١) **الملحق الثالث**: حول كون الإنسان مراقباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر .. ٣٠٠

(١٢) **الملحق الرابع**: كلمة «يوم» في القرآن مراداً بها يوم الحياة الأخرى ... ٣٠٤

(٣٧)

سورة القمر

٥٤ مصحف/٣٧ نزول

(١) نصّ السورة ٣١٣

(٢) مما ورد في السنة بشأن سورة القمر ٣١٦

(٣) سبب نزول السورة ٣١٧

(٤) موضوع السورة ٣١٨

الموضوع **الصفحة**

(٥) دروس السورة ٣١٩
(٦) التدبر التحليليّ للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٥) ٣٢٢
- ﴿اقتربت الساعة وانشقّ القمر﴾ ٣٢٢
- قضية الساعة واقترابها ٣٢٤
- نصوص قرآنية بشأن اقتراب الساعة ٣٢٦
- ما ورد في السنة بشأن اقتراب الساعة ٣٣١
- شرح قضية انشقاق القمر وما ورد بشأنه في السنة ٣٣١
- ﴿وإنْ يَرَوْا آية يُعْرِضوا ويقولوا سحرٌ مستمر﴾ ٣٣٤
- ﴿وكذّبوا واتبعوا أهواءهم وكلّ أمْرٍ مستقرّ﴾ ٣٣٦
- المكذبون الكافرون وعصاة المؤمنين لن يضرّوا الله شيئاً ٣٣٩
- ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حِجّةٌ بالغة فما تغن النذر﴾ . ٣٤١
- ﴿فتولّ عنهم...﴾ ٣٤٥

(٧) التبدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (بعض الآية ٦ ـ ٨) ٣٤٨
تمهيد: ٣٤٩
- ﴿يوم يدع الداع إلى شيءٍ نكُر﴾ ٣٥٠
- ﴿خُشّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنّهم جراد منتشرٌ﴾ ٣٥٢
- ﴿مهطعين إلى الداع...﴾ ٣٥٣
- ﴿يقول الكافرون هذا يومٌ عَسِرٌ﴾ ٣٥٤
- نظرة عامة حول هذا الدرس من دروس السورة ٣٥٥

(٨) التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (٩ ـ ٤٢) وفيه خمس فقرات ٣٥٦
تمهيد: ٣٥٦
أوّلاً: فقرة إهلاك قوم نوح عليه السلام، الآيات من (٩ ـ ١٧) ٣٥٧
- ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح...﴾ ٣٥٩
- ﴿فكذّبُوا عبْدَنا وقالوا مجنون وازْدُجِر﴾ ٣٥٩
- هل كان نوح عليه السلام أوّل رسُل الله للناس؟ ٣٦١
- ﴿فدعَا ربّه أنّي مغلوبٌ فانتصر﴾ ٣٦٤
- ﴿ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر﴾ وحتى آخر الآية (١٨). وفي هذه الآيات تسع قضايا ٣٦٤

القضية الأولى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر﴾ ٣٦٥
القضية الثانية: ﴿وفجرنا الأرض عُيُوناً﴾ ٣٦٦

الموضوع **الصفحة**

القضية الثالثة: ﴿فالتقى الماء على أمْرٍ قَدْ قُدِرِ﴾ ٣٦٧
القضية الرابعة: ﴿وَحملناه على ذات ألواح وَدُسُرٍ﴾ ٣٦٨
القضية الخامسة: ﴿تجري بأعيننا...﴾ ٣٦٩
القضية السادسة: ﴿جزاءً لمن كان كُفِرَ﴾ ٣٧٠
القضية السابعة: ﴿ولقد تركناها آيةً...﴾ ٣٧٠
القضية الثامنة: ﴿فهل من مُدّكر﴾؟ ٣٧١
القضية التاسعة: ﴿فكيف كان عَذَابي وَنُذُرِ﴾ ٣٧٢
- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾؟ ٣٧٢

ثانياً: فقرة إهلاك عادٍ قوم الرسول هود عليه السلام، (الآيات من (١٨ ـ ٢٢) ٣٧٣
تمهيد: ٣٧٤
- ﴿كذّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذرِ﴾ ٣٧٤
- ﴿إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحْسٍ مستمرّ * تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر﴾ ٣٧٥
- ﴿ولقد يسّرْنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ٣٧٧

ثالثاً: فقرة إهلاك ثمود قوم النبي الرسول صالح عليه السلام الآيات من (٢٣ ـ ٣٢) . ٣٧٧
تمهيد: ٣٧٨
- موجز قصة ثمود مع رسولهم صالح عليه السلام ٣٧٩
- ﴿كذّبت ثمود بالنذر﴾ ٣٨١
- ﴿فقالوا أبشراً منّا واحداً نتّبعه إنّا إذاً لفي ضلالٍ وسُعُر * أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذّابٌ أشِرٌ﴾ ٣٨٢
- ﴿أبشراً منّا واحداً نتّبعه﴾؟! ٣٨٣
- ﴿إنّا إذاً لفي ضلالٍ وسُعُر﴾ ٣٨٣
- ﴿أَأُلْقِي الذكر عليه من بيننا﴾؟ ٣٨٤
- ﴿بل هو كذّابٌ أشرٌ﴾ ٣٨٧
- ﴿سيعلَمُون غداً مَنِ الكذّاب الأشر﴾ ٣٨٨
- ﴿إنّا مُرسلوا الناقة فتنة لهم فارتَقِبْهُمْ واصْطَبِر﴾ ٣٨٨
- ﴿وَنبّئْهُم أنّ الماءَ قسْمَةٌ بينهم كلُّ شرْبٍ محتضر﴾ ٣٩٠
- ﴿فنادَوْا صاحبَهُمْ فتعاطى فعقر﴾ ٣٩١
- ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾ ٣٩٣
- ﴿إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ ٣٩٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَلَقَدْ يسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ ٣٩٥

رابعاً: فقرة إهلاك قوم النبي الرسول لوط عليه السلام، الآيات من(٣٣ ـ ٤٠) ٣٩٦

- لمحة عن لوط عليه السلام وقومه ٣٩٦
- ﴿كذَبَتْ قوم لوطٍ بالنذر﴾ ٣٩٩
- ﴿إنَّا أرسَلْنا عَلَيهِمْ حاصباً إلاّ آل لوطٍ نجيناهم بسحر﴾ ٣٩٩

كلمتا «أهل» و «آل» في دلالات النصوص القرآنية ٤٠٠

- ﴿نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ ٤٠١
- ﴿وَلَقَدْ أنذرهم بطشتنا فتمارَوا بالنُّذُرِ﴾ ٤٠٢
- ﴿وَلقد راودوه عن ضيفه فطمَسْنَا أعينهم فذوقوا عذابي ونُذُرِ﴾ ٤٠٣
- ﴿ولقد صبَحهم بُكْرَةً عذابٌ مستقرٌ * فذوقُوا عذابي ونُذُرِ﴾ ٤٠٤
- ﴿وَلقد يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ ٤٠٥

خامسا: موجز مختزل بشأن إهلاك فرعون وآله، الآيتان (٤١ ـ ٤٢) ٤٠٦

تمهيد: ٤٠٦

- ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ ٤٠٧
- ﴿كذَّبوا بآياتنا كلّها فأَخذناهم أخذ عزيز مقتدرٍ﴾ ٤٠٨
- الآيات التي آتاها الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام ٤٠٩
- ﴿فأخذنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ٤١١

(٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع، الآيات من (٤٣ ـ ٤٦) ٤١٢

تمهيد: ٤١٢

- ﴿أكُفَّارُكم خَيْرٌ من أولَئِكُم أَمْ لكُمْ براءَةٌ في الزُّبرِ﴾ ٤١٢
- ﴿أَمْ يقولُون نحْنُ جميعٌ منتصرٌ * سيُهزَم الجمعُ ويُولُّونَ الدُّبُرَ﴾ ٤١٦
- ﴿بَلِ السّاعة موعدهم والسَّاعة أدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ ٤١٨

(١٠) التدبر التحليلي للدرس الخامس، الآيات من (٤٧ ـ ٥٥) ٤٢١

تمهيد: ٤٢٢

- ﴿إنَّ المجرمين في ضلالٍ وسُعُرٍ﴾ ٤٢٣
- ﴿يومَ يسحَبُون في النار على وجوههم ذوقوا مَسَّ سَقَر﴾ ٤٢٦
- ﴿إنَّا كُلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَرٍ﴾ ٤٢٨
- ﴿وَمَا أَمْرُنا إلاّ واحدةٌ كَلَمْحٍ بالْبَصَرِ﴾ ٤٢٩
- ﴿وَلقد أَهْلَكْنَا أشياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾؟ ٤٣٠
- ﴿وكل شيء فعلوه في الزُّبُرِ﴾ ٤٣٢

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَكلُّ صغير وكبيرٍ مسْتَطَرٌ﴾ ٤٣٣
- ﴿إنَّ المتقين في جنّاتٍ ونَهرٍ * في مَقْعَدِ صِدْقٍ عنْدَ مَلِيكٍ مقتدَر﴾ ... ٤٣٥
- سوابق الحديث في نجوم التنزيل عن ثواب المتقين في الجنة ٤٤٠

ملاحق لسورة القمر ٤٤٠

(١١) **الملحق الأول**: مستخرجات بلاغية من سورة القمر ٤٤١

(١٢) **الملحق الثاني**: حول إعراض الكافرين المعاندين عن آيات الله ٤٤٥

(١٣) **الملحق الثالث**: حول الحكمة في القرآن المجيد ٤٥٣

(٣٨)

سورة صَ

٣٨ مصحف/٣٨ نزول

(١) نص السورة ٤٦٣

(٢) الأطوار التي تنقَّلَتْ فيها مواقف أئمة الكفر في مكة حتى نزول سورة (صَ) ٤٦٩

(٣) موضوع سورة (ص) وسبب نزولها ٤٧٤

(٤) دروس سورة (ص) ٤٧٧

(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ١٦) ٤٧٨

تمهيد: ٤٧٩

- ﴿صَ والقرآن ذي الذكر﴾ ٤٨١
- ما جاء عن القرآن في مراحل التنزيل حتى نزول سورة (ص) ٤٨٤
- ﴿بل الذين كفروا في عزّة وشقاق﴾ ٤٨٦
- ﴿كَمْ أهلكنا من قبلهم من قرْن فنادَوا ولات حين مناصٍ﴾ ٤٨٨
- ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا سَاحِرٌ كذَّاب * أجعل الآلِهَةَ إلَهاً واحداً إنّ هذا لشيءُ عُجَابٌ﴾ ٤٩١
- ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصْبروا على آلهتكم إنَّ هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إنْ هذا إلاّ اختلاق * أأنزل عليه الذكِر من بيننا﴾ ٤٩٤
- ﴿بل هم في شكٍ من ذكري بل لمّا يَذُوقوا عذابِ﴾ ٤٩٨
- ﴿أمْ عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الوهّاب﴾ ٥٠٢
- ﴿أم لَهُمْ ملك السماوات والأرض وما بَيْنَهما فليَرْتقوا في الأسباب﴾ .. ٥٠٢
- ﴿جُنْدٌ ما هُنَالِكَ مَهْزُومٌ من الأحزاب﴾ ٥٠٦

الموضوع **الصفحة**

كلمة الأحزاب في القرآن أطلقت على أحزاب الكفر ٥٠٩
- ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وعادٌ وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لُوطٍ وأصحاب لئيكة أولئك الأحزاب * إنْ كلٌّ إلاّ كذّب الرُسلَ فحقّ عقابِ﴾ ٥١٠
- ﴿وما ينظُر هؤلاء إلاّ صيحةً واحدةً مالَها من فواقٍ﴾ ٥١٣
- ﴿وقالُوا رَبّنا عجّل لنَا قِطّنَا قبل يوم الحساب﴾ ٥١٤

(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (١٧ ـ ٤٨) ويشتمل على خمس فقرات ٥١٥

أوّلاً: الفقرة الأولى: الآيات من (١٧ ـ ٢٩) ٥١٦

تمهيد: ٥١٦
- ﴿اصْبر على ما يقولون...﴾ ٥١٧

سوابق الأمر بالصبر في نجوم التزيل ٥١٨
- ﴿واذكر عبدَنا داود ذا الأيْدِ إنّه أوّابٌ﴾ ٥١٩
- ﴿إنّا سخّرْنا الجبال معه يُسَبّحْن بالعشيّ والإشراق﴾ ٥٢١
- ﴿والطّيْرَ محشورةً كُلٌّ له أوّابٌ﴾ ٥٢٢
- ﴿وَشَدَدْنا مُلكَهُ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ ٥٢٤
- ﴿وَهَلْ أتاك نبأ الخصم إذْ تسوّروا المحراب * إذْ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغىٰ بعضُنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشْطِطْ واهدنا إلى سواء الصراط﴾ ٥٢٥

تمهيد: ٥٢٥
- ﴿وَهل أتاك نبأ الخصْم...﴾ ٥٢٨
- ﴿إذْ تسوَّرُوا المحراب...﴾ ٥٢٩
- ﴿إذْ دخَلُوا على داود...﴾ ٥٣٠
- ﴿ففزع منهم...﴾ ٥٣٠
- ﴿قالوا لا تخف...﴾ ٥٣١
- ﴿خصمان بغىٰ بعضنا على بعض...﴾ ٥٣١
- ﴿فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطِطْ...﴾ ٥٣١
- ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ ٥٣٢
- ﴿إنّ هذا أخي له تسْعٌ وتسْعُون نعجةً ولي نعجة واحدة فقال أكفِلْنيها وعَزّني في الخطاب﴾ ٥٣٣

الموضوع **الصفحة**

- ﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلي نِعَاجِه..﴾ ٥٣٦
- ﴿وَإِنَّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هُم...﴾ ٥٣٧
- ﴿وظنَّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر رَبَّهُ وخرّ راكِعاً وأناب﴾ ٥٣٨
- ﴿فغفرنا له ذلك وإنّ له عندنا لزُلْفَىٰ وحُسْنَ مآبٍ﴾ ٥٤١
- ﴿يا داوٗد إنّا جعلْنَاك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوىٰ فيُضِلّك عن سبيل الله إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يوم الحسابِ﴾ ٥٤١
- ﴿وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظنُّ الّذين كفَرُوا فويلٌ للّذين كفَرُوا منَ النار * أمْ نجْعَلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ ٥٤٥
- عرض الدليل العقلي على ضرورة البعث للجزاء أخذاً من الآيتين (٢٧ و ٢٨) . ٥٤٦
- التدبر التحليلي للآيتين (٢٧و ٢٨) ٥٤٩
- ﴿كتابٌ أنزلْنَاهُ إليك مباركٌ ليدَّبرُوا آياته وليتذكّر أُوْلو الألباب﴾ ٥٥١

ثانياً: الفقرة الثانية، الآيات من (٣٠ ـ ٤٠) ٥٥٥

تمهيد: ٥٥٦

- ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبْد إنّه أوّابٌ﴾ ٥٥٧
- ﴿إذْ عُرِض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد * فقال إنّي أحبَبْتُ حبَّ الخير عن ذكر ربّي حتّىٰ توارَتْ بالحجاب * ردوها عليّ فطفِقَ مسحاً بالسّوقِ والأَعْنَاق﴾ ... ٥٥٩
- ﴿ولقَدْ فتنّا سُلَيْمانَ وألقينا على كُرْسيّه جسداً ثُمَّ أناب * قال ربّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحَدٍ من بَعْدِي إنّك أنت الوهاب﴾ ٥٦٤
- ﴿فسخَّرْنا لَهُ الرّيح تجري بأمْرِه رُخاءً حيث أَصَابَ * والشَّيَاطين كلَّ بنّاءٍ وغوّاص * وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ ٥٧١
- ﴿هذاً عطاؤنا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغَيْر حسابٍ﴾ ٥٧٤
- ﴿وإنَّ لَهُ عندنا لزُلْفَىٰ وحُسْنَ مآبٍ﴾ ٥٧٥

ثالثاً: الفقرة الثالثة، الآيات من (٤١ ـ ٤٤) ٥٧٦

- ﴿واذْكُرْ عَبْدَنَا أيُوبَ إذْ نادَىٰ رَبّه أني مَسَّنِيَ الشيطان بنُصْبٍ وعذابٍ﴾ . ٥٧٧

تمهيد: ٥٧٧

- موجز عن حياة أيوب عليه السلام ٥٧٨
- تدبُّر نَصَّي (ص) و (الأنبياء) بشأن أيوب عليه السلام تدبُّراً تكامليًا ... ٥٨٠

الموضوع **الصفحة**

ما جاء في السنة بشأن أيوب عليه السلام ٥٨٦
رابعاً: الفقرة الرابعة، الآيات من (٤٥ ـ ٤٧) ٥٨٦
- ﴿واذْكُرْ عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار * إنّا أخلَصْنَاهم بخالصة ذكرى الدار * وإنَّهُمْ عندنا لَمِنَ المصطفين الأخيار﴾ ... ٥٨٦

خامساً: الفقرة الخامسة، الآية (٤٨) ٥٩٠
- ﴿واذكُرْ إسماعيل والْيَسع وذا الكِفلِ وكُلٌّ من الأخيار﴾ ٥٩٠
- **الغرض الرئيس من الدرس** الثاني بفقراته الخمس ٥٩١

(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (٤٩ ـ ٦٤) ٥٩٣
تمهيد: ٥٩٤
- ﴿هذا ذكرٌ. . .﴾ ٥٩٥
- **لقطات من ثواب المتقين** ٥٩٥
- ﴿. . وإنّ للمتقينَ لَحُسْنَ مآبٍ﴾ ٥٩٥
- ﴿جنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحةً لهُم الأبواب﴾ ٥٩٧
- نظرة شاملة لما جاء في القرآن من عبارتي: «حُسْن مآب» و «جنَّات عَدْن» ... ٥٩٩
- ﴿متكئِين فيها يَدْعُونَ فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قَاصراتُ الطرف أترابٌ﴾ ٦٠١
- البيان التفصيليّ للاتكاء في سُوَرِ القرآن ٦٠١
- ﴿يَدْعُونَ فِيها بفاكهة كثيرة وشراب﴾ ٦٠٤
- ﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾ ٦٠٥
- ﴿هذا ما توعَدُون ليوم الحساب * إنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ ٦٠٥
- **لقطات ومشاهد من جزاء الطاغين** ٦٠٧
- ﴿وَإنَّ للطاغين لشرّ مآبٍ﴾ ٦٠٧
- ﴿جهنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئسَ المهاد﴾ ٦٠٨
- ﴿هَذا فَلْيَذُوقُوه حميم وغسَّاق * وآخَرُ من شَكْلِه أزواجٌ﴾ ٦٠٩
- ﴿هذا فوجٌ مقتحمٌ معكُمْ لاَ مرْحباً بهم إنهم صالوا النار * قالوا بل أنتم لا مَرْحباً بكم أنتم قَدَّمْتُمُوهُ لنا فَبئسَ القرار﴾ ٦١٠
- ﴿قالُوا ربَّنَا منْ قَدَّمَ لنا هذا فزِده عذاباً ضعفاً في النار﴾ ٦١٢
- ﴿وقَالوا ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نَعدُّهم من الأشرار * اتَّخَذْنَاهم سخريًا أم زاغت عنهم الأبْصَارُ﴾ ٦١٣
- ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ ٦١٤

الموضوع **الصفحة**

(٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع، الآيات من (٦٥ ـ ٨٨) ٦١٥
تمهيد: ٦١٦
- ﴿قلْ إنّما أنا منذر وما من إلّه إلاّ الله الواحد القهارُ * ربّ السّماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفارُ﴾ ٦١٩
- ﴿قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون﴾ ٦٢١
- ﴿مَا كانَ لي من عِلْم بالملأ الأعلى إذْ يختَصِمُونَ﴾ ٦٢٢
- **قصة خلْق آدم واستكبار إبليس عن السجود له** ٦٢٤

تمهيد: ٦٢٤
- ﴿إذْ قال رَبُّك للملائكة إنّى خالقٌ بشراً من طين * فإذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَختُ فيه من روحي فقعُوا له ساجدين * فسَجَدَ الملائكة كلُّهُم أجْمَعُونَ * إلاّ إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الكافِرين﴾ ٦٢٥
- ﴿قَالَ يَا إبليسُ ما مَنَعَك أنْ تَسْجُدَ لَما خَلَقْتُ بيدَيَّ أسْتكْبَرْت أم كنْتَ من الْعَالين﴾ ٦٣٠
- ﴿قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾ ٦٣١
- ﴿قال فَاخْرُجْ مِنْها فإنَكَ رَجيمٌ * وإنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. ٦٣١
- ﴿قال رَبِّ فَأنْظِرْني إلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ٦٣٢
- ﴿قال فإنّك من المنظرين * إلى يَوْم الوقت المعلوم﴾ ٦٣٣
- ﴿قال فبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعين * إلاّ عِبادَكَ مِنْهُمُ المخْلَصِينَ﴾ ٦٣٣
- ﴿قال فَالحقُّ والحقَّ أقول * لأمْلأنَّ جهنَّمَ مِنْكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أجْمعِين﴾ . ٦٣٥
- ﴿قُلْ مَا أسْألُكُمْ عليه من أجْرٍ وما أنَا من المتكلّفين * إنْ هو إلاّ ذكْرٌ للْعَالَمِين * ولتعلَمُنَّ نبأه بعد حين﴾ ٦٣٦

■ مَلاحق لسورة (ص)

(٩) **الملحق الأول**: نموذج من التدرج الارتقائي في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل ٦٤٠
(١٠) **الملحق الثاني**: مستخرجات بلاغية من السورة ٦٤٣
(١١) **الملحق الثالث**: تدبُّر بقيّة ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه السلام بنظرة تكامليّة ٦٤٧
(١٢) **الملحق الرابع**: قصة خلق آدم في القرآن المجيد وما رافق خلقه من أحداث .. ٦٦٨
الفهرس ٧٣١

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقرآن الكريم بحسب ترتيب النُّزول
وِفق منهج كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ»

المجلَّدُ الرَّابع

تفسيرُ سُورَة

الأعراف (٣٩) من الآية (١ - ١٧١)

عبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

حُقوقُ الطبْع محفوظة للمؤلِّف

تُطلب جميع كتبنا من :
دَار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَار البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَةُ ٱلْأَعْرَافِ

٧ مَصْحَف ٣٩ نـزول

وهي كلها مكيّة إلّا الآيات

من (١٦٣ وحتى غاية الآية ١٧٠) فمدنية

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة الأعراف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن
رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم
مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا
كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ
﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾
فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ

---

٣ ـ ● قرأ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.
وقرأ: [يَتَذَكَّرونَ]: ابن عامر.
وقرأ: [تَذَّكَّرُونَ]: باقي القرّاء العشرة.
تَذَكَّرون، وتَذَّكَّرُون، أصْلُهُما «تتذكَّرُون، حُذِفت التاء تخفيفاً في الأولى، وأدغمت بالذَّال في الثانية وفق قواعد الإدغام العربية.
وأمّا قراءة [يَتَذَكَّرُون] فبينها وبين القراءتين الأخريين تكامل بَيَانِي، إذ هما يخاطبان المتَلَقّين للقرآن، وهذه تتحدَّثُ عن غيرهم الغائبين عن التلقّي.

٤ ـ ٥● قرأ: [بَاسُنَا] بالألف بدل الهمز في اللفظتين: السوسي، وأبو جعفر في الوصل والوقف.
وحمزة في الوقف.
وقرأ: ﴿بَأۡسُنَا﴾ بالهمز باقي القرّاء العشرة.

٦ ـ٧● قرأ بضَمّ هاء الضمير في [إِلَيۡهُمۡ] وفي [عَلَيۡهُمۡ] حمزة ويعقوب.

=

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ
(٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ
(١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى
مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن
تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى
لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧)
قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ

= وقرأ بكسر هاء الضمير فيهما باقي القرّاء العشرة.

١١ ـ ● قرأ: [لِلْمَلاَئِكَةُ ٱسْجُدُوا] بضم التاء.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بكسرها.

١٦ ـ ● قرأ: [سِرَاطَكَ] قُنْبُل، ورُويس.
وقرأ باشْمام الصاد زاياً خلف عن حمزة.
وقرأ ﴿صِرَاطَكَ﴾ بالصاد: باقي القراء العشرة.

١٧ ـ ● قرأ: [أَيْدِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير: يعقوب.
وقرأ بكَسْرِها ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: باقي القرّاء العشرة.

شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا
ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا
رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ
﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا
ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ
ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ
إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ
تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ
لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ
فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ
أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ

---

١٩ - ● قرأ: [شِيتُمَا] بالياء بدل الهمزة: السوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف. وحمزة في الوقف.

وقرأ: ﴿شِئۡتُمَا﴾ بالهمزة باقي القرّاء العشرة.

٢٢ - ● قرأ: [عَلَيۡهُمَا] بضمّ هاء الضمير: يعقوب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿عَلَيۡهِمَا﴾ بكسر هاء الضمير.

٢٥ - ● قرأ: [تَخۡرُجُونَ] بفتح التاء: ابن ذكوان، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.

وقرأ: ﴿تُخۡرَجُونَ﴾ بضم التاء: باقي القرّاء العشرة.

وبين القراءتين تكامُلٌ بياني، إذ الموتَىٰ يُخرَجُونَ بالبعث من الأرض بخَلْقِ الله، فهم بالمطاوعة يَخرُجونَ.

٢٦ - ● قرأ: [وَلِبَاسَ التَّقوىٰ] بنصب (لبَاسَ) عطفاً على [لِبَاساً]. نافع، وابن عَامر، والكسائي، وأبو جعفر.

وقرأ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقوىٰ﴾ برفع «لبَاس» على الاستئناف باقي القرّاء العشرة.

ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا
يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا
تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا
فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ
أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ
مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا
حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ
عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ
وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

---

٣٠ ـ ● قرأ: [عَلَيهِمِ الضَّلَالَةُ] بكسرِ هاء الضمير وكَسْر الميم بعدَهُ: أبو عَمْرو.

وقرأ: [عَلَيهُمُ الضَّلَالَةُ] بضم هاء الضمير وضمّ الميم: حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب.

وقرأ: [عَلَيهِمُ الضَّلَالَة] بكسر هاء الضمير، وبضمّ الميم بعده: باقي القرّاء العشرة.

وهي وجوهٌ من النطق العربي.

٣٠ ـ ● قرأ: [يَحْسَبُونَ] بفتح السين: ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر.

وقرأ: [يَحْسِبُونَ] بكسر السين: باقي القرّاء العشرة.

وهما وجهان عربيان للكلمة.

خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ
إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ
أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ

---

٣٢ - ● قرأ: [خَالِصَةٌ] بالرفع، على أنها خبرٌ ثانٍ للمبتدأ [هِيَ]: نافع.
وقرأ: [خَالِصَةً] بالنصب على أنها حال: باقي القرّاء العشرة.
والوجهان جائزان في اللسان العربي.

٣٣ - ● قرأ: [رَبِّي الْفَوَاحِشَ] بإسكان ياء المتكلم: حمزة.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بفتحها ﴿رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ وهما وجهان عربيان.

٣٣ - ● قرأ: [مَا لَمْ يُنْزِلْ] من فعل: «أَنْزَلَ»: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب.
وقرأ: [مَا لَمْ يُنَزِّلْ] من فعل «نَزَّلَ»: باقي القرّاء العشرة.
أنزل ونَزَّل فعلان متكافئان في المعنى.

٣٤ - ● قرأ: [لاَ يَسْتَاخِرُونَ] بالألف اللّينة بدل الهمزة: ورش، والسوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لاَ يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بالهمزة.

٣٥ - ● قرأ: [يَاتِيَنَّكُمْ] بالألف اللينة بدل الهمزة: ورش، والسوسي، وأبو جعفر.
وقرأ ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالهمزة، باقي القراء العشرة.

٣٥ - ● قرأ: [فَلاَ خوفٌ عَلَيْهُمْ] برفع: «خوفٌ» وبضم هاء الضمير [عَلَيْهُمْ]: حمزة والكسائي، وخلف.
وقرأ: [فَلاَ خَوْفَ عَلَيْهُمْ] بفتح الفاء، وبضم هاء الضمير: يعقوب.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَلاَ خَوْفٌ عليهِمْ﴾ برفع الفاء مع التنوين، وكسر هاء الضمير.

عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ
كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ
ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا
فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ
﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ
فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ

---

٣٧ ـ ● قرأ: [رُسْلُنَا] بإسكان السين: أبو عمرو.
وقرأ: [رُسُلُنا] بضم السين: باقي القراء العشرة.

٣٨ ـ ● قرأ: [فَآتِهُمْ] بضم هاء الضمير: رويس.
وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير.

٣٨ ـ ● قرأ: [وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ] بياء الغائبين: شعبة.
وقرأ: [وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ] بتاء المخاطبين: باقي القراء العشرة.
وفي القراءتين هنا تكامل في الأداء البيانيّ، لأن المعنيين بالخطاب مُتَلَقُّون، وغير متلقين فهم بحكم الغائبين.

٤٠ ـ ● قرأ: [لاَ تُفْتَحُ]: أبو عمرو.
وقرأ: [لاَ يُفْتَحُ]: حمزة، والكسائي، وخلف.
وهما وجهان عربيان جائزان:
وقرأ: [لاَ تُفَتَّحُ] بتشديد التاء الثانية من الفعل المضعّف: باقي القراء العشرة، أي: يُشدّد في إغلاق أبواب السماء دونهم، لشدّة عنادهم وكفرهم. فبين المضعَّف وغير المضعف تكامل في الأداء البياني.

ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن
تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا
وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى

---

٤٣ ـ ● قرأ: [مِنْ تَحْتِهِمِ الأَنْهَارُ] بكسر هاء الضمير والميم بعدها: أبو عَمْرو، ويعقوب.
وقرأ: [مِنْ تَحْتِهُمُ الأَنْهَارُ] بضم هاء الضمير والميم بعدها: حَمْزَةُ، والكسَائي، وخَلَف.
وقرأ: [مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ] بِكَسْرِ هاء الضمير وضمّ الميم بعدها: باقي القرّاء العشرة.
وهي وجوه من النطق في اللّسان العربي.

٤٣ ـ ● قرأ ابن عامر: [مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ] بحذف حرف العطف قبل: [مَا كُنَّا].
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ] بإثبات حرف العطف الواو.
والقراءتان وجهان بيانيّان متكافئان، لتكافؤ الفصل والوصل هنا.

٤٤ ـ ● قرأ: [نَعِمْ] بكسر العين: الكسائي.
وقرأ باقي القراء العشرة: [نَعَمْ] بفتح العين.
وهما نُطْقَان للكلمة في اللّسان العربي.

٤٤ ـ ● قرأ: [مُوَذِّنٌ] بالواو بدل الهمزة: ورش.
وأبو جعفر في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُؤَذِّنٌ] بالهمزة.

٤٤ ـ ● قرأ: [أَنْ لَعْنَةُ] بأنْ التفسيرية، وبرفع [لَعْنَةُ].

=

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم
بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ
كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ
يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا
لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا
يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ
﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ
لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ
أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ
قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ
كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ
﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن
شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ

= وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَنَّ لَعْنَةَ]: بأنَّ المشبهة بالفعل، و[لَعْنَةَ] اسمُها.
والقراءتان من التفنُّن في الأداء البيانيّ.

رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ
ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا
وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ

---

٥٤ ـ ● قرأ: [يُغَشِّي] من فعل «غَشَّىٰ»: شعبة، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.

وقرأ: [يُغْشِي] من فعل «أغشىٰ»: باقي القراء العشرة.

المهموز مثل المضعّف فالقراءتان متكافئتان.

٥٤ ـ ● قرأ ابن عامر: [والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجومُ مُسَخَّرَاتٌ] بالرفع على الاسْتئناف.

وقرأ باقي القرّاء العشر: [والشَّمْسَ والقَمَرَ والنَّجومَ مُسَخَّرَاتٍ] بالنصب عطفاً على السّماوات والأرض.

وبنصب [مُسَخَّرَاتٍ] على الحالية.

وهما وجهان جائزان عربيًّا، وفيهما تفنُّن في الأداء البياني.

٥٥ ـ ● قرأ: [وَخِفْيَةً] بكسر الخاء: شعبة. وقرأ باقي القراء العشرة: [وَخُفْيَةً] بضمّ الخاء. وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٥٧ ـ ● قرأ: [الرِّيحَ] بالإفراد: ابنُ كثير، وحمزة، والكسائيّ، وخلف.

وقرأ: [الرِّيَاحَ] بالجمع: باقي القرّاء العشرة.

الرِّيح: بالإفراد اسم جنس، وهو يشمل أنواعَ الرياح، وبين القراءتين تكافؤ في المعنى، مع التنبيه على أنّ الرّياح أنواع.

٥٧ ـ ● قرأ عَاصِمٌ: [بُشْراً] من البشارة. وقرأ ابن عامر: [نُشْراً] من النَّشْرِ بمعنى المدّ الواسع. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [نَشْراً] من النَّشر أيضاً.

وقرأ باقي القراء العشر: [نُشُراً] من النّشر أيضاً.

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ
فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ
تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي
خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ
يَشۡكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ
عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ

---

٥٧ ـ ● قرأ: [مَيْتٍ] ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة ويعقوب. وقرأ: [مَيِّتٍ] الباقون.

٥٧ ـ ● قرأ: [تَذَكَّرُونَ] بتخفيف الذال: حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.
وقرأ: [تَذَّكَّرُونَ] الباقون.

٥٨ ـ ● قرأ: [لاَ يُخْرِجُ إلاَّ] من فعل: «أَخْرَجَ» ابنُ وَرْدَان في أحد الوجهين له.
وقرأ باقي القراء العشرة [لاَ يَخْرُجُ إلاَّ] من فعل «خَرَجَ» المجرد، وهو الوجه الآخر لابن وردان.

٥٨ ـ ● قرأ أبو جعفر: [نَكَداً] بفتح الكاف، وهو مصدر.
وقرأ باقي القراء العشرة [نَكِداً] بكَسْر الكاف، وهو صفة مشبهة باسم الفاعل.
والقراءتان متكاملتان في الأداء البياني.

٥٩ ـ ● قرأ الكسائيّ، وأبو جعفر: [مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِهِ] بجرّ «غَيْرِه» صفة لإلّه على اللفظ.
وقرأ باقي القراء العشرة: [مَا لَكُ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ] صفة لإلّه على المحلّ.

٥٩ ـ ● قرأ: [إنّيَ أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.
وقرأ باقي القراء العشرة بإسكان ياء المتكلّم هذه.
وهما وجهان عربيان لنطق ياء المتكلّم.

ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ
ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ
عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ
إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ
يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا
لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ
وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي
وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ
عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ
قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ
لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ

---

٦٢ - ● قرأ أبو عمرو: [أُبْلِغُكُمْ] من فعل: «أَبْلَغَ» المتعدي بالهمزة.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أُبَلِّغُكُمْ] من فعل «بَلَّغَ» المضعف.
والقراءتان متكافئتان.

٦٨ - ● قرأ أبو عمرو: [أُبْلِغُكُمْ] من فعل: «أَبْلَغَ».
وقرأ باقي القراء العشرة: [أُبَلِّغُكُمْ] من فعل «بَلَّغَ» بتشديد اللام.

٦٩ - ● قرأ: [بَسْطَةً] بالسّين: قُنبل، وأبو عمرو، وهشام، وحفص، وخلَفٌ عن حمزة، ووجه لخلّاد، ورُوَيس، وخلف عن نفسه.
وقرأ: [بَصْطَةً] بالصّاد: باقي القراء العشرة، وهو الوجه الثاني لخلّاد.

٧٠ - ● قرأ: [أَجِيتَنَا] بالياء بعد الجيم، السوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف. =

مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ
وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا
نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ
أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ
لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ
فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ
بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا
وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي

= وحمزة في الوقف.

وقرأ: [أَجِئْتَنَا] بالهمزة بعد الجيم: بَاقي القرّاء العشرة.

٧٠ ـ ● قرأ: [فَاتِنَا] بالألف اللينة بعد الفاء: ورش، والسوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف.

وقرأ: [فَأْتِنَا] بالهمزة الساكنة باقي القرّاء العشرة.

٧٣ ـ ● قرأ: [مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ] بجرّ «غَيْرِه» صفة «إِلَٰهٍ» على اللّفظ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [غَيْرُهُ] بالرّفع مراعاة لمحلّ لفظ [إِلَٰهٍ] وهو الرّفع بالابتداء.

٧٤ ـ ● قرأ: [بُيُوتاً] بضم الباء: ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب.

وقرأ: [بِيُوتاً] بكسر الباء: باقي القرّاء العشرة.

والقراءتان لغتان عربيتان.

ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ
لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ
مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ
وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ
﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ
لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ
ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ
لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ
﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن
قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا
ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ

---

٧٥ ـ ● قرأ: [وَقَالَ الْمَلأُ] بالعطف بالواو: ابن عامر.
وقرأ باقي القراء العشرة: [قَالَ الْمَلأُ] بغير عطف.
الوصل والفصل هنا وجهان متكافئتان بلاغيًا.

٨١ ـ ● قرأ: [إِنَّكُمْ لَتَاتُونَ] بالألف الليّنة بعد التاء [لَتَا] ورش، وأبو جعفر.
وقرأ: [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ] بالهمزة الساكنة بعد التاء: قالون، وحفص.
وقرأ: [أَإِنَّكُمْ لَتَاتُونَ] بالألف الليّنة، السوسي مع همزة الاستفهام.
وقرأ: [أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ]: باقي القراء العشرة.

٨٤ ـ ● قرأ: [عَلَيْهُمْ] بضمّ هاء الضمير: حمزة، ويعقوب.
وقرأ: [عَلَيْهِمْ] بكسر هاء الضمير: باقي القراء العشرة.

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ
أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ
وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى
ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ
إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ
أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن
قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ
فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى

---

٨٥ ـ ● قرأ: [مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ] بجرّ: [غَيْرِهِ] مراعاةً للفظ: الكسائي، وأبو جعفر.
وقرأ: [مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ] برفع [غَيْرُهُ] مراعاة للمحلّ: باقي القرّاء العشرة.

٨٦ ـ ● قرأ: [سِرَاطٍ] بالسين: قنبل، ورُويس.
وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد زاياً.
وقرأ: [صِرَاطٍ] بالصاد: باقي القرّاء العشرة.

ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ
﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ
﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا
كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ
﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ
وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ
حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ
وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا
عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا
كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا
وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى

---

٩٤ ـ ● قرأ نافع: [مِنْ نَبِيءٍ] مع المدّ المتّصل.
وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنْ نَبِيٍّ].

٩٤ ـ ● قرأ: [بالبَاسَاءِ] بالألف اللينة بدل الهمزة: السوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف فقط.
وقرأ باقي القراء العشرة: [بالبَأْسَاءِ] بالهمزة الساكنة.

٩٦ ـ ● قرأ: [لَفَتَّحنَا] بتشديد التاء: ابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس.
وقرأ: [لَفَتَحنَا] بالتاء المفتوحة دون تشديد: باقي القراء العشرة.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، لأنّ الله عزّ وجلّ قد يَفتَح أحياناً برفق، وقد يُفتِّح أحياناً أُخرَىٰ بشِدَّةٍ على وفق حكمته.

٩٧ ـ ٩٨ ● قرأ في الآيتين: [بَاسُنَا] بالألف اللّينة بعد الباء: أبو جعفر، والسوسي، =

وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ
مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ
أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا
كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ
لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ
﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم
بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ

= في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف فقط.

وقرأ فيهما: [بَأْسُنَا] بالهمزة الساكنة: باقي القرّاء العشرة.

٩٨ ـ ● قرأ: [أَوْ أَمِنَ]: نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو جعفر. على أن حرف العطف (أَوْ).

وقرأ: [أَوَ أَمِنَ] بفتح الواو: باقي القراء العشرة، على أن حرف العطف «الواو» وقبلها همزة استفهام.

والقراءتان من قبيل التفنّن البياني.

١٠١ ـ ● قرأ: [رُسْلَهُمْ] بإسكان السين: أبو عمرو.

وقرأ: [رُسُلَهُمْ] بضم السّين باقي القراء العشرة.

وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

١٠٥ ـ ● قرأ نافع: [حَقِيقٌ عَلَيَّ].

=

جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ
سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا
إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ
﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ
﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ
وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ

= وقرأ باقي القراء العشرة: [حَقيقٌ عَلَىٰ].
وسيأتي إن شاء الله توجيه القراءتين عند تدبر الآية.

١٠٥ ـ ● قرأ: [مَعِيَ] بفتح ياء المتكلم: حفص.
وقرأ: [مَعِي] بإسكان ياء المتكلم: باقي القراء العشرة.
وهما وجهان عربيان لنطق ياء المتكلم.

١١١ ـ ● في لفظة [أَرْجِهْ] عدّة قراءات تتعلّق بنطق الكلمة تُهِمُّ المقرئين.

١١٢ ـ ● قرأ: [سَحَّارٍ]: حمزة، والكسائي، وخلف.
وقرأ: [سَاحِرٍ]: باقي القرّاء العشرة.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، لأنّ اقتراح ملأ فرعون كان مُوَجّهاً لإحضار كلِّ سَاحِرٍ وكلِّ سحَّارٍ ذي مهارة شديدة في السّحر.

١١٣ ـ ● قرأ: [قَالُوا إنَّ لَنَا لأَجْراً]: نافع، وابن كثير، وحفص، وأبو جعفر.
وقرأ: [قالُوا أإنَّ لَنَا لأَجْراً] بإظهار همزة الاستفهام: باقي القراء العشرة.

١١٤ ـ ● قرأ الكسائي: [نَعِمْ] بكسر العين، وقرأ باقي القراء العشرة بفتح العين، وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ
ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا
لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ
﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ
ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ
﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ
وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ
وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ

---

١١٧ ـ ● قرأ البزّيّ في الوصل: [فَإِذَا هِيَ تَّلَقَّفُ]. وقرأ حفصٌ: [فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ]. وقرأ باقي القراء العشرة: [فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ] قراءة البزّي وجهُ في النطق. وقراءتا: [تَلْقَفُ] و[تَلَقَّفُ] متكاملتان في التعبير عن المعنى المراد، إذْ كانت عصا موسى التي انقلبت حيّة تلْقَفُ أحياناً أدوات السَّحرة، وتتَلَقَّفُهَا أحياناً أخرى، بحَسب ما تحتاج إليه من أمر.

١٢٧ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو جَعْفَر: [سَنَقْتُلُ].
من فعل «قَتَل» غير المزيد.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [سَنُقَتِّلُ] من فعل «قَتَّلَ» المزيد بتَشْدِيد التاء.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.
إذ دَلَّ فعل: [سَنَقْتُلُ] على أن فرعون قال هذا في حالة الهدوء. وعلى أن فعل: [سَنُقَتِّلُ] قد قاله مرّةً أُخْرَىٰ في حالة الغضب، أي: سنشدّد في التَّقْتِيل.

وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ
بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ
وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدۡ
أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ
يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن
تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ
ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (١٣١) وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ
ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ (١٣٢) فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ
وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ
يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا
ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا
كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ
(١٣٥) فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ (١٣٦) وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ
يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ
كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا

---

١٣٣ ـ ١٣٤● قرأ بضمّ هاء الضمير من [عَلَيهُمْ] في الآيتين: حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.

وقرأ بكسر هاء الضمير منها في الآيتين: باقي القراء العشرة.

كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾
وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ
إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ
فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ
نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞
وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ

---

١٣٧ ـ ● قرأ ابن عامر، وشعبة: [يَعْرُشُونَ] بضمّ الرّاء.
وقرأ باقي القراء العشرة: [يَعْرِشُونَ] بكسر الراء.
وهما وجهان لنطق الكلمة في اللّسان العربي.

١٣٨ ـ ● قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلَف: [يَعْكِفُونَ] بكَسْرِ الكاف.
وقرأ باقي القراء العشرة: [يَعْكُفُونَ] بضم الكاف.
والقراءتان وجهان لنطق الكلمة في اللّسان العربي.

١٤١ ـ ● قرأ ابن عامر [وَإِذْ أَنجَاكُمْ] تعبيراً عمّا قالَهُ موسى عليه السلام لقومه بشأن ما أكرمهم الله به من النجاة.
وقرأ باقي القراء العشرة: [وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ] تعبيراً عمّا قالَهُ الله لهم، وبلَّغَهُمْ إيّاهُ مُوسَى عليه السلام.
فبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

١٤١ ـ ● قرأ نافع: [يَقْتُلُونَ] من فعل «قَتَل». وقرأ باقي القراء العشرة: [يُقَتِّلُونَ] من فعل «قَتَّلَ» مضعف التاء.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد، فقد كان آل فرعون يُقَتِّلُون أبناء الإسرائيلين بعنف أحياناً في حملات مشدّدة، ويَقتُلونَهُم أحيَاناً أخرى دون عنف.

أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى
وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ
لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى
وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا
تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ
ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ

---

١٤٢ ـ ● قرأ أبو جعفر، وأبو عَمرو، ويعقوب: [وَوَعَدْنَا] مِنْ فِعْل: «وَعَدَ».
وقرأ باقي القراء العشرة: [وَوَاعَدْنَا] مِنْ فِعل: «وَاعَدَ» الدال على المشاركة أي: أكدنا الوعد.

والقراءتان متكاملان في بيان المعنى المراد، فقد وعد الله موسىٰ أوّلاً، وبعد ذلك أكدّ له الوعد.

١٤٣ ـ ● قرأ ابن كثير، والسّوسي، ويعقوب: [أَرْنِي] بإسكان الرّاء، وقرأ الدّوري باختلاس كسرة الراء. وقرأ باقي القراء العشرة: [أَرِنِي] بكَسْرِ الراء.

١٤٣ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلف: [دَكَّاءَ]. وقرأ الباقون: [دَكًّا] وهما وجهان عربيان.

١٤٣ ـ ● قرأ نافع وأبو جعفر: [وأَنَا أَوَّلُ] بألف ممدودة بعد نون «أنا» وقرأ الباقون: بنون مفتوحة دون ألف.

١٤٤ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمرو: [إِنِّيَ اصْطَفيتُكَ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

١٤٤ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، ورَوْح: [بِرِسَالَتِي] على الإفراد.
وقرأ باقي القراء العشرة: [بِرِسَالاَتِي] على الجمع.
وفي القراءتين دلالة على رسالة موسى بالنظر إلى عمومها هي واحدة، وبالنظر إلى أجزائها وأقسامها وتنزُّلاتها هي رسالات.

مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ
قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ
ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ
ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا
جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ
ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ
وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا

---

١٤٦ ـ ● قرأ ابن عامر، وحمزة: [عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ] بإسكان ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة بفتحها في الوصل.

١٤٦ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [الرَّشَدِ].
وقرأ الباقون: [الرُّشْدِ] بضم الراء وإسكان الشين. وهما لغتان.

١٤٨ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي: [حِلِيِّهِمْ] بكسر الحاء واللام وتشديد الياء المكسورة.
وقرأ يعقوب: [حَلْيِهِمْ] بفتح الحاء وإسكان اللام وكسر الياء غير المشددة.
وقرأ باقي القراء العشرة: [حُلِيِّهِمْ].
وهي لغات عربية لنطق هذه الكلمة.

١٤٨ ـ ١٤٩ ● قرأ بضم هاء الضمير في: [ولاَ يَهْدِيهُم] وفي: [أَيْدِيهُمْ]: يعقوب.
وقرأ الباقون بكسرها في الموضعين.

١٤٩ ـ ● والكسائي، وخلف: [لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا]: خطاباً لله عزّ وجلّ بالدعاء.
وقرأ باقي القراء العشر: [لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا].
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ هم قالوا ما جاء في قراءة=

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ
غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ
وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ
ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا
تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي
وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ
تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾

= الجمهور وتوجّهوا بالدُّعاء لربّهم، كما جاء في القراءة الأخرى.

١٥٠ ـ ● قرأ: [بِيسَمَا] بالياء المدّية بدل الهمزة: ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف. وحمزة في الوقف فقط.

وقرأ: [بِئْسَمَا] بالهمزة باقي القرّاء العشرة.

١٥٠ ـ ● قرأ: [مِنْ بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ] بفتح ياء المتكلم: نافع، وابن كثير، وأبو عَمرو، وأبو جعفر.

وقرأ بإسكانها باقي القراء العشرة.

١٥٠ ـ ● قرأ: [بِرَاسِ] بالألف اللينة بدل الهمزة: السوسي، وأبو جعفر في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف فقط.

وقرأ: [بِرَأْسِ] بالهمزة الساكنة: باقي القراء العشرة.

١٥٠ ـ ● قرأ: [ٱبْنَ أُمِّ] بكسر الميم المشدّدة، ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي وخلف.

وقرأ: [ٱبْنَ أُمَّ] بفتح الميم المشدّدة: باقي القراء العشر.

وهما وجهان عربيان لنُطق الكلمة، وأصلها: «أمّي» حذفت منها ياء المتكلم مع ملاحظتها ذهناً.

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا
هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ
سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ
أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ
إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا
فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي
هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ
أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ
﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ
مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ

---

١٥٦ ـ ● قرأ: [عَذَابِيَ أُصِيبُ] بفتح ياء المتكلم في الوصل: نافع، وأبو جَعفر.

وقرأ بإسكانها في الوصل والوقف باقي القراء العشرة.

١٥٧ ـ ● قرأ نافع: [النَّبِيءَ] مع المدّ المتصل.

وقرأ: [النَّبِيَّ]: باقي القراء العشرة.

١٥٧ ـ ● قرأ ابن عامر [ءَاصَارَهُمْ] بالجمع.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِصْرَهُمْ] بالإفراد.

ومؤدّىٰ القراءتين واحد، لأنّ المفرد المضاف يعُمُّ كلَّ ما للمضاف إليه من أفراد.

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ
أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى
رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ
ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾
وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ
ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ
مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا
عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ

---

١٦٠ ـ ● قرأ أبو عَمْرو: [عَلَيْهِمِ الْغَمَامَ] و[عَلَيْهِمِ المنَّ] بكسر هاء الضمير وكسر الميم بعدها في الوصل.

وقرأ بضمهما في الموضعين في الوصل: حمزة والكسائي، ويعقوب، وخلف.

وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير وضمّ الميم فيهما.

١٦١ ـ ● قرأ نافع، وأبو جعفر ويَعْقوب: [تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيئَاتُكُمْ] بالبناء لما لم يسمّ فاعله، وبالجمع بألف وتاء.

وقرأ ابن عامر: [تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيئَتُكُمْ] بالبناء لما لم يسمّ فاعله، وبالإفراد، والإفراد مع الإضافة كالجمع في المعنى.

=

ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي
ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا
يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ
﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ
مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ
﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

= وقرأ أبو عَمرو: [نَغفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ] بنون المتكلّم العظيم، وجمع التكسير.

وقرأ باقي القراء العشرة: [نَغفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُ] بنون المتكلم العظيم والجمع بألف وتاء.

وفي هذه القراءات تفنّن في التعبير والمؤدّي واحد.

١٦٣ ـ ● وقرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: [وَسَلْهُمْ] وقرأ باقي القراء العشرة: [وَاسْألْهُمْ].

١٦٣ ـ ● قرأ: [تَأْتِيهُمْ] بضم هاء الضمير في الموضعين: يعقوب.

وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

١٦٤ ـ ● قرأ حفصٌ: [مَعْذِرَةً] بالنصب، على أنها مفعول لأجله.

وقرأ باقي القراء العشرة بالرفع: [مَعْذِرَةٌ] على أنّها خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي معذرة.

١٦٥ ـ ● قرأ نافع وأبو جعفر: [بِعَذَابٍ بِيسٍ].

وقرأ ابنُ عامر: [بِعَذَابٍ بِئْسٍ] وقرأ شعبة في أحد الوجهين عنه: [بِعَذَابٍ بَيْئَسٍ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [بِعَذَابٍ بَئِيسٍ] وهو الوجه الثاني لشعبة.

وهذه القراءات وجوه من الأداء، والمعنى واحد.

فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾
وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ
سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ
دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾
فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ
وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم
مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ
وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ
يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ
﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ
بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

---

١٦٩ ـ ● قرأ رُويسٌ بضم هاء الضمير في: [يَأْتِهُمْ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَأْتِهِمْ] بكسر هاء الضمير.

١٦٩ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَفَلَا تَعْقِلُونَ] بتاء المخاطبين.

وقرأ الباقون: [أَفَلَا يَعْقِلُون] بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البيانيّ، فالمتلَقُّون يقال لهم: [أَفَلَا تَعْقِلُون] والآخرون يقال بشأنهم: [أَفَلَا يَعْقِلُونَ].

١٧٠ ـ ● قرأ شُعبة: [يُمْسِكُونَ بالكِتَاب] من فعل: «أَمْسَكَ».

وقرأ الباقون: [يُمَسِّكُونَ] من فعل: «مَسَّكَ» بتشديد السِّين.

روعي في إحدَىٰ القراءتين حال من يُمْسِكُ بغير التزام بقوّة، وفي الأخرى حالُ من يُمَسِّكُ بالْتِزام وقوّة، وكُلٌّ منهما لا يُضيع الله أجره.

وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن
قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ
ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ
ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى
ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ
يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا
ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن
يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ
﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ
لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ

---

١٧٢ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع.

وقرأ باقي القراء العشر [ذُرِّيَّتَهُمْ] بالإفراد.

والمؤدى واحد في القراءتين.

١٧٢ ـ ١٧٣ ● قرأ أبو عَمرو: [أَنْ يَقُولُوا] و[أَوْ يَقُولُوا] بياء الغائبين فيهما.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ تَقُولُوا] و[أَوْ تَقُولُوا] بتاء المخاطبين فيهما.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، فالمتَلقُّونَ يخاطبون، والآخرون يُتحدَّث عنهم بضمير الغائبين.

بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ
أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ
يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي
مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا
نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا
خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ
حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ
وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ
قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا
عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ
لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ

---

١٨٠ ـ ● قرأ حمزة: [يَلْحَدُونَ] من فعل: «لَحَدَ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [يُلْحِدُونَ] من فعل: [أَلْحَدَ].

لَحَدَ وأَلْحَدَ لغتان عربيتان.

١٨٦ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: [وَنَذَرُهُمْ] بنون المتكلّم العظيم، وبرفع الفعل.

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: [وَيَذَرُهُمْ] بياء الغائب، وبرفع الفعل.

وقرأ الباقون: [وَيَذَرْهُمْ] بياء الغائب، وبجزم الفعل، على اعتبار «مَنْ» في: [مَنْ يُضْلِلِ] شرطيّة.

لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ
وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا
خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا
لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ
فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا
يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ
سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟
لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ
لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ

---

١٨٨ ـ ● قرأ قالون في أحد الوجهين له: [إِنْ أَنَا إِلَّا] بإثبات ألف «أنا».
وقرأ باقي القراء العشرة بحذف ألف «أنا» وهو الأكثر في الاستعمال.

١٩٠ ـ ● قرأ نافع، وشعبة، وأبو جعفر: [شِرْكًا] على المصدرية.
وقرأ باقي القراء العشرة: [شُرَكَاءَ] جمع «شريك».
والقراءتان من قبيل التفنن في أداء المعنى المراد.

١٩٣ ـ ● قرأ نافع: [لاَ يَتْبَعُوكُمْ] من فعل «تَبِعَ» المجرد.
وقرأ باقي القراء العشرة: [لاَ يَتَّبِعُوكُمْ] من فعل «اتَّبَعَ» المزيد الدال على التكلف.
وفي القراءتين إشارة إلى أحوال الشركاء، المدركين أنهم مَعْبُودون وغير المدركين ذلك.

١٩٥ ـ ● قرأ أبو جعفر [يَبْطُشُونَ] بضم الطاء.
وقرأ باقي القراء العشرة: [يَبْطِشُونَ] بكَسْر الطاء. وهما وجهان عربيان.

ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ
﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ
أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ
وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ
بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا
هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا
يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ
إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ

---

١٩٥ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [قُلِ ادعُوا] بكَسْر اللام في الوصل.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [قُلُ ادعُوا] بضم اللاّم في الوصل.
وهما وجهان من الأداء في النطق جائزان.

١٩٥ ـ ● قرأ أبو عمرو، وأبو جعفر: [كِيدُوني فَلا] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل.
وقرأ يعقوب، وهشام: [كِيدُونِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القراء العشرة: [كِيدُونِ] بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

٢٠١ ـ ● قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب: [طَيْفٌ].
وقرأ باقي القراء العشرة: [طَائِفٌ] والمعنى فيهما واحد، فالطيف هو الخيال الطائف.

٢٠٢ ـ ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [يُمِدُّونَهُمْ] منْ فعل «أَمَدَّ» وقرأ باقي القراء العشرة: [يَمُدُّونَهُمْ] من فعل: «مَدَّ يَمُدُّ».
وهما لغتان عربيّتان والمعنى واحد.

٢٠٣ ـ ● قرأ رَويس: [تَأْتِهُمْ] بضمّ هاء الضمير.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [تَأْتِهِمْ] بِكَسْرِ هاء الضمير

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِىَٔ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى
نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ
وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

---

٢٠٤ ـ ● قرأ أبو جعفر [وإذا قُرِيَ] بالياء بدل الهمزة.
وقرأ باقي القراء العشرة: [وَإِذَا قُرِئَ] بالهمزة على الأصل في كلمة [قُرِئَ].

(٢)

مما ورد في السنة بشأن سورة (الأعراف)

صحّ عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ أحياناً بهذه السورة في صلاة المغرب، يُفَرِّقُها في ركعتين.

(١) روى النسائي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فَرَّقها في رَكْعَتَيْن.

(٢) وروى النسائي أيضاً من حديث أبي مُلَيْكَة، عن عروةَ عن زيد بن ثابت، أنّه قال لمروانَ بْن الحكم: «مَالِي أَرَاكَ تَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ السُّوَرِ، وَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ، يَقْرَأُ بِأَطْوَلِ الطُّولَيَيْن».

قال مروان: قُلْت: «يا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا أَطْوَلُ الطُّولَيَيْنِ؟».

قال: «الأعراف».

(٣) وجاء في حديث أمّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، «أنّ رسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقْرَأُ في الْمَغْرِب بِطُولَىٰ الطُّولَيَيْنِ».

المراد بالطُّوليين: «الأنعام» و«الأعراف» وسورة «الأعراف» أطول، إذ عدد آياتها (٢٠٦) وعدد صفحاتها (٢٤) صفحة. أما سورة الأنعام فعدد آياتها (١٦٥) وعدد صفحاته (٢٣) صفحة بحسب مصحف المدينة المنورة.

أي: أمّا «البقرة» و«آل عمران» و«النّسَاء» فمعروفات بأنها الطّوال. وكلٌّ منها أطول من «الأعراف».

وتأتي «المائدة» بعد «النساء» وقبل «الأنعام» وهي أقصر من «الأنعام» فالطوليان بعد المائدة في المصحف هما: «الأنعام» و«الأعراف».

* * *

(٣)

موضوع سورة الأعراف

يمكن وضع العنوان التالي لموضوع سورة (الأعراف):

مطلوبُ الله من عباده في رحلة امتحانهم أنْ يَتّبعُوا ما أُنزِل إليهم من ربّهم، وتفصيلات تتعلّق بهذا المطلوب، وقصة التاريخ الإنساني تجاه هذا المطلوب الرّباني مُنذُ خلَقَ اللّهُ آدم وزوجه.

فيدور موضوع سورة (الأعراف) حول تاريخ الناس، آدَمَ وزوجِه وذراريهما، تُجَاهَ ما يجب عليهم من اتّباع ما أُنزِل إليهم من ربّهم، وما يحرُم عليهم من اتّباع أولياء من دونه، وبيان ما أثبته الواقع من أنّ الناس قليلاً ما يتذكّرون عبْرَ التاريخ البشري.

واشتمل هذا الموضوع على معالجات للرّسول ﷺ، وللّذين لم يَتَّبعوا ما أَنْزَل ربّهم إليهم، وعَلَىٰ بيانات لأصول الدين الذي اصطفاه الله للناس، وكُليَّاتِه الكبرى، وتحذيراتِ لبني آدم من أن يفتنهم الشيطان، فيصُدَّهُمْ بوساوسه وتسويلاته عن دخول الجنة، كما أخرج أبويهم آدم وحواء من الجنة، بمخالفتهما لما نهى الله عنه.

واشتمل على كشف ما أوصَىٰ الله بني آدم به، منذ تاريخهم الأول، من وجوب اتّباع آياته الّتي يُبلّغُهُمْ إيّاها رسُلٌ مِنهُمْ يُرسلهم إليهم ليَقُصُّوها عليهم كما أنزلها الله.

واشتمل على عرض لقطات من مشاهِدِ يَوْمِ الدّين، فيها ترغيبٌ وترهيب، وعلى أمثلة تاريخيَّةٍ من الأمم السالفة، وما جَرَىٰ لهم في الحياة الدنيا، وما أعَدَّ الله لهم يوم الدين.

واشتمل على معالجات اقناعيّة حول توحيد الربوبيَّة والإلَٰهيَّة لله عزَّ وجل، وما يجب على الناس تجاههما، وعلى معالجات إقناعيّة لأمّة دعوة محمد ﷺ، وترغيبية وترهيبية، والثناء عليهم بأنّ منهم أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وبه يعدلون، وعلى وصايا للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمّتِه، في مجالات تأديتهم وظائف الرسالة التي يحملون مُهمَّاتِها.

ويلاحظ المتدبّر المتَتَبّع أن الخطّ الأعظم الذي تسير عليه آيات السورة هو الخطّ المنطلق من الآية الثالثة منها، وهي قول الله تعالى خطاباً للناس جميعاً:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

* * *

(٤)

دروس السورة

تشتمل سورة (الأعراف) على اثني عشر درساً تدور حول موضوعها الذي سبق بيانه بصورة إجمالية.

الدرس الأوّل وهو الآيات من (١ ـ ١٠).

ويشتمل على بيان لقطات موجزات من أصول الدّين في قضايا، مع

خطاب الناس عقب بيان بعضها بأنّهم قليلاً ما يتذكّرون، وعقب بيان مِنّة الله عليهم في ظروف هذه الحياة الدّنيا بالتمكين في الأرض، وبما جعل لهم فيها من معايش، بأنَّهُمْ قَليلاً ما يَشكُرون.

وقد اشتمل هذا الدرس الأول على ثماني قضايا:

القضية الأولى: بيان أنّ القرآن مُنَزَّلٌ مِنَ الرَّبِّ الخالق للعالمين المخاطبين بما جاء فيه.

القضية الثانية: بيان وظيفة الرسول محمد ﷺ بالنسبة إلى القرآن، بوصف كونه رسولاً، وهي تبليغه، وبيانه، وأخيراً الإنذار بما جاء فيه من إنذارات، فهو غير مسؤول عن تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان.

وبيان ما يجب على الناس تجاه ربّهم والكتاب المنزّل إليهم، فالمطلوب من المؤمنين أن يكون هذا الكتاب ذكرىٰ لهم دواماً.

القضية الثالثة: توجيه الله الأمر لكل الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، بأن يتخذوا ربَّهم هو وليّهم، وبأن لا يتخذوا من دونه أولياء على خلاف ما تقتضيه ولايته لهم، وبأن يتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم.

القضية الرابعة: بيان حقيقة من حقائق واقع المجموع البشري، وهي أنهم قليلاً ما يتذكّرون ما يجب عليهم تجاه ربّهم، لتحقيق سعادتهم الأبدية.

القضية الخامسة: الإلماح إلى الإنذار بمعجّل العقاب في الحياة الدنيا، قياساً على من أهلكهم الله عزّ وجلّ من أهل القرىٰ السَّابقين بسبب كفرهم، وعدم اتّباعهم ما أَنْزَل الله إليهم، وتكْذِيبهم رُسُلَ رَبِّهم، مقروناً ببعض تفصيل عن أسلوب الله عزّ وجلّ في إهلاكهم.

القضية السَّادسة: توجيه الإنذار بمؤجّل العقاب إلى يوم الدّين، من خلال عرضٍ لمحاتٍ من عُنْصُرَيْن من عناصر محكمة العدل الربّانيّة يوم الدّين، وهما عنْصُر السؤال، وعنصر الوزن لأعمال العباد.

القضية السابعة: بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل الناس في الأرض ممتَّعِين بأتَمّ كيفية لتحقيق امتحانهم في الحياة الدنيا، بيْنَ طريق الشكر لربّهم، وطَرِيق الكفر به، إذْ مكَّنَهُمْ في الأرض فجعَلَهم قادرين على أن يتصَرَّفوا فيها على ما يُرِيدُونَ من طاعةٍ لربّهم بإرادة الخير وفعله، أو معصِيَةٍ لربّهم بإرادة الشرّ وفعله، وجعل لهم فيها وسائل عيْشٍ مختلفة، ليبلُوهُمْ فيما آتاهم.

القضية الثامنة: بيان حقيقة من حقائق واقع حال المجموع البشري، وهي أنّهم قليلاً ما يَشْكُرُونَ.

الدرس الثاني وهو الآيات من (١١ ـ ٢٥).

ويشتمل على بيانٍ حول قضيّة خلق الإنسان متمثّلاً بالشخص الأول من نوعه، وهو آدم ومعه زوجته، ولقطاتٍ مما رافق خلقه من أحداث، وما جرى لهما بعد إدخالهما الجنة إدخال امتحان واختبار، لا إدْخال خلودٍ واستقرار، من إغواء الشيطان لهما، حتى عصيا ربَّهما فأكلا من الشجرة الّتي نهاهما عن أن يقرباها، فكان السبب في إخراجهما من الجنة.

وكان ما جرى منهما مثلاً من أمثلة عدم اتّباع الإنسان الممتحن المكلف ما أنزل الله إليه، واتّخاذه وليًا من دون الله عزّ وجل، وكان ما جرى لهما مثلاً من أمثلة الجزاء الرَّبّاني بالعقاب على مَعْصِيَةِ أوامِرِ الله ونواهيه.

الدرس الثالث وهو الآيات من (٢٦ ـ ٣٦).

ويشتمل هذا الدرس على قصة الدّين الذي كان هُدَى الله لبني آدم

الأوّلين، وقد تضمّن بيان الأسس العامّة للدّين الذي جاء به جميع رُسُل الله آدمُ فَمَنْ أرسَلَهُ الله من بعد آدم إلى أممهم، وهو الدين الذي بلَّغه كلّ رسُولٍ لأمّته، وقد ختم الله ببعثة محمد ﷺ وبما أنزل عليه رسالاتِه للناس.

وجاء في الآية (٣٢) من هذا الدّرس بيانٌ حول القرآن بأنّ الله عز وجل يُفَصّل الآيات لِقَوْم يَعْلَمُون، للتّنْبيه على بعض خصائص البيان القرآني، وجاء هذا البيان في أثناء ذكْرِ بعْضِ القضايا المفصّلَة في هذا الدرس.

الدرس الرابع وهو الآيات من (٣٧ ـ ٥٣).

وقد جاء هذا الدرس مرتّباً على الخطّ الفكري الذي جاء في الآية الثالثة من السورة، وهو قول الله عزّ وجل خطاباً للناس:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

فقد جاء في مطلع الدرس الرابع قول الله عزّ وجل:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ... ۝٣٧﴾.

وقد جاء في هذا الدرس بيان لقطات من مشاهد عذابهم يوم الدّين، وبيان لقطات أخرى من مشاهد ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، متبعين في الحياة الدنيا ما أُنزل إليهم من ربّهم.

وجاء فيه عرض حِوارَيْنِ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار:

أحدهما: حِوارٌ اقترن بنداء لبُعْدِ ما بين الفريقين، وهذا الحوار يكون في موقف الحشر.

والآخر: حوارٌ اقترن بنداءٍ أيضاً، وهذا الحوار يجري حين يكونُ أهل الجنة في الجنّة، وأهل النار في النار، ويجعل الله بينهما وسائل اتصال.

الدرس الخامس وهو الآيات من(٥٤ ـ ٥٨):

وقد جاء هذا الدرس أيضاً مرَتّباً على الخطّ الفكري الذي جاء في الدرس الأول من دروس السورة، في الآية الثالثة منها، وهي:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③﴾.

وقد اشتمل هذا الدرس الخامس على بيان بعض آيات الرَّبّ الخالِقِ في كونه، وأنّ له في الوجودِ كلّه الخلْقَ والأَمْرَ، فعلَىٰ مَرْبوبيه أن يَعْبُدُوه وحده لا شريك له، ومِنْ عِبَادَتِه جَلَّ جلاله، أن يَدْعُوَهُ عَبِيدُه تَضَرُّعاً وخفية، وأن لا يَعْتَدُوا، وأن لا يُفْسِدُوا في الأرض بَعْدَ إصلاحها، وأن يتوجّهوا له بالدُّعاء في أحْوَالِ الخوف، وفي أحوال الطمع.

الدرس السادس وهو الآيات من (٥٩ ـ ١٧١).

وهو درس طويل يشتمل على قِصَصٍ فيها تفصيل متوسّطٌ أو مطوّل لستّة رُسُلٍ وأقوامهم، وبيان مجمل عن رُسُلٍ لم تُذْكَرْ أسماؤهم ولا أسماءُ أقوامهم.

وينقسم هذا الدرس إلى سبع فصول.

الْفَصل الأول: فيه لقطات من قصة نوح عليه السلام مع قومه، وهي الآيات من (٥٩ ـ ٦٤).

الْفَصل الثاني: فيه لقطات من قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وهي الآيات من (٦٥ ـ ٧٢).

الفصل الثالث: فيه لقطات من قصّة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وهي الآيات من (٧٣ ـ ٧٩).

الفصْلُ الرابع: فيه لقطات من قصة لوطٍ عليه السلام مع قومه، وهي الآيات من (٨٠ ـ ٨٤).

الفصْلُ الخامس: فيه لقطات من قصة شعيب عليه السلام مع قومه، وهي الآيات من (٨٥ ـ ٩٣).

الفَصْلُ السادسُ: فيه بيان مجمل عن رُسُلٍ لم تُذْكَرْ أسماؤهم، ولا أسماء أقوامهم، وفيها بيان عامٌّ عن سُنَّةِ الله عزّ وجَلَّ في أهل القرىٰ، وتوجيهاتٌ هادياتٌ وواعظاتٌ لكلّ النّاس ما تعاقبت القرون حتّىٰ زَمَنِ إقفال باب التوبة، والإيذان بإقامة ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا حياة الابتلاء.

وهي الآيات من (٩٤ ـ ١٠٢).

الْفَصْلُ السابعُ: فيهِ لقطاتٌ من قصة موسىٰ وأخيه هارون عليهما السلام، مع فرعون ومَلَئِه وقَوْمِه، ومع بني إسرائيل.

وهي الآيات من (١٠٣ ـ ١٧١).

الدرس السابع وهو الآيات من (١٧٢ ـ ١٧٤).

وهو درس يشتمل على بيان العهد الذي أخذه الله عزّ وجلّ على بني آدم وهم في عالم الذّرّ، بأنَّهُ رَبُّهم، والّذي أشهدهم فيه على أنفسهم بذلك.

وجاء في آخر هذا الدرس آية فاصلة حول القرآن تبيّن أن الله عزّ وجلّ يفصّل الآيات للناس لعلّهم يَرْجعون إلى الحقّ، وإلى صراط الله المستقيم فيلتزموا سلوكه وهي الآية (١٧٤).

الدرس الثامن (هو الآيات من ١٧٥ ـ ١٧٧).

وهذا الدرس يشتمل على بيان حال من يكون مَحْمِيًّا بِلبَاسٍ شاملٍ من آيات الله، ثمّ يَنْسَلِخُ مِنها، وعندئذٍ يُتْبِعُهُ الشيطانُ، ويَسْتَهْوِيه حتى يكون من الغاوين، بسبب اتِّبَاعِه هَوَاه، وإخلادِه إلى الأرض.

وهذا الدرس موصول بالخط الفكريّ الأعظم الذي جاء في الآية الثالثة من السورة، التي تأمر الناس جميعاً باتباع ما أُنزل إليهم من ربّهم، في آياتٍ بيانِيَّةٍ تتضمَّن مطلوب الرَّب الخالق من عباده المكلّفين.

الدرس التاسع وهو الآيَتان (١٧٨ ـ ١٧٩).

وهذا درس يعرض الله عزّ وجلّ فيه لقطة من لقطات محكمة العدل الرّبانية يوم الدين، وهي لقطةٌ ختاميَّة تَكْشِفُ أنّ من يحكم الله له بالهداية فهو المهتدي، وأن من يحكُم الله عليه بالضلالة فهو الخاسر لا محالة.

وجاء فيه تعليقٌ بيانيٌ بشأن أهل جهنّم الّذين لم ينْتَفِعُوا بما آتاهم الله من قلوب مؤهَّلَةٍ لأن تَفْقَه، إلاّ أنهم لم يَفْقهوا بها، ولم يَنْتَفِعُوا بما آتاهم الله من أعْيُن مؤهلة للإبصار، وآذان مؤهلة للسّماع، إلاّ أنّهم كانوا في حياة امتحانهم كالأنعام بل كانوا أضلَّ من الأنعام، إذْ لهم أعينٌ ولكنَّهُمْ لا يُبْصرون بها، ولهم آذانٌ ولكنَّهُم لا يسمعون بها، بسبب انصرافهم عمّا يُنْجِيهم من عَذَاب الدنيا وعذاب الآخرة، ويُظْفِرهم بجنات النعيم يوم الدّين، غروراً بمتاع الحياة الدنيا وزيناتها.

ولا يخفى ارتباط هذا الدرس بموضوع السورة، وبالخطّ الأعظم الذي تسير عليه آياتها.

الدرس العاشر وهو الآية (١٨٠).

ويتضمن هذا الدرس وجوب الالتزام بأسماء الله الحسنى لدى عبادته بالدُّعَاء، والتحذير من الإلحاد في أسمائه.

وهذا الالتزام هو من عناصر اتّباع ما أنزل الله عزّ وجلّ لعباده في آياته الْبَيَانِيَّةِ من مطالب، فالدّعاء أوّل عبادة العبد لربّه، ورأسُ عباداته له، ويجب أنْ يكون خالياً من كلّ شرك.

الدرس الحادي عشر وهو الآيات من (١٨١ ـ ١٩٨).

وهو درس يتعلّق بأُمَّةِ دَعْوَة محمد ﷺ وهم كلُّ الناس بعد بِعْثَتِه، وفيه بيان أنّه توجد فيهم أمَّةٌ مؤمنون يهدون بالحق وبه يعدلون، ويوجد

فيهم آخرون مُكذِّبون بآيات الله سينالون عقابهم، وفيه مُعَالجاتٌ إقناعيّة لهؤلاء المكذبين، ولا سيما ما هم فيهِ من شرك، وَفيه رَدٌّ على سؤالهم عن وقت قيام الساعة.

الدرس الثاني عشر وهو الآيات من (١٩٩ ـ ٢٠٦) آخر السورة.

وهو درس ختاميٌّ فيه توجيه للرسول محمّد ﷺ، ولحملة رسالته من بعده، بشأن ما ينبغي التحلي به لدى القيام بمهمات الدعوة إلى الله وما ينبغي اتخاذه تجاه نزغ الشيطان المحرّض على مقابلة السيّئة من المدعوّين بمثلها، وما ينبغي أن يجيب به الرّسُولُ المتعنتين الّذِين يقترحون عليه أنْ يأتي بالآيَاتِ على ما يشتهون.

وهذه التعليمات موصولة بما جاء في أوّل السورة، وهو قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

وفي هذا الدّرْس أمْرٌ من الله للمؤمنين بأن يستمعوا للقرآن إذا قُرِئَ وهُمْ حضور، وبأن يُنْصِتُوا راجين أن يرحَمَهُمُ الله، وهذا الأمر موصول بالآية الثالثة من السورة، المشتملة على الخطّ الأعظم الذي تَسِيرُ عليه دُرُوسها.

وفيه أمْرٌ لكلّ مستجيب لدعوة الحقّ الرّبانية بأن يذكر رَبَّه في نفسه تَضَرُّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال، وهذا الأمر موصول بالآية الثالثة من السّورة أيضاً، وبفقرتها الأخيرة بالذّات وهي قوله تعالى فيها: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وذلك لأنّ التذكُّرَ وسيلتُه حَرَكَةُ الذكر في النفس، وأقلُّهُ وِرْدُ الْغُدُوّ، وَوِرْدُ الأصيل مع التضرع والخوف وأن يكون دون الْجَهْرِ من القَوْل.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأوّل من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٢) ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٥) فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ (٧) وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٨) وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ (٩) وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ (١٠)﴾.

تمهيد:

● في هذا الدرس يخاطب الله عزّ وجل رسوله محمّداً ﷺ، فيُبيّنُ له حُدودَ وظيفةِ رسالتِه تُجاه القرآن الّذي أَنْزَلَ إِلَيْهِ قِسْماً منه خِلَال الزمن الذي بدأ في أَوَّلِه بعثُهُ رسولاً للناس أجمعين، وسَيُنْزِلُ إليه سائره خلال ما بقي من حياته، وهذه الوظيفة محدَّدَةٌ بأنَّ عليه تبليغَهُ وبيانَه للناس.

ثم إنْذار من لم يستَجِبْ لدَعْوتِه، بما جاء فيه من إنذارات، بعد أداء مُهِمَّاتِ رسالَتِه لهم.

● أمّا من استجاب فآمن إيماناً صحيحاً صادقاً، فالمطلوبُ منه أن يكون القرآن له ذِكْرىٰ، يَتَذَكَّرُ ما جاء فيه من بيانِ مطلوبِ الله من عبادِه، عِنْد كلِّ مُنَاسبَةٍ داعيَةٍ لهذا التذكُّر.

● وبعد هذا نجد في هذا الدَّرْسِ خطاباً موجّهاً من الله عزّ وجلّ لكلّ النّاس الصالحين للخطاب، والموضوعين في الحياة الدّنيا موضع الابتلاء، فيأمرُهم فيه أمْرَ إلزامٍ وإيجابٍ باتّباع ما أُنزِل إليهم من ربِّهم أو سَيُنْزَلُ على وفق ما تمَّ به قضاؤه، في هذا الكتاب الّذي يُبَلِّغُهُمْ إيّاه الرسُول محمّد ﷺ، أو المبلِّغون عنه من أُمّته الّذين آمَنُوا به وحَمَلُوا واجِبَ تبليغ رسالَتِه الّتي تَبَلّغوها منه، وينهاهم نَهْيَ إلْزامٍ وتحريمٍ، عن أن يَتّبِعُوا من دون ربّهم أولياء، يَشرعُونَ لهم ويُحلِّلُون لَهم ويحرّمون عَلَيْهِمْ ما لَمْ يُنَزِّل اللَّهُ به سلطاناً.

● وبعد ذلك نجد في هذا الدرس إعلاماً من الله عزّ وجلّ، بأنّ واقع حال النّاس الّذِي سيكونُونَ عَلَيْهِ باختيارِهمُ الحرّ، والذي سبَقَ به عِلْمُهُ كَشْفاً لا جَبْراً، أنّهم قليلاً ما يتذكّرُونَ، بسبب أنّهم سَيتَّبِعُونَ أَوْلِياءَ منْ دُونِ ربّهم، الّذين يُزَيّنون لهم معصية الله، ويُحَبّبُونَ إليهم عَدَمَ اتّباعِ ما أَنْزَلَ ربُّهم إلَيْهم، ويَضَعُونَ لهم أحكاماً وشرائع وسُبُلاً طاغُوتيَّةً، مَقْرُونَةً بزُخْرُفِ من القَوْلِ، ليَتّبِعُوها، ويستثيرونَ فيهم أهواءَهُمْ وشهواتِهم ويُعَلّقونَها بما حرّم عليهم ربُّهُمْ من زِينات الحياة الدنيا، غير مكْتَفِينَ بالكثير الذي أحَلَّه لهم ربُّهم منها.

● واستدعى بيان هذا الواقع الذي سيكون عليه الناس، أن يحذّرهم ربّهم من المصير العقابي في الحياة الدنيا، نظير الّذي أنزله بالظالمين الأوّلين الذين أهْلَكَهُمْ من كُفّارِ القرون الأولى، الذين كذّبوا رُسُل رَبّهم، ولم يَتّبِعُوا ما أُنزِل إليهم منه، فجاء في هذا الدرس ما يكشف هذه السُّنَّةَ من سُنَن الله في عباده الظالمين.

● لكِنَّ المصيرَ العقابيَّ المعجّلَ في الحياة الدنيا، بالإهلاكِ الجماعيّ العام للأقوام الظالمة، مع إنزالِ بعْضِ العَذاب عليهم قبل إماتَتِهم، لاَ يُسَدِّدُ ما يَسْتَحِقُّون من جزاء، إذ الجزاء الأَوْفَىٰ مؤجّلٌ إلى يوم الدِّين، يومَ يُبْعَثُونَ

لحياةٍ أُخْرى يكون فيها الحساب، وفصلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء الأوفىٰ بالعدْلِ على ما قدَّمُوا وأخّروا في الحياةِ الدنيا حياةِ الابتلاء.

فَسَيُحَاكمون في محكمة العدْل والفضل الربّانيّة، وفيها يُسْأَلُون عن مخالفاتهم لأوامر ربّهم وَنواهيه، ويُسْأَلُ الشُّهود الّذين بَلَّغُوهُمْ ما أُنْزِلَ إليهم من ربهم، وفيها تُعْرضُ عليهم صُحُفُ أعمالِهم الّتي سَلَفَتْ في الحياة الدنيا، فَيُشَاهِدُونَ صغارَها وكبارَها، إلاَّ ما سَتَرَهُ اللّهُ وعفَا عنه منها. وفيها تُوزن أعمالُهُمْ بموازِينِ العدل الرَّبَّانيّة القائمة على الحقّ، والتي تَزِنُ أصْغَرَ الذَّرّاتِ، بموازينَ ملائمةٍ لوَزْنِ الأعمال بحسب الطّاقاتِ التي أنفقت فيها، وتكشف هذه الموازين أحوال الناس، ومراتبَهم، ومنازِلَهم ودرجاتِهم ودرَكَاتِهم المساويةَ لأعمالهم الجسديّة والفكريّة والنفسيّة والقلبيّة، فمنهم من تثقل موازينُهُمْ، فيحكُمُ الله لهم بالفلاح، على مقادير مراتبهم ودرجاتهم، ومنهم من تخِفُّ موازينُهُمْ، بسبب ظلمهم الناجم عن عدَمِ اتّباعِهم ما أُنْزِل إلَيْهِمْ من آياتِ ربّهم، فيكُونُون خاسِرين أنفُسَهُم، إذْ يَصِيرون إلى عَذابٍ خالِدٍ فِي جَهَنَّم، وذلك هو الخسران الأعظم.

- وقد كان الواجب عليهم في رحلةِ امتحانِهم في الحياة الدنيا، أنْ يشكُرُوا ربّهم على ما أَوْلاَهُم فيها من نِعَمٍ كثيرة، ولو من مستوى أدْنَى الشكر بالإيمان وبَعْضِ العمل الصالح المعبِّر عن صدق إيمانهم بربهم وبما أُنزِلَ إليهم منه، إلاَّ أنَّ الناسَ قَليلاً ما يشْكُرُونَ.

* * *

التدبّر التحليلي:

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ②﴾:

﴿الٓمٓصٓ ①﴾ تُتلَىٰ على وفق أسماءِ حروفها: «أَلِفْ، لاَمْ، مِيمْ، صَادْ» وقد سبق في أول سورة (القلم) بيانٌ كافٍ حوْلَ الحروفِ المقطعة الموجودة في أوائل بعض السّور.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: أي: هَذا القرآنُ كِتَابٌ أُنزِلَ إلَيْكَ من رَبِّكَ يَا مُحَمَّد، وجاء في هذا إطْلَاقُ عُنوانِ كلِّ الكتاب الرَّبَّانيّ القرآن، مع أنَّ الَّذي أُنزِلَ عَلَيْهِ فِعلاً مِنه قبل إنزال سورة (الأعراف) بَعْضُهُ لاَ كُلُّه، نظراً إلى أنَّ القضاء الرَّبَّانِيّ قَدْ تَمَّ بإنْزَالِهِ كُلِّهِ مُنَجَّماً، فَهُو بِحُكْم المنزَّلِ كُلِّه، فَسَائِرُهُ سيَنْزِلُ حتماً. وإلى أنّ ما أُنزِلَ مِنْهُ يُحْدِثُ في صَدْرِ الرَّسُولِ حَرَجاً إذَا لَمْ يُبَيّن الله عزّ وجلّ لرسُولِه وظيفته تجاهه، إذْ قَدْ يَتَصَوَّرُ أنّه مسؤول عن تبليغه وبيانه، ومسؤولٌ أيضاً عن اتّخاذ الوسائل لتحويلِ الناسِ من الكُفْرِ إلى الإيمان، ومن أعمال الشرّ إلى أعمال الخير التي تُرضي الله عزّ وجل، تحويلاً بالإكراه والجبْرِ، وهذا التَّصوُّر يُولِّد حَرَجاً وضِيقاً في صَدْرِه صلوات الله وسلاماته عليه، فأبان الله عزّ وجلّ له في هذه الآية حدود وظيفته تجاه كتاب ربّه.

يضاف إلى هذا اعتراضاتُ المشركين على تنزيلهِ مُنجّماً لا جملَةً واحدَة، الأمر الذي يسبّب له ضيقاً في صَدْرِه من اعتراضاتهم.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾: أي: فلا يكن في صَدْرِكَ يا محمَّدُ ضِيقٌ من هذا الكتاب الذي أُنزِلَ إليك، بسبب اعتراضات المشركين على تنزيله منجّماً، وبسبب تصوّرك أنك مسؤول عن تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان.

والمعنى: فلا يكن في صَدْرِكَ ضِيق من مسؤوليَّاتِكَ ومَا يجب عليك تُجَاهُ ما أُنزِلَ إليك، فالأمر لَيْسَ كما يتبادر إلى تصوُّرِكَ من أنّك مسؤولٌ عن تحويل الناس إلى الإيمان من واقع الكفر الذي هم فيه، وإكراههم على

أَنْ يَسْلكوا الصراط المستقيم، بينما واقع حالهم أنّهم مُتَفَرّقون في السُّبُل المنحدرة إلى عذاب الجحيم، بل تنحصر مسؤوليتك في تبليغ وبيان ما أنزل الله إليهم، فإذا لم يَسْتَجِيبُوا فما عليك إلاّ أن تُنْذِرَهُمْ بما جاء فيه من إنذارات، إذ هم ممتحنون قد وهبهم الله إرادات حرّة ليبْلُوهم، ولا يكن في صَدْرِكَ حَرَج من اعتراضات المشركين.

الحرج: الضيق. وقال الزّجاج: أضْيَقُ الضِّيق. وقال ابن عباس: الحرج الموضع الكثير الشجر الذي لا يَصِلُ إلَيْهِ الراعية. ويقال: مكان حَرَجٌ وَحَرِجٌ، أي: ضيّقٌ كثير الشجر.

أقول: هذا المعنى الماديّ نُقِلَ للدّلالة على مشاعر الضِّيقِ الّتِي تكونُ في الصُّدُور من أمْرٍ عظيم.

ونلاحظ في هذا التعبير القرآنيّ إبْداعاً في الأداء البياني من جهة، وحكمة تَرْبويّة رَبَّانيَةً من جهة أُخْرى.

- أمّا الإبداع البيانيّ فظاهر في توجيه النهي للحرج، لا للرَّسُول ﷺ، فلم يَقُل الله له: لاَ تكن حَرِجَ الصَّدْر، بل قال له: فلا يَكُنْ في صَدْرِك حَرَجٌ، ولا يخفى ما في هذا من تلَطُّفٍ بالرسول، إذْ لم يواجهْهُ الله بالنهي، بل وجّه النهي للْحَرَج.

ومن الإبداع في الأداءِ البياني، أنّ لَفْتَ النظر قد جاء للأثر، لا لمُسَبِّباته، مع أنّ المقصود هو مُسبّبَاته، فالحرَجُ في صدْره أثَرٌ قَدْ يحْدُثُ من جرّاء تصوُّره أنّ مسؤوليّته تجاه هذا الكتاب الّذي أنزل إليه، أن يجعل الناس مُتَّبِعين له، وهذا أمْرٌ لم يملكْهُ الرسول ﷺ، بعد أن ظهر له خلال مسيرته في دعوته حتى وقت إنزال سورة (الأعراف) أنّ معظم قومه كفروا به، ورفضوا اتّباعه، فماذا يفْعَلُ تجاه مسؤوليته العظمى الّتي تمثّلَتْ في تصوُّره؟

وقد يحدث من جراء اعتراضات أئمة الكافرين على تنزيل القرآن منجماً واتخاذ ذلك ذريعة لاتهامه بالافتراء على الله.

فاقتضىٰ الأمر إعلامه بأنه ليس مسؤولاً عن إلزامهم بالاتباع، ولا عن اتخاذ الوسائل الإكراهيّة الّتي تجعلهم يتبعونه، وهي غيْرُ مُتَاحَة له بمقتضىٰ نظام الأسْباب والمَسبَّبات، وأنّ اعتراضاتهم على تنزيل القرآن منجماً ينبغي له أن لا يهتم لها، لأنها اعتراضات على الاختيار الحكيم لرب العالمين.

والتعبير التلقائي القريب لإعلامه بهذه الحقيقة، يكون ببيان أنّه ليس مسؤولاً عن جعلهم يتّبِعُونَ الكتاب، فإذا لم يتّبعُوهُ فلا يَجدْ في صدره حرَجاً من ذلك، لأنّ الله قد منح الناس إرادات حرّة ليبلُوهُمْ من خلالها فيما آتاهم، فلا سلطان للرسول ولا لغيره من خلق الله على إكراه الناس على الإيمان والإسلام والطاعة.

لكنّ مثل هذا التعبير يتناول الموضوع بطريقة مباشرة ليس فيها إبداعٌ فكريّ، فعدَلَ عنه الأداء القرآني، ووجّه النهي للأمر النفسيّ الذي يُحْدِثُه تصَوُّره أنّه مسؤول عن جعلهم يتّبِعُون ما جاء في القرآن، وهو الحرجُ في صدره.

أي: لا تَتَصَوَّر تصوُّرات تفضي بك إلى أن تَشْعُر بالحرج في صدرك، لأنّ التكليف الموجّه لكَ ليس فيه ما يجعل في صدرك حرجاً.

هذا الأسلوب غير المباشر هو من رفيع الأدب في جانب المضمون الفكريّ للنصّ.

● وأمّا الحكْمةُ التربويّة الرّبّانيّةُ، فنلاحظها في تَقْديم البيان الدالّ على نَفْي ما يُسَبّب الحرجَ في صدْرِ الرسول ﷺ، إذ الحرجُ هو المشكلة الّتي كان يُعَاني منها إبان نُزُول هذه الآية.

وقد جاء قول الله عزّ وجل: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ بمثابة

جملة مُعْتَرِضَةٍ بين: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ وبين: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فَطَمْأَنَ اللَّهُ عزّ وجلّ رسولَه بأنَّ تحويل الناس خارج عن حدود مسؤولياته.

وهكذا جاء تأخير البيان الدَّالّ على مسؤوليته تجاه ما يُنْزِلُ الله إليه من القرآن، وهي أن ينذر الذين كفرُوا بما جاء في القرآن من إنذارات، ويَذَرَهُمْ وشأنَهُمْ، لأنّه ليس مسؤولاً عن كفرهم وعن عدم اتّباعهم لما جاء في الكتاب، وليس مكلّفاً أنْ يحوّلَهُمْ من الكفر إلى الإيمان والعمل الصالح.

أمّا من آمن واستجاب لدعوته، فليأمُرْهم بكتابته، وتلاوته، وتدبُّره على مقادير استطاعاتهم، وأن يكون لهم ذكرى، وقد جاء الإيجاز الدَّال على هذه المعاني بقوله تعالى:

- ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾: أي: كتابٌ أُنزِلَ إليكَ لِتُنْذِرَ بما جاء فيه من إنذارات، مَنْ كَفَر بكَ وبما أُنزِلَ إليك، بعد التبليغ والبيان واتّخاذ كلْ وسائل الإقناع.

﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي: وليكون ذِكْرَى للمؤمنين، يُذَكِّرُونَ به، ويَتَذَكَّرُون به، ويكون لهم أَدَاةَ تَذَكُّرٍ كُلَّما تَلَوْهُ، أو قَرَؤوه، أو سَمِعُوه.

ذِكْرَىٰ: اسم يؤتَىٰ به للدلالة على معنىً أو أكثر من معاني ثلاثة:

المعنى الأول: التذكير، ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾: أي: إنْ كان التذكير مَطْموعاً بنَفْعِه.

المعنى الثاني: التّذكُّر، ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام:

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾: أي: تَذَكُّرُ الدَّار الآخرة دواماً.

المعنى الثالث: التَّذْكِرَة، أي: الوسيلة التي يَحْصُل بها التذكّر، كبطاقةٍ فيها ما يُذَكِّر، أو رتيمة، وهي الخيط الذي يوضع في الإصْبَعِ للتّذكُّر.

والقرآن بالنسبة إلى المؤمنين هو ذكرى على المعاني الثلاثة، فهم يُذَكَّرُون به من قبل المذكِّرين، وهم يتذكَّرون به، ثم يكون هُوَ لَهُم إذا قرَءُوه في المصاحف، أو تلَوْهُ من حفظهم، أو سَمِعُوه ممن يقرؤُه أو يتْلُوه أَدَاةَ تذكير.

وقد فهمنا مسؤولية الرسول ﷺ في تبليغ القرآن للناس من دلالة اللُّزُومِ العقلي، ومقتضياتِ الترتيب الطبيعيّ للأشياء.

وذلك لأنّ القرآن لا يكون ذِكْرَىٰ للمؤمنين ما لم يتَبلَّغُوهُ أوّلاً، ولا يكون تَبلُّغُهُمْ له مَا لم يُبَلِّغْهُمُ الرّسُولُ إيّاه، أو أحَدُ حَمَلةِ رسالَتِه من أُمّتِه.

ولا يُنْذِرُ به الرّسُولُ الكافِرين ابْتِداءً، بل لاَ بُدّ أن يُبَلِّغَهُمْ إيّاه أولاً، ويبيّنَ لهم ما جاء فيه ممّا يتعلّقُ بإيمانهم وإسلامهم وعملهم، ويُكرِّرَ تذكيرهم به، فإذا أصَرُّوا على رفْضِ الاستِجَابة لدعوته، وأَبَوْا أن يُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا أَنْذَرَهُمْ بما جاء فيه من إنذارات.

وإيجازاً في التعبير، وحَذْفاً لما يُمْكن إدْرَاكُهُ ذِهْناً قال الله عزّ وجل لرَسُولِه: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

- فمن أَبىٰ وَكَفر، ولم يستجب لدَعْوَةِ الإيمان والإسلام، أَنْذَرَهُ الرّسُول، وكذَلِكَ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أمّتِه، بما في القرآنِ من إنذَارَاتٍ عاجِلاتٍ قد يَجْرِي تنفيذُها في الحياة الدنيا، وآجلاتٍ مؤخرات التّنْفِيذِ إلى يوم الدين.

- ومن آمن وأسْلَم وأَطاعَ كانَ القرآن له ذِكْرَىٰ.

فلا داعي لأنْ يكون في صَدْرِ الرسولِ حَرَجٌ، إذَا وَجَدَ الناس لم يستجيبوا لدعوته، وهذا يتضمَّن أمْرَين:

الأمر الأول: أنَّهُ غَيْرُ مكلَّفٍ أمراً لاَ يستطيعُه، وهو تَحْوِيل الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصيةِ إلى الطاعة، لأنَّهُمْ أصحاب إرادات حرَّةٍ منحهم الله إياها لِيَبْلُوَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا، ولا سبيل إلى إكراهها إلاّ من قبل خالِقِها، وهذا يتعارض مع حكمة الابتلاء.

الأمر الثاني: أنّ الله عزّ وجلّ سَيَمُدُّهُ بالمعونة والتأييد، حتَّىٰ يُؤَدِّيَ رسالَتَهُ على أحسن وجه.

إذن فلا داعِيَ لأنْ يَكُونَ في صدْرِهِ حَرَجٌ.

الحكمة من عبارتي: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ و﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ونحوهما.

جاء في بعض النّصوص القرآنية حول إنزال القرآن التعديةُ بحرف الجرّ «إلى» وجاء في بعضها التعديةُ بحرف الجرّ «على».

- فمن أمثلة التعدية بحرف الجرّ «إلى» ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ . .﴾.

- ومن أمثلة التعدية بحرف الجرّ «علىٰ» ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل في سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ . . . ﴿٧﴾﴾.

فما الحكمة من هذا التنويع في التعبير؟

أقول: الذي أراه أنَّ كُلًّا من هذَيْن التّعبيريْن يدلُّ على معنى مقْصُودٍ غير المعنى الذي يَدُلُ عليه التعبير الآخر.

وذلك لأنَّنا نُلاحظ أنّ بعض آيات القرآن فيها تكاليفُ يُنَاسِبُها التعبير الاستعلائيّ، فجاء في بعض النصوص التعبير متعدّياً بحرف الجرّ «علىٰ».

ونلاحظ أيضاً أن بعض آيات القرآن تشتمل على معارف وعُلومٍ ونَصَائِح نافعةٍ لاَ تَكْلِيفَ فيها، وهذه يُناسِبُها التعبير الدّالُّ على معنى

الإرشاد، والهداية، والْهَدِيَّةِ من الله عزّ وجلّ لعباده، فجاء التعبير في بعض النُّصُوس متعدّياً بحرف الجرّ «إلى».

وبهذا الإجراء البيانيّ تكامَلَتِ النُّصُوصُ في أَدَاءِ الغرضَيْنِ، وملأَمَة التعبير للمضمون الفكري.

* * *

- قول الله عزّ وجل:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

في هذه الآية خطابٌ مُوجَّهٌ لجميع النّاس الموضُوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، لابتلاء إراداتهم الحرَّةِ في اختياراتها بين نَجْدَيْ الخير والشّرّ، وفي هذا الخطاب أمْرٌ ونَهْيٌ من الله لعباده.

﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾: يُقالُ لغة: تَبِعَ الشيءَ تَبعاً وَتَباعاً وَتُبُوعَا، أي: سار في أثره وقفاه دون تكلُّفٍ وَلاَ مُعانَاة.

ويقالُ: اتَّبَعَه اتّباعاً إذا سار في أثره وقفاه بتكلف ومشقة.

ويقالُ لغة: اتَّبَعَهُ وَتَتَبَّعه، وفي هذَيْن معنَىٰ الْقَصْدِ بعناية، وفي تَتَبَّعَ معنى الاستقصاء. وعبارة ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾: فعل أمْرٍ تكليفيّ.

واتَّبَعَ الْقُرآنَ: أي: ائْتَمَّ بِهِ، وعَمِلَ بما فيه، بقَصْدٍ وعِنَاية.

﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: آيات القرآن، وبَيَانَاتِ الرسول لَهُ المتَعلِّقة بقضايا الدِّين.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: في هذِه العبارة نَهْيٌ إلزاميٌّ عن اتِّباعِ أَوْلِيَاءَ من دُونِ الله الرَّبِّ جلَّ جلاله.

﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: أي: من أشياء أو أحياء غَيْرِ رَبِّكُمْ هِيَ بطبيعتها تقع

دونه لأنها خلْقُهُ، وهو سبْحَانه المتصِفُ بالْفَوْقِيَّة المطلقة فهو العليُّ الأعْلَىٰ.

كلمة «دُون» في اللّغة تأتي في الأصل مقابِل كلمة «فوق» فهي مثل «تحت». وكُلٌّ من كلمتَيْ «فوق» و«دون» يستعمل في الحسيّاتِ وفي المعنويّات.

﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾: جَمْعُ «وَلِيّ» والْوَلِيّ كالْمَوْلَىٰ.

الْوَلِيّ: يأتي بمعنىٰ: الرَّبّ، والمالك، والسَّيِّد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحبّ، والتّابع، والجار، وابن العمّ، والحليف، والصِّهْر، والْعَبْدِ، والمعْتَقِ، والْمنْعَمِ عليه، والْعَصَبَةِ من الأقارب، والذي يَلِي أَمْرَ اليتيم ويقوم بكفايته، والذي يلي عَقْدَ نكاح المرأة عَلَيْها.

ووَلِيُّ الرَّجُلِ هُوَ الّذي يَلي علَيْه أمْرَهُ.

والمناسِبُ من معاني الولِيّ للآية معْنَىٰ الرَّب الْمُطَاعِ المنْعِمِ، الذي ينْصُر عباده المؤمنين، والذي يَلِي جميع أمُورهم، ومِنْها أُمُورُ دينِهم الشاملة لشرائعهم، وأحكامِ سُلُوكِهِمْ في حَيَاتِهم، ومنْهَاج مَسِيرَتهم في هذه الدّنيا دارِ امتحانهم.

فمعنى ما جاء في الآية من أمْرٍ ونَهْيٍ: أيُّها الناسُ اتّخِذُوا رَبَّكُمْ وليَّكُمُ الذي يلي جَميعَ أُمُورِكم في حياتكم، فأطيعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، مُتَّبعين ما أُنْزِل إليكُمْ عن طريق رسُولِهِ المؤيَّد بآياته، في كتابه القرآن، وفيما أوحَىٰ به إلى رسوله محمّد ﷺ من حقائق اعتقادِيّة، وشرائعَ وأحكامٍ ووَصَايا، فاعْمَلُوا بما أَمَرَكُمْ به، واجْتَنِبُوا ما نهاكم عنه، واهْتَدوا بِهَدْيِه. ولاَ تتخذوا من دون ربّكُمْ بارِئِكُمْ ومُصَوِّركم ومُمِدِّكم دواماً بنِعَمِه الظاهرة والباطنة، أرباباً من أشياء أو أحياء أولياء، تجعلُونَهُمْ أوْلياءَ عليكم، يَتَوَلَّوْن أُمورَكم في مسيرتكم في حياتكم، فتَتَّبِعُونَ ما يأمرونكم به أو تأمُرُكم به الشياطين السّادِنُونَ لهم، أو الموسوِسُونَ لكم في صدوركم، فتعْمَلُونَ به،

وتَتَّبعُون ما ينْهَوْنَكُمْ عنه أولئك، فتجتَنِبُونه، وتَعْمَلُونَ بشرائِعهم ومناهجهم وخُطَطهم ووَصاياهم، الّتي وضَعُوها لإغرائكم وإغوائكم وسَوْقِكُمْ إلى عذاب جهنّم.

فحقُّ رَبّكُمْ عليكم أن تُوَحّدُوهُ في وِلايَة أُمُورِكم في مسيرتكم في الحياة الدُّنيا حياة الابتلاء.

وكلٌّ من الأمر والنَّهي الواردَيْنِ في الآية من قبيل التكليف الإلزامي من الله عزّ وجل للناس، والمستَتْبَعِ بالمثوبة على الطاعة، والعقوبة على المعصية.

ومن الملاحظ أنّه اختير من أسماء الله عزّ وجلّ في هذه الآية اسم «الرَّبِّ» للدّلاَلَة على أنّ الله تبارك وتعالى هو الذي له على الناس حقُّ أن يتَّخِذُوه وليًّا يَتَوَلَّىٰ جميع أُمُورهم في مَسِيرَتِهم في حَيَاتِهِمْ، فيتّبعوا ما أَنْزَلَ لهم، ويأتَمِرُوا بأَوَامره، وينتهوا عمَّا نَهاهم عنه، ويَهْتَدُوا بِهَدْيه، ويَعْمَلُوا بوصاياه، ولا يَتَّخِذُوا من دونه وَلِيًّا، إذْ لا رُبوبيَّةَ في الوجود كُلّهِ إلاّ للّهِ وحده لا شريك له.

فالرَّبُّ: هو الخالق ابتداءً، وهو الْمُمِدُّ بالْبَقَاءِ والنَّماءِ وشُروطِ الحياة، والمحافظة عليها دواماً، حتَّىٰ نهاية الأجل المقضيّ من قِبَلِه لكلّ مَوْجود سِواه.

والرَّبُّ: هو المربّي الّذي يَتَعَهَّدُ مَا يُرَبِّيه ومَنْ يُرَبّيه بما يحتاج إليه دواماً، إذ التربيَة هي الإنشاء المتدرّج مع توالي الزَّمَنِ، حتَّىٰ إبلاغ الشيء درجة كماله، ويتْبَعُ ذلك التَّعَهُّد بالتناقُص شيئاً فشيئاً حتى نهاية الأجل المقدّر المقضي للمخلوق وفق نظام التربية.

وهذه التربية في تصاعُدِها وفي تَنَازُلِهَا للأحياء وسائر الكائنات هي من أفعال الله عزّ وجلّ في الوجود، لا يُشاركُهُ فيها أحَدٌ.

إذَنْ: فلا أحد ولا شيءَ من دون الله يَصْلُح لأن يكون وَلِيًا لأحَدٍ من خَلْقِ الله في الوجود كلّه، إلاّ بأمْرِهِ أو إِذْنِه، وضِمْن الحدود والشروط الّتي يُبَيّنُها سُبْحانه وتعالى فيما أَنْزَلَ للناس.

فكيف يكونُ حالُ من يتَّخِذُ الطَواغيتَ أو شياطينَ الإنْسِ والجنّ أوْلِياء من دون الله، أو يَتّخِذُ إلَهَهُ هَوَاهُ؟!.

وكَيْفَ يكونُ حالُ من يَرْفُضُ أحكام الله وشرائِعَهُ لعباده، ويَتَّخِذُ أَرْبَاباً من دون الله، يُشَرِّعُونَ لَهُ ما لَمْ يأْذَنْ به الله، ولَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطاناً؟!.

إنّه يَرْفُضُ الاستجابةَ لطلَب الله منْه في الأمْر وفي النَّهْي، فَيَعْصِي مَرَّتَين، لقد عصَىٰ الأمْر فلم يَتّبعْ ما أُنزِلَ إليه من ربّه، وعصَىٰ النَّهْيَ فاتَّخذَ أرباباً من دون الله واتَّبَعَ أوامرهم ونواهِيَهم، وشَرائِعَهُم ومناهِجَهُمُ الّتي لم يأذَنْ بها الله، ولَمْ يُنَزِّلْ بها سُلْطاناً.

ونُلَاحِظُ في هذا النصّ أنّ جملة الأمْرِ قَدْ حُذِفَ مِنْها ما جاءَ الدليلُ عليه في جملة النَّهْي، وأنَّ جُمْلَةَ النَّهْي قَدْ حُذِفَ منها أيضاً ما جاء الدليل عليه في جملة الأمْر، وهذا ما يُسَمَّىٰ عنْدَ أهل البلاغة «الاحْتِباك».

فقد حُذِفَ مِنْ جملة الأَمْرِ التكليفُ باتخاذ الله وليًا، وحُذِفَ من جملة النَّهْي التَّكليفُ بعدم اتّباع شرائع ومناهجَ وأحكام يَضَعُها الواضِعُون من دون الله، بغَيْر سُلْطانٍ منْهُ أو إذْن.

واسْتُغْنِي بدلالة كلٍّ مِنهما على ما حُذِفَ من مُقَابلِه، فوَضَحَ أنّ المعنَىٰ يَشْمَلُ النهيَ عن اتخاذ أولياء من دون الله بغير سلطانٍ منه أو إذْنٍ، وعن اتّباع شرائع ومناهج وأحكام يضَعُها هؤلاء الأولياء بغَيْرِ سُلْطانٍ من الله أو إذْن.

قوله تعالى في الآية خطاباً لجميع الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء: ﴿. . قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أصلها «تَتَذَكَّرُون» حذفت التاء الثانية

تخفيفاً. وقُرِئ: [تَذَّكَّرُون] بإدغام التاء الثانية بالذال، والحذف والإدغام في مثل هذا جائز في اللّسان العربي، وهما وجْهان من الأداء متكافئان.

وقُرِئ: [يَتَذَكَّرُون] بضمير الغائبين، مراعاة لأحوال الذين لا يتَلَقَّوْن الخطاب الرّبَّانيّ في القرآن.

فبين الخطاب والحديث عن الغائبين تكاملٌ في الأداء البياني.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾: أي: تَذكُراً قَلِيلاً قَلِيلاً تَتَذَكَّرُون، فلفظُ ﴿قَلِيلًا ﴾ صِفَةٌ لمفعُول مطلق محذوف مقدّم على فعله، ولفظ ﴿مَّا﴾ إبهاميّة لتأكيد القِلّة.

والمرادُ بالتذكُر الأثَرُ النفسيُ والسُّلُوكيُ الذي يُثِيرُهُ أو يُحْدِثُه التَّذَكُّر لقضيَّةٍ ما من قضايا المعرفة.

والمعرفة المرادة هنا هي المعرفَةُ الدّينِيَّةُ الّتي أوحَىٰ اللّٰهُ بها إلى رسُوله، وهو ما جاء بيانُه في صدر الآية الّتي نَتَدَبَّرُها.

التَّذَكُّر: هو استحضَارُ المعلُومَةِ في الذّاكرة، أو في جهاز التَّصَوُّر الحاضر في الدّماغ، باستخراجِها من مَخَازِنِ المعرفة، وإحضارِها إلى ساحة التصوُّر الحاضر.

ومخازِنُ المعرفة هي مراكِزُ مُتَخصِّصةٌ في الدماغ للاحتفاظ بالمعارف، وتُسْتَدْعَىٰ المعارِفُ منها عند الحاجة، وتتعرّضُ للنسيان بعدّة أسباب، ومن هذه الأسباب الإهمال، وعدَمُ اهتمام النفس بالمعلومة، وعدَمُ المبالاتِ بها والاكتراثِ لها.

أحوال الإنسان بالنسبة إلى المعارف:

وباستطاعتنا لدى التحليل النفسيّ بالنسبة إلى المعارف أن نكْتَشِفَ أنّ الإنسانَ له عدّة أحوالٍ معها:

الحالة الأولى:

هي الجهل بها مطلقاً، ونعلَمُ بداهةً أنّه لا مسؤوليّة على الإنسان بالنسبة إلى المعرفة أو بالنسبة إلى العمل بها، مع الجهلِ الأصْلِيّ الّذي لا كَسْب للإنسان فيه، أمَّا مَا لَهُ كسبٌ فيه كأن دُعِيَ إلى المعرفة فأَبَىٰ، أو عُرِضَتْ عليه فأعْرَضَ عنها أو أَدْبَر وتولّىٰ، فهو مسْؤُولٌ عن الجهلِ، ومسؤولٌ عن عَدَمِ العمل بما كانَ عليه أن يتعلّمه.

الحالة الثانية:

تَهَيُّؤُ الْفُرصَةِ والشُّروطِ اللاَّزِمة لاكتساب المعرِفَةِ الواجبة، والناسُ مع هذه الحالَة قسمان:

- قِسْمٌ يَحْرِصُ على المعرفة، ويَبْحَثُ عَنها بوسائلها، الفكرية، أو التجريبيّة أو الخبريَّة.

وهذا القسم من النّاس قد عَرَفَ ميزَةَ ذاته بوصفه إنساناً، وقامَ بواجبِه نحوَها، أو ببَعْضِ واجبه، وأهْلُ هذا الْقِسْم من الناس على درجات مُتَفَاضِلاَتٍ.

- وقِسْم لا يُبالي بالمعرفَةِ ولا يكْتَرِثُ لها، ويبقَىٰ راضياً بحالة الجهلِ الّتي هو فيها.

وهذا القِسْمُ من الناس قد أَهْمَلَ إنسانيَّتَه، وانْسَاق مع الدّوافع الحيوانيّة فيه، ولم يَقُمْ بواجبه نحْوَ ما ميّزَهُ الله به عن سائر الحيوانات، مُنْذُ كرَّمَه وشرَّفه بأداة المعرفة ووسائلها، الّتي منَحَهُ الله إيّاها، وكرّمه وشرّفه بالإرادة الحرَّة الّتي فطَرَهُ عليها.

وهذا القسم مسؤُولٌ عَنْ إِهْمالِه وتقصيره، ومؤاخَذٌ عليه.

الحالة الثالثة:

حصول المعرفة بوسيلة من وسائِلها الفكريَّة، أو التجريبيَّة، أو الخبريّة.

وأصحاب هذه الحالة قسمان:

- قسْمٌ يحَافِظُ على المعرفة، ويُوَجِّهُها لمخازِن المعارف في نفسه.
- وقِسْمٌ تَمُرُّ المعرِفَةُ علَى فِكْرِه، فَلاَ يَعْتَنِي بها، ولا يكتَرِثُ لها، ويَدَعُها تَمُرُّ عَابرَةً، دون أن يهتمَّ بنقْلِها إلى مخازن الذاكرة في نَفْسِه، بسبب إهماله وعدم اهتمامه.

وهذا القسم من الناس مسؤولٌ عن إهماله وتقصيره، ومؤاخَذٌ عليه.

الحالة الرابعة:

استقرار المعرفة المكتَسَبةِ في مخازن الذاكرة في النفس.

وأصحاب هذه الحالة قسمان:

- قِسْمٌ يسْتَدْعِي المعلُومَةَ من مخازنِ الذاكرة، إلى سَاحَةِ التصوُّر الحاضر عند المناسبة التي تَقْتَضِيها، وهذا هو التَّذَكُّر.

ويتفاوَتُ أهْلُ هذا القِسْم في دَرَجَاتِ الاستدعاء التذكُّرِيّ.

- وقِسْمٌ يُهْمِلُ هذه المخازن، حتَّىٰ تكون في زَوَايَا المتروكاتِ والْمُهْمَلاَتِ، أو نَوادِرِ الاستدعاء، أو في غياهب النسيان.

وهذا القسمُ مسؤولٌ عَنْ إِهْماله وتقصيره، ومسؤولٌ عن نِسْيَانِه، إذْ كانَ لَهُ كَسْبٌ فيه.

ولدَىٰ إحْصَاء واقِعِ حالِ النَّاسِ أَمَامَ هذِه الأحْوالِ نَجِدُ القليلَ النادر منهم الّذي يَكْتَسِبُ المعرفةَ الدينيَّةَ الّتي تَخْدُمُ الآخِرَةَ، والكَمالَ الحقيقيَّ للإنسان، ويُحَافِظُ عَلَيْها في مَخَازن المعرِفَةِ لدَيْه، ويَسْتَدْعيها إلى ساحَةِ التّذكُّر والتصوُّرِ الحاضر، عند المناسباتِ الدَّاعيات، ليكُونَ هذا التذكُّر الحاضِرُ موجِّهاً للإرَادَةِ، ومُحَرِّكاً للسُّلُوك على وفْقِ المعْرِفَةِ وما تقتضيه من اعتقادٍ أو عمل.

كلُّ هذه المعاني قَدْ فتَحَ لنا أبوابَ إدْراكِها قول الله عز وجلّ في الآية: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

قيمة التذكُّرِ وأثَرُهُ في السُّلوك:

ولمّا كان الّذي يُحرِّكُ شيئاً ما مِنْ جوانِبِ النفْسِ إقبالاً أو إدْباراً بعاطِفَةٍ منَ العواطف، أو انفعالٍ من الانفعالات، ويُحرِّكُ إرادَتَها، ويَدْفعُها لتَصَرُّفٍ من التصرُّفاتِ، أَوْ عَمَلٍ من الأعمال، لاَ بُدَّ أن يَمُرَّ في سَاحَةِ التذكُّر الحاضر، كان من الحكمة في البيان القرآنيّ التَّنْبِيهُ عَلىٰ قضيَّةِ التذكُّر للْمَعارِف والْقَضَايا الدينيّة.

فالّذِينَ لاَ يَتَذَكَّرُونَ هذِه المعارِفَ والْقَضَايَا لاَ يَعْمَلُونَ بمقتضاها، والَّذِينَ يَقِلُّ تَذكُّرُهُمْ لَها، يَقِلُّ عمَلُهُمْ بها، والَّذِين يُكْثِرُون من تَذَكُّرِها يكُونُ عمَلُهُمْ بمقْتَضاها أزجَىٰ وأكْثَر، لأَنَّ التذكُّر يُثيرُ دَوَافِع النَّفْسِ، ويُحَرِّكُ مَطَالِبَها ورَغَائِبَها.

الْهَمُّ لاَ يُحْيِيه في النَّفس إلاّ التذكُّر، أمّا النسيان فيمْحُوه.

والعشقُ لاَ يُوقِدُ لهَبَهُ في النفس إلاًّ التذكّر، أمّا النسيان فيطفئه.

والحِقْدُ لاَ يثير بُرْكَانَه في القلب إلاًّ التذكّر، أمَّا النسيان فَيَطْوِيه ويُميته.

والحَسدُ لا يُثيرُه إلاّ شَغل سَاحَةِ التصوُّرِ والتذكُّر بمراقبة نِعْمَةِ الله على المحسُودِ، أمّا النسيان فَيَصْرِفُه عن القلب، فلا تتحرّكُ النفسُ به، فتَنْعَدِمُ الرَّغبةُ في كَيْد المحْسُودِ أو ضُرّه أو إيذائِه، أو تمنّي زوالِ نِعْمَتِه، أو تمنّي الحصول على مِثْلِ ما أنعَمَ اللّهُ به عَلَيْهِ من زِينَةِ الحياة الدنيا وزخْرُفها.

ويأنَسُ الصَّدِيقُ ويَسُرُّهُ أَنْ يكونَ في ذاكرة صديقه دواماً أو أحياناً، لذلك فهو يَفْرَحُ بما يَدُلُّ على هذا التذكّر، كَهَدِيَّةٍ رَمْزية، أو رِسَالَةٍ، أو

بِطَاقَةِ دَعْوىٰ، أوْ زِيارَةٍ، أو محادَثَةٍ بالْهَاتِفِ، أوْ نحوِ ذلك. وحِينَ يُعَاتِبُه على التقصير يقول له: أَلَمْ نَخْطُرْ فِي بالِكَ؟! أَنَسِيتَنَا؟! ألم تذكُرْنا؟!.

واشْتِغَال الْقَلْبِ وجَوانِب النَّفْسِ في حرَكَاتِها وتَصرُّفاتها بأنواعِ الْعِبَادَة لله عزّ وجلّ، وبطاعته، وبالتَّقَيُّدِ بأوامِره ونواهيه، مَسْبُوقٌ باشْتِغَالِ قِسْمٍ من سَاحَةِ التَّذَكّر باللّهِ والْيَوْمِ الآخرِ، الذي يفتح في الذَّاكِرَة صفحاتِ مطالّب الدّين تُجاهَ الْمُثِيرِ الْمُقَارِن، مِنْ حَرَكَةِ الزمن، أو مطالِبِ الحياةِ وشهواتِ النفوس.

وكلّما كان الشيء أكْثَر حُضُوراً في سَاحَةِ التذكُّر كان أكْثَر تأثيراً في النَّفْس، وتَحْرِيكاً للإرَادَةِ الموجّهةِ للطّاقاتِ نحو السُّلوك الملائم لمطلوب النَّفْسِ الّذِي أثَارَهُ التَّذكُّر.

وكلّما كانَ الشيءُ أكْثَر شَغْلاً لنِقَاطِ سَاحَةِ التذكُّر، كانَ أكثر تَأْثِيراً في جوانب النَّفْس، وَأَكْثَر مُحَاصَرَةً لَهَا، فالشَّامِلُ لسَاحَةِ التَّذَكُّرِ يَسْتَأْثِرُ بكُلّ جوانب النفس.

وكلّما كان الشيء أدْوَمَ بَقاءً في سَاحَةِ التَّذكُّر، كان أَدْوَمَ تأثيراً في جوانب النفس، واستثارَةً لَها نحو السُّلوكِ الملائمِ لمطلُوبِها الذي أثارَه التَّذكُّر.

فمن كانَتْ ذاكِرَتُه مشغولَةً دواماً بالدَّارِ الآخِرَة، وما يُحقِّقُ السَّعَادَةَ الأبَدِيَّة فِيهَا، كانَتْ جَوَانِبُ نَفْسِه كلُّها مُسْتَثَارةً لتحقِيق مطالِبِها من الدار الآخرة، بالْعَمل لمَا يُحَقِّقُ أَعْظَم سعادةٍ خالِدَةٍ يَوْم الدِّين، وطَرِيقُ ذَلِكَ الْعَمَلُ بمراضِي الله عزّ وجل، وابتغاءِ وجْهِهِ الكَرِيم بالأعمالِ الصَّالِحَات.

وهكذا كانَ حَالُ إبراهيم وإسْحَاقَ ويعقوبَ عليهم السّلام، وفي وصفهم قال الله عزّ وجل في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ فَلِكُلّ حريص على أعلى المراتب يوم الدِّين:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ (٤٥) إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٧)﴾.

إنّ الخصْلَةَ الْخَالِصَةَ من الشَّوَائِب الّتي اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ بها، فجعَلَهُمْ بِها مِنَ المصطَفَيْنَ الأخيارِ، هي أنَّ سَاحَةَ تذكُرِهم مشْغُولَةٌ دَواماً بالدَّارِ الآخِرَةِ، وبما يُبَلِّغُهُمْ فِيها أعْظَم سعَادَةٍ مِنْ رضوانِ الله عزّ وجلّ، ويجعَلُهُمْ فِي الفردوس الأَعْلَىٰ مِنْ جنَّتِه العظمى.

ولهذا جاء في القرآن المجيد التَّوجيهُ بعنايةٍ فائقَةٍ للذِّكْرِ والتَّذَكُّر والتَّذْكِير.

يُضافُ إلَىٰ مَا سَبَق بَيانُه، أنَّ لِلْقَضَايَا الاعْتِقَاديّة عنْدَ إحْضَارِها في ساحَةِ التَّصوُّر الحاضِر، ومَرَاكِزِ التذكّر، رُدُودَ أفْعالٍ في النفسِ مُلائمةٍ لها، ومساوِيَةٍ لها في مقدارها شِدَّةً وَضَعْفاً، وذلك عند سَلامَةِ الفطرة النفسيَّةِ وأجْهِزَتِها، وسلامةِ التصوُّراتِ من العوارض المشوّشَةِ المفسِدَة، أو الصَّادَةِ لها، الواقعة في طريقها تَمْنَعُها من النُّفُوذِ إلى داخل النفس، أو المخدِّرَة لَها، إذْ تَشُلُّها عن الحركَةِ والتَّأْثِير، فَتَغْدُو تصوُّراتٍ اعتقاديَّةً كميّتَةٍ في قلوب أصْحَابِها بالشَّلل الذي أصابها، فهي حينئذٍ قد تَرَىٰ ولا تتحرّك، وقد تَعِي ولا تَفْعَل شيئاً، فلا بُدَّ لَها مِنْ عِلَاجٍ في كلِّ هذه الأحوال غير الطبيعية.

أمّا في الحالة الطبيعيّة السَّلِيمَةِ فلكُلّ تصوُّرٍ اعتقاديٍّ ردُّ فعْلٍ نَفْسِيٍّ ملائمٍ له، ومساوٍ له في مقداره، أوْ زائدٍ عليه من شِحْنَةٍ ذاتِيَّةٍ تنطلقُ من نفْسِ الإنسان.

وفي بيان تأثيرِ ذِكْرِ الله وذِكْرِ وتَذَكُّرِ آيَاتِه المنزّلَات، في توجيه السُّلوك الدينيّ والدَّفع إليه، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥)﴾.

أي: من أحضر في تصوُّرِه أسماءَ ربّه الحسْنَىٰ، وصِفَاتِهِ العظْمَىٰ، دفَعَهُ تذكُّره لَها إلى الخضوعِ لَهُ، والْتِمَاسِ رَحَمَاتِه، فَصَلَّىٰ لَهُ، راكعاً، وساجداً، ودَاعياً.

والمرادُ بالتذكّر لقضايا المعرفَةِ الدّينيَّةِ المتصلة باللَّهِ عزّ وجلّ، إحضارُهَا في ساحَةِ التذكّر والتَّصَوُّرالحاضِرِ، بإخراجها من خَزَائِنِ المعْرِفَةِ في النَّفْسِ، وشَغْلِ الفِكْرِ المتحرِّكِ بها.

وأبان الله عزّ وجلّ أنَّ عوارض نَزْغِ الشيطان في النفس يصرفها تذكُّرُ الله والاستِعَاذَةُ بِه، فقال الله عزّ وجل في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) الّتي نتدَبَّرُها:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

فَكَشَف هذا النصّ أَثر الاستعاذَةِ الحقيقيّة بالله، وهي الاستعاذة المصحوبةُ بتَذَكُّرٍ فكْرِيٍّ حقيقيٍّ لله عزّ وجلّ، في إحداثِ الإبْصَارِ القلْبي الوجدانيّ بعين البصيرة لحقائقِ الأُمُورِ التي يحيط بها نزْغُ الشيطان ويَسْتَغِلُّها بوسَاوِسِهِ ونَزَغَاتِهِ. وهذا الإبصارُ القلبيُّ يطاردُ نزغ الشيطان، ويصْرِفُ عَنِ النَّفسِ طائفه.

بخلاف إخوان الشياطين الّذين لا يستعيذون بالله من نَزْغِهِمْ، ولا يَذْكُرون الله ذكْراً حقيقيًا واصلاً إلى أعماق الفكر والنفس، فإنّ الشياطين يَمُدُّونَهُم في الْغَيِّ والضَّلاَلِ ابتداءً، ثُمَّ لاَ يُقْصِرُون وَلاَ يَكُفُّونَ عن مُتَابَعةِ الإغواء دواماً.

وأبان الله عزّ وجلّ أنَّ المؤمنين المتَّقِين الّذين يَرْتَكِبُون عوارض المعاصي، فيَظْلِمُونَ بها أنفُسَهم، ويُعَرِّضُونَها لاستحقاقِ العقوبة من الله جلّ

جلاَلَه، لا يَتْرُكُون أنفسهم بعيدين بمعاصيهم عن صراط الله ومواقِع تنزُّلاتِ رحماته، بلْ يَتدارَكُونَ أنْفُسَهُم بذِكْر الله، والرَّجْعَةِ الحميدة إلى مُقْتَضَياتِ التقوى، فيسألون اللّهَ أن يَغْفِرَ لهم، ولا يُصِرُّون على مُتَابعة تكرار ارتكاب المعاصي الّتي سَبَقَ أن ارتكبُوها، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في معرض بيان صفات المتقين:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

فمن صفات المتقين أنّهم إذا عَصَوْا مَعْصِيَةً ذَكَرُوا الله بَعْدَها، فَدَفَعَهُمْ ذِكْرُ الله إلى الاسْتِغْفَارِ لذُنوبهم، وعدم الإصرار على المعصية.

وأبان الله عزّ وجلّ ما لذِكْرِ الله من تأثيرٍ في النَّهْي عن الفحشاء والمنكر، فقال تعالى في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فذكْرُ اللَّهِ الدَّائِمُ أكْبَرُ في النَّهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة الّتي قد يَغْفُل المصلّي فيها عن ذكْرِ الله، ولَيْسَ المرادُ الاكتفاءَ بذكر الله عَنِ الصَّلاَة، بلِ المرادُ التَّنْبيهُ علَىٰ قيمة ذِكْرِ الله عزّ وجل في توجيه سُلُوكِ الإنْسَانِ إلَىٰ طاعَةِ الله والعمل بمراضيه.

ولَيْسَ معنى النَّهْي عن الفحشاء والمنكر تحقُّقُ الانْتِهاءِ تلقائيًا، بل لا بُدَّ من حَرَكَةٍ نَفْسيَّة إراديَّةٍ أُخْرَىٰ يَتَحَقَّقُ فيها الانتهاءُ في واقع سُلُوك الإنسان، غَيْرَ أنَّ رَجَاءَ الانتهاء مع وجود النَّهْي الّذي يكُونُ بالصَّلاة أو بذكر الله الدائم ولو في غير الصلاة، أكْثَر مِنْهُ حِينَما يكُونُ المؤمن غافلاً عن ذكر الله.

وأبانَ الله عزّ وجلّ أنّ التذكُّر النافع في جَعْلِ الإرادة تتوجّه لتنفيذ السُّلُوك الذي يُرْضِي الله، هو التذكُّر الّذي يتذكَّرُهُ المؤمِنُون المتَّقُونَ أولُوا الألباب، فقال تبارك وتعالى في سورة (الزُّمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

وقال تبارك وتعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

الألباب: هي العقول الواعيَةُ الدَّرَّاكة، الّتي تَعْقِلُ المعارف فتُمْسِكُ بها، وتعقل النَّفسَ عن اتّباعِ الْهَوَى.

ولِمَا للذِّكرِ بمعنى إحْضَار الشيء من ساحة التصوُّر الحاضر من مخازن المعرفة في النَّفسِ، من قِيمةٍ عظيمةٍ جدًّا، في تحريك الإرادة وتوجيه السلوك، جاءَ في القرآن المجيدِ نصُوصٌ كثيرة جدًّا يتطلّب تدبُّرها بالتفصيل مجلَّداً ضخماً، وهذه النّصوص تأمُر بذكر الله، وبذكر آياته المنزّلات، وبذكْرِ قِصَصِ وأَحْوالِ الأوّلين للاعتبار والاتّعَاظ، أو الاقتداء والتأسّي، وهذا الذكر لا بُدَّ أن يكون مَسْبُوقاً بتلَقِّي القرآن كلِّهِ أو بَعْضِه، ومسبوقاً بتفَهُّمِه، واختزانِه في مراكز المعرفة في النفس، وبَعْدَ ذَلِكَ يأتي تذكُّرُهُ، بإحضار ما يتعلَّقُ منه بالمناسَبَةِ الداعية، في ساحة التصوُّر الحاضر، لتَحْرِيكِ الإرادة وتوجيه السلوك.

مراتب تأثير ذكر الله في قُلُوب المؤمنين:

ولتأثيرِ ذكر الله عزّ وجلّ في قُلوب المؤمنين ثلاثُ مراتب، ولكلّ مرتبة منها درجات متفاضلاتٌ بحَسب أحْوالِ أصْحَابها.

المرتبة الأولَى الدُّنيا «مَرْتَبَةُ الْوَجَل»:

إنّ المؤمن المتقي الذي يتملَّكه الشُّعُورُ بالمعاصي والتقصيرات، إذَا

ذَكَرَ الله خاف من عقابه، فوَجِلَ قَلْبُه، ويكونُ مقدارُ وَجَلِه بمقدار قُوّةِ إيمَانِه شِدّةً وضعفاً، وبهذا تَتَفَاضَلُ درجاتُ أهْلِ الوجَلِ.

الْوَجَلُ في اللُّغة: الخوفُ والفزع.

دلَّ على هذه المرتبة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾.

المرتبة الثانية الوسطَىٰ (مَرْتَبَةُ الْخُشوع):

الْخُشوع: هو سُكُونُ النفس وخضُوعُها، وكلُّ خاشعٍ ساكنٌ خاضع.

وهذه المرتبة يرتقي المؤمن إليها، ثم يرتقي في درجاتها، إذا قَلَّتْ معاصيه ومُخَالَفَاتُه، وكَثُرَتْ طاعاتُه وقُرُباتُه، وعَظُم رجاؤه لفضل الله ورحمته، وتكون نسبة خُشوعِه بمقدار قلّة معاصيه، وكثرة طاعاته وقُرُباته وعِظَمِ رَجائه، وبهذا تتفاضل درجات أهل الخشوع في هذه المرتبة.

دلَّ على هذه المرتبة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾: أي: أَلَمْ يَحِنْ، يقال لغة: أَنَىٰ يَأْنِي أَنْياً وَإِنىً وأَنَاةً، أي: حَانَ وَقَرُبَ.

والمعنى: ألم يَحِنْ للّذين آمَنُوا أن يَرْتَقُوا فَوْقَ مَرْتَبَةِ الوجل، ويَصِلُوا إلى مرتبة الخشوع والسكينة، بعد المدّة التي مرّت عليهم وهم يمارسون فيها العبادات وأنواعَ الاستقامة على صراط الله المستقيم.

وقد نزل هذا النصّ بعد النصّ السابق بمدّة كافية لحدوث الخشوع في قلوب المؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ في المدينة.

المرتبة الثالثة العليا (مرتبة الطمأنينة):

وهي حالَةُ السُّكون النفسِيّ والقلْبيّ التامّ المسْتَرْخِي في أحضان فَضْلِ الله ورحمته وفيض إنعامه.

وهٰذه المرتبة يرتقي المؤمن المتّقي إليها إذا صار من الأبرار أو مِنَ المحسنين، فاستوفى حُقُوقَ مرْتَبَةِ المتقين بفعل الواجبات، وترك المحرّمات، ودخل سِبَاقَ نوافِلِ العبادات والقُرُبَات، أو الإحسان في أداء العبادة للربّ جلّ جلاله.

دلّ على هذه المرتبة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

* * *

مقادير الذكر والتذكر في الأزمان والأحوال:

وبالنظر إلى الأزمان التي تمرّ على المؤمنين والأحوال الّتي يتقبلّون فيها نلاحظ أنهم يتفاوتون تفاوتاً كثيراً في مقادير ذِكْرهم لله، وتَذَكُّرِهم لآياتِه المنزّلات، أو ما فيها من دَلاَلاَت على قضايا دينِهِ لعباده، وأوامره ونواهيه ووصاياه.

وقد أمر الله الذين آمنوا أن يذكُروه ذكْراً كَثيراً، وأنْ يُسَبِّحُوهُ بُكْرةً وأصيلاً، والتسبيح من الذكر، إلاَّ أنَّهُ خاصٌّ بتنزيه الله عن كلّ ما لا يليق به، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾.

البُكْرَةُ: أوّل النهار إلى طُلوع الشمس.

الأصيل: الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

والكثرةُ والقِلّةُ في الذِّكر تكُونُ من وجْهَيْن:

الوجه الأول: وجه تلاحظ فيه قلّة الذِّكرِ وكثرتُه في اللّحظة الواحدة، فأكثره ما يملأ ساحة التذكّر كلّها في هذه اللّحظة، فيستبدُّ الشيءُ المذكور فيها بجوانب النفس كُلّها.

ويتنازَلُ المقدار حتى يكون الشيْءُ المذكُورُ في ساحة التذكّر بمثابة فَرْدٍ من أفرادٍ كَثِيرَةٍ مرَّتْ كُلُّها في وقت واحدٍ، وامْتَدَّ إلَيْها الشهود في رُؤْيَةٍ واحدةٍ بالتَّسَاوِي، كمن يَرَىٰ شخصاً واحداً بِعَيْنِه ضمن جمهورٍ غفيرٍ من الناس بإثارَةٍ مشتركة.

الوجه الثاني: وجه تُلاحظ فيه قلّةُ التذكر وكثرتُه للشيء الواحد في تتابع اللّحظات، فأقلُّه ما يمرُّ في الذاكرة لحظة واحدة ويَنْصَرِف، وأكْثَرُهُ أدْوَمُه وأبْقَاهُ مُسْتمرًا مع الزمن.

وينتج عن هذين الوجهين حالاتٌ لا حصر لها، ناتجَةٌ عن نسبة شَغْلِ الشيء المذكور لساحة التذكّر في اللّحظة الواحدة، وفي مقدار دوام هذا التَذَكُّرِ واستِمرارِه مع توالي الزمن.

ولو استعرضنا أحوال الناس وأَمكنَنَا أن نَشْهَدَ واقع أحوال ذَاكِراتِهم للأشياء لَوَجَدْنَا أمراً عَجباً عُجَاباً.

فمن الناس من لا يُوجد في ساحة تذكُّره إلاّ المالُ وجمعُه، فلا تتجه عواطفُهُ وإرادته وسُلوكُهُ إلاّ لجمع المال بأيّة وسيلة مُتاحَةٍ له.

ومن الناس من لا يُوجَدُ في سَاحَةِ تذكُّره إلاّ عَشِيقَتُهُ، وهذا يكون مشْغُولَ الْعَواطِفِ والإرادَةِ والسُّلُوك بها، بغية الوصول إليها.

ومن الناس من لا يوجَدُ في ساحة تذكُره إلاّ السُّلْطانُ والعلوّ في الأرض، فهو مشغُولُ العواطف والإرادة والسلوك به دواماً.

ومن الناس من لا يوجد في ساحة تذكُره إلاّ مطالِبُ شَهَواتِه ولذَّاتِه من طعام وشرابٍ ورفاهية ونساء ونحو ذلك، فهو مَشْغُول العواطف والإرادة والسلوك بما يملأ ساحة تذكُّرِهِ من هذه الأمور.

أمّا الذين يتَذَكّرُون ربَّهم والدَّارَ الأخرةَ، ومطلوبَ سعادَتِهم الأبديّة يوم الدّين فهم نادِرُونَ قَلِيلُون في الناس، وهم على مراتِبَ متفاضلات، ودرجاتٍ كثيرات متفاوتات، كما قال الله عزّ وجل في الآية التي نحن في صَدَد تَدَبُّرها خطاباً للناس:

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ و[تَذْكّرُونَ].

وحديثاً عن الناس في القراءة الأخرى: **[قَلِيلاً مَّا يَتَذَكَّرُونَ]**.

والخلاصة: أنّ قليلاً من النّاس من يتذكَّرُ الأشياء الّتي جعَلَ الله سعادَةَ الناس في دُنياهم وأُخراهُمْ بها، وكلُّها مربوطةٌ بذكر الله، وبذكرِ مَا أَنْزَل لعباده وبلَّغَهُ رَسُوله، وذلك لأنّهم لا يَضَعُونَها أصْلاً في مراكز علْمِهِمْ وإيمانِهم حتَّىٰ يُحْيُوها بالتذكر الباعث على العملِ للدّار الآخرة، ومرْضاةِ الله، بلْ سَاحَةُ تذكُرِهم مشغولةٌ بمطالِبهم من الحياة الدّنيا.

والمؤمنُونَ الّذِينَ يتذكَّرُون أحياناً الأشياء الّتي جعل الله سعادة النّاس في دُنياهم وأخراهم بها قليلاً مًّا يتذكَّرون، إذْ لا يسْتَغْرِقُونَ أَوْقاتاً كثيرةً من عُمْرِهم بتذكُّرِهم لها إذا تذكّروها، فيقِلُّ تذكُّرهم في اللّحْظَةِ الواحدة، ويقلُّ مِقْدارُ زَمَنِ التذكُّر عندهم في مَدَىٰ أَعْمَارِهم، وسبَبُ ذلكَ الغَفَلاتُ، والصوارِفُ من مطالب الجسَدِ وشَهَواته، ومَطَالِبِ النفس من الدنيا وشهواتها مع شوارد الأفكار العاملة دواماً.

إنّ مطالب الجسد والنفس هي مُثِيراتٌ من داخلها، وهذه لها أيضاً

مثيراتٌ من الخارج تأتي عن طَرِيق الحواسّ، وهذه المثيراتُ تستدعي الأفكار للاشْتِغَالِ بها، بُغْيَةَ تحقيقِها أو الاستمتاعِ بها، فتمتَلِئُ ساحَةُ التَّصَوُّر الْحَاضِرِ بها، فلا تجد القضايا الإيمانية المتعلِّقَةُ بالله واليوم الآخر مجالاً في هذِهِ السَّاحَةِ، فتَبْقَىٰ فِي خزائنها نائمةً.

ومعلومٌ أنّ مطالِبَ الجسَدِ والنَّفْسِ من الدنيا لا تنتهي، وبسبب ذلك تَبْقَىٰ ساحة التصوّر الحاضر مشغولَةً بشريطٍ ممتدّ من صُور الأفكار الموصولَةِ بهٰذِه المطالِب، وهذا الشريط لا نهاية له.

ولهذا جعل الله عزّ وجلّ لأهْلِ الإيمانِ به برْنَامَجَ ذكْرٍ واجبٍ، يذكُرون فيه ربّهم على وفقه، في أوقاتٍ من كلّ يوم موزعات ما بين الفجر إلى الفجر، وأوقاتٍ أسبوعيَّةٍ، وأوقاتٍ سنويّة؛ أو في العمر كلّه. وجعلَ لهم برنامج ذِكْرٍ تَطوُّعيّ يتسابقُ الذاكرون الله والذاكراتُ فيه إلى اغتنام أكْبَرِ قَدْرٍ من ذكر الله عزّ وجل وذكْرِ آياتِه وذِكْرِ الدار الآخرة، للظفر بالمراتِبِ والدرجاتِ الرفيعات في جنّاتِ النعيم.

فالصلوات الخمس اليومية جعلها الله عزّ وجلّ وعاءً عمليًا يَحْتَاجُ مِقْداراً من الزمن، والمطلوبُ فيها مع الأعمال ذكْرُ الله عزّ وجلّ.

وصلاة الجمعة في كلّ أسبوع سَعْيٌ إلى ذكر الله والتذكير به بصفَةٍ جماعيَّةٍ ذات شمولٍ للمُدُن والحواضر.

وصِيامُ شهر رمضان في كلّ عامٍ مناسَبَةٌ لذكر الله وتكبيره، وتذكُّرِ نِعَمه العظيمة، والاستكثارِ مِنْ تِلاوَةِ القرآنِ وقيام اللَّيل، وشُهودِ حلقاتِ الْعِلْم والذِّكْر لله عزّ وجلّ والتَّذْكِير به.

والحجّ إلى بيت الله الحرام وشهود مشاهده والقيام بأركانه وواجباته وسائر مناسكه، إنّما كان كلّ ذلك لذكر الله عزّ وجلّ، مَعَ الأغراض الأخرى من هذه العبادة.

ولدى التحقيق والتَّدْقِيقِ نُلاحظُ أنَّ ذِكْرَ الله هُو رُوحُ العِبَادات كُلِّها، والنُّصُوصُ من القرآن والسُّنَّة تَدُلُّ على هذه الحقيقة من حقائق الدين.

والمطلوب ترغيباً من المؤمن أنْ يَكُونَ ذاكراً لله في أحواله كُلِّها، غير أنّ مطالب الجسَدِ والنفسِ من الدُّنيا، وعوارِضَ الْهُمُومِ والمتاعِبِ والمصَاعِبِ، صَوارِفُ تَصْرِف الإنسانَ عن ذِكْر ربّه.

وكلّما جَاءَتْ خطَرَاتُ الإيمان فشدّتِ المؤمن إلى ذكْر ربّه، جاءت الصّوارف فجعلَتْهُ يتفلَّتُ بسُرْعةٍ إلى أمور دُنياه، ولهذا كان بحاجة إلى حِصَص زمنيَّةٍ يُفَرِّغُ فيها نفسَهُ إلزاماً لعبادة ربّه، ويُخَصِّصُها لذِكْرِ الله عزّ وجلّ، فكانت العبادات بحكْمَةِ الله مخصَّصَةً لذكر الله فَوْقَ الْعَادَة.

أمّا سائر أوقات المؤمن وأحوالِهِ فَعَلَيْهِ أن يَذْكُر الله فيها وفْقَ الْعَادَةِ، أيْ: ضِمْن حُدُودِهَا، ومَعَ كُلِّ مُنَاسَبةٍ تَسْتَدْعي ذكر الله جلَّ جلاله وعَظُمَ سلطانُه وتباركت أسماؤه وصفاته.

وذِكْر الله عزّ وجلّ هو في حقيقته حالة استحضارٍ في التصوّر وتذكُّرٍ لعناصر الْقَاعِدَة الإيمانية، الشّامِلَةِ لصفات الله كلّها، وآياته الجليلات، ونِعَمِه العظيمة، ووَعْدِه ووعيده، وواجبات الإنسان تجاه ربّه.

وبهذا التذكّر والاسْتِحْضَار في التّصوُّر تكونُ مُراقَبَةُ الله المحيط بكُلّ شيءٍ قُدْرَةً وعِلْماً، ومَعَهُ تَتَحرَّكُ رُدُودُ الأفعال النفسيّةِ والقلبيّةِ الموجّهةُ للسُّلُوكِ على ما يُرْضي الله عزّ وجلّ، ويَكُونُ ذلك في النفوس المؤمنة السَّوِيَّة.

والنصوص الدالة على هذه الحقيقة كثيرة، منها النصوص التالية:

(١) حين خاطب الله عزّ وجلّ موسَىٰ عليه السلام بالوادي المقدّس طُوى، قال الله تبارك وتعالى له كما جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾.

أي: وأقِمِ الصَّلاةَ لِتَذْكُرَني في عِبَادَتِكَ لي.

(٢) وفي الدعوة إلى حضور صلاة الجمعة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ السَّعْي إلى حضور صلاة الجمعة هو في حقيقته سعْيٌ إلى ذِكْرِ الله.

(٣) وَبشأن عبادة الحجّ قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿...فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٩٩ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ۝٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٠٢ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٠٣﴾.

فهذه أعمال الحجّ مَشْحُونَةٌ بذكْرِ الله الّذي أمَرَ الله ورسولُه به.

إلى غير ذلك من نصوص قرآنية كثيرة فيها توجيه لذكر اللّهِ عزّ وجلّ في السّلم والحرْب، والمشي في مناكب الأرض لكسب الرزق، والصحة

والمرض، والمنشَطِ والمَكْرَه، إلى سائر أحوال الحياة، ويضاف إلى النصوص القرآنية بيانات نبويَّة من أقوال الرسول وأفعاله⁽¹⁾.

* * *

- قول الله عزّ وجل:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

في هاتين الآيتَيْن بيانٌ لأَحداثٍ مضَتْ في تاريخ الناس، وإشارةٌ إلى سُنّة الله عزّ وجلّ في عبادِه، وهذه تتضمن عن طريق اللُّزوم العقليّ تَوْجيهَ إنْذارٍ من الله جلَّ جَلاَلُه وعظُم سلطانه للكافرين إبَّان تنزيل السُّورة، ولِمَنْ سَيأتي بعدهم عبْرَ القرون، بالإهلاك المعجّل إذا وَصَلَ حَالُهُمْ إلى مثْلِ ما وصَلَتْ إليه أحوال المهلَكِينَ السّابقين من أَهْلِ الْقُرُونِ الأولى، من مُكَذّبي الرُّسُلِ، ورَافضي اتّبَاعِ ما أُنزِل إليهم من ربّهم، والّذين اتّخذُوا مِنْ دُونِه أولياء.

وهذا التوجيه الإنذاريّ هو بمثابة التفريع على ما جاء في الآية الثانية من السّورة الّتي نتدبّرها، وهو قول الله عزّ وجل لرسوله:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

فالإنْذَار بالقرآنِ مِنْ عناصِره عَرْضُ مَا جَاءَ في آياتِه من بيان إهلاكِ الله للكُفّارِ أهْل القرون الأولى، إذْ يَدُلُّ عَرْضُها على أنَّ سُنَّة الله في عبادِهِ

---

(١) انظر كتيّب «العبادة في الإسلام» للمؤلف، ففيه بعض إضافات حول ذكر الله، على أنه يوجد في هذا البحث المستفيض في تفسير الآية (٣) من سورة (الأعراف) مفهومات لم تذكر في كتاب «العبادة في الإسلام».

السابقين واللاّحِقِينَ، أن يُهْلِكَ الأُمم إهلاكاً جماعيًا، إذا بلغت من الكفر والفساد والإفساد في الأرض مبْلَغاً تقضي الحكمة الرَّبَّانيَّةُ معه بإهلاكهم، لأنّ بقاءَهُم الْمُجْبِرَ للأجيال على الكفر يُلْغِي الغاية من خلْق الناس لِيَبْلُوهُمْ في ظروف الحياة الدنيا.

ولمّا كان إهلاكُ السّابقين لم يَحْصُل إلاّ بعْدَ إنذارٍ من الله لهم، مسبوقٍ بتبليغ رُسُل اللّهِ لهم أُصُولَ الدّين وشرائع الله وأحكامَه وأوامره ونواهيه لعباده، ومَسْبوقٍ بصَبْرٍ طويلٍ علَيْهم، ومعالجةٍ لهم بمختَلِفِ وسائل الإقناع والتربية والترغيب والترهيب والجدال بالّتي هي أحْسَن وغير ذلك من أمور، كان من الحكمة الإشارة إليه بحرف عطفٍ هو (الواو) في صدْرِ حِكَايَةٍ مُوجز إهلاك قُرىً كثيرة سابقة، العاطِفُ على محذوف⁽¹⁾، فقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَهَا ..﴾.

ولو كان هذا المطويّ في النّصّ المتفرّعُ عن مضمون قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ مُصَرَّحاً به لكان التعبير على نحو قولي:

فكم من رسولٍ أرْسَلْنَا إلَىٰ قريةٍ فبلّغها وأنْذرَهَا، وكم من قرية أَرْسَلْنا إلَيْها رسُولاً برِسَالاَتنا، فبلّغَها وَنَصَحها وهَداهَا إلى صراط ربّها، وحذّرها وأنْذَرَها، فلَمْ تَسْتَجِبْ لدعوته، وكفَرتْ وعَانَدَتْ وأصرّت على فسادها، وعلى إفْسَادِهَا في الأرض، وحين اقتضت الحكمةُ إهلاكَها أَهْلَكْنَاهَا.

بهذا الفهم يتمّ ترابط الكلام، ولا تكون به واو العطف مجرّد عاطفة جملةً على جُمْلَةٍ، أو للاستئناف، دون ملاحظة ترابط المعاني المرادة.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي: وكم من أهل قرية، وإطلاق أسماء الأماكن

---

(١) صحّ عِنْدِي بتتبُّع النصوص القرآنية أن العطف على محذوف من اللفظ لا يقتصر على الفاء الفصيحة التي تَنَبَّهَ إليها المفسّرون وذكرها النحويُون، بل كلُّ حروف العطف قد تكون مفصحة عن محذوف، ويشهد لهذا كثير من دلالات النصوص القرآنية.

على أهْلِها وسُكَّانها من الاستعمالات الشائعات في العربيَّة وغيرها. ويُسمّي علماء البلاغة هذا الإطلاق مجازاً مُرْسلاً، وهو من إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه، فيقالُ عن مدينة شاع في أهلها الفجور مثلاً: المدينة الفاجرة، أو المدينة العاهرة، ونحو هذا.

«كم» اسم يقع على العدد بمعنى «كثير» وتُسَمَّىٰ: «كم الخبريَّة» للتفريق بينها وبين «كم الاستفهامية».

ولإبْهامها ودلالتها على عدَدٍ مجهولِ الجنْس كانت مفتقرةً إلى التَّمْيِيزِ، ومميّزها مجرورٌ بعدها، ويجوز دُخولُ حرف الجرّ «من» عليه للتأكيد.

و«كَمْ» مبتدأ، خَبَرُهُ جُمْلَة ﴿أَهْلَكْنَهَا﴾.

﴿أَهْلَكْنَهَا﴾: أي: أَفْنَيْنَاها، واسْتَأْصلْنَاها، أصْلُ الإهلال في اللّغَةِ الإماتة، ويقع على إفناء الأشياء واستئصالها.

والمراد بقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَهَا﴾ أرَدْنا إهلاكها، فقضيناهُ، إذ استحقت الإهلاك، وبعد ذلك يأتي إصدار الأمْرِ التنفيذي بإهلاكها، وهذا من الاستعمالات الشائعات، وله نظائر كثيرة في القرآن، وفي استعمالات الناس، بالنسبة إلى كلِّ أمْرٍ قد صَارَ متحقّق الوقوع في المستقبل.

فمن ارتكَبَ جَرِيمة يستحقُّ عليها القتل، ووقع في قبضة الحاكم الّذي يُنَفِّذُ الأحكام بالعدل، قال الناس بشأنه: قتلَتْه جريمته، ولو لم يكُنْ قَدْ قُتِلِ بَعْدُ، نظراً إِلَىٰ أنّه صائرٌ إلى ذلك بحسب العادة، فكيْفَ إذا كان الأمْرُ حَتْمِيَّ الوقوع، كقضاء الله وأوامِره التنفيذيّة؟!

ومن أطْلَقَ قَذِيفةً بتسديدٍ مُحْكَمٍ، يُقالُ بشَأْنه: لَقَدْ أصاب الْهَدَف، ولو لم تَصِلْ بَعْدُ قَذِيفتُه.

ودلّنا على أنّ هذا المعنى هو المعنى المراد في الآية، ترتيبُ أحداثِ

تنفيذ الإهلال على جُمْلَةِ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بحرف الفاء الدّالّ في اللّسان العربيّ على الترتيب مع التعقيب، في قول الله عزّ وجل:

- ﴿. . . فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾.

﴿بَأۡسُنَا﴾: أي: عذابنا الشديد، فالبأسُ في اللُّغَة هو العذاب الشديد.

﴿بَيَٰتًا﴾: أي: وهي دَاخِلَةٌ في اللّيل، قال الزّجاج: كلُّ من أدْرَكَهُ اللَّيْلُ فقد بَاتَ، نامَ أو لم يَنَمْ، يقال لغة: بَاتَ يَبِيت، وبَاتَ يَبَاتُ، بَيْتاً، وبَيَاتاً، ومَبيتاً، وبيتُوتَةً.

فالْبَيَاتُ مصْدَرُ بَاتَ، ولفظ «بياتاً» في الآية منصوبٌ على الحاليَّة، أي: بائِتين، بتنزيل المصْدَر مَنْزِلَةَ اسْمِ الفاعل.

﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾: أي: أو هم في وقت القيلولة، وهي الاستراحة نِصْفَ النهار إذَا اشْتَدَّ الحرُّ.

يقال لغة: قال يَقِيلُ قَيْلاً: وقَائِلَةً، وقَيْلُولَةً، وَمَقَالاً، وَمَقِيلاً، أي: اسْتَراح نِصْفَ النهار عنْد اشتداد الحرّ، فهو قائلٌ، وهم قائلون.

والجملة حاليّة، أي: في حالة بيَاتِهم، أوْ في حالة قَيْلولَتِهِمْ.

والمعنى: فكم من رَسولٍ أَرْسَلْنَاهُ إلَىٰ أمّةٍ في قَرْيَةٍ، فبلَّغَهَا رسالاَتِنا، وحَذَّرَها وَأَنْذَرَهَا، فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ، وحينَ اقتضت الحكْمَةُ إهْلاكَها قضيناه ـ وَبَعْدَ ذلِكَ أَصْدَرْنا الأمْرَ التنفيذيّ، فجاءها عَذَابُنا الشّدِيد، وهم بائتون ليلاً، أو هم مستريحون في وقت الْقَيْلُولَة نهاراً.

والمراد بالْقَرْيَةِ كُلُّ مجمّعٍ سكَنيّ كَبُرَ أم صَغُرَ، وفي ذكر القرية هنا تلويحٌ إلى سُكَّانِ مكّةَ أُمّ الْقُرىٰ إبّان التنزيل.

وهذه المباغتة في اللَّيل وفي الغالب عند الفجر، أو في القيلُولَةِ في النهار، بعد الإنذار بالعذاب على ألسنة الرُّسل، هي من سُنَن الله عزّ وجلّ

في إهلاك الأمم، الّتي يقضي الله تبارك وتعالىٰ إهلاكَهَا بسَبَبِ ذُنُوبِها، وتكذيبها رُسُلَ رَبّها، وطُغْيَانها في الأرض.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾: أيْ: فَمَا كانَ دُعَاؤُهم. **الدعوى والدُّعاء**: بمعنى واحد، فكُلٌّ منهما مصْدَرٌ من مصادر «دَعا» والدُّعاء هو رفع الصَّوْتِ بأمْرٍ ما.

والمعنى: فما كان نِداؤُهم حِينَ نُزُولِ بأْسِ الله فيهم، وانْصِبَابِ سَوْطِ عذاب الله عليهم إلاّ الاعترافُ بأنّهم كَانُوا ظالمين، لأنّ الاعتراف بأنّهم كانوا ظالمين في تِلْكَ اللّحظات هي الوسيلة الوحيدَةُ الّتي يطمعون أن يرفع اللّهُ عزّ وجلّ عنهم بِها البأس النّازِلَ في دِيَارِهِم لإهلاكهم.

أمّا المعاذِيرُ فلا دَوْرَ لها، وأمّا جحود الذّنب فعنادٌ يزيد من شدّة البأس، وطَلَبُ الغفران لا بُدَّ أن يُسْبَقَ بالاعتراف بالذّنب، أي: إنّا كُنّا ظالِمِينَ يَا رَبّنا فَاغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا وَارْفَعْ عَنّا الْعَذَابَ، لكنْ فات أوانُ التَّوْبَة والاستغفار، فعند نزول العذاب لا يَنْفَعُ الدُّعَاء، ولا الرَّجاء، ولا التوبة والاستغفار.

جاء في عبارتهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تأكيد اعترافهم بظلمهم بمؤكدين: «إن ـ والجملة الإسميّة» رجاء أن يرفع الله عنهم العذاب.

واعترافُهُمْ بظلمهم يتضمّنُ اعترافهم بكُفرهم، وبتكذيبهم رُسُلَ ربّهم، وسائر معاصيهم الّتي كانوا يَرْتكبُونها.

ويضع الله عزّ وجلّ الكافرين المخاطبين بهذا البيان عن أحوال

المهْلَكين من أهل القرىٰ السابقين، أمَامَ صُورَةٍ قريبة الشَّبَهِ بالأحوال الّتي هم عليها، فعليهم أَنْ يضَعُوا في حسابهم أنَّ سُنَّة الله لا تبديل لها، ولا تغيير فيها، فإذا أصَرُّوا على ظُلْمهم كما أصَرَّ الأوَّلُونَ، فَعَلَيْهِم أن يترقَّبُوا أن يأتيهم بأسُ الله بياتاً أَوْ هم قائلون.

والوعيد بالإهلاك المعجَّل في الدنيا قبل يوم الدين قد جاء في بعض السور النازلة قبل سورة (الأعراف):

(١) فقد جاء في سورة (الفجر(٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) بأسلوب عرضٍ موجزٍ إيجازاً مختزلاً، يتعلَّقُ بإهلاك عادٍ وثمود وفرعون الذين طَغَوْا في البلاد.

(٢) ثمَّ بعرضٍ موجز لما فعل الله عزّ وجل بأصحاب الفيل، في سورة (الفيل/ ١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول).

(٣) ثم بعرضٍ موجزٍ لإهلاك عادٍ وثمودَ وقومِ نوح وقوم لوط، في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف / ٢٣ نزول).

(٤) ثم بعرضٍ موجز لإهلاك أصحاب الأخدود في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) مع إشارة في آخرها إلى فرعون وثمود.

(٥) ثم عَرَّضَ الله عزَّ وجلّ للكافرين المكذبين بقوله في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣):

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

(٦) ثم تحدَّثَ عنهم في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقوله فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وبقوله فيها:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

(٧) ثمّ فَصَّل الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بعض تفصيل قصص قوم نوح، وعادٍ وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون، مع بيان إهلاكهم.

وواجه مكذّبي الرسول محمد ﷺ بقوله تعالى فيها لهم:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

وبقوله أيضاً فيها خطاباً لهم:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾.

(٨) ثُمّ طَمْأَن اللّهُ عزّ وجلّ رسُوله والمؤمنين معه في سورة(ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾.

وبقوله تبارك وتعالى فيها:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

* * *

- قول الله عز وجل:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ

وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

تمهيد:

ارتباط هذه الآيات بما سبقها من آيات هذا الدرس الأوّل، يتضح لنا حينما نُلاحظ ما جاء في بدايتها، وهو عنصر الإنذار للكافرين الّذين كذّبوا رسُول ربّهم، وكذّبوا بآيات الله، وجَحَدُوا واستكبروا، ولم يَتَّبِعُوا ما أنزل الله إليهم.

ففي صدر السورة خاطب الله عزّ وجلّ رسوله بقوله:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

ولمّا كان الإنْذَارُ بعقاب الله وعَذَابِهِ للكافرين المكذّبين ينقسم إلى قسمَيْن:

القسم الأول: الإنذار بالعقاب المعجَّل في الدنيا وأبرَزُ مظاهرِهِ إهلاكُ الأُمَّة المجتمعة على الكفر والتكذيب والظلم والعدوان والفساد في الأرض، وقد جاء الاستشهاد بوقائع من التاريخ مثالاً على تحقُّق إنذار الله للأمم السابقة في الآيتين الرابعة والخامسة من هذا الدرس.

القسم الثاني: الإنذارُ بالعقاب المؤجّل إلى يوم الدين في الحياة الأخرى.

وهذا الإنذار يستدعي بياناً ما عنه، فجاء في هذه الآيات من (٦ ـ ٩) عرض لقطاتٍ من مشاهد يوم الجزاء الأكبر، وفيها إشارة إلى الجزاء الرّبّاني بالعدل، إذ اشتملت على بيان بعض عناصر موقف المحاكمة يوم الدين.

والمحاكمة العادلة لا بُدَّ أن تشتمل على سؤال المحاكَم، وسُؤالِ الشهود، وبيان وثائق إثبات الجرائم، ووضْعِها في ميزانٍ دقيق يُحَدِّدُ مقدار الجريمة، ومقدار ما تَسْتحقُّ من عقاب، ثمّ يكون إصدارُ الحكم بالعدل مستنداً إلى ذلك، وهذا ما اشتملت على بيانه هذه الآيات.

وقد اشتملت هذه الآيات على بيان ثلاث قضايا، السؤال، والإعلام بسجلِّ الأعمال، والوزن لإصدار الأحكام:

التدبّر:

قول الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾.

إنّ سؤال النّاس الذين أُرسل إلَيْهِمُ الرّسل، في بدء مُحَاكَمتهم يوم الدّين في محكمة العدل والفضل الرَّبَّانيَّة، يكون حَوْلَ أمور دينهم عقيدةً وشريعةً ومنهاجاً، وحول الْعَمل بها، لانتزاع اعتِرافِهم بأنّهم قَدْ بَلَغَهُمْ ما أَنْزَلَ الله عزَّ وجلّ إليهم، عن طريق رُسُلِه إلَيْهم، أو عَنْ طريق مَنْ حَمَلَ بلاغاتهم من الذين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم، فإذا اعْتَرَفُوا سُئِلُوا عن عَمَلِهم بما أَنْزَلَ رَبُّهُم إليهم، وعن إخلاصهم له به، إذا كانوا قد آمَنُوا وعَمِلُوا به، تمهيداً لمحاسبتهم على ما قَدَّموا من عمل خيراً كان أمْ شَراً، وعلى ما أخَّرُوا من عَمَلَ فَلَمْ يَعْمَلُوهُ وهو مطلوبٌ منهم، وبعد الحساب يَفْصِلُ الله القضاء، ويُصْدِرُ حُكْمَهُ علَىٰ كُلّ فرْدٍ وُضِعَ فِي الحَياة الدنيا مَوْضِع الامتحان، بالفضل أو بالعدل، على وَفْق مقتضى حكمة الله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه وسَمَتْ حِكْمَتُه.

وإنَّ سُؤَال المُرْسَلِين، ويُلْحَقُ بهم حَمَلَةُ رِسالاتهم من الذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهم، يكون لتقْدِيم شَهادتهم على من بَلَّغُوا من الناس، بأنّهم قد بلَّغُوا رِسالاَتِ ربّهم، وعَمِلُوا بما أمرهم الله به تُجاه أُمَمِهم، فَهُمْ شُهُودٌ في محكمة العدل والفضل الرَّبّانيّة يوم الدين، على مَنْ بَلَّغُوهم دين الله لعباده،

وبهذه الشهادة يُعْلنُون أيضاً براءتهم من التهاون أو التقصير، فيما كلّفَهُمُ الله إيّاه من تبليغ الرسالة، وتأدية الأمانة، والنُّصْح والهداية والإرشاد، على الوجه الذي أَمَرَهُمُ الله به.

وتَظْهَرُ الْحَاجَةُ إلى شَهَادَةِ المبلِّغِينَ، حينما يَجْحَدُ الْمُحَاكَمُون من أهل الكفر أنَّهُم تَبلَّغُوا ما أَنْزَلَ الله إليهم، أمّا المقرُّون الْمُعْتَرِفُون فإنّهم باعترافاتهم يكونون شاهدين على أنفسهم، ولا تَظْهَر الحاجة عندئذٍ إلى إحضار الشهود الذين يَشْهَدُون عليهم.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾: أي: أقسم لَنَسْأَلَنَّ، فجاء في العبارة التأكيد بالقسم، فالّام دالَّة على القسم المحذُوف، ونون التوكيد لازمة في نحو هذا القسم. واحتاج الإخبار بالسؤال إلى التّأكيد لأنّه من موضوعات الآخرة المعدّة لجزاء العباد، وهو أمْرٌ يُنْكرُهُ الكافرون أو يشكُّون فيه.

ونظيرها: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾، وظاهر أنَّ السؤال هو القضية الأولى من قضايا محكمة العدل الربّانية يوم الدين.

- قول الله تعالى:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

تضمَّنَتْ هذه الآية بيانَ القضيّة الثانية من قضايا محكمة العدل الربّانية يوم الدين، وهي قضيةُ الإعلام بما اشتملَتْ عليه صحف أعمال العباد في الحياة الدنيا حياة الابتلاء.

فبعد سؤال المسؤول في محكمة العدل الرَّبّانية يوم الدّين، يَقُصُّ الله عزّ وجلّ عليْه قِصّة رحْلَتِه في الحياة الدّنيا بإعلامٍ شامل، فلا يُغَادِر صغيرة ولا كبيرةً إلاّ أحْصَاها، ويظهر أنّه يراها مفصّلة في كتاب أعماله وقد يكون هذا الكتاب سجلاّ يشمل الصورة والصَّوْتَ والخواطرَ والنيّات، والأعمال الظاهرة والباطنة، ومن الباطنة أعمال القلوب والنفوس والأفكار.

القَصُّ في اللُّغَة: تَتَبُّعُ الأثر، يقال لغة: قَصَّ أثَرَه قَصّاً وَقَصَصاً، أي: تَتَبَّعَهُ بدقَّة.

والقِصّة: الحكاية، ويُقَال: قصّ القِصَّة، أي: رواها وحكاها، ويقال: قصّ عليه خَبَرَهُ، إذا أورده على وجْهِه.

﴿بِعِلۡمٍ﴾: أي: بوسائل إثباتٍ علْمِيَّةٍ لا مجال لجُحُودِها وإنكارها، ومنها صُحُفُ الملائكة، وشريطُ رِحْلَةِ حياتِه المصوَّر لَهَا عَمَلاً وقولاً ونيّاتٍ وخواطِر، ومنها شهادة جوارحه عليه.

وفوق كلّ وسائل الإثبات العلميّة، عِلْمُ الله عزّ وجلّ، الذي هو شهيد على كلِّ شيء، وهو ما أشار الله إليه قولُه تعالى في الآية:

﴿... وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: أي: بل كُنّا حاضرين شاهِدينَ كلَّ شيء، وجاء في العبارة اسْتِخْدامُ ضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ شُهُودَ كلِّ شيءٍ في الوجود وشمولَه بالعلم يُلائمهُ هذا الضمير الدّالّ على عظمة المتكلّم في ذَاتِه وفي صفاته.

- قول الله تعالى:

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

تضمَّنَتْ هاتان الآيتان بيان القضيّة الثالثة من قضايا محكمة العدل الرّبانيّة يوم الدين، وهي قضية وزن أعمال العباد، لإصْدار الأحكام الجزائية بالعدل الكامل بالنسبة إلى السَّيّئات، وقد يشمل بعضَها الفضلُ الرَّبّاني، أمّا بالنسبة إلى الحسنات فحُكم الله لعباده فيها يكون بالفضل العظيم.

الوزن: عمليَّةٌ يُقْصَدُ بها معرفَةُ مقادير الأشياء الماديّة أو المعنويّة، ذات المقادير المجهولَة للوازن أو الموزون له، بمعادَلَتِها بأشياء أُخرى معلومَة المقادير.

والغرض معرفة مقادير الحقوق الشاملة لأنواعِ ولجزئيّاتِ الحقوق المادّيّة أو المعنوية، بغْيَةَ إقامة واجب العدْلِ بالاستناد إليها.

فمن اشترى عشرة أرطال من السُكر، أو عشرة أمدادٍ بعشرين دِرْهماً، فقد ثبتَ له من الحقّ هذا المقدارُ من السُّكّر، ولكنْ لا يُسْتَطاع معرفة هذا المقدار إلاَّ بِوَزْنِه بموازين، أو كيله بمكاييل تكشف بصِدْقٍ المقدار الذي اشتراه من السُّكّر.

أمّا الكيل فيحتَاج إلى أداةٍ ضابطةٍ يَعْرِفُ الناسُ مقدار ما تَسْتَوْعِبُ، فيُكالُ بها ما اتُّفِق على شرائه وبذل ثمنه.

وأمّا الوزن فَيَحْتَاجُ إلى آلة للتعادل، وهي الميزان، وهذا التَّعادُل إمَّا أن يكون داخلاً في أصل نظام الميزان، وإمّا أن يكون بوساطةِ مَثَاقِيل معلومة المقادير، توضع في إحدىٰ كِفَّتي الميزان المتعادِلَتينِ تماماً عند نقطة الصّفر، وتوضَعُ الأشياء الأخرى في الكفَّة الأخرى، لوزن مقاديرها.

هذه الآلة اليسيرة الصُّنع هي أُولَى الموازين الّتي عرفها الإنسان، وعمليَّةُ الوزن بها تُشَاهَدُ بالحسّ البصريّ، وإنَّما توزَنُ بها الأشياء ذوات الأثقال الملموسة، وتكون قيَمُها بحَسَب مقادير ثِقَلِها أو خفَّتها، والَّتي تُقاسُ أثقالها بقُوىٰ الرَّفع المعارضة لقُوَّةِ جاذبيَّة الأرض، وَلَوْ كانت مكتسبةً منها، كالثِّقْلَيْن في كَفَّتيِ الميزان.

ولكنَّ قيَمَ الأشياء ومقادِيرَها لا تُوزن كُلُّها بقوى الرَّفع، فمنها ما يُوزَنُ بقُوىٰ الدَّفع، ومنها ما يُوزَنُ بمقدار ما فيه منْ مُؤَثِّراتٍ كيمائية، ومنها ما يُوزَن بآلة تُحَدِّدُ عَدَدَ ذَرَّاتِه النوعيَّة، ومنها مايُوزَنُ بمقدار ما يَشِعُّ منْهُ من عناصِرَ مُشِعَّةٍ، ومِنْها ما يُوزن بحسابِ الحجْم والسُّرْعَة.

وحفظ النصوص يوزن بمقدار المطابقة أو عدم المطابقة بيْنَهُ وبين النصوص.

ومقدارُ التحصيلِ العلْمِي يُوزَنُ بموازين فِكْرِيَّة خاصة. وللحبِّ موازين، وللكراهية موازين، إلى غير ذلك ممَّا لا يُحْصَر.

وكلُّ شيءٍ في الوجود يخْضَعُ لنظام المقادير المختلِفَةِ المتَفاضِلَةِ فإنَّ ضَبْطَ مقداره يحتاج إلى ميزانٍ يلائم طبيعته.

فإذا لاحَظْنا أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ خلَقَ كلَّ شيْءٍ فقدَّره تقديراً وأنَّ كُلَّ شيءٍ عِنْدَه بمقدار، وكما قال جلَّ جلاله في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

فلا بُدَّ أنْ نُدرِكَ أنَّ لكلِّ جِنْسٍ من أجناس الوجود، ولكُلِّ نوع من أنواعه، ولكلِّ صنف من أصنافه، ولكلّ جُزْئِيٍّ من جزئيَّاتِه، ميزاناً يلائم طبيعته، وبهذا الميزان تُكْتَشَفُ مقاديره.

ولهذا امْتَنَّ الله على عباده بأمْرَيْنِ أَسَاسَيْنِ كُلّيَّيْن أَنْزَلَهُما:

الأمر الأول: الحقّ.

الأمر الثاني: الميزان.

- فالْحقُّ يُدْرَكُ بما وهَبَ اللَّهُ النّاسَ مِنْ وسَائِلَ عِلْمِيَّة يمكن أَنْ يَعْرِفُوا بها قَدْراً كبيراً منه، ويُدْرَكُ بما أنزل الله لعباده من كُتُب، وبما أوْحَى به إلى رُسُله من مَعَارِف.

- والميزان يُكْشَفُ به نِسَبُ التعادُل والتراجُحِ بين الأشياء في مقاديرها، وقد وَضَع الله عزّ وجلّ أنظمةَ الموازينِ في الأرض، ليكتشِفَها النّاسُ بما آتاهم من قُدْراتٍ ووسائل، وليَزِنُوا بها مقادير الأشياء، وليقيموا الوزنَ بالقسْطِ، ويَعْدِلُوا بين أصحاب الحقوق، فيُعْطُوا كُلَّ ذي حَقّ حقَّهُ.

وأنزل جلّ جلالُه فيما شرع لعباده القواعدَ والضوابطَ والأُسُسَ

الْعَدْلِيَّة، ليزنوا بها حقُوقَ الناس، ولِيَسْتَنِدَ إليها حُكَّامُهُمْ الْمُقْسِطُونَ، بُغْيَة إقامَةِ الْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ به.

ولهذا نُشَاهِدُ فيما اكْتَشَفَ النّاسُ من موازينَ أنواعاً وأصنافاً كثيرةً جداً.

- فَلِمَعْرِفَةِ مقادير ثِقَلِ الأَشْيَاءِ ذَاتِ الْحُجُومِ الملْمُوسَة موازين خاصة.
- ولِمَعْرِفَةِ دَرَجَة الكَثافة، أو مقادير الكَثافَةِ، موازين خاصَّة.
- ولمعْرِفة درجَةِ الحرارة أو مقاديرها موازين خاصَّة.
- ولِمَعْرِفة مقادير الصلابة موازين خاصَّة.
- ولِمَعْرِفَةِ مقادير التَّيار الكَهْرَبائيّ موازين خاصَّة.
- ولمعرفة مقادير ضغط الدّم في الأجساد موازين خاصَّة.
- ولمعرفة سُرْعَةِ المركبات البريَّةِ والبحريَّةِ والجوّيَّة موازين خاصة.
- حتَّىٰ صار الْجَهْدُ الفكريُّ قابلاً للوَزْنِ بموازين خاصَّةٍ فَضْلاً عَنْ الْجَهْدِ العضَلِيّ والعَصَبِيّ.

وأُأكِّد أنَّ الوسائل الحضاريّة البشريّة قد ارتقت ارْتِقاءً بَاهراً جدّاً في اكتشاف أنواع كثيرة من الموازين، إذ اضطُّرّ الباحثون العلميُّون أن يتخذوا موازين لكلّ شيءٍ يمكِنُ أن يُجزَّأ إلى وحدات صُغْرىٰ تتكون من اجتماعها مقادير قابلة للتزايد بحدّ أو بغير حدٍّ، وقابلةٌ للتناقص حتَّىٰ الفناء.

وأدنى مقدار يمكن أن يُدرَك ولو بالأدوات والوسائل لأيّ شيء، يمكن أن يجزّأ إلى وحداتٍ صغرى، وأصغر الوحدات هي ذرَّةُ ذلك الشيء.

- فذرَّة السُّكَّر الّتي هي أصغر مقدارٍ منْهُ ويحْمِلُ الصَّفَةَ السُّكَّريَّة لها وزْنٌ نوعي:

- وذَرَّة المِلح التي هي أصغر مقدار منْهُ ويَحملُ الصَّفَة الملحية لها وزن نوعي.

- وذَرّة الذهب التي هي أصغر مقدار منه ويحمل الصفة الذهبية لها وزْنٌ نوعيٌّ.

كذلك الحرارة والبُرودة، والضغط، والقوة، وسائر المادّيات والمعنويات.

ويقاسُ عليها الإيمان والكفر، والحبُّ والبغض، والتلاؤم والتنافر، فضلاً عن الأعمال الّتي لا تكون إلاّ ببَذْلِ طاقاتٍ من الجَسَدِ للقيام بها.

ولمّا كان كلُّ شيء في الوجود ذا مقادير فإنّه لا بُدّ أن يخْضَعَ لوَزْنٍ يحدّد مقدارَهُ، ولا بُدَّ أن يكون ميزانُه ملائماً لطبيعته.

وقد حكَّم بعْضُ مُدَّعي العقلانية عقولَهُم القاصرةَ بشَأْن وزْنِ أعمال العباد يوْمَ الدّين بالموازين الْقِسْطِ الّتي يَضَعُها الرَّبُّ جَلّ جلالُه ليوْم القيامة، فحَملُوا ما جاء في النُّصُوصِ على أنّه من قبيل المجاز، إذْ تَصَوَّرُوا أنّه لا تُوجد موازين إلاّ ما كانوا يَعْهدونه في أسواق البيع والشراء، وإذْ رأَوْا أنَّ أعمال العباد الظَّاهرَة والباطنة أعراض، ورأَوْا أنَّ الأعراضَ لا تخضع للوزن، مع أنّها في الحقيقة ذوات مقادير تزيد وتنقص، وكلُّ ذي مقادير يخضَع لنظام الوزن، ويمكن أن تُتَّخذ له موازين.

الدليل على إنْزال الحقّ وإنزال الميزان:

ولإقامة العدل بين النّاس في قضايا الحقوق، أنزل اللّهُ عزّ وجلّ القرآن والكتُب السابقة له بالحقّ، وأنزل على رُسُلِه الميزان، ووضع موازين

الأشياء في متناوَلِ الباحثين عنها، بما أودع في فِطَر الأفكار والقلوب والنفوس.

فالقواعِدُ والأصول الفكْرِيَّة، والأحكامُ والتشريعات الدِّينيَّة، والوسائل والأدَوات في الأنفُس وفي الكون من حَوْلِها، قد وَضَعها الله للأنام، حتَّى يَتَوَصَّلُوا بها إلى وزن الحقوق، والحكم بالعدْل.

وبالاستناد إلى الوزن المنضبط أو التقريبيّ يحْكمُ الحكَّامُ المقسطون فيما بين النّاس بالعدل.

- قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ... ﴿١٥﴾﴾ أي: وأُمِرْتُ بأمُورٍ كَثيرَةٍ تتعلَّقُ بقضايا الحقّ والعدْل، لأعْدِلَ بَيْنَكُمْ في أحْكامِي القضائيَّة وفي غيرها.

- وقال تَبارَكَ وتعالى فيها أيضاً:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَۗ... ﴿١٧﴾﴾، أي: الله الّذي أنزل الكتاب مُقْترِناً بالحقّ في كلّ قضاياه، وأنزل الميزان، ليتّبعَهُ الناسُ ويَحْكُموا بالعدْل، إذا أرادوا الاستقامة على صراط الله.

والإنزال يشمل كلَّ عطاءٍ ربَّانيّ سواءٌ أنزله الله من السماء. أم خلقه في الأرض.

فمن بيان الحقوق مثلاً حقُّ الإنسان في حياته، وحقُّه في مالِه، وحقُّهُ في الإيمان بما يَرَىٰ أنَّهُ الحقُّ، وحقُّهُ في كَسْبِ رزْقه ممَّا أباح الله جلّ جلاله، إلىٰ غير ذلك من حقوقٍ يَصْعُبُ إحصاؤها.

ومن قواعِد ميزانِ الْعَدْلِ القِصَاص من القاتل، أو الدّيَةُ إذَا عَفَا بَعْضُ أوْلياء القتيل عن القصاص ضمن ما جاء في أحكام الشَّرْع.

ومن قواعِد ميزان العدْلِ في الحقوق المالية، أنّ من أخَذَ مالَ أخيهِ بغَيْر حقٍّ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّ لَهُ عيْنَ مالِهِ إنْ وُجِدَ، أو ما يُعَادِلُه فِي الْقِيمَةِ أَوِ المنْفَعةِ إنْ فُقِدَ.

وهكذا إلى سائر قواعِدِ ميزانِ العدْلِ المستَنِدَة إلى الحقّ.

- وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ إنزال الكتاب مقترناً بالحقّ وملتزماً به، وإنْزال الميزان، لم يَكُنْ خاصاً بِرِسَالَة محمّدٍ ﷺ في الإسلام، بل جاء مثلُ ذلك في الرّسالات الرّبّانيّة السّابقات.

وأضاف هذا النّصُّ بيانَ إنْزالِ الْحدِيد الّذي فيه بَأسٌ شديدٌ، إشارةً إلى ضَرُورَةِ حمايَةِ أحكام الْعَدْل في المجتمع البشريّ، بالقوىٰ المسَلَّحة بالأسْلِحَة الحديديَّة الّتي تَمْلِكُهَا الدَّولَةُ، والتي يجب أن تملِكَها لإقامة الحقّ والعدل.

وأضاف أيضاً أنّ من أغراض إنْزال الحديدِ استخدامَ أسْلِحَتِهِ في نُصْرَةِ دين الله عزّ وجلّ، ونُصْرَةِ رُسُلِه، والجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى.

نفهَمُ هٰذَا من إشارة قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿... وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ... ﴿٢٥﴾﴾.

ودلَّ هذا النصّ أيضاً، على أنَّ الله عَزّ وجلَّ، قَدْ وَضَعَ في الأرض الأنْظِمَة وَالْوَسَائِلَ الّتي يُمْكِنُ أَنْ تُصَنَّعَ بها الموازين المختلفة، الّتي تُعْرَفُ بها مقادِيرُ كُلّ الأشياء.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):
﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾.

فَدَلَّ هٰذا النَّصُّ على أَنَّ الله عزَّ وجلّ بَعْد أنْ وضع الميزان كما سَبَقَ به البيان، أمَرَ بأن لا يَطْغَىٰ الناسُ في الميزان مُتجاوزين حُدُود الحقّ وما يجب أن يكون، وأمَرَ النّاس أن يُقِيموا الْوَزْنَ بالقِسْطِ، أي: بالعدل، وأَمَرَ أَنْ لا يُخسِرُوا الميزانَ، فَلا يَنْقُصُوا مِنَ الموْزُوناتِ في عَمليّاتِ الْوَزْنِ الَّتِي يُجْرُونها شيئاً.

وأبانَ هذا النَّصُّ أن الله جَلَّتْ حِكْمَتُهُ قَدْ وَضَعَ الميزان بكمال إتقانٍ وإحكام، كما رفَعَ السَّماءَ بكمالِ إتقانٍ وإحكام.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾: أي: وأوْجَدَ في الأرض وأثْبتَ الأنظمةَ والقوانِينَ والوسائل، الّتي يَسْتَطِيعُ النّاسُ بها صِناعَة الميزان الشّامل لمختلِف الْموازِين الّتي تُوزَنُ بها مَقَادِير الأشياء المختلفة، ووضَعَ للنَّاس بمَا أَنْزَلَ عَلَىٰ رُسُلِهِ أحْكام الْعَدْلِ.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾: أي: ومع الأحكام التي أنزلها فيما أوحَىٰ إلى رسُولِه لإقامةِ الْعَدْلِ بَيْنَ الناس، وَجَّه تكليفاً مضمونُه النَّهْيُ عن الطُّغيانِ في عَملِيّاتِ الوزْن.

الطُّغيانُ: هو الزّيادة على مقدار الحقّ في الوزن ضِدَّ مصلحة الموزون له، بأنْ يأخُذ الوازِنُ أكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ وَيُعْطِيَ الموزونَ لَهُ أَقَلَّ مِنْ حَقه.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾: أي: ووجَّه تكليفاً آخَرَ مضمونُهُ وجُوبُ إقَامَةِ الوزْنِ بالْعَدْل.

العدْلُ في الوَزْنِ هو المساواةُ التّامَّةُ بَيْنَ قيمَةِ الحقِّ المطلوب، وقيمة الموزونِ الّذِي يُؤَدَّىٰ به الحقُّ.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾: أي: ووجّه تَكْليفاً آخَرَ مضمونُه النَّهْيُ عن النقص في الْوَزْنِ عن الحقّ المطلوب.

يُقَالُ لُغَةً: خَسَرَ الميزانَ وأخْسَرَهُ، إذا نَقَص الوازِنُ في عَمَلِيَّةِ الْوَزْنِ عَنِ الحقّ المطلوب.

فاشتمل هذا النصُّ على تكاليف رَبَّانية ثلاثة:

(١) النهي عن الزيادة على الحقّ المطلوب في عملية الوزن.

(٢) الأمر بالمساواة العادلة بين حَقِّ المَوْزُونِ له والموزونِ منه.

(٣) النهيُ عن النقص عن الحق المطلوب في عملية الْوزن.

وفي هذا استقصاء للاحتمالات في عمليات الوزن، عنايةً بضرورة العدل، وهذا من التفصيلات التي اشتمل عليها القرآن، مع أن بعضها كان يغني عن بعض فكرياً.

ومن هُنا نُدْرِك أنَّ وَزْنَ أعمال العباد يوم الدين، سواءًا أكانت أعمالاً جَسَدِيَّةً ظاهرة للحواس، أمْ أعمالاً فِكْرِيَّةً، أم نَفْسِيَّةً أم قلبيَّةً إراديَّة، يكونُ بموازين تُلائم طبائعها الّتي طبعها الله البارئ عليها.

إذا كان الناس باكْتشافاتهم لأنظمة الموازين الّتي وضعها الله عزّ وجلّ لَهُمْ في الأرض، قد توصَّلُوا إلى اكتشاف أنواعٍ كثيرة جدّاً، يَزِنُونَ بها المادّيّات الظّاهرات، والمعنويّات، والْقُوىٰ الّتي كان الْقُدَمَاءُ يُسَمُّونها أعراضاً، أفَلا يكونُ عِنْدَ الله البارئ الخالق لكلّ شيء يَوْمَ الدّين موازينُ تَزِنُ الأعْمَالَ الظّاهرة، وتزن الخواطر، وتَزِن النيّاتِ، وتَزِنُ الإرادات، وتَزِنُ مقادير الإيمان والكفر، وتَزِنُ مقادير الحبّ والبغض، ومقادير الرّضا والغضب، ومقادير العفو والحقد إلى سائر العواطف؟!

ويَدُلُّنا على اخْتِلافِ أنواع الموازين الّتي يُوزَنُ بها ما كَسَب العبادُ أو

اكْتَسَبُوا في الحياة الدنيا، حين يُحَاسَبُونَ عليها يوم الدين، أنَّها لَم تُذْكَرْ في نُصُوصِ القرآن المجيد إلاَّ مجموعة، وما ذُكِرَ في القرآن مفرداً بلفظ «الميزان» فقد جاء في بيان ما أنْزَلَ الله للنَّاسِ في الحياة الدنيا، ويُحْمَلُ على الجنْسِ الشّامِل لمختلِفِ أنواع الموازين الّتي نُشَاهِدُها في واقِعِنَا، أو الّتي سَيَكْتَشِفُها الناس مستقبلاً في الحياة الدُّنيا، بالوسائل الّتي وهبها الله لهم في ذواتهم، أو في الأشياء من حَوْلِهِم.

فلا رَيْبَ في تَنَوُّعِ الموازين عند الله جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه وله الحكمة البالغة، والقُدْرة على خلق ما يشاء، وهو سبحانه وتَعالَى العليم الخبير، بما تكون عليه موازين أعمال العباد الظَّاهرة والباطنة الجسديَّة والنفسيّة يوم الدين.

وحسبنا في هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لفظ «ميزان» ويجمَعُ على «مَوَازِين» يُطْلَقُ على الآلة الّتي تُوزَنُ بها الأشياء.

ويُطْلَقُ أيضاً على المثاقيل ذاتِ المقادير المعلومَة، التي تُوضَعُ عادَةً في إحْدَىٰ كَفَّتي الميزان، لتوزن بها الأشياء ذات المقادير المجهولة، وهي الّتي يُقَالُ لها: «صِنج»، و«سِنج»، واحِدَتُها: «صَنْجَة» و«سَنْجَة».

ويُطْلَقُ أيْضاً لفظ «المِيزان» ويُراد به عمليَّةُ الْوَزْنِ، وهٰذا من إطلاق أداة الشيءِ على المصدر الّذي يَدُلُّ على الحدث.

ويُطْلَقُ أيضاً لفظ «الميزان» على المقدار، فميزان الرَّجُلِ مقدارُه.

* * *

قول الله تعالى:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

دلّت هاتان الآيتان على أنّ موازين محكمة العدْل الرّبّانيّة يوْمَ الدّين تَزِنُ علىٰ طريقة أنّ العمل الصالح المقبول عند الله سواءٌ أكانَ عَملاً جَسَدِياً أمْ فِكْرِياً أمْ نَفْسِياً أم قَلْبياً، يَضغَطُ بِثِقْلٍ يُعْطِي إشَارَة تُحَدِّدُ مقدار قيمته الحقيقية فوق إشارة الصّفر، أمّا العملُ السّيّئ فهو بعَكْسِ العمل الصّالح، إذْ هو يَجْذِبُ كِفَّةَ ميزانِه إلى الأعلىٰ بقُوىً شائلة، حتّىٰ تظْهَرَ طائِشة فتكْشِفُ إشارة الميزان أنَّ قيمة الْعَمَل هو تحْتَ إشارةِ الصِّفْرِ بحَسَبِه.

وأمّا العمل الذي لا هو من الحسنات ولا هو من السَّيّئاتِ عِنْدَ الله، وكذلِكَ الْعَمَلُ الذي لا يُبْتَغىٰ به وجْهُ الله عزَّ وجلَّ، فلا يُقَامُ له وَزْن، ولا يُحرّكُ في الموازين الرّبّانيّة شيئاً، لا شيئاً مُوجِباً، ولا شيئاً سالِباً.

ويُشيرُ قول الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بصيغة الجمع إلى أنَّ الموازين مختلفة بحسب أنواع الأعمال.

- فمنها مثلاً ميزانٌ يَزِنُ مقادير الإيمان والإخلاص والصِّدْق مع الله، ونقائضها.
- ومنها ميزانٌ يَزِنُ مقاديرَ الحبّ في الله والبغض في الله، ومقادير كراهية الحقّ، وكراهية فعلِ الخير وتركِ الشرّ، وحُبِّ العدوان والظلم، ونَقَائِضَها.
- ومنها ميزانٌ يَزِنُ الإراداتِ والرَّغَبَاتِ، ومقاديرَ شِدَّتِها وضَعْفِها.
- ومنها ميزانٌ يَزِن مقدار الصَّبْرِ علىٰ جَهْدِ فِعْلِ الطّاعات، وتَرْكِ المعاصي والمنكراتِ من مطالب الشهوات، ونحو ذلك.

- ومنها ميزانٌ يزنُ شُحَّ النّفوسِ وجودها، ونحو ذلك.

- ومنها ميزانٌ يَزِنُ أعْمَالَ الجوارح الظّاهرة، إلى غير ذلك من موازين لا نَسْتَطِيعُ بقدراتنا البشريَّة تَحْدِيدها، ولا يَسْمَحُ لنا التَّصوُّر الملتزِمُ بما يأتي عن الوحي بتحديدها، إذْ لم يأتِ في بيانات الْوَحْيِ عَنْ موازين يوم القيامة أكْثَرُ من الدّلاَلَة على أنّها موازين، والظاهر من كونها موازين لكُلّ موضوع موضع المحاسبة يوْمَ الدّين أنّها أنواع، كَمَا أنّ الموازين للأشياء في الدُّنيا أنواعٌ مختلفات.

- ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: أي: فَمَنْ ثَقُلَتْ مقادير أعْمَالِهِ الموزونة بالموازين، إذْ كَانَتْ إيجابيَّة الضغط، بسبب ما فيها من قِيمَةٍ ذَاتِ ثِقَلٍ عنْدَ الله عزَّ وجلَّ في موقف الحساب وفَصْل القضاء يوم الدّين، والضمير في ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ يعود على لفظ ﴿مَن﴾ ومعناه على الجمع، لأنه من صيغ العموم.

- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي: فأُولَئِكَ أصْحابُ الدرجات الرفيعات الّذِين يُشَارُ إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيدين، هُمُ الْمُفلِحُونَ، وجاءت الفاء في جملة الخبر لما في المبتدأ من رائحة الشرط.

هُمُ المُفْلِحُون: أي هم الظَّافِرُونَ بما يُحبُّونَ، والفائزون بالنعيم الخالد في جنّاتِ عَدْنٍ، ودلَّ ضمير الفصل على الحصر، أي: هم وحدهم المفلحون.

- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: أي: ومَنْ خفَّتْ أعماله الموزونَة بالموازين، إذْ كانت سالبةً شائلَةً، لَمْ يُوجَدْ لَهُ فِيها إيمانٌ صَحِيحٌ صادق، ولا عَمَلٌ صَالِحٌ مُسْتَنِدٌ إلى إيمان صحيح صادق، فلَمْ تُسَجّلْ إشاراتُ موازينِهِ ثِقْلاً ما لِعَمَلٍ ما مقبولٍ عِنْدَ الله، والضمير في ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ هنا أيضاً يعود على لفظ ﴿مَن﴾ ومعناه على الجمع لأنّه من صِيَغ العموم.

- ﴿فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾: أي: فأولئك أصحابُ الدَّركات السافلات الذين يُشَارُ إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيدين، هُمُ الَّذِين خَسِرُوا أنْفُسهم.

ومعلومٌ أنّ خسارَة الأنفس أعْظَمُ الخسارات، وجاءت الفاء في جملة الخبر لما في المبتدأ من رائحة الشرط.

- ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾: أي: خَسِرُوا أنفسهم بسبب مَا كَانُوا في الحياة الدُّنيا حياةِ الابتلاء، يَظْلِمُون على توالي الأيام، واللّيالي، بترك اتّباع آياتنا، الّتي أمرناهم باتّباعها.

الظُّلْم: تجاوز حدّ الحقّ والخير والواجب، إلى مهاوي الباطل والشّر والموبقات، ووَضْعُ الشّيءِ في غير موضعه.

فمن عصى الله ورسولَه فقد ظلم بتجاوزه ما يجب عليه أداؤه، وبارتكابه ما يحرُم عليه فعْلُه، وظلم نفسه إذْ عَرَّضها للعقوبة، ودفع بها إلى دَرْك الشقاء والعذاب.

فمعنى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾: يظْلِمُون بتركِهِمُ اتّباعِ آياتنا المنزّلات، التي أمرناهم باتّباعها، وهو ما جاء بيانه في الآية (٣) من هذه السورة التي نتدبَّرُ آياتِها، والّذي هدىٰ إلى هذا التقدير أنّ فِعْل «ظَلَم» يتَعَدَّىٰ بنَفْسِه، ولا يتعدَّىٰ بالباء، والتقدير الملائم أن نقول: يظلمون بتَرْكهم اتّباع آياتنا المنزّلَات الّتي أمرناهم باتّباعها، وهو المناسب لما جاء في صدر السورة.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

يخاطب الله عزّ وجلّ في هٰذه الآيَةِ بضمير المتكلم العظيم، النّاس

المؤهلين للخطاب، بأنَّهُ قَدْ مَكَّنَ لهم في الأرض، وجعل لهم فيها ما يَعِيشُونَ به بطريقة مباشرة، كثِمَار الأشجار، أو بطريقة مَنْحِهِمُ الوسائلَ والأسبابَ والْقُوىٰ المادِّيَّةَ والمعنويَّة لاستخراج واستنباط معايشهم من الأرض، فمِنَ الواجب عليهم أنْ يَشْكروا نِعَم الله الَّتي هيَّأهَا لهم، ومكَّنَهُمْ من الانتفاع بها والاستمتاع بمتاعها.

وأكَّدَ الله عزّ وجلّ بيانَ هٰذه الحقيقة بعبارة: ﴿وَلَقَدْ﴾ نظراً إلىٰ أنّ أذهانَ النّاس مُنْصَرِفَةٌ عن ملاحظة النِّعَم العظيمة الّتي أنعم الله بها عليهم في هٰذِهِ الحياة الدنيا.

وأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآية للناس أَنَّهم قليلاً ما يَشْكُرُون الله على نِعَمِه.

التمكين: هو الإقدار على التَّصَرُّف الموصل إلى تحقيق المطالب، ولا يَقْدِرُ على التَّصرُّف في الأرض بالأشياء، مَنْ لم يَكُنْ لَهُ فيها مكانٌ ثَابِتٌ مستَقِرٌّ، وهو قادرٌ على الثَّبات فيه إذَا شَاءَ، وقادرٌ على التحرُّكِ فيه بحُرِّيَّةٍ كَمَا يشاء، وقادرٌ على استخدام ما في الأرض من وسائل مادِّيَّةٍ، وَمَعْنَوِيَّةٍ تُظْفِرُهُ بمطالبه.

قال الجوهريّ: مكَّنه الله من الشيْءِ تمكيناً، وأمكَنَهُ منه، بمعنًى، أي: بمعنى واحد. واسْتَمْكَنَ الرَّجُلُ من الشيء، وتمكَّنَ منه بمعنى. وفُلانٌ لا يُمْكِنُهُ النّهوض، أي: لا يقدر عليه.

قال ابْنُ سِيدَه: تمكَّنَ مِنَ الشيء واسْتَمْكَن ظفر.

قال أبو منصور: ويُقالُ أمكنني الأمْرُ يُمْكِنُني فهو مُمْكِن، أقول: أي: مقدور عليه.

قالوا: والاسم من كلِّ ذلك «المَكَانَة». أقول: أي: التمكُّن.

فمعنىٰ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ولَقَدْ جعلنَا لَكُم في الأرض تمكيناً تقدرون به على التصَرُّف بالمسخَّراتِ لكم فيها.

ومن مظاهر هذا التمكين استقرارُ النّاس في المُدن والقرىٰ والبوادي، وقُدْرَتُهم على إنشاء المساكن والحصون والمصانع والمعامل، وقُدْرتُهم على التسلُّط على حيواناتِ البرّ والْبَحْر، وقُدرتُهمُ على قَطْع الصُّخور وخَرْقِ الجبال وتطويع الحديد وسائر المعادن، وقدرتُهم على حفْرِ الآبار العميقة جدّاً، واستخراجِ النِّفْط والمياه من باطن الأرض، وغيرهما من كنوز الأرض، وقدرتُهُمْ على اكْتِشافِ الْقُوَىٰ الّتي أوْدَعَها الله فِي الأشْيَاءِ، واستخدامها والانتفاع بها في السِّلْم والحرب، إلى غير ذلك من كلِّ ما نجد النّاس قَدْ قَدرُوا عليه، وتمكَّنُوا منْهُ، ممّا لا نَسْتَطِيعُ إحصاءه.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾: أي: ولقد جعلْنَا لكم في الأرض الّتي مكّنَاكُمْ فِيها مَا تَعِيشُونَ به.

مَعَايش: جمع «مَعِيشَة» وهي ما يُعاشُ به مباشرةً، أو باتِّخاذ الوسائل والأسباب لاستخراجه واستنباطه وتصنيعه.

العيش: هو في اللّغة الحياة. يقالُ: عَاشَ يَعِيشُ عَيْشاً، وعِيشَةً، ومَعِيشاً، ومَعَاشاً، وَعَيْشُوشَةً، أي: حَيِيَ.

وهذه المعايش الّتي جعلها الله للناس في الأرض تستوجب أنْ يشْكُرُوا نِعَمَ الله عَلَيْهِمْ بها، فَهَلْ هُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّهم عليها؟؟. والجواب في قول الله عزّ وجل يخاطب الناس جميعاً:

- ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: أي: أنْتُمْ يا أيُّها النّاس بالنظر إلى مجموعكم لا إلى جَميعكَمْ تَشْكُرونَ شُكْراً قليلاً جدًّا نِعَمَ رَبِّكُمْ عليكم.

﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمفعول مطلق محذوف مُقَدَّمٍ على فِعْلِه.

﴿مَّا﴾: إبهاميّة لتأكيد القلّة.

فالشَّاكِرُونَ من النَّاسِ نِعَمَ رَبّهم عليهم قَلِيلُونَ جداً بالنسبة إلى غير الشاكرين، إذْ أكثر النَّاس كافِرُون.

ومعظم الّذين يشْكُرُون من أَهْل الإيمان يَشْكُرُونَ شُكْراً قَلِيلًا لا يكافئ عطاءات الفضل الرَّبَّانيَّة.

وسبق التحليل المستفيض لمثل هذه العبارة لدىٰ تَدَبُّر قول الله عزّ وجلّ في الآية الثالثة من هذه السورة خطاباً للناس:

- ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فلا حاجة إلى إعادة هذا التحليل.

* * *

قضايا الدرس الأول من دروس السورة:

اشتمل هذا الدرس الأول من دروس سورة (الأعراف) على بيان لقطاتٍ موجزاتٍ من أصول الدين وواقع حال الناس بالنسبة إلى بعضها، في ثماني قضايا:

القضيّةُ الأولى: بيانُ أنّ القرآن مُنَزَّلٌ من الربّ الخالق للعالَمين المخاطبين بما جاء فيه.

القضية الثانية: بيانُ وَظيفة الرَّسُول بالنسبة إلىٰ القرآن، بوصْفِهِ رَسُولاً، وهي تَبْلِيغُه، وبيان ما يَجِبُ على الناس تُجاهَ رَبّهم، فَمَنْ لم يسْتَجِبْ لدَعْوَتِه بَعْدَ التبليغ والبيان ومُتابعة التذكير، ووصل إلى حالةٍ مَيْؤوسٍ منها، فالمطلوبُ من الرَّسُول ﷺ نَحْوَهُمْ أنْ يُنْذِرَهُمْ بما جاء في القرآن من إنذارات مُعَجَّلاتٍ في الحياة الدُّنيا، ومؤجَّلات إلى يوم الدِّين.

أي: فلَيْس مسؤولاً عن تحويل النّاس من الكفر والمعصية، إلى الإيمان والطّاعة، حتّى يكون في صدره حَرَجٌ ممّا أُنْزِلَ إليه.

أمّا من استجابوا لدعوة الرّسول ﷺ فآمنوا، فالمطلوب منهُمْ أنْ يكون القرآنُ لهم ذِكرَى، يتذكّرون منهُ عند كلّ مناسبةٍ داعيَةٍ ما يَتعَلّقُ بها، ويَتَّبِعُون ما جاء فيه.

القضية الثالثة: توجيه الأمْر الرّبّانيّ لكلّ موضوعٍ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، بأَنْ يتّخذوا رَبَّهُمْ وَلِيَّهُمْ، وَيَتَّبِعُوا ما أنزلَه إليهم.

وتوجيه النهيّ الرّبّانيّ لهم بأنْ لا يتّخِذُوا من دون الله أوْلياء، وبأن لا يتَّبِعُوا هؤلاء الأولياء في مناهج مخالفة لما أنزل رَبُّهم إليهم.

القضية الرابعة: بيان حقيقة من حقائقِ واقع المجتمع البشري، وهي أنّهُمْ قَلِيلاً ما يَتَذَكَّرُون، وذلِكَ لأنَّ أكثر الناس كافِرون فهم لا يتذكَّرونَ رَبَّهم ولا مَا أَنْزَلَ إليهم بصورَةٍ طبيعيَّة، ولأن الذين يَتَذَكَّرون منهم وهم الأقَلُّون المؤمِنُونَ، أكْثَرُهم لا يَتَذَكَّرُونَ إلاَّ قليلاً.

القضية الخامسة: توجيه الإنذار من الله والرسول للكافِرين، بمعجَّلِ العقاب في الحياة الدنيا، قياساً على من أهلكهم الله من كُفَّار القرون السّالفة، مقروناً ببعض تفصيل عن سُنَّةِ الله في إهلاكهم.

القضية السادسة: توجيه الإنذار من الله والرسول للكافرين، بمؤَجّل العقاب إلى يوم الدّين، من خلال عرض لمحاتٍ من عُنصُرَيْنِ من عناصر محكمة العدل الرَّبَّانية يوم الدين، وهما عُنصُر السؤال، وعنصر الوزن والموازين.

القضية السابعة: بيانُ أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل النّاس في الأرض، في أتَمّ وأحْكَم كيفيَّةٍ لتحقيق امْتِحانهم في الحياة الدنيا بين نَجْدَي الشكر والكُفر لربِّهم، إذْ مكَّنَهُمْ في الأرض، فجعَلَهُمْ قادِرين على أن يتصرَّفُوا فيها على ما يريدون من طاعَةٍ لربّهم وقُرُباتٍ إليه بإرادة الخير وفِعْلِه، أو معصيةٍ لِرَبِّهِمْ بإرادة الشرّ وفِعْلِه، وجعلَ لهم في الأرض وسائلَ عَيْشٍ مختلفة،

وهي وسائل ومَوادُّ إمداد حياتهم بالعيش إلى انتهاء آجالهم فيها، ومَوادُّ استمتاعهم فيها بما يشتهون، ومكَّنَهُمْ من استخدام بعضها في طاعته، أو في معصيته، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم.

القضية الثامنة: بيانُ حقيقة من حقائق واقع حال المجتمع البشري، وهي أنّهم قليلاً ما يشكُرون، وذلك لأنّ أكْثَرَ الناس كافرون، ولأنّ الذين يشْكُرُونَ منْهُمْ وهم الأقَلُّون المؤمنون أكثَرُهُمْ عُصاةٌ لربّهم، لا يَشْكُرُونَ إلاَّ قَليلاً، والشَّكُورُونَ منهم قَلِيلُونَ نَادِرُونَ، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) حكايةً لما خاطب به آل داود عليه السلام:

﴿... ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ٱلشَّكُورُ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الشَّاكر» أي: الكثير الشكر.

* * *

(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (١١ ـ ٢٥)

قال الله عزَّ وجلّ خطاباً للناس جميعاً:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا
مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ

وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

تمهيد:

سبق في الملحق الرابع من ملاحق سُورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) تدبّر هذا الدَّرس تَدبُراً تكامُلياً مع سائر النصوص التي جاءت في القرآن بشأن قصّة خلق الإنسان الأوّل وفي ظهره ذُرّيّاته، وما رافق خلقه من أحداث.

وكشف ذلك التدبُّر التكامليُّ مفهومات يصْعُبُ على المتدبّر لكتاب الله اكْتِشَافُها من خِلالِ دِراسَتِه لكلّ نصٍّ منها دراسةً منفصلة، لا تَجْمَعُها جميعاً نظرةٌ عامّةٌ شَاملةٌ لكلِّ النُّصوص الواردة في القرآن حوْلَ الموضوع نفسه.

والْتِزَاماً بما تَوَصَّلْتُ إليْهِ في تلك الدراسة التكامليّة، فإنّي أشرح معاني آيات هذا الدرس طبق ما كنت قد توصَّلْتُ إليْهِ في تلك الدراسة، لئلاّ يَحْدُثَ اختلافٌ في المفهومات المستَنْبَطَاتِ من آياتِ كتاب الله عزّ وجلّ.

وهذا الدرس الثاني من دروس سورة (الأعراف) يتضمّن مُلْتَقَطاتٍ بيانيّة، من قصَّة خلْق نَوْعِ الإنسان، متمثّلاً بالشخص الأول من هذا النّوع، وفي ظهره كُلُّ ذُرِّيَّاتِهِ، وهو أبو البشر آدم عليه السلام، ويتضمّن مُلْتَقَطاتٍ مِنَ الأحداث الّتي رافَقَتْ خَلْقَه، ومنها أمر الله الملائكةَ ومن كان معهم

مُنْدَساً فيهم بالسُّجُودِ لآدم، وعصيانُ إبليسَ المندسّ، واستِكْبَارُه، وعَرْضُ محاكَمةٍ من محاكماته الثلاث، وإصْدَارُ الحكْم عليه، ومنها إدْخالُ آدَمَ وزوجِهِ الجنَّة إدخال امتحان واختبار، لا إدْخال خلُودٍ ودَوامٍ واستقرارٍ، ومنها مُلْتَقطاتٌ مِنْ مَكايِد إبليسَ بالوسْوَسَةِ لهما، حتّى عَصَيَا ربَّهُما فأكَلا من الشجرة الّتي حَرَّم الله عليهما أن يأكُلا منها، فحاكَمَهُما على معصيتهما فاعْتَرفَا بذَنْبِهِما، فعاقبهما الله بالإخراج من الجنّة، وأهبطهما وفي ظهر آدم كُلُّ ذُرِّيَّاتِه إلى الأرض، ليمُرّا هُما وَذُرّيّاتُهما رِحْلَةَ امتِحانِهم فيها، وَبَقَاءُ سلالة هذا النوع في الأرْض مقدَّر إلى حينٍ محدَّدٍ معلوم لله عزَّ وجلَّ، وعندئذٍ يتمُّ إنْهاء ظروف الحياة الدنيا، وبعْد فاصلٍ زَمَنيّ يَبْعَثُ الله عزّ وجلّ الخلائِقَ إلى الحياة الأخْرىٰ، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

التدبّر:

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ⑪﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾: يؤكّد الله عزّ وجلّ بعبارة ﴿وَلَقَدْ﴾ لأن المضمون يحتاج تأكيداً للمخاطبين به والواو عاطفة على ما جاء في الدرس الأول من دروس السورة. فما جاء في الدرس الثاني ذُو رَوابط فكريّة واضِحَةٍ بما جَاءَ في الدرس الأول.

وجاء في عبارة ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ خِطاباً للناس أجْمَعِين استخدامُ ضمير المتكلم العظيم، للإشعار بأنّ خَلْقَ النّاس مَظْهَرٌ من مظاهر ربوبيّةِ الخالق العظيم، الّذي يُلائمه استِعْمَالُ ضَمِير المتكلّم العظيم.

الخلق: يأتي في اللغة بمعنيَيْن:

المعنى الأول: التقدير، أي: تحديد مقادير كلّ شيء يُرادُ إيجادُه.

المعنى الثاني: الإبداع على غير مثالٍ سبَق، إيجاداً من الْعَدَم الكلّي، أو إيجاداً من موادّ موجودة، بإعطائها صفاتٍ بالتركيب والتقدير والتصوير، لم يكن لها وجود فيها وهي عناصِرُ وأجزاءٌ متناثرة. وهذا المعنى الثاني يدخل فيه المعنى الأوّل، إذْ لا يكون إبداعٌ لشيءٍ مُرَكَّب من عناصر، دُونَ تحديد مقادير أجزائه بإِحْكام، لقليلها وكثيرِها، صغيرِها وكبيرها.

فالمعنى: وَلَقَدْ قَدَّرْنَا تكوينَكُمْ الشَّامِلَ لكلّ العناصر صغيرها وكبيرها، قليلِها وكثيرها، والّتي يتكوَّن مِنها مجتمعةً في نَسَقٍ متكاملٍ هذا المركَّبُ الإنسانيُّ، بكلّ صفاته وخصائصه النفسيَّة والجسَدِيَّة، المادّيَّة والمعنويَّة، وهٰذه الْعَمليَّةُ الّتي اشتملت على تَحْدِيد مقادِير العناصِر في مواقعها من البناء الكلّي، قد كانت إبداعاً على غير مثالٍ سبق.

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ الخلْقِ التقديريّ الإبْدَاعِيّ صَوَّرْناكم.

تَصْوِيرُ الشي: جَعْلُه في صُورةٍ وهيئةٍ خاصَّةٍ يَتَمَيَّزُ بها عن غيره، وهذه الصورة تُدْرَكُ بالحسّ الظاهر.

دلَّ قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس جميعاً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ علىٰ أنّه تبارَكَ وتعالىٰ قد خَلَق آدَمَ وَخَلَقَ جَمِيعَ ذُرِّيَّاتِهِ في ظهره، ثُمَّ صَوَّرَهم، قبل أن يأمُرَ ملائكةَ الملأ الأعلى بالسُّجُودِ لآدم، إذ جاء العطف بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّه صَوَّر آدم وزَوْجه وذُرِّياتهما فأحْسَنَ صُوَرَهُمْ، أي: جَعَلها في صُوَرٍ حَسَنَةٍ جميلة، فقال تبارك وتعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ... ﴿٦٤﴾﴾.

وقال تبارك وتعالى في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول) خطاباً للناس أيضاً بامتنان عليهم:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ③﴾.

فالتصوير للصُّورةِ الحَسَنةِ الظاهِرَة للإنسانِ الشّامل للأبِ الأوّل ولكلّ ذُرِّيَّاته، قَدْ كانَ بَعْدَ تَحْدِيدِ مقاديرِ عناصِرِ إنسانيّته بزَمَنٍ متراخ غير مباشرِ لتَقْدِير خَلْقِه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فجاء العطف بحرف العطف: ﴿ثُمَّ﴾ الذي يَدُلُّ علىٰ الترتيب مع التراخي.

لقد خلق الله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانُه آدَمَ، وأَوْدَعَ فِي ظَهْرِهِ كُلَّ ذُرِّيَّاته إلى أن تقوم السّاعة، وجَعَلَهُمْ متداخلين بَعْضَهُمْ في بَعْضٍ على وفق نظام تناسُلِهِمْ فيما بَعْدَ ذلك، فكان خَلْقُ آدَمَ خَلْقاً له ولكلّ نَسْلِه معه، وهذا يقتضي أنَّ صورة كلّ إنسانٍ موجُودةٌ في خَرِيطَةِ نواتِه الصُّغرىٰ، فقد تمّ خَلْقُ نَسْلِ آدم مع خلقه، وتَمَّ تصويرُهُمْ مع تَصْوِيرِه، وكانوا مُصَغَراتٍ متداخلاتٍ في ظهره، أمّا ظُهورُ هٰذِهِ الذّريات كائناتٍ حيّة تتحرك على الأرض في الحياة الدنيا للامتحان، فهو ظهور لاحِقٌ، يتَتَابَعُ حَتَّى آخِرَ إنْسانٍ يُولَدُ في الحياة الدنيا.

● ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: المراد بالملائكة ملائكة الملأ الأعلى، بدليل ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) من بيان أنّهم كانوا هم المُختَصِمين السَّائلين عن الحكمة من خلق آدم، وقد سبق بيان هذا في التدبّر التكاملي في الملحق الرابع من ملاحق سورة (صٓ).

والخطاب الموجَّهُ لملائِكَةِ المَلأ الأعلىٰ قد كان مُوَجّهاً لهم ولِمَنْ كان مُنْدَساً فيهم ومُلْتَحِقاً بهم، وهو إبليس، بدليل اسْتثنائِه من عُمُوم السَّاجِدين الآتي في الآية.

ودل حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ على أن تكليف ملائكة الملأ الأعلى ومَنْ

كان مندساً فيهم وملتحقاً بهم وهو ليس من نوعهم، قد كانَ بَعْدَ مُدَّةٍ متراخية من الزمن، والله أعلم بمقدارها.

ودلَّت نصوص قرآنيةٌ أُخرى، على أنَّ الله جلَّ جلالُه قَدْ نفخ في آدم الرُّوحَ بعد أنْ أتَمَّ خلْقَه وتصويره، ثمّ علّمه الأسماء كُلّها، ثُمَّ أجرى المباراة بينه وبين الملائكة حول معرفة الأسماء، فتفوّق آدم عليهم بالعِلْم الّذي آتاهُ الله إيَّاه وآتاه وَسَائِلَ الْوُصُولِ إلى معارف عن طريق الاستدلال العقليّ، مُتَجَاوِزاً بها المدركات الحسّيَّة، ثُمَّ أَمَرَ اللّهُ الملائكة بالسُّجود لآدم، وكلُّ ذَلك قد كان في مراحل متفاصلة.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾،

دل قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ على أنَّ في الْعِبَارَة الّتي اشتملت على المستَثْنَىٰ مِنْهُ مَحْذُوفاً، ويمكن تقْدِيرُه مع لوازِمِهِ الفكريَّة كما يلي:

ثم قُلْنا للملائكةِ ولمنْ كان معهم مندساً فيهم ولاحقاً بهم من الجنّ، الّذين كانوا مُمَكَّنِينَ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ بِعْثَة محمَّد ﷺ، فأجسامُهُمْ لطيفة قابلة للتَّشَكُّلِ كأجساد الملائكة، ومنهم جنٌّ طيارُون كالملائكة قادرون على الصعود إلىٰ السماوات، إلاَّ أنّ الملائكة مخلوقُون من النور، ولا يَعْصُونَ الله ما أمرهم بالفطرة، أمَّا الجنُّ فمخْلُوقون من النار، ولَدَيْهِمْ إراداتٌ حرَّةٌ، وهم قد يُؤمنون ويُسْلِمُون فيُطِيعُون، وقد يكفرون فيَرْفُضُون الإيمان والإسلام والطاعة، بإراداتٍ حرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَة.

والاستثناءُ على هذا هو من قبيل الاستثناء المتّصل، ويكون التكليفُ ابتداءً مُوَجَّهاً للملائكة، وقَدْ أَلْحَقَ الله بِهِمْ من كان معهم مُنْدَساً في صفوفهم، وليْسَ هُوَ مِنْ نَوْعِهِم، فكَشَفَهُ الامتحانُ.

وقد أثبت القرآن المجيد أنَّ إبليسَ كانَ من الجنّ فَفَسَقَ خارجاً عن أَمْرِ رَبِّه، وعَنْ واجب طاعَتِه، في توجيه الأمر له بالسُّجود لآدم، ولا يَصِحُّ

أن يُحاسِبَ الله إبليس على عدَم السُّجودِ لآدم، ما لَمْ يَكُنْ داخِلاً في عُمُوم خِطَاب التكليف.

وعبارة ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تَدُلُّ على قَضِيَّتَيْن:

القضية الأولى: أنه لَمْ يَسْجُدْ فَلَمْ يَكُنْ من ضِمْنِ السَّاجِدِينَ، ولكنَّ هذا المعنى قَدْ فُهِمَ من الاسْتِثْناءِ، فالعبارةُ على هذا بمثابة توكيدٍ لِمَا هُوَ مَفْهُومٌ مِن العبارَةِ السَّابقةِ لَهَا.

القضية الثانية: أنَّ إبليسَ لَمْ يَكُنْ من نَوْع السَّاجدِين، إذْ هُمْ أحياءٌ من نوع الملائكة المعصومين عن المعصية بالفطرة، وهو من نوع الجنّ ذوي الإرادات الحرَّةِ المخيَّرين للابتلاء بين الطاعة والمعصية.

ودلالة العبارة على هذه الحقيقة دلالةٌ تأسيسيَّة، وبحمل العبارة على المعنَيين معاً، نَسْتَفِيدُ دلالة تأكيديَّة، ودلالةً تأسيسيَّة.

ويُؤَكِّد فهم القضية الثانية من العبارة قولُ الله عزّ وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾:

أي: أبىٰ أن يكون ساجداً مع السَّاجدين من ملائكة الملأ الأعلى، بمقتضىٰ مُخالَطَتِه لهم، ودخُوله بينَهُمْ، والتحاقه بهم، ولَوْ لَمْ يكُنْ من نوعهم في أصْلِ خَلْقِه وطبيعته.

ومن النَّصَّيْنِ تتكامل الفكرة المرادُ بيانُها، فهو لم يكن منْ نَوْعِ السَّاجدين، في أصل تكوينه، وأبىٰ أن يُشَارِكَهُمْ في السُّجودِ فيكُونَ معهم، بمقتضى كوْنِه أنْتَمَىٰ إلَيْهم، والْتَحَقَ بِهِم، وصَارَ يَعْبُد الله مِثْلَ عِبَادَتِهم، وشَمَلَهُ أَمْرُ السُّجود.

* * *

قول الله عز وجل:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧) قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾.

بالنظرة التدبّريّة التكامليّة، الّتي سبق بيانها في الملحق الرابع من ملاحق سورة (صٓ/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) ظهر لي أن المحاكمة لإبليس التي أبانها هذا النصُّ من سورة (الأعراف) هي الجلسة الثالثة من الجَلَساتِ الّتي جَرَتْ فيها محاكَمتُه، أو المحاكمة الثالثة من مُحَاكماته الثلاث، الّتي أعطاه الله برحمته فيها فرصَةَ مُراجَعةِ نفسه، واعترافه بذَنْبِه، وإعلان إيمانه الكامل بإلٰهيَّة الله، وأنّه لا إلٰه إلاّ هو، لكنه لم يفعَلْ، بل أصَرَّ على عناده واستكباره.

- قول الله تعالى:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . . .﴾؟ بدأت جَلْسَةُ هٰذِه المحاكمة بسؤالِ الله عزّ وجلّ لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟

رأى بعض المُفسّرين أنَّ حرف النفي «لاَ» في عبارة ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ زائدة لتأكيد عدم سجود إبليس.

ولست أرى هذا الرأي صواباً بل قول الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ جَارٍ على قاعدة التضمين القرآنيّة، ذات النظائر الكثيرَة، فيه، وهُنا ضُمّنَ فِعْلُ «مَنَعَ» معنى فعل «حَمَلَ» فعُدّيَ تَعْدِيَتَهُ، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَة عَنْ جُمْلَتَيْنِ، وَأَصْلُ الْكلام: مَا مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ، ومَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أَن لا تَسْجُدَ؟

وبالتضمين الإيجازيّ البديع، جاءت العبارة: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ واختصاراً في التقدير نَقُول: ما منَعك فَحَمَلَكَ علىٰ ألاَّ تسجد، ولا مانع من تقدير فعل نظير فعل «حَمَل» كفعل «دَعَا» مما ينسجم مع عبارة «ألاَّ تَسْجُد». بهذه العبارة أبان الله تعالى أنه سأل إبْليس عن المانع له من السُّجود، وعن الحامل له على عَدَم السُّجود، واعتبار «لا» زائدة لا يستقيم مع كمال الإعْجاز القرآني.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: أي: وقْتَ أَمْرِي إيَّاكَ بالسُّجودِ مع مَنْ أَمَرْتُ من ملائكة الملأ الأعلى، الّذين دخَلْتَ فيهم، واعْتَبَرْتَ نفسك واحداً منهم، فأبان الله عزّ وجلّ في هذه الجلْسَةِ لإبْليسِ بهذا السؤال مخالفته لواجب طاعة العباد لربهم فيما يأمُرُهُمْ به أو يَنْهَاهم عنه، بمقتضىٰ أنّه إلٰهُهُم الذي يجب عليهم أَنْ يَعْبُدُوه، ومن عبادتهم الأولى له بَعْدَ الاعتراف له برُبُوبيّته وإلٰهِيَّتِهِ، أَنْ يُطِيعُوهُ في أوامره ونواهيه، لكِنَّ إبليسَ لم يعتَذِرْ بأنّه لم يكن يَعْلَمُ أَنَّ أَمْرَ الله موجَّهُ له ضِمْنَ مَنْ هو مَعَهُمْ من الملائكة، بل أصَرَّ على عناده، ولم يُراجِع نفسه، وأعْلَنَ بهذا الإصرار أنّه غَيْرُ مؤمِنٍ بإلٰهيَّة الله له، وأنَّهُ مُعْتَرِضٌ على أمْرِ الله لهُ بِالسُّجودِ لآدَم، ولهذا الاعتراض لوازِمُ كُفْرِيَّة مُتَعَدِّدَة.

فبماذا أجاب إبليس ربَّهُ؟

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

أي: لم يكُنْ أَمْرُكَ لي بالسُّجودِ لآدم أمْراً حَكِيماً، وليس من حَقِّكَ أَنْ تكلِّفَني أَنْ أحْترِمُ بالسُّجودِ مَنْ هو أَدْنَى مِنِّي في العناصِرِ الَّتي خَلَقْتَهُ منها، فطبيعةُ النَّار الّتي خَلَقْتَنِي منها، أشْرَفُ من طبيعة الطِّين الّتي خَلَقْتَ آدم منها.

هذا الادّعاء من إبليسَ قائِمٌ على فِريَتَيْنِ، قاعِدَتُهما التوهُّم الباطل، ودافِعُهُما الكِبْرُ وحُبُّ الاستِعْلاءِ ولَوْ بغَيْر حقّ.

الفرية الأولى: أنَّ من كان مَخْلُوقاً مِنْ عُنْصُرٍ أو عَناصر أشرف، كَانَ هو أشرف دواماً، ولو ظَهَرَتْ منه بعْدَ خَلْقِهِ قبائحُ ومنكراتٌ وأشياءُ خسيسَةٌ، لم تَظْهَرْ ممّنْ كان مخلوقاً من عناصِرَ أقَلَّ قيمةً من عناصره التي خُلِقَ هو مِنْهَا، ولو ظَهَرَتْ منْهُ بَعْدَ خَلْقِهِ فَضَائِلُ ومزَايَا ومحاسِنُ عظيمة، لم يأتِ بِمِثْلِها ذُو العنصر الأشرف.

وهذه الفرية هي أساس الاسْتِعْلاءِ والاستكبار بالأعراق والأصول، القائم على ادّعاء التَّفَاضُل العرقيّ الذي يسري إلى الفروع، وفروع الفروع، ولو فَسَدَتْ ونجم عنها ضُرٌّ كبير، وشَرٌّ مُسْتَطِير.

الفرية الثانية: أنَّ عُنصُر النّار أشْرَفُ من عُنصُر الطِّينِ، وهذا ادِّعاءٌ توهُّمِيٌّ باطل.

فالنار ذات نفع بحرارتها. لإنضاجها الأشياء، واستخدامها في منافع كثيرة، وذاتُ ضَرَرٍ عَظِيمٍ وخَطَرٍ جسيم، حينما تُحْرِقُ وتُتْلِفُ وتُهْلِك.

والطِّينُ ذو نَفْع عظِيمٍ جدّاً حينما يكون عُنْصُراً لإِنْبَاتِ الزروع والثمار، وسائر نباتات الأرض النافعات للأحياء في غِذَائِهم، ودوائهم، ومصالح حياتهم الكثيرة، وحينما يكون بيئَةً صالحة لإمداد الأشجار الباسقات، حتّى تكون جنَّاتٍ وارفاتِ الظلال.

والطين لا يعطي عطاءَهُ العظيم حتّى يأخُذَ حظَّهُ من الحرارة الناريَّة بالمقادير المحَدَّدَةِ في سُنَنِ التكوين الرَّبَّانِيَّة.

ومع حاجة كلّ من النّار والطين إلى العنصر الآخر منهما للتَّزاوج، في تشارُكٍ تكامُلِيٍّ، فإنَّ النسبَةَ النفعيَّة الّتي تُسْتَفَادُ من الطين أكثر من النسبة النفعيَّة الّتي تُسْتَفَادُ من النار، ومع هذا فلا يَصحُّ اعتبار عُنْصُر الطِّينِ أشْرَفَ من عنصر النار، ولا العكس، لأنّ كُلّاً مِنْهُما في سُنَنِ الله التكوينيَّة لا يتحقّقُ الانْتِفَاعُ به إلاّ إذا امتزجَ بالآخر أو اتَّحَدَ به، ضِمْنَ المقادير النافعة غير الضارّة.

فتفضيل عُنصُرِ النار على عُنصُر الطِّين تفضيلٌ توهُّميٌّ باطل، دافعه النزعة الاستكباريَّة المنتِنَة، الّتي نفَخَتْ في صدر إبليس، فجعلَتْهُ يَعْصي رَبَّه، ويُكَابرُ معانداً مُصِراً على المعصية، كافراً بحقِّ الرَّبِّ الّذي لا ربَّ في الوجود سواهُ، فهو وحده الإله الّذي لا يجوز أن يُعْبَدَ من دونه سواهُ، لا أَحْيَاء، ولا أشياء، ولا مفهوماتٌ فكْرِيَّةٌ، ومبادئ عقليَّة، ولا قوانِينُ تَسِيرُ على وفق أنْظِمَتِهَا ظَواهِرُ الخلْق.

إنّ الشَرَف الحقيقيّ للأحياء ذوي الإرادات الحرّة، الّذين يفعلون ما يشاؤون بإرادتهم، لا يكون بشرف الأصول فقط، بل يكون بما يَكْتَسِبُونَهُ من أَعْمَالٍ وصِفَاتٍ وأخلاقٍ ذَواتِ فَضْلٍ، وشَرَفٍ، ومَجْد، وهذا ما جعل ابْنَ الورديّ يقول في لاميَّته:

لاَ تَـقُـلْ أَصْـلِـي وَفَـصْـلِـي أَبَـداً إِنَّـمـا أَصْـلُ الْـفَـتَـى مَا قَـدْ فَـعَـلْ

والسجود المأمور به لآدم سجود تكريم طاعَةً لأمر الله، لا سجود عبادة، فالأمر بالسجود له أمْرٌ حَكيمٌ، إذْ هو في الحقيقة إذْعانٌ لحكمة الخالق، كيْفَ لا وقد أخْضَع الله للإنسان بالتسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وهذا الإخضاع التسخيريّ أعظم من السجود التكريمي.

توجيه السؤال لإبليس في المجالس الثلاثة:

(١) في الجلسة الأولىٰ كان السؤال الموجّه لإبليس من ربّه، هو ما جاء في سُورة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

فتلطَّفَ الله عزّ وجلّ بإبليس وناداه باسمه، وسألَهُ عن عُذْرِه في أنْ لا يكونَ مع السَّاجدِين من ملائكة الملأ الأعْلَىٰ الذي دسّ نفسه فيهم، واعتَبَرَ نفسه واحداً مِنهُم.

(٢) وفي الجلسة الثانية كان السؤال الموجّه لإبليس من ربّه، هو ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فتلطَّفَ به أيضاً، وسألَهُ عن المانع لَهُ مِنَ السُّجودِ، مُبَيّناً لَهُ أنَّ هذا المخلُوق قد اعتَنَيْتُ به عِنَايَةً خاصَّة، وكَرَّمْتُهُ فَخَلَقْتُهُ بِيَدَيَّ.

وَوضَع الله إبليس أَمَام احتمالَيْنِ لا ثَالِثَ لَهُما:

الاحتمال الأول: أن يكون قَدِ اسْتَكْبَرَ بِغَيْرِ حَقٍّ.

الاحتمال الثاني: أنْ يكُونَ مِنَ الْعَالِينَ الَّذِين لم يُوَجّه الله لَهُمْ أَمْرَ السُّجُودِ لآدَم، لكِنَّ هذا الاحْتِمالِ احتمالٌ ساقِطٌ، لأنَّ إبليس يَعْلَمُ أنَّ الله قَدْ أَمَرَهُ بالسُّجود مع ملائكة الملأ الأعلىٰ الّذين هو مندَسٌّ فيهم. أو أنْ يكون مُعْتَقِداً أنَّهُ من الْعَالِين في تكوينه، فَلَا يَلِيقُ به السُّجُود لآدم.

(٣) وفي الجلْسَةِ الثالثة كَانَ السُّؤَال الْمُوجَّهُ لإبليس من ربّه هو ما جاء بيانُه في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ... ﴿١٢﴾﴾.

فلم يتلَطَّفِ الله به، وخاطَبَهُ دُون أَنْ يَذْكُر اسْمه، وسأَلَهُ عن المانع له من السجود، وعن الحامل له على عدم السُّجود، وأبَانَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ وَجَّهَ لَهُ الأَمْرَ بالسُّجودُ، فمن حقّ رُبُوبِيّتِه لَهُ، أَنْ يُطِيعَهُ ويَعْبُدَهُ، وَلاَ يَجْحَدَ إِلٰهِيَّتَهُ له، وأن لا يتَّخِذَ إِلٰهَهُ هواه.

وكان جوابُ إبْلِيس علىٰ أسْئِلَةِ رَبّه له في الجَلْسَاتِ الثلاثِ، ما جاء بيانه في سورة (الحجر) وفي سورة (صٓ) وفي سورة (الأعراف):

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾.

فأصدرَ الله عزّ وجلّ الْحُكْمَ الختامِيَّ عَلَيْهِ بالإهباط وبالطَّرْدِ، وبأَنَّهُ مِنَ الصَّاغِرِينَ، وهُوَ ما جَاء بيانُهُ في الآيَة التالية من سورة (الأعراف):

● ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

لقد أصَرَّ إبليس على كُفرِهِ بإلٰهِيَّة الله له، الَّتي هي اللاَّزم العقليُّ لرُبوبِيَّته له، فاستحقَّ الطَّرْدَ والإخراجَ من مواطن الملأ الأَعْلَىٰ من الملائكة، وجَعْلَهُ من الصَّاغِرِينَ.

وإصدار هذا الحكم الذي تضمَّنَتْهُ هٰذِهِ الآيةِ يقتضي كلاماً مطوياً قال الله لَهُ فِيه: كذَبْتَ، فَلَسْتَ خيراً مِنْهُ، وَلَسْتَ مِنَ العالين، بل أَنْتَ مُسْتَكْبِرٌ بغَيْرِ حقٍّ، جاحِدٌ إلٰهِيَّةَ رَبِّكَ لَكَ، مُتَمَرِّدٌ عَلَىٰ طَاعَتِهِ في أَمْرٍ يخالفُ هَواكَ، فأَنْتَ كافِرٌ، والفاء الفصيحة في ﴿فَٱهْبِطْ﴾ تدلُّ على هذا المحذوف المطويّ.

● ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾: **الْهُبُوط**: ضدُّ الصُّعودِ، يقال لغة: هَبَطَ يَهْبِطُ هُبُوطاً، إذا نزل من مَكانٍ مُرْتَفِعٍ إلى مكانٍ مُنْخَفِضٍ، ويُسْتَعْمَلُ في المادِّيَّاتِ، وفي المَعْنَوِيّات، كالهبوطِ إلى المَهانَةِ والذِّلَّةِ والخسَّة. ﴿مِنْهَا﴾: أي: من مواطن ومنازل مَلائكَةِ الملأ الأعْلَىٰ، أي: فاهبط منها هبوطاً متوالياً إلى أدنىٰ المنازل.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: أي: فَمَا أنت مُمكَّنٌ من أَنْ تَتَكَبَّرَ وأَنْ تَبْقَىٰ في مواطنِ ومنازلِ ملائكةِ الملأ الأعْلَىٰ، وَبِمَا أَنَّكَ تَكَبَّرْتَ بِغَيْرِ حَقٍّ فَاهْبِطْ مِنْهَا، فَما يكون لك حُرِّيَّة أَنْ تَرْتَع في منازل الملائكة وتكون فيها من المتكبِّرين، إنَّها منازلِ الَّذين لا يستكبرون عن عبادة ربِّهم.

● ﴿فَٱخْرُجْ﴾: هذا حُكْمٌ مُتَمِّمٌ للأمْرِ بالهبوط، لأنّ الإهباط لا يَسْتَلْزِمُ الإخراجَ الكُلِّيَّ، فجاءَ الأَمْرُ بالخروج الْكُلِّيّ بَعْدَ الأمْرِ بالهبُوط مُتَمِّماً للحكم الصادر ضِدَّهُ بالطَّرْدِ الْكُلِّيّ واللَّعْن.

وقد يفيد الأمْرُ بالخروج، الْخُروجَ من كُلّ منازل الملائكة في السَّمَاءِ، ولَوْ لَمْ يَكونوا من أهل الملأ الأعلى، أيْ: فإذا بَلَغْتَ في هُبُوطِكَ إلىٰ أدْنَى الحدود فاخْرُجْ منها خروجاً كلياً.

- ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾: هذه مادَّةٌ ثَالِثَةٌ مِنْ موادّ الحكْمِ عليه.

الصَّاغرون: جمْع «الصَّاغر» وهو الوضيع الذَّليل الحقير، ذو القيمة القليلة، أو الّذي لا قيمة له.

وجاء في سورة (الحِجْر/١٥ مصحف/٥٤ نزول) بشأن الحكم على إبليس بالخروج، قول الله تعالى:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

وجاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) قول الله تعالى:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

وقد سبق في الملحق الرابع من ملاحق سورة (صٓ) بيان الحكمة مِنْ فُروق هٰذه العبارات، الّتي يُلائم كُلٌّ مِنْها مَجْلِسَ المحاكمة الّذي صَدَرَتْ فيه.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾:

لقد استعطف إبليس رَبّه في الجلستين الأولى والثانية، فقال فيهما بَعْدَ إصْدَار الحكم عَلَيْه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أمّا في الجلسة الثالثة التي كانت خَاتمةَ جلسات المحاكمة، فقد خاطب الله جلّ جلالُهُ بجفَاءٍ دُونَ أَنْ يقولَ لَهُ: ﴿رَبِّ﴾ بل قال: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. لَقَدْ وَاجَهَ رَبَّهُ بخطابٍ مُمَاثِلٍ لخطَابِ الله له.

فكما قال الله له في هذه الجلسة الثالثة: ﴿..مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ... ﴿١٢﴾﴾ دون أن يَتَلَطَّفَ به بِذِكْر اسْمه، كما فعل في الجلستين

الأولى والثانية. قال إبليس: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ دون أنْ يقول له: «رَبِّ» فمع إلْحَاحِه بتكرار الطلب الّذي لم يُعْطِه اللّهُ مِنْهُ إلاَّ الإنْظَارَ إلَىٰ يَوْمِ الوقت المعلوم الَّذِي يُمِيتُ الله فيه جميع الأحياء، كما جاء في الجلْسَتَيْن الأُولى والثانية، فقد كانَ في الجَلْسَةِ الثالثة شَدِيدَ الوقاحة، فخاطب رَبَّهُ بأُسْلُوبِ لاَ يَكُونُ إلاَّ من النِّدّ للنِّدّ، فقال الله له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، أي: إنَّكَ منظرٌ مع الذين أُأَخر إماتتهم إلى وقت إنهاء ظروفِ الحياة الدنيا، فجميع المنظرين من كبراء الملائكة يميتهم الله عندئذ.

كان إبليس بَعْدَ الحكم عليه بالهبوط والخروج، واللَّعْنِ في كُلِّ جَلْسَةٍ مِنْ جَلَسَاتِ مُحَاكَمَتِه، يُمْعِنُ في إصراره عَلَىٰ إغواءِ آدم وزَوْجِهِ وذُرِّياتهما حَتَّىٰ يكونوا من أهل النار.

وَكان اللّهُ عزَّ وجلَّ به حَلِيماً رَحِيماً، بأنْ عقد لهُ ثلاث جلساتٍ لمحاكمته، لِيَتْرُكَ لَهُ فُرْصَةَ مُرَاجَعَةِ نَفْسِهِ، وَيَقْطَعَ عَلَيْهِ كُلَّ عُذْرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرَ به مُستقبلاً، كَعُذْرِ أَنَّ الحكم عَلَيْهِ قد كان بمحاكَمةٍ مستَعْجَلَةٍ لَمْ تَتْرُكْ لَهُ فِيها فُرْصَةُ التَّرَوّي، لَعَلَّهُ يُراجع نفسه، أو أنَّه كان في حالَةِ اسْتِيَاءٍ وَغَضَبٍ أَخْرَجَتْهُ عَنْ وَعْيه السّليم، فصَدَرَ مِنْهُ مَا صَدَرَ من عِنَادٍ وإصْرارٍ على الاستكبار، ورفض طاعَةِ الله جلّ جلاله بالسجود لآدم.

ويترجَّحُ لدَيّ أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ بعد أنْ أصْدَرَ الحكْمَ عَلَيْهِ في الجلسة الأولى، وفي الجسلة الثانية، أعْلَمَهُ بأَنَّهُ سيَعْقِدُ لَهُ جَلْسَة محاكَمَةٍ أُخْرَى، لِيُعِدَّ نَفْسَه للتَّوْبَة والاستغفار، وليراجعَ نَفْسَهُ عَسى أن يَتُوبَ الله عليه، ويرفَعَ عنه حكم الطَّرْدِ واللَّعْنِ المؤبَّدَيْن، لكنّ إبليس أَصَرَّ على العناد والاستكبار، وجُحُودِ إلٰهِيَّةِ الله له.

كرَّر إبليس في هذه الجلسة الثالثة طلَبَ إنظارِه إلى يوم البعث، راغباً في أن لا يَذُوقَ الموتَ حتَّىٰ عنْدَ إنهاء حياةِ كلّ الأحياء، لأنّه كان يَعْلَمُ أَنَّهُ

بَعْدَ البعث لا مَوْتَ للموضوعين في الحياة الدنيا موْضِعَ الابتلاء، فكأنَّهُ في هٰذا يَطْلُبُ الْخُلُود، ولو كان مَصِيرُه إلى عذاب جَهَنَّم الخالد.

وربّما كان يَتَوهَّمُ أنَّ تَأْخِيرَ إماتَتِه إلى يَوْمِ الْبَعْثِ يُخْرِجُهُ من قانون الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، بحيلة أنَّ هذا يكون بَعْدَ البعث، وهُوَ مُنْظَرٌ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُبْعَثَ، وربّما تَوَهَّمَ أنَّ الله لو أَنْظَرَهُ لجادَلَ رَبَّهُ في موضوع حسابه، وفَصْل القضاء بشأنه، ومجازاته على ما كان منه في الحياة الدنيا.

* * *

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ⑯ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ⑰﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: قَالَ إبليسُ خطاباً لِرَبِّهِ، فَبِمَا أغْوَيْتَني، أي: فَبِسَبَبِ ما حَكَمْتَ عَليَّ بالْغَوَايَةِ، لرفضي طَاعَةَ أَمْرِكَ بالسُّجُودِ لآدم، ولإصرارِي علىٰ هٰذَا الرَّفض.

«الفاء»تَفْرِيعيَّة، و«الباء» جارَّةٌ سبَبِيَّة، أي: فَبِسَبَبِ حُكْمِكَ عَلَيَّ بالْغَوَايَةِ. و«ما» مَصْدَرِيَّة، وهي الّتي تُؤَوَّلُ مع الفعل الذي بَعْدَها بِمَصْدَرٍ، أي: فبإغْوائِكَ لي في حُكْمِكَ الصَّادِرِ عليَّ.

فالمرادُ بالإغواء الحكم به في مجلس المحاكمة، لا تقديره، ولا الإجبار عليه.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ⑯﴾: أي: لأَقْعُدَنَّ مُتَرَصِّداً مَسِيرَةَ كلّ واحِدٍ من ذُرِّيَّةِ آدم في حياته، لإغوائه وإضلاله، ملازماً صراطَك المستقيم، وهو الصراط الّذي يُوصِلُهُمْ إلىٰ مَرْضَاتِكَ، فَيَجْعَلُهُمْ مُسْتَحِقِّين أَنْ يَدْخُلُوا جَنَّتَكَ دَارَ النَّعيم الخالِدِ، بحَسَبِ وَعْدِك للمتقين من عبادك.

انْتَصَبَ لفظ «صِرَاطَ» لِتَضْمِينِ فِعْلِ «أَقْعُد» مَعْنَىٰ فعل «أُلازم» على أَنَّهُ مَفْعُولٌ به، فأغْنَىٰ هذا التَّضمِينُ عن التصريح بجملَتَين، إذ الجملة الأولى حُذِفَ مَعْمُولُها، والجملة الثانية حُذِفَ لَفْظُ فِعْلِها، وضُمِّنَ الفِعْلُ المذكور معناه، والتَّقْدِير: لأقْعُدَنَّ عِنْدَ صِراطِكَ، مُلازِماً إيَّاهُ».

والتَّضمِين ظاهرة قُرآنيَّة هيَ مِنْ عَناصِرِ إبداعِهِ البياني.

واللَّام في: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ واقعة في جواب قَسَمٍ محذوف، فيكون تقدير الكلام:

فِبِسَبَب حُكْمِكَ عليَّ بالْغَواية، أُقْسِمُ لأقْعُدَنَّ لإغوائِهِم مُلازِماً صِرَاطَكَ المستقيم.

أبان إبليسُ بقُعودِهِ معنىٰ التمكُّن، وأضَافَ إليه معنى الملازمة، فَتَمَّتْ لَهُ المرابطة بكامل عناصرها.

لم يكن لإبليس أن يُعْطِيَ الْعَهْدَ علىٰ نَفْسِه بهذه المرابطة، لولا أنَّه لاحَظَ ذُرِّيَّتَهُ الأبالِسَة، وجنودَهُ من شياطين الجنّ والإنس، بدليل قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشُّعَراءِ/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشَأْن مَصِيرِ الْغَاوِين، والْمُشرِكِينَ فِي الجحيم، وجُنُودِ إبليس أجمعين:

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

إنَّ المرابطَةَ بتمكُّنٍ وَمُلازَمَةٍ وَتَرَصُّدٍ، هي أَوَّلُ شُرُوطِ أعمال الإغراء والإغواء، للإبعادِ والصَّرْف عن صراط اللَّهِ المستقيم.

وقد اختار إبليس أن تكون مُرابَطَتُهُ عِنْدَ صراطِ الله المستقيم، لأنَّ مُهِمَّته صَرْفُ المتجهين لسُلُوكِه عنه، وإخراج السالكين فيه منه، أمَّا الآخرون السَّالكون في سُبلِهم المختلفة البعيدة عن صراط الله المستقيم، فإنَّهُمْ غاوُون بأنْفُسِهم، وَقَدْ كَفَوْا إبْلِسَ مُبَاشَرَةَ مِهمَّةِ إغْوَائِهم، بل هم مُهَيَّئُون لأنْ يكونوا من جُنُودِهِ شياطين الإنْس، مع شياطين الجنّ الملازمين لهم.

وإبليسُ يَعْلَمُ أنّ صراطَ الله المستقيم يُوصل سالِكَهُ إلى سعَادَةِ الدُّنيا وسَعَادَة الآخِرَة، وقَدْ هَيَّأَ نفسه لإغراء ذُرّياتِ آدم وزوجه وإغوائهم، حتَّىٰ يَسْلكوا سُبُلاً مُنْحدِرَةً مُجَافِيَةً لصراط الله المستقيم، وهذه السُّبُل توصِلُ سَالِكها إلى الشقاء وعذاب النار يوم الدِّين، مع ما فيها من نتائج وخيمةٍ في الدنيا، تَجْعَلُهُمْ تُعَسَاء في مشاعِرِهِمْ الدَّاخِليَّة.

وأمّا ما يُصِيبُونَهُ من لَذَّات، وتحقيق بعض أَهْواء نفوسهم، فَمَغْمُوسٌ بمصائب وأكْدَارِ وهُمُوم، تَتْبَعُها حَسَرَاتُ أَمْرَاضٍ ونَكَباتٍ.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ... ⑰﴾.

شَمَائل: جمع «شِمال» مقابل «اليمن».

تنحصر أعمال الْمُغْوي الحريص على صَدّ السَّالِكِ عَنْ سبيل الله، وإخراج السَّالك فيه منه، وتوجيهِهِ لسُبُلٍ ضَالَّةٍ شَتَّىٰ، في أَرْبَعِ جهَاتٍ:

الجهة الأولى: هي جهة ما بين يَدَي السَّالك.

الجهة الثانية: هي جهة ما خَلْفَ السَّالك.

الجهة الثالثة: هي الجهة الواقعة عن يمين السَّالك.

الجهة الرابعة: هي الجهة الواقعة عن شمال السالك.

وأعمال الْمَغْوِي: إمَّا أن تكونَ صَدّاً، وهذه تكون من الأمام.

وإمَّا أن تكونَ جذْباً ومَنْعاً من التقدّم، وهذه تكون من الخلف، وإمَّا أن تكون تحويلاً عن خطِّ السَّير، وهذه تكون عَنْ الأيمان، وعن الشَّمائل، والوسيلة هي التَّزيين لَهُم في الأرض من إفكارٍ، وأهْواءٍ وشهوات وغرائز، وهو ما جاء بيانه في النص الذي جاء في سورة (الحجر).

أمّا ما هو فوْق الصراط، أو ما هو تحته، فلا دفع ولا جذب يكون في أي واحد منهما، لأن موقع الصراط شاملٌ لما هو فوقَهُ ولما هُو تحته، فمن كان سَالكاً على صراط الله المستقيم، فكُلُّ عُلْو فوق أرضه هو منه، وكُلُّ عُمْقٍ تَحْتَ أرضه هو منه.

وبهذا أبان إبليس خُطَّتَهُ في الحصار الإغوائي، وطوىٰ النَّصّ حرَكات الصّدّ والمنع والتحويل عن صراط الله المستقيم، لأنَّها مِمَّا يُمْكِنُ فَهْمُهُ ذِهْناً.

فأصول الإغواء ترجعُ إلى ثلاثة أعمال في خُطَّة إبليس:

الأول: الصّدُّ من الأمام.

الثاني: المنْعُ والجذْبُ من الخلف.

الثالث: التحويل ذات اليمين، أو ذات الشّمَال.

وهكذا أعْلَن إبليس أصول خُطّتِه العامّة، لإغواء ذُرِّيَّةِ آدَمَ وزَوْجه، عقب هذه الجلسة الثالثة من جلسات محاكمته.

وأعطاه الله عز وجلّ التمكين من التحرُّك لتنفيذ خُطّته، لِيَتِمَّ اخْتِبَارُ الإنسان في الحياة الدنيا على أحسن وجه، ولكن حدّد له إمكانات تحرُّكه، فَجَعَلَهَا لا تَصِلُ إِلَىٰ أَنْ يكون لَهُ على أحَدٍ مِنْ عِباد اللَّهِ سُلْطان.

● ﴿... وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾: أي: وقال إبليس لربّه بَعْدَ أَنْ أعْلَنَ أُصول خُطّتِه الّتِي رسمها، ولا تَجِدُ بعد قيامِي أَنَا وذُرِّيّتي وجنودي

بإغواء ذُرِّيَّة آدَمَ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، بَلْ تَجِدُ أَكْثَرَهم في نهاية رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، كَفُورِين، يسْتَحِقُّون الخلُودَ يوم الدِّين في النار دار عذاب المجرمين.

شَاكر: اسْم فاعل، وهو يُطْلَقُ على من يكون منه شُكْرٌ ما ولو كان قليلاً، وأَقَلُّ الشُّكْرِ يكون بإيمان صحيح صادقٍ تُعَبِّرُ عنه كلمة «لا إلٰه إلا الله».

أمّا من لَيْس لديه أدنَىٰ شُكْرٍ لربّه فَهُو كَفُورٌ «صيغة مُبَالغة لكافر»، والكفور هو الّذي لَيْسَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمان.

ولهذا عَبَّر الله عزّ وجلّ عن المؤمِنِ، ولو من أدنى دَرجات الإيمان، بعبارة «شَاكِرِ» وعبّر عن الكافر ولو من أخف دركاتِ الكُفْرِ بعِبَارَة «كَفُور» فقال تبارك وتعالى في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

أي: إمَّا أن يكون بعد رحلة امتحانه شاكراً ولو من أدنى درجات الشكر بإيمان مقبول يُدْخل الجنَّة، وإمَّا أن يكون بعد رحلة امتحانه كَفُوراً، ولو كان كُفْرُهُ من أَخَفّ دركاتِ الكُفْرِ، وهو الكفر الذي يجعَلُه خالداً في عذاب النار.

ونتساءل: ما الّذي جعل إبليس يُخْبِرُ أنّ خُطَّتَهُ ستَنْجَح في المستقبل، عَبْرَ تاريخ الإنسان في الأرض، فيَكُونُ أَكْثَرُهُمْ كَفُورِينَ لرَبِّهم؟

أقول: لقد كانَ هذا ظَناً مِنْهُ، مُسْتَنِداً إلىٰ ما رآهُ من عوامل ضَعْفِ تكوينه، وتأثِير أهوائِه وشهواته وغرائزه على إرادته، وإمكانِ استهوائه بِهَا.

وربما قاسَ الإنسانَ على ما سَبَقَ أن عرفه من طبيعة الجنّ، ذوي

الإرادات الحرَّةِ، والأهواء والشَّهوات والغرائز، وهذه مُشَابِهَةٌ لما لدَىٰ الإنسان.

والدّليل على أنّ هذا قَدْ كان ظَنًّا من إبليس مستنداً إلى أماراتٍ لاحظَها، قول الله عزّ وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/٥٨ نزول) في مَعْرِض الحديث عن سَبأ، ومعاقَبَتِهِمْ بالسَّيْل الْعَرِم، وتمزيقهم كلَّ مُمَزَّقٍ:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

* * *

- قول الله عزّ وجل:

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

وجّه الله عزّ وجلّ هذا الطَّرْدَ والذَّمَّ والدَّحْرَ، والوعيدَ بعذاب جهنَّم يوم الدِّين لإبليس ولمن تَبِعَهُ، بعْدَ أن أصرَّ إبليس على كُفْرِه بإلٰهيَّة الله له، وعلى عناده واستِكبارِه، وخاطب ربَّهُ بوقاحَةٍ كأنَّهُ نِدٌّ لَهُ وهو يَسْأله بإلْحاحٍ أنْ يُنْظِرَهُ إلَىٰ يَوْم البعث الّذي لم يُجِبْهُ إليه، بل وَعَدَهُ بالإنْظَارِ مع المنظَرين إلى ساعَةِ إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وبَعْدَ أن أعْلَنَ إبليس أُصول خُطَّتِهِ الْعَامّة الّتي رسمها للإغْراء والإغواء والإضلال والإبْعَادِ عن صراط الله.

- ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾: في هذه العبارة أَمْرُ إهانَةٍ وإذْلال بالخروج من كلّ المنازل التكريميّة، الّتي جعلَها الله لعباده من الملائكة المكْرَمين.

- ﴿مَذْءُومًا﴾: أي: مَذْموماً، مَعِيباً، مُحقَّراً، مَخزِياً، مَطْرُوداً.

يقال لغة: ذَأمَهُ، أي: ذمّه، وعَابَهُ، وحقَّرَهُ، وأخْزاهُ وطَرَدَهُ.

- ﴿مَّدْحُورًا﴾: أي: مَدْفُوعاً مُبْعَداً بعُنْفٍ وإهانَةٍ وإذْلاَل.

يُقال لغة: دَحرَهُ يَدْحَرُهُ دَحْراً وَدُحُوراً، أي: دفعه بعُنْفٍ وإهَانَةٍ وإذْلاَلٍ ليُبْعِدَه.

فالدَّحْرُ: هو الطرْدُ والإبْعَادُ المقْتَرِنُ بِدَفْعٍ فيه إهانة وإذْلال.

● ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾: أي: لَمَنْ تَبِعَكَ من بني آدم الذين عزَمْتَ علىٰ إغوائهم، ورسَمْتَ خُطَّتَكَ المحاصِرَةَ الشَّامِلَة لذلِكَ.

اللَّام في: ﴿لَّمَن﴾ ابْتِدَائِيَّة للتأكيد، أو موطئة لقَسَمٍ محذوف، هذان الْوَجْهان رَأيان عند النحويّين، والأوّل هو الأرجَحُ فيما أرىٰ.

﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾: اللَّام في ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ واقعةٌ في جواب القسم المحذف، وهذا الجواب قد سَدَّ مَسَدَّ جوابِ الشرط في: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾.

جَهَنَّمَ: اسْمُ عَلَمٌ من أسْمَاءَ دَار العذاب يوم الدِّين، وهو ممنُوعٌ من الصَّرْف، للعلميَّةِ والتأنيث. ويُقَالُ للقَعرِ البعيد جَهَنَّم.

وجاء التأكيد بلفظ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ لدفع توهُّم أنَّ بعض الذين يتبعون إبليس فيكْفُرُون بإلٰهيَّة الله عزّ وجلّ قد يَنالُهُم العفو، فلا يَكُونُون من أهل جهنّم.

ممّا جاء في السُّنَّة حول ملْء جَهَنَّمَ بالكافرين:

(١) صحّ أنّ الله عزّ وجلّ يُعَظِّمُ أَجْسَادَ الكافِرِين في جَهَنَّم.

روى مُسْلِمٌ عن أبي هريرة قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ضِرْسُ الكافِرِ أو نَابُ الكافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَة ثَلاثَة أيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ».

(٢) وصَحَّ أَنَّ الجبَّار يَضَعُ قَدَمَهُ، فَيَنْضَمُ بَعْضُ جهَنَّم إلَىٰ بَعْضِهَا، حَتَّىٰ يكُونَ أهْلُهَا مَالِئِيها.

روىٰ البخاري عن أنسٍ عن النَّبِيِّ ﷺ قال:

«يُلْقَىٰ في النَّارِ، وتقُولُ: هلْ مِنْ مَزِيدٍ، حتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ، قَطْ».

أي: حَسبي، حَسْبي، لقد امْتلأت.

وروى مسْلمٌ عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «تَحاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالمتكَبِّرِينَ، والْمُتَجَبِّرِينَ، وقَالَتِ الْجَنَّةُ فَمَا لِي لاَ يدْخُلُنِي إلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ، قَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: إنَّمَا أَنْتَ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ من أَشَاءُ مِنْ عبادي، وقَالَ لِلنَّارِ، إنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُها، فأَمَّا النَّارُ فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رِجْلَهُ، تقولُ: قَطْ، قَطْ، قَطْ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، ويُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْض[1]، ولا يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَداً، وأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقاً».

ولهذا الحديث رواياتٌ مُتعدِّداتٌ عند البخاريّ ومُسْلِمٍ وَغَيْرِهِما، ومَعَانِيهَا مُتَقَارِبة، منها المختَصَرُ، ومنها الْمُطَوَّل.

ومِمّا جاء مُطَوَّلاً منها، ما رَواهُ الترمذيُّ بِسَنَدِهِ عن أبي هريرة، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ:

أَلاَ يَتْبَعُ كُلُّ إِنسَانٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ؟ فَيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيب صَلِيبُهُ، وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نارُهُ، فَيَتْبَعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَيَبْقَىٰ الْمُسْلِمُونَ، فَيَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُول:

أَلاَ تَتَّبِعُونَ النَّاس؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ باللَّهِ مِنْكَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، اللَّهُ رَبُّنَا، وَهٰذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ نَرَىٰ رَبَّنَا، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ، ثُمَّ يَتَوارَىٰ، ثُمَّ يَطَّلِعُ فَيَقُولُ: أَلاَ تَتَّبِعُونَ النَّاس؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، اللَّهُ رَبُّنَا، وَهٰذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَىٰ رَبَّنا، وَهُوَ يَأْمُرُهُم وَيُثَبِّتُهُم.

---

[1] يُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْض: أي: يُضَمُّ بعضُها إلى بعض.

قَالُوا: وَهَلْ نَراهُ يَا رَسُولَ الله؟

قال: وَهَلْ تُضارُّونَ في رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟

قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: فَإِنَّكُمْ لا تُضارُّونَ في رُؤْيَتِهِ تِلْكَ السَّاعَة.

ثُمَّ يَتَوارَىٰ، ثُمَّ يَطَّلِعُ، فَيُعَرِّفُهُمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُومُ الْمُسْلِمُونَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ، فَيَمُرّونَ عَلَيْهِ مِثْلَ جِيَادِ الْخَيْلِ والرِّكَابِ، وقولُهُمْ عَلَيْهِ: سَلِّمْ، سَلِّمْ.

ويَبْقَىٰ أَهْلُ النَّارِ، فَيُطْرَحُ مِنهُمْ فِيهَا فَوْجٌ، ثم يقال: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا فَوْجٌ فَيُقَالُ: هَلِ امْتَلأتِ؟ فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ إِذَا أُوعِبُوا فيها(١)، وَضَعَ الرَّحْمٰنُ قَدَمَهُ فِيهَا، وَأُزْوِيَ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ(٢)، ثُمَّ قَالَ: قَطْ؟. قَالَتْ: قَطْ، قَطْ.

فإِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: أُتِيَ بالْمَوْتِ مُلَبَّباً، فَيُوقَفُ عَلىٰ السُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَطَّلِعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ الشَّفَاعَة، فَيُقَالُ لأهْلِ الْجَنَّة وأَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذَا؟ فَيَقُولُونَ، هٰؤُلاءِ وَهٰؤُلاءِ: قَدْ عَرَفْنَاهُ، هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي وُكِّلَ بِنَا، فَيُضْجَعُ، فَيُذْبَحُ ذَبْحاً عَلَىٰ السّورِ الذي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ لاَ مَوْت، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ لاَ مَوْتٌ»، قال الترمذي: هٰذا حديث حَسَنٌ صَحِيحٌ.

❀ ❀ ❀

---

(١) **أُوعِبُوا فيها**: أي: أُدْخِلُوا فيها جميعاً، يُقالُ لغة: أَوْعَبَ الشيْءَ في الشيء، أي: أَدْخَلَهُ فيه كُلَّه.

(٢) أي: جُمِع.

- قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩﴾.

جاء هذا القولُ مُسْتَقْطعاً من الحَدَثِ الماضي للقصَّة، كأنّ الحدَثَ يَجْرِي الآن، وهذا مِنْ أبْدَع أسَاليب الأداءِ البياني، يُعَلّمُنا اللّهُ عزَّ وجلَّ فيه فَناً من فُنُون البيان الرفيع، مع ما قد يتضمَّن من دَلاَلاَتٍ يَكْشِفُهَا تَدَبُّر النُّصُوصِ المختلفة الأساليب، لدى دراسَتِها مجتمعة.

وقد دلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عن طريق اللُّزُوم الذهْنِي على أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ خلَقَ لآدم زَوْجَهُ، وهي أُمُّنا حوّاء، وجاء في عدّة نُصُوصٍ أُخْرىٰ بيان أنّ الله تبارك وتعالى خلَقَ النَّاسَ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ، هي نَفْسُ آدَمَ عليه السَّلام، وأنَّهُ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها، وأنَّهُ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجها، وأنَّ هذا الْجَعْلَ قَدْ كانَ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ لخلْقِ آدم، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الزُمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) مُبَيّناً لعباده بعضَ ظواهِرِ خَلْقِهِ في كونه:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . ۝٦﴾.

وجاء في بيان الرَّسُول ﷺ أنَّ أُمَّنا حَوَّاءَ قَدْ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ من أضْلاع آدم.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خيْراً، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْراً»⁽¹⁾.

ولاَ شَكَّ أَنَّ أَوَّلَ امْرَأةٍ خُلِقَتْ هي زَوْجَةُ أَبِي الْبَشر آدم، فدلَّ هذا الحديث علىٰ أنّها خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ من أضْلاعه.

---

(١) انظر صحيح الجامع الصحيح للألباني ص٢٢٦ المجلد الأول.

وأورد ابْنُ كثير، في كتابه «قِصَص الأنبياء»(١) قال: حكى السّدّي، عن أبي صالح، وأبي مالك، عن ابن عباس، وعن مُرَّة عن ابْن مَسْعُودٍ، وعن ناسٍ من الصَّحابة، أنَّهم قالوا: أُخْرِجَ إبْلِيسُ من الجنَّةِ، وأُسْكِنَ آدَمُ الجنَّة، فكان يَمْشِي فِيها وَحْشِيًا لَيْسَ لَهُ فِيهَا زَوْجٌ يَسْكُنُ إِلَيْهَا، فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَ رَأْسِهِ امْرَأَةٌ قَاعِدَةٌ، خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ ضِلَعِهِ، فَسَأَلَهَا: مَا أَنْتِ؟ قَالَتِ: امْرَأة. قَالَ: وَلِمَ خُلِقْتِ؟ قَالَتْ: لِتَسْكُنَ إِلَيَّ.

فقالَتِ الْمَلائِكَةُ يَنْظُرُونَ مَا بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ: مَا اسْمُهَا يا آدَمُ؟. قَالَ: حَوَّاء. قَالُوا: وَلِمَ كَانَتْ حَوَّاء؟. قَالَ: لأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ.

ونستطيع أن نستخْلِصَ مِن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ أربَعَ قضَايَا:

القضية الأولى: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَ تَولَّى بِنَفْسِهِ عَقْدَ تَزْوِيجِ بَيْنَ آدم وحَوَّاء، بقوله لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

القضية الثانية: أنَّ الله عزّ وجلّ أسْكَنَهما في بَيْتِ الزَّوْجِيَّة الْمُعَدِّ لَهُمَا ولِذُرِّيَاتِهِما المؤمنين باللَّهِ الْمُسْلِمِينَ له، أمَّا غَيْرُهُمْ فَلا حَظَّ لَهُمْ فيها.

وكان هذا الإسْكانُ الأوّل إسْكَانَ امْتِحَانٍ واختبار، لا إسْكَان خُلُودٍ واسْتِقْرار.

القضية الثالثة: أنَّ الله عزَّ وجلَّ أحلَّ لَهُما أَنْ يَأْكُلا مِنْ كلّ مَأْكُولٍ فِي الجنَّةِ، ومن كُلّ مكانٍ من أمْكِنَتِهَا، وَحَرَّم عليهما في إقامتِهما الاخْتِياريَّة أنْ يَأْكُلا مِنْ شَجَرَةٍ خاصَّة، عَيَّنَها لَهُما بِشَخْصِهَا أَوْ بِنَوْعِهَا، إذْ نهىٰ عن الاقتراب منها نَهْيَ تحريم، بدليل ترتب العقاب على الأكل.

---

(١) انظر الجزء الأول صفحة(١٩ ـ ٢٠).

دلَّ على هذه القضية: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

النهيُ عن الاقتراب أبلَغ من النهي عن الأكل، والأكلُ من ثمرتها ولو مع البُعدِ عن مغرسها هو اقتراب من جزء منها، والجُزْءُ من الشيءِ له حكم الكلّ، ولأنّ الغرض من النهي عن الاقتراب النهي عن الأكل منها، بدليل الإذن بالأكل من غيرها.

القضية الرابعة: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ حَذَّرَهُما من مغبَّةِ مَعْصِيَتِهِما إذا أكَلَا من الشجرة الّتي حَرَّم عليهما أن يأكُلَا منها.

دلَّ على هذه القضيَّة: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. والْحُكْمُ بالظُّلْمِ يسْتَدْعي الْعُقُوبة، وكانت العقوبة الإخراجَ من الجنّة، وَجَعْلَ الأرْضَ هيَ مَسْرَحَ الامْتِحَانِ، فمَنْ آمَنَ وأسْلَم، اسْتَحَقَّ دُخول الجنَّةِ خَالِداً فِيها أبَداً. وَمَنْ كَفَرَ برُبُوبيَّةِ الله أوْ بإلٰهيَّته وتمرّدَ على طاعة رَبّه كان خالداً في دار عذاب المجرمين.

ورحلةُ الامتحانِ في الأرض لآدم وزَوْجِه وَذُرِّيَاتِهما، رِحْلَةُ كَدْحٍ ومكابَدَةٍ وكشْفٍ لما في النُّفُوسِ، من إرادَةِ خَيْرٍ واعتراف بالحقّ، أوْ إرادَةِ شرٍّ وجُحُودٍ للحقّ واتّباعٍ للأهواء والشهواتِ وزينَةِ الحياةِ الدنيا.

- ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: من الظّالِمِينَ لأنفسِكُما، إذْ تُسَبِّبُ لَكُمَا معصيَتُكُما الإخراجَ من الجنَّة، والإهْبَاطَ إلى الأرض، وتَحَمُّلَ الكدْحِ والكَدّ والعناء والمتاعبِ فيها.

* * *

- قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

• ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: **الوسوسة**: تُطْلَقُ في اللُّغة على الصَّوْتِ الخفي، يُقَال لُغَةً: وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ وَسْوَسَةً وَوِسْوَاساً.

والوَسْوَسَةُ، وَالوِسْوَاسُ: حَدِيثُ النفس، والاسْمُ منْهُ: الْوَسْوَاسُ بِفَتْحِ الواو، ويُطْلَقُ على الشيطان اسم «الْوَسْواسِ» لأنّه يُحدِّثُ من داخل النفس.

وتُطْلَقُ الْوَسْوَسَةُ والوِسْوَاسُ على صَوْتِ الْحُلِيّ إذا تَضارَبَ بَعضُها ببعض. ويُطْلَقُ على هَمْسِ الصَّيَّادِ الَّذِي يُخْفِي صَوْتَهُ لفظ «وَسْوَاس» بفتح الواو.

الشَّيطَانُ: يطْلَقُ لفظ «شيطان» على كلّ عاتٍ متمرِّدٍ من الجنّ والإنْسِ والدَّوَابّ. وهو على وزن «فَيْعال» من فعل: «شَطَنَ، يَشْطُنُ شَطْناً» ويأتي هذا الفعل بمعنى: «بَعُد». تقولُ: شطَنَ عَنه، أي: بَعُدَ، وأشْطَنَهُ، أي: أبْعَدَهُ. ويأتي بمعنى: «شَدَّهُ بالشَّطَنِ». **الشَّطَنُ**: هو الحبْلُ الّذِي يُشْطَنُ به الدَّلْوُ من البئر، وكُلُّ حَبْلٍ، وقيل: هو الحبلُ الطويل الشديد الْفَتْل، يُسْتَقَىٰ بِهِ، وتُشَدُّ به الخَيْلُ. ويُجْمَعُ علىٰ أشْطَان.

ومعْلُومٌ أنَّ إبليس ومن كان على شاكِلتِه يحمل وصفين:

الوصْفُ الأول: أنَّه بَعِيدٌ عن الحقّ، مطرودٌ عن دائرة رَحْمَةِ الرَّحْمٰنِ الواسِعَةِ، وهو مُبْعِدٌ مَنْ يُغْوِيهم عن صراط الله بوسَاوِسِه وتَسْويلاته.

الوصف الثاني: أنَّه يَشْطُنُ من يُغْويهم بأشْطَانِه أي: «بحبائِلِه المعْنَوِيّة» الإغرائِيَّة، ويُدَلِّيهم في آبار المآثِم والمهالِكِ لِيكُونُوا من أهْل جهنَّم.

والوسيلة الّتي مكّنَ اللّهُ عَزَّ وجلّ منها إبْلِيسَ وجُنُودَهُ مِنْ شَيَاطِين الجنّ، هي الدَّعْوَةُ إلىٰ مَعْصِية الله، وإلى الابْتِعَادِ عن صراط الله المستقيم.

وحينَ تكونُ هٰذه الدَّعْوَةُ وَسْوَسَةً في الصَّدْرِ مِنْ مُحَدِّث غَيْرِ مَرْئِيٍّ، فإنَّها تُشْعِرُ بأنَّها من قَبِيل حَدِيث النَّفْس لذاتِها.

وهذا أَدْعَىٰ للاستجابة، والانْدِفاعِ إلى ما تَدْعُو إليه الوسْوسة، باعْتِبار أنَّ الدَّاعِيَ شَيْءٌ من ذاتِ النَّفس، لا من جهة أُخرَىٰ تأْمُرُ وتَنْهَىٰ وتُغْرِي.

وبعد أن حذَّرَنا اللَّهُ عزّ وجلّ من وساوس الشياطين، فإنَّنا نَعْرِف بتجاربنا كيْفَ تكُونُ وَسَاوِسُ الشَّيْطَان في صُدُورنا، إذْ نَشْعُرُ بأَنَّها مِنْ قَبِيل أحاديثِ النَّفْسِ الّتي تَنْزعُ بنا إلى الإثم والْمَعْصِية لله عزّ وجل، وتَنْصَرِفُ حين نذكُر الله ونَسْتَعيذُ به، وذَلِك بحَرَكَةِ خُنُوسٍ مُؤَقَّتٍ، وتَرْجِعُ إلى الوَسْوَسَةِ عند الغَفْلَة.

وَأمَّا كيْفَ وسْوسَ الشيطانُ لآدَمَ وزَوْجه في الجنّةِ، فقضيَّةٌ من قضايا الْغَيْبِ الّتي لم يَرِدْ في النُّصُوص الإسلاميَّةِ الصَّحيحة بيانٌ عنها، فلا داعيَ لإيرَادِ إسْرائِيليَّاتٍ لا نَعْلَمُ مدى الصِّدْقِ في واحدٍ منها، ولا لإيراد أخبارٍ لَيْسَتْ مَرْوِيَّةً عن المعصوم.

لكنَّنا عَلِمْنَا من دلالات نُصُوصِ القرآن المجيد، أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ مَكَّنَ إبْلِيسَ من وسائلِ دَعْوَةِ آدَمَ وَزَوْجِهِ لمعصية ربّهما، حتَّى أكلا من الشجرة المحرّمة، ومكّن إبليس وجُنُود من شياطين الجنّ من وسائل دعوة ذُرِّيَّاتهما لمعصية الله حتَّىٰ أخسّ دركات الكفر، دون أن يكون لهم سُلْطَانٌ على أيّ واحدٍ مِنهم، يُلْغِي إرادَتَهُ الحرّة، أمّا من كان غاوياً واتَّبَعَ الشيْطانَ فإنَّهُ هو الذي مَكَّنَ الشيطانَ من أن يكون له علَيْه سُلطان.

ولمَّا كان إسكان آدم وزوْجِهِ الجنَّة إسكانَ امْتِحَانٍ واختبار، لا إسْكانَ خُلودٍ واستقرار، كَانَ تمكين الله عزّ وجلّ لإبليس من أن يُوَسْوِسَ لهما بوسيلة ما، ولَوْ بدُخول الجنَّةِ دَخُولَ غَيْرِ ساكنٍ وَلا مُسْتَمْتع، امرْاً منسجماً مع الحكمة الرّبانيّة، ولا يَتنافىٰ مع قَضِيَّةٍ من قضايا صِفاتِ الجنَّة.

والاعتراضُ بأنّ إبليسَ طُرِدَ من الجنَّة، اعْتراضٌ غير وارد، لأنَّهُ ليس في النّصوص ما يُعَيّن أنَّ طَرْدَ إبْليسَ قد كان طَرْداً من الجنّة، بل الاحتمال

الّذي تدلُّ عليه سوابق النُّصوص ولوَاحِقُها ومفهوماتها العامّة، هو أنَّ طَرْدَهُ قد كان من منازِلِ القُرْب من الله الّتي يحْظَىٰ بها أهل الملأِ الأعْلَىٰ من الملائكة.

والاعْتِرَاضُ بأنَّ من دخل الجنَّة لا يَخْرُجُ منها، اعْتراضٌ غير واردٍ أيضاً، لأنّ النُّصوص تثبتُ أنّ من دخل الجنَّةَ يَوْم الدّين بعد الحساب، وفَصْلِ القضاء، وكَانَ دخولُه جَزَاءاً علَىٰ ما قَدَّم من عَمَلٍ في الحياة الدُّنيا، هو الذي يَكُونُ خالداً فيها، أمّا من دَخَلَها دُخُولَ امتحانٍ واختبار، أوْ مكَّنَهُ الله من دخولها للاطلاع، أو القيام بعَمَلٍ من الأعْمَالِ المشْمُولَةِ بخُطَّةِ الله التكوينيَّة العامَّة، ولِتَحْقِيق حِكْمةٍ من حِكَم اللّهِ في خلْقهِ، فإنَّهُ لا خُلُودَ له فيها، ما لم يَقْضِ اللّهُ لهُ بالْخُلُود بقضاء خاصّ.

ولهذا أخرج الله آدم وحواء من الجنَّةِ لمَّا عَصَيَا، إذْ أكَلاَ مِن الشجرة الّتي حرّم الله عليهما الأكْلَ مِنْها.

ونتساءَلُ: ما موقع الّلام في عبارة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مع أنَّ فعل «وَسْوَسَ» لازمٌ لا يَتَعَدَّىٰ، إذْ هو بمعنى: أحْدَث همْساً خفياً، أو صَوْتاً خَفِياً يتضمّن حَدِيثاً.

أقول: إنَّ فِعْل «وَسْوَسَ» ضُمِّنَ مَعْنَى فِعْل «سَوَّلَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغْنَتِ العبارة المختَصَرَةُ عَنْ جُمْلَتَين، أي: وَسْوَسَ وَسَوَّلَ لَهُمَا.

التَّسْوِيل: التَّحْسين والتَّزْيين، والتَّحْبِيبُ بِالأمر. والإغراء به، وتهوينُه وتَسْهِيلُه.

يُقالُ لغة: سَوَّلَ لَهُ الشيطان، أي: حَسَّنَ له وزَيَّنَ، وحَبَّبَ إلَيْهِ أنْ يَفْعَل أو يَقُولَ مَا فِيه مَعْصِيَةٌ لله عزَّ وجلَّ.

فيكون المعنى: أحْدَثَ وِسْوَاساً، بِصَوْتٍ خَفِيٍّ، تَضَمَّنَ تَسْوِيلاً لَهُمَا، بتَحْسِينِ وَتَزْيِينِ الأَكْلِ من الشجرة الّتي حَرَّمَ الله عَلَيْهِما أنْ يَأْكُلا منها.

وجاء في النصّ الذي في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في معرض الحديث عن آدم وقصَّتِه:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

فجاء في هذه الآية استخدام حرف «إلىٰ» بدل حرف «اللاَّم» المستخدم في النصّ الذي من (الأعراف) وجاء فيها أيضاً الحديثُ عن آدَمَ وحْدَهُ منفرداً عَنْ زَوْجَتِه. فما الحكمة من هذا الإجراء؟

أقول: دلَّ ما جاءَ في سورة (طه) علىٰ أنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يُوَسْوِسْ لآدم في أوّل الأمْرِ بصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ، بلْ كانَ يَتَّخِذُ وَسَائِلَ بَعِيدَة عن الْوَسْوَسَةِ المباشرة، وهِي في آخِرِها تُحدِثُ الْوَسْوَسَة، دَلَّ عَلىٰ هٰذَا اسْتخْدامُ حَرْف «إلى» المشعر بطُولِ المسافة بَيْنَ بَدْءِ الشيطان بحركَتِه وبَيْنَ حُدُوث الوسوسة، ودلَّ عليه أيضاً اسْتخْدَام أسْلُوبِ العرض الاستفهاميّ في العبارة الإغرائية: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ فهي عبارة تثيرُ الشَّوْقَ إلَىٰ الْمَعْرِفَة، وليس فيها إشارةٌ ما إلىٰ الشجرة الّتي نَهَىٰ اللّٰهُ عزّ وجلّ عن الاقتراب مِنْها، وهذا العَرْض يُشْعِرُ بأنّ إبليس لا يَعْلَمُ شيئاً عن أنّ الله حرَّم على آدم وزوجه أن يأكلا من الشجرة، فدلَّ على أنه خالي الذهن تماماً من هذا الموضوع، وهو كاذب ماكر.

فما جاء في سورة (طه) بَيَانٌ للمحاولة الأولى من محاولات الشيطان، تَلتْهَا مُحَاوَلاَتٌ أُخرَى في خُطُواتٍ شيطانيّة تَهْبِطُ في الدركات.

ولمَّا أَدْرَكَ الشَّيْطَانُ أنَّهُ قَدْ غَرَسَ في نَفْسِ آدم الرَّغْبَةَ فِي الظَّفَرِ بالخُلْدِ وبمُلْكٍ لا يَبْلَىٰ، اقتربَ شيئاً فشيئاً حتى صَارَ يُوَسْوِسُ لآدم وزوجه بطَرِيقةٍ مباشرة، دون اسْتخدام وسائل بعيدة، لقد اتخذ إبليس حيلة التشويق للرّبط، حتى وقع على المغمز الملائم لصيد الفريسة فأمسك به، وقد دَلَّ علىٰ هذا

ما جاء في سورة (الأعراف) وهو قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ . . . ﴿٢٠﴾﴾. وحين دلَّهما على الشجرة لا بُدَّ أن يكون آدم قد قال له: إن الله حرَّم علينا أن نأكل منها، فأبدى إبليس تعجُّبه من هذا النهي، ثم افترى فريَّته.

- قول الله تعالى:

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا . . . ﴿٢٠﴾﴾.

في هٰذه العبارة بيانُ أَحَدِ لوازم غَرَضِ إبْليسَ مِنْ وَسْوَسَتِهِ لآدم وزَوجِهِ، إنَّ غَرَضَهُ إيقاعُ آدَمَ وزوجه في معصية الله ربّهما، وإيصالُهما إلى دَرَكَةِ الكُفرِ لَوِ اسْتَطاع، وبتَحقُّقِ هذا الْغَرَضِ يَشْفِي غَيْظَهُ مِنهُمَا وَمِنْ ذُرِّيَّاتِهما.

فَمِنْ ظواهر مَعْصِيَتهما بأكلهما من الشجرة المحرّمَة عَلَيْهما تَسَاقُطُ ما كان يَسْترُ جُلُودَهُما من كُسْوَة عَلَيْها، وبتَساقُطِ هٰذِهِ الْكُسْوَةِ السَّاتِرَةِ تَنْكَشِفُ سَوْآتُهما، وتَظْهَرُ عَلَيْهِمَا آثارُ مَعْصِيَتِهِمَا، إذْ لِكُلِّ مَعْصِيَةٍ آثارٌ تَظْهَرُ بحَسَبِ سُنَنِ الله السَّبَبِيَّة.

وكانَ إبْلِيسُ لَعْنَةُ الله عليه يَعْلَمُ أنَّ من آثار أكلهما من الشجرة المحرّمةِ تَساقُطُ أكْسِيَتِهما وَبُدُوُّ سَوْآتِهِما، الَّتي كانَتْ مَسْتُورَة بها، فيكونُ بُدُوُّ سَوْآتِهِما علامَةً ظاهِرَةً على مَعْصِيَتهما، وأنَّه اسْتَطَاعَ بوَسْوَسَتِهِ أَنْ يُغْوِيَهُمَا، ويَسْتَنْزِلَهُما إلى اسْتِحقَاقِ عِقَاب اللَّهِ لهما، وإخْرَاجِهما من الجنَّة.

فجاءت الكنايَةُ في العبارة عَنْ غَرَضِهِ الحقيقيّ بِذِكْرِ أَثَرٍ ظاهِرٍ من آثاره، وهو بُدُوُّ سَوْآتِهما لَهُما.

- ﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا﴾: أي: ما سُتِرَ وأُخْفِيَ عَنهُمَا بأكْسِيَةٍ سَاتِرَة لَمْ يأت في النُّصُوصِ بيانٌ عَنْها.

● ﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾: السَّوْءَة، هي العَوْرَةُ، الْقُبُلُ والدُّبُر. وتُطْلَقُ السَّوْأَةُ على كلِّ عَمَلٍ وأمْرٍ قَبِيح شَائِنٍ.

وَحينَ تَظْهَر لَهُما سَوْآتهما ينكشفُ لَهُما أنَّ إبليسَ قد خَدَعُهما وغَرَّر بِهِما، وَكَانَ أَقْوَىٰ منهُمَا بمُخَادَعَتِه وحيلَتِه، وأنَّهُ شَفَىٰ غَيْظَهُ من آدَمُ، وأنه كان له العذر في رفضه السجود له، فليتحمل آدمُ وزَوْجه نَتَائجَ مَعْصِيَتِهِما إخراجاً مِنَ الجنَّة، كَمَا طُرِدَ هُوَ بِمَعْصِيَتِهِ من منازل أهل الملأ الأعلَىٰ من الملائكة.

وبانْكشَافِ سَوْآتهما المادّيَة تنكَشِفُ سوْآتهما النَّفسِيَّةُ المستعِدَّةُ للسُّقُوط في المغْصِيَة وارْتكاب الإثم.

لقد كان إبليس مُتَلَهِّفاً أنْ يَرىٰ أوّلَ ظاهِرَةٍ من ظواهِرِ معْصِيتِهما، وهي بُدُوُّ سَوْآتهما، وما يُصاحِبُه من حُزنِهما، وأَلَمِهمَا، وَخَوْفِهما من الإخراج من الجنَّة، فقد سبَق أنْ حَذَّرَهُما الله من إبليس ومكايده، وقال لآدم كما أبان الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نُزُول):

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

لكنَّ آدم وزَوْجَهُ قدْ غفَلاَ عَنْ هٰذا التَّحذِير، أو لم يَحْرِصَا علَىٰ استذْكارِه دَواماً، فأسْقَطَهُما إِبليس بوَسَاوسِه وتَسْويلاته في المعصية.

● قول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

الّذِي يظهر أنَّ إبليس قَدْ زَيَّنَ لآدَمَ وزوجه بوساوسه وتسويلاته الأكْلَ مِنَ الشجرة، وأنَّهُ قَدَّمَ لَهُمَا عدَّة إغراءاتٍ، إلاَّ أَنَّهُمَا قَدْ كَانَا حَذِرَيْنِ فَلَمْ يَسْتَجِيبَا له، إلىٰ أن ظَفِر بمَغْمَزِ ضَعْفٍ لَدَيْهما، يَسْتثير رغْبَتَهما في أنْ يكونَ

لهُما انطلاقُ الملائكةِ في السَّماوات بأجْسَادٍ نُورَانيَّةٍ، أوْ أَنْ يَكُونَا خالِدِينَ فيما هُما فيه من نَعِيمٍ في الجنَّة، إذْ كانَا يَعْلَمانِ أنَّهما في سُكْنَىٰ ابْتِلاءٍ، لا في سُكْنَىٰ دَوامٍ وبَقَاءٍ.

عندئِذٍ زَرَعَ الشَّكَّ في قُلوبِهِما حَوْلَ الْغَرَضِ من نَهْيِ اللَّهِ لَهُما عَنْ أَنْ يأكُلَا مِنَ الشجرة المحرَّمة، فجاء هذا النَّصُّ مُبَيِّناً هٰذِهِ الحيلَةَ الشَّيْطَانِيَّة، إذْ كان قد أشعرهما بأنَّه لا يعلَمُ شيئاً عن أنَّ اللَّهَ قد حرّم عليهما أن يأكلا منها، لولا أن علم ذلك منهما.

أي: وقال لهُما مَعَ ما قَدَّمَ لَهُما من إغراءاته وتَسْوِيلاته: ما نَهَاكُمَا رَبُّكُما عن الأكل من هٰذِهِ الشجرة، إلاَّ مَنْعَ أنْ تكونا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونَا من الخالِدِين.

ورُبَّما قالَ لَهُمَا إنَّ الْمَلائِكَةَ لم يَصِيرُوا نُورَانِيِّينَ يَنْطَلِقُونَ في السّماواتِ بأجْسَادٍ نُورَانيَّة إلاَّ بعْدَ أَنْ أَكَلُوا مِنْ هٰذِه الشجرة.

هٰذِه هِيَ الفِكْرَةُ الإبليسيَّة القديمة المكَفِّرَة، الّتي تَجْعَلُ للأشْيَاءِ طبائعَ ذاتِيَّةً أصْلِيَّةً ثابِتَةً، وأنَّ الله يَخْلُقُ مِنْ خِلالِها.

وَمَنْ يَسْقُطُ في أَوْهَام هٰذِه الفكْرَةِ الباطِلَة، يَغْتَرُّ بأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ جَعَلَ تَصارِيفَ خَلْقِهِ مُقَيَّدَةً بالأَسْبَابِ، مَعَ أَنَّهُ هُو الّذي وَضَعَهَا بحِكْمَتِهِ في الأَشْيَاءِ، لِيَمْتَحِنَ عِبادَهُ في الإيمان به خَالِقاً مِنْ قَنواتِ الأَسْبَاب، وَأَنَّ الأسْبابَ لَيْسَتْ إلاَّ أَوْعِيَةً يَمُرُّ الْخَلْقُ الرَّبَّانِيُّ من خلالها، ولو شاء الله جلّ جلاله لخلَق ما شاء دُونَ أن يَمُرَّ خَلْقُه من ظَواهِرِ الأسْباب، وَلأَوْجَدَ من الْعَدَمِ المطْلَقِ بكَلِمَة: «كُنْ» مَا شَاءَ مِنْ أكْوان، إنَّما أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يكُونُ بأَمْرِ التكوين.

إنّ إبليسَ لمَّا رفضَ السُّجودَ لآدَمَ عَلَّلَ رَفْضَهُ بأنَّ عُنْصُرَ النّار بطَبِيعَتِها الذَّاتِيَّة أشْرَفُ من عُنْصر الطين، فلَيْسَ من الحكمة تَكليفُ مَنْ هُوَ أشْرَفُ في عُنْصرِه، أن يَسْجُدَ لمَنْ هُوَ فِي عُنْصره دُونَهُ شرفاً.

وفي تَسْوِيله لآدم وزوْجِه، زَعَمَ لَهُما كاذباً أنَّ عُنْصرَ الشَّجَرة المحرَّمَةِ، يُحَوِّل الآكِلَ مِنْهَا إلى مَلَكٍ نُورانيّ يَعْبُرُ أقطار السَّمَاواتِ بخِفَّةِ الأنوار، أو الأَرْوَاحِ المجرّدة، أَوْ يجْعَلُهُ خالداً يَعِيشُ أبداً دُون أن يُدْرِكَهُ المَوْتُ، وأوْهَمَهُما أنَّ الله لا يُرِيد لَهُما أن يَكُونا ملكَيْن، أَوْ من الْخَالِدِين، فَحَرَّم عَلَيْهما أنْ يأْكُلا من هذه الشَّجرة، وألْقَىٰ في تَصَوُّرِهِمَا أنَّهُ يُوجَدُ في الكون مَخْلُوقُونَ خَالِدُون، بقوله لهما: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

لا شَكَّ أنّ قَبُولَ هٰذِهِ الفكرة الشيطانية يوقع في إحدى معصيَتَيْنِ، هُما من أكبر الكبائر الاعتقادية.

فإنْ قَبِلا فِكْرَةَ أَنَّ الشَّجَرَةَ ذَاتُ عُنْصُرٍ ذَاتِيٍّ فَعَّالٍ في أَنْ يَكُونا مَلَكَيْنِ، أَوْ يَكُونا مِنَ الخالِدِينِ، فَقَدْ جَعَلَا طَبَائِعَ الْأَشْيَاءِ شُرَكَاءَ للَّهِ في كَوْنِهِ، وَمَا نَظُنُّ أَنَّ آدَمَ وَزَوْجَهُ قَدْ سَقَطَا فِي هٰذِهِ الكبيرَةِ الشِّرْكِيَّة.

وَإِنْ تَصَوَّرَا أنَّ الله عزّ وجلَّ هُوَ الَّذِي جعَلَ في الشَّجَرَةِ هٰذِهِ الميزَةَ الخاصَّة، وأنَّهُ حرَّمَ عليهما الأَكْلَ مِنْها لئلاَّ يكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ يَكونا مِنَ الخالِدِين، فقَدْ وَقَعَا في غَفْلَةٍ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِما، عَلِيمٌ بكُلّ حَرَكَةٍ يتَحرَّكَانِها، وكُلِّ سَكَنِةٍ يَسْكُنانِها، وأنَّه لَوْ كَانَ لِهٰذه الشَّجَرَةِ هذه الميزَةُ بخلْق اللَّهِ، واللَّهُ لا يُرِيدُ أَنْ يكونا مَلَكَيْن، أَوْ يَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، فإنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، لا يُمَكِّنُهما من الأكْل منْها، إذا أرادا مباشرة ذلك، أو يَسْلُبُ الشَّجَرَةَ مِيزَتَها، فإرادة الله تبارَكَ وتعالَى لا يُمْكِنُ مُعَارَضَتُها.

والَّذِي أَوْقَعَهُما في هٰذه الغفلَة شِدَّةُ رَغْبَتِهما بأن يكون ملَكَيْن، أو بأن يكونا خالِدَيْن. ومعْلُومٌ أنّ شِدَّةُ الرَّغْبَةِ تتحوَّلُ إلَىٰ هَوىً، ومنْ شأْنِ الْهَوَىٰ أنْ يُغَشِّيَ على مراكِزِ التفكير الصحيح، ويجعَلَ الإنسان يتصرَّفُ بمُوَجِّهٍ من رَغباتِ نفسه، لا بمُوَجِّهٍ من فِكْرِهِ وَعَقْلِه وإيمَانِهِ، ومن هُنَا يَسْقُطُ المؤمِنُونَ في أَوْحَالِ الْمَعَاصِيَ والْخَطَايَا.

ووَجَمَ آدَمُ وزَوْجُهُ عَنْ قَبُولِ مَا سَوَّلَ إبْلِيسُ لَهما به، فَلَجأَ إبْلِيسُ إلَىٰ حِيلَة حَلِفَ الأَيمَانِ الْمُؤَكَّدَة، فَشَرَعَ يُقْسِمُ لَهُمَا بِرَبِّه كاذِباً، ويُؤَكِّدُ أَقْسَامَهُ، وَيَقُولُ لَهُمَا: إنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

فعل «قَاسَمَ» من الصِّيَغِ الّتي تَدُلُّ عَلىٰ المشاركة، ولكنَّها قَدْ تخرجُ عن هذه الدّلالة، للدّلالة على المبالغة والتّشدِيدِ، في مضمون الحدث الذي دلَّ عليه الفعل، والظاهر أنَّ عبارة ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ من هذا القبيل، أَوْ أَنَّهما طَلبَا منهُ أن يُقْسِمَ على ما ذكر لهما، فأقْسم كاذِباً مُفْتَرياً، ولم يَكُنْ لآدم وزوجه خِبْرَةٌ سابقَةٌ بالكذَّابين المنافِقين المفْتَرِين، لكنَّ الله عزّ وجلّ قد حذَّرَهُما من مكايِدِه بصُورَةٍ عامَّةٍ فلا عُذْرَ لَهُما.

ولم يكْتفِ إبْلِيسُ بالتَّشْدِيد في الْقَسم، بل شدّد أيضاً في تأكيد المُقْسَم عليه بعدّة مؤكّدات هي: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة» في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وعلى الرُّغم من كلِّ هٰذه التأكيدات فإنَّ آدم زوجَهُ لم يُسْرِعَا في الاستجابة لدَعْوَتِه وَتَسْويلاته.

فاتَّخذ إبليس معهما أسْلُوب الْخُطواتِ الإزْلاقِيّة المتابعة، والتَّدْلِيةِ شيئاً شيئاً في بئر المعصية، ومع كلّ مَرْحَلَةٍ من مراحلِ التّدْلية إغراءَاتٌ مِنْ مَنَابع التَّغرِيرِ والخِدَاعِ والإِطْمَاعِ بالباطل.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ . . . ﴿٢٢﴾﴾،

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: أي: فَبَعْدَ أَنْ شَدَّدَ في الحَلِفِ لهما، وأكّد لَهُما أنّهُ لَهُمَا لَمِنَ النّاصحين، أخَذَ يُنْزِلُهما شيئاً فشيئاً في بئر المعصية، أو مَهْواةِ

الْمَعْصِيَة، ليَجْعَلَهما عند حَدِّها تَماماً لَيْسَ بينهما وبينها إلاَّ الملامَسَةُ وعندئذٍ يَسْهُل جدّاً إزْلاقُهما، وإيقاعُهما في الزَّلَل.

يُقَال لغة: دَلَّىٰ الدَّلْوَ وأَدْلاَه، أي: أرْسَلَهُ في البئر بشَطَنِه.

ويقال: دَلَّىٰ الشيْءَ في المَهْواةِ إذا أرْسَلَهُ فِيها.

ومعلُومٌ أنّ التدلية لا تكون رَمْياً أو قَذْفاً، وإنَّما تكون إرسالاً برفْقٍ شيئاً فشيئاً، وهذه هي وسيلَة الشيطان، إنَّها قائمة على أسْلوب الخطوات المتتابعاتِ تنازُلاً إلى الحضيض، أو إلى الدَّرْك الأسْفلِ من الجحيم.

إنّ الأديبَ الذَّوَّاقَ للعبارات الفنِّيَّةِ الأدبيّة، ليَجِدُ في عبارة ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ إبْداعاً بالغ الغاية، في المطابقة بين العبارة الّتي هي في غاية الإيجاز، وبيْنَ الفكرة المرادَة ذاتِ المرامي والأبْعَادِ الواسِعَة.

إنّ تَشْبِيه عمليّة الإغواء ذي الخطوات المتتابعات في الانحدار بالتَّدْلِيَةِ في بِئْرٍ، أو فِي مَهْوَاةٍ من أَبْدَع التشبيهات وأبْرَعِها وأدَقّها.

واستعمال فِعْلِ «دَلَّى» كان على سبيل الاستعارة.

﴿بِغُرُورٍ﴾: الغُرُورُ، مَصْدَر «غَرَّهُ» تقول لغة: «غَرَّهُ يَغُرُّهُ غَرّاً، وغُرُوراً، وغِرَّةً»، أي: خَدَعَهُ وأطْمَعَهُ بالباطل.

«الباء» للملابَسةِ والمصاحبة، أو سَبَبِيّة. أي: دلاَّهما تَدْلية مصحوبة بغُرُور، أو تَدْلِيَةً بسبب الغرور الّذي كان يَغُرُّهما به.

فالمعنى: فأخذ إبليس يُنْزِلُهما في مَهْواةِ المعصيَةِ شيئاً فَشَيْئاً، تَدْلِيَةً مصحوبةً بأسْبَابِ خِدَاعٍ منْهُ لهما، وإطماعٍ لَهُما بالباطل.

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ . . . ﴿٢٢﴾﴾:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾: أي: فَحِينَ ذاقا طَعْمَ مَأْكُولٍ ما مِنَ الشجرة. «لمَّا» حينيَّة ظرفية تختص بالماضي.

الذَّوَاقُ: هو الإحْسَاسُ بطَعْم المأكُولِ أو المشروب.

﴿بَدَتْ لَهُمَا﴾: فعل «بدَا» جوابُ «لمَّا» الحينيَّة الظرفية.

﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾: أي: عوراتهما، بسُقُوط الأكسِيَةِ السَّاتِرة لهما.

وقد دلَّتْ عبارة: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ علىٰ أن نَزْعَ لِبَاسِهِمَا عَنهما وبُدُوَّ سَوْآتهما قد كان عَقِبَ تَذَوُّقِهِما من الشجرة المحرَّمة عليهما مباشرةً، دون تأخير.

وكان هذا أوَّلَ مظْهَر من مظاهِرِ عُقُوبَتِهِمَا، قَبْلَ مُحَاكَمَتِهِما على خطِيئَتِهِما. وكَانَ علامَةً على أَنَّهما سَيُخْرَجَان من الجنَّة.

ولكنْ هَلْ طَرَحَا مَا في أفْواهِهِما مِنها، عند مشاهدة أثر هٰذا الذّواق؟.

أقول: لقد دَلَّ ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) علىٰ أنهما أتمَّا أكْلَ مَا ذَاقَاهُ منها، فقد جَاء فيها قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا... ﴿١٢١﴾﴾.

ويَظْهَرُ أنّ الْبُدُوَّ الّذي كان عَقِبَ الذّواق قد كان بُدوّاً أوّلِيًّا وجُزئيًّا، وأنَّ الْبُدُوَّ الَّذِي كَانَ بعد الأكْل قد كانَ نهائيًا وكامِلاً.

ويظْهَرُ أنّ لَذَّة طَعْم الشجَرَةِ غَلَبَت إرادتَيْهِما فأتَمَّا الأكل، ولم يَمْلِكَا أنفُسَهما لِلَفْظِ ما في أفْوَاهِهِما من الشَّجَرَةِ اكْتفاءً بما حصَلَ لَهُما من ذَوَاقٍ، واتّعَاظاً بِبُدُوِّ آثاره، بل تابَعا أكْلَ ما في أفواههما وابتلاَعَه.

- قول الله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ... ﴿٢٢﴾﴾:

﴿وَطَفِقَا﴾: أي: وشَرَعَا آدَمُ وزوجُهُ. طَفِقَ: من أفْعالِ الشروع،

تَعْمَلُ عمل «كان» إلاَّ أنَّ خَبَرَهَا يَجِبُ أن يكون جُملَةً فعليَّةً من مضارعٍ مجرَّدٍ من «أَنْ» المصدرية، وفاعله ضمير يَعُودُ على الاسم قبله.

﴿يَخْصِفَانِ﴾: أي: يُلْصِقَانِ على جُلُودِ سَوْءآتِهِما من ورَقِ أشجار الجنّة، لسَتْرِها.

واخْتَفَىٰ إبليسُ بعدَ أَنْ غَرَّرُ بِهما وَخَدَعَهُما، حتَّىٰ أوقَعَهُما في مَعْصِيَة رَبِّهما.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذه الآيات بيانُ مُسَاءَلَةِ اللّهِ عزّ وجلّ لآدم وحوّاء بشأن مَعْصِيَتِهما، وأَكْلِهِمَا مِنَ الشجرة الَّتي حرَّمَ عليهما أنْ يَقْرَبَاها. وبيانُ مُحَاكمته لَهُمَا، وحُكْمِه عليهما بالإخراج من الجنَّة، وبالْهُبُوطِ إلى الأرض، وبأن تَكُونَ في الأرض رِحْلَةُ امتحانهما، وامتحانِ ذُرِّيَّاتهما الَّذين قَضَى اللّهُ أن يتناسَلُوا منهما، وبأن تكون الأرض مستقرّاً ومتاعاً لهم إلى حين.

وأبان الله عزَّ وجلَّ لهما أنْ ذُرِّيَّاتهما سيكونُون في رحلةِ امتحانهم مُتَنافِسين، مُتَحاسِدِين، مُتَخَالِفِين، فيكُونُونَ بسبب ذلك متَعَادِين مُتَقَاتلين، بَعْضُهُم لبَعْضٍ عَدُوٌّ.

وخطابُ الله لآدمَ وَحَوَّاءَ، قد كان مُوَجَّهاً لَهُمَا، ولمن أَوْدَعَ فيهما من ذُرِّيَاتٍ سَتَتَنَاسَلُ منهما، حتَّىٰ آخِرِ مولُودِ إنسانٍ في الأرض.

- ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾: النّداء برفع الصوتِ وَمَدِّهِ إنّما يستَعْمَل لتبليغ الْبَعِيد، أو مَنْ هو مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ البعيد.

ويظْهَرُ أنّهما لمَّا عصَيا واكْتَشفا أثر المعصية ببُدُوِّ سَوْءَاتهما إبْتَعدا عن مكان شجرة الابتلاء الّتي أكلامنها، وأخَذَا يخصفان عليهما من ورَقِ الجنَّةِ اسْتِحْيَاءً من الله جلَّ جلاله.

فخاطَبَهُما الله بحسب حالة أنفسهما، فناداهُما.

- ﴿.. أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾:

اشتملت هٰذِه العبارة في جلسة محاكمة آدم وزوجِه على معصيتهما على استفهامٍ تَقْرِيرِيٍّ من شِقَّيْنِ، فيهما معنى الإنكار عليهما:

الأوّل: استفهامٌ لانتزاعِ إقْرارِهِما، بأنّ رَبَّهُما قد نَهَاهما عن الاقتراب من الشجرة المحرَّمَةِ، والأَكْلِ منها، وقد خالفا فاقترفا معصِيتهما.

والإجابة الصّادِقَةُ على هذا الاستفهام تكونُ بعبارة: «بلَىٰ» لأنّ الاسْتفهام مُسَلَّط علىٰ منفيٍّ، مع أنّه في الواقع لم يكُنْ منفيًا، بل كان أمْراً حقًّا، فقد نهاهما الله عزّ وجل عن أنْ يقْرَبَا مِنها، فخالَفَا نَهْيه.

الثاني: اسْتِفْهَامٌ لانتزاع إقرارِهما، بأنّ ربَّهُما قد حذَّرَهُما من إبليس الشيطان، ومِنْ مكايده، وأبَانَ لهما أنّه عَدُوٌّ مُبينٌ لَهُما، وأنّه سَيَسْعَىٰ بكلّ ما لَدَيْهِ من حيلة ووسيلة، لإسقاطهما في الخطيئة، التي تكون سبباً في مُعَاقَبَتِهما بالإخراج من الجنة. وقد ذكر الله إبليس باسمه الجديد: الشيطان والإجابة الصادقة على هذا الاستفهام تكون أيضاً بعبارة «بَلَىٰ» لأنّه مُسَلّط على منفيّ، والواقع لم يكن منفيًا، بل كان أمراً حقاً، وقد خالفا مقتضى التحذير فاستجابا لتسْويلاته فسَقطا في الخطيئة.

وطوى النصّ إجابتهما بعبارة «بلىٰ» إذْ جاء بَعْدَهُ ما يَدُلُّ على اعترافهما بذنبهما. وبإقرارهما بأنَّهُمَا عصَيَا، وبأنهما بمَعْصِيَتِهِمَا قَدْ ظَلَمَا أنفُسَهُما.

ومن الملاحظ أن الله عزّ وجلّ لمَّا نهاهُما عن الاقْتِراب من شجرة الابتلاء، ذكَرَهَا بلفظ الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب، إذ قال لهما:

- ﴿..وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ⑲﴾.

لكنه جلَّ جَلاَلُهُ في سُؤالِ مُحَاكمَتِهِمَا قَال لهما:

- ﴿أَلَمْ... أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ... ㉓﴾.

فذكَرَها بلَفظِ الإشارة الموضُوعِ للمشَارِ إليه البعيد.

فدَلَّ هٰذا الإجراء البيانيُّ علىٰ أَنَّهما ابْتَعَدا بعْدَ الأكل منها، وانْكشَافِ سوْءَاتِهِمَا، عن مَوْقِعِ خطيئَتِهما ابْتِعاداً يَصِحُّ معه أن يُشَارَ إلى الشجرة باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، ويَصِحُّ معه أن يخاطبا بالنداء الذي يكون للْبَعيد.

ومعلومٌ أن من طبيعة المذنب إذا ظهرت عليه بعض أمارات الذنب، أَنْ يَبْتَعِد عن المكان الذي ارتكب فيه ذنْبَه، وهذه الحركة تكون منه حركةً تلْقَائيَّةً تُوجِّهُها البديهة دون أَنَاةٍ في التفكير.

ولم يَكُنْ من آدم وزَوْجِه في جلْسَةِ محاكمتهما إلاّ الاعترافُ لربّهما بأنَّهما قَدْ ظلَما أنفُسَهُما، وَأَلْحَقا الاعْتِراف بطَلَبِ مغْفِرَتِه ورَحْمَتِه، واستعطافه بأنَّهُ إنْ لم يَغْفِرْ لهما ولم يَرْحَمْهُمَا فإنَّهُمَا لَيَكُونانِ من الخاسِرين حتماً، لأنّ خطيئَتَهُما تقتضي خَسارَتَهُما بمقتضى أحكام العدْل الرَّبَّانية.

- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ㉓﴾.

خاطبا الله جلَّ جلالُهُ بِرُبُوبيّته لهما، وعُبُودِيَّتهما له، انْكساراً وذُلاً

واستعطافاً، وأبانَا في اعترافِهما أنَّهما ظَلَما أنفُسَهُما، باعتبار أنْ مَعْصِيَتَعهما لم تضرَّ اللَّهَ شيئاً، بل هُما بمعصيتهما الجانيان، وهما المجنيُّ عليهما، إذْ عَرَّضَا أنفُسَهُما للعقوبة الّتي يخْسَرَانِ بها البقاء في الجنَّة، ويتَحَمَّلَانِ بها متاعِبَ الشَّقَاءِ في رِحْلة الابتلاء في الأرض.

واسْتَجْدَيَا المغْفِرَة، ورَحْمَةً زَائِدَةً على المغفرة، بطريقةٍ مليئَةٍ بِالتَذَلُّلِ والأَدَب مع رَبّهما.

ورجَّحَا في هذا الموقف جانب الرَّجاء، باستعمال حرف الشرط «إِنْ» الذي يُسْتَعمل في المشكوك فيه، فقالا: ﴿. . وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فحرف «إِنْ» دخل على الْمَنْفِيّ، وهذا المنفيُّ مَشْكُوكٌ فيه، فيكونُ نَقِيضُهُ مَرْجُوًّا، وهو المغفرة، والرَّحْمَةُ الزائِدَةُ عليها.

- ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: هذه الجملة جواب الشرط «إِنْ» وقَدْ جاءَتْ مُؤَكَّدَةً على تقدير وقوع الشرط وهو عدم المغفرة وعدم الرحمة، لكنّ وُقُوع هذا الشرط مشكوكٌ فيه، إذ المرجُوُّ أن يغْفِرَ اللَّهُ لَهُما وَيَرْحَمَهُما.

﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: أي: من ضمن جماعات الخاسرين الّذين خَسِرُوا أنْفُسَهُم من قبلنا، كإبليس وسَائِرِ كفَرَةِ الجنّ، ومن بعدنا من الجنّ ومن ذُرّياتنا من الإنس.

عندئذٍ أصْدَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ حُكْمَهُ عليهما:

- ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي هذا الحكم الصَّادر عليهما، وعلى ذُرّيَّاتهما الّذين سيتناسَلُون منهما، نَقْلٌ لرِحْلَةِ الابتلاء من الجنة، الْمُعَدَّةِ في الْخُطّة الربّانية لأن تكون إحدىٰ دَارَي الجزاء، إلى الأرض التي نحن الآن فيها، والمعَدَّةِ في أصل الْخُطَّةِ الرّبّانيَة، لأن تكون هي مَكانَ الابتلاء.

وبإسكان آدم وزَوْجِه أوّلاً في الجنّة، أَعْلَمنا الله عزّ وجلّ عن طريق التَّجْرِبة، أنّ الحكمة تقضي بأنْ لا تكون الجنة هي دار الابتلاء والامتحان، بل يَنْبَغِي أن تكون دار جزاء فقط.

وأعلمنا أيضاً أنْ المسْكَنَ الدائم للإنسان الذي خَلَقَه في أَحْسَنِ تقويم هي جنّاتُ النعيم، بشرط أن يجتاز رحلة امتحانه بنجاحٍ، ولو من أدْنَىٰ الدَّرَجَاتِ، الّتي يكافَأُ عليها بأدنى درجات الجنّات، وشَرْطُ استحقاق دُخُولِ الجنة والخلودِ فيها هيِّنٌ سَهْلٌ، إنّه الإيمان برُبُوبيّة الله لكونه، وبإلَـٰهيَّتِهِ لعباده، دون أن يُشْرِكَ الممتَحَنُ مِنَ الْعِبَادِ بالله شيئاً في ذَلِك، مع قيامة بما يَدُلُّ على أَنَّهُ غير مُسْتَكْبِرٍ ولا مُتَمَرِّد على طاعته.

أمّا مَنْ أخلَّ من العباد الممتَحَنِين بهذا الشرط، فالحكمة تقضي بمعاقبته فِي دَارِ عَذابٍ مُعَدَّةٍ للكافرين المجرِمين الَّذين يُقْضَىٰ علَيْهم بأن يَخْلُدوا فيها.

ومن عصى غَيْرَ مستكْبِر ولا مُتَمرِّد علَىٰ طَاعَةِ رَبِّه في التكاليف العمليّة، فإنه يسْتَحقّ الْعِقَابَ بالْعَدْلِ على مقادير معاصيه، إذا لم يَشْمَلْه عَفْوُ الله أو غُفْرانه.

وبتقديم تَجْرِبةِ الامتحان في الجنّة والإخراج منها بالمعصية، يكْشِفُ اللَّهُ عزّ وجلّ لنا، أنَّ الحكمة الّتي ينبغِي أن يُعْمل بها دواماً، تقضي أن يكون الامتحانُ في مكانٍ ما أخر خارج الجنّة، لتكُونَ الجنّة بعْدَ ذلك ثواباً وجزاءً لمَنْ يكونُ أهلاً للخلود فيها.

فالخلُودُ السّعيد لا يُكْتَسَبُ بالأكْل من شجرة، أو مادّةٍ مَا فيها إكْسِيرُ الخلُودِ السَّعِيد، وإنّما يكونُ بالعمل الإرَادِيّ الذي يَتَحقَّقُ به رضوان اللَّهِ رَبِّ الأكوان، والمهيْمنِ على كلّ شيء فيها بعلْمِهِ وحكمته وقُدْرَتِه، والمُجْرِي أحداثَها بقضائه وقَدَره وخَلْقه.

وهو الذي يمْنَحُ بحكمته الخلودَ السّعِيدَ، لِلَّذِين يجتازون رحلة امتحانهم على ما شرع لهم، من الذين وضَعَهُمْ موضع الامتحان، ليحاسبهم، ويَفْصِلَ القضاء بَيْنَهُم، ويجازيهم يوم الدين.

أمّا الّذِين قابَلُوا نِعْمةَ الله وتفضيلهم في الخلْق وتكريمَهُ لَهُمْ بالكفران والجُحود، والاعتراضِ على حكمته في تكاليفه بمقتضى ربوبيته وإلّهيّته، فلهم دار عذابٍ مضادَّةٌ ومُنَاقِضَةٌ في صِفَاتِها لدار النعيم، وجزاؤهُم الخلود فيها، سواء أكانوا من الجنّ أم من الإنس.

إنّ إجراء تجربة الابتلاء في الجنّة، ثم الانتقال منها إلى الأرض، بعْدَ مَعْصِيَة الإنْسَانِ فيها، تُشبِهُ عَمَلِيَّاتِ النَّسْخِ في الأحكام التشريعية، الّتي يُعَلّمنا الله بها التّغيير في قراراتنا بحسب مُقْتَضَيات الحكمة، ويُعْطِينَا بها قُدْوَةً حَسَنةً من أفْعَالِه الحكيمة جلّ جلالُه، حتَّىٰ لا نتَعَصَّبَ لقراراتِ وأحكامِ نَبُتُّها، وحتَّى لا نَتَشَبَّثَ بها، إذا اكتَشَفْنَا ما هو خير منها وأفْضَلُ لتحقيقِ المطلوب، بل الواجب علينا أنْ نُعَدِّل إلى الأصْلح دواماً، صاعِدِينَ عَلَىٰ دَرَجَات سُلّمٍ ارتقائي في أنظمتنا وتراتيبنا الإدارية، وأساليبنا الحضاريّة.

إذا كان الرّبّ العليم بكلّ شيء، والحكيم في اختياراته، ينْسَخُ في أحكامه، مراعَاةً لما هو الأحكم والأصلح، وليضرب لنَا مثلاً من نفسه، حتّىٰ نَقْتَدِي به، فَمَاذَا يجبُ علَيْنا ونَحْن ذَوُو عُلُوم قاصِرَة، ونظراتٍ ضَعِيفَةٍ مَحْدُودَةٍ كَلِيلَة؟!!

● ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: خِطَابٌ لآدَم وزَوْجِهِ، وَذُرِّيَّاتِهِما فيهما، لأنّ مُصَغَّرات أنْسَالهما موجوداتٌ في ظَهْر آدَم، وعند حوّاء مصغَّرات البيوض، بأعْجُوبة إعجازيّة لاَ يقضي بتكوينها إلاّ رَبُّ كُلِّ شيءٍ وخالِقُ كلّ شيء.

● ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: أَمْرٌ تكوينيٌّ فيه إشْعارٌ بالعقوبة لهما، وبإجراء الأحْكَمِ بالنسبة إلىٰ ذُرِّيَّاتهما.

- ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾: جملَةٌ حاليّةٌ، وهي من نَوْع الحال المقدّرة، أي: والحال أنّه سيكون بعضُكُمْ عَدُوّاً لبعض.

إنّ التكوينَ النفسيَّ للنّاس القائم على حُرّيّة إرادَةِ الأفراد، وعلى اختلاف المصالح والأهواء والشهواتِ والمطالِب، وعلى تعارضها وتبايُنِها مع التّزاحُمِ والتنافُسِ وما في النفوس من تَحاسُدٍ، من شأنه أن تَظْهَر بَيْنَهم العداوات، وهي عَداوَاتٌ تكونُ بين الأفراد، وبين الجماعات الصغرى، ثمّ بين الأقوام والأمم، وهيَ تظهر في شتّىٰ أنواع سلوكهم وتحركاتهم، حتّىٰ تَصِلَ إلى مكايد كثيرة بينهم، وإلى خُصُومات شديدات، ثم إلى مقاتلات وحُرُوب كبرى.

وهكذا كان واقع حال الناس في تاريخهم الطويل.

ولَسْتُ أرى أنّ الشيطان له دخل في عموم: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ إذْ قد جاء بيانُ عَدَاوَتِهِ لآدم وزوجه في قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

وفي غيره أيضاً، وخاطب الله الناس جميعاً بأنّ الشيطان لهم عدُوّ مُبِينٌ في عِدَّة نصوص.

فالعداوة المرادة هنا هي العَداوَة بين الناس الذين تَنحدِرُ أَنسَالُهُمْ من آدم وحَوّاء. والله أعلم.

- ﴿...وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾﴾:

اشتملت هذه الجملة على بيان الفقرة الثانية من المادّة الأولى من قرار الحكم. وهي تتعلّق بالمكان المنقول إليه، لاستكمال رحلة الابتلاء بالنسبة إلى آدم وحواء، وابتداء رحلة الابتلاء بالنسبة إلى كلّ موضوع مَوْضِعَ الامْتِحَانِ من ذُرّيّاتهما.

والمكان المنقول إليه هي الأرض التي نعيش عليها، والتي كان الله تبارك وتعالىٰ وجلّت حكمتهُ قد أعَدَّها إِعداداً ملائماً لظروف الامتحان الأمثل، بحسب خصائص الإنسان الجسديَّة، والفكريَّة، والنفسِيَّة.

- ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: مكَانُ اسْتِقرار مُؤَقَّتٍ، مُقَدَّر بإِحكامٍ لسُكَّانِه، حتَّىٰ انتهاء آجالهم.

- ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: المتَاعُ: كلُّ شيْءٍ يُنْتفَعُ به، ويُتَبَلَّغُ به، ويُتَزَوَّدُ، وغايته الفَنَاءُ والانْقِطَاع.

بخلاف «النّعِيم» الذي جاء وصفاً لما في الجنَّة من لذَّات وأنواع سعادات، فهو مُتَجدِّد دواماً لاَ يَنْقَطِع، وليس لِتَوارُدِ أفراده نهاية، لأنَّ أهلها خالِدُون فيها.

- ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي: إلى زَمَنٍ مُحَدّدٍ بقضاء الله وَقَدَرِه، لكل فَرْدٍ في الحياة الدنيا، وللحياة الدنيا كُلّها.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

اشتملت هذه الآية على المادّة الثانية من قرار الحكم، فقد دلَّ بَدْؤها بفعل: ﴿قَالَ﴾ علَىٰ أنها مادّة ثانية من القرار الرَّبَّاني.

وقد خاطب الله عزّ وجل في هذه الآية أيضاً آدم وزوْجَه وذُرّياتهما وهم في عالم الذَّر.

﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾: أي: فيها تكون حياة ابتلائكم.

﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾: أي: فيها يكون مَوْتكُمْ، فلا تُنْقَلُونَ إلى كوكب آخر لاستكمال رحلة امتحانكم.

﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾: أي: ومن هذه الأرض تُخرَجون يومَ بعثِكم للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء.

وجاء في القراءة المتواترة الأُخْرَى: ﴿وَمِنْهَا تَخرجُونَ﴾ بالفعل المبني للمعلوم، وبين القراءتين تكامُلٌ فِكْرِي.

فقراءة ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بالفعل المبني لما لم يُسَمَّ فاعِلُه دلَّتْ على أنّ الله جلّ جلالُهُ يُخْرِجُهم بالْبَعْثِ من الأرض التي قُبروا فيها.

وقراءة ﴿تَخرجون﴾ بالفعل المبنيّ للمعلوم دلَّت على أنّهم يُطاوِعُونَ، فَيَخْرُجُونَ خُروجاً جَبْرِيًا، لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِنهم أنْ يَعْصِيَ إرادة الخالق فيه.

وبهذا انتهى تدبّر الدرس الثاني
من دروس السورة والحمد لله على معونته وتوفيقه

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٢٦ ـ ٣٦)

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لبني آدم:

● ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ
خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ
وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ
فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ
مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ

عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ
(٣٠) ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ
قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ
إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِيۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ (٣٦) ﴾.

تمهيد:

تضمَّن هذا الدرس فيما ظهر لي قصّةَ الدِّين الذي كان هُدىٰ لبني آدم الأولين، وقد اشتمل على الأسُس العامّة للدّين الّذي جاء به جَمِيعُ رُسُل الله من بعد آدمَ لأمَمِهم، وبلَّغَهُ كُلُّ رَسُولٍ لأمّتِه، وأخيراً خَتَمَ اللَّهُ بِهِ رِسَالاَته للناس أجمعين، بما أنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، برسالة عامّة شاملة تامّة، بَعَثَهُ الله بها للناس أجمعين بدءاً من بِعْثَتِه حتىٰ قيام السَّاعة.

ويظهر لي الربط بين الدرس الثاني وهذا الدرس الثالث، إذْ ألاحظ أن الدرس الثاني قد انتهىٰ ببيان أنّ آدم وحواءَ أُهْبطا من الجنّةِ عَارِيَيْنِ حِسّيًا، بسبب خطيئتهما الّتي تعرّيَا بها نفسيًا وسلوكيًا عما يَقِيهِما من عقاب الله، إذْ سقَطَتْ عنهما بالمعصية وقَايَتُهما، وبَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُ إثْمهما، تأَثُّراً بوساوس وتسويلات إبليس الشيطان، الّذي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما وَلِذُرِّيَّاتِهما، فكانت مكايد إبليسَ الشيطانِ، هي السببَ الذي جعل إرادَتَيْهِما

الحرَّتَينْ تختاران ارتكابَ الخطيئَةِ، طمعاً في أن يكونا مَلَكيْن أو يكونا مِن الخالدين، كما وسْوَسَ لهما الشيطان، وقد تسبَّبَ ارتكابهما الخطيئة بالأكْل من الشجرة المحرّمة، في نَزْعِ أكْسِيَتِهما المادّيَّة عنهما، وكان هذا النَّزْعُ ظاهرةً من ظواهر العقاب المعجّل لهما، قَبلَ مُحَاكَمَتِهما، وكان مُمَاثلاً لنَزْعِ لبَاسِ التقوىٰ عنهما، وكانَ سَبَباً في إخراجهما من الجنة إلى الأرض، لِيَسْتَكْمِلا رحلة امتحانِهما عَلَيْها، ولتبدأ ذُرّيَّاتُهمَا رِحْلاَتِ امتحانهم عليها.

وقد جاء الدرسُ الثالثُ مُبْتَدئاً بِبَيَانِ بَدْءِ رحْلاتِ امتحان بني آدم بمنَّة الهدايةِ لصناعة الألْبِسَةَ السَّاتِرَةِ للسَّوْءاتِ وسائر الأجْسَادِ، وصِنَاعَةِ الرِّيَاشِ، وهو الأثَاثُ الْفَاخِر وكلُّ ما فِيهِ رفاهيَةٌ لِلْعَيْش، والهداية لمَا يَقِي من عَذَابِ الله يوْمَ الدّين، من اعتقادٍ أو خُلُقٍ أو عمل ظاهرٍ أو باطن، وهذا الواقي شبيهٌ بالأكْسِيَة والدروع الواقية، والألْبِسَةِ السَّاتِرَةِ لِلْعَوْرَاتِ، وهو في الحقيقة خَيْرٌ وأعْظَمُ نَفْعاً للإنسان من الألْبسةِ السَّاتِرةِ للأجْسَادِ، والواقيَةِ لها من ضُرِّ الحرِّ والبَرْدِ، وقُبْحِ انْكِشَافِ السَّوْءاتِ الجَسَدِّية، ذاتِ المناظِرِ المسْتَكْرَهَةِ، الّتي يَدْعو كشفُها إلى إشاعة الفاحِشَةِ، وتَسَافُدِ النَّاسِ كالبهائم المهملة.

وبعد المنَّة بهٰذيْنِ السِّتْرَيْن الواقِيَيْن الماذّيّ والمعنويّ، حذَّر الله عزّ وجلّ بني آدم مِنْ أن يَفْتِنَهم الشيطان، فيصُدَّهم أو يحوِّلهمُ عن صراط الله، حتَّىٰ لا يكونوا من أهل الجنة، بل من أَهْلِ النار، بعد رِحْلَةِ الامتحانِ في الحياة الدنيا على الأرض، كما فعَلَ بأبَوَيْهِمْ، إذ أَوْقَعهما بحِيَلِهِ ووساوِسِه وتَسوْيلاَتِه في الفتنة. حتَّىٰ سقَطا في معصية ربّهما، فكان السَّبَبَ في إخراجهما من الجنة عقوبةً لهما على مَعْصِيَتِهما الاختيارية.

وخاطب الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرس بَني آدم، بكَثِيرٍ من الشرائع والأحكام الدِّينيّة، على سبيل الحكاية الْمُقْتَطَعَةِ مما خاطب به بني آدم

الأوّلين، منذ عهد آدم عليه السلام، أو إشعاراً بأنّ هذه التعليمات والبيانات قد تلقّاها بنو آدم الأوَّلُونَ، ممّا أوْحَىٰ الله عزّ وجلّ به إليه من هُدَى، باعتبارِ أنَّ آدم عليه السّلام بعْدَ أنْ تَابَ الله عليه هَدَاهُ واجْتَبَاهُ، فهو أوَّل نبيٍّ ورسولٍ للنّاس، يُبَلّغ هُدَى رَبّه وشرائِعَهُ وأَوَامِرَهُ ونواهِيَهُ لعباده.

* * *

التدبر:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

في مَطْلِعِ هذا الدّرس يُشْعِرُ الله عزّ وجلّ بأنَّهُ قد خاطب جميع بني آدم، بدءاً من أولاد آدم في عَصْرِه، حتَّىٰ أخِرِ ذَرَاريه، مُمْتَنًّا عليهم، بأنّه قَدْ أَنْزَلَ عليهم لباسَيْنِ:

اللّباس الأول: هو اللّباسُ المادّي الذيّ يَسْتُرُونَ به أَجْسَادَهم ممّا يُؤْذيها، ويَسْتِرُ سَوْآتِهم، تجميلاً لَهُمْ وتَزْييناً وتَحْسِيناً، وحماية لَهُمْ ممّا يَشِينهم في عيون النّاظِرين إليهم من الناس، وتَكريماً لهم عن أن يكونوا كالدَّوابّ والأنعام بَادِي السَّوْءَاتِ، وأَنْزَل عليهم رِيشاً وهو الفاخر من الثياب، والأثاث لمنَازِلهم ومَحَلاّتِ إقامَاتِهم، وحِلِّهِمْ وتَرْحَالهم، وما يكون وسيلة رفاهِيَتِهِمْ، في يَقَظَتِهِم وفي مَنَامِهم.

اللّباس الثاني: هو اللّباسُ المعنويُّ الّذي يقِيهم بهَدْيِه وصِراطِه ومنهاجه ووَصَايَاهُ، شقاءَ الحياةِ الدّنيا، وعقَابَ الله فيها، ويَقِيهِم عذاب الله يوم الدين، إذَا عَمِلُوا به واتَّبَعُوه، مؤمِنين مُسْلِمين.

وهذا اللّبَاسُ هو الدّين الذّي اصطفاه الله لعباده، فإذا لَبِسُوه وقاهم شقَاءَ الدنيا وعذابَ الآخرة، فكانَ لَهُمْ لِبَاسَ تقوى.

ـ كلمة «لِبَاس» من عبارة «ولِبَاسُ التَّقْوىٰ» قُرِئتْ في المتواتر بالرَّفع وبالنَّصب.

فالقراءة بالنصب تقتضي أنّ ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ﴾ معْطُوفَةٌ على ﴿لِبَاسًا﴾ من عِبَارَةِ: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾. فالمعنى: قد أنْزَلْنا عليكم لباساً يُوارِي سَوْآتكم وأنْزَلْنا عَلَيْكُمْ رِيشاً لِزينتكم وتأثيثِ منازلكم، وأنْزَلْنا عليكم لباسَ التقوىٰ وهو أحكام دينكم الذي تَقُونَ بارتِدائها والعمل بها أنْفُسَكُمْ من شقاء الدنيا وعذابِ الآخرة، وتقون بها أنفسكُمْ من نقمته، وآثار معصيته الفاضحة.

والقراءةُ بالرَّفع تستَلْزِمُ مَحْذُوفاً مُقَدّراً جاء التصريح به في القراءة بالنَّصب، أي: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾. ولِبَاسَ التَّقْوى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾. فتكون الجملة مُسْتَأْنفةً لبيان فضْلِ وَخَيْرِيَّةِ لِبَاسِ التَّقْوَىٰ المعْنَوِيّ على لِبَاسِ الْجَسدِ المادّي.

شُبِّهَ العملُ بأَحْكام الدِّين بارْتِداءِ الألبسة علىٰ الأجساد، بجامع الوقاية في كلٍّ منهما، وأُطْلِقَ على أحكام الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده لفظ «لِبَاسِ» على سبيل الاستعارة، وأُضِيف لفظ «لباس» إلىٰ التَّقْوىٰ المراد بها اتقاء عذاب الله بالعمل بأوامره ونواهيه ووصاياه، لتَمْييزِه عن اللّباس الذي يواري السّوْآت الجسَدِيَّة، والذي يَقِي من أذى الحرّ والْبَرْدِ، واللّباسِ الذي يقي من بأْسِ المقاتلين. كالدُّروع والمغافر ونحوها.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: خطابٌ مُوجَّهٌ لجميع بني آدمَ المؤهَّلِين للخطاب، مُنْذُ بَدْءِ وُجُودهم في الأرض حتَّىٰ آخر كائنٍ مِنهم.

وقد دلَّ السِّياق في النصّ على أنَّ هذا الخطابَ قد أنْزِلَ على آدَمَ مِنْ ضِمْن ما أُنْزِل عليه من هُدَى.

- ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾: أي: قَدْ مَنَنّا عَلَيْكُمْ بعطَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ أَمْراً من

أمْرِنا، نافِذاً على وفْق الأمْر، فألْهَمْناكُمْ وَعَلَّمْناكُمْ بما أَنْزَلْنا علَيْكُمْ وَخَلَقْنَا لَكم.

ولا يقتضي التعبير بالإنزال في القرآن أنَّ الشَّيء المنَزَّلَ كاللّباس والأنعام والحديد، قد أُنزلَ من السّماء، بل الْمَعْنَى أَنَّ عطاء الله لعباده كُلَّهُ إِنْزالٌ من رحمته، بأمْرِهِ وقضائِه وقَدَرِه، ولو كانت مادّةُ ذلك الشيء مَوْجودةً في الأرْض بخَلْقِ الله قبل ذلك، إنّ الله جلّ جلالُه لَهُ الْعُلُوُّ دواماً، فكُلُّ مَا يَصْدُرُ عنه من رحْمَةٍ، وفَيْضِ عطاءٍ، أو تنفيذ جزاءٍ ولو بعقابٍ، هو إنزال من أَمْرِه، في أيّ موقع من الوجود كلّه.

- ﴿لِبَاسًا﴾: **اللِّباسُ**: ما يَسْتُر الجسم، من ثوبٍ ونَحْوِه، ولَوْ كانَ ساتراً لبعض الجسم كالرأس أو الأقدام أو العورة المغلّظة، لدفع الأذى والضرر، أو استحياءً من القبيح، أو للزينة، أو للإحصان من البأس كالدُّروع والمغافر.

أي: أَلْهمناكم وعلَّمْناكُمْ أن تصْنَعُوا ممَّا خَلَقْنَا لكم في الأرض لباساً.

- ﴿يُوَرِى﴾: أي: يُخْفي ويُغْطّي ويَسْتُر، يقال لغة: وارىٰ الشَّيْءَ يُوارِيهِ، أي: أَخْفاهُ، وغَطَّاهُ، وسَتَرَه.

﴿سَوْءَاتِكُمْ﴾: أي: عَوْراتِكُم وهي الفروج وما حولها، سُمّيت العورة سَوْءَةً، لأنَّ النظر إليها يَسُوءُ الناظِرَ بِسبَب قُبْحِها، فهي مخرج الفضلات والقذارات.

قيل: إنّ جبريل عليه السّلام أَتَى آدَمَ وحَوَّاءَ بَعْدَ أَنْ أهْبِطَا إلى الأرض عاريَيْن، إلاَّ مَا خَصَفَا على سَوْآتِهِما من ورَق الجنّة، فأعطاهما قُطْنا، وأمَرَ حَوَّاءَ أن تَغزِلَ، وعلَّمها كيْفَ تَغْزِلُهُ خُيُوطاً، وأمَرَ آدم بالحياكة، وعلَّمَهُ كيْفَ ينْسُجُ الخيوط، حتَّىٰ تكونَ صالحة لوِقَايَةِ الأجساد من ضُرّ الحرِّ، وضُرّ البرد، فكان هذا أوّل صناعة الألبسة، والله أعلم.

- ﴿وَرِيشًا﴾: أي: وأنزلنا عليكم رِيشاً، فهو معطوف على ﴿لِبَاسًا﴾. **الرِّيشُ في اللُّغَة والرِّيَاش:** يأتيان بمعنَىٰ مَا ظهر من اللّباس، وبمعنى اللّباس الفاخر، وبمعنى الخِصْب، وبمعنَىٰ المال، وبمعنى الأثاث الذي تُفرَشُ به المنازل وتُزَيَّن. وبمعنى المعاش، وهو كُلُّ ما يُعَاشُ به. ومن حُسنِ التَّدبُّر أنْ يُحمَل لفظ: «رِيشاً» هنا على كلّ المعاني التي يُطْلَقُ عليها، لأنّ كلَّ مَدْلُولات هذا اللّفظ ممّا تفضّل اللّهُ به على بني آدم، وممّا امْتَنَّ به عليهم، وليس بعضها أولى من بعضٍ بالتخصيص.

لكنّ الله عزّ وجلّ أفردَ امتنانهُ بنعمة اللّباس الّذي يواري السَّوْآتِ، ويسْتُرُ الفروجَ وما حولها. بقصد توجيه العناية للأدب الديني الّذي يأمُرُ بستْر العورات، والتذكير بأنّ المعصية الّتي كان من أوّل مظاهرها كشْفُ السَّوْآتِ لآدم وزَوْجِه في الجنَّة، كانت هي السَّبَب في إخراجهما منها، فعلَىٰ ذُرِيَاتهما أن يستُروا عَوْرَاتِهم إلاّ عند الحاجة، وعليهم أن يؤمنوا برُبُوبيّة الله وإلَهيته. وأن يلتزمُوا طاعته في أوامره ونواهيه، حتَّىٰ لا تنكَشِف سَوْآتُ نفوسهم، وحتَّىٰ لا يُسْتَنْزَلُوا بالخطوات الشيطانية إلَىٰ كبائر الإثم، فالكُفْرِ بالله، فيُحْرَمُوا من دُخول الجنَّة، ويَسْتَحِقُّوا دُخُول دَارِ العذاب يوم الدّين.

- ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ برَفع «لباس» ونَصْبِه على القراءتين. أي: وأنْزَلْنا عليكم يا بني آدم تعاليمات وأحكامَ لِبَاسِ التقوى المعنوي، التي هي هُدىً لَكُمْ، فهي تَقِيكُم إذَا آمَنْتُمْ بها واتَّبَعْتُموها في حياتكم شقَاءَ الدُّنيا، وعذابَ الآخرة، ومن العقوبة العاجلة فضيحةُ الإنسان بقبائحه وفواحشه الكاشفة لسَوْآت نفسه.

ولِبَاسُ التقوى هو الإيمان برُبوبيَّة الله وإلَهيته، وطاعَتُه في أوامره ونواهيه، واجتناب معصيته.

وأشار الله عزّ وجل إلى لباس التقوى بعبارة ﴿ذَٰلِكَ﴾: الموضوع

للمشار إليه البعيد، للإشعار بعلوّ مَنْزِلَتِه ورِفْعَتِها، وبُعْدِها في الدّرجات العاليات، وأبان أنّه خَيْرٌ من كُلّ لباسٍ يَقِي بِه الناسُ أجْسَادَهم، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ذلك الذي أنزلْنَاهُ على بني آدم من نِعَمِ الحياة الدُّنيا لمعايشهم، وما أنزلْناه عليهم من هداية في تعليمات الدّين الذي اصطفيناهُ لهم، هو من آيات اللَّهِ العظيمات، الدَّالَّاتِ على عظيم رحمته ونعمته وحكمته.

- ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أيْ: ونحن نَوَدُّ ونُحِبُّ لهم أن يضَعُوها في ذاكراتهم، وأن يَعْملوا بما تهديهم إليه، ممّا يحقّق سعادتهم في عاجل أمْرِهم وآجله، ولكننا لا نجعلهم مجبورين على ذلك، لأنّنا خلَقْنَاهم مُمْتَحَنِين مُخَيَّرِين، ذوي إراداتٍ حُرَّةٍ لنبلُوَهُمْ فيما آتيناهم.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾: هذا نداءٌ ثانٍ مُوجَّهٌ لجميع بني آدَمَ المؤهَّلِين للخطاب، مُنْذُ بَدْءِ وُجودِهم في الأرض حتى آخر كائنٍ منهم.

وهذا نظير النداء الأول، إذْ دلَّ السِّياقُ على أنّه قد أُنزِل على آدم من ضِمْن ما أُنزِلَ عليه من هُدىً.

- ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: صيغَةُ النَّهيِ المؤكّدَة بنون التوكيد الثقيلة، مُوجَّهَةٌ بحَسَبِ ظاهِرِ الاستعمال اللُّغويّ للشيطان، لكنَّ النَّهْيَ في

الحقيقة مُوجّهٌ لبَنِي آدم، والعبارةُ فيها محذُوفٌ مقدّرٌ ذِهْناً، وهي عَلَىٰ تقدير: لاَ تُمكّنُوا الشيطانَ من أَنفُسِكُمْ حتَّىٰ تتأثَرُوا بِه فيَفْتِنَكُمْ، كما يَقُولُ القائِلُ لإنسانٍ دخَلَ بَيْتَ الأسَدِ: لاَ يَأْكُلَنَّكَ الأسَدُ، أي: خُذْ حِذْرَك منْهُ، ولا تُمكِّنْهُ مِنْ أَنْ يَنْتَهِزَ فُرْصَةً يفْتَرِسُك فيها.

[لا يفتنكم] أي: لا تمكنوه من أن يُغْرِيكُمْ بخداعه وغُروره، ووسَاوسِه وتسويلاته، حتَّىٰ يُضِلَّكُمْ عَنْ صراطِ ربّكم، فيوقِعَكُمْ في الغَوايَةِ، فتكونوا مِنَ الّذِينَ يُعَذَّبُونَ في النار جاء الفعل مؤكّداً بنون التوكيد الثقيلة للمبالغة في النهي، واسْتُخْدِمَ الفعل المضارع للإشارة إلى أن أعمال الشيطان دائمة التكرار والتجدد والمتابعة بدأب.

الفِتْنَةُ: هي في الأصْلِ الصَّهْرُ بالنار للْمَعدن، كالذهب والفضّة، لتمييز الرديء من الجيد، اختباره، تقول لغة: فتن الصائغ الذهب مثلاً، يَفْتِنُهُ فَتْناً وفُتُوناً، أي: أذابَهُ بالنار ليخْتَبِرَه.

ثم صارت مادّة الكلمة تَدُلُّ على مُطْلَق الابتلاء والامتحانِ والاختبار، وبما أنّ اختبار الإرادة إنّما يكونُ بما تكْرَهُ النفوس وُيخَالِفُ أهواءَها وَشهواتِها، فإنّ جِنْسَ الألَم الّذي يُحْدِثُه مسُّ النار باقٍ في دلاَلَة المادّة مع دلالتها على الاختبار والامتحان.

ومن التوسعات اللُّغَوِيَّةِ في دلالة هذه المادة اللُّغَويّة ما يلي:

- اطْلاَقُها على ما يُسبِّب الضَّلاَلَ فَيُوقِع في الخطيئة، التي يستَحِقُّ مُرْتكِبُها العذاب، فينالُه ما يكْره، ومن هذا يقالُ: فَتَنَ الشيطانُ الإنْسَانَ إذا اغراهُ بوساوسه وتَسْويلاته، فاستجابَ لخِدَاعِهِ وغروره، حتَّىٰ أضلَّهُ فأغواه، فعَرَّضَهُ لعذاب الله، ولهذا يُسَمَّى الشيطان فاتِناً وفَتَّاناً، ولهذا يقال لكلِّ مُضِلّ فاتِنٌ وفَتَّان.

- إطْلاقُها على الضلال وارتكاب الإثم، لأن ذلِكَ يُعَرِّض لعقوبة الله، إلى غيرِ ذلك من إطلاقات.

● ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾: أي: كما فتَنَ أبويكم آدم وحوّاءَ فافْتَتَنا به فتسبَّبَ في إخراجهما من الجنة، إذ استجابا لإغراءاته فأكلا من الشجرة المحرّمة.

أي: يا بني آدم لاَ تمكّنُنَّ الشَّيْطَانَ من أنفسكم، فَيَسْتَمِيلَكُمْ ويسْتَنْزِلكم في الدَّركاتِ، ويُدَلِّيكُمْ في مهاوِي المعاصي والآثام، بخداعه وغروره، ويصرفكم عن طريق الجنة، حتى يدفع بكم إلى عقاب ربّكُمْ، كما فَعَل بأبَوَيْكُمْ، إذْ أخْرَجَهُما من الجنّة.

● ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾: أي: إنّ إبليس الشيطانَ قد تَسَبّبَ عن طريق فتنةِ أبَوَيْكُمْ بإخراجِهِما من الجنَّة، حَالةَ كوْنِهِ يَنْزِعُ عنهما لباسَهُما.

دلّ الفعل المضارع «يَنْزِعُ» على أنَّ إبليسَ كَرَّرَ مُحَاولاته بتَتابُعٍ وإلحاح لِيَنْزِعَ عَنْهما لِبَاسَهُما، فقد كان إبليس يَشُدُّ بحِبَلِهِ لِيَنْزِعَ، وهُما لاَ يَسْتَجِيبان، حتَّىٰ أَثَّرَ على إرادَتَيْهِمَا، فَضَعُفَتْ قُواهما، فسَقَطَا في الخطيئة، فأكلا من شجَرَةِ الاختبار الَّتي حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَيْهما.

● ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا﴾: أي: يسْتَمِيلُهما وَيَسْتَهْوِيهِما ليَعْمَلا ما يكون سبباً في نَزْعِ لباسِهِما عنهما، وهو لباسُ التقوى، ولباسُ الْجَسَدِ، وهذا من إطلاقِ المسَبَّبِ، وهي عمليّاتُ النَّزْعِ، وإرَادَةِ السَّبَبِ، وهي الحيَلُ والوساوسُ والتسويلاتُ وألوان الخدع والتغرير لهما.

لقد كانَا وهما في الطّاعَةِ لِرَبِّهما مَسْتُورَيْنِ بِلِبَاس التقوىٰ، وبِلباس الجسَد، السَّاتِرَيْنِ لِسَوْآتِهما النَّفْسِيَّةِ والْجَسَدِيَّةِ.

فَعَمِلَ الشيطانُ إبليسُ على أنْ يَنْزِعَ عَنْهُما لباسَ التقوىٰ، بإسْقاطِهِما في المعصية لِرَبّهما، الَّتي تَكْشِفُ لَهُما سَوْآتِهِما النفسيَّة، وتُظْهِر أنَّهما يَعْصِيان رَبَّها كمَا عصَىٰ هو ربّه.

وكان إبليسُ الشيطان يَعْلَمُ أنَّ نَزْع لباسِ التقوىٰ، مِنْ آثاره الّتي قضاها الله في خُطَّةِ اخْتِبَارِهِ لَهُمَا نَزْعُ لباسِ الجسَدِ عَنْهما، الّذي تنكَشِفُ به سَوْءاتُهما عِنْدَ فُرُوجهما وما حَوْلها، فيكُون ذلك افتضاحاً مادّيًا لهُمَا بسُقُوطِهِما في مَعْصِية رَبِّهما.

فإذَا أراهُما سَوْآتهما الجسَدِيَّةِ والنفسيَّةِ، شفَىٰ غَيْظَهُ بإشعارهِمَا وإشعَارِ الملائكة أنّهما لم يكونا أفضلَ منه، إنَّهُ سبَقَ أنْ عصَىٰ أَمْرَ رَبّهِ له بالسُّجُودِ لأدم، وها هُما قد عَصَيا نَهْيَ رَبِّهما لَهُما عن الأكْلِ من الشجرة. إنّه طُرِدَ واسْتَحَقَّ عذاب النار خالداً فيها، فهو حريصٌ على طَرْدِهِمَا وذُرِّيَاتِهما واسْتحقَاقِهِمْ عذاب النار.

ويَبْدو أنَّ الرَّبط بيْنَ لِبَاسِ التقوىٰ النفسيِّ الإرادي السَّاتِر للسْوآتِ النفسيّة، وبين لِبَاسِ الجسَدِ السّاترِ لِسَوْآتِ الْجَسَدِ، قد جِيءَ بِهِ للدَّلاَلَةِ على أَنَّ كُلَّ سُلُوكٍ إرَادِيٍّ باطِنٍ من خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، لَهُ أَثَرٌ مَا يَدُلُّ عليه في ظَاهِراتِ الأجْسَاد، قد لا يُدرِكُهُ إلاَّ أصْحَاب الفِرَاسَةِ الإيمانيّة، من المتقين والأبرار والمحسنين.

● ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾: أي: يَا بَنِي آدم إنَّ إبليسَ الشيطَانَ يَراكُمْ هُوَ وقبيلُهُ من شياطين الجنّ، من أَمْكِنَةٍ يكُونُونَ معكُمْ فيها، وأَنْتُمْ لا تَرَنَهُمْ.

والسَّبَبُ في هذا أنّ اللّهَ جلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَظُمَتْ حِكْمَتُه، قَدْ جعَلَ أَبْصَارَ الإنْسِ مَحْدُودة الرُّؤيَةِ، فهيَ لاَ تَرَى الهوَاءَ مثلاً، ولاَ تَرَىٰ أجْسَادَ المَلائِكَةِ النورَانية، ولا أجْسَاد الجنّ الشَّفَّافَة النَّاريَّة بِحَسَبِ الْعَادة، ولا الحيواناتِ الدقيقة الصغيرة كالجراثيم، والميكروبات، والفيروساتِ، دون مُكبِّراتٍ مجهريّة لها.

وهذا من نظام اللّهِ في خَلْقِ الإنْسِ والجنّ والْمَلاَئِكَة.

- ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: أي: وجماعَته وجُنودُهُ من الجنّ وذُرّيّته.

القبيل: هو في اللّغة؛ الجيلُ، والجماعَةُ، والأتْبَاعُ، والصنْف المماثل.

وفي إعلام الله عزّ وجلّ بني آدم بأنّ إبليس وجنودَهُ مِن شياطين الجنّ، يكُونُونَ مَعَهُمْ وَيَرَوْنَهُمْ، من حَيْثُ هم لاَ يَرَوْنَهُم، مَعَ أنّهُمْ يُوسْوِسُونَ، وَيُسَوّلُونَ، وَيَبْذُلُونَ ما يَسْتَطِيعُون لإغوائِهِم وإضْلالِهِم، تَنْبِيهٌ لَهُمْ علَىٰ أنّ خواطِرَ السُّوءِ، ونَزَغاتِ النفوس إلى المعاصي الّتي يَشْعُرُونَ بها في داخِلِهِم، تُشَارِكُ في إثارَتها الشّيَاطِين، بما جعَلَ الله عزّ وجلّ لَهُمْ من تَمْكِينٍ بحَسَبِ نِظَامِ خَلْقِهِمُ الفِطْرِيّ، لحكمة استكمال ابتلاء الناس على أحْسَنِ وَجْهٍ، وَأكْمَلِه.

- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾: يتحدّث البَاري جلّ جلالهُ بضمير المتكلّم العظيم فيُخْبِرُ بني آدَمَ جَمِيعاً مُنْذُ عَهْدِ آدمَ حتى آخر كائن من ذُرّيته صالح للخطاب، بأنّهُ قَدْ جعَلَ في نظام التكوين العامّ لِخَلْقِ الأحْيَاء ذوي الإرَادَات الحرّة، الموضوعين موضع الابتلاء، أنّ مَنْ لم يُؤْمِنْ منهم باللّهِ وبما جاء من عند الله على لسَانِ رُسُلِه، ولم يُؤْمِنْ بالجزاء الرَّبّانيّ المعجّل منه والمؤجّل إلىٰ يومَ الدّين، كانت الشّيَاطين أوْلياءَ له، أي: هي الّتي تتوَلّىٰ بوساوسِها وَتَسْوِيلاتِها تُوْجِيهَهُ وَتَسْيِيرَهُ في الحياة، لأنّه تخلّىٰ بأرادته الحرّة عَنْ حِمَاية الله له، وخَرَجَ من حِصْنِه بالكُفر، فتجد الشياطين فُرْصَتَها مواتية للعَبَثِ به وتَسْيِيره من خلال أهوائه وشهواته ولذّاتِهِ من زينَة الحياة الدُّنيا، وهو يَحْسَبُ أنّهُ يتحرّكُ في الحياة دُون أن يكُونَ من حَوْلِه مَنْ يُغْرِيهِ ويُغْوِيه من غَيْر المنظور، فهذا الجعْلُ هو جَعْلٌ في النظام السببيّ العَام، كجعْل النّارِ تحرقُ من دخل فيها، وليس أمْراً جبريًّا لا اختيار للمكلف فيه.

ولا غرْوَ أنَّ من تَوَلّته الشياطين ساقته في مسالِكِ الغَواية، الّتي تَنْتَهِي به إلَىٰ أنْ يكونَ في الجحيم يَوْمَ الدِّين، مع ما يَنَالُهُ من شقاءٍ وهُمومٍ وأكدارٍ وعذابٍ في الحياة الدنيا.

ومن تولَّتْه الشياطينُ اتَّبَعَها مُطِيعاً لَهَا طاعَةَ العابِدِ للمعبُود، وقد أبان اللّهُ عزّ وجلّ أنَّ هذا اللَّوْنَ مِن الطاعَةِ لِلْمُوَسْوِس الغيبيّ عبادة، فحذَّرَ بني آدم من عبادة الشيطان.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) مبيناً ما سَوْف يقولُهُ يوم الدِّين للّذِين كانوا يتَّبِعُونَ الشيطان في الحياة الدُّنيا:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾: أي: أمة من الخلق وجماعة كثيرة من الناس.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾؟: أي: أأعْرَضْتُم عن الاسْتِماع لبيانات رِبّكُمْ، وتَحْذِيراته لكُمْ من الشيطان عَدُوِّكُمْ، فلَمْ تكُونُوا تَعْقِلُونَ المعَارِفَ الدِّينيَّة، فَتُمْسِكُونَها في ذَاكِرَاتِكُمْ للانتفاع بها والعمل بما أوصتكُمْ به، ولَمْ تكونُوا تَعْقِلُونَ بإراداتِكُمْ نُفُوسَكُم عن اتباع الأهواء والشهوات، واتّباع نَزَغَات الشيطانِ ووَسَاوِسِه ودَسَائِسِه وتَسْوِيلاتِه؟!! فنالُوا اليوم جزاءَكُمْ بالْعَدْلِ من رَبِّكُمْ الذي وضعكم في الحياة الدنيا موضع الابتلاء.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

- ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾: قال أهل اللُّغة: الفاحِشَةُ القبيحُ من القول والفعل، وكلُّ خصْلَةٍ قبيحة. وكلُّ شيءٍ جاوز قدْرَهُ وحدَّهُ فهو فاحش.

وقد نظرت في الاستعمالات القرآنيّة لهذه المادّة، فوَجَدْتُ أنَّها تدور حَوْل المحرَّمات الكبائر المتعلّقة بشهواتِ الفروج.

- ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾: أي: قالوا: وجَدْنا آباءَنا حالَةَ كَوْنِهم مُدَاومِينَ وَمُوَاظبينَ عليها.

- ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾: أي: وقالُوا افتراءً علىٰ الله: واللَّهُ أمَرَنَا بها.

- ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾: أي: قل لهم يَا مُحمَّد، ويَا كُلَّ مناظرٍ لهم من حَمَلَةِ رِسَالَتِهِ من أُمَّته: إنَّ اللَّهَ بصفاته الجليلة العظيمة، ومنْها حكمتُه البالغة، وعلْمُهُ المحيطُ بكُلِّ شيء، وإرادَته الّتي لا تأذَنُ بالضُّرِّ والشّرِّ والقبائحِ، لا يُمْكِن أن يأمُر بِالْفَحشاء، إذْ هو منافٍ لكمال صفاته، فمن المستحيل أن يَصْدُر عنه شيءٌ من ذلك.

- ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾؟: أي: أتقولون كَذِباً على الله وافتراءً عليه، قَوْلاً لاَ تَعْلَمُونَ عِلْماً يَقينيًا أنّهُ قالَهُ جلَّ جلاله؟!.

الاستفهام هنا استفهامٌ توبيخيٌّ لأصحاب هذا القول، وإنْكارٌ عليهم لكَذِبِهِمْ وافترائهم على ربّهم.

ويتساءلُ المتدبّر: ما هو وجْهُ الرَّبط بين هٰذه الآية، وبَيْنَ الآيتَيْنِ السّابقتَيْنَ لَهَا في هذا الدَّرْس؟

أقول: إذا تفكَّرْنا في أحوال بني آدم منذ بدء التاريخ البشري على الأرض، وجَدْنا أنّ أوّل داعٍ لمعصية اللّهِ في المحّرمات، هو داعي الفاحشة، ومعصيةِ الله عزّ وجلّ بالزنا.

وذلك لأنّ وفرة ما في الأرض من رزقٍ ومطالب عيشٍ، مع قلّة

سُكّانها من بني آدم، لا تدعُ مجالاً للتنافس، حتَّىٰ تظهر المعاصي الأخرى، كالسَّرقة والعدوان على الحقوق، والظلْم وغير ذلك، حتَّى الشّركُ بالله لم تكن دواعِيهِ قد ظهَرَتْ، وإشراكُ الأسْباب لرُبُوبيَّةِ اللَّهِ لَمْ تُنسَ بعْدُ عقوبتُه الَّتي أَخرجَتْ أَبَوَيْهم من الجنّة، والْقَتْلُ في أوّل البشريّة لَمْ يكن له داعٍ إلاّ داعي التنافس على مطالب شهوة الفروج.

ففي ذلك الوقت كانت النُّدْرَةُ والمنافسة المثيرة للتحاسُدِ مُنحَصِرَةً في مطالب الشهوة الحيوانية المتركّزَةِ في الفروج.

وهذا يَدُلُّنا على أنّ في مقدّمة ما نزلَ من نَهْيٍ رَبَّانِيٍّ تَحْرِيميٍّ على بني آدم منذ بَدْءِ التاريخ البشريِّ على الأرض، النهيَ عن الفاحِشَةِ المتعلّقة بالسَّوْآتِ، ومنذ ذلك الوقْت نَزَلَ الأمْرُ بسَتْر السَّوْآتِ، وهي العورات المغلظة، حيثُ تكُونُ سُبلُ هٰذهِ الفاحشة، ليكونَ سَتْرُها علامةً على الموضِع الّذي يتركَّز في بُؤْرتِه التحريم، وليكون مساعداً على التزام العفَّة، فكشْفُ العورات، والاستهانَةُ بإبدائها للناظرين، الّذِين لدَيْهِم دوافع شهوة مُرْتبطَةٍ بها، يُشِيرُ لمُمَارَسَةِ تَلْبِيَةِ مطالب الشهوة، وهو بمثابة إعلانٍ بأنّ الأبوابَ مفتَّحَة، والسُّبلَ إليها مُيَسَّرَة، وأنَّ الْوَطَر لدَيْها مقضيٌّ باستضافَةٍ أو إباحَةٍ، ولا سيما إذا ظهَرَتْ فيها عَلَامات الرَّغبة.

ونزل تعليم بني آدم الأوّلين صناعَةَ أو استخدامَ الألبسة الساترة، من جُلود البهائم، أو مما ينْسَجُ من الخيوط، وجاء التركيز في بداية التعليم على مواضع السّوآت، للإشارة إلى أنّها مواضع أوّلِ تحريم دينيٍّ نزل على بني آدم مُنْذُ بَدْء تاريخهم على الأرض

وجاء التمهيد له في بيان نَزْع اللّباس عن سَوْآت آدم وحوّاء، لمّا ذاقَا الشجرةَ المحرَّمَة في الجنّة، وهي الشجرة المعيَّنَةُ لامْتِحانهما. وفي بيانِ امتنان الله عزّ وجلّ على بني آدم بإنزال اللّباس الذي يواري سوْءَاتهم بَعْدَ

هبُوط آدم وحوّاء إلى الأرض، وأتْبَعَهُ الله عزّ وجلّ بالامتنانِ بإنزال الرِّيشِ الشّامل في معناه العامّ لكلّ مطالب الحياة.

وتكاثَرَ بنو آدم على الأرض، وأخذ بعضُهُمْ يسْقُط في فاحِشَةِ الزّنا، ثُمّ شَاعَتْ هٰذِهِ الفاحشَةُ في كثِيرٍ منهم، وتوارَثُوها تَقْلِيداً، وكانوا يَرَوْنَها في أوّلِ الأَمْرِ من المعاصي، فلَمَّا صارَتْ تَقْلِيداً مُتوارَثاً، جَعَلُوها جُزْءاً من تقاليدهم الدينيّة، وَأَمْعَنَ الشيطان في إغوائهم، حتَّىٰ جعَلُوا مُمَارسَة الفواحِشِ من مُقَدَّسَاتِ الدّين، وظهرتْ لِعِبَادَةِ الْفُروجِ الممثَّلَةِ بأوْثَانٍ معَابِدُ في جبالِ الهنْد لهَا مَواسِمُ، وهي من التحريفاتِ الشيطانيَّة لأديانٍ قديمةٍ في تاريخ بني آدم، وظهَرَتْ طوائف بَعْد ذَلِك تَعْبُدُ فُروج النّساء.

فالّذي أراه أنّ في قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ . . (٢٨)﴾

إشَارَةً إلى انتشار الفاحشةِ في بني آدَمَ، حَتّى صَارَتْ عَمَلاً متوارثاً، جعلَهُمْ يَقولون لمن يَعِظهُم باجْتِنَابِها، وينهاهم عنها: وَجَدْنَا آباءَنا بالتَّقْلِيد المتوارثِ عن آبائهم مُواظِبِينَ عليها، مضِيفين إلى هذا قولهم: واللّهُ أَمَرَنا بها افتراءً على الله.

ورُبَّما كانت حُجّتُهم زَعْمَهُمْ أَنَّها لا تكونُ مُنْتَشِرَةً في أَجْيَالِ آبائهم وأَجْدَادِهم ما لَمْ تَكُنْ أَمْراً من أَوامِرِ الله، وجُزْءاً مِنْ تعاليم الدّين.

هٰذه ظاهرة من ظاهراتِ الجاهليَّاتِ الأولىٰ في بني آدم، القائِمَةِ على مَعْصِيَةِ الله عزَّ وجلَّ، فيما نَهَاهُمْ عنه بما أَنْزَلَ عليهم من أحكام الدين على آدم ثم على من جاء بَعْدَهُ من رُسُلٍ بَعَثَهُمُ الله لهداية الناس إلى صراطه المستقيم.

ولئلاَّ تَمُرَّ قصَّةُ هذه الظاهرة الشنيعة دُونَ تَعْقِيبٍ، قال الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمَّد ﷺ:

﴿قُلْ . . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ . . ﴿٢٨﴾﴾.

أي: إِنَّ الفحشاء سَبيلٌ سَيِّئٌ قبيح، وله عواقب ضارّة في الأفراد وفي المجتمعات البشريَّة، ومن المؤكَّدِ الذي لا مجال فيه للشَّكّ أنَّ اللَّهَ الْعَلِيم الحكيم لا يأمُرُ بالْفَحْشاء.

ولـمَّا كان في المخاطَبين من أهل الجاهليَّة في عَصْرِ الرَّسُول محمد ﷺ مَنْ يقولون مثل مقالة أهل الجاهلياتِ القديمات، علّم الله جلّ جلالُه رسُوله أن يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وعلَّمَهُ أيضاً أن يقول لهم مستنكراً ومُوَبِّخاً: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟!!

أي: أتقولُونَ ما لا تعلمون بوسائل إثباتٍ صَحِيحةٍ كذِباً وافتراءً على الله: إِنَّ الله يأمُرُ بالفحشاء.

في هذه العبارة توجيه السؤال لهم بأسْلُوب الاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ، ومعناه الإنكارُ عليهم، وتَوبيخُهُمْ على مقالتهم الشنيعة على الله، الَّتي ليس لدَيْهِم عِلْمٌ مَا بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد قالها.

أمّا فِعْلُ آبائهم للفاحشة حتَّىٰ صارت من الظواهر التَّقْلِيديَّة في مجتمعاتهم الجاهلية، فهو لا يَصْلُح لأنْ يكُونَ دليلاً علَىٰ أنّ الفحشاءَ من أوامر الدِّين لدِينٍ صَحِيحٍ مُنَزَّلٍ من عند اللَّهِ عزّ وجلّ، بل هو من الظواهِرِ البشريَّة التي انحرفَ النّاسُ فيها عن الدِّين الرَّبَّانيِّ الصَّحِيح، واستحبَّتْهَا نفوسُهم لأنّها تُعْطِي شهواتِهم انطلاقَها دُونَ قيودٍ ولاَ حُدُودٍ.

ومِنْ بؤْرَةِ شهوات الفروج الحيوانيَّةِ، يَسْتَغِلُّ شياطينُ الجنِّ والإنْسِ مغامِزَ الضعف البشريّ لإخراج الناس عن صراط الله المستقيم، ويُزَيِّنُون لهم ذلك بما يُسمُّونَهُ بنظريّاتٍ علميَّةٍ نفسيَّة، أو اجتماعيَّة، أو اقتصاديَّة، أو فلسفيَّة، وبما يُقَدِّمونَه من أكاذيبَ تارِيخيَّةٍ أو دينيَّة، أو غير ذلك، عدا ما يُهيِّئُون لهم من بيئاتِ إثارةٍ وإغراءٍ واستنزالٍ إلى الخطيئة، ومَعْصِيَةِ الله جلّ جلالُه.

وإذْ قد ثبت أنّ التَّقْلِيد المتوارَثَ، لا يَصْلُح لأن يكونَ دليلاً على أنّه من مَوْرُوثاتِ الدِّين التي أمر الله بها، إذْ لا يتضَمَّنُ الفِعْلُ المرتَبِطُ بالشَّهَوات أيَّ دليلٍ علْمِيٍّ يَجْعَلُ الأَمْرَ المتَّفَق على ممارَسَتِه من أوامِرِ الله عزّ وجلّ، فلَمْ يبقَ أمَام مُدَّعي هٰذِه الدَّعْوَىٰ إلاَّ أَنْ يُقَدِّمُوا دليلاً مِنْ نصٍّ دينيٍّ صَحيحٍ، عن رسُولٍ من رُسُلِ الله، أو كتابٍ ثابتٍ لَمْ يُحَرَّفْ من كُتُبِ اللّٰهِ عزّ وجل، أو دَليلاً عَقْلِيًّا قاطعاً.

لكن أحداً لا يملك أن يقدم دليلاً دينياً صحيحاً، ولا دليلاً عَقْلِيًّا قاطعاً.

بل الأديانُ الرَّبَّانيَة كُلُّها، والكُتُبُ المنزّلَةُ من عِنْدِ اللّٰهِ كُلّها، تَنْهَىٰ عَنْ فَاحِشَةِ الزّنا، وعن سائر فواحِشِ الفروج.

والدَّلِيلُ العقلِيُّ القائِمُ على دراسة الآثار الضّارَّة والمفسدة للحياة الإنسانيّة في الأرض للفواحش، يُثْبِتُ أنَّ الله جلَّتْ عَظَمَتُهُ لَيسَ من حكمته العليّةِ أَنْ يأمُرَ بالفحشاء، بلْ مِنْ حِكْمَتِهِ أن ينْهَىٰ عنها في عالم الابتلاء، وهذا الدليلُ العقليُّ قد جاءت الإشارة إلَيْه في قول الله عزّ وجلّ:

﴿.. قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ .. ﴿٢٨﴾﴾.

وعلى الرغم من تتابع الرّسَالات الرَّبَّانيَّة على البشر، بَقِي لأفكار اسْتِباحَةِ الفواحش، والمذاهِبِ الشيطانيَّة حولَها، دُعاةٌ مُجْرِمونَ في الأرض، تظهر رؤوسهم كما تظهر رؤوس الأفاعِي من جُحُورها.

وَقَدْ أَخذَت هذه الأفكار في عصور الإلحاد الحديث مَسِيراتٍ تتستّر بالعلم، وبالبحوث العلميّة المزيَّفَةِ.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

تمهيد:

إنّ الدّين عند الله الإسلام، منذ عَهْد آدم حتَّىٰ قيام السَّاعَة، والحديثُ عمّا أَنْزَلَ الله عزّ وجلّ على بني آدم الأَوّلين ينسَحِبُ أيضاً على كلّ بني آدم الأوْسَطِين والآخِرين.

وفي هذا الدَّرْسِ الّذي يتحدَّثُ اللّهُ جلّ جلالُهُ فيه عن بَعْضِ عناصِرِ الدّين، الّذي أَنْزَلَهُ على بني آدم الأوّلين، منذ عَهْدِ آدم عليه السَّلام، يُدْمِجُ فيه تبارك وتعالىٰ تَكْلِيفَ الرَّسُول محمد ﷺ أَنْ يُبيِّن لأمّتِه الّتي هي خاتِمةُ الأمم، كما هُو خاتم الأنبياء والمرسلين، أنَّ هٰذِه العناصر من الدّين، هيَ من الأمور الباقِيَة الّتي لم تتعرَّضْ للنَّسْخِ، لأنَّ وَاقِعَها لا يقتضي بحِكْمَةِ اللّهِ أن تنسخ.

ومن تَرْتيبِ بيانِ واجب الْعَدْل وتحريم الجور والظُّلْم، بعْدَ الإشارَةِ إلى أنَّ أوّلَ معاصِي بني آدم قد كانت في الفواحِش المتَّصلة بشهواتِ الفروج، نُدْرِكُ أنَّ ثاني المعاصي الّتي ظهَرتْ في بني آدم الأوّلين، هي معاصي العدوان والظلم، الّتي تكون بيْنَ الناسِ بعْضِهم لبعض، ومنها ما كان من قبيل التزاحم والتنافس على المرأة، وهو ما كان بين قابيل وهابيل، الذي جرَّ إلى قَتْلِ قابيلَ لأخيه هابيل ظُلْماً وَعُدْواناً.

ثم جرّ التنافُسُ على الامتلاك وعلى الزعامات، إلى أنواع من العدوان والظلم كثيرة، ومنها التنافُسُ على ما يكون به معاشهم ورفاهيتهم.

ومن هذا نُدْرِكَ أيضاً أنّ ثاني تحريفٍ في الدّين ظَهَر في بني آدم، هو الإذنُ بظُلْمِ طَبَقَةٍ في المجتمع الإنسانيّ لطبَقَةٍ، وظُلْمُ أشخاص الرُّؤسَاءِ والْقَادَةِ وكُبَراءِ الْقَوْم لسائِر المجتمع.

ثُمَّ ظهَرَتْ طبَقَةُ السادَةِ والعبيد، فبالتحريف الشيطانيّ للدِّين، أُعْطِيَ هٰذا الظُّلْمُ مُسَوّغاتٍ دِينيَّةٌ افتراءً على الله، واسْتَمَرَّتِ الجاهليّاتُ البشريَّةُ تتوارَثُ هٰذِهِ المسوّغاتِ المفتريَاتِ على الدّين الرّبّاني، لظُلْمِ بَعْضِ طبَقَاتِ وأفرادِ المجتمع لبعض، حتّىٰ المجتمعُ الجاهليّ الّذي بُعِثَ فيه الرسُولُ محمد ﷺ، فجاء قول الله له: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ مُبيِّناً الْحُكْمَ الدّينيَّ مُنْذُ عَهْدِ الرّسَالَةِ الأولى لبني آدَم الأوّلين، في قضايا الحقوق بين الناس، وهو العدْلُ، وهذا الحكم غَيْرُ قابلٍ للتغيير ولا للنَّسْخِ بمقتضىٰ حِكْمَة اللّهِ، ما دَامَ في الكائناتِ أفرادٌ يُمْكِنُ أَنْ يَظْلِمَ بعضهم بعْضاً، ويَعْتَدِيَ بعْضُهُمْ على بعْضٍ، ويأخُذَ بَعْضُهم بالقوّة أو بالحيلَة حقّ بَعْض، وهو يَعْلَمُ أنّه ظالم.

أي: وَدَبَّ في بني آدم العدوان والظُّلْم، وبتطاوُل الْعهد أعْطَىٰ شياطين الإنْسِ والجنّ هذا العدوانَ مُسَوّغَاتٍ مَنسُوبَةً إلى الدّين، تَحْرِيفاً في دينِ الله، وافتراءً على اللّهِ جلّ جلاله. وتوارَثَ كثيرٌ من النّاس هذا التحريف، ومنْه مقالة اليهود بالنسبة إلى الذين يتعاملون معهم من سائر الأمم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾⁽¹⁾: أي: لاَ نُحَاسَبُ إذَا ظَلَمْنَاهُمْ، وأَكَلْنَا حُقُوقهم، وسَلَبْنا أَمْوَالَهُمْ، أو قَتَلْنا مِنْهم.

ثُمّ مع تكاثر بني آدم، واجتماعِهم في بيئة أوبيئاتٍ يتنافَسُونَ فيها على ما يكون به معاشُهم ورَفاهياتُهم، مع وسائل تحصيل مطالب الحياة المختلفة، إذْ قَلّت الوفرةُ الكبيرَةُ الكثيرَةُ الّتي كانت في الأرض منذ بدْءِ

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة آل عمران.

التكاثر البشري، وتشابكَتِ العلاقات الاجتماعية، وانطَلَقتِ الشياطينُ تَنْزَغُ بيْنَ النَّاس، وتُثِيرُ مطامِعَ بعْضِهِمْ للاستيلاء على حُقُوق آخَرِينَ مِنْهم، وامْتَدَّتْ آيادِي المستجيبينَ لوَسَاوِسِ الشياطين، فَسَلَبَتْ أو نَهَبَتْ، أو سَرَقَتْ، أَوْ تحايلَتْ، أو قتَلتْ، ظُلْماً وعُدْواناً، فكانَ من أشدّ الواجباتِ الاجتماعيّة، وأوْلاَهَا بالرّعاية والتطبيق، مبدأ الْعَدْل الّذي أمَرَ الله به وأنزلَهُ مع ما أنزل من أحكام الدين. فقوْلُ الله عزّ وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ يُشِيرُ ضِمْناً إلىٰ كُلّ ذَلْكَ فيما أرى. والله أعلم.

التدبر:

في هاتين الآيتَيْن بيان لخَمْس قضايا من قضايا الدين الكبرى منذ عهد آدم.

القضية الأولى:

- ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ..(٢٩)﴾: أي: قل يا مُحمَّدُ: أَمَرَ رَبِّي، وهو رَبُّكُمْ ورَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرضِ بالْقِسْطِ، وهذا الأمْرُ صادِرٌ عن اللَّهِ وَمُنَزَّلٌ على بني آدم مُنْذُ نشأتِهِمْ في الأرض.

القِسْطُ: هو العدل، وهو من المصادر الّتي يوصَفُ بها، وكَلِمَةُ «القِسْط» يُوصَفُ بها المفرد والمثنىٰ والْجَمْع.

يقال لغة: «قَسَط يَقْسِطُ قِسْطاً» أي: عدَلَ. ويقال: «أَقْسَطَ يُقْسِطُ إقْسَاطاً. فهو مُقْسِط» أي: عادِلٌ.

أمّا الْقَسْطُ بفَتْحِ القاف والْقُسُوطُ فهو الجوْرُ والْعُدولُ عن الحق، والقاسِطُ هو الجائر.

وقد جاء في دين الله لعبادِهِ بيانُ أَحْكام تَحْدِيدِ الحقوقِ، وأحْكَامِ قواعِدِ العَدْل، للْفَصل بين النّاس في خُصُومَاتهم.

والعدْلُ يكونُ بإعْطَاءِ كُلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ أوْ مَا يُسَاوِيه، ويكونُ بمعاقبة المعتدي بما يعادِلُ ما كان منْه من عُدْوانٍ وَظُلْمٍ عَلى صاحب الحقّ.

القضيَّةُ الثانية:

● ﴿.. وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... ﴿٢٩﴾﴾: أي: وأمَر بالصَّلاَةِ وقال لبني آدم كلِّهِمْ: ﴿أَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: أي: عنْدَ كلّ صَلاَةٍ.

لفظ «مَسْجِد» اسْمٌ لمكان السُّجود، واسْمٌ لزمانِ السُّجود، ومَصْدَرٌ ميمِيٌّ لفِعْل «سَجَدَ».

السُّجُود: هو وضْعُ الجبهَةِ على الأرض، ويُطْلَقُ على الصَّلاة لفظ السّجودِ، لأنَّه أبْلَغُ أركانها عُبُودِيَّة لله عزّ وجلّ.

ويَحْسُنُ أنْ نحمل لفظ «مَسْجِد» في الآية هُنَا على معانيهِ الثلاثة، أي: وأقيمُوا وُجُوهَكُمْ عنْدَ كُلّ سُجودٍ، بمعنىٰ كلِّ صَلاةٍ، وعنْدَ كلِّ وقْتِ صلاةٍ تسْجُدونَ للّهِ فيها، وعنْدَ كلِّ مكان صلاةٍ تَعْبُدونَ الله فيه، وتَسْجُدُونَ لله فيه.

فما المراد بإقامَةِ الْوُجُوهِ عنْدَ كلّ مَسْجدٍ؟

أقول: يُقَالُ لُغَةً: أقام الشيءَ، أي: عَدَّلَهُ وأزالَ عَوَجَه، والإنسانُ حينَ يَنْصِبُ قامَتَهُ، ويَقِفُ على رِجْلَيْهِ، فإنَّهُ يُعَدّلُ قامَتَهُ، ويُزِيلُ كُلَّ عَوَجٍ ومَيْلٍ فيها، كالرُّمْحِ المنتَصِب الذي لا عَوَجَ فيه.

ومن اهْتَمَّ بأمْرٍ لِعَمَلِه وإصلاح شأنه، فإنَّه يقوم له، ليكونَ في أحْسَنِ أحْوالِ استعداده لبَذْلِ كلِّ قُواه، مع غايَةِ الاهتمام والعناية، بخلاَفِ منْ لا يقوم له، بل يَعْملُهُ قاعداً أو مضطجعاً.

فإقَامَةُ الوجوه في الصلاةِ عند كلّ مسْجدٍ كِنَايَةٌ عن توجيه الاهتمامِ

والعناية التامّة لعبادة الله عزّ وجلّ، استقبالاً للقبلَةِ الّتي أمَرَ اللَّهُ باستقبالها، وتركيزاً للحواسّ الموجودَة في الوجه لها مُعَدَّلَةً غيْرَ مُعْوَجَّةٍ وَلاَ مائلة، ولا شارِدَةٍ ولا مُدْبرَةٍ أَوْ مُعْرِضَة، ويكونُ ذلِكَ بتوجيه السَّمْعِ والْبَصَرِ واللِّسانِ مُعَدَّلاَتٍ في استقامَةٍ وتوجيه لعبادة الله عزّ وجلّ، ومن وراء الحَواسّ الظاهرة الفِكْرُ والنَّفسُ والقلْبُ، وبذلك يؤدّي المصلي صلاتَه أداءً حسناً ظاهراً وبَاطناً.

فدلَّ قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ بظاهر اللَّفْظِ وَلَوَازِمه، على أوّل واجِبٍ عَمَلِيّ تَعَبُّدِيّ دينيّ وهو أداءُ الصَّلاَةِ المفروضة، مع ما ينْبَغي فيها من تَوجُّهٍ تامٍّ للحواسّ الظاهرة والباطنة لعبادة الله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانُهُ، حتَّىٰ تُثْمِرَ الصَّلاَةُ ثَمراتِها المرجُوَّة مِنْها.

والوجْهُ من كلّ شَيْءٍ: هو ما يَسْتَقْبِلُكَ منه. والوجْهُ من ذي الحياة، هو ما يَسْتَقْبِلُكَ فيه السَّمْع والْبَصَرُ والْفَمُ الذي فيه اللِّسانُ المعبِّر.

ومن الأُمُور الطبيعيَّة أنَّ مَنْ أرادَ جهةً مَا، أقْبَل إلَيْها بوجهه وصَدْره، وكلّ ما يستقْبِلُهُ منه، ومعلومٌ أن حواسَّ السَّمْع والْبَصَرِ واللِّسَانِ أعظَمُ النَّوافذِ للحواسّ الباطنَةِ استقبالاً وبَثًّا.

ومن وراء الوجْهِ الّذي يحتوي على أجلّ الحواسّ الظاهرة تَقَعُ مستقْبِلاتُ الفكر والقلْب والنَّفْسِ، والصّادِراتُ عنها.

من أجْلِ هذا جاء التعبيرُ عن الإقبال على الشيء في النصوص القرآنيَّة بعبارة التوجُّهِ لَهُ ونَحْوِها، والمرادُ التوجُّهُ النَّفْسِيُّ القلْبِيُّ أحياناً كثيرة.

وعكْسُ التوجُّهِ للشيْءِ الإدْبارُ عنه، ويكون بمقابلَةِ الشيْءِ بالدُّبُر والظَّهر، ودُونَهُ، الإعْراضُ واللَّيُّ.

ودلّت النصوص القرآنية المتعدّدة على أنّ التوجُّه بالْوَجْهِ عُنْوانٌ على

الإقبالِ لمُمَارَسَةِ المطلوب الدِّينيّ بعناية واهتمام، سواءٌ أكان حِسِّيًا جَسَدِيًا، أمْ فكريًا أمْ نفسيًا أمْ قَلْبِيًا.

(١) فجاء بشأن تَحْقيقِ عبادَةِ الْعَبْدِ لرَبّه تَعْلِيمُ المؤمنين أن يُوَجّهوا وُجُوهَهُمْ لِلَّهِ وَحْدَه، اقتداءً بإبراهيم عليه السّلام في قوله الذي جاء بيانه في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

(٢) وجاء بشأن الإسلام للّهِ إيماناً به، وطاعةً له، ورضاً بمقاديرِه، وعَملاً بشرائعه، وتَقَرُّباً إلَيْهِ بالعبادات، ورغْبَةً في ثوابه، وخوفاً من عقابه، ودُعَاءً لَهُ في مطالب الدنيا والآخرة، قول الله عزّ وجلّ في سورة (لُقْمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

فجاء التعبير في هذه الآية بإسْلَام الوجْهِ إلى الله، وجاءَ نظير هٰذا في (البقرة ـ وآل عمران ـ والنساء) والإسْلَامُ هو التسليم الكامل إلى الله عزّ جلّ على مُرَادِه في كُلِّ شيء.

(٣) وجاء بشأن القِبلَةِ في الصّلاة، قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لرسولِهِ فالَّذِينَ آمَنُوا جَمِيعاً:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ... ﴿١٤١﴾﴾.

(٤) وجاءَ بشَأن توجيه كامِلِ العنايَةِ، وكلِّ الْقُوىٰ، للمطالب الدينِيَّةِ الشّامِلَةِ بمضْمُونِهَا لمصالح الدُّنيا والآخرة، التعبيرُ بإقامة الوجْهِ للدِّين، فقال الله عزّ وجل في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ . . . ﴿٤٣﴾﴾.
مَرَدّ: مصدر ميمي، أي: لا دَفْعَ لما يَجْرِي فيه من جزاء.

وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

(٥) وَجاء بشأن ٱبتغاء رضوان اللّهِ عزّ وجلّ، في مجالات إنْفاقِ الأموالِ في الطاعات والقُربات، التعبيرُ بابتغاءِ وجْهِ اللّهِ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) أيضاً:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

فظهر لنا من هذه النُّصوص القُرآنيّةِ أنَّ التعبير بالوجْهِ ذُو دلالَةٍ حِسِّيَّةٍ وَمَعْنُوِيَّةٍ في الحسّيات، وذُو دلالة معنويَّة في المعنويّات، وأنَّ الغرض من توجيه الوجوه جَعْلُ أجهزَةِ الْبَثّ والاستقبال في الإنسان مُقَابلَةً لِلْجِهَةِ المعيَّنَةِ، الَّتي حُدِّدَتْ لاستقبال الواردات، وبثّ الصادرات، لتحْقِيق أحْسَنِ الظرُوفِ الملائمة، وأوفَىٰ المقاصِدِ المرْجُوَّة.

القضيَّة الثالثة:

- ﴿. . وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ . . . ﴿٢٩﴾﴾: أي: وأمَر الله عزّ وجلّ بني آدم كُلَّهُمْ بأن يتوجَّهوا له بالدُّعاء، وقال لهم: ٱدْعُوا رَبَّكُمْ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّين، أي: مخلصين له الدُّعاء، لأنّ الدُّعاءَ من الدِّين، وهُو من عناصِرِ العبادَةِ الكُبْرىٰ، والعملُ الدينيُّ لاَ يكونُ صحيحاً ولاَ جائزاً إلاَّ أن يكون للّهِ وحْدَه، لاَ شَريكَ له، إنَّهُ جلّ جلالهُ لاَ شَريكَ له في رُبوبيّته، فلا شَرِيكَ لَهُ في إلَهيَّتِه.

وإخْلاصُ الدِّينِ للّهِ يكُونُ بِجَعْلِه خالصاً صَافياً مُنَقًّىٰ من الشِّرْك، ومن الرِّياء، ومن شوائِبِهما.

هذه القضيَّةُ من التعليم الدِّينيّ الّذِي خاطَبَ اللّهُ عزّ وجَلّ به بني آدَم مُنذُ عَهْدِ نَشأتِهم الأولى على الأرْضِ، حتَّىٰ آخِر كائنٍ مِنهُمُ في السُّلالاَتِ البَشَرِيَّةِ علَى الأرض.

القضية الرابعة:

● ﴿.. كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ..﴿٢٩﴾﴾: هٰذه العبارة تدلُّ على أنّ من مبادِئ الدّين المنزَّلِ على بني آدم الأوّلين، مبْدأَ الإيمانِ بالْيَوْمِ الآخر، وهذا المبدأ قَد خَاطب اللّهُ عزّ وجل به جَمِيع بني آدَمَ حتّى آخِرِ كائن منهم في السُّلالاَت البشرية، فهو ممّا بلَّغَهُ كُلُّ رسُولٍ لأُمَّتِه، وسبَقَ بيانُ أنّه مَعْلُومٌ للملائكة والجنّ من قَبْل خَلْق آدم عليه السّلام.

وجاء التعبير هُنَا عن اليوم الآخِر بذكْرِ فِقَرةٍ من الفِقَراتِ الّتي يُحْتَجُّ بها علَىٰ الشّاكّين بالْبَعْثِ إلى الحياة بَعْدَ الموت، الّذين يستَبْعِدُونَ إعادة الموتىٰ إلى الحياة بَعْدَ أَنْ يَصيرُوا تُراباً، ويتَبَدَّدَ رُفَاتُهُمْ في تُرابِ الأرض.

وهٰذه الفقرة تَدُلُّ على ما قَبْلَها وَمَا بَعْدَها، فَمَنِ اسْتَبْعَدَ قضيَّة الْعَوْدَةِ إلَىٰ الحياة الأخرى، فلْيتأمَّلْ في قضيَّةِ بَدْءِ الحياةِ الأولى، تَتَبَدَّدْ أَوْهَامُه.

فالمعنى: كما بَدَأَ اللّهُ خَلْقَكُمْ فكُنْتُمْ بشراً أحيَاءً، لَكُمْ من الصفاتِ ما لم يَكُنْ لكم منها شَيءٌ، قَبْلَ أَنْ يَبْدأ خَلقكُمْ، فإنَّهُ يُعِيدُكُمْ إلى الحياة بعْدَ أَنْ يُميتكُمْ ويَجْعَلَكُمْ تُراباً، فَتَعُودُون إلَىٰ الحياةِ مُطَاوِعِين، دُونَ أَنْ يكُونَ لإرادَاتِكُمْ في ذلِكَ تَدَخُّلٌ بشيءٍ، فتَجدُودن أنفُسَكُمْ أحيَاءً مَسُوقِين إلى الحسَابِ، وفَصْل القضاء، وتَنفيذِ الجزاء.

كما بدأكم فصرتم أحياءً مطاوعين، يعديكم بعد الموت والفناء فتعودون إلى الحياة مطاوعين ليوم الجزاء.

القضيّة الخامِسَة:

● ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآية تَصْويرٌ مُوجَزٌ لمَا سَوْفَ ينْتَهِي إِلَيْهِ الأَمْرُ يَوْم الدين، بعْدَ الحساب، وفَصْلِ القضاء، بَيْنَ بَنِي آدم الّذِينَ وضَعَهُمُ اللّهُ عزّ وجلّ في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، إذْ يكونون فريقين:

(١) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾: أيّ: فريقاً حكَمَ الله لَهُم بالْهِدَايَة، إذْ كانُوا قد اختاروا لأنفُسِهِمْ في الحياة الدّنيا طريق الهداية، فآمَنُوا بربوبيّة الله وَإِلَهِيَّتِهِ، وأعْلَنُوا إسْلامَهُمْ له، ولم يُشْرِكُوا به شيئاً.

(٢) ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: ثَبتَ علَيْهِمْ أنهم كَانُوا قد اختاروا لأَنفسهم في الحياة الدّنيا طَرِيقَ الضلالَةِ، فلَمْ يُحقّقُوا أدْنَىٰ مَطْلُوبِ اللّهِ منهم من إيمان وإسْلام، فَحَكَمَ الله عليهم في محكَمَةِ العدل يوم الدين بالضلالة فاستحقوا الْخُلُودَ في عذَاب النّار، ولا مُعقّبَ لحُكْمِ اللّهِ جلّ جلاله.

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: إنّهم في الحياة الدُّنيا رَفَضُوا وِلاَيَةَ اللّهِ لَهُمْ، فَلَمْ يتّبعوا مَا أنزلَ اللّهُ لهدايتهم، بَلْ زَيَّنَتْ لَهُمُ الشّياطينُ اتّبَاعَ الأَهْواءِ والشهواتِ والمحرَّمَاتِ منْ زينَةِ الْحيَاةِ الدنيا، فاتَّخذُوا الشياطين أولِيَاءَ لَهُمْ من دون الله بإراداتِهم الحرّة، فغَرَّتْهُمُ الشَّيَاطِينُ بوسَاوِسِهِمْ وتسويلاتهم وإطْمَاعَاتِهِمْ لهم بالباطِلِ من زُخْرُفِ الأفكار والأقوال. فصاروا يُتابِعُونَ في مَسِيراتِم خُطُواتِ الشياطين آناً فآناً على غَيْرِ بَصِيرَة، حتّى أوْصَلَتْهُمْ إلى حَضِيضِ الضلالة، وأَدْرَكَتْهُمْ منَايَاهم وهم في هذا الحضيض.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: ويَقَعُ في اعْتِقَادِهِمْ أنّهُمْ

باتِّباعِهِمُ المحرَّمَاتِ من زِيناتِ الحياة الدّنيا، على خلاف منهج الله وصِرَاطه المستقيم، مُهْتَدُونَ إلى تحقيق سَعَادَاتِهِمْ.

فعل «حَسِبَ يَحْسَبُ» لم يُسْتَعْمَلْ في القرآن إلاَّ في الظَّنِّ التوهمِيِّ الباطل.

إنّهم ينْقَادون للشياطين بدوافع من داخل أنفسهم، ويَسْعَوْن وراءهم سَعْياً حثيثاً مهما تعثَّرُوا في سُبُلِهم، ومهما أَصَابُوا منْ مَتاعِبَ ومشقاتٍ، ومهما نَزَلَتْ بِهم من مَصَائِبَ ونكبات، ويتوهمّون أنهم واصِلُون إلى أمانيهم من الحياة الدنيا، وأنهم مهتدون، والحقيقة أنّهم ضَالُّون.

جاء التعبير في هٰذهِ الآية عمّا سَوْف ينتهي إليه الأمر يوم الدّين بعْدَ الحسَاب وفَصْلِ القضاء، بالفِعْلِ الماضِي: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ للدّلاَلَة علىٰ تحقُّقِ وُقوعه في المستقبل، كما تحقَّقت الأحداثُ الّتي مضت وانقضت.

وهذه العبارة هي بمثابة لقطَةٍ مُقْتَطَعةٍ من مشاهد يوم الدّين الموعود به، وإيرادُها في سِبَاقِ وَسِيَاقِ ما أنزل الله عزّ وجلّ من دينٍ، لبني آدم الأوَّلِينَ، منْذُ عَهْدِ آدم، يُشِيرُ إلى أنّ مضمُونَ هذا البيان ممّا تلَقَّاهُ بنُو آدم الأوَّلُون من تعليم دينيٍّ. ودلّتِ النّصوص القرآنيّة على أنَّ هذا المضمُونَ هو من أُسُسِ الرّسالاَت الرَّبّانيّة كُلِّها لبني آدم جميعاً، من عَهْدِ آدم عليه السلام، حتّىٰ آخر موضُوعٍ في الحياة الدنيا موْضِعَ الامتحان من ذُرِّيَّته.

إنّ النّاسَ يوم القِيامَةِ بَعْدَ الحِسَاب وفَصْلِ القضاء يُقْسَمُون إلى فَرِيقَيْن أعْظَمَيْن، مؤمِنين وكافِرين، ثُمّ يُقْسَمُ كلُّ فريقٍ منهما إلى زُمَرٍ، بَحَسْبِ دَرَجَاتِهم الارتقائية بالإيمان والعمل الصالح، أوْ دَرَكَاتِهم الانْحِدَارِيَّةِ الهابطة بالكُفْرِ وارتكابِ الجرائم.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

تمهيد:

في الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث، بيانٌ لقضيّتَيْنِ من قضايا الدّين الّتي أنْزَلها الله عزّ وجلّ على بني آدم، بدأً من ذُرّيّاتِه الأوّلين، وحتّىٰ آخرِ كائن موضوع في الحياة الدُّنيا مَوْضِع الابتلاء منهم، فهِي من تعليمات الدّين المنزَّلَةِ على جميع المرسَلِين بعد آدم، وحتّىٰ خاتمتهم محمد بن عبد الله صلى الله وَسلّم عليه وعليهم أجمعين.

وفي الآيَتَيْنِ التاليتَيْنِ إشارَةٌ إلى تحريفات الناس في الدّين، حَوْلَ هاتين القضيَّتين، بتَحْرِيم ما لَمْ يُحرّمْهُ اللّهُ جلّ جلالهُ، منْ زِينَتِهِ الّتي أخرجها لعباده، ومِنَ الطّيّبات من الرّزق، وفيهما تعليم جدليٌّ حوْل تَحْرِيفاتهم الباطلات، وبيانٌ حَوْلَ أصُولِ المحرّماتِ الدّينيَّة الرَّبّانِيّة، في الدّين الّذي اصْطَفَاهُ اللّهُ عزَّ وجَلَّ لعباده، وبلَّغَتْهُ رُسُلُه الصّادقُونَ إلَىٰ أُمَمِهم.

التدبّر:

القضيّةُ الأولى:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ... ﴿٣١﴾﴾:

سبق بيان أنّ لفظ «مَسْجد» يُطْلقُ على مكان السُّجود، وزمان

السجود، وعلى السجود، باعتبار «مَسْجد» مصدراً ميميًا، لِفَعْل «سَجد». فَبَنُوا آدم مأمُورون بأن يأخذوا زينتهم عند كلّ صَلاة، وعند كلّ زمَانِ صَلاةٍ يُؤَدّونها، وعند كلّ مَكانِ صلاة يؤَدُّونَ الصَّلاةَ فيه، وقد جاء التعبير عن الصلاة بلفظ السجود. لأنّ السجودَ أعظم أركانها، إذ هو دالٌّ على غاية الخضوع لله عَزّ وجلّ.

وسبَقَ في هذا الدرس أن الله عزّ وجلّ، قد امتنَّ على بني آدم بأنَّه أنْزَلَ عليهم لباساً يواري سَوْآتهم وريشاً.

ولمّا كانت السَّوْآتُ مستَقْبَحاتِ المنظر، فإنَّ سَتْرَها باللّباسِ السَّاتِر من الزّينة.

ولمّا كانَ من آداب عبادَةِ اللّهِ عزّ وجلّ في الصّلوات وفي الطَّوافِ، ومن آداب المجامع الدينيَّةِ في المساجد، سَتْر ما يُسْتقبَحُ مَنْظَرُه، وهذا من أصول دين الله الّذي أنزلَهُ على بني آدم منذ عَهْدِ آدم إلى آخِرِ رسالةٍ أنزلها الله للناس، كان قولُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قولاً يُبَيّن الله تبارك وتعالىٰ فيه ما أنزله على بني آدم الأوّلين فَمَنْ بَعْدَهم، ويُوجّهُهُ تَكْليفاً لِبني آدم الآخِرِينَ، الّذِينَ جاءَتْ خاتِمَةُ الرّسَالاتِ الرّبّانيّة لبَلاَغِهِم وتكليفهم.

فَدَلّنَا هذا على أنَّ وجوبَ سَتْرِ الْعَوْراتِ عند كلّ مَسْجِد من الأحكام الثابتة في كلّ الرّسَالات الرَّبّانِيّة للناس.

والأَمْرُ بأخْذِ الزينَةِ ستْراً للعورات عند كلّ مسجد، يُشْعِرُ بأنّ تحَلّيَ الإنسَانِ بمختلفِ أنواع الألبسة الّتي أنزلها الله للناس، مأذونٌ به في الدّين، بل قد يكونُ مطلوباً طَلَب نَدْبٍ وترغيب، باسْتثناء ما نزل تحريمه بالنصّ.

القضيّة الثانية:

- ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ. . . ﴿٣١﴾﴾:

هذه القضية من وصايا الدِّين وأحكامه الَّتي أنزلها الله عزّ وجلّ، على بني آدم الأوّلين فمن بَعْدَهم، حتَّىٰ آخرِ كائن من ذُرِّيَّته، موضوعٍ في الحياة الدنيا مَوْضِع الابتلاء.

أي: وكُلُوا مِنْ كُلِّ مأكُولٍ لَمْ يُحَرَّمْ عليكم بالتعْيين أو بالوصْف، واشْرَبُوا من كلِّ مَشْرُوب لم يُحَرَّم عليكم بالتعْيين أو بالوصْف.

والأمْرُ بالأكل والشُّرب يُحْمَلُ على وُجوه:

(١) فإذا كان تَرْكُ الأكْل أو الشُّرب يُسْقِمُ، أو يُميتُ، أو يُضْعِف عن القيام بما يجب القيام به، فالأمْرُ للوجوب.

(٢) وإذا كان تَرْكُ الأكْل أو الشُّرب يضعِفُ عن القيام بما يُنْدَبُ القيام به، فالأَمْرُ للنَّدْبِ.

(٣) وإذا كان تَرْكُ الأَكْلِ أو الشُّرْبِ في بعض الأحوال لاَ يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ فالأمْرُ للإباحَة.

هذه الأحكامُ تُفْهَمُ من هذا النصّ مجموعاً مع جُمْلَة نُصوصٍ أخرى، وتُفْهَمُ ضِمْن كُلّيّاتٍ عامَّةٍ من كلّيَّاتِ الدِّين المستخرجَةِ من عِدَّةِ نُصُوص.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾: في هذه العبارة نَهْيٌ عن الإسْرَافِ في الأكْلِ والشُّرْب.

الإسْرَاف: هو تجاوز الحدّ إلى ما يُؤْذِي أو يَضُرّ.

والنهيُ عن الاسْرافِ له أيضاً عدَّةُ وجوه:

(١) فإذا كان الاسْرَافُ في الأكل أو في الشرْب ضارًا بالصّحّة، أو ضارًا بالآخرين من الناس، إذْ يُقَلِّلُ مواردَهُمُ الغِذَائيّة، ويُوقِعُهم في الجوع أو في العطش، فالنَّهْيُ للتحريم، إذْ لاَ يجوزُ في الدِّين لبَعْض الناس في المجتمع أنْ يُسْرِفُوا في مآكلهم ومشاربهم إسرافاً يَنْجم عنه جُوعُ الآخَرين

وظَمَؤُهم. ولا يجوز للإنسان أن يُسْرف في طعام أو شراب إسرافاً يُضِرُّ بصحّته، ويُعرّضُه للأسقام والأمراض وهو يَعْلَمُ أنْ احتمالات الضَّرَرِ راجحة.

وكذلك إذا كان الإسراف في الطعام أو الشراب يمنَعُ من القيام ببَعْض الواجبات، فالنَّهْي عنه للتحريم.

(٢) وَإذا كان الإسراف في الأكْل أو في الشرب يَمنَع من القيام بما يُنْدَبُ القيامُ به ولا يَضُرّ، فالنَّهْيُ عنه للكراهة.

(٣) وإذا كان الإسرافُ في الأكْلِ أو في الشُّرب ليس له أثَرٌ ضارٌّ أوْ مُؤْذٍ، ولا يمْنَع من القيام بما يُندبُ القيام به، فالنَّهْيُ عنه للإرشاد إلى ما هو الأفْضَل في الاقتصاد، والأفضلُ للمحافظة على السَّلامَةِ وكمالِ الصّحَّة في المستقبل، مع ما في ضَبْط النَّفْس عن الإسراف من تَدَرُّبٍ على قُوَّةِ الإرادة، في مخالفة شهواتِ النفس، وعدَم الانسياقِ وراءَ أهْوَائها ولَذَّاتِها الّتي إذا اسْتشْرَتْ قادَتْ إلى المهالِكِ الدنيويَّةِ أو الأُخْرَوِيّة.

قال علماء الصحّة: قاعدة: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ تتضمَّن رأسَ قواعِد الصحّةِ غِذاءً وَوِقايةً، أو ما يُسَمَّىٰ بالأمْنِ الصّحيّ.

وقال علماء الاقتصاد الغذائي: إنَّ هٰذه القاعدة هي رأسُ قواعدة الاقتصاد، للمحافظة على الأمْن الغذائي.

وللتحذير من الإسْرافِ بصُورَة عامَّةٍ. قال الله عزّ وجلّ في ختام الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾. الضميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يَعُودُ على الله جلّ جلاله، وهذا يُفْهَمُ من السِّبَاق والسِّياق. فالإسراف بوجه عامّ يُوصلُ إلى الوقوع في المضارّ أو المهالك، أو الظلم أو التحريف في الدين، إلى غير ذلك من أمُورٍ غير حَمِيدَة، والله لا يحبُّ هذه الأشياء، فهو لا يحبُّ من يعرِّض نفسه إليها.

التحريفات في الجاهليات الأولى لأحكام الألبسة والمآكل والمشارب الربّانية:

هذه الأحكام التي جاء بيانها في الآية (٣١) أحكامٌ منزّلة مُنْذ عَهْدِ آدم عليه السلام، ومُتَتابِعةٌ في الرّسالات الرَّبَّانهيَّةِ، حتَّىٰ خَاتِمَتِها.

إلاَّ أنّها قد تعرَّضَتْ في تاريخ البشر للتحريفات من قِبَلِ شياطين الإنس والجن.

- فَوُجُوب أخذ الزينة عنْد كلّ مسْجدٍ قد تعرَّضَ لتحريفاتٍ في الجاهليّة قبل الإسلام.

ومن هذه التحريفات في الدّين أنّ العربَ من غير قريشٍ كانُوا يطوفون بالبيْتِ الحرام «الكعبة المشرفة» عُراةً، ويقولُون: لا نَعْبُد الله في ثيابٍ أَذْنَبْنَا فيها. واللَّواتِي يستَحْيِين من نساء العرب كُنَّ يَطُفْنَ عَارِيَاتٍ في اللَّيْلِ، لكِنْ إذا وجَدَ العربيُّ من يُعِيرُهُ ثوباً مِنَ الْقُرشِيّين، استعارَه وطافَ فيه، وكذلك إذا وجدت العربيّة من تُعِيرُها ثوباً من القرشيات، استعارتْهُ منها وطافت فيه.

ومن التحريفات في الدّين بالنسبة إلى المآكل والمشارب التي أباحها الله عزّ وجل، تحريمُ العرب في الجاهلية بعْضَ الأنعام، ضِمْنَ أوصاف وشروط خاصّة، وتحريمُهُمْ بعض المنتجات الزراعيّة، وتخصِيصُها لأصنامهم. فلا يَطْعَمُ منها في زَعْمِهم إلاَّ ما يَشَاءُون.

وكان للعرب في الجاهلية أحكامٌ افْتَروْها على الله، ومنها ما كانوا يُسَمُّونه: «الْبَحِيرَة، والسّائبة، والوصيلة، والحام» وقد جاء بيانها في القرآن في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) في الآية (١٠٣) ـ وفي سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في الآيات من (١٣٨ ـ ١٤٠) بشأن بعض الأنعام والحرث.

ممّا ورد من روايات بشأن التحريفات في أحكام الألبسة والمطاعم:

■ أمّا الْعُري الكامل في بعض العبادات الذي هو من تحريفات الجاهلية، فقد ورد بشأنه عدّة روايات، منها ما يلي:

(١) روى مُسْلِمٌ والنّسائي وابنُ أبي شيبة وغيرهم، عن ابن عباسٍ: أنّ النِّسَاء كُنَّ يَطُفْنَ عُرَاةً، إلاَّ أَنْ تَجْعَلَ الْمَرْأَةُ على فَرْجِهَا خِرْقَةً وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ

فنزلَتْ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

(٢) وأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وابْنُ أبي حَاتِمٍ، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عن أبْنَ عباسٍ أيضاً في هٰذه الآية قال:

«كَانَ الرِّجَالُ يَطُوفُونَ بالْبَيْتِ عُرَاةً، فَأَمَرَهُمُ اللّهُ بالزِّينة، والزِّينَةُ اللِّبَاسُ، وهُو مَا يُوَارِي السَّوْأَةَ، ومَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنْ جَيِّدِ الْبَزِّ والمتَاعِ».

(٣) وروىٰ ابْنُ جريرٍ عن ابن عبّاس قَالَ:

«كانُوا يَطُوفُونَ بالْبَيْتِ عُرَاةً، الرِّجَالُ والنّساء، الرِّجالُ بالنَّهارِ، والنِّسَاءُ باللّيْلِ».

(٤) وأخرج مُسْلِمٌ عن عُرْوةَ بْنِ الزُّبَيْر قال:

«كانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بالْبَيْتِ عُراةً إلاَّ الْحُمسَ(١)، والْحُمسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، فَكَانَ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ عُراةً، إلاَّ أَنْ يُعْطِيَهُمُ الْحُمسُ ثِيَاباً، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجالَ، والنِّسَاءُ النِّسَاءَ».

---

(١) الْحُمسُ: المتشدِّدُون في الدّين، وقد أطلق القرشيّون على أنفسهم أنهم حُمسٌ، تفاخراً بأنّهم متشدّدونَ في التمسك بالدين في جاهليتهم، على ما هم قد ابتدعوه من تحريفات جاهلية.

ورُوي عن عُرْوة أيضاً: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذا وَصَلُوا إلى مِنَىٰ، طَرَحُوا ثيابَهُمْ، وأَتَوْا الْمَسْجِدَ عُرَاةً.

(٥) ورُوِيَ أَنَّ الْحُمْسَ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ، فَلاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يَطُوفَ إِلاَّ فِي ثِيَابِنَا، ولاَ يَأْكُلَ إِذَا دَخَلَ أَرْضَنَا إِلاَّ مِنْ طَعَامِنَا. فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ منَ الْعَرب صَدِيقٌ بمَكَّةَ يُعِيرُهُ ثَوْباً، ولاَ يَجِدُ ما يَسْتَأْجِرُ بِهِ ثَوْباً مِنْ قُرَشِيٍّ، كَانَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَين:

- إمَّا أنْ يَطُوفَ بالْبَيْتِ عُرْياناً.
- وإمَّا أن يَطُوفَ في ثيابه، فإذَا فَرَغَ مِنْ طَوافِهِ أَلْقَىٰ ثَوْبَهُ عنه، فلَمْ يَمَسَّهُ أحدٌ، وَكَانَ ذَلِكَ الثَّوْبُ يُسَمَّىٰ «اللَّقَىٰ». قال شاعرهم:

كَفَىٰ حَزَناً كَرِّي عَلَيْهِ كَأَنَّهُ لَقَىً بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرامُ

■ وأمَّا تَحْرِيمُ أَهْلِ الجاهليّة بعْضَ الطَّيِّبَاتِ افتراءً علىٰ الله، وتَحْرِيفاً في دِينِ اللَّهِ الموروُثِ، فقد وردَ بشأنِهِ عدَّة روايات، منها ما يلي:

(١) رَوَىٰ الطبريُّ عن جابر بْنِ زَيْد، أَنَّ العَرَبَ كَانُوا إِذَا حَجُّوا حَرَّمُوا الشَّاةَ وَلَبَنَهَا وَسَمْنَهَا.

(٢) ورُوِي عن السُّدّيّ وابنِ عبَّاسٍ، أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُحَرِّمُونَ علَىٰ أَنْفُسِهِمُ الْوَدَكَ⁽¹⁾ مَا أَقَامُوا في مَوْسِمِ الْحَجِّ.

فكانوا لاَ يأكُلُونَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ إلاَّ قُوتاً، ويَجْتَنِبُونَ الدَّسَم.

فعلَّمَ اللَّهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، فكُلُّ داعٍ إلى دينِ اللَّهِ من الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، مناظرَةَ مُلْتَزِمي هذه التحريفاتِ والمبْتَدَعاتِ في الدّين.

---

(١) **الوَدَكُ**: هو الدَّسَمُ والدُّهْنُ.

● قول الله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الفقرة يُعلِّم اللَّهُ عزّ وجلَّ رسُولَهُ، أسْلوبَ مناظرةٍ جَدَلِيَّةٍ، حوْلَ التحريفات في الدّين، الّتي افْتَرتْها الجاهليات قبل الإسلام، بشأن زيناتِ الملابس الّتي أخرجها الله لعباده، وبشَأنِ الطيّبات من الرزق.

أي: قل لهم يا مُحمَّدُ ويَاكُلَّ حامِلٍ لرسَالَته من أُمَّتِه: إِنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أمَرَ بأَخْذِ الزينة عند كلّ مسْجِدٍ، وأَمَر بسَتْرِ الْعَوْراتِ منذ عَهْدِ بني آدم الأوّلين.

فَمَنْ هذا الّذي افترىٰ على اللَّهِ فكلَّفَ الطائفين والطائفاتِ من غَيْرِ قُرَيشٍ، وما وَلَدَتْ قُرَيشٌ، بأنْ يَطُوفوا عُرَاةً بالبيت الحرام؟!!.

وقُلْ لهم: إنّ الله عزّ وجلّ قد أَمَرَ بني آدم بأن يأكُلوا وَيَشْرَبُوا ممَّا يَشَاءُون من الطيّبات من الرّزق، إلاّ الّذي حرَّمَهُ عليهم بالتعْيين أو بالْوَصْف.

فمن هذا الّذِي افترىٰ على الله، فوضع قواعد التحريم في الأنْعَامِ والحرْث، فقال: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، مَعَ أنّها من الطيّباتِ، ولَيْسَتْ من الخبائث؟!!.

أي: هَلْ هٰذا المحرِّمُ رَسُولٌ يُبَلِّغ عن الله، أم هو كذَّابٌ مُفْترٍ يَفْتِري على دينِ الله؟!!.

والمعنى من توجيه هذا السؤال الإنكاريّ الجدليّ، أنّ الله عزّ وجلّ لم يُحَرِّم شيئاً من هذه المفتريَاتِ في الجاهليات، بل أوجب بعْضَها، ونَدَب إلى بعضها، وأباح بعضَها، وكُلُّ حُكْم مخالفٍ لحكم اللَّهِ هُو من الْعُدْوان على رُبوبيّةِ الله عزّ وجلّ وعلى إلَهيَّتهِ، لأنّ الْملْكَ مُلْكُه، والخلْقَ خلقه، ومَنْ له الخلْقُ فهو وحْدَهُ الَّذِي له الأمْرُ والنهْيُ، وحقُّهُ على عباده أن

يطيعوه، لاَ أنْ يَفْتَرُوا عليه في الشرائع والأحكام، وَيُشَارِكُوهُ في رُبُوبيَّتِهِ وإلَهيَّته.

وفي طرْح هذا السُّؤال الجدليّ مطالَبَةٌ لَهُمْ بدليلِ التحريم، وهُوَ لاَ يَكُون دليلاً عقليًا، لأنَّ موضوعَهُ من موضوعاتِ العِبَادَاتِ الدّينيّة، فلا بُدَّ أنْ يكون دليلاً نَقْلِيًا عَنْ نصٍّ دينيٍّ صَحِيحٍ في كِتَابٍ من كُتُبِ اللّٰهِ أو خَبرٍ صَحِيح ثابتٍ عن رسُولٍ من رُسُل الله، ولَنْ يَجِدُوا شيئاً من ذلك في نصٍّ صحيحٍ ثابتٍ.

أمّا إذا كان المحرّمُ لهذهِ الأُمُور زَعِيماً أو كاهِناً، أو نَحْوَهُما، فَهُمْ طَواغيتُ يفتَرُونَ الكَذِبَ في الدِّينِ عَلَىٰ اللّٰهِ عزَّ وجلَّ، أوْ يجْعلُونَ أَنْفُسَهم أَرْبَاباً من دُونِ الله، فَهُمْ يُحَلّلُونَ ويُحَرِّمُونَ على مَا يَشَاءُون بأهوائهم، فأقوالُهُم ساقطة، والْعَمَلُ بها اتّباعاً لهم هو من الشّرْك.

وحين لا يَجِدُ المسْؤولُون الدَّلِيلَ المثبتَ لِما يُحَرِّمُونَ مِنْ زينَةِ اللّباسِ والطّيّبَاتِ من الرّزْق، فإنَّ علَيْهِمْ أنْ يَنْبِذُوا تقاليدهم الباطلة، ويَتّبِعُوا ما أُنزِل إليهم من ربّهم، على لسانِ رسُولِه محمد بن عبد الله ﷺ، ولا يَتّبِعُوا من دونه أولياء.

وإذا استجابوا لمَا أُلْزِمُوا به في نهاية المناظرة، فعليهم أن يُصْغُوا إلى التعليم الّذي يُبَلّغُهم إيّاهُ رسول الله ﷺ.

* * *

● قول الله تعالى لرسوله: ﴿..قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: قل لهم مُعَلّماً بَعْد أن يُذْعِنُوا أو تدمَغَهم الحجّة بإبْطَال أحكام الجاهلية، حوْلَ زينَة اللّباس، وبَعضِ الطّيّبات من المطاعم:

زينة الله الّتي أخرجَ لعباده، والطيّباتُ من الرّزق، قد خَلَقَها الله لِيَنْتَفِعَ ويسْتَمْتِعَ بها الّذين آمنوا وغَيْرُهم في الحياة الدنيا. لكنّها سوف تكونُ يوم القيامَةِ خَالِصَةً لّلذين آمنوا فقط، فَلَا يُشَارِكُهم فيها الكافرون يومئذٍ، لأنّها يوْمَ الدِّين من أصْناف نعيم أهْلِ الجنّة.

ولم يَذْكُر الله عزّ وجلّ غيْرَ المؤمنين في الانتفاع بها في الحياة الدنيا، اكتفاءً بقوله جلّ جلالُه: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ أي: حالةَ كوْنِها خالِصَةً لّلذِينَ آمَنُوا يَوْم القيامة، ولأنّ الكافرين لا يهِمُّهُم حكْمُ الإباحَةِ الرّبّانية، حتّىٰ تكُونَ تصرُّفاتُهم متقيّدةً بما أباح الله، بلْ هم ينتَفِعُونَ ممّا مكّنَهُمُ الله من الانتفاع به كيْفَ كانَ حُكْمُ اللّهِ فيه حلالاً أَمْ حراماً، فالمناسبُ في النصّ بالنِّسْبة إليهم هو الإعراضُ عن ذكْرِهم بصَرِيحِ العبارة. ﴿خَالِصَةٌ﴾: بالرفع في قراءة نافع، أي: وهي خالصةٌ لهم يوم القيامة، على أنّ اللّفظ خبَرٌ ثانٍ.

● ﴿.. كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾: أي: كذلكَ التعليم والبيان الذي سبَق مُفصَّلاً، حوْلَ الأخبار، والشرائع، والأحكام، مِنْ بدْءِ السّورة حتّىٰ هٰذه الآية، سنُفَصِّل في الآيات القرآنيّة الّتي سنُنْزِلها، وهذا التفصيل سيكون مُوجّهاً لمَنْ هُمْ مُهْتمُّون بأنْ يَعْلَمُوا مَا يُنَزَّلُ إليهم رَبُّهم حتّىٰ يتّبعُوه، فَهُمْ يتلَقّوْنَ الآيات، ويتَدَبَّرُونَها، فيَعْلَمُونَ دلالاتها جُمْلَةً فَجُمْلَةً وفِقْرَةً فَفِقْرَةً، وقضيّةً فَقَضِيّةً، دراسةً وبحثاً وتأمُّلاً، بغيةَ اتّباعها، والْعَمل بما تضمَّنَتْهُ من وصايا وأحكام وتوجيهات.

● قول الله تعالى لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذه الآية تابعةٌ لمَا أَمَرَ الله به رسولَهُ أن يقولَهُ للملْتَزِمين بجاهِلِيّاتهم،

في أحكامٍ ما أنزل الله بها من سلطان، بل هي مفترياتٌ ومُبْتَدَعَاتٌ ابْتَدَعُوهَا، وجَعَلُوها دِيناً.

وفي هذه الآيَةِ حَصْرٌ للمحرَّمَاتِ الَّتي حرَّمَها الله الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ، في كلّيَاتٍ خَمْسٍ، هي كُلّيَاتٌ أصولٌ في كلّ رسالات اللّٰهِ السّابقاتِ لبَنِي آدَم، وهي مستمِرَّاتُ التحريم بحكمة الله، لا تَتَعَرَّضُ لِنَسْخٍ.

[**إنَّما**] أَدَاة حصر، بمعنى: «ما» و«إلاَّ» فَمَعْنَىٰ: [**إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي**]: ما حَرَّمَ رَبِّي إلاَّ، والحصْرُ يسْتَلْزِمَ نَفي غير المحصور.

الكليَّةُ الأُولَىٰ: الفواحِشُ مَا ظَهَرَ منها وما بَطَنَ.

الفواحِشُ: جمع «الفاحِشَة» وهي والفُحْشُ والفحشاءُ في اللّغة: كُلُّ قبيح تجاوز حدَّ ما يُحْتَمَلُ وَيُغْضَىٰ عنه عادةً من قولٍ أو عَملٍ.

قال أهل اللُّغة: كلُّ شيءٍ جاوَزَ قَدْرَهُ وحَدَّهُ فهو فاحِشٌ، وقالوا: الفُحُشُ والفَحْشَاءُ والْفَاحِشَةُ، القبيح من القول والفعل، وكلُّ خَصْلَةٍ قبيحة.

وقد نظَرَتُ في الاستعمالات القرآنيَّةِ لهذِه المادّة، فوجَدْتُ أنَّها تَدْورُ حولَ الكَبَائر المتعلّقة بشهوات الفُروج، وترجَّحَ لدَيَّ أن يُحْمَلَ مَا جَاء منها مُطْلقاً لم تُبَيِّنْهُ القرائِنُ علَىٰ ما جاء مِنها مُبَيَّناً بالقرائن، فهي في الاستعمال القرآني مُخَصَّصةٌ بهذا الإطَارِ من المعاصي اصطلاحاً.

(١) ففي سورة النّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) جاء قولُ الله عزّ وجلّ في حكاية قِصَّةِ قوم لوطٍ ومُمَارسَاتِم الشّاذَّات:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

(٢) وفي سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) جاء قَوْلُ الله عزّ وجلّ في النَّهي عَنِ الزِّنَىٰ.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾.

(٣) وفي سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) جاء قولُ الله عزّ وجلّ في حكاية قصّة قوم لوط. وإتيانهم الرّجال شهوةً:

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾.

أيْ: أنْتُمْ أكْثَرُ الناس مُمَارَسَةً لِهٰذِهِ الفاحِشَةِ الشَّاذَّةِ، الخارِجَةِ عن نظام الْخَلْقِ الرَّبَّانيّ السَّوِيّ.

(٤) وجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ.. ١٥﴾.

وجاء فيها أيضاً قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾.

(٥) وَجاءَ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بشأنِ حديث الإفْكِ قولُ الله عزّ وجلّ:.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾.

من هٰذه النُّصُوصِ ترجّح لديَّ أنَّ الْمُرَادَ بلَفْظِ «الفاحِشَةِ، والفواحش» في الاصطلاح القرآنيّ ما يتعَلّق بالمحرَّماتِ الكبائر من شَهَواتِ الفروج.

- أمَّا مَا ظَهَرَ مِنَ الفواحِش، فَهِيَ الْفَوَاحِشُ المعْلَنَةُ في بُيُوتِ الزّنا الخاصَّة، ومَا كان من قبيل الفواحِشِ الَّتِي تُمارَسُ في الطُّرقات والحدائق العامَّةِ في بلاد الكفر، ونحو ذلك.

- وأَمَّا مَا بَطَنَ من الْفَواحِشِ، فَهِيَ الفواحِشُ الّتي تكونُ في السِّرِّ مع الخليلاَتِ والصَّدِيقَاتِ، والأَخْدَانِ، ونحوهنَّ.

وقد يُلْحَقُ بما بطنَ من الفواحش تَمنِّي الفاحِشةِ وإرادتُها مع عدَمِ التمكُّنِ من مُمَارَسَتِها، فإرَادَةُ المعْصِيَةِ الّتي يمْنَعُ من تحقُّقِها مانِعٌ خارجيّ تُساوي ارْتِكابَها فِعْلاً، وهذه الإرادة الجازِمَةُ مع وجُود المانع الخارجيّ هي من الْفَواحِشِ الباطِنَة.

الكليّة الثانية: الإِثمُ، وجاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بيانُ أنّ الإثم منه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن، فقال الله عزّ وجلّ فيها.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُوا يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

الإثم: في اللّغَة، الذَّنْبُ، وقد نظَرتُ في النُّصوص القرآنية الّتي جاءت فيها مادّة «الإثم» فظَهر لي أنّ «الإِثْم» مُسْتَعْمَلٌ فِي القرآن للدّلاَلَة على جميع المعاصِي كبائِرها وصغائِرها، وما بينهما.

فقد جاء في القرآن أنّ أكْلَ المْيتةِ من دُون اضطرار لأكْلِها، إثْمٌ. وأنَّ تبديلَ نصّ وصِيَّةِ الموصِي عمَّا كتبه أوْ أمْلاهُ على الكاتب، إثْمٌ. وأنَّ أكْلَ أموالِ النّاس بالباطل، إثْمٌ. وأنّ شُرْب الْخَمْرِ وأكْلَ الدَّمِ ولَحْم الخنزيرِ وما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ، إِثْمٌ. وأنّ أقوال الكُفرِ، إثْمٌ. وأَنَّ قَذْفَ أَهْلِ الْعِفَّةِ، إِثْمٌ. وأنَّ بَعْضَ الظَّنّ، إِثْمٌ. وأنَّ الشِّرْكَ، إثْمٌ عظيم. وأنَّ افْتِرَاء الكَذِب على اللّهِ، إثْمٌ مُبين. وأنَّ كِتْمَانَ الشهادة، إثْمٌ، وهذا من الإثْم الباطِن، لأنَّهُ سُكُوتٌ عن الحقّ، فهو من إثْمِ الْقُلُوب. وأنَّ أكْلَ الرّبا من الإثم.

وجاء في القرآن بيانُ أنَّ المعَاصِيَ الّتي يُطْلَق عليها لفظ «الإثم» منها ما هو من الكبائر، ومنها ما هو دونَ ذلِكَ بالتّدرُّجِ حتَّىٰ الصَّغائِرِ الصُّغرى.

وعلى هذا فالْفَواحِشُ تَدخُل في عُمُوم الإثم، إلاَّ أنَّها تَنفَرِدُ بمُصْطَلح

خاصٌ بها، تمييزاً لَهَا عن سَائِر الآثام، لأنّ لَها أحكاماً خاصّةً، ولأنّ مزالِقَ النفوسِ إِلَيْها كثيرة.

وظاهِرُ الإثْمِ ما هو مُعْلَنٌ منه، أمَّا باطِنُ الْإِثْمِ فما كَانَ مِنْهُ في السِّرّ، ويَدْخل في عُموم باطن الإثم ما كان منْهُ من أعْمال الْقُلوب والنُّفُوس الإرَادِيَّة، كالنّفاق في دائرة الكفر، وبَعضِ أنواعِ الشّرْكِ الخفِيِّ الّذي يكون في القلُوبِ والنفوس. وكالرِّياء المحْبِط للْعَمل، والنيَّاتِ الفاسداتِ من وراء الأعمال، والعزْمِ علَىٰ المعْصِيَةِ الّتي مَنَعَ مِنِ فعْلِها أو ممارَسَتِها مانِعٌ خارجيّ، وكالْحَسَدِ المنهيِّ عنه شرعاً، وتدبير الخُطَط للإضرار بأحكام الدّين، أو الإضرار بعباد الله في أنفسهم أو في أموالهم، أو في أعراضهم.

الكليّة الثالِثة: الْبَغْيُ.

البغي: هو الْعُدْوانُ، والظلْمُ، والْعُدُولُ عن الحق، والاستطالة على الناس بغير حق.

وأصْلُ البغي تجاوُزُ الحدِّ المأذُونِ به في السُّلُوك الإرادي إلى ما يَضُرُّ ويُؤْذِي، ويأتِي البغيُ بمعنى الحَسد، قيل: وأصْل البغي الحَسد، ثُمَّ سُمِّي الظُّلْمُ بَغْياً، لأنَّ الحاسِدَ يَجْتَهد في أنْ تَزُولَ نعْمَةُ الله عن الْمَحْسُود.

وتَحْرِيمُ الْبَغْي يشْمَلُ مَا ظَهَرَ منه وما بطَنَ، لأنّه يَدْخُلُ في عُمُوم الإثم.

ومن استقراء النصوص القرآنيّة، ظهَرَ لي أنّ المراد بالبغي فيها الظُّلْمُ والعُدْوانُ على حقُوقِ الأفراد والجماعات.

ولمّا كان الفَسَادُ في الأرض من الْعُدوان على حقوق الجماعات أو الأفراد، كانَ مَشْمُولاً بعُنْوانِ البغي.

وقد خُصَّ الْبَغْيُ بالذِّكْر مع أَنّه يَدْخُل في عُموم الإِثم، لِتَوْجِيه اهتمام

المؤمنين، للحذَرِ الشديد من العدوان والظُّلم في الحقوق الخاصّة والعامّة، ومن الفساد في الأرض، إذْ هي من كبائر الذنوب الّتي يَخُصُّها اللَّهُ عزّ وجلّ بعقوبات معَجّلات، مع ما يدّخر لمرُتَكِبيهَا من عُقُوباتٍ مؤجّلَاتٍ إلى يوم الدّين.

وفي هذا التوجيه تَنْبِيهٌ على أنّ المؤمنين مطالَبُون بمكافحة العدوان والظلم والفساد في الأرض، تحقيقاً للأمْن.

وجاء تَقْيِيدُ الْبَغي بقَيْدِ «بغير الحقّ» في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لإخراجِ ما قَدْ يُسَمَّىٰ بحسَبِ الظاهِرِ بَغْياً، وهو في الحقيقة قَمْعٌ للْبَغْي.

كمقَاتَلَةِ الْفِئَاتِ الباغِيَة، مُعاملَةً لها بمثْلِ أعمالها، لِقَمْعِ ما تقوم به من بَغْيٍ، ولَوْ أَدَّتْ هٰذِهِ المقاتَلَةُ إلى ظُلْمِ بَعْضِ أفرادِ جَماعَاتِ الْبغَاة، لعَدَمِ إمكان التَّمْيِيز.

وكقِيَام بِعْض أولياء الأمُور ضمْن اجتهادٍ مَقْبُولٍ شَرْعاً، بتصرُّفاتٍ يَقْصِدُ بها تأمِين النّاس، أو تأمِينَ الدَّعْوة إلى الله، وهذه التصُّرفاتِ قد يسمّيها الناسُ بحسَب الظاهر عُدْواناً وظُلْماً وَبغْياً، وهي في الحقيقة لِقَمْعِ أَهْل المكْرِ والكيد الّذين يَبْغُونَ الشَّرَّ وَالْفَسادَ في الأرض.

ومن البغي ما هو ظاهر وباطنٌ، لأنَّهُ يَدْخُلُ في عُموم الإثم، وممّا بطَنَ من البغْي تدبير المكايد الخفيّة، كالغِيبة، والنميمة، والسِّحْر، والوِشَايات الّتي ينجم عَنْها إضْرارٌ بالآخَرين بغَيْرِ حقّ. وممّا ظهر من البغْي الْعُدْوانُ الصريحُ على الأَنْفُس والأمْوالِ والأعْراضِ، ومِنْهُ شهادةُ الزّور، والبهتانُ، وأنْواعُ الشتائمِ والسِّبَابُ، والاتّهامُ بالباطل.

الكلية الرّابعة: الشِّرْكُ بالله.

الشرك بالله جلّ جلالُهُ قسمان: شِرْكٌ في رُبُوبيّته، وشركٌ في إلَٰهِيَّتِه، ومن الشرك ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطِنٌ خفيٌّ.

إنّ الإيمان باللَّهِ خالقاً رَبًا لَهُ كُلُّ صفاتِ الرُّبوبيَّةِ، أوّلُ الحقائق والمطالِبِ الدينيّة، ويقْتَرِنُ بها تَفَرُّده بهٰذهِ الرُّبوبيةِ إذْ لا يُوجَدُ رَبٌّ غَيْرُه.

وقد قام على تفرُّدِ اللَّهِ بالرُّبوبيّة وبالوجود الأزليّ دَلِيلُ العقل، المستندُ إلى الظاهراتِ الكَوْنيّة، ودَلِيلُ الْخَبَر عَنِ اللَّهِ الذي جاء به كلُّ أنبياءِ الله وَرُسُلِه، منْذُ عَهْدِ آدم حتّىٰ خاتم المرسَلين محمّد بن عبد الله ﷺ.

فمن جعل مع الله شريكاً لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ من أَحْيَاءَ أو أشياء، أو قوانينَ سَبَبِيَّةٍ، فقد كذَبَ على الحقيقة، وكذّبَ أَخْبَارَ المرسَلِينَ، وظلَمَ حقَّ رَبِّه عَلَيْه، فهو بِشركِه من الكافِرين. وأشدُّ مِنْهُ كُفراً وظُلْماً من أنكر وجُودَ الرَّبّ الخالق، أو أنْكَرَ بعْضَ صفَاتِ رُبوبيته الّتي هي صفات الكمال المطلَق.

وبعد الإيمان بالله رَبًا لا شَرِيكَ لَهُ في رُبوبيّته، تأتي الحقيقة الثانية، وهِي الإيمانُ بإلَٰهيَّةِ الرَّبّ الخالق، وبأنّه لا شريكَ له في إلَٰهيَّته.

فالله وحْدَهُ هو الذي لَهُ على عباده حقُّ أن يَعْبُدوه، ولاَ يُشْرِكوا بعبادته أحداً، ولا يُشْرِكُوا بعبادته شيئاً.

وقد قام دليلُ الْعَقْلِ، ودَلِيلُ الْخَبَرِ عن الله، على هٰذهِ الحقيقة الثانية.

● أمّا دليل العقل، فَمِنْ بَدَهيَّاتِ العقُول، أنّ من أنْعَمَ بشيءٍ على غيرِه، كانَ لَهُ حقُّ اعتراف المنْعَم عليه بذلك.

وأنَّ مَنْ كان هو الخالق الموجدَ من الْعَدَم، كان من حَقِّه على المخلوق أن يَخْضَع له ويُطِيعَهُ، لأنّهُ مِلْكه، فإذا كان هُو الْمُمِدَّ لَهُ بالبقاء وبالنِّعم الجليلة، وبالتكريم والتفضيلِ على كثيرٍ ممّا خلَقَ، فإنّ من حَقّه علَيْه أن يُقَابلَه بالشُّكرِ ولو ضِمْنَ الْحُدُودِ الدُّنيا.

هٰذِه هي العناصر الأولىٰ لعبادة المخلوق لخالقه، فالواجب الْبَدَهِيُّ على المخلُوق أنْ يكونَ عابداً لخالِقِهِ ورازقهِ والمنعِمِ علَيْهِ عبادةً إراديَّةً.

ومن البَدَهيّ أيضاً أنْ يكونَ الرَّبُّ مَعْبوداً مِنْ قِبَلِ المخلُوقِ، عِبادةً إرَادِيَّة، أي: أن يكون إلٓهاً له.

وبما أَنَّه لا رَبَّ في الوجود كُلِّه إلاّ الله وحده لا شريك له، فلا معبود إلا الله، أي: فلا إلٓه هو مُعْبُودٌ بحَقٍّ إلاَّ الله عزّ وجلّ، تباركَتْ صِفَاتُه، وعَظُم سُلْطانُه.

● وأمّا دَلِيلُ الْخَبَرِ عن اللَّهِ جلّ جلالُه، الذي هو صاحبُ الحقّ، فما مِنْ نَبيٍّ وَلاَ رَسُولٍ إلاّ أخْبَرَ عَنِ الله، بأنَّ اللَّهَ يأمُرُ كُلَّ الّذِينَ وضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامتحان أن يَعْبُدوه وحْدَه، وَيَنْهَاهم عن أن يُشركوا بعبادته أحداً، أو شيئاً ما.

هذه الكليّة الرّابعة من الكليّاتِ المحرّماتِ، قد جاءت في الآية بعبارة: ﴿..وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ...﴿٣٣﴾﴾.

السُلْطانُ هنا: الحجّةُ والبرهان.

ويتساءَلُ المتَدَبِّرُ: لِمَ جاءَ قَيْدُ: **«مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِه سُلْطاناً»؟! وهَلْ يُمْكِنُ أن يُنَزِّل اللّهُ عزّ وجلّ سُلْطَاناً باتِخَاذِ شُرَكاءَ له في رُبُوبيته، أو في إلٓهيّته؟؟.**

أقول: هٰذا من الله جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانُه، تكريمٌ للأفكار والعقُولِ الإنْسَانِيَّة، ومَا مَنَح النّاسَ من أدواتِ مَعْرِفَةٍ، يُمْكِنُ أن تتوصَّل بها إلى حقائق الأمور.

فأعْطَاها الحقّ في أنْ تجادِل عن أفكارها، ومعتقداتها، بما مَنَحَها من قُدْرات استدلالٍ، وتقديم حُجَجٍ برهانيَّة.

فَمَنْ كانَ لَدَيْهِ سُلْطانُ حُجَّةٍ، مكَّنَهُ الله عزّ وجلّ من تقديمها، بما أنزل لعباده، فإنِ استطاع أن يُثْبِتَ بها أنّ لله شريكاً في رُبوبيَّته، أو في إلٓهيَّته، فإنّ الله عزّ وجلّ يَعْذُره، ويَرْفَعُ عنهُ المؤاخَذَة.

ومن كان لدَيْهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ صادِقٌ عن رسُولٍ من رُسُلِ الله، يُثْبتُ بيقينٍ أنّ لله شَرِيكاً في رُبوبيَّتهِ، أو في إلَهيّته، فإنّه يُعْفِي نَفْسَه أيْضاً من المؤاخَذَةِ عنْد ربّه.

أمّا مَنْ تَرَكَ بُرْهانَ العقل، والثابتَ من النقلَ عن اللّهِ عزّ وجلّ، واعْتَمَد على الأوهام، وعلىٰ مَا لاَ يَصْلُح لأنْ يكونَ دليلاً، واتَّبعَ الكَذَّابين، والمخرِّفين، والموسْوِسِينَ من شياطين الجنّ والإنسِ، فإنّه يُعَرّضُ نفسه لِلإدَانةِ، بأنّه من المشرِكين الكافِرين، وبأنّه يَسْتَحِقُّ أنْ يكون في جهنَّم دَار العذاب يوم الدّين، مع الخالدين في العذاب المُهين.

فَمَعَ أنّ الأمْرَ يتعلّقُ بحَقّ الله عزّ وجَلَّ على عباده، في رُبُوبيته، أو في إلَهيّته، فإنّ الله تعالى لم يجعله أمْراً تحكُّمِيًّا، وإنّما جعل له بَراهِينَ عقلِيَّةً وعِلْميَّة، وقد آتىٰ الله عزّ وجلّ النّاسَ وسائلها، فهو يحاسِبُهُمْ بمقتضاها، ويُطالبُهُمْ أن يستَنِدُوا إليها، ومكّنَهُمْ من أنْ يحاجُّوا بها.

هٰذهِ هي منطقيّةُ دينِ اللّهِ الإسلام، إنها تَقُومُ على مَقُولَة: «قُلْ هاتُوا برْهَانَكُمْ» ولا تقومُ على مثل مقولة النصارى: «اعْتَقِدْ وأَنْتَ أَعْمَى».

على أنّ الله جلّتْ حكْمَتُه، وعظُمَ سُلْطانه، لو أَمَرنا أن نَعْبُدَ بعضَ خلقه، لكان يجب علينا أن نطيع أمْرَه.

لكنَّ حكْمَتَهُ العليّةَ قضتْ بأن يُفْرِدَ نفسَهُ بالعبادة، لئلاّ يكونَ الشّرْكُ في العبادة دليلاً على الشّرْكِ في الرُّبوبيّة، وعندئذٍ ينْتَقضُ أصْلُ التوحيد، الّذي هو قاعدة الامتحان الكبرى، في الإيمان بالغيب، بأدلّته البرهانيّةِ العقليّة، وهذا أَمْرٌ يتنافَىٰ مع كمال الحكمة الرَّبانيّة، فهو لا يكون.

الكلّية الخامسة: أن يتَقَوّلَ الْعِبادُ على الله ما لا يعْلَمونَ أنّه من عنْدِ الله حقًّا وصِدْقاً، ولو بغَلَبَةِ الظنّ.

دلَّ على هذه الكليّة قولُ اللّهِ عزّ وجلَّ في الآيَة:

﴿. . .وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: وأنْ تَقُولوا افْتِراءً على الله قولاً لا تَعلَمُونَ عِلْماً صَحيحاً مُسْتَنِداً إلى خَبَرٍ صحيحٍ عن المَعْصُومِ، أنَّ الله عزّ وجلَّ قد قاله.

● فمن أمثلة هذا الافتراء على الله عزّ وجلّ ادّعاءُ اليهود أنّهم لَنْ تَمَسَّهُمُ النّارُ مَهْما كَفُروا أو أجْرَمُوا إلاّ أيّاماً مَعْدُودَةً قليلة.

وفي بيان هذه الفِرْية اليهوديَّة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في معرض الحديث عَنِ اليهود:

● ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

● ومن أمْثلة هذا الافتراء على الله عزّ وجلّ ادِّعاء بعض المشركين، وادّعاء النصارى، وغَيْرهم، أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ اتَّخَذَ وَلَداً.

وفي بيان هذه الفرية قال الله عزّ وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

* * *

هذه هي الكليّاتُ الْخَمْسُ الّتي حصَرَ الله عزّ وجلَّ فيها المحرَّمَاتِ الّتِي حرَّمَها على جَمِيعِ بني آدَمَ، في كلّ رسالاته الّتي بعَثَ اللَّهُ بها رُسُلَهُ، بَدْأً بآدَمَ عَلَيْه السّلام، حتّىٰ خاتم الأنبياء والمرسَلِين محمّد بن عبد اللَّهِ صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

ونُلَاحظُ في حصر المحرَّماتِ بهٰذه الكليّاتِ الْخَمْس جمعاً لِكُلّ مفردات المحرَّماتِ التفصيليَّة، فليس منها محرَّمات أهْلِ الجاهلية، كتَحْرِيم أخذ زينَتِهم في الطواف، وكتحريم بعض الطيّباتِ من الأطعمة.

وفي بيانها إشارةٌ إلى أنّ أهْلَ الجاهلية يرتكبون المحرَّماتِ، الّتي حرَّمها الله في كلّ رسالاته لبني آدم، فلا يَتَوَرَّعُون عن ارْتِكاب الفواحِشِ ما ظَهَرَ منها ومَا بطَنَ، وارتكاب أنواع الإِثْم، ولا يتَورَّعُونَ عن البغْيِ بغير الحقّ، بل هم يُشْرِكونَ بالله ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً، فيركَبُونَ مركَبَ الكُفر بذلك، وهُمْ يقولُونَ افتراءَ علَىٰ الله ما لا يَعْلَمُونَ.

في حينِ أنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ باسْم الدِّين ما أحَلَّ اللّٰهُ لبني آدم جميعاً، في كلّ رسالاته لهم، كالطواف بثياب عَصَوُا والله فيها بزعمهم. وكتحريم بعض الطيّباتِ من الأنعام والحرث، وكلُّ ذلِكَ من اتّباع أولياء من دون الله.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

تمهيد:

هذه الآية موصولةٌ بما جاء في الآيتين (الرابعة والخامسة) من الدرس الأَوّل من دروس السورة، اللّتَيْن جاء فيهما الإنذارُ باحتمال إهلاك كُفَّارِ قريْشٍ إهلاكاً عامّاً شاملاً، إذا وصَلَتْ حالُهم إلى مثل أحوال المهْلَكِين الأولين، من أهل القرون السابقة.

إنّ هذا الإنذار من شأنه أن يُحرِّكَ نفوسَهُمْ لطرح السؤال التالي: ما هو الأجَلُ المحدَّدُ لإنزالِ هذا العقاب المعجّل، إذا كان الإنذارُ أمْراً جدِّيًا صادِقاً.

فأنزل الله عزّ وجل هذه الآية (٣٤) في أثناء الدرس الثالث، فأبان فيها أنّ آجالَ إهلاك الأُمم الكافرة، الّتي كذّبَتْ رُسُل ربّها، وأكثَرتِ الفساد في الأرض، آجالٌ مقترنَةٌ بتحديدٍ من الله عزّ وجلّ على وفْق حكمته.

إنّ إنزالَ الإهْلاَك العامّ الشّاملِ في الأُمَم يُلاحَظُ فيه أحوالُ عُمُومِ الأفراد، مَتْبُوعين وتابعين، قادةً ومَقُودين، ولاَ يُلاَحَظُ فيه أفراد القادة فقط، أَوْ أفرادٌ مِنهم مع بعْضِ أتباعهم.

فاستبطاءُ نزول العقاب الشامل، بعْدَ التهديدات المتكرّرات، أمْرٌ يدُلُّ على قِصَر النَّظَر، والجهل بحكمة الله عزّ وجلّ في تَرْبيَةِ الأُمَم، وتصاريفه في عقابهم، أو إمهالِهم حتّىٰ آخر قطْرة زمنيّة يقترن بها في عِلْم الله، أنّ الأمّة ما زالَتْ فيها بَقِيَّةٌ لم ينقطع معها تَرَقُّبُ استجابةِ بعضِ أفرادها لدعوة الخير، ودخولهم في دين الله.

وحين يعْلَمُ اللّهُ عزّ وجلّ، أنَّ الإمْهالَ غَيْرُ ذي جَدْوىٰ بالنسْبَةِ إليهم، فإنّه يَقْضِي بإهلاكهم، ويُنْزِلُ بهم مَعَجّل العقاب الشامل.

التدبر:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: أي: ولكلّ أمّةٍ قَضَىٰ اللّهِ بحكْمَتهِ أنْ يُهلِكَها إهلاكاً عامًا شاملاً أَجَلٌ مُحَدَّدٌ بقضائه وقَدَرِه لإهلاكها.

كلمة ﴿أُمَّةٍ﴾ تُطْلقُ في الاستعمال القرآنيّ على كلّ مجموعةٍ حَيةٍ تجمعها صفاتٌ وخصائصُ، أو رَوَابط مُتميِّزَة.

فكلُّ أمّةٍ من النّاسِ أُرسِلَ إلَيْها رسُولٌ ليُبلّغها رِسَالَةَ رَبّها، فهي أُمّةُ بَلاغِ ذلِكَ الرّسول. ومن أجابَهُ مِنهُمْ واتَّبَعَهُ فهم أمة الإجابة، ومن قام بواجب الدعوة، إلى دِين الله من اتّباعِ الرّسُول فَهُمْ أُمَّةُ الدَّعْوَة. ومَنْ قام بواجب الجهاد في سبيل الله منهُمْ فَهُمْ أُمّة الجهاد.

والفريقُ من الأُمَّة الواحدة، إذا اجتَمَعُوا على رأيٍ واحِدٍ متميّزٍ افترقُوا به على سائر إخوانهم، تُطْلَقُ عليهم كلمة «أُمَّة».

حتّى الفرد الواحد المتميّزُ عن قَوْمه، هو أُمَّةٌ وحْدَه، وقد كان إبراهيم عليه السّلام أمّةً وحْدَهُ، إذِ انفَرَدَ بكونه مؤمناً. قانتاً لله حَنِيفاً في أوّل عَهْدِه، قبل أن يؤمن به من آمن.

والمراد بلفظ «الأمّة» هُنَا في الآية الأمّة المكذِّبة الكافرة. وأَجَلُها هو أجَلُ إهلاكها، ويقابِلُها الأُمّة المؤمِنَة، وَأجَلُهَا هو أجلُ نَصْرِها على الأمّة الكافرة، ونجاتِها بمَعُونَةٍ من اللّهِ عزّ وجلّ وتأييد.

وكلمة «أجل» تأتي في اللّغة للدلالة في ثلاثة معاني:

المعنى الأوّل: الوقت المحدّد أو المناسبِ لحصول الشيءِ وابتداءِ زمانه، مثل الأجل الذي كان في علم الله عزّ وجلّ لبِعْثَةِ محمَّدٍ ﷺ قَبْلَ بِعْثَتِه.

المعنى الثاني: غاية الوقت المحدّد لشيءٍ ما، أو المأذون به، مثل الأجل المحدّد في علم الله عزّ وجلّ لإنهاء ظروف الحياة الدنيا بقيام السّاعة.

المعنى الثالث: المدّة المحدّدة للشيء، والمحصُورةُ بَيْنَ أوّلٍ وآخر، مثل أَجَلِ اليوم، أو الشهر، أو السّنة، أو أَجَلِ الحيّ في الحياة الدنيا، أو أَجَلِ الحياة الدّنيا كلّها مُنْذ البدْءِ وحتّى النهاية.

والمراد بالأجل في الآية الّتي نتدبَّرُها يَدُورُ حوْلَ الوقت المحدّد أو المناسب لحصول الشيء، وحوْل غاية الوقْتِ المحدّد لشيءٍ ما، أو المأذونِ به.

فالمعنى: ولكلّ أُمّةٍ مُدّةُ إمْهَالٍ أو تَرَيُّث، ووَقْتٌ مُحدَّدٌ أو مناسِبٌ

لإهلاكها، إذا كانَتْ كافرةً مُفْسِدَةً في الأرض، ولنصْرِها وَتَأْيِيدها إِذَا كانَتْ مُؤْمِنَةً مُجَاهدةً صَابرَة.

● ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: أي: فإذَا جاءَ وقْتُ تنفيذ إهلاكهم، أو وقْتُ تنفيذ نَصْرِهم.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: أي: لا يتأخَّرُونَ في حالَتهم السَّابقة زمَناً ما، مَهما قلّ، ولا يتقدَّمُونَ في حالتهم الّتي هُمْ عليها زمَناً مَا، مَهما قَلَّ، أي: لا يتَمَكَّنُون من تعجيل الأجل الذي يحذفون به من المدَّة مقداراً ما إذْ لا يجري تنفيذ الأمْرِ المقرّر حُدُوثُهُ إلاّ في الأَجَلِ المحدّد تماماً، دون تأخير ولا تقديم.

اسْتأْخَر: أي: تأَخَّرَ، لُغَة.

استقْدَم: أي: تقدَّمَ، لُغَة.

والمراد بمجيء الأجَل قُرْبُ الوقت المحدّد، لا حُصُولُهُ بالفعل، وإلاَّ لَمْ يكُنْ للتقدُّم معنى. وهو نظير: قد قامَتِ الصلاة، أي: قد اقتربَ وقت القيام بأدائها.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

جاء في صدر هذا النّص نداءٌ رَابعٌ مِنَ اللَّهِ عزّ وجلّ في بيانَاتِ هذا الدَّرس، مُوَجَّهٌ لبني آدم الأوّلين، الّذين كانوا في عهد آدم عليه السّلام، فمن بَعْدَهُمْ، يَحْكيه الله تبارك وتعالَى للّناسِ، ليُبَيِّن لَهُمْ أُسُسَ الدّين الّذي أنْزَلَهُ لجميع بني آدم مُنْذُ عَهْدِهِمْ الأوّل في الأرض.

● ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾: ﴿إِمَّا﴾ حرفُ شَرْطٍ مُرَكَّبٌ من «إنْ» الشرطيّة، و«مَا» المضافة لتأكيد معنى الشرط، واصطَلح النحاة على تسميتها زائدة، أي: لغرض التأكيد.

وفِعْلُ الشرط في عبارة: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وجوابُ الشَّرْطِ في عبارة: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تضَمَّن هذا البيانُ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد وعَدَ بني آدم الأولين، بأنَّه سَيُرْسلُ لهم ولذرَارِيهم ولأجيالهم القادمة من بَعْدِهم رُسُلاً، يُبَلِّغونَهُمْ، هُدَى رَبّهم لهم، المشتَمِلَ على أوامره ونواهيَه، ووصَاياه، وشرائعه، وأحْكام دِينِهِ الذي اصطفاه لهم، ووَعْدَهُ، ووَعِيدَه، وأخبارَه، وبيَاناته، في آياتٍ يُنَزِّلُها عليهم.

وهذا الوعْدُ يتضَمَّن عن طريق اللُّزُوم الذِّهني، أنَّ أجيالَهُمْ ستتعرَّضُ لنسيان الدِّين الَّذِي بلَّغَهُمْ إيّاه أبوهم آدم عليه السلام، وستتعرَّضُ للخروج عن صراط الله المستقيم، في عقائدهم، ومفهوماتهم، ومنهاج حياتهم، حتّىٰ يكونوا بحاجة إلى إرسال رُسُلٍ من عند الله، يُبَلِّغونهم من جديدٍ عناصر الدِّين الذي نَسُوهُ أو ضَيَّعُوه، ويأمُرُونهم بتَرْكِ مَا ظهر في مجتمعاتهم من انحرافاتٍ عن دين الله، وبالْعَوْدَةِ إلى صراط الله المستقيم، ويُضيفُون إلى التعليمات السَّابقاتِ بأمْرِ الله بعض الأحكام الدِّينيَّة الّتي صارَتْ مجتمعاتُهم بحاجَةٍ إليها، مُراعاةً لسُنَّةِ التَّطوُّرِ البشريّ التكامُليّ، في تنامي التصرُّفاتِ الفرديَّة، وتزَايُدِ وَتَشابُكِ العلاقات الاجتماعيّة.

وأبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ لبني آدَمَ مُنْذُ نَشأَتهم الأولَىٰ، أنَّ الرُّسُل الّذين سيُرْسِلُهم لأجيالِ بني آدَمَ في قُرونهم الآتيات هُمْ مِنهم، أي: أفرادُ بشَرٌ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم، لا مَلائكة ولا جنّ، دلّ على هذا قول الله تعالى: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

وقد أكّدَ الله عزّ وجلّ هذا النبأَ بنُونِ التوكيد الثقيلة، لِيَضعُوا في ذاكراتهم دواماً، أنّهم إذا انْحَرَفُوا وَنَسُوا تعاليم الدّين، بعَثَ لهم رُسُلاً بشراً منهم، يُجَدِّدُونَ لَهُمْ ما كانُوا قد أَبْلَوْهُ من الدِّين، بالانحراف والتحريف والنسيان، معَ ما يُضيفُهُ الله تبارك وتعالى من بياناتٍ تكامليّةٍ، في مسائل الدين وقضاياه.

وقبل بِعْثَةِ محمد ﷺ أَخَذَ الله الميثاق على الرُّسُل وأتباعهم أن يُؤْمِنوا بالرّسُول الخاتم، ويتّبعُوهُ متَىٰ بعثَهُ الله.

وبإرسال الله عزّ وجلّ رسُولَه محمّداً ﷺ خَتَم الأنبياءَ والمرسَلين، وأكْمَل بما أنْزَلَ عليه الدّين، وتكفَّلَ بحفْظِ كِتَابه منْ أيّ تَحْريفٍ أو تبديلٍ، أو ضياعٍ أو نِسْيانٍ، فتمّتْ بذلِكَ مقتَضَياتُ الحكمة الرَّبّانيّة، وتمّ تدبير أَمْرِ دِينِ اللّهِ لعِبادِهِ، على أحْسَنِ وجْهٍ وَأكْمَلِه.

● ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾: يقال لغة: قصّ عليه الخبر، أي: حدَّثَهُ به على وجْهِه، بتَتَبُّعِ عناصِرِه، دون تَحْرِيفٍ أو تبديل. وتقولُ: قَصَصْتُ الشَّيْءَ، إذا تتبَّعْتَ أثَرَهُ شيئاً فشيئاً.

والمعنى: أنّ الرُّسل الذين سأرسلهم إليكم مِنْكُمْ في تتابُعِ أجيالِكُمْ يَا بني آدم، سيَقُصُّونَ بتَتَبُّعٍ كاملٍ، تَالين عليكم آياتي البيانيّة، الّتي سَأُنْزِلُها عليهم، فهُمْ يُبَلّغُونكم إيَّاها، وسيَتتبَّعُونَ آياتي الكوْنيّة فيُرْشِدُونكم إليها.

وفي الآيات البَيَانيّة المنزّلات الّتي يَقُصُّها عليكم رُسُلي، أوامِرُ ونواهي وتكاليف، وَوَعيدٌ لمَنْ خَالَفَ وعَصَىٰ، ووَعْدٌ بثوابٍ عظيم لمَنِ اتَّبَع وأطاع.

● ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: فَمن اتَّقَىٰ بإيمانِه وإسْلاَمِه الْخُلُودَ في عَذاب النار، ومَنْ أصْلَح فأتَىٰ من الْعَمل بما هو صالح، وأصْلَحَ نَفْسَه وعَمَلَهُ مِمَّا يتَعرَّضُ له من فسادٍ بالتّوبَة والعمل الصالح، فثوابُه عند ربّه يوم الدّين أن لا يَخافَ من عقَابٍ وعَذاب، وأن لا يَحْزَنَ على أمْرٍ فاته.

عبارة ﴿ٱتَّقَىٰ﴾ دَلَّتْ على اتّخاذ شيءٍ تكون به الوقاية، ودلَّتْ باللُّزوم الذّهنيّ على أنَّ هذا الشّيْءَ قَدْ نزَلَ به تكليفٌ في آيات الله. ودلَّتْ على أنَّ هذا التكليف قد اقترن بوعيد لمن عصَىٰ، وهذا الوعيد يشتمل على تَرتِيب عقوبة ذاتِ أَلَمٍ، وأنَّ الطاعةَ هي بمثابة الوقاية منها.

لكِنَّ مُجَرَّدَ الوقاية من العقاب لا يستَدْعي تَرتيب الثَّواب في جنَّاتِ النعيم، فجاءت عبارة: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ لتَدُلَّ على أنَّ الإصلاح يترتَّبُ عليه الوعْدُ بالثواب في جنَّات النعيم.

فعل «أَصْلَحَ» يأتي لازماً، ويأتي متَعَدِّياً. يقال لغة: أَصْلَحَ الرَّجُلُ في عَمَله، أو في أمْرِه وشأنه، أي: أَتَىٰ بما هو صالِحٌ نافعٌ. ويقال: أصلح الرجل الشيء، أي: أزال فساده.

ويحسن هنا أن يحمل فعل (أصلح) على المعنيين معاً.

والمعنى: فمن اتَّقى العقاب، وأتى بما هو صالح لنيل الثواب، وأَصْلَحَ من نفسه وعَمَله ما تَعَرَّضَ له من فساد بالتوبة والاستغفار، فاسْتحقَّ الثواب ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الخَوْف: اضطرابٌ وقَلَقٌ في النفس يَحْدُثُ عند توقُّع حُدُوث مكروه، أو تَوَقُّع فواتِ محبُوب.

الْحُزْنُ: ما يَحْدُثُ في النفس من غمٍّ وأَلَم بَسبَب نزولِ مكْرُوهٍ، أو فواتِ محبُوب.

والله عزّ وجل قد أبان لبني آدم منذ زمن الجيل الأول منهم، أنّ من اتَّقَوْا عقابَ الله وعذَابَه، فجعَلُوا بينهم وبين عقاب اللّهِ وِقايَةً بإيمانهم وإعلانِهم إسلامَهُمْ لرَبِّهم، وأَصْلَحُوا فأتَوْا بما هو صالحٌ، وأصلَحُوا بالتَّوبة والاستغفار ما تعرَّضُوا له من فساد، فَهُمْ فِئَةٌ لاَ خَوْفٌ تضطربُ به نفوسُهُمْ وقلُوبُهم يوم الدّين، بسَبَبِ تَرقُّبِ مَكْرُوهٍ من عَذَاب الله، ولاَ هُمْ يحْزَنُونَ

بسبب مكْرُوهٍ نزَلَ فعلاً بهم، أو من أجل محْبُوبٍ فاتَهُم الحصُولُ عليهم.

عبارة «عَلَيْهم» من جُمْلَةِ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ تَدُلُّ على أنَّ الخوفَ لا يسْتَعْلِي عليهم اسْتِعْلاَءَ الملازم المسَيْطر.

وعبارة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ باستعمال الفعل المضارع الذي يدلُّ على التجدُّد، تدُلُّ على أنهم لا يكونُون بحالة يتجدّدُ معَهُمْ فيها الحزْنُ.

وهذا يكون لهم في الدُّنيا وفي الآخرة.

أمّا في الدنيا فلأنّ إيمانهم بالله واليوم الآخر، وما أعَدّ الله لهم من ثوابٍ جزيلٍ خالدٍ في جنّات النعيم، يجعلُهم راضين عن الله جلّ جلالهُ تمامَ الرّضا بكلّ مقاديره، مطمئنّين لحكمته، واثقين بالثواب العظيم، الّذي سوْفَ يلْقَوْنَه يوم الدّين.

وهل يُسَيْطِرُ الخوفُ علَىٰ من يَترقَّبُ مُصِيبةً تُصِيبُهُ بُوزْنِ حَصَاةٍ، وهو يعْلَمُ بيقين أنَّ مكافأته عليها أعظم من وزن جبل؟!.

وهل يتوالَىٰ الحزْنُ على مَنْ تَنْزِل به مصيبة بمقدار حَصَاةٍ، وهُوَ يعْلَمُ بيقينٍ أنَّ ثوابَهُ عليها سوف يكون أعظم من وزن جبل؟!..

على أنّ ثواب الله عزّ وجلّ يَومَ الدّين أعْظَمُ وأجلّ.

وأمّا في الآخرة، فمن اتَّقَىٰ وأصْلَحَ فإنَّهُ لا يخاف من عقاب الله، لأنَّ رحمة الله جلّ جلالُه سَتَشْمَلُهُ بالغفران والعفو، وإنَّهُ لا يَحْزَنُ من أجْلِ محبُوبٍ فاتَه في الدُّنيا، لأنَّه سينالُ من النعيم فوقَ ما يتَمَنَّىٰ، وفوْق ما يَحْلُم به، وسيُعطَىٰ كلّ مَا يَطْلُبُ ويَشْتَهي، ومَزِيداً فَوْقَ ذَلِكَ ما كانَ يعْلَمهُ ولا يتصوَّرُه.

وفوق حالِ من اتَّقَىٰ وأصْلَحَ حال الأبرارُ، وفوقهما حَالُ المحسنين يوم الدّين.

أمّا من كان من أهل الإيمان ولكن لم يَصِلْ إلى درجة من اتَّقَىٰ وَأَصْلَح، فقد ينالُه من الخوف والحزن على مقدار معاصيه، بسبب ما ينزل به من عقاب، وما يُحْرَمُهُ من ثواب.

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾.

أيّ: والّذِينَ يَثبتُ عَلَيْهم في محكَمَةِ العدل الرَّبّانيّة يَوْمَ الدِّين، أَنَّهُمْ كَانوا في الدُّنيا قَدْ كَذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ، الَّتِي بلَّغَهَا رَسُولٌ من رُسُلِ الله، المؤيَّدينَ من عندِ اللَّهِ بالآياتِ البيّناتِ، والمعجزاتِ الباهرات، إِذْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ على الرُّغم من ثُبوتِ رسالته بالبرهان، ويَثْبُتُ عليهم في محكمة العذل الرَّبّانية، أنّهم اسْتَكْبَرُوا في أنفسهم، وامْتَنَعُوا عن امتثال مطلوب الله منهم، بفعْلِ ما أَمَرَ به، واجتناب ما نَهَىٰ عنه في آياته المنَزَّلاَتِ، هُمْ مُلازمُو النَّارِ للعذاب فيها، وهم في العذاب خالدون بلا نهاية.

الاستكبار: يأتي في اللّغة بمعنى الامتناع عن قبول الحق، معاندة وتكَبُراً. ويأتي بمعنى التكبُّر بشِدَّة، والمعنى الأوّل هو الأكثر مناسبة هنا.

وجاءت تَعْدِية فعل: **اسْتَكْبَرُوا** هُنَا بحرف الجرّ «عَنْ» لتضمُّن الفعل معنى الامتناع عن قبول ما جاء في بيَانَاتِ الله من حَقٍّ، والامتناع عن الْعَمل بما جاء فيها من أوامِرَ وَنواهيَ وتكاليف.

ولمّا كانَ هؤلاء كافِرين بَسَبب تكذيبهم واسْتكبارهم مُمْتَنِعين عن طاعة الله، وعن الإيمان بربوبيّته وبإلَهيّتِه، كانوا مستحقّين لأنْ يكونوا أَصْحَابَ النار، وأن يكونوا خالِدينَ فيها.

وجاءت الإشارة إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيدين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للدَّلاَلَة على أنّهم بَعِيدُونَ جدًّا عن مواطن تنزُّلات رَحْمَةِ الله، وهَابِطُونَ في الْعُمْقِ السَّحِيقِ الّذي يكون فيه المجرمون.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أي: ملازموها، وجاء تأكيد هذه الملازمةِ بأنَّها ملازمةُ خُلُودٍ فيها، فقال الله تعالَىٰ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وبهذا تمّ تَدبّر الدّرس الثالث من دروس السورة
والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومَعُونته

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس السورةِ
وهو الآيات من (٣٧ ـ ٥٣)

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا

وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ
عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾
وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ
لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا
تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ
عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ
ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ
فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾
وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ
فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

تمهيد:

يسير هذا الدَّرس على الخطّ الأعظم الذي سارت عليه مفهومات أكثر دروس السُّورة ومقَاصِدها، وهو الخطّ الذي دلّت عليه الآية الثالثة منها: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

إنّ تكليف الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء باتّباع ما أُنزِل إليهم من ربّهم، وبأنْ لا يَتّبِعُوا من دُونِه أولياءَ على ما سبَقَ به التدبّر، يلْزَمُ عنه عدّة أمور:

الأمر الأوّل: أن يُحَافِظُوا علىٰ ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم، فلا يُحرّفُوا فيه تحريفاً ما، ولا يُبدِّلُوا فيه شيئاً، ولا يُضيِّعوا أو يُهمِلُوا أَوْ يَنسَوْا مِنهُ شيئاً.

الأمْرُ الثاني: أنْ لا يَفْتَرُوا علىٰ اللَّهِ كذِباً يَنْسُبُونه إلى الله. ويقولُونَ: إنَّهُ ممَّا أُنزِلَ إلَيْهِم من رَبّهم، وهو من اختلاقاتهم وأكاذيبهم على ربّهم.

الأمْرُ الثالث: أنْ لاَ يُكَذّبوا بآيَاتِ اللَّهِ المنزَّلاتِ إليهم، الّتي بلّغَهُم إيّاها الرَّسُول الصَّادِق الأمين، المؤيَّدُ من الله جلّ جلاله، بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، والمعْجِزَاتِ الباهرات.

الأمر الرابع: أنْ لا يتَّخِذُوا مِنْ دُون اللَّهِ أَوْلياءَ، مِنْ شياطين الإنْسِ والجنّ، فاتّخاذُهُمْ أولياءَ يقْتَضي اتّباعَهُمْ فيما يأمُرُونَ به، وفيما يَنْهَوْنَ عَنْه، والأولياءُ من دُون الله يأمُرُون وينهَوْن على خلاف أوامر الله ونواهيه، وَيضَعُون قوانينَ وتشريعاتٍ طاغوتيّة، على خلاف شريعة الله ومنهاجِه لعباده، إذْ يَضَعُونَ القوانِينَ والتشريعاتِ الّتي يُحَقِّقُون بها أهواءَهُمْ ومصالحهم، دون مُراعاة الحقّ والعَدْلِ والصَّلاح والإصْلاح في الأرض، أو يضَعُونَها بإيحاءٍ من إبليسَ عَدُوّ بني آدم، الّذي أخَذَ الْعَهْدَ على نَفْسِه بأنْ يُغْوِيَهُمْ، حتَّىٰ يكُونُوا من الخالدين في عذاب النار، أو من الْعُصَاة المسْتَحِقِّينَ لعقاب الله وعذابه، على مقادير معاصيهم ومخالفاتهم.

وجاء في الدرس الأوّل من دروس السورة في الآية (٩) بيان أنّ الّذِين خَسِرُوا أنفسهم قَدْ خَسِرُوها بِسَبَب أَنَّهم كَانُوا بآيات الله يظْلِمُونَ.

ومشكلة إبليس الّتي جاء بيانُها في الدّرْس الثاني أنّه عصَىٰ ما أَمَرَهُ الله به، ولم يَتَّبع ما أنزل الله، وكذلك كانت مشكلة آدم وحواء.

وجاء في الدرس الثالث بيان ما أنزل الله لبني آدم الأوّلين فَمَنْ بَعْدَهم، والتَّحْذيرُ من التكذيب بآيات الله والاستكبارِ عن العمل بما جاء فيها.

فجاء الدّرْسُ الرّابع مُرَتَّباً على عناصر الخطّ الفكري الأعظم الّذي جاء بيانه في الآية الثالثة من السورة ترتيباً مُحْكماً.

التدبر:

● قول اللّٰهِ عَزّ وجلّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآية تفريعٌ ملائمٌ للخطِّ الفكري الأعظم، الممتدّ من أوّل السُّورة حتى آخِرِها، وهو خطٌّ استمرَّت تتوارَدُ عليه بياناتٌ وأفكارٌ ومَفْهوماتٌ لَهَا عَلاَقَةٌ به.

الافتراء: اختلاقُ الكذِب عن عَمْدٍ، يقال لغة: افترىٰ الحديث، أو الخبر، أو نحوهما، أي: اختلقه كاذباً عامداً.

ويقالُ: فَرَىٰ فُلاَنٌ الكَذِبَ يَفْرِيه، أي: اختلقه واصطنَعَهُ كاذباً، والاسم منه: «الْفِرْية» وجَمْعُها: «الْفِرَىٰ».

وأصْلُ معنىٰ الْفَرْي في اللُّغَة: قَطْعُ الجلْدِ، ومِنْهُ سُمّي قَطّاعُ الْجُلودِ «فَرّاء».

في هٰذه الآيَةِ يُبَيِّنُ الله عزّ وجلّ أنَّ افْتِرَاءَ الكَذِبِ علَى الله، والتَكْذِيبَ بآيَاتِ الله، يقعانِ في مُسْتَوىٰ أشَدِّ أنواعِ الظُّلْم، فلا يُوجَدُ بَعْدَهُما أشَدُّ منهما، ولكِنَّ هذا لا يمنَعُ من وجُودِ ظُلْمٍ آخَرَ هُو في دَرَكَتِهما من الخِسَّةِ والإجرام.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟: استفهامٌ عن وُجُودِ الأَظْلَم، وهذا الاستفهامُ يُشْعِرُ بأنَّهُ لاَ يُوجَدُ أظلَمُ ممَّنْ افترَىٰ علىٰ الله كذِباً، أَوْ كَذَّبَ بآياته.

وقد جاء في القرآن مثْلُ هذا التعبير بالنسبة إلىٰ مَنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه ثُمّ أَعْرَضَ عَنْها، وبالنِّسْبَةِ إلىٰ مَنْ منعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَنْ يُذكَرَ فيها اسْمُه وسَعَىٰ في خرابها، وبالنسبة إلى مَنْ كَتَمَ شَهادَةً عنْدَه مِنَ الله.

ويدخُلُ الزَّنَادِقَةُ والملاحِدَةُ في المكذِّبين بآيات الله.

وقد جاء هذا البيان: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟ بأسْلُوب الاستفهام الاستنكاريّ التوبيخيّ، المتضمّنِ التعظيمَ من شَناعة وفظاعة جُرْمِ مَنْ يَفْتَرِي على الله الكذِبَ، وهُمْ مُدَّعُو النُّبُوَّةِ الكذَّابُونَ، والَّذِينَ يُحَدِّثُونَ أَحَادِيثَ يكْذِبُون بِها على اللَّهِ ورسُولِه، مُفْتَرِينَ في دِينِ الله، والتعظِيمَ من شناعَةِ وفَظَاعة جُرْمِ مَنْ يَسْتَمِعُ إلى آيَاتِ الله المنَزَّلاَتِ على رسُوله، ويَعْلَمُ أَنَّها من كلام الله، أو تَدْمَغُهُ الحجَّةُ بأنَّها من كلام الله، ثُمَّ يكذِّبُ بها، فَلاَ يَقْبَلُها اسْتِنْكافاً عن أن يعَمَلَ بها.

وبعد بيان أنَّ هٰذيْنِ الفريقين من أظْلَم الظَّالِمِين المجرمين، ذكر الله عزَّ وجلّ عنهم قضيَّتَيْن:

القضيَّةُ الأولى: تتعلّقُ برحلَتِهِمْ في الحياة الدنيا، حتَّى لحظة وفاتهم، فقال الله عزّ وجلّ بشأنهم فيها:

● ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴿٣٧﴾﴾.

يَنالُهُمْ: أي: يَصِلُ إليهم، يُقالُ لغة: نَالَهُ الشيءُ، أي: وصَلَ إليه، وهذا المعنى من معاني هذا الْفِعل هو المناسِبُ هُنا.

ويُقَالُ لغة: نَالَ فلاَنٌ الشيءَ، أي: حصَلَ عليه، وأدْرَكَه وبلَغَهُ، ويقال: نَالَ الرَّجلُ فلاناً الشيْءَ، أيْ: أعْطَاهُ إيَّاه. ويقالُ: نَالَ مِنْ عَدُوّه، أي: وتَرَه، ونالَ من عِرْضِه، أي: سَبَّه.

نَصِيبٌ مِنَ الْكِتَاب: أي: حظٌّ ممّا قضاه اللَّهُ وقدّره لهم من متاع الحياة الدُّنيا، في رِحْلة ابتلائهم، وكتَبَهُ لهم ضِمْنَ ما كتَبَ من معْلُومَاتٍ مستقْبَلِيَّةٍ عنهُم.

النَّصِيب: هو الحظُّ من كُلّ شيءٍ، والجمْعُ: «أنصِبَاء» و«أنْصِبَة»

و«نُصب». والحظُّ في الأصلِ يكونُ في الخير، وهو كذلك في الاستعمال القرآنيّ، والنصيبُ يستَعْمَلُ غالباً في الخير، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ في الشرّ.

القضيّة الثانية: تتعلّقُ ببيان حالَتِهِم حينما تأتيهم ملائكة الموْتِ يَتَوَفَّوْنهم، فقال اللّهُ عزّ وجل بشأنهم فيها:

- ﴿.. حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

إنّهم بافترائِهِمْ على اللّهِ كَذِباً، أَوْ تَكْذِيبهم بآياتِ الله، لاَ بُدَّ أن يكونُوا قد اتَّخَذُوا من دون الله أولياءَ، فَهُمْ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونَ الله، أي: يعْتَبرونَهُمْ آلِهَةً لَهُمْ مِن دُونِ اللّهِ يَأْتَمِرون بأَوامرهم، وينْتَهُون عَمّا يِنهَوْنَهُمْ عنهُ، ويَتّبِعُونَ قوانِينَهُمْ وأنْظِمتَهمُ الطّاغوتيّة، ويَسْتَمِرُّ حَالُهم كذلك حتّىٰ تَنْتَهِيَ آجال أعْمارِهم في الحياة الدنيا، فتجيئهُمْ حينئذٍ مَلائكة الموْت الّذين يُرْسلُهم الله إليهم لقبض أرواحهم.

فإذا جاءتْهُمْ ملائكةُ الموْتِ انكشفَتْ لهم عندئذٍ حقائق منْ أمُور الآخرة.

وعندئذٍ تقولُ لَهُمْ ملائكَةُ الموْتِ بأمْر الله: أيْنَ ما كُنتُمْ تَدْعُون من دُونِ الله؟ أي: ليَدْرَؤُوا عنكم الْعَذَابَ النازِلَ بكم، بِسَبَبِ كُفرِكم برَبّكم، وبِسَبَبِ شِركِكُمْ، وليَحْمُوكُمْ ممّا سَوْفَ تَصِيرُونَ إليه من عذاب جهنَّمَ.

فلا يجدُون جواباً إلاّ أنْ يقولُوا: ضَلُّوا عَنّا، أي: لاَ نَعْلَمُ عَنهُمْ شيئاً، إذْ لا نَجِدُ لهم وُجوداً، ولا نَجِدُ مِنْهُمْ نفعاً، إِنَّهم لاَ يَدْفَعُونَ عَنّا الموْت، ولاَ يَدْفَعُون عنّا شيئاً من العذاب.

فتَقُول لهم الملائكة: إذَنْ كُنتُمْ كافِرِين بما جَاءكم به رُسُولُ رَبّكُمْ، فَكَذَّبْتموهُ، وكَذَّبتُمْ بآياتِ الله.

فيقولُونَ: نَعَمْ، ويَشْهَدُونَ على أنْفُسِهِمْ بأنَّهُمْ كانوا كافِرِين.

● ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾: أي: يسْتَمِرُّون في الحياة الدُّنيا يَفْتَرُون على الله كذِباً، ويُكذّبون بآياتِه، ويستَمْتِعُونَ بما قضىٰ الله لهم من نَصِيبٍ منْ متاع الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ وقْتِ مَجِيء رُسُلِنا من الملائكة إليهم لقبض أَرْواحهم، وإنْهاءِ رحْلَةِ امتحانهم.

● ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾: أي: يقْبضُونَ أرْواحَهُم وَيَنْتزِعُونَها من نفوسهم، أو يتَرَقَّبُونَ اسْتيفاءَهُم كُلَّ نصِيبهم من لحظاتِ ما قُضِيَ لَهُمْ من عُمْرٍ، وما قُضِيَ لهم من رزقٍ ومن مَتاعِ الحياة الدّنيا، فإذَا اسْتَوْفَوْهَا قَبضُوا أَرْواحَهُمْ.

● ﴿..قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ..﴾؟.

جاء التعبيرُ هُنَا على طريقة الاستقطاع ممَّا سيَكُونُ حتَّىٰ كأنَّهُ يجري الآن، وهي من روائع فُنُون الأدَب القرآني.

أي: قال ملائكةُ الموْتِ لَهُمْ: أيْنَ الشّركاءُ الّذِينَ كُنتُمْ تجعَلُونَهم شركاءَ لله افتراءً علَيْه، حتَّىٰ يَدْفعُوا عَنْكُمْ عَذابَ الله، أو يَشْفعُوا لكم عِنْدَه.

الاستفهامُ هُنَا فيه معنَىٰ التَّقْرِيعِ والتوبيخ، مع ما فيه من اسْتِجْوابٍ لإثبات كُفرهم.

● ﴿..قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ..﴾: أي: قال المفتَرُونَ على اللّهِ والمكذِّبُونَ بآيَاته الَّذِينَ اتَّخذُوا من دُون الله أولياء: ضَلُّوا عَنا.

أي: لا نَعْلَمُ عَنهُمْ شيئاً، تقولُ لغةً إذا ضَاعَ منْكَ شيءٌ، فلَمْ تهتَدِ إليه، ولا تَعْلَمُ عنهُ شيئاً: ضَلَّ عَنِّي.

● ﴿..وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾:

دلَّتْ هٰذه العبارةُ على أنَّ الملائكة المرسَلِين إليهم لقبض أرْواحِهم، يَسْأَلُونهم عَنِ الرَّسُولِ، وعَنِ آيَات اللّهِ الّتي بلَّغَهُمْ إيَّاهَا الرَّسُولُ عَنْ رَبِّه،

فيُجيبُونَ إجَاباتٍ تَدُلُّ على أنَّهُمْ كانُوا فِي الحياة الدّنيا كَافِرِين، وهٰذِهِ الإِجَاباتُ هيَ شَهَادَةٌ مِنهُمْ علىٰ أنفُسِهم بأنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِين.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

- قرأ «رُوَيسٌ» عن «يعْقُوبٍ»: [فَآتِهُمْ] بضَمّ هَاء الضّمِير وهي من لغات الْعَرَب.

- وقرأ «شُعْبَةُ» عن «عَاصِم»: [وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ] بياء الغائبين، أمَّا قراءةُ جُمْهورِ الْقُرّاء العشرة فهي: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ بتاء المخاطبين، وبين القراءَتَين تكامُلٌ في الأداء البياني. إحْدَاهُما لخطاب أصْحَاب الْحوَار، والأخرىٰ لخطاب غيرهم عَنْهُم.

يُلاحظُ في هذا النّصّ أنَّ الْبيَانَ الْقُرآنِيَّ يَقْفِزُ من تَصْوِيرِ مَشْهَدٍ مِنْ مشَاهِدِ ما يَتَعَرَّضُونَ لَه حَالَةَ قَبْضِ أرْواحهم، إلى بَيَانِ لقَطَاتٍ من مَشَاهِدِ أحوالهم يوْمَ الدّين، بعْدَ الْحِسَابِ، وفَصْل القضاء، وهٰذا أُسْلُوبٌ رفِيعٌ من الإِبداع الْفَنّي.

وقد اشتمل هذا النصّ على أرْبَعِ لقطات:

اللّقطة الأُولى:

دَلَّ علَيْها قوْلُ الله عزّ وجلَّ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ..﴾.

أي: قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ لهم هذا القول، هذا هو الظّاهِرُ وَلاَ حاجة للعُدُول عَنْه.

- ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾: الخطابُ مُوجَّهٌ للّذين كانوا في ا لحياة الدنيا قد افتَرَوا علَىٰ اللَّهِ كذِباً، وللذّين كذَّبُوا بآيات الله.

- ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾: أي: ادخُلُوا حتَّىٰ تكونوا ضِمْنَ هٰذِهِ الأُمَمِ الّتِي مَضَتْ سَابقَةً لَكُمْ إلى مَواضع عَذَابِها في النار، لِيَكُونَ كلُّ فريقٍ منْكُمْ مَعَ نَظِيرِه من هٰذِهِ الأُمَم السَّابقة إلى النار بالنظر إلى إمَامَتِها وقيادَتِها لَكُمْ في الضلالِ والكُفْرِ والإجرام، وبذلِكَ يُجْمَعُ الأَتْبَاعُ مع مَتْبُوعيهم وَأئِمَّتِهِمْ وقَادَتِهم.

وقد ذَكر اللَّهُ عزّ وجلّ أنّها أُمَمٌ، لِأَنَّها مختلفة المذاهب، والطرائقِ الكُفْرِيَّةِ والإِجْرَاميّة.

- ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: أي: قَدْ مَضَتْ وَذَهَبَتْ، ودخلَتْ في النار، بَعْدَ مُحَاكَمَتِها، وفصْل القضاء بشَأْنها.

- ﴿مِن قَبۡلِكُم﴾: أي: حُوكمَتْ وَفُصِلَ القَضاءُ بشأْنِها وأُمِرَتْ بأَنْ تَدْخُلَ في النّار من قبْلكُمْ.

- ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾: جاء تقدِيمُ الجنّ على الإنْسِ هُنَا لأنَّهُمْ أسْبَقُ وُجوداً في دار الامتحان من الإنسِ، ولأنّ إبْلِيسَ وجُنُودَهُ من الجنّ أَوْلَىٰ بأنْ يكونُوا المحكومَ عليهم بالعذاب في النار، لحمْلِهِمْ جَرِيَمَة الإغواء والإضلالِ والإبْعَادِ والإخراج عن صراط اللَّهِ المستقيم عناداً وكُفْراً.

حرْفُ «في» من عبارَتَيْ: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ و﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ على مَعْنَاهُ الأَصْلِيّ الظّرْفي، ولا داعيَ لصَرْف الأوّل منهما عن هذا المعنى، وَجعْلِه بمعنى «مع» لأنَّ الأُمَمَ المذكورة قد سبقتهم في دخول النار، فلا مصاحبة لهم عند الدُّخول، وأمّا مصاحَبَتُهُمْ داخل النّار فهي مصاحبَةُ الداخِلِ ضِمْنَهُمْ، المشارك لَهُمْ في أنواع عذابهم.

اللّقطة الثانية:

دلَّ عليها قولُ الله عزَّ وجلّ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾:

هٰذه اللقطة مقتَطَعَةٌ من وصْفِ توارُدِ الأتباع، ودُخولهم ضمن المتبوعين في النار، إذْ يلْعَنُ كُلُّ فَوجٍ داخلٍ من الأتْباع أئمَّتَهمُ وقادتَهُمُ الّذين أضلُّوهم في الدُّنيا، والّذين سيكُونُونَ داخِلِينَ ضِمْنَهُمْ في العذاب داخلَ النار.

- ﴿كُلَّمَا﴾: تَدُلُّ على أنَّ حركة التوافُد على النار تتكَرَّرُ أفْواجاً فأَفواجاً. أي: كُلَّما دخلَتْ أُمَّةٌ تجمَعُها جَامِعَةٌ ما منَ الأتباعِ لَعَنَتْ أخْتَها السّابقة لها إلى النّارِ مِنَ الأئمة القادةِ المتْبُوعين.

وأعْطَاهُما اللّٰهُ عزّ وجلَّ وَصْفَ الأُخُوّة بينهما، لاشتراكهما في طريقة الكُفْر وأعمال الكُفر، إذ الكُفْرُ أنواعٌ ومذاهِبُ شتّىٰ، ويَجْمَعُ اللّٰهُ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُهُ في دار العذاب يَوْم الدّين، كُلَّ ذِي نَوْعٍ من الكُفْر مع أفراد نوعِهِ وأشباهِهِ ونظائره.

فيقول الأتباع الّداخِلُونَ في النار، لإخْوانهم في طَرِيقَتِهم الكُفْرِيَّة من أئِمَّتِهم الّذِين سبَقُوهُمْ إليها: لَعْنَةُ اللّٰهِ عليكُمْ، لَقَدْ كُنْتُمْ سَبَبَ ضَلاَلِنَا وإغْوائِنا.

اللّقطة الثالثة:

دلّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿..حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾: أي: حتّىٰ إذا انْتَهَىٰ تَلاَحُقُهُمْ وتتابُعُهُمْ واستَقَرُّوا في مواضعهم من النار جميعاً.

يقال لغة: ادّارَكَ الْقَوْمُ، وتداركُوا، وادَّرَكُوا، أي: تَلاَحَقُوا وتتابَعُوا

حتَّىٰ لحِقَ آخرُهم أوَّلَهم، ومعلومٌ أنّ هٰذه الغاية تكون مقترنةً باستقرارهم في مواضعهم.

● ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾: أي: قالَتْ أُمَمُ الأَتْباع الَّذِينَ تَلاَحقُوا بَعْدَ أُمَمِ القادَةِ المتبُوعِين، فأُمَمُ الأتباع هم الأُخْرَىٰ، وأُمَمُ القادة هم الأولى الّذين سبَقَ إدْخالهم في النار.

اللاّم في: ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾: قالوا: هي للتعليل، أي: لأجل إضْلالِ أُولاهم لهم، يسْأَلُونَ الله عزّ وجلّ أنْ يُضاعِفَ لهم العذابَ مِنْ حَرِيق النار.

أقول: تأتي «اللّام» الجارّة بمعنى «عَنْ» وحمْلُها هنَا على مَعْنَىٰ «عَنْ» أقْرَبُ وأولى، والمعنى: قالَتْ أُخراهُمْ عن أَولاَهم.

وتأتي أيضاً بمعنى «على» وهذا المعنى مناسبٌ هنا أيضاً، أي: وقالت أُخْرَاهُمْ على أَولاَهم، أي: قولاً له استعلاءٌ على أولاهم بُدعَاءٍ يقتضي أَنْ يُنْزِلَ اللّهُ عليهم عذاباً زائداً.

● ﴿..رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

الضِّعْف: يأتي في اللُّغَة بمعنَيَيْن:

الأوّل: المِثْل.

الثاني: تضْعِيفُ الشَّيْءِ مِثْلَيْنِ فأكثر.

استعملَتْ كَلِمةُ «ضِعْف» في هذا النَّصّ مرَّةً بمعنَى تضعيف الشيء إلى مثْلَيْن فأكثر، واسْتُعْمِلَتْ أُخْرى بمعْنَىٰ مثْلِ الشيءِ. فالأتْبَاعُ سألُوا ربَّهُمْ أن يُؤْتِيَ قادَتَهُمْ مِثْلَيْنِ فَأَكْثر من الْعَذَاب لأنَّهمْ كانوا سَبَبَ ضَلاَلِهم.

وأجابَهُمْ رَبُّهُمْ بأنّ لكلّ منكُم وممّن كانوا قادتكم وائمَّتَكُمْ في الدنيا ضِعْفَ جُرْمِه، أي: مِثْلَ جُرمه، وهذا لا يُستَدْعي تماثُل الجزاء بين

الفريقين، فالجزاء الْمُمَاثِلُ لمنْ كان في الدنيا ضَالاً مُضِلًّا، أعْظَمُ وأشَدُّ مِن الجزاء الْمُمَاثِل لمَنْ كان في الدنيا ضَالاً فقط ولم يكن له كَسْبٌ مَا في إضْلالِ غَيْرِه.

● ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾: أي: إنَّكُمْ قَدْ تكونُونَ في موقعٍ واحدٍ من عذَابِ النَّار، ويكونُ بعْضُكُمْ أشَدَّ عذاباً من بعض، ونظير هذا مُشاهَدٌ في لذَّاتِ الدُّنيا وفي عذابها، فقد يكون معذبَانِ بنوع عذابٍ واحدٍ وهما متجاوران، وإحْسَاسُ أحَدِهِمَا بالعذاب أشَدُّ كثيراً من إحْسَاس الآخر.

والْعَدْلُ الرَّبَّانيُّ يوْمَ الدِّينِ هو الحاكم بتَحْدِيدِ مقدارِ عذابِ كلِّ مُعَذَّبٍ بحَسَب جُرْمه.

واستمال كَلِمَةِ «ضِعْفٍ» في هٰذا النَّصّ بأحَدِ مَعْنَيَيْها مَرَّة، وبالْمَعْنَىٰ الآخر مَرَّةً أُخرىٰ، من بديع فُنُونِ الاستعمالاَت القرآنية.

وهٰذه اللقْطَةُ تَحْكِي الصُّورَةَ المسْتَقْبَلِيَّة كأنَّها صورةٌ وقَعَتْ ومَضَت، وهذا من بَدِيعِ التَّصْوِير الْفَنِّي، والغرضُ الفكْرِيُّ منه بيان تحُققِ وقوعه في المستقبل.

وسبَقَ في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) بيانُ أن الأتباع يَدْعُون رَبّهم قائلين:

﴿..رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ۝٦١﴾.

لكِنْ لَمْ يُجبْهُم الله عزَّ وجلّ على دُعائهم الذي أبَانته سورة (ص/٣٨ نزول) لإشعارهم بأَنْ عَدْل الله قائم على أنَّ جَزاء السَّيِّئةِ يكُون بِمِثْلِها، ومعْلُومٌ أنَّ جَرِيمتَي الضَّلالِ والإضلالِ أشدُّ من جَرِيمَة الضَّلال فقط.

ويظهَرُ أنَّهُمْ لم يفْهَمُوا من إعراض الله عن إجابتهم هذا الْمَعْنَى. فكَرَّرُوا دُعاءَهُم، فجاء بيان إجابتهم في سورة (الأعراف/٣٩ نُزول).

اللقطة الرابعة:

دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وقالَتْ ﴿أُولَىٰهُمْ﴾ وهم القادة والأئمة السَّابِقُونَ لدخول دار العذاب: ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ وهم الّذين كانوا في الدينا أتباعاً لهم، لَمْ تكُنْ حالُكُمْ في الدُّنيا أخفَّ سُوءاً وشرًّا من حالِنَا، ولولا أهواؤكم وشهواتُكم ورغباتُكُمْ مِنْ زينَةِ الحياة الدنيا ما استجبْتُمْ لدعوتنا، وما اتَّخَذْتُمونا قَادَةً وأَئِمَّةً لَكُمْ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ مَا، مَهْمَا كانَ قَلِيلاً، حتَّىٰ تَسْألُوا رَبَّكُمْ أنْ يجْعَلَ عَذابَنَا مُضاعفاً. ويَتوَهَّمُونَ أنّ مَشارَكَةَ أَتْباعِهِمْ لَهُمْ في مَوْقع الْعَذَاب، تَقْتَضي مشارَكَتَهُمْ لهم في مِقْداره، فَيُقولون لَهُمْ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: المُمَاثِلَ لِعَذَابِنا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ.

ويَغْفُلُونَ عَنْ أنّ تَشابه صورة العذاب لا يلْزمُ عَنْه تَمَاثُلُ الإحْسَاس به.

كَسْبُ الشيء: فعله، وكَسْبُ الإثْم تحمُّله باخْتِيار الكاسب.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

● قرأ أبو عمرو: [لاَ تُفْتَحُ] وقرأ حَمْزَة والكِسَائي وخَلف: [لاَ يُفْتَحُ] بالياء وقرأ الباقون: [لاَ تُفَتَّحُ] وهي وجوه عربيّة مُتكافئة، وفي: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ المشدَّدَة معنى أنّه لا سبيل إلى فتحها، مهْمَا اتُّخِذَت الوسائل المشدَّدَة لذلك، فالتشديدُ يدلُّ على معنى تأكيدِ عَدمِ فَتْحِ أبواب السَّماءِ لَهُم.

هاتان الآيتان سائرتان على الخطّ الأعظم من خطوط موضوع السورة: الذي جاء بيانه في الآية (٣) منها.

وجاء قبلهما على هذا الخطّ الآيتان (٣٦ ـ و ـ ٣٧).

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾.

جاء تأكيد الجملة هُنا بمُؤكّدَيْن: «إنَّ ـ والجملة الأسميّة» لرفعِ تَوهُم أَنَّ أرواح الكافِرين تَصْعَدُ بها الملائكة إلى السَّماءِ بَعْدَ الموت، إذْ تُفَتَّح أبواب السَّماءِ لأرواح المؤمنين التي تَحْمِلُها الملائكة. لِكنَّ أرواح الكافرين تُرَدُّ لخُبْثِها.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: كذَّبُو رُسُلَنَا الّذِينَ بلّغُوهم آياتنا المَنزَّلات من عندنا، فزعَمُوا أَنّها مُفْتَرَيَاتٌ علىٰ اللّهِ فكَذَّبُوا بها.

- ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾: أي: واسْتكْبرُوا عَلَىٰ طاعَةِ ربّهم، وامتَنعُوا عَنِ العَمَل بما تضمَّنَتْهُ آياتُه لهم.

وقد جاء الخبر في هاتين الآيتَيْنِ مُفصَّلاً في سِتِّ قضايا من الأخبار الغيبية:

القضية الأولى:

دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾:

إنّ الحديث عن تَوَفّي الملائكة لهم الوارد في الآية (٣٧) قرينَةٌ على أنّ أبواب السّماء لاَ تُفتَّح لأرواحهم بعْدَ قَبْضها إذا صَعِدَتِ الملائكة بها، بل تُرَدُّ لِمَا حَمَلَتْهُ من خُبْثِ نَفْسِ صاحبها، ونَتْنِ أعماله.

وقد ورَدَ بهذا بيان عن النبيّ ﷺ في رواياتِ مختصراتِ وَمُطَوّلاَتٍ، وبَعْضُ المختصرات منها رواه مسلم.

ومن المطوّلاَت بإسناد صحيح، ما رواه أحمد، وأبو داود، وابْنُ

خُزَيمة، والحاكم، والْبَيْهَقِيُّ في شُعَب الإيمان، وغيرهم، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهمْ أَكْفَانٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وحَنُوطٌ من حَنُوطِ⁽¹⁾ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مُلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ، فَتَخْرُجُ، فَتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرةُ مِنْ فِي السِّقاء⁽²⁾، فَيأْخُذُها، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحنُوط، ويَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وجْهِ الأَرْضِ. فَيصعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ عَلَىٰ مَلإٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِلاَّ قَالُوا: مَا هٰذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟

فيقولُون: فُلَانُ بْنُ فُلانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهِ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ إِلى السَّمَاءِ السَّابِعَة، فَيَقُولُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ:

اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوا عَبْدِي إلى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وفِيهَا أُعِيدُهُمْ، ومِنها أُخْرِجُهُمْ تارَةً أُخْرَىٰ.

فَتُعَادُ رُوحُهُ، فَيأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فيقُولَانِ له: مَنْ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ.

فَيَقُولَانِ له: مَا دِينُكَ؟.

---

(١) **الحَنُوط**: كُلُّ ما يُخلَطُ من الطيب لأكْفَان الموتى وأجسادهم، من وزدٍ ومِسْكٍ وعَنْبَرٍ وَصَنْدَلٍ وَكافُورٍ ونحو ذلك.

(٢) **مِنْ فِي السِّقاء**: أي: من فم السقاء.

فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ.

فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله.

فَيَقُولاَنِ له: وَمَا عِلْمُك؟

فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ.

فُيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وافْتَحُوا لَهُ باباً إلى الجنةِ فيأتيه من رَوْحها وطيبها ويُفسحَ له فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِه، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُول: أَبْشِرْ بالَّذِي يَسُرُّكَ، هٰذا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ له: مَنْ أَنتَ؟. فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بالْخَيْرِ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَة. حتَّى أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي وَمَالي.

وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ، إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَة، نَزَل إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلاَئِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ⁽¹⁾، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وغَضَبٍ، فَتَفرَقُ فِي جَسَدِهِ⁽²⁾ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ⁽³⁾ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَة عَيْنٍ، حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بها، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا

---

(١) الْمُسُوح: ثِيَابٌ خَشِبَةٌ مِنْ شَعْرٍ يلبسها الرهبان.

(٢) فَتَفرَقُ فِي جَسَدِه: أي: فَيَشْتَدُّ خَوْفُها.

(٣) السَّفُود: عُودٌ مِنْ حَدِيدٍ يُنْظمُ فيه اللَّحم لِيُشْوَى.

عَلَىٰ مَلأٍ مِنَ الْملاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا: مَا هٰذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟!. فَيَقُولُونَ: فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنيا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلاَ يُفْتَحُ له، ثُمّ قَرأَ ﷺ: ﴿..لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾.

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِه، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ.

فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟.

فَيَقُولُ: هَاهْ، هَاهْ، لاَ أَدْرِي.

فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟.

فَيَقُول: هَاهْ، هَاهْ، لا أَدري.

فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟.

فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ، لاَ أَدرِي.

فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَىٰ النَّار، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ أَضْلاَعُهُ(١)، ويَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هٰذَا يَومُكَ الَّذِي كُنتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ: مَنْ أَنتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجيءُ بالشَّرّ؟

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخبِيثُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ».

وعلى ما جاء في هذا الحديث ينبغي أن يُحْمَل قول الله عزّ وجل:

---

(١) حتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلاَعُهُ: أي: تُضغَطُ حتَّىٰ تَتَغَيَّرَ مواضِعُها عن سوائها. والمراد ما يحصُلُ لديه من شُعُورٍ نَفْسِيٍّ مُمَاثِلٍ لهذا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وتُوجَدُ عنْدَ بعض المفسّرين آراءٌ أخرىٰ لاَ تَصْلُح بياناً لكَوْن أبواب السَّمَاءِ لاَ تُفتَّح لهم.

وجاء في هذا الحديث ذكْرُ «عِلّيينَ» وَذِكْرُ «سِجّينِ».

أَمّا عِلّيُّونَ فَهُوَ كِتَابٌ خَصّصَهُ الله لِتَسْجِيلِ المؤمنين فيه، ويشْهَدُهُ المقَرَّبُونَ من الملائكة، ومكانُهُ في مَوْضعٍ سماويٍّ رفيع أخذاً من الحديث.

وأمّا سِجّينٌ فَهُو كِتَابٌ خَصَّصَهُ الله عزَّ وجَلّ لتسجيل الكافرين فيه، ومَوْضِعُه في الأرض السُّفْلَىٰ، أخْذاً من الحديث.

وقد جاء بيان هٰذَيْنِ الكتَابَيْنِ في سورة (المطفّفين/ ٨٣ مصحف/ ٨٦ نُزول) فقال اللّٰهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾.

وقال الله عزّة وجلّ فيها أيضاً:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾.

القضيّة الثانية: (بشأن الّذِين كَذّبُوا بآيات الله واستكبروا عنها).

دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ..﴾.

دلَّت هٰذِهِ العبارة علىٰ أنّ اللّٰهَ عزّ وجلّ قَدْ أصْدَر بشأن هؤلاء أمْراً مُبْرماً مَقْطُوعاً به، لاَ رَجْعَةَ فيه، فهو أمْرٌ من سُنَنِ الله الثّابتة الّتي لا نقْضَ لها وَلاَ تغيير فيها، وهو بمثابة استحالَةِ أن يَدْخُلَ الشّيْءُ الكَبِيرُ العظيم، مع بقائه على وضْعِهِ عظيماً كبيراً، في الثّقْبِ الصّغير شَدِيدِ الصّغر، كَثقْبِ الإِبْرَةِ، مع بقائه على وضْعِهِ صَغِيراً شديدَ الصّغَر، وهذا الأمْرُ يقضي بأن لا يَدْخلُوا الجنّة.

وجاءت العبارة بأسْلُوبِ تمثيل أَدَبِيّ، لتأكيدِ عَدَم احتمال دخُولهم الجنَّة، كيْفَ يَدْخُلونَ جَنَّة اللَّهِ الّتي أعَدَّها للمؤمنين المتقين، وهم قد كذَّبوا بآيَاتِ الله، واسْتَكْبَرُوا على طاعَةِ الله، واستنكَفُوا عن العمل بها.

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ﴾: أي: حتَّىٰ يَدْخُلَ، تقول لُغَةً: وَلَجَ الشيْءُ في غَيْرِه يَلِجُ لِجَةً وَوُلُوجاً، أي: دخل فيه. وتَقولُ: وَلَجَ الْبَيْتَ، إذا دخَلَهُ، فهُوَ وَالِجٌ.

﴿ٱلْجَمَلُ﴾: هو الحيوانُ المعروف مِنْ بَهِيمَة الأنعام.

﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾: أي: في ثَقْبِ الإِبْرَةِ الّتي تُخاطُ بها الثياب عادةً.

إنّ من أساليب بيان استحالَةِ وُقوعِ شيءٍ ما، أو التأكيد على أنّه لن يقع ولَوْ لم يكن مستحيلاً في ذاته، تَعْلِيقَه بأمْرٍ مستَحيلٍ في ذاته، أوْ مستحيلٍ بمقتضىٰ الْقَانون العامّ للأسباب والمسبَّبَات.

ومن المعلوم أنّ من المستحيلاتِ أنْ يَدْخُلَ هذا الحيوان العظيمُ المعروفُ باسم الجمل، وهو على وضعِهِ وعِظَمِهِ، دُون تغيير في خصائصِهِ وصفاته الجسديَّة والنَّفسِيَّة، في ثُقْبِ الإبْرَة التي يخيط بها الخيّاط من النّاسِ الثيابَ، مع بقائها على وضْعِها، وبقاء ثقبِهَا على مقدارِه كما هو معروفٌ عند الناس.

فالله عزّ وجلَّ يُخاطِبُ النَّاسَ في هذا النّصّ بِحَسَب ما يَعْرِفُون من الجمل وصفاته، وبحسَبِ ما يَعْرِفُون من الإبْرَةِ وصفاتها ومقْدارِ ثُقْبِها.

وكُلُّ تأويل احتماليّ يعتمدُ على تَغْيِيرٍ في صفاتِ الجمل المعروف، وصفاتِ الخِيَاطِ المعروف، هو من التلاعُبِ في دلالة النّصّ، وهُوَ مرفوضٌ عقلاً وشرعاً، فقد أثبتت النُّصُوص القرآنيّة الكثيرة أنَّ الكافرين خالِدُون في دار العذاب النار، وخلودُهم فيها يَقْتضي حتماً أنّهم لا يَدْخُلُونَ الجنَّةَ بحَالٍ من الأَحْوال.

ولهذا البيان القرآنيّ نظَائِرُ كَثِيرَةٌ في استعمالات النّاس الأدبيّة، وفي

تعبيرات الأدباء من ناثرين وشعراء، كقَولِ القائلِ لِقطْعِ أمَل طَامِعٍ بأمْرٍ ما: نُجومُ السَّمَاءِ أقْرَبُ لكَ.

وتوحي هذه الصّورة القرآنيّة، بأنَّ أمَلَ أصحاب النار الخالِدِينَ فيها بأن يخْرُجوا منها، ويَدْخُلوا الجنَّة، كَأَمَلِ جَمَلٍ لاَ عَقْلَ له، يُراقِبُ ثَقْبَ إبرَةٍ أنْ ينفَرِجَ لَهُ، فَيَلِجَ فيه، لِيَصِلَ إلى حَيْثُ بجدُ مَا يطْلُبُ، ممّا تَشْتَهِي نفسه.

وفي هذا إبداع رائع في وصف حال الخالدين في النار إذْ يطمعون في دخول الجنة.

القضية الثالثة:

دلّ عليها قول الله عزج وجل في النصّ: ﴿.. وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: وكذلِكَ الجزاء الّذي نجزيه الّذين كذّبوا بآياتنا واستكْبَرُوا عنها، نَجْزي سَائِرَ الْمُجْرِمين. فكُلُّ المجرمِينَ لاَ تُفَتَّحُ لأرواحهم أبواب السَّمَاءِ بَعْدَ قَبْضِها، ولا يدخلون الجنَّةَ يَوْمَ الدّين، أمْراً من عند الله مُبْرَماً مقطوعاً به.

الْمُجْرِمُ: هو في اللّغة مُرْتِكبُ الذّنب. يقال لغة: أَجْرَمَ فلان، أي: ارتكَبَ جُرْماً. ويقالُ: أجْرَمَ علَيْهم، وأجْرَمَ إليهم، أي: جنَىٰ جِنَايَةً.

والْجُرْمُ: الذّنبُ، ويجمع على «أجرامٍ» و«جُرُوم».

وقد نظرتُ في الاستعمالات القرآنيَّةِ فرأيتُ أنّ فعل «أَجْرَمَ» واسم الفاعل منه «مُجْرم» يُقَابل فِعْلَ «أسْلَم» فهو «مُسْلِمٌ».

فالمجرمون: هم الكافرون كُفراً إراديًا مع علمهم بالحقّ الَّذي جاء به المرسَلُون، فمن يأتي رَبَّهُ مُجرِماً فإنّ له جهنّم خالداً فيها.

فالإجرامُ في الاصطلاح القرآنيّ خاصٌ بالذّنب الذي يُخَلّدُ في النار، والْمُجْرِمُ هو ضِدُّ الْمُسْلِم.

ولمَّا كانت الذّنوبُ العظمىٰ الّتي تجعل المتصف بها من الكافرين المخلّدين في عذاب جهنم أنواعاً كثيرة، وكانَ مِنْ أنواعِها التكذيبُ بآيات اللَّهِ، والاستكبارُ على طاعته، والاستنكاف عن العمل بما جاء فيها، كان من الحكمة في البيانِ القرآنيّ أنْ تأتي فيه عبارة عامَّةٌ تشمل جميع المجرمين فقال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾. (ال) في ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ استغراقيَّة، فالمعنىٰ: وكذلك نَجْزِي جَمِيعَ المجْرِمِين.

القضية الرّابعة:

دلَّ عَلَيْهَا في النصّ قولُ الله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ..﴾.

المهادُ في اللُّغَة: الفِراشُ، والأرضُ المنْخَفِضَةُ المستوية، وقَاعُ البَحرِ أو النهر. أي: لهم من قَاعِ جهنَّمَ أمْكِنَةٌ معدَّةٌ مُمَهَّدَةٌ لاستقرارهم فيها.

وتَمْهيدُ الأرْض يأتي بمعنى بَسْطها وَتَسْهِيلِ أَمْرِ الإقامَةِ فيها، لكنَّها جَهَنَّمُ، فماذا يُخَفِّفُ من عذابها هذا التمهيد، إنَّه كَتَمْهِيدِ الْجَمْر لتَسْهِيل شَيِّ اللّحم عليه، فالمعنى محمولٌ على التحذير من شدَّةِ العذابِ على هذا المهاد، فمَنْ كذّب وَكابَرَ فلْيَتَلَقَّ عبارَةَ التَّهكُمِ به باستخدام لفظ «المهاد».

القضية الخامسة:

دلَّ عليها في النصّ قول الله تعالى: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ ..﴾.

غَواشٍ: جَمْع «غاشِية» ومن معاني الغاشية، ما يَنْزِلُ من السّماءِ من وسائل تعْذيب، تُجَلِّلُ المكانَ الّذِي ينزِلُ عليه من عُلُوٍ.

وأصْلُ الغاشية الغِطَاءُ، فالْغَواشي هي الأغطية، وهي في جهنَّمَ ظلُماتٌ دُخَّانِيَّةٌ حارَةٌ تَهْبِطُ عليهم من سَمَائِها.

جاء لفظ «غواشٍ» منكّراً، للتهويل والتعظيم، والمراد أنّها غواشي فيها عذابٌ أليم.

فهم بين (المهاد) الفراش الجهنّمِيّ، و(الغواشي) الحارّة الدُّخانية المائجة في سَمَاءِ مَوَاقعهم، يَتلَقَّوْنَ العذابَ من تحتهم، ومن فوق رُؤوسهم.

وفي هذا التعبير لونٌ من ألوان التنكيل بهم، ومقابلةِ استهزائهم بما أنْذِروا به من عذاب الله، باستِهْزاء في التَّعْبِير بأنّ لهم من جهنَّم مِهاداً، وبأنّهم تجلّلُهم فيها غَوَاشي، ولكن ليس المهاد إلاّ مهاد تَعْذِيب، ولَيْسَتِ الأَغْشِيَةُ إلاّ أغْشية تعْذيب.

القضية السّادِسة:

دلّ عليها في النّص قول الله تعالى: ﴿. . .وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾:

أي: وكذلك الجزاء الذي نجزيهِ الّذين كذّبوا بآياتنا واستكْبَرُوا عَنْها، نَجْزِي سائِرَ الظَّالِمِينَ.

والمراد بالظالِمِينَ هُنَا من كان ظُلْمُهُمْ من دركاتِ الكافِرين. وأكثر ما اسْتُعْمِل عنوان الظالمين في القرآن، اسْتُعْمِل في الكافرين المخلَّدِين في النار.

ويحتمل أن يكون المراد بالظالمين، مَنْ كَانُوا من مُرتكبي الكبائر من المؤمِنين، إذا استَحقُّوا دُخُول جهنمّ دخولاً مُؤَقَّتاً، فهؤلاء إذا دخَلُوا جهَنَّم، كان لهم من جهنَّمَ مكانٌ مُعَدٌّ لهم، وجَاءَتْهُم من فوقهم غواشي دُخانيَّةٌ حَارَّة.

وللتفريق بين عُمُوم المجرمين وعُمُومِ الظّالمين، كان نوع العذاب الأوّل وهو الخلود في جهنّم خاصًّا بالمجرمين، وكان نوع العذاب الثاني شاملاً كلَّ الظالِمين، مُجْرِمين أو من هُمْ دون المجرمين، لكنهم من مرتكبي كبائر الإثم من المسلمين.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا . . . ﴿٤٣﴾﴾.

- قرأ ابن عامر الشامي: ﴿مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بحذف حرف العطف الواو، وقرأ باقي القرّاء العشرة بإثباتها، وقراءة ابنِ عامر موافقة للمصحف الإمام الّذي أُرسِلَ في عَهْدِ عثمان إلى الشام.

والقراءتان أسلوبان في التعبير متكاملان في الأداء البياني، فالعبارة بحذف الواو حاليَّة وهي تابعة في البيان للجملة التي قبلها، والعبارة بإثبات الواو اسْتِئنافيّة، لإفراد التصريح بمضمونها.

هذا النصّ يتضمّن بيانَ بضع لقطات من ثواب المؤمنين، بعد بيان بضع لقطاتٍ من عقاب الكافرين في الآيَتين (٤٠ و٤١) على منهج القرآن في إتباع بيانِ العقاب ببيان الثواب، أو العكس.

- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾:

جاءت هذه العبارة في مقابل الذي كَذَّبوا بآيات الله واسْتَكْبَرُوا عنها، ومعهم المجرمُونَ والظَّالِمون، للدلالة على أنَّهما فرِيقان متناقضان عقيدةً وسلوكاً، ولكلٍّ منهما دارُ جزاء، إحداهما دار عقاب، والأخرى دار ثواب.

وهذه العبارة مشتملَةٌ علَىٰ تفصيل لعنوان المتقين، الّذين أعَدَّ الله لهم جنَّاتِ النعيم، وهم المُسلِمون الذين جَاءَ ذكرهم في سُورة (القلم ٦٨/ مصحف/ ٤ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟!.

وجاء ذكرهم أيضاً في عدد من نجوم التنزيل السابقة نزولاً لسورة (الأعراف) في (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) وفي (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وفي (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وفي (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

فالمتقون الذين هم المسلمون بعنوانين مُجْمَلَيْن، هم بتفصيلٍ ابتدائي: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» فلا يُوصَفُ الْعَبْدُ بأنَّهُ من المتقين، أو بأنَّهُ من المسْلِمِينَ عند الله، حتَّىٰ يُحقّق في ذاتِه وبإرادته الحرَّة أمْرَينِ:

الأمْرُ الأول: الإيمان بما يجب الإيمانُ به في دين الإسلام، الّذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، والإيمانُ هو التصديق الإراديّ القلبيّ الّذي لا يختلط بشكّ.

وتفصيل هذا قد جاء في آيات كثيراتٍ مُوزَّعَاتٍ في سُوَر القرآن، وجاء أيضاً في بياناتِ الرَّسُول ﷺ.

الأمْرُ الثاني: الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وهو العمل الإراديُّ بما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ إلْزاماً أَوْ تَرْغيباً، واجتنابُ الْعَمَلِ الذي نَهىٰ الله عنه إلزاماً أَوْ تَرْغِيباً.

ويشْمَلُ العملُ الأعْمَالَ الجسديَّةَ الظاهرة، والأعمالَ القلبيّةَ والنّفْسيَّة، الموجِبَةَ والسَّالِبَة، فكفُّ الأذىٰ عَملٌ سالبٌ، لأنَّهُ كفٌّ وتَرْكٌ إراديٌّ، وتركُ الْغِيبَةِ والنميمَةِ والْحَسَدِ عَمَلٌ سالِبٌ، لأنّه تَرْكٌ إراديٌّ فيه حبْسُ النفس عمَّا تهوىٰ.

ومن الأعمال الإيجابيّة النفسيَّة النيَّاتُ، وذِكْرُ اللَّهِ في النفس، والتفكُّرُ في آيَاتِ اللَّهِ وآلائه.

وتفصيلُ هذا وشَرْحُهُ يَطُولُ، إذْ كُلُّ حَرَكَةٍ إراديَّةٍ ظاهرةٍ أو باطِنَةٍ، تَدْخُلُ في عُمُومِ الْعَمَلِ الذي يَكْسِبُهُ العبْدُ بإرادته.

● قول الله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ هذه جملةٌ مُعْتَرِضَةٌ بين المبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وبين الْخَبَرِ: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ للمبادَرَةِ إِلَىٰ طَمْأَنَةِ المتَّقِين، بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ لاَ يكَلّفُ نَفساً إلاَّ وُسْعَها، قَبْلَ أن يُبَشّرَهم بأنهم أصحاب الجنّة، وبأنّهم سوف يكونون خالِدِين فيها.

وهذه الجملة المعترضة تَدُلُّ على قضيتَيْن:

القضية الأولى: أنّ التكاليفَ الرَّبَّانيّة الإلزاميَّة الواردة في آيَاتِه أو على لسان رسُوله في بياناته، مشْمُولَةٌ بأنَّها مِنْ وُسْعِ المكلَّفِينَ على وَجْهِ الْعُمُوم.

أمَّا أصْحَابُ الضروراتِ والمعاذير، فإنَّ الله عزّ وجلّ يخفّفُ عَنْهُمُ التكاليفَ تيْسِيراً عَلَيْهِمْ بمقْتَضَىٰ أحكام التخفيف الوارد في القرآن والسنة، كرفْعِ الحرجِ عن المريضِ والأَعْمَىٰ والأعْرَجِ في بعض الواجبات، كالقتالِ في سبيل الله، وكرفع الحرج عن الناسين المعذورين في نسيانهم، وعَنِ الذين تعرَّضُوا لِسَلْب أهليَّةِ التكليف منهم، ونحو لك.

القضيّة الثانية: أنَّ كُلَّ مَا لا يَدْخُلُ في وُسْعِ المكلَّفِ أنْ يعمَلَه أوْ أن يتْرُكه، فإنَّ الله عزّ وجلَّ لاَ يُحاسِبُهُ عليه، ولا يُدْخِلُهُ ضِمْنَ المسؤوليَّةِ أيضاً، ولاَ يتعلَّقُ به ثوابٌ ولاَ عقابٌ.

﴿لَا نُكَلِّفُ﴾: **التكْليفُ**: الإلزام بما فيه كُلْفَةٌ على فاعِلِه أو تاركه، والكُلْفَةُ هي المشقَّةُ في الفِعْلِ أو في التزْكِ.

﴿إِلَّا وُسْعَهَآ﴾: الْوُسْعُ، والْوَسْعُ، والسَّعَةُ في اللّغة: الجِدَةُ، والطّاقة. فمعنى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾: لاَ نُكلّفُ نفساً إلاَّ قَدْرَ طاقَتِها واستِطَاعَتِها، وإلاَّ قَدْر جِدَتِها من مالٍ أوْ قُوَّةٍ، ومن القوة قُوَّةُ الإرادة.

ومن هذه العبارة نَفْهَمُ أنَّ مَا يَجْري في الإنسان، أو يحْدُثُ مِنْهُ بغَيْرِ

إرادتِهِ، فهو خارجٌ عن دائرة التكليف الرَّبَّانيّ، إذْ هو خارجٌ عن وُسْعِه، فلا يُعْتَبَرُ مسؤولاً عنه، فعلاً كان أمْ تركاً، لأنَّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ واسْتُخْدِم في هٰذِهِ العبارة ضمِير المتكلّم العظيم للاشْعَارِ بأنّ عظمة رُبوبيَّةِ الرَّبّ جلَّ جلالُه، تَأْبَىٰ أن تُكَلِّفَ نَفْساً فَوْقَ وُسْعها.

فالجبريُّون الَّذِينَ يَزْعُمونَ أنَّ الإنْسَانَ مجبورٌ في رحْلَةِ ابْتِلَائِه على الإيمان أو الكُفر، والمعصيةِ أو الطاعَةِ، ثُمَّ يُحاسِبُهُ اللَّهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه على ما جَبَرَهُ عليه، ويُثيبُهُ أو يُعَاقبُه على ما جَبَرَهُ عليه، يُعَارِضُونَ بمَقُولَتِهِم الباطلة صريح قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾.

إنّه لَيْسَ في وُسعِ الإنْسَانِ مُطْلقاً أن يَعْمَلَ شيئاً جَبَرَهُ اللَّهُ على خلافِه بقضائه وقَدَرِه.

إنّ اللَّهَ الرَّبَّ قَادِرٌ مُرِيدٌ عَلِيمٌ حكيمٌ عَدْلٌ بَرٌّ رَحِيمٌ، وصِفَاتُهُ جلَّ جلالُهُ، لاَ تَتَعَارَضُ ولاَ تتناقَضُ، بلْ تتكامَلُ في تناسُقٍ هو غايَةٌ في الكمال.

والإنسانُ المكلّفُ يفعَلُ الخيْرَ بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ وهو مُدْرِكٌ واعٍ، ويفعَلُ الشَّرَّ بإرادتِه الْحُرَّةِ وهُوَ مُدرِكٌ واعٍ، واللَّهُ عزّ وجلَّ يُمِدُّهُ بالْقُوَّةِ وبالأسْباب، والْعَبْدُ يُوَجِّهُها بإرادَتِه، والله يَخْلُقُ لَهُ ما أراد، ثُمَّ يُحَاسِبُهُ ويُجَازِيه علىٰ ما أرادَ، لا علىٰ ما تَمَّ تحقيقُه بخَلْقِ الله.

هذا فهمُ السَّلف، وفَهْمُ أَهْلِ السُّنَّة والجماعَةِ لِهذه القضيّة، وَإنّما يأتي الْخَطَأُ فيها مِنْ حَمْلِ النُّصُوص على غير المراد بها.

● ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٤٢﴾:

هذه جملة خَبَر: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ جاءتِ الإشارة إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم الْبَعِيدين، للإشعار بارتفاع مَنْزِلَتِهِم عِنْدَ رَبّهم.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: ملازمُوها ملازمة الصاحب لصاحبه، ورُبَّما دَلَّ هذا الاستعمالُ على معنى التملُّك، أي: هم مالِكُوها بتمليك اللّهِ لهم، أو مالِكُو التَّنعُّم بما فيها من نعيم عظيم مقيم، لأنَّ مالِكَ الشيء يُصاحِبُهُ ويُلازمه.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: أي: هم في الجنَّةِ باقُون بقَاءً أَبَدِيًّا.

والجنَّةُ إذا ذُكِرَت في القرآنِ ثواباً للمتقين، فهي دار النّعيم الّتي أعَدَّها الله لهم، فَهُمْ يَدْخُلونَها يَوْم الدِّين.

- قول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾:

هٰذه منحة يمنحهم اللّهُ إيَّاها فوْقَ مِنْحَتَيْ دُخُول الجنَّةِ، وَمَشَاعِرِ الخلُودِ فيها، وهي مِنْحَةُ إرَاحَةِ قُلُوبهم ونفوسِهِمْ منْ كُلِّ مَا يُعَكِّرُ صَفْو سَعَادَتهم مِنْ غِلٍّ.

الغِلُّ: كُلُّ ما يَدْخُلُ في الصُّدُور من عَدَاوَة، وضِغْنٍ، وحقْدٍ، وَحَسَدٍ، وبُغْض، وغِشٍ، وإرادَة سُوءٍ بالآخرِين، ونحو ذلك.

ومادة الكلمة تدور حولَ معنى الدخول في الأشياء من ماديَّاتٍ ومعنوياتٍ.

فالذين يُثيبُهم اللّهُ عزّ وجلّ بدخول الجنَّة يَنْزِع مَا في صُدُورهم من عوامل العداء الّتي تَغَلْغَلَتْ إلى بَاطِنِها في الدنيا، فَلَا يَجِدُون في صُدُورِهم غِلًّا على أحَدٍ، بلْ يُطَهِّرهم اللّهُ من كُلِّ الأرجاس النفسيَّة، وكلّ ما يُكَدِّرُ بَالَهم، ويُعَكِّر صَفْوَهُم.

وهٰذه سعادةُ رَاحَةٍ من الأعماق قد تكون أعظم من سعادتهم بما يُصِيبُونَ من لَذَّاتِ المآكل والمشارب والمناكح ونحوها.

- ﴿وَنَزَعْنَا﴾: النَّزْعُ جَذْبُ الشَّيْءِ واقتلاعُهُ من مكانه، ويَدُلُّ على أنَّ

هذا الاقتلاعَ يكُونُ من الجذور، أي: فتَخْلُو فِطْرَتُهُمْ يوْمَ الدّين منْ كُلِّ العوامل التي تُحْدِثُ في الصُّدُورِ غلاًّ، يُفْسِدُ عليها مشاعر سعَادتها بما تصيبُ من نعيم.

● ﴿مَا فِى صُدُورِهِم﴾: أُطْلِقَت الصُّدُورُ على ما تحتويه من قلوبٍ ونُفُوسٍ وأفْئِدَةٍ وألْباب.

وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قول الله عزّ وجلّ بشأنهم أيضاً:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

فأضافَتْ هذه الآية بيان أنّهُمْ يكُونُون بسبب نزْعِ الغِلِّ من صُدُورهم إخْواناً مُتَصَافِين متحابّين، لا يُعَكِّرُ صَفْوَ أُخُوَّتِم شيءٌ، وهٰذا من كُبَرياتِ عناصر السَّعَادة الاجتماعيَّة.

● قول الله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: أي: وممّا يكرمُهُم الله به من نعيم، أنّ الأنهار المتنوّعة تجري من تحتهم في الجنَّةِ، إذْ يكونُون على سُرُرهم في شُرُفات قُصورِهم المرتفعةِ.

وجاءت الأنْهار معرَّفةً بأداةِ التَّعريف للدّلالَةِ على كمالها، فـ (ال) هنا للكمال.

وقد تكرّر في القرآن المجيد وصْفُ جنَّةِ الخلْد بأنَّها تجري من تحتها الأنهار، إذْ لاَ كمال لجنَّةٍ بدُون أنهارٍ تجري.

وجاء في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) بيان أنواع أنهار جنّة الخلْد وبعْضِ صفات هذه الأنهار، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: وصْفُ الجنَّة.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: أي: من مَاءٍ لم يتغيَّرْ طعْمُهُ بالمنْتِنَاتِ، أو من طولِ المكث، فهو متَدفّقٌ متجدّد.

- قول الله عزَّ وجل:

﴿. . وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

إنّ أهل الجنَّةِ يشْتَدُّ فرَحُهم بالهباتِ الثلاث لهم، وهي:

(١) تَمْلِيكُهم حظُوظَهُمْ من الجنّة تَمْليكاً أبديًّا وهم فيها خالدون.

(٢) إراحَةُ قُلُوبهم ونفوسِهِم من كلّ ما يُعَكِّر صَفْوَ سَعَادتهم، فلا يَجِدُونَ فيها غِلّاً على أحد.

(٣) إسعادُهُم بالأنهار الجليلَة العظيمة الّتي يتَنَعَّمُونَ بما فيها من شراب مختلفِ الأنواع والأصناف، ويتَنَعَّمُونَ بمُشَاهدة جَرَيَانها، وهم على سُرُرِهم أو أرائكهم في قُصُورهم أو في شُرُفاتها.

فتنطَلِقُ ألسنَتُهم بالثناءِ العظيم حتَّىٰ الغاية الْقُصْوىٰ، على الله الّذي هَدَاهُم في الدُّنيا الصراطَ المستقيم، الذي أوصَلَهُمْ بفَضْلِه إلى هذا النعيم المقيم. وتَنْطَلِقُ ألْسِنَتُهم بإعلان أنّ رُسُلَ رَبِّهم قد جاءُوا بالحقّ بلاغاً عن الله عزّ وجل، وفي هذا الإعلان تَمْجِيدٌ لرُسُل الله.

فَيُكافئُهم اللّه على حَمْدِهِم، ورفْعِ ذِكْر رسُلِ ربِّهم، بنداءٍ عامٍّ يتَضمَّنُ أنَّ ربَّهم قَدْ أَوْرَثَهُمُ الجنّة العظيمة الرفيعةَ المَنْزِلَةِ بسبب ما كانوا يعملون من عملٍ صالح في الحياة الدنيا، وهذا من تكريم اللّه لهم، مع أنهم لم يدخلوا الجنّة إلا بفضله.

وقد جاء هذا البيانُ بأسْلُوب حكايةِ حدَثٍ مضىٰ، مَعَ أنّه من الأحداث التي سوف تكُونُ مستَقْبلاً، للدَّلاَلَة على أنّه أمْرٌ لاَ بُدَّ أنْ يتحقّق حينما يكون أهْلُ الجنّة في الجنّةِ.

● ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: وقالُوا بعْدَ أن تملّكَتْهُم الفرحَةُ بهبات اللّه لهم: «الحَمْدُ للّهِ» أي: كلّ الحَمْدِ الّذي يَعْلَمُه اللّه جلّ جلالُه، هو لِلّهِ استحقاقاً ذاتِيّاً أصْلِيّاً، إذْ لَهُ عزّ وجلّ كلّ صفاتِ الكمال الّتي تَسْتَحِقُّ كُلَّ عِباراتِ الحمد الّذي لا نهاية لحُدُوده، نظراً إلى أنَّ صفاتِ الكمالِ للّهِ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه لا نهاياتِ لها، وضِمْن هذا الحَمْدِ العامّ الشامل يَدْخُلُ حَمْدُهُم للّه على ما أولاهُمْ في الجنَّةِ من أنواع نعيم لا يخْطُر في أوهامهم مزيدٌ عليه.

الحَمْدُ في اللّغة: هو الثناء بالجميل. والحمدُ كلمةٌ جامعةٌ تَدُلُّ على ذِكْر المَحْمُود بكمالاته الحسنة الجميلة، على سبيل التعظيم والتكبير وبيان ارتفاع مَنْزِلَتِهِ وعُلُوّ مقامه.

● ﴿ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾: أي: الذي هدانا في الحياة الدنيا إلى الصراط المستقيم الذي سلكناه، فأوصَلَنا إلى هذا النعيم العظيم الخالد، بفضل عطاء اللّهِ وجُودِه الذي لا حدود له.

بهذه العبارة يبيّنُون الدافِع النّفْسِيّ الّذي دفَعَهُمْ لإطلاق عبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

● ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: أي: ويُعْلِنُونَ بهٰذِهِ العبارة معترفين ومؤكّدينَ بالكَوْن المنفيّ المتبوع بلام الجحود، أنّهم كانوا في الحياة الدّنيا عاجِزينَ عجزاً تامّاً عَنْ أنْ يتَوَصّلُوا بعُقُولِهم وتجاربهم إلى معرفة الصراط المستقيم، والاهْتِداء إليه، لولا أنّ اللّه جلّت حكمتُه أرْسَل رُسُلَه، وأنْزَلَ معَهُمْ بيانات الصراط المستقيم الموصل إلى جنّاتِ النعيم، فهَدَوُا النّاس إلى عناصره وأحكام اللّه فيه بالقول والعمل.

● ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: وبَعْدَ أن يَحْمَدُوا اللّه على هدايَتِه لهم، يَذْكُرونَ بالتَّمْجِيد رُسُل ربِّهم، الَّذين كانُوا في الحياة الدُّنيا هُمُ المصطَفين لتبليغ رسالات اللّه، المتضمّنَةِ ما فيه هدايَةُ النَّاس إلى سعادتهم، والمشتملَةِ على بياناتٍ كلُّها حَقٌّ، إذْ كُلُّ جُزْءٍ من أجزائِها مطابقٌ للواقِع تماماً.

فالبياناتُ الخبريَّة عمَّا كانَ وعَمَّا هو كائِنٌ وعمَّا سيكون أو سَوْفَ يكون، الَّتي جاء بها رُسُلُ رَبِّهم الصادقون، قد كانت كُلُّها مطابقة للواقع.

والأحْكَامُ والشرائع والوصايَا الَّتي جاءُوا بها، قَدْ كانت مطابقة للمنهاج الحقّ الموصل إلى السَّعادَة الأبَدِيَّة.

لقَدْ كان إيمانُهم بما جاء به رُسُلُ رَبِّهم في الدنيا إيماناً بالحقّ المستَنِد إلى أدلّة عقليّة، وهو من قبيل الإيمان بالغيب، الّذي كانَ أوّل عقَبَةِ امتحانٍ لهم في الحياة الدنيا.

ولكنَّهم يَوْمَ الدّين يُشَاهِدُونَ بحواسّهم كلَّ العَنَاصِرِ الّتي كانَ المكلَّفُون في الدنيا يُطالَبُونَ بالإيمان بها إيماناً بالغيب مُسْتَنِداً إلى براهين عقليّة، فَيُعْلِنُونَ تمجيدَ رُسُل رَبّهم بأنَّهم كانوا صادقين، قد جاءوا بالحقّ تبليغاً عن رَبّهم جلّ جلاله.

واجتماع كلِّ أهْلِ الجنّةِ على هذا الإعلان التمجيدي لكُلّ رُسُلِ ربّهم، يَدُلُّ على وحْدَةِ الرّسَالاَتِ الرَّبّانيّة الّتي جاء بها الرُّسُل الصادقون، في أصولها، وعقائدها، وقواعِدِ أحْكامها.

أمّا مُخالفةُ بعضِ الأديان ذاتِ الأصول الرَّبّانيّة، عمَّا جاء به خاتم رسُل اللّه محمد بن عبد الله في الأصول، والعقائد، والقواعد الكبرى، فإنّما هو من تحريفات المحرّفين، ومن ضياع بعض الأصول بالنسيان، أو بالإهمال.

- ﴿.. وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وبَعْدَ أن يَحْمَدُوا اللّه رَبَّهم، ويُمَجِّدُوا رُسُلَه، على ما سبَق بيانُه، يُكافِئُهم اللّه جلَّ جلالُه بتكريمٍ منه، فيَصْدُرُ في أرجاء الجنّة نِداءٌ عامٌّ من اللّه عزّ وجلّ، أو بأمْرٍ منه، تفسيره ما جاء بعد «أنْ» التفسيريّة.

- ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾: جاءت الإشارة إلى الجنّة الّتي يَنْعَمُ أهلُها بما وهَبَهُمُ اللّه فيها، باسْم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للإشعار بجلالة قَدْرِها وارتفاع منزلتها، وهذا من الأساليب البلاغيّة المستعملة في القرآنِ كثيراً.

- ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: مُنِحْتُمُوهَا بسبب ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أعْمالٍ صالحةٍ في الحياة الدّنيا.

وسمَّىٰ اللّه عزّ وجلّ استحقاق أهل الجنَّةِ لمنازلهم فيها ميراثاً لحِكْمَتَيْن:

الحكمة الأولى: أنّ عطاء اللّه عزّ وجلّ لهذه المنازل هو في الحقيقة مِنْحةٌ منه، فهو أشبه بالميراث الذي سبَبُه القرابة أو المصاهرة.

ومنازلُ الجنَّةِ للمتّقين سببُها العمل الصالح، مع أنّ العمل الصالح من العَبْد مهما بَلَغَ لاَ يكافئ مَا تفضَّل اللّه به عليه في الحياة الدنيا، مِنَ الحياة والرزق والتكريم بخصائص الإنسانية العظمىٰ.

فتأتي منازلُ الجنّة فضلاً آخر من اللّه على عباده المتّقين، أمّا العملُ فهو سبَبٌ غَيْرُ فاعل، وهو كسبَب القرابة في استحقاق النَّصِيب من الإرْث، مع أنّ القريب ربّما يكون قد آذى قَرِيبَهُ ولم يَنْفَعْهُ بنَافِعةٍ.

ويدُلُّ على هذا ما رواه البخاري ومُسْلِمٌ عن أبي هريرة، أنَّ رسُول اللّهِ ﷺ قال:

«لَنْ يُدْخِلَ أحداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَلاَ أنا، إلاَّ أَنْ يتغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ».

وفي رواية:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَه عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»، قالوا: ولاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قالَ: «وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ».

الحكمة الثانية: أنّ أهل الجنة يَرِثُون فيها المنازلَ الّتي كانت مُعدَّةً للكافرين لو أنَّهم كانوا قد آمنوا وأسلموا في رحلة امتحانهم.

روى ابن ماجه بإسنادٍ صحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ لَهُ مَنْزِلاَن: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الجَنَّة مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾» [المؤمنون: ٢٣، مصحف/ ٧٤ نزول].

- قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقرأ الكسائي: [نِعِمْ] وهي لُغةٌ في [نَعَمْ] والكلمة حرف إيجاب.

تمهيد:

في هذا النصّ عَوْدٌ تَنَقُّليٌّ في البيان إلى موقف المحشر، لتقديم مَشْهَدٍ

من مَشَاهدهِ، بعد أن سبَقَ تقديمُ مَشْهَدٍ من مشاهد أحوال أهل الجنَّة في الجنَّة، في الآيتَيْن (٤٢ و٤٣)، وهذا على طريقة القرآن البديعة في التنقُّل بين الأزْمِنة والأمكنة والمواقف، إيثاراً لفَنِيَّةِ الأداءِ المتحَرِّك الآخذ بمجامع الأذهانِ والأفئدة والنفوس.

وفي هذا المشهد الذي عرضَتْهُ الآياتُ من (٤٤ ـ ٤٧) بيانُ نداءٍ من أصحاب الجنَّةِ المفروزين في المحشر إلى جهة اليمين جِهَةِ الجنَّةِ، لأصحاب النار المفروزين في المحشر إلى جهة الشمال جِهَةِ النار، وبيان جوابهم على النِّداء.

ويعقُبُه بيان أذان مؤذِّنٍ من الملائكة، ينادي في أجواء المحشر نداءً تفسيره: ﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ويقْتَرِنُ بهذا البيان بيانٌ من اللَّه للنّاس وهم في عالَمِ الابْتِلاءِ يُبَيِّن اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيه من هم الظالمون.

وعَقِبَ ذلك يُقَدِّمُ البيانُ مَشْهَدَ حِجَابٍ حاجزٍ مرتَفِعٍ بَيْنَ أهل الجنَّةِ وأهلِ النّار، وعلى الأعراف من هذا الحجاب رجالٌ لَمْ يَصْدُرِ القَرَارُ الرَّبَّانِيُّ بَعْدُ بشأْنِهِمْ، هل هم من أهل النّار أمْ من أهل الجنّة، لأنَّهم في مَنْزِلَةٍ وُسْطَى تماماً بَيْن الفريقين، وهم يترقّبون بَيْنَ الخوف والطمع صُدُور القرار بشأنهم، ويَعْرِضُ البَيَانُ مَشْهداً من مشَاهِدِ تَصَرُّفِهم وهُمْ على الأعراف، إذْ يُنادُون أصحابَ الجنَّةِ أنْ سَلاَمٌ عليكم، وهم ما زالوا في المحشَرِ إلى جهةِ الجنَّة، وتَبْدُو عليهم أماراتُ الطَّمَعِ بأنْ يُسَاقُوا إلى دخول الجنَّةِ زُمراً، لعلَّ بَعْضَ أهل الجنَّةِ كالرُّسل يَرُدُّ عليهم التحيَّة بمِثْلها، فتكون لهم بمثابة بُشْرَى بأنَّ اللَّه عزّ وجلّ سيَرْحَمُهُم، فيجعلُهم من أهل الجنَّة، ولو بَعْدَ أنْ يُعاقَبُوا على معاصيهم أو بعضها. وإذا صُرِفَتْ أبْصارُ الّذين هم على الأعراف تلقاء أصحاب النار، وبَدَا لَهُمْ ما هُمْ صائِرُون إليه من خلود في عذاب النار، دَعَوْا رَبَّهُم قائلين: ربَّنا لاَ تَجْعَلْنا مع القَوْمِ الظّالمين.

التدبّر:

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ ... ﴿٤٤﴾﴾.

هذه الصُّورة الّتي جاءت بأسْلُوب حكايَةِ أمْرٍ مضَىٰ، ممَّا سَوْفَ يتحقَّقُ في الآخرة، في موقف الحشر، لتأكيد أنّه لاَ بُدَّ أن يتحقَّقَ حتْماً، صُورَةٌ تَعرِضُ لقطةً من لقطات مشاهِدِ يَوْمِ الحشْرِ بَعْدَ الحساب وفَصْلِ القضاء بالنسبة إلى أهلِ الجنَّةِ، وأهل النّار الخالدين فيها، وهُمْ في انتظار توجيه أهل الجنَّة لدخول الجنَّةِ، وتوجيه أهل النّار لدخول النَّار.

أمّا أصحابُ الجنَّةِ فمَجْمُوعُونَ في جهة من أرض المحشر هي جهة اليمين، وحين تُزْلَفُ الجنَّةُ للمتَّقينَ تُزْلَفُ إلى هذه الجهة، وأمّا أصحابُ النار فمَجْمُوعُونَ في جهةٍ من أرض المحشر أُخرَى هي جِهَةُ الشّمال، ومن هذه الجهة يَسْمَعُونَ تَغَيُّظَ النّارِ وزَفِيرَها. وبين أصحابِ الجنّةِ وأصْحَابِ النّارِ حجابٌ سيأتِي إن شاء اللَّه البيان عنه.

ودلّ البيانُ على أنّ التخاطبَ بَيْنَ الفريقين يكُونُ بأسْلُوب النّداء، الّذي يُصاحِبُهُ رَفْعُ الصّوْتِ، لاَ بأسْلُوب المحادثة، ولاَ نَدْرِي ماذا يُهَيِّئُ اللَّه من وسائلَ لإيصال أصْواتِ المتنادِين في ذلك الموقف، الذي يجمع اللَّهُ فيه الأوّلين والآخِرينَ في مَحْشَرٍ واحد، ويَفْرِزُ فيه المؤمنين عن الكافرين، ويجعلُ الفريق الذين هم بَيْنَ بَيْن على أعراف الحجاب.

يقولُ أصْحَابُ الجنّةِ الَّذِينَ صَدَرَ القرارُ بأنَّهُم من أهل الجنَّة، في نِدائهم لأصحاب النار وهم مَفْرُوزُونَ في مكان حَشْرِهِمْ كلاماً تَفْسيرُهُ: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾؟

كلمة «أنْ» في: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا﴾ تفسيريَّة للنّداء، أي لما جاء فيه من كلام.

إنَّهم يُعْلِنُونَ في ندائهم هذا أنَّهم قَدْ وَجَدُوا كُلَّ مَا وَعَدَهُمْ اللَّه رَبُّهم في الدُّنيا على أَلْسِنَةِ رُسُلِه بلاغاً وَبياناً، وَجَدُوهُ حقّاً واقعاً كما جاء في وَعْدِهِ الكريم، فالبَعْثُ قَدْ تحقَّقَ، وموقف الحشر قد تحقّق، ومَوْقف الحسَابِ وفَصْلِ القضاء قد تحقَّق، وَإِصْدارُ الحكم لهم بدُخول الجنَّة قد تحقّق، وهٰذِهِ الجنَّةُ تَقْتَرِبُ إلى موقفهم شيئاً فشيئاً، وهم يَنتظرون الإِذْنَ بسَوْقِهم إلى الجنَّة زُمراً، كما جاء في الوعد الرَّبَّاني.

إنَّه نِداء الفَرِحين المبتهجين بثواب اللَّه العظيم، وهو في الوقت نفسه يتضمَّنُ تَحْسيراً لأصحاب النّار، الَّذِين كانوا يُكَذِّبُونَ بآياتِ اللَّهِ ويَسْتَكْبِرُونَ عَنْها.

ويَسْأَلُونَ في ندائهم أصحاب النّار قائلين لهم: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؟

أي: فهل وجدتُّم كُلَّ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حقاً، سواءٌ أكان وَعْداً بالعذاب والعقاب للكافرين المكذِّبين بيَوْم الدِّين، أمْ كان وعداً بالثواب والأجْرِ العظيم للمؤمنين المتّقين؟

- ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾:

من الطبيعي أنْ يكُونَ جوابُ أصحاب النّار بكلمة «نَعَمْ» مع ذِلَّةٍ وتحَسُّرٍ وانْكسار، فَلاَ مَجَالَ يَوْمَئِذٍ للإنكار.

- قول اللَّه تعالىٰ:

﴿. . فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

- ﴿فَأَذَّنَ﴾: أي: فنادىٰ مُعْلِماً، يقال لغةً: أذَّنَ تأذِيناً، وأذاناً، أي: أكثر الإعلام بالشيء.

- ﴿مُؤَذِّنٌۢ﴾: الظاهر أنّ هذا المؤذّن هو من الملائكة الذين لهم

وظائف يؤدّونها يوم الدّين واللّه أعلم، ويدلُّ فعْلُ «أذّنَ» على أنّه يكرّرُ مقالته، كما يكرّر المؤذّن للصلاة عبارات الأذان.

● ﴿بَيْنَهُمْ﴾: أي: يكُونُ هذا المؤذن قائماً بين أصحاب الجنة وأصْحَاب النّار، فالضمير يعودُ على الفريقين، ويحتمل أن يكون عائداً فقط على أصحاب النارِ الّذين قالوا: ﴿نَعَمْ﴾.

● ﴿..أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿أَن﴾ تفسِيريَّةٌ لمضمون ما جاء في كلماتِ أذان المؤذّن.

وقرأ جمهور القرّاءِ العشرة: ﴿أَنَّ لَعْنَةَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بتشديد النون من [أنَّ] مَعَ نَصْبِ لفظة [لَعْنَةَ] أي: اعْلَموا أنّ لَعْنَةَ اللّهِ علىٰ الظالمين.

والقراءتان مُتَكامِلَتان في دلالتيهما، إذْ تشعِران بأنّ المؤذّن يقولُ مُكرّراً: «لَعْنَةُ اللّهِ علىٰ الظّالمينَ». ثُمّ يقولُ مُكرّراً: «إنَّ لَعْنَةَ اللّهِ على الظّالمينَ».

اللّعْنُ: هو في اللّغة الطّردُ والإبعادُ من الخير، ولَعْنَةُ اللّهِ على الظّالمين تدلُّ على طردهم من مواطن تنزّلاَتِ رَحْمَتِهِ.

والمرادُ بالظالمين هنا الكافِرُون الّذين كذّبوا في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا بآيات اللّه، واسْتَكْبَرُوا عن اتّباعها، وعن طاعة أوامر اللّه وَنواهيه فيها، وكانُوا يصُدُّون عن سبيل اللّهِ، ويَبْغُون أن تكونَ السّبيلُ عَوْجاءَ مُوافقةً لأهوائِهم وشهواتِهم ونَزَواتهم.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

هذه الآيةُ يُبيّن اللّه عزّ وجلّ فيها للنّاس وهم في الحياة الدُّنيا، المرادَ بعُنْوان «الظّالمين» في العبارة الّتي يُرَدِّدها المؤذّنُ يَوْمَ الدّين، وليست من

توابع عبارة المؤذن، إذْ في هذه الآية بيانٌ لما يُمارِسُه الظالمون في الحياة الدُّنيا من سُلُوكٍ واعتقاد.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: **الصَّدُّ** في اللغة يُسْتَعمل لازماً ومتَعَدِّياً. تقول لغة: صَدَّ فُلانٌ عن فُلان، أي: هَجَرَهُ وابْتَعدَ عَنْهُ، واتَّخَذَ جانباً غَيْرَ جانبه، فالفعل بهذا المعنى لازم.

وتقولُ لغةً أيضاً: صَدَدْتُ ابْنِي عن طريق الشَّرِّ، أي: منَعْتَهُ من سُلُوكه، وصَرَفْتَهُ عَنْهُ وأبْعَدْته، والفعل بهذا المعنى مُتَعَدٍّ.

والظَّالِمُون يَصُدُّون عن سبيل الله، بمعنى يهجُرُونه، ويبتَعِدُونَ عنه، ويتَّخِذُونَ جانباً غير جانبه، ومَعْلُومٌ بداهةً أنَّهم لاَ يَصُدُّونَ عن سبيل اللّه إلاَّ بسَبَب أنَّهم كذَّبُوا بآياتِ اللّه، واستكبروا عنها، وسبيل اللّه هو دينه وشرائِعُه وأحكامُه ووصَايَاهُ لعباده.

وفَريقٌ من الظَّالمين مُضِلُّون مُغْوُونَ دُعاةُ كُفْرٍ وضلال، فهم يصُدُّونَ عن سبيل اللّه، بمعنى يَصْرِفُون ويُبْعِدُون عنه من يستجيب لضلالاتهم، أو يمنَعُونَ النَّاس بالإكراه المادّيّ والمعنويّ عن سلوكه ممَّن يستطيعُون إكراهَهُ.

- ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: ويَبْغُونَ أنْ تكونَ سَبيلُهم وسبيلُ النَّاس في الحياة الدُّنيا عِوَجاً، أي: عَوْجاء غير مستقيمة.

العَوَجُ بفتح العين اسْمٌ لِلْمَيْلِ والانعِطَافِ في الأَشْيَاءِ، ومُجانَبَةِ الاستقامة في المرئيّات، كالقَضِيب الأعوج، والعصاة العوجاء.

والعِوَجُ: بكسر العين عدم الاستقامة في الأشياء المعنوية، كالفِكْرِ، والقول، والمَذْهَب، ومِنهاجِ السلوك. والعِوَجُ في الأرض عدم الاستواءِ فيها.

- ﴿..وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: وهم لاَ يؤمِنُونَ بيوم الدّين، ويَكْفُرُونَ ويكَذِّبُونَ بقانون الجزاء الَّذِي قضاه وقدّره أحكم الحاكمين، ربُّ

العالمين، فلا يجدون في نفوسِهِمْ مَشاعِرَ خوف من العقوبات الرَّبَّانيَّة المقرَّرَاتِ للظالمين.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

● ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾: أي: وبين أصْحَاب الجنَّةِ وأصحاب النار، الّذينَ صَدَرَتْ بشأنِهِمُ الأحْكامُ النهائيَّةُ في المحشر، بَعْدَ الحساب وفَصْل القضاء حجَاب، وهذا الحجابُ الفاصِلُ بين الفريقَيْنِ، هو سُورٌ أو جَبَلٌ مُمْتَدٌّ فاصلٌ من أوَّلِ أرْضِ المحشَرِ إلى آخِرِها.

لقَدْ أقامَ اللّه عزّ وجلّ بين الفريقين المفروزَيْنِ في أَرْضِ المحشر حجاباً لَهُ شُرُفاتٌ يُنَاظِرُ من يكونُ فيها أصْحَابَ اليمين وأصْحَابَ الشِّمال، ويَسْتطِيعُ وهو فيها أنْ يُخاطِبَ هؤلاء وهؤلاء نداءً، وهذه الشُّرُفاتُ المُطِلَّاتُ سَمَّاها اللّهُ عزَّ وجلَّ أعْرافاً.

● ﴿... وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ...﴾:

الأَعْراف: في اللّغة جَمْعُ «عُرْف». قالَ أهْلُ اللُّغَةِ: عُرْفُ الأرض، ما ارْتَفَعَ منها، وجمعُهُ «أعْراف».

ويقولـون: جَبَلٌ أعْرَفُ، إذَا كانَ فيه شيْءٌ مُرْتَفِعٌ كعُرْفِ الدّيك. ويقولُونَ: حَزْنٌ أعْرَفُ، أي: أرْضٌ غَلِيظَةٌ صَعْبَةٌ مُرْتفعة. وأعرافُ الرِّياح والسُّحُبِ في اللّغة، هي أوائلها وأعَاليها، واحِدُها «عُرْف».

ويظهر أنّ كُلَّ ذلكَ مَأْخُوذٌ في الأَصْلِ من «عُرْف الديك» وهي اللّحمة المستطيلة المرتفعة في أعْلَى رأسِه، ومن عُرْف الفرس، وهو الشَّعَرُ النَّابتُ في أعْلَىٰ عُنُقِهِ.

فالأعرافُ: هي الأعالي المشرفة الّتي تكون فَوْقَ الحجاب الفاصل في المحشر، بَيْنَ أهل الجنّة وأهل النّار، قَبْلَ توجيههم لمصايرهم.

وقد نظرْتُ في أقوال المفسّرينَ حَوْلَ الأعراف في موقف الحشر، وحول أصْحَاب الأعراف، ورأيْتُ فيها اختلافاً كثيراً، وعُدْتُ إلى تدبُّر النّصّ بأنَاةٍ، وإلى ما جاء في المأثور عن الرسُول ﷺ، وهي روايات لم تَرْقَ الأسانيدُ فيها إلى مستوى الصحيح، ورأيْتُ أنَّ أجْوَدَهَا مُرْسَلٌ حسَنٌ كما قال ابْنُ كثير، واستَعَنْتُ باللّهِ العليم الوهّاب، فترجّح لدَيَّ أنّ الأعراف شُرُفاتٌ مرتَفِعاتٌ فوق الحجاب، وأنّ أصحابَ الأعراف هم الذين كانَتْ حسناتُهُمْ كافيةً لوِقَايَتِهِمْ بفضل اللّه من عذاب النار، لكنْ ليس فيها ما يُؤَهِّلُهُمْ لدُخولِ الجنّةِ بحَسَب ميزان العَدْل، فوُضِعُوا على الأعراف بَيْنَ بَيْن.

وقد جاء في عدّة أسانيد، قال ابْنُ كثير بشأنها: من المرْسَلِ الحسَنِ، عن النبيّ ﷺ، أنّهُ سُئِلَ عن أصحاب الأعراف فقال:

«هُمْ آخِرُ مَنْ يُفصَلُ بَيْنَهُمْ مِنَ العِبَادِ، فَإذَا فَرَغَ رَبُّ العَالَمِينَ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ العِبَادِ قالَ: أَنْتُمْ قَوْمٌ أخْرَجَتْكُمْ حَسَناتُكُمْ مِنَ النَّارِ، ولَمْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَأَنْتُمْ عُتَقَائِي، فَارْعَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتُمْ».

● ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾: أي: ونساءٌ لأنّ سُنَّة اللّه في عباده واحدة، سواءٌ أكانوا رجالاً أمْ نساءً.

وجاء ذكر الرّجال دون التصريح بالنّسَاء، لأنّ الرجال يكونون في مُقَدّمَةِ الصفوف، فَهُمُ الّذِين تقع عليهم الأنظار في المشهد، أو لأنّ الأسلوب القُرآني يَعْتَمِدُ ذِكْرَ الرّجال دون النساء، على اعتبار أن النّساء يُلْحَقْنَ بهم في الأحكام، ما لم تكن القضية من خصائص الذّكورة، واللّه أعلم.

● ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾: أي: يَعْرِفُونَ كُلاً من فريقِ أصْحابِ الجنّة، وفَرِيقِ أَصْحابِ النّار، بعلاماتهم الفارقات بينهم.

السِّيمَا والسِّيماءُ: في اللّغة: العلامة.

وقد جاء في القرآن المجيد بيانُ أنَّ سِيما الكافرينَ يومَ القيامة، أن تكون وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةً، ولو كانت في الدنيا بيضاء البَشَرةِ، كأحْسَنِ ما تكونُ الوجوه البيض بياضاً، وأنْ تكون سيما وُجُوه المؤمنين يوم القيامة مبيضَّة مُشْرِقَة مُبْتَهِجَة، ولو كانت في الدنيا سَوْداءَ البشرة كأشَدِّ ما تكون الوجُوهُ السُّودُ سواداً.

■ ففي سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

■ وفي سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿... وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

إنّ المشهد يَحْكِي ـ بصيغةِ الفعل الماضي لتأكيد أنّه سَوْف يتحقَّقُ يومَ الدّين ـ لَقَطاتٍ من تصرّفاتِ أصحاب الأعراف، ومنها أنّهم في مواقعهم على الأعراف يتوجّهون بأنْظارهم إلى أصْحابِ الجنَّةِ، فيُنادُونَهُمْ: سَلامٌ عليكم.

وهذا يَدُلُّ على أنّهم قَدْ كان بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُمْ لِقاءٌ في الدّين، وتَجْمَعُهُم في دائرة الإسلام تحيَّةُ السَّلام.

وسكَتَ النَّصُّ عن رَدِّ أصْحاب الجنَّةِ هٰذِهِ التحيَّةَ بمِثْلِها أو بأحْسَنَ منها، ويحتمل هذا السُّكوتُ دَلاَلَتَيْن:

الأولى: الإيجاز، لأنّ الرّدَّ ممّا يُعْلَمُ بداهةً.

الثانية: أنْ يكون أصحابُ الجنَّة لم يَعْرِفُوا بَعْدُ مَصِيرَ هؤلاء الَّذِينَ هم على الأعراف، فهُمْ لاَ يَدْعُونَ لهم بالسَّلام إذا لم يكونوا من أهْلِه حينما يقضي اللَّه قضاءَهُ بشَأْنهم.

- ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾: الضمائر في هذه الجملة تَعُودُ على أصْحَاب الجنَّة. وهي تبيّن أنّ أصْحابَ الجنَّةِ ما زالُوا في موقف الانتظار، وهم عَالِمُونَ بأنَّهم قد صَدَرَتْ بشأنهم الأحكامُ الرَّبّانيَّةُ بأنّهم من أصْحَاب الجنّة، لكن لم يَصْدُر الأمْر التّنفِيذي بالتَّوَجُّهِ لها، حتَّىٰ تَسُوقَهم الملائكةُ إليها زُمراً. غيْرَ أنّهم يَتَوَقَّعُونَ لحظةً فَلَحْظَةً أن يَصْدُرَ الأمْرُ التّنفِيذِيّ، وهم كلَّما مرّت لحظَةٌ طَمِعُوا بأنْ تكونَ اللَّحظَةُ التاليةُ هي الظَّرْفَ لتوجيه أمْرِ التّنفيذِ، وهكذا يتجدَّدُ طَمَعُهُمْ لحظةً فلحظةً، نَفْهَمُ هٰذا من استعمال الفعل المضارع في العبارة، أي: لَمْ يَدْخُلُوا الجنَّةَ بَعْدُ، وهم يطمَعُونَ طمعاً متجدّداً مع اللّحظاتِ بأنْ يَصْدُرَ أمْرُ التنفيذ بدُخولها حتّى يَدْخُولوها.

ولَيْسَ وارِداً أنْ يكون المراد بعبارة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا ﴾ أصحابَ الأعراف، لأنّ النّصَّ واضحٌ في أنّهم ما زالوا على الأعراف في المنطقة الوسطى، ولم يُلْحَقُوا بَعْدُ بأصحاب الجنّة، فلا معنىٰ لأن يقال: لم يَدْخُلوا الجنّة.

- قول اللّه تعالىٰ:

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: وإذا حُوِّلَتْ وُجُوهُ أصحاب الأعراف وأبصارُهم إلى جِهَةِ أصْحَاب النّار، على غير رَغْبَةٍ منهم، فقلُوبُهم وَجِلَةٌ من أن يُلْحَقُوا بهم، دَعَوْا ربَّهُمْ فَوْراً قائِلينَ: رَبَّنا لاَ تَجعَلْنَا مَعَ القَوْمِ الظّالمين، أي: رَبَّنا لاَ تُلْحِقْنا بهم حتَّىٰ نكون معهم في عذابِ النّار.

لم يَكْتَفوا بأَنْ يَقولُوا: رَبَّنا لا تجعَلْنا معهم، أو: لاَ تَجعَلْنا مع

هؤلاء. بل ذَكَرُوهم بالوصف الذي استَحَقُّوا به أن يكونُوا من أصحاب النار.

صُرِفَتْ: أي: حُوِّلَت، وصَرْفُ الشيء: رَدُّه عن وَجْهِه إلى وَجْهٍ آخر، واستعمالُ الفعل المبني لما لَمْ يُسمَّ فاعله هنا يدلُّ على أنَّ هذا الصرف لم يَرْغَبْه أصحاب الأعراف، فهو يجري فيهم حركةً غَيْر إرادية.

● ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: التِّلْقاءُ مصْدَرٌ مِثْلُ اللِّقاء، أو اسم مصدر لِلِّقاءِ كما قال ابْنُ سِيده.

وتوسَّعَ العربُ في استعمال كلمة «تِلْقاءَ» فاستعملوها ظرف مكانٍ بمعنى جِهَةِ اللِّقاء والمقابلة، ونَصَبُوها على الظرفيّة.

● قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ..﴾؟!

يُصَوِّرُ هذا البيان مَشْهَدَ حَدَثٍ يكونُ في هذا الموقف، إذْ يُشَاهِدُ فيه أصْحَابُ الأعْرافِ وهُمْ على شُرُفاتهم، بَعْضَ أصحاب النَّارِ مِمَّنْ كانُوا يَعْرِفُونَهُمْ في الحياة الدنيا، وهُمْ يَعْرِفونهم في ذٰلِكَ المَشْهَدِ بعَلاماتهم أنَّهم من أصحاب النار، فينادونَهُمْ من بُعْدٍ قائلين لهم مقالَتَيْن:

المقالة الأولى: يقولُون لهم فيها: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ للأموالِ وللرّجال وللقُرَى في الحياة الدُّنيا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ به عن اتّباع آيات اللّٰه المنزَّلاَت التي بلّغكُمْ إيّاها رُسُل ربّكم؟

استفهام يُرادُ به التوبيخُ والتَّقْرِيعُ والإنكارُ والتحسير.

هذه المقالة تَدَلُّ على أنّ أصحابَ الأعراف مؤمِنُونَ، ولكِنْ لم تَبْلُغْ حسَناتُهُمْ أنْ يُفرَزُوا ابتداءً مع أصحاب الجنّة.

المقالة الثانية: يقولون لهم فيها بشأن بعض المؤمنين، الصائرين إلى جنَّاتِ النعيم، وقد كانُوا في الدنيا من ضعفاء المؤمنين وفقرائهم ومساكينهم:

- ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ إذْ كُنتُمْ في الحياة الدّنيا قائلين: نُقْسِمُ أنّ هؤلاء المستَضْعَفين المساكين الفقراءَ ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾.

استفهامٌ يراد به أيضاً التوبيخ والتقريع والإنكار والتَّحْسير، فلا يجيب المسؤولون بشيء، وعَدَمُ الجواب في هذا الموقف هو الجواب، لأَنَّهُم خَزَايَا نادمون شاعرون بالصغار والذِّلّة.

وينطوي هذا المشهد.

* * *

- قول اللّه تعالىٰ:

﴿... ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾.

في هذه الجملة انتقالٌ مُفاجئٌ حصل فيه التقاطُ خطابٍ مقتطع مِمَّا سوف يكون عقب المشهد السّابق الذي طُوِي، وأُنْهِيَ الكلامُ حَوْلَهُ في النصّ، دون أن يفصل الكلام بآيةٍ مُنفَردة، إيغالاً في إحكام الإبداع في العرض.

إنّ النصَّ يَنْتَقِلُ بصُورَةٍ سَريعةٍ مُفاجِئةٍ، لِيُقَدِّمَ لقْطَةَ توجيهِ الأمْرِ الرَّبّاني لأَصْحَابِ الجنَّة، الّذِين يترقّبون بطمَعٍ مع توالي اللّحظات، أنْ يَصْدُرَ الأمْرُ التكريميُّ لهم بأنْ يَدْخُلوا الجنَّة.

وهذا الأسلوبُ البيانيُّ جارٍ على طريقة عَرْضِ اللَّقطاتِ المقتطعات، من عُمُومِ سلاسل المشاهد المتابعة، دون التمهيد لَها بأيَّةِ مُقَدَّماتٍ، وهذه الطريقة من روائع الأداء البيانيّ، الّذي لم يكن يَعْرِفُهُ البُلَغاءُ ولا الأدباء،

وصِرْنَا نَعْرِفُهُ اليَوْمَ في فُنُونِ عَرْضِ لقطات الصُّوَرِ السينمائية ذاتِ الأداءِ الفَنِّيِّ الرَّفيع، دون فواصل تُشعِرُ بالانتقال من لَقْطَةٍ لأُخرىٰ.

ويَلْزَمُ فكراً من توجيه الأمر لهم بأنْ يَدْخُلُوا الجنَّة، أن يكونَ الرَّبُّ جلّ جلالُه قد وَجّه الأمْرَ لِذَوي الاختصاص من الملائكة بأن يَسُوقوهم زُمَراً إليها، لتتكامل دلالاتُ النُّصوص الموزَّعةِ في القرآن المجيد.

فقد جاء في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قولُ اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

صيغةُ الأمْرِ في عبارة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ هي صيغة دَعوةٍ تكريمية من الرَّبّ العظيم الجليل لعباده المتقين الذين قضى لهم بأنَّهُمْ أصْحَابُ الجنَّة.

- ﴿...لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

سبَقَ تدبُّر معنى نَفْيِ الخوفِ والحزْنِ عَنْ أهل الجنّة، لدى تدبُّر الآية (٣٥) من هذه السورة.

وأُضيفُ هنا أنّ هذا التعبير قد جاء في القرآن المجيد (١٤) مَرَّة، وتَدَبُّرُها ضِمْنَ سِبَاقها وسِيَاقِها يحتَاجُ دراسَةً تكاملية مستقلّة.

وقد طوى النصّ بيَانَ تَوْجِيهِ الأمْرِ بإدْخال أهل النارِ النّارَ إيجازاً، وللعِلْم به من السّيَاقِ ومقتضى التقابل.

* * *

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ

هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

تمهيد:

هذه الآيات هي الآيات الأخيرات من الدرس الرابع من دروس السورة، وفيها ما يلي:

● عرض مشهد آخَرَ من مشاهد يوم الدين، إلاّ أنّه مَشْهَدٌ مقتطع من أحوال أهل النّار وهم في النّار، إذ يُنادُون مُسْتَجْدين أصْحاب الجنَّة وهم في الجنَّة، أنْ يَمْنَحُوهم من فَيْضِ ما عندهم من ماء أو رزقٍ مما رَزقهم اللَّه.

أمّا توصيلُ النّداء فيكون بوسيلة يُهَيِّئُها اللَّه عزّ وجلّ للفريقين وهم في دَارَيْهم، دار العذاب، ودار النعيم.

ويجيبُ أهل الجنَّة بأنّ اللَّه عزّ وجلّ قَدْ حَرّمَ ما في الجنَّة من ماء وأرزاقٍ على الكافرين.

● بيانٌ ربّانِيٌّ قد جاء تعليقاً على ذكر الكافرين يَصِفُ اللَّه فيه الكافرين بأنّهم اتّخذوا دينهم لهواً ولعباً، وغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا، وعَزَلُوا عَنْ تَصَوُّراتِهم الآخرةَ، وما فيها من عقابٍ بالعَدْل في دار العذاب النّار، وما فيها من ثوابٍ بالفضل في دار النّعيم الجنّة، وجَحَدُوا بآيات اللَّه وهُمْ يَعْلَمُون أنّها حقٌّ من ربّهم.

فَجَزَاؤُهم أنْ يُعَامَلُوا بمثل ما قدّموا في الحياة الدنيا.

● بيانٌ رَبّاني يَكْشِفُ أنّهُمْ لا يملِكُون عُذْراً يعْتَذِرُونَ به، فقد جاءهم

رَبُّهم بكِتابٍ فصَّلَهُ بحكمته وعِلْمه الشّامل، وفيه هُدىً ورحْمَةٌ لمن يُرِيدُ أن يستَجِيبَ لدعْوَةِ الحقّ، ويؤمِنَ بالحق، المنزَّلِ من لَدُنِ الرّبّ الحقّ.

وفي هذا البيان مُعالجةٌ، تَرْبويّة حكيمة بديعة، وهم في الحياة الدنيا، وهٰذهِ المعالجةُ يَنْتَفِعُ بها الّذين يحرصون على سَعادَتِهم الأبدية، ولاَ يَغْتَرُّون بزِيناتِ الحياة الدنيا.

التدبُّر:

- قول اللّه تعالىٰ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾.

التّعبيرُ بالنّداء في هذا وأمْثاله يَدُلُّ على بُعْدِ المسَافةِ بَيْنَ المنادي والمَنادىٰ، وهو الأمر الذي يَسْتَدعِي رَفْعَ الصَّوْت.

ويَدُلُّ التّعبيرُ بالنّداء في بعض الأحوال على مَشَاعِرِ التَّلَهُّفِ، أو شِدَّةِ الطَّلَب، أو شِدَّةِ التحسُّرِ، أو شِدَّةِ الحُزْن، أو نحو ذلك، مع أنّ المنادىٰ قريب، نظراً إلى أنّ الإنسان من طَبيعتِهِ أنْ يدُلَّ بِرَفْعِ الصَّوْتِ وبعباراتِ النّداء على هٰذهِ الأمور.

والصورة هنا تَدُلُّ على أنَّ النّداء صَادِرٌ من أصْحابِ النّار، وهم يُعَذَّبُونَ فيها، فهُمْ به يَسْتَجْدُون بتلهُّفٍ وشِدَّةِ طَلَبٍ وذِلَّةٍ وانْكِسارٍ، مِنْ أصحابِ الجنّة أنْ يُفِيضُوا عَلَيْهِمْ شيئاً من ماء الجنّة، أو شيئاً من رِزْق اللّه لهم فيها من مطاعم ومَشارب.

ولمّا كانَ التّعبيرُ هُنا يُقَدّمُ مَشهداً مقتطعاً من الحدَثِ الّذي سَوْفَ يكونُ يَوْمَ الدّين، كان من رفيع الأداء البياني الفنّيّ أن يُقَدَّم بصيغَةِ حَدَثٍ وقَعَ فِعلاً، والتّعبيرُ يُقَدّمُ صورة له. وفيه مع هذه الفنيّةِ التّصْويريّة دَلالةٌ على

أنّ الحَدَثَ سَوْف يقع لا محالَة، وهٰذا الأمْرُ يَسْمَحُ بالتعبير عَنْهُ بلاغيّاً بصيغة الفِعْل الماضي.

● ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا﴾: «أنْ» تفسيرية، فهي هنا تفسّر مَضْمُونَ النّداء بالتعبير الذي جاء بعدها.

﴿أَفِيضُوا﴾: الإفاضة تَدُلُّ على كَثْرَةِ العَطاءِ والبَذْل، أو كَثْرَةِ الدَّفْع، أو كَثْرَةِ السَّكْب، أو كَثْرَةِ التَّدَفُّقِ، وتكُونُ لكلّ شيءٍ بحَسَبِهِ.

تقول لغة: أفَاضَ اللَّهُ الخَيْرَ إذا كَثَّرَه. وتقول: أفَضْتُ الإناءَ، إذا مَلأْتُه حتى فاضَ عنه، وخرج الزائد عن حدوده. وتقول: أفاض الباكي دَمْعَه، إذا سكَبَهُ بغَزَارة.

وتقول: فاضَ الماء إذا كَثُر حتَّى سالَ. وفَاضَ النَّهْرُ أو السَّيْلُ، إذا مَلأَ مَجْرَاهُ وزَادَ حتَّىٰ طَفَحَ على جانِبَيْه.

وصيغة ﴿أَفِيضُوا﴾ صيغَةُ أمْرٍ معناها هنا الطَّلَبُ باستجداءٍ وذِلَّةٍ وانْكِسَار.

فَأَهْلُ النّار بندائهم يَسْتَجْدُون مِنْ أهلِ الجنَّةِ أن يَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِم من الزوائد الكثيرة الفائِضَة عن حاجاتهم، ماءً فائضاً من مياههم الكثيرة، أو رِزْقاً فائضاً من أرزاقهم الكثيرة، أو منهما معاً، لأنّ حرف العطف «أو» يَدُلُّ على التَّخْيير بَيْنَ الأمْرَين، ولا يَمْنَعُ من الجمعِ بَيْنهما.

● ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾: أي: أفيضُوا علينا فيضاً زائداً عن حاجاتكم من الماء الكثير الوفير الذي عندكم في الجنّة، وبَدَءُوا بطَلَبِه لشِدَّة ظَمَئِهم في دار تعذيبهم.

● ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: أي: أو أفيضُوا علينا فَيْضاً زائداً عن حاجاتكم من الرِّزْقِ الكثير الوَفير الّذي رَزَقَكُمُ اللَّهُ إيَّاهُ في الجنّة.

ويَبْدُو أنَّ لدَىٰ أهل النار فيها وسيلَةً يُشَاهِدُون بها ما في الجنّة من أنهَارٍ جارية، وأرْزاقٍ كثيرةٍ، ووَسَائِلِ نعيم عظيم، ووسيلةً يخاطِبُون بها أهْلَ الجنَّةِ في الجنَّةِ من منازلهم في دار العذاب، كأجْهِزةِ صَوْتٍ وصُورَةٍ، تقرُبُها إلى أذهَانِنا ما توصّل إليه الناس في هذا العصر الّذِي نَعِيشُه في الدنيا من أجهزة الصوت والصورة التي تَنْقُل إلينا الأصْواتَ والصُّوَر من أقْصَى الأرض إلى أقصاها المقابل.

● ﴿. . .قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾: أي: إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ أبَاحَ لنا الانْتِفَاعَ بكلّ ما في الجنَّة بأنفُسِنا، وملّكَنا ذلِكَ، لكنَّه لم يُبِحْ لنا أنْ نَتَصَدَّقَ بشيءٍ ممّا في الجنَّة على الكافِرينَ أصْحابَ النارِ، ولَوْ كانُوا من أقْرَبِ الأقربين إلَيْنا في الدّنيا. فمَا طلبتُمْ منّا من فائضَيْ ماءٍ أو رِزْقٍ عَنْ حاجاتِنا قَدْ حرَّمَهُمَا اللّه على الكافرين، وأنْتُمْ مِنْهم، فَهُمَا حرامٌ عليكم بتحريم اللّه الذي بِيَدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ، ولَيْسَ لنَا أن نَعْتَدِي على حقِّ اللّه جلَّ جلالُه في مِلْكه بدار ضيافته.

ويضاف إلى هذا المعنى معنىً آخر، وهو أنّ أحداً من أهل الجنَّةِ لو أراد أن يتصدّق بشيءٍ ممّا فيها على أحدٍ من أهل النار، فإنَّهُ لا يستطيع ذلك بقوانين وأسْبابٍ جَبْرِيّة، لا يُمْكِن اختراقُها، أو تجاوزُها، أو التحايُلُ عليها.

* * *

● قول اللّه تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾:

هذا بيانٌ من اللّهِ عزّ وجلّ جاء بمثابة تعليق شارح لبعض صفاتِ

الكافرين، أصْحاب النار، الّذين حرّمَ اللّهُ علَيْهم كلَّ شيءٍ ممَّا وهَبَ في الجنَّةِ لأصْحابها، والهَدَفُ التربويّ مِنْهُ تحذيرُ الكافِرين وهم ما زالوا في حياة الابتلاء من أن يتّخذوا دينهم لهواً ولَعِباً، ومن أنْ تَغُرَّهُمُ الحياة الدُّنيا، ومن الإعْراضِ أو التَّولّي عن آياتِ اللّه المُنَزَلاَّتِ في كتابه الذي فصَّلَهُ جلَّ جلالُهُ، على عِلْم بكلّ شيءٍ، وجَعَلَ ما اشْتَمَلَ عليهِ من المعاني النفيسة هُدىً يَهْدِي إلى سَعَادَةِ الدارَيْن، ورَحْمَةً مِنْهُ جَلَّ جلالُه، وعَظُمَتْ مِنَّتُهُ لعِبَادِهِ، وهُما نِعْمَتَانِ لا يَسْتَقِي من نَهرِ كُلّ مِنهُمَا، إلاَّ قَوْمٌ تَتَجَدَّدُ لَدَيْهِمْ دواماً حركَةُ الإيمانِ بالحقّ، ولاَ سيّما الحقُّ الذي يَجِيئُهُمْ من رَبِّهِمْ، فلا تَقِفُ دُونَ إيمانِهِمْ عقباتٌ من نفوسهم وأهوائهم وشهواتهم تعلُّقاً بزيناتِ الحياة الدنيا واغتراراً بها.

● ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: جاء هذا البيانُ الرَّبَّانيُّ وَصْفاً للكافرين أصْحاب النار.

أي: هم الذين جعَلُوا الدّينَ الَّذِي كُلِّفُوا أنْ يُؤْمِنُوا به ويَتَّبِعُوهُ بالطاعَةِ والتسليمِ الكاملِ والعَمَلِ، بفِعْلِ مَا جاءَ فيهِ من أوامِر، واجتنابِ ما جاء فيه من نواهي، جَعَلُوهُ لَهواً ولَعِباً.

اتَّخَذَ على صيغة «افتعل» من فعل «أخذ»، وأصل الأخذ تناول الشيء والقبضُ علَيْه وحيازَتُه. وحصَلَ توسُّعٌ لُغَوِيٌّ، فصار فعل «اتَّخَذَ» يسْتَعْمَلُ بمعنى فِعْل «جَعَلَ» وصار مثلَه يَنْصِبُ مفعولَيْن.

﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾: أي: جَعَلُوا دينَهُمْ شيئاً يَلْهُونَ بهِ ويَلْعَبُونَ، إذْ يَعْتَبِرُونه شيئاً غَيْرَ ذِي أهميَّةٍ تُقْصَدُ في الحياة، فيتعامَلُونَ معه كَتَعَامُلِهِمْ مع الأشياء الّتي لَيْسَ فيها جِدٌّ مِمَّا يَلْهُونَ بهِ ويَلْعَبُون من أمور دنياهم.

اللَّهْو: هو الاشتغال بشيءٍ غَيْرِ ذي أهميَّةٍ عمَّا يَجِبُ تَوْجِيهُ الجَهْدِ والعَمل له.

والكافِرُونَ يَعْتَقِدُونَ أنَّ الاشْتِغالِ بِبَعْضِ العبادات الدّينيّة الرَّبّانية هو من اللّهو، لأنّهم لا يَجِدُونَ لكثيرٍ مِنها ثَمَرَةً عاجلةً، وهُمْ لاَ يؤمِنُونَ بيومِ الدّين، ومَا فيهِ من جَزاء، فيتصَوَّرُونَ أنَّ صَرْفَ شيءٍ من طاقاتهم فيها ضَرْبٌ من اللَّهْو الّذي يَصْرِفُهُم ويَشْغَلُهُم عمّا يَنبغي أن يُوجّهوا طاقاتهم وأنواعَ جَهْدِهم له، من مالٍ يَكْسِبُونه ويجمعونه، ومتاعٍ من متاعِ الحياة الدُّنيا يحقِّقُون به لذَّاتِهم وشهواتهم ورغباتهم، وغير ذلك ممّا هو من زينة الحياة الدنيا.

يقال لغة: لَها يَلْهُوا لَهْواً بِكذا عَنْ كذا. ويقال: الْتَهَى يَلْتَهي الْتِهَاءً. ويقال: أَلْهَاهُ ذٰلِك، إذا شغله، والتَّلَهِّي: التَّشاغل.

وطلاَّبُ الدّنيا تلهيهم دنياهم عن أمور آخرتهم أو ما يُسْعِدُهُمْ فيها.

اللَّعب ضِدُّ الجدّ، ويقالُ لكلّ من عَمِلَ عملاً لا يجلُبُ لَهُ نَفْعاً، إنّما أنت لاعبٌ.

ومن اللّعب ما يفيدُ في رياضة الجسم، أو التّرْويح عن النفس، أو اكتساب بعض المعارف والمهارات، وعندئذٍ يكون لَعِباً ذا أغراض جادّة.

فالفرق بين اللّهو واللَّعِب أنَّ اللَّهْوَ قد يكونُ بأمْرٍ مُفيدٍ من أمور الدنيا، وقد يكون مجرّد عبَثٍ يشْغَلُ عمّا ينْبغي الاهْتمامُ له والعناية به، أمّا اللَّعِبُ فهو إنفاق الطّاقة في أمْرٍ لا يبلُغُ أن يكونَ من الجدّ الذي يهتمُّ لَه ويَعْتني به العقلاء، ذوو الهمَّةِ العليّة، ما لم يكن ذا فائدة للجسم أو النفس أو الفكر، للفَرْدِ أو للمجتمع، مُتيَقّنَةٍ أو مَرْجُوّة.

والكافرون الذين لا يؤمنون بيوم الدين، يَرَوْنَ أنَّ الاشتغال بِبَعْضِ العباداتِ الدينيّة الرَّبّانية، هو من اللَّعِبِ الذي قد يفيد في رياضة الجسم، أو في راحة النفس، ولكنَّ هذه العبادات الدينيّة لا تبلُغُ أنْ تكونَ من الجدّ الذي يَهْتَمُّ له العقلاء اهتماماً ذاتياً.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: في هذه الجملة بيان السَّبب في كون الكافرين اتَّخذُوا دينهم لهواً ولعباً، وهو أنَّهُمْ غَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا، فحَسِبُوا أنَّها كُلُّ شيءٍ في وُجودهم، وحَسِبُوا أنَّهُ لَيْسَ وراء هذه الحياة الدنيا حياةٌ أُخرىٰ يكون فيها الحسابُ وفصْلُ القضاء وتنفيذ الجزاء، والحياة الدُّنيا هي الحياة القريبة التي نعيشها.

﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: أي: وخَدَعَتْهُمْ، وأطْمَعَتْهُم بالبَاطِل.

يقال لغة: غَرَّهُ يَغُرُّهُ غَرّاً وغُرُوراً وغِرَّةً، فَهُوَ مَغْرُورٌ، وغَرِيرٌ، أي: خَدَعَه وأطْمَعَهُ بالباطل.

والحياة الدنيا هكذا، تَغُرُّ طالبيها السَّاعينَ بكدٍّ للحصول على متاعِها، وأنواع زِينَتِها، ثمّ يَجِدُونَ أنفسهم كساعٍ إلى سرابٍ، حتَّى إذا بَلَغَهُ لم يجدْهُ شيئاً، ولم يجدْ لَدَيْه مطلوبَهُ من الشراب، وتأتيه منيَّته، ويَجِدُ أنَّه قَدْ خَسِرَ نفْسَهُ بَعْدَ كدٍّ مُضْنٍ طَوال حياته، إذْ يُلاقي حِسابَهُ على ما قَدَّمَ وأخَّرَ في رِحْلَةِ الحياة الدنيا التي اجْتَازَهَا مُمْتَحناً.

وحول هذا الموضوع نجد في القرآن المجيد نَصَّيْنِ آخَرَيْن غير هذا النَّصّ من سورة (الأعراف) وبين هذه النصوص تكاملٌ في الدلالة على المعاني المرادة.

- قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لكل حَرِيصٍ على سعادته، بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: واتْرُكْ هؤلاء، ولا تكترث لهم، ولا تَعْبأْ بهم، فهم سَادِرون في غَيّهم، وسَوْف يُلاقون عند ربّهم يوم الدّين مصيرَهُمْ عذاباً أليماً.

● وقول اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً للّذين آمنوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

فنهىٰ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ عن اتّخاذهم أولياءَ، لأنّهم باتِّخاذِههم دين اللّٰه لعِبادِهِ هُزُواً ولَعِباً قَدْ أَوْغَلُوا في الكُفْر ومعاداة المؤمنين.

صُور اتّخاذ الكافرين دين اللّٰه لَهواً ولعباً:

ويتساءل متسائل عن صُوَر اتّخاذ الكافرين دينَ اللّٰه لهواً ولَعِباً؟

وبالتأمّل، وبمراجعة طائفة من النّصوص القرآنيّة الموزّعَةِ في سُوَر القرآن المجيد، تبدو لنا الصُّور الخمس التالية⁽¹⁾:

الصورة الأُولَىٰ: الافتراء على اللّٰه في مسائل الدين، مفهوماته، وعقائده، وشرائعه، وأحكامِه، كأنّ دين اللّٰه للناس بمثابة لعبة يَلْعَبُ بها أصحاب الأهواء والشهوات والأغراض والمصالح الخاصَّةِ بهم، أو بمثابة مَلْهَاةٍ يَلْهُونَ بها، غَيْرَ عائِبِين بأنّ الدِّين وأحكامه وشرائعه هو مادَّةُ امتحان الناس في الحياة الدنيا، وغَيْرَ مكترثين لأنَّ الامتحان ولوازمه وتَوابِعَه هو الغايةُ من خَلْقِ النّاسِ بخصائِصهم الّتي فطَرَهم اللّٰه عليها، وأنّه لَيْسَ لأحدٍ أنْ يَتَدَخَّلَ في موادِّ هذا الامتحان، دون إذْنٍ من صاحب الحقّ فيه، وهو الرّبُّ الخالِقُ الفاطِرُ الممتَحِنُ، ثُمّ المحاسِبُ وفاصل القضاء ومُحقِّقُ الجزاء، بعد الامتحان ورِحْلَتِه التي تنتهي عند الموت الذي ينزل بالممتَحَن،

---

(١) انظر تفصيل النُّصوص القرآنيّة في الملحق الرابع من ملاحق السُّورة «اتخاذ الدّين لَهْواً ولعِباً.

أو بانتهاء ظُروفِ الامتحان في الحياة الدّنيا، بظهور علامات السّاعة الكبرى، كَطُلُوعِ الشمس من مغربها.

وهذه الصورة موصولة بالخطِّ الأعظم الذي سار عليه موضوع السورة، وهو ما دلَّ عليه قول اللّه عزّ وجلّ في أوائلها:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ... ③﴾.

الصورة الثانية: الاستهزاءُ ببعض الأعمال الدينية، واعتبارها صُوراً غَيْرَ ذاتِ جَدْوىٰ، فهي من صُور اللّهو واللّعب. والاستهزاء بآياتِ اللّه وإنذاراته ووَعْدِهِ ووَعيده.

الصورة الثالثة الدُّخول في الدين على سبيل النفاق، بالتظاهر بالإيمان والإسلام، مع إبطان الكفر، وجعل ذلك وسيلةً لتحقيق مصالح دُنيويّة، أو لِطَعْنِهِ وطَعْنِ المؤمنين الصّادقين من داخل صفوفهم، كأنَّ دين اللّه للناس لُعبةٌ أو مَلْهَاةٌ يَلْعَبُ بها أو يَلْهُو بها المنافقون.

الصورة الرابعة: الاستهانة بقضيَّةِ الدين، وعدم الاكتراث له، والانصِراف عنه وعن الدّاعي إليه، لأمور متاع الحياة الدنيا ولَهْوِها ولَعِبها.

الصورة الخامسة: الاستهزاء بالرَّسُول والاستهانة به، ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ المؤمنون به، الذين اتَّبَعُوا ما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم.

وفي الملحق الرابع من ملاحق تدبّر السورة تفصيل النُّصُوص القرآنية حول هذه الصور الخمس، مع شيءٍ من التدبّر، إن شاء الله.

كيف تَغُرُّ الحياة الدنيا الإنسان؟

ويتساءَل متسائل باحثٌ: كَيْفَ تَغُرُّ الحياة الدُّنيا الإنسان، فتجعلُه يُعْرِضُ أو يُدْبِرُ عن الحقّ الذي يضمَنُ له سعادتَه الأبدية، ويأبَىٰ أن تكونَ مَسِيرَةُ حياته على صراط اللّه المستقيم؟

أقول:

لِنَضرِبْ مثلاً تاجِرَيْن سافَرا من بَلَدِهما، وحَمَلاَ مَعَهُما رَأْسَ مالِهِما كُلَّه، لَمْ يَدَعَا مِنْهُ شيئاً، وانْطَلَقا في رِحْلَةٍ تِجارِيَّةٍ إلى بلدٍ بعيدٍ ناءٍ جدّاً، وإقامَتُهُمَا في هذا البَلَدِ إقامَةٌ قليلَةٌ مَحْدُودة بحُدُودِ مَا يَشْتَرِيان به بضاعةً تجاريَّة، يُمْكِنُ أن يحقِّقَ كلٌّ مِنهُما فيها رِبْحاً يُقَدَّرُ بآلاَف آلاف الأضْعَاف وفوق ذٰلِكَ، إذَا شَحَنَاهَا إلى بَلَدِهِمَا، الَّذِي هُو مكانُ إقامَتِهِما الدَّائمة الباقية.

أمّا أحدُهما، فوجّه اهتمامه وعنايَتَهُ لجمْعِ النَّفائِس الّتي يتحقَّقُ بها رِبحٌ عظيم، تَبْلُغُ الذَّرَّةُ التي بذَلَها في الشِّراء قناطيرَ مُقَنْطَرةً ربحاً عند البيع.

فجعلَ يَشْتَرِي منها، ويَشْحَنُها إلى بلدِهِ تِباعاً مَضْمُونَةَ الوصُول.

وأمّا الآخر، فوجد في بلَد الرّحلة التجارية ذاتِ الإقامَةِ المحدودةِ جدّاً، والقصيرة جدّاً، مَدِينَةَ ألْعابٍ ومَلاهي ومسَاخِر، وفيها دُورُ رَقْصٍ وغِناءٍ، وأماكِنُ تسْلِيةٍ وضَحِك، وحانات خَمْرٍ وفجور، وفيها بعض أمَاكِن لتناول مَلَذَّاتِ المآكل والمشارِب وغَيْرِها.

وفي مدينة الألعاب والملاهي هذه ما يَسْتَهْلِكُ كُلَّ مُدَّةِ إقَامَتِهِ، وكُلَّ رأسِ مالِهِ، فدَخَلَ إليها، وأنفق رأسَ مَالِه فيها، وشغَلَ كُلَّ مُدَّةِ إقامَتهِ داخلها، ولم يُوجّه اهتمامَهُ لجَمْعِ ما يَشْحَنَهُ لِبَلَدِهِ من سِلَعٍ تجاريَّةٍ ذاتِ رِبْحٍ عظيم، وإنْ جَمَعَ شيئاً ما صادَفَهُ عَرَضاً فهو شيءٌ قليلُ القيمةِ لاَ يُحَقِّقُ له رِبْحاً.

أفلا يصِحُّ أنْ يقولَ أهلُ البصَرِ العقلاء: إنَّ هذا الرَّجُلَ قَدْ غَرَّتْهُ مَدِينَةُ الألعابِ والملاهي، عمّا سافر من أجْلِه، فقضىٰ رِحْلَتَهُ فيها، وعاد إلى بلده خائباً خاسراً فاقداً رأس ماله؟!!

هكذا نَحْنُ في الحياة الدنيا، إنّ رأسَ مَالِنا فيها عُمْرُنا وطاقاتُنا،

ونستطيع برأسِ مالنا هذا أن نشتري نفائِسَ عظيمةً جدّاً، وأن نَشْحَنَها تِباعاً، إلى دار إقامَتِنا الدَّائِمَةِ، الّتي تكون يَوْمَ القِيامَةِ، يَوْمَ الدّين.

وهذه النفائس هي جواهر الإيمان، وجواهر العمل الصّالِح الذي يُرْضِي رَبَّنَا كما شَرَعَ لَنا، وكما بَيَّنَ لنَا في آياتِهِ المُنَزلاَتِ على رَسُولِهِ المجتبىٰ.

أمّا شَحْنُهَا فمضمونٌ قطعاً، لأنّ حَامِليها إلى بلَدِ الإقامة الدّائمة الخالِدَة، هُمْ ملائكةٌ كرامٌ أُمَناءُ، لاَ يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون.

فمن وجّه هَمَّه وعَمَلَهُ لجمع النفائس لدار الإقامة الدائمةِ الخالِدَة، أفْلَحَ وسَعِدَ سعادةً أبَدِيَّةً.

ومن شغلَتْهُ الحياةُ الدُّنيا بمَتَاعِها، ولذَّاتِها، ولَهْوِهَا، ولَعِبها، وزِينَتِها، وشغَلَهُ التَّفَاخُرُ والتكاثُر من فانِياتها، فَقَدْ غَرَّتْهُ وأطْمَعَتْهُ بالبَاطل، لأنّه متىٰ انْتَهَتْ فيها إقامته القليلة الضئيلة، أقبلَ إليه جنُودُ الرَّب فأخْرَجُوهُ مِنْهَا قَهراً، دون أن يكون قد اشترى وجَمَعَ فيها لنفسه من النفائس الّتي تُرضي ربَّه، ما يَنْفَعُهُ في دارِ إقامَتِه الخالدة.

ولَمَّا كانَ رَأْس مالِه عُمْرَهُ وطَاقَاتِه، وهي جُمْلةُ ذاتِه، فإنَّهُ يكونُ باغْتِرَارِهِ بالحياة الدُّنيا قَدْ خَسِرَ نفسه، ومَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ كانَ أخْسَرَ الخاسِرِينَ، وَأخْيَبَ السَّاعين.

ولو أنَّ خُسْرَانه قد كان مُجرَّد خُسْرَانٍ سَلْبِيٍّ لكان كالبهائم، إذْ تكون يوم الدّين تراباً، لكنَّهُ خُسْرانٌ يتحمَّلُ بسَبَبِهِ عذابَ النار يومَ الدّين، يَوْمَ البقاء الدائم الأبديّ، الذي لا موتَ فيه، فَهُو خُسْرانٌ لجنَّاتِ النَّعِيم، وتحمُّلٌ لشقاءٍ في عذابٍ أليم.

وقد حذّرَ اللّه عزّ وجلّ النَّاسَ أجمعين من أن تغُرّهم الحياة الدنيا،

ومن أن يَغُرَّهُمْ باللّه الغَرُور وهو الشيطان، الذي يُتَابِعُهم بوَسَاوِسِهِ وتَسْوِيلاته:

■ فقال اللّه عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾.

السَّعِير: النار، أو لَهَبُها.

أي: إنّ وَعْدَ اللّهِ عزّ وجلّ بالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وبالحياة الأخرى الباقية الخالدة، وبالحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، بالفضل أو بالعدل، في الجنّة دار النعيم المقيم، أو في النار دار العذاب الأليم، وَعْدٌ حَقٌّ سَوْفَ يتحقَّقُ حَتْماً، فَلَا تخدَعَنَّكُمْ الحياةُ الدُّنيا، بما فيها من لذّاتٍ وشهواتَ، ولَهْوٍ ولَعِبٍ، وَزِينةٍ وتفاخُرٍ وتكاثُر، ولا يَخْدَعَنَّكُمْ الشَّيْطانُ الذي هُوَ الغَرُور بوساوسِهِ وتسويلاته وإطْماعَاتِه بالباطل، فَيَجْعَلَكُم تَسْتَهِينُونَ ولاَ تَعْبَؤُونَ بوَعْدِ اللّهِ، فَيُبْعِدَكُم عن صراطِه المستقيم اعْتِقاداً وعَملاً، ويُبْعِدَكم عن اتِّباع ما أُنْزِلَ إليكم.

إنّ الشيطانَ لكُمْ عَدُوٌّ مُنْذُ توجّهَ لهُ الأمْرُ بالسُّجُودِ لأبيكُمْ، وهو يتَّخِذُ كلَّ وَسِيلةٍ مُتاحَةٍ له، ليخْدَعَكُمْ، فيجْعلَكُمْ من أصْحابِ السَّعِير.

فاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً، واحْذَرُوا وَساوِسَهُ ومكايدَهُ وخُدَعَهُ، وأباطيلَهُ، وما يَغُرُّكُم به، حتّى تكونُوا من حِزْبِهِ، فيدعُوكم إلى سُلوكِ سُبُلِ الضَّلالة، الّتي توصِلُكُمْ إلى جَهَنَّمَ، فتكونوا من أصحاب السَّعِيرِ.

■ وقال اللّه عزّ وجلّ في سُورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ

هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

فأضافَ هذا النَّصُّ التَّصريحَ بالتَّحذِير من عقاب اللّه يَوْمَ الدّين، يَوْمَ لاَ يَسْتَطِيعُ والِدٌ أن يَقْضِيَ ما على ولَدِهِ من حُقُوقٍ تجاه رَبِّه، ولاَ يستطيعُ مَوْلُودٌ أن يَقْضِيَ ما على والِدِه من حُقُوقٍ تجاهَ ربِّه، بَلْ كُلُّ إنسانٍ يكُونُ مَسْؤُولاً عن نَفْسِهِ وَعَمَلِهِ يومئذٍ.

وبَعْدَ هذا التحذير للناس، حَذَّرَهُمُ اللّهُ عزَّ وجلَّ من أنْ تَغُرَّهُمُ الحياةُ الدُّنيا، وحَذَّرَهُمْ مِنْ أن يَغُرَّهم باللّه الشيطان، الَّذِي هو غَرُورٌ، مُنْذُ عاهدَ نفسه أن يُغْوِي بني آدم، وأعْلَنَ عَهْدَهُ هذا لِرَبِّهِ، بَعْدَ أنْ أنْظَرَهُ إلى يَوْمِ إنهاء ظُرُوفِ الحياة الدنيا.

غَرُور: على وَزْنِ «فَعُول» صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «غارّ» أي: كثير الغرور والمخادعة والإطماع بالباطل.

وقد وصف اللّه عزّ وجلّ الحياةَ الدُّنيا بأنَّها مَتاعُ الغُرُور، في الآية (١٨٥) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)، وفي الآية (٢٠) من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول).

وبعد أنْ عَرَضْتُ ما فَتَحَ اللّهُ به من تَدَبُّرٍ لقولِهِ عزَّ وجلَّ في الآية (٥١) من سورة (الأعراف) في وصف الكافرين أهل النار: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ ...﴾ أتابع تدبُّر ما جاء بَعْدَهُ في الدرس الرابع من دُرُوس السورة.

- قولُ اللّه تعالىٰ:

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: الفاء لترتيب الجزاء على العمل، ومعنى التعقيب بالفاء يرادُ به هنا التعقيب على فَصْلِ القَضاء بالإدانَة، والمراد باليَوْم يومُ الدِّين.

﴿نَنسَىٰهُمْ﴾: أصْلُ النسْيان في اللُّغَةِ التَّرْك، تقول لغة نَسَى فُلانٌ الشَّيْءَ يَنْسُوهُ نَسْوَة، إذا تَرَكه. ويكُونُ هذا النسيَانُ تَرْكاً بِدُون تعمُّدٍ وقَصْدٍ، ويكون تركاً بتعمُّدٍ وقَصْد، ومن التَّرْكِ المتعمّد الإهْمالُ وعَدَمُ الاكتراث.

ويأتي النسيانُ ضِدَّ الذِّكْرِ والحِفْظِ للشَّيْءِ في الذّاكِرَة، بمعنى أنَّهُ كان مَذْكُوراً ومَحْفُوظاً، فغابَ عن الذاكرة. وهذا المعنى هو المشهور بَيْنَ النَّاس، ومن المستحيل عقلاً وشرعاً أن يتَّصِفَ اللَّه عزّ وجلّ به.

قال ثعلب من أئمة اللّغة في قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ لا ينسىٰ اللَّه عزّ وجلّ، إنَّما مَعْنَاهُ تَرَكُوا اللَّه فتَرَكَهُمْ، فلمَّا كان النّسْيانُ ضَرْباً من التَّرْكِ وَضَعَهُ مَوْضِعَهُ.

وجاء في التهذيب أنّ المعنى: تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ فتركَهُمْ اللَّهُ من رَحْمَتِهِ. وجَاءَ فيه أيضاً تَفْسيراً لقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، أي: أتَتْكَ آيَاتُنا فتركْتَها (أي: لم تُؤْمِنْ بها ولم تَعْمَلْ بما جاءَ فيها مِنْ أحكامٍ ووَصَايَا وتكاليف) فكذلِكَ تُتْرَكُ في النار (أي: فَلاَ تُخْرَجُ مِنْهَا، ولاَ يُسْتَجَابُ لطَلَبِكَ مَهْمَا دَعَوْتَ وتَضَرَّعْتَ).

وبناءً على هذا المعنى اللُّغَوِيّ نَستطيع أنْ نَفْهَمَ معنىٰ قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ دُون إشكالٍ ما.

أي: ففي هذا اليومِ الذي هو يَوْمُ الدِّين نَتْرُكُهُمْ ونَتْرُكُ إجابَةَ طَلَبِهِمْ إذْ يَطْلُبُون تخفيفَ العذاب عنهم، أوْ إفاضَةَ شَيْءٍ من ماءِ الجنَّةِ عَلَيْهِم، أو شيءٍ من الرِّزْقِ الوَفير الذي يتنعَّمُ به أهْلُ الجنَّة، كما تَرَكُوا الاستجابة لدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّةِ الّتي جاءهم بها رُسُلُ ربِّهم، وتَرَكُوا العَمَلَ ليومِ الدِّين، كأنَّ أمْرَ دِينِ اللَّه لعباده لا يتعلَّقُ بهم، فلا يُهمّهُم، وانْدَفَعُوا يرتكبُون

المعاصي الكُبْرى الّتي أوْعَدَ اللّهُ في آياته المنزَّلاَت على ارتكابها بالخُلودِ في عذاب النار.

على أنّ التَّرْكَ بالنِّسْبةِ إلى المخلُوقين يُولِّدُ النِّسْيَانَ بمعنىٰ غِيابِ المتروكِ عن الذاكرةِ، وهذا ما يَحصُلُ فِعْلاً لدَىٰ الَّذين يتْرُكُون آيَاتِ اللّهِ المنزّلاَتِ بَعْدَ أَنْ يَتبَلّغوهَا، ولَوْ وَعَوْها وَحَفِظُوها، فإنَّهم بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَنِ تَغِيبُ عن ذاكرتِهِم غياباً تامّاً، وتكُونُ ذاكرتُهُمْ مشغولةً تماماً بمتاعِ الحياة الدنيا، فلا يَخْطُرُ في بالِهِمْ إلاَّ اللَّذات والأهواء والشهوات وسائِرُ ما في الدنيا من زينات.

وضمن سُنَّة اللّه العدلِيَّة القائمة على أنَّ الجزاء من جِنْسِ العمل، فإنَّهُمْ يُعَامَلُونَ يومَ الدِّين بالترك والإهمال في مواقعهم من عذاب النار، وهذا النِّسْيانُ يزيدُ من عذابهم، لأنّه يُشْعِرُهُمْ بأنَّ أحداً لا يَسْمَعُ صُراخَهُمْ، ولا يَعْبَأُ بهم، فهم مَنسِيُّون مُهْمَلُون مَتْرُوكُونَ في العذاب، كما يُنْسَى بَعْضُ السُّجناء من خُصُومِ السُّلْطان، حينما يُسْجَنُ آماداً طويلة، فلاَ يَسْأَلُ عنهُ أحدٌ، ولا يَبْحَثُ بشأْنِهِ أحدٌ، ولا يَتَفَقَّدُ أحوالَهُ أحد.

- ● ﴿كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾: أي: فاليومَ نَتْرُكُهُمْ تَرْكاً مُماثلاً ومُشابِهاً لتَرْكِهِمْ لقاءَ يومِهِمْ هذا، إذْ تركُوا الإيمان به، وتركُوا العملَ له، لأنهم كفرُوا باللّهِ، وبرَسُوله، وبما أنزل اللّه على رسوله.

- ● ﴿وَمَا كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: أي: وكَما كانُوا بآياتِنا يَجْحَدُونَ كافِرينَ بها مع عِلْمِهِمْ بأنّها حقٌّ وصِدْقٌ من عِنْدِ ربِّهم.

والمعنى: فاليَوْمَ نَتْرُكُهُمْ مُهْمَلِينَ مَنسِيِّينَ في عذابِ جَهَنَّم، مِثْلَما سبَقَ في الحياة الدّنيا أنْ تَرَكُوا وَأَهْمَلُوا لِقاءَ رَبِّهِمْ في يومِ الدّين هذا، ومِثْلَما كانُوا يُتابِعُونَ جُحُودَهُمْ بآياتِنا الّتي نُنَزِّلُها أو نُجْرِيها تِباعاً، مع أنَّ أنْفُسَهُمْ كانَتْ مُسْتَيْقِنةً لها.

ومن تركهم وإهمالهم تَرْكُ إجابَةِ مطالبهم، إذْ نجعلُها بمثابَةِ مطالِبَ لاَ وُجودَ لها، كما جَعَلُوا في الدنيا آياتِنا مَرْفوضةً مَتْرُوكةً غَيْرَ مَقْبولةٍ، مَجْحُودةَ النِّسْبةِ إلَيْنا، وبمثابَةِ شيءٍ لا وجود له، وظاهِرٌ أنَّ هذا الجزاء الرَّبَّانيّ لهم هُوَ من جِنْسِ عملِهم.

يَجْحَدون: أي: يُنْكِرُونَ آيَاتِنا مع عِلْمِهِمْ بأنَّها حقٌّ وصِدْقٌ.

يُقالُ لغة: جَحَدَ فُلاَنٌ الأمْرَ، وجَحَدَ بِهِ، جَحْداً وجُحُوداً، أي: أنْكَرَهُ مع أنَّهُ عالِمٌ بأنَّهُ حقٌّ. ويُقال: جَحَدَ المَدِينُ الدائِنَ حقَّهُ، وجَحَدَ بحَقِّهِ، إذا لم يَعْتَرِفْ له به، مع أنَّهُ في الحَقِيقَةِ وواقع الأمْرِ مَدِين.

فنفُوسُهُمْ من الناحِيَةِ العِلْمِيَّةِ مُوقِنَة، وإرادتُهم مُنْكِرَةٌ جاحِدَة اتّباعاً لأهْوائِهِمْ.

وقد أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أنّ الجُحُودَ يكونَ مَقْرُوناً باسْتِيقانِ الأنْفس، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ بالنسبَةِ إلى الآيات التي جاءهم بها موسىٰ عليه السلام:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

* * *

الصفات المذكورة في هذا النصّ للكافرين أصحاب النار:

من هذا النصّ نَسْتَخْلِص للكافرين أصحاب النار أرْبَعَ صفات:

الصِّفَةُ الأولى: أنَّهُمْ اتَّخَذُوا دينهم لهواً ولعباً.

الصفة الثانية: أنَّهم غرَّتْهُمُ الحَيَاة الدُّنيا.

الصفة الثالثة: أنَّهُمْ نَسُوا في رحلة امْتِحانهم في الحياة الدنيا، يَوْمَ

الحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتحقيقِ الجزاء، نسيانَ تَرْكٍ وإهمال، غَيْرَ عابِئِينَ بما أتاهُمْ حولَهُ من ترغيبٍ وتَرهيب، في آيات اللَّهِ المنزّلاَتِ وفي بَيَاناتِ رُسُلِه المصطفينَ الأخيار.

الصفة الرابعة: أنَّهم جَحَدُوا بآياتِ اللَّهِ البيِّناتِ، المقرونات بما يَدُلُّ على أنَّها حقٌّ من عند ربِّهم، وأنَّها مُنَزَّلاَتٌ لإقناعهم، وتَعْلِيمهم، وتَكْليفِهِم العَمَلَ بمطالبِ رَبِّهم مِنهم في رحلة امتحانهم، وترغيبهم فيما عند اللَّه جلّ جلالُه من أجْرٍ عظيم وثوابٍ جزيل، لمن آمنَ وأطاع. وإنذارهم بما عند اللَّه من عقابٍ أليم، لمن كَفَرَ باللَّهِ وجَحَدَ بآياتِهِ المنزَّلاَتِ على رُسُلِه.

ونلاحظ في النصّ أنّ اللَّه عزّ وجلّ قد نوَّعَ الأسْلُوب لدى بيان الصفتين الثالثة والرابعة، إيثاراً للجمال الفنيّ، وخروجاً عن النمطيَّة المتواترة، فلم يَقُلْ: الّذينَ اتَّخذُوا دينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً وغرَّتْهُمُ الحياة الدُّنيا، ونَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِم هذا، وجَحَدُوا بآياتِنا.

بل ذكر جلَّ جَلاَلُهُ الصفتَيْنِ الثالثة والرابعة في مَعْرِض بيان سبب نسيان اللَّه لهم، وتركِهِم مُهْمَلين لاَ تُسْتَجَابُ مطالِبُهُمْ وهم في دار العذاب، وهو مُعَامَلَتُهُمْ بمِثْلِ عَمَلِهِم في رحلة ابْتِلاَئِهِم.

* * *

- قول اللَّه تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

تمهيد

يَجْمَعُ هذا النَّصُّ بَيْنَ تَصْوير حَالِ الكافرين بكُتُبِ اللَّه المنزَّلة من أهْلِ القُرُون السَّابقة لبِعْثةِ الرَّسُول محمد ﷺ، وتصويرِ حالِ الكافرين بالقرآن بَعْدَ بِعْثَتِه، بعد أن قدَّم قبْلَهُ لقطاتٍ من أحوالهم وهم في عالَم الجزاء في الحياة الأُخرَى، تَصْويراً لما سَوْفَ يكون علَيْه شأنُهُمْ، كأنَّهُ أَمْرٌ واقِعٌ مُنجَزٌ تَجْرِي أحْدَاثُه.

إنّ هذا التنقُّلَ والتراوُحَ في البَيانِ بَيْنَ عالَم الابتلاءِ وعالَم الجزاء، على سبيل التَّعاقُبِ في النَّصّ القرآني، والتَّنَقُّلَ بَيْنَ المَشاهِدِ، من موقف الحساب إلى مُسْتَقَرِّ الجزاءِ، إلى غير ذلك من مشاهِدَ ومواقِفَ أُخْرَوِيَّة، فإلى الحياة الدنيا، وما فيها من أحْداثٍ، أو إلى ما تَسْتَدعي الحكمة التعليميَّة أو التربويَّة من خطاب، حتَّى كأنَّ الزَّمَنَ كُلَّهُ ماضِيَهُ وحاضِرَهُ ومستقبلَهُ في لَوْحَةٍ واحِدَةٍ، تَتَنَقَّلُ عليها عَدَسَاتُ التَّصْوير أو الإعلام البيانيّ، حَسْبَ مقتضيات الإثارة ولَفْتِ النَّظَرِ وشَدِّ الانْتِباه.

إنَّ هذا التَّنَقُّل والتراوُحَ التَّعاقُبِيَّ المفاجئ، دُون مُقَدّماتٍ تَشْتَمِلُ على إشعارٍ بالانتقال، هو من الإِبْداع الفنيّ الّذي لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً في فُنُونِ الأدب من قَبْلِ القرآنِ المجيد.

فمن الملاحظِ في طَائفة من النّصوص القرآنيّة، أنّ النّصّ بينما يكون جارياً على أسلوب مخاطَبةِ الناس وهم في عالم الابْتلاء الدُّنيوي، إذا به ينتقل مفاجأةً إلى مَشْهَدٍ من مشاهِدِهِمْ وهُمْ في عالَم الجزاء الأخروي، فإذا بِه يفاجئ بالحديث عنهم وهم في عالم الابتلاء الدنيوي، مع التنويع في الأساليب، والتَّغْيير في منهج الخطاب، الأَمْرُ الّذي يشُدُّ الفِكْرَ مِنْ أعْماقِهِ لدىٰ مَنْ هُوَ حريصٌ على تلقِّي المعرفة، وتذَوُّقِ جمال البيان، ورَوْعَةِ الكلام البليغ، فهو بسببِ ذلك يُتابع التدبُّر بنشاط، علىٰ خِلَافِ النَّمطيَّةِ

الواحِدَة في أُسلُوب تَقْدِيم الأَفْكارِ والمفهومَاتِ، وعَرْضِ المعارف وسَرْدِها على وتيرة واحِدَة، فإنّ هذه تجلُبُ الفتور، وشُوردَ الذِّهْنِ، ورُبَّما نامَ مَعَها المتلقّي، ولَوْ كان راغباً في التلقّي وحريصاً عليه، وتكونُ حالُهُ كحَالِ من ينامُ على نَعِيرِ النَّاعُورَةِ، وجَعْجَعَةِ الرَّحا.

التدبّر:

- قول اللّه تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾: هذه الجملة هي فيما أرىٰ حاليّة. (الواو) واو الحال، واللام من ﴿وَلَقَدْ﴾ واقعةٌ في جواب قَسم منوي، و«قَدْ» حرف تحقيق مؤكّدٌ لمضمون الجملة، واحتاجَ الموضُوعُ كلّ هذه المؤكدات لأنّ المقصودين بالخطاب في الدنيا منكرون جاحدون.

والمعنىٰ بالنظر إلى الآية السّابقة التي تحدّثت عن صِفَاتِ الكافرين أصْحَاب النّار يُمكِنُ أنْ نقول فيه: إنّهم اتّخذوا دِينَهُمْ لَهْواً ولعباً، وغرَّتْهُمُ الحياة الدنيا، وتركوا التَّفْكِيرَ بيوم الدين والعمل لما يُنجيهم ويُسْعِدهم فيه، وجَحَدُوا بآياتِنا، في حَالِ أنّنا جئناهُمْ بكِتابٍ.

- ﴿جِئْنَٰهُم﴾: يتحدَّثُ اللّهُ جلَّ جلالُهُ بضميرِ المتكلّم العظيم، للإشارة إلى عَظِيم حِكْمَته، وإلى عِظَمِ ما جاءَهم به من كتاب.

يقالُ لغة: جاءَ القوم بِكَذا، أي: أتاهُمْ به، وأحْضَرَهُ لَهُمْ، وجَعَلَهُ في متناول أيْدِيهم، أو أسْمَاعِهِم وأفكارهم وقُلوبهم.

- ﴿بِكِتَٰبٍ﴾: المرادُ بالكِتَاب هنا كلُّ كتابٍ أنْزَلَهُ اللّهُ لِهدايَةِ النّاس، وهو يَعُمُّ القرآنَ وسائرَ الكُتُبِ الرَّبَّانيّة المنزّلةِ قَبْلَهُ على المُرسَلين السابقين للرسول محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه وسلّم عليهم أجمعين، بدليل ما جاء

في الآية التالية (٥٣) من قول الكافرين جميعاً، وهُمْ في دارِ العذاب: ﴿. . .لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ . . .﴿٥٣﴾ ﴾.

وقد أبان اللّه عزّ وجلّ مِنْ صفاتِ الكِتاب الّذي جاءَ النّاسَ به ثَلاثَ صِفات عُظمى:

الصّفة الأولى: دلَّ عليها قولُ اللّه تعالىٰ مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلّم العظيم:

﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: فَصَّلْنَاهُ: أيْ: بَيَّنَّاه، يُقالُ لُغةً: فَصَّلَ يُفَصِّلُ تَفْصِيلاً، أي: بَيَّنَ يُبَيِّنُ تَبْييناً. وَأَصْلُ التفصيل التَّمْيِيز، بفَصْلِ الشيءِ عن شيءٍ آخر، والتَّفْصِيلُ في المعاني يكونُ بتَمْيِيزها، وفَصْل بَعْضِها عن بَعْض، وإعْطَاءِ كُلٍّ مِنْها حُكْمَهُ، وهَذا غَايَةُ البَيَانِ لَحَقَائِقِ المعارِف.

ومُسْتَنَدُ هذا التفصيل التَّمَكُّنُ الكَامِلُ من العِلْم بحَقَائِقِ المعلومات، كُلِّيَّاتِها، وجُزْئِيَّاتِها، كِبارِها وصِغَارِها، حَتَّى دَقَائِقِها الدّقيقة البالِغَةِ الغَايَةَ في الدِّقَّة، وجاء قولُهُ تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مُشِيراً إلى مُسْتَنَدِ هذا التفصيل. أي: فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً دقيقاً مَبْنِيّاً أو قائِماً على علمٍ، فالعبارة صفةٌ لمَفْعُولٍ مُطْلَقٍ مَحْذُوفٍ، وهٰذا في نَظَري أجْوَدُ في التَّدَبُّر من اعْتِبارِ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حَالاً من الفَاعِلِ، بمعنىٰ فَصَّلْنَاهُ عالِمِين، أو حَالاً من المَفْعُول، بمعنى فَصَّلْناهُ مُشْتَمِلاً على عِلْم.

وقد اسْتَدْعَىٰ البيانُ ذِكْرَ هذا القَيْد: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لأنَّ الباحثين من النّاسِ قَدْ يُفَصِّلُونَ مَعارِفَهُمْ، لٰكِنَّ تَفْصِيلَهُمْ لاَ يكونُ قائماً على عِلْم بحَقَائِقِ الدَّقائقِ، فتُضِيفُ تفصيلاتُهم جهالاَتٍ وأحكاماً باطلةً في القضايا الجزئيّة، إلى جَهالاَتٍ وأحْكام باطِلَةٍ في القَضَايَا الكُلّيَّة، وبذٰلِكَ تتراكَبُ الجهالاتُ وصُوَرُ الباطل، معَ الإيهامِ بالتفصيل الكثير أنّها حَقَائِقُ قائِمَةٌ على العِلْمِ بالدقائق.

والتَّفْصِيلُ في القرآن المجيد قَدْ جاءَ لقضايا الدِّين، ولا سيَّما أُصُولُ الاعتقاد، وأُصُولُ الأخلاق، وأصُولُ العبادات، وأصُولُ الحقوق، والأحكام المبيَّنَةُ لحدود الله.

ويشْمَلُ التفصيل أيضاً التفصيلَ في الصِّياغة اللَّفظيَّة للآيَاتِ في الكتاب المنزّل، فهو أيضاً ظاهرة من ظواهر كتاب اللّٰه، ذاتِ الأثَرِ الملائم للنَّفْس الإنسانيّة في التَّلَقِّي، والحفظ، والتَّدَبُّر.

الصفة الثانية: دَلَّ عليها قول اللّٰه تعالىٰ:

﴿هَدَىٰ﴾: الهُدَى يأتي في اللّغة بمعنى الرشاد، وبمعنى الدّلالة إلى ما يُوصِل إلى المطلوب، وبمعنىٰ الطريق الواضح والصراط الّذي هو طريق الحقّ.

وكُلُّ هٰذه المعاني هي من صفات كتاب اللّٰه حقيقةً.

يقال لغة: هَدَاهُ يَهْدِيه هُدَىً وهِدايَةً وهِدْيَةً بمَعْنَىٰ دلَّهُ وأرْشَدَهُ، وبيّن له طريق الخير وطريق الشرّ، أو طريق الحق وطريقَ الباطل، أو طريق السعادة وطريق الشّقاء.

فالهُدَى على هذا مَصْدَرُ هدَىٰ يَهْدِي.

وكتابُ اللّٰهِ فيه هٰذا الهُدَىٰ، ولكنَّ الَّذين يَنْتَفِعُون بهُدَىٰ كتاب اللّٰه في آياته، هُمُ الَّذِين آمَنُوا به إيماناً صحيحاً صادقاً عن وَعْيٍ وبصيرة.

أمّا بالنسبة إلى القرآنِ إبّان نُزُولِ سُورَة (الأعراف) فالذين يَنْتَفِعُون تِباعاً بهُدَى آياته هُمُ الّذين يتابعون نُجُومَ التّنزيل بإيمانٍ جديدٍ، بَعْدَ إيمانٍ سابقٍ بما كان سَبَقَ أنْ قد نزلَ منه.

والآية تَشْمَل حال المتَلَقّين وَقْتَ التّنزِيل، ثمّ الَّذِين يتجَدَّدُ لدَيْهِمُ الإيمانُ بَعْدَ أنْ اكْتَمَلَ تَنْزِيلُ القرآن، كُلَّما تَلَوْا مِنَ القرآنِ آياتٍ فيها هُدًى.

ولفظُ ﴿هُدًى﴾ في الآية مَنصوبٌ على أنَّهُ مفعولٌ لأجله، أي: من أجْلِ هدايتهم، أو على أنَّهُ حال من الكتاب المفصّل، أي: حالَةَ كَوْن الكِتَاب هُدىً.

الصّفة الثالثة دلّ عليها قول اللّه تعالىٰ:

﴿وَرَحْمَةً﴾: أي: هو رحمَةٌ من اللّهِ عزّ وجلّ للنّاس، إذْ جاءَهم به مُفَصَّلاً مُشْتَمِلاً على هُدىً، فأبان لهم صراط سعادتهم في الدُّنيا، وصراط نجاتهم من عذاب يوم الدّين في الجحيم، وظفرهم بالنعيم الخالد في جَنَّات النعيم، فهو أثَرٌ من آثار رحمة اللّهِ بعباده.

ورَحْمَةُ اللّه عزّ وجلّ صِفَةٌ من صفاته على ما يليقُ بجلاله، وهي تَسْتَلْزِمُ الإنْعَام والإكرامَ والإحْسَان، ويكون من آثارِها بحَسَبِ حكمته جلّ جلالُه العَفْوُ والغُفْران.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا قَيْدُ لِكَوْنِ الكتاب هُدىً ورَحْمَةً، أي: إنَّ الذين يَنْتَفِعُون من كون الكتاب الرَّبّاني هُدىً ورَحْمَةً، هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بكُلِّ مَا جاءَ فيه، فيتابِعُون آيَاته بالإيمان الصحيح الصادق، الذي من شأنه أن يدفعهم إلى العمل بأحكامه وشرائعه، فيكُون في الواقع لهم هُدىً، وهُمْ يَسْعَدُون بعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ.

ولدى تحليل كَوْنِ ما في الكتاب الرّبّانيّ رَحْمَةً يَظْهَرُ لنا أن بَيَاناتِهِ وتعليماتِهِ ووصَايَاهُ تُعَرِّفُ بالحقّ والباطل، وتوضّحُ المسافَة الفاصِلَةَ بَيْنَهما حتّىٰ لاَ تَخْتَلِطَ حُدودُهُما، فلاَ يقعَ مَنْ يَهْتَدِي في حَمْأةِ الباطل وهُوَ يَظُنُّهُ حقّاً، وتُعَرِّفُ بطَريقَي الخَيْرِ والشَّرّ، وطَريقي الفُجُورِ والتقوى، وطَريقي الصَّلاحِ والفَسادِ من السُّلُوك الإنسانيّ الظَّاهِرِ والبَاطِنِ، وتُوضِّحُ الحُدُودَ والفَوَاصِلَ بَيْنَ هٰذِهِ الطُّرُق، فَلاَ يَقَعُ من يَهْتَدِي بِهَدْي الكتاب الرّبّانيّ في أوْحَالِ الشَّرِّ والفُجورِ والفسادِ وأوضارها وأخْبَاثها.

فَهُوَ كالطبيب النّاصِحِ الرَّحيم الّذي يُقَدِّمُ نصَائِحَهُ بِشَأْنِ الوِقاية قَبْلَ الإِصَابَةِ بالدّاء، وبالعلاج بَعْدَ الإصابة به، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا رُحِمَ وسُتِر، ومن أعْرَضَ عَنْهَا أوْ أدْبَرَ خَابَ وَخَسِرَ.

إنَّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بكتاب اللّه وبما جاء فيه من خيرٍ عظيم للناس، قد حَرَمُوا أنفسهم بكُفْرِهِمْ به، واسْتِكْبارِهِمْ عن اتّباع آياته، من منافع كَوْنِهِ هُدىً ورَحْمَةً للعالَمِين.

❁ ❁ ❁

- قول اللّه تعالىٰ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾.

ما زال الحديثُ القرآنيُّ يَتَناوَل الّذِينَ كَفَرُوا وهُمْ أصحابُ النّار، ولَقَدْ جاءهم رَبُّهُمْ بكِتابٍ فَصَّلَهُ على علم هُدَىٰ ورَحْمَةً لقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ بَعْدَ الأَدِلَّةِ الكافية، والبراهِينِ العقليَّةِ القاطِعَة، المُقْنِعَةِ لِمَنْ أرَادَ أنْ يقْتَنِعَ، إلاَّ تحقُّقَ ما تَؤُولُ إلَيْهِ الأخبارُ الّتي اشتملَ عَلَيْهَا من أنباء يوم الدِّين، إذْ تتحقَّقُ هذه الأنباء في الواقع، ويَجِدُونَ أنْفُسَهُمْ في أنواع عذاب جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين بَعْدَ الحسابِ وفَصْلِ القضاء يَتَقَلَّبُون.

فعل «نَظَرَ» يأتي بمعنى «انْتَظَرَ». تقول لغة: نَظَرَ فُلاَنٌ الشَّيْءَ، أي: انْتَظَرَهُ، وتقولُ: جَلَسَ المصلّي في المَسْجِدِ بَعْدَ صلاة المغرب يَنْظُرُ العِشَاءَ، أي: ينتظِرُه. ونَظَرَ رُكّابُ الطائِرَةِ مَوْعِدَ إقْلاَعِها، أيْ: انْتَظَرُوه.

- ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: أي: إلاّ الواقع التطبيقيَّ الّذِي تَؤُولُ إلَيْهِ، بمعنىٰ

تَصِيرُ إلَيْهِ أنباءُ الوَعيد في آيَاتِ كتاب اللّه، فهذا هو الّذي تَؤُولُ إلَيْهِ الآيات التي تَضَمَّنَتْ الأنباء، بما أعْتَدَ اللّهُ عزّ وجلّ للكافرين المكذّبين بعذاب اللّه يوم الدّين.

التأويلُ في الُغة: يأتي بمعنيَيْن:

المعنى الأول: إرْجَاعُ الشّيْءِ إلى مَرجعِ ما كانَ عليه. تقولُ لُغَةً: آلَ الشَّيْءُ يَؤُولُ أوْلاً وَمَآلاً إلى كذا، أي: رجَعَ إليه. وتَقُولُ: أوَّلَهُ إلَيْهِ، أي: أرْجَعَهُ إليه.

المعنى الثاني: تَصْيِيرُ الشَّيءِ إلى مَصِيرٍ ما، تقول لغة أوّلْتُ الشّيْءَ إلىٰ كذا، أي: صَيَّرْتَهُ إلَيْهِ، وتقول: آلَ الشّيْءَ إلىٰ كَذَا يَؤُولُ أوْلاً ومَآلاً، أي: صارَ إليه، ولَوْ لم يكن في هذا المصير معنى الرُّجُوع.

ويُلاحَظُ أنَّ مِمَّا جاءَ مُفَصَّلاً فيما نَزَلَ من قرآن مَا نَزَلَ حَوْلَ الجزاءِ بالعَدْلِ وبالفَضْلِ يومَ الدّين، وحول البعث إلى الحياة الأخرى.

والتفصيل الذي جاء من ذلك هو تفصيل أنباءِ ما سَوف يَحْدُثُ في المستقبل، ممّا هُوَ مُقَرَّرٌ في خُطَّةِ التكوين الرَّبّانية، والخبرُ عنِ المُسْتَقْبَلِ يُعْتَبَرُ واقِعُ الحالِ الذي يكونُ فيه المطابقُ له تَأْوِيلاً له، إذْ هو المصيرُ الذي يصير إليه مَضْمُونُ الخبر.

إنَّ الكلاَمَ عن الواقع الحاضرِ، يكون الواقع الحاضِرُ المطابق له هو الحقيقة للكلام، والكلام تعبيرٌ عنهُ، وصُورَةٌ كلامِيَّةٌ له.

وإنّ الكلامَ عن الواقع الماضي، يكونُ الواقع الماضي المطابق له هو المَرْجِعَ الذي يَرْجِعُ إليه الكلام، وهو الحقيقة الماضية له، والكلامُ تعبيرٌ عنه، وصُورَةٌ كلامِيَّةٌ له.

وإنَّ الكلامَ عن الواقع المستقبليّ الذي سيكون أو سوف يكون في

المستقبل القريب أو البعيد، يكُونُ الواقعُ المستقبليُّ المطابق له هو المصير والمآل الذي يؤُول إليه الكلام، وهو الحقيقة المستقبليَّة له، والكلام تَعْبيرٌ عنه، وصُورَةٌ كلاميَّةٌ له.

فالذين يُنْكِرُونَ القرآنَ المجيد، ويكذِّبُونَ بما تنزَّلَ من آياته، وفيها الإنْذَارُ المفصَّلُ بأنْوَاعِ الوعيدِ بالعذاب الذي سَوْفَ يُلاَقُونَهُ، ماذا يَنْتَظِرُون من بَرَاهِينَ تُقْنِعُهُمْ بأَنَّ مَا جاءَ في هذا القرآنِ المجيد هو الحقُّ من ربِّهم، غَيْرَ المشاهَدَةِ الحسيَّة الّتي سوف يشاهدونها، وغير أن يَذُوقُوا العذابَ الَّذِي سوفَ يَذُوقُونَه حتماً، إذا أصَرُّوا على ما هُمْ عليه من كُفْرٍ، وماتُوا على ذلك.

لقد قَدَّمَ رَبُّهم لهم من الأَدِلَّةِ والبراهين القواطع، ومن صُوَرِ الترغيب والترهيب، ما يكفي لإيجاد القناعَةِ التامَّةِ لدَيْهِم، لو صَرَفُوا عن أَنْفُسِهِمْ الكِبْرَ، والتقليد الأَعْمَى، ورغباتِ الفجور في الأرض.

فإنْ كانوا يَنْتَظِرُونَ أموراً يُشَاهِدُونها بأعيُنهم، أو يُدْرِكُونَها بحواسِّهم الأخرى، فإنَّها لا تَكُونُ إلاَّ بَعْدَ انتِهاءِ رِحْلَةِ امتحانِهم في الحياة الدّنيا، وعِندئذٍ تَبْدَأُ مَصَايِرهم الجزائيَّةُ تتَتَابَعُ عليهم، حتَّىٰ مَصِيرِهِم الأخير في عَذاب جَهنَّم، هذا ما دَلَّ عليه قول اللّه تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ إلاَّ المصيرَ الَّذِي تَؤُولُ إِلَيْهِ نُذُرُ العذابِ الخبَرِيَّة، وحينَئِذٍ لاَ يَنْفَعُهُمْ إيمانٌ ولاَ عَمَلٌ.

قول اللّه تعالىٰ: ﴿..يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ..﴾: أي: يَوْمَ يَأْتِي تحقُّقُ نُذُرِ العذاب يومَ الدّين، في الواقع المستقبليّ، ويَحُلُّ بهم ما كانُوا قد كَذَّبُوا به من قَبْل.

● ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: أي: يقولُ الكافرون الَّذِين تَرَكُوا الإيمانَ بما جَاءَ في كتاب رَبِّهم لهم، وتَرَكُوا العَمَلَ بأحكامه ووصاياه، ولم

يَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم، جُحُوداً، أو إهمالاً.

- ﴿نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: أي: تركُوهُ في الحياة الدُّنيا حينما كانوا في رِحْلَةِ الابتلاء.

- ﴿...قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ...﴿٥٣﴾﴾.

دلَّتْ هذه العبارة على أنَّهم يَقُولُونَ يومئذٍ ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: دلّ عليها قول اللّه تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

في هذه الجملة بَيَانُ أنَّهم سَوْفَ يَعْتَرِفُونَ يومَئِذٍ، بأنَّ رُسُلَ رَبِّهِمُ الذين كانوا كذَّبُوهُمْ في الحياة الدنيا، قَدْ جاءُوا بالحقّ فَلَمْ يَكُونُوا كاذبين.

وهذه الجملة تَدُلُّ على أنَّ أُمَمَ الرُسُلِ جميعاً، يَقُولُونَ قولَةً واحِدَةً، معترفين بَعْدَ ظهور الواقع الخبرِيّ بصُورَةٍ حِسِّيَّةٍ: قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بالحَقّ.

وهي تَدُلُّ أيضاً على وَحْدَةِ الرّسالاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، بالنِّسْبَةِ إلى العقيدة بِيَوْمِ الدِّين، وما جَعَلَ اللّهُ عز وجلّ فيه بأصل خُطَّةِ التَّكْوِينِ، وقد أنْزَلَ به البَيَانَ على جَمِيعِ المرسَلِين، في كُتُبِهِ المنزَّلَة جميعاً.

ويُلاحَظُ هنا أنّ عِبارة الكَافِرِينَ يَوْمَئِذٍ: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أقلُّ تأكِيداً من عِبارةِ المؤمنين الّتي جاءت في الآية (٤٣) وهي قولهم: ﴿...لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ...﴿٤٣﴾﴾، ففي عبارة المؤمنين هٰذه زيادةُ اللاّم الواقعة في جواب قَسَمٍ مَنوِيّ قَبْلَ حَرْفِ التحقيق «قَدْ».

المقالة الثانية: دلَّ عليها قولُ اللّهِ تعالىٰ: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾؟.

هٰذِهِ أمْنِيَّةٌ يَتَمَنَّاها الكافرون في أنفسهم، ويُصَرحُونَ بها في ألْسِنَتِهِمْ، بعد أنْ وصَلُوا إلى حقِّ اليَقِين بأنَّهُمْ من أصْحَابِ النَّارِ، وهُمْ يَذُوقُونَ عَذَابَها في الواقع.

إنَّهُمْ يَتَساءَلُونَ: هَلْ يُوجَدُ لهم من شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَيُخْرِجَهُمْ من النَّارِ، أو يُخَفِّفَ عَنهُمْ مِنْ عَذَابِهَا.

(مِنْ) حَرْفُ جرٍّ زِيد في الجملة قَبْلَ المبتدأ وبعد «هل» الاستفهاميّة، والغرض من زيادَتِهِ تأكيد التعميم في السّؤال عن أيّ شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

المقالة الثالثة: دلّ عليها قول اللّه تعالىٰ: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾؟

وهذه أمْنِيَّةٌ ثانية يَتَمَنَّوْنَها على سبيل التَّرْدِيدِ بَيْنَها وبَيْنَ الأمْنِيَّةِ الأولى، فأيُّهما أمْكَنَ حُصُولُه فَهُمْ سُعَدَاءُ به.

والمعنى: أوْ هَلْ نُرَدُّ إلى حَيَاةِ الابتلاء مرَّةً أُخرَى، فنَعْمَلَ عمَلاً صالحاً نُرْضِي به رَبَّنا، غَيْرَ العَمَلِ السَّيِّءِ الَّذِي كُنَّا عَمِلْنَاهُ في رحلة الامتحان الأولى، وهو يَشْمَلُ الأعمالَ النفسية كالإيمان والنّيّات، والأعمال ذوات الظواهر الجسديَّة.

وقد جاء في القرآن المجيد نُصُوصٌ كثيرة، تُبَيِّنُ أنَّ أُمْنِيَتَهُمْ هٰذه مَرْفوضة التّحقيق حَتْماً، لأنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه، إذْ لو رُدُّوا إلى رِحْلَةِ امْتحانٍ أُخرَى، فإنَّهُمْ يُرَدُّون بَعْدَ أنْ يُمْسَحَ مِنْ ذاكِرَاتِهِمْ كُلُّ شَيْءٍ شَهِدُوهُ يَوْمَ الدِّين.

قول اللّه تعالىٰ: ﴿... قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾.

هذا تَعْقِيبٌ رَبَّاني يَدُلُّ بالكِنَايَةِ، لا بصريح اللفظ، على أنَّ أمْنِيَتَيْهِمْ تُرْفَضان، ولا يُلْتَفَتُ إليهما، فَلاَ يَأْذن اللَّهُ لأيّ شافعٍ بأن يَشْفَعَ لهم، ولا يَمْنَحهُم فُرْصَةَ اسْتِئْناف امتحانهم بالعودة إلى مثل الحياة الدنيا حياة الابتلاء.

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: إذْ تَسَبَّبُوا لأنْفُسِهِمْ بأنْ يَكُونُوا خالِدِينَ في عذاب جَهَنَّم.

وهَلْ يُوجَدُ خُسْرَانٌ أشَدُّ من هذا الخُسْرَان، وهو خُسْران الأنفس؟

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: **ضَلَّ عَنهُمْ**: أي: ضاعَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا له أثراً. **ما كانُوا يَفْتَرُون**: أي: ما كانوا يَخْتَلِقُون من أكاذيب يفترونها على الواقع والحقيقة، وهي في الحقيقة من قبيل الافتراء على اللَّه، لأنَّها تتعلّق بخصائصِ رُبُوبيَّتِهِ أو إلٰهيَّته.

فالشركاء الذين كانوا يعبُدونهم مِنْ دُونِ اللَّهِ ليجلُبُوا لهم نفعاً أو يَدْفَعُوا عنهُمْ ضُرّاً بما جَعَلُوا لهم من بعض خصائص الرُّبوبيّة، أو ليقرّبُوهم إلى اللَّهِ زُلْفَى، أو ليشفَعُوا لهم عند ربِّهم، قد ضَلُّوا عنهم فلَمْ يَجِدُوا لهم أثراً ما، أو لم يجدوا لهم شفاعَةً ولاَ تقريباً إلى رَبِّهم، بل زادتهم خيبَةً وخُسْرَاناً.

* * *

(٩)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة وهو الآيات من (٥٤ ـ ٥٨)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ

لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ
بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ
ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)
وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ
نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾:

القراءات:

(٥٤) ● قرأ شعبَة، وحَمْزَةُ، والكسائي، ويَعْقُوب، وخَلَفُ **يُغَشِّي** بفتح الغَيْن وتَشْدِيد الشين المكسورة، من فِعْلِ «غَشَّى».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يُغْشِي] بإسكان الغين وكسر الشين من غير تشديد، من فعل «أغشَىٰ».

والقراءتان متكافئتان، إذْ هما وَجْهان عربيّان لهذا الفعل، أحدهما جاءت تَعْدِيتُه بالتضعيف، والآخر جاءتْ تَعْدِيته بالهمز، والهمزُ والتضعيفُ أخوان.

(٥٤) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجومَ مُسَخَّراتٍ﴾ بالنَّصْبِ عطفاً على مَنْصُوب خَلَق، وكلمة «مُسَخَّراتٍ» منصوبة على الحال.

وقرأ ابن عامر: **﴿والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾** على أنَّ الجملة مُسْتَأنفة، الشَّمْسُ وما عُطِفَ عليها مُبْتَدَأ خَبَرُهُ «مُسَخَّراتٌ».

وبين القراءتَيْنِ تكاملٌ بياني، فقراءة الجمهور تُثْبِتُ أنّ الشمس والقمر والنجوم مخلوقاتٌ للّه، حالة كونها مسخّرات بأمره، على طريقة الحال المقدّرة، وقراءة ابن عامر تُوجّه النظر لخُصُوص تسخيرها لنا مع الناس، تنبيهاً على عناية اللّه بخلقه، إذ جعل مخلوقات كُبْرى في السماء مسخَّرَة لمنافعهم في الأرض.

(٥٥) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿وخُفْيَةً﴾ بضم الخاء.

وقرأ شُعْبَةُ: ﴿وخِفْيَةً﴾ بكَسْرِ الخاء.

خُفْيَة وخِفْيَة: مَصْدَران لفِعْل «خَفِيَ الشَّيْءُ يَخْفَى خَفَاءً»، ويقال في المصدر أيضاً خُفْيَةً وخِفْيَةً، خَفِيَ: أي: استتر.

فالقراءتان لغتان متكافئَتَان.

(٥٧) ● قرأ ابنُ كثيرٍ، وحمزة، والكسائي، وخلَف، ﴿الرِّيحَ﴾ بالإفراد. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمع.

الرِّيح: اسم جنس يَشْمَلُ كلَّ أنواع الرِّياح، فمؤدّى القراءتين واحد. وقد يكون بين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، كما سيأتي إن شاء اللَّه.

(٥٧) ● قرَأَ عاصِمٌ: ﴿بُشْراً﴾: أي: مُعْلِمَةً ببشارة بين يَدَيْ رحمة اللَّه عبادَه بالغيث.

وقرأ ابْنُ عامرٍ: ﴿نُشْراً﴾ بإسْكَانِ الشين، وهو تخفيف «نُشُرٍ» جمع نَشُور.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: ﴿نَشْراً﴾: **النَّشْر**: الريح الطيّبة. **والنَّشْرُ**: التفريق.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿نُشُراً﴾: جمع «نَشُور» مثل رسول ورُسُل، والنَّشُورُ مُبالغة «الناشر». **النَّشُورُ** من الرياح، الّتي تُثِيرُ السُّحُبَ وتَنْشُرُها.

ومؤدّى قراءات «نُشْراً، ونَشْراً، ونُشُراً» واحد، فهي الرياح الطيّبة التي تَنْشُرُ السُّحُبَ، أو تَنْشُرُ اللّقاحات، أو غير ذلك من نافعات للعباد.

وبين «بُشْراً» وبَيْنَ سَائر القراءات تكامل في أداء المعنى المراد.

(٥٧) ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وابن عامر، وشُعْبة، ويعقوب: ﴿مَيْتٍ﴾ بإسكان الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿مَيِّتٍ﴾ بتشديد الياء.

والقراءتان لغتان عَرَبيتان «مَيْت ـ مَيِّت» متكافئتان.

(٥٧) ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي وخَلَف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أصلُها «تَتَذَكَّرُون» حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾: أصلها «تَتَذَكَّرُون» أدغمت التاء الثانية بالذال فصارت ذالاً مشدَّدة «تَذَّكَّرون».

(٥٨) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ﴾ من فِعْل «خَرَجَ».

وقرأ ابن وردان في إحدى روايتَيْن عنه: ﴿لاَ يُخْرِجُ إِلاَّ﴾ مِنْ فِعل «أخْرَجَ»، والرواية الأخرى عنه كقراءة الجمهور.

قِراءَةُ الجمهور تدلُّ على أنّ النبات في البلد الخبيث لا يَخْرُجُ إلاّ نكداً. وقراءة ابن وردان تدل على أنَّ البلد الخبيث لاَ يُخْرِجُ النباتَ إلاّ نكداً.

فبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

(٥٨) ● قرأ جُمْهُور القرّاء العشرة ﴿نَكِداً﴾: النَّكِدُ: العَسِرُ الَّذِي لا يُطاوع إلاّ بشِدَّةٍ، والشَّحِيح.

وقرأ أبو جَعفرٍ: ﴿نَكَداً﴾ مَصْدَرُ نَكِدَ الأمْرُ يَنْكَدُ نَكَداً ونَكاداً، أي: عَسُرَ واشْتَدَّ وقَلَّ عَطَاؤه.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فالنباتُ في الأرض الخبيثة لا يَخْرُجُ إلاّ نكداً، أي: عسيراً، والأرضُ الخبيثَةُ لا تُخْرِجُ نباتَها، إلاّ نَكداً، أي: إلاّ إخراجاً ذا عُسْرٍ.

الرّبط بموضوع السورة:

هذا الدرس الخامس من دروس السورة، مُرْتَبِطٌ بالآية الثالثة من الدرس الأول من دروسها، وهي قول اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③﴾.

وقد سبق أن عرفنا أنّ مضمون هذه الآية يُمَثِّل الخطَّ الأعظم الّذي سارت عليه أَكْثَرُ آيات السّورة، ومعظم فَقراتِها ودُرُوسِها.

لقد جاء في هذه الآية قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، واخْتِيرَ فيها من أسْماء اللّه جلّ جلاله اسْمُ «رَبّ» إعلاماً بأنَّ رُبُوبية اللّه لعبادِهِ هي الصّفة الجامعة لكل أسماء اللّه الحسنى المُتعلّقةِ بمَخْلُوقاتِهِ جلَّ وعلا.

إنَّ اللّهَ جلّ جلالهُ هو الرَّبّ الخالق المصوّر المنشىءِ خَلْقَهُ وفْقَ سُنَّةِ التربية، والمتابعُ لمَا خَلَقَ مَعَ كلِّ أزمانِ وُجُودِهِ بأنواع التربية المختلفة، التي هي الإنشاءُ المتدرِّجُ، والمتابعةُ الدّائمة معَ كلِّ أصْغَرِ وَحْدَةٍ زَمَنِيَّة، حتَّى آخِرِ وُجودِ المخلوقِ، إذا كان لوجوده نهاية، أو مع كلّ أزمانِ إيجاده إذا لم يكن لإبقائه في الوجود نهاية.

ولمّا كانت ذاتُ الرَّبِّ غَيْرَ مَشْهُودَةٍ بالأبصار، ولا مُدْرَكَة بالحواسّ الظّاهرة، كانت الحاجة ماسّة للتّنْبيهِ على آياتهِ الدّالاّتِ عليه في الكائنات التي هي خَلْقٌ مِنْ خَلْقه، وخاضِعَةٌ دواماً لسُلْطانِ رُبوبيَّته وإمداداتها وعَطَاءاتها، ولولا أنّه جلَّ جلاَلُهُ وعَظُمَ سلطانه يُمِدُّها بالتَّعَهُّدِ والتربيَةِ دواماً، لَما بقيَتْ في الوُجودِ، ولعَادَتْ لِأَصْلِها وهو العدم، فاللّه تبارك وتعالىٰ هو الّذِي يُمْسِكُ السَّمَاواتِ والأرْض بعطاءات رُبوبيّته دواماً، لتَبْقَىٰ في الوجود هي وكُلُّ أجزائها وصفاتها، ولو رَفَعَ اللّهُ عنهما الإمْسَاكَ في الوجود لعادتا إلى أصلهما وهو العدم، ولَئِنْ زالَتا فَلَنْ يُوجَدَ بعد اللّه جلّ جلاله أحَدٌ يُوجِدُهُمَا ويُمْسِكُهما.

ولمّا كانَ قولُ اللّه تبارَكَ وتعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قد يُثيرُ سُؤَالَ كافِرٍ بوجود الرَّبّ أو شَاكٍّ فيهِ، قائِلاً: مَنْ رَبُّنا الَّذِي يقولُ لنا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾؟.

كانَ من الحِكْمَة في البيان التربويّ الإجابَةُ على هذا السؤال، بما يتضمَّنُ التنبيهَ على آياته الدَّالأت عليه، في الكائنات التي هي خَلْقٌ من خَلْقِه، والخاضِعَةِ دواماً لسُلْطانِ رُبُوبيَّتِهِ، وذلكَ لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ في هذه الكائناتِ يَخْضَعُ لِتَحْرِيكِ حَكِيمٍ، لاَ يَمْلِكُ تَصْرِيفَهُ إلاَّ رَبٌّ مُدبِّرٌ عَلِيمٌ خَبِيرٌ حَكِيمٌ قَدِير.

ومضمونُ الجواب مَهْمَا جرى التَّنْويع في عرض آيات الرَّبّ الكونيَّة، يتلَخَّصُ بأنّ هذه الظواهر الكونيَّة الكثيرة، كُلَّما تفكَّرْنَا في دَلالاتِها بإمعانٍ، دَلَّتْنا على أنَّ إتْقانَها وإحْكامَها لَيْسَ مِنْها، بَلْ من خالِقٍ رَبٍّ عَلِيمٍ حَكِيمٍ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ.

فخالِقُها والمُهيمِنُ عليها برُبُوبيَّته دواماً، هو رَبُّكُمُ الَّذِي يأمُرُكُمْ بأنْ تَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكم منه، وبلَّغكُمْ إيّاهُ رَسُولُهُ المصطفى المؤيَّدُ من قِبَلِهِ بالمعجزات البَاهرات.

التدبّر:

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: إنَّ ربَّكُمْ الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ في مطالِعِ السُّورَة بأنْ تَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكُمْ مِنهُ، هو الذي تَعرِفونَه باسمه العَلَم «اللّه»

الدّال على ذاتِهِ الغَيْبِيَّة عن حواسِّكم، والمتَّصفة بكلّ صفات الكمال، والمنزّهة عن كلّ صفات النقصان، والذي تَدُلُّ عليه آياتُه وآثارُه في كَوْنه، دلالَةً عقليَّة.

فتعريفهم بربّهم قد جاء أوّلاً بذكر اسمه العلم على ذاته، المعروف عند العرب بلسانهم، وهو لفظ ﴿اللَّهُ﴾.

● ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: هذا تَعْرِيفٌ آخرُ بوصْفٍ كان يُؤمِنُ بهِ المخاطَبُون مِنَ العرب، فإذا سألَهُمْ سائلٌ: مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، كَمَا قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بشأنهم في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

خَلَقَ: الخَلْقُ: يأتي في اللُّغَةِ للدلالة على ثلاثة معاني:

المعنى الأول: ابتداءُ الشَّيْءِ وإيجادُه من العَدَمِ على غَيْرِ مثالٍ سبق، وهذا لا يكونُ إلاَّ من اللَّهِ عزّ وجلّ.

المعنى الثاني: التقدير، وهو إعطاء أجزاءِ الشيء مقاديرها، وهذا يكونُ من اللَّه، ويكُونُ من غَيْرِه، ومِنْهُ قول اللَّه عزّ وجلّ لعيسَىٰ عليه السَّلامُ كما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

المعنى الثالث يَأتي الخَلْقُ بمعنىٰ الكَذِب والإفكِ، وإنّما يَفْتَرِي الكَذِبَ

الَّذِين لاَ يُؤْمِنُونَ، ومنه قولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٥٨ نزول) حكايةً لمقالة إبراهيم عليه السلام لقومه:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ... ﴿١٧﴾﴾.

أي: وتَفْتَرُون كَذِباً.

وفِعْلُ [خَلَقَ] في العبارة الّتي نتدبَّرها يُحْمَلُ على المعنيَيْنِ، الأوّل والثاني.

فاللّهُ عزّ وجلّ أبْدَعَ مِن العدم على غَيْرِ مثالٍ سَبَقَ، وقَدَّرَ المقادير كلَّها بعِلْمه المحيط بكلّ شيء، وحكمته البالغة.

والسَّماواتُ قد ذُكِرَتْ بالجَمْع، ودَلّت النُّصوص على أنّها سَبْع سماوات. أمّا الأَرض فَقَدْ ذُكِرَتْ في كلّ القرآنِ بالإفراد، فهي في الكَوْن أرْضٌ واحِدَةٌ، وما جاء في بعض الأحاديث من جَمْعها، كَحَدِيث: «مَنْ ظَلَمَ قيدَ شِبْرٍ مِنْ أرْضٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»⁽¹⁾، فالمراد إلى سَبْعِ طَبَقاتٍ من الأرض. وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ... ﴿١٢﴾﴾.

فالمماثلةُ مَحْمُولَةٌ على العناصر الّتي تَتَكَوَّنُ مِنهَا الأرض، فهي مماثِلَةٌ للعناصر الّتي تتكوَّنُ مِنهَا أجرامُ السَّماوات السَّبْع.

● ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي: في سِتَّةِ أقْسَامٍ زَمَنِيَّةٍ، سمَّىٰ اللّهُ عزّ وجلّ كُلَّ قِسْمٍ مِنهَا يوماً. ولمَّا كانت الأيّامُ تختلفُ مقاديرُ أزمانها، فَلأَهْلِ الأرض يوم خاصٌّ بهم في الحياة الدُّنيا، ولكُلّ كَوْكَبٍ يومٌ بِحَسَبِ دَوْرَتِهِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد عن عائشة وعن سعيد بن زيد «الجامع الصحيح» رقم (٦٣٨٥).

حول نفسه باتّجاه مَنْبَعٍ ضَوْئِيٍّ، وله مقدارٌ من الزَّمَنِ خاصٌ به، وللمجرّة التي نَحْنُ ومجموعتُنا الشَّمْسيَّة جُزءٌ صغيرٌ منها يَوْمٌ، ولهذا اليوم مقدارٌ من الزَّمَنِ خاصٌ به، حتَّى عُمْرُ الحياةِ الدُّنيا كُلِّها يَوْمٌ، وحتَّىٰ كلُّ أزمان الآخرة الّتي لا نهاية لها يوم. لمّا كان الأمْرُ كذٰلِكَ لم يَكُنْ باستطاعتنا تَحْدِيدُ مِقْدار زَمَنِ اليَوْمِ من الأيّامِ السِّتَّةِ، التي خَلَقَ اللّٰهُ فيها السماوات والأرض، أخْذاً من النُّصُوص.

- ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: دلَّ حرفُ [ثُمَّ] على أنّ الاستواء على العَرْش قد كان بعْدَ مُدَّةٍ متراخيَةٍ عن خَلْقِ السماوات والأرْضِ في سِتَّةِ أيّام.

جاءَ في القرآن: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وجاء فيه ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾:

الاسْتِواءُ لغة الاستقامة والاعتدال. واستوى على كذا، إذا اعتدل واستقام فوقه. واستوى إلى فِعْل كذا، إذا اعتدل واستقام متوجّهاً لفِعْلِه، قاصِداً إليه لا يَلْوِي على شيءٍ آخر.

ويقال لغة: اسْتَوىٰ فلانٌ على سَرِير الملكِ، إذا تولّى تَصْرِيفَ شُؤُون مملكته.

وقد وَصَفَ اللّٰه عزّ وجلّ نَفْسَه بأنّه اسْتَوَىٰ على العرش، وقد كان اللّٰه قبل أن يَخْلُقَ الخَلْقَ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ معه، ووصف نفسه بأنّه اسْتَوىٰ إلى السَّماءِ فسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سماوات. اسْتِواءٌ وصَفَ اللّٰهُ بهِ نَفْسَه فنَحْنُ نُثْبِتُه ضِمْنَ حُدُود ما أثْبَتَ لِنَفْسِهِ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سلطانُه، ونقول: هو استواءٌ يَلِيقُ بذاتِه، سُبْحانَهُ عمّا وصَفَهُ به الواصِفُون، ضِمْنَ مُدْرَكاتِهِم المحدُودات الضئيلات الّتي لا تَصِلُ إلى إدراكِ ذاتِه، إذْ لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ، وهو يُدْرِكُ الأبْصارَ وهو اللطيف الخبير.

وأحْسَنُ بيان حول الاستواء الذي وصف اللَّهُ عزَّ وجلَّ به نفسه، ما قاله الإمام مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُول، والاستواءُ غَيْرُ مجهول، والإيمانُ بهِ واجبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بدعة».

العَرش: مخلوق أعظم فوق السماوات السَّبْع، ومحيطٌ بها.

● ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: أي: يجعلُ اللَّهُ النهارَ يَغْشَىٰ اللَّيلَ فَيَسْتُرُ سوادَهُ بنورِهِ، والمرادُ بالنهار ضياءُ الشَّمْسِ الَّذِي يَمْتَدُّ على الأرض، فيحدُثُ بِهِ ما يُسَمَّىٰ بالنَّهار.

فِعْلُ [يُغْشِي] يَنْصِبُ مفعُولين وهو بمعنىٰ «يُغَطِّي ويَسْتُر» تَقُول: غَشِيَ النَّهارُ اللَّيْلَ، إذا سَتَرَه، وأغْشَى اللَّهُ اللَّيْلَ النَّهار، أي: جعلَ النَّهارَ يَسْتُرُ اللَّيْلَ.

وحينَ نتفكَّرُ في حقيقتَيِ اللَّيْل والنَّهارِ، نَجِدُ أنَّ اللَّيْلَ مَظْهَرٌ من مظاهر غروب ضِياء الشمس عن الأرض، فتَعُمُّ بانْعِدام ضياء الشَّمْسِ الظلمة الَّتي نُسَمِّيها بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْس لَيْلاً.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ الظُّلْمَة هي الأصْلُ في الأشياء، وأنَّ الضّياءَ أو النُّور هو الّذي يَغْشَىٰ الظُّلْمَةَ فَيُجَلِّلُها ويَسْتُرُها، وكُلَّما ذَهَبَ غِطَاءُ الضِّياء أو النُّورِ وُجِدَتِ الظُّلْمَةُ في الأشياء، لأنَّها هي الأصل فيها. ولمَّا كان مَصْدَرُ الضِّياءِ في الأَرْضِ خِلَالَ النَّهارِ آتياً من الشَّمْسِ، إذْ تكُونُ مُواجِهةً لِقِسمٍ مِنْها، وكانَتِ الأَرْضِ ذاتَ ظُلْمَةٍ ذاتِيَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ فِيها، إلاَّ إذا وصَلَ إليها ضياءٌ أو نُورٌ مِنْ جِهَةٍ ما، وهذه الجهة ذاتُ ضِياء أوْ نُور، كانَ علينا أنْ نَفْهَمَ أنَّ النَّهَارَ هُوَ الَّذِي يَغْشَىٰ اللَّيْلَ فَيَسْتُرُهُ ويُغَطّيه، لأنَّ الغِشَاءَ هُو الغِطَاءُ السَّاتِر.

هذه الظاهرة الكونيَّةِ هي من آيَاتِ اللَّهِ في كَوْنِهِ، وهي تَدُلُّ على عِلْمِ اللَّهِ العظيم، وحِكْمَتِهِ الجليلة في إتْقان الخَلْق، وتَدُلُّ على عِنَايَتِهِ بخَلْقِهِ سُكَّانِ الأرض، إذْ سَخَّرَ لَهُمُ اللَّيْل والنَّهار تَسْخِيراً يحققُونَ به مصالِحَهُمْ وكثيراً مِنْ شُؤُونِ حياتهم في الأرض.

- ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾: أي: يَطْلُبُ النَّهارُ اللَّيْلَ لِيَغْشَاهُ، حالَةَ كَوْنِهِ حَثِيثاً. **الحَثِيثُ**: المُسْرِعُ الجَادُّ في أمْرِه، المتابعُ لِمَا يَطْلبه.

وفي جَعْلِ النَّهارِ طالباً بجدٍّ وسُرْعَةٍ أنْ يَغْشَىٰ اللَّيْلَ، مَجازٌ قَائِمٌ على تَشْبِيهِ ظاهرةِ حَرَكَةِ النَّهار السَّاتِرِ لِظُلْمَةِ اللَّيْلِ بضيائِهِ، بمُتابعٍ حَيٍّ يَطْلُبُ طَرِيدَتَهُ بِجَدٍّ وسُرْعَة، كَمُلَاحَقَةِ الْجَيْشِ المُنْتَصِرِ أوَاخِر صُفُوفِ الجيشِ المنهزم.

وقد اكْتَشَفَ الناسُ ببحوثهم العلميّة أنَّ ظاهرتَيْ اللَّيْلِ والنَّهارِ في الأرض ناتجتان عن كون الأرض قِطْعَةً شِبْهَ كُرَوِيَّةٍ، تَسْبَحُ في الفضاء على مَدارِ حَوْلَ الشَّمس، فتُنْهِي دَوْرَتَهَا عِنْدَ نُقْطَةِ البدء في عَام شَمْسِيٍّ كامل، وهكذا تَسِير دَأَباً، وتَدُورُ أيضاً حول نفسها كُلَّ يَوْمٍ دَوْرَةً كَامِلَةً، فَمَا يُواجهُ الشَّمْسَ مِنْهَا فِي دَوْرَتِهَا حَوْلَ نَفْسِهَا يَظْهَرُ فيه النهار، وَكُلَّمَا انْعَدَمَتِ المواجهةُ في جُزْءٍ مِنْهَا يَظْهَرُ فيه اللّيل.

وَانْدَهَشَ الباحِثُونَ العِلْمِيُّون لدى دراسةِ هاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ مِنَ الظَّواهِرِ الكَوْنِيَّة، لمَا في أسْبَابهما من الدِّقَّة العجيبة، الَّتي أحْكَمَتْ حَجْمَ الأَرْضِ بالنِّسْبَةِ إلى الشَّمس، وأحْكَمَتِ المدارَ الَّذي تَدُورُ فيه الأَرْضُ حول الشَّمس، وأحْكَمتْ سُرْعَةَ سَيْرِها في مدارها، وسُرْعةَ دَوَرانها حَوْلَ نفسها، حتَّىٰ كان اللَّيْلِ والنّهار بهذا الإتقان العجيب، الملائم للحياة على الأرض، والملائم لمصالحِ الأحياء عليها، وكانت السَّنَةُ الشَّمْسِيَّةُ بِفُصُولها الأربع.

هذه الدراسة الإنسانيَّة كَشَفَتْ لنا الحِكْمَةَ مِنْ تَوْجِيهِ أَنْظارِ الناس في القرآن المجيد، للتَّفكُّرِ في هاتين الآيَتَيْنِ العجيبَتَيْنِ مِنْ آيات اللَّهِ في كَوْنِهِ.

ولمَّا كان النهارُ هو الذي يَهْجُمُ على اللَّيْلِ ليَغْشَاهُ فَيَسْتُرَهُ بضيائه، إذْ يَبْدُو للأنظار أنَّ الشَّمْسَ مَتىٰ أشْرَقَتْ سَتَرَتِ اللَّيْلَ، وإذا غَرَبَتْ ذهب النَّهار وظهرَ اللّيل. ولمَّا كانَتِ الحركَةُ حَرَكَةً دَائِبَةً بِتَتابُعٍ على توالي الأيّام

والدُّهور. كَانَ مِنَ الْبَرَاعَةِ في الأَدَاءِ البيانيّ تَصْوِيرُ أنَّ النهارَ هُو الّذي يَطْلُبُ اللّيْل دواماً مُسْرِعاً جَادّاً، لِيَغْشَاهُ فَيَسْتُرَهُ.

فما أبْدَعَ غِشْيَانَ النَّهارِ لِظُلْمَةِ اللَّيْلِ في حَرَكَةٍ دائِبَةٍ دائِرِيَّة، لا تَخْرِمُ أوْصَافها، ولا مقاديرَها.

تبارَكَ مَنْ أتقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

● ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾: أي: وخَلَقَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ والنجومَ، حالةَ كَوْنِهَا مُسَخَّراتٍ بأمْرِهِ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُه، لأداء وظَائِفِهَا المفصَّلةِ المبيَّنَة بِقَضَائِهِ وقَدَرِهِ ضِمْنَ مجاري سُنَنِه.

التَّسْخِيرُ: جَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً مُنْقاداً بِما فُطِرَ عليه من طبيعَةٍ، لِمَا هُوَ مُسَخَّرٌ له، أوْ لِمَنْ هُو مُسَخَّرٌ له، كتسخير الماءِ والنارِ والهواء.

وقد تكونُ مطاوعةُ المسخَّرِ بالقُوَّةِ والتذليلِ، كتَسْخِيرِ العجماوات للإنسان. وقد تكُونُ بالاختيار الحرِّ لما في المطاوعة من مصلحةٍ للمطاوع، كاتِّخاذ الناس بعضهم بعضاً سخريًا.

ومن المشهود أنَّ الشَّمْسَ تعملُ مُسَخَّرةً دواماً في حركتها، وبَثّ ضِيائِهَا إلى الأرض، وإلى القمرِ لمنافع سُكَّان الأرض، وأنَّ القمرَ مُسَخَّرٌ دواماً في حركته، وبثّ نُورهِ إلى الأرضِ، وتزايدِ أهِلَّتِهِ وتناقُصِهَا، لمنافعِ سُكَّانِ الأرض، وأنَّ النُّجومَ المَشْهُودَة لنا مسخَّرَاتٌ يَهْتَدِي بمواقِعها وحَرَكتِهَا سُكَّانُ الأرض.

إنَّ الحياةَ بكُلِّ مَظَاهِرِها في الأرضِ مُرْتَبِطَةٌ أسْبابُها بضِيَاءِ الشّمس، وهي مُسَخَّرةٌ بِعِنايَةِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه تَسْخِيراً عجيباً ضِمْنَ نظامٍ دقيقٍ لمنافع الأحْياءِ في الأرض، فلا تَخْرِمُ نِظامَهَا قِيدَ شَعْرَةٍ.

وإنَّ القَمَرَ مسخَّرٌ ضِمْنَ نِظامٍ دَقِيقٍ جِدّاً، لبَثِّ نُوره المتدرِّج من

الأهِلَّةِ حتَّىٰ يكون بَدْراً كَامِلاً، والمتناقِصِ إلى الأهلَّة حتَّى المَحاق.

وبالشَّمْسِ والقَمَرِ يعلمُ الناس عدَدَ السِّنينَ وحِسابَ الأشْهُرِ والأيَّام، وبالشَّمْس يعلمُ الناس حِسابَ سَاعَاتِ اليوم ودقائقها، والقمر مَسَخَّرٌ بما فيهِ مِنْ جاذبيَّةٍ لِحَرَكَتَي المدِّ والجَزْرِ في البحار.

وبالنُّجُوم يَهْتَدِي الناس في طُرُقاتِ البَرِّ والبَحْرِ ليلاً، لأنَّها مُسَخَّرات ضِمْن نظامٍ دقيقٍ لاَ تَخْرِمه.

إلى غَيْرِ ذلِكَ من تَسْخِيراتٍ يَكْتَشِفُها الباحثُون مِنْ عُلَماءِ الظَّواهِرِ الكونيَّة، وهذه التسخيرات هي من نِعَمِ اللَّه على الناس في الأرض، وعنايته بهم، وقَدْ تحقَّقَتْ بأمْرِ اللَّهِ عزّ وجلّ، ونحن نَعْلَمُ مِنْ بياناتِ اللَّهِ في كتابه، أنَّهُ إذا أَرَادَ شَيْئاً فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فهو يكون على مراد اللَّه، وقد أراد جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُهُ، فأمَرَ أمْرَهُ التكوينيّ، فكانَ ما هو كائِنٌ في الوجود.

- ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾:

بَعْدَ البيانِ الَّذِي وَجَّهَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيه النَّاسَ للتفكُّر ببعْضِ آثار صِفاتِهِ الجَلِيلَةِ العَظيمَةِ في كَوْنِهِ، لأنَّ هٰذِهِ الآثارَ دالأتٌ على بَعْضِ صفاتِهِ، الَّتي يَلْزَمُ عَقْلاً مِنْ إثباتِها إثباتُ ذاتِه، إذِ الصِّفاتُ لاَ بُدَّ لَهَا مِنْ مَوْصُوفٍ بها، أبانَ جَلَّ جَلاَلُه أنَّ مَنْ لَهُ الخَلْقُ فَلاَ بُدَّ أنْ يكون له الأمْر، وهذه قضيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ لاَ نَقْضَ لها.

- ﴿أَلَا﴾: أداةُ استفتاحٍ وتَنْبيه، وقد جاءت هذه الجُمْلَةُ مَبْدُوءَةً بها إشعاراً بأنّ ما يأتي بَعْدَها أمْرٌ خَطِيرٌ، وعلى المتَلَقِّينَ الاهْتِمامُ بِهِ جِدّاً.

- ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾: لَهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ مِلْكُ جَمِيعِ المَخْلُوقات، إذْ هُوَ خَالِقُها، والمُتَصَرِّفُ فيها، والمدبِّرُ لأمْرِهَا، ومن ضِمْنِهَا الملائكةُ والجنُّ والإنس.

لفظ «**الخَلْق**» هو في الأصْلِ مصدَرُ «**خَلَقَ**». ويُطْلَقُ على المخلوق، وبدخول «**ال**» الاستغراقية صار لفظ «الخَلْقِ» يعُمُّ كُلَّ المخلوقات، أي: كُلَّ الكائناتِ سِوَى اللَّه عزّ وجلّ.

ويَلْزَمُ عقلاً من كَوْنِ اللَّهِ عزّ وجلّ مالكاً كُلَّ ما في الوجود سواه، لأنَّ كُلَّ ما في الوجود خَلْقٌ من خلقه، أنْ يكون له وَحْدَهُ كُلُّ الأمْر.

ويعُمُّ لفظ «**الأمْرِ**» أمْرَ التكوين إيجاداً وإعداماً، وتحريكاً وإسْكاناً، وتَصْرِيفاً وتَبْدِيلاً وتحويلاً، وجَمْعاً وتَفْرِيقاً، وغير ذلك من تَصارِيف.

ويعُمُّ لفظ «**الأَمْرِ**» أمْرَ التكليف لذوي الطاعَةِ بالفطرة، وهم الملائكة، ولِمَنْ مَكَّنَهُمْ جَلَّ جلالُه بمقتضى الأسْباب والمسبّبات، من طاعَته ومَعْصِيته، بما سخَّر لهم، إذْ خَلَقَهُمْ لِيَمْتَحِنَهُمْ فيما آتاهُمْ، وهم فيما أعْلَمَنا اللَّه عزّ وجلّ الإنْسُ والجنّ.

وبما أنَّ أمْرَ التَّكْليف هو في الأَصْلِ لَهُ وَحْدَهُ سُبْحانَه، فإنَّ على عبادِهِ ذوي العِلْم، أن يُطِيعُوهُ في أوامره ونواهيه، وأن يطيعوا مَنْ يأمُرُهم بطاعَته، وأنْ يَعْصُوا مَنْ يَأْمُرُهُمْ بمَعْصِيته، فهذا حقُّ الخَالِقِ المالِكِ على عباده بداهَة.

● وبما أنَّ الإنْسَ والجنَّ ذَوُو إراداتٍ حُرَّةٍ، لحِكْمَةِ الابتلاء المستَتْبع للحسابِ وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء، فإنَّ علَيْهم أنْ يُحَقِّقُوا عبودِيَّتَهُمْ للَّهِ بإرادتِهم الحرَّةِ، في طاعتهم لأوامره ونواهيه، ليجتازُوا رِحْلَةَ امتحانهم بنجاح، فينَالُوا مَا وَعَدَهم به ربُّهم من ثوابٍ جزيلٍ يوم الدِّينِ في جنَّاتِ النَّعيم، وحياةٍ طيِّبَةٍ في الدُّنيا، ويَحْمُوا أنْفسهم من عقابِ اللَّه وعذَابه.

ومن تحقيق عُبُودِيتِهِمْ له، أنْ يَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إليهم منه، إذْ هُوَ وَحْدَهُ ربُّهم ومَالِكُهُمْ ومَالِكُ أمْرِهِمْ كُلِّه، وأنْ لا يتَّبِعُوا مِنْهُ دونه أوْلياء.

وهذا هو الخطُّ الأعظم الذي سارت عليه أكثر آياتِ سورة (الأعراف) ودروسها.

هذا البيان الذي اشتملت عليه عبارة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، قَدْ جاء بمثابة تعليلٍ عَقْلِيٍّ مُتَضَمِّنٍ حُجَّةً برهانيَّةً للتكليف الذي جاء في أوائل هذه السورة، بقوله تعالىٰ خطاباً لكلِّ الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③﴾.

وقد عرفْنَا أنَّ هذه الآيَةَ تُمَثِّلُ الخطَّ الأعْظَم مِنْ خُطُوطِ مَوْضوع السورة.

- ﴿. . تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

بَعْدَ بيان أنَّ مَنْ لَهُ وَحْدَهُ الخَلْقُ مِلْكاً وتَصرُّفاً، فلَهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ كُلُّ الأمْرِ، ومِنْهُ أمْرُ التَّكْلِيفِ الشاملِ للتكليف بالفِعْلِ والتكليف بالتَّرْكِ، كانَ من الحكمة البيانيَّة تَأْكيدُ القاعِدَةِ الاعتقاديّة الكُبْرى، الّتي تُبْنَى عليها قضايا السُّلُوكِ الدّينيّ كُلُّها.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: أي: تَزَايَدَ وتنامىٰ وتعاظَمَ في صفاتِ كماله فوقَ كُلِّ ما يتصوَّرُ المُتَصَوِّرُون، ويَتوهَّم المتوهِّمونُ، ويَصِفُ الواصِفُون.

تَبَارَكَ: على وزن «تَفاعَل» من البَرَكة، وهي في اللّغة النَّماءُ والزِّيَادة، سواءٌ أكانت مَادِّيَّة تُدْرَكُ بالحَواسّ الظَّاهِرَة، أمْ غَيْرَ مَادِيَّة مِمَّا يُدْرَكُ بالحواسّ الباطنة.

قال الزجّاج من علماء اللّغة: البَرَكَةُ هي الكَثْرَةُ مِنْ كُلِّ خَيْر.

أقول:

البركةُ وكُلُّ تصاريفِ هذه المادّةِ في نُصُوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ تَدُلُّ على

الزيادات الّتي تأتي من وراء المنظور، دون أن تُدْرَكَ لها حُدود، فهي فيضٌ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أو زيادات في عالم الغيب بلا حُدُود.

وفي عبارة ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ ثَنَاءٌ من اللّه عزّ وجلّ على نَفْسِه لِيُعَلِّمَنَا صفاته، ولِيُقَدِّمَ لنا الدَّليلَ عَلَيْها من آياته في كَوْنِهِ، وفيما أَنْزَلَ على رسوله، فيَصِفُ نَفْسَه جَلَّ جلالُه وعَظُم سلطانُه، بأنّه «تَبارَكَ» أي: تنامَىٰ وتزايَدَ وتعاظم بالإطلاق العامّ، عن كلّ ما يَصِفُهُ به الواصِفُون من كمالات. وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ متّصِفٌ بكُلّ صفاتِ الكمال، ويَلْزَمُ عقلاً من اتّصافه بصِفَاتِ الكمال تَنَزُّهُهُ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النقصان.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: تبارَكَ اللّهُ رَبُّكُمْ الَّذِي هُوَ رَبُّ العالمين، والمراد بالعالمين هنا كُلُّ ما سِوَى اللّه من موجودات حاضِرَاتٍ أَوْ غابراتٍ، أو سَتُوجد أو سَوْفَ تُوجَدُ في المستقبل⁽١⁾، فَمَا يُوجَدُ مِنْ شَيْءٍ إلاّ واللّهُ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّهُ جلّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُهُ.

* * *

● قولُ اللّه عزّ وجلّ:

﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

بَعْدَ تَعْرِيفِ المقصودين بالخطاب بربّهم، وأنَّهُ هو الذي يُسَمُّونَهُ «اللّه»، وبَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ آياتِهِ في كَوْنِهِ، الدّالاّت على طائِفَةٍ مِنْ صفاته الجليلة، والثناء العظيم عليه، وبأنّهُ رَبُّ العالمين، اقتضت الحكمة البيانيّة ذِكْرَ بَعْضِ تَفْصِيلاَتٍ مِمَّا أُنزِلَ للنّاسِ من ربِّهم، ممّا طَلَبَ مِنْهم أنْ يَتَّبِعُوهَا، وهو ما جاء في الآية (٣) من السورة.

---

(١) وقد يقصد بالعالمين أحياناً الإنس، وقد يقصد الإنس والجن، وقد يُقْصَدُ الإنس والجنُّ والملائكة، والقرائن هي الّتي تَدُلُّ على المراد.

وقد اشتمل النَّصُّ في هاتين الآيتين (٥٥ و٥٦) على بيان أَرْبَعِ قضايا تعليميَّة يُطالِبُ اللَّهُ عبادَهُ باتّباعها، وعلى قضيَّةٍ تَرْغِيبيَّةٍ وَعَدَ اللَّهُ فيها بأنْ تكونَ رَحْمتُهُ قَرِيباً من المحسِنين.

القضيّة الأولى: دَلَّ عليها قولُ اللَّهِ تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

﴿ٱدْعُوا۟﴾: أي: اسْأَلُوا واطْلُبُوا، يقالُ لُغةً: دعَاهُ يَدْعُوهُ دُعاءً ودَعْوىٰ وَدَعْواً ودَعْوَةً، أي: سَأَلَهُ ورَغِبَ إليه وطلَبَ مِنْهُ.

﴿رَبَّكُمْ﴾: أي: اللَّهَ الذي سبَقَ بيان بعض آياته في خلقه، فهو خالقكم والمهيمن عليكم دواماً برُبوبيَّتِهِ التي سبق شرحُها.

﴿تَضَرُّعًا﴾: **التَّضَرُّعُ** هو التَّذَلُّلُ والخضوع، وأصْلُه من خَفْضِ ولَدِ ذاتِ الضَّرْعِ كالحَمَلِ والفَصِيلِ رَأْسَه لِضَرْعِ أُمِّه حتَّى يَرْضَعَ من ثَدْيَيْها، وهِيَ عِنْدَئِذٍ تَحِنُّ عليه فيَدُرُّ لَبَنُها.

﴿وَخُفْيَةً﴾: الخُفْيَةُ والخِفْيَةُ بضمّ الخَاءِ وكَسْرِها، الإسرار، فمن أدَبِ الدُّعاء للَّهِ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ دعاءً في السِّرِّ، لا في الجَهْرِ، لأنَّ الإسرارَ بالعبادةِ أبْعَدُ عن الرِّيَاءِ المُحْبِطِ للعمل، ولأنّ اللَّه جلّ جلالُه عَلِيمٌ بمطالِبِ عِبَادِهِ الخفيَّةِ، سَمِيعٌ لِهَمَسَاتِهِمْ مَهْمَا كانت خافِتَةً، لا يَخْفَى علَيْهِ مِنْ دُعَائِهِمْ شَيْءٌ، فَمِنَ الأَدَبِ مَعَ اللَّهِ أَنْ يُسَارُّوه ويُنَاجُوهُ فيما يدعونه به.

والمعنَى: اَسْأَلُوا اللَّهَ الَّذي هُوَ رَبُّكُمْ يُمِدُّكُمْ دَواماً بعطاءات رُبُوبيَّتِهِ، في كُلِّ أُمُورِكُم، سواءٌ منها ما تجدون أسبابَهُ مسخَّرةً لَكُمْ بيُسْرٍ، أمْ لا تَتَيَسَّرُ لَكُمْ أسْبَابُهُ، فَهُوَ خَالِقُ الأسْبَابِ والمُسَبّبات، وَدُعَاؤُكُم له هو أوَّلُ تعبيرٍ تلقائِيٍّ عن عبادَتِكُم لَهُ، متَىٰ صَحَّ إيمانُكُمْ به، وبأنَّهُ مالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وبأَنَّهُ المتَّصرِّفُ بخَلْقِهِ، وبأنَّهُ لاَ يَكُونُ شَيْءٌ في الوجود إلاَّ بأَمْرِهِ وخَلْقِهِ، أَوْ بِإِذْنِهِ وتمكينِهِ وتَسْخِيرِهِ للأسْبابِ، وبهدايته ومَعُونَتِهِ.

والعبادة لِلَّهِ عزّ وجلّ ترجع إلى ثلاثَةِ أُصولٍ أساسيّة.

الأصلُ الأوّل: الدُّعاءَ.

الأصْلُ الثاني: طاعَةُ اللّه بفِعْل ما أمَرَ به، وتَرْكِ ما نَهىٰ عنه.

الأصْلُ الثالث: التَّقَرُّبُ إلى اللّهِ عزّ وجلّ بمحابّه من أفعالٍ وتُرُوكٍ، ولَوْ لَمْ يُكَلِّفْنا الْتِزَامَها.

والدُّعاءُ الَّذِي هو الأصْلُ الأوّلُ، هُوَ ثَمَرَةُ الإيمانِ بأنَّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ هو خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، والمتصرِّفُ في كلِّ شَيْءٍ، والقدير على كلّ شَيْءٍ، والفَعَّالُ لما يَشَاءُ ويختارُ. وثَمَرَةُ الإيمانِ بأنَّ كُلَّ مَنْ سِوَىٰ اللّهِ جلَّ جلاله لا يَمْلِكُ لنفسه جَلْبَ نَفْعٍ ولا دَفْعَ ضُرّ، فضلاً عن أن يَمْلِك شيئاً من ذلك لغيره. وثَمَرَةُ الإيمانِ بأنَّ اللّهَ تباركَ وتعالىٰ رَحيمٌ بعبادهِ، وبأنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيب، وبأنَّهُ يُجيب على وَفْقِ مقتضىٰ حِكْمَتِهِ، دَعْوَةَ الدَّاعي إذا دَعاهُ، مُؤْمِناً به، مُخْلِصاً له في دَعْوَتِهِ، لا يُشْرِكُ بعبادتهِ له في الدُّعاءِ أحداً.

ولمَّا كانَ اللّهُ عزَّ وجلَّ قريباً مِنْ عباده، يَعْلَمُ هَمَسَاتِهِمْ ويَسْمَعُهَا، ويَعْلَمُ خَاطِرَات أفكارِهِم، وحركاتِ نُفوسِهِم وقُلُوبِهِم، لم يكن بحاجَةٍ إلى مناداتهِ برَفْعِ الصَّوْت.

ولمَّا كانَتْ طَبِيعَةُ الدُّعَاءِ تَتَضَمَّنُ اسْتِجْداءَ عَطاءٍ من جُودِ اللّهِ ورَحْمَتِهِ، كانَ مِنْ لَوَازِمِ أدَبِ الدُّعاءِ التَّضَرُّعِ للّهِ معه، وخَفْضُ الصَّوْتِ في الطَّلب، لأنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالىٰ لَيْسَ بَعِيداً عن عباده حتَّى يُنَادُوه بِرَفْعِ أصْوَاتِهِمْ.

ولهذا أبَانَ اللّهُ عزَّ وجلَّ أدَبَ عَبْدِهِ النبيّ زَكَرِيًا في دُعائِهِ رَبّه، بأنَّه نَادَاهُ نِدَاءً خَفِيّاً، فقال تعالىٰ في سورة (مَرْيم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾.

القضيَّةُ الثانية: دَلَّ عليها قول اللّهِ تعالىٰ: ﴿... إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾:

أي: وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّهُ لاَ يُحِبّ المعتدين. الضمير في إنَّهُ يَعُودُ على اللَّهِ عزّ وجلّ، الّذي لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ، والّذِي هُوَ رَبُّ العالَمِين.

وقد أغْنَتْ عبارة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عن التَّصْرِيح بعبارَةِ: «ولاَ تَعْتَدُوا»، فمِمَّا هُوَ من اللّوازِمِ الّتِي تُدْرَكُ ذِهْناً بالبديهة أنَّ مَنْ لاَ يُحِبُّهُ الرَّبُّ الخالِقُ لصِفَةٍ فِيه، فإنَّهُ لاَ يُحِبُّهُ لِأَنَّهُ مخالف لما كَلَّفَهُ إيَّاهُ، فَفَعَلَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ وَأَمَرَهُ بِتَرْكِهِ أوِ ٱجْتِنَابِهِ، أَوْ تَرَكَ مَا أَمَرَهُ بِفِعْلِهِ.

المعْتَدِي: هو الّذِي يَظْلِمُ غَيْرَهُ في حَقٍّ من حُقُوقِهِ المادّيّة أو المعنوية، فالظُّلْمُ في الحقوق الماليَّة من الاعْتِدَاء، والظُّلْمُ في الحقوق الجسدية والنفسيّة من الاعتداء.

وفِعْلُ ما نهىٰ اللَّه عزّ وجلّ عن فِعْلِه، وتَرْكُ ما أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ بفِعْلِهِ مع الاستطاعة من الاعتداء على حقِّ اللَّهِ على عباده.

وشهادةُ الزُّور من الاعتداء على حقِّ مَنْ كانت الشهادة ضِدَّه.

ومضارَّة الزَّوْجَةِ بإمْسَاكِهَا بَعْدَ طَلاَقِهَا وَقُرْبِ أجَلِ عِدَّتِهَا لمَنْعِهَا مِنْ أن تَتَزَوَّجَ زَوْجاً آخرَ هو من الاعتداء.

وتحريم ما أَحَلَّ اللَّه أو تَحْلِيلُ ما حَرَّمَ اللَّه هو من الاعتداءِ على حقِّ اللَّهِ عزّ وجلّ في التحليل والتحريم، لأنَّ اللَّه هو وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الخَلْقُ وَلَهُ الأمر.

وتجاوُزُ حُدُودِ اللَّهِ في الأَحْكَامِ هو من الاعتداء على أحكام اللَّه وشرائعِهِ، جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

والإشراكُ باللَّهِ ظُلْمٌ عظيم، وهو من الاعتداء على حقِّ اللَّه في الإيمان بأَنَّهُ وَاحِدٌ في رُبوبيَّتِهِ، وواحِدٌ في إلٰهيَّته، وهو من كبائِرِ أنواع الاعتداء الشَّدِيدةِ القُبْح، وشَرٌّ مِنْهُ جُحُود رُبُوبيَّةِ اللَّهِ وَجُحُودُ إلٰهيَّتِهِ.

إلى غير ما سَبَقَ ذِكْرُه من أنواعٍ وصُوَرٍ تَدْخُلُ في مفهوم العُدْوانِ على الحقوق، ومنها الدُّعاءُ بما لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ عزّ وجلّ بالدُّعاءِ به، ومِنْها دُعاءُ غيرِ اللَّهِ في غَيْرِ الأُمُورِ السببيَّةِ الكونيّة، كَدُعاءِ الجنّ أو الملائكةِ أو الأوثان أو نحو ذلك.

واجتنابُ الاعتداء يَدْخُلُ في عُموم الأصل الثاني من أُصُولِ عبادَة العباد لربّهم، وهو طاعته جلّ جلالُه بفِعْلِ ما أَمَرَ به، وتَرْكِ ما نَهَىٰ عنه.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عليها قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾:

الإصلاح: الإتْيَانُ بما هُو صالحٌ نَافِعٌ.

والإفساد: الإتْلاَفُ، وتحويلُ الشَّيْءِ من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالحٍ ولاَ نَافِعٍ، بل رُبَّما يَصِيرُ ضاراً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلأَشْيَاءِ النافعة.

إنّ إصْلاَحَ الأرض البُور الّتي لا زَرْعَ فيها، يكُونُ بزراعَتِها، أو تَهيئَتها لتكونَ صالِحَةً للزّراعة، ويكون بغَرْسِ الشجر فيها، وتَمْهيد طُرُقها، وإجراء أنهارِها.

ومن إصلاح الأرض إقامةُ الجُسُور، وبناءُ السُّدُود لتجميع المياه وراءها، وحَفْرُ الآبار، وبناءُ المَسَاكن مُزَوَّدَةً بمُخْتَلِفِ مرافِقِ الحَياة، مع إنْشاءِ كُلّ ما تَتَطَلَّبَهُ الشُّرُوطُ الصِّحِيَّةُ من المجاري، والحدائق التي هي في المُدُنِ والقرى بمثابة رِئاتِ التَّنَفُّس، وكذلك الملاعِبُ الرِّياضِيَّة، وميادِين الفروسيّة، ومراكِزُ التدريب العسكريّ، ومراكز التدريب المهني، والتدريب الصّناعي والزراعي، ومراكز التدريب على التمريض والإسعافات الأوليّة، وإنْشَاءُ الأسْواقِ التجاريّة المختلفة.

وفي مُقَدِّمةِ إصلاح الأرضِ بناء المساجد لعِبَادَةِ اللَّه فيها، وبناءُ المدارسِ ودُورِ العِلْمِ على اختلاف مستوياتها، وعلى مقدار الحاجات

المتزايدات مع التكاثر البشري، وإقامَةُ مؤسَّساتِ الدَّعْوَةِ إلى اللَّه، والأمْرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، ومؤسَّسات الخدمات الاجتماعيّة.

والنهيُ عن الإفساد في الأرض بَعْدَ إصلاحها يَدُلُّ بمَنْطُوق اللَّفْظِ على النهي عن كلّ عملٍ يُفْضِي إلى إفساد أيَّةِ مُنْشَأَةٍ أُقِيمَتْ لخِدْمَةِ مصالح العباد على الأرض، كتخريب المساكن لا لإعادة بنائها على وَجْهٍ أفضل وأحْسَن، وكتخريب المزارع والمصانع وخَزَّانات المياهِ، وكإحْرَاقِ آبارِ النّفْطِ، وإفساد الطُّرُقِ.

ومن أقْبَح صُورِ الإفساد في الأرض مَنْعُ مَساجِدِ اللَّهِ من أنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُه، والسَّعْيُ في خرابها، وإغلاقُ مدارس التعليم، ولا سيما التعليمُ الدينيُّ، وإلْغَاءُ أوْ حَلُّ الجمعيَّاتِ الخيريَّةِ النافِعَة.

ويَدُلُّ قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ بمَفْهُومِهِ من وراء منطوق اللَّفْظِ على الأمْرِ بإصْلَاح الأرض بكُلِّ عملٍ يُؤَدِّي إلى إقامة مُنْشَأَةٍ مادِّيَّةٍ أوْ مَعْنَوِيَّةٍ، ذاتِ وَظِيفَةٍ إصْلَاحِيَّةٍ نافِعَةٍ للعِباد، في أمور دنياهم وأُمُور آخِرَتهم، فأغنى النهيُ عن الإفساد في الأرض عن الأمر بإصلاحها.

إنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ قَدْ اسْتَعْمَرَنا في الأرض، أي: طَلَبَ منّا أنْ نَعْمُرها ونُصْلِحَ فيها، لدنيانا ولآخِرَتِنا بِحَسَبِ حَاجَاتِنا، وحَرَّمَ عَلَيْنا أنْ نَأتِيَ إلى ما تَمَّ إصلاحُهُ مِنْهَا فَنُفْسِدَهُ ونُخَرِّبَهُ، دُونَ تحقيقِ مَصْلَحَةٍ أرْجَحَ للدِّين أو للدُّنيا، وإصلاح الأرض إنّما يكون مأموراً به إلزاماً أو تَرْغيباً، إذا كان ضمن مَنْهَج اللَّه أو ما أذِن به لعباده.

أمّا طُغَاةُ الأرْضِ وجَبَابِرَتُهَا فإنَّهُمْ مُفْسِدُونَ غير مُصْلِحين، وكذٰلِكَ فُسَّاقُ النَّاسِ كاليهود فإنّهم مُفْسِدُونَ في الأرض بمؤسَّساتهم الفاجرة، كَدُورِ الزّنا، وبُيوتِ القمار، والبُنُوك الربويّة.

وشَرُّ المفسدين في الأرض الّذين يَسْعَوْنَ في هَدْمِ عقائد الإيمان الصّحيح باللَّهِ واليَوْمِ الآخر، وإِكْرَاهِ النّاسِ على تَرْكِ عبادة اللَّهِ جلَّ جلالُهُ، وإِلْزَامِهم بعبادةِ غَيْرِهِ. ونَشْرِ الفِسْق والفُجُورِ وأنواع الفواحش، والمجاهرة الوقحَةِ بمعصِيَةِ اللَّهِ ورسوله.

وبهذا البيان الرَّبَّانيِّ نُلاحظُ أنَّ الأمْرَ بعمران الأرض، والنَّهْيَ عن الإفساد فيها بَعْدَ إصلاحها، من قضايا الدِّين الذي اصطفاهُ اللَّهُ للنَّاس مُنْذُ عَهْدِ آدم حتَّى خاتمة رسالاته لعباده، بِبِعْثَةِ محمّد ﷺ وبما أنزل عليه وأوحى به إليه.

وبالتأمّل نلاحظُ أنَّ العملَ في اسْتِصْلاح الأرضِ على ما يُرْضِي اللَّه عزّ وجلّ، واجْتِنَابَ الإفسادِ في الأرض لما اسْتُصْلِحَ مِنْهَا، يَدْخُلُ بَعْضُهُ في الأصْلِ الثاني من أصول عبادة العِباد لربِّهم، وهو طاعَةُ اللَّه جلَّ جلاَلُه، بفعل ما أمر به أو أمَرَ به رسُولُه ﷺ إلزاماً، وترك ما نهى عنه أو نهى عنه رسوله إلزاماً. ويدخُلُ بَعْضُهُ الآخر في عموم الأصْلِ الثالث من أُصُولِ عبادة العباد لربِّهم، وهو التَّقَرُّبُ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ بمحابّه من أفعالٍ وتُرُوكٍ ولَوْ لم يُكَلِّفْنَا الْتِزَامَها.

القضيّة الرابعة: دلَّ عليها قولُ اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾:

إنَّ الأمْرَ بدُعَاءِ اللَّهِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه، الّذي جاء في القضيَّة الأولى، قد كان مُوجَّهاً لبَيان أدَبِ الدُّعاء، وهو أنْ يكون مصحوباً بتضرُّعٍ وتَذَلُّلٍ للرَّبِّ الخالقِ المنعم المتفضل، وأن يكون مناجاةً له في السِّرّ، دُونَ صياحٍ وضَجِيجٍ ورَفْعِ صَوْتٍ، إلاَّ في بَعْضِ أحوالٍ خاصَّة يُقْصَد بها إشراكُ الجماعَةِ، وتَبْلِيغُهُمْ عباراتِ الدُّعاء، حتَّى يُرَدِّدُوهَا في السِّرّ، أو يُؤَمِّنُوا عليها، فيقولُوا: آمِين.

أمّا قول اللّه تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فَهُوَ مُوجَّهٌ لبَيَان

المِحْوَرَيْنِ اللَّذَيْنَ تَدُورُ عليهما حَرَكَةُ النَّفسِ، وهُمَا «**مِحْوَرُ الخَوْف**» و«**مِحْوَرُ الطَّمَع**».

إنَّ الإنسَانَ في حالَةِ وَعْيِهِ لاَ يَخْلُو غالباً من أنْ يكون في إحْدَى حالَتَيْن: إمَّا أنْ يكونَ خائفاً مِنْ شيءٍ، وإمَّا أن يكُونَ طامعاً بشيء، وقَدْ يَجْتَمِعَانِ الخوف والطمع[١].

وتَدُورُ دَوائر الخوفِ والطَّمع بحركة شِبْهِ دائمةٍ، إذْ تكادُ لاَ تَنْقَطِعُ في نَفْسِ الإنسان، فَهُو غالباً إمَّا خائِفٌ وإمَّا طامع، وإمَّا خائفٌ وطامِعٌ معاً، وكَثِيرٌ ممّا يخافُه الإنسَانُ لاَ يَمْلِكُ أسْبَابَ دَفْعِهِ، وكَثِيرٌ ممَّا يَطْمَعُ فيه لاَ يَمْلِكُ أسْبَابَ الحُصُولِ عليه، ولا ينتهي الإنسانُ من تحقيق مَرْغُوبٍ لِنَفْسِهِ، إلاَّ تَجدَّدَ لَدَيْهِ مَرْغُوبٌ فيه آخَرُ للمستقبل.

وقد أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ المؤمنين به وبرسُولهِ أمْرَ تَرغيب، بأنْ يَدْعُو رَبَّهُمْ عِنْدَ حاجاتهم في مُخْتَلِفِ أحوالهم، خائفين أو طامعين.

ولَمَّا كانَ الإنسان لا تَخْلُو لحظاتُ وَعْيِه غالباً من أن يكون خائِفاً أو طامعاً، فإنّ اللَّهَ عزّ وجلّ يأمُرُهُ بأنْ يكونَ داعياً رَبَّهُ مع كلّ خَوْفٍ وطَمَع، طالباً مِنْهُ دَفْعَ مَا يَخَافُهُ مِنْ مكاره الدُّنيا والآخِرة، ومَنْحَهُ ما يَطْمَعُ فيه من مَحَابّ الدنيا الّتي لا معصيَةَ للّهِ فيها، ومن مَحَابِّ الآخرة، وهي النجاة من عذابه يوم الدّين، والظَّفَرُ بالسّعادةِ الخالدة في جنَّاتِ النعيم.

وإذا تحقَّقَ المؤمِنُ بعبادَةِ رَبّه بالدُّعَاءِ دواماً، في حَالَتَي الخَوْفِ والطَّمَع، مُلْتَزِماً آدابَ الدُّعاء، كان في عبادة الدُّعاء من المحسنين، إذْ يَرْتَقِي في سُلَّم هذه العبادة إلى مَرْتَبة الإحسان.

وعبادة اللّهِ عزّ وجلّ بالدُّعاءِ من مَرْتَبَةِ الإحْسَان، تَدْخُلُ في عموم

---

[١] هذه القضية تُسَمَّى عند علماء المنطق مانعة خلوّ.

الأصل الثالث من أصول عبادة العِبَاد لربِّهِمْ، وهو التَّقَرُّبُ إلى اللَّه بمحابّه، فاللَّهُ جلَّ جلاَلُه يُحِبُّ من عباده أنْ يَدْعُوهُ، ما تَجَدَّدَتْ لديهم مطالب من مِحْوَرِ الخوف، أو مِنْ مِحْوَرِ الطّمع، إذِ الدُّعاءُ هُوَ التَّعْبِيرُ الدائم عن صِحَّةِ الإيمان، وصِدْق التوجُّه للَّهِ، ولهذا جاء في أقوال الرسول ﷺ أنّ الدّعاء من العبادة، أو هو مُخُّ العبادة.

وفي سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) ذكر اللَّه عزّ وجلّ طائفة من الرُّسل، وبَعْدَ ذلك أثنى عليهم بقوله تعالىٰ:

﴿.. إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

القضيّة الخامسة: هي قَضِيَّةٌ تَرْغِيبِيَّةٌ في أن يكونَ المؤمِنُ في عبادَته لربّه مِنَ المحسنين، الَّذِين ارْتَقَوْا فَوْقَ سَقْفِ مَرْتَبَةِ التَّقْوى، واجتازُوا سَقْفَ مرتَبَةِ البِرّ، ودَخَلُوا في درجاتِ مَرْتَبَةِ الإحسان.

وقد دَلَّ على هذه القضيَّة الترغيبيَّة قول اللَّه تعالىٰ: ﴿.. إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُفيضُ عَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ دُونَ إبطاء لعباده المحسنين، لأنَّ رَحمَتَهُ جَلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُه قَرِيبَةٌ مِنْهُمْ. وكلُّ عَمَلٍ مِنْ أعْمَالِ العباداتِ للَّه، ومنها عبادة الدُّعاء، لَهُ ثلاث مراتب: مرتبة التقوى، ومَرْتَبَةُ البِرّ، ومَرْتبةُ الإحسان.

والإحسانُ هو أعْلَى المراتب الّتي يرتقي إليها الصالحون المؤمِنُون، ودون مرتبة الإحسان مرتبة البرّ، وهي التوسُّعُ في مراضي اللَّهِ من النّوافل، ودون مرتبة البرّ مرتبة التقوىٰ، وتتحقَّقُ التَّقْوىٰ بفِعْلِ ما أمر اللَّهُ به إلزاماً، وتَرْكِ ما نَهَىٰ اللَّهُ عنه إلزاماً.

أمّا الإحسان الذي هو أعلى المراتب، فهو أن تَعْبُدَ اللَّهَ كأنَّك تَرَاهُ.

* * *

● قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

تمهيد:

في هاتَيْن الآيتَيْن عَوْدٌ إلى عَرْضِ بعض آيات اللّهِ في كَوْنِهِ، الّتي هي من مظاهر رُبُوبِيَّتِهِ، وعِنايَتِهِ ورحْمَتِهِ بعِبادِهِ، وهذا العَوْدُ موصولٌ بالآية (٥٤) من هذا الدرس الخامس.

● قرأ ابْنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿**وَهُوَ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيحَ**﴾ بالإفراد وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿**الرِّيَاحَ**﴾ بالجمع.

وقد يكونُ بَيْنَ القراءتَيْن تكامل في أداء المعنى المراد، وذلِكَ لأنَّ الرِّياحَ أنواعٌ وأصْنَافٌ تَرْجِعُ إلى شِدَّتِهَا، وسُرْعَتِهَا، وطبقاتِ حَرَكتِهَا في الجوِّ، ومَسِيراتها المختلفات، وتعَدُّدِ انْطِلاَقاتها مُتَسَايِرَةً أوْ مُتَعَارِضَةً، وجِهَاتِ انطلاقها مِنْ دَرَجَاتِ الدَّائِرَة المحيطةِ بالجهات الأربع.

وقد يُرْسِلُ اللّهُ عزَّ وجلَّ الرِّياحَ مُتَنَوِّعةً وهو الغالب، وقَدْ يُرْسِلُ الرِّيحَ، أي: نوعاً مفرداً من الرِّياح ذَوات الأنْواع والأصْناف.

فأغْنَتِ القراءتان في الكلمة الواحدة: «الرِّيح ـ الرِّياح» عن جُمْلَتَين تُكَرَّرانِ في القرآن، وهذا من عناصِر الإبداع في القرآن المجيد المعجز.

وقد سبَقَ تَوْجِيهُ القراءات في لفظة: ﴿**بُشْراً**﴾ فلا حاجةَ إلى الإعادة، وكذلك في: [مَيِّتِ ـ وتَذَكَّرون ـ ويَخْرُجُ ـ ونَكِداً].

التَّدَبُّر:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾:

أي: وربُّكُمُ اللّه هو الّذي يُرْسِلُ الرّياح مُبَشِّرةً بِرَحْمَةِ اللّهِ عِبادَهُ بالغَيْث، ويُرْسلُها نَاشِرَةَ السُّحُبَ واللّقاحات وغيرَ ذلكَ من أمورٍ تتحَقَّقُ بنَشْرِهَا منافع ومصالح كثيرَةٌ للعباد.

إنّ للرّياح وظائف مُتَعَدِّدَة وكثيرة، وهي حينَما تُؤَدِّي وظيفةً ما مِنْ وظائفها في الكون، فإنّها تُقَدِّمُ دلاَلَةً للمتفكّرين على بعضِ صفاتِ مُرْسِلِها بحِكمَتِهِ، إذ هو الخالق الرَّبُّ القدير العَلِيم الحكيم الرَّحْمٰن الرحيم، اللّطِيف الخبير، المنتقم الجبار إلى غير ذلك من صفات الكمال التي هي له، والّتي له بها الحمدُ كلُّه.

وقد وزّع اللّهُ عزّ وجلّ بيان كثير من وظائف الرّياح في الكون على نَيِّفٍ وعِشرِين نَصّاً وسُورَة، لأنَّ ظاهرةَ الرّياح في الكون من الظاهرات الكُبْرى الّتي تَستَدعي لَفتَ أنظارِ المتفكرين إليها، مع التّنبيهِ على أنواعها ووَظائِفِهَا المختلِفةِ، بصُورةٍ مُجزَّأةٍ مُفصَّلَةٍ، لا بصورةٍ عامَّةٍ ومُجْمَلَة.

فمن وظائفها أنّها تَحمِلُ للناسِ الإنْعام والإكرام، ومن وظائفها أنّها تأتي بنُذُرِ القَهْرِ والانْتِقام.

والنَّصُّ هنا في هذا الدَّرْس من دُرُوس السورة، يَلْفِتُ أنْظارَ المتفكّرِينَ إلى بعض ما تحمل الرّياح من إنْعامِ اللّهِ جلَّ جلالُه على عباده رَحْمَةً بهم، في تَلْبِيَةِ أجَلِّ مطالبهم في الحياة، ألاَ وهي قضيّةُ الرِّزْقِ وتَيْسير أسبابه.

إنَّ سَوْقَ الأرْزَاقِ للعباد، وتَهْيِئَةَ وسائِلِها وأسبابِها في تصاريف الكون، هو من الصّفات الرّبّانيّة ذَواتِ الآثار المتجدّدة المتكرّرة في الظّاهرات الكونية، فاللّه جلّ جلاله هو المُمِدُّ بأسْبابِ بقاء الأحياء أحياءً، وقد جَعَلَ سبْحَانه اسْتِمرار حياتهم المقدَّرَةِ بقضائه وقَدَرِهِ لكُلِّ منهم مُرْتبطاً بأرْزاقهم،

وبما أنّه هو رَبُّهم الّذي لا شريك له فقد تَكَفَّلَ بتَهْيِئَةِ أسباب رِزْقهم، ومنها أنّهُ جلّ جلاله خَلَقَ في ذَواتهم ما يَقْدِرُون به على تحصيل أرزاقهم، ممّا هيَّأ لهم في الأرض من نَباتٍ وحَيوان.

أمّا النباتُ فقد هيَّأ لهم أسبابَهُ بُزُوراً وتُرْبَةً مُنْبِتَةً، وشَمْساً تُمِدُّ بالطَّاقَةِ الحرارِيَّة التي لا بُدَّ منها بحَسَب نظام اللّهِ السَّبَبِيّ لظُهورِ النَّباتات ونُمُوّها. ومن هذه الأسْباب الماء، وقد جَعَلَ اللّه عزّ وجلّ للماء في الأرض خَزَّاناً عظيماً محفوظاً من التغيُّر بما جَعَلَ فيه من أملاح، إنّه البحار في الأرض، وقد جعل اللّه عزّ وجلّ نظاماً عجيباً دائبَ العمل لِتَحْلِيَة الماء المخزون في البحار المالِحَة حتّىٰ يكون صالحاً للنّباتِ، وسُقْيا للدوابّ والناس.

هذا النظام قائم على أسباب التّبخُرِ بالحرارة، والحَمْلِ بالرّياح، والتجميع بالسَّحاب، والسَّوْقِ في جَوّ الأرض بالرّياح، وتَلْقِيح نوياتِ ذَرَّاتِ الماءِ في السَّحاب بوساطة ما تَحْمِلُهُ الرّياح من ذرَّاتٍ لقاح.

ويأتي الأمْرُ الرَّبّانيُّ بسقْيَا بَلَدٍ ميّتٍ، فيُنْزِلُ اللّهُ الماءَ به، فتَشْرَبُ الأرض والأنعام والناس وكُلُّ ما يَدِبُّ على الأرض من أحياء، فيُخْرِجُ به اللّهُ مِنْ كُلِّ النَّبَاتَاتِ ذَوات الثمرات المختلِفات، بحَسَب ما في الأرض من جُذُورٍ وبُزور، والّتي سقاها اللّه بالماء المحلّىٰ الذي أنزلَه غيثاً من السَّحاب.

وهكذا كان تَدْبيرُ اللّهِ في الأرض بربوبيّته الحكيمة، رِزْقَ الناس وسائِر الأحياءِ، ضِمْنَ نظامِه السَّبَبيّ في عالَم الأسْباب والمسبّباتِ، فتبارَكَ اللّهُ أحْسَنُ الخالقين.

فقول اللّه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وفي القراءات الأخرى: [نُشُراً ـ نُشْراً ـ نَشْراً] يتضَمَّنُ لَفْتَ نَظَرِ المتفكّرين إلى آثارٍ من آثارِ رُبوبيّة اللّهِ لعباده، وهي إرسال الرّياح لأداء وظيفة من وظائفها، تتعلّقُ بتَدْبير اللّهِ أرزاقَ العباد، رحمةً بهم.

إنَّ من الملاحظ دواماً أنَّ مِنَ الظَّواهِرِ الكونيَّة أنْ تَهبَّ الرِّياحُ، فتَسُوق السَّحَاب، وتُجَمِّعَها، فإذا شَاء اللَّهُ سُقيا أرْضٍ أغَاثَها بإنْزَالِ الماءِ من السَّحابِ عليها، فأرْواها وأرْوَى أحياءَها.

ودلَّتِ كَلِمَةُ: [يُرْسِلُ] على مَعْنَى التَّوجيه برِفْق، وعلى مَعْنَى حَمْلِ رسالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ فيها بيانٌ وتعليمٌ وحُجَّة، يَفْهَمُ ذلك من يُدْرِكُ دَلَالاتِ الآثارِ على فاعِلِهَا وصِفاته.

● ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي: يُرْسل الرِّياحَ لأجل أن يكونَ قُدومُها برِفْقٍ مُبَشِّراً بأنَّ الغَيْثَ من السماء قادِم، وهذه طلائِعُهُ، إذْ تحمِلُ أيادي الرِّياح رسالة بُشْرى بمقدم الغيث الذي يسقي به اللّه جلّ جلالُه، وعظُمَتْ حكمتُهُ ورحمته، البِلادَ والعباد.

وعلى قراءات: [نُشُراً ـ نُشْراً ـ نَشْراً]: أي: يُرْسِلُ الرِّياحَ لأجل أن تَنْشُرَ الأشياءَ التي جَعَلَها اللَّهُ أسْباباً لمنافع كثيرة، سَبَقَ بيانُ بعضها، ومِنْها اللّقاحات.

● ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي: قَبْلَ مَجيء آثارِ رَحْمَتِهِ، ورَحْمَةُ اللّه صِفَةٌ من صِفَاتِهِ جلَّ جلالُه، ومن آثارِها فُيُوضُ عطاءاتِهِ، ومن فيوض عطاءاته أنْ يُنْزِلَ إليهم من السَّماءِ ماءً طَهُوراً نَقِيّاً من الشوائب، هو من أسْباب الحيَاةِ والنَّماء.

● ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾: أي: حتَّىٰ إذا حَمَلَتِ الرِّياحُ في الجَوِّ سَحاباً ثِقالاً بالماءِ المتبخِّرِ.

السَّحاب: اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ يُفَرَّقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ واحدة بالتاء، فمُفْرَدُهُ سحابَه.

﴿ثِقَالًا﴾: جَمْعُ «ثقيلَة» وقد جاءت وَصْفاً للسَّحاب، أي: حتَّى إذا حَمَلَتِ الرِّياحُ سُحُباً ثقيلَةً، والَّذِي يَجْعَلُ السُّحُبَ ثَقِيلَةً ذرَّاتُ الماء المتجمّعةُ فيها، وكُلَّمَا تقاربَتْ كانَتِ السُّحُبُ أكْثَر ثِقلاً.

- ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: يتحدَّثُ رَبُّنَا بضمير المتكلم العظيم، أي سُقْنا السَّحَابَ، أعيد الضمير المذكّر على السّحاب، لأنّ لفظ «السَّحَاب» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، أو سُقْنا المَاءَ الّذي تَحْمِلُهُ السَّحاب، وهذا فيما أرَىٰ أولىٰ. **والبلدُ الميّت**: هي الأرضُ الّتي لا نبات فيها، ولاَ خُضْرَةَ ولاَ نُضْرَة، فهي كالجَسَد الميّت.

- ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾: وهنا يتحدَّثُ رَبُّنا بضمير المتكلّم العظيم أيضاً، إشارةً إلى عظَمَةِ رُبوبِيَّتِهِ في تصاريفهِ الحكيمة رحمةً بالعباد، أي: أنزل اللّه جلَّ جلالُه بعَظَمَة رُوبيَّتِهِ بالبَلَدِ الميّتِ الماء من السَّحاب.

- ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: أي: فَأَخْرَجْنَا بعَظَمَةِ الرُّبوبيَّةِ وسُلْطانها، بالماء من كُلِّ الثمراتِ، وهي ثَمَراتُ النباتاتِ المختلفات المُنْتَشِراتِ هي أَوْ جَذُورها أو بُزُورُهَا في الأرض الّتي أنزل بها الماء.

إنّ الماءَ سَبَبٌ من الأسْباب الّتي جَعَلَها اللّه عزّ وجلّ مادَّةً لإنْباتِ النباتات وإخْرَاجِ الثّمراتِ، في عالَمِ الأسْباب والمسبّبات، واللّهُ جلَّ جلالُه هو مُنْبِتُ النَّبات، ومُخْرِجُ الثمرات المختلفات.

ونلاحظُ في هذا البيان الرَّبَّانيّ، أنّ إرسالَ الرّياح بُشراً «أو نُشراً أو نُشراً أو نَشراً» بين يَدَي رَحْمَة اللّه، أمْرٌ يتم بأمْرِ اللّهِ وخَلْقِهِ، وتوجيه قُدْرَتِهِ، إنْفاذاً لإرادَتِهِ الّتي اقْتَضَتَها حِكْمَتُهُ المُقْتَرِنَةُ بعِلْمِهِ المحيطِ بكُلِّ شَيْءٍ، أي: ولَيْسَ مجرَّدَ حركَةٍ سَبَبِيَّةٍ في الكونِ، تَتِمُّ بعِلْمه وإذْنه، بلْ هو أمْرٌ تَتَدَخَّلُ فيه الإرادةُ الرَّبَّانيَّةُ أمراً، وإرسالاً لتحقيق أمْرٍ مقصُودٍ ابتداءً.

ولولا تَدَخُّلُ الإرادة الرَّبَّانيّة الخاصَّةِ، لَبَقِيَتِ الرِّيَاحُ ضِمْنَ نظام الإرادة العامَّةِ، تتحرَّكُ بعِلْمِ اللّهِ وإذْنِهِ، ولهذا قال اللّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

إنّ قضيَّةَ رِزقِ العباد وتوجِيهِ أَسْبَابِه تتدخَّلُ الإرادة الرَّبَّانيَّة بِقِسْمَتِه بعناية خاصَّةٍ.

ونلاحظ أيضاً أنّ الآية هُنا قد جاء فيها بيان إرسال الرّياح بصيغَةِ الفعل المضارع «يُرْسل» للدلالة على حركة الإرسال المتكرّرة المتجدّدَةِ مع الأزمان، أخذاً من دلالة صيغة الفعل المضارع، ولِلَفْتِ الأنظار إلى ما سَيَحْدُث.

وجاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) استعمال الفعل الماضي في بيان هذا الإرسال، للَفْتِ أنظار المتفكّرين إلى هذه الظاهرة من آيات اللّه الكونيّة بَعْدَ وقوعها فِعْلاً، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

فالنصّان متكامِلاَنِ حَوْلَ مَوْضوعٍ واحد، وقَدْ وُزِّعَتْ أفكارُ الموضوع عليهما، وليسَا بمكَرَّرَيْن.

ونلاحظُ أيضاً أنّ اللّهَ تعالىٰ قال: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ولَمْ يَقُلْ سُقْنَاهُ إلىٰ بلدٍ مَيّتٍ، للإشارة إلى أنَّ السُّحُبَ الّتي تَمُوجُ في سَماء إقليم ضِمْنَ أنظِمَتِهَا السَّبَبِيَّةِ بالعِلْم والإذْنِ الرَّبّاني، قد تتدخَّلُ عنايَةُ اللّهِ فَيُرْسِلُ الرِّياحَ، فتَسُوقُ السَّحَابَ الثِّقَالَ بالماء للبَلَدِ المَقْصُودِ بالعِنَايَةِ، وهُوَ بَلَدٌ قَرِيبٌ، فيُنْزِلُ به الماء، وقَدْ لاَ يُنْزِلُهُ في بلَدٍ آخَرَ مُجَاوِرٍ لَهُ، ورُبّما كانت السّحاب الثقال بالماء موجودة فوقه، فاللاَّمُ تُسْتَعْمَلُ غالباً للقريب، و«إلى» تُسْتَعْمَلُ غالباً للبعيد.

إنَّها قضيَّةُ أرزَاقٍ، تتدَخَّلُ فيها العناية الخاصّة، والإرادة الرَّبّانيَّةُ تدخُّلاً مُباشراً.

البَلَدُ والبَلْدَة: تُطْلَقان على الأرض، سواءٌ احْتَوَتْ على مساكِنَ أمْ لَمْ تَحْتَوِ على مساكِن.

ونلاحظُ أيضاً العطفَ بالفاء الّتي تدلُّ على التَّرتيب مع التعقيب، في جُمْلَتَي: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

أمّا الترتيب فظاهر، وأمّا التعقيبُ فيُوضِحه سَوْقُ السَّحاب الثقالِ بالماءِ لِبَلَدٍ قريب ميّت متلَهّفٍ للماء، أي: إنَّ العنايَةَ الرَّبَّانيَّة قَدْ تُلَبِّي الحاجَةَ بسُرْعَةٍ دُونَ إبطاء.

أمّا جُمْلَةُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، فالتَّعْقِيبُ هُنَا يُرَادُ به تَعْقِيبُ تَتَابُعِ الأسباب التي يَحْصُلُ بها الإنبات، ولمّا كانت هٰذِهِ الأسبابُ تأتي تِبَاعاً سبباً بَعْدَ سببٍ دُونَ فراغٍ زَمَنِيٍّ بَيْنَ تَوَالِيها، إذِ الماء يتخلّل التراب، فيَصِلُ إلى البزور، فَيَدْخُلُ فيها شيئاً فَشَيْئاً، وتبقَىٰ الأسباب تعمل دون إبطاء، حتَّى تَنْبُتَ البزور، فتَنْمو فتتكامل شيئاً فشيئاً، فتَخْرُجُ الثمرات المختلفات، وكُلُّ ذلك يكونُ متتابعاً متواصلاً.

ولما كانَ الأمْرُ الواقع كذلك، كانَ من الدِّقَّةِ البالغة في الأداء البياني استعمال الفاء الدالَّةِ على الترتيب مع التعقيب هنا.

ونلاحظ أيضاً في قول اللّٰهِ تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ قضيَّتَيْنِ:

القضيَّة الأُولى: ذكر الثمراتِ الّتي هي آخِرُ مَرْحَلَةٍ من مراحل حركة النبات، لِيَدُلَّ ذِكْرُهُ على المراحل السَّابقة، وهي تُدْرَكُ بالمشاهدَةِ، فلا داعي للتصريح بها.

القضيَّة الثانية: دلالَةُ حَرْف «مِنْ» الدّال على التبعيض، أي: فأخْرَجنا به بعضاً من كلّ الثمرات، فدلّ هذا على أنّ بعض البزور أو الجذور لا تنبت بالماء، لعَوارض تعرَّضَتْ لها.

وهكذا ظهرت لنا الدِّقَّةُ التَّامَّةُ في الأداء البيانيّ الذي اشتمل عليه هذا النصّ القرآني.

● ﴿.. كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

في هذا البيان استفادةٌ من ظاهرة مُتكرّرة الشهود، ليقيس أولو الألباب عليها أمْراً غَيْبِيّاً سَوْف يحدُثُ مستقبلاً، بقضاء اللّه وقدره، وقَدْ أنْبأَ اللّهُ به، وجَعَلَهُ عُنْصُراً من عناصر أرْكان العقيدة الإسلامية، إنَّهُ نَبأ البعث بعد الموت.

أي: كذلِكَ الإخراج الذي نُخْرِجُ به النباتاتِ من بُزُورها، ونوياتها الصُّغْرَىٰ المُنْبَثّة في الأرض، سَوْفَ نُخْرِجُ الموتى، فنُحْيِيهم ونَبْعَثُهُمْ من الأرضِ الّتي احتفظت بنَوَياتِ نَشأَتِهِمُ الأُخْرَى، إذْ يُنْزِلُ اللّهُ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطَانُه، على الأَرْضِ ماءً خاصّاً يَبْعَثُ به الموتى من القبور، فتتنَامَىٰ النَّوَيَاتِ كما تتنامَىٰ الأشجار من بزورها، وفي نواةِ كلّ ميّتٍ خريطة نَفْسِه وجسَدِهِ، فإذا نَمَا ونُفِخَتْ فيه رُوحُه، رجَعَ كَما كانَ في الحياة الدنيا قَبْلَ الموت، ولكِنْ بظُرُوف حيَاةٍ أُخْرَى، هي حياةُ يوم الدّين.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: أي: أعْلَمْنَاكُمْ بهٰذِهِ الحقيقة راغبين في أن تتفهَّمُوها، وتَحْفَظُوها، وتَتَذَكَّرُوهَا دواماً، فإذا شِئْتُمْ لأنْفُسِكُمْ النَّجاةَ من عذاب النار، والفَوْز بجَنَّاتِ النَّعيم، اتَّبَعْتُمْ ما أُنْزِلَ إليكم من ربّكم ودَعَاكُمْ للالتزام به من إيمانٍ وعمل.

كلمة: **لعلَّ**: تُسْتَعْمَل للترجّي، وللتعليل، وهي بالنِّسْبَةِ إلى اللّهِ جلَّ جلالُه يُلائمُها من المعاني الرّغبةُ، والحبُّ، والرّضىٰ.

فاللّه تبارك وتعالىٰ يُحِبُّ لعباده أن يَخْتَارُوا لأنفسهم الإيمان والعملَ الصّالح، ويرغب لهم أن يتذكّرُوا دواماً ما فيه نجاتُهم وسعادتهم، ولا يرضى لعباده الكفرَ، ولا يَرْضَى لعباده الفُسُوق والعصيان، لكنَّهُ لاَ يُجْبِرُهم.

* * *

- ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

الطيّب من الأرض ما كان خصيباً حسن الإنبات. **والخبيث من الأرض**: ضدّ الطيّب. **والنَّكِدُ**: العسِر الشحيح القليل النفع.

هذا بيانٌ اسْتِدْراكي لدفع تَوَهُّمِ أنّ جَوْدَةَ خُرُوجِ النّباتِ في الأرض تَرْجِعُ إلى سَبَبٍ واحِدٍ، هو إنزالُ الماءِ من السَّماء عليها، واختلاطُ هذا الماء بها، إذْ فيه بيانُ سَبَبٍ آخَرَ هو كَوْنُ الأرض أرْضاً طيّبَةً صالحةً لخُرُوج النبات الجيّد فيها، فإذا اجتمع السَّبَبانِ معاً، وأذِنَ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ بتحقيقِ المُسَبَّبِ، وهو خُرُوج النباتِ الجيّد النافع، خَرَجَ نَباتُ الأرض جيّداً نافعاً.

أمّا إذا كانت الأرْضُ أرْضاً خَبِيثَةً غَيْرَ صالِحَةٍ لخُرُوجِ النَّباتِ الجيّد فيها، فإنَّ إنْزَالَ الماءِ الطَّهُورِ عليها لا يُغَيِّرُ طَبِيعَتَها، فلا يَخْرُجُ نباتُها إذا خَرَجَ إلاَّ عَسِراً شَحِيحَ العطاء قليلَ النَّفع.

ويُعْطِينا اللَّهُ عزّ وجلّ بهذا البيانِ قانُوناً من قوانِين سُنَنِ اللَّهِ في كَوْنِهِ، وهو أنَّ السَّبَبَ قد يَكُونُ شَرْطاً لازماً لتَحقُّقِ المُسَبّبِ، ولكنَّهُ شَرْطٌ غَيْرُ كافٍ، بَلْ لاَ بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ آخَرَ أو عِدَّةِ أسْبابٍ، حَتّى يتحقَّقَ المطلُوب، فكُلُّ واحدٍ منها شَرْطٌ لازِمٌ غَيْرُ كافٍ، بل لا بُدَّ من اجتماعِهَا حتَّى يتكوَّنَ مِنهَا جميعاً السَّبَبُ الكامل لِتَحقِيق النَّتِيجَةِ المطلوبة.

إنّ رُؤيَة السَّبَبِ النَّاقِصِ قد تَكُونُ رؤيةً خادِعَةً، تُوهِمُ أنَّهُ كافٍ لتحقُّقِ النَّتيجة المطلوبَةِ، فتُوقِعُ أفراداً كثيرين، وجماعاتٍ مُتَعَدِّداتٍ في وَرَطاتٍ مُهْلِكات، أو مُحْبِطاتٍ لأعمالٍ جَلِيلاَتٍ مُضْنِياتٍ.

وفي هذا البيان لفتُ أنظار المتفكّرينَ في آثار صِفَاتِ اللَّهِ في واقعِ حالِ الأرض، وكَيْفَ جَعَلَها اللَّه جلّ جلالُه على أقسام، مِنْهَا الطيّب ومنها الخبيث، ولهما درجاتٌ ودَرَكَات، فالطيِّبُ منها متفاوتُ الدَّرَجات في الطيب، والخبيثُ مِنْها مُتَفاوِتُ الدّركات في الخبث.

ولدى تَصْنيف أنواع الأرض من جِهَةِ صلاحيّتِها للإنبات، وجودَتِها أو

رَدَاءَتِها، تتكشَّفُ لنا أنواعٌ مختلفة، يُمْكِنُ وَضْعُها في سُلَّمٍ متعدّدِ المنازل، ذي درجات صاعدات، وذي دركاتٍ نازلات.

فالصاعدات يَشْمَلُها عنوان «أرض طيّبة»، والنازلات يَشْمَلُها عنوان «أرضٌ خبيثة».

ويَتَسَاءَلُ المتفكّر: لماذَا جعلَ اللَّهُ عزّ وجلّ من الأرض ما هو طيّبٌ حَسَنُ الإنبات، على اختلاف الدّرجاتِ في الطّيبة، وجعلَ منها ما هو خبيثٌ سَيّءُ الإنْباتِ، على اختلاف الدّركات في الخبث؟

وتجيبُ الآية على هذا التساؤل، إذْ جاء فيها قول اللّه تعالىٰ:

﴿ . . كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾:

أي: كذلكَ التصريف في أقسام الأرض إذْ جَعَلْنَاها أنواعاً مختلفة، نُصَرّفُ في كُلّ الآيات المُنْبَثّة في الكَوْن، فلا نَجْعَلُ كلَّ آيةٍ من آياتِنا صِنفاً واحداً.

وهذا مِنْ سُنَّةِ اللّهِ في خَلْقِهِ، لكُلّ ما خَلَقَ مِنْ كَوْنِهِ.

التَّصْرِيف: التّدبيرُ والتوجيهُ والتغيير والتنويع، واتخاذ مختلف الوجوه الممكنة لتحقيق الغاية المقصودة.

الآيات: هي هنا آيات اللّهِ الكونيّة الدّالاّتُ على طائفة من صفاتِهِ جلّ جلاله، إذ جاءت بياناً لسُنَّة اللّهِ في كونه بمناسبة الحديث عن أنواع الأرض.

إنّ ظاهرة التنويع في الأشياء ضِمْنَ الجِنْسِ الواحد، ظاهرةٌ مُنْتَشِرة، في كلّ ما نُشَاهِدُ من شيءٍ في هذا الكون الكبير، وفي النَّوْعِ الواحِدِ أصْنَاف، وفي الصنف الواحِدِ مختلفات.

ومَا لا يَصْلُح لأمْرٍ من الأمور يَصْلُح لغيره، وحاجاتُ الأحياء كثيرةٌ على مقدار اختلاف الأجناس والأنواع والأصناف.

إنَّ من الأرض ما هي طيِّبَةٌ لزِراعةِ صِنْفٍ من أصْناف النباتات، لكنَّها لَيْسَتْ كذلك لزراعةِ صنف آخر.

وإنَّ الأرض السَّبْخَة الّتي لا يَخْرُجُ فيها النَّباتُ إلاَّ خروجاً نَكِداً عَسِراً، قَدْ تَكُونُ صالحةً ذاتَ نَفْعٍ عَظِيم لمصالحَ أخرىٰ يَحْتاجُ إلَيْها الناس، غير حاجَتِهِم لاسْتِنْباتِ الزُّرُوع، واستخراج الثمار.

فالتنويع في الأرض اختيار في الخَلْقِ اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ مُطابقَةِ المخلوقاتِ المتنوِّعَة، للحاجات المتنوِّعةِ لدَىٰ الأحياء، ولا سيِّما الناس.

وهذا من نعم اللَّه على عباده، ونِعَمُ اللَّه على العباد تَسْتَوْجِبُ منهم أنْ يَشْكُرُوه، فقال تعالىٰ: ﴿.. كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: مثل ذلك التصريف في أنواع الأرض والتنويع فيها، نُصَرِّفُ ونُنَوِّعُ الآياتِ في كُلِّ أشياء الكونِ، لتكونَ دَالأّتٍ على الرَّحْمَةِ بِهِمْ، والعناية بتَهْيِئَةِ مطالبِ حياتهم المختَلِفَة والمتنوّعَة.

أمّا المؤمِنُونَ الّذِين لديهم الاستعداد لشُكْرِ اللَّهِ على نِعَمه، فَهُمُ الّذِين يَسْتَفِيدُونَ من ملاحظة هذه الآيات، ويَسْعَوْنَ آناً فآناً لأداء واجب شُكْرِ اللَّهِ على نِعَمِهِ، وفَضْلِهِ على عباده.

● ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: أي: والأرض الطيِّبةُ الصالحةُ للنَّباتِ، يَخْرُجُ نباتُها خُرُوجاً هيِّناً ليِّناً سَوِيّاً صالحاً، ضِمْنَ نظام النَّباتِ السَّوِيّ، وبحَسَبِ اسْتِعْدَادِها في عناصِرِها ومُنَاخِهَا لنَوْعِ النَّبات. وهذا الخروجُ ضِمْنَ قَوَانِينِ اللَّهِ وسُنَنِهِ النابِتَةِ في كَوْنِهِ، إنّما يَخْرُجُ بإذْنِ ربّه، الّذِي يُرَبّيه ويُنَمِّيهِ ويَرْعَاه، والإذْنُ الرَّبّانيُّ مُقْتَرِنٌ بشُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْء.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ قوانين الكون الثابتَةَ إنَّما تُؤدّي وظائِفَها، وتتَحَقَّقُ بها آثارُها ضِمْنَ حُدُودِ أسْبابها، بإذْنِ اللَّهِ وعِلْمِهِ المُهَيْمِنِ على كُلِّ صغيرٍ وكبيرٍ في الوجود.

- ﴿وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾: أي: والبَلَدُ الذي خَبُثَ بالنسبةِ إلى النّباتِ، لاَ يَخْرُجُ نَباتُهُ إلاَّ خُرُوجاً نَكِداً عسيراً شَحيحاً قليل العَطاء والنفع.

وعلى قِرَاءَةِ [يُخْرِجُ] يكُونُ المَعْنى: لاَ يُخْرِجُ نَباتَهُ إلاَّ إخْراجاً نَكِداً.

وعلى قراءة أبي جعفر [نَكَداً] مصدر «نَكِد» يكون المعنى: لاَ يَخْرُجُ نَباتُهُ إلاَّ خُرُوجاً نَكَداً، على الوصف بالمَصْدَر، أو إلاَّ خُرُوجاً ذا نَكَد.

النَّكِدُ: في اللُّغَةِ هو العَسِرُ الَّذِي لاَ يُطَاوِعُ إلاَّ بِشِدَّةٍ، يُقالُ: نَكِدَ عَيْشُ القوم يَنْكَدُ نَكَداً، أي: اشتدّ، وكان عليهم عسيراً غَيْر يَسِير. ويقال: رجُلٌ نَكِدٌ، أي: عَسِرٌ شَدِيدٌ صَعْب. وقومٌ أنْكاد ومناكيد.

ويُلاحظُ في هذه الآية الحَذْفُ من أوائِلِها اعتماداً على دلالَةِ أواخِرِها، ففي أوائلها قَوْلُ اللّهِ تعالىٰ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ فلَمْ يُوصَفْ فيه نَباتُ البَلَدِ الطيِّبِ بشيء، لكنَّنا لاحظنا أنَّ الوَصْفَ محذوف مقدّر ذهناً، فهو نبات هيّنٌ لَيِّنٌ جيّدُ العطاء، بدَليل أنَّ البلدَ الخبيثَ يَخْرُجُ نباتُهُ نَكِداً عَسِراً شَدِيداً شَحِيحاً قليلَ النّفع، فدَلَّ وَصْفُ النبات المقابِلِ بالنَّكِد في البَلَدِ الخبيث، على أنَّ نباتَ البلد الطيّب ضِدُّ ذلك.

وإذْ كان التنويعُ والتصريفُ من نعم اللّه على عباده، في ظاهرات كونه، فإنّنا نَرْغَبُ إلى رَبّنا قائلين: رَبّنا أوْزِعْنا أنْ نَشْكُرَ نِعمَكَ الجليلة الكثيرة الّتي أنْعَمْتَ بها علَيْنا، إنَّكَ أنْتَ الوهّاب.

وانتهى الدرس الخامس والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته.

* * *

(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة وهو الآيات من (٥٩ ـ ١٧١)

مقدمة

هذا درس طويل يشتمل على لقطاتٍ مختاراتٍ موجزاتٍ أو مُطَوَّلاتٍ من قِصَصِ سَبْعَةِ رُسُلٍ، وبيانٍ مُجْمَلٍ عن رُسُلٍ لم تُذْكَرْ أسماؤهم ولم تُذْكَر أسماءُ أقوامهم، وقد جاء بيانُهم وفْقَ الترتيب التالي:

(١) نوح عليه السَّلام وقومه.

(٢) هودٌ عليه السَّلامُ وقومُه.

(٣) صالحٌ عليه السلام وقومُه.

(٤) لوطٌ عليه السَّلام وقومُه.

(٥) شُعَيْبٌ عليه السّلام وقومُه.

(٦) بيَانٌ مُجْمَلٌ عن رُسُلٍ وأقوامِهِم، دون ذكر أسمائهم.

(٧) موسَىٰ وهارُونُ عليهما السلام مع فرعون وقومه، ومع بني إسرائيل.

ويَحْسُنُ تقسيم هذا الدرس إلى سَبْعَةِ فُصول، يتناول كُلُّ فصل منها واحداً ممَّن سَبَق ذِكْرُهم إلى جانب الأرقام السَّبعة، فهذا أدعَىٰ لحُسْنِ التدبُّر والاستيعاب والحفظ، إذِ التفصيل والتجزئة في الموضوعات، ممّا يساعدُ على ذلِكَ، بحَسَب الطبيعة البشريَّة في كُلِّ القضايا الفكريَّة والعمليّة.

* * *

الفصل الأول
التدبّر التحليلي للّقطات المختارات
في هذه السورة من قصة نوحٍ عليه السلام وقومه
الآيات من (٥٩ ـ ٦٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾.

القراءات:

(٥٩) ● قرأ جمهور القرّاء العَشَرة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ برفعِ كلمة «غَيْر». وقرأ الكسائي، وأبو جعفر: [غَيْرِهِ] بجَرّ كلمة: «غَيْر».

والقراءتان جاءتا على وَجْهَيْنِ إعرابيَّيْن جائزين، فالرَّفع على أنّ «غير» صفة للفظ «إلٰهٍ» رُوعِيَ فيه المحلُّ وهو الرَّفع، لأنّ «مِنْ» حرف جرّ زائدٍ للتنصيص على العموم، والجرّ رُوعيَ فيه حَرَكَةُ الجرّ الظاهرة في لفظ «إلٰهٍ».

(٥٩) ● قرأ نافعٌ، وابنُ كثير، وأبو عَمرو، وأبو جعفر: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ﴾ بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القرّاء العَشرة: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ بإسكان ياء المتكلّم مع المدّ في الوصل. والقراءتان وجهان لنُطْق ياء المتكلّم في اللّسان العربي.

(٦٢) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بفتح الباء وتشديد اللّام. وقرأ أبو عمرو: ﴿أُبْلِغُكُمْ﴾: من فعل «أبْلَغ المهموز. والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

تمهيد

هذا هو النصّ الخامس من النصوص الّتي تعرّضَتْ لبيان لقَطَاتٍ من قصة نوح عليه السلام وقصة قومه معه، بحَسَب ترتيب النزول، من أصل ثمانية وعشرين نصّاً موزّعة في ثمانٍ وعشرين سورة.

وقد تدبَّرْتُها مجتمعةً تدبُّراً تكامليّاً، في كتاب مُسْتَقِلٍّ، سمّيته «نوح عليه السلام وقومُهُ في القرآن»، وقد ظهر لي أنَّ هذه النّصوص متكامِلَةٌ فيما بَيْنَها غير مكرَّرَة، من خلال جَداول مفصَّلةٍ جزَّأْتُ فيها العناصر الفكريَّة الّتي اشتملت علَيْها، وقابَلْتُ بَعْضَها بِبَعْض، باسْتثناء مفاتيح الحديثِ عن نوحٍ وقومه، وباستثناء التوجيهات العلاجيَّة الدوائية، الّتي يحْسُنُ فيها التّكْرارُ التربَوِيُّ الوَعْظِي، كالأمْرِ بالاعتبار، والأمْرِ بالتَّقْوىٰ، والحثّ على التذكّر.

وقد أضاف هذا النّصّ إلى ما سبَقَه من نُصُوصٍ في نجوم التنزيل مُوجَزَ دَعْوَةٍ وحِوَار، بَيْنَ نوحٍ عليه السَّلام وقومه. وأتْبَع هذا الموجز ببيَان أنّ قومَه كذَّبوا، واسْتَمَرُّوا على تكذيبهم بآيات اللّه فأُهْلِكوا بالإغراقِ، عَقِبَ آخر موقفٍ من مواقفِ عنادِهم وتكْذِيبهم رسولَ ربّهم، وتكذيبهم بآياته.

أمّا مُدَّةُ الإمْهَال الطويل الّتي أمْهَلَهُمُ اللّه فيها، فقد اعتبرها اللّهُ عزّ وجلّ جزءاً من المدَّةِ المقرَّرةِ لدَعْوَتهم، وحينما انْتَهَتْ جاء عقبها مباشرةً إهلاكُهم بالإغراق، ولهذا جاء العطف بالفاء الدّالّة على الترتيب مع التعقيب، فقال اللّهُ عزّ وجلّ في آخر هذا النّصّ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وعرض لقطات من قصة نوح متّصل بالخطّ الرئيسي الّذي سارَت عليه دروس السورة، المبيّن في الآية الثالثة منها، والمتضمّنة أنّه يجب على الناس أن يتّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم، وأنْ لا يتّبِعُوا من دونه أولياء.

التّدبُّر:

- قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾:

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾:

اللام من ﴿لَقَدْ﴾ واقعة في جواب قَسَم مَنوِيّ، و«قَدْ» حَرْفُ تحقيق مؤكّد لمضمون الجملة. والدّاعي لهذا التأكيدَ أنّ المقصودين الأوّلين بهذا البَيَان هُمُ المكذّبُونَ لرسول الله محمد ﷺ، والمكذّبون بما جاء به من رِسالةِ يُبَلِّغُها عن رَبّه، فحالهم تستدعي تأكيد وقُوع هذه القصّة، بعبارَة من عبارات التأكيد في لسانِ العرب، إذْ يُشِيرُ مَضْمُونُ هذه القصّة إلى أنّ المكذّبين بما جاء به الرسول محمّدﷺ في عصره، وأمثالُهُمْ من بَعْدِهِمْ عُرْضَةٌ لإنزَالِ الإهلاك بهم، إذَا أصَرُّوا على التّكذيب، كما أهْلَكَ اللّهُ جلّ جَلاَلُه وعَظُم سُلْطانه قَوْمَ نُوحٍ من قَبْلُ، فذٰلِكَ من سُنَنِ اللّهِ في عباده.

﴿أَرْسَلْنَا﴾: الإرسالُ التّوْجِيهُ لأداءِ مُهِمَّةٍ ما بتُؤَدَةٍ وتَرَفُّقٍ وأناةٍ وتَعَقُّلٍ وحِكْمة. والرَّسُولُ هو الذي يُتابعُ أخبارَ الّذي أرسله. ويَقُومُ بمُهِمّاتِهِ تِباعاً. وَجاء هنا استعمال ضميرِ المتكلم العظيم، للدّلاَلَة على عِظَم الرّسالة التي حَمَلها نوحٌ عليه السلام لقومه، وعلى عِظَم الحدَثِ الّذِي أهلَكَ اللّهُ بهِ قومه، وأنجَىٰ به نوحاً عليه السّلام والّذين آمَنُوا معه.

نوحٌ عليه السلامُ أوّلُ رسولٍ من أولي العزمِ أرسَلَهُ اللّهُ للنّاس،

والراجِحُ ظنّاً أنَّ قَوْمَهُ كانُوا يَسْكُنُونَ في شبه الجزيرة العربية، أو في منطقة الشَّرْق الأوسط بوَجْهٍ عامٍّ، واللَّهُ أعلم.

وجاء في هذه الآية تلخيصُ مَضْمُون دَعْوَةِ نوحٍ عليه السلام لقَوْمِهِ بفِقراتٍ ثلاثة:

الفقرَة الأولى: دلّ عليها قولُ اللَّه تعالىٰ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: فبَاشَرَ عَقِبَ إرْسالهِ بالقِيَام بمهمّاتِ رسالته، بدليل استعمال حرف العطف «الفاء» الدالّ على الترتيب مع التعقيب.

﴿يَٰقَوۡمِ﴾: أصْلُهَا «يا قَوْمِي» حُذِفَتْ ياء المتكلّم وبقيتِ الكَسْرَة على الميم دليلاً عليها، ونظائر هذا الحذف كثيرة، وهو من الوجوه العربيّة الجائزة.

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ ولاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، بدليل الفقرة الثانية: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

والأَمْرُ بعبادة اللَّهِ وَحْدَه يَسْتَدْعي سابقاً له، هو الإيمان باللَّهِ وَحْدَهُ رَبّاً خالقاً بِيَدِه كُلُّ شَيْءٍ، وهو على كُلّ شيءٍ قدير.

فإذَا كانَ القَوْمُ مُؤْمِنِينَ به كذلكَ فالمطلوبُ منهم أن يَعْبُدوه وَحْدَه، ولا يُشرِكُوا بعبادَتِهِ شيئاً، وهذه العبادة تَشْمَلُ كُلَّ صُنُوفِ الطَّاعَةِ للَّهِ عزّ وجلّ، في كُلّ حَرَكاتِ الحياةِ الظَّاهِرَة والباطنة، على ما جاء به الدِّين الّذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، في أوامره، ونواهيه، وشرائعه، وأحكامه، ووصَايَاهُ، وعِظَاتِه.

الفقرة الثانية دلَّ عليها قول اللَّه تعالىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾: هذه الجملَةُ تَدُلُّ على نَفْيِ وجود إلٰهٍ يُعْبَدُ بحقٍّ غَيْر اللَّه جلّ جلاله، فَهُوَ وَحْدَهُ في الوجود كُلِّه الرَّبُّ الّذي بِيَدِهِ جَلْبُ النَّفْعِ وَدَفْعُ الضُّرِّ عن عباده، وبِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ.

أمّا الّذِين من دُونه جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلطانُه، فَلَا يملكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ولا لِغَيْرِهِمْ نفعاً ولا ضرّاً.

وهٰذه الجملة لا تَدُلُّ على نَفْي وُجُودِ أشياء أو أحياء تُعْبَدُ مِنْ دون اللّه، دون أنْ تكونَ مستحِقّةً لأنْ تُعْبَد، فقد اتَّخَذَ المشركون آلِهَةً من دُونِ اللّهِ، وعَبَدُوهَا ظُلْماً لحَقّ اللّهِ الرَّبِّ الخالِقِ عليهم، مع أنّ مَعْبُودَاتِهِم لاَ تَمْلِكُ لهم ولاَ لأَنْفُسِهَا نَفْعاً ولا ضرّاً، فهي أسماءٌ سَمَّوْها آلِهَةً وأعْطوها صفات الإلٰه، وهي لا تَمْلِكُ من صفاتِ الإلٰه بحقٍّ شيئاً.

إذَنْ: فدعوة نوح لَهُمْ إلى عبادةِ اللّهِ وَحْدَهُ نصيحة عظيمة لهم، إن استجابوا لَهَا جَلَبَتْ لَهُمْ سَعَادَةَ هٰذِهِ الحياة، وما بَعْدَ هٰذِهِ الحياة، ودفَعَتْ عَنْهُمْ عذابَ اللّهِ الّذي أعَدَّهُ للكافِرِينَ والمشركين به.

إنَّ مُشْرِكِي الأوّلين كانُوا يَعْبُدونَ أوْثاناً وقُوىً وَهْمِيَّةً، وأرْواحاً لكَائِناتِ من الإنْسِ والجنّ، وقد يَعْبُدُونَ بشراً أمْثالَهُمْ.

أمّا مُشْرِكُو أهل حضارتنا المعاصِرَةِ اليوم، فَهُمْ يُقَدِّسُونَ قوانين الطبيعة، ويَجْعَلُونَها شُرَكاءَ للّهِ الخالقِ إذا كانُوا مُؤْمِنِينَ به، ولا يَرَوْنَها من سُنَنِ اللّهِ السببيَّةِ الّتي جَعَلَها هو في كونِهِ، وهُو متىٰ شاءَ خَرَقَها، وعَطَّلَ آثارها.

وشرٌّ من هؤلاء المشركين، كُفّارٌ مُوغِلُون انحداراً في أودِيَةِ الكُفر، يَجْحَدُونَ وُجُودَ رَبٍّ خالقٍ مُدَبِّرٍ عليم حكيم، يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويخْتارُ، وهم المادّيّونَ الحسّيُّون، الّذِين صارُوا كثيرين في عصرنا الحاضر، ولا سيما الشيوعيّون الذين فتَنَتْهُمْ الماركسيَّةُ بأوْهامِها، وزُخْرُفِ أقوالها الباطلة.

الفقرة الثالثة: دلَّ عليها قول اللّه تعالىٰ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾، هذه الجملةُ دَلَّتْ على أنَّ نوحاً عليه السلام قد أخْبَرَهُمْ بنَبَأ البَعْثِ إلى يوم الدّين، وأخْبَرَهُمْ بما في ذلك اليوم من حسابٍ، وفَصْل

قضاء، وتنفيذ جزاء بالثواب في جنّاتِ النّعيم، أو بالعِقَاب في دار العذابِ المعدَّةِ للكافِرينَ الظَّالِمِينَ المكذّبين.

إنَّ نوحاً عليه السَّلام ما كان ليُخْبِرَهم بأنّه يخافُ عليهم عذابَ يومٍ عظيم، ما لَمْ يَكُنْ قَدْ أنبَأَهُمْ بيَوْمِ الدّين، وبما فيه من دارٍ للثواب ودارٍ للعقاب، وأنبأَهُمْ بأنَّهُمْ مَدِينُونَ، ومُجازَوْنَ على أعمالهم، بالثواب على الحَسَناتِ، وبالعِقاب على السيّئات، فاللَّهُ رَبُّهم مُنْتَقِمٌ جبَّارٌ عَدْلٌ، وهو رَحْمٰنٌ رحيمٌ، وهو ذُو الفَضْلِ العظيم.

وجاء في هذا النَّصّ الاقتصارُ على هذه الفقراتِ الموجزات، لتَدْرِيبِ مُتَدَبِّري آيات القرآن المجيد على استخراج اللَّوازِمِ الفِكْرِيَّةِ، واسْتِنْبَاطِ المعاني المُسْتَكِنَّة في عُمْقِ النُّصُوصِ القرآنيّةِ، الّتي تَدُلُّ عليها سَلاَسِلُ لَوازِمِ الأفكار، والدَّلاَلاَتُ الدَّقِيقَاتُ لبَعْضِ المفْرَدَاتِ والصِّيَغِ وتَرَاكيبِ الجُمَلِ.

وما فَهِمْنَاهُ اسْتِنْبَاطاً من هذه الآية، قد دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ أخرى، فيها بياناتٌ مُفَصَّلات حول الموضوع نفسه، بالنسبة إلى نوح عليه السلام وقومه.

ونلاحظُ في هذه الآيَةِ أنَّ نوحاً عليه السلام قد أشْعَرَ قومَه ببالغِ رَحْمَتِهِ بهم، وعظيم شفقته عليهم، ومن أجْلِ ذلك يَدْعُوهُم إلى الإيمان باللَّه وَحْدَه ربّاً خالقاً، ويدعُوهم إلى عبادته وَحْدَهُ لا شريكَ له.

﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: **الخوف**: انفعالٌ في النّفس يَحْدُثُ عند توقع مَكْرُوهٍ قادِمٍ، أو توقّعِ فَوَاتِ محبوبٍ أو مَرْغوبٍ فيه.

يقال لغة: خافَ من كذا، وخافَ على كذا. ويُقال: خافَ كذا على نفسه، أو غيره.

❀ ❀ ❀

- قول اللّه تعالىٰ:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾:

المَلأُ: هُمْ كُبَرَاءُ القَوْم، ورؤساؤهم، وذَوُو الوجاهَة الّذينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العامَّة، ومَلأُ القوم هم اللِّسَانُ الناطق عن أنفسهم وعن عامّتهم، إلاَّ من أعْلَنَ خلاف ذلك.

لقد كانَ هذا رَدَّ مَلَإِ قومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، في مقابل دعوته لهم إلى عبادة اللّه وَحْدَهُ، وشَفَقَتِهِ عليهم من عذاب يوم عظيم، هو يومُ الدّين.

وظاهر أن هذا الرَّدَّ مَشْحُونٌ بالعُنْفِ والغِلاَظَةِ، وفظاظَةِ المُسْتَعْلِين المستكبرين.

- ﴿.. إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾: أي: إنّنا لنَعْتَقِدُ اعْتِقاداً جازماً مُسْتَنِداً إلى رُؤيَةٍ فِكْرِيَّةٍ قَلْبِيَّةٍ، أنّكَ في ضَلاَلٍ عَنِ الحقّ وضَيَاع، وضَلاَلُكَ هذا مُبِينٌ واضِحٌ لاَ يَحْتَاجُ إلى إقامَةِ دَليلٍ عليه.

تضَمَنَّ هذا الرَّدُّ الْفَظُّ الغَليظُ الخَشِنُ ادّعاءَهُمْ أنَّهُ في ضَلاَل مُبِينٍ واضحٍ، دُونَ تَقْدِيمِ أيَةِ حُجَةٍ، وأكَّدُوا ادِّعاءَهُمْ هذا بمؤكّداتٍ دلَّ عليها حرف «إنَّ» و«الجملة الإسمية» و«لامَ الابتداء المزحلقَةُ للخبر»، ومَضْمُونُ الرُّؤيَةِ الجماعية، إذْ قالوا مُتَوَاطِئِينَ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: أي: في داخل ضَلاَلٍ أنتَ مُحَاطٌ به.

﴿مُّبِينٌ﴾: أي: واضحٌ جَلِيٌ لاَ يَحتاجُ إلى إقامَةِ دليلٍ عليه، ولاَ يحتاج إلى كَشْفِ الأسْتَارِ عنه.

وظاهر أنَّ هذا الادّعاء مِنهُمْ لَيْسَ فيه إلاَّ الشتيمة، ومَعْلُومٌ أنَّ كُلَّ ادّعاءٍ فيه تجريحٌ واتّهامٌ بنقيصةٍ دُونَ حُجَةٍ أو بُرْهانٍ هو من السِّبابِ والشّتائم.

لقد قابَلُوا دَعْوَتَهُ الرَّفيقة، المغلّفة برَحْمَتِهِ بهم، وشفقته عليهم بالطَّعْنِ والشَّتِيمةِ، على طريقة السُّفهاء المستكبرين في أقوامهم.

* * *

● قولُ اللّه تعالىٰ:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (٦٣)﴾:

اشتملت هذه الآياتُ الثلاثُ على بيانِ الإجابات التي أجابَ بها نوحٌ عليه السَّلامُ قومه، مُقابلَ رَفْضِهِمْ دَعْوَته، ومُواجَهَتِهِ بالشتيمة، وقَذْفِهِمْ له بأنَّه في ضلال مبين.

وفي هذا البيان إيجازٌ بَدِيع لِستِّ قضايا، بَسَطَها نوحٌ عليه السّلاَمُ في مقالاته الدَّعَوِيَّة لقومه:

القضيَّة الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾: أي: يا قوم لَيْسَ بي وَصْفُ ضَلاَلَةٍ ما، لقد شَتَمْتُمُوني بأنّي كالغَرِيقِ في الضلالةِ، وأقولُ لكُمْ في الدِّفاع عن نَفْسِي: لَيْسَ بي ضَلاَلَةٌ ما قَلِيلَةٌ أو كثيرة، صغيرةٌ أو كَبِيرَة، فأنَا خالٍ وبَرِيءٌ من أيَّةِ ضلاَلَة.

جوابٌ مُشْبَعٌ بالتَّهْذِيبِ الّذي يتحلّىٰ به الدُّعَاةُ إلى اللّهِ، المُحَاطُونَ بعِنَايَةِ اللّهِ، المُلْتَزِمُونَ بمُقْتَضَيَاتِ الحكمة في الدَّعْوَة.

لقد دفع نُوحٌ عليه السلام الاتّهامَ بالنَّفْيِ فقط، ولم يَرُدَّ على الشتيمة بمِثْلِها، وخاطَبَهُمْ بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، فنَسَبَهُمْ إلى نَفْسِهِ، وأضافَهُمْ إلى ذاته، وأصْلُ التعبير: يا قَوْمِي، بإضافة لفظ قَوْم إلى ياء المتكلّم، كما سبَقَ بيانه.

القضيَّة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦١)﴾: بَعْدَ أنْ نفى نوحٌ عليه السَّلام عن نفسه ما اتَّهَمَهُ قومُهُ به، أبَانَ لَهُمْ أنَّهُ لَمْ يَدْعُهُمْ إلى ما دَعَاهُمْ إلَيْهِ من تِلْقاء نفسه، ولكِنَّهُ مَبْعُوثٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ، مُكَلَّفٌ أنْ يُبَلِّغَ رِسالاته، ومأمُور بأنْ يَنْصَحَ لِقَوْمِهِ، فهو مَسْؤُولٌ من قِبَلِهِ عن القيام بوظائف رسالَتِهِ الّتي أرْسَلَهُ بها.

وأبان لقومه في هذا أنَّهُ رسُولٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ جَمِيعاً، ولَفْظُ العالمين هنا مرادٌ به ما سِوَى اللَّهِ عزّ وجلّ، فعَلَيْهِمْ أنْ يُصْغُوا إلى مَا يُبَلِّغُهُمْ عَنْ رَبِّهِ، ويَتَفَكَّرُوا فيه، فرَبُّ العَالَمِين هو رَبّهُمْ الّذي لاَ رَبَّ لهم سواه، وهو مَالِكُهُمْ والمُتَصَرِّفُ بمقادِيرِهم، وكلُّ حركاتهم وسَكَناتهم، وكلّ ما يَزْدادُ فيهم أو يَنقُصُ، وهو المُحْيِي والمُمِيت، والمُمْتَحِنُ والمحاسِبُ والمجازي.

القضية الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾: أي: أُبَلِّغُكُمْ تِباعاً رِسالات رَبّي، رِسَالَةً فرِسَالَةً، بِحَسَبِ مَا يُنْزِلُ عَلَيَّ، ويُكَلِّفُنِي أنْ أُبَلِّغَكُمْ إيَّاهُ.

دلَّتْ صيغَةُ الجَمْعِ في كلمة ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ على أنَّ تَنزيلَ البيانَاتِ الرَّبَّانِيَّةَ عليه، قد كانَ على وَفْقِ سُنَّةِ التَّدرُّجِ نَجماً فَنَجماً، في أزمَانٍ متعدّدة، وكُلُّ بيانٍ منها كان رسالةً مضافةً إلى ما سَبَقَها.

وبَعْدَ أن تجتمع الرّسَالاتُ كُلُّها، ويُكْمِلَ اللَّهُ عزّ وجلّ الدّين لعبادهِ، تَكُونُ جميعُها منضَمَّةً في رِسالةٍ واحِدَةٍ.

فالتَّعَدُّدُ هو باعتبار تنجيم التنزيل في أزمانٍ، والإفرادُ هو باعتبار جمع النجوم وضَمِّها متكامِلَةً في كتابٍ واحِدٍ، هو الرّسالةُ الّتي بَعَثَ اللَّهُ بها رَسُولَه، مضافاً إليه ما أُوحىٰ به إليه من غَيْرِ الكتاب المُنَزَّل.

وقد جاء مِثْلُ هذا الاستعمال على لِسَان هودٍ عليه السلام، وعلى لسانِ شُعَيْبٍ عليه السَّلام، وقال اللَّهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام في سورة (الأعراف) هذه التي نتدبَّر آياتها:

﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

وفي هذه الآية قراءتان بالإفراد وبالجمع، فَرُوعي بعِبارَة: ﴿بِرِسَالاَتي﴾ نُجومُ التّنزيل، ورُوعي بعبارة ﴿بِرِسَالَتي﴾ بالإفراد مجموع النجوم.

وأمَرَ اللَّه عزّ وجلّ رسُولَهُ محمّداً ﷺ بأن يقول لقَومه ما جاء بيانُه في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

فجاءت عبارَةُ: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ بالجمع، نظراً إلى نُجومِ تَنْزِيلِ الوَحْيِ على الرسول ﷺ، وتكليفهِ أن يُبَلِّغَ ما أُوحيَ به إليه للناس.

ومعلوم أنَّ تَبْلِيغَ رِسَالَةِ أوْ رِسَالاَتِ الرَّبّ جلّ جلالُه هو الوظيفة الأولى لكُلّ المُرْسَلِينَ عليهم السَّلام.

وفي إعلان نُوحٍ عليه السلام لقومِهِ أَنَّهُ يُبَلِّغُ رسالاتِ رَبِّه تَبَرُّءٌ مِنْ أن تكون له عندهم مصلَحَةٌ شخصيَّة.

القضيّة الرابعة: دلَّتْ عليها عِبارة: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾: أي: أُقَدِّمُ لكُمْ ما فيه خَيْرُكُمْ وسعادتكُمْ، خالياً من الزَّيْفِ، وخالصاً من الغشّ، وخالصاً من الشوائب.

يقال لغة: نَصَحَ فلانٌ فُلاناً، ونَصَحَ لَهُ، إذَا وَجَّهَ لَهُ مَشُورَةً، أوْ رَأْياً، أوْ قَدَّمَ لَهُ شَيْئاً أو عملاً ما خالصاً من الغشّ.

والنُّصْحُ في الإيمان: خلوصُهُ من الشّرك. والنُّصْحُ في العمل الديني: خلُوصه من الشرك والرّياء. وهكذا، وأصْلُ النُّصْحِ الخُلُوصُ من الشوائب.

والنُّصْحُ يشمَلُ اسْتِخْدَامَ كُلّ الوسائل الإقناعيَّةِ والتربويّة على اختلاف صُوَرِها وأشكالها الحكيمة.

والنُّصْحُ مظهرٌ من مظاهر الإخلاص للَّهِ في الدَّعْوَةِ، ومظهر من مظاهر الرَّحْمَة والشَّفَقَةِ والغَيْرِيَّةِ بحِرْصِ النَّاصِحِ على خَيْرِ المَنْصُوحِ، دُون ملاحظَةِ ثوابٍ منه.

والمُرْسَلُون كُلُّهُمْ نَصَحَةٌ لأقوامهم، وكذلِكَ يجب أنْ يكون الدُّعاةُ إلى اللَّهِ، وإلى صراطه المستقيم.

والمفروضُ في المؤمنين أنْ يكون بعضُهُمْ لِبَعْضٍ وادِّينَ نَصَحة.

والدِّينُ الحقُّ الصادقُ هو النصيحة للَّهِ ولِرَسوله، ولأئمّة المسلمين وعامَّتهم.

القضيّة الخامسة: دَلَّتْ علَيْها عبارة: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: ومَا أُبَيِّنُهُ لَكُمْ، وأبلِّغُكُمْ إيّاه، وأنصَحُكُمْ به، مُسْتَنِدٌ إلى عِلْمٍ يقينيّ علَّمَنِي اللَّهُ إيَّاه، ولَيْسَ مِنْ عندي، فإنّي أعْلَمُ عِلْماً أتاني وَحْياً من اللَّهِ، وهذا العِلْمُ الّذي يأتيني من اللَّه لا تَعْلَمُونَهُ بوسائِلِكُمْ، فأنا أُبَلِّغُكُمْ إيَّاه.

وفي هذا رَدٌّ مُهَذَّبٌ على قومه، بالنّسبة إلى اتّهامهم له بأنّه في ضَلَالٍ مبين، بإثبات أنّه يَعْلَمُ حقائقَ آتِيةً إلَيْهِ من اللَّهِ، لاَ يَسْتَطِيعُونَ أن يَصِلُوا إلى العِلْمِ بها بوسائلهم، وفيه أيضاً توجيه لهم للانتفاع بما يُعَلّمهم من عِلْمٍ لاَ شَكَّ فيه، ولا شائبة تَشُوبُه، لأنَّهُ وَحْيٌ من اللَّهِ جلّ جلاله.

ومن البدهيّ أنَّ العِلْمَ مُباينٌ للضَّلَالِ الّذي يُوَلِّدُهُ، ويَدْفَعُ إليه الجهل، فَلْيَكُفُّوا عن اتّهامه بأنَّهُ في ضلالٍ مُبِينٍ، ولْيَتَفَكَّرُوا بما جاءهم به عن رَبّه، من حقائقٍ تَقْبَلُها العقولُ وتُسَلِّمُ بها، ولا تجدُ فيها بَاطِلاً وَلاَ شَكّاً.

وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بعض تفصيلٍ لهذه القضيّة بقول اللَّه عزّ وجلّ فيها حكايةً لمقالة نوحٍ عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾؟!

أي: أفكَّرْتُمْ في احْتِمَالِ أنّي على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي تَشْهَدُ لي بأنّي صادِقٌ فيما أُبلِّغُ عنه؟! فَكِّرُوا وأخْبِرُوني.

﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: أي: إنْ كُنتُ متمكّناً مِنْ حُجَّةٍ قاطعة بَيِّنَةٍ آتيكُمْ بها مِنْ رَبِّي، كمُعْجزَةٍ باهِرَةٍ، أو براهينَ آسِرَةٍ مُحَاصِرَة.

﴿وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾: أي: وآتاني مع هذه البَيِّنَةِ رَحْمَةً لَكُمْ مِنْ عِنْدِهِ، هي الدِّين، وما فيهِ من تعليماتٍ وبياناتٍ ووصَايَا تتضمَّنُ نجاتكُمْ من عذاب اللَّهِ، وسعادتكُمْ في دار كرامَتِهِ.

أي: أفكَّرْتُمْ في مَضمُونِ رِسالاَتِ رَبِّي الّتي جئتُكُمْ بها، والّتي هي رَحْمَةٌ عظيمةٌ لكم؟ فكِّرُوا وأخْبِرُوني.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾: أي: فَأُخْفِيَتْ عليكُمْ، والْتَبَسَ عليكم أمْرُها.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾: أي: أنُكرِهُكُمْ على الْتِزَامِ هٰذه الرَّحْمَةِ العظيمة، الّتي هي دينُ اللَّه الذي اصطفاه لكُمْ، والحالُ أنَّكُمْ كارِهُونَ قبولها والالتزامَ بما جاء فيها؟!

استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لاَ نُلْزِمُكُمْ إيَّاها، ولا نُجْبِرُكُمْ عليها، إذْ أنْتُمْ في رِحْلَةِ امتحانٍ وابتلاء، عن طريق اختياراتكُمُ الحرَّة، والإكْرَاهُ لا يُعْقَلُ في الدِّين، القائم على الإيمان الّذي هو في جَذْرِهِ اختيارٌ إراديٌّ قَلْبِيٌّ، ذو آثارٍ في السُّلُوكِ الظَّاهِرِ.

القضيَّة السادسة: دلَّتْ عليها آيَةُ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

في هذه الآيَةِ تلخيصٌ غايَةٌ في الإتْقانِ البيانيّ والإيجاز، مع ما فيه من إبداعاتٍ بلاغيَّة.

لَمْ يَقُلْ نُوحٌ عليه السّلام: إنَّ رَفْضَكُمْ لِرسالَتي لاَ سنَدَ له من موازين الفكر ومحاكماته، بَلْ هُوَ تعجبٌ قائمٌ على إنكار ما لم تألَفُوا.

إنَّما عَرَضَ هذا المعنى نَفْسَه مغلَّفاً بصيغة استفهام، فقال لَهُمْ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾؟!

ودلّنا حَرْفُ العطف بعد همزة الاستفهام في هٰذه العبارة، على أنَّهُ يُوجَدُ مَعْطُوفٌ علَيْهِ مُقَدَّرٌ ذِهْناً بَيْنَ الاستفهام وحَرْفِ العطف (الواو) ومن السَّهْلِ على المتدبّر أنْ يُدْرِكَ هذا المحذوفَ المقدّر(١).

إنَّهُمْ كَرِهُوا تَرْكَ ما هُمْ عليه، واتّباعَ ما جاءهم به نوحٌ عليه السلام، وتعلّلُوا لإنكار رسَالَتِهِ بإظْهار التعجُّب من أنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بشراً رسولاً.

ولمَّا طَوَوْا في أنفُسِهِم مَا كَرِهُوا مِمَّا يخالِفُ أهواءَهم، وهو ماثِلٌ في أذْهانِهِمْ وفي قُلوبهم، لَمْ يَذْكُرْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في اللَّفْظِ، لكِنْ أشارَ إليه بحَرْف العطف «الواو»، فأظْهَرَ ما أظْهَرُوا، وقَدَّرَ ما أبْطَنُوا، مُكْتَفِياً بالإشارة الخفيَّةِ إلَيْهِ، وكانَ ذٰلِكَ بذِكْرِ حَرْف العطف على معطوفٍ عليه مقدّر ذهناً.

ولدى إظهار هذا المقدّر ذهناً أقول: أكَرِهْتُمْ تَرْكَ ما أنْتُمْ عَلَيْهِ، وَاتِّبَاعَ ما جِئْتُكُمْ به، وعَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ من ربّكُمْ على رجُلٍ منكم؟!!

أمَّا المتعجَّبُ منهُ فقضيَّتان:

القضيّةُ الأولى: أنْ يَأْتِيَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ.

القضيّة الثانية: أنْ يَنْزِلَ هذا الذِّكْرُ على رجُلٍ بشَرٍ مِنْهُمْ، ويكون هذا الرَّجُلُ رَسُولاً للَّهِ يُبَلِّغُ قومَهُ الذِّكْرَ الذي أنزلَهُ اللَّهُ عليه، ليُبَلِّغَهُ لقومه.

إنّ نُوحاً عليه السَّلام لم يَطْرَحْ في هذا البيانِ قضيَّة نُبُوَّتِهِ ورِسالَتِهِ، بل طَرَحَ قضيَّة الذِّكْرِ الّذي جاءهُمْ به من ربّهم، ليكون هذا الذِّكْرُ ساحَةً فكريَّةً مَعْرُوضةً للمناظرة والمجادلة حول عناصِرِها.

ولمَّا كان الذِّكْرُ الّذي يَبْعَثُ اللَّهُ عزّ وجلّ به رُسُلَهُ مُشْتَمِلاً على قضايا

---

(١) لدى تدبّري لكثير من النصوص القرآنية تكشَّفَ لي أنّ العطف على محذوف مقدّرٍ ذهناً لا يقتصر على ما يسمّيه النحاة «الفاءَ الفصيحة» بل كلُّ حُروف العطف قابلةٌ لأنْ تكونَ فصيحة تُفْصِحُ عن معطوف عليه محذوف، والواو هنا من هذا القبيل.

حقٌّ، وهٰذِهِ القضايا تُقَامُ عَلَيْها الأدلَّة البرهانيّة، والأدلَّةُ الإقناعيَّة، كانَ البدْءُ بطَرْحِ قضيَّةِ الذِّكرِ وما جاء فيه مِنْ حقائق هو الأسْلُوب الأجْدَى للإقْنَاعِ، أو للإلْزَامِ والإفْحَام.

فالرُّبُوبيَّة وتَوحِيدُها، والإلٰهيَّةُ وتَوْحِيدُها، وصفاتُ اللَّه جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه، الّتي منها عِلْمُهُ، وحِكْمَتُهُ، وقَضَاؤُهُ وقَدَرُهُ، وقُدْرَتُهُ على كُلِّ شَيْءٍ، وخَلْقُهُ لكُلِّ شَيْءٍ، وعنايتُهُ بعباده، ورَحْمَتُهُ وعَدْلُه، كُلُّهَا أُمُورٌ مَعَهَا أدِلَّتُها العَقليَّة البرهانيّة، وتَشْهَدُ لها ظواهر الكون، ومُجْرَيَاتُ الأحداث.

ومتَى ظهر لهم أنَّ ما يَدْعُوهُمْ إلَيْهِ حَقٌّ لاَ رَيْبَ فيه، ولا شَائِبَةَ تَشُوبُه، كان أمْرُ إثباتِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ، وإثْبَاتِ أنَّهُ يُبَلِّغُ هذا الذِّكر عن رَبِّهِ، وإثباتِ أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ يُوحِي به إلَيْهِ، أمْراً سَهْلاً سَبَقَ التّمهيدُ الفكريُّ له.

ونستفيد من هذا أنّ البَدْءَ بالإقناعِ حوْلَ مضمون القاعدة الإيمانيّة، بالنسبة إلى قومٍ ليس لهم عَهْدٌ قَرِيبٌ بالأنبياء والمرسلين هو الأمْرُ الحكيم.

وهذا هو الذي اتَّخَذَهُ نوح عليه السلام في مجادلَتِهِ لقومه، بمقتضى هذا النّصّ.

والمرادُ بالذِّكرِ البيانات الرّبّانيّة الّتي كان يُنَزِّلُها اللَّهُ عزّ وجلّ على نوحٍ عليه السّلام، بألْفَاظٍ تُتْلَى وتُفْهَمُ وتحفظ، كسائر الصُّحُفِ والكُتُبِ الرَّبَّانيَّة المنزَّلة على بعض المُرْسَلين.

وقد جاءت تسمِيَةُ هٰذه البيانات الرَّبَّانيَّة ذِكْراً لأمْرَيْنِ:

الأمْرُ الأول: أنّ بعض عناصر رِسالاَتِ المُرْسَلِينَ هيَ من الحقائقِ المَغْرُوزةِ في عقولِ الناسِ ونفوسهم وضَمَائِرِهِم، فهيَ لاَ تَحْتاجُ أكثر مِنْ كَشْفٍ لَها، وتذكيرٍ بها.

الأمْر الثاني: وهذا هو الأهم، أنَّ كُلَّ عناصِرِ رِسَالاَتِ المُرْسَلِينَ حقائق وتعليماتٌ رَبَّانِيَّةٌ، يُطْلَبُ من المكلّفين أن يتَعَلَّمُوهَا، وأنْ يَتَفَهَّمُوهَا، ثُمَّ يُطْلَبُ مِنْهُمْ أنْ يَتَعَهَّدُوها بالتَّذَكُّرِ حيناً فحيناً، على مدَىٰ الأيّام والسنين، وعِنْدَ كُلّ عَمَلٍ يقتضي شيئاً منها، وعِنْدَ كلّ عارِضَة، تَسْتَدْعِي شيئاً منها، لتكون القاعدة الإيمانية حاضرَةً في الذّاكرة، فتَدْفَعَ المؤمنينَ بها إلى طاعَةِ اللَّهِ، والْتِزَامِ شريعته، ولتكونَ أحْكامُها ووَصَايَاها برامِجَ مَاثِلَةً في الذَّاكرة، ونوراً مبيناً يَهْتَدِي به السَّالِكُونَ في ظُلُماتِ الأهواء والشهوات، ووساوس الشَّيَاطِينِ، وتَسْوِيلاَتِهِم، وتضليلاَتِ المضلّين، ولِيَسْتَرْشِدَ بها مُقْتَحِمُوا عقَباتِ النُّفُوس والأهواء ومصاعِب الحياة، وما فيها من صنوفِ ابتلاءٍ بالخيرِ والشّرّ، والنَّفْعِ والضُّرّ، وكلّ ما فيه فتنةٌ لاختبار الصَّبْرِ واختبار الشّكر.

وطوى البيان في هذا النصّ عناصر المجادلة الإقناعية، والإلزامية والإفحاميَّة، حول القضيّتَيْن اللَّتَيْن تعجَّبَ قومُ نوحٍ منهما، وقد سبَق بيانهما بتفصيل.

- ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اشتملت هذه العبارة على بيان الغاية من إنْزَالِ الذِّكْرِ على نوحٍ عليه السّلام، وهي تتلَخَّصُ بثلاثة عناصر:

العنصُر الأول: دلّت عليه جملة: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾: أي: ليُنْذِرَكُمْ بعقاب اللَّهِ المعجَّل والمؤجّل إذا لم تُؤْمِنُوا ولم تتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم من ربّكُمْ.

الإنْذَار: الإعلامُ بما هُوَ مَخُوفٌ مِنْهُ، والتحذيرُ من مخوفٍ منه ماديٍّ أو معنويّ، والإخبارُ بعواقِبِ غير سارَّةٍ، أو بعواقب مؤلمة، كَشَرٍّ قادمٍ، أو عقوبةٍ على مكتَسَبٍ إرادي، من قولٍ أو عمل أو اعتقاد.

ولا يكُونُ الإنْذَارُ في قَضَايَا الدّين إلاّ بعدَ البيان التعليميّ، واتّخَاذِ الوسَائِلِ الإقْناعيَّة، ولا يكون أيضاً إلاّ مصحوباً بالتّبشير بالعواقب السَّارَّة السعِيدَةِ لمَنْ آمَنَ وأطاع.

هذا العُنْصر لوحظ فيه المذَكِّرُ، وهو الرَّسُولُ وما أُنْزِلَ عَلَيْهِ من ذِكْرٍ.

العُنْصر الثاني دلَّتْ عليه جملة: ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾: أي ولْتُذْكِرُوا خطر عقاب اللَّهِ الشديد، فتجِدُوا في أنْفُسِكُمْ دافعاً لأن تَتَّقُوهُ، بالإيمان وبالعمل الصالح الرَّشيد، النَّاشِئَين، عن اختياركم الحرّ، إذا اخترتُمْ لأنفسكُمْ النّجاةَ عند ربّكم من عذابه، والظَّفَر بجنَّتِهِ يَوْمَ الدّين.

وهذا العُنْصر لوحظ فيه المتَلَقُّون، بَعْدَ تَلَقِّيهِمُ الذِّكْرَ المنزَّلَ من رَبِّهم على رسُوله، ليُبَلِّغَهُمْ إيّاهُ.

واللاّم في عبارة ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ إمَّا أن تكون للدَّلالَة على الطَّلَب، أي: وليُطْلَبَ فيه منكم أن تتّقوا، وإما أن تكون لتعليل توجيه الأوامر والنواهي التي من عمل بها وقى نفسه.

التَّقْوَى: أنْ تجعلَ بَيْنَك وبَيْنَ ما تَحْذَرُ وِقايَةً حافظةً، من أذىً أو عقوبة، أي: شيئاً يقي ويَحْمِي، ويحفظ.

تقول لغة: اتَّقَيْتُ اتِّقاءً، وتَوَقَّيْتُ تَوَقِّياً، وتُقىً، وتَقِيَّة، وتِقَاءً، أي: جعَلْتَ بَيْنَكَ وبين ما فيه شرٌّ أو ضُرٌّ ما يقيكَ ويحفَظُكَ.

والاسم: «**التَّقْوَىٰ**». والتقوىٰ في السُّلُوكِ الدّيني تكُونُ بفِعْلِ الواجبات وتَرْكِ المحرَّمات، أمَّا التوسُّعُ فوق ذلك من الخيرات والصالحات فهو من مرتبة البرّ، وأمّا إحْسَانُ العَمَلِ وتجويدُه ظاهراً وباطناً، مع الإخلاص للَّهِ وكمال مراقبتِهِ، فهو من مَرْتَبَةُ الإحْسَان.

العُنْصر الثالث: دَلَّتْ عَلَيْه جُمْلَةُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: وليَتَحقَّقَ رَجَاؤُكُمْ بالظَّفر برحْمَةِ اللَّهِ، فَيُدْخِلَكُمْ جنَّاتِ النَّعِيمِ، يَوْمَ الدِّين، إذا اتَّقَيْتُمْ فآمَنْتُمْ وأطَعْتُمْ.

وهذا العُنْصرُ لُوحظ فيه المتلقُّون بَعْدَ التأثر بمَضْمُونِ الذِّكْرِ المنزَّلِ من رَبِّهِمْ على رسُوله، والإيمان به، وتوجيه الإرادة للعَمَل بمُقْتضاه.

وطُوِيَ من النصّ ما يَدُلُّ على أن الرَّسُولَ والذِّكْرَ مُبَشِّرانِ بالثواب الجزيل في جنّاتِ النعيم، لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، اكْتِفاءً بإشارَةِ عبارة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: وليُبَشِّرَكم، ولعلَّكُمْ تَسْتَجِيبُون، فتُؤْمِنُوا، وتُطِيعُوا، فتُرْحَمُوا بدُخُولِ جنّاتِ النعيم يوم الدّين، واكتفاءً بالدَّليل الفِكريّ الَّذي يَعْقِدُ اقتراناً دائماً بَيْنَ الجزاء بالثواب، والجزاء بالعقاب، وهو ما جاء مُصَرَّحاً به في أكْثَرِ النُّصُوصِ.

* * *

● قول اللّهِ تعالىٰ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

● ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: فكَذَّبَهُ الجمهُورُ الأعْظَمُ من قومِهِ، وكان هذا التَّكْذِيب عَقِبَ كُلّ الإقناعاتِ والجدليَّاتِ، ومُخْتَلِفِ وسائل العلاجات التربويَّة الحكيمة، ومنها الترغيبُ والترهيبُ، وعقب الصَّبْرِ الطويل جداً الذي تحمَّلَهُ عليه السَّلاَمُ من أجلهم، رحمةً بهم، وشفقةً عليهم، وحرصاً على نَجاتِهم وسَعادتهم.

وفي عبارة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ إيجازٌ لكُلِّ مَا كان منهم تُجاهَهُ وتُجاهَ رِسالَةِ رَبِّهِ الَّتي بَلَّغَهُمْ إيَّاها، وقد جاء بعض تفصيل له في النُّصوصِ القرآنيَّة الأخرىٰ الّتي أُنْزِلَتْ بشأن نوحٍ عليه السَّلام وقومه.

إنَّ قوماً كذَّبُوا رَسُولَهُمْ، وهُمْ ذَوُو قُوَّةٍ ومَنَعَةٍ، واسْتَمَرُّوا على تَكْذِيبِهِمْ أحْقاباً عَدِيدَةً عامَلَهُم اللّهُ فيها بالإمْهَالِ، نظراً إلى أحوالهم البدائيّة، وإلى أنَّهُمْ أوَّلُ أُمَّةٍ سَتُهْلَكُ بسبَبِ كُفْرِهِمْ، وتَكْذِيبهم رَسُولَ رَبّهم، وتهديدِهم إيَّاهُ بالرَّجْمِ، لاَ بُدَّ أنْ تكونَ مِنْهُمْ أُمُورٌ كثيرة من إيذاءٍ للرَّسُولِ ومَنْ آمَنَ به من قومه. ومُقاوَمَةٍ لدَعْوَتِهِ، وإصرارٍ على الظُّلْمِ والطُّغيان، والفِسْقِ والفُجورِ والعُدْوَان.

- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

أي: فأنجَيْنا نُوحاً والَّذِينَ آمَنُوا مَعه، من الغرق ومِنْ مكايدِ قومِهِ المكذِّبين، وكانَتْ نجاتُهم بالحَدثِ العظيم، الّذي تمَّ به إرْسالُ الطوفان الشامل، وإركابُ نُوحٍ والَّذينَ مَعَهُ في الفُلْك، وإغراقُ الَّذِينَ كذَّبُوا بآيَاتِ اللّه، ولَمْ يَتَّبِعُوا ما أَنْزلَ إليهم رَبُّهُمْ فيها.

الفُلْك: مركب البحر، يطلق على الواحد والاثنين والجمع، ويُذكّر ويؤنّث.

وفي هذا إيجازٌ للحدَثِ الأخير من قصَّةِ نوحٍ مع قومه، تضمَّن إلماحاً للطوفان العامّ، الّذي أغْرَقَ اللّهُ به المكذِّبين، وإلماحاً للأحداث الّتي نتجَ عَنْهَا رُكُوبُ نوحٍ ومَنْ مَعَهُ وَما مَعَهُ في الفُلْكِ، وجَرْيُهَا بعِنَايَةِ اللّهِ وحفظه، حتَّى مُسْتَقَرِّ النجاة.

- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

في هٰذه الجملَةِ بيانُ الصِّفَةِ الدَّائمة الّتي سبَّبَتْ لقَوْمِ نُوحٍ التَّكذيب والعنادَ والعُدْوانَ، والإصْرارَ على الكُفرِ والظُّلْم والطغيان، حتَّى الإهلاك الشامل بالطوفان.

﴿عَمِينَ﴾: جَمْع «عَم» بمعنى «أعْمَىٰ»، أي: هُمْ عَمُونَ عَنْ رُؤْيَةِ الحقّ، والاهْتِدَاءِ بآيَاتِهِ ودلائله، وعَنْ رُؤْيَةِ أَنْوَارِهَا البيانِيَّةِ والفِكْرِيَّة والوِجْدانيَّة.

إنّ العَمَىٰ أنواعٌ، فَمِنْهُ ما هُوَ في البَصر الظّاهر، ومنه ما هُوَ في القُلُوب والبصائر، وكذٰلِكَ كانَ قومُ نوحٍ عليه السلام.

* * *

الفصل الثاني
التدبُّر التحليلي للّقطاتِ المختارات
في هذه السورة من قصة هود عليه السلام وقومه
الآيات من (٦٥ ـ ٧٢)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

القراءات:

(٦٥) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ برفع كلمة «غَيْر». وقرأ الكسائي، وأبو جعفر: ﴿غَيْرِهِ﴾ بجرّ كلمة «غَيْر».

والقراءتان جاءتا على وجْهَيْنِ إعرابيَّيْن جائزين، فالرفع على أن «غير» صفة للفظ «إلٰه» روعي فيه المحلّ وهو الرفع، لأنّ «مِنْ» حرف جرٍّ زائد للتنصيص على العموم، والجرّ روعي فيه حركة الجرّ الظاهرة في لفظ «إلٰه».

(٦٨) ● قرأ جُمهور القرّاء العشرة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بفتح الباء وتشديد اللّام من فعل: «بلَّغَ». وقرأ أبو عَمْرو: ﴿أُبْلِغُكُمْ﴾ من فِعْلِ «أبْلَغَ» المهموز.

والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

(٦٩) ● قرأ ﴿بَسْطَةً﴾ بالسّين، قُنبُل، وأبو عمرو، وهشام، وحفصٌ، وخَلَفٌ عن حمزة، ورُويس، وإحدى روايتين عن خلّاد، وخَلَف عن نفسه.

وقرأ: ﴿بَصْطَةً﴾ بالصاد، باقي القرّاء العشرة، وهي الوجه الثاني لخلّاد.

وهما وجهان عربيّان في النُّطْق.

(٧٠) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ بالهمزة بعدَ الجيم.

وقرأ السُّوسِي، وأبو جعفر في الوقف والوصل، وحَمْزَة في الوقف: ﴿أَجِيتَنَا﴾ بإبْدال الهمزة ياءً.

والقراءتان وَجْهان عربيّان في النّطق.

(٧٠) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿فَأْتِنَا﴾ بهمزة ساكنة بعد الفاء.

وقرأ ورْشٌ، والسُّوسي، وأبو جعفر في الوقف والوصل، وحمزة في الوقف: ﴿فَاتِنَا﴾ بألِفٍ مَدِّيَّة بَعْدَ الفاء.

والقراءتان وجهان عَرَبيان في النّطق.

تمهيد

هذا هو النصّ السّادس بحسب ترتيب النزول، من النصوص المتعلّقة بهُودٍ عليه السَّلَامُ، وقومه «عَاد» من أصْلِ «١٩» نصّاً عَرَضَتْ لقطاتٍ مُوَزّعاتٍ على (١٩) سورة.

وقد سبقَ تدبُّر النصوص الخمسة الأولى، لدى تدبُّر السُّور التالية: «الفجر ـ النجم ـ ق ـ القمر ـ ص».

عَادٌ قومٌ من العرب كانت مساكِنُهُمْ في أرْضِ «الأحقاف» من جنوب شبه الجزيرة العربيّة، وهي تقع في شمال «حضرموت»، ويقعُ في شمَالِ «الأحقاف» ما يُسمَّى «الرّبع الخالي» وفي شرقها «عُمَان» وموضِعُ بلادهم اليوم رِمَالٌ قاحِلَةٌ لاَ أنيس فيها ولا ديَّار.

وقد أرْسَل اللَّهُ إليهم رسُولاً مِنهُمْ هو «هُودٌ» عليه السلام بْنُ عبد اللَّه بن ربَاح بْنِ الخُلود بن «عَادٍ» جدِّ هؤلاء القوم، على ما يذكُر أهْلُ التاريخ، وينتهي نسَبُهُمْ إلى «سام» بن «نوح» عليه السلام.

وتُعْتَبر «عادٌ» من العرَب البائِدَة، باستثناء الَّذِين آمَنُوا مِنْهُمْ، وأنجاهم اللَّه عزّ وجلّ مع رسُولهم من الهلاك الشامل الذي نَزَل بكُفّار قومِهِمْ.

وكان هؤلاء القومُ أشدّاءَ أقوياء ممَّنْ زادَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بَسْطَةً في الخَلْقِ، وَكانُوا مُتْرَفين في الحياة الدنيا بالنّسْبة إلى أهل زمانهم، فَقَدْ أمَدَّهُمُ اللَّه جلّتْ حِكْمَتُهُ بأنْعَام وبنين، وجنَّاتٍ وعُيُونٍ، وألْهَمَهُمْ أنْ يتَّخِذُوا مصَانِعَ لجَمْعِ المياه فيها، وأنْ يَبْنُوا قُصُوراً شامخةً، إلى غَيْرِ ذلِكَ مِنْ وسَائِلِ التَّرَفِ بحسَبِ أزْمَانِهِمْ، وضِمْنَ حُدُودِ تقَدُّمِ الناس الحضاريّ حينئذٍ.

وكانُوا أهْلَ بَطْشٍ، فإذا بَطَشُوا بَطَشُوا جبَّارين، وكانُوا أصْحَابَ آلِهَةٍ من الأوثانِ يَعْبُدُونَها مِنْ دونِ اللَّهِ.

وعن ابنِ إسحاق أنّ أصْنامَهُمْ «صَدَاء ـ وصَمُود ـ والهَباء» كما رَوَى الطَّبَري.

وكانُوا يُنْكِرُونَ الدارَ الآخِرة، والبعث للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، كما أخبر اللَّهُ عزّ وجلّ عنهم، وكانوا يقولون مَا أبانه اللَّه تعالىٰ عنهم في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ومع الخطّ الرئيسي الذي سارت عليه دروس السُّورة بوجْهٍ عامٍّ، والمبيّن في الآية الثالثة منها، وهي قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

عَرَضَ اللّهُ عزَّ وجلَّ لقَطَاتٍ من قصّة «عَادٍ» ورَسُولِهِمْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام، مبيّناً تبارَكَ وتعالىٰ أنَّ إهْلاَكَهُمْ الشَّامِلَ قد كانَ بسبب تكذيبهم بآياتِ رَبّهم، وعَدَمِ اتّباعهم ما أنْزَلَ اللّه إليهم، دَلَّ على هذا قولُ اللّه عزّ وجلّ في آخِرِ النّصّ

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: كذَّبُوا بآياتِنا الكونيّة، وآياتنا الإعجازيّة، وآياتنا البيانيّة المنزَّلة، ولم يتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من رَبّهم، فأهْلَكْناهُمْ إهلاكاً جماعيّاً عامّاً شاملاً، إذْ صاروا مادّة فسادٍ وإفسادٍ في الأرْضِ، ومَا كانُوا مستعدّين لأنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً، فاقتضَتْ الحكمة إهلاكهم وقَطْعَ دابِرِهِمْ.

التدبّر:

- قول اللّه تعالىٰ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾: أي: ولَقَدْ أرْسَلْنا إلى قبيلةِ «عادٍ» أو القوم المعروفين باسم «عاد» الرَّسُول النَّبيَّ «هوداً» وقد كان منهم نسباً ولُغَةً ومَوْطِناً.

ودَلَّ على أنَّهُ عليه السَّلامُ مِنْهُمْ، قَوْلُ اللّه تعالىٰ: ﴿أَخَاهُمْ﴾، فالأَصْلُ أن يُطْلَقَ هذا التعبيرُ على من كان من القوم، وقد يُطْلَقُ على من انْدَمَجَ في القوم من غيرهم، كأنْ تَزَوَّجَ مِنْهُمْ، مثل لُوطٍ عليه السّلام، فقد

كان من قَوْمِهِ بالمصاهرة، لا بالنَّسَبِ، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ بشأنِهِ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾؟

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾؟.

مقَالةُ هودٍ عليه السّلَام هذِهِ لقومه، تُشْبِهُ مقالةَ نُوحٍ عليه السَّلام لقومه، إلاَّ أنّ نوحاً قال لقومه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾، بعد أنْ أمَرَهم بعبادة اللَّه وحده.

أمّا هُودٌ عليه السلام فقد قال لقومه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾؟؟.

إنَّ عبارة نوحٍ عليه السّلام فيها إشعارٌ صَرِيح لهم بشفقته عليهم، وخَوْفِهِ من أنْ يُعَرِّضُوا أنْفُسَهُمْ بسَبَبِ كُفْرِهِمْ وعَدَمِ اتباعهم ما أُنْزِلَ إليهم من ربّهم، لعذاب يوم عظيم، هو يوم الدّين.

أمّا عبارَةُ هُودٍ عليه السلام ففيها تَلَطُّفٌ بالعَرْضِ، ولم يُشْعِرْهُمْ بصريح العبارة بشفقَتِهِ عليهم، وخَوْفِه عليهم من عذاب اللَّه يوم الدّين، لكِنَّ مضمون طلَب «أن يتَّقُوا» فيه معنى رِغْبَتِهِ في نجاتهم، وخوفه عليهم من عذابِ اللَّهِ.

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: يا قَوْمِي اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، ولاَ تُشْرِكُوا بعبادَتِهِ شيئاً.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: ما لَكُمْ مِنْ مَعْبُودٍ هو رَبٌّ يَسْتَحِقُّ أنْ يُعْبَدَ غَيْرُ اللَّهِ عزّ وجلّ.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟: أي: أفَلاَ تَخافُونَ عقابَ اللَّهِ وعذابَهُ الَّذي أعْتَدَّهُ لِلَّذِينَ يُشْرِكُونَ به، ويَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ إلٰهاً أو آلِهَةً يَعْبُدُونَها، فَتَتَّقُونَ هٰذا

العقاب باجْتِنابِ الشِّرْكِ، وباتّباعِ مَا أُنزِلَ إليكم من ربّكُمْ، وطاعَتهِ فيما يأمُرُكُمْ به، وفيما ينهاكُمْ عَنهُ، فَتُؤَدُّونَ ما فَرَضَ عليكُمْ، وتَتْرُكُونَ ما حَرَّمَ عليكم.

● قول اللّه تعالىٰ:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

دلَّ قول اللّه تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ على أنَّ بَعْضَ مَلَإِ قومه قد آمَنُوا به، ولَوْ كانَ جميعُ الملأ كافرين به، لَجاء التَّعبير كما جاء في قصَّةِ قوم نوحٍ عليه السَّلَام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾.

إنَّ عبارةَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وَصْفٌ تَقْييديٌّ يُخْرِجُ الَّذِينَ لَمْ يَكْفرُوا، ومِثْلُ هذا الإخْراج يَدُلُّ على وجودهم.

ملأ القوم: هم كُبَرَاؤُهم وسَرَاتُهُمْ ورُؤساؤُهم وذَوو الوجاهَةِ فيهم الَّذِين يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العامَّة.

وقد قابَلَ هؤلاء الكافرون من الملأ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ بشتيمَتَيْن

الشتيمة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾

السَّفاهَةُ: هِيَ الخفَّةُ والطَّيْشُ مِنْ نَقْصِ العقل، وهي ضِدُّ الرُّشْد. يُقال لغة: سَفُهَ فلانٌ سَفاهاً وسَفَاهَةً. ويُقال سَفِهَ سَفَهاً، أي: صار سفيهاً خفيفاً ناقص العَقْلِ غَيْرَ رَشيد.

وأكَّدُوا مقُولَتَهُمْ هذه بعدّة مؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الإسمية ـ ولاَم الابتداء المزحلقة للخبر ـ الرؤية الجماعية»، أي: إنَّنا نَعْتَقِدُ اعتقاداً جازماً، مُسْتَنِداً إلى رُؤْيَةٍ فِكْرِيَّةٍ، أنَّكَ في سَفَاهَةٍ، بمعنى أنَّ السَّفَاهَةَ ظَرْفٌ له فَهِيَ مُحِيطَةٌ به.

وظاهر أنَّ هذا «الادّعاء مِنهُمْ لَيْسَ فيه إلاَّ الشَّتِيمَةُ، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ ادِّعاءٍ فيه تجريحٌ واتِّهامٌ بنقيصَةٍ دُونَ حُجَّةٍ أَوْ بُرْهَانٍ، هو من السِّبابِ والشتائم».

لقد قَابَلُوا دَعْوَةَ رسُولهم المستَنِدَةِ إلى منطق العَقْل وحُجَجِهِ وبراهينه، بالطَّعْنِ والتجريح والشتيمة، مع أنَّ مِثْلَ هذه المقابلَةِ لا يَفْعَلُها عاقِلٌ مُنصِفٌ طالِبُ حقٍّ.

الشتيمة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

أكَّدُوا هٰذهِ الشتيمة الثانية بمِثْلِ ما أكَّدُوا به الشتيمة الأولى، لكنَّ اتّهامهم له بأنَّهُ كاذِبٌ من الكاذبين قد اعتمدُوا فيه على الظَّنِّ، إذْ لَيْسَ لديهم حُجَّةٌ يُقَدِّمُونَها صالحةٌ لإثباتِ بُطْلاَن مَا جاءهم به، وإثبات صِحَّةِ ما هم عليه من شِرْك.

ولدى تحليل ظنّهم بالموازين الفكريَّةِ السليمة نَجِدُه من قبيل الأوهام، الّتي لا قيمة لها مُطْلقاً، فما يستَمْسِكُونَ به هو من قبيل التقليد الأعْمَىٰ لما كان عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وأجْدادهم، ومن بَدهيَّاتِ العقول وأصُولِ التفكير السَّليم، أنَّ التقليدَ لاَ يَصْلُح لأنْ يكون حُجَّةً لإثباتِ أو نَفْيِ قضيَّة عقليَّة، ولَوْ طَلَبُوا مِنْهُ بُرْهاناً على صِدْقِ رِسالَتِهِ لقدَمَّ لَهُمْ ذٰلِكَ ولأقَامَ عَلَيْهِمْ الحجَّة المُفْحِمَة.

- قول اللّهِ تعالىٰ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

في هٰذِهِ الآياتِ الثلاث إيجازٌ لتِسْعِ مقالاَتٍ محكمَاتٍ أجابَ بها هودٌ عليه السلام كُفار الملأ من قومه الّذين شَتَمُوهُ بقولهم له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ

فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

المقالةُ الأولى: دَلَّتْ عليها العِبَارة التالية: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾: إِنَّهُمْ شَتَمُوهُ بأَنَّهُ مُنْغَمِسٌ في السَّفَاهَةِ المحيطَةِ به مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فرَدَّ عليهم بأنَّهُ لا تُوجَدُ فيه ولا تَلْتَصِقُ بهِ سَفاهَةٌ ما، مَهْمَا كانَتْ قَلِيلَةً ضَئِيلَةً.

رَدٌّ مُشْبَعٌ بالتَّهْذِيبِ والأَدَبِ الرفيعِ الَّذِي يتحلَّىٰ بهِ الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهم الصَّلاة والسلام، وينبغي أنْ يتحلَّى به سائر الدُّعاة إلى اللَّه، الْتِزَاماً بما تتطلَّبَهُ الحِكْمَةُ في الدَّعْوة.

لقد دفع هودٌ عليه السَّلام شتيمة قومه له بالنَّفْيِ فقط، ولم يَرُدَّ على الشتيمة بمِثْلِهَا ولاَ بِأَقَلَّ منها وَلا بأكْثر.

وخاطبهم بقوله لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ﴾ أصْلُها «يا قَوْمِي»، فنَسَبَهُمْ إلى نَفْسِهِ، وأضافَهُمْ إلى ذاتِهِ، ومِثْلُ هذا الموقف لا يَسْتَطِيعُهُ إلاَّ مَنْ كانَ ذَا حَظٍّ عظيمٍ من الحِلْمِ والصَّبْرِ وَسَعَةِ الصَّدْرِ.

إنَّ رَدَّ الشَّتَائِمِ بمِثْلِهَا أوْ بِأَشَدَّ مِنْهَا يُحَوِّلُ سَاحَةَ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ إلى سَاحَةِ سُفَهَاء، يَتَقَاذَفُونَ بالشَّتَائِمِ، وَالأَكْثَرُونَ سفاهَةً هُمُ الَّذِينَ يَطْفُونَ على السَّطْحِ، ويَعْلُو ضَجِيجُهُمْ، ويَمْلَؤُونَ السَّاحَة بنُبَاحِهِمْ، وعِنْدَئِذٍ تتلاشىٰ دَعْوَةُ الحقّ، وهٰذا ما يَبْتَغِيهِ الشَّيَاطِين.

المقالة الثانية: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: أي: ولٰكنَّ ما أُبَلِّغُكُمْ إيَّاه مِمَّا يُخَالِفُ مُعْتادَكُمْ، ويُخالِفُ تَقَالِيدَكُمْ لآبَائِكُمْ، إنَّما هو بسبَبِ كَوْني نَبِيّاً رَسُولاً مَبْعُوثاً إليكُمْ مِنْ رَبِّ العَالَمِين، رَبِّكُمْ وربِّ العالَمِين جميعاً.

لفظ «العالَمين» يُرادُ به هنا ما سِوَى اللَّهِ عزّ وجلّ.

ولَوْ طَلَبُوا مِنْهُ أنْ يُقَدِّمَ لَهُمْ بُرْهَاناً يُثْبِتُ لهم به أنَّهُ نَبِيٌّ رَسُولٌ من

رَبّ العالمين حقّاً، لقَدَّمَ لهم آيَةَ صِدْقه، ولٰكِنَّهُمْ رَفَضُوا أن يكون نبيّاً رَسُولاً، اعتماداً على ظنٍّ ضعيفٍ غَيْرِ مستنَدٍ إلى أيّ حجَّةٍ، إذْ قالُوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

ولاَ بُدَّ أنْ يَكُونَ قد قَدَّمَ لهم بعدَ ذٰلِكَ من الخوارقِ والمعجزاتِ ما هُوَ آيَةٌ من رَبِّهِ على صِدْقِهِ.

المقالة الثالثة دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾: أي: وبما أنّي نبيٌّ ورَسُولٌ من ربّ العالمين، الّذي هو رَبِّي ورَبُّكُمْ باعتبارِنا من العالَمِين، فأنا أُبَلِّغُكُمْ رِسالاَتِ رَبِّي.

ويُفْهَمُ من صيغَةِ الجمع في كلمة ﴿رِسَٰلَٰتِ ﴾ أنَّ تَنزِيلَ البيانَاتِ الرَّبَّانيَّةِ عليه قد كانَتْ على وَفْقِ سُنَّةِ التَّدَرُّجِ الَّتي هِيَ السُّنَّةُ الغالِبَة، في تَنْزِيلِ اللّٰهِ عزّ وجلّ بَيَانَاتِهِ للنّاس، وقد سبَقَ شَرْحُها لدَىٰ تَدَبُّرِ قِصَّةِ نُوحٍ وقَوْمِهِ آنِفاً في الفَصْلِ الأول.

وإعْلانُ هودٍ عليه السّلام أنَّهُ يُبَلِّغُ رِسالاَتِ رَبِّهِ يَتَضَمَّنُ الإشارَة إلى أنه ليس له عِنْدَ قَوْمِهِ مَصْلَحَةٌ شخصيَّةٌ، فَهُوَ لاَ يَسْأَلُهُمْ عَلَى دَعْوَتِهِ إيّاهُمْ إلى الحَقّ والهُدَى أجراً قَلَّ أم كَثُرَ.

المقالة الرابعة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾: في هذه المقالة أبان هودٌ عليه السَّلام لقومه صفتَيْنِ مِنْ صِفاتِهِ، وهاتانِ الصِّفَتَانِ لاَ بُدَّ من وُجُودِهِمَا ضِمْنَ صفَاتِ كُلّ مَنْ يُبَلِّغُ رِسالاَتِ رَبِّهِ، وكُلّ الدُّعاةِ إلى اللّٰهِ، والآمِرِينَ بالمعروف والنّاهين عن المنكر.

إنَّ كُلَّ مُبَلِّغِ رِسالَةً دِينِيَّةً عَنِ اللّٰهِ يُشْتَرَطُ فِيهِ أَوَّلاً أنْ يَكُونَ أمِيناً في تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، لاَ يَزِيدُ فيها شيئاً، ولاَ يَكْتُمُ مِنْهَا شَيْئاً، فإنْ زادَ أوْ نَقَصَ شَيْئاً فَقَدْ خَانَ الأَمَانَةَ الَّتي اسْتأْمَنَهُ اللّٰهُ عَلَيْهَا، وخائِنُ الأمانَةِ لاَ يَصِحُّ أنْ يَكُونَ رَسُولاً، فَلاَ يَصْطَفِيهِ اللّٰهُ لِتَبْلِيغِ رِسالَةٍ ما، ولو وَقَعَتْ مِنْهُ خيانَةٌ ما

بَعْدَ اصْطِفَائِهِ فإنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَقْضِي بِقَطْعِ وَتِينِهِ حَالاً، كما قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بشأن رَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، فَأَبْعَدْنَاهُ عَنْ أنْ يَسْتَمِعَ افْتَرَاءَاتِهِ علينا أحَدٌ، ثُمَّ لَأَهْلَكْنَاهُ بقطع وَتِينِهِ.

الوَتِين: عِرْقٌ في القَلْبِ إذا قُطِعَ ماتَ صاحِبُه.

ولَمَّا كانَ مُبَلِّغُ رِسَالاَتِ رَبِّهِ مَسْؤُولاً عن بيانها وَشَرْحِها للنَّاسِ، وتَرْغِيبهم فيها، واتّخاذ مختَلِفِ الوسائل لإقْناعهم بها، وإزالَةِ شُبَهَاتِهِمْ، وكانَ بالنِّسْبَةِ إلى قَوْمِهِ كالأبِ الرَّحِيمِ، كانَ من الصِّفاتِ اللازمَةِ له أن يَكُونَ ناصحاً.

النُّصْحُ: هو إرادة الخير للمَنْصُوحِ، وعَدَمُ غشِّهِ في شيء، والناصِحُ في توجيهه وتَرْبِيَتِهِ وإرْشَادَاتِهِ يتَّخِذُ كُلَّ الوسائِل الَّتي تَجْلُبُ الخَيْرَ والهدايَةَ لمَنْ يُوَجِّهُهُمْ ويُرَبِّيهِمْ ويَعِظُهُمْ.

إنَّ تَبْلِيغَهُ رِسَالاَتِ رَبِّه يتطَلَّبُ مِنْهُ أن يكُونَ أميناً، فهو عليه السلام أمين.

وإنَّ تَعَامُلَهُ مع قَوْمِه بالدَّعْوَةِ والتعليم والتوجيه والتربيةِ والقيادةِ إلى نجاتِهِم وسعادَتِهِم يتطَلَّبُ مِنْهُ أنْ يكون ناصحاً، فهو عليه السلام ناصح. وقد جمع بمقالَتِهِ هذه الشَّرْطَيْنِ اللاَّزِمَيْنِ لكُلِّ مُبَلِّغ عن ربِّهِ، فهو ناصِحٌ أمين.

ونفهم من هذا أنَّهُ لاَ يَجُوزُ لأيِّ حاملِ رسالة الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ والأَمْرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكر، أنْ يَخُونَ أمانَةَ التبليغ، فيُفْتِيَ بإباحَةِ الحرامِ،

أو بتحريم المباح، أو يتلاعَبَ بدَرَجاتِ أحْكامِ الدِّين، فيُعَظِّمَ الصَّغائِرَ، ويُصَغِّرَ الكبائر، ويَجْعَلَ المندوبَ واجباً، ويَجْعَلَ المَكْرُوهَ حراماً، بِغَيْرِ سُلْطَانٍ مِنَ اللَّهِ، وهو الدَّليلُ الشَّرْعِيُّ الكافي لإثبات الحكم الذي يُثْبِتُهُ ونَفْي الحكم الذي يَنْفِيهِ.

المقالة الخامسة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾؟

لمَّا كانَ مَوْقف «عادٍ» من بشريَّة «هُودٍ» عليه السلام، مِثْلَ مَوْقف قوم «نوح» عليه السلام من بشرّيته، وكان لا حُجَّةَ لكلٍّ من هؤلاءِ وهؤلاء، غير إطلاق عباراتِ الاستغرابِ والتَّعجُّب، كان جواب «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلام لقومه، مُمَاثِلاً لجواب «نوحٍ» عليه السَّلام لقومه.

إنَّ كَوْنَ رَسُولِ اللَّهِ للنَّاسِ رَجُلاً بَشَراً، هو ما تقتضيه الحكمة، ليكون من نَوْعِهِمْ يَحْمِل مِثْل طبائعهم، وليكون في سلوكه أُسْوَةً لَهُمْ، وحُجَّةً عليهم.

وكُلُّ ما اقْتَرَحَ الأَقْوَامُ مِمَّا يخالِفُ بَشَرِيَّةَ الرَّسُول أَمْرٌ يُخَالِفُ مُقْتَضياتِ الحِكْمَةِ.

ولمَّا كانَ التَّعَجُّبُ المجرّد لا يَحْمِلُ دَليلاً لرَفْضِ المتعجَّبِ مِنْهُ، حتَّى يُعَالَجَ هذا الدَّليل بتقديم ما يُبْطِلُهُ ويُظْهِرُ فَساده، كان الرَّدُّ الحكيم على عبارات التعجّب يقتضي أنْ يُردَّ التعجُّبُ بمِثْلِه، مع توجيه ما يُشْعِرُ باسْتِنْكارِ تعجُّبِهم، فجاءت عبارة الرَّدِّ مصدَّرَة باستفهام تعجُّبي مَمْزُوجٍ بالاسْتِنْكارِ: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾: أي: إنَّ تعجُّبكُمْ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهُ، وأنْ يُوَجَّهَ لَهُ الاسْتِنْكار.

إنَّ مَا جاء مُوافقاً لِلْحِكْمَةِ هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أنْ يُحْمَدَ ويُمَجَّدَ، لاَ أنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهُ.

ودَلَّ تَوجيه هذا الاستفهام على أنَّ المخاطبين من قوم هودٍ عليه السلام قد رَفَضُوا الإيمان برسالته، مستدلِّين بأنَّ كَوْنَهُ رَجُلاً بَشراً أمْرٌ مستغرَبٌ مثيرٌ للعجب، مخالِفٌ لمقتضَيَاتِ الحكمة، مع أنَّ نُوحاً عليه السَّلام قَبْلَ هود قد كان رجُلاً بشراً، وكان قوم هود يَعْلَمُونَ هذه الحقيقة.

ودَلَّنا وُجودُ حَرْفِ العطف «الواو» بَيْنَ همزة الاستفهام وفِعْلِ «عَجِبْتُمْ» على أنَّ الواو تَعْطِفُ على محذوف، نظير ما سبَقَ بيانُه لدىٰ تَدبُّرِ مقالةِ نوحٍ لقومه، والتقدير: أكَرِهْتُمْ تَرْكَ ما أنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ شِرْك، واتِّباعَ ما جِئْتُكُمْ بهِ، وعَجِبْتُمْ أنْ جاءَكُم ذِكْرٌ من ربِّكُمْ مُنَزَّلٌ علىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ، فَهُوَ يُبَلِّغُكُمْ ما أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَرَبِّكُمْ.

ودلَّ لفظ «الذِّكْر» على أنَّ كتاباً رَبَّانِيّاً قد أُنْزِلَ على هُودٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، تَنْزِيلاً مُنَجَّماً، لِيُبَلِّغَهُ لِقَوْمِهِ.

ودلَّت العبارة على أنَّهم تعجَّبُوا من أمْرَين:

الأمْرُ الأول: أنْ يَأْتِيَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّهم.

الأمْرُ الثاني: أنْ يَنْزِلَ هٰذَا الذِّكْرُ على رَجُلٍ بَشَرٍ مِنْهُمْ، وأنْ يكون هذا الرَّجُلُ رَسُولاً لِلَّهِ يُبَلِّغُ قَوْمَهُ الذِّكْرَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ، وكُلِّفَ أنْ يُبلِّغَهُ لقومه.

وأقولُ هنا نظير الذي سبَق بيانُهُ لدَىٰ تَدبُّرِ العبارة المماثِلَةِ التي وجَّهَهَا نُوحٌ عليه السَّلام لِقَوْمِهِ.

المقالة السَّادِسَة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾: أي: ضَعُوا في ذاكِرَتكم دواماً أنَّكُمْ سُلاَلَةُ القَوْمِ الَّذِينَ آمَنُوا بنوح عليه السَّلام، وأنجاهُمُ اللَّه بالفُلْكِ المَشْحُونِ، حينَ أهْلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ رَبِّهِمْ ولَمْ يَتَّبِعُوها من قومه بالطوفان، أفَلاَ تخافُونَ أنْ يُهْلِكَكُمُ اللَّهُ كَمَا أهْلَكَ أُولٰئِكَ، فأنتم اليوم بشِرْكِكُمْ وكُفرِكُمْ ومعاصِيكُمْ قَدْ جَمَعْتُمُ الصِّفاتِ القبيحَة الَّتي بِسَبَبِهَا أهْلَكَ اللَّهُ جلَّ جلالُه كُفَّارَ قوم نوح.

وبما أنَّ سُنَّةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في عبادِهِ واحدة، فَقَدْ جَعَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عُرْضَةً لأنْ يُجْرِيَ اللَّهُ سُنَّتَه فيكم، كما أجراها في الَّذِينَ من قبلِكُمْ.

ففي هذه العبارة تَهْديدٌ لَهُمْ بأنْ يُنْزِلَ اللَّهُ فيهم عقابَهُ، فَيهْلِكَهُمْ أجمعين.

المقالة السابعة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: أي: وقد ٱمْتَنَّ اللَّهُ عليكم فزادكم في خَلْقِهِ لأجْسَادِكُمْ سَعَةً، فأنْتُمْ أكْثَرُ طُولاً وعَرْضاً من قَوْمِ نوحٍ عليه السلام، وهذه المنّة تستَدْعي مِنْكُمْ أنْ تَشْكُرُوا رَبّكُمْ على ما أولاكُمْ مِنْ نِعَمٍ، فتُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ وَتَتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم منه، ولا تَتَّبِعُوا من دُونِهِ أولياء.

إنّنا نَعْلَمُ أنَّ ذُرِّيَّة نُوحٍ عليهم السَّلام كانوا هُمُ الباقين مِنْ قومه بَعْدَ الطوفان، فعادٌ من سُلالتهم، وهذا يَدُلُّنا على أنَّ نوحاً عليه السَّلام قَدْ كانَ رَجُلاً ذَا بَسْطَةٍ في خَلْقِهِ، فَوَرِثَتْ سُلالَتُه عَنْهُ ذٰلِكَ، ضِمْنَ سُنَّةِ اللَّهِ جلَّ جلالُه في العوامل الوراثية، فجاءَتْ «عادٌ» وارِثَةً ذٰلِكَ من آبائِهِم حتَّى نُوح عليه السلام.

فهُودٌ عليه السَّلامُ يذكُرُهُمْ في هذا بِجَدِّهِمْ نوح، ويَسْتَثِيرُ فيهم انتماءَهُمْ له، ويُشِيرُ إلى بَعْضِ نِعَمِ اللَّهِ علَيْهِمْ الّتي تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ.

المقالة الثامنة: دلَّتْ عليها عبارة؛ ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: أي: وإذْ زادكُمْ في الخَلْقِ بَسْطَةً، وآتاكُمْ نِعَماً كثيرة، فاذكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ عليكم، أي: نِعَمَهُ علَيْكُمْ، ليكون ذكْرُكُمْ لها دافِعاً ومحرِّضاً على أن تَحْمَدُوه وتَشْكُرُوه، على ما أولاكُمْ مِنْ فضله.

وفي مقدّمة واجباتِ شكركُمْ له، أن تَعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكُوا بعبادته شيئاً، مادّيّاً كان أم معنويّاً، حيّاً أمْ غير ذي حياةٍ، وأن تُطِيعُوهُ بفِعْلِ مَا أَمَرَكُمْ به، وتَرْكِ ما نهاكُمْ عنه.

الآلاء: هي النِّعم، واحدها ألْيٌ، وإلْيٌ، وإلىً، إلىً وآلاء، مثل: مِعىً وأمْعاء.

المقالة التاسعة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: في هٰذه الجملة إطْماعٌ من هُودٍ عليه السَّلام لقَوْمِهِ، بأنَّهُمْ إذا عَمِلُوا بِمَا جاءَهُمْ في الذِّكْرِ، الَّذي بلَّغَهُمْ إيَّاه عن ربِّهِ بأمانة، وعَمِلُوا بنَصائِحه الَّتي وجَّهها لَهُمْ، وذكَرُوا نِعَمَ اللَّهِ عليهم فحَمِدُوهُ، وشكَرُوه، وعَبَدُوه، ولم يُشْرِكُوا بعبادَتِهِ شيئاً، أفْلَحُوا.

«**لعلَّ**» يظهَرُ من معاني لعلَّ هنا معنىٰ التَّعليل، أي: لأجْلِ أن تُفْلِحوا. وأمَّا على أنَّها للتَّرجِّي، فالمعنىٰ: راجين أنْتُمْ أنْ تَفْلِحُوا، أوْ راجياً لكُمْ أنْ تُفْلِحُوا، وراغباً من أجْلِكُمْ فيه وحَرِيصاً عليه.

الفَلاح: النجاةُ، والفَوْزُ بحيَاةٍ طيِّبَةٍ في الدّنيا، وسَعَادَةٍ عظيمة خالِدَة في الآخرة، وأصل الفلاح البقاءُ في النعيم والخير.

قال الأزهريّ: وإنّما قيل لأهل الجنّة مُفْلِحُونَ لِفَوْزِهِم ببقاء الأبد.

- قولُ اللَّهِ تعالىٰ:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

دلَّتْ هٰذِهِ الإجابةُ على أنَّ مُعْظَمَ قومِهِ قَدْ رَفَضُوا دَعْوَتَهُ، وأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ فَقَدْ كانُوا قِلَّةً لاَ يُشَكِّلُونَ قُوَّةً ذات بأس.

إنَّ الكَثْرَة الكاثرة من قومه قد كذَّبُوهُ، وكذَّبُوا بالذِّكْرِ الَّذي أُنْزِلَ إلَيْهِمْ من ربِّهم، فلَمْ يتَّبِعُوا ما جاءَ فيه، ولم يكترثوا لِمَا وعَدَهُمْ به من فلاح إذا استجابوا لدعوته واتَّبَعُوهُ، واسْتَهانُوا بما أنْذَرَهُمْ به من عذابِ إليم خالدٍ يوم الدّين، في جهنَّمَ دار عذابِ المجرمين، وبما أنْذَرَهُمْ به من إهلاكٍ مُعَجَّلٍ

نظير الإهلال الذي عاقَبَ اللَّه عزّ وجلّ به قَوْمَ نوحٍ من قَبْلهم، ونَسُوا أنَّهُمْ سُلالَةَ أولادِ نوح الناجين معه في الفُلْكِ، بسبب إيمانهم بما جاء به نوحٌ عليه السلام من رَبّه واتّباعهم له.

وواجَهَهُ ملأ قَوْمه ومِنْ ورائِهم جَمَاهِيرهُمْ بمقالَتين، اسْتَنْكَرُوا في أُولاهما أنْ يَسْتَجِيبُوا لدعوته لهم أن يَعْبُدُوا اللَّهَ وحْدَهُ، ويَتْرُكُوا ما كان يَعْبُدُ آباؤهم من أوثانٍ اتَّخَذُوها شُرَكَاءَ للَّهِ سبحانه وتعالىٰ عمَّا يُشرِكُونَ، وتَحَدَّوْهُ في الثانية بأنْ يأتيهم بما كان يُنْذِرُهُمْ به من إهلاكٍ عامٍّ شاملٍ إنْ كان من الصَّادقين.

وقد دلَّتْ هذه الآية (٧٠) على بيان مَوْقفهم هذا بَعْدَ مُدَّةٍ كافِيَةٍ من تاريخ دعوته لهم إلى اللَّهِ، وإلى اتّباع ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم. اسْتَوْفَى فيها هودٌ عليه السَّلامُ، ضِمْنَ منهج اللَّهِ لرسُلِه كُلَّ ما تحتاجُ أُمَّةٌ من دَعْوَةٍ وهِدايَةٍ بالحكمةِ والموعِظَةِ الحسنة، ومُجادَلَةٍ بالّتي هي أحسن، وصَبْرٍ طويلٍ، ومُعَالَجَةٍ بمُخْتَلِفِ وسائل العلاج الّتي تَكْفِي للإقْناع، وإزالةِ كُلِّ الشُّبُهَاتِ، وإصلاح من لدَيْهِ استعدادٌ إراديٌّ لأنْ يَقْبَلَ الحقَّ ويَتَّبِعَهُ، وفيما يَلي شرح لمقالتي قَوْمه له:

المقالة الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؟!!

استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى الاستهزاء بما يَدْعُوهُمْ هُودٌ عليه السّلام إليه، من عبادة اللَّه وحده، وأنْ يَذَرُوا ما كانَ يَعْبُدُ آباؤهم من شركاء اتَّخذوها من دُونِ اللَّهِ شُركاء للَّهِ في الإلٰهيَّة، إذْ كانوا يَرْجُونَ من عبادتها نَفْعاً لهم في دنياهم، إمَّا على أساس مُشَارَكَتِهَا، للَّه في بَعْضِ عناصِرِ رُبُوبِيَّتِهِ، وإمَّا على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أمَرَ بعبادتها أوْ أذن به، ورَتَّبَ على عبادتها نَفْعاً لعابِديها.

ودلَّ هذا الاستفهام على رفضهم لما دَعَاهُمْ إليه هودٌ عليه السلام، وكُفرِهِمْ به، وتَكْذِيبهم له في نُبُوّتِهِ ورسالَتِهِ، وتكذيبِهِمْ بما جاءهم به عن رَبِّه.

المقالة الثانية دَلَّتْ عليها عبارَة: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.

هذه المقالة دلَّتْ على أنَّ هُوداً عليه السَّلامُ قَدْ كانَ يُنْذِرُ قَوْمَهُ بإهْلاكِ اللَّهِ لَهُمْ إهلاكاً عامّاً مُعَجَّلاً في الدّنيا، كما أَهْلَكَ قوم نوحٍ من قَبْلِهِمْ.

ودلَّتْ أيضاً على أنَّهُمْ يَجْزِمُونَ بأنَّهُ رَجُلٌ كاذبٌ غَيْرُ صادقٍ فيما يُخْبِرُ به عن اللَّهِ جلَّ جلاله، وغَيْرُ صادقٍ في ادّعائِهِ أنَّهُ نبيُّ اللَّهِ ورسوله، ومن أجْلِ هذا تَحَدَّوْهُ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا كانَ يَعِدُهُمْ به، أي: بما كان يُنْذِرُهُمْ به من عذَابِ اللَّهِ.

الوَعْدُ الإِخْبَارُ بما سَيَحْدُثُ خيراً كان أم شرّاً، وقَدْ يُخَصُّ الوَعْدُ في الخير، والوَعِيدُ في الشَّرّ، ولكِنَّ هذا غير لازمٍ لُغَةً.

ولم يكونوا مُعْتَقِدِينَ بأنه رسُولٌ صادقٌ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ، لأنَّهم لو كانوا مُعْتَقِدينَ صحَّةَ نُبُوَّتِهِ ورسالته لمَا تَحَدَّوْه بأنْ يَأْتيهم بما كان يُنْذِرُهُمْ به من هلاكٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا، إذْ لا يُعْقَلُ أنْ يَطْلُبُوا إهلاكَهُمْ إهلاكاً عامّاً لمجرَّدِ الإصرار على عبادة أوثانهم من دون اللَّه، ولو أنَّهم تجرَّدُوا عَنْ أوهامهم وعن تقاليدهم العمياء، لأدْرَكُوا أنَّ عبادتهم لآلهتهم الوثنيَّة لا تجلُب لهم نفعاً، ولا تَدْفَعُ عنهم ضرّاً.

كيف يتحدَّى ضعيفٌ عاجزٌ جبَّاراً عظيماً، وهذا العاجز يعتَقِدُ في قرارة نَفْسِه أنَّ الجبّار قادِرٌ على أنْ ينفِّذَ وعيده، لِكنَّه قد يتحدّاه حِينَ يُصَدِّقُ أوْهام نفسه بأن الجبّار عاجزٌ عن تنفيذ وعيدِه، إذْ هٰذا العاجِزَ تحْمِيه قُوَّةٌ أقوىٰ من قُوَّةِ الجبّار.

* * *

● قول الله تعالى:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

تضمَّنَ هذا البيانُ ثلاث مقالاَتٍ قَالَهَا هُودٌ علَيْهِ السَّلاَمُ لقومه، بَعْدَ تَحدِّيهم لَهُ بأنْ يأتِيَهُمْ بِمَا كَانَ يُنْذِرُهُمْ به من إهلاك شاملٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا.

المقالة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾:

أي: قَدْ قَضىٰ اللَّهُ بِأَنْ يُوقِعَ عَلَيْكُمْ عقابَهُ بإهلاكِكُمْ إهلاكاً عامًّا شاملاً بَعْدَ أَنْ قَدَّرَ ذلك بمقتضىٰ عِلْمِهِ وَحكمَتِه.

ولم يكُنْ هُودٌ عليه السّلَام ليُخْبِرَهُمْ بهذا لَوْ لَمْ يَنْزِلْ عليه به وحْيٌ من ربِّه، مَقْرُونٌ بالأمْرِ بأنْ يُخبِرَهُمْ به، أو بالإذن له بذلك.

وما قَدَّره الله وقَضَاهُ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانه فإنَّه سَيَقَعُ لاَ مَحالَةَ، فَهُو بحُكْمِ الأمْرِ الَّذِي وقَعَ فِعْلاً، مع الإشعار بقُرْب الوقوع، ولهذا أخبرهم عليه السَّلاَمُ بأنّه قد وقع، لأنَّهِ قَدْ تَمَّ به قضاءُ الله، وقَرُبَ وُقُوعه. واستعمال الْفِعل الماضي للتعبير عن الأمر الّذي سَيَقَعُ في المستقبل لا محالة، من أبْلَغ أَسَاليبِ التأكِيدِ لِوُقُوعِ الأحْداثِ المستقبليَّة، ويستعمل كثيراً فيما قَرُبَ وقوعُه مثل: قد قامَتِ الصلاة، قد قامَتِ الصَّلاَة، في عبارات الإقامة للصلاة.

الرِّجْسُ: يُطْلَقُ على الأشياء الْقَذِرة النَجِسَة الّتي تَحْمِلُ الضُرَّ والأذىٰ، أو الّتي تعافُها النفوس، ويُطْلَقُ أيضاً على العقاب والعذاب، وهو بهذا المعنى يكون مرادفاً للرّجز.

قال الفرّاء: لعَلَّ الرِّجْسَ والرّجزَ لُغَتان أُبْدِلَتِ السِّينُ زاياً.

الْغَضَبُ: ضِدُّ الرِّضا، يُقَال مثلاً: غَضِبَ السُّلْطَانُ على عامله، أي: سَخِطَ عليه، وأراد الانتقام مِنْهُ.

ومن لوازم الغضَبِ الكراهية والْمَقْتُ، وحِرْمَانُ المغضُوب عَلَيْهِ ممّا يُحِبّ، ومع شدّةِ الغضب تتوجَّهُ الإرادة للانتقام، ولإِنْزَالِ المكارِهِ وأَنْوَاعِ الْعَذَاب بالمغضوب عليه.

المقالة الثانية: دلَّت عليها عبارة: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ ...﴾:

استفهامٌ يسْتَنْكِرُ فيه هُودٌ عليه السَّلاَمُ مُجَادَلَةَ قَوْمِهِ لَهُ في أوثانِهِمُ الّتي يَعْبدُونها من دون الله، مُتخِذِين إيَّاها شُرَكاءَ للّهِ في إلَهِيّتِهِ، ورُبَّما بِبَعْضِ عناصِرِ رُبُوبِيَّتِهِ لكونه، وهي رُمُوزٌ ليس لها من الحقيقة شيءٌ تَسْتَحِقُّ بِه أَنْ تُعْبَدَ مِنْ دُون الله، إنّها في الحقيقة لَيْسَتْ أكْثَرَ مِنْ أسْمَاءٍ تُلْفَظُ بالألْسِنَة دُون أن يكُونَ لها في الواقع حقيقَةٌ ذاتُ أثَرٍ ما في نَفْعٍ أو ضُرّ.

وَإذا ادَّعَىٰ أَحَدُ المشركين الوثنيّينَ أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ أمَرَ بعبادَتِها أو أذِنَ بِهِ، فإنَّهُ مُطَالَبٌ بأنْ يَأْتِيَ بِسُلْطَانٍ من الله يُثْبِتُ ذلك.

السُّلْطانُ هنا: الدَّلِيلُ الخبريُّ عن اللّهِ، الّذي يَصِحُّ أن يُحْتَجَّ بِهِ، ويُقَامَ به بُرْهَانٌ خَبَرِيٌّ عن اللّهِ جلَّ جلالُه، ولا وُجود لمثل هذا الدليل في كتابٍ رَبّانيّ مُنَزّل، ولا على لسانِ نبيٍّ مُرسل. أمّا البرهان العقلي فيثبت أنّه لا ربَّ في الوجود إلاّ الله، ولا إلَه يستحِقُّ أن يُعْبَدَ إلاّ الله.

ويُطْلَقُ «السُّلْطان» في اللّغة: على الحجَّة الملزمة، والبرهان ذي الْقَهْرِ لِلْعُقُولِ، ولفظ «السُّلْطان» بمعنىٰ الحجّة والبرهان لا يُجْمَعُ لأنَّهُ أُجْرِيَ مُجْرىٰ المصدر، فهو مفرد دائماً من جهة اللفظ.

والمادّة تَدُور حول القهر والتّغلُّب والإلزام بقوة، ولهذا يُطْلَقُ على ذي الولاية والحكْمِ سُلْطان.

المقالة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: فانتَظِرُوا وقُوعَ مَا قَدَّرَ اللَّهُ وقضَىٰ بِشَأنِكُمْ، إنّي مَعَكُمْ مِنَ المنتظِرين لهذا الأمْرِ العَظيم الّذي يُهْلِكُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِهِ الْكَافِرِين، ويُنْجِي رَسُولَهُ والذين آمَنُوا مَعَه.

* * *

- قول اللَّهِ تعالى:

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

أي: فَعَقِبَ آخِرِ مَرْحَلَةٍ مِنْ إمْهَالِهِمْ، المصحوبَةِ بِعِنادِهم وإصْرارِهم على كُفرِهِمْ، وتَكْذِيبِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ، أنْجَيْنَا «بضمير المتكلّم العظيم جلّ جلالُه» هُوداً، والّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مؤمنين به، ومتبعين له، ولما أنزِل إليهم من رَبّهم، إذْ أنْزَلْنَا بقَوْمِهِ الّذِينَ كَفَرُوا به وكذّبوا بآيات رَبِهم، وَمَا كانُوا مستعِدّين مُسْتَقْبلاً لأنْ يَكُونُوا مؤمنين، العذابَ الْمُهْلِكَ المدمِّر، واسْتَمرَّتْ وَسَائِلُ إهلاكهم مُتَتَابِعَةً عليهم، حتَّىٰ قُطِعَ دابِرُهم باسْتِئْصَالهم.

وإنجاءُ هُودٍ والّذِينَ كانُوا معه مؤمنين قَدْ كانَ بسَبَب رَحْمَةٍ من اللَّهِ لهم، كان من آثارها تَدْبِيرُ أسْبَابِ نَجاتِهِم.

وإهلاكُ سائر قومه الكافرين قَدْ كان بَسببِ غَضَبٍ من اللَّهِ عَلَيْهم، كان من آثاره تدبر أسْبَابِ إهلاكهم، وتدمير ديارهم.

- ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾: أي: وقَطَعْنَا آخِرَ مَنْ بَقِي منهم.

يُقَال لغة: قَطَعَ اللَّهُ دابِرَ القَوْمِ، أي: قَطَعَ آخِرَ مَنْ بقي منهم، فأهْلَكَهُ معهم. **والدَّابر:** في اللُّغَة التابع.

وأبان اللّهُ عزّ وجلّ بهذه العبارة، أنّ من أسْباب إهلاكه كُفّار عادٍ قوم هود عليه السلام، تَكْذِيبَهُمْ بآيَاتِ الله، فلَمْ يَتّبِعوا مَا أُنْزِلَ إليهم من ربّهم، الّذي هو الخطّ الأعظم الذي سارت عليه دُرُوس السورة بوَجْهٍ عامّ.

﴿. . وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾: أي: وَمَا كَانُوا مستَعِدّينَ لأنْ يُؤْمِنُوا مُسْتقبلاً مَهما أمْهَلَهُمُ الله وأطال مُدَّة اختبارهم فِي ظروف الحياة الدّنيا. فلفظ [مُؤْمِنِينَ] اسْم فَاعل بمعنى الفعل المضارع يَدُلُّ على الحال والاسْتِقْبال.

* * *

الفصل الثالث
التدبر التحليلي للّقَطَاتِ المختارات
في هذه السورة من قصة صالح عليه السلام وقومه
الآيات من (٧٣ ـ ٧٩)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٧٩)﴾:

القراءات:

(٧٣) • قرأ جُمهورُ القراء العشرة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ برفع «غَيْرُهُ».

وقرأ الكساني وأبو جَعْفَر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غيرِهِ] بِجَرِّ «غَيْرِه».

وقد سبَق توجيه هاتين القراءتين نحويًا في الآية (٥٩) وفي الآية (٦٥) من هذه السورة.

(٧٤) • قَرأ ورْشُ، وأبو عَمْرو، وحفْصٌ، وأبو جَعْفر، ويعقوب ﴿بُيُوتًا﴾ بضمّ الياء.

وقرأ باقي القراء العشرة [بِيُوتاً] بكسر الباء.

والقراءتان لُغتان عَرَبيان لنُطْق الكلمة.

(٧٥) • قرأ ابن عَامِرٍ: [وَقَالَ الْمَلأُ] بإضافة حرف العطف «الواو».

وقرأ جُمْهُورُ القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ بدون حَرْف عطف.

والقراءتان هاتان تمثّلاَنِ وَجْهَيْنِ بَيَانِيّيْنِ في الْفَصْل والوصل، فجملة و﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ . . .﴾ إلى آخر مقول القول، جُمْلَةٌ لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب، وهي معطوفة على جملة: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ . . .﴾ إلى آخر مقول القول الذي قالَهُ صالحُ عليه السلام، وهي جملة لا محلَّ لها من الاعراب أيضاً، ولكنّ الجملَتَيْن تشتركان في أنّهما جزْءانِ من أجزاء قصَّةٍ واحدة، هي قصة صالحٍ عليه السَّلام مع قَوْمِه، والتغايُرُ الذي يقتضيه العطف بالواو مَوْجُود في هٰذين الجزأيْنِ من أجزاء القِصَّة. وكُلٌّ من الوصل والفصل حَسَنٌ وجميل بلاغيًا في مِثْلِ هذا، فالْفَصْلُ يُشْعِرُ المتَلَقّيَ بأنَّهُ حاضِرٌ مع مَشْهَدَي القِصَّة، والْوَصْلُ يُشْعِرُ المتَلَقِيَ بِأَنَّهُ يَسْتَمِعُ إلى قَاصٍّ يَقُصُّ عليه فيَعْطِفُ مَشْهَداً على مَشْهَدٍ، وكلا الأمْرَين وجْهان بلاغيَّانِ جميلان.

ولعَلَّ الْفَصْلَ أكْثَرُ تَأْثيراً في مشاعر مُعْظَم المتلَقِّين البلَغاء، فجاءَتْ قراءةُ الوصْلِ عِنْدَ ابْنِ عامرٍ فقط، وجاءت قراءةُ الْفَصْلِ عند جمهور القرّاء العشرة، وهذا مِنْ إجرءَاتِ الحكمة الرَّبَّانيَّة اللّطيفة.

تمهيد:

هذا هو النصّ الثامن بحسب ترتيب النزول، من النّصُوص المتعلّقة بثمود قوم النبيّ الرّسُول صالح عليه السلام من أصل (٢١) نصًّا عرضَتْ لقطاتٍ موزَّعاتٍ على (٢١) سورة، من قصّتِهم مع رسولهم صالح عليه السلام.

وقد سبَقَ مقدارٌ مَا من تدبّر النصوص السبعة الأولى، لدىٰ تدبُّر سُور «الفجر ـ النجم ـ الشمس ـ البروج ـ قٓ ـ القمر ـ صٓ».

وأستعين بالله في هذا الفصل على تدبّر هذا النصّ من سورة (الأعراف).

ثمود: قوْمٌ من الْعَرب، تكاثروا بَعْدَ إهلاك اللّهِ عزّ وجلَّ «عاداً» قومَ النبيّ الرسول «هُودٍ» عليه السلام.

ولفظ «ثمود» جاء في القرآن مصروفاً مُنَوَّناً مراعاةً لاسم الجدّ، وَجاءَ مَمْنُوعاً من الصَّرْف مراعاةً لكوْنِه اسْماً للقبيلة المؤنّثة.

كانَتْ مساكن «ثمود» في أرْضِ «الحِجْر» ولهذا سمّاهم الله في القرآن أصْحَابَ الحِجْر.

الحِجْر: أرْضٌ بين الشّام والحجاز، إلى وادي الْقُرى، وتَقَعُ في الطريق الْبَرِّيّ للمسافر من الشام إلى الحجاز، وآثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرةٌ حَتَّىٰ الآن، وتُسَمَّى «مدائن صالح» وتُعْرَفُ ديارُهُمْ أيضاً باسم «فَجّ النَّاقَة».

وثمود قبيلة من القبائل العربيّة الّتِي أَهْلَكَ اللّهُ عزّ وجَلَّ مَعْظَمها، ولَمْ يَبْقَ مِنها بَعْدَ إهلاكهم إلاّ من آمن برسولهم صالحِ عليه السَّلام.

وسميت «ثُموداً» نسْبَةً إلى أحَدِ أجْدَادِهَا، وهو كما ذكر النَّسَّابون: ثَمُودُ بْن عامر بن إرَمَ بن سام بن نوحٍ عليه السلام، والله أعلم بهٰذِه الأنساب.

كانَتْ قبيلةُ ثَمُودٍ صاحِبَةَ أوثانٍ يَعْبُدونَها من دون الله. وقد تناقَلَ الْقَصَّاصُون من العرب قبْلَ الإسلام، أخبار قبيلة ثَمود، وكيف أهلكهم الله عزّ وجل بعَدْلِه وحكمته.

تلخيص ما جاء في القرآن بشأن ثمود ودعوة رسولهم صالح:

وألخص في فقرات ما جاء في القرآن المجيد بشأن ثمود ودعوة رسولهم صالح لهم:

(١) كانوا أهل بناءٍ وعمران في أرضهم الحجر، فكانوا يقْطَعُون الصخْرَ بواديهم، ويَبْنُونَ القُصُور، وكانُوا ينحِتُون من الجبال بيوتاً للرفاهية، وكانُوا أهل زراعة، فقد كانت لهم جنَّاتٌ وعُيُونٌ، وزُرُوعٌ ونَخْلٌ، وكانُوا في ديارهم مستقرِّين آمنين.

(٢) وَكَانُوا مُشْرِكين يَعْبُدونَ آلِهةً من دون الله، اتَّخذوا لها رُمُوز أوثان، وقد توارثوها عن آبائهم بالتقليد الأعمى.

(٣) بعَثَ اللَّهُ لهم رُسُلاً، وبلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ رُسُلٍ من بين أَيْدِيهم، ومن معاصِرِيهم من الأمم، فلَمْ يُقْلِعُوا عن شِرْكهم، وطُغْيَانهم، وفسادِهم وَإِفْسَادهم في الأرض.

(٤) طَغَوْا في البلاد، فأكْثَرُوا فيها الفساد.

(٥) ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إليهم نبيًا رَسُولاً منهم. هو سيدُنا صالح عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وإلى نَبْذِ ما هم فيه من الشرك، وإلى تَرْكِ الطُّغيانِ والفساد في الأرض، ودعاهم إلى أن يتَّقُوا رَبَّهُمْ، وأن يُطيعُوهُ في دَعْوَتِهِ، وأبَانَ لهم أَنَّهُ رَسُولٌ أمين.

(٦) فكذَّبُوه، وكذَّبوا بما جاءهم به من ذكْرٍ وهو كتابٌ من عند اللَّهِ، وقالُوا عنه: كذَّابٌ أشِرٌ، أي: مُسْتَكبر بَطِرٌ يَمْرَحُ ويَفْرَحُ بصِنَاعَةِ الأكاذيب ليَكُونَ لَهُ الْعُلُوُّ في الأرض.

(٧) واعْتَرَضُوا على كونه إنْسَاناً بشراً، وقالُوا: لَوْ شاء اللَّهُ أن يَبْعَثَ رَسُولاً، لأرْسَل إليهم ملَكاً أَوْ عَدَداً من الملائكة.

(٨) وَتابع «صالحٌ» عليه السلام دعْوتَهُ لَهُمْ، وذَكَّرَهُمْ بِنِعَم الله عليهم، وأبان لهم أنَّ الله عزّ وجلّ استخلَفَهُمْ في الأرض من بَعْدِ عادٍ الَّذِين أهْلَكَهُمْ بسبب شركهم وفسادهم وطغيانِهِمْ في الأرض، وتكذيبهم رسُولَ ربّهم، وتكذِيبهم بما جاءهم به، وعدم اتباعهم ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم، وأقام لهم الأدِلَّةَ على التوحيد، وقال لهم: إنَّ اللَّهَ هُوَ الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، ودعاهم عليه السلام إلى أن يستغفروا رَبّهم ويتوبُوا إلَيْه راجين أن يرحمهم.

وقال عليه السلام لهم: إنَّكُمْ لاَ تُتْرَكُونَ آمِنِينَ فيما وهَبَكُمْ رَبُّكُمْ من نِعَم، إذَا لَمْ تُؤْمِنُوا وَلم تُطِيعُوا، ولم تَتَّبِعُوا الذِّكْرَ الَّذِي جاءكم من ربّكُمْ.

ونهاهم رسُولُهم صالح عليه السلام عن أن يُطِيعوا أمْرَ المُسرِفين، الَّذِين يُفْسِدُون في الأرض وَلاَ يُصْلِحُون، ونَهَاهُمْ عن أنْ يَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِين، وأنْذَرَهُمْ بعِقاب اللَّهِ عزّ وجلّ، وضربَ لهم الأمْثَالَ بالْمُهْلَكِينَ السَّابقين.

وأعْلَنَ لهم عليه السلام تبَرُّؤَهُ من المصلحة الشخصيَّة عِنْدهم، وقال لهم: إنْ أجْرِيَ إلاَّ على الله.

(٩) اتَّهَمَهُ قومُهُ بأنَّهُ مسْحُورٌ بسِحْرٍ شدِيدٍ أثَّرَ فيه، واستكْبَروا عن الإيمان به واتّباعه، وقالوا له: يا صالِحُ قد كُنْتَ فينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذا، أتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا كانَ يَعْبُدُ آباؤنا؟!!.

(١٠) آمَنَ به فريقٌ مِنْ قومه، وكفَرَ به الأكثرون منهم، فَأَخَذَ الفريقان يَخْتَصِمُون ويتجادَلُون.

قالَ المستكْبرونَ من الكافرين به، للمستضعَفِين من الذين آمَنُوا به، أَتَعْلَمُونَ أنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّه؟!!.

قال المستضعفون المؤمنون به: إنَّا بِمَا أُرْسِلَ به مُؤْمنون، فَمَا جَاءَ به حَقٌّ، وهذا يَدُلُّ علىٰ أَنَّهُ رَسُولٌ من رَبِّه.

قال المسْتَكْبِرون الّذين كفَرُوا به: إنّا بالّذي آمنتُمْ بِه ورَأَيْتُمُوهُ حَقًّا كَافِرون.

لقد هداهم الله هدَايةَ دَلاَلَةٍ وإرشادٍ وبيانٍ مقرون بالحجَّة، فاستَحَبُّوا الْعَمىٰ الّذي أَوْصَلَهُمْ إلَىٰ الكُفر، على الْبَصَر الذي يكشف لهم سبيل الْهُدَى، لأنَّ الْعَمَىٰ قد كان مُزَيَّناً بالأهواء والشهوات وزُخْرُفِ الحياة الدُّنيا.

(١١) تَعَرَّضَتْ «ثَمود» لعوارض من الْبَلاَءِ الرَّبَّانيّ بالمكاره، تذكيراً لهم، فقالوا لرسولهم صالح عليه السلام: اطَّيَّرْنَا بِكَ وبمَنْ آمَنَ بك، فأَنْتُمْ شُؤْمٌ علينا وَعلى أرْضِنَا.

فأجابهم عليه السلام بقوله لهم: طائركُمْ عنْدَ اللَّهِ، أي: مقاديركُمْ بيَدِ الله، وليْسَ لغير الله تأثيرٌ فيها، وما نَزَلَ بكم من بلاءٍ ليْسَ من شُؤْم أَحَدٍ بَلِ اللَّهُ يمتَحِنُكُمْ، ويُنْزِلُ بكم بعْضَ ما تكْرَهُونَ، عُقُوبَةً لكم على كُفْرِكُم، وإنْذَاراً لَكُمْ بما هو أَشَدُّ وأَقْسَىٰ.

(١٢) وأمْلَىٰ اللَّهُ لَهُمْ وأمْهَلَهُمْ، كَسُنَّتِهِ في سائر الأمم.

(١٣) جادلَتْ «ثَمودُ» رَسُولَهُمْ في الحقّ الذي جاءهم به من ربِّه، واتَّهَمُوهُ بأَنَّ له غَرَضاً خَاصًّا لديهم، يرجوه من دعوته، وقالوا له: إنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ، أي: تَجْعلُنَا نَرْتَابُ بأمْرِك، ونَتَّهِمُكَ بالمصْلَحَةِ الشخصِيَّةِ عندنا.

فقال لهم: أَرَأيْتُمْ إنْ كُنتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي قَدْ أَثْبَتَتْ لي الحقّ، وكُنْتُ أيضاً خائفاً من عذابِ رَبّي إِنْ تَرَكْتُ بَيِّنَتَهُ، أو عَصَيْتُ أَمْرَه في عَدَم القيام بِوَظائف رِسالتي، فَمَنْ يَنْصُرُني ومَنْ يُنْجيني مِنْ عَذَاب الله؟؟.

وقال لهم بشأنِ مَضْمُونِ ما جاءهم به: أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأرض؟!!

وعَجَزُوا عن رَدّ حُجَجِه البرهانيَّة العقليَّة.

(١٤) فَطَلَبُوا مِنْهُ آيَةً حِسِّيَّة مُعْجِزَةً تُثْبِتُ صِحَّةَ رِسَالَتِه ونُبُوتِهِ. وهَدَّدُوه هو والذين آمَنُوا به بالإخراج من أرضهم، أو العودة إلى مِلَّتِهِمْ والاستقرار والثبات فيها، وقالوا لهم: لنُخرِجنَّكَمْ مِنْ أَرْضِنَا، أَوْ لتَعُودُنَّ في مِلّتِنَا. وهي الشّرك ولوازِمُه في السُّلُوك.

(١٥) فاستجاب رَسُولُهم صالح عليه السلام بإذْنٍ من ربِّه لطلبهم المعجزة الحسِّيَّة على ما يُحَدِّدُون.

وأشارت الدّلائل الضّمنيَّة إلى أنَّه عرَضَ عليهم ما يختارون من آيَةٍ معجزة، وَكانُوا مُعْجَبِينَ بالإبل.

فَطَلَبُوا أَنْ يُخْرِجَ لهم من صَخْرةٍ عظيمَةٍ عَيَّنُوها نَاقَةً ذَاتَ أوصافٍ معيَّنَة، فقال لهم عليه السلام: نعم. ودعا ربَّهُ فأخرج الله لهم الناقة كما طلبوا، فآمن بعضهم وأصَرّ أكثرهم على الكفر.

وأبان لهم عليه السلام مسْؤُولياتهم وواجباتهم نَحْوها، وقال لهم: يكون لهذه الناقة يوْمٌ تَشْرَبُ فيه الماء الذي تَشْرَبُونَ منْهُ، والْيَوْمُ الثاني يكون لكم، فالماء قِسْمَةٌ بينكم وبَيْنها على التَّنَاوُب.

وقالَ لَهُم: يجب عليكم أن تَذَرُوها تأكُلُ من أرض اللَّهِ مَا تَشاءُ، وأَنْ لاَ تَمَسُّوها بسوء، وأَنْ لا تَمَسّوا الماء المخصَّصَ لها في يَوْمها بسوء، وإلاَّ نَزَلَ بكم عذابُ يَوْمٍ عظيم.

وشَدَّدَ صالحٌ عليه السلام في تَحذِيرهم، وقال لهُم: احْذَرُوا ناقَةَ اللَّهِ وسُقْياها أَنْ تَمَسُّوا شيئاً من ذلك بسُوءٍ فَقَدْ أَخْرَجها اللَّهُ لكم، كما طلبتم، وعلى الأوصافِ الّتي حَدَّدْتم، ومن الصخرة التي عَيَّنْتُم، فَمَعْصِيَتُكُمْ بَعْدَ كلّ هذا معصية عنادٍ ومكابرة، دُونَ أن يكون لكمْ فيها شبْهةُ عُذْرٍ ما.

(١٦) والْتَزمَتْ قبيلة ثمود خوفاً، بالواجبات الْتي كانت صعْبَةً عليهم مدَّةً من الزمن، ثُمَّ تَأَثَّرَتْ مَصَالِحُ كثيرةٌ لهم بالتزامهم بواجبات الناقة الَّتي أَخْرَجَها اللَّهُ لهم من الصخرة على وفْق ما طَلَبُوا، فَعَزَمُوا عَلَىٰ أنْ يتخلَّصُوا مِنها بِعَقْرِها وذَبْحِها، واسْتَهانُوا بمَا كانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ به رسُولُهم صالحٌ عليه السلام، واتَّفَقُوا على عَقْرِ النّاقة، فَحَرَّضُوا أشقاهم على قتلها، فأخذ سِلاَحه، وتَطَاولَ مستَكْبِراً، وقال لهم رسُولُهم: حذَارِ نَاقَةَ اللَّهِ وسُقْيَاها.

فَلَمْ يكْترِثُوا للتحذير، وعَثَوْا في الأرض مُسْتنِكفِينَ عن طاعَة أمْر ربّهم فانْبَعَثَ أشْقَاهم، فَعقَرَ نَاقَةَ اللَّهِ.

(١٧) وكانَ في مدينَتِهم تِسْعَةُ رهْطٍ يُفْسِدُونَ في الأرض ولاَ يُصْلِحُونَ، فَقَرَّرُوا أَنْ يَقْتُلُوا صالحاً وأَهْلَ بَيْتِه ليْلاً، ويتخلّصُوا منْهُ، كَمَا تخلَّصُوا من الناقة، وأن يتظاهروا بأنهم بُرَءاءُ من قتْله، ويُنْكِرُوا أمام عَشِيرتهِ أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ إِذَا وُجِّهَ لهم الاتّهام.

فأهلك اللَّهُ المتآمِرين.

(١٨) وَتأزّم الموفق بين جمهور قبيلة ثَمود، وبين رسُولِهِمْ عليه السَّلام والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، ويَظْهَرُ أنّ القوم قد عزمُوا على التخلُّصِ منهم بالقوّة، إلاّ أنّهم تَرَيَّثُوا قليلاً لِحمَايَةِ عَشِيرَةِ صالح له بالحميَّة القَبَلِيَّة.

فقال لهم صالحٌ عليه السلام: تَمَتَّعوا في دارِكُمْ ثلاثَةَ أيَّام، وَهَذا وعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، وفي صباح اليوم الرابع يُنْزِلُ اللَّهُ عزّ وجلّ بِكُمْ عذاباً يُهلِكُكُمْ بِهِ جَمِيعاً.

(١٩) ولمّا اقترب الموعد أمَرَ اللّهُ عزّ وجل صالحاً والّذِين آمَنُوا واتَّقوا بالانْحِيَازِ عن مكان نزول العذاب، وجاء أَمْرُ اللّهِ بإهْلاكهم، فَصبَّ عَلَيْهم سَوْطَ عذابٍ، وبَعَثَ إليهم صيحةً واحدةً مُهْلِكَةً، مصْحُوبَةً بصاعِقَةٍ طاغِيَةٍ لا تُبْقِي ولا تَذَر.

وحين جاءتهم الصّاعِقَةُ جاءَتْهُمْ وهُمْ يَنْظُرُون عاجزينَ عن أَنْ يَرُدُّوا عن أنفسهم شيئاً من عذاب اللّهِ، وأسْبَابِ الإهلاكِ الّتي سلّطها علَيْهم بعزّتِه وقَهْرِه.

وبُهِتُوا عنْدَئذٍ نادِمِين، إذْ لا يَنْفَعُهم النّدَم، وأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ زِلْزَالاً مُدَمّراً، فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جاثِمينَ هَلْكىٰ.

(٢٠) وبَقِيَتْ قِصَّتُهم تُرْوى، ومساكِنُهُمْ تَدُلُّ عليهم، وقَدْ ذَكَّرَ بها مُؤْمِنُ آل فِرْعَونَ حِينَ أرَادُوا بموسَىٰ وهارونَ شرًّا.

حكايات تاريخيَّة بشأن ثمود وإهلاك الله لهم:

كان القصّاصُون من العرب قبل الإسلام يتداولون حكاياتٍ تاريخيَّة تتعلَّقُ بقبيلة «ثمود» قوم النبي الرسول صالح عليه السلام، وكيف أهْلَكَهُمُ اللّهُ جلّ جلاله.

ويطالع الناظر في مُدَوَّنات التاريخ حَوْلَ قبيلةِ ثمود وكيف أهلكَهُمُ الله، فَيَجد عدَّةَ حكايات مقبولات بوَجْهٍ عامّ، ويَحْسُ أن أَسْتَعرض خلاصَةً عَنْها لمَا فيها من تفصيلاتٍ تُتَمِّم مَا جاء في القرآن عنهم، ولا تتعارض معه.

فمن هذه الحكايات ما ذكَرَهُ ابْنُ إسْحَاق، والسُّدّي، وأبو الطُّفَيْل، وغيرهم.

وأَخْتَارُ فيما يلي لقطات من حكاياتهم المذكوراتِ في كتب التاريخ، والمنقولاَتِ في بعض كتب التفسير.

(١) أهْلَكَ اللَّهُ عزّ وجلّ «عاداً» إلاَّ مَنْ آمن بالرسول «هُود» عليه السّلام منهم، وارْتَحَلَ «هود» والّذين آمَنُوا به عن أرْض الأحقاف في الجنوب التي كان فيها هَلاَكُ «عاد».

(٢) ونَشَأَت بعد قبيلة «عاد» قبيلَةُ «ثمود» في الشمال، في أَرْضِ «الحِجْر» واسْتُخْلِفُوا في الأرض، وانْتَشَرُوا، ورُبّما كان كثيرٌ منْهم من سُلالَةِ من آمن بالرسول «هود» عليه السلام، فَهُمْ قوْمٌ من العرب.

(٣) ثُمَّ ظهر فيهم الفساد، وعَبَدُوا آلِهَةً اتَّخذُوها من دُون الله، ونَسُوا مَا كان آباؤهم قَدْ ذُكِّروا به منذ عهد «هُودٍ» عليه السلام، فما تَلاهُ من قُرُون.

(٤) فبَعثَ اللهُ إليهم نبيًّا رَسُولاً منهم، وهو «صالح» عليه السّلام، وهو من أوْسَطِهم نَسَباً، وأفضَلِهم مكانة.

وكانَ قبل أن يبعثه الله عزّ وجلّ رسولاً رَجُلاً فاضِلاً، حسَنَ الْخُلُق، حَسَن السِّيرَة، مَرْجُوّاً لكلّ خَيْرٍ وفضيلَةٍ وعَمَلِ برٍّ وإحسان.

(٥) فدعاهم «صالح» عليه السّلام إلى التوحيد ونَبْذِ الشّرْك بالله، ودَعاهم إلى عبادة الله وحْدَه، وترك السَّيِّئاتِ وفِعْل الصّالحات، واجتنابِ الظُّلْم والعُدْوان والفساد في الأرض.

وصبَرَ «صالح» عليه السلام علَيْهم، متابعاً دَعْوَته إلى سبيل رَبّه، وبَشَّرَهم بالجنَّةِ إن استجابوا لدعوته، يَدْخُلونَها يَوْم الدّين، وحَذَّرَهُم وأنْذَرهُمْ بعِقَاب اللَّهِ المعَجّلِ في الدُّنيا، والمُوجَّل إلى يوم الدّين إذا أَبَوْا.

واتَّخَذَ عَلَيْه السَّلام مختَلِفَ الوسائل المتاحَةِ لهِدَايَتهم، من إقناع بالحجج والبراهين، وجِدالٍ بالّتي هي أَحْسَنُ، وتَرْغيبٍ وترهيب في مواعظ حسَنَةٍ، مع صَبْرٍ وحِلْمٍ وتلَطُّفٍ وَأناةٍ، شأنُهُ في هذا كَشَأنِ سائر المرسَلين.

(٦) فلَمَّا ألَحَّ عليهم في دعوته طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً من الخوارق، يَشْهَدُ الله له بها بأنَّهُ صَادِقٌ في ادّعاء أنَّهُ نبيٌّ أرْسَلَهُ إليهم، لِيُبَلِّغَهُمْ دِينَهُ، والكتابَ الذي أنزلَهُ إليهم ليتّبعُوه.

فقال لهم «صالح» عليه السلام: ماذا تَطْلُبُونَ من آيَةٍ خارقة؟

قالوا: تَخْرُجُ معنا إلى عِيدنا هذا، وكان لهم عِيدٌ يَخْرُجُونَ إليه بأصْنَامهم وما يَعْبُدونَ من دون الله، في يومٍ معلُوم من السَّنَةِ فَتَدْعُو إلَهَك، ونَدْعُوا آلِهَتَنَا، فإنِ اسْتُجِيب لكَ اتَّبَعْنَاكَ، وإن اسْتجِيبَ لَنَا اتَّبَعْتَنَا.

فقال لهم «صالح» عليه السلام: نَعَمْ، وقَبِلَ عَرْضَهُمْ.

(٧) فَخَرَجُوا بِأَوْثَانِهِمْ إلى عِيدِهم ذَاك، وخَرَجَ مَعَهُمْ «صالحٌ» عليه السلام، متوكّلاً على الله، ومُلْتَجِئاً إليه، داعِياً إلى سَبِيله لحضُورِ مباراة الدُّعاء.

أمَّا «ثَمودُ» فَدَعَوْ أوْثَانَـهُمْ، وسَأَلُوها أنْ لاَ يُسْتَجَاب لصالحِ عليه السَّلاَمُ، إذا دَعَا رَبَّهُ في شيءٍ ممَّا يَدْعُو به.

ثُمَّ قال أحد سادَاتِ «ثَمود» وعُظَمائِهِمْ يومَئذٍ، وهو رجُلٌ يُقَالُ له: «جُنْدُع»: أَخْرِجْ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، وعَيَّنَهَا له، نَاقَةً مُخْتَرِجَةً (أي: تُشْبِهُ الْبُخْتَ مِنَ الإبل)[1] جَوْفَاءَ (أي: عظيمة الْجَوْف) وَبْرَاءَ (أي: ذَاتَ وَبَرٍ كثير) فإنْ فَعَلْتَ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ في رسالَتِك، وشَهِدْنَا بِأَنَّ ما جِئْتَ بِهِ هو حَقٌّ، ووافَقَ سائر أفراد «ثمود» على هذا الطَّلَبِ.

(٨) وأخذ رسُولهم «صالح» عليهم المواثيق قائلاً: لَئِنْ دَعَوْتُ اللَّهَ فاسْتَجابَ لي، وأخْرَجَ لَكُمْ النَّاقة الَّتي وصَفْتُم، من هٰذِهِ الصَّخْرَةِ نَفْسِها الَّتي ذَكَرْتُم، لَتُصَدِّقُنِّي، ولَتُؤْمِنُنَّ بي.

---

[1] (١) الْبُخت من الإبلِ هِيَ الإبل الخراسانية، وكانت ذوات صفات متميزة.

قالوا: نعم، وأعْطَوْهُ على ذلِكَ عُهُودَهُمْ وَمَواثيقَهُمْ.

(٩) فَدَعَا «صالحٌ» عليه السلام رَبَّهُ، بأنْ يُخْرِجَ لهم النّاقة الّتي طَلَبُوها، من الصّخرة الّتي ذكَرُوها وعيَّنُوها، وقَوْمُهُ يَنْظُرُون إليه وإلى الصَّخْرة.

فَلَمْ يَلْبَثُوا حتّىٰ رأَوُوا الصَّخْرَةَ تتمخَّضُ بالنّاقَةِ المطْلُوبَة، تَمَخُّضَ النَّاقَةِ النَّتُوجِ بولَدِها.

وتَحرَّكَتِ الصَّخْرَةُ العظيمَةُ فانصَدَعَتْ، ثُمَّ أسْقَطَتْ من باطِنِها نَاقَةً علىٰ الوصْفِ الّذِي طَلَبَهُ القوم.

(١٠) فَآمَنَ بِهِ «جُنْدُع» ومَنْ كانَ معَهُ على أَمْرِهِ من رِهْطِه.

وأرَادَ بعْض أشرافِ ثمودَ مِنْ بَعْدِهِ أن يُؤْمِنُوا بِهِ ويُصَدِّقُوه، فنَهَاهُمْ «ذُؤَابُ بنُ عَمْرو بنِ لبيد» و«الْحُبَابُ» صاحب أوثانهم، و«رَبَابُ بْنُ صَمْعَر» وَكانُوا من أشراف ثمود، واستطاعُوا أن يُؤَثِّرُوا على سَادَةِ ثَمُود وأشْرافها.

فقال أحد الذين آمَنُوا بصالِحٍ عليه السَّلام واتَّبَعُوه، وهو رجُلٌ يُقَال له: «مُهَوِسُ بْنُ عَنَمَة» شِعْراً بِشَأْنِ «شِهَابٍ» عَزيز «ثَمُود» جاء فيه قوله:

وَكـانَـتْ عُـصْـبَـةٌ مِـنْ آلِ عَـمْـرِو ... إِلَـىٰ دِيـنِ الـنَّـبِـيِّ دَعَـوْا شِـهَـابـا
عَـزِيـزَ ثَـمُـودَ كُـلَّـهِـمْ جَـمِـيـعـاً ... فَـهَـمَّ بِـأَنْ يُـجِـيـبَ وَلَـوْ أَجَـابـا
لأَصْـبَـحَ صَـالِـحٌ فِـيـنَـا عَـزِيـزاً ... وَمَـا عَـدَلُـوا بِـصَـاحِـبِـهِـمْ ذُؤَابـا
ولَـكِـنَّ الْـغُـوَاةَ مِـنَ آلِ حِـجْـرٍ ... تَـوَلَّـوْا بَـعْـدَ رُشْـدِهُـمُ ذُئَـابـا

(١١) قالوا: ووَلَدَتِ النّاقَةُ المعجِزَةُ سَقباً (أي: وَلَداً ذَكَراً) ثُمَّ لمّا أَنْهىٰ مُدَّة رَضَاعِهِ فُصِلَ عَنْ أُمِّهِ فصَارَ فَصِيلاً.

(١٢) وامْتَحَنَ اللَّهُ ثَمُوداً بهٰذِهِ النَّاقَةِ امْتِحاناً صعْباً، فقال لهم نبيُّهم صالحٌ عليه السلام: هٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَة، فَذَرُوها تأكُلْ في أَرْضِ الله،

ولاَ تَمَسُّوها بسُوءٍ، فيأخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وقال لهم: إنَّ اللَّهَ رَبَّكُمُ الَّذِي أَخْرَجَ هذه الناقة لكم آيَةً كما طَلَبْتُمْ، أمَرَ بأن يكون الماء الَّذِي تَشربُونَ مِنْهُ قِسْمَةً بَيْنَكُمْ، وَبَيْنَها مناصَفةً، لها يَوْمٌ مَعْلُومٌ تَحْضُرُ فيه، وتَشْرَبُ الماء، ولَكُمْ يَوْمٌ مَعْلُومٌ تَحْضُرُونَ فيه، فَتَشْرَبُونَ وتَمْلَؤُونَ آنِيَتَكُمْ وأَوْعِيَتَكُمْ.

(١٣) وَكانَتْ هٰذه النَّاقَةُ تَرْعَىٰ على ما تَشاءُ يَوْماً، وتأتي إلى مَاءِ ثمود في اليوم التالي، فتنفَرِدُ بِشُرْبِ الماء، وتَفْرُجُ لَهُمْ رِجْلَيْها يَوْمَ قُدُومِها حتَّىٰ يَحْلُبُوا مَا شَاءُوا لبناً من ضَرْعِهَا، وكانُوا يَشْرَبُون من لَبَنِهَا قَدْرَ وُسْعِهِمْ، ويَدَّخِرُونَ مِنْهُ، حتَّىٰ يَمْلَؤُوا آنيَتَهُمْ، ثُمَّ تَصْدُرُ مِنْ فَجٍّ غَيْرِ الفَجِّ(١) الَّذِي قَدِمَتْ مِنه.

فإذَا كانَ الْغَدُ كَانَ الْيَوْمُ يَوْم شُرْبِهِمْ مِنَ الماء، فَيَشْرَبُونَ ما شَاءُوا، ويَدَّخِرُون ما شَاءُوا لِلْيَوْم الَّذِي هُوَ يَوْمُ النَّاقَة.

(١٤) قالوا: وكانت النَّاقَةُ إِذَا اشتَدَّ الحرُّ ارْتَقَتْ إلى المرتَفَعَاتِ في أَرْضِ ثمود، فتخافُ مِنها أنعَامُ الْقَوْم، فَتَهْرُبُ إلى بَطْنِ الوادي حَيْثُ الحرُّ والجدْبُ، وكانَتْ إذَا أقْبَلَ الْبَرْدُ هبَطَتْ إلى بَطْنِ الوادي، فخافت منها أنعامهم فهربت إلى المرتفعات حيث البرد والجدب فأضَرَّ ذَلِكَ بمواشيهم

(١٥) وصَعُبَتْ على ثمود معيشَتُهُمْ مع هٰذهِ النَّاقَةِ، بالشُّروط الَّتي وُضِعتْ لها، وضاقت صدورهم منها، فاتَّفَقَ الَّذِين كَفَرُوا مِنْهُمْ على عَقْرِها.

(١٦) وكان في الْقَوْمِ امْرَأَتَانِ ذَوَاتَا شَرٍّ:

الأولى: امْرَأَةُ «ذُؤَابِ بْنِ عَمرو» وهي «أُمُّ غُنمٍ عُنَيْزَةُ بِنْتُ غُنمٍ» وقد كانت امرأةً عجوزاً ذاتَ بناتٍ حِسَان، وَمالٍ من إبلٍ وبقَرٍ وَغَنَم.

الأخرىٰ: «صَدُوفُ بِنْتُ الْمُحَيَّا» حَفِيدَةُ صاحِبِ أوْثانِ بَنِي عُبَيْد، وكانت ذاتَ جَمالٍ وَمَالٍ مِنْ إبلٍ وبقرٍ وغنم.

---

(١) الْفَجُّ: الطريق الواسِعُ البعيد، جَمْعُ «فِجَاجٍ» وأَفِجَّة».

وكانتا من أشدّ امْرَأَتَيْن في ثَمُود عداوةً للنبيّ الرسُول صالح عليه السَّلام، وأعظم النساءِ كُفْراً به.

وإِذْ أَضَرَّتِ النَّاقَةُ في طَرِيقَةِ حياتها بأَنْعَامِهِمَا، فَقَدْ حَرِصَتَا علىٰ التخلّصِ من النّاقةِ بِعَقْرِها، وعَمِلَتَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ بِمَكْرٍ وخُبْث.

أمَّا «صَدُوف» فَدَعَتْ رَجُلاً من ثَمُود يُقَالُ له: «الْحُبَاب» وَعَرَضَتْ علَيْهِ أَنْ تُسَلِّمَهُ نفْسَها، مُقَابلَ عَقْرِ الناقةِ، فَأَبَىٰ.

فَدَعَتِ ابْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ «مِصْدَع» وعَرَضَتْ عَلَيْه نَفْسَها مُقابلَ أن يَعْقِرَ النَّاقة، فَقَبلَ ذلك.

وأمَّا «أُمُّ غُنْم عُنَيْزَةُ بنتُ غُنْم» فَدَعَتْ «قُدَارَ بْنَ سَالِفٍ» وكان رَجُلاً أَحْمَرَ أَزْرَقَ قَصِيراً ذَا شَرّ، فَعَرَضَتْ عليه أَنْ تُعْطِيَهُ ما شاءَ من بناتِها الحِسَان، على أَنْ يَعْقِرَ النَّاقة، وكان «قُدَارٌ» هٰذا عَزِيزاً مَنِيعاً في قَوْمه.

(١٧) فَانْطَلَقَ «قُدَارُ» و«مِصْدَع» فاسْتَنْفرا غُوَاةً مِنْ ثَمُود، فاتَّبَعَهُما سبْعَةُ نَفر، فَرَصَدُوا النَّاقة حِينَ صَدَرَتْ عَنِ الماء، وقَدْ كَمَنَ لَهَا «قُدَار» في أَصْلِ صَخْرَةٍ على طريقها، وكمن لها «مصدع» في أصل صخرة أُخرىٰ، فَمَرَّت علىٰ «مِصْدَع» فرَمَاها بِسَهْم، فَانْتَظَمَ بِهِ عضَلَةَ سَاقِها، وأَقْبلَتْ «عُنَيْزَة» ومَعَها إِحْدَىٰ بناتِها الْحِسَان، فَأَمَرَتْهَا بأَنْ تُسْفِرَ عَنْ وَجْهِها عِنْد «قُدار» لإِغْرائه بعَقْرِ الناقة، ففتَنَهُ حُسْنُ وَجْهِها، وحرَّضَته أُمُّها علىٰ عَقْرِ النَّاقَة، فَشَدَّ علىٰ النَّاقةِ بالسَّيف، فَكَشَفَ عُرْقوبها، ثُمَّ طَعَنَ في لَبَّتِها فَنَحَرَها.

ثُمّ اتَّبَعُوا فَصِيلَهَا فَعَقَرُوه.

(١٨) فلَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ قال لهم رسولُهم صالح عليه السلام: أَبْشِرُوا بِعَذَابِ اللَّهِ ونِقْمَتِه.

وَكان عَقْرُهُمْ للنَّاقةِ يَوْمَ الأربعاء.

قالوا له وهُمْ يَهْزَؤُون: وَمَتَىٰ ذَلِكَ يَا صَالح؟ وما آيَةُ ذَلِك؟

قال لهم: تُصْبِحُونَ غَدَاةَ يَوْم الْخمِيسِ وَوُجُوهُكُمْ مصْفَرَّة، ثُمَّ تُصْبِحُونَ يَوْمَ الْجُمْعَةِ وَوُجُوهكُمْ مُحْمَرَّة، ثُمَّ تُصْبِحُونَ يَوْمَ السَّبْتِ وَوُجُوهَكُمْ مُسْوَدَّة، ثُمَّ يَنْزِلُ بِكُمْ عَذَابُ اللَّهِ صَبَاحَ يَوْمِ الأَحَد.

(١٩) فلَمَّا قَال لهم رسُولُهم صالح عليه السَّلام مَا قَالَ: مُحَدِّداً مَوْعِدَ عذابِهم، قالَ النَّفَرُ التِّسْعَةُ الْمُفسِدُونَ، الَّذِين تَواطَؤُوا على المشاركة في عَقْرِ ناقَةِ الله، هَلُمُّوا فَلْنَقْتُلْ صَالحاً، فإِنَّهُ إنْ كان صادقاً عجَّلْنَاهُ قَبْلَنَا، وإِنْ كانَ كاذِباً أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِه.

فَأَتَوْهُ ليْلاً ليَقْتُلُوهُ، فَدَفَعَتْهُمُ الملائِكَةُ بالحجارة فَأَهْلَكَتْهُمْ، فلَمَّا أَبْطَؤُوا عَنْ أَصْحَابِهِمْ أَتَوْا مَنْزِلَ «صالحٍ»، فَوجَدُوهُمْ قَتْلَىٰ.

فقالوا لصالحِ عليه السلام: أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ.

(٢٠) ثمّ هَمَّ الْقَوْمُ بقَتْلِه، فحَمتْهُ عَشِيرَتُه، ولَبِسُوا السِّلاح، وقالوا لهم: واللَّهِ لاَ تَقْتُلُونَهُ، فَقَدْ وعَدَكم أَنَّ الْعَذاب نازِلٌ بكُمْ في ثلاث، فإِنْ كان صَادقاً لم تَزِيدُوا رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ إلاَّ غَضباً.

وإِنْ كان كاذِباً فأَنْتُمْ من وراء مَا تُريدون.

فانْصَرَفُوا عَنْهُمْ لَيْلَتَهُمْ تِلْك، فَأَصْبَحُوا وُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّة، فَأَيْقَنُوا بالعذاب، وعَرَفُوا أَنَّ صالحاً قَدْ صَدَقهم، فطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ فلَمْ يَتمكَّنُوا مِنْ ذلِكَ، وشَغَلَهُمْ عن ملاحقَتِه ما أَنْزَل اللَّهُ بِهِمْ من أماراتِ ذَكَرها لهم.

(٢١) وفي لَيْلَةِ اليوم الموعود لإِهْلاَكهم، خَرَجَ صالحٌ عليه السلام، هو والَّذِينَ آمَنُوا بِه، وانحَازُوا إلى مكانٍ قَرِيبٍ لاَ يَنْزِلُ فيه العذاب، ثُمَّ تَوَجَّهُوا مُرتَحِلينَ من أَرْضِهِمْ وَدِيَارِهم جِهَةَ أَرْضِ الشَّام، حتَّىٰ نَزَلُوا رَمْلَةَ فِلسْطين.

وكان ذلك بعْدَ أن تَمَّ إهلاكُ كُفَّارِ ثَمود.

(٢٢) لقد أرْسَل الله العزيز المنتقم الجبّار على ثمود الصيحةَ صبيحة يومِ الأحد، كما ذكر لهم رَسُولهم صالح عليه السّلام، وَأخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ، فلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كبيرٌ ولا صغيرٌ إلاَّ هَلَكَ.

وكذلك يفعل الله جلَّتْ حِكْمَتُهُ وعظُمَ سلطانُه بكُلّ المجرمين، متى صارَ صلاحُهُم أو صلاح بَعْضِهم مَيْؤوساً منه تماماً.

تِلْكَ سُنَّةُ الله في عباده في دار الابتلاء، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تَحْويلاً.

التدبّر:

● قول الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ ... ﴿٧٣﴾﴾: أي: ولَقَدْ أرْسَلْنا إلى قبيلة «ثَمُودَ» أو القوم المعروفين باسم «ثَمُودَ» النبيّ الرَّسُول «صالحاً» وقد كان مِنْهُمْ نسَباً ولُغَةً ومَوْطِناً.

ودَلَّ على أنَّهُ عليه السَّلام مِنهم قولُ الله تَعالَىٰ: ﴿أَخَاهُمْ﴾ وقد سبَقَ بيان هذا لدىٰ تَدَبُّر قصَّة «هود» عليه السلام، عند قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ .. ﴿٦٥﴾﴾.

● قول الله تَعالى:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

نُلاحِظُ في هاتين الآيتَيْن أنَّ الله تَبارَكَ وتَعَالَىٰ قَدْ لَخَّص مَقَالاَتِ «صالح» عليه السلام لقومه بثماني فِقْرات.

وهٰذِهِ الفِقَرَاتُ الثّمانُ. قَدْ دَلَّتْ على ثماني مَقَالاَتٍ مفصَّلاَتٍ مُسْتَفِيضَاتٍ، شَرَحَ «صالحٌ» علَيْهِ السَّلاَم بها لقَوْمِه ما تَحْتَاجُ دعْوَتُهُ الحكيمَةُ إلَىٰ شَرْحٍ، ضِمْنَ عَنَاوِين هٰذهِ الفِقَرَات.

المقالة الأولى: دلَّتْ علَيْها عبارة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾. هذه هي فَاتِحَةُ المقالاَتِ الّتي قَالَها نُوحٌ وهودٌ عليهما السَّلام لأقوامِهِمَا.

وقد بَدَأَ بِهَا صالحٌ عَلَيْهِ السلام في دَعْوَتِه قَوْمَه إلى سبيل ربّه: كما بدأ بها نوح وهودٌ عليهما السلام، وَشُعَيب (على ما سيأْتي بيانُه إن شاء الله) عليه السلام، وكُلُّ رَسُولٍ وَجَدَ قَوْمَهُ يَعْبدُونَ آلهةً من دون الله.

ومن المعلوم أنَّ الأمْرَ بعبادَة اللَّهِ عزّ وجلّ إنَّما يكُونُ بَعْدَ تَثْبِيت الإيمان بِرُبُوبيَّةِ اللَّهِ جلّ جلالُهُ في قُلُوبِ المدْعُوِّين، وبَعْدَ تَثْبيت الإيمانِ بحَقِّ الرَّبِّ الْخَالِقِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدوه.

فإذا كان الإيمانُ بالرَّبِّ الخالِقِ مُوْجُوداً لدى المدعُوِّ إلى سبيلِ ربّه، فإنَّ البدْءَ يكُونُ بالدَّعْوَةِ إلى عبادَةِ اللَّهِ الرَّبِّ الخالق، والإقناعِ بِحَقِّهِ علىٰ عِبَادِهِ فِي أَنْ يَعْبُدُوه.

وَيَظْهَرُ أنّ هؤلاء الأقوام كَانُوا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ خَالِقاً للسَّماواتِ والأرض، إلاَّ أَنَّهُمْ قَدِ اتَّخَذُوا من دُونه آلهةً يَعْبدُونهم من دون الله، لاعتقادهم أنَّ آلِهَتَهُمْ تُشَارِكُ اللَّهِ في بَعْضِ عناصِرِ رُبُوبيّتِهِ، ولا سيّمَا ما يتعلَّقُ مِنْهَا بمصالحهم الدُّنيويَّة، كالرِّزْقِ والنّصْر والصّحَّةِ، والتوفيق في الأمور، وهِبَةِ الذُّرِّيَّةِ الصالحة، ونحو ذلك.

فهُمْ لا يَقُومون بما يجب عليهم تجاه ربّهم من عبادَةٍ على ما شَرَعَ لهم، وطاعَةٍ فيما أَمَرَ عبادَه به أو نَهَاهم عنه.

فاقتضىٰ وَاقِعُ حَالِ هؤلاء الأقوام، أَنْ تَبْدَأَ دَعْوَةُ رسُلِهِمْ لهم بالْأَمْرِ بعبادة اللَّهِ، الشَّاملة لمختلِفِ وجُوه الطَّاعَة، والتَّقرُّبِ إلىٰ اللَّهِ بما يُحِبُّ، وعلى الوجْهِ الذي يُحِبُّ ويَرْضَىٰ.

المقالة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: أي: مَالَكُمْ مِنْ مَعْبُودٍ يَصِحُّ أنْ تَعْبُدوه لحقِّ رُبُوبيّته لكُمْ غَيْره إذ لا ربَّ في الوجود كله غيره.

﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ «منْ» حَرْف جَرٍ زِيد للتّنصيص على عُمُوم النفي في: ﴿مَا لَكُم﴾.

وقد دَلَّت هذه المقالَةُ علىٰ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، اتَّخذُوا آلِهَةً يَعْبُدُونها من دُونِ الله، فاقتضىٰ واقِعُ حالهم إقْناعَهُمْ بأنَّهُ لاَ إِلَه يستَحِقُّ أن يُعْبَدَ بحَقٍّ إلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له، إذْ لاَ رَبَّ في الْوُجُودِ غَيْرُهُ، فلاَ يجُوزُ عقلاً، ولا يجُوزُ فيما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ رسَالاَتٍ لِعبادِه، أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُ الله الرَّبّ الخالق، بلْ يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له.

وتَوْجِيهُ مِثْلِ هٰذِهِ المقالَةِ لِقَوْمٍ مُشْرِكين، يَدُلُّ عن طَرِيق اللُّوازم الفكريَّةِ، مع الاسْتِنَادِ إلى مَعْرفَةِ طبائع النَّاس واخلاقهم، علىٰ أَنَّ هَذا التوجيه لا بُدَّ أن يَجُرَّ إلى مجادلاَتٍ ومُناظراتٍ ذواتِ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لإِثْبَاتِ أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ واحِدٌ فِي رُبُوبِيَّتِه، ووَاحِدٌ في إِلَهيَّتِهِ.

وقد قام «صالحٌ» عليه السّلامُ، وسَائِرُ رُسُلِ اللَّهِ بوظيفَةِ اتِّخاذ مخْتَلِفِ الوسائل، لإِقْنَاعِ أُمَمِهِم بهٰذِهِ الحقيقَةِ الدِّينِيَّةِ الكُبْرَىٰ.

إِنَّه إذَا لـم يكُنْ في الوجُود رَبٌّ خالقٌ غَيْرُ الله، جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُهُ، فلا يجوزُ عَقْلاً أنْ يُتَّخذَ إلَهٌ يُعْبَدُ غَيْرُ اللَّهِ، سواءٌ أكان مع عبادة الله تبارك وتعالى، أم من دون ذلك.

المقالة الثالثة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

الْبَيِّنَة: هي الواضِحَةُ الظَّاهِرَة الّتي لاَ شَكَّ فيها ولاَ غُمُوضَ ولاَ غَبَشَ عليها. من «**بَانَ الشَّيءُ يَبِينُ بَيَاناً**» أي: اتَضَحَ، فَهُوَ «**بَيِّنٌ**» وهي «**بَيِّنَةٌ**».

وقَدْ أُطْلِقَت الْبَيِّنَةُ في القرآن، على الرِّسَالة الرَّبَّانيَّة الواضِحَة، وعلى الرَّسُول، وعلى الصُّحُفِ والكُتُبِ المنزَّلَةِ مِنْ عند الله عزّ وجلّ، وعلى الأيَاتِ والمعجزات الواضحاتِ الجلِيَّات.

ولفظ «بَيِّنَة» أو الْبَيِّنَة» قد يَأتي صفةً لموصُوفٍ محذوف ويُقَدَّرُ في كُلّ مَوْضُوعٍ بما يلائِمُهُ.

فمن إطلاق «البيِّنَة» على الرَّسُول والقرآن، قَوْلُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الْبَيِّنَة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③﴾.

والأَوْلَىٰ فيما أرَىٰ حَمْلُ لفظ [بَيِّنَة] في مَقَالةِ صالح علَيْهِ السَّلامُ لقَوْمِهِ على معنى الرَّسُولِ والكِتَابِ الذِّكْرِ المنزَّلِ عَلَيْهِ، لأَنَّ آيَةَ النَّاقَةِ الْبَيِّنَةَ بإعجازِهَا، سيَأْتي الحديثُ عنها في مقالة خَاصَّةٍ، فالأَوْلَىٰ حَمْلُ الْجُمَلِ المتفاصِلَةِ علَىٰ تأسِيسِ مَفْهُوماتٍ لم تُذْكَرْ سَابقاً، لاَ على تكمِيلِ مَفْهُومَاتٍ فَرْعِيَّة، لأنَّ المفهوماتِ الفرعيَّةَ يُمْكِنُ إدْرَاكُهَا عن طريق اللَّوازم الذِّهْنِيَّة.

فقَوْلُ «صالِح» عليه السلام لقومه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يتَضَمَّنُ إيجازاً لِمقالَةٍ طَوِيلَةٍ، أبان لهم فيها أنّهُ نَبيٌّ رَسُولٌ مُرْسَلٌ من عِنْدِ الله رَبِّهم، ويَحْمِلُ لهم رِسالَةً واضحةً بَيِّنَةً مِنْ رَبِّهِمْ، وكتاباً بيّناً واضحاً.

وهذا الوضوح إنّما هو وضُوحُ الحقّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، إمَّا من براهين الفكر، أو من دَلائل الفِطْرَة، أو من دلائل الاختبار والتجربَةِ وما تقدِّمه من حقائق عِلميَّة، أو مِنْ آيات الله في كَوْنه.

المقالة الرابعة: دلّت عليها عبارة: ﴿... هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: هٰذِهِ نَاقَةٌ أخْرَجها الله عزّ وجلّ لكم كما طَلَبْتُمْ، من الصخرة الّتي عيَّنتُمْ، وطِبقَ الصِّفاتِ الّتي بَيَّنتُمْ وحَدَّدتم حالَةَ كَوْنِها آيَةً معجزةً خارِقَةً، تَشهَدُ لي بأنّي رسُول الله إليكم.

ولمّا كانت هذه النّاقَةُ آيَةً من الله لَهُمْ، سَمّاها صالحٌ عليه السلام: «نَاقَةَ الله» أي: ناقَة آيَةِ الله الخارقة، كما يُقالُ: «بَيْتُ الله» أي: بيْتُ عبادة الله، على حذْفِ مضاف.

أمّا الإضافة بمعنَىٰ الْمِلْك فلَيْس لهذه النّاقة خصوصِيَّةٌ في ملكيَّةِ الله لها، لأنّ كُلَّ ما في السماواتِ والأرض مِلْكٌ لله، وكلُّ مَنْ في السماواتِ والأرض عبيدٌ لله، ومِلْكٌ له وحده لا شريك له.

وإذْ أخْرَجَ اللّهُ عزّ وجلّ لهم هٰذه الناقة طبقاً لطَلَبهم، فقد ألزمَهُمْ بواجبات تجَاهها، سواءٌ آمَنُوا بِرَسُولهم أم كفَرُوا به، وقَدْ جعل الله عزّ وجلّ هٰذه التكاليف مادّةً من موادّ ابتلائهم وفِتْنَتِهِمْ بما يَسُوؤهم ويُضَايِقُهم، لأنّهمْ هم الّذين عيَّنُوا الآية، ولم يُفوِّضُوا لله بأن يأتيهم بآيَةٍ مَا، تَشْهَدُ لهم بأنّ صالحاً رسُولُ الله حقًّا.

وقد جاء في النصّ هنا في سورة (الأعراف) من البيان حول هذه الآية المعجزة، أن يتركُوا ناقة الله تأكُلُ في أرْضِ الله كما تشاء، وعلى ما تشاء، وأن لا يمَسُّوها بسُوءٍ ما، في حُرِّيَّةِ مرعاها، فإذا مَسُّوها بسُوءٍ ما أخَذَهمْ عَذَابٌ أليم، أي أخَذهُمْ من الحياة بالاستئصال، ما يَنْزِلُ بِهِمْ من عذاب يُؤْلِمُهُمْ ألماً شديداً.

ولم يكُنْ من المترقَّب أن يمَسَّها المؤمِنُون بسُوء بل الّذين سَيمَسُّونَها بسُوءٍ إذا آذاهم بقاؤها على ما فرَضَ اللّهُ عليهم، هُمُ الّذِينَ أصَرُّوا على

الكُفرِ برَسُولِ رَبّهم، بَعْدَ مَا شاهَدُوا بأعْيُنِهِمْ آيَةَ اللّهِ يُخْرِجُها لهم علىٰ وفْقِ مَا طَلَبُوا.

وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بيان أن العذاب الَّذِي يأخُذُهم إذا مَسُّوها بسُوءٍ هو عذابٌ قريب، أي: يكون قَرِيب الأجل من عُدْوانهم عليها، فقال الله عزّ وجلّ فيها حكايَةً لمقالة صالح عليه السلام لقومه:

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾:

أمّا الواجب الآخَرُ تُجاهُ هذه الآيَةِ المعجزة، فهو أنّ مَاءَ شُرْبِهِمْ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنها، فلَهُمْ يَوْمٌ خاصٌ بهم يَشْرَبُون فيه من الماء، ويتزَوَّدُون فيه ما شَاءُوا، وللنَّاقة يوْمٌ خاصٌ بها، تأتي فيها فتنفَرِدُ بالشُّرْب من الماء، ويجب عليهم أن لا يَمَسُّوها بسُوءٍ بالنّسْبَةِ إلىٰ حَقّها في الْيَوْمِ المخَصّصِ لشُرْبها مُنْفَرِدةً بالماء، فإذا مَسُّوها بسُوءٍ ما، لمنْعِها من هٰذا الحقّ أخَذَهُمْ من اللّهِ عذَابُ يَوْمٍ عظيم، وقَدْ دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجلَّ في سُورةِ (الشُّعَراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة صالحٍ عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾:

الشِّرْبُ: الحظُّ والنَّصِيبُ من الماء، وقِيلَ: وَقْتُ الشُّرْبِ ونَوْبَةُ الاسْتِقَاء.

أي: للنّاقة شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ من مائِكُم تَنفرِدُ به، ولَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ آخَرَ مَعْلُومٍ، يكونُ لَكُمْ، لاَ تَأتي هِيَ إلى الماء فيه.

ولا تَمَسُّوها بسُوءٍ ما، بالنِّسْبَةِ إلَىٰ حَقّها من الماء في الْيَوْم المخصَّصِ لها، فإذَا فَعَلْتُم مَا نُهِيتُمْ عنه، أخَذَكُم عَذَابُ يَوْمٍ عظيم مِنْ رَبّكُم.

فتكامَلَتْ دَلَالاتُ النُّصُوصِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ طعام النَّاقَةِ وشرابها، وكذلِكَ بالنِّسْبَةِ إلى العذابِ الَّذِي يأخُذُهم إذا مَسُّوها بسُوءٍ، للتخلُّصِ من حُرِّيَّةِ مَرْعَاها، أو للتخلُّص من حَقِّها في اليوم المخصّصِ لشُرْبها، فجاء في النصوص: [فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ـ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ـ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ].

إِنّها نُصُوص متكامِلَاتُ الدَّلَالاَت، لا مُتَطَابقات.

ودَلَّ النَّصُّ الَّذِي في سورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) علىٰ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أبَانَ خُطَّتَه لرسُوله «صالح» عليه السلام، قَبْلَ أنْ يُخرِجَ لَهُمْ الناقَة من الصَّخْرَةِ، ويُبَيِّنَ لهُمْ وَاجباتِهم في تَعَامُلِهم معها، فقال تعالى له:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾: أي: ابْتِلَاءً لَهُمْ بشَيْءٍ شَدِيدٍ علىٰ نُفُوسِهِمْ، تَضِيقُ به صُدُرُهم، حتَّىٰ إِذَا عَصَوْا نَزَلَ بِهِمُ العذاب.

المقالة الخامسة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ..﴿٧٤﴾﴾:

أي: وضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمْ دواماً أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ جعَلَكُمْ خلَفَاءَ في أرْضِ الْعَرَب، من بَعْدِ ما أهْلَكَ عَاداً أسَلافَكُمْ، لِأَنَّهُمْ وصَلُوا إلى مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي أنْتُمْ عَلَيْهَا الْيَوْم، من شِرْكٍ بِرَبِّكُمْ، وَعِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونه، وإِفْسَادٍ في الأرض.

وأذْكُرُوا أنَّ الَّذِين نَجَوْا من الهلاك الذي نزَلَ بعادٍ هُمُ الَّذِين آمَنُوا بِرَسُولِهِمْ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَام، وَنَبذُوا شِرْكَهُمْ وأوْثَانَهُمْ، واتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبّهم.

إنّ وضعَ هٰذِهِ الحقيقة في ذاكِراتهم، واسْتَخْرَاجَها إلى ساحاتِ تَصَوُّراتِهِمْ وَقْتاً فَوقْتاً، عندَ كُلّ مناسبة داعيَة، يَجْعلُ احْتِمالَ اعتبارهم واتّعَاظِهِمْ أزجَىٰ، وأَسْرَعَ زَمَناً، وأيْسَرَ للاسْتِجَابَةِ وقَبُولِ النُّصْحِ، وَتَرْك سُبُلِ الشَّيْطانِ، واتّباع صراط اللّهِ المستقيم، صراط الرحْمٰنِ الرحيم، الّذي يَدْعُوهم إليه رسُولُ رَبّهم صالحٌ علَيْهِ السَّلام.

تأثير ذِكْرَيات التاريخ في النفوس:

إنّ ذكْرَيات التاريخ الإنْسَانيّ، تُثِيرُ لدَىٰ مَن وَعَاهَا وتَدَبَّرَهَا وأَدْرَكَ سُنَّةَ اللّهِ في أحْداثها، المطامِعَ والمخاوف.

فالمهْلَكُونَ من أهْلِ الْقُرُونِ الأولى، بما كانَ مِنْهُمْ من أسْبابٍ اكْتَسَبُوها بإراداتهم الحرَّة، يُثِيرُ اسْتِذْكارُ قِصَصِهِم المخاوِفَ من اكتسَاب مِثْلِ ما اكْتَسَبُوا، لاتِّقاء مِثْلِ الْهَلاَكِ الشّامِلِ أوِ الجزئيِّ الّذي نزَلَ بهم.

والنّاجُونَ والمؤيَّدُونَ بِتَأْيِيد الله، بما كان منهم من أعمال صالحةٍ وخَيْراتٍ تحلَّوْا بها، والْتَزَمُوها في حياتهم، يُثِيرُ اسْتِذْكارُ قَصَصِهم المطامِعَ باتّباع طَرِيقَتِهِم، والْعَمَل بمْثْلِ ما عَمِلُوا للظفر بمثْلِ مَا ظَفِرُوا به.

ففي نُفُوسِ الناسِ اقتناعٌ مُشْتَرَكٌ عامٌ بأنَّ سُنَنَ الكَوْن ثابتَةٌ، أمّا المؤمِنُونَ بالله فيَعْلَمُونَ أنّها سُنَنُ الله، وأمّا الأخَرُونَ فيَجِدُونَ أنَّهَا طبيعَةٌ ثَابِتَةٌ، فيَنْتَفِعُونَ بها.

وأمّا الحمقَىٰ المتَعَجّلُونَ فيُغَامِرُونَ رَجَاءَ الاستِفَادَة من خوارقِ السُّنَن الّتي قَدْ تَحْدُثُ نَادِراً، لحِكْمَةٍ مِنْ حِكَم اللّهِ الجَلِيلَةِ، فَيُهْلِكُونَ أنْفُسَهم، أوْ يُضَيّعُونَ أعْمَارَهُمْ سُدىً، وهُمْ يَتّبعُونَ الأوْهام، ثُم لاَ يَقْبِضُونَ مِنْ مَطَامِعِهِمْ إلاّ كَمَا يَقْبِضُونَ مِنَ الرّيح بأكُفِّهِمْ.

المقولَةُ السادسة: دَلّت عَلَيْهَا عبارَة: ﴿.. وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ... ﴿٧٤﴾﴾:

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أي: وأنزلكُمْ، وأعدَّ لكُمْ وَهيَّأَ المكانَ والمنْزِلَ الملائم لكم. يُقَالُ لغة: بَوَّأَهُ المكانَ، أي: أَنْزَلَهُ فيه. وبَوَّأَ المَنزِلَ له، أي: أعَدَّهُ وهَيَّأَهُ له، وأبَاءَ فُلَاناً مَنزِلاً، أي: هيَّأَهُ لَهُ وأَنْزَلَهُ فِيه. ويُقَالُ: تَبَوَّأَ المكَانَ، وتَبَوَّأَ بِهِ، أي: نَزَلَهُ وأقَامَ به.

فمَعْنى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هَيأ لَكُمْ في الأرض منازل تَسكُنُونَها، ومَكَّنَ لكُمْ فيها، وجَعَلَكُمْ قادرين على أن تَتَّخِذُوا لَكُمْ فيها الْبُيُوتَ والقُصُورَ وسَائِرَ المسَاكِنِ والمنازِلِ المناسِبَةِ لمطالبكم وحَاجاتكم.

أي: وإذْ مكَّنَكُمْ في الأَرْضِ هَذا التمكينَ بمَا وضَعَ وهيّأَ لكُمْ من أسباب، وبما أَقْدَرَكُمْ على استخدامِها والانْتِفَاعِ بها، حتَّىٰ صِرْتُمْ تَتَّخِذُون مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً، فتقْطَعُونَ الصُّخُورَ مِن الجبال، وتَبْنُونَ بها الْقُصُورَ الفخمة، وصِرْتُمْ تَنحتُون الجبال، فَتُجَوِّفُونَ غُرَفاً في باطِنها، حتَّىٰ تكون الجبالُ لَكُمْ بُيُوتاً، تَبِيتُونَ فيها، فَتَحْتَمون بها من مُدَاهَماتِ أعْدَائِكُمْ.

فاذْكُرُوا هٰذِهِ النِّعَمَ الجليلَةَ الّتي أنْعَمَ الله بِها عليكم في أرْضِكُمْ، فآمِنُوا بِهِ، واعْبُدُوه وحْدَهُ، ولاَ تُشْرِكُوا بِعِبادَتِه شيئاً، وآمِنُوا بِرَسُوله الَّذِي أرْسَلَهُ إليكم، واتّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكم من رَبّكُمْ وَلاَ تَتّبِعُوا من دُونِه أولياء.

إنّ من أحْيَا في نَفْسِه تَذَكُّرَ نِعَمِ اللّهِ عَلَيْه، ولَمْ تَصْرِفْهُ الغفلاتُ، أو المفْهُومَاتُ الباطلاتُ الصارفاتُ عن الرَّبّ الخالق، الّذي بِيَدِهِ مَقالِيدُ كُلِّ شيْءٍ وَهُو السَّمِيعُ البصير، كانَ أَقْرَبَ إلىٰ القيام بما يجِبُ عليه من حَمْدٍ للّهِ وَشُكْرٍ لَه، بالأعمال الصالحات الّتي تُقَرّبُهُ إليه وَتُكْسِبُهُ رِضْوَانه، وكانَ أَسْرَعَ إلىٰ العمل بمَراضيه، ليفُوز بالنجاة من العذاب، ويَظْفَرَ بالسَّعَادة الخالِدَة الأَبَدِيَّة في جنَّاتِ النعيم يوْمَ الدّين، مَعَ مَا يُصِيبُ مِنْ حياةٍ طَيِّبَةٍ مطْمئِنَّةٍ في الحياة الدُّنيا.

المقالة السَّابعة: دلَّت عليها عبارة: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: أي: فإذا

ذَكَرْتُمْ ما أنعم اللّهُ بِهِ عليْكُمْ من كَوْنِهِ بَوَّأكُمْ في الأرض تتَّخِذُونَ من سُهولِها قُصوراً، وَتَنْحتُونَ الجبالَ بُيُوتاً، استَطَعْتُم أنْ تَنتقلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً إلى تَذَكُّرِ آلاَءِ اللّهِ الكثيرة، الّتي تَتَقَلَّبُونَ فِي نَعْمَائِها، في أجْسَادِكم، وفي مزارعكُمْ، وفِي أنعامِكم، وفي طَعَامِكُمْ وشرابكم، وفي أمْنِكُمْ، وفي كُلّ ما يُفيضُهُ عليكم من نِعَم فأنْتُمْ مطالَبُونَ بوضْعِها في سَاحَاتِ تذكُّرِكُم المتلاحِقِ حيناً فحِيناً، لتَحْمَدُوا اللّهَ عليها وتَشْكُرُوه، ولتَعْبُدوه وحْدَهُ وَلاَ تُشرِكُوا به شيْئاً، ولتُطِيعُوهُ وتَعْمَلُوا بمراضيه، ولِتَتَّبعوا رَسُوله، ومَا أُنزِل إليكم من رَبّكُمْ.

الآلاء: هي النِّعَم، واحِدُها «ألْيٌ» و«إلْيٌ» و«إلَىً».

المقالة الثامنة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿..وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤﴾:

أي: ولا تُفْسِدُوا في الأرض إفْسَاداً شدِيداً مُنْكراً.

الْعُثُوُّ: أشَدُّ الفساد، يُقَالُ لُغَةً: عَثِيَ يَعْثَىٰ عُثُوّاً وَعُثِيًّا وَعَثَيَاناً، أي: أفْسَد إفساداً شديداً مُنْكراً.

ويقال: عَثَا في الأَرْضِ يَعْثُو، أي: أفْسَدَ.

والإفساد: ضدُّ الإصلاح، ويكون الإفسادُ بِجَعْلِ الشَّيْءِ الصالح لِمَا هُوَ المقصودُ به غَيْرَ صالح له.

فقطْعُ الأشجار على سَبيلِ التّخْرِيب، هو من الإفساد في الأرض وإلْقَاءُ القاذُورَاتِ والنجاسَاتِ والميكْرُوباتِ الضارَّةِ في مياه الشّرْب أو بالْقُرْب منها، أو في أماكِنِ سَكَنِ الناس، أو في مجالِسِهِم هُوَ من الإفْسَادِ في الأَرْض، وتَخريبُ الْعُمْرانِ لا لبناء ما هو خَيْرٌ منه، هو من الإفْسَادِ في الأَرْض، وقَتْلُ الأَبْرِيَاء وَظُلْمُ النّاسِ في أَنْفُسِهِمْ أَوْ أموالهم أو أعراضِهِمْ، هو من الإفساد في الأرض.

إلى غير ذلك من صُورٍ وأعمال لا تُحْصَىٰ وَلاَ تُسْتَقصَىٰ.

وَدَلَّتْ مقالَةُ صالح عليه السّلاَمُ هٰذه لقومه على أنَّ ثَمُوداً قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ من السُّوءِ كانُوا فيها يَعيثُونَ في الأرْضِ فَسَاداً بوجْهٍ عامّ، إلاّ قليلاً منهم.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها، أي: ولا تُفسِدُوا حالَةَ كَونِكُمْ قَاصِدِين الإفسادَ وبَاغِينَ الإضرار، وفاعلين لهما.

* * *

● قول الله عزّ وجل:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ (٧٦)﴾.

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: هم كُبَرَاء القوم وأعْيَانُهُمْ وذَوُو الوجاهة فيهم، الَّذين يَمْلَؤُونَ عُيونَ الجمهور الأعظم من العامّة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾: أي: الّذين اسْتَكْبَرُوا من ثمود عن الإيمان بصالح عليه السلام، وعَنِ اتباعِهِ واتّباعِ ما أُنزِل إلَيْهِمْ من رَبّهم، إذْ رَأَوْا أنفُسَهُمْ أكْبَرَ وأعْلَىٰ من أن يَتّبِعُوا صالحاً، ويكُونُوا مَعَ الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، ورُبَّما كانُوا هم ذوي السُّلْطان والأمْر النّافذ في قومهم.

لقد رَفَضَ هؤلاء دَعْوَتَه ومَعَهُمْ أتباعُهُمْ من عامَّةِ ثمود، ولم يَسْتَجِيبُوا له، ولم يُؤْمِنُوا به وَلاَ بما جاءهم به من عند الله من حقّ وَهُدَى.

ولم يَقْتَصِرْ هؤلاء المستكبِرُونَ علىٰ الكُفْرِ ورَفْضِ الاستجابَةِ لِدَعْوَة الحقّ، بَلْ تَوَجَّهُوا لِلْمُسْتَضْعَفِينَ من قومهم الذين آمنوا بصالح عليه السَّلاَمُ واتَّبَعُوه، ليفتِنُوهم عن دينِهِمْ، ويَرُدُّوهُمْ عمَّا آمَنُوا به، ويُعِيدُوهم في مِلَّتِهِمْ،

ولِيُسْمِعُوا جَمَاهِيرَهُمُ الَّذِين لم يُؤْمِنُوا بَعْدُ بِرَسُولهم، بُغْيَةَ التَّأْثِيرِ عليهم، حتَّىٰ يَتَوَقَّفُوا عن اتباعِ نُظَرائِهم الذين آمَنُوا واسْتَجابُوا لِدَعْوَةِ الحق، فَمِنْ شَأْنِ النُّظَرَاءِ أَنْ يَجُرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ويُؤَثر بعضُهم على بعض.

واختيار عِبارة: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ يُشْعِرُ بأن الكَفَرَةَ المستَكْبِرِين، قَدْ جَمَعُوا جَمَاهِيرَ المسْتَضْعَفِين، من آمَنَ مِنهُمْ ومَنْ لم يُؤْمِنْ، وخَاطَبُوا الذين آمَنُوا ليُسْمِعُوا الآخَرِين.

هٰذِهِ الْمَرْحَلَةُ وأمْثَالُها تكُونُ عادَةً عِنْدَ تَخَوُّفِ كُبَرَاء الكافِرِين، من أنْ يُؤْمِنَ المستضْعَفُونَ الَّذِين هُمْ أَتْبَاعُهُمْ وأنْصَارُهم، فَيَخْرُجُوا عن سُلْطَانِهِمْ، ويَكُونُوا قُوَّةً للمُؤْمِنِينَ، وقُوَّة للرَّسُول الَّذي كذَّبُوهُ، وخَالَفُوه، ونَاصَبُوهُ العِداء.

وكانَ أُسْلُوبُ هؤلاء المضِلِّينَ، يَعْتَمِدُ على الابْتِعَادِ عَنِ المجادَلَةِ حَوْلَ مَفْهُومَاتِ الدِّينِ، الَّذِي آمَنَ بِهِ فَرِيقٌ من الْمُسْتَضْعَفِينَ، لِأَنَّ حُجَّتَهُمْ حَوْلَهَا قَوِيَّةٌ وَدَامِغَةٌ. فَاخْتَارُوا أَنْ يَسْأَلُوهم عَنْ شَخْصِ «صالحٍ» عليه السَّلامُ، نَبِيِّهِمْ وَرَسُولِهِم، لِيَجِدوا فِي شخصِهِ شيئاً يُعْطِيهِمِ فُرْصَةً للتَّشْكِيكِ في كونِهِ نَبِيًّا رَسُولاً من رَبِّهِ، فقالوا:

● ﴿.. أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ..﴿٧٥﴾﴾.

أي: هل لَدَيْكُمْ أدِلَّةٌ قَوِيَّةٌ تُثْبِتُ أنَّ صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ حقًّا وصِدْقاً.

فأدْرَكَ المسؤولونَ المكِيدَةَ الجدَلِيَّةَ، فَلَمْ يُجِيبُوهم عمَّا سألُوا عنه، بَلْ رَدُّوا عليهم بأنَّ مَضْمُونَ رِسَالَتِه الَّتِي جاءَ بِهَا حقٌّ وصِدْق، وتَشْهَدُ لَهُ البراهِينُ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بما أُرْسِلَ به:

● ﴿.. قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: لا تجادِلُونا في شَخْصِ النبيّ الرَّسُول «صالح» عليه السلام، ولَكِنْ نَحْنُ مُسْتَعِدُّون لمجادلتِكُمْ حَوْلَ مَا أُرْسِلَ به، فَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ به، وإذا كان كُلُّ ما جاء بِهِ حقًّا يجب الإيمانُ به، فَمِنَ الزَّيْغ عَنْ جَوْهَرِ قَضِيَّةِ الدِّين التَّشاغُلُ بالبحْثِ في شَخْصِ مُبلِّغِهِ عَنْ رَبّه، وكَوْنُ مَا جاءَ به حقًّا وَصِدْقاً دَلِيلٌ كافٍ لإثبات أنّهُ نبيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ رَبّه.

وطَرِيقَةُ هؤلاءِ المؤمِنينَ في هذا الردِّ من الحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ فِي أساليب الجدَلِ حَوْلَ قَضَايا الحقّ.

عندئذٍ لم يَجِدِ المستكْبِرُونَ حُجَجاً يُبْطِلُونَ بها مضمُونَ الرِّسَالة الَّتي أُرْسِلَ بها «صالحٌ» عليه السلام، فَلَجَؤوا إِلَىٰ أَسْلُوب إضْرَارِ الْمُسْتَكْبِرِ المعانِدِ بوَقَاحَةٍ، معْلِنين كُفْرَهُمْ بما آمَنَ بِهِ المؤمِنُونَ مِنْ حَقّ، دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا حُجَّةً ما، اعْتِمَاداً على أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ في قَوْمِهِمْ، دَلَّ على مَوْقِفِهِمْ هَذَا قَوْلُ الله تَعَالى:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦﴾.

وَلاَ بُدَّ أَنْ يَتَوَقَّفَ الجدالُ عنْدَ هَذِهِ المكابَرَةِ بالْبَاطل، والإضْرارِ على رَفْضِ الحقّ.

لكِنَّ المكابَرَة تَتَضَمَّنُ في الحقيقة هزيمةَ المكابِرِ، وإدَانَتَهُ لَدَىَ الْعُقَلَاءِ، ولَدَىٰ كُلّ ذِي فِكْرٍ سَلِيم.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾.

دلّت الآية الأولىٰ (٧٧) من هذه الآيات الثلاث، على أنَّ كُفَّار «ثمود» قَدْ فَعَلُوا ثَلاَثَةَ تَحَدِّيَاتٍ، تَحَدَّوْا بِهَا رَسُول رَبِّهِمْ، بَعْدَ إمهالٍ كافٍ من الله عز وجل لهم، وبلوغهم حالةً ميؤوساً منها، استكباراً وعِناداً وَإصراراً على الباطل، وكانت تَحَدِّيَاتُهُمْ تَحَدِّيَاتٍ للّهِ رَبِّهِمْ جَلَّ جلالُه في حقيقة الأمر.

فقضَتْ حِكْمَةُ اللّهِ بإهْلاَكهم جَمِيعاً، كَمَا جاء في الآية الثانية (٧٨) من هذا النص، وقضَتْ أيْضاً بنجاة «صالح» عليه السّلاَمُ والَّذِين آمَنُوا به، أخْذاً من دَلاَلة الآية الثالثةِ (٧٩) مِنْ هذا النصّ.

التحدّي الأول: دَلَّتْ عليه عبارة ﴿فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ ..(٧٧)﴾. إنَّهُمْ لَمْ يُبَالُوا بإنْذَارِ «صالح» عليه السّلاَمُ لهم بأنْ يأخُذَهُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ أَلِيم، وقَرِيبٍ، في يَوْمٍ عظيم، إذَا مَسُّوا نَاقَةَ اللّهِ بِسُوءٍ ما، فَكَانَ مِنْهُمْ عَقْرُها ونَحْرُها، بجريمَةٍ كُبرىٰ، وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّهَا آيَةُ اللّهِ لَهُمْ، إذْ أَخْرَجَها لهُم من الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيَّنُوها، وعلى الوصْفِ الَّذِي حَدَّدُوه، وهٰذِهِ حماقَةٌ لاَ يَفْعَلُها إلاَّ جَبَّارٌ مَغْرُورٌ مُسْتَكبِر.

التَّحدِّي الثاني: دَلَّتْ عَلَيْهِ عبارة: ﴿ ..وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ..(٧٧)﴾.

لَقَدْ وَجَّهَ «صالحٌ» عليه السَّلامُ لهم أوَامِرَ من الله لهم تَتعلَّقُ بالإيمان، وبالعِبَادَة، وبأنواعِ من السّلُوك. والأَمْرُ يَشْمَلُ مَا يَجِبُ فِعْلُه، وما يَجِبُ تَرْكُه، فالأَمْرُ بالشيءِ نَهْيٌ عن ضِدِّه، والنَّهْيُ عَنِ الشيْءَ أَمْرٌ بِضِدِّه.

فيَدْخُلُ في عُمُومِ عُتُوِّهِمْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ تماديهم في الإفساد في الأرض، الَّذِي نَهَاهُمْ عَنْهُ رَسُولُهُمْ بِقَوْلِهِ لهم: ﴿ ..وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾.

[عَتَوْا]: أي: اسْتَكْبَرُوا وَتَجاوَزُوا حُدُودَ المعاصِي المعتادة في الناس، وتجاوزوا حُدُودَ الإفساد الذي توجَدُ نِسْبَةٌ ما مِنه في كُلّ أُمَّة، وغَلَوْا غُلُواً

فاحشاً في ذلِكَ كمّاً وكَيْفاً، حتَّىٰ بَلَغُوا إلى حَضِيضٍ تَقْتضِي حِكْمَةُ اللَّهِ مَعَهُ أَنْ يُنْزِل بهم عقاباً صَارِماً حازماً شامِلاً.

يُقَال لُغَةً: عَتَا فُلاَنٌ يَعْتُو عُتُوّاً وعُتِيًّا وَعِتِيًّا، أي: تجاوَزَ الحدَّ المحتَمَلَ الَّذِي قَدْ يُصْبَرُ عليه، إلى ما لا يُحْتَمَل ولا يُصْبَرُ عليه، من اسْتِكْبَارٍ وَمُعَانَدَةٍ وَعِصْيان.

والعَاتي: هو الطَّاغي الجبَّارُ الْمُفْسِد.

وقد ضُمِّنَ فِعْلُ [عَتَوْا] في العبارة معْنَىٰ فعل «ابْتَعَدُوا» أَوْ فِعْلِ «تَوَلَّوْا» فَعُدِّيَ تَعْديتَه، فقال تعالَىٰ: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فَعَتَوْا مُبْتَعِدِين ومُتَوَلِّينَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهم، فأكْثَرُوا الْفَسَادَ والإفسادَ في الأَرْض.

وقَدْ جاءَ في بيان أَسْبَاب إهلاكهم الشَّامِلِ المعجَّلِ في الدُّنيا في سورة (الْفَجْر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) أَنَّهُمْ طَغَوْا في الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فيها الفساد، كما فَعَلَتْ «عاد» وكما فَعَلَ فِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَاد.

إنَّ الطُّغْيَانَ وَكَثْرَةَ الْفَسَادِ في الأَرْضِ مِنْ قِبَلِ أُمَّةٍ ما، مِنَ الأَسْباب الَّتي تقتضي حكْمَةُ اللَّهِ العزيز الجبار الْقَهَّارِ معها إهْلَاكَها إهلاكاً شاملاً، أو قريباً من الإهلاك الشامل.

التحدّي الثالث: دَلَّتْ عليه عبارة: ﴿.. وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

لقد اسْتَمَرُّوا على اعتقاد أنّه كذَّابٌ وَلَيْسَ رَسُولاً مِنَ الْمُرْسَلِين، على الرَّغْمِ من آيَةِ النَّاقَةِ الَّتي أَخْرَجَها اللَّهُ لهم من الصَّخْرَةِ وهُمْ شُهُودٌ يَنْظُرُونَ.

ويظهَرُ أَنَّ الَّذِي غَرَّهم فأعْلَنُوا هٰذَا التَّحدِّي، هو إمْهَالُ اللَّهِ لَهُمْ زمَناً طَويلاً على كُفرِهِمْ وَعُتُوِّهم وإفسادهم في الأَرْضِ، وقُدْرَتُهُمْ على عَقْرِ نَاقَةِ اللَّه دُونَ إنْزَال الْعِقَابِ الْفَوْرِيّ بِهِمْ على عَقْرِهم لها.

ولَعِبَتْ الأَوْهَامُ في نُفُوسِهِمْ فأبْعَدَتْهُمْ عن استِبْصَارِ الحق، ورُبَّما تَصَوَّرُوا أَمْرَ النَّاقَةِ نَوْعاً من السِّحْرِ.

من البَدَهِيِّ أنَّهم لم يُرِيدُوا فِعْلاً أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِهِمْ عذاباً بِإهْلاَكٍ عامٍّ شَامِلٍ، وإِنَّما تَوَهَّمُوا أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتجيب لصالح، إذْ هُوَ في اعتقادهم القائم على الغرور ليس رَسُولاً، وقَدْ دَلَّ على هذا قَوْلُهُم له: ﴿..إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾ فقد جاءت العبارة معلَّقَةً على «إِنْ» الشَّرْطية، الَّتي تُسْتَعْمَلُ في الأَمْرِ المشكوكِ في وُجُودِه، أو المجزوم بعَدَمِ وُجوده.

وعقِبَ هٰذه التحدِّيَاتِ أَنْزَلَ اللَّهُ بهم عِقَابَهُ وعذابَهُ فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعاً.

● قولُ الله تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾:

[**فَأَخَذَتْهُمْ**]: أي: فأهلكَتْهُمْ وَأَمَاتَتْهُمْ، وقَدْ جَاءَ التعبير في القرآنِ المجيد بالأَخْذِ، للدَّلاَلَةِ على معْنَىٰ الإهْلاَكِ والإمَاتَةِ مع التَّعْذِيب.

لِأَنَّ أَخْذَ النَّاسِ أفراداً أو جماعَاتٍ أو أُمَّةً كاملَةً مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عز وجلّ خالِقِهِمْ، يكُونُ بأَخْذِهم من الحياة الدُّنيا، وَذٰلِكَ يَكُونُ بأَخْذِ حيَاتِهِمْ، ولو بقيت أجْسَادُهم، لأنَّهَا عِنْدَئِذٍ تَبْقَىٰ سَاكِنَةً هَامِدَةً، أو مُمَزَّقَةً مُحطَّمَةً مُهشَّمَةً مُشَوَّهَةَ المنظر.

الرَّجْفَة: الزلْزَلة، يُقال لغة: رَجَفَتِ الأرض تَرْجُف رَجْفاً، إذا حَصَلَتْ فيها زَلْزَلَة.

وحين تكون الزلْزَلَةُ في الأرْضِ شَدِيدَةً فإِنَّهَا تُدَمِّرُ كُلَّ مَا عَلَيْهَا من أشياء، وتُهْلِكُ النَّاسَ وكثيراً ممَّا عَلَيْهَا مِنْ أحياء.

وإهلاك كُفَّار «ثمود» لم يَحْتَجْ أكْثَرَ مِنْ زَلْزَلَةٍ واحِدَةٍ شَدِيدَة، رافقَتْها صَيْحَةٌ شديدَةٌ واحدة، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾: **الهشيمُ**: ما يَبِسَ من النباتاتِ وتكسَّر ونحوها. **والمُحْتَظِر**: مَنْ يُرِيد أَنْ يَصْنَعَ حظيرَةً لدَوَابّه، فَيُعِدُّ أكواماً من الهشيم ليُقِيم مِنها السِّياج.

أي: صاروا هَلْكَىٰ مُمْتَهَنِينَ كَأَكْوامِ الهشيم.

فَدَلَّ النَّصَّان على أنَّ الزَّلْزَلَة الَّتي حصَلَتْ في أرضهم لإهلاكهم، قد كانت مصحوبَةً بِصَيْحَةٍ، أي: بصَوْتٍ عظيم جدًّا يَقْتُلُ عن طريق السَّمْع.

لقَدْ تَعَوَّدْنا أَنْ نَسْمَعَ أصْوات الرُّعود، لكنّ صَوْت الرَّعْدِ إذا اشْتَدَّ أَكْثَر من احتمال الناسِ قَتَلَهُمْ، وقد أشار إلى هذا قول الله عزَّ وجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأنِ المنافقين.

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وكانت الصيْحَةُ الَّتي أهلك الله بِهَا «ثَموداً» مصحوبَةً أيضاً بصاعقة، دَلَّ على هذا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سُورَةِ (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن ثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام:

﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وكانت هٰذِه الصَّاعقةُ مصْحُوبةً بالْعَذاب الْهُونِ، أي: بالعذاب الذي هو ذُلٌّ ومَهَانَةٌ وخِزْيٌ، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلَّ في سُورَةِ (فُصِّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

فَتَكامَلَتِ النُّصوصُ في الدَّلاَلَةِ عى المعاني المراد بَيَانُها.

وإذْ أخذَتِ الرَّجْفَةُ المصحوبَةُ بالصَّيْحَةِ، المصْحُوبَةِ بِصَاعِقَةِ الْعَذَاب الْهُونِ، ثَمُوداً أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإهْلاَكٍ، أَصْبَحُوا في صَبَاحِ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ في دَارِهِمْ جَاثِمِين.

[جَاثِمِينَ]: أي: لاَصقين بالأرضِ على رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ مُلازِمينَ أمْكِنَتَهُمْ وهُمْ هَلْكىٰ.

وسبَق بيان أنّ الله عزّ وجلّ شبَّهَ جُثُومَهُمْ وهم هَلْكَىٰ بأنَّهُمْ كهَشِيمِ الْمُحْتَظر، أي: كأعْوادِ الأشجار والأحْطابِ والأَشْواكِ الَّتِي يَجْمَعُها من يُرِيد أن يَبْنِيَ حظيرة لدوابّه، ويُحِيطها بسياجٍ من هذا الهشيم.

● قوله تعالى بشأن صالح عليه السَّلامُ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ كُفَّارَ قَوْمِهِ ونَجَّاهُ ونَجَّىٰ الَّذينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِهِ وَكانوا يَتَّقون في الآية (٧٩) من سورة (الأعراف):

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: أي: فانصَرَفَ عن أَرْضِ ثَمُود مهاجراً بالَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه وأنجاهم الله، إلى أرْضٍ أخْرَى.

ودلَّ العطف بالفاء على أنّ هذا التولّي قَدْ كانَ عَقِبَ إهلاك كُفَّار قومه.

ويَظْهَرُ أن «صالحاً» عليه السلام قَدْ أَمَرَهُ الله بأن ينحَاز مع الذين آمنوا به واتبعوه إلى مكان آمن بتقدير الله، غَيْرِ بَعِيدٍ عن مساكِنِ ثمود، وبَعْدَ إهلاك كُفَّارِ قَوْمه أمَرَهُ اللّهُ بِأَنْ يُهاجِرَ عن كُلّ أَرْضِ ثَمُود.

وعنْدَ تَولِّيهِ بمَنْ مَعَهُ، خَاطَبَ كُفَّارَ قَوْمِهِ وهُمْ هَلْكَىٰ بِعبَارَاتٍ ثَلاث:

العبارة الأولى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾: أي: أَدَّيْتُ الأَمَانَةَ الَّتِي كَلَّفَنِي رَبِّي أَنْ أَبلِّغَكُمْ إيَّاها، وقُمْتُ بواجبي تُجاهَكُمْ، لَمْ أَزِدْ على ما أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أُبلِّغَكُمْ إِيَّاهُ شيئاً، ولم أَنْقُصْ مِنْهُ شيئاً.

من الملاحظ أنَّ «صَالحاً» علَيْهِ السَّلاَمُ لَمْ يَقُلْ رِسَالاَتِ رَبِيّ بالجمع، كما قال «نوح» عليه السلام لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ وكما قال: «هود» عليه السلام أيْضاً: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾. وَكَمَا قَالَ «شعَيْبٌ» عليه السلام لقومه، بَعْدَ أنْ أُهلِكُوا: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾.

ويَظْهَرُ أنَّ هذا الاختيار البيانيّ فيهِ دَلاَلَةٌ ضِمْنِيَّةٌ عَلَىٰ أنَّ الله عَزّ وَجلَّ قَدْ أنْزَلَ على «صَالح» علَيْهِ السَّلاَمُ، الرِّسَالَةَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، ولَمْ يَجْعَلْهَا بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مُنَجَّمَةً مُجَزَّأَةً، لحكْمَةٍ خَاصَّةٍ بِقَوْمِه.

وقَدْ يُؤَكِّدُ هذا الْفَهْمُ مَا جاء في سُورةِ (الْقَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) حكايَةً لمقالة قَوْمِهِ بشأنه:

﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾﴾.

فجاء التعبيرُ بإلْقَاءِ الذِّكْرِ لاَ بإِنْزَاله وَلاَ بتَنْزيله، والإِلْقَاءُ يُشْعِرُ بأنَّهُ كانَ بأسْلُوب الدُّفْعَةِ الواحدة، لا بأسْلُوب التَّنْزِيل المنجّم.

العبارة الثانية: ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾: أي: وَبَذَلْتُ مِنْ أجْلِكُمْ كُلَّ مَا أسْتطِيعُ مِنْ نُصْحٍ، بالإقناع، والموعِظَةِ الحسَنَةِ بالترغيب والترهيب، والمجادلَةِ بالَّتي هي أحْسَن، مع الصَّبْر، وسَعَةِ الصَّدْرِ، والْحِلْم، وتَحمُّلِ الأذى. يقال لغةً: نَصَحَهُ ونَصَحَ لهُ.

فدلّت هذه العبارة على أنّ صالحاً عليه السلام قد دَلّ قومَه على ما فيه خيرهم، ورَغَّبَهُم فيه، وأخْلَصَ لهم بتقديم الحقّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ خَالِصَةً من كلّ شائبة، وبَرِيئاً من أيَّةِ مصلَحَةٍ شخصيَّةٍ لَهُ عِندَهُمْ، إنَّما يَرْجُو أجْرَهُ عليه السَّلاَمُ عنْدَ رَبِّه.

العبارة الثالثة: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: أي: ولَكِنْ كُنتُمْ حتَّىٰ نَزَلَ بكُمْ العذابُ والْهَلاَكُ، لا تُحِبُّونَ في الحال ولا في الاستقبال، النَّاصِحِينَ الَّذِينَ تَرَوْنَ فِي نُصْحِهِمْ أَنَّهُمْ يَبْعِدُونكم عن أهوائكم وشهواتكم وَرَغباتِكُمْ، في الْفُجور، مَعَ أَنَّها سَتَكُونَ أسباب شَقَائِكُمْ، وسَخَطِ اللَّهِ عليكم، وأَنْتُمْ مُتَشَبِّثُونَ بِها، وَتَرَونَ في تَعَلُّقِكُمْ بها سعادتكم.

ويُشْعِر الفعل المضارع في: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أَنَّهُم لَوْ لَمْ يُهْلِكْهُمُ اللَّهِ، واسْتَمَرُّوا بَاقِين في الحياة الدُّنيا، لا سْتَمَرُّوا على هٰذا الوصْفِ لاَ يُحِبُّونَ النَّاصِحِين.

* * *

الفصل الرابع

التدبُّر التحليلِيّ للقَطاتِ المختارات في هذه السورة من قصة لوط عليه السلام وقومه

الآيات من (٨٠ ـ ٨٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

القراءات:

- قرأ ورْشٌ وأَبو جَعْفر: [إِنَّكُم لَتَاتُونَ] بالإِثبات، وبالأَلِفِ اللَّينة بعد التاء.

وقرأ قالون وحفص: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ بالإثبات، وبالهمْزَةِ الساكنة بعد التاء.

وقرأ السُّوسي: [أَإِنَّكُمْ لَتاتُونَ] بزيادة همزة الاستفهام، وبالألِفِ اللّينة بعد التاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ] **بزيادة همزة الإستفهام وبالهمزة السّاكنة بعد التاء.**

أما إبدال الهمزة ألفاً ليّنة فهي من اللّهجَات العربية.

وأمّا القراءتان: ﴿إِنَّكُمْ﴾ و[أَإِنَّكُمْ] فبينهما تكامل في الأداء البياني، فدلّت قراءة: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على أنَّ لوطاً عليه السَّلامُ خاطبهم أوّلاً مثبتاً، ودلَّتَ قراءة: [أَإِنَّكُمْ] على أَنّه صار يخاطِبُهم بعد ذلك مسْتَنْكِراً ما يمَارَسُونه من فاحشَةٍ شنيعة، فاقُوا بها كُلَّ أهل الفواحِش، بأسْلوب الأستفهام الإنكاري، التشنيعيّ.

- وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكَسْرهاء الضمير.

والقراءتان وجهان عربيان في النطق.

موجز عن لوط عليه السّلام وقومه عند المؤرخين:

هو «لوط» ابن أخي «إبراهيم» عليه السلام «هاران بن تارح» وهو «آزر» بن ناحور، وهكذا إلى آخر نسب إبراهيم عليه السلام، على ما ذكر المؤرخون، والله أعلم.

آمن «لوط» بعَمِّه «إبراهيم» عليهما السلام، وهاجَر معه من أرض ما بين النهرين (العراق) إلى كَنْعان (فلسطين) متابعاً له في هجرته، وأرسله الله في حياة عمِّه «إبراهيم» إلى أهل «سَدُوم»، وكانوا يعيشون في مكان البَحْرِ الميّتِ المعْرُوفِ الآن في الأُرْدُن.

ذكر المؤرّخون أنّ أهْلَ «سدوم» كانوا نحواً من أربعمائة ألف، وأنّ لهم خمسَ قرى، هي «صبغة ـ عَمْرة ـ أَذمَا ـ صَبْويم ـ بالع» ورُبَّما كانت «سَدُوم» المركز الرّئيس لهذه القرىٰ، واسماً عامًّا لكلّ أرضهم.

وقد جاءَتْ تَسْمِيَتُهم في القرآن بقوم لوط، وكانت دعوة «لُوطٍ» عليه السلام لقومه على مثل دعوة سائر الرُّسل عليهم السلام.

وكان هؤلاء القوم أهْلَ شُذُوذ جنسيٍّ، يأْتُونَ الرّجال شَهْوَةً من دُونِ النِّساء، وكانُوا يجاهِرُون بفواحِشِهم، فيفْعَلُونها وهُمْ مُجْتمعون ينْظُرُ بعضُهم إلى بعْض، وكانُوا يأْتونَ المنكَرَ في نواديهم، وكانُوا يقْطَعُونَ السبيل، فَلا يَدَعُونَ مسافراً أو تاجراً يَمُرُّ في طَرِيقهم إلاَّ آذوْهُ، واعْتَدَوا عليه، ورُبَّما سَلَبُوهُ مالَهُ.

ولمَّا أكْثَرَ «لوطٌ» عليه السلام في نَهْيِهِمْ عن فواحِشِهِمْ ومُنْكَراتهم، لم يكن من قومه إلاّ أن قالوا: أخْرِجُوا لوطاً وأهْلَه من قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يتَطَّهَّرُونَ.

ويُعجِبُني إطلاق كلمة «السَّدُوميَّة» على فاحِشَةِ إتْيَانِ الذكور، وإماتَةُ كلمة «اللُّوطيَّة» لأنَّ أهْلَ سَدُومَ هم أقبح الناس في ممارَسَةِ هذه الفاحشة، وكان رَسُولهم «لوط» عليه السَّلام هو المؤنّب لهم والمنذر لهم بإهلاك شامل.

ولـمّا صَارَ أهل سَدُوم قَوماً مَيْؤُوساً من إصلاحهم بالدّعوةِ والنصح والترغيب والترهيب، والإنْذَارِ بعقاب اللَّهِ المعجَّلِ الّذِي يَسْتَأْصِلُهُمْ بعَذَابِ وإهلاك شامل، وأصَرُّوا على تكذِيبِ رسُولِ رَبّهم إليهم، وعلى ممارسَاتِهِمْ لفَواحِشِهم ومُنْكراتهم، بعَثَ اللَّهُ لهم ملائِكَةً فقلَبُوا أرْضَهُمْ كُلَّهَا عالِيَهَا سَافِلَها، وأمْطَرَ اللَّهُ عليهم حجارَةً من سجيلٍ، وكان بذلك استئصالُهُم.

وأنْجَىٰ الله عزّ وجلّ «لُوطاً» عليه السلام وأهْلَهُ إلاَّ امرَأَتَهُ، فقد كانت

كافرةً هَوَاهَا مَعَ قَوْمِها، خائنةً لزوجها تنقُل لقومها أخْبَارَ زَوْجها، وتَنْصُرُهم ضِدَّه، فأهْلَكَها اللَّهُ مَعَ قَوْمِها، فكانت من الغابرين.

التدبّر:

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

تمهيد:

سبَقَ هذا النصّ الذي جاء في سورة (الأعراف) تَدبُّر ثلاثة نصوص جاءت في سُور (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) و(القَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) و(صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

فهذا هو النّصّ الرابع بحسب ترتيب النزول من أصل خمسة عشر نصاً، عرضَتْ لَقَطاتٍ مُوزَّعات على خمس عشرة سُورَة، من قصّة «لوط» عليه السلام، وقومه.

● ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾:

جاء في بدْءِ ذكر موجز قصة «نوح» عليه السلام وقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ . . ﴿٥٩﴾﴾.

وجاء في بَدْءِ ذكر موجز قصة «هود» عليه السلام وقومه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا . . . ﴿٦٥﴾﴾.

وجاء في بَدْءِ ذكر موجز قصة «صالح» عليه السلام وقومه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا . . . ﴿٧٣﴾﴾.

فيظهر من هذا أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ هو على تقدير: ولقد أَرْسَلْنَا لُوطاً إلى قومه، فبهذا التقدير ينكشف لنا اتّساقُ البيانِ القرآني في هٰذِهِ الموجزات. ويُؤَكِّدُ هذا الفهم ما جاء بَعْدَ هذه الموجزات من ذكر موجز قصة «شعيب» عليه السلام وقومه، فقد جاء في بَدْئِه أيضاً: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . . ﴿٨٥﴾﴾ فكُلُّها على تقدير: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا» كَمَا جاء في أَوَّلها.

● ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: أي: اذكر أَيُّها المتَلَقِّي الممتَحَنُ المكلَّف ما نُبَيِّنُ لَكَ من قصّة لوطٍ مع قومه حينَ قال لقومه. . . وهكذا إلى آخر القصّة، بمعنَىٰ: ضَعْ هذا في ذَاكِرَتِكَ ليكُونَ هادياً وَواعظاً ومُنْذِراً، وحجَّةً علَيْكَ إذا لَمْ تسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الحقّ الّتي جاء بها الرَّسُول محمد ﷺ، والّتي اشتمل عليها القرآنُ كِتَابُ رَبّكَ للنّاسِ أجمعين.

● ﴿. . أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

الفاحِشَةُ: هي عند أهل اللّغة كُلُّ شيءٍ جاوز قَدْرَهُ وحَدَّه. وتُطْلَقُ هذه اللفظة على القبيح من القول والفِعل، وعلى كُلِّ خَصْلَةٍ قبيحة.

وقد نظرتُ في الاستعمالات القرآنيّةِ لهذه المادّة، فوجَدْتُ أَنَّهَا تَدُور حول الكبائر المتعلّقَةِ بشهوات الفروج، فهذا اصطلاحٌ قرآنيٌّ قائم على تخصيص الكلمة ببعض دَلاَلاَتها اللُّغوية.

ولوطٌ عليه السلام أنكر على قومه بشدَّة، ما يمارسونه بوقاحة من إتيان الرّجالِ في أدبارهِمْ شَهْوَةً من دُون النساء، وإسرافهم في القَبيحَةِ الشّنيعة إسْرافاً لَمْ يَفُقْهُمْ فيها أَحَدٌ من العالمين.

والاستفهامُ في عبارة: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؟! استفهامٌ إنكاريٌّ، فلُوطٌ عليه السلام وجَّهَ لقومه عبارَةَ الإنكار عليهم مع النَّهي والتلْويم، بأسْلوب استِفْهامِ المتعجّب المنكر عليهم كبيرتَهم الفاحِشَةَ، الّتي تواطَؤُوا علَيْها

بوقاحةٍ وشناعةٍ وإعلانٍ دُونَ اسْتخفاء، فَهُمْ يمارِسُونَها مُمَارسَةَ العاداتِ الّتي لا يَتحرَّجُ منها الناس، ويُطَالِبُونَ بِها، ويَسْعَوْنَ إليها كما يَسْعَىٰ الجائعُونَ إلى طعَامِهم، والظَّامِئُون إلى شرابهم.

فعل «أَتَىٰ» بمعنىٰ «جاء»، وحصَلَ تَوسُّعٌ لُغَوِيٌّ في دلالة فعل «أَتَى» فصار يُقَالُ: أَتَىٰ الْعَمَل، أي: فعَلَه. واستُعْمِل هٰذا الفِعْلُ كِنَايَةً عن الجماع، في قوله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ... ﴿٢٢٣﴾﴾ أي: في موطِنِ الحرْثِ الَّذِي تخْرُجُ مِنْهُ الأَجِنَّة.

- ﴿..مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: أي: من النّاسِ، فالمراد بالعالمين هنا النّاس، هذا ما تدلُّ عليه القرائن(١).

السَّبْقُ: يُسْتعمل بمَعْنَيين: السَّبْق الزّمانيّ، والسَّبْق بمقدار كميَّةِ الْعَمَل أوْ كيفِيَّتِه. وما أظُنُّ أنَّ مُمَارَسَة فاحِشَةِ إتْيان الذكُور لم تَكُنْ معروفَةً في تاريخ البشريَّةِ قَبْلَ قَوْمِ لوط، لكِنْ لَمْ تصِلْ أُمَّةٌ من الأُمَمَ الفاجِرَةِ إلى مثْلِ ما وصَلَ إلَيْه قوم لوط، فيما مضى من أَهل القرون السّابقة لهم، ولم تَزِدْ عَلَيْهم في كَمّ الْفُحْشِ ولا في كَيْفِيَّتِهِ أُمَّةٌ غابِرَة ولا مُعَاصِرَةٌ لهم، فقد كان قوم لوطٍ في هذه القبيحة مُسْرِفين جدّاً، فَاقُوا به جميع معاصريهم والسّالفين من الأمم.

وأرى أن المراد بالسَّبْق المعنى الثاني، لا السَّبْقُ الزّمَاني، وعبارة ﴿مَا سَبَقَكُم﴾ تُشْعِر بأَنَّهم أَكْثَرُ وأشْنَعُ وأَفْحشُ مُعَاصِريهم ومن مضَىٰ من فُسَّاق الأقوام والشعوب في ارتكاب الفواحش، ولا سيما الشَّاذَّة منها.

---

(١) لفظ «العالمين» قد يراد به ما سوى الله عزّ وجل، وقد يراد به الإنس والجنّ والملائكة، وقد يراد به الإنس والجنّ فقط، وقد يراد به الإنْسُ فقط.

وتبادر لأذهان المفسرين المعنى الأوّل، ولسْتُ أراه المعنى المراد، والله أعلم.

و«مِنْ» في عبارة ﴿مِنۡ أَحَدٖ﴾ حرف جرٍّ زائدٍ جيءَ به لتوكيد عموم النفي، وهو داخل على الفاعل بعد النفي.

● ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ . . . ﴿٨١﴾﴾:

بهذا أبَانَ لهم «لوطٌ» عليه السلام، أنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ فواحِشِهِمْ الّتي سَبقُوا بها غَيْرَهُمْ من العالمين، أنَّهُمْ يَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً من دُونِ النساء، وتعْتَبر هذه الجملة تفسيراً للجملة السابقة لها: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿شَهۡوَةٗ﴾ هذا اللفظ منصوبٌ على أنه نائب مفعول مُطْلق لبيان نوع الإتيان، أو على أنّه مفعُولٌ لأجله. **الشَّهْوة**: الرغبة في الشيء لما فيه للنفس من لذّة جَسَدِيَّةٍ أو نَفْسيّةٍ.

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾: أي: حالة كوْنِ إتيان الرّجال لأجْلِ الشهوة، هو دُون إتْيَانِ النساء لتحقيق هذه الرَّغبة، إذِ النّساءُ أطْهَرُ، ولهُنَّ المكان الصالح للحرث والبذر، أمّا الأدبارُ فبؤرَةٌ جُرْثوميَّة قَذِرَة، جالَبةٌ للأمْرَاضِ والأوجاع، والفطرة السّويَّةُ تجْعَلُ الذّكُور ذوي ميل طبيعيّ لقضاء شهوات الفروج في فروج النساء، مع الاستمتاع بلين أجسادِهِنَّ ونُعُومَتِهن، ومختَلِفِ مظاهر أنوثتِهِنّ. أمّا مَيْلُ الذكور إلى الذكور لقضاء شهواتِ الفروج فَشُذُوذٌ عَنْ أَصْلِ الفِطْرة.

وقد جعل الله عزّ وجلّ إتيان الذكور للذكور لقضاء شهوةِ الفرج، عملاً مُحَرَّماً في كُلِّ مَا أَنْزَلَ لعباده من رسالاتٍ على رُسُلِه.

وجَاءَ في القراءة الأُخرى: ﴿أإنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ، فدلَّ هذا على أن «لُوطاً» عليه السّلام

خَاطَبَهُم أوّلاً مُبيِّناً قَبِيحَتَهُمْ هٰذه، ثُم خَاطَبَهُمْ مُسْتَنْكِراً بأسلوب الاستفهام، بَعْد أَنْ وجَدَهُمْ غَيْر مُبَالِين بإثْبَاتِ أنهم يمارسُون هٰذهِ الفاحشَة، ورُبَّما ذكَرُوا له أنَّهم لا يَجدُون مانعاً من الاجتماع عَلَيْها والاستعلان بها، فالْقِراءَتَان مُتكامِلَتَان في أداء الْمُرادِ بَيانُه من المعاني.

● ﴿..بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾: تفصح هذه العبارة عن مطويٍّ لم يُصَرّحْ به في اللّفظ، ولكِنْ يمكِنُ استخراجُه بالتدبّر.

إنّ «لوطاً» عليه السلام لما شدَّد الإنكار عليهم بشأن قبيحة إتيانهم الرّجال شَهْوَةً من دُون النساء، لا بُدَّ أن يكونوا قد قالُوا له: لَسْنَا الْوَحيدين بين الأمم والشّعُوب الّذِين يُمَارِسُون إتْيَان الرّجال لقضاء شهواتنا، فغَيْرُنا يُمَارسُ هذا العمل أيضاً.

فقال لهم «لوطٌ» عليه السَّلاَمُ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: في ممارسة هذه الفاحِشَةِ القبيحة، حتّىٰ تفوّقْتُمْ فيها على مَنْ سواكم من مَاضِين ومُعَاصرين، وتجاوزْتُم الحدودَ التي وصلت إليها أكثر الأقوام فُجوراً.

الإسراف: تجاوز الحدّ المحتَمَل، فإذا كانت المعصِيَةُ الشّاذّة موجودَةً في أُمَّةٍ بنسبة عشرين في المئة من أفرادها، إلى ثلاثين في المئة، فإنّ الأُمَّةَ بمجموعها لا تعتبر مُسْرِفةً، أمّا إذا كانت موجودة بنسبة ستين في المئة من أفرادها إلى سَبْعين في المئة، فإنّ الأمّةَ بمجموعها أمّةٌ مُسْرِفَةٌ في هٰذِه المعصِيَة الشّاذَة، فإذا زَادَتْ هٰذه النسبة كانَتْ أكْثَرَ إسْرافاً وأشْنَع وأَقْبَح بَيْنَ الأُمَم، ولا سيمَا إذا وصَلَتْ إلى حَدِّ المجاهرة العلنيَّة بقبيحَتها.

* * *

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

«الواو» في أوّل هذه الآية عاطفة على محذوف يمكن بالتأمّل إدراكه، أي: فاستَهانَ كُبَراء قَوْمِهِ بنصائحه، وبتثريباته لهم على فواحشِهِم الشّاذة، ومَا كانَ جوابُهم إلاّ أن وجّهُوا الأمْرَ لعامَّتِهِم وأتْباعهم قائلين لَهُمْ: أَخْرِجوا «لوطاً» وآلَهُ من قَرْيتِكُمْ، لأنّهُمْ أُنَاسٌ يَتَشدَّدُونَ في البُعْدِ عن مواطِنِ القذاراتِ الّتي تَجِدُونَ لذّاتِكُمْ واستمتاعات فروجكم فيها، ويتَشَدَّدُون في التورُّع عن فِعْلِ المنكراتِ الّتي يَرَونَها خَبائِثَ، فهُمْ على خلاف طريقَتِكُم، وَوُجودُهُمْ بيْنَكُمْ مع إنكارِهم عليكُم يُنَغِّصُ عليكم عيْشَكُمْ، ويَعكِّرُ علَيْكُمْ صَفْوَكُمْ.

إنّ عمليّة إخراج المُوَاطِنِ منْ وَطَنِهِ هي ما يُعْرَفُ بعقوبَةِ النَّفْي، أو سَحْبِ الجنسيَّة من مكتَسِبها مع الطَّرْدِ من الْبلاد.

وقد كان «لوطٌ» عليه السَّلام قد اكتسب حقَّ المواطنة في أرْضِ سَدُوم منذُ سِنين، وصارَ بها وربَّما بالمصاهرة مِنْ إخوانهم.

* * *

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

دلَّتْ عبارةُ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ على أنّهُ صَدَرَ الأَمْرُ الرَّبَّانِيّ بإهلاك قومه كلهم ومعهم امرأته التي كانت على هوى قَوْمِهَا، وبمَا أنّهُ عليه السَّلام هو وأَهْلُهُ المؤمِنُونَ، قَدْ كانوا ما زالُوا ضِمْنَ أرْضِ سَدُوم فقد كان لا بُدَّ من اتّخاذ وسيلةٍ لنجاتِهِمْ من وَسَائلِ الإهلاك الشامل الّتي سَيُنْزِلُهَا الله جلَّ جلاله في كُلّ أرْضِهم.

وجاء بيان إنجائهم في نَصّ آخر، أبان أنّ الرُّسُلَ من الملائكة المأمورين بإهلاك قومه قالوا له: لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إنّا مُنْجُوكَ وأَهْلَكَ إلاّ امْرَأَتَكَ، ثُمَّ قَالُوا له عند اقتراب الصُّبح: فَأَسْرِ بأَهْلِكَ بقِطْعٍ من اللّيْلِ وَلاَ يلْتَفِتْ مِنكُمْ أحَدٌ إلاَّ امْرَأَتَكَ إنَّهُ مُصِيبُها مَا أَصَابَهُمْ إنّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصَّبْحُ بِقَريبٍ؟.

- ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: كانت من الباقين مع قومها في

أرْضِ الدَّمار، ومَضَتْ مع الهالِكين المعذبين من قومِها حينَ أنزل اللَّهُ بهم وسائل التعذيب والهلاك.

الغابر: يأتي في اللُّغَة بمعْنَيَيْن:

المعنى الأوَّل: الماكث في موضعه الّذي لا يتحوَّل.

المعنى الثاني: الذاهِبُ الماضي الذي لم يَبْقَ له وجود.

وكلٌّ من هٰذين المعنيين ينطبقان على قوم لوط وامرأته معهم، فقد مَكَثوا في الموضع الّذي نَزلَتْ فيه وسائل التعذيب والإهلاك، ولم يسْتطيعُوا أن يتحوَّلُوا عنه، وبَعْدَ إهلاكِهِم ذَهَبُوا إلى فَنَاءِ أَجْسَادهم مع الذّاهبين، ومَضَوْا مع الماضين، فلا وُجُود لَهُمْ في الحياة الدُّنيا.

واستعمال اللّفظ في مَعْنَيَيْهِ أو في مَعَانيه الّتي لا تناقُضَ بَيْنَها وَلاَ تضادّ، من الإيجاز البديعِ في القرآن المجيد.

* * *

- قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: **الْمطَرُ**: هو الماء الذي يَنْزِلُ من جهة السَّمَاءِ على شَكْلِ قطراتٍ صغيراتٍ أوْ كبيراتٍ، وقد ينصبُّ انْصِبَاباً شَدِيداً كالماء الّذي ينْصَبُّ من أفواه القِرَب، وهذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾.

وقد يُطْلَقُ لفظ «المطَرِ» وفِعْلُ «أَمْطَرَ»، على ما يَنْزِلُ من جِهَةِ السَّماءِ مِن حَصْبَاءَ أو حجارةٍ، أو وسائلِ تَعْذِيبِ أُخْرَىٰ، مُشَابِهَةٍ في نُزُولِها لأنواع مطَرِ الماء الذي يَنْزِلُ من جهةِ السَّمَاء، وهذا على سبيل الاستعارة القائمة على التَّشْبيه، وقد أمْطَر الله على قوم «لوطٍ» عليه السلام هذا النوع من الحجارة الذي نزل عليهم كالمطر.

فقد دلّت نُصُوصٍ أخرىٰ على أنّ المطرَ الّذي أنزَله اللّهُ على قَوْم «لوط» عليه السلام قد كان «مَطَرَ السَّوْءِ» أي: مَطَر العذاب، وأنَّهُ كان «حِجَارَةً من سِجّيلٍ مَنْضُودٍ» أي: من طينٍ مُتحجّرٍ مُتَمَاثل مُتسِقٍ متقاربٍ بعضُهُ من بعضٍ، ورُبَّما كان للنار أثرٌ في جَعْلِه متَحَجِّراً.

فكان هذا المطر وسيلةً من وسائل تعْذِيبهم وإهلاكهم، إضافةً إلى قَلْب بلادهم عاليَها سَافِلَها، كما جاء في بعض النصوص الأخرى.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾: أي: فانْظُرْ نَظَرَ تَفكُّرٍ واعْتِبَارٍ بِسُنَّةِ اللّهِ في عبادِهِ المجرمِين، كَيْفَ كانَتْ عاقِبَتُهُمُ الْوَخيمَةُ الَّتِي عَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِها، بمُقْتَضىٰ عَدْلِهِ الَّذِي هُوَ مَظْهَرٌ من مظاهِرِ حِكْمَتِهِ جلَّ جلاله.

والْخِطَابُ مُوجَّهٌ على سبيل الخطاب الإفراديّ لكلِّ مُؤَهّلٍ لأنْ يَسْمَعَ الْخِطَابَ ويَفْهَمَه، وذُو الْعَقْل والرُّشْدِ هُوَ الَّذِي يتَّعِظُ فلا يكون من المجرمين، حتَّىٰ لاَ يُعَاقَبَ بعقابٍ يكونُ فيه عذابُه وهلاكُهُ في الدُّنيا، مع عقابٍ آخرَ مُدَّخرٍ إلى يَوْمِ الدِّين للمجرِمين.

* * *

الفصل الخامس
التدبّر التحليلي للقطَاتِ المختارات
في هذه السورة من قصة شعيب عليه السلام وقومه
الآيات من (٨٥ ـ ٩٣)

قال اللّهُ عزَّ وجل:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟

ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ
إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا
فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ
مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ
بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ
يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾
قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ
أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا
ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن
قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ
هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ
لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

القراءات:

(٨٥) ● قرأ الْكِسَائِي، وأبُو جَعْفَر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بجرّ الراء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] بِرَفْعِ الراء.

جرُّ الرَّاءِ رُوعِيَ فيه لَفْظُ [إِلَهٍ] إِذْ هُوَ صِفَةٌ لَه.

ورفْعُ الرَّاءِ رُوعِيَ فِيه مَحَلُّ لَفْظِ [إِلَهٍ] إِذْ هو مَرْفُوعٌ مَحَلاً عَلَىٰ أَنَّهُ مُبْتَدأٌ مَجْرُورٌ لَفظاً بِحَرْفِ الجرّ الزَّائِدِ الَّذي جيء به لتَأْكيد عُمُومِ النفي والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

(٨٦) ● قَرَأَ قُنْبُلٌ، وَرُوَيْس: [سِرَاطٍ] بالسِّين، وقرأ بالاشْمَامِ خَلَفٌ عَنْ حَمْزَةٍ.

وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: [صِرَاطٍ] بالصَّادِ.

هَذِهِ القراءات وجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ لِنُطْقِ الْكَلِمَة.

موجز عن شُعَيبٍ وَقَوْمِهِ عِنْدَ الْمُؤَرِّخِين:

أَهْلُ مَدْينَ قَوْمُ النبيّ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانُوا قَوْماً عَرَباً، وكانت مَوَاطِنُهُمْ ما بَيْنَ الحجازِ وَخَلِيجِ الْعَقَبَةِ بِقُرْبِ سَاحِلِ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ، شَمَالِيّ الْحِجَازِ، وجَنُوب فِلِسْطِينَ، وَقَاعِدَةُ أَرْضِهِمْ تَقَعُ مَا بَيْنَ مَعَان إلى الْعَقَبَةِ فَتَبُوك، وتمتَدُّ جِبَالُ مَدْيَنَ فِي الْحِجَازِ امْتِدَاداً طَوِيلاً.

ومَدْيَنُ «المدينة» هي الآن مَدِينَةٌ خرَابٌ على بَحْرِ الْقَلْزَمِ[1] (= البحرُ الأحمر) مُحَاذِيَة لِتَبُوك من بلاد الشّام، على نحو سِتّ مَراحِلَ مِنها، والأرضُ التي تقعُ شرقيّ خليج العقبة تسمّى الآن «مَدْيان».

وقد سمِّيَ هؤلاء القوْم باسم جَدِّهم «مَدْيَنَ» بْن إبراهيمَ الخَلِيلِ عليه السّلام، من زَوْجَتِهِ «قَطُورَةَ» الَّتي تَزَوَّجها بَعْدَ موتِ زَوْجَتِهِ «سارَة».

قَالُوا: وَتَزَوَّجَ «مَدْيَنُ» ابْنَةَ «لُوطٍ» عليه السَّلاَم، ورزَقَهُ اللَّهُ مِنْها خمسة بنين، وَذَكَرُوا أَنَّ إبراهيم عليه السلام أَسْكَنَ مَدْيَنَ وَذُرِّيَّتَهُ في دِيارِهِم الواقعة وسَطاً بَيْنَ مَساكنِ ابْنِهِ إسماعيل وذرِّيَّتِهِ في الحجاز، ومساكِنِ ابْنِهِ إسْحَاقَ وَذُرِّيَّتِهِ في فِلِسْطِين.

ويُسَمِّي أَهْلُ الكِتَابِ «مَدْيَنَ» باسْمِ «مَدْيَان».

وظَهَر النبيُّ الرَّسُولُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَدْيَنَ بْنِ إبراهيم عليه السلام، وكانَ لِسَانُهُ وَلِسَانُ قَوْمِهِ الْعَرَبِيَّة، وفي نسبه إلى مِدينَ عدّة أقوال أَعْرَضت عن ذكرها.

---

[1] الْقَلْزَم: كان ميناءً حُرّاً، وكانت فُرْضَة مصر والشام على البحر الأحمر، وكانت أشبه بسوقٍ دَوْلية. (انظر: أطلس تَارِيخَ الإسلام. د. حُسَيْن مُؤنس).

ويُطْلَقُ علىٰ هؤلاء القوم «أهْلُ مَدْين» لأنَّ أَرْضَهُمْ سُمِيَتْ باسْمِ جدِّهِم «مَدْين».

ويُطْلَقُ عليهم أَوْ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ أصْحَابُ الأيْكَةِ، إذْ كانَتْ لَهُمْ أيْكَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تُقْصد «الأَيْكَةُ: هي غَيْضَةٌ ذَاتُ أشجارٍ كثيرَةٍ مُلْتَفَّة، تُنبِتُ نَاعِمَ الشَّجَر» وكانَ فيها شَجَرَةٌ يَعْبُدُها بَعْضُهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وكان إرسالُ «شُعَيْبٍ» عليه السَّلاَمُ إلىٰ قَوْمِهِ قَبْلَ بِعْثَةِ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ بِزَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ.

ومِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ شُعَيْباً وَقَوْمَهُ كَانُوا عَرَباً، ما جاء في صحيح ابْنِ حِبَّانِ عَن أَبي ذَرٍّ في ذِكْرِ الأنبياء والرُّسُلِ عليهم السَّلاَمُ، أَنَّ الرَّسُولِ ﷺ قَال:

«أَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَب: هُودٌ، وصَالِحٌ، وشُعَيْبٌ، وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ».

وَرُوِيَ عن ابن عبَّاسٍ قال: كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ شُعَيْباً قالَ: «ذَاكَ خَطِيبُ الأَنْبِيَاءِ».

ويُقَالُ: إنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي تَزَوَّجَ بِهَا مُوسَىٰ عليه السَّلامُ حِينَ قَدِمَ أَرْضَ مَدْيَنَ فاراً مِنْ مِصْرَ، هِيَ بِنْتُ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. بَعْدَ إِهْلاَكِ قَوْمِهِ، ونَجَاتِهِ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

أَمَّا أَهْلُ مَدْيَنَ فَقَدْ وَرِثُوا الدِّينَ الْحَقَّ عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، الَّذي كان دِينَ جَدِّهم مَدْيَنَ بن إبراهيم، وكانوا يُتاجِرُونَ مع أهل فلسطين ولبنان ومصر.

ولكِنْ لم يَطُلْ بِهِمُ الْعَهْدُ حَتَّىٰ هَجَرُوا دِينَهُمْ الّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، ودَخَلَتْ فيهم الوثَنِيَّةِ، فَأَشْرَكُوا باللَّهِ وَعَبَدُوا غَيْرَه، وانحَرَفُوا عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ المستقيم، وانْتَشَرَ فيهِمُ الظُّلْمُ والْعُدْوانُ عَلَىٰ الحقوقِ، وجَعَلُوا يُفسِدُونَ في الأَرْضِ بَعْدَ إصْلاَحِها، وَيُطَفِّفُون في المكاييلِ والموازينِ، وَيَبْخَسُونَ النَّاسَ

أَشْيَاءَهُمْ، وَيَصُدُّونَ عن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ، إِذْ كانُوا يَفْرِضُونَ على النّاسِ المكُوس، ويَتَهَدَّدُونَ النَّاسَ وَيَتَوَعَّدُونَهُم، ويُجَادِلُونَ بِالْبَاطل.

فبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رُسُلاً، فكذَّبُوهم، ولَمْ يَرْتَدِعُوا عَنْ قَبَائِحِهِمْ، وكَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ آخِرَهم، فكذَّبُوهُ وَهَدَّدُوهُ بأنْ يُخرِجُوهُ هُوَ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ قَرْيَتِهِمْ حَاضِرَةِ مَسَاكِنِهِمْ، إِذَا لم يَعُودُوا عن الدّينَ الَّذِي جاءَهُمْ به، ولَمْ يدخُلُوا في مِلَّتِهِمْ حتَّىٰ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ عَقِيدَةً وسُلُوكاً، ثُمَّ هَدَّدُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ قَائِلِينَ لهم: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ.

ولمَّا عَلِمَ اللَّهُ عَزّ وجلّ أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهَا، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَتْرُكُوا مَا هُمْ فِيهِ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الحرَّة، وَتَحدَّوْا نُذُرَ الْعَذَاب، وقالُوا لِرَسُولهم شُعَيْبٍ عليه السَّلام:

(١) إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسَحَّرِين.

(٢) وَمَا أَنتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا.

(٣) وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمَنَ الْكَاذِبِين.

(٤) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً[1] مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين.

كان من الحكمة أنْ يُنجِيَ اللَّهُ عز وجلّ رسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ منه، وأنْ يُنْزِل بالذين كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما يُعَذِّبهم به، ويُهْلِكَهُمْ إهلاكاً شاملاً.

ونَفَّذَ اللَّهُ عَزّ وجلّ إرادتَه الَّتي اقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ، فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ[2].

---

(١) كِسَفاً: أي: قِطَعا فيها إهلاكٌ وتَعْذِيب.

(٢) الظُّلَّة: في اللغة، هي كلّ شيءٍ أَظَلَّ وستَرَ مِنْ فَوْق، وما أَطْبَقَ على الشيءِ مِنْ فَوْقِه.

قالوا: وكانت الظُّلَّةُ الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها الكَفَرَة المجرمين من أهل مدْيَن أصْحَابِ الأيْكَةِ غَمَامَةً حَارَّةً تَحْتَهَا سَمُومٌ أَطْبَقَتْ عليهم، فَعَذَّبَتْهُمْ بالْحَرَارَةِ والاخْتِنَاق، وأجْهَزَتْ عَلَيْهِم رجفةٌ في الأَرْضِ بِزَلْزَلَةٍ عظيمة، وتَبِعَتْها صَيْحَةٌ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِهِم، فصَارُوا في ديارِهم هَلْكَىٰ جَاثِمِينَ.

هذا مُوجزُ ما ذكَرَ المؤرِّخُونَ بشَأْنِ النبيّ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عليه السلام، وقَوْمِهِ أَهْلِ مَدْينَ أصْحَابِ الأَيْكَة.

التدبّر:

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٧)﴾.

تمهيد:

هذا هو النصّ الثالث بحسب ترتيب النزول من النصوص العشرة الَّتي جاءت في القرآن المجيد بشأن هَؤُلاء القوم(١).

وقد جاء قبله نصٌّ في سورة (ق/ ٣٤ نزول) ونصٌّ في سورة (ص/

---

(١) انظر الدراسة التكاملية لهذه النصوص في الملحق السادس من ملاحقِ هذه السورة.

٣٨ نزول) وإيراد هذا النّص في سورة الأعراف دَعَتْ إليه مناسبة إنْذارِ الذين كذّبوا بآياتِ اللّهِ المنزّلات على رسوله، واسْتَكْبَرُوا عن اتّباع مَا جَاءَ فيها من شرائع وأحكام، وهذا الإنذار يتضمَّن أنّهم إِذَا أَصَرُّوا على موقفِهِم من التكذيب بآيات الله المنزَّلاتِ على رسُولِهِ محمّد ﷺ في كتابِهِ، والاستكبار عنها فإنّهُمْ يُعَرِّضُون أنفسهم للإهلاك، كما أَهْلَكَ اللّهُ عَزَّ وجلَّ الّذين فَعَلُوا مِثْلَ هذا من أهل القرون الأولى.

وفي هذه الآيات من هذا النص إيجازٌ لمعظم عناصر دعْوةِ شعيب عليه السلام لقومه، وهي تشتمل على ثلاث عشرة قضيّة، بَعْدَ بيان أنّ اللّهَ عزّ وجلّ أرْسَلهُ نبيّاً وَرسُولاً إلى مَدْين.

● قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى الْقَوْمِ المعْرُوفين باسْم «مَدْينَ» النبيَّ الرَّسُولَ «شُعَيْباً» وقَدْ كان مِنْهُمْ نَسَباً ولُغَةً وَمَوْطِناً، وَوَصَفَهُ اللّه بأنَّهُ أخُوهُمْ وبدأ النصّ مصدّراً بحرف العطف «الواو» لأنّ قصة شعيب معطوفة على ما سبقها في السورة بدءاً من قصة نوحِ عليه السلام.

أَمَّا القضايا «الثلاث عَشرة» التي اشتملَتْ عَلَيْها دَعْوَةُ شُعَيب لقومه والّتي جاء بيانُ عُنوَانَاتِهَا في هذا النَّصّ، فأُتابِعُ تَدَبُّرها فيما يلي إنْ شَاءَ اللّهُ:

القضيّةُ الأُولى: دلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾:

نُلاَحِظُ أنّهُ عليه السلام نَادَىٰ أَهْلَ مَدْينَ نِداء تكريم واسْتعطاف بقوله لهم ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أصْلُهَا «يَا قَوْمِي» حُذِفَتْ يَاءُ المتكلّم وَبَقِيَتِ الكَسْرَةُ دَلِيلاً عليها، وهذا قياس مُطّرد في المنادى غير المعتل وغير الوصف المشبه للفعل.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: بَدأَهُم بالأَمْرِ بعبادَةِ اللّهِ، لأنَّ عبادَةَ اللّهِ عزّ وجَلَّ

هي الواجبُ الأوّلُ بَعْدَ الإيمان به، وإعلان الإسلام له، وإعلان الحرص علَىٰ طاعَته. وأوّل خُطواتِ العبادة تكونُ بطاعة اللّهِ في تأدِيَةِ ما أمَرَ بِهِ، واجْتِنَاب مَا نَهَىٰ عَنه، وتكُونُ بِدُعائِهِ، ثُمَّ بالتَّقرُّب إلَيْهِ بمحَابّه.

ويظهَر أنّ هؤلاء القوم كانوا بَعِيدين تماما عن عبادة الله، مستغرقين في أُمور دنياهم.

القضيَّة الثانية: دلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: بَعْدَ خُطُوة الأمْرِ بِعِبَادَةِ الله، تأتي خُطْوَة أَمْرِهِمْ بإفراد اللّهِ بالعبادة، دُون أنْ يَدْخُلَ فِيها أيُّ شِرْك.

والمعنى ما لَكُمْ في الوجودِ كُلِّهِ مِنْ مَعْبُودٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إلاَّ الله وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له. لأنَّهُ لاَ رَبَّ في الوجود غَيْرُهُ جَلَّ جلالُه، فَلاَ إِلَـهَ يُعْبَدُ بِحَقٍّ سِوَاه، وَكُلُّ إِلَـهٍ يُتَخذُ من دُونِ اللَّهِ بَاطِلٌ لاَ حَقِيقَةَ لإلـهِيَّتِهِ، إِنَّما هي أسْمَاءٌ سمَّاهَا المشركون، ولَيْسَ شيْءٌ مِنْهَا لَهُ مِنَ الإلَهِيَّةِ شيْءٌ ما.

وعبارة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تَدُلُّ عن طريق اللُّزومِ الذهْنِيِّ على مطويٍّ في اللّفْظِ مُلاَحَظٍ في الذّهن، بعد عبارة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اَعْبُدوا اللَّهَ وَوَحّدُوه بالعبادة، ولاَ تُشرِكُوا بِهِ شيئاً ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وقَدْ سبَقَ تحليل عبارتي هاتين القضيّتَيْن لَدَى تَدَبُّر موجز قصة نوح وقومه، وموجز قصة هود وقومه، وموجز قصة صالح وقومه.

القضيَّةُ الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: لقد ظهر لي أن المراد بكلمة: ﴿بَيِّنَةٌ﴾ هُنَا مَا أَنْزَلَ الله عزّ وجلّ على شعيب عليه السّلامُ من آيات الكتاب الّذي اشتمل على رسالات الله التي كانَ يُبَلِّغُهُمْ إيَّاها تِبَاعاً، وما آتاه من آيات تَدُلُّ على أنه رسول مِنْ رَبِّهِ لهم مؤيَّدٌ بما يثبت نبوته ورسالته.

البيّنَة: في اللّغة هي الواضحةُ الظاهرة الّتي لا شكَّ فيها ولا غُمُوض،

وَلاَ غَبَشَ عَلَيْهَا، من «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَاناً» إذا اتَّضح، فهو «بَيِّنٌ» وهي «بَيِّنَة».

وقد أُطْلِقَت الْبَيِّنَة في القرآنِ على الرِّسَالةِ الرَّبَّانِيّة الواضحة، وعلىٰ الرَّسُول، وعلى الصُّحُف والكتب المنزَّلَةِ من عند الله عزّ وجلّ، وعلى الآيات والمعجزات الواضحات الجليّات.

ولفظ «بَيِّنَة» أو «الْبَيِّنة» قد يأتي صفة لموصوف محذوف، ويُقَدَّرُ في كُلّ مَوْضوع ما يلائمه.

ومن إطلاق لفظ «البيّنة» في القرآن على الرَّسُول والقرآن، قول الله عزّ وجلّ في سورة (البيّنة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾.

وأرى حَمْلَ لفظ ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الذي جاء في مقالة شعيب عليه السلام لقومه، على معنى الذِّكرِ المنزَّل عليه مِنْ رَبِهِ، وعلى كونه رَسُولاً لهم من رَبِّهم مُؤَيّداً بالآيات الدَّالاَت عَلَىٰ نبوَّته ورسالته.

وقد يشمل هذا اللّفظ ما آتاه الله من آياتٍ دالأتٍ على أنّه رَسُولُ الله حقًّا وصِدْقاً، وعلى ما آتاه الله من حُجَج بُرْهانِيَّةٍ دامغة.

على أنّ المقصود الأوّل فيما أرى آياتُ الكِتاب الّذي كان يُوحَي بِهِ إليه مُنَجماً، لأنّ خطَّ السُّورة الأعْظم مرتبط بقول الله عزّ وجلّ في صدر السُّورَة:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

وفي اختيار عبارة: ﴿رَّبِّكُمْ﴾ إشعارٌ لَهُمْ بما يجب عليهم عقلاً تُجاهَ عطاءات رُبوبيَّتِهِ لكلّ واحدٍ منهُمْ، والّتي لاَ تنْقَطِعُ عنهُ أقَلَّ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ تَمُرُّ عَلَيْهِ، ما دام في الوجود.

القضية الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾: أي فَكِيلُوا إذَا كِلْتُمْ، وزِنُوا إذا وَزَنْتُم للنَّاس، كيلاً أو وَزْناً وافِياً تامًّا غَيْرَ مَنْقوصٍ، فَلا تَهْضِمُوا حُقُوقَ الناس إذَا كِلْتُمْ أَوْ وَزَنْتُمْ لهم.

يُقَالُ لغة: أوْفَىٰ فُلانٌ الشَّيْءَ يُوفِيهِ إيفاءً، أي: أَتَمَّهُ وافياً كاملاً غير منقُوصٍ، وكذلِكَ «وَفَّىٰ». ويُقال: وَفَّىٰ وأوفَىٰ الْمَدِينُ الدَّائِنَ حَقَّهُ، أي: أعْطَاهُ إيَّاه وافياً تَامًّا غَيْرَ منقوص. ومنه الوفاء بالوعد والعهد.

الكيل: مصْدَرُ «كَالَ»: **تقولُ لغة**: كَالَ الحبَّ كيلاً وَمَكَالاً، إذَا تَعرَّفَ على مقداره بالمكيال. وهو وعاءٌ مَعْروف بين الناسِ مقدارُ مَا يَسْتَوعب، تُكالُ بهِ الأشياء التي توضع فيه، من حبوب أَوْ سوائل أو غيرها.

الميزان: هو الآلة الَّتي توزن بها الأشياء لِتُعْرَفَ مقاديرُها، ويُطْلَقُ أيْضاً على المثاقيل ذَاتِ المقادير المعلومة، الَّتي توضع في إحدى كِفَّتي الميزان، لتُوزَنَ بها الأَشْياء ذَاتُ المقادير المجهولة.

ويُطْلَقُ لفظ «الميزان» ويرادُ به عمليّة الوزن، وهذا من إطلاق أداة الشيء على المصْدَرِ الَّذِي يَدلُّ على الحدَث.

ونُلاحظ في عبارة ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أنّه ذُكِرَ الكَيْلُ الَّذِي هو المصْدَر الدَّالُّ على الحدث، لِيَدلَّ على إلْزَمِهِمْ بأَنْ يُوفُوا المكْيَالَ حَقَّهُ إذَا كَالُوا، فلا يَحْتَالوا بأيَّةِ حيلَةٍ للنَّقْصِ ممَّا يكيلُونه للنّاس، كتَرْكِ فراغاتٍ في المكيالِ لاَ تُمْلَأُ بالشَّيْءِ الَّذِي يُرادُ تَقْدِيرُهُ بِهِ من ذَواتِ القيمة.

ويُفْهَمُ ذِهْناً مِنْ وُجوبِ إيفاءِ الكيل أَنْ يكُونَ المكيال صَحِيحَ المقادير، وَافِيَ الفراغ فيه حسبَ التحديدات المتعارف عليها في أمْثاله.

أَمَّا في الوزن فقد ذَكَر اسْمَ آلَتِهِ، فألْزَمَهُمْ بأنْ تكُونَ آلَةُ الوزنِ وافِيةَ الأداء لوظيفتها، لا تنقُصُ شيئاً من مِقْدار الموزُون بها، ويُفْهَمُ باللُّزُوم الذِّهنِيّ وُجوبُ إيفاء عَمَلِيَّةِ الْوَزْنِ، وعَدَمُ التحايل فيها للنقص من الموزون بها للناس.

فصارَت دَلاَلَةُ الكلام بصريح اللَّفظ ولوازمه الذهنيَّة بقُوَّة ما لَوْ قَالَ لهم: فاوْفُوا الكَيْلَ والمكيال، والوزْنَ والميزان، وهذا الأَمْرُ يسْتَلْزِمُ عقلاً النهي عن ضدّ الإيفاء، وهو النقص.

ويَدُلُّ أَمْرُ شعيب عليه السّلام لقومه بأن يُوفُوا الكيلَ والميزان أنّهم محتالون على الناس مُخْسِرُون، فيأكُلُون بذلك أموال الناس بالباطل.

القضية الخامسة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: أي: وَلاَ تنقُصُوا الناسَ أشياءَهُمْ، سَواءٌ أكانَ ذلك عن طريق الكَيْلِ والْوَزْنِ، أَمْ عَنْ طَرِيقٍ آخر.

هذه القضية جاءت على طريقة التعميم بَعْدَ التخصيص، فَبَخْسُ أشياءِ النَّاسِ أعَمُّ من عَدَم إيفاء الكَيْلِ والميزان.

الْبَخْسُ: هو النقص، وفعْلُ «بَخسَ» مِثْلُ فِعْلِ «نقَصَ» يَتَعَدَّى إِلَىٰ مَفْعُولَيْن.

وظاهرٌ أنَّ النقْصَ عنِ الحقّ مع الْعِلْم لاَ يَكُونُ إلاَّ بظُلْم، وقَدْ تُسْتَخْدَمُ فيه وسائل الاحتيالِ والكذِب والمخادَعَة.

ويَدُلُّ تَدَبُّرُ مُوجَزَاتِ مقالات شعَيْبٍ عليه السّلام، علىٰ أنَّه كان من فصاحَتِهِ وقُدْرَتِهِ على الخطابَة يُنوّعُ في الكلمات، وفي الأَسَالِيب، علىٰ ويأتي إلى المعنىٰ الواحِدِ مِنْ وُجُوهٍ مخْتَلِفة، فمرَّةً يأتي من جهة الإيجاب، ومَرةً يأتي مِنْ جهة السَّلْب، ومَرَّةً يُخْتَارُ تَعْيينَ القضيَّة، وأخْرَى يختار إدْخالَها ضِمْنَ قَضِيَّةٍ عامّة، وهكَذا تَكُونُ بَرَاعَةُ الْخُطَبَاء.

إنَّ التَّلاعُبَ في الكيل والْوَزْنِ، والمكاييلِ والموازينِ، هو من أكْلِ أَمْوالِ الناسِ بالباطل، وأَكْلُ أموال الناس بالباطِلِ يَدْخُلُ في عُمُوم بَخْسِ النَّاسِ أشياءهم، وكلُّ ذَلِكَ من الظُّلْم، وقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، ونَهَىٰ عبادَهُ جَمِيعاً عن الظُّلْم، وجعلَهُ بَيْنَهُمْ مُحَرَّماً.

القضِيَّةُ السَّادِسة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾:

لقد كان شُعَيْبٌ عليه السّلاَمُ يَنْهَىٰ قَوْمَهُ عن الإفساد في الأرضِ بَعْدَ إصْلاَحِهَا، إذْ كَانت هٰذِهِ الْجَرِيمةُ مِن الكَبَائر والمنكرات الّتي يمارسُونها عُدواناً وظُلْماً.

والإفسادُ يَشْمَلُ إفساد الأحياء والأشياء الصالحة، وإفساد العمران الحضاريّ، وإفساد المدُن، وإفسَادَ النباتات والأشجار والجنّات، وإفساد أخْلاقِ النّاس، وإفسادَ سُلُوكِهِم، وإفسادَ أفكارهم ومَفْهُومَاتهم.

ويَدْخُلُ في عُموم الإفساد إفسادُ الجوّ، وإفساد الْبَرّ والْبَحْرِ بالْأَوْبِئَةِ، والأرْجاسِ والْأَنْجاسِ والْقَاذُورات.

ويظهر أنَّ قوم شعيب علي السلام، كانوا في عدوانهم على عباد الله لإخضاعهم لأوامرهم ونواهيهم وسلْبهم أموالهم يُخَرّبُون بيوتهم، ويُتْلِفُون مزارِعَهُمْ وبساتينهم، ويَجْعَلُون مصانعهم وطُرُقاتهم وجُسُورَهُم غيْرَ صَالِحةٍ للانتفاعِ بها.

الفساد في اللّغة: التّلفُ والْعَطَبُ، وتَحوُّلُ الشَّيء من كونه صالحاً نافِعاً، إلَىٰ كَوْنِهِ غَيْرَ صَالحٍ وَلاَ نَافِع، بل رُبَّما يَصِيرُ ضَارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

والإفْسَاد: الإتْلاف، وتحويلُ الشيء عَنْ صلاحه، وقد يَصِلُ إلى جَعْلِ الشيء ضاراً كريهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

ومن آثار الإفساد في الأرض، ونَشْرِ المنكرات والمعاصي في المجتمع البشري، انتشارُ الْمُهلِكات، وانتشارُ الأوجاع والأمراض والأسقام، كمَرضِ «الإيْدز» وفَسَادِ طَبَقَةِ الْأُوزون في الجوّ، من جرّاء سُوءِ اسْتِخْدام الناس للموادّ الكيمائية والغازات الْقَواتِلِ للحياة.

ولمّا كانَ الإفساد في الأرض من أخْطَر أنْواعِ السُّلُوكِ الإنساني، ذِي النتَائِجِ والآثارِ الخبيثةِ، نَهَىٰ اللّهُ عزّ وجلّ عنهُ في كلّ الرّسَالاَتِ الّتِي كَلّفَ رُسُلَهُ أنْ يُبَلّغُوها للناس.

ولمَّا كانَ أهْلُ مَدْينَ مِنَ الْمُفسِدينَ في الأرْضِ، شَدّدَ عَلَيْهِمْ رَسُولُهُمْ شَعَيْبٌ عَلَيْه السّلام، في النّهْي عن الإفساد في الأرْضِ، وشَدّد علَيْهم في تحذِيرهم منه ومن عواقبه.

القضية السّابعة: دَلّتْ عليها عبارة: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

المشار إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأوَامِرُ والنواهي التي جاءت في سوابق هذه الجملة من النصّ.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي: أعْظَمُ وأكْبَرُ في جَلْب الْخَيْر والسَّعَادةِ لكُمْ، وتحقيق مَا تُحِبُّونَ في عَاجلِ أمْرِكم وآجلِهِ، إنْ كُنْتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بي نَبِيًا وَرَسُولاً وتُؤْمِنُونَ بما أُنزِلَ إلَيكُمْ مِنْ رَبّكُمْ فَتَعْمَلُونَ به، وتُطِيعُونَهُ بالعمل بما يأْمُرُكم به، وباجتناب ما يَنْهَاكُمْ عَنْه.

أمّا مَا تَتَصَوّرُونَ أنّكم تَحْصُلُونَ عليه من خَيْرٍ، كزِيَادَةِ أرْبَاحِ ومَكاسِبَ عاجِلَةٍ، واسْتِمتاعَاتِ تَسْتمتعون بها بمَعْصِيَة اللّهِ في أوامِرِه ونَواهيه، فهي قليلَةٌ ضَئيلَةٌ في عاجلِ حياتِكُمْ، وتَجْلُبُ لكُمْ شرّاً عظيماً وعذَاباً أليماً في آخِرَتِكُمْ، ورُبّما في دُنْياكُمْ أيضاً، إذا اقتضت حِكْمَةُ الله ذلِكَ.

القضيّة الثامنة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾: في هذا النّهي من شُعَيْبٍ عليه السلام لِقَوْمِهِ دلالَةٌ على أنّهُ قَدْ كانَ من قبائِحِهم الْعُدْوانِيّةِ الظّالِمَةِ الآثِمَةِ أنّهُمْ كَانُوا يُرَابطُونَ فِي الطُّرُقَاتِ العامّة الواسِعَة، الّتي تجتازُها السّابلَة، ويمُرُّ مِنها الْمُسَافِرُونَ، فَيَقْطَعُونَ عَلَيْهم الطّريق، ويُلْزِمُونَهُمْ بِدَفْعِ إتَاواتِ ومُكُوسٍ ظالمة، حتّىٰ يَسْمَحُوا لهم

بالاجْتِيَاز والْمُرُور، وإلاَّ كانُوا عُرْضَةً لما يكْرَهُون في أجسادهم أو مُمْتَلكاتِهِم من ضُرٍّ وَأذىً، وسَلْبٍ ونَهْبٍ ومُصَادَراتٍ ونَحْوِ ذَلِكَ، ويتَهَدَّدُونَهُم وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ ظُلْماً وَعُدْواناً.

فنهاهُمْ رَسُولُهُمْ شُعَيْبٌ علَيْهِ السَّلاَمُ عَنْ هٰذه الأعْمال الإجراميَّة الظّالمة لعباد اللّه، الَّتِي يَتَّخِذُونها وَسِيلَةً لِأَكل أموال الناس بالباطل، والإثراء غَيْرِ الْمَشْرُوعِ مِنْ أَمْوال أهْلِ الْجَهْدِ والكَدِّ وَالْعَمَلِ، الَّذِينَ لاَ يَقْدِرُون أنْ يُدَافِعُوا عنْ أَنْفُسِهم وأموالهم، تُجَاهَ عِصَابَاتِ الإجرام من أهل مَدْين أصْحابِ الْأَيْكة، المتواطئينَ على الشّرّ وأَكْلِ أموالِ النّاس ظُلْما وَعُدْواناً.

المراد بالقعود الذي نهاهم عنه شعيبٌ عليه السَّلام المرابَطَةُ والتَّرَبُّصُ، لِقَطْع الطَّريق على المارِّين من المجتازين والْمُسَافِرِين، وربَّما من ضعفاء قومهم.

وقد كان زبانية هؤلاء القوم يقْعُدُون مُتَربصين بِكُلّ صِرَاطٍ، فلا يَدَعُونَ طَرِيقاً عامًّا من طُرُقَاتِ أَرْضِهم وبلادهم، إلاَّ رَابَطَ فريقٌ مِنْهُمْ فيه، حتَّىٰ لاَ يَجِدَ المجتاز عَنْ طريق أَرْضِهِم مهرباً مِنْ عِصَابَاتهم، عِصَاباتِ السَّلْبِ والنَّهْب الْقَاطِعِين لطُرُقَاتِ الناس.

الصراط والسّراط: الطريق الواضح، وقيل: سُمّي «سِرَاطاً» لأنَّه يَسْتَرِطُ المارَّة، أي يَبْتَلِعُهُمْ بيسرٍ وسهولةٍ دون تزاحم.

﴿تُوعِدُونَ﴾: أي: تَتَهَدَّدُون وتَتَوَعَّدُون باسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ المسلَّحَةِ للإكْراهِ وإِنْزَال البلاء، وهذه الجملة حَاليَّة.

القضيَّة التاسعة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾:

﴿وَتَصُدُّونَ﴾: هذا الفعلُ معطوفٌ علَىٰ فعل ﴿تُوعِدُونَ﴾ فَهُوَ مِنْ توابع ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: حَالَةَ كَوْنِكُمْ تَتَهَدَّدُون

وتَتَوَعَّدُونَ النَّاسَ بالشرّ، وتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ.

تَصُدُّون: أي: تمنَعُون وتَصْرِفون.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: عَنْ طَرِيق الله الْجَلِيّ الواضِحِ المسْتَقِيم الَّذِي لاَ يتزاحَمُ فيه سَالِكُوه، ولَيْسَ فيه عِوَجٌ، ولَيْسَ فيه أَمْتٌ، أي: هُوَ مُسْتَوٍ لَيْسَ فيه اختلافٌ في الارتفاعِ والانخفاض، والرِّقَّةِ والصَّلاَبَةِ، والحزونة والسُّهُولَة، وسَبِيلُ اللَّهِ هو دِينه الّذِي اصطفاه لعباده.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾: أي: منْ آمَنَ بِسَبِيلِ الله، وَلاَ يَكُونُ هٰذَا الإيمانُ إلاَّ عَلَىٰ أَسَاسِ الإيمانِ باللَّهِ وبِرَسُوله، وبالآيَاتِ المنَزَّلاَتِ المشتملات على بيانِ سبيلِ الله.

إعَادَةُ الضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ على: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أولَىٰ فيما أرى من اعتباره عَائداً على لفظ الْجَلالَة: ﴿ٱللَّهِ﴾ لأنَّ الإيمان بسبيل الله يقتضي عقلاً الإيمان بسائر أركان الإيمان، بخلاف الإيمان باللَّهِ فَقَد لاَ يَسْتَلْزِمُ ذلِكَ.

أمّا من لم يُؤمِنْ بَعْدُ به منهم، فهو على طريقتهم ومِلَّتِهِمْ، وصار مَيْؤوساً من إيمانه في هذه المرحلة من مراحل دعوة شعيب عليه السلام لقومه.

القضيَّةُ الْعَاشِرَةُ: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: وتَبْغُونَ السَّبِيلَ الَّتِي تَسْلُكُونَها سبيلاً عِوَجاً، على وَفْقِ أهوائِكُمْ، وشَهَواتِكُمْ، وَرَغَبَاتِكُمْ الَّتِي لاَ تتحقَّقُ إلاَّ بالظُّلْم والْعُدْوانِ، والْفِسْقِ والْفُجُورِ والْعِصْيَانِ، للرَّبِّ الملِكِ الدَّيَّان.

والسَّبِيلُ العِوَجُ لاَ بُدَّ أَنْ يَنحَرِفَ سَالِكُوها إلَىٰ مُتَعَرِّجَاتِ السُّبُلِ الهَابِطَةِ إلى حَضِيضِ الْفَسَادِ والظُّلْم الاجتماعيّ، وسَخَطِ اللَّهِ وغضَبِهِ وَعَذَابه.

والسّبيلُ العِوَجُ إنَّما هي سبيلُ الشيطان، وحِينئذٍ لا تكُونَ سبيلاً واحِدَةً، وإنَّما تَكُونُ سبُلاً عَوْجاء شَتَّى، بَعِيدَةً في المهاوي عنْ سبيل الله بُعْداً فاحِشاً.

العِوَجُ: بِكَسْرِ الْعَيْنِ عَدم الاستقامة في الأشياء المعنوية، كالفكريّات، والنَّفسِيَّاتِ، والأَقوال والمذاهب، ومناهِج السُّلُوك.

أمَّا عَدَمُ الاستقامة في الأشياء المرئيَّةِ بالْبَصَرِ، فيُقَالُ فِيه: «عَوَجٌ» بفَتْح الْعَيْن، وهو مصْدَرُ فعل «عَوِجَ يَعْوَجُ» فَهُوَ أعْوَج.

وقد يُطْلَقُ العِوَجُ بِكَسْرِ الْعَيْن على عَدَمِ الاسْتِواء في الأرض.

القضيَّة الحادية عشرة: دَلَّت عليها عبارة: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾:

أفادَتْ هٰذِهِ العبارة أَنَّ شعيباً عليه السَّلام قَدْ ذَكَّرَ قَوْمَهُ بِنعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِتَكْثِيرِ أعدادهم في مُدَّةٍ وَجِيزَة، وقَدْ كانوا قلَّةً ضُعَفاءَ بين المصْرِيين، والفلسطينيّين، وعَرَبِ الحجاز.

وأبَانَ لهم أنَّ هٰذِهِ النّعْمةَ تَسْتَدْعي مِنهُمْ أَنْ يَشْكُرُوا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِم، بالْإيمان بِهِ إيماناً صَحِيحاً صادقاً، وبعبَادَتِهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، وبطاعَتِهِ في إقامَةِ الْعَدْل، والالْتِزَامِ بالحقّ، ونَبْذِ الظلم، واجْتِنَابِ الإفساد في الأَرْضِ، واجْتِنَاب قَطْعِ طُرُقِ مجتازي أَرْضِهِم، واجْتِنَابِ الصَّدّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، والتخلّي عن ابتغاء سبيلهم الّتي يَسْلُكُونَها في حياتهم سبيلاً عِوَجاً مُلْتَوِيَةً، لِيُحَقِّقُوا لأنفسهم بِعِوَجها والْتِوَائها مَا يَشْتَهُونَ، وَمَا يَهْوَوْنَ من ظُلْمٍ وَعُدْوانٍ، وَأَكْلٍ لِأَمْوالِ الناس بالباطل، وفِسْقٍ وَفُجُورٍ، وتفاخُرٍ وتكاثرٍ، ومَا يَبْتَغُونَ مِنْ مصالح ومَنَافِعَ خَاصَّةٍ عن طريق الإفساد في الأرض.

ونُدْرِك ذهْناً من تذكير شُعَيْبٍ عليه السّلام قومَهُ بتكثير الله أعدادهم في مُدَّةٍ وَجِيزة، أنَّ الله عزّ وجلَّ قَدْ جَعَلَ رجالَهُمْ ونساءهم مخْصِبين

ومخصِبَاتٍ في التناسُل، وحَمَىٰ نَاشئيهم وأجيالهم من العوارض الْمُمِيتَة، حتّى صَاروا ذوي قُوّةٍ في أَرْضهم، وصاروا قادِرينَ على أنْ يَفْرِضُوا مُكُوسَهُمْ وإتاواتهم على مُجْتازي أرضهم مِنْ غَيْر قبيلتهم.

﴿قَلِيلًا ﴾: بمعنى قليلين، لأنّ صيغة «فَعِيل» إذَا كانَتْ بمعنَىٰ «مَفْعُول» اسْتَوىٰ فيها المذكّر والمؤنث، والمفرد والمثنّىٰ والجمْعُ قياساً مطّرِداً، وإذا كانت بمعنى «فاعل» فقد تُعامَلُ أيْضاً المعاملة نَفْسها، وقَدْ تكرَّر هذا الإجراء في القرآن في كلَماتِ «كثير» و«قليل» و«ظَهِير» و«رفيق» وربما نجد غيرها أيضاً.

القضيّة الثانية عشرة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: وتفكّروا وانظُرُوا نظراً عقْلِيًّا واعياً مُسْتَبْصراً بتأمُّل أَحوال الأُمَم السَّابقة الّتي طَغَتْ وبغَتْ وأَفْسَدَتْ في الأرض، وكَذَّبَتْ رُسُلَ رَبِّها، وكذّبَتْ بآيَاتِه المنَزَّلَات، واسْتَكْبَرَتْ عن اتِّباعِهَا والْعَمَلِ بما جاء فيها، كيْف جعل اللّهُ عزّ وجلّ بِعَدْلِهِ عَاقِبَتَهَا هلاكاً لِأَحْيَائِها، ودَمَاراً لِمَسَاكِنِها وَمُمْتَلَكاتها، أمارةً على ما ستلقاه من عذابٍ يوم الدين.

وكأني بشُعَيبٍ عليه السلام ضِمْنَ عبارَته العامَّةِ هٰذِه، يُشِيرُ إلى ما حَصَلَ لِقَوْمِ لُوطٍ على وجهِ الْخُصُوصِ، لِقُرْبِ زَمانهم وأرضهم من زَمَانِ قَوْمِ شُعَيب وأرْضهم، ويُؤكِّدُ هذا الفهم قولُهُ الصريح لهم الذي جاءَ بيانه في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿...وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

القضيّة الثالِثَة عَشْرَة: دَلّت عليها عبارة: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

الطّائفة: تُطْلَقُ في اللُّغة على الواحد فأَكْثر من الجماعة، أو القوم، أو الأمّة، وتُطْلَقُ عَلىٰ الجماعة، والفِرْقة.

تدلُّ هذه العبارة على أنّ أهل مدين قد وصلوا بعد أطوارِ متصاعدة في الشدّة، إلى طَوْر إيقاف انتشار دَعْوة رسولهم شعيب عليه السّلام بالْقُوّة، ومواجهةِ مَنْ آمَنَ به واتَّبَعَهُ مِنْهُمْ بِالْقَمْعِ والاضطهاد.

ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ تَذَعوا للقيامِ بأعمالِ الْقَمْعِ بذرائع تَعْتَمِد على خداعٍ ديني، زاعِمِينَ أَنَّ مِنْ حَقِّهم لِحمَايَةِ دينهم الموروث عن آبائِهِمْ إلى جدّهم إبراهيم عليه السلام، متجاهلين التحريفات الباطلات الدخيلات والشّركيّات التي يمارسُونها، ويَزْعُمُونَ أنّها من دِين اللّهِ، أَنْ يَمْنَعُوا بالْقُوّةِ الّذِينَ آمَنُوا بشُعَيْبِ عن اتّباعِه، والدَّعْوَةِ إلىٰ دينه.

فقال لهم شُعَيبٌ عليه السَّلاَم: إنْ كُنتُمْ كَمَا تَزْعُمُونَ حَرِيصينَ على حِمَايَةِ دِين اللّهِ، فَاتْرُكُوا أَمْرَ نُصْرَةِ الدِّينِ للّهِ، وَلاَ تَجْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْصِيَاءَ علَيه، واللّهُ عزَّ وجلَّ قَادِرٌ علَىٰ أَنْ يَنْتَصِرَ لدينِهِ.

فإنْ كَانَ الدِّينُ الحقُّ هو مَا نَدْعُو نَحْنُ إليه، أو ما تَتَمسَّكُونَ أَنْتُم به، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَيُنَفِّذَ حُكْمَهُ الْقَضَائِيَّ لَنَا أو عَلَيْنَا، ولَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، ولا تَتَعَجَّلُوا مَنْعَ دَعْوَتِنا من الانتشار بالْقُوّة، ولاَ تَقْمَعُوا الّذِينَ آمَنُوا بها وَهُمْ مِنكُمْ، واللّهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، فإنْ كُنّا نَحْنُ على الحقّ الّذي يَرْضَاه، حَكَمَ لَنَا فَنصَرَنَا وَأَيَّدَنَا، وإنْ كُنتُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ هم على الحقّ نصَرَكم وأيّدكم.

إذا تفكَّرْنا في قَوْل شُعَيْبِ عليه السّلام لَهُمْ ﴿فَٱصۡبِرُواْ﴾ وَحَلَّلْنَا مُقْتَضِيَاتِ مَوْقف المواجهة بيْنَ طَائِفَتَيْنِ، طائفةِ مُؤْمِنَةِ قَلِيلَةِ لاَ تَسْتَطِيع الدّفاع عَنْ نَفْسِها بقُواها الماديّة، وطائفةِ غَيْرِ مؤمنةِ تَمْلِكُ من أدوات القوّة ما تَسْتَطِيعُ به مُعَاقَبَةَ الطَّائِفَةِ المؤمِنَةِ من أجْلِ إيمانها.

وإذا تفكَّرْنا في الذَّرائِع الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَتَّخِذَهَا الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَالَّتِي يُلائِمُهَا أَنْ يَقُولَ لهم شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وَجَدْنَا أَنَّ الْقَوْمَ أرادوا أَنْ يُعَاقِبُوا المؤمِنِينَ بِذَرِيعَةِ الانتصار لدين اللَّهِ الْمَوْرُوث، وهو دين مُحَرَّفٌ دَخَلَتْ فِيهِ شركياتٌ كثيرات، فقال لهم شُعَيْبٌ عليه السلام: إنْ كانَ أَمْرُكُمْ كَذلِكَ فاتْرُكُوا الدِّينَ لِلَّهِ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ عباده، ولَسْتُمْ أَوْصِيَاءَ على دينِه، والَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُونِي يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ رِسَالَةَ دَعْوَةٍ إِلَىٰ الدِّينِ الحق، وَلاَ يُؤْذُونَكُمْ في دُنْيَاكُمْ، وَلاَ يَقِفُون في طَرِيقِ مصالِحِكُمْ، إِنَّمَا يُقَدِّمُونَ لَكُمُ النُّصْحَ فقط.

إنَّ هذا الحِوَارَ الجدليَّ حوارٌ بارعٌ جدًّا من شُعَيْبٍ عليه السّلام، وهُوَ في غايَةِ الْقُوَّةِ والإلْزَامِ بالحجَّةِ الدَّامغة.

ولا بُدَّ أَنْ يكُونَ الْمَوْقِفُ بين شعيب عليه السلام وبين قومه قد تأزّم بعد أن عجزوا عن مقابلة حُجَجِهِ بِمِثْلِهَا حَتَّىٰ وَصَلُوا إلى طَوْرِ تَهْدِيده بالإخراج من أرضهم، هو والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وهو الآتي بيانه.

* * *

- قول الله عَزّ وجلّ:

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨) قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩١) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٩٣)﴾:

تمهيد:

يُعَبِّر هذا المقطع عن المراحلِ الأخيرة من قصّة شُعيب عليه السّلام مع قومه، والّتي تمّ في خاتمتِها إهلاكُ الّذِين كذّبوه من قومه، ونجاةُ شُعَيْب والذين آمنوا به واتّبَعُوه، وانصرافُه عن أرْضِ هلاكهم غَيْرَ حَزِينٍ عليهم، بعد أَنْ أبْلَغَهُم رِسَالاَت ربِّه ونَصَحَ لَهُمْ، فقَرَّرُوا إخراجه، وتوَّعدُوا الّذين اتَّبعُوه بالقتل أو بالتعذيب الشديد.

التدبر:

● ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ . . ﴿٨٨﴾ ﴾:

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: كُبَرَاءُ القوم وسَرَاتُهُمُ الّذِينَ يملَؤُون عُيونَ العامّة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: أي: الّذِينَ احتَلُّوا في قومهم مراكز السُّلطَةِ الإدارية، فهم الذين يُصَدِّرُون قرارات الطرد والإبعاد، والحرمان من الإقامة في البلاد. وكان هؤلاء من الملأ الذين كَفَرُوا به وبما جاءهم به عن رَبّه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾: أي: لَنُخرِجنَّكَ يا شُعيبُ وَلَنُخرِجَنَّ مَعَكَ الّذِينَ آمَنُوا بِك وبما جئت به.

﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾: أي: من مُجَمَّعاتنا السَّكنِية، تُطْلَقُ الْقَرْية في اللغة على كُلّ أرْضٍ فيها بُيوتٌ ومَساكِنُ مُجْتَمِعةٌ قَلَّتْ أم كَثُرت، ولو بَلَغَتْ مَدِينَةً عظيمة جدًا.

لقد أصْدَر أصحاب السُّلْطَةِ في البلاد، قراراً بإكراهِ شُعَيْبٍ والذين آمَنُوا بدينه معه على الخروج والابْتِعادِ عَنْ قُراهم وكلّ بلادهِم وكُلّ شَعْبِهِمْ، أو إكْراهِهِمْ على العودَة عن دينهم والدُّخولِ في مِلَّة قَوْمِهِمْ، حتَّىٰ يكُونوا مُشاركين لهم في مِلّتهم عقيدةً وسُلوكاً.

والإخراجُ هُوَ مَا يُعْرَفُ في أَنْظِمَةِ الدُّوَلِ بِالنَّفْي والإبعاد، والطَّرْدِ من البلاد.

اللاّم في: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ وفي ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ واقعة في جواب قَسَم مَنْوِيٌّ ملاحظٍ ذهناً، كما قال الخليل في مثل هذا الاستعمال، فالْفِعلُ في كلٍّ من العبارتَيْنِ مُؤَكَّدٌ بقَسَمٍ مُقَدَّرٍ ذهناً، وبنون التوكيد الثقيلة.

لقد انْهَزَمَ كُبَرَاءُ قَوْمِ شُعَيْبٍ عليه السّلام، تُجَاهَ مُنَاظَرَاتِهِ وبَيَاناته وَجَدَلِيَّاتِهِ هَزَائِمَ فكْرِيَّةً مُنْكَرَة، فلَجَؤُوا إلى قرار استعمال القوّة الماديَّة المسلَّحة الْعَسْكرِية، للتَّخْيير بَيْنَ تَرْكِ الدّين الجدِيدِ، والعودَةِ إلى ملّة قومهم، وبين الطرْدِ والإبعاد من البلاد.

لَقَدْ وَجَّهُوا قرارهم بصيغَةٍ مُؤَكَّدَةٍ بالْقَسَمِ وبنون التوكيد الثقيلة الملازمة له، فهو قرار لاَ رَجْعَةَ فِيهِ بحَسَبِ تَصَوُّرهم.

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: أي: أو لتَعُودُنَّ عَنْ دِينِكُمُ الجديد الّذي آمَنْتُمْ به، وتَتَّبعُون تَعْليماتِهِ، ولَتَدْخُلُنَّ في مِلَّتِنَا.

ولا بُدَّ أن يصطَنِعُوا لهذا تَعِلاَّتٍ من وُجُوبِ اتِّباع الدِّينِ الموروث، ومن فكْرةِ الوحْدَةِ الْقَوْمِيَّة.

لَقَدْ كانوا يَرَوْن شعيباً عليه السلام قَبْلَ نبوَّتِهِ ورسالَتِهِ إِنْسَاناً ساكتاً عَن شرْكياتهم وجرائمهم، فَرُبَما ظَنُّوا أَنَّه كان يَدِين بدينهم، ثم تركَ دينَهُمْ وابتكَرَ الدّين الجديد، لذلِكَ صَحَّ من وجْهةِ نظرهم أَنْ يطالِبُوه هو ومن آمَنَ مَعَهُ بأنْ يعودوا عَنْ مِلَّتِهِمْ الجديدة، ويَدْخُلوا في مِلَّةِ قَوْمِهِم.

● ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

استفاد شعيبٌ عليه السَّلام من إصْدَار ذوي السُّلطان في قومه قرارهم التخييريَّ بين الإخراج بالْقُوَّةِ من أرْضِ مَدْيَنَ، وبيْنَ الْعَوْدَةِ في ملَّتِهم، فأخَذَ جانِبَ الإكْرَاه على الْعَوْدَةِ عَنْ دِينِهِ الحقّ والدُّخولِ في مِلَّتِهِمْ، لِيُنَاظِرَهُمْ وَلِقِيمَ الحجَّةَ عَلَيْهم، بأنَّهُ لاَ يَصِحُّ في الْعَقْلِ، وَلاَ فِي الْوِجْدَانِ، وَلاَ في أعْرَافِ الحرِّيَّةِ الإنسانيَّةِ الشخْصِيَّة، إكْرَاهُ الإنسانِ على اعْتِقَادِ واعْتِنَاقِ دِينٍ وَالإيمانِ به، وهو مُقْتَنِعٌ فِكْرِيًا بالبرهان القاطع أنَّه باطل، وبسبَبِ بُطْلاَنه يكْرَهُ أن يَعْتَنِقَهُ وَيَلْتَزِم لوازِمَهُ.

فَنَاظَرَ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ مُنَاظَرَةً جَدَلِيَّةً مُفْحِمَةً، حول هٰذِهِ القضيَّة، واشتملَتْ مُنَاظَرَتُهُ على ثلاث مقولاتٍ جَدَلِيَّة، وأَعْقَبَها ببيان ثَبَاتِه على مَوْقِفِه من دينِهِ، متوكِّلا على الله، مهما كانتِ النَّتَائِجُ والتَّدْبيرات الّتي يُدَبِّرُونها ضِدَّهُ وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَه، وبدُعَاءٍ سأل الله عَزَّ وجلَّ فيه أَنْ يفتح بَيْنَهُ وبيْنَ قومِهِ بالحقّ، مثنياً عَلَيْهِ بأنَّهُ خَيْرُ الْفَاتحين.

المقولة الجدليّة الأولى: دلَّتْ عليها بإيجاز عبارة: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾: أي: أَتُكْرِهُونَنَا عَلَىٰ الْعَوْدَةِ عَنْ مِلَّتِنَا والدُّخولِ في مِلَّتِكُمْ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ تَرْكَ دِينِنَا والدُّخولَ في مِلَّتِكُمْ؟!

إنَّ الكَارِهَ لِتَرْكِ الإيمان بقَضِيَّةٍ يُؤْمِنُ بها بقَلْبه، لا يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكَه، إذ الإيمان إرادةٌ داخليَّةٌ لاَ يَعْرِفُها أَحَدٌ من الناس إلاَّ صاحِبُها. وإنَّ الإكْرَاه على الْإيمان بقَضِيَّةٍ يَعْلَمُ المكْرَهُ عليها أنَّها قضيةٌ باطِلَةٌ، لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُوجِدَ إيماناً بها، إذِ الْإيمان إرادةٌ داخِلِيَّةٌ لاَ يعرِفُها أَحَدٌ من النّاسَ إلاَّ صَاحِبُها.

لكِنْ قَدْ يُكْرَهُ الإنسانُ على إعْلانِ الكُفْرِ بما هو مُؤْمِنٌ بِهِ، فَيُعْلِنُ ذلِكَ وَهُوَ كاذب، وقَدْ يُكْرَهُ على إعْلانِ الْإيمان بما هو كافِرٌ به، فَيُعْلِنُ ذَلِكَ وَهُوَ كاذِبٌ.

فعبارة: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ مَعَ مَا فيها مِنْ إيجاز بالغ تَدُلُّ عَلَىٰ

حقيقةٍ من حَقَائِقِ السُّلُوكِ الإنسَانيّ الدَّاخليّ، وهيَ اسْتِحَالَةُ إكْرَاهِ ذي الإرادة الحرَّةِ على أَنْ يَكْفُرَ بقضيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ يَرَىٰ أَنها حَقٌّ، وَيُؤْمِنُ بأَنَّها حَقٌّ، أَوْ عَلَىٰ أَنْ يُؤْمِنَ بِفِكْرَةٍ لم يقتَنِعْ بها ولا يُرِيدُ أن يُؤْمِنَ بها.

فَمِنَ الحقائِقِ الثابتَةِ الَّتي لا تَتَغيَّر ما دام الإنسانُ على ما فَطَرَهُ اللَّهُ عليه ذا إرادة حُرَّةٍ، أَنَّهُ لاَ إكْرَاهَ في الدِّينِ، إذْ قَاعِدَةُ الدِّين الحقّ جَوْهَرُها الإيمانُ بمبادئِه، والإيمانُ إرادَةٌ داخِليَّةٌ، لا يُمْكِنُ إكْرَاهُ الإنسان على إيجادِه أَوْ نَسْخِه، ما دام ذا فِكْرٍ خاصٍّ به، وإرادةٍ حُرَّة.

بهذا المنطق العقلي ذي الحجة الدامغة ناقش شعيب عليه السلام قومه.

قد يُكْرَهُ الإنسَانُ على العَمَل بسُلُوكٍ ظاهِريّ مُعَيَّن، وهو لاَ يُؤْمِنُ بصِحَّتِهِ وَلاَ بِجَدْواه، فَيُنَافِقُ في سُلُوكه الَّذي أُكْرِهَ عَلَيْه، لكنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُكْرَهَ على الإيمان بفِكْرَةٍ يراها باطلةً، أو لا يُرِيدُ الإيمان بها، لئلا يلْتَزِمَ مقْتَضَيَاتِها في السُّلُوك.

إنَّ الإيمان إرادَةٌ قلبيَّة تتضَمَّنُ اعترافاً بِفِكْرَةٍ ما، ويَنْتُجُ عَنْهُ استِسْلاَمٌ نَفْسِيٌّ لها، ثُمَّ تَحَرُّكٌ للعمل بمقتضاها.

كذلك سائر العواطف القلبيَّة والنفسيَّة.

ومن أجْلِ هذه الحقيقة لَمْ يَكُنْ رُسُلُ اللَّهِ يُكْرِهُونَ الناسَ على الإيمان بالدِّين الرَّبَّانِيّ، الّذي يدْعُونَ الناس إلى تَفَهُّمِ مَبَادِئِهِ الاعتقاديّة والإيمانِ بها باختيارهم الحرّ، ولَيْسَ في أَيَّةِ رِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ صَحِيحَةِ النِّسْبَةِ إلىٰ اللَّهِ مَا يقتضي إكراهَ الناسِ على الإيمان بما جَاءَ فيها.

إنَّ الإكراه على الإيمان أو علىٰ الكُفر بقضيَّةٍ من القضايا الفكريَّةِ من الأمور المرْفُوضَة عقلاً وَواقعاً، وكُلُّ فَهمٍ علىٰ خلافِ هذا فَهْمٌ غَيْرُ صحيح.

وإنَّ تاريخ البشريَّة لم يُسجّل على أُمَّةٍ مُؤمِنَةٍ برسالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ حقٍّ، فَاهِمَة لمضمونِ دينِ رَبّها وَحقيقتِهِ، أَنَّها كانَتْ تُكْرِهُ المخالِفِينَ لها في الدِّين، على الإِيمان بالدِّين الَّذِي آمَنَتْ به.

لَكِنَّ تَاريخ البشريَّة مَلِيءٌ بالشواهد الدالّة على أَنَّ أَصْحَاب المذاهب والأديان الَّتي هي من أوضاع البشر، أو من تحريفات المحرِّفين لدين ربَّانيّ صحيح الأصل، وكذلك سائر قَادَةِ مِلَلِ الكُفرِ، كانُوا هُمُ الَّذِينَ يُكْرِهُونَ مخالِفيهم على تَرْكِ أَدْيانهم ومبادئهم ومذاهبهم، والإِيمانِ والْعَمل بدِينِ الْمُكْرِهين، وإلاَّ كان الْعَذَابُ الشديدُ حتَّىٰ الموتِ مَصِيرَهُمْ.

إنّ مِنْ مبادىء الرِّسَالاَت الرَّبّانِيّة كلّها أنَّ الدّين لِلَّهِ، وأَنّه لا إِكْرَاهَ في الدِّين، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ، ولكِنْ من اخْتَار لنفسه أَنْ يَكْفُرَ فعلَيْه أَنْ يتحمَّل تُجاه رَبّه مَسْؤُولِيَّة اختياره الحرّ، وعليه أَنْ يَتَرَقَّبَ عَذَابَ اللَّهِ المعجَّلَ في الدّنيا، إذا اقتضتْ حكمَتُهُ جَلَّ جَلاَلُهُ أَنْ يُذِيقَهُ شيئاً من العذاب المعجّل، وعَلَيْهِ أَنْ يَتَرَقَّبَ عَذَابَ اللَّهِ المؤجلَ إلىٰ يوْم الدِّينِ، وهَـٰذَا الْعَذَابُ سَوْفَ يلَقَاهُ حَتْماً في جَهَنَّمَ دَارِ العذابِ الأَكْبَرِ، خالِداً فيها مُخَلّداً. وقد أعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ.

المقولة الجدلية الثانية: دَلَّتْ عليها بإيجاز عبارة: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾

لـمَّا كَانَتْ مِلَّةُ قَوْمِهِ فيها شِرْكِيَّاتٌ، وفيها استباحَةُ ما حَرَّمَ الله عَزَّ وجلَّ في كُلِّ مَا أَنْزَلَ مِنْ دِينٍ عَلَىٰ رُسُلِهِ، كَقَطع الطُّرُقِ وظُلْم النّاس، والعدوانِ عليهم، وأكْلِ أَموالِهم بالباطل، مع ادّعاء أَنَّ ذلِكَ من الدِّين الَّذِي وَرِثُوه عن جَدِّهم «مَدْين» عن أبيه إبراهيم الْخَلِيلِ عليْه السَّلام النبيِّ الرَّسُولِ حقًّا وصِدْقاً.

فإن عَوْدَة شُعَيْبِ عليه السَّلاَمُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه عن دينِهِمْ،

ودُخُولَهُمْ في مِلَّةِ قَوْمِهِمْ، يَجْعَلُهُم مِثْلَ قَوْمِهِمْ مُفْتَرِينَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِباً.

الافتراء: اختلاقُ الكَذِبِ عَمْداً مَعَ الْعِلْمِ بأنَّهُ كَذِبٌ.

الملّة: الدّين، والشريعة، صحيحةً كانت أم باطلة.

﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾: «إذْ» ظَرْفٌ للزّمان الماضي، وهُوَ مضاف إلى جملَةِ ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾: أي: بَعْد حينِ تَنْجِيَةِ اللَّهِ لنا منها، والمرادُ تَنْجيتُهُمْ من الخُلود في عذاب جهنَّمَ المقرَّرِ عند اللَّهِ عزّ وجلّ عقاباً لِمَنْ افْتَرىٰ على اللَّهِ كَذِباً، كَافِراً بِمَا جاء به رسُلُ اللَّه المبلِّغونَ عن ربِّهم دينَه الذي اصطفاه لعباده.

﴿كَذِبًا﴾ مفعول مطلَق مُؤَكِّد لعامله: ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾ إذْ هو مرادف لِلْمَصْدَر الذي هو «افْتِراءً».

المقولة الجدليّة الثالثة: دَلَّتْ عليها بإيجازٍ عبارة: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾:

صيغة: «وَمَا يَكونُ لَنا أَنْ نَفعَلَ كَذا» وأشباهها يُؤتى بها لتأكيد النفي بأبْلَغِ تعبير، إذْ جاء فيها كَوْنٌ منفيٌ وبَعْدَهُ لاَمُ الْجُحود، كما يَقُولُ النَّحْوِيُّون.

والمعنى: إنَّ عَوْدَنا عَنْ دِينِ رَبِّنَا وَدُخُولَنا في ملَّتِكُمْ أَمْرٌ نَرْفُضُهُ رَفضاً قَطْعِيًّا، ولِشِدَّةِ إصْرَارِنا على رَفْضِهِ نُخْبِرُكُمْ من الآن بأنّه ما يكونُ لنا في المستقبل مِثْلُ هَذا الَّذِي تَطْلُبُونَهُ مِنَّا، فَهُوَ لَنْ يُوجَدَ إلاَّ إذا أَرَدْنَا إيجادَه ما دامَ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ يَمِدُّنا بإرادَةٍ حُرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَة، إذْ إنَّنا نَخْشَىٰ عقابَ اللَّهِ وَعذَابَهُ، وَهُو الْخُلودُ في جهنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾: أي: إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنا أَنْ نُظْهِرَ لَكُمْ بأَلْسِنَتِنا وَبَعْضِ تَصَرُّفاتِنا ما يُرْضِيكُمْ، لحكْمَةِ حِمَايَتِنا مِنكُمْ مُؤَقَّتاً، حتَّىٰ

يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم، أَمّا قُلوبُنا فَسَتَظَلُّ مُطْمَئِنَّةً بالإيمان، وأَمّا أَعْمَالُنا في السِّرِّ فَسَتَبْقَىٰ على وفْقِ دِينِ اللَّهِ الحقّ.

هذا ما فتح اللَّهُ به عليَّ في فَهْم هذا الاستثناء من كلاَم شُعَيْبٍ عليه السَّلاَم. وهذا الفهم مطابقٌ لما جاء في الإسلام بشأن مَنْ أُكْرِهَ على إعلانِ الكُفر وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمان.

قال الله عزّ وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾.

وقد أشكَلَت عبارة الاستثناء ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ في كلام شُعيبٍ عليه السلام على المفسِّرين:

- فقال بعضهم: ذكَر شعيبٌ عليه السَّلام هذا تأدُّباً مع ربّه، إذْ لِلَّهِ المشيئة المطلقة، وعلى المؤمِنِ أَنْ يُعْلِنَ خُضُوعَهُ لَها دائماً، وإنْ كانَ مُتيَقِّناً من أَنَّ الله لَنْ يَشاءَ لِعِبادِه أَنْ يَعُودُوا عن الإيمان بالحقّ، والدُّخول في مِلَّةِ الكافرين.

- وفَهِمَ الْجَبْرِيُّون مِنْ هٰذا الاسْتِثْناء: إلاَّ أَنْ يَشَاء اللَّهُ أَنْ يجعلَنَا مَجْبُورِينَ على أن نَعُودَ عن الإيمان بالحق، والدُّخُولِ في ملَّةِ الْكافِرِين، وهذا الفهم مَرْفُوضٌ حتماً.

وما فتح اللَّهُ به عليَّ في فهم هذه العبارة، هو الحقُّ المطابق لقَواعِدِ الإيمان، فاللَّهُ عزّ وجلّ لاَ يَرْضَىٰ لعباده الكُفْرَ فلاَ يُجْبرُهم عليه حتماً، ولا يَأْذَنُ لهم به حتماً، إلاَّ أَنْ يكُونَ تَقِيَّةً لِسَانِيَّةً وَبِبَعْضِ التصرُّفاتِ الظاهرات، لدَفْع شُرُور الْمُكْرِهِين.

مقولة ثبات شعيب على موقفه متوكّلاً على الله: دلَّت عليها بإيجازٍ عبارة: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾:

﴿عِلْمًا﴾ تَمييز مُحَوّل عن الفاعل، والتقدير: وَسِعَ عِلْمُ اللَّهِ فاسْتَوعَبَ كُلَّ شيءٍ، سواءٌ أكانَ مَوْجُوداً أمْ مَعْدُوماً، ففي جملة: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ثَنَاءٌ على اللّهِ عزّ وجلّ بعِلْمِهِ الشَّامِلِ لكلّ شيءٍ، والمحيط بكلّ شيء.

والغرض من إيراد هذا الثناء التوطِئَةُ لِجمْلَةِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

أي: يا قومِ إذا قَرَّرْتُم إخْرَاجي من أرضِكُم وإخْرَاجَ الّذِينَ آمَنُوا مَعِي، إذا لَمْ نَعُدْ عَنْ دِينِنَا وَنَدْخُلْ في مِلَّتِكُمْ، فإنَّنَا نُعْلِنُ لَكُمْ ثباتَنَا على دِيننا، ورَفْضَنَا الدُّخُولَ في مِلَّتِكُمْ، وبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ الّذي وسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شيء، وأحاطَتْ قُدْرَتُهُ بكلّ شيءٍ، فَهُو الّذي يَحْكُمُ بينَنَا، فإنْ مكَّنكُمْ مِنْ إخراجنا وهو الْعَلِيمُ بِنَا وبكُمْ، فلِحكْمَةٍ يفْعَلُ ذلِكَ، وَإنْ لَمْ يُمَكّنكُمْ فَهُوَ لَنَا مِنْهُ نَصْرٌ عليكم، فَدَبِّرُوا مَا شِئْتُمْ وافْعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَإنَّنَا عَلَيْه وَحْدَهُ تَوَكَّلْنَا.

التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّه: الاسْتِسْلامُ إليه، وتَفْوِيضُ تَدْبِير الأمْر وتحقيق ما يَرْجُو المتوكِّلُ إليه، مع قيامه بالأسباب المستطاعة المادّيَةِ والمعنويَّةِ طَاعَةً لأمْرِه.

أفاد تَقْدِيمُ المعمولِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على عامِلِهِ: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في الجملة الْقَصْرَ والحصر، أي: عَلَىٰ اللَّهِ وحْدَهُ توكَّلْنَا، فهو القادر على حمايَتِنا ونَصْرِنَا وتَدْبير أُمُورِ نجاتنا وَتَنْفِيذِها بِحِكْمَتِهِ.

مقولة دُعاء شعيب أنْ يفتح اللَّهُ بينه وبَيْنَ قَوْمه: دَلَّت عليها عبارة: ﴿..رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿رَبَّنَا﴾: أي: يَا رَبَّنَا، حُذِفَتْ أداة النداءِ بالدُّعَاء، وهُوَ الأكْثَرُ استعمالاً في دُعَاءِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وفي حَذفها معنى عَدَم

الحاجَةِ إلى ذكْرِها في اللَّفظِ، لأنَّ اللَّهَ تَعالَى قَرِيبٌ من عِبادِهِ، يُجيبُ دَعْوَةَ الداعِي إِذَا دَعَاه.

﴿ٱفْتَحْ﴾: الفتح بين الخَصْمَيْنِ هو القضاء والحكْم، ويلْزَمُ من قضاء اللَّهِ وحُكْمِهِ نَصْرُ أَوْلِيَائِهِ عَلَىٰ خُصُومهم وأعدائهم، وقد يراد بالفتح النَّصْر والتأييد.

﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: اقْضِ واحْكُمْ بيننا وبَيْنَ قَوْمِنَا الَّذِين هَدَّدُونا بالإخراج، قَضَاءً بالْحَقِّ.

إنَّ شعيباً عَلَيْهِ السَّلامُ يَعْلَمُ عِلْمَ اليقين، أَنَّ الحقَّ هو ما عَلَيْهِ هُو والَّذِينَ آمنوا بِهِ، وأَنَّ قضاء اللَّه جلّ جلالُهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ بنجاتهم ونَصْرِهِمْ عَلَىٰ قومهم، لأنّ الحقّ بجانبهم، لكنَّ الأدبَ مع اللَّهِ في الدُّعاء بالفتح يقتضي تقييده بالحقّ، مع ما في هذا التَّقْيِيد من إشعارٍ للْخَصْم بأنَّ الدَّاعِيَ لا يَدْعُو رَبَّهُ بأنْ يَنْصُرَ الباطِلَ عَلَىٰ الحق، بل يَدعوهُ بأن يَنْصُرَ الْحَقَّ علَىٰ الباطل، ولَوْ كان الحقُّ بجانب خَصْمِهِ.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾: أي: وَأَنْتَ خَيْرُ الحاكِمِينَ، والنَّاصِرِين، وفي هذا ثناءٌ عَلَىٰ اللَّهِ فيه معنَىٰ الاستعطاف لاستجابَةِ الدُّعاء.

ويظهر أنَّ شعيباً عليه السَّلامُ أسْمَعَ قَوْمَهُ دُعاءَهُ لِرَبِّهِ فألْقَىٰ الرُّعْبَ في قُلوبهم.

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

لقد أَلْقَىٰ دُعاءُ شُعَيْب عليه السَّلام الرُّعْبَ في قُلُوب المَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، وخَافُوا أَنْ يُنزِلَ اللَّهُ بِهِم مِثْلَمَا أنزَلَ بالْمُهْلَكِينَ من قبلهم، قوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وقَوْم لُوط، وكان قَدْ حَذَّرَهُمْ شُعَيْبٌ عليه السَّلام من ذلك، فَصَرَفُوا النَّظَرَ عَنْ تَنْفِيذِ قرارِ إخراجِه، وتَوَجَّهُوا للَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه مُهَدِّدِينَ وَمُتَوَعِّدِين بالاضطِّهادِ والتعذيبِ حتَّىٰ الْمَوْت.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: وَقال الّذِين كَفَرُوا من مَلأِ قومِهِ وهُمُ الكُبَراءُ والأَعْيَانُ الّذين يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العَامَّةِ، سَوَاءٌ أَكَانُوا ذوي سُلْطَةٍ إداريَّة، أمْ من مستشاريهم وأَهْلِ الحلِّ والعَقْدِ فيهم، أمَّا أصحاب السلطة الإدارية فقد سبق وصفهم بأنهم الذين استكبروا.

ويظهر أن: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وَصْفٌ تَقْيِيدي يُشْعِرُ بأنَّ بَعْضَ مَلأِ قَوْمِهِ هم من الّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

وطَوَىٰ النَّصُّ الْمُوَاجَهِينَ بهذا الْخِطَابِ، لِلْعِلْمِ بِهِمْ مِنْ مَضْمُونِ ما خُوطِبُوا به، فَهُمُ الَّذينَ آمَنُوا بِشُعَيب عليه السَّلامُ واتَّبَعُوه.

﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾: أي: نُقْسِمُ: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيباً في إصْرارِهِ عَلَىٰ مَوْقِفِهِ الَّذي أعْلَنَهُ، إِنَّكُمْ إذاً لَخَاسِرُون، أي: إنَّكم إذاً لَتَكُونُونَ خاسِرين، إذْ سَنُسَلِّطُ عليكم مِنْ رِجالنا من يُعَذِّبُكم ويضطهِدكُم ويَسْلُبُكُمْ ممتلكاتِكُمْ، حتَّىٰ تَصِيرُوا خاسِرِينَ كُلَّ شيءٍ، وقَدْ تُقْتَلُونَ فتخْسَرُونَ الحياةَ، وقَدْ تَخْسَرُونَ أهليكم وأولادَكم بالتعذيب والتشريد والقتل.

أكَّدُوا تَهْدِيدَهُمْ بالْقَسَم، فاللأمُ في: ﴿لَئِنِ﴾ مُوَطِّئةٌ للقسم المنوي ذهناً، وجملة: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ الواقعة في جواب القسم مُؤَكَّدَةٌ أيضاً بالمؤكدات: «إنَّ - والجملة الاسمية - واللام المزحلقة للخبر - وأُعْتَبِرُ «إذاً» هُنَا من المؤكِّدَاتِ أيضاً لأنَّ ما قبلَها مُفتقِرٌ لِمَا بَعْدَها فهي زائدةٌ للتأكيد».

- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: **الرَّجْفَةُ**: الزَّلْزَلَة، والمعنى: فَتَنَاوَلَتْهُمُ الزَّلْزَلَةُ بَحَرَكَاتِها العنيفةِ، ذَاتِ الْخُطُوطِ الممتدَّةِ في كُلّ أَبْعَادِ أَرْضِهِمْ، فَجَعَلَتْ كُلَّ واحِدٍ منهم صَرِيعاً هَالكاً، جَاثِماً لاصقاً بالأرض على رُكْبَتَيْهِ وَوَجْهِهِ. **أَخْذُ الشيء**: تناولُهُ والقَبضُ عليه.

﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾: أي: فَدَخَلُوا في صباحِ يَوْمِ الرَّجفة الَّتِي أَخَذَتْهُمْ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ جَاثِمين.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لاصقين بالأرض على رُكَبِهِمْ وَوُجُوههم، مُلاَزمين أمْكِنَتِهِمْ هَلْكَىٰ مَيِّتين لاَ يَبْرَحُون.

وجاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ بَيَانُ أَنَّهم قد أَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة، وأَنَّهُمْ قَدْ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَة، وهي صَوْتٌ عظيم مُمِيت، ومن الجمع بين النصوص نفهم أنّهم قد اجتمعت عليهم وسائل تَعْذيب وإهلاكٍ ثلاث: (الظُّلَّةُ الحارّة الخانقة المهلكة ـ الزُّلْزَلَةُ المهلكة ـ الصَّيْحَةُ الْمُمِيتة).

وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بيانُ أَنَّ اللَّهُ عزّ وجلّ نَجَّىٰ شُعَيْباً والَّذِينَ آمَنُوا معه «انظر الآية (٩٤) منها».

● ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾: أي: كَأن لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ أَنْ أَقَامُوا في أَرْضهم، وهذا يَدُلُّ على استئصالهم، وطَمْسِ كُلِّ آثارهم.

يُقَالُ لغة: غَنِيَ بالْمَكَانِ يَغْنَىٰ، مثل: رَضِيَ يَرْضَىٰ، أي: أَقَامَ فيه. وغَنِي الْقَوْمُ بالمكانِ، أيْ: طَال مقامُهُمْ فِيه.

والْمَغْنَىٰ: المنزِلُ الَّذِي غَنِيَ بِهِ أَهْلُه، وجَمْعُه «مَغَانٍ».

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: جاء هذا الْبَيَانُ التعقبيُّ الرَّبَّانِيّ، في مُقَابل تَهْدِيد هؤلاء المكذّبين للّذين آمَنُوا بِشُعَيْب عليه السَّلاَم، إذْ قَالُوا لهم: ﴿.. لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ في هذه العبارة قَصْرٌ دَلَّ عليه تَعْرِيف طَرَفِي الإِسْنَاد في ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أو ضَمِير الْفَصْل، إذا اعتَبَرْنا «هُمْ» ضَمير

فصل، وهذا القصر هو من قَبِيل الْقَصْرِ الإضَافِي، أي: كان المكذّبونَ هم وحْدَهم الْخَاسِرِينَ لاَ الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيْبٍ واتَّبَعُوه.

لَقَدْ خَسِرَ المكَذّبونَ دُنياهُمْ، فكَانُوا جميعاً هلْكىٰ، وخَسِرُوا أنفسهم في آخِرَتهم، إذْ سَوْف يكونُ مَصِيرُهُمْ إلى الْخُلُودِ في عَذَابِ الْحَرِيق في جهنَّمَ دَارِ عَذَاب المجرمين يوم الدين.

● ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: فَانْصَرَفَ شُعَيْبٌ عليه السَّلام مُدْبراً عن دار إهْلاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمه، وَنَادَاهُمْ وهُمْ هَالِكُونَ قَائلاً لَهُمْ:

﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أي: ما كَانَ يَنْزِلُ عليَّ من صُحُفٍ أو كتاب تَنْزِيلاً منجماً، وَمَا كَانَ يُوحَىٰ به إليّ لأبَلّغَكُمْ إيَّاه من معَانٍ وَبيانات، دلَّتْ صيغة الجمع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ على التنزيل المنجّم.

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أي وقَدَّمْتُ لَكُمْ مَا فِيهِ خَيْرُكُمْ وسَعادَتكُمْ خَالِصاً مِن الشوائب. فَلَمْ آل جَهداً في نُصحي لَكُمْ، وصَبْرِي عَلَيكم، وتحمّلي لأذاكم، لكنكم لم تَسْتَجِيبوا لِدَعْوتي، مَعَ شِدَّةِ حِرْصي على نجاتِكُمْ، وَلم تَعْبَؤُوا بِنُصْحي، بَلْ كَذَّبْتُموني وكذَّبْتُمْ بما جِئتُكُمْ بِهِ عَنْ رَبّي، وَكَفَرْتُم مَعَ عِلْمِكُمْ بِأَنَّ مَا جئتُكُمْ بِه هو الحقُّ من رَبّكُمْ.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾:

أي: فكيف أَحْزَنُ على هَلاكِ قوم كافِرِينَ، وَكَيْفَ أَحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ إذْ نزل فيهم عذاب رَبّهم المعجّلَ، وسَوْفَ يُعذَّبُون عَذَاباً خالداً في جهنَّمَ يَوْمَ الدِّين؟!.

يُقالُ لُغَة: أَسِيَ عَلَيْه، وَأَسِيَ لَهُ يَأْسَىٰ أَسَى، أي: حَزِنَ، فَهُوَ «آسٍ، وأَسِيٌّ، وأَسْوَان، وأَسْيَان».

أصْلَ: «آسَىٰ» أأْسَىٰ.

والمرادُ بالاستفهامِ عَنِ الكَيْفِيَّة بيانُ أَنَّهُ لاَ تُوجَدُ كَيْفِيَّةٌ يَصِحُّ معها أَنْ أحْزَنَ عليهم، فَقَدَ اخْتَارُوا بإراداتِهِمْ الحرَّة أَنْ يَكْفُرُوا، مع عِلْمِهِمْ بأنَّ ما جئتهم به هو الحقّ من ربّهم، ولَكِنْ غَلَبَتْ شَهواتُ نفوسهم، وأهواؤُهم، عقُولَهُمْ، وإراداتِهم الحرَّة، فاستحبُّوا العمَىٰ على الهدى، وآثَرُوا المتاعَ الزائل الفاني، على النعيم الخالِدِ الباقي، وَجَعَلُوا أَعِنَّتَهُمْ في أيدي الشياطين، فَمَا نَزَلَ بِهِمْ هُوَ نتيجة اختياراتهم وهم عَالِمُونَ، فلا يَصحُّ أن أحْزَنَ عليهم في كيفيّة من الكيفيات، ولو كانوا قومي، وفيهم عشيرتي الأقْرَبون.

* * *

الفصل السادس

التدبُّر التَّحليليُ لبيانٍ مجملٍ عن أقوام ورُسُلٍ لم تُذْكَر أسمَاؤُهم مع تعقيب ختامي

الآيات من (٩٤ ـ ١٠٢)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا
كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

القراءات:

(٩٤) ● قرأ نَافِعٌ: [مِنْ نَبِيءٍ] بالهمزة بعد الياء مع المدّ المتصل.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرَةِ: [مِنْ نَبِيٍّ] بالياء المشدّدَةِ دون همْزَة.

والقراءتَان لغتان للكلمة. والمعنى فيهما مُنَبَّأٌ من رَبِّه عن طريق الوحي إلَيْه.

● وقرأ السُّوسي وأبو جعفر: [بِالْبَاسَاءِ] بالألف بعد الباء دون همز، في الوصْلِ والوقف، وقرأها حمزة كذلك في الوقف فقط، وهو وجه عربي في نطق الكلمة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بِالْبَأْسَاءِ] بالهمزة الساكنة بعد الباء.

(٩٦) ● قرأ ابْنُ عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس، [لَفَتَّحْنَا] بتَشْديد التّاء المفتوحة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَفَتَحْنَا] بفَتْح التاء دون تَشْديد.

والقراءتان متكامِلتَان في دَلالَتَيْهما، فـ«فَتَحْنَا» دون تَشْدِيد تَدُلُّ عَلَىٰ أحوال الفتح المعتاد دُونَ سَعَةٍ كثيرة فيه، و«فَتَّحْنَا» بالتشديد تَدُلُّ علىٰ أحوال الفتح الزّائِدِ على المعتاد، بسَعَةٍ كثيرة فيه.

(٩٧) و(٩٨) ● وقرأ أبو جعفر والسُّوسي: [بَاسُنَا] بالألف بعد الباء في الموضعين، وصلاً ووقفاً، وقرأها حمزة كذلك في الوقف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [بَأْسُنَا] بالهمزة بعد الباء.

والقراءتان من اللَّهجَات العربيَّة.

(٩٧) ● قَرَأَ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامِرٍ، وأَبُو جَعْفَر: [أَوْ أَمِنَ] بإسْكَانِ الواو، فحرْف العطف هو «أَوْ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَوَ أَمِنَ] بهَمْزَةِ استفهامٍ وَواو العطف.

والقراءتان من التفنُّن في البيان، والمؤدَّىٰ واحد.

(١٠١) ● قرأَ أَبو عَمْرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكان السّين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [رُسُلُهُمْ] بضمّ السّين.

والقراءتان لُغَتان عَرَبِيَّتَان.

تمهيد:

اشتملت آيات هذا الفصل السادس على بيان مجْمَلٍ عَنْ أقوام ورسُلٍ لم يَذْكُرِ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ أسماءَهم، وقد جرىٰ لهم نَظِيرُ ما جَرَىٰ للذين ذكرهم بأسمائهم، وعَرَضَ لقطَاتٍ مِنْ قصَصِ حيَوَاتهم، وما جرى لمكذِّبي الرسُلِ من عاقبةٍ وخِيْمةٍ مُخْزِيَةٍ يتَّعظ بها أولُو النُّهىٰ، أَهْلُ الْعَقْلِ والبصِيرَة، الَّذِينَ يُقَدِّرون الأمورَ حقَّ قَدْرِها، ولاَ يُجَازِفُونَ بمصايرهم.

واشتملَتْ أيضاً على توجيه النُّصْحِ، والموعظَة، والتَّحْذِير، والإنْذَار، لكُلِّ مَتَلَقٍّ لآيَاتِ الْقُرْآنِ المجيد حَتَّىٰ آخِرِ مُمْتَحَنٍ في الحياة الدُّنيا. بأنْ يَتَّبِعُوا ويَعْمَلُوا بما أُنزِل إليهم من رَبّهم، ويَحْذَروا عَاقِبَة الْكُفْرِ والْعِصْيَانِ، والظُّلْمِ والْعُدْوان.

وجاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بَعْدَ ذِكْرِ لقَطَاتٍ من قصة نوحٍ عليه السلام وقومه، ولقطاتٍ من قصّةِ هودٍ عليه السلام وقومه، دون ذكرِ اسْمَيْهِما، قولُ اللَّهِ عَزَّ وجل بشأن رُسُلٍ وأقوامٍ لَمْ تُذْكَرْ أَسْمَاؤهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾: الْقَرْنُ من الناس، أهل زمانٍ واحِدٍ، سُمُّوا في اللُّغَةِ قَرْناً، لأَنَّهُمْ اقْتَرنُوا معاً في الوجود بذلك الزَّمان. وكُلُّ أُمَّةٍ لرسُولٍ عاشُوا في زمانِه هُمْ قَرْنُه.

﴿تَتْرَا﴾: أي: يتْبَعُ بعْضُهُمْ بعضاً مع وجود فاصل زَمَنِي بيْنَ كُلِّ واحِدٍ منهم وآخر. قال الأَصْمَعِيُّ: وَاتَرْتُ كُتُبِي عليه، أي اتْبَعْتُ بعضَهَا بعضاً، إلاَّ أَنَّ بين كُلِّ واحِدٍ منها وبين الآخر مُهْلة.

فيظْهَرُ أَنَّ هذا النّصّ من سُورَة (المؤمنون) يتحدَّث عن الرُّسُلِ والأقوام الَّذِينَ جاء كَلامٌ مُجْملٌ عنهم في هَـٰذا النّص الموضوع للتدبر من سورة (الأعراف).

فبَعْدَ النّصّ الذي من سورة (الأعراف) جاء قول اللّه عزّ وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ ... ﴿١٠٣﴾﴾.

وبَعْدَ النصّ الذي من سورة (المؤمنون) جاء قول اللّه عزّ وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

التدبّر:

قول الله عز وجلّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾: دلَّت هٰذه العبارة علَىٰ أَنَّ كُلَّ

رَسُولٍ لا بُدَّ أَنْ يكونَ نبيًا، فالنبوَّةُ سابقَةٌ، فإذا شاء الله كَلَّفَ من اصطفاه بالنبوّة أن يكون رسولاً يُبلّغ الناس رسالات ربّه، ضمن حدُودِ رسالته، ولا يُشْتَرَطُ في كلّ نبيٍّ أن يكون رسولاً، لكِنْ لا يكونُ رسولٌ ما لَمْ يَصْطَفِهِ اللَّهُ قبل ذلك بالنُّبوة.

والمرادُ بالقرية كُلُّ مُجَمّع سَكَنِي صغيراً كان أمْ كبيراً، ولو بلغ مدينةً عظمَىٰ، ويُلْحَقُ بهذا المجمع السُّكَنِيِّ كُلُّ توابعه مَهْمَا كثُرَتْ وامتدَّتْ.

والرِّسالاتُ العظْمَى تَكُونُ ذاتَ امتدادٍ عالميّ، مَحْدُودِ الزَّمن كرِسالة موسى، ورسالة عيسىٰ عليهما السلام، قبل الرسالة العالميّة الخاتمة.

أمّا رسالة محمّد ﷺ فهي عالميَّةٌ للناس جَمِيعاً، لا يَحُدُّها زمَانٌ ولا مَكانٌ، لأنَّها الرّسَالةُ الخاتِمة، الّتي كان بها خَتْمُ النبوّات.

«مِنْ» في ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ حرف جرٍّ زيد للتنصيص علىٰ العُموم.

﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾: أصل الأَخْذِ هو القبض على الشيء، وبالتوسُّعِ في المعنىٰ صَارَ يُطْلَقُ على حيازةِ الشيء والحصول عليه، ولو دُون قَبْضٍ عليه، ثُمَّ صَارَ يُطْلَقُ الأخْذُ على معنى ما يُؤخَذُ له الشيء، فأخْذُ المذْنِبِ يدلُّ على معنى معاقبته بذنبه، ولو لم يحْصُلْ أخْذٌ جَسَدِيّ، وأَخْذُهُ بالعذاب، يدُلُّ على مَعْنَىٰ إنزالِ العذاب به، كأنَّ الْعَذَابَ قد كان السَّبَب الذي تحقَّقَ به الْقَبْضُ عليه، بدَلَ قبْضِ الْيَدِ.

إرْسالُ النبيّ رسولاً لقوم مَا، يَدُلُّ على أنّ هَؤلاء القومَ يحتاجون علاجاً من الدّرجةِ الْقُصْوَىٰ، لكُفرِهِم وكثْرَةِ شُرُورهم وفسادهم وإفسادهم في الأرض، ومع إرْسَال النبيّ رسولاً إليهم تتدخَّلُ الْعِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ لمعالجتِهم بوسائل التربية والتَّأديب.

﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾:

الْبَأْسَاءُ: الجوعُ والمشقة والفقر وضَنْكُ العيش، والحزب.

الضَّرَّاء: الشِّدَّةُ، وكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ في الأموال والأنْفُس.

والغرضُ من هذا الأَخْذِ بالبأساء والضّراء تذكيرُهُمْ بربّهم لِيَدْعُوه مُتَضَرعينَ إليه، سائِلِينَ أن يكْشِفَ ما نزلَ بهم مما يَكْرَهُون.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أن يَتَذَكَّرُوا رَبَّهم فيتضَرَّعُوا له داعين سائلين معترفين بذنوبهم.

لعَلَّ: أصْلُ معناها الترجّي، وتُحْمَلُ بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ على معْنَىٰ الرَّغْبَةِ والرِّضَىٰ، فالمرجُوُّ مِنَ الأشياء الحسَنَةِ مَرْغُوبٌ فيه، ويُسْتَقْبَلُ بالرضا، واللَّهُ عزّ وجلّ يَرْضَىٰ لعبادِهِ الإيمانَ والعملَ الصالح، ولا يَرْضَىٰ لهم الكُفْرَ والْعَمَلَ السَّيِّىءَ.

يَضَّرَّعُونَ: أي: يَتَضَرَّعُون، أدغِمَتِ التاء في الضاد فصارتا ضاداً مشدَّدة.

التضرُّع: هو التَّذلُّل والخضوع، وهو مَأْخُوذٌ مِنْ خُضُوعِ ولَدِ البهيمة الرَّضِيع، ليمتَصَّ حليب أُمِّه من ضَرْعِها.

دلَّتْ هٰذِهِ الآية على سُنَّةٍ من سُنَنِ اللَّهَ عز وجلّ التَّذْكِيرِيَّةِ التّأديبيَّة. التي يُعَالِجُ الله عزّ وجلّ بها عباده، وقد أجراها جلَّتْ حِكْمَتُهُ في كلِّ الأمم الذين كَفَرُوا، أو أسْرَفُوا في الانحراف عن صراط الله المستقيم، بالمعاصي والمخالفات، وكثرةِ الفساد والإفساد في الأرض.

والغرض من إنزال المكارِه في هذه الأمَم، ابتلاؤُهُمْ بما يُثِيرُ فِطْرَتَهُمُ الإيمانيَّة الَّتي فطَرَهُمُ اللَّهُ عليها، والَّتي يوقظُها في الناس غالباً ـ وإنْ كانوا من أهل الكُفر والشُّرْكِ باللَّهِ ـ مَسُّ آلاَمِ الشَّدَائِد والمصائب، وفَقْدُ

الضَّرُورِيَّاتِ للحياة، فيتَضَرَّعُون للَّهِ خاضعِين مُتَذَلِّلِينَ داعينَ أَنْ يكْشِفَ عَنهُمْ ما هم فيه من مصائب وشدائد ومكاره.

أَمَّا النِّعَمُ والمسَرَّاتُ وتوالي أَسْبَابِ الرَّخَاء، وسَعَةِ الرِّزْقِ، مع العافِية والقوة والنشاط، فإنَّها تجعَلُهَا تَغِطُّ في نَوْمِ عَمِيقٍ، وَتَصْرِفُها عن تَذَكُّرِ مَحَامِدِ رَبِّها وشُكْرِ نِعَمِهِ، وتُنْسِيهَا اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ وَعَدْلَهُ، وقَوارِعَ عِقَابِهِ ونِقْمَتِه، وأنَّه الَّذِي بِيَدِهِ مَقاليدُ كلِّ شيءٍ، وهو على كلِّ شَيْءٍ قدير، فتَنْطَلِقُ بَطِرَةً مُسْتَكْبِرَةً أَشِرَةً فَاجِرَةً مُفْسِدَةً في الأرض.

ومن سُنَّةِ اللَّهِ في الأمم أنهم إذا تَضَرَّعُوا لربّهم خاضعين داعين مُسْتَغفرين، بعْدَ أَنْ يُنْزِلَ بهم المصائبَ لِيَتَذَكَّرُوا فيتضرّعوا، أن يكْشَفَ عنهم ما ابْتَلاهم به من المصائب والمكاره، وأَنْ يجْعَلَ بَدَلَ المصائب التي ساءتْهُمْ نِعَماً تَسُرُّهُم.

● ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ اسْتَمرَّتْ خلالَها الْبَأسَاءُ والضَّرَّاء الَّتِي هي سَيِّئَةٌ غيْرُ حَسَنَةٍ، وهي من المكارِهِ الّتي تَسُوءُ المبتَلَيْن بها، بَدَّلْنَا مَوادَّ الابتلاءِ، فجعَلْنَا الحسَنَةَ في مَكَانِ السَّيِّئة، فَكَشَفْنَا الجوعَ، والمشقَّةَ، والفقرَ وضَنْكَ العيش، وويْلاتِ الحرْب، والمكارِهَ في الأموال والأنفس، وجَعَلْنَا مكانَها وَفْرَةَ الأرزاقِ، والرّاحَةَ، والغِنىٰ، وسَعَةَ العيْش، والأمْنَ، والرَّخاءَ، والمُمْتِعَاتِ السَّارَّاتِ، وكَلِمَةُ «الحَسَنَةِ» عنوانٌ عامٌّ يشْمَلُ كُلَّ هٰذِهِ وأشباهَهَا.

ويظهر أنَّ كشف البأْسَاء والضَّراء عنهم قد كانَ استجابةً لتضَرُعَاتِهم لرَبّهم.

وتحليل العبارة: ثمّ بَدَّلْنَا جاعِلين في مَكَانِ السَّيِّئَةِ الحسَنَةَ.

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾: أي: حتى كثروا بالمواليد والذّرية، وهم أهل القرية الّذين ابتلاهُمْ الله أوّلاً بالسَّيِّئةِ، ثُمَّ رَفَعَها وَكَشَفَها عنهم، وابْتَلاهُمْ بالحَسَنة.

يُقَالُ لغة: عَفَا الْقَوْمُ، أي: كَثُرُوا. وعَفَا النبتُ أو الشَّعَرُ، يَعْفُو فهو «عَافٍ» أيْ: كَثُرَ وَطَالَ.

● ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾:

طوىٰ النَّصُّ في مَثانية ذكْرَ إعادَة ابْتِلاءِ الْخُلوفِ بالْبَأْسَاءِ والضَّرَاء، وأنَّهم لم يَتَضَرَّعُوا لِرَبِّهم كَمَا فعلَ آباؤهم، بل تَوَهَّمُوا أَنَّ ما نزلَ بهم هو أحَدُ مظاهرِ التقلُّبَاتِ الطبيعيَّةِ في الدَّهر، وقالوا: هٰذِهِ ظاهِراتٌ طبيعيَّةٌ ليس من ورائها قَصْدُ تأدِيبٍ أَوْ تَذْكِيرٍ أو تَرْبِيَةٍ.

عَبَّرُوا بالْمَسِّ، لتَهْوِين الأمْرِ على أنفهسم، وعلى جماهيرهم من الأتْباع، ولِيَصْرِفُوا عن أذهانهم فِكْرَةَ تأديبِ الله عزّ وجلّ لهم، فلم يُعَبِّروا عمّا نَزَلَ بهم بالإِصَابة البالغة العُمْق.

واستَّمرُّوا على ما هم فيه من كُفْرٍ، وانْطلاَقٍ فَاجرٍ في كبائر الإثم والظُّلْمِ والْعُدْوان، دون خَوْفٍ من عِقَابِ اللّهِ الجبّارِ الْقَهَّارِ الملِكِ الدَّيَّانِ.

السَّرَّاء: النِّعْمَةُ والرَّخاء والمسَرَّة.

● ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

أي: فأخَذْنَاهم أَخْذَ تَعْذِيب وإهْلاك شامِلَيْنِ مُبَاغِتَيْنِ، دُونَ إشعارٍ لهم بمقدّماتٍ فيها إنْذارٌ، لأَنَّهُمْ قَدْ وصَلُوا إلى قَاع الحضِيض، كُفْراً وإسْرَافاً في الفجور وارْتكابِ الآثام، مَعَ تَفْسِيرِهِمْ ظواهر حِكْمَةِ اللّهِ في تصاريف كونه، بأنها ظواهر طبيعيّة، لَيْسَ مِنْ وَرَائِها قَصْدٌ رَبَّانِيّ.

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجْأَةً. يقال لُغَةً: بَغَتَهُ يَبْغَتُهُ بَغْتاً وبَغْتَةً، أي: فَجأَهُ وبَهَتَهُ. والكلمة على تقدير: أخذاً بَغْتَةً، أو على تقدير مباغِتين، باستعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: والحالُ أنَّهم لاَ يَشْعُرُون كَيْفَ نَزَلَ بهم هذا الْعَذَابُ والهلاكُ المبَاغِت.

الشُّعور بالشيء: هو العلم به ولو مِنْ أدْنَىٰ دَرَجات الإحساس به.

المعنى العام للآيتين (٩٤ ـ ٩٥):

كان من سُنَنِ اللّه فِي عباده أن يُرْسِلَ رُسُلاً من الَّذِينَ اصطفاهم بالنُّبوَّة، لهداية الضَّالين الغاوينَ من الأقوام، قبل ختم النُّبُوَّاتِ والرِّسَالات بمُحَمَّدِ بن عبد الله ﷺ.

ولقد أرسل الله جلَّ جلالُه رسُلاً متَعَدّدين، إلَىٰ أقوامٍ متعدّدينَ، في حواضِرَ ذوات توابع من القُرىٰ والبوادي، لأنَّهم قد وصَلُوا إلى حالاتٍ من الضلالِ والغيّ والفساد والإفساد، تَسْتَدْعي أن يُرْسِلَ اللّهُ لَهُمْ رُسُلاً.

فكان هؤلاء الرُّسُلُ يُبَلّغُونَ أقوامهم دينَ اللّهِ الّذي اصْطَفَاهُ لعباده، ويُبَشّرُون مَنْ آمن واتَّقَىٰ بالأمن والرَّخاء، وبالسعادة الخالدة يوم الدين، ويُنْذِرُونَ مَنْ كَفَرَ وفجر بعذاب النار يوم الدين، وبعذاب دون ذلك في الدُّنيا، على وفق حكمة الله فيهم، وبعذاب لنفوسهم بين الموت والبعث.

وكان هؤلاء الأقوامُ يقاومُون دعَواتِ رُسُلِ رَبّهم، ويعانِدُون الحقّ الذي جاءوهم به، فلا يُرغّبُهم تبشير، ولا يُرَهّبِهُم إنْذار.

وكان من سُنَّة اللّه أن يُعالج تأديبهم وتذكيرهم بأخْذِهِمْ بالبأسَاء والضَّرَّاءِ، رغبَةً في أن تَصْحُو فيهم فِطْرَةُ الإيمان بربّهم، فيتضرَّعُوا لَهُ داعِين تائبين، فإذا فَعَلُوا ذلِكَ رفَعَ اللّه عنهم البأساء والضرّاء، وبَدَّلَ أحوالهم، فجعَلَ ما يُحِبُّون من الحسنة، في مكان ما كَرِهُوا من السّيّئَةِ، وتَجْرِي أُمُورُ امْتحانِ أفرادِهم في الحياة الدُّنيا بصُورَةٍ كافيةٍ لكَشْفِ ما في نَفْسِ كُلّ مِنْهُمْ.

حتّىٰ إذا طالَ عليهم الأمَدُ، وكثُرَتْ أعدادهم وأنسالهم، ونَمَتْ أموالُهم وزُرُوعهم وثمارهم، طَغَوْا وبَغَوْا وكَفَرُوا، وقضَتْ حِكْمَةُ اللّه أَنْ يَأْخُذَهُمْ بالمصَائِبِ من البأسَاء والضَّرَّاء، ليتَضَرَّعُوا كما فَعَلَ آباؤهم من قَبْلُ وليُعْلِنُوا تَوبتهم، فيرفَعَ اللّه عنهم ما أنْزَلَ بهم.

لكنّ هؤلاء الْخَلائِفَ كانُوا يُفَسِّرُونَ مَا نزلَ بهم تفسيراً مَقْطُوعاً عن قَصْدِ حكيم، من ربّ عظيم، فيقولُونَ: إنَّها عوارِضُ الدَّهر وتَقَلُّبَاته، وظواهِرُ طبيعيَّةٌ مُتَكَرِّرَة، فمن ظواهر الطبيعة أنْ تأتي فيها البأسَاءُ والضَّرَّاءُ أَحْيَاناً، ومن ظواهرها أن تأتي فيها النِّعَمُ والمسَرَّاتُ وأسْبابُ الرَّفاهية والرَّخاء، وهذه الظواهر المتضادَّة تَتَعاقَبُ على الناس تَعَاقُباً لا يَدُلُّ علي تَدْبيرٍ وقَصْدٍ من رَبٍّ عَلِيمٍ حَكِيمٍ قَدِير، يَفْعَلُ مَا يشاءُ ويَخْتَار.

فإذَا بَلَغُوا هذا الحضيضَ المنحطَّ من الكُفر الذي لا تَردعُهُمْ معَهُ الشدائد والمصائب، وَلاَ تُوقظُ في أعماقِ قلوبهم ونفوسهم فِطْرَةَ الإيمانِ، ولا تحييها من سُبَاتِها، رَد اللَّه عَلَيْهِمْ أسْبابَ النِّعَمِ الْوَفِيرَة، وتركَهُمْ كذَلِكَ مُدَّةً من الزَّمَنِ، حتَّى إذا زَادُوا في الطغيان والبغي، ولم يَسْتَجِيبوا لنُصْحِ ناصِحٍ، ولا لِتَذْكِير مُذَكِّر، فَاجَأَهُمْ اللَّه بعذابٍ شامل مُهْلِك، قَصَمَ بِهِ ظُهورَهُمْ، وقطع به دابِرَهُمْ في الحياة الدّنيا، ثُمَّ يُرَدُّون إلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين.

هذه السُّنَّةُ من سُنَنِ اللَّه عزّ وجلّ في عبادِه سُنَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، وتَكُونُ غَفْلَةُ الناسِ عَنْهَا بِسَبَبِ طُولِ الأَمَدِ في النِّعْمَة، وبسبب رَبْطِ الظواهِرِ الكَوْنِيَّة بأسْبَابِها الطبيعيَّة القريبة المادّيَّة، دون النظر الْعَمِيق إلَىٰ أسْبابها الحقيقيَّةِ الّتي تَسْتَنِدُ إلى حِكْمَةِ الرَّبِّ الخالِقِ في تصاريف الكون.

* * *

قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: أي: ولو أَنَّ أهل المجمَّعاتِ السكنيَّةِ للنَّاسِ، صغيرةً كانت أَمْ كبيرة، ولو بَلَغَتْ مُدُناً عظيمةً جِدًّا، مَعَ لواحِقِها وتَوابعها.

فَقَدْ سَبَقَ بيانُ أَنَّهُ يُلْحَقُ بالقرىٰ توابِعُها من سُكَّان البوادي، فهم في معظم أَحْوال التَّجمُّعَات البشريّة مُلْحَقُونَ إداريًا وسياسيًا واجتماعيًا بحَواضِر المجمَّعَات السكنية، ومعظم البشر تكون لهم مجمَعاتٌ سكنيّةٌ يتَعاونون فيها على تبادل المعرفة والأعمال ونواتجها، وتبادُلِ المنَافِع والمصالح، وأن تكون لهم مؤسسات مشتركة يتعاونون على إقامتها، وهذه إنّما تكون غالباً في الحواضر لا في البوادي.

«لو» هنا حرفُ شرطٍ يَدُلُّ على عدَم وجود جواب الشرط، لعدم وجود الشرط.

● ﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾: هذا هو الشرط، وهو مؤلف من عنصرين هما: الإيمان والتقوىٰ، أي: الإيمان الصّحيح بعناصر القاعدة الإيمانيَّةِ الَّتي أَمَرَ اللَّه بالإيمان بها فيما أَنْزَل عَلَى رُسُلِهِ.

واتقاءُ عِقَابِ اللَّه بأَدَاءِ الواجباتِ الّتِي أَوْجَبَها عليهم، وبِتَرْكِ المحرَّمَاتِ الّتي حرَّمَها عليهم، في أحكام الدّين الّذي اصطفاه لهم.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: وفي القراءة الأُخْرَىٰ:

﴿لَفَتَّحْنَا﴾ بِتَشْدِيدِ التّاء، وهذه القراءة تَدُلُّ على الزّيادة في الفتح، فالقِراءتانِ مُتَكامِلَتان في أداء المعنَىٰ المراد، أي: فَمَنْ كان إيمانُهم وكانت تَقْواهم من دَرَجَةِ المقبول، أو من دَرَجَةِ الجيّد، فَتَحْنا، أَمّا من بَلَغُوا في ذلِكَ دَرَجَة الجيّد جِدًّا، أو الممتاز فَتَّحْنا تفتيحاً زائداً مُضاعفاً.

﴿بَرَكَٰتٍ﴾: أي: زياداتٍ كَثِيرات، جمع «بَرَكَة» وهي الزّيَادة من الخير، سواءٌ أكانت ماديَّةً تُدرَكُ بالحواس الظاهرة، أمْ غَيْرَ ماديّة، ممّا يُدْرَكُ بالحواسّ الباطنة.

قال الزّجاج: البركة، هي الكَثْرَةُ مِنْ كلِّ خير.

أقول: البَرَكَةُ وكلُّ تصريفات هذه المادّة في نُصُوصِ القرآن والسُّنَّةِ، تَدُلُّ علىٰ الزيادات الّتي تأتي من وراء المنظور، دون أَنْ تُدْرَكَ لها حُدُود، فَهِيَ فَيْضٌ مِنْ عالَم الْغَيْبِ إلى عالَم الشهادة، أو زيادات في عالَمِ الغيب بلا حَدٍّ.

والمرادُ بفتح البركات فتحُ أبوابِها المعْنَوِيَّةِ والمادّيَّةِ، حتَّىٰ تَتَدَفَّقَ نِعَمُ اللَّه الزائدة، وخيراتُه الحِسَانُ، على الَّذِينَ آمَنُوا واتَّقُوا.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: لَفَتَحْنا عليهم أبوابَ بركاتٍ تأتيهم من جِهَةِ السَّمَاءِ، وتأتيهم من جهة الأرض.

فَمِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ تأتيهم الطَّاقَةُ الضَّوْئِيَّةُ والحراريّة، وأشياءُ أخرىٰ تُمِدُّهم لِغِذَائِهِمْ ومَنَافِعِهِمْ الكَثِيرة، ومِنْها ما يَنْزِلُ عليهم من السُّحُب الّتي هي بالنسبة إليهم سماءٌ لهم، بحَسَب مفهوم كلمة السَّماء في اللّغة.

ومِنْ جهة الأرض يُخْرِجُ اللَّه لهم أنواع النباتات ونواتجها من ثمراتٍ ومَطاعِمَ ومشارب وحيوانَاتٍ لَهُمْ فيها منافع كثيرة، إلى سائر ما يسْتَخْرِجُونَ من الأرض من بَرَكاتٍ كَثِيراتٍ لِمَنافِعِهم المتعدّدة الكَثِيرَة التي لاَ تُحْصَىٰ من قبيل المخْصِينَ من الناس، منها المعادِنُ وأشْبَاهُها، والعضويّات وأشباهُها، وعناصر الطاقة المختلفة.

فإذا مَنَحَ اللَّه جلّت حكمته النَّاسَ زياداتٍ من فيوض عطاءاتِه، فهي بَرَكاتٌ منهُ يُنْزِلُها لَهُمْ من السّماء، أو يُخْرِجُها لَهم من الأرض.

والمؤمنُ يُدْرِكُ بِبَصِيرَتِهِ، ويَعْلَمُ من دلالات النصوص الدِّينيَّةِ الإسلاميّة، أنَّ كُلَّ مَا يَنالُه الناسُ من نِعَمٍ، هيَ من عطاءات الرَّبِّ الخالق لعباده، يتفضَّلُ بها عليهم.

وظاهِرٌ ما في العبارة من حذف للإيجاز، واستعارة قائمة على تشبيه عطاء اللَّه الكثير بفتح الأبواب.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: ولكِنْ لم يُحَقِّقُوا الشَّرطَ بِالْإِيمان والتقوىٰ، فلَمْ نَفْتَحْ عَلَيْهِمْ برَكاتٍ من السَّمَاءِ والْأَرْض دَوماً دُونَ انقطاع، ودونَ أن نَأْخُذَهُم بالبأسَاءِ والضَّرَّاءِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضرَّعُوا، ودون أَنْ نَأخُذَهُمْ أخيراً بالتَّعْذِيبِ والإهلاكِ الشامل العامّ. بل كذَّبوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وكَذَّبُوا بما جاءُوهم به عن رَبِّهم، فلم يُؤْمِنُوا ولم يَتَّقُوا، والمرادُ معظَمُ أَهْلِ القرىٰ لاَ كُلُّهُم.

لهذا استحقُّوا أَنْ نَأْخُذَهُمْ بِسَبَبِ مَا كانوا يَكْسِبُون.

وأَخْذُ اللَّه لهم يَكُونُ على وفْقِ سُنَّتِه، وهي ذات مرحلتين:

المرحلة الأولى: أَنْ يَأْخُذَهُمْ بالبأسَاءِ والضَّرَّاءِ، تذكيراً لهم برَبّهم وتأديباً، وهذا لا يكون معه إهلاك شامل.

ويَتْبَعُ هذا رَفْعُ قَوارِعِ التذكير والتأديب عنهم، حتَّىٰ إذا تَمَادَوْا فِي غَيّهِم، واسْتَعْمَلُوا نِعَمَ اللَّه في الطغيان والفساد والإفساد في الأرض، جاء دَوْرُ تنفِيذِ المرْحَلَةِ الثانية إذا اقتضت حكمة اللَّه ذلك فيهم، بِبُلُوغهم دَرَكَةً من الكفرِ والفسادِ والإفسادِ، مَيْؤُوساً معها أَنْ يَصْلُحَ منهم بإرادتِه الحُرَّة عَدَدٌ كافٍ لإمْهَالِهِم، أَكْثَرَ مِمَّا أُمْهِلُوا.

المرحلة الثانية: أَنْ يَأْخُذَهُمْ اللَّه بعذابٍ وإهْلاكٍ شامِلَيْنِ بَغْتَةً، فَيُفَاجِئَهُمْ بِهِ لَيْلاً وهُم نَائِمُونَ، أو ضُحًى وهم يَلْعَبُون، ويَنْزِلَ بِهِمْ دُونَ أن يكونُوا في حالَةِ شُعُورٍ بمقَدِّمَاتٍ مُنْذِرَةٍ بالعذاب الذي سَيَنْزِل بِهِمْ، ولا بالْهَلاَكِ الذي يَسْتَأْصِلُهم.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: أي: بما كانُوا يَفعلُون، أصل الكَسْبِ العملُ للحصول على مَرْغُوبٍ فيه، كالرِّزق والمالِ، واللَّذَّة، والاستمتاع بشيءٍ مِمَّا هو محبوبٌ للنفوس. يقال لغة: كَسَبَ المالَ يَكْسِبُهُ كَسْباً، أي: رَبِحَهُ. وكَسَبَ الشيءَ، أي: جمعه، وكَسَبَ الإثم، أي: فَعَلَهُ وتَحَمَّلَهُ باخْتِيارِهِ الحرّ.

* * *

قول اللّه عزّ وجلّ:

● ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

﴿أَفَأَمِنَ﴾: همزة استفهامٍ، وبعدها «الفاء» الْعَاطِفَة، وهي هنا الفاء الفصيحة الّتي تَعْطِفُ على محذُوفٍ يمكن إدْرَاكُهُ بالتدبّر.

أَمِنَ: أي: اطْمَأَنَّ ولَمْ يَخَفْ فهو «آمِنٌ» و«أَمِنٌ» و«أَمِينٌ».

﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: أي: أَهْلُ المجمَّعَات السكنيّة مهما عظمت، ومَنْ هُم مُلْحَقُونَ بهم من أهل البوادي.

﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾: أي: أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُنا ومَا يُلْقِي في قُلُوبِهُمُ الخوفَ والذعْرَ الشديدَيْن. **البأس** في اللّغة: العذابُ الشَّدِيد، والشدَّةُ في الْحَرْبِ، والحربُ، والخَوفُ.

ولا يخْفَىٰ ما في استعمال ضَمِير المتكلّم العظيم من إثارة المهابة والخوف في نفوسِ أولي الألباب.

﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: **بَيَاتاً**: مَصْدَرُ «بَاتَ» بمعنى أَدْرَكَهُ اللَّيل، سواءٌ أكان نَائماً أَمْ غَيْرَ نَائم، فجاءت جملة ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ قيداً لاَزماً لعموم البياتِ، وهذه الجملة حالية، أي: حالة كوْنِهِمْ نَائِمين.

والمعنى: أَلَدَىٰ أَهْلِ القرىٰ الكافرين عِلْمٌ بأنَّ اللّه عزّ وجلَّ لَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ عَذَابَهُ على ما يَكْسِبُونَ من آثام، فَأَمِنُوا واطْمَأَنُوا ولم يَخَافُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ، بأسُ رَبِّهم في اللَّيْلِ وهُمْ نَائِمُونَ، فيُبَاغِتَهُمْ وهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بِمُقَدِّمَاتِ الْعَذابِ الَّذِي سيكون به إهلاكُهم.

والاستِفْهَامُ في الآية استفهامٌ إنكاريٌّ، تعْجِيبيٌّ من أَمْرِ اسْتِغْرَاقِهِمْ في

آثامِهِم، الْجَالب لسخَطِ رَبّهم عليهم، وإنْزالِهِ العذابَ الشَّدِيدَ بهم، وإهلاكِهِمْ إهلاكاً شاملاً إذا اقتضت حكمتُه ذَلِكَ بعد إمْهَالِهِم الإمهالَ الكافيَ القاطع لأعذارهم.

﴿أَوَ أَمِنَ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: ﴿أَوْ أَمِنَ﴾ بإسكان الواو، فتكُون «أَوْ» كُلُّها حَرْفَ عَطْفٍ علَىٰ ما جاء في الآيةِ السابقة. وأَمّا القراءة الَّتي بفتح الواو، فالْهَمْزَة همزة اسْتِفْهَام والواو حرف عَطْفٍ على ما جاء في الآية السّابقة، والمؤدَّى واحد، والقراءتان من التَّفَنُّنِ في أسْلُوبِ الأداء البياني.

﴿ضُحًى﴾: الضُّحَىٰ: هو أَوَّلُ النهار، مُنْذُ ارتفاع الشَّمْس إلى الزَّوال، وهذا الوقت هو الوقت المفضَّل الذي كان الناسُ يُقِيمُونَ فيه مُنَاسَباتِ الألْعاب ومبارياتها، فيجتمِعُون في ملاعبهم غافلين عن كلّ شيءٍ يجري خارج ساحات اللّعب.

أو المرادُ أنّه الوقت الذي يكون الناس فيه بحسَب العادة مُنْتَشِرينَ في الأرض، يمارسُونَ أعمالهم لمصالح الحياة الدُّنيا وسمَّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ اشْتِغَال الكافِرينَ بأَعْمَالِهِمْ في مصالح الحياة الدُّنيا لَعِباً، لأنَّهُمْ لاَ يَسْتَغِلُّونَها فيما يَجْلُبُ لهم سعادةً خالدةً يوم الدِّين، ولا فيما يكونُ سببَ سَعادتهم الحقيقيَّةِ في الحياة الدنيا، لأنّ تحقيق هاتين السعادَتَيْنِ إنَّما يكونُ حينما يحقّق الإنسان في ذاتِه شرْطاً مؤلَّفا من عُنْصُرَين:

العنصر الأول: الإيمان الصحيح الصادقُ بأركان القاعدة الإيمانية وفروعها.

العنصر الثاني: الالتزام بتقوى اللَّه بفِعْل ما أَمَرَ به، وتَرْك ما نَهَىٰ عنه.

والكافرون لم يُؤْمِنُوا ولم يَتَّقُوا عَذَابَ رَبّهم، فأعْمَالُهُمْ في الحياة الدُّنيا جَديرَةٌ بأنْ تُسَمَّىٰ لَعِباً.

والمعنى: أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ الكافرون بسبب ما لديهم من عِلْم، فاطْمَأَنُّوا ولم يَخافُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُ رَبِّهِمْ في وقْتِ الضُّحَى، وهُمْ غارِقُونَ في أعمالهم غَافِلُون عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُفَاجِئَهُمْ من عذاب رَبِّهم.

والاستفهام فيه معنىٰ استثارَة التَّعَجُّبِ مِن حالةِ عَدم اكْتِرَاثِهِم لِمُفَاجَآتِ عَذَابِ رَبِّهم، وفيه معنىٰ الإنكار على تَمادِيهم في غَيِّهِمْ، وعَدَم اعتبارهم بالَّذِينَ سَبَقُوا مِمَّنْ كانَ مِنْ أمْرِهِمْ أَنْ أَخَذَهُمُ اللَّه بالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ أَوَّلاً لِيَتَضرَّعُوا، فَلَمْ يُؤْمِنُوا ولم يتَّقُوا رَبَّهم، فأَمَدَّهُمْ بأَنْواعِ النِّعَم مُدَّةً من الزَّمَنِ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ مُنْتَقِمٍ، فَعَذَّبَهُمْ عَذاباً عَامّاً شاملاً، وأهلكهم إهلاكاً مُسْتَأْصِلاً.

فَمَا الَّذِي جَعَلَ المكَذِّبِينَ فِي الأجْيالِ المتَتَابِعَةِ غَيْرَ عَابِئِينَ بِسُنَّةِ اللَّه الَّتِي جَرَتْ في أَسْلاَفِهِمْ، ولا مُكْتَرِثين لها، ولاَ خائِفينَ مِنْ أَنْ يُجْرِيَ اللَّه فِيهِم سُنَّتَهُ الَّتِي أَجْراهَا في المكذّبين الأوَّلين لِرُسُلِ رَبِّهم، وبما جَاءُوا به لهداية الناس من عند ربهم، وَلبَيَانِ واجِبَاتِهم تُجاهَه في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا.

أَأَمِنُوا احْتِمَالَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ أَنْواعُ العذاب الشَّدِيدِ والْمُهْلِكَاتُ الْقَاصِمَاتُ بَيَاتاً وهُمْ نَائِمُونَ، أَوْ ضُحًى وهُمْ يَلْعَبُونَ؟!!

ما الَّذِي يَجْعَلُهُمْ يَأْمَنُونَ هذا الأَمْنَ، مَعَ أَنَّ سُنَّةَ اللَّه في عِبَادِه الموضوعين موضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا واحِدَةٌ، لاَ تبديلَ فيها ولا تَحْويلَ لَها؟!!

إنّ طرح هذا السؤال يفتح بابَ مُنَاظَرَةٍ بَيْنَ المؤمنين المتقين، وبين الكافرين الفاجِرِين، غيرِ المكْتَرِثين لِنُذُرِ الإهلال الشامل، فهؤلاء الكافرون:

- إمَّا أن يقولُوا كما قَالَ خَلْفُ المهلَكِينَ الأوَّلِين، الَّذِينَ نزلَ بهم الإهلاك الشامل أيضاً من بَعْدِ أسلافهم، إِذْ قالُوا:

إنّ إهْلاَكَ السَّابقين قد كان بتأْثير ظواهِرَ طبيعيَّة في الكَوْن، وَلَمْ يَكُنْ أَثَرَ قَصْدٍ حكيم، وعقابٍ وانتقامٍ مِنْ رَبٍّ قاهِرٍ جَبَّارٍ مُهَيْمنٍ عَلَىٰ كُلِّ صغيرةٍ وكبيرَةٍ في الكوْنِ وأَحْدَاثِهِ عَلِيمٍ قَديرٍ، لاَ يَجْرِي شيءٌ في الكَوْنِ إلاَّ بقَضَائِهِ وقَدَرِهِ وأمْرِهِ، أَوْ إذْنِه وتَمْكِينِهِ.

فهم إذَنْ يَجْحَدُونَ رُبُوبِيَّةَ الرَّبِّ الخالق، أو يَجْحَدُونَ بَعْضَ صفاتِ رُبُوبيَّته، فَمُنَاظَرَتُهُمْ تَنْتَقِلُ إلَىٰ إثْبَاتِ مَا يَجْحَدُونَهُ من رُبوبيَّةِ اللَّه جلَّ جلالُه.

● وإمَّا أن يَقُولُوا: لَقَدْ غيَّرَ اللَّه سُنَّتَهُ، بَعْدَ أنْ أصْبَحَتِ الأُمَمُ أُمَماً حَضَارِيَّةً ذَواتَ عِلْمٍ بِقَوانِينِ الطبيعة، وقُدْرَةٍ علىٰ تَنْظِيم أُمُورِهِمُ المعَاشِيَّةِ، ومُكَافَحَةِ الأمْرَاضِ وأسْبابها، وهي الَّتي كَانَتْ تَنْجُمُ عمَّا كان يُسَمَّىٰ مُحَرَّمَاتٍ ومحظوراتٍ في الأديانِ القديمة، ولَمْ يَبْقَ حَالُها كَأَحْوالِ الأُمَمِ الْبِدَائِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، الَّتي كانت تَأْتِيها الكَوارِثُ والْمُهْلِكَات العامَّات الشَّاملات.

والرَّدُّ على هٰذا يكونُ بإثباتِ أَنَّ سُنَنَ اللَّه جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ في عباده ثابتَةٌ، لاَ تَبْديل لها وَلا تَحْويل، وأنَّ الأُمم الحضاريَّةَ تَتَعرَّضُ دَواماً لأنْ تُطَبَّقَ فيها سُنَنُ اللَّه عزّ وجلّ، ولَوْ على أَيْدِي الناس، كما حصَلَ في الحرْب العالِميَّةِ الأُولىٰ، والحرْب العالِميَّةِ الثانية، والحروبِ القارِّيَّةِ والإقْليمِيَّةِ غَيْر الشَّامِلَة، والكوارِثِ الَّتِي تَحْدُثُ حِيناً فحِيناً، والأَمْرَاضِ وَالأَوْجاعِ الَّتِي لم تَكُنْ في الْقُرون السَّالفة، وتَحَارُ الدُّوَلُ الحضارِيَّةُ في أَنْ تَجِدَ وَسِيلَةً لِلْقَضَاءِ عَلَيْها، فلا تَجِدُ إلاَّ بالْتِزَامِ أَحْكَامِ دينِ اللَّه للناس.

على أنَّ تاريخَ البَشَرِيَّة في حِكْمَةِ اللَّه وسُنَنِهِ الدَّائِمَةِ لاَ يُقَاسُ بعَشَراتِ السنين، ولا بِمِئاتِها أحْياناً، وذَلِكَ لأنَّ اليوم في حساب الإمْهالِ والْحِلْمِ الرَّبَّانِي، قَدْ يكونُ بِنَحْوِ أَلْفِ سَنَةٍ ممَّا يَعُدُّ الناسُ بحسب نظام الأرْض، فالسَّاعة من هذا اليوم تُقَدَّرُ بنحو أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وإذا كان إهْلاكُ قوم نوح عليه السَّلامُ، قد حصَل بَعْدَ إمْهالِهم مع

نوح يَوْماً من أيَّام الإمْهَالِ الرَّبَّاني، المعادِلِ لنحو ألف سنة ممّا يَعُدُّ الناس، فَقَدْ جرَىٰ إهلاكُ أقْوامٍ من بَعْدِهم بعْدَ إمْهالهم ساعاتٍ من هذا اليوم الرَّبَّاني.

وقد أسْقَطَ اللَّه عزّ وجلّ الدَّوْلَةَ الشُّيُوعيَّةَ الرُّوسِيَّةَ العظمىٰ، بَعْدَ أَنْ أَمْهَلَها قُرابَةَ أَقَلّ من سَاعَتَين من سَاعاتِ أيَّامه التي يُعامل بمُقْتَضَاها عِبادَه.

● وإمَّا أن يَقُولوا أَقوالاً أُخرىٰ، ولكُلِّ قَوْلٍ من أَقْوالِ أَهْلِ الكُفرِ رَدٌّ يُسْقِطُه ويُظْهِرُ بُطْلانَه.

فَمِنَ الغباء، وقِلَّةِ العَقل، مَعَ انطماسِ الْبَصِيرةِ باتّباع الأهواء والشهواتِ ووساوسِ شياطين الإنْسِ والجنّ، أَنْ يَكُونَ النَّاسُ بسبب إمْهال اللَّه لهم، في أَمْنٍ مِنْ أَنْ يُجْرِيَ فيهم سُنَّتَهُ التذكيريَّة التأديبية أوّلاً، ثُمَّ الإهلاكيَّة الشاملة المقرونَةَ بِعَذابٍ شَدِيد، كما أجْرَاهَا في أهل القرون السالفة.

إنَّ سُلُوكَ الكافرين هذا سُلوكٌ يُسْتَثَارُ حولَهُ الْعَجَبُ الشديد، ويُوَجَّهُ له الاسْتنكار والتأنِيب، قَبْلَ تسليط عصَا التأديب، فقوارِعِ الإهْلاكِ الشَّاملِ المقرونِ والمَسْبُوقِ بعَنِيفٍ مِنَ التعْذِيبِ.

● ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾؟!

هذا الاسْتِفْهامُ نظير الاسْتِفْهَامَيْنِ في الآيَتَيْن السابقتَيْن في دلالَته، إلاَّ أنَّهُ يَلْفِتُ النظر إلى قَضِيَّةِ الْمَكْرِ الرَّبَّانِي، الَّذِي مِنْ عَنَاصِره أَنْ يُمْهِلَ اللَّهُ عزّ وجلّ عبادَه، وأنْ يَزِيدَهم مِنْ عطاءاتِ النِّعَمِ الْوَفيرَة، بَعْدَ أَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِعَوَارِضِ البأسَاءِ والضَّرَّاءِ رَغْبَةً في أَنْ يَتَضرَّعوا ويَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئهم، فإذا لم يَفعَلُوا رفَعَ اللَّهُ عزَّ وجلّ عنهم بحكْمَتِهِ هذِه العوارضَ وأملَىٰ لهم، وأمَدَّهم بوافِرِ النِّعَمِ، حتَّىٰ إذا تَمادَوْا في غَيِّهِمْ وَإِفسادِهِمْ في الأرض أَخَذَهُمْ بَغْتَةً بِالعذاب الشديد، وبالْمُهْلِكاتِ الشّاملات، فقطَعَ دابِرَهُمْ.

لَقَدْ أمِنُوا بغبائهم وَعَدَمِ إيمانهم باللَّهِ وَرُسُلِه مَكْرَ اللَّهِ إِذْ أَمْهَلَهُمْ وأَمْلَىٰ لهم، ووسَّعَ عليهم حتَّىٰ صاروا مُتْرَفين، مُسْرِفين في غَيِّهِمْ وفسادهم وإفسادهم في الأرض، فباغَتَهُمْ بالعذاب الشَّدِيد، والإهلاكِ الشامل، فصاروا من الخاسِرِينَ لكلِّ شيء، خَسِرُوا دُنياهم وحَيَواتِهِمْ وأنْفُسَهم، وسَيَكُونون خاسِرين أنفسهم يذقون عذاب الحريقِ يوم الدّين، في جهنم وبئسَ المصير، خالدين فيها لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمُ العذاب.

المكْرُ: هو تدبير أَمْرٍ في خفاء، ويكونُ مَكْراً في الخير، واللَّهُ خَيْرُ الماكرين، وتَدْبِيرُ عُقُوبَاتِ المجرمين بِسِرِّيَّةٍ وَخَفَاءٍ هُوَ من الْخَيْرِ حَتْماً.

وقد يكون المكْرُ فِي الشَّرِّ والإِثْمِ والْعُدْوَانِ، وهو مكْرُ المجرمين والعصاةِ والْفَاسِقِين، ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بأَهْلِهِ.

فلفظَ المكْرِ عامٌّ يَشْمَلُ المكْرَ في الْخَيْرِ، والمكْرَ في الشَّرِّ.

ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

* * *

قول اللَّه عزّ وجلّ:

- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ جُمْلَةٌ مُصَدَّرَةٌ باستفهامٍ يَحْمِلُ معنىٰ استثارة التعجُّب والاستنكار، وهي معْطُوفَةٌ بحرف العطف «الواو» على الجُمَل الاستفهامية في الآيات السابقات: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ـ ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾.

كلمة ﴿لَمْ﴾ حرفٌ يجزم الفِعْلَ المضارع ويَقْلِبُ زَمَنَهُ إلى الماضي، فالمعنىٰ: أَوَ مَا هدى؟. وفعل «يَهْدِي» في العبارة ضُمِّنَ فِعْلَ «يُبَيِّن» فَعُدِّيَ

تَغْدِيَته، فحَمَلت العبارةُ دَلاَلَتِي الفعلَيْن معاً، والتقديرُ أو مَا هَدَىٰ حالُ الأُمَمِ السَّالفةِ مُبيّناً للأمَمِ الوارثَةِ لَهَا في سُكْنَىٰ الأرض، سُنَّةَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ الثَّابتَةَ، الَّتي لا تَبْدِيلَ لها ولاَ تَحْويل.

إنَّ تَكْرارَ إجراء هذه السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ في الأُمَم السَّالفة، مع التَّذْكِير بها فيما جاء به المرسَلُون، ثُمَّ فيما نَزَلَ في القرآن المجيد، مع التَّنْبيه عليها بصريح العبارة في مُنَاسَبَاتٍ كثيراتٍ، من شأنه أنْ تَحْصُلَ به قناعَةٌ تَامَّةٌ بثبات هذه السُّنَّةِ، لَدىٰ الأمم الحاضرة إبَّان تنزيل القرآن، والأُمَم الَّتِي سَتَأتي بَعْدَها، باعتبارهم من الذين وَرِثُوا الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا السَّابِقِينَ الْمُهْلَكِينَ بسَبَب كُفْرِهم، وتكْذِيبهِمْ رُسُلَ رَبِّهم، وَتَكْذِيبهم بما أُنْزِلَ إليهم من ربّهم، وعَدَمِ اتِّبَاعِه، وبسبَب إسْرافهم في الظلم والطغيان، والْبَغْي والفجور والعصيان، وتَمادِيهِمْ في الْغَيّ والفسادِ والإفْسَاد في الأرض.

- ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾: أي: لكُلِّ سَاكِنِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِ الَّذِينَ سَكَنُوها قَبْلَهُمْ مِنَ الأُمَم والأَقْوام والشُّعُوبِ السَّالِفَةِ، الَّذِينَ أجْرِيَتْ عليهم سُنَّةُ اللَّهِ الثابتة، الخاضِعَةُ لِمَشِيئَةِ اللَّه الَّتي لا تُفارِقُ حِكْمَتَهُ.

- ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا ويَقْتَنِعُوا اقتِناعاً تاماً، أنْ لَوْ نَشاءُ ـ إذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا ـ لأَجْرينَا عَلَيْهِمْ سُنّتنا الَّتي أَجْرَيْنَاها على الأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتي عَذَّبْنَاها وَأَهْلَكْنَاهَا إهلاكاً عاماً شاملاً، فَأَصَبْنَاهُمْ بسِهَام التَّعْذِيبِ والإهلاك الْعَامِّ الَّتي أصَبْنَا بمِثْلِهَا الَّذِينَ سَلَفُوا من الأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكْنَاها.

جاء التَّعْبير بالإصابة للدّلالة على أنَّ وَسَائل التعذيب الَّتي يمكِنُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بها تَدْخُلُ إلى أَعْماقِهِمْ، ولاَ تَكْتَفِي بِمَسِّ جُلُودِهِمْ.

ولا يخفىٰ ما في استعمال ضمير المتكلّم العظيم هنا من ضغْطٍ قويٍّ علىٰ مِحْوَرِ الْخَوْفِ في نُفُوسِ أُولي الأَلْباب.

الذَّنْبُ: يُطلَقُ على كُلِّ ما يَسْتَحِقُ فاعِلُهُ العِقَابِ من أشَدِّ الذُّنوبِ وأكْبَرِهَا حتَّىٰ أخفِّها وأصْغَرِها.

«لَوْ» حَرْفٌ شَرْطِيٌّ للتعليق في المستقبل، فهو يرادف «إنْ» الشرطيّة، وإذا وليهَا فِعْلٌ مَاضٍ، قَلَبَتْ دَلاَلَتَهُ من الماضي إلى المستقبل، وإذَا وَلِيهَا فِعْلٌ مضارعٌ كما في العبارة هنا تَخلَّصَ من دَلاَلَتِهِ على الحال، وصارَ يَدُلُّ على الاستقبال.

وجاء في الآيَةِ بيان قانونٍ رَبَّانِيٍّ مُؤَلَّفٍ من ثلاث موادّ:

المادّة الأولى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾: أي: أَنَّ الشأن العظيمَ الّذي هو من سُنَّتِنا الثابِتَة: لو نَشَاءُ مُسْتَقْبلاً إصَابَتَهُمْ بِذُنوبهم ضِمْنَ مُقْتَضَيَاتِ حِكْمَتِنَا، فإنَّنَا نُصِيبُهُمْ بِذُنُوبهِم.

وهٰذِهِ الإصَابَةُ تَبْدأ بأَخْذِهِمْ بالبأسَاء والضَّرَّاءِ، كَمَا فَعَلْنَا في الأُمَمِ السَّابِقَةِ رَغْبَةً في أَنْ يَتَضَرَّعُوا ويَتُوبوا.

فإنْ لم يفْعَلُوا فَلَمْ يَسْتَغْفِرُوا ولم يَتُوبوا، ولم يَتَّقُوا عِقَابَنَا، رفَعْنا عَنْهُم البأسَاءَ والضَّرَّاءَ، ووسَّعْنَا عَلَيْهم أسْبَابَ النِّعَمِ الْوَفِيرَة، لِتَقُومَ الحجَّةُ عَلَيْهِمْ في التَّمَادِي في الْغَيِّ والفسادِ والإفسادِ في الأَرْض.

المادّة الثانية: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أيْ: وإذا تَمادَوْا فِي غَيِّهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهُمْ وَإِفْسَادِهِمْ في الأرض بَعْدَ رفعِ الْبأسَاءِ والضَّرَّاءِ عَنْهُمْ، وإمْدَادِهِمْ بأسْبَاب النِّعَم الْوَفِيرَة، فإنَّ قَانُونَ التكْوِينِ الْقَدَرِيّ العامّ سيَنْطَبِقُ عليهم، فَيَتِمُّ بمُقْتَضَاهُ الطَّبْعُ على قُلُوبِهِمْ، أيْ: إقْفالُهَا إقْفالاً تَامًّا فَلا تَدْخُلُها مؤثِّراتُ الهداية.

الطَّبْعُ في الماديّات الّتي تُدرَكُ بالحواسّ الظاهرة، خَتْمٌ يُطْبَعُ على طِينٍ خاص، يُوضَعُ عِنْدَ مَكانِ إقْفَال الرَّسَائل، أو إقْفَال الأَبْواب، لِضَمَانِ عَدَمِ فَتْحِها.

ثُمَّ جَرَىٰ التوسُّعُ في التعبير فَصَارَ يُسْتَعْمَلُ في المعنويات، ومِنْهُ الطَّبْعُ على القلوب، للدَّلاَلَة على أنَّها صَارَتْ مَحْجُوبَةً عن إدْرَاكِ أيِّ شَيءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَا هِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ.

وطَبْعُ اللَّهِ عزّ وجلّ على قُلُوب النَّاسِ يكُونُ نَتِيجةً قَدَرِيَّةً لِمَا يَكْسِبُهُ النَّاسُ بإراداتِهِمُ الحرَّةِ، كَمَنْ يَشْرَبُ بإرادَتِه الحرّةِ السُّمَّ الْقَاتِلَ، فإنّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ، وعظُمَتْ حِكْمَتُه، يَقْتُلُهُ بِسُمِّهِ ضِمْنَ قانُونِهِ الْقَدَرِيّ العامّ، وَكَمَنْ يُدْخِلُ يَدَهُ في النَّار، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ يُحْرِقُهَا لَهُ ضِمْنَ قَانُونِهِ الْقَدَرِيّ العامّ.

وكذلكَ فإنّ مَنْ يُمْعِنُ في إعراضِهِ عن آيات اللَّهِ المذكّرات له، ويَسْتَهِينُ بها، ولا يَعْبَأُ بالمذَكِّرِينَ، ولا بالدُّعَاةِ الرَّبَّانِيّين الْمُبَشِّرِينَ والْمُنْذِرين، ولاَ يَسْتَمِع للْبَرَاهِين والْحُجَج الإقْنَاعِيَّة الدامِغَة، ويُسَلِّمُ عِنَان إرادتِه لأهوائه وشهواته ورَغَبَاتِهِ من الحياة الدُّنيا، فإنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ يَطْبَعُ على قَلْبِهِ ضِمْنَ قانُونِهِ الْقَدَرِيّ العامّ، إذْ صارَ مَيْؤُوساً من اسْتِقْبالِهِ باخْتِيارِهِ والْحُرِّ لِأَنْوار الهداية الرَّبَّانِيَّة.

المادّة الثالثة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ بَعْدَ الطَّبْعِ عَلَىٰ قُلُوبهم الذي كان بأسْبَابٍ مِنْهم، لا يَسْمَعُونَ مَوْعِظَة وَاعِظٍ، ولاَ تَذْكِير مُذَكِّر، وَلاَ نَصِيحَةَ نَاصِح.

فإذا بَلَغُوا هٰذِهِ الدَّرَكَةَ العميقَةَ في الانْحِطَاطِ، فإنَّهُم حينَئِذٍ يَسْتَحِقُّون إنْزَال عَذَابٍ فِيهم، وإهْلاَكٍ شَاملٍ لَهُم، تَطْبيقاً لسُنَّتِهِ الَّتي لاَ تَبْديلَ لَها ولاَ تَحْوِيلَ لمجْرَاهَا.

مراحل سنن اللَّه في الأمم الأربع:

وقد جاء ترتيب هذه الآيةِ بَعْدَ بَيَان أَحْوَال الأُمَم السَّالفة، وبَيَانِ سُنَّةِ اللَّهِ عزّ وجلّ فيهم، وهٰذِهِ السُّنَّةُ قَدْ كانَتْ تَشْتَمِلُ دواماً على أرْبَعَةِ مراحلٍ:

المَرْحَلَةُ الأولى: أَنْ يُعْلِمَ اللّٰهُ مُجْتمعاً بَشَرِيًا عن طَرِيقِ رُسُلِهِ، أو عن طَرِيق المبلّغين لرِسَالاَتِه من أتباعهم الّذين آمَنُوا بهم واتّبَعُوهم، ما يجب عليهم في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، من إيمانٍ وعَمَلٍ، عَلَىٰ ما جاء فيما أَنْزَلَ لعبادِه من آياتٍ بيّنَاتٍ، تُبَيّنُ لَهُمُ الدِّينَ الَّذِي ارْتَضَاهُ لهم، الشامِلَ لِشَرِيعَتِهِ لهم، ومِنْهاجِه الَّذِي أمرَهُمْ أَنْ يلتزمُوه في سُلُوكهم في حياتهم.

فإنْ آمَنُوا واتَّقَوْا فَتَحَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ من السَّماء والأرض، وجَعَلَ لهم أمْناً واسْتِقْراراً، وَإلاَّ فَإنَّهُ يجيء دَوْرُ الْمَرْحَلَةِ الثانية.

المرحلة الثانية: أَنْ يأْخُذَهُمُ اللّٰهُ عزَّ وجلّ بالبأساء والضَّرَّاء إذا كَذَّبوا رُسُلَ رَبّهم، وكذَّبُوا بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ من شَرِيعَةٍ ومِنْهاج لحياتهم، تأدِيباً وتَذْكِيراً، رَغْبَةَ في أَنْ يَتَضَرَّعوا إلىٰ بارِئهم، ويَتُوبوا، ويَتَّقُوا عقابَه، بِفِعْلِ ما أَمَرَهُمْ بِهِ، وترك مَا نَهَاهُمْ عنه.

فإنِ اتّعَظُوا فتضَرَّعُوا وتابُوا واتَّقوْا، رفَعَ اللّٰهُ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ من بأساءٍ وضَرَّاءٍ، وفَتَحَ عليهم أبواب بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَبَرَكَاتٍ تَخْرُوجُ من الأرْضِ، وَإلاَّ فإنه يجيءُ دَوْرُ المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: أَنْ يَرْفَعَ اللّٰهُ عَنهم ما أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ بَأْسَاءٍ وضَرَّاءٍ، وأَنْ يُمْهِلَهُمْ ويُمْلِيَ لهم، ويَفْتَحَ عليهم أَبْوابَ النِّعَمِ الدُّنيوِيَّة المختلفة، حَتَّىٰ إِذَا طَغَوْا وَبَغَوْا وَأَفْسَدُوا في الأَرْض، وصارَ صَلاحُهُمْ عَنْ طَرِيق إراداتهم الحرَّةِ مَيْؤُوساً مِنْهُ، فإنَّهُ يجيء دَوْرُ المرحَلَةِ الرابعة.

المرحلة الرابعة: أَنْ يُبَاغِتَهُمُ اللّٰهُ بياتاً وهُمْ نَائمونَ، أو ضُحىً وهم يَلْعَبُونَ، أو في وسط النهارِ وهم قائِلُون، بالْمُعَذِّبَاتِ المهلكات، فيَقْطَعَ دَابِرَهم، ويُدَمِّرَ عَلَيْهِم مَسَاكِنَهُمْ، ويُنْهِيَ وُجُودَهم في الْحَياة الدُّنيا، إذ قد انتهىٰ دَوْرُ امْتِحانهم.

وقد ضَربَ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ أَمْثِلَةً مُتَعَدِّدَةً من تحقيقِ سُنَّتِهِ في إهْلاَكِ الذين وَصَلُوا إلى المرحلَة الرَّابعة.

وهذه الأمْثِلَةُ كَافِيَةٌ لأنْ تُقَدِّمَ هِدَايَةً لِلأُمَم اللاحِقَةِ، الَّتي أوْرَثَها اللَّهُ أَرْضَ الأُمَم السابقَةِ الَّتي أَهْلَكَها، وأَنْ تُقَدِّمَ لهم بياناً إقْناعيًّا لا يَسْتَهِينُ به إلاَّ الَّذِينَ لا عُقُولَ لهم، ولا يُعْرِضُ عَنْهُ إلاَّ المجرمون الّذِينَ يَسْتَحِقُّون أن يُجْرِيَ اللَّهُ فيهم سُنَّتَه الّتي أجراها في المهلكين السَّابقين.

ولمّا كان في الناسِ مِنْ بَعْدِ تنزيل القرآن واشْتِماله على هذه البيانات، جَمَاعاتٌ كثِيرُونَ لم يُؤْمِنُوا ولَمْ يَتَّقُوا كَانَ حالُهُمْ مُشْبِهاً حالَ من لم تأتِه هذه الهداية، ولَمْ تَأْتِه هذه البيانات، فكان من أسلوب البيان الرفيع طرحُ السُّؤالِ التالي:

أَلَمْ يَأْتِ هؤلاء الناس ما يَهْدِيهم ويُبَيِّنُ لهم سُنَّةَ اللَّهِ، حَتَّىٰ كان منهم هذا الإِهمالُ وعَدَمُ الاكتراث، وحتَّىٰ سَلَكُوا السُّبُلَ المؤدِّيَةَ بحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ إِلَىٰ تَعْذِيبِهِمْ فإهْلاكهم، كما حصَلَ للّذين من قَبْلِهِمْ، وجاء التعبير القرآنيُ عَنْ هذا السؤال بقول الله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

جاء تقديم ﴿أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ لِأَنَّه هُو النتيجة. وهنا يأتي سؤال لماذَا يَسْتَحقُّون هذه الإصابة؟ والجواب: لأنهم لم يَسْتَفِيدُوا ممَّا جاءهم من هِدَايَةٍ وبَيَانٍ عَمَّا جرَىٰ من تَعْذِيبٍ وهلاكٍ للذين من قَبْلِهِمْ من مُكَذِّبي الْقُرونِ السَّابِقَةِ بما جاءهم عَنْ رَبِّهم. وهُنَا يأتي سُؤَال: لماذَا لم يَسْتَفِيدوا من ذلِكَ؟ والجواب: لأَنَّهُمْ مَطْبُوعٌ علَىٰ قُلُوبهم فَهُمْ لاَ يَسْمَعُون بَيَانَ مُبَيِّنٍ ولا تَذْكيرَ مُذكِّر. وهُنَا يأتي سؤال: لماذَا طُبِعَ على قلوبهم؟ وهَنَا يُجِيبُ التَّدبُّر الفِكْرِيّ المستَنِدُ إلى بيانَاتٍ قرآنِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ في غَيْرِ هذا النَّصّ، مع التَّحْلِيل النفسِيّ لظاهراتِ السُّلوكِ الإِنساني، فيقول: لأَنَّهم اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهم وشَهَواتِهم ورَغَبَاتِهِمْ من الحياة الدُّنيا، فانْطَلَقُوا يَكْدَحُون لِتَحْقِيقِ لَذَّاتِهم،

مُعْرِضين ومُدْبِرينَ عن كلِّ منطِقٍ عَقْلِيّ، وطَالَ عليهم الزَّمَنُ، وهُمْ مُسْتَغرِقُون لاَ يُفكِّرونَ إلاّ فيما يُحقِّقُ لَهُمْ مَتاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا ولَذَّاتِها، ويَكْدَحُون لاهِثينَ لتَحْقيقِهَا، فَجَرَىٰ عَلَيْهِمْ قانونُ الطَّبْع على قُلُوبهم، أحَد أنظِمَةِ التكوين العامّ للأسْباب والمسبَّباتِ، ومَنْ أُقْفِلَ قَلْبُه عن اسْتِقْبال بياناتِ الهداية بعَقْلٍ وَرُشْدٍ، فإنَّ مَراكزَ سَمْعِهِ في دمَاغِهِ لا يَصِلُ إليها ما تتلَقَاهُ أُذُناه من هذِه البيانات، وكذلك مراكزُ إبصارِهِ لا تَرىٰ ما تُشَاهِدُهُ عَيْنَاهُ من آيَاتِ اللّهِ في آثار المُهلَكينَ السابقين، ومن آيَاتِ اللّهِ في السَّمَاوات والأَرْض.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

تمهيد:

يتحدّث رَبُّنا جلَّ جلاله في هاتَيْن الآيتَيْنِ بتَعْقِيب خِتَامِيٍّ عَنْ أهل الْقُرَىٰ الغابرَةِ، وهُمْ سُكَّانُ كُلِّ مُجمَّعٍ سَكَنِيٍّ وتوابِعِهِ من أهل البوادي، الَّذين قَصَّ اللّهُ عزَّ وجلَّ عَلَينا بَعْضَ أَنْبائِهم، في سُورَةِ (الأعراف) وفيمَا نَزَل قَبْلَها من سُور، سواءٌ منهم الّذين ذكَرَ أسْمَاءَهم وأسماءَ رُسُلهم، أم الَّذِينَ تَحَدَّثَ عنهم بِعِبَارَاتٍ عامَّاتٍ مُجْمَلاَتٍ، دون ذكرِ أسمائهم وأَسْماءِ رُسُلهم، أم الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْنا أيضاً بَعْض أنبائِهم بالتَّدَرُّجِ التكْمِيلِيّ فيما أَنْزَلَ بَعْدَ هذا النَّصّ في نجوم التَّنْزِيل القرآنيّ على الرَّسُول محمّد ﷺ.

وقد جاء في هذا التعقيب الختاميّ لهذا الفَصْل السَّادس، من الدَّرْس

السادس من دُرُوس سورة (الأعراف) بَيَانُ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ الغابِرَةِ وتوابِعها كَانُوا فريقين:

أَمَّا الفريقُ الْأَوَّلُ مِنهُمْ: فقد كذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وكذَّبوا ما جاءُوهُمْ بِهِ عنه جلّ جلاله، فأَمْهَلَهُم اللَّهُ إمهالاً طَوِيلاً كافِياً لإقامَةِ الحجَّةِ عَلَيْهِم، ووَصَلَ كثير مِنهُمْ إلَىٰ حَالَةِ ميْؤُوسٍ معها من إيمانِهِمْ وإعْلانِهِم إسْلامَهُم، عن طَرِيقِ إراداتِهِمُ الحرَّةِ، وعَلِمَ اللَّهُ ذٰلِكَ مِنهُمْ، فقَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً عَامًا بالْمُهْلِكاتِ المصْحُوبَاتِ، بأنْواعٍ من العذاب بالعدل على ما كَان مِنهم من كُفْر وفُجُورٍ، وبغي وعدوان، وفسادٍ وإفساد فِي الأرض، إذِ انْتَهَى دورُ امْتِحانِهِم في الحياة الدنيا، وغدا بَقَاؤهم فيها غَيْرَ ذي جَدْوىٰ للغاية الَّتِي خُلِقُوا من أَجْلِها، وهي الابتلاء.

باستثناء قِلَّةٍ قَلِيلَةٍ منهم كانَ من الممْكِن لو أُمْهِلُوا أَنْ يُؤْمِنُوا وَيتَّبِعُوا الْهُدَىٰ، ولَكِنْ قَضَىٰ النظامُ العامّ بأن يشْمَلَهُمُ الإهلاكُ. وهؤلاء سوْفَ يَرْحَمُهُم اللَّهُ يوْمَ الدّين على مَقادِيرِ مَا فِي قَلْبِ كلِّ واحِدٍ منْهُمْ من خَيْرٍ، ولاَ نَعْلَمُ كيْفَ تكُونُ رَحْمَةُ الله لهم، وهٰذه الرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ تَشْمَلُهُمْ إذْ لَمْ تَنْتَهِ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ جلَّ جلالُهُ مُدَّةُ امْتِحَانِهِمْ، ولَكِنْ قَضَىٰ نِظَامُ الإهْلاكِ الْعَامِّ لمجْمُوعِ قَوْمِهِمْ إهلاكَهم مَعَهُمْ، وقَدْ جاءَتِ الإشارات الْقُرْآنِيَّةُ لهذا في عبارات: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ في سورة (الشعراء) في الآيات (٦٨ ـ ١٠٤ ـ ١٢٢ ـ ١٤٠ ـ ١٥٩ ـ ١٧٥ ـ ١٩١) فقد جاء قبلها بَعْدَ بيانِ إهلاك المكَذّبين من السابقين قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي وما كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُسْتَعِدّاً لأنْ يُؤْمِنَ مُسْتَقبلاً مهما أمْهِل، فالله يُعَامِلُهُمْ بمقتضىٰ اسْمه، «الْعَزِيز» أَمَّا من كان لِدَيْهِ اسْتِعْدادٌ لأنْ يُؤْمِنَ مستقبلاً فيما لَوْ أُمْهِلَ، فإنَّ اللَّهَ جلَّتْ حِكْمَتُهُ، وعَظُمَ سُلْطَانُه، وَعَمَّتْ رحْمَتُه، سَوْفَ يُعَامِلُهُ بمقتضىٰ اسمه: «الرَّحِيم».

■ **وَأَمّا الْفَرِيقُ الثّانِي مِنْهُمْ:** فَقَدْ أَنجاهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بِأَلْطَافِهِ من الْعَذَاب ومن الإهلاكِ الَّذِي شَمِلَ أقوامَهُم، لأنَّهم آمَنُوا بِرُسُلِ رَبّهم، واتَّبَعُوهم، وعاهَدُوا على الإسلام لِلَّهِ وللرَّسُولِ الَّذِي جاءهم، وعلى طَاعَةِ الأَوَامر والنواهي، مع تفاضُلٍ كَثِيرٍ فيما بَيْنَهُمْ في الإيمان والإسْلامِ والطّاعَة.

ثُمَّ تَكاثَرَ فَرِيقُ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَعْلَنُوا إسلامَهُمْ وطاعَتَهُمْ بَعْدَ فَرِيق الْمُهْلَكِينَ، ووَرِثَ الأَوْلادُ والأَحْفَادُ الدِّينَ عن آبائِهِم، ولكِنَّ أَكْثَرَ الْخَلائِفِ لم يَفُوا بِعُهُودِهم وَمَواثِيقِهِمْ على الإسلام والطّاعَةِ، بَلْ ظَهَرَ بَعْدَ اخْتِبَارِ كُلِّ واحِدٍ منهم في الحيَاةِ المقَدَّرَةِ لامْتِحَانِهِ، أنَّ أَكْثَرَهم كَانُوا فَاسِقِينَ، أي: خَارِجِينَ بالمعاصِي والْمُخَالَفَاتِ عن طَاعَةِ اللَّهِ وطَاعَةِ رَسُولِهِ.

وخَتَمَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ ببَيَانِ هٰذِهِ القضايا آيَاتِ هذا الْفَصْل السادس، من فُصُول الدّرْسِ السَّادِسِ من دُروس سورة (الأعراف).

التدبر:

● قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾: أي: تِلْكَ الْقُرَىٰ السَّالِفَة وتوابِعُها نَقُصُّ بأحَادِيث تَتَبُّعِيَّةٍ عَلَيْكَ يا مُحمَّد، ويَا كُلَّ مُتَلَقٍّ أو قَارِىءٍ للقرآن، بَعْضَ أنبائِها، فيما أنزَلْنا عَلَيْكَ وفيما سَنُنْزِلُ في نجوم التنزيل، لِيَكُونَ ما نقُصُّهُ عَلَيْكَ عِظَةً وَعِبْرَةً، لمن يتَّعِظُ وَيَعْتَبِرُ بِمَا جَرَىٰ للأمَمِ السَّالِفَةِ، من تَطْبِيقِ مُقْتَضَياتِ سُنَّتِنَا في عبادنا الموضوعِينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامتحان.

يُقَالُ لغة: قَصَّ الشيْءَ يَقُصُّه قَصًّا وَقَصَصاً، أي: تَتَبَعَ أَثَرَهُ شيئاً فَشَيْئاً. وقَصَّ عَلَيْهِ الخبَرَ، أي: حَدَّثَهُ بِهِ علَىٰ وَجْهِه الحق.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: يُؤَكِّدُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعَالَىٰ بهذِهِ العبارة، أنَّ المُهْلِكِينَ من الأمَمِ السَّالِفَةِ، لم يُعَذِّبْهُمْ عذاباً مُهْلِكاً لَهُمْ إهلاكاً شاملاً، إلاَّ بَعْدَ أَنْ جاءَتْهُمْ بإرْسَالٍ مِنْهُ رُسُلُهُمْ بالْبَيِّنَاتِ.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي: بالوَضِحَاتِ الجَلِيَّاتِ، وهِيَ تَشمَلُ بِعُمُوم اللَّفظِ الآياتِ المعجِزاتِ الَّتي تُثبِتُ أَنَّهُمْ أَنبِيَاءُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ حقًّا وَصِدقًا، وتَشمَلُ الآيَاتِ البيّنَاتِ المنزَّلاتِ صُحُفاً تُتلىٰ، أو كِتَاباً كَبِيراً يُتلَىٰ، وهي تَدلُّ الناسَ علىٰ شِرْعَةِ اللَّهِ، ومِنهاجِه لهم، في الدِّين الَّذِي اصْطفَاهُ لعباده، وتَشمَلُ الحُجَجَ والبراهينَ الواضحاتِ اللَّوَاتي تُثبِتُ مبادىءَ الدِّين، وأرْكَانَ الإيمان، وأَرْكانَ الإسلام، وفَضَائِلَ السُّلُوكِ الَّذِي يُطَالِبُ اللَّهُ بِهِ عباده.

فَدلَّ هذا على أنَّ اللَّهَ لم يُنزِل الإهلاكَ الشامل بالمهلَكِينَ السابقين، إلاَّ بَعْدَ أَنْ رَفضُوا البيّنَاتِ الَّتي جاءتْهَمْ بِها رُسُلُهُمْ الْمُرْسَلُونَ إليهم من ربِّهم، وقَطَعَ بالبيّناتِ احْتِمَالَ اعتِذَارِهِمْ بالْجَهْل.

● قول الله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾: أي: إنَّ الَّذِينَ أُهْلِكُوا بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبيّنِاتِ، قد أُمهِلُوا إمْهَالاً طويلاً كافِياً لقَطْعِ كُلِّ أَعْذَارِهم الَّتي يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِروا بها، فَمَا كَانُوا ليُؤمِنُوا بما كذَّبوا به مِنْ قَبْلِ إهلاَكهم، مَهْما تُرِكُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدُّنيا، ومهما أُمْهِلُوا.

ولهذا كان إهلاكُهم، وإِنْهَاءُ رِحْلَةِ امْتِحَانهم، هَوُ الأَمْرَ الْحَكِيمَ، إِذْ إِنَّ إِبْقَاءَهُمْ في الحياة أمْرٌ غَيْرُ ذِي جَدْوىٰ، فهو لا يُعْطِيهِمْ في الحقيقة فُرْصَةً لِكَيْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إراداتهم الحرَّة.

فَلَقَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ حالة مَيْؤُوسٍ مِنْها، فَطَبَعَ اللَّهُ علىٰ قُلُوبِهِمْ، بقانُونه القدَرِيِّ العامّ، الَّذي كانُوا هم السبَبَ في الوصول إليه، وتحقُّقِهِ فيهم.

اللاَّمُ في: ﴿لِيُؤۡمِنُواْ﴾: هي لام الجحود لمجيئها بَعْدَ كَوْنٍ مَنْفِيّ، ومثْلُ هٰذا التعبير هو من أبْلَغِ أَسَاليب النَّفي في العربيَّة.

● قول اللَّهِ تَعَالى:

﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي: كذلِكَ الطَّبعِ الَّذي

طُبِعَ علىٰ قُلُوبِ المُهْلَكِينَ من أَهْلِ الْقُرُون السَّالِفَةِ، بسَبَبِ كُفْرِهم الّذي تَمكَّنَ مِنْ أفئِدَتِهم، فَحَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنْ كُلّ أنوارِ الهداية، يَطْبَعُ اللّهُ عزّ وجلَّ بقَانُونِهِ الْقَدَرِيِّ العامِّ على قُلُوبِ سائِرِ الكافرين، الَّذِينَ تَصِلُ أحوالُهم إلى مِثْلِ أحْوالِ المعذَّبين المهلَكِين السابقين، الّذين طبَعَ اللّهُ على قُلوبهم، فقَانُونُ اللّهِ في عباده وَاحِدٌ، وسُنَّتُهُ ثَابِتَةٌ لا تتبَدَّل.

الممتحنُون الآخِرون من النَّاسِ، كالمُمْتَحَنِين الأوّلين منهم، وسُنَّةُ اللّهِ في عبادِه الآخِرِينَ، كسُنَّتِهِ في عباده الأوّلِينَ، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تبديلاً، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللّهِ تَحْوِيلاً.

● قول الله تعالى:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: أي وما وَجَدْنا لِأكْثرِ الْفَرِيق الّذِينَ آمَنُوا واتّبَعُوا الرُّسُل، والّذِين ورِثُوا الّذينَ عَنهم وَكَانُوا خُلَفَاءَهم، وعاهَدُوا على الإسلام والطّاعَةِ، ما وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ من وفاءِ والْتِزَام بِعَهْدِهِمْ الّذِي عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْه، بإعلانِهِمُ الإسلامَ والطّاعة.

ونُؤَكِّدُ أَنَّا وَجَدنا بالاختبارِ والامتحانِ الطويلِ أَنَّ أَكْثَرَ هَؤُلاء فاسِقُون، أي: خارجون عن الطاعةِ، عَاصُونَ مُذْنِبُون، إِذْ لم يلْتَزِمُوا بِالْوَفَاء بما عَاهَدُوا اللّهَ عليه.

[إنْ] من ﴿وَإِن وَجَدْنَآ﴾ هي المخَفَّفَةُ من الثقيلة، وتفيدُ التوكيد، والتحقيق، كما تفيد «قد». واللاّم في: ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ هي اللاّم المزحلَقَةُ والفارقَةُ بين «إنْ» النافية، وبينَ «إنْ» المخفَّفةِ من الثقيلة، وهذه اللاّمُ تُفِيدُ التوكيد أيضاً.

والتعبير بنَفْي الوجُودِ في عبارة: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾ يُفِيدُ أنّهُمْ لم يَكُنْ مِنهُمْ وَفَاءٌ بما عاهَدُوا اللّهَ عليه، لأنَّ اللّهَ جلَّ جلالُه مُحِيطٌ بكلِّ شيءٍ عِلماً، ولَوْ كانَ هذا الْوَفَاءُ بالْعَهْدِ مِنهُمْ موجوداً لَوَجَدَهُ اللّهُ وعَلِمَه، فَعَدَمُ عِلْمِ اللّهِ بِهِ دَليلٌ قَطْعِيٌّ علىٰ عَدَمِ وجُودِهِ لَدَيْهم.

وقاعِدَةُ: «عَدَمُ الوِجْدَانِ لاَ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الوُجُودِ» خَاصّةٌ بالمخلُوقَاتِ الّذِينَ لا يُحِيطُونَ عِلْماً بمَا تَوَجَّهَتْ لَهُ حَوَاسُّهُمْ، أو أدَواتُ إدْراكاتِهِم. أمّا اللّٰهُ جلَّ جلالَهُ فلا تَنْطَبِقُ عليه هٰذه القاعِدَة، بَلْ هو سبحانه إذا لَمْ يَجِدْ شيئاً لزِمَ عَقْلاً أنْ يكونَ هٰذا الشيْء غَير مَوْجُودٍ حَتْماً.

و«مِنْ» في ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ زِيدَتْ للدَّلالَةِ على اسْتِغْرَاقِ العموم والتنصيص عليه.

وأطْلِقَ لفظ «عَهْدٍ» وأُرِيدَ الْوَفَاءُ به، لأنَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ وفَاءٌ بِعَهْدِهِ، يكون كَمَنْ لا عَهْدَ لَهُ أصْلاً، وهذا من نَفْيِ السَّبَبِ وإرادَةِ نَفْيِ المسَبَّب، فهو من قبيل المجازِ المرْسَلِ.

* * *

الفصل السابع

التدبّر التحليلي للقَطَاتِ المختارات

من قصة موسى وقومه عليه السلام في سورة الأعراف

الآيات من (١٠٣ ـ ١٧١)

فهو فصل طويل يمكن تقسيمه إلى (١٢) فقرة

الفقرة الأولى

الآيات من (١٠٣ ـ ١٢٦)

بَعْثُ الله موسَىٰ إلى فرعون وملَئِه بآيتي العَصَا واليد

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن

رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ
بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن
يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا۟
يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟
سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
(١١٨) فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ
إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ
(١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾:

القراءات:

(١٠٥) ● قَرأَ جُمهورُ القرآء العَشَرَة: [حَقِيقٌ عَلَىٰ].

وقرأ نَافِعٌ: [حَقِيقٌ عَلَيَّ].

● وقرأ جمهورُ القراء العشرة: [مَعِيْ] باسْكَان ياء المتكلّم.

وقرأ حفْصٌ: [مَعِيَ] بفتح ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان عَرَبيان لنُطْقِ ياء المتكلم.

(١١١) ● كلمة [أَرْجِهْ] فيها عِدَّةُ قراءات تَرْجِعُ إلى اخْتِلاَف الأداءِ في النُّطق.

(١١٢) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة [سَاحِرٍ] على وزن «فاعل» اسم فاعل.

وقرأ حَمْزَةُ، والكِسَائيّ، وخَلَفٌ: [سَحَّارٍ] على وزن «فَعَّال».

وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ كان المطلوب حَشْرَ كلِّ ساحِرٍ عادِيّ، وكُلِّ سَحَّارٍ من أئِمَّةِ السَّحَرَةِ ورُؤُسَائِهِمْ في قُوَّةِ السِّحر والمهارَة فيه.

(١١٣) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وحفْصٌ، وأبُو جَعْفر: [إِنَّ لَنَا لَأَجْرا] دُون ذِكْرِ همزة الاستفهام قبل «إنَّ» مع ملاحظتها في المعنى.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أئِنّ لنا لأجراً] بذكر همزة الاستفهام.

(١١٤) ● قرأ الكِسَائي: [نَعِمْ] بِكَسْر الْعَيْن، وهي لغَةٌ في «نَعَمْ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [نَعَمْ] بفَتْح العين.

(١١٧) ● قرأ حَفْصٌ: [فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ] بفتح التاء وإسكان اللاّم وفتح القاف دون تشديد.

وقرأ جمهور القرّاء العشرة: [فإذا هِيَ تَلَقَّفُ] أصْلُهَا «تَتَلَقَّفَ».

وقرأ الْبزّي: [فَإِذَا هِيَ تَّلَقَّفُ].

تخفيف القاف في قراءة التخفيف، وتشديدُها في قراء التَّشْديد، يُعَبِّرَانِ عن حَرَكَتَيْن ظَهَرتَا في عصَا موسى عليه السَّلام بعد أنْ انْقَلَبَتْ حَيَّة.

إحداهُمَا: فِيهَا سُرْعَةُ حَرَكَةِ الابْتلاع، ورُبَّما كانت هٰذه هي الحركة الأولى.

والأخرَىٰ: فِيها ابتَلاعٌ بتَمهُّل، ويظهر أنّ هذه قد كانت الحركة الثانية.

* * *

التدبّر التحليلي:

قال اللّٰه عزّ وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

جاء العطف في صَدْرِ هذه الآية بحرْف العطف [ثُمَّ] الّذي يَدُلُّ على التّرتيب مع التراخي، للدّلالَةِ على أنّهُ مرّتْ مُدّةٌ من الزّمَنِ مُتَراخِيَةٌ بالنّسْبَةِ إلى تَقْدِيرَاتِ الناس، بيْنَ آخرِ الرُّسُلِ المذكورين سَابِقاً في السُّورَةِ، وهُوَ شُعَيْبٌ علَيْه السّلام، وبَيْنَ إرسَالِ موسَىٰ ومعَهُ أخُوهُ هارون عَلَيْهِما السّلام إلى المصْرِيّين ومَنْ حَوْلَهُمْ بِوَجْهٍ عامٍّ، وإلىٰ بَنِي إسْرائيل على وَجْهِ الخصوص.

﴿بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾: أي: أرسَلْنَا مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ الّذين سَبَقَ في السُّورَة الحديث عنهم وعَنْ أقوامِهِم.

البعثُ: في اللّغة، الإرسال: بَعَثَهُ يَبْعَثُهُ بَعْثاً وَبِعْثَةً، يقال: بَعَثَهُ إليه، وبعثَهُ لَهُ.

﴿مُوسَىٰ﴾: هو الرَّسُولُ مُوسَىٰ عليه السلام، بن عمران (عمرام بالعبري) بن قاهت (قَهات بالعبري) بن لاوي، بن يعقُوب، بن إسحاق، بن إبراهيم خليل الرحمن.

وهارون عليه السلام شقيقه، وهو أَسْبَقُ ميلاداً من موسى بثلاث سنين.

قالوا: معنى كلمة «مُوسى» المنْتَشَلُ من الماء، أصل الكلمة في اللُّغَةِ المصْرِيَّة القديمة «موريس» أخْذاً من لفظ «مُو» بمعنى «ماء» و«أوريس» بمَعْنَىٰ «مُنْتَشل». فسمَّاه الّذِينَ التقطُوه طفلاً من الْيَمّ في قصر «فِرْعَوْن» «مُوريس» بمعنى: منْتَشَل ماء، ثُمَّ درج اسْمُهُ بلَفْظِ مُوسَىٰ.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: أي: أرسَلْنا موسَىٰ مصْحُوباً بآيَاتِنا. وآيَاتُ اللَّهِ الَّتي أرسلَ الله موسَىٰ مَصْحُوباً بها نوعان:

النوع الأول: آيات اللَّه الْبَيَانِيَّةُ المنزَّلَةُ، التّي فيها بيان دينهِ عَقِيدَةً وعملاً، وهو الدّين الذي اصْطَفعاه ربُّ العِبادِ، لعبادِه الّذين وضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وفيها عَرْضُ الحجَجِ والبراهين ذات الإقناع الكافي.

النوع الثاني: آيَاتُ اللَّهِ الإعجازيّة، وهي: العلامات المعجزاتُ الباهرات، ومن معجزات موسىٰ معجزة العصا الّتي تنقّلب ثُعْباناً مخيفاً، ومعجزة الْيَد، الّتِي تصيرُ بيْضَاء مُتلألئة من غير سوء.

الآية في اللّغَةِ: الْعَلامَةُ والأمَارة الدَّالَّة. وأُطْلِقَتْ على المعْجزَة الباهرة الخارقة للعادة، وعلىٰ فِقَرَةٍ من كتاب الله، مفْصُولَةٍ عن فِقَرَةٍ سابقة لها، وفِقَرَة آتيةٍ بَعْدَهَا في السُّورَة، إذا وُجِدَت.

والباء الجارّة في ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ معناها المصَاحَبَة، أي: أَرْسَلْنَا مُوسىٰ مَصْحُوباً بآياتنا.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم، لتربية المهابَةِ من عظَمَةِ رُبُوبيَّتهِ جَلَّ جَلالُهُ، وعَظُمَ سُلْطَانه، وسَمَتْ حِكْمَتُه.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: لفظ «فِرْعونَ» كان يُطْلَقُ على كلّ مَنْ ملَكَ مِصْرَ قديماً، قبل أن يسْتَوْلي عليها اليونان.

قالوا: وكان يطْلَقُ لفظ «كِسْرَىٰ» على مَلِكِ مُلُوكِ الفرس، وكان يُطْلَقُ لفظ «قَيْصَر» علىٰ مَلِكِ الرُّوم، وكان يُطْلَقُ لفْظُ «النَّجَاشي» على مَلِك الحبشة، وكان يُطْلَقُ لفظُ «تُبَع» علىٰ مَلِكِ مُلُوكِ الْيَمَن، وكان يُطْلَقُ لفظ «خان» علىٰ مَلِك التُّرك.

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: **الملأ**، هم عِلْيَةُ الْقَوْم ورؤساؤهم، وأهل الحلّ والعقد فيهم، وهم في العادة ذَوو السُّلْطَةِ الإدَارِيَة، والهالة الاجتماعية المحيطَةُ بهم من الأثرياء المترفين.

ويُطْلَقُ عليهم لفظ «مَلأ» لأنَّهُمْ يمْلَؤُون عُيُون العامّة.

ويُلْحَقُ بفرْعَوْنَ وملَئِهِ جماهيرُ الشّعب المصريّ كُلُّهم، وخُصَّ بِالذّكر فِرْعَوْنُ ومَلَؤُه، لأنّ مِنْ سُنَّة اللّهِ أنْ يَبْدأ لدى تبليغ رسالاته للناس بأصْحَابِ السُّلطة الإداريَّة والمترَفين من حَوْلِهِم، باعْتِبَارِ أَنَّ جَمَاهير الشَّعْب الَّذِين هم مِنْهُ، تابِعُون لَهُمْ ومُطِيعُونَ لأوامرهم، ويَسِيرُونَ مَسِيرَتَهُمْ، ويَدِيْنُونَ بِدِينهِم.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾: أي: فَظَلَمُوا كافِرينَ بها، ضُمِّنَ فعْلُ «ظَلَمُوا» معنىٰ فعْلِ «كَفَرُوا» فَعُدِّيَ تَعْدِيَته، فأغنتِ الجملَة الواحدة عن جُمْلَتين، إحداهُما ذُكِرَ فِعْلُها فقط، والأُخْرَىٰ ذُكِرَ مَعْمُولُ الْعَامِل فيها فقط، ونظائر هذا كثيرة في القرآن المجيد.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾: أي: فَانْظُرْ نظراً تفكُّرِيًّا تَأمُّلِيًّا لاسْتِخْراج الْعِبَرِ ولِلاتّعَاظِ بها. والأَمْرُ بالنظر موجَّهٌ لكُلِّ صالحِ للخطاب تقتضي حالَتُهُ أَنْ يَنْظُرَ وَيَتَفكَّرَ ليَعْرِفَ سُنَّةً من سُنَنِ الله في عباده، وليَتَّعِظَ بها، فلا يكون من المفْسِدِين، كما كان فرعَوْنُ ومَلَؤُه مُفْسِدين.

عَاقِبَةُ عَمَلِ الْعامل: جزاؤه الَّذِي يكون بَعْدَ عَمَله، ويأتي عَقِبَهُ مباشرةً، أو بَعْدَ فَاصل زمَنِيّ، والأصْلُ فِيه ما يأتي عَقِبهُ مُبَاشرة، لأنَّ العاقبة آخِرُ كُلِّ شيءٍ أَوْ خاتِمَتُه.

الْمُفْسِدُون: أي: فاعلوا الفساد. **الْفَسَادَ**: التَّلَفُ والْعَطَبُ. وتَحوُّل الشيء من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالح ولا نافع، بل ربما يَصِيرُ ضاراً كريهاً مُفْسِداً لما هو صالح. والإفسادُ إتلاف الأشياء، أو تحويلها إلى أشياء ضارّة.

والمراد بالْمُفْسِدينَ هُنَا فِرْعَونُ ومَلَؤُهُ وجنُودُهُمْ، وُضِعَ الاسم الوصفيُّ الظاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِير هنا، للدَّلالَة على أنَّ عَاقِبَتَهُمُ الإهْلاَكِيَّةَ بالإغْراق، قد كانت بسَبَبِ إفْسَادِهم في الأرض.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾:

العطف بالواو لهذه الفقرة يتبادَرُ أنَّه مِنْ قبيلِ عطْفِها على الْجُمَلِ الّتي قَبْلها.

لكن يظْهَرُ لي أنَّ الغَرض من هذا العطْفِ الإشارة إلى كلام مَطْويّ جرَىٰ بين مُوسَىٰ عليه السلام وبين فِرْعَون، ومِنْ هَذَا الكلام المطْوي ما يَدُلُّ عليه قول اللّه عزّ وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾:

فعبارة: ﴿فَقُلْ هَل﴾ معطوفةٌ بالفاء التي تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، فِيهَا تعليمٌ مِن اللّه عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السَّلامُ، بأنْ يَبْدَأَ فِرْعَونَ بهٰذِهِ العبارة اللّيِّنَة المشتملة على مُقَدِّمَةِ عَرْضٍ طَوِيلٍ دلَّتْ عليه عبارة: ﴿لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ قبل أن يَذْكُرَ لَهُ المطلوبَ وهو التزكية، والهدايَة إلى ربّه.

وإذا جمعْنَا مَا جاء في هذا النصّ مع ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

فإنَّهُ يظْهَرُ لنا أنّ أوّلَ مَا بَدَأَ بِهِ مُوسَىٰ خطابَهُ لفرعَوْنَ وملَئِه، هو قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لِيُعَرِّفَ بالْمُهِمّة الّتي دخَلَ على فِرْعَوْن ومَلَئِهِ من أجلها، بدليل «الفاء» في: ﴿فَقَالَ﴾.

ويدُلُّ الترتيبُ الطبيعيُّ على أنّ التعليم الذي جاء في سورة (النازعات) قد كان عَقِب بيانه أنّه رَسُولُ رَبِّ العالمين.

إنَّ النَّظْرَةَ التكامُلِيَّة في النصوص القرآنيّة الموزّعة في السُّور، يجب أن لا تفارق المتدبّر لكتاب الله المجيد.

﴿يَٰفِرْعَوْنُ﴾: خاطب موسى عليه السّلامُ فِرْعَوْنَ بلَقَبهِ التكريميّ الْمَلِكِيّ، وناداه بنداء البعيد تكريماً له أيضاً، فكأنّه قالَ لَه: يا مَلِك، أو يا سُلْطان، أو يا عظيم.

﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: دلَّ النَّصُّ الذي جاء في سورة الزُّخْرُف الآنف الذكر على أَنَّهُ عرَّف أوّلاً بِنَفْسِهِ وبالْمُهِمَّةِ التي حضر من أجلها بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنِّي حَامِلُ رسالَةٍ أرْسَلَنِي بها رَبُّ العالمينَ ويَجبُ عليَّ تبليغها، والإضافة على معنى اللاّم، أي: رسولٌ لِرَبِّ العالمين، وبعد ذلك دعَاهُ إلى أن يتَزَكّى، ويَهْدِيَهُ إلى رَبِّهِ فَيَخْشَىٰ عقابَهُ طامعاً بثوابه مُجلاً، وبَعْدَ ذلِكَ قال: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأضاف في العِبارَة حرْفَ «مِنْ» لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ عِظَم مسْؤُوليَّتِهِ، وأنّ رسالَتَهُ الّتي يَحْمِلُها ليسَتْ رسالةً من مَلِكٍ من مُلُوك الأرْضِ، ولا سُلْطانٍ مِنْ ذَوِي السُّلْطان فيها، وإنَّما هِي رسالةٌ له ولملَئِه ولِقَوْمِهِ مِنْ رَبّ العالمين، خالقِ السّمَاواتِ والأرض، وما فيهما ومَنْ فيهما، والمتصرِّف فيهما بصِفَاتِ رُبُوبيّته دواماً، في كلّ أصْغَرِ وَحْدَةٍ زَمَنِيَّة.

والمعنى: إنّي نبيٌّ أحْمِلُ رِسالةً كُلّفتُ أنْ أُبلّغَها مِنْ قِبَلِ رَبّ العالَمِين، الخالق لكلّ الموجوداتِ الكونيّةِ، والمُمِدّ لَهَا دواماً بعطاءاتِ رُبوبيته.

والمراد بالعالَمين هُنَا كلُّ ما سِوَى اللّه عزّ وجلّ.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وفي قراءة نافعٍ: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾:

كلمة ﴿حَقِيقٌ﴾ على صيغة «فَعِيل» صِفَةٌ مُشَبَّهَةُ باسم الفاعل، أو باسم المفعول، أو صيغة مبالغة، وهذه الصيغة مشتقَّةٌ من فعل «حَقَّ يَحِقُّ حَقًّا» بمعنَىٰ ثَبَتَ واسْتَقَرَّ، فحقيقٌ هو بمعنى ثابت.

ويُقَالُ لُغَةً: حَقَّ عليه أنْ يفعَلَ كذا، أي: وجبَ عليه.

فالعبارة على قراءة نافع: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ ظاهرة الدّلالة، والمعْنَىٰ: واجبٌ عليَّ وُجُوباً إلزاميًا مُؤكّداً، أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَىٰ اللّهِ إلاَّ الحقَّ، فأنَا لا أستطيعُ أن أكْذِبَ علىٰ رَبِّي وأنَا رَسُولُهُ المؤيَّد بالآياتِ الباهراتِ منه، كَيْفَ يُجْرِي لِيَ جلَّ جلالُهُ الآيَاتِ الخوارقَ إنْ كذَبْتُ علَيْه؟!

وكلمةُ «حَقِيقٍ» على هذه القراءة هي بمعنىٰ اسم الفاعل.

وأمّا العبارة على قِراءَةِ جُمْهور القرّاء العشرة: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾... فقد ذكر لها المفسِّرون تخريجاتٍ متكلّفاتٍ دعَاهُمْ إليها وجود حرف الجرّ «عَلَىٰ» دون ياء المتكلّم.

والّذِي ظهر لي أنّ كلمة «حَقِيقٌ» في قراءة الجمهور هي بمعنى اسم المفعول، كالفعل المبني للمجهول، وهي خَبَرٌ ثانٍ لحرف «إنَّ» المشبَّهِ بالفعل من عبارة ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنِّي رسُولٌ مَحْقُوقٌ، وعبارَةُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ نائب فاعل، أي: إنّي رسُولٌ مُثْبَتٌ إثْبَاتَ إلْزَامٍ، فأنَا مُلْزَمٌ إلزاماً لا خيارَ لي فيه، علَىٰ أَنْ لاَ أقُولَ على اللّهِ إلاَّ الحقَ، إذْ إنّي معصومٌ بِعِصْمَةِ اللّهِ من أَنْ أفْتَرِي عليه.

وهكذا شأنُ كلّ الرُّسُلِ عليهم الصلاةُ والسلام، وقد قال الله عزّ وجلّ

بشأن سيّدنا محمد ﷺ، في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

الْوَتِين: هو الشريان الرئيس الذي يُمِدُّ الجسْمَ بالدَّم النَّقِيّ الخارجِ من القلْب.

أي: لقتَلْنَاهُ بسُرعَةٍ فائقة، ولمْ نمكّنْهُ من الكذب علينا.

وهذه الحجّة الّتي قدَّمَها موسَىٰ عليه السّلام من الحجج العقلية القويّة الدامغة.

وبهذا الْفَهْمِ ظهر لَنَا تَكامُلُ القراءتَيْنِ في دَلاَلَتَيْهِما.

فقراءة نافع قال فيها: واجبٌ عليَّ بِإلْزَامٍ شَديدٍ أَنْ لا أقولَ على اللّهِ إلاّ الحقَّ، فأنَا لا أَخْرُجُ عن طاعَةِ رَبِّي بحالٍ من الأحوال.

وقراءة الجمهور دلّت على أنّه قال: أَنَا مُثْبَتٌ بعِصْمَةٍ من رَبّي إثباتاً لاَ خِيارَ لي مَعَهُ، على أَنْ لاَ أَقُولَ على اللّهِ إلاّ الحقّ.

﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: المرادُ بالْبَيِّنَةِ هُنَا ما أَمَرَهُ اللّهُ بِتَبْلِغِهِ من أُمُورِ الدِّينِ إيماناً وعملاً.

أمّا البيّنَةُ بمعنىٰ الآيَةِ المعجزَةِ الخارقة للعادَة، فَسَيأْتي في الآية التالية بيانُ أَنَّ فِرْعَوْنَ طالبَهُ بأَنْ يأتِي بِهَا إنْ كانَ مِنَ الصّادقين فيما يُبلِّغُ عن رَبّه من أمور الدّين.

... ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي فاستجب لدعوتي، واسْمَحْ لِبَنِي إسْرائِيلَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعِي إلى أَرْضِ فِلْسَطين، الّتي جاءُوا مِنْها في عَهْدِ

يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، الفاء في [فَأَرْسِلْ] فاء فصيحةٌ تعطف على محذوف تقديره: فاستجب لدعوتي.

فكان لموسىٰ عليه السلام مطلبان:

المطلَبُ الأوّل: دَعْوَة المصْرِيّين وَمَنْ حَوْلَهُمْ إلى دين الله الحق.

المطلَبُ الثاني: الخروج ببني إسرائيل من مصر إلى فلسطين، لإقامَةِ دولة الإسلام لله فيها، عن طريق التبليغ، فإنْ لم يُجْدِ التبليغُ، فَعنْ طريق القتال في سبيل الله.

* * *

قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

يَحْكي اللَّهُ عزّ وجلّ في هذِهِ الآية مضْمُونَ مَا قَالَ فِرْعَوْنَ لموسَىٰ عَلَيْهِ السلام، عَقِبَ دَعْوَته فِرْعَوْنَ وملأه إلى دين الله الحق، وطَلَبِهِ بأن يَسْمَحَ لبني إسرائيل أنْ يَخْرُجوا معه من مِصْرَ إلى فلسْطِين.

جاء في هذه العبارة اختيار حرف الشرط «إنْ» للإشعار بأنّه من المستَبْعَد أنْ يكون قد جاء بآيَةٍ معجزة من ربّه، ومن المستَبْعَدِ أَنْ يكون من الصادقين، فهذا الحرف يستعمل غالباً في القضايا المشكوك في حصولها، أو في صِدْقها، بخلاف حرف الشرط «إذا».

﴿جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾: أي: بعلامةٍ خارقةٍ للعادة مُعْجِزَةٍ، تَشْهَدُ لَكَ بأنّكَ رسُولُ اللّه حَقًّا وصِدْقاً، إذْ لاَ بُدَّ لكلّ رسُولٍ من آيَةٍ خَارِقَةٍ تكون بمثابة الشهادة له من الله بصِدْقه.

﴿فَأْتِ بِهَآ﴾: أي: فَقَدِّمْهَا، وأَظْهِرْهَا لَنا، وأَحْضِرْها أَمامنا، لِنَرَاهَا، وَنُشَاهِدَ مَبْلَغَ قَوّتِها في إثبات ما تدّعيه.

يقال لغة: جاءَ بالشَّيء، وأتى بالشَّيءِ، أي: أَحْضَرَهُ معه.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أي: إنْ كُنْتَ من الأنبياء والرُّسُلِ الصّادقين.

* * *

قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: فأسرَعَ مُوسىٰ علَيْه السلام إسراعَ الواثق بما آتاه ربُّهُ من آيَتَي الْعَصَا والْيَد، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ الّتي في يَدِهِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْها.

دلَّ على هٰذه السُّرْعَةِ الْعَطْفُ بالفاء الّتِي تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، فإذا هي قَدْ فَاجَأَتْهُمْ بأن تحوّلَتْ ثُعْبَاناً واضحاً حَقِيقيًّا، لا أمْراً تَخْييليًّا إيهاميًّا.

وأَسْرَع فأدخل يَدَهُ السَّمْراءَ في جَيْبِ قميصه، فنزَعَها بسُرْعَةٍ وشِدَّةٍ، فإذَا هِي قَدْ فَاجَأَتْهُمْ بأن تَحوَّلَتْ بيضَاءَ بياضاً باهراً رائِعاً، لا بياضَ بَرَصٍ كما للمرضىٰ به، ولهذا قال الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام، حين أَعْطَاهُ آيَتَيْ صِدْق نبوّتهِ ورسالتِهِ ما أَبانه الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ... ﴿١٢﴾﴾.

وما جاء بيانُه في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ... ﴿٣٢﴾﴾.

قال المفسرون: المرادُ مِنْ «بيْضاءَ» أنّها تَخرُجُ كاللُّؤلُؤةِ البيْضاء تَتوهَّجُ نوراً يَظْهَرُ للمبْصِرين.

ورُوِي عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ الثُّعْبَانَ الَّذِي تحوَّلَ عن عصا موسى في مجلس فرعَوْن، فتَحَ فَمَهُ فكانَ فَكُّهُ الأسْفَلُ في الأرض، وفَكُّهُ الأعْلَىٰ في السَّقْف، فإنْ كان كذلك، فَقَدْ كانَ ثُعْبَاناً رَهيباً جدًّا.

الثُّعْبَانُ: هو الذكر من الحيّات.

● ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾: [إذا]: فُجَائِيَّة ومعناها الحال. فتُؤَوَّل باسْم فاعل يُمْكِنُ أنْ يَعْمَلَ عمَل الفعل. والمعنَىٰ فَهِي بيْضَاءُ حالةَ كوْنِها مُفاجِئَةً للناظرين.

عندئذٍ حصَلَتْ دَهْشَةٌ لِفرْعَوْن ولمَلأِ قَوْمِهِ الحاضِرين مَجْلِسَهُ الفرعونيّ السُّلْطانيّ ممَّا شَهِدُوا.

مَلأُ قَوْمِ فِرْعَونَ هُمْ وُزَراؤُه ومُسْتَشَارُوهُ وآلُهُ المالِكُون لِمصْرَ يومئذٍ.

وعلى الرُّغم ممَّا حصَلَ لهم من دهشة فقد رأوْا أن ما جاء به موسَىٰ مِنْ جنْسِ ما يفْعَلُه سَحرةُ مِصْرَ يَوْمَئذٍ.

* * *

قول الله عزّ وجل:

● ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)﴾:

دلّت هذه الآياتُ على حِوارٍ تَشاوُرِيٍّ جَرَىٰ بَيْنَ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه الحاضِرينَ مَجْلِسَهُ ساعَتَئِذٍ.

ولا بُدّ أَنْ يكُونَ فرعَوْنُ قد بدأ الحديث، قائلاً لحاضري مجْلِسه مِنْ مَلأِ قومه: ما تَقُولُون في هذا الذي عَرَضَهُ مُوسَىٰ، إلاّ أن النَّصّ قد طواه لإمكان استخراجه من قبل أهل التَّدَبّر، إذْ من التقاليد المتَّبَعَة لحاضري

مجالِسِ الملُوك، لاَ يَتَكَلَّمُوا ولا يُبْدُوا آراءَهُمْ في مثلِ هذه المواقفِ حتَّىٰ يَسْأَلَهُمُ الْمَلِك.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾:

لَمْ يَذكُرُوا مُوسَىٰ عليه السّلام باسْمِه، وإنَّما أَشَارُوا إلَيْهِ باسْم الإشارة «هَذَا» للإشعار بأنَّه ليس مِنْ عِلْيَةِ القوم الَّذِين تُذْكَرُ أسماؤُهم أَوْ أَلْقَابُهم.

ووَصَفُوا الآيَتَيْن اللَّتَيْن أذهَشَتاهم، بأنَّهما مِن قَبيلِ السِّحْرِ المعروف والمنْتَشِر في أيَّامهم بِمِصْرَ، ولدَهْشَتِهِمْ بِعظَم الآيَتَيْنِ قَالُوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾: أي: كثير العِلْم بالسِّحر.

وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾.

أي: يريد أن يخرج ببني إسرائيل من مصر، ويُكَوِّنَ منهم جيشاً ويَعُودَ بِهِمْ مقاتلين طالِبين مُلْك مصر.

ومن الجمْع بيْنَ النَّصَّيْن نُدْرِكُ أنَّ الملأ سَكَتُوا فلَمْ يجيبوا فِرْعَوْن على سؤاله، خَشْيَة أَنْ يَطْرَحُوا رأياً لا يُوافِقُ هواه، فتَرَيَّثُوا حتَّىٰ يتَحَسَّسُوا رأيَه.

عندئذٍ قَال فِرْعَوْنُ لِلْمَلأ حَوْلَه: إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بسِحْرِه، كما جاء في سورة (الشعراء).

فَرَدَّدَ المَلأُ قَائِلِينَ بإجماع: إِنَّ هٰذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أن يُخْرِجَكُمْ من أَرْضِكُمْ، كما جاء في سورة (الأعراف).

قَال فِرْعَوْنُ للملأ حَوْله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أي: فما هِيَ المَشُورَةُ الَّتِي تَقْتَرِحُونَها تُجاهَ هذا السَّاحِرِ الْعَلِيم؟

والأمر هنا مستَعْمَلٌ للدَّلاَلَة على عُمُومِ الطَّلَبِ وتقديم المشورة المناسبة، وليْسَ مسْتَعْملاً بمعنَىٰ التكليف، لأنَّ مثْلَ فِرْعَون لا يقْبَلُ ممَّنْ هم دُونه أوامِرَ التكليف، إنَّما يقبل طلباتِ الاستجداء والالْتِماسِ وتقديمَ المقترحاتِ الشُورِيَّة الّتي يَطْلُب هو منهم إبداءها.

فتشاوَرَ الملأ فيما بيْنَهم، واسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَىٰ أن يعْقِدَ فِرْعَوْنُ مُبَاراةً بين مُوسَىٰ علَيْهِ السلام، وبين كلِّ سَحَرَةِ مِصْر، مُتَوَهِّمِينَ أنَّ اجتماعَ سَحَرَةِ مصْرَ كافٍ لإبْطال سِحْرِ مُوسَىٰ والتَّغَلُّب عليه مهما كان سحراً عظيماً.

- ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ كَما جاء في سورة (الأعراف).

وفي القراءة الأخرىٰ: [سَحَّارٍ] بصيغَةِ المبالغة.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ كما جاء في سورة (الشعراء).

في نُطْقِ [أَرْجِهْ] خَمْسُ قراءات مُتَواتِرات: «أَرْجِه» بإسكان هاء الضمير. «أَرْجِهِ» بكسر هاء الضمير من غير صلة لها بِمَدّ. «أَرْجِهِي» بكسر هاء الضمير مع صلة لها بمدّ. «أَرْجِئْهُ» بذكر الهمزة الساكنة بعد الجيم، وضَمّ هَاءِ الضمير. «أَرْجِئْهِ» بذكر الهمزة الساكنة بعد الجيم، وكَسْرِ هاء الضمير. يقالُ لغة: أَرْجَأَهُ، أي: أَخَّرَهُ، أَوْ جَعَلَ له أجلاً.

والمعنى: أخِّرْهُ وأَجِّلْه، أي: اجْعَلْ لموسىٰ وأخيه أجَلاً تُقِيمُ فيه مباراةً بَيْنَ مُوسَىٰ وبَيْنَ سَحَرَةِ مصر، تَشْهَدُها الجماهيرُ في مكان جامع، فإذا تَغَلَّبُوا علَيْه بالسِّحْر انْتَهتِ المشْكِلَةُ معهما، وسَقطَتْ دَعْوَتُهما، وأمكن التخلُّصُ منهما.

﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

و﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ في القراءة الأخرى. (الأعراف).

﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾﴾ (الشعراء).

[ابْعَثْ] مرادف **[أَرْسِلْ]**.

[الْمَدائِنِ]: جَمْعُ مدينة، وهي المصْرُ الجامع، والقياس أن يُقال مَدَاين.

[حَاشِرِينَ]: أي: سَائقين وجامِعِين، اسْتُغْنِي بالوصْفِ عن الموصوف، والمراد: وأرْسِلْ في المدائن جُنُوداً حَاشِرين.

الحشْرُ في اللُّغة: الجمْعُ والسَّوْق.

والمعنى: وأرسِلْ جُنْداً من جُنْدِك الموجُودِين في كُلّ مدئن مِصْر، مكلَّفِينَ بأن ينطَلِقُوا بَاحِثِين عن كلّ سَحّارٍ عَلِيمٍ بالسِّحْر مَاهِرٍ فيه، وعن كلّ سَاحِرٍ ولو لم يكُنْ عليماً شديد المهارَةِ والمكْرِ فيه، فَيَجْمَعُوهُمْ ويَسُوقُوهم، ويَأْتُوا بِهِم إِليك.

ووجَّهَ فِرْعَونُ أَمْرَهُ، وقامَ الجنْدُ في المدائِن باحثين عن كلّ سحَّارٍ وساحر، فَحَشَرُوا جامِعِين سائقين مَنْ وَجَدُوا في المدائِنِ المصريَّة من سَحَرة، وكان عَصْرُهم عصْرَ ازْدِهار السِّحْرِ التَّخْييليّ، وجاءُوا بِهِم إلى فِرْعَونَ.

فَلَمَّا حضَرُوا عِنْد فرعَوْن عَرَض عليهم الْمُهِمَّةَ الَّتِي حَشَرَهُمْ مِنْ أَجْلِها، وهي مُبَارَاةُ سَاحِرٍ كبيرٍ مِنْ بَنِي إسْرَائيل اسْمُهُ مُوسَىٰ، ومَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ.

* * *

قول اللَّهِ عَزَّ وجل:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

وَفِي القراءة الأخرى: [**أَإِنَّ لَنَا لأجراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِين**] بإثباتِ هَمْزَةِ الاسْتِفْهَام، والمعنَىٰ في القراءتَيْنِ عَلَىٰ الاسْتِفْهام، إذْ يجوز حذفُ همزة الاستفهام من اللَّفظ، وتبقىٰ مُقدَّرَةً ذِهْناً.

بين ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ وبين: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ كلامٌ مطْوِيٌّ في مثاني النَّصّ، ومن السَّهْل على المتدبر أن يُدْرِك مَعْنَىٰ الكلام المطوي، أي: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ فَعَرَضَ عَلَيْهِم المهِمَّةَ الَّتي حَشَرَهَمْ مِنْ أَجْلها بالتفصيل، وهيَ مُبَارَاةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَاحرٍ كَبيرٍ من بني إسرائيل اسْمُه مُوسَىٰ ومَعَهُ أَخُوهُ هارون، فقَبِلُوا أَنْ يَدْخُلُوا هٰذِهِ المبارة على شرْطِ أَنْ يَجْعَل لهم فِرْعَوْنُ أجراً كبيراً إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ وَجَاء التصريحُ بهَمْزَة الاستفهام في القراءة الأخرىٰ، وأجابَهُمْ فرْعَوْنُ بالإيجاب ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ وزادهمْ على طَلَبِهِمْ قَائلاً: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

«نَعَمْ» حَرْف جواب، يأتي للتَّصْدِيق، ويأتي لِلْوَعْدِ، ويأتي للإعلام، والمعنى هُنَا علىٰ الوعْدِ والإعلام، أي: إنَّ لكُمْ لأجراً كبيراً كما تَرْغَبُون.

جاءَتْ عبارَةُ الاستفهام الَّتي قَدَّمَها السَّحَرَةُ مؤكَّدَة بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ والّلام المزحلقة للخبر» وفي تقديم «لَنَا» علَىٰ «لأَجْراً» إشعارٌ باستفهام عَنْ أجْرٍ يَخُصُّهُمْ به.

فجاء الجواب بعبارة «نَعَم» مُتَضمِّناً كُلَّ هٰذِهِ المؤكدات.

وزَادَهُمْ على الْوَعْدِ المالي الَّذي استَفْهَمُوا عنه، فَوَعَدَهم بأَنْ يكونوا عنده من المقرّبين الَّذِين يَدْعَمُ بهم سُلْطانه، ويَسْتجيبُ لمطالبهم كما يَسْتَجيبُ لمطالِب وُزرائه وأَهْلِ الشورىٰ ومَلأِ قَوْمِهِ مِنْ حَوْله.

وقال فِرْعَونُ لِمُوسىٰ عليه السلام كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

● ﴿مَوْعِدًا﴾: يطلق الـمَوْعِد على «الوَعْدِ» وعلى «زَمَانِهِ» وعلى «مَكَانِه» فهو مصدر ميمي، ويصلُحُ أنْ يكون «اسم زمان» و«اسْمَ مَكَان».

ويظهر أنّ هذه المعاني الثلاثَة مرادَةٌ معاً هنا.

أي: أعْط وعداً حَدِّد فيه زمَانَ ومَكانَ إجراءِ المباراة بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَحَرتِنَا، ونَحْنُ نعْطيك هذا الوعْدَ وفْق الزّمان والمكان اللّذَيْنِ تُحَدِّدُهما، فَلاَ نُخْلِفُه نَحْنُ وَلاَ أَنْت.

● ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ وقُرِىء «سِوًى» وهما لغتان والمعنى فيهما واحد، أي: واجْعَلِ المكان الذي تُحَدِّده عَدْلاً، يكون فيه المتباريان مُتَعَادِلَيْن في كلِّ شيءٍ.

● ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: يوم الزينةِ هذا كَانَ يوم عيدٍ معروفٍ لهم زَمَانُهُ ومكانُه، وكَانُوا يَتَزيَّنُونَ فيه، ويَجْتَمِعُ فيه عامَّةُ النّاس وخاصَّتُهُمْ بحَسَبِ العادة.

● ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾: أي: وأنْ يُجمع النَّاسُ ويُسَاقُوا إليه حتّى يكونُوا حاضِرِينَ فيه وقْتَ الضُّحَىٰ، وهو الوقْتُ ما بَعْدَ ارْتِفاع الشمس حتّى الزّوال، وهذا هو الوقْتُ المفضّل لحضورِ الناس في المكان الجامِعِ لأعيادهم واستعراضاتهم.

فوافق فرعون على هذا الموعد الذي وعَدَهُ موسى عليه السّلام، وحدَّدَ

زمَانَه ومَكَانه، وانصَرَفَ وأعَدَّ لهذه المبارات كلّ ما يَلْزَمُ من تدابير كيْدِيَّة رَجاءَ أَنْ يكون سِحْرُ سَحَرَته أقوىٰ من سِحْرِ مُوسىٰ فيما تَوهَّمَ أَنَّ الَّذِي جاء بِه مُوسَى هو من قبيل السِّحر، ولَيْسَ آيَةً مُعْجِزَةً من الله رَبّ العالمين، وأتَىٰ هُوَ وَمَلؤُهُ بحسب الموعد إلى المكان الجامع، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾.

وكانت الدَّعَواتُ غَيْرُ الإلْزَمِيَّةِ قَدْ وُجِّهَتْ للجماهير المصريَّة بحضُور هٰذِه المبارات، رَجاءَ أن يَتَّبِعُوا ما يَدْعُو إليه سَحَرَةُ فِرعون إنْ كانُوا هُمُ الغالبين، كَمَا قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾.

وجاء السَّحَرَةُ لمكان المباراة في الوقت المحدّد وهو يومُ الزِّينَةِ ومَعَهُمْ أدواتُهم السِّحْرِيَّة.

واجْتَمع الْفَرِيقان للمباراة، فَرِيقُ السَّحَرَةِ الَّذِينَ جُمِعُوا من المدائن المصْرِيَّة، والفريقُ الآخَرُ مُوسَىٰ وحْدَهُ عليه السَّلام، تُؤَيِّدُهُ الْقُوَّةُ الرَّبّانِيَّةُ الغيبية، ويَقِفُ إلى جانبه أخوه هارون عليه السلام.

وقبل أن تَبْدَأ المباراة تَوجَّهُ مُوسَىٰ للسَّحَرَة، فَحَذَّرَهُمْ من عذاب الله، وقال لهم: لاَ تَفْتَرُوا عَلَىٰ الله كَذِباً، فإذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ اسْتَأْصَلَكُمْ بعَذَابٍ من عنده، وأبَانَ لهم موسَىٰ عليه السَّلام أنَّ من افترى علَىٰ الله خَابَ، دَلَّ على هذا الإعداد النَّفْسِيّ من مُوسَىٰ عليه السلام للسَّحَرَةِ، قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾.

﴿وَيْلَكُمْ﴾: أي: عذابٌ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ أُحذِّرُكُمْ مِنْه.

﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾: أي: فَيَسْتَأْصِلَكُمْ اسْتِئْصَالاً بعَذَاب.

فَلَمَّا سَمِعَ السَّحَرة هذا من موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، دَبَّ الْخِلاَفُ بَيْنَهُمْ، فَتَنَازَعُوا أمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ مُتَنَاجِينَ في السِّرّ، ثُمَّ أقْنَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً قائلين: إنَّ مُوسَىٰ وهَارُون ساحِرَانِ، يُرِيدَانِ أنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما، لِتكُونَ خالِصَةً لِبَني إسْرَائيل، ويُريدان أن يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ الَّتِي يَحْكُمُ بها فِرْعَوْنُ أَرْضَ مِصْر، فَأَجْمِعُوا كُلَّ مَا لَدَيْكُمْ مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيّ، ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا واحِداً غَيْرَ مُتَنَازِعِينَ، وقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ.

دلَّ على هذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾: أي: بطريقتكُمُ المفضَّلَةِ على سائر الطرائق.

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾: أي: فَقُومُوا بعملِكُمْ الكيدِيّ مجتمِعينَ غيْرَ مُتَفرِّقين.

الكيد: التَّدْبير، والحيلة، وكلّ ما يحقّق للمَدبِّر النّصر أو النجاة ضِدَّ خَصْمِه.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾: أي: وقَدْ ظَفِرَ وفازَ من كان هو الغالِب.

ووقف الفريقان للمباراة، وبدأ السَّحَرَةُ بالْعَرْضِ التخْيِيرِيّ حوْلَ من يكون البادىء، كما جاء بيانُه في سُورة (الأعراف) وهو:

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

• ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾: أي: نَحْنُ الملْقِين أَدَوَاتِ سِحْرِنَا أوَّلاً، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾.

فاخْتَار موسَىٰ عليه السَّلام أنْ يكُونُوا هُمُ البادئين بإلْقَاءِ أَدواتِ سِحْرِهِمْ والقيامِ بأعْمَالهم.

فقال لهم: ﴿أَلْقُواْ﴾ كما جاء في سورة الأعراف) وقالَ لهم أيْضاً مُسْتَهِينا بأدواتهم وبكلّ أعمالهم السّحْرية ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ كما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول).

عندئذٍ ألقى السَّحَرَةُ حِبَالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ مُسْتعينين بعِزَّةِ فِرْعَوْن، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فكان لِسَحْرِهِم تأثير تخييليٌّ في أعين الناس، وإحْدَاثُ رُعب في قلوبهم، كما قال تعالى في سورة (الأعراف):

﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أي: لم يقلب سحرهم حقائق الحِبال والعِصي، بل كان في حدود رؤية العيون فقط، وبهذا الخداع البصري أوقعوا الرعب في قلوب الناس ممّا رأوا من ثعابين كثيرة منتشرة في ساحة المباراة.

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ ونزول):

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾: أي: لاَ أُلْقِي أنا أوّلاً، بل أنتم أَلْقُوا أوّلاً. فألقَوا حبالَهُم وعِصِيَّهُمْ، وقامُوا بِسِحْرِهم.

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾: أي: يُصْنَعُ في خَيالِهِ صُورٌ تخَيُّلِيَّة وطُيوفٌ ليس لها حقيقَةٌ فِي الواقع، وإنّما هي تأثيراتٌ سِحْرِيَّةٌ على الْعَيْنِ، تجعلها ترى خيالاَتِ أشياءَ لا وجود لها، فتنقلها الْعَيْنُ إلى المخيّلة كَمَا رَأتْها بالتأثير السّحري.

﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾: أي: يُخَيَّلُ إليه من تَأْثِيرِ سِحْرِهم لِلْعُيون أنّها ثَعَابِينُ تَسْعَىٰ.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾: أي: فأحسَّ مُوسىٰ عليه السَّلامُ في نَفْسِهِ خِيفَةً ما لَيْسَتْ بالقويّة، من أنْ يكون سِحْرُهُم قَلْبَ الحبال والعصِيِّ إلىٰ ثَعَابِينَ حَقِيقَةً، فيُكافِئوا بها أو يَغْلِبُوا آيَتَهُ.

عِنْدَئذٍ ثَبَّتَهُ اللَّهُ وَشَدَّ عَزِيمته، فأوحَىٰ إليه مُثَبِّتاً. ما جاء بيانُه في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾.

وأوحَىٰ إلَيْه آمِراً وَمطَمْئِناً:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾.

- قرأ حفصٌ: ﴿تَلْقَفْ﴾ من فعل: «لَقِفَ الشيءَ يلْقَفُهُ لَقْفاً ولَقَفَاناً» أي: تَنَاوَلَهُ بِسُرْعَةٍ، وأخَذَهُ بِفَمِهِ فَابْتَلَعَهُ.

وقرأ جمهور القراء العشرة [تَلَقَّفْ] أصْل الكلمة «تَتَلَقَّفْ» حُذِفَت

إحدى التاءين تخفيفاً، من فعل: «تَلَقَّفَ الشَّيْءَ يَتَلَقَّفُهُ تَلَقُّفاً» وفي هذه الصيغة دلالةٌ على شدّة السُّرْعَةِ في التناول، والأخذ بالفم والابتلاع.

وبين القراءتين تكامل في الدلالة على المعنى المراد، فصِيغَةُ: **[تَلَقَّفْ]** بفتح اللّام وتَشْدِيد القَاف، تَدُلُّ عَلَىٰ حَرَكَة ثُعْبَانِ عَصَىٰ مُوسىٰ الفائقة السُّرْعَة عَقِبَ التَحوُّل، وصيغَةُ: **[تلْقَفْ]** بإسكان اللّام وفتح القاف من غير تشديد، تَدُلُّ حركة الثعبان بَعْدَ أن ابْتَلَع القِسْم الأعظم من أدوات سِحْرِ السَّحَرَةِ بِسُرْعَتِهِ المذهلة، وأخَذَ يَبْتَلِعُ بِهُدُوءِ البقايَا المتناثِرَة.

وجاء في سورة (الأعراف) الّتي نتَدَبَّرُها:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

فلَمَّا تَلَقَّىٰ موسى من رَبّه هذا الوحي الذي شدّ عزائمه، قال للسَّحَرَة ما جاء بَيَانُه في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾: أي: فَلَمَّا قَدَّمُوا كُلَّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيّ، واسْتَنْفَدُوا كلّ طاقاتهم، وأشْعَرُوا بأنَّهُمْ قَد انْتَهَوْا.

﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: أي: للسَّحَرَة.

﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾: أي: كلّ ما جئتُمْ به هو من قَبيل السِّحْر الّذِي سَحَرْتُمْ به أَعْيُنَ النّاس، فَجَعَلْتُوهُمْ يَرَوْن بأعينهم خيالات لا حقيقة لها في الواقع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾: أي: سيكْشِفُ أنَّهُ باطلٌ بِآيَةٍ مِنْ عِنْدِه آتانيها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: أي: إنَّ اللّٰه لا يَقْضِي بإبْقاء عَمَل الْمُفسِدين صالحاً في آثاره، حتَّى لا يَفْتَتِنَ بِه النَّاسُ فتنة تُعْطيه مَشْرُوعِيَّة أنَّهُ حقٌّ.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢)﴾: أي: ويُبَيِّنُ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ الحقَّ ويُثَبِّتُه، ويُظْهِرُ ثَبَاتَه بِكَلِمَاتِهِ التكوينِيَّة، وبِكَلِمَاتِهِ الْبَيَانِيَّة، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ إحْقاقَ الحقّ وإبطالَ الباطل.

ومن إحقاف الحقّ بكلِمَاتِ اللّهِ التكوينيَّة، ابتلاعُ الثُّعْبَان الْمُنْقَلِب عن عصَا موسَىٰ كلَّ أدَوَات سِحْر سَحَرَةِ فِرْعَوْن، فانكشف أنَّ سِحْرَهُمْ قد كانَ عملاً باطلاً، لا حقيقة له تَدُلُّ على مكافأته للآيَةِ الرَّبَّانِيَّة الّتي آتاها اللّه عزّ وجلّ نبيَّهُ ورسوله موسَىٰ عليه السلام.

وبَعْدَ أَنْ وَجَّهَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ للسَّحَرَة هذا البيانَ الدَّعَوِيَّ القويَّ، الصّادر عن قَلْبِ مُؤْمِنٍ واثِقٍ بربّه، أَلْقَىٰ عَصَاهُ، فَكَانَ مِنْ شأنِها ما أبانَهُ اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

● ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢)﴾:

أي: فألقى موسى عليه السلام عصَاهُ فإذَا هي تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُون.

وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨)﴾:

● قرأ حفصٌ: [تَلْقَفُ] بإسكان اللام، وفَتْحِ القاف دون تَشْدِيد، في النَّصَّيْن السابقين.

وقرأ باقي القراء العشرة: [تَلَقَّفُ] بفتح اللام وفتح القاف المشدّدة، في النَّصَّيْنِ السابقَيْن.

وقد سبَق بيان التكامل بين القراءتين في الدّلالة على المعنى المراد.

● [**فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ «تلقف» مَا يَأْفِكُونَ**]: أي: وألقَىٰ مُوسى عَصَاهُ فانقلَبَتْ حَيَّةً رَهِيبَةً عَظِيمة، وفاجأتِ الجماهير المحتَشِدَة لشهود المباراة، بأنَّها صارتْ تَتَنَاوَلُ بِفَمِهَا وَتَبْتَلِعُ بِسُرْعَةٍ عجيبَةٍ كلَّ أَدَواتِ السَّحَرَةِ، وهُمْ يَعْمَلُونَ أعمالَهُمُ السِّحْرِيَّة، لإيهام المشاهِدِينَ وإرَاءَةِ أَعْيُنِهم أَنَّ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ حيَّاتٌ تَسْعَىٰ في ساحة المباراة.

جاء استعمال الفعلِ المضارع في «تَلَقَّفُ» وفي «يَأْفِكُونَ» للدَّلاَلَة عَلَىٰ حَرَكَةِ المتابَعَةِ المتجدّدة في عَمَلِ حَيَّةِ مُوسَىٰ، وفيما كانَ السَّحَرَة يأفِكُونَهُ، حتَّىٰ ابْتَلَعَتْ كلَّ ما لديهم من وسائل كانوا يُتَابِعُون تقديمها.

يَأْفِكُون: أي: يكْذبُونَ بِهِ على الحقيقة، إذْ كانوا بِسِحْرِهم يُرُون أعْيُنَ النَّاسِ أخْيِلَةَ حيَّاتٍ وَثعَابينَ تَسْعَىٰ، وهي في الحقيقة حبالٌ وعصيٌّ تتحرَّكُ ولَكِنْ لاَ حياة لها، ولم تَنْقَلِبْ إلى حيَّاتٍ وثعابينَ حَقِيقِيَّة.

بخلاف عصا موسى عليه السلام فقد كانت آيةً معجزةً من آيات الله، وانقَلَبَتْ حيَّة عظيمة بخَلْق اللَّهِ جَلَّ جَلاَلُهُ وعظُمَ سلطانه، لأنَّما أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شيئاً فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كن فيكون.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾: أي: فثَبَتَ الحقُ الّذي جاء به مُوسَىٰ عليه السلام، لَدَىٰ الّذِينَ شَهِدُوا المباراةَ، وعَلِمُوا أنَّ آيَتَهُ مُعْجزةٌ رَبَّانِيَة، ولَيْسَتْ من قبيل سِحْرِ السَّحَرَة. فالمراد بوقوع الحقّ ظهورُه وانكِشَافُهُ وإدْرَاكُه بالجبر.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي: وظهر للجمهور الذين كانُوا يَشْهَدُونَ المبَارَاة، أنَّ مَا كان يَعْمَلُهُ السَّحَرَةُ بَاطِلٌ لاَ حَقِيقَةَ له، إنَّما كان إيهاماً وخداعاً لِلأَعْيُنِ فقط.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (الأعراف).

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الشعراء).

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا. . . ﴿٧٠﴾﴾ (طه).

جاء التعبيرُ بالْبِنَاءِ للمَجْهُولِ في فعلِ «أُلْقِيَ» للإشعار بأن السَّحَرَة وَجَدُوا أنفُسَهُمْ بَعْدَ مُشاهدة آيَة اللَّهِ المعجزة، مَدْفُوعِينَ ذاتِيًا لِلْإِيمان باللَّهِ والسُّجُودِ له، بتلْقَائِيَّةٍ اخْتِيَارِيَّةٍ تُشْبِهُ بحَسَب الظَّاهِرِ مَنْ يُلْقَىٰ مُكْرَهاً.

ولدى المقارنة بين النصوص التي جاءت في (يونس وطه والشعراء والأعراف).

نجد أنّ النصّ الّذي جاء في سورة (الأعراف) قد أضاف التصريح بأفكار لم يأتِ التصريحُ بها في النُّصُوص الأُخْرَىٰ.

الفكرة الأولى: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ وقَدْ سبق بيان هذه الفكرة.

الفكرة الثانية: دلَّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾:

أي: وظهر بُطْلاَنُ مَا كانَ السَّحَرَةُ يَصْنَعُونَهُ مِنْ حِيَلٍ سِحْرِيَّةٍ يخْدَعُونَ بها أعْيُنَ الناس، وظهَرَ لكلِّ حاضِري مشهَدِ المبَارَاة أنَّ مَا جاء بِهِ موسَىٰ عليه السَّلام حقٌّ، إذْ هو آيةٌ من آيات الله رَبِّ العالَمين.

الفكرة الثالثة: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾: أي: فَغُلِبَ هُنَالِكَ في ساحة المباراة سَحَرَةُ فِرْعَوْن، ومعْلُومٌ أَنَّ ما حصل لهؤلاء السَّحَرَة هو في الحقيقة قد حصَلَ لِفِرْعَوْن، فالمغْلُوبُ في الحقيقة هو فِرْعَوْنُ وملَؤُهُ وطَرِيقَتُهُمُ الكافرَةُ بالله عزَّ وجلَّ وبرُسُلِه، وبما جاءَهُمْ عن الله، ومن لَوَازِمِها اتّباعُهُم غَيْرَ مَا أنزل الله إليهم، واتّخاذُهم من دونه أولياء.

الفكرة الرابعة: دلّ عَليْها قول الله تعالى: ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾: أي: وانْقَلَبُوا انْقِلاباً معنويًا، مِنْ مَكانِهم العَالي الَّذِي كَانُوا مستكْبِرين فيه، حالَةَ كونهم أذِلاَّء، يشْعُرُونَ بصِغَرِ مكانَتِهم، وضَآلة قيمَةِ نُفُوسهم، وبُطْلاَنِ طَرِيقَتِهم، أمَامَ عظَمَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيّ الَّذِي أجْراهُ اللَّهُ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُهُ، آيَةً لنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُوسَىٰ عليه السّلام.

وأضَافَ النصُّ الّذِي في سورة (الشُّعَرَاء) والنَّصُّ الذي في سُورَةِ (طه) ما دَلّ علَىٰ أنَّ سُجُود السَّحَرَة قد كان عَقِبَ ابتلاع آيَةِ مُوسَىٰ الرَّبَّانِيَّةِ أدَوات سِحْرِهم مُبَاشَرَةً، بدَليل الفاء في النَّصين:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦)﴾ (الشعراء).

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا. . (٧٠)﴾ (طه).

مع ما في هٰذَيْنِ النَّصَّيْنِ اللّذين من سُورَةِ (طه) ومن سورة (الشعراء) من تفنُّن في التعبير لملأَمَة رُؤُوسِ الآي في كلٍّ منهما.

- ففي سورة (طه): ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾.
- وفي سورة (الشعراء): ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨)﴾.

وفي هذا النصّ إضافة عبارة: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويظهر أنَّ هٰذِهِ العبارة أضافوها حينما كَرَّرُوا إعلان إيمانِهِم، بَعْدَ أنْ هَدَأَتْ نفوسهم من هَوْل المفاجأة، وأدْرَكُوا أنّ رَبَّ هارونَ ومُوسَىٰ، هو رَبُّ العالَمِين جَمِيعاً، والمراد بالْعَالَمِين هُنَا كُلُّ ما سِوَىٰ الله عزّ وجلّ.

أمّا النَّصُّ الذي جاء في سُورَة (يُونس) فقد طَوَىٰ ذِكْرَ كُلِّ الْأَحْدَاث بَدْأً من إلقاء مُوسَىٰ عصاه، وانتقل إلى بيان أنّه ما آمَنَ بموسَىٰ بعد ذَلِكَ إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِن قومه بني إسرائيل، ضمن المنهج القرآني في التكامل بين النصوص حول موضوعٍ واحد.

* * *

قول الله عزّ وجلّ في (الأعراف) الّتي نتدبَّرُها:

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)﴾.

وقولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

وقولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه النصوصُ الثلاثة تُعبّرُ عَنْ ثَلاثَةِ مُواقِف بين فِرْعَونَ والسَّحرةِ، وهي مواقف مُحاسَبَةٍ وَتقْرير عِقاب.

لمّا رأىٰ فِرعَوْن مبادَرَة السَّحرة بإعلانهم إيمانهم برَبِّ العالَمِينَ رَبّ مُوسىٰ وَهَارُون، عَقِبَ انتصارِ موسَىٰ بالآيَة المعْجِزة الّتي آتاه الله إيَّاها، غضبَ غَضباً شدِيداً، إذْ كان إعلانُ إيمانهم في الحقيقة إعلاناً مِنْهُمْ أنَّ مُوسَىٰ انْتَصَرَ عَلَىٰ سَيِّدِهِمْ فِرْعَوْن وَمَلئِهِ، وانتصَرَ ما يَدْعُو إليه على ملّتهم وطريقتهم الباطلة، فأَعْلَنَ إتِّهامَهُمْ بالتآمُرِ مَعَ مُوسَىٰ، لتنفيذ مُخَطَّطِ تَمْليكِ الإسْرائيليّينَ حُكْمَ مِصْرَ، وإخراجِ الأسْرَة المالِكَةِ وسَائِرِ الْقِبْط مِنْها، وَتَوَعَّدَهُمْ بأَنْ يُقَطِّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ ويأَنْ يُصَلِّبَهُمْ أَجْمَعِينَ.

لقد أراد بهذا الإعْلاَنِ أَنْ يُغَطِّيَ هَزِيمتَهُ الحقيقيَّةَ، بأَنّها ليْسَتِ انتصاراً لما جاء به مُوسَىٰ على سِحْرِ السَّحَرَة، بَلْ هِيَ مُؤامَرَةٌ مُدَبَّرَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُوسَىٰ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾: أي: قالَ فِرْعَوْنَ حِينَ اشتَدّ غضبُهُ من إعلان سَحرتِهِ إيمَانَهُمْ بنُبُوَّة مُوسَىٰ ورِسَالَتِه: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾؟: أي: آآمَنْتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لكم بذلكَ، كيف تَفْعَلُونَ هذا وتَعْصُونني؟! استفهامٌ إنكاريٌّ يُشَنِّعُ به عليهم، إذْ يَعْتَبِرُهم من المجرمينَ الكبار بذلك.

والمعنىٰ: كَيفَ آمَنتُم بنُبوّة موسَىٰ وبرسالته، وبدعْوَته، قبل أنْ آذَنَ لَكُمْ بأنْ تُؤمِنُوا به، والقانُونُ الفِرعَوْنيُّ يمنَعُ من الإيمان بعقيدةٍ تُخالِفُ الدِّينَ العامّ المسْمُوحَ به قانُوناً، والَّذي يَجْعَلُ فِرْعَوْنَ هو الإلّه المعبود في مِصْر، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى... (٣٨)﴾.

وفي جَلْسَتَيْن أُخْرَيَيْن قالَ لهم ما جاء بيانُه في سُورَتي (الشُّعَراء) و(طه):

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾: أي آمنتُم به مُسْلمين له، على طريقة التَّضْمِين ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ وهو أيْضاً استفهامٌ إنكاريٌّ تَشْنيعيٌّ، يُشَنِّعُ به عليهم ارتكابهم الجريمة العظمىٰ الّتي يَسْتَحِقُّونَ علَيْها أشدّ العقاب حتَّىٰ الموت.

وفي الجلسة الأولى التي جاء بيانها في سورة (الأعراف) اتَّهَمَهُمْ بالتآمُرِ مع موسَىٰ فِي المدِينَةِ قبل حضور المباراة لإسقاط الحكم الفرعوني، وتسليم السُّلْطَةِ لبني إسرائيل، إذْ قَال لهم فيها:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)﴾.

المكر: تدبير أمْرٍ في خَفَاء. ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي قبل الخروج إلى المكان المختارِ للمباراة.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: تَهْدِيدٌ من فِرْعونَ لَهُمْ بما سَوْف يُنْزِلُهُ بِهِمْ من عِقَاب، وأعْلَنَ أنّه غَيْرُ مُسْتَعْجِلٍ لإنزال العقاب الشَّدِيد بهم، بدليل استعمال حرف التسويف «سَوْف».

والوعيد الذي أعْلَنَهُ فِرْعَونَ هو «قَطْعُ أَيْدِي السَّحَرَةِ وأَرْجُلِهِمْ من

خلاَف» وهذا الوعيد مقرونٌ بقَسَمٍ مَنْوِيٍّ، وجاءَت اللاَّم ونون التوكيد الثقيلة دليلاً عليه، كما قال الخليل.

﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: أي: إذا قطع اليد الْيُمْنَىٰ قطَعَ معَها الرّجل اليسْرَىٰ، وإذا قطَعَ الْيَدَ الْيُسْرَىٰ قطع معها الرجْلَ اليمنى.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّة أَدَعُكُمْ تَتَعذَّبُون فيها بقَطْعِ الأيدي والأرْجُل من خلاف أقْسِمُ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين في مكانٍ واحِدٍ ووَقْتٍ واحدٍ، لتكونوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِر.

الصَّلْبُ: شَدُّ أطراف الْجِسْم وتَعْلِيقُهُ علىٰ خَشَبَةٍ قَائمة، أوْ على جِذْع شجرة ذاتِ ساقٍ مُرْتَفَعَةٍ كالنخلة وشجر السَّرْو.

الجِذْعُ: ساق الشجرة، وهو ما بَيْنَ جَذْرِها ومَا تفرَّع من فورعها.

وفي الجلْسَتَيْنِ الأخْرَيَيْنِ اتَّهَمَهُمْ بأَنَّهُمْ تَلامِيذ مُوسَىٰ، فهو كبيرهم الَّذِي علَّمَهُمُ السِّحْر.

وفي الجلسة الثالثة التي جاء بيانُها في سورة (طه) أَبَانَ لَهُمْ أنَّ صَلْبَهُمْ سَيَكُونُ في جُذُوع النَّخْلِ، إذْ يَجْعَلُ المسامير الطّوال تُضْرَبُ فِي أطرافِهِمْ وتُثَبَّتُ دَاخِلَ جُذُوع النَّخْلِ، حتَّىٰ يَمُوتُوا وهُمْ مَصْلُوبُونَ، يَذُوقون عذَابَ آلاَمَ أَجْسَامِهِم، وعذابَ التشهِير بهم، إذْ يُشَاهِدُهُم القاصِدُونَ، والمارُّونَ إلى جانب مجمع نخيل الصَّلْب.

وأبانَ لهم أيضاً أنَّهُمْ ليَعْلَمُنَّ حينئذٍ أنَّ عذَابَهُ أشَدُّ وأبقىٰ من عذابِ إله موسَىٰ الَّذي خافوا منه فآمَنُوا بموسَىٰ، وأسْلَمُوا له، واتَّبَعُوا دينه، فقال لَهُمْ: ﴿... وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

وهكذا جاء في النصوص توزيعٌ للمعاني المرادِ بيانُها، حتَّىٰ تتكامَلَ الدَّلاَلاَتُ فيما بَيْنَها، بطريقةٍ إعجازيَّةٍ عَجِيبَةٍ وتُوجَدُ دَقائق أخرى يَكْشِفُهَا التَّدَبُّر المتأنّي.

رَدُّ السَّحَرَةِ عَلَىٰ اتِّهَامَاتِ فرعونَ لَهُمْ وَوَعِيدِه

(١) جاء في سورة «الأعراف» الّتي نتدبَّرُها قول الله عزّ وجلّ بشأن رَدّهم:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾: أي: ومَا تعيبُ علينا، وتُبْغِضُ منا، وتُرِيدُ مُعاقَبَتْنا علَيه. يقالُ لغة: «نَقَمَ يَنْقِمُ» و«نَقِمَ يَنْقَمُ» أي: عَابَ وأبغض وعاقب.

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: أي: رَبَّنَا املأ لَنَا مِكْيَالاً من الصَّبرِ بمقدار ما نحتاج لتحَمُّل العذاب، وأَفرِغه كلَّهُ علينا، حتَّىٰ لا نتَشَكىٰ، ولا نَتَذَمَّر، ولا نَتراجَع عَنْ مَوْقِفِ الإيمان والإسلام الّذي هَدَيْتَنا إليه.

(٢) وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن ردهم أيضاً:

﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾.

﴿لَا ضَيْرَۖ﴾: أَيْ: لاَ يُؤَثِّرُ عَلَيْنَا تَعْذِيبُكَ لَنا بِمَا يَضِيرُنَا. يُقَال لغة: ضَارَهُ يَضِيرُهُ ضَيْراً، أَيْ: أضرَّبه.

﴿مُنقَلِبُونَ﴾: أي: راجِعُونَ.

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: لأجل أَنْ كُنَّا أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بموسى وبما جاء به عن ربّه.

(٣) وَجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بشأن ردّهم أيضاً:

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣﴾.

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾: أي: لَنْ نُفضِّلَكَ.

﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾: أي: لَنْ نُفضِّلَكَ على ما جاءنا من الآيَاتِ الواضِحَاتِ الإعجازيَّة والبيانيَّة المبيِّنات لِلْحَقّ، ولَنْ نُفضِّلَكَ على ربّنا الَّذي فَطرنا.

﴿فَطَرَنَا﴾: أي: أَوْجَدَنا وخَلَقَنا على نِظَامِ الْفَطْر، بعد أن لم نكن شيئاً مذكوراً. **الْفَطْرُ**: الشَّقُّ. وخلْقُ الله عزّ وجلّ قائمٌ على نظام الْفَطْرِ والْفَلْقِ، لأن نُقْطَةَ الْعُمْق مِنْ كلِّ شيء هيَ الْعَدَم، فالله هو الموجِدُ من العدم، جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾: أي: فأمْضِ مَا أَنْتَ مُمْضِيهِ من أحكامِكَ الانتقاميّة، فإنّنا مُسْتَعِدُّونَ لتَحَمُّلِ تعذِيبكَ لنا بِصَبْرٍ. إنَّك لاَ تَسْتطِيع أَنْ تفعلَ أَكْثَر مِنْ تَعْذِيبٍ تُنْهِي به هٰذه الحياة الدُّنيا. وهي مُنْتَهِيَةٌ لاَ مَحالَةَ في آجالِنا.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾

أي: إنّنا آمَنَّا بِرَبِّنا، فَلاَ تَطْمَعْ في أَنْ نَرْجِعَ إلى مِلَّتِكَ وطَرِيقتك، مَهْمَا تَوَعَّدْتَنا بالعذاب الأليم، وإنّنا واثِقُونَ من أنّ إيمانَنا سَبَبٌ يَغْفِرُ بِهِ ربُّنَا خطايانا، فالإيمان يَجُبُّ ما قبله، ويَغْفِرُ به ما أَكْرَهْتَنَا عليه من السِّحْرِ في المباراة الَّتِي عَقَدْتَها بَيْننا وَبَيْنَ نبيّ اللّهِ ورسُوله موسَىٰ عليه السّلام.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾: أي: واللّهُ خَيْرٌ مِنْكَ وَمِنْ كُلِّ ما سِواه، وفَضْلُهُ وعَطَاؤُهُ أَبْقَىٰ، أي: لأنّهُ الحيُّ الباقي الأزليُّ الأَبَدِيُّ القيوم.

* * *

هذه النصوص الثلاثة تُعَبِّرُ عَنْ مواقف ثلاثةٍ واجَهَ بِهَا السَّحَرَةُ فرعون، في مقابل مواقف ثلاثةٍ وجّهَ فيها فِرْعَوْنُ لهم التَّثْرِيب والتعنيف والتجريم، والوعيد بمعاقبتهم عقاباً أليماً حتَّىٰ الموت.

ويظهر أنَّ فرعون كان حريصاً على أنْ لا يخْسَرَ سَحَرَتَه، على شَرْطِ أن يَعُودُوا إلى مِلَّتِه وطَرِيقَتِه، ويكونوا بالسّحر قُوَّةً لسُلْطانه، تَدْعَمُ في نفوسِ جماهير العامَّة من شَعْب مصْرَ قُوّاتِه العسكرية.

ولهذا كان يُمْهلهم، ويُراوِضُهُمْ ويُرَاجِعُهُمْ بالْوَعِيد، ويُشَدِّدُ فيه مرَّة بَعْدَ مَرَّة، عَسىٰ أنْ يراجِعُوا أَنفُسَهم، ويَكْفُروا بمُوسَىٰ وهارون، وبما جاءا به عن الله، ويُجَدِّدُوا وَلاَءَهم للْبَلاَطِ الفرعَوْني.

ويظهر أنّهم بَدَؤوا بالتَّلْمَذةِ الدينيَّة على موسى وهارون، حتَّى صارت أَلْسِنَتُهم في مواجهة فرعَوْن أَلْسِنَةَ دُعاةٍ إلىٰ الإيمان بالله وبِيَوْمِ الدين، وإلى الإسلام لله بالعمل الصالح، على ما جاء به موسىٰ عن رَبّه.

● ويظهر أنّ أوّل ردُودهم على فرعون هو ما جاء بيانه في سورة (الأعراف) فقد رَدُّوا فيه على وعيد فرعون لهم بعبارات إيمان، وتبرُّءٍ ممَّا يُوجِبُ عقابَهُمْ قانوناً، ودُعاءٍ لِرَبِّهِمْ أَنْ يُصَبِّرَهُمْ وَيَتَوَفَّاهم مُسْلِمين.

قالوا له: إذا قتلْتَنا بأيّة وسيلَةٍ فإنّنا راجِعُون إلىٰ رَبّنا، الَّذِي سوف يُثِيبنا على أنّنا قُتِلْنا من أجله، فَنَحْنُ شهداء في سبيله، على أَنّنا في كُلّ الأحوال سَنَرْجِعُ إليه، إذْ يَبْعَثُنا بَعْدَ الموت إلى يوم الدّين، يوم الحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وقالوا له: إنّكَ مَا تُعَاقبنا إذا فَعَلْتَ ما تَوَعَّدْتَنا به إلاَّ عَلى أَمْرٍ لا يسْتَحِقُّ في قواعد العدْلِ والجزاء العقابَ، إنّك تُريدُ أَنْ تُعاقِبَنا لأنَّنا آمَنَّا بآياتِ رَبّنا الإعجازيّة والبيانيّة لمَّا جَاءَتْنا، والآياتُ البيانيَّةُ قَدْ بَلّغَنا إيَّاها رُسُولٌ أيَّدَهُ رَبُّنا بمُعْجِزَة باهِرَةٍ حقيقيَّة، ليْسَتْ مِنْ قبيلِ السِّحْرِ الَّذِي نَصْنَعُهُ ونَخْدَع به أعْيُنَ الناس.

وَدَعَوْا رَبَّهُمْ أَمَام فِرْعَوْن بأن يُفْرِغ عليهم مِكْيالاً من الصَّبْر بقَدْرِ حاجتهم، حتَّىٰ يتحمَّلُوا ما توعَّدَهم به فرعون من عذاب وقتل، وبأن يَتَوفَّاهُمْ مسلمين.

وغرضهم من إعلان هذا الدّعاء إعْلاَنُ ثَباتِهم على إيمانهم، وعدم تأثُّرهم بالعقابِ الذي توعّدَهم به فِرْعَونُ، وأنَّهُمْ سيتَلقّوْن عقابَه لهم بالصَّبْر، وأنَّهُمْ يسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَتَوَفَّاهُمْ مُسْلِمين، أي: مؤمنين مسلمين، لأنَّ الإسْلاَمَ الحقيقيَّ عند الله، لاَ بُدَّ أن يكون مبنيًا على قَاعِدَةِ الإيمان الصحيح.

● أَمَّا ثَاني رُدُودِهِمْ على مَواقف الوعيد الّتي وجَّهها فِرْعونُ لهم، فَيَظْهَرُ أَنَّهُ الرَّدُّ الّذِي جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

فبَعْدَ أَنْ سَمِعُوا تأكيد وعيده لهم بتقطيع أيديهم وأَرْجُلهم من خِلاَفٍ، وجَعْلِهِمْ مُصَلَّبِين يموتُون صَبْراً، رَدُّوا عَلَيْهِ بما يَدُلُّ على عَدَمِ اكْتِرَاثِهِمْ له، وعلى اسْتِعْدَادِهم لتَحمُّلِ تَعْذِيبه بصَبْر، إذْ هُوَ هَيِّنٌ بجَانِب مَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَنَالُوهُ عنْدَ اللَّهِ من مَغْفِرَةٍ وَكرامَةٍ وأَجْرٍ عظيم، بسبب أنهم كانوا أوَّلَ من آمَنَ مِنَ المصْرِيِّين بدَعْوَة الرَّسُولَيْن مُوسَىٰ وهَارُون.

● وأَمَّا ثالث رُدُودهمْ على مَواقف الوعيد الّتي وجَّهَها فرعَوْن لهم، فَيَظْهَرُ أنَّهُ الرَّدُّ الَّذِي جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

إنَّ فِرْعَوْنَ لمَّا تَوَعَّدَهُمْ بِقَطْعِ أَيْدِيهم وأَرْجُلِهم من خلاف، وقال لهم: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾. رَدُّوا عَلَيْهِ بِجُرْأَةِ الصَّامِدِينَ الدُّعَاةِ إلَىٰ الله، دُونَ اكْتِرَاثٍ لِوَعِيدِهِ، وَلا تراجُعٍ عن الموقفِ الإيمانيِّ الإسلاميّ الذي سبَقَ أن واجَهُوهُ به.

لَقَدْ أَيْأَسُوهُ من أن يُؤَثِّر عليهم بِوَعِيدِهِ الشَّدِيدِ لهم، فقالوا له: لَنْ نُؤثِرَ بَاطِلَكَ على الحقِّ الذي جَاءَنَا من رَبّنا، ولَنْ نُؤْثِرَكَ علىٰ رَبّنَا الّذي فَطَرنا، فَلاَ تَطْمَعْ بتهديداتِك، وَوَعِيدكَ لنا، في أن نتراجَعَ عن مَوْقِفِنا، فَأَمْضِ مَا أَنتَ مُمْضِيهِ مِنْ أوامِرَ يُنَفِّذُها جُنودُكَ، وَلاَ تُفَاوِضْنَا بِشأنِ إيماننا وإسْلامِنَا، إنَّ غَايَةَ ما تُمْضِيه بوسائلك، أَنْ تُنهِيَ مِنْ ذَواتِنا هٰذِهِ الحياة الدُّنيا الَّتي

نَعِيشُها، وأن تكونَ سَبباً في مَوْتِنا، ونَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لتَحمُّلِ ذَلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضَاةِ رَبِّنا.

وسكت البيان القرآنيُّ عن مَصِير هؤلاء السَّحَرَة، ويظهر أن فرعَوْنَ قد نَفَّذَ فِيهِم وعيدَه.

* * *

الفقرة الثانية

الآيات من (١٢٧ ـ ١٣٧)

تمرُّدُ فرعون وملئه وعنادُهم واستكبارُهُم حتَّى إغراقِهم

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ

ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

القراءات:

(١٢٧) ● قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأَبُو جَعْفر: [سَنَقْتُلُ] من الفعل غير المضعّف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [سَنُقَتِّلُ] من الفِعْلِ المضعّف.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنَىٰ المراد، فَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ قالَ أَوّلاً قَبْلَ أنْ تَشْتَدَّ ثَوْرَةُ غضبه: [سَنَقْتُلُ] من غير تَشْدِيد.

ثُمَّ لمَّا اشْتَدَّ غَضَبُه قال: [سَنُقَتِّلُ] بالتَّشْدِيد، أي: سَنَقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ بِشِدَّةٍ وعُنْفٍ وقَسْوَةٍ.

(١٣٣) و(١٣٤) ● في لفظ [عَلَيْهِمْ] في الآيتَيْن ثلاثُ قِراءات:

قرأ أبو عمرو: بِكَسْرِ الهاء والميم. وقرأ حمزةُ، والكسائي، ويعْقُوبُ وخَلَفٌ: بِضَمّ الهاءِ والميم. وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.

وهي وجوه عَرَبيَّةٌ في النُّطْق.

(١٣٧) ● قرأ ابن عامر، وشُعْبة: [يَعْرُشُونَ] بِضَمّ الرَّاء.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: [يَعْرِشُونَ] بِكَسْرِ الراء.

وهما وَجْهَانِ عَرَبيّان لِنُطْقِ الكلمة.

التدبّر التحليلي:

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ

وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

تمهيد:

بعد خيبة فرعون وملَئِه في المباراة التي أَجْرَوْها بين موسى عليه السلام، وصفوة السَّحَرة الَّذِين حَشَرُوهم من مدائن مصر كلّها، إذِ انقلبت المباراة ضدّ السُّلْطَةِ الفرعَوْنية، وآمن وأَسْلَم السَّحَرَةُ الَّذِين جاءُوا بهم، وكانت المباراةُ لمصلحة دعْوَةِ موسى، وانتصاراً لها أَمَام الحشود الغفيرة من القبط.

عندئذٍ لم يبْقَ أمام الجبْهَةِ الفرعَوْنيَّة إلاَّ أَنْ يقْمَعُوا دَعْوَة موسىٰ وأخيه هارون عليهما السَّلام بالْقُوَّة، وأنْ يَزِيدُوا اضطهاد بَنِي إسرائيل باستخدام الأسلحة العسكريَّة، وبما لَدَيْهِمْ من جُنُودٍ يَنَفِّذُون أوامِرَهُم بالطَّاعَةِ الْعَمْيَاء، وهذا ما دَلَّتْ عليه هذه الآية:

ويَرِدُ هنا سؤال: ما الدّاعي لأنْ يُحَرِّضَ الملأُ مِنْ قوم فِرْعَوْنَ، سَيِّدَهُمْ ومليكَهُمْ على التخلّص من موسى وهارون، وعلى قَمْع قوْمِهِ بني إسرائيلَ واضطهادِهم، أكْثَر ممَّا هُمْ فيه من اضطهادٍ وتَسْخِير، مَعَ أَنَّ فرْعَونَ مَلِكٌ طاغيَةٌ مستَبِدٌ جبَّارٌ، لا يتساهل مع خصومه، ولاَ مَع من يَرَاهُمْ يُنَازِعُون سلْطَانَهُ وجَبَرُوته؟!

ويمكن أنْ نجيب بأنّ آية عصا موسى قَدْ خلَعَتْ قلْبه، وجعَلَتْهُ شديد الْحَذَر من أن يمَسَّ موسىٰ عليه السّلام بسُوءٍ، فيُسَلِّطِ عليه العصا الّتِي تنقلب ثُعْباناً فتَبْتَلِعَه، ولا سيما بعد أن ابتَلَعَ هذا الثُّعْبانُ حبالَ سَحَرتِه وعصيَّهُمْ وجَميعَ أَدَواتهم السّحْريّة، فجعَلَ يُطاولُ ويَأْخُذُ الأَمْرَ بالحكمة والرَّوِيَّة.

إنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَشَأْ أن يُتَابع موسَىٰ، فيُؤْمِنَ به ويُسْلِمَ له، خوفاً من أنْ

يَخْسَرَ بِذَلِكَ سُلْطانَهُ وجَبَرُوته، ولم يَشَأْ أَنْ يستثيرَهُ الغضبُ فيتعرَّضَ لموسَىٰ بسُوءٍ فيخْسَرَ بذلك سلْطَانَهُ وَحَيَاتَهُ أيْضاً، إذْ أَدْرَكَ في قرارة نفسه أَنَّ ما جاء به موسَىٰ شيءٌ هو فوق قُدْراتِ الناس، ويَغْلِبُ على الظنّ أنّ فرعَوْنَ أَدْرَكَ أَنَّ مُوسَىٰ على حقٍّ، ولكن صَعُبَ عليه أن يُؤْمن به ويُعْلِنَ إسْلامَهُ له.

فلَمَّا طَالَ تريُّثُهُ دُونَ أَنْ يُصْدِرَ أوامِرَهُ القَمِيعيَّةَ المعتادةَ بالنسبة إلى كلّ مَنْ تَبْدُرُ منْهُمْ بَوادِرُ الخروج على طاعتِه ونظام مُلكه، وأخذ موسَىٰ يَنْشُرُ دَعْوَتَه مع أخيه هارون، وبدأ بعض الإسرائيلِّيين يعْتَزُّون بموسى وهارون، ويُفَاخِرُونَ بدينهم ودِين آبائهم، ويَدْعُونَ القبْط لاعتناقه، لكنّ المصريين كانوا يخافون من سطْوَة فِرْعَوْن وَبطْشِه، إذا هَجَرُوا دينه، واعْتَنَقُوا الدّين الذي يدعُو إليه موسى وهارون والمؤمنون الدُّعاة من بني إسرائيل.

لمّا حصَلَتْ هٰذه الأمور وخاف الملأ من قوم فرعون أن يَنْتَشِرَ في مصر الدّين الجديد، ويقْوَىٰ الإسرائيليُّونَ على القبط، أهل مِصْرَ الأصلّيين، فَيُسْقِطُوا الْحُكْمَ الفرعوني، وكُلَّ أنْصَاره المستفيدين منه، وقد اعتبروا هذا إفساداً في الأرض، ولم يكن لديْهم الحَذَرُ الَّذِي ألْجَمَ فِرْعَوْنَ عَنْ أنْ يُمَارِسَ جَبَرُوتَه المعرُوف، عندئذٍ أخَذُوا يحرّضون فرعَون على قمع موسى وقومه.

التدبر:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾!.

استفهامٌ فيه معْنَىٰ التعجُّب مِنْ أناة فِرْعَوْنَ وَتَرَيُّثِه، ومُطَاوَلَتِه لموسَىٰ وهارون على خلاف عادتِه، من انتقامه الشديد من مخالِفِي طريقته وأوامره ونواهيه، وفيه معنى التحريض على أنْ يسْتَخْدِمَ وسيلة العنف والْبَطْش، قبل أن يسْتَفْحِلَ الأمر، ويُفْلِتَ الزّمامُ من أيديهم.

لقد رَأَوْا أَنَّ انطِلاقَ موسىٰ وهارون عليهما السلام، ومَعَهُمَا قِسْمٌ من بني إسرائيل، يَدْعُونَ إلى الدِّين المخالف للدِّين الَّذي عليه فِرْعَوْنُ ومَلَؤُهُ وقَوْمُه هو من الإفساد في الأرض، فقالوا لسيِّدِهم فِرْعَوْن:

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟! أَتَذَرُ: أَتتْرُكُ.

أي: أَتتْرُكُ مُوسَىٰ وقَوْمَهُ يَعْمَلُونَ بِحُرِّيَّةٍ في الدَّعْوَةِ إلى دِينهم، حتَّىٰ يُشَوِّشُوا أفكار النّاسِ، ويَجْعَلُوهم شِيَعاً وأَحْزَاباً، ويُفْسِدُوا وحْدَتَهُم الفكرية والاعتقادية المؤتَلِفَة على عبادة آلِهَتِهم، وعلى جَعْلِكَ في مِصْرَ أَنْتَ الإِلَٰه والرَّبَّ الأعْلَىٰ، إذْ حَلَّتْ فيك روح الرَّبّ الأعْلَىٰ باعتبارك من سُلاَلَتِه، إنَّ هٰذَا إفْسَادٌ في الأرض لا يُحْتَمل، فمِنْ شأنِهِ أنْ يُسْقِط نظام الدَّوْلَة الفرعَوْنِيَّة، ويَسْلُبَنا سُلْطَانَنَا وَأَمْلاَكَنَا في أَرْض مصر.

اللام في ﴿لِيُفْسِدُوا۟﴾: هي لامُ العاقبة، أي: حتى تكون عاقبةُ أمْرِهم الإفسادَ في الأرض.

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: أي: وليَنبِذَكَ مُوسَىٰ مَعَ آلِهَتِكَ مغزُولين، فَلا تَجِدُونَ مُطِيعينَ عَابِدِينَ لَكُمْ، ولا أَنْصَاراً يَنْصُرُونَكُمْ.

وسيأتي قريباً إن شاء الله بَعْضُ بيانٍ عن مُعْتقدات الفراعِنَة في الآلِهةِ، وعن تطوُّرِ هٰذِهِ المعتقداتِ كما ذَكَرَ مُؤَرِّخُو معتقداتهم، وهم بوجه عامٍّ يَرَوْنَ أَنَّ الإِلَٰه هو العظيم الْمُطَاعَ، الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ والْخُضُوعُ لَهُ في حُدُودِ إِلَهِيَّتِهِ، وَلَهُ حقُّ الأَمْرِ والنَّهْي والتَّصَرُّفِ ضِمْنَ دَائِرَتِها.

مادَّةُ «يَذَرُ» فيها معنى الترك والإهمال، وقَدْ تَدُلُّ على معنى النَّبْذِ والإبْعَادِ، كوَذْرَةِ اللَّحم، وهي القِطْعَةُ الصغيرة الَّتي يَقْطَعُها الجزار وَيَنْبِذُهَا كراهِيَةً لها.

هذا الْقَوْل التحريضيُّ من ملأ قَوْمِ فِرْعَوْنَ اسْتَحَثَّهُ علىٰ أَنْ يُصْدِرَ أمراً بالنِّسْبَةِ إلى بني إسْرائيل، دُونَ مُوسَىٰ وهَارُونَ عليهما السلام، فقال لمَّا اسْتُثِيرَ غَضَبُهُ:

﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

بَعْدَ أَنْ قَال: [سَنقْتُلُ...] من غَيْر تَشْدِيد.

ويظهر أنَّه عُرِضَ على فِرْعَوْنَ اقتراحٌ تَعْدِيليٌّ، بالاقتصار على قَتْلِ أبناء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ مُوسَىٰ، واستثناء الَّذِينَ لم يُؤْمِنُوا به ولم يَتَّبعُوهُ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، فَأَصْدَرَ أمْرَهُ بذلِكَ، كَمَا جَاءَ في سورة (غَافِر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أَمَّا الأَمْرُ بقَتْلِ المواليد الذكور، فالغاية مِنْهُ إيقَافُ الْقُدْرَاتِ القتاليَّةِ عن التكاثُر لدىٰ مَنْ يُؤْمِنُ من بني إسْرائيل، ولَقَدْ كان هذا إجراءً مَعْرُوفاً لدى الفراعنة، لإيقاف تكاثر الأقليّات غير القبطية. ولولا عناية الله لقتل موسى مع من قتل من مواليد بني إسرائيل الذكور أيام ميلاده.

وأمَّا الأمْرُ باسْتِبْقاء المواليد الإناث أحياءً منهم، فالغاية مِنْهُ اتخاذُهُنَّ مَتَىٰ كَبِرْنَ مُسَخَّرَاتٍ في الْخِدْمَةِ والاستِمتاع، إذْ لَسْنَ مُؤَهَّلاتٍ لِتَكْوِينِ جَيْشٍ يُقَاتِلُ جُنودَ السُّلْطَةِ الفِرْعَوْنيّة.

وقول فِرْعَوْنَ: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ يَتَضَمَّنُ تَهْوِيناً مِنْ أَمْرِ إفْسَادِ بني إسْرَائيل في الأَرْض.

أي: لاَ تخافوا من إفسادهم في الأرض، فإنَّنا لا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ ذَلِكَ، لأنَّنا فَوْقَهُمْ قُوَّةً وسُلْطاناً، ونَحْنُ قَاهِرُونَ لهم، نَسُوقُهُمْ بالْقُوىٰ الْقَاهِرَةِ كما نَشَاءُ، ولا نَدَعُ لهُمْ إمْكَانِيَّاتِ عَمَلَ وتحرّكٍ تَجْعَلُهُمْ يُفْسِدُونَ في الأرض.

القَهْرُ: الغلَبَة، يقال: «قَهَرهُ يَقْهَرُهُ قَهراً» أي: غَلبَه، والقاهِرُ، الغالب، ومبالغَتُهُ القَهَّار، ويقالُ أخَذَهُمْ قهراً، أي: بالغلبة من غير رضاهم، ففي القَهْر معنىٰ الجبْرِ ضدِّ الاختيار.

وبهذا الإجراء رأىٰ فرعَوْنُ أنَّه حلَّ مُشْكِلتَهُ حلاً يَضْمَنُ فيه سَلاَمَتَهُ، وسَلاَمَة نظام دولَتِهِ.

عقيدَة القِبط في عُهُود الفراعنَة:

أمّا عقيدة القبط في عُهُودِ الفراعنة، فقد كانت عقيدة شِركيَّة، وكانت عقيدتُهم بالرَّبِّ الأعلىٰ عقيدة حُلُولِيَّة.

كانت لَهُمْ آلهةٌ مُتَنَوِّعَةٌ مِنَ الكواكب ومن العناصر، وقد صَوَّرُوا لها صُوراً عَدِيدَةً مختلفة باخْتِلاَفِ العصور والأقطار.

وكانت العقيدة الرَّسميَّةُ عِنْدَ قُدَماء المصريّين تَعْتَمِدُ علىٰ أُسْطُورَة عَرِيقةٍ في القِدَم بالنسبة إليهم، وهذه الأسطورة الخرافية تزعم أن إله الإنباتِ والخصُوبَة، أو إله النّيل، واسْمُهُ: «أُوزِيرِيس» قد عَمِلَ على تأسيس مملكةٍ إلَهِيَّة، مِنْهُ ومن زَوْجَتِه الَّتي هي أخْتُه، إلَهَةِ الحِكْمَةِ والتَّشرِيع والسِّحْر، واسْمُها: «إيزِيس» ومِنْ وزِيرِهِ إلَهِ التَّدْبِير والْعِلْم، واسْمُه: «تُوت» ومِنْ غَيْرِهم مِنَ الآلِهَة.

ثمّ ظهر أَخُو «أُوزِيرِيس» إلَهاً للشّرّ والْقَحْط، واسمه: «سِيت» وقام بين الأَخَوَيْن الصِّرَاعُ، وَقَتَلَ إلهُ الشَّرِّ والْقَحْط أخاه «أُوزِيرِيس» ثمّ قام الصِّراعُ بيْنَ الْعَمِّ وابْنِ أخيهِ الإله: «هُورُوس» وصار الإلهُ بعْدَ ذَلِكَ ثالُوثاً من الأَبِ والأُمِّ والابْن.

ثمّ نَشَأَتْ لَدَيْهم عقيدةُ أنّ رُوح الإله: «هُورُوس» ذَاتُ ثلاثِ شُعَب:

- شعبةٍ دُنيا تَحُلُّ في فِرْعَوْنِ الزَّمَان.

- وشُعْبَةٍ عُلْيَا تَحكُمُ في السَّماواتِ والأرض.
- وشُعْبَةٍ تَبْقَىٰ في جَسَدِ فِرْعَوْن الميّتِ، وتَقُومُ بالنُّصْحِ لِفَرْعَوْنَ الحيّ، ولا تَبْقَىٰ هٰذِهِ الشُّعْبَةُ في فرعون الميّت إلاَّ إذا بقي جِسْمُهُ مُتَماسِكاً.

ثمّ صار فِرْعَوْنُ في عقيدتِهِمْ تَحِلُّ فيه رُوحُ «رَعْ» وهو كبيرُ الآلِهَةِ، ثُمَّ تَحوَّلَتِ العقيدة عندَهم مِنْ إلهٍ مُثَلَّثٍ، إلى إلهٍ ذي تِسْعِ عَناصر، وهي: (الشمس ـ الهواء ـ الماء ـ الفراغ ـ الأرْض ـ السَّمَاء ـ الأرض الخصبة ـ الصحراء ـ الأرض القاحِلَة).

وقَدَّسُوا مجموعةً من الحيوانات في خُرافَاتٍ مختلفات.

وكانت «الطواطم» شائعةً لدى قبائلهم ومُدُنِهم، وهي في بداياتها شعاراتُ جماعاتهم، ثمَّ صارَتْ بَعْدَ أزمانٍ مُقَدَّسَةً لديهم.

ويظهر أنّ فرعون موسى كَانَ في مرحلَةِ اعتقاد المصريين حُلُولَ رُوحِ الإلّه الأَعْلَىٰ، أو الرَّبّ الأَعْلَىٰ في سلالَةِ الفراعِنَة، ولهذا قال لَمَلئِهِ كَمَا جاء في سُورَة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى... ﴿٣٨﴾﴾.

وقال كما جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بَعْدَ أَنْ حَشَرَ جماهير المصريين:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

علم موسَىٰ وهارونُ عليهما السّلام وبَنُوا إسْرائيل بالْأَمْرِ الفِرْعَوْني، الّذي صَدَرَ بقتل المواليد الذكور للّذِين آمَنُوا مَعَ مُوسَىٰ منهم، وباتّخاذِ سياسة الْقَهْرِ ضدّ كُلّ مَنْ يَتحرَّكُ منهم لِنَشْرِ دِين الله الّذي جاء بِهِ موسَىٰ في مِصْر، وعظُمَ هذا الأمْرُ على مَنْ آمن معه من بني إسرائيل، فوجَّهَ لهم مُوسىٰ عليه السَّلامُ وصيَّتَيْن، ومَقُولَتَيْنِ أبانَ لهم بِهِما سُنَّتَيْنِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ عزّ وجلّ في عباده:

- **أمّا الوصِيّتان فهما:**

الوصيّة الأولى: دَلَّ عليها: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾.

أي: اطلُبُوا الْعَوْنَ مِنَ اللَّهِ رَبّكُمْ في كلّ أُمُورِكم، سواءٌ ما كان منها لصَرْفِ أذَىٰ عَدُوّكُمْ عَنكُمْ، أمْ مَا كان مِنْها لجلْبِ المنافع لَكُمْ في دنياكم وفي آخِرَتِكم، فاللَّهُ عزَّ وجلّ هو الممدُّ بالقوى المسخَّرَةِ لعباده، ما كانَ منها داخِلَ أَجْسَادِهِمْ ونُفُوسِهِمْ وأفْكَارِهِمْ وقلوبهم، وما كان مِنْها خارجَ أجْسَادِهِمْ، فإذا شاء اللَّهُ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ زادَ في عطاءاتِ الإمْدَادِ، وَإذا شاءَ نَقَصَ مِنْها، وإذَا شَاءَ سَلَبها.

وقد تَعَلَّمَ النَّاسُ الآنَ من قانُونِ الطَّاقَةِ الكهربَائِيَّة، أَنَّ بالإمكان إقافَهَا عَنْ مجاريها في الأسلاك، فَتَقِفُ كلُّ حَرَكَةٍ للأجهزَةِ الّتِي تَعْملُ بها، ويُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هٰذا بِصُورَةٍ تَقْرِيبيَّةٍ كَيْفَ يُمِدُّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ كلَّ ذِي طَاقَةٍ في الوجود بالطَّاقَةِ، وللَّهِ الْمَثَلُ الأعْلَىٰ.

والاستعانةُ باللَّهِ من التعبيرات الإيمانيَّة العظمىٰ، الّتي تَسْتَدِرّ نَفَحاتِ عطْفِ اللَّهِ وحَنَانِهِ ورَحْمَتِه، وإمْدَاداتِ عَطاءاتِهِ الفيضيَّة.

الوصيّة الثانية: دَلَّ عليها: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾.

لقد أَمَرَ مُوسَىٰ عليه السلام مَنْ آمَنَ معه من قومه الإسرائيليّين، بأنْ يَصْبِرُوا، لأنَّ الصَّبْرَ مع الإيمان بالله والثّقة بِهِ، مفتاح الفرج، وعُدَّةُ النصر،

وقاعِدَةُ التوفيق في الأعمال، ومَرْكَبَةُ الظَّفرِ بالغايَات، والوصُولِ إلىٰ بَعِيدِ الآمَال.

ولا حيلَةَ عِنْد الشدائد إلاَّ الصَّبْر، واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين، يَتَوَلأَّهُمْ ويَرْعَاهم، ويُؤَيِّدُهُمْ بِعَوْنِهِ وَتَوفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ وَنَصْرِهِ.

والصَّبْرُ أَحَدُ مَجالَي الامتحانِ في الحياة الدُّنيا، أَمَّا المجالُ الآخَرُ فَهُوَ الشُّكْر. وبَيْنَ الصَّبْرِ والشُّكْرِ تُبْتَلَىٰ النَّفْسُ الإنسانيّة، فَتَدُورُ عَلَىٰ مِحْوَرَيهما دَواليبُ الامْتِحَان وَدَوَائِرهُ المختلفة، والمتحركة مع مَسِيرَةِ الزَّمَن.

● **وأَمَّا السُّنَّتَانِ الرَّبَّانِيَّتَانِ فهما:**

السُّنَّةُ الأولى: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾:

أي: إنَّ الأَرْضَ كُلَّها هِيَ مِلْكٌ لِلَّهِ رَبِّها الَّذِي خَلَقَها، فالأَقَالِيمُ والبلْدَانُ، والقِطَعُ مِنْهَا كَبُرَتْ أَمْ صَغُرَتْ هِيَ مِلْكٌ لَهُ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ يَهَبُهَا مَنْ يشاءُ من عباده، لِيَمْتَحِنَهُمْ بامْتِلاكِها امْتِلاكاً مُؤَقَّتاً صُورِيًا، أَوْ بالتَّسَلُّطِ عليها، فإذا أَفْسَدُوا فيها وانْتَهَىٰ دَوْرُ امتحانِهم بمَا وَهَبَهُمْ مِنْها، نَزَعَها مِنْهُمْ، أَوْ نَزَعَهُمْ مِنْها، وجَعَلَها مِنْ بَعْدِهِمْ ميراثاً مِنْ فَضْلِه لآخَرِينَ مِنْ عباده، لِيَبْلُوَهُمْ بِها أَيْضاً.

وأَلْمَحَ مُوسَىٰ عليه السّلام بعبارتِهِ هٰذِهِ إلىٰ أَنَّ فرعَوْنَ وَآلَهُ ومَلأَهُ وجُنُودَهُمْ قَدْ طَغَوْا في أَرْضِ مِصْرَ وَبَغَوْا، وآذَنَتْ أَيَّامُ امْتِلاكِهِمْ لأرض مصْرَ بالزَّوال، بمقتضىٰ سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، وأَشْرَفَتْ دَوْلَتُهُمْ على الانهيار، فإذا ضَرَبَهُم بسَوْطِ عذابه جعَلَ أَرْض مِصْرَ مِنْ فَضْلِه ميراثاً لمنْ يَشَاءُ من عِبادِه من بَعْدِهِمْ.

السُّنَّةُ الثانية: دلَّ عليها: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

أي: وَإذَا قامَ صراعٌ بيْنَ فَرِيقَيْنِ من الناس، أَوْ بَغَىٰ جبَّارُونَ ظالِمُونَ علىٰ مُسْتَضْعَفِينَ في الأرْضِ، فالعاقِبَةُ في آخِرِ مُدَّةِ امْتِحَانِ اللَّهِ لِلْفَرِيقَيْنِ، سَتَكُونُ بمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبادِهِ للمتقين، أي: لمصْلَحَةِ المتقين ونَصْرِهِمْ علَىٰ عَدُوِّهِمْ، فَهِيَ إذاً لاَ تَكونُ إلاَّ خيراً للمتقين.

المتَّقُون: هُمُ المؤمِنُونَ باللَّهِ وبِرُسُله، والمسْلِمُون له، المجتَهِدُونَ في العمل بأحكام دين اللَّهِ لعباده، الَّذِينَ يُؤَدُّونَ مَا فَرَضَ اللَّهُ عليهم، ويَنْتَهُونَ عمَّا نَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْه.

وللتقوىٰ دَرَجاتٌ أعْلاَها فِعْلُ كُلِّ ما أَمَرَ اللَّهُ بفِعْلِهِ، وتَرْكُ كلِّ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عن فعله. وادْنَاها الْقِيَامُ بما يقي من الخلُودِ في عَذَابِ النار.

ولكِنَّ العاقبة الحسنة في الدنيا تكُونُ للمرتَقِينَ في دَرَجات مرتَبَةِ التقوىٰ إرتقاءً يُقَرِّبُهُمْ من الدَّرَجَةِ العلْيَا فيها، مع الاستغفار عن التقصيرات والمخالفات، والعزم على الالْتِزَامِ بكلِّ حقوق مرتبة التقوىٰ.

بعد هذا البيان الذي قَدَّمه مُوسَىٰ عليه السلام لِقَوْمِهِ الَّذِين آمَنُوا، قَالُوا له كما جاء في قول الله تعالى:

- ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾

من بديع الاختيار في بدائل الكلمات المترادفات، أن العبارة هُنَا جيء فيها: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ لا «ومِنْ بَعْدِما أتَيْتَنا» فالمجيء والاتيان مترادفان، لكن التنويع هنا في البدائل أعْذَب في السَّمْع وألْيَنُ في النطق.

أي: آذانَا فِرْعَوْنُ ودَوْلَتُه وقَوْمُهُ من القبط من قَبْلِ أَنْ تأتِينا نبيًا رسُولاً، فكانوا في مُدَّةٍ من الزّمنِ يُذَبِّحُونَ أبناءنا من المواليد، ويُبْقُون مولوداتنا من البنات فلا يقتلونَهُنَّ، وكانوا يضطّهِدوننا، ويكلّفوننا الأعمال الشّاقة، ويعْتَبِرُونَنا بمثابَةِ العبيد لهم. وما زالُوا بَعْدَ ما جئْتَنَا يُؤْذُونَنا، فقد صَدَر القرار الْفِرْعَونيُّ بِتَقْتيل الذكور من مواليدنا، إضافة إلى إيذائهم لنَا بالتسخير والاضطهاد.

وتتضمَّنُ هٰذه الشكْوىٰ حَثَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام على سُؤَالِ رَبّه أنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ ما هم يُعانونه من الأذى، وهذا المعنى يُفْهَمُ من لازِمِ عبارة الشَّكْوى.

الأذى: نَوْعٌ من الضَّرَرِ لا يَصِلُ إلى الدَّرَكَاتِ السُّفْلَىٰ منه.

فأجابهم موسى عليه السلام بما يُطْمِعُهم بأنَّ الْمَرْجُوَّ أنْ يَتَفضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهم بتحقيق أمْرَين:

الأمر الأول: أن يُهْلِكَ عَدُوَّهُمْ.

الأمْرُ الثاني: أن يجْعَلَهُم خُلَفَاءَ في الأرض لقَوْمٍ هُمُ الآنَ أهْلُ الْمُلْكِ والسُّلْطَانِ فيها.

وأطْلَقَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ لفظ الأرض، ولَمْ يُعَيِّن أَرْضَ مِصْرَ، لأنّ الْخُطَّةَ تقضي بأنْ يَخْرُجَ بهم من مِصْر، ويَدخلُوا فِلَسطِينَ مقَاتِلِينَ، ليَجْعَلَهُمُ الله فيها خُلَفَاءَ مُلُوكها القائمين، ويُؤَسِّسُوا فيها الدَّوْلة الدّينيَّة الرَّبَّانِيَّة، فهي الأرض الَّتي جعَلَها اللَّهُ مُقَدَّسة، ووعَدَ عبادَهُ المؤمنين الصَّادِقِين المتَّقِين أنْ تكُونَ لهم، ما دامُوا متحقّقينَ بشُرُوط الاستخلاف فيها، فإذا أَخَلُّوا بِشُرُوطِ الاستِخْلاَفِ نَزَعَهَا مِنهم، فقال لهم كما جاء في النَّصّ:

- ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أطمعهم موسىٰ عليه السّلام، وفتح لهم باب الرَّجاء دون جزمٍ منْهُ، بتحقُّق الأمْرين الآنِفَي الذِّكر.

[عَسَىٰ] فعل غير مُتَصَرّف، معناه المقارَبَةُ على سبيل الترجّيّ والتوقُّع دون جزمٍ ولا قطع.

أي: أَرْجُو متوقّعاً أَنْ يُهْلِكَ رَبُّكُمْ عَدُوَّكم فِرْعَوْنَ وآله وملأَهُ وجُنُودَهُ الكافِرِينَ، ويُخلِّصَ أرض مِصْرَ من ظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ وطُغْيَانِهِم، ويَجْعَلَها مِنْ بَعْدِهِمْ مِيراثاً لِقَوْمٍ آخَرِينَ.

ولم يجزم عليه السلام لقومه بهذا المرجوّ، مع احتِمالِ أَنْ يكُونَ لدَيْهِ عِلْمٌ من اللّهِ عزّ وجل به، لئلاً يَتَّكِلُوا، وتَفْسُدَ نُفُوسُهُمْ، ويَتَصرَّفُوا تَصرُّفَاتٍ هَوْجاءَ حمقاء، ولِيَسْتَمِرُّوا في دائرة الابتلاَءِ بما يَكْرَهُون طَوال مُدَّةِ إمْهَالِ اللّهِ لِعَدُوّهم.

وأرْجُو متوقّعاً أَنْ يَسْتخِلفَكُمُ اللّهُ جلّ جلاله في الأرض، فيجعلَكُمْ في بَعْضِ الأَرْضِ خُلَفَاءَ الذين هُمُ الآنَ فيها أَهْلُ المُلْكِ والسُّلْطان. ويتحقَّقُ هذا بأَنْ يجْعَلَهُمْ خُلَفَاءَ في الأرض الَّتِي كان قد وعَدَ بِهَا جَدَّهم إبراهيم عليه السلام وهي الأرضُ المقدَّسَةُ فِي فِلِسطين، وعلى هذا فالألف واللاّم في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لِلْعَهْد.

ولَكِنْ لاَ يَسْتَخلِفُكُمْ فِيها لمُجَرَّدِ تَكْرِيمكُمْ بِأَنْ يَمْنَحكُمْ إِيَّاهَا لكَوْنِكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيم الخليل، إنَّما يَسْتَخْلِفُكُمْ فيها ليَبْلُوكُمْ في هٰذا الاستخلاف ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيُحَاسِبَكُمْ بِحَسَبِ أعْمَالِكُمْ.

أَتُقِيمُونَ دِينَ اللّهِ كَمَا أَمَرَ؟ أم تُفْسِدُونَ في الأرض، وتَبْغُونَ فيها بغَيْر الحقّ، وتُكَرِّرُونَ سُنَنَ الْأُمَمِ الظَّالِمَةِ الباغِيةِ من قبلِكُمْ، فإذا فَعَلْتُمْ ذٰلِكَ نَزَعَ اللّهُ مِنْكُمْ الاستخلاَفَ، وجَعَلَ الْأَرْضَ ميراثاً لِقَوْمٍ آخَرِينَ، تحقيقاً لسُنَّتِهِ فِي عِبادِهِ في حياة الابتلاء.

* * *

قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن

مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

بعْد إصْدارِ فرعَونَ قرارَه باضطهاد الإسرائيليّن، الذين يُؤمِنُون بموسَىٰ وبما جاء به عن رَبّه، وبقَتْلِ مواليدهم الذكور، حتَّىٰ لا يَكْثُرَ رِجالُهُمُ المقاتلون، قضَتْ حكمةُ الله جَلَّتْ قُدرتُهُ وعظُمَ سلطانُه، بأنْ يأْخُذَ آلَ فِرْعَوْنَ بالبأْسَاء والضَّرَّاء، وفْقَ سُنَّتِهِ في معامَلَةِ أهْلِ الْقُرَىٰ الّذِين يُكَذّبُون رُسُلَ رَبّهم، ويكذِّبُونَ بما جَاءُوهم به عن الله مِنْ آياتٍ إعْجَازِيَّة ذواتِ دَلاَلاَتٍ برهانيّة، وآيات مُنَزّلاَت فيها شرائع الله وَبَيَانُ مِنْهَاجِه لعِبَادِه.

ومِنْ تَطْبِيقات هٰذ السُّنَّة ما أبانه اللَّهُ عزّ وجلّ بقوله:

- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أي: ولَقَدْ قبضْنَا عَلَىٰ آلِ فِرْعَوْنَ قَبْضَةً مُوجِعَةً بالسّنين الّتي أنْزَلْنَاهَا بِهِم، وهي سَنَواتُ القَحْط والجدْبِ، ليَتَذَكّرُوا سُنَّتَنَا في عبادِنَا، فيتَضَرَّعُوا وَيَسْتَغْفِرُوا ويُراجِعُوا أنْفُسَهُمْ، فيتوبُوا إلَىٰ بَارِئهم مُؤْمِنين به وبرسوله وَبآياته.

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: يُقَالُ لُغةً: أصابت القومَ السَّنَة، أي: سَنَةُ الْقَحْط والْجَدْبِ في الزّراعَاتِ الأرْضِيَّةِ السَّنَوِيَّةِ، ودَلَّ الجمْعُ على أنَّ مَصَائِبَ الْقَحْط والْجَدْبِ في الزّراعَاتِ الأرْضِيَّة قَدْ نَزَلَتْ بهم عِدَّة سِنِن.

ولمَّا كَانَ آلُ فِرْعَوْنَ هُمْ مُلاَّكَ معظم الأراضي الزراعية في مِصْرَ كانُوا أعظم المتضرّرِين بسَنَواتِ القحط الّتي أنْزَلَها اللّهُ في أَرْضِ مِصْر آنَئِذٍ.

- ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: أي: ونقصٍ من ثَمراتِ الأشجار المزروعَةِ فِي الجنّاتِ والحدائق والبَسَاتِينِ الّتِي يَمْلِكُهَا فِرْعَوْنُ وآلُه.

- ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي: لأجل أَنْ نُهَيِّىء لهم ما يكُونُ باعِثاً لَهُمْ ليَتَذَكُّرُوا إنْ شَاءُوا أَنْ يَتذَكّرُوا، مع رَغْبَتِنا في أَنْ يَتَذَكَّرُوا، والمرادُ من

التذكُّر لازِمُهُ الفِكْرِيّ، وهو الاستجابَةُ للمذكِّرَاتِ، والْعَمَلُ بِمُقْتَضَاها.

ولَكِنْ هَلْ أفادهمْ هٰذا المذكِّر، فردّ فِرْعَوْنَ وآلَهُ عن غَيِّهِمْ، وجَعَلَهُمْ يُؤْمِنُونَ بموسَىٰ وبما جاء به عَنْ رَبّه؟

دَلَّ النَّصُّ علىٰ أَنَّ مَوْقِفَهُمْ كَانَ كَمَا يلي:

- ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾:

أي: فإذَا جَاءَتِ الْبِلاَدَ المصْرِيَّةَ الْعَطَايا الرَّبَّانِيَّة الحَسَنَةُ، من النِّعَم والخيرات والخصْبِ والأرْزاقِ وإقبالٍ من الدنيا لامتحانهم بها، قالُوا: هٰذِه لَنَا، جاءَتْ مِنْ أجْلِ إكرامِنَا من آلِهَتِنا، إذْ نَحْنُ أَهْلُهَا ومُسْتَحِقُّوها، لأنَّنَا مُسْتَمْسِكُونَ بعقَائِدنا فيها، وَقرابيننا لها.

وإنْ تُصِبْهُمْ ولو نادراً نَوازِل رَبَّانِيَّةٌ سيِّئَةٌ، مِنْ شأنِها أَنْ تُذكِّرَهُمْ بِرَبِهِمْ وبواجباتهم تُجاهه، كَجَدْبٍ وقَحْطٍ وأمْراضٍ، ونحوها، قالوا: لسْنَا المقصُودين بها، إنَّما المقْصُودُ بها مُوسَىٰ ومَنْ معه، فيطَّيَّرُونَ بِمُوسَىٰ وبِمَنْ مَعَهُ من مؤمني بني إسرائيل. ويُرَوّجُونَ في جماهير الشَّعْب المصريّ أَنَّ هٰذِهِ النوازِلَ السَّيِّئَةَ إنَّما جاءَتْ بسَبَب موسَىٰ ومن معه ودعوتهم الدينيَّة، فهم المقصُودون بِها أساساً وإنْ جَاءَتْ عامَّة.

أي: إنَّ شُؤم دعْوَة موسى وهارون، وشُؤم أعْمال الذين آمَنُوا معهما من بني إسرائيل، هُو الذي جلَبَ هٰذه السَّيِّئة، إذْ أغْضَبَتْ آلِهةَ آل فرعون، فأنزلَتْ بهم هٰذِهِ النَّوازِلَ السَّيِّئَةَ العامّة.

لَقَدْ عَكَسُوا عَنْ قَصْدِ دلالَةَ المذكِّرَات الرَّبَّانِيَّة، فجَعَلُوا مَا يجيئُهُمْ من حَسَنَات، إنَّما كان بفضل رضىٰ آلهتهم عنهم، وجَعَلُوا ما يَنْزِل بهم من نَوازِلَ سيِّئاتٍ، إنَّما كان بسَبَب سَخطِ آلهتهم على موسَىٰ ومن معه، ودعوتهم المخالفة لعقائد آل فِرْعَوْن.

ومثْلُ هٰذِهِ التعليلات الَّتي تُقْلَبُ بها حقائقُ الأُمُورِ، تُوجَدُ دواماً لدَىٰ الكافِرِينَ والفاسقين في كُلِّ أُمَّة، ليُبْعِدُوا عَنْ أَنفُسِهِمْ تَصوُّرَ أَنَّهم هُمُ السَّبَبُ فيما يُنْزِلُ اللَّهُ من سيِّئاتٍ يكْرَهُونها.

﴿يَطَّيَّرُواْ﴾: أي: يَتَطَيَّرُوا، أدْغِمَتِ التَّاءُ بالطّاء فصَارَتَا طَاءً مشَدَّدَة.

التَّطَيُّرُ بالشيء: هو التَّشاؤُم منه، على تصَوُّرِ أنَّه بسَبَبِ شُؤْمِهِ وسُوئِه نَزَلَتِ السَّيِّئَةُ المكْرُوهُ نُزُولُها.

ويُسْتَعْمَلُ التَّطَيُّرُ أَيْضاً في التفاؤل، ولكنَّهُ مستَعْمَلٌ في النصّ هنا بمَعْنَىٰ التَّشاؤم.

وجاء التعقيبُ الرَّبَّانيُّ على تَطَيُّرِهِمْ، بموسَىٰ وَمَنْ معه، بقول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾: للتَّنْبيه. ﴿إِنَّمَا﴾: أَداةُ حَصْرٍ، معناها النفي والاسْتِثْناء.

﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾: أي: عَمَلُهُمْ الَّذِي إذا عَمِلُوهُ انْطَلَقَ طائِراً فلم يَسْتَطيعوا رَدّه، وإذا طار كان عند الله علماً وتسجيلاً وحِسَاباً، فاللَّهُ هو الذي يحاسِبُ عليه ويجازي. أمّا آلِهَةُ المشركين فلا تَدْرِي عن أعمال الناس شيئاً.

وكُلُّ طائِرِ عَمَلٍ من أعمالِ الإنسان مرتَبِطٌ بعُنُقِهِ لمحاسبته ومجازاته عليه. وخُصَّ العنق لأنَّ المرتَهَنَ بحقٍّ كان يُغَلُّ عُنُقُهُ بغُلٍّ ويُقادُ بِهِ، حتَّىٰ يُؤَدِّيَهُ أو يُجَازَىٰ عَلَيْه.

أي: فَما نزل بهم هو من إجراءات الله فيهم رَغبةً في أن يَتَضَرَّعُوا له، ويَتَذَكَّرُوا سنَّتَهُ في عبادِه، ويَتَّعِظُوا بها، فيَتُوبوا من شركهم وكُفْرِهم، ويُؤْمِنُوا برُسُلِ ربّهم، ويَتَّبِعُوا آيات اللَّهِ المنزَّلاَتِ إليهم.

ومن قبْلِ هؤلاء تَطَيَّرَتْ ثَمُودُ بِرَسُولهم صالح عليه السَّلام، وبِمَنْ مَعَهُ

من الَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، فكَان بينهم وبَيْنَهُ الحوار الذي جاء بيانُه في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بقول الله تعالى فيها:

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: لَيْسَ أمر مَا نَزَلَ بكُمْ من بأساءَ وضرّاء من شُؤْمِنَا وشُؤْم دَعْوَتنا، بل هو بسبب أعْمَالِكُمْ وكُفْرِكم وشِرْكِكُمْ وتكْذِيبكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ وعَدَمِ اتباع آيات الله المنزّلاتِ إليكم.

لكِنَّكُمْ عَكَسْتُمْ دَلاَلَتَها، وجَعَلْتُموها على غَيْرِ وجْهِها تَزْيفاً وتَزْويراً، فزعَمْتُم رَسُولَكُمْ ومن آمن به واتَّبَعَهُ وسَارَ مَعَهُ مَسِيرَتَهُ الإيمانيَّة الإسلاميّة، سبَباً في نزول ما نزل بكم من بأساء وضرّاء، وزعَمْتُمْ أنَّ آلِهَتَكُمْ التّي لَيْسَ لَهَا تَأْثِيرٌ في شيءٍ، قد غَضِبَتْ من دعْوَةِ رَسُولِكُمْ فأنزَلَتْ ما نَزَلَ بكُمْ ممَّا تَكْرَهُونَ، مع أنَّ أعمالَكُمْ هي في الحقيقة سَبَبُها، لأنَّهَا عِنْدَ اللَّهِ علماً وتَسْجِيلاً وحِساباً.

وكرَّر هذا التَّشَاؤمَ من بَعْدِ عَصْرِ فِرْعَوْنَ وحاشيته المجرمين، أصحابُ الْقَرْيَة التي أرْسَلَ اللَّه لها رُسُلاً ثَلاثَةً (وذُكِرَ أَنَّها أنْطَاكية) إذْ قالوا لِرُسُلِهِم ما جاء بيانُهُ في سورَةِ (يسۤ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: عَمَلُكُمُ الَّذِي سَبَّبَ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ما أَنْزَلَ بِكُمْ هو معَكُمْ مُلازِمٌ لَكُمْ.

وقد دلَّ علىٰ ملازَمَةِ عَمَلِ الإنْسَان له قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

أَمَّا قول الله عزّ وجلّ بِشَأْن فِرْعَوْنَ وآلِهِ وأتْبَاعِهِم: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإنَّهُ يَدُلُّ على أن القَلِيلِينَ مِنهُمْ يَعْلَمُونَ بأنّ مَا نَزَل بهم ممّا يَكْرَهُونَ مِنْ سَيِّئَةٍ، هو بسبب أعمالهم الإجراميَّةِ الَّتي يُعَانِدُونَ بها الحقَّ الَّذي جاء به مُوسَىٰ وهارون عليهما السَّلام، إلاّ أَنَّهُمْ يكابِرُون، ويُحَاوِلُون بالتضليل وتزيينِ الأقْوَالِ الدِّعَائِيَّة تغطِيَةَ الحقّ على جماهيرهم، وهؤلاء الجماهير يُقَلِّدُونهم بتأثير ثِقَتِهِم السَّابقةِ بِهِم، ويُسَلِّمُون لهم ما يَقُولون ثُمَّ يُرَدِّدُونَ أقوالهم تَرْدِيداً ببغاويًا، فلا ينفردون عنهم بقول يعلنونه، ولا يخالفونهم في رأي.

وهؤلاء القليلون هُمُ الملأ من حول فرعون وأهل مشورته الّذين إذا قالوا قولاً تبعهم فيه الجماهير فقالُوا مِثْلَ مقالتهم، ولا بُدّ أن يكون هؤلاء هُمُ الَّذِينَ وجّهُوا لموسَىٰ عليه السَّلاَمُ المقولَة الَّتي دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في الآية التَّالِية من سورة (الأعراف):

- ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

هذه المقولة منهم لموسَىٰ، تَدُلُّ على اعْترافِهِمْ بأنَّ الأحْدَاثَ الَّتي تَجْرِي في مصر، هي من الآيات الّتي يُؤَيّدُ اللَّهُ بها رَسُولَهُ مُوسَىٰ عليه السلام، وعلى أنّهم لا يَسْتَطِيعُون معارضَتَها أوْ إيقافها، مَا لَمْ يَرْجعوا إليه ويَطْلُبُوا مِنْهُ أَنْ يَرْفَعَها إلَٰهُهُ عنهم.

وتَدُلُّ أيضاً على أنّهم مسْتيْقِنُون في أنْفُسِهِم أنّها آيات بيِّنَاتٌ كَافِيَاتٌ لأنْ يُؤْمِنُوا بمُوسَىٰ نبيًا ورسُولاً، ولأنْ يُسْلِمُوا لِلَّهِ ويَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إليهم مِنْ رَبّهم، إلاَّ أنَّهُمْ أظْهَرُوا تَعَنُّتَهُمْ، واعتبروا الآيَاتِ مَظَاهِرَ لأعْمَالِهِ السِّحْرِيَّة، فقالوا له:

مَهمَا تَأْتِنَا به من آيَةٍ مَهما بَلَغَتْ في دَلاَلَتِها الْبُرْهَانِيَّة فَنَحْنُ لا نَعْتَبِرُهَا إلاّ عَمَلاً سِحْرِيًّا، وما نَحْنُ بمُؤْمِنِينَ بِكَ، وَلاَ بِمُسْلِمِينَ لَكَ.

وأرادوا بهذا أَنْ يَتَوَقَّفَ عن إجراء الآيات، إِذْ لَنْ تَكُونَ لها فائدةٌ في إيمانهم ولاَ في إسلامهم.

لكنَّهُ لم يَنْتَهِ دَوْر إمْهالِهِمْ، ومَا زَالَتْ لَدَىٰ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ آياتٌ لم يُجْرِها اللَّهُ له.

فقال الله عزّ وجلّ:

● ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: الإِرْسَالُ التوجيه لأداء مُهِمَّةٍ ما بِتُؤَدَةٍ وأناةٍ وحِكْمَة، وفيه معنى توجيه الأحداث المرْسَلَةِ حدَثاً بَعْدَ حَدَثٍ مع فواصل زمنية، كَتَوْجِيه القطعان من الإبل أو الْغَنَم قطيعاً فقطيعاً أَوْ ثُمَّ قَطِيعاً.

﴿ءَايَٰتٍ﴾: أي: عَلاماتٍ كُبْرَيات ذَوات دَلاَلاتٍ مُذَكِّراتٍ بِسُنَّةِ الله في عباده المذنبين، ومُذَكِّرَاتٍ بسُلْطَانِ الْبَارِىء العظيم الَّذي إذا شاء أن يَسْتَأْصِلَهُمْ أهلكهم بصيحَةٍ واحدة، إذْ هي من أحداثِ البأسَاء والضّراء لِيَتَضَرَّعُوا.

﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾: أي: مبيَّنات، ومُتَتَابِعَاتٍ مع فواصل زمَنيَّةٍ بَيْنَ كُلّ آيَةٍ وبَيْنَ الَّتي قبلَها وبَيْنَ الَّتي بَعْدها.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: أي: فاشتَدَّ في نفوسهم الكِبْرُ، فعانَدُوا دَلاَلاَتِ آياتِ اللَّهِ المذكِّرَاتِ، فَلَمْ يَتَضَرَّعُوا لِلَّهِ ولم يَتُوبُوا مِنْ كُفْرِهِمْ، ولَمْ يُؤْمِنُوا برسُولِ رَبّهم، وكَبُرَ في نُفُوسِهِمْ أَنْ يُسْلِمُوا له، ويَتَّبِعُوا ما جاءهم به عن الله.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: وكانُوا في تَصَرُّفاتِهِمُ النفسيَّةِ والسُّلُوكِيَّةِ قَوْماً عُصَاة من أخَسِّ الدَّرَكَاتِ، طَوال مُدَّة ابتلائهم بأنواعٍ من البأسَاءِ والضّراء.

المجرم: في اللّغة هو المتعدّي بِذَنْبٍ كبير، واستُعْمِل لفظ «المجرمين» في القرآن وصْفاً لمستَحِقّي الخلُودِ في عذاب النار يوم الدين.

لقد كانوا في كلّ واحِدَةٍ من الآيَاتِ الّتي أرسلها الله إليهم يُعْطُونَ الْعَهْدَ لموسَىٰ عليه السّلامُ، لَئِنْ دَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنهُمْ ما أَنْزَلَ بِهِم لَيُؤْمِنُنَّ به، فإذَا دَعَا مُوسَىٰ رَبَّهُ حسبَ طلبهم، مُحَدِّداً لَهُمْ الزَمَنَ الّذِي يَرْتَفِعُ فيه الضُّرُّ النازل بهم، واستجابَ الله له عادَتْ قلوبُهم إلى قَسْوَتِها، واسْتَكْبَروا ونَكَثُوا عَهْدَهُمْ.

شَرْحُ الآيَاتِ المفصَّلات:

آيَةُ الطُّوفان: هي آيَةٌ أغرَق اللّهُ عزّ وجلّ بها أَرْضَهُمْ، بحُقولها ومَزَارِعها، وجَنَّاتِها وبَسَاتِينها، بمياهٍ زائدة فَاضَتْ كثيراً عن حاجَةِ الزَرْعِ والضَّرْعِ فَأَتْلَفَتْ وأغْرَقَتْ وجَرَفَتْ.

الطُّوفان: اسم جنس جمعيّ، واحِدُه «طوفانة» وقيل هو مصدر. صيغتُه كصيغةِ الرُّجحان والنقصان.

وقد جاء لفظ الطوفان في القرآن مَرَّتين:

الأولى: مَا جاء في هذا النصّ من سورة (الأعراف).

والأخرى: ما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) في الآية (١٤) بشأن الطُّوفان الذي أغْرَق الله به قوم نوح.

«جاء عند اليهود في الإصحاح التاسع من سِفْر الخروج. أنّ الربّ قَال لموسىٰ مدَّ يَدَكَ نحو السّماءِ ليكون بَرَدٌ في كُلّ أرْضٍ مصْرَ على الناس والبهائم وعلَىٰ كلّ عُشب الحقل في أرْض مصر. فمدَّ مُوسَىٰ عصاه نحو السَّماء فأرْسَلَ الله رَعْداً شديداً متواصلاً، وبرقاً شَدِيداً، ونَاراً وصواعق، وأمْطَرَتِ السَّمَاءُ بَرَداً على أرْض مصر لم تَشْهَدْ مِصْرُ قبْلَ ذلِكَ مثله،

وضَرَبَ البَرِدُ الناسَ والبهائِمَ والزُّرُوعَ والأشجار في كُلِّ أَرْضِ مصر، باستثناء أرْضِ جَاسَانَ الَّتِي كانَ يُقِيمُ فيها بَنُو إسرائيل.

فَدَعَا فِرعَوْنُ موسىٰ وهارون إليه، وسَأَلَهُما أَنْ يُصَلِّيَا لرَبّهما وَيَدْعُواهُ لِيَرْفَعَ عنهم ما نزل بهم، ووعدهما أن يستجيب لطلبهما، وحَدَّد موسَىٰ لفِرْعَونَ مَوْعِدَ رَفْعِ مَا نَزَلَ بهم».

آيَةُ الجراد: هي آيَةٌ أنْذَرَ مُوسَىٰ عليه السّلام بها فِرْعَوْنَ وآله. فلم يَعْبَؤُوا بإنْذَارِه، فسَأَلَ مُوسَىٰ رَبَّهُ، فأرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهم جُنْدَهُ مِنَ الجراد المجلِّلِ المطْبِقِ، فكَانَ لا يَدَعُ شَيْئاً يَقْضِمُهُ بحنَكِهِ إلاَّ أكله.

«جاء عند اليهود في الإصحاح العاشر من سفر الخروج: أنَّ موسَىٰ مَدَّ عَصَاهُ على أرض مصر، فجلَبَ الرَّبُّ على الأرْضِ ريحاً شَرْقِيَّةً كُلَّ ذَلِكَ النَّهَارِ وكُلَّ اللَّيْل. ولمّا كان الصَّباحُ حَمَلَتِ الرِّيحُ الشرقيّة الجراد، فَصَعِدَ الجراد علىٰ كلّ أرْضِ مِصْرَ... وغطَّىٰ وَجْهَ كُلّ الأرض حتَّىٰ أظْلَمَتِ الأرْضُ، وَأكَلَ جَمِيعَ عُشْبِ الأرْضِ، وجَمِيعَ ثَمَرِ الشَّجَرِ.

فَدَعَا فِرْعَوْنُ موسَىٰ وهَارُونَ إلَيْهِ ـ وسألَهُما كما سَأَلَهُما في آية الطوفان، ووعَدَهما بأن يسْتجِيب لطَلَبِهما.

فدعا مُوسَىٰ رَبَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عن المصريين ما نَزَلَ بهم، فأرْسَلَ اللَّهُ ريحاً غَرْبِيَّةً شَدِيدَةً، فحملَتِ الجراد وطَرَحَتْهُ في بَحْرِ سُوف».

آيَةُ القُمّل: قيل: هو نَوعٌ من الحشرات تَأْكُلُ السَّنَابِلَ وهي غَضَّة، وهي ذاتُ رَائِحَةٍ خَبِيثَةٍ، وهي لا تأكُلُ أكْلَ الجراد، ولكن تمْتَصُّ مَا في الحبِّ مِنْ غذاء، فَتُذْهِبُ قُوَّتَهُ وخَيْرَه. وقيل: هو نوعٌ من الحشراتِ مِنْ جِنْسِ الْقِرْدَان، واحِدُهَا «قُرَادَة» واسْمُ الجنس «قُراد» وهٰذِهِ الحشَرَةُ مُتَطَفِّلَة، ذَاتُ أَرْجُلٍ كثيرةٍ تُدْخِلُهَا فِي جلْدِ الحيوان، ثمّ تمْتَصُّ مِنْ دَمِه، وهي أنواع.

«جاء عند اليهود في الاصْحَاح الثامِنِ من سِفْر الخروج، أنَّ اللَّهَ آتَىٰ مُوسَىٰ وهارونَ آيَة الْبَعُوض وآيَة الذُّباب، فأَقَضّ الْبَعُوضُ والذُّبابُ مضاجِعَ المصْرِيين، وجَرَىٰ بيْنَ فرعونَ وبين موسى وهارون نظير ما سبَقَ بيانه في آيتي الطوفان والجراد».

والقرآن ذكَرَ الْقُمَّل، ولعَلَّهُ يَشملُ كُلَّ الْحَشَرَاتِ المؤذِيات المتطفِّلاَتِ على الإنسان والحيوان، واللَّهُ أعلم.

آيَةُ الضَّفَادع: هي آيَةٌ أَنْذَرَ بِهَا مُوسَىٰ عليه السلام فِرْعَوْنَ وآلَه، مبيناً أنّ الضَّفادعَ الكثيرة جدًّا ستنغِّصُ عَلَيْهم وعَلَىٰ المصْرِيّين معيشتَهم، مُؤَكّداً دَعْوَتَهُ الإيمانية، ومطلَبَهُ بالسَّماحِ لبني إسرائيل بأن يَخْرُجُوا مَعَهُ إلَىٰ أرض غُرْبَتِهِمُ الأولى فِلِسْطين.

جاء عند اليهود في الإصحاح الثامن من سفر الخروج:

«فقال الرَّبُّ لموسىٰ قُلْ لهارُونَ مُدَّ يَدَكَ بِعَصَاكَ على الأَنْهَارِ والسَّواقي والآجام⁽¹⁾. وأصْعِدِ الضَّفَادِعَ على أَرْضِ مِصْرَ، فمَدَّ هَارُونُ يَدَهُ عَلَىٰ مِيَاهِ مِصْرَ، فَصَعِدَتِ الضَّفادِعُ وغَطَّتْ أَرْضَ مِصْر».

وجرَىٰ في هٰذه الآية نَظِيرُ مَا جَرَى في الآيَاتِ السابقات، ونَكَثَ فرعون وآله بعهودهم ووعودهم.

آية الدَّم: قيل: سلّط الله عليهم الرُّعَاف، وقيل: سال النيل عليهم دماً.

«وجاء عند اليهود في الاصحاح السابع من سفر الخروج: أنّ موسَىٰ توعَّدَ فرعَوْنَ بأن يضْربَ بعصَاهُ الماءَ فيتَحَولَ دَماً، ويموت السَّمَكَ الّذي في النّهر وَيُنْتِن، إذَا لَمْ يَسْتَجبِ لطَلَبه، فأبَىٰ فِرْعَوْن.

---

(١) **الآجام**: جمع أَجَمَة، وهي الشجر الكثير الملْتَفّ.

فأجرىٰ الله الآية لموسىٰ، فتحوَّلَ كُلُّ الماء الَّذي في النهر دماً، ومَاتَ السَّمَكُ فِيهِ، وأَنْتَنَ النَّهرُ، وكانَ الدَّمُ في كُلِّ أرض مِصْر، وحفَر المصريون حوالي النهر لأجْلِ ماءٍ لِيَشْرَبُوا».

وَاسْتَكْبَرُوا أنْ يُؤْمِنُوا بموسى وهارون ويسْتَجيبوا لطلبهما، وكانُوا قَوْماً مجرمين، على الرُّغْمِ مِنْ كُلّ الآيات السّابقات اللاَّتي ذكرهن الله عز وجل في الآية (١٣٣) من السورة، فَاسْتحقُّوا أنْ يُنْزِلَ اللّهِ بِهِمْ رِجْزاً أشَدَّ عَلَيْهم من كلّ ذلِك، دلَّ على هذا:

قولُ اللّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

[**الرِّجْزُ**]: العذاب. وأرَىٰ أنّه كان عذاباً أشَدَّ من الضَّرَّاءِ الَّتي نَزَلَتْ فيهم، بسبب الآيات الْخَمْسِ التي سبَقَ شَرْحها، فهو آيَةٌ سادسة أَشَدُّ ممّا وقَعَ عليهم قَبْلها.

- روي ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابْنِ عباس، قال:

«كُلُّ شَيْءٍ في كِتَاب اللّهِ من الرِّجز يَعْنِي بِهِ الْعَذَابَ».

أقول: ويمكن أن يكون هذا العذاب بأيِّ وسيلَة، كالطاعون، والْجُدَري وغيرهما.

- وروى مُسْلم وغَيْرُهُ مِنْ حديث أُسَامَةَ بن زَيْد، وسَعْدِ بن مالك، وخزيمة بن ثَابت، قالوا: قال رسُولُ الله ﷺ.

«إنَّ هَٰذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وبقيَّةُ عَذَابِ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾: يَقْتَضِي عَطْفُ هٰذِهِ الجملة بالواو تَأْسِيسَ بَيَانٍ جَدِيدٍ، غيرِ البيانِ الذي جاء في الآيَة السَّابِقَةِ، الَّتِي ذُكِرَتْ فِيها

الآيات الخمس، يُضَاف إلى هذا أنَّ الآيات الْخَمس (الطوفان والجراد والْقُمَّل والضَّفَادع والدَّم) قَدْ ذَكَرَ الله عزّ وجلّ بِشَأْنِها أَنَّهُ أَرْسَلَها. أي: وجَّهَها حَامِلَةَ رِسَالَةَ رَبَّانِيَّةَ إِنْذَارِيه، فَهِي تُؤَدِّي وَظَائِفَها بِتُؤَدَةٍ وَأَنَاةٍ وَتَمَهُّل.

أَمَّا الرِّجْزُ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ بِشَأْنه أنَّهُ وَقَعَ عَلَيْهِم، فهو بمَثَابَةِ عَصاً قَوِيَّةٍ غَلِيظَةٍ عِقَابِيَّةٍ وَتَأْدِيبِيَّةٍ، وقَعَتْ ضَرْباً على رؤوسِهِمْ وظُهُورِهِمْ والأَمْكِنَةِ الَّتي تَتأَلَّمُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، بِلاَ أَنَاةٍ وَلاَ تمهُّل.

وهَـٰذَا مَا أَلْجَأَ فِرْعَوْنَ وآلَهُ ومَلأَ قَوْمِهِ أَنْ يَلْجَؤُوا إلى مُوسَىٰ عليه السلام، يَرْجُونَهُ أَنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ لِيَكْشِفَ عنهم الرِّجز، وأَقْسَمُوا لَهُ وأَكَّدُوا له بِأَشَدِّ عباراتِ التأكيد، أَنَّهُ إذ كَشَفَ عنهم الرِّجْزَ بِدُعائه لِرَبِّه، أَنْ يُؤْمِنُوا به ويُسْلِمُوا، وَيأْذَنُوا لبني إسرائيل أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ من الدِّيار المصْرِيَّةِ مُتَوَجِّهِينَ إلى فِلِسْطِينَ مَكَانِ غُرْبَتِهِمْ الأُولى.

- ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ﴾: أي: بالدُّعَاءِ الّذِي عَلَّمَكَ إيَّاهُ رَبُّكَ، وأَوْصَاكَ بأَنْ تَدْعُوَ بِهِ عِنْدَ المِلمَّات، وخَصَّكَ بِهِ فَجَعَلَهُ عِنْدَكَ، إذَا دَعَوْتَهُ به أجابك.

يُقَالُ لُغَةً: عَهِدَ فُلاَنٌ إلى فُلاَنٍ بالأَمْر، أي: أوصَاهُ بحِفْظِهِ، **والْعَهْدُ**: كلّ ما بين الناس من مواثِيق، وكلُّ ما أمر الله به أو نهى عنه، والوصيَّةُ، والْمَوْثِقُ، واليَمين، والْوَفَاءُ، والْحِفَاظُ، ورِعايةُ الْحُرْمَة، والأمان.

فعبارة: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ﴾ نفهم منها من خلال المعاني اللّغويّة ما يلي: بِمَا عَهِدَ بِهِ إليكَ وأوصَاكَ بِهِ وجَعَلَهُ عِنْدَك.

وبما أَنَّ المطلوب أَنْ يَدْعُو لهم رَبَّه، فلا بُدَّ أن يكُونَ المرادُ بالذي عَهِدَ به إليه وأوصاه به، صيغَةَ دُعاءٍ خاصَّة، أو اسْماً من أسماء الله الحسْنَىٰ، أَوِ اسْمَ الله الأعظم، أو نَحْوَ ذَلِكَ، والله أعلم.

● ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾: أي: نُقْسِمُ لَكَ لَئِنْ أزَلْتَ عَنَّا بدُعائِكَ رَبَّكَ الْعَذَابَ الَّذِي وَقَعَ علينا. «اللاّم في ﴿لَئِن﴾ موطّئةٌ للقسم المحذوف والملاحظ ذهناً.

● ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾: أي: لَنُؤْمِنَنَ بِكَ وَلَنُسْلِمَنَّ لَكَ. ضُمِّنُ فِعْلِ: «نُؤمِن» معنى فِعْلِ «نُسْلِم» فعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، فَأَغْنَتِ الجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن. «اللاّم في ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم».

﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إذْ نَسْمَحُ لهم بالخروج مَعكَ إلى الأرض المقدّسة، وهذه الجملة معطوفة على جُمْلَة جواب القسم السابقة.

فَلَمَّا كَشَفَ الله عنهُمُ الرِّجزَ بِدُعاء مُوسَىٰ عليه السَّلام نَقَضُوا عَهْدَهم، وَنكثُوا أَيْمَانَهُمْ، فاسْتَحقُّوا بِحِكْمَةِ اللّهِ وَتَدْبِيراتِه الإهلاكَ الشّاملَ بالْغرق.

أصل الكَشْف رَفْعُ الغطاء الْمُجَلِّل عَن الشيء، ثم اسْتُعْمِل بمعنى الإزالة، مع ملاحظة أنّ الشيء المزَالَ قد كان من قبْلُ مُجَلِّلاً عامّاً، حسّيًا أو معْنَويًا.

قال اللّهُ تعالى:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾: أي: فَلَمّا أَزَلْنا عَنهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي أَوْقَعْنَاهُ عليهم، وقَضَيْنَا أنْ يَكُونَ رفْعُ العذاب عَنهُمْ مُحَدَّداً بأَجَلٍ قَدَّرْنَاهُ وَقَضَيْنَا به، فإذَا جَاءَ الأجَلُ واسْتَمَرُّوا علىٰ كُفْرِهِمْ وعِنَادِهم وطُغْيَانِهِمْ، فَلَنَا مَعَهُمْ أمْرٌ عِقَابِيٌّ آخر..

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾: أي: إذَا هُمْ يُفَاجِئُونَ بِمَا لاَ يُتَوَقَّعُ من أهل الرأي والْعَقْل، وهو نكْثُ عُهُودِهِمْ وأيمانهم الَّتي أقْسَمُوها، أيْ: نَقْضُهَا وعَدَمُ الْوَفاء بها.

بعد ذَلِكَ اسْتَحَقُّوا أنْ يُغْرِقَّهم الله إغْراقاً شاملاً، إذْ أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ مُوسَىٰ بأنْ يَخْرُجَ بني إسرائيل لَيلاً علىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه وجنُودهم من مِصْرَ، وَيتَّجِهَ بِهِمْ شَطْرَ سيناءَ.

فلَمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بأمْرِ خُرُوجهم قرّرَ اتّبَاعَهُمْ ومُقَاتَلَتَهُمْ، واستعادة من يَبْقَىٰ مِنْهُمْ أحياءَ أسْرَىٰ، فأرْسَلَ في المدائن مَنْ يحْشُرُ الجنود، لتكْوِينِ جَيْشٍ يُتَابعُ بني إسرائيل لِقِتَالهم، فسَار الجيش الفرعوني مُتَابعاً بني إسرائيل بقيادة موسى وهارون، فلما تراءَىٰ الْجمعانِ قَالَ أصْحَابُ مُوسَىٰ إنَّا لَمُدْرَكُونَ، فَطَمْأَنَهُمْ مُوسَىٰ عليه السّلام، وكان الْبَحْرُ أمَامَهُمْ والْعَدُوُّ وراءهم، فأوحَىٰ اللَّهُ إلَى مُوسَىٰ أن اضْرِبْ بعَصَاكَ البحر، ففلَقَ اللَّهُ الْبَحْر، ومشَىٰ بَنُو إسرائيل على اليابسة، ولَحِقَهُمْ فِرْعَوْنُ وجُنُودُه، ودَخلُوا مكانَ فَلْقِ الْبَحْر، ولمّا انْتَهَىٰ خُرُوجُ بني إسْرائيل من مكان البحر، ضَمَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الماء الْمُنْفَلِقَ بعضَهُ على بَعْضٍ، فأغْرَقَ جَيْشَ الْمِصْرِيّين بِقِيَادَةِ فِرْعَون، وانْتَقَمَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ مِنْهم.

وقَدْ أوْجز اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف) التعبيرَ عن هذا الحدث، بقوله:

● ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أي: فَعَاقَبْنَاهُمْ عِقَاباً مُعَجّلاً بإهْلاَكِهِمْ إغْراقاً فِي الْبَحْر. وكان ذلك بآيَة عظمى آتاها اللَّهُ رَسُولَهُ مُوسَىٰ عليه السّلام.

﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾: الْيَمُّ اسم من أسماء البحر لا يُثَنَّىٰ ولا يُجْمَع، ويُطْلَقُ على النَّهر العظيم ولو كان مَاؤه عَذْباً.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: بِسَبَبِ تَكْذِيبهم بالآياتِ الإعجازيّة ذَوات الدّلالات البرهانية، وتكذيبهم بالآيات البيانيّة المنزلات لبيان الدِّين إيماناً وعَملاً.

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾: أي: وكانُوا عن دلالات آياتِنَا في غَفْلَةٍ، لأَنَّهُمْ كانوا مشغولين بأَسْبَاب مَجْدِهم وسُلْطَانِهِم واستِعْلائَهم في الأرض.

وهٰذا الموجز قد جاء بعض تفصيل له في عدة سور من القرآن المجيد، ودراسَتُها دِراسةً تكامليَّةً، ضِمْنَ دراسَةِ قصَّةِ موسى وهارون، وفرعون وقومه، وبني إسرائيل، في القرآن، تحتاج في ظنّي قُرابَةَ سِفرٍ أو سِفرَيْن كامِلَيْن وعَسَىٰ أنْ يَقْضِيَ اللّٰهُ لِي بذلك في المستقبل، واللّٰهُ هو الموفّقُ والمسدِّدُ والمعين، وهو جلَّ جلاله على كلِّ شيءٍ قَدِير.

* * *

قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

في هٰذه الآية قَفْزَةٌ في البيان القرآني، إلى زَمَنِ دُخُولِ بَنِي إسرائيلَ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ في عَهْدِ طَالُوت، وإقَامَةِ دَوْلَةٍ رَبَّانِيَّةٍ في عَهْد طَالُوت، وعَهْدَي داوُدَ وسُلَيْمَانَ عليهما السّلام، وتحقيق الوعْدِ الّذي كَانَ وَعَدَهُ اللّٰهُ تَبَارَك وتَعَالَىٰ إبراهيمَ عليه السّلام، المشْرُوطَ بإقامَةِ مَنْهَجِ اللّٰهِ في الأَرْضِ، واتِّبَاعِ آياتِه المنَزَّلاَتِ عَلَىٰ رُسُله.

والحكْمَةُ البيانِيَّةُ من هٰذَا الْقَفْزِ فِي القِصَّةِ هُنَا المحافَظَةُ فِي البيان القرآنيّ على التَّقَابُلِ بَيْنَ الجزاءِ بالْعقَابِ والجزاءِ بالثواب في المواقف، لِئَلاَّ يَطُولَ الْفَصْل لدىٰ اتِّباع التَّسَلْسُلِ التَّارِيخيّ، فَتَغْفُلَ أذهانُ المتَدَبّرين عن ملاحظَةِ أن الجزاء بالثواب والجزاء بالعقاب يَسِيران علىٰ خَطَّيْنِ مُتوازِيَيْن دَواماً، في سُنَّةِ اللّٰهِ الثابِتَةِ التي يُعَامِلُ بها عبادَه.

وتأَخُّرُ زَمَنِ الجزاء بالثواب قد تقتضيه أُمورٌ من الموعُودينَ بِهِ أَنْفُسِهم،

كَعَدَم تحقيقَ مَا طُلِبَ مِنهُمْ مِنْ شروطٍ، ومن أمْثِلَتِهِ رفْضُ بني إسرائيل أَنْ يَدْخلوا الأرض المقدَّسَةَ مُقَاتِلِينَ بِقيادة موسىٰ وهارون عليهما السلام.

وزمن تأخُر الجزاء بالعقاب قد تقتضيه حكْمَةُ الامْهَالِ الَّذِي يقْطَعُ اللَّهُ به كُلَّ عُذْرٍ يُمْكِنُ أن يَعْتَذِر بِهِ مُسْتَحِقُّوا العقاب.

● ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾: أي: مَلَّكْناهُمْ بوسِيلَةِ الميراثِ، إذْ أَهْلَكَ اللَّه الْمُلُوكَ الكَفَرَة الجبارِينَ بأيْدِيهم، فَصَارَتِ الأرْضُ الَّتِي كَانَ الجبارُونَ يحكمونَها ميراثاً من اللَّهِ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَعْبَدِينَ في مِصْرَ.

﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾: أي: الَّذِينَ كَانُوا يُرَوْن ضُعَفَاءَ غَيْرَ قَادِرِينَ على المقَاومَة، فَيُذَلُّون، ويُضْطَهَدُونَ، ويُسْتَعْبَدُونَ.

﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾: أي: مَشَارِقَ أَرْضِ الشَّامِ وَمَغَارِبَهَا الَّتي بَارَكْنَا فيها، إذْ زِدْنَا فِي خيراتها المادّيَّة والمعنويَّة.

المشارِقُ وَالمَغَاربُ، هي المواضِعُ التي تُشرقُ الشَّمْسُ عليها وتَغْرُبُ عنها، والمعنى: وأَورَثْنَاهُمْ كُلَّ أَرْضِ الشَّام الّتي بَارَكْنَا فيها، لأنَّهُ ما من سَطْح أَرْضٍ فيها إلاَّ واقِعٌ إلى جِهَةِ شُرُوقِ الشَّمْس أوْ إلىٰ جِهَةِ غُرُوبها.

وَقَدْ حصَلَ هٰذا في عَهْدَيْ داوُدَ وابْنِهِ سُلَيْمان عَلَيْهما السَّلاَمُ.

والمعنىٰ: وأَوْرَثْنا بني إسرائيل الّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ في مِصْرَ، على تَعَاقُبِ أَزْمَانٍ وعُهُودٍ مُتَعَدِّدَةٍ، باعْتِبَارِهِم غُرَبَاءَ عن أَهْلِهَا من القبط، إذْ كَانُوا قَدِمُوا إليها في عَهْدِ يُوسُفَ عليه السلام، الَّذِي كان ذَا حُظْوَةٍ عَظِيمَةٍ عند فِرْعَوْنِ زَمَانِهِ، في قِصَّةٍ جاء بعض تفصيلِهَا في سورة (يوسف).

فلمَّا صَارَتْ لهم أَمْوالٌ وصناعات ومزارعُ وثَرَواتٌ، انْقَلَب عليهم

الفراعِنَةُ والقِبْطُ سُكَّانُ مصر الأَصْلِيُّونَ، فصاروا يضطهدونهم ويُسَخِّرُونهم في الأعمال كالْعَبيد.

- ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾

أي: وقضىٰ اللّهُ عزّ وجلّ الذي هو ربُّكَ أيُّها المتلقّي أيًا كنتَ، بِكَلِمَتِهِ الْقَدرِيَّة الْحُسْنَىٰ على بني إسرائيل، أَنْ يُورِثَهُمْ الأرضَ الَّتي بارَكَ فيها، وهِيَ الْقُدْسُ وَمَا حَوْله من بلاد الشَّام، إذَا حَقَّقُوا بأنْفُسِهم شُرُوط اسْتِحْقَاقِ هذا الميراث.

فلَمَّا حقَّقُوهُ بدْءاً من عَهْدِ طَالُوت، ومُروراً بِعَهْدَيْ دَاوُد وسُلَيْمَان عليهما السَّلام، أَوْرَثَهُمُ اللّهُ هٰذِهِ الأَرْضَ فِعلاً، وتَمَّتْ بِذَلِكَ في الواقِع التَّنفِيذي كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسْنَىٰ علىٰ بَني إسْرَائيل.

إذْ كان من آثارِهَا مُكَافَأَةُ مَنْ أَحْسَنَ حينَئِذٍ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، وظَهَرَ إحْسَانُهُمْ بِصَبْرِهِمْ على ما تَعَرَّضُوا له مِنْ أَذَى، دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النَّصّ: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾: أي: بسبب صَبْرِهِمْ.

﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: تَفَضُّلاً من الله على بني إسْرَائيل.

قول الله تعالى:

- ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

﴿وَدَمَّرْنَا﴾: التدمير، الإهلاك باستئصال، ومَحْوُ المباني وآثارِها حتَّىٰ لاَ يُرَىٰ مِنْها شيء.

وأصْلُ التدمير، تَخطِيمُ الشيء على وجْهٍ لا يُرْجَىٰ بَعْدَهُ إصْلاحه، ويكُونُ تدمِيرُ كُلِّ شيءٍ بِحَسَبِ مَا يُلائِمُه.

﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾: أي: ما كانوا يَصْنَعُونَ مِنْ مَبَانٍ وَأَدَواتِ سَطْوٍ وتَسَلُّطٍ، ومنها عَرَبَاتُهُمْ وأَسْلِحَتُهم، فَقَدْ دمَّرَهَا اللّهُ عزّ وجلّ في الْبَحْر.

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾: يُقَالُ لُغَةً: عَرَشَ يَعْرِشُ وَيَعْرُشُ، أي: بَنَى بناءً من خَشَبٍ، أَوْ مِنْ حَجرٍ، أو من طينٍ، أو من آجُرٍّ، وجعَلَ لَهُ سَقْفاً من خَشَبٍ.

وَيُقَال: عَرَشَ الكَرْمَ، أي: صنَعَ له عَرْشاً أو عَرِيشاً من خَشَبٍ لتمتدَّ فروعُهُ عليه.

أمّا كيف حصل هذا التدمير لما كان يصْنَعُ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ وما كانُوا يَعْرِشُونه، فلم يأتِ في القرآنِ المجيد بيان تفصِيليٌّ عَنْه.

ولعلّ الجماهير المصريَّة بَعْدَ هلاك فرعون وآله وجُنُودِهِ غَرَقاً في البحر، قد عَمِلَتْ على تَدْمِيرِ ذلِكَ بمختلف الوسائل.

وقد يسألُ سَائل: لم اعتَبَرْتَ الأَرْضَ الَّتِي أَوْرَثَها اللَّهُ بَنِي إسرائيل، هي مكان مُلْكِ داود وسليمانَ عليهما السلام من بلاد الشام؟!

والجواب: أنّ دليلي على ما ذكَرْت من وجهَيْن:

الوجه الأوّل: نظرْتُ في التاريخ لمعرفة ما هي الأَرْضُ التي أورثها الله عزّ وجلّ بَنِي إسرائيل عن سُكَّانِها الأصْلِيينَ، فرأيت أنّ المؤرخين يذكرون أن بني إسرائيلَ دخلُوا فِلَسطِينَ مُنْتَصِرِينَ في عَهْدِ طالوت، وأنَّهم اسْتَوْلَوْا على مُلْكِ القدس ومَا حَوْلَهُ من بلاد الشّام، في عَهْدَي داود وسُلَيْمانَ عليهما السلام.

ثم انقَسَمَتْ مَمْلَكَتُهُمْ، ثُمَّ فَسَدُوا فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الملْكَ، وتَعَرَّضُوا لأنْواعٍ من الاضطهاد والشَّتَاتِ، بِسَبَبِ ظُلْمِهِم، وفِسْقِهِمْ، وإفْسَادِهِمْ في الأرضِ، ونَبْذِهم اتِّباع آيات اللَّهِ المنَزَّلاَتِ، وتَحْرِيفِهِمْ فيها، وافترائهم على اللَّهِ الكذِب.

الوجه الثاني: نظرت في النصوص القرآنيّة فوجدْت أنّه قَدْ جاء فيها

بيانُ أنّ الأرض التي بارك اللّهُ فيها، هي المسجد الأقصىٰ وما حولَهُ من بلاد الشام:

(١) ففي سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) وصَفَ اللّه عزّ وجلّ المسْجِدَ الأقْصَىٰ بِأَنَّهُ المسجد الذي بارك حَوْله، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ. . . ﴿١﴾﴾.

(٢) وفي سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أبان الله عزّ وجلّ أنَّهُ أنجَىٰ إبراهيم ولُوطاً عليهما السلام من طُغيان نمرود وقومه، وأوْصَلَهُ إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وجَعَلَها مَهْجَرَهُ، وقد كان إبراهيمُ عليه السَّلام في أُورِ العراق، وبَعْدَ أن تعرَّضَ لإلقائه في النار، وتسليمه منها إذْ جَعَلَها بَرْداً وسلاماً عليه، هاجَرَ مع أُسْرَتِه، وهاجَرَ مَعَهُ ابن أخيه لُوطٌ مؤمِناً به، إلى بلاد الشَّام، وأقامَا في فِلِسْطِين، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

(٣) وفي سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أيضاً أَبَان اللّهُ عَزَّ وجَلَّ أَنَّهُ سَخر لسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجرِي بَأمْرِهِ إلَىٰ الأرض الَّتي بَارَكَ فيها، وهِيَ أَرْضُ الشَّام، القُدْسُ وَمَا حولَهُ، فقال تعالَىٰ فيها:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

(٤) وفي سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) في معرضِ الحديث عن أَهْلِ سَبأٍ في اليمن قال اللّهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

والقُرَىٰ الَّتي بَارَكَ اللَّهُ فِيها هي مِنْ قُرَىٰ بِلاد الشَّامِ باتّفاقٍ.

هذا كُلُّ مَا جاء في القرآن عَنْ أَرْضٍ بَارَكَ اللَّهُ فيها، فَتَعَيَّنَ من دلاَلاَتِ هٰذِهِ النصوص أنّ الأرض الَّتي أورَثَها اللَّهُ بَنِي إسرائيل، بَعْدِ إهْلاَكِ فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ هِيَ مِنَ بِلاَدِ الشّامِ، وكان ذَلِكَ بَدْءاً من عَهْدِ طَالوت إِلَىٰ آخِرِ عهد سليمان عليه السلام.

وبهذا الفهم تنْحَلُّ إشكَالاَتٌ سَبَبُها تَصَوُّر أنّهم وَرِثُوا أَرْضَ الفراعِنَةِ، مع أنّهم لم يرجِعُوا إلى مِصْرَ، ولم يَكُنْ لهم فيها سُلْطانٌ بَعْد إهْلاك فرعونِ مُوسىٰ وجُنُودِه.

* * *

الفقرة الثالثة

الآيات من (١٣٨ ـ ١٤١)

عبور بني إسرائيل البحر وقولهم لموسىٰ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

القراءات:

(١٣٨) ● قرأ حمْزَة، والكِسَائِي، وخَلَف: [يَعْكِفُونَ] بِكَسْرِ الكاف.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَةِ: [يَعْكُفُونَ] بضَمِّ الكاف.

والقراءتان وجْهَانِ عَرَبيان لنطق كلمة «يَعْكِفُون».

(١٤١) ● قرأ ابنُ عَامر: [وَإِذْ أَنجَاكُمْ] على أن الفاعل ضمير مستتر يعود على الله.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ] على أن الفاعل ضمير المتكلّم العظيم.

وبَيْن القراءتَيْنِ تكامُلٌ في التعبير عن الواقع وفي التعبير عَمَّا يُرادُ توجيهه لبني إسرائيل بعد نزول القرآن، فَمُوسَىٰ قال لنبي إسرائيل: واذْكُروا إذْ أنجاكم اللَّهُ من آل فِرْعونَ... والله عزّ وجَلّ خاطَبَهُمْ بِمَا أَنزل على موسىٰ بما مَعْناه: واذْكُرُوا إِذْ أَنجَيْنَاكم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وخاطَب كلَّ بني إسرائيل بَعْدَ نزول القرآن ليؤمِنُوا بمحمد ﷺ وبما جاء به عن رَبّه.

(١٤١) ● قرأ نافع [يقتلون] من الفعل الثلاثي.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يُقَتِّلُونَ] من الفعل الربّاعيّ مضعَّفِ التّاء.

وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في الدَّلاَلَة على الواقع، إذْ في أوّل الأمر كانُوا يُقَتِّلُونَ بِشِدَّةٍ وعُنف، ثُمَّ بَرَدَت الحِدة شيئاً فشيئاً فصاروا يَقْتُلُون دون شِدَّة ولا عُنف.

التدّبر التحليلي:

قولُ اللَّهِ تعالى:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾: فعْل: «جَاوَز» مثل فعل: «جَاز» يَتَعَدَّىٰ إلى مفعول واحد. تقول لغة: جُزْتُ الطريقَ وجاوَزْتُه، إذا سَلَكْتَهُ ومشيتَ فيه حتَّىٰ انْتَهيتَ مِنْهُ، وابْتَعَدْتَ عن آخِرِ جزْءٍ مِنه.

﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: الباء الجارَّةُ هُنَا مَعْنَاهَا المصاحَبَة.

يُحَدِّثُ الله جَلَّ جلالُهُ عن نَفْسِهِ بضمير المتكلّم العظيم، فيبيّنُ لَنَا أَنَّهُ كان مصاحِباً بَنِي إسرائيل بِقُدْرَتِهِ العظيمة الجليلة، حينَ أَمَرَهُمْ بِعُبُورِ البحر حتّىٰ جعَلَهُمْ يُجاوِزُونَ مَكَانَ الفَلْقِ مِنَ الْبَحْرِ، ويَصِلُونَ إلى الْبَرِّ بعيداً عن ساحِلِ الْبَحْرِ.

أَسْنَد اللّهُ عَزَّ وجَلَّ إلَىٰ نَفْسِه المجاوزة مصاحباً معَهُ بني إسرائيل بقيادة موسىٰ عليه السلام، والمراد أنَّه كان يجْتَازُ مَعَهُم بعِنَايَتِهِ، ومَعُونَتِه، وحفظه لهم، مع كُلّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ، هُو وَرَكَائِبُهُ وَمَاشِيَتُه.

أي: وسِرْنا بالعنايةِ والحفظِ والمعونة مُصَاحِبين بني إسرائيلَ الطريقَ الْيَبَسَ الَّذِي فَلَقْنَا الْبَحْرَ عَنْهُ، حَتَّىٰ قَطَعْنَاهُ، وخَرَجْنَا مِنْهُ إلىٰ الْبَرّ، وأوصَلْناهم إليه آمِنِين.

هذا التعبير البديع دلَّ على أنّ اللّهَ عزّ وجلّ، منَحَ بني إسرائيل بِقِيادَةِ مُوسَى ووزيرِه هارون علَيْهما السلام، حين عُبور الطَّرِيق في البحر، شَرَفَ الْمَعِيَّةِ الرَّبَّانِيَّة لهم، مُعْتَنِياً بهم، وحَافِظاً ومُعِيناً لهم.

قول اللّهِ تَعالى:

﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ...﴿١٣٨﴾﴾.

أي: وعَقِب أن انْتَهىٰ بنو إسرائيل من عُبورِ الْبَحْر، واطْمَأَنُّوا عَلَىٰ الأرض خارِجَ مَكانِ الْبَحْر، وفَرِحُوا بأن اللّهَ أَنْجَاهُمْ وأَهْلَكَ عَدُوَّهم، سارَ موسىٰ عليه السّلام قائداً لهم باتِّجاه سيناء، فَلَمْ يُبْعِدُوا كثيراً في سَيْرِهم، إذْ أَتَوْا على قَوْمٍ يعكُفُونَ على أَصْنَامٍ لهم.

﴿يَعۡكُفُونَ﴾: أي: يُلازِمُونَ مُلازَمَة المقِيم الّذِي أعْطَىٰ كُلَّ نَفْسِه وحَواسِه لمَا هُوَ عاكِفٌ عليه.

وهٰذا الْعُكُوفُ بِسُكُونٍ ومُلازَمَةٍ وصَمْتٍ وَتَوَجُّهٍ قَلْبِيٍّ وَنَفسِيٍّ وحِسِّي، هو لَوْنٌ من أَلْوانِ عِبَادةِ العاكِفِ للمعكُوف عليه.

﴿عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾: أي: على أصْنامٍ ذات صِفَاتٍ خَاصَّةٍ، فهي لَهُمْ يؤمِنُونَ بِنَفْعِ الْعُكُوفِ عليها، سواءٌ أشاركَهُمْ في الإيمان بها غيرهم أم كانُوا مُنْفَرِدين في عبادتها.

قيل: كان هؤلاء الْقَوْمُ من الكنْعَانيين، وكانَتْ أصْنامُهُم على صُوَرِ الْبَقَر. قال قتادة: هُمْ لَخْمٌ وجُذَام، ورُوي عن ابْنِ جُرَيجٍ قال: تماثيل بَقَرٍ مِنْ نُحَاسٍ، واللَّهُ أعلم.

فاستَثَارَ عُكُوفُ هؤلاء القَوْم على أصْنَامٍ لهم إعجابَ جُمْهُورِ بني إسرائيل. عندئذٍ:

- ﴿. . قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ . . . ١٣٨﴾:

أي: اجْعَلْ لَنَا مَعْبُوداً واحداً نَعْكُفُ عَلَيْه، كما لهٰؤُلاء الْقَوْمِ آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ يَعْكُفُونَ عليها عابِدِين لها.

تَصَوَّرَ أصحابُ هذه المقالة من بني إسرائيل، أَنَّ هؤلاء القَوْم لمَّا كانُوا يؤمِنُونَ بأرْبَابٍ متعدِّدِين، اتَّخَذُوا لَهُمْ صُوراً مِنَ الأصْنَام مُتَعَدِّدَةً يَعْبُدونها، فهي آلِهَةٌ لَهُم، أي: مَعْبُوداتٌ يَعْبُدونَها باعتبارِهَا رُمُوزا لأرْبَابهم.

ولمّا كانَ رَبُّ موسَىٰ وَهارونَ وبني إسرائيل رَبًّا واحداً، فلْيَتَّخِذْ موسَىٰ لَهُ رَمْزاً مادِّيًا من الحجَارَةِ أَوْ غَيْرِها، لِيكُونَ لَهُمْ إلَهاً، أي: مَعْبُوداً يَعْبُدونه وهم يُشَاهِدُونه بأَعْيُنِهِم.

وهٰذِهِ أُولَىٰ الحِيَلِ الشيطانيَّةِ لإدْخالِ الشِّرْكِ باللَّهِ في النَّاسِ، وهي اتّخاذُ الرُّموزِ الماديَّة للَّهِ الرَّبِّ الخالِقِ سبحانَه وتعالىٰ.

يُضافُ إلى هذا أَنَّ بني إسرائيل عَاشُوا في استِعْبَادِ المصْرِيّين الوثنيّين

لهم زمناً طويلاً، ولعَلَّ عبادة الأوثانِ صَارَتْ مألُوفَةً لهم، وغَيْرَ مُسْتنكَرَة، إنَّما المسْتَنكَرُ مِنها تَعَدُّدُها، وكوْنُها لاَ تُمَثِّلُ في نظرِهِمْ الرَّبَّ الّذي يُؤْمِنُ بِه أنبياؤهُمْ ورُسُلُهم، منذُ عُهود إبراهيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوب.

ولهذا رَدَّ عليهم موسَىٰ عليه السَّلاَمُ بقَوْلِهِ لهم، كما جاء في قول الله جَلَّ جلالُهُ في الآية.

﴿. . . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

أي: إنَّكُمْ مَا زِلتُمْ تَجْهَلُونَ حَقِيقَةَ دِين اللَّهِ لعباده، الّذي لا يَسْمَحُ بحالٍ من الأحوال أَنْ يُرْمَزَ لذاتِ اللَّهِ الرَّبِّ الخالِقِ بِجَسَدٍ مِنَ الأَجْسَادِ المحَسَّةِ الملْمُوسَة، ولا يَسْمَحُ بأنْ يُتَّخَذَ هٰذا الرَّمْزُ إلَٰهاً يُعْبَدُ، ولو كان المقْصُودُ مِنْ عبادتِهِ بِأيِّ لَوْن من أَلْوانِ العباداتِ عبادة اللَّهِ الرَّبِّ من خِلاَله.

فعبادة اللَّه يَجِبُ أن تكون تَوَجُّهاً لَهُ وحْدَهُ، وهو غَيْبٌ عَنَ كلِّ الحواسّ، كمَا كان الإيمانُ به وبوجودِه بالدليلِ الفكريّ، وهو غيبٌ عن كُلِّ الحواسّ الظاهرة والباطنة.

أمّا القِبْلَةُ فهيَ المكانُ المخصَّص لتوحِيد توجُّهِ العابدينَ في الصّلوات، وتحديد مكان الطواف لدى عبادة الله به.

وأمَّا المساجِدُ وبُيُوتُ اللَّهِ فَهِيَ الأمْكِنَةُ الَّتِي تُخَصَّصُ لتَكُونَ مِلْكاً عامًّا يَعْبُد فيه أتْبَاعُ الدّين ربَّهُمْ بِحُرِّيَّةٍ تَامَّة، فلا يمْنَعُهُمْ عَنْها مانع.

ولتَحْذير بني إسرائيل من اتّخاذ رُمُوزٍ من التماثيلِ والصُّوَرِ يَتَوَجَّهُونَ لها بالعبادة، أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ إليهم بياناً مُفَصَّلاً دَوَّنَهُ كُتَابُهُمْ في سِفر الخروج، خاطب الله فيه موسَىٰ عليه السّلام وهو يتضمّن خطاب كلّ شعب بني إسرائيل، فجاء في الإصحاح العشرين منه:

«٢ أَنَا الرَّبُّ إلَٰهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ من أَرْضِ مصْرَ من بيت العبودية ٣

لاَ يَكُنْ آلهةٌ أُخرَىٰ أَمَامِي ٤ لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنحُوتاً وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا في السَّمَاءِ مِنْ فَوْق وَمَا في الأَرْضِ مِنْ تَحتُ وَمَا في الْمَاءِ من تَحْتِ الأَرْضِ ٥ لا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَهٌ غَيُور...».

وبَعْدَ أَنْ قالَ موسىٰ عليه السَّلامُ ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ للّذِين قَالُوا له من قَوْمِهِ بني إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أَتبَعَ بَيانَهُ فقَالَ لَهُمْ مَا دَلَّ عليه قَوْلُ اللَّهِ تعالى:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

﴿مُتَبَّرٌ﴾: أيْ: مُكَسَّرٌ محطَّمٌ حتَّىٰ يكُونَ فُتاتاً صغيرة هالكَةً.

التَّتْبِيرُ: في اللّغة هو التكْسِيرُ الشديد للشَّيْءِ حتَّىٰ يكون فُتَاتاً صُغْرَىٰ، فهو بمعْنَىٰ التّحطِيم والتَّفْتِيتِ والإِهْلاَك.

أي: إن هؤلاَء الْقَومَ العاكِفِينَ على أصْنَام لَهم لاَ يسْتَحِقُّ ما هُمْ فيه إلاَّ التَّكْسِيرَ والتَّحْطيم والإبادة، لأنّ اللّه عَزّ وجَلّ يَشْتَدُّ غَضَبُهُ على فاعليه.

هذا بالنسبة إلى الحالة القائمة الآن، ولو كُنَّا مَأْذونين الآن بقتالهم، لحطَّمْنا كُلَّ أَوْثَانِهِمْ وأصْنَامِهِمْ غضباً لِلّهِ، وسَحقاً للأعْمَالِ الشركيّة.

أمّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ قَبْلُ مِنْ هٰذِهِ العباداتِ الشركيّة، فَقَدْ كَانَ عَمَلاً بَاطِلاً لَمْ يَنْتَفِعُوا مِنْهُ بشَيْءٍ، لأنّ أصنامهم لا تَجلُبُ لَهُمْ نفعاً، ولاَ تَدْفَعُ عنهم ضَرّاً، ولا يُمْكِنُ أنْ تَنْفَعُهُمْ عباداتُهُمْ لَهَا بِنَافِعَة.

ولاَحظ موسَىٰ علَيْهِ السّلاَمُ احْتِمَالَ أَنْ يَقَعَ في تَصَوُّرِ بَعْضِ قَوْمِهِ وُجُودُ آلِهَةٍ تُعْبَدُ مَعَ اللّهِ، ويَكُونُ لَهَا نَفْعٌ مَا لعابديها، فقال لهم ما دَلّ عليه قول اللّهِ عزَّ وجلّ في الآية التالية من السورة:

- ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾؟!

أَبْغِي: أي: أَطْلُب، يُقالُ لُغَةً: بَغَىٰ الشيءَ إذا طَلَبه.

﴿أَبۡغِيكُمۡ﴾: أي: أبغي لكم، فهو على حذفِ حرْفِ الجرّ وإيْصَالِ مَعْمولِهِ بالفعلِ مُبَاشَرَةً.

والاستفهام في الْجُمْلَةِ استفهام تَعَجُّبيٌّ إنكاريّ، أي: أغيْرَ اللَّهِ أطْلُبُ إلَهاً تَعْبُدُونه؟! إنّ هذا أَمْرٌ شَنِيعٌ مُسْتَنْكَرٌ.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: وهو جلّ جلالُهُ فَضَّلَكُمْ بِعَقِيدَةِ التوحِيد الّتي حافظتُمْ عَلَيْها علىٰ الْعَالَمِينَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكُمُ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، واتَّخذُوا أوثاناً وأصْناماً وآلِهَةً يَعْبُدُونَها مِنْ دُون الله افتراءً على الحقّ، وكُفْراً باللَّهِ خالِقِهم وبَارِئِهم، وكُفْراً بِمَا أنْزَل على رُسُلِهِ من آياتٍ بيانيَّة، كلَّفَهُمْ فيها أَنْ يُؤْمِنُوا به رَبًّا لا شَرِيك له، ويَعْبُدُوه وَحْدَهُ إلَهاً لاَ يُشْرِكُونَ بعبادته شيئاً.

ويَحْسُنُ بهذه المناسبة أنْ أُورد حَديثاً تَضَمَّنَ أنّ بعض أصحاب الرسول محمد ﷺ طَلَبَ مِنْه طَلَباً مُشَابهاً لِطَلَب بعض بني إسرائيل من موسَىٰ عليه السَّلام، فاسْتَعْظَم الرَّسُولُ ﷺ طَلَبَهُمْ، وقال: هَذَا كما قالَتْ بَنُوا إسرائيلَ لموسَىٰ اجْعَلْ لنا إلَهاً كَمَا لهم آلِهَةٌ.

روى ابْنُ أبي شَيْبَةَ، وأحْمَدُ، والترمَذِيُّ وصحَّحَهُ، والنسائي، وابْنُ جَرِيرٍ، وابْنُ المنذر، وابْنُ أبي حَاتِم، والطَّبَرَاني، وأَبُو الشَّيْخ، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ أبي واقِدِ اللَّيْثِيّ قال:

خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله اجْعَلْ لَنَا هٰذِهِ السِّدْرَة ذَاتَ أَنْوَاطٍ، كما لِلْكُفَّارِ ذَاتُ أنْواطٍ، وكَانَ الكُفَّارُ يَنُوطُونَ(١) سِلاَحَهُمْ بِسِدْرَةٍ، ويَعْكُفُونَ حَوْلَهَا، فقال النبيُّ ﷺ:

---

(١) يَنُطُون: أي: يُعَلِّقُونَ، يُقَال لغة: نَاطَ الشَّيْءَ بالشَّيْء، ونَاطَهُ عَلَيْهِ نَوْطاً، إذا علَّقَهُ به. **فالنَّوط**: التعليق، **وذات أنواط**: أي: ذاتُ تعليقات بها.

«اللَّهُ أَكْبَرُ، هٰذا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

* * *

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾:

تمهيد:

وفي قراءة ابْنِ عامر: ﴿وَإِذْ أَنْجَاكُمْ﴾ ويُمْكِنُ أَنْ تكونَ هذه القراءة دالَّةً على أنّ مُوسَىٰ قال لبني إسْرَائيلَ مضْمُونَ مَا جاء في هذه الآية.

أمّا على قراءة جمهور القرّاء العشرة فيحمل دَلالَتَيْن:

الدلالة الأولى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ أَنْزَلَ على مُوسىٰ عليه السَّلامُ بياناً خاطَبَ به بني إسرائيل بمعاني ما جاء في هذه الآية.

الدلالَةُ الثانية: أَنَّ اللَّهَ عَزّ وجلَّ يخاطِبُ بني إسرائيل بَعْدَ نُزُول القرآن، خطابا يَذْكّرُهم فيه بواجبهم تجاه رَبّهم، الّذِي سَبَق أَنْ فَضَّلَهُمْ على العالَمين، أَيَّامَ مُحَافَظَتِهِمْ على الإيمان الصحيح بالرَّبّ الخالِقِ عزّ وجلّ، وعَدَمِ الإشْراك به واتّباعهم ما أنزل إليهم من ربّهم من شرائع وأحكام، ويُذَكِّرُهُمْ فيه بنِعَمِهِ عليهم، إذْ أَنْجَاهُمْ من آل فرعون بآيَةٍ عظيمة خارقة، هيَ آيَةُ فَلْقِ البَحْرِ لهم، وإغراقِ فرْعَوْنَ وآلِهِ وجُنُودِه الّذين تابَعُوهم لِيُدْرِكُوهُمْ، فكَانَتِ الوسِيلَةُ الّتِي أنجاهم اللّهُ عز وجلّ بها هِيَ الفَخَّ الّذي اسْتَدْرَجَ بِهَا فِرْعَوْنَ والّذِينَ معه ليُهْلِكَهُمْ غَرَقاً.

والغَرَض من هذا التذكير تَحْذِيرُهُمْ منْ معانَدَةِ رسولِ الله محمّد ﷺ، ومن الكُفرِ بِهِ ورَفْضِ اتّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللّهُ عليه من شرائع وأحكامٍ، في آياتِ

القرآن المجيد، فهم أكْثَرُ النَّاسِ معرفةً بسُلْطَانِ اللَّهِ وَجَبرُوتِه، وإمْهالِه لعبادِه الجاحِدِين، ثُمَّ بَطْشِهِ بهم، إذْ هُمْ يَتْلُونَ في كُتُبِهِمْ كيْفَ أهْلَكَ اللَّهَ عزّ وجلَّ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، انْتِصَاراً لموسَىٰ وَهَارُونَ ومَنِ اتَّبَعهما مِنْ بَني إسْرَائيل.

ومن أُسْلُوب اللَّه جَلَّتْ حِكْمَتُه في البيانِ أَنْ يُخَاطِبَ الأجْيَالَ اللاَّحِقَةَ من الأمَّة، بالتَّعْبِير الَّذِي تُخَاطَبُ به الأَجْيَالُ السَّالِفَةُ، كَأَنَّهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ، إذَا كَانَتِ الأجيالُ اللاَّحِقَةُ تَرَىٰ أنَّها امْتِدادٌ للأجْيَال السالِفَةِ في عَقَائِدِها، ومَفْهُومَاتها، وَشَرَائِعِهَا، وكُلِّ مَا لَهَا وَمَا عَلَيْها.

وقد تكرَّرَ في القرآن المجيدِ خِطَابُ أجْيَالِ بني إسرائيل بَعْدَ نُزُول القرآن، كأنَّهُمْ هُمُ الَّذِين جَرَتْ لهُمُ الأحْدَاثُ الَّتي جَرَتْ لأسْلاَفِهم، مثل ما جاء في الآيات التاليات من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ... ﴿٦١﴾﴾
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ... ﴿٦٣﴾﴾
- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا... ﴿٧٢﴾﴾
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ... ﴿٨٤﴾﴾

والسَّبَبُ في هذا أنَّ بني إسرائيل اللاَّحقين الذين لم يُسْلِمُوا ولَمْ يَتَّبِعُوا رسُولَ اللَّه محمّداً صلى الله عليهم، قَدْ صَارَ وَلاَؤُهم لِلْقَوْمِيَّةِ الإسْرَائِيلِيَّةِ، وللحِزْبِ الإسْرائيليّ، لاَ لِلَّهِ ولِرُسُلِهِ وآيَاتِه المنَزَّلاَتِ عَلَىٰ رُسُلِهِ المتَلاَحِقِينَ، حتَّىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد ﷺ، فجَعَلَهُمْ هٰذَا الْوَلاَءُ الْقَوْمِيُّ الحزْبيُّ التَّعَصُّبِيُّ يَرْفُضُونَ مَا يَبْعَثُ اللَّهُ لَهُمْ من رَسُولٍ، وَمَا يُنْزِلُ عَلَىٰ رُسُلِهِ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فيها شرائع وأحْكَامٌ. لِذَلِكَ كَانَ من الحكْمَةِ في تَوْجِيه الخِطَاب أَنْ يُخَاطِبَ اللَّهُ اللاَّحِقِينَ كأنَّهُمْ هُمْ أعْيَانُ السَّابِقين.

التدبر:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾:

● ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾: أي: وضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمْ دَوَاماً وَقْتَ تَخْلِيصِنَا إيَّاكُمْ. **النَّجَاةُ في اللُّغَة**: الخلاص من المكروه.

وعلى أنَّ الخطابَ مُوجَّهٌ لِبَنِي إسرائيل بَعْدَ نُزُول القرآن، فالْمُرادُ: وَإِذْ أَنْجَيْنَا أُصُولَكُمْ، وَهُمْ أَجْدَادُكُمُ الَّذِينَ تُفَاخِرُونَ بِهِمْ، وتَرَوْنَ أَنَّكُمْ مَعَهُمْ كَجَسَدٍ وَاحِدٍ، فما كَانَ لهمْ من تفضيل هو لَكُمْ أيْضاً، لأنَّكُمْ أحفادُهم. فَلْيَكُنْ تَخْلِيصُ اللَّهِ لَهُمْ ذِكْرَىٰ لَكُمْ دافِعَةً لالْتِزَامِ طَاعَةِ اللَّهِ ورضوانه. واتِّباع رَسُوله مُحَمَّدٍ خَاتم أنبياء الله ورُسُلِهِ.

● ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: منْ فِرْعَوْنَ وآلِه الَّذِينَ كَانُوا حُكَّامَ مِصْر، والمسَيْطِرِينَ سَيْطَرَةً عظمَىٰ على كُلِّ شيءٍ فيها، مع امْتِلاكِهِمْ مُعْظَم مُقَدَّراتِ مِصْر وأموالِها.

● ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: أي: يُكلِّفُونكم ويُحَمِّلُونَكُمْ المشقَّات والمتاعِبَ الَّتِي فيها عذابٌ سَيِّئٌ لكم.

يقال لغة: سَامَهُ الأمْرَ، أي: كلَّفَهُ إيَّاه، وحمَّلَهُ إيَّاه. **السَّوْمُ**: تَجْشِيمُ إنْسَانٍ مَشَقَّةً، أَوْ سُوءاً أَوْ ظُلْماً.

وسُوءُ الْعَذَابِ شدِيدُهُ وشَاقُّهُ ومُؤْلِمُه، وأصْلُ الكَلام العذاب السُّوء، فأضِيفَ الوصْفُ إلى الموصُف به، فصار التعبيرُ: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾. وجملة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: حالية.

● ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾: أي: يُقَتِّلُونَ مواليدَكُم مِنَ الذُّكور، لئلاً يكْثَرَ رِجالُكُم فَيَكُونُوا خَطَراً علىٰ قُوَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ العسكريَّة.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾: أي: وَيَسْتَبْقُونَ مَواليدَكُمْ من البنَاتِ اللّواتي سيكونُ مصيرهنَّ أَنْ يَكُنَّ نِساءَ أحياءً، فلا يَقْتُلونَهُنَّ.

يُقالُ لغة: اسْتَحْيَا الأَمِيرُ الأَسِيرَ، أي: اسْتَبْقَاهُ حيًّا فَلَمْ يَقْتُلْهُ.

والْغَرض من استحيائِهِنَّ اسْتِعْبَادُهُنَّ، وتَكْلِيفُهُنَّ الْخَدماتِ، وغَيْرَ ذَلِكَ، وَكَثْرَةُ النِّسَاءِ لا تُشَكِّلُ خطراً على قُوَّةِ آل فِرْعَوْنَ الْعَسْكَرِيَّة في مصر.

إطلاقُ كلمة «نِسَاء» على المواليد من البنات، هو من المجاز المرسَل، وهو من إطْلاقِ اللَّفْظِ علىٰ الشَّيْءِ باعْتِبَارِ ما سَيَؤُولُ إليه، مِثْلُ قوله تَعالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾: أي: سَيَؤُول أَمْرُهُ إلى الفناء بَعْدَ موته.

وعبارة: . . ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾. . .: بَدَلٌ من عبارة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو بَدَل بَعْضٍ مِنْ كُلّ.

● . . ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: أي: وفي ذَلِكُمُ الَّذِي كَانَ يَجْري لأجْدادِكُم في مِصْرَ امْتِحَانٌ لَكُمْ عَظِيمٌ من رَبّكُمْ، الَّذي كافَأَكُمْ على الصَّبْرِ عَلَيْهِ بِأَنْ فَضَّلَكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ تِلك القُرون، وأَنْجاكُمْ بالْمُعْجِزَةِ الْخارِقَةِ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْكُمْ رُسُلاً وأَنْبِياء ومُلُوكاً، كما جاء بيانُه في نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ أُنزلَتْ بَعْدَ هذا النَّص.

* * *

الفقرة الرابعة

الآيات من (١٤٢ ـ ١٤٧)

ميعاد الميقات الأول وهو ميقات كِتَابَةِ الألْوَاح

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي

وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ
جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ
ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ
مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟
كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟
سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

القراءات:

(١٤٢) ● قرأ أبو عمْرو، وأبو جعفر، ويعْقُوب: **[وَوَعَدْنا]** من الفعل الثلاثي المجرّد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[وَوَاعَدْنَا]**: على وزن «فَاعَلَ» الدَّال على المشاركة.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد، إذْ يدُلُّ هذا الإجراء على أنّ الله عزّ وجلّ وَعَدَ مُوسىٰ أوّلاً، وبَعْدَ ذَلِكَ أكّدَ لَهُ هذا الوَعْدَ، وأعْلَنَ مُوسَىٰ طَاعَتَهُ لِتَنفِيذِ الحضور في الميقات المحدّد، فكانت بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبّه مُواعَدَةٌ، حُدِّدَ فيها الميقاتُ الزّمَاني والميقات المكاني، فجاءت القراءتان للدلالة على الحالتين، الوعْدِ من اللّهِ أوّلاً، والوعْدِ التأكيدي المقرون بإعلان موسى طاعته أن يحضر.

(١٤٣) ● قرأ ابن كثير، والسُّوسي، ويَعْقُوب: **[أَرْني]** بإسْكان الراء.

وقرأ الدُّوري باخْتِلاَسِ كَسْرَةِ الراء.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَةِ: [أَرِنِي] بِكَسْرِ الرَّاء.

وهي وجُوهُ عَرَبِيَّةٌ لنُطْقِ الكلمة.

(١٤٣) ● قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [دَكَّاءَ].

وقرأ باقي القرّاءِ العشرةِ: [دَكّاً].

وبين القراتَيْنِ تَفَنُّنٌ في الأدَاء البياني:

فمعنىٰ: [دكًا] مَدْكُوكاً، من فِعْل دَكَّ الشيْءَ دَكًا، أي: دقَّهُ وَدَفَعَهُ، فَسَاخ الجبَلُ في الأرض، وصار مكانُهُ مُسَاوياً لَمَا حَوْلَهُ مِنَ الأرْضِ المنبَسِطة.

ومعنىٰ: [دَكَّاءَ]: أرْض مُسْتَوية، أو كنَاقة لاَسَنَام لها، على تَشْبيه الجبَلِ بالسَّنام، وتَشْبيه الموقع بِظَهْرِ الناقة. **فالدَّكَّاءُ** في اللُّغَةِ الناقةُ الَّتي لا سَنَامَ لها. أي: صار مكان الجبَلِ كَنَاقَةٍ لاَ سَنَامَ لها، والدَّكَّاءُ في اللّغَة الأرض المستوية.

(١٤٣) ● قَرَأَ نافِعٌ، وأبو جَعْفر: [وَأَنَآ أَوَّلُ] بألفِ ذات مَدّ بعد نون «أنا».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَأَنَ أَوَّلُ] بنُونٍ مَفْتُوحَةٍ فقط دون ألف بعدها.

والقراءتان وجْهَانِ عربيَّانِ لنُطْقِ ضَمِير المتكلم «أنا».

(١٤٤) ● قرأ ابْنُ كثير وَأبو عَمْرو: [إِنِّيَ اصْطَفَيْتُكَ] بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إِنّي اصْطَفَيْتُكَ] بإسْكان ياء المتكلّم.

والقراءتان وجهان عرَبيان لنُطْقِ ياء المتكلّم.

(١٤٤) ● قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو جَعْفر، ورَوْح: [بِرِسَالَتِي] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [بِرِسَالاَتِي] بالْجَمْع.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فالإفراد لوحظ فيه مجموع الرسالة، والجمْعُ لُوحِظَ فيه ما كان ينزلُ على مُوسَىٰ من رِسَالاَت آنًا فآنًا.

(١٤٦) ● قرأ ابن عامر، وحمزة: [آيَاتِي الّذِينَ] بإسْكان ياء المتكلّم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [آيَاتِيَ الَّذِينَ] بفتح ياء المتكلّم.

وهما وجهان عَرَبيان كَما سَبَقَ بيانه لنطق ياء المتكلّم.

(١٤٦) ● قَرَأَ حَمْزة، والكِسَائي، وخَلَفٌ: [الرَّشَدُ] بفَتْح الراء المَشَّددة وفتح الشين.

وقرأ باقي القرَّاء العشرة: [الرُّشْدُ] بضمّ الراء المشدّدة وإسْكان الشين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق كلمة: «الرّشد».

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

● ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾ وفي القراءة الأخرى: [وَوَعَدْنَا] هاتان القراءتان «وَاعَدْنا» و«وَعَدْنا» جاءتا أيضاً في الآية (٥١) من سورة (البقرة)، وفي الآية (٨٠) من سورة (طَه).

الْوَعْدُ: هو الإخبار بما تَمَّ الْعَزْمُ على فعله في المستقبل، يقالُ لغة: وَعَدَهُ الأَمْرَ، وَوَعَدَهُ بالأمْرِ، عِدَةً، وَوَعْداً، ومَوْعِداً، ومَوْعِدَةً.

ويكون الوعْدُ بالخير وبالشرّ، أمَّا الْوَعِيدُ والإيعاد فهما في الشّرّ خاصّةً.

والمواعَدَةُ مُشارَكَةٌ في الْوَعْدِ، ويكونُ فيها كُلٌّ من الطَّرَفَيْنِ وَاعِداً ومَوْعُوداً.

- ﴿مُوسَىٰ﴾: أيْ: وأن يكون بنو إسْرائيل معه أخذاً ممَّا جاء في سورة (طه) وخصّ الله موسىٰ بهذا الوعد التكريميّ التشريفيّ، لِيُكَلِّمَهُ ويُنَاجِيهُ، ويَكْتُبَ له في الألواحِ الوصايا التعليميّة، في الوادي المقدّس طُوىٰ، عِنْدَ جَبَلِ الطُّور.
- ﴿ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً﴾: يتخلَّلُها تِسْعَةٌ وعِشْرُونَ يَوْماً، رُوِيَ عَنِ ابن عبَّاس أنَّها شَهْرُ ذِي الحِجَّة، أي: بَعْدَ أَحَدَ عَشَرَ شهراً إلاَّ عَشَرَةَ أيامٍ مِن يوم النجاة، إذا كان هذا في السَّنَةِ نَفْسِها الَّتِي تَمَتْ فيها النجاة.
- ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾: أي: وأتْمَمْنا الثّلاثين لَيْلَةً بِعشْرِ ليَالٍ أُخْرَىٰ.

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾: روي عن ابن عبّاسٍ قولُه في هذه الآية: إنَّ مُوسَىٰ قَالَ لِقَوْمِهِ: «إنَّ رَبّي وَعَدَنِي ثَلاثِينَ ليلَةً أَنْ أَلْقَاهُ وأُخلِّفَ هارونَ فيكم، فَلَمَّا فَصَلَ مُوسَىٰ إلىٰ رَبّه زَادَهُ اللَّهُ عَشْراً، فَكَانَتْ فِتْنَتُهُمْ في الْعَشْرِ الَّتِي زَادَهَا الله».

أي: فَكانت زيادَةُ الْعَشْرِ لِيَخْتَبِرَ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ بَنِي إسرائيل، إِذَا لم يَعُدْ مُوسَىٰ إليهم، عَقِبَ انْتِهاءِ اللَّيالِي الثّلاثين مباشرةً، مَاذَا يَفْعَلُون، وكَيْفَ يَتَصرَّفُونَ، وهم بقيادة هارونَ عليه السَّلام نَبِيِّ الله وَرَسُولِهِ، وَوَزِيرِ مُوسَىٰ من أهله.

وبإضَافَةَ اللَّيَالي الْعَشرِ إلى اللَّيَالي الثَّلاثين كَانَ الميقاتُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. والله يُعْطِينا بهذا البيان مِفْتَاح ضَبْطِ الحساب بالْجَمْعِ.

الميقات: هو الوقْتُ المحدَّدُ لأمْرٍ مَا، فِعلاً كان أَمْ تَرْكاً، والْمَوْعِدُ الَّذِي حُدِّدَ وَقْتٌ لَهُ بدايَةٌ وَلَهُ نِهَاية، هذا هو الميقَاتُ الزَّمَاني.

ويُطْلَقُ: «الميقاتُ» أَيْضا على المكان المخصَّص لأمْرِ ما، فِعْلاً كان أَمْ تَرْكاً، وهذا هو الميقاتُ المكاني.

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾:

كان مقتضىٰ الوعد لموسَىٰ ولقومِه الحضورُ جَمِيعاً إِلَىٰ جانب الطور، ولكن موسَىٰ عليه السَّلام رَغِبَ أن يَسْبِقَ قَوْمَهُ ابتغاءَ مَرْضاةِ رَبِّه، فَوَلَّىٰ عليهم أَخَاهُ هَارُونَ، عَلىٰ أَنْ يَسِيروا إلى جهة الطور مُتَابعين له وَسَائرينَ على أثره، وجاء في سورة (طه) أنّ الله سأَلَهُ عن سَبَب تَعَجّله، فقالَ لَهُ: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾.

وقد دَلَّ قول موسَىٰ لأخيه، على أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام أَصْدَرَ أَمْرَ استخلافٍ لأخيه هارون، لِيَتَوَلَّىٰ أُمُورَ بَنِي إِسْرَائيلَ قَائِداً رشيداً حَكِيماً، سائراً بهم على أثره، إذِ انْطَلَقَ إلىٰ لِقَاءِ رَبّه في الميقاتِ الزماني، والميقات المكانيّ، اللَّذَيْنِ واعَدَهُ اللَّهُ فيهما.

وقد اشتمل أَمْرُ الاستخلاف هذا على ثلاث موادّ:

المادّة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾:

أي: كُنْ وَلِيَ أَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُدَّةَ غيابي عنهم، في رحْلَتي للِقَاءِ رَبِّي حَسْبَ الْوَعْدِ الَّذِي وعَدَنيه.

المادة الثانية: دلَّتْ عليها عِبَارة: ﴿وَأَصْلِحْ﴾:

فعل: «أَصْلِحْ» يسْتَعْمَلُ لازماً، ويستعمل متعدّياً.

يُقال لغة: أصْلَحَ الرَّجُلُ في عَمَله، أو في أمْرِه وشأنه، أي: أَتَىٰ بِمَا هو صالحٌ نافع.

ويُقَالُ أيضاً: أَصْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيءَ، أيْ: أزالَ فسَادَه، ويُقالُ: أصْلَح بَيْنَ الخصْمَيْن، أو أصْلَحَ ذَاتَ بَيْنِهما، أي: أزال ما بينهما من عداوة وشقاق، أو أزَالَ ما بينهما من خلاف.

ويَنْبَغِي أن يُحْمَلَ تكْلِيفُ موسَىٰ أخَاه هارون بأن يُصْلح على المعْنَيْن، أي: اعْمَل الأعمال الصالِحَةَ في إدَارَتِكَ وسياسَتِك لِبَني إسرائيل، إذْ تتولّىٰ قيادتَهُمْ مُدَّةَ غِيَابي، وأصْلِحْ ما يُفْسِدُ المفْسِدُونَ إنْ حَصَل شيءٌ من ذلك، بِحُسْنِ السّياسة، وبإيقَافِ انْتِشَارِ الْفَسَادِ، والأخْذِ على أيْدِي المفْسِدِين، وبإعَادَةِ الأمْرِ إلى الصَّلاحِ ما وَجَدْتَ إلى ذَلِكَ سبيلاً، ولا تَدَعِ المفسدين يعْبَثُونَ دُونَ زَجْرٍ أو عِقاب.

ومن الإصلاح الأخْذُ بالحزْمِ أحْيَاناً، والأخْذُ بالرّفق والتسامُحِ أحْيَاناً أُخْرَىٰ.

ومن الإصْلاح عِقَابُ مُسْتَحِقّي الْعِقَاب، ومُكَافَأةُ مُسْتَحِقّي الثواب، وإكرامُ مستحقّي الإكرام.

إلى غير ذلك من أمُورٍ تَدْخُلُ في حُسْنِ الإدارة والسِّياسة.

المادّة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

أي: وإذا كَوَّنَ المفسِدُونَ تَجَمُّعاً كثيراً ضَاغِطاً، حتَّىٰ صارَتْ قُوَّتُهم هي القُوَّة المسَيْطِرَة في جُمْهورِ بَنِي إسرائيل، فَلاَ تَلِنْ لهم، ولاَ تُسَايِرْهُمْ، ولا تُدَارِهِمْ، مُتَصَوِّراً أنّ اتباعَ سَبِيلهم قد يكونُ هو الأحْكَم في السِّياسة، محافظة على وَحْدَةِ الْقَوْم، وعَدَمِ التفريق بَيْنَ صُفُوفِهِمْ.

فالأخْذُ بالحزمِ في مِثْلِ هذا الوضعِ هُوَ واجِبُ قَائِدِ الأُمَّةِ وَوَليّ أمْرِها، أمَّا مُدَارَاةُ المفسِدِينَ، واتّبَاعُ سبيلِهم، فَهُو أمْرٌ يُفْضِي إلىٰ شرٍّ مُسْتَطِيرٍ، وعواقبَ وَخِيمةٍ، وينْتَهِي بالأمَّةِ إلى ما انْتَهتْ إلَيْهِ الأُمَمُ قَبْلَها، فَتَسْتَحِقُّ عذابَ اللّهِ، ورُبّما استحقَّت الإهلاكَ الشّامِلَ إذا تَمَادَتْ في غَيِّهَا وفَسَادِهَا وإفْسَادِها.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾:

● ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾: أي: ولـمَّا جاءَ مُوسَىٰ لأجل مُقَابَلتِنَا فِي مِيقَاتِنا المكانيّ والزّماني، وكلَّمَهُ رَبُّه، والمعنىٰ: لمَّا حصل هٰذانِ الأمران.

يتحدَّثُ الله عزَّ وجلّ عن نَفْسِهِ بضَمِير المتكلّم العظيم، إشعاراً بقيمةِ هٰذِهِ المقابلَةِ الْجَلِيلة الّتي كرَّمَ اللّهُ بها مُوسَىٰ فكلَّمهُ فيها تكليماً مُبَاشراً دُونَ وَاسِطَةِ رَسُولٍ من الملائكةِ يَنْقُلُ له كلام رَبّه.

وجاء في العبارة وضعُ الاسم الظّاهِر في ﴿رَبُّهُۥ﴾ موضع الضمير، إذْ كان الظاهر أن يأتي في العبارة: «وكلَّمْنَاهُ» فَعُدِلَ عنه للدَّلالَة علىٰ أنَّ هٰذا التكليمَ يَتَعَلَّقُ بخَصَائِصِ صِفَات رُبُوبِيّة الله لعباده، الّتي تَسْتَدْعي أن يَعبُدُوه وحْدَهُ إلَٰهاً لاَ شَرِيكَ له، في حُدُودِ شرائعه وأحْكامه ووَصَاياه وبيانَاتِه الّتي يُنْزلُها إليهم.

«لَمَّا»: ظرف زمانٍ بمعنى «الحين» وتختصّ بالدُّخول على الماضي،

ويكُونُ جوابُها فِعلاً ماضياً، أو جملةً اسميَّةً مقرونة بالفاء، أو بـ «إذا» الفجائية.

● ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾: أي: لمَّا حَصَلَ الأمْرَان اللّذان سَبَقَ بيانُهما، قالَ مُوسَىٰ رَبِّ أرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، هذا جواب «لَمَّا».

لَقَدْ تَجرَّأَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَعْدَ التَّكْلِيم الإيناسِيّ الَّذِي كلَّمَهُ إيَّاهُ رَبُّهُ دُونَ أَنْ يُرِيَهُ ذَاتَهُ جَلَّ جَلالُه، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ رُؤْيَةِ ذَاتِهِ بِبَصَرِه.

أي: رَبِّ ارْفَعْ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ذَاتِكَ الْحِجَابَ ومَكّنِّي مِنْ رُؤْيَتِكَ أنْظُرْ إليكَ.

فَفِعْل: «أَرِني» سأل به موسَىٰ عليه السّلامُ شيئاً يَفْعَلُه رَبُّهُ له، وهو رفْعُ الحجاب، وتَمْكِينُهُ مِنْ رُؤْيَةِ ذَاتِهِ العليَّةِ.

وفِعْل: «أَنْظُرْ» دلَّ على عمَلٍ يقُومُ بِهِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، بمَعُونَةِ اللّهِ له، بَعْدَ أَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ له مَطْلُوبه، فَهُو جَوَابُ الطَّلَب في «أَرِني».

والمعنى: رَبِّ إنْ رَفَعْتَ الحجابَ وَمَكَّنْتَنِي وأَعَنْتَنِي على النظر إليكَ، فأنَا انظُر إليك.

● ﴿...قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى... ﴿١٤٣﴾﴾.

دلَّتْ هذِهِ العبارة على أنّ اللّهَ جلَّ جلالُهُ، قَدْ أبَان لموسَىٰ عليه السَّلام، عَجْزَ تَكْوِينِهِ الْبَشَرِيّ في الحيَاةِ الدُّنيا عن رؤيَة رَبِّهِ، فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾.

ولئَلاً يتصوَّرَ عليه السَّلامُ، أَنَّ اللّهَ عزّ وجلّ لَمْ يشَأْ أَنْ يمْنَحَهُ فَضْلَ هذه الرُّؤيَة، مع وُجُودِ الاستعداد التكوينيّ لدَيْه الَّذِي يُؤَهِّلُهُ لرُؤية ربّه، اسْتَدرَكَ فوضَعَهُ في تَجْرِبَةٍ عَمَلِيَّة، أظْهَرَ لَهُ فيها عَجْزَهُ بحَسَبِ تكوينه

البشريّ عَنْ مُشاهَدَةِ بَعْضِ تَجلّي اللّهِ عزّ وجَلّ لِلْجبل، وأَخْبَرَهُ أنّ الجبَلَ إنِ اسْتَقَرَّ في مَكانِهِ فَسَيكُونُ لدَىٰ موسَىٰ في المستقبل البعيد قُدْرَةٌ على رُؤْيَةِ رَبّه في الحيَاةِ الدنيا، وسَوْف يَرَىٰ رَبَّهُ ولَوْ عِنْدَ آخِرِ حَيَاتِهِ، وهذا الوعْدُ مُعَلَّقٌ بِشَرْطِ اسْتِقْرَارِ الْجَبَلِ في مَكَانِهِ، لَكِنِ التَّجْرِبَةُ أَثْبَتَتْ أنّ الْجَبل لم يَسْتَقِرَّ في مَكانِه، وأنَّ مُوسَىٰ لَمْ يَقْوَ على رُؤْيَةِ مُنعكِسِ التَّجلّي الرَّبّانِيّ على الجبَلِ، إذْ صَعِقَ فَخَرَّ مَغْشِيًّا عليه، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿. . فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ. . . ﴿١٤٣﴾﴾:

- ﴿فَلَمَّا﴾: أي: فحِين: ﴿تَجَلَّىٰ﴾: أي: أزالَ الرَّبُّ بَعْضَ ما بَيْنَ ذَاتِهِ الْعَلِيَّة الجليلَةِ وَمَا بين الجبل ـ وهو جَبَلُ الطّور ـ من حُجُب، لَمْ يَقْوَ الجبَلُ على تحمُلِ هذا التَّجلّي، بلْ جَعَلَهُ هذا التجلّي دَكًّا، أي: مَدْكُوكاً، مَدْفُوعاً، سائخاً في الأرض، حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ له أثر مرتَفِعٌ عمّا حوله من الأرض. أقيم الْمَصْدَر «دَكًّا» مقام اسْمِ المفْعُول، وهذا على قراءة الجمهور.

وأمّا على قراءة: [دَكَّاءَ] على التأنيث، فلَها في اللُّغَة معنيان:

المعنى الأوّل: جعَلَهُ أرْضاً مُستويَةً، يُقَالُ: أَرْضٌ دَكَّاءُ، أي: مُسْتَوِيَة، وجَمْعُها دَكَّاوات، كَحَمْرَاء وحَمْرَاوات، أورده المفسّرون.

المعنى الثاني: جعَلَهُ غير ذي وجودٍ ظاهر، كالنَّاقَةِ الدَّكَّاء، وهِيَ التي لاَ سَنَامَ لها، يُقَالُ لُغَةً: دَكَّ الْبَعِيرُ يَدَكُّ دَكَكاً، إذَا ذَهَبَ سَنَامُهُ، فَهُوَ أَدَكُّ، والنَّاقَةُ دَكَّاء.

ولا بُدَّ أن نَعْلَم أنّ اللّهَ عزّ وجلَّ قَدْ أَبْقَىٰ الْحُجُبَ دُونَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ عَنْ تَجلّيه.

روى الإمام أحمد والترمذيُّ والحاكم عن أنَسِ بن مالِكٍ رضي اللّهُ عنه، أنّ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قَالَ:

«هَكَذَا بِأُصْبَعِهِ، ووضَعَ النبيُّ ﷺ الإبْهَامَ عَلَىٰ المِفْصَل الأعْلَىٰ من الْخِنْصَرِ فَسَاخَ الْجَبَلُ» قال الترمذي: حسنٌ صحيح غريب، وقال الحاكم: حديثٌ صحيح على شرط مسلم.

أي: كان مقدارُ التجلِّي قليلاً جدّاً، بمِقْدَارِ وضع الإبْهَامِ علىٰ شيءٍ ما.

● ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾: أي: وسَقَطَ مُوسَىٰ عليه السّلام بدُون تَوَقّفٍ على الأرض، من أثَرِ مُشَاهَدَتِه للْجَبَلِ وهو يندَكُّ، إذْ لَمْ يتحمَّل أثَرَ انْعِكَاسِ النُّور الرَّبَّانِيّ عن الْجَبَلِ المندَكّ، ويظهر أنّه خرَّ في اتِّجاه وجهه.

﴿صَعِقًا ﴾: أي: مَغْشِيًّا عَلَيْه في حالَةِ إغْمَاءٍ، وقيل: مَيّتاً، ولعَلَّ الأوّل أرْجَح.

يُقَالُ لغة: صَعِقَ الرَّجُلُ يَصْعَقُ صَعَقاً، وصَعْقاً، وصُعَاقاً، أي: غُشِيَ علَيْه، ويأتي بمعنَىٰ هَلَك، فهو صَعِقٌ، وهي صَعِقَةٌ.

وثبَتَ في صحيحَي البخاري ومُسْلِم، عن أبي سَعِيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«لاَ تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأنْبِيَاءِ، فإنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يوْمَ الْقِيَامَة، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أوّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإذَا أَنَا بِمُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قوائِمِ الْعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ».

«لاَ تُخَيِّرُونِي»: أي: لا تَجْعَلُوني الأَخْيَرَ مِنْ بَيْنِ الأنبِيَاء عَلَىٰ سبيل المنافسة.

«فَإنَّ النّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: أي: حينَ يتجلَّىٰ اللَّهُ لَهُمْ في موقف الحساب.

وقد دَلَّ هذا الحديث على أنّ الرسول محمّداً ﷺ قد أعطىٰ لموسَىٰ

فَضلَ السَّبْقِ للإِمْسَاكِ بقَائمة من قوائم الْعَرشِ، إمَّا لأَنَّهُ يُفِيقُ من الصَّعْقَةِ قَبْلَه، وإمَّا لأنَّهُ لم يَصْعَقْ مُكَافَأَةً له، إذْ سَبَقَ أن ذَاق هٰذِهِ الصَّعْقَة في الدُّنيا عنْدَ جَبَلِ الطُّور.

- ﴿... فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾:

أي: فَحِينَ أَفَاقَ مُوسَىٰ عَلَيْه السَّلامُ مِنْ صَعْقَتِه، قَالَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ، مُنَزِّهاً إِيَّاهُ عن كُلّ ما لا يَلِيقُ بجلالِهِ، وعظيم سُلْطانه، وعُلوّ شأنه، قائلاً: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: أنَزّهُكَ تَنْزِيهاً تامًّا عنْ كلّ مَا لاَ يَلِيقُ بك.

وقائلاً: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: أي: رَجَعْتُ إليكَ تائباً من أَنْ أسْأَلَكَ مِثْلَ هٰذا السُّؤَالِ الَّذي لا يَلِيقُ بِمِثْلِي أنْ يَسْأَله.

أقول: إنَّ تَوْبَة الرُّسُل هي تَوْبَةٌ عمَّا لاَ يَحْسُنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُمْ، لأنَّهم في أعْلَىٰ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ المحسنين.

وقَائِلاً: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: وأنا أوّل الْمُؤْمِنِينَ بِكَ إِيماناً بالغيب عن حواسِّي الظاهرة، ولَمْ أطْلُبْ رُؤْيَةَ ذَاتِكَ لْلإيمان بك إيماناً كامِلاً، فَأَنا أوَّلُ المؤمنين بِكَ مِنْ قَوْمِي، وَلَوْ لَمْ أَشْهَدْ ذَاتَكَ بِعَيْنَيَّ.

* * *

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

بعد إعلان موسى عليه السلام تنزيهه لربّه، وتوبتَه من سؤاله ربَّه مَا لا يليق بمِثْلِه، وأنّه أوّلُ المؤمنين:

- ﴿قَالَ﴾ اللّهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه:
- ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾:

نَادَى اللَّهُ مُوسَىٰ بنداء البَعيد ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ مَع كَمَالِ الْقُرْبِ، للاشْعَارِ بِبُعْدِ المسافة المعنويةِ بَيْن الرَّبِّ وبَيْنَ الْعَبْدِ، مَهْمَا قَرَّبَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ نَجِيًا، أي: مُنَاجِياً له من دون سائر الناس.

- ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي: إنّي اخْتَرْتُكَ، وانْتَقَيْتُكَ، وفَضَّلْتُكَ على النَّاسِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِك، ويَحْمِلُ الاصْطِفَاءُ معنى انْتِقَاء صَفْوَةِ العباد.

جاء في هذه الجملَةِ تأكيد اصطفاء الله له وامتنانه عليه بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ وجعل الخبر جملة فيها ضَمِير المتكلّم» ليسْتَحِثَّهُ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ عَلَىٰ المطْلُوب مِنه.

- ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي: مُؤْثِراً وَمُفَضّلا إِيَّاكَ عَلَىٰ جميع الناسِ من أهل زمانِك بمزيَّتَيْن:

الْمَزِيَّةُ الأُولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ بالجمع مُرَاعَةً لِمَا كانَ يُكلِّفُهُ إِيَّاهُ آناً فآناً، حَامِلاً بِهِ رِسَالاَتٍ للناس بصُورَة مُنَجّمَة. أَمَّا على القراءَة الأُخْرَى: [بِرِسَالَتِي] بالإفْرَاد، فَقَدْ رُعِيَ فيها عُمُومُ رِسَالَتِهِ مُنْذُ بِعْثَتِهِ حَتَّىٰ وَفَاتِه عَلَيْهِ السّلام.

المزيَّة الثّانية: دلَّتْ عليها عبارة: [وَبِكَلامِي] أي: وبكلامي المباشِرِ لَكَ مِنْ وَرَاءِ حجابٍ، دُونَ وَسَاطَةِ رَسُولٍ من الملائكة يَنْقُلُ إِلَيْكَ كَلاَمي، والمراد مُنَاجَاتُهُ لَهُ في الأوقاتِ الّتي ناجاه فيها، أَمَّا في سائِرِ الأوقَات فَقَدْ كان جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ هو السّفير الرَّبَّانيّ الَّذِي كان ينْقُلُ مَا يُوحِي اللَّهُ بِهِ إليه.

ونُلاحظُ في رسالة موسَىٰ الجامعة لرسالاتِ متعدّدات مُتَفَرِّقَاتٍ، أَنَّها امتازَتْ عن سائِرِ رسالاتِ الرُّسُلِ بعدَّة ميزات:

- أَنَّها حَمَلَتْ مُهِمَّةَ مُعَالَجَةِ فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ من القبط.

- ومُهِمَّةَ قيادة بني إسرائيل وتَرْبِيَتِهِم ومعالجتهم بالصَّبْرِ والتثبيت، وشَحْنِ القوى، لاستخراج مَشاعِرِهم من الخنوع والرضا بالمذلَّةِ والعبوديَّة لآل فرعون، ورَبْطِهِم بدين اللّه الحق.

- ومُهِمَّةَ تَبْلِيغ دِين اللّهِ للمصرّيين ولبني إسرائيل.

- والآيَاتِ التِّسع الَّتِي آتاه اللّهُ إياها، وكيف يتعامل معها في معالجة المعاندين المجرمين، ذوي الجبروت والسُّلْطان، والدولة الاستبدادِيَّة الظَّالمة المستَعْبِدَة.

ومعلُومٌ أَنَّ معالجةَ فِرْعَوْن وآلِه وسائر المصْرِيين، مع معالجة بني إسرائيل المنفصلين أعراقاً وأنْساباً وَعَقَائِدَ ومَفْهومات عن المصريين، والمتشابِكِينَ معهم في بيئة اجتماعيّة واحدة، والمستَعْبَدينَ لَهُم، تتطَلَّبُ خصائصَ نَفسِيَّةً عالية، وإرادَةً قويَّةً حازمة، وحِكْمَةً رفيعة في تَصْرِيف الأمور، وقدراتٍ جسَدِيَّة تتحمّل المشقات، ومُؤَهِّلاتٍ إدَاريّة فَذَّة.

كلُّ هٰذِهِ الرّسالات، قد كانت ذوات ميزات تحتاج أن يَصْطَفِيَ اللّهُ لَهَا إنْسَاناً من أولي الْعَزم، يتمَتَّع بخصائص وميزاتٍ تُؤَهِّلُهُ لحملها.

وأُؤَكِّد أنَّ التميُّزَ بِبَعْضِ الْخصَائص لا يَقْتَضِي التَّفْضِيل الْعَامَّ على جميع الرُّسل، فالاصطفاء لحمْلِ مُهِمَّاتٍ تَتَطَلَّبُ ميزاتٍ خاصَّة قَدْ يَنْفَرِدُ بِهِ مُصْطَفىً بعينِه، وقَدْ تُوجَدُ مهمَّاتٌ أخرَىٰ يصْطَفِي الله عزّ وجلّ لَهَا مصْطَفىً آخَرَ، لَهُ ميزاتٌ يَنْفَرِدُ بِها عَنْ غَيْرِهِ.

وقد أعْلَمَنا اللّهُ جلَّ جلالُه أنّه فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسل على بَعْضٍ، فقال تبارك وَتعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ. . . ﴿٢٥٣﴾﴾.

ومع أن محمّداً ﷺ قَدْ فضَّلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ على جَمِيع المرسَلِين، فإنّ الرّسُول لم يَسْمَح لِأُمَّتِه بأَنْ يُفَاخِرُوا برسُولهم، ويُخَيِّرُوهُ على سائر الرُّسل، لمَا في هٰذِهِ المفاخَرَةِ من تنافُسٍ دافِعُهُ الأنانيّةُ في دوائر الأُمَم والشُّعُوب، والرَّغْبَةُ في الاستعلاء في الأرض، مع أنّ الأَمْرَ يَرْجِعُ إلى فَضْلِ اللَّهِ بقضائِهِ وقَدَرِه، لا إلى المكْتَسَبَاتِ الإراديَّةِ الّتي قَدْ يُسْمَحُ فيها بالتَّنَافُس.

إنّ التنافُسَ بالرُّسُلِ هو نظير التنافُسِ بالأعراق، وبالأقاليم، وبالهبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتي لا كَسْبَ للنَّاس فيها، فَنَهْيُ الرّسُول محمّد ﷺ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ على هذا المعنَىٰ.

وبَعْدَ أنْ أبان الله لموسى عليه السَّلامُ أنَّهُ اصطفاه على الناسِ بِرِسَالاَتِه وبكلامه، قال له:

● ﴿.. فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

أي: فَارْعَ يا مُوسَىٰ حُقُوقَ هذا الاصطفاء، فَخُذْ ما آتيتُكَ من تعليمات، وبيانَاتٍ، وما آتيتُكَ في الألواحِ الّتي كتَبْتُها لك بأمْري من شرائع وأحكامٍ وَوَصَايَا، والمراد بأَخْذِها المحافَظَةُ عليها، وتَذَكُّرها، والعَمَلُ بما جاء فيها، وعَدَمُ إهمالها.

وكُنْ من الشّاكِرِينَ لِمَا أَنْعَمْنَا بِهِ عَلَيْكَ، ولِمَا فَضَّلْنَاكَ بِهِ، ولِمَا اصْطَفَيْنَاكَ لَهُ.

والمعنى: وكُنْ شَاكِراً مِنَ الشَّاكِرِينَ الَّذِينَ اصطفَيْنَاهم مِن المرسَلين، وفي هذا إلْمَاحٌ لَهُ بأنْ يقتَدِيَ بالشّاكِرِين من قَبْلِهِ، كإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إنْعام المنعِم بما يُرْضِيه، من فِعْلٍ أو تَرْك، أوْ أيِّ شيءٍ مادِّيّ يَسُرُّه، وقد يشملُ القولَ الذي فيه ما يُرْضَى المنعِم، إلاَّ أَنَّ بَعْضَ القَوْلِ يَخْتَصُّ بعنوان الحمْدِ والثناء.

إنّ زيادة المنَحِ والْعَطَايا الرُّبَّانِيّة في حياة الابتلاء، ولو كانت للمصْطَفَيْنَ الأخيار مِنَ الأنبياء والمرسَلِين، تَقْتَضي زيادة التَّكاليف، وتحميل الأعْبَاء الثقال، ولهذا كان أكْثَرُ الناس بلاءً الأنبياء علَيْهم السّلام، ثُمّ الأمثَلُ فالأمْثَل، أي: الأشبه فالأشبه.

فأكثر الأَنْبِياءِ والمرسلين بلاءً (أي: امتحاناً بالتكاليف الشّاقة) هُمْ أَكْثَرُهُمْ اصطفاءً وتفضيلاً، وتمييزاً بالعطايا والهبات الرَّبَّانية، من خصائص النبوّة والرّسالة، لمَا تَسْتَتْبِعُ مِن تفضيل عظيمٍ يوْمَ الدّين في موقف الحسَاب، وفي جنَّاتِ النعيم.

وهٰذِهِ إحدى السُّنَنِ الرَّبّانية الحكيمة في التفاضُلِ بين العباد، القائم على القوانين القدريَّةِ الجبْرِيَّة.

دَلّنا على هذه المفاهيم من الآية هُنَا تَرتيب التكليف على الامتِنَان بالاصطفاء الخاص، وتدلُّ عليها أيضاً نُصوص أُخرى موزعةٌ في القرآن المجيد.

وبعدها جاء قول الله عزّ وجلّ في السورة:

● ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

يُحَدّث الله عزّ وجلّ عن نَفْسِه بضَمِير المتكلّم العظيم، أنّه كتَب لموسَىٰ في الألواح من كلّ شيءٍ مَوْعَظَةً، وكتَبَ له تفصيلاً لكلّ شيء، وكتابَةُ الله في الألواح تَتِمُّ بأمْرِ التكوين.

اللَّوْح: كُلُّ صفيحة عَريضَةٍ من خَشَبٍ أو عظم أو غير ذلِكَ، كصفائح الحجَارة.

جاء في سِفْر الخروج عند أهل الكتاب أنَّهما كَانَا لَوْحَيْن من حجارة.

أقول: ولا يَبْعُد أنّ موسَىٰ عليه السّلام كان قد أعَدَّ اللّوحَيْن من الحجارة، ليَكْتُبَ الله له عليهما ما كان قد وعَدَهُ، من أن يسجّل له ولقومه من الذّين مَا يأتُونَهُ وَمَا يَذَرُونه، ولهذا عرَّفَ الله في الآية الألواحَ بأداة التعريف الّتي تفيد التعيين، إذْ هي «ال» الّتي للعهد.

وجاء في سفر الخروج أيضاً أنّ اللّهَ كتب له اللّوْحَيْن بأُصْبَعِهِ علَىٰ الوجْهَيْن من كلّ لوحٍ منهما.

أقول: فتكون بذلك أربعة ألواح باعتبار وجوه الكتابة.

قال ابْنُ كثير: «ففي الصحيح أنّ الله كتَبَ له التوراة بِيَدِهِ، وفيهَا مواعظ عن الآثام، وتفصيلٌ لكلّ ما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ من الْحَلالِ والحرام».

- ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ أي: كَتَبَ لَهُ مَوْعظةً من كلّ شيءٍ هو من مَطْلُوبَاتِ الدّين الّذي اصطفاه لهم يومئذٍ، ويظهر أنّ المراد أنّه كَتَب له مَوعظةً من كلّ نوعٍ، أو قِسْمٍ من أقسام المواعظ، الّتي من شأنها أن تدفع المستجيب، للاستمساك بالدّين وتعليماته.

الموعظة: ما يكون به الوعْظُ من قولٍ أو فعلٍ. **والوعْظُ**: هو النُّصْحُ بالفعل أو بالتّرْك، المقرون بما يُثِيرُ الرَّغْبَة أو الرَّهْبَةَ في النفس، للانْتِفَاع بالنُّصْح، واتّبَاع ما هَدَىٰ إليه فِعلاً أو تركاً.

- ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: وَتبْييناً مُفصَّلَ الْعَناصِر بعْضَها عن بَعْض، لكُلّ شَيْءٍ من شرائع الدّين وأحْكامه، ممّا هو مطلوبٌ منْهُمْ أن يأتوه أو يتركوه، فالقرائن الفكرية، وقرائن السِّبَاق والسِّيَاق، تدلُّ على أنّ العموم في عبارة: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ مُرادٌ به ما يَشْمَلُ الأحكام الدّينيّة، الّتي قَضَىٰ اللّهُ جلّ جلاله أن يُنْزلها إليهم ويُبيِّنَها لهم في ذلك الوقْت.

جاء في الآية تَقْدِيم: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ على: ﴿مَّوْعِظَةً﴾ وتَأْخِيرُ: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ عَنْ: ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ لإحكام الْفَصْل بيْنَ القضيَّتَين.

● ﴿ . . فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾:

هذه العبارة من الآية جاءَتْ كلاماً مقْتَطَعاً من الحدَثِ إبَّانَ حُدُوثه في إبداعِ فَنِّيّ أَلِفْنَاهُ في كثيرٍ من نُصُوص القرآن المجيد، فالكلامُ المقتَطَعُ من الحدثِ إبَّانَ حُدُوثه، والمقَدَّمُ في أثناء البيان الخبريّ بصيغَتِه الإنشَائِيّة من الإبداعات البيانيَّةِ الّتي اشتمل عليها القرآن في كثير من نُصوصه.

وقد تكون هذه العبارة مرتَّبةً على كلامٍ مطويٍّ يُمْكن إدْرَاكُ مَعْنَاهُ بالتأمّل، مثل: وهٰذِهِ الألواحُ كتَبْنَاها لك، فيها من كلِّ شيءٍ مَوعظة، وتفصيلٌ لكلّ شيء، فَخُذْها بِقوّة. . . .

● ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾: أي: فَخُذِ الألواحَ، واحْمِلْها إلى قَوْمِكَ، وبلّغْهُمْ ما اشْتَمَلَتْ عليه، واسْتَمْسِكْ بما جاء فيها من أوامر ونواهي وتكاليف وبيانات وتعليماتٍ، بقُوَّةٍ تكافِىءُ المطلوبَ الرَّبَّانيَّ مِنْكَ فيها، بحَسَب نَوْع التكليف، ولاَ تأْخُذْهَا بضَعْفٍ وتكاسُلٍ وتهاونٍ وقِلَّةِ مُبالاتٍ، فالأمْرُ جِدٌّ وليس بالْهَزْل، فقد اصطفيناك وآثَرْنَاكَ بهذا الاصطفاء العظيم، لتَحْمِل رسالاتِ ربّك، وأوامِرَهُ وَنواهيَهُ بِقُوَّةٍ تُكافِىءُ المهِمَّةَ العظيمة الّتي كُلِّفْتَها.

أي: إنَّكَ لَسْتَ كآحاد النّاس حتَّى تضْعُفَ أَوْ تُقَصِّر تُجَاهَ واجبات رسالتِك، إنّك الْقُدْوَةُ والأسْوَةُ الحسنَة في قومِك، فَيجبُ أن تكون النموذَجَ الأعلى في تطبيقِ تَعْلِيمات رَبّك، ويجب أَنْ تَكُونَ الْمُسْلِمَ الأوّلَ المنفّذَ لها.

والقوَّةُ ذاتُ أنواعِ متعدِّدة فمنها ما يلي:

(١) قوة الجسْم على تحمّل المشقاتِ الجسَدِيّة.

(٢) وقوة الإرادة في التوجُّهِ لتنفِيذِ الأُمُور الكبار وتَحَمُّلِ مصاعِبِها.

(٣) وقوة الهِمَّةِ والْعَزْمِ.

(٤) وقوّةُ الصَّبْرِ والصُّمودِ على تحمُّلِ المشقَّاتِ الماديَّةِ والمعنويَّة.

(٥) وقوة المغامَرَةِ الحكيمَةِ جهاداً في سبيل اللَّهِ.

(٦) وقوة الحجَّةِ وبيان الحقّ والدّفاعِ عنه.

(٧) وقوة ضَبْطِ العواطف، وعَدَم التأثر بها والاستجابة لها، إذا كانت سائِرَة في اتِّجاهٍ مُعَاكِسٍ للمطْلُوب الرَّبَّاني.

- ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾:

أي: وأمُرْ يَا مُوسَىٰ قَوْمَكَ لِيَأْخُذُوا بأَحْسَنِ مَا كَتَبْنَا لَكَ في الألواح.

والمرادُ بالأخْذِ المحافَظَة على الأحْسَن، وَتَذَكُّرُهُ، والعمل به.

وقد يشكل على المتدبّر التَّعْبيرُ بعبارة: ﴿بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ الدّالَّة علىٰ أنّ فيها حسناً، وأنّ فيها ما هو أَحْسَن، وأَنَّهم مُكَلّفونَ إلزاماً بأنْ يأخُذوا بما هو الأحْسَنُ منها.

وقد جاء نظير هذا التعبير في القرآن المجيد بالنّسبَةِ إلى مَا جاء في القرآن نفسه.

- فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

- وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

فكيف نفهم أنّ بعض ما جاء في الألواح الّتي كَتَبها الله لموسَىٰ أحْسَنُ من بَعْضٍ، وأنّ بعض مَا جَاء في القرآن المجيد أحْسَنُ منْ بعض؟

أقول: تَتَوارَدُ على أذهانِنا في الإجابة على هذا السؤال عدَّةُ احتمالات، أوْلاَها بالاعتبار أنَّ الأوامِرَ والنواهِيَ الدِّينيَّة في القرآن، وفيما كَتَب الله عزّ وجَلّ في الألواح لموسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، قِسْمان بالنسْبَةِ إلى المطلوب فيها:

القِسْمُ الأوَّل: هو الأحْسَنُ، وقَدْ أَمَرَ اللّهُ به أَمْرَ إيجاب وإلْزَام فعلاً كانَ أمْ تركاً، فأحَبُّ الأعمال إلَىٰ الله أنْ يُطيعُوهُ فيما فرض عليهم أنْ يَفْعَلُوه، وفيما فرض عليهم أن يتركوه، فهي الأحْسَن.

القسم الثاني: هو الحَسَن، وقد أَمَرَ الله به أمْرَ نَدْبٍ وتَرْغيب، دون إيجاب وإلْزَام، فِعلاً كان أمْ تركاً.

فهذه نوافِلُ حَسَنَةٌ يَتَقَرَّبُ بها الْعَبْدُ إلى رَبّه، وفي هذا القِسْم يتَسَابقُ ويتَنَافَسُ طالِبُو المراتب العليّة عند ربّهم من الأبْرارِ والمحسنين.

وعلى هذا فَمَعْنَىٰ قول الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ وأمُرْ قَوْمَكَ أَمْرَ إلزامٍ وإيجابٍ لِيَأْخُذُوا بأحْسَنِهَا، وهي الفرائض الّتِي ألْزَمَهُمُ الله بفِعْلِها، والمحرَّمات الّتِي ألْزَمَهُمْ بِتَرْكها.

أمّا الأشياءُ الحسنة الأُخْرَىٰ، فادْعُهُمْ إلى الأخْذِ بها تَرْغيباً ونَدْباً، ليتسابق المتَسَابقُونَ منهم في الخيرات على اختلاف رَغباتهم وهِمَّاتِهِم، وتطَلُّعَاتهم بشَوْقٍ إلى المراتب العليّة عند الله.

أمّا مُوسَىٰ عليه السّلام فقدكان مُكلّفا إلْزاماً بأنْ يأخُذَ بالأَحْسَنِ وبالْحَسن، لأنّ اللّهَ عزّ وجلّ قال له: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ أي: فَخُذْهَا جَمِيعاً بِقُوَّة.

● ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: أي: سأريكم أرْضَ الشَّام، إذْ كانت يومئذٍ دار الفاسقين، فقد كان يمْلِكُها مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ كَافِرونَ فاسِقُون، وشُعُوبٌ وثنيّةٌ فاسِقَة.

جاء في سفر الخروج أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ كشَفَها لموسى عليه السلام فأراه إيَّاها، دون أنْ يَدْخُلَها.

أَمَّا مَنْ بقي من بني إسرائيل بعد أن تاهوا في الأرض أربعين سنَة، فقد أدخلهم الله إياها فاتحين بعد أن توفَّى اللَّهُ عزّ وجلّ هارون وموسى.

وجاء التعبير بفعل: ﴿سَأُرِيكُمْ﴾ كِنَايَةً عن دُخُولِهم بلاد الشّام، وانتصارهم على أهل البِلاد الفاسقين، والاستيلاء عليها بنَصْرِ اللَّهِ لهم، وتمكينهم من طَرْدِ الكفرة، ولكن فيه إشعارٌ بأنهم لَنْ يَسْتَقِرُّوا فيها طويلاً، إذْ سَتَنْزِلُ في أجيالهم عقوبة الله بسبب انحرافهم عن دين الله، وفِسْقِهم وفسادِهم وإفسادهم في الأرض، وهذا ما حصل لهم فعلاً.

وجاء عند أهل الكتاب في الاصحاح الثالث والعشرين، من سفر الخروج، أَنَّ الله عزّ وجلّ بَشَّرَ بَنِي إسرائيل، بأنه سَيَنْصُرهم على جميع الشعوب الذين سيقاتلونهم في الأرض الّتي وعَدَهُمْ أَنْ يُرِيَهُمْ إيَّاها، فقد جاء فيه خطاباً لشَعْبِ إسرائيل:

«٢٧ أُرسِلُ هَيْبَتِي أَمَامَكَ وأُزْعِجُ جَمِيعَ الشُّعُوب الَّذِينَ تَأْتِي عَلَيْهِمْ وأُعْطِيكَ جَميعَ أَعْدَائِكَ مُدْبِرِينَ ٢٨ وأُرْسِلُ أَمَامَكَ الزَّنَابِيرَ فَتَطْرُدُ الْحِوِّيِّينَ والْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ مِنْ أَمَامِكَ».

وجاء فيه أيضاً:

«فَإِنِّي أَرْفَعُ إِلَىٰ أَيْدِيكُمْ سُكَّانَ الْأَرْضِ فَتَطْرُدُهُمْ مِنْ أَمَامِكَ ٣٢ لاَ تَقْطَعْ مَعَهُمْ وَلاَ مَعَ آلهتهم عَهْداً ٣٣ لاَ يَسْكُنُوا في أَرْضِكَ لئلاَ يَجْعَلُوكَ تُخْطِيءُ إليَّ. إِذَا عَبَدْتَ آلِهَتَهُمْ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ فَخًا».

ونحو ذلِكَ جاءَ في الإصحاح الرابع والثلاثين.

لكِنَّ أجيالَ بني إسرائيل لم يحفَظُوا وَصَايا الرَّبّ، لمَّا سَلَّطَهُمْ على بلاد الشّام، فأجرىٰ فيهم سُنَّتَهُ الَّتِي أجْرَاهَا في الأمم من قَبْلِهِم، وشَتَّتَهُمْ، واسْتَذلّهمْ، وقَضَىٰ عَلَيْهم بأن يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِلَىٰ يَوْمِ القيامة، مهما علَوْا في الأرض، لأنَّهم كَذَّبُوا رُسُل اللَّهِ اللاّحِقِينَ، وكَفَرُوا بما أَنْزَلَ الله من كُتُب بَعْدَ التوراةِ، إذَا لم تُوافِقْ هواهم، وَغَيَّرُوا وبَدَّلُوا في الكُتُب الّتي اعْتَرَفُوا بِها.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾:

الذي يظهر أَنَّ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ تَوابعَ خِطَابِ الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السّلام، في رحلة لقائه رَبَّهُ بجانب جبل الطّور كَمَا واعَدَهُ.

- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾:

هذه العبارة تَدُلُّ على سُنَّةٍ من سُنَنِ اللَّهِ الدّائمة في عباده، وهي إحدَىٰ أنْظمِةِ التكوين للنّفْسِ الإنْسَانيّة.

أي: سَأُحَوِّلُ وَأَرُدُّ عن إدْرَاكِ آياتي، أو عن الاستجابَة لِما تُوَجّه له، الّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ مُتَعَاظِمِينَ علىٰ نُظَرَائِهِم من خَلْقِ اللَّهِ تَكَبُّراً بِدَوافعَ نَفْسِيَّةٍ باطِلَةٍ، لاحَقّ فيها يُسَوِّغُ لهم أَنْ يَتَكَبَّرُوا، إذْ لَيْسَ لهم كِبَرٌ حَقِيقِيٌّ يُثْبِتُونَهُ

لأنفُسِهِمْ، بل هم مُدَّعُونَ ادِّعاءً كاذباً في أقوالهم وأعْمَالِهِمْ أَنَّهُمْ كُبراء، مع أَنَّهُمْ صِغارٌ ضَئِيلُونَ في ذوات أنفسهم.

● ﴿عَنْ ءَايَتِيَ﴾: الآيَةُ في اللُّغَةِ العلامَةُ ذَاتُ الدَّلاَلَةِ على أمْرٍ مَا، بتكوينها وصِفَاتِها الذّاتِيّة، أو بالوضع الاصطلاحي، ومِنْهُ الكلامُ ذو الدّلاَلاَتِ الحقيقيّة والمجازيّة.

وآياتُ الله عزّ وجلّ تنقسم إلى أربعة أنواع.

النوع الأول: الآياتُ الكلاميَّةُ المنزلَةُ على رُسُلِ الله، كآيات التوراة، وآيات الإنجيل، وآيات القرآن المجيد.

وهذا النوع يشتمل على بَيانِ الحجج والبراهين العقليّة، والأَخْبَارِ عَمَّا كان أو هو كائن أو سيكون أو سوف يكون، وعلىٰ بيان مَطْلُوبِ الله من عباده في رحلة امتحانهم في ظروف الحياة الدنيا.

النوع الثاني: الآياتُ الإعجازية التي يجريها الله عزّ وجلّ لِرُسُلِهِ عجائبَ وخوارِقَ للعَادَاتِ، ليشهد الله لهم عن طريق دَلاَلَتِها أنّهم صادقون في نُبُوّاتهم ورسالاتهم، وأنّ ما جاءُوا به مُبَلِّغِينَ إيَّاهُ عن اللَّهِ هو من عند الله حقًّا وَصِدْقاً، كعصَا موسَىٰ عليه السلام، وآية يَدِهِ، إلى سائر الآيات التِّسْع الّتي أجراها له، وكآيَةِ إحياءِ الموْتَىٰ لِعِيسَىٰ عليه السّلام، وكآيَةِ إخراج الناقة من صَخْرَةٍ عَيَّنَها قوم النبيّ الرسُول صالح عليه السّلام، وَكالمعجزات الّتي آتاهَا الله محمّداً ﷺ، ومنها معجزة انْشِقَاق القمر.

النوع الثالث: الآيَاتُ الجزائية، وهي الآيات الّتي تَأتي عِقَاباً للظَّالِمين على مَا كَان منهم من ظلم، أو بغي وفساد وإفساد في الأرض. والآيَاتُ الّتي تَأْتِي ثَواباً للمؤمنين الّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وصَبَرُوا ابتغاء مرضاة الله، كالنصر الذي يحقّقُهُ الله عزّ وجل، للفئة المؤمِنَةِ القليلَةِ المجاهدة في سبيله، على الفِئَةِ الكافرة الكثيرة، المتفوقة في أعداد مُقَاتِليها وفي أَسْلِحَتِهم.

النوع الرابع: الآيات الكونيَّةُ الدّالاَّت على صِفَاتِ اللَّهِ الرَّبِّ خالِقِها، والمتصرِّفِ في أحداثها وَتغيّراتها، وهي كلُّ ما خَلَقَ اللَّهُ من شيءٍ في هذا الكون الفسيح، والإنسُ والجنُّ بأجْسَادِهم وأنفُسِهِمْ جزءٌ من هٰذِهِ الآيات الجليلات.

وقد يأتي التعبير بالآيات في القرآن شاملاً لكلّ هذه الأنواع الأرْبعة، وقد يأتي خاصًا أحْيَاناً بِبَعضها، وقد يُعَادُ الضمير على الآيات مُراداً بها نوعٌ آخرَ غير النوع الّذِي أُرِيدُ بها عند ذِكْرِها بالاسم الظاهر، باعتبار أن اللّفظ شامل بدلالَتِه العامَّةِ كُلَّ الأنواع، وعلى متدبّر كلام الله عزّ وجلّ أنْ يكون لمّاح الإدْرَاكِ يُعطِي كُلَّ تعبيرٍ ما يُلائِمُهُ من المعنى.

قَدْ يقول قائل: لماذَا يَصْرِفُ الله عزّ وجلّ عن إدْراكِ دَلالاتِ آياته، أو عن الاستجابة لما تُوَجّهُ له، الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحقّ؟! أَلَيْسَ هذا من أسْبَاب الْجَبْرِ على الضَّلال؟!

والجواب: أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ نظم كَوْنَه تَنْظِيماً محكماً في أسْبَابِه ومُسَبَّاته، وجعل له قوانين ثابِتَةً لاَ تَتَغيّر إلاَّ إذا أَرَادَ هو تغييرَهَا لأمْر اقْتَضَتْه حِكْمَتُهُ، وهذه القوانينُ تَعْمَلُ بقضاء الله وقَدَرِه وخَلْقِه، وهٰذه القوانين ذوات مفاتيح من اهتدَىٰ إليها من ذوي الإراداتِ الحرَّةِ، وجَدَ القوانين مُسَخَّرَةً له، تُطِيعُهُ وفْقَ أنْظَمِتِها الّتي جعَلَهَا الله لها، مع أنَّها لا تَعْمَلُ إلاَّ بقضاءِ الله وقَدَرِهِ وخَلْقِهِ.

إنّ الآلَةَ الَّتِي تتحرَّكُ بالطَّاقة الكهربائية، إذا فَتَحْتَ مفْتاحَها فَدَخَلَتْ إليها الطَّاقَةُ الكَهْربائية أَخَذَتْ تَعْمَل وَفْقَ قُوَّتِها ونِظَامها، ولا تَسْتطيعُ إيقافَ حَرَكَتِها إلاَّ ضِمْنَ قَانُون إيقافها، ومن وسائل إيقافها بحَسَب قانونِها أَنْ تَفْصِلَ عَنها الكهرباء.

إنّ مَدِينَةً عظيمةً تُحرّكُ آلاَتِها وَمَعَامِلَها الكَهْربائية بِوَصْلِ الكهرباء، وتُوقِفُها بِفَصْلِه.

وصَارُوخٌ عابِرٌ لِلْقَارَّاتِ، إذَا ضَغَطَ الْقَائِمُ علىٰ أَمْرِهِ، والعالِمُ بنِظامِه علىٰ الزِّرِّ الخاصِّ بدفْعِه ضَغْطَةً بِأُصْبَعِهِ، انْطَلَقَ ضِمْنَ قانونِه الرَّبّانِيّ وضِمْنَ نظامه، ولم يَسْتَطِعْ رَدَّهُ ولاَ إيقافَه، إلاَّ إذا اهْتَدَىٰ إلى مَفَاتيح رَدِّه أو إيقافه، الَّتِي جُعِلَتْ له، ضِمْنَ قوانين الله وأنظمته العامّة.

وهَكَذَا لِكُلِّ عَمَلٍ ولِكُلِّ نَتِيجَةٍ في قوانين اللّهِ وأَنْظَمَتِهِ أسْبابٌ ومَفَاتيح، جعَلَهَا الله عزّ وجلّ مُسَخَّرَةً لِمَنِ اهْتَدَىٰ إليها، من ذوي الإرادات الحرّة، الَّذِينَ لَمْ يجعَلْهُمْ مجْبُورِينَ على طاعته، ولم يجعَلْهم مجْبُورِينَ علىٰ معصيَتِه، بل جعَلَهُم مخيَّرِينَ لِيَبْلُوَهُمْ ويَخْتَبِرَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا.

ومن أمْثِلَةِ المفاتيح الْعَادِيَّةِ الّتي يَنْتُجُ عَنِ استعمالها باخْتِيَارِ الإنْسَان، أُمُورٌ تَحْجُبُهُ عن الخير أو الهداية، أو تجلُب لَهُ شَرّاً، ضِمْنَ أنْظِمَةِ اللّهِ وقوانينه العامّةِ في مجاري مقاديره، ما يلي:

- من أغْمَضَ عَيْنَيْهِ أَوْ جَعَلَ عليهما عِصَابَةً سَوْداءَ، فاللّهُ جلَّتْ حِكْمَتُه يَحْجُبُ عَنْهُ الرُّؤْيَة، ضِمْنَ قوانينه وأنْظِمَتِهِ الْقَدَرِيَّة.

- ومَنْ شَرِبَ بإرادتِه سُمًّا قَاتِلاً، قَتَلَهُ اللّهُ جلَّتْ حكْمَتُه، بالسُّمّ الذي شَرِبَهُ، ضِمْنَ قوانِينِه وأنظِمَتِه الْقَدَرِيَّة العامَّة.

- ومن أَلْقَى جَسَدهُ من شَاهِقٍ على أَرْضٍ بَعِيدَة صُلْبَة، فيها صُخُورٌ وقِطَعٌ من الْحَدِيدِ الجارح القاتل، فإنّ اللّهَ جلَّتْ حكْمَتُه يُحَطِّمُه ويُمَزِّقُ جَسَدَهُ، بالصُّخُور وبِقِطَعِ الحديد التي رمَىٰ ذاتَه من شاهِقٍ عليها، ضِمْنَ قوانِينِه وأنظِمَتِه الْقَدَرِيَّة العامة.

- ومن لم يُؤْمِنْ باللّهِ واليوم الآخِرِ كِبْراً أَوْ عِناداً أَوْ رَغْبَةً في الْفُجور، لَمْ يُحرّكِ اللّه قَلْبَهُ للطاعة، ولم يَشْرَحْ صَدْرَهُ للأعمال الإسلاميّة، ولَمْ يُثِر عَاطِفَتَهُ لِفعْلِ الخير، ضِمْنَ قوانينه وأنظِمَتِه القدَرِيَّةِ الْعَامَّة.

- ومَنْ يتكَبَّر في الأرْضِ بغَيْرِ الحقّ، لظُلْمِ النَّاسِ واستِعْبَادِهِمْ،

والاسْتِئثارِ الشَّرِهِ بمَتَاعِ الحياة الدنيا وزينتها، واستغلال سُلْطانِه لشهوات نفسه وأهوائها، انْطَمَسَتْ أَدَواتُ الإِدْراكِ فيه عن إدراك آيات الله، أو فَقَدَتْ مراكزُ اسْتجابَتِه النفسيَّة قُدْرَتَها على الاستجابَة لما توجَّهُ له آياتُ الله، ضِمْنَ قوانين اللّهِ وأنْظِمَتِهِ القَدَرِيَّة العامّة.

فإذا كانت الآيات من نوع الآيات الكلاميَّة المنزَّلَةِ على رُسُلِ الله، لم يَلْتَفِتْ إليها، ولم يَتَوجَّهْ لتَدَبُّر معانيها، وفهم دَلاَلاَتها، ولَئِنْ فَهِمَ معانِيها لَمْ يَسْتَجِبْ لما تُوَجِّهُ له.

وإذا كانت الآياتُ من نوع الأيات الإعجازيّة، اعْتَبَرَهَا ضَرْباً من السِّحْر الذي يمارسُه السَّحَرَة، كما حَصَل لِفِرْعَوْن وآله، بالنسْبَةِ إلى الآيات الَّتي آتاها الله موسَىٰ عليه السلام.

وَإذَا كانت الآياتُ من نَوْعِ الآيات الجزائية، اعْتَبَرَها من قبيل التقلُّبَاتِ الكونِيَّة الطَّبيعيَّة، أو مِنَ المصادفات الّتي هي جُزْءٌ من العَوارِضِ العامّةِ، الَّتِي لم تأتِ عَنْ قَصْدٍ وإرادة رَبَّانِيَّةٍ، للجزاء بالعقاب أو بالثواب.

وإذا كانت الآيات من نوع الآيات الكونية العُظْمَىٰ، ذواتِ الدَّلاَلاَتِ على طائفةٍ كثيرة، من صفات الله الجليلة، وأسْمَائه الحسْنَىٰ، كان غَافلاً عَنْها، غَيْرَ مُبَالٍ بها، وكانَ مَشْغُولاً بما يُهِمُّهُ من أمُور شهواتِهِ وأهوائه وَلذَّاتِه من مَتَاعِ الحياة الدنيا وزينتها وزُخْرفِها.

فقول الله عزّ وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ عنها ضِمْنَ القانون الرَّبَّانِيّ العامّ، الَّذي يكون سببُه الإنسانُ الَّذي اسْتَعْمَل ما سَخَّرَ اللَّهُ للناس في كونِه من مَفَاتِيح وأسْباب، فجلَبَ لِنَفْسِه باختياره الحرّ المسبَّبات.

وبِسَبَب الانْصِرَافِ عن آياتِ الله بعامِلِ التكبُّرِ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحقّ، تَحْدُثُ لَدَىٰ المصْرُوفين عَنْهَا عِدَّةُ ظواهِرَ ضِمْنَ قوانِينَ الله وأنْظِمَتِهِ العامّة، وهذه الظواهر دَلَّ عَلَيْها قول الله تعالَىٰ في الآية:

● ﴿... وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا... ﴿١٤٦﴾﴾.

الظاهرة الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾:

أي: وإنْ وَجَّهُوا أَبْصَارهم على سَبِيل الندرة لِرُؤيَةِ كُلِّ آيَةٍ من آيات اللَّهِ الَّتي تُرَىٰ، الإعجازية، أو التكوينيَّةِ الكُبْرَىٰ، لاَ يُؤْمِنُوا بها.

أمّا الآياتُ الإعجازيَّةُ الَّتي يُجْرِيها الله لرُسُلِهِ، فلا يعتَبِرُونَها آياتِ خوارق، وإنَّما يَنْتَحِلُونَ لَهَا تَفْسِيراتٍ أخرى، كادّعاء أنّها من قبيل السّحر.

وأمّا الآيات الكونيَّةُ الكُبْرَىٰ في أنفسهم وفي السّموات والأرض، فيَعْتَبِرُونَها أشياءَ طبيعيَّةً، لاَ دَلاَلَةَ فيها على صفاتِ خالِقها.

الظّاهرة الثانية: دلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾:

الرُّشْدُ والرَّشَدُ: السلوك الفكريُّ والنَّفْسِيُّ والْعَمَلِيُّ والْخُلُقِي الموافق للحقّ والصّواب، أو الموافق لما هو الأفْضَلُ والأحْسَنُ والأَكْثَرُ نَفْعاً، والأبْعَدُ عَن الضَّرَر، وأصْلُ الرَّشَد في اللّغة أن يظْفَرَ الإنْسَانُ بما يُرِيد، وهو ضّد الخيبة.

والمعنى: وإنْ يُوجِّهُوا أبْصَارَهم على سبيل النُّدْرَة لِرُؤْيَةِ سبيلِ الرّشد، لاَ يَتَّخِذُوه سبيلاً لهم، لأنّ سبيل الرشد مُبَاينٌ لِسُبُلِ أهوائهم وشهواتهم ونزعاتهم ونزغاتهم وتكبرِهم في الأرض بغير الحق، واسْتِئْثارِهِمْ بمتاع الحياة الدنيا وزينتها وزُخْرفها.

الظّاهرة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾:

الغيّ: الضلال، والخيبة، والفساد.

والمعنى: وإن يَرَوْا ولَوْ على سبيل النُّدْرَة سبيلاً من سُبُلِ الْغَيِّ المشتَمِل على الضلال والفساد والعاقبة الوخيمة يَتَّخِذُوه سبيلاً، لأنَّه يُحَقِّقُ لهم رَغباتِ أهوائهم، وشهواتهم، ونزعاتهم، الضَّالَة البعيدة عن الحقّ، وعن صراط الله المستقيم.

هذه الظواهر الثلاث تُوجَدُ فيهم بسَبِب انْصِرافِهم عن آيات اللّهِ، الذي كانُوا هم السبب في حُدُوثه، إذْ تكَبَّرُوا في الأرض بغير الحقّ، كما حَصَلَ لِفِرْعَوْن وآله.

- ﴿... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾:

دلَّت هٰذه العبارة على أنَّهم لمَّا اسْتَكْبَرُوا في الأرض بغير الحقّ، كَذَّبُوا بآياتِ الله، وكانُوا عَنْ إدراكِ دَلالاتِها غافلين، فكانَ من آثار ذٰلِكَ الظَّاهرات الثلاث الّتي سَبَقَ شَرْحُها.

الغفلَة: انصرافُ الذهْنِ عن مَلاحظة الشيء ومراقَبَتِه، مع وجوده في مجال الإدْراك، أو وُجُود أدلَّته، وإمكان إدراكه، لولا وُجُودُ الصَّارِفِ، أو السّهو الذي هو بمثابة إطباقِ الجفنَيْن على الْعَيْنَين.

يقالُ لغة: غَفلَ عن الشيء يَغْفُلُ غُفُولاً وغَفْلَةً.

- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَاءِ الْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾:

جاءت هذه الآية رَدّاً على سُؤَال مطويّ لم يُصَرَّحْ به في اللَّفظ، لكِنَّهُ وارِدٌ ومُلاَحَظٌ ذِهْنَا، وهو: قَدْ يَعْمَلُ الْكافِرُون المكذِّبُونَ بآيَاتِ اللّهِ، والمكَذِّبُون بِيَوْم الدِّينِ، أعمالاً صالِحَةً فيها نَفْعٌ وخَيْر، وهي من جِنْسٍ أوْ نوع الأعمال الصالحة الَّتِي يثيبُ اللّهُ عَلَيْها المؤمنين ثواباً جَزِيلاً يَوْمَ الدِّين

فِي جنَّاتِ النَّعِيم، أفَلاَ يُثيبُ اللَّهُ الْكَافِرِين على أعمالهم الصالحة يَوْمَ الدِّين كما يُثيبُ المؤمنِينَ؟؟

والجوابُ: هؤلاَء لم يَعْمَلُوا أعمالهم الصَّالِحَةَ ابْتِغَاء مَرْضَاةِ اللَّهِ، وطَلَباً لثواب الآخِرَة، بل عَمِلُوها لتحقيق مصالح لهم في الحياة الدنيا، ومنها ستر جرائمهم، أَوْ عملوها لتجميع الأنصار والأعوان، أو لكسْب الشُّهْرَةِ والمدْحِ والثناء بين الناس، فهي بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الآخِرَةِ أَعْمَالٌ باطِلَةٌ لاَ قِيمَةَ لها، لأنَّها غَيْرُ قَائِمةٍ على القاعِدَةِ الإيمانية، وثوابُ الأخِرَة لا يتحقَّقُ إلاّ على أسَاسٍ من القاعِدَةِ الإيمانية التي منها الإيمانُ باللَّهِ، والتَّصْدِيقُ بآيَاتِهِ، والْعَمَلُ بوصايا اللَّهِ فيها، والإيمانُ بلِقَاء اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ لِلحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَحْقِيق الجزاء.

أمّا الحياةُ الدُّنْيا فَلِلَّهِ فيها سُنَنٌ حَكِيمَةٌ، فَمَنْ عَمِلَ فيها صالحاً بِقَصْدِ تَحْقِيق مصالح له فيها، أجْرَىٰ اللَّهُ له من سُنَنِه ما يُحَقِّقُ لَهُ من المصالح على مقدار ما قَدَّمَ من عَمَلٍ صالح. ومَنْ عَمِلَ فيها عملاً صالحاً، بقَصْدِ أن يَنَالَ الشُّهْرَةَ والْمَدْحَ والثَّنَاء بين الناس، أجْرَىٰ الله له من سُنَنِهِ، مَا يُحَقِّقُ له من الشُّهْرَةِ والْمَدْحِ والثناء، على مقدار مَا قَدَّم مِنْ عَمَلٍ صالحٍ نافع، وهذا خاضع لسُنَن الأسْبَاب والمسَبَّاتِ في الدنيا.

والآية الَّتي نتدبَّرُهَا تُبَيِّن، أنَّ الَّذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ الله، وكَذَّبُوا بِلِقَائِهِ يَوْم الدِّين، تكُونُ أعمالُهُمْ الصالِحَةُ الَّتي كانوا قد عَمِلُوها في الحياة الدنيا، بَاطلةً لا قيمَةَ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ يَوْم الدِّين، إذْ لم تَكُنْ غايتهم نَيْلَ ثوابَ الآخرة، بَلْ نَيْلَ ثواب الدّنيا، ولَوْ كانت غايتُهُمْ نَيْلَ ثواب الآخِرَة لَحَقَّقُوا فِي أَنْفُسِهم الشَّرْطَ اللاّزم لنواله، وهو الإيمان بآيات الله، والإيمانُ بلقاءِ رَبِّهم يوْمَ الدين، ومعلومٌ أنَّ هذا الإيمان يدفع إلى العمل الصالح ابتغاء مَرْضاة الله، والظفر بثوابه العظيم يوم الدين.

ولمّا كان الكافرون مُكذِّبين بآيات الله، ومُكذِّبين بلقاء الله في الآخرة للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، كانَ من الْعدل الواضح أن تكون أعمالُهُمُ الصالحة الّتي عَمِلُوها في الدنيا لاَغِيَةً لا قيمة لها عند الله مُطْلقاً يَوْمَ الدّين.

- ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: أي: بَطَلَتْ أعْمَالُهُمْ الصالحة الّتي كانوا قَدْ عَمِلُوها في الحياة الدنيا، مَهْمَا عظُمَتْ وكَثُرَتْ.

﴿.. هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾؟!

هذا بيان بأسلوب الاستفهام الذي ليس له إلاّ جوابٌ واحد، وهو: لاَ يُجْزَون إلاّ جزاءَ ما كانوا يعملون في الحياة الدنيا للآخرة من صالحات الأعمال.

لكنّهم كانوا غير عَابئين بيوم الدّين، ولا بلقَاءِ اللّهِ فيه، فكانُوا يَسْلكون سُبُلَ الْغيّ، الّتي أنْذَرَهم رَبُّهم بالمعاقبة عليها يَوْمَ الدّين، وكانُوا يكْفُرون ويُكذِّبون بآيات اللّهِ، وقَدْ أنذرهم ربُّهُمْ بالعقاب الأبدي في عذاب النار يَوْمَ الدِّين، إذا كَفَرُوا بما يجب عليهم الإيمان به في الدين الذي اصطفاه لعباده.

فكُفْرُهُمْ وعِصْيَانُهُمْ مُرَادٌ بهما تَمَرُّدُهُمْ على طاعَة الله ربِّهم، ومُعَانَدَةٌ لِأَوَامِرِه وَنواهِيهِ الّتي رَتَّبَ عليها العقابَ يَوْمَ الدِّينِ، فَمنَ الْعَدْلَ أَنْ يُجازِيَهُمْ في الآخرة عَلَىٰ ذلِكَ، بِالْعِقَاب الّذي أبانَهُ في الوعيد الذي أوعَدَهُمْ به في الدنيا دار الامتحان.

وبهذا تنتهي هذه الفقرة الرابعة من قصة موسى وهارون في سورة (الأعراف).

* * *

الفقرة الخامسة

اتّخاذ بني إسرائيل العجل

الآيات من (١٤٨ ـ ١٥٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٥١) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾.

القراءات:

(١٤٨) ● قرأ حَمْزَةُ، والكِسَائِيُّ: [مِنْ حِلِيّهِمْ] بِكَسْرِ الحاء واللاّم وتشديد الياء المكسورة، وهو جمع «حِلْيَة».

وقرأ يَعْقوب: [مِنْ حَلْيِهِمْ] بفتح الحاء وإسْكان اللاّم وكسر الياء، وهو اسم جنْسٍ لِمَا يُتَزَيَّنُ به من مَصُوغ الذهب وغيره.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنْ حُلِيِّهِمْ] بضمّ الحاء وكسر اللام وتشديد الياء المكسورة، وهو جَمْعُ «حَلْيٍ».

ومُؤدّى القراءات واحد، وهي من التفنُّن في الوجوه اللُّغويّة ذاتِ المؤدّي الواحد.

(١٤٨ - ١٤٩) • قرأ يَعْقُوب بضم هاء الضمير في: [لاَ يَهْدِيهُمْ] و[فِي أَيْدِيهُمْ].

وقرأ باقي القرّاء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

والقراءتان وجّهان من الأداء في اللّسان العربي.

(١٤٩) • قرأ حمزة، والكسائي وخَلفٌ: [لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا] عَلَىٰ أَنَّه خطابٌ مِنْهُمْ ونداءٌ لِرَبِّهِمْ داعِينَ بالرَّحْمَةِ والغفران.

وقَرأ باقي القراء والْعَشْرَةِ: [لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا] بضمير الغائب.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فهم قالُوا في أنفسهم كما جاء في قراءة جمهور القراء، ودَعَوُوا الله رَبَّهم كما جاء في القراءة الأخرى.

(١٥٠) • قَرأ ورْشٌ، والسُّوسِي، وأبو جَعْفر: [بِيسَمَا] بإبدال الهمزة ياءً في الوصل والوقف. وقرأها كذلك حمزة في الوقف فقط.

وقرأها جمهور القراء العشرة: [بِئْسَمَا] في الوصْلِ والوقف.

وإبدال الهمزة ياءً وجْهُ من وجوه النطق العربي لهذه الكلمة.

• وفتحَ يَاءَ المتكلّم من: [بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ] نافع، وابن كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعْفَر. أمّا باقي القراء العشرة فقرؤوها بالاسْكان مع المدّ في الوصل.

• وقرأ السوسي، وأبو جَعْفَر: [بِرَاسِ أَخِيهِ] بإبدال همزة «رأس» ألفاً وصلاً ووقفاً، وقرأها كذلِكَ حمزة في الوقفِ، أما باقي القراء العشرة فأثبتُوا همزة «بِرَأْسِ» دون إبدال، والإبدال وجْهٌ في النطق العربي.

• وقرأ ابن عامر، وشُعبَةُ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [ابْنَ أُمِّ]

بالميم المشدَّدة المكسورة. وقرأها الباقون بالميم المشدّدة المفتوحة.

وهما وجهان عربيّان لنُطق الكلمة، وأصلها: ابْنَ أُمّي، أي: يا ابْنَ أمي، حذفت أداة النداء لفظاً، وهي منويةٌ ذهناً.

تمهيد:

ذهب موسى عليه السّلام لمناجاة رَبّه وتَلَقّي الألواح، وتولّىٰ أخوه هارونُ عليه السّلام قيادةَ بني إسرائيل مُدَّة غِيابه، وزاد الله عزّ وجلّ مُوسَىٰ عليه السلام عشر ليالٍ على الثلاثين الّتي كانت في الوعد الذي أخبر به موسَىٰ قومه، دون إعلام بني إسرائيل بها، لأنّها حصلت بعد ابتعاده عن قومه في رحلة المناجاة، وقد جعلها الله عزّ وجَلّ كذلِكَ ليَمْتَحِنَ بني إسرائيل في قضيّة الإيمان بالغيب، بعد أن كان ما كان منهم من مطالبتهم موسىٰ بأنْ يجْعَلَ لهم وَثناً إلَهاً يعْبُدونه كما لِلْوَثَنِيّين آلهة.

إنّ الجمهور الأعظم من بني إسرائيل، لَمْ يَتَحرَّرُوا حتّىٰ ذَلِكَ الحين من التعلُّق بأنْ يكون لَهُمْ إلَه مَعْبُودٌ وَثَنٌ، يشاهِدُونَهُ ويَلْمَسُونه ويَعْبُدونه.

وكانت صُورة العجل من البقر صُورةً شائعةً في أَصْنام أَهْل الأوثان، ومنهم المصريُّون والشامِيُّون الوثنِيُّون، وعِجْلُ المصْرِيّين الّذي كانُوا يَعْبُدونَه أيّامَ الفراعنة يُدْعَىٰ «إيبيس».

فلمَّا انتهت اللّيالي الثلاثون ولم يَعُدْ إليهم موسَى عليه السلام، لأنَّ الله جلّتْ حِكْمَتُه أَتَمّ مِيعَادَهُ إلىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَة، كَمَا هو في أَصْل الخطّة المقدَّرَة المكتومة، لابتلاء بني إسرائيل وتربيتهم، استَبْطَأَ جُمْهُورُ بَني إسرائيلَ عودةَ مُوسَىٰ عليه السلام، ولَعِبَتْ بهم الظُّنُونُ والشُّكُوكُ، وكَثُرَ بينهم اللّغَطُ خِلاَل اللّيالِي العشْرِ الأخيرة المضَافَة.

وكان بينهم رجُلٌ مِنهم لقَبُهُ «السَّامِرِيّ» وهذا الرَّجُلُ قد لاحظ أنّ

المَلَكَ الذي هو جبريلُ عليه السّلام، على ما جاء عنْدَ المفسّرين روايَةً عن الحسَن، كانَ إذا وقَعَ حافِرُ فرسِهِ على الأرض بقي منْه أثَرٌ في تراب الأرض، ذو طَبِيعةٍ مخْتَلِفَةٍ عن طبيعة سائر الأرض، فقَبضَ قبضَةً مِنْ هذا الأثر، واحْتَفَظ بها عنده.

فَسَوَّلَتْ له نفسه أن يُجْرِيَ تَجْرِبَةً، فيصْنَع لبني إسرائيل صنماً عِجْلاً، ويُلْقِيَ فِي باطِنِه شيئاً من الْقَبْضَةِ الَّتي احْتَفَظَ بها من أَثَرِ الرسُول جِبْرِيل، فَعَسَىٰ أَنْ تُحْدِثَ أمْراً غريباً.

فجَمَعَ مِنْ عامَّتِهِمْ جمعاً، وقال لهم: ألاَ أَصْنَعُ لكُمْ صَنماً على صورة الْعِجْل من ذهب؟.

وكانَ فيهم ماهِرُون في صَهْرِ الذَّهَب وصياغته، إذْ كانت هٰذِهِ الصنعة مَهْنَةَ بعْضِهِمْ في مصر.

قالوا: من أيْنَ تأتي بالذَّهب؟

ثم رَأَوْا أَنْ يَجْمَعُوا ما لدَىٰ بني إسرائيل من حُلِيٍّ كَانُوا قَدِ اسْتَعاروه من المصريين ليلَةَ خُرُوجِهِمْ من مصر، وأوهموا كُلَّ من لدَيْه شيءٌ من ذلِكَ أنَّه يجب عليه أن يتخلَّص منه، إذْ ليْسَ لهم به حقٌّ، باعْتِبَارِ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَعاراً فلْيَكُنْ لإلَٰهِهِم.

فألْقَىٰ الْقَوْمُ ما كان لدَيْهم من حُلِيِّ المصْريّين المستعار، واجتمع الصُّنَّاع بقيادة السَّامِرِيّ، وصَهَرُوا ما اجْتَمَعَ لَدَيْهِمْ من حُلِيّ الذهب، وصَبُّوهُ في قوالبَ على صُورَةِ عِجْلٍ من البقر، فلَمَّا أَتَمُّوا صنْعَتَه بمهارة صائغي الذهب، أقبل السَّامِرِيُّ فألْقَىٰ في جَوْفِ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ ما لَدَيْه من القبضة الّتي كان قد احتفظ بها مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ جبريل عليه السلام، فصار يَصْدُرُ عن الْعِجْل الذهَبِيّ بخَلْقِ اللّهِ خُوارٌ كخُوار الْعُجُولِ.

وعَجِبَ جُمْهُورُ بَنِي إسرائيلَ من هٰذِهِ الظَّاهرة، وانْطَلَقَتْ بينهم شائِعَةٌ

راجَتْ عِنْدَ معظمهم قائلين: هذا إلَهكُمْ وإلَه مُوسَىٰ، وإنَّ مُوسَىٰ لمَّا ذَهَبَ لمُنَاجاتِه نَسِي مكانه، فَهُوَ تائِهٌ عنه، فاجْتَمَعُوا يَعْكُفُونَ علَيْه ويَرْقُصُونَ حولَه.

فنهاهُمْ هارونُ عليه السّلام، وقال لهم: يا قَوْمِ إنَّما فُتِنْتُمْ به، وإنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمٰنُ، فاتَّبِعُوني وأَطِيعُوا أَمْرِي.

فقالوا له: لَنْ نَبْرَحَ عليه عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِع إلينا مُوسَىٰ، فشَدَّدَ عَلَيْهم، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، ودَفَعُوهُ عَنهُمْ بالقوَّة، وكادُوا يقتُلُونه.

وأَعْلَمَ الله عزّ وجلّ مُوسَىٰ عليه السّلام بما فَعَل قومه من بَعْدِه، في غيابه عنهُمْ، من اتّخاذِهِم العجْلَ الذهبيَّ إلَهاً وَثَناً يَعْبُدُونه، فَغَضِب في نفسه منْهم وممّا صَنَعُوا.

ولمّا رَجَعَ إليهم ورأىٰ بعيْنَيْه الْعِجْل الذهبيّ الّذي اتَّخذُوه، اسْتَشَاط غضباً وحُزناً، وقال لقومه: بئسَما خَلَفْتُموني من بعدي، أَمِنْ أجل عَشرِ ليالٍ زادَتْ في ميقاتِ رَبّي لَعِبَتْ بِكُمُ الظُّنُونُ، واتَّخَذْتُمْ وَثَناً إلَهاً، وألْقى الْألواح، وأخَذَ عَلَيْهِ السَّلامُ يحاسِبُ أخاه بعُنْفٍ إذْ لم يكن قويًا حَازِماً معهم، فاعْتَذَرَ هَارُونُ بأعْذَارٍ صَحِيحَةٍ أبان له فيها أنَّه لم يَسْتَطِعْ أن يَرُدَّهُمْ عمَّا فَعلُوا، فَقبِلَ مُوسَىٰ عُذْرَ أخِيه دُونَ أنْ يكون على قناعةٍ تَامَّةٍ، ودَعَا رَبَّهُ أنْ يَغْفِرَ لَهُ وَلِأَخِيهِ وأنْ يُدْخِلَهُما في رحْمَتِهِ، وأثْنَى عليه بأنَّه أَرْحم الراحِمِين.

ولمّا هَدَأَ غَضَبُهُ أخَذَ الألواح بعد أن كان ألقاها في الأَرْضِ عند شِدَّةِ غضبِهِ، وقام بِتَحْرِيق الْعِجل ونَسْفِهِ في الْيم، وطَرْدِ السّامِرِيّ من بين قومه، وتَرْتِيب رِحلة الاعْتِذَارِ والتوبَةِ مع سبعين رجلاً اختارهم من قومه إلى المكان الذي ناجىٰ به ربَّهُ في الرحلة السابقة الّتي كتب الله له فيها الألواح.

* * *

التدبّر:

قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

الواو العاطفة في صَدْرِ هٰذا البيان تَعْطِفُ هذا الحدث على الأحداث التي سبق بيانها من قصة موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل في السّورة.

● ﴿وَٱتَّخَذَ﴾: على وزن «افْتَعل» من الأخذ، ومن معاني هذه الصّيغَة التّكلُّفُ والتّصَنُّع على خلافِ الحقّ، أو طبيعة الأمْرِ السّوِيّ.

● ﴿قَوْمُ مُوسَىٰ﴾: المراد بهِمْ جُمهور بني إسرائيل الّذِين كانوا معه، وخَرَجُوا بقيادته من مصر.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: أي: من بَعْدِ غِيابه عنهم في مُدَّةِ رِحْلَتِهِ إِلَىٰ جانِب الطّورِ لمناجاة ربّه، وتَلَقِّي مَا كَتَبَ له في الألواح.

هٰذه القُيُود تُفْهَمُ من قرائن السِّبَاقِ والسِّيَاق.

وليس المُرَادُ بقَوْمِ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ جَمِيعَ أفرادهم، إذْ كان فيهم مَنْ لم يَرْضَ مَا اتَّخَذَهُ الْقَوْمُ، وكان فيهم من أنكرَ عليهم ما فَعَلُوا، واشْتَدَّ في مخاصَمَتِهِمْ كهَارُونَ أخيه ووزيره عليه السّلام.

● ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: أي: من مَصُوغَاتِ الذَّهب التي كانَتْ مَعَهُمْ يتحلّونَ بها، وهِيَ مَصُوغاتٌ استَعَارُوها مِنْ المصريِّين قُبَيْل سَاعَاتِ خُرُوجهم ليلاً من مصر.

﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: أي: وصَيَّرُوا المسبُوكَ من ذهَبِ الحليّ على صورة عِجْلٍ ذِي جَسَدٍ مَرئي مَلْمُوس له صَوْتٌ يُشبهُ صَوْت عجُولِ البقر.

وكذَبَ كُتّابُ سِفْرِ الخروج على هارون عليه السَّلام، وزَعمُوا أنَّهُ هو الّذي صَنَعَ لَهُمُ الْعِجْلَ الذَّهبِيَّ مَسْبُوكاً.

جاء في الإصْحَاحِ الثاني والثلاثين من سِفْرِ الخروج عند أهْلِ الكتاب ما يلي:

«١ ـ ولمّا رأىٰ الشَّعْبُ أنّ مُوسَىٰ أبْطَأَ فِي النُّزُول مِنَ الْجَبَلِ اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَىٰ هَارُونَ وَقَالُوا له قم اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أمَامَنَا لأنّ هذا مُوسَىٰ الرَّجُلَ الّذِي أصْعَدَنَا مِنْ مِصْرَ لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أصَابَهُ. ٢ ـ فَقَالَ لَهُمْ هَارُونَ انْزِعُوا أقْرَاطَ الذّهَب الّذِي في آذَانِ نِسَائِكُمْ وبَنِيكُمْ وبَنَاتِكُمْ وَأتُوني بها. ٣ ـ فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْب أقْرَاطَ الذَّهَبِ الّتِي في آذَانِهِمْ وَأتَوْا بها إِلَىٰ هَارُونَ. ٤ ـ فأخَذَ ذَلِكَ مِنْ أيْدِيهِمْ وصَوَّرَهُ بالإزْمِيل وصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكاً فَقَالُوا هٰذِهِ آلِهَتُكَ يا إسْرَائِيلُ الّتِي أصْعَدَتْكَ مِنْ أرْضِ مِصْر...».

هكذا كَذَبُوا على هَارُون عليه السلام، وما جاء في القرآن يُنَاقِضُ ذلِك. وحاول بعضُ المفسّرينَ أن يجعل هارون هذا الاسم الْعَلَمَ للسّامِرِيّ، لَكِنّ مَا جاء في مَكْتُوبات التوراتيّينَ في إصْحَاحَاتِهِمْ لاَ يُسَاعِدُ عَلَىٰ هذا الفهم، لأنّهم يتحدَّثُونَ عن هارون أخي موسىٰ عليهما السَّلام، لاَ عَنْ شخْصٍ آخر.

وجاء بشَأْنِ إعلام الله عزّ وجل مُوسى عليه السّلام، بما صَنَعَ قَوْمُهُ في غيابه عنهم، بعد أن سأله عن سبَبِ تَعجُّلِه عن قومه، قول الله عزّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾.

أي: فَإنّا قد امْتَحنّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِ مُفَارَقَتِكَ لهم، وغيابك عنهم، وأنَّ الّذي أضَلَّهُمُ السّامِرِيّ.

فغضب موسى عليه السّلام وحَزِنَ بسَبَب ما جرىٰ.

وجاء عند أهل الكتاب، في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج ما يلي:

«٧ ـ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَىٰ أذهَبِ انزِلْ لِأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ٨ ـ زَاغُوا سَرِيعاً عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتَهُمْ بِهِ. صَنَعُوا لَهُمْ عِجلاً مَسْبُوكاً وسَجَدُوا له وذَبَحُوا له وقالوا: هٰذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ من أرض مصر. ٩ ـ وقال الرَّبُّ لموسَىٰ رَأَيْتُ هٰذا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ».

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

هٰذِهِ المقولَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَعْلِيقٌ تَوْجيهيٌّ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ يَتْلُو القرآنَ، أوْ يَسْتَمِعُ إِلَيْه، يَكْشِفُ سَفَاهَةَ الَّذِين يَتَعَلَّقُونَ بالأوثان والأَصْنَام، ويتَّخِذُونَها مَعْبُوداتٍ لَهُمْ، يتقرَّبُونَ إليها بما يَزْعُمونَ أنَّهُ يُرْضي هٰذه الآلِهَةَ الوثَنِيَّة، فَتَجْلُبُ لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضَرّاً.

- ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾: أي: أَلَمْ يَرَوْا أنّ هذا الْعِجْل الذَّهَبِيَّ الَّذي صَنَعُوهُ بِأَيْدِيهم لاَ يُكَلِّمُهُم.

الرُّؤْيَةُ هُنَا رُؤْيَةٌ عَقْلِيَّةٌ فكريَّة، لا رُؤيَةٌ بَصَرِيَّة، لأنَّ الكلامَ يُسْمَعُ بالآذانِ وَلاَ يُرَىٰ بالأَبْصَار، وعدَمُ ذلِكَ يكُونُ عن طَرِيقِ الإِدْراك الفكريّ.

- ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾: أي: وألم يَرَوا أنه لا يُبَيّنُ لَهُمْ سبيلاً يَهْدِيهم إليه، لاَ من السُّبُل المادّيّة، ولاَ من السُّبُل المعنويّة.

والرُّؤية هُنا أَيضاً رُؤْيَةٌ فِكْرِيَّةٌ عَقْلِيَّة.

وهذا البيانُ مُوجَّهُ أيضاً لكُلِّ مُتَّخِذِي الأَوْثَانِ، في كلّ العصورِ والأزمان. وقد اسْتُغِلَّتِ المناسَبَةُ لِتَقْدِيمه، حتَّىٰ تكون القِصَصُ القرآنيَّةُ ذَاتَ هدَفٍ تَوجيهي لكُلِّ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْها.

﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾: أي: اتَّخذُوا العِجْلَ إلَهاً مُشْرِكينَ ظَالِمِين، وَكَانُوا قَبْلَ اتِّخاذِهِ ظالمين في أَعْمَاقِ نُفوسهم، لأَنَّهُمْ لَمْ يكُونُوا قد تحرَّرُوا بَعْدُ من مَفْهوماتِ الشِّرْكِ والتعلُّق بالأوثانِ، على الرغم من كلّ ما شَهِدُوهُ من معجزاتٍ وخَوارِقِ عادات، ضِدَّ شِرْكيَّاتِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمه، وعلى الرُّغم من نَهْيِ مُوسَىٰ المشدَّدِ لَهُمْ عن اتّخاذ آلِهَةٍ من الأَصْنَام.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

● ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: قَالَ المفسِّرُون: أي: وحين نَدِمُوا وَتَحيَّرُوا. قال الزَّجَّاج: هُو نَظْمٌ لَمْ يُسْمَعْ قَبْلَ القرآن ولَمْ تَعْرِفْهُ الْعَرَب. وقال عبْدُ الملِك بن سِرَاج: هذا الْقَوْلُ ممَّا أعْيَاني مَعْنَاهُ⁽¹⁾.

أقول: هذه العبارةُ كنايَةٌ بَدِيعَةٌ عن نَدَمِهِمْ وشِدَّة خَوْفهم، وأَصْلُها أنَّ الّذِي يُسْقَطُ في أَيدِي المجرمين بِسُرْعَةٍ وعُنفٍ، هي الأغلالُ والأصْفَادُ والقيودُ الّتي يُساقُونَ بها لمُعَاقَبَتِهِمْ، وحينَ تَكُونُ هذه من الحديد الثقيلِ فإنَّهَا قد تُسْقِطُهم إلى الأرض، فيكُونُون بذلِكَ نَادِمينَ سَاكِنِين، لا يَمْلِكُون إلاّ الاعتراف بجرائمهم.

---

(١) كذا نقل ابن عاشور في تفسير: «التحرير والتنوير».

وكان جُمْهُورُ بني إسْرائيل قَدْ تمرَّدُوا على هَارُونَ وقِيَادَتِهِ عليه السلام، إذ اسْتَضْعَفُوهُ، فَلَمْ يُوافِقُوا على التوجُّهِ مُرتَحِلِينَ لجهةِ جَبَلِ الطُّور، حَيْثُ الميقات الّذِي حَدَّدَهُ اللَّهُ عزّ وجَلّ لموسَىٰ عليه السلام، وخَشِيَ هارون عليه السَّلامُ أَنْ يَكْتَفِيَ بمَنْ وَافَقَهُ على الارْتحال على أثَرِ مُوسَىٰ، أَنْ يَقُولَ له مُوسَىٰ: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسرائيل.

ولمَّا رَأى هؤلاء الجمهور من بني إسرائيل أن مُوسَىٰ عليه السّلامُ قد أبْطأَ عَلَيْهِمْ بسَبَبِ إكْمالِ اللَّهِ ميعَادَهُ إلى أرْبَعِينَ ليلَةً، بَعْدَ أن كان ثلاثين ليلَة، وهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا بهٰذِهِ الزّيادة، قالُوا: لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَ مُوسَىٰ في رِحْلَتِهِ لِمُنَاجَاة رَبّه، فَصَنَعُوا بقيادة السَّامِرِيّ العِجْلَ الذّهبيّ إلَهاً لهم يَعْبُدُونه، ويَسِيرُ أَمَامَهُمْ حامِياً ورَاعياً لَهُمْ، تَحْمِلُهُ كَهَنَتُهُمْ أيْنَما سَارُوا.

ثُمَّ رَأَوْا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قادِماً إلَيْهم من بَعِيدٍ، بَعْدَ أربَعِينَ لَيْلَةً، بِتَأَخُّرِ عَشْرِ لَيَالٍ عَمَّا كَانَ أصْلُ الموعد، ورَأَوْهُ يَحْمِلُ أَلْواحاً، فَأَخَذَتِ المخاوفُ من سَطْوَتِهِ تَدِبُّ إلَىٰ قُلُوبهم، وحِينَ اقْتَرَبَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ رأوا علامات الغضب والحزن باديَةً عليه، وكانُوا يَهابُونَهُ مَهَابَة عظيمة، فقد سَبَقَ أنْ شاهَدُوا أنّ الله عزّ وجلّ قد أعطَاهُ قُوىً فَلْقِ الْبَحْرِ بعصَاه، وأَغْرَق له فِرْعَوْنَ وآلَهُ وجُنُودَه.

فعَظُمَ الأمر عليهم، وأدْرَكُوا أنهم عَصَوْا بتَمَرُّدِهم علَىٰ أخيه هَارُونَ، إذْ أَبَوا أَنْ يَرْتَحِلُوا على أَثَرِ مُوسَىٰ إلى جهة جبل الطور، فأخْلَفُوا الْمَوْعِدَ الّذِي وعَدُوه مُوسَىٰ، أخْذاً ممَّا جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بقول الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ . . . ﴿٨٠﴾﴾.

وقول موسى لهم كما جاء فيها أيضاً: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾.

وأَدْرَكُوا أَنَّهُمْ قَدْ أجْرَمُوا باتّخاذِهِمْ الْعِجْلَ، وأَنَّ مُوسَى عليه السّلام، سيُعَاقِبهُمْ على ذلك لا محالة، فقد نَهَاهُمْ سَابقاً عن اتّخاذِ إِلَهٍ مِنَ المحسَّاتِ المادّية، وحَذَّرَهُمْ من اتخاذ إِلَهٍ أَوْ آلِهَةٍ مِنَ الأَوْثَانِ يَعْبُدونَها، وشَدَّد عليهم فِي ذلِكَ، وأخذ منهم الْوَعْدَ أَنْ لاَ يُغَيّروا ولا يُبَدِّلُوا في الدّين شيئاً.

عندئذٍ سُقِطَ بأشيَاءَ مَعْنَوِيّةٍ في أَيْدِيهم، وهذه الأشياء المعنوية هي بمثابَة قُيودٍ وأصْفَادٍ وأغْلالٍ ثقيلَةٍ من حَدِيدٍ، تَجْعَلُ قُواهُمْ عَاجزَةً عَنِ الدّفَاعِ عن أنفسهم، كالْمُجْرِمِ القاتل أو السّارقِ أو الخائن خيانةً عظْمَىٰ، إِذَا رَأَىٰ أَنَّهُ مَحاطٌ بالجنودِ الَّذِينَ سيقْبِضُونَ عليه لاَ محالَةَ، فلا مَهْرَبَ لَهُ مِنْهُم، فإنه تَنْحَلُّ قواه من الرُّعْب، وتَرتَخِي أعْصَابُه، وتتدَلَّىٰ يَداه، وتَسْقُط على الأرض رِجْلاه، كأنَّ حَدِيداً ثقيلاً قَدْ أُسقِطَ بسُرْعَةٍ فائِقَةٍ غُلاً أَوْ صَفداً أَوْ قيداً في يَدَيْه، فكانتا مَشْدُودَتَيْن نَحو الأرضِ منْ ثِقَلِ مَا سَقَطَ عليهما، لإثْبَاتِهِ، فَهُو لا يستَطِيعُ حراكاً.

● ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾: أي: ورَأَوْا رُؤْيَةً عِلْمِيَّةً بَعْدَ شهودِهِمْ مُوسَىٰ عليه السلام قادماً إليهم، أَنَّهم قَدْ تَسرَّعُوا باسْتِبْطَائِهِمْ عَوْدَته، وأَنَّهم قَدْ ضَلُّوا باتّخاذِهم الْعِجْل الذهَبِيَّ إلَهاً يَعْبُدونه، فقالوا:

● ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

لقد جَعَلُوا يُرَدِّدُونَ نظير هذه المقالة فيما بَيْنَهم قبل أَنْ يَصِلَ مُوسَىٰ عليه السَّلام إلى حَيْثُ يَنْزِلُونَ، وَقَبْلَ أَنْ يواجههم بالمحاسبة على ما فَعَلُوا.

وجعلوا يَدْعُونَ رَبَّهم كما جاء في القراءة الأخرى، قائلين: [**لَئِنْ لَمْ تَرحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾**].

وهذا اعْترافٌ منهم لربِّهم بكبِيرَتِهم الشِّرْكيّة الَّتي ارتَكَبُوها، طَامِعِينَ بأَنْ يَرْحَمَهُمْ وَيَغْفِرَ لهم.

الرَّحْمَةُ: صِفَةٌ من صِفَاتِ اللّهِ الجليلة، وهِيَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ، نُثْبِتُها للّهِ عزَّ وجلَّ عَلَىٰ ما يليق بجلاله، ومن آثارها العطاء، والمعونة، والتَّوْفِيقُ،

وإِزَالَةُ البؤس، والغفران، والتجاوُزُ عن السّيئات، والعفو والصّفح.

المغفرة: مَصْدَرُ غَفَر الشَّيْءَ، أي: سَتَرَه، يُقَالُ لُغَةً: غَفَرَ يَغْفِرُ غَفْراً وغُفْراناً ومَغْفِرَةَ الشَّيْءَ، أي: سَتَرَه.

والمراد بسَتْرِ الذنْبِ عَدَمُ المؤاخَذَةِ علَيْه.

كُلُّ هذا كان قَبْلَ وُصُولِ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ إلى منازل قَوْمِهِ بني إِسْرَائيل.

* * *

قول اللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ... ﴿١٥٠﴾﴾؟!:

أي: وحينَ وَصَلَ مُوسَىٰ عليه السّلام، إلى مَنَازِل قَوْمِهِ، حالَةَ كَوْنِهِ غَضْبَانَ مِمَّا فَعَلَ قَوْمُه، وحَالَةَ كَوْنِهِ حَزِيناً بسَبَبِ ظُهور نزغَاتِ الشِّرْكِ الشَّيْطَانية فيهم بهٰذِهِ السُّرْعَةِ، إِذْ لَمْ يَزِدْ غيابُهُ عن الموعِدِ الَّذِي كانوا عالِمِينَ به إلاَّ عشَرَ لَيالٍ، ولا بُدَّ أَنْ تكونَ هٰذِهِ النزغات الخبيثات قَدْ ظهرت في أوائلها، بَعْدَ انتهاء اللّيالي الثلاثين.

الْغَضَبُ: انْفِعَالٌ نَفْسِيٌّ من الكراهية مصْحُوبٌ بإرادة الانتقام.

يقال لغة: غَضِبَ عَلَيْهِ يَغْضَبُ غَضَباً، أي: سخط عليه من أجْلِ مَعْصِيَة أو مخالفةٍ أَوْ أَمْرٍ يَكْرَهُهُ منه، وأَرَاد الانتقام منه، فَهُو غَضِبٌ وغَضْبَان، وصيغَةُ «غَضْبَان» تدلُّ على حركة في النفس تُشْبِهُ غَلَيَانَ ما في القِدْرِ بالنار.

الأَسَفُ: الحزنُ، يقالُ لُغةً، أَسِفَ علَيْهِ يأسَفُ أَسَفاً، أي: حَزِنَ مِنْ أجله، فهو آسِفٌ، وأَسِفٌ، وأَسِيفٌ، وهاتان صيغَتَا مُبَالَغَة.

فعبارة: ﴿أَسِفًا﴾ تَدُلُّ علىٰ أنّ موسَىٰ عليه السَّلام كان شدِيد الحْزن، بسبب انْحِراف جمهور قومه عن صراط اللّهِ المستقيم.

● ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ يظْهَرُ أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام منْذُ وَصَلَ إلَىٰ مَنازِلَ قومِهِ، وأقْبَلَ عَلَيْهِ كُبَراؤُهم، قالَ لَهُمْ قَبْلَ أنْ يَسْتَقِرَّ جالِساً، وقَبْلَ أنْ يُحدِّثَهُمْ بشيءٍ، هٰذه المقالَة التَّثرِيبيَّة، وقال لَهُمْ أيضاً:

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟!: فَهُمَا مَقَالَتَانِ وَاجَهَ مُوسَىٰ عليه السَّلام بهما قومَهُ، في أوَّلِ خطابٍ خاطَبَهُمْ بِه، مُنْذُ وُصُولِهِ إليهم.

الجملة الأولى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾: أي: بِئْسَتْ خِلافَةً خَلَفْتُمونِيهَا مِنْ بَعْدي خِلافَتُكُمْ.

«مَا» مِنْ «بِئْسَمَا» تمييزٌ مَنْصُوبٌ، والْعَائِد مَحْذُوفٌ في «خَلَفْتُموني» والتَّقْدِير: خَلَفْتُمُونِيها، والمخصوصُ بالذّمّ محذوفٌ تقديره: خِلاَفَتُكُمْ.

هذا أَحَدُ وُجُوه إعراب هذا الاستعمال، وهو الذي عليه النحاةُ المتأخِّرُون.

لقَدْ ذَمَّ عليه السَّلام ذَمًّا شديداً ما صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وفي هذا الذّمّ شتيمةٌ لَهُمْ، وتَقْبِيحٌ لمَا فَعَلُوا من كبيرة الشرك.

يقال لغة: خلَفَ فُلانٌ فلاناً، وخلَفَ قومٌ قوماً، خلَفاً، وخِلاَفَةً، إذا أقامُوا بَعْدَهُمْ في المكان أو في الزمان أو في الأشياء، فَهُمْ خُلَفَاءُ، والواحِد خليفة، ولا يَجْتَمع الْخَلِيفَةُ والمخْلُوفُ فيما حَصَلَتِ الخلافَةُ فيه.

● ﴿مِنۢ بَعْدِيٓ﴾: أي: من بَعْدِ مُفارَقتي لكم لمناجاة ربي.

قد يُقال: هٰذِهِ الْبَعْدِيَّةُ مفْهُومَةٌ من مضْمُونِ معنى الخلافة، فما الحاجَةُ لأنْ يُصَرّح بها.

أقول: في هذا التصريح إشارةٌ إلى أنَّ قيادتَهُ لهم وهو بَيْنَهم، قَدْ

كانت هي السَّبَب في ضَبْطِهِمْ عن الانحرافِ والتغيير في الدين، وهذا يَدُلُّ على أنّهم لم يَصِلُوا بَعْدُ إلَىٰ مُسْتَوىٰ تَرْكِهم لأنفُسِهم يُقِيمون دين الله، فالإيمانُ الحقُّ لَمّا يَدْخُلْ في قُلُوبِهم، إنَّما هم كقَطِيعٍ يَتْبَعُ راعياً ضابطاً حَازِماً قَوِيًّا يَرْهَبُونه.

الجملة الثانية: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟!: قال الفرّاء: تقول: عَجِلْتُ الشَّيءَ، أي: سبقته. فالمعنى على هذا: أسَبَقْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ. والْمُرَادُ: أتَجَاوَزْتُمْ حُدُودَ أَمْر ربّكم، إذْ أَمَرَكُمْ أَنْ لاَ تَتَّخِذُوا آلِهَةً أوْثاناً تَعْبُدُونها من دُونه، وهذا التجاوُزُ الّذي سبَقْتُمْ به مَسِيرَةَ أَمْرِ رَبكم يُعرّضُكُمْ لِعِقَابٍ شديدٍ من لَدُنْه.

فالاستفهامُ في العبارة استفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ علَىٰ ما كان منهم من اتّخاذِهِمْ العِجْل.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

- ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾: أي: وأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عليه السّلام الألواح التي كان يَحْمِلُها من شِدَّةِ انْفِعَالِهِ الغضبيّ، إذ شَاهَدَ قَوْمَهُ قد اتَّخذُوا الْعِجل، وكان هذا عندَ وُصُولِهِ إلى قومه غَضْبَانَ أسِفاً، وقوله لهم: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟!

وليس في القرآن بيانُ أنّها انْكَسَرَتْ عِنْدَ إلقائه لَهَا، لكِنْ ثبت في الحديثِ النبويّ أنّها انْكَسَرت.

وأهل الكتاب من بني إسْرائيلَ يذْكُرُونَ أنَّهُ كَسَّرَهَا، وأعادَ اللَّهُ لَهُ كِتَابَة

أَلْوَاحٍ أُخْرَىٰ بدلَها، نَحَتَها مُوسَىٰ عليه السّلام من الحجارة، ويذكُرُونَ أنَّهما لَوْحَانِ كَتَبَهُمَا اللَّهُ لَهُ علىٰ وُجُوهِهما الأربعة، واللَّهُ أعلم.

وجاء في بيان الرسول محمدٍ ﷺ، تَعْليلُ كَوْن موسَىٰ علَيْهِ السَّلاَمُ لَمْ يُلْقِ الألْوَاحَ مِنْ يَدِهِ، حينما أَخْبَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنّ قومَه اتخذُوا عِجْلاً وَعَبَدُوه، لكِنَّهُ لمَّا قَدِمَ إلَىٰ قَوْمِهِ وشاهَدَ الأَمْرَ بِبَصَرِه، أَخَذَتْهُ الحِدَّةُ، فلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسه، فَأَلْقَىٰ الأَلْوَاح، فقال الرسُولُ ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كالْمُعَايَنَة».

روى الإمام أحْمَد، والحاكم وصَحَّحَهُ على شرط الشيخَيْن، وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِه، عن ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنه، أنّ الرَّسُول ﷺ قال:

«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَة، إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ مُوسَىٰ بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ ما صَنَعُوا أَلْقَىٰ الأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ».

- ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾:

كان موسَىٰ عليه السّلام شدِيداً قَوِيًّا ذَا حدّه، لا تأخُذُهُ في اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ، وقد وقَعَ في ظَنّهِ أنَّ أَخَاهُ هارون عليه السلام لانَ لِبَنِي إسْرائِيلَ، ولَمْ يَزَعْ ما يَجِبُ عليه من حَزْمٍ وشِدَّة، حِينَ رآهُمْ انحَرَفُوا عَنْ أَصْلِ الدّين، فبدأ بِهِ يُرِيدُ مؤاخَذَته ومُعَاقَبَته على تهاونه، وقد جعَلَهُ خليفته في قومه، وأوْصَاه بأن يُصْلِحَ ولا يَتَّبِعَ سبيل المفسدين، فقَبَضَ علىٰ شَعْرِ رأسِهِ، وجَعَلَ يَجُرُّهُ.

فأخذ هارُون علَيِ السَّلام يدافع عن نفسه، ويَعْتَذِرُ بمالَهُ به عُذْرٌ حقيقةً، ضِمْن حُدودِ اسْتِطَاعَتِه، وطَبِيعَةِ نفسه.

- ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

لقد اشْتَمَلَ اعتِذَارُ هارُونَ علَيْه السَّلاَمُ، عمَّا دَلَّ عَلَيْهِ فِعْلُ مُوسَىٰ

عليه السّلام، إذْ أخَذَ برأسِهِ يَجُرُّهُ إليه، من اتّهامِهِ بالتقصير والتهاون، على ثلاثِ مقولاتٍ، مصْحُوباتٍ بهُدُوءٍ، وحِلْمٍ، وصَبْرٍ، وتَحَمُّلٍ، تُناسِبُ طبيعَتَهُ، إذْ هو ليِّنٌ، حَلِيم، هادِئٌ، وصَبُورٌ، لا تأخُذُهُ الحدّة.

المقولة الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾:

بدأ أخاه في هٰذه المقولَة باسْتِعْطَافِه بأُمّه الّتي هي أُمُّهما، مَعَ أَنَّهُمَا شقِيقَانِ، ولكِنَّ حياتَهُمَا كانَتْ برعايَةِ أُمِّهما الّتي كانت تَرْعَاهُمَا بالحنان والشفقة دواماً.

[ٱبْنَ أُمَّ]: أَصْلُ الكلام: يا ٱبْنَ أُمّي، ومِثْلُ هذا الاستعمالِ تُحْذَفُ منه يَاءُ المتكلّم، فإذا حُذِفَتْ جاز في العربيّةِ وجْهَانِ: إبقاءُ الكَسْرَةِ على آخر الكلمة، فيقال: يا ٱبْنَ أُمِّ. وفَتْحُ آخر الكلمة، فيقالُ: يَا ٱبْنَ أُمَّ. وحُذِفَ حَرْفُ النداء، وهو جائزٌ في العربيّة إذا كان نداءً بـ«يَا».

وسبَق بيانُ أَنَّهُ قُرِئ بكَسْرِ الميم وفتحها من «ٱبْنَ أُمَّ».

- ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾:

﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾: أي: وَجَدُوني ضَعِيفاً لاَ أَمْلِكُ قُوَّةً أَغْلِبُهُمْ بها.

وتدلّ هذه العبارة بلوازمها الفكريّة، على أنّ هارونَ عليه السلام قد نَهَىٰ بَنِي إسْرَائيل عن اتّخاذ الْعِجْل فَلَمْ يسْتَجيبوا له، ثُمَّ حَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ فَلَمْ يُبَالُوا، وقَدْ جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) أنّه قَالَ لهم بِشأن الْعِجْل ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾.

أي: إنَّمَا امْتُحِنتُمْ بخُوارِ هذا الْعِجْلِ الذّهبي، ليَكْشِفَ اللّٰهُ عزّ وجلّ

أنّ الإيمان الصّحِيح لم يَصِلْ إلى قُلوبكم، ولم يسْتَقِرَّ فيها، وأنّ المفهومات الوثنيَّة ما زالَتْ عالقَةً فِي نفوسكم.

فاتّبِعُونِي ولاَ تَتَّبِعوا السّامِرِيَّ الّذِي أضلَّكُمْ، وأَطِيعُوا أمْرِي، فإنّي خَلِيفَةُ أَخي مُوسَىٰ المسؤولُ عنكُمْ، فقد جَعَلَنِي بأمْرِ الاستخلاف خَلِيفَةً عَنْهُ عليكم.

فما كان من جمهور بني إسرائيل إلاّ العِنَادُ والإصْرَارُ على ما هم فيه، دلَّ على هذا الآية التالية من سورة (طه) أيضاً:

﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾:

﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ أي: لَنْ نَزُول، ولَنْ نَتْرُكَ الْعِجْلَ كَمَا تطلُبُ منّا، وسَنَبْقَىٰ مُحَافِظين عليه، حالَةَ كونِنَا عَاكِفين عَلَيْهِ، حتّىٰ يَرْجِعَ إلينا موسَىٰ.

عندئذٍ أقبل هَارونُ عليه السّلام عازماً علىٰ أَنْ يُنْكر المنكَر بِيَدِهِ، ويأْخُذَ الْعِجْل ويُحطّمَهُ، ويمْنَعَ عبادَتَهُ بالقوة، فتكاثَرَ عَلَيْهِ الْغَوغَاءُ من بني إسرائيل، ودَفَعُوهُ عن عِجْلِهِمْ بالْقُوَّة، وكادُوا يقْتُلُونَهُ دِفاعاً عنه، يُفْهَمُ هذا من عبارة: ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ الواردة في النصّ الذي في سورة (الأعراف). أي: وكادُوا يقْتُلونَنِي دفاعاً عن عِجْلهم لأنّني أَرَدْت أَنْ أُنكر المنكر بِيَدِي، وأن أَسْتَعْمِلَ الْقُوَّةَ لتحطِيم الْعِجْل، ومنْعِهِمْ ودفْعِهِمْ عن عبادته.

المقولة الثانية: دلّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾:

ذكّر هارون مُوسَىٰ عليهما السّلام بأنّ لَهُ فِي بَنِي إسْرائيلَ أعداءً، يَحْسُدُونه على اختياره نبيًا ورَسُولاً مع أخيه موسىٰ صاحِبِ الرّسَالة الأول، ويَحسُدُونه على مكانته في بني إسرائيل، إذْ يَحْتَلُّ مَقَامَ الْوَزِير الأوّل لموسَى، فإذا غابَ مُوسَىٰ كَانَ هُوَ خَلِيفَتَهُ في قَوْمه.

ويُشْعِرُ هارون أخاه عليهما السّلام، بأنَّهُ إِذَا حَاسَبَهُ حِسَاباً شديداً عَسِيراً كانُوا بِهِ شَامِتِين.

والمعنى: فلا تجعلهم يشمَتُون بي.

الشَّمَاتَة: فَرَحُ الْعَدُوِّ بما يُصِيبُ عَدُوَّهُ مِنْ مَكْرُوه، وقد تكون بين المتنافسين والمتخاصِمين، ولو لم يكونوا أعداءً.

المقولة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

أي: وإنَّكَ إِنْ آخَذْتَني علىٰ ما فَعَلَ الظَّالِمُونَ من بني إسرائيل الذين اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، فَقَدْ جعَلْتَنِي مَعَهُمْ في الإِثم والعقوبة، مَع أنّي لم أكُنْ آثماً، ولا مقصّراً أوْ مُتَهاوِناً، فَمُؤَاخَذتي مَعَهُمْ أَمْرٌ مُنَافٍ للعدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ به، ولا يخفىٰ ما في عبارة هارون عليه السّلام من رِقَّةٍ وتلَطّفٍ في عَرْضِ هٰذه القضيّة.

معترضة حول مَا جاء في سورة (طه) بشأن هذا الموضوع:

يَدُلُّ مَا جَاءَ في سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) على أنَّ مُوسَىٰ عليه السلام، كان له موقف آخر مع قومه وأخيه هارون، إذْ كَان هادئاً غير ثائر الغضب، فَقَدَ جاء فيها قول الله عزّ وجل:

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

- ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾: سَبَقَ تَدَبُّر نظير هذه العبارة في النصّ الذي من سورة (الأعراف).

- ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾؟!: أي: ألم أبلغكم

وعْدَ رَبِّكُمْ أَنْ تَحضرُوا إِلَىٰ جانِبِ الطُّور الأيمَنِ، وتَسْمَعُوا كلامَ اللّهِ لي، وهٰذا وعْد حَسَنٌ، فِيهِ تكْرِيمٌ لَكُمْ، وَتَشرِيفٌ، وإقناعٌ لَكُمْ بالغيب، وتَثْبِيتٌ على الإيمان الصحيح، فَمَا اسْتَجَبْتُمْ لأَخِي هَارُونَ حينَ أَمَرَكُمْ بِأَنْ تَسِيرُوا على أَثَرِي، وعَصَيْتُمْ وأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي إِذْ كُنْتُمْ وَعَدْتُمُوني أَنْ تَلْحَقُوا بي إلى جانب الطُّور.

وقد سَبَقَ أن وَعَدَهم الله أن ينجيهم من فرعون وآله، وَوَفَّىٰ وعده بمعجزة خارقة.

● ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾؟! أي: أَمَرَّ عليكم زَمَنٌ طَويل يُعَدُّ بالقرون فطال عليكم العهد، أي: الزَمَنُ، فلفظ «الْعَهْدِ» يُطْلَقُ على الزّمَن، وهذا المعنى هو المناسب هنا.

وفي هذا الاستفهام إنكارٌ شديدٌ عليهم، إذْ لَمْ يَطُلْ عَلَيْهِمُ الزّمَنُ، حتَّى يَدِبَّ إليهم داءُ نِسْيَانِ قضَايا الدّينِ الكُبْرَىٰ، وحَتَّىٰ تَتَسَلَّلَ إليهم المفْهُومَاتُ الشِّرْكِيَّة، ويَتَخِذُوا الأوثانَ آلِهةً يَعْبُدونها، كَما حَصَلَ لأُمَمِ الرُّسُل من قبلهم الذين دَخَلَتْ إليهم الشركيَّات الوثَنِيَّة، بَعْدَ أن طَالَ عليهم الزَّمَنُ قُروناً بيْنَهُمْ وبَيْنَ رُسُلِهِمْ، وجاءت أجيالٌ فيهم مُتَتَابعةٌ لم يُشاهِدُوا الرُّسُلَ ولا الّذين عَاصَرُوهم من المؤمنين، وأَخَذَت الوصايا الدّينيَّة تنْمَحِي آثارُها بطُول الزّمن.

ومعلومٌ أنّ بني إسرائيل يومئذٍ ما زالوا في عَصْرِ الرّسالة، وقَدْ شاهَدُوا المعجزات الْعظام، ويَقُودُهُمْ رَسُولٌ، فَأَمْرُ دخُولِ الشّركِ الوثنيّ فيهم أمْرٌ بَالِغُ الاسْتِنْكَارِ، وبالِغُ العَجَب فِي سُلوك الأمم.

● ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: بـل أَرَدْتُـم أنْ تَعْصُوا، وَتُخَالِفُوا أوامِرَ الله لَكُمْ، اتّباعاً لأهْوائِكُمْ ومَفْهُومَاتِكُمُ الْبَاطِلاَت، الَّتِي هِي أَسْبَاب حُلُولِ غَضَبِ رَبّكُمْ عَليكُمْ، الَّذِي يَسْتَدْعِي انْتِقَامَهُ مِنكُمْ، وعِقابَهُ وعَذَابَهُ لَكُمْ.

﴿أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾: أي: أَنْ يَنزِل عَليكم غضبٌ من ربّكُمْ حَالاً بِكُمْ حُلُول النازِلِ بالمكانِ حُلُول إقامَةٍ واسْتقرار.

يُقَال لغة: حَلَّ المكانَ، وحلَّ بِهِ يَحِلُّ حُلولاً، أي: نَزَل به.

ويُقال: حَلَلْتُ الْقَوْمَ، وحَلَلْتُ بِهِمْ، وحَلَلْتُ عَلَيْهم.

أَطْلِقَ حُلُولُ الغضب، والمرادُ حُلُولُ ما يُسَبِّبُهُ، وهو العصيان واتّباع الهوى على سبيل المجاز المرسَلِ، وهو من إطلاق المسَبَّب وإرادة السَّبَب.

وجاء التعبير أيضاً بِحُلُولِ الغضب كنايَةً عَنْ حُلُولِ عقابِ اللَّهِ وانتقامه. فالعبارةُ فيها مجازٌ مُرْسَلٌ وكِنَايَةٌ معاً.

● ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾: يشْمَلُ الْمَوْعِدُ هُنَا مَوْعِدَ اللَّحَاق بموسَىٰ على أثره، لشُهُودِ مكالَمَةِ اللَّهِ له، إذْ يكونُونَ في جانب الطُّورِ الأيْمن. ومَوْعِدَ الثباتِ على الإيمان الصحيح الصادق، وعدم اتّخاذ إلَهٍ يعبدونه من دون الله.

إخْلاَف الوعد: عَدَمُ الوفاء به.

﴿مَّوْعِدِى﴾: أي: مَوْعِدَكُمْ إيَّاي، فهو من إضافة المصْدَرِ إلى المفعول به.

الموعد: مَصْدَرٌ من مصادر فعل: «وَعَد». يقال لغة: وعَدَهُ يَعِدهُ وعْداً، وعِدَةً، ومَوعِداً، ومَوْعِدَة.

والاستفهام الذي جاء في هذه العبارة كان غاية في الحصار الفكريّ الذي حاصرهم فيه موسى عليه السلام بأسئلته لهم.

● ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾: تجاهَلُوا إخْلاَفَهم مَوْعِدَ اللّحَاق به على أثره بقيادة هارون، إذْ لم يكن لديهم ما يوهمون بأنّه عُذْرٌ يَعْتَذِرُون به. وأمَّا إخلافُهُمْ مَوْعِدَ الثَّباتِ على الدّين الذي تركهم عليه موسى

عليه السّلام، وعَدَمِ اتّخاذ إلَهٍ يَعْبُدُونه من دون الله، فقد وجَدُوا لدَيْهم ما يُلَفِّقُونَ مِنْهُ كلاما يوهِمُونَ أنّه عُذْرٌ.

﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾: لفظ: ﴿بِمَلْكِنَا﴾ فيه ثلاثُ قراءات:

- بفتح الميم، وهي قراءة نافع، وأبي جعفر، وعاصم.
- وبضمّ الميم، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلَف.
- وبكَسْر الميم، هي قراءة ابن كثير، وأبي عَمْرو، وابْن عامر، ويعقوب. وهي وجوه عربيّة لنطق الكلمة، والمعنى فيها واحد.

أي: ما أخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ الّذِي وعَدْناك إيّاه بإرادتنا واختيارنا، لكنّهم في الحقيقة كانوا كاذبين فيما ادَّعَوْهُ من أنّهم كانُوا مُكْرَهِين، أو كانوا قَدْ عَمِلُوا بما يجبُ عَلَيْهِم ديناً.

فَمَا هو هذا الأمْرُ الدّينيّ الذي جَعَلَهُمْ يَفْعَلُونَ مَا فعلوا؟!

قالوا كما جاء في النّصّ:

- ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾:

وقرأ شعْبَةُ عن عاصم، وحمزة، وأبو عَمْرو، والكسَائي، ورَوْحٌ عن يَعْقُوب: [حَمَلْنَا] بفتح الحاء والميم غير المشدّدة.

﴿أَوْزَارًا﴾: أي: أَحْمَالاً لاحَقَّ لنا بها.

﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾: أي: من حُلِيِّ المصريين استعاروها ليلَة خروجهم من مصر، فأخَذُوها بِحيلَةِ الاستعارة، فكُلُّ شخص منهم استعار من معارفه وجيرانه من المصرين قطعةً أو أكْثَر من الْحُلِيّ الذهبيَّة النفيسة، فاسْتَلَبُوها، وخرجُوا بها.

جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج:

«أنّ الشيطان وَسْوَسَ لَهُمْ في غَيْبَةِ مُوسَىٰ لميقاتِ رَبِّه، أَنَّ هٰذِهِ الْحُلِيَّ لَيْسَتْ مِلْكَهُمْ، وأنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يتخلَّصُوا مِنْهَا بأنْ يُلقُوهَا فِي النّار، وأنْ يَجْعَلُوهَا كُتْلَةً واحِدَةً مُنْصَهِرَةً».

ولعلّ ذَلِكَ كان بتزيينٍ من السّامريّ، فلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ جاء السَّامِرِيُّ فألْقَىٰ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحُلِيّ، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

- ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾:

فَفَعَل مِثْلَما فَعَلُوا ليُوهِمَهُمْ أَنَّهُ يُرِيد التخلُّص ممَّا لَيْسَ لَهُ بِهِ حَقٌّ ممَّا اسْتَعَارَ من المصْرِيين من حُلِيِّ الذهب.

ويظهر أنّ السَّامِرِيَّ صاغَ المسْبُوكَ بِمُعَاوَنَةِ خُبَراء صِيَاغَةِ الذهَبِ من بني إسرائيل الْعِجْلَ.

قيل: وكان السامِرِيُّ من قومٍ يَعْبُدونَ البقر، فأعلن إيمانه بموسى وهارون، ودخل في بني إسرائيل.

ولمّا تَمّتْ صياغَة العجل الذهبيّ على ما زيَّنَ لهم السَّامِرِيُّ، أَلْقَىٰ فِي جوفه القبضة الّتي كان قَدْ قبَضَها مِنْ أَثَرِ حافِرِ فَرَس جبريلَ عليه السلام، فصار العِجْلُ الذَّهَبِيُّ يُخرِجُ مِنْ فَمِهِ صَوْتاً كصَوْتِ عُجُولِ البقر، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾:

فَلَمَّا رأىٰ جمهورٌ بني إسرائيل هذا العجْلَ الذَّهَبِيَّ لَهُ خُوارٌ، تحقَّقَ لَهُمْ مطْلُوبُهُمْ الذي كانُوا قَدْ طَالَبُوا بِهِ مُوسَىٰ عليه السلام، إذْ قالوا له: اجْعَل لنا إلَهاً كَما لهم آلِهة. عندئذٍ قالوا بإيحاء من السامري على ما يظهر كما جاء في النصّ:

- ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾:

أي: نَسِي مُوسَىٰ أنّ إلَهَهُ الذي ذهب لمناجاته موجودٌ بينهم، في المكان الذي تَرَكه، لذَلِكَ ضلَّ عَنْهُ فهُو يفتّشُ عنه باحثاً في جبل الطُّورِ فلَمْ يَجدْهُ، فأبْطأَ بالرُّجُوع إلينا.

ويَظْهر أنّ مرادَهم روح الإلَه الذي دخَلَ في العجْل، ودلَّ عليه خُوارُهُ العجيب.

هكذا كانت تصَوُّراتُهُمْ عن الإلَه الذي يستحقُّ أن يُعْبَد تصوُّراتٍ بدائيَّة ساذجة، نظير تصَوُّرات عُبَّادِ الأوثان.

وجاء التعليق الرّبانيُّ الحكيم الذي يبيّنُ سفاهتهم، وفساد مفهوماتهم عن الإلَه الرَّبّ المعبود، فقال الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾: أي: أانطَمَسَتْ بصَائِرُهم فلا يَرَوْن بأفكارهم وعقولِهم، فالمراد بالرُّؤية الرُّؤية الفكريَّةُ العلميّة.

﴿أَنْ لاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾: «أنْ» هي المخففة من الثقيلة، واسْمُها ضمير الشأن، وهو محذوف وجوباً كما يقول النحاة.

والمعنى: أفلا يَرَوْنَ أَنَّ الْعِجْلَ الّذي صَنَعُوه من الذهب لاَ يَرْجِعُ إليهم قولاً، أي: لاَ يَرُدُّ عليهم جواباً إذا سألُوهُ سُؤَالاً ما.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: أي: وأفلا يَرَوْن أنّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَدْفَعَ عَنْهم ضراً، ولاَ أنْ يجلب لهم نَفْعاً، لأنّهُ لاَ يَمْلِكُ مَا يدفعُ به عنهم الضُّرّ، أو يجلُبُ به النفع.

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) أيضاً بيان مُسَاءَلَةِ مُوسَىٰ لأخيه هارون، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾.

لقد ذهبَتْ فورَةُ الغضب الأولى، الّتي دَفَعَتْ موسَىٰ عليه السَّلامُ إلى أنْ يأخُذ برأسِ أَخِيه يجُرُّهُ إِلَيْه، وبَدأَ دَوْرُ المحَاسَبَةِ الّتِي فيها هدوءٌ ما، ولعَلَّ ذَلِكَ كانَ وهم جلُوسٌ، وهارون عليه السلام على يمين موسَىٰ، وموسَىٰ عليه السَّلام يَقْبِضُ علىٰ لِحْيَةِ أَخِيه يُسَائِلُهُ، وقَدْ يقْبِضُ علىٰ شَعرِ رأسِهِ يَهزُّهُ أَحْيَاناً.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾:

أي: مَا مَنَعَك مِنْ أَنْ تَتْرُكَهم وتَتْبعَنِي إِذْ رَأَيْتَ جماهيرهم ضَلُّوا، وَمَعَكَ أَهْلُ الثباتِ على الحقِّ؟!

ومَا حَملكَ عَلَىٰ أَنْ لاَ تتَّبِعَني في هٰذِهِ الحالة؟!

لقد سأل مُوسَىٰ أخاهُ هارون عَنِ المانِعِ له من اتّبَاعِهِ إلى جانب الطور، إذا كان في الواقع أَمْرٌ مانع. وسأَلَهُ أيضاً عن الحامل لَهُ على عَدَمِ اتِّباعه إِذَا كانَ يوجَدُ في الواقع أَمْرٌ حامل.

واختصاراً في التعبير ضُمِّنَ فِعْلُ «مَنَعَ» معنىٰ فِعْل «حَمَلَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيتَهُ، فأغْنَتِ الجملة عن جملتين، والتقدير: مَا مَنَعَكَ عن اتّبَاعِي، ومَا حَمَلَكَ علىٰ عَدَمِ اتِّباعي.

﴿تَتَّبِعَنِ ۖ﴾: أصلُها: تَتبِعَنِي، حذفت ياء المتكلّم إيجازاً في اللفظ، ونظير هذا الحذف كثير في اللّسَانِ العربي.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾؟!: أي: الّذي أمرْتُكَ بِهِ إذا اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَىٰ بَني إسْرَائِيل.

● ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾: أضافَ هارُونُ في هذهِ الإجابَة حَرْف النداء، للتشديد على استعطافه وتَنْبِيهه.

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾: دلَّتْ هٰذِهِ العبارة على أَنَّ موسَىٰ عليه السّلام في مَجْلِس المساءلَةِ الثاني، كَانَ يَقْبِضُ على لِحْيَةِ أخِيه هارُون، وقد يأخذ برأسِهِ فَيَهُزُّه، وهٰذا مِنْ حِدَّة موسَىٰ في مُسَاءَلَتِهِ.

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

اقتصر هارون في هٰذِهِ الإجابَة على القضيَّةِ الّتي سَأَلَهُ مُوسَىٰ عنها، ولَمْ يُشِرْ إلى مَا سَبَقَ أَنْ اعْتَذَرَ به في مُسَاءَلَتِهِ الأولى.

أي: إِنِّي خَشِيتُ إِذَا اتَّبَعْتُكَ مع الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لي من بني إسْرَائيل، أن تقولَ لي: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسْرَائيل، وخَشِيتُ أَنْ تُحَاسِبَنِي وَتُؤَاخِذَنِي على هٰذَا التفريق، فتعارضَ لديَّ أَمْرَان، وقد اجْتَهَدْتُ فَتَرَجَّحَ لَدَيَّ أَنْ أَبْقَىٰ فيهم مُنْتَظِراً عَوْدَتك، ولا أترك الظالِمينَ وَحْدَهُمْ، وكُنْتُ لا أَرَىٰ أَنَّ غَيْبَتَكَ سَتَطول. وخشيتُ أيضاً أَنْ تَقُول لي:

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: أي: لَمْ تَحْفَظْ ولَمْ تُرَاعِ قَوْلي الّذِي قلْتُهُ لكَ حين اسْتَخْلَفْتُكَ، إِذْ قُلْتَ لي: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فقد اجتهَدْتُ أَنْ أُصْلِحَ بِقَدْرِ اسْتِطاعَتِي، ولَمْ أَتَّبِعْ سَبِيلَ المفْسِدين.

فقَدَّمَ هارونُ عليه السلام بما أبَانَهُ لأخيه عُذْرَهُ كامِلاً، وأوضَحَ له أَنَّهُ لَمْ يألُ جُهْداً واجْتِهَاداً في رِعَايَةِ الأصْلَحِ الّذِي رآه.

وجاء في سُورَة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بيان مُحَاسبة موسى عليه السلام للسَّامِرِيّ فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ

فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾:

تضمّنَتْ هذه الآيات بيان محاكمة مُوسَىٰ عليه السَّلام للسّامِرِيّ، صاحب فتْنَةِ الْعِجْلِ الذهبيّ الّذِي له خوار، وما أثْبَتَهُ مُوسَىٰ مِنْ تعليقِ حولَ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلاّ اللَّهِ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٢﴾﴾؟: أي: قال موسَىٰ عليه السّلام للسامِرِيّ مَا شَأْنك وَمَا حَالُكَ يَا سَامِرِيُّ، والمعنى: ما الذي حَمَلَكَ عَلَىٰ أن تَقُوم بهٰذِهِ الفِتْنَةِ الّتِي أفْسَدت بها جمهور بني إسرائيل، وجَعَلْتَهُمْ يَعْبُدُون وَثناً ذهبيّاً على صورة عِجْل؟ وما الّذِي جَعَلَكَ تَفْتَرِي هٰذه الفِرْية العظيمة على الله؟

الْخَطْبُ في اللّغة: الأَمْرُ والشأنُ والحال الذي تقع فيه المخاطبة.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ ﴿٩٦﴾﴾ وفي قراءة أخرىٰ لحمزة، والكسائي، وخلَفْ، **[بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا به]** بتاء المخاطَبين.

والمعنى: أدْرَكْتُ أَمْراً عجيباً إدْركاً جَلِيًّا صَارَ لَدَيّ عِلْماً ثابتاً، وهذا الأمْرُ الّذِي عَلِمْتُهُ لم تَعْلَمُوا بِهِ، ولَمْ يَعْلَمْ بِهِ سَائِرُ بني إسرائيل.

ذكر المفسّرونَ أنَّهُ رَأَىٰ جبْرِيلَ عليه السّلام على فَرَسِ الحياة، فوقَعَ في نفسِه أنّ الأثَرَ الَّذِي يبقىٰ في الأرض من حافِرِ فَرَسِ جبريل لاَ يُلْقَىٰ عَلَىٰ غير حيّ إلاّ صار حيًّا. **أقول**: ولعلَّ السّامِرِيَّ أجْرَىٰ تجربة مُصَغَّرَةً بَيْنَهُ وبَيْنَ نفسه، قبل أن يَدْعُو بني إسْرائيل لِصُنْع العِجْل من الذهب.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ. . . ﴿٩٦﴾﴾ ظاهر هذه العبارة يَدلُّ عَلَىٰ أنه قبَضَ قَبْضةَ تُراب مِنْ مَوْطِيءِ قَدِم جبْرِيلَ رَسُول الوحي إلَىٰ موسى عليهما السّلام. **القَبْضَةُ**: مَا أَخَذْتَ بِجُمْعِ كفِّكَ كُلّه.

وعلى ما ذكر المفسّرون تحتاج العبارة إلى تقدير مضافٍ محذوف، أي: من أثر فَرَسِ الرَّسُولِ، أو من أثر حافر فَرَسِ الرَّسُول، والله أعلم.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾: أي: فَطَرَحْتُ هذه القبضة كما تُنبَذُ النَّوَاةُ بِسُرْعَةٍ وخفَّةٍ، في جَوْف الذهب المسْبُوك على صورة عِجْلٍ، فصارَ لَهُ خُوارٌ كخُوَارِ الْعُجُولِ من البقر.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾: **التَّسْوِيل**: التحسين والتزيين، والتحبيبُ بالشيء.

يقال لغة: سَوَّلَ لَهُ يَسُوِّلُ تَسْوِيلاً، أي: حسَّنَ لَهُ وَزَيَّنَ، وحبَّبَ لَهُ الأمْرَ الذي دَعَاهُ إليه، وأغْرَاه بِهِ، وسهَّلَهُ له.

والمعنى: وكان ذلك الَّذي فَعَلْتُه في جَسَدِ الْعِجْل مُمَاثِلاً للَّذي سَوَّلَته لِي نَفْسِي، فاعْتَرَفَ السَّامِرِيُّ على نَفْسِه بجَريمته، ورُبَّما سَوَّلَتْ له نَفسُه أن يكوّن مُقَدَّماً في بني إسرائيل، ذا مكانة ورياسَةٍ دينيّة.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ . . . ﴿٩٧﴾﴾:

تضمَّنَت هٰذِهِ العبارة حُكْمَ مُوسَىٰ عليه بالطَّرْدِ مِنْ مجتمع بني إسرائيل، وإعْلامَهُ ببلاءٍ يَبْتَلِيهِ اللَّهُ بِهِ، لاَ يَسْتَطِيع مَعَهُ أَنْ يمسَّ أحدا أو أَنْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ من الناسِ طَوَال حياته، وإعْلاَمَهُ بمَوْعِدِ يَوْم الدّين الذي يُلاقي فيه عند اللَّهِ جزاءه، ويَظْهرُ أنّ اللَّه عزّ وجلّ قد أفْتَىٰ مُوسَىٰ بهذا العقاب.

ولا بُدّ أنْ يكون قد انْطَلَقَ هَائماً لا يَسْتَطِيع أن يقترب من أحد من الناس.

﴿فَٱذْهَبْ﴾: هذه عبارة الطَّرْدِ من مجتمع بني إسْرَائيل.

﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾: هذه عبارةُ إعْلاَمِهِ بأنّ الله

سَيَبْتَلِيه بِدَاءٍ لا يَسْتَطِيع مَعَهُ أن يمَسَّ أَحداً، أو أن يَمَسَّهُ أحد، وهذا عقابٌ بعُزلَة جَبْريَّة عن كُلِّ النّاس، فإن اقترب منْهُ أحدٌ من الناس اشتدّت به أوجاعٌ وآلامٌ لا يَطيقها.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾: هو مَوْعِدُ يَوْمِ الدّين، للحسَابِ وفَصْلِ القضاء، وتَنفِيذِ الجزاء.

وبعد إصدار الحكم على السامريّ أراد موسَىٰ عليه السّلام أنْ يُرِيَ السَّامِرِيَّ، ويُرِيَ عُبأد الْعِجْلِ من بني إسرائيل مَهَانَةَ وضَعْفَ إِلَهِهِمْ الْعِجْل، فقال للسَّامِرِيّ:

● ﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾:

أي: وانْظُرْ إلى عِجْلِكَ الَّذِي اتَّخَذْتَهُ إلَهاً، وأقَمْتَ عنْدَهُ، ملازماً عبادته، ودَعَوْتَ بَنِي إِسْرَائيل إلى عبادته، انظر بعَيْنَيْك ماذا سنَفْعل به.

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾: أي: بَقِيت ملازماً لعِبَادَتِه كُلَّ نَهَارٍ مضَىٰ عَلَيْكَ من يوم صُنعِه أنْتَ ومَنْ عَبَدَهُ مَعَك من بني إسرائيل، لأنهم كانوا يتركُونه لَيْلا.

يُقَالُ لُغَةً: ظلَّ نَهارَهُ يَفْعَلُ كذا، وَظَلِلْتُ، وَظَلْتُ، وظِلْتُ، لا يُقَالُ ذَلِكَ إلاّ في النهار.

عَاكِفاً: أي مُقِيماً مُلاَزِماً ملازمة عبادةٍ له.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: أي: حَتَّىٰ يَنْصَهِرَ، ويَرَى بَنُو إِسْرَائيلَ أنْ هذا الإِلَه الذي عَبَدُوهُ لم يَسْتَطِعْ أنْ يُدَافِعَ عَنْ نَفْسِه.

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ نُفَتِّتَهُ إِلَى أَجْزَاءٍ صُغْرَىٰ كَذَرَّاتِ الرَّمل، لَنَنسِفَنَّهُ مُتَفَرِّقَ الذَّرَاتِ في الْبَحْر.

يقال لغة: نَسَفَ فُلاَنُ الشيءَ، أي: فَرَّقَهُ وَأَذْراه، ونَسَفَتِ الريح الترابَ، أي: حملَتْ أجزاءَهُ الصُّغرىٰ وفرَّقَتْهُ حيْثُ اتجهت.

ويظهر أنّ موسَىٰ عليه السلام أَمَرَ بإيقادِ نارٍ شديدة، أَمَام السَّامِرِيّ، وأمام جماهير بني إسْرائيل، حَوْل هذا الإلّه المصنوع المفترى به على الله، فلمَّا حَرَّقَهُ وانطَفأَتِ النّار حولَه وبَرَد، أَمَرَ بِتَفْتِيتِه إلَىٰ أجزاء صُغرى دقيقة.

جاء في الإصْحَاحِ الثاني والثلاثين من سِفْرِ الخرُوج، ما يلي:

«٢٠ ـ ثمّ أَخذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوهُ وأحْرَقَهُ بالنار وطَحَنَهُ حَتَّىٰ صار ناعِماً وذَرَّاهُ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَاءِ وسَقَىٰ بَنِي إسْرَائيل».

لكنَّ القرآن أبان أن موسَىٰ عليه السلام تَوَعَّدَ بني إسْرائيل بأَنْ يَنسِفَهُ في الْيَمّ نَسفاً، أيْ: في الْبَحْر، وذكْرُ اليَمّ يُبْعِدُ أنْ يَكُونَ ذَرَّاهُ على وجْهِ الماء وسَقَاهُ مع الماء بني إسرائيل.

ولعل نُسَّاخ السِّفْرِ، وجَدُوا في الأصل أَنَّ بني إسْرَائيل أشْرِبُوا فِي قُلُوبهم حُبَّ الْعِجْلِ، كَمَا جاء في القرآن، فَفَسَّرُوا ذَلِكَ من عندهم أَنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام سَقَىٰ ذَرَّاتِ الْعِجْلِ مَعَ الماء بني إسرائيل.

﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

بَعْد أنْ أبانَ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ، بالتطبيق الْعَمَلِيّ، أَنَّ الْعِجْلَ الَّذِي أَحَبُوهُ وَعَبَدُوهُ لَيْسَ لَهُ من الإلَهِيَّةِ شيءٌ، وأَنَّهُ صُورَةٌ مَصْنُوعَةٌ مِنْ مَادَّةٍ من مواد الأرض الَّتِي خَلَقَها اللَّهُ، وأَنَّ خُوَارَهُ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ ظَاهِرَة مِنْ ظواهِر تَأْثِيرات الأشياء في الأشياء، كتأثير مُرُور الرِّيح في بُوقٍ إذْ يُحْدِثُ صَوْتاً ناعماً رقيقاً أو غليظاً خَشِناً.

بعد ذلك أبان لَهُمْ أنّه لاَ إلَه بحَقٍّ في الوجُود إلاَّ اللَّهُ الرَّبُّ الَّذِي وسِعَ كُلَّ شَيْءٍ علماً.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَصْرٍ، تَدلُّ على ما يَدُلُّ عليه النفيُ والاستثناء.

﴿إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: هو الذي لا يُعْبَدُ في الوجود بحقٍّ إلاّ هو.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾: أي: لا بُدّ أن يكون من صِفَاتِ الإلٰهِ المعبود، أَنْ يكون قد وَسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلماً، وفي هذا إِلْمَاحٌ لهم إلى أنَّهُ مُطَّلِعٌ على ما في قلوبهم من إيمان أو شرك، عليم بأعمالهم ما ظهر منها وما بطن، لذلِكَ فهو يجازيهم بِحِكْمَتِهِ وعَدْلِه.

وبهذا قطع موسَىٰ دابِر التطلُّع لاتخاذ إِلَٰهٍ وثَنٍ من نفوس بني إسْرَائيل يَوْمَئِذٍ.

* * *

عَوْد إلى استِكْمَال تَدَبُّر الْفَقرة الْخَامِسَةِ من قصة موسى وهارون من سورة (الأعراف).

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

جاء هذا التعليق الرَّبَّانِيُّ بياناً بِشَأْنِ الّذِينَ اتّخَذُوا الْعِجْلَ من بَنِي إِسْرائيل، مُتَضَمِّناً الْحُكْمَ الجزائِيَّ بِشَأْنِهِمْ، لإعطاء الْحَدَثِ الفائدةَ الدّينيَّةَ من ذكر، والموعظَةَ لكُلِّ مَنْ يتْلو القرآن أو يسْتَمِعُ إليه، حتَّىٰ آخِرِ مُمْتَحَنٍ في ظُرُوف هٰذه الحياة الدنيا.

أبانَ الله عزّ وجلّ في هٰذا التعْلِيق حُكْمَهُ الجزائيَّ الّذِي حَكَمَ بِهِ عَقِبَ حَدَثِ اتّخاذِ بَني إسْرائيل العجْلَ، وَأَبَانَ فيه أيضاً حُكْمَهُ بالنِّسْبَةِ إلى التَّائبين.

ويظْهَرُ أَنَّ الله جلَّتْ حِكْمَتُه قَدْ أَوحَىٰ بِهِ إلى موسىٰ عليه السّلام، وأنَّ مُوسَىٰ قد بلّغَهُ لِقَوْمِه، وهو بيانٌ له مع ذلِكَ صِفَةُ الحكْم المستَمِرّ، لكُلّ مَنْ يُشْرِكُ باللَّهِ وَثَناً أَوْ غَيْرَه، ولِكُلِّ مَنْ يَفْتَرِي علَىٰ اللَّهِ الكَذِب في الدّين، ما دامَ في الأرضِ مُمْتَحنُون مُكَلَّفُونَ، ولِكُلِّ مَنْ يَتُوبُ من كُفرِهِ ويُؤْمِنُ فَإِنَّهُ يَلْقَىٰ اللَّهَ غَفُوراً رحِيماً ما دام في رحلة الامتحان، ولَمْ يُقْفَلْ بَابُ التوبَة.

إنَّ الْعُقُوبَة المعجَّلَةَ في الدُّنيا الَّتي قضَىٰ اللَّهُ عزّ وَجَلَّ بها على الّذين اتّخذُوا الْعِجْلَ مِنْ بني إسرائيل ذاتُ أثَرَيْن:

الأثَرُ الأول: أَنَّهُمْ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ من اللَّهِ في الحياة الدنيا.

الأثَرُ الثاني: أَنَّهُمْ سَتَنَالُهُمْ ذِلَّةٌ بقَضَاءِ اللَّهِ وقَدَرِه، في الحياة الدنيا أيضاً.

دلَّ على هٰذَين الأثرين قول الله تعالىٰ في النصّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا... ﴿١٥٢﴾﴾:

أي: سَيَصِلُهُمْ حتَّىٰ يَمْسِكَ بِهِمْ غَضَبٌ من ربّهم وذِلَّةٌ في الحياة الدُّنيا.

يُقَال لغة: نَالَ الشيءُ فُلاَناً، أي: وصَلَ إليه، فإذا كان هذا الشيءُ ممّا يُمْسِكُ ويَعْلَقُ أَمْسَكَ به وعَلِق.

الغَضَب: صفة من صفات النفْس من آثارها الانتقامُ والعقوبة.

الذلّة: الضَّعْفُ والهوان.

وقد أنْزل الله عزّ وجَلّ بالَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ من بَنِي إسرائيلَ فِي عَهْدِ مُوسَىٰ العقوبَةَ الشّدِيدَة، وهي القتل، وأنزَلَ بِهِمُ الضَّعْفَ والهوانَ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾:

دلَّتْ هٰذِهِ الجملَةُ على سُنَّةٍ ثابِتَةٍ من سُنَنِ اللَّهِ في الجزاء، فهذه العقوبة المعجَّلَةُ الّتي نالَتْ مُتَّخِذِي الْعِجْلِ من بَنِي إسْرَائيلَ في عَهْدِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، ستَنَالُ أمْثَالَهُمْ من الَّذِينَ يَفْتَرُونَ في دِين الله شِرْكاً، وَيَتَّخِذُونَ أوثاناً.

أيْ: وكذلكَ الجزاء سنَجْزِي كلَّ المفترينَ على الله في أُصُولِ الدِّين وأَحْكَامِهِ، فَسَيَنَالُهُمْ فِي الحياة الدُّنْيا غَضَبٌ من رَبّهم وَذِلَّة.

وهذا العقابُ المعجَّلُ غَيْرُ الْعِقَابِ المؤجَّلِ إلىٰ يَوْمِ الدّين، إذَا مَاتُوا وهُمْ كافرون مُشْرِكون، ولَمْ يَتُوبُوا إلى رَبِّهم، مؤمنين إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾:

لَمْ يَتْرُكِ اللَّهُ جلَّتْ حكْمَتُه الَّذِين أَجْرَمُوا باتّخَاذِ الْعِجْلِ دون إطْماعِ لهم بالتوبة، ما دَامَتْ مُدَّةُ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدنيا لَمْ تَنْتَه، لِيُنْقِذُوا أنْفُسَهُمْ مِنْ عذاب الآخرة.

بَلْ فَتَحَ اللَّهُ عزّ وجلَّ لهم بابَ التوبَة، كَشَأْنِهِ مع كُلِّ الْعُصَاة والكفَرَةِ المجْرِمين في كلّ أُمَّةٍ، وفي كلّ حادثة.

السَّيِّئَات: جَمْعُ السّيئَة، وهي في اللُّغة مؤنَّثُ السَّيِّىء بِمَعْنَىٰ القبيح والشَّيْء المكروه، فالسَّيِّئَة كُلُّ فَعْلَةٍ أو خَصْلَةٍ أو عادَةٍ قبيحةٍ مَكْرُوهة، وكذلِكَ كُلُّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهةٍ تَسُوءُ مَنْ نزلَتْ به، ولو كانت من العقوبَاتِ والْبَلاَيَا الرَّبَّانِيَّة.

وأُطْلِقَتِ السَّيِّئَةُ في القرآن على كلّ ذَنْبٍ من الكَبائر فما دُونَ ذَلِكَ حتَّىٰ الصَّغائر. وأُطْلِقَتْ على النوازل والعقوبات الّتي تَسُوءُ من نزلَتْ بِه.

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي ثُمَّ رَجَعُوا عن سيِّئاتهم إلى صراط الله وطاعته مستغفرين ربّهم.

فالَّذِينَ عَمِلُوا السّيِّئاتِ ولَوْ كانت من الكبائر كالكُفْرِ باللّهِ والإشْراكِ بِهِ، ثُمَّ تَابُوا من بَعْدِها، ولو أبْطَأَتْ تَوْبتهم، بدلالة حرف العطف «ثُمَّ» ما دامُوا في مُدَّةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا، لم يُقْفَلْ دُونَهُمْ باب التوبة، ولَمْ يَقْتَصِروا على التوبة السلبيَّة كَتَرْك عبادة الأوثان، بلْ قَامُوا بعَمَلٍ إيجابِيٍّ صالح، وهو الإيمان الصحيح الخالي من أي شرك، لأنّه الشرط الأسَاسُ للنَّجاةِ عند اللّهِ يوم الدّين، فإنّ الله عزّ وجَلّ يَغْفِرُ لهم برَحْمَته.

دلَّ على هذا المطويّ في مثاني الآية، الثناء على اللّهِ بجُمْلَةِ:

... ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

أي: إنّ رَبّكَ أيُها المخاطبُ أيًا كُنتَ، إذَا اتبَعْتَ سَيِّئَتك بحَسَنَةِ التوبَةِ والإيمان الصحيح، لغفُورٌ للّذِين سَبَقَ أنْ عَمِلُوا السَّيِّئات، رَحِيمٌ بهم، كما هو غَفُورٌ رَحيم دواماً.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

بعد التعليق الرّبّانيّ بشأن الّذِين اتّخذُوا الْعِجْل، أبان اللّهُ عزّ وجلّ أنّ موسَىٰ عليه السَّلاَم هَدَأ غَضَبُه، فأخَذَ الألواحَ من الأرض، وكان قد ألقاها من شدّة غَضبه كما سَبَقَ بيانه.

- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ... ﴿١٥٤﴾﴾:

شبَّهَ اللّهُ عزّ وجلَّ لنا حَرَكَةَ الغضبَ في نَفْسِ مُوسَىٰ بثائرٍ ذي مطالِبَ يُطَالِبُ بها، ويَصِيحُ مُتَحَدِّثاً بها، ومن آثار هذه المطالِبِ الغضبيَّة توجِيهُ التّلْويم والتثريب وعبارات التّذَمُّر، ومن آثارِها تحرُّكُ الجُمْلَةِ العصَبِيَّةِ للمعاقبَةِ والانتقام:

فإذا هدَأَتْ ثَوْرَةُ الْغَضَبِ كان من أَثَرِ هدوئها السُّكُوتُ النَّفْسِي عَنْ تِلْكَ المطالب، ولَوْ بصُورَةٍ مؤقَّتة، فكان هُدُوءُ الغضب بمثابَةِ سكوته.

وهذه من الاستعارات البديعة، الَّتي تُصَوِّرُ فيها الحركات النفسيَّةُ الداخِلِيَّةُ بأمْثِلَةٍ تُدْرَكُ بالحسِّ الظاهر.

أي: وحين هدأَتْ نَفسُ موسَىٰ، وذهبَتْ عنها ثورة الْغَضَب الشّديد، أخذَ الأَلْواح التي كتَبَ اللّٰهُ له فيها بعض تعليمات الدين، ومِنْهَا الوصايا العشر.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾: أي: وَفِي المكتوب فيها. **النَّسْخُ**⁽¹⁾ في اللُّغَة: يأتي بمعنىٰ أَنْ تكتُبَ كِتاباً عن كتاب حَرْفاً بِحَرْف. **والنُّسْخَةُ**: الشَّيءُ المكتوبُ فيه، المنْسُوخُ عن مكْتُوبٍ آخر. ويُطْلَقَ على المنْسُوخِ عنه نُسْخَةٌ أيضاً.

وقَدْ دَلَّت عبارة: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ على أنَّ مَا كُتِبَ في الألواح الحجريَّة لموسَىٰ عليه السَّلام، مُسْتَنْسَخٌ عمَّا هو مكتوبٌ في اللَّوْحِ المحْفُوظِ عنْدَ الله.

﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: أي: وفيما كتبَ اللّٰهُ عزّ وجلّ في الألواح لموسى مُسْتَنْسخاً عمَّا عند الله عزّ وجلَّ في اللَّوْحِ المحفوظ أمران مُمْتزجانِ مُخْتَلطان:

الأمْرُ الأول: هُدىً.

والأمْرُ الثاني: رَحْمَةٌ.

● أَمَّا كونُه هُدىً فلِأنَّه يشْتَمِلُ على أحْكامٍ تَهْدِي الناسَ إلى سبيلِ سعادَتِهم في الدُّنيا وفي الآخرة، ويشتمل على مَواعِظ تَسْتَثِيرُ فيهم الرَّعبَ والرَّهب، فتَجْعَلُهُمْ يسْلُكونَ سبيلَ هِدَايَتِهم إلَىٰ سعادتهم، ويشتمل على

---

(1) والنّسخ يأتي بمعنى الإزالة.

معارف وبيانَاتٍ تُخرِجُهُم من ظُلُمات الأهواء والشَّهوات والضَّلالات ووساوِسِ الشياطين، وتَضَعُهُمْ في طريق النور والحق والخيْرِ والفضيلَة والرَّشاد.

● وأمَّا كَوْنُهُ رَحْمَةً، فلأَنَّ هِدَايَةَ الضَّالِّ إنَّما تَكُونُ أثراً مِنْ آثار الرَّحْمَةِ به، وكذَلِكَ إرْشَادُهُ وتَعْلِيمُهُ، ودَلالَتُهُ علَىٰ صِرَاطِ سَعادَتِه ونجاتِه وفَلاَحِه.

ولأنّه يشْتَمِلُ علَىٰ بشارة للمؤمنين المتقين بجنَّاتِ النّعيم، المغمورات برَحْمَةِ اللَّهِ يَوْمَ الدّين. ويشتمل على بشارة للعصاة المذنبين بالمغفرة والعفو، إذا تابُوا إلى بارئهم واسْتَغْفَرُوه، وكِلاَهُمَا من آثارِ صفة الرَّحْمَة.

ويشتمل على تَحْذِيرٍ من شقاء الدُّنيا وعذابِ الآخِرَة، اللَّذَيْن يُسَبِّبُهما الكُفْر والشركُ بالله، وارْتِكَابُ كبائر الإثم، وهذا أيضاً من رحمة اللَّهِ بعباده.

﴿... هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾:

هذه العبارة تُبَيِّنُ الّذين يَنْتَفِعُونَ ويَسْتَفِيدُونَ ممَّا في نُسْخَةِ الأَلْوَاحِ من هدِىً ورحمة، وهم الّذين يَرْهَبُونَ عَذَابَ رَبّهم، ومَن رَهِبَ عَذابَ الله اتَّقاه، فالمستفيدونَ هُمُ المتقون.

ودَخَلَت اللام على لفظ ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ لِتَقْوِية عَمَلِ فِعْل ﴿يَرْهَبُونَ﴾ إذْ تَقَدَّمَ المفْعُولُ بِهِ على الفِعْل للتخصيص، ولمراعة رُؤوس الآي.

* * *

الفقرة السادسة

ميعاد الميقات الثاني ميقات التوبة والاعتذار والشفاعة

الآيات من (١٥٥ ـ ١٥٧).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

القراءات:

(١٥٦) ● قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿عَذَابِيَ أُصِيبُ﴾: بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [عَذَابِي أُصِيبُ]: بإسْكان ياء المتكلم مع المدّ في الوصل. وفتح ياء المتكلم وإسكانُهَا وَجْهَانِ عَربيان في النطق.

(١٥٧) ● قرأ نافع: [النَّبِيءَ] مع المدّ المتصل.

وقرأ باقي القرّاء العَشرَةِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ بِتَشْدِيدِ الياء.

والقراءتان لُغَتَانِ في لِسَانِ العرب لهذه الكلمة.

(١٥٧) ● قرأ ابن عامر: [ءَاصَارَهُمْ]: بالجمع، وهو جمع «إصْر».

وقرأ باقي الْقُرّاءِ العشرَةِ ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾: بالإفراد، وهو اسم جنس. ومؤدّى القراءتين واحد، لأنّ اسْم الجنس المضاف إلى المعرفة يعُمُّ، فيكون بمثابة الجمع.

تمهيد:

ترجّح لدَيَّ أَنَّ الميقاتَ الواردَ في هذا النصِّ هو ميقاتٌ آخر، بَعْدَ

ميقاتِ كتابَةِ الألواح لموسىٰ عَليْه السّلام، ويُمْكِنُ أنْ نَعْتَبِرَهُ ميقاتَ التَّوبة والاعْتِذَارِ، والشفاعَةِ للّذِينَ أجْرَمُوا باتّخذا الْعِجْلِ وعبادتِه من جماهير بني إسرائيل.

ويظْهَرُ مِنْ دَلائِلِ النُّصُوصِ وإشاراتها، أنَّ مُوسَىٰ عليه السّلام سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَأتِيَ لِمُنَاجاتِهِ عِنْدَ جَبَلِ الطُّور، حَيْثُ كَانَ الميعَادُ السَّابِقُ، وَمَعَهُ فِي هٰذا الميعاد الآخر النُّخْبَةُ المختارَةُ مِنْ كُلّ بَنْي إسْرَائيل الّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ من مصْرَ، لِيَسْجُدُوا لِرَبِّهم، ويُعْلِنُوا تَوْبَتَهُمْ واسْتِغْفَارَهُمْ عَنْ أنْفُسِهم، إذْ لَمْ يَقُومُوا بما يَجِبُ عليهم من مَنْعِ جماهيرِهِمْ عن اتّخاذِ الْعِجْلِ وعبادته وَلَوْ بالقوَّة، فإذا لم يَسْتَطيعُوا فَارَقُوهم وهَجَرُوهُمْ واعْتَزلُوهم، وليُعْلِنُوا لِرَبّهم في الْوَادي المقَدَّس طُوىٰ تَوْبَةَ الّذِينَ اتَّخذُوا الْعِجْلَ وَعَبَدُوه، مع الشفاعة لَهُمْ أنْ لاَ يُهْلِكَهُمُ اللّهُ بعذابِ شامل، فهي رحلة مناجاة، واعْتِذَارٍ، وَتَوْبَةٍ، واسْتِغْفَارٍ، وشفاعَة.

وقد جاء في الإصْحَاحِ العاشر من سِفْر اللاّويّين، ذِكْرُ لِقَاءَيْنِ في ميقاتَيْنِ لموسَىٰ مع رَبّه عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ، بَعْدَ خُرُوج بَني إسرائيل من مِصْر، وأنَّهُ كانَ مَعَ مُوسَىٰ عليه السّلام في أَحَدِ هَذَيْنِ اللّقَاءَيْنِ أخُوهُ هَارون عليه السلام، و«نَاداب» و«أَبيهو» ابْنَا هارون. و«يَشُوع» وسبْعُونَ من شيوخ بني إسْرَائيل.

وبناء على هذا الذي ترجّح لدَيَّ في النظرة الكليّة العامّة، أشْرَعُ في تَدَبُّر فِقَرَاتِ هذا النصّ.

التدبّر:

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ . . .﴿١٥٥﴾﴾.

يقال لغة: اخْتَارَ الشَّيْءَ مِنْ أشياء، أي: انتقاه وفضَّلَهُ عليها واصطفاه.

أورد المفسّرون في تحليل هٰذه العبارة عِدَّةَ تخْريجات:

- فقيل: أصل الكلام: واختار موسَىٰ مِنْ قومِهِ سبعين رجلاً. وحذفت كلمة «مِنْ» للإيجاز، فانْتَصَب لفظ «قومه» على أنه مفعول به ثانٍ، والمفعولُ الأول المتأخِّر ترتيباً في الجملة هو لفظ: «سبعين».
- وقيل: لفظ «سَبْعين» بدلٌ من لفظ «قومه» على أَنَّهُ بَدَلُ بعْضٍ مِنْ كُلٍّ.
- وذكر الرّازي وجهاً آخر، وهو أنْ يكُون لفظ «سَبْعِين» عطْفَ بيانٍ، على اعتبار أنَّ القوم الّذين رأىٰ مُوسَىٰ أَنّهم قَوْمُهُ المتابعُونَ لَهُ حَقِيقَةَ هُمُ السَّبْعُون الّذِين اختارهم، أي: أمَّا بقيَّةُ بني إسرَائيل فَهُمْ أعْدَادٌ صُوريّة، مَالئةٌ فراغاتٍ في السَّواد الأعظم.

وهذا الوجْهُ الّذي ذكره الرّازِي ذُو مضمون فكرِيٍّ جديرٍ بالاعتبار، أمّا الوجْهان الأخيران فتخريجان نَحْوِيَّانِ فقط.

جاء في الإصحاح الثّاني عشر من سِفرِ الخروج، أنَّ بني إسْرَايل كانوا حين خروجِهم من مصْرَ بقيادة موسىٰ عَلَيْهِ السلام، سِتّ مِئَةِ أَلْفِ ماشٍ من الرّجال عَدَا الأولاد.

فمن هذا العدد الكثير اختار موسى عليه السلام للميقات الثاني، ميقاتِ الاعتذار، والتوبة، والاستغفار، والشفاعة، سبعين رجلاً فقط، ولا يدخُل هارون عليه السلام في السبعين المختارين، لأنّه مثلُ أخيه نبيٌّ ورسول، وقد يكون «نَاداب» و«أَبِيهو» و«يَشُوع» غير السَّبعين أيضاً، لأنهم كانُوا مُقَدَّمِين إيماناً وصِدْقاً وبرًّا وإِحْسَاناً، عنْد موسى قَبْلَ هذا الاختيار الذي اختاره لهذا الميقات.

وانْطَلَقَ مُوسَى عليه السَّلامُ مع الَّذِين اصْطَفَاهُمْ من قومه إلى الميقات الثّاني الزَّمَانِي والمكاني، ميقاتِ الاعتذار والتوبة والاستغفار والشفاعة للّذِينَ اتّخذوا العجل.

وسَجَدَ مُوسَىٰ لرَبِّه، ودَعَا واستَغْفر، ووقف الذين مَعَهُ قريباً من الجبل، ولم يَصْعَدُوا عَلَيْه، لأنَّهم نُهُوا عن ذَلِكَ، ودخَلَ مُوسَىٰ في الْغَمَامِ الَّذِي ظلَّلَ الجبل، فكانَ الْغَمَامُ مُجَلِّلاً سَاتراً.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾:

لَقَدْ زَلْزلَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الأرضَ من تحت بني إسرائيل الذي حَضَرُوا مَعَ مُوسَىٰ، فأخَذَتْهُمْ رَجفَةُ الأَرْضِ، أي: قبضَتْهُمْ جَمِيعاً، وهزَّتْهُمْ مَعَها، وأَخَذَتْ قُلوبَهُمْ رَجْفَةُ الرُّعْبِ من الموت، ومن دفنهم أَحْيَاءَ في شُقُوقِ الأرض.

ويظهر أنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُه شاء أَنْ يُعْطِيَهُمْ بهٰذِهِ الرَّجْفَةِ دَرْساً تَرْبَويًا عَمَلِيًا، يُشْعِرُهُمْ فِيه أَنَّهُ لَوْ زادَ هٰذِهِ الرَّجْفَة زِيادَةً قَليلَةً لأَهْلَكَهُمْ بِها، ولَدَفَنَهُمْ فِي بَاطِنِ الأرْضِ الَّتِي يَقِفُونَ عليها، فإذا كانوا قَدْ خَافُوا علىٰ أنْفسِهِمْ مِنْ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِم الَّذِينَ اتَّخذُوا الْعِجْلَ وعَبَدُوه، فلَمْ يأخُذُوا على أيْدِيهم بالْقُوَّة، فاللَّهُ أَحَقُّ أن يَخْشَوْهُ، لِأَنَّهُ قادِرٌ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وعزّ سُلْطَانُه ـ على أَنْ يَمْحُوهُمْ من الوجود كُلِّهِ بِطَرْفَةِ عَيْنٍ، أو بأقَلَّ من ذلك.

عندئذ خاف موسى عليه السلام على صَفْوَةِ قَوْمِهِ أَنْ يُدْفَنُوا في الأرْضِ بِهٰذِهِ الرَّجْفَةِ التأديبيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ، ولم يكن يَعْلَمُ أَنَّها لتأديبِهم وتَرْبِيَتِهم بصُورَةٍ عمليَّةٍ مُرْهِبَةٍ، فتوجَّه لرَبِّه داعياً ملْتَجِئاً:

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ... ﴿١٥٥﴾﴾؟؟

إنّ الحدّة في طبْع موسَى الفِطْريّ لَمْ تُمكّنْهُ مِنْ أَنْ يَصْبِرَ قَلِيلاً، لِيَرَى أَثَرَ الرَّجْفَة، ولِيُدْرِكَ أَنَّ المقْصُودَ بِهَا تَأْدِيبُهُمْ، وَتَرْبيتُهمْ، لا إهْلاَكُهم، والغرضُ مِنْ هٰذَا التأدِيب أَنْ لا يتَهاوَنُوا مُسْتَقبلاً في أَمْرِ الدِّين، ولا يتَسَاهَلُوا مَعَ المحرّفِينَ والمبدِّلين.

فأسْرَعَ مَعَ بَدْءِ حُدُوث أوائلِ الرَّجفَة قائلاً:

- ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾: أي: لو أنك شئت إهلاكَهُمْ عَلَىٰ تَقْصِيرِهِمْ في الأخذِ على أيْدي سُفهاءِ بني إسْرَائِيلَ، لكُنْتَ أهْلَكْتَهُمْ قبل مَجيئِهم مُعْتَذِرين تائِبينَ مُسْتَغْفِرينَ شَافِعِينَ للّذين أجْرَمُوا، دُونَ أنْ تَجْعَل لَنَا ميقَاتاً لِتَقْدِيم هٰذِهِ التَّضَرّعَات، ولكُنْتَ أهْلَكْتَنِي مَعَهُمْ، لأنّني عَجِلْتُ في الميقاتِ السَّابِقِ فَلَمْ أَصْحَبْ قَوْمي مَعِي، واكْتَفَيْتُ بِتَكْلِيفِهِمْ أنْ يَأْتُوا وَرَائي بقيادَةِ أَخِي هَارُونَ، فَعَصَوْهُ.

هذه المعاني نَفْهَمُهَا مِنْ مَثَاني القول.

- ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟! وَخِلَالَ دُعَائِه أَدْرَكَ مُوسَىٰ عليه السَّلَامُ أَنَّ تَقْصِيرَ صَفْوَةِ قَوْمِهِ، وتَعَجُّلَه، لا يَقْتَضِيَانِ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللّٰهِ عَزَّ وَجلَّ في الجزاء إهلاكَهُمْ، فقالَ دَاعِياً: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟! أي: أتُهْلِكُنا بِسَبَب مَا فَعَلَ السُّفهاءُ مِنّا، الّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الإهْلَاكَ لِأَنَّهُمْ أشْرَكُوا، مَعَ كُلِّ آيات التَّوحِيدِ العظمَىٰ الّتي شَهِدُوها، نظراً إلى أَنَّهُمُ الجمهُورُ الأعظم مِنّا، فهذا العِرْقُ البشريُّ لا يستَحِقُّ البقَاء في الحياة الدنيا، لكَثْرَة السُّفَهَاءِ الضَّالّينَ فيه.

استفهامٌ فيه معْنَى التفجُّع، وهُو مبنيٌّ على ظَنٍّ ضعيفٍ سبَقَ إلى ذهْنِه، فرأَىٰ فيه أنَّ هٰذِهِ الرَّجْفة رَجْفَةُ إهْلَاكٍ.

لَقَدْ كان مُوسَىٰ عليه السّلام مَعْذُوراً في تصَوّراتِه، بسبب هَوْلِ المفاجَأةِ الّتي شَهِدَها بالرَّجفَة.

ولكِنْ سَرْعَانَ ما أدْرَكَ عليه السَّلَامُ أَنَّ الحياة الدُّنْيا كُلَّها حيَاةُ امْتِحَانٍ للْعباد، فما جَرَىٰ لِقَوْمِهِ، وما جَرَىٰ مِنْهم من صُنْعِ العِجْلِ وَخُوارِه، وعِبَادَةِ جُمْهورِ بَنِي إسْرَائيلَ السُّفَهَاءِ له، هو مظْهَرٌ من مظاهِرِ هذا الامتحان، فقال في دُعَائِهِ لِرَبّه:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ . . . ﴿١٥٥﴾﴾:

أي: ما الْقِصَّةُ الّتي جرَتْ، وجرَتْ أَحْدَاثُها، ومِنْهَا تمكينُ السَّامِرِيّ من أَخْذِ القَبْضَةِ من أَثَر الرَّسُول، وصُنْعِ الْعِجْلِ الذي يَصْدُرُ عَنْهُ خَوَارٌ كخوار الْعُجُولِ، إلاَّ مَظْهَرٌ من مظاهِرِ امتحانِكَ لعِبَادِك، هَلْ يَثْبتُونَ على الدِّين، أم يَنْحَرِفونَ عَنه، ويُحَرِّفون فيه.

الفتنة: هي في الأصْلِ الصَّهْرُ بالنّار للمعْدن، كالذّهب والفضة، لتمييز الجيد من الرّديء، والصافي من المختلط بالشوائب.

يقال لغة: فتن الصائغ الذّهَبَ يَفْتِنُه فَتْناً وفُتُوناً، أي: أذابَهُ بالنّار ليختَبَره.

ثمّ صارَتْ مَادّة الكلمة تدلُّ على مُطْلَقِ الابتلاء والامتحان والاختبار، وهذا هُوَ المعنى المراد بكلمة الفتنة في النصّ هنا.

«إنْ» في العبارة هنا حرف نفي بمعنَىٰ: «ما» النافية، أي: ما الْقِصَّةُ التي جرَتْ كُلُّها إلاَّ فِتْنَتُكَ يا رَبّ، بمعنى: أنّ كُلَّ الذي جرىٰ كان ضمن دائرة امتحانك الحكيم لبني إسرائيل، المشمول بعلْمِك المحيط بكلّ شيء، دلَّ على هذه الإِضَافَاتِ أنّ امتحان اللّه جَلَّ جلالُهُ لا يكونُ إلاَّ كذلِكَ.

وبما أنّ الامتحانَ امتحانُكَ، والفتنةَ فِتْنَتُكَ، فأنْتَ الَّذِي تقضي بعدْلِكَ، أوْ بِفَضْلِكَ بَيْنَ عِبَادِك، وأَنْتَ أحْكَمُ الحاكمين.

- ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي: تحكُمُ بِعَدْلِكَ بالنَّظرِ إلى نتائج فِتْنَتِكَ لعبادك، بالضَّلاَلِ على مَنْ تشَاءُ من عبادِك، لا مُعقِّبَ لِحُكْمِكَ.

- ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي: وتَحْكُمُ بالْهِدَايَةِ بالنَظَر أيضاً إلَىٰ نتائِج فتْنَتِكَ لعبادك، لِمَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِكَ، لا مُعقِّبَ لحِكْمِكَ.

وكلُّ مُؤْمِنٍ بكَ يَعْلَمُ عِلْماً حقاً أَنَّ مَشِيئَتَكَ في أَقْضِيَتِكَ وأحكامِكَ لِعَبَادِكَ أَوْ عَليهم، لاَ تُفَارِقُ حِكْمَتَكَ وعِلْمَكَ وعَدْلَكَ أَوْ فَضْلك.

وبَدهيٌّ أن مشيئةَ اللَّه لا تفارق حكمته، فهو لا يحكم لمن كان ضَالاً بالهداية، ولا يحكم على من كان مهتدياً بالضلالة.

فكُلٌّ مِنْ فِعْلَي: ﴿تُضِلُّ﴾ و﴿وَتَهْدِى﴾ مُسْتَعْملٌ هُنا بِمَعْنَىٰ تقضي وتَحْكُمُ، بالضَّلَالَةِ، أو بالْهِدَاية، وهذا أَحَدُ المعاني الّتي يُسْتَعْمَلُ فيها إسْنَادُ الأفعال إلى الفاعلِ أو إلى المفعول به.

والمعنى: تَنْسُبُ إلى الضَّالّ الضّلال، وتَنْسُبُ إلى الْمُهْتَدِي الهداية. وبَعْدَ الْحُكْمِ الرَّبَّانيّ يأتي الجزاءُ الملائم له، وبهذا تَظْهَرُ ثمرة الامتحان وغايتُه.

ولمّا أعلن مُوسَىٰ عليه السلام استِسْلَامَهُ لِحُكْمِ رَبِّه في بني إسرائيل وما يَسْتَتْبِعُ حُكْمَهُ من جزاء، لجأ إلى ربّه داعياً قائلاً:

- ﴿. . أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾:

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أي: أنت رَبُّنا وَسَيِّدُنا والمنعِمُ عَلَيْنا والمالِكُ لَنا، والمتولّي لكُلِّ أُمُورِنا، وفي هذا تَفْوِيضٌ كَامِلٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾: بعد إعْلان الاستِسْلام الكامل لحكْم اللَّهِ، وتَفْوِيضِ الأمر كُلِّهِ إلَيْه سَأل مُوسَىٰ رَبَّه أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ولِقَومِهِ، فَدَعا دعاءً عامًّا بالْمغْفِرَةِ لِنَفْسِه ولقومه.

المغْفِرَة: سَتْرُ الذَّنب، وفي طلَبِ سَتْرِ الذَّنْب معنَى التجاوز عن المحاسَبة والجزاءِ عليه، فكأنّ الذُّنُوبَ غَيْرُ مَنْظُورٍ إليها في المحاسبَةِ والجزاءِ، وأَتْبَعَ فَدَعا بالرَّحْمَة، فقال:

﴿وَارْحَمْنَا﴾: الرَّحْمَةُ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ من آثارِها المغفرة والْعَفْو والصَّفْحُ والإكرامُ والجود، وكُلُّ العطاءَاتِ التي تَمْنَحُ السعادات.

وفي الدُّعاءِ بالرَّحْمَةِ بَعْدَ الدُّعَاءِ بالمغْفِرَةِ تَعْمِيمٌ بَعْد تخصيص، أي: وزِدْنا بَعْدَ المغْفِرَةِ مِنْ عطايَا رَحْمَتِكَ الواسِعَة.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾: هٰذه عبارة ثناءٍ على الله جلّ جلاله، مَبْدُوءَةٌ بِحَرْفِ عَطْفٍ، وكانَ مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ أَنْ تأتِيَ دُونَ حَرْف عَطْفٍ، فما الحكمة من عطفها بالواو؟.

أقول: إنَّ التَّدبُّر الأَمْثَلَ يَهْدِينا إِلَىٰ أَنَّ هٰذِهِ الجملَةَ مَعْطُوفَةٌ على جُمْلَةٍ مَحْذُوفَةٍ أفصَحَتْ عَنْهَا «الواو» العاطفة(١)، وتقدير الكلام هُنَا:

أَنْتَ وَلِيُّنَا، فَاغْفِرْ لَنا، وارْحَمْنَا، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وأَنْتُ خَيْرُ الْغَافِرِين.

وفي دُعَائِهِ السَّابقِ في الآية (١٥١) لنفسِه ولأخيه قَالَ مُوسَىٰ عليه السَّلام:

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾:

ومن سُنَّةِ التكامُلِ في دَلالاَتِ النَّصوصِ، نفهم أنّ هذِه الآية أيضاً، هي على تقدير:

وأَدْخِلْنَا في رحْمَتِكَ أَنْتَ خَيْرُ الغافِرِينَ، وأَنْتَ أَرْحَمُ الراحِمِين.

وقد دَلَّ المذكور في كُلٍّ من الدُّعَاءَيْنِ على المحذوف في كُلٍّ مِنهما، وأشار وجُودُ حَرْفِ العطْفِ في كُلٍّ مِنْهُما إِلَىٰ الجملة المحذوفة في كُلٍّ مِنْهُما.

ويُلاحظُ أنَّ طَلَبَ الرَّحْمَةِ من الله، يَسْتَدْعِي الثناء عليه بأنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمين، وأنَّ طلَبَ المغفرة مِنه يَسْتَدْعي الثناء عَلَيْهِ بأنّه خَيْرُ الغافرين.

وهُنَا يَرِدُ سؤال، وهو: لماذَا لم يأْت في الثناء الثاني عبارة: وأَنْتَ أغْفَرُ الْغَافِرِينَ، كما جاء في الثناء الأول عبارة: وأنت أَرْحَمُ الراحِمين؟!

---

(١) ثبت عِنْدِي أنّ العطف على محذوف لا يقتصر على الفاء التي سمَّاها النحاة الفاء الفصيحة، بل قد يكون بكلّ حُرُوفِ العطف، وفي القرآن من هذا الكثير.

أقول: إنّ المغفِرَةَ لا تكونُ خيراً دَواماً، بل قد يكون الخير في كشْفِ جريمة المجرِم ومُعَاقَبَتِه على جَرِيمته، بَيْنَما قَدْ تَدْفَعُ عَاطِفَةُ الأبُوَّة أو الأُمُومَةِ إلى سَتْرِ كلِّ جَرائِم الأبْناءِ، والتجاوزِ عن المؤاخَذِةِ عليها، وهٰذِهِ المغفرة شَرٌّ، وتشجيع للمجْرِم علىٰ التمادِي في جرائمه.

أمَّا الرَّحْمَةُ فاللَّهُ أرْحَمُ كُلِّ الرَّاحِمِينَ دَواماً، وقَدْ جَاءَ في النُّصُوصِ القرآنِيَّةِ أنَّهُ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، للدَّلاَلَة علىٰ أنَّ الرحْمَةَ حينما تكونُ مُنافِيةً لمقتضيات الحكمة فإنّ اللَّهَ يُنْزِلُ بالمذْنِبِ العقوبة الَّتي تقتضيها حِكْمَتُهُ جلَّ جلاله، وهذا من الرَّحْمَةِ بِغَيْرِه من عباده.

وتابع موسىٰ عليه السّلام دُعَاءَه قائلاً:

- ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ . . . ﴿١٥٦﴾﴾:

أي: واكْتُبْ لَنَا في هذه الدُّنْيا حَسَنْة وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً أو حَسَنَاتٍ لاَ حَصْرَ لها. وقد حُذِفَ هٰذا من الجملَةِ لِلْعِلْم به، وهو ممّا يقتضيه الإيجاز والاقتصاد في العبارة، ولا سيما في مخاطبَةِ الرَّب جلَّ جلاله.

﴿وَٱكْتُبْ﴾: دُعَاءٌ جاء التعبير فيه عن آخِرِ الأمْرِ الذي يُثَبَّتُ به المرادُ المقْضِيُّ تَنْجيزُه في المستقبل.

فالأمْرُ من الممكِنَاتِ يُرادُ، فيُقْضَىٰ به، فَيُكْتَبُ، فَيُنَفَّذُ حينما يأتي وقت التنفيذ. فَطَلَبُ كتابَتِهِ يتضمَّن عن طَرِيق اللّزوم الذِهْنِيِّ دُعَاءً بتخصيصِه بالإرادة، فإمْضائِه والقضاء به، فَكِتَابَتِهِ لِتَنْجِيزه في حينه، وهذا من الكنايات لما فيه من استخدام اللوازم للدلالة على ملزوماتها.

إنّ مُوسَىٰ عليه السلام بعد أن سَأَلَ اللَّهَ عَزّ وجل بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ خصّ في دُعائه بالذكْرِ نَوْعَيْنِ مِنْ أثارِ رَحْمَته:

النوع الأول: حَسَنةٌ مُعَجَّلَةٌ في الدنيا.

النوع الثاني: حَسَنةٌ تَجْمَعُ حَسَناتٍ لا نهايَة لها مُؤَجَّلَةً إلى الآخِرَة، إلى يَوْمِ الدّين، يَوْمِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء.

أمّا حَسَنَةُ الدُّنيا فتَشْمَلُ أشياءَ كثيرة، منها التوفيق والنَّصْرُ والصِّحَّةُ والرِّزْق، ومنْحُهُمْ خَيْراتِ الأرض الّتي باركَ اللّهَ فيها، مع ما أَبَاحَ اللّه مِنْ متاعِ الحياة الدُّنيا.

وأمَّا حَسَنَةُ الآخرةِ فأشياءُ كثيرَة لا تُحْصَىٰ ولا تُسْتَقْصَىٰ، منها النجاة من عذاب الله، ومنها الظَّفَرُ بالسّعَادَةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النعيم، وَرِضوانٌ من اللّهِ أكبر.

● ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾: أي: إنَّا تُبْنا إلَيْكَ، ورَجَعْنَا إليكَ، طَائِعِين، مُسْتَسْلِمِين.

يقالُ لغة: هَادَ يَهُودُ هَوْداً، أي: تَابَ وَرَجَعَ إلى الحقّ والطاعَة.

إنّ مُوسَى عليه السّلامُ قد أعْلَنَ بهذه العبارة التوبَةَ عن مُذْنبي بني إسرائيل الّذين اتّخذُوا الْعِجْل، وعن الّذِينَ قَصَّرُوا فَلَمْ يأخُذُوا على أَيْدِيهِم، وعن نفسه، فيما كان ينبغي لمثلِه أن يفْعَلَ مَا هو الأكمل والأفضل.

* * *

قَوْلُ اللّه تعالى:

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لموسَىٰ علَيْه السَّلامُ هذه المقالة.

أمّا قولُهُ: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ فالظاهر أنَّهُ جواب لِقَوْلِ مُوسَىٰ: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾؟! إذْ هزَّتْهُ مُفَاجَأَة الرَّجفة، وظنَّها رجْفَة إهلاك.

﴿عَذَابِيٓ﴾: أي: عِقَابي، فالعذاب في اللُّغة أتى بمعنى العقاب، وهو المرادُ هُنَا كما يظهر، ومعلومٌ أنّ العقابَ إنَّما يكون عن ذنب، وعقابُ الله للمذنبين إنّما يكون معادلاً لذُنوبهم، فالسيِّئَةُ في قانون اللهِ الجزائيّ تُقَابَلُ بمثْلِها المكافئ لها.

ولمّا كان من الذّنوب مَا قَدْ يَغْفِرُهُ الله، وَكان مِنْهَا ما قَدْ يُعَاقِبُ عليه، ولمَّا كانت مشيئةُ اللَّهِ الحكيمة هي الّتي تُحَدِّدُ إنْزَالَ عِقَابِهِ، أو الغفرانَ والْعَفْو، كان التعبير الملائم للدلالة على هذه الحقيقة، قولُ الله عزّ وجل: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾.

ولا بُدَّ أَنْ نَضَعَ في مُلاَحَظَتِنَا دَواماً أَنَّ مشيئة اللَّهِ لاَ تُفَارِقُ حكْمَته، وأَنّ حِكْمَتَهُ سُبْحَانَهُ إنَّما تَقْضِي بعَدْلِه، أو تقضي بفضْلِهِ وإحْسَانِه.

وأمَّا قولُهُ تَعَالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فالظاهر أنَّه جوابٌ لقَوْل مُوسَىٰ عليه السّلامُ لربّه: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

يقال لغة: وَسِعَ الشيءُ الشيءَ، أي: لم يضِقْ عنه.

والمعنى: أنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ واسِعَةٌ جدًّا سَعةً قابِلَةً لأنْ تَفِيضَ على كُلّ شيءٍ قابلٍ بتكوينه، أو باختياره، لتلَقّي آثار فَيْضِهَا وعطائِهَا وَجُودِهِا، وهذا القيْدُ يُفْهَم باللُّزُوم العقلي، أَوْ بالاقتضاء العقلي، وبرهانُه أَنَّ الشيءَ الَّذي لا يقْبَلُ بأصْلِ تكوينه أن يتَلَقّى آثارَ رَحْمَهِ الله لـم يـخْرُجْ من عُمُوم سَعَةِ رَحْمَة اللَّه لأنّها لا تَتَّسِعُ له، بلْ لأنَّهُ مَحْرُومٌ بطبيعَتِه من تقبُّل آثارِها، والانْتِفَاعِ بِها، كالصَّخْرَةِ الصَّمّاءِ الّتي تَنْزِلُ عليها أمْطَارُ السَّمَاءِ، الّتِي هيَ أثَرٌ مِنْ آثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ فلا تنْتَفِع بِهَا، لا لأنّ رَحْمةَ اللَّه لم تَسَعْهَا، ولَكِنْ لأنّها هي لم تَقْبَل الانْتِفاعَ بغَيْثِ السَّماء.

وكذلِكَ مَنْ يَرْفُضُ باختياره الحرّ، من ذوي الإرادات الحرّة، تَلَقّيَ رَحْمَةِ اللَّهِ الّتِي وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ بشُرُوط تَلَقِّيها.

ولنفرِضْ أنّ رَحْمَةَ اللَّهِ تُشْبِهُ نهراً عظيماً، يتَّسِعُ لكل مَنْ يُريد الانتفاع بمائه، بأيّ وجْهٍ مِنْ وُجُوه الانتفاع، ولكن بشرط أن يَتَّخِذَ وَسِيلَةً لاسْتخراج الماء من النهر، مَعَ العلم بأن وسائل استخراج الماء مِنْهُ مُيَسَّرَةٌ لكلّ طالِب الانتفاع به بنسبة مُتَساوِية، فإذا رَفَضَ المحتاج إلى الماء اتّخاذ أيَّةِ وسِيلَةٍ مُيَسَّرَةٍ له، فهَلْ يُقَالُ: إنَّ ماء النهر لم يتَّسِعْ له، أمْ يُقَالُ: إنَّهُ هو الذي أبَىٰ باختياره الحرّ الانتفاعَ بماء النّهر.

ولنفرض أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تُشْبِهُ غيثاً عظيماً عامّاً شاملاً، ولاَ يحتاج الانتفاعُ به إلاَّ أَنْ يَتَعَرَّضُ ذو الإرادة الحرَّةِ لتَلَقّيه من السَّماء، لكنَّ المحتاج إليه أوىٰ إلى مغارة، أو سَتَرَ نَفْسَه بمظلَّةٍ حَاجِبَة، فَهَلْ يُقَالُ: إنَّ الغَيْثَ لم يكُنْ عَامًّا شاملاً يمنَحُ عطاءَهُ لكل مَنْ يَتَلَقَّاهُ، أَمْ يُقَال: إنَّ الّذِي حَجَبَ نَفْسَه بإرادتِه الحرَّةِ هو الَّذِي أبَىٰ الانْتِفَاعَ به.

إنَّ صِفَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ هَي السَّعَةُ الشَّامِلَةُ لكُلّ شيءٍ، ولَكِنَّ الّذي يَنْتَفِعُ بها هو الّذي لدَيْهِ الْقَابِلِيَّة والاسْتِعْدَادُ للانتفاع بها، وإذا كانَ ذَا إرادة حُرَّةٍ فانتفاعُهُ بِهَا شَرْطُهُ اتخاذُ وسيلَةٍ للانتفاع بها، واجتنابُهُ مَا يحْجُبُه عنها. ضِمْنَ قوانين الله الثابتَة، التي وضَعَها اللَّه عزّ وجلّ بِحِكْمَتِه لحَياة الابتلاء في الدنيا، وحياة الجزاء في الآخرة.

ففي عالم الحياة الدنيا عَالَمِ الابْتلاء جعَل اللَّهُ عزّ وجلَّ كُلَّ كائنٍ حَيّ مُسْتَعِدّاً بتكْوينهِ الْفِطْريّ لَتَلَقّي مقدارٍ ما مِنْ آثار رَحْمَةِ اللَّه في الرزْقِ والصِّحّةِ وَتَذَوُّقِ لذَّاتِ الحياة الدنيا، والاستمتاعِ بحَلاوَة ما فيها من حُلْوٍ، وجَعَلَ كُلّ ذي إرادة حُرّةٍ مَوْضوع في الحياة الدنيا موضع الامتحان، مستعِدّاً لتلَقّي تَعليمات الهداية الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي هي من آثارِ رَحْمَتِهِ.

ولكِنَّ بعض النَّاس يَرْفُضونَ بإراداتهم الحرَّةِ الانتفاع بتعليمات الهدايَةِ الرَّبَّانيّة، كالمريض الذي يرفض استعمال الدواء، لأنَّهُ جاء على خلاف ما

يشتهي، مع أنَّ الرُّحَماءَ من أَهْلِه وذويه حَرِيصُون على أَنْ يَسْتَعْمله، رغبةً مِنْهُمْ في شفائه.

والمغفرة والْعَفْوُ هُما مِنْ آثار رحْمَةِ اللَّهِ بعباده، ولكِنَّ شرط الانتفاع بهما أَنْ تكونَ لَدَىٰ العاصِي القابليَّةُ للانتفاعِ بآثار رحمة الله في المغفرة والْعَفْو، ضمن قوانين الله عزّ وجلّ في تكوين النفوس، وهذه القابليَّةُ في النفوس الإنسانية مِفْتَاحُها التوبة الصادقة، والاستغفار وطلَبُ الْعَفْو، فَمَنْ فعَلَ ذَلِكَ فَتَح أبوابَ نفْسِه لتلَقِّي آثار رَحْمَةِ الله في المغفرةِ والعفو.

وفي عالم الجزاء يوْمَ الدِّينِ جعَل الله في قوانينه للنَّشْأَةِ الأُخرى، أنّ قابليات الانتفاع بآثار رَحْمَةِ اللَّهِ يومئذٍ مَشْرُوطةٌ بأَنْ يموتَ الموضوعُ في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مُؤْمِناً بِرَبِّه، لا يُشْرِك برُبُوبيته ولا بإلَهِيَّتِهِ شيئاً، وجعَلَ قابليّاتِ الانتفاع بها لدَىٰ عُصَاة المؤمنين متفاوتاتٍ مُتَفاضِلاتٍ، بحَسَبِ ما كَانَ لدى كلٍّ منهم في الحياة الدُّنيا من إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

بهذا التحليل ظهر لنا تَماماً أنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَسِعَتْ كُلَّ شيْءٍ، وأنَّ الْعِلَّة في عَدَمِ الانْتِفَاعِ بآثار رَحْمَةِ اللَّهِ تَكْمُنُ في عَدَمِ قَابِلِيَّة الشَّيْءِ للانْتِفَاعِ بها في أصْلِ تَكْوِينِه الفِطْري، أو في أنّه أَقْفَلَ علَىٰ نَفْسِه بإرادتِه أَبْوابَ اسْتِقْبَالِ آثارِ رحْمَةِ اللَّهِ، ضِمْنَ قوانين التكوين العامّ في عالَمِ الابْتِلاءِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عليه في عالَمِ الجزاء.

* * *

قول اللَّهِ تعالى:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

- ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾: أي: فَسَأَكْتُبُ معقاديرَ من آثار رحْمتِي بتتابُع أقضيتي وأحكامي الجزائيَّة، فالمراد بالرَّحْمَةِ آثارها، وهِي جنسٌ يشْمَلُ القليلَ والكثير منها، وإضافتها إلى ضمير المتكلم وهو الله عزّ وجلّ يجعلها

عامَّةً شامِلَةً للجنس، مثل العموم الذي تفيده «ال» الّتي للجنس، وليس المراد العُمومَ الإفرادي.

● ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾: أي: فَسأَكْتُبُهَا للّذِينَ يَتَّقُونَ مُتَابعِينَ في حَرَكَةِ حياتِهِمُ التعاملَ مع أوامِري ونواهِيَّ وزَواجري وإنذاراتي بالتَّقْوَىٰ، أي: باتِّقاء عقابي وعذابي، الّذي رَتَّبْتُهُ علىٰ تَرْكِ ما فَرَضْتُهُ على عبادي الّذين وضَعْتُهُمْ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وفِعْل ما حَرَّمْتُهُ عليهم، وتنتهي رِحْلَةُ امْتِحَانهم في الدّنيا وهم مُتَّقُون.

التَّقوىٰ: تكونُ باتِّخَاذِ الوسائلِ للوقاية من عقاب الله وعذابه.

ومع أنّ التقوىٰ تَسْتَلْزِمُ فِعْلَ كلّ الواجباتِ ومنْها أداء الزكاة، فَقَدْ خَصَّ اللّه ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ إيتاء الزكاة بالذّكر، اهتِماماً بشَأْنِ هذه الفريضَةِ الَّتي فرضَهَا على بني إسرائيل، كما فَرَضَهَا في الرسَالَةِ الخاتمة، وفي سائر الرّسالات الّتي أنْزلَهَا على رُسُلِه، لأنّ النّفسَ الإنسانيّةَ يُحَرِّضُها الشُّحُ فِيها على التّهاوُنِ بإيتاء الزكاة، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

ومع أنّ التقوىٰ لا تَتحقَّقُ ابْتِداءً إلاّ بالإيمانِ بكلّ ما يُنْزِلُهُ اللّهُ من آياتٍ بيانيَّةٍ تباعاً، على مُوسَىٰ وعَلَىٰ غَيْرِه من الرُّسُلِ الّذين يأتون من بَعْدِه حتَّىٰ خاتَم المرسَلِين مُحَمَّدِ بْنِ عبد اللّهِ ﷺ، فَقَدْ خَصَّ اللّهُ عزّ وجلّ بالذِّكْرِ في الآيةِ قضيَّة الإيمانِ بكلّ ما يُنْزِل الله على رُسُلِه من آيات، ولوازمِه من الاتّباع والعمل، نظراً إلى أنّ الخطّ الفكْرِيَّ الأعْظم الّذي تتعلّقُ به الموضوعات الفرعيَّةُ في سورة (الأعراف) هو خطُّ اتّباعِ ما أُنزلَ إلى النّاسِ من رَبّهم، والاتباعُ لا بُدَّ أن يكون مسبوقاً بالإيمان، وقد جاء بيان هذا الخطّ في الآية (٣) من أوائل السورة. ويضافُ إلى هذا أنّ النُّفُوسَ الإنسانيّةَ قد يشْتَدُّ فيها داء التعصُّب للرُّسُولِ السّابقِ، وللتحريفات المرضيَاتِ للأهواء الّتي دَخلَتْ في الدِّين الْمَوْرُوثِ عنْهُ، فيَدْفَعُهَا هذا الداء إلى الكُفرِ

بآيَاتِ الله الّتي أنزلها على الرَّسُولِ اللاَّحِقِ، أو الرُّسُلِ اللاَّحِقينِ.

وهذا ما أُصيبَ به اليهودُ إذْ كَفَرُوا بالآيات الّتي أَنْزَلَها اللّهُ على عيسى عليه السلام، وهذا ما أُصِيبَ به اليهودُ والنَّصَارَىٰ إذْ كَفَرُوا بالآيات الّتي أَنْزَلَهَا اللّهُ على محمد ﷺ، مع أنّ رُسُلَ اللّهِ سواءٌ في التبليغ عن الله رَبّ السماوات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾: أي: والّذِينَ هُمْ يُؤمِنُونَ بِكُلّ ما نُنزِلُ من آياتِ على رُسُلِنا، فلا يَفرِّقُون بَيْنَ أَحَدِ مِنهُمْ وسِوَاه، ولاَ يَتعصَّبُون لسابقِ ضدّ لاحِقِ.

وما جاء في هذه الآية (١٥٦) هو بيانٌ رَبّانيٌ لُسنَّةٍ ثابتَةٍ مُسْتمِرَّةٍ يُعَامِلُ بَها اللّهُ الناسَ جميعاً، حَتّى تقوم السَّاعَة، وليس بياناً خاصّاً ببني إسرائيل، لكنَّهُمْ يَدْخلُون فيه دخولاً أوّليًا، لأنّ الله عزّ وجلّ خاطبَ به موسَىٰ عليه السلام، وهم قومه التابعون له مُدَّة بقاء رسالته.

- قول الله عزّ وجل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ . . . ﴿١٥٧﴾﴾.

دلَّ هذا النَّصُّ على أَنَّ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ صِفَةِ التقوىٰ في العباد الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الابتلاء والتكليف، أنْ يُؤْمِنُوا بكلّ رَسُولِ سابقٍ لرَسُولِهِمْ، أو لاحقٍ له، حتَّىٰ خَاتم الأنبياء والمرسَلِينَ مُحمَّدٍ ﷺ.

ولَكِنْ خصَّ اللّهُ بالذّكْرِ من الأنبياءِ والرُّسُلِ اللاَّحِقِينَ خاتمَهُم النبيّ الأمّيّ الذي يَجِدُونَ البشارة بِبِعثَتِه مكتوبة عندهم في التوراة، مع الإشارة في التوراة إلى كتابِ لاحِقٍ يُنْزلُهُ الله على بني إسرائيل، وهو الإنْجِيلُ الّذِي

سَيُنْزِلُهُ علىٰ عيسَىٰ عليه السَّلام، فهو مِنْ بني إسْرَائيل، وأنَّهُمْ سَيَجِدُونَ البشارَةَ بِبِعْثَة النبيّ الرسُولِ الخاتِم فيه أيضاً.

ولمَّا كانَ الإنجيل سيَنْزِل على بني إسرائيل وفيه البشارة الصَّرِيحَةُ بالرَّسُولِ الخاتم، كان من الحكمةِ أن يعتبرَ الله عزّ وجل الإِنْجِيلَ عِنْدَ بني إسرائيل، سَوَاءٌ أقبِلُوهُ إيماناً بعيسَى عليه السّلام، أم رَفَضُوهُ كُفراً به.

وبما أنَّ حركَةَ التَّقوىٰ المتَجَدِّدَة التَّي دَلَّتْ عَلَيْها صِيغة الفعل المضارع في ﴿يَتَّقُونَ﴾ تقتضي أنْ يُؤْمِنُوا بكلّ ما يجب عليهم به، وبكلّ ما يجبُ عليهم الإيمانُ به تِباعاً، مِمَّنْ يَبْعَثُ الله من نبيّ ورَسُول، وممَّا يُنْزِلُ من آيات بيانِيَّةٍ للنَّاسِ في تتابُعِ الأزمان، على أيّ رسُولٍ لاحِقٍ مِنْ رُسُلِه.

كانَتِ المناسبَةُ داعيَةً لإعْلَامِ بَنِي إسْرَائيلَ على وجْهِ الخصوص. بالنبيّ الرَّسُولِ الخاتِم الذي سيأتي من غير بني إسرائيلَ، وأنْ يُبيِّن لَهُمْ أنَّ الَّذِينَ لاَ يتبعُونَهُ إذا بَعَثَهُ اللَّهُ في زمانه، فإنّ اللَّهَ لاَ يَكْتُبُ لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِه، وَلاَ يُدْخِلُهُمْ فِي جَنَّتِه، لأنَّهم كَفَرُوا بما أوْجَبَ عليهم أنْ يُؤْمِنُوا به، وعَصَوْا أمْر اللَّه لهم باتّباعه.

فَمِنْ شَرْطِ نَجاةِ مَنْ يُؤْمِنُ برسُول من رُسُلِ اللَّه أنْ يُؤْمِنَ بسَائر رُسُلِ اللَّهِ الصَّادِقين، السّابقين واللاّحِقِين، وأنْ يتّبعَ الرَّسُولَ اللاّحِقَّ إذا كانَتْ رِسالتُه مُكَمِّلَةً للرِّسَالة السَّابقة، أوَ ناسِخَةً لبعضِ ما جاء فيها ومُعَدِّلَةً له.

ففي قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ . . . ﴿١٥٧﴾﴾ إعْلَامٌ لموسَىٰ عليه السّلام، وإعْلامٌ لبني إسرائيل بأنَّهُ يَجِبُ عليهم للنجاة والظفر برَحْمَةِ اللَّهِ ودُخول جنَّتِه أنْ يَتَّبِعُوا هذا الرَّسُول النبيّ الأمّي.

ويتضمَّن هذا النصُّ أنَّهُمْ قَدْ أُعْلِمُوا أيضاً ببِعْثَةِ عِيسَى عليه السلام من

بني إسْرَائيل، وأعْلِمُوا بأنَّ اللَّهَ سيُنْزِلُ عليه كِتَاباً، وهو الإنجيل، وفي هذا الكتاب البشارة بالرَّسُولِ النبيّ الأُمّيّ.

ووصَفَ اللَّه عزّ وجلّ هذا الرسُول المبشّرَ به بصفاتٍ عشر:

الصفة الأولى: أنَّهُ رَسُولٌ يبعثُهُ الله عزّ وجل مَبَلّغاً وقائماً بوظائف رسالاته التي يُرسِلُه بها، وهذه الصفة تَسْتَلْزِمُ في المعهود من رُسُل الله، أن يكون مؤيّداً من قبل رَبّه بالآيات الإعجازية الّتي تُثْبِت صِحَّةَ رِسالته، وصِدْقه فيما يبلّغ عن ربه.

الصفة الثانية: أنّه نَبِيّ، أي: يصْطَفِيهِ اللَّهُ بالنُّبُوة، فيوحي إِلَيْهِ كما أوحَىٰ إلى سَائر النَّبيين.

وذكَرَ الله هُنَا وصْفَ النبوَّة، مع أنَّ رَسُولَ الله لا بُدَّ أنْ يكُونَ نبيًّا، لدَفْعِ توهُّم أن يكون رَسُولاً مُكلَّفاً مِنْ قِبَلِ نبيٍّ رَسُول، كالرُّسل السَّبْعين الَّذِينَ أرْسَلَهُمْ عيسَى عليه السّلام، للدَّعْوَةِ إلىٰ دين اللَّهِ الحقّ، في الأقاليم الآهِلَة بالنَّاسِ يومئذ، فالرسُولُ منْ هؤلاء لا يُشْتَرَطُ أنْ يكون نبيًّا.

دلّ على صِفَتَي الرّسالة والنبوّة قول الله تعالىٰ في الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾.

الصفة الثالثة: أنّه أُمّيٌّ، أي: لا يَقْرأُ وَلاَ يَكْتُبُ، وقد اخْتَارَهُ الله أُمّيًّا لا يَقْرأ ولاَ يَكتُبُ، لأنّ أعظم معجِزَاتِهِ صلواتُ الله وسلاماتُه عليه مُعْجِزَةُ القرآن، فاخْتِيَارُهُ أمياً ادعَىٰ إلى تَصْدِيقِهِ في بَيَانِ أنّه نَبِيُّ اللَّهِ ورسُوله، إذْ كَثِيرٌ من النّاسِ لا يُدرِكون في بدْءِ دَعْوَته وسمَاعِهِمْ ما يتْلُو عليهم من كتاب الله، ما في القرآن من أنواع إعجاز جليلة.

فلَوْ كانَ من الذّينَ يقْرَؤُون ويكتُبُونَ لتبادَرَ إلَىٰ أذهانِهم، أَنَّهُ يُحَبِّرُ القرآنَ إنْشَاءَ أو اسْتِنْسَاخاً من كُتُب الأولين، ثُمَّ يَتْلُوهُ علَىٰ الناسِ في دعْوَته.

وكان العربُ يُوصَفُون عندَ بني إسرائيلَ بأنَّهم أُمِّيُّون، إذْ كانوا يَقْسِمُونَ النَّاسَ إلى إسْرَائيليّين، وأُمِّيِّين (أي: چوييم، بحسب تعْبِيرِهم)، وكانُوا يسْتَحِلُّونَ أكْلَ أمْوال الأمِّيِّين بغير حقّ، ويقولون كما إبان الله عزّ وجل في الآية (٧٥) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ... ﴿٧٥﴾﴾.

أي: ليْسَ علَيْنا في أكل أموال الأمِّيِّين بغَيْرِ حَقٍّ سَبيلٌ للمؤاخَذةِ والجزَاء، فهي مُبَاحَةٌ لنا.

وعلى هذا يكونُ اللَّفظُ مُسْتَخْدَماً بمَعْنَيَيْن:

- فَهُو لا يقرأ ولا يَكْتُب.

- وهُوَ مِنْ غير بني إسرائيل، وعلى بني إسرائيل أَنْ يَتَّبِعُوهُ، مُسْتَبْعِدِينَ أن يكون هذا الرَّسُولُ النبيُّ الَّذِي يأمُرُهُمْ اللَّهِ باتّباعِهِ متىٰ أرسَلَهُ إسْرَائيلِيًّا منهم.

وهذه النزعة العرقِيَّةُ الأنانيَّةُ هي العِلَّةُ الفاسِدَةُ الَّتي أثارت حَسَدَ الْيَهُودِ، حين أرسَلَ اللَّهُ هذا الرَّسُول الموعُودَ به من الْعَرَب، أبناء عمِّهم إسْمَاعيل، أَخِي جدِّهم إسْحَاقَ لأبيه إبراهيم عليهم السّلام.

فجاء في النّصّ قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾.

الصفة الرابعة: أنَّ الإعْلَامَ ببِعْثَتِهِ وببَعْضِ صِفَاتِه المميّزَةِ له تمييزاً تامًّا، حتَّىٰ كأنَّهُ مشهُودُ الذَّاتِ، مَكْتُوبٌ عندَ بَنِي إسْرَائيلَ في التوراة، وهٰذهِ من الْبُشْرَيَات التي بَشَّر اللَّهُ فيها بِبِعْثَتِهِ قبل إرساله بعشرات القرون، وهذا أمْرٌ مَعْلُومٌ لِبَني إسرائيل منذُ عَهْدِ مُوسى.

فجاء في النص قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ...﴾.

الصِّفَةُ الخامسة: أنَّ الإعلام بِبِعْثَتِهِ وبِبَعْضِ صِفَاتِهِ المميِّزَةِ لَهُ تَمْيِيزاً تَامًّا، مَكْتُوبٌ عِنْدَ بَنِي إسرائيل في الإنْجِيل أيضاً.

وهذهِ من البُشْرَيَاتِ الّتي بشَّرَ الله فيها بِبِعْثَتِه قبل إرسالِه بِنَحْو سِتَّةِ قُرُونٍ، كلُّ قَرْنٍ مِنْهَا مِئَةُ سَنَة.

وهٰذا أمْرٌ مَعْلُومٌ لبني إسرائيل المؤمِنِينَ بعيسَىٰ عليه السلام، مُنْذُ أنزَلَ اللَّهُ الإنجِيلَ عَلَيْه، وأنزَلَ فيه البشارَة بمحمَّدٍ ﷺ، فالإنجيليّون يَجِدُونه مَكْتُوباً عِندَهُمْ في الإِنجيل.

ومن الممكن أنْ يكونَ اللَّهُ عزَّ وجلّ قَدْ بَشَّرَ بَنِي إسرائيلَ في التوراة، بعِيسَىٰ وَبِالإنْجِيلِ، مبيّناً لهم أَنَّه تُوجَدُ في الإنْجِيلِ البشارةُ بالرَّسُولِ النبيِّ الأُمِيِّ، ولكِنْ لا أمْلِكُ دَلِيلَ إثباتٍ على هذا.

فجاء في النصّ قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ . . .﴾.

الصِّفَةُ السَّادِسة: أنَّهُ يأمُرهُمْ بالْمَعْرُوف، أي: بما هو مَعْرُوفٌ لدَى بَنِي إسْرَائيل بأنَّه حَقٌّ وخَيْرٌ وَرُشدٌ وهِدَايَةٌ، وفيه مرضاةٌ للَّهِ عزّ وجلّ.

كوجُوب الإيمانِ بالحقّ، وقَوْلِ الصِّدْقِ، والصَّلاةِ، والزَّكاة، وفِعْلِ الخيرات.

فجاء في النصّ قول الله تعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

الصفة السابعة: أنَّهُ يَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر، أي يَنْهَاهُمْ عَنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنكَرٌ قبيحٌ مُحرَّمٌ في دين اللَّهِ لعباده، كالشرك باللَّهِ في رُبُوبيّتِهِ وإلٰهيَّتِهِ، وعُقُوقِ الوالِدَين، والْقَتْلِ بغير حقٍّ، والزِّنا، والسَّرقة، وأكْلِ أمْوال الناس بالباطل، والكَذِب، وأقبَحُهُ الافتراءُ على الله في الدِّين، وكأكلِ الرِّبَا، وأكْلِ

مَالِ اليتيم بغَيْرِ حقٍ، والْغُلُولِ، وقَذْفِ المحصَنَاتِ المؤمِنَاتِ الغافِلَات وشهادة الزُّور، إلى غير ذلك من مُنْكَرَاتٍ معلومات عند اليهود والنصارى.

فجاء في النصّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ...﴾.

الصِّفَةُ الثامِنَة: أنَّهُ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، إذْ حَرَّمَ اللَّهُ عزّ وَجَلّ عَلَىٰ بَنِي إسْرَائِيل بَعْضَ الطيِّبَاتِ، عُقُوبَةً لهم بسَبَبِ ظُلْمٍ مِنْهُمْ ارتكَبُوهُ معانِدِين.

فإذا جاء الرَّسُولُ المبشَّرُ بهِ، أبَانَ لَهُمْ أنَّ اللَّه عزّ وجلّ قَدْ نَسَخَ تَحْرِيمَها، إذْ كانَتْ لَها صِفَةُ الْعِلَاجِ المؤقَّتِ لِبَنِي إسْرائيل، وبِبِعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ يَجْعَلُهَا الله حَلالاً للنَّاسِ، نظراً إلى أنَّ الحكْمَةَ الدَّائِمَةَ للنَّاسِ جَمِيعاً أنْ تكونَ حَلَالاً.

فجاء في النصّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ ...﴾.

الصِّفَةُ التَّاسِعَة: أنَّهُ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِث، أي: يُبَيِّن لهم أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ، قدْ حَرَّمَ في الدِّين الخاتم لِرِسَالاَتِهِ لعباده الخبائثَ، وَهِيَ الأشياء الضَّارَةُ في الأجساد، أو في النفوس، أو في العقائد، أو في المفْهُومَاتِ الدِّينيَّة، وحَرَّمَ عليهم الأشياءَ المستقْذَرَةَ في طَبَائِعِ النُّفُوس، أو المستقذرة في مفهومات الدين.

فجاء في النصّ إضَافَة: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ..﴾.

الخبائث: جَمع «الْخَبِيثَة»، وهيَ كلُّ رَديء فاسِدٍ ضارّ من كُلّ شيء، وقد تُطْلَقُ على الرائحة الكريهة أو المنَفِّرة القبيحة، ولو لم تكُنْ ضَارَّة، والمقصود هنا المعنى الأوّل.

الصِّفَةُ العاشِرَة: أَنَّهُ يَضَعُ عَن بَنِي إسْرَائيل إصْرَهُمْ والأغْلَال التي كانت عليهم.

أي: يُبَيّن لهم أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ وَضَعَ في الدِّينِ الخاتم للناس، الآصَارَ والأغلَالَ الَّتِي كانت على بَنِي إسْرَائيل، في الدِّينِ الذي لم تَكُنْ له صِفَةُ العالَمِيَّة للنَّاس جَميعاً حتَّى تَقُومَ السَّاعة.

الإِصْرُ: العَهْدُ الثقيل، والتكليف الثقيلُ الشديد، والعقوبات الشّدِيداتُ على الذُّنوبِ اللّاتي لها صِفَةُ الحُدُود.

الأغْلَال: جمع «الْغُلّ» وهو طَوْقٌ من حَدِيدٍ يُجْعَلُ في عُنُقِ الأسِيرِ أو في يَدَيه، أو فيهما معاً، وتُعْقَد به سِلْسِلَةٌ من حَدِيدٍ، لجرّ الأسِير بها.

وأُطْلِقَتِ الأغلالُ هنا على سبيل الاستعارة القائمة على تَشْبيه التكاليفِ الدينيّةِ الشّاقَّةِ الّتي كانت على بني إسرائيل بالأغْلَال.

فالمراد بالأغلال التكاليف الشّاقَّةُ الّتي كانت على بني إسرائيل.

لقد كانَتْ على بني إسْرَائيل عُهُودٌ ثقيلَةٌ، وَتكاليفُ دينيَّةٌ شاقَّة، وَكانت الْخُطَّةُ الرَّبَّانيَّة المقدَّرة المقضيّة، أَنْ يَضَعَ عن عبادِه في الدِّين الخاتم هٰذِهِ الْآصَارَ والأغْلَال الّتي كانت على بني إسْرَائيل، وحينَ يَبْعَثُ اللَّه الرَّسُولَ النبي الأميَّ، فإنَّهُ يُبَيّنُ لِلْناسِ أنَّ اللَّهَ قد وَضَعَ عن الناس في الدّين الخاتم ما كان على بني إسْرَائيل من آصارٍ وأغْلَالٍ شَدِيدَةٍ ثقيلَة.

وتَمَّ الواقع على وفْق الخطَّةِ الرَّبَّانية الْمُقَدَّرَةِ المقضيَّة بقضائه وقَدَرِه، فجاء في النصّ إضافة: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

أمثلة من الأَحكام الثقيلة الّتي كانت علىٰ بني إسرائيل:

المثال الأول: جاء في الإصحاح الخامس والثلاثين من سِفْر الخروج ما يلي:

«٢ سِتَّةَ أيّامٍ يُعْمَلُ عَمَلٌ. وأمّا الْيَوْمُ السَّابع فَفِيهِ يَكُونُ لَكُمْ سَبْتُ عُطْلَةٍ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ. كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ فيه عملاً يُقْتَلُ لاَ تُشْعِلُوا نَاراً في جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ يَوْمَ السَّبْت. . . ».

المثال الثاني: جاء في الإصْحَاح الأوّلِ من سِفر اللاويّين، ما يلي:

«مَا يُقَدِّمُونَ مِنْ قُرْبَانٍ لِلرَّبِّ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَم فَإنَّهُمْ مَأمُورُونَ أَنْ يَذْبَحُوهُ ويُقَطِّعُوهُ وَيُحَرِّقُوهُ، فَيُوقِدُهَا الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ طَعَامَ وَقُودٍ للرَّبّ. . ».

المثال الثالث: جاء في الإصْحَاحِ الرابعِ مِنْ سِفرِ اللاّوِيّين ما يلي:

«مَنْ أَخْطَأَ سَهْواً فِي جَمِيعِ ما نَهَىٰ الرَّبُّ عَنْهُ فَجزاؤُهُ أَنْ يَذْبَحَ ثَوْراً صَحِيحاً للرَّبِّ ذَبِيحَةَ خَطِيَّة، ثُمَّ تُحْرَقُ هٰذِهِ الذبِيحَةُ عَلَى حَطَبِ بالنَّار. . . ».

ويَجْرِي هٰذَا ضِمْنَ طُقُوسٍ وَأعْمَالٍ مُرَتَّبَةٍ مَرْسُومة بنظامٍ مُحدَّد.

فدلَّ هذا على أنّهم كانوا مَسْؤُولينَ عمّا يَصْدُرُ عَنهم من مُخَالفات لأوامر الدِّين ونواهِيه، ولو كانت على سبيل الخطَأ والسَّهْوِ والنِّسْيَان.

ولَمَّا جاء الدِّينُ الخاتم رفَعَ اللَّه ـ جلّ جَلالُه ـ فيه الحرجَ عمّا يفْعَلُ المكلَّفُ مُخْطِئاً غَيْرَ عَامدٍ، أو ساهياً أو ناسياً.

فقد جاء في «الصحيح عن الرسُول ﷺ فيما رواه البيهقي عن ابْن عُمَر، قولُهُ:

«وُضِعَ عَنْ أُمّتِي الْخَطَأُ، والنِّسْيَانُ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ».

وجاء في رواية أُخرى: «رُفِعَ» بَدَل «وُضِعَ».

المثال الرابع: جاء في الإصحاح السادس من سِفر اللاّويّين ما يلي:

«إنَّ جَزَاءَ مَنْ جَحَدَ وَدِيعَةً، أو أَمَانَةً، أو اغْتَصَبَ، أو وَجَدَ لُقَطَةً

وَجَحَدَها وَحَلَفَ كَاذِباً، أَنْ يَرُدَّ مَا أَخَذَهُ، أَوْ يُعَوِّضَ بِمِثْلِهِ، وَيَزِيدَ قَدْرَ خُمُسِه، ويُقَدِّمَ كَبْشاً صَحيحاً من الغنم، تَكْفِيراً لإِثْمِهِ، يُذْبَحُ وَيُحْرَق».

المثال الخامس: جاء في الإصحاح الحادي عشر من سِفرِ اللّاوِيّين ما يدلُّ على أنّ لَحْمَ الْجَمَلِ كانَ مُحَرَّماً عَلَيْهِمْ، وأنَّه كَانَ نَجِساً بالنِّسْبَةِ إليهم، وكذلك وَبَرُه.

المثال السادس: جاء في الإصحاح العشرين مِنْ سِفرِ اللّاوِيّين، ما يلي:

«٩ كُلُّ إِنْسَانٍ سَبَّ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. قَدْ سَبَّ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ دَمُهُ عَلَيْهِ ١٠ وَإِذَا زَنَىٰ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ فَإِذَا زَنَىٰ مَعَ امْرَأَةِ قَرِيبِهِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الزَّانِي والزَّانِيَة...

١٤ وإذَا اتَّخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَأُمَّهَا فَذَلِكَ رَذِيلَةٌ بالنَّارِ يُحَرِّقونَهُ وَإِيَّاهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ رَذِيلَةٌ بَيْنَكُمْ....

٢٧ وإذَا دَخَلَ في رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ جَانٌّ أو تَابِعَةٌ فإِنَّهُ يُقْتَلُ. بالْحِجَارَةِ يَرْجُمُونَهُ. دَمُهُ عليه».

إلى غير ذلك من أحكامٍ ثقيلةٍ كانت على بني إسرائيل، وقد جاء في آخرِ إصْحَاحٍ من سِفْرِ اللّاوِيين، ما يلي:

«هٰذِه الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَىٰ الرَّبُّ بها مُوسَىٰ إلىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي جَبَلِ سِينَاءَ».

* * *

قولُ اللّهِ تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

هٰذا البيانُ من هٰذهِ الآية مُوَجَّهٌ لِبَنِي إسْرَائيلَ إبَّانَ تَنْزِيل السُّورَة، فَلِكُلِّ النَّاسِ الموضوعِين موضع الامتحان في الحياة الدنيا، حتَّىٰ آخرِ مُمْتَحَنٍ فيهَا.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾: أي: فَالَّذِينَ آمَنُوا بالرَّسول النبيِّ الأُمِّيِّ، وهُوَ مُحَمَّدُ بن عبد الله، فَصَدَّقُوا بقُلُوبهم وأذْعَنُوا واعْتَرفوا اعترافاً إراديًا بأنَّه رسُول الله.

«الفاء» لترتيب البيان الذي جاء بعدها على البشارة به في التوراة، وفي الإنجيل.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: أي: وعظَّمُوهُ، ووَقَّرُوهُ، وأعَانُوهُ، وَقَوَّوْه.

التَّعْزِيرُ: يأتي في اللُّغَةِ بمعنى التَّوْقِير والتعظيم والتفخيم، والإعانَةِ، والتقوية، والنَّصْر، وهٰذه المعاني هي المرادة هنا.

والمعاني الأخرى لهذه الكلمة في اللّغة لا تُلاَئم هُنَا.

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي: وأيَّدُوهُ وأعَانُوه ضِدَّ أعدائه وخُصُومِهِ ومخالفيه.

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾: أي: واتَّبَعُوا الْقُرْآنَ الَّذِي هو نُورُ هِدَايَةِ العقول.

وإطْلاَقُ النور على القرآن هو من قبيل الاستعارة القائمة على تَشْبيه الهداية الّتي يشتمل عليها القرآن، بالهداية الّتي تكون بالنور الذي يُزِيلُ الظُّلُماتِ، ويَكْشِفُ السُّبُلَ والمواقع.

وعبارة ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أَوْجَزَ اللَّهُ عزّ وجلّ بِهَا معنَيَيْن:

- أي: أُنزِلَ عَلَيْهِ ليبلّغَهُ للنَّاس.
- فَهُوَ مَعَهُ، يَتْلُوهُ ويُبَلِّغُهُ للنّاسِ مَا دَامَ حَيًّا في الدنيا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: هٰذِهِ الجملَةُ خَبَرُ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾. وما عُطِفَ على صِلَةِ الموصُول.

وفي هٰذه الجملةِ حَصْرٌ اسْتُفِيدَ من تعريفِ طَرَفَي الإسناد، مَعَ ضَمِيرِ الْفَصْل: «هُمْ».

والمعنىٰ: أولئِكَ وحْدَهُمْ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحمَّدٍ هُمُ النَّاجُونَ والظَّافِرُونَ الفائِزُونَ بنَعِيمِ الآخِرَةِ العظيم، في جَنَّاتِ النعيم.

* * *

من البشائر بالرَّسُول النبي الأمّي الواردة في التوراة والإنجيل:

لا تزال بعض البشائر بالنبيّ الرسول محمّد ﷺ مكْتُوبَةً في كُتُبِ أَهْلِ الكتاب الْيَهودِ والنصارىٰ، على الرُّغم ممَّا تَعرَّضَتْ لَهُ هٰذه الكتب من تحريف وحَذْف.

أولاً: جاء في الإصحاح الثامن عشر من سِفرِ التَّثْنِية، خطاباً لموسى عليه السّلام، ما يلي:

«١٨ أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًا مِنْ وَسَطِ إِخْوتِهِمْ مِثْلَكَ وأَجْعَلُ كَلَامِي في فَمِهِ فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ به ١٩ ويَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الذي لا يَسْمَعُ لِكَلَامِي الّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ باسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. . .».

فعِبَارَةَ: [مِنْ وَسَطِ إِخْوتِهِمْ مِثْلَكَ» تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هٰذَا النبيَّ المبشَّرَ بِهِ لَيْسَ من بني إِسْرَائيل، لأنَّهُ لو كان مِنْ بني إِسْرَائيل لكانت العبارة: «مِنْ وَسَطِهِمْ» لا [مِنْ وَسَطِ إِخْوتِهم].

وقَدْ ظهر في الواقعِ أنَّهُ مِنَ الْعَرَبِ المسْتَعْرِبَةِ أولاد إسْمَاعيل، ومَعْلُومٌ لَدىٰ الجميع أَنَّ إسْمَاعيل هو أَخُو إِسْحَاقَ لِأَبيه، الذي هُوَ جَدُّ بَنِي إِسْرَائيل، وإبراهيمُ عليه السلام الجدُّ الأَعْلَىٰ لبني إِسْرَائيل، ولِلعَرَب المستَعْرِبَة.

وعبارة: [**وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ**] تَدُلُّ على أنَّ الكتَابَ الَّذِي يتَلَقَّاهُ عَنْ رَبِّه إنَّما يَتلَقَّاهُ عَنْ طَرِيق سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، فَيَنْطِقُهُ بِلِسَانِه، وَلاَ يَتَلَقَّاهُ مَكْتُوباً كَألْوَاحِ مُوسَىٰ عليه السلام.

ثانياً: وَجاء في الإصْحَاحِ الرابع عشر من إنْجِيلِ يُوحَنَّا ما يلي:

«١٥ إنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ ١٦ وأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إلَىٰ الأَبَد ١٧ رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لِأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ وأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونه لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ ١٨ لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَىٰ. إنِّي آتِي إِلَيْكُمْ...».

وقد تتبَّعَ عُلماءُ المسْلِمين، بمساعَدَةِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلَماءِ اليهُودِ والنصارى، نُسَخَ التوراة والزُّبُور والإنْجيل، فوجَدُوا فيها نحواً مِنْ ثمانِي عشرة بشارة(١).

* * *

مَا جاء في سورة (البقرة) من بيان العقوبة الّتي رَتبها الله على الذين اتَّخذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل:

لم يأتِ في سورة (الأعراف) بيان عن العقوبة التي رَتَّبَهَا اللَّهُ عزَّ وجَلَّ على الَّذِينَ اتَّخذُوا العِجْلَ مِنْ بَنِي إسْرَائِيل.

وَلَكِنْ جاءَ بيَانُ هٰذِه العقوبَةِ في اللَّقَطَاتِ المختارات للبيان من قِصَّةِ مُوسَىٰ وقومه، في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) فقَالَ اللَّهُ عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ

---

(١) جاءت طائفة منها في كتاب «العقيدة الإسْلاَميّة وأسسها» للمؤلف. وجاء في كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي طائفةٌ منها.

فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

هذا البيان تابع في سورة (البقرة) لخطاب بني إسرائيل، بَعْدَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ، ونزول القرآن عليه.

وقد أُخِّرَ هٰذا البيان إلى العهد المدنيّ، وأُنْزِلَ في أوَّل سُورَةٍ مدنية، لوجود اليهود يوْمَئذٍ في المدينة، ودَعْوَتِهِم إلى دين الإسلام، والإيمان بمحمَّدٍ ﷺ وبما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْه، ولبَدْءِ احتكاك الرسُول والمؤمنين بهم في المدينة.

والمعنى: واذكُرُوا يا بني إسْرَائيل نِعْمَة اللَّهِ عليكم، إذْ عَفَا عن أَسْلَافِكُمْ في اتِّخاذِهِمْ العجْلَ، بَعْدَ أَنْ أَلْزَمَهُمْ بإقامَةِ حدِّ الْقَتْلِ عَلى مَنْ كانَ قد أَشْرَكَ مِنهُمْ، باتِّخاذِ العِجْلِ وعبادته.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: أي: عرَّضْتُمْ أنفُسَكُمْ لِعِقَاب اللَّهِ الشَّدِيد المرتّبِ على الشِّرْكِ به، وفي هذا دَلالَةٌ علَىٰ أَنَّهُمْ لم يَضُرُّوا اللَّهَ بشِرْكِهِمْ شيئاً، لأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُهُ لاَ يَضُرُّهُ كُفْرُ الكافِرِينَ به، ولا مَعْصِيَةُ الْعُصَاةِ المجرمين، كما لاَ يَنْفَعُهُ إيمانُ المؤمنين به، ولا طَاعَةُ المطيعين الْمُسْلِمين، إنَّما هِيَ أَعْمَالُ الناسِ يُحْصِيهَا اللَّهُ لهم، ثُمَّ يُوَفِّيهِمْ جزاءَها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نفسه.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: أي: فَتُوبُوا مِنْ ذَنْبِكُمُ العظيمِ الَّذي ارْتَكَبْتُمُوه.

وهذه التوبة تكونُ بأنْ يَعْتَرفوا بالإثم العظيم الذي اقترفوه، وبأنْ يسْأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يغْفِرَ لهم، وبأَنْ يَعْزِمُوا علىٰ عَدَمِ الْعَوْدَة إِلَىٰ مِثْله، وَبأن يَرْجِعُوا إلى طاعة بارئهم.

البارئ: هُو الخَالِقُ الَّذي يَخْلُقُ لاَ على مِثَالٍ سَبَقَ. قيل: ويَخْتَصُّ

بخَلْقِ الحيوان غالباً، لِمَا في خَلْقِه من إبداع، وقلَّما يُسْتَعْمَلُ في غير الحيوان.

قال ابْنُ سِيدَه: بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ يَبْرَؤُهم بَرْءاً وَبُرُوءاً، خَلَقَهُمْ: يكونُ ذَلِكَ في الجواهر والأعراض. أي: في المادِّيَّاتِ وغير المادّيات.

﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي: فَمِنْ تَوْبَتِكُمْ وَرُجُوعِكُمْ إِلَىٰ طَاعَة بَارِئَكَمْ أَنْ تُنَفِّذُوا الحدّ الَّذِي أوجَبَهُ اللَّهُ عليكم، وهي أن تقتُلُوا أنفُسَكُمْ، أي: أن يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وهذا يتحقَّقُ بأنَّ يَقُومَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدوا العِجْلَ بَقَتْلِ الَّذِينَ عَبَدُوه، وبأن يَسْتَسْلم الَّذِينَ عَبَدُوه للقَتْل. ويتحقَّقُ بأنْ يَقُومَ الَّذِينَ عَبْدُوا الْعِجْلَ بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً فِي سَاحَةٍ واحِدَةٍ مُشْتَرَكَة.

واتَّفقَ أهل التفسير على أنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَروا بالانْتِحار، أي: بأنْ يَقْتُلَ كُلُّ من عَبَدَ العِجْل نفسه.

والتعبير عن أنفُسِ الآخَرين من الأمَّة الواحِدَة بأنَّهَا أَنفُسُ كُلّ واحِدِ منهم تعبيرٌ مُتَكَرِّرٌ في القرآن، لإشعار الأمَّةِ الإسلاميَّةِ الرَّبَّانِيَّة، بأنَّهُمْ كالْجَسَدِ الواحد.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾: أي: تَوْبَتُكُمْ إلىٰ بَارِئِكُمْ ذَاتُ المكانَةِ الرَّفيعة، وقتْلُكُمْ لأنفسِكُمْ طَاعَةً له، خَيْرٌ لَكُمْ عنْدَه، إذْ يَرْفَعُ عَنكُمْ عذابَ الآخِرَةِ، ويُدْخِلكُمْ جنَّاتِ النَّعِيم خالِدِينَ فيها.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾: الفاء في [فَتَابَ] تَعْطِفُ على محذوف، أي: فأطاع أسلافُكُمْ، فَتَابوا إلى بَارئهم، وسَارَعُوا في تَنْفِيذِ قَتْلِ أَنْفُسِهم مُسْتَسْلِمِينَ لأمْرِ اللَّهِ في إقَامَةِ الحدّ عليهم. فلَّما عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ تَوْبَتِهِمْ وَطَاعَتِهم، تابَ عليهم، ورفَعَ عَنهُمْ تَنفِيذَ حَدِّ الْقَتْلِ عَمَّنْ لم يُقْتَلْ بَعْدُ منهم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: أي: إِنَّهُ وَحْدَهُ كثيرُ التوبَةِ على عباده بالمغفرةِ والْعَفو وجميل الإحْسان.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: كثير الرَّحْمَةِ بعباده، وفي هذا تعميم بعْدَ تخصيص، إذ التوبَة أثرٌ من آثار الرحمة.

وفي وصْفِ تَنفيذ أمْرِ الله لهم بأنْ يقْتُلُوا أنفسهم نجد عند المفسّرين روايتيْن، إحداهما عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، والأخرى عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه.

فروى ابْنُ أبي حاتمٍ عن عليّ رضي الله عنه: «إنّ موسى عليه السلام لمَّا قالَ لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ قَالُوا لَهُ: مَا تَوْبَتُنَا؟. قَالَ: يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، فَأَخَذُوا السَّكَاكِينَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ أَخَاهُ، وأَبَاهُ، وابْنَه، لاَ يُبَالِي مَنْ قَتَلَ، حَتَّىٰ قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً، فأَوْحَىٰ اللَّهُ إلى موسَىٰ: مُرْهُمْ فَلْيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ، وقَدْ غُفِرَ لِمَنْ قُتِلَ، وَتِيبَ عَلَىٰ مَنْ بقي».

وروى ابن جَرِير عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه قال: «أمَرَ مُوسَىٰ قومَهُ عن أمْرِ رَبّه أَنْ يَقْتُلوا أنفُسَهُمْ، واخْتَبَأَ الَّذِينَ عَكَفُوا عَلَىٰ الْعِجْل فجلَسُوا، وقام الَّذِين لَمْ يَعْكُفُوا على العجل فأَخَذُوا الخناجِرَ بأيْدِيهم، وأَصَابَتْهُمْ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ يقتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فانجلَتِ الظُّلْمَةُ عَنهُمْ عَنْ سَبْعِينَ أَلْف قَتِيلٍ، كُلُّ مَنْ قُتِلَ مِنهُمْ كانَتْ لَهُ توبَةٌ، وكلُّ من بَقِي كانَتْ لَهُ تَوْبَة».

هاتان روايتان لا نَمْلِكُ إثباتَ صِحَّتِهما أو صِحَّةِ إحداهما، ولَيْسَ في شيءٍ مِنْهُما بيانُ أنّ النبيَّ المعصُومَ أَخْبَرَ به، فاللَّهُ أَعْلَمُ بما جرَىٰ، وبعَدَدِ مَنْ قُتِلَ مِنهم في هٰذا التكليف الرَّبَّانِيّ الّذِي دلَّتِ الآيَةُ على أنّ الله رَفَعَهُ عَنهُمْ عَقِبَ بَدْئِهِمْ بتَنفِيذِهِ صَادِقين في توبَتِهِمْ.

أمّا ما جاء عند الإسْرَائيليّين حول تنفيذِ هذا التكليف الرَّبَّانيّ، فنَجِدُ في الإصْحَاحِ الثاني والثلاثين من سِفْرِ الخروج:

«أنَّ مُوسَىٰ طَلَبَ مِنَ اللاَّوِيّين أَنْ يَأْخُذُوا سُيُوفَهُمْ، ويَمُرُّوا من بابٍ

إِلَى بابٍ في المحَلَّةِ، ويَقُوموا بالْقَتْل الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْهم، فَفَعَلَ اللَّاوِيُّونَ كَمَا قَال لهم موسى، وَقُتِلَ مِنَ الشُّعْبِ في ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ رَجُل.

وأنّ مُوسَىٰ طَلَبَ من اللّاويّين أنْ يَتَوَجَّهُوا بقَتْلاَهُمْ للرَّبّ من أبنائهم وأخوانهم، ليُعْطِيَهُمُ الرَّبُّ بَرَكَةً.

أي: مغفرةً وعفواً.

وأنّ موسَىٰ سَأَلَ الرَّبَّ بَعْدَ ذَلكَ أَنْ يَغْفِرَ خَطِيئة بَنِي إسرائيل.

وجاء فيه أيضاً:

أنّ الرَّبَّ ضَرَبَ الشَّعْبَ الإسْرائيليَّ لأنَّهُمْ صَنَعُوا الْعِجْل.

اللّاوِيُّون: هُمْ سِبْطُ مُوسَىٰ هارون، وكانوا هم الّذِين أَسْنَدَ إليهم مُوسَى عليه السّلام القيامَ بالشُّؤُون الدِّينِيَّة.

ولكِنَّ أخبار الإسْرائيليين في كتُبِهِمْ قَدْ دَخَلَ فيها تحريفٌ وحَذْفٌ كثير، ويَصْعُبُ انتقاء الصَّحيحِ منّها، ومن افتراءاتهم في كُتُبِهم ادّعَاؤهم أَنَّ هارون عليه السّلام هو الذي صَنَعَ العجْلَ لِبَني إسْرَائيل هُزْءاً بهم، مع أنّ الذي كان صاحبَ فِتْنَةِ الْعِجْلِ هو السَّامِرِيُّ، بصَرِيح نَصّ القرآن الَّذي لاَ يَأتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولاَ مِنْ خَلْفِه.

ويظْهر أنَّ عَدَدَ القَتْلَىٰ الوارد فيما روى ابنُ أبي حاتِم عن عليٍّ، وفيما روى ابنُ جَرِيرٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ عَدَدٌ مُبَالَغٌ فِيهِ جدًا، وهلَ الرّواية صحيحة عنهما؟!

فاللَّهُ أعْلَمُ بالحقيقة.

* * *

الفقرة السابعة

فقرة معترضة فيها تكليف الرسول محمّدٍ بأن ينادي بأنّه رسولُ الله للناس أجمعين

وهي الآية (١٥٨).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

تمهيد:

هَذِهِ الآيَةُ آيَةٌ مُعْتَرِضَةٌ أوْقَفَ الله عزّ وجلّ بها البَيانَ المَتعلّقَ بقِصَّة موسَىٰ عليه السّلام وقَوْمِهِ إيقَافاً مُؤَقَّتاً، على مِقدار كلِمَاتِهَا وجُمَلها، وقد دَعا إلى الاعْتراضِ بها اغْتِنامُ مُنَاسَبَةِ الْحَدِيث عَنِ الرّسُول النّبيّ الأُمّي مُحَمّدٍ، الّذِي بَشّرَ اللّهُ بِه مُوسَىٰ عليه السّلاَمُ وبَنِي إسْرَائِيل، إبّانَ مُكالَمةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ مُوسَى عليه السّلاَمُ في الميقات الثاني، ميقات الاعتذار والتّوْبَةِ والاستغفار والشّفَاعَةِ، ومَعَهُ السّبْعُونَ المختارون من قومِهِ بني إسْرَائيل، ويَجِدُ بَنُوا إسرائيلَ الْبِشَارَةَ بِهِ مَكْتُوبَةً عِنْدَهُمْ فِي التوراة، والّذِينَ آمَنُوا مِنهُمْ بِعيسَىٰ عليه السلام يَجِدُونَها مَكْتُوبَة عِندَهُمْ في الإنجيل.

فجاء في هٰذه الآيَةِ الْتِفَاتٌ عن مُتَابَعَةِ الْبَيَانِ المتَعَلّق بأحْدَاثِ قِصّةِ مُوسَىٰ وقَوْمِهِ، إلَىٰ خِطَاب الرّسُولِ مُحَمّدٍ ﷺ إبّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة وَمَا يَتّصِلُ به من أَزْمانٍ لاَحِقَاتٍ، فَإلَىٰ خِطَابِ النّاسِ أجْمَعِين، وفِيهِمْ بَنُو إسْرَائيل، بَدْءاً من وقْتِ التّنْزِيلِ، واسْتِمراراً مع أَزْمَانِ الحياة الدُّنيا، مَا دَامَ فيها مُمْتَحَنُونَ مُكَلّفُونَ أنْ يُؤْمِنُوا بِاللّه، وبِسَائِرِ أرْكان القاعدة الإيمانيّة المبيّنَةِ فِي الإسلام، وأَنْ يَتّبِعُوا ما أُنزِلَ إِلَيْهِمْ من رَبّهم، فَلِخطَابِ اللّهِ لعبادِه في القرآنِ المجيد سُنّةُ الاسْتِمْرارِ والتّجَدُّدِ، ما دَامَ في الوجود مَعْنيُّونَ بِهِ.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... ﴿١٥٨﴾﴾:

يأمُرُ اللَّهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ بهذهِ الْعِبَارَة رَسُولَهُ مُحَمّداً ﷺ بأنْ يُنَادِيَ النَّاسَ جَمِيعاً، بأنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إلَيْهِمْ.

وبأسْلُوبِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ يُخَاطِبُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ النَّاسَ جَمِيعاً بهٰذِهِ العبارة، خِطَاباً يَتَنَاوَلُ كُلَّ صالح مِنْهُمْ للخِطَابِ بِصُورَةٍ إفراديَّة، فَيُعْلِمُ كُلَّ فَرْدٍ بِهِ أَنَّ محمّداً رَسُولُهُ، فيجب عليه أنْ يُؤْمِنَ بِهِ، وأن يَتَّبعَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ منْ آيَاتٍ بَيَانِيَّةٍ للنَّاس ليَعْمَلُوا بِها، وَيَتَّبِعُوا ما جَاءَ فيها.

هٰذَا الأمْرُ للرسول الذي جاء في هذه العبارة لا يَمْلِكُ الرَّسُولُ إلاَّ أن يقولَهُ ويُعْلِنَهُ، لأنه أمْرٌ إلزامِيٌّ فَرَضَ اللَّهُ عليه أنْ يَقُوله.

لَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ بأن يُنادي النَّاس جميعاً بأبلغ أدَوات النداء، فَيُعْلِمَهُمْ بجَزْمٍ وتأكيدٍ قائلاً لَهُمْ: إنّي رَسُولُ اللَّهِ إليكُمْ جَمِيعاً، أي: دونَ استثناء قَوْمٍ، أَوْ شَعْبٍ أو سُلاَلَةٍ بَشَرِيَّةٍ، أو أيّ شخصٍ من النَاسِ أهْلٍ للخطاب، ودُون استثناء أيّ مُنْتَمٍ لدِينٍ من الأديان السالفة.

وجاء التأكيد بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ لدَفْع تَوَهُّم احْتِمَال استِثْنَاءِ بَعْضِ النَّاسِ من الدُّخول في عُمُوم لفظ: ﴿ٱلنَّاسَ﴾.

وجاء تأكيد الإسْنَادِ الخبريّ في الجملة بـ«إنَّ ـ والجملة الإسمية».

فكُلُّ من بَلَغَهُ هٰذَا النّداء، وكان أهْلاً لخطابات التكليف الرَّبَّانِيّ، فَهُو مُكَلَّفٌ أَنْ يُؤْمِنَ بهذا الرَّسُولِ النبيّ الأُمِيّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبما جاء به عَنْ رَبّه، ومُكَلَّفٌ أَنْ يُؤْمِنَ بآيات اللَّهِ وكَلِمَاتِهِ الّتي أَنْزَلَها عَلَيْهِ، وأَنْ يَتَّبِعَهُ مُسْلِماً مُطِيعاً، وأَنْ يَتَّبِعَ مَا أُنزِلَ إلىٰ الناس من رَبّهم.

● ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ . . . ﴿١٥٨﴾﴾:

هذه العبار تابعَةٌ لما أَمَرَ اللَّهُ به رَسُولَه محمّداً أَنْ يُنَادِيَ الناسَ به، وقد جاء في هذه العبارة وصْفُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ بِمَا يَقْتَضِي عقلاً وجُوبَ الإيمانِ بالرَّسُول الذي يُرْسله، إذا كان معه برهانُ صِدْقِ نبوّته ورسالته، ووجُوب اتّباعِه، ووجُوبَ العَمَل بما جاء به عن ربِّهِ من آياتٍ وأَحْكامٍ وتكاليف.

الصفة الأولى: دلَّ عليها: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾: أي: هو المالِكُ والْمَلِكُ للسَّمَاوَاتِ والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما.

يُقَال لغة: مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مِلْكاً ومُلْكاً ومَلْكاً، إذ حازَهُ، وانفَرَدَ بحَقّ التَّصَرُّفِ فيه، وكانَ له على الأحياء المدرِكَةِ فيما مَلَكَ مِنْ ذوات الْعِلْمِ، سُلْطَانُ الأَمْرِ والنَّهْي وسائر التصرُّفَاتِ.

ومَنْ كان له مُلْكُ السَّمَاواتِ والأرضِ وَمَنْ فيهما، كانَ النَّاسُ في الأرضِ عَبِيدَهُ، إذْ هو مالِكُهُمْ، وهو الْمَلِكُ ذُو السُّلْطَانِ عَلَيْهم، وهُو رَبُّهم الّذي يُمِدُّهُمْ دواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّته، ويُهَيْمِنُ عليهم بالابْتِلاَءِ وبالمحاسبة والجزاء.

فَيَجِبُ عَلَيْهم أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ إليهم، ويَتَّبِعُوهُ ويُطِيعُوه، فإنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ كانُوا عُصَاةً كافِرِين باللَّهِ، واسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ الّذِي قَرَّرَهُ وحَكَمَ بِهِ على مَنْ كَفَرَ بِرَسُوله.

الصِّفَة الثانية: دلَّ عليها: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لاَ مَعْبُودَ في الوجود بحقّ سِواهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الشركاء.

وذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ لَهُ مُلْك السَّماوات والأرض، كانَ هُو الرَّبّ الذي يجب على عباده أنْ يَعْبُدوه وَحْدَه، وأَنْ لاَ يُشْرِكُوا بعبادته أحداً، والَّذي يجب على عباده أنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ ويَتّبعُوه.

الصِّفَةُ الثالثة: دلَّ عليها: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: أي: والَّذِي يُحْيِي الأحياءَ على اختلاف أنواعها ورُتَبِها في سُلَّمِ الحياة، ويُمِيتُها بِنَزْعِ ما بِهِ تكُونُ حَيَاتُها، وهي الرُّوح الَّتي هِيَ مَن أمْرِه التكوينيّ.

فالْحَيَاةُ والموتُ ظاهِرتَان متكرِّرَتان في عالَم المخلوقاتِ القابلات للحياة، وما أَحَدٌ يَدَّعي أنّه يمْنَحُ الحياة لمادَّةٍ لا حَيَاةَ فيها. أو لشيءٍ مَعْنَوِيّ لاَ حياة فيه. ولَو ادَّعىٰ ذلِكَ لم يَسْتطع.

وما أَحَدٌ يَدَّعِي أَنَّهُ قَادِرٌ على إدامَةِ الحيَاةِ وَإبقائِهَا في حيٍّ انْتَهَىٰ أجَلُهُ في الحياة، ودَعَاهُ دَاعِي الموتِ، مَهْمَا اتَّخذَ لذلِكَ من وسَائل، ولو أنْفَقَ مِلْءِ الأرضِ ذَهباً، أو ما هُوَ أثْمَنُ من الذهب.

ولهذا اقتصر ادّعاء منكري وجود اللّهِ الرَّب الخالقِ جلّ جلاله وعظُمَ سُلْطانه، على أَنَّ الحياةَ والموتَ ظاهِرَتَانِ طَبِيعِيَّتَانِ في الكائنَاتِ الحيَّة، وأنَّ الموتَ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ حَتْماً.

وحِينَ حَاوَلَ عُلَماؤُهم تحويلَ مَادَّةٍ لاَ حَيَاةَ فيها، إلَىٰ كائنٍ حَيٍّ من أدْنَىٰ الكائناتِ الحيَّةِ خَابُوا، وقَدْ بَذَلَتْ دُولُهُمْ في ذَلِكَ القَنَاطِيرَ المقَنْطَرة من الذَّهب على المختبراتِ العلميّة، وتابَعُوا بُحُوثَهم طَوَالَ عَشَرَاتِ السِّنين، فلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يوجِدُوا خَلِيَّةً واحِدَةً حَيَّةً مِنْ مادَّةٍ غَيْرِ ذَاتِ حَيَاةٍ، وبَاؤُوا بالخَيْبَة، فَضْلاً عن أن يخْلُقُوا ذُبَابَةً، وأَعْلَنُوا قرارَهُمْ الموافق لقرار سَائِرِ عُلَمَاءِ الأَحْيَاء في العالم قائلين: إنَّ الحياةَ لاَ تُوجَدُ إلاَّ اشْتِقاقاً مِنْ حَيَاةٍ سابقَةٍ لها.

لمّا كان الأَمْرُ الواقِعُ في الوجود على ما سَبَقَ بيانُه لَمْ يَكُنْ إثْباتُ أَنَّ اللّهَ يُحْيي ويُمِيتُ بحاجَةٍ إلى مُؤَكِّداتٍ في البيان الكلاَمِي، ولا إلى صيغَةٍ من صِيَغِ الحصْرِ، إذ الحياة والموتُ ظاهِرَتَانِ مشهودَتَان، لخالِقٍ غَيْبِيٍّ غَيْرِ مَشْهُودٍ، وهذا الخالِقُ هُوَ اللّهُ الّذِي لاَ إلهَ إلاَّ هو، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ، وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قول الله تعالى:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

هذا خطابٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللَّهِ عَزّ وَجعلّ للنَّاسِ الموضُوعِين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلاَءِ، للحسَابِ، وفَصْلِ القضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء يَوْم الدِّين.

وفي هذا الخطاب ثلاث مَطالِبُ، يُوجِّهُها اللَّهُ للناسِ عموماً مَتَناولَةً كُلَّ شَخْص من النّاسِ المقصُودِين به، فهو مخاطبٌ بها إفرادِيًّا وَمَعَ سائر الناس المَعْنِيّين بالخطابِ، وختام ترغيبي.

● **المطلب الأول:** ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾: أي: فيا أَيُّها النَّاسُ آمِنُوا باللَّهِ، الّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، لاَ إلهَ إلاَّ هو، يُحْيِي وَيُمِيتُ.

● **المطلب الثاني:** ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾: أي: وآمِنُوا بِرَسُولِهِ النبيّ الأُمّيّ الَّذِي سَبقَتِ البشارةِ بهِ في التوراة والإنجيل.

وقد سبَقَ في الفقرة السّادِسةِ تحليلُ كونه رَسُولاً نَبِيًّا أُمّيًّا.

وجاء في هذه الفقرة السابِعةِ إضَافَةُ كوْنِه يُؤْمِنُ باللَّهِ وبكَلِمَاته.

أي: وأعْلَمُوا أَنَّ هذا الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمّيَّ مُكَلَّفٌ أيضاً أَنْ يُؤْمِنَ باللَّهِ وَكَلِمَاتِه، كما أَنَّكُمْ مُكَلَّفُونَ أَنْ تُؤمِنُوا باللَّهِ وَكَلماته، وبما أنّه رسُولٌ مجتبىً لاَ يَعصِي الله فيما يَجِبُ أن يكون فيه أُسْوَةً للنّاسِ، فَهُوَ يُؤْمِنُ باللَّهِ، ويُؤْمِنُ بكَلِمَاتِ اللَّهِ المَنَزْلاَتِ عليه في آياتهِ الْبَيِّنات، ولَيْسَ هُوَ مُجَرَّدَ أداة نَقْلٍ وَتَبْلِيغ.

إنّه عَبْدٌ مُبْتَلىً مُكَلَّفٌ، مَعْصُومٌ بِعِصْمَةِ الله عن المعَاصِي التي تَقَعُ في حدود مرتبة التقوى، وعليه تكاليف زائدةٌ، هِيَ من حُدُودِ مَرْتَبَةِ البرّ ومَرْتَبَةِ الإحسان.

● **المطلب الثالث:** ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾: أي: وسِيرُوا في أثَرِ هٰذَا الرَّسُولِ، مُقْتَدِين مُتَأَسِّينَ بِه، مُهْتَدِينَ بِهَدْيِه، فَهُو النُّمُوذَجُ الأَمْثَلُ، الذي جعَلْنَاهُ لَكُم، لِتَتَأَسَّوْا بِهِ، وتَقْتَدُوا في سُلُوكِكُمْ في الحياةِ بسُلُوكه، وفي أخْلاَقِكُمْ بأخْلاَقِهِ، وفي آدابكُمْ بآدابه.

وَإِذَا اسْتَعْرَضْنَا مَا جَاءَ في السُّورةِ من تكاليفَ عُظمَىٰ، مُوَجَّهَةٍ مِنَ اللَّهِ عزّ وجلّ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، حَتَّىٰ هٰذِهِ الآيَةِ، وَجدنَاهَا تَكْلِفَيْنِ أعْظَمَيْن:

التكليف الأَوّل: وُجوبُ اتِّبَاعِ مَا أُنزِلَ إليهم من رَبِّهم، ويكُونُ هٰذَا الاتِّباعُ بفِعْلِ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَتَرْكِ ما نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ، ويَدْخَلُ فيه طاعَةُ الرَّسُولِ في أَوَامِرِه ونواهِيه، لأنَّ اللَّهَ أَمَر بطاعَتِه فيما أنْزَل في كتابه.

التكليف الثاني: وُجُوبُ اتِّباعِ رَسُولِ الله النَّبيّ الأُمِّي الَّذِي يُؤْمِنُ باللَّهِ وَكلماته، ويَكُونُ هٰذا الاتِّباعُ بالاقتداء بهِ، إلاَّ ما كان من خُصُوصِيَّاتِهِ بالنّص.

● **الختام الترغيبي:** ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: أي: أَمَرْنَاكُم بأنْ تُؤْمِنُوا باللَّهِ وبِرَسُولِهِ وبأنْ تَتَّبِعُوه، رَاغِبين في أَنْ تَهْتَدُوا بتَنْفِيذ ما أَمَرْنَاكم بِه، لِنَحْكُمَ لَكُم بالْهِداية، فَنُثِيبَكُمْ عَلَى مَا كَسَبْتُم ثَواباً جَزِيلاً، في جنَّاتِ النعيم يوم الدين.

لَعَلَّ: أصْلُ معناها التوقُّعُ والتَّرَجي، وهي تُحْمَلُ بالنِّسْبَةِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلّ على معنى الرَّغْبَةِ وَالرِّضا، لأنّ المرجُوَّ من الأَشياء الحَسَنَةِ مَرْغُوبٌ فيه، ويُسْتَقْبَلُ بالرِّضا. واللَّهُ جَلّ جلالُهُ يَرْضَىٰ لعباده الإيمانَ والْعَمَل الصّالِحَ، ولا يَرْضَىٰ لَهُمُ الكُفْرَ والعَمَلَ السَّيِّئ.

وهٰذَا من إطلاقِ اللفظ على لازِمِ مَعْنَاه، ويَدْخُلُ في دائرَةِ المجاز المرسل.

* * *

الفقرة الثامنة

من مِنَنِ الله على بني إسرائيل في التيهِ

تقطيعهم إلى أسباط ـ أسقاؤهم بآية خارقة ـ تظليلهم بالغمام ـ إطعامهم المنّ والسَّلْوى.

الآيتان (١٥٩ ـ ١٦٠).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (١٦٠)﴾.

القراءات:

(١٦٠) ● قرأ أبو عَمرو بِكَسْرِ الْهَاءِ والميم في: [عَلَيْهِمِ الْغمامَ] وفي [عَلَيْهِمِ الْمَنَّ].

وقرأ حَمْزَةُ والكسائي، ويَعْقُوبُ، وخلف بِضَمِّهِما فيهما: [عَلَيْهُمُ].

وقرأ باقي القرّاء العشرة بكسْرِ الهاء وضَمِّ الميم فيهما: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾.

وهٰذِه وجوهٌ عربيّة لنُطْقُ هاء الضمير والميم الذي بعده علامةٌ للجمع.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ (١٥٩)﴾:

جاء هذا البيان الرَّبَّاني اسْتِدْراكاً الدَفْعِ تَوَهُّم أَنَّ كُلَّ قَوْم مُوسَىٰ الّذِين

كانُوا معَهُ مِنْ بني إسرائيل، والذين جاءوا من بَعْدِهم حتَّىٰ بعَثَ اللَّهُ عزّ وجلّ عيسى عليه السلام بالرِّسَالَةِ التَّعْدِيليّة الَّتِي لم يَبْق بها لموسَىٰ قَوْمٌ مُعْتَرَفٌ بِهِمْ عِنْدَ الله، كانُوا سيِّئِين، أمثالَ الذين اتَّخَذُوا الْعِجل، أو أمْثال المقصِّرِين المتهاونين بما يجب عليهم من الأمْرِ بالمعروف والنهْي عن المنكر، والأخْذِ على يَدِ الظالم.

بَلْ كانَ مِنْهُمْ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالْحَقِّ، وبِهِ يَعْدِلُون.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾: المرادُ بهم الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه من بني إسْرَائيل، لا كُلُّ من دَعَاهُمْ مُوسَىٰ إلى الدِّين الحقِّ، كالمصْرِيين، وَلاَ كُلُّ بني إسْرائيل، فَمِنْ بني إسرائيل من لم يُؤْمِنُوا به، بدليل قول اللَّهِ عَزّ وجلّ في سُورَةِ (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾: أي: على خَوْفٍ مِنْ فِرعَوْنَ وَآلِهِ وَمَلئِهِمْ مِنْ كُبرَاءِ المصْرِيين الَّذِين لَيْسُوا من آله، وفي عود الضمير على فرعَوْنَ بصيغة الجمع إشارةٌ إلَى أَنَّهُ مَعَ آلِهِ بمَثَابَةِ فِرْعَوْنٍ واحِدٍ، إذْ كانُوا يَحْكُمونَ شَعْب مَصْرَ كَجَسَدٍ فِرْعَوْنِيٍّ واحِدٍ.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾: أي: أَنْ يُعَذِّبَهُمْ لاتباعِهم مُوسَىٰ والدِّين الَّذي دعَا إليه.

﴿أُمَّةٌ﴾: يُطْلَقُ لفظ الأمَّةِ في الاستعمال القرآني على كلِّ مجموعَةٍ تَجْمَعُها صفاتٌ أو خَصَائِصُ أَوْ روابط مُتَمِيزَة.

والفريقُ من الأمَّةِ إِذَا اجْتَمَعُوا علَىٰ رَأْيٍ متميِّزٍ تُطْلَقُ عيهم كَلِمةُ «أُمَّة». حتَّىٰ الفردُ الواحِدُ المتميِّزُ يُطْلَقُ عليه أنه أُمَّةٌ وحْدَه.

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾: أي: هُمْ دُعَاةٌ يَدْعُونَ إلى سبيل رَبّهم، ويَأْمُرُونَ بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر، فَيَهْدُونَ النَّاسَ بذلِك، ولكنَّهُمْ لا يتَّخِذونَ وسيلَةً باطلَةً لما يقُومُون به مِنْ هداية، بل يتخذون وسائل من الحقّ، فَهُمْ يَنْصُرُونَ الحقّ بالْحَقِّ، ويَهْدون إلى الحقّ بالحقّ.

معنى «الباء» في عبارة: «بالْحَقِّ» الاستعانة.

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾: أي: وبَالحقّ يَعْدِلون، إذا حَكَمُوا بين الناس، أو قَضَوْا بين الْخُصُوم.

فهم يسْتَعِينُونَ بالحقّ وبالنّظر الثاقِب إلَيْهِ، لمعْرِفة وجْهِ الْعَدْلِ الّذِي يَحْكُمونَ بِه بين الناس، ولمعرفة وجْهِ العدْلِ الّذِي يَقْضُونَ بِهِ بين المتخاصِمين.

وهٰذه شهادة من الله عزّ وجلّ لهذا الفريق من قوم مُوسَىٰ، الّذِي تَصِحُّ نِسْبتَهِمْ إليه، واعتبارُهم من قومه المتبعِينَ له، بأنّهم يَهْدُونَ بالْحَقِّ، ويَعْدِلُونَ بالْحَقّ، فهم بصفاتهم أئمةٌ للمتقين وإنْ كانوا أعداداً قليلَةً في عُصُورهِم، أبْرَارٌ أوْ مُحْسِنُونَ.

أمّا الذين بَقُوا من بني إسرائيل على يهوديّتهِمْ بِعْدَ بِعْثَةِ عيسَىٰ عليه السّلام، فلم يُؤمِنُوا بعيسَىٰ، ولم يَتّبِعوا ما أُنزلَ عَلَيْهِ من رَبّه، فلَيْسَ فيهم حَتْماً أُمّةٌ يَهْدُونَ بالحقّ وبه يَعْدِلُون، لأَنَّهُمْ قد أَخْرَجُوا أنفسهم من قوم مُوسَىٰ بالكُفرِ بعيسَىٰ، وكذَلِكَ الَّذِين لم يُؤمنُوا بمُحمَّدٍ بَعْدَ بعْثَتِه، من بني إسرائيل الَّذِين آمَنُوا بعيسَىٰ واتّبَعُوه، ليْسَ فيهم حتماً أُمّةٌ يَهْدُونَ بالحقّ وبه يَعْدِلُون، بسبب كُفْرِهم بما يجب عليهم أنْ يُؤمِنُوا به، وبسبب عَدَمِ اتّباعهم ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم على رسُولِهِ محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين.

وقُدّمَ لفظ ﴿بِهِۦ﴾ على لفظ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ مُراعاةً لفنّيّه التّناسُقِ في رؤوس الآيات.

قول الله تعالى:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾:

جاءت هٰذِهِ الآيَةُ في سورة (الأعراف) حَدِيثاً إخباريًا عَنْ بَنِي إسْرَائيل، ثُمّ خاطبهم اللّهُ عزّ وجلّ بمعظم مَا جاء في فِقَراتِها، مُمْتَنًّا عليهم بما أنعم به على أجدادهم، مع زيادة في البيان، فقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوّلِ سُورَةٍ نَزَلَتْ في المدينة بَعْدَ هجْرَة الرُّسُول ﷺ إليها مخاطباً بني إسرائيل فيها:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقال تعالى فيها أيضاً مُتابعاً امتِنانَهُ عليهم:

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: وضعوا في ذاكراتكم منّة الله على أجدادكم في حادثة السُّقْيا بعد خروجهم من مصر، وطلب موسى من ربه أن يُسْقيهم بعد أن طلَبُوا منه السقيا.

وقد اشتمل هذا الذي جاء في سورة (الأعراف) مع هذا الذي جاء في سورة (البقرة) على بيانِ سَبْعِ قَضَايا:

القضية الأولى: قول الله تعالى في (الأعراف): ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ

أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ ﴾: أي: وقَسَّمْنا بَنِي إسرائيلَ وهم في سينَاء بقيادة موسىٰ عليه السلام، اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قِسْماً بحَسَب أسباطِهِمْ، فكانُوا بمَثابَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُمَّة.

والسِّبْطُ عِنْدَهُمْ بمثابَةِ القبيلة عند العرب، فالسِّبْط مِنْ بَنِي إسْرَائيل قبيلَةٌ تَنْتَمِي إلَىٰ جَدٍّ من أجْدَادِهم، أَوْلاَدِ يَعْقُوبَ عليه السَّلام (وهو إسْرَائيل) أَوْ أَوْلاَدِ أَوْلاَدِهِ.

أقول: وَكَانَ هذا توجيهاً رَبَّانِيًّا لِلْقيام بِتَنظِيم إداريّ يَتِمُّ به ترتيب الْجَيْش الّذي سيُكَلَّفُ أَنْ يَدْخُلَ الْأَرْض المقدّسَة، مُقَاتِلاً في سبيل الله، مع ما في هٰذا التقسيم الإداريّ من تيْسِير مَصَالِحِ الإقامَةِ والارتحال، وتوجيه الأوامر والنواهي، وتحديد إقامَةِ كُلّ سِبْط، ومَعْرِفَةِ كُلّ سِبْطٍ لوظائِفِه وَمَسْؤُولياته، وتبليغِ الأسْباط عن طريق رؤسَائِهم ما يقتضي الواجب، أو تقتضي المصلحة، تبليغَهم إيّاه من أمُورِ الدّين، أو من أمُورِ الإدارة في المجتمع الإسْرَائيلي.

وفي تَفْصِيل هذا التقسيم جاء عند الإسرائيليّينَ في كُتُبِهِمْ ما يلي:

(١) جاء في الإصْحاحِ الأوّل من سِفرِ الْعَدَدِ عنْدَ بَنِي إسْرَائيل: «أنَّ الرَّبَّ كَلَّمَ مُوسَىٰ في بَرّيَّةِ سيناء، في خَيْمَةِ الاجْتِماع، في أوَّلِ الشَّهْر الثاني، في السَّنَةِ الثانية لخروجهم من أرض مِصْرَ قَائِلاً: أَحْصُوا كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إسْرَائيلَ، بِعَشَائِرِهِمْ، وبُيُوتِ آبَائِهِمْ بِعَدَدِ الْأَسْمَاءِ، كَلَّ ذَكَرٍ بِرَأْسِهِ، من ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعداً، كُلَّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ في إسْرَائيل، تَحْسُبُهُمْ أَنْتَ وهَارُونَ حَسَبَ أَجْنَادِهِمْ، ويَكُونُ مَعَكُما رَجُلٌ لِكُلِّ سِبْط. رَجُلٌ هو رأسٌ لبَيْتِ آبائه».

(٢) وَجاء في الإصْحَاحَيْن الأَوَّلِ والثاني من سِفرِ الْعدد «أَنَّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَرُؤَسَاءَ أَسْبَاطِ بَنِي إسْرَائيل الاثْنَيْ عَشَرَ قَدْ قَامُوا بِهَذَا الإحْصَاءِ.

أَمّا سِبْطُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وهُمُ اللاَّوِيُّونَ فَلَمْ يَدْخُلُوا فِي إحْصَاءِ الأَجْنَادِ

بِحَسَبِ قَبَائِلِهِمْ، لأنَّهُمْ كُلِّفُوا أَنْ يَكُونُوا وُكَلاَءَ عَلَىٰ خَيْمَةِ الاجْتِماعِ الْكُبْرَىٰ «مَسْكَنِ الشَّهَادَة. كما يُسَمُّونه» وهُوَ في وَسَطِ مُخَيَّمَاتِهِم وَمَنَازِلِهِمْ بِمَثَابَةِ الْمَعْبَدِ الْكِبيرِ وقَصْرِ الحكمِ، لكِنَّهُ قَابِلٌ للنَّقْلِ في البرِّيَّةِ حَيْثُ انْتَقَلُوا وحَيْثُ ارْتَحلُوا، لأنهم صَارُوا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ من مضرَ كالْبُدْوِ يَنْتَقِلُونَ وَيرْتَحِلُونَ، ولاَ يَبْنُونَ أَبْنِيَةً ثَابتَةً.

فَخُصَّ اللاَّوِيُّونَ بأَنْ يكونُوا وُكَلاَءَ على مَسْكَنِ الشهادة، يَحْمُونَهُ وَيَحْمِلُونَهُ عِنْدَ الارْتحال، ويُقِيمُونَهُ عِنْدَ النُّزولِ، وهُمْ يَنْزِلُونَ حَوْلَهُ، وَسَطَ مَنَازِلِ سَائِرِ الأَسْبَاط.

وكانَ هارُونُ عليه السَّلاَمُ وزيراً لموسَىٰ عليه السّلامُ في الشُّؤُونِ الدّينيّة وَمَرَاسِيمها وَشَعَائِرِها، على ما يقولون.

وكانَ سِبْطُ لاَوِي هُمُ المقدَّمِينَ وراءَ الرَّسُولِ هَارُونَ يَخْدُمُونَهُ، وَيَحْفَظُونَ شَعَائِرَهُ وَشَعَائِرَ كُلِّ الْجَمَاعَةِ، قُدَّامَ خَيْمَةِ الاجْتماع، ويَحْرُسُونَ كُلَّ أَمْتِعَتِها.

فيبْدُو أَنَّ وَظَائِفَ الكَهَانَةِ الدّينيَّةِ كانت مَوْكُولَةً لِلاَّوِيين، ورُبّما كانت فيهم أيضاً وَظائفُ المهمَّاتِ الإداريَّة العامّة.

وَإِذْ فُرِزَ اللاَّوِيُّونَ لِهٰذِهِ المهمَّاتِ، ولَمْ يَدْخُلوا في إحْصَاءِ الأجْنَادِ فَقَدْ بَقِي من بني إسرائيل أحَدَ عَشَرَ سِبْطاً من أَوْلاَدِ يعقوبَ عليه السلام، بعد «لاَوي وذرّيّاته».

لَكِنَّ مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام، جَعَلا سلالَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ سِبْطَيْن، أي: قبيلَتَيْن، إذْ كانَ لَهُ وَلدانِ: «أَفْرَايم» و«مَنَسَّىٰ». وبهذا عاد مجموعُ الأَسْباطِ المقَسَّمَةِ في الإحْصَاءِ إلى اثْنَيْ عَشَرَ سِبطاً، أي: إلى اثْنَي عَشَرَ قَبيلة.

واقْتَضَىٰ هذا التقسيم تَرْتيبَ مَنَازِلِ هذه القبائِلِ إلى أَحْيَاء، وتَنْظِيم

حَرَكَةِ ارتِحَالِها عِنْدَ الارْتحال، وتَمِييزَ كُلّ حَيٍّ من هذه الأحياءِ برايَةٍ تُرْفَعُ في الحيّ.

وقُسِّمَتْ أطْرَافُ دائِرَة الْوَسَطِ إلى أرْبَعَةِ أَحْيَاء، شَرْقِيَّةٍ، وغَرْبِيَّةٍ، وجَنُوبيَّةٍ، وشَماليَّة، وَوُزِّعَ على كُلّ حَيٍّ مِنْهَا ثَلاثَةُ أسْباط.

فالحيُ الأول: يَجمع سِبْطَ «رَؤُوبين» برئاسة «أَلِيصُور». وسِبْطَ «شِمْعُونَ» برئاسَةِ «شَلُوميئيل». وسِبْطَ «جَاد» بِرئاسَةِ «أَلْيَاسَاف».

وتُسَمَّىٰ مَحَلَّتُهُمْ: «مَحَلَّةَ رَؤُوبين» ورايتها رايَةُ «مَحَلَّةِ رَؤُوبين».

وعند الارْتِحَال يَرْتَحِل هٰؤلاَءِ ثَانِياً.

والحيُ الثاني: يَجْمَعُ سِبْطَ «يَهُوذا»» بِرئاسَةِ «نَحْشُون». وسِبْطَ «يَسَّاكِر» بِرئاسَةِ «نَثَنَائيل». وسِبْطَ «زبُولُون» برئاسَةِ «أَلِيآب».

وتُسمّى محلتهم: «محلة يهوذا» ورايتها راية «محلة يهوذا».

وعند الارْتحال يَرْتَحِلُ هؤلاء أوّلاً.

والحيُ الثالث: يَجْمَعُ سِبْط «أفرايم» بن يوسُفَ عليه السلام، بِرئاسَةِ «أَلِيشَمَعُ». وسِبْطَ «مَنَسَّىٰ» بن يوسُفَ عليه السلام، بِرئاسَةِ «جَمْلِيئِيل».

وسِبْطَ «بنْيامِينَ» برئاسَةِ «أَبِيدَنَ».

وتسمّى محلتهم «محلة أفرايم» ورايتها راية «محلة أفرايم».

وعند الارْتحال يَرْتَحِلُ هؤلاء ثالثاً.

والحيُ الرابع: يجمع سِبْط «دَان» بِرئاسَةِ «أَخِيعَزَرَ». وسِبْطَ «أَشِير» برئاسَةِ «فَجْعِيئِيلَ». وسِبْط «نَفْتَالي» بِرئاسَةِ «أَخِيرَعَ».

وتُسَمَّىٰ مَحَلَّتُهُمْ: «مَحَلَّة دَانَ» ورَايَتُها رايَةُ «مَحَلَّةِ دَان».

وعند الارْتحال يَرْتَحِلُ هؤلاء أخيراً.

فالظاهر أنّ الله عزّ وجلّ يُشِيرُ إلى هٰذِهِ التقسيماتِ التنظيمِّة الإدَارِية، بقوله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف):

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾:

أي: وقَطّعْنَاهُمْ بتنظيم إداريّ اثنتي عَشْرَة قِطْعَةً، حُذِفَت لفْظَةُ «قِطْعَةً» من العبارة إيجازاً.

ولفظ: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ ولفظ ﴿أُمَمًا﴾ عَطْفُ بيان، أو هُمَا حَالاَن من ضَمِير: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾.

القضية الثانية: قولُ الله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ... (١٦٠)﴾.

وقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ... (٦٠)﴾.

هٰذان النَّصّان مُتَكامِلاَن ببعض ما جاء فيهما، ومتطابقان أو مُتَماثلان ببعض ما جاء فيهما:

فما جاء في سورة (الأعراف): ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾. فَدَلّ على أن قومه طلبوا منه السَّقْيا.

وما جاء في سورة (البقرة): ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ﴾. فَدَلّ على أنه سأل رَبَّهُ أن يُسْقي قومه.

وبالجمع التكامُلِيّ بَيْنَ العبارتين تكُونُ العبارة كما يلي: وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بعَصَاكَ الحَجَرَ.

﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾: طَلَبَ السُّقْيا، أي: الماء الدائم الذي يستقي منه بنو إسرائيل.

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ كما جاء في (الأعراف): أي: فانْشَقَّتْ من الْحَجَرِ اثْنَتَا عَشْرَة عيناً، يَخْرُجُ من كلّ عَيْنٍ مِنْهَا الماء.

[**انبَجَسَ**]: فعل مُطَاوعٌ لِفِعْلِ «بَجَسَ» يقالُ لغة: بَجَسَهُ، يَبْجِسُهُ ويَبْجُسُهُ بَجساً، فانْبَجَسَ. **الْبَجْسُ**: شَقٌ فِي قِرْبَةٍ أو حَجَرٍ أَوْ أَرْضٍ يَنْبُعُ مِنْهُ الماء، فإنْ لم يَنْبُعْ مِنْهُ الماء فَلَيْسَ انبِجَاساً، ولا يشترط في نبع الماء بالانبجاس تفجُّرُهُ وتَدَفُّقُه.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ كما جاء في (البقرة): أي: فَخَرَجَ الماءُ بِتَدَفُّقٍ من الحجر اثنتا عشرة عيناً، يَتَدَفُّقُ مِنْ كُلِّ عَيْنٍ مِنها الماء.

وقد جعل الله عزّ وجل ضَرْبَ موسَىٰ الحجَر بعصاه، وسيلة صوريّة لإجراء آيته الإعجازية. وكذلك سائر أحوال ضرب موسى العصا ليجرِيَ الله آياته وعجائبهُ الإعجازية.

فدَلَّ التكامل بَيْنَ عبارَتي ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ و﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ على أنَّهُ حَصَل انشِقَاقٌ في الْحَجَرِ أوّلاً، فسال الماء انبِجَاساً عَادِيًا من الْعُيُونِ الاثْنَتَيْ عَشرة، وعَقِبَ هذا صَارَ الماء يَتَفَجَّرُ بِتَدَفُّق، وصَارَ يشُقُّ أَنْهراً على مقادِيرِ المياه الّتي تتدفَّقُ من العيونِ، التي أَخْرَجَها اللَّه عزّ وجل من الحجَرِ، آيَةً مِنْ الآيات الإعجازية الّتي آتاها الله موسىٰ عليه السلام، سُقْيًا لِبَنِي إسرائيل معه.

«ال» في **الحجر** للْعَهْدِ، واعتبارها للجنس مستبعَد هنا، والعهد يشير إلى حديث سابق من الله.

والفاء العاطفة في العبارتين، هي الفاء الفصيحة الّتي تَعْطِفُ على محذوف، والتقدير، فضربَ الحجَرَ الذي عيَّنَهُ اللَّهُ له بِعَصَاه، فانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَة عيناً، فانْفَجَرَتْ هٰذِهِ الْعُيُون بالماء الغزير.

ويُمكِن أن نقول في الجمع التكامُلِيّ بين العبارتين: وأَوْحَيْنَا إلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ وَحْياً مضمُونُهُ أَنِ اضرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ الْمُعَيَّنَ الَّذِي أَعْلَمْنَاكَ به، أَوْ سَنُعْلِمُكَ بِهِ، لِنُخْرِجَ لهم ماءً لِسُقْيَاهم، فَلَمَّا وَصَلَ إلى الحجَرِ المعيَّنِ، قُلْنَا لَهُ: اضرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرِ، ليكُونَ إجراءُ الآيَةِ مُقَارِناً للطَّاعَةِ التابعَةِ فوراً لِلأَمْرِ بضَرْب الحجَرِ بالْعَصَا، فضَرَبَ مُوسَىٰ الحَجَرَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِضَرْبِهِ فانبجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً، فانْفَجرتْ هذه الْعُيُونُ بالماء الغزير الوفير، الذي يكْفِي أسْباطَ بني إسرائيل الاثْنَيْ عشر، ودون أن يتزاحَمُوا على عَيْنٍ واحِدَة.

وتكرَّرَ في نَصَّي (الأعراف) و(البقرة) تكراراً تطابقيًا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: أي: قَدْ بَيَّنَ موسَىٰ عليه السَّلامُ لكلِّ سِبْطٍ من أسباطِ بني إسرائيل مشرَبَهم الخاصّ بأُنَاسِهم، فَعَلِمُوا مِنْهُ ذلِكَ بالتَّعْيين.

ولعلَّ في ذكْرِ لفظ «أُنَاس» بدلَ «سِبْطٍ» إشارةً إِلَىٰ أنّ هٰذِهِ العيون خاصَّةٌ بالبشر، أمّا بهائمهم وأنعامهم فلها مشَاربُ أخرى، غير هذه العيون، وربما يكون مجرَّدَ تَفَنُّنٍ في التعبير، واللَّهُ أعلم.

ويبدو لي أنّ الْغَرض من هذا التكرار التطابقي في هذه العبارة، الإشارةُ إلى أنّ التعليمات الّتي صدَرَتْ من موسىٰ عليه السلام بتوزيع الأعْيُنِ على الأسْبَاطِ قَدْ كُرِّرَتْ عليهم، لإلزَامِهِمْ بمراعاة النّظام وعَدَمِ الْعُدْوان، ووجُوب الْتِزَامِ كُلِّ سِبْطٍ بالْعَيْن المخصّصةِ لهم.

القضية الثالثة: قول اللَّهِ تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ بالحديث عن الغائبين.

وقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ... ۝٥٧﴾ بأسلوب خطاب بني إسرائيل امتناناً عليهم، إذ الإنعَامُ على الأجْدادِ إنعَامٌ

على ذراريهم المتعصبين لهم، والمتفاخِرِين بالانتماء إليهم، الّذِين يَدَّعُونَ أَنّهم ملتزِمُونَ طريقتهم، وفي هذا الامتنانِ تحريض داخليّ غير مباشر على أن يؤمنوا بمحمّد ويتّبعُوه، فالذي أرسل موسَىٰ من قبل، هو الذي أرسل محمَّداً خاتم النبيين والمرسلين.

أي: وظلّلْنَاكُمْ جَاعِلِينَ الغَمَامَ عليكُمْ وأنْتُمْ في صَحْراءِ سيناء، حِمَايَةً لَكُمْ مِنْ حَرِّ الشمس، وهذا على تضمِين فعل «ظَلّلْنا» معنى فعل «جَعَلْنَا».

الغمام: اسم جنسٍ جمعي، يُفْرَقُ بَيْنَهُ وبين واحده بالتاء، فمفرَدُهُ «غَمَامَة» وهي السَّحَابَة.

يقال لغة: أَظَلَّ الشيءُ فلاناً، وظلَّلَهُ، أي: غَشِيَهُ وسَتَرَه.

ويقال: ظَلَّلَهُ بِكَذَا من الشَّمْس، أي: سَتَرَهُ به، حتّى لاَ تَقَعَ عليه أشِعَّةُ الشمس فَتُؤذِيه.

وتحليل عبارة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ ونظيرها: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ له ثلاثَةُ وُجوه:

الوجْهُ الأوّل: قالوا: أي: وجَعَلْنَا الْغَمَامَ فَوْقهم يُظلّلُهُمْ مِنْ أشِعَّةِ الشَّمْسِ وحَرَارَتها المؤذية، والضارّةِ ضرراً شدِيداً أحياناً.

أقول: هذا الوجْهُ يغنِي تَضْمِين فعل: «ظَلّلَ» معنى فِعْل: «جَعَلَ» فعُدِّيَ تَعْدِيته. والمعنى: ظلّلَكُمْ جَاعَلاً الغمام عليكُمْ سَاتِراً لَكُمْ مِنْ أَنْ تَصِلَ إليكم أشِعَّة الشمس الحارّة، وهذا التضمين له نظائر كثيرة في القرآن المجيد.

الوجه الثاني: وقيل: أصْلُ الكلام: وظَلَّلْنا عَلَيْكُمْ بالغمام، وحُذِف الخافض من «بالْغَمَامِ» فانْتَصَبَ اللّفظ بنزع الخافض، فصارت العبارة، وظلّلْنا عليكم الغمام.

الوجه الثالث: أقول: العبارة تحتمل معنىً آخر، وهو أنْ يكون الْغَمَامُ الّذِي جعَلَهُ الله فَوْقَهُمْ مُباشَرَةً، قَدْ كان غَماماً رَقيقًا غير كثيف، فظَلَّلَهُ اللَّهُ عزَّ سُلْطَانُهُ، بِغمَام كثيفٍ فَوْقَه، ليَكُونَ الْغَمَامُ القريبُ منْهُمْ بارداً، إذْ جَعَلَ فَوْقَهُ غَماماً مَظَلِّلاً له، يَسْتُرُهُ مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الحارّة، وهذا من عنايَةِ الله عزّ وجلّ بهم.

وجاء في الإصحاح التاسع من سِفرِ الْعَدَدِ عِنْدَ بَنِي إسرائيلِ: «أنَّ السَّحَابَةَ كانَتْ عَلَامَةً لَهُم على الحِلِّ والتَّرْحَال، فإذَا ارْتَحلَتِ السَّحَابَةُ عَنْ خَيْمَةِ الشَّهَادَةِ ارْتَحلُوا، وإذَا أَقَامَتْ أَقَامُوا.

لكنّ النَّصَّ القرآني يَدُلُّ على أنَّ الْغَمَامَ كَانَ يُظَلِّلُهُمْ جمِيعاً، ولَمْ يَكُنْ خَاصًّا بخَيْمَةِ الشهادة.

وإنْ صَحَّ ما كتبَهُ الإسْرَائيليُّون، فَهُوَ مَحْمُولٌ على سحابَةٍ خاصَّة، غير الغمام الْعَامِّ، الّذي كان يُظَلِّلُ مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ عُمُومَ بني إسْرائيل في سَيناء.

القضية الرابعة: قول الله تعالى في (الأعراف): ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ بالحديث عن الغائبين.

وقوله تعالى في (البقرة): ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ . . . ﴿٥٧﴾﴾ بأسلوب خطاب بني إسرائيل امْتِناناً عليهم. وقد سبق بيان الحكمة.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾: عَطَاءَاتُ اللَّهِ لعباده كُلُّهَا إنْزالٌ مِنْ فُيُوضَاتِ آثار رَحْمَتِهِ العليَّةِ جلَّ جلاله، ولَوْ كانت غَيْرَ نَازِلَةٍ من السَّماء، بَلْ هي مُوجَّهَةٌ لَهُمْ من الأرض وأجوائِها وبِحَارِهَا.

﴿ٱلْمَنَّ﴾: رزْقٌ كانَ يَسْقُطُ لَهُمْ على وجْهِ الأرْضِ كالنَّدىٰ، وهو يُشْبِهُ الْقُشُورَ، ويَتَجَمَّعُ كالجليد على الأرض، وقد جعله الله لهم بدَلَ الخبز، وطَعْمُهُ كَطَعْمِ رِقَاقِ خُبْزٍ بعَسَل.

[السَّلْوىٰ]: طائِرٌ بَرّيٌّ لَذِيذُ اللّحم، سَهْلُ الصَّيْد، كانت تَسُوقُهُ لهم رِيحُ الجنوب كُلَّ مَسَاء، فَيُمْسِكُونَهُ بأيْدِيهم، ويُعْرَفُ هٰذَا الطائِرُ بِلَفْظِ «السُّمَانَىٰ» على وَزْن «الْحُبَارَىٰ».

جاء في كُتب بني إسرائيل أنّهمْ بَعْدَ خُرُوجهم من مِصْر، طَلَبُوا أَنْ يَأْكُلُوا خُبْزاً ولَحْماً، فَرَزَقَهُمُ اللَّهُ وهُمْ في الصّحراء المنَّ والسَّلْوىٰ.

فأعطاهم اللَّهُ بهٰذين أجْودَ الخبزِ، وأطيب اللّحم كمَا طَلَبُوا.

وجاء في الإصحاح السادس عشرَ من سِفْر الخُروج عند الإسرائيليين:

«أنَّ الْمَنَّ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللَّهُ إيّاهُ، الّذي هو بدلُ الخبز كان يَسْقُطُ على وجْهِ البرّيَّةِ كالنّدَىٰ، يُشْبه الْقُشُورَ، ويَتجمَّعُ كالجليد على الأرض.

وأنَّ مُوسَىٰ قَالَ لَهُمْ: هٰذَا هُوَ الخبْزُ الَّذِي أعْطَاكُمُ الرَّبُّ لتأكُلُوا، وأَنَّهُ نَهَاهُمْ عن أن يَدَّخِرُوا مِنْهُ لِلْيَوْمِ الثاني، فخالَفَ فريقٌ مِنْهُمْ فتوَلَّدَ فيه الدُّودُ، وأنْتَنَ، فَسَخِطَ عليهم موسَىٰ».

وجاء فيه أيضاً:

«أَنَّ طَعْمَ الْمَنِّ كَطَعْمِ رِقَاقِ خُبْزٍ بِعَسَلٍ، وأنَّهُمْ سَمَّوْهُ مَنًّا».

وجاء فيه أيضاً:

«أنَّ بني إسْرَائيل أكَلُوا اَلْمَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّىٰ جَاؤُوا إلى طَرَفِ أَرْضِ كنْعَان.

القضية الخامسة: قول الله تعالى في (الأعراف): ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾. مخبراً عن سوابق الأحداث.

وجاء في سورة (البقرة) نظيرها: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ . . . ﴿٥٧﴾﴾ مُمْتناً على بني إسرائيل، وجاء فيها أيضاً: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ . . . ﴿٦٠﴾﴾ بإضافة الامْتِنان بالشُّرْب، الذي هو أيضاً من رزق الله.

قال المفسرون: التقدير: وقُلْنَا لَهُمْ: كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، أي: من الْمَنِّ والسَّلْوىٰ. وقُلْنَا لَهُمْ: كُلُوا واشْرَبوا من رزق الله.

أقول: مثل هذا التقدير يُقَلِّلُ مِنْ قيمة هذا النص الْبَيَانيَّة، إذْ يَجْعَلُها قاصِرَةً على الإيجاز بالْحَذْف.

والأَوْلَىٰ أن نقول: هذا كلامٌ مَحْكِيٌّ بلَفْظِه، مُقْتَطَعٌ من الحدَثِ الماضي، ومُقَدَّم في البيان كما هَو على طريقة عرض المشْهَدِ كما كانَ عنْدَ حُدوثه، بإبداعٍ فنّيّ جميل، لَمْ يَعْرِفه البلَغاءِ قَبْل القرآن، وقد أدركه الإعلاميُّون في عُصُورنا المتأخرة، وهو من روائع الإبداع الْقرآنيّ.

وفي توجيههم للأكْلِ من بعْضِ ما رَزَقَهُمُ الله، إشارَةٌ إلى أَنَّ الرِّزْق الّذي قضاه اللّهُ لهم من المنِّ والسَّلْوىٰ رِزْقٌ وفير يزيد عَنْ حَاجاتِهم اليوميَّة، فَلاَ دَاعِيَ لأَن يَدَّخِرُوا مِنْهُ شيئاً للطوارئ، كما كَانُوا يَفْعَلُونَ وهُمْ في مصر.

القضيّة السّادِسة: قولُ اللّهِ تعالىٰ في سورة (البقرة): ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

لمّا كان تأمِينُ مطالِب الحياة ممًّا يُوَلِّدُ مشاعر الاستغناء، وهٰذِهِ المشاعِرُ تُنسِي ذِكْرَ اللّه عزّ وجلّ، وتُنسِي الحاجَة إليه، وهٰذَا النّسْيانُ يُولّدُ الطغيانَ في النفوس، فَيَدْفع إلى الإفساد في الأرض بانْطِلاَقٍ إجْرَامِيّ، حذّر اللّهُ بني إسْرائيل من أَنْ يَعْثَوْا في الأرض مُفْسِدِين، ودمَجَ بالخطاب معاصِرِي تنزيل القرآن ومن بَعْدَهُمْ، ضمن حكاية الخطاب الذي سَبَقَ أَنْ وجَّهَهُ الله لأجْدَادِهم.

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: أي: ولا تُفْسِدُوا إفساداً شدِيداً مِنكراً.

الْعُثُوّ: أشَدُّ الفساد، يُقَالُ لغة: عَثِيَ يَعْثَىٰ عُثُوّاً، وَعُثِيًّا وعَثَياناً.

﴿مُفۡسِدِينَ ﴾: حالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها.

لكِنَّ جُمْهور بني إسرائيل بَعْدَ قُرُون، لم يُطِيعُوا هذا التكليف الرَّبَّانِيّ، بل استَخْدَمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهم في معصيته، وانْطَلَقُوا يَعْثَوْنَ في الأرضِ مفسدين.

القضية السابعة: قول الله عزّ وجل في (الأعراف): ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝١٦٠﴾ في مَعْرِض الحديث عن الغائبين.

ونظيره تَمَاماً قول الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٥٧﴾ في معرض خطاب ذَرَارِي بني إسرائيل الملتزمين سُبُلَ أَجْدَادِهِمُ الظالمين.

أي: لم يُطِيعُوا اللَّهَ فيما نَهَاهُمْ عَنْهُ، مِنْ أَنْ يَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدين، بلِ انْطَلَقُوا يَعْثَوْن في الأرضِ فساداً حتَّى صَارُوا شَرَّ النَّاسِ إفْسَاداً في الأرض، إِذْ يُفْسِدُون العقائد، ويُفْسِدُونَ الأَخْلَاقَ، ويُفْسِدُونَ النُّظُم، ويَتَلاعَبُون فيما أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ من شرائع وأحكام، ويُفْسِدُون سُلُوكَ الناس في الحياة الدنيا، ويُجَنِّدُون الشياطين الأشرارَ، لتَدْمِير كلّ القِيَمِ الإنسانيّة، ومَحْوِ كُلّ الوصَايا والتعليمات الرَّبَّانِيَّة.

وجاءت عبارة: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ كِنَايَةً عمَّا فَعَلُوا في تاريخِهِمُ الطويل من فسادٍ عَرِيض، في العصور التَّالِيَة لِعَهْدِي دَاوُد وسليمان عليهما السلام، واستمرت أجيالهم كذلك حتى بِعْثَة محمّد ونزول القرآن.

والمعنَىٰ: فافْسَدُوا وطَغَوْا وبغَوْا، وعَصَوْا بَارِئهُمْ، وظَلَمُوا ظُلْماً شنيعاً فَاحِشاً، وهنا يقول الرَّبُّ جلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ بكُلِّ مَا فَعَلُوا، لأنّ الله عزّ وجلّ لاَ يَضُرُّهُ ظُلْمُ الظالَمِينَ، كما لاَ تَنْفَعُهُ طاعَةُ المطِيعِين.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ إِذْ يُعَرِّضُونها لِعَذَابٍ أَبَدِيّ في جهنّم،

مَعَ ما يَنزِلُ بهم من عذابٍ أليم في الدنيا. ويَقُصُّ التاريخُ علينا ما أَنزَلَ الله بهم من عذَابٍ واضطهادٍ وذُلٍّ ومَهَانِةٍ في كثير من الأَحْقاب الزّمنيَّة، وبأَيْدِي كثير من جَبَابِرَةِ الأرْضِ.

ولمَّا كان بنو إسرائيل المعاصرون للتنزيل على طريقة الظالمين من أجدادهم إلاَّ من أسلم منهم، كانوا مشمولين بهذا الخطاب حتماً، بل هم أشدُّ ظُلْماً، لِقيام الحجّة عليهم بما آتىٰ اللَّهُ رسولَهُ محمَّداً من آياتٍ بيّنات، ولأنّ علماءَهُمْ وأحْبَارَهُم قد عَرَفُوا أنّ محمّداً رسول الله المبشَّرُ به في كتبهم، كما يَعْرِفون أبناءهم، وكان الواجب عليهم أن يشكُروا نِعَم الله الكثيرة التي اختصهم بها.

ولو أنّهم آمنوا به واتَّبَعُوه، وعملوا بما أَنْزل اللَّهُ للناس في القرآن، لتَبرَّؤوا ممّا كان عليه أجدادُهم الظالمون، ولَمَا خاطَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا فَعَلَ أجدادُهم من ظُلْمٍ قَبْلَهُم.

لكنَّهم لم يُؤْمِنُوا ولم يُسْلِمُوا، فتابَعُوا خُطُواتِ أَجْدَادِهِم الظّالمين، مُتَعَصّبين لهم، ولأعمالهم، ولتحريفاتهم في دين الله، ومعتزّين بهم، ورافِضِين دين اللّهِ الحقّ، ومعْتَبِرين أنفسهم امْتِداداً بَشَرِيًا لآبائهم وأجدادهم في كُلّ قبائحهم، وسيّئاتهم، وكُفْرِيّاتهم، وغَيْر مُسْتَعِدِّين نَفْسِيًا للتَّبرُّؤ من الباطل الذي هم فيه، والاستمساك بالحقّ الذّي يُدْعَوْن إليه، فكانُوا جَدِيرين بأن يكونُوا داخلين في عُمُوم خطابِ أَجْدادهم الظالمين، وأنْ يكونُوا بَعْدَ بِعْثَةِ محمَّدٍ ﷺ مُمَثِّلين للظالمين من أجدادهم في كلِّ شيء ومُضِيفين ظُلْماً جَدِيداً هُوَ كُفْرُهم بالرسُول النّبيّ الأمّي الذي يجدونه مكْتُوباً عنْدَهُمْ في التوراة.

ويُوَضِّحُ قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: أي: بكُفْرِهم وفجورِهم وعُتُوِّهم فساداً وإفساداً في الأرض، ما جاء في الحديث القدسيّ الصحيح الذي رواه مُسْلمٌ عن أبي ذَرّ:

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أوّلَكُم وآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شيئاً».

وجاء فيه أيضاً:

«يَا عِبَادِي، إِنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَه».

قصة استسقاء بني إسرائيل عند أهل الكتاب:

جاء في الإصْحَاح السابع عشر من سفر الخروج عند الإسْرائيليّين: «أنّ الاستسْقاء كان بعْدَ ارْتحالهم من «سِينٍ» ونُزُولهم فِي «رَفِيدِيم» وأنّه كانَ بَعْدَ خُرُوجهم من البحر بمدَّةٍ غَيْرِ طويلة، وأَنّ بَنِي إسْرَائيل خاصَمُوا مُوسَىٰ من أَجْلِ السُّقْيا، وأنَّ اللّهَ أعْلَمَ مُوسَىٰ بالصَّخْرَةِ الّتي إذا ضَرَبَها بعَصَاه خَرَجَ مِنْهَا ماءٌ لِيَشْرَبوا، وأنَّ الصَّخْرَة كَانت في «حُورِيبَ». وأنّ موسَىٰ ضَرَبَ الصَّخْرَة بَعَصَاهُ، فَأَخْرَجَ الله مِنْهَا الماء أمَامَ عُيُونِ شُيوخِ بَنِي إِسْرَائيل».

الفقرة التاسعة

وعد الله بني إسرائيل بأن ينصرهم ويُسكِنَهُم القرية بشرطين فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم

الآيتان (١٦١ ـ ١٦٢).

قال الله عزّ وجلّ مُتَحدِّثاً عن بني إسرائيل بأسْلُوب الحديث عن الغائبين في سورة (الأعراف):

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

وجاء بشأن هذا الحدث نَفْسِه، قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف (٨٧ نزول) في مَعْرِض خطاب بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن فَمَنْ بَعْدَهُمْ، حَوْلَ مَا جَرَىٰ لأجْدادهم الّذين يَعْتَزُّون بهم ويتّبِعُونَ سُبُلَهم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

هٰذان نَصَّانِ متكاملان في دَلاَلاَتِهما، وفْقَ سُنَّة التكامل في القرآن المجيد حول مُوضوع كُلّيّ واحد. وهُما يَتَحدَّثانِ عَنْ حادثَةٍ مِنْ حوادث بني إسرائيل التي تكرَّرَت نظائِرُهَا في أيَّامِهِمُ الأولى، في عَهْدِ النبيّ يَشُوعِ، الّذي كانَ فَتَىٰ مُوسَىٰ وخادِمَهُ الملازمَ له، وفي عَهْدِ صَمُويلَ من بعده، وفي عُهودٍ لاَحِقَة.

ووجوه التكامل فيما بَيْنَهما مُتَعَدِّدة:

التكامل بين النّصين:

(١) فما جاء في سورة (الأعراف) جاء بأسلوب الحديث عن بني إسرائيل الغائبين.

وما جاء في سورة (البقرة) جاء في معرض خطاب بني إسرائيل المعاصرين لتنزيل القرآن فَمَنْ بَعْدَهم، بشأن أجدادهم الذين يعتزُّون بهم، ويلتزمون سبُلَهم.

(٢) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: أي: وإذْ قَالَ لهم نَبِيُّهُمْ ادخُلوا هٰذِهِ القريَةَ واسْكُنُوها، بَلاغاً عن الله، وجاء في هذا النّص حذف [ادْخُلو] والاكتفاءِ بعبارة ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾.

وجاء في سُورَة (البقرة): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: أي: ادْخُلُوا هذه القرية واسْكُنُوها. ودلّت هذه العبارة على أنّ الآمِرَ بِدُخُول القرية وسُكناها هو الله، وأنّ المبلغ لهم هذا الأمر الرّباني هو نبيُّهم، وهو يَشُوع يومئذ، وكان فتَىٰ مُوسَىٰ وخادمه في حياته، على ما ذكر المؤرّخين.

(٣) وَجاء في سورة (الأعراف): ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: وكُلوا مِنْها من حيْثُ شِئْتُمْ مأكولاً صالحاً تَجِدُونه.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ فأضاف هذا النَّص، فِكْرَةَ الترتيب مع التعقيب، إذْ جاء عطف عبارته بالفاء. فبينَهُما تكامل، أي: فكلوا منها مباشرة عقب دخولها، وكلوا منها بعد ذلك بحسب أعمالكم في الاستثمار.

وأضَافَ أيْضاً كلمة: ﴿رَغَدًا﴾: أي: طيّباً واسعاً كثيراً رَفيهاً.

(٤) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾:

﴿حِطَّةٌ﴾: أي: اللّهم ضَعْ عَنّا أوزَارنا وذُنُوبَنا ولا تُحاسِبْنَا عليها.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾: بتَقْدِيم الأمر بدخول باب القرية ساجدين، على الأمْرِ بأنْ يَقُولُوا: حِطَّة.

والدّلالة التّكامُلِيَّةُ بين الْعِبَارتين تفيد عَدمَ وجوب الترتيب بين التكليفين، وعَدَم وجوب القيام بهما مُقْتَرِنَيْن، بل الواجب القيام بهما دون إلزام بترتيبٍ أو اقتران.

(٥) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وفي ﴿نَّغْفِرْ﴾ قراءة [تُغْفَرْ] بالبناء لما لم يسَمَّ فاعله، ومعلوم أنّ اللّهَ هو الذي يَغفِر، وفي هذا تعليم لَنا أنّه لا مانع من التعبير بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله، إذا كان الفعل من خصائص الرّب جلَّ جلالُه.

وفي ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ قراءات منها [خَطايكم] ومنها بالإفراد، مُراعاة لأحوال المذنبين فيهم ما بين مُكْثِرِين ومُقِلّين أخذاً من جَمْعَيْ الكثرة والقلّة، مع التَّفَنُّن في التعبير.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: وفي ﴿نَّغْفِرْ﴾ قراءة [تُغْفَرْ] وقراءة [يُغفَرْ] وفي هذه القراءات الدلالة الّتي فَهِمْنَاهَا آنفاً.

وجاء في هذا النصّ إضافةُ حرْف العطف (الواو) في: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: للدّلاَلة على أنَّ الفصل والوصْلَ هُنَا مُتكافِئان بلاغيًا.

(٦) وَجاء في سورة (الأعْرَاف): ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾:

وجاء في سورة (البقرة): ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾: بحذف عبارة ﴿مِنْهُمْ﴾ اكتِفَاء بما جاء في نَصّ (الأعراف) وللإشعار بأنّ دلالة القرينة تكْفِي، لتحقيق غرض الإيجاز والاقتصاد في العبارة.

(٧) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾:

ويبدو التكامل بين هٰذين التعبيرين فيما يلي:

● فبين ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ و﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: فَأَنْزَلْنَا بسُلْطَانِ الرُّبُوبيّة، وجعلنا هذا الإنزال إرْسالاً، ففي الإرسال معنى التوجيه لِأَدَاء مُهمّةٍ ما، بتؤدة، وأَناة، وتتابع، وهذا المعنى لا يَدُلُّ عليْه

الإنْزَال، كَمَا أنَّ الإنْزَالِ بِسُلْطان الرُّبُوبِيَّة القاهر لا يَدُلُّ علَيْه الإرْسال، فَتَكَامَلا.

● وبين: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ والضمير يَعُود على فاعل ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾. وبين ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في النصّ الذي في (البقرة) تكامُلٌ آخر، إذ التصريح بالوصف في مقام الضمير، يُشْعِرَ بأن ما أنْزِلَ عليهم إرسَالاً، قد كان بسبب ظَلِمْهِمْ بالتَّبْدِيل.

● وبين: ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ في (الأعراف): وبَيْنَ: ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ في البقرة، تكامل ثالث. فعبارة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ جاءت شارحَةً ومُبَيِّنَةً لعبارة: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾: أي: إنّ ظِلْمَهُمْ، وهُوَ تجاوُزُهم لحُدود الله، قد كان من نوع الفِسْق، لاَ من نوع الكفر المخرِج من المِلّة.

الفِسْق: مصْطلح إسلاميّ، مأخوذٌ من قول العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبَة، إذا خرجَتْ من قِشْرَتها، ومعلوم أنّ الرُّطَبَةَ إذَا خَرَجَتْ من قِشْرَتها تعرَّضَتْ للفساد السَّريع. والفِسْقُ في المصطلح الإسلاميّ يُطْلَقُ على عصيانِ أوامر اللَّهِ ونواهيه، ولا يلْزَمُ أنْ يكون هذا العصيان أثراً من آثار جُحودِ رُبُوبيَّة اللَّهِ، أَوْ إلَهِيَّتِهِ، بل قد يكون أثراً من آثار اتّباع الهوىٰ مَعَ سَلاَمَةِ الإيمان والإسلام من النقض.

القراءات في النصّ الذي من سورة (الأعراف):

(١٦١) ● قرأ نافع، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: **[تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيئَاتُكُمْ]** ومعلوم أن الذي يَغْفِرُ هو الله عزّ وجل، وجاء الجمع على صيغةٍ من صِيغ جُمُوع القِلّة إذ كان بَعْضُ القوم قليل الذنوبِ، وَلا أرى أن الإضافة هنا تجعله للكثرة.

وقَرأ أبو عَمْرو: **[نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ]**: بضَمير المتكلم العظيم، وَجَاء

الجمع بصيغةٍ من صِيغِ جُمُوعِ الكثرة، إذ كان بعض القوم كثير الذنوب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نَغْفِرُ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ]: بضمير المتكلّم العظيم، وجاء الجمع على صيغة من صيغ جُموع القِلَّة، ولا أرى أنَّ الإضافة هُنَا تجعلُه للكَثْرَة، إذْ كان بعض القوم قَلِيل الذنوب.

القراءات في النصّ الذي من سورة (البقرة):

(٥٨) ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [يُغْفَرْ لَكُمْ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ، ومعلوم أنّه الله.

وقرأ ابْنُ عامِرٍ: [تُغْفَرْ لَكُمْ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله، ومعلوم أنَّهُ الله.

[يُغْفَرْ] وَ[تُغْفَرْ] وَجْهَان عَربيان صحيحان، فالخطيئات تأنيثها مَجَازِيٌّ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نَغْفِرْ لَكُمْ] بضمير المتكلم العظيم جلّ جلاله.

تمهيد:

كان بَنُو إسرائيل كلّما قَضَىٰ اللّٰهُ لهم بأن يَفْتَحُوا قَرْيَةً (أي: بلداً صغيراً أَمْ كبيراً) من الأرض الّتي وعَدَهم أن يَفْتحها لهم من أرضِ الشّام، إذا صَلَحُوا واسْتَقَامُوا وَجَاهَدُوا في سبيل اللّٰهِ حَقَّ جهاده، وأَطَاعُوا أوامِرَ اللّٰهِ ونواهِيَه، والْتَزَمُوا الشريعَةَ الرَّبّانِيَّة، يطالبهم نبيُّهُمْ الّذِي يَسُوسُهُمْ ويَقُودُ جِهادهم بلاغاً عن الله، إذْ كانت تَسُوسُهم أنبياؤهم بما يلي:

(١) بأن يَدْخُلُوا باب القرية الّتي يَفْتَحها اللّٰهُ لهم مُسْتَغْفِرِين تائبين من ذُنُوبهم، وخاضِعِينَ لله، مُطَأْطِئي رؤوسهم، غَيْرَ مُسْتَكْبِرِين وَلاَ مُتَفَاخِرِين بِقُوَّتِهِمْ الذَّاتِيّة.

(٢) وبأن يَسْتَمِرُّوا بَعْدَ دُخولِ القريَة وسُكْنَاهَا خَاضِعِينَ لله جلّ جلاله، ومُطيعين لأوامرِهِ، ولنواهيه، من مستوى الخضوع الأقْصَىٰ، الّذي يُعَبَّرُ عنه في الحركة الجسَدِيّة بالسُّجُود، الذي هو وضْعُ الجبهَةِ على الأرض عبادةً للّٰهِ عزّ وجلّ، وذٰلِكَ لأنَّ اللّٰهَ تَبارَكَ وتعالَىٰ قد كان يُمدُّهُمْ بقوىً غيبيَّة، وأسْبَابٍ لاَ يملكُونها، حَتَّىٰ يُظْفِرَهم وينْصرَهُمْ عَلَىٰ أَهْلِ هٰذِهِ الْقُرَىٰ الأشدّاء، الّذين كانوا مُشْرِكين وثنيّين، كافِرين فاسِقين.

ويظهر أنّ هذا التكليف كان يقال لهم على لسان نبيهم عند حصار كلّ بَلَدٍ كانُوا يُدْعَوْن إلى فتحه جهاداً في سبيل الله.

وكان بنو إسْرائيل كلَّما فتح اللّٰهُ عليهم قَرْية من هٰذِهِ القرىٰ، ودخلوها لم يَلْتزِمُوا بما أَمَرَهُمْ الله به، ولم يَجْتَنِبُوا ما نهاهُمُ اللّٰهُ عنْهُ إلاَّ قليلاً منهم.

إذِ كان يظهر فيهم الغلُول في الغنائم المحرَّمَةِ عليهم، وكانوا يَدْخُلُونَ مستكْبِرين، غيْرَ مُسْتغفِرين، وظالمين غَيْرَ عادلِين، وكانوا يُحَرّقُونَ بعضَ القرىٰ ويَجْعَلُونَها تِلاَلاً بَعْدَ قَتْلِ كلّ حيٍّ فيها بشَراً وغير بشر.

وبَدَلَ أنْ يكونوا عابدين لله، ساجدين له، عاملين بشريعَتِه وأَحْكامِه، كان يظهر فيهم الفجور، وارْتكابُ المحرَّماتِ من الكبائر، وكان ذلك يَنْتشر فيهم انتشاراً مُسْتفحلاً.

وذَكَرَتْ كتُبُهُمْ أنّهم صاروا يَعْبُدونَ الأَوْثَانَ الَّتي كَانَ مشرِكُو الْبِلاَدِ يَعْبُدُونها.

وجاء في الإصحاح الثاني من سِفْرِ الْقُضَاةِ، أَنَّهُمْ عَبَدُوا من آلِهَةِ القوْم وأوثانهم «البَعْلِيم» وهو جمع «الْبَعْل» وهذا اللفظ اسمُ ساميّ معناه «الرّبّ ـ السَّيّد ـ الزوج» وعَبَدُوا وثَنَ «عَشْتَارُوت» وهي رَبَّةُ الأمومة، وهي تُعْبَدُ غالباً مع «الْبَعْل». والبَعْل إلهٌ كنعاني، وكان في خرافاتهم إلهَ الخِصْبِ في الحقول والحيوانات والمواشي.

والحادثة الّتي أشار إليها النّصّان من (الأعراف) و(البقرة) لَمْ أجِدْ ما يُسَاعِدُ عَلَىٰ تَعْيينها، ولم يَسْتَطِع المفسِّرُون من قبلي تَعْيِينها، واخْتَلَفُوا في المراد بالقرية الّتي ذَكرها الله عزّ وجلَّ بِقَوْلِه: ﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ في النَّصَّيْن.

- فذكر بعضُهُمْ اسْمَ مَدِينَةِ: «أَرِيحَا».
- وذكر بعضهم اسم مدينة: «أُورُشَلِيم = الْقُدْس» وقالوا: إنَّ الباب الّذي أُمِرَ بَنُوا إسرائيل أن يَدْخُلُوه، هو الباب المعروف فيها باسم «باب حِطَّة».

قال ابن كثير: الصَّحِيحُ أنَّها الْقُدْس.

- وقال بعْضُهم: الظّاهِرُ أنّها «حَبْرُون» أي: مدينة الخليل عليه السلام.
- وقيل: غَيْرُ ذَلِكَ.

أقول:

لَيسَ من المُهِمّ تَعْيينُ اسْم القرية، ما دام بنو إسرائيل دَخَلُوا بَعْدَ موسَىٰ عليه السّلامُ الأرضَ المقدّسَةَ، وفَتَحُوا فيها مُدُناً كثيرة، بقيادة النبيّ «يَشُوعَ بن نُون» الّذي كانَ فَتَىٰ مُوسَىٰ وخادِمَهُ في حياته، ثم جعله الله نبيًّا، واستثناه هو و«كَالِبُ بْنُ يَفُنَّة» من الحرمان من دخول الأرض المقدّسة، بَعْدَ أنْ قضىٰ اللَّهُ على بني إسرائيلَ أَنْ يَتِيهُوا في الصحراء أربعين سنة، حتَّىٰ يموتَ الَّذِين أَبَوْا أنْ يَدْخُلُوا الأرْض المقدّسَة مُقَاتِلين، من أبناء عشرين سَنَةً فصاعداً بقيادة موسَىٰ وهارون علَيْهما السّلام، وقالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (المائدة) باستثناء «يَشُوعَ بن نُونَ» و«كَالِبِ بْنِ يَفُنَّة» فإنّهما قالاَ لبني إسرائيل يَوْمئذٍ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (المائدة).

ثُمَّ فَتَحُوا مُدُناً كثيرةً في عَهْدِ النبيِّ «صَمُوئيل» ثُمَّ في عَهْدِ القضاة، وكانت هٰذِهِ الظَّاهرة المذكورة في نصَّي (الأعراف) و(البقرة) ظاهِرَةً مُتَكَرِّرَةً.

ولَعَلَّ في إغْفَالِ تعْيينِ الْقَرْيَةِ الْمُرَادَةِ في القصَّةِ غَرَضَ الإشعار بأنَّها ظاهِرَةٌ تكَرَّرَتْ في بني إسرائيل، حينما كان يُمِدُّهم اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ بِقُوىً غَيبيَّة، وأسْبابٍ لاَ يَمْلِكُونها، ويفتح اللَّهُ لهم الْقُرىٰ في الأرض المقدّسة.

وكان المطلوبُ منهم كلّما فتح الله لهم قريَةً من الْقُرَىٰ صغيرة أمْ كبيرة، أنْ يَدْخُلوا بابَها خاضِعِين لله، مُطَأْطِئِي رُؤُوسهم له، مستغفرين من ذُنوبهم، وأنْ يَسْتَمِرُّوا بَعْدَ دُخُولِها وسُكْنَاهَا قائِمينَ بواجِبِ السُّجُودِ للَّهِ وحْدَهُ، والعَمَلِ بشرائعه وأحكامه، لا يُشْرِكون بعبادته شيئاً، وكانُوا يُعْطُونَ الْعَهْدَ على ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْصُرَهم الله، ثمّ بَعدَ أنْ يحقّقَ لَهُمْ وَعْدَهُ ويَنْصُرَهُمْ، ويَفْتَحَ لهم الْقُرىٰ، ويُمَكِّنَهُمْ من أعدائهم يَنْقُضُونَ عَهْدَهم مع الله، فيبدّلُون، ويَعْمَلُونَ بقَوْلٍ آخرَ يَفْتَرُونه، غير الْقَولِ الذي قاله الله لهم، فيظْلِمُونَ ويَفْسُقُون.

فإذا تمادَوْا في معاصيهم ومخالفاتهم وانْحِرَافاتِهم، وأَهْمَلُوا الْعَمَلَ بآيات الله المنَزَّلاَتِ، أَرْسَلَ اللَّهُ عليهم عذاباً من السَّماء بَسَبَب مَا كَانُوا يَظْلِمُون فَاسِقين.

وهذه الحادثة الّتي ذكرها الله عزّ وجلَّ في نَصّي (الأعراف) و(البقرة) لا علاقة لها بالحادثة التي جاءت في النصّ الذي جاء في سورة (المائدة) الّذي يُبَيّنُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيه دَعْوة مُوسَىٰ عليه السّلام لبني إسرائيل، أَنْ يَدْخُلوا الأَرض المقدَّسة التي كتبها اللَّهُ لَهُمْ بشَرْط أن يَدْخُلوها مقاتلينَ مجاهدين في سبيله لنشر دين الله والدعوة إليه.

فقالوا له: إنَّ فيها قَوْماً جَبَّارِينَ وإنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حتَّىٰ يَخْرُجُوا منها، وقالُوا له: يَا مُوسَىٰ إنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً مَا دَامُوا فيها، فاذْهَبْ أَنْتَ وربُّكَ فقاتِلاَ إنَّا هَاهُنَا قاعِدُون.

ومنذ ذَلِكَ الحين حَرَّمَ الله على بني إسْرَائيل أن يَدْخُلُوا الأرض المقدسة أرْبَعِينَ سنة، وذلِكَ حتَّىٰ يَمُوتَ الرافِضُون، ويظهر فيهم جيلٌ جَدِيدٌ لم يُشَاركُوا في الرَّفْضِ.

وتُوفِّيِ هارون ومُوسَىٰ عليه السلام، ورافِضُو دخُولِ الأرض المقدّسةِ بالقتالِ من بني إسْرَائيل في التّية، دون أن يَدْخُلُوا الأرْضَ المقدَّسَةَ، ودُونَ أنْ يَفْتَحُوا شَيْئاً من قُراها الكبيرَةِ أو الصَّغِيرَة.

وظاهر في نَصّي (الأعراف) و(البقرة) أنَّهما يتحدَّثَان عن دُخُولِ القرية بفتح من الله جلّ جلاله.

واشتَبَهَ الأَمْرُ على بَعْضِ المفسّرين فَجَعَلُوا النصوص الثلاثة تتعلَّقُ بحادَثةٍ واحِدَة.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى في (الأعراف):

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

أي: وضع في ذاكرَتِكَ أيُّها المتلقّي هذا البيان من رَبّك للاعتبار والاتعاظ، قِصَّةً من قِصَصِ بني إسْرَائيل بَعْدَ مُوسَىٰ عليه السلام، إذْ بَدَأَ أَنبِيَاؤهـم يَسُوسُونَهـم، لدخول الأَرض المقدَّسَةِ وافتتاح قُرَاهَا الكبيرة والصغيرة، جهاداً في سبيل الله، لنَشْرِ دينهِ.

- ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾: أي: وحينَ قِيلَ لَهُمْ، والْقَائل هو نبيُّهُمْ الّذِي كَانَ يَسُوسُهم بلاغاً عن رَبّه، بدليل النَّصّ الذي جاء في سورة (البقرة) فَقَدْ جاء فيه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بضمير المتكلّم العظيم الرَّبّ جلّ جلاله.
- ﴿ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: أي: ادْخُلُوهَا مُقَاتِلِينَ في سبيل اللّهِ، واسْكُنُوها بدَلَ أَهْلِهَا الَّذِينَ سَنَنْصُرُكُمْ عَلَيْهم.

فُهِمَ الدُّخُولُ باللُّزومِ العقلي، لأنّ السُّكْنَىٰ لاَ تَحْصُل، إلاّ بَعْدَ الدُّخُولِ قِتالاً في سبيل الله، والانتصار على أهلها.

وجاء التصريح بالدُّخول دُون السُّكْنَىٰ في النّصّ الذي جاء في سورة (البقرة): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

وسَبق في التمهيد أنّي لم أَجِدْ دليلاً قويًا على تعيين اسم القرية الَّتي أُمِرُوا بدخولها: (أريحا ـ القدس ـ مدينة الخليل) أو غيْرها، والله أعلم.

ويَدُلُ اسْمُ الإشارة (هٰذِهِ) على أنّها كانت قَرِيبَةً من تجمُّعِ معظمهم.

- ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: هٰذه العبارة تَدُلُّ على أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ أَبَاحَ لَهُم مَعَ سُكْنَاها أَنْ يأكُلُوا من ثمارِ وأرزاقِ هٰذِهِ القريَةِ، في أيّ مَكَانٍ من أمْكِنَتِها شَاءُوا.

﴿حَيْثُ﴾: ظَرْفُ مَكَانٍ مَبْنِيٌّ عى الضّم، في مَحَلّ نَصْبٍ بالظرْفِيّة، وهو مضافٌ إلى جُمْلَةِ ﴿شِئْتُمْ﴾.

وجاء في نصّ (البقرة): ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: دَلَّتْ هذه العبارة على أن اللَّهَ أباح لهم أَنْ يأكُلوا من ثمارها وأرزاقها عقب دخولها فاتحين لها، من الأرزاق الموجُودَة فيها، وقَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرُّوا سَاكِنِينَ فيها، وأَنَّهُمْ سَيَجِدُون فيها رزقاً كثيراً واسَعاً وفيه رفاهية لهم، أخذاً من دلاَلَة كلمة ﴿رَغَدًا﴾ المذكورة في نصّ (البقرة).

- ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾: أي: وأَدُّوا هٰذَيْنِ الواجِبَيْن:

الأول: أَنْ تقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾: هذه كلمة كلّفُوا أَنْ يقولوها، أو يَقُولوا ما يُمَاثِلُها في لُغَتِهم، ومعناها الإصلاحي عندهم: اللَّهُمَّ ضَعْ عنّا أَوْزَارَنَا وَذُنوبنا ولا تُحَاسِبْنَا عليها.

وفي قولهم هذا اعترافٌ مِنْهم بذنُوبهم، عند نَصْرِ اللَّهِ لهم على عَدُوّهم. وثناءٌ على الله عزّ وجَلَّ بِأنَّهُ قد تفضَّل عليهم بالنّصر، وهم يستحقون العقاب على ذنوبهم.

الثاني: أن تدخُلوا بَابَ القريَةِ سُجّداً، وهذا الواجب يتضَمَّنُ تكليفَهُمْ أَنْ يكونُوا خاضِعِينَ لله في قُلوبهم خضوعاً تامًّا، عابدين له، لاَ يُشْركُون بعِبَادَتِه شيئاً، وأنْ يكونُوا عنْدَ دُخُولهم مُعْلِنين بحَرَكَةِ أجْسَامِهم خُضُوعَهُمْ للَّهِ بطَأْطَأَةِ الرَّأْسِ وإحْنَاءِ الظهر، فهذا نوعٌ من السُّجُود لُغَةً، كما فَعَلَ الرسُولُ محمّد ﷺ عند فتح مكّة، وأنْ يكونوا دواماً بَعْدَ دُخُولهم وسُكْنَاهُمُ الْقَرْيَةَ سَاجِدِينَ في عبادتِهم لِلَّهِ عزّ وجلَّ وَحْدَه، فلا يَسْجُدُوا لشُرَكَاءَ من دونِه.

﴿سُجَّدًا﴾: جمْعُ «سَاجد» والكلمة منصوبَةٌ على أنَّها حالٌ، وهي هنا بعد الدُّخول والاسْتِقْرار حالٌ مُقَدَّرَة كما يَقُولُ النحاة.

والسُّجُودُ عَنوانٌ لكَمال الطاعَةِ والخضُوع للَّهِ، والعمل بشرائعه وأحكامه، ورَمْزُه الجسَدِيُّ يكُونُ بطَأْطَأَةِ الرأسِ، وإحْنَاءِ الظهر، وأَقْصَاهُ الْجَسَدِيّ يكون بِوَضْعِ الجبْهَةِ على الأرض.

وجاء في نصّ (البقرة): ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾: وسبَقَ بيان الحكمة من هذا التنويع، وهو عدم الإلزام بالترتيب، ولا بالمقارنة، وإنّما المطلُوب تحقِيقُهما بأيِّ وجه ممكن.

- ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾ أي: نَسْتُرْلَكُمْ ذنوبكم ومَعَاصِيَكُمْ، فلا نَكْشِفُهَا لِمُحَاسَبَتِكُمْ عَلَيْها.

يقال لغة: غَفَرَ الشيءَ، يَغْفِرُهُ غَفْراً وغُفْراناً، أي: سَتَرَه. ومَعْلُومٌ أنَّ السَّتْرَ في وقْتِ الحساب يَقْتِضي عَدم المحاسبَة.

﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمۡۚ﴾: الْخَطِيئات جمع «الخطيئة» وتُطْلَقُ على الذنْبِ صغيراً

كانَ أمْ كبيراً. وتُطْلقُ أيضاً على الفعل المخالف للصواب بدون قصد. والمعنَى الأول هو المراد هُنَا.

وقد سبَق بيان القراءات وتوجيهها في نَصَّي (الأعراف) و(البقرة).

وفي هٰذه العبارة وعْدٌ من اللّهِ عزَّ وجلَّ لهم بأَنْ يَغْفِرَ لهم خَطِيئاتِهِمْ وخَطَاياهُمْ، إِذَا دَخَلُوا الْبَابَ سُجّداً، وقَالُوا: «حِطَّة».

● ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في (الأعراف) ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في (البقرة) يفارق إضافَة حَرْفِ العطف (الواو) لبيان أنّ الْفَصْل والوصْلَ في مِثْل هٰذِهِ الْجُمَل مُتَكافِئَانِ بَلاَغيًا.

فَالْفَصْلُ على تَقْدِير سؤالٍ مطويّ: إذَا كان حالُ الْخَطَّائين أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ، فَكَيْفَ يكونُ حَالُ كاملي التقوى، فالأَبْرارِ، فالمحسنينَ الذين هم في أعْلَىٰ المراتب؟

والجواب: سَنَزِيدُ المحسنين، أي: والأبرارَ، وكَامِلي التَّقْوى، لأنّ هؤلاء أكملُ حالاً من الذين لهم خطِيئَاتٌ أو خطَايا، أجراً عظيماً.

وهذا الفصل يُحسّنُه مراعاة أحوال الفطناء.

والوَصْلُ يُحسّنُهُ تَوَافُقُ الجمَلَتَيْن، في كونِهما خَبَراً وَوَعْداً كَريماً من الله جلَّ جَلاَله. ويُحَسّنُهُ أيضاً مُراعاةُ حَالِ مَنْ لم يَنْقَدِحْ في ذهْنِه السؤال الذي سَبَق بيانه.

الْمُحْسِنُونَ: هم الّذين اسْتَوْفَوْا حُقُوقَ مَرْتَبَةِ المتّقين، وزَادُوا أعمالاً صالِحَةً مِنْ أعْمَال مَرْتَبَةِ الأَبْرَار، دون أن تكون واجبَةً عليهم، وراقَبُوا اللَّهَ في أعمالهم، فاحْسَنُوهَا، وجَوَّدُوها، فَكَانُوا محسنين بها، يَعْبُدُون الله كأَنَّهُمْ يَرَوْنه.

دَلَّ قول الله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عن طَرِيق الّلزوم الذهْنِي

على أنَّ اللَّهَ سَيَزِيدُ من فَضْلِه كامِلِي التَّقْوى، وسيزيد الأبرار، كما يَزِيد المحسنين، ولكِنَّ الزّيادة الّتي يَمْنَحُها اللَّهُ لَمَنْ هم أَحْسَنُ حَالاً من ذوي الخطيئات تأتي بحَسَبِ ارتقائهم في درجات مراتبهم فحكمة الله تقتضي ذَلك كما اقتضت زيادَة العطاء للمحسنين من فضله.

قول الله تعالى في سورَةِ (الأعراف):

● ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

وقولُ اللَّهِ تعالَىٰ في سورة (البقرة):

● ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

سَبق بيان التكامل في هٰذين النصّيْن.

لقَدْ كانَ في بني إسرائيلَ ظالمونَ كَثِيرُونَ بَدَّلُوا الْقَوْل الذي قيل لَهُم، فَحَرَّفُوا في النُّصُوص، وعَمِلُوا على خِلَافِ شريعَةِ اللَّهِ لهم، وعَصَوْا أوامر الله ونواهِيَه، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ عزَّ وجل بعذاب أنْزَلَهُ عليهم مُرْسلاً، بسَبَبِ ما كانُوا يَظْلِمُون فاسقين خارجين عن طاعة الله.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾: هٰذِهِ العبارة تدلّ على أنّ فريقاً مِنهُمْ عَصَوُا اللَّهَ في أوامِره ونَواهيه، وحَرَّفُوا في دين اللَّهِ، ووصفَ الله المبدِّلين بأنّهُمْ قَدْ ظَلَمُوا، أي: تجاوزوا حُدُود الله. إنَّ تبديل قَوْلِ الله التكليفي يكونُ بوجْهَين:

الوجْهُ الأول: هو التحريف في القول، أو وضع قولٍ آخر بَدَلَه، كما فَعَلَ الإسْرائيليُّون في كُتبهم المنزّلة، وفي أقوال أنبيائهم ورُسُلِهم، فكتَبُوا أقوالاً من عند أنفسهم على خلاف ما أنزل الله، ونَسَبُوها إلى الله، وكتبوا

أقوالاً من عند أنْفُسِهِمْ ونَسَبُوهَا إلى أنبِيائهم ورُسُلهم على خِلَاف ما قال لهم أنبياؤهم ورُسُلهم.

الوجه الثاني: هو الْعَمَلُ بِخِلَافِ أقوالِ اللَّهِ وأقوال أنبيائه ورُسُله التكليفيّة.

وقد دَلَّ على أنَّ العملَ بِخَلَافِ القَوْلِ التكليفي هو من التبديل له، قولُ الله عزّ وجلّ بشأن المخلّفين من الأعراب عن الرسول ﷺ والمؤمنين معه، لأداء العمرة، وهي العمرة التي صدّ مشركو قريش الرَّسُولَ ومَنْ مَعَهُ عن أدائها، في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول).

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾:

فأبانَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُه في هٰذِهِ الآيَةِ، أنَّ مُخالَفَة قَوْلِ اللَّهِ التكليفي هُو مِنْ تَبْديلِ كَلَام اللَّهِ، إذْ نَهَىٰ اللَّهُ رَسُولَهُ عَنْ أن يأذَنَ لهؤلاءِ المخلَّفِين بأنْ يَخْرُجوا مَعَهُ إلى فَتْحٍ قَريبٍ، يُحقِّقُ اللَّهُ فيه للمؤمِنِينَ مَغَانِم كثيرة، وحين لم يأذَنْ لَهُمْ الرسُولُ تَنفيذاً لقول الله بأنْ يخْرُجوا معه، كان هؤلاء المخلَّفونَ يُرِيدُون الخروجَ معه بدافِعِ الطَّمَع، ولو كان في هذا الخروج مُخالَفَةٌ لِقَوْل اللَّهِ التكليفي.

وقد كان كثيرٌ من بني إسرائيل في أيَّام صحَّةِ رِسالَة رُسُلِهم، وقيادة أنبيائهم لهم يُبَدِّلُون كلام اللَّهِ بالمعاصِي والمخالَفَات، ويُطَبِّقُون بأعمالهم وتَصرُّفَاتِهم قَوْلاً مخالفاً للقول الذي قِيل لهم في كتاب ربّهم، أو على أَلْسِنَةِ رُسُلِهم وأَنبِيائهم، عُصاةَ ظالِمِينَ فاسِقِين، بَعْدَ أنْ يَفْتَحَ لَهُمُ القرية الَّتي وَعَدَهم أن يفتَحَها لَهم، وينْصُرَهم بجهادهم في سبيله على أهلها الكافرين المشركين، أهل الفِسْق والفُجُورِ والأوثان.

وقَدْ تَكَرَّر هذا مِنهم فيما قَامُوا به من فَتْحِ الْقُرىٰ في الأرضِ المقَدَّسَة، من بلاد الشّام، بَعْدَ مُوسَىٰ عليه السلام، بقيادة نبيّهم «يَشُوع» ثُم بقيادة «صَمُويل» ثم في عَهْدِ القضاة، ثمَّ فيما بَعْدَ ذلِكَ.

وكان من معاصي بني إسرائيل الّتي بَدَّلَ الَّذِين ظَلَمُوا مِنهم بِها قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قيلَ لهم ما يلي:

(١) الغُلولُ في الغنائم، وهو محرَّمٌ عليهم.

(٢) هَدْمُ بَعْضِ القرىٰ الّتي يَفْتَحُها الله لهم، وإحراقُها، وتَرْكُهَا تَلاًّ خَراباً مُتهدّماً، وقد أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوها، ويَسْكُنُوها، بَعْدَ أَنْ يَنصُرَهُمُ اللَّهُ على أَهْلِها.

(٣) أَنَّهُمْ كانُوا يَفْسُقُونَ، ويفْجُرُونَ، ويُخَالِفُونَ تَعْلِيمَاتِ شَريعة اللَّهِ لهم.

(٤) وزَادَ بَعْضُهُم في تَجاوزهم لحُدودِ اللَّه، أَنَّهم اتَّخَذُوا لأنفُسِهِمْ أوثاناً مِنْ أَوْثَانِ المشركين الَّذِينَ انْتَصَرُوا عليهم، فعَبَدُوهَا من دون الله.

(٥) وكان كثيرٌ مِنْهُمْ إذَا دَخَلُوا القريَة الَّتي وَعَدَهُمُ اللَّهُ بأنْ يَنصُرَهُمْ على أهلها، بأسْبَابٍ من لَدُنْهُ، يَدْخُلُونها مُسْتَكْبِرِينَ، مُتَعَاظِمين بقُوَّتهم مُتَفاخِرين، ولاَ يَدْخُلُونَها كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ سَاجِدِين، أي: مُطَأْطِئي رُؤُوسهم مُتَواضِعِين لرَبّهم، خاضِعين له بقُلُوبهم، شُكراً له على ما تفضَّلَ به عليهم من النّصْر والفتح المبين، وكانوا يتحايلون فيتقاصرون فيَزْحَفُون على أستاههم لئلا يُحْنوا ظهورهم خضوعاً لله ويُوهمون الصالحين منهم بالطاعة.

وكانوا لا يَسْتَغْفِرُون كما أَمَرَهُمُ اللَّهُ بأنْ يقولوا: حِطَّة، عناداً وكِبْراً، وسُوءَ طَوِيَّة.

وكانُوا بَدَلَ أنْ يَقولُوا: «حِطَّةٌ» باعتبار هذا اللفظ شعيرة من شعائر

دخولهم الْقَرية فاتحين، يقولُون: «حَبَّةٌ في شَعْرَة» أو «حِنْطَةٌ في شَعِيرَة» سُخْرِيَّةً من الأمْرِ الموجَّه لهم، وعَدَم إيمانٍ بفائدَته، ويوهمونَ الصالحين منهم بأنهم مطيعون.

روى البخاري ومسلم وغيرهُما، من حديث أبي هُرَيْرَة عن النبي ﷺ قال: «قِيلَ لِبَني إسْرَائيلَ: ادْخُلُوا الباب سُجّداً، وقولُوا: حِطَّة، فبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُون على أسْتَاهِهِمْ، وقالُوا: حَبَّةٌ في شَعْرَة».

وفي رواية أخرجها ابن جرير وابْنُ المنذر عن ابن عباسٍ، وعن أبي هريرة، أنَّهُمْ قالُوا: «حِنْطَةٌ في شَعِيرَة».

ولعلَ بعضهم كانوا يقولون هذا من العصاة، وبعضهم كانوا يقولُونَ الآخر.

وكانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ يُعَاقب بني إسرائيل لكَثْرَةِ الظّالِمينَ منهم، بعذَابٍ من السَّمَاءِ (أي: من جوّ الأرْضِ فَوْقَهم) يُنزِلُهُ عَلَيْهِمْ مُرسلاً.

- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف].
- ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة].

سبقَ بيان التكامُلِ في هٰذَيْنِ النَّصَّيْن.

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: هذا الْفِعْل يَدُلُّ على أنَّ الْمُرْسَلَ مَبْعُوثٌ لأداءِ وَظيفَةٍ مُهمَّة، وهي هُنَا تَعْذِيبُ الظالِمينَ، وتَعْذِيب من سَكَتُوا على ظلمهم، فلَمْ يَرْدَعُوهم ولم يأخُذُوا على أيديهم.

﴿فَأَنزَلْنَا﴾: هٰذا الْفِعْلُ يَدُلُّ على أنَّ أوامِرَ الإرسَالِ أوامِرُ عُلْوِيَّةٌ رَبَّانِيَّة، إذْ كُلُّ تَصَارِيف المقادير الرَّبَّانِيَّةِ من الْخَيْرِ والشّرّ فيها معْنَى الإنْزالِ

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جلّ جلالُه، ولَوْ كَانَتِ الأَسْبَابُ أَسْباباً أرْضِيَّةً، لِأَنَّ المتصرِّف بكوْنِه هُوَ في مقَام الْعُلُوِّ دَواماً.

عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الّتي في نَصّ (الْبَقَرَة) تُشْعِرُ بسَبَبِ إنْزَالِ الْعَذاب عليهم، فبيان الوصْفِ لدَىٰ إصْدَارِ الحكْمِ، أوْ لَدَىٰ بَيَانِ تحْقِيقِ الجزاء، يُشْعِرُ بأنَّ هٰذا الوَصْفَ هُوَ السَّبَبُ المقْتَضِي لذلك.

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: عَذَباً نَازِلاً عليهم من فَوْقهم، ومَعْلُومٌ أنَّ جَوَّ الْأَرْض هو سَمَاءٌ بالنسْبَةِ إليهم، فكلُّ ما هو في جهة العلُوِّ يُسَمَّى في اللُّغَةِ سماءً.

أَخْرَجِ ابْنُ جَرِيرٍ، وابْنُ أَبِي حَاتِم عن ابْنِ عَبَّاسٍ قال:

«كُلُّ شَيْءٍ في كِتَابِ اللَّهِ من الرِّجْزِ يَعْنِي به الْعَذَابَ».

أي: الوسيلة الّتي يكونُ بها حصُولُ العذاب للمعذَّبين.

وأخرج مُسْلِمٌ وغَيْرُهُ من حَدِيث أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وسَعْدِ بن مالك، وخُزَيْمة بْنِ ثابت قالُوا: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ هٰذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وَبَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَإِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا، وإِذَا بَلَغَكُمْ أَنَّهُ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا».

﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ في (الْأَعْرَاف) و﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ في (البقرة): أي: بسبب ما كانُوا يتَجَاوَزُونَ حُدُود اللَّهِ فَاسِقين عَنْ طَاعَتِهِ، مُعَرِّضِينِ أنفسهم للفساد والإفساد وعقابِ اللَّهِ لهم.

وقد سَبق في نَظَرات التكامل بين نَصَّي (الأعراف) و(البقرة) بيان الفِسْقِ بما يكفي.

أمّا الظُّلْم في اللُّغَة: فَهُوَ تَجَاوُزُ الحدِّ، ووضْع الشيءِ في غَيْرِ مَوْضِعه.

* * *

عبادة بعضِ بني إسْرائيل الأوثَانَ أَخذاً مِنْ كُتُبِهم.

جاء في الإصحاح الثاني من سِفرِ الْقُضاة ما يلي:

«١١ وَفعلَ بَنُو إسْرائيلَ الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبّ وعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ ١٢ وتَرَكُوا الرَّبَّ إلهَ آبَائِهِمُ الَّذي أَخرَجَهُمْ مِنْ مِصر وسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذين حَوْلهم وسَجَدُوا لَهَا وَأَغَاظُوا الرَّبَّ ١٣ تَرَكُوا الرَّبَّ وَعبَدُوا الْبَعْلَ وَعَشْتَارُوتَ⁽¹⁾ ١٤ فَحمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ علَىٰ إسْرَائيل فَدَفَعَهُمْ بِأَيْدِي نَاهبيهم وبَاعَهُمْ بِيَدِ أعْدَائِهِمْ حَوْلَهُمْ وَلَمْ يَقْدِرُوا بَعْدُ على الوقُوفِ أمَامَ أعدائهم ١٥ حينما خَرَجُوا كانَتْ يَدُ الرَّبّ عَلَيْهِمْ للشَّرّ. كَمَا تَكَلَّمَ مُوسَىٰ وَكَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ لهم. فَضَاقَ بِهِمُ الأَمْرُ جِدًّا».

الفقرة العاشرة

المعتدون في السبت من بني إسرائيل

الآيات من (١٦٣ ـ ١٦٦) وهي آياتٌ مدنيّة التنزيل مضمومة بالوحي إلى موضعها من سورة (الأعراف) المكيّة لمراعاة اقتضاءين: المناسبة الفكرية، والحكمة التنزيليّة في العهد المدني حيث ظهر الاحتكاك مع اليهود.

قال الله عزّ وجل:

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ (١٦٣) وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

---

(١) سبق قريباً تفسير وثني «البعل» و«عَشْتَاروت» انظر الصفحة (٦٥٥).

بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

القراءات:

(١٦٣) ● قرأ ابْنُ كَثِير، والكِسَائي، وَخَلَف: [وَسَلْهُمْ].

وقرأ باقي القراء الْعَشَرَة: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾.

والقراءتان وجهان عربيان لنُطق فعل الأمر من فعل «سَأَل».

(١٦٣) ● قرأ يعقوب: [تَأْتِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير في الموضعين.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ بِكَسْرِ هَاءِ الضمير في الموضعين. وهما وجهان عَرَبيّان لنطق هاء الضمير التي يأتي بعدها ميم الجمع.

(١٦٤) ● قرأ حفصٌ: ﴿مَعْذِرَةً﴾ بالنَّصب، أي: لأجل المعذِرة، مفعول لأجله.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مَعْذِرَةٌ] بالرَّفع، أي: موعِظَتُنا لهم مَعْذِرَة، فالكلمة خبرٌ لمبتدأ مَحْذوف.

والقراءتان وجْهانِ عَرَبيّانِ صحيحان، والمؤدّىٰ واحد.

(١٦٥) ● قرأ نَافِعٌ، وأبو جَعْفَر: [بِيسٍ] بياء سَاكِنَة مدِّية.

وقرأ ابْنُ عامرٍ: [بِئْسٍ] بِهَمْزَةٍ سَاكِنَة.

وقرأ شعبة في أَحَدِ وَجْهَيْن له: [بَيْئَسٍ] بياء ساكنةٍ بعدها همزة مفتوحة.

وقرأ باقي القرّاءِ العَشَرَةِ: [بَئِيسٍ] بهَمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ بَعْدَها ياء مدِّيَّة.

والمعنى في هٰذه القراءات ذاتِ الوجوه في نطق الكلمة أنّ العذاب الّذِي أنزلَهُ اللّٰهُ بِهِمْ عذابٌ شَدِيدُ الْبُؤْسِ والضُّرّ.

وقد ذكَّر الله بني إسرائيلَ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بالحدَث الّذي تضمَّنه هٰذَا النَّصّ، فقال عزَّ وجلّ فيها:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

وَخَاطَبهم في سورة (النّساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بقوله عزّ وجلّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

وأبانَ لهم في سورة (النساء) أيضاً، أنّه نَهاهُمْ عن أنْ يَعْتَدُوا في السَّبْت بالْعَمَل فيه، وأخَذَ منهم مِيثاقاً غَلِيظاً، فَنَقَضُوا مِيثاقَهُمْ، واسْتَحقُّوا عقابَ الله، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

تمهيد:

لقدْ حَرّمَ الله عزّ وجلّ على بني إسرائيلَ أعْمَالَ الكَسْبِ يَوْمَ السبت، وشدّد عليهم التحريم، وأخَذَ مِنهُمْ ميثاقاً غَلِيظاً أنْ لا يَعْمَلُوا فِيهِ عملاً ما من أعمال دُنياهم.

وذُكِرَ أنَّ سبَبَ هٰذَا التَّشْدِيد، أنَّ بَنِي إسْرَائل اخْتَارُوهُ بدَلَ الجمعة. الّذِي أنْهَىٰ اللَّهُ فيه خَلْقَ السَّمَاوات والأرض. فقالوا: نَأْخُذُ يَوْمَ السَّبْت، لأنّهُ اليوم الذي ارْتَاحَ اللَّهُ فيه من عمليات الخلْقِ بزَعْمِهم، وهذا افتراءٌ مِنْهم على اللّهِ جلَّ جلاَله، لأنّه لا يُكلّفه الخلْقُ أكْثَرَ مِنْ أمْرِ التكوين، فلا يمَسُّهُ تَعَبٌ ولا لُغوب.

فَشَدَّدَ اللَّهُ عليهم فيه، فكلّفَهُمْ أنْ يَجْعَلُوه يوماً لاَ يقومون فيه بأيّ

عمَلٍ من أعمال الدُّنيا، وإلاَّ عَاقَبَهُمْ عقاباً شديداً، وثَبَتَ عليهم هٰذَا التكليف.

ولمّا بَعَثَ اللَّهُ محمَّد بْنَ عبد الله بالرسَالَة الخاتمة، شاءَ أن يجْعَلَ يومَ الجمعةَ يوماً خاصًّا لاجتماع المسلِمينَ في صلاةٍ جامعةٍ، وقَصَرَ تحرِيمَ الْعَملِ في هذا اليوم على ممارسَاتِ البيعِ والشّراءِ ونَحْوِهما في الوقت الّذِي يجِبُ فيه السَّعْيُ لحضورِ صلاة الجُمعةِ وخُطْبَتَيْها، فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ جَازَ للمسلمين أن يَنْتَشِرُوا في الأرض، ويَبْتَغُوا من فَضْلِ اللَّه أرْزَاقَهُمْ وَمَكَاسِبَهُمْ.

لكِنَّ بَنِي إسْرائيلَ اقْتَرَحُوا على رَبّهم يوْمَ السَّبْت، فَشَدَّدَ الله عليهم، وأخذ عليهم بالْتزام عدَم العمل فيه ميثاقاً غليظاً، بدليل قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) الآنف الذكر:

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

وجاءت الإشارة إلى هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وفَسَّر مجاهد اختلافَهُم فِيهِ بِأَنَّهُمُ اتَّبعُوهُ، وتَرَكُوا يَوْمَ الْجُمَعة، أي: اقترحُوهُ علَىٰ رَبّهم بدَلَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُمْ، ولَكِنْ شَدَّدَ عَلَيْهِمُ التكليف فيه، فألْزَمَهُمْ وأوْجَبَ عليهم أنْ لا يَعْمَلُوا فِيه أيَّ عَمَلٍ من أعْمَالِ الدنيا، فإذَا عَمِلوا فيه وعَصَوْا رَبّهم عاقَبَهُم الله عقاباً شَدِيداً، ما دامَتْ شريعةُ موسَىٰ مَعْمولاً بِهَا لَمْ تُنْسَخْ أو يُنْسَخْ مِنْهَا أحْكَامٌ تكليفِيَّةٌ في شَرِيعَةٍ لاَحقة.

ومعلومٌ أنَّ عيسَى عليه السَّلاَمُ جاء بِشَرِيعَةٍ أحَلَّ اللَّهُ فيها بَعْضَ مَا كان مُحرّماً على الْيَهُود.

أمّا محمّد بن عبد الله فقد بَعَثَهُ الله بالشريعة الباقِيةِ أحكامُهَا حتى آخر ممتَحَنٍ مُكلَّفٍ في الحياة الدنيا، والناسِخَةِ لكلّ الأحْكام الَّتي كانَتْ لَهَا صِفَةُ الأحكام العِلاَجيَّةِ المؤقّتة.

وفي هذه الآية من سورة (النحل) أبَان الله عزّ وجلّ أنّه ما جعَلَ السَّبْتَ وأحكامه الشديدة، إلاّ على بني إسرائيل الّذين اخْتَلَفُوا على ربّهم فيه، فاقترحُوهُ عليه بدَلَ يَوْمِ الجمعة.

ومثْلُ هٰذه المقترحاتِ على الله هي من قبيلِ التدخُّلِ في خصائص ربوبيَّةِ الرَّبّ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه، الَّذِي لَهُ الخلْقُ، ولَهُ الأمْرُ، وله الحكم، ولَه التشريع، تبارك الله رَبُّ العالمين.

فجعل الله السبْتَ خاصًّا ببَنِي إسْرَائِيل، المكلّفين أن يَعْمَلُوا بِشَرِيعة موسَىٰ، وجَعَلَ أحْكامَهُ وعُقوباتِ مخالفَتها مُشَدَّدةً عُقُوبةً لهم، وقد لَصِقَتْ بهم حتى جاءَ نَسْخُهَا في رِسالَةٍ رَبَّانيَّةٍ لاَحقة.

روى البخاري عن أبي هريرة أنّ رسُولَ الله ﷺ قال:

«نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القيامة، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتاب مِنْ قَبْلِنا. ثُمَّ هٰذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ (يَعْني يَوْمَ الجمعة) فَاخْتَلَفُوا فيه، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غداً، والنَّصارَىٰ بَعْدَ غَدٍ».

ورَوَىٰ مُسْلمٌ عَنْ أبي هريرة، وعَنْ حُذَيفَةَ بْنِ اليمان رضي الله عنهما قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ. وَكَانَ للنَّصارَىٰ يَوْمُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ والسَّبْتَ والأَحَدَ، وَكَذٰلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القيامة، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، والأَوَّلُونَ يَوْمَ القيامة، والْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلاَئِقِ».

قصَّة الَّذِينَ اعْتَدَوْا في السَّبْتِ من بني إسرائيل:

إنَّ القصّةَ الَّتِي أشارَتْ إِلَيْهَا النّصوص القرآنيّة الَّتي سَبَق ذِكْرُها، من قِصَص بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ كانَتْ مَعْرُوفَةً مَشْهُورَةً بَيْنَهُمْ، إلاَّ أَنّنِي لم أَعْثَرْ عليها في أَسْفَارِهِمُ المدَوَّنَةِ، الَّتي دَوَّنُوا فيها تَاريخهم، وجَعَلُوها كُتباً مُقَدَّسَة، وأَعْلَنُوهَا.

لَكِنّي وجَدْتُ ما يُشِيرُ إليها في سِفْر «نَحْمَيَا» في الإِصْحَاحِ الثالث عشر منه، فقد جاء فيه قَوْلُ «نَحْمَيَا».

«١٥ في تِلْكَ الْأَيَّامِ رَأَيْتُ في يَهُوذَا قَوْماً يَدُوسُونَ مَعَاصِرَ في السَّبْتِ. وَيَأْتُونَ بِحُزَمٍ. ويُحَمِّلُونَ حَمِيراً. وأيْضاً يَدْخُلُونَ أُورُشَلِيم (أي: الْقُدْسِ) في يَوْمِ السَّبْتِ بِخَمْرٍ وعِنَبٍ وَتِينٍ وَكُلِّ مَا يُحْمَلُ. فَأَشْهَدْتُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَيْعِهِمُ الطَّعَامَ ١٦ والصُّورِيُّونَ السَّاكِنُونَ بِهَا كَانُوا يَأْتُونَ بِسَمَكٍ وَكُلِّ بِضَاعَةٍ ويَبِيعُونَ فِي السَّبْتِ لِبَنِي يَهُوذَا. وَفِي أُورُشَلِيم ١٧ فَخَاصَمْتُ عُظَمَاءَ يَهُوذَا وَقُلْتُ لَهُمْ: مَا هذَا الْأَمْرُ الْقَبِيحُ الَّذِي تَعْمَلُونَهُ وَتُدَنِّسُونَ يَوْمَ السَّبْت؟! ١٨ أَلَمْ يَفْعَلْ آبَاؤُكُمْ هَكَذَا فَجلَبَ إِلهُنَا كُلَّ هٰذَا الشَّرِّ وعَلَىٰ هٰذِهِ المدينَةِ؟! وأَنْتُمْ تَزِيدُونَ غَضَباً عَلَىٰ إِسْرَائيل إذْ تُدَنِّسُونَ السَّبْتَ؟!»

هٰذَا يَدُلُّ على أنّ قِصَّة عُدْوانِ آبائِهِمْ علَىٰ حُرْمَةِ يَوْمِ السَّبْتِ، الَّذِي هُوَ سَبْتٌ عليهم، وانْتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ قصَّةٌ مَعْرُوفَةٌ لَدَيْهِم، فَقَدْ مَسَخَ اللَّهُ الَّذِينَ عَتَوْا وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِنَهْيِ واعِظِيهم، مُسْتَهِينينَ مُسْتَكْبِرِينَ مُتَمَادِينَ في غَيِّهِم، عَلَىٰ أشْكَالِ الْقِرَدة.

خلاصة القصة كما ذكَرها أئمَّةُ تفسير القرآن:

وخلاصَةُ القصَّة أخذاً مما ذَكَرَهُ أئمة تفسير القرآن المجيد، هي أنَّ سُكَّانَ قَرْيَةٍ من الْقُرىٰ الَّتي تَقَعُ علَىٰ سَاحِلِ البحر، قيل: هي «أَيْلَة» أي: «الْعَقَبة» اليوم. وقيل: «طَبَرِيَّة» أو قرية أُخْرَىٰ كانت علَى خَلِيج العقبة من

الْبَحْرِ الأحمر، وكان سُكَّانُهَا الإِسْرَائِيلِيُّون صَيَّادِي سَمَكٍ، وكانُوا كَثِيري ظُلْمٍ وَفِسْقٍ.

فشاء الله بإرادته الحكيمة أن يَخْتَبِرهم، هَلْ يَلْتَزِمُونَ بِحُرْمَةِ يَوْم السبت، الّذي يَحْرُمُ عليهم فيه أنْ يقومُوا بعمَلٍ ما مِنْ أعمال الدُّنيا، ومنها صَيْدُ السَّمَك أوْ بَيْعُه، أمْ هم يَعْصُونَ، ويَعْتَدُونَ، ويَتمرَّدُون، ولاَ يَسْتَجيبون لموعظة واعظٍ منهم؟؟

فجعل الله عزّ وجلّ حيتانَ الْبَحْرِ تَأْتي إلى قُرْب ساحِلِهم ظاهرةً وافرةً يَوْمَ السّبت، بخِلَافِ الأيّام الأخرىٰ، إذْ جعَلَها بِحِكْمتِه تَنْصَرِفُ إلى عُمْقِ الْبَحْرِ بعيداً عن ساحلهم.

فَصَعُبَ عليهم الالْتِزَامُ بحُرْمَةِ الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْت. إذْ وَجَدُوا الصَّيْدَ فِيه عَمَلاً مُرْبحاً، يُعْطِيهم صيْداً وَفيراً، فعَصَىٰ الكثيرون منهم، فَصَارُوا يَصْطَادُونَ الأَسْمَاكَ يَوْمَ السَّبْت.

فأسْرَع أهْلُ الطَّاعَةِ مِنْهُم فَنَهَوْهُمْ، فَلَمْ يَسْتجيبوا، فَشَدَّدُوا عَلَيْهِمُ النَّكِيرَ، فَتَمَادَوْا فِي غَيِّهِمْ، وَعَتَوْا وَظَلَمُوا وَفَسَقُوا.

فَكَفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ وَعْظِهِمْ فَرِيقٌ، إذْ يَئِسُوا من اسْتِجَابَتِهِمْ. وتابع فَرِيقٌ آخَرَ مَوْعِظَتَهُمْ، إذْ ما زالَ لدَيْهِم رَجاءٌ ما بأَنْ يَسْتَجِيبوا لهم.

وجرىٰ حِوارٌ بَيْنَ الفريقَيْن مِنْ أهْل الطّاعَة:

فقال الّذين كَفُّوا عَنْ مُتَابَعَةِ وَعَظِ المعتدين، وأمْرِهم بالْمَعْرُوف ونَهْيِهِمْ عن المنكر، للفريق الآخر الّذينَ مَا زَالُوا يُتَابِعُونَ إنْكَارَ المنكر والتحذيرَ من عقاب الله: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً لَمْ يَسْتجيبوا لَكُمْ وَقَدْ وَصَلُوا إلى حالة مَيْؤُوسٍ منها، ولم يَبْقَ إلاّ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللَّهُ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ عَذاباً شَدِيداً.

فأَجَابَ الْفَرِيق المتابع: نُرِيد أن نُقَدِّم عُذْرَنَا إلى رَبِّنَا، بأَنَّنا لَمْ نُقَصِّرْ

بما يجبُ علَيْنا من الأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر والموعِظَةِ الحسنة. ولا يَزَال يُوجَدُ لدينا رجَاءٌ ما بأنْ يَسْتَجِيب بعضهم.

فلمَّا عَتَا العصاةُ مَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً، وأنزل بهم عذاباً أليماً شديداً مُوجعاً مُهِيناً.

وأنْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ كانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ مَنْ كَفَّ مِنْهُمْ، ومَنْ تَابع واعظاً، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وناصحاً.

التدبر التحليلي:

تمهيد:

هذا النصُّ مَدَنيُّ التنزيل، وقد نزل الوحيُ بضمه إلى سورة (الأعراف) الَّتي هي من أواسِطِ التنزيل المكيّ.

والحكمة من هذا الإجراء مراعاة اقتضاءَيْن:

الاقتضاء الأول: أنّ سورة (الأعراف) المكيَّة تَشْتَمِلُ على أحداثٍ كثيرةٍ من أَحْدَاثِ بني إسرائيل، فالمناسبة الفكريَّةُ تَسْتَدْعِي ضَمَّهُ إليها.

الاقتضاء الثَّاني: أنَّ المرحلَةَ المكيّة من تاريخ دعوةِ الرسُول محمّد ﷺ لم يكن فيها بين الرَّسُول وبين اليهود احتكاكٌ ما، لأنّ اليهود عند نُزُوحهم من بلاد الشام إلى داخل الجزيرة العربيَّة اختاروا أن يسْتَوْطِنُوا «يَثْرِب» لأنّ صفاتها مطابقة لصفات البلد الذي سيظهر فيه النبيّ الأمّيُّ المبشَّرُ بِهِ في كُتُبِهم، وكانُوا يُحِبُّونَ أَنْ يكُونَ مِنْ بني إسرائيل.

وقد صُدِّرَ النّصّ بقول الله عزّ وجلّ لرسُوله: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ والمرادُ سُؤَالُ اليهود، وقَدْ كانَتْ للْيَهُودِ قبائِلُ ثلاثٌ في «يَثْرِبَ» ذات النخيل، وقدْ سمَّاها الرَّسُول ﷺ المدينَةَ بَعْدَ هجرته إليها، ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ في مكَّةَ إقَامَةٌ ولا احتكاكٌ بالرَّسُول ولاَ بَدَعْوَته.

فكان من الحكمة تأخِيرُ إنزَال النّصّ إلى العهد المدني من تاريخ دعوة الرّسول.

يُضَافُ إلى هٰذَا أنّ القصّة التي اشتمل عليها هذا النّصّ، ممّا وَارَاهُ الْيَهُودُ عَنِ الأنظار، ولم يُدَوّنُوهُ في كُتُبِهِم المعلَنَة، لأنّها تشتملُ على مَسْخِ الْعُتاة المعتدين منهم في السبت قِرَدَةً، وهُمْ من آبائِهم الّذينَ يفْتخِرُون بهم، ويعتَبِرُونهم من أبناء اللّهِ وأحبائه.

وكان تصدير النّصّ بالأَمْرِ بُسؤالهم مقْصُوداً، إذ الْقَصْدُ إعلامُهم بأَنّ القرآنَ تَنْزِيلٌ من لَدُنْ عليمٍ حكيمٍ خَبِيرٍ، فَهٰذِهِ القِصّةُ لا يَعْرِفُها غَيْرُ عُلَماءِ بني إسرائيل، وقد يكون عِلْمُهُمْ بِها معتمداً على الرّواياتِ الشفهيّة فقط، وإذا كانت مُدوّنَةً فَهِي في كُتُبٍ يُخْفُونها ولا يُعْلِنُونَها، فلا يُمْكن الاطلاعُ عليها في مَكْتُوبَاتهم المعلَنَة.

ولا ضَيْرَ أنْ لا يعْتَرِفُوا بوجُودها في تاريخهم عند سُؤالهم، إذْ يكْفِي أنْ يُقيمَ اللّهُ جلّ جلالُهُ عليهم الحجّةَ بأنّ هذا القرآن تَنْزِيلٌ من لَدُنه، إذْ هم يَعْرِفُونَها ويكتُمُونها، والله يُحاسبُهم على مَا في قُلوبهم.

قولُ الله تعالى:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ . . . ﴿١٦٣﴾﴾: هذا الخطاب مُوجّهٌ أوّلاً للرّسُول محمّد ﷺ، فلِكُلّ مَنْ يَهْتَمّ بِدَعْوَةِ اليهود إلى دين الله الخاتم.

القرية: تُطْلَقُ على كلّ مجمّع سَكَنِي ذي أَبْنِية ثابتة، سواءٌ أكَانَ صغيراً أم كبيراً، ولو بلغ مَدِينَةً عظمَىٰ. وقد تُطْلَقُ على قُرىً متقاربَةٍ تمثّلُ في مجْمُوعِها وحْدَةً إدَارِيَّة كُقُرىٰ قَوْم لوط، وقرىٰ قوم شعيب عليهما السلام.

● ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾: يدلُّ هذا الوصفُ لهذه القرية على أنّها عند تنزيل القرآن قد اختلَفَ وَضْعُهَا عَمّا كانَتْ عليه اختلاف خرابٍ أو غيره، كانْحِسَارِ ماء الْبَحْر عنها.

قيل: هي «أيْلَة» أي: العقبة. وقيل: «طبرية». وقيل غير ذلك، واللَّهُ أعلم، وتَحْدِيدُها لا يَزِيدُ في العِبْرَةِ المقصُودَةِ شيئاً.

والمراد بكونها حاضَرةَ الْبَحر، كونُها قريبةً مِنْه، وقد تكون متَصلةً بساحله، فحاضِرُو المياه في اللّغة هم الكائِنُونَ قريباً منها، أو المشْرفُون عَلَيْها، أو المتصلون بها.

ويُراد بالسؤال عن القرية السؤال عن أهْلِها، وعن قصّتهم الّتي جَرَتْ لهم، إذْ كانُوا يَسْكُنُونها، فأحْدثوا فيها أحْدَاثاً انْتَهَتْ بمَسْخِ عُصَاتهم العتاةِ على أشكال القُرودِ.

إطلاق لفظ «القرية» وإرادةُ أهْلها مجازٌ مَشهورٌ، وهو نوعٌ من أنواع المجاز المرسل، وهو هنا من إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه، أو هو من قبيل حَذْفِ المضاف وإقامَةِ المضافِ إليه مقامه.

- ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾:

﴿إِذْ﴾ ظَرفِيّة بمَعْنَىٰ «الْحِين».

﴿يَعْدُونَ﴾: أي: يَظْلِمُون، يُقالُ لغة: عَدَا يَعْدُو عَدْواً وَعُدُوّاً، أي: ظلَم.

وقد كان معظم أهل هٰذِهِ القرية يَعْدُون في السّبت، أي: يَظْلِمُونَ أنْفُسَهُم بمعصِيَةِ الله في انْتِهَاكِ حُرْمَةِ يَوْم السّبت، الّذي حَرَّمَ الله عليهم فِيه الأعْمَالَ الدُّنيويّة، وهُوَ من الإصْرِ الّذِي حَمَله الله عليهم بسَبَت ظُلْمِهم وعنادِهم وقَسْوَتِهم.

﴿فِي ٱلسَّبْتِ﴾: أي: في الْيَوْم المعْرُوف من الأسْبوع، بَعْدَ الجُمَعَةِ وقَبْل الأحد.

فالمعنى: واسْأَلْهُمْ عن خبر أهل الْقَرْيَة الّتي كانَتْ قائمةً بقُرْب الْبَحْر،

حينَ كانُوا يَعْدون ظالمين أنفسهم بمعصِيَةِ اللّٰهِ في الْعَمل والصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْت، وكانُوا يُمَارِسُونَ هٰذِهِ المعصيةَ دواماً، بدَليلِ استعمال الفعل المضارع: ﴿يَعْدُونَ﴾.

فكلمةُ ﴿إِذْ﴾ ظرف للمسؤول عنه، والمسؤولُ عنهُ هُوَ خَبَرُهُمْ: وقصّتُهُمْ، وَمَا جَرَىٰ مِنهُمْ وعليهم. وهذه مُقَدَّراتٌ ذهْناً بين ﴿عَنِ﴾ وبين ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾.

قول الله تعالى:

● ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ... ﴿١٦٣﴾

أي: حين كانت تأتيهم حيتَانُ بَحرهم الذّي تَقعُ قَرْيَتُهُمْ قَرِيباً مِنْه، يَوْمَ دُخُولِهِم في زَمَن السَّبتِ ظاهرةً وافرةً.

يقال لغة: سَبَتَ يَسْبِتُ وَيَسْبُتُ، وأَسْبَتَ، أي: دَخَلَ في زَمَنِ يوم السبت، كما يُقال: أضحَىٰ، أي: دَخلَ في زَمَنِ الضُّحَى. وامْسَىٰ، أي: دخَلَ في زَمَنِ المساء.

﴿شُرَّعًا﴾: أي: مُقْبِلَةً نَحوَ ساحِلِهم تَدْخُلُ ماءَهُمْ، قَادِمَةً مِنْ غَمْرِ الْبَحْرِ إلى جانِبِهِ الضَّحْل. واللفظ منصوب على أنّه حال.

يُقَالُ لُغَةَ: حِيتانٌ شُرَّعٌ، أي: شَارِعَاتٌ مِنْ غَمْرَةِ الماءِ إلَىٰ الْجُدِّ. وجُدُّ كُلّ شيءٍ جانِبه.

ويقال: دوابُّ شُرَّعٌ، إذا دخَلَتِ الماء.

والمرادَ دُخُولُ الحيتان إلى الماء القريب من ساحِلِ قَرْيَتِهم.

الْحُوت: السَّمَكَةُ صَغِيرة كانت أَمْ كبيرة، ويجمع لفظ «حُوتٍ» على «حِيتان» و«أحوات».

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾: أي: وَيَوْمَ لاَ يَكُونُونَ داخلين في زَمَنِ السَّبْت من أيّام الأسْبوع. أُطلق لفظ «يَوم» وأُريدَ بِهِ معنى «حين» أي: وحين يكونون في يومٍ آخَرَ غير يَوْم السّبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ إلى قرب شاطِئِهم حيتَانُ بَحْرِهم.

وإضافَة الحيتان إليهم في عبارة: ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ هي على تقدير: حيتانُ بَحْرِ قَرْيتهم، أو حِيتَانُ ابتلائهم وامْتِحانهم، فالإضافة تكْفِي فيها أَدْنَىٰ عَلاقَةٍ تَصِلُ الْمَضَاف بالْمُضَافِ إليه.

قولُ الله تعالى:

- ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾:

أي: كَذَلِكَ الامْتِحَانِ الشّدِيدِ الَّذي امْتَحنَّاهُمْ بِهِ، إذْ حَرَّمْنا عَلَيْهم الْعَمَلَ من أَعْمَال الدُّنيا يَوْمَ السَّبْتِ، ومنْهُ صَيْدُ الحيتان، قَدْ جَعَلْنا الحيتانَ تَأْتِي إِلَىٰ قُرْبِ سَاحِلِهم مِنْ غَمْرِ الْبَحْر يَوْمَ السَّبْت، وتَبْقَىٰ في غَمْرِ الْبَحْرِ بَعِيداً عَنْهُمْ سائِر الأيَّام، ونَحْنُ نُشَدِّدُ عَلَيْهِمُ الامْتِحانَ دَواماً بسَبَبِ ما كانُوا يَفْسُقُونَ دواماً، فَيَخْرُجُونَ عَن حَدَائِقِ الطاعَةِ إلى أَوْحال المعصية، وبَعْد الامْتحَانِ الشَّدِيد على نُفُوسِهِمْ، يَعْدُون ويَتمرَّدُون حتَّىٰ يَصِلُوا إلى دَرَكَةِ الْعُتُوّ، وهو الطغيان باستكبارٍ وعِنَادٍ، وعِنْدئذٍ يَسْتَحقُّون الْعِقَابَ الشّدِيدَ الذي يناسِبُ عُتُوَّهُمْ وطغيانهم، واسْتكبارَهُمْ وعنادهم، وإصرارهم على معصية بارئهم.

وهذه الشِّدَّةُ في الامْتِحان قد كانت خاصَّةً بِبَنِي إِسْرَائيلَ، لتعاظُم شُرُورِهم، وتَمَرُّدِهم على أَنْبيائِهم، وعلى بارِئِهِمْ جلَّ جَلاَلُهُ وعظُمَ سلطانه.

الْبَلَاء والابْتِلَاءِ في اللّغة: الامْتِحانُ لكشفِ حالِ الممتَحَنِين.

قول الله تعالى:

● ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ظرفُ زمانٍ معطوفٌ على مِثْلِه في الآية السَّابقة.

﴿أُمَّةٌ﴾: لفظ «أُمّة» يُطْلقُ على مجموعةٍ من النّاس تَجْمَعُها وحْدَةٌ جامعة. وكانَ إبراهيم عليه السّلامُ في بداية أَمْرِهِ في قومه أُمَّةً وحْدَه.

﴿تَعِظُونَ﴾: أي: تنصَحُونَ نُصْحاً مَقْرُوناً بِمَا يُثِير الرغبة والرَّهْبَةَ في النفس، للانتفاع بالنُّصح، واتّباعِ ما هَدَىٰ إِلَيْهِ من فعل أو ترك.

قال ابنُ سِيدَة: **الوعْظُ**: هو تَذْكِيرُكَ للإنسانِ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ من ثوابٍ وعقابٍ.

﴿قَوْمًا﴾: الْقَوْمُ: جَماعَةٌ من النَّاسِ تَجْمَعُهم جامعةٌ ما يَقُومُون بها.

﴿مُهْلِكُهُمْ﴾: أي: مِنْزِلٌ بهم عذاباً يُميتُهم ويَسْتَأْصِلُهُمْ به.

﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: أي: عقوبةً لهم دون إماتَةٍ واسْتئصالٍ.

﴿مَعْذِرَةً﴾: أي: لأجل أن نَرْفَعَ اللَّوْمَ عَنْ أنفُسِنا عنْدَ رَبِّنا، بأننا لم نُقَصِّرْ بواجب النصح والوعظ والنَّهي عن المنكر.

يقال لغة: عَذَرَ فُلانٌ فُلاناً فيما صَنَع، ممّا كان ينبغي أن لا يَفْعَلَه، أو أن لا يَتْرُكه: عُذْراً، ومَعْذِرَةً، أي: رفع عَنْه اللَّوْم فِيه، إذْ رَأى له حُجَّةً مقْبُولةً.

هذه الآية دَلَّتْ بصريح العبارة، وبَدَلالاتها اللُّزوميَّةِ الذِّهنيَّةِ، على أن أهل هذه القريَةِ المتحدَّثِ عَنها في النصّ، قد كان فيهم عُصَاةٌ متمرّدُونَ يَعْدُونَ في السَّبْتِ ظالمين متجاوزين حُدُودَ الله بُجرْأَةٍ ووقاحَة. وكانَ فيهم صالحون، يَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ، ويَعِظُونَ الْعُصَاة.

واستَمَرَّ النَّاصِحُونَ النّاهون عَنِ المنكرِ يُوَجّهون مواعِظَهُمْ لِلْعُصَاة

مُدَّةً من الزَّمَن، دون أن يَجِدُوا لمواعظِهم أثراً في العصاة الفاسقين، الأمر الّذي جعل فريقاً من هؤلاء الواعظين الناهين عن المنكر، يَشْعُرُونَ باليأسِ من استجابَةِ الْعُصَاةِ المتمرّدين، والإقلاع عن مَعَاصِيهم المتواطئين عليها، حتَّىٰ أيْقَنُوا بأنّ اللّهَ عزَّ وجلّ سَيُهْلِكُهُمْ بعذابِ يُمِيتُهُمْ فيه ويَسْتَأْصِلُهم، أو يُعَذّبُهم عذاباً شديداً دُونَ أنْ يُميتَهم ويَسْتَأْصِلَهُم، فَكَفُّوا عَنهُم واعْتَزَلُوهم.

لكنَّ الفريق الآخر من هؤلاء الواعظين الناهين عن المنكر، لَمْ يكُفُّوا عَنْ مُتَابعة ما هم فيه من نَهْي عن المنكر مَقْرُونٍ بالترهيب مِنْ عذاب الله ونِقْمَته.

لقد اجْتَهد الفريق الأول، فرأَوْا أَنَّ الْعُصَاة قَدْ وَصَلُوا إلَىٰ حالَةٍ مَيْؤُوسٍ منها، فلا جَدْوَىٰ من مُتَابعة مَوْعِظَتِهم.

واجْتَهَدَ الفريق الآخر، فرأَوْا أَنّهم ما زال لدَيْهم بَقِيَّةُ رَجَاءٍ في أنْ يَسْتَجِيبَ ولَوْ بَعْضُ الْعُصَاةِ لمواعظهم، ورأوا أنّهم لَمْ يَسْتَنْفِذُوا كُلَّ وَسَائِلِهم الإصلاحية بَعْدُ، فإذا تَوَقَّفُوا عَنْ مُتَابَعَةِ النَّهْي عن المنكر المقرونِ بالموعظة الحسنة، مع وُجود بقِيَّةِ وسائلَ لَمْ يَسْتَخْدِمُوها بَعْدُ، فقَدْ يكونُونَ مَسْؤُولين عنْد اللّهِ عن التّقْصير في اسْتِخدامها، ولا سِيما لَمْ يَنْقِطعْ كُلُّ رَجَائِهم.

وجَرَىٰ حِوارٌ بين الفريقين:

قال الفريق الأوّل الذي يَئِسَ فَانْقَطَع، للْفَرِيق الآخرِ الْمُتَابع: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً وَصَلُوا إلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهَا، والعقوبَةُ المتوقَّعَةُ بالنِّسْبَةِ إلَيْهم، أَنْ يُهلكَهُمْ اللّهُ فَيُميتَهم بعذاب، أو أن يُعَذِّبَهُمْ عَذاباً شديداً دُون إماتَةٍ واستئصال؟!

قال الفريق الآخر: نَحْنُ لاَ نَرَىٰ رَأْيَكُمْ، بل ما زالَتْ لدَيْنا وسائل لم

نَسْتَخْدِمْهَا بَعْدُ، ويجبُ علينا أَنْ نَسْتَخْدِمَهَا حَتَّىٰ نُقَدِّمَ عُذْرَنَا إلى رَبّنا، فيَرْفَعَ الملامَ عَنَّا، وما زَالَ لَدَينا بَعْضُ رَجَاءٍ باستجابة بَعْضِهم، وَإِنَّنا لَمْ نَصِلْ إلى مَرْحلة اليأسِ الكامل.

دلَّ على الشّق الأول من الجواب، عبارة: ﴿قَالُوا۟ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾: أي: نُتابع تَقْدِيم ما نُقَدّم من وسائل إصلاح ونَهْي عن المنكر وترهيب من عذاب اللَّهِ ونقمته، لأجْلِ رَفْعِ اللَّوْم عن أنْفسنا عند اللَّهِ، بأننا لَمْ نَألُ جَهْداً في مَوْعَظَتِهم، ونَهْيِهِمْ عن المنكر الذي يَعْصُونَ اللَّهَ به دواماً.

ودلَّ على الشّق الآخَرِ من الجواب، عبارة: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾: فهذه العبارة تُشْعِرُ بأنَّهم يَرَوْن أنّ الرَّجاء لَمْ يَنْقَطِعْ بَعْدُ، بَلْ ما زال بَعْضُ رَجاء باستجَابَةِ بَعْضِهم، وأنّ العصاةَ لم يَصِلُوا من وِجْهَةِ نَظَرِهِمْ إلى مَرْحَلَةِ اليأسِ الكامل، على خلاف ما يَرَىٰ الفريق الأول.

فكَلِمَةُ «لَعَلَّ» تُسْتَعْمَلُ في الأمْرِ المرجُوِّ، ولو بوَجْهِ ما، وبِنِسبَةٍ ضئيلة.

لكِنَّ رَأيَ الفَرِيق الأوَّلِ هو الّذِي أيّدَه الواقع.

* * *

قولُ الله تعالى:

- ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾: أي: فلمَّا تَرَكَ الْعُصاةُ الْعَمَل بمَا ذُكِّرُوا بهِ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ كَانُوا يَعِظُونَهُم، وأعْرَضُوا عَنْ التّذكير، غَيْرَ مُكْتَرِثين لَه، وَلاَ عَابئين به، حتَّىٰ لم يَبْقَ لمّا ذُكِّرُوا به وُجُودٌ في ذَاكِراتهم العامِلَات في سَاحَةِ تَصَوُّراتِهم الموجِّهاتِ لسلوكهم.

عندئذٍ كان من الحكمة أن نُجْرِيَ فيهم سُنَّة العِقاب الّتي أَجْرَيْنَاهَا في الأُمَم مِنْ قبلهم، وأَنْ نُنْجِيَ أَهْلَ الطّاعَةِ مِنْهم، الّذِين كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ، ولا يَرْضَوْنَ بارْتِكاب المعاصي.

وتنفيذاً لهذه السنة الّتي اقتضتها الحكمة السَّنِية:

- ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾:

أي: أَنْجَيْنا مِنَ العقابِ الَّذِينَ كَانوا يَنْهَوْنَ المعْتِدَين في السَّبْتِ عن السُّوءِ الّذي كانُوا يفْعَلُونه، ويَلْزَم ذِهْناً أَنَّ هؤلاء الواعظين كانُوا لا يَفْعَلُونَ مَا كانُوا يَنْهَونَ عنه، لأَنَّ معصيةَ الظالمين كانت من المعاصي الظاهرة، وهي صَيْدُهُمُ الحيتانَ يوم السَّبْت.

والّذِين كانُوا يَنْهَوْنَ عن السُّوءِ وأَنْجَاهُمُ الله عزّ وجلّ هُمُ الْفَرِيقان:

- الّذِين اجتهدوا فرأَوْا أن القوم ميئوس من استجابتهم عن طريق إراداتهم الحرَّةِ.
- والذين اجتَهدُوا فرأوا أَنّ القوم لم يَصِلُوا إلىٰ مَرْحَلَةٍ ميئوسٍ منها.

وفي الوقت الّذي أنْجَيْنا فيه الّذين كانُوا يَنْهنوْن عن السُّوء، أَخَذْنَا الّذينَ ظَلَمُوا بِعذَابِ بَئِيسٍ بسبب ما كانُوا يَفْسُقون.

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾:

أَخْذُهم بالعذاب، يُرادُ به القبضُ عليهم بالأسباب والوسائل الّتِي تُنْزِلُ بهم العذاب، وتجعلهم يشعُرُونَ بألآم عقاب اللَّهِ لهم، على تماديهم في ظلمهم، والمرادُ بالّذينَ ظَلَمُوا الّذِين كانُوا يَعْدُونَ في السَّبْت.

ولَمْ يُرَدْ هُنا إهلاكُهُمْ، إذْ جَاء في البيان بَعْدَ هذا أَنَّهم بعْدَ أَخْذِهم بعذابٍ بَئِيسٍ عَتَوْا عَمَّا نُهوا عَنْهُ، فالمرادُ أَنّ الله أنزل بهم البأساء والضَّرَّاء

لعَلَّهم يتَضَرَّعُونَ ويَتُوبُون، إجراءً لسُنَّتِهِ الّتي أبانها في الآية (٩٨) من هٰذه السورة.

﴿بَئِيسٍ ﴾: أي: شديد، يقال لغة: بَؤُسَ يَبْؤُسُ بَأساً، وبَأْسَةً، وبَآسَة، أي: قَوِيَ واشْتَدَّ، فهو «بَئِيسٌ» أي: قويٌ شديد.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾: أي: بسَبَبِ مُواظبَتِهم المتكرّرة عَلَىٰ فِسْقهم. دَلّ الفعل المضارع على أنّ الفسْق كان ديْدَنهم وعادةً من عاداتهم المتكرّرة فيهم.

الفِسْقُ: العَصْيَانُ والخروج عن طاعة الله عزّ وجل، بفعل ما نهى عنه، أو بتَرْكِ ما أمَرَ به.

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾:

﴿فَلَمَّا ﴾ «الفاء» لبيان ترتُّب العقاب على العتوّ. «لَمَّا» حينِيَّةٌ تختصُّ بالماضي.

﴿وَعَتَوْا ﴾: أي: تجاوَزُوا حُدُود المعاصي الّتي يَتَّسِعُ لها الإمْهَال، وتتَّسِعُ لها ظِلاَلُ الغفران والعفو.

الْعُتُوّ: تجاوُز الحدّ والاستكبار والتجبُّر. **والعاتي**: هُوَ الجبّارُ، والشديدُ الدُّخول في الفساد، والمتمرِّدُ الذي لا يَقْبَلُ موعِظَةً ولا نَصيحةً.

- ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾: فعلُ «عَتَىٰ» لا يتَعدَّىٰ، فاقتضىٰ المعنى تضمينَه معنى فعل آخر. والملائم أنْ نُقَدّر معنى فعل: «اسْتَنْكف» فتكونُ العبارة على تقدير:

فلَمَّا عَتَوْا مُسْتَنْكفين عن طاعة الله بتَرْكِ ما نُهوا عَنْهُ، من الْعُدْوَان عَلَىٰ

حُرْمَةِ يوم السبت، الذي فَرَضَ اللَّهُ عليهم فيه تَرْكَ الأعمال الدنيويَّة، واسْتَمرُّوا مُتَمَادِين في معصيةِ بَارِئِهم.

● ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾: أي: قُلْنا لَهُمْ بأمْرٍ تَكْوِيني: كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فكَانُوا كَذَلِكَ بهذا الأمْرِ التكوينيِّ الرَّبَّاني، لأنّ أوامِرَ التّكْوينِ الّتِي يأمُرُ اللَّهُ بها نَافِذَةٌ لا محالةَ عَقِب الأمْر. كما قال تَعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: أي: أَذِلاَّءَ مَطْرُودين مُبْعَدِين. **الخاسِئ:** هو الذَّلِيلُ المطرودُ المبْعَدُ.

فمسخ اللَّهُ صُورَ أجسادهم فجَعَلَهَا على صُور أجْسَادِ الْقُرودِ، وجَعَلهُمْ خَاسِئين، أَذّلاء مطْرُودين مُبْعَدِين.

وخاطب الله عزّ وجلّ بني إسرائيل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧) بقوله لهم:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: فجعلْنا العُقوبة الّتي أنْزلْناها بهذه الأمّةِ عُقوبةً رَادِعَةً لأُمَمٍ مُعَاصِرَة تَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهَا في قراها، حتَّى لا تتمادىٰ مِثْلَها في غَيّها وعِصْيَانها، وللأُمَم الّتي سَتَأْتي مُسْتقبلاً من أُمم بني إسرائيل.

النَّكال: العقاب الشّدِيد الرادع لِلْوَاقِعِينَ في العصيان، أوْ تَدْفَعهُم نُفُوسهم بقوّةٍ للعصيانِ.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: مَا بَيْنَ يَدَي الناس يُطْلَقُ على الماضي الغابر، وعلى الحاضر المعاصر، لأنه هو الذي يمكن أَنْ يَشْهَدُوه.

﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: أي: وما سيأتي مستقبلاً، فالمستَقْبَل بالنسبةِ إلى الناس هُو خلْفَهُمْ، لأنَّهم لاَ يَشْهَدُونه، فهو كالشيء الواقع خلْفَهم.

﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي: ودافعاً للالتزام بالتقوى والمحافظة عليها، بالنسبَةِ إلى الذين يتَّقُونَ عقاب الله في سلوكهم، ويرجون ثوابه.

وخاطب الله عزّ وجلّ أيضاً بني إسرائيل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بقوله جلّ جلاله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

فأنذرهم الله بطَمْسِ وُجوههم ومَحْوِ حَوَاسِّهِم فيها، وبرَدِّها على أدْبارهم، أو بلَعْنِهم كما لَعَنَ أصحاب السبت الذين مسخهم قِرَدَةً، وجعَلَهُمْ خاسِئين.

* * *

الفقرة الحادية عشرة

إعلامُ اللَّهِ بني إسرائيل بأنه سيَبْعَثُ عليهم إلى يَوْمِ الْقِيامة من يَسُومُهُم سُوءَ العذاب مع بيان تقطيعهم في الأرض أُمَما وَبَيان واقع حالهم الديني

وهي الآيات من (١٦٧ ـ ١٧٠) وهذه الآيات مدنية التنزيل مضمومة بالوحي إلى موضعها من سورة (الأعراف) المكية لمراعاة اقتضاءين: المناسبة الفكرية، والحكمة التنزيليّة في العهد المدنيّ حيث ظهر الاحتكاك مع اليهود.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ

مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ
لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

القراءات:

(١٦٩) ● قرأ رُويسٌ: [وَإِنْ يَأْتِهُمْ] بضَمّ هاء الضمير.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ﴾ بكَسْرِ هاء الضمير. والقراءتان وجهان عربيّان في النّطق.

(١٦٩) ● قرأ نافع، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بياء الغائبين. وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني، خطاباً لبني إسرائيل، وحديثاً عنهم.

(١٧٠) ● قرأ شُعْبَة: [يُمْسِكُونَ] مِنْ فعل: «أَمْسك يُمْسِكُ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ من فعل: «مَسَّكَ يُمَسِّكُ» المضعف.

يُقال لغة: مَسَكَ بالشيءِ، وأمْسَكَ، ومَسَّكَ. أي: أخذ به، وتعلّق واعْتَصم.

فالقراءتان متكافئتان لغة. وقد يكون في فعل «مَسَّكَ» المضعَّف معنى شِدَّة التعلّق والاعتصام، فيكون بين القراءة تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ بَعْضُ المصْلِحين يُمْسِكُونَ بالكتاب إمْساكاً عادِيًا دُونَ شِدّة، وبعضهم يُمَسِّكُ بِهِ بشِدَّةٍ وَقُوَّة.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

تمهيد:

هٰذه الآية من التنزيل المدنيّ، ضُمَّتْ إلى سورة (الأعراف) المكيّة لمراعاة اقتضاءَيْن: المناسبة الفكريَّة الّتي استدعَتْ ضمَّهُ إلى سورة (الأعراف). والحكمة في تأخير التنزيل إلى العهد المدني، حيث ظهر فيه احتكاك اليهود بالرَّسُولِ محمد ﷺ والمؤمنين.

وقد عَلِم الله عزّ وجلّ أنَّ بني إسرائيل سَيَسْتَمِرُّون فاسِدِين مُفْسِدين في الأرض، بَعْدَ أنْ فَضَّلَهُمْ على العالَمِين في عهد موسَىٰ عليه السَّلام، وربّما بَعْدَهُ في بعض عُهُودِ تاريخهم القديم، فأفسَدُوا في الأَرض، وفَسَقُوا فعاقَبَهُم الله عزّ وجل عقُوبَاتِ تأديبٍ وتَرْبية، إِذْ أخَذَهُمْ بالبأسَاء والضرَّاء، لعلّهم يتضرَّعُون إلى بارئهم، ولعلّهم يُقْلِعُونَ عن غَيِّهِمْ وَإِفْسَادِهِم في الأرض، فلم يَرْتَدِعُوا، فزادهم من العقوبات، ومَسَخَ بعْضَ عُتاتهم، فجَعَلَهُمْ عَلَىٰ أشْكالِ الْقُرودِ، فَلَمْ تَتعِظْ سُلالاتُهم، وكانوا يَنْتَحِلُون لكلّ عُقُوبَةٍ تفسيراتٍ جانبِيَّةً، لا تتَّصِلُ بحقيقَةِ ما هم فيه من ظُلْم وعَتُوّ وإفْسادٍ في الأرض، واستكْبَارٍ واسْتِعْلاءٍ عَلَىٰ سائر عبادِ الله، بأَنَّهُمْ سُلالَةُ الأنبياء، وأبناءُ اللَّهِ وأحبَّاؤه، فمزَّقَ اللَّهُ دَوْلَتَهُمْ الّتي لم تَدُم في مقاييسِ تاريخ الدُّوَلِ إلاَّ قَليلاً، فزادُوا فِسْقاً وفجوراً، واتَّخذَ كثيرٌ مِنهُمُ الأوْثان، فَعَبَدُوها من دون الله، تأثُراً بالشُّعُوب والأقوام الوثنيَّة الّتي كانت مَعَهُمْ، أَوْ مُجاوِرَةً لهم، وبَدَلَ أن يكُونوا حُمَاةً لِدِين اللَّهِ الحقّ، صاروا دُعاةَ سِحْرٍ وكُفْرٍ بالله، واستِخْدَامٍ للشياطين من الجنّ.

فَسَلَّطَ اللَّهُ عليهم من الأُمَمِ الْقَوِيَّةِ حَوْلَهُمْ من أَكْثَرُوا فيهم الْقَتْلَ والسَّبْيَ والإذْلاَلَ، وَسَاقُوهم عبيداً. فَلَمْ يَرْجِعُوا إلى صراطِ الله المستقيم، إلاَّ أَفراداً قليلين مِنهم، لا يُمثِّلُونَ قوَّةً راعيَةً ضَابطة لهُمْ عن الانحراف، وصارَ دَيْدَنُهم التعصُّب لما أَدْخَلُوهُ في دين اللَّهِ من تَحْرِيفاتٍ وضَلاَلاَتٍ بحَسَبِ أهوائهم، وصار دأْبُهم أن يقْتُلوا مَنْ يُخَالِفُهُمْ في ذَلِكَ مِنهم، ولَوْ كَانَ من أَنْبِيائِهِمْ، فقَتَلُوا عَدداً من النبيِّينَ منهم، واسْتَصْدَرُوا لِأَنْفُسِهم في ذلك فتاوىٰ زَعَمُوا أَنَّها فتاوَىٰ دينيَّة، وهٰذه الفتاوىٰ تَسْمَحُ لَهُمْ بأنْ يقْتُلُوا النبيَّ بَعْدَ إنْكارِهِمْ نُبُوَّته، قائلِين: لأَنْ يَمُوتَ رَجُلٌ واحِدٌ، خَيْرٌ من أَنْ يَتَعَرَّضَ شَعْبُ بَنِي إسرائيلَ كُلُّهُ لتغيير مفْهُومَاتِه المَوْرُوثَة، وهِي في الحقِيقَةِ التَّحْرِيفَاتُ الَّتي اسْتَحْدَثُوها في دِينِ الله.

لذلك كُلِّه قَضَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ بحكْمَتِه السَّنِيَّة، أَنْ يَبْعَثَ عليهم إلَىٰ يَوْم القيامة من يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب، وأَعْلَمَهُمْ بقضائه هذا، وأكَّدَهُ فيما أَوْحَىٰ به إلى طائفة من أنبيائه ورُسُله.

وهدَّدَ بقضائه هذا بَنِي إسْرَائيل بأنَّهُ سَيُنْزِلُ بِهِمْ هذا القضاء كلَّما أكْثَرُوا في الأرض الفساد.

التدبّر:

● ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: هٰذهِ العبارة معطوفة على ما جاء قبلها في السُّورة، وهو قولُ الله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ . . .﴾: أي: واسْأَلْهُمْ عَنْ قَضَاءِ اللَّهِ بشَأْنِهِمْ إذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ. . . إلى آخر البيان.

أو هي مُسْتَأْنفة، والمعنى: وَضَعْ في ذاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي أيّا كُنْتَ إذْ تَأَذَّنَ رَبك. . . إلى آخر البيان.

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: أيْ: أَعْلَمَ مُؤَكِّداً، وَنَادَىٰ مُهدِّداً فيما أَوْحَىٰ لبَعْضِ أنبياء بَنِي إسْرَائيل، وَأَقْسَمَ في إعْلامه.

يقال لغة: تأذَّنَ فُلاَنٌ: أي: أعْلَم وأقسم، ونَادَى في الناس بتهديدٍ وَوَعِيدٍ، مُنْذِراً بشَرٍّ.

- ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ...﴾: اللاّمُ واقعةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ، أي: وإِذْ أعْلَمَ رَبُّكَ مُؤكِّداً مُقسِماً، لَيَبْعَثَنَّ علىٰ أَجْيَالِ بَنِي إسرائيل.

- ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ...﴾: أي: إلى يَوْم إنْهَاءِ رِحْلَةِ امْتِحَانِ النَّاسِ في الحياة الدنيا ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾: أي: مَنْ يُجَشِّمُهُمْ، ويُحَمِّلُهم، ويُكَلِّفُهُمْ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

يقال لغة: سامَهُ الأمْرَ، أي: كلَّفَهُ إيّاه، وأَوْلاَهُ إيَّاهُ، أَوْ حَمَّلَهُ إيَّاه. **والسَّوْمُ**: يأتي في اللُّغة بمعنى أنْ تُجَشِّمَ إنساناً مشقَّةً، أَوْ سُوءاً، أو ظُلْماً، أي: أن تُحَمِّلَهُ ذَلِكَ وهو عاجِزٌ عن المخالفة.

وسُوءُ العَذَاب: هو أَشَدّ العذاب وأكثرُهُ مَشَقَّةً، وهو من إضافة الصفة إلى الموصُوف، وأصْلُ الكلام: العذاب السُّوء.

السُّوء: كلُّ ما يقبُح ويَغُمُّ الإنسان، وهو اسْمٌ جامعٌ لمختلفِ الآفات.

ودلَّت عبارة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ...﴾ على أَنَّ هٰذهِ السُّلاَلَة اليهوديَّة ستبقَىٰ منْهُمْ أجْيَالٌ في الناس ما دام في الحياة الدّنيا بشَرٌ، وهؤلاء الأجيال يُفْسِدُونَ في الأرض، ويظْلِمُونَ، ويَبْتَلِي بهِمُ اللَّهُ الأمَمَ شياطِينَ أخْبَاثاً، كما ابْتَلَىٰ النَّاسَ بإبليس وجُنُودِهِ من الإنْسِ والجنّ.

وكُلَّمَا كثُرَ ظُلْمُهم وإفسادُهم، وانْتَشَرَتْ في النّاسِ خَبَائِثُهُمْ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العذابِ، ويُعِيدُهم إِلَىٰ وضْعِهِمُ الَّذي قَضَىٰ عليهم فيه بأنْ يكونوا في حالَةِ ذِلَّةٍ ومَسْكَنَةٍ، تحقيقاً لقوله تعالى بشأنِهِمْ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

لكِنْ من تَرَكَ الملَّةَ مِنهُمْ وابْتَعدَ عَنْ خَبائِثِهِمْ فإنَّهُ يُنْجِي نَفْسَه من هٰذِهِ العُقُوبَة الرَّبَّانِيَّة المعْتَادة، والَّتي تأتي لبني إسْرَائيل حيناً فحيناً كُلَّما ظَلَمُوا وَأَفْسَدُوا في الأَرْضِ، وتَجبَّرُوا وطَغَوْا وَبَغَوْا.

وتَدُلُّ عبارة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ . . .﴾ بمفهومها العامّ على أنَّ هٰذا البعثَ يَكُونُ عَقِبَ قِيَامِهم بإفْسَادٍ في الأرضِ، وتَمَادٍ في الشرِّ إلى حَدٍّ لَيْسَ من الحكمة معَهُ الإمْهَال، وتأخير العقاب، فيكون عقابُهُمْ بأنْ يُسَلِّطَ اللَّهُ علَيْهم مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب.

● ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ . . .﴾: من سُنَّة اللَّهِ في عباده الإمْهال، فالمرادُ بِسُرْعَةِ العقاب ـ والله أعلم ـ إنْزَالُهُ سَرِيعاً بِهِمْ بَعْدَ تَفاقُم شُرورهم، واقتضاء الحكمة مُعَاقَبتهم، فإذا قَضَىٰ الله العقابَ أنزلَهُ بسُرْعَة، والمعاقَبُون غافِلُون غَيْرُ مُتَرقِّبينَ إنْزَالَهُ فيهم.

● ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه العبارة تُعْطِي بني إسرائيل على تتابُعِ أجيالهم أمَلاً بأنَّهم إذا آمَنُوا بمحمَّدٍ وَمَا أنزل الله عليه، واستقامُوا، وأصْلَحُوا، ولم يَقُومُوا بما يقْتَضِي عِقَابَهُمْ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَرْفَعُ عَنْهُمْ تَسْلِيطَ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب، فالنصّ بجملته ودلالاته العامَّة يَدُلُّ على أَنَّ هذا التسليط يكونُ عقاباً لهم على ما يكونُ مِنهُمْ من مُقْتَضِيَاتٍ له، فإذا لَمْ يُوجَدْ هذا المقتضي لم يُسَلِّطِ اللَّهُ عليهم من يَسُومُهُمْ سوء العذاب، كما كان حالُهُمْ في ظِلِّ الدَّوْلة المسلمة إذْ كانُوا أَهْلَ ذِمَّة.

وجاءت هٰذِه العبارة مؤكَّدَة بِـ«إنَّ ـ والجملة الإسمية ـ واللام المزحلقة».

غفور: أي: كثير المغفرة وعظيمُها، إذْ صيغة «فَعُول» من صيغ المبالغة والتكثير. **المغفرة**: سَتْرُ الذنوب الذي يستلزم عدم المؤاخذة عليها.

رَحِيم: أي: كثير الرَّحْمَة وعظيمها، إذْ صيغة «فَعِيل» من صيغ المبالغة والتكثير. **الرحمة**: صفة نفسية من صفات الله عزّ وجل نُثْبِتُها له على ما يلَيق بجَلاَلِه، ومن آثارها العطاء والمعونة والتوفيق والغُفْرَان.

وأغْلَبُ أحْوالِ اليهود إذا لم يُسْلِمُوا ويَدْخُلوا في دين اللّهِ الحقّ، أن يكونُوا كما قال الله عزّ وجلّ بشَأْنهم في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أي: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ صِفَةُ الهَزِيمَةِ والضَّعْفِ والْهَوَانِ والْخُضُوعِ في أيّ مَكَان ظُفِرَ بهِمْ فيه.

يُقَالُ لغة: ثَقِفَهُ، أي: ظَفِرَ به.

ومعنى ضَرْب الذِّلَّةِ والمسكنة عليهم، طَبْعُها عليهم، كَما تُطْبَعُ النُّقُودُ بِضَرْبِ الْقَوالِب المنْقُوشَةِ عليها، فَتظْهَرُ صُورَة النَّقْشِ الّتِي على القالب فيها.

والمراد أنَّ الذِّلَّةَ والمسكَنَة تُلازِمانِهِمْ غالباً.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾:

هذا النصّ من توابع الآيات المدنية المضمومة بالوحي إلى سورة مكية، لمراعاة اقتضاءَيْن: أَحَدُهُما الداعي الزمانيّ إذ اقتضت الحكمة تأخير الإنْزال إلى العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول ﷺ، والآخر الداعي

الفكري الَّذِي اقتضىٰ ضَمَّها إلى سورة مكية، إذْ فيها مقدارٌ وفير من أخبار بني إسرائيل.

وهذا النصّ يبيّن أحوال بني إسرائيل مُنْذُ التَّشْتِيت الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ عليهم، بسبب ذُنُوبهم وفجورِهم، وإراقتهم الدّماءَ بغير حقٍّ، وعبادتهم أوثان الأُمَم الوثنيَّة المشركة التي اخْتَلَطُوا بها، مسالِمِينَ أو مُحَارِبين، حتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالرّسَالة الخاتمة، وإيمان من آمَنَ مِنْهُمْ به، واتّباعهم الكتاب الّذي أُنْزِلَ عليه، وإِقامَتِهِمْ الصَّلاة مَعَ المسلِمِين، وحتَّىٰ كُفْرِ مَنْ كَفَرَ منهم.

وهذه الآيَةُ تبيِّنُ التَّشْتِيتَ الّذي ضَرَبَهُ اللَّهُ على بَنِي إسرائيل، وقَدْ كان تقطيعُهُمْ في الأرض عُقُوبَةً لهم، إذْ لم يَصْلُحُوا لَحَمْلِ رِسالَةِ الرَّبّ للنّاس، ولا للمحافظة عليها والالتزام بها، بل أرَادُوا استثمارهَا لأنانيَّاتِهِمُ الخاصَّة، وأرادُوا احتكارَ الرَّبِّ لأنفسهم، مع عدم الالتزام بشرائعه وتكاليفه، وادَّعَوْا أنَّ الرَّبَّ اصطفاهُمْ وأحَبَّهُمْ لذاتِ سُلالَتِهم، لا لِحَمْلِ رِسالَتِه، عملاً بها، ونَشْراً لها، ولا لإعْلاَءِ كَلِمَةِ اللّهِ في الأرض.

فسَلّطَ اللّهُ عليهم من سَفَك منهُمْ دِماءَ كثيرةً، وسبَاهُمْ، وطَرَدهُمْ من الأرض المقدّسة، من الأُمَم الوثنية منْ حَوْلهم، إذْ لَمْ يَرْعَوْا شريعَةَ اللَّهِ، ولا أقاموها كَمَا فرضَ عليهم، مع ادّعَائهم كِذباً وزوراً أنّهم مُنْتَمُونَ إلَيْها وقد حَرَّفُوها وغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا فيها.

فَمِنْهُمْ مَنْ نُقِلَ إلى بَعْضِ أَرْض التَّشْتِيت بالْقَهْر والإكْرَاه، عَنْ طريق الطَّرْدِ أو السَّبْي: ومنهم من فرُّوا بأنْفُسِهِم خَوْفاً، إذْ لم يَجِدُوا في البقاء في الأرض المقدَّسة من بلاد الشَّام الأمْنَ الَّذِي يُحبُّونه.

وحِينَ تَشتَّتُوا في الأرضِ شَرْقِها وغَرْبها وجَنُوبها وشمالها، كانُوا على درجاتٍ مختلفات، فكان بعضُهُمْ صالحين، وهؤلاَء قِلّه، وكانَ أكْثَرُهُمْ دُونَ ذَلِكَ تَنَازُلاً في الدَّرَجَاتِ فالدَّرَكات، حتَّىٰ دَرَكَةِ الْفُجَّارِ والكُفَّارِ من أهل الأوثان.

ولمّا تَقَطَّعُوا في الأرض كوَّنُوا في مواقِعِهم المشتَّتَةِ أُمَماً، كلُّ قِسْمٍ مِنهُمْ كَوَّنَ أمَّةً مُجْتَمِعةً إسرائيليّة، لم تَذُبْ في الأمَمِ التي دخَلُوا فيها، وعَاشُوا بيْنَها، وهذا ما يُثْبتُه تاريخهم حتَّىٰ واقِعِهم المعاصر.

ونَوَّعَ اللَّهُ لَهُمْ وهُمْ في بُلْدَانِ التشتيت أنواع الامْتِحانِ ليتُوبُوا، وليَرْجِعُوا إلى صراط اللَّهِ المستقيم، والْعَمَلِ بِكتَابه المنزَّل، وشريعتهم الَّتي بلَّغَهُمْ إيَّاها مُوسَىٰ والأنبياء من بَعْدِه عليهم السلام، حتَّىٰ انْتَهَتْ مُدَّةُ العمل بهذه الشريعة، بِبِعثةِ محمّد بن عبد الله ﷺ.

فكان من أنواع الامْتِحَانِ الَّذِي امْتَحَنَهُمُ اللَّه بِهِ حَسَنَاتٌ تَسُرُّهم على أيْدِي الشُّعُوبِ الَّتي نَزَلُوا بينها، أوْ بتصَاريف الله في كوْنِه مباشرةً.

وكان من أنواع الامتحان الذي امتحنهم الله به سَيِّئاتٌ تَسُوؤُهم علىٰ أَيْدِي الشعوب الّتي نَزَلوا بيْنَها، أو بتصاريف اللّهِ في كَوْنه.

● ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ...﴾: دلَّتْ هذه العبارة على أنَّ الله عزّ وجلّ أجرى مقاديرَه الخفِيَّة، الّتي كان من آثارها تَقْطِيعُ بني إسرائيل وتَمْزِيقُهُم في الأَرْضِ، بَعْدَ ضَرْبِ دَوْلَتِهم وَوَحْدَتِهم.

ولم يكُنْ هذا التقطيع والتمزيق إلاَّ عُقُوبَةً لهم، لأَنَّهُمْ لَمْ يَرْعَوْا حُقوق المنحة الّتي منحهم الله إيَّاها، إذِ اسْتَخْلَفَهُمْ في الأرض المقدَّسة من بلاد الشَّام، عن مُلوكها الوثنيِّين الّذِين كانُوا فيها، وكان هذا الاستخلاف الذي منَحَهُمُ اللَّهُ إيَّاه بِمَعُونَاتٍ غيْرِ عاديَّة، ليقيموا الدّولة الرَّبّانية، ولِيُعْلُوا كَلِمَةَ الله في الأرض، إذْ مكَّنَهُمْ من الانْتِصار على شُعُوبِها ذوات القُوَّةِ والْبَأس.

لكنَّهم سُرْعانَ ما حَرَّفُوا وَغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا، واتَّبَعُوا سَنَنَ الأُمم الظالمةِ الآثمة من قبْلِهم، إفساداً في الأرض وظُلْماً وعُدْواناً، وفِسْقاً وفُجُوراً وَوَثَنِّيات، فَسَلَبَهُم الله ـ جلَّ جلالُهُ وعظمت حكْمَتُه ـ ما كان قَدْ مَنَحَهُمْ، ومَزَّقَهُمْ، فَكَانُوا في شَتَاتِ الأرضِ أُمماً.

● ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ...﴾: دَلَّتْ هذه العبارة على أنَّ الصَّالِحين إبَّانَ تَقْطِيعِهم وتشتِيتِهم كانُوا قَلِيلين، إذْ لَوْ كانوا كثيرين لأخَذُوا على أيْدِي الفاسِدِين المفسدين منهم، فلَمْ يُعَاقبهم اللَّهُ بالتقطيع والتشتيت في أنحاء الأرض، فقرينَةُ التقطيعِ عقُوبةً لَهُمْ دلَّتْ على أنَّ الصالحين كانُوا فيهم قليلين ضعفاء.

ومن إبداع الإيجاز القرآني عبارة: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾: إذْ نَعْلَمُ أنَّ دَرَجات الصالحين تَأْتي تَحْتَهَا دَرَكَاتٌ متعدّداتٌ جدًّا، أحَطُّها دَرَكاتُ منكري رُبوبيَّة الله عزّ وجل، فَدَرَكاتُ المنَافِقين والمِلْحدين والكفَرَةِ الجبَّارِين الطّغاة البغاة في الأرض، وهٰذِهِ أخَسُّها وأشَدُّها استحقاقاً للعذابِ الخالِدِ الشديد.

● ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٦٨﴾: أي: وامتحنّاهم أحياناً بما يسُرُّهم من حَسَناتٍ، وامتحناهم أحياناً بما يَسُؤُوهم من سيِّئاتٍ، رغبةً في أنْ يَرجعُوا تائِبين مستَغْفِرين، ملتزِمين الصراطَ المستقيم.

فدَلَّتْ هٰذهِ العبارة على أنَّ الله عزّ وجلّ امْتَحَنَ بني إسرائيلَ في بُلْدانِ التَّشْتِيتِ، بأنْواعِ مختلفاتٍ ومُتَضادَّاتٍ، من الحسناتِ الّتي تَسُرُّهم، ومن السَّيِّئاتِ الّتي تَسُوؤُهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: رغْبَةً في أن يَسْتيقِظُوا مِنْ غَفَلاَتهم، ويَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ يُذَكِّرُهم بنَفْسِه، عن طريق تنويع مقادِيره فيهم، ليَرْجِعُوا تائبين إليه في أحوالِ المصَائب والمكَارِه الّتي تسؤُوهم، وَشَاكِرِين مطيعين في أحوالِ النِّعِمَ والعطايا الّتي تَسُرُّهم، ولِيَعْملُوا بِشَرِيعته ومنهاجه.

الحسنات: عنوانٌ جامعٌ لكُلّ ما يَسُرُّ من نِعَم.

السَّيِّئات: عنوانٌ جامعٌ لكل ما يَسُوءُ من مكاره ومصائب.

بيان أسباب عقاب الله لبني إسرائيل بالتشتيت في كتبهم:

ولدى تَتَبُّع ما جاء في كتب بني إسرائيل، نَجِدُ فيها ما يَدُلُّ علىٰ أسْباب عقاب اللَّهِ لهم بالتَّشْتيت في الأرض، ومنها ما يلي:

(١) جاء في الإصحاح السّابع عشر من سِفْرِ الملوك الثاني:

«أنَّ بني إسْرَائِيلَ عملوا بأعْمَالِ الْوَثَنِيِّينَ، واتَّخُذُوا لِأَنْفُسِهِمُ الأَوْثَان، وَرَفَضُوا فرائِضَ اللَّهِ وَعَهْدَهُ الّذي قَطَعَهُ مع آبَائِهِمْ، وَسَارُوا وَرَاءَ الباطل، وصَارُوا بَاطِلاً وَرَاءَ الأُمَمِ الذين حَوْلهم الَّذِينَ أَمَرَهُمُ الرَّبُّ أَنْ لاَ يَعْمَلُوا مِثْلَهُمْ، وَعَمِلُوا لأنفُسِهِمْ مَسْبُوكَاتِ عِجْلَيْن، وَعَبَدُوا الْبَعْلَ[1]. فَغَضِبَ الرَّبُّ جدًّا على إسْرَائيل، فَأَذَلَّهُمْ، وَدَفَعَهُمْ لِيَدِ نَاهِبِيهِمْ، حَتَّىٰ طَرَحَهُمْ مِنْ أَمَامِهِ، فَسُبِيَ إسْرَائيلُ[2] مِنْ أَرْضِهِ إِلَىٰ أَشُور».

(٢) وَجاء في سِفْرِ «حِزْقيال»:

«أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ على مَدِينة أُورشَليمَ (= الْقُدْس) وَأَنْ يَتَنَبَّأَ عَلَىٰ أَرْضِ إسْرَائيل، بِأَنَّهُ اسْتَلَّ سَيْفَهُ من غِمْدِهِ، لِيَقْطَعَ مِنْهَا الصِّدِّيقَ والشِّرِّير».

(٣) وجاء في الإصحاح الثاني والعشرين منه:

«أنَّ اللَّهَ قَالَ له: قُلْ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: أَيَّتُهَا المدِينَةُ السَّافِكَةُ الدَّمِ في وَسَطِهَا لِيَأْتِي وَقْتُهَا. الصَّانِعَةُ أَصْناماً لِنَفْسِهَا لتَتَنَجَّسَ بها. قَدْ أَثِمْتِ بِدَمِكِ الَّذِي سَفَكْتِ، وَنَجَّسْتِ نَفْسَكِ بأصْنَامِكِ الَّتِي عَمِلْتِ. وَقَرَّبْتِ أَيَّامَكِ. وَبَلَغْتِ سِنِيكِ. فَلِذَلِكَ جعَلْتُكِ عَاراً لِلأُمَمِ. وسُخْرَةً لِجَمِيع

---

(١) **الْبَعْل**: وَثَنٌ اتخذه الكنعانيّون إلهاً يُعْبد، وكان في خرافاتهم إله الخصب في الحقول والحيوانات والمواشي.

(٢) **فَسُبِي إسرائيل**: أي: شَعْبُ بني إسرائيل.

الأَرَاضِي الْقَرِيبَةِ إِلَيْكِ والْبَعِيدَةِ عَنْكِ يَسْخَرُونَ مِنْكِ يَا نَجِسَةَ الإِثْمِ، يَا كَثِيرَةَ الشَّغَب. هُوَ ذَا رُؤَسَاءُ إِسْرَائِيلَ كُلُّ وَاحِدٍ حَسْبَ اسْتِطَاعَتِهِ كَانُوا فِيكِ لِأَجْلِ سَفْكِ الدَّم. فِيكِ أَهَانُوا أَباً وَأُمّاً. فِي وَسَطِكِ عَامَلُوا الْغَرِيب بالظُّلْم. فِيكِ اضْطَهَدُوا الْيَتِيمَ وَالأَرْمَلَة. وازْدَرَيْتِ أَقْدَاسِي. ونَجَّسْتِ سُبُوتي. كَانَ فِيكِ أُنَاسٌ وُشَاةٌ لِسَفْكِ الدَّم. فِي وَسَطِكَ عَمِلُوا رَذِيلَة. فِيكِ كَشَفَ الإِنْسَانُ عَوْرَةَ أَبِيهِ. فِيكِ أَذَلُّوا الْمُتَنَجِّسَةَ بِطَمْثِهَا، إِنْسَانٌ فَعَلَ الرِّجْسَ بامْرَأَةِ قَرِيبِه. إِنْسَانٌ نَجَّسَ كَنَّتَهُ بِرَذِيلَة. إِنْسَانٌ أَذَلَّ فِيكِ أُخْتَهُ بِنْتَ أَبِيهِ. فِيكِ أَخَذُوا الرِّشْوَةَ لِسَفْكِ الدَّمِ. أَخَذْتِ الرِّبَا والمرابَحَةَ. وَسَلَبْتِ أَقْرِبَاءَكِ بالظُّلْم.

أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَسَأَفْعَلُ، وأُبَدِّدُكِ بَيْنَ الأُمَم، وأُذَرِّيكِ في الأَرَاضِي. وَتَتَدَنَّسِينَ بِنَفْسِكِ أَمَامَ عُيُونِ الأُمَمِ، وتَعْلَمِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ».

* * *

قولُ اللَّهِ تَعالَى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾.

تمهيد:

تحدَّثت هٰذهِ الآيَةُ عن سُلالاتِهِم الذين كانوا خُلَفاء لهم من بَعْدِهم، لكنَّهُمْ كانُوا خَلْفاً فاسِدِين، يَعْلَمُونَ كِتَابَ اللَّهِ فيهم، الَّذِين وَرِثُوهُ عَن آبائهم، وتُوجَدُ لدَيْهِمْ نُصوصُه، لكنَّهُم لاَ يُحَرِّمُونَ في سُلُوكِهِمْ حَرَامَهُ، ولاَ يُؤَدُّون ما عليهم من واجبات، فيأكُلُون المال الحرام، ويَرْتَكِبُونَ كُبْرَيَاتِ الآثام، ويَظْلِمُونَ وَيَعْتَدُونَ ويَقْتُلونَ بِغَيْرِ حَقٍّ لأكْلِ أموالِ الناسِ بالباطل، ولو كانُوا ضُعفَاءَ يَتَامَىٰ أو أرَامِلَ، أو عَاجِزينَ وعاجِزات.

فإذا ذُكِّرُوا باللَّهِ وَعِقَابِه كَذَبُوا على الله قائِلين سَيُغْفَرُ اللَّهُ لَنا، لأنَّنا أبْنَاءُ اللَّهِ وأحبَّاؤه، فَنَحْنُ بنُو إسرائيل، شَعْبُ اللَّهِ المختار، لاَ يُؤَاخِذُنَا على معاصِينا مَهْمَا عظُمت، يقولون هذا القول وأشباهَه افْتراءً على ربّهم، وهم يَعْلَمُونَ أنَّ اللَّه جلَّتْ قُدْرَتُهُ، قد أخَذَ الميثاق على بني إسرائيل، بأن يَعْمَلُوا بما أُنْزِل إليهم في الكتاب وبِأَنْ لاَ يَقُولُوا على اللَّهِ إلاَّ الحق، وهؤلاَءِ قَدْ دَرَسُوا مَا فيه، وعَلِمُوا بهذا الميثَاقِ الَّذِي يَشْمَلُ كُلَّ مَنِ انْتَمَىٰ إِلَىٰ هٰذِهِ الأمَّة، واتَّبَعَ موسَى عليه السلام وأَنبياء بني إسرائيلَ مِنْ بَعْدِهِ، ومَا أَنْزَلَ اللَّهُ عليهم، ليؤمِنُوا به ويَعْمَلُوا بِأحكامه، فيُحِلُّوا حَلاَلَهُ، ويُحَرِّموا حَرامَهُ، ويُوجِبُوا على أنْفُسِهِمْ واجباتِه، بيَاناً وَتَطْبِيقاً، دون تَحْرِيفٍ ولا تغْيِيرٍ ولا تَبْدِيلٍ، ولا تَفْسِيراتٍ باطلات، ما أَنْزَلَ اللَّهُ بها من سلطان.

وهم يَعْلَمُونَ من البيانَاتِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي في كُتبِهِمْ أَنَّ ثوابَ الدَّار الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ، بِفِعْلِ مَا أمَرَ بِهِ أمرَ إيجابٍ، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ.

والذين عَلِمُوا هٰذا فلم يَتَّقوا اللَّهَ فَمِنَ المناسِبِ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ بالخطاب على سبيل التأنيبِ والتَّلْويم والتَّوْبِيخ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟!! وأن يُقَالَ عَنِ الغائبِينَ مِنْهُمْ: [أفَلا يَعْقِلُونَ]؟!!

التدبّر التحليلي:

● ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾: أي: فجاء بَعْدَهُمْ من سَلاَلاَتهم الَّذِينَ حَلُّوا مَحلَّهُمْ وَوَرِثُوا ممتلكاتهم، وورثُوا ما كانَ لَهُمْ من مادّيَّاتٍ وعِلْمِيَّات، وأمْجَادٍ، ذُرِّيَّةٌ فَاسدُون، يفتَخِرون بأنّهم بَنُوا إسْرَائيل، لكنّ آباءَهم لم يحسنُوا رعايتهم ولاَ تربِيتِهم على دين الله الحق فنَشَؤوا فاسِدين.

يقال لغة: خَلَفَ فُلاَنٌ فلاناً خَلَفاً، وخِلاَفَةً، أيْ: جاء بَعْدَهُ، فَصَارَ مكانَهُ، وكانَ خليفَته.

﴿خَلْفٌ﴾: **الْخَلْف** بإسْكَانِ اللاّم، **والْخَالِفُ**، **والْخَالِفَةُ**: الْفَاسِدُ مِنَ النَّاسِ الَّذِي لاَ خَيْرَ فيه، والْعَاصِي الكثيرُ الخِلاَف.

أمّا الْوَلَدُ الصالِحُ فيُسَمَّىٰ «**خَلَفاً**» بفَتْحِ اللاّم.

هٰذا هو الأصْلُ الغالبُ، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ الْخَلْفُ والخلَفُ فِي كُلٍّ من المعنَيَيْن.

وجاء في القرآن استِعْمَالُ الْخَلْف بإسْكَانِ اللاَّمِ في الذُّرِّيَّة الفاسدة، في مَوْضِعَيْن منْهُ، هذا أحَدُهُمَا. والآخر جَاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) بَعْدَ ذكْرِ طائفَةٍ من الرُّسُلِ السَّابقين، وبَعْضِ ذُرِّيَّاتهم، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾:

ويَدْخُلُ المعنيُّونَ في النصّ الّذي في سورة (الأعراف) ضِمْن عُمُوم النّصّ الذي في سورة (مريم) ومعنى ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ فَسَوْفَ يلْقَوْنَ يوْمَ الْحِسَابِ غَيًّا مُسَجَّلاً عَلَيْهِمْ في صَحَائِفِهِمْ، فَيُحَاسَبُون عليه، وبَعْدَ الحساب يُجازَونَ، كلٌّ مِنْهُمْ بحَسَبِ نِسْبَةِ غَيِّه، أي: بحسَبِ ضَلالِهِ وإثْمِهِ ومَعَاصِيهِ، ومُخَالَفَةِ مُقْتَضَيَاتِ الإيمان، وواجِبِ العمل، ممَّا فرضَ اللَّهُ علىٰ النَّاسِ في الحياة الدُّنيا، من فِعْلٍ أوْ تَرْكٍ.

- ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: أي: وَرِثُوا عَنْ آبَائِهِمْ الكِتَاب الرَّبَّانِيَّ الشَّامِلَ لِلْكِتَاب الذي أنزلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ على مُوسَىٰ، ولِمَا أَنْزَلَهُ من بَعْدِهِ على رُسُلِ بني إسرائيل، حتّىٰ تاريخ التشتيت في أنحاءِ الأرض.

ودلَّ التعبيرُ بأنَّهُمْ وَرِثُوا الكِتَابَ علىٰ أَنَّ وِرَاثَتَهُمْ له قَدْ كانَتْ وِراثَةَ الاعْتِرافِ بأَنَّهُ كِتَابُ الله لهم، وأنَّ عَلَيْهِم أن يَعْمَلُوا بما فيه.

لكنَّهُمْ في واقع حالِهِمْ كانُوا لاَ يَعْمَلونَ بما فيه، بلْ يخالِفُونَه، متَّبِعين أَهْوَاءَهُمْ وشَهَواتِهم، ومَا يَتَعَلَّقُونَ بِهِ مِنْ أعراضِ هٰذهِ الحياة الدنيا القليلة الضئيلَةِ السَّريعَةِ الزَّوَالِ والفناء.

- ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾:

أي: يُهْمِلُونَ الْعَمَل بما جاء في الكتاب الرَّبَّانيّ الّذِي وَرِثُوه، لِيَأْخُذُوا لأهوائهم وشهواتِهم ولَذَّاتِهم ومطالِب نفوسهم من متاعِ هٰذهِ الحياة الدُّنيا.

وسَمَّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ كلّ ما في الحياة الدُّنيا، منْ لَذَّاتِ وشَهواتِ وسائِرِ ما تُحِبُّهُ نُفُوسُ النّاسِ منها عَرَضاً، إِذْ وُجودُها وُجُودٌ عَارِضٌ سَرِيعُ الزَّوال، لاَ بقاء له. بخلاف ما في الجنَّةِ يَوْم الدِّين، فَهُوَ نَعِيمٌ مُقِيمٌ لاَ يَزُول.

وجاءت الإشارَةُ إلى مُرْضِياتِ الْأَنْفُسِ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا. بِعَبارَةِ [هٰذَا الأَدْنَىٰ].

﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾: أفعل تفْضِيلٍ من فعل «دَنَا يَدْنُوا فَهُوَ دَانٍ» و«الدُّنيا» مؤنّثُ «الأدنى» فهي أفعل تفضيل أيْضاً.

فالأَدْنَىٰ هو الأَقْرَبُ، والدُّنيَا هي الْقُرْبىٰ، ضدُّ الأَبْعَدِ والْبُعْدَىٰ.

وقد وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلَّ في القرآن المجيد كلَّ ما يطيبُ للنفوس مِنْ هذه الحياة الدنيا بأنَّهُ مَتَاعٌ، والمتاعُ في اللُّغَةِ، هو كلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ به والفناء يأتي عليه في الدنيا فهو سَريع الزّوال، مثل: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ـ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ـ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ـ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ـ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ـ﴾.

وَدَلَّ علىٰ أَنَّ مَا يأخُذُهُ هؤلاءِ الخلْفُ الفاسِدُونَ، من مَتَاعِ الحياة

الدُّنيا، وهُوَ عَرَضُ هٰذَا الأدنَىٰ، إنَّمَا يَأخُذُونَهُ بالمعاصِي والمخالَفَاتِ، وارْتِكابِ الآثامِ والذُّنوبِ من مخْتَلِفِ الدَّرَكاتِ، قول الله تَعَالَىٰ بَشَأْنِهِمْ:

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لأنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يَأْخُذُونَهُ مِمَّا أحَلَّ اللَّهُ لهم، لَمَا احْتَاجُوا لِأَنْ يَقُولُوا في أنفُسِهِمْ، أَوْ لِإخوانِهِم، أَوْ لواعِظِيهم سَيُغْفَرُ لَنَا، أي: إنَّ اللَّهَ سَيَغْفِرُ لَنَا كُلَّ ذُنوبِنَا وَمَعَاصِينَا، مهمَا كانَتْ من الكبائر الكُبْرَىٰ، لأنَّ اللَّهَ فَضَّلَنَا لذواتنا عَلَىٰ سائر الناس، فَنَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وأَحِبَّاؤه.

لكِنَّ مَقَالَتَهُمْ هذه من الافتراء على اللَّهِ، وعَلَىٰ كِتابِه، وعَلَىٰ رُسُلِهِ، فمَغْفِرَةُ اللَّه لا تختَصُّ بشَعْبٍ دُونَ شَعْبٍ، إذْ هو ربُّ العالَمِين جَمِيعاً، فَمَنْ حَقَّقَ فِي نَفْسِهِ شُروطَ المغفرة غَفَرَ الله له، والذنُوبُ المتعلِّقَةُ بِحُقُوقِ العباد لاَ بُدَّ مِنْ إقَامَةِ عَدْلِ اللَّهِ فيها، فإمَّا أن يَغْفِرَ المظلومون، وَإمَّا أنْ يقْتَصَّ اللَّهُ مِنْ ظالميهم، والقِصَاصُ يوم الدِّينِ يكونُ من الأعمال الصالحة، أو يكون بطَرْحِ مَا يُسَاوِيها من سيئاتِ المظْلُومِين علىٰ الظالِمين.

● ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾: أي: وبما أنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ مَغْفِرَةَ اللَّهِ لَهُمْ تتحقَّقُ بأفضَلِيَّتِهِمْ لذَواتهم علىٰ سائر الناس، ادّعاءً مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ أبناءُ اللَّهِ وأحِبَّاؤه، فإنَّهم يُكَرِّرُونَ ارْتكابَهُمْ لكبائر الذُّنوب الَّتي سَبَقَ أن ارْتَكَبُوها، ولَوْ لَمْ يَقُمْ في نُفُوسهم طَلَبٌ مُلِحٌ لارتِكَابِها، فَهُمْ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الأدنىٰ آثمينَ ظالِمينَ، على الرُّغمِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ الدَّاعي النَّفْسِيِّ الملحِّ لارْتِكابِ الإثْم الكبير، حتَّىٰ صَارَتْ مُمَارَسَاتُهُمْ للمعاصِي عادَاتٍ، لاَ يَرْدَعُهُمْ عَنها أقوَى الروادعِ وَأشَدُّها.

دَلَّتْ كلمة [إِنْ] من عبارَةِ ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ وهي أَدَاةٌ من أَدَوَاتِ الشَّرْطِ تُسْتَعْمَل في المشْكُوكِ فيه أو القليل النادر، عَلَىٰ أنَّ هذا الْعَرَضَ المماثِلَ للْعَرَضِ السَّابِقِ لَمْ يَكُنْ مُنْتَظراً، ولاَ مُرْتَقَباً مِنْ قِبَلِ نُفُوسهم، إذْ لَيْسَ في نفوسهم الدافِعُ الملِحُّ في طَلَبِهِ والرَّغْبَةِ في الحصولِ عليه، وهم مع ذَلِكَ يأْخُذونَه، لاستِهَانَتِهِمْ بارْتكابِ كَبَائِرِ الإثم.

لقد كذَبُوا على رَبّهم، وصَدَّقُوا أكَاذِيبَ أنفُسِهم وافتراءَاتِهِم عليه، فَانطَلَقُوا فاجِرين، لا يرْدَعُهُمْ عن فجُورِهم رادع.

- ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾؟!

استفهام تقريريٌ لانتزاعِ اعترافِهِمْ بالْمِيثَاقِ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِم.

الميثاقُ: الْعَهْدُ المؤكَدُ الْمُوَثَّقُ المثبَّتُ بما يمنعَهُ مِن التَّفَلُّتِ، وأَخْذُ الميثاقِ عليهم، يُفِيد شَدَّ الْعَهْدِ عليهم، حتَّىٰ لا يَحْتَالوا للتفلُّتِ مِنْه، وميثاق الكتاب الذي أُخذ على بني إسرائيل، هو ما أخذ عليهم من عهد في الكِتَاب الرَّبَّاني الَّذِي وَرِثُوه، وَدَرَسُوا ما فيه، وهذا الْعَهْدُ الموثَّقُ الْمغلَّظُ عليهم هو أَنْ لاَ يَقُولُوا على اللَّهِ إلاَّ الْحَقَّ المنزَّلَ من لَدُنْهُ، والمبَلَّغَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِه.

ممّا في كُتُب أهل الكتاب بشأن هذا الميثاق:

ونجد في كُتبِ أَهْل الكتاب ما يَدُلُّ على أخْذِ الميثَاقِ عَلَىٰ بني إسْرَائيل بأنْ لاَ يقولُوا عَلَىٰ اللَّهِ إلاَّ الحقّ.

جاء في الإصْحَاحِ الخامِسِ من سِفْرِ التَّثْنِيَة ما يلي:

«١ وَدَعَا مُوسَىٰ جَمِيعَ بَنِي إسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ: اسْمَعْ يَا إسْرَائيلُ الْفَرَائِض والأَحْكَامَ الَّتي أَتكَلَّمُ بِها فِي مَسَامِعُكُمُ الْيَوْمَ. وَتَعلَّمُوا واحْترِزُوا لِتَعْلَمُوها ٢ الرَّبُّ إلهُنَا قَطَعَ مَعَنَا عَهْداً في حُورِيبَ[1] ٣ لَيْسَ مَعَ آبَائِنَا قَطَعَ الرَّبُّ هٰذَا الْعَهْدَ بَلْ مَعَنَا نَحْنُ الَّذِينَ هُمُ الْيَوْمَ جَمِيعاً أَحْيَاءُ. . . . فقال: ٦ أَنا هُوَ الرَّبُّ إلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ ٧ لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَىٰ أَمَامي. . . ١١ لا تَنطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إلهِكَ بَاطِلاً. لِأَنَّ

---

[1] **حُوريب**: أي: جبل سيناء.

الرَّبَّ لاَ يُبْرِئ من نَطَقَ باسْمِهِ بَاطِلاً. . . . ٣٢ فاحْتَرِزُوا لِتَعْمَلُوا كَمَا أَمَرَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُم. لاَ تَزِيغُوا يميناً ولاَ يَساراً. . .».

هٰذا من كتُبِهِم شَاهِدٌ على أخذِ الْعَهْدِ المشَدّدِ الْمُوثَّقِ عَلَيْهِم بأنْ يَحْفَظُوا وَصَايَا الرَّبّ لَهُمْ، ولاَ يَقُولُوا على اللّهِ إلاَّ الحقّ. لكنَّهُمْ خالَفُوا ونَقَضُوا الميثاق، وافْتَرَوْا على اللّهِ الكَذِب.

● ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾: أي: والحالُ أنَّهُمْ دَرَسُوا ما في الكتاب، وعَلِمُوا من دِراسَتِهِم لَهُ أنَّ اللّهَ أَخَذَ الميثاقَ على بَنِي إسْرَائيل السَّابِقِين، وعلى سُلاَلاَتِهِمْ وَذُرِّيَّاتهم، أَنْ لاَ يَقُولُوا علىٰ اللّهِ إلاَّ الحقّ.

يُقَالُ لغة: دَرَسَ الكِتَابَ ونَحْوَهُ يَدْرُسُهُ دَرْساً وَدِرَاسَةً، أي: قَرَأَهُ وأَقْبَلَ عَلَيْهِ لِيَحْفَظَهُ وَيَفْهَمَ دَلاَلاتِ أَلْفَاظِه.

● ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾؟!!!

وفي القِرَاءَة الأُخْرَى: **[أَفَلَا يَعْقِلُونَ]**؟!! حديثاً عن الْغَائبين.

أي: وثوابُ اللّهِ في جنَّاتِ النّعِيم، للمتَّقِينَ الَّذِينَ لاَ يَرْتَكِبُونَ الآثامَ والمعاصِيَ والخطَايَا، فيَفْعَلُونَ ما أَمَرَ اللّهُ بِه أَمْرَ إِلْزَام وإيجابٍ، ويَتْرُكُون ما نَهىٰ اللّهُ عَنْهُ نهي تَحْرِيم، خَيْرٌ في مَقَادِيرِهِ، وكيْفِيَّاتِهِ، وبَقَائِه، مِنْ عَرَضِ هٰذا المتاعِ الأَدْنىٰ، مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، الَّذِي يَعْصُونَ اللّهَ من أجْله، ويَفْتَرُونَ على اللّهِ الكَذبَ، لِيَجِدُوا لِأَنْفُسِهِمْ ذَرَائِعَ يَسْتَرُونَ بها جرائِمهم، أو يُهَوِّنُونَ بِهَا مِنْ أَمْرِها.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! **[أَفَلَا يَعْقِلُونَ]**: أي: أَفَقَدْتُمْ مَا وَهَبْنَاكُمْ من عَقْلٍ عِلْمِيّ يُمَيِّزُ بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشرّ، وما وَهَبْنَاكُمْ مِنْ عَقْلٍ إرَادِيّ يَضْبِطُ وَيَعْقِلُ أهْوَاءَكُمْ وَشَهواتِكُمْ، فأَنْتُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ لاَ تَعْقِلُونَ؟!

وبمقْتَضىٰ القراءة الأُخرىٰ: **[أَفَلَا يَعْقِلُونَ]** يكون المعنى: أَفَقَدُوا مَا وَهَبْنَاهُمْ من عقلٍ عِلْمِي، وعَقْلٍ إراديّ فهم بسببَ ذَلِكَ لاَ يَعْقِلُونَ؟

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾:

وقرأ شعبَةُ عن عاصِم: [وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ] بإسكان الميم وكَسْرِ السِّين دون تَشْدِيد، والقراءتان متكافئتَانِ، إحْداهُمَا مِنْ فِعْلِ «مَسَّكَ» والأُخْرَىٰ من فِعْلِ: «أَمْسَكَ».

تُشِير هٰذِهِ الآية إلى وجود طائِفَةٍ مُتَّقِين، ضِمْن جماهير الخلْفِ الفاسِدِين من ذُرِّيَاتِ بَني إسرائيل، ومن صفات هٰذِهِ الطَّائِفَةِ المحافظةُ على الْعَمَلِ بتَعَالِيم كِتَابِ رَبّهم دون تحريفٍ ولا تغيير ولا تبديل، وهُمْ لاَ يَفْتَرُونَ على اللّهِ كَذِباً، ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ الْمَفروضَةَ عليهم، ويَعْمَلُونَ على إصْلاَحِ أنفُسِهِم، وإِصْلاحِ مَنْ يَسْتَجيبُ لَهُمْ مِنْ قومهم.

وقد أبان اللّهُ عزَّ وجلَّ أنَّ هٰؤلاَء لاَ يُضِيعُ اللّهُ أجْرَهُمْ عِنْدَه، وإِنْ كانوا قِلَّةً ضِمْنَ جماهِيرَ كثيرينَ فاسِدِين من اليهود، لأنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الْمُصْلِحين.

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: يَعْمَلُونَ بما جَاءَ فيه من وَصَايَا وَأَحْكَام، ولاَ يُحَرِّفُون فيه، ولاَ يُبَدِّلُون، ولا يَقُولُونَ على اللّهِ إلاَّ الحقّ، فَلاَ يَفْتَرُونَ على اللّهِ كَذِباً.

ومن التَّمَسُّكِ بكتاب الله المنزَّلِ إليهِمْ أنْ يُؤْمِنُوا بكُلِّ رَسُولٍ ونَبِيٍّ جاء إلى الناس بَعْدَ مُوسَىٰ وهارُون عليهما السلام، لأنَّ كتابَهُمْ يَأمُرُهُمْ بذلِكَ، فلا يَدْخُلُ في هذه الطائفة الَّذِين يَكْفُرون بالأنْبِياء وَالمرسَلِين الَّذِين جاءُوا من بَعْدِ موسى وهارون، بلْ هؤلاء يَدْخُلُونَ فِي الْخَلْفِ الفاسِدِ الكافِرِ.

وبهذا يظهَرُ لَنا أنَّ كُلَّ الَّذِين كانوا يُمَسِّكون بالكِتَابِ حقًّا من بني إسرائيل، قد آمَنُوا بعيسىٰ عليه السلام بعْدَ بِعْثَتِه، وأنَّ كلَّ الّذِينَ كانوا يُمِسِّكُونَ بالكتاب حقًّا من بني إسرائيل، قَدْ آمَنُوا بمحمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ خَاتِمِ

الأنبياء والمرسلينَ بَعْدَ بِعْثَتِه، فَمَنْ كَانَ مُتَمسِّكاً حقًّا بالتوراة، ومَنْ كانَ متمسّكاً حقًّا بالإنجِيل، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْمِنَ بخاتم المرسلين ويَتَّبِعَهُ، ويَتَّبِعَ الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ رَبّه، لأنَّ الإيمانَ به واتِّبَاعَهُ هو ممّا فَرَضَهُ الله عى أَهْلِ الكِتَابِ في كُتُبِهِم.

● ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: المفروضَةَ عليهم في شريعَتِهم، وخَصَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إقَامَةَ الصَّلَاةِ بالذِّكْرِ، مع أنَّها جُزْءٌ مِنَ التَّمَسُّكِ بالكِتَاب، اهتماماً بشأنِ هٰذَا الرُّكْنِ مِنْ أَرْكانِ دِينِ اللَّهِ لعباده، في كلّ الرّسَالاتِ الّتي أرْسلَ بها رُسُلَهُ للنَّاس.

وقد كانت الصلاةُ من شريعَةِ الله لموسَىٰ وهارون، مُنْذُ أوائِلَ بِعْثَتِهما، إذْ كانَ بَنُو إِسْرائيل في مِصْرَ مضطهدين مستَعْبَدِين، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: وأوحينا إلى مُوسَىٰ وأَخيه هارونَ أن اتَّخِذا وَهيِّئا لقَوْمِكُمَا بمِصْرَ بيوتاً لعبادتي فيها بالصلاة والذّكر، واجْعَلُوا بيوتَكم هذه مُتَّجِهَةً للقبْلَةِ، وأقيموا الصَّلاةَ المفروضَةَ عليكم فيها.

والذي يجعلني أذْهَبُ إلَىٰ رأي اتّخاذ المساجد، في مجمعات مساكن بني إسرائيل، أنّ بني إسْرَائيل قد كانت لهم بيوتٌ يسْكُنُونَها منذ عهد يوسف عيه السلام، ولم يكونوا أهْلَ خيام، فلا معنىٰ للأمْرِ بتحصيل ما هو حاصل، لكن لم تكُنْ لهم بيوتٌ خاصَّةٌ لعبادة اللَّهِ بالصَّلاةِ والذكْرِ فيها، فنزل الوحي بالأمْرِ باتّخاذ هٰذِه البيوت، وجَعْلِهَا مُتَّجِهَةً للقبلة. وعبارة: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قَرِينَةٌ دالَّةٌ على أنّها مَسَاجد.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وبشِّرِ المؤمنين الّذِين يُقيمُونَ الصَّلَاة بالْعَاقِبَةِ الحسنة السَّارَّة في الدّنيا وفي الآخرة.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: هٰذِهِ الجملَةُ دَلَّت على خبر المبتدأ الذي جاء في صَدْرِ الآية، وَوُضِعَتْ مَوْضِعَ الخبَرِ ونُزِّلَتْ مَنْزِلَتَهُ، والتقدير:

والَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بالكتاب وأقامُوا الصَّلاَةَ فَسَنُوَفِّيهم أَجْرَهُمْ لِأَنَّنا لا نُضِيعُ أَجْرَ المصْلِحِين.

إنّ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ الثابتَةِ أنَّهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وسَمَتْ حكْمَتُهُ السَّنِيَّة ـ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المصلحين، ولاَ يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ من عباده المتقين ذكراً كَانَ أَمْ أُنثَى، ولاَ يُضِيعُ أَجْر مَنْ أَحْسَنَ عملاً، ولا يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين، ولاَ يُضِيعُ إيمانَ مَنْ آمَنَ صادِقاً، ولاَ يُضِيع أَجْرَ المؤمنين.

كلُّ هٰذِهِ المعَاني جاءت بها نُصُوصٌ قُرْآنية.

يُقال لغة: أَضَاعَ فُلاَنٌ الشيء، أيْ: جَعَلَهُ يُفْقَدُ بإهماله لَهُ، فلا يكُونُ له وجود، لكن الله عزّ وجلّ لا يُهْمِلُ جزاءَ عَمَلٍ صالحٍ مَهْمَا قَلَّ، إذا ابْتُغِيَ به عامله وجْهَ رَبِّه، وَكان على ما شرَعَ لعبادِهِ تكليفاً أو إِذْناً، فَهُوَ لاَ يُضِيع أَجْرَ عَمَلٍ صالحٍ لِعَبْدٍ من عباده المؤمنينَ العاملين في الحياة الدُّنيا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِه.

كلمةُ: «مُصْلِحِ» اسْمُ فاعل من فعل «أَصْلَح» وهذا الْفِعْلُ يأتي بمعنىٰ: فَعَلَ ما هو صالح ونافع في عَمَلِه وأمْرِه. ويأتي بمعنى أَصْلَحَ غيره، أي: سعَىٰ في إصلاح غيْرِه وإزالَةِ فساده.

والمصْلِحونَ هُمُ الَّذِين يَعْملونَ الأعمال الصالحة الّتي يَرْضَىٰ اللّٰهُ عنها، ويُثِيبُ فاعليها، من كلّ ما هو خَيْرٌ ونافِعٌ وفيهِ قُرْبَةٌ للّٰهِ عزّ وجلّ، سَواءٌ أكان من أعمال الجوارح الظاهرة، أم كان من أعمال القلُوب والنفوس.

وهم أيضاً الذين يَسْعَونَ في إصْلاح النّاس، ودَعْوَتِهِمْ لِفِعْلِ الصَّالحاتِ، وتَرْكِ المنكَرات، وابْتِغَاءِ الْخَيْرَات، والْعَمَلِ بما يُرْضِي رَبَّ

الأَرْضِ والسَّمَاوَات، وربَّ الأحْيَاءِ والأَمْوَاتِ، سَائلين الله أن يُثيبَهُم من فَضْلِه، على ابْتِغَائهم رِضْوانَهُ في العَمَل بما يُرْضِيه، النَّعِيمَ المقِيمَ فِي جَنَّاتِ الْخُلُودِ، الّتي أعَدَّها الله للمتقين، فالأبرار، فالمحسنين.

* * *

الفقرة الثانية عشرة

رفعُ الجبَلِ فَوقَ بَنِي إسرَائيل ليَأخذُوا الكِتاب بقُوَّةٍ ويَذكُرُوا ما فيه

وهي الآية (١٧١) من السورة وهي مَدَنية التنزيل.

قال الله عزّ وجل:

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾:

تمهيد:

تضمّنَتْ هٰذهِ الآيَةُ الدلالَةَ على حَدَثٍ جرىٰ لبني إسْرَائيل في عَهْدِ موسى وهارون عليهما السلام.

وقد نزلت هذه الآية في العهد المدنيّ من تاريخ دعوة الرسول محمّد ﷺ مراعاة للاقتضاءَيْنِ الَّذَيْن سبَقَ بيانُهُمَا في سوابقها.

وجاء بيان هذا الحدَثِ بأسْلُوبِ الحديث عن الغائِب ضِمْنَ حكايَةِ طائفَةٍ من قِصَصِ بَنِي إسرائيلَ وأَخدَاثِهِم.

وجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بيانُ اسْمِ الْجَبَلِ المعنيّ، بأنَّهُ جَبَلُ الطُّور، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

وجاء بيان هذا الحدَثِ نَفْسِهِ بأسْلُوبِ خِطَابِ بَنِي إسْرَائِيلَ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الْبَقَرَة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً خطاباً لبني إسْرَائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قِصَّةُ هٰذه الآيَات المتكامِلات الدّلالاتِ فيما بَيْنَها، هي أنّ بني إسرائيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ من مِصْرَ، وإنْقَاذِ اللّهِ لَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وجنودِه، بفَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ حتَّىٰ عَبَرُوهُ على اليابسَةِ مِنْهُ، وبإغراق فِرْعَوْنَ وجنُودِه بضَمّ ماءِ البَحْر علَيْهم، أُصِيبوا بداءِ الولَدِ المدلّلِ على أبيه وأُمّه، الّذِي يُرِيدَ أَنْ يُحَقَّقَ لَهُ مَا يَشْتَهِي دَواماً، دُون أن يتحمّل هُو شيئاً من التكاليف والواجبات، مُقَابلَ تَكْرِيمهِ والْعِنَايَةِ به، وتَخْليصِه مِنْ أعدائه وخُصُومِه، ويُريد دواماً فِعْلَ خَوَارِقِ العادات من أَجْلِه.

فقالوا لموسى عليه السّلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: أي: أَرِنا إيّاهُ عِيَاناً غَيْرَ مُسْتَتِرٍ عنّا بشَيْءٍ، وقالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: أي: لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ مُسْلِمِين لَكَ حتَّىٰ نَرَىٰ اللّهَ عِياناً، ويأمُرَنا بالإيمان بك والإسلام لَكَ.

فعاقبهم الله عزّ وجلّ على هذا التّعنُّتِ، فَأخذتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرونَ، فَأَمَاتَتْهُمْ، ثُمَّ بَعَثَهُمُ اللّهُ من بَعْدِ مَوْتِهم، وكانَتْ هٰذهِ مَوْتَةَ تَأْدِيبٍ وتَرْبِيَة، وحَلٌ لِبَعْضِ عُقْدَةِ الدّلالِ التي في نُفُوسِهم.

لكنَّهُمْ لم يتخلَّصُوا مِنْ عُقْدَةِ الدَّلاَلِ هٰذهِ، وأرادُوا أنْ تكُونَ مَنْزِلَتُهُمْ عِنْدَ رَبِّهم تفضيلاً وَتَشْرِيفاً، دون أن يَتَحَمَّلُوا في مُقَابِلِها واجباً وَلاَ تَكْلِيفاً.

بَيْدَ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ إنَّما فضَّلَهُمْ على شُعوبِ زَمَانِهِم الْوَثنيِّين لِيَحْمِلُوا شَريعته ومنهاجه، وَيَعْمَلُوا بهما، وليَدْعُوا الناسَ إلى دين الله، مُقَدِّمين أنفُسَهُمْ للنّاس على أنَّهُم الْقُدْوَةُ الحسنَة، المطَبِّقَةُ لدِينِ اللَّهِ الَّذِي اصطفاه لعباده.

فلمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ تعاليم الدِّينِ على مُوسَىٰ بالكتاب الّذِي أنْزَلَهُ عليه، كلّفَهُ أنْ يبلِّغَهُمْ إيَّاه، وأنْ يَأْخُذَ عَلَيْهم الْعَهْدَ بأن يَعْمَلُوا بما فيه، ولا يُخِلُّوا بِما أَوْجَبَ عليهم تاركين، ولاَ بما حرَّم عليهم فاعلِين.

فأسمعهم موسَىٰ عليه السّلام تعاليم الرَّبِّ ووَصَاياه، وطلَبَ منْهُمْ أَنْ يُعَاهِدُوا اللَّهَ على حفظ هٰذِهِ الْوَصَايا وَتَذَكُّرِها دواماً، والْعَمَلِ بها.

فأَبَىٰ جُمهورُ بني إسْرائيلَ الالْتزامَ بالتعليمات والوصايا الرَّبَّانيّة، وأرَادوا أن يسْتَمِرُّوا في حياتِهم على أهوائهم وشهواتهم، شَعْباً مُدَلَّلاً على رَبّه، يُعْطِيهم تفضيلَهُ ونِعَمَهُ، دون أَنْ يُؤَدُّوا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا واجباتِهم تُجاه ربّهم، ودون أن يتحمَّلُوا مشقَّاتِ تكاليف الامتحان.

فرَفع اللَّهُ فَوْقَ مَحلَّتِهِم النازلين بها في سيناء جبَلَ الطُّور، لرَفْضِهِمْ إعطاءَ الْعَهْدِ على الالْتزام بشريعة الله، وقال لهم موسى عليه السَّلامُ بلاغاً عن رَبّه: خُذُوا مَا آتاكُمُ اللَّهُ من وصَايا وأحكام في كتابه بقُوَّةٍ، وعاهِدُوا على الْعَمَلَ بِما جاء فيه، أو يُلْقِي اللَّهُ هٰذَا الجبَلَ عليكم فيُهلِكَكُمْ.

وعلى الرَّغم من هٰذَا ظلَّتْ عُقْدَةُ الشَّعْب المدَلَّلِ مُسْتَحكمةً فيهم، فقالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنا.

ويظْهَر أنَّهُم رَأَوْا أَنَّ الأمْرَ لمجرّد التَّخويف، فَلَوْ أعلَنُوا عِصْيانَهُمْ لَمْ يُنَفِّذِ اللَّهُ فيهم ما أشعَرَهُمْ به، فهُو لاَ يُوقِعُ الجبَلَ فَوْقَهُمْ، ولو تمرّدُوا، كما

يتصوّر الولَدُ المدَلَّلُ على أبيه، أنَّ أبَاهُ لَنْ يضرِبه بالْعَصَا، ولو رَفَعَها فَوْقَهُ مُهدِّداً إيَّاهُ بالضّرب، دلّ على هذا ما جاء في الآية (٩٣) من سورة (البقرة) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلّ خطاباً لهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... ﴿٩٣﴾﴾.

ويَظْهَرُ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أدْنَىٰ منهُمُ الجبَلَ المرْفوع فوقَهُمْ شَيْئاً فشيئاً، حتَّىٰ ظنُّوا أنَّهُ واقِعٌ عليهم، وطاحِنُهُمْ بالأرض طحناً.

عندَئذٍ ذهَبَتْ عَنهُمْ أوْهامُ مُيوعَةِ الدّلال، وتكشّفت لَهُمْ حقيقةُ جَبَرُوتِ الرَّبّ، وسَطْوَةِ انتقامه.

ولَمْ يكُنْ هذا من قبيل الإكْراه على الدِّين، إذْ هُمْ مُؤْمِنُون، بل هو عِلَاجٌ لما في نُفُوسِهِمْ من عُقْدَةِ الدّلال على ربّهم، وتَهْدِيدٌ بالعقاب على العصيان، بَعْدَ الإيمان وإعلان الإسلام، فإذا رَفَضوا إعلان الالتزام بالطاعة، كان القتْلُ عقاباً عادلاً لهم، بالحدّ الشرعيّ، كسَائر عقوباتِ الحدُودِ الشرعيّة.

وإذا صَحَوْا من سَكَرَاتِ مُيُوعَةِ الدلالِ على رَبّهم، لم يَجِدُوا خلاصاً لهم إلاّ بأن يُعْطُوا عَهْدَهم ومِيثَاقَهُمْ على أن يأخذوا مَا آتاهُمُ اللَّهُ في الكِتَابِ بِقُوَّة، أي: بقُوَّةِ إرادة علىٰ تَنْفِيذِ أوامِرِه ونواهيه، وعلى أنْ يَذْكُرُوا ما فيه دَواماً.

التدبر:

- ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ... ﴿١٧١﴾﴾.

أي: وضَعْ في ذاكِرَتِك أيُها المتلّقي أيّا كُنْتَ، قصّةَ بني إسرائيلَ حين رَفَعْنا جَبَلَ الطُّور فَوْقَهُمْ فصَارَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، في عهد موسى.

أو واسْأَلْهُمْ عن قِصَّةِ رفع الجبَلِ فَوْقَ أجدادِهم في عَهْدِ مُوسَىٰ، حتّى صار فوقهم كأنّه ظُلَّةٌ، علىٰ أَنَّ هذه الآية معطوفة على الآية (١٦٣) التي جاء فيها: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ . . .﴿١٦٣﴾﴾.

● ﴿نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾: أي: رفَعْنا جَبلَ الطُّورِ فَوْقَهُمْ.

يُقالُ لغة: نَتَقَ الحجَرَ أو نَحْوَه يَنْتُقُهُ نَتْقاً، أي: رفَعَهُ من مكانِه لَيَرْمِي بِه.

● ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾: أي صَارَ جَبَلُ الطُّور فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ.

الظُّلَّة: كُلُّ شَيْءٍ أظَلَّكَ. وَمَا سَتَرَ مِنْ فَوْق. وَمَا أَطْبَقَ مِنْ فَوْق. وتُطْلَقُ الظُّلَّة على سحابَةٍ مُطْبِقَةٍ.

وقد ظلَّلَ الْجَبَلُ محلَّتَهُمُ الَّتِي كانُوا ينزِلُونَ فيها.

● ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾: أي: وظَنُّوا ظَنًّا قَوِيًّا إِذْ دَنا الْجَبَلُ من رؤوسِهم أنّه واقِعٌ علَيْهم ومختلِطٌ عنْد وقُوعِه بأجْسَادِهِم، مُهْلِكاً ماحقاً ساحقًا.

وكان هذا الظَّنُّ بَعْدَ أَنْ أدنىٰ اللّهُ الجبَلَ من رؤوسهم، إذْ هم قبل ذلك، وحين كان مُرْتَفِعاً كالسَّحابة، تَوَهَّمُوا أَنَّ رَفْعَ الجبَلِ فَوْقَهُمْ لمجرّد التخويف، فقالوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، كما ظهر لنا آنِفاً أخذاً من الآية (٩٣) من سورة (البقرة).

● ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾: أي: وجاءَهَمْ عندئذٍ الأمْرُ الرَّبَّانِيُّ على لسانِ مُوسَىٰ قائلاً لهم: خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ من أوامِرَ ونواهِيَ وَوَصَايَا وأحْكَامٍ تَشْرِيعيَّةٍ بقُوَّة.

والـمرادُ بـالْـقُـوّةِ قُـوَّةُ الإرادة والـعـزيـمـة عـلـى تَـحَـمُّـلِ الـتَّـكـالِـيـفِ، والصُّعوبات، والمشَّقات، والمكاره.

- ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾: أي: وَضَعُوا في ذاكراتكم ما جَاءَ في الكِتَابِ مِنْ وَصَايَا وَأوامِرَ، تَسْتَذْكِرُونَها، وَتَسْتَدْعُونَها عِنْدَ مُنَاسَبَاتِهَا للْعَمَلِ بها، فِعلاً فيما يَجبُ فِعْلُه، وتَرْكاً فيما يَجِبُ تركه.

- ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أي: ليكونَ تَذكُّرُكُمْ لَهَا باعثاً للْعَمَلَ بمُقْتَضاهَا، فرجاءُ تَحقُّقِ الْعَمَل بمقتضاها مع هذا الباعثِ أكْثَرُ مِنْهُ دونه، إذِ الإهمالُ والتَّرْكُ والنسيانُ لتعليمات الواجبَاتِ والمحرَّماتِ الدِّينيَّةِ يُهَوِّنُ على الإنسان معصيَتَها.

ومعلومٌ من تضافُرِ النُّصُوصِ الأصولِ، أنّ العمل بمقتضَىٰ التعليمات والتكليفات الدينيّة يقي من عقاب الله وعذابه.

وقد أعطىٰ بَنُو إسرائيلَ الميثاقَ يومَئذٍ، لكِنَّهُمْ لَمْ يَلْتَزمُوا بعد ذَلِكَ، بلْ تَوَلَّوْا فَأَدارُوا ظُهُورَهم له، وابْتَعَدُوا عَنه، وعَصُوا الله ورسوله، بدليل ما جاء في الآيتين (٦٣ ـ ٦٤) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾: فعل «تَوَلَّىٰ» يأتي بمعنى «نَأَىٰ» ويأتِي بمعنى أَدْبَر، أي: ثمّ أدْبَرْتم ونَأَيتم.

ممّا في كتب بني إسرائيل مِنْ أَمْرٍ لهم بأنْ يتذكَّرُوا ما في كتابِهم:

جاء في الإصحاح السادس من سفر التَّثْنِية من كتب العهد القديم ما يلي:

«٤ اسْمَعْ يَا إِسْرَائيل. الرَّبُّ إِلٰهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ ٥ فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلٰهَكَ مِنْ

كُلِّ قَلْبِكَ. وَمِنْ نَفْسِك. ومِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ ٦ ولْتَكَنْ هذهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ علىٰ قَلْبِكَ ٧ وقُصَّهَا عَلَىٰ أَوْلَادِكَ. وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ في بَيْتِكَ وحِينَ تَمْشِي في الطَّرِيقِ. وحِينَ تَنَامُ. وحِينَ تَقُومُ ٨ وارْبِطْهَا علىٰ يَدِكَ. وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ ٩ واكْتُبْهَا علىٰ قَوائِمِ أَبْوَابِ بَيْتَك وَعَلَىٰ أبْوابِكَ».

لكِنَّ بني إسرائيل لم يَعْمَلُوا بهذه الوصايا التي أوْصاهُمُ الرَّبُّ بها، ولم يَعْمَلُوا بما أنْزَلَ عليهم من تعليماتٍ وشرائِعَ وأحكامٍ، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ غَضَبُ اللَّهِ وسَخَطُه.

* * *

كان الفراغ من كتابة هذا المجلّد الرابع ليلة الثلاثاء
١١/ ٦/ ١٤٢٠ هجرية الموافق لـ ٢١/ ٩/ ١٩٩٩ ميلادية
والحمد لله على معونته وتوفيقه.

الفهرس

الموضوع الصفحة

سورة الأعراف

٧ مصحف ـ ٣٩ نزول

مقدمات ٥

(١) نص السورة وما فيها من فرش القراءات ٧

(٢) مما ورد في السنة بشأن سورة (الأعراف) ٣٨

(٣) موضوع سورة الأعراف ٣٩

(٤) دروس سورة الأعراف ٤٠

(٥) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة الأعراف الآيات من (١ ـ ١٠) .. ٤٨

تمهيد ٤٨

التدبر التحليلي ٥٠

- ● ﴿المص (١) كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حَرَجٌ منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ②﴾ ٥٠

ـ الحكمة من عبارتي [أنزلنا إليك] و[أنزلنا عليك] ٥٦

- ● ﴿اتبِعُوا ما أنزل إليكم من رَبكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكّرون ③﴾ ٥٨

ـ أحوال الإنسان بالنسبة إلى المعارف ٦٢

ـ قيمة التذكر وأثره في السلوك ٦٥

ـ **مراتب تأثير ذكر الله في قلوب المؤمنين** ٧٠

(١) مرتبة الوجل ٧٠

(٢) مرتبة الخشوع ٧١

(٣) مرتبة الطمأنينة ٧٢

ـ مقادير الذكر والتذكر في الأزمان والأحوال ٧٢

الموضوع **الصفحة**

● ﴿وَكم مِنْ قرية أهلكنَاها فجاءها بأسُنا بياتاً أوهم قائلون (٤)﴾ ٧٨

● ﴿فَمَا كان دعواهم إذْ جاءهم بأسُنَا إلاَّ أن قالُوا إنَّا كُنّا ظالِمين (٥)﴾ . ٧٨

ما جاء من وعيد بالإهلاك المعجل في السور النازلة قبل الأعراف ٨٣

● ﴿فَلَنسْألَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إليهم ولَنَسْألَنَّ المرسلين (٦)﴾ وحتى الآية (٩)

تمهيد ٨٥

التدبر: ٨٦

● ﴿فَلَنقُصّنّ عليهم بعلم وما كنّا غائبين (٧)﴾ ٨٧

● ﴿والوزن يومئذٍ الحق... (٨)... (٩)﴾ ٨٨

ـ امتنان الله على عباده بإنزال الحق والميزان ٩٠

ـ نظرة تحليلية إلى الميزان والموازين على اختلافها ٩١

ـ الدليل على إنزال الحق وإنزال الميزان ٩٢

ـ وزن أعمال العباد يوم الدين ٩٦

● ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازينُهُ فأولئك هم المفلحون (٨)﴾ ٩٨

● ﴿ومَنْ خَفّت موازينة فأولئك الذينَ خَسِرُوا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩)﴾ ٩٨

● ﴿ولقد مكّنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون (١٠)﴾ ١٠٠

ـ قضايا الدرس الأول من دروس سورة الأعراف ١٠٣

(٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة الأعراف الآيات من (١١ ـ ٢٥) ١٠٥

تمهيد ١٠٦

● ﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قُلْنَا للملائكة اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إلاَّ إبليس لم يكن من السّاجدين (١١)﴾ ١٠٧

● ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ ألاّ تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ (١٢)﴾؟ ١١٢

● ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين (١٢)﴾ ١١٣

ـ توجيه السؤال لإبليس في ثلاثة مجالس ١١٥

● ﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخْرُجْ إنَّكَ من الصّاغرين (١٣)﴾ ١١٧

الموضوع **الصفحة**

- ● ﴿قال أنظرني إلى يوم يُبعثونَ * قال إنّكَ من المنظرين (١٥)﴾ ١١٨
- ● ﴿قال فبما أغويتني لأقْعُدَنّ لهم صراطك المستقيم (١٦)... (١٧)﴾ . ١٢٠
- ● ﴿قال اخْرُج منها مذؤوماً مَدْحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين (١٨)﴾ ١٢٥

ـ مما جاء في السنة حول ملء جهنم بالكافرين ١٢٦

- ● ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجُك الجنّة فكُلا من حيث شئْتُما وَلاَ تَقْربا هٰذِهِ الشجرة فتكونا من الظالمين (١٩)﴾ ١٢٩
- ● ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ورُوي عنهما من سَوْآتِهما... (٢٠).... (٢١)﴾ ١٣١
- ● ﴿وقاسَمَهما إني لكما لَمِنَ الناصِحين * فَدَلاّهُما بغُرُور﴾ ١٣٧
- ● ﴿فلّما ذاقا الشجرة بَدَت لهما سوآتهما وطفقا يخْصِفَان عليهما من ورق الجنة... (٢٢)﴾ ١٤١
- ● ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلهكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوٌ مبين (٢٢)﴾ ١٤٣
- ● ﴿قالا رَبّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لَنا لنكونن من الخاسرين (٢٣)﴾ ١٤٥
- ● ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين (٢٤)﴾ ١٤٦
- ● ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجُون (٢٥)﴾ ١٥٠

(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة الأعراف الآيات من (٢٦ ـ ٣٦) ١٥١

تمهيد ١٥٢

التدبر ١٥٤

- ● ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتِكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلّهم يذكّرون (٢٦)﴾ ١٥٤
- ● ﴿يا بني آدم لا يفتنّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسَهُما ليُريهما سوآتهما إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعَلْنا الشياطين أولياء للذين لاَ يُؤْمِنُون (٢٧)﴾ ١٥٨
- ● ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عليها آبَاءَنا والله أمرنا بها قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون علَىٰ الله ما لا تعلمون (٢٨)﴾ ١٦٣

الموضوع الصفحة

- أوّل داع لمعصية الله في التاريخ البشري داعي الفاحشة ١٦٤
● ﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجُوهكم عند كلّ مسجد وادْعُوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودونَ * فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة إنّهم اتخذوا الشياطين أولياء من دُون الله ويحْسَبُونَ أنّهم مهتدون (٢٩)﴾ ١٦٩

تمهيد ١٦٩

- في هاتين الآيتين خمس قضايا ١٧١
- **القضية الأول**: [قُلْ أمر ربّي بالقسط] ١٧١
- **القضية الثانية**: [وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد] ١٧٢
- **القضية الثالثة**: [وادْعوه مخلصين له الدين] ١٧٥
- **القضية الرابعة**: [كما بدأكم تعودون] ١٧٦
- **القضية الخامسة**: [فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة] ١٧٧
● ﴿يَا بني آدم خُذوا زينتكم عند كل مسجد.. (٣١) وحتى الآية (٣٣)...﴾ ١٧٩

تمهيد ١٧٩

التدبر ١٧٩

- **القضية الأولى**: [يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مَسْجِد] ١٧٩
- **القضية الثانية**: [وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا إِنَّهُ لا يحب المسرفين] ١٨٠
- التحريفات في الجاهليات الأولى لأحكام الألبسة والمآكل والمشارب الربانية ١٨٣
● ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق... (٣١)﴾ ١٨٦
● ﴿قل هي الذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾ ١٨٧
● ﴿قل إنما حرم رَبّي الفواحش ما ظهر منْها وما بطَن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وأن تقولُوا على الله ما لا تعلمون (٣٣)﴾ ١٨٨
وفيها حصر المحرّمات في خمس كليّات ١٨٩
الكليّة الأولى: الفواحش ما ظهر منها وما بطن ١٨٩

الموضوع **الصفحة**

الكلية الثانية: الإثم ١٩١
الكلية الثالثة: البغي ١٩٢
الكلية الرابعة: الشِّرْكُ بالله ١٩٣
الكلية الخامسة: أن يتقوَّل العباد على الله ما لا يعلمون أنّه من عند الله ١٩٦
- ﴿وَلِكُلِّ أمَّةٍ أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ۝٣٤﴾ ١٩٨

تمهيد ١٩٨
التدبر ١٩٩
- ﴿يَا بَني آدَمَ إمّا يأتينكم رُسُلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي فمن اتّقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذّبوا بآياتنا واسْتكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدُون ۝٣٦﴾ ٢٠١

(٨) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (الأعراف) الآيات من (٣٧ ـ ٥٣) ٢٠٧
تمهيد ٢٠٨
التدبر ٢١٠
- ﴿فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذّبَ بآياته أولئك لَهُمْ نصيب من الكتاب...﴾ (الآية ٣٧) ٢١٠

وتشتمل على قضيتيْن بعد بيان أنهم من أظلم الظالمين: ٢١١
القضية الأولى: تتعلّق برحلة هؤلاء الظالمين في الحياة الدنيا ٢١١
القضية الثانية: تتعلّق ببيان حالتهم حينما تأتيهم ملائكة الموت ٢١٢
- ﴿قال ادْخُلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس في النار كلّما دخلت أمّة لعنت أختها...﴾ الآية ٣٨ والآية ٣٩ .... ٢١٤

وتشتمل هاتان الآيتان على أربع لقطات من مشهد يوم الدين بشأن هؤلاء الظالمين ٢١٤
اللّقطة الأولى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس في النار﴾ ٢١٤
اللّقطة الثانية: ﴿كُلما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لعنت أختها﴾ ٢١٥
اللّقطة الثالثة: ﴿حَتَّىٰ إذا ادّاركوا فيها جميعا.. ۝٣٨﴾ ٢١٥

الموضوع **الصفحة**

اللطقة الرابعة: ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل... (٣٩)﴾ ٢١٩

- ﴿إنَّ الّذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يَدْخلون الجنة﴾ الآية (٤٠).... والآية (٤١)﴾ ٢١٩

وتشتمل هاتان الآيتان على ست قضايا ٢٢٠

القضية الأولى: ﴿لا تُفَتَّحُ لهم أبواب السماء﴾ ٢٢٠

حديث: «إنّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه...» ٢٢١

القضية الثانية: ﴿ولاَ يَدْخلون الجنّة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط﴾ ٢٢٤

القضية الثالثة: ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ ٢٢٦

القضية الرابعة: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ ٢٢٧

القضية الخامسة: ﴿ومن فوقهم غَوَاشٍ﴾ ٢٢٧

القضية السادسة: ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ ٢٢٨

- ﴿والّذين آمنوا وعملوا الصالحت لا نكلّف نفساً إلاّ وسْعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ الآية (٤٢) وبعض الآية ٤٣ .... ٢٢٩
- ﴿والذين آمنوا وعملوا الصّالحات﴾ ٢٢٩
- ﴿لا نُكلّف نفسا إلاّ وُسْعها﴾ ٢٣١
- ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (٤٢)﴾ ٢٣٢
- ﴿وَنزعْنَا مَا في صُدُورهم من غلٍّ﴾ ٢٣٣
- ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ ٢٣٤
- ﴿وقالُوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ ٢٣٦
- ﴿وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ ٢٣٦
- ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبّنا بالحقّ﴾ ٢٣٧
- ﴿وَنُودوا أَنْ تلكم الجنّة أورثتموها بما كُنْتُم تعْلَمُون (٤٣)﴾ ٢٣٨
- ﴿وَنَادَىٰ أصحاب الجنّة أصحابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنا مَا وَعَدنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتم مَا وَعَدَ رَبكُم حَقًّا قالُوا نعم... (٤٤).... (٤٧)﴾ ٢٣٩

تمهيد ٢٣٩

التدبر ٢٤١

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَنَادى أصحاب الجنة.... قالوا نعم.... (٤٤)﴾ ٢٤١
- ﴿فأذَنَ مُؤَذِن بينهم أن لعنة الله عى الظالمين (٤٤)﴾ ٢٤٢
- ﴿الذين يصُدُّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجاً وهم بالآخرة كافرين (٤٥)﴾ ٢٤٣
- ﴿وَبينهما حجاب﴾ ٢٤٥
- ﴿وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاًّ بسيماهم﴾ ٢٤٥
- ﴿وَنادَوا أصحاب الجنة أن سلامٌ عليكم لم يَدْخلوها وهم يطمعون (٤٦)﴾ ٢٤٧
- ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أبصارُهم تلقاء أصحاب النار قالوا رَبَّنَا لاَ تجعلنا مع القوم الظالمين (٤٧)﴾ ٢٤٨
- ﴿وَنادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنىٰ عنكم جمعكم وَمَا كنتم تستكبرون * أهؤلاء الّذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة...﴾؟! ٢٤٩
- ﴿ادْخلوا الجنّة لا خوف عيكم ولا أنتم تحْزنون (٤٩)﴾ ٢٥٠
- ﴿وَنادى أصحابُ النار أصحاب الجنة أَنْ أفيضُوا علينا من الماء أو ممّا رَزقكم الله قالوا أنّ الله حرّمهما على الكافرين (٥٠)﴾ وحتى الآية ٥٣ . ٢٥١

تمهيد ٢٥٢

التدبر ٢٥٣

- ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة.... (٥٠)﴾ ٢٥٣
- ﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نَسُوا لقاء يومهم هذا وَمَا كانوا بآياتنا يجحدون (٥١)﴾ ٢٥٥

ـ صور اتخاذ الكافرين دين الله لهواً ولعباً ٢٥٩

كيف تغرّ الحياة الدنيا الإنسان؟ ٢٦٠

- ﴿فاليوم ننساهم... (٥١)﴾ ٢٦٤

ـ الصفات المذكورة في هذا النصّ للكافرين أصحاب النار ٢٦٧

- ﴿وَلَقَدْ جئناهم بكتابٍ فصّلْناهُ على علم هدىً ورحمةً لقوم يؤمنون (٥٢)﴾ وحتى الآية ٥٣ ..... ٢٦٨

تمهيد ٢٦٩

الموضوع **الصفحة**

التدبر: ٢٧٠

● ﴿ولَقَدْ جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون (٥٢)﴾ ٢٧٠

● ﴿هل ينظرون إلاّ تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نَسُوهُ من قبلُ قد جاءت رُسُل رَبّنا بالحقّ فهل لنا من شفعاء فيشفَعُوا لنا أو نُرَدُّ فنعمل غير الذي كنّا نعمل قَدْ خَسِرُوا أنفسهم وضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانوا يفترون (٥٣)﴾ . ٢٧٤

(٩) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة الأعراف الآيات من (٥٤ ـ ٥٨) ٢٧٩

القراءات ٢٨٠

الربط بموضوع السورة ٢٨٣

● ﴿إنّ رَبكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ على العرش يغشى الليل النهار يطلبُه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ألا له الخلْق والأمر تبارك الله رَبّ العالمين (٥٤)﴾ ... ٢٨٤

● ﴿ادعوا ربكم تضرّعاً وَخفيةً إنّه لا يحبّ المعتدين * وَلاَ تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادْعُوه خوفاً وطمعاً إِنَّ رَحْمَتَ الله قريب من المحسنين (٥٦)﴾ ٢٩٤

في هاتين الآيتين أربع قضايا تعليمية، وقضية ترغيبيّة ٢٩٥

القضية الأولى: ﴿ادعوا رَبكم تضرّعاً وخفية﴾ ٢٩٥

القضية الثانية: ﴿إنَّهُ لا يحبُّ المعتدين﴾ ٢٩٦

القضية الثالثة: ﴿ولا تُفسِدُوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ٢٩٨

القضية الرابعة: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ ٣٠٠

القضية الخامسة الترغيبية: ﴿إنّ رحمة الله قريب من المحسنين (٥٦)﴾ ٣٠٢

● ﴿هو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رَحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه إلى بلد ميت.... (٥٧)..... (٥٨)﴾ ٣٠٣

تمهيد ٣٠٣

● ﴿وهو الذي يُرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته﴾ ٣٠٤

● ﴿حتّى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً﴾ ٣٠٦

● ﴿سقناه لَبَلَدِ ميّتٍ فأنزلْنا به الماء﴾ ٣٠٧

الموضوع **الصفحة**

- ﴿فأخْرَجْنا به من كُلّ الثمرات﴾ ٣٠٧
- ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكّرون (٥٧)﴾ ٣٠٩
- ﴿والبلد الطيب يخرُج نباته بإذن ربّه والذي خَبُثَ لاَ يخرجُ إلاّ نكداً كذلك نصرّف للآيات قوم يشكرون (٥٨)﴾ ٣١٠

(١٠) التدبّر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (الأعراف) الآيات من (٥٩ ـ ١٧١) ٣١٥

مقدمة: حول ما اشتمل عليه هذا الدرس من لقطات مختارات موجزات من قصص سبعة رسل، وبيان مجمل عن رسُلٍ لم تذكر أسماؤهم وفيه سبعة فصول ٣١٥

الفصل الأول: التدبر التحليلي للّقطات المختارات في هذه السورة من قصة نوح عليه السلام وقومه، الآيات من (٥٩ ـ ٦٤) ٣١٦

القراءات ٣١٦

تمهيد ٣١٧

- الآية (٥٩) ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال...﴾ ٣١٨
- الآية (٦٠) ﴿فقال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ ٣٢٢
- الآيات (٦١ ـ ٦٢ ـ ٦٣) ﴿فقال يا قوم ليس بي ضلاله...﴾ وفي رد نوح ست قضايا ٣٢٣
- الآية (٦٤) ﴿فكذبوه فانجيناه والذين معه...﴾ ٣٣٢

الفصل الثاني: التدبر التحليلي للقطات المختارات في هذه السورة من قصة هود عليه السلام وقومه، الآية (٦٥ ـ ٧٢) ٣٣٤

القراءات ٣٣٤

تمهيد: وتعريف بعاد قوم الرسول (هود) ٣٣٥

التدبر ٣٣٧

- الآية (٦٥) ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله﴾ ٣٣٨
- الآية (٦٦) ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾ ... ٣٣٩
- الآيات (٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩) ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾ وقد اشتمل ردّ هود على تسع مقالات ٣٤٠
- الآية (٧٠) ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد﴾ ٣٤٧

الموضوع **الصفحة**

- الآية (٧١) ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ وقد اشتملت على ثلاث مقالات وجهها هود لقومه ٣٥٠
- الآية (٧٢) ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا﴾ ٣٥٢

الفصل الثالث: التدبر التحليلي للَقطات المختارات في هذه السورة من قصة صالح عليه السلام وقومه، الآيات من (٧٣ ـ ٧٩) ٣٥٣

القراءات ٣٥٤

تمهيد: وتعريف بثمود قوم الرسول صالح عليه السلام ٣٥٥

تلخيص ما جاء في القرآن بشأن ثمود ودعوة رسولهم صالح لهم ٣٥٦

حكايات تاريخية بشأن ثمود وإهلاك الله لهم ٣٦١

التدبر: ٣٦٨

- الآيتان (٧٣) و(٧٤) وفيهما ثماني مقالات وجهها صالح عليه السلام لقومه ٣٦٨

المقالة الأولى: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ ٣٦٩

المقالة الثانية: ﴿مَا لكم من إله غيره﴾ ٣٧٠

المقالة الثالثة: ﴿قد جاءتكم بيّنة من ربكم﴾ ٣٧٠

المقالة الرابعة: ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكُلْ في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴿٧٣﴾﴾ ٣٧٢

المقالة الخامسة: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد... ﴿٧٤﴾﴾ ٣٧٤

تأثير ذكريات التاريخ في النفوس ٣٧٥

المقالة السادسة: ﴿ويوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ ٣٧٥

المقالة السابعة: ﴿فاذكروا آلآء الله﴾ ٣٧٦

المقالة الثامنة: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا في الأرض مُفْسِدين... ﴿٧٤﴾﴾ ٣٧٧

- الآيتان (٧٥) و(٧٦) ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذي استضعفوا لمن آمَن منهم.... ﴿٧٦﴾﴾ ٣٧٨
- الآيات (٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩) ﴿فعقروا الناقة وعَتوا عن أمْر ربهم وقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * فتولّى عنهم... ﴿٧٩﴾﴾ ٣٨٠

الموضوع **الصفحة**

الفصل الرابع: التدبر التحليلي للّقطات المختارات في هذ السورة من قصة لوط عليه السلام وقومه (الآيات من (٨٠ ـ ٨٤) ٣٨٧

القراءات ٣٨٧

موجز عن لوط عليه السلام وقومه عند المؤرخين ٣٨٨

التدبر ٣٩٠

- الآيتان (٨٠) و(٨١) وتمهيد ٣٩٠
- ﴿ولُوطاً إذْ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها... (٨٠)﴾ ٣٩٠
- ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء... (٨١)﴾ ٣٩٣
- ﴿بل أنتم قوم مُسْرفون (٨٢)﴾ ٣٩٤
- ﴿وَمَا كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم... (٨٣)﴾ ٣٩٤
- ﴿فأنجيناه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين (٨٣)﴾ ٣٩٥
- ﴿وَأَمطَرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين (٨٤)﴾ ٣٩٦

الفصل الخامس: التدبر التحليلي للقطات المختارات من قصة شعيب عليه السلام وقومه. الآيات من (٨٥ ـ ٩٣) ٣٩٧

القراءات ٣٩٨

موجز عن شعيب وقومه عند المؤرخين ٣٩٩

التدبر ٤٠٢

تمهيد ٤٠٢

- الآيات من (٨٥ ـ ٨٧) وفيها بيان (١٣) قضية وجهها شعيب لقومه ... ٤٠٣
- ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا... (٨٥)﴾ ٤٠٣

القضية الأولى: ﴿قال يا قوم اعْبُدوا اللَّهَ﴾ ٤٠٣

القضية الثانية: ﴿ما لكم من إلّه غيره﴾ ٤٠٤

القضية الثالثة: ﴿قد جاءتكم بيّنة من ربكم﴾ ٤٠٤

القضية الرابعة: ﴿فأوْفُوا الكيلَ والميزان﴾ ٤٠٦

القضية الخامسة: ﴿ولا تبخَسُوا الناسَ أشياءهم﴾ ٤٠٧

القضية السادسة: ﴿وَلاَ تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ٤٠٨

القضية السابعة: ﴿ذلكم خير لكم إنْ كنتم مؤمنين﴾ ٤٠٩

القضية الثامنة: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعِدُون﴾ ٤٠٩

الموضوع **الصفحة**

القضية التاسعة: ﴿وتصدُّون عن سبيل الله من آمن به﴾ ٤١٠
القضية العاشرة: ﴿وَتبغونها عِوَجا﴾ ٤١١
القضية الحادية عشرة: ﴿واذكروا إذ كنتُم قليلاً فكثّركم﴾ ٤١٢
القضية الثانية عشرة: ﴿وانظرُوا كيف كَانَ عاقبةُ الْمُفسِدِين (٨٦)﴾ ٤١٣
القضية الثالثة عشرة: ﴿وإنْ كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصْبروا حتّىٰ يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين (٨٧)﴾ ٤١٣
- الآيات من (٨٨ ـ ٩٣) ٤١٥

تمهيد ٤١٦
التدبر ٤١٦
- ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لتخرجنك... (٨٨)﴾ ٤١٦
- الآيتان (٨٨) و(٨٩) وفيهما ثلاث مقولات جدلية وجههما شعيب لقومه، ومقولة ثبات، ومقولة دعاء لربه ٤١٧

المقولة الجدلية الأولى: ﴿قال أولو كنّا كارهين﴾ ٤١٨
المقولة الجدليّة الثانية: ﴿قد افترينا على الله كذباً إنْ عُدْنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ ٤٢٠
المقولة الجدليّة الثالثة: ﴿وَما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا﴾ ٤٢١
مقولة ثبات شعيب على موقفه: ﴿وسع رَبنا كلّ شيءٍ علماً على الله توكلنا﴾ ٤٢٣
مقولة دعاء شعيب ربّه: ﴿رَبَّنا افتح بيننا وبين قومنَا بالحقّ وأنت خير الفاتحين (٨٩)﴾ ٤٢٣
- الآية (٩٠) ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إِنَّكُمْ لخاسِرُون (٩٠)﴾ ٤٢٤
- الآية (٩١) ﴿فَأخذتهم الرجفة فَاصْبَحُوا في دارهم جاثمين (٩١)﴾ ٤٢٥
- الآية (٩٢) ﴿الّذين كذبُوا شعيباً كأن لهم يغْنَوا فيها.. (٩٢)﴾ ٤٢٦
- الآية (٩٣) ﴿فتولّىٰ عنهم وقال يا قوم لقد بلغتكم رسالات ربي... (٩٣)﴾ ٤٢٧

الفصل السادس: التدبر التحليلي لبيانِ مجملٍ عن أقوام ورُسُلٍ لم تذكر أسماؤهم مع تعقيب ختامي. الآيات من (٩٤ ـ ١٠٢) ٤٢٨
القراءات ٤٢٩
تمهيد ٤٣٠

الموضوع الصفحة

التدبر ٤٣١
- الآيتان: (٩٤ و(٩٥) ﴿وَمَا أَرسَلْنَا في قَرْيَة مِنْ نبيٍّ.. (٩٤)﴾ ٤٣١
- ﴿إلاّ أخذنا أهلها بالبأسَاء والضرّاء لعلّهم يضّرّعُون (٩٤)﴾ ٤٣٢
- ﴿ثمّ بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتّىٰ عَفَوْا وقالوا قدسّ آباءنا الضرّاء والسّرّاء.. (٩٥)﴾ ٤٣٤
- ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرُونَ (٩٥)﴾ ٤٣٥

المعنى العامّ للآيتين (٩٤ ـ ٩٥) ٤٣٦
- الآية (٩٦) ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقَوْا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (٩٦)﴾ ٤٣٧
- الآيات من (٩٧ ـ ٩٩) ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون (٩٧) أو أَمِن أهل القرى﴾ وحتى الآية ٩٩ .... ٤٤١
- الآيـة (١٠٠) ﴿أو لـم يَـهْـدِ لـلـذيـن يـرثـون الأرض مـن بـعـد أهلها.. (١٠٠)﴾ ٤٤٦

وقد جاء في هذه الآية بيان قانون ربّاني مؤلف من ثرلاث موادّ ٤٤٨
مراحل سنن الله في الأمم الأربع ٤٤٩
- الآيتان (١٠١) و(١٠٢) ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولَقَدْ جاءتهم رسُلُهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبُوا من قبل... (١٠١)....(١٠٢)﴾ ٤٥٢

تمهيد ٤٥٢
التدبر ٤٥٤
- ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها.. (١٠١)﴾ ٤٥٤
- ﴿ولقد جاءتهم رسُلهم بالبينات... (١٠١)﴾ ٤٥٤
- ﴿فما كانوا ليؤمِنُوا بما كذّبوا من قبل.... (١٠١)﴾ ٤٥٥
- ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (١٠١)﴾ ٤٥٥
- ﴿وَمَا وجَدْنَا لأكثرهم من عَهْدٍ وإِنْ وَجَدْنَا أكثرهم لفاسقين (١٠٢)﴾ .. ٤٥٦

الفصل السابع: التدبّر التحليلي للّقطات المختارات من قصة موسى وقومه في سورة (الأعراف). الآيات من (١٠٣ ـ ١٧١) وهو فصل طويل قسّمته إلى (١٢) فقرة ٤٥٧

الموضوع الصفحة

الفقرة الأولى: بَعْثُ الله موسى إلى فرعون وملئه بآيتي العَصا واليد الآيات من (١٠٣ ـ ١٢٦) ٤٥٧

القراءات ٤٥٨

التدبر التحليلي ٤٦٠

- ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (١٠٣)﴾ ٤٦٠
- الآيتان (١٠٤ ـ ١٠٥) ﴿وقال موسَى يا فرعون إني رسولٌ من رَبِّ العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلاّ الحق قد جئتكم ببيّنة من رَبكم فأرْسِل مَعِي بني إسْرَائيل (١٠٥)﴾ ٤٦٣
- الآية (١٠٦) ﴿قال إن كنت جئت بآيَةٍ فأتِ بها إن كنت من الصادقين (١٠٦)﴾ . ٤٦٧
- الآيتان (١٠٧ ـ ١٠٨) ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يَدَهُ فإذا هي بيضاء للناظرين (١٠٨)﴾ ٤٦٨
- الآيات من (١٠٩ ـ ١١٢) ﴿قال الملأ من قوم فرعون إنَّ هذا لسَاحِر عَلِيمٌ * يُريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمُرون * قالوا أرْجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم﴾ ٤٦٩
- الآيتان (١١٣ ـ ١١٤) ﴿وجاء السّحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين (١١٤)﴾ ٤٧٣
- الآيتان (١١٥ ـ ١١٦) ﴿قالوا يا موسى إمّا أن تُلْقِي وإمَّا أَنْ نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسِحْرٍ عظيم (١١٦)﴾ ٤٧٧
- الآيات من (١١٧ ـ ١٢٢) ﴿وأَوحَيْنا إلى موسى أن أَلْقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون * فوقع الحقّ وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا برَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وهارون (١٢٢)﴾ ٤٨٠

ـ الأفكار التي أضافها هذا النص على ما جاء في (يونس وطه والشعراء) ٤٨٢

- الآيتان: (١٢٣ ـ ١٢٤) ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنَّ هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لَأُقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنَّكُمْ أجمعين (١٢٤)﴾ ٤٨٣

الموضوع **الصفحة**

● الآيتان: (١٢٥ ـ ١٢٦) ﴿قالوا إنّا إلى ربّنا منقلبون * وما تنقم منّا إلاّ أن آمنا بآيات ربّنا لمّا جاءتنا ربّنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين (١٢٦)﴾ ٤٨٧

الفقرة الثانية: تمرّد فرعون وملئه وعنادهم واستكبارهم حتى إغراقهم الآيات من (١٢٧ ـ ١٣٧) ٤٩١

القراءات ٤٩٢

التدبر التحليلي ٤٩٢

● الآية (١٢٧) ﴿وَقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون (١٢٧)﴾ ٤٩٢

تمهيد ٤٩٣

تدبر الآية ٤٩٤

عقيدة القبط في عهود الفراعنة ٤٩٧

● الآيتان (١٢٨ ـ ١٢٩) ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصْبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون (١٢٩)﴾ ٤٩٨

وفيهما وصيتان ومقولتان بشأن سنتين من سنن الله في عباده: ٤٩٩

الوصية الأولى: ﴿استعينوا بالله﴾ ٤٩٩

الوصية الثانية: ﴿واصْبِرُوا﴾ ٤٩٩

والسنة الأولى: ﴿إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾ ٥٠٠

والسنة الثانية: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ٥٠٠

● الآيات من (١٣٠ ـ ١٣٢) ﴿ولقد أَخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلّهم يذّكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإِنْ تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ألاَ إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لاَ يعلمون * وقالوا مَهمَا تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لَكَ بمُؤمنين (١٣٢)﴾ ٥٠٣

● الآية (١٣٣) ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدّم آيات مفصلات فاستكْبَرُوا وكانوا قوماً مجرمين (١٣٣)﴾ ٥٠٩

الموضوع الصفحة

ـ شرح الآيات المفصلات ٥١٠

- الآية (١٣٤) ﴿ولمّا وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربّك بما عَهِدَ عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنَنَّ لك ولنرسِلَنَّ معك بني إسرائيل (١٣٤)﴾ ٥١٣
- الآيتان (١٣٥ ـ ١٣٦) ﴿فلمّا كشفنا عنهم الرّجز إلى أجل هم بالغُوهُ إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغْرَقناهم في الْيَم بأنّهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١٣٦)﴾ ٥١٥
- الآية (١٣٧) ﴿وَأورثنا القوم الذين كانُوا يُسْتضْعَفُون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعْرِشون (١٣٧)﴾ ٥١٧

ـ الأرض التي أورثها الله بني إسرائيل هي بلاد الشام ٥٢٠

الفقرة الثالثة: عبور بني إسرائيل البحر وقولهم لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. الآيات من (١٣٨ ـ ١٤١) ٥٢٢

القراءات ٥٢٢

التدبر التحليلي ٥٢٣

- الآية (١٣٨) ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (١٣٨)﴾ ٥٢٤
- الآية (١٣٩) ﴿إنّ هؤلاء متَبّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملُون (١٣٩)﴾ ٥٢٧
- الآية (١٤٠) ﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين (١٤٠)﴾ ٥٢٧
- الآية (١٤١) ﴿وَإِذْ أنجيناكم من آل فرعون يَسُومونكم سوء العذاب يقتّلون أبناءكم ويستحيّون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم (١٤١)﴾ ٥٢٩

تمهيد ٥٢٩

التدبر ٥٣١

الموضوع الصفحة

الفقرة الرابعة: ميعاد الميقات الأول وهو ميقات كتابة الألواح الآيات من (١٤٢ ـ ١٤٧) ٥٣٢

القراءات ٥٣٣

التدبر ٥٣٥

- الآية (١٤٢) ﴿وواعدنا موسىٰ ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين (١٤٢)﴾ ٥٣٥

وقد اشتمل أمر الاستخلاف على ثلاث مواد: ٥٣٧

المادّة الأولى: ﴿اخلفني في قومي﴾ ٥٣٧

المادّة الثانية: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ٥٣٧

المادّة الثالثة: ﴿وَلا تتّبع سبيل المفْسِدين﴾ ٥٣٨

- الآية (١٤٣) ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه رَبّه قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صَعِقاً فلّما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين (١٤٣)﴾ ٥٣٩

- الآية (١٤٤) ﴿قال يا مُوسى إنّي اصطفيتُكَ على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين (١٤٤)﴾ ٥٤٣

- الآية (١٤٥) ﴿وَكتبنا له في الألواح من كلّ شيءٍ موعظة وتفصيلاً لكلّ شيءٍ فخذهَا بقوّة وأمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين (١٤٥)﴾ ٥٤٧

تحليل معنى: ﴿يأخذوا بأحسنها﴾ ٥٥٠

- الآيتان (١٤٦ ـ ١٤٧) ﴿سأصرف عن آياتي الّذين يتكبرّون في الأرض بغير الحق وإن يَروا كلّ آية لاَ يُؤمنُوا بها وإن يَرَوْ سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يرَوْا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنّهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلاّ ما كانوا يَعْمَلُون (١٤٧)﴾ ٥٥٣

ـ أنواع آيات الله الكلامية، والإعجازية، والجزائية، والكونيّة ٥٥٤

ـ لماذا يصرف الله عن آياته بعض عباده ٥٥٥

الموضوع **الصفحة**

الفقرة الخامسة: اتخاذ بني إسرائيل العجل الآيات من (١٤٨ ـ ١٥٤) ٥٦٢
القراءات ٥٦٢
تمهيد ٥٦٤
التدبر ٥٦٧
- الآية (١٤٨) ﴿واتّخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً له خوار ألم يَرَوا أنه لا يكلمّهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين (١٤٨)﴾ ٥٦٩
- الآية (١٤٩) ﴿ولمّا سُقط في أيديهم ورأوا أنّهم قد ضَلّوا قالوا لَئِن لم يَرْحَمْنَا ربُّنَا ويَغفر لنا لنكونن من الخاسرين (١٤٩)﴾ ٥٧٠
- الآية (١٥٠) ﴿ولَمّا رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلَفْتموني من بَعْدِي أعجلْتُهم أمْرَ رَبكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه قال ابْن أمّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين (١٥٠)﴾ ٥٧٣

ـ معترضة حول ما جاء في سورة (طه) بشأن هذا الموضوع الذي جاء في الآية (١٥٠) ٥٧٩
- الآيتان (١٥٢ ـ ١٥٣) ﴿إنَّ الذين اتخذوا العجْلَ سينالُهُمْ غَضَبٌ من ربّهم وذلّة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إنّ ربّكَ من بَعْدِها لغفور رحيمٌ (١٤٠)﴾ ٥٩١
- الآية (١٥٤) ﴿ولمّا سكت عن موسىٰ الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدىً ورحمةٌ للّذين هم لرَبّهم يرهبون (١٥٤)﴾ ٥٩٤

الفقرة السادسة: ميعاد الميقات الثاني ميقات التوبة والاعتذار والشفاعة. الآيات من (١٥٥ ـ ١٥٧) ٥٩٦
القراءات ٥٩٧
تمهيد ٥٩٧
التدبر ٥٩٨
- الآية (١٥٥) ﴿واختار موسىٰ قومه سبعين رجلاً لميقاتنا. . .﴾ ٥٩٨
- ﴿فلمّا أخذتهم الرجفة﴾ ٦٠٠

الموضوع الصفحة

● ﴿قال رَبّ لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا . . ﴾؟ ٦٠٠
● ﴿إن هي إلاّ فتنتك﴾ ٦٠١
● ﴿تُضِلّ من تشاء وتهدي من تشاء﴾ ٦٠٢
● ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴿١٥٥﴾﴾ ٦٠٣
● الآية (١٥٦) ﴿واكتب لَنَا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنّا هُدْنا إليك . . . ﴾ ٦٠٥
● ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾ ٦٠٦
● ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يُؤمنون ﴿١٥٦﴾﴾ ٦٠٩
● الآية (١٥٧) ﴿الّذين يتّبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . . . ﴾ ٦١١
- صفات الرسول المبشر به محمد ﷺ وهي عشر صفات ٦١٣
- أمثلة من الأحكام الثقيلة التي كانت على بني إسرائيل ٦١٧
● ﴿فالّذين آمنوا به وعزّروه ونَصَرُوهُ واتّبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون ﴿١٥٧﴾﴾ ٦١٩
- من البشائر بالرسول النبيّ الأميّ الواردة في التوراة والإنجيل ٦٢١
- ما جاء في سورة (البقرة) من بيان العقوبة التي رتبها الله على الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل ٦٢٢
الفقرة السابعة: فقرة معترضة فيها تكليف الرسول محمّد بأن ينادي بأنه رسول الله للناس أجمعين ٦٢٧
● الآية (١٥٨) ﴿قل يا أيُها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً الّذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأمّيّ الذي يُؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون ﴿١٥٨﴾﴾ ... ٦٢٧
تمهيد ٦٢٧
التدبر التحليلي ٦٢٨
● ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً . . . ﴾ ٦٢٨
● ﴿الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيي ويميت﴾ ٦٢٩

الموضوع **الصفحة**

- ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون (١٥٨)﴾ ٦٣١

الفقرة الثامنة: من مِنَن الله على بني إسرائيل في التيه الآيتان (١٥٩ ـ ١٦٠) . ٦٣٣

القراءات ٦٣٣

التدبر التحليلي ٦٣٣٣

- الآية (١٥٩) ﴿ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون (١٥٩)﴾ ٦٣٣
- الآية (١٦٠) ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أُمَماً وأوحينا إلَىٰ موسى إِذِ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبَجسَتْ منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كلّ أناس مشربهم وظلّلْنَا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنّ والسّلوىٰ كلوا من طيبات ما رَزَقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١٦٠)﴾ ٦٣٦

ـ ذكر ما جاء في سورة (البقر) حول موضوع هذه الآية ٦٣٦

ـ اشتمل ما جاء في (الأعراف) وفي (البقرة) على سبع قضايا ٦٣٦

القضية الأولى: ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أُمَماً﴾ ٦٣٦

القضية الثانية: ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد عَلِم كلُّ أناسٍ مشربهم﴾ ٦٤٠

القضية الثالثة: ﴿وظَلّلنا عليهم الغمام﴾ ٦٤٢

القضية الرابعة: ﴿وأنزلنا عليهم المنّ والسَّلوىٰ﴾ ٦٤٤

القضية الخامسة: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ٦٤٥

القضية السادسة: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين (٦٠)﴾ من البقرة ٦٤٦

القضية السابعة: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ ٦٤٧

ـ قصة استسقاء بني إسرائيل عند أهل الكتاب ٦٤٩

الفقرة التاسعة: وعد الله بني إسرائيل بأن ينصرهم ويسكنهم القرية بشرطين، فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم. الآيتان (١٦١ ـ ١٦٢) والآيتان (٥٨ ـ ٥٩) من سورة البقرة. ٦٤٩

- ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سُجّداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون (١٦٢)﴾ ٦٤٩

الموضوع **الصفحة**

- التكامل بيْن نصّي (الأعراف) و(البقرة) ٦٥٠

القراءات في النص الذي من سورة (الأعراف) ٦٥٣

القراءات في النص الذي من سورة (البقرة) ٦٥٤

تمهيد ٦٥٤

التدبر التحليلي ٦٥٨

- الآية (١٦١) ﴿وإِذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطّة وادخلوا الباب سجّداً نغفر لكم حطيئاتكم سنزيد المحسنين ⑯١﴾ ٦٥٨
- الآية (١٦٢) ﴿فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ⑯٢﴾ ٦٦٢

- عبادة بعض بني إسرائيل الأوثان أخذاً من كتبهم ٦٦٧

الفقرة العاشرة: المعتدون في السبت من بني إسرائيل الآيات من (١٦٣ ـ ١٦٦) ٦٦٧

القراءات ٦٦٨

عرض ما جاء في سورتي (البقرة) و(النساء) حول هذا ٦٦٩

تمهيد ٦٦٩

قصة الّذين اعتَدَوا في السبت من بني إسرائيل ٦٧٢

خلاصة القصة كما ذكرها أئمة تفسير القرآن ٦٧٢

التدبر التحليلي ٦٧٤

تمهيد ٦٧٤

- الآية (١٦٣) ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ ٦٧٥
- ﴿إِذْ يعدون في السبت﴾ ٦٧٦
- ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ ٦٧٧
- ﴿كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ⑯٣﴾ ٦٧٨
- الآية (١٦٤) ﴿وَإِذْ قالت أمّة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ⑯٤﴾ ٦٧٩
- الآية (١٦٥) ﴿فلمّا نسوا ما ذكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السّوء وأخذنا الّذين ظلموا بعذابٍ بئيس بما كانوا يفسقون ⑯٥﴾ ٦٨١
- الآية (١٦٦) ﴿فلمّا عَتوا عمّا نُهوا عنه قلنا لهم كونوا قِردةً خاسئين ⑯٦﴾ .. ٦٨٣

الموضوع **الصفحة**

الفقرة الحادية عشرة: إعلام الله بني إسرائيل بأنه سيبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب مع بيان تقطيعهم في الأرض أُمَماً وبيان واقع حالهم الديني. الآيات من (١٦٧ ـ ١٧٠) ٦٨٥

القراءات ٦٨٦

التدبر التحليلي ٦٨٧

- الآية (١٦٧) ﴿وإذْ تأذّن ربّك ليبعثَنّ عليهم إلى يوم القيامة مَنْ يسومهم سوء العذاب إنّ ربّك لَسَريع العقاب وإنه لغفورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)﴾ ٦٨٧

تمهيد ٦٨٧

التدبر ٦٨٨

- الآية (١٦٨) ﴿وقطعناهم في الأرض أُمَماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلّهم يرجعون (١٦٨)﴾ ٦٩١

ـ بيان أسباب عقاب الله بني إسرائيل بالتشتيتِ في كُتُبِهِم ٦٩٥

- الآية (١٦٩) ﴿فخلف من بعدهم خلْفٌ ورثُوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا وإن يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه ألم يُؤْخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (١٦٩)﴾ ٦٩٦

تمهيد ٦٩٦

التدبر التحليلي ٦٩٧

- ﴿فخلف من بعدهم خلْفٌ﴾ ٦٩٧
- ﴿ورثوا الكتاب﴾ ٦٩٨
- ﴿يأخذون عرض هذا الأدْنَىٰ ويقولون سَيُغفر لنا﴾ ٦٩٩
- ﴿وإنْ يأتيهم عرض مثلُه يأخذوه﴾ ٧٠٠
- ﴿ألم يُؤخذ عليهم ميثاقُ الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق ودرسوا ما فيه (١٦٩)﴾ ٧٠١

ـ مما في كتب أهل الكتاب بشأن ما أخذ عليهم من ميثاق ٧٠١

- ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (١٦٩)﴾ ٧٠٢
- الآية (١٧٠) ﴿والّذين يُمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاةَ إنّا لاَ نُضيع أجْرَ المصلحين (١٧٠)﴾ ٧٠٣

الموضوع الصفحة

الفقرة الثانية عشرة: رفع الجبل فوق بني إسرائيل ليأخذوا الكتاب بقوة ويذكروا ما فيه. الآية (١٧١) ٧٠٦
تمهيد ٧٠٦
التدبر ٧٠٩
- ممّا في كتب بني إسرائيل من أمْرٍ لهم بأن يتذكروا ما في كتابهم ٧١١
تأريخ الفراغ من كتابة هذا المجلد الرابع ٧١٢

* * *

معارج التفكر
ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

المجلد الخامس

تفسير سور

تابع تفسير سورة الأعراف (٣٩)
من الآية (١٧٢) وحتى آخر السورة وملاحقها
وتفسير سورة الجن (٤٠) وملاحقها

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

حُقوقُ الطبْع محْفوظَة لِلمؤلِّف

تُطلبُ جميعُ كتبنا مِنْ :
دارُ القلمِ - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدارُ الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دارُ البشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

(١١)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٧٢ ـ ١٧٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾.

القراءات:

(١٧٢) ● قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، **[ذُرِّيّاتِهِمْ]** بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[ذُرِّيَّتَهُمْ]** بالإفراد.

والقراءتان وجْهان عَرَبيّانِ متكافئان، لأنّ لفظ «ذُرِّيَّة» بالإفراد اسْم جنْس، وبإضافته إلى ضمير بني آدم دلَّ علَىٰ كلّ ذُرِّيَّتهم، فتساوى في الدّلالَةِ هُنَا الإفرادُ والْجَمْع.

(١٧٢ ـ ١٧٣) ● قرأ أبو عمْرو: **[أَنْ يَقُولُوا]** ـ **[أَوْ يَقُولوا]** بضمير الغائبين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[أَنْ تَقُولُوا]** ـ **[أَوْ تَقُولُوا]** بضمير المخاطبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، ففي الخطاب يُواجِه اللَّهُ عزّ وجلّ مُنكري رُبوبيّته جلّ جلالُه، وفي الحديث بالغيبة يخاطب الله عزّ وجلّ

المؤمنين، فيُعَلِّمُهُمْ طريقةً من طرائق إقناع المنكرين، ويُنَبِّئُهُمْ بما يُقَوِّي إيمانهم، ويحُذِّرُهم من الإنكار والجحودِ مستقبلاً.

تمهيد:

هذا دَرْسٌ يَتَعَلَّقُ بفِقْرَةٍ مُهِمَّةٍ من تاريخ ذُرِّيَّةِ بني آدم، وهُمْ في مَرْحَلَةِ التكوُّن الذَّرّيّ، إذْ كَانُوا فِي ظُهُورِ آبائِهِم، فاسْتَخْرَجَهُمْ اللَّهُ رَبّهم، وأعْطَاهُمْ مَلَكَةَ الْوَعْي، وإدْرَاكِ الخطاب بما يَفْهَمُونَ، وأشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أنفسِهم قائِلاً لَهُمْ: ألَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالُوا تِلْقَائِيًا وانسِجاماً مَعَ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُمْ اللَّهُ عليها: بَلَىٰ شَهِدْنا أنت رَبُّنَا، أي: أنْتَ خالِقُنَا وَمُمِدُّنَا بِعَطَاءَاتِ رُبُوبيّتِك، والمتصرِّف فينَا بتصَارِيفِكَ، ما أَبقيتَنَا في الوجود على اخْتِلافِ مراحله، منْذُ النَّشْأَةِ الأولَىٰ في عَالَم الذَّرَّاتِ، حتَّىٰ البقاء الأبديّ الّذي تقضيه لَنَا.

وأُلحِق بهذَا الدَّرْسِ آيَةٌ فَاصِلَةٌ تُبَيِّنُ سُنَّةَ اللَّهِ في بيانه في كتابه، الْقَائِمَةِ على تَفْصِيل الآياتِ إلَىٰ أجْزَائِها، والتعريفِ بها، في أماكِنَ مختَلِفَةٍ من السُّوَر.

إنّ الفطرة التي فطر الله النّاس عليها من الاعترافِ للرَّبِّ الخالِقِ الواحِدِ الأحَدِ برُبُوبيتِهِ لهم، والإذْعَان لَهُ بهذا الحقّ، قَدْ أشْهَدَ اللَّه به الناسَ على أنفُسِهم وهم في مَرْحَلَةِ عالَم الذَّرّ، وهُمْ خالُونَ مِنْ شهواتِ الحياة ونَزَعَاتها ونَزَغَاتِها، قبْلَ أنْ يُوصِلَهُمْ بعَمَلِيَّاتِ الخلْقِ إلى مَرْحَلَةِ حَيَاةِ الابْتِلاءِ، مزَوَّدِين بالأهواء والشهوات، والنزعَاتِ والنَّزَغَاتِ، والإرادة الحرَّة، والْقُدْرَةِ علَىٰ كَسْبِ الْخَيْرِ، واكْتِسَابِ الشرّ.

وَكان ذلك الإشهادُ بِصُورَةٍ أَخبَرَنَا الله عنها فِي كتابه المنزَّل، بَعْدَ أن لم يَبْقَ لَهَا في ذاكراتِنَا صُوَرٌ تُدْرَكُ، لَكِنْ بَقِيتْ أدِلَّةُ المشْهُودِ بِهِ فِي عُقُولِنَا المفكِّرَة، وبَقِيتْ خُيُوطٌ تَشُدُّنَا إلَيْهِ فِي مَشَاعِرِ إحْسَاسَاتِنَا الداخِلِيَّةِ العميقة، الّتي تتحَرَّكُ بِهَا قُلُوبُنَا، وتَجْذِبُنَا نَحْوَهُ عِنْدَ اضْطِرارِنا، وعِنْدَ حَاجَاتِنَا

الْمُلِحَّة، الَّتِي لاَ نَجِدُ أسباباً لتحقيقها غيْرَ اللُّجوءِ إلَىٰ الْقُوَّةِ الغَيْبيَّة الكُبرَىٰ، الْعَلِيمةِ الحكِيمَةِ الرَّحِيمَةِ القَدِيرَةِ علَىٰ كلّ شيْءٍ.

ولَيْس من الْعَقْل والرُّشْدِ أن نستَبْعِدَ هٰذا، فَمُعْظَمُ مَا جَرَىٰ لَنَا في طُفُولَتِنا، وكثيرٌ ممّا جرَىٰ لنا ونحن أحْدَاثٌ مُمَيِّزُونَ قَدْ نَسِيناهُ، ويُخْبِرُنَا عَنْهُ أَهْلُونَا والَّذِينَ كَانُوا مُشْرِفِينَ علىٰ تَرْبِيَتِنَا، فَنَحْنُ نُحدِّث بِهِ رِوايَةً عَنْهُمْ.

وبَعْضه نَتَذَكَّرَهُ تَذَكُّراً باهِتاً، وبعْضُهُ نَتَذَكَّرُهُ وفيه مقدارٌ غيْرُ كثيرٍ مِنَ الْجَلاءِ، وبَعْضُهُ نَتَذَكَّرُهُ جَلِيًا.

ونُصَدِّقُ ما يُحَدِّثُنَا بِهِ أَهْلُونا عَنْ طُفُولَتِنا، وما يُحَدِّثُنَا بِهِ مَنْ كانُوا مُشْرِفين علىٰ تَرْبِيَّتِنا، وكثِيرٌ منْهُ قد اكْتَسبْنَا به معارِفَ وعُلُوماً، وصَارتْ هذه المعارفُ والْعُلُومُ أجزاءً من ذواتِ عُقُولِنَا وأفكارنا، وفي مَهاراتِ أعضائنا.

لقد تعلَّمْنا اللّغة الّتي نتحدَّثُ بها، وحِينَ بدأنَا تَعَلُّمَها كُنَّا شاهِدِينَ كُلَّ مَرْحَلَةٍ من مراحِلها، لكنَّنا بَعْد أن كَبِرْنَا نَسِينَا كُلَّ هٰذِهِ المراحِلِ الَّتي عِشْناها وَشَهِدْناها، وبَقِيَتْ لدَيْنَا آثارُها وثَمرَاتُها، فالملَكَةُ البيانيَّة، ومَحْفُوظاتُنا من الكَلِمَاتِ ثَمَرَةُ تِلْكَ المراحلِ.

أَفَنُنْكِرُها لأنّنا نَسِيناها؟!

أَفَنُكَذِّبُ من يُحدِّثُنا عَنْها لأَنَّها مُسِحَتْ من ذاكراتنا، أَوْ طُوِيَتْ في أَعْمَاق تَلافِيفِها؟!

لَوْ لم يُحَدِّثْنا أَهْلُونَا وَمُرَبُّونا عنها، لكان عَلَيْنا أنْ نُثْبِتَها بِدَلِيلِ آثارها فينا.

كذَلِكَ نَقُولُ فيما أخبرنا الله عزّ وجلَّ خالِقُنَا وَرَبُّنَا عَنه، من أَنَّهُ أَشْهَدَنَا على أَنْفُسِنَا بأنه رَبُّنَا، أي: خالِقُنَا ومُمِدُّنَا بعطاءات رُبوبيته دواماً، مُنْذُ كُنَّا في مَرْحَلَةِ عالَم الذرّ، من مراحِل بذْءِ تكْوِيننا، وهي غير مراحِلِ عَوالم التحرُّكِ من الأصلاب، إلى الأرحام، إلى الحياة الدنيا.

وهذه قصّة مضت من تاريخ مراحِل تكويننا، قد أخبرنا الله عز وجل عنها في هذا النصّ.

لقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ العلِيم الحكيم القدير، أن يَخْلُق من شاء أن يخلقهم من النّاس بمختلف صُوَرِهِم وصفاتهم، وقضىٰ لكلّ واحد منهم وقْتاً يظهر فيه في عالم الابتلاء، وعُمْراً يعيشُه، وظُرُوفَ امْتِحانٍ يتعرّض لها.

ولمّا خَلَقَ الله عزّ وجلّ آدم عليه السّلام، أوْدَع في ظَهْرِهِ كلَّ ذُرِّيَّاتِه إلَىٰ أنْ تقومَ الساعة، وجَعَلَهُمْ مُتَداخِلِينَ بعْضَهُمْ في بعض، على وفْقِ نِظام تناسُلِهم الذي ظهر فيما بَعْدُ.

دلَّنا علىٰ هذا ما جاء في بيان الرَّسُول ﷺ لهذا الأخْذِ الّذي ذكَرَهُ الله عزّ وجلّ في هذا النصّ، إذْ جاء في بيان الرسُولِ أنَّ اللَّهَ مسَحَ على ظَهْرِ آدم، فاستخرج مِنْهُ كلَّ ذُرِّيَّته، وأشْهَدَهُمْ على أنْفُسِهم.

روَى الإمام أحْمَدُ بسنَدِهِ عن ابْن عباس عن النبي ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ أَخَذَ المِيثَاق مِنْ ظَهْرِ آدم عليه السّلام، بنُعْمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا⁽¹⁾، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبلاً⁽²⁾، قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ شَهِدْنَا».

وجاءَ هذا الحديث موقوفاً على ابْنِ عبّاس، فيما روَى النَّسَائي، وابْنُ جَرِيرٍ، وابْنُ أبي حَاتِم، والحاكم في مُسْتَدْرَكِهِ، وقال: صحيح الإسناد، وكذا رواه غيرهم.

وقال الضَّحَّاكُ بْنُ مُزاحِمٍ: حدّثَنِي ابْنُ عبّاس:

«إنَّ اللَّهَ مَسَحَ صُلْبَ آدَمَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ كلَّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إلىٰ يَوْمِ

---

(١) ذَرَأها: أي خلقها.

(٢) قُبلاً: أي: مُوَاجةً وعِياناً.

الْقِيَامَة، فأخَذَ مِنهُمْ المِيثَاقَ أَنْ يَعْبُدُوه، ولاَ يُشْرِكُوا بِهِ شيئاً، وَتكَفَّلَ بالأَرْزَاقِ، ثُمَّ أَعَادَهُمْ في صُلْبِهِ، فَلَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، حتّىٰ يُولَدَ مَنْ أعْطَىٰ الْمِيثَاقَ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنهُمُ الْمِيثَاقَ الآخَرَ فَوَفَّىٰ بِهِ، نَفَعَهُ الْمِيثَاقُ الأوّل، ومَنْ أَدْرَكَ المِيثَاقَ الآخَرَ فلَمْ يُقِرَّ بِهِ لم يَنْفَعْهُ الْمِيثَاقُ الأَوَّل، ومَنْ ماتَ صَغِيراً قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ الْمِيثَاقَ الآخَرَ، مَاتَ عَلَىٰ المِيثَاقِ الأوَّل علَىٰ الفِطْرَةِ».

أقول: الميثاقُ الآخر هو ميثاقُ الدُّخولِ في الإسلام، بإعلان، «لاَ إلَهَ إلاَّ الله» في حياة الابتلاء، والْعَهْدِ على الالْتِزام بمقتضاها.

وما جاء موقوفاً على ابْنِ عباسٍ في هٰذا، لا يُقَالُ من قِبَلِ الرأي، فَلَهُ في الراجِحِ حُكْمُ الحديثِ المرفُوع إلى رسولِ الله ﷺ.

التدبّر:

قول الله عزّ وجل:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ... ﴿١٧٢﴾﴾.

[إذْ]: ظرف زمان بمعنى «الحين» وهو معمول لفعلٍ محذوف تقديره، [اذكر].

أي: وضعْ في ذاكِرَتك أيُّها الصَّالِحُ لتلَقّي هذا النَّبأ حينَ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتهم.

والمعْنَىٰ أَخَذَ من ظَهْرِ كلِّ واحِدٍ منْهُمْ ذُرِّيَّته، ونَفْهَمُ كيْفَ كَانَ هٰذا حين نُدْرِكُ أَنَّ مُصَغَّرَ كلِّ إنْسَانٍ قَدْ أَوْدَعَ اللّهُ في ظَهْرِهِ مُصَغَّرَاتِ كلِّ مَنْ سيَخْرُجُ من نَسْلِه، وتَتَسَلْسَلُ الظُّهور والمصَغَّراتُ في كلٍّ مِنْها، مُتَداخِلَةً بعضها في بَعْضٍ، حتَّىٰ آخِرِ نَسْلٍ من النّاس.

وليس هذا مِمَّا يُسْتَبْعَدُ على قُدْرَةِ اللّهِ جلَّ جلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ فقد

اكْتَشَفْنَا فِي عَصْرِنا الحاضِرِ مِنَ المصَغَّراتِ الذَّرِّيَّةِ المتداخِلَة ما لو انْتَشَرَ وكَبُرَ بخصائِصِهِ لمَلأَ العالَمَ، وقُدْرَةُ الله أعْظَمُ وأجَلّ.

إنَّ خَلْقَ اللّهِ المتقَنَ خَلْقٌ مُدْهِشٌ مُحَيّر، سواءٌ فيما أتْقَنَ مِنَ المصَغَّراتِ الّتي قَدْ يجمعُ مِقْدَارُ رأس الإبرَةِ مِنْها، عشراتِ مَلايين الْوَحَدَاتِ ذواتِ الصفات الخاصة، الّتي لو كُبّرَتْ لكانت خَلْقاً مُدْهِشاً. أم فيما أتْقَنَ ـ جَلَّ جلاَلُهُ ـ من المكبَّرَاتِ اللاتِي لا يَسْتَطِيعُ الوهْمُ إدْراكَ مَدَاها.

والمراد بالأَخْذِ هُنا القبضُ والاستخراجُ من مُسْتَقَرِّ أصلاب الذكور، للذّرّيّة الإنسانيّة كلّها، المقدّر إيجادُها في أزمانها المحدّدة لظهورها في حياة الابتلاء على هذه الأرض.

قول الله تعالى:

- ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ... ﴿١٧٢﴾﴾.

أي: جعَلَهُمْ يَشْهَدُونَ على أنفُسِهِمْ بأنَّهُ رَبُّهُمْ، خَالِقُهُمْ ومُمِدُّهُمْ بِعَطَاءاتِ رُبُوبيَّتِهِ مَا دَامُوا في الوجود، ومُهَيْمنٌ علىٰ كلِّ شيءٍ فيهم.

وهٰذا يَدُلُّ علىٰ أنَّهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ قَدْ عَرَضَ عَلَيْهِمْ ما شَاهَدُوا به أفْعَالَ رُبُوبيَّته لَهُمْ، فلمَّا شاهَدُوها شَهِدُوا بأَنَّهُ ربُّهُمْ، ويَدُلُّ أيضاً على أنه مَنَح مُصَغّرات ذُرِّيَّةِ آدم حينئذٍ وَعْياً إدْراكيًا لفهم الخطاب، ولفهم معنى الرُّبوبيّة، ولِفَهْمِ مَعْنَىٰ الْإقرار والشهادَة على أنفسهم، وبعد ذلك أشهدهم على أنفسهم.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: استفهام تقريريٌّ عَنْ نَفْي رُبُوبيَّتِهِ لهم، وجَوابُهُ في حَالَةِ إثبَاتِ الرُّبُوبيَّةِ يكون بحرف «بَلَىٰ» إذْ هو حرْفُ جواب يختصُّ بالنَّفْي، ويُفيدُ إبطالَهُ وإثباتَ نَقِيضِه، ولا يَصْلُح في هذا الاستفهام ولا في أمثاله الجوابُ بحَرْفِ «نَعَمْ» لأنَهُ يَدُلُّ عَلَىٰ الإقرار بنَفْي رُبُوبيَّتِهِ لهم، فكأَنَّهُمْ قالُوا: نعم لسْتَ بِرَبّنا، وهٰذا نَقِيضُ مَا أشْهَدَهُمْ عليه.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾: أي: أجابُوا بإبطالِ نَفْي رُبَّيتِه لهم، وإثْبَاتِ نَقِيضِهِ، وهو رُبُوبِيَّتُهُ لهم، وأعْلَنُوا أنَّهُمْ قَدْ شَهِدُوا علَىٰ أنْفُسِهِمْ مُعْتَرِفينَ بأنَّهُ جلَّ جلالُهُ هو رَبُّهُمْ، أي: بَلَىٰ، أنت رَبُّنَا، ونَشْهَدُ بهذا على أنفسنا.

أَمَّا تفصيلُ كيْفَ أشْهَدَنَا علىٰ أنفسنا، فقِصَّةٌ من الْغَيْبِ عنَّا، بَعْدَ أنْ نَسِينَاها، فَهِيَ مطْوِيَّةٌ في أعْمَاقِ ذَاكِرَاتِنَا، الَّتِي لا تُدْرِكُ رُؤيَتُنَا الحاضِرَةُ مِنْها إلاَّ القليل مِنْها.

لكِنَّ خَبَرَ اللَّهِ عزّ وجلّ عَنْ حُدُوث هذا الأَمْرِ، ونَحْنُ في مرحَلَةٍ من مراحِلِ أطوار وجُودِنا خَبَرٌ حقٌّ لاَ رَيْبَ فِيه، وقَدْ بَقِيتْ لَدَيْنَا آثارُ هذا الإشْهادِ، وهي الْفِطْرَةُ الَّتِي بِهَا نُدرِكُ الخالِقَ الرَّبَّ جلّ جلالُه، وتَشُدُّنا إلَيْهِ عنْدَ الضَّرُورَةِ، فَنَدْعُوهُ، ونَلْجأُ إلَيْه، وتَشُدُّنَا إلَيْه المشاعر الدّاخليَّةُ النفسيَّةُ والْقَلْبيَّةُ، لنُمَجِّدَهُ، ونَحْمَدَهُ، ونُعظِّمَهُ، ونَعْبُدَه.

فدليلُ الْعَقْلِ، ودَلِيلُ الفِطْرَةِ النفسيَّةِ والقلْبيَّةِ، ودَلِيلُ الخَبَرِ عن الله الّذي ذَكَرَ الله عزّ وجلّ لنا فيه أنّه أشْهَدَنَا على أنفُسِنَا، إذْ قَالَ لنا في مَرْحَلَةِ الذّرّ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ فَقُلْنَا: بَلَىٰ، شَهِدْنا. كُلُّ هٰذِهِ الأَدِلَّةِ تُؤَكِّدُ أَنّ الإيمان باللَّهِ الخالق الرّبّ، فِطْرَةٌ فَطَرَ اللَّهُ النّاسَ عَلَيْها، وسَوْفَ يَدْعُوهم اللَّهُ يَوْمَ الدِّينِ إلَىٰ الشَّهَادَة على أنْفُسِهم، فإذَا جَحَدُوا أقَامَ عَلَيْهِمُ الحجَّةَ الدَّامِغَة، ولِلَّهِ الحجّةُ البالغة.

الزمن الملائم لهذا الحدث من تاريخ أطوار وجود بني آدم:

دلَّتْ كلمة [إِذْ] الظرفيّة، على أنّ حَدَثَ إخْرَاجِ الذّرّيَّة الإنسانيَّةِ وإشْهَادِهَا عَلَىٰ أنفُسِهَا بِرُبُوبِيَّة الله لَهَا، قَدْ تَمّ فيما مضَىٰ لِكُلِّ الذُّرِّيَّةِ من بني آدَمَ، حتَّىٰ آخِرِ نَسَمَةٍ تُولَدُ قبْل قِيام السّاعَة.

وبالتفكّر نُدرِكُ أنّ الزّمَنَ الأفضَلَ لهٰذَا الإخرَاجِ، هو الزّمَنُ الّذي كانَ فيه آدَمُ عليه السَّلامُ حَيًا، قَبْلَ أَنْ يُولَدَ لَهُ وَلَدٌ ما، لأنّ أولاد آدم المبَاشِرِينَ

لَهُ قَدْ أُجْرِيَ عليهم حدَثُ هٰذَا الإشهاد، وهُمْ في عالَم الذرّ، قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ صُلْبِهِ، إِلَىٰ مُسْتَوْدَع رَحِمِ أُمِّهِمْ حوّاء.

فدلَّ الْبَيان عن طريق اللوازم الفكريَّة على أنَّ الرَّبّ جلّ وعلا، قد استَخْرَجَ من ظَهْرِ آدم حافِظَةَ ذُرِّيّتِهِ إلى أن تقومَ السَّاعة.

ودَلَّ أيضاً على أنّ هٰذِه الحافظةَ تَشْتَمِلُ على أكْوانِ أَوْلاَدِهِ المباشِرين، وفي كلّ واحِدٍ مِنهُمْ أكْوَانُ أَوْلاَدِه، وهكذا تَسِيرُ إِلَىٰ أَكْوَانِ أولادِهم، فأولاد أولاَدِهِمْ، بالتَّسَلْسُل إلى آخرِ ذُرِّيَّةِ آدم.

فنشَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ هٰذِهِ الذّرّيّاتِ أفراداً، بَعْدَ أَنْ كانَتْ مُتداخِلَةً في الظهور، أي: في الأَصْلابِ منها، ضِمْنَ نِظَام مُتْقَنٍ مُدْهِشٍ مُحَيِّرٍ للعقول، كوعاءٍ فيه مصغّراتُ أَوْعِيَة، بِعَدَدِ بَنِي آدم، مُنْذُ خَلْقِ آدَمَ، حتَّىٰ آخِرِ إِنْسَانٍ يُولَدُ مِنْ ذُرِّيَتِهِ، وكُلُّ ذَلِكَ موجودٌ ضِمْنَ ظَهْرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ هو آدَمُ عَلَيْه السَّلام.

وجاء في بيان الرَّسُول ﷺ، أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ الميثاقَ أنْ لاَ يُشْرِكُوا به شيئاً، وهُمْ في ظَهْرِ آدم.

أخرج الإمام أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْن مالِكٍ عن النبيِّ ﷺ قَال:

«يُقَالُ للرَّجُلِ مِنْ أهْلِ النّارِ يَوْمَ الْقِيَامَة، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟

قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ.

فَيَقُولُ (أي: الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ): قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ في ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئاً، فَأَبَيْتَ إلاَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي».

قال ابْنُ كثير: أَخْرَجَاهُ في الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث شُعْبَةَ بِه.

قول الله تعالى:

• ﴿... أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

أي: نُخبركُمْ بهذا الحدَثِ الّذِي جَرَىٰ لَكُمْ، وأَنْتُمْ في طور الْوُجُودِ الذَّرّيّ في ظُهُورِ آبائكم، دَفْعَ أَوْ مَنْعَ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القيامَةِ، لَمْ يَكُنْ هذا الحدثُ حَاضِراً في ذاكِرَاتِنَا، فَقَدْ نَسِينَاهُ.

ودَفْعَ أو مَنْعَ أن تقولُوا يَوْمَ القِيامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلين، منْصَرفي الأذهان، إِذَا قُلْنَا لكُمْ لقَدْ أبقَيْنا آثارَهُ فِي عُقُولِكُمْ أدلّةً تَدُلُّكُمْ علىٰ أنَّ رَبَّكُمْ هو اللَّهُ الّذِي لاَ شَرِيكَ له، وأَبْقَيْنَا في نُفُوسِكُمْ وقُلوبِكُمْ فِطْرَةً تَنْزِعُ بِكُمْ إلَىٰ هٰذِهِ الحقيقة.

فبهذا الإخبار نَدْفَع ونَمْنَعُ اعتذاركم بالنِّسيان، وندفَعُ ونَمْنَعُ اعتذاركم بالغفلة يوم الدين.

الغفلة: عن الشيء، هي انصرافُ الذّهْنِ عن مُلاَحظتِهِ، ومُراقبته، مع وُجُودِهِ في مجال الإِدْرَاكِ، أَوْ وُجودِ أدلّتِه، وإمكان إدْراكه بها، لولاَ وجُودُ الصّارِفِ، أو السَّهْوِ الّذِي هو بمثَابَةِ إطباق الجفنَيْنِ على الْعَيْنَيْنِ مع إمكان الرؤية.

إِذَنْ: فلِدَفْع الاعتذار يوم الدّين، بنسيان حَدَث إشهادِكُمْ السابقِ على أنْفسِكُم بأَنّنِي أَنَا رَبُّكُمْ، ولدَفْع الاعْتذارِ بالغَفْلَةِ عن آثار هذا الحدث الباقية في فِطَرِ عقولكُمْ وَنُفُوسِكُمْ وعُمْقِ قُلُوبِكُم، أَخْبِرُكُمْ بِهٰذَا الحدثِ، لِأُوَجِّهَ أنظارَكُمْ إلى آثارِه فيكم، ولأقيم الحجّة عليكم بأنّني أَخْبَرْتُكُمْ بما شَهِدْتُمْ به على أَنْفُسِكُمْ، إذْ كُنتُمْ في مَرْحَلَةِ الذَّرِّ من أطوار وجُودِكُمْ، فَكَذَّبْتُمْ خَبَرِي، ولَمْ تَعْبَؤُوا بما أَبْقَيْتُ في فِطَرِكُمْ مِمَّا شَهِدْتُمْ به على أنْفُسِكُمْ مِنْ آثار.

فدلّ ذِكْرُ الغفلة عن الآثار الموجودة في فِطَرِ العقول والنفوس والقلوب، علَىٰ أنّهم يعْتَذِرُونَ قَبْلَها بالنِّسْيَانِ، لكِنّ إنْزَالَ هٰذا البيان في القرآنِ يدفَعُ الاعْتذار بالنِّسْيان، ويَدْفَعُ الاعْتِذَارَ بالغفلَةِ معاً.

وهٰذا من إبداعاتِ الإيجاز القرآني، إذْ يُوجَدُ في المذكور ما يَدُلُّ على المحذوف، مع نظرات التلاؤُم واللوازِم الفكرية، فذِكْرُ الْغَفْلَةِ يلائم آثارَ الإشهاد في العقول والنفوس وعمْقِ القلوب، والإنباء بأصْل الحدث يسْتَدعي عن طَرِيق اللوازم الفكريّة أن يَعْتَذِرُوا بالنّسْيَانِ لو لَمْ يَنْزِلْ به هذا البيان القرآنيُّ.

قول الله تعالى:

● ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

المبْطِلُونَ: هُم الّذِين يفتَرُونَ الباطل ـ أو يسْتَمْسكون بِهِ، أو يَعْمَلُونَ بمقتضاه، والباطِلُ المراد هنا هو الشّرْكُ باللّٰهِ ولوازمُهُ.

والمعنى: ونُخبِرُكم بهذا الحدث الذي جرىٰ لكم وأنْتُمْ في مَرْحَلَةِ الذَّرِّ من أطوار وُجودِكم، وأبْقَيْنا آثاره في فِطَرِ عقولكم ونفوسكم وقُلُوبكُمْ، دفعَ أَوْ مَنْعَ أَنْ تَقُولوا إنْ أتَتْكُمْ بوادِرُ الإهْلاَكِ في الدّنيا: إنّما أشْرَكَ آبَاؤُنا مِنْ قَبْلُ، أي: لَمْ نكُنْ نَحنُ مُخْتَرِعي الإشراك، وَلاَ البادِئِينَ به، إنّما أشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِنَا، وقَدْ وَرِثْنَا عَنهُمْ عَقَائِدَهُمْ بِتَأْثِيرِ البيئَةِ، وسُلْطَانِ مَوارِيثها الضَّاغِطَة، فَقَدْ كُنَّا ذُرِّيَّةً من بَعْدِهم مقَلّدين لهم، والناشئ في بيئَةٍ لا بُدَّ أنْ يَتَأَثَّر بالْمَوارِيثِ الفكريّة والاعْتِقَادِيَّة الّتِي يَجِدُها في بيئة آبائه وأجداده.

لكِنّ اعتِذَارَهُمْ هٰذا يَدْفَعُهُ ويُسْقِطُهُ، أنْ يُقَالَ لهم: إنَّ الرَّبَّ الخالِقَ لَكُمْ ولآبائِكم، قَدْ أبانَ لَكُمْ في كتابه الّذِي أنْزَلَهُ على رسُوله، أنّهُ أشْهَدَكم وأشْهَدَ آباءَكُمْ وكُلَّ ذُرِّيَّةِ آدم وأنتم في مَرْحَلَةِ الذّرِّ من وجودكم، على أنْفُسِكُمْ بأنَّهُ هو وَحْدَهُ رَبّكُمُ الّذِي لا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ، فلا إلٰه لكم غيره، وبَعْدَ هٰذا البيانِ الذي نقصُّ عليكم فيه قصّة إشْهَادِكم على أنْفُسِكُمْ يَسْقُطُ اعْتذارُكُمْ بمؤثرات البيئة، ومواريث آبائِكُمُ الشركيَّة، ولا سيما ما في فِطَركم

من آثار ما أشْهَدَكُمْ اللّهُ به على أنفُسِكُمْ، فَمَسْؤولِيّتُكُمْ عن إشراكِكُمْ مسؤولية كاملة.

واستِعْمالُ عبارة: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ دَلّتْ على أنَّ اعْتذَارَهم الوارد في هٰذِه الآية، إنّما يكون حينما يُشَاهِدُونَ بوادِرَ الإهْلاكِ في الدنيا، عقاباً لهم على شركِهِمْ، إذْ الإهلاكُ هو الإماتَةُ باستئصال شامل، بالمهْلِكات المعذّباتِ، والهلاكُ هو الموت الذي يَسْتَهْلِكُ وُجُودَ الكائن الحيّ، أمّا عذابُ يوم الدّين فلا مَوْت فيه ولا استِهْلاكَ يعْقُبُه.

وكُلُّ ما اسْتُعْمِلَ في القرآن من مادّة الْهَلاَكِ والإهْلاكِ، فَهُوَ في الموت، والعذاب الدُّنْيويّ المميت.

ولم أجِدْ من المفسّرين من تَنبَّهَ إلى هٰذِهِ الفكرة، فوجَّهَ الاعتذارَ في الآيتين (١٧٢ ـ ١٧٣) ليَوْم القيامة، يوم الحساب، وفَصْلِ القضاءِ.

لكِنَّ الفهم الّذي فَتَحَ اللّهُ بِهِ علَيَّ أولَىٰ بالاعتماد، واللّهُ أعلم.

ويُتَمِّمُ مَا جَاءَ فِي هاتَيْنِ الآيتَيْنِ نَصٌّ آخَرُ جاء في سُورَةِ (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾:

كان عَرْضُ الأمانةِ على السّماواتِ والأرض والجبالِ والإنسانِ عَرْضَ تَخييرٍ، بقبول حمل الأمَانةِ، أو عَدَمِهِ، أمّا السماوات والأرضُ والجبالُ، فاخْتَرْنَ عَدَم قبول حَمْلِ الأمانة، ما دام الْعَرْضُ عَرْضَ تخييرِ لا إلزامَ فيه، ولا عتابَ على الاعْتِذار عن قبول حملها.

وكان إباؤُهُنَّ قبولَ حَمْلِها خوفاً من الانزلاقِ إلى مَخاطِرَ، تُفْضِي بِهِنَّ إلى عذاب الله.

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾: أي: وخِفْنَ وَحَذِرْنَ مِنْ تَحَمُّلِ الأمانَة، وممّا يترتَّبُ على حَمْلِها مِنْ مسؤولية ومُحَاسِبَةٍ وجزاء، لأنَّ حَمْلَها معَ ما فِيه من تكريم وتشريفٍ، يَسْتَلْزِمُ مَنْحَ شروط الامتحان والمسؤولية والتكليف، ويَسْتَتْبِعُ المحاسبة، وفَصْلَ القضاء، والجزاء، بالنعيم أو بالعذاب. فالإشفاقُ والخوْفُ من هذا.

أمَّا الإنْسانُ فقد اختار حَمْلَ الأمانَة، وأَحَبَّ المغامرَةَ والمخاطرة، لكنَّه بَعْدَ حَمْلِ الأمانة، ودُخُوله مَرْحَلَةَ الامْتِحَان، كان في واقعِ رِحْلَتِهِ، الَّتي وُضِعَ فيها مَوْضِعَ الامْتحانِ، ظَلُوماً وَكَانَ جَهولاً، في النِّسْبَةِ العظمىٰ من أفراده، فالحكم على الإنسان بالظلْمِ والجهلِ حُكْمٌ لوحظ فيه أكثر الأفراد.

ظَلُوماً: أي: كَثِير الظُّلْم لنفسه، بارتكابِهِ مَا يَسُوقُهُ إلَىٰ عذاب الله.

جَهُولاً: أي: كثيرَ اختيارِ سُبُلِ الْجَهْلِ الْمَعْرفي، وسُبُلِ الجهلِ السُّلوكي، الَّتي تَدْفَعُ إلى سلوكها الحماقةُ، والأهواءُ الرَّعْنَاءُ، والشهواتُ الطائشات.

ما هي الأمانة التي عرضَها الرَّبُّ جلّ جلاله؟:

ونتساءَلُ عن الأمانة الَّتي عرضها الله عزّ وجلّ على السَّمَاوَاتِ والأرض والجبال والإنسان، فأبَتِ السَّمَاوَاتُ والأرضُ والجبالُ أن تَحْمِلَها، وأشْفَقَتْ مِنْ حَمْلِها، وحَمَلَها الإنسانُ؟!

لا بُدَّ للإجابَةِ على هذا السؤال من تحليلٍ للصّفَاتِ الَّتي تتَّصِفُ بِهَا هٰذِه الكائنات، ولعناصِرِ الأمانة، لإدْرَاكِ الأمُورِ الَّتي جعلَتِ الأرضَ والجبالَ والسَّمَاوَاتِ تأبَىٰ حَمْلَهَا، والَّتِي جَعَلَتِ الإنْسَانَ يَقْبَلُ حَمْلَها، ويَسْتَعِدُّ لتَحَمُّلِ التكْلِيفِ المرافقِ لِحَمْلِها، وتَبِعَةِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء بعْدَ ذلِك.

إنّ العرض يَسْتَلْزِمُ عقلاً إدْراكَ الْمَعْروضِ عليهِ حقيقَةَ معْنَىٰ مَا يُعْرَضُ عليه، أي: فَهْمَهُ، والْعِلْمَ به، إذا كان أَمْرُ الْعَرْضِ أَمْراً حَقِيقيًا، لاَ مجازيًا.

ومعلومٌ أنَّ الْفَهْمَ لشيءٍ ما يسْتَلْزِمُ وُجُودَ أداةِ الْفَهْم، أو جِهازَ الْفَهْمِ لَدَىٰ الفاهم، والاسْتِعْدَادَ لإدْراكِ وسِيلَةِ التَّفْهيم.

والإدْراكُ قَدْ يَكُونُ صِفَةً لِلْمَخْلُوقِ دونَ أن تكونَ لَهُ صِفَاتُ الشَّهْوَةِ، والإحْسَاسَاتِ باللَّذَّةِ والألَم ونَحْوِ ذَلِكَ، ودُونَ أنْ تَكُونَ لَهُ إرادةٌ واخْتِيَارٌ وقُدْرَةٌ عَلَىٰ تَنْفِيذِ شَيْءٍ مِمَّا يُرِيد.

وهَلْ يُشْتَرَطُ لَهُ نَوْعُ حياةٍ أو لا؟.

أقول: هذا أمْرٌ مِنْ أَمُورِ الغيب عَنَّا، ومن الصَّعْبِ علَيْنَا الْبَتُّ بِهِ سلباً أَوْ إيجاباً.

وقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ عزّ وجلّ أنَّ كُلَّ شيءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه، ولكِنْ لاَ نَفْقَهُ تَسْبِيحَهُمْ، فَهَلْ هذا التسْبيحُ بدلالَةِ الحال، أَمْ هو تَسْبيح مَعَهُ نَوْعُ إدْراكٍ خَلَقَهُ اللَّهُ للأشياء؟

احتمالان قائمان، والثاني مِنْهُما غَيْرُ مستحيل، واللَّهُ على كُلّ شيءٍ قَدِيرٌ.

وقد كشفَتْ العلوم الحديثةُ لنَا من خصائِص الخلاَيَا، وأعْمَالِها، وَوَظَائِفها، وما تُؤَدِّيه من أعمالٍ متْقَنَةٍ في أجْسَادِ الأحياء، ما يُذْهِشُ العقول، فكأنّ لَهَا إدْراكات، وتَحْمِلُ إنْذَارَاتٍ ورَسَائل، وَترجِعُ بالمطلوب على أحْسَنِ وَجْه، فَسُبْحَانَ الخالِقِ العليم الحكيم، الذي هو على كلّ شيءٍ قَدِيرٍ.

وبناءً على هذا نقول: حِينَ عَرْضِ الأَمَانَةِ على السَّمَاوَاتِ والأرض والجبال، وعلى الإنسان الأوّل وفِيهِ ذُرِّيَّتُه، أو على الإنسَانِ الشامِلِ لكلّ

أفراده وهم في مَرْحَلَةِ الذّرّ، لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ هؤلاَء قَدْ أَدْرَكُوا ما عُرِضَ عليهم وفَهِمُوه، حتَّىٰ يأبَىٰ حَمْلَ الأمانةِ مَنْ أباه، ويَقْبَلَ حَمْلَهَا مَن قَبِلَهُ.

ويُمْكِنُ أَنْ نُصَوِّرَ هٰذا الْعَرْضَ والحِوارَ الَّذِي جَرَىٰ حَوْلَهُ تَخَيُّلاً، واسْتِنْباطاً مِنْ وَجِيزِ البيان القرآنيّ.

العَرْض: أتُرِيد أيُّهَا الإنسانُ؟ أَتُرِيدينَ أَيَّتُها السماواتُ والأرض والجبال أن تَحْمِلِي الأمانة.

المعروض عليهم: مَا هي الأمانة الَّتي نَحْمِلُهَا؟

العرض: تُجْعَلُ لَكُمْ إرادةٌ حُرَّةٌ، وسُلْطةٌ علىٰ بعض ما يُوضَعُ في ذواتكم من قُوًى وطاقاتٍ وأشياءَ أَمَانَةً عندكم، على سبيل الإعارة للانتفاع، أو على سبيل الوديعة، ويُؤْذَنُ لكم بالتَّصرُّفِ فيها بإراداتٍ حُرَّةٍ، وبالتَّصرُّف فيما حولكم من الكونِ، ممَّا تَصِلُ قُدْراتكم إلى التصرّف فيه، أو إلىٰ مَفاتِيح التصرُّف فيه.

المعروضُ عليهم: هٰذا التَّصَرُّف من صِفَاتِ الخالِقِ المالِكِ، وكيْفَ نتصرّفُ ولَيْسَ لدَيْنا رغَبَاتٌ، وَلاَ شهواتٌ، ولا حاجَاتٌ، ولا أهواءٌ، ولا نسْتَطِيعُ أَنْ تكونَ لنَا صفاتُ الرَّبّ الخالِق الحكيم.

العرْض: تخْلَقُ فيكم رَغَبَاتٌ، وشهواتٌ، وحاجَاتٌ، ولذَّاتٌ، وآلاَم.

المعروض عليهم: وهَلْ يُبَاحُ لنَا أن نَتَصَرَّفَ بِإراداتنا الحرَّةِ وفْقَ رَغباتِنَا وَشَهَواتِنَا وحَاجاتنا وأهوائنا، دون مسؤوليّة، ولاَ حسَابٍ ولا عقاب.

الْعَرْض: يُعطَىٰ لَكُمُ التميكنُ من التصرُّف، لكنّ لا على سَبِيل إباحَةِ كُلِّ شَيء.

المعروض عليهم: كيْفَ نتصَرَّفُ إِذَنْ؟.

العرض: يُوجَّهُ لكم الأمر الرَّبَّاني بِفِعْل أشياء، وبِتَرْكِ أشياء، على

خلاف رَغباتِكُمُ، وشهواتِكُمْ، وأهوائِكُمْ، وتُبَاحُ لكم أشياءُ لتَلْبِيَةِ مطَالِبِ حاجَاتِكُمْ وشهواتِكُم.

المعروض عليهم: فإذا عَصَيْنا أوامِرَ رَبِّنا ونواهِيَه، فَمَا هو جَزَاؤُنا؟.

العرض: أنْتُمْ إذَنْ مُلاحقُونَ بالمحاسَبَةِ، والقضاء، وتنفيذِ الجزاءِ على اختياركم المخالَفَةَ لأوَامِرِ رَبِّكُمْ ونَواهيه، وعليكم أنْ تتحمَّلُوا عذاب العصيان.

أمّا إذا أطَعْتُمْ واستقَمْتُمُ فإنَّنا نَمْنَحُكُمْ سَعَادَةً أبَدِيَّة، نُحَقِّقُ لكم فيها من النعيم الخالِدِ ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولاَ خَطَرَ على قَلْبِ أذكَىٰ المخلُوقات.

المعروض عليهم: هذا تكريم وتَشْرِيفٌ، مقرونٌ بتكليف، ومُسْتَتْبَعٌ بحسَابٍ، وقضاءٍ، وجَزَاء، وَلٰكِنْ هلْ يبْقَىٰ فِي ذَاكِراتِنَا هٰذا الْعَرْضُ، وهٰذا الحوارُ؟

العرض: لاَ، فهذا العرْضُ وهٰذا الحِوارُ، سَيُطْوَىٰ مِنْ ذَاكراتِكُمْ، وتُطْوىٰ أيضاً هٰذِهِ المعرفَةُ الحاضِرَةُ بخَالِقكُمْ، ويَبْقَىٰ فيكُمْ مَا يَشُدُّكُمْ إلى مَعْرِفَتِهِ، والإيمانِ بِه إيماناً غيبيًا، وإلىٰ مَعْرِفَةِ الغايَةِ مِن وُجُودِ الأمَانَةِ الكُبْرَىٰ تَحْتَ سُلْطَتِكُمْ، وتُرْسَلُ إليكُمُ الرُّسُلُ، وتُنَزَّلُ إليكُم الكُتُب لتَعْرِيفكُمْ، وبيانِ المطلوب منكم، وإنْذارِكُمْ وتَحْذِيرِكم، وتَبْشِيرِ مَنْ آمَنَ وأطاعَ مِنْكُمْ.

المعْرُوضُ عليهم: مَا نوْعُ هذا الجزاء؟

العرض: عذابٌ أَبَدِيٌّ أليمٌ بالحريق على الكُفْرِ بالخالِقِ والإشْراكِ به، جحوداً لرُبُوبيّته، أو إلَهيَّتِه، أو الإشراك بهما، وعذابٌ دُونَ ذٰلِك بالعدل على المعاصِي والإساءات.

ونعيم أبَدِيٌّ على الإيمانِ بالرَّبِّ إيماناً غيبيًا، وعلى الإسلام له. وفي

هذا النعيم درجاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بعضٍ، عَلَىٰ ما يُقَدِّمُ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ صالحِ الأعْمَال، مع احْتِمال غُفرانٍ وعَفْوٍ عن سَيِّئاتٍ دُونَ الشِّرْكِ، بحَسَبِ مَشِيئَةِ بَارِئِكُم الحكيمة.

السَّمَاوات والأرض والجبال: هٰذِهِ مُخَاطَرَةٌ مُخِيفةٌ نَأْبَىٰ دُخُولَها وقَبُولَها، ما دام العرضُ تخييراً لا جَبْرَ فيه، ولهذا فإنَّنا نَأبَىٰ حَمْلَ هٰذِهِ الأمانَة.

الإنسان: (ذُو الْعَنَاصر النَّفسيَّة الَّتِي تُحِبُّ المخاطَرَةَ والمغامَرَةَ والسُّلطَةَ تملُّكاً وأمْراً واستعلاءً).

قبلْتُ هذا الْعَرْض، فأنا أَحْمِلُ هٰذِهِ الأمانة الكُبرىٰ، وأتَحَمَّلُ تَبِعَاتها، وتَحْلُو عنْدِي هٰذِهِ المخاطرة، ويَشُدُّني إليها الطَّمَعُ في أن أَنَالَ مَقَامَ التكْرِيم، وأبْلُغَ المجْدَ العظيم.

العرض: خُذِ الأمَانَةَ أيُّهَا الإنْسَان، وادْخُلْ رِحْلَةَ الامتحان.

الأشياء الَّتي وضَعها الرَّبُّ جلّ جلاله أمانةً تحت سلطة الإنسان:

بالتفكّرِ المتَعَمِّقِ بصَبْرٍ وأنَاةٍ، نُدْرِكُ أَنَّ الأشياء الَّتي وضعها الله عزّ وجلّ أَمَانَةً تَحتَ سُلْطَةِ الإنسان، المزَوّدِ بالخصائص الَّتي تُؤَهِّلُهُ لحمْلِ الأماناتِ، بُغْيَةَ اختباره في رحْلَةِ الحياة الدُّنيا، هِيَ كُلُّ شيءٍ مادّيٍّ أو مَعْنَوِيٍّ دَاخِلٍ في ذاتِ الإنْسَانِ، أو خارجٍ عنْ ذَاتِه، ممَّا هُو مُمَكَّنٌ مِنَ التصرُّفِ فيه، بالتَّمْكِينِ الْقَدَرِيِّ الرَّبّانيّ.

وهنا يَرِدُ سُؤال:

وهو، إذا كانتِ الأشياءُ الدَّاخِلَةُ في ذَاتِ الإنسان أَمَانَةً عِنْدَهُ أيضاً، كالأشياء الخارجَةِ عَنْ ذَاتِه، فَمَنْ هُو المستأمَنُ؟

أقول: إنَّ للإنْسَانِ هُوِيَّةً دَاخِلِيَّةً في عُمْقِ ذاتِهِ، وهٰذِهِ الْهُوِيَّةُ مُمَكَّنَةٌ

بتَمْكِينِ اللَّهِ وإقدارِه مِنَ التصرُّفِ الإِرادِيّ بجوارِحِهِ الظاهرة والباطنة.

ولهٰذِهِ الْهُوِيَّةِ الّتي تَحْتَلُّ مَرْكَزَ الْعُمْقِ من ذاتِه، لَهَا الصِّفَاتُ الأسَاسِيَّاتُ المؤَهِّلاَتُ لتَحمُّلِ الأَمَانَاتِ، والمسؤوليّات عنها، ومِنْ هٰذِهِ الصفاتِ ما يلي:

(١) الإرادة الحرَّةُ غير المجبُورَة.

(٢) التَّمييزُ بَيْنَ وُجُوهِ التَّصَرُّفِ المختَلِفَة، تمْييزاً كافِياً لِتَحْمُّلِ الأمانة، وهي من الملَكَةِ الإِدْراكيَّةِ العلميَّة.

(٣) الْقُدْرَةُ على التصرُّفِ بالطاعَةِ وَبِالْمَعْصِيَة.

كيف كان حال معظم أفراد الإنسان بَعْدَ دُخولهم رِحْلَةَ الامْتحان:

بعد كلّ ما سبَقَ بيانُهُ يَرِدُ سؤال، وهو، كيف كان حال الإنْسَان بَعْدَ دُخوله رِحْلَةَ الامتحان؟.

ويَأْتِي الجوابُ القرْآنيُّ في الآية: [... إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿٧٢﴾]:

أيْ: إِنَّ مُعْظَمَ أفرادِهِ كانُوا بَعْدَ التجربَةِ والاختبارِ ظَلُومِين جَهُولين.

وقد أثبتَتِ الإحصاءاتُ بَعْدَ التجربَةِ والامْتِحَانِ أَنَّ النِّسْبَةَ العظمَىٰ من الناسِ كانُوا ظَلُومين لأنفسهم، وكانُوا جَهُولين.

وقد سبق التحليل اللُّغَوِيّ لِكَلمَتَيْ «ظَلُوم» و«جَهُول».

فَصَحَّ أَنْ يُدْمَغَ الإنسانُ بوجْهٍ عامٍّ بِصِفَتَي أَنَّهُ ظَلُومٌ جهولٌ، بَعْدَ حَمْلِهِ الأمانة ودُخوله رِحْلة الامتحان، لا عنْدَ حَمْلِه الأمانة.

وفِعْلُ «كَانَ» دلَّ على أنَّ وصْفَهُ الذي كشفَهُ الامْتِحانُ، هو أَنّه ظَلُومٌ جَهُولٌ، إذِ الامْتحانُ كاشِفٌ لمَا هو في عُمْقِ الأنفس.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾:

هذه الآية هي بمثابَةِ فَاصلٍ يكْشِف إحدىٰ وظائف القرآن البيانيَّة، للتوقُّفِ قليلاً عنده، قبْلَ المتابعة لاسْتِكْمَالِ عَناصِرِ السّورَةِ الموزَّعَةِ على خُطُوطها.

وإذا أخْرَجْنَا هذه الآيَةَ إلى الجانب الأيْسَرِ عن حدّ صفحات السّورَةِ، لإظهار كوْنها بمثابة الفاصل الّذي يَحْسُنُ التَّوَقُّفُ عنده قليلاً، وفَعَلْنا نظير هذا في جزء الآية (٣٢) من السّورة، الّذي قال الله عزّ وجلّ فيه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾. وفَعَلْنا نظيره أيضاً في جزء الآية (٥٨) من السورة، الذي قال اللَّهُ عزّ وجلّ فيه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم إذا نظرْنا إلى هذه الفواصل الثلاثة في السورة، ضِمْنَ نِظَام كِتابيٍّ خارجٍ عن الحدود الشمالية لصفحات السّورة، أَدْرَكْنَا سِرَّ الْعَطْفِ في قول اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

لقد جاء الفاصل الأوّل بعْدَ بيانٍ اشتملَ على آياتٍ فيها تفصيلٌ لقضايا وأحكام، اشتملَتْ على قصة خَلْقِ آدم وأمّهات أحكام الدّين المنزَّلِ عَلَيْهِ، ليَعْمَلَ بِهِ بَنُوه.

ثُمّ جاء الفاصل الثّانِي بَعْدَ عَرْضِ آياتٍ من آيات الله في كَوْنِه، تَهْدِي المتفكّرين إلى طائفة من صفات ربوبيّة اللَّهِ في كونه، وأنّهُ لا شريك له، وهي تستلزمُ عقلاً توحيدَهُ في إلَهِيَّتِهِ.

ثم جاء الفاصل الثالث بَعْدَ بَيانٍ طويل اشتملَ على تفصيل لقضايَا وأحكام دينيَّة، مقترنَةٍ بعَرْضٍ لقصَّةِ الرُّسُلِ وأُمَمِهم في التاريخ قبلَ بعْثَةِ الرسُولِ محمّد ﷺ ونزول القرآن.

إذا جَمَعْنَا هٰذه الفواصل، وتَدَبَّرْنَاها تَدَبُّراً تكامُليًا، فهِمْنَا منها أنّ الله عزّ وجلَّ:

(١) قدْ فصَّل بَعْض آياته في كتابِهِ الْمَجِيد ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: لقومٍ يُتَّابِعُونَ مصادر العلم الحق، لاكتساب ما يُهِمُّهم مما كانُوا يجهلون.

(٢) وأنَّهُ قَدْ صَرَّفَ الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أَيْ: يتابعون ما يُذْكِرُونَ، ممَّا يُبَيَّنُ لهم من آلاَءِ اللَّهِ الَّتي هي من آياته في كونه، بشُكْر الله على نِعْمَه، وجزيلِ فَضْله على عباده.

(٣) وأنَّه قد فَصَّلَ بعض آياتِه في كتابِهِ للخارجين عنْ صراطه المستقيم، لعلَّهُمْ يَعْلَمُونَ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾: أي: راغبين في أَنْ يَعْلَمُوا، وفي أنْ يَرْجِعُوا بتأثير ما يكتَسِبُونَ من عِلْم إلى صراط الحق المستقيم، الَّذِي أوْدَعْنَا في قُدْراتهم الفكريَّة مَا يَهْدِيهِم إليه، وأوْدَعْنَا في نفوسهم وقُلُوبهم الفطرة الَّتي تَنزعُ في داخِلِهم إليه، استِحْسَاناً ومَيْلاً وطَلباً، ولا تَصْرِفُهُمْ عنْهُ إلاَّ وساوس الشياطين وتَسْويلاتُهم، ونَزَغَاتُ الأهواء والشَّهواتِ واللَّذَّاتِ العاجلات من مَتاعِ الحياة الدُّنيا.

التفصيل في الأشياء: يكون بتمييز بعضِها عَنْ بَعْضٍ، لإبْرَازِ حُدودِ كلٍّ منها، فالمعرفة الصحيحة من شُروطها تمْييزُ حُدُودِ عناصِرِها.

فمعنى قول الله عزّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

وكذَلِكَ التَّفْصِيل الَّذِي أجْرَيْنَاهُ في الآيات السابقات من السورة، نُفَصِّلُ الآياتِ في القرآن كُلّه، لِقَوْم يَعْلَمُونَ حتَّىٰ يَعْلَمُوا الحقّ، ولِقَوْم لدَيْهم الاستعداد والرَّغْبَةُ في أن يَشْكُروا، حتَّىٰ يَشْكُرُوا نِعَمَ اللَّهِ عليهم، ولِقَوْم أَخْرَجَتْهُمْ أهواؤهم عن الصراط المستقيم بجَهْلِهِم أو غَفلاَتِهِمْ، لكنَّهُمْ غَيْرُ ميْؤُوسٍ من رُجُوعهم إلى الصّراط المستقيم، فهؤلاَءَ نُفَصِّلُ لهم الآيات، رغبة في أن يَعْلَمُوا، وأَنْ يَرْجعوا إلى الصراط.

ولمّا كان رُكُوبُ مَرْكب الباطل والضلال خروجاً عن بواعِثِ الفِطْرَةِ في النفس البشريَّة، وموازينِ الْعُقول الفطرية، كَانَ تَرْكُ الباطِل والضَّلالِ، والتزامُ الحقّ والْهُدَىٰ، رجوعاً إلَىٰ جذور الفِطْرَةِ، فقالَ اللَّهُ عزّ وجل: ﴿. . . وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

وهذا من الدِّقَّةِ في البيان، لمُلاءَمَةِ الوَاقِعِ النَّفْسِيِّ.

استعراض النصوص المشابهة حولَ تفصيل الآيات في القرآن:

لدىٰ استعراض النصوص المشابهة للنَّصَّيْن الواردَيْنِ في سورة (الأعراف) بشأن تفصيل الله عزّ وجلّ للآيات في القرآن، نجد النصوص القرآنية التالية:

(١) بمناسَبة بيان أنَّ الله عزّ وجلّ جعل الشمس ضياءاً والْقَمَرَ نوراً وقَدَّرَه منازلَ، ليعْلَمَ الناس عَدَدَ السنين والحساب، قال الله جلّ جلالُهُ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿. . . يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾: بضمير الغائب الّذي يعود على الله جلّ جلاله، والتفصيل لقوْم يَعْلَمُون مماثل لما جاء في الآية (٣٢) من سورة (الأعراف).

(٢) وجاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) أيضاً قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: فجاء في هذا النّصّ اسْتِعْمَالُ عبارَة: [لِقَوْم يَتفَكَّرُون] لأنّ تفصيل الآيات يتَعَلَّقُ بموضوعَاتٍ تحتاج تفكُّراً، لاكتشاف الغاية من خَلْق الحياة الدُّنيا.

(٣) وَجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قولُ اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①﴾:

أي: أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ بالكُلِّيَّات العَامَّاتِ المحكمات، ثُمَّ فُصِّلَتْ لِبيانِ الجزئيات، وتطبيقاتِها، إذا كانت ممّا له تطبيقاتٌ في السُّلوك.

(٤) وجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ⑤⑤﴾: أي: ومن وظائف تفصيل الآيات القرآنية، بيان صراط الله المستقيم، وتمييز سبيل المجرمين أهْل الكُفرِ.

(٥) وجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) أيضاً قول الله عزّ وجلّ:

﴿...قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ⑨⑦﴾: فجاء في هذا النصّ استعمالُ الفعل الماضي: [قَدْ فَصَّلْنَا].

(٦) وجاء أيضاً في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿...قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَفۡقَهُونَ ⑨⑧﴾: فجاء في هذا النّصّ استعمال عبارَةِ [لِقَوْمٍ يفْقَهُونَ] الدَّالَّةِ على الْفَهْمِ العميقِ الدقيق، لأنَّ الموضُوع يحْتَاج فِقْهاً.

(٧) وجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) أيضاً قول الله عزّ وجل:

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَذَّكَّرُونَ ①②⑥﴾:

أي: لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، ويَضَعُونَ ما عَلِمُوهُ من دينِ اللّهِ الحقِّ في ذاكِراتهم، لاستدعائه عند المناسبَاتِ الداعيَاتِ، ولِلْعَمَلِ بِهِ إذا كان فيه ما يَدْعُو إلى فِعْلٍ أَوْ تَرْك.

(٨) وجاء في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) قَوْل الله عزّ وجلّ:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾: فجاء التعبير في هذه الآية عن كُلّ القرآن، بأنّ آياته قَدْ فُصِّلَتْ بمقتضىٰ قواعِدِ اللِّسَان الْعَربيّ.

(٩) وجاء في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾: فجاء في هٰذا النصّ استعمال عبارة [لِقَوْمٍ يَعْقِلُون]: أي: لقوم يعْقِلُون بأدواتِ الإِدْراك الفكريّ لدَيْهِم عَقْلا علميًّا، ويَعْقِلُون بإراداتهم الحازمات شهواتهم وأهواءَهُمْ ومَطَالِبَ نُفُوسِهِمْ، عن الانزلاَق إلى مَعْصِيَةِ اللّهِ عزّ وجلّ.

(١٠) وجاء في سورة (الرَّعْد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) قول اللّه عزّ وجل:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾:

أي: فمن أهداف تفصِيل آيَاتِ القرآنِ المتعلّقة بِرُبُوبِيَّةِ اللّهِ لكُلّ ما في الكون، والمتعلّقة بالْيَوْمِ الآخِرِ، تهيئَةُ الشروط المساعدة على الإيقان بلِقَاءِ اللّهِ يَوْمَ الدِّين.

(١١) وجاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن الّذين يَتُوبُون من المشركين عن كفرهم، قول اللّه عزّ وجل:

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾:

أي: فَمِنْ سُنَّتِنَا في هذا الكتاب أَنْ نُفَصِّلَ الآياتِ لِقَوْمٍ يعلمون. وهذا آخِرُ النُّصُوصِ في مَوْضُوع تفصيل الآيات.

ويُلاحظ المتدَبّر أن أَوّلَ نَصّ نَزَلَ مِنْ هٰذِهِ النصوص بحسب تَرْتيب النزول، هو قول اللّٰهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وأنّ آخر نصّ نزل من هذه النصوص بحسَب تَرْتيب النزول هُوَ قَوْلُ الله عزّ وجل في سورة (التوبة/٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿... وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾:

وبهذا انْطبقَ قُفْلُ أوّل آيات الموضوع مع آخِرِها بنَصَّيْنِ مُتَناظِرَين، وهذا من أسْرَار الإعجاز القرآنيّ.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليلي للدرس الثامن من دُروس السورة وهو الآيات من (١٧٥ ـ ١٧٧)

قال اللّٰهُ عزّ وجل:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

تمهيد:

هذا النصّ يكْشِفُ حالَ من سَبَقَ أنْ تَلَقّىٰ آياتِ الله المنزّلاَتِ في الشرائع الربَّانيَّة السابقة لمَا أُنزِلَ علىٰ رسول الله محمّد ﷺ، من يهوديٍّ أو صابِئِيّ أو نَصْرانِيّ أَوْ غيرِهم، وبَعْدَ أَنْ تَلَقَّاهَا واحْتَوَتْ عليه، كما يَشْتَمِلُ جِلْدُ الحيوانِ علىٰ كُلِّ جِسْمِه، انْسَلَخَ مِنْها، فَلَمْ يَعْمَلْ بها، فعرَّضَ نَفْسَهُ لِوَبَاء الشَّيْطانِ، فأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ مُغْوِياً مُضِلاً، فتأثَّرَ به فَغَوَىٰ، فكانَ مِنَ الْغاوِينَ.

التدبّر التحليلي:

- ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ ٱتۡلُ: فعلُ أَمْرٍ موجَّهٌ للرَّسول محمد ﷺ أوّلاً، فلِكلِّ داعٍ إلى الله من أمَّتِه، على سبيل الخطاب الإفرادي.

فعل: «تَلاَهُ يَتْلُوهُ تُلُوّاً» أي: تَبِعَهُ فهو «تَالٍ له» أي: تابعٌ له، واسْتُعْمِلَ فِعْل «تَلاَ يَتْلُو تِلاَوَةً» في تلاوة القرآنِ، بمعنىٰ النُّطْقِ به، مع تَتَبُّعِ حُروفه وكَلِمَاتِهِ كمَا أنْزَله الله، فإذَا كانَتِ التّلاوَةُ تَتَبُّعاً لِلْمَكْتُوبِ مِنْهُ فَهِيَ قِراءة.

والضمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ صالحٌ لأنْ يُرادَ بِه كُلُّ من يَصْلُحُ لأنْ يُتْلَىٰ عليه القرآنُ من مؤمنٍ وغَيْرِه، والظاهِرُ أنَّ المؤمنين أولىٰ من غيرهم بأن يُتْلَىٰ عليهم نَصُّ هذا الدرس من دروس السورة، إذْ يَتَحَدَّثُ عن قِصَصِ الَّذِينَ أَتَتْهُمْ آيَاتُ اللّهِ فآمَنُوا بِهَا، ولَبِسُوهَا كجُلُودِهِمْ، ولكِنْ لَمْ يَطُلْ بِهِمُ الْعَهْدُ حتَّىٰ انْسَلَخُوا مِنها.

والغرض تحْذِيرُ المؤمنين من أن ينسَلِخُوا من آياتِ اللّهِ كما انْسَلَخَ مِنْها الَّذِين من قبلهم، وهُمُ اليهودُ والنصارى وأمثالُهما، إذْ تخلَّوْا عن اتّباع آيات الله المنزّلات على رُسلهم، والعمل بها.

وظاهِرٌ أنَّ هذا الدَّرس من دروس السورة مُتَّصِلٌ اتِّصالاً جَلِيًا بالْخَطِّ الأعظم من خُطُوطِ السُّورَةِ الَّتي تتفرَّعُ مِنْ موضوعها، وهو الخطّ الممتدُّ من الآية (٣) الواردة في صَدْرِ السّورة، وهي قول الله عزّ وجل خِطاباً للناس جميعاً:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا... ﴿١٧٥﴾﴾:

النَّبأُ: الخبَرُ البارزُ الظَّاهر ذُو الأهميَّةِ الذي يَلْفِتُ إلَيْهِ أنظار أُولي الألباب.

ولكِنْ مَنْ هٰذا الشخْصُ أو الصنفُ من الناس الّذي آتاه اللّٰهُ آياتِهِ، فَلَبِسَها كجِلْدِهِ، ولم يَطُلْ بِه الْعَهْدُ حتَّىٰ انسَلَخَ مِنها، ونَجِدُ في القرآنِ الكريم قِصَصاً تتحدَّثُ عَنْهُ، حتَّىٰ يَتْلُوها المأمُورُ بِتِلاوَةِ نَبَئِه.

ذكر المفسِّرُونَ آراءَ لَمْ يَثْبُتْ شَيْءٌ مِنها عنِ النبي ﷺ.

فقال بعضُهُمْ: هو رجُلٌ من الكنْعَانيّينَ، كانَ في زمَنِ مُوسَىٰ عليه السلام، يقالُ له: بِلْعَام بْنُ باعوراءَ، وفي قِصَّتِهِ تخليطٌ مَرْفوض.

وجاء في سِفْر الْعَدَد عند بني إسرائيل، أنّ بِلْعَام كانَ نَبِيًا في جيلِهِ، فيما بين النَّهرَيْن، وأنّ «بَالاَق» مَلِكَ «مُوآب» اسْتَدْعاهُ لِيَلْعَنَ شَعْبَ إسْرَائِيلَ، فسَأَلَ رَبَّهُ، فَلَمْ يَأْذَنْ له، فَرَفَضَ طَلَبَ «بَالاَق» وذَهَبَ أخيراً وبارَكَ بني إسرائيل، ونَسَبُوا إلَيْهِ أنّه دَبَّر وَسِيلةً للإيقاع بِهِمْ في شَرَكِ عبادة الأصْنام، وأخِيراً قُتِلَ في حزبٍ بَيْنَ بَني إسرائيل وأَهْلِ «مَدْيَن».

وقَالَ بَعْضُ المفسِّرين، هو أبو عامرٍ الراهب، واسْمُهُ «النُّعمانُ بنُ صيفيّ» كان نصرانيًا من الخزرج، إحْدَىٰ القبيلَتَين الكُبْرَيَيْنِ في المدينة، فلمّا هاجر الرَّسولُ ﷺ إلى المدينةِ، نَاصَبَ الرَّسُولَ العداءَ الشديد.

ولاَ يَصحُّ هٰذا لأنَّهُ إنسَانٌ لَمْ تَرِدْ لَهُ قصَّة تتلىٰ فِي القرآن. وهذا الدَّرْس من سورة (الأعراف) مَكّيّ التنزيل، وظهورُ هذا الرَّجُلِ قد كان بَعْدَ هجرة الرَّسول ﷺ إلى المدينة، فكيْفَ يَنْزِلُ نَصٌّ مَكّيٌّ يُحَالُ فِيه على حَدَثٍ مضَىٰ، مع أنَّه لم يَأْتِ بَعْدُ في الواقع، هٰذا من الأغاليط.

وقِيلَ: هو أُمَيَّةُ بْنُ الصَّلْت، ولَكِنَّ هذا الرَّجُلَ لا يَنْطَبِقُ علَيْهِ الوصْفُ الذي جاء في هذا الدرس.

لكنّ النّص يَنْطَبِقُ على عُلَمَاءِ أهل الكتاب، اليهود والنصارى، وأشباههم، فَهُمُ الَّذِينَ تَلَقَّوْا آياتِ اللّهِ في التوراة والإنجيل، فَلَبِسُوها، وآمَنُوا بها، وبَعْدَ ذلِكَ انسَلَخُوا مِنْها، فلَمْ يَعْمَلُوا بمقتضاها، بَلْ حرَّفُوا فيها، وغَيَّرُوا وبَدَّلُوا وكَتَمُوا.

ولمّا جاء رسول اللّهِ محمّد ﷺ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لمَا جَاءَ فِي كتُبِهِمْ مِنْ ميثاقِ الإيمان بِه واتّباعه.

فكُلُّ واحِدٍ من هؤلاَء الذينَ انسلَخُوا من آياتِ اللّهِ في التوراة والإنجيل، يَنْطَبِقُ عليه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

وبحَمْلِ هٰذا النّصّ على كُلِّ مُنْسَلِخٍ مِنْ آيَاتِ اللّهِ من الْيَهُودِ والنَّصارَىٰ وأمْثالهم، تكُونُ السُّورَةُ قَدِ اسْتَعْرَضَتْ أهَمَّ اللّقَطَاتِ من تاريخ البشرِيَّةِ، تُجاهَ آياتِ اللّهِ، مُنْذُ عَهْدِ آدم علَيْهِ السَّلاَمُ، حتَّىٰ نُزُول القرآن المجيد على خاتم المرسَلِين محمّد ﷺ وعلى سائر إخوانه النبيّين.

وهؤلاء المنسلخُون هم الَّذِينَ نَجِدُ في القرآنِ أنْبَاءَ انسِلاَخِهِمْ من آيَاتِ اللّهِ المنزّلات.

- ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: أي: فَأَخْرَجَ نَفْسَهُ من آياتِ اللّهِ الْمُحِيطَةِ بِهِ، إحاطَةَ جِلْدِهِ بِجَسَدِه.

السَّلْخُ: هو في اللُّغَةِ كَشْطُ جِلْدِ الحيوانِ عن جَسَدِهِ الواقِع تَحْته، فالجِلْدُ مَسْلُوخٌ ومُنْسَلخ عن الحيوان، والحيوانُ مُنْسَلِخٌ من جِلْدِه، وكلُّ شيْءٍ يُفْصَلُ عَنْ قِشْرِهِ أوْ جِلْدِه فقد انْسَلَخَ منه.

ومن المعروف أنّ الحيَّاتِ تَنْسَلِخُ مِنْ جِلْدِهَا الْقَدِيم إذا كَسَاهَا الله جِلْداً جَديداً، فَتَنْسَلُّ منه انْسِلالاً.

وهذا المعنىٰ يُنَاسِبُ من كان قد لبسَ آيات اللّهِ حتَّىٰ كانت بمَثَابَةِ جِلْدِهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ جَسَدِه، وبَعْدَ ذَلِكَ انْسَلَخَ منها.

وهذا ينْطَبِقُ على الْيَهُود والنصارَىٰ وأمثالِهِم، الّذين آمَنُوا برُسُلِهم، وبالآيات اللاّتي أَنْزَلَهَا اللّهُ علَيْهم، واحْتَمَوْا بها مُدَّةً من الزّمن، وبعْدَ ذلك انْسَلَخُوا منها، تحْرِيفاً، وتَبْدِيلاً، وكتْماناً، وتَخَلِّياً عن تطبيقها.

وفي هذه العبارة استعارة بديعة قائمة على تشبيه الإيمان بآيات الله والعمل بها كالمحتمي بجلْدٍ لاصق بلحم بدَنه.

- ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾: أي: فتَبِعَهُ الشَّيْطَانُ لإغْوَائِهِ ودفْعِهِ إلى شقائه والْخُلُودِ في عذاب النار.

يقال لُغةً: تَبِعَهُ، واتَّبَعَهُ، وأَتْبَعَهُ، قال الفرّاءُ: «أَتْبَعَهُ» أحْسَنُ من «اتَّبَعَهُ».

- ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: أي: فوسْوَسَ الشيطانُ له، فاسْتجابَ لوساوِسِ الشيطان، وتضليلاته، وتَزْيِيناته، وإغواءاته، فكَانَ من الغاوين، أي: من الضّالين، الفاسِدِينَ، الخائبين.

يُقال لغة: غوَىٰ يَغْوِي غَيًّا، وغوِيَ يَغْوَىٰ غَوَايَةً، أي: ضَلَّ، وخَابَ، وفَسَد، وتركَ سبيلَ الرُّشْدِ، عن قَصْدٍ وتعمُّدٍ، اتباعاً للهوى.

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا﴾: أي: ولو شِئْنَا رَفْعَهُ بآيَاتِنا لَرَفَعْنَاهُ بها،

ولكن هذا لا يكون إلاَّ إذا سَلَبْنَاه اخْتِيَارَهُ الحرّ، وجَعَلْنَاهُ مَجْبُوراً، وهذا يتنافَىٰ مع وضع الإنسان في الحياة الدنيا موضع الابتلاء والامتحان.

- ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: ولَـكِـنَّـهُ اتَّـبَـعَ بـإرادَتِـهِ الْـحُـرَّةِ أهواءَهُ وشهَواتِه، فَأَخْلَدَ إلى الأرض.

أَخْلَدَ إِلَىٰ الْأَرْضِ: أي: اطْمَأَنَّ عَلَيْها، وسَكَنَ إلَيْها، ونَزَعَ من تصَوُّرِهِ قضيَّةَ الْإيمانِ بالْيَوْمِ الآخِرِ، وَوَجَّهَ كلَّ هَمِّهِ للحياة الدُّنْيا على الأرض.

- ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: أي: وإذْ أَخْلَدَ إلىٰ الأرْضِ والحيَاةِ الدُّنْيَا فيها، فَلاَ بُدّ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَّبعَ هَوَاهُ، لِيَنالَ مَا يَصْبُو إلَيْه من متاع الحياة الدّنيا، وذلِكَ لا يكُونُ إلاَّ بمَعْصِيَةِ اللَّهِ، والاسْتِهَانَةِ بآيَاته المنزَّلاَت.

- ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾:

أي: فَوَصْفُهُ وَهُوَ يتَّبِعُ هَوَاهُ في الحياة الدّنيا، كَوَصْفِ الْكَلْبِ الَّذِي يَظَلُّ لاهِثاً دَواماً، لا يَنتَهِي لَهَثُهُ في كُلِّ أحْوالِه.

إنَّ مَنْ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَ نَفْسِهِ، لا بُدَّ أنْ يَسْتَمِرَّ في كلِّ أحواله كادّاً لاَهِثاً، مِنْ جَرْيِه وراءَ مَطَالِب نَفْسِهِ الّتي تَتَجَدَّدُ دواماً، فكُلَّما حقَّقَ مطْلباً، أو خابَ في سَعْيه، تَجَدَّدَ في نفسه مَطْلَبٌ يطْمَعُ في تحقيقه، فيسْعَىٰ مجْتَهداً كادّاً لاَهِثاً في جَرْيِهِ، طامعاً في الحصول عليه، مَشُوقاً للظفر به، فهو بسبَب أهوائِه، وشهواتِه، وشَرَهِ نَفْسِه لمتاع الحياة الدنيا، لا يتَوَقَّفُ عن الكدّ والكدْحِ الذي يجْعَلُهُ لاهثاً دواماً.

- ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا... ﴿١٧٦﴾﴾.

أي: ذَلِكَ الْوَصْفُ المنحطُّ السَّافِلُ، البعيدُ عن مستوىٰ التكريم الَّذِي كرَّمَ اللَّهُ بِهِ الإنسَان، هو أيضاً وَصْفُ الَّذِينَ كذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ ابْتِداءً، دونَ أن يُؤْمِنُوا بِها، فَتُحِيطَ بِهِمْ كجُلُودِهِم.

لأنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ ذَلِكَ المنسَلِخُ من آيَاتِنَا، يُماثِلُ ما ابْتَدَأَ بِهِ هؤلاَءِ الّذِينَ كَذَّبُوا بآياتنا.

● ﴿... فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾:

أي: فحَدِّثْ بأخبار الأوّلِينَ، راجياً ممَّنْ تُحَدِّثُهُمْ أَنْ يُؤَثِّرَ فيهِمْ حَدِيثُكَ، فيَجعَلَهُمْ يَتفكَّرُونَ، فَيُدْرِكُونَ مِنْ سُنَنِ الله في عباده، وتَدْبِيرِه لشؤُون تَرْبِيَتِهم، وتأدِيبهم، وعقابهم، ما يُقْنِعُهُمْ وَيَعِظُهُمْ، ويكونُ دافعا لهم للاستقامة على صراط الحق، صراطِ العزيز الحميد، الّذي له ملك السماوات والأرض.

يقال لغة: قَصَّ الشيءَ قَصّاً، وقَصَصاً، أي تتبَّعَ أثَرَهُ، بالْفِعْل، أو بِرِوَايَةِ الأخبار عنه. ويُقال: قصَّ عليه خَبَرَه، إذَا أَوْرَدَهُ علَىٰ وجْهِهِ. **والقِصَّةُ**: الحديثُ، والأمْرُ، والْخَبَرُ، وجمعُها القِصَص.

● ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا... ﴿١٧٧﴾﴾

أي: إنَّ قصَصَ الَّذِينَ كذَّبُوا بآيَاتِنَا تُقَدِّمُ مَثلاً مُخِيفاً سَيِّئاً، وخِيمَ العاقبة، يَتّعِظُ به، ويَتَأَثَّرُ بِهِ المتفكِّرُون، الَّذِينَ تَلِينُ قُلُوبُهُم للحقّ، أو تخشَىٰ نفوسُهُم العواقب السيِّئَة، الّتي تُسَبِّبُها معْصِيَةُ الله، بعَدَم اتّباع آياته المنزّلاَت، للإيمَانِ بها واتّباعها.

سَاءَ: كَلِمةٌ تُقالُ في إنْشاء الذّمّ، مثل: «بِئْس» وعلى سبيل المبالغة.

● ﴿... وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾: أي: وكانُوا يَظْلِمُونَ بتَكْذِيبِهِمْ بآيَات الله، ولكِنَّهُمْ ما كانُوا يَظلمونَ إلاَّ أنفسهم، لأنَّ تكذيبهم لم يَضُرَّ الله شيئاً، وإنّما عَرَّضهم لعقوبَةِ اللّهِ في عذابِ خالِدٍ يوم الدِّين، وربّما عَرَّضَهمْ لإهلاكٍ بعذاب في الحياة الدُّنيا.

واستفيد الحصر في الجملة من تقديم المعمول: [**أَنفُسَهُمْ**] على عامله: [**يَظْلِمُونَ**].

بيانٌ عامٌ حول هذا الدرس:

إنّ أحَقّ مَنْ يُتْلى عليهم نبأُ الّذي آتاهُ اللّهُ آياتِهِ، فانسَلَخ مِنها، فأتْبعَهُ الشَّيْطَانُ، فكَانَ مِنَ الغَاوين، هُمُ الّذين آمَنُوا بالرّسُول مُحَمَّدٍ ﷺ، وبما أنزل اللّهُ عَلَيْهِ من آياتِ القُرْآنِ الكريم، فكانَتْ شَامِلَةً لَهُمْ من كلّ جَوانِبِهِمْ، كجُلُودِهِمْ الشَّامِلَةِ لكلّ أجْسادِهم.

والغرضُ من هٰذه التّلاوة، تحذيرهُمْ مِنْ أنْ يَتعَرّضُوا لمثْلِ مَا تَعرضَ لَهُ المنْسَلِخُون مِن آيَاتِ اللّهِ من أهْلِ الكتاب مِنْ قبلهم.

لَقَدْ تَلَقَّوْا آيَاتِ القرآن الكريم بالْقبول، فأخَذُوها، وغَلّفُوا بها عقُولَهُمْ، ونفوسَهُمْ، وقُلُوبَهُمْ، عنْدَ انْدِفاعَةِ الإيمانِ الأولىٰ، المقْتَرِنَةِ بحرَارة الاسْتِجابَةِ، والطّمَعِ بالسّعَادَةِ العظيمة.

ولكِنّ المحذورَ مِنه أنْ تَبْرُدَ حَرَارَةُ هٰذِهِ الشّرَّة، وتَخِفّ حِدّةُ الانْدِفاع، وتَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِمُ الْغفَلات، وتتوارَدَ على نفوسهم مطالِبُ الأهواء والشهوات واللّذّاتِ، من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، فينسَلِخُوا شيئاً فشيئاً من آيات اللّهِ، كما فَعَلَ كثيرٌ من الْيَهُودِ والنّصارَىٰ مِنْ قَبْلِهِمْ، إذْ لَبِسُوا آيات اللّهِ أوّل الأمْر كجُلودِهِم، فلَمْ يَلْبَثُوا طَوِيلاً حتّىٰ انسَلَخُوا مِنْها كَمَا تَنْسَلِخُ الحيَّاتُ من جُلودِها، اتّباعاً لأهوائهم، وشهواتهم، ولذّاتِهم من مَتَاعِ الحياة الدنيا.

فأتْبَعَهُمُ الشيطان، إذْ وَجدَهُمْ لاَ دِرْعَ لهم من آياتِ اللّهِ، ولا حاجب يَحْجُبُهُمْ من وافداتِ الأوبئة الْمُسْقِمَة أو القاتلة، فما زالَ بهِم يُوَسْوِسُ لَهُمْ، ويُسَوّلُ لَهُمْ، ويُزَيّنُ لَهُمُ الباطلَ والفِسْقَ والفجورَ والعصيان، ومَا زال يُغْريهم، حتّىٰ دفَعَ بِهِمْ إلى الغَوَايَة، فكانُوا مِنَ الغاوين الضّالين الفاسِدِين الخائبين.

وقد تحدّثَ النّصُّ عَنْ هذا الصنف من الناس بصيغَةِ الحديث عن المفرَد، لأنّ كُلّ واحدٍ منهم يتحمّلُ مَسْؤوليّته عن انسِلاَخِهِ من آياتِ اللّهِ

بِصُورَةٍ إفرادِيَّة، مع أَنَّهُمْ في الواقع كثيرونَ جدًّا، بَلْ هُمُ النِّسْبَةُ العظْمَىٰ من الْيَهُودِ والنَّصارَىٰ، وسائِرِ الَّذِينَ كانُوا يَتَّبِعُونَ آياتِ اللَّهِ الَّتي أنزلَهَا على رُسُلِه من أهْلِ القرون الأولىٰ.

بَلْ كُلُّ الَّذِينَ لم يُؤْمِنوا بِرَسُولِ اللَّهِ مُحَمد ﷺ، ولَمْ يُؤْمِنُوا بالقرآنِ الَّذِي أنزلَهُ اللَّهُ عليه، من أهل الكتاب، هُمْ مُنْسَلِخُونَ من آيات الله، فقد سبَقَ أنْ آتاهُمُ اللَّهُ آياتِه في التَّوْرَاةِ والزَّبورِ والإنْجِيلِ، فأحاطَتْ بهم بياناتها، ودَلاَلاَتُها، ولَبِسُوها كجُلُودِهم، وأعْطَوْا عُهُودَهُمْ ومواثِيقهم على الالتزام بما جاء فيها، ومنها أنْ يُؤْمِنُوا بالرَّسولِ النبيّ الأمّيّ مُحمّد ﷺ، فنقَضُوا عُهودَهُمْ ومواثيقَهُمْ، وانسَلَخُوا مِن آياتِ اللَّهِ خُروجاً عن مَطْلُوب الله منهم فيها، بالتَّحْرِيف والتبديل والكتمان، وبمعْصِية ما جاء فيها من أوامر الله ونواهيه، اتّبَاعاً لِلْهَوَىٰ، وإيثاراً للحَياةِ الدُّنيا ولذَّاتِها، وتحقيق شهواتِهم مِنها.

ومن هذه الآيات البشائِرُ بالرَّسُول الخاتم، والْعُهُودُ المذكُورَةُ عِنْدَهُمْ في التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ، الَّتي أُخِذَتْ عليهم أن يَتَّبِعُوا الرَّسُولَ النبيَّ الأُمِّيَّ، متىٰ بَعَثَهُ الله، فلَمَّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فانسَلَخُوا من آياتِ اللَّهِ بكُفرِهم، وبرفْضِهِمْ دلائل البشائر، وبنَقْضِهِمُ الْعُهُودَ والمواثيق.

هذا ما ظهر لي لَدَىٰ تدبُّر هذا النَّصّ مع سوابقِهِ ولواحِقِه في السورة، منْضَمًّا إلى دَلاَلاَتِ آياتِ دُرُوس السُّورَةِ بوجْهٍ عام، في وَحْدَةِ موضوعها، مع النظر إلى ما أُنزِلَ من سُوَرٍ قبْلَ نُزُولِ سُورَةِ (الأعراف) في التنزيل المكّي، وإلى المرحَلَة الزَّمَنِيَّةِ الَّتي أُنْزِلَ فيها، على خلاف ما طَرَحَهُ المفسِّرُونَ من احْتِمَالاَتٍ لَمْ يَرِدْ عن المعصُوم فيها شيْء.

إنَّ التعبير بالإفراد في قول الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ هو الّذي جعَلَ أَهْلَ التأويل يَبْحَثُونَ عَنْ شَخْصٍ

بِعَيْنِهِ، يَحْمِلُونَ النَّصَّ القرآنيّ عليه. غير أنّ النَّصّ جَاء التَّعْبيرُ فيه بصِيغَةِ الإفراد، إبرَازاً للمسؤوليَّةِ الفرديَّة لدَىٰ كلّ المنْسَلخِينَ، وإعْلاماً بأنَّ قضيَّة هؤلاَءِ ليْسَتْ قَضِيَّةً جماعِيَّةً تُؤَثِّرُ فيها ضواغِطُ الجماعَة، بلْ هي قضيَّةٌ إيمانيَّةٌ وسُلُوكيَّةٌ فَرْدِيَّة، وتتمثَّل في القادة الّذين عَلِمُوا مضْمُونَ آياتِ الله، وأُحاطَتْ بِهِمْ دَلاَلاتُها من كُلّ جانب، إحَاطَةَ جلُودِهم بكُلّ أجْسَادِهم.

أمّا الأتباعُ المقلّدُونَ الَّذِينَ لا يَفْقَهُونَ دَلاَلاَتِ آيات الله، فانسِلاَخُهُمْ انسِلاَخ انْقِيَادِيٌّ لقادَتِهم من العلَماءِ بدلالات آيات الله.

ودلَّ التعبيرُ بالانسلاخ على أنّ هٰذه الجلُودَ قَدْ لازمَتْهُمْ حقبةً من الزَّمن، بمعنَىٰ أنَّهُم حافَظُوا على إحاطَةِ آيات اللّهِ بِهِمْ زَمَناً كافياً لاكتساب خُلُقِ الْعَمَلِ بما تَهْدِي إلَيه، وإشعاراً بهٰذِهِ الإحَاطَةِ اللاّصِقَةِ، جاء التعبير بالانسِلاخ اللاَّحِق، مَعَ الإيماء إلَىٰ أنَّ كُلَّ فَرْدٍ من أفراد هذا الصنْفِ مِنَ النّاس، قد تحوَّلَ فصَارَ كالحيَّةِ الّتي تَنْسَلِخُ مِنْ جِلْدها، ومعلومٌ أنّ الحيَّاتِ ليِّنَاتُ الأبدان، وفيهنّ السُّمُّ الزّعاف المميتُ بشدَّة، والأنيابُ النواهِشُ القواتل.

وَجَاءَ في النصّ الاكْتِفَاءُ بذِكْرِ عبارة: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ اعتماداً على ذكاءَ المتلَقّي، الّذي يَسْتَكْمِلُ مَا أشار إلَيْهِ الانسِلاَخ، الّذي يَعْرِفُه في الثَّعابين، إذْ يَرَىٰ جُلُودَهَا الّتِي انسلَخَتْ مِنهَا، وهذا من الاستعارات المكنيّات البديعات.

إنَّ المتلقِّيَ الذَّكِيَّ يُدرِكُ أنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ هٰؤُلاَءِ النسَلِخِينَ مِنْ آياتِ الله، ينْطَوِي علىٰ اللُّؤْمِ والخِسَّةِ الّتي تَنْطَوي عَلَيْهَا الحيَّةُ الّتِي تَنْسَلِخُ مِنْ جلْدِها.

وقد أبرز هذا النّصّ أنّ المنسَلِخَ مِنْ آياتِ اللّهِ قَدْ عَرَّض نَفْسَه بانسِلاَخِهِ للفساد، إذْ لم تَبْقَ لَدَيْهِ وقايَةٌ تحْمِيهِ من الشيطان ووساوسه، لقد

خلَعَ الدِّرْعَ الّذي كان يَقِيه من شرّ عَدُوِّه الأكبر، إبليس وجنوده ودلَّت عبارة: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ علىٰ أنّ الشيطان قَدْ عَدَا إلَيْه بسُرْعَةٍ فائقة، لمّا رآه قد انْسَلَخ مِنْ إياتِ الله، حتّىٰ لَحِقَهُ، وأخَذَ يُوَسْوِسُ له ويَسُوِّلُ وَيُزَيِّنُ لَهُ الشرّ، ويَسْتَدْرِجُهُ، ويُدَلّيه بغُرُور.

ودلَّت عبارة: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ على أنَّ هٰذا المنْسَلِخ من آيات اللّهِ قد اسْتَجابَ بإرادتِهِ الحرَّةِ لوساوس الشيطان وتَسْوِيلاتِه، حتَّىٰ كانَ من فِئَةِ الغَاوِين، الضّالين، الفاسِدِين الخائبين.

ومتَىٰ صارَ المخلوقُ الممتَحَنُ في ظُروفِ الحياة الدنيا مِنَ الغاوِين بإرَادَتِهِ الحرَّة، رَدَّهُ اللَّهُ بسَبَبِ غَوَايَتِهِ إلى أسْفَلِ سَافِلِينَ، فاستَقَرَّ في حضيضِ أهْلِ الكُفرِ والطُّغيان، والظُّلْمِ والعُدْوان.

وقد كان هذا بإمكانه وهو حُرُّ الإرادة أن يَرْتَفِعَ بآيَات الله، لو الْتَزَمَ بمَا لَهَا مِنْ وقايَةٍ وحِمَايَةٍ، وحَافظَ علَىٰ أنْ تكُونَ بمثَابَةِ جِلْدِه المحيط بكلِّ جَسَدِهِ، إيماناً وعملاً، وإذَا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَهُ وابتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبّه، رَفَعَهُ بِها فجَعَلَهُ مِنَ الصَّالحين، وأعلَىٰ مَنْزِلَتَهُ في جنّاتِ النعيم بمقدار مَا يَعْلَم من التزامِهِ بآياتِه، وصِدْقه في ابتغاء مرضاته.

ودلَّت عبارة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾: على أنّ اللّه جلَّ جلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُهُ لَمْ يَشَأْ رَفْعَهُ بآياته، لأنَّهُ لم يَسْتَحِقَّ هذا الرَّفْعَ وهو مُمَكَّنٌ باختياره الحرّ أنْ يَرْتَفِع، وليس من حِكْمَة اللّهِ أن يَرْفَعَ المتَسَفِّلِينَ بإرادتِهِمْ الحرَّة، وهم موضوعون في الحياة الدنيا موضوع الابتلاء والامتحان.

ولو شاء اللَّهُ رَفْعَهُ لسَلَبَ مِنْهُ الاختيار، ولجعَلَهُ مجبوراً غير مختار، وحِينَئذٍ لا يكونُ من الموضوعين في الحياة الدنْيا مَوضِع الابتلاء.

إنّ إرادات الله لا تَتناقَضُ فيما بَيْنَها، فلا يُمْكن أَنْ يَجْعَل عبْدَهُ حُرَّ الإرَادَةِ مُمْتَحناً، في الوقْتِ الذي يَجْعَلُه مجبوراً مَسْلُوبَ الإرادة الحرَّة، هذا تناقُضٌ يَسْتَحِيلُ عقلاً أَنْ يكون.

إنّ هذا المنسَلِخَ من آيات اللَّهِ قد استَعْمَلَ حُرِّيَّة إرادَتِه بإيثَار الحياة الدنيا، واتباعِ أهوائه وشَهَواتِهِ للاستمتاع بأنواع متاعِ الدنيا، ولَمْ يَعْمَلْ بما يحقِّقُ له السَّعادة الحقيقيّة في الدنيا والآخرة، مَعَ عِلْمِه بذلك، فآيَاتُ اللَّهِ بدَلالاتِها قَدْ كانت محيطَة به كإحاطَةِ جلْدِه به، وكان ملْتَصِقاً بها ومُمْتَحَناً بتَطْبِيق مضمونها، وحِينَ أحَسَّ بثِقَلِ التكاليف على نفسه، انْسَلَخَ منها.

ودَلَّتْ عبارةُ: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ على أنَّهُ اطْمَأَنَّ إلَيْها، ولازَمَ انحِطَاطها، وآثَرَ شَهَواتِه ولَذَاتِهِ وأهْوَاءَهُ مِنْها، وآثَرَ أنواعَ مَتَاعِها العاجل، غَيْرَ مُتَعالٍ إلى سَمَاواتِ الكمالاَت، وغَيْرَ ساعٍ إلى مَرْضَاةِ العلِيِّ المتعالي.

وهُنَا يَطْوِي النَّصُّ تَساؤُلاً يُقَدِّمُهُ المتَفَكِّرُ بشَأْنِ هذا المنسَلِخِ من آيات الله، ومضمون هذا السُّؤال:

هَلْ حقَّقَ هذا المنسَلِخُ من آيات اللَّهِ، بإيثارِهِ الحيَاةَ الدُّنيا، وإخْلاَدِه إلَىٰ الأرضِ، واتّباعِهِ هواه، مَا كان يَصْبُو إليه من مَتَاع الحياة الدُّنيا.

ويأتي الجوابُ الرَّبَّانِيّ فَيَدُلُّ بإشاراتِه الأَدَبِيَّةِ الرَّفِيعَة، على أنَّهُ لَمْ يحقِّقْ ذَلِكَ لِنَفسِهِ، بل اسْتَمَرَّ يُتَابِعُ أهواءَهُ وشهواتِه، ويُلاحِقُها دَواماً، في كَدٍّ لاَهِثٍ، يَتَنَاوَلُ فيه رذَاذَ لِذَّاتٍ عَابرات، بَيْنَما هو في مُحيطٍ من الكدِّ والكدْحِ والْمُلاَحقَة، كمُلاَحَقَةِ أمْواجِ الْبَحْرِ لسَفْحِ الْجَبلِ، بُغْيَةَ أنْ تَرْتَقِي إلى أعْلاَهُ، فَتَتَكَسَّرُ علَىٰ صَخَراتِهِ، ويَسْتَمِرُّ هذا اللاَّهِثُ يُعَاوِدُ مُحَاولاتِهِ دُون أنْ يُرْوِي ظمأَهُ ممَّا يَصْبُو إلَيْه.

وأَحْرِ بهٰذَا الكادِحِ الكادِّ اللاَّهث، الَّذِي يَبْتَغِي الوصُولَ إلَىٰ ما يَشْتَهِي من مَتَاع الحياة الدُّنيا وَزِينَتِها، متَّبعاً هواه، أن يكُون مَثَلُ كَدِّهِ، ولَهَثِه فيه، وأنْ تكونَ صُورَةُ حياتِه النفسيَّة، وصُورَةُ حياتِه المعاشِيَّة:

﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

وجاء في هذا النّصّ الاكتِفَاءُ بهذا المثَلِ عَنْ كُلّ الجواب الّذي فَصَّلْتُهُ آنفاً.

إنَّهُ مَثَلٌ مِنْ كَلِمَاتٍ مَعْدُوداتٍ، إلاّ أنَّهُ دَلَّ باشْعَاعَاتِهِ المتفرّعاتِ علىٰ جوابٍ طويلٍ، يُشْرَحُ بمقَالَةٍ مُسْتَفِيضَة.

هذا المثَلُ علَىٰ إيجازه البديع، هو صُورةٌ تمثيليَّةٌ رائِعَةٌ لحالَةِ اللَّهَثِ النَّفْسِيّ، والظَّمأِ لمطالِب الحياة الدُّنيا، وتَحْصِيلِ الأهواءِ والشهواتِ منها، لدَىٰ الّذي انْسَلَخَ من آيات الله، بَعْدَ أَنْ آتاه اللَّهُ إيّاها.

ويُشْبِهُ حَالَ هذا المنْسَلِخِ، حَالُ الَّذِي كذَّبَ بها ابْتدِاءً، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ حَتَّىٰ أدركَهُ وقَبَضَ علىٰ نَاصِيَتِه.

وكانَتْ عِلَّتُهُ النفسيَّةُ أنَّهُ أخْلَدَ إلى الأرض طَلَباً للطمأْنِينَةِ فيها، والاسْتِمْتَاعِ بلَذَّاتها، وأنَّه اتَّبع هواه.

ما أبدع هذا المثل في دَلالاته، إنَّ هؤلاء اللاَّهِثِين لا يظْفَرُونَ من دُنياهم لِلَذَّاتهم الحقيقية بطائل، أكْثر من متاعٍ زائل، ولو جَمَعُوا وَمَلَكُوا كُلَّ كُنُوزِهَا، ويسْتَمِرُّ الظمأُ النفسيُّ لدَيْهِم على حَاله، ويسْتَمِرُّون في لَهَثٍ نَفْسِيٍّ متواصل.

* * *

(١٣)

التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس السورة وهو الآيتان: (١٧٨ و١٧٩)

قال الله عزّ وجل:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا

يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾:

تمهيد:

هذا درْسٌ من دُروس سورة (الأعراف) يَعْرِضُ الله عزّ وجَلَّ فيه لَقْطَة خِتام من لَقَطاتِ مَوْقف الحساب وفَصْلِ القضاء يَوْم الدِّين، ويشتمل على تعْليقٍ بشَأْنِ أهْل جهنّم الّذِين كذّبُوا بآيات اللّهِ المنزَّلاَتِ على رُسُلِهِ للإيمان بها واتّباع ما جاء فيها، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِها، ولم يتَّبِعُوا ما جاء فيها، بل اتّخذُوا من دُونِ اللّهِ أولياء.

وقَدْ جاء هذا الدَّرسُ بَعْدَ الْبَيَاناتِ الكثيراتِ حَوْلَ واجِب اتِّباع آيات الله المنزَّلاَتِ على رُسُله، الْمُؤَيَّدَةِ بآيات اللّهِ الإعْجازِيَّةِ الّتِي شَهِدَ اللّهُ بها لِرُسُلِهِ بصِدْقِهِمْ في بَلاغاتِهِمْ عنه، وبآيَاتِه الكَوْنيَّة المنبَثَّةِ في كُلِّ شيءٍ، والدّالأتِ على رُبُوبيَّة اللّهِ وأَحَدِيّتِهِ فيها، وعلى إلَهِيّته الّتي لا يُشَارِكُه فيها شيْءٌ في الوجود كلّه، وبآيات الله الجزائيَّة الّتي أجراها اللّهُ بحكمته للأمم السّالفة.

- فأمَّا الّذِين كذّبوا بآيات اللّهِ المنزّلات على رُسُله، ووصَلُوا بجماعَاتِهم إلى حالَةٍ مَيْؤوسٍ منها، فلاَ تُفرِزُ مجتمعاتُهُمْ إلاَّ فاسِدِين مُفْسِدين، فَقَدْ كان مَصِيرُهم الإهلاكَ الشَّامِل.

- وأمّا الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا صالحاتٍ مَا، على تفاوُتِ دَرَجاتهم وتفاضُلِ مراتبهم، فقد كانت عاقِبَتُهم النَّجاةَ من الهلاكِ الشامل، ومَرُّوا في رحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ بحَسَبِ أَعْمارِهِمُ المقدَّرَةِ لكُلٍّ مِنهم، يَعْمَلُونَ وهُمْ مَحْفُوفُون بالمعُونَةِ الرَّبَّانِيَّة.

ولَقْطَةُ الْخِتَامِ هٰذِهِ تُبيِّنُ: أَنَّ مَنْ يَحْكُمُ اللّهُ لَهُ بالْهِدَايَةِ يَوْمَ الدِّين، بعد السؤال والمحَاسَبَةِ وَوزْنِ الأَعْمَالِ، أَوْ دُونَ حِسَابٍ، فيَقْضِي له بأنّه من أهل

الجنَّة، اسْتناداً إلى ما قَدّم في الحياة الدُّنيا لآخِرَتِهِ من عَمَلٍ صالح، مع فَضْلِ اللَّهِ عليه، ويكُونَ هو المهتدِي يومئذٍ.

وأنّ من يحكُمُ الله عليه بالضَّلاَلَةِ يَوْمَ الدِّين، بَعْدَ السّؤال والمحاسبة وفَصْلِ القضاء، فيقضي عليه بأنَّه من أهْلِ جَهَنَّم بمقتَضَىٰ عذْلِهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ ـ فهو الضَّالُّ الخاسِرُ لا محالة، الَّذِي خَسِرَ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ من تكريم، وخَسِرَ مَكانَهُ في الجنَّةِ، الَّذِي كان باسْتِطَاعَتِهِ أنْ يَنالَهُ بفَضْلِ الله، لَوْ أنَّهُ آمَنَ واتَّبَعَ آياتِ اللَّهِ المنَزَّلاَتِ على رسُوله، ولَمْ يَتّخِذْ من دونِ اللَّهِ أولياء، وخَسِرَ راحَةَ نَفْسِه وعافيَتَها، إذْ عرَّضَهَا لعذابٍ أَلِيمٍ دائمٍ في نار جهنّم.

إنّه لاَ يَمْلِكُ أحَدٌ الحكْمَ بالهداية، لمَنْ حَكَمَ اللَّهُ عَلَيْه بالضَّلاَلَةِ يَومَئذٍ، ولا يَمْلِكُ أحَدٌ الحكمَ بالضَّلاَلَةِ على مَنْ حَكَمَ اللَّهُ لَهُ بالْهِدَاية.

إنَّ الْمُلْكَ يَومئذٍ للَّهِ وحْدَهُ، جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بما جاء في الدَّرْس الأوّل من دُرُوس السُّورَةِ، بالآيات من (٦ ـ ٩) منه، وهي قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

وقد جاء هذا الدَّرْسُ التاسِعُ بَعْدَ أكثَرَ من (١٦٠) آيَةً، بمَثَابَةِ تكميلٍ لمَا جاءَ في الدَّرْسِ الأوّلِ مِنها، لنُدْرِكَ بإمْعَانٍ ترابُطَ آياتِ السُّورَةِ كُلِّهَا في وَحْدَةِ مَوْضُوعٍ.

التدبُّر التحليلي :

قول الله تعالى :

- ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ . . . ﴿١٧٨﴾﴾ :

أي : مَنْ يَحْكُم اللّهُ لَهُ بالْهِدايَةِ فَهُو المهتَدِي، ومَعْلُومٌ أنّ حُكْمَ الله عزّ وجلّ لأفراد عباده بالهدايَةِ، أو حُكْمَهُ علَيْهم بالضَّلالَة، حُكْما مُبْرَماً، إنّما يكونُ يوْمَ الْقِيامَةِ في محكمة الْعَدْل الرَّبانِيّة، بعْدَ السؤالِ والْحِسَابِ ووَزْنِ الأعَمالِ، أوْ دُونَ سُؤالٍ ولا حِسَابٍ، إذْ يُدْخِلُ بعضَ عبادِه الصَّالِحين الجنَّة بغَيْرِ حِسَاب.

ومَنْ يحكُمُ الله له بالهدايةِ فالجنَّةُ مَصِيرُهُ حتْماً، هذا وعْدُ الله، واللّهُ لا يُخْلِفُ الميعاد.

ومَعْلُومٌ أنَّ حُكْمَ الله لأفراد عبادِه بالهدايَةِ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مستنِداً إلىٰ ما قدَّمُوا في الحياة الدُّنيا من إيمانٍ صَحيحٍ صادقٍ، وعَمَلٍ صالح، يُضافُ إلى ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ العظيم عليهم بالْعَفْوِ والغفران، والتجاوزِ عن السّيِّئاتِ، وتَبْدِيلِ السّيئات حَسَنَاتٍ لبَعْضِ أهل المراتب الرفيعَةِ من المؤمنين، وهم الّذين تنطَبِق عليهم صِفَاتُ عباد الرَّحْمٰن.

وقد وجب حمْلُ فعْلِ «يَهْدِي» في هذا النّصّ على معنىٰ الحكْم بالهداية، أحَدِ الْعلاقاتِ الّتي بمقتضاها يُسْنَدُ الْفِعْلُ إلَىٰ فاعله، لأنّ العلاقات الأخرىٰ لا تُلائم مضمونَ هذا النّصّ.

● أمَّا الهدايَةُ بمعْنَىٰ جَعْلِ الإنسانِ مجْبُوراً على الهدايَة بالْخَلْقِ الرَّبَّاني المباشر، دون أن تكون له إرادَةٌ حُرَّةٌ مُخْتَارة، فإنَّها تُلْغِي كوْن الإنسانِ مُمْتَحناً مُخْتاراً في الحياة الدُّنيا، في رحْلَةِ الابتلاء من وجوده، وتتنافىٰ مَعَ قول اللّهِ عزّ وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ـ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ إذ التكليفُ ضِمْنَ حُدودِ الوسْع يَتَناقَضُ مع الجبر، ومن

المعلوم من الدّين بالضَّرُورة، أنّ الْإِنْسَان البالغ العاقِلَ عَبْدٌ مُكَلَّفٌ مُبْتَلَىً في ظروف الحياة الدنيا.

- وأمَّا الهدايَةُ بمعْنَىٰ الدَّلاَلَةِ والدَّعْوَةِ إلى سَبيل الْهُدَىٰ والخير، فقد جَعَلَها اللَّهُ عزّ وجلّ عامَّةً شامِلَةً، لمن اسْتجابَ واهتدى، ولِمَنْ أبَىٰ وضَلَّ، فلا تُنَاسِبُ مَا جَاءَ في هذا النّصّ.

- وأمَّا سائر العلاقات الّتي بمقتضىٰ واحدٍ منها يُسْنَدُ الفعل إلى الفاعل فلا يُناسب شيءٌ منْها مَا جاء في هذا النّصّ.

فانْحَصَر الملائم بالْعلاقَة الّتي تكْشِفُ أنّ الله عزّ وجلّ وجَدَ عَبْدَهُ في الحياة الدنيا مُهْتَدِياً، بما قَدَّمَ لنفْسِه من إيمان وصالحِ عَمَلٍ، فَهَدَاهُ اللَّهُ، أي: فحكَمَ لَهُ بالهداية.

قول الله تعالى:

- ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾:

أيْ: ومَنْ يَحْكُمِ اللَّهُ عليهم بالضلالَة، لأنَّهُمْ كانُوا في الحياة الدُّنيا ضَالّين باخْتِيَارِهم الحرّ، فأولئك البعداءُ الّذِين حَجَبُوا أنفُسَهُمْ عَنْ هُطولِ رَحْمَةِ اللَّهِ الواسِعَةِ علَيْهم، هُمُ الخاسِرُونَ، الّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ شيءٍ حتَّىٰ أنْفُسَهم، إذْ جَعَلُوا أنفُسهم محرومينَ من نَعِيم الجنَّة، ومُعَذَّبِينَ دواماً في نارِ جهَنَّم، لأنَّهم رفضُوا الإيمانَ والطَّاعَة، ولم يَتّبِعُوا آياتِ كتاب الله، واتخذوا من دون الله أولياء.

وكلمة «مَنْ» في: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ وفي: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ اسْمُ شَرْطٍ جازم، يجزم فعْلَيْن، يسَمَّىٰ أولُهما فِعْلَ الشَّرْط، ويسمَّىٰ الثاني جوابَهُ وجزاءه، وكلمة «مَنْ» هذه تُطْلَقُ عَلَىٰ الواحِدِ فأكْثر، وقَدْ يُراعَىٰ لفظه المفرد فيُعَادُ الضمير عَلَيْهِ بالإفراد، كما في الجملة الأولى، وقد يُراعَىٰ مَعْناه الدَّالُّ على الجمْعِ فيُعادُ الضمير عليه بالجمع، كما في الجملة الثانية، والتنويعُ في

الجملَتَيْنِ تفنُّنٌ في البيان. وقد يُفْهَمُ من الإفراد في الجملةِ الأولىٰ تكْرِيمُ كُلِّ فرْدٍ من أفرادِ المهتدين، بأنَّه يَحْمِلُ من ربّه شهادة «الْمُهْتَدِي» بعْدَ فَصْلِ القضاء يوْمَ الدين.

أمّا الضّالُّون فإنَّهُمْ يُجْمَعُونَ معاً في زُمَرٍ ذواتِ راياتٍ مُهِينَاتٍ، أو علامَاتٍ يُعْرَفُونَ بها أنَّهُمُ الْخَاسِرُونَ المنْبُوذُون.

وبَعْد الحكم علَىٰ الضّالين بالضَّلالِ يَوْمَ الدّينِ، وأنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جهَنَّمَ، يُسَاقُونَ إليها لِيُكَبْكَبُوا فيها، ولِيَذُوقُوا جزاءَ كُفْرِهم، وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبّهم، وعَدَمِ اتّبَاعِهِمْ آياتِهِ، على اختلاف دركاتهم.

وأمّا المهتدون فَيُسَاقُونَ معزَّزِينَ مكرَّمِينَ إلى جنَّاتِ النعيم، ليَحْتَلُّوا مَنَازِلَهُمْ فيها بحسَبِ دَرَجاتهم ومراتبهم.

وقد طُوِيَ في النصّ هُنَا هٰذا السَّوْقُ اكتفاءً بإيراده في نُصُوصٍ أخْرىٰ، على منهج القرآن في تَوْزيع أفكارٍ وعَناصر الموضوع الواحد على مختَلِفِ الآيَاتِ والسُّور، واقْتُصِرَ فيه علىٰ بيانٍ يَتَعلَّقُ بوَصْفٍ كَاشفٍ لحالِ أهْلِ جَهَنَّمَ الفِكْرِيّ تُجَاهَ آياتِ الله البيانيَّة، والإعجازيَّة، والكَوْنِيَّة، والجزائيّة، ويُفْهَمُ مِنْهُ بالمقابلِ ذِهْناً ولو لَمْ يُذْكرْ في العبارة وصْفُ حال أهل الجنَّة.

فقال اللّٰهُ تَعالَىٰ:

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ . . . ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿ذَرَأْنَا﴾: أي: خَلَقْنَا. قيل: وكَأَنَّ الذَّرْءَ مختَصٌّ بخَلْقِ الذُّرِّيَّة. وقُدِّمَ الجِنُّ عَلَىٰ الإنْس لأنَّهم أَسْبَقُ خَلْقاً.

ومن المطويّ هنا في النَّصِّ، ويُمْكِنُ إدراكُهُ ذهْنا: لَقَدْ خَلَقْنَا للجنَّةِ عباداً لَنا من الجِنّ والإنس ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾.

أي: ولَقَدْ خَلَقْنَا كثيراً من ذَرارِي الجِنّ والإِنْسِ صائِرِينَ لجَهَنَّمَ دَارِ

عَذَابِ مَنْ نَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بالضَّلاَلِ، لأنَّهُمْ ضَلُّوا بإرادَاتِهم الحرَّة، دُونَ جَبْرٍ ولا إكْراهٍ منا، فاقتضى العَدْلُ الحكْمَ عَلَيْهم بالضَّلال.

لقَدْ هَيَّأنَا لَهُمْ كُلَّ ظُرُوفِ الامْتِحان الأمْثَل، فاستَحبُوا الْعَمَىٰ على الْبَصَر، والضَّلالَ علىٰ الْهُدَىٰ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ العذاب، بمقتضىٰ قَانُونِ الْعَدْل.

وإذْ سَبَقَ في عِلْمِ اللَّهِ ضِمْنَ خَصَائصِ رُبُوبيّتِهِ، أنَّ كثيراً من الجنّ والإنْسِ سَيَخْتَارُون بإرادَاتِهم الحرَّةِ سُبُلَ الكُفْرِ والضَّلالِ، حينَ يَضَعُهُمْ في الحياة الدُّنيا موضِعَ الامتحان، أعْتَدَ لَهُمْ جهَنَّمَ دَارَ العذاب.

ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ الخلْقَ وفْقَ نِظَام التناسُل، وسخَّرَ لَهُمْ أسْبابَ الإيمان، وأسْبَابَ الكُفْر، وأسْباب العمل الصالح، وأسباب الأعمال السّيِّئَة، وأرْسَلَ إليهم الرُّسل، وأنْزَلَ إليهم الكُتَب، وحَذَّرَهُم وأنْذَرهم وبَشَّرَهم، وضَرَبَ الأمْثَال من الوقائع العمليَّةِ على جزائه، وجعلهم جَمِيعاً أمام نجْدَين، وهم يملكون من القِوَى الفكريّة والنفسيَّةِ والجسَدِيَّة، مَا يُمَكِّنُهم من سُلوكِ نَجْدِ الإيمان والحقّ والخير، الموصِلِ إلى السَّعَادَة الأبديَّة الخالدة، ويُمَكِّنُهُمْ من سُلوكِ نَجْدِ الكُفرِ والباطلِ والشَّرّ، المُوصِلِ إلىٰ الشقاء والْعَذَاب الأبَدِيَّيْن.

فافْتَرَقُوا فِرَقاً، فَسَلَكَ أكثرهم النَّجْد الموصِلَ إلى الشقاء والعذاب الأبديَّين، فكفَرُوا بربّهم، وتمرَّدُوا علىٰ طاعته.

وسَلَكَ كثير منهم سبيل الإيمان، مع الإسراف على أنْفُسِهِم بالعصيان، واستحقوا من العذاب على مقادير معاصيهم.

وسَلك الأقلّ منهم صراط الله المستقيم، مع عصيان مشمول بالعفْوِ أو بالغفران.

جَهَنَّم: اسمٌ علمٌ من أسماء النّار التي أعَدَّها الله ليُعَذِّب فيها يوم الدّين، الكافرين، والعصاة على مقادير معاصيهم.

وهو ممنوعٌ من الصَّرْفِ، للعمليَّةِ والتأنيث.

ويقال لغة للقَعْرِ البعيد: جَهَنّم. ويقال: بِئْرٌ جَهَنَّمٌ، أي: بعيدة الْقَعر.

قول الله تعالى:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ... ﴿١٧٩﴾﴾.

يرادُ بالقُلوب هنا الْقوىٰ الداخليَّةُ في الإنسان المخلوقَةُ للْفَهم، وللحفظ، وللتذكّر باخْتِزَانِ صُورَ الأشياءِ، وقضايا المعرفَةِ، كُلّيَّاتِها وجُزئِيَّاتها، ولتخيُّلِ صُوَرٍ ومَركَّباتٍ غَيْرِ مَشْهُودَةٍ للإبداع والابتكار، ولإدْراك المعاني، وللبْحث عن حقائقِ الأشياء.

وفي هٰذِه الْقُوَىٰ الدَّاخِلِيَّة المعْرِفيَّةِ، والتَّفكُّريَّة والإدْرَاكِيَّة مَوَازِينُ فِكْرِيَّةٌ، مؤهَّلَةٌ بالتكوين الرَّبَّانِيِّ الّذي فطَرَهَا اللَّهُ علَيْه، للتمييز بيْنَ الحقِّ والباطِل، وبَيْنَ الخير والشّرّ، وبَيْنَ النّافِعِ والضَّارّ، ولقِياسِ الأشْباهِ والنَّظَائِرِ بَعْضِها على بَعْضٍ، ولِلْحُكْمِ على الغائِب مِنها بمِثْلِ الحكْمِ على المشهود منها، وللاعتبار بالسُّنَنِ الرَّبَّانيَّة، وللاستِدْلاَلِ بالظَّواهر على البواطن، ولِتَتَبُّعِ الأمَارات والعلامَاتِ والدَّلاَئِل، للوصُولِ إلى حقائقِ الأشياءِ والكائناتِ علىٰ مَقَاديرِ الاستطاعَاتِ البشريّة، على اختلاف درجاتها، ولِفَهْمِ دَلاَلاَتِ التعبيرات الكَلامِيَّةِ، ذواتِ الرُّمُوز والأوضاع اللُّغَويَّة المتعارف عليها في مصْطَلحَاتِ لسَانِ الأمَّة، ومنها فَهْمُ دَلاَلاَتِ الأوامِرِ والنواهي، وسائر التكليفات، وفَهْمُ دَلالاتِ الْعَامّ والخاصّ، والمطْلَقِ والمقيّد، ونَحْوِ ذلك، وفَهْمُ دَلاَلاَتِ الأَخْبارِ معَ التَّمْييز بيْنَها بِحَسَبِ درجاتِ الثّقَةِ بصِدْقِها ترْجيحاً حتَّىٰ دَرَجَةِ اليقين، أو بحَسَبِ دَرَكَاتِهَا في عَدَمِ الثّقَةِ بها، تنازُلاً حتّى دَرَكَةِ تَيَقُّنِ كَذِبها، وإِخْرَاجِهَا مِنْ كُلّ مُسْتَويِاتِ المعرفة، ولمَعْرِفَةِ ما هو الأفْضَلُ والأحْسَنُ والأحَقُّ بالْعِنَايَةِ والاهْتِمام، مِنْ عاجِلِ المنافع والخيراتِ وآجلِها،

ومُوازَنَةِ ما في الأشياء من منافِعَ ومضارّ، حتَّىٰ لا تَسْقُط الإرادَةُ فريسَةَ الأهْوَاءِ والشهواتِ وحُبِّ العاجِلَةِ من مَتَاعِ الحياة الدنيا، المفْضِي إلى الحرمان من النعيم المقيم الخالِدِ في الآجلة، والتعرُّضِ للعذَاب الأليم فيها، الّذي يَفْدِي العقلاء أنْفُسَهُمْ منه بكل ما في الحياة الدُّنيا من مُلْكٍ عظيم، ولَذَّاتٍ آسراتٍ، وشهواتٍ عَارِماتٍ، يَتَقَاتَلُ عَلَيْهَا طُلاَّبُ الحياة الدُّنيا.

﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ المرادُ بالْفِقْهِ هُنَا لَيْسَ مُجَرَّدَ الْفَهْمِ والإدْراكِ، بلْ هُو العلم ببواطِنِ الأمور وَخَفَايَاها، والْبَحْثُ عنها للتوَصُّل إلَىٰ مَعْرِفَتِها، فَهُو أخصُّ من مُطْلَقِ العلم.

وكَوْنُ الجنّ والإنْسِ الصّائِرينَ إلى جهنَّم، باختيارهم الْحُرِّ لمَا يلَذُّ لَهُمْ، مما يُوصِلُهم إلى عذابها والخلُودِ فيها، لَهُمْ قلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بها، فَسَبَبُهُ أنَّهُمْ وجَّهُوا كُلَّ قُواهُمُ التفكُرِيَّة والمعرفيَّةِ والإدْراكيَّةِ، لخِدْمَةِ أهوائهم وشهواتهم ولذّاتِهِمْ من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا الفانيَة، فَتَوَقَّفُوا عنْدَ حُدُودِ ظاهِرٍ من الحياةِ الدُّنيا، فنَزَلَ بهم داءُ الْغَفْلَةِ عمّا وراءَ هٰذِهِ الحُدُود مِنْ حقائق تَهْدِي إلى السعادة الأبَدِيَّة، وهي تقَعُ وراء ظواهر الحياة الدنيا، فلم تتّجهْ قواهُمُ الإدْراكِيَّةُ والمعرفيَّةُ للبَحْثِ عن البواطن من حقائق هذا الوجود، وللبْحثِ عن الغاية مِنه.

ثمّ تراكَمَتْ عليهم آثارُ هٰذِهِ الغفلات، من ظُلُماتِ الأَهْوَاءِ، ودُخَانِ الشهواتِ الملْتَهِباتِ، حتَّىٰ جلَّلَتْ قُلُوبَهُمْ الغِشَاوات، وتوالَىٰ بعْضُها على بَعْض، وتراكَمَ بعْضُها فَوْقَ بعْضٍ، إلى أنْ أمْسَتْ قُلُوبُهم لاَ تُدْرِك ولا تَعِي إلاّ ما يَخْدُمُ دُنْياهُم العاجِلَة الْفَانِيَة.

وأنَّىٰ لـمثْلِ هٰذِه الْقُلوبِ الّتي أصَابَها عمًى نَوْعي، هو الْعَمَىٰ عن حقِّ الله عليها، وواجبها تجاهه، والْعَمَىٰ عن مُلاحظَةِ يَوْمِ الدّين، وما اعْتَدَ الله جلّ جلالُه فيه للمجرمين الكافرين، الذين لا يَتّبِعُونَ مَا أُنْزِلَ إليهم

من رَبّهم من آياتٍ بيانيَّة، وهٰذا الذي أعْتَدَهُ ربُّهُمْ لهُمْ، هو عذابٌ أليم، في جهَنَّمَ خالدين فيها.

أنّىٰ لِمِثْلِ هٰذِهِ الْقُلُوبِ أَنْ تُوَجّهِ أَعْيُنَ أَجْسَادِها لمشاهَدَةِ آياتِ اللَّهِ المشْهُودَةِ في الكون، وأنّى لها أن تُدْرِكَ دَلالاتِها الدّلاّت بإتقانها وبصفاتها على صفاتِ اللَّهِ عزّ وجلّ، وهي مشغولَةٌ مفْتُونَةٌ بزينات الحياة الدنيا المختلفات، خِدْمَةً للأهواء والشهواتِ واللَّذّاتِ من متاعِ الحياة الدنيا العاجِلَةِ الفانية.

أنّىٰ لمِثْلِ هٰذه القلوب أنْ تُوَجّهَ آذَانَ أَجْسَادِها لاسْتِماعِ آياتِ اللَّهِ المنزَّلاَتِ، والإنْصَاتِ لها، وتدبُّر معانيها، وهي منصرَفَةٌ عَنْها، مشْغُولَةٌ مفْتُونَةٌ بكلّ قَوْلٍ أو حَدِيثٍ يَخْدُمُ الأهواء والشّهواتِ واللّذاتِ من متاع الحياة الدنيا العاجلة الفانية.

إنّ قلوبَهُمْ تَعْمَلُ وَتُفَكِّرُ، ولكنْ في حُدودِ ظاهِرٍ من الحياة الدنيا، فهي لا تفْقَه بواطِنَ الأمُورِ ودقائقها النافعة لهم في الآجلة. ولا ما يكون سبَبَ سَعَادَةِ أصْحابها في الآخِرَةِ، لأنّها مُعْرِضَةٌ عنها، غارِقَةٌ في غَفَلاتِها.

وإنَّ أعْيُنَهُمْ تُبْصر ما في الحياة الدنيا مِنْ زيناتٍ وأنواع مَتَاعٍ عاجِلٍ، لكنّها لاَ تُوصِلُ إلى مراكز الإدْراكِ الْبَصَرِيّ في الدّماغ، ما في خَلْقِ اللَّهِ من آياتٍ كَوْنِيَّةٍ دَالأتٍ على عظيم صفاتِ الله عزّ وجلّ، ودالأتٍ على أنَّ الله جلّ جلالُه قد خَلَقَ الناسَ في ظروف الحياة الدنيا لِيَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أحْسَنُ عملاً، وأنَّهُمْ يَعْبُرُونَ فيها على جِسْرٍ، وهم فيه ممتَحنُونَ في كلّ مَا يخْضَعُ لإراداتِهم الحرَّة، ثُمّ يُبْعَثُونَ يوم القيامة، لِيُلاقُوا في محكمة الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّة الحسابَ وفَصْل القضاء، وبَعْدَ ذَلِكَ يُوَجَّهُونَ لينالُوا جزاءَهُمْ بالثواب أو بالعقاب، على ما قدّمُوا لأنفُسِهم في رحلة ابتلائهم في الحياة الدنيا.

لَقَدْ أَلْقَتِ الغِشَاوَاتُ على مراكز إدْراكهم البصريّ حُجُباً كثيفَةً، حجَبَتْ عنهُمْ كُلَّ المشاهِدِ الّتي تَهْدِيهِمْ إلى سَعَادَةِ أُخْرَاهُم.

والسَّبَبُ في ذٰلِكَ أنّهم مستَغْرِقُون في غَفَلاتهم.

وإنَّ آذَانَهُمْ تُوصِلُ إلى مراكزِ السَّمْعِ في أدمِغَتِهِمْ كُلَّ كَلِمَةٍ وهَمْسَةٍ تخدُم أهواءهم وشهواتهم ولذاتهم من متاع الحياة الدّنيا، ولكِنَّهَا لاَ تُوصِلُ إلَيْها أيَّةَ عبَارةٍ أو كَلِمَةٍ أو صَيْحَةٍ تُذَكِّرُهم باللّٰهِ والْيَوْم الآخر، وتُحَذِّرُهم من اتّباعِ أَهْوَائهم وشهواتهم ووساوس الشياطين وتَسْويلاتهم، وتُخَوّفُهُمْ مِنْ عذَاب الله ونقْمَته، أو تُبَيّنُ لَهُمْ واجباتهم تُجاهَ رَبّهم، أو تَصِلُهُمْ بالدَّار الآخرة إنْذاراً أَوْ بشارَةً وإطْماعاً.

إذَنْ: فَالْبَيَانُ المطابِقُ لحالِهِمْ بالنِّسْبَةِ إلى ما يَتَعَلَّقُ بواجِبِهِمْ تُجَاهَ رَبّهم، ومَصِيرهم يومَ الدّين، وسائر القضايا الدّينيَّة، أنْ يَقَالَ بِشَأْنهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ . . . ﴿١٧٩﴾﴾:

أي: بالنّسْبَةِ إلى قَضَايَا الدّين، ويَوْمِ الدّين.

قول الله تعالى:

﴿. . . أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . . . ﴿١٧٩﴾﴾.

أي: فإذا كان واقع حالِهم النّفْسِيّ هو ما سَبَقَ بيانُه، فَمَا هي المخْلُوقَاتُ الحيَّةُ الّتي يُشْبِهُونها، بَعْدَ أنْ فَقَدُوا فِقْهَ الْقُلُوبِ، وحُجِبَتْ مراكزُ إبصارهم ومراكزُ سَمْعِهم عَنْ أن تَصِلَها الوارِدَاتُ الَّتِي تُوصِلُ إلَىٰ قُلُوبهم ما يَهْدِيهم إلى مَعْرِفَةِ بواطِنِ الأمُور وخَفَايَاها، ومَعْرِفَةِ ما وراء ظواهر الحياة الدنيا، ومَعْرفةِ ما يُسَدِّدُ في الحياة الدنيا مَسِيرَتَهُمْ، للظفر بالمستقبل السّعيد يوم الدين؟؟

الجواب: إنَّ المخلُوقَاتِ الحيَّة الَّتي يُشْبِهُونَها هِيَ الأنْعَامُ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ من الأنعام، لأنّ الأنعامَ لم تُؤتَ ما أُوتُوا مِنْ تَكْرِيم بالصِّفَاتِ الإنسانية الّتي أوتُوها، فهي تعيش ضِمْنَ هباتِ الله لها عيشاً سَوِيًّا.

لكنَّهم عطَّلُوا بإراداتِهم الحرَّة ما آتاهم رَبُّهم من تفضيل وتكريم، لِيَصِلُوا بِهِ إلى منازل جنّاتِ النعيم خالدين فيها، واسْتَعْمَلُوهُ فيما يَقْذِفُ بهم إلى دركاتِ الجحيم خالدين فيها، مَفْتُونين بما يَنَالُونَهُ من شهوات الحياة الدنيا ولذَّاتها، وفيما يُرْضونَ بِهِ أهواءَهُم الجانِحَة عَنْ صراطِ الله المستقيم، ودوافعَ نفوسهم الجامِحَةَ الّتي تَدفعُهم للظلم والعدوان، والبغي والإثم والعصيان والطُّغيان.

لَقَدْ أَنْزَلُوا بإرادَاتِهم الحرَّةِ أنفُسَهُم مِنْ مَراتب التكريم الرَّبَّاني، الّذي جعلَهُمْ الله به في أَحْسَنِ تَقْويم، وهيَّأ لَهُمْ إِذَا حَافَظُوا بإرادَاتِهم الحرَّةِ على ما كرَّمَهُمْ به، جنَّاتِ النَعِيمِ يَوْم الدّين.

لكِنَّهُمْ أَنْزَلُوا أنفُسَهُمْ بإراداتهم الحرَّةِ إلى أَسْفَلِ سَافِلِين.

فَهُمْ كالأَنْعَام، يأكُلُون كما تأكُلُ الأنعام، ويَشْرَبُونَ كما تَشْرَبُ الأنعام، ويَتَسافَدُونَ كما تَتَسافَدُ الأَنْعَام، ويَسْتَمْتِعُونَ بلَذَّاتِ الحياة الدنيا كما تَسْتَمْتِعُ الأَنْعَام.

بَلْ هُمْ في الحقيقة أَضَلُّ من الأنعام، لأنَّ الأَنْعَامَ تضبِطُها غرائِزُها الفِطْرِيَّة، أَمَّا هٰؤلاَءِ المتَسَفِّلُونَ فلَيْسَ لَهُمْ ما يضبطُهُمْ من غرائِزَ فِطْرِيَّةٍ، لأنَّ اللّهَ ـ جَلَّتْ حكمتُه ـ أعطاهُمُ البَديلَ من أجْلِ امتحانِهِمْ، وهي القُوَىٰ العلميَّة التَّفكيريَّة الإدراكيَّة، مع الإرادة الحرَّة، فَعَطَّلُوها عن الخير، وسخَّرُوهَا لتحقيق رَغَبَاتِهِم من متاع الحياة الدُّنيا، مُنْطَلِقِين في الظُّلْم والعدوان، وارتكاب الشرور في كلّ واد ونفق مظلم وميدان، وعَرَّضُوا أنفسهم لنِقْمَةِ بارئِهم العزيزِ المنتَقِم الدَّيّان.

فكانوا بذلك أضلَّ من الأنعام.

الأنعام: هي الإبلُ والبَقَرُ والغنم، وأشباهها.

قول الله تعالى:

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾:

هذه الجملَةُ الختاميَّةُ تكْشِفُ عَنْ سَبَب وَصُولهم إلى ما دُونَ دَرَكَةِ الأنعامِ في السُّلَّم الحيواني، ألاَ وهو غفلَتُهُمْ عن اللَّهِ عزّ وجلّ وعَنْ كُلّ ما يَصِلُهُمْ بِه، وغَفلَتُهُمْ عَنِ المصِير يَوْمَ الدّينِ بَعْد رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا رِحْلَةِ الامْتحان، ومعْلُومٌ أنّ سبَبَ غفلتهم هو انْشِغَالُهُمْ بأسْبَابِ متاعِ الحياة الدنيا.

الْغَفْلَةُ عنِ الشيء: انْصِرافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلاَحَظَتِهِ، وعَنْ إدْرَاكه ومُرَاقَبَتِه، مع وُجُودِه أو وُجُودِ أدِلَّتِهِ في مجال الإدْراكِ المستطاع للمخْلُوق.

اسم الإشارَة [**أولَئِكَ**] الَّذِي يُشَارُ بِهِ إلى الْبَعِيد، قد استُعْمِلَ هنا للدَّلاَلَةِ علىٰ بُعْدِ دَرَكَتِهِمْ في التَّسَفُّل.

* * *

(١٤)

التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس السّورة وهو الآية (١٨٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾:

ما في هذه الآية من القراءات:

- قرأ جمهور القرّاء العشرة: [**يُلْحِدُون**] من فعل «أَلْحَدَ».

وقرأ حمزة: [**يَلْحَدُونَ**] من فعل «لَحَد يَلْحَدُ».

«أَلْحَدَ يُلْحِدُ» و«لَحَدَ يَلْحَدُ» كلاهُما بمعنىٰ عدَلَ عن طَرِيق الحقّ، وانْحَرَفَ عن الصراط المستقيم، وجارَ وظَلَم، وحرَّفَ وبَدَّل، فهما مُتَكافِئَان في اللُّغَة.

تمهيد:

هذا الدَّرس مُتّصل بخطّ السُّورة الأعظم، وهو الذي دلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ في الآية (٣) من السّورة:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

ففي مُقَدّمَةِ مَا أُنزِلَ إلى النَّاس من رَبِّهِمْ، أنْ يَدْعُوه مُخْلِصينَ له الدّين، ولا يُشْرِكُوا في دُعائِهِ أحداً، سَواءٌ أكان دُعاؤهم لأمور دنياهم أمْ لأمور آخِرَتهم، ومعلومٌ أنَّ الدُّعاءَ أوَّلُ العبادات وفاتِحَتُها، والعبادةُ لاَ تكُونُ إلاّ للّهِ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَه.

وتتبُّعاً لدُرُوسِ السّورة، مع هذا الخطّ الأعظم الّذِي يُمَثّلُ أكْبَرَ عناصر موضوعها نلاحِظُ ما يلي:

إنَّ اتّبَاعَ مَا أَنْزَلَ اللّهُ لعبادِهِ يكونُ بطاعَتِه، في فِعْلِ ما أمَرَ به واجْتِنَابِ ما نَهىٰ عَنْه، وهٰذِهِ الطَّاعَةُ من كبريات عناصر عبادَةِ العِبَادِ لرَبّهم.

(١) فجاء في مُقَدّمَاتِ تَفْصيلاتِ عبادة الله في السُّورَة قصَّةُ أمْرِ اللّهِ الملائكة وَمَنْ كان مُنْدَسًّا فيهم، بالسُّجُودِ لآدم، فَسَجَدُوا إلاّ إبْليسَ عَصَىٰ أمْرَ رَبّه، ولم يكن من المطيعين العابدين الساجدين.

(٢) وبَعْدَ ذلِكَ جاءَتْ في السّورَةِ قصّةُ آدَمَ وحواء، ومَا اشتملَتْ عليه من نَهْيِهِمَا عن أنْ يأكُلاَ من الشَّجرة الّتِي عيَّنَها لهما، فأكلا منها عَاصِيَيْن، ثم تَابَا فغَفَرَ اللّهُ لهما، وأهْبَطَهُما إلىٰ الأرْض.

(٣) وبَعْدَ ذلِكَ جاءت قِصَّةُ أوامر اللّهِ ونواهِيهِ الموجَّهَةِ لِبَنِي آدم الأوَّلِين، فَعَصَىٰ فريقٌ مِنهم، واتَّخذُوا الشياطين أولياءَ من دون الله، ودخَلَ إليهم الشِّرْكُ، وافْتَرَوْا على الله الكذِب، واقْتَرَنَ بهذا البيان معالجاتٌ إقناعِيَّةٌ وتَحْذِيرِيَّةٌ، تُنْذِرُ المكذّبين بآياتِ الله المسْتَكْبِرِينَ عن اتّباع ما جاء فيها، وبياناتٌ تَرْغيبيَّة للمطيعين العابدين، بأنَّ لَهُمْ عنْدَ رَبِّهم جنَّات النعيم.

(٤) وافرِزَت عبادة اللّهِ وحْدَه بالدُّعاء، اهْتماماً بشأن هٰذِه العبادة من صُوَرِ عبادة الله، لأنَّ الدُّعَاءَ أوّلُ مظْهَرِ تِلْقَائِيّ يَلْجَأُ إِلَيْهِ أَصْحَابُ الضَّرُوراتِ والحاجَاتِ حينَما يَعْجِزُونَ عن تحقيق مطالبِهم بالأسباب المتاحَةِ لَهُمْ في الظواهِرِ الكونية، فقال الله عزّ وجل في الآية (٢٩) من السورة:

﴿. . . وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ. . . ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وادْعُوا رَبَّكُمْ لمطالب دُنياكُمْ وَأُخْرَاكُمْ مُخْلِصين له في الدُّعاء، الّذِي هو من عناصِرِ الدّين، ويكُونُ هذا الإخلاصُ بأن لا تَدْعُوا غير الله، ولا تُشْرِكُوا في دُعَائِهِ أحداً.

(٥) ثم وجَّهَ اللّهُ عزّ وجلَّ في الدَّرْسِ الخامس من دُروس السُّورةِ لعبادة الدُّعاء، من صُوَرِ عباداتِ العباد له، مبيّناً آداب الدعاء، فجاء في الآيتَيْن (٥٥) و(٥٦) من السورة قوله تبارك وتعالى:

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

(٦) وبَعْدَ ذلك عَرَضَ اللّهُ عَزّ وجلَّ لقَطاتٍ مُهِمَّاتٍ من قصَص الأوّلين المذكورين في القرآن، مُبْرِزاً دَعْوَةَ الرُّسُلِ لأقوامهم، بأن يَعْبُدوا اللّهَ وحْدَه ولا يُشْرِكوا بعبادتِهِ شيئاً، وبأن يَتَّبِعُوا ما أنزل إليهم من ربّهم، إذْ ليس لهم في الحقيقة إلّه غَيْرُه يَجوزُ أن يَعْبدُوه ويَدْعُوه، فَهو الرَّبّ الذي لا رَبَّ غَيْرُه، وهُوَ الّذِي سَيُجَازِيهم على أعمالهم.

إن عاداً لَمّا اتَّخَذُوا آلِهَةً من دون اللّهِ يعبُدُونها، ويَدْعُونها لتلْبِيَةِ مطالبهم في حياتهم، قال لهم رسُولُهُمْ هود عليه السّلام كما جَاءَ في الآية (٧١) من السورة:

﴿. . . أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ. . . ﴿٧١﴾﴾.

ولمَّا جرّبَ آل فرعَوْنَ دُعَاءَ آلِهَتِهم لِيَرْفَعُوا عَنهم ما أنزل اللَّهُ بِهِمْ من أنواع عذابٍ، لم تنفعْهُمْ آلهتهم بشيء، عندئذٍ تَوَجَّهُوا لموسَىٰ عليه السلام طالبين منه أن يَدْعُوَ رَبَّهُ بما عَهِدَ عِنْدَه أنْ يكْشِفَ عنهم الرِّجْز، ووَعَدُوهُ إذَا كَشَفَ رَبُّهُ عنهُمُ الرّجز أن يُؤْمِنُوا بِهِ مُسْلِمِينَ له، وأَنْ يأذَنُوا لِبَنِي إسْرَائيل بالْخُرُوج.

دلَّ على هذا ما جاء في الآية (١٣٤) من السّورة، وهو قول الله عز وجل:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾:

لكنَّهُمْ نكَثُوا عَهْدَهُمْ لمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمُ الرِّجْزَ بدعاء موسى عليه السلام.

(٧) ثم جاءت الآية (١٨٠) الّتِي تُمَثّلُ الدَّرْسَ العاشِرَ من دُرُوس السُّورَةِ، مَوْصُولَةَ بخطِّ الدُّعاء في السُّورَةِ، الّذي هو فرْعٌ مِنْ فروع عبادة الله وحْدَه لا شريك له، ودَاخِلٌ تَحت عُموم وجُوبِ اتِّبَاعِ ما أُنزلَ إلى العباد من رَبّهم الذي جاء بيانه في الآية (٣) من السُّورَة.

التدبر التحليلي:

قول اللَّهِ تعالى:

- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ... ﴿١٨٠﴾﴾:

أي: وتختَصُّ بالله الأَسْمَاءُ الحسْنَىٰ، والمطلوبُ من العباد إذا أرَادُوا دُعَاءَ غائبٍ لأمُورِ دُنياهم أوْ أُخراهم، أنْ يَدْعُوا اللَّهَ وحْدَه بأسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

وأسماءُ اللَّهِ عزّ وجلّ، منها ما هو عَلَمٌ على ذَاتِ الخالِقِ الرَّبِّ الجامِعَةِ لكُلّ صِفَاتِه، وهو لفظ «الله» في اللّسَانِ العَرَبيّ.

ومِنْهَا مَا هو دالٌّ على صِفَةٍ من صِفَاتِ الكَمالِ لذاتِ اللَّهِ عزّ وجلّ، أو صفةٍ من صِفَاتِ أفعالِه سبحانه وتعالى، أو البراءَةِ من صِفَةٍ مِنْ صفات النقصان الّتي لا تليقُ بِهِ جلّ جلالُهُ، وتنزَّهَتْ عن النقصان ذاتُهُ وصفاتُه.

وكلُّ أسْمَاء الله حُسْنَىٰ، بالِغَةَ الغايَةَ العظمىٰ في الْحُسْن.

لفظ **«حُسْنَىٰ»** مؤنَّثُ **«أَحْسَن»** وصيغةُ «أَفْعَل» و«فُعْلَىٰ» للتفضيل.

فالمعنى: ولِلَّهِ أَكْمَلُ الأَسْمَاءِ، لأنَّ لَهُ تبارَكَ وتَعَالَىٰ أكْمَلَ الذَّاتِ، وأكْمَلَ الصِّفَاتِ وأَسْنَاها، فهي في الحقيقَة أَحْسَنُ الأسماء.

وقد أثبتَتْ هٰذه الجملة أنَّ لِلّهِ عزّ وجلَّ أسْماءَ عَدِيدَةً كُلُّها حُسْنَىٰ، وأنَّ من أرَادَ أن يَعْبُدَ اللَّهَ بالدُّعاء لِمَطَالِب الدُّنيَا أَو الآخِرَة، لنَفْسِه أو لغيره، فلْيَدْعُ باسْمٍ أو بأكْثَر من أسْمَاء اللَّهِ الْحُسْنَىٰ على سبيل التفصيل، أَوْ بأسمائِه جُمْلَةً، دون تحديدٍ ولا تفصيل.

وأسماءُ الله عزّ وجلّ الوارِدَةُ في القرآنِ والسُّنَّةِ غَيْرُ مَحْصُورَة، وقد جاء في الصحيح تخصيص تِسْعٍ وتِسْعِينَ منها دون تعْيينٍ لهَا، بأنَّ من أحْصَاها دَخَل الجنَّة.

روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبي هُرَيرَة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مِئَةً إلاَّ واحداً، مَنْ أَحْصَاهَا دخَلَ الجنَّة، إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ».

وما وَرَدَ في بعضِ رواياتِ هٰذا الْحَدِيث، من سَرْدِ الأَسْمَاءِ التِّسْعِ والتِّسْعِينَ المشهورة، فقد قال ابْنُ كثيرٍ في شأنها: والَّذِي عَوَّلَ عليه جماعَةٌ من الحفَّاظِ، أنَّ سَرْدَ الأسْمَاءِ في هٰذا الحدِيث مُدْرَجٌ فيه.

أي: ليْسَ هو من مَتْنِ الحديثِ المرفوع إلى الرسول ﷺ، وهي فيما

يَرَىٰ بَعْضُ العلماء مجموعَةٌ من القرآن الكريم، جَمَعَها بَعْضُ رُواةِ الحديث(١).

قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين:

- ﴿... وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ... ﴿١٨٠﴾﴾:

أي: واتْرُكُوا طرائق الَّذِينَ يُلْحِدُون في أسماء الله الْحُسْنَىٰ، فلا تَتْبَعُوها، إذْ هي باطِلَة، يَعْدِلُونَ بها عن الحقّ، وعَنْ صراط اللَّهِ المستقيم، ويُجورُونَ ويَظْلِمُونَ بِها ويُبَدِّلُونَ ويُحَرِّفُونَ.

والَّذِينَ يُلْحِدُون في أسماء الله على أصناف.

(١) فالمشركون يُنْكِرُونَ بَعْضَ أسمائه الدَّالَّةِ علَىٰ بعْضِ صفاته، كاسْم الله الرحْمٰن، فيجْعَلُونَ هذا الاسْمَ من صفاتِ شركائهم، لذلِكَ فَهُمْ يَدْعُونَ شُرَكَاءَهُمْ لينَالُوا منْهُمْ آثار الرَّحْمة، فيحقِّقُوا لهم مطالبهم.

وظاهر أنّ هٰذا من العدول عن الحقّ، ومن الظلم والجوْرِ في صِفاتِ الله، فَهُو من الإلحاد في أسمائه جلَّ جلالُهُ.

(٢) ورَأىٰ بعْضُ أهل الرأي أنّ المشركين أخَذُوا بَعْضَ أسْماءِ الله الحسنَىٰ، فاشتَقُّوا مِنها عُدُولاً عن الحقّ وإلحاداً في أسمائه، وأَطْلَقُوهَا على بعْضِ أوثانهم.

فأخَذُوا من الاسم العلم (الله) لفظ «اللاّت» وسَمَّوْا به وثناً من أوثانهم.

وأخذوا من اسم الله «العزيز» لفظ «الْعُزَّىٰ» وسمَّوْا به وثناً من أوثانهم.

وأخذوا من اسْمِ الله «المنَّان» لفظ «مَنَاة» وسَمَّوا به وَثَناً من أوثانهم.

وهذا العمل هو من الإلحاد في أسماء الله الحسنى.

---

(١) انظر روايات أحاديث أسماء الله الحسنى عند ابن كثير، وعند الشوكاني، في تفسير هذه الآية.

(٣) ويَدْخُل في عموم الإلحاد في أسماء الله الحسنَىٰ إنكارُ بعَضِ أسماء الله الدَّالأّتِ على بعْضِ صِفاتِ اللّهِ العظمىٰ، أو تَحْرِيفُها عن معانيها، أو تَعطيل دَلاَلاتها، أو تشبيهها بصِفَاتِ المخلوقات لله، سبحانه وتعالى، ويدخُلُ فيه أيضاً تَسْمِيَةُ الله بما لاَ يَلِيقُ بجلاله.

فالمعنى: واترُكُوا سُبُل الّذِين يُلْحِدُونَ في أسماء الله، فلا تَسْلُكُوا سبيلاً منها.

قول الله تَعَالى:

- ﴿. . . سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾:

أي: سَيُجْزَىٰ الَّذِينَ كانوا في الدنيا يُلْحِدُون في أسماء اللّهِ الحسنىٰ، عقابَ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ، عند انْتِهاءِ رِحْلَةِ امتحانِهم في الدُّنيا، بَعْدَ الْمَوْت، ثُمَّ يَوْمَ الدِّين بَعْدَ الْبَعْثِ في نار جهنّم.

فالإلحاد فِي صفات الله وفي أسمائه الحسنَىٰ هو من الكُفْرِ باللّهِ، شِرْكاً، أو جُحوداً، أو وَصْفاً لِلّهِ بما لاَ يَلِيق بجلاله مما لم يَثْبُتْ عن المعصوم.

* * *

(١٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُرُوس السورة وهو الآيات من (١٨١ ـ ١٩٨)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ
حَدِيثِۢ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ
﴿١٨٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ
ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا
عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا
مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا
نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا
زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا
ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا
لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ
يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى
ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾
أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ
لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ
نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ
يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ :

القراءات:

(١٨٦) ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عَامِرٍ، وأبو جعفر: [وَنَذَرُهُمْ] بنُون المتكلِّم العظيم، وبرفع الفعل.

وقرأ أبو عَمرٍو، وعَاصِمٌ، ويَعْقُوب: [وَيَذَرُهُمْ] بضمير الغائب الذي يعود في الآية على: [اللَّهُ] وبرفعِ الفِعلِ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَيَذَرْهُمْ] بضمير الغائب الذي يعودُ

في الآية على: [اللَّهُ] وبِجَزْمِ الفِعْل.

«نَذَرُهم» و«يَذَرهُمْ» قراءتان بينهما تكامل في الأداء البياني، فنُون المتكلّم العظيم تُشِيرُ إِلَىٰ حكمة الله العظيم الجليل في ترك الذين اختارُوا لأَنْفُسِهِمْ الضّلال، يتحيَّرون في ضلالِهم من رحلة امتحانهم. والقراءةُ الأُخْرَىٰ تُخَاطِبُ أهْلَ الإيمانِ، الموقنين بحكْمَةِ اللَّهِ السَّامِيَة في تركهم في ضلالهم يَعْمَهُونَ.

وأمّا الرَّفْعُ والجزمُ في قراءَتي: [وَيَذَرُهُمْ] و[وَيَذَرْهُمْ] فَهُمَا وجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جائِزانِ ومُتَكافئان، فالرفع على الاستئناف، والجزم على أن الفعل معطوف على جواب الشرط الذي هو في موضِع فعل مجزوم.

(١٨٨) ● قرأ قالُون في أحَدِ الوجهَيْنِ عنه: [إِنْ أَنَآ إِلاَّ] بألف مَمْدُودَة لضمير «أَنَا».

وقرأ باقي الْقُرّاءِ العشَرَةِ وهو الْوَجْهُ الثاني لقالون: [إِنْ أَنَا إِلاَّ] بنُونٍ مَفْتُوحَةٍ دُونَ أَلِفٍ بَعْدها لضمير «أنا».

والقراءتان وجهان عربيان لنُطْق ضمير: «أَنَا».

(١٩٠) ● قرأ نافع، وشُعْبة، وأبو جعْفر: [جَعَلاَ لَهُ شِرْكاً] بكسْر الشين، وإسكان الراء، وهو مصدر: «شَرِكَ فلاَناً في الأمر يَشْرَكُهُ شِرْكاً» وأُطْلِقَ المصْدَرُ هنا مراداً به اسْمُ الفاعل، أي: جعَلا لَهُ شريكاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ] جمْع شريك.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ من المشركين مَنْ يجعل لله شَرِيكاً واحداً في الخلْق، ومِنْهُم من يجعل له شركاء، اثنين أو أكثر.

(١٩٣) ● قرأ نافع: [يَتْبَعُوكُمْ] من فعل «تَبِعَهُ يَتْبَعُه» المجرّد.

وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: **[لاَ يَتَّبِعُوكُمْ]** من فعل «اتَّبَعَهُ» المزيد، وهو على وزن «افْتَعَل» الذي يُفيد معنى التكلّف.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى: أي: لا يَتْبَعُوكم بِيُسْر، ولا يَتَّبِعُوكم مَهْمَا كلفتموهم أن يَتَّبِعُوكم.

(١٩٥) ● قرأ أبو جعفر: **[يَبْطُشُونَ]** بضمّ الطاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[يَبْطِشُونَ]** بِكَسْرِ الطاء.

ضمُّ الطاء في مضارع فعل «بَطَشَ» لغة عربيّة، يقال فيها: بَطَشَ يَبْطُشُ، وكَسْرُ الطَّاءِ أكثر استعمالاً في لسَان العرب «بَطَشَ يَبْطِش» أي: أخذ بعُنْفٍ وقوّة.

(١٩٥) ● قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: **[قُلِ ٱدْعُوا]** بكسر لام «قُل» في الوصل، للتخلُّصِ من التقاء السَّاكنين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[قُلُ ٱدْعُوا]** بضم لام «قُلْ» في الوصل، للتخلّصِ من التقاء السَّاكنين.

والقراءتان وجهان عرَبيان جائزان في مثل هٰذا.

(١٩٥) ● قرأ أبو عمرو، وأبو جَعْفر: **[ثُمَّ كِيدُونِي]** بإثبات يَاء المتكلّم في الوصل. وقرأ يَعْقُوب، وهشام بإثباتها في الوصل والوقف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[ثُمَّ كِيدُونِ]** بحذف يَاءِ المتكلّم في الوصْلِ وفي الوقف، وكسْرُ النون دليلٌ عليها.

(١٩٥) ● قرأ يَعْقُوب: **[فَلاَ تُنْظِرُونِي]** بإِثبات ياء المتكلم في الوصل وفي الوقف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[فَلا تُنْظِرُونِ]** بحذف ياء المتكلم إيجازاً في الوصل والوقف، وكسر النون دليل عليها.

والقراءتان وجهان عربيان جائزانِ في النطق.

وإذا حُذِفَتْ ياء المتكلّم في النطق إيجازاً فهي مُقدّرةٌ ذهْناً.

تمهيد:

هذا درسٌ موجّهٌ لأمّةِ دَعْوَةِ محمّد ﷺ، حَوْلَ عناصر موضوع سورة (الأعراف) والتي جاء فيها عَرْضُ ملَخَّصِ تاريخ البشريّة تُجَاهَها، مُنْذُ خلْقِ آدم عليه السلام، حتَّىٰ بِعْثَةِ محمَّدٍ ﷺ، وحتَّىٰ نُزُولِ آياتِ الله البيانيّة عليه.

وقد بدأ اللّٰهُ عزّ وجلّ هذا الدرس المرادَ بِه أُمّةُ دَعْوَةِ الرسول محمّد ﷺ بِبَيان وُجُودِ أُمّةٍ منهم يسْتَجِيبون لدعوته، ويَتّبعُونه، ويقومون بوظيفةٍ من وظائِفِ رسالته المماثلة لوظيفة الأنبياء من قَبْله، وهي أَنَّهم يَهْدُونَ الناسَ بالحقّ، فإذَا اسْتَخلَفَهُمْ الله في الأرض فجعلَهُمْ ذوي حُكْمٍ وسُلْطانٍ، فإنَّهُمْ يَعْدِلُونَ بين الناس بمقْتَضَىٰ قواعِدِ الْعَدْلِ وأحْكامه.

وأبان الله عزّ وجلّ بعد هذا سُنَّتَه في الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ رَبّهم، وكذَّبُوا بالآيات البيانيَّة الَّتي أَنْزَلَها عليه.

وعالَجَ جلَّ وعَلاَ هؤلاء المكذبين بالوسائل الإقناعية الفكريّة، مع الإلماح لما يمكن أنْ يُنْزِلَ بِهِمْ من عقابٍ على كفرهم، وتكْذِيبهم رسولَ رَبِّهم، وتكذِيبهم بآياته، وعَدَم اتّباعهم ما أَنْزَلَ لهم فيها.

ووجَّهَ قِسْماً كبيراً من هذا الدَّرسِ لِبَيَانِ أوائل نبوغ الشِّرْكِ في الناس، ولإقَامة الْحُجَجِ والبراهينِ الدَّامغةِ للمشركين، والكاشِفَةِ فسَادَ وبُطْلاَنَ ما هُمْ فيه من شرْكٍ تَرْفُضُهُ العقول السّوِّية، مع استخدام أسلوب الاستفهامات الإنكاريَّة التعْجيبيَّة التوبيخيَّة، وتَعْلِيمِ الداعي إلى الإيمانِ التوحيدي، بعضَ طرائقِ المناظَرَةِ الملْزِمَةِ والمفحمة، المقرونة بالتحدّي.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾:

هٰذه الآيَةُ خاصَّةٌ بِأُمَّةِ الإجابَةِ لِدَعْوَة مُحمَّدٍ ﷺ. قال قتادة في تفسير هذه الآية: بَلَغَنا أَنَّ النبيّ ﷺ كان يقولُ إذا قرأ هٰذِه الآية: «هٰذِهِ لَكُمْ، وقَدْ أُعْطِيَ الْقَوْمُ بين أَيْدِيكُمْ مثلَها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾»:

وقد سبقَ شرح هذه الآية في سورة (الأعراف) بشأن بَعْضِ قوم موسى عليه السّلام السابقين، قبل كفرهم بالأنبياء والرُّسلِ الذين جاءُوا من بَعْدِ موسى وهارون، إذْ وصَفَهم اللَّهُ بأنَّهم كانوا يَهْدُون بالحقّ وبِهِ يَعْدِلُون.

أي: وقِسْمٌ مِمَّنْ خَلَقْنا من النّاس، أوْ قَدَّرْنا خلْقَهُمْ مُسْتَقْبلاً، وهم الذين آمَنُوا أو سَيُؤْمِنُون بالرَّسُولِ مُحمَّد وبما أنْزَلْنا عَلَيْهِ، توجَدُ أُمَّة يَقُومُون بوظيفةِ الدَّعْوَة إلى الله، والنُّصْح والإرشاد، والأمْرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر، فَيَهْدُونَ الناسَ إلى سبيل اللّهِ بِالحقّ، ولا يتَّخِذون الباطِلَ وزيُوفَ الأقوالِ وسيلَةً إلى الهداية إلى سبيل الله، وإذا جَعَلَ الله لهم حُكْماً وسلطاناً في الأرْضِ، فإنَّهُمْ بالحقّ يَعْدِلُونَ بَيْنَ النَّاس أيضاً.

[أُمَّةٌ]: تُطْلَقُ الأُمَّة في الاستعمال القرآنيّ علىٰ كُلِّ مجموعَةٍ تَجْمَعُها صِفاتٌ أو خَصَائِصُ أو روابطُ متميِّزَة.

فكُلُّ أُمَّةٍ من الناس أُرْسِلَ إلَيْها رَسُول ليبَلّغَها رِسالَةَ رَبّه أَوْ رِسَالاَتِه، هُمْ أُمَّةُ بَلاغِ هذا الرَّسُول.

ومن أجابَهُ منهم إلى دَعْوته، فَهُمْ أُمَّةُ الإجابَة. ومَنْ قام بوظيفة الدَّعْوَةِ إلى دين الله منهم أمَّةٌ فهُمْ الدَّعْوَةِ إلى الدّين الّذِي جاءهم به. ومن

قامَ بواجب الأمْرِ بالمعْرُوف والنّهْي عن المنكر فهم أُمّةُ الأمْرِ بالمعروف والنّهْي عن المنكر. ومن قَامَ منْهم بواجب القتال في سبيل الله فَهُمْ أُمّةُ القتال جهاداً في سبيل الله.

والفريق من الأُمّة إذا اجْتَمَعُوا على رأيٍ مُتَميّزٍ تُطْلَقُ عليهم كَلِمَةُ أُمّة.

حتّىٰ الفرد الواحِدُ المتميّز هو أُمّةٌ وَحْدَهُ، وقد كان إبراهيم عليه السلام في أوّلِ دَعْوَتِه أُمّةً وحْدَه.

● ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: يَدْعون الناسَ إلى صراط الهداية والنجاة والسّعادة، ويأمُرون الناسَ بالمعروف ويَنْهَوْن عن المُنْكَر، بالحقّ من قضايا الفكر، وبِراهين العلم وأدلّتِه وحُجَجِه، وبالحقّ المنزَّلِ من عند الله على رسوله محمّد خاتم النبيّين والمرسلين.

فَهُمْ لا يتّخذون الباطِل وسيلَةً لِنُصْرَةِ دِينِ اللّهِ، لأنّ دين الله حقٌّ، واللّهُ لاَ يَأْذَنُ لِمَنْ آمَنَ بدينِهِ المنزَّلِ بالحقّ، أَنْ يَنْصُروهُ إلاّ بالحقّ.

بخلاف أَهْل الباطل، فإنّهم لا يجدون لنُصْرَةِ باطِلِهم إلاّ زُخْرُفاً مِنَ الباطل، وزُيوفاً من الأقوالِ ذَواتِ الظّوَاهِرِ المزوَّرَةِ الّتي توهِمُ أنّها حقٌّ.

فعل ﴿يَهْدُونَ﴾ مستعملٌ بمعنىٰ يَدْعُونَ، ويُرْشِدُونَ، ويَدُلُّون، وفي الحقّ والخير والْفَضِيلَةِ يُرَغّبُون، ومن الباطِلِ والشرّ والرّذِيلة يُحَذِّرُونَ، ومن عِقاب الله على معصيَتِه يُخَوِّفُونَ ويُرَهِّبُون، فكُلُّ هذا من الهداية.

إنّ إسناد الفعل أو ما في معناه إلى رُكْن الإسناد الآخر، تَكْفِي فيه ملاحظة إحْدَىٰ العلاقات الّتي تُصَحّح هذا الإسناد، وإنّ علاقَةَ الدّعْوَة والدّلالَةِ والتزيين والتحسين والترغيب في فِعْلَيْ «هَدَىٰ» و«أَضَلّ» إحدى العلاقات الّتي تُصَحّح أنْ يقال: فلانٌ هدَىٰ فلاناً، وأن يُقالَ: فلانٌ أضَلّ فلاناً.

- ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾: أي: وبمقتضى قواعد العدل، المستندة إلى قضايا الحق يَعْدِلُون، بحَسَبِ اجتهادهم، وعلى مقدار استطاعاتهم البشريّة.

وكونُهم بالحقّ يَعْدِلُون يَدُلُّ على أنَّهم يَعْدِلُون بمقتضى كونِهِمْ حُكّاماً أو قُضاةً بين الناس، وهٰذا يقتضي باللُّزوم العقليّ أن تكُونَ لهم سُلْطَاتُ وِلايَاتٍ على الناسِ، أو سُلْطَاتُ قضاءٍ بيْنَ النّاس، وهذا لا يكون لِلْمُسْلِمين إلاّ إذا مَنَحهُمُ الله في الأرض الاستخلاف، الْمُعَانَ مِنْهُ بمعوناتٍ غَيْبيَّة.

وهذه الآية هي بمثابة وعْدٍ ضِمْنَيٍّ من الله عزّ وجلّ، بأنَّ أمّة مُحَمّدٍ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، سَيَسْتَخْلِفُهُمُ اللّهُ عزّ وجلّ في الأرض، بالحكْم والسُّلْطانِ، كما اسْتَخْلَفَ الّذِين من قَبْلِهم، ويكون ذلك بمعونةٍ منه جَلَّ وعَلاَ، إذا وجَدَهُمْ في وضْعِهِمْ الإيماني والسُّلُوكيّ، يَسْتَحقُّونَ هذا الاستخلاف، وإذا عَلِمَ ـ جَلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانَهُ ـ أَنَّهُمْ إذا صاروا مستخلَفين في الأرض، حمَلُوا مُهِمَّة الهدَايَةِ إلَىٰ دِينِ الله بالحقّ، والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر داخل مجتمعهم بالحقّ والصِّدْق، وحكَمُوا بين الناس بالْعَدْلِ، المستَنِد إلَىٰ قواعدِ الحقّ وضَوَابِطه.

ويتحقّق هذا الاستخلافُ حينما تُوجَدُ في المسلِمين نِسْبَةٌ كافِيةٌ، نَفسيًا، وعَدَدِيًا، وسُلُوكيًا، للقيام بواجباته، ولا يكُونُ تطَلُّعُهمْ للحكْم والسُّلْطانِ في الأرْضِ ابْتِغَاءَ تَحْصِيلِ متاعِ الحياة الدّنيا، والاسْتِمْتاع بزينَتِها، وإرْضاءِ شهواتِ أنفُسِهم للْحُكْم والسُّلْطان.

وقَدْ تحقَّقَ بِفَضْلِ اللّهِ جلّ جلالُهُ هذا الوعْدُ الّذِي جَاءَ في هذه الآية ضِمْناً، وجاء صريحاً واضحاً في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للذين آمنوا بمحمَّدٍ ﷺ، واتَّبَعُوا ما أُنْزِل إلَيْهِمْ من ربّهم:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا

ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾:

وحين حقَّقَ اللَّهُ عزّ وجلّ للأمَّةِ الإسلاميّة هذا الوَعْدَ، استخلَفَهُمْ فِي الأرض، وأبان لَهُمْ بالواقع العمليِّ أنّ الَّذين كَفَروا، وكانَتْ لَهُمْ دُولٌ عُظْمَىٰ، لم يَكُونُوا مُعْجِزِين في الأرض، إذْ أسْقَطَ اللَّهُ عزّ وجلَّ دُوَلَهم، وشتَّتَ شَمْلَهم، ومزّقَ الجبّارينَ منهم شرَّ مُمَزَّق.

وحين قامَتْ دَوْلَةُ المسْلِمِينَ، واستَخْلَفَهُمْ اللَّهُ في الأَرْضِ بمعوناتٍ غَيْبِيَّةٍ مِنه، هَدَوْا بالْحَق، وعَدَلُوا بالْحَقّ، واسْتَمرَّ اسْتِخْلافُهُمْ قُروناً.

ولمَّا فَقَدَ المسْلِمُونَ شُروطَ الاستخلاف المؤيَّد من الله جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه، انْتَزَعَهُ مِنهم، كما انْتَزَعَهُ من الَّذين كانُوا مُسْتَخْلَفِينَ قبْلَهم.

لكنَّهم متى عادُوا إلى الالْتزام بشُروط الاستخلاف في الأَرضِ أعادَهُ الله إليهم، تَحْقيقاً لوعْدِهِ الكَريم.

بقاء طائفة من أُمَّة محمّد ظاهِرينَ على الحقّ:

تمتاز الأمَّةُ الإسلاميَّة المحمّديَّةُ، بأنَّها أمَّةٌ مُصْطَفاة لحَمْلِ رسالَةِ الإسْلاَمِ دواماً، فلا تجتَمِعُ على ضَلالَةٌ، ولا يَزالُ فيها طائفةٌ ظاهِرِينَ على الحقّ لا يَضُرُّهم من خالَفَهُمْ، ولا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ تَقُومَ السّاعة.

وتدخُلُ هذه الطائفةُ في عموم قول الله عزّ وجل بشأن أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ الَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ... ﴿١٨١﴾ ﴾:

ونَجِدُ تَفْصيلاً لهذا فيما روىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ مُعَاوِيَة بْنِ أبي سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ لاَ يَضُرّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعة».

وجاء في روايةٍ لهذا الحديث:

«حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ علَىٰ ذَلِكَ».

وجاء في رِوَايَةٍ عَنْ عُمَيْرِ بْنِ هاني قال: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيانَ عَلَىٰ المنْبَرِ يَقُول: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ وهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاس».

فقامَ مَالِكُ بْنُ يَخَامِرَ السَّكْسَكِيّ فقال: يا أَمير المؤمِنِينَ، سَمِعْتُ مُعاذَ بْنَ جَبَلٍ يَقُولُ: «وَهُمْ أَهْلُ الشَّام».

فقال معاوية ـ ورَفَعَ صَوْتَهُ ـ: هٰذا مالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ معاذاً: «وَهُمْ أَهْلُ الشَّام».

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾:

أي: والَّذِينَ كذَّبُوا مِنْ أُمّةِ دعْوَةِ مُحمَّدٍ الْعَامَّةِ لكلِّ النّاس بَعْدَ بِعْثَتِهِ، بآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ المنزَّلَةِ عَلَيْهِ قُرآناً يُتْلَىٰ، وبآيَاتِنا الإعجازِيَّة الشاهِدَةِ لَهُ بالصِّدْقِ في نُبُوّتِه ورسالَتِه وفي كلّ ما يُبَلّغ عن رَبّه، وبآياتِنا الجزائية، وبآياتنا الكونية.

والتكذيب بآيات الله عزّ وجلّ مُلازِمٌ للكُفرِ بها، ومُلاَزِمٌ لتكذيب الرَّسُولِ، ويقترنُ به بقاء المشرِكِ على عقائده ومفهوماته الشِّركيّة، وبقاءُ النصرانيّ على الباطلِ من عقائِده ومَفْهوماته النَّصْرانِيّة، وبَقَاءُ اليهوديّ على

الباطِلِ من عقائِدِه ومَفْهُوماتِه اليهودية، وبقاءُ كلِّ ذي مِلَّةٍ ومَذهَبٍ ودِينٍ على ما كانَ علَيْه، أو علىٰ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ من آراءٍ ضالَّةٍ، وعقائد ومفهومات باطلات، سواءٌ اتَّبَعَ فيها أو ابْتَدع.

واختار اللَّهُ عزّ وجلّ هُنَا التَّنْبِيهَ على التكذيب بآياتِه من عناصِرِ الكُفْرِ الكثيرة، لأنَّ الخطَّ الأعظم الَّذي يُمَثِّلُ أعظم عناصر موضوع السّورة، هُو وُجوبُ اتباع آيات الله اللاتي أَنْزَلَهَا لعباده، ليَعْمَلُوا بما جاء فيها من وصايَا وأحكام، والتحذيرُ من التكذيب بها، وعَدَمِ اتباع ما جاء فيها، ويتّصل بهذا الخطِّ الأعظم بيانُ أحوال الّذين كذّبُوا بآياتِ الله ولم يتَّبِعُوها، وبيانُ عُقُوبَاتِهِم العاجلاتِ في الدُّنيا، والآجِلاَت إلى يَوْمِ الدّين.

● ﴿. . سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾: هٰذِهِ العبارة وما عُطِفَ عليها خبرُ المبتدأ في: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

الاستدراج: مأخوذ من الدَّرَج بمعنى الطريق، لا بمعنى دَرَجَاتِ المرقاة، على وزن «اسْتَفْعَل» بمعنىٰ: طلَبَ مضمون الفعل، أو أغراهُ به، أو ساعده على فعله، أو وضع له من المرغباتِ ما يَسْتَمِيلُهُ إلى فِعْله.

يقال لغة: دَرَجَ الرَّجُلُ يَدْرُج دَرْجاً، أي: مشىٰ في طريقه، وأكثر ما يستعملُ في مشْي الشيخ الذي يمشي مشياً دَبّاً، وفي مشي الصبي الذي يمشي مشياً ضعيفاً، وذٰلِكَ في أوائل مشْيه.

فمن أسْمَاءِ الطريق لفظ «الدَّرَج» الّذي يَدْرُجُ فيه سالكه «الدَّرَجُ، والْمَدْرَجُ، والْمَدْرجَة» الطريق، وجمع «دَرَجٍ» أدْراج.

ويُطْلَقُ الدَّرَجُ على المراقي، ويقابلُ درجاتِ المراقي الدَّرَكات، واحِدُهَا دَرَكَة.

الدّرَجَات: منازِلُ بعضُها فوْقَ بعض، والدّركات مَنَازِلُ بَعْضُها تَحْتَ بعض.

والاستدراج العَادل يكونُ بوَضْعِ أشياءَ في طريق السّالك مما يُحبُّ ويَشْتهي، فكُلَّما تناوَلَ ما أمَامَه منها وجَدَ بَعْدَهَا أشياءَ مماثِلَةً يُحِبُّها، أَوْ أكْثَرَ مِنْها إغراءً، فيُتَابعُ في طريقه رغْبَةً في أَنْ يَنَالها، وهكذا حتَّىٰ يَجِدَ نَفْسَه قَدْ سَقَط في الفخّ، ونزل به العقابُ وهُوَ لاَ يَعْلَمُ أنّ فَخّ العقابِ مَنْصوبٌ لَهُ في مكانٍ مَا من طريقهِ الَّذِي اختاره لنَفْسِه بإصْرَارٍ، بَعْدَ أَنْ وُجِّهَتْ لَهُ النَّصائِحُ والتَّحْذِيرات، بأنْ لا يَسْلُكَ هذا الطريق ذَا العَواقِب الوخيمة.

هذا إذا كان الاستدراج في سبُل الضلالَة، ونظيره يكون في صراط الهداية، ولكنّ الله لم يُسمِّه في القرآن استدراجاً، بل هو توفيقٌ ومَعُوَنَةٌ، وزيادةٌ في الْهُدَىٰ، وتيْسِيرٌ، وحلاوَةُ إيمان يَمْنَحُها الله عزّ وجلّ للسّالكين المؤمنين على طريق مرضاة ربّهم.

وخصَّ اللَّهُ عزّ وجلّ في القرآن الاستدراج بالنَّوْع الأوّل، للتفريق بيْنَ النوعَيْن المتَشَابِهيْنِ في الجنْسِ العامّ لوسَائِلِهِمَا.

- ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أي: من مكانٍ لا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُسْتَدْرَجُونَ بأشياءَ وُضِعَتْ فيه، لتَرْكِهم على حرّيّاتهم يُتَابِعُونَ مَسِيرَتَهم بمقتضىٰ أهوائهم وشهواتهم، حتَّىٰ تَدْمَغَهُمُ الإدانَةُ بأوفَىٰ وأكْمَلِ صُوَرِها.

فإذَا نَزل بهم عقابُ الله العادل، لم يَجِدُوا عُذْراً يَعْتَذِرُونَ به عند رَبّهم، ولا تكون دعْواهم حينَئذٍ إلاّ أن يَقُولوا: إنّا كُنّا ظالمين، معترفين لرَبّهم بأنَّهُمْ عَصَوْهُ، وخالَفُوا أوامِرَهُ ونواهِيَهُ ووصاياه، ولم يَعْبَؤُوا بتحْذِيراتِه وإنْذَارَاتِهِ ظالِمينَ أنْفُسَهُمْ بالاسْتِهانَةِ بحَقّ اللَّهِ عليهم.

قول الله تعالى:

- ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾:

يقترن بالاستدراج الذي سبَقَ بيانُهُ وتحليلُ عناصِرِه، للّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ الله، أنْ يُمْلِيَ اللَّهُ لهم، أي: أن يُرْخِي لهُمُ الحبْلَ، فتَزْدَادَ حُرِّيَّةُ حَرَكَتِهِمْ في الحياة، وأنْ يُمْهِلَهُمْ ويُؤَخِّرَهم بإطالَةِ أعمارهم.

يقال لغة: أَمْلَىٰ لَهُ إِمْلاَءً، أي: أَمْهَلَه، وطَوَّلَ لَهُ مَجالَ حُرِّيَّتِه، وأطال عُمُرَه.

وفعل «أَمْلَىٰ» يَدُورُ اشتقاقه حول أَصْلَيْن:

الأصل الأول: «الْمَلاَ» وهو ما اتَّسَعَ من الأرض، يقال لغة: أَمْلَىٰ للْبَعيرِ في القَيْد، أي: أرخَىٰ له، ووسَّعَ وطَوَّلَ لَهُ فيه، لتزداد حُرِّيَّةُ حَرَكَتِهِ في الْمَلاَ، أي: فيما اتَّسَعَ لَهُ من الأرض.

الأَصْلُ الثاني: «المَلْوَة» وهي المدّة من الزَّمَن، ومن هذا المعنى عبارة: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أي: واهِجُرْنِي زَمَناً فانْقَطِعْ عَنّي فيه.

فمعنى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾: وأُمْهِلُهُمْ، وأُطَوّلُ لهم، حتَّىٰ تزدادَ حُرِّيَّةُ حركتهم في الحياة، وقَدْ أُطَوّلُ أعْمَارَهم لإقامة الحجَّةِ الدَّامِغَة لَهُم.

● ﴿. . إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (١٨٣)﴾:

الكَيْدُ في اللّغة: التدبير بحَقٍّ، أو بباطل. والحربُ، وإعْدادُ وسائله، ولكِنَّ الله عزّ وجلّ لا يَكِيدُ إلاّ بالحقّ.

المتينُ في اللّغة: الصُّلْبُ الشّديد القويُّ، يقال لغة: مَتُنَ الشيْءُ يَمْتُنُ مَتَانَةً، أي: صَلُبَ واشْتَدَ وَقوِي، فَهُوَ مَتْنٌ، وَمَتِينٌ.

والمتِينُ: من أسماء اللّهِ الحسْنَىٰ، بِمَعْنَىٰ القدِيرِ ذي الْقُوَّةِ والشِّدَّة.

أي: ولكِنْ إذَا اقتضَتِ الحكمْة إنزالَ العقوبَةِ العادِلَةِ بهم، وقَصْمَ ظُهُورِهم، وقطْعَ دابِر شُرُورِهم، فإنّي أُدَبّر لهم كَيْداً متيناً، لا يسْتَطِيعُونَ التخلُّصَ مِنه.

ومعنىٰ: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾: إنَّ تَدْبيري مُحْكَمٌ قَوِيٌّ، ووسائلَ عِقَابي وحَرْبي للطغاةِ المجرمين، الذين يُكذّبون بآيَاتِي، شديدة قويَّةٌ صُلْبَةٌ، لاَ يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ دُوني حَجْزَها ولا منْعَها، وَلاَ مُقَاوَمَتها، ولا الصُّمُودَ أَمَامَها.

وقد جاءت هٰذِهِ العبارة بمثابَةِ إنْذَارٍ للمكذِّبين بآيَاتِ الله، إذْ فيها إلْماحٌ إلَىٰ أنَّهُمْ سَيُلاَقُون من اللَّهِ حَرْباً لاَ يَسْتَطِيعُون دَفْعَها، ولا الْخَلاَصَ مِنْ سَطْوَتها، ولا الفِرارَ من عذابها.

والكلام على تقدير: وأُمْلي لهم أوّلاً، ثُمَّ أُنْزِلُ بهم عِقابي وعذابي، بِتَدْبِيرٍ مُحْكمٍ، وبوسائل شديدة قويَّةٍ صُلْبَةٍ، لأنَّ كَيْدِي مَتِين.

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾:

استفهامٌ فيه معنَىٰ التَّلْويم والتوبيخِ والتثْرِيبِ والإنْكارِ، مع الْحَثِّ على التفكُّر في شخصِيَّةِ الرَّسُولِ محمَّدٍ وكمال صِفَاتِه البشريّة، وكمال أخلاقه، وعظيم ما جاء به عن ربّه.

فهٰذِهِ الآية تتحدّث عن المكَذّبين بآياتِ اللَّهِ، الَّذِينَ كذّبوا رسول الله محمّداً ﷺ، وكذّبوا بما أنزل الله عليه من آيات بيانية، وبما أيَّدَهُ رَبُّهُ بِهِ من آياتِ إعجازية، بأسلوب الحديثِ عن الغائبين، لا بأسلوب مواجَهَتِهِم بالخطاب، إعْرَاضاً عنهم، وتَحْرِيضاً على تَلْويمهم وتَثْرِيبهم، بِبَيان فسَادِ مذهبهم بشأنِه فَسَاداً لا يقْبَلُ به أدنَىٰ الَّذِين لديْهِمْ تَفْكِيرٌ سَليم.

سبب النزول:

ورد في سبب نزول هٰذا النَّصّ ما رُوِي عن الحسَنِ وعَنْ قتادَةَ، فقالَ قتادَةُ بْنُ دِعَامَة:

«ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نبيّ اللَّهِ ﷺ كَانَ على الصّفا، فَدَعَا قُرَيشاً، فجعَلَ يُفَخِّذُهم(١)، يَا بَني فُلان، يَا بَنِي فُلاَن، فَحَذَّرَهُمْ بأْسَ الله، وَوَقَائِعَ الله.

---

(١) **يُفَخِّذُهم**: أي: يَذْكُرهم فَخِذًا فَخِذاً.

فقال قَائِلُهُمْ: إِنَّ صاحِبَكُمْ هٰذَا لمجْنُونٌ، بَاتَ يُصَوِّتُ إِلَىٰ الصَّباح، أو حَتَّىٰ الصَّبَاح.

فأنزل اللَّهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ مُصَدَّرةٌ باستفهام تعْجيبيّ، توبيخيّ، إنكاريّ، يَدُلُّ علىٰ أنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيات اللَّهِ البيانيّة، قَدْ سَلَكُوا مسلَكاً مُنَافياً لموازِينِ العقولِ السّليمةِ من عِدَّةِ وجُوه:

الْوَجْهُ الأوّل: أنَّ آيَاتِ اللَّهِ في القرآن الّذِي كذّبُوا به، هيَ بحَدِّ ذَاتها وما فيها من إعجاز فكرِيٍّ وَبَيَانِيٍّ بَليغ، تَدُلُّ على أنَّها تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْ عزيزٍ حكيم عليم، ولَيْسَتْ كلاَماً من كلامِ البشر، ودَلالَتُها الذاتية هذه تُؤَدِّي باللُّزوم العقلِيِّ إلىٰ دَلاَلَةٍ أُخرَىٰ، وهيَ أنَّ مبلِّغَ هذا القرآنِ عن رَبّه صَادِقٌ في تبليغِه، وأنَّه أهْلٌ للاصطِفَاء بالنُّبُوَّة والرّسالة، بمقتضىٰ حكْمة الله، مُنَزّل القرآنِ عليه، فهو كامل العقْلِ، عظيمُ الفِطْنَةِ، لا يُمْكِنْ أَنْ يكونَ بِهِ جُنُونٌ.

فلَوْ أنَّ الّذين اتَّهَمُوهُ بالجُنونِ لأنَّهُ دَعَا عشيرتَهُ إلى دِينِ الله في مكَّةَ فَخِذاً فَخِذاً، طَوال ليلَةٍ كاملة، تفكَّرُوا في آياتِ اللَّهِ المنزَّلاَتِ عليه، الَّتي يُبَلِّغُهُمْ إيَّاها، وكانَ لدى كلّ واحدٍ منهم فكرٌ نظيف، ورأيٌ حصيفٌ، وَوِجْدَانٌ مُنْصِفٌ، لمَا اتَّهَمُوهُ بالجُنونِ، بَلْ لآمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

الْوجْهُ الثاني: أنَّ شَخصيَّة الرَّسول محمّد ﷺ، الَّتي عَرَفُوهَا في تَعَامُلِهم معه، قبلَ بِعْثَتِه، وبَعْدَ بِعْثَتِهِ، وأنَّ دعْوَتَهُ إيَّاهم إلى دين اللَّهِ الحقّ، وإلىٰ نَبْذِ أوْثَانهم وعَقَائِدِهِمُ الخرافية، والإيمانِ الكامل بتوحيد الله في رُبُوبِيَّتِه وإلَهِيَّتِهِ، لَيْسَ فيها أمارَةٌ واحِدَةٌ عَلَىٰ أنَّ بِهِ جُنُوناً ما.

فكيف يتّهِمُونه بالجنُونِ علىٰ سبيل قَذْفِ الشتائم، الَّتي يَدْفَعُ إليها الغضَبُ، أو النفور، أو كراهيتُهُمْ تَرْكَ مَا هُمْ عليه من تقاليد، أو كراهيتُهُمْ

مَا وَجَّهَ لَهُمْ من إنْذَاراتٍ بعذاب اللَّهِ، إذَا أصَرُّوا علىٰ شِرْكهم، ولم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِه.

لقَدْ كان عليهم أنْ يتفكَّرُوا قَبْلَ أنْ يَقْذِفُوا شَتَائِمَهُمْ دُونَ تفكير.

وقَدْ دَلَّ على هذا الوجْهِ الثاني صريحُ عبارَةِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾.

جِنَّة: قالَ اللّيْثُ: الجِنَّةُ الجنُون. الاسْم والمصْدَرُ على صُورَةٍ واحِدَة، يُقَالُ: فُلاَنٌ بِهِ جِنَّةٌ، وجُنُونٌ، وَمَجَنَّة، والفِعْلُ الماضي مِنْهُ: «جُنَّ» بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

والمعنى: لو تفكَّرُوا لَمَا جَازَفُوا بِإِطْلاَقِ مَقُولَتِهِم الّتي ليْسَ فيها من الحقيقة الفكريَّةِ شيءٌ، فَعَلَيْهِم أَنْ يُرَاجِعُوا أَنفُسَهُمْ بالتفكُّر، ليَعْلَمُوا أَنَّ صاحِبَهُمْ محمّداً الّذِي يُنْذِرُهم بعَذاب رَبّهم، أكْمَلُ مِنهُمْ عقلاً وَتفكِيراً، وأَبْصَرُ مِنْهُمْ بما يَنْفَعُهم وبما يَضُرُّهم.

وعليهم أن لا يَنسَوْا أنّهم قد صاحَبُوهُ زمَناً طَوِيلاً، فَلَمْ يَجِدُوا فيه ما يُشعِرُهم بأيَةِ أَمَارَةٍ من أمَارَاتِ الجنون، بَلْ وجَدُوا فيه ما يَدُلُّ على عَقْلٍ رَاجحٍ، وفِطْنَةٍ فَذَّةٍ، وخُلُقٍ عظيم.

وأمّا الوجه الأوّل فمطويٌّ في اللَّفْظِ لَمْ يُصَرَّحْ به، لكن أشار إلَيْه حَرْف العطف «الواو» الوارد بَعْدَ هَمْزَةِ الاستفهام، ولدى التصريح بهذا المطويّ نقول:

أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا بآيَاتِنَا الّتي يُبَلِّغهم إيَّاهَا رَسُولنا محمّد، لِيَعْلَمُوا منها أنّه رَسُولٌ صادقٌ أمين كامِلُ العقل والفطْنَة، أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصَاحِبِهم من جِنَّةٍ[1]، أي: أَوَ لَمْ يَتفكَّرُوا بشخصيَّة صاحبهم محمّد الذي يَعْرِفُونه قبْلَ

---

[1] أأكّد أنّ العطف على محذوف مطويّ، لا يقتصر على الفاء الفصيحة الّتي ذكرها=

النبوّة وبعدها، ليَعْلَمُوا انتفاءَ أيّ صورة من صُوَر الجنون عنه.

جملة: ﴿بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ جملةٌ خَبرِيَّةٌ تنفي على سبيل الاستغراق المؤكّدِ بِدُخولِ حَرْف الجرّ التأكِيدِيّ «مِنْ» على المبتدأ وهو لفظ ﴿جِنَّةٍ﴾ بَعْدَ نفْيٍ في صَدْرِ الجملة بِحَرْفِ النفي ﴿مَا﴾. وعبارَة ﴿بِصَاحِبِهِم﴾ خَبرٌ مُقَدَّم.

وهذه الجملة أغنَتْ عن ذكْرِ مَعْمول فِعْل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ لأنَّ تفكُّرَهُمْ في شَخْصِهِ سَيُوصِلُهم حتْماً إلى الإقرارِ بمَضْمُونها حتْماً، أي: ألم يتفكروا بشَخْصِ صاحبهم محمّد المرسَلِ من الله إليهم، ما به من جِنَّة.

● ﴿... إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾:

[إِنْ] هنا حرف نفي بمعنىٰ «ما» النافية، أي: ما صاحِبُهُمْ محمّد بالنّسبة إليهم وإلى سائر الّذِين كذّبُوهُ وكذّبوا بِمَا جاءَهُمْ به عن رَبّه إلاّ مُنْذِرٌ لَهُمْ، غيُورٌ عليهم، حريصٌ على نجاتهم، بما يُوَجّه لهم من إنْذارٍ يُلِحُّ عَلَيْهِم فيه، بدليل صِيغة «نَذِير» الّتي تحْمِلُ معنى تأكيد إنْذارِه مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مع الشِّدَّةِ في الإنذار، لأنها من صِيَغ المبالغة.

﴿مُّبِينٌ﴾: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» بمعنىٰ أفْصَحَ عَمَّا يَدْعُو إليه، وأظهر وأوضح، فلم يُقدّم دعوته لقومه على طريقة الرموز والإشاراتِ والإيماءات والأحاجي والأمثال البعيدة المدْرَك.

الوجه الثالث: أنّ آيات الله الكونيّة المنبَثّةَ في مَلَكُوتِ السماواتِ والأرض، وكلّ ما خَلَقَ الله من شيءٍ في هذا الكَوْنِ الكبير، تَدُلُّ على صِدْقِ محمّد فيما يَدْعوهم إليه، من توحيد الرُّبُوبيّة لله عزَّ وجلّ، الذي يلزم

= النحاة، بل كلُّ حروف العطفِ قد تفصح عن معطوف عليه مطويّ في اللّفظ، ويمكن استخراجُه ذهناً، وهو كثير في القرآن.

عنه عقلاً توحِيدُ إلٰهِيَّتِهِ جلّ جلالُهُ لا محالة، فَلا شريك له في ربُوبيَّتِه، ولا شريك له في إلٰهيّته.

وهذا الوجه قَدْ دلّت عَلَيْهِ الآية (١٨٥) الآتي تدبُّرها بعَوْنِ اللّهِ وتوفيقه وتسديده.

قول الله تعالى:

● ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى﴾: أي: أَوَ لَم يَنظُرُوا نَظَرَ تفكُّرٍ وتَدَبُّرٍ وبَحْثٍ علمي، وهٰذه الجملة مَعْطوفَة على جملة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ في الآية السَّابقة، وقُدِّمَ حرفُ الاستفهام على حرف العطف فيهما لأنّ له الصدارة في الجمل، والمرادُ: فلْيَنْظُروا وليتفكّروا.

﴿مَلَكُوتِ﴾: صيغة مشتقّةٌ من «الْمُلْك» للتعظيم، والتفخيم، والمراد بالْمُلْك كُلُّ ما هُو خاضِعٌ لسُلْطَانِ اللّهِ الخالقِ الرَّبِّ الْمَلِك المتصرّفِ على ما يشاءُ بحكمَتِه، في هذا الكون الكبير الفسيح الَّذِي لاَ تحيط به مدارك العقول.

فالمعْنَىٰ: إذا لم يكونُوا قَدْ نظروا، فلينْظُرُوا نظَرَ تَأمُّلٍ وتفكُّرٍ، في هٰذا الملْكِ العظيم المنْضَبِط بإحكامٍ وإتقانٍ ودقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، في السَّمَاوَاتِ والأرض، وفي كلّ شيءٍ مَخْلُوقٍ في هذا الكوْنِ، ليَعْلَمُوا من آياتِهِ أنّ الرَّبّ المتصرّف بشؤونه واحِدٌ في رُبُوبيَّتِه، لا يُشارِكُهُ فيها شريكٌ ما، وأنّه هُوَ مالِكُ كلّ شيءٍ ومليكِهِ، فلا شريكَ له في رُبوبيّته، ويلْزَمُ عن هذا عقلاً أنّه لا شريك لَهُ فِي إلٰهيّته.

فإذا تحقّقُوا مِنْ هٰذا عَلِمُوا أَنَّ صاحِبَهُمْ محمّداً يَدْعُوهُمْ إلى الحقّ، وإلى

دين الله الحقّ، وهذا العلْم يهديهم إلىٰ أنْ يُصَدِّقُوا بآيَاتِ الله المنَزَّلاَتِ عليه.

الوجه الرابع: أنَّ آيات الله الجزائيّة الّتي تضمَّنَتْ مُعاقَبَةَ المكذِّبينَ من أَهْلِ الْقُرُونِ الأولَىٰ، بالإهلاك الشامل، ونجاةَ الرُّسُلِ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، والّتي جاء في السورة عرْضُ أمْثِلَةٍ كَثِيرَةٍ منها، مِن المهْلَكِينَ المكذِّبِينَ الأولين، تدلُّ على سنّةِ الله في عبادِهِ، أليس في هذه الآيات الجزائيّة الّتي كشفَتْها الأمْثِلَةُ التَّارِيخيَّة الواقعية، ما يَدُلُّ أَهْلَ النّظَر المتفكّرينَ على صِدْقِ مَا جَاءَ به محمّد عن رَبّه، فتَهْدِيهم إلى الإيمان بِهِ، وإلى الإيمان بالآيات البيانيَّةِ المنَزَّلَةِ عليه، مسوقين بالخوف من العقُوبةِ الرَّبَّانية أن تنزل بهم، كما نَزَلَتْ بالَّذِين من قبلهم.

وقد ألْمَحتْ إلى هٰذا الوجْهِ العبارة التالية من الآية:

- ﴿. . . وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ . . . ﴿١٨٥﴾﴾:

أي: أو لَمْ يَتفَكَّرُوا في آيات اللّهِ الجزائية، أوَ لَمْ يَقَعْ في تقديرهم أنَّ شَأْنَهُمْ صار مُتوقعاً مَعَهُ أَنّ مُدَّةَ إمْهَالهم قد اقتربَتْ مِنَ الانتهاء، وأنَّ أجَلَ إنْزَالِ الْعِقَاب بِهم قَدِ اقترب.

إنّ هٰذا التوقُّع كافٍ لأَنْ يَرُدَّهم إلى الحقّ.

بَعْدَ هذا الحِصَارِ البَيَانيّ الاسْتِدْلاَليّ من كلّ الجهات، صار من الحكمة أن تُخْتَمَ الآيَةُ بقَوْل الله عزّ وجل:

- ﴿. . . فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾:

أي: فإذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الحدِيثِ فلا يُوجَدُ بَعْدَهُ حَدِيثٌ آخَرُ يجعلهم يؤْمِنُونَ، لأنّ كلَّ حديثٍ آخر سيكونُ دُون هذا الحديثِ الحصاري، الْمَتِين بالْحُجَجِ البرهانيّة الدَّوامغ.

ولا بُدَّ من التَّنْبِيهِ هُنَا على أنَّ عُقْدَةَ الامتحانِ بالإيمانِ، هِيَ الإيمان

بالغيب، وأنَّ الوسيلَةَ الإقناعِيَّةَ للإيمان بالْغيب هي الأدِلَّةُ الفِكْرِيَّة والعلميَّة، وأنَّ أفْضَلَ وسيلَةٍ لتوصيل هٰذه الأدلَّةِ إلَىٰ عُمْقِ الأفكار، فَعُمْقِ الْقُلُوبِ، هِيَ وسيلةُ الحديثِ المنطقيّ العقليّ الهادىء، الّذي يشْتَرِكُ فيه المحدِّثُ والمتلَقِّي على تَحَاوُرٍ سواءٍ بَيْنَهما.

فأسْلُوبُ الحديث المنطِقِيّ العقْلِيّ الهادِىءِ، يفُوقُ في تأثيره كلَّ بَيَانٍ آخر، كالخطابة، والدّرْسِ، والمحاضَرَة، والشّعْر، ولهذا وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ ما جاء في كتابِهِ بأنّه من قبيلِ الحديثِ، فقالَ تبارك وتعالى في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾:

ومن هذا يتبيَّنُ لَنا أنّ الحديثَ هو وَسيلَةُ التأثير الْفُضْلَىٰ الّتي يَقُومُ بها الرُّسُلُ والأنبياء، والدّعاةُ إلى دين اللَّهِ المتأسُّونَ بهم.

* * *

قول اللَّهِ تعالى:

- ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

بعد حصار المكذّبين بآيات الله البيانيّة المنزّلَة على رسوله محمد ﷺ من أربعة وجُوه، اقتضتِ الحكمةُ البيانيَّةُ توجيه الأنظار التفكُريَّة لغاية الامتحان في ظُروف الحياة الدنيا، وهي تتمثّل بأمْرَين رئيسَيْن:

الأمْرُ الأول: الحكم على مَنْ ضلَّ في رحلة امتحانِهِ، بالضلال الّذي لاَ يحكم فيه إلاّ الله وحْدَهُ لا شريك له.

وبَعْدَ الحكم بالضلال في العاجلة، فقد تقتضي حكمة العزيز الجبار

إنزالَ عقابٍ مُعَجَّلٍ في الدنيا، قبل الحكْمِ بالضلالِ يَوْمَ الدِّين والعقابِ في جهنَّمَ دارِ الظالِمين المجْرِمين.

وقد تقتضي حكمتُه جلّ جلالُه إمْهَالَ المكذّبين، وتَرْكَهُمْ في طغيانِهم يَعْمَهُونَ، حَتَّىٰ تَأْتِي آجالُهُمْ المقدَّرَة لكلِّ واحِدٍ منهم، فيمُوتُونَ فيها، ويَنَالُونَ طَرَفاً مِنْ عَذابِهِمْ بَعْدَ مَوتهم، في مُدَّة البرزخ بين الموْت والبَعْثِ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ ويُحَاسَبُونَ، ويَحْكُمُ العزيز الجبّارُ عليهم بالضلال في محكمة العدل العظمَىٰ، ويُسَاقُونَ إلى دار عذابهم الأَبَدِيّ.

والحكم على الضالين يكون بحسَب منازلهم في دركات الضَّلالِ وشدّةِ ما ارتكبوا من جرائم.

الأمر الثاني: الحكم لمَنِ اهتَدىٰ في رحلة امتحانه بالهداية، وبأنَّه مِنَ المهتَدِينَ الَّذِين يستَحِقُّون دُخول الجنَّةِ، والْخُلودَ فيها.

والحكم للمهتدين بالهداية يكونُ بحَسَب درجاتهم في الهداية، ومنهم العصاةُ الَّذِينَ يستحقُّونَ عذاباً أقلَّ من الخلود في دار العذاب. ثُمَّ يكونُ مَصِيرُهُمْ إلى الجنة خالدين فيها بفضل الله، لأنَّهم ماتُوا على إيمان صحيح، مهما كانوا قد أسْرَفُوا على أنفسهم بالمعاصِي والمخالفاتِ، ويكون تَعْذِيبهم بمثابَةِ التطهير لهم مِمَّا حَمَلُوا مِنْ أرْجاس الآثام والخطايا.

وقد جاء في الآيَة بيانُ أَنَّ مَنْ يَحْكُم اللَّهُ علَيْهِ بالضَّلاَل، فلا يُوجَدُ أَحَدٌ يَسْتطيع أَنْ يحكُمَ لَهُ بالهداية من دُون اللَّهِ، سواء أكان ذلِكَ في الحياةِ الدنيا قبل الْموتِ، أمْ كان في الآخرة، لأنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُهُ، هو الذي وضَعَ عِبادَهُ الممتَحِنينَ موضِعَ الامْتحان، فَهُو الذي يُحَاسِبُهم، ويَحْكُمُ عليهم، ويُجَازِيهم وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له.

ويُفْهَمُ بالمقَابِلِ ـ ولَوْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ في الآيَةِ ـ أَنَّ مَنْ يَحْكُمُ له بالهداية، فَلاَ يُوجَدُ أَحَدٌ يستطيعُ أن يَحْكُمَ عليه بالضلال من دُون الله.

إنِ الحكْمُ إلاَّ لِلَّهِ في قضايا امتحان الْعِبَادِ في ظروف الحياة الدُّنيا، والجزاءُ الَّذِي يَقْضِي اللَّهُ به، ويتحقَّقُ بأمْرِهِ تَنْفِيذُه، هو الجزاء الذي ينالُهُ كلُّ فردٍ من الأَفرادِ الَّذِين مَرُّوا رِحْلَةَ الامْتحانِ في ظروف الحياة الدنيا.

واقتصر النصّ هنا على الحكم بالضّلالِ، لأنَّ الحديث يتعلَّقُ بالمكَذِّبين بآيَاتِ الله، بمقْتَضَىٰ السّوابقِ في النّصّ.

● ﴿. . . وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

أي: ومَنْ وَصَلَ من أهل الكفر والتكذيب إلى أن يَحْكُمَ اللَّهُ عليهم بالضَّلال، وهم ما زالُوا في الحياة الدنيا، لِعِلْمِ اللَّهِ بأحوالِ نُفُوسِهِمْ وقلُوبهم، وأنَّهم صاروا قوماً ميئوساً منهُمْ، وَلَمْ تقتض حكمتُهُ إنْزَالُ العقوبة العاجلة بهم بإهلاكهم إهلاكاً شاملاً، لأنَّ فسادهم العامّ لم يَصِلْ إلى المستوىٰ الّذي يقتضي إهلاكهم إهلاكاً شاملاً، فإنَّ اللّه جلَّت حكْمَتُهُ يَتْرُكُهُمْ في طغيانِهم يَعْمَهُونَ، مُتَحَيّرين متخبِّطين.

﴿وَيَذَرُهُمْ﴾: أي: ويَتْرُكُهم، قال عُلَمَاءُ اللّغة: قَدْ أَهْمَلَ العربُ ماضيَ هذا الفعل ومَصْدَرَه، وبقي في الاستعمالِ المضارع والأمر.

والقراءة الأخرى بالجزم: ﴿وَيَذَرْهُمْ﴾ عطفاً على جواب الشرط باعتباره في موضع فعل مجزوم، أو هو مُسَكَّنٌ تخفيفاً، أمّا القراءة بالرّفع ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ فهي على أنّ الجملة مستأنفة.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: أي: في تجاوزهم عبْرَ رِحْلَة امتحانهم حُدودَ اللّهِ فيما أَوْجَبَهُ من إيمانٍ وعَمَل، وفيما حرَّمَهُ من عقيدة وعَمل.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: الْعَمَهُ: التَّحيُّر، والتردُّد، وانطماسُ البصيرة، وهُوَ في الْبَصِيرَة كالْعَمَىٰ في الْبَصَر.

فنفْهَمُ من قول الله تعالىٰ: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أنّ من وصَلَ

إلىٰ حالةِ ميؤُوسٍ منها، وعَلِمَ اللّٰهُ منْهُ ذلِكَ، حكمَ عليه بالضّلال، وهو ما زالَ في الحياة الدُّنيا، ومَنْ وَصَلَ إلى حَالَةٍ ميؤوسٍ مِنْها لانطِمَاسِ بَصِيرَتِه، فَلاَ سَبيلَ إلى هدايتِهِ بأيِّ وسِيلَةٍ إقناعيَّةٍ أو ترغيبيَّةٍ أو تَرْهيبيَّة، ولا يُوجَدُ أَحَدٌ بَعْدَ الله يحكم له بالهداية، إن الحكْمُ إلاَّ لِلّه.

ونفهم أيضاً أنَّ الّذِين وَصَلُوا إلى هٰذِهِ الحالَةِ الميؤوس منها، ولَمْ يبْلُغْ تواطُؤُهُمْ على الإفسادِ في الأرض مبْلَغاً تقتضي الحكْمةُ الرَّبَّانيَّةُ معَهُ أَنْ يُهْلكَهُمْ إهلاكاً جماعيًّا، فإنَّ الله عزّ وجلَّ يتْرُكُهُمْ حينئذٍ يتخبَّطُون مُتَحيّرين في ظلماتِ أهوائهم وشهواتهم وضلالاتهم، ويَسِيرُونَ كالْعُميان لا يَعْرِفُونَ سبيلاً يوصِلُهُمْ إلىٰ سَعَادَتِهِمْ الحقيقيَّة.

* * *

قول الله عزّ وجل:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

يخاطبُ اللّٰهُ عزّ وجلَّ الرسولَ محمّداً ﷺ بهاتَيْنِ الآيتَيْن، فيُعلِّمُهُ فيهما كيْفَ يجيبُ السَّائِلين عَنْ وقت قيام الساعَةِ، وعَنْ أُمورٍ من الغيب لم يُعْلِمْهُ اللّٰهُ بها، وعن حُدُودِ قُدْرَتِهِ فيما يخُصُّ ذَاتَه فضْلاً عمّا يَتَعلَّقُ بغَيْرِه.

وقد اشتمل هذا النصّ على أوّل بَيَانٍ قُرآنيّ بشَأْن سُؤال المشركين عن السّاعة، أي: عن وقت حدوث السَّاعَةِ الموعود بها.

● ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: أُطْلِقَ لفظ «السَّاعَة» في القرآنِ علىٰ وقْتِ إنْهاءِ ظُرُوفِ هٰذِهِ الحياة الدُّنيا وأحداثها. وأُطْلِقَ على وقْتِ بَعْثِ الناسِ من

أجْدَاثِهم إلى الحياةِ الأخرى، حياة الحساب، وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء. وأُطْلِقَ علىٰ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ قليلةٍ، وفْقَ مَفْهُومِ الْعَرَب للفظ السَّاعَة، إذْ يُطْلَقُ لفظ «السَّاعَة» عند العرب، ويُرادُ به جزْءٌ قليلٌ من النهار واللّيل، دُونَ تحديد بأن يكونَ جزءاً من أربع وعشرين جزءاً الّتي هي مجموع ساعاتِ اللّيل والنّهار، يقول العربيُّ: جلسْتُ ساعَةً، أو مرَّ بي فُلاَنٌ في ساعة، يُريدُ بذلكَ وقتاً قليلاً، ويُطْلَقُ لفظ الساعة أيضاً عند العرب، ويرادُ به جزْءٌ من أربع وعشرين جزءاً من زمن اللّيل والنهار.

والمراد بسؤال المشركين عن الساعة سؤالُهم عن وقْتِ إنْهاءِ ظروفِ هذه الحياة الدنيا وأحداثها، بإبادة كُلِّ مظاهر الحياة فيها، وبَعْدَ ذلك يأتي وقْتُ قيام الساعة الّتي يكونُ عندها البعْثُ إلى الحياة الأخرى بَعْدَ الموت، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاءِ بالْعَدْل أو بالفضل، على مراد الله العزيز الحكيم العليم القدير.

● ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: أيَّـانَ: اسْـمُ اسـتـفـهـام يُـسْـأَلُ بـه عـن الـزَّمَـانِ المستقبل، ويسْتَعْمَلُ عادةً فيما يُرَادُ تعظيم أَمْرِهِ، وتفخيمُ شأنه، أو فيما يراد التعبير عن استغرابه واستبْعاده.

فاستعمال لفظ «أيّانَ» في السُّؤَال عن وقْتِ حدوثِ الساعة الأولَىٰ، الّتي يكونُ بعْدَها وقْتُ حدوث الساعَةِ الأخرى، ساعَةِ البعْثِ، استعمالٌ في غايَةِ الدّقة.

﴿مُرْسَىٰهَا﴾: مصدرٌ ميمي، من فعل «أرسَىٰ» اللاّزم، بمعْنَىٰ «رَسَا» تقول لغة: «رَسَا الشيْءُ يَرْسُو رُسُوّاً» وتقول: «أَرْسَىٰ الشَّيْءُ يُرْسِي إرْسَاءً» أي: ثبَتَ واسْتَقَرَّ.

ويجوز أن يكون «مُرْسَاها» اسم زمانِ رُسُوّها.

ويأتي فعل «أَرْسَىٰ» متعدّياً، فتقول لغة: «أَرْسَاهُ يُرْسيه إرساءً» أي: ثَبَّتَهُ.

وشاع استعمالُ الرُّسُوّ والإرْسَاءِ للدلالة على وصولِ السُّفُنِ إلى الميناء، وإلْقاء مَرَاسيها لتثبُتَ وَتَسْتَقِرّ.

فدَلّ استعمال لفظ: ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ على معنيَيْن، هُمَا: أيَّانَ رُسُوُّها، وأيَّانَ إرْساء الله لها.

وفي استعمال الرُّسُوّ والإرْساء، للدّلالة على وقْتِ انتهاء مَسِيرة هٰذه الحياةِ الدُّنيا، استعارةٌ قائمة على تَشبيهها بالسفينة، وتشبيه الزمن بالبحر، وتشبيه انتهاء نظام هذه الحياة الدنيا وأحداثها بالرُّسُوّ في مَرْفأ هذا الْبَحْرِ الزَّمَنِي.

والغرض الفكريُّ من هٰذِه الاستعارة الدّلالة على معنًى فلْسَفِيٍّ دقيق، هو أنّ هذا النظام الكونيّ بتراتيبه وتصاريفهِ المتتابعةِ لحظةً فلحظةً، وبالتغيرات المستمرّات اللواتي تجري فيه، يُشْبِهُ سفينة جاريَةً في الْبَحْر، لَهَا في كلّ لحظةٍ موقعٌ وحَرَكَةٌ جَدِيدانِ دواماً، وأَنَّ هذا التجدّدَ لا ينتهي إلاّ إذا قامَتِ السَّاعَة، وانتهىٰ بقيامها كلُّ هذا النظام، كما تَتَوقَّفُ السّفينَةُ في الميناء، وتُلْقِي مَرَاسِيَها، وتَثْبُتُ وتَسْتَقِرُّ عِنْدَه.

فلم يكن استخدام هذه الاستعارة لمجرّد الإمتاع الفنّيّ بصورةٍ بلاغيَّةٍ جماليّة، بل اقترن به غرض فكريٌّ اشتمل على بياناتٍ ذواتِ قيمةٍ، معَ الإيجاز الشديد، والاقتصاد في العبارة، وهكذا شأْنُ التشبيهاتِ والاستعاراتِ، إذْ تكفِي فيها الكلمةُ الواحدة للدّلاَلة على معاني جُمَلٍ كثيرة، فهي تُغْنِي في الدلالة على معانيها، مع ما فيها منْ جَمالٍ يسُرُّ المتفكّرين.

فالعبارة القرآنية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ بهذا الإيجاز الذي هو غاية في الاقتصادِ في العبارة، تَحْمِلُ أبْعاداً فكريّةً واسعة، مع أنّ السؤال فيها مؤلف من لفظَتَين فقط: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ لكنّهما مُنتَقاتَانِ بدقّةٍ فائقة.

قول الله تعالى:

● ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً . . . ﴿١٨٧﴾﴾.

في هذا النصّ تعليمٌ رَبَّانِيٌّ يُعَلِّم الله عزَّ وجلَّ به رسولَهُ، كيفَ يُجِيب السّائلين عن وقت قيام السَّاعة، وبالتأمُّلِ والتدبُّرِ نلاحظُ أنّ فيه إجابةً شاملةً، عنْ كلّ التساؤلات المحتَمِلاَتِ عن السَّاعة، بأربعِ جُمَلٍ ليْسَ بَيْنها حرف عطف، لأنّ بَيْنَها كمالَ اتصالٍ.

الجملة الأولى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾:

أي: ما علْمُ وقت قيامها إلاَّ عِنْدَ رَبّي، بحَذْفِ كلمتَي: «وَقْتِ قِيامها» للْعِلْم بهما، إذِ المسؤولُ عنه هو وقْتُ قيامها، أمّا ما سوىٰ ذلك من أمْرِها فقد جاء به الخبر، فالتصريح بوقت قيامها إِطْنَابٌ لاَ حاجةَ له.

ودلَّ هذا الحصْرُ على أنَّ وقْتَ قيام السَّاعة أمْرٌ من عِلْم المستقبل الذي قدَّره الله وقضاه في خُطَّة التكوينِ، ولم يُعْلِمْ به أحداً من خلقه، ولم يجعل في كونه أسْبَاباً توصِلُ إلى العلم به، فهو ممّا أخفاهُ اللَّهُ على جميع خلْقِه، لحكمة مِن حِكمه الجليلة، فَلاَ يَعْلَمُهُ نبيٌّ مُرْسَلٌ، ولا مَلَكٌ مُقرَّب.

إذَنْ: فَسُؤال السّائلين عنْهُ سؤالٌ لا يَمْلِكُ الرسُولُ الإجابة عليه، باعتبار أنّهُ أمْرٌ يجْهَلُه، لا باعتبار أنّه يكتُمُه وهُو يَعْلَمه.

وهنا قد يتحرَّك في نفوس السائلين سؤال آخَرُ وهو: ألاَ تَسْتَطِيعُ يا محمّد وأنْتَ رسُولُ الله كما تقول، أن تَسْأَل رَبَّكَ عن وقْتِ قيام السَّاعة، والإلحاحَ عليه في المسأَلَةِ حتّى يُعْلِمَك به، فَتُجيبَنَا علىٰ سؤالِنا كما يُبَيَّن لك؟.

وجواباً على هذا السؤال المطويّ الَّذِي يسْتَدْعيه الذهْنُ عَقِبَ الجواب الأول، جاءت الجملة الثانية:

الْجُمْلَةُ الثانية: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾:

جلَّىٰ فُلانٌ الشيْءَ، أي: كشفَهُ وأظْهَرَهُ وأوضَحَهُ، فتجَلَّىٰ.

والمعنى: لا يكشف ولا يُظهِر الْعِلْم بوقْتِ قيام السَّاعَةِ إلاَّ اللَّهُ وحْدَه، ولا يكونُ هذا الكَشْفُ والإظهارُ إلاّ عنْدَ قيامِها، بدليل قول الله تعالى: ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ أي: في وقْتِها، أو عنْدَ وقتها.

وهذا يَدُلُّ على أنّ الله عزَّ وجلَّ قَدْ قضَىٰ بأنْ لا يُعْلِمَ بوقْتِ قيامِ السَّاعَةِ أحداً من خَلْقِهِ، أو بأَنْ لا يَسْتَطِيعَ أحَدٌ الإعلامَ بوَقْتِها إلاَّ هو سبحانه، وهو لا يُعْلِمُ به إلاَّ عنْدَ وقْتِ قيامِها. هذا قَضاءٌ مُبْرَمٌ لا تغيير فيه ولا تَبْدِيل.

وقولُ الرَّسُول ﷺ للسَّائلين هٰذه العبارة يَتَضَمَّنُ معنىٰ: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لا يُعْلِمُنِي به ولو سألْتُهُ وألْحَفْتُ عليه في المسألة.

إذن: فَلاَ مطْمَع في الوصولِ إلى العِلْم بوقت قيام السَّاعَة، ولَوْ سَأَلْتُ رَبِّي ذلكَ، فَكُفُّوا عن السُّؤَالِ.

وهُنَا قَدْ يتَحرَّكُ في نُفُوسِ السَّائِلينَ سؤال ثالث، وهو:

إذا أَخْفَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ الْعِلْمَ بوَقْتِ قيام السَّاعَةِ عَنْ أَهْلِ الأرض، فَهَلْ أَخْفَاهُ الله أيضاً عن ملائكتِه المقَرَّبين في السَّماء، أَوْ هَلْ أعلمهم به ولم يأْذَنْ لهم بإظهاره لأحد؟؟

ومع أنّ الجملة الأولىٰ الحاصرة: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ قَدْ تضَمَّنَتْ بعُمُومِها الحاصِر الجوابَ على هذا السؤال، لكن قد يَقَعُ في أذْهَانِ بعض السّائلين أنّ الحصْرَ خاصٌ بالبشَر، أو بالمكلفينَ من الإنْسِ والجنّ، لأنّ السَّاعةَ تَقُومُ لإنْهاءِ نِظامِ الحياة الدُّنيا، الّتي رُتِّبَتْ في خُطَّةِ الوجود لابتلائهم، ومن مُنْطَلقِ هذا الاحتمال يَرِدُ السُّؤالُ الثالث، وقد جاء الجواب عَلَيْه في الجملة الثالثة:

الجملة الثالثة: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

أي: لا يستَطِيعُ مَخْلُوقٌ في السَّماواتِ والأَرْضِ، أَنْ يَرْفع عَنْ وقْتِها الغطاءَ الثِقِيلَ فيكْشفَهُ ويَعْلَم بوقتِها المخفيّ المكْنُون.

ويلاحظ الأديب الذّوّاقُ للأدب الرّفيع أنّه اسْتُعِير في هٰذِهِ الجملة «الثِّقَلُ» للدلالة على تَعَذُّرِ وصُولِ المخلوقاتِ المدركَةِ في السماوات والأرض من الملائكة والإنْسِ والجنّ، إلى العلم بوقْتِ قيام السَّاعة.

وذلِكَ لأنَّ الثِقِيلَ هو الّذِي لا يستطيعُ المخلُوقُ رفْعَهُ وحمله، وهُنَا تَنْطَلِقُ أَذْهانُنا إلىٰ الأُمُورِ المعنويّة الثقيلة، فالمشكلة الاجتماعيَّة المعقَّدَةُ الصعْبَةُ الحلّ ثقيلَةٌ، لا يستطيع المعالج حلّها، ولا إدْرَاكَ مفاتِيحِ حَلِّها، والمعضلة الحسابيَّة ثقيلة لا يستطيع الْحَيْسُوبُ حلّها، وإدْرَاكُ التناهي في الكَونِ دون شيءٍ وراءه، وكذلِكَ نقيضُهُ وهو عَدَم التناهي في الكون من الأمور المعْضِلَةِ الثقيلة، الّتي لا يسْتَطِيعُ الْعَقْلُ أنْ يُنْهي تساءُلَهُ عند واحِدٍ منهما، مع أنهما نقيضانِ لا بُدَّ من واحِدٍ منهما.

أمّا ما يسْتَطيعه المخلُوقُ فهو إمَّا خفيفٌ بالنّسْبَةِ إليه، أو مُساوٍ لقوّته.

وقد يكونُ الشيءُ الواحِدُ ثقيلاً بالنّسْبَةِ إلى بَعْضِ المخلُوقين، وخفيفاً أو مساوياً بالنِّسْبَةِ إلى قُدْراتِ آخَرِين.

أمّا أن يتعذّر وصُول أهْل السَّماواتِ والأرضِ إلى فعل أمْرٍ ما، أو إلى عِلْم أَمْرٍ ما، فهُو دَلِيلٌ على أنّه أثْقَلُ من كلّ قُدْراتهم، إذْ تَظَلُّ قُدْراتُهُمْ بالنِّسْبَةِ إليه طائشة، ويَبْقَىٰ هُو في موضعه ثقيلاً، فَلاَ تَسْتَطِيعُ قُدْراتُهم رَفْعَهُ إلىٰ حَيْثُ يُسَخِّرونَه أو يَعْلَمُونه.

وحين يكون الغرض من رفعِهِ كَشْفَه والْعِلْمَ بِهِ، لأنَّهُ في المكان الذي هو فيه مَحْجُوبٌ مسْتُور، فإنَّ وصْفَهُ بأنَّهُ ثقيلٌ يَدُلُّ على أنَّهم لا يَسْتَطِيعُون الوصُولَ إلى الْعِلم به.

فجاء التعبير بأن الْعِلْمَ بوقْتِ قيام السَّاعَةِ ثقيلٌ على أَهْلِ السّماوات وأهل الأرض، مفيداً أَنَّهُمْ عاجِزُونَ عن الوصُولِ إلى العلم به، فَمِنْ لوازِمِ الشَّيْءِ الثقيل أن لا يُسْتَاطعَ رفْعُهُ حتى تكُونَ القوَّةُ الرافِعَةُ لَهُ مساويَةً لوزْنِه، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ وزْنِه.

ولمَّا كان وقْتُ قيام السَّاعَةِ في مكانٍ عَمِيقٍ مخْفِيٍّ عن أَهْل السَّمَاوات والأرض، كان الغرضُ من رفعه من مكانِه الْعِلْمَ به، لكنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُون رفْعه، فهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ التوصُّلَ إلى العلم به.

إنّ هذا التعبير لَمِنْ أدقّ التَّعبيراتِ وأبْرَعها، وأجْمَعِها للأفكار الَّتي يُرادُ التعبير عنها، مع أدائه للغرضِ الجمالي البلاغيِّ الْفنّي، وقد أدَّت كَلِمَةُ [ثَقُلَتْ] الْغَرَضَيْن معاً.

(١) الغرضَ الفكريَّ.

(٢) والغرض البلاغيّ الجماليّ الفنّي.

وهنا يَقِفُ القومُ السَّائلون عن طرح تساؤُلاتهم الّتي يُكافِىءُ كلُّ جوابٍ منها السؤال المطروحَ قبله.

فَحَسُنَ في الختام حَسْمُ كُلّ احتمالٍ لسؤالٍ متكلِّفٍ قد يَطْرحُونَهُ فجاءت الجملة الرابعة حاسمة:

الجملة الرابعة: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾:

أي: لا تأتيكم الساعَةُ قائمةً فِعْلاً إلاّ فُجَاءَة، دون عِلْمٍ منكُمْ أَوْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِوقْتِ قيامِها، ولَوْ قَبْلَ لحظات مِنْه.

بهٰذِهِ الجملَةِ الرابعة تمّ حَسْمُ الأمر حوْلَ السُّؤالِ عن وقت قيام السَّاعة.

ومن أجل هذا نُلاحظُ أنّه لمّا تكرّر من السّائلين أنفُسِهِم هذا السؤالُ

عن وقْتِ قيام السَّاعة، بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَن، أنزل الله عزَّ وجلّ قوله في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾:

فأعْرَضَ في هذا النصّ عن تفصيل جواب سؤالهم عن وقت قيام السَّاعة، اكتفاءً بما أنْزَلَ قبْلَه في سورة (الأعراف).

واقتصر النصّ في سورة (النازعات) على التوجيه لواجب العمل لما بَعْدَ قيام سَاعَةِ البعث، فخاطَبَ الله عزّ وجَلَّ السائلين بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، أو علّم الرَّسُولَ أن يُخاطبَ السّائلين بهذا الأسلوب نفسه، فقال تعالى:

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: في أيّ عَمَلٍ أنتَ أيُّها السَّائِلُ، من أَعْمَالِ تَذَكّرِكَ للسَّاعَةِ، ولما بَعْدَ السَّاعَةِ الثانية، الَّتِي يكُونُ بها البعْثُ لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفيذِ الجزاء؟؟

لَقَدْ كانَ عليْكَ أن تَعْمَل الأعْمالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي تَجْعَلُكَ من أهْلِ جَنَّاتِ النَّعيم، إذا حانَ حينُها، فَلاَ تُكرِّرْ سُؤَالَكَ عن وقْتِ قيامِ السَّاعَة، فالْعِلْمُ بهذا الوقْتِ مُنْتَهَاهُ إلَىٰ الله، إذْ لاَ أحَدَ يعْلَمُ متى تقومُ السَّاعَةُ سواه.

والْتَفتَ اللَّهُ عزّ وجلّ إلى رسوله فخاطَبَهُ بقَوْلِهِ له:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾:

أي: ما أنت يا مُحَمَّدُ بالنِّسْبَةِ إلى مَوْضُوع وقْتِ قيام السَّاعَةِ الأُولى، وما يَحْدُثُ بَعْدَ قيام السَّاعَةِ الثانية، سَاعةِ البعث، إلاَّ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاها،

وهو الذي يخافُ عذابَ الله، إذْ يحاسِبُ الخَلائِقَ على ما قَدَّمُوا وأخَّرُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في ظروف الحياة الدُّنيا وأحداثها، ويَقْضِي بشأنهم، ويأمُرُ بأن يُسَاقَ أَهْلُ النعيم إلى الجنَّة، وأَنْ يُسَاق أهل العَذاب إلى النار.

ومعنى كونه منذر مَنْ يخشاها، أنّ إنْذاره النافع المفيد المؤثّر ينحصر فيمن يؤمن بها ويخشاها، إذْ لا يخشاها إلاَّ من كان مؤمناً بها، ولو من مستوى أضعف الإيمان.

وحتَّىٰ لا يَسْتَبْعِدَ السَّائِلُون وَقْت قِيام سَاعَةِ الْبَعْثِ، للحياة الأُخْرىٰ، حياةِ الحساب، وفَصْل القضاء، وتَحْقِيقِ الجزاء، فيَتَهاوَنُوا بالْعَمَل الّذِي يُنْجِيهِم من عذاب الله، ويكونُ سبباً في نَيْلِهم السَّعادَةَ الخالدة في جنّاتِ النعيم، أبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، أنَّ سَاعَة الْبَعْثِ لِيَوْم القيامَة، سَاعَةٌ قَرِيبَةٌ جدّاً من لحظَةِ مَوْتِ الأحْيَاءِ في الحياة الدُّنيا، بالنِّسْبَةِ إلى مَشَاعِرِهِمْ، وإدْراكِهِمْ لـمُرُور الزَّمَن، إذْ يُلْغَىٰ من القدرة على الإدْراكِ فيهم الإحْسَاسُ بمُرُور الزّمن، حتَّىٰ تَكُونَ اللَّحْظةُ الزَّمَنِيَّةُ ومِلْيَارَاتُ السّنين، بالنّسْبَةِ إلى مَشاعِرِهم وإحْسَاسَاتِهم سواءً، فَهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ نَامُوا نَوْمَة القيلولَةِ بَعْدَ الظَّهِيرَةِ، واسْتَيقظُوا، أو نَامُوا نَوْمَةً في الضُّحَىٰ واسْتيقظُوا، فقال الله عزّ وجل:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾:

أي: تكونُ مَشَاعِرُهم وإحْسَاساتُهُمْ، حينَ يُبْعَثُونَ، ويَرَوْنَ أحداث يَوْم الدّين بَعْدَ سَاعَةِ القيامة، مُشَابِهَةً لمشاعِرهم حينما كانوا يَنَامُونَ نَوْمَةً قليلةً في النهار في الحياة الدُّنيا، عَشِيَّةً، أي: في نِصْفِ النهار الثاني، أَوْ ضُحَاها، أي: في ضُحَىٰ هٰذه العشيّة، وهو نِصْفُ النهار الأول.

وهم في مُدَّة البرزخِ مَهْمَا طالَ الزّمن، لاَ يُحِسُّون حينَ يُبْعَثُونَ، إلاَّ أَنَّهُمْ كانُوا راقِدِين، وأن ما ذاقُوهُ من عذابٍ أو نعيم، قد كان مُشَابهاً لآلام

الأحلامِ أو لَذَّاتِها، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجل في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: من القبور.

﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾: أي: مِنْ مكان نَوْمِنَا، **الرُّقَادُ**: النّوم. **والمرقد**: اسم مكان النوم.

قول الله تعالى في نص (الأعراف):

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

لفظ ﴿حَفِىٌّ﴾ يأتي في اللّغة للدّلالة على عدّة مَعَانٍ:

(١) **فالحفيُّ بالشيْءِ** هُوَ المعْتَنِي المهتَمُّ به، والعالم به عِلْمَ استقصاء.

(٢) ـ **والحفيُّ**، هُو الملْحِفُ في المسألة عن الشيء الذي يَسْأَلُ عنه بتكرار، والمستقصي في السؤال عنه.

وجاء في أقوال المفسّرين، في تفسير قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ﴾ ما يلي:

- كَأَنَّكَ اسْتحفَيْتَ السُّؤَالَ عَنْهَا حَتَّىٰ عَلِمْتَها.
- كأنَّكَ عَالِمٌ بها.
- كأنّكَ معنيٌّ ومُهْتَمٌّ بالسُّؤال عنها.

ويمكن أن نفهم من المعاني اللّغويّةِ وأقوال المفسّرين معنًى جامعاً نقول فيه:

يَسْأَلُكَ قَوْمُكَ يَا مُحَمّد عن وقْتِ قيام السَّاعَةِ، كأنَّكَ مُهْتَمٌّ بأن تعْلَم وقْتَ قيامها، فتسأل رَبّكَ عنه، وكأنَّكَ عالِمٌ به، وكأنَّكَ مُهْتَمٌّ بسُؤالهم وراغِبٌ في إجابَتِهِمْ عليه، مع أنَّكَ أعْقَلُ وأكثر بصيرة من أَنْ يشْغَلَ قَلْبَكَ وَفِكْرَكَ مثْلُ هذا الأمْرِ الذي لا فائدة فيه.

وهذا من بديع استعمال اللّفظ الواحدِ في المعاني المتعدّدة، الّتي يدُلُّ عليها، وهو من باب الإيجاز والاقتصاد في العبارة، مَعَ الدَّلالَة على معانٍ كثيرة.

وجاء تأكيد الجواب في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ بجعل عبارة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ بدلَ عبارة: ﴿عِندَ رَبِّى﴾ لبيان أنَّ رَبَّهُ الّذي ربَّاهُ فيما مضىٰ، ومُرَبّيهِ دواماً هو الله خالقُ كلِّ شيءٍ، وربُّ كلّ شيءٍ.

ولمّا كان السُّؤال عن وَقْتِ قِيامِ السَّاعةِ مُمَاحَكَةً باردةً، إذ السؤالُ عن وقت قيامها لا يُهِمُّ السّائلين بشيءٍ من أُمور دنياهُمْ وَلاَ من أمور أخراهم، كانَ السؤالُ عنه ـ لاتّخاذ عدَمِ الإجَابَةِ علَيْه ذريعةً لجُحُودِ يوْم الدّينِ ـ من الجنوحِ عمّا ينبغي من الْعِلْم، ومِنْ نقص الْعَقْلِ وفَسَادِ التَّصوُّرِ، ولهذا قال الله عزّ وجل في آخر الآية: ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

أي: ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلَمُونَ مَا يَنْفَعُهُمْ وما يضُرُّهم، فيجنحونَ عَنْ سواءِ السّبيل، ويشْغَلُونَ أنفُسَهم بما لا يفيدُهُمْ من العلْم، ويتّخذون عَدَمَ إعلامِهِمْ بوَقْتِ قيام السَّاعَةِ ذَرِيعةً لجُحُودِها، مع أنّ الْعِلْمَ بهذا الوقت لا يَزيدُ في إثبَاتِها أيَّ تَرْجيح فكْرِيّ، إذْ دليلُ اليوم الآخر يعْتَمِدُ على براهين الْعَدْلِ الرَّبَّانيّ من جهة العقل، وقَواطِع الأَخْبَارِ الدينيَّةِ مِنْ جهَةِ النَّقْل.

ولمّا كان جنوح السَّائلين من كُفَّار قُريش مُمَاثِلاً لجنُوحِ سائِر الكافرين المكذّبين بيَوْم الدّين، وكان الكافِرُون هم أكْثَر الناس، كان من الحكمة في

البيان القرآني أن يُدْخِل اللَّهُ عزّ وجلّ كُفَّارَ قُرَيشٍ ضِمْن أَمْثَالِهِم من كُفّار كلِّ عصْرٍ في قضيَّةٍ عَامَّةٍ تشْمَلُ الجميع، فقال الله تعالى: ﴿. . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

الاستدراك بلفظ: [وَلَٰكِنَّ] دلَّ على أنَّ الإجابات السابقاتِ كافياتٌ لاقناع ذوي الفكر والرّأي والعلم، ولَكِنْ لمّا كانَ أَكْثَرُ الناس لا يَعْلَمُونَ بسبب تَعْطِيلِهِمْ أدوَاتِ الْمَعْرِفَةِ لَدَيْهم، كانَ مُشْرِكُو مكَّةَ من الَّذِينَ يُصِرُّونَ على جُحُودِ السَّاعَةِ، وإنْكَارِ يَوْم الدّين، والتكْذِيب بالبعْثِ للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، واتّخاذ السؤال عن وقت قيام السَّاعَةِ ذَرِيعةً للتكْذِيب بها، إِذَا لَمْ يُحَدَّدْ لَهُمْ وقْتُ قيامها، مع العِلْم بأنَّهُمْ لَوْ حُدِّدَ لهم وقْتُ قيامها لاسْتَمَرُّوا مُكَذِّبينَ بيوم الدّين، ومُكذّبين للرسُول الذي يُبَلِّغ عن الله آياته المنزَّلاتِ عليه، التي يجب على الممتَحَنِينَ المكلّفين أن يَتَّبعُوها، إذ قال لهم في بداية السورة:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وبهذا الختام وُضِع الختْمُ على قُفْلِ مَوْضوع السؤالِ عن السَّاعة.

وانتقل النّصُّ إلى تعليم الرّسُول ﷺ، أنْ يبيّن للسَّائِلِينَ عن وقْتِ قيام السَّاعة، أنَّهُ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِه نفعاً ولاَ ضرّاً إلاَّ ما شاء الله، فيما تجري به المقاديرُ المستَقْبليَّة، لأنَّ اللَّه جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه ـ لم يُعْطِهِ علْمَ الأحداثِ التفصِيليَّةِ الّتي تأتي بِهَا الأيَّامُ وسَاعاتُها ودَقائِقُها ولحظاتُها، ممَّا قضاه الله وقَدَّرَه، أو أذِنَ به وهو يَعْلَمُه، والدَّليلُ على ذلِكَ أنَّه ﷺ لو كانَ يَعْلَمُ الغيب كُلَّهُ بتفاصيلِهِ، لاستكْثَرَ من الخيْرِ، باختيار الأشياء الّتي تَرْتَبِطُ بِهَا مَقَادِيرُ الْخَيْر المستقبليَّة، ولتحاشَىٰ أنْ يَمَسَّهُ السُّوءُ، بابْتِعَادِه عن كلّ أمَاكِنِ تنزُّل السُّوء، الّتي رَسَمَ اللَّهُ بقضائه وقَدَرِه إنْزالَهَا في أمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ مُحَدَّدة، وأنْ يُؤَكِّدَ لَهُمْ أنّ رسالَتَهُ لاَ تَعْدُو أن يَكونَ نذيراً للكافرين

المجرمين، وبَشِيراً لقوم يؤمِنُونَ، ومُبَلّغاً عن اللّهِ ما أنْزَلَ الله علَيْه ويُنْزِلُ تِباعاً، ممّا أَمَرَهُ بتبليغه للناس، وأن يجتَهِد في وسَائِلِ إقناع الناس بالحقّ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وَأنه لَيْسَ مكلّفاً أنْ يُحَوِّل الناس من الكُفرِ إلى الإيمان، أوْ مِنَ الْعِصْيَانِ إلىٰ الطَّاعَة.

فقال الله عزّ وجلّ في الآية التالية في السّورة:

- ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

- ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾:

أي: قُلْ يا أيُّها الرَّسُولَ محمَّد للمُلْحِفين عليك في السُّؤَالِ عن وقتِ قيام السَّاعة، ولسَائِرِ الناسِ من آمن بك ومن لم يؤمن، لاَ أمْلِكُ لأجْلِ نفْسِي قُدراتٍ وَلاَ وَسَائِلَ أجْلُبُ بها لِنَفسِي في الحياة الدُّنيا نَفْعاً، أَوْ أَدْفَعُ بها عَنْ نَفْسِي ضَرّاً، إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ أن يَمْنَحنيهِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ فضله.

وممَّا لاَ أمْلِكُهُ عِلْمُ غَيْب مُسْتَقْبل أيامِي في الحياةِ الدُّنيا، إلاَّ مَا شَاءَ أو يَشَاءُ اللَّهُ إعْلامي بِهِ وَحَياً.

مِلْكُ الشَّيْء: القُدْرَةُ على التَّصَرُّفِ فِيهِ على وَفْقِ مَا جَزَمَتْ به الإرادة. **ومَالِكُ الشيء**: هو القادر على التَّصرُّفِ فِيه بحَسَبِ إرادته.

وبما أنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ خاضِعٌ لسُلْطَانِ اللَّهِ وإرادَتِه الحكيمة، بكلّ كبيرٍ وصغير فيه، فإنَّ أحداً في الوجُودِ لا يَمْلِكُ أنْ يتصَرَّف بشيءٍ فيه، إلاَّ إذا منَحَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الْقُدْرَةَ على التصرُّفِ، في حُدُودِ ما مَنَحَهُ من ذَلِك، حتَّىٰ أكرَمُ الخلْقِ عِنْدَ اللَّهِ وأقْرَبُهُمْ إليه، لاَ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ جَلْبَ نَفْعٍ، أوْ دفعَ ضَرّ، إلاَّ إذا شاء الله ذلك، فضلاً عَنْ أنْ يَمْلِكَ شيئاً من ذلِكَ لِغَيْرِه من خَلْقِ اللَّهِ إلاَّ بمَشيئة الله.

الضَّرُّ والضُّرُّ: سُوءُ الحال في الْبَدَنِ أو المالِ أو الأَهْلِ والولَد، ونحو ذلك. وضِدُّه النَّفع.

- ﴿... وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ... ﴿١٨٨﴾﴾:

هذه العبارة بمثابَةِ الدَّلِيلِ الواقعِي على العبارة السابقة لها، أي: والدليلُ على أنّي لا أملِكُ عِلْمَ مُسْتَقبَلَ أيّامِي بتفاصِيلها، أَنِّي لو كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ممّا سَيَحْدُثُ مستقبلاً، لاتَّخذْتُ التَّرتِيباتِ الملائماتِ لأَحْدَاثِ المستقْبَل، الَّتي أَسْتَكْثِرُ بها من الْخَيْرِ لِنفْسِي ولمَنْ أُحِبُّ، والَّتي أدْفَعُ بِها السُّوءَ عَنْ نَفْسِي وعَمَّنْ أُحِبُّ، لَكِنَّ هذا أَمْرٌ غَيْرُ واقعٍ، لِأَنَّني لاَ أَمْلِكُه.

السُّوء: كلُّ مَا يَغُمُّ الإنسان، وكُلُّ ما يقْبُحُ، واسْمٌ جامِعٌ لمختَلِفِ الآفَاتِ المكروهَةِ للنفوس.

- ﴿... إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

﴿إِنْ﴾: حرف نفي بمعنى «ما» النافية.

﴿نَذِيرٌ﴾: أي: مُنْذِرٌ بشدَّةٍ مِنْ أقصَىٰ درجان الإنْذار، بعقاب الله الشديد يوم الدين للكافرين، مع ما قَدْ يُنْزِلُ اللّه بِهِمْ من عقاب مُعَجّل في الدنيا. **نذير** من صيغ المبالغة.

﴿وَبَشِيرٌ﴾ أي: ومُبَشّرٌ بشِدَّةٍ بثواب الله العظيم يوم الدين للذين آمنوا وعملوا الصالحات، مع ما قد يمنحهم الله من ثواب مُعَجّل في الدنيا. **بَشِير**: من صيغ المبالغة.

والقصر في العبارة هو قَصْرٌ إضافي، والمعنىٰ: وما أنا بالنِّسْبَةِ إلى مَنْ بلَّغتُهُمْ، واتَّخذْتُ كلّ وَسِيلَةٍ لإقناعهم، ونصحهم وإرشادهم، ولَمْ آلُ جهْداً فِي إصْلاَحهم عن طريق إراداتهم الحرَّة، ما أنا بالنسبة إليهم إلاَّ نَذِير. أمّا

الَّذِين خَطَوْا بَعْضَ خُطُواتٍ إيمانيّة، أو ظَهَرَت لَدَيهم بوادِرُ اسْتِعْدادٍ مَا لأنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، أوْ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً وظَهَرَ عليهم الاستعداد للاستمرار على صِدْقِ الإيمان مُسْتَقْبلاً، ومُتَابعَةِ مسيرة الإيمان بكلِّ ما سَيَأْتيهم من بلاغاتٍ عن رَبِّهم، فأنا بالنِّسْبَةِ إليهم بَشِير.

* * *

قَوْل اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾:

تمهيد:

هذا النَّصّ وتوابعه مُرْتَبِطٌ بأحَدِ خَطَّي السُّورَةِ الأعظَمَيْن اللَّذَيْنِ سَارَتْ عليهما مُعظَمُ دُرُوسِ السُّورَةِ وآياتها، وهو خَطُّ عِبادة اللَّهِ وَحْدَه، بَعْدَ الإيمان بتوحِيدِ الرُّبوبيَّة وتوحيد الإلَهِيَّة له جلّ جلاله.

أمّا الخط الأعظم الآخر، فهو الممتَدُّ من الآية الثالثة في أوائل السورة، وهي قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾:

وقد سبق أن لاحَظْنَا أنّه ارْتَبَطَ بهذا الخطّ من الدَّرْس الحادي عشر، الآيَات من (١٨١ ـ ١٨٨).

وسبق أن عرفنا أنَّ هذا الدَّرس يتعلَّقُ بأمَّةِ دَعْوَةِ محمّد ﷺ، من آمَنَ به منهم واتّبعهُ، ومَنْ لم يُؤمن به، بل كذَّبَ بآيات الله المنزّلَات عليه.

وهذه الآيَات من (١٨٩ ـ ١٩٨) تعالج قضيَّة الشّرك، مُنْذُ بَدْئه في

التاريخ البشريّ حتَّىٰ شِرْكِ مُشْرِكي الأمم، إبَّانَ دَعْوَةِ الرَّسُول محمّد ﷺ، وفي مُقَدّمَةِ المعالَجِين مُشْرِكو العرب، الّذِينَ واجَهُوا أوّل بيانَاتِ الدَّعْوَة المحمَّدِيَّة.

ومن الحكمة في معالجة شِرْك المشركين الّذِينَ يَعْبُدون من دون الله شُركاءَ له، الْبَدْءُ بقضيَّةِ الإيمان بتوحيد الرُّبُوبيَّة للّه عزّ وجل.

أي: ببيان أنّ الخالق الممدّ بعطَاءات الرّبوبيّة كلّها، هُو اللَّهُ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، فلا رازق غيْرُه، ولا مُحْيِيَ غيره، ولا مُمِيت غَيْرُهُ، ولا راحِمَ غَيْرُهُ، ولاَ نَافِعَ غَيْرُه، ولاَ ضَارَّ غَيْرُه، ولاَ يَرزُقُ الأَوْلاَدَ غَيْرُه، ولاَ يَهَبُ الْبَنِينَ والْبَنَاتِ غَيْرُه، فهو الذي يَجِبُ أنْ يُعْبَد بالْعَمل بآيَاتِه المنَزَّلاَتِ على رسُوله، وأنْ لاَ يُشْرَك بعِبَادَتِه أحَدٌ كَائِناً مَنْ كَانَ، وكائناً ما كان.

التدبّر التحليلي:

قوله الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . . . ﴿١٨٩﴾﴾:

هٰذا النَّصُّ يَدُلُّ بوضوح كاملٍ على أنَّ السُّلاَلاَت الْبَشَرِيَّةَ مُشْتَقَّةٌ من نَفسٍ واحدة، يسْتَوي في هذا ذُكُورُها، وإِنَاثُها، فالنُّطَفُ المنويَّةُ الّتي يَقْذِفُها الذُّكور هي الْحَاملَةُ للسُّلاَلاَتِ البشريّة ذُكُورِهَا، وإِنَاثِها، وكُلُّها تَرْجِعُ إلى الذَّكَر الأول، وهو آدم عليه السّلام، فكلُّهم من نَفْسٍ واحدةٍ، هي النَّفْسُ المتصفَةُ بالذُّكورَة.

ومن حكمة الله الخالِقِ الرَّبّ جل جلالُهُ، أنْ جعل من نَوْعِ هٰذه النَّفْس الواحدة، زَوْجها، ليسْكُنَ الزّوج الذكر إليها، أي: لِيَسْكُنَ حينَ الانْدِفاع إلى القرينِ المؤنسِ مائلاً إليها، فإذا انْضَمَّ إليها سَكَنَ جسَدُه، وسكنَتْ نَفْسُه، واسْتَسْلَم للرّاحة السّعيدة.

التعبير بفعل «جعَلَ» في: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يَدُلُّ على الحالة الدّائمة في السُّلالات البشريَّة، وهيَ أنّ الذكر من هذا النوع يَسْكُنُ للزّوج

الأُنْثىٰ من هٰذا النوع، بالْجَعْل الرَّبَّاني، في نظام الخلْق المتتابع.

أمّا بدْءُ اشتقاق خَلْقِ حوّاءَ من آدم عليه السّلام، فقد جاء التعبير عنه في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً... ①﴾.

فَبدءُ خَلْقِ الأُنْثىٰ الأولَىٰ كَانَ اشتِقَاقاً من الذّكر الأوّل، ثُمّ سارَتِ السُّلاَلاَتُ علىٰ أَنّ الذُّكورَ تَحمِلُ ذُرّيّاتِ الإِخْصَابِ ذُكُورِهَا وإناثها، واقتضى نظام التكْوين الرّبّانِيّ جعْلَ الذكور يسْكنُونَ إِلَىٰ الإناث أزواجاً لهم، لتكونَ الإناثُ محاضِنَ تَنبُتُ فيها بُزُور الذّرّيّة الّتي يزرَعُها الذكُورُ فيهِنّ.

ففرَّقَ اللّٰهُ عزّ وجلّ بَيْنَ أَصْلِ الخلْق، وبَيْنَ الْجَعْلِ بَعْدَ الخلْق.

قول الله تعالى:

● ﴿... فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ⑱⑨﴾

● ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾: يُقال لغة: تَغشَّىٰ الشَّيْءُ الشيْءَ، أيْ: غطّاه، وعبارة ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: كنايَةٌ مُهذَّبَةٌ عن الجماع.

وتَغَشّي الزّوْج الذّكر للزَّوْجِ الأنْثىٰ هو الْعَمَلُ الطبيعيُّ الأحْسَنُ لكلٍّ منهما.

أي: فَلمّا اتَّخذَ الأسْبَابَ التّزاوُجيَّةَ الّتِي جَعَلَها اللّٰهُ جلَّ جلالُهُ في نظام التكوين، أسْباباً للتناسُل، والتكاثر البشريّ.

● ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: في هٰذه العبارة وصْفٌ لحالَةِ عُلُوقِ الجنينِ أوّل الْحَمْل، إذْ يكون حملاً خفيفاً جدًا، لا تُحِسُّ الأنْثىٰ به.

● ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: أي: فَمَرَّتْ بهَذا الْحَمْلِ في أيام حَمْلِها وهو يَتَنَامَىٰ شيئاً فشيئاً.

- ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾: أي: فلَمَّا دَخلَتْ في ثِقَلِ الْحَمْل، بسبب كِبَرِ الجنينِ في بَطْنِهَا. يُقَال لغة: أثْقَلَتِ الحامل، أي: اسْتَبان حَمْلُها، فَهِيَ مُثْقِلٌ. وإنّما يستبينُ حَمْلُها إذا كَبرَ الجنينُ في رَحِمِها فَصَارَ ثقيلاً.

- ﴿... دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾:

أي: دعا الزَّوجان اللَّهَ بِأَنَّهُ رَبُّهما، مُقْسِمَيْن في دُعَائِهما لَهُ قائِلِيْن: نُقْسِمُ يا رَبَّنا لَئِنْ آتَيْنا وَلَداً صالحاً سَالِماً مِنَ الْعُيُوب والآفات، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ لكَ، العامِلين بما يُرْضِيكَ من الأعمال الصالحة، وبما يُرْضِيكَ في تَرْبِيَتِه وتنشئته، وفي سائر أمورنا.

الشُّكْر: مقابلة المنعم على إنعامه بما يرضيه من عمل، أو بما يرضيه من اجتناب عمل، وقد يشْمَلُ القولَ الذي فيه ما يُرْضي المنعم، إلاّ أنَّ بعْضَ القول يختصُّ بعنوان الْحَمْد والثناء.

وصِيغة هذا الدُّعاء تدلُّ على أن ما أقْسَمُوا عليه هو من قبيلِ نَذْرِ اللَّجاج، وهو النَّذْرُ بشَرْطِ تَحْقِيقِ مطلوبٍ ما.

- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾:

نفهم من هذه الآيَة الإشارَة إلىٰ أنَّ بَدْءَ الشِّرْك في التاريخ البشري، بَعْدَ أنْ خَلَقَ الله النَّاسَ من نَفْسٍ واحدةٍ، وجَعَلَ مِنَهَا زَوْجَها لِيَسْكُنَ إلَيْها، قد كان عن طريق حِرْصِ الزَّوْجَيْن على إنجاب الذُّرِّيَّة الصالحة السليمة من العيوب والآفات، فاتَّخذا الأسْبَاب الّتي جعَلَها اللَّهُ في نظام الخلْقِ للإخْصَابِ والتناسل، ودَعَوَا الله رَبَّهما بما سَبَقَ بيانه، فلمَّا رَزَقَهما اللَّهُ الرَّبُّ جلّ جلالَهُ ولداً سليماً من العيوب والآفات، جعَلاَ له شُرَكاء في هذا الولَدِ الّذي آتاهُما إيّاه.

لسْتُ أَرَىٰ أنّ هٰذِهِ الحادثَة خاصَّةٌ بِزَوْجَيْنِ مُعَيَّنَيْنِ، بلْ هي ظاهرةٌ

بدَأَتْ تتكَرَّرُ في الناسِ مُنْذُ بَدْءِ ظواهِرِ الشِّرْكِ باللَّهِ سبحانه وتعالى فيهم.

ومظاهر شِرْكِ الناس في موضوع أولادهم كثيرة:

(١) فَمِنْهَا شِرْكُ الأسْباب، إذْ يَقُولُون: اتَّخَذْنَا سَبَبَ كَذَا، وسبَبَ كذا، فجاء ولَدُنَا سليماً صالحاً مُعَافَىٰ، لا عُيُوبَ فيه، ولا عاهات، ولا آفات.

ويَنسَوْنَ دُعاءهم رَبّهم، ونَذْرَهم بأن يشْكُرُوه بالعمل بما يُرْضيه، إذا آتاهُمْ ولداً صالحاً، سليماً من العيوب والعاهات والآفات، ولاَ سيَما إذا كان ولَداً ذكراً.

(٢) ومنها اللُّجوءُ إلى الّذين يتوسَّمُون فيهم الصَّلاح من الناس، أو إلى الْمُشَعْوِذِين الدَّجّالين، والسَّحَرَةِ الكذّابين، لِحِمَايَة ولَدِهمَا من الأعراض والأمراض والآفات، ولتَحصِينِه من شرّ حُسَّادِ الإنْسِ، وقُرَنائهم من الجنّ.

(٣) ومنها الْتِمَاسُ مُسَاعَدَةِ أرواحِ الموتى، واللُّجوءُ إلى قُبُورِهِمْ، ودُعاؤُهم، وطَلَبُ أَفْعالٍ غيبيَّة، مِنْهُمْ وهم لا يملكون منها شيئاً، إذْ هي خاضعَةٌ لسلطان الله رَبّ السماوات والأرض ورَبّ كلّ شيء.

إلى غير ذلك من شركيات الناس.

ويَبْدُو أَنَّ حادثَة هٰذَيْن الزَّوْجَيْنِ كما ذكرها اللَّهُ عزّ وجلّ. تُعَبِّرُ عن حالة الْفِطْرَةِ الإنسانيَّةِ، الّتي تلْجَأُ إلى اللَّهِ ـ جلَّ جَلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ـ حينما تكونُ الأسباب خفِيَّةً مجهولَةً، ويكونُ المطْلُوبُ أمْراً من أمُورِ الغيب.

وحينما يتحقَّقُ المطلوب، ويَصِيرُ أمراً واقعاً مشهوداً، مملوكاً بالأيْدي بفضل فَيْضِ جُود اللَّهِ وعطائه، عندئذٍ تبدأ الأنفس تتعلَّقُ بالأسباب، وتنسَىٰ اللَّهَ مُسَبِّب الأسباب، وتلْجأُ من أجْلِ حماية ما وَهَبَهُمُ اللَّه إلى شُرَكاء من دون الله، مع أنَّ المانح له من الغيب، هو الّذي يُمِدُّهُ دواماً

بعطاءاتِ رُبُوبيّتِه، وهو الذي يحفَظُه، ويَحْمِيه، ويُبْقيه في الوجود إلى أجَلِهِ المقدَّرِ له، وهو الذي يُسْعِدُ به الّذين وهَبَهُمْ إيَّاه.

فقد جاء التعبير بهاتَيْن الآيتَيْن (١٨٩ ـ ١٩٠) عن بِدايَاتِ ظاهرة الشّرك بالله ربِّ الناس في تاريخ البشَرِيَّةِ، توطئةً لمعالَجةِ الشِّرْك في النّاس إبّان نُزول القرآن، فما يَلِيه من العصور.

وقد فَهِمْنَا من هذا الْعَرْضِ الرّبّاني، أنَّ بدَايَاتِ الشّرك في الناس، قد ظهرت في موضوع رغْبَةِ بَعْضِ الأزواجِ من النّاس في الذُّرّيّة، وبقائها سليمةً صالحةً معافاةً محفُوظةً من الْعَوارض، ويظهر أنّ هذا الفريق من الناس قد تعرَّض لامتحان الله لهم بضعف الإخْصَاب، أو بموت أولادهم وهُمْ ما زالُوا أطفالاً، أو بأولادٍ مصابين بعيوب وأمراضٍ مفسدة، أو مُشوّهَة.

وكانت البيئة ما زالَتْ بيئةً إيمانيَّةً، يُؤمِنُ فيها الناس باللَّهِ ربّهم، خالقهم ورازقهم، ومُحْيِيهم ومُمِيتهم، وكان من شأنِهم المعتاد أن يَدْعُوا الله ويسألُوه مَا يَرْغَبُون فيه، ولا سيما في الأمور الّتي لا يملكون التصرُّف أو التحكُّم بأسبابها، ويعتبرونها من الغَيْبيَّاتِ بالنسبة إليهم، كانعقاد الأجِنَّةِ في بطُون الأمَّهَات.

ولكنَّ الوالِدَيْن بَعْدَ أن يسْتيجب الله دُعاءَهُما يلْجَآنِ لحماية ولَدِهما الحبيب الغالي، وللمحافظة عليه إلى اتّخاذ أعمالٍ شركيَّةٍ، فتتلاعَبُ بهما أبالِسَة الإنْسِ والجنّ، فيلجآنِ إلىٰ التمائم والتعاويذ الّتي ما أنزل الله بها من سلطان، وإلى الاستجارة بالموتىٰ، والتبرُّك بآثارهم، وإلى الاستعاذة بالجنّ، وبالتماثيل الّتي يتوَهَّمُونَ أنّ أرواح الموتى الصالحين تُصاحبُها، وتَنْفَعُ مَنْ يَدْعُوها ويَسْتَجِيرُ بها، من أجل ولَدِهما الحبيب الغالي، الذي يخشيان عليه من الموت، أو من العاهات والأمراض.

وأخَذَت تتكرَّرُ هٰذِهِ الظاهرة في تاريخ النّاس، وتتّسِعُ دوائرها، حتَّىٰ

شَمَلَتْ كلَّ مطالب المشركين في حياتهم، وظَهَرت عبادَةُ الأوْثان، وعبادَةُ المْوتَىٰ في قُبُورِهم، وعبادة الجنّ والملائكة، وعبادةُ المشَعْوِذِين والدَّجالين من الناس.

وشرْكيَّاتُ البشر ترجِعُ إلى جعْلِ بعض ما خَلَقَ اللَّهُ شركاءَ له في رُبوبيته، فإلَـٰهيّته، فيَدْعُونَهُم، ويتقَرَّبُونَ إليهم بالقرابين من الذَّبائح، ويَعْبُدُونهم بذلك وغيره من دون الله، وهذه المعبودات الّتي يجعلونها شرَكاء لله سبحانَهُ وتعالى، إمّا أنْ تكون من الجنّ، أوْ من الملائكة، أو من أرواح الموتىٰ الصالحين من البشر، أو ما يُمثّل شيئاً من ذلك من الأحجار والأشجار، ويَتَفَنّنُونَ في اتّخاذ التماثيل لما يَعْبُدُون، ويتقَرَّبُونَ بالْقُرُباتِ لهذه التماثيل.

فاقتضت الحكمة البيانيّة والتَربَوِيَّة في التنزيل العزيز معالَجَةَ شِرْكِ المشركين، الّذي ظهر في تاريخ الناس قديماً، واسْتَمَرَّتْ ظاهراتُهُ تَبْرُزُ في كُلّ أمّة، حتَّىٰ نزل القرآن على خاتم المرسَلِين محمّد ﷺ، وقد صار معظم العرب، ومعظم شُعُوب الأرض مُشْرِكين.

- ﴿...فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠﴾:

أي: فتسَامَىٰ وتَرَفَّعَ وتَنَزَّهَ الله الرَّبُّ، الَّذِي لا شريك لَهُ في رُبوبيته ولا في إلَـٰهِيَّتِهِ، عن كُلّ ما يجْعَلُهُ المشركون شُرَكاء له، إذْ لا أحَدَ يُشَارِكُ الله سبحانه وتعالى في شيءٍ من رُبوبيته، ولا في شيءٍ من إلَـٰهِيَّته.

لقد تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً أكْبَرَ وأكْثَرَ من عُلُوّ الفردوس الأعلى في جنّاتِ النعيم، عن الْقَاعِ والقرار الأسْفَل في الجحيم.

بعد هذا البيان تحدَّث اللَّهُ عزّ وجلّ عن المشركين بأسْلُوب الحديث عن الغائب، وكأنَّهُ يُخاطِبُ أهل الإيمان والْعَقْل والرُّشد، مُسَفِّهاً أحْلامَ المشركين السَّابقين، ببيان أنّ شِرْكهم لا يستَنِدُ إلَىٰ قاعِدَةٍ فكْرِيَّةٍ صَحِيحةٍ

تَقْبَلُ بها العقولُ السَّوِيَّةُ السليمة، وتوطِئَةً لمواجهة المشركين المعاصرين للتنزيل فَمَنْ يأتي بَعْدهُمْ بالْخِطَاب المباشر، مع ما يتضمَّن الحديثُ عن الغائبين من خطابِ المعاصرين بصورة غيْرِ مُبَاشِرَة.

فقال الله عزّ وجلّ:

- ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾؟

صُدِّرَتْ هذه الآية باستفهام يتضمَّنُ اسْتثارةَ الْعَجَبِ مِنْ فِعْلِ المشركين الأولين، الذين ضرَب اللَّهُ عزّ وجلّ مثالاً من أمثلة شركهم، في الآية السابقة، فقد كان هؤلاء المشركون الأوَّلون يجْعَلُونَ لله عزّ وجلّ شُرَكَاءَ لاَ تخلُقُ شيئاً، فهِي لاَ تنفع ولا تضُرُّ.

- ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾: جاء التعبير باسم الموصول «مَا» الّذي يُسْتَعمل غالباً فيما لا يَعْلَمُ ولا يَعْقل، للدّلالة على أنّه ليس من صِفات الشُّرَكاء الذين اتَّخذُوهم شُرَكَاءَ للّه أن تَخْلُقَ شيئاً، بمعنى أن تُبْدِعَ شيئاً، أو تُوجِدَ شيئاً بخصائصها الذّاتية.

أي: ليس لشركائهم صفاتٌ تَسْتَطيع أنْ تخلُقَ حتَّىٰ يَصِحَّ أنْ تكون شُرَكاء لله في رُبوبيّتِهِ، وحتَّىٰ يَصِحَّ أنْ تُتَّخذَ آلهةً مع الله، تُعْبَدُ وتُدْعَىٰ، ويُتقرَّبُ لها بالقرابين.

- ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: أي: وهؤلاء الشركاء من الإنْس والْجِنّ والملائكة يُخْلَقُونَ خلقاً من بَعْدِ خلْق، ما دامُوا في الوجود، لأنَّ إبقاء المخلُوق في الوجود، إنَّما يكونُ بإمْسَاكه فيه، وهذا الإمْسَاكُ ظاهرةٌ من ظواهر الخلْق المتتابع، فمنْ أمسك شيئاً وحملَهُ، واسْتَمرَّ يُمْسِكه محمولاً، فإنَّه يَحْمِلُه مع اللّحظات لحظةً فلحظة، إذْ يُمِدُّه بالطّاقة الّتي يبقَىٰ بِها محمولاً.

ومن كان أصْلُه العدم، فإنّ إبقاءه في الوجود يحتاج إلى إمدادٍ مُتَتَابع، وإمْسَاكٍ مُتَتابع، وفي اللحْظَةِ الّتي ينقطع عنه فيها الإمداد والإمساكُ يرجع إلى أصْلِه، وهو العدم.

دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجل في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

فإمْسَاكُ الله عزّ وجلّ السَّمَاواتِ والأرضَ في الوجود بالإمْدَاد المتتابع، هو الّذي يجعلهما لاَ تَزُولاَنِ إلى أصْلِهما الّذِي هو الْعَدم، ولَئِن رفَعَ اللَّهُ عَنهما إمْسَاكَهُ لَهُما لزَالتا، ولَئِنْ زالَتا فلا أحَدَ بَعْدَ اللَّهِ يُعِيدُهُما إلىٰ الوجود، ويُمْسِكُمَا فيه.

فمَعْبُوداتُ المشركين مِنْ دُونِ الله إنْ بَقِيَتْ في الْوُجُود، فإنَّهَا تُخْلَقُ خَلْقاً من بَعْدِ خَلْقٍ، دلَّ على هٰذا استعمالُ الفِعْلِ المضارع في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فَهٰذِهِ الصيغَةُ تَدُلُّ على التجدُّدِ المتكرّر.

وإذا تَرَكْنا قضيَّة الخلْقِ الّتي يعْجِزُ عنها الشُّرَكَاءُ ونَظَرْنَا فيما هو أهْوَنُ من الخلْقِ، كالنَّصْرِ بالمساعَدَةِ والمعاونَةِ ضِدَّ الأعداء، فهل تَمْلِكُ الشركاءُ شيئاً من ذٰلِكَ لمن يَعْبُدُها ويَدْعُوها، ويَتَقَرَّبُ إليها بالقرابين؟

لقد جاء الجوابُ على هذا السؤال في الآية التالية من الدَّرْسِ، وهي قول الله تعالى:

- ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾.

أي: فإذَا كَانَ المشرِكُون يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُون اللَّهِ لِيَنْصُرُوهم على أعدائهم في حُرُوبِهِم، وصِرَاعاتهم، فالواقِعُ الثابت بالتَّجْرِبَةِ أَنَّ النَّصْرَ لاَ يَكُونُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ الله.

وكُلُّ الْقُوىٰ الغيبيَّة من الجنّ والملائكةِ وأرْواحِ الموتىٰ، لم يُعْطِها اللَّهُ شيئاً من إمْكَانَاتِ النَّصر، إلاَّ بأمْرِ الله، أَوْ بإذْنه.

قال اللّٰهُ عزَّ وجلَّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأنِ المشرِكين:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

إنَّ النَّصر الحقِيقيّ إنَّما يأتي من عنْد اللّٰهِ، بعِزَّته وعلى مقتضىٰ حكمته، قال الله عزّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿...وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾.

وهؤلاء الشركاء أنفُسهم لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ إِذَا احْتَاجُوا إلى نَصْرٍ، لِأَنَّهُمْ لا يَمْلكُونَهُ.

- ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾: في هٰذِهِ العبارة قُدِّم المعمولُ وهو الضمير في: ﴿لَهُمْ﴾ على عامله: ﴿نَصْرًا﴾ فَدَخلَتْ عليه لاَمُ التقوية.

والغرض البلاغيُّ من هٰذا التقديم تَنْبيهُ المشرِكين عَلَىٰ أَنَّ عبادتهم لشركائهم لا تجلُبُ لَهُمْ معونَةَ النصر، إذْ تَقْدِيمُ الأهَمّ في البيان من وسائل التَّنبيه عليه، ولَفتِ النَّظَر إليه، كأنْ تَقولَ لمن يَترَقَّبُ نَفعاً من معونته لظَالم جبارٍ: إلَيْكَ لا يَصِلُ منْ عَطاءَاته شيء، فهذه العبارة أشَدُّ تنْبيها من أنَ تقول له: لاَ يَصِلُكَ من عطاءاته شيء.

- ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾: أي: فلو أراد أحَدٌ بهم سوءاً، تكسيراً وتحطِيماً، أو شَتِيمَةً أو سَبًّا، لم يسْتَطيعُوا أن ينصروا أنفسهم، ولا أن يَدْفعوا عنها شيئاً.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ :

تمهيد:

بعْدَ الحديثِ عن مشركي القرون الأولىٰ بأسْلوب الحديث عن الغائبين، الّذي يتضمَّن بصُورَةِ غيْرِ مباشِرَةٍ خطابَ المشركين المعاصرين لنزول القرآن فَمَنْ بَعْدَهُمْ تَعْرِيضاً، تَوَجَّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ لخطاب المشركين المعاصِرين لتنزيل القرآن، فَمَنْ يَأْتي بعدهم بأسلوب الخطاب المباشِر، فجاء في هذا الدرس الحادي عشر هذا النّص، كَأَنَّ السَّابق كان لهم، وكأنّهم كانُوا هُمُ المعنيّينَ به.

وفي هذا الخطاب للمشركين خطاباً مباشراً، بيانٌ إقناعيٌّ لهم بِدَعْوَةٍ فكريَّةٍ عَقْلِيَّةٍ هادئةٍ رَصِينَةٍ، تَسْتَنِدُ إِلَىٰ واقعٍ تجريبي، وقابِلٍ للتجربَةِ دواماً، وباستطاعة كلِّ إنسَانٍ أنْ يمارِسَ تَجْرِبَتَهُ فيه.

والموضوع للتَّجربَةِ أوثانُ المشركين وأصنامُهُم الّتي جَعَلُوها رُمُوزاً لمعبوداتهم الغَيْبِيَّة، من أرواح الموتَى الصالحين، أو الّذِين كان أجدادُهم يَعْتَقِدُون فيهم الصَّلاح، أو رُموزاً لمعبوداتهم من الجنّ، أو ما يَزْعُمونَ أنّهم ملائكة، أَوْ قُوىً غيبيَّةٌ أُخرَىٰ.

هذه الأوثان والأصنام تماثيل مَصْنُوعَةٌ من عناصر الأرض، فهي جامِدَةٌ جُمُودَ الصَّخْرِ، أو الطِّين، أو الْحَدِيدِ، لا رُوحَ فيها، ولا حواسّ لها، ولا مَشَاعِرَ لَدَيْها، ولا تَسْتَجِيبُ بشيْءٍ لدَعْوَة الدَّاعي.

أي: فأجْرُوا تجرباتكم فيها إِنْ شئتُم.

قول الله تعالىٰ:

- ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾:

أي: وإنْ تَدْعُوهم إلى القيام بِعَمَلٍ صالحٍ فيه هُدىً لاَ يَتبعُوكم، مهْمَا أَلْحَحتُمْ عليهم في الدَّعْوَة، لأنَّهم جمادات، ومَنْ تَرْمُزُونَ بها إليهم غَيْر مُمَكَّنِين من التأثير فيها بشيءٍ، سواءٌ أكانوا جنًّا، أمْ تزعُمونَ أنهم من الملائكة، أم كانوا أرْواحَ موْتَىٰ، ولو أرادَ بعضُهُمُ التأثير كَكُفَّارِ الجنّ.

وذكر الله عزّ وجَلَّ دَعْوَتَهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، مع أنَّ دَعْوَتَهُمْ لأيّ عَمَلٍ آخَرَ ولَوْ لم يكُنْ فيه هُدىً، هو مِثْلُ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ في أنّهم لاَ يَتَّبِعُونَ الدَّاعي، لأنّ الله عزّ وجلّ لاَ يَذْكُرُ من احْتِمالاَتِ الأَمْثِلَةِ إلاَّ ما فيه خَيْرٌ وهُدىً وعَمَلٌ صالحٌ، وهٰذا من آداب التَّعْبيرات القرآنيَّةِ ولطَائِفها.

- ﴿. . . سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾:

جاءَت هذه العبارة بمثابة جواب سائلٍ يقول: ولِمَاذَا لاَ يَسْتجيبون لداعيهم؟

والجواب: أنّ هذه المعبودات الوثنيَّة لاَ تُحِسُّ بدعوة من يَدْعُوها، وأمَّا مَنْ يُرْمَزُ إليهم بها، فلَوْ كانوا شياطين أخباثاً، يَحْرصُون على نَشْرِ الشِّرْكِ في الناس، فإنَّهم غَيْرُ مُمَكَّنِينَ من الاستجابة والتأثير، لئلاً يكون للشّرك آثارٌ مادّيَّةٌ يَحْتجُّ بِهَا المشركون لتأييد ونَشْر ما هم فيه من شرْك.

إنَّ الله جلَّ جلالُهُ يكُفُّهُمْ بسُلْطَانِهِ عن ذلك، ومعْظَمُ المعْبُودِين يَتَبَرَّؤُون مِنْ عابديهم عِنْدَ رَبّهم.

﴿سَوَآءٌ﴾: خَبَرُ مُقدّم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلّقٌ بـ ﴿سَوَآءٌ﴾ والمبتدأ هو المصْدَرُ المؤوَّلُ من الْفِعْلِ بَعْدَ هَمْزَةِ التسوية، والتقدير: سواءٌ عليكم دَعْوَتُكم لهم بألْسِنَتِكُم وَصَمْتُكُم.

والمعنى: استَوَتْ دَعْوَتُكُمْ لَهُم وَعَدَمُها، وهذا الاستواءُ من الأمور التكوينيَّة الجبْرِيَّة عليكم، فلا تَمْلِكُونَ الخلاصَ منه، لأنَّ قانون اللَّهِ في الأوثان والجوامِدِ كلّها، أنْ لا تُحِسَّ بِدَعْوَةِ مَنْ يَدْعُوها من عباد الله، وأن لا يَسْتجيبَ مَنْ يُرْمَزُ بها إليهم، إمَّا طاعَةَ لِلَّهِ كالملائكة، أوْ عَجْزاً عن الاستجابة كالشياطين من الجنّ، أو لا تَمْلِكُ الإحساسَ بداعيها كالأحجار والأشجار ونحوهما.

قول الله تعالى:

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

﴿عِبَادٌ﴾: جمع «عَبْد» وهو المخلوق المملوكُ، ويجمع على «أَعْبُدٍ، وَعَبِيدٍ وعِبَاد».

وقد وصَفَ الله عزّ وجلّ الملائكة، والإنْسَ، والجنّ، على اختلاف دَرَجَاتِهم ومَرَاتِبهم، بأنّهم عِبادٌ، لأنهم مَخْلُوقُون بخلْقِهِ لهم، ومملُوكُون لَهُ جلَّ جلاله.

فالآلهة الّذين اتّخذهم المشركون معبوداتٍ لهم من دون الله، واتّخذوا لها الأوثان رُمُوزاً، على زعم أنّ أرواح آلهتهم وقواهم تصاحبها وتحيط بها، هم عبادٌ لله مثل عابديهم، فهم لا يستحقون أنْ يُعْبَدوا، وعبادتُهُمْ ظُلْمٌ لحقّ اللَّهِ على عباده جَميعاً.

● ﴿. . . فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

في هٰذه العبارة تَحَدٍّ للمشركين من الله جلّ جلاله، بأنْ يَدْعُوا مَنِ اتَّخَذُوهم شُركاءَ لله، وبأن يُثْبِتُوا أنهم يَسْتَجِيبونَ فيما يَدْعُونَهُمْ له، إنْ كانوا صادقينَ في ادّعاء أنّهم شُرَكاءُ للّهِ حقًّا، ولهم تَأْثيرٌ ما في نَفْعٍ أو ضَرٍّ.

- ﴿فَادْعُوهُمْ﴾: أَمْرُ تَحَدٍّ خَاطَبَ اللَّهُ عزّ وجلّ به المشركين.
- ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾: أَمْرُ تَعْجِيزٍ لَهُمْ ولشُرَكائهم.

أي: إنّ شُرَكَاءَكم لَنْ يَسْتَجِيبُوا لدُعائكُمْ مَهْمَا دَعَوْتُمُوهم، إذْ هُمْ غير ممكَّنِينَ من ذلِكَ ولو رَغِبُوا فيه.

أمّا الأوثان والأصنامُ فأمْرُهَا ظاهرٌ، لأنّها قِطَعٌ جوامدُ من عناصِرِ الأرض.

وأما المرْمُوزُ إلَيْهِمْ بالأَوْثَان والأصنام، فإن كانوا من شياطين الجنّ، فإنّ الله مانِعُهم بالْقَهر عن أن يكون لهم سلطانٌ، إلاّ على من اتّبَعَهُمْ من الغاوين، فلا يَزيدون عابديهم إلاّ توريطاً في الشّرّ ورَهَقاً فِي العمل، ولا يَنْفَعُونهم في نَصْرٍ ولا تأييد ضدَّ المؤمنين، ولا يُغَيِّرُون فيهم من قضاء الله شيئاً، ولا يجلُبونَ لهم نفعاً، ولا يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ ضرّاً.

وإن كانوا ملائكة، فإنّهم يمقُتُونَ عابديهم، ولا يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهم، ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون من ربهم.

وإنْ كانوا مَوْتَىٰ فقد انقطَعَتْ كُلُّ أعمالهم، والصالِحُون منهم يتَبَرَّؤُون من عابديهم يوم الدّين، والكافرون منهم يتخلّوْنَ عن مسؤوليَّةِ إغوائهم، إذا كان لهم تَسَبُّبٌ ما فيه.

قول الله تعالى:

- ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا... ﴿١٩٥﴾﴾:

وجّه الله عزَّ وجلّ بهٰذِهِ الفَقَراتِ للمُشْرِكين عدّة أسْئلةٍ تفصيليّةٍ، بشأن الأصنام والأوثان والتماثيل، على احتمالِ أنّ المشركين يعْتَقِدُونَ أنّ معبوداتهم هذه تَمْلِكُ بذَواتها أن تجلب لهم نَفعاً، أو تدفَعَ عنهم ضَرّاً، أو تجلُبَ لأعدائهم ضرّاً، أو تمنع عن أعدائهم نفعاً.

وهذا من التنزُّلِ إلى مُستَوىٰ مَدَارك عامَّتِهم، الَّتي قَدْ تَتأثَّرُ بالأوهام الَّتي يُزَخْرِفُها لهم سَدَنَةُ أصْنامهم، فيَسْتَدْرِجُونَهُمْ إلى اعْتِقَادِ الباطِلِ على أنَّهُ حقٌّ.

إنّ مَنْ يَمْلِكَ جَلْبَ أو مَنعَ نَفعٍ أو ضرٍّ، لا بُدَّ أنْ يكُونَ متَّصِفاً بالصِّفَاتِ الَّتي تُؤهِّلُهُ للقيام بذلِكَ، وأَوْلَاهَا بالعناية والاهتمام صفاتُ الْعِلْم والقدرة والحياة والإرادة، مع أدوات الحسّ والحركة كالبصر والسمع، والأيْدِي الَّتي تَبْطُش، والأرجل التي تَمْشي.

فالكائن الذي لا يَمْلِكُ هٰذه الصفاتِ عاجزٌ بطبيعَتِه عَنْ جَلْبِ نَفْعٍ لِنَفْسه، أو دَفْع ضُرٍّ عن نَفْسه، فضلاً عن أنْ يَجْلُب نفعاً لغيره، أو يَدْفع عنه ضَرّاً.

وفي توجيه الأسئلة الرَّبَّانِيَّةِ الوَرادَةِ في هذه الفقرات، إشارةٌ إلى هذه الحقيقة الْبَدَهِيَّة.

- ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ . . . ﴿١٩٥﴾﴾؟

﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى «بل» مع الاستفهام.

أي: ألهم أرْجُلٌ يَمْشُونَ بها لنُصْرَتكم؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بها للدّفاع عنكم؟.

الْبَطْش: أخْذُ الشيءِ بالْيَدِ بعُنْفٍ وقُوَّة، تقول لغة: «بَطَش يَبْطِشُ ويَبْطُشُ بطْشاً» أي: تناول بشِدَّةٍ عند الصَّوْلَة ـ أَخَذَ بيَدِه أخذاً عنيفاً بشدّةٍ وقُوّة ـ سطَا بسُرْعَةٍ وقوة.

- ﴿. . . أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَآ . . . ﴿١٩٥﴾﴾.

أي: أمْ لهم أَعْيُنٌ يُبْصِرُون بها، حتّىٰ يَعْرِفُوا أَحْوال عَابِدِيهم؟.

إنَّ الأعْيُنَ الموضوعةَ لهم حجارَة لا تَرىٰ، وليس لهم في رؤوسهم الصَّخريّة مراكز إبصار يُدْرِكون بها المرئيّات.

أم لهم آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها أَصْواتَ مَنْ يَدْعُوهم؟. إنّ الآذَانَ المنحوتة في صخراتِ أجسادهم ليست لديها قُدْرَةٌ على السّمع، ولَيْسَ لهم في رؤوسهم الصَّخْرِيَّة مراكزُ يُدْركُونَ بها الأصوات.

أسئلةٌ لا جوابَ لها أخذاً من واقع حال الأوثانِ والأصنام والتماثيل إلاَّ النفي.

إذن: فمِنَ السَّفاهة البالغَةِ الغايةَ في نقص العقول، ومن الحرمان من الإدراكات السليمات عبادَتُها، ودُعاؤُها.

وقد ذكرها اللّهُ عزّ وجلَّ بالتعبيرات الّتي يُذْكَرُ بها الأحياءُ العقلاء مُسَايَرَةً لِعُبَّادِها. «يَمْشُونَ ـ يَبْطِشُونَ ـ يُبْصِرُونَ ـ يَسْمَعُونَ» ولولا هذه المسايرة لكان الحديث عنها كما يلي: أَلَهَا أرْجُلٌ تَمْشي بها، أم لها أيدٍ تَبْطِشُ بها، أم لَهَا أعْيُنَ تُبْصِرُ بِهَا، أم لها آذانٌ تَسْمَعُ بها.

* * *

قول الله عزّ وجل:

﴿... قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾:

تمهيد:

اشتملت هٰذه الآيات على تحدٍّ آخَرَ للمشركين، عَلَّمَهُ اللّهُ رسُولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى دينِ اللّهِ من أُمَّتِه، أَنْ يقولَهُ للمشركين، وهذا التحدّي يعْتَمِدُ علىٰ

دَعْوَةٍ للشُّرَكاء المزعُومين أنَّهم شركاءُ لله، أَنْ يَكيدُوا الداعي بكلِّ مَا لديْهِم من وسائل كَيْدِيَّةٍ غَيْر منظورة، دُون إنظارٍ ولا إمْهال.

- ﴿. . . قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحمَّدُ وَيَا كُلَّ داعٍ إلى سبيل رَبّه للمشركين: ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ قولُوا لَهُمْ: حَارِبُوه بما لديكم من وسائلَ، دُونَ إمهالٍ، ولا إبْطاءٍ ولا إنْظَارٍ نُصْرَةً لعابديكم.

الكَيْدُ: الحرْبُ، وكُلُّ تَدْبيرٍ في إعداد وسائله.

﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾: أيْ: فَلا تُمْهِلُونِي إن اسْتَطَعْتُم، واستَخْدِمُوا كلَّ ما لديكم منْ حَرْبٍ بوَسَائِلَ غيبيَّة يَمْلِكُهَا شُرَكَاؤكُمْ الّذين زعمتم أنّهم شُركَاء لِلَّهِ في ربوبيَّتِهِ، الّتي تَسْتَلْزِمُ مُشاركَتَهُ له في إلَهيَّتِه، إنْ صَحَّ ادّعَاؤُكُم.

حُذِفَت ياء المتكلّم إيجازاً في النطق من «كيدونِ ـ تُنظِرُونِ» وتُوجَدُ قراءة أخرى بإثبات ياء المتكلم، كما سبَقَ بيَانُه فِي القراءات.

وثمرَة هٰذا التحدّي أَنْ يَعْجِزُوا، إذْ لَنْ يَسْتجيبَ لهُمْ شُركاؤُهم، فيثبتُ بالواقع التجريبيّ أنّ شركاءَهم لاَ تَسْتَطِيعُ شيئاً، وأن شِرْكَهُمْ عَمَلٌ باطلٌ لاَ أَسَاسَ له، وأنّه أوهَامٌ في أوهام.

قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

أي: وقُلْ لَهُمْ هذا القول أيضاً.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾: أي: إنَّ الَّذي يَنْصُرُني ويَحْمِينِي اللَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كلّ شيءٍ، وهو الرَّبُّ الْخالِقُ المالِكُ لكلّ شيءٍ سواه في الوجود.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أَيِ الّذِي نَزَّلَ القرآنَ المشتمل على آياتِ الله التي يَجبُ على الناس أنْ يتَّبِعُوها.

واختبر هنا من صفات الله تنزيلُه الكتاب، لربط هذا النَّصّ بالْخَطّ الأعظم من خطوط موضوع السّورَةِ، المبيَّن في الآية الثالثَةِ منها، والتي أمَرَ اللَّهُ فيها الناسَ بأنْ يَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من رَبّهم.

فالمعنى: وَقُلْ لَهُمْ بَعْدَ التَّحدِّي، إنَّ نَصِيري الَّذِي يَتَوَلَّىٰ نُصْرَتي على كلّ من يَكيدُونني ويُرِيدُونَ بي شرّاً أَوْ سُوءاً، هو اللَّهُ الذي نزَّلَ القرآنَ، والَّذِي أمَرَ فيه الناسَ بأنْ يَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إليهم من رَبّهم، والَّذِي يَشْهَدُ لي بما فيه من إعجازٍ أنّي رسُولُ الله رَبّ العالمين، وهو جلَّ جلالُهُ يتولَّىٰ الصالِحين من عِبَاده، الَّذِينَ يلْتَزِمُونَ في أنفُسِهِمْ كُلَّ عَملٍ صالحٍ عَقِيدَةً وسلُوكاً، على مقادير استطاعاتهم، فيُمِدُّهم بتَأْييدِهِ ومَعُونتِه ونَصْرِهِ لأنَّهُمْ أولياؤه.

أمّا المشركون وسائرُ الكافرين فلا ولايَةَ لهم من الله الَّذِي بيَدِه مقاليدُ كُلّ شيءٍ، وهو علىٰ كُلّ شيءٍ قديرٌ.

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾:

أي: وقل للمشركين هذا القول أيضاً، وهو قولٌ يَتَضَمَّنُ إقناعاً للمشركين بأنّ أوثانَهم الّتي يَعْبُدُونها من دون الله عاجزَة عن نَصْرِ عابِديها، وعاجزةٌ عن نَصْرِ أَنفُسِها إذا أَرادها أَحَدٌ بسُوء. وبأنّها لاَ تَسْمَعُ دُعاءَ مَنْ يَدْعُوها، وَلاَ تُبْصِرُ من يَقِف مُقَابِلَها وجهاً لِوَجْهِ، لأنَّ عُيُونَها حجَرِيَّةٌ لاَ تَرَىٰ شيئاً، ورُؤوسَها حَجَرِيَّةٌ لَيْسَ فيها مراكز إبصار.

وتحمِلُ عباراتُ الإقناع هذه تَسْفِيهاً ضمنِيًّا لعُقُول المشركين، ولقُوَىٰ الفَهْم لديْهم.

والمعنى: إنّ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ وتسْألُونَهُمْ من دون اللَّهِ مِنْ شركائكُمْ،

الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُ الأوثانَ رُمُوزاً لهم، لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكم، إذَا دَعَوْتُمُوهم لِنَصْرِكُم، ولا يَسْتَطِيعُون نصْرَ أَنْفُسِهِم، إذا أراد أَحَدٌ تحطيم رُموزِهِمْ، وأرادوا هُمُ الدّفاع عنها، لأنّ الله عزّ وجلَّ قد جعلهم بقانونِه الْجَبْرِيِّ عاجِزِينَ، أو بسُلْطَانِهِ العظيم مَمْنُوعين من أن يَكُونَ لهم سلطانٌ ماديٌّ مؤثر، يستطيعون به نُصْرَة عابديهم، أو نُصْرَة رُموزهم، إذا كانت لهم رَغْبَةٌ في ذلك.

وهؤلاء الشركاء الذين تَدْعُونهم وتَسْأَلُونهم من دون الله، إنْ تَدْعُوهم يَا مَنْ تَعْبُدونهم، للقِيَامِ بعَملٍ فيه هُدًى وخيرٌ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم، لأَنَّهُمْ فاقدُونَ لحاسَّة العين الناقِلة للرُّؤيَة. وفاقِدُون لمركز الإِدْرَاك الْبَصَرِيِّ في رُؤوسهم الحجريَّة.

والمعنيُّ بالشركاء هُنا الأوثان والأصنام والتماثيلُ، لأَنّها هيَ الّتي يتشبَّثُ بها السَّوادُ الأعظم من عامَّةِ المشركين، ناسِينَ أَنَّها كَانَتْ في بدْءِ اتّخاذها رُمُوزَ من يَعْبُدُونَهُمْ من أرواح الموتى، أو الجنّ، أَوْ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ من الملائكة.

وجاء الخطاب بأسلوب الخطاب الإفراديّ لكلّ مُشْرِكٍ، بَعْدَ أَنْ كان الخطاب لعموم المشركين، في عبارة:

﴿... وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

لتَحْمِيل كلّ فَرْدٍ مَسْؤُولِيَّة إدْراكِ الحقيقَة على وجْهِ الخُصوص، فالخطابُ العَامُّ قَدْ يتجاهلُه بعْضُ الأفراد الدّاخِلِين في العموم، فيَتَعَلَّلُ بأنَّه لَمْ يَتَنَبَّهْ له.

وقد كان صانِعُو التماثيلِ يصْنَعُونَ لها عُيُوناً تُشْبِهُ عُيُونَ الكائنَاتِ الحيَّة، وكان الناظر إليها من قُرْبٍ يَشْعُرُ بأَنَّها تنظُرُ إليه، لكنَّهُ مظْهَرٌ لا حقيقة له، ولا حياة فيه، ولا يَمْلِكُ صفاتِ إبْصارٍ تَنْقُل صُورَ المرئياتِ إلىٰ

جهازٍ مُدْرِكٍ داخلَ الأوثان، فَهُمْ لا يُبْصِرونَ بهٰذِهِ العيون الّتي تراها تَنْظُر إلَيْك.

وقد صار هذا الفنُّ في عُصُورنا أكْثَرَ دِقَّةً ومُحَاكَاةً للحقيقة الحيَّة في صناعَةِ الأوثان، ومع ذلِكَ فَلاَ يَسْتَطِيعُ صانِعُو التماثِيل والصُّور أن يَجْعَلُوا فيها أدْنَىٰ دَرَجاتِ الحياة في سلَّمِ الأحياء.

وقد نَزَّلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ في التَّعْبير الأَوْثَانَ الّتي لا حياة لَهَا ولا عِلْمَ ولا إدْراك، مَنْزِلَةَ الأحْيَاء الْعُقَلاء، مُرَاعَاةً ومُحَاكَاةً لمفْهُومَاتِ المشركين الباطلات، ليُثْبِت لهم بالدَّليلِ البرهانيِّ أنَّها لا تَسْتَحِقُّ مَا يُطْلِقُونه عليها من تَعْبِيرات. وبَعْد إثْبَاتِ أنَّها جامِدَةٌ لاَ حَيَاةَ لها ولا عِلْمَ ولا إحْسَاسَاتِ، يَظْهَرُ تِلْقَائِيًا فَسَادُ دُعَائها كَدُعَاءِ الأحياء العقلاء العلماء ذوي الإحْسَاس.

وبهذه الإقناعاتِ يَنْهارُ شِرْكُ المشركين، إذ يظهر أنّه غير ذي أَسَاسِ تقبلُهُ العقول السَّليمة، ويَنْكَشِف أن المشركين سفهاء لا عقولَ لَهُم، وأنَّهم يتخبَّطُونَ في أوْحَالِ الْجَهْلِ والْعَمَىٰ.

* * *

(١٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني عشر من دُروس السورة وهو الآيات من (١٩٩ ـ ٢٠٦) آخر السورة

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا

يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا
قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ
تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾:

القراءات:

(٢٠١) ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، والكِسَائِي، ويَعْقُوبُ [**طَيْفٌ**].

وقرأ باقي القرّاء العشرة [**طَائِفٌ**].

[**طَيْفٌ**]: الطَّيْفُ: التَّخَيُّلاَت والرُّؤىٰ النفسيَّة.

[**طَائِفٌ**]: الطائف: هو الذي يحْمِلُ الوساوس، والدسائس، والتسويلات، فيَطُوفُ ويَقْذِفُ بها على فريسَته.

فبين القراءتَيْن تكامُلٌ فكريٌّ.

(٢٠٢) ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [**يُمِدُّونَهُمْ**] من فعل «أَمَدَّهُ يُمِدُّه».

وقر باقي القرّاء العشرة: [**يَمُدُّونَهُمْ**] من فعل «مَدَّهُ يَمُدُّهُ».

أي: أعطاه مَدَداً، وزاده فيما هو فيه، وأعانه في شأنه، ويكونُ في المادّيات وفي المعنويّات.

فالقراءتان متكافئَتَّان لغة: يقال: «مَدَّهُ، وَأَمَدَّه».

(٢٠٣) ● قرأ رُوَيْس: [**لَمْ تَأْتِهُمْ**] بضَمّ هاء الضمير.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**لَمْ تَأْتِهِمْ**] بِكَسْرِ هاء الضمير.

وهما لُغتان عَرَبيّتان.

(٢٠٤) ● قرأ أَبُو جَعْفر: [**قُرِيَ**] بياءٍ مَفْتُوحَةٍ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [قُرِىءَ]: بهَمْزَةٍ مَفْتُوحَةٍ.

والقراءتان وجْهَانِ عَرَبِيَّانِ لنُطْقِ الكلمة.

تمهيد:

يشتمل هذا الدَّرسُ على تربيةٍ من الله عزَّ وجلّ للرَّسُول محمّد ﷺ، ولكلّ داعٍ إلى دين الله من أمّتِه، وإلى كُلّ آمِرٍ بالمعروفِ ونَاهٍ عن المنكر، في مجالِ قيامِهم بوظائف الدَّعْوة إلى الله، والوعظ والإرشاد، والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، مع توجيه لهم ولسائر المؤمنين بشأن القرآن وذكْر الله، والخضوع الكامل له.

وجاء الخطابُ التوجيهيُّ في هذا الدَّرْس بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ، لإشعار كلّ واحدٍ من المخاطَبِين به بمَسْؤوليّتِه الفرديّة تُجَاه هذا التوجيه التّعْليمي.

والتوجيه التعليميّ في هذا الدَّرْسِ اشتمل على عدَّةِ وصايا يَكْشِفُهَا البيانُ التحليليُّ لآيات هذا الدرس الأخير من دروس السورة.

وهذا الدرس متّصلٌ بالدَّرْس الحادي عشر السَّابق، الذي جاء فيه تعليم الرَّسُول والدعاة إلى الله من أُمّته، مناظرةً جدَلِيَّةً يُنَاظِرُونَ بها المشركين، لإقناعهم بأنّ ما هم فيه من شركٍ ظاهر البُطلان بداهة، وبأنّ توحيد الله في رُبوبيّته وإلَهيتِه هو الحقُّ الذي يجبُ على كلّ ذي فكر ورأي سليم أن يؤمن به ويَعْمَل بمقتضاه.

وبما أنَّ مجادلاتِ ومناظراتِ المبْطِلينَ، لاَ بُدَّ أَنْ تَحْمِلَ أنْصَارَ الباطل المستمسكين به اعتقاداً وعملاً، على أن يُسيئوا لدعاة الحقّ، كان من الحكمة التربويّة الرَّبّانيّة، أن يُتْبع الله عزّ وجلّ التعليم الجدليَّ بوصايا للمناظرين المؤمنين، تجعَلُهُمْ دواماً في المقام الأسْمَىٰ خُلُقاً وحِكْمَةً وصَبْراً،

وبُعْداً عن مقابلة السّيّئةِ بمثلِها، لأنّ هَدَفَهُمْ إنقاذُ الْمُبْطِلين ممّا هُمْ فِيه من أَوْحالٍ ذاتِ عَواقِب وخيمَةٍ، كشأن الأطباء الناصحين، الحريصين على شفاءِ المرضَىٰ، وإنْ نَالَهُمْ منهم أذًى أو ضرّ، ولأنّ هَدَفهم الأسْمَىٰ مرضاةُ رَبّ العالمين، لا الانتصار الشخصيُّ على الْخَصْم في الحوار الجدليّ الإقناعي.

والدرسان (١١) و(١٢) متصلان بالآيَتَيْنِ (٢) و(٣) في صدر السورة.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

اشتملت هذه الآيَة على ثلاث وَصَايَا للداعي إلى الله، والناصح المرشد، والآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، وهي على إيجازها البديع تحكي قصة معاناة الداعي إلى الله، المناظِر بالمنطق العقليّ، والحجج البرهانية العلميّة، ما يَلقاهُ من تصلّبٍ على الباطل، وسَفاهة وجهلٍ وعِنادٍ واستكبارٍ، وسِبَابٍ وشتائم، واتهاماتٍ بالباطل، وسخرية واستهزاء، وغير ذلك من ألوان غَمْزٍ وهمزٍ ولمزٍ وإيذاء:

الوصية الأولى: أَخْذُ الْعَفو.

الوصية الثانية: الأمر بالْعُرْف.

الوصية الثالثة: الإعراض عن الجاهلين.

وفيما يلي شرح هذه الوصايا الثلاث:

(١) شرح الوصية الأولى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾:

تقول هذه الوصيَّة بمضَامينهَا الفكريَّة للدّاعي إلى سبيل رَبّه، أيّها الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالّتي هي أحْسَنُ، أيُّها

الناصح المرشد، أيُّها الآمِرُ بالمعروف الناهي عن المنكر. إنك سَتُواجِهُ مِمَّنْ تُوجِّهُ لهم بيانَك وتوجيهكَ أذىً وعداءً وكَيْداً وضُرّاً، وستواجه سباباً وشتائم، وألْوانَ هَمْزٍ ولَمْزٍ وهُزْءٍ وسُخْرِية.

وإنّك أمَامَ هذه المواقف الصعبة بين خيارين:

- فإمَّا أَنْ تُواجِهَ من تُعَالِجُهُمْ بِمِثْلِ أعمالهم، فَتَخْرُجَ عَنْ منهج دَعْوَتِك، وَتُقِيمَ بيْنَك وبَيْنَهم عَقبات الْخُصُوماتِ، فالعداواتِ، وهي عقبَاتٌ كأَدَاءُ تُقِيمها في طريق دعوتِك، فتمنَعُكَ مِنْ مُتَابعَةِ الْمَسِير.

- وإمّا أن تَعْفُو عمَّنْ يُسِيءُ إليكَ، وتتغاضَىٰ عنه، وتُبْقِي جُسُورَ الصِّلَةِ بَيْنَك وبيْنَ من تَسْعَىٰ لهدايتهم ونصحهم وإرشادِهم وموعِظَتِهم قائمة. وبسَبَب إبقاء هذه الْجُسُورِ تَسْتطيع مُتابعَةَ مَسِيرَتِك، لتَغْنَمَ الثوابَ عنْدَ الله، وعسَىٰ أن تظْفَر بمَنْ يستجيبُ لَكَ ويَهْتَدِي.

وقد جاء التوجيه الرَّبّاني لوُجُوبِ سُلُوك سَبِيلِ الْعَفْو والإغضاءِ عن إسَاءات المسيئين.

والبدِيعُ في عبارة التوجيه القرآنيّة، أنها جاءت بأسْلُوب المطالَبة بأَخْذِ الْعفْو: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دون عبارة: فاعْفُ، أو فالْزَم العفو، أو فالْزَم سبيل العفو، أو نحو ذلك من عبارات.

إنّ جملَةَ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تُشعِرُ بأنّ الْعفْوَ شيءٌ ثَمِينٌ يُؤخَذُ، ويُغْتَنَمُ، ويُظْفَرُ به، ومَرْتَبَةٌ نفيسة يَحْرِصُ على الارتقاء إليها أهل البصيرة الإيمانيَّة.

ولدىٰ التحليل يُلاحظُ المتدبّر أنَّ الْعَفْوَ لَهُ حلاوةٌ في الْقُلُوب والنُّفُوسِ، فَمَنْ عَفَا ذَاقَ حلاوةَ الْعفْو، والأشياءُ ذوات الحَلاوَات في المادّيَّات تؤْخَذُ، وتُسْتَعْمَلُ في الوجُوه الّتي تُعْطِي حَلاواتها.

ولمَّا كانَ مُجرَّدُ أخذِ الْعَفو يُسَبِّبُ في نَفْسِ المؤمنِ وقَلْبِه مشَاعِرَ

الحلاَوة الإيمانيَّة، قال الله عزّ وجلّ لحامل الرّسالَةِ الدّينيَّة: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

ويُلاحظُ المتدبّر أيْضاً أنَّ الْعَفْوَ يُثِيبُ اللَّهُ علَيْهِ ثواباً عظيماً جَلِيلاً، ويَعْلَمُ أنّ المؤمِنَ شَدِيدُ الحرْصِ على الظفر بهذا الأجْرِ العظيم. ولمَّا كانَ الحصُولُ على هذا الأجْرِ العظيم الَّذِي يأخُذُهُ المؤمِنُ عنْدَ رَبّه، إنَّما يأْخُذُهُ بسَبَب الْعفْو، كانَ مِنْ فَنِّيَّةِ الأداء البيانيّ الْبَدِيع، والأَدَب الرَّفيع، إسْنَادُ الأَخْذِ إلىٰ السَّبَب الَّذي يُؤخَذُ بِهِ الأجْرُ العظيم عند الله.

وجُملَةُ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تَدُلُّ بلازِمِها الذّهْنِيّ على النَّهْي عن أَخْذِ التَّشفّي، أي: ولا تأْخُذِ التَّشَفِّيَ لِنَفسِكَ بالانْتِقَام، وبمقابلة السَّيِّئَةِ بمِثْلها، ومُعَاقَبَةِ المسِيىء من الذين تُعَالِجُهُمْ بما يسْتحقُّ من عقاب. فحلاوةُ العفْو ولذَّتُهُ، مع ثواب الله العظيم. خَيْرٌ لَكَ مِنْ لَذَّةِ التَّشَفِّي العابرة، الَّتي قد لا تظفَرُ بها، وقَدْ تَجْلُبُ لكَ شرًّا كبيراً، مع ما تُقِيمُ من عقباتٍ وجُدُرٍ في سَبيلِ قيامِكَ بأداء رسالَتِكَ الَّتِي تَحْمِلُها للإصلاح، ومَعَ ما تُدَمِّرُ من جُسُورِ بَيْنَكَ وبَيْنَ من تُعالِجُهُمْ بالدَّعوة، أو بالنُّصْح والإرْشاد، أو بالأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنّ الْعَفْوَ عن إسَاءَاتِ المعَالَجِينَ وإيذَاءاتهم يُعَبِّدُ للمعالِج حامل الرسالة السُّبُلَ الوَعْرَة، الَّتي ينبغي أن يسلُكها لدىٰ تأديَةِ رسالته، ابتغاءَ مَرْضاة ربّه، فهذا أمْرٌ يُرْضي اللَّه عزّ وجلّ، لأنَّهُ أكْثَرُ تأثيراً في هدايَةِ النـاس، واسْتجابَتِهِمْ لما يُحْييهم، بما يَمْلِكُ من قلوبِهم ونُفُوسِهم وعواطِفهم، وبما يُمَهِّدُ الطريق إلى استجابتهم، فَيُثِيبُ اللَّهُ علَيْه ثَوَاباً عظيماً.

(٢) شَرْح الوصيَّةِ الثانية: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾:

أي: ولْيَكُنْ هَمُّكَ أَنْ تَأْمُرَ النَّاسَ بالْعُرْف. والعُرْفُ في هذه المرحلة المكيَّة الَّتي نزلَتْ فيها سورة (الأعراف) هو مَا يُسمّيهِ الْعَرَبُ عُرْفاً، وهُوَ الْبَذْلُ والْعطَاء والمساعَدَة لذَوي الحاجات والضرورات.

إنّ هذا التوجيه للأَمْرِ بالْعُرْف، يَدُلُّ علىٰ أنَّ الدَّاعي إلَىٰ دين الله، إذا اهْتَمَّ في دَعْوَتِه إلى سَبِيل رَبِّه بقضايا ذَوِي الحاجاتِ من الفقراء والمسَاكين والضعفاء، فدافَعَ عنهم، وأَمَرَ باصطناع المعروف معهم، وحثّ على العطْفِ عليهم ومُسَاعَدَتهم، اسْتَمَالَ إلى دَعْوَتِه قُلُوبَ ونُفُوسَ الكَثْرَةِ الكاثِرَةِ مِنْ جماهير الشَّعْب، إذ الكَثْرَةُ الكاثرَةُ من الناسِ في كُلِّ عصْرٍ وفي كلِّ أُمَّةٍ هُمْ ذَوُو الحاجاتِ والضُّعفاء.

والدَّعْوَة إلى صُنْعِ الْعُرْف معهم تستَعطفُهُمْ إلى الدّاعي، وتَجْعلُهم يلْتَفُّونَ حوله، وبذلك تتوجَّهُ أفكارُهم بقُوَّةٍ لقاعِدَةِ الإيمان الّتي يَدْعُوهُمْ إليها، فيَسْتَقْبلُونها ويتَقَبَّلُونها، ويَسْتَجيبُونَ لَهَا.

ويَدُلُّ هذا التوجيهُ الوارد عَقِبَ الْوَصِيَّة بأَخْذِ الْعَفْو، علَىٰ التوجيه الإلماحيّ لقطْعِ لسانِ من يُسيء لحامل الرّسَالة، بأنْ يأمُرَ أصحابه وإخوانه وأنْصَاره، وسائر من يمكن أن يسْتجيبَ له بأنْ يضْنَعُوا العُرْفَ مع المسِيء، ومع ذوي الحاجات من جماعَتِه وعصبَتِه وعَشِيرَته.

فإذا رأىٰ الْمُسِيء أنّ حَامِلِ الرّسالَة الّذِي أسَاءَ هُو إلَيْهِ قَدْ أَمَرَ أصْحَابَهُ بأنْ يُقَدِّمُوا له ولِعَشِيرَتِهِ الْعُرْفَ، بَعْدَ أَنْ ثَارَت فيهم الحميَّة، وهمُّوا بأن يُنَكِّلُوا به، ويَنْتَصِرُوا لِقَائِدِهم ورائدهم والدَّاعِي إلى سبيل رَبّه بالحكمة والموعظةِ الحسنة، والجدال بالّتي هي أَحْسَنُ، فلاَ بُدَّ أنْ يَتَصَاغَرَ في نَفْسِه، ويتَرَاجَعَ عن مَوْقِفه، ويُحَاوِل التكفير عن إساءاته.

وتروي لنا قِصَص شمائل الرَّسُولِ ﷺ شيئاً كثيراً، ممَّا يتضَمَّنُ تَطْبِيقَ هٰذا التوجيه الرَّبانيّ.

إنّ هذه الجملة: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ على اقتضابِهَا تحكِي قصَّةَ الأسْلُوب الأنجع لحامل الرسالة لدَىٰ تأديَتِه رسالةَ ربّه، إذْ يَجْذِبُ به الجمهورَ الأوسَع للإيمان بما يَدْعُو الناس إليه، والعمل بمَا ينصحهم به، أو يُرْشدهم إليه.

يُدْرِكُ هٰذا أهْلُ التّدَبُّر من أهل المعْرِفة بطبائع الناس، وواقع أحوال الشعوب، وبأساليب استعطاف واستمالَةِ الجمهور الأعظم منهم.

(٣) شرح الوصيّة الثالثة: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾:

أي: وقابل الّذين يتمادَوْنَ في الجهالة عليكَ بعْدَ الْعَفْو عن إساءاتهم وأذاهم، وبَعْد أمْركَ بصُنْع الْعُرف لهم، بالإعراضِ فقط، وهو إعطاءُ عارِضِكَ لهم.

العارض: جانبُ الْوَجْهِ والجسم.

ونفهم من هذا أنّه من غَيْرِ المستَحْسَنِ إدَارَةُ الظهر لهم، والتولّي عنهم، بل المطلوبُ الاكتفاءُ بمجرّد الإعراض عنهم إذَا تطاولُوا وتمادَوا في السفاهة، وتصرّفَاتِ الحمقىٰ الجاهلين.

الإعْراض: منزلة وسَطَىٰ بين المواجَهَةِ والإدْبَار.

والمراد بالجاهلين هنا، هُم الّذين يتسافَهُونَ على الفضلاء، فيخاطبونَهُمْ بالأقوال النابية القبيحة، أو بالشتائم والسِّباب، ويؤذونهم بالتحقير والسُّخْرِية، والهمز واللّمز، وهذا ما عنَاهُ الشاعر العربيُّ بقوله:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

* * *

أفلا تلخّص هذه الآية الموجزة بفقراتها الثلاث فُصُولاً ثلاثة، من كتاب «فقه الدّعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وتحدّد سياسةَ حاملِ الرسالة فيمن يُؤدّي رسالته إليهم.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾:

إنّ ظاهر هذا النصّ قد يوهم أنّه اشتمل على جُمَلٍ اقتصَرَتْ على التوجيه المباشر لثلاث وصَايا، وأنّها لا تحتِوي صُوَراً أدبيّة.

لكِنَّ المتدبّر الحصيفَ يَعْلَمُ أَنَّ هٰذِهِ الْجُمَلَ المقتضبة الحاملة لهٰذِه الوصايا، إنما هي جُمَلٌ ملْتَقطَةٌ من ثلاثة فُصولٍ من كتاب كبير، وهي تَدُلُّ بلوازمها الفكريّة على كلّ عناصِرِ فُصُولها.

وهذا لونٌ من ألوان الأدب الرّفيع الّذي يُدْركه كِبَارُ البلغاء ويعتمدون عَلَيْه في بياناتهم.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

تمهيد:

بَعْدَ الوصايا الثلاث التي وجَّهها الله لحامل الرّسالة في الآية السابقة، جاءت هٰذِه الآيَةُ لمعالجة نَفْسِه، إذَا تَحرَّكَتْ فيها الدَّوافِعُ للتَّشَفّي مِمَّنْ أَسَاءَ إليه.

فأبانَ اللّٰهُ له أنَّ ذلِكَ مِنْ نَزْغِ الشيطان، أي: من تَحْريكِهِ وتَحْريضِهِ وإثَارَتِهِ للغضب، ودفعه إلى فِعْلٍ لا يَلِيقُ بِمْثلِهِ انتقاماً لِنَفْسِه.

وعَلَّمَهُ الله جل جلالُهُ الدَّواءَ الذي يَصْرِف اللّٰهُ بِه عَنْهُ هذا النَّزغ الشيطانيّ.

هذا الدواء هو أن يسْتَعيذَ بالله منْهُ، فإذا فَعَلَ ذَلِكَ سَمِعَ الله استعاذَتَهُ الصَّادِقَة، الصادرة من عُمْق فؤاده، وهُوَ تبارك وتَعَالى يَعْلَمُ ما حَدَثَ في نَفْسِه مِنْ انْفِعَالٍ يكادُ يَسْتَخِفُّهُ للانتقام، فيستجيب له، فيَصْرِفُ عنْهُ نَزْغَ الشَّيْطان، فيَعُودُ إلى حالة الْهُدُوء والسكينَةِ والطُّمأْنينة.

التدبر:

- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾:

هٰذه العبَارَة معطوفة على جُمَل الوصايا في آية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

ولفظ **[إمَّا]** مُرَكَّبٌ مِنْ «إِنْ» الشَّرْطيّة، و«ما» الَّتي قَدْ تُضَافُ لتأكيد معنى الشَّرْطِ وَتَعْضِيدِه، مع ما فيها من تزيين للفظ، إذا كانَ ما بَعْدَ «إِنْ» الشرطيَّةِ يَلِينُ النُّطْقُ بِهِ لَدَىٰ إضافَة حَرْفِ «ما».

النَّزْغُ: في الحسِّيَّاتِ هو النَّخسُ، والْغَرْزُ بإِبْرَةٍ أو نحوها، للإثارةِ والدفعِ لأمْرِ ما، ويُسْتَعْملُ في المعنويات للدَّلالة على ما يشبه ذَلِك، من وساوس مثيرةٍ للْغَضَب، ومهيِّجَةٍ للانتقام.

ونزغ الشيطان، وساوِسُهُ وتَسْوِيلاتُه وتزييناته التي يحْمِلُ بها الإنسانَ على المعاصي.

ويقال: نزغ فُلانٌ بين القوم، أي: أفْسَدَ بَيْنهم وحَمَلَ بعْضَهم ضِدَّ بعض، ويُطْلَقُ النَّزْغُ على الكلام الَّذي يُقْصَدُ بِه الإغراء والإفْسَادُ بيْنَ الناس.

وجاء في الآية فِعْلُ: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ مؤكَداً بنُونِ التوكيد الثقيلة، للدَّلالَةِ على أنّ النَّزْغ قَدْ بَلغَ مبْلَغَ حُدُوثِ بداياتِ الغضب وتَحرُّكِ ثَوْرَتِه.

- ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾: أي: فادْعُ الله أنْ يُعِيذَكَ من نَزْغ الشيطان، ويصْرِفَهُ عنك، ويَحْمِيَك ويحفظَكَ من وساوسه وتسويلاته.

الاستعاذة بالله: هي اللُّجوءُ إِلَيْهِ بالدُّعَاء في طلَب الحماية والحفظ، وصَرْفِ الشرّ والضُّرّ والأذَىٰ.

الْعَوذُ في اللّغة: اللُّجوءُ والاعْتِصَام، يُقالُ لغةً: عاذَ به يعُوذُ عَوْذا وعِياذاً، أي: الْتَجأَ إليه، واعْتَصَمَ به، ليَحفَظَهُ ويَحْمِيه.

والاستعاذَةُ: هي طلب العوذ.

ولما كان الله - جلَّ جلالُه وعزَّ سُلْطانُه - هو الذي بيَدِه مقالِيدُ كُلِّ شيءٍ في الوجود، وهو على ما يَشَاءُ قدير، كانَ مَنْ قَام بواجباته كما أمَرَهُ الله، واستعاذَ به صادِقَ النيَّة، متضرِّعاً له، داخلاً في ملْجَإِ اللَّه، وفي دائرةِ عِصْمَته وحمايته.

● ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: إنّه ذو سَمْع عظيم يسْمَعُ به كل صَوْت، وذو عِلْمٍ شاملٍ واسِعٍ يَعْلَم به كلَّ ما يُمْكِنُ أن يُعْلَم، من الواجبات والجائزات والمستحيلات العقليّة.

وفي ذكر هٰذيْنِ الاسمَيْن هُنا من أسماء الله الحسنىٰ، إشارةٌ إلَىٰ مَطْلُوبين:

المطْلُوبُ الأوَّل: أنْ تكون الاستعاذة بكلامٍ مصحُوبٍ بصَوْتٍ مهما كان خافتاً، ليُسْمَع.

المطلوبُ الثاني: أن تكون الاستعاذة مقْرُونَةً بِنيَّةٍ صادِقَةٍ من عُمْقِ الفؤَاد، جَدِيرَةٍ بأنْ تُعْلَم بأنَّها عبادةٌ لِلَّهِ في سُلوكٍ قَلْبيّ.

وبتحقُّق هٰذين المطلوبَيْن يَسْتَجيبُ اللَّهُ جلَّ جلالُه دعاء مَنِ استعاذ به، فيَصْرِفُ عنه نزَغَاتِ الشيطان.

فما يَدْخل في دائرة الأصوات مشمولٌ بصفة السَّمْع، وما تنويه القلوبُ مشْمُولٌ بصفَةِ العلم، مع علم الله سبحانه بكلّ شيء.

وفي ذكر هٰذين الاسمين أيضاً من أسماء الله الحسنىٰ، دلالَةٌ علىٰ أنّ الله - جلّ جلالُه - يجيبُ المستعيذ به من نزغ الشيطان، إذا دعاه محققّاً المطلوبيْن السَّابقين، فيُعِيذُه، ويَصْرِفُ عَنْه مَا يَجِدُ في نَفْسِه من ذلِكَ، وما يَجِدُ في نفسِه من أثَرِه.

ثم جاء تأكيدٌ لمضمُونِ هٰذِه الآيَةِ، في الثُّلُث الثالث من المرحلة المكيّة، مُوَجَّهٌ للدُّعاةِ، فأنزل اللّٰهُ عزَّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) قولَه بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

صُدّرَ هٰذا التعليمُ الرَّبّاني الموجَّهُ للدُّعَاةِ إلى اللّٰهِ باستفهام تَرْغِيبيّ، يتضمَّن الحثّ علىٰ القيام بوظيفة الدَّعْوَةِ إلَىٰ اللّٰهِ بالحكمة والموعظَةِ الحسنة، والمقترنة بشرطَيْن:

الشرط الأول: أن يكونَ الداعي إلى اللّٰهِ قُدْوةً للنَّاسِ بعمله الصالح، وقد دَلّ عليه قول الله تعالى في النصّ: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أمّا من كان عمله مخالفاً لأقواله فلا تأثير له.

الشرط الثاني: أنْ يُعْلِنَ الدَّاعي إلى الله أنَّهُ فَرْدٌ من أفراد المسلمين، فهو مسْؤولٌ تُجاهَ رَبِّه كسائر المسلمين، ومُطالَبٌ بأنْ يَعْمَلَ بكلّ ما أَمَرَ الله به المسلمين أن يَعْمَلُوا به، وبأن يجتنبَ كلَ ما أمر الله المسلِمينَ بأن يجتَنبُوه، وبأنْ يَنْتَهِيَ عَنْ كلِّ ما نَهَىٰ اللّٰهُ المسلِمين عن أَنْ يفعَلُوه، وبأنَّهُ تُطَبَّقُ علَيْه جَمِيع الشرائع والأحكام الّتي شرَعَ الله أن تُطَبَّقَ على سائر المسلمين، فلا استثناء له بشيء، ولاَ إعفاءَ لَهُ عَنْ شيءٍ، وقد دَلَّ على هذا الشرط، قول اللّٰهِ تعالى في النصّ: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

أمّا قادة المذاهب البشرية فهم في الغالب كذابون لا يلتزمون بما يدعون الناس إليه.

ودَلَّ قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟؟! على أنّه لاَ يُوجَدُ قائل من الناس يقولُ قولاً في غَيْرِ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ هُوَ أحْسَنُ مِنْ قَوْلِ من دعَا إلى الله، وهذا لا يَمْنَعُ من تفاضُل أقوالِ الدُّعاة إلىٰ الله في الحسْنِ، فبعضُ أقوالهم أحْسَنُ من بَعْض.

ومن هذا نفهم أنّ الدَّعْوَة إلى الله الّتي تكون بوسيلَة البيان الكلامي هي أحْسَنُ القول، لأنَّ مضمونَهُ أحْسَنُ المعاني الّتي يُعَبرُ عنها بالبيان الكلامي.

- ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾:

أي: ولا تَسْتَوِي مفردات جنْسِ الحسنة، لأنّ هذه المفردات ذَواتُ نِسَبٍ مختَلِفَاتٍ في الحسْن، ودرجاتٍ مُتَفاضلات، فمنها ما هو ذو دَرَجَةِ دُنيا في الْحُسْن، ومنْها ما هو ذو درجَةٍ عُلْيَا في الْحُسْن، وبينهما درجات كثيرات لاَ تكاد تُحصَىٰ، وكلّ ذي حُسْنٍ يحْتَلُّ دَرَجَةً من هذه الدّرجات.

ولاَ تَسْتَوي أيضاً مفردات جنْسِ السَّيِّئَة، لأنَّ هذه المفردات ذواتُ نِسَبٍ مختلفاتٍ في السّوء، وذوات دَرَكَاتٍ متفاوتات متنازِلات، فمنها ما هو ذو دَرَكةٍ أُولَىٰ، ومنها ما هو ذو دَرَكة سُفْلَىٰ، وبينهما دَرَكات كثيرات لا تكاد تُحْصَىٰ، وكلّ ذِي سُوءٍ يحْتَلُّ دَرَكة مِنْ هذه الدّركات.

ويُشْعِرُ الاقترانُ في البيان بين الآية الأولى والآية الثانية من هذا النّصّ، بأنّ الّذين يرْفضون دعوة الداعي إلى الله، سيقابلون دعوتَهُ بالرَّفض، ثُمَّ بما يَكْرَهُ في أحيانٍ كثيرة، على تفاوتٍ في دركاتٍ ما يَسُوؤُه منهم.

والمطلوب من الداعي إلى الله في كلّ الأحوال، أنْ يدفَعَ بالْخَصْلَة الّتي هي أحْسَنُ ممَّا سَاءَهُ من رافض دعْوَته.

فإذَا جادَلَهُ المدْعُوُّ بالْبَاطل والْعُنف، دفَعَ الدّاعي إلى اللَّهِ بالمجادلة بالحقّ وبالرّفق، ما اسْتَطَاع إلى ذلك سبيلاً.

وإذا قابله المدعوُّ بالسِّباب والشتائم والاتِّهمات الباطلات، دفع الداعي إلى الله بالّتي هي أحْسَنُ، وهي الإعراض عن شتائمه، والاكتفاء بنَفْي الاتّهامات الباطلات، أسْوَةً بما فَعَلَ الرُّسُل عليهم السَّلام.

● ﴿. . . فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: إنّ دفع المواقف السّيّئة من ذي العداوة، بالمعاملة الّتي هي أَحْسَنُ خُلُقاً وسلوكاً، تجعلُه يتراجَعُ عن مواقفه السيّئة شيئاً فشيئاً، إذْ تَبْرُدُ حرارة هجومه، ولا يَزَالُ يَتراجع باتّخاذ مواقف ليِّنةٍ رفيقَةٍ حسنة، ليغطّي موقفه السابق، الذي جعَلَهُ مُداناً في نظر الناس بقُبْح التصرُّف، وبالْعُدْوانيّة الّتي لا مُسوّغ لها، ولا داعِيَ لاتّخاذها.

ولا يزال يتراجَعُ حتّىٰ يتظاهَرَ بالتَّوَدُّدِ، فَيَبْدُو كأنَّهُ وليٌّ حَمِيمٌ، أي: كأنَّهُ مُناصر ذُو وَلاءٍ، وصَدِيقٌ ذو وُدٍّ حقيقيّ.

ودَلّ التشْبيهُ بعبارة ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ على أنّه قد يتصَنَّعُ هذه الظواهر الودِّيّة مُدَاهَنَةً ورِيَاءً، ليَغطّي مَا سَبَقَ مِنه من مواقف سيّئَةٍ لاَ مُسَوِّغ لها.

غيرَ أنَّهُ رُبّما تحوَّلَ بعد ذلِك إلى ذي وَلاءٍ ووُدٍّ صادقَين، كما حصَل لكثيرين من الّذين كانُوا أعداءَ للرسول ﷺ ولدعْوَته، إذْ تَحوَّلُوا إلى الملاينَةِ والمداهَنَةِ أوّلاً، ثمّ تحوَّلُوا بَعْدَ ذلِكَ إلى أتْباع ذوي ولاَءٍ صادقٍ، وحُبٍّ شديدٍ له ولِدَعْوَته، ثُمَّ قَدَّمُوا حَيَواتهم وأموالَهُمْ فداءً له، وللدِّين الذي جاءهم به، والسِّيرَةُ النبويَّةُ فيها أمثلةٌ مُتَعَدِّدَةٌ من هذا.

● ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾:

دلّت هذه الآيَة على أنّ مُقابلَةَ السَّيِّئَةِ بالّتي هي أَحْسَنُ خُلُقاً وسلُوكاً، من الأمور الصعْبَةِ على النفوس، الّتي تتطَلَّبُ من حَامِلِ الرِّسالَة في دعوته ونُصْحِه واتّخاذِه وسائِلَ الإصْلاَحِ والتقويم، صَبْراً عظيماً، وحظّاً وافراً من فضائل الأخلاق.

واقترنت هذه الدّلالة بثناء عظيم من الله جلّ جلالُه على من يتحلّىٰ بهذه الصفة الرفيعة.

أي: وما يُلَقَّىٰ هذه الخصْلَة الْحَمِيدَةَ والسُّلُوك السَّامي، إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا، أي: إلاّ الّذين صَبَرُوا على الأذىٰ، ولا يَصْبرُ عَلَىٰ الأذىٰ إلاّ مَنْ تَدَرَّبَ عليه، حتَّىٰ صارَتْ لَدَيْهِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ الصَّبْرِ، وصار الصَّبْرُ على الأذىٰ في سبيل قيامِهِ بوظائف رِسالَتِهِ خُلُقاً مُكْتَسباً له، إنْ لَمْ يَكُنْ من أصْلِ فِطْرَته وجِبِلَّته.

إنّ الَّذِين لديْهم خلُقُ الصَّبْرِ على الأذىٰ يَتَحمَّلُونَ صَدَمَاتِ الأذيات، ويمتَصُّونها، من الّذين يَحْرِصُونَ بِدَعْوَتِهِم لهم علىٰ نجاتِهم من عذاب الله، ويَحْرِصُونَ على أنْ يَفُوزُوا معهم بجنَّاتِ النَّعِيم فَوْزاً عظيماً، ويَزيدُونَ على فضيلة الصَّبْرِ فَيَدْفَعُونَ بالْخَصْلَة الَّتي هي أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ الَّتِي آلَمَتْهُمْ.

ومَا يُلَقَّىٰ هٰذه الخصْلَةَ الحميدةَ الجليلَة إلاَّ ذُو حظٍّ عظيم من فضائل الأخْلاَقِ، ومَحَاسِنِ الشِّيم، ومن البصيرة الرَّبانيَّة الهادية، وذو حظٍّ عظيم من الأجْر عنْد رَبّه.

يُقالُ لغة: لَقَّىٰ فُلاَنٌ فُلاناً الشَّيْءَ، أي: جعَلَهُ يَلْقَاهُ ويأخُذُهُ مِنْهُ، فالآخِذُ للشيْءِ يُلَقَّاهُ مِمَّنْ لَقَّاهُ إيّاه.

ولمّا كانت هٰذِهِ الْخَصْلَةُ العظيمةُ إنّما يَمْنَحُها اللَّهُ لِمَنْ آمَنَ وصَبَر ودَرَّبَ نَفْسَهُ على فضائل الأخلاق، كانَتْ فضيلَةً يُلَقَّاهَا من عطاءات اللَّهِ له، فَهُوَ يَتَلَقَّاها، ويتخلَّقُ بها، ويتصَرَّفُ في دَعْوَتِه إلى سبيل رَبّه بمقْتَضاها.

وهذا سِرُّ التعبير بقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، أي: وَمَا يُعْطَاهَا عطاءً رَبَّانِيّاً فَهُوَ يَتَلَقَّاها من عطاءات رَبّه إلاّ الَّذِي صَبَرَ، ومَا يُعطاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم من الفضائِلِ الْخُلُقِيَّة، ومن الأجْرِ العظيم عند رَبّه.

- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

هذا الدواء هو الدَّواء نَفْسُهُ الَّذِي أوصَىٰ به اللَّهُ في سورة (الأعراف) إلاَّ أنَّ هذا النَّصّ من سورة (فُصِّلَتْ) قَدْ زاد التأكيد، وإفادة الحصر، بقول الله فيه: ﴿.. إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

أمّا آية (الأعراف) فقد جاء فيها: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وبهذه الزيادة في آية (فُصِّلَت) بعد نزول (٢١) سورة من نزول سورة (الأعراف) تَنْبِيهٌ مُشَدَّدٌ على حاملِ الرّسالة، بالوصيّة له بأن يستعيذ بالله عند كلّ نزغٍ شيطاني، لأنّ اللَّهَ هو وحْدَهُ في الوجود السَّمِيعُ العليم، فلا سيمع في الوجود لكلّ شيءٍ، ولا عليم بكلّ شيءٍ إلاَّ الله تبارك وتعالى.

دلّ على الْحصْر تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْناد، والتأكيد بضمير الفصل [**هُو**]. وأداة التعريف (ال) في [**السَّمِيعُ**] و[**الْعَلِيمُ**] هي للكمال الدَّالَّة على اسْتِغْرَاقِ كلّ أفراد جنْسِ السَّمْع، وكلّ أفراد جنس العلم، وكلّ مُسْتَوَيَاتهما.

* * *

قول اللَّهِ تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾:

وَجاءَ في القراءة الأخْرَىٰ: [**طَيْفٌ مِنَ الشَّيطَانِ**]:

الطّائف: هو الّذي يَحْمِلُ الوساوس والدَّسَائسَ والتَّسْويلاتِ التزْيِنيّة، فَيَطُوفُ بها علىٰ النُّفُوس، ويَقْذِف بها في نَفْسِ فَرِيسَتِه، وهذا الحامل لا بُدَّ أن يكون شيطاناً.

والطَّيْفُ: التخيُّلاتُ والرُّؤىٰ النَّفسِيَّة الّتي قد يُهَيِّجُها الشَّيْطانُ ويَسْتثِيرُها.

فَبَيْنَ القراءتين تكامل في الدَّلاَلَةِ على المعنَىٰ المراد.

بعد توجيه حامل الرسالة في الآية السابقة (٢٠٠) بشأن قضايا نَزْغ الشَّيْطانِ، انتقل النصّ في الآية (٢٠١) إلى توجيه كلّ المؤمنين بشأن هٰذِهِ القضايا نَفْسِها، فأَبَانَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الوصْفَ الّذي يتحلَّىٰ به المتَّقون بأسْلُوب الْبَيانِ الخبريّ، لاَ بأسْلُوب التكليف، وهذا من روائع أَدَب التوجيه التكليفيّ.

أي: فالمؤمِنُونَ المتَّقُونَ لِلَّه، الحريصُونَ على حِفْظِ أنفسهم من نزغات الشياطين، إذا مَسَّهُمْ بالوسَاوِسِ والدَّسَائِسِ والتسويلات التزيينيَّةِ طَائِف من الشيطان، أو طَيْفٌ يُهَيِّجُهُ ويَسْتَثِيرُهُ الشيطان تَذَكَّرُوا، أيْ: تذكَّرُوا رَبَّهم وسُلْطَانَهُ على جَمِيع خَلْقِه، فاسْتَعَاذُوا به، فأعَاذَهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ نَزَغَاتِ الشَّيْطان الّتِي رُبّما أَلْقَتْ غِشَاوَةً مَا على بَصَائِرهم، فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ، قَدْ مُسِحَتْ عنهُمُ الْغِشَاوَةُ، الّتِي غَطَّتْ بَصَائِرَهُمْ، ببُخَارِ الغضب أو الشهوة أو الهوى، أَوْ بِدُخَانِها.

وأمَّا إخوانُ الشَّيَاطين المصاحِبُون لهم في المسالِك، والمتابِعُونَ خُطُواتهم إلى المهالك، الّذِين لا يَتَّقُونَ اللَّهَ في حَرَكاتِهِم وسَكَنَاتِهِم، ولا يَخْشَوْنَهُ في أعْمالهم ونيَّاتِهم، فهم لاَ بُدَّ أن يقَعَ كلُّ واحِدٍ مِنهم فَرِيسَةً في أنياب نزغاتِ الشياطين، فيسْتَدْرجُونَهُ في سُبُلِ الغي، ويَجُرُّونَهُ إلى أودِيَةِ الضَّلاَلِ وكبرياتِ الجرائم، حتَّىٰ يَقْذِفُوا بِهِ إلى شقائه، ويَطْرَحُوهُ يُعَانِي أنواعاً كثيرةً مِن المصائب والنَّكَبَاتِ، وتتوالَىٰ عليه الآلاَمُ النفسيَّة، والآلاَمُ الْجَسَدِيَّةُ حَتَّىٰ يكون في العاجلة من الهالكين، وفي الآخِرَة من الخاسِرين.

* * *

قولُ اللَّهِ تعالى:

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾:

وفي القراءة الأُخْرَىٰ ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ والقراءتان متكافئتان لُغَةً كما سَبَقَ بيانه في القراءات.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾: أي: وإِخْوَانُ الشَّيَاطين، والمرادُ بالأُخُوَّةِ هنا أُخُوَّةُ المصاحبَةِ والمتابعةِ في مسالِكِ الضلال والْغَيّ.

وجاء الضمير العائد على الشيطان بصيغَة ضمير الجمع، للتنْبيه على أنّ لفظ «الشيطان» اسْمُ جنْسٍ يعُمُّ كُلَّ شياطين الإنْسِ والجنّ.

فإخوان الشياطين هم الَّذِين يتَّبِعُونَهُمْ، ويُصَاحِبُونَهُمْ، ويَسْتَجِيبون لوَسَاوسِهم وتَسْوِيلاتهم وإغواءاتهم.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ و[يُمِدُّونَهُمْ]: أي: يُعْطُونَهُمْ مَدداً، ويَزِيدُونَهُمْ فيما هم فيه من ضلال بَعِيدِينَ عن صراط الحقّ والْهُدَىٰ، سالكين ماسلِكَ الْغَيّ.

﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾: أي: في الضَّلالِ، والابتعادِ عن طريق الرَّشاد، والخيبَةِ والْفَسَاد.

الْغَيّ: مصْدَرُ «غَوَىٰ يَغْوِي غَيًّا» ويُقالُ: «غَوِيَ يَغْوَىٰ غَوَايَةً» أي: ضلَّ، وخاب، وفَسَدَ، وتَرَكَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عن قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ اتباعاً للهوى، ويُقابِله: «الرّشد» وهو الالتزام بالحقّ والْهُدَىٰ والخير عن بَصِيرَة وقصْد.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾: أي: ثُمَّ لاَ يَكُفُّ الشياطينُ، ولاَ يُمْسِكُونَ عن مُتَابَعَةِ إغْوَائِهِم وإضْلالهم، حتَّىٰ إبلاغِهِم قَعْرَ شقائهم إن استطاعُوا، وقَعْرُ شقائهم هو الدَّرْكُ الأسْفَلُ من النّار يومَ الدّين.

يُقال لغةً: أقْصَرَ عن الشيء، أو الأمْرِ، أو العمل، أيْ: كَفَّ عَنْهُ، مع قُدْرَتِهِ عليه.

فالشياطين لاَ يَكُفُّونَ عن الإغراء والإغواء والإطماع بالباطل، والاستدراج والاستنزال إلى أسْفلِ سافلين.

والمراد: أنّ الشياطين مهما غَوَىٰ تابِعُهُمْ وأوْغَلَ في ضلاله، فإنّهم لا يَتْرُكُونَهُ وشأنَه يتخبَّطُ بنَفْسِه في الضلال، مهما طالَ الزّمن، بل هم لا يمْسِكُونَ ولا يكُفُّون عن إمداده في الْغَيّ، لأنَّ دَرَكَاتِ الْغَيّ ذاتُ سَحِيقٍ بَعِيدٍ، وهم يَحْرِصُونَ على أن يُوصِلُوهُ إلى أسْفَل سَافلين، ولا يكْتَفُونَ بما دُونَ ذلك من دركات.

ولهذا جاء التعبير بحَرْفِ العطف «ثُمَّ» الدَّال على تراخي المدّة، وتطاول الزّمن: [**ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ**].

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

هٰذه الآيَةُ من هذا الدَّرْسِ خاصَّةٌ بالرَّسُول محمّد ﷺ، وهي موصُولَةٌ بما جاء في صَدْرِ السُّورَة، وبالْخَطّ الّذِي يَنطَلِقُ من قول الله تعالى لرسُوله:

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

لمّا كان القرآن المجيد يَنزِلُ علىٰ رسُول الله ﷺ مُنَجماً، على وَفْقِ مقتضَيَاتِ الحكمة الرَّبَّانِيَّة، الّتي يَدْخُلُ فيها مُراعاةُ أحْوَالِ القَوْم المدْعُوِّين، وأحْوَالِ من آمَنَ واتَّبَعَ، ويَدخلُ فيها مُراعَاةُ التَّدرُّج في التعليم، والتَّربيَةِ، والمعالجة، والتشريع، كان من شأن مُرعاة مقتضيات هٰذِهِ الحكمة الرَّبَّانِيَّة، أَنْ يَنْقَطِعَ أحْيَاناً نُزُولُ آياتٍ جَدِيدَةٍ منَ القرآن مُدَّةً ما من الزَّمَن، انتظاراً للمناسبة الداعية إلى تنزيلِ نَجْمٍ جَدِيدٍ مِنْ نُجومِ القرآن، أَقَلُّهُ آيَةٌ واحِدَة.

فكانَ بعْضُ الكَفَرَةِ المشركين يتّخِذُونَ مِن تأخُّرِ نزول نَجْمٍ جَدِيدٍ

ذَرِيعةً لِيُوَجِّهُوا للرَّسُول كلاماً فيه تَشْكيكٌ في أنَّ مَا يَتْلُو عَلَيْهِم من آيات القرآن، إنَّما يَصْطَنِعُهُ ويتَكلَّفُ تأْلِيفَهُ، أو يَجْتَبِيه جَلَباً مِنْ كتُبِ الأَوَّلين، ويَنْتَقِيهِ من مَسْطُورات السَّابقين من الأُمَم، نظير ما يَفْعَلُ الْخُطَبَاءُ حِينَ يُعِدُّونَ خُطَبَهُمْ، وما يَفْعَلُ الكتَّابُ حين يُؤَلِّفُون أو يكتبون مقالاتهم، وما يفْعَلُ الشّعَراء حينَ ينْظِمُونَ قصائدهم في خَلَواتهم ثُمَّ يُنْشِدُونها على قومهم، ورُبّما انْتَحَلَ هؤلاء لأَنْفُسِهم أقوالَ غَيْرِهم، واجْتَلَبُوها من مسْطُوراتِ غَيْرِهم من الأُمم السابقة، وزعمُوا أنَّهُمْ أصْحَابُهَا.

فإذا تَأَخَّرَ بِحِكْمَةِ اللَّهِ إنْزَالُ نَجْم جَدِيد، ولو آيَةً واحدة، قال الكَفَرَةُ الْمُشرِكُونَ للرسُول، على سَبيلِ التشكيكِ في أَنَّهُ يُبَلِّغُ آيَاتِ القرآن عن رَبّه ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ كما أَخْبَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ بقوله:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ . . . ﴿٢٠٣﴾﴾:

﴿لَوْلَا﴾: هٰذه الكلمة هُنَا بمعنَىٰ «هَلاَّ» حرف تحضيض، أي: هَلاّ اجْتَبَيْتَها.

﴿ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾: فعل «اجتبىٰ الشَّيْءَ» يأتي لعدَّة معانٍ:

- اجتَبىٰ الشيء، جاءَ به من عِنْدِ نَفْسِه.
- اجتبىٰ الشيءَ، اختلَقَهُ، وافتعلَهُ، واصطَنَعَهُ تكلُّفاً، وارتَجَلَهُ ولم يكن ناقلاً له، ولا راوياً.
- اجتبىٰ الشيء، جباهُ بتكلُّف، كمَا تُجْبَىٰ البضائع والسِّلَعُ من بُلدان منشئها.
- اجتَبَىٰ الشيءَ، اصطفاه واختارهُ.

الاجتباء في اللّغة: افتِعَالٌ من الجبايَة، وهو تكلُّفُ اسْتِخْرَاجِ الأموال من مظانّها.

قال ثعْلَبُ في تفسير: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾: لولا جئت بها من عند نَفْسِك.

وقال الفرّاء: هلاّ اختلَقْتَها وافْتَعَلْتَها من قِبَلِ نَفْسِك، وهو في كلام العرب.

أقول: فالكفَرَة المشركُونَ بَدَؤُوا يقولُون على سبيل التشكيك في صِدْقِ تَبْليغ الرسول عن رَبه، مُسْتَغِلِّين حالَةَ تأخُّرِ نزول نَجْم جَديدٍ عليه، ولو آيَةً واحدة: هَلاّ اصْطَنَعْتَ آيةً من عنْدِ نَفْسِك، أو انْتَحَلْتَ آيَةً نَاقِلاً لها من مسطورات الأوّلين، أو هلاّ انْتَقَيْتَها واصْطَفَيْتَها مِنْ كُتُبِهِمْ، كما هي عادَتُكَ.

كان هذا القول التعريضيّ مُوجّهاً من المشركين للرسُول ﷺ إِبَّانَ نزول سورة (الأعراف).

ثم وجّهوا لَهُ أقوالاً صريحةَ الاتّهام بما تضمنه كلامهم التعريضيّ هذا، وكان تَوَجيهُهَا إبّان نُزُول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وفي بيان هذا قال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾.

إنّ قولهم للرسول: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ وفق المعاني الّتي سبَقَ بيانُها، يُشْبِه قول المَشَكّكِينَ في تصَرُّفَاتِ مُدِير مكْتَب الوزير، حين يتصَوَّرُون أنّه يصْنَع القرارات بغير علم سيّده، ويُوَقِّعُها عنه تزويراً، هلاّ صنَعْتَ لنَا قراراً بموضوع كذا ووقَّعْتَه، وصَدَّرْتَهُ باسم الوزير، يعْنُونَ بهذا القول أنّه يفْعَلُ مثْلَ هذا كثيراً فيما يَنْسُبُ إلى الوزير من قرارات.

وكان هذا الكلام التعريضيُّ إرْهاصاً وتوطئةً لما صَرَّحُوا به بعْدَ ذلك، إِبّان نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

ومن هنا نُدْرِكُ لِمَ قَالَ الله لرسوله في صَدْر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن القرآن:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.

إذْ من الْحَرَجِ الّذِي ضَاق به صَدْر الرَّسُولِ، اتّهامُهُ بأنّه يجتبى اختلاقاً وافتعالاً آياتِ القرآن الّتي تَنْزِلُ عَلَيْهِ نُجُوماً، دُونَ أن يَنْزِلَ عليه القرآنُ جُمْلَةً واحدة.

قول الله تعالى:

- ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ... ۝٢٠٣﴾:

في هٰذِهِ الجملة تعليم من الله لِرَسُولِهِ الجوابَ الّذِي يجيب بِهِ الكفرة المشركين، مُجَاراةً لظاهِرِ قَوْلِهِمْ له.

أي: مَا أَتَّبِعُ فيما أُبَلِّغُ من الْقُرْآنِ إلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي، فأنا لاَ أتَصَرَّفُ بشيءٍ من عندي.

وهٰذِهِ الإجابَةُ تَتَضَمَّنُ بلوازِمِهَا الْفِكْرِيَّة، أنَّهُ لاَ يَضْطَنِعُ منْ عندِهِ شيئاً، ولاَ يَفْتَرِي على رَبّه فيما يُبَلِّغُ عَنْهُ كلمةً واحِدَةً ولا حَرْفاً واحداً، وأَنَّهُ لاَ يَنْقُلُ على سبيل الاجْتِلاَب والاصطِفاء من مكْتُوباتِ الأَوَّلِين شيئاً.

وجاء استعمال الفعل المضارع في فعْلَي: ﴿أَتَّبِعُ﴾ و﴿يُوحَىٰٓ﴾ للدّلالَةِ على أنّ كُلَّ ما يُبَلِّغُهُ عن الله تِباعاً بتجدُّدٍ، إنّما يتّبعُ فيه بتَجدُّدٍ ما يُوحَىٰ إليه به من رَبِّهِ بِتَجدُّدٍ.

هذا هو عَمَلُهُ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ من القرآن.

قول الله تعالى:

﴿... هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣﴾.

هٰذَا تعليم آخر علّم الله رسُولَهُ أن يَقُولَهُ لذوي التعريض باتهامه بافتراء القرآن من الكفرة المشركين.

المشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هو كتاب الله الّذي يُنْزِلُهُ علَيْهِ تباعاً نَجْماً فنجماً.

﴿بَصَآئِرُ﴾: جمع «بصِيرَة» وهي تُطْلَقُ على الْحُجَّةِ والْبُرْهان. وتُطْلَقُ على الشَّاهِد. وتُطْلَقُ على الْعِلْم والخبرة، وعلى الْعِبْرَة. وعلى كلّ ما به اتّضاح الطريق. وتُطْلَقُ على الرّقيب.

والقرآن فيه من كلّ هذه البصائر على اختلاف أنواعها.

(١) ففي بياناته حجج وبراهين تُلْزِمُ العقول السَّلِيمَةَ بالاقتناع بالحقّ الذي جاء فيه.

(٢) وهو بإعجازه شاهِدٌ على أنّ محمداً رسُولُ الله، وصادقٌ فيما يُبَلّغ عن رَبّه.

(٣) وفي آياته عِلْمٌ حَقِيقيٌّ يُقَدّمُهُ الله عزّ وجلّ لعبادهِ.

(٤) وفي آياته بيان لخِبْرَاتٍ كثيراتٍ مُكْتَسَبَاتٍ من واقع حال ذوي الإراداتِ الحرّة من الإنْسِ والجنّ.

(٥) وفي بياناته لِقِصَصِ الأولين عِبَرٌ يَعْتَبِرُ بها أُولوا الألباب.

(٦) وفي بياناته إيضاح جَلِيٌّ لصِراط الله المستقيم، الذي ينتهي بسالكيه إلى النجاة والفوز بالنعيم الخالد، والسعادة الأبَدِيَّة.

(٧) وهو بمثابَةِ الرّقيب على المكتُوباتِ عن الكتُب السابقةِ، إذْ يُثْبِتُ ما جاء فيها من حقٍّ منقولٍ بِصِدْق، ويُبْطِلُ ما دخل فيها من تحريفات المُحَرِّفينَ وأكاذِيبهم على الله.

فمن أدْرَكَ هذه البصائر أو بعضها في القرآن، لم يَشُكَّ في صِدْقِ

الرَّسُولِ محمّد ﷺ، فيما يُبَلِّغُ عن ربّه من نجوم القرآن، بَلْ أَيْقَنَ أَنَّ الرَّسُول لا يَتَّبعُ إلاّ ما يُوحَىٰ إليه مِنْ رَبّه.

- ﴿... وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

أي: وبالإضافة إلى كون القرآنِ بَصَائِرَ مُنَزَّلَةً مِنْ رَبّ الناس، فهو أيضاً هُدىً ورَحْمَة.

لَكِنَّ المستفيد المنتفع بهُدَاهُ، وبما فيه من رَحْمَةٍ للناس، هُمُ الْقَوْمُ الَّذِين يُتابِعُونَ بالإيمان ضِمْنَ حَرَكَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ، كُلَّ مَا يَنزِلُ تباعاً من نُجُوم القرآن، لاَ الْكَافِرُونَ به الّذين يُكذّبون الرَّسُولَ، ويَعْتَرِضُونَ علىٰ تَنْزِيلِ القرآنِ مُنَجّماً.

وقد وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ القرآنَ هُنَا في أواخر سورة (الأعراف) بمِثْلِ ما وَصَفَ بِهِ عُمُومَ كُتُبِه الْمُنَزَّلَةِ على جميع رُسُلِهِ في الآية (٥٢) منها، وهي قول الله عزَّ وجلّ فيها.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَهُدًى﴾: الْهُدَىٰ يأتي في اللُّغة بمعْنَىٰ الرَّشاد، وبمعنى الدَّلاَلَةِ علَىٰ مَا يُوصِلُ إلىٰ المطلُوب، وبمَعْنَى الطَّرِيقِ الواضح، والصّراط الَّذِي هو طَرِيقُ الحق.

ومعلومٌ أنَّ كلَّ هٰذه المعاني هي من صفات القرآن المجيد، فالْهُدَى على هذا مصدر هَدَىٰ يَهْدِي هُدًى، بمعنىٰ أَرْشَدَ، وبمعنى دَلَّ على ما يُوصِلُ إلى النجاة والسَّعَادَةِ الخالدة، والنعيم الأبديّ، والبيانُ الذي جاء فيه طريقٌ واضح، وصِرَاطٌ مستقيم.

﴿وَهُدًى﴾ لفظُ «هُدىً» مَعْطُوفٌ بالرَّفْعِ على ﴿بَصَائِرُ﴾.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: أي: والقرآن أيضاً هو رَحْمَة، أي: هو أثَرٌ من آثار رَحْمَةِ اللّهِ بعباده، ومظْهَرٌ من مظاهر عطاءاتِها الجليلاَتِ.

رَحْمَةُ اللَّه: صِفَةٌ من صفات اللَّهِ عزّ وجلّ النَّفسِيَّة، على مَا يَلِيقُ بجَلالِ ذَاتِه الْعَلِيَّة، الَّتي ليس كمِثْلِهَا شيء.

ومن آثارها ومَظاهِرِهَا الْإِنْعَامُ والْإِكْرَامُ والإِحْسَان.

والمراد بكون القرآن رَحْمَةً، أنَّ ما تتضَمَّنُهُ آياتُه من بيانِ صِرَاط سعادة الناس في الدنيا، وصِرَاطِ نجاتهم من عذاب الله يَوْمَ الدّين، وظَفَرِهم بالنَّعِيم الخالد في جنّاتِ النعيم، هو أثَرٌ من آثار رَحْمَةِ اللَّهِ بعباده في رِحْلَةِ امْتِحانِهم، ومظْهَرٌ من مظاهر عطاءاتها الجليلات.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: إنَّ المستفيدين المنْتَفِعين بكَوْن القرآن هدىً ورَحْمَة، هم الْقَوْمُ الّذين يُتابِعُونَ بالإيمان ضِمْن حَرَكَةٍ مُتجدِّدَة، كُلَّ مَا يَنْزِلُ تِبَاعاً من نجوم القرآن.

ومعلومٌ أنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ الصَّادِق، يَدْفَعُ إِلَىٰ الْعَمَلِ بمَضْمُونِ النَّصّ الّذِي انْعَقَدَ عليه الْإِيمان، وإلى اتّباع ما أُنزِلَ إِلَىٰ الناس من رَبّهم في كتابِه المجيد.

وهٰذا المعنى يَقَعُ على خطّ مَوْضوع السّورَة الأعْظَم، المبيّنِ في الآية (٣) من آوائلِها.

* * *

قول الله عزّ وجلّ لِعُمُومِ المؤمنين:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

هذه الآية موصولَةٌ في موضوعها بخطّ الآية (٢) في صدر السورة وهي قولُ الله فيها خطاباً لرسوله:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

وإذْ كان من المطلوب أن يكون القرآن تَذْكِرَة للمؤمنين، فَمِنْ وسائل هذه التذكرة، أنْ يَسْتَمِعُوا لَهُ وَيُنْصِتُوا إذا قُرِىء وهم حُضُورٌ شُهُودٌ حِينَ قراءَتِه، وفي مكان قراءَته.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾: أصْلُ القِراءَةِ النُّطْقُ بما هو مكْتُوبٌ في كتابٍ أو صَحِيفَةٍ بِتَتَبُّعِ المكتوب حَرْفاً بِحَرْفٍ، وكلمةً بِكَلِمَة عن طريق النَّظْرِ، أو عن طَرِيقِ حَاسَّةٍ أُخرَىٰ تُدْرِكَ رُمُوزَ المكتوب.

وقد يراد بالقراءة النُّطْقُ بما هو محفُوظٌ في الذَّاكِرة.

وأصْلُ التلاوة الاتّباع في النطق لما هو مَسْمُوعٌ يُلْقَىٰ على التالي، أو لما هو مكتوب. تَلاَ النَّصَّ، أيْ: نطَقَ به مُتَابعاً.

والمرادُ بالْقُرْآنِ ما يُقْرأ منه ويَصِلُ إلى سَمْعِ حاضِرِ القراءة.

﴿فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ﴾: **الاسْتِماع**: توجيه أداة السَّمع لإبْلاَغِ الكلام المسْمُوع إلى مرْكزِ السَّمْعِ في الدّماغ، حيث الإدْرَاك، فالآذانُ والأعْصَابُ الموصِلَةُ إلى مراكز السّمع في الدّماغ، ما هي إلّا منافِذُ وأدواتٌ لتوصيل الأصواتِ إلى مراكزها، ثم إنّ الدّماغ بعد ذلك هو الذي يُحَلّل الدّلالات بحَسَب كلّ صَوْتٍ، ومعلومٌ أنَّ الكلام رُمُوزٌ اصطلاحيّة للمعاني.

﴿وَأَنصِتُوا﴾: الإنْصَاتُ هو السُّكُوتُ وعدَمُ الكلام، وعَدَمُ إحْدَاثِ أيِّ صَوْتٍ بمَعْنىً أوْ بِغَيْرِ معنى، والسبب في طلب الإنْصَاتِ تهيئَةُ الجوّ للاستماع الْجَيّد.

من الحقائق أنّ القرآن المجيدَ لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ على من يَسْتَمِعُ له ويُنْصِتُ، إذْ يُسَيْطِرُ على أفكارهم، ويَنْفُذُ إلى قُلُوبهم، وقد أَدْرَكَ هٰذِهِ الحقيقة الذين كفروا من مشركي مكة، فوجَّهُوا جماهيرهم وأتْباعَهُمْ لعَدم الاسْتماع للقرآن، ولعَدَم الإنْصَاتِ، لدَىٰ تِلاَوَتِهِ وهُمْ شاهِدُون، وذلِكَ بأنْ يَلْغَوْا فيهِ.

وبياناً لهذه الخطَّةِ الشيْطَانِيَّةِ الخبيثَةِ، التي يرادُ بها الصَّرْفُ عن الحقّ، والصَّدُّ عن سبيل الله، قالَ الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/٤١ مصحف/٦١ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: لاَ تُعَرِّضُوا أنفُسَكُمْ لاسْتِمَاع القرآن من مُحَمَّدٍ، أو من أحَدِ الْمُسْلِمين، وإذَا تُلِيَ عَلَيْكُمْ وأنْتُمْ شُهُودٌ فالْغَوْا فِيهِ، ولا تُنْصِتُوا، تَشْوِيشاً على التالي، حتّىٰ لاَ يتأثَّرَ به المستَمِعُونَ له، فتَجْلُبُوا إلى صُفوفكم من يُمْكن أن يسْتَمِيلَهُ القرآن، فتَكْثُرَ أعْدَادُكم، فتَغْلِبُوا أتباعَ مُحَمَّدٍ بِكَثْرَتِكُمْ.

فمن الحكمة الرَّبَّانِيَّةِ أنْ يأمُرَ اللّٰهُ عزّ وجلَّ عُمُومَ المؤمِنِينَ بأنْ يَسْتَمِعُوا للقرآن، وبأنْ يُنْصِتُوا لدَىٰ تِلاوَتِهِ، كُلَّمَا تُلِيَ في آيَةٍ حالَةٍ من الأحْوالِ، داخِلَ الصَّلاةِ وَخارِجَها ليكُونَ ذلِكَ وَسِيلَةً لتَدَبُّرِ مَعانيه، وَتَذَكُّرِها عِنْدَ المناسَبَاتِ الداعياتِ إلى تَذَكّرِها، وقَصْرُ النّصّ على حالة الصَّلاَةِ لاَ دَلِيلَ عليه، ورَبطُ هذه الآيَةِ بِقَوْلِ الله عزّ وجلّ في صَدْرِ السّورة بشأن الْقُرآن: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وليكون القرآن تذكِرَةً للمؤمنين يَدُلُّ على أنّ الأمْرَ التَّرْغيبيَّ بالاستماع للقرآن والإنْصَاتِ عنْدَ تِلاوَتِهِ عامٌّ في كلّ الأحْوال.

الذّكْرَىٰ: اسْمُ للتذكير، واسْمٌ يُطْلَقُ علىٰ ما يُوضع للتذكُّر، كالبطاقة المذكِّرَةِ، والرَّتيمة التي توضَعُ في الإصْبَعِ لتُذكِّر.

- ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: اسْمَعُوا وأَنْصِتُوا إذا قرىء القرآنُ رَاجين أنْ تُرْحَمُوا، أَوْ لأجْلِ أن تُرْحَمُوا.

إنّ الاستماع والإنْصاتَ لقراءة القرآن، وسِيلةٌ من الوسائل الداعية إلى تَدَبُّر آياته، وتذكُّرِها عندَ مُناسباتها، والْعَمَلِ بها، فإذا تحقَّقَ منكُمْ ذَلِكَ رَحِمَكُمُ اللّٰهُ، فأدْخَلَكُمْ في رَحْمَتِهِ الواسِعَةِ في الدنيا، وأدخلكُمْ في جنَّتِهِ يَوْمَ الدِّين، الّتي هي إحْدَىٰ مظاهر وآثار رَحْمَتِهِ العظمىٰ الخالدة.

ودلّت عبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على أن الأمْرَ بالاستماعِ والإنْصَاتِ أمْرُ نَدْب مَقْرُونٌ بتَرغيبٍ عظيم، إذْ لَوْ كان الأمْرُ للإيجاب، والتكليفِ الإلْزَاميّ، لكان المناسِبُ أنْ يقال: لعلكم تتَّقون، أي: لِتَتَّقُوا عقوبة المخالفة. أمّا عبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فمَعْنَاها: لتثابُوا ثَوابَ الطاعَة.

وهذا شأن كلِّ المندوبات.

* * *

قول الله تعالىٰ:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾:

جاء في هاتَيْن الآيتَيْن أمْرٌ من الله لرسُوله ولسائر المؤمنين المسْلِمِين، على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ووظائفِهِمُ الدِّينيَّةِ والدُّنْيويَّةِ، للمواظبة على ذِكْرِ الله عزّ وجلّ، مع بَيان آداب هٰذا الذكر.

وجاء هذا التكليف بأسلوب الخطاب الإفراديّ الموجَّهِ لكلّ فَرْدٍ ففرْدٍ حتَّىٰ آخرِ الأفراد في كلّ العصور إلى أن تقوم السَّاعَة، ومعلوم أنّ ذكر الله من أجَلّ أنواع عبادته.

والغرض من هذا الأمر بالمواظَبَةِ على ذِكرِ الله، أنْ يتخلَّصَ المؤمِنُونَ المسلمون، مِنَ الصِّفَةِ الذَّمِيمَةِ الّتي قالَ الله فيها للناسِ في أوائل سورة (الأعراف): ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

إذ المواظبَةُ على ذِكْرِ اللّهِ تجْعَلُ الذَّاكِرِينَ يَتَذَكَّرُونَ ما فَرَضَ اللّهُ عَلَيْهِمْ أنْ يَعْمَلُوهُ، وما حَرَّمَ عَلَيْهِم أن يَقْتَرِفُوه، وهذا التذكُّر يجعلُهم أكثرَ الْتِزَاماً باتّباع ما أُنْزِلَ إليهم من ربهم.

وقد سبَقَ لدى تَدَبُّر الآيَةِ الثالثةِ من السُّورَةِ، بَيَانُ وظيفَةِ ذِكْرِ الله، وتَذَكُّرِ آيَاتِه المنزَّلاَتِ إلى الناسِ ليَتَّبِعُوها بإسْهَاب.

فهاتان الآيتانِ موصولَتَان بموضُوع السُّورَةِ ذي الخطُوطِ الممتَدَّةِ من الآيَتَيْنِ (٢) و(٣) من أوَائلها.

- ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ. . . ﴿٢٠٥﴾﴾.

إنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ يَشْمَلُ كُلَّ حُضُورٍ فِكْرِيٍّ وقَلْبِيٍّ ونَفْسِيٍّ مع اللَّهِ عَزَّ وجلَّ، في اسْم من أسْمَائِه، أو صِفَةٍ من صِفَاتِه، أَوْ آيَةٍ من آياتِهِ، أَوْ أَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِهِ، أَوْ نَهْيٍ من نواهِيه، أَوْ وَصِيَّةٍ من وَصَايَاهُ، أَوْ بيانٍ مِنْ بيانَاتِه، أَوْ وَعْدٍ مِنْ مَواعِيدِهِ وبُشْرَيَاته، أَوْ وَعِيدٍ من تَهْدِيداته وإنْذَارَاتِهِ، إلى غير ذلك من صُوَر ومجالاَت ذِكْرِ الله عزّ وجلّ الكثيرة الَّتي يصعب استقصاؤها ممّا يتصل بكمالاته وقُدْسِيَّاته.

إنّ عبارة: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ تتضمَّنُ تَوْجيهاً للذِّكْرِ الإفراديِّ بصِيغَةِ الأمْر، وأنْ يكونَ بَدْؤهُ صادراً مِنْ عُمْقِ النَّفس، إذْ يكُونُ ذِكْراً للرَّبِّ جلَّ جلالُهُ في داخِلِ النَّفسِ، ولاَ يَكُونُ ذِكْراً في النَّفسِ إلاَّ إذَا كانَ الْوَضْعُ الدّاخِلِيُّ في الإنسانِ ذَا حُضُورٍ مع الله عزّ وجلّ، في واحِدٍ أو أكثر ممّا يُذْكر اللَّهُ به، ولو في آية من آياته الكونية بشَرْط مُلاَحظة كونها آيَةً مِنْ آياته، ولَوْ في حالة الاسْتِمْتاعِ ببَعْضِ نِعَمِهِ علَىٰ عبادِه، بِشَرْطِ مُلاَحَظَةِ أنَّها نِعْمَةٌ من نِعَمِهِ.

ويَبْدأُ هٰذا الذكْرُ الحقيقيُّ بشَغْلِ التَّصَوُّرِ الحاضِرِ اسْتِدْعاءً من الذَّاكِرَة، وتكْرِيرِ ذلك فيه، حتَّىٰ يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ فِي مراكِزِ العاطِفَةِ والْوِجْدَان، ومواطِنِ الْخَوْفِ والطَّمَع، والحذَرِ والرَّجاء، والْقَلَق والْخُشُوعِ والطُّمَأْنِينَة.

ويَنْتَقِلُ هذا الأثر مِنْ حَواشي النَّفْسِ مُتَغَلْغِلاً حتَّىٰ يَصِلَ إلى الْقَلْب، ثمَّ مَعَ تكرِيرِ هذا الحضُور الدَّاخِلِيّ واعْتيادِهِ يَتَغَلْغَلُ إلى عُمْقِ الْفُؤَادِ،

وعِندَئذٍ يتمكَّنُ منْ ذَاتِيَّاتِ الإنسَانِ كُلّه، ويكونُ مُوَجِّهاً لأنواع سُلُوكه، مَا كانَ منهُ دَاخِلِيًا نَفسِيًا، وَمَا كان مِنهُ خارِجياً مَرْئيًا، وبهِ يكون الْخَوْفُ من الله، والخَشيَةُ مِنه، ثمّ الطُّمَأْنِينَةُ لِجَلاَلِ سُلْطَانِه، وبِهِ يَكونُ الحبُّ، وصِدْقُ التَّوَجُّهِ والرَّجاء والدُّعاء، والتوبَة والإنابة، والمراقبة الدائمة. وبه يكُونُ الإخْلاَصُ لِلّهِ في الْعَملِ، والْبُعْدُ عن الرّياء ومطالب الحياة الدُّنيا الفانية. وبِهِ يكون اسْتِدعَاءُ تَصَوُّراتِ الجنَّةِ وما فيها من نَعِيم، وتَصَوُّراتِ النار ومَا فيها من عذاب أَلِيم، وتَصَوُّرَاتِ الحشْر ومَوْقِف الحساب بين يَدَي العزِيز الجبَّار.

هٰذا هو الذِّكْرُ الحقيقيُّ الأَسْمَىٰ.

- ﴿... تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ... ﴿٢٠٥﴾﴾:

في هٰذه العبارَةِ بيانُ آداب ذِكْرِ اللَّهِ الثلاثة:

الأدب الأول: دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: من أَدَب ذكْر الله الممتدّ من عمقِ النفس إلى نطْق اللّسان، أن يكون مصحوباً بالتضرُّع لله.

التضرُّع: هو التذَلُّلُ والخضوع، مأخُوذٌ مِنْ خضُوعِ ولَدِ البهيمَةِ ليمْتَصَّ حَلِيبَ أُمِّه مِنْ ضَرْعِها، وهو ثَدْيُها.

الأدبُ الثاني: دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَخِيفَةً﴾: أي: ومِنْ أَدَب ذِكْرِ الله الممتدِّ من عُمْقِ النَّفْسِ إلى نُطْقِ اللّسان، أَنْ يكون مصحوباً بالْخَوف من عذاب الله وعقابِه ونِقْمَتِه.

الخيفة: كالخوف، مصدر «خاف». يقال لغة: «خافَ يَخَافُ خَوْفاً ومَخَافَةً وَخِيفة».

والخوفُ يكونُ من توقُّع حُلُولِ مَكْرُوهٍ، أَوْ فَوْتِ محبُوبٍ أو مَرْغُوب فيه.

يُقَال: خافَ من كذا، وَخَافَ علىٰ كذا.

الأدَبُ الثالث: دَلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

الجهر بالقول: هو رفع الصَّوْتِ بالكلام حتى يَسْمعَه الآخَرُون الحاضرون من حَوْلِ رافع الصوت سماعاً جليًّا واضحاً.

يقال لغة: جَهَرَ الرَّجُلُ بكلامه أو دعائه أو صوته أو قراءته «يَجْهَرُ، جَهْراً، وجِهاراً» أي: رفع بذلك صوته، فهو «جَهِير».

ويقال: أَجْهَرَ بكلامِهِ فَهُو «مُجْهِر» ويُعَدَّىٰ من غير حرف فيقال: أَجْهَر الرَّجُلُ كلامَه.

فمن آداب ذِكر اللَّهِ باللّسَان أن يكون دون الْجَهْر، ويَدْخُلُ فيما دون الجهْرِ الهمْسُ، والذِّكرُ الخفي مع تحريك اللّسان به.

وفائدة الذِّكر اللّساني أَنْ يكون مُساعداً لمراكز الذِّكْرِ في النَّفس، حتَّىٰ تَعْمَل هٰذه المراكز بالذكْرِ الحقيقيّ المطلوب مُصَاحَبَتُهُ لتَحْرِيكِ اللّسَان بالأقوال، ذات المعاني المتَّصِلَة بعَنَاصِرِ ذِكْرِ اللَّهِ النَّفْسِيّ الّتي سبَقَ بيانها.

وكلّما كان الذِّكرُ اللّسانيُّ أكْثَرَ بُعْداً عن الجهْرِ بالْقَوْلِ كان أكْثر مُساعدةً على اشتغال النفْسِ والقلْبِ من أعْمَاقِهِما بالذّكر الحقيقيّ لله عزّ وجلّ، فعِبَارَةُ: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ تُحَدّدُ السَّقْفَ الأعلىٰ لأدَبِ الذّكْرِ اللّسَانيّ المساعِدِ للذكْرِ النّفسِيّ والقلْبِي، وهي في الوقْتِ نَفْسِه تُوَجّهُ للعنايَةِ بالأخْذِ بِالأخْفَتِ فالأَخْفَتِ من الذّكْرِ اللّسانيّ والتَّعَوُّدِ عليه، حتَّىٰ يَصِلَ إلى قريبٍ من الذّكْرِ النَّفْسِيّ الّذي يَعْمَلُ داخِلَ عُمْقِ النفس.

● ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾: هٰذه العبارة تُحَدّدُ وقْتَيْنِ مُهِمَّيْنِ مُفضَّلَيْن، لِذِكْرِ الرَّبّ الذي سبَقَ بيانُه، وبيانُ آدابه، هُمَا وقْتُ «الْغُدوّ» ووَقْت «الآصَالِ» أي: بكُلّ غُدْوَةٍ وبِكُلّ أَصِيلٍ من كلّ يَوْمٍ من أَيّام الأرض، مُدَّةَ حياة الإنْسَانِ الممتَحَنِ المكلّف.

الْغُدُوُّ: جَمْعٌ مُفْرَدُه «الْغُدْوَة» وهي ما بَيْنَ صَلاَةِ الغَدَاة (وهي صلاة الفجر) وطُلُوع الشمس، وتُجْمَعُ الْغُدْوَةُ أيضاً على «الْغَدَوَاتِ» و«الْغُدَا».

الآصَالُ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «الأصِيل» وهو الوقْتُ من حِينِ تَصْفَرُّ الشَّمْسُ حتَّىٰ تَغْرُب.

وهٰذان الوقتان كان الأنبياء عليهم السَّلام يحرصُونَ على ذِكْرِ الله فيهما، ويتأسَّىٰ الصالحُون من المؤمنين بهم فيَذْكُرُون ربَّهُمْ فيهما.

فَمَنْ كانَ حَرِيصاً على أَنْ يَدْخُلَ في مَوَاكب الأنبياء والصَّالحين، فعَلَيْهِ أنْ يُواظب على ذِكْرِ رَبِّه دواماً، بالْغُدوّ والآصَالِ، مع الالْتزام بآدابه.

● ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾: بَعْدَ الأمْرِ بالذِّكْرِ نَهَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ عن الغفلة الّتي يَقْتَرِنُ بها عَدَمُ الذِّكْر، فَجَمَعَ الله عزّ وجلّ في هٰذِهِ الآيَةِ بين الأمْرِ بالذِّكْر والنَّهْي عَنِ الغفلة المضادّةِ للذكر.

فإذا لاَحظنا أنّ الأمْرَ بالشَّيْءِ يتضَمَّنُ النَّهْيَ عن ضِدّه، وأنّ النَّهْي عنِ الشّيء يتضمَّنُ أمراً بِضِدِّه، تَحَصَّلَ لَدَينا في هذا النَّصّ توجيه لذِكْرِ الله بأساليب بيانيةٍ أَرْبعة.

وقد يُفْهَمُ مِنْ عبارة: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ النَّهْيَ عن الْغَفْلَةِ عن ذِكْرِ الله، في كلّ الأوقاتِ الّتي تَسْتَدْعي المناسَبَةُ فيها ذِكْرَه، لفِعْلِ شيءٍ، أو تَرْكِ شيْء، أو التأمُّل والتفكُّرِ في شَيْءٍ من خَلْقِ الله، أو شيءٍ مِنْ تَصَارِيفه في كونه، لرَبط ذلك ببعض صفاته، وعظيم حكمَتِه، وجليل إنْعَامِهِ على عباده، وكمال عَدْلِهِ وفضْلِه.

قولُ الله تعالى:

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾:

ختم الله عزّ وجلّ الدَّرْسَ الأخير من السُّورَةِ بهٰذِهِ الآيَة، الّتي أبان

فيها ما عليه الملائكة الّذِينَ هُمْ عِنْدِهُ، وفي مُقَدَّمَتِهِمُ الملأ الأعلى كجبريل وإسْرَافيل وميكائيل.

وفي هذا البيان حثّ للمؤمنين بأُسْلُوبِ غَيْرِ مباشرِ على أَنْ يَتَأَسَّوْا بالْمَلاَئِكَةِ في عباداتهم لِرَبِّهم بالطاعَةِ والْخُضُوعِ التامّ، وبالتَّسْبيح الَّذِي هو من ذكْرِ الله، وبالسُّجُودِ الّذي هُوَ غايَةُ الخضُوعِ المادّيّ لله جلّ جَلاَلُهُ، والّذي هو تَعْبِيرٌ جَسَدِيٌّ عن غايَةِ الْخُضُوعِ النفْسِيّ والْقَلْبِيّ له، حينما يكون سجوداً حقيقيًّا كاملاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: هم الملائكَةُ المقرَّبُونَ، وأَكْثَرُهُمْ قُرْباً المَلأُ الأعلىٰ، أصحابُ الوظائفِ الجليلَةِ في الكَوْن.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: أي: لاَ يُوجَدُ واحِدٌ فيهم يَسْتَكْبِرَ عن عبادَةِ رَبِّه، بالطاعَةِ التَّامَّةِ لأوامره ونواهيه، إذْ مِنْ صفاتهم أَنَّهُمْ لاَ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ دَواماً فِي كَلّ شيءٍ يَفْعَلُونَهُ مَا يَأْمُرُهم اللَّهُ رَبُّهُمْ بفِعْلِه، بالتّقائيَّة التامَّة، وبمقتضىٰ تكوينهم الّذي فطَرَهُمُ اللَّهُ عليه، مع غاية الخضُوع وغايَةِ الذُّل له.

فالطاعَةُ رَأسُ الْعِبادات، ولهم عباداتٌ أُخرَىٰ يُؤَدُونها، ومِنْ أَجَلّها التسبيح والسُّجود.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: أي: ويُرَدّدُونَ عبارات التَّسْبِيح دواماً، مثل: «سُبْحانَ الله ـ سُبُوحٌ قُدُوس» مع المواظبة على هذا التسبيح، ومعنى التسبيح تَنْزِيه الله عمّا لا يَليقُ بِجَلالِهِ.

﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾: أي: وَيُتَابِعُونَ السُّجُودَ آناً فآناً، أو يواصِلُونَهُ زمَناً فزمَناً، والسماوات ملأَىٰ بالسَّاجدين مِنَ الملائكة المكرَّمين.

روى ابن مَرْدَويه عن أنس أنّ النبيّ ﷺ قال:

«أَطَّتِ السَّمَاءُ ويحقُّ لَهَا أَنْ تئِطَّ، والّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، ما فِيها مَوْضِعُ شِبْرٍ إلاَّ وَفِيهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ سَاجِدٍ يُسَبحُ اللَّهَ بِحَمْدِهِ»(١).

نظرة عامّةٌ حول هذا الدرس الأخير:

بعد التَّدَبُّرِ التحليليّ التفصيليّ لهذا الدَّرْس الأخير من دُروس سورة (الأعراف) تبيَّنَ أَنَّهُ اشْتَمَلَ على وصَايا تربويَّة للرَّسُول محمّد ﷺ تُسَدِّدُهُ في طريق دعْوَتِهِ إلى سبيل ربّه.

وهذه الوصَايا مُوجَّهَةٌ أيضاً لكل داعٍ إلى سبيل ربّه من أمّتِه، ولكلّ حامل رسالة النُّصْحِ والإرْشاد، والأمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْي عن المنكر.

وبَعْدَ التأمُّلِ والتَّفكّرِ في عناصر هذا الدَّرْسِ، وفي مَوضوع السُّورَة المنطَلِق من الآيتَيْنِ الأولى والثانية من صَدْرها، ظَهَرَ لي ارتباطُ هذا الدَّرْسِ ارتباطاً تامًّا بعُنْصُرِ القرآن من موضوعها، ووجوب تَبْليغه كما يُنَزِّلُهُ اللَّهُ، دُونَ شعورٍ بأيّ حَرَجٍ ممَّا يثيرُهُ الكفَرَة المشركُونَ حول ما جاء فيه، أو حَوْلَ طَرِيقةِ تنزيلِهِ مُنَجمًّا، وما يتطلّبُهُ هذا التبليغ من صَبْرٍ وعَفْوٍ عن المسِيئينَ من خُصُوم الرّسَالَةِ، واتّخاذِ لوسائلَ ذاتِ تأثيرٍ أنْفَعَ وَأَجْدَىٰ لاسْتِمالَةِ الناسِ واستعطافِهم إلى دين الله.

وهذا العنصر من عناصر موضوع السورة قد جاء في الآية (٢) وهي قول الله عزّ وجل خطابا لرسوله:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

وتفرّعَ من هذا العُنصر الخطُّ الأعظَمُ الذي سارت عليه معظم آيات السُّورَة، وهو خَطُّ:

---

(١) عن صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم (١٠٢٠) ومعنى «أطّتْ» صَوّتت، يقال لغة: «أطّ، يَئِطُّ، أطيطاً» أي: صَوّتَ.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وجاء في السُّورَةِ استعراضُ التاريخ الْبَشَري، تُجاه مطلوب الله من الناس باتّباعِ ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر سُورة (الأعْرَافِ) على مقدار المنحة الرَّبّانية والحمد لله على فتحه وتوفيقه وعَظِيم مِنَّتِه.

* * *

ملاحق لتدبّر سورة الأعراف

الملحق الأول: مستَخْرَجات بلاغية من سورة الأعراف.

الملحق الثاني: السؤال في محكمة العدل الربانيّة يوم الدين.

الملحق الثالث: الوزن في محكمة العدل الربّانيّة يوم الدين.

الملحق الرابع: حول اتّخاذ الدّين لهواً ولعبا وهزُواً والاغترار بالحياة الدنيا.

الملحق الخامس: دراسة تكامليّة للنصوص بِشَأْنِ لوطٍ وقومه في القرآن المجيد.

الملحق السادس: دراسة تكامليّة للنصوص بشأن شعيب وقومه في القرآن المجيد.

الملحق السابع: حول ما جاء في القرآن بشأن سُنَنِ الله في الأمم حتّى استِحْقَاقِها الإهلاكَ الشامل.

الملحق الثامن: حول رغبة الكافر في أن يُسْمَحَ لَهُ باستئناف رِحْلة الابتلاء منذ لحظة موته وحتى خلوده في جهنم.

(١٧)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغيّة من سورة الأعراف

تشتمل سورة (الأعراف) على صُوَرٍ وأمثلة بلاغية كثيرة، وفي هذا الملحق مستخرجات بلاغيّة منها، غيرُ مستوفية لكلّ ما في السورة من بلاغيّات، إلاّ أنّها تُساعدُ المتدبّر على استخراج صُوَرٍ وأمثلَةٍ أُخرَىٰ، لم يجْرِ التنبيهُ عليها في هذا الملْحق.

أولاً:

إسناد الفعل إلى غير ما هو له لداعٍ بلاغي، وممّا جاء منه في السورة قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.

في عبارة: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ توجيهُ النَّهي للحَرَج، وهو ضيقُ الصَّدْرِ، لا للرَّسُول ﷺ، إذْ لم يَقُل الله له: لاَ تكُن حَرِجَ الصَّدْر.

وفي توجيه النَّهي للْحَرج تلَطُّفٌ بالرَّسُول، إذْ لم يُوَاجِهْهُ اللَّهُ بالنهي، بل وَجَّه النَّهي للْحَرَج.

وجاء فيها لفْتُ النظر إلىٰ الأثر وهو الحرج، لا لمسبّبَاته، مع أنّ المقصود مُسَبِّبَاته، فالحَرجُ أثَرٌ يَحْدُثُ من تصوُّر الرسُولِ أنّ مسؤوليّته تحويلُ النّاس من الكفر إلى الإيمان، وهذا أمْرٌ غَيْرُ مطْلُوب منه صلوات الله وسلاماتُه عليه، إذْ تقْتَصر مسؤوليّته على التبليغ.

ويحدُثُ أيضاً من كراهيته اعتراضَ أئمة الكفر على تنزيلِ القرآن

منجماً، لا جُمْلَةً واحدة، والداعي إلىٰ الله ينبغي له أن لا يَهْتَم لاعتراضات الكافرين على اختياراتِ رَبّ العالَمِين الحكيمة.

ثانياً:

الإيجاز بالحذف، ومن أمثلة هذا الإيجاز في السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

في هذه الآية حَذْفٌ من أوائلها دلَّ عليه ما في أواخرها، وحَذْفٌ من أواخِرِها دَلَّ عليه ما في أوائلها، وهذا ما يُطْلَقُ عليه عند البلاغيين «الاحتباك».

وأصل العبارة: اجعلوا ربّكُم وليًا لكم، فاتّبِعُوا ما أُنزل إليكم منه، ولا تتخذُوا من دونِه أولياءَ تَتَّبِعُونَ ما يأمُرونكُمْ به وما يَنْهَوْنكُمْ عنه.

الاحتباك: هو الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، مع الحذف من الأواخر لدلالَة الأوائل.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾.

في هذه العبارة اكتفاءٌ بذكر العلّة عمّا تقتضيه هٰذه العلّة.

أصل العبارة: ولا تَعْتَدوا لأنَّ الله لا يحبُّ المعتدين.

فذكر العلّة أَغْنَى عن ذكر النهْي عن الاعتداء، وهو مقَدَّرٌ ذهْناً، وقد حُذِف إيجازاً، ويَسْهُل على المتدبّر أن يُدْركه.

(٣) قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا... ۝٥٦﴾.

في هذه العبارة الاكتفاءُ بالنّهي عن الشيء عن الأمْر بضدّه.

فالنَّهْيُ عن الإفساد في الأرض بعْدَ إصلاحها يَدُلُّ بمفهومه من وراء منطُوقِ اللّفظ، على الأمْر بإصْلاح الأرض بكلّ عمل يؤدّي إلى إقامة مُنْشآتٍ مادِّيَة ومعنويَّةٍ، ذواتِ وظائف إصلاحيّة نافعة للعباد، في أمور دنياهم وأمُور آخِرَتهم.

فأغْنَىٰ النهي عن الإفساد في الأرض عن الأمر بإصلاحها.

(٤) قول الله عز وجل:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ . . . (٥٨)﴾.

في هٰذهِ العبارة «الاحْتِباك» وهو الحذفُ من الأوائل لدلالة الأواخِر مع الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل.

أصل العبارة: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ هَيِّناً سَهْلاً جَيِّدَ الْعَطَاء [بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ] الْبَلَدُ الَّذي ﴿خَبُثَ لَا يَخْرُجُ﴾ نَبَاتُهُ ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: عَسِراً شحِيحاً قليل العطاء والنفع.

(٥) قول الله عزّ وجلّ حِكايَةً لمقالة نوح لقومه:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ . . . (٦٣)﴾؟

في هذه العبارة حذفان:

الحذف الأول: دلَّ عليه وُجود حرف العطف، دون وجود معطوفٍ عليه في اللفظ، والتقدير:

أكَرِهْتُم تَرْكَ ما أنْتُمْ عليه من شركٍ وفسْقٍ واتّباعَ ما جئتكم بِهِ من حقٍّ وخير، وعَجِبْتُم أنْ جاءكم ذكْرٌ مِنْ رَبكُمْ.

الحذف الثاني: دلَّ على الاقتضاء الفكري، في عبارة: ﴿ذِكْرٌ مِّن

رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ والتقدير: ذكْرٌ من ربكم مُنَزَّلٌ على رجُلٍ منكم.

(٦) قول الله عزّ وجلّ في حكاية قول شعيب عليه السلام لقومه:

﴿... فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ... ﴿٨٥﴾ ﴾.

في هذه العبارة حذف دلّ على المحذوف فيها التقابل والتناظر، والتقدير: فأوفُوا الكيلَ والمِكْيَالَ والْوَزْنَ والميزان.

ويدخل هذا فيما يسَمَّى عند البلاغيين «الاحتباك» وقد سبق آنفاً بيانه.

(٧) قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

دلَّ على المحذوف في هذه الآية العطفُ بالفاء الفصيحة بعد هَمْزَة الاستفهام في أوّلها، والتقدير:

أَلَدَىٰ أهل الْقُرىٰ الكافرين علْمٌ بأنَّ الله عزّ وجلّ لنْ يُنْزِل بِهِمْ عذابَهُ على ما يكْسِبُون من آثام، فأمِنُوا واطْمأنُوا ولم يَخافوا أن يأتيهم بأسُ رَبّهم في اللّيل وهم نائمون.

(٨) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

في هذا النصّ حذفٌ مطويٌّ بين المثاني يستخرجُهُ المتدبّر بالتأمّل، والتقدير:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ فعرَض عليهم المهمّة الّتي حشَرَهُمْ من أجلها، وهي إجراء مباراة بينهم وبين ساحِرٍ كبيرٍ من بني إسرائيلَ اسمُه موسى ومعه أخُوهُ هارون (هكَذَا أَوْهَمَهُم) فقبلُوا أن يَدْخُلوا هذه المباراة،

على شَرْطِ أن يَجْعَلَ لهم فرعون أجراً كبيراً إنْ كانوا هم الغالبين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ إلى آخر النص.

(٩) قول الله عزّ وجلّ حكاية لما جرى بين السّحرَة وموسى عليه السلام عند المباراة:

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

في هذا النصّ حذف يكشفه التدبّر، والتقدير:

إمّا أنْ تُلقِيَ أوّلاً، وإمّا أنْ نكونَ نَحْنُ الملْقِين أوّلاً.

(١٠) قول الله عزّ وجلّ حكاية لدُعَاءِ مُوسَى رَبَّه:

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ... ﴿١٥٦﴾﴾.

أي: وفي الآخِرَة حَسَنَةً أو حَسَنَات، وهذا من المحاذيف الواضحة التقدير.

(١١) قول الله عزّ وجل:

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ... ﴿١٨٧﴾﴾.

أي: إنّما عِلْمُ وقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ عنْدَ رَبّي.

وظاهرٌ أنّ من السّهل اكتشاف المحذوف هُنا، فهو مما يقتضيه النَّصُّ لاستكمال دلالته.

* * *

ثالثاً: المجاز المرسل، ومن أمثلته الواردة في السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَـٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

• جاء في هٰذه العبارة إطلاق لفظ القرية، والمرادُ أهلها، وهو من إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه، وهذا من المجاز المرسل ذي الأمثلة الكثيرة.

• وجاء فيها التعبير بـ ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ والمرادُ أرادنا إهْلاكها فَقَدَّرْناهُ وقضيناه، وهو من إطلاق المسبَّبِ وإرادة السَّبَب، والغرض الإشعار بأنّ ما قضاه الله وقَدَّره نَافِذٌ حتماً، فهو بحكم الأمر الذي تَمَّ تنجيزه فعلاً.

والداعي البلاغي الإيجاز وإمتاع الأذهان بالاستنباط.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ. ﴿٢٧﴾﴾.

في عبارة ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ مجاز مُرْسل، وهو من إطْلاقِ المسبَّب، وهو الإخراج من الجنّة وإرَادَةِ السَّبب، وهو ما كان يتخذه الشيطان من وسائل إغوائية لفتنتهما، واستجابتهما له.

أي: لا يفتننَّكم الشيطان كما فَتَنَ أبويْكم إذِ اسْتَجابا له، فتَسَبَّبَ في معاقبة الله لهما بالإخراج من الجنّة.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

جاء في هذه الآية نَفْيُ وجُودِ العهد لدى أكثر أهل القرى الّذين تحدَّث عنهم النصّ، والمرادُ نفْيُ الْوَفَاء به.

وهذا من نفي السّبب وإرادة نفْي المسَبَّب، فهو من قبيل المجاز المرسل.

والغرض الفكريّ الدّلالة على أنّ من لا وفاءَ له فلا عَهْدَ له.

(٤) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

المرادُ بالتّذكُّر في عبارة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لازِمُهُ الفكريّ، وهو الاستجابة لمضمونِ ما تذكَّرُوه، والْعَملُ بمقتَضَاهُ من إيمان وطاعة لله ولرسوله.

وهذا مجاز مرسَل من إطلاق الملزوم وإرادة لازمه، أوْ من إطلاق السّبب وإرادة المسبَّب، لأنّ التّذكّر من البواعث الّتي تَسْتَحِثّ المتَذكِّر على العمل بالمطالب، التي دلّت عليها المذكُوراتُ المحْضَرَاتُ في سَاحةِ التذكّر.

(٥) قول الله تعالى خطابا لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ . . . ﴿١٤١﴾﴾.

أي: ويَسْتَبْقُونَ مواليدكم من البنات اللّواتي سيكُونُ مصِيرُهُنَّ نساء أحياء، فلا يقتلونَهنَّ.

ففي إطلاق كلمة «نساء» على المواليد من البنات مجاز من قبيل المجاز المرسل، وهو من إطلاق اللّفظ على الشيء باعتبار ما سيؤول إليه، مثل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: سيؤول أمْرُهُ إلى الفناء.

والغرض فنيّة الابتعاد عن الأسلوب المباشر في البيان.

(٦) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ . . . ﴿١٦٣﴾﴾.

في هذا النصّ أُطْلِقَ لفظ القرية وأُرِيدَ أَهْلُها، وهو من نوع المجاز المرسل، أُطْلِقَ فيه المحلُّ وأريد به الحالُّ فيه، أو هو من قبيل حذْفِ المضاف وإقامة المضاف إليه محلّه، والغرض الإيجاز.

* * *

رَابعاً:

الاستعارة، ومن أمثلتها الواردة في السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ بشأن وسائل إبليس لإغواء آدم وزوجه:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا... ﴿٢٢﴾﴾.

في عبارة ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ استعارة فِعْلِ التَّدْلِية للدلالة على أساليب الاستنزال إلى ارتكاب كُبْرَيَات المعاصي والآثام.

فتَدْلية الدّلْوِ في البئر تكونُ شيئاً فشيئاً، ولا تكون قَذْفاً بمرَّةٍ واحدة، وكذلك الاستدراج والاستنزالُ إلى ارتكاب المعاصي والآثام.

وفي استعارة التدلية لهذا المعنى إبداعٌ بالغُ الغاية، لِمَا فيه من المطابقة الّتِي هي في غاية الإيجاز، بين اللّفظ المستَعَار وبين الفكرة المرادة ذات المرامي والأبْعاد الواسعة.

إنّ تشبيه عمليّة الإغواء، ذاتِ الخطواتِ المتتابعات في الانحدار بالتدلية في بئر، أو في مَهْواة، من أبْدعِ التّشبيهات وأبْرَعِها وأدقّها، وأكثرها إمتاعاً للأذهان الذّوّاقة للجمال الأدبيّ.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿... وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ... ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه العبارة استعارة لفظ «لِبَاس» مضافاً إلى التقوىٰ للدّلالة على العمل الدّينيّ الّذي يُرْضِي اللّهَ عزّ وجلّ، فيَقِي من عقابه على المعاصي والمخالفات، تَشْبيهاً له بالدِّرع، أو باللِّباسِ المادّيّ الّذي يقي الجِسْمَ من عوارض الحرّ والبَرْدِ، بجامع الوقاية من الضرّ في كلٍّ منهما.

وذكر التقوىٰ في العبارة من قبيلِ التجريد في الاستعارة، لأنها من خصائص المشبَّه.

(٣) قول الله عزّ وجل بشأن قوم لوط:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

جاء في هذه الآية استعارة الفِعْل في «أَمْطَرْنا» والاسم «مَطَراً» للدّلالة على إنزال حجارةٍ من السّماء عليهم، إنزالاً يُشْبِهُ إنزالَ المطر من السماء، وَوَجْهُ الشَّبَهِ أَنَّ الحجارَةَ مثلُ حبَّاتِ المطر الكبرى، وأنّ النُّزُولَ متواتر متتابع كمَاءِ المطر، وعامٌّ شاملٌ لكل أرض قوم لوط، لكنَّ هٰذا المطَرَ قَدْ كَانَ للتّعذيب والإهلاك.

(٤) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... ﴿٩٦﴾﴾.

في عبارة: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ اسْتِعارَةٌ، وإيجاز بالحذف.

فالاستعارة قائمة على تشبيه عطاء الله الكثير لعباده، بفتح أبواب السُّدود، التي تتدفَّق منها المياه بغزارة وقُوّة.

وحُذِف من اللفظ كلمةُ «أبواب».

والتقدير: لفتحنا عليهم أبْوابَ بركاتٍ كثيراتٍ من السّماء والأرض.

(٥) قول الله عزّ وجلّ حكاية لدعاء سحَرَة فرعون، بعد إيمانهم ووعيدِ فِرْعَوْن لهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خِلاف، وتَصْلِيبهم في جذوع النخل:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

في عبارة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ اسْتِعارَةٌ تخييليَّةٌ، قائمة على تشبيه الصَّبْرِ بمادّةٍ توضَعُ في إِنَاء، وتشبيه إمْدَاد النَّفْس بالصَّبْر بإفْرَاغ ما في الإناء من صَبْرٍ عليها.

ومعْلُوم أنّ الإفراغ من لوازم ما يُوضَعُ في الأواني.

والغرضُ الدّلاَلَةُ على أنْ يُمِدَّهم الله بصَبْرٍ كثير يُشْبِه إفراغ جميع ما في الإناء دفعةً واحدة.

ويَدُلُّ التنكير في ﴿صَبْرًا﴾ على التكثير.

(٦) قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ.. ﴿١٥٤﴾﴾.

في هذه العبارة استعارةٌ بديعة قائمة على تشبيه حركة الغضب في النفس، بثائرٍ ذي مطالبَ يُطالِبُ بها، ويصيح مُلحًّا في طلبها.

ومن آثار هٰذه المطالب الغضبيَّة توجيهُ التلويم والتثريب وعبارات التذمّر، وتحرُّكُ الجملة العصبية للانتقام.

وتشبيه هدوء الثورة الغضبيَّة في النفس بالسُّكوتِ عن المطالب، ولو مؤقّتاً.

فكان هدوء الغضب بمثابة سُكوته، وهذه من الاستعارات البديعة الّتي تُصَوِّرُ فيها الحركات النفسيَّة الداخليَّةُ بأمْثِلَةٍ تُدْرَكُ بالحسّ الظاهر.

(٧) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

اسْتُعِير في هذا النصّ فعل «انْسَلَخَ» للدّلالة على معنى التّخلّي عن الإيمان، أو الْعَمَلِ بآيات الله المنزَّلاَتِ.

وهٰذه الاستعارة قائمة على تشبيه الذين أُوتوا آياتِ الله، فآمَنُوا، واحْتَمَوْا بالْعَمل بها، حتّىٰ صارت مثْلَ جُلُودِهم المحيطة بأجسادهم، ثم لمّا

طال عليهم الْعَهْدُ تخلّوْا عَنْها، فكان حالُهُمْ مثْلَ حَالِ المنْسَلِخ من جِلْدِه الذي يتعَرَّضُ جَسَدُهُ للفساد فالهلاك.

وهؤلاء المتخلُّونَ عن آيات الله أَتْبَعَهُم الشيطان، فكانوا باستجابتهم لوساوس الشيطان وتَسْويلاته من الغاوين.

هذه الاستعارة من أبْدَع الاستعارات، وأكْثَرِها دِقَّةً ومُطابقَةً للواقع بكلّ عناصِرِها بين المشبَّهِ والمشبَّه به.

(٨) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا... ﴿١٨٧﴾﴾.

في عبارة: **[أَيَّانَ مُرْسَاهَا]** اسْتِعارةٌ قائمةٌ علىٰ تَشْبيه الحياة الدّنيا بالسفينة، وتشبيه الزّمَنِ بالْبَحر، وتَشْبيه انْتِهَاءِ نظام هٰذِهِ الحياة الدنيا وأحداثها بالرُّسُوّ في مرفأ هذا البَحْرِ الزَّمَنِيّ.

والغرض من هٰذهِ الاستعارة، الدلالَة على أنّ هذا النظام الكونيّ بتراتيبه وتَصارِيفه المتتابعة لحظةً فلحظَةً، وتغيُّراته، يُشْبِه سفينة جاريةً في الْبَحْر، لها في كلّ لحظةٍ موقعٌ وحركَةٌ جَدِيدَانِ دواماً، وأنّ هذا التجدُّدَ لا يَنْتَهي إلاّ إذا قامَتِ السّاعَةُ، وانْتَهىٰ بقيامها كُلُّ هذا النظام، كَما تَتَوَقَّف السّفينَةُ في الميناء، وتُلْقِي مرَاسِيَها، وتَثْبُتُ وَتَسْتَقِرُّ عِنْدَه.

(٩) قول الله عزّ وجلّ بشأن وقْتِ قيام السَّاعَة:

﴿... ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً... ﴿١٨٧﴾﴾.

في عبارة ﴿ثَقُلَتْ﴾ استعارةٌ قائمةٌ على تشبيه ما يتعَذّرُ مَعْرِفَتُه من المعاني، بالشيء الثقيل الذي لا يُسْتَطاع رفعُهُ من المكان الذي أُخْفِيَ فِيه ليُرَىٰ ويُعْلَم.

ووقْتُ قيام السَّاعَة قَدْ أَخْفَاه الله عنْ كُلّ أهل السماوات والأرض، هو

كشيءٍ ثَقِيلٍ في عالم الغيب، فلا يستطيعُ أحَدٌ غَيْرُ الله أن يُخْرِجَهُ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة لِيَعْلَمه.

(١٠) قول الله عزّ وجلّ للرسُول ولكل داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ... ﴿١٩٩﴾﴾.

اسْتُعِير في هذه العبارة فعل: ﴿خُذِ﴾ للدّلالة على معْنَىٰ فعل: «اعْفُ» للإشعار بأنّ العفْوَ شيءٌ ثمينٌ يؤخَذُ ويُغْتَنَمُ ويُظْفَرُ به، وأنَّهُ مَرْتَبَةٌ نفيسةٌ يَحْرِصُ على الارتقاءِ إلَيْها أهْلُ البصيرة الإيمانيَّة.

وهذه الاستعارة قائِمة على تَشْبيه الْعَفْو الذي هو شيءٌ معنويٌّ بشيءٍ ماديٍّ ثَمِينٍ يُمْكِنُ أن يُؤْخَذ.

والغرض الإشعار بأخذ ثواب العفو عند الله في العاجلَةِ والآجلة، فهو بهذا مجازٌ مُرْسَلٌ أيضاً من إطلاق السَّبَبِ وإرادَةِ المسَبَّب.

* * *

خامساً:

تأكيد الخبر بالمؤكّدات لوجود الداعي إليه من أحوال المخاطبين به، أو المقصودين بالخطاب به.

وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة منه، أذكر منها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

عبارة: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اشتملت على مؤكدَيْن: «إنّ ـ والجملة الاسمية» والغرض إعلان تأكيدهم اعترافهم بأنّهم كانوا ظالمين، لعلّ الله يرفع عنهم الإهلاك.

(٢) قول الله عزّ وجل بشأن إغواء إبليس لآدم وزوجه:

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾:

أكد إبليس أنّه ناصِحٌ لهما بأربعة مؤكدات: «القسم - إنّ - الجملة الاسميّة - اللاّم المزحلقة للخبر» ليستجيبا لنُصْحِه الكاذب فيه، فيأكلا من الشجرة المحرمة.

(٣) قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ... ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ... ﴿١١﴾﴾.

جاء في هَاتين العبارتين التأكيد بـ «**لَقَدْ**» لأنّ الناس منصَرِفون عن ملاحظة نعم الله عليهم، ولحاجة الشاكّين في رُبوبيّة الله إلَىٰ تأكيد ما يدُلُّ على رُبوبيته.

(٤) قول الله عزّ وجل:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

في هذه الآية التأكيد بالقسم مرّتَيْن، فاللاّم في: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ وفي: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ واقعة في جواب قسم منويٍّ، ويتّصل بالقسم التوكيد بنون التوكيد الثقيلة.

وجاء هذا التأكيد لأنّ حالَ المكذّبين بيوم الدّين يقتَضِيه.

(٥) قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ... ﴿٢٧﴾﴾.

جاء في هذه العبارة التأكيد بنون التوكيد الثقيلة، لأنّ حال بني آدم أمام وسائل الشيطان الإغوائيّة تقتضيه.

(٦) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ. . . ﴿٤٠﴾﴾.

جاء في هذه الآية التوكيد بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية» لأن مقتضىٰ حال المكذّبين يستدعي التوكيد.

(٧) قول الله عزّ وجل:

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ. . . ﴿٥٩﴾﴾ ونظائره.

جاء التوكيد بعبارة [لَقَدْ] اللاّم واقعة في جواب قسم منويّ، و«قَدْ» حرف تحقيق يؤكّد مضمون الجملة.

والداعي إلى هذا التأكيد أن المقصودين الأولين بهذا البيَان هم المكذبون للرسول ﷺ، والمكذّبون بما جاء به عن ربّه.

(٨) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمقالة قوم نوحٍ عليه السلام له:

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾﴾.

كان الملأ من قوم نوحٍ يَعْلَمُون أنّ نوحاً عليه السلام على هُدىً، فأرادوا سَتْرَ مُعْتَقَدِهم فيه بتَأْكِيد ادِّعاءِ أنّه في ضَلاَلٍ مبين.

وجاء توكيدهم لمقالتهم بالمؤكّداتِ: «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللاّم المزحلقة للخبر ـ ومضون الرُّؤْية الجماعية».

ونظيرها مقالة قوم هود له التي جاء بيانها في الآية (٦٦).

(٩) قول الله عزّ وجل حكايةً لمقالة لوط عليه السّلام لقومه:

﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

«من» في عبارة «من أَحَدٍ» حرف جرّ زيد داخلاً على الفاعل لتأكيد عموم النفي.

ونظيره في عبارة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ داخلاً على المبتدأ في عدّة آيات.

(١٠) قول الله عزّ وجل في حكاية قَوْلِ ملأ قوم شعيب له:

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

في عبارَتَي: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ و﴿لَتَعُودُنَّ﴾ التأكيد بالقسم المنويّ الذي دلّت عليه اللاّم كما قال الخليل، وبنون التوكيد الثقيلة الملازمة له.

(١١) قول الله عزّ وجل في حكاية قولِ شعيب عليه السلام لقومه:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ... ﴿٨٩﴾﴾.

في عبارة: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ تأكيدٌ للنَّفي بأبلَغِ تعبير، إذْ جَاءَ فيها كَوْنٌ مَنْفِيٌّ وبَعْدَهُ لاَمُ الْجُحُود.

ونظيره ما جاء في قول الله عزّ وجل:

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ... ﴿١٠١﴾﴾.

(١٢) قول الله عزّ وجل حكايةً لقول قوم شعيب عليه السلام لمن آمَنَ به.

﴿... لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

في هذه العبارة قسم منوي جاءت اللام في ﴿لَئِنِ﴾ في جوابه، وجاء جواب الشرط مؤكداً بـ «إنَّ ـ الجملة الاسميّة ـ اللاّم المزحلقة ـ إذاً أيضاً لأنها زائدة للتأكيد باعتبار أنَّ ما قبْلَها مفتقرٌ لما بَعْدَها».

(١٣) قول الله عزّ وجل حكاية لمقالة ملأ فرعون بشأن موسى عليه السلام:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

أكَّدُوا مقالتهم عن موسى عليه السلام بـ «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة للخبر».

(١٤) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله محمّد ﷺ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... ﴿١٥٨﴾﴾.

جاء في هذا النّص التأكيد بـ «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ كلمة جميعاً».

* * *

سادساً:

تنزيل القريب منزلة البعيد، باستخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للدّلالة على بُعْدِ مزلَتِهِ ارتَقاءً في جِهَةِ المنازل الرّفيعة، أو هبوطاً في الدّركات المنحطّات.

وفي سورة (الأعراف) من هذا أمثلة كثيرة، أذكر منها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل بشأن من ثقلت موازينهم يوم الدين:

﴿... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾.

فجاء في هذه العبارة استعمال اسم الإشارة «أولَئِكَ» الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدّلالة على ارتفاع منزلتهم عند ربّهم.

(٢) قول الله عزّ وجل بشأن من خفّت موازينهم يوم الدين:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

فجاء لفظ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للدّلاَلة على بُعْدِ مَنْزِلَتِهم هبوطاً في اتّجاه الدَّرْكِ الأسفل، بحَسَبِ دَرَكَةِ كلِّ واحدٍ منهم.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

«ذَٰلِكَ» اسم إشارة موضوع للمشار إليه البعيد، وجاء استعماله هُنا للدلالة على ارتفاع منزلة لباس التقوى.

(٤) قول الله عزّ وجلّ بشأن أصحاب النار:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: أولَئِكَ البعداء عن رحْمَةِ الله الهابطون في اتّجاه الدرك الأسْفَلِ من النار.

(٥) قول الله عزّ وجل بشأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: أولئك ذَوُو المنازل الرفيعة جدًّا بفضل رَبّهم عليهم، وذَوُو الدّرجات الرفيعات في جنات النعيم، بحَسَب مقادير إيمانهم، ومقادير أعمالهم الصالحة.

(٦) قول الله عزّ وجلّ بشأن أصحاب الجنة وهم في الجنة:

﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

جاءت الإشارة إلى الجنة في هذه العبارة باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد [تِلْكُمْ] مع أنّهم يكونون فيها مُنَعَّمِينَ، للدلالة على ارتفاع مَنْزِلَتِها ارتفاعاً عظيماً.

* * *

سابعاً:

استقطاع النصّ من الحدَثِ الماضي أو المستقبل، وتقديمُهُ كَأَنَّ الحدَثَ يجري في وقت التكلّم، أو حكاية ما سوف يحدث بصيغة الماضي كأنّه سَبَقَ حدوثُهُ، للدلالة على تحقق حدوثه في المسْتقبل.

وهذا الفنّ من أبْدَعِ أساليب الفنون البيانيّة، وهو من المبتكرات التي جاءت في القرآن، والّتي علّمنَا اللّه بها روائع من فنون البيان.

وفي سورة (الأعراف) أمْثلَةٌ كثيرة من هذا الاستقطاع:

(١) قولُ الله عزّ وجلَّ اقتطاعاً ممّا جَرَىٰ من حَدَثٍ ماضٍ ضمن ذكْرِ قصة خلْق آدَم:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

(٢) ما جاء في الآيتين (٣٨ ـ ٣٩) اقتطاعاً ممّا سوف يجري من أحداث يوم الدّين للكافرين، بصيغة فِعْلِ حدَثٍ مضىٰ، للدلالة على أنَّ حُدوثه سوف يتحقّقُ حتماً.

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ ... ﴿٣٨﴾ ... ﴿٣٩﴾﴾.

ونظيره ما جاء في الآيات من (٤٣ ـ ٥٠).

(٣) قول الله عزّ وجل ضِمْنَ ذكْر أحْدَاث لقاء موسى عليه السلام ربّه عند جبل الطور، وفيه استقطاع بعض ما جرَىٰ فيما مضىٰ وتقديمه كأنه يجري في وقت التكلّم:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

فعبارة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ حتّى آخر الآية مستقْطَعَةٌ مِنَ الحدث الماضي.

(٤) قول الله عزّ وجل في الحديث عَنْ بني إسرائيل:

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

عبارة: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ مستقطعة من الحدث إبّان حُدوثه في الماضي، وتقديمها كأنَّ الحدث يجري عند التكلّم.

(٥) قول الله عزّ وجلّ بشأن ما سوف يَحْدُثُ يوْمَ الدّين بَعْدَ الحساب وفَصْلِ القضاء:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ... ﴿٣٠﴾﴾.

أي: فريقاً حَكَمَ الله لَهُ بالهداية، وفريقاً حَكَمَ عَلَيْهِ بالضَّلالَة فحقَّتْ عليه وثبتت.

جاء هذا بأسلوب حكاية أمْرٍ مضى وانقضى، للدلالة على أنّه لاَ بُدَّ أن يتحقّق حتماً في المستقبل.

* * *

ثامناً:

التضمين، وهو تضمين فِعْلٍ أو ما في معناه معنى فعل آخر وتَعْدِيته مثل تَعْدِية الفِعْلِ الذي ضُمّنَ معناه، فتُغْنِي العبارة عن عبارتين، والجملة عن جملتين.

وفي سورة الأعراف أمثلة متعدّدة من هذا التضمين الذي هو من أساليب البلاغة القرآنية، إيثاراً للإيجاز والاقتصاد في العبارات.

(١) قول الله عزّ وجل في حكاية مُسَاءلَتِه لإبليس بعد أن امتنع من السجود لآدم:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ... ⦗١٢⦘﴾؟!

أي: ما مَنَعَكَ من السّجود حَاملاً لَكَ على أن لا تَسْجُدَ. ضُمّنَ فعل «مَنَعَ» معنى فعل «حَمَل» فَعُدِّي تَعْدِيته، فأغْنَتِ الجمْلَةُ عن جملتين، إيجازاً وإبداعاً.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في بَيان وَسْوَسَةِ الشيطان، يَبْتَغي بها إغواء آدم وزوجه:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا... ⦗٢٠⦘﴾.

فعل «وَسْوَسَ» فعْلٌ لازم، ضُمّنَ معنىٰ فِعْلِ «سَوَّلَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغنت العبارة المختصرة عن جُمْلَتَين.

أي: فوسْوَسَ الشيطان، مُسَوِّلاً بوسْوَسَتِه لهما.

الوَسْوَسَة: الصوت الخفي، كَصَوْتِ الحلي.

التسويل: التحسينُ والتزيينُ والتحبيبُ بالأمْر والإغراءُ به.

(٣) قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا... ⦗٤٠⦘﴾.

ضُمّن فعْلُ «اسْتكبر» معنى فعل امتنع فعُدّي تَعْدِيته، فأغنت الجملة عن جملتين.

أي: واستكبروا ممتَنِعين عن اتّباع آيَات اللّهِ المنزّلاَتِ إليهم منه.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في حكاية قول قوم شعيب عليه السلام لَهُ ولمن آمن به واتَّبَعَهُ:

﴿...أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ...(٨٨)﴾.

ضمّن الفعلُ في [لَتَعُودُنَّ] مَعْنَىٰ الفعل في «لَتَدْخُلُنَّ» فأغنت الجملة عن جملتين.

أي: أو لَتَعُدُنَّ عَنْ دِينِكُمُ الجديد ولَتَدْخُلُنَّ في مِلَّتنا.

(٥) قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ...(١٠٠)﴾.

ضُمِّن فعل «يَهْدِي» معنى فعل «يُبيِّن» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فحملَتِ العبارة دلالَتي الفعلين معاً.

أي: أو ما هَدَىٰ حالُ الأُمَم السّالِفَة مبيّناً للأُمَم الوارثة لها، سُنَّةَ الله الثابتةَ الّتي تقتضي إصابة المذنبين بذنوبهم.

(٦) قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَاۖ...(١٠٣)﴾.

ضُمِّنَ فعْلُ «ظَلَمُوا» معنى فعل «كَفَرُوا» فَعُدِّيَ تَعْدِيته.

أي: فظلموا كافرين بها، فأغنت الجملة عن جملتين بإيجاز بديع.

(٧) قول الله عزّ وجل حكاية لقول آلِ فرعون لموسىٰ عليه السلام:

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ...(١٣٤)﴾.

ضُمِّنَ فِعْلُ «نُؤْمِنَ» معنى فعل «نُسْلِم» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغنت الجملة عن جملتين إيجازاً وإبداعاً.

أي: لَنُؤْمِنَنَّ بك مسلمين لك.

(٨) قول الله عزّ وجل في الحديث عن بني إسرائيل:

﴿... وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ... ﴿١٦٠﴾﴾.

ضُمّن فعل «ظَلَّلَ» معنى فعل «جَعَلَ» فعُدّي تَعْديته، فأغنت الجملة عن جملتين، إيجازاً وإبداعاً.

أي: وظلَّلْنَاهم جَاعلين عليهم الغَمامَ مظلّلاً لهم.

(٩) قول الله عزّ وجلّ بشأن الذين كانوا يَعْدُونَ في السبت من بني إسرائيل:

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

فعلُ «عَتَىٰ» لازمٌ لا يتعدّىٰ، فاقتضىٰ المعنى تضمينه معنى فعلٍ آخر، والملائم أن نقدّر هُنَا معنى فعل «استنكف».

أي: فلَمَّا عَتَوْا مُسْتنكفين عن طاعة الله بترك ما نَهاهم عنه من العدوان على حُرْمة يوم السبت، واستمرّوا متمادين في معصية بارئهم، أصْدَرْنا أَمْرَ التكوين بمسخهم قِرَدَة.

* * *

تاسعاً:

خروج الاستفهام عن أصل دلالته وهي طلَبُ الإفهام، إلَىٰ معانٍ أخرى، كالإنكار، والتلويم والتوبيخ، والنفي.

وفي سورة الأعراف أمثلة كثيرة من هذا، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ يعلّم رسُولَه كيف يجيب المفترين على ربهم:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

الاستفهام في هذه الآية يرادُ به التلويم والتثريبُ والتوبيخ، لأنّهم يقولون على الله ما لا يعلمون.

(٢) قول الله عزّ وجلّ بشأن الذين يُحَرِّمُون ما لم يحرّمه الله من الزينة التي أخرج الله لعباده، والطيّبات من الرزق، يعلّم رسوله وكلّ داعٍ إلى الله وإلى سَبيلِهِ من أمته كيف يعالج المفترين على رّبهم:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ... ﴿٣٢﴾﴾.

في هذا التعليم استفهام إنكاريٌّ تَلْويمِيٌّ، إذْ لا يُوجَدُ مُبَلِّغٌ عن الله صادِقٌ حَرَّمَ هٰذه الأشياء، بل هو مفترٍ كذّابٌ في دينِ الله، والغرض من هذا الاستفهام النفْي.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ... ﴿٣٧﴾﴾:

الاستفهام في هذا النصّ يُراد به بيانُ شناعَةِ وفظاعة جُرْم مَنْ يفتري على الله الكذب، ومثله من يُكذّب بآيات الله المنزّلاَتِ على رسُوله، مع بيان أنّه لا يوجَدُ أظلم منه.

(٤) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لما يقولُه أصحاب الأعراف يوم الدين لبَعْضِ من كانُوا يَعْرِفُون في الحياة الدنيا، من أهل الغنى والكبر الذين عُوقِبُوا على كفرهم بالخلُود في عذاب النار:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾؟!.

الاستفهامان في هذا النّصّ يراد بهما التوبيخُ والتحسير.

(٥) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لرَدّ نوح عليه السلام على ملأ قومه:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ... ﴿٦٣﴾﴾.

ونظيره قول الله عزّ وجلّ حكايةً لردِّ هود عليه السلام على الملأ الذين كفروا من قومه:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ... ﴿٦٩﴾﴾.

الاستفهامان الواردان في هذين النّصّين هما من قبيل الاستفهام التعجبيّ الإنكاري.

أي: إنّ تعجُّبَكُمْ هو الأمر الذي يسْتَدْعي أنْ يُتَعَجَّبَ مِنه وَيُسْتَنْكَر.

(٦) قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً لِقَوْلِ الملأ الذين كفروا من قوم هود عليه السلام:

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا... ﴿٧٠﴾﴾.

في هذه المقالة استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى الاستهزاء والسخرية.

(٧) قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ﴾.

الاستفهاماتُ الوارداتُ في هذا النّصّ يُرَادُ بها التعجيب والتلويم والتأنيب.

(٨) قول الله عزَّ وجلَّ حكايةً لقَوْلِ موسى عليه السّلام للذين قالوا له من بني إسْرَائيلَ: اجْعَلْ لَنا إلَهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ:

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

الاستفهام في هٰذِه الآية استفهامٌ تعَجُّبِيٌّ إنكاريٌّ فيه معنىٰ التشنيع على

الّذين طَلَبُوا من بني إسرائيل أنْ يجعَلَ لهم إلَهاً وثناً.

(٩) قول الله عزّ وجلّ حكاية لقولِ موسى لبني إسرائيل الذين اتَّخذُوا العِجْلَ إلَهاً يَعْكُفونَ عليه عابدين:

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ . . . ﴿١٥٠﴾﴾.

أي: أسَبَقْتمُ أمْرَ ربِّكُمْ متجاوزين حدود ما أمَرَكم به من أن لا تتخِذُوا آلِهَةً من دونه. وهو من قبيل الاستفهام التوبيخيّ الإنكاري.

(١٠) قول الله عزّ وجلّ بشأن الذين اتَّهَمُوا الرسول محمّداً ﷺ بالجنون:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

الاستفهام في هذه الآية فيه معنى التعجيب من أمرهم، مع تلويمهم وتوبيخهم والإنكار عليهم، بأسْلُوب الحديث عنْهم دُون مواجَهتِم بالخطاب، وفيه حثٌّ على التفكّر في شخصيَّةِ الرّسُول وكَمال صفاته البشرية وكمال أخلاقه، وعظيم ما جاء به عن ربّه، التي تجعل من يتّهمه معها بالجنون من أسفه السُّفَهاءِ، ومن أكْثرِ الناسِ جُحوداً وظُلْماً.

* * *

عاشراً:

استخدام الكناية أسلوباً لبيان المراد، وهو لازِمُها، وفي سورة (الأعراف) عدّة أمثلة من هذا الأسلوب البلاغي:

(١) قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . . ﴿٢٩﴾﴾.

مع الأمْرِ بإقامَةِ الوجوه عندَ كُلِّ صَلاَةٍ كَما سَبَقَ في التدبّر، ففي هذه

العبارة كِنَايَةٌ تُوجّهُ للاهتمام والعنايةِ التّامَةِ بعبادة الله عزّ وجلّ، استقبالاً للقبلَةِ الّتي أمَرَ الله باستقبالها، وتركيزاً للحواسّ الموجودة في الوجْهِ مُعَدَّلَةً غَيْرَ مُعْوَجَّةٍ وَلاَ مَائِلَةٍ، وَلاَ شارِدَةٍ وَلاَ مُدْبرَةٍ أَوْ مُعْرِضَة، ويكونُ هذا بتوجيه السّمْع والبصر واللّسان مُعَدَّلاَتٍ في استقامَةٍ على عبادة الله جلّ جلالُهُ وعظم سُلْطانه، ومن وراء الحواسّ الظاهرة الفكر والنفسُ حتّىٰ عُمْقِ القلْب.

(٢) قول الله عزّ وجلّ بشأن الذين عَبَدُوا الْعِجْلَ من بني إسرائيل حينما شاهدوا موسَىٰ عليه السّلام عائداً إليهم يَحْمِلُ الألواح.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

في عبارة: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ كِنَايَةٌ بَدِيعَةٌ عَنْ نَدَمِهِمْ، وشِدَّةِ خَوْفهم من سَطْوَة مُوسىٰ عليه السّلام.

وأصْلُ هذه العبارة أنَّ الّذي يُسْقَطُ في أَيْدِي المجرمين بسُرْعَةٍ وعُنْفٍ هي الأغلاَلُ والأصفادُ والقيود التي يُسَاقون بها لمعاقبتهم.

وحين تكونُ هذه من الحديد الثقيل فإنّها قَدْ تُسْقِطُهُمْ إلى الأرض، فيكونون بذلك نادمين ساكنين، لا يملكون إلاّ الاعتراف بجرائمهم.

(٣) قول الله عزّ وجلّ حكاية لِدُعَاءِ مُوسَىٰ عليه السلام وهو في الميعاد الثاني لمناجاة رَبّه عند جبل الطور:

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ . . . ﴿١٥٦﴾﴾.

جاء التعبير بـ ﴿وَٱكْتُبْ﴾ كنايَةً عَنِ القضاء والْقَدر المستَتْبَعَيْنِ بالكتابة والتنفيذ، لأنّ الكتابة من لوَازم قَدَرِ اللّهِ وقضائه، إذْ كُلُّ ما يُقَدِّرُه اللّهُ عزّ وجلَّ وَيَقْضِيه يكتُبُه، وحِين يأتي وقت التنفيذ يُنَفِّذُه.

(٤) قول الله عزّ وجلّ بشأن الظالمِينَ مِنْ بني إسرائيل:

﴿. . . وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

في هذه العبارة كنايَةٌ عمَّا فَعَل الإسْرائيليُّون في تاريخهم الطويل من فسادٍ عَرِيضٍ.

أي: فأفْسَدُوا وَطَغَوْا وَبَغَوْا وَعَصَوْا بارِئهم، وظَلَمُوا ظُلْماً شَنيعاً فاحشاً، وَمَا ظَلَمُونا بذلك ولكن كانوا يظْلِمُونَ أنفُسَهم، بتَعْرِيضها للعقابِ والعذاب الشديد.

* * *

حادي عشر:

القصر والحصر، وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة من هذا الأسلوب البلاغي لأداء المعنى المراد، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقول شعيب عليه السلام للذين هدّدوه والذين آمنوا به بالإخراج من بلادهم:

﴿. . . عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا . . . ﴿٨٩﴾﴾.

في هذه العبارة قَصْر دلّ عليه تقديم المعمول ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ علىٰ عامله في: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ وهو قصر حقيقي من قصر الصفة على الموصوف.

أي: على الله وحده لا شريك لَهُ تَوَكَّلْنَا.

(٢) قول اللّه عزّ وجلّ بعد بيان إهلاك كفّار قوم شعيب عليه السّلام:

﴿. . . ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

في عبارة: ﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قَصْرٌ دَلَّ عليه تعريفُ طَرَفَي الإسناد، مع زيادة التأكيد بضمير الفصل.

والقصر هنا هو من قبيل القصر الإضافي، أي: كانوا هم الخاسرين

لا الذين آمنوا بشعيب عليه السلام، وهو من قصر الصفة على الموصوف، أي: قصر صفة الخسارة على الذين كذّبُوهُ من قومه، بالإضافة إلى كلّ قومه.

(٣) قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن آل فرعون الّذين اطّيّروا بموسى ومَنْ معه:

﴿... أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

أي: ما قضاء ما يَنْزِلُ بهم ممّا يكرهون إلاّ عند الله، وهذا القضاء الرّبّاني يُسَبّبه طائرهم، وهو عمَلُهُمُ الّذي إذَا عَمِلُوه طار عنهم وَصار مُسَجَّلاً عند الله، فهم مسؤولون عنه، وهم يُعَامَلُون من الله عزّ وجلّ بمقتضاه.

وإطلاق الطائر على العمل استعارة، وإرادة لازمه الذي هو قضاءُ الله النافذ فيهم كناية.

والقصر هنا قصر حقيقيّ من قصر الصفة على الموصوف، أي: قَضَاء مقاديرهم ممّا يكرهون وممّا يحبُّون لا يُوجَدُ إلاّ عند الله.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن الرَّسُول النبي الأمّي:

﴿... فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

في عبارة: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قصر الفلاح على الّذِين آمنوا به وعزّرُوه ونَصَرُوه، وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف.

التعزير: التوقير والتعظيم والتقوية.

والقصر هنا قصر إضافِي، أي: بالإضافة إلى الّذين لم يُؤْمِنُوا به بَعْدَ بِعثَتِه، وقد بلغتهم رسالته فجَحَدُوها.

(٥) قول الله عزّ وجل:

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

في عبارة: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ قَصْرٌ استفيد من تقديم المعمول على العامل. أي: وما كانوا يظلمون إلاّ أنفسهم، فوصْفُ ظُلْمِهم مقْصُورٌ أثَرُه عليهم، لأنّهم هم المعاقبون عليه عند ربّهم، وتكذيبُهُم بآيات الله لم يَضُرَّ الله شيئا.

(٦) قول الله عزّ وجلّ بشأن وقت قيام السّاعَة:

﴿. . . لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً. . . ﴿١٨٧﴾﴾.

في هذه العبارة قَصْرٌ استُفِيد من النفي والاسْتثناء، وهو من قصر الموصوف وهو حالُهم عند إتيان الساعة، على البغتة أي: على المفاجأة. وهو قصرٌ إضافيٌّ، أي: بالإضافة إلى أحوال العلم والجهل، إذْ لهم صفاتٌ أخرى كَثِيرَةٌ غير كونهم مُبَاغَتِين.

(٧) قول الله عزّ وجلّ خِطَاباً لِرَسُوله محمّد ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

في عبارة: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قصر اسْتُفِيدَ من النفي والاسْتِثناء، فلفظ «إِنْ» حرف نفْي.

وهو من قَصْرِ الموصُوف وهو الرَّسُول على صِفَةِ الإنْذَارِ والبشارة، وظاهر أنّه من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى آخر أحواله بَعْد تأديته كلِّ وظائف رسالته قبْل وظيفة الإنذار والتبشير.

(٨) قول الله عزّ وجلّ في وصْفِ الذين عنده من الملائكة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

في عبارة: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ قَصْرٌ حقيقيّ، أيْ: وله وحْدَهُ

يَسْجُدونَ، فلا يَسْجُدون لغير الله عزّ وجلّ، وهذا من قَصْرِ صِفَةِ سُجُودِهِم على مَسْجُودٍ له واحد، هو الله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

واستفيد هذا القصر من تقديم المعمول على عامله.

* * *

ثاني عشر:

التشبيه، ومن التشبيهات البديعة في سورة (الأعراف): قول الله عزّ وجل فيها في وصف المنْسَلِخِ من آياتِ ربّه المنزّلاَت:

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ... ﴿١٧٦﴾﴾.

في هذا المثل تشبيه بَدِيع من نوع تشبيه التمثيل، شبَّه الله عزّ وجلّ فيهِ المنسلخَ من آيات الله بَعْدَ انسلاَخِهِ منها واتّباعِه الشَّيطانَ وغَوَايَتِه، بالكَلْب اللاَّهِثِ دَواماً، لأنّ الغاوِيَ باتّباعِهِ أهواءَه وشهواتِه يسْتمرُّ في حالة ظمأٍ لتَنَاول ما يشْتَهي، فهو يُتَابع ذلك بغاية ما يَسْتَطيع من قُوَّة وهمَّةٍ ومجاهدةٍ، تُحْوِجُه أنْ يكون لاهثاً وراءَها دواماً، من جَرْيه وراءَ مطالب نفسه التي تتجدّدُ دواماً، كحالة الكلْب اللاَّهث دواماً، إنْ تَحْمِل عليه يلْهَث أَوْ تَتْرُكهُ يَلْهَثْ.

* * *

ثالث عشر:

استعمال ضمير المتكلّم العظيم وهو ضمير جَمْعِ المتكلمين، لأنّ الموضوع يسْتَدْعِي تَرْبية المهابة، أو التنبيه على عظمة رُبوبيَّةِ الرّبّ جلّ جلالُهُ في آيات خلْقه، أو آيات بيانه، أو آيات عقابه، ونحو ذلك.

وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة من هذا، ومنها ما يلي:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ - فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ - فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ - وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ - وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ - يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ - وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا - وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ - وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ - وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ - سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ - كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ - لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا - فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ - لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ﴾ -

إلى سائر النظائر في السُّورة.

* * *

رابع عشر:

التنكير للتهويل والتعظيم، أو التكبير والتكثير، أو لغير ذلك من أغراض التنكير البلاغية، ومنه:

(١) قول الله عزّ وجلّ بشأن أهل جهنّم في جهنم:

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ ... ﴿٤١﴾﴾.

أي: لهم في جهنّم مِهَادٌ شديدُ الإيلام، ولهم من فوقِهم غَواشٍ، وهي ظلماتٌ دخانيةٌ حارّةٌ تَعُمُّ سماء جهنّم، وتجلّلُهم بالعَذاب والكرب.

فهم بين مِهَادٍ جهنّمِيّ أليم، وَغواشٍ عظيمة مَهُولَةٍ شَدِيدَةِ التعذيب لمَنْ تجلّلُهم في دار العذاب يوم الدين.

وفي استعمال لفظَتي «مهاد» و«غواش» ما لا يخفىٰ من التنكيل والاستهزاء بهم، مقابلَ استِهْزَائِهِم في الدنيا بما أُنْذِرُوا به من عذاب الله يوم الدين.

(٢) قول الله عزّ وجلّ حكاية لمقال السَّحَرَةِ لفِرْعَونَ:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝١١٣﴾؟

أي: أإِنَّ لنَا لأَجْراً كبيراً كثيراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغالبين؟.

* * *

خامس عشر:

إيراد الجملة الاعتراضيّة لغرض بلاغي، ومنه في سورة (الأعراف):

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٤٢﴾.

عبارة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ جملَةٌ اعتراضِيَّةٌ، والغرضُ البلاغِيُّ المبادَرَة إلى طَمْأَنَة المتقين بأنّ الله لا يكلّف نفساً إلاَّ وُسْعَها، قبْلَ أن يُبَشِّرهم بأنّهم أصحابُ الجنَّة، حتَّىٰ لاَ تَعْظُمَ في نفوسهم مَصَاعِبُ الالتزام بمطْلُوب التقوىٰ منهم، في أحوالٍ كثيرة كأحوال الأعذار والخطأ والنسيان وضعف الإرادة ضعفاً شديداً أمام بعض مطالب النفس، وتسلُّط الأهواء والشهوات عليها.

* * *

سادس عشر:

وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لداعٍ بلاغي، ومنه في السورة:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ . . . ۝١٤٣﴾.

كان الظاهر أن يقال: ولمّا جاء موسَىٰ لميقاتنا وكلَّمْنَاهُ، باستعمال الضمير، لكن النّصّ جاء: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فَوُضع الاسم الظاهر موضع الضمير للدّلالة على أنَّ هذا التكليم يتعلَّقُ بخصائص صفات رُبُوبية الله لعباده، الّتي تَسْتَدْعي أن يعبُدوه وحْدَهُ إلَهاً لاَ شريك له، في حدود شرائعه وأحكامه وبياناته لهم.

* * *

سابع عشر:

اختيار التنويع في البدائل بين المترادفات إيثاراً لما هو الأعذب في السّمع، والألْيَن في النطق، ومنه في السورة، قول الله عزّ وجل حكايةً لقول بني إسرائيل لموسى عليه السلام قبل الخروج من مصر:

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ. . (١٢٩)﴾.

جاء في هذا النَّصّ من بديع الاختيار في بدائل الكلمات المترادفات، عبارة: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ﴾ بَدَلَ «ومن بَعْدِ ما أَتَيْتَنَا» المناظرة لما سبقها.

فمع أنّ الإتيان والمجيء مترادفان، لكنّ التنويع هنا في البدائل أعذبُ في السّمع، وألين في النُّطق، وفيه ابتعاد عن تكرار مادّة الكلمة الواحدة.

* * *

ثامن عشر:

تنزيل غير العاقل منزلة العاقل والحديث عنه كالحديث عن العقلاء، لداعٍ بلاغي، ومنه في السورة حديثاً عن أوثان المشركين:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا... ﴿١٩٥﴾﴾.

في هذا النّصّ ذكر الله عزّ وجلّ أوثان المشركين بالتعبيرات التي يُذْكَرُ بها الأَحْيَاءُ العقلاء مُسَايَرَةً لعُبَّادِهَا، ولولا هذه المسايرة لكان الحديث عنها كما يلي: أَلَها أرجلٌ تمْشي بها، أم لها أَيْدٍ تبطش بها، أم لها أعين تبصر بها، أم لها آذانٌ تسمع بها.

* * *

تاسع عشر:

بيان استحالة حدوث الشيء بتعليق حدوثه على حدوث أَمْرٍ آخر معلوم الاستحالة بداهةً بالعقل، أو بحسب نظام الكون، ومنه قولُ الله عزّ وجلّ بشأن الّذِينَ كذَّبوا بآيات الله المنزَّلات، فلم يتّبعُوا مَا جاء فيها:

﴿... وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ... ﴿١٤٠﴾﴾.

وبما أنّ الجَمل الّذِي هو الحيوان المعروف لا يُمْكن أنْ يَدْخُلَ مَعَ بقائه على صفاته المعروفة، في ثَقْب الإبْرَةِ المعروفة مع بقائها علىٰ وصْفِها وَمِقْدَار ثَقْبِها، فلا يُمْكِنُ أن يَدْخُلَ هٰؤلاء الجنّة.

وهذا من الكنايات البديعة، المنتزعة من صُورَةٍ متخيَّلةٍ مُسْتَحِيلَةِ الوقوع بيْنَ أَمْرَيْنِ حِسّيّيْن.

وهذا الأسلوب البيانيُّ من قبيل قول القائل لِقَطْع آمال طامعٍ في أَمْرٍ ما: نجومُ السّماء أقربُ لك، أي: لَنْ يتحقَّقَ ما تطمع فيه.

* * *

عشرون:

استخدام «ال» الدّالّة على الكمال على تقدير أنّها تستغرق كل عناصر النوع، ومنه في السورة قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿... تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ... ﴿٤٣﴾﴾.

(ال) في الأَنهار للكمال، أي: تجري من تحتهم الأنهار الكاملة، المتسجمعة لكلّ الصفات الّتي تجعلُها أكْمل الأنهار وأحسنها وأفضلها.

* * *

(١٨)

الملحق الثاني

السُّؤال في محكمة العدل الرّبّانيّة يوم الدين

إنَّ محكمة الفضل والعدل الرّبانية يوم الدين، من عناصرها سؤالُ المقدَّم للمحاكمة عمّا أسْلَفَ في الحياة الدنيا في رحلة امتحانه، وسؤالُ الشهود عليه إذا حاول الجحودَ والمراوغَة، وكانَ في الحياة الدنيا من الذين بلَغَتْهُمْ دعْوَةُ الرُّسُلِ إلى الإيمان والإسلام فكفَرُوا بها ولم يَتَّبِعُوا ما أُنْزِل إليهم من ربّهم.

وأوّل سُؤَالٍ يُطْرَحُ عليه في محكمة العدل الرَّبَانِيَّةِ يتعلَّقُ بتَبَلُّغِهِ ما أَنْزَلَ اللّهُ لعبادِهِ من دين ليَتَّبِعُوهُ، فإذا أَقَرَّ واعْتَرَفَ، أو أُدِينَ بِشَهَادَةِ الشهود عليه، طُرِحَ عليه السُّؤَالُ الَّذِي يتَعَلَّقُ بإيمانه بالحقّ أَوْ كُفْرِه وجحوده له.

ثُمَّ تُطْرَحُ عليه الأسئلة حَوْلَ أعماله الإراديَّة الظّاهرةِ والباطنةِ الجسديَّة والنفسية الّتي كان قد عَمِلَها في الحياة الدنيا مخالفاً فيها أوامِرَ ربّه ونواهيَه، وعن الأعمال الّتي كان يجب عليه أن يعملها فلم يَعْمَلْها، وعصَىٰ بتركها رَبّه.

وفي هذا الملحق استعرض بشيء من التَّدَبُّرِ النصوصَ القرآنية الواردة في السُّوَر حَوْلَ هذا الموضوع:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنَّهُ يجمع في محكمة العدل الرَّبّانية يوم الدين بين الوائِدِ ومَوْؤُدته الصغيرة، فَيُوَجَّهُ السُّؤال للمَوْؤودة، فيقالُ لها: بأيّ ذَنْبٍ قُتِلتِ؟.

ومن البدهيّ أن تقول المَوْؤُودَة: لا ذَنْبَ لي، فأنَا ما زِلْتُ صغيرةً لم أقْتَرف ذنباً حتَّىٰ أُقْتَلَ به، وقد قُتِلْتُ لِمُجرَّدِ أنَّ ربّي خلَقَنِي أُنْثَىٰ.

وقولُها هذا حُجَّةٌ دامِغَةٌ ضِدَّ قَاتِلها، فَمِنَ المعلوم بداهَةً أنَّ قَاتِلَها ظَالِمٌ آثِمٌ، وأنَّ قاتِلَها لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَدَّعِيَ أنْ لَهَا ذَنباً ما.

وتوجيه السُّؤال يكون لاسْتكمال المحاكمة شُرُوطَها وعناصِرَها.

أمّا مَعَاذيرُهُ الأخرى الَّتي كانت الدَّافع له إلى الوأْدِ الظالم، فَهِي لاَ تتعلَّقُ بالمؤوودة المظلومة، وإنّما تُعَبِّرُ عن الاعتراض على حِكْمَةِ الله عزّ وجلّ في الخلْق، أو على سُنَّة الله في المجتمع البشريّ وسائر الكائنات الحيّة، وكلُّ اعتراض من هذا النوع يتضمَّن إدانَةً له بالكُفر بحكْمَةِ رَبّه العليم الحكِيم.

ومن الملاحظ أنّه قد جاءَ الْبَدْءُ في نجوم التنزيل القرآني حوْلَ هذا الموضوع، ببَيَانِ سُؤَالِ المؤوودة عن الذَّنب الّذي بسَببه قَتَلَها وائِدها، نظراً إلى أنّ أَوَّل مَا يُحَاكَمُ عَلَيْه يَوْمَ الدّين ما يتعلَّقُ بالمظالم، ومنْها الظُّلْم الّذي يكون بين البهائم الْعَجماوات، حتَّىٰ يُقَادَ للشَّاةِ الْجَلْحاءِ من الشَّاة الْقَرْناء الّتي نَطَحَتْها في الدّنْيا ظُلْماً.

إنَّ الظُّلْمَ يُدْرَكُ بالفِطْرَةِ، فَلاَ يَرْتَبط الجزاءُ عَلَيْه بإرسالِ رُسُلٍ، وإنْزالِ شرائِعَ وَأحْكَامٍ رَبَّانِيَّةٍ.

* * *

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول):

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

في هٰذه السُّورة بيانٌ لسُؤال الكافرين عن النعيم في الدار الآخرة، لكِنَّ تَرتيب هذا السؤال بعَطْفِهِ بحرف العطف «ثُمَّ» الذي يَدُلُّ على الترتيب مع التراخي، يَدُلُّ على أنَّه لا يكُونُ في موقف الحسابِ وفَصْل الْقَضاء، بل يكونُ بَعْد دخولهم الجحيمَ دارَ عذابهم.

فأرَىٰ أنّه ليْسَ من عناصِر السُّؤال في محكْمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيّة، بل هو سؤالٌ لهم عن نعيم الجنَّة، وهُمْ يُعَذَّبُونَ في الجحيم، وهو في الحقيقة سُؤَالُ تَحْسِيرٍ وَتَنْدِيمٍ حول نعيم الجنَّةِ الَّذِي حُرِمُوهُ بِكُفْرِهِمْ به، وبإنكارِهم له، إنَّه النَّعِيمُ الَّذي يتقلَّبُ فيه المؤمنون.

لَقَدْ ذَاقَ الكافِرُون العذابَ الّذِي كَانُوا يُنْكِرُونَهُ، فَلْيَذُوقوا عذابَ الْحَسْرَةِ والنَّدَم، بسُؤالِهم عن النعيم الذي كانوا في الدنيا يُنْكِرُونَه، ويَرَوْنَهُ خُرَافَةً من الْخُرَافَاتِ، وأُكْذُوبَةً افتراها المرْسَلُونَ.

ويؤكِّدُ هذا الْفَهْمَ أنَّ النّعيم لم يُذْكَرْ في القرآن إلاّ مُراداً به نعيم أهل الجنَّةِ في الجنَّة، أمَّا لذَّاتُ الحياة الدنيا وطيِّباتُها، فقد جاء في القرآن ذكْرُها تَحْتَ عنوان «متاع» والمتاع هو الذي يُنْتَفَعُ به انْتِفَاعاً مؤقَّتاً، والفناءُ يأتي عليه وَلاَ بَقَاءَ له.

* * *

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

فجاء هذا النّصّ لبيان السُّؤال في محكمة العدل الرَّبّانية يوم الدين. عمّا أَنْزَلَ الله عزّ وجلّ للنّاس من أمور دينهم عقيدةً وشريعةً ومنْهاجاً.

ولمّا كان ما أنزلَهُ اللَّهُ للنّاسِ قد أنزلَهُ على رُسُلِهِ ليَعْمَلُوا به، ولِيُبَلِّغُوهُ للنّاس اقتضىٰ الأمْرُ أن يُوَجَّهَ سُؤالاَنِ، أحَدُهُما للمُرْسَلِ إليهم، والآخَرُ للرُّسُل ويُلْحَقُ بالرُّسُلِ حَمَلَةُ رسالاتهم من أُمَّتِهِمْ.

- أمّا السؤال الذي يُوَجَّهُ للمُرْسَلِ إليهم من الناس، فهو سُؤالٌ عنْ تَبَلُّغِهِمْ مَا جاء به الرُّسُل وَبلَّغُوهُ للنّاس، ثم يكون سُؤالُهُمْ عن الإيمان، والعمل، والإخلاص للَّهِ عزّ وجلّ فيه.

- وأمّا السُّؤال الّذي يُوجَّهُ للرُّسُل، فهو سؤالٌ عن تَبْلِيغِهم ما كلَّفَهُمُ اللَّهُ أن يُبَلِّغُوهُ للناس. ممّا أنزل إليهم.

وقد جاء في هذا النّصّ تأكيد الخبر حول هٰذين السؤالين، بالقسم الذي دَلَّتْ عليه لاَم القسم، وهي الّتي تَقَعُ في جوابه، وبنُونِ التوكيد الثقيلة المشدَّدة: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ ـ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾.

وهٰذان السؤالان يتْبَعُهما سؤال الناس عن إجابتهم دَعْوَة رُسُلِ رَبِّهم، وسُؤالِ الرُّسُلِ عن استجابة أُمَمِهم لهم.

وقد جاء بيَانُ سؤال الناس عن إجابتهم دَعْوَةَ رُسُلِ رَبِّهم، في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: ما الّذي أجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ به؟ هَلْ آمَنْتُم بِهِمْ واتَّبَعْتُمُوهُم، أَمْ كَفَرْتُم بِهِمْ، وَكَذَّبتُموهم، ولم تَسْتَجِيبُوا لدَعْوَتهم، ولم تَتَّبِعوهم؟

وجاء بيانُ سؤالِ الرُّسُل عن استِجابَةِ أُمَمِهِمْ لهم في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: مَا الَّذِي أُجِبْتُمْ بِهِ من قِبَلِ أُمَمِكُمْ؟ هل أُجبْتُمْ بالإيمان والاتّباعِ، أَمْ أُجِبْتُم بالتّكْذِيب ورَفْضِ الاتّباع؟.

ولمَّا كانَتْ أُمَمُ الرُّسُلِ أَكْثَرَ مِنَ الَّذِينَ كانوا في عصورهم مستَجِيبِينَ أَوْ مُكذِّبين، وكانَ في بعضِ المستجيبين ظاهراً منافقون باطناً، كان من الحقّ أن يَقُولَ الرُّسُلُ لربّهم:

﴿... لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

* * *

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾: أي: كان مُعطِي العَهْدِ مَسْؤُولاً عن الوفاء به، عند ربّه يوم الدين.

أُسْنِدَ السؤال إلى العهد على طريقة ما يُسمّيه عُلماءُ البيان «المجازَ العَقْلِيّ» وهو إسناد المتكلّم الفِعْلَ أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاده، لملابَسَةٍ بينهما مع قرينةٍ صارفة.

والملابسة هنا بين العهد وبَين مُعْطِيه ظاهرة، إذْ هو صاحِبُ العهد.

﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾: أي: كلٌّ من السَّمْع والبَصَرِ والفُؤَاد كَانَ مسؤولاً عن اقتفاء ما ليس له به عِلْم، من دليل عقليّ، أو مشاهدة حسّيّة، أو خبر صادق يقومُ الدليل العقليُّ على صدقه.

والمراد صاحب السَّمْع والبَصَر والفؤادُ، والإسناد في هذه العبارة هو من قبيل المجاز العقلي أيضاً، نظير الإسناد في العبارة السابقة.

وفي مقدمة ما يسأل عنه اقتفاءُ دِينٍ لا يؤيّده دليلٌ علميٌّ صحيح.

وقد جاء في هذا النّصّ التصريح بالسؤال عن العهد، والتصريح بالسؤال عن اقتفاءِ الإنسانِ ما ليْسَ لَهُ به عِلْم، اهتماماً بأمْرِهِمَا، نظراً إلَىٰ احْتمال تهاوُنِ الناس بهما.

أمّا السؤالُ عن أكْلِ مال اليتيم بغير حقّ، والسؤالُ عن إيفاء الكيل والوزن بالقسط، فهو من باب أوْلَى، ويقاسُ على كُلٍّ ممّا جاء التصريح به، وممّا يُفْهَمُ باللُّزُوم العقلي، أشباههما وَنظائرهما في سائر النصوص القرآنية الّتي لم يأت فيها التصريح بالسؤال عنها.

ويُفْهَمُ من هٰذا أنّ من أجابَ الرَّسُولَ إلى ما قدَّمَ إلَيْهِ من عِلْمٍ صَحِيح مستَنِدٍ إلىٰ خَبَرٍ صادق، أو مشاهدةٍ حسّيَّة، أو دَلِيلٍ عقلِيٍّ آمن به، وأعْطَاهُ عهداً بالإسلام والمتابعة كان هذا الْعَهْدُ الإيمانيُّ الإسلاميُّ، من العناصر المهمَّةِ الّتي يُسْأَلُ عنها وهو واقف بين يَدَي الله في موقف الحساب وفَصْل القضاء يوم الدّين.

* * *

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

فأقْسَمَ الله عزّ وجلّ بِرُبُوبيّته، على أنّه لا بُدَّ أَنْ يَسْأَل يوْمَ الدِّينِ في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء، جميع الّذين كانوا موضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا عَمَّا كانوا يَعْمَلُونَ فيها.

ومعلومٌ أن السؤال عن الأعمال مقدّمة للمحاسبة عليها، وقَدْ يدخل الله بعض عباده الصالحين الجنّة بغير حساب.

* * *

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجل في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

يَعْرِضُ مشهداً من مَشَاهد يوْمِ الدّين الخاصّ بالكفَرَةِ المكذّبين:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

فأبان هذا النّصُّ أنَّ المكذبين بيوم الدّين، يُحْشَرُونَ ويُوجَّهون لسلوك صراطٍ ممتدّ إلى جهة الجحيم دار عذابهم، ويُوقَفُون في مكان قريب منها، وفي هذا المكان تُعْقَدُ مُحاكَماتُهُمْ، وفيه يُسْأَلُون.

ويقال لهم على سبَيلِ التوبيخ: مَا لَكُمْ لاَ تَتَنَاصَرُونَ؟ أي: ما هو الشيءُ الّذي ظهَرَ لَكُمْ فغيَّرَ مَا كُنتُمْ عليه في الدنيا من ادّعاء التناصر فيما بَيْنَكُم، إنّكُمُ اليَوْمَ عاجِزُون مُسْتَسْلِمون لا يَنْصُر بَعْضُكُمْ بعضاً.

* * *

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخرفِ/ ٤٣ مصحف/ ٦٢ نزول) بشأن الذين زَعَمُوا أَنّ الملائكة إنَاثٌ وأَنَّهُمْ بناتُ الله:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

فأبان هذا النَّصّ أَنَّ الّذين يَزْعُمونَ أَنَّ الملائكة الذين هم عِبادُ الرَّحمن إناث، مطلوبٌ منهم أن يُقَدِّموا شَهَادَتَهُمْ بذلك، وهٰذِهِ الشَّهَادَةُ يجب أن تكُونَ مستندة إلى مُشَاهدة. لكن هذه المشاهدة متَعَذِّرةٌ بالنسبة إليهم، لأنَّ الملائكة من عالم الغيب الّذي لا يَشْهَدُون منه شيئاً.

فإن قالوا نشهَدُ شهادةً مستندةً إلى علم شهوديٍّ بأنّ الملائكة إناثٌ، وهم كاذِبُون، فَسَتُكْتَبُ شهادَتُهُمْ، في صُحُفِ أعمالهم، وسَوْفَ يُسْأَلُونَ عنها يَوْم الدِّين لمحاسَبَتِهِمْ على الكَذِبِ فيها.

ويقاسُ على هذه القضيَّةِ كُلُّ القضايا الغيبيَّةِ، الَّتي يَدَّعي الكذَّابُون فيها أُموراً لاَ عِلْمَ لهم بها، فإنَّها تُكْتَبُ عليهم، وسوف يُسْأَلُونَ عَنْها يوم الدين، وسَوْفَ يحاسَبُونَ عليها في محكمة العدل الرَّبّانية.

فلا يجوز لإنسان أن يَفْتَئِتَ على عالَمِ الغيب من عنده، بتَصَوراتٍ يَدَّعيها دُونَ عِلْمٍ مِنْ خَبَرٍ عن الوحْي صادقٍ، أو مُشَاهَدَةٍ حِسّيَّةٍ، أو دَلِيلٍ عَقْلِيّ.

* * *

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول) أيضاً، خطاباً لرسوله محمّد ﷺ فلِقَوْمِهِ من العرب:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: فاسْتَمْسِكْ بالْقُرآن، عَامِلاً بما جَاءَ فِيه فِعْلاً أو تَرْكاً، سَالِكاً

صِرَاطَه، إنَّكَ على صراطٍ مستقيم بالعمل بما جاء فيه، في اعْتقادِكَ، وعَمَلِكَ، ودَعْوَتِكَ.

وإنَّ هذا القرآن بما فِيهِ من كمالٍ في معانيه وفي مبانيه، كِتابٌ مُعْجِز، وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَوْمِك، أَيْ: لشَرَفٌ عظيمٌ لك ولقومِكَ الْعَرب، إذْ أُنْزِلَ بلُغَتِهِمْ وَلِسانهم، فينْبَغِي أنْ يكُونَ محْفُوظاً، مذكوراً للتدبُّر وللعمل، وهذا الذكْرُ لَهُ يكون في الألْسِنَةِ، والأذهان، والقلوب.

وسَوْفَ تُسْألُونَ يَوْمَ الدين عنه، ولا بُدَّ أنْ يتعلَّقَ هذا السؤال بالاستجابة لدعوتِهِ، والْعَمَل بما جاء فيه، وحفْظِهِ من الضَّيَاع، وتَدَبُّرِه وَفَهْمِ مَعَانِيه.

* * *

النّصّ التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) بشأن المشركين، الذين يَفْتَرُون على الله، في أحكام الحلال والحرام الّتي هي من خصائص ربُوبيّة الرَّبّ جلّ جلاله، فيَجْعَلُونَ لشركائِهم من الأصنام نَصِيباً من الحَرْثِ والأنْعَام، فيقولون: هذا للّهِ، وهذا لشركائنا.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فأقسم الله تباركَ وتعالى باسمه الجليل: ﴿تَٱللَّهِ﴾ على أنّهم لاَ بُدَّ أن يُسْأَلُوا يوم الدّين عمّا كانوا في الحياة الدنيا يَفْتَرُونَ علَىٰ الله من شرك، وما يفترون عليه من أحكام الحلال والحرام، الّتي هي من خَصَائص الرَّبّ جلّ وعلا.

ويقاسُ على هذه القضيَّةِ كُلُّ افتراءٍ في دين الله، بأحكامٍ وتَشْرِيعَاتٍ دِينيَّةٍ لم يأذَنِ الله بها.

* * *

النص العاشر:

قول الله عزّ وجل في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) أيضاً خطاباً للناس:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: ولو شاء الله أن يجعلكُمْ أُمَّةً واحدةً، لسَلَبَكُمْ اختياراتكُمْ الحرَّة، فَكُنْتُمْ مؤمنين جَمِيعاً، ومُطِيعين له بالجَبْرِ، ولكن تَنْعَدِمُ بذلك حكْمَةُ تكْرِيمِ الإنْسَانِ بالإرادة الحرَّة، وبِجِهَازِ المعرفةِ وبوسَائله للوصول إليها، وتَنْعَدِمُ حِكْمَةُ وَضْعِ الإنسانِ في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

لذلك لم يَشأ الله ذَلِكَ، بلْ شَاءَ أَنْ يجعلَكُمْ مُخيَّرِينَ مُمْتَحَنِين، ومع التخيير والامتحان المستوفي شروطَه، لا بُدَّ أَنْ يَضِلَّ منكُمْ ضالُّون باختيارهم الحرّ، ويَهْتَدِيَ مِنكُمْ مُهْتَدُونَ باختيارهم الحرّ.

وسوف تُعْرَضُونَ على محكمة الفضْل والعدل الرَّبانيّة يوم الدين، واللَّهُ رَبُّكُمْ هو الذي يَقْضِي لكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، ويُصْدِرُ أحكامَهُ المستندة إلى فضله، أو المستندة إلى عَدْله، فَمَنْ كان ضالاً في الدنيا حكَمَ اللَّهُ عليه بالضلالة، فأضَلَّه، ومن كان مُهْتَدِياً حكَمَ له بالهدَايَةِ، فَهَدَاهُ، وكلُّ ذَلِكَ يكونُ بِمَشِيئَتِهِ المطلقةِ الَّتِي لا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ سبحانه وتعالى، لأنّ صِفَاتِه جَلَّ جَلالُه متكاملَةٌ فيما بينها، لا تَنَافُرَ فِيها وَلاَ تَشَاكُس، فلا تطْغَىٰ مشيئته المطلَقَةُ على حِكْمَته.

وعند المحاكمة تُعْطَوْنَ فُرْصَةَ الدِّفَاعِ عَنْ أنْفُسِكُمْ، في محكَمَةٍ عادلة مستوفيةٍ شُروطَ العدل الكامل، ومنها أنْ تُسْأَلُوا عن أعمالكم لإدانَتِكُمْ بها، أو الحكْمِ لكم بالهداية.

وسؤالكم يكونُ مقترناً بكُلّ مقتضَيات الإثبات والدفاع:

﴿... وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: وأُقسِمُ مؤكّداً لكم خبري بأنّكُمْ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَ الدّين، عمّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكم في الحياة الدنيا.

* * *

النصّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: بل اتّخذ المشركون من دون الله آلِهةً من الأرض، وهؤلاء الآلِهَةُ يُحْيُونَ الموتَىٰ، فينشُرُونَها من أجداثها؟

إنّ الإلَهَ لا يَصْلُحُ لأَنْ يكون إلَهاً يُعْبَدُ ما لَمْ يَكُنْ رَبًّا، ولا يكونُ رَبًّا من لم يَكُنْ من قُدْرَاتِه إحياءُ الموتى.

هذا دليلٌ على نفي الأرباب الآلِهَةِ مِنْ دُونِ الله.

والدليل الآخر: لو كان يُوجَدُ في السَّمَاوات والأرض آلِهَةٌ هِيَ أربابٌ حقًّا، يَخْلُقُونَ ويُحْيُونَ الموتَىٰ، ويَتَصرَّفُونَ في أحداثِ الكَوْنِ لفَسَدَتا، بمقتضى تعارُضِ إراداتِ الآلِهَةِ الأَرْبَابِ، حول تصاريف السَّمَاواتِ والأرض.

فسُبْحانَ رَبّ الْعَرْشِ الجامعِ للسماواتِ والأرض عَمّا يَصِفُ المشركون، مِنْ جَعْلِ آلِهَةٍ أَرْبَابٍ شُرَكَاءَ لِلَّهِ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه، وهي ليست في الحقيقة أرْبَاباً فلا إلَهِيَّةَ لَهَا لزوماً عَقْلِيًّا، ولَيْسَ لها مشاركةٌ لِلَّهِ الرَّبّ الإلَه في شيء.

إنَّ الرَّبّ الإلَه من صفاته أنّه لاَ شيءَ فَوْقَه وَلاَ شيءَ في منزلَتِه، حتّىٰ يَسْأَلَهُ عَنْ أفعَالِهِ وَيُحَاسِبَهُ عَلَيْها.

بخِلاف مَنْ هُمْ دُونَ الله، فكُلُّهم مخلوقون له، وهو رَبُّهُمْ، وهُمْ عبادُهُ، وهُمْ مَسْؤولونَ تُجَاهَهُ عن أفعالِهِمْ، إذا كانت لهم إرادات حُرَّةٌ يختارون بها ما يَشاءُون من خَيْرٍ أو شرّ.

فلا يصْلُح وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ إِلَهاً يُعْبَدُ من دُون الله، فالآلِهَةُ الّتي يَتَّخِذُها المشركون، من الأنبياء والملائكة، والصُّلَحاء، وَمَنْ تَرْمُزُ إليهم الأوثان، كُلُّهُمْ يُسْأَلُونَ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ عن أفعَالهم.

فعمَّمَ هذا النَّصّ ببيان أنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ فِعْلٌ اختياريٌّ، هُو مُعَرَّضٌ للسؤال في محكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانية، حتّىٰ الأنبياء والمرسلون، ولهذا تَعرَّضَ عيسَىٰ عليه السَّلام للسؤال الّذي أبانه الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

* * *

النصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

في هذا النَّصّ حكايَةُ طَرِيقَةٍ من الإقناع اتَّخذَها الّذينَ كفَرُوا لإضلال

الّذين آمنُوا، ولِجَعْلِهم يَتّبعُون سبيلَهم في الشرْكِ والْوَثَنِيّة والجاهلية والضلالة العمياء، فزعموا لهم أَنّهم يلْتَزِمُونَ بتحمُّلِ خطاياهُمْ عَنْهُمْ مُلْزِمينَ أنفسهم بذلك، إذا كانَ اتباعُهم سبيلَهُمْ مِنْ شَأنه أن يُحَمّلَهم خَطايا عنْدَ رَبّهم، والحقيقةُ أنّهم كاذِبُونَ بادّعائهم هذا الإلْزامَ لأنفسهم.

إنّهُمْ يَوْمَ الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يتبَرّؤُونَ منهم، ويتَهَرَّبُونَ من تحمُّلِ شيءٍ من خطاياهم، وخطايا كُلِّ الذين يتّبعونهم على ضلالهم، وهذا حالُ كلّ المتبُوعِين والقادَةِ المضلّين.

وقاعدة الجزاء عند الله أنْ لا تَزِرَ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ. ولكِنَّ الْمُضِلَّ يَحْمِلُ أَثقالَ أوزارِهِ الخاصَّةِ به، وأثقالَ أَوْزار إضلالِهِ للآخَرين، وَهٰذا من كسْبِه، لكنَّهُ لاَ يَحْمِلُ شيئاً من أَوْزار ضَلاَلِ الآخرين الّذين استجابوا له، لأنّ استجابَتَهُمْ له قد كانت من كَسْبِهم لاَ مِنْ كسْبِه، فهي من أوزارهم لا من وِزْره.

وقد أقْسَم الله على هذا بقوله:

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾.

ولـمّا كانت عقائدُهُم الكُفْرِيَّة، وأحكامُهُمْ في العبادات وفي شُؤونِ الحلال والحرام، هي من قبيل الافتراءِ على الله، فإنَّهُمْ سَوْفَ يُسْأَلُون عنها، وسوف يحاسَبُونَ علَيْها ويجازَوْن، فقال الله عزّ وجلّ مؤكّداً بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة.

﴿... وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

* * *

النّصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لرسُوله محمدّ ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ لرسوله أنّه ليْسَ مكلّفاً تحويلَ النّاس من الكفر إلى الإيمان والإسلام، وأنّ وظيفتَهُ قاصرةٌ على التبليغ والنُّصح، وبيان ما أنزل الله إليهم، والتذكير به، ولهذا فهو لا يُسْأَلُ عن أصحاب الجحيم، ولا يُقالُ له: لِمَ لَمْ تَعْمَلْ على تحويلِهِمْ بالإكْراهِ، ليكونوا من أصحاب الجنَّة.

* * *

النص الرابع عشر:

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً، خطاباً للْيَهُودِ بِشَأْنِ إبراهيم وإسماعيل وإسْحاق ويعقوب والأسْباط، في موضعين منها:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

والموضع الآخر هو الآية (١٤١).

أي: إنَّ مسْؤُوليَّةَ كُلّ إنْسَانٍ هي مَسْؤُوليةٌ شَخْصِيَّةٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبّه، فهو يُسْأَلُ عن إيمانه وإسلامه، وعَمَلِه، وَلا يُسْأَلُ عن غَيْرِه وَلَو كان أقرب الأقربين إليه.

* * *

النصّ الخامس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

أبان هذا النّصّ أنّ الله عزّ وجلّ أَخَذَ من النبيين الميثاقَ، على أَنْ يُبَلِّغُوا أُمَمَهُمْ مَا أَمَرَهُمْ بتَبْلِيغِه للنّاس، ممّا أنزل إليهم وشدَّد الميثاق الغليظ علىٰ أولي العزم منهم: محمّد ونوح وإبراهيم وموسَىٰ وعيسَىٰ ابن مريم، علَيْهم الصلاة والسلام.

ومع أخذ الميثاق على النبيّين، ومع كونهم صادقين، فإنّ الله عزّ وجلّ سوف يسْأَلُهُمْ يوم الدّين، عن تبلِيغهم مَا أمَرهم بتبليغِه للناس، وعن صِدْقهم في كلّ صغيرة وكبيرة بلَّغُوها، مُقَدِّمة لمحاكمة الّذين تَبَلَّغُوا ما أَنْزَلَ الله للناس، فَكَفَرُوا بِهِ وَكَذَّبوا رُسُلَ رَبّهم.

ومن أجل هذا جاء في هذا النصّ قولُ الله عزّ وجلّ مبيّناً سؤالَ الرسُل الصَّادقين عَنْ قيامهم بمهمّاتِهم، وعَاقِبَةَ الَّذِينَ كفرُوا بما جاءُوهم به بلاغاً عن ربّهم، وهذه العاقبة هي العذاب الأليم:

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⑧﴾.

* * *

النص السادس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) أيضاً، بشأن المنافقين وَنَقْضِهِمْ مَا عَاهَدُوا الله وَرَسُولَهُ عَلَيْهِ أَن لاَ يُوَلُّوا الأَدْبارَ عند القتال:

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ⑮﴾.

أَسْنِدَتِ المسؤولية للعهد وهي لمن أَعْطَىٰ العهد، على طريقة المجاز العقلي، وقد سبَقَ تحليل نظير هذه العبارة في النصّ الرابع من هذا الملحق.

وقد أبان هذا النصّ أنّ من عاهد الله، ولو عن طريق معاهدة الرسول

أو قائد المؤمنين، على أَمْرٍ من أمور الْخَيْرِ، يَصِيرُ وَاجباً عليه، ولَوْ لم يكن واجباً عليه قبل المعاهدة، ولذلك فهو يُسْأَلُ عَنه يَوْمَ الدّين في محكمة العدل الرَّبّانية إِذَا لم يَفِ به.

إشكالٌ وَحلُّه:

أمّا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾:

فهو بيانٌ بشَأنِ إِهْلاكِ النّاس عنْدَ انْتَهاءِ نِظَام الحياة الدُّنيا، وقَدْ ثَبَتَ أَنَّ القيامة تَقُومُ وليْسَ في الأرض من يَقُولُ الله، وعند إهلاكهم بأحْدَاثِ يَوْمِ القيامَةِ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ.

فَنَفْيُ السُّؤَال هنا لا يتعلّقُ بالسؤال الّذي يكونُ مُقَدِّمةً للحساب، وفَصْل القَضَاءِ، تمهيداً لتحقيق الجزاء.

سؤال الشهود يوم الدين

إنّ سؤال الرُّسل يوم الدّين يكون لتقديم شهادَاتِهم، بأنّهم بلَّغُوا رَسَالاَت ربهم، وأَدَّوْا أمانَاتِهم، ونَصَحُوا لأمَمِهِمْ، وَبَيَّنُوا لهم، وتَابَعُوا تَذْكِيرَهُمْ، على مقدار اسْتطاعاتهم.

وكذلك سؤال الشّهُودِ من حملة رسالاتِ الرُّسُل وَتَبْلِيغها للنّاس في عُصُورِهِمْ.

هذه القضية قد جاء بيانها من أطرافها في عدّة نصوص قرآنية، أعرضها بشيء من التدبر فيما يلي:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزّمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) خطاباً للناس:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾:

فوصف الله جلّ جلالُه رسولَه محمّداً ﷺ في هذه الآية بأنَّهُ شَاهِدٌ، أيْ: هو مُبلِّغُ دِينَ رَبّه لمَنْ لَقِيَهُ مِنَ الأمَّةِ الّتي بَعَثَهُ الله لِتَبْلِيغِها دينَ رَبّها، وهم كُلُّ الناس بعد بعْثته، إذْ هُمْ أُمَّةُ بلاغه، فقد أرسله الله للناس كافَّة، وإذْ قد بلَّغ مَا أنزل الله إليه من رسالة، وأدّىٰ الأمانة، ونصح الأمّة، فإنَّ الله عزّ وجلّ يأتي به يوْمَ القيامَةِ شاهداً على الناس بما أوصله إليهم من بَلاغِ أَمَرَهُ الله بهِ.

وأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآيَة، أَنَّ موسَىٰ عليه السلام يأتي به اللّهُ شاهداً على فِرْعَوْنَ وعلَىٰ آلِهِ وعلى كلّ من بلَغَتْهُ دَعْوته في زمانه، واقتصر النصّ على فِرْعَوْنَ، لأنَّه كانَ كلَّ قَوْمِهِ في مِصْر، لاَ رأيَ لهم إلاّ رَأيُه، ولاَ دِينَ لَهُمْ إلاَّ مَا يَخْتَارُهُ لهم، ويَفْرِضُهُ عليهم.

* * *

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

فدلَّ هذا النّصّ على أنَّ كلّ أمَّةٍ قد بَعَثَ الله فيها رسولاً من أنفُسِها، فهو يَشْهَدُ عليها يوْمَ القيامة، بأنَّه قد بلّغها رسالةَ رَبّه، وأدّىٰ الأمانَةَ، ونصَحَ أمَّته، وبيّنَ لها ما أنْزَلَ الله إليها.

وخاطب الله عزّ وجلّ في هذا النصّ رسولَه محمّداً ﷺ بقوله له:

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

أي: وجئنا بك شَهيداً على أمّتِك، وهم جَميع النّاسِ بَعد بِعْثَتِكَ، باعتبارهم أُمّةَ بَلاغِكَ، وشَهَادَتُهُ تكونُ على من بلَّغَهُمْ مباشرةً في حَيَاتِه، والدُّعاةُ إلى الله من أمّتِهِ يَشْهَدُون على من بلَّغُوهُمْ، فشهاداتهم تابعات لشهادته.

أمّا أمّةُ الإجابَةِ فهم من آمَنَ بالرَّسول ﷺ، وأسْلَم، وأَعْلَنَ قَبُولَهُ واتّباعَهُ لِمَا أَنْزَل اللّهُ إليه لِيُبَلِّغَهُ للناس.

* * *

النّص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للذين آمَنُوا بمحمّد ﷺ واتَّبعُوه:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾﴾.

لمّا كان أتباع الرَّسُول المؤمِنُونَ به مُكلَّفِينَ أَنْ يُبَلِّغُوا ما تَلَقَّوْهُ عن الرسول من بلاغاتٍ عَنْ رَبّه، لِيَعُمَّ بَلاغُ ما أنْزَلَ اللّهُ للنَّاس جميعَ النّاسِ، خاطَبَ الله عزّ وجلّ أمّةَ مُحمَّدٍ الّذين أَجابُوا دَعْوَتَه بقولِهِ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾.

أي: جعلْنَاكُمْ أُمّةً عُدولاً بالنظر إلى مجموعكم، لا إلَىٰ جميعكم ولا إلى كُلّ فَرْدٍ منكم، لتبليغ الدِّين للناس، محفوظاً كما بلَّغَكُمْ الرَّسُولُ إيّاه، ثُمَّ لِتُدْعَوْا يَوْمَ القيامة حتَّىٰ تُؤَدُّوا الشَّهادة علىٰ الناس، بأَنَّكُمْ بلَّغْتُموهم مَا أَنْزَلَ الله إليهم.

وقَدْ دَلَّت على هذا المعنى عبارَةُ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾:

أي: فَلَما أَنَّ الرَّسُولَ يَشْهَدُ على مَنْ تَبَلَّغَ رسالَتَهُ مِنْ أُمَّتِهِ، بأنّه بلّغهُمْ رسالة ربِّه، فأمَّةُ الإجابة مكلّفَةٌ أَنْ تُبَلِّغ، وسوف يُدْعَىٰ المبلِّغُونَ من هذه الأمَّة إلى الشهادَةِ يَوْمَ الدِّينِ علَىٰ مَنْ بلَّغُوهم من الناس.

* * *

النّص الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾؟.

روى البخاريّ عن عبد الله بن مَسْعُودٍ قال: قالَ لي رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرأ عَلَيَّ».

فقلتُ: يَا رَسُولَ الله، أقرأُ علَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِل؟!

قال: «نَعَمْ، إِنِي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

فقرأتُ سورة (النساء) حتَّىٰ أَتَيْتُ إلى هٰذِهِ الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾؟

فقال: «حَسْبُكَ الآن» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَان.

* * *

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فأبان هذا النصّ أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ اجتبَىٰ الأمّة الإسلاميّة، من دُون سائر الأُمَم الّتي سبقَتْها، ليُبَلِّغوا النَّاسَ مَا أَنْزَل الله إلَيْهِم، وليكونُوا شُهَداءَ على النّاس بهذا التَّبليغ يَوْمَ القيامة، ولا سِيَّما من كان منهم من سلالة إبراهيمَ عليه السّلام، إذْ قال الله عزّ وجل فيه:

[مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ].

ومعلوم أنّ العَرَبَ المسْتَعْربة هم من سُلالة إسماعيل بْن إبراهيم عليهما السّلام، وكذلِكَ بنو إسْرَائيل، وشعوبٌ أُخرَىٰ هم من سلالة إبراهيم عليه السلام في بلاد الشّام وغيرها، فمن آمَنَ بمحمَّد ﷺ منهم واتَّبَعَهُ، كانَ مُرَشَّحاً لأَنْ يكونَ من الّذين اجتباهُمْ الله لحمْلِ رسالة الرَّسُول وَتَبْلِيغها للناس.

* * *

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لِنَبيِّه محمَّد ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿وَسِرَاجًا﴾: أي: كالشَّمْسِ الْمُمِدَّةِ بالحرارَةِ والضِّياء، الذي يَنُوِّرُ الكواكب.

﴿مُّنِيرًا ﴾: مِنْ فعل: «أَنَارَ» المتعدّي، والمعنى أنه يُمِدُّ من لَقِيَهُ مؤمِناً بِهِ مُتَّبِعاً لما جاءَ به عن ربّه بِنُورٍ مِنْ ضيائه، كَمَا تُمِدُّ الشَّمْسُ القَمَرَ بالضياء.

* * *

النصّ السابع:

قولُ الله عزّ وجل في سورة (الفتح/٤٨ مصحف/١١١ نزول) خطاباً لرسوله وللنّاس بعْدَ بِعْثَتِه:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ ﴾: أي: وَتعِينُوهُ وَتَقوُّوه وَتَنصُرُوه.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ ﴾: أي: وَتُعَظِّمُوهُ وَتُبَجِّلُوهُ، وَتُثْنُوا عليه.

﴿بُكْرَةً ﴾: البُكْرَة، أوّل النهار إلى طلوعِ الشمس.

﴿وَأَصِيلًا ﴾: الأَصِيلُ، هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غُرُوبِها.

وتَسْبِيح الله تنزيهه عن كلّ ما لا يليق بكماله، والعبارةُ المخْتَارة للتَّسبيح: «سُبْحَانَ الله».

* * *

ممّا جاء في السُّنة حول السُّؤال يوم الدين

(١) روى مُسْلِمٌ وغَيْرُه، عن أبي بَرزَةَ الأسْلَمِيِّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ:

«لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ

أَفْنَاه؟ وعَنْ جَسَدِه فِيم أَبْلاَهُ؟ وعَنْ عِلْمِهِ مَا عَمِلَ فِيه؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وفِيمَ أَنْفَقَهُ؟».

«**لاَ تَزُولُ قَدمَا عَبْدٍ**»: أي: لا تَنْتَقِل قَدماهُ عن مَوْقِفِ السؤال والمحاسبة.

(٢) وجاء في خُطْبَةٍ خطَبَها الرَّسُول ﷺ في حجَّة الوداعِ يوْمَ النحر، فيما روىٰ البخاري عن أبي بَكْرَةَ، أنَّ الرسُولَ ﷺ قال فيها:

«وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُم».

(٣) وروىٰ البخاري عن صَفْوانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّ رجُلاً سَأَلَ ابْنَ عمر، كيف سمِعْتَ رسُول الله ﷺ يقول في النَّجْوَىٰ؟

قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:

«يُدْنَىٰ الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ(١)، فَيُقَرِّرُه بِذُنوبه: تَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ يَقُولُ: أَعْرِف، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ (مَرَّتَيْنِ). فيقول: «سَتَرْتُهَا في الدُّنيا، وأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ثُمَّ تُطْوَىٰ صَحِيفة حسناته.

وأمَّا الآخَرُونَ ـ أَوِ الكُفَّارُ ـ فَيُنَادَىٰ علىٰ رُؤُوسِ الأَشْهَادِ: هٰؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ».

ورواه مُسْلِمٌ عن صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ أيضاً: قال: قال رجُلٌ لابْنِ عُمَر: كَيْفَ سَمِعْتَ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَىٰ؟. قال: سَمِعْتُهُ يقول:

«يُدْنَىٰ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ، حتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبه، فيقولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فيقولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ. ـ قال: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنيا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْم، فَيُعْطَىٰ صَحِيفَةَ حَسَنَاتِه،

---

(١) كنفه: أي: سِتْرَهُ.

وأمّا الْكَافِرُونَ والْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَىٰ بِهِمْ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ: هٰؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ الله».

(٤) وروىٰ مسلم عن أبي ذرّ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ:

«يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وتُخَبَّأُ كِبَارُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْم كَذَاَ وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا، ثَلاَثَ مَرَّات.

قَالَ: وهُوَ يُقِرُّ لَيس يُنْكِرُ.

قَالَ: وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ تَجِيءَ.

قال: فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْراً قَالَ: أَعْطُوهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً.

فيقول حِينَ طَمِعَ: يَا رَبِّ إِنَّ لِي ذُنُوباً مَا رَأَيْتُهَا هَا هُنَا.

قال: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ(١)، ثُمَّ تَلاَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ (٢).

(٥) وذَكَر القرطبي(٣) في التذكرة، قال: وخَرَّجَ أبو الْقَاسِمِ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَتْلِيّ، فِي كِتَابِ الدِّيبَاجِ له: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عبد الله، قال: حَدَّثَنَا سَيَّارٌ، قال: حدَّثنا جَعْفَرُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجُونِي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال:

«يُدْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيَسْتُرُهُ مِنَ الْخَلاَئِقِ كُلِّهَا، وَيَدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابَهُ فِي ذَلِكَ السِّتْرِ، فَيَقُولُ له: اقْرَأْ يَا ابْنَ آدَمَ كِتَابَكَ.

قال: فَيَمُرُّ بِالْحَسَنَةِ فَيَبْيَضُّ لها وَجْهُهُ، وَيَمُرُّ بالسَّيِّئَةِ فَيَسْوَدُّ لَهَا وَجْهُهُ.

---

(١) **النواجذ**: الأضراس، مفردها «ناجذ».

(٢) من الآية (٧٠) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) هو شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري.

قال: فيقولُ الله تَعَالَىٰ له: أتَعْرِفُ يَا عَبْدِي؟

قال: فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ أَعْرِفُ.

قال: فَيَقُولُ: إنّي أَعْرَفُ بِهَا مِنْكَ، قَدْ غَفَرْتُهَا لك.

قال: فَلاَ تَزَالُ حَسَنَةٌ تُقْبَلُ فَيَسْجُدُ، وَسَيِّئَةٌ تُغْفَرُ فَيَسْجُدُ، فَلاَ يَرَىٰ الْخَلاَئِقُ مِنْهُ إلاَّ ذَلِكَ، حِينَ يُنَادِي الْخَلاَئِقُ بَعْضُهَا بَعْضاً: طُوبَىٰ لِهَذَا الْعَبْدِ الَّذِي لَمْ يَعْصِ قَطُّ، وَلاَ يَدْرُونَ مَا قَدْ لَقِيَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِمَّا قَدْ وَقَفَهُ عَلَيْهِ».

(٦) وَيَدْخُلُ فِيما يُسْأَلُ عَنْهُ الإِنْسَانُ في مَوْقف الحساب وفَصْلِ القضاء يَوْمَ الدِّين، رَعِيَّته الَّتي كان يَرْعَاهَا في الدنيا، وَكَان يُطالَبُ نحوَهَا بواجِبَاتِ حِفْظٍ ورِعَايَةٍ، أَوْ تَرْبِيَةٍ وَتَوْجِيهٍ، أَوْ نُصْحٍ وَمَعُونَةٍ، أَوْ نَفَقَةٍ وَخِدْمَة.

رَوَىٰ البخاريّ ومسلمٌ وغَيْرُهُما عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَر، أَنَّ رسُول الله ﷺ قال:

«كُلُّكُم رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإمَامُ رَاعٍ، وهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ، وهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، وهي مَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

أي: فإنْ قَصَّرَ، أو خَانَ الأمانة، أو هَضَمَ الحقوقَ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ نَحْوَ رَعِيَّته، حُوسِبَ علَىٰ ذَلِكَ، وَكَانَ عُرْضَةً لِلْجَزاءِ بِالْعَدْلِ عَلَىٰ مِقْدَارِ ما اكْتَسَبَ مِنْ إِثْمٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ يكُونُ في محكمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ الجزاء الأكبر.

(٧) وثبت في الصّحيح، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُكَلِّمُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمان، وظاهِرٌ أَنَّ هذا يكون عِنْدَ سُؤَالِهِ في مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ.

فقد رَوى البخاري ومسلم والإمامُ أحمد والتّرمذيُّ والْبَيْهَقِيُّ، عن عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ القيامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَىٰ إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلاَ يَرَىٰ إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلاَ يَرَىٰ إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

وأَكْتَفِي بهذا القدر حول السؤال في محكمةِ العدل الرَّبَّانِيّة يوم الدّين، والحمد لله على فَتْحِهِ وتَوفِيقِه ومَعُونَتِه.

* * *

(١٩)

الملحق الثالث
الوزن في محكمة العدل الرّبانية يوم الدين

من عناصر محكمة الفضْل والعدل الرَّبَّانيَّة، الّتي تُعْقَدُ للحساب وفصل القضاء يوم الدِّين، الوزْنُ بالموازين الكاشِفَةِ الضَّابِطة للمقادير على ما سبَقَ شرْحُهُ وتفصيله لدىٰ تدبّر الآيَتَيْن (٨ ـ ٩) من سورة الأعراف.

واستِكْمَالاً للبحث في هذا الموضوع، أسْتَعْرِض بشيءٍ من التدبر في هذا الملحق، النُّصوصَ القرآنية الواردة في سُوَر القرآن كُلّه بشأن هذا الوَزْنِ.

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

سبق تدبُّر هٰذَا النَّصّ لدَىٰ تَدَبُّرِ سورة (القارعة) فلا حاجة إلى التَّوسُّع.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾: أي: فأمَّا ثَقُلَتْ أعْمَالُهُ الموزونَة بموازين الرَّحْمٰنِ يَوْمَ الدِّينِ، إذْ كانت إيجابيَّة الضغط، بِسَبَب مَا فِيها من قيمةِ ذَاتِ ثِقَلٍ عند الله عزّ وجلّ، في موقف الحساب وفَصْل القضاء يوم الدِّين.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾: أي: فهو في حياة رَاضِيَةٍ بما تَتَقلّبُ فيه من نعيم مقيم، في جنَّاتِ النعيم.

وُصِفت في هذه العبارة العيشة بأنّها رَاضية، مع أنّ الراضي هو صاحب هذه العيشة، على طريقة ما يُسَمّيه البيانيُّون المجاز العقلي.

أو في عيشة ذَاتِ رضاً، بمعنَىٰ أنَّ صاحِبَها يَرْضَاهَا رِضاً تامًّا، فلا يَطْلُبُ زَائداً على ما هو مُنَعَّمٌ بِهِ فيها.

أو في عيشَةِ نَفْسٍ رَاضِية بِمَا تَتَقَلَّبُ فيه من نعيم مقيم، على تقدير مُضَافٍ محذوف هو لفظ «نَفْس».

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾: أي: وأمَّا من خَفَّتْ أعمالُهُ الموزونة بموازين الرَّحْمٰنِ يوم الدّين، إذْ كانَتْ سالبة الضغط، لكُفْرِه وسُوءِ أعماله في الدنيا، فلَمْ تُسَجِّلْ إشارات الموازين لَهُ ثِقلاً ما، لعَمَلٍ إرداِيٍّ صالِحٍ، مقبولٍ عند الله.

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾:

﴿فَأُمُّهُۥ﴾: أي: مُسْتَقَرُّهُ الّذِي سوْفَ يصير إليه يوم الدين، وسَوْفَ يَسْتَقِرُّ فيه. والمكانُ الّذِي يضُمُّه ويَجْمَعُهُ مَعَ أمْثاله.

أُمُّ الشَّيْءِ في اللُّغَة: أصْلُه. وأمّ رأسِ الإِنْسَانِ دِمَاغُهُ. وأُمُّ الدِّمَاغِ، الْجِلْدَةُ الّتي تَجْمَعُ دِمَاغَه.

قَال ابْنُ شُمَيْل: الأمُّ لكلّ شيءِ المجْمَعُ والْمَضَمّ.

﴿هَاوِيَةٌ﴾: اسْمٌ من أسماء جهنَّمَ دَارِ العذاب يوم الدّين، سميت بهذا الاسم، لأنّها ذَاتُ عُمْقٍ سَحِيقٍ يَهْوِي السَّاقِط فيه.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بيانٌ شارح للمراد من كلمة ﴿هَاوِيَةٌ﴾: أي: هي ذَاتُ نارٍ حَامية. وسبق في مواضع متعدّدة شرح أمثال عبارة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠﴾.

ويكفي لاستحقاق الإنسان أنْ يكون مصيرُهُ ومستقرُّهُ النّار الحامية يومَ الدّين، أنْ تَخِفَّ موازينُه، فلا يُوجَدَ فيها ما يُشِيرُ إلَىٰ مقدارِ ما مِنْ عَمَلٍ صالحٍ مقبولٍ عند الله، في قَلْبه أو نفسه، أو آثارِ عَمَلِهما فِي جَسَدِه، بلْ طاشَتْ كلُّ مَوازينِهِ بما فيها من قُوًى سالبَةٍ شائِلَةٍ، فَسَجَّلَتْ عَلَيْه كُفْراً وأَعْمَالاً سيِّئَةً، هي من آثار الكفر وثمراتِه الخبيثات.

* * *

النّص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾.

وقد سبقَ تَدَبُّر هذا النصّ باستفاضة في موضعه من السّورة، ونُلاحظُ أنّ اللّهَ عزّ وجلّ أضافَ في هذا النّصّ، بَيَانَ أَنَّ الْوَزْنَ عنْدَ الله يوْمَ الدِّينِ

وزنٌ حقٌّ، لا ظُلْم فيه وَلاَ جَوْر، لاَ طُغْيَانَ فيه ولا نقص، بل هو وزنٌ مطابقٌ للموزون انْطِبَاقاً تامًّا، لا يَزِيدُ عليه وَلاَ يَنْقُصُ عنه مثقال ذَرَّةٍ، وهذا معنى كونه حَقًّا.

الحقُّ من القول هو القول المطابق للواقع، والحقُّ من الوزْنِ هو المطابق لقيمة الموزون تماماً، والحكْمُ الحقُّ هو المطابقُ لواقع حالِ المحكُوم لَهُ أو عليه، وهكذا.

ونفهَمُ من تَعْرِيف طرَفَي الإسْنَادِ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ معنىٰ الحصْرِ، أي: لا يوجَدُ وَزْنٌ هو حقٌّ تماماً لأعمال العباد، إلاَّ وزنُ محكمة العدل الرّبّانيّة يوم الدين.

وفي هذا دلالَةٌ على أنَّ وزنَ الْحُكّامِ والقضاةِ لأعمال النَّاس في الدنيا، مُقَدِّمةً لإصدار أحكام العدْلِ عليهم، إنَّما هو وزنٌ تقريبيٌّ مَهْمَا تحَرَّوْا الحقيقة، وابْتَغَوْا كمالَ العَدلِ، وذلِكَ لأنّ المخلُوقِينَ لا يَمْلِكُونَ الموازينَ الّتي تُقَدِّر قِيَمَ أعْمَالِ النَّاسِ الظاهرةِ والباطنة، فَيَحْكمُونَ بحَسَبِ ما يظهَرُ لهم ويَتَرَجَّحُ لَدَيْهم.

أمّا الجزاء بعْدَ عمليّاتِ الإحصاء والوزْنِ والمحاسبة، فيكُونُ طِبْقاً لِمَبْدَأي الفضل والعدل.

فالثوابُ على الأعمال الصالحة أدْناهُ يَصِلُ إلى عشرة أضعاف قِيمَةِ الحسناتِ الوزنيّة، ويزيد بفضل الله عزّ وجل إلى سبعين ضِعْفاً، ثُمَّ إلَىٰ سبعمائة ضِعْفٍ، فأضْعَافٍ كثيرة لا يَعْلَمُها إلاَّ اللَّهُ جلَّ جَلالُه، وعَظُمَ جُودُهُ وإحْسَانُه، وفَضْلُهُ وامْتنانُه.

والعِقَابُ على الأعمال السّيئة لا يزيد أعلاهُ على المجازاة بالمثل دون زيادة شيءٍ على ما يُعَادِلُ السّيئَة ويُساوِيها، وقد يعْفُو اللَّهُ عزّ وجلّ، فَلاَ يُظْلَمُ عند الله عزّ وجل أحَدٌ، بصَغِيرٍ وَلاَ كَبير.

وَأَضافَ هذا النَّصُّ أيضاً بيانَ أَنَّ مَنْ ثَقُلَتْ موازِينُهُ أَفْلَحَ، أي: ظَفِرَ بما يُرْضِيهِ من خَيْرِ الآخرة، وفاز بنَعِيم الجنَّة.

لفظ [مَنْ] في قوْلِ الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ اسْمُ موصولٍ يَصْلُحُ لأنْ يُسْتَعْمَلَ في الواحد فأكثر من العقلاء، وفي حالة استعماله مراداً به الجماعة، يجوز إعَادَةُ الضمير عليه بالمفرد، مراعاة لِلَفْظِه، ويجوز إعادة الضمير عليه بضمير الجمع، أو بإشارة الجماعة، مراعَاةً لمَعْنَاه.

وقد جَاءَت هنا مراعاة المفرد في الصِّلَة، ومراعاة الجمع في الخبر، والحكمةُ من هذا الإجراء أنّ الوزْنَ والحِسَاب يكون لكلّ فَرْدٍ فَرْدٍ مستقِلاً عن غيره، أمَّا الجزاء فيكون للجميع، فكان من الإيجاز البديع صياغَةُ المبتدأ بالمفرد، وصياغة الخبر بالجمع، وجاءت الفاء في جملة الخبر لما في المبتدأ من رائحة الشرط.

وجاءت الإشارة إلى المفلِحِينَ بإشارة البعيد، للدَّلالة على ارتفاع منزلتهم، وجاءت الإشارة إلى الخاسرين بإشارة البعيد أيضاً، ولكن للدّلالة على بُعْدِ تَسَفُّلِهِم المنحطّ في الدركات.

وأضاف هذا النصّ أيضاً أنَّ مَنْ خفَّتْ موازِينُهُ خَسِرَ نَفْسَه، إذْ صَارَ أَمْرُهُ إِلَىٰ العذاب الدائم الأبديّ في جهنَّم، ومعلومٌ أنَّ من خَسِرَ نَفْسه فقد خَسِرَ كُلَّ شيءٍ، ولم يكُنْ له حظٌّ في شيءٍ.

وأضاف هذا النَّصُّ أيضاً أن الَّذِين خَسِرُوا أنفسهم يوْمَ الدّين، إنَّما خَسِرُوها بسبب ظلمهم بعَدَمِ اتّبَاعهم آيات الله المنزّلاَتِ للناس، ليتَّبِعُوها، ويَعْمَلُوا بمقتضاها.

فليس بين النَّصَّيْن تكرارٌ تطابُقِيٌّ، وإنَّما هُما مُتكاملان.

* * *

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول): ضِمْن حكاية وصايا لُقْمانَ الْمُؤْمِنِ الحكيم الرَّبَّانِي لابْنه، ناهِياً له عن الشرك، وآمراً له بإقامَةِ الصلاة، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من وصَايَا الدِّين الحقّ.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ⑯﴾.

إنّ ذكْرَ الله عَزَّ وجلّ لِوصَايا لُقْمان لابْنِهِ في كتابه، مع دَمْجِ بَعْضِ وَصَايَاهُ سُبْحَانَه أثْنَاءَها، يَتَضَمَّنُ دلالةً علَىٰ أنَّها هِي في الأصْلِ وصايا رَبَّانِيّة، ممّا أنزلَه الله في الكُتُب الأولى، أو أوحَىٰ به إلى بعض رُسُلِه.

وقد دلّت هذه الآية على أنّ لقمانَ الحكيم قال في وصاياه لابْنِه: يا بُنَيّ متلطِّفاً به ناصحاً، إنّها، أيْ: الكائنةَ في الوجود الكونيّ كلِّهِ وإنْ كانت كائِنةً صغيرة جدًّا، ومَهْمَا كانت صغيرة، ولو مِثْقَالَ حبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، أي: مقدار وزن حبَّةٍ من خَرْدَلٍ، أصْغَرِ حبّاتِ الْبُزُور الّتي يَسْتَنْبتها الناس، فتَكُنْ في جَوْفِ صخرة مّا ولو في باطِنِ جبلٍ عظيم، أو تَكُنْ في السَّمَاوات وأبْعَادِها، أو في الأرض وأعْماقِها، وأرَادَ اللّهُ عزّ وجلّ أَنْ يَأْتِي بها ويُحْضِرَها فإنَّهُ جلَّ جَلالُهُ، وعظُمَتْ قُدْرَته، وشَمَلَ عِلْمُه كُلَّ شيءٍ، يَأْتِ بها ويُحْضِرُها، لأنَّ الله عزَّ وجَلَّ لَطِيفٌ بقدرته وعِلْمه، المحيطين بكُلِّ شيء في الوجود، خبيرٌ بإحضار ما يشاء متى شاء من أيِّ مكانٍ في الوجود كُلّه.

هذا البيان بمثابة كناية تحذيريّة، يُحَذِّرُ بها لقمانُ ابْنَهَ من الوقوع في المعاصِي صغارِها وكِبَارِها، ويُبَيِّن له فيها أنّ الله مُحِيطٌ بكلّ شيءٍ عِلْماً، وقدير على الإتيان بكلّ صغير وكبير من أيّ مكانٍ في السَّمَاواتِ والأرض.

وآثر لقمانُ التَّفصِيل في ذكر الأمثلة، لأنَّ هذا التفصيل أكثر تأثيراً في النَّفسِ من ذِكْرِ الكلّيّاتِ العامَّة.

فالله سبحانه وتعالى خبير بعباده يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُونَ عن خِبْرَة بِمَا يَقْصِدُونَ من أعمالهم الّتي يُكَرِّرُونها، إذْ هو سبحانه حاضرٌ غَيْرُ غَائبٍ، وعَلِيمٌ بصِفَاتِ عِبَادِه، وخَبِيرٌ بذوات نفوسهم.

* * *

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول): خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، فلكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ الله من حَمَلَةِ رسالته من أمّته:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾: أي: ضَاع سَعْيُهُمُ الّذي سَعَوْهُ في الحياة الدُّنيا، فَلاَ يَجِدُونَ لَهُ أثراً يَوْم الدّين، أو ضَلَّ سَعْيُهُمُ الطَّرِيقَ الموصل إلى ثواب الله يوْمَ الدّين.

أي: قُلْ لَهُمْ: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ أَنَا وَرَبِّي بالعاملين أعمالاً حسنة في الدنيا، إلاَّ أنّهم أَخْسَرُ العاملين في محكمة العدْلِ الرَّبَّانِيّة؟

ويَأْتي الجوابُ لِمَنْ يَطْلُبُه أو يَسْمَعُه، وهو:

هم الذين ضاع سَعْيهم الذي سَعَوْهُ في الحياة الدُّنيا من أعمال حسنة، فلا يجدون له أثراً عند الله يوم الدين، لأنّهم لم يَعْمَلُوا أعمالهم الحسنة، إيماناً بالله وابتغاء مرضاته.

لقد كانوا يَحسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً لأنفسهم، لكنَّهُمْ في الحقيقة لَمْ يُوجِّهُوها الْوِجْهَةَ الموصلة إلى ثواب الله، بالإيمان به وابتغاء مرضاته وثوابه، بل قَذَفُوا بها ضَالَّةً ضائعةً، يَرْجُونَ منها منافع دُنْيُوِيَّةً، أو شهرةً وَذِكْراً حسناً، وهذا أَمْرٌ قد حصَلُوا عليه في الدنيا، فلا ثوابَ لهم علَيْها عند الله يوْم الدِّين.

والسَّبَبُ الذي جعلَهم يقصدون بأعْمالِهِمْ الْحَسَنَةِ مَطالِبَهُمْ من الحياة الدنيا، أَنَّهُمْ كَفَرُوا بآياتِ الله المنزّلاَتِ على رسوله. وكَفَرُا بلقاء ربّهم يوم الدّين، إِذْ لَمْ يُؤْمِنوا بالبعث.

لذلك حَبِطَتْ أعمالُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، أي: بطَلَ تأثيرها في استحقاقِ ثواب الله، فلا ثِقَلَ لها في موازينه مُطْلَقاً، ولَيْسَ لَهَا قُوًى سَالبة تجذب كفَّة ميزانه إلى الأعْلَىٰ طَائشةً بها، باعتبارِها أَعْمالاً حَسَنة، من أجل هذا تُطْرَحُ جانباً، فَلاَ يقيم اللّٰهُ لها وزناً ما.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: أي: فبَطَلَتْ أَعْمالُهم، وكلُّ عَمَلٍ لا يحقّقُ الغاية منه فقد حَبِطَ، أي: بطل.

إنّ الأعمال الحسَنَةَ الّتي يعْملُها الكافرون بالله وبرسوله وبيَوْمِ الدِّين، أعْمَالٌ لاَ تَمْلِكُ قوَّةً إيجابيَّةً ذاتَ ثقلٍ بسَبَبِ الكُفرِ الذي نزَعَ منها قُوَّتها، وَلاَ تَملِكُ قُوَّة سالبةً، بسَبَب كَونِها أعْمالاً حَسَنَةً، فالأعمالُ ذَاتُ القوى السَّالبة هي الأعمال السَّيِّئة، والأعمال ذات القوىٰ الإيجابيّة هي الأعمال الحَسَنَةُ المستَنِدَةُ إلى الإيمان بالله والْيَوْم الآخر، وبما أَنْزَل الله للناس، والْمُبْتَغَىٰ بها رضوانُ الله وثوابُه.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾: إشارةٌ إلى جزاءٍ مُبْهَم بَعِيدٍ في الدركات السُّفْلَىٰ، لكن جاء بعد هذه العبارة بيانه بقوله تعالىٰ: ﴿جَهَنَّمُ﴾.

والسَّبَبُ في اسْتِحْقَاقهم هذا الجزاء الأليم، أَنَّهم كَفَرُوا بالحقائق الّتي

جاءَتْهُمْ من عنْدِ رَبّهم، واتَّخذُوا آياتِ اللّهِ المنزَّلاتِ واتَّخذُوا رُسُلَهُ هُزُواً.

﴿بِمَا كَفَرُوا﴾: أي: بسَبَب ما كَفرُوا.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾: أي: اتَّخذُوا آيَاتِي شيئاً يقابَلُ بالْهُزْءِ به، واتَّخذُوا رُسُلي كَرِجَالٍ كذّابين أوْ مجانين يُواجَهُونَ بالْهُزْءِ والسُّخْرِية.

﴿هُزُوًا﴾: أي: مَهْزوءاً بالآياتِ، ومَهْزُوءاً بالرُّسُل، وهذا من استعمال المصْدَرِ بمعنى اسْم المفْعُول. ﴿هُزُوًا﴾ قراءة حفص بالواو.

وقرأ جمهور القرّاء العشرة: [هُزُؤاً] بالهمزة بعد الزّاي.

* * *

النّصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

في هذه الآية يُبيّن اللّهُ عزّ وجلّ مُسْتَخْدِماً نُونَ المتكلّم العظيم، أنّهُ يَضَعُ الموازين الْقِسْطَ، أي: المَوَازينَ العادلة، أو ذواتَ الْعَدْل، لوَزْنِ أعْمَالِ العباد يَوْمَ القيامة.

الْقِسْط في اللُّغة: الْعَدْل، وجاء وصْفُ موازين يوم القيامة بلفظ «**الْقِسْط**» وهو مصدر، تنزيلاً له منزلة اسْم الفاعل. أو على تقدير مضاف محذوف، والمعنى: ونضع الموازين ذَواتَ القسط.

﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي: لأجْلِ وزن أعمال العباد يوم القيامة.

وأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أنّ عَمَلِيّاتِ وزْنِ أَعْمَالِ العباد تَجْرِي بالْعَدْلِ التامّ، فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً.

الظُّلْمُ في الوزن يكون بأَنْ تَنْقُصَ هٰذِهِ الْمَوازِينُ من الأعمال الحسنة، أو بأن تزيد في الأعمال السيّئة شيئاً.

والظلم بعْدَ الوزن يكون بالحِرْمَانِ من حقٍّ ثبت بوَعْدِ الله الَّذي تفضّل به على عباده، أو بالمؤاخذة على أعمال سيئة لم يكتسِبْها العَبْد.

فمِنْ قواعد المحاسبة والجزاء عنْد الله عزَّ وجلَّ، أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ لاَ تُؤاخَذُ إلاَّ على كَسْبِها أَوْ آثار كَسْبها، وأنَّ المؤاخَذَةَ على السَّيِّئَةِ لا يَزِيدُ على حُدُودِ مِثْلِها.

وأبَان هذا النَّصُّ أنَّ كُلَّ مكتَسَبَةٍ إرادِيَّة سَوْفَ يأتي الله عزّ وجلّ بها، ويَزِنُها في موازين أَعْمَالِ العباد، من الحسنات والسَّيئات، ولو كانت صغيرات، وكان الواحدُ منها بمثقال حبَّةٍ من خَرْدَلٍ، باستثناء ما لاَ يقيم اللَّهُ له وزناً، ممَّا يَحْبَطُ من عَمَلٍ صالحٍ، لا إيمان يَدْعَمُهُ، أولاً إخلاص لله فيه.

وَمَا جَاءَ في هذا النصّ يدُلُّ على أنّ ما أوصَىٰ لُقْمَانُ به ابْنَهُ هو من الوصايا الرَّبانيّة المنزَّلَة قبل نزول القرآن.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾: أي: وكفَىٰ بنا عادِّين لكلّ الحسَنَاتِ والسَّيِّئات، وكفىٰ بنا مُحْصِين لها، ومقدّرِينَ قِيمَتَها للجزاء عليها بالفضل أو بالعدل.

* * *

النص السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: أي: النفخة الثانية للبَعْثِ الَّتي يَخْرُجُ بها النَّاسُ مِنْ أجْدَاثهم، ليُلاَقُوا حِسَابَهُمْ وفَصْلَ القضاء فيما بينهم، في محكمة الفَضْلِ والْعَدْلِ الرّبّانيّة، وذلك هو يوم الدّين، فإذا قضَىٰ اللَّهُ بين العباد تَمَّ بمقتضىٰ قضائه تحقيق الجزاء.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾: أي: فلا يَجِدُون أنْسَابَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَافِعَةً لَهُمْ بِشَيْءٍ، بل يَفِرُّ المرْءُ يومَئِذٍ من أخيه، وأمّه وأبيه، وصَاحِبَتِه وَبنيه، إذْ لكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ عَظيمٌ يُغْنِيه، أي: يَصْرِفُه، ويَكُفُّهُ عَنْ أن يَلْتَفِتَ إلى غيره، كما جاء في الآيات من (٣٤ ـ ٣٧) من سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول).

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي: ولا يتَسَاءَلُونَ عَنْ أَنْسَابِهم ولاَ بأَنْسَابهم، لطَلَب النُّصْرَة منهم، إذْ هم جَميعاً يَعْلَمُونَ أنَّهُ لاَ أَحَدَ يَوْمَئِذٍ يَمْلِكُ النُّصْرَةَ لأَحَدٍ، ولاَ أَحَدَ يَمْلِكُ الدّفاع عن أحد.

والتساؤل الْمَنفِيُّ هُنَا هو التساؤلُ لطلب النُّصْرَةِ والمعونة.

● ولكن ثبت أنّهم يتَسَاءَلُون تَسَاؤل تَلْويم وخصَام، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

● وثبت أنَّ بعض أهل الجنّة في الجنَّة يَتَسَاءَلُون عن الّذِينَ كانوا قُرَنَاءَهم في الدُّنيا، إلاَّ أنَّهُمْ كانوا كَافِرينَ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) أيضاً في مَعْرِضِ بيان بعض أحوال أهل الجنَّة في الجنَّة:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

● وَثبت أيضاً أنّ بعضَ أهل الجنَّةِ في الجنَّةِ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ بَعْضِ أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا، فقال الله عزّ وجلّ في سورةِ (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) في معرض بيان بعض أحوال أَهْلِ الجنَّة في الجنَّة:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

يظهر أنّ أصحاب هذا التّساؤل كانوا في الدنيا من المؤمنين العصاة، وكانوا يخافون أن يُعَذَّبُوا بعذاب السَّمُوم في دار العذاب، لكنَّهُمْ كَانوا يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، فغفر لهم وَعفَا عَنهُمْ، إنَّهُ هو الْبَرُّ الرحيم.

● وَثبت أن أهلَ الجنة في الجنَّة يَتَسَاءَلُون عن المجْرِمِينَ، وهو ما جاء بيانه في الآيات من (٣٩ ـ ٤٧) من سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

أَمَّا تَدَبُّر بقيّة الآيات من النصّ السادس الذي من سورة (المؤمنون) فقد سبَق في النّص الثاني من هذا الملحق الذي هو من سورة (الأعراف) فهما متماثلان.

لكِنْ أضاف النصّ الذي من سورة (المؤمنون) بيانَ أَنَّهُمْ في جهنَّمَ خَالِدُون، وأضَافَ أيضاً ما يلي:

● ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: تَمَسُّ وُجُوهَهُمُ النار بإحْرَاقٍ غَيْر مُنْضِجٍ لها.

- ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾: أي: فهم فيها عَابِسُونَ قد غيَّر لَفْحُ النار أَلْوانَ وُجوههم. الوجه الكالح، هو الشاحب العابس والّذي قصرت شفته عن أسْنَانِه.

ويظهر أنّ هؤلاء صِنفٌ من المعذّبين في النّار لاَ يصلُ عذابهم فيها إلى الدركة التي وصفها اللَّهُ عزّ وجلّ بقَوْلِه في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: أي: نُدْخِلُهُمْ ناراً لإحراقهم بِلَهَبِهَا.

نظرة تكامليّة في نصوص سابقة:

(١) من الملاحظ أنّ عبارة ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قد جاءت مكَرَّرَة في سُوَرِ (القارعة) و(الأعراف) و(المؤمنون) لكنّ الخبر لَمْ يكُنْ فيها مكرّراً، إلاّ في (الأعراف) و(المؤمِنونَ).

ففي (القارعة) جاء الخبر: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾.

وفي (الأعراف) و(المؤمنون) جاء الخبر: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

(٢) ومن الملاحظ أنّ عبارة: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قَدْ جاءَت مُكَرَّرَة في هذهِ السُّوَر الثلاث، لكنّ الخبر لَمْ يَكُنْ فيها مُكَرَّراً.

ففي (القارعة) جاء الخبر: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾.

وفي (الأعراف) جاء الخبر: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

وفي (المؤمِنُونَ) جاء الخبر: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وبهذا التأمُّل نُلاحِظُ أَنَّ عَمَلِيَّةَ بناءِ المعارف في القرآن، يجري وفق البناء التكامُلِيّ المتَدَرّج مع مَرَاحل التنزيل.

ونُلاحظ أنَّ الموضوع الواحد قد تمَّتْ تَجْزِئَةُ أفكاره إلَىٰ وَحَدات، وَوُزِّعَتْ بِحِكْمَةٍ في السُّوَر القرآنيّة، وأُنْزِلَتْ في السُّور والآيات منجَّمةً مع مراحل تنزيل القرآن، مراعًى فيها التكامُلُ والترابط التّامُّ فيما بَيْنَها.

وهذا مِنْ عناصِرِ إعجاز القرآن، ولو كان من عنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لوَجَدَ الناقِدُون فيه اختلافاً كثيراً.

* * *

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

مثقال الشيء: هو ما كان مثْلَهُ في وزْنِه.

فدلَّ هذا النصّ على الوزن باللُّزُوم العقليّ، ودلَّ علَىٰ أنّ الله عزّ وجلَّ لاَ يظْلِمُ عبْداً مِنْ عبادِه مثقالَ ذَرَّة من عمله، فلا يَنْقُصُ من حسناته مثقال ذَرَّةٍ، ولا يَزِيد في سيّئاته مثقال ذرَّة.

يقال لغة: ظلَمَ فلانٌ فلانَاً حقَّهُ، إذَا غصَبَهُ إيَّاه، أو نَقَصَهُ إيّاه، أو حَرَمَهُ منه.

وَدَلَّ هذا النصّ على أنّ الحسَنَةَ يُضَاعِفُها الله، وهذا فَضْلٌ من الله، كَفَضْلِهِ في تبديلِ السَّيِّئَاتِ حسناتٍ لبعض عباده، ومنهم عباد الرَّحْمٰن، المرشّحُون لأنْ يكونُوا أئِمَّةً للمتقين، أبراراً أو مُحْسِنِين.

وبمضاعفة الحسنات يُضَاعَفُ الأجْرُ الموعُودُ به عليها، وعندئذٍ تُضْرَبُ الحسنة بأضعافها، ثمّ يكون الثوابُ على كلّ واحدة عشرة أضعاف، إلى سبعمائة ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ لا يَعْلَمُها إلاّ الله.

وفوق كلّ ذَٰلِكَ يُؤْتِي اللَّهُ مِنْ لَدُنْهُ أجراً عظيماً.

فأضاف هذا النّصّ على سوابقه القضايا التالية:

القضيّة الأولى: أنّ الله لاَ يَظْلِمُ مثقالَ ذَرَّة، وَأَبَانَ أيضاً أنّ للذّرَةِ مثقالاً مِنْ أدوات الْوَزْنِ تُوزَنُ به.

القضيّة الثانية: أنّ الله عزّ وجلّ يُضَاعِفُ الحسنات، وهٰذا شيءٌ غَيْرُ مُضاعَفَةِ الأجْرِ على الحسنة الواحدة.

القضيّة الثالثة: أنّ الله عزّ وجلّ يُعْطِي من لَدُنْهُ أجراً عظِيماً، فوْقَ حِسَابِ المضاعفات الّتي يُضَاعِفُ بها الأُجُور.

* * *

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزلْزَلة/ ٩٩ مصحف/ ٩٣ نزول):

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: أي: يخرجون من قبورهم وينصرِفُون في اتجاهات مختلفات حالة كونهم أشتاتاً.

﴿أَشْتَاتًا﴾: أي: متفرّقين. لفظ «أَشْتَات» جمع «شَتّ» بمعنَى «متفرّق». يقال: أمْرٌ شَتٌّ، أي: متفرّق. وقومٌ أشْتَاتٌ، أي: متفرّقون. ويقال: شتَّتَ الأشياءَ، أي: فَرّقها، وتَشَتَّتَ القَومُ، إذا تَفَرَّقوا. ويقال: أَمْرٌ

مّا أشتّ القومَ، أي: فرّقَهم. والشّتَاتُ: التفرُّق. ويقال: انطَلَقَ الْقَوْمُ شَتَاتَ شَتَاتَ، أي: مُتَفَرّقين.

أبان هذا النّصّ أنّ النّاس حين يَصْدُرونَ مَبْعُوثين من أجداثهم، فإنَّهُمْ يصْدُرونَ متفرّقين، وبعْدَ ذلِكَ يُوجَّهُونَ لمواقع مُحَاكماتهم، في محكمة الفضل والعدْلِ الرَّبّانية، الّتي تُعْرَضُ عليهم فيها أعْمالُهُم الّتي كانوا قَدْ عَمِلُوها في الدنيا، فَيَرَوْنها، بالصُّورة والصَّوْتِ والنّيّاتِ، وأحَاديثِ النفوس وخواطرها، وأعمال القلوب.

فما من عَمَلٍ صَغِير أو كبير كانوا قد عَمِلُوهُ في الدّنيا، إلاّ يُعْرَضُ عليهم، فيشاهِدُونَهُ عند مُحَاكَماتِهم طِبْقَ مَا عَمِلُوه ظاهراً وباطناً، فيَدْخُلُ ضِمْنَ مَا يُشاهِدُونَهُ الإيمانُ والكُفْر والنّفاقُ، والإخلاص والرّياء، والحبُّ والبغْضُ، والرّضا والسّخط، والحقد والحسد وإرادة الشرّ والضرّ، والعواطفُ والإراداتُ والانفعالات.

لكنَّ المحاسبة إنَّما تكون على الأعمال الإراديَّة الظاهرة والباطنة.

وهذه الرُّؤية الّتي يَرَوْنَ بها ما أسْلَفُوا من أعمال في الحياة الدنيا، تكونُ مقدِّمَةً للمُحَاسَبَة، وفصل القضاء، ثم يكون تحقيق الجزاء. بعد إصدار الأحكام الرّبانيّة المتعلقة بمحكمة الفضل والعدل.

وقد أضاف هذا النصُّ قضيَّة رؤيَةِ الأعمال، وقد كانَ بيان هذا الأمر مستغرباً قبل المكتشفاتِ الّتي توصَّل إليها الإنسان، لكن هذه المكتشفات الحديثة قد سهَّلَتْ علَيْنا إدراك كَيْفَ تكونُ رُؤية الأعمال الظاهرة والباطنة يوم الدين.

فمن يَعْمَلْ في الدنيا مقْدَارَ وَزْنِ ذَرَّة من عملٍ إرادِيٍّ من أعْمَالِ الخير، فما فوق الذّرة يَرَهُ يوم الدّين، في موقف الحساب، وفصْل القضاء، فيكونُ حُجَّةً له.

ومن يَعْمَلْ في الدُّنيا مقدارَ وَزْنِ ذرَّةٍ من عَمَلٍ إراديّ من أعمال الشرّ، فما فَوْقَ الذَّرّة يَرَهُ يوم الدّين، في موقف الحساب، وفَصْل القضاء، فيكونُ حُجَّةً عليه عنْدَ رَبّه.

وبالاستناد إلى أعْمالِه المحْصَاة عليه، تُقَامُ لَهُ مَوازِينُهُ، ثُمَّ يكون حسابُه، ثمّ يكون فَصْلُ القضاء بشأنه ثواباً أو عقاباً.

* * *

ممّا جاء في السُّنَّة بشأن الوزْن في محكمة يوم الدّين

(١) روى البخاريّ عن أنس رضي الله عنه، في حديث طلب المؤمنين الشفاعة من الرُّسُل عليهم السلام يوم القيامة، حتّى ينْتَهُوا إلى رسول الله محمد ﷺ فيشفع لهم، وقد جاء فيه، فقال النبي ﷺ:

«يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ، وَكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الخير مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِن النَّارِ مَنْ قَال لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَكَانَ في قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً».

(٢) وروىٰ البخاريُّ عن أبي هُرَيرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾».

أقول: إنَّ قيمةَ الإنسَانِ في مِيزانِ الرَّحْمٰنِ إنَّما تَكُونُ بفضائله المكتَسَبَة، الّتي هي من كسْبِهِ الإراديّ، أمّا جَسَدُهُ العظيم السّمين فَهُو ليس من الفضائل المكتسبة بإرادة الإنسان، ولهذا لاَ يكون له وزْنٌ في الميزان الخاصّ بوزن الفضائل الإرادية التي يكْتَسِبُها الْعَبْدُ الممتَحَنُ بإرادتِه وعَمَله.

(٣) وروى الإمام أحمد، والترمذيُّ، والحاكم، والبيهقيّ في شُعَب الإيمان، عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ سِجلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هٰذا شَيْئاً؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟

فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟

فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَومَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فيها: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُوله.

فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ.

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَٰذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَٰذِهِ السِّجلاَّت؟!

فَيُقَالُ: فَإِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجلاَّتُ فِي كِفَّةٍ، والْبِطَاقَة فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلاَ يَثْقُلُ مَع اسْمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ شَيْءٌ».

حديث صحيح

البطاقة: رُقْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ وَرَقٍ أَوْ جِلْدٍ، أو غير ذلك، يُكْتَبُ عَلَيْها مكتوبٌ مَّا.

أقول: إِذَا جَمَعْنَا هذا الحديث مع سائر النُّصوص من القرآن والسُّنَّة حول موضوعه، وتَدَبَّرْنَاهَا تَدَبُّراً تكامُلِيًا، يظهر لنا أنّ المراد هو أن شَهَادَة أن لا إِلَه إلاَّ الله وأنّ محمّداً عَبْدُهُ ورسوله، الّتي شَهِدَها في الحياة الدنيا، ومات عليها، كافِيَةٌ لِأَنْ تُنجيَهُ مِن الْخلودِ في عذاب النار، لأنّ هٰذِهِ الشهادة قَدْ رَجَّحَتْ كِفَّةَ عَدَمِ الْخُلودِ في عذاب النار.

وقد كانت سِجلاّتُ السَّيئَاتِ الكثيرات تُشْعِرُ بِأَنَّهُ من أهل النار المخلَّدِينَ فيها، فجاءَتْ بطاقة الشهادتَيْن دالَّةً على أنّه قد كان مؤمناً، إلاّ أنّه لم يَعْمَل بشيءٍ من مقتضىٰ إيمانه، فهو يُعاقَبُ على جرائمه وسيّئاته، ثُمَّ يكون مَصِيرُه بعد ذلك النجاةَ من الخلود في النار، فَيُخْرَجُ منها ويُدخَلُ الجنّة.

(٣) وروى البخاريُّ عن ابْن عبّاسٍ، وروى مسلم عن أبي هريرة وعِمْرَانَ بْن الحُصَيْنِ، وروىٰ الإمام أحمد عن عِمْرَانَ بن الْحُصَيْن، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون».

أقول: إنَّ دُخول هؤلاء الجنَّةَ بِغَيْرِ حساب يَدُلُّ على أنّ أعمالهم لاَ تُوزَنُ حتَّىٰ يُحَاسَبُوا عليها، ويظهر أنّهم مُسْتَثْنَوْنَ من عُمومِ الَّذِين توزَنُ أعمالهم، وأَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ براءةً من اللّهِ يَدْخُلُونَ بها الْجَنَّة، والسَّبَبُ مَا فِي قُلوبِهِمْ من إيمانٍ عظيم، وخَيْرٍ جسيم.

ولا يَدُلُّ هذا الحديث على أنَّ الَّذِينَ يَدْخُلُون الجنَّة بغَيْرِ حسَابٍ مُنْحَصِرون في سَبْعِين ألفاً، فقد يَدْخُلُ الجنة بغير حسابٍ آخرون كثيرون لَيْسُوا من الّذين لاَ يَسْتَرقُون ولا يَكْتَوُون، فالعبارة لاَ تَدُلُّ على الحصر، بل تَدُلُّ على أنّ من الذين يدخلون الجنة بغير حساب هؤلاء.

وبهذا أختم هذا الملحق والحمد لله على توفيقه وفتحه.

* * *

(٢٠)

الملحق الرابع
حول اتخاذ الدّين لهواً ولَعِباً وهزُواً والاغترار بالحياة الدُّنيا

أولاً
مقدمة

جاء في القرآن المجيد التَّشْنِيعُ على الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً، مع أن بيان أحكام الدّين وشرائِعِه ووصاياه من خصائص رُبوبيَّة الرَّبّ جلَّ جَلالُه، وقد اصطفى الله عزّ وجلّ بعِلْمِهِ المحيط بكلّ شيءٍ وبحكْمتِهِ العظيمة البالِغَةِ الدِّينَ للناس، وكلّفهم أن يَتَّبِعُوهُ ويَعْمَلُوا به في رِحْلة امتحانِهِمْ في الحياة الدّنيا، فهو مَادّة الامتحانِ الذي خَلَقَهُمْ الله له، مُزَوَّدِين بخصائصهم النفسّية والجسدِيَّة التي تُؤَهّلُهُمْ لاجْتِيَازِه على أَحْسَنِ وَجْهٍ حكيم.

ومن طبيعة امتحان ذوي الإرادات الحرَّةِ، أَنْ تتفاوت دَرَجاتُ مجتازي مسافته ودَرَكاتُهم، من قِمَّةِ الْفِرْدَوْسِ الأعلى في جنَّاتِ النعيم، إلى الدَّرْكِ الأسْفَلِ من دَرَكات الجحيم.

ومن الظاهراتِ السُّلُوكِيَّةِ الإنْسَانِيَّة، أنْ يَتَّخِذَ الكافرون بالدِّين، دينَ الله لعباده لَهْواً وَلَعِباً.

ولدَىٰ تَتَبُّع النصوص القرآنيَّةِ في مختلف السُّوَرِ، ظَهَرَتْ لي خمسُ صُورٍ لاتّخاذ الدّين لَهْواً ولَعِباً، وهي الصور التالية:

الصورة الأولى:

الافتراء على الله جلَّ جلالُهُ في مسائل الدين، كأَنَّ دين الله لعباده بمثابة لعبة يلْعَبُ بِهَا أصحابُ الأهواء والشهوات والمصالح الخاصّة بهم، أو

بمثابة مَلْهَاة يلْهُونَ بها، غَيْرَ عَابِئِين بأنَّ الدِّين هو مادَّة امتحان الناس في الحياة الدُّنيا، وغَيْرَ مكترثين لأنّ الامتحان ولوازمه وتوابِعَهُ، هو الغاية من خلْقِ الناس بخصائصهم الّتي فطرَهم الله عليها، وأنَّهُ ليس لأحَدٍ أَنْ يتَدَخَّلَ في موادّ هذا الامتحان، دون إذْنٍ من صاحب الحقّ فيه، وهو الرَّبُّ جلّ جَلالُه.

الصورة الثانية:

الاستهزاء بالدّين كُلّهِ أو بَعْضِ الأعمال الدينيّة، واعتبارُها أعْمَالاً غَيْرَ ذَاتِ جَدْوىٰ، فهي مِنْ أَعْمَالِ اللَّهْو واللّعب، ومنها الاستهزَاءُ بآيات الله وإنْذَارَاتِهِ وَوَعْده وَوَعِيدِه، والاستهزاءُ ببعْض الأحكام الدينيَّة، واعتبارها غير موافقة للحق، أو لما هو الأحسن والأفضلُ في التنظيم والتشريع الملائم لمصالح الناس.

الصورة الثالثة:

الدخول في الدّين على سبيل النفاق، بالتظاهر بالإيمان والإسلام، مع الكُفْر، وجعل ذلك لتحقيق مصالح دُنيويَّة، أو لِطَعْنِ الدِّين وطَعْنِ المؤمنين الصادقين من داخل صفوفهم.

الصورة الرابعة:

الاستهانة بقضيَّةِ الدِّين، وعَدَمُ الاكتراثِ له، والانْصِرافُ عَنْه وعن الداعي إليه، لأمور متاع الحياة الدنيا ولَهْوِها ولَعِبِها.

الصُّورَة الخامسة:

الاسْتِهزَاء بالرَّسول والاسْتِهَانَةُ به، ويُلْحَقُ بالرَّسُول المؤمنون به، الّذِين اتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إليهم من رَبهم.

وفي هذا الملْحَقِ أُحَاوِلُ اسْتِقَراءَ النُّصُوصِ القرآنيَّة المتعلقة بهذا الموضوع، مع مُعالجتَها بشيءٍ من التدبر، ولا حول ولا قُوَّةَ إلاّ بالله، إنّه المعلّم الْفَتَّاحُ الوهَّاب.

* * *

ثانياً
نصوصٌ عَامّة بشأن الذين اتّخذوا الدِّين لَهواً ولَعباً وهزواً

جاء في القرآن المجيد ثلاثة نُصوصٍ قرآنية تتضمَّن الحديث عن الذين اتَّخذُوا الدِّين لَهواً ولعباً، وهي في السُّور التالية: (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) و(الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نُزُول) و(المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

النّص الأول:

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ في وصف الكافرين أصحاب النار وهم يُعَذَّبُون فيها:

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾:

هؤلاء كافرون استَحَقُّوا عذابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها، وَكَانَ مِنْ صِفَاتِهِمْ في الحياة الدنيا أَنَّهُمُ اتَّخذُوا دِينَهُمْ لَهواً وَلَعِباً، وغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا.

﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾: أي: جَعَلُوا دِينَهُمْ الّذِي هو مادّة امتحانهم في رحلة الابتلاء في الحياة الدنيا شيئاً يَلْهُونَ به ويَلْعَبون، إذ اعْتَبَرُوهُ شيئاً غير ذي أهمّيةٍ تُقْصَدُ في الحياة، فتَعَامَلُوا مَعَهُ كتعاملهم مع الأشياء الّتي لَيْسَ فيها جِدٌّ، ممَّا يَلْهُونَ بِهِ ويَلْعَبُون من أمُور دُنياهم.

اللَّهْوُ: هو الاشتغال بشيءٍ غير ذي أَهَمِّيَّةٍ، عمَّا يَجِب توجيه الْجَهْدِ والْعَمَلِ له.

والكافرون يَعْتَقدون أنّ الاشتغالَ ببَعْضِ العبادات الدينيَّة الرَّبَّانيّة هو من اللَّهو، لأنّهم لاَ يَجِدُونَ لكَثِيرٍ مِنْهَا ثَمرَة عَاجِلَةً، وهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِيَوْم الدّين وَمَا فيه من جزاء، فيتصَوَّرُونَ أنّ صَرْفَ شيءٍ مِنْ طاقاتِهِمْ فيها هُوَ ضَرْبٌ من اللَّهْوِ الَّذِي يَصْرِفُهُمْ ويَشْغَلُهم عمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُوَجِّهُوا طاقاتِهم وأنواعَ جَهْدِهِمْ له.

اللَّعِبُ: هو ضِدُّ الجدّ، ويقال لكلّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً لا يَجْلُبُ لَهُ نفعاً: إنّما أنت تلعب.

ومن اللَّعِب مَا يُفِيدُ في رياضَةِ الجِسْم، أو الترويح عن النَّفْس، أو اكتِسَاب بعْضِ المعارف والمهارات، وعندئذٍ يَكُونُ لَعِباً ذَا أَغْرَاضٍ جادّة.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: في هٰذا الجملة بَيَانُ السَّبَبِ في كَوْنِ الكافرين اتَّخذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً، وهو أَنَّهُمْ غَرَّتْهُمُ الحياة الدُّنيا، فَحَسِبُوا أَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ فِي وُجُودِهم، وحَسِبُوا أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ هٰذِهِ الحياة حَيَاةٌ أُخْرَىٰ، يَكُونُ فِيها الحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، وتنفيذُ الجزاء.

غَرَّتْهُمْ: أي: خَدَعَتْهُمْ وَأَطْمَعَتْهُمْ بالْبَاطل.

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾.

أَصْلُ النِّسْيَان في اللُّغَةِ التَّرْك، أي: ففي هذا اليوم الَّذِي هو يَوْمُ الدِّين نَتْرُكُهم ونُهْمِلُهم، ولا نُجيبُ طلباتهم، كما تَرَكُوا الاستجابة لدعوة الحقّ في رحلة امتحانهم، وهي الدّعوة الَّتي وُجّهَتْ لهم من رُسُلِ رَبّهم بلاغاً عنه جلّ جلاله، وكما تَركوا العمل ليوم الدّين.

﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: أي: وكَمَا كَانُوا بآياتنا يَجْحدونَ، كافرين بها مع علمهم بأنّها حَقٌّ وصِدْقٌ مِنْ عِنْدِ رَبّهم.

* * *

النّصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لكلّ حَرِيصٍ علىٰ سَعَادَتِهِ بأسْلُوب الخِطَاب الإفرادي:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾:

أي: وَدَعْ هؤلاء، ولاَ تكْتَرِثْ لَهُم، ولاَ تَعْبأْ بهم، ولاَ تَشْغَلْ نَفْسَك بمُجَاهَدَتِهم، لتحويلهم من الكُفْر إلىٰ الإيمان، فَهُمْ سَادِرُونَ في غَيِّهِمْ، مُسْتَغْرِقُون في متاعِ الحياة الدُّنيا التي غرَّتْهُمْ بزِينَتِها، فَمَلَكَتْ حَواسَّهُم الظَّاهِرَة، ومَلَكَتْ نُفُوسَهُمْ وقُلُوبَهُمْ.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾: أي: وَذَكِّرْ بالْقُرْآنِ مَنْ لَمْ يَصِلْ إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ منها.

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: محذِّراً بتذكِيرِكَ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبتْ من مَساخِطِ الله في رحلة امتحانها في الحياة الدّنيا. ضُمِّن فعل [ذَكِّر] معنى فعل «حَذِّرْ» أو «أَنْذِرْ».

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: أنْ تُسْلَمَ نَفْسٌ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين، بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ في الحياة الدنيا من آثامٍ وجرائم، يُعَاقِبُ علَيْها رَبُّ العالمين.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: أي: حَالَة كَوْنِ النفس الكاسبة للآثام والجرائم، لَيْسَ لها من دُونِ الله يَوْمَئذٍ وَلِيٌّ يَنْصُرُها ويَحْمِيهَا

مِنْ عَذَاب الله، ولَيْسَ لَهَا شَفِيعٌ يَشفَعُ لها عِنْدَهُ، إذْ لاَ يَشْفَعُ يَوْمَئذٍ أَحَدٌ عِنْدَهُ إلاَّ بإذنه، وهو لا يقْبَلُ شفاعَةَ أَحَدٍ لِمَنْ كانَ كافراً بِه في رحلَةِ امْتِحانه.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾: وَإِنْ تُقَدِّم النَّفْسُ المحكومُ عليها بالعذاب يَوْمَ الدّين، أيَّةَ فِدْيَةٍ تَراها مُعَادلَةً مكافِئَةً لآثامِهَا، لا تُقْبَلْ مِنْهَا وَلاَ تُؤخَذْ مِنْها.

على أنّ هذا الاحتِمَالَ لاَ يُمْكِنُ تحقيقُهُ، إذْ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ يَوْمَ الدّين إلاَّ مَا قَدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ في الحياة الدُّنيا، وقد جيء بهذا البيان لَقَطْعِ تَوَهُّمَاتِ بَعْضِ أَهْلِ الجرائِمِ، بأَنَّهُمْ سوفَ يَفْتَدُونَ أنْفُسَهُمْ يَوْمَ الدِّينَ بِبَعْضِ مَا كَانُوا يملكونَ في الحياة الدنيا، إنْ صَحَّتْ أَنْبَاءُ الْبَعْثِ والحياةِ الأخرى، وما يجري فيها بحَسَبِ زعمهم، على أنَّهم لاَ يُؤْمِنُون بِيَوْم الدِّين وَلاَ بالجزاء الرَّبّاني.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾: أي: أولئك الَّذِينَ ارْتُهِنُوا في دَار العذاب يومَ الدّين بما كَسَبُوا من جرائم في الحياة الدُّنيا.

الإبْسَالُ في اللُّغَة: جَعْلُ الشَّيْءِ مَرْهُوناً مَحْبُوساً. يُقَالُ: أَبْسَلَ فُلاَناً، أي: رهَنَهُ. وأبْسَلَهُ للهَلَكَةِ، أي: أَسْلَمَهُ لها.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾: هذا يكُونُ لهم وهم في جهنَّم دَارِ العذاب يوم الدِّين، الّتي يخْلُدُ فيها الكافرون.

* * *

النّصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً للذين آمَنُوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

في هذا النصّ ينهىٰ الله عزّ وجل الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِما جاء بِهِ عَن رَبّه، عن أن يتّخِذُوا الّذينَ اتّخذُوا دِينَ الإسلام هُزُواً ولَعِباً، من الذين أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِم، وهُم اليهودُ والنصارىٰ، ونهاهم عن أنْ يَتَّخِذُوا الكُفَّارَ جميعاً أوْلياءَ، ومِنْهُمُ المشركون عُبَّادُ الأوثان.

فالذين يتَّخِذُونَ دِينَ الله لعباده هُزُواً وَلَعِباً قَدْ أَوْغَلُوا في الكُفْرِ إيغَالاً شنيعاً، وأسْرَفُوا في مُعَادَاةِ المؤمنين.

أولياء: أي: أنصاراً وأصْدِقاءَ ومَحْبُوبين، **الوَلِيّ:** يأتي في اللّغة بمعانٍ كثيرة، تَدُور حول من يستَحِقُّ النُّصْرَة والمتابعة والْوُدَّ والحبَّ والمخالطة والمداخلة.

وسيأتي مَزِيدُ شرح تفصيليّ لهذَا النّصّ لدَىٰ معالجة نصوص الصورة الثانية من صُوَر اتّخاذ الدّين لَهواً أو لَعِباً.

* * *

ثالثاً
تدبُّر نصوص الصورة الأولى

وهي الافتراء على الله جلّ جلاله في مسائل الدين، كأنَّ دين اللّهِ لعباده بمثابة لُعْبَةٍ يلْعَبُ بها أصحاب الأهواء والشهوات والمصالح الخاصَّةِ بهم، أو بمثابة ملْهَاةٍ يلْهُونَ بها ـ غيْرَ عَابئين بأنّ الدّين هو مادَّةُ امتحان الناس في رحلة الحياة الدنيا، وغيْرَ مكترثين لأنّ الامتحان ولوازمه وتوابعه، هو الغاية من خلْقِ النّاس بخصائصهم التي فطرهم الله عَلَيْهَا، وأنّه ليس

لأحد أن يتدخّلَ في موادّ هذا الامتحان، دون إذْنٍ من صاحب الحقّ فيه، وهو الخالق الرَّبُّ العليم الحكيم جلّ جلاله.

وهذه الصورة متّصلةٌ ببعض ما جاء في مَضْمُونِ الآية الثالثة من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) وهو قول الله عزّ وجل فيها:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③﴾.

وقد عَرَفنا أنَّ مضمون هذه الآية يُمَثّلُ الْخطَّ الْأعظم الّذي سارَتْ عليه آيات السُّورة، من خُطُوط مَوْضوعها.

إنَّ الافْتِراءَ على الله عزّ وجَلّ في مسائل الدّين، وقَبُولَ الْعَمَلِ بالمفتريات يَدْخُل في عموم المنهيّ عنه بقَوْلِ الله تعالى في هذه الآية:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾.

وهذه الصُّورَةُ متّصِلَةٌ أيضاً بما جاء في الآية (٢٨) من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) أيضاً، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن الّذين افْتَرَوْا عَلَىٰ الله في دينه:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ㉘﴾.

ومتَّصِلَةٌ أيضاً بما جاء بعد هذه الآية من تفصيلٍ لِبَعْضِ مُفْتَرَياتِ أهل الكُفر في دين الله لعباده، حتَّىٰ قول الله عزّ وجلّ في الآية (٣٧) من السورة:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا... (٣٧)﴾.

وقد جاء في عدّةِ سُوَرٍ مِنَ القرآن المجيد تفصيلٌ لبَعْضِ مُفْتَرَيَات أهل الكُفرِ والتحريف في دين الله لعباده.

ومن هذه المفتريات الّتي تَحْمِلُ حَقِيقَةَ معانِيَ اللّهْوِ واللّعب، البدَعُ

في العبادات الّتي فِيها أعمالٌ هي من اللّهْوِ واللّعِب، كالتصفير، والتَّصْفِيق، والْغِنَاءِ، والرَّقْصِ، واسْتِخْدَامِ آلاَت اللّهْوِ والموسيقى.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول) في وصْفِ بَعْضِ الأعْمال الّتي ابْتَدَعَها المشركون في الدين:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿مُكَآءً﴾: أي: صَفِيراً.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾: أي: وتَصْفِيقاً.

وظاهِرٌ أنَّ هذه الأعمال هي من اللّهْوِ واللّعِب، وابتداعُها في الدين هو من اللّعِب، والْعَبَثِ بدين الله لعباده.

وهذه المبتدعاتُ حلّتْ لدى المشركين محَلَّ الصَّلاَةِ المشروعة، ذاتِ القيام والرُّكُوعِ والسُّجُود والتّلاَوات والأذكار، والخشوع لله فيها، وكانُوا يَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ من العبادة لِلّهِ والصَّلاةِ له.

قال ابْنُ عطيَّةِ ونقله صاحِبُ البحر المحيط عنه: والّذِي مرَّ بي مِنْ أمْرِ الْعَرَبِ في غَيْرِ ما دِيوَانٍ، أنَّ الْمُكَاءَ والتَّصْدِيَةَ كانَا مِنْ فَعْلِ الْعَرَب قَدِيماً قَبْلَ الإسلام، على جِهَةِ التَّقَرُّبِ والتَّشَرُّع اهـ.

وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَطُوفونَ بالبيتِ عُرَاةً يَصْفِرُونَ وَيُصَفِّقُونَ.

ومن هذه البدع في الدّين، اتخاذُ الناس أَعْيَادَهُمْ الدينيَّةَ مناسَبةً للّهْوِ واللّعِب وَنَشْرِ المعاصي، مع أنّها في الأصل مناسبة لشُكْرِ الله بالعبادة الّتي تُرضيه جل جلالُه.

حكَىٰ المفسّرُونَ نَقْلاً عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: جَعَلَ اللَّهُ

لكلّ قَوْمٍ عِيداً يعظِّمُونَهُ، ويُصلُّونَ فيه، ويَعْمُرُونَهُ بِذِكْرِ الله تعالى، ثم إنّ أكْثَرَهُمْ مِنَ المشرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ اتَّخذُوا عِيدَهُمْ لَهواً ولَعِباً، غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُمْ اتَّخذُوا عِيدَهُمْ كَمَا شَرَعَهُ الله تعالى.

أمّا اشتراع أهل الجاهلية الطواف بالبيت عُراة لغير سُكّان الحرم، فقد كانوا يقولون بشأنه: لاَ نَعْبُدُ اللَّهَ في ثياب أَذْنَبْنَا فيها.

وكان اللَّوَاتي يَسْتَحْيِينَ مِنْ نساء الْعَرَب يطُفْنَ عَارِيَاتٍ في اللّيل.

لكن إذا وَجَدَ العربيُّ من يُعِيرُهُ ثَوْباً مِنَ الْقُرَشِيِّينَ استعارَهُ وطاف فيه، وكذلك النساء.

وقد جاء ذكر هٰذِهِ البِدْعَة الجاهليّة الشَّنِيعة في عِدَّة رِوايات، منها ما يلي:

(١) روى مسلم والنَّسَائيُّ وابْنُ أبي شيبة وغيرهم عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أنَّ النساء كُنَّ يَطُفْنَ عُرَاةً، إلاَّ أَنْ تَجْعَلَ المرأة عَلَىٰ فَرْجِها خِرْقَةً وَتَقُول:

الْـيَـوْمَ يَـبْـدُو بَـعْـضُـهُ أَوْ كُـلُّـه وَمَـا بَـدَا مِـنْـهُ فَـلا أُحِـلُّـهُ

فنَزَلَتْ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ. . .﴿٣١﴾﴾ (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

(٢) وأخرج ابْنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابن مَرْدَويه، عن ابن عباس أيضاً في هذه الآية:

«كان الرجال يطوفُون بالبيت عُراةً، فأمَرَهُمُ اللَّهُ بالزِّينَة، والزينَةُ اللّباسُ، وهو ما يُوارِي السَّوْأَةَ، وَما سِوَىٰ ذَلِكَ مِنْ جَيِّدِ البزِّ والمتاعِ».

(٣) وروى ابن جرير عن ابن عباس أيضاً قال:

«كانُوا يطوفُونَ بالبيْتِ عُراةً، الرِّجالُ والنساءُ، الرِّجَالُ بالنَّهَارِ والنِّسَاءُ باللَّيل».

(٤) وأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عُرْوَة بن الزبير قال:

«كانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بالْبَيْتِ عُرَاةً إلاَّ الْحُمْسَ، والْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، فَكَانَ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ عُرَاةً، إلاَّ أَنْ يُعْطِيَهُمُ الْحُمْسُ ثِيَاباً، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ، والنِّسَاءُ النِّسَاءَ».

الْحُمْسُ: المتَشَدِّدُونَ في الدِّين، وقد أَطْلَقَ الْقُرَشِيُّونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم أنّهم حُمْسٌ، تفاخُراً بأنّهم مُتَشَدِّدُونَ في التَّمَسُّكِ بالدّين في جاهليّتِهم، على الرغم من كلِّ ما ابتَدَعُوهُ من تحريفات جاهلية في دين الله الموروث عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، وأقبَحُها الوثنيّة.

ورُوي عن عروة أنَّهُمْ كانُوا إِذَا وَصَلُوا إلى مِنَىٰ، طَرَحُوا ثيابَهُمْ، وأَتَوْا الْمَسْجِدَ عُراةً.

(٥) وَرُوِيَ أَنَّ الْحُمْسَ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَم، فلا يَنْبَغي لأحَدٍ مِنَ الْعَرَب أَنْ يَطُوفَ إلاَّ في ثيابِنا، وَلاَ يَأْكُل إذَا دَخَلَ أَرْضَنا إلاَّ مِن طَعَامِنا، فَمَن لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَرَبِ صَدِيقٌ بمكَّةَ يُعِيرُهُ ثَوْباً، ولاَ يَجِدُ مَا يَسْتَأْجِرُ بِهِ ثَوْباً مِنْ قُرَشِيٍّ، كان بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ.

- ● إِمَّا أَنْ يَطُوفَ بالْبَيْتِ عُرْيَاناً.
- ● وَإِمَّا أَن يَطُوفَ في ثيابه، فإذاَ فَرَغَ مِنْ طَوافِه أَلْقَىٰ ثَوْبَهُ عنْهُ، فَلَمْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ، وكانَ ذَلِكَ الثوب يُسَمَّىٰ «اللَّقَىٰ» قالَ شاعِرُهم:

كَفَىٰ حَزناً كَرِّي عَلَيْهِ كَأَنَّهُ لَقَى بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرَامُ

وأَمَّا اشتراع أهل الجاهليّة في دين الله مفتريَاتٍ في المطاعِمِ، فنُطَالِعُ فيه عدَّةَ قضايا، وعِدَّة رِوايات.

(١) روى الطبريُّ عن جابِرِ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا حَجُّوا حَرَّمُوا الشَّاة، ولَبَنَها، وسَمْنَها.

(٢) وَرُوِيَ عن السُّدِّيّ وابْنِ عَبَّاسٍ، أنَّ أهْلَ الجاهليّة كَانُوا يُحَرِّمُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ الْوَدَكَ. مَا أقاموا في مَوْسِمِ الحجّ.

فكانوا لاَ يأكُلُونَ في موسِمِ الحجّ إلاّ قُوتاً، ويَجْتَنِبُونَ الدَّسَم.

الْوَدَكُ: هو الدَّسَمُ والدُّهْنُ.

فعلّم الله عزّ وجلّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، فكُلَّ داعٍ إلى دِينِ اللّهِ مِن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، مُنَاظَرَةَ مُلْتَزِمِي هٰذِهِ التحريفات والمبتدعات في الدّين، فقال اللّهُ عَزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

في هٰذه الآيَةِ يُعَلِّمُ اللّهُ عزّ وجلّ رسُولَهُ وكلَّ دَاعٍ إلى دينِ اللّهِ الحقّ من أمّتِه، أسْلُوبَ مُنَاظَرةٍ جَدَلِيَّةٍ، حوْلَ التحريفات في الدين، الّتي افتَرَتْهَا الجاهليّاتُ قبل الإسلام بِشَأنِ زِيناتِ الملابِسِ الّتي أخْرَجَهَا اللّهُ لعباده، وبشأنِ الطيّباتِ من الرّزق.

أي: قُلْ لهم: إنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ أَمَرَ بأَخْذِ الزّينةِ عِنْدَ كُلّ مَسْجِدٍ، وأَمَرَ بِسَتْرِ السَّوْءاتِ مُنْذُ عَهْدِ بني آدم الأوّلين.

وقل لهم: إنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أَمَرَ بَنِي آدمَ بِأَنْ يَأكُلوا وَيَشْرَبُوا مِمَّا يَشَاءُونَ من الطيّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، إلاّ الذي حَرَّمَهُ عليهم بالتَّعْيين أوْ بالْوَصْف.

فَمَنْ هذا الذي افترى على الله فوضع قواعد التحريم في اللّباس، ووضع أحكام التحريم في الأنعام والحرْث، فقال: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، مع أنّها من الطيّباتِ ولَيْسَتْ من الخبائث؟!!

أي: هل هذا المحرِّمُ رسُولٌ صادقٌ يُبَلِّغُ عن الله؟!! أَمْ هُوَ كذّابٌ مُفْتَرٍ يَفْتَري على دِين الله؟!!

والمعنى من توجيه هذا السؤال الإنكاريّ الجدَليّ، أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ لم يُحَرِّمْ شيئاً من هذه المفتريات في الجاهليات، بَلْ أوجَبَ بعضها، وَنَدَبَ إلى بَعْضِها، وأَبَاحَ بَعْضَها، وكلُّ حُكْمٍ مُخَالِفٍ لِحُكْمِ اللّهِ هو من الْعُدْوان على رُبُوبيّةِ اللّهِ عزّ وجلَّ وعَلَىٰ إلَهيَتِهِ.

وفي طرح هذا السؤال الجدليّ مطالبةٌ لَهُمْ بدليل التحريم، وهُوَ لا يكونُ دليلاً عقليًا، لأنَّ موضوعه من موضوعات العبادات الدينيّة، فلا بُدَّ أَنْ يكون دليلاً نقليًا عن نصّ دينيّ صحيح، في كتَابٍ مِنْ كُتُب الله، أَوْ خَبَرٍ صحيحٍ ثابتٍ عن رسُولٍ من رُسُلِ اللّهِ، ولَنْ يَجِدُوا شيئاً من ذلك في نصّ صحيح ثابت.

أمّا إذا كان المحرِّمُ لهذِهِ الأمور زعيماً أو كاهِناً أو نَحْوَهُما، فَهُمْ طَواغيتُ يفتَرُونَ الكَذِبَ في الدّين على اللّهِ عزَّ وجلّ، أو يَجْعَلُونَ أنْفُسَهُمْ أَرْباباً من دُونِ الله، فَهُمْ يُحَلّلُون ويُحَرِّمُونَ علَىٰ مَا يَشَاءَون بأهوائهم، فأقوالهم سَاقِطَة، والْعَمَلُ بها اتّباعاً لهم هو من الشِّرْكِ، ووضْعُ هذه الأحكام والْعَمَلُ بها هو من التلاعُبِ والعبث بدين الله لعباده.

وحينَ لا يَجدُ المسؤولون الدّليل المثبت لمَا يُحَرِّمُونَ مِنْ زينَةِ اللّباسِ والطيّباتِ من الرّزق، فإنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنبِذُوا تقاليدهم الباطلة، ويَتّبِعُوا مَا أُنزِلَ إليهم من ربّهم، على لِسَانِ رسُوله محمّد بن عبد الله ﷺ، ولا يَتّبِعُوا من دونه أَوْلياء.

وإذا استجابُوا لِمَا أُلزِمُوا به في نِهَايَةِ المناظَرَةِ، فعَلَيْهِمْ أَنْ يُصْغُوا إلى التعليم الّذِي يُبَلِّغُهُمْ إيّاهُ رسولُ الله ﷺ.

وَمِنَ النّصوص المشتملة على بيان الافتراء على اللّهِ عزَّ وجَلَّ في الدّين، ممّا افتراه أهل الجاهلية، قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورةِ (يُونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) خطاباً لرسُولِهِ فلِكُلِّ دَاعٍ إلى دِينِ الله من أُمّتِه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

وفي هذا النصّ تعليم جدليٌّ آخر، حول الموضوع نفسه، وفيه طَرْحُ سُؤَالٍ على المفتَرين الَّذينَ يَفْتَرُونَ على دين اللَّهِ الكذبَ:

﴿...ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: أنتم بَيْنَ احتمالَيْنِ لاَ ثَالِثَ لَهُمَا، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لعبادِهِ من رِزْقٍ، فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً بابْتِدَاعٍ مِنْكُمْ.

الاحتمال الأول: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ.

الاحتمال الثاني: أَنْ تَكُونُوا تَفْتَرُونَ على الله.

لكنَّ الله عزّ وجلّ لَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَهٰذِهِ بَدَهِيَّةٌ من بدهيَّاتِ الدِّين، إِذْ لاَ دليلَ لَكُمْ مِنْ نصٍّ صحيحٍ عَنِ الله يأذَنُ لَكُمْ بوَضْعِ أحكامِ الحرَامِ والْحَلالِ في قضايا الدِّين، فبقي الاحتِمالُ الآخَرُ، وهُوَ أنكُمْ تفتَرونَ على الله جلّ جلاله.

﴿...وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ...﴾؟

أي: وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يفْتَرونَ على اللَّهِ الكَذِبَ أَنْ تكونَ حَالَتُهُمْ يَوْمَ القيامة؟!. أَيظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ سَيُعْفيهِمْ مِنَ المسؤوليَّة، وَلاَ يُعَاقِبُهُمْ عقَاباً شَدِيداً على افتراءاتهم في التحريم والتحليل دُونَ إِذْنٍ مِنْهُ تبارَكَ وَتَعالىٰ، ومِنْ غَيْرِ دليلٍ صحيحٍ مقبولٍ يَسْتَنِدُونَ إِلَيْه، وهُمْ يُشارِكُونَ اللَّه عزّ وجلّ في خَصَائِصِ رُبُوبيّتِهِ؟!!

إِنْ كانُوا يُظُنُّونَ مِثْلَ هٰذَا الظّنّ فَهُوَ ظَنٌّ سَاقِطٌ لاَ يُغْنِيهم مِنَ الحقّ شيئاً.

إذا كان المشركون الذين يَعْبُدونَ مع اللّهِ إلَهاً آخرَ لاَ يَغْفِرُ اللّهُ لَهُمْ، فَكَيْفَ يكونُ حَالُ الّذِينَ يُشارِكُونَ الله في بَعْضِ خَصَائِصِ رُبُوبيّتِهِ؟!.

إنَّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ سَيُنْزِلُهُمْ في دَرَكَاتِ الجحيم على مَقَادِيرِ افتراءَاتِهِمْ على خصائص رُبُوبيّتِهِ جَلَّ جلالُه.

إنَّ تَدَخُّلَ النَّاسِ في التحريم والتحليل في قضايَا الدّين، قد أوْصَلَ مِلَلَ أهْلِ الشّرْك والكُفْرِ، ومُتَلاعِبي أهْلِ الكتاب في دين الله، إلى ابْتِدَاع تَحْريماتِ غَلَوْا فيها، وهي في شرع الله لعباده حلال، وكَانَ ذلِكَ مِنْهُمْ افتراءً على الله، لأنّ الله عزّ وجلّ هُو وَحْدَهُ الّذِي لَهُ التحريمُ والتَّحْلِيلُ في الدّين، إن الْحُكْمُ إلاّ لِلّهِ، فَلَيْسَ لأحَدٍ أنْ يُحَرّمَ أو يُحَلّلَ في دِينِ اللّهِ شيئاً دون إذْنٍ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَفي بيان بعْضِ الأحكام الجاهلية التي حَرَّم فيها المشركون وحَلّلوا ما لَمْ يأذن به الله، قَالَ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾:

في هذا النصّ بيان طائفة من استهانةِ أهل الجاهلية بدِينِ الله الموروُثِ عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، بالتلاعُبِ بالدِّين افتراءً علَىٰ الله، بتحريم ما لَمْ يُحَرِّمْه الله، واستباحَةِ ما حرَّمَهُ الله.

فحَرَّمَ المشركون أَنْعاماً، وحرَّمُوا حَرْثاً، وجعلوها لآلهتهم من الأوثان. وحرَّمُوا رُكُوبَ بعْض الأنعام. وكانوا يذبحون باسم أوثانهم أَنْعاماً، ولا يَذْكُرونَ اسْم الله عليها. وجَعَلُوا بعض ما في بُطونِ الأنْعَام مِنْ أجِنَّةٍ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ حَلالاً للذُّكُورِ وحراماً على الإناث، إلاَّ أن تكون مَيْتَةً فهي حلالٌ للذكور والإناث. وحرَّمُوا بعْضَ ما رزقهم اللَّهُ من أنعام افتراءً على الله، واسْتَحَلُّوا قَتْلَ أوْلاَدِهم بالْوَأْدِ افتراءً على الله في دينه.

وكلُّ ذلك من التلاعب بالدين والاستهانة به.

الفرية الأولى في الدين: دَلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾: أي: ممَّا خَلَق، ومن البدَهِيّ أَنَّ ما خَلَقَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِلْكه.

﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾: أي: من نتاج الحرْثِ، **الحَرْث**: الْعَمَلُ في الأرض لاستنبات زَرْعِها، أو غرس شجرها، ويُطْلَقُ **الحرْث** علىٰ الزّرْعِ النَّابتِ كما ذكر الزّجاج.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: أي: ومِنْ نِتَاج الأنعام، وهي الإبلُ والبقر والغنم.

﴿نَصِيبًا﴾: أي: حظًّا وَحِصَّةً.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾: أي: فَرَزُوا النَّصِيبَ الّذِي جعَلُوه لِلَّهِ

بزَعْمِهِم، أي: بالافتراء الّذِي افْتَرَوْهُ في الدّين، وقالُوا: هَٰذَا لِلَّهِ. ولَعَلَّهُمْ يَقْصِدُونَ بأنَّهُ يُصْرَفُ في المصارف التي تُرْضِي الله، كَمُسَاعَدَةِ الفقراء والمساكين والصَّدَقَاتِ وصِلَةِ الأَرْحَامِ، وقِرَىٰ الضيف.

﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾: أي: وفَرَزُوا النّصيب الآخَرَ الّذِي جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ الّتي تَرْمُزُ إِلَيْهَا الأَوْثَانُ، وقالوا: هَٰذَا لآلِهَتِنَا.

وما جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ يسْتَوْلي عليه سَدَنَةُ الأَوْثَانِ، والقائِمُونَ بِخِدْمَتِها، وَتَضْلِيلِ عَابِدِيها، ومَعَهُمْ مَنْ يُعِينُهم ويُنَاصِرُهم، وقَدْ يَكُونُ لِلْكَهَنَةِ النّصِيبُ الأَوْفَىٰ.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: فَلاَ يُوَزَّعُ مِنْهُ شَيْءٌ في المصارف الّتي تُرْضي الله، بَلْ يَسْتَوْلي عليه المنتفعون بِالمُفْتَرَيَاتِ في الدّين، من الكَهَنة والسَّدَنَةِ وأعوانهم الضّالّين المضلّين.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾: أي: وما فَرَزُوهُ لِلّهِ بِحَسَبِ افتراءاتِهِمْ في الدّين، فإنَّ المنْتَفِعِينَ ممَّنْ لَهُمُ الزَّعَامَةُ والوظائِفُ الدِّينيَّةُ الْوَثَنِيَّةُ يَسْتَولُونَ عَلَيْهِ أيضاً، فَلاَ يَصِلُ مِنْهُ إلى الفقراء والمساكين وصِلَةِ الأَرْحَام وقِرىٰ الضَّيْفِ إلاَّ النَّزْرُ اليسير، أو لا يَصِلُ إلى هؤلاء مِنْهُ شيْءٌ.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: عِبَارَةُ ذَمّ لِكُلّ أَحْكَام المشْرِكِينَ الجاهِلِيَّة، مُصَدَّرَةٌ بأداة الاسْتِفتاح «أَلاَ» الّتي فيها تَنْبِيهٌ بِشِدَّة، وتَشْهِيرٌ إعلامي.

الْفِريَةُ الثّانِيَةُ في الدّين: دلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

أي: وكذَلِكَ الَّذِي كان مِنهُمْ من وضع أحكام افترائيّة على الله في الدين، ممَّا يتعلَّقُ بالحرث والأنعام، زيَّنَتْ آلِهَتُهُمْ لكثير مِنهُمْ إباحَةَ أن يَقْتُلوا أولادَهم الصّغار عقب الولادة، أو بَعْدَ ذَلِكَ في سِنّ التمييز، وهٰذَا مَا عُرِفَ بالْوَأد، وأسبابُهُ تَرْجع إلى واحد أو أكثر مما يلي.

(١) التخلُّص من النَّفَقَة، لوجود الفقر الذي يُعَانون مِنه.

(٢) الخوف من حدوث الفقر مستقبلاً.

(٣) مخافة السَّبْي، الّذي يكون من نتائجه عارٌ على أولياء المسبيَّات من الإناث، إذْ يَسْتَمْتعُ بِهِنَّ الَّذِينَ سَبَوْهُنَّ مِنَ الْغُزَاةِ.

(٤) بِدْعَةُ النَّذْرِ لِلَّهِ، نظير نَذْرِ عَبْدِ المطّلب أَنْ يَذْبَحَ أَحَدَ أولاده، إِذَا رَزَقَهُ اللَّهُ بأولادٍ عَشَرَةٍ ذُكُور.

ويظهر أنَّ هذا التَّزيين الَّذِي وُضِعَتْ له أحكامُ الإباحة هو من فِعْلِ الكَهَنَةِ أو سَدَنَةِ الأوثان، زاعِمِينَ أَنَّهُ ممَّا أَوْحَتْ به الآلِهَةُ الّتي تَرْمُزُ إليها الأوثان.

﴿ لِيُرۡدُوهُمۡ ﴾: أي: لِيُسْقِطُوهم في أَوْدِيَةِ الآثام والجرائم، فينالُوا سَخَطَ اللَّهِ وعقَابَه الأليم.

﴿ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ ﴾: أي: ولِيَخْلِطُوا عَلَيْهِم دِينَهُمْ، فيَجْعَلُوا الباطل الجديد المفترى، ضِمْنَ عناصر الحقّ الرّبّاني الموروث المنّزل، وَبِطُولِ الْعَهْدِ وكَثْرَةِ العناصر الدخيلة المفتراةِ تكونُ الغلبَةُ للباطل، وتضْمُر عناصر الحقّ حتَّىٰ تتلاشَىٰ، فلا يَبْقَىٰ من الحقّ الرّبَّانِيّ إلاَّ بعضُ شكليَّاتٍ ومَورُوثاتٍ، هِيَ مِنَ الدِّين بمثابَة مَقْعَدٍ خشبيٍّ في ساحةِ قَصْرٍ عظيم، أو بمثابَةِ علامَةٍ فَارِقَةٍ على باب سُوره الخارجيّ.

الْفِرْيَةُ الثالثة في الدِّين: دَلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾.

﴿حِجۡرٞ﴾: أي: مَحْجُورٌ مَمْنُوع، ويَزْعُمونَ أَنَّ المحجُورَ من الأنْعَامِ مَمْنُوعٌ لآلِهَتِهِم.

لكِنَّ المستفيدين من هٰذه المحجورات في الواقع هم الكَهَنَةُ وَخُدَّامُ الأوثانِ وسَدَنَتُها، فَهُمْ يُغْلِنُونَ حَجْرَها باسْمِ آلهتهم الوثنيَّة، لتكونَ لمنافعهم ومصالحهم الخاصَّة.

﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾: أي: يَزْعَمُونَ أَنَّ هٰذِهِ المحجُورات لا يَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا أو يَذُوقَ طَعْمَها إلاَّ مَنْ يَأْذَنُونَ له بأنْ يَطْعمَها.

وهذا يَتَضَمَّنُ أُكْذُوبَةً افْتَرَوْها لمصلَحَةِ أنفسهم، ادَّعَوْا فيها أَنَّ آلهتهم جعَلَتْ لهُمُ الولايَة عليها، فَمَنْ يَشَاءُ هؤلاء من الكَهَنَةِ والسَّدنَة وَخُدَّامِ الأَوْثان أن يُطْعِموهُ أطعموه، ومَنْ يشاءُون حرمانَهُ حَرَمُوه.

الْفِرْيَة الرابعة في الدِّين: دَلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾: أي: وقالوا: هٰذِهِ أنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها، بمعنى أنّه يَحْرُمُ رُكوبها، وهي البحيرة، والسَّائِبَةُ، والوصيلةُ، والحامي، وسيأتي بيانها إنْ شاء الله لدى تَدَبُّر النّصّ الْمُسْتَشْهَدِ بِهِ مِنْ سُورَة (المائدة).

الفرية الخامِسَةُ في الدين: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾: وهي مَا يذبحونَهُ من الأنْعَام باسم آلهتهم، فيذكُرُونَ عند الذبح اسم الوثن الذي يذبَحُونَها له، ويستَبْعِدُونَ ذكر اسم الله عزّ وجلّ، والذّبيحة من هذا القبيل حرامٌ أَكْلُ لحمها في الإسلام، لما فيها من الافتراء على اللّهِ في الدين.

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: أي: سيجزيهم اللّهُ عزّ وجلَّ عقاباً وعذاباً أليماً، بسبب مَا كانوا يَفْتَرُونَ في دين الله على الله.

ومعلومٌ أنَّ الذّبح لغير اللّهِ شِرْكٌ في اللّهِ، واللّهُ لاَ يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به.

الفرية السادسة في الدين: دلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ﴾

وَهٰذِهِ من أحكام أهل الجاهلية المفتراة على دين اللّهِ لعباده، إذْ جَعَلُوا مَا في بُطُونِ البَحَائِرِ والسَّوائِب من الأَجِنَّةِ للذُّكُور خاصَّةً، وهو مُحَرَّمٌ على الإناث، إلاَّ أن يكون ميتةً، إذْ تَلِدُهُ أُمُّهُ ميْتاً، فيجوزُ أَنْ يأكُلَ مِنْهُ الذُّكُورُ والإناث.

وسيأتي إنْ شاء الله بيان البحائر والسّوَائب.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ﴾: أي: سيجزيهُمُ اللّهُ عزَّ وجلّ فيعاقبُهُمْ بالْعَدْل على مقدار وَصْفِهِمْ من الإثم والافتراء على اللّهِ في دينِه، وهو الوصف الذي كانوا عليه في الدنيا ولم يتوبُوا إلى الله منه.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾:

هَذَا تعقيبٌ رَبّانِيٌ يكْشِفُ اللّهُ به المصِيرَ الّذِي سَوْفَ يَصِيرُ إلَيْهِ الّذِين خَالَفُوا شَرِيعَةَ اللّه، وافْتَرَوْا على اللّهِ الكذِبَ في قَضايا دينِه لعباده، إذْ قضايا الدّين من خصائص رُبوبيّتِه جلّ جلاله.

إنَّهُ الحكْمُ عليهم بالْخُسْرَان.

فالذين خالَفُوا شريعة اللّهِ باستحلال العدوان على أولادهم بالوأد، سَفهاً بغَيْرِ عِلْم، قَدْ خَسِرُوا بمقتضىٰ حكم الله عليهم بالعقاب الّذي يكُونونَ فيه خاسِرين خُسْراناً عظيماً يتَعلَّقُ بذواتهم.

والّذين افْتَرَوْا على اللّهِ في قضايا دينه لعباده، وشَاركُوا اللّه في بعْضِ خَصَائِصِ رُبوبيّتِهِ، قَدْ خَسِرُوا أيْضاً بمقتضىٰ حُكْمِ الله عليهم بالعقاب الذي يكونُونَ فيه خاسِرِينَ خُسْرَاناً عظيماً من ذواتهم.

﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ هٰذا حُكْمٌ من اللّهِ علَيْهِم بأَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا في رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: أي: ومَا كَانُوا ليهتَدُوا إلى صراطِ اللّهِ المستقيم، مَهْمَا أُمْهِلُوا انتظاراً لصَلاَحِهِمْ وَهِدَايتهم، لأنَّ أهواءهم وشهواتهم، ورغباتهم من الدنْيَا كانت هي السَّائِدَةِ عليهم، وكانَتْ إراداتهم ضعيفةً مُسْتَخْذِية تجاه مطالب نفوسهم من الدنيا الّتي غَرَّتْهُمْ بزِيناتها.

■ وفي بَيانٍ تفصِيليٍّ للأنْعَامِ الّتي حَرَّمَها أهْلُ الجاهلية افتراءً علىٰ الله وتلاعُباً في الدّين، قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

البَحيرَة:

الْبَحْرُ عِنْدَ الْعَرَب هو شقُّ الأذن، فالبحيرَة هي مشقُوقة الأُذُنِ من الأنْعَام «فَعِيلَة» بمَعْنَىٰ «مَفْعُولة». وفي البحيرة المحرّمَةِ عند أهل الجاهلية من العرب ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: قال الإمام الشافعِيُّ: «كَانَ الْعَرَبُ إذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ إنَاثاً، بَحَرَتْ أُذُنَها (أي: شَقَّتْها) فَحُرِّمَتْ».

القول الثاني: كَانُوا إِذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أَبْطُن، فَإنْ كَانَ الخامِسُ ذَكَراً بَحَرُوا أُذُنَهُ، فأكَلَهُ الرِّجالُ والنساء، وَإنْ كَانَ الخامِسُ أُنْثىٰ بَحَرُوا أُذُنها، وكانَتْ حَراماً علىٰ النساء لَحْمُها ولَبَنُهَا.

القول الثالث: كَانُوا إذا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ شَقُّوا أُذُنَها، وحَرَّمُوا رُكُوبَها ولَبَنَها.

ولعَلَّ هذه الصُّور كُلَّها كانَتْ مَوْجُودَةً عِنْدَ أَهْل الجاهليّةِ من الْعَرَبِ، وهي من افتراءاتهم على الله، ومن التلاعب بأحكام دينِه لعباده.

السائِبَة:

هي الناقة أو البعير يُسَيَّبُ بِنَذْرٍ يَنْذُرُهُ مَالِكُه، فَلاَ يُحْبَسُ عَنْ رَعْيٍ وَلاَ مَاءٍ، وَلاَ يَرْكَبُهُ أحَدٌ.

وقيل: هي الّتي تُسَيَّبُ لِلَّهِ فَلاَ قَيْدَ عليها، ولا راعِيَ لها.

وقيل: هيَ التي تابَعَتْ بَيْنَ عَشرِ إنَاثٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ، فَعِنْدَئِذٍ تُسَيَّبُ فَلاَ يُرْكَبُ ظَهْرُهَا، ولاَ يُجزُّ وَبَرُها، ولاَ يَشْرَبُ لَبَنَهَا إلاَّ ضَيْفٌ.

الوصِيلَة:

هي الناقة إذا وَلَدَت أُنثَىٰ بَعْدَ أُنثَىٰ. وقيلَ: هِيَ الشَّاةُ كانَتْ إذَا وَلَدَتْ أُنثَىٰ فَهِيَ لهم، وَإِنْ وَلَدَتْ ذكراً فَهُوَ لآلِهَتِهِمْ، وَإِنْ وَلَدَتْ ذكراً وَأُنثَىٰ قالُوا: وَصَلَتْ أَخَاها، فَلَمْ يَذْبحُوا الذَّكَرَ وَجَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ.

إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ من أقوالٍ تَتَضَمَّنُ أحكاماً جَاهِلِيَّةً سَاقطَةً حَوْل المراد بعنوان «الوصيلة».

الحامي:

هو الْفَحْلُ إِذَا رَكِبَ وَلَدَ وَلَدِه. وَيُقَالُ: هو الّذي يُنْتَجُ من صُلْبِه عَشَرَة أبْطُن، فيقولون: قَدْ حَمَىٰ ظَهْرَهُ، فَلاَ يُرْكبُ ولاَ يُمْنَعُ مِنْ كَلأ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الافتراء على الله في مسائل الدين وقضاياه، تَحْرِيمُ الْهُنُودِ الْبَرَهْمَةِ الْبَقَرَ، وتَعْظِيمُها، والتبرُّكُ بأبوالِهَا، وتَرْكها سَائبة، تَرعَىٰ مَا تَشَاءُ، وتأكُلُ مَا تَشَاءُ، وتَدْخُلُ حَيْثُ تَشَاء، تَقْدِيساً لها وَتَعْظِيماً، إلى حَدٍّ شبيهٍ بعبادتها.

وهذا من التلاعب بدين الله لعباده.

وَمِنْ أمْثِلَةِ اتّخاذ الدّين لهْواً وَلَعباً، مزاعِمُ اليهود إذْ قالوا: ما أنْزَلَ اللّهُ علَىٰ بَشَرٍ مِنْ شيءٍ، مع أنّهُمْ يُؤْمِنُونَ بموسَىٰ عليه السلام، وبأنَّ اللّهَ أنْزَلَ عليه التوراة.

وكذلك تَلاَعُبُهم بإخفاء النُّصُوصِ الّتي تُخَالِفُ أهْوَاءهم من كُتُبِهِم، وتحريفُهم في كلام الله.

وقَدْ أنْزَلَ اللّهُ عزَّ وجل بشأنهم آيَةً مَدَنِيَّةً، مَضْمُومَةً إلى سورة مكيَّة في معظمها، للمناسبة الفكرية، وهي سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أن تقيم عَلَيْهِمُ الحجَّة الدامِغَةَ دَعْهُمْ وَلاَ تَعْبَأْ بِهِمْ، واتْرُكْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُون بِدِينِ الله على ما يحلو لهم.

أصلُ الخوض: الْمَشْيُ في الماء وتحريكه، فيختلط تراب الأرض به ويُفْسِدُ صفاءه.

واستعمل الخوض بمعنى اللَّبْسِ في الأمر، والخَوْضُ من الكلام ما فيه الكذِبُ والباطل.

* * *

رابعاً

تدبُّر نُصُوص الصورة الثانية

وهي الاستهزاء بالدّين كُلّه، أو ببَعْضِ الأعمال الدِّينيَّة، واعتبارُها أعْمالاً غَيْرَ ذَاتِ جَدْوَىٰ، واعتبارُها مِنْ أعمالِ اللّهْو واللّعبِ، ومِنْ الأمور الّتي يُسْتَهْزَأ بها، لعَدَمِ لِيَاقَتِهَا بالْعُقَلاءِ وَأَهْلِ الكمال، وكذلك الاستهزاءُ بِبَعْضِ الأحكام الدّينيَّةِ، واعتبارُها غَيْرَ مُوافِقَةٍ لِلْحَقّ، أَوْ لِمَا هُوَ الأَفْضَلُ والأَحْسَنُ في التنظيم والتشريع الملائِمِ لمصالِحِ الناس، وكذلِكَ الاستهزاءُ بآياتِ اللّهِ، وإنْذَاراتِه بالعقابِ المعَجَّلِ، والاستهزاء بِوَعْدِه وَوَعِيدِه بالجزاء المؤجّل.

وقَدْ جاء في القرآن المجيد حول هذه الصورة نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَة، أستَعْرِضُها مع شيءٍ من التَّدبُّر الّذي يفتح الله به.

النّصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾.

[**إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَة**]: أي: إلى أوقاتٍ مَعْدُودَة، أو إلى مُدَّةٍ مَعْدُودَةٍ وَحَدَاتُها الزّمنيَّة، وهي ليسَتْ بالطويلة في حساب تاريخ الشُّعُوب.

يَأْتي لفظ «أُمَّةٍ» في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ الحِينِ، والْوَقْتِ، والمدَّة.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: نَزَلَ بِهِم، وأحاطَ بهم، ويُقالُ لغة: حَاقَ به الأمْرُ يَحيقُ حَيْقاً، وحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً، أي: لَزِمَهُ، وَوَجَب عليه، وأصابَهُ وَأَحَاطَ به.

والمُرَادُ أنَّهُ نَزَل بهم على وجْهِ الإحاطة والشمول، دون أن يَجِدُوا منه خلاصاً وَلاَ مَحِيصاً وَلاَ مَفرّاً.

أَبَانَ هذا النَّصُّ أنَّ المشركين من العرَبِ في عَصْرِ الرَّسُول ﷺ، كانُوا يَسْتَهْزِئُون بِنُذُرِ الإهلاكِ الْمُعَجَّلِ، الّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْها بَعْضُ آياتِ اللَّهِ المنزَّلاَتِ على رسُوله، ويَقُولُون على سبيل الاستهزاء بها: مَا يَحْبِسُ هذا العذاب الّذِي يُنْذِرُنَا بِهِ مُحَمَّدٌ، فيما يقُولُ: إنَّهُ مِنْ كتَاب اللَّه الّذي يُنَزِّلُهُ عليه؟.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: ﴿أَلَا﴾ أَدَاةُ استفتاح فيها تنبيه شَدِيدٌ قَارِعٌ للأَسْمَاعِ والْقُلوب الواعية.

أي: ألاَ يَوْمَ تقتضي حِكْمَةُ اللَّهِ إِنْزَالَ الْعَذَابِ فيهم، وإهلاكَهُمْ، فَلاَ صَارِفَ يَصْرِفُ عَنْهُمْ ذَلِكَ، بَلْ يَنْزِلُ بِهِمْ مَا كَانُوا قَدْ أُنْذِرُوا بِهِ، وعندئذٍ يتحقَّقُ في الْوَاقِعِ التطبيقي أنّه حَاقَ بهم مَا كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ يَوْمَ كَانَ وَعِيداً وإنْذَاراً.

* * *

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في أوّل سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) خِطَاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ، ويتحدّث عن المعاندين المعرضين مِنْ كُفَّار قُرَيش:

﴿طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٦)﴾:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٣)﴾:

﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: أي: مُهْلِكٌ نَفْسَكَ وَقاتِلٌ لها، مِنَ الحزْن والْهَمِّ والْغَمِّ.

﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾: أي: لأجْلِ عَدَمِ إيمانِهِمْ وَدُخول جماهِيرهِمْ تِباعاً في الإسلام. أو خَشْية أنْ لاَ يكُونوا مسْتقبلاً مُؤْمِنينَ، مُسْتَجيبين لدعوة الحق.

أمّا ﴿لَعَلَّكَ﴾ فالأَقْرَبُ حمل «لَعَلَّ» هُنَا على أنَّها للاستفهام، على رأي الكوفيين فقد أثبتوا أنَّها تأتي استفهامية، إذْ إنَّ مَعْنَىٰ التوقُّع بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ يحتاج تأويلاً، أمّا الاستفهام فلا يحتاج أيّ تأويل.

فالمعنى: هل أنت يا محمَّدُ مُهْلِكٌ نَفْسَكَ حُزْنا وَهَمًّا وَغمًّا، خشْيَةَ أَنْ لاَ يَكُونَ قَوْمُكَ، وأَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ، مُسْتَقْبَلاً مِنَ الْمُؤْمِنين، فيكُونُوا من الخالدين في عذاب النار يوْمَ الدين.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾:

استعمل حرف الشرط «إِنْ» للإشعار بأَنَّ فِعْلَ شَرْطها غَيْرُ مُتَوَقَّع الحصول، إذِ الحكمةُ لا تقْتَضِيه، فهٰذِهِ المشيئة لا تَحْصُل، ولو حَصَلَتْ لأَنْزَلْنا.

﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾: أي: نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ آيَةً مِنَ السَّماءِ من آيَاتِنا المخيفَة المرهبَة لَهُمْ، لإلْجائِهِمْ حتَّىٰ يكُونُوا مُؤْمِنينَ، لكِنَّ هذا الإلجاءَ يَتَنافَىٰ مع غاية الابتلاء.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾: أي: فَصَارَتْ أعْناقُهُمْ فِي وضَحِ النَّهارِ مُطَأْطِئَةً مُنْكسِرَةً مُنْخَفِضَةً لها، حَالة كَوْنِهِمْ خَاضِعين مِنْ داخِلِ نفوسِهِمْ وَقُلوبهم.

خَبَرُ «ظَلَّ» محذوف، دلَّ على معناه كلمة ﴿خَٰضِعِينَ﴾ التي هي حالٌ من الضَّمِير في [**أعْناقُهُمْ**] وصَحَّ مَجيء الحالِ من المضاف إليه لأنَّ المضاف هنا بعْضُ المضافِ إليه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ۝٥﴾:

﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾: أي من نجم قرآني. جيء بحرف (من) الزائد في ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ لتأكيد العموم والتنصيص عليه. وجاء ذكر اسم الله الرَّحْمٰن دون غيره من الأسماء، للإشارة إلى رحْمَةِ اللّهِ الَّتِي رَحِمَ اللّهُ عزّ وجلّ بها عباده، فأنزَلَ لَهُمُ القرآنَ معلماً ومُرْشداً وهادياً إلى سعادَة الدّنيا والآخرة. وَوُصِفَ النّجم القرآني الذي يَنزِلُ بأنَّهُ مُحْدَثٌ لأنَّ نُزُولَهُ على الرَّسُولِ ﷺ قد حَدَثَ في زَمَنٍ مَعْلُوم، وكُلُّ نجم قرآنِيٍّ لَهُ زَمَنٌ يَحْدث نُزُولُهُ فيه، فهذا الوصْفُ لا يتعَلَّقُ بذاتِ النّصّ، بل يتعلّقُ بتنْزِيله في زَمَنٍ.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي: إلاَّ كَانَ هٰؤلاءِ المعنيُّون المعانِدون المصِرُّون على شِرْكهم وباطِلِهِمْ عن الذكْرِ الذي يأتيهم من الرحْمٰنِ مُعْرضين.

﴿مُعْرِضِينَ﴾: أي: يُعْطُونه عارِضَهُمْ، فَلا يسْتَقْبِلُونَهُ بالتَّلَقِّي المطلوب.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾: في هٰذِهِ العبارة بيَانُ عِلّةِ إعْراضِهِم، وهي أنَّهُمْ كذَّبوا الرَّسُولَ في نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَته، وكَذَّبُوا بِكُلِّ مَا جاءَهُمْ به عَنْ رَبِّه.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: لَمْ يقتصروا على التكذيب، بل أتْبَعُوهُ بالاسْتِهْزَاء، ولا سِيمَا مواعِيدُ نَصْرِ اللّهِ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، والدافِعُ لهم أنْ يسْتَهزِئُوا أنَّهُم كانُوا يَجِدُون محمّداً والّذِين اتَّبَعُوه ضُعَفَاءَ أذِلاَّءَ لاَ قُوّةَ لهم، فكَيْفَ ينْتَصِرُونَ علَىٰ أصْحَاب الْقُوَّةِ والبأْسِ والمال والزَّعَامَةِ في مكَّة؟!!

فأبانَ اللّهُ عزّ وجلّ بهٰذِهِ العبارَة أنَّهُ سَيأْتِيهِمْ قَرِيباً أَنْبَاءِ نَصْرِ الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، إذْ يكُونُ النَّبأُ الموعُودُ به واقِعاً مَشْهُوداً، وأنَّ جماهير الناس ستدخُل في دين الله أفواجاً.

وقَدْ تحقَّق هٰذا بَعْدَ بضع سنينَ، في غَزْوَةِ بَدْرِ الكبرى وما تَبِعَها من انتصارات للمسلمين، وهزائم للمشْرِكين.

* * *

النّصّ الثالث:

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول): يتحدَّثُ عن المعاندين المعرضين من كُفَّارِ قُرَيش أيضاً:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾:

جاءَ في هٰذا النّصّ بَيانُ المعنِيّين في: وَمَا تَأْتِيهم من آيَةٍ من آيات ربّهم، وهم كبراء مشركي مكة يومئذ والآيةُ تَعُمُّ آيَةَ البيان القرآنيّ، الذي هو ذِكْرٌ، كما جاء في النّصّ الثاني، وتَعُمُّ الآيَةَ التكوينيّة الإعجازيّة كآيَةِ انْشِقَاقِ القمر، إلاّ كَانُوا عَنْها مُعْرِضِين.

فأضاف هٰذا النّصُّ ذِكْرَ الآية التكوينيّة الإعْجَازِية، مبيّناً أَنَّ موقفهم مَعَها هُو مَوْقِفُ الإعْرَاض أيْضاً.

وأضاف هذا النَّصُّ الإشَارَةَ إلىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَهْزِئون أيضاً بالنُّذُرِ الّتي سَوْفَ تتحقَّقُ يَوْمَ الدِّين، إذْ يَنالُونَ عِقَابَهُمْ في نَارِ جَهَنَّمَ، وَأَبان اللَّهُ عزّ وجلَّ أن سبب استهزائهم أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بالْحَقّ فَوْرَ مجيء الحقّ الرَّبَّانِيّ لَهُمْ دُونَ تأنٍّ وَلاَ تَريُّث، وأَبَانَ أنّه سَوْفَ يأْتِيهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهزِئُون، ويكون ذلك يَوْم الدِّين.

في النَّصّ الثاني جاء استعمال «السين» من حَرْفَي التَّسْويف، فَدَلّ هذا على استهزائهم الموجّه لأنباءِ انتصار الرّسُول والمؤمنين، ودخولِ الناس في دين الله أفواجاً.

وفي النصّ الثالث جاء استعمال «سَوْف» من حَرْفَي التسويف، فدَلَّ هذا على استهزائهم الموجّه لأنباء الوعيد بالعذاب الأليم الذي سَوْف يكون يوم الدِّين.

دلّني الاستقراء القرآني على أَنَّ حَرْفَ «سَوْفَ» يسْتَعْمَلُ غالباً في

المستقبل البعيد، ومنه يوم الدين، وأنّ حرف «السّين» يُسْتَعْمَلُ غالباً في المستقبل القريب، ومعلوم أنّ ما يَتَحَقَّقُ للإنسان في دُنْيَاهُ مُسْتَقْبَلٌ قَرِيب.

* * *

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرَسوله محمّد ﷺ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: وَلَقَدِ اسْتُهْزِىء بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ يا مُحَمَّدُ فِيمَا أَنْذَرُوا أَقْوامَهُمْ به مِنْ هَلاكٍ مُعَجَّلٍ، فَحَاقَ بالَّذِينَ سَخِرُوا مِنهُمْ مِنْ أقوامِهِمْ، الهلاكُ والعذابُ الذي كانوا به يَسْتَهْزِئون.

حَاق بِهِمْ: أي: نَزَلَ بهم، وأحَاطَ بهم، فأهْلَكَهُمُ اللّهُ بِه.

* * *

النّصّ الخامس:

قَوْلُ اللّهِ عَزّ وجَلّ في سُورَة (لُقْمَان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾:

- قَرَأَ جُمْهُورُ القرّاء العشرة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ مِنْ فعل «أَضَلَّ» المتعدّي.

وقرأ ابنُ كثير، وأبو عَمرو: [لِيَضِلَّ] مِنْ فعل «ضَلَّ» اللاّزم.

وبَيْن القراءتين تكامُلٌ في أدَاء المعنى المراد، إذْ من الناس مَنْ يتَّخِذُ

لَهْوَ الحديث ليُضِلَّ غَيْرَهُ عن سبيل الله، ومنهم من يَفْعَلُ ذَلِكَ، ليَصْرِف نَفْسَه عن داعي الهدى إلى سبيل اللَّهِ، فيَضِلَّ عنه.

في هذا النّصّ بيانٌ لخُطَّةِ كَيْدٍ اتَّخَذَهَا بعضُ مُشرِكي مكَّة، لِيُضِلَّ عَنْ سبيل اللَّهِ منْ يستجيبُ له، ولِيَضِلَّ هو عن سبيل الله، إذْ يشْغَلُ نَفْسَهُ بِلَهْوِ الحديث، فيَصْرِفَها عن الاستماع لآيَاتِ اللَّهِ الّتي يُبَلِّغُهَا رسُولُهُ تِباعاً، كَما يُنْزِلُ الله عليه نُجُومَها.

وهذا النصّ يُبَيِّن أصْلاً من الأصُولِ الصّوارِفِ عن الحقِّ، وعن سماعِ بيانات الحقّ والخير والهدى، وهو شَغْلُ الأسْمَاع والأفكار بمَا يُلْهِي من الحديث عن سماعها، وهذا الملْهِي يتناوَلُ أُمُوراً كثيرة تَدْخُلُ فيها الأباطيلُ والتلفيقاتُ والأكاذيب من الأساطير والْخُرَافات، فهيَ لَهْوٌ مِنَ الحديث. وتَدْخُلُ فيها الفلْسَفَاتُ المتناقِضَات المُتَعَارِضَاتُ الّتي تَصْنعُها الأوهام، وَلاَ أسَاسَ لَهَا مِنَ الحق، وتدْخُلُ فيها الحكاياتُ والرّواياتُ الّتي يصْنَعُها الْقَصَّاصُونَ لِتَسْلِيَةِ النّاس، ومَلْءِ أوقاتِهم بها. وتَدْخُلُ فيها المساخِرُ والمضْحِكاتُ والْهَزْلِيّاتُ الّتي يُتْقِنُهَا فَرِيقٌ من الهَزْلِيِّين، لإضْحاكِ الجماهيرِ وتَسْلِيَتهم وَإلْهَائِهِمْ. وتَدْخُلُ فيها أغَانِي المغَنِّين والمغَنّيات الّتي تَسْتَهْلِكُ أوْقات منْ يسْتَمع إليها بالطَّرَب، وبالاسْتِماع إلى الأصوات الحسَنَةِ والألْحَانِ الْمُطْرِبَة، فتُلْهِيهِمْ عمَّا هُو خَيْرٌ مِنْ عِلْمٍ يَقْتبسُونَهُ منْ كلامِ اللَّهِ، وبيانات رسُولِهِ ﷺ. وكُلُّ هذه قد تتضَمَّنُ الاستهزاء بسبيلِ الله.

ومن المعلوم أنّ كُلَّ هٰذِهِ الملْهِيَاتِ لاَ تأْتِي في الغالب مجَّاناً، وإنَّما تُبْذَلُ فيها الأموالُ الكثيرة، فالْمُضِلُّونَ يَشْتَرُونَ لَهْوَ الحديث بالأمْوَال الطائِلَة، لِيُضِلُّوا مَنْ يسْتجيبُ لاسْتِمَاعِ لَهْوِهِمْ عَنْ سبيل الله.

وأصحابُ الأهواء والشّهواتِ يشْتَرُونَ بِأَمْوَالِهم الّتي يَبْذُلونها لَهْوَ الحديث، لتكونَ عاقبةُ ذلِكَ أنْ يضِلُّوا عن سبيل الله، إذْ يَنْصَرفونَ بِلَهْوِ

الحديث عن استماع بيانات الحقّ والخيْر والهدَىٰ، الَّتي تَشْتَمِلُ علَيْها آيَاتُ الله المنزَّلاَت، وأقوال الرسُولِ الشارحات الهاديات.

وفي هذا النصّ بيان أن من يشتري لهو الحديث ليُضِلَّ أَوْ يَضِلَّ عن سبيل الله، وليتَّخِذَ سبيل الله هزُواً، فلَهُ عذاب مُهِينٌ مُذِلٌ. وفيه بيان أنّ هذا الصنف من النّاس إذا تُتْلَىٰ علَيْهِ آياتُ اللّهِ ولَّىٰ مُسْتَكْبراً عن اتّباعها، ومُدبراً مُبْتَعِداً عَنْها، كأنّه لَمْ يَسْمَعْها، كأنّ في أُذنَيْهِ ثِقلاً في السَّمْعِ قريباً من الصَّمَم.

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: الْوَقْرُ: صَمَمٌ، أو ثِقَلٌ شَدِيدٌ في السَّمْع قَرِيب من الصَّمَم.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: فَبَشِّرْهُ أيُّها الداعي إلى الله بِبِشَارَةٍ تَهَكُّمِيَّةٍ تُماثِل اسْتهزَاءَهُ بآيات الله عزّ وجل. هذه البشارة، هي بِشَارَةٌ له بعذابٍ أليمٍ يوم الدين.

* * *

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

في هذا النصّ بيان لقْطَةٍ مِنْ لَقَطَاتِ نَدَمِ المسْتَهْزِئين بما جاء في آيات اللّهِ من أَنْبَاءِ يَوْم الدِّين، حِينَ يَنْزِلُ بهم على سبيل الإحاطة من كُلّ جانبٍ تحقيقُ ما كانُوا به في الدُّنيا يَسْتَهْزِئُونَ، وهُو عقابُ اللّهِ الشَّدِيد لهم، فلَوْ أَنَّهُمْ يمْلِكُونَ يَوْمئذٍ كُلَّ مَا في الأرض، ومِثْلَهُ مَعه، لَعَرَضُوا بذلَه

لِيفْتَدُوا به أنفُسَهُمْ من عذاب اللَّهِ، ولكنْ هيهات هيات، إنَّهم لا يمْلِكُون يوْمئِذٍ شيئاً. ولَوْ كانوا يملكون ذلِك وقَدَّمُوهُ لِيَفْتَدُوا به أنفُسَهُمْ من العذاب لم يُقْبَلْ مِنهم.

لقد انتهت مَرْحَلَةُ الامتحان، وجاءت مَرْحَلَةُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء.

* * *

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) مُوَجِّهاً أنظار الكافرين برسالة محمّد والمستهزئين بما جاء فيها، للاعْتبار بأحوال الكافرين السابقين الّذين كذَّبوا رُسُلَ رَبّهم، واستَهزَؤوا بنُذُرِ العذاب المعَجَّل الذي أنذروهم به، فأنْزَل الله عقابَهُ الشامِل فَأهْلَكَهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ كانوا أشدّ قوةً من مشركي قريش:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

إنَّ آثار الكُفَّار المهْلكين السَّابقين موجُودَةٌ في أماكن مُتَعَدِّدَةٍ من الأرض، وهي دالَّةٌ على سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، لمن شاء أنْ يَعْتَبِر، ومَا عَلَىٰ الشَّاكّين إلاّ أن يَسِيرُوا في الأرضِ في جهاتٍ مختلفات، ليَصِلوا إلى مواطِن آثارِ السّابقين، حتّىٰ يُشاهِدُوا كيْفَ كان عِقَابُ اللَّهِ الْمُعَجَّل لأهْلِ الكُفْر، وقد كانوا في مواطِنِهم أَهْلَ قُوةٍ وبأسٍ ومنَعَةٍ ودُوَلٍ عظيمة.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بَلاغاً عن رَبّهم تُبيِّنُ لَهُمْ قضايا الدّين، وتُحَذِّرُهم مِنَ الشّرك، وتُنْذِرُهُمْ بعذاب اللَّهِ المعجل والمؤجّل إلى يوم الدين.

﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في أُمُورِ الدنيا الّذي يُحَقِّقُونَ بِهِ مطالِبَهُمْ مِنْها، ولم يستَقْبلوا مَا جَاءَهم به رُسُلُ رَبّهِمْ بالإيمان والاتّباع، بل وَاجَهُوهُ بالتكذيب والجحود والْهُزْءِ والسُّخْرِيَة، ولا سِيّما نُذُرُ العذاب المعجَّلِ المهْلِكِ لهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: وَنزل بهم على سبيل الإحاطَةِ الشّاملة العذابُ والهَلاكُ الذي كانوا يَخُصُّونَهُ بالاسْتِهْزَاءِ، اعتداداً بما لَدَيْهم من قُوَّةٍ وبأس.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾: أي: فَلَمّا رَأَوْا وَسَائِلَ عَذابِ اللَّهِ قَدْ بَدأتْ تَنْزِلُ في أَرْضِهِمْ وَعَلَىٰ مَساكِنِهم.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾:

لقد أعْلَنُوا إيمَانَهُمْ حِينَ لاَ يَنْفَعُ الإيمان، إذْ هُو إيمانٌ بَعْدَ الشُّهُودِ الحسِّيّ، وانتهاء مُدَّةِ الامْتِحان، والمطلوبُ في الابتلاء أَنْ يَكُونَ الإيمان إيماناً بالغيب، لا إيماناً بالشيء المشهود بالحواسّ الظاهرة.

فلم ينفعهم إيمانُهُمْ حينئذٍ، وهذه هي سُنَّةُ اللَّهِ في عباده جَميعاً، سابقيهِمْ ولاحقيهم.

* * *

النّص الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ

يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (٩) مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) ﴾:

﴿أَفَّاكٍ﴾: أي: كَثِير الإفك، وهو الكذب، وكثيرِ التَّأْفِيكِ، وهو التكذيب بالحق، وكثِيرِ الضلال، من قولهم: أَفِكَ عَنْهُ، أي: ضلّ. أمّا كَثِيرُ الإضلال بالصَّرْفِ عن الحقّ، فمِنْ قولهم: أَفَكَ فلاناً عَنِ الشيءِ أَفْكاً، أي: صَرَفَهُ عَنْهُ، فهو أفَّاك، مبالغةُ آفِك.

﴿أَثِيمٍ﴾: أي كثير الإثم، وهو الذنب، ويُطْلَقُ الإثم على كبائر الذنوب وصَغائرِها في القرآن، وعلى الظاهر منها والْبَاطن. **والأثيم**: هو المسْرِفُ الغالي في ارتكاب الذنوب، ويختصُّ بالْكافِرِ الفاجر.

﴿يُصِرُّ﴾: أي: يَثْبُتُ على ملازمة ارْتكاب الإثم بمكابَرَةٍ وعِنَاد.

أَصَرَّ يُصِرُّ على الأَمْرِ، أي: ثبت عليه ولازمه، وأكثرُ ما يُسْتعمل في الإصرار على الباطل، والإثمِ، وفعلِ الشّر، واجتنابِ فعل الخير.

- ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ (٧)﴾: أي: عذابٌ شَدِيد في وادي وَيْلٍ من جَهَنَّمَ لكُلِّ كذَّابٍ كثير التكذيب بالحق الرّباني، ضَالٍّ مُضِلّ، مُسْرِفٍ غَالٍ في ارْتكابِ الذُّنوب والآثام.

- ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾:

أي: يَسْمَعُ آيات اللَّهِ المنزَلَة في كتابه العزيز تُتْلَىٰ عَلَيْه، ويَفْهَمُ معانِيهَا، وبعد ذلك يُصِرُّ على كُفْرِه معانداً مُسْتَكْبِراً عن الإيمان بالرسول، وعن اتباع آيات الله والْعَمل بها، كَأَنَّهُ لم يَسْمَعْها ولم يَفْهَمْ معانِيهَا.

- ﴿...فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٨)﴾ أي: فَبَشِّرْهُ أيُّها المؤمِنُ الداعي إلى اللَّهِ بالحكمة والموعظة الحسنة، بعذابٍ أَلِيم مُعَدّلَهُ عِنْدَ رَبِّه يَنالُه يوم

الدِّين، وقَدْ يَنْزِلُ به أيضاً عذابٌ مُعَجَّلٌ في الدُّنيا إذا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ ذَلِكَ.

لِمَ اخْتِيرَ فِعْل «بَشِّرْ» الذي يُسْتَعْمَلُ في اللُّغَةِ غالباً في الإخبار بما يَسُرُّ، في الإنْذَارِ بالعذاب؟

قال البلاغيون: مثل هذا الاستعمال يأتي علىٰ سبيلِ التهكُّمِ بالمصرِّ على باطله، الرافض لدعوة الحق.

أقول: يمكن أن يكون توجيهاً لحامل الرِّسالَةِ، أَنْ يَتَلطَّفَ بمَنْ يَدْعوه ولو وَجَدَ مِنْه إصراراً على باطِلِه وَعِنَاداً، بِأَنْ يُعْلِمَهُ بأَنَّ اللَّهُ أَعَدَّ عذاباً أليماً للكافِرين، بمثْلِ الأسلوب النّاعِم اللّيّن الّذِي يَسْتَعْمِلُهُ عادَةً فيما يُخْبِرُ به مِنْ بُشْرَيَات.

• ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: أي: ومن شأن هذا المصِرِّ على كُفْرِه، أنّه إذا عَلِمَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الكونيَّةِ الإعجازيَّة شيئاً، كآيَةِ انشقاقِ الْقَمَر، جعَلَهَا محَلاً لهُزْئِهِ وسُخْريته، لِيَصُدَّ مَنْ يتأَثَّرُ بِهِ من قومه عن الإيمان بالرَّسُول واتّباعه، بأُسْلُوبِ الهزْءِ والسُّخرية من آيَةِ اللَّهِ المعجزة.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑨﴾: أي: أولَـٰئِـكَ الْـبُـعَـدَاءُ إلـى جِـهَـةِ الحضيض حتى الدَّرْك الأسْفل من النار لَهُم عذابٌ مُهِينٌ لهم، وواضِعٌ لهم في أوحال الصَّغار والمذلَّة، عقاباً لهم على استكبارهم الّذي جعلهم في الدّنيا يُصِرُّون على باطلهم، ويجْحَدُونَ دعوةَ الحقِّ الرَّبَّانيَّة.

• ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾: أي: من وراءِ المنْظُورِ بالنسْبَةِ إليهم، جَهَنَّمُ تَنْتَظِرُهُمْ ليكونُوا أصْحابَها الخالِدِينَ فيها.

• ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا﴾: أي: ولا يَصْرِفُ عَنْهم مَا كَسَبُوا في الحياة الدنيا من مالٍ وقُوَّةٍ، شيئاً من الجزاء الذي سوف يَحُلُّ بهم يوم الدّين.

• ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾: ولا يَصْرِفُ عَنْهم شيئاً من الجزاء أيضاً ما اتَّخذُوا في الحياة الدنيا من دون الله أَوْلياء من الإنْسِ أو الجنّ أو الملائكة، أو الأوثان الّتي عَبَدُوها من دون الله، وجَعَلُوها شركاء لله افتراءً عليه.

• ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾: أي: ولهم في جهنّم يوم الدّين عذابٌ عظيم، جزاء كُفرِهم وعنادهم وإصْرارهم على باطِلهم، محافظَةً على مكانتهم الاجتماعِيَّة التي هم فيها مُسْتكبِرون.

* * *

النّص التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول) أيضاً:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ۝٣٢ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٣٥﴾:

• ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝٣١﴾:

أي: يَقُول اللَّهُ لَهُمْ يوم القيامَة، أَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلِي في الحياة الدُّنيا، فبلَّغَتْكُم عَنّي، وتَلَتْ عليكُمْ آيَاتِي الّتي أنزلْتُها لإعْلامِكُمْ بما يجب عليكم في رحلة امتحانِكُم، ولهدايتكم إلى صراطي المستقيم الذي يُوصِلُ من سلكه إلى جنّات النعيم، فاستَكْبَرْتُمْ عن الإيمان بِرُسُلِي، وعن اتّباع آيَاتي المنزّلَات، وكُنتُم قَوْماً مُجْرِمين؟!

استفهام من الرَّبّ لهم يوم الدّين، لانتِزاع اعْترافهم على أَنْفُسِهِم بأَنَّهُمْ تَبَلَّغوا، فَكَفَرُوا، واسْتَكْبَرُوا وكانوا قَوْماً مُجْرِمِين.

المجْرِمُ: هو المذنب ذنباً كبيراً، وجاء في القرآن لفظ «المجرمين» عنواناً مُقابلاً للمسلمين، ووصفاً للكافرين المهلكينَ في الدُّنيا بعذابٍ شامل، ووصفاً للمعذبين يوم القيامة في النار الخالدين فيها.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: ويقولُ الله عزّ وجلّ لهم يوْمَ القيامَةِ في مَوْقف الحسَاب: وكنْتُمْ في الحياة الدنيا حياة الامْتِحان، إذَا قِيلَ لَكُمْ: إنَّ وَعْدَ اللّهِ بالبعث وبما بَعْدَ البعث من حَشْرٍ، وحسابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيذِ جزاء للمتقين في جنَّاتِ النعيم، وللمجرمين بعذاب أليم في الجحيم، وإذا قيل لَكُمْ: السَّاعَةُ لاَ رَيبَ فِيها، كذَّبتُمْ وَجَادَلْتُم بالْبَاطل، وقُلْتُمْ: مَا نَدْرِي مَا السَّاعَة؟ أي: لَيْس لَدَيْنَا عِلْمٌ بحَقيقَتِها (والمرادُ سَاعَةُ البَعْثِ إلى الحياة الأخرى) وقُلْتُمْ: إنْ نَظُنُّ إلاَّ ظَنًّا، أي: إنَّ الأَنْبَاء الّتي جاءتنا عَنْهَا لَمْ تَتْرُكْ في أَذْهَانِنا عَنْهَا إلاَّ ظَنًّا ضَعِيفاً، لاَ يَصِحُّ أَنْ نَتْرُكَ من أَجْلِهِ ما نحن فيه من زينات الحياة ومَتَاعها ولذّاتها، ولا يصحُّ أن نَتْرُكَ من أَجْلِه ما نحن فيه من عقائدَ وعِباداتٍ موروثَةٍ عن آبائنا وأَجْدَادِنا. وقُلْتُمْ أيضاً: وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقنين.

أي: وَمَا نَحْنُ بعالِمِينَ بِصِدْقِ الوعْدِ عِلْماً يقينيًا لاَ شَكَّ فيه، فنَحْنُ لاَ نَعْبَأُ به، وقد كانُوا يَسْتهزئون بأنباء الوعيد الّتي توجَّهُ لهم من الرُّسُلِ ومن حملة رسالاتهم.

لَكِنَّ حُجَّةَ الله عَلَيْهِمْ دَامِغَةٌ، إذْ كانُوا في الدّنيا يجادِلُون بالباطل، لِيُدْحِضُوا به الحق، وَكَانَتْ أَهْوَاؤهم وَشَهَواتُهُمْ وَرَغباتُهُمْ من الحياة الدنيا هي الحاكِمَةَ عَلَىٰ إرَادَاتِهم، والطَّامِسَة لبَصَائِرِهِمْ، وكانوا قوماً مُجْرمينَ حقًّا.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: وتُكْشَفُ لهم صحَائِفُهم في موقف الحساب الرَّبَّانيّ، لفصْل القضاءِ بشأنهم، فيُشَاهِدُون فيها سَيِّئَاتِ مَا عَمِلُوا في الحياة الدنيا، بالتصوير المطابق لما كَانُوا عليه في الدنيا، مع الصوت، والنِّيَّاتِ، وحَركاتِ النفوس، وَخَوَاطِرِ الأفكار.

وبَعْدَ الإدانَةِ الرَّبَّانيَّةِ لهم بالْعَدْلِ، يُصْدِرُ اللَّهُ جلّ جلالُهُ أَحْكَامَهُ فيهم بالعذابِ الذي كانوا به يَسْتَهْزئون.

عِنْدَئذٍ يَجِدُونَ أَنَّهُ قَدْ نَزَلَ بهم على سبيل الإحاطة التَّامَّةِ، مَا كانوا بِهِ يسْتَهزئون من وعيد الله لهم بالعذاب.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: ويُقَالُ لَهُمْ بَعْدَ إلقائهم في عذاب النار تنفيذاً لقضاء الله فيهم: اليَوْمَ نَنسَاكم، أي: نَتركُكُمْ مُهْمَلِينَ في عذابكم، لا يُعْبأُ بِكُمْ، ولاَ تُسْتَجابُ مطالِبكُمْ، كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا، أي: كما تَرَكْتُمْ في الحياة الدنيا، الإيمانَ بلقاء يومِكُمْ هٰذا، وتَرَكْتُمُ الْعَمَلَ بما يُنْجيكُمْ من العذاب فيه، وتَرَكْتُمُ الْعَمَلَ بما يَجْعَلُكُمْ فيه من أصحاب الجنّة بفَضْلِ رَبِّكُمْ.

والْيَوْمَ مَأواكُمْ النَّار، أي: منْزِلكُمْ ومَكَانكُمُ الَّذي تَسْكُنُونَ فيه دواماً وتَسْتَقِرُّونَ فِيه دارُ العذاب النّار.

والْيَوْمَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَنصُرُونَكُمْ، فَيُخْرِجُونكم من النّار، أو يُخفِّفُونَ عنكم من عذابها شيئاً.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

أي: ذلك العذابُ الّذي حاقَ بِكُمْ، وذَلِكَ الإهْمَالُ المهين الّذي نزَلَ

بِكُمْ وأنْتُمْ في العذاب تتقلّبُون، قد كان بسبب أنَّكُمْ اتَّخَذْتُم في الحياة الدّنيا آياتِ اللَّهِ البيانيَّة، وآياتِه الكونيَّة الإعجازيَّة، هَدَفاً لِتَوْجيه هُزْئِكُمْ وسُخْرِيَتِكُمْ.

والَّذِي طَمَسَ بصائركُمْ، وَصَرَفَكُمْ عَنِ الحقّ، وعمَّا هو سبيلُ سعادتكم الأَبَدِيَّةِ، هو أنَّكُمْ غَرَّتْكُمُ الحياة الدُّنيا بِزِينَاتِها وأنواعِ مَتَاعِها.

﴿... فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الجملَتَيْنِ التِفَاتٌ عَنْ مُخاطَبَتِهِمْ، وفيهما إعلامٌ بقَضِيَّتَيْن.

القضيَّة الأولى: أنّ هٰؤُلاء الكفَرَةَ المجرمين لاَ يُخْرَجُونَ من دار العذاب النّار، بَعْدَ إلقائهم وإدْخالهم فيها لِيُلاقوا عذابهم الأبدي المستمرّ.

القضيَّة الثانية: أنَّهُمْ لا يُرْفَعُ عَنهُم العتب، وهو اللَّوْم على جرائمهم مهْمَا دَعَوْا وَتَضَرَّعُوا، وَصاحوا وأَضَجُّوا.

* * *

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/٤٦ مصحف/٦٦ نزول) خطاباً للمشركين إبَّان التنزيل، في معرض الحديث عن عاد قوم النبيّ الرسول هُودٍ عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ولَقَدْ مَكَّنَّا عَاداً في شَيْءٍ كثيرٍ من الْمَالِ والقوَّة والبأسِ، مَا مَكَّنَّاكُمْ فيه، وجَعَلْنا لهم سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً يُدْرِكُون بها حقائقَ قَضَايا الدين، فلَمْ تكْفِهِمْ هٰذِه الأدوات الَّتي تُكْسِبُ من اسْتَعْمَلَهَا فيما خُلِقَتْ له

علماً صَحِيحاً بِقَضَايا الدين، لأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بآياتِ الله مع عِلْمِهِمْ بأنَّها حَقٌّ، ومَعْلُومٌ أَنّ دوافِع جُحُودِهم تَرْجِعُ إلى أهْوائهم وشهواتهم ورَغباتِهِمْ من الحياة الدنيا.

وَكَانُوا يَسْتَهْزِئون بِنُذُر الهلاك المعجّل، التي كان هودٌ عليه السلام يُنْذِرُهم بها، وكانت عاقِبَتُهُمْ أنّه نَزَلَ بِهِمْ على سبيل الإحاطة الشاملة الهلاكُ الشاملُ الذي كانوا بِه يَسْتَهْزِئُونَ.

- ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾: «ما» اسْمُ موصول و«إِنْ» حرف نَفْي بمَعْنَىٰ «ما» النافية. وقيل «إنْ» زائدة، والمعنى على هذا القول: فيما قَدْ مكَّنَّاكم فيه.

لكن المعْنى الأول هو المعنى الذي يَشْهَدُ لصحَّته قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) خطاباً للمشركين أنفسهم:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ونظيره عدّة نصوصٍ أخرىٰ في عدّة سُورٍ. منها (فاطر ـ وغافر ـ ومحمد ـ والتوبة).

- ﴿مِّن شَىْءٍ﴾: «مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زِيدَ لتأكيد عموم النفي والتنصِيصِ عليه.

- ﴿يَجْحَدُونَ﴾: الْجُحُودُ هو إنكار الشيء مع العلم بأنّهُ حقٌّ ـ يقال لغة: جَحَدَ الأمْرَ، وجَحَدَ به.

* * *

النصّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾:

أي: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ الْمُبَلِّغين عَنَّا الدِّينَ الّذي اصطفيناه لعبادنا، والكتَابَ الذي أنزلْنَاهُ للناس بالحقّ هُدًى وَرَحْمَةً، ليُكْرِهُوا الناسَ حتَّىٰ يكُونُوا مُؤْمِنينَ، بلْ ليُبَشِّرُوا مِن آمَنَ واتَّبَعَ سبيلَ الهدى بالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّة، ولِيُنْذِرُوا مَنْ كَفَرَ وكَذَّبَ وَعَانَدَ وأَصَرَّ على بَاطله بأنَّ لَهُ عَذاباً أليماً يَوْمَ الدِّين، بحُكْم رَبِّ العالمين، في نارِ جَهنَّم الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّه للمجْرمين، والعصاةِ الآثِمِينَ الظَّالمينَ.

ويُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا رُسُلَ اللَّهِ وَحَمَلَةَ رِسَالاَتِهِمْ من أتباعهم، بالباطِلِ من الأدلَّةِ، ومن الأَقوال المزخرفة بزيناتٍ وهميَّةٍ، ومِنَ الأفكار المزيَّفَةِ، لِيُدْحِضُوا بِجَدلهم الحقَّ، فَيُزْلِقُوه في مَزَالِقِ الشُّبُهَاتِ والتَّلْبِيسات، حتَّىٰ يُزيلوه عَنْ مَوَاقِعِ ثباته في أذهانِ وقُلُوب المؤمنين. ولإشعار جماهيرهم بِصِحَّةِ جدليَّاتهم، يَسْتَخْدِمُونَ وسَائِلَ الهزء والسُّخْرِيَةِ بآياتِ اللَّهِ المبيّنات للحق، والهزء والسخريَة بما أُنذِروا به مِنْ قِبَلِ رُسُلِ رَبّهم، أو أُنْذِرُوا بِهِ في كتَابِه المنزَّلِ لهدايتهم، وإقناعهم بالحقّ، وَتَرْغيبهم بثوابه، وترهيبهم من عقابه العاجل من كلّ ذلك، والآجلِ إلى يوم الدين.

* * *

النصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) أيضاً، خطاباً لرسُوله، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أُمَّته:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾:

في هذا النّصّ تَعْليمُ أسلوبٍ من أساليب الدعوة إلى اللّهِ وإلَىٰ التزام صراطه المستقيم، الذي اشتمل عليه الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده، وجعله الطريق الوحيد للرّبح الأبديّ والسّعادة الخالدة في جنّات النعيم يوم الدِّين.

ويبدأُ هذا الأسْلُوب بِطَرْحِ سؤالٍ على المدعوّين، يُشَارِكُ في طَرْحِهِ كلُّ من آمَنَ بالله ورسوله وبما أنزل اللّهُ على رسُوله، والداعي إلى الله يتحدَّثُ عَنهُمْ جَمِيعاً، باعتبارهم مؤمنين بما يدعو إليه، فيقول:

- ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾؟؟.

أي: هل تُرِيدُونَ أَنْ نَعْرِضَ عَلَيْكُمْ هٰذا النّبأَ الْعَظيم الَّذِي يُهِمُّ كلَّ ذِي عَقْلٍ ورُشْدٍ، حَرِيصٍ على سَعادَتِهِ في الدُّنيا والآخرة، وهذا النّبأ يتضَمَّنُ بيَانَ أَخْسَرِ الخاسِرِينَ أعْمالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا، إذْ لَمْ يَسْلُكُوا طَرِيقَ نجاتِهِمْ وَنجاحِهِمْ والرِّبْحِ الّذي يكُون سبب سعادتهم الأبديّة، أو انْحَرَفُوا عنه بَعْدَ السَّير فيه، وهُمْ بجهلِهِمْ وغَفْلَتِهِمْ وغُرُورِهم واتّباعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ، يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، لِحَاضِرِهِمْ ومُسْتَقْبَلِ وُجودهم؟؟.

فِعْلُ «حَسِبَ يحسب» لم يستعْمَلْ في القرآن إلاَّ في الظَّنِّ التوهُّمِيِّ الضعيف، الذي لا يَصِحُّ أنْ يعتمد عليه عاقِلٌ رَشِيد.

فإذا قَال المدْعُوُّون: نَعَمْ، نُرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ هذا النّبَأَ العظيم.

قال الداعي: أولَئِكَ الْبُعَدَاء إلى جهة الحضِيضِ، هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

بآياتِ رَبِّهِمْ ولِقَائِه، مَعَ أَنَّ آياتِ رَبِّهِمُ المنزَّلاَتِ تَدعُو إلىٰ الحقّ، والخير والهدى، والصِّراطِ المستقيم الذي يُحقِّقُ السَّعادَة الأبَدِيَّة الخالدة، لِمَن الْتَزَمَهُ في مَسِيرَةِ حَيَاته، ومَعَ أَنَّ لِقَاءَ اللَّه مِنَ القضايا الّتِي تُثْبِتُها بَراهِينُ الْعَقْلِ، وجاءَتْ بِهَا أنْباءُ جميع رُسُلِ اللّهِ الصادقين، فالبعثُ حَقٌّ والحياةُ الأُخْرَىٰ حَقٌّ، واللّهُ الّذِي خَلَقَنَا في هذه الحياة الدنيا لِيَبْلُوَنا، هُوَ الّذِي سَيَبْعَثُنَا إلَىٰ الحياة الأُخْرَىٰ لِيُحاسِبَنا على أعمالنا الباطِنَةِ والظاهرة.

وهؤلاء البعداء عن رحمة الله الكافِرُونَ بِالحقّ، يَكِدُّونَ في الحياة الدُّنيا كدّاً مُضنياً، مُتَوهِّمِينَ أَنّهم سَيُحقّقُون لأنفسهم مستقبلاً سعيداً، بما يجمعون من أموال وقُوَّةٍ وَأَنْصَارٍ، لكنّهم يَجِدُون في آخِرِ رِحْلَتِهم أنَّ أعمالَهُمُ الّتي كانوا قَدْ عَمِلُوها، لَمْ تحقِّقْ لَهُمْ مَا يَضْمَنُ لهم سعادةً حقِيقيَّةً، بل يجدونها قَدْ حَبِطَتْ، أَيْ: بَطَلَتْ، فلا قيمَةَ لها، ولا وَزْنَ لها عند رَبّهم، فلا يقيمُ اللّهُ لَهُمْ يوْمَ القيامة وزْناً، لأنهمْ لم يَعْمَلُوا عملاً لآخِرَتهم لَهُ وَزْنٌ عِنْدَه يوْمَ الدّين.

وإذْ لَيْسَ لهم عَمَلٌ ذُو وزنٍ عند رَبّهم فَقَدْ خَسِرُوا ذَواتهم، فكانُوا بذلِكَ أخْسَرَ الخاسِرِين.

فَمَا هُو جَزاؤُهُمْ يَوْمَ الدّين عند رَبِّ العالمين؟!

الجواب: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

المشارُ إليه البعيد هو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ وجملة: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر. ولفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيان.

- ﴿بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾: أي: كان لهم هذا الجزاء الأليم والْعَاقِبَةُ التَّعِيسَةُ، بسبب كُفْرِهم واتّخاذهم آيات اللّهِ ورُسُلَهُ هَدَفاً لِهُزْئِهِمْ وسُخْرِيتهم في الحياة الدُّنيا.

* * *

النصّ الثالث عشر:

جاء في أوّل سُورَةِ (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ خطاباً للمشركين الذين كانوا يستعجِلُونَ نُذُرَ الْعَذَاب، مستهزئين بها.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ①﴾:

أي: قَرُبَ تحقيقُ إنذارِ اللّهِ لَكُمْ بنَصْرِ رَسُولِهِ والذين آمنوا به واتبعُوه، فلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ، لِأَنَّهُ قادِمٌ قَرِيبٌ لاَ محالة.

ثمّ جاء في أَثْنَاء السّورة، قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ مُبَيّناً للمستكبِرين المستهزئين، اقتراب وقْتِ تحقيق الوعيد بمَنْ يستحقُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ㉝ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ㉞﴾:

أي: هل ينتظرون إلاَّ أن تأتِيهُمُ الملائكةُ لقبض أرواحهِمْ، وإنزال العذاب بهم، مع بَدْءِ مُفَارَقَتِهِمْ لظُروف الحياة الدُّنيا، أَوْ أنْ يَأْتِي أَمْرُ رَبّك بإهْلاَكهم، كما أَهْلَكَ أشباهَهُمْ من أهل القُرون الأولى، إذْ نزلَ بهم عقابُ سَيّئَاتِ ما عَمِلُوا، وأَحَاطَ بهم العذابُ الذي كانوا بأنْبَائِهِ يَسْتَهزِئُون.

* * *

النصّ الرابع عشر:

أَلْمَحَ اللّهُ عزّ وجلّ في أوائل سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٥ نزول) إلى اقتراب موْعِدِ نَصْرِ اللّهِ رَسُوله والذين آمَنُوا معه على عدوّهم أئمة الكُفْرِ والشّرك والكبْرِ والعنادِ في مكّة فقال تعالىٰ:

﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

وبَعْدَ آيَةٍ دَعَا اللَّهُ عزّ وجلّ فيها الَّذِين كفرُوا إلى التفكر في أَنفُسِهِم، وفي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأرض وما بينهما، فقالَ تَعالَىٰ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾:

السُّوأىٰ: مؤنَثُ الأسوأ، والمرادُ العاقبة الأكثر سُوءاً، إذْ أنزل الله عزّ وجلّ بهم العذاب والهلاك في العاجلة، وسوف يُعَذَّبُونَ بنار جهنَّمَ يوم الدِّين، جزاء تكذيبهم بآيات الله، وجزاء أنَّهم كانوا بها يَسْتَهْزِئون.

* * *

النص الخامس عشر:

وأخيراً حذّر الله عزّ وجلّ الذين آمَنُوا مِنْ أَنْ يَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دينهم هُزُواً ولَعباً أولياء، فقال تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾:

رُوي في سبب نزول هذا النصّ عن ابن عباس، قال:

«كَانَ مُنَادِي رسُولِ اللَّهِ ﷺ إذَا نَادَىٰ بالصَّلاَةِ فَقَامَ الْمُسْلِمُونَ إلىٰ الصَّلاة، قالَتِ الْيَهُودُ والنَّصارَىٰ: قَدْ قَامُوا، لاَ قامُوا. فإذا رَأَوْهُمْ رَكَعُوا وسَجَدُوا اسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ، وضَحِكُوا مِنْهُمْ».

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أيضاً قَال:

«وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ تَاجِراً إِذَا سَمِعَ الْمُنَادِيَ يُنَادِي بالأَذَانِ قَالَ: أَحْرَقَ اللَّهُ الْكَاذِبَ.

قَالَ: فبيْنَمَا هو كذَلِكَ، إِذْ دَخَلَتْ جَارِيَتُهُ بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ، فطَارَتْ شَرَارَةٌ مِنْهَا فِي البيْتِ فَأَحْرَقَتْهُ».

* * *

خامساً

تدبر نصوص الصورة الثالثة

وهي الدُّخول في الدين على سبيل النفاق، مع الكُفْرِ به باطناً، واتّخاذُ ذلك وسيلة لتحقيق مآربَ ومصالح دُنيوية خاصَّة، أو لطَعْنِ الدِّين وإفساد أحوال المسلمين من داخل صفوفهم، كأنَّ دِينَ اللَّهِ للنَّاس لُعْبَةٌ أَوْ مَلْهَاةٌ يَلْهو بها المنافقون وَيَلْعَبُون، مستهزئين بالمؤمنين، الّذِينَ ينْخدِعُونَ بهم، ويَقْبَلُونَ مِنْهُمْ ظاهر إسلامهم، جَاهِلِين بحَقِيقَةِ كُفْرِهِمْ، وهُمْ بذلك يَرَوْنَ أنّ المسلمين المؤمنين الصادقين سُفَهاء ناقِصُو الذكاء، تَنْطَلِي عليهم حِيَلُ المنافِقِينَ وألاَعيبُهم، فيستهزئون بِقِلَّةِ ذكاء المؤمنين، وبأَنَّهُمْ محْرُومُون من الفِطْنَةِ والقدرة الفكريَّة على اكتشافِ حِيَلِ مَنْ يُنَافِقُهُمْ.

وقد جاء في القرآن المجيد حول هذه الصورة عدَّة نصوص:

النصّ الأول:

أنزل الله عزّ وجلّ في العهد المكّيّ تحذيراً للمؤمن من مجالسة الذين يَطْعَنُون في آيات الله من الكافرين، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ

وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

- ﴿يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: أي: يطْعنونَ في آياتنا البيانية أَو الإعجازيَّة، ويُثِيرُون عليها مَا يُعكِّرُ صفاءها، كَمَنْ يخوضُ في النَّهْرِ فيُعَكِّرُ صَفْوَ الماء، ويَتَّخِذُونها لَعِباً ولهواً، ثُمَّ يَسْخَرُونَ مِنْهَا، ويَسْتَهْزِئون بها، وغَرَضُهم الصَّدُّ عَنْ دِينِ اللَّهِ كُفراً به.

- ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: بِوَسَاوِسِه فيشغَلُكَ بِسَلاَسِلِ الأفكارِ الَّتي يَسْتَمِيلُكَ لمتابَعَتها، عَنِ الإعراضِ عنهم.

- ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: فلا تَقْعُدْ بَعْدَ أن تتذكَر مع الخائضِينَ في آياتِ اللَّهِ الظَّالِمِينَ، لأنَّ مجالَسَتَهُمْ دُون مُجاهَدَتهم من المشاركة لهم في كُفرِهِمْ وَلَوْ بالسَّماعِ.

- ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: وَذَكِّرْ بالقرآنِ مستفيداً ممَّا جاءَ فيه، محذِّراً مُنْذِراً مِنْ أن تُرْتَهنَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ من جرائم، حَبيسةً فِي عذاب النار، أو لتصير إلى عذاب النَّار.

- ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾: أي: وإنْ تُقَدِّمْ كُلَّ فِدَاءٍ لِدَفْعِ عَذَابِ اللَّهِ عنها لاَ يُقْبَلْ مِنها وَلاَ يُؤْخَذْ مِنها، هذا إنْ كانت تَمْلِكُ شيئاً تَفْتَدِي به، لكنَّها لاَ تَمْلِكُ ما تُقَدِّمُه فِداءً يومَئِذٍ.

- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾: أي: أولَئِكَ الَّذينَ حُبِسُوا في جَهَنَّم بما كَسَبُوا، وَكانَتْ ذواتُهُم هي الرَّهائن المحبوسة، إذْ يُعَذَّبُونَ بِنَار جَهَنَّم.

● ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾:

أي: لهم في جهنَّم شراب من ماءٍ حارٍّ شَدِيدِ الحرارة، وعَذَابٌ أَلِيمٌ آخر، يَنْزِلُ بهم في دار عذابهم، بسبب مَا كانُوا يكْفُرُونَ بآيات اللَّهِ مستهزئين بها.

ثُمَّ أَنْزَلَ الله عزّ وجلّ في الْعَهْدِ المدنيّ إحالَةً على هذا النّصّ المكّي، فَأَبَانَ تَبارَكَ وَتعَالَىٰ أَنَّ مِنْ عَلامَاتِ النّفَاقِ مُشَارَكةَ الْكَافِرِينَ فِي مجالِسِهِمْ الّتي يَخُوضُونَ خِلالَها في آيات الله طَعْناً بها واسْتِهْزاءً، فقال تبارَكَ وَتَعَالَىٰ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠﴾:

فَدَلَّ هذا النّصُّ على أَنَّ المرادَ بالْخَوْضِ في آيَاتِ اللَّهِ الذي سَبَقَ بيانَه في سورة (الأنْعَام) المكيّة، هو الكُفرُ بها، والاستهزاءُ بها.

ودَلَّ أيضاً على أنَّ مشاركة الخائِضِينَ في آيَاتِ الله ولَوْ بالْمُجَالَسَةِ والسَّمَاعِ هو مِنَ العلاماتِ الّتِي تَدْمَغُ بالنفاق، أَوْ مِنَ السُّلُوكِ الّذِي يَدُلُّ على النِّفَاق.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: أي: أيبتغي الذين يتَّخِذُونَ الكافرين أولياءَ مِنْ دُون المؤمنينَ الاحْتِمَاءَ بالْقُوَّةِ الغالبَةِ الّتِي عِنْدَهم، مُفَاخِرِينَ بها، فإنَّ الْقُوّة الْغَالِبَةَ لِلَّهِ جميعاً، وهو يُصَرِّفُهَا بحكْمَتِهِ على ما يشاء.

* * *

النّصّ الثاني:

أبان الله عزّ وجلّ في أوَائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) طائفة من صفاتِ المنافقِين، وهي صفاتٌ تدُورُ حوْلَ تَلاعُبِهِمْ بِدِينِ اللّهِ، واتّخَاذِهِمْ إيَّاهُ لَهْواً ولَعِباً، فهم بنفاقِهِم يخادِعُونَ اللّه والَّذِينَ آمَنُوا، وإذَا خَلَوْا إلَىٰ شياطِينِهِم قالُوا لهم: إنَّنا بدُخُولِنا في الإسلام ظاهراً والكُفْرِ به باطِناً نَسْتَهْزِىء بالمسلمين المؤمنين المحرُومين منَ الذَّكَاءِ والفِطْنَةِ، ونَسْتَطِيعُ أَنْ نحتَالَ عَلَيْهِم بِذَكَائِنا وَمُخَادَعَتِنَا لهم، وهذه الطائفة من الصفات جاءت في الآيات من (٨ ـ ١٥).

ومنها قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

* * *

النّصّ الثالث:

قولُ الله عزّ وجلّ بشأنِ المنافقين في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

فأبان هذا النّص أَنَّ مِنْ صِفَاتِ المنافقين أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ دِينِ الله لَعِباً، إذْ يَدْخُلُونَ فيه نفاقاً، ويَسْتَتِرُونَ بالكذِب، ويَحْلِفُونَ بالله بُغْيَة تَوْثيقِ أكاذِيبهم، لإرضاء المؤمنين الصادقين، وهُمْ على حَذَرٍ دائم مِنْ أنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ على رسُولِهِ سُورَةً فاضِحَةً يَكْشِفُ بِهَا نفاقهم، ويُعَيِّنُ فيها أسْماءَهُمْ.

وأبان هذا النصّ أنَّ أعْمَالَهُمْ في النفاقِ هي من صُورِ الاستهزاءِ ببعض المؤمنين، إذْ يَرَوْنَهُمْ غير قادِرِينَ على اكتشاف ألاعيبهم وحيلهم.

وأبان أيضاً أنَّ جوابَهم لِمَنْ يكْشِفُ حقيقة نفاقهم، أَنْ يَقُولوا: إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَب، أي: كُنَّا نَلْهُو ونتسَلَّىٰ بالْمُزَاح، للترفيه عن أنفسِنا، ولتحقيق بعض مصالح لنا، وكنَّا نَسْتَصْغِرُ بَعْضَ عُقولِ الناس، فنضحك عليهم، ونَسْتَهزِىء بهم.

فقال الله عزّ وجل:

- ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقال اللَّهُ لهم:

- ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ قَبْلَ أَنْ يَصْدُرَ مِنْكُمْ ما صَدَرَ مُؤْمِنِينَ، فهذا مُخْرِجٌ لَكُمْ مِنَ الإيمان ومُسْقِطٌ لَكُمْ في الكُفْر ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ إذَا تَابُوا وصَحَّحُوا إيمَانهم واسْتَقامُوا ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ أُخرَىٰ مِنكُمْ يُصِرُّون علىٰ كُفْرِهم ونفاقهم، وتَعْذِيبُنَا لَهُمْ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

* * *

سادساً
تدبُّر نصوص الصورة الرابعة

وهي الاستهانةُ بالدّين، وعَدَمُ الاكْتراثِ له، والانصرافُ عنه وعن الداعي إليه، لأمور متاع الحياة الدُّنيا ولهوها ولَعِبها.

ويُلْحَقُ بهذه الصورة إهمال المؤمنين المسلمين تطبيقَ أحكام الدين الَّتي أَنزَلَها اللَّهُ لهم، لضمانِ حقُوقهم ومصالحهم في دُنياهم.

● وقد دلَّ على صورة الاستهانة بالدّين، والاشتغال عنه باللّعب واللّهْو، قول الله عزّ وجلّ في وسورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) يَصِفُ حالَ الكافرين:

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ (١) مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ (٢) لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ (٣)﴾.

● ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾: أي: وهم مُسْتَغْرِقون في غَفْلَةٍ عن قضايا مَصِيرِهم الأبدِيّ، الَّتي يشْتَمِلُ عَلَيها دِينُ اللَّهِ لهم.

● ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ (٢) لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ...﴾:

أي: ما يأتيهم من نَجْمٍ قرآنيّ مُحْدَثِ التّنْزيل إلاَّ اسْتَمَعُوهُ بآذانهم فقط، وهم يَلْعَبُون بأعضائهم، حالة كَوْن قلوبهم لاهيةً عن التفكُّر بما اسْتَمَعُوه بآذانهم، لأنَّهم غير مؤمنين برسول اللَّه الذي يتْلُوهُ عليهم، زاعمين أنَّ الآيات الإعجازيَّة التي يأتي بها نوعٌ من السِّحْر، ليُبْعِدُوا عن تصوُّرِهم صِدْقه، ووجوبَ الإيمان به واتِّباعه.

إنّ حالَهم لَيس فيه من العقل والرُّشْد مثقالُ ذَرَّة، كأنَّ قضيَّة الدّين لاَ تَغنيهِمْ بشيءٍ، ولا يُهِمُّهُمْ مِنْ أَمْرِها شيء.

وَكأنَّ مُسْتَقبَلَهُمُ الأبَدِيَّ لَيْسَ جزءاً من وُجُودِهم، فلا يكتَرِثُون لسعادتهم فيه ولاَ لشقائهم وعذابهم.

ولو أَزَاحوا عن بَصَائِرهم غِشاواتِ زينَةِ الحياة الدنيا، لَعَلِمُوا أنَّ الدِّين فيه أخَصُّ الأشياء بهم، وأَعْظَم الأشياء الّتي يجب أَنْ تُهِمَّهُمْ قَبْلَ كُلِّ شيء.

إنَّ سَعادتهم في الدنيا، وسعادتهم الأبديَّة يومَ الدِّين بَعْدَ البعث للحياة الأخرى، مُرْتَبِطَةٌ بِمَا جَاءَ فِي دينِ اللَّهِ لَهُمْ، وَإِنَّ شقاءَهُمُ الأَبَدِيّ يَوْمَ القيامة مُرْتَبِطٌ بِعَدَمِ اتّبَاعِهم لِمَا جاء به دين الله لهم.

وهلْ يُعْرِضُ الإنسانُ الّذي له أقلُّ مقدارٍ من العقل، عن شَيْءٍ يَرْتَبِطُ به مَصِيرُهُ الأَبَدِيُّ، فَيَنْصَرِفُ عنهُ إلى اللَّعِبِ بما لا قيمة له، والتَّلَهِّي بما لا ينفَعُهُ في مَصِيرِه بشيء؟!

إِنَّ مَنْ يُهمِلُ قَضيَّة الدِّين وَلاَ يَكتَرِثُ لها وَلاَ يَعْبَأُ بها، كَمَنْ يُهمِلُ إِنْذَارَ المنْذِر بمداهَمَةِ الجيْشِ الغازي الّذِي لا قبل له بمقاوِمَتِهِ أو دَفْعِهِ، ولا يَمْلِكُ في لحظتِه إلاَّ النُّزُوحَ والْفِرار.

● ودَلّ على صُورَةِ إهمال المؤمنين المسلمين تَطْبِيقَ أحكام الدّين الّتي أَنْزَلَهَا اللَّهُ لهم، لضمان حقوقهم ومصالحهم، قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للمؤمنين أثناء بيانه جلَّ وعَلاَ أحكاماً كثيرةً تتعلَّقُ بالعِبَادات والمعاملات ونظام الأسْرَة:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾﴾.

إنَّ من يُؤْمِنُ بآياتِ اللَّهِ البيانيَّة، ثُمَّ يَتْرُكَ العمل بها كُلِّيًا تُشْبِهُ حَالُه حَالَ مَنْ يستَهْزِىء بها، ولهذا قال الله عزّ وجلّ في هذه الآية:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ...﴾.

ولَكِنْ لاَ يَدخُلُ في هٰذا الوصْفِ مَنْ يُخَالِفُ مَا جاء في آياتِ اللَّهِ في بعْضِ أحواله، بدافع الهوى، أو الشهوة، أو الغريزة، مع شُعُورِه بأنّهُ

يَعْصِي، وبأنَّهُ واقعٌ تَحتَ مُؤَثِّراتٍ غير سَوِيَّة. فهذا عاصٍ لا رائحةَ في نَفْسِه للاسْتِهْزَاءِ بآيات اللّٰهِ وشرائعه وأحكامه، ودواؤه يكون بالتَّوْبَةِ والنَّدَمِ على ما فاتَ، والاستِغفارِ، ومحاولَةِ الالتزام بشرائع الله وأحكامه، والسَّيْرِ في صراطِه المستقيم على قدْرِ الاستطاعة، وكلَّما انحرَفَ عَنْه ولَوْ بمقدارٍ يَسِيرٍ عادَ إليه مُسْتَغْفِراً تائباً، إذْ كُلُّ بني آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الْخَطَّائِين التَّوَّابُون، الَّذِين لا يُصِرُّون مكابِرين على كبائِرهم.

* * *

سابعاً

تدبُّر نصوص الصورة الخامسة

وهي الاستهانة بالرَّسُولِ والاستهزاءُ به، ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ المؤمِنُونَ به، الَّذِين اتَّبَعُوا مَا أُنزِلَ إليهم مِنْ رَبِّهِمْ.

وقد جاء بشأن هذه الصورة عدّة نُصُوصٍ في القرآن المجيد، أسْتَعْرِضُها بشيءٍ من التدبّر.

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأنِ الكَفَرَةِ مِنْ كُلِّ الأُمَمِ مَعَ رُسُلِهِمْ:

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: يَا عَذَاباً وَعِقَاباً شَدِيداً نَازِلاً عَلَىٰ العباد، يَجْعَلُهُمْ يَتَحَسَّرُونَ على ما فرَّطُوا في جنب الله، إذْ رَفَضُوا دَعْوَة رُسُلِ رَبِّهِم، وكانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بهم.

* * *

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) خطاباً لرسوله بشأن اسْتِهْزَاء كُبَراء مُشْرِكي مكّةَ به:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ⑷١⑷﴾؟!!

- ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾!! استفهامٌ على وجه الازدراء والاسْتِهْزَاءِ، إذْ لم يكُنْ من أغنيائهم وعظمائهم قَبْلَ نُبُوَّته، ولأن الله عزّ وجلّ لم يَنْصُرْه بَعْدُ على مضطهديه، ومُضطهدي الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، إبّان نزول سورة (الفرقان).

* * *

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) خِطَاباً لِرَسُوله وتَسْلِيَةً له:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١١)﴾:

أي: هذه طريقة الكافرين الّتي يُفرِزُها كُفْرُهم مِنْ كُلّ الأمم، مع كُلّ رسُولٍ يُرْسِلُهُ اللّهُ إليهم، مهمَا كان شأنُه.

والمعنى: فلا تحزَنْ لاستهزاء بَعْضِ قَوْمِكَ بكَ، فقد ذاقَ مثل هذا الاستهزاء الرُّسُل من قبلِك.

وجاء في أواخر هٰذه السّورَة قَوْلُ الله.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥)﴾.

أي: إنَّا كَفَيْنَاكَ شَرَّ أئِمَّةِ المستَهْزِئين. وجاء في السِّيرَةِ كما روى ابْنُ

إسحاق، أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أهلَكَ مِنْ أجْلِ رَسُولِهِ محمد ﷺ أئمَّةَ المستهزِئين، وهُمْ: الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوث، والْوَلِيدُ بْنُ المغيرة وهو أشدُّهم، والعاصُ بن وائل، والحارث بْنُ الطَّلاطِلَة، أَبُوهُ قَيْسٌ وأُمُّه غَيْطَلَةُ، كما ذَكَرَ الزُّهْرِيُّ جمعاً بين الروايات.

ولإهلاك كُلِّ واحدٍ من هؤلاء قِصَّةٌ ذكرها كتَّابُ السِّيرة.

* * *

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخْرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾:

وفي هذا النصّ أيضاً تَسْلِيَةٌ للرَّسول محمد ﷺ، وبيان لأحوال الأمم مع رُسُلِ رَبّهم.

* * *

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُولِهِ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

- ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾؟! أي: يَذْكُرُ مَعْبُوداتكم الْوَثنيَّة بأنَّها لاَ تَنفَعُ وَلاَ تَضُرُّ، وأنَّ عِبادتها من السفاهة ونقصان العقل.

والاستفهام في هذه العبارة يُرادُ به الازْدِراء والاستهزاءُ، وبعد آيات قال الله عزّ وجلّ في هذه السّورة:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: فأحاط بهم العذابُ الَّذِي كَانُو بأنْبائه يَسْتَهْزِئُون.

* * *

النَّصُّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾:

وَيَظْهَرُ أَنَّ هٰذا النَّصَّ قَدْ أُنْزِلَ بمُنَاسَبَةِ اسْتِهْزَاءِ الْيَهُودِ والمنافقِينَ، وإيذَاناً بِقُرْبِ الانْتِصَارِ الحاسِمِ على كُلِّ المستهزِئين، وقَطْعِ دَابِرِهِم، وكَذٰلِكَ كانَ.

* * *

(٢١)

الملحق الخامس

دراسة تكاملية للنُّصوص بشأن لوط وقومه في القرآن المجيد

جاء ذكر «لُوطٍ» عليه السلام وقومه في خمسة عشر نَصّاً في القرآن المجيد من خَمْسَ عشرة سورة، وجاء في معظمها ذكر لَقَطَاتٍ من قصّتِه مع قومه، متكاملاتٍ فيما بينها.

ومن شأنِ التدبّر المتأنّي، دِرَاسَةَ هٰذِهِ النصوصِ دِراسَةً واعيَة بِنَظْرَةٍ شُمُوليّة تَكْشِفُ التَّكَامُلَ فيما بَيْنَها.

وأنْقُل هذه النصوص من المصحف أوّلاً، مرتّبَةً وفق ترتيب نُزُول

سُورِهَا، ثم أشْرَعُ إنْ شاء الله بتدَبُّرِ ما جَاء فيها تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا على ما يفْتَح الله به.

النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ⑫ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ⑬ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ⑭﴾.

أي: كذَّبَتْ قبل كُفَّارِ قُرَيْشٍ هؤلاءِ الأقوامُ، ومِنْهُمْ قومُ لوط، وسمَّاهم الله بأنَّهُمْ إخوانه، أي: في المواطَنَة في أرض سَدُوم.

وأبَانَ الله عزّ وجلّ أنَّهُمْ حَقَ عليهم وعيدُ الله لهم بالإهلاك الشامل، أي: تحقَّقَ بالتَّنفيذ وثبت.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ㉝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ㉞ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ㉟ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ㊱ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ㊲ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ㊳ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ㊴﴾.

فذكرهم الله عزّ وجل في هذا النصّ بعنوان «قوم لوط».

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ⑫ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ⑬ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ⑭﴾.

أي: كذَّبَتْ قَبْلَ كُفَّار مكّة هؤلاء الأقوام ومنهم قوْمُ لوط، وأبان اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنَّهُمْ حَقَّ عَلَيْهِم عِقَابُهُ، فالمرادُ بالوعيد الذي جاء ذكره في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤نزول) هو العقابُ والْعَذَابُ الذي جاء ذِكْرُهُ هُنَا في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)، فهو وعيد بعقابٍ على ما كان منهم ممّا يقتضي ذلك.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

النص الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشُّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

النّصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

النّصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ

أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾.

وقول اللّهِ عزّ وجل فيها أيضاً حكايةً لِمَا قَالَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِقَوْمِه:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩)﴾.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾.

النص التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٨) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ (٨٩) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (٩٠)﴾.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾.

النصّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ

ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ (٢٩) قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٠) ۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٣١) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ
إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ (٣٢) لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ
(٣٤) فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
(٣٦) وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (٣٧)﴾.

النص الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في مَعرِضِ الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ (٧١) وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ
إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ (٧٢) وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ
(٧٣) وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ
إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ (٧٤) وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥)﴾.

النصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول): في مَعرِضِ الحديث عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام:

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ
(٢٦) وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ
فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ
لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ
ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٩) قَالَ

رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ
قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ
فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ
ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ
لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾
إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

النصّ الرابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لرسوله مُحمَّدٍ ﷺ بشأن الَّذين كذَّبوهُ مِنْ قومه:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ
وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾:

﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي: فَأَمْهلتهم إمْهالاً كافياً لقطعِ أَعْذارِهم.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي: فَكَيْفَ كان إنكاري، بمعنى عِقَابي الّذي تَمَّ به إهلاكُهم إهلاكاً عامًّا.

النصُّ الخامس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول):

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ
عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا
ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

* * *

وفي الْفُصُول والفقرات التاليات تَدبُّر ما يتعلَّقُ بلُوطٍ عليه السلام وقَوْمِهِ من هٰذِهِ النُّصُوص تدبُّراً تكامُلِيًا، مع ما لإبراهيم عليه السلام من مشاركة له في بعض قصَّتِه.

الفصل الأوّل
هُويّة لوط عليه السلام في القرآن

هو من ذُرّية نوح عليهما السّلام:

دلَّ على أنّه من ذُرِّية نوح عليهما السَّلام قول الله عزّ وجلّ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

فدَلّ هذا النصّ على أنَّ لوطاً من ذُرِّيَّةِ نوح عليهما السلام.

نشأته في العراق (بين النَّهرَيْن) وهجرته إلى أرض كنعان (فلسطين):

نشأ «لوطٌ» عليه السّلام حيث نشأ عمُّهُ إبراهيم عليه السّلام في «أور» (ما بَيْنَ النهرَيْنِ ـ العراق» وآمَنَ بعَمِّه «إبراهيم» نبيًا ورسُولاً، وأَسْلَمَ له، وهاجر معه إلى الأرض الّتي بارَكَ اللّٰهُ فيها للعالَمِين، وهي فلسطين من بلاد الشّام.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (العنبكوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السّلام:

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ . . . ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فآمَنَ لُوطٌ بِعَمِّهِ إبراهيم نبيًا ورَسُولاً، وأسْلَم لَهُ متّبِعاً مُطِيعاً.

يقال لُغةً: آمَنَ به، وأسْلَمَ له، فجاء في العبارة تَضْمِينُ فعل «آمَنَ» معنى فعل «أسْلَمَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، فَأَغْنَتِ الجملَةُ عن جُمْلَتين، وهذا من الإيجاز الْبَدِيع في الْقرآن.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

فدلَّتْ هذه الآيَةُ على أنّ لُوطاً هاجَرَ مع عَمِّهِ عليهما السّلام نَاجِيَيْن من طُغَاة حكام العراقِ (ما بين النهرين) وكانت فِلَسْطين مُهَاجَرَهُما.

والمعنى: ونجيْنَاهُمَا بالهِجْرَةِ من أَرْض نَشأتهما، وأَوْصَلْنَاهُمَا إلى الأرض الّتي بَارَكْنَا فِيها للعالمين.

فجاء في الآية تضمِينُ فعل «نَجَّىٰ» معنى فعل «أوصل» أو فعل «أبلغ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغنت الجملة عن جُملَتَيْن، هما: ونجيناهما، وأَوْصَلْنَاهما.

نبوة لوط عليه السلام ورسالته وما آتاه الله من حُكْمٍ وعِلْمٍ:

لقد اجتبىٰ الله عزّ وجلّ لُوطاً فجعَلَهُ نبيًا، ثم بَعَثَهُ رَسُولاً إلى قَوْمِهِ أهل «سَدُوم» فهو نبيٌّ من أنبياء الله ورسُولٌ من رُسُله، ومِنْ إثبات أَنَّهُ من الْمُرْسَلِين، نَفْهَمُ لُزوماً أَنَّهُ مِنَ النَّبِيِّين، لأنّ كُلَّ رَسُولٍ بَشَرٍ من رُسُلِ اللّهِ للناس، هو نبيٌّ قبل بَعثِهِ رَسُولاً.

● ذَكر اللّهُ عزَّ وجلَّ لوطاً عليه السلام ضِمْنَ الَّذِين اجتَبَاهم، وهداهُمْ إلَىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيم، وَآتاهُمُ الكِتَابَ والحكْمَ والنُّبُوَّة، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأَنْعَام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بعد ذكر طائفة من المرسلين ومِنْهُمْ لوطٌ عليه السلام:

﴿. . . وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ

مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ . . . ﴿٨٩﴾﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

أي: هو من النبيّين والمرسَلِينَ لأنَّ كلَّ رَسُول نبيٌّ.

وقد جاء تأكيد كونه رسُولاً في هذه العبارة بالمؤكّدات التاليات: (إنَّ ـ الجملة الاسميّة ـ اللاّم المزحلقة للخبر) لدفع توهم أنَّهُ مبعوث من قبل عمّه إبراهيم إلى أهل سَدُوم، فهو ينطق باسمه.

● يُضاف إلى هٰذين النَّصَّيْنِ أنّ كلَّ النُّصوص الّتي جاء فيها بيان لقطَاتٍ من قِصَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ، تَدُلُّ على أنّه كانَ رَسُولاً من رُسُلِ الله لِقَوْمه.

● وجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بيانُ أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ آتىٰ لُوطاً حُكْماً وعِلْماً، فقال تبارَكَ وتعالى فيها:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا . . . ﴿٧٤﴾﴾.

* * *

الفصل الثاني

دعوة لوط عليه السلام لقومه أهل سَدُوم

لقد كانت دَعْوَة لوطٍ عليه السلام لقومه مثل دعوة سائر المرسلين لأقوامهم، إلاّ أنّهُ شدَّدَ عليه السّلام، في تأنيبهم بالنِّسْبَةِ إلى القبائح الشنيعة المنتشرة في مُجْتَمعاتهم، والّتي يمارسُونها بوقاحة ومجاهرة وعدَمِ مبالاَة.

● قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

● وقال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ... ﴿٢٩﴾ ﴾.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النَّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

التدبّر التكاملي:

ففي المرحلة الأولى قال لوط لقومه ما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

● من سورة (الشعراء): ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾: ظاهر هذه الآية يَدُلُّ على أنّ اللّهَ عزّ وجلّ قَدْ أَرْسَلَ إلى هؤلاء الْقَوم قبل إرسال لوطٍ عليه السلام إليهم، رَسُولاً أو أكثر، لينْطَبِقَ عليهم لفظ «المرسلين» فأقل الجمع اثنان، والأصْلُ حملُ اللّفظ على ظاهره مَا لَمْ يأتِ دليلٌ صحيح يدُلُّ على خلاف الظاهر.

وقوم لوطٍ قد كذّبوا من جاءهم من الرُّسل قبْلَ لوط، دون أَنْ يَنْتَهِي الْأَمْرُ بإهلاكهم، ورُبَّما كان من الذين مَرَّ بهم وبلّغهُمْ رِسالَةَ رَبّه إِبْرَاهيمُ عليه السّلام، قبْلَ أن يَبْعَثَ الله إليهم لوطاً رسُولاً خاصًا بهم.

وأصَرُّوا على تكذيبِ لُوطٍ مُدَّةَ إقَامَتِهِ بينهم، حتَّىٰ أَهْلَكَهُمُ الله إهلاكاً شاملاً مقترناً بتَعْذِيبٍ أَلِيمٍ لهم، ومَسْبُوقاً بعذابٍ شَديد.

● من سورة (الشعراء): ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾؟؟

أي: قال لهم بأسْلُوب العرض عن طريق الاستفهام: ألاَ تَتَّقُون عذابَ رَبّكمْ، وهذا يسْتَلْزِمُ أنْ يكون لوطٌ عليه السلام قد أبان لهم قَبْلَ هذا العرض الرفيق الحكيم، أرْكانَ الإيمانِ، فأعلمهم أنّه لا إلَهَ يُعْبَدُ بحَقٍّ إلاَّ الله جلَّ جلاله، وأمَرَهم بعبادته وحْدَه لا شريك له، بدليل قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾: أي: إلاَّ كُنّا نُكَرِّرُ الوحْيَ إليه أَنَّهُ لا إلَه يَسْتَحِقُّ أنْ يُعْبَدَ إلاَّ أَنَا مع كُلِّ أَمْرٍ أو نَهْيٍ أو إرشادٍ نُوجِّهُهُ لعبادنا.

﴿فَٱعْبُدُونِ﴾: أي: فاعْبُدُوني بالإيمان، والدعاء، والعمل بما آمُرُ به وتَرْكِ ما أنْهَىٰ عنه، والتَّقرّبِ إليَّ بفعلِ مَا أُحِبُّ فِعْلَه، وتَرْكِ مَا أُحِبُّ تَرْكه.

فَكُلُّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ الله عزّ وجلّ إلى قَوْمٍ لاَ بُدَّ أَنْ يكونَ قَدْ بَلَّغَ قَوْمَهُ وَحْيَ اللَّهِ هذا، ومنهم لوطٌ عليه السلام، وفي خاتمة دعوتِه إِيَّاهم إلى عبادة الله وحْدَهُ، كان يُنْذِرُهم بعذاب اللَّهِ، ويَعْرِضُ عليهم أَنْ يتَّقُوه، فإذا لم يَسْتَجيبوا أنكر عليهم، وتعجَّبَ من حماقتهم وإصرارهم على العناد بالباطل، بأسْلُوب الاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ قائلاً لهم، ألاَ تَتَّقُون عذابَ الله وعقابَهُ، وهو رَبُّكُمْ وربُّ كلِّ شيءٍ، والمنذِرُ لَكُمْ بالهلاكِ والعذابِ الأليم إذا أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عليه من كُفْرٍ وفُجُور.

﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وصف الله عزّ وجلّ لوطاً عليه السلام بأنّه أَخُو قَوْمِهِ أهل «سَدُوم» مع أنّه لم يكن من سلالة جَدِّهم أَوْ أجدادهم، نظراً إلىٰ أنّه اكْتَسَبَ حَقَّ المواطَنَةِ في أرضهم، مُنْذُ قَدِمَ إليهم وعاش بَيْنَهُمْ ومعه مواشيه الكثيرة، وقَبِلُوا أن يَكُونَ مِنهم.

● من سورة (الشعراء): ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تلخيصٌ لثلاث مقالاتٍ مفصّلاتٍ قَالها لوطٌ عليه السَّلام لقومه، وقالها من قبله نوحٌ وهُودٌ وصالح عليهم السَّلام لأقوامهم.

ففي المقالة الأولى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ أبان لهم أنه نَبِيٌّ من أنبياء الله، ورَسُولٌ من رُسُله، بَعَثَهُ الله لهم خاصّة، دلَّ على هذه الخصوصِيَّة تَقديم ﴿لَكُمْ﴾ وهو معمول، على عامله ﴿رَسُولٌ﴾.

وأبانَ لهم فيها أنّهُ أمين، أي: في تبليغ رسالات ربّه، فلا يَنْقُصُ شيئاً ممّا أَمَرَهُ الله بتَبْلِيغِه لقومه، ولا يزيد عليه شيئاً.

وفي المقالة الثانية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾ أَمَرَهُمْ بأمْرَين:

الأمر الأول: أنْ يَتَّقُوا الله، وجعله مُرَتَّباً بدلالة حرف (الفاء) على أنّه رسُولٌ أمين، أي: بأن يتَّقُوا عقاب الله وعذابه بالإيمان بالحق الذي جاءهم من عند ربهم، وبالإسلام له قولاً وعملاً، يَعْبُدُونَهُ لا يُشْرِكون بعبادته أحداً، وبطاعته بفعل ما يأمرهم به، وتَرْكِ ما يَنْهاهُمْ عنه.

الأمْرُ الثاني: أن يُطِيعُوهُ باعتبارِهِ رَسُولَ رَبّهم، يُبَلِّغُهُمْ عنهُ ما يأمُرُهُ رَبُّهُ بتبليغه لهم، ونظراً إلى أنّهم مكلَّفُون من ربّهم أن يطيعوا رَسولَهُ إليهم، فطَاعةُ رَسُولِ الله من طاعة الله.

وقد جاء هذا الأمْرُ الثاني مُرَتَّباً بـ (الفاء) أيضاً على أنَّه رَسُولٌ أمين.

وفي المقالة الثالثة: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤﴾.

فأبان لقومه بهذه المقالة أنَّهُ غَيْرُ ذي مَصْلَحَةٍ شخصيَّةٍ عِنْدَهم من دعوته ومجاهدته لهم، وهذه المصلحة تكون بمثابة الأَجْرِ الذي يأخُذُهُ أو يستحقُّهُ من يقومُ بخدمَةٍ لغيره، إنّما يَرْجُو أجْرَه عند الله الَّذِي أرْسَلَهُ وكلَّفَهُ أن يقوم بوظائف رِسالَتِهِ في قَوْمه.

● من سورة (الشعراء): ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾.

اشتملت هاتان الآيتان على بيان المقالة الرابعة التي قالها لوطٌ لقَوْمِه في أوائل دعَوته لقومه.

كلمة «الذكران» أخفُّ من كلمة «الرجال» لأنَّها قَدْ تُحْمَلُ على الْغِلْمَان، وفيها دلالَةٌ على أنَّ هذا التأنيب الذي جاء في هاتين الآيَتَيْنِ، قَدْ كان في المرحلة الأولى من تلويمه لهم على هذه الشنيعة، من أفعالهم الشائعة في مجتمعهم.

والاستفهام في: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾ استفهامٌ خرج عن أصل دلالَتِه الّتي هي طلب الفهم، إلى معنى الإنكار عليهم وتلويمهم وتأنيبهم على ممارسَة هٰذِهِ الفاحِشَةِ بِوَقاحَة.

والمعنى: أتأْتونَ الذّكران من النَّاسِ في أَدْبارهم حيْثُ الْقَذَارَات، وتَذَرُون مكان الطهارة والنقاء الّذي خَلَقَهُ لكُمْ رَبُّكُمْ في فُرُوج أزواجكم من النساء.

وتدُلُّ عبارة: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ علىٰ أَنَّهُمْ رَدُّوا عليه قائلين:

لَسْنَا الوحيدين بين الناس في مُمَارسَةِ هٰذِهِ العَادَةِ لتحقيق لذّاتِ الفروج، ففي كلّ الأُمَم أُنَاسٌ يمارسُونها، فقال لَهُم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: بَلْ أَنْتُم انفردْتم في ممارسة هذه القبيحة الشّاذَّةِ بِجُرْأَةٍ ووقاحَةٍ، في تَجاوُزِ كلّ الحدود النِّسْبِيَّةِ الّتِي تُوجَدُ عند غيركم من أهل الفجور من الأمم كمّاً وكَيْفاً.

يقال لغة: عَدَا، يَعْدُو، عَدْواً، فهو عَادٍ، والجمع: «عَادُون» أي: تجاوز الحدّ المحتمل، والمعنى تجاوزتم في انْحرافكم وشذُوذِكُمْ ما عليه غيركُم بنِسْبَةِ عدد الأفراد المنحرفين الشّاذّين في كلّ أمّةٍ، وفي كيفية مُمَارَسَةِ هذا الشذوذ مُجاهرة ووقاحةً وعُدْواناً علىٰ غَيْرِ المنحرفين الذين يَسُوؤُهم أنْ تُمَارَسَ معهم هذه الفَاحِشَة.

والمعنى: بل أنتم قومٌ ظَالِمُونَ مُتجاوزونَ حدود الفواحِش الّتِي يعصي بها عُصَاةُ النّاسِ رَبَّهم.

* * *

■ وفي مرحلة لاحقة قال لوطٌ لقومِهِ مَا جاء بَيَانُهُ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾: أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا لوطاً إلى قومه، عطفاً على ما جاء في السورة بالنسبة إلى نوح عليه السلام، ومن عطف عليه قبل «لوط» عليهم السلام.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: أي: اذكُرْ، بمعنى (ضَعْ في ذاكِرَتِكَ) أيُها المتلقّي الصَّالِحُ للخطاب أيّا كنْتَ، وفي أيِّ عصْرٍ وُجِدْتَ ومن أيّ أمّة.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي: فاحِشَةَ إتْيَانِ الرّجال شهْوَةً مِنْ دُون النساء. والفاحشَةُ لغة: كلُّ ما جاوز الحدَّ المحتملَ في الانحراف والقبح.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾. أي: ما تَفَوَّقَ عليكم فيها أَحَدٌ من الناس.

السَّبْقُ: يستعمل بمعنى السَّبْقِ الزماني، وبمعنى السَّبْق بمقدار كميَّة العمل، أوْ كيفيَّته، وما أظنّ أَنَّ ممارسة فاحشة إتيان الذُّكُورِ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفةً في تَاريخ البشريَّةِ قَبْلَ قَوْمِ لوطٍ، لكن لم تَصِلْ أُمَّةٌ غابرَةٌ، أو مُعَاصِرَة لقوم لوط، من الأمم الفاجِرَةِ إلى مِثْلِ ما وَصَلَ إليه قوم لوط.

والمراد بنفي سَبْقِ غيرهم لهم إثباتُ أَنَّهم هم الأكثر سبقاً في هذا الانحراف والشذوذ من سائر الناس الغابرين والمعاصرين لهم.

وتبادر لأذهان المفسّرين معنى السَّبْق الزّماني، ولَسْتُ أراه المعنىٰ المراد والله أعلم، إذ الإنسان هو الإنسان، والبشر منذ نشأتهم فيهم المستقيمون، وفيهم المنحرفُون الشاذّون.

﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: من الناس، فالمراد بالعالمين هنا الناس، أخذا من طبيعة الحدث، ودَلاَلَة القرائن.

«من» في ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أضيفت للتنصيص على العموم وتأكيده، ويسميها النحاة حرْفَ جرٍّ زَائِدٍ، وقد دخل هنا على فاعل «سَبَقَ» وهو «أَحَد» فَهُوَ مجْرورٌ لفظاً مَرْفوعٌ مَحلاً.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ... ﴿٨١﴾﴾.

أبان لهم لوطٌ عليه السلام بهذه العبارة أنَّهُ يَعْلَمُ من أمْرِ فَوَاحِشِهم التي سَبَقُوا بها غيرهم من العالمين، أنَّهُمْ يَأْتُونَ الرِّجَال، وكان في المرحلة السابقة أبان لهم أنَّهم يأتُونَ الذُّكْران، إذْ لفظ «الذكران» قد يُحْمَلُ على

الْغلْمَان دون الرّجال، فارْتقىٰ في التشنيع عليهم ببيان أَنَّهُمْ يأْتُون الرجال، لقضَاء شهواتِ مذاكيرهم.

ويُشْعِر هذا الانتقال من الذُّكْرَان إلى الرجال أنّ الرِّجال الكبار لا يرْغَبون في أن يُفْحَشَ فيهم، ما لم تتركّز لدَيْهم العادة منذ كانوا غِلْمَاناً يعبَثُ بهم الفاحِشُون.

﴿شَهْوَةً﴾ منصوبٌ على أنه نائب مفعول مطلق لبيان نوع الإتيان، أَوْ على أَنَّهُ مفْعُولٌ لأجله. **الشهوة**: الرَّغبة في الشيء لما فيه للنفس من لذّةٍ جَسَدِيَّةٍ أو نفسِيَّة.

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾: أي: حالة كون إتيان الرّجال لقضاء شهوة الفرج، هو دُون إتيان النساء لتحقيق هٰذه الرَّغبة، إذْ فروج النساء أَطْهَرُ، وهي المخلوقة للحرث والبَذْر، أمّا الأدْبَارُ فبُؤْرَةٌ جُرْثوميَّةٌ قَذِرة، جالبةٌ للأمراض والأوجاع.

وجاء في القراءة الأخرى: **[أَإِنَّكُمْ]** بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التوبيخي. فدلَّ هذا على أنّ لوطاً عليه السلام خاطبهم أَوّلاً مبيناً قبيحتهم، ثم خاطبهم مستنكراً وَمُوبّخاً.

.. ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾: تفصح هذه الْعبارة عن مطويّ لم يُصَرَّحْ به في اللفظ، ولكن يمكن استخراجه بالتدبّر.

إنّ لوطاً لمّا شدَّد الإنكار عليهم بشأن قبيحة إتيانهم الرّجال، لا بُدَّ أن يكونوا قد قالوا له: لَسْنَا الوحيدين الذين يمارسُون إتيان الرّجال دون سائر الناس.

فقال لهم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾: أي: متجاوزون الحدّ المحتمل في ارتكاب الفواحش الشاذّة، **فالإسْرَاف في اللّغة**: هو تجاوز الحدّ المحتمل.

في المرحلة السابقة قال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ كما جاء في النصّ الذي في سورة (الشعراء).

وفي هذه المرحلة التي دَلَّ عليها النصّ الذي في سورة (الأعراف) قال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

ويظهر أنّ المسْرِفَ أشدُّ توغُّلاً في الإثم من العادي، إذِ العادي هو المتجاوزُ لأوّل حُدُودِ الحدّ، أمّا المسْرِفُ فهو المتوغّلُ بعْدَ حُدُود الحدّ المحتمل في ارتكاب القبائح والآثام، الضالُّ ضلالاً بعيداً.

* * *

وفي مرحلة ثالثة قال لوط عليه السّلام لقومه ما جاء بيانُه في سورة (العنبكوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ... ﴿٢٩﴾﴾.

فأعاد لوط عليه السّلام تأنِيبَهُمْ وتَوْبيخَهُمْ على إتيانِهِمُ الفاحشة الَّتي ما سَبَقَهُمْ بها من أحَدٍ من العالَمين، على ما سَبَقَ شَرْحُه، لأنّهم اسْتَمَرُّوا علىٰ تماديِهِمْ في غَيِّهِم.

وأضاف إليها تأنِيبَهُمْ على رَذِيلَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ من رذائِلِهم، هُمَا: قَطْعُ السَّبِيلِ، وإتْيَانُهُمُ المُنكَرَ في نَادِيهم.

- أمّا قطْعُهُمُ السَّبِيلَ فهو أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَرَصَّدُونَ الْمُسَافِرين المجتازين الطُّرُقَاتِ الَّتي تَمُرُّ بمرَاكِزِ قُواهم، فيقْطَعُونَ عَلَيْهِمْ سَبِيلهم، للْعُدْوان عليهم في أمْوالِهِم وَأَعْرَاضِهِم.

- وَأَمّا إتيَانُهُمُ المنكَرَ في نَاديهم، فمِنْهُ أَنَّهُمْ كانُوا إِذَا مَرَّ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ

النَّاسِ حَذَفُوهُ بالْحَصَىٰ، وسَخِرُوا مِنْهُ ظُلْماً وَعُدْواناً، كما جاء في حديثٍ عن أمّ هانىءٍ بنت أبي طالب، عَنِ النبيّ ﷺ، رواه أحْمَدُ والترمذيُّ وابْنُ جَرير وابْنُ أبي حَاتم⁽¹⁾، وحسّنَه الترمذي وصَحَّحَهُ الحاكم.

وعبارة: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ صالِحَةٌ لأنْ تُحْمَلَ علىٰ مُنْكِراتٍ أخْرَىٰ كانوا يأتُونَها في نَاديهم.

* * *

وفي مرحلة رابعة قال لوط عليه السَّلام لقَوْمِهِ ما جاء بيانُه في سورة (النَّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) وهو قول اللّهِ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

فدلَّ هذا النصّ على أنّ لوطاً عليه السَّلام، تابَعَ توبيخَهم وشدَّدَ في تلويمهم وتأنِيبِهم بشأنِ قبيحة إتْيانِهم الرِّجال، وأضاف تأنيبَهُ لهم على مَجانَتِهم وقِحَتِهم، إذْ كانُوا يجتمعون على ممارَسَتِها، وهُمْ يُبْصِرُونَ بأعْيُنِهِمُ الْفَاعِلَ والمفعُولَ فيه، غَيْرَ مُبَالِينَ بأنَّه من المنكراتِ الكُبرَىٰ، ولا مُكْتَرِثِينَ لذلِكَ، وقَدْ يَجِدُون في شُهُودِهم هذه الممارَسَاتِ من غيرهم، لَذَّةً أَوْ إثَارَةً لشهواتِهم، وهذا من أقبح الإسْراف والضلال البعيد.

الاستفهام في: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ وَفي ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ استفهامٌ إنكاريّ تنديديٌّ تَعْنِيفيّ، وهو مُسْتَعْمَلٌ في غَيْرِ مَا وُضِعَ له من طلب الفهم، وقد اتّخذَهُ لُوطٌ عليه السَّلامُ أسْلُوباً للتنديد بهم، وتَعْنِيفِهِمْ، كأنَّ المستَفْهَمَ عَنْهُ من الأُمُور المستغربة الّتي لاَ يَتَصَوَّر العقلاء الأسْوِيَاء أنْ تكون ظاهرة من ظواهر مجتمع بشَرِيّ.

---

(١) انظر الشوكاني في «فتح القدير» في أواخر تفسيره للنصّ.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ تَدُلُّ هذه العبارة على مطْوِيٍّ يَكْشِفُهُ حُسْنُ التَدَبّر.

إنّ لُوطاً عليه السلام لمَّا شدّدَ النكير على قومه، ولا سيّما إنْكارُهُ قَبيحَة حُضُورِهم ومُشاهَدَتِهم بأبصارهم ممارساتِ بَعْضِهم إتيانَ الرِّجالِ منهم، رَدُّوا عليه بقولهم مثلاً: لسْنَا شَاذِّينَ في أعمالنا هذه عن سائر الأَقْوام، فكُلُّ الأَقْوام يفعَلُونَ مثل ما نفعل، فقال لهم لوطٌ عَلَيْهِ السَّلاَم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

أصْلُ الْجَهْلِ مَأْخُوذٌ من قولهم: جَهِلَتِ الْقِدْرُ تَجْهَلُ جهلاً، أي: اشتَدَّ غلَيَانُها، وهو ضِدُّ تحَلَّمَتْ.

ويُقَالُ لغة: جَهِلَ فُلاَنٌ على غَيْرِهِ، أي: جَفَا وَتَسَافَه.

ويُطْلَقُ الجهْلُ بمعنَىٰ عَدَمِ الْعِلْم بالشيء.

فدلَّ الفعل المضارع ﴿تَجْهَلُونَ﴾ الّذي يُفِيدُ معنَىٰ التكرار والتَّجدّد، على أنّهم يضيفون إلى ممارساتهم قبيحَتَهُمُ الشّاذّةَ غليَاناً غَضبيًّا ضِدَّ من يُنْكِرُ عليهم، ويضيفون أيضاً جفاءً وتسافُهاً وشتائم يوجّهُونَهَا له، أو يُوجّهونها لمن يُحِبُّونَ أنْ يمارسُوا فَاحِشَتَهُمْ معه، وهو يأبىٰ لأنَّهُ لم يَعْتَدْهَا ولَيْسَ من أَهْلِها، فيغتصبونه بالْقُوَّة اغتصاباً جماعِيًّا، فَهُمْ بهذا يَجْهَلُونَ بتكرارٍ آناً فآناً، وتتفاقم الجَهَالاَت الصادرات عنهم شِدَّةً وعُنُفاً.

وعلى هذا المعنى قال الشاعر العربيّ:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

وبهذا ظهر لنا أنَّ لوطاً عليه السلام قال لقومه في المرحلة الأولى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ وهو ما جاء في سورة (الشعراء).

وقال لهم في المرحلة الثانية: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ كما جاء في سورة (الأعراف).

وقال لهم في المرحلة الأخيرة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ كما جاء في سورة (النمل).

عَادُون: متجاوِزُون الحدّ المحتمل، وقَدْ يكون دون إسراف وتوغل في الضلال.

مُسْرِفون: متجاوزونَ الحدَّ المحتمل مع توغُّلٍ في الضلال البعيد.

تَجْهَلُونَ: تضيفون إلى إسْرافِكُمْ في التَّوغُّل في الضلال البعيد جَهالاَتٍ غَضَبِيَّة فيها جفاءٌ وتسافُهٌ وشتائم، ومحاولاتُ اغْتِصَاب جماعيّ للّذِينَ لا يستجيبون لَكُمْ استجابَةً طَوْعيَّة.

وبهذا التدبُّرِ تكامَلتْ لدَيْنا دلالاَتُ النصوص الموزَّعَةِ في سُور القرآنِ المجيد.

* * *

الفصل الثالث

اقتراحات قوم لوط بإخراجه وإخراج أهله من أرضهم ثمّ إنذار لوط لهم بالإهلاك الشامل وتحدّيهم نُذُرَه

تصاعد اسْتِياءُ قوم لوط من شدّة تأنيباتِه لهم، ضِمْن أربعة مراحل، فكانت كلُّ مَرْحَلَةٍ أشدّ من سابِقَتِها.

المرحلة الأولى: لمّا سَاءَهم تأنيبُهُ لهم بخُصُوص فاحِشَةِ إتيانِ الذُّكُور، وهي من القبائح الّتي صارت متأصّلَةً في مُمَارسَاتِهِم قبائِحهم، في ممارستِهِمْ، وليس لدَيْهِمُ اسْتِعْدادٌ للتَّخَلُّصِ مِنها، وجَّهَ كُبَرَاؤُهُمْ اقتراحاً بإخراج آلِ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِهم، لأنَّهُمْ أُنَاسُ لاَ يَتْرُكُونَ طَرِيقَتَهم في التَّمَسُّكِ بالتَّطَهُّرِ مِنَ الفواحِشِ آناً فآناً، فوجودهم بَيْنَهُمْ يُنَغِّصُ عليهم في مُمَارسة قبائِحِهم، وإخراجُ آل لُوط يَتَضَمَّنُ إخراجَهُ أوّلاً، لأنَّهُ هو حامل رِسَالة التلْوِيم والتأنيب.

دلَّ على هٰذه المرحلة قولُ اللّٰهِ عزّ وجلّ في سورة (النَّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ودَلَّ علىٰ أنَّ هٰذا كَانَ في أوّلِ مراحل التفكير بتقديم اقتراحِ بإخراج لُوطٍ وآلِهِ من أرْضِهم دلالتان في هٰذِهِ الآية:

الدلالَةُ الأولى: استعمال «الفاء» الّتي تدلُّ على الترتيب مع التعقيب، في أوّل الآيَةِ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: فَلَمْ يكن عنْدَ قَوْمِهِ رَدٌّ على نصائِحِهِ وتأنيباتِه ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ...﴾.

الدلالة الثانية: استعمالهم عبارة ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ الدّالّة على التكريم، وعَلَىٰ اعترافِ قومه بأنّ لوطاً وأهْلَهُ من عِلْيَةِ الناس في أرضهم، ومن ذوي المكانة بَيْنَهم الذين يُقَالُ لهم بحَسَب الْعُرْفِ السائد بينهم: آلُ فلان.

﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾: أي: قالَ بَعْضُ كبرائهم في ناديهم هذا القول على سبيل إبداء الرَّأي، وسكت الباقون، ولكِن لم يتخذوا قراراً بإخراجه، إذْ لَيْسَ في النصوص أنهم أخْرَجوه فعلاً، ولا اتّخذوا وسائل لإخراجه بالقوّة.

﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾: أيْ: مِنْ مُجمَّعِكُمُ السَّكَنِيّ، وهو يَشْمَلُ المركز الرئيس وتوابعه.

الْقَرْيَة: تُطْلَقُ في اللّغة علىٰ كُلّ أرضٍ فيها بيوتٌ ومساكن مجتمعة، قلّتْ أم كَثُرَتْ، ولو بلغت مَدِينَةً عظيمة جدًّا، وقال أهل اللّغة: الْقَرْيَةُ، المصْرُ الجامع.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي: إنَّهُم أُنَاسٌ يَتَنَزَّهُونَ دَواماً عن

الفواحِشِ، ويَنْتَقِدُونَها، ويُشَدِّدُونَ في التَّلْوِيم عليها، فطريقَتُهم مُخَالِفَةٌ لطَرِيقَتِكُمْ، وَوُجودُهُمْ بينَكُمْ يُنَغِّصُ عليكُمْ أمْرَكُمْ في مُمَارَسَةِ ما تَرْغَبُونَ فيه، ومَا تشتهون.

وقَصْدُهم من آل لُوطٍ، لُوطٌ عَلَيْهِ السّلامُ وابْنَتَاهُ، أو بناتُهُ الثلاث، وزَوْجَتُهُ إِذَا كانَتْ حَرِيصَةً على مُلاَزَمة زَوْجها وَبَنَاتِها، فقد كانت كافِرَةً وعلى هوى قومها، وخائنةً لزوجها بتبليغِ قَوْمِها الأخبار الَّتي تُهِمُّهُمْ مِمَّا يَجْرِي مع لوط زوجها.

* * *

المرحلة الثانية: ولمَّا تابَعَ لوطٌ عليه السّلامُ تأنيبَهُ لقومه بخصوص فاحشة إتيان الرّجال في أدْبارهم، أعادوا اقتراح إخراجِه وإخراجِ أَهْلِهِ من قَرْيتهم.

دلَّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ودَلَّ عَلَىٰ أَنَّ هذا كان في مَرْحَلَةٍ ثانية دَلاَلَتَانِ في هٰذِهِ الآية:

الدّلاَلَة الأولى: استعمال «الواو» العاطفة التي تدلُّ على مطْلق الجمع، فلا تفيد تَرْتيباً وَلاَ تعْقيباً، ففي أوّلَ الآية: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: أي: ولم يكن عند قومه رَدٌّ على نصائحه وتأنيبَاته ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ...﴾.

الدَّلالة الثانية: عدَمُ ذِكْرِهِمْ لُوطاً وأهْلَه بعبارة صريحة، بل كَنَّوْا عنهم بالضّمير الدَّالّ عليهم، ففي قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ فهذا التعبير يَدُلُّ على أَنَّهُمْ وصَلُوا إلى حالة غَضَبٍ وكراهيَةٍ وخُصُومَةٍ للوطٍ وَبِنْتَيْهِ.

* * *

المرحلة الثالثة: لم ينتهِ لوطٌ عَلَيْهِ السَّلامُ عن مُتَابعة قَوْمِهِ بالنُّصْحِ والتأنيب وتقبيح كبائرهم ومنكراتهم.

فواجَهَهُ قَوْمُهُ بالتَّهْدِيدِ بِالإخراج والنَّفْي من أرْضِهم، باسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ الإكْرَاهِيَّة.

دلَّ على هذا قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾:

أي: نُقسِمُ: لَئِنْ لَمْ تنتَهِ يَا لُوطُ عَنْ تَأْنِيبِنَا والتَّشْنِيعِ عَلَيْنا لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا أَنْتَ وَمَنْ هُوَ عَلَىٰ دِينِكَ وطَرِيقَتِكَ.

وأدْرَكَ لوطٌ عليه السَّلامُ أَنَّهُ إِذَا تَابَعَ رِسَالَتَهُ في قَوْمِهِ فَإِنَّهُمْ مُخْرِجُوهُ بالْقُوَّةِ لاَ مَحَالة.

وفي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَصْدَرَ قَوْمُهُ قرار عَزْلِهِ عَزْلاً اجتماعيًا، إذْ نَهَوْهُ عَنْ أن يَلْتَقِيَ أَحَداً من الناس، سواءٌ أكان من قَوْمِهِ، أَمْ مِنْ خَارِجِ قَوْمه.

دلَّ على هذا قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) في حكاية قولهم له، حين علموا أنَّ عندَهُ شباباً مُرْداً حِسَاناً، فأقْبَلُوا إلى دَارِهِ يُرِيدُون ممارسة الفاحِشَة معهم، وكانوا في الحقيقة رسُلاً من الملائكة، أَرْسَلَهُمُ اللّهُ عزّ وجلّ لِتَعْذِيبهم وإهلاكهم.

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾؟؟: حين لم يسْمَحْ لهم بأنْ يَصِلُوا إلى ضيوفه، حتَّىٰ لا تلْصَقَ به فضيحةٌ مُنْكَرَة.

أي: ألم نَنْهكَ عن أن تلْتَقِي أحداً من النَّاسِ ولَوْ كانُوا من غَيْرِ قَوْمِنَا؟؟

* * *

المرحلة الرابعة: لمّا وصل قوم لوط إلى تهديده تهديداً صَرِيحاً بالإخراج، وعزله عَزْلاً اجتماعيًا عَنْ أنْ يلْتَقي أحداً من الناس، أنْذَرهم بعذاب الله، وبإهْلاَكٍ شاملٍ وكرَّرَ إنْذَارَهُ لهم.

فكَذَّبوه بالنُّذر، وأغْرَاهُمْ إمْهَالُ الله لهم فتحدَّوْهُ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بعذاب اللّهِ إنْ كانَ من الصَّادِقين، مُتَوَهِّمِينَ أنّهُ غَيْرُ صادق، وأنَّ الله لَنْ يُنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَاب والْهَلاَكَ.

دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ - ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فشكُّوا فيها وكذّبوه بها.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

تَدَلُّ «الفاء» في عبارة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ...﴾ على أنّ هذا كانَ عَقِب توجيه «لوطٍ» عليه السلام إنذاراته لهم، وهي أيضاً تُفْصِحُ عن مَطْوِيٍّ في النّصّ تقديرُه: فكان آخِرُ أمْرِ لوط مع قومه أنْ أنْذَرَهُمْ بعذَابِ اللّهِ عدّة مرّاتٍ، وأنْذَرهم بإهلاك اللّهِ لهم إذا استَمَرُّوا علىٰ كُفْرِهِمْ وقَبَائِحِهم ومُنْكَرَاتِهم الشنيعات، فقالُوا بانْفِعَالٍ وَغضَبٍ: ﴿... ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وجاء اسْتِعْمَالُ حرْفِ الشرط «إنْ» بعبارَتهم، لأَنهم لم يكُونوا يَعْتَقِدُونَ صِدْقه، ولو كانوا يَعْتَقِدُون صِدْقَهُ ولو بِظَنٍّ رَاجِحٍ لَمَّا تَحدَّوْهُ هذا التَّحدِّي.

والسَّبَبُ فِي عَدَمِ اعتاقدهم صِدْقَهُ، طُولُ إمْهَالِ اللّهِ لهم، واستغراقُهم

في مُمَارَسَاتِهِم شهواتِهم الجانحات الشَّاذَّاتِ، وهو الأمْرُ الَّذِي مَدَّ الْغِشَاوَةَ الكثيفة على بصائرهم، فأعْمَاها عن رُؤيَةِ أدِلَّةِ الْحَقّ، وعن رُؤيَةِ صراط الله المسْتَقِيم.

عندئذٍ لَمْ يَجِدْ «لُوطٌ» عليه السلام، وهو مُهَدَّدٌ بالإخراج الْقَسْرِي، من أرض قَوْمه، ومَعْزُولٌ عَزْلاً اجتماعيًا عن أنْ يَلْتَقِي أحداً من الْعَالَمين، وهذا يقتضي أنَّهُ مَمْنُوعٌ مِنْ أدَاء رسالَتِهِ في قومه مَنْعاً جَبْرِيًا، إلاَّ أنْ يقول لِقَوْمِهِ إنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ، مُعْلِناً سَخَطَهُ وعَدَمَ رِضَاهُ عن أعمالهم المنكَرَةِ القبيحة الشَّنِيعَة.

دلَّ على هذا قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

أي: إنِّي لِعَمَلِكُمْ الّذِي أنكَرْتُهُ عليكُمْ مُبلّغاً رِسَالاَتِ رَبّي من الكارِهِينَ، الْمبغِضين، المستنكِرِينَ الْهَاجِرِينَ.

وَإذْ أوقَفَهُ قَوْمُهُ عن مُتَابَعَةِ رِسالَتِه فيهم بالْجَبْر، وَرَأى أنَّهُمْ قَدْ وصَلُوا إلى حالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ صَلاحِهِمْ مَعَها عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِمُ الحرَّة، ورأى أيْضاً أنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ من الغيظ من شَأْنِها أنْ يُدَبّروا ضِدَّهُ وضِدَّ أهْلِهِ شرّاً، بَعْدَ أنْ تَحدَّوْهُ بأن يأْتِيَهُم بعَذَاب اللَّهِ إنْ كانَ من الصّادقين، دَعَا رَبَّهُ أنْ يَنْصُرَهُ عَلَيْهِم باعْتبارهم قَوْماً مُفْسِدِين.

دلّ على هذا قَوْل الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وحين أدْرَكَ أنّ نُذُرَ الله التي بلّغَهُمْ إيَّاهَا قَدْ صَارَ وُقُوعُها وَشيكاً لاَ

محالة، توجَّهَ لرَبّه داعياً أنْ يُنجِيَهُ وأَهْلَهُ مِن العذاب الذي سَيُنْزِلُهُ بقَوْمِهِ جزاء منكراتهم وقبائحهم.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) يَحْكي دُعاءه.

﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾:

أي: نَجّنِي وَأَهْلِي من العقاب والعذاب الّذي سَيَنْزِلُ بقومي جزاء ما يَعْمَلُونَ مِنْ قبائح ومنكرات.

ويظهر أنَّهُ أدْخل زَوْجَتَهُ في عُموم دُعائِهِ، لأنّها لَمْ تكُنْ تَعْمَلُ الخبائِثَ والمنكرات، على الرغم من كُفْرها، وكوْنِ هواها مع قومها، إلاّ أنّ قضاء الله عزّ وجلّ شَمَلَها بأن تكون مع الهالكين مِنْ أجل كفرها، وخيانتِهَا لزَوْجها بإبْلاغ قومها ببعض ما يَجْرِي في داره، وببعض تصَرُّفاته.

* * *

الفصل الرابع

مرور الرسُل من الملائكة المأمورين بتعذيب قوم لوط وإهلاكهم بإبراهيم عليه السلام للبشرى والإعلام

مقدمة:

وصل قوم «لوط» إلى حالة ميؤوسٍ معها من استجابتهم استجابةً طوعيَّةً لدَعْوَةِ رسولهم عليه السلام.

فقضىٰ الله عزّ وجلّ أن يُعَذِّبهم ويُهْلِكَهُمْ إهلاكاً عامًّا شاملاً، وأَنْ يتَّخِذ مع تَعْذِيبهم وإهْلاكهم طَرِيقة يَقْلِب بها بلادهم، فيَجْعَلَ عالِيَها سَافِلَها، مُعَاملَةً لَهُمْ بالمثْلِ، إِذْ قَلَبُوا الأوضاع الطبيعيَّة لدىٰ ممارساتهم قضاء شهواتِ فُروجهم.

وقد بلَغُوا مَبْلَغاً من الوقَاحَةِ والْمَجَانَة والإصرار على الْفُحْشِ العلني الشّاذ، والْعُدْوَانِ على الناس في أعراضهم وأموالهم، كَانُوا فيه هُمُ السّابقين لكلّ نظرائِهِمْ، مِنْ فُسَّاقِ مُعَاصِريهم، وفُسَّاقِ الغابرين.

إرْسَالُ الرُّسُل من الملائكة لإهلاكهم وتعذيبهم:

لمَّا كانت رسالَةُ لوط عليه السلام لقَوْمِهِ أَهْلِ سَدُوم، بمثابة فرع لرسالة إبراهيم عليه السلام، إذْ كان مُؤْمِناً به، ومُسْلِماً له، وتَابعاً من أَتْباعه، وقد ارتَحَلَ إلى أرْض سَدُوم بإذْنِه ومَشُورَتِه، وكانت هذه البلاد مع سائر البلاد الّتي كان إبراهيم عَلَيْهِ السّلامُ يَطُوفُ بها في أسْفَاره وَتَنَقّلاَتِهِ مجالاَتِ دَعْوته، كَانَ من الحكمة إبْلاغُ إبراهيم عليه السّلاَمُ بما سَيَحُلُّ بِقَوْمِ لُوطٍ مِنْ عَذَابٍ وإهْلاَكٍ شَامِلَيْن.

وَرَافَقَ هذا أَنّ اللّهَ عزّ وجلّ قَدْ قَضَىٰ بِحِكمَتِهِ أنْ يَهَبَ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمَ مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» العجوز العقيم بَعْدَ أَنْ يُصْلِحَها لتكونَ ذاتَ وَلَد، وَلداً يُسَمُّونَهُ «إسْحَاق» وَأَن يكون نبيًا وَرَسُولاً، وقَضَىٰ أن يَهَبَ إسحاق إذا كبِرَ وَتَزَوَّجَ وَلَداً يُسَمَّىٰ «يَعْقُوب» وأن يكون نَبيًا وَرَسُولاً أيضاً.

وقضت حكمة الله جلّ جلالُهُ أن يُبَشِّرَ إبراهيم عليه السلام وزوجته «سارة» بإسْحَاقَ وَلَداً لهما، وبيعقوبَ حفيداً لهما، قبل أَنْ يُعْلِمَ إبراهيم عليه السلام بنبأ ما قَضَاهُ بشأنِ قوم لوطٍ من تَعْذِيبٍ وإهلاك.

فأرسل الله عزّ وجلّ رُسُلاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ عَلى صُوَرِ شَبَابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ إلى إبْرَاهِيم علَيْهِ السّلام أوّلاً، قَبْلَ أَنْ يَذْهَبُوا إلى لُوطٍ عَلَيْه السلام.

وقد جاء بيان مجيء هؤلاء الرُّسُلِ إلى إبراهيم عليه السَّلام في عدّة نصوص من عِدَّةِ سُور، وهي متكامِلَةُ الدّلاَلاَتِ فيما بينها.

(١) ففي سُورَةِ (الذّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) قال الله عزَّ وجَلَّ:

- ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾:

﴿ضَيۡفِ﴾: يُطْلَقُ على الواحد والاثنين فأكثر، والمراد عَدَدٌ من الملائكة أرْسَلَهُمُ الله، ووصفهم بأنَّهُمْ مُكْرَمُونَ إشارةً إلى أنّهم لَيْسوا بَشراً بَلْ هُمْ مَلائَكة، فقد وَصَفَ اللّهُ عزّ وجلّ الملائكة بأنَّهُمْ عِبادٌ مُكْرَمُون، فقال تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾.

يُضَافُ إلى هذا أنّ إبراهيم عليه السّلام قد أكرمهم كعَادَتِهِ مع كُلّ ضَيْفٍ يَأْتيه، وأنّهُمْ تَبْدُو عليهم دلائلُ أَهْلِ النّعْمَةِ والمجْدِ والشَّرَف.

- ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾.

[إِذْ] بمعنى «حين» أي: حينَ دَخلُوا عليه.

وقد بَدَؤُوه بالتحيَّة قائلين له «سَلاماً» أي: نُسَلّمُ عَلَيْكَ سَلاماً، فلفظ «سلاماً» مفعولٌ مُطْلَقٌ لفِعْلٍ محذوف.

﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾: أي: تَحِيَّتِي لَكُمْ: سَلاَمٌ.

قال البلاغيون: «سَلاَمٌ» جملة اسميّة مع المبتدأ المحذوف، و«سَلاَماً» جملة فعليّةٌ مع العامل المحذوف، والجملة الأسميّة أقوىٰ وآكَدُ من الجملة الفعلية،

وَعلى هذا فقد رَدّ إبراهيم عليه السّلامُ التحيَّةَ بأحْسَنَ مِنها.

﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾: أي: أنتم قَوْمٌ لاَ أَعْرِفُ أشخاصَكُمْ، ولا أَعْرفُ مِنْ أَيْنَ أنتم، وَلكن لكم عليَّ حقٌّ ضيافتكم.

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦﴾.

﴿فَرَاغَ﴾: أي: فذَهَبَ بِخِفَّةٍ وَسُرْعَةٍ لضيافتهم وإكرامهم، دُونَ أن يُظْهِرَ عَلاَمَاتِ إرادَةِ إكرَامِهِمْ، من شدّةِ مَا لَدَيْهِ من جُودٍ وسَخَاءِ نفس.

دلت «الفاء» في: ﴿فَرَاغَ﴾ على سُرْعَة ذَهَابِه إلى أَهْلِهِ عقب قُدُوم الضيف إليه وهو يجهل مَنْ هم.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: كانت قُطْعَانُ الأبقار هي المفضَّلَةَ في مواشيهم، وكانت ثروة إبراهيم ولوط عليهما السَّلام من المواشي، وهي تَرْعَىٰ من الكلأ المباح.

ومعلومٌ أَنَّ لَحْمَ الْعِجْلِ السَّمِينِ أَطْيَبُ وَأَلَذُّ من لحوم الأبقار الكبيرة.

ودلت «الفاء» في: [فَجَاءَ] علىٰ سُرعَةِ عَوْدَتِه بالْعِجْلِ السّمِين لضُيُوفه.

ويظهر أَنَّ مطْبَخَ إبراهيم عليه السلام عند أهله قَدْ كانَ مستَعِدًّا دَوَاماً لتقديم الطعام المطْهُوّ الناضِجِ للضُّيُوف الذين يأتونَهُ نَهَاراً أو ليلاً.

(٢) وَجَاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قولُ اللّٰهِ عزّ وجَلّ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾.

وَقَرأ أبو عَمْرو: [رُسْلَنَا] بإسْكَانِ السِّينِ. «رُسُلٌ» و «رُسْلٌ» بضم السّين وإسكانها لغتان عَرَبيَّتَان.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ﴾: أي: فَمَا أَبْطأَ عن مجيئِهِ بعِجلٍ. «أَنْ» هُنَا مصْدَرِيَّةٌ. دَاخِلَةٌ علىٰ الفعل الماضي، ويُقَدَّرُ قَبْلَها حرْفُ جرٍ محذوف، هو هنا «عَنْ» والمرادُ بنفي اللُّبْث عَدَمُ الإبْطاءِ، حتَّىٰ كأنَّهُ لَمْ يلْبَثْ مُطْلَقاً، من شدّةِ سُرْعَةِ إحضارِهِ ضيافته.

﴿حَنِيذٍ﴾: أي: مَشْوِيٌّ بالدَّسِّ في النار، أو في حجارَةٍ مُحَمَّاةٍ بالنّار.

فأضاف هذا النصّ على النصّ الذي جاء في سورة (الذاريات) ما يلي.

أولاً: أنّ الشباب الذين ظَنَّهُمْ إبراهيم عليه السَّلامُ ضُيوفاً بحَسَب ظاهر حَالِهِمْ، هم في الحقيقة رُسُلٌ مُرْسَلُونَ مِنْ عِنْدِ الله، فهم ملائكة.

ثانياً: أنهم جاءُوهُ بالْبُشْرَىٰ، «**الْبُشْرَى**» اسْمٌ من التبشير، وهُوَ الإخبار بما يَسُرُّ المبشَّرَ، وجاء بيان هذه البشرى الّتي جاءُوا بها بَعْدَ هذا في هذا النّصّ وفي غيره.

ثالثاً: أنّ العجل السَّمِينَ الذي جاء به إبراهيم عليه السّلام، قد كان حَنِيذاً، أي: مَشْوِيًّا مطْهُوّاً.

رابعاً: أنَّ السُّرْعَة الّتي أَحْضَرَ بها إبراهيم عليه السلام الضيافَةَ لضُيُوفِهِ، قد كانت فائقة جدًّا، حتَّىٰ كأنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ في داخل بَيْتِهِ عند أهْلِهِ زمَناً ما، وهذا يُشْعِرُ بأنّ الضّيَافة عِنْدَهُ من اللُّحُومِ المشوِيَّةِ جاهِزَةٌ في مطْبَخِهِ دَوَاماً.

(٣) وَجاء في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ... (٢٧)﴾. دَلّ هذا على أنّ من فضائل الْمُضِيف وكَرَمِهِ في الضيافة، أَنْ يُقَرِّبَ إلى ضُيُوفِهِ مَا يأكُلُونَهُ وَمَا يَشْرَبُونَهُ، وقَدْ كان هذا مِنْ عَاداتِ الكُرمَاءِ، قَبْلَ أنْ يَتَّخِذَ الناسُ الخِوَانَ الكَبِير الَّذِي توضَعُ حولَهُ الكراسي، ويَصْعُبُ تَقْرِيبُهُ للضيُوف.

(٤) وَجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ... (٧٠)﴾.

أي: فلَمَّا رآهُمْ لاَ يَأْكُلُونَ مِنَ العجْلِ السّمين الحنِيذ الّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، إِذْ رَأىٰ أيدِيَهُمْ لا تَمتَدُّ إلى الطعام، استنكَرَ تَصَرُّفَهُمْ الّذِي هو على غَيْرِ

عَادَةِ الضُّيوف، بل هو عادة الّذين يأْتُونَ بِشَرٍّ، ولَمْ يَخْطُرْ في باله أَنَّهُمْ ملائكَةٌ لاَ يأكُلونَ الطَّعام، إذْ كانَ مَظْهَرُ هم لاَ يُشْعِرُ بذلك.

[نَكِرَهُمْ]: أي: اسْتَنْكَرَ تَصَرُّفَهُمْ.

(٥) عندئذٍ قال لهم ما جاء بيانُهُ في سورة (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿...قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ بِأسْلوب الْعَرْضِ المهذَّب الرَّفيق.

فلمَّا وَجَمُوا عن الأكْلِ أَوْجَسَ في نَفْسِهِ مِنْهُمْ خِيفَةً، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في هذه السُّورَةَ:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً... ﴿٢٨﴾﴾:

أي: فأَحَسَّ في نَفْسِهِ خَوْفاً من غَرَضِهِمُ الّذِي جاءُوا به، لأَنَّهُمْ بَشَرٌ بحسب الظاهر، ولم يأكُلوا مِنْ طعامِهِ، مع أنَّهُ قال لهم: **[أَلاَ تأْكُلونَ]**؟ بأسلوب العرض التكريميّ الرفيع.

وربما حرّكُوا أَيْدِيَهم حَرَكَاتٍ تُوهِمُ أَنَّهُمْ في حالَةِ شُرُوعٍ في الأَكْلِ، إلاَّ أَنَّهُ رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إلى لَحْمِ الْعِجْلِ وَلاَ يَأْكُلُونَ، عِنْدَئِذٍ قال لهم: «إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» يَقْصِدُ نفْسَه وأَهْلَهُ.

(٦) دلَّ عَلَىٰ هذا قولُ اللّهِ عزَّ وجَلَّ في سورة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

﴿وَجِلُونَ﴾: أي: خَائِفُونَ. يُقالُ لُغَة: «وَجِلَ يَوْجَلُ وَجَلاً وَمَوْجَلاً، أي: خافَ وَفَزِع.

ولاَ شَكَّ أَنّ بَيْنَ: [سَلاَماً] في هذا النَّصّ وبين: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ فَرَاغاً تَمْلَؤهُ عِبَاراتٌ جَاءَتْ في النُّصُوص الأُخْرىٰ، كما سبَقَ بيانه.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٥٣﴾: أيْ: قالُوا: لاَ تَخَفْ، إنّا رُسُلٌ من الْمُلائِكَةِ. إنّا نَبَشّرك بغُلاَمٍ عَليم.

(٧) وجاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨﴾: أي: لا تخف إنّا رُسُلٌ من الملائكَةِ، وبَعْدَ أَنْ طَمْأنُوهُ بَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ.

وعلى ما جاء في هذا النَّصّ، يُحْمَلُ مَا جاءَ في سورة (الحجر) الّذي جَاءَ بَيَانُه آنِفاً، أي: لاَ تَوْجَلْ إنّا رُسُلٌ مِنَ الملائكة، وبَعْدَ أن طَمْأنُوهُ قالُوا له: إنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيم.

(٨) وَجاءَ في سورة (الحجرِ/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾.

● قرأ حمزَة: [إِنَّا نَبْشُرُكَ] مِنْ فِعْل: «بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ» أي: أخبره بما يَسُرُّه.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِنَّا نُبَشِّرُكَ] من فعل: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُه» المضعف.

● وقرأ نافع: [فَبِمَ تُبَشِّرُونِ؟] بكَسْرِ النُّونِ للدلالة على ياء المتكلّم المحذوفة.

وقرأ ابن كثير: [فَبِمَ تُبَشِّرُونِّ؟] بِتَشْدِيد النون المكسورة، أصْلُها تُبَشِّرُونني، فحذفت ياء المتكلم، وأدْغِمَتِ النون بالنون، فصارت نُوناً مُشَدَّدَة مكسورة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [فَبِمَ تُبَشِّرُونَ؟] بفتح النُّون، دون ملاحظة يَاءٍ للمتكلّم محذوفة.

وهذه وُجوهٌ مُتَشَابهة، وفيها تفَنُّنٌ في البيان.

● وقرأ أبو عَمْرٍو، والكِسَائي، ويَعْقُوب، وخَلَف: **[يَقْنِطُ]** بكَسْرِ النُّون.

وقرأ باقي القرّاء العشرة **[يَقْنَطُ]** بفَتْح النون.

«يقْنَطُ» و«يَقْنِطُ» لغتان عَرَبيَّتانِ.

● ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾: أي: صَارَ بيني وبَيْنَ الكِبَرِ الْمُوهِنِ المضعِفِ تماسٌّ، ولَمْ يَقُلْ: أصَابَني الكِبَرُ، أَوْ نَزَلَ بِيَ الْكِبَرُ، ليكُونَ صادقاً في عبارته، إذْ مَا زَالَتْ لَدَيْهِ قُوَّةٌ وَقُدْرَةٌ علىٰ الإِنجَاب.

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾: أي: فبِأيّ سَبَبٍ لدَيَّ أمْلِكُهُ يَكُونُ مِنْ آثارِهِ أَنْ يَأتِيَنِي وَلَدٌ تُبَشِّرُونني به؟.

● ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: بَشَّرْنَاكَ بخَبَرٍ عن الله حَقٍّ، فلا تكن من القانطين.

﴿مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾: أي: من اليائسِين. **القُنُوطُ في اللُّغة**: اليَأْس.

لم يُجيبُوهُ عن السَّبَبِ، وإنّما أَجابُوهُ علىٰ ظاهِرِ عبارَتِه، لا عَلَىٰ مُرَادِه بها.

● ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾؟:

أي: لاَ أَحَدَ يقنطُ من رحمة الله إلاَّ الضَّالُّون الْجَاهِلُونَ بقُدْرَةِ اللَّهِ علىٰ ما يشاء.

فالْقُنُوطُ لَمْ أشعُرْ به، ولَمْ يَخْطُرْ علىٰ بالي حتَّىٰ تَنْهَوْني عَنْهُ، وأَشْعَرَهُمْ بهذا أَنَّهُ يَسْأَلُهُمْ عن السَّبب فقط.

إنَّ إبراهيم عليه السّلام لم يُرِدْ أَنْ يَجْرَحَ مشاعِرَ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الواقِفَة من وراء حجابٍ تَتَسَمَّعُ الحوار، بأنَّ السَّبب في عدم الإنجاب هو مِنْها لاَ مِنْهُ، فَهُو مَا زَالَ قادراً على الإنجاب ضِمْن نظام الأسباب الرَّبَّانيّة المعروفة.

فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وسكَتَ عَن الْعِلَّةِ الموجودَةِ لدَىٰ زَوْجَتِهِ الْعَجُوزِ الْعَقيم، إنَّها قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ عَجُوزاً كانت طَوال مَا قَبْلَ سِنِّ الْيَأْسِ عَقِيماً، فَكَيْفَ وَقَدْ دَخلَتْ سِنَّ الْيَأْسِ وصَارَتْ عَجُوزاً.

وَرُبَّما وَقع في ظنِّ إبراهيم عليه السّلام أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ سَيأْمُرُهُ بأنْ يَتزَوَّج امْرَأَةً ذَاتَ اسْتِعدادٍ للإنجاب.

ومثل هذا الظنّ وَقَعَ في نفْسِ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الواقفة من وراء حجاب تتسمَّعُ الحوار.

لقَدْ كانَ إبراهيم عليه السَّلامُ ملْتَزِماً بأنْظِمَةِ اللَّهِ السببيَّةِ في كُلِّ مَا يَخُصُّه، ومتأدِّباً مع رَبِّه بِشأنها، غَيْرَ حَرِيصٍ على أن يَسْأَلَ اللَّهَ عزّ وجلّ خَرْقَهَا من أجْلِ وَلَدٍ يأْتِيه من «سارَة» زَوْجَتِه.

فأبانَ للرُّسُل من الملائكةِ بإشَارَةٍ خفِيَّةٍ، أنَّ النظامَ السَّببيَّ المعتادَ، يُسْتَبْعَدُ مَعَهُ أَنْ يأتيَهُ وَلَدٌ من زَوْجَتِهِ «سَارَة» العجوز العقيم، وَلكِنَّهُ أَرادَ أَنْ لاَ يَجْرَحَها بِذِكْرِ هٰذِهِ الحقيقة، فذكَر شيخُوخَتَهُ فقط، وسَكَتَ عن السبب الحقيقيّ.

(٩) وَجَاءَ في سُوَرة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿...قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ۝٧١﴾:

أكَّدُوا له الخبر ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ لِيُذْهِبُوا عنهُ الخوف.

أي: وامرأتُهُ قائمةٌ مِنْ وراء حجاب تتسمَّعُ الحوار فَضَحِكَتْ لمَّا عَلِمَتِ انْتِهاء الحديث عن البشرى:

لقد كان ضَحِكُهَا ذَا عَوامِلَ مختلفة، منْها التعجُّبُ من النبأ، ومِنْهَا سُرورُها بأنَّ إبراهيم عليه السّلام ذكَرَ شيْخُوخَتَهُ، ولَمْ يذكُرْ أَنَّ السَّبَبَ من زَوْجتِه الْعَجُوز العقيم، ومنها تَصَوُّرُها أَنّ إبراهيم زَوْجَها سيتَزَوَّجُ امْرأَةً أُخْرَىٰ مُسْتَعِدَّةً لِلْإنجاب، وأنَّ الله سَيَرْزُقُهُ مِنْها بالولدِ المبشَّرِ به، لكنّ هَوَّنَ من غَيْرَتِها أنّ زَوْجَها وَصَفَ نَفْسَه بأَنَّهُ كبير السِّنّ، فَمِن المستَبْعَدِ أَنْ يَتزَوَّجَ بامْرَأةٍ وَلُودٍ.

وبحوارها مع نفسها الَّذِي أثارَ ضَحِكَهَا، رجَعَ ذهْنُهَا مِنْ شُرُودِهِ فأَدْرَكَتْ أَنَّ المبشِّرينَ مَلائِكَة، وَأَنَّهُمْ يُبَشِّرُونَ بُشْرَىٰ بنَبأٍ حقٍّ.

عندئذٍ لَمْ تَصْبِرْ عَلَىٰ تَلَقّي هذا النبأ، فأقْبلَتْ دَاخِلَةً عَلَيْهِمْ تَضِجُّ وَتَصِيحُ، إذْ أثَارَتْهَا دَوافِعُ مختلفة مُتَعَارِضَةٌ، وصَكَّتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْها، وقطَعَتْ عليهم الحديث عن قوم لُوط.

(١٠) فجاء في سورة (الذّارِياتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا... ﴿٢٩﴾﴾:

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾: أي: فَأَقْبَلَتْ مِنْ وَرَاءِ الْحِجاب وَدَخَلَتْ عليهم.

﴿فِى صَرَّةٍ﴾: أي: في ضَجَّةٍ وَصَيْحَةٍ وَأَصْوَاتٍ وكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَات، كَعَادَةِ النِّساءِ اللّواتي في طِباعِهِنَّ حِدَّةٌ، إِذَا أثَارَهُنَّ أَمْرٌ جَلَل يمَسُّهُنّ.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي: فضَرَبَتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْها، على عادَة النساء، ولَوْ كان الضَّرْبُ بِكفٍّ وَاحِدَةٍ لكانَ التعبيرُ فَضَرَبَتْ خَدَّها، أَوْ عارِضَهَا، أَوْ نَحْوَ هٰذا.

حَركاتٌ دلَّتْ على غَلَيَانٍ في نَفْسِها، وهَيَجَانٍ في دَاخِلِها، بدافع من غَيْرَتِها أَنْ يَتَزَوَّج زَوجُها إبراهيمُ علَيْهِ السَّلامُ، زَوْجَةً ضَرَّةً لَهَا، صَالِحَةً لأنْ تَحْمِلَ وَتَلِدَ، ومعلومٌ في النساء الذّكيَّاتِ الْغَيُورَاتِ سَيْطَرَةُ الاحْتِمَالِ المكروه

على نفوسِهِنَّ، وابتعادُ الاحتمالِ المحبُوب ولو كان هو الأرجَىٰ في الموقف.

(١١) وَجَاءَ في سُورَة (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿. . . فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

● قرأ حفص، وحمزة، وابنُ عامر: **[يَعْقُوبَ]** بفتح الباء نصْباً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[يَعْقُوبُ]** بضمّ الباء رَفعاً.

أمّا الرَّفع فهو على أنّ **[يَعْقُوبُ]** مبتدأ، و**[مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ]** خبر متقدم.

وأمّا النَّصْبُ فهو على أنّ **[يَعْقُوبَ]** مفعُولٌ لفِعلٍ ضُمِّنَ في فِعْل: **[فَبَشَّرْنَاهَا]** والتَّقْدِير: فَبَشَّرْناها بإسْحَاقَ مضيفينَ لِبشارَتِهَا يَعْقُوبَ من وراء إسْحَاقَ.

لقد كانت البشارة لإبراهيم عليه السَّلام بِغُلاَم عليم، في النص الذي جاء في سورة (الحجْر) وفي النص الذي جاء في سورة (الذاريّات).

فلمَّا ثارَتِ امرأته، وأقبَلَتْ في صَرَّةٍ وصَكَّتْ وَجْهَهَا بَشَّرَهَا الرُّسُلُ من الملائكة ببشارَتَيْن:

الأولى: أنَّ الْغَلاَمَ العليم الذي بُشِّرَ بِهِ إبراهيم عليه السلام هو ولدٌ لَهُما، (واسمه «إسْحَاق».

الثانية: أنّ هذا الغلام العليم سيبلغ مبلغ الرّجال وسيَهَبُه اللَّهُ وَلَداً اسْمُهُ «يَعْقُوبُ».

[فَبَشَّرْنَاهَا]: هذا كلامٌ صَادِرٌ عَنِ الله، استُعْمِلَ فيه ضميرُ المتكلّم العظيم، الّذي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، ويَخْلُقُ مَا يُرِيدُ، للإشعار بأنّ بِشَارَة الملائكة لها إنّما كانت بأمْرِ الله عزّ وجلّ، فهي بشارةٌ مِنْهُ تباركَ وتَعَالَىٰ، إذ القضاء قضاؤه والأمْرُ أَمْرُه.

(١٢) وَجَاءَ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿... وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾:

أي: فهَدَأَتْ ثَوْرَتُها وقَالَتْ: «عَجُوزٌ عَقِيمٌ» في هذه العِبارَةِ معنَىٰ الاسْتِفْهَامِ التعجُّبي، ولعلّ هذا كان حَدِيثاً في نَفْسِها.

(١٣) وَجَاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾:

(١٤) وَجَاءَ في سورة (الذّاريَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٣٠)﴾:

قولان قالهما الرُسُلُ من الملائكة لزوجة إبراهيم عليه السلام «سَارة» بعد أنْ قالت مقالتها.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: أصْلُهَا: يا وَيْلَتِي، قُلِبَتْ كَسْرَةُ التَّاءِ فتحةً، وقُلِبتِ الياء ألفاً، وهذا أحَدُ وجوه عَرَبيَّةٍ في المنادىٰ المضاف لياء المتكلم.

الويل: كلمة عذاب، وتُسْتَعْمَلُ في التفجُّع، والنُّدْبَةِ، والتحذير، والتهديد، والإخبار بالعقاب المقرّر.

وقد تَصْدُرُ عبارة: [**يَا وَيلَتِي**] أَوْ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ عن أفواه النساء إذا طرأ عليهِنَّ مَا يَعْجَبْنَ مَنه أشدّ العجب، ولا يَقْصِدْن وقوع العذاب، ولا الخوف منه، ولا شيئاً مما تستعمل له العبارة، وعلى هذا قالت «سارة» في تعجُّبِها: [**يَا وَيلَتَا**]: أي: يَا عجباً عظيماً.

﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾؟!! الاستفهام في هذه العبارة استفهام تَعَجُّبِيٌّ.

﴿عَجُوزٌ﴾: أي كبيرةُ السّنّ هَرِمة، يُقالُ: رَجُلٌ عَجُوزٌ، وامرأةٌ عَجوزٌ. فَهُمْ عُجُزٌ، وهُنَّ عُجُزٌ وَعَجَائِز.

وجملة: [وَأَنَا عَجُوزٌ] حَاليّةٍ في محل نصْبٍ على الحال.

﴿بَعْلِي﴾: أي: زوجي. وكلمة «بَعْل» تُقالُ: للزَّوْجِ وللزَّوجَة.

﴿شَيْخًا﴾: منصُوبٌ على الحال، والعامل فيه ما في لفظ اسم الإشارة [هَذَا] من معنى الفعل، على ما يقول النحويّون.

الشَّيْخُ لغةً: من بلغ سِنَّ الشيخُوخَة، وهو فوق الكَهْلِ ودُونَ الْهَرِم، والْهَرِمُ هو الشيخ الّذي يَبْلُغُ أقصَىٰ الكِبَر.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: إِنَّ حُدُوثَ مثْلِ هٰذا الأمْرِ الّذي لَمْ يُشَاهَدْ لَهُ نَظِيرٌ في الناس لشَيْءٌ عجيب.

إنّ إبراهيم عليه السَّلام لم يَذْكُرْ عَنْ زَوْجَتِهِ أَنّها عَجُوزٌ عَقِيم، إنما ذَكَرَ عن نفسه أنَّهُ مَسَّهُ الكِبَرُ مَسًّا، دُونَ أَنْ يَتَوَغَّل فِيهِ، ومثْلُ هذا يَصْدُر عن فضلاء الرجال.

أمّا زَوْجَتُهُ «سَارَة» فذكرت في نَفْسِها أنَّها عَجُوزٌ عَقِيمٌ، ثُمَّ قَالَتْ: أَأَلِدُ وَأَنَا عجوز، وذكرَتْ شَيْخُوخَةَ زَوْجِها، مع أنَّ الشَّيْخُوخَة لَيْسَتْ بحَدّ ذَاتِهَا مَانِعَةً من الإنجاب، ومِثْلُ هذا معروف في طبائِع النّساء، ولو كانت إحداهُنَّ ذَات فَضْلٍ وَدِين.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ كَمَا جاء في سورة (هود).

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ كما جاء في سورة (الذاريات):

هذان قولان قالَهما الرُّسُلُ من الملائكة لزوجَةِ إبراهيم عليه السلام «سَارَة».

القول الأول: اشتمل على ثلاث قضايا:

القضيّة الأولى: دلَّ عَلَيْهَا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ فيه معنَىٰ الْعِتَاب، أي: أَنْتِ امرأةٌ فاضلة، وزوجَةُ نبيٍّ ورسُول، وعِشْتِ في بَيْتِ نُبُوّةٍ زَمَناً مَدِيداً، وتلَقَّيْتِ مَفَاهِيمَ الإيمان طَوَال هذه المدّة، فكَيْفَ تَعْجِبين مِنْ حُدُوثِ شيْءٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ وقَضَاهُ وأصْدَرَ به أَمْرَهُ، علَىٰ أَنْ يُنَفَّذَ في حِينِه، وأنتِ تُؤْمِنينَ بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ إِذَا أَرَادَ شيئاً فإنّما يَقُولُ له: كُنْ، فَهُو يكُونُ على وَفْقِ أَمْرِ الله التكوينيّ.

إنّ مَنْ كَانَ مِثْلَكِ لا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يعْجَبَ من أمْرِ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ عَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُه، وَعَظُمَتْ قُدْرَتُه، يُبَشِّرُك بولَدٍ لَكِ من زَوْجِكِ إبراهيم، اسْمُهُ إسْحَاق.

القضيَّة الثانية: دلَّ عليها: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾:

في هذه العبارة بيانٌ للحكمة مِنْ خَرْقِ اللَّهِ سُنَّتَهُ لسَارَة الْعَجُوز الْعَقِيم زَوْجَةِ شَيْخِ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ من بَعْدِهِ إبراهيمَ عليه السَّلاَم.

وَهِيَ أَنَّكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ إِبراهيم قَدْ خَصَّكُمُ اللَّهُ فَأَفَاضَ علَيْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَرَكَاتِهِ إِكْرَاماً له، ولجهادِه وصَبْرِه، ومكارِمِ أخلاقه.

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾: صفَةٌ من صفات الله الجليلة، من آثَارِها العطاء، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ البؤسِ، والإِمْدَادُ بما يَسُرُّ، ويُسَكِّنُ النفس، ويُطمئِنُ القلْب، ويُمْتِعُ ذَا الحياة بما يَطِيبُ لَدَيْه، ويَهَبُهُ مَا يُلَبِّي حَاجَتَه، ويكُفُّ عَنهُ الشرّ والضُّرَّ والأذىٰ، ويَهْدِيه إلى ما فيه خَيْرُهُ وسَعادَتُه في عاجل أَمْرِهِ وآجله، ويُبَيِّنُ لَهُ ما فيه شَرٌّ له وضُرٌّ وأذىٰ، ونحو كلِّ ذَلِك.

﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾: **الْبَرَكَةُ:** هي الكَثْرَةُ في كُلِّ خَيْر، وجُمِعَتِ البركة علَىٰ بَرَكَاتٍ، للدّلاَلَة على اختلاف الأنواع والأصْنَاف.

﴿عَلَيْكُمْ﴾: أي: هَاطِلَةٌ عَلَيْكُمْ، وَمُظَلِّلَةٌ لَكُمْ من فَوْقِكُمْ، فَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبَرَكاته.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: أي: يَا أَهْلَ بَيْتِ إبراهيم، بحذف أداة النّداء «يا».

القضيَّةُ الثالثة: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾:

جاء في هذه القضيّة وَصْفُ اللَّهِ عَزّ وجل بِصِفَتَيْنِ ملائمتَيْن لفيوض عطاءات رَحْمَتِهِ، وَمَا يمْنَحُه لبَعْضِ عباده من زيادات الخير.

﴿حَمِيدٌ﴾: صيغَةُ مبالغة لاسم «الفاعل» أي: كثِيرُ الْحَمْدِ لأَهْلِ طاعَتِهِ والتَّقَرُّبِ إليه بمحابّه، أو لاسْم «المفعول» أي: هو المحمود بصفاتِ ذَاته وبصفاتِ أفعالِه في السَّمَاوَاتِ والأرضِ حَمْداً كثيراً، إذ الحمْدُ كُلُّهُ له جلّ جلاله.

وقد كان إبراهيم عليه السلام كثير الْحَمْدِ لله، فالله يُكافِئُه بالْحَمْدِ الكثير، ويزيدُهُ وأهْلَ بَيْتِه مِنْ فُيُوض رَحْمَته.

﴿مَّجِيدٌ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «ماجد» **المجيد في اللّغة**: الرّفيع العالي الشريف العظيم الكريم ذو الخير الكثير. **والْمَجْدُ**: الكرَمُ والشرف والعلوّ والرفعة المعنويّة السامية.

القول الثاني: اشتملَ على قضيّتَيْن:

القضيَّةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾:

أي: كَذَلك الَّذي بشَّرْنَاكِ به قَالَ رَبُّكِ، فالْبِشَارَةُ ليْسَتْ مِنْ عِنْدِنا، ولَيْسَتْ مِن أَمْرِنَا، وإِنَّما هي مِنْ عند الله رَبِّكِ ومن أَمْرِه، فلا تَعْجبي مِنْ أَمْرِ الله.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: إنَّ رَبَّك الَّذِي هو رَبُّ كُلِّ شيء هو وَحْدَه الذي له الحكمة

الكاملة، فَهُو الحكيم، وله الْعِلْمُ الشَّامِلُ الكامل المحيط بكُلّ شيء، فهو العليم.

اسْتفيد الحصر والقصر من تعريف طَرَفَي الإسناد مع التأكيد بـ «إنّ - وضمير الفصْل - واستعمال الجملة الاسمية - واستخدام (ال) الّتي للكمال في صفتي الحكيم والعليم».

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾: الكامل الحكمة، وهو الّذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويخْتَار أفضل الأشياء وأتقنها وأحْسَنَها في الأمور المختلفة لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النتائج.

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴾: الكامل العلم، المحيطُ بكلّ شيءٍ علماً، وبِسَبَب كمال عِلْمِهِ وشُمُولِهِ، فَهُو يختار أَحْكَمَ الأَشياء.

وفي هذا الثناء على الله من الملائكة الّذينَ بشَّرُوا امرأةَ إبراهيم عليه السلام العجوزَ العقيم، تَذْكيرٌ لَهَا بِعُنْصُرَيْنِ من عناصر القاعدة الإيمانيَّة، إذْ حضُورُهُمَا في ساحَةِ تصَوُّرِهَا يجعلُها لاَ تقول مقالَتَها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

بل تقول: مَا شاء الله كان، وما لم يَشَأ لم يَكُنْ.

(١٥) وَجاء في سورة (الحجْرِ/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) حكاية لمقالة إبراهيم عليه السَّلاَمُ للملائكة، بَعْدَ أن انْتهتْ مُقَاطَعَةُ زَوْجَتِهِ لحوارهم:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ونظيرُه تَمَاماً جاء في الآيَتَيْنِ (٣١) و(٣٢) من سورة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نُزُول).

وكلٌّ من هٰذيْن النَّصّين قَدْ جَاءَ تَوْطِئَةً لَمَا جاء بَعْدَه، على أسلوب القرآن في توزيع أجزاء الموضوع في النُّصُوص.

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾: أي: فَمَا أَمْرُكُمْ وَمَا شَأْنُكُمْ. **الْخَطْبُ في اللُّغَة**: الأَمْرُ والشَّأْنُ الَّذِي تَقَعُ فيه المخاطَبَة.

يُشِيرُ إبراهيم عليه السَّلامُ إلى قَوْلِ الْمَلائِكَةِ له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ كما جَاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) وهو الَّذِي توقَّفَ عنْدَه الحوار بمقاطَعَةِ زَوْجَتِه، ودُخُولِها في ضَجَّةٍ وَصَيْحَةٍ، إلى آخر ما سَبَقَ بيانه.

- ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: فَهُمْ بسبب كونِهِمْ مُجْرِمِينَ يَسْتَحِقُّونَ الإِهْلاَك، ولم يحتج هذا النص إلى زيادة تأكيد إِذْ سبق العلم به.

وصَرَّحُوا له بأنَّهُمْ مُرْسَلُون لإِهْلاَكِهم، دلَّ على هذا:

(١٦) مَا جَاءَ في سُورَةِ (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

- وقرأ حمزَةُ، والكِسائي، ويَعْقُوب: [لَنُنْجِيَنَّهُ] من فعل «أَنْجَىٰ». وقراءة الجمهور [لَنُنَجِّيَنَّهُ] من فعل «نَجَّىٰ».

الهمز أخو التضعيف فالقراءتان متكافئتان في اللّسان العربي.

وسَكَّنَ «السِّين» من [رُسْلَنَا] أبو عَمْرٍو. التسكينُ والضَّمُّ لغتان.

- ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: كانت بقَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ من الماضين الهالكين، ومن الباقين في أرض العذاب والهلاك.

الغابر في اللّغة: الماكث الذي لا يتحوَّل، والذاهب الماضي الذي لم يَبْقَ لَهُ وُجود، فَهُوَ من الأضداد. والمعنيان ينطبقان على امرأة لوط.

(١٧) وَجاءَ في سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾:

هذا بيانٌ من اللّٰهِ عزَّ وجلَّ وَلَيْسَ تابعاً لِلْقَوْلِ الَّذي قَالَهُ الرُّسُلُ، وهو: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾ فليس هو تكريراً لما جَاءَ في سُورَة (العنكبوت) الذي هُو من قول الملائكة.

وقد دلّ على أنَّ هَاتين الآيتَيْن من سورة (الحجر) بيانٌ مباشِرٌ من الله عزّ وجل، عبارَة: ﴿قَدَّرْنَآ﴾ إِذِ التَّقْدير لا يكونُ من الرُّسُل من الملائكة، بل هم أدواتُ تَنفِيذٍ لِقَدَرِ اللّٰهِ وَقَضَائه.

- قرأ جمهور القراء العشرة: [لَمُنَجُّوهُمْ] من فعل «نجّىٰ» المضعَّف.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلَفٌ: [لَمُنْجُوهُمْ] من فعل «أنْجَىٰ» المهموز.

- وقرأ جمهور القرّاء العشرة: [قَدَّرْنا] من فعل «قَدَّرَ» المضعف.

وقرأ شُعْبَة: [قَدَرْنَا] من فِعْلِ «قَدَرَ» المجرّد.

تقدير مقادير الأشياء سابق لقضاء الله بها، ثمّ يكون التنفيذ على وفق القضاء والقدر.

(١٨) وَجاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) قول الله عزّ وجل تتمةً لحكاية قول الملائكة لإبراهيم بشأن إهلاك قوم لوط:

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤﴾.

فجاء في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بَعْضُ تفصيلٍ، يتعلّقُ بِبَيانِ بعْضِ الأدوات المعدَّةِ لتعذيب قَوْمِ لُوطٍ وإهلاكهم.

فالرُّسُل من الملائكة مكلَّفونَ أَنْ يُرْسِلُوا على قوم لُوطٍ من فوق رؤوسهم حِجَارَةً مِنْ طِينٍ.

﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾: أي: حجارَةً كانَ أَصْلُها طيناً فتجحَّر، ولعلَّ تَحَجُّرَهَا كان بسَبب إحْمَائِها بالنَّار، فهي متحجِّرةٌ حارَّةٌ مُحْمَاة.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: معلَّمةً بعَلامَاتٍ تَخُصُّ المهْلَكِينَ بها.

وَجَاء في هذا النص وصْفُ قوم لوط بأنَّهُمْ «مُسْرِفُون» أي: غُلاَةٌ متوغِّلُون في الضَّلال وفعل الجرائم والآثام وكبائر الفواحش والمنْكرات.

فهم بحسب ما جاء وصفهم في النصوص: ظالِمُونَ، ومُجْرِمُونَ، ومُسْرِفُون في كبائر الإثم.

(١٩) وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

سمّى الله عزّ وجلّ حوار إبراهيم عليه السلام مع الرُّسُل من الملائكة المرسَلِينَ لإهلاك قوم لوطٍ مجادلَةً له سبحانه، لأنَّهُ هو جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه الّذي أَرْسَلَهُمْ وكلَّفَهُمُ الْقِيَامَ بإهْلاَكِ قَوْمِ لُوطٍ، وهم ملائكةٌ كِرَامٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ، مَا يُؤْمَرُون، ولا نَعْلَمُ عن المعصوم كيف كانت مجادَلَةُ إبراهيم عليه السلام للرُّسُل من الملائكة، ورُوي عن قتادة تفصيلٌ لمُجْمَلِ هذه المجادلة، ولكنها غير مرفوعة إلى الرسول ﷺ.

لقد رجا إبراهيم عليه السّلام بحِوارِهِ الذي سمّاه اللَّهُ مُجَادَلَةً له، أنْ يَصْرِفَ اللَّهُ عَنهُمُ العذابَ الشَّامِلَ الْمُهْلِكَ لَهُمْ جميعاً، أو يُؤَخِّرَهُ إلى أجلٍ

آخر، لعلَّ فَرِيقاً منهم يَتُوبُون ويَسْتَغْفِرُون، ويُقْلِعُونَ عن فواحِشِهِمْ، وكبائرِ مُنْكَرَاتِهم.

فأثنىٰ اللَّهُ عَزّ وجلَّ عَلَىٰ حِلْمِه، ورِقَّة قلْبه، وإنابَتِهِ إلى ربّه، إذْ كانت هذه الصفات فيه هيَ الّتي جَعَلَتْهُ يَدْعُو رَبَّه بشأن قَوْم لوط، ويطْرَحُ احتمالاَتِ استجابتهم، أو اسْتِجابة فَرِيق منهم في المستقبل، وأكَّدَ اللَّهُ عزّ وجلّ هذا الثَّنَاء بثلاث أدوات توكيد: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاَّمَ المزحْلَقة للخبر».

وأمَرَ الرُّسُلُ من الملائكة إبراهيمَ بأَنْ يُعْرِض عن طلَبِهِ بشأن قوم لُوط، فقد صَدَرَ بتعذيبهم وإهلاكِهِم أمْرُ الرَّبِّ جلّ جلاله، فسيأتيهم العذابُ والهلاكُ في الوقت المقدَّر المقضيّ، ولا رَادَّ لقضَاء الله وقَدَرِهِ.

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤﴾:

﴿ٱلرَّوْعُ﴾: الفَزَعُ، وهو الخوف الذي تظهَرُ له آثارُ نفور في حركات الجسم، واستعدادٌ لدفع المفزوع منه.

أي: فلمَّا ذَهَبَ عن إبراهيم الفزع الذي أثاره أنّ ضيوفه لم يأكُلُوا من طعامه، وجاءَتْهُ الْبُشْرَى هو وزَوْجتُهُ بإسْحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وتلقَّىٰ نبأ إهلاك قوم لوط وتعذيبهم شَرع يجادلُ رُسُلَنَا في قَوْمِ لُوطٍ، لرَفْعِ العذاب والإهلاك عنهم ولو إلى حين، والذي دعا إلى تقدير فعل «شَرَعَ» أو نحوه أنّ جواب لمَّا يكون فعلاً ماضياً لا مضارعاً، والمتدبر لكتاب اللَّهِ عز وجل يلاحظ كثْرَةَ حَذْفِ ما يُعْلَم ويسْهُل تقديرُه، ومنه في هذا النصّ أيضاً، وتلَقّىٰ نَبأ إهلاك قومِ لُوطٍ وتَعْذِيبهم.

وقبل أن يُعْلِمنَا اللَّهُ عزّ وجلّ بأنَّه أوحىٰ إلى إبرَاهيم أمْرَهُ له بأنْ يُعْرِضَ عن هذا الذي شَرَعَ يُجَادِلُ فيه، أثْنَىٰ عليه بثلاث صفاتٍ جَليلات، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾:

﴿لَحَلِيمٌ﴾: **الحَليم**: ذو الأَنَاةِ، القادِرُ على ضَبْطِ نَفْسِه عنْدَ الغضب، أو عنْدَ حُلُولِ مَكْرُوه، والَّذي يَعْقِلُ بإِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ نَوازعَ نَفْسِه، والَّذي يَعْفُو ويصْفَحُ.

﴿أَوَّٰهٌ﴾: **الأوّاه**: الرَّحِيمُ الرَّقيق الْقَلْب، الكَثِيرُ الْحُزْنِ، الذي يَتَأَوَّهُ كثيراً من الشَّفَقَةِ، أو عند الْفَرَقِ، ويلازم هٰذه الصّفاتِ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ لله، والمحافظة على طاعَته.

﴿مُّنِيبٌ﴾: أي: ذُو رُجوع إلى الله دَواماً بقَلْبه ونَفْسِهِ وَفِكْرِه، وهو اسم فاعل من فِعْل «أناب».

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ۝٧٦﴾.

يظهر أنَّ هٰذا قَوْلُ الرُّسُل من الملائكة لإبراهيم عليه السلام، وهو مستقْطَعٌ من الحدثِ الماضي، ومُقَدَّمٌ بِنَصِّهِ دُون حِكَايَةٍ، وهذا من الإبْدَاعَاتِ الجميلة في القرآن المجيد.

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾: أي: أعْطِ لِهَذا الأمرِ الَّذِي توجَّهَتْ نَفْسُكَ لَهُ شفقَةً على قَوْمِ لُوطٍ عارِضَكَ «جَانِبَ وَجْهِك» فشَفَاعَتُكَ فيهم غَيْرُ مُسْتَجابَة.

﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾: أي: قَدْ جاء أَمْرُ رَبِّكَ لَنا بِتَنْفِيذ التَّعْذِيب والإهْلاَكِ، فَنَحْنُ لاَ نَمْلِكُ إلاّ تَنفِيذَ أَمْرِ رَبّك، فَدَعْ مُجَادَلَتَك لنا، وأَعْرِضْ عن الأَمْرِ إعراضاً كاملاً.

﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ۝٧٦﴾: أي: وَإِنَّهُمْ سَيَأْتِيهِمْ في الأَجَلِ الْمُعَيَّنِ المبيَّنِ لَنا بالأَمْرِ الرَّبّانيّ، عذابٌ قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ، وهذا الْعَذَابُ نَازِلٌ بهم حَتْماً، وَهُوَ غَيْرُ مَرْدُودٍ، إذْ لاَ رَادَّ لقضاء الله.

﴿آتِ﴾ اسم فاعل كالفعل المضارع يصلح للحال والاستقبال، وهو هنا محمول على الاستقبال.

﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾: أي: غَيْرُ مَمْنُوعٍ وَلاَ مَصْرُوفٍ وَلاَ مُرْجَعٍ، أَصْلُ معنَىٰ الرَّدِ الإِرْجَاعُ والإِعادَة، ولا يكونُ صَرْفُ الْعَذَاب إلاَّ إذا رُدَّ الأَمْرُ به إلى الآمِر، وهَذَا لَنْ يكون.

إنّ أَمْرَ اللَّهِ عزّ وجَلَّ بتعذيب قَوْم لُوطٍ وإهلاكِهِم قَدْ كَانَ أَمْراً مُبْرَماً وَحكيماً، وقضاءً مستَنِداً إِلَىٰ عِلْمِهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ بحقيقة أحوالهم، وما في قُلوبِهم ونفوسهم، وإلى عِلْمِهِ بأَنَّ صَلاَحَهُمْ عَنْ طريق إراداتهم الحرَّةِ قَدْ صَارَ مَيْؤُوساً مِنه، فَمُتَابَعَةُ الاشتغال بدَعْوَتِهم إلى سبيل رَبّهم من الْعَبَثِ الّذي لا جَدْوى مِنه، وبَقَاؤُهم في الأرض هُوَ بمثابَةِ بَقَاءِ بُؤْرَةٍ وَبائِيَّةٍ تنْشُرُ الْفَسَادَ في النَّاسِ، فَمِنَ الحكْمَةِ إِبَادَتُهُمْ كَمَا أباد اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ، وقَوْمَ هُودٍ، وقَوْمَ صالح.

* * *

الفصل الخامس

مُجْرَيَات أحداث تَعذِيب قوم لوطٍ وإهلاكهم

لمّا انتهت مُهِمَّةُ الرُّسُل من الملائكة المأمورِينَ بتعذيب قوم لوط وإهلاكهم، عِنْدَ إبراهِيمَ عليه السلام، انْصَرَفُوا متوجِّهِين لأَرْضِ سَدُوم حَيْثُ يُقِيمُ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ في مَرْكَزِ مَدِينَتِهِمُ الأُمّ.

(١) ففي سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

دَلَّت الآية (٦١) على أنّ الرُّسُل من الملائكة الّذِين جاءُوا على صُوَرِ شَبَابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ، مَرُّوا بآل لوطٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْه، وعَنْ طَرِيقهم طَلَبُوا

مُوَاجَهَتَهُ، فأَذِنَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلامُ بأَنْ يَدْخُلوا إلَيْه، وعصَىٰ بذلِكَ أوامر كُبَرَاءِ قومه، إذْ سبَقَ أَنْ عَزَلُوهُ عزلاً اجتماعيًا، ونهَوْهُ عَنْ أن يلْقَىٰ أحداً من الْعَالَمِين.

لقَدْ عزَّ عَلَيْه أنْ يَرْفُضَ استقبالَ ضُيُوفٍ من غَيْرِ قَوْمِهِ نَزَلُوا بسَاحَتِه، وطَلَبُوا الاجْتِمَاع به.

فلما دَخَلُوا إلَيْه وتفَحَّصَ وُجُوههم وأَلْبسَتَهُمْ لم يَعْرِفْ من أيّ قَوْمٍ هُمْ، فقال لهم كما جاء في الآية (٦٢): ﴿... إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: إنَّكُم مَجْهُولُونَ بالنسبة إليّ، لا أعْرِفُ أَشْخَاصَكُمْ وَلاَ أَعْرِف من أيّ قَوْمٍ أنْتُمْ.

ورَأىٰ أَنَّهُمْ شَبَابٌ مُرْدٌ حِسَانٌ، وأدْرَكَ أنّ قَوْمَهُ لا بُد أَنْ يكُونُوا قَدْ عَلِمُوا بمَقْدَمِهِمْ إليه، فتعاظم لدَيْهِ تَصَوُّر ما سيَحْدُثُ له من مُصِيبة من قِبَلِ قَوْمِهِ الّذين سيأْتُونَ إلَيْهِ طالبين مِنْه أَنْ يُمَكِّنَهُمْ من ممارسة الفاحِشَةِ في هؤلاء الشباب، كعادتهم مَعَ كُلّ غريب شابٌ ذي وسامة فَسَاءَهُ مَقْدَمُهُمْ إليه، ونُزولُهُم ضُيوفاً عِنْدَه.

وسكتوا عن التعريف بأنفسهم وبأنهم ملائكة مرسلون من الله في بداية الأمر.

(٢) وَجَاءَ في سُورَة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ... ﴿٧٨﴾﴾

﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾: أي: سَاءَهُ مَجِيئُهُمْ إليه، يقال لغة: ساءَهُ الأَمْرُ يَسُوؤُه، أي: أنزلَ به مَا يَكْرَه، وأحْدَثَ لَدَيْهِ مَساءَةً.

«سِيءَ» فِعْلٌ ماضٍ مبنيٌّ لما لَمْ يُسَمَّ فَاعله، أصْلُه «سُوِىءَ» قُلبتِ

الواو يَاءً وَكُسِرَتِ السّين لتنسجم مع الياء. ﴿بِهِمْ﴾ نائب فاعل «سِيءَ».

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: أي: اشتَدَّ عليه الأمر وثَقُل بسببهم، وهو على سبيل الكناية، والأصل في هذه العبارة أنّ البعير إذَا حُمِّلَ أَكْثَرَ مِنْ طاقَتِهِ ضَاقَ ذَرْعُهُ، أي: ضَاقَتْ مَسَافَةُ مَدِّهِ لِذِرَاعِهِ، لأنّ أرجله الثلاثة لا تستطيع الثبات طويلاً إذا رَفَعَ الرابعة في الْخَطْو.

ويُقَالُ أيضاً: ضاق بالأَمْرِ ذَرعاً، أي: لم يُطقْهُ ولم يَقْوَ على تَحَمُّلِه، وأَصْلُ الذّرْع بَسْطُ اليد، فَمَنْ لم يَنَلِ الشَّيْءَ مع بَسْطِ يَدِه إليه يكُونُ قد ضَاقَ ذَرْعُهُ عَنْهُ، أي عجزَ عن تَناوُله وتحَمُّلِه.

ومهما يكن أصل العبارة فقد صارت عبارةً يُكَنَّىٰ بها عن الْعَجْزِ عن تَحَمُّلِ الْأَمْر الثَّقِيلِ، أو الشَّدِيد الصَّعْب.

وانتشر الْخَبَرُ في المدينة بأنّ لوطاً استضافَ في مَنْزِله شباباً مُرْداً حساناً غُرَباء.

وجاء كُبَرَاءُ قوْمِهِ الفاسِقون يُهْرَعُونَ إِلَيْه، رغْبَةً في فِعْلِ الفاحِشَةِ الشَّاذّة فيهم، ومَعَهُمْ جُمْهُورٌ من أتباعهم وأنصارهم.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ . . . ﴿٧٨﴾﴾.

لا بُدَّ أنْ يكونَ المرادُ كُبراءَ قومِه فَهُمْ أَصْحَابُ الكلمة المطاعة فيهم، أمّا كُلُّ رِجالِ قومه في المدينة فهذا غَيْرُ مُرادٍ حَتْماً، لكنْ قد يكون معهم أتباعهم وأنصارهم.

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: أي: يَمْشونَ أَوْ يَعْدُونَ في سُرْعَةٍ واضطراب، يقال لغة: هُرِعَ الرَّجُلُ: أي: مشَىٰ أو عَدَا في اضطرابٍ وسُرْعَة، وربّما كانت هذه الحركة بين المشي والْعَدْو.

لقد أَسْرَعُوا باضطراب تتحلّب أَشْدَاقُهم يبتغُونَ الفجور بالْمُرْدِ الْحِسَان.

● ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ... ﴿٧٨﴾﴾.: أي: ومن قبلِ مجيئهم هذا إلى دَارِ لُوطٍ، كانُوا في نَادِيهم يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، فلمَّا بَلَغَهُمْ نَبأُ ضُيوفِ لُوطِ الحسانِ، تَرَكُوا ما هُمْ فيه من سَيِّئَاتٍ كانُوا يَعْمَلُونها علَىٰ عاداتهم، سَعْياً للحصُولِ على لذَّةِ ممارسَةِ الفاحِشَةِ في شبابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ، هي أحَبُّ لَهُمْ من السَّيِّئَاتِ الَّتي كانوا يَعْمَلُونَها.

أمَّا حَمْلُ هٰذه العبارَة على أنَّهم كانُوا من قَبْلُ يأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء، فهو مستَبْعَدٌ جدًّا، إذْ سَبَقَ في نجوم التنزيل بيان هذه الشَّنِيعَةِ من قبائحهم، ولفظ «السَّيئَاتِ» يُطْلَقُ غَالباً على مادون الكبائر.

(٣) وَجَاء في سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

المرادُ بأهْل المدينة كُبَراؤهَا وأصْحَابُ الأَمْر المطاع فيها، ومعهم أتباعهم وأنصارهم.

﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: أي: يَتَجَدَّدُ لَدَيْهِمُ الْفَرَحُ والسُّرور والابتهاج بوُجود شباب مُرْدٍ حِسَانٍ غُربَاءَ في دار لوط، ويُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بعضاً بِهذِهِ الْغَنِيمَةِ السَّهْلَةِ، سَعْياً لِلَذَّةِ الشَّاذَةِ الفاجِرَة، ولعلَّ الحادثَة تكُونُ سَبباً للتخلُّصِ مِنْ لُوطٍ وأهله، إذْ كانوا قَدْ نَهَوْهُ عن أنْ يلْتَقِي أحداً مِنَ الْعَالَمِين.

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَبْشَرَ» أي: فَرِحَ وَسُرَّ. ويقال: استَبْشَرَ فُلاناً، أي: بَشَّرَهُ بما يُفرِحُهُ ويَسُرُّه.

● ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: ولمّا وصَلُوا إلى دَاره واجْتَمعُوا حَوْلَها، وَأَلَحُّوا عليه أن يمكّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ، وأخَذُوا يُرَاوِدُونَهُ عَنْ ضُيُوفِهِ، دلَّ على هذا بعبارةٍ صَرِيحَةٍ قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الْقَمَرِ/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ. . . ﴿٣٧﴾﴾:

لفظ «ضَيْف» يُطْلَقُ على المفرد والجمْعِ والمذكر والمؤنث، ويجْمَعُ أيْضاً على أضْيَافٍ، وضيُوفٍ، وضِيفان، ويقالُ للأنثىٰ أيضاً ضَيْفَة.

﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾: أي: طَلَبُوا مِنْهُ فعل الفاحِشَةِ في ضُيُوفه.

يُقَالُ لُغَةً: رَاوَدَ الْمَرْأَةَ عَنْ نَفْسِها، أي: طلَبَ مِنها أَنْ يَفْجُرَ بها.

ورَاوَدَهُ عَنِ الأَمْرِ، وعلى الأمْرِ، أي: طَلَبَ مِنْهُ فِعْلَه.

فاستَعصم عليه السَّلام، وأبَىٰ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِه.

فقال لَهُم إنَّ هَٰؤُلاَءِ ضُيُوفِي فَلاَ تَفْضَحُوني بَيْنَ النَّاس، إذْ يُشَاعُ بين الناسِ في الحواضِرِ والبوادي أنَّ «لُوطاً» مكّنَ كُبَرَاءَ فُسَّاقِ سدُوم من فِعْلِ الْفَاحِشَةِ في ضُيُوفِهِ المُرْدِ الحِسَان.

وقال لهم: اتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِي، أي: اتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ عَلَىٰ كَبَائِرِكُمْ وفواحِشِكُمْ، وَلاَ تُخزُوني بَيْنَ النَّاس، أي: ولا تُوقِعُوني في الذُّلِّ والْهَوَانِ، وأَنْتُمْ تَعْلَمُون شَرَفِي وطَهارَتِي ومكانَتِي في نفوس كلّ الأَقوام من حَوْلِكُمْ.

● ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾: أي: أَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ أن تَلْتَقِي أَحداً مِنَ الناس، من قومِنَا أمْ من الغرباء؟ فَكَيْفَ تَسْتَقْبِل في دَارِكَ ضُيُوفاً غُرَبَاءَ؟.

اتَّخَذُوا هذا ذَرِيعَةً لإِخْرَاجه، أو تَوْطِئَةً لإخراجه من أرْضِهم، بسبَبِ مَعْصِيَتِهِ لأوامِرِهم ونواهيهم، بَعْدَ أَنْ عَزَلُوهُ عزْلاً اجتماعيًا.

- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾:

لمَّا وَجدَ نَفْسَهُ مُحْرَجاً، وعاجزاً عن مُقَاوَمَتِهِمْ، وغَيْرَ مُسْتَعِدٌ لِأَنْ يُمَكِّنَهُمْ من ضيوفه، وكان يَعْلَم من عاداتهم وَتقالِيدهم، أَنَّهُمْ لاَ يَعْتَدُونَ على نِسَاءٍ لاَ حقّ لَهُمْ بمعَاشَرَتِهِنّ إلاَّ عَنْ طريق الزواجِ حِفَاظاً على أَنْسَابِهم، أرَادَ أنْ يُخرِجَهُمْ بعَرْضِ بَنَاتِهِ عليهم، وهو يَعْلَمُ أَنَّهُم لَنْ يَقْبَلُوا بذلك، ولَوْ فَعَلُوا لافتَضَحُوا وسَقَطُوا مِنْ أَعْيُنِ قَوْمِهِمْ وَنِسَائِهم، ولَفَجرَتْ نِسَاؤُهم نِكَايَةً بهم.

لكِنَّ عَادَةَ إتْيَان الذُّكُور لَمْ تكن تُثِيرُ غَيْرَةَ نِسَائِهِم إثارَةً كَبِيرة، وكانَتْ في نَظَرِهم جَمِيعاً بمثابَةِ الأُمُورِ العاديَّةِ، كالطَّعام والشراب واللَّهْوِ واللَّعِب، ونحو ذلك.

وَدلَّتْ عبارة: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ باسْتِخْدَام حَرْفِ الشَّرْطِ «إنْ» على أنَّ لُوطاً عليه السلام كان على عِلْم بِأَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا عَرْضَهُ، لِأَنَّ حَرْف الشَّرْطِ «إنْ» يُقْصَدُ اسْتِعْمَالُهُ في الأَمْرِ المشْكُوكِ فيه، أَوْ فيما لاَ يُنْتَظَرُ وُقُوعُه، باستثناء حالاَت الشرط العامِّ.

فأَعْرَضُوا عَنْ عَرْضِهِ، وتابَعُوا مطالَبَتَهُ بتميكنهم مِنْ ضُيُوفه، فَكرَّرَ عَرْضَهُ بعِبَارَةٍ فيها تَوْجِيه، وتَحْذِيرٌ، واسْتِعْطَافٌ، وتأْنيب.

دَلَّ على هذا:

(٤) مَا جَاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾:

- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ أي: يا قَوْمي، وفي هذه العبارة استعطاف لهم بأَنَّهم

قَوْمُه، ومن حَقِّ الإنْسَانِ على قَوْمِهِ أن لا يفْضَحُوهُ ولاَ يُخْزُوه بين الناس.

• ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمۡ﴾: أضاف في هذه العبارة على ما جاء في النّص السابق الذي من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بيان أنّ النساء أطْهر، ففُروجُهُنَّ خُلِقَتْ لِمَا يَطْلُبُون.

وسبَقَ بيان أنّه على عِلْمٍ بأنّهم لا يَقْبلُونَ عَرضَه، لأنَّ قبولهم لعرضه يُسْقِطُهم في قَوْمِهم بحسَب عاداتهم وتقاليدهم، ويُوقِعُهُمْ هم في الفضيحة والْخِزْي والعار، إذ ليس لهم حقٌّ في بناته بزواج متعارف عليه بينهم، وهذا كَمَنْ يَقُولُ لِمَنْ يُرِيدُ قتل مَن هو في حمايتِهِ وجواره: اقتُلْني أو اقْتُلْ وَلَدِي بدَلَهُ ولا تقتلْه، وهو يَعْلمُ أنه لَنْ يقتله ولَنْ يقتل وَلَده.

• ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: فاتَّقُوا أَنْ يُنْزِلَ الله بكم عِقَابه، إذا أصْرَرْتُمْ على دخول داري عَنْوَةً، وفِعْل ما تَطْلُبُونَ في ضُيُوفي.

• ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِى ضَيۡفِىٓ﴾: كَرَّرَ لَهُمْ الاسْتِعْطاف بأنْ لا يُخْزُوه، فقد سبَقَ أنْ اسْتَعْطَفَهُمْ فقال لهم: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ كما جاء في النصّ السابق الذي من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) إلاَّ أنّه أضاف هنا عبارة ﴿فِى ضَيۡفِىٓ﴾ إشعاراً بأنَّ الضَّيْفَ له حُرْمَةٌ عظيمةٌ، وقد كانت أقوام عَصْرِهم يَرَوْن للضَّيْفِ هَٰذِهِ الْحُرْمة، فَمَنْ تَعَرَّضَ ضَيْفُهُ لِسُوءٍ وهو عِنْدَه، نالَهُ من الناس خزِيٌ عَظِيمٌ، ونَزَل به ذُلٌّ وهوان.

• ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾: أي: أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ واحِدٌ فيه رُشْدٌ وعَقْلٌ، يمْنَعُكُمْ عَمَّا تجَمَّعْتُمْ علَيَّ مِنْ أَجْلِه.

استفهام يتضَمَّنُ وصْفَهُمْ بالسَّفَاهَةِ وخِفَّةِ العقل وانْعِدَام الرُّشْدِ، بأسْلُوبٍ غيْرِ مُبَاشِرٍ.

• ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنۡ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾:

أي: قالوا له: إنَّكَ تَعرِضُ عَلَيْنا أَمْراً تَعْلَمُ أنَّنا لا نقبَلُهُ في أعرافِنَا وتَقَالِيدنا، لأنَّنا لا نأتِي نِسَاءَنَا إلاَّ بِحَقِّ الزّواج، لكنَّنا نَأْتِي الذكور على سَبِيلِ الشُّيُوعِ دُونَ عُقُودٍ وَلاَ ضَوَابِطَ.

(٥) وَجَاءَ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

يُقْسِمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بحياة الرَّسولِ محمّد ﷺ، على أنَّ سَبَبَ إصْرَارِهم على مَوْقِفِهم الْخَسِيسِ الشَّنِيع، أَنَّهُمْ في سَكْرَةِ شَهَواتِهِم مُنْطَمِسُوا البصائر، فهم لا يَرَوْنَ وَلاَ يَسْمَعُونَ فَلاَ يَعْقِلُون.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يَتَتَابَعُ على بَصِيرَتِهِمُ الْعَمَهُ آنَا فآناً، وهذا يُوَلِّد تراكُماً يَحْجُبُ عن الْبَصِيرةِ كُلَّ مَعْرِفَةٍ.

الْعَمَهُ: هُو في البَصِيرة القَلْبِيَّةِ والنَّفْسِيَّة كالْعَمَىٰ في البصر، ومن آثاره أنْ يكون صاحبه أعْمَىٰ عَنْ رُؤيَة الحقّ، أصَمَّ عن سَمَاعِ كَلِمَة الحق، أبْكَمَ عَنْ نُطْقِ كَلِمَةِ الحقّ، فَهُو لاَ يَعْقِلُ شيئاً.

هذا هو البيانُ الرَّبَّانيُّ عنهُمْ وعَنْ كُلِّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ، في سَكْرَةٍ مِنَ الشَّهوَاتِ الجانهاتِ الجامِحَاتِ، والمفهومَاتِ الباطلاتِ، والْعَادَاتِ القبيحاتِ الشَّنِيعات.

(٦) وجاء في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

ويظْهَر أنَّ لوطاً عليه السَّلامُ أرَادَ أنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْ هَٰذَا الْقَوْلِ الَّذِي قالَهُ

ضُيُوفُهُ، فقال لهم مُتلَهّفاً: أَتَسْخَرُونَ مِنِّي، أَمْ أَنْتُمْ صَادِقُونَ في أَنَّكُمْ رُسُلُ رَبِّي، وَفي أَنَّكُمْ جِئْتُمْ لإهْلاَكِ قَوْمي وَتَعْذِيبهم؟

فقالُوا لَهُ:

(٧) ما جاء بيانه في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

هَٰذَان النّصّان (٦ و٧) متكاملان في التعبير عن أحداثٍ مُتَتالية، مع أنّهما من سُورَتين.

لَقَدْ تأَزَّمَ الموقف بين لُوطٍ عليه السَّلام وَكُبَرَاءِ قومه، فَلَمْ يُؤَثِّرْ فيهم الاستعطاف، ولا إشعارُهُمْ بأنّه يُضَحّي ببنَاتِهِ ليَحْمِيَ نَفْسَهُ من الفضيحةِ والْخِزي والْعَارِ بَيْنَ النّاس، ولا التحذيرُ من عقاب اللّهِ وَنِقْمَتِهِ، وَلاَ وَخْزُهُمْ بالسَّفَاهَةِ وخِفَّةِ الْعَقْلِ وَبأنَّهُمْ لاَ يُوجَدُ مِنْهُمْ رَجُلٌ واحِدٌ رَشِيد، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بَعْدَ كُلِّ هَذَا إلاَّ أنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَمْلِكُ قُوَّةً لَقَاتَلَهُمْ، ولَصَدَّهُمْ بالْقُوَّةِ عَمَّا يُريدون، وهذا مِنْهُ على سبيل التَّمَنّي، أَوْ لو كَانَ لَهُ في أرْضِهِم رُكْنٌ شَدِيدٌ من عَشِيرَةٍ وأَنْصَارٍ، لآوَىٰ إليهم، ومنَعَ ضُيُوفَهُ مِنْهم. إنَّه بِبَيَانِه أُمْنِيَتَيْهِ يُشْعِرُهُمْ بأنَّهُ سَيَتَخِذُ كُلَّ ما لَدَيْهِ من استطاعَةٍ لِصَدِّهِمْ عَنْ ضُيُوفِه، ولَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنهُمْ طَوْعاً.

- ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿لَوْ﴾: فيها مَعْنَىٰ الشرط والتَّمَنّي، أي: أتمنَّىٰ لَوْ أَنَّ لي بِصدِّكُمْ وَدَفْعِكُمْ عَنْ ضَيْفي قُوَّةً لَصَدَدْتُكُمْ وَدَفَعْتُكُمْ وَلَقَاتَلْتُكُمْ حِمَايَةً لِضَيْفِي وَشَرَفِي، أو لَوْ كان لديَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ مِنْ عَشِيرَتِي وَأَنْصَارِي يَحْمِينِي وَيَحْمِي

ضَيْفِي وَأَهْلِي لآوَيْتُ إِلَيْه، واعْتَصَمْتُ به، إنه بهذا يُعْلِنُ لَهُمْ عَزْمَهُ الشديد علَىٰ حِمَايةِ ضيوفه منهم.

وحتَّىٰ هَٰذَا الْمَوْقِف لم يَعْلَمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَنَّ ضُيُوفَهُ رُسُلٌ من الْمَلاَئِكَة، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ عِنْدَئذٍ دَخَلَ إِلَىٰ ضُيُوفِهِ، فقالَ لهم: لَقَدْ جئتُموني بِمُصِيبَةٍ وبَلاَءٍ عَظِيم.

﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: إِنَّا مَلائكةٌ، وَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، وَإِنَّا سَنَحْمِيكَ من عُدْوانهم، وَيَظْهَرُ أَنَّ لوطاً عليه السلام قد أغْلَقَ بَاب دَارِه وأوصدَهُ وأحْكم تَثْبِيتَهُ، وصَارَ التَّخَاطُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كبراءِ قَوْمِه من ورائه، دَلَّ علَىٰ هَٰذَا عبارة ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ أي: فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ في ذَٰلِكَ الْوَقْتِ حِجَابٌ، وهو سُور الدار، والْبَابُ الموْصُود.

هنا لاَ بُدَّ أَنْ يغْضَبَ قَوْمُهُ ويَعْمَلُوا علَىٰ اتِّخَاذِ وَسِيلَةٍ لِكَسْرِ بَابِ داره، واقْتِحامِها عَنْوَة.

وفي هَٰذِهِ الأَثْنَاء تابَعَ الرُّسُلُ من الملائكة بيانَ مُهِمَّتِهِمُ الَّتِي جَاءُوا لِتَنْفِيذِها بأَمْرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وبَيَانَ خُطَّةِ إنْقَاذِ لُوطٍ وأَهْلِهِ إلاَّ امْرأته، من أَرْضِ سَدُوم الَّتِي سَيَنْزِلُ عَلَيْها العذاب الشامل المدمِّر، وَقالوا له:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾:

● وقَرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو جَعْفر: [فَاسْرِ] بهمزة وصل من فعل **فعل «سرى»**.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾: أي: سِرْ بِهِمْ لَيْلاً مُبْتَعِداً بِهِمْ عَنْ أَرْضِ سَدُوم.

يقالُ لغة: سَرَىٰ اللَّيْلَ، وسَرَىٰ بِهِ، أي: قَطَعَهُ بالسَّيْر. **ويُقال:** سَرَىٰ

بِفُلاَنٍ لَيْلاً، وأسْرَىٰ به: أي: جَعَلَهُ يسير فيه.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: بطائفةٍ من اللَّيْلِ تَكْفِي لاجتيازكم الأرْضَ الَّتي سَيَنْزِلُ عليها العذاب. **القِطْعُ من اللّيل**: الطَّائِفَةُ مِنْه.

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾: أي: وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ لِيَنْظُرَ مَا سَيَحُلُّ بأرْضِ سَدُوم.

[**إلاَّ امْرَأَتُكَ**]: قرأ ابن كثير، وأبُو عَمْرو: [**إلاَّ امْرَأَتُكَ**] بالرَّفْعِ. وقرأ باقي القرّاء العشرة [**إلاَّ امْرَأَتَكَ**] بالنَّصب.

فقراءة: [**إلاَّ امْرَأَتَكَ**] بالنَّصب دَلَّتْ على اسْتثنائها من أمْرِ السَّرَيَانِ بأهْلِهِ، أي: دَعْهَا في أرْض قَوْمِها، وَلاَ تَسْرِبها.

وَقِراءة: [**إلاَّ امْرَأَتُكَ**] بالرَّفع دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ امرأتَكَ إذا لَحِقَتْكُمْ دون أَنْ تَدْعُوَها لِتَسْرِيَ بها، فسَتَلْتَفِتُ وَسَيُصِيبُها مَا أصَابَ قَوْمَها من قَبْلِها في أرْضِهِمْ.

وجاء عند الإسْرائيليين في سِفْر التكوين ـ الإصحاح التاسع عشر، أَنَّ امرأة لوط خَرَجَتْ مع مَنْ خرَج، وأنَّهَا الْتَفَتَتْ وَنظرَتْ مَا وراءَها، فَنَزَلَ عليها مَا جَعَلَهَا عَمُودَ مِلْحٍ.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾: أي: إنَّ الشَّأْنَ مُصِيبُها (أي: سَيُصيبها) إذَا الْتَفَتَتْ مَا أَصَابَ قَوْمَهَا قَبْلَ ذَلِكَ مِن رِجْزٍ وَعَذَابٍ وهَلاَك.

﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾: أي: إنَّ مَوْعِدَ إنْزَالِ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ عَلَيْهِم هو وقْتُ الصُّبْح.

﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٍ﴾: في هذه الْعِبَارَةِ حَثٌّ لَهُ علَىٰ أَنْ يُهَيِّىء نَفْسَه وأهله إلاَّ امرأتَهُ للرَّحيلِ، بِقِطْعٍ من اللّيل، قَبْلَ: الصُّبْحَ.

ومَا زَال المحيطون بدار لوطٍ مِنْ قَوْمِهِ يُعَالِجُون كَسْرَ بَابِ دَارِهِ

لِدُخولِهَا عَنْوَةً وَبالْقُوَّةِ.

وَيَبْدُو أَنَّ لُوطاً عليه السَّلاَمُ كانَ في حالةِ اضطراب نَفْسِيٍّ شَدِيد، فقال لضُيُوفِهِ كلاماً أَجَابُوهُ عليه بِقَوْلِهم:

﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾: أي: يَشُكُّونَ ولاَ يُصَدِّقُون، وهُوَ إنْذارَاتُكَ لِقَوْمِكَ بِعَذَابِ اللَّهِ، وإهلاك شامل.

وبقولهم:

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾: أي: وأتَيْنَاك بالنَّبأ الحقّ، وإنَّا لَصَادِقُونَ في كلّ ما نَقُولُ لك، وقد جاءت هذه العبارة مُؤَكَّدَةً، لحاجة نَفْسه إلى التأكيد.

عندئذٍ هَدَأَتْ نفْسُه عليه السَّلامُ واطْمَأَنَّ، وأدْرَكَ الرُّسُلُ من الملائكة أنَّهُ في حالَةِ اضطرابه لَمْ يَسْتَوعِبْ مَا بيَّنُوهُ لَهُ مِنْ خُطَّةِ الرَّحِيلِ مِنْ أَرْضِ سَدُوم، فَأَعَادُوا عليه مقالتهم السابقة مع إضَافَاتٍ تفصيليّة عليها، قائِلِينَ له:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: سَبَقَ شرح نظيرها.

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾: أي: وامْشِ أنْتَ وَرَاءَ أَهْلِكَ لِتَسُوقَهُمْ، وَلاَ تَمْشِ أَمَامَهُمْ.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: سبَقَ شرح نظيرها.

ولـم يأت في هذا النَّصّ استِثْنَاءُ امرأته اكْتِفَاء بمَا جَاءَ في النّصّ السابق.

﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ تَدُلُّ هٰذِهِ العبارة على أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ خَصَّصَ لهم دَلِيلاً يَدُلُّهم فيَأْمُرهم بأن يَسِيرُوا في الطرُقاتِ وإلى الجهاتِ الّتي يُعَينُها لَهُمْ. فِعْلُ «تُؤْمَرُونَ» يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ آمِراً سَيُوَجّهُ لهم الأَمْرَ بالسَّيْر في الطرقات وإلى الجهات آناً فآناً.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾: أي: وأَمْضَيْنَا وَأَنْهَيْنَا إِلَىٰ لُوطٍ عن طريق الْوحْي إليه، وهذا بيانٌ من اللّهِ عزّ وجلّ.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾: أي: ذلِكَ الأَمْرَ الجليلَ العظيم الْمَهُولَ الْخطِيرَ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول به لفعل [قضينا]. ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ بدَلٌ من ذلِكَ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ.

جاء في هذه العبارة استعمال اسم الإشارة الموضوع للبعيد، للإشارة إلىٰ أن الأمر العظيمَ الْفَظِيعَ الذي كان مستبعداً جدًّا، قَدْ تَمَّ بِه القضاء، وصارَ حقيقةً وَشِيكَةَ الْوُقُوع.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾: هذه العبارة بدلٌ من: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ لتفسيره، وبيانِ إبهامه الذي جاء بأسْلُوبٍ فيه تَهْوِيلٌ وَتعظيم. وهو بدلُ كُلٍّ من كُلّ.

دَابِرُ الشيء: أي: تابِعُهُ وآخره.

والمراد بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قَوْمُ لُوطٍ وكُلُّ مَا يَتْبَعُهُم مِنْ أحياء وأشياء.

﴿مَقْطُوعٌ﴾: أي: مَقْطُوعٌ بإهْلاَكه وتَتْبِيرِه وتَفْتِيتِه، عَنِ البقاء في الوجود بأوصافه وأشكاله وهَيْئَاتِه. جاء الاكتفاء بالتعبير بالْقَطْع، والمراد الْقَطْعُ عن الوجود. وأَصْلُ الْقَطعِ الْبَتْرُ لفَصْلِ الشَّيْء عمَّا هُوَ مَوْصُولٌ به، فَقَطْعُ الْحَيِّ عن الحياة يكُونُ بإهلاكِه وإماتَتِه، وقَطْعُ الأَبْنِيَةِ والْقُرَىٰ يكون بِتَدْمِيرِها وإِزَالَةِ كُلِّ أثَرٍ لها، وقَطْعُ الشَّيْءِ عن الوجود يكون بإعدامه، وَهَكَذا.

﴿مُّصْبِحِينَ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ في الصَّبَاح. يقال لغة: أَصْبحَ، أي: دَخل في وقْتِ الصَّباح، وهُوَ أول النهار عند الصُّبْح.

والمعنى: وأنهَيْنَا إلى لُوطٍ وَحْياً، أَنَّ قَوْمَكَ هؤلاء الَّذِينَ لم يستجيبوا لدَعْوَتِكَ وَنُصْحِكَ، وتفاقَمَتْ قَباحاتهم ومُنكَرَاتُهم وجَهالاَتهم، ووصَلُوا إلى حالة ميْؤُوسٍ منها، معذَّبُونَ، ثم مُهْلَكُون، ومُبَادُون بِدْءاً مِنْ دُخُولهم في الصَّبَاحِ عَقِبَ هٰذِهِ اللَّيْلَة.

(٨) وجاء في سُورَةِ (العنكبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قول اللّٰهِ عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

جاء في هذا النصّ إضافات على ما سبق أن قال الرُّسُلُ من الملائكة لِلُوطٍ مُعَرِّفين بأنفسهم، ومبيِّنِينَ مُهِمَّتَهُمْ، ومُطَمْئِنِينَ لوطاً وأهله.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ﴾: في هذا القول إضافة لم تُذْكَرْ في النُّصوصِ الأُخْرَىٰ.

﴿لَا تَخَفْ﴾: أي لاَ تخَفْ مِنْ أجْلِ نَفْسِكَ وأَهْلِكَ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَلَا تَحْزَنْ ۖ﴾: أي: وَلاَ تَحزَنْ على مُمْتَلَكَاتِكَ ومَوَاشِيكَ في أَرْضِ سَدُوم، فاللّٰهُ جلَّ جلالُهُ يُعَوِّضُكَ عَنْها.

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

أضافت هذه العبارة على ما سَبَقَ، بَيَانَ أَنَّ الرُّسُلَ سَيُنَجُّونَه هو وَأَهْلَه، واقتضى البيان اسْتِثناء امرأته من هذا الوعد، مع أنه قد جاء في النصوص السابقة بيان اسْتِثْنائِها، دفعاً لتوهم إعفائها من الهلاك.

﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾: أي: كانت بقَدَرِ اللّٰهِ وَقضائه من الهالكين الماضِينَ إلى الفناء.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذا البيان كُلُّهُ منَ الإضافاتِ في هذا النصّ الذي جاء في سُورَة (العنكبوت).

أي: فَسَيُنْزِلُون عليهم وسائلَ تَعْذِيب خاصّةً من جهة السَّماء، غَيْرَ وسائِلِ الإهلاك العامّ، بسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْسُقُون مُكَرِّرِينَ جَرائِم فِسْقِهِم آناً فآناً.

الرِّجْزُ: العذَابُ، وَالْمُرَادُ وَسَائله.

أخرج مُسْلِمٌ وغَيْرُه عن أسامة بن زيد، وسَعْدِ بْنِ مالك، وخُزَيمةَ بْنِ ثابت، قالوا: قال رسُول الله ﷺ:

«إِنَّ هَٰذَا الطَّاعُون رِجزٌ، وبَقِيَّةُ عذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكم».

﴿يَفْسُقُونَ﴾: أي: يُكَرِّرُون في أعمالهم الخروج عن الحق والواجب وأوامر الله نواهيه.

(٩) وَجاء في سُورَةِ (الْقَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قولُ اللَّه عزّ وجلّ بشأن لوط عليْه السَّلام وشأن قَوْمه:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾.

يدلُّ هذا النَّصّ على أنَّ لوطاً عليه السَّلام أنذرهم عدّة مَرَّاتٍ، بأنّ الله عظُمَتْ قدرته وجلّت حكمتُهُ، سيَبْطِشُ بِهِمْ بَطْشَة تَعْذِيبٍ شَدِيدٍ، إذا تَمادَوْا في إصرارهم على أنْ يقْتَحِمُوا دارَهُ اقتحاماً، ليَصِلُوا عَنْوَةً إلَىٰ مَا يُرِيدُون، فَتَمَارَوْا بالنُّذُر.

﴿أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾: أي: أعْلَمَهُمْ بأنَّ اللَّهَ سَيَبْطِشُ بهم، وخَوَّفَهُمْ من ذلك. **يقالُ لغة**: أَنْذَرَهُ الْعَذَابَ، أي: أعلمه به، وخَوَّفَه منه.

الْبَطْشَة: واحِدَةُ الْبَطْش، وهو التناوُلُ بشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَة، والأَخْذُ الْقَوِيُّ الشَّدِيدِ، والسَّطْوُ في سُرْعَة.

﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾: أي: فجادلُوا بإنْذَارَاته وشكّكلُوا فيها.

﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾: أي: أَعْمَيْنَاهُمْ، وذُكِرَ أَنَّ الرُّسُل من الملائكة رَمَوْا علَىٰ وُجوه الْمُحِيطِينَ بِدَاره مِنْ قَوْمه مادَة مُحْرِقَةً، فأعْمَتْ عُيُونَهُمْ، وجَعَلَتْها مُنْطَمِسَةً فلاَ أَثَرَ لِعُيُونٍ في وُجُوههم.

الطَّمْسُ: يأتي في اللُّغَة بمعاني: التَّشْويه، والإزالة، والمحو. **يُقَالُ لغة**: طَمَسَتِ الرِّيحُ الأَثَر، أي: أزالَتْهُ وَمَحَتْهُ. **ويقال**: طَمَسَ على عَيْنِهِ، أي: أعماها.

فانْصَرَفَ المحيطون بداره يَصْرُخُون من آلاَمَ الطَّمْسِ الحارِقِ، لا يَعْرِفُون طُرُقَهُمْ.

(١٠) وَجاء في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول اللّهِ عزَّ وجلّ بشَأْنِ لوط وَأهله:

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: من الهالكين.

(١١) وَجَاء في سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بَعْدَ بَيَانِ إرْسَالِ الحاصِبِ على قَوْمِ لُوط:

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ۝ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

لَمْ يَأْتِ في هذا النّصّ استثناء امرأة لُوط، إشارةً إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ لَمْ يَعْتَبِرْهَا من آله، فآل الرَّجُلِ مَنْ كَانوا من أَهْلِهِ أنصاراً له وأوْفِيَاءَ، أمَّا امرأةُ لُوط فقد خانته، لأنها كانت كافرة وَعلَىٰ هوى قَوْمِها، وليس المرادُ خيانَتَها في شَرَفِها وَعِرْضِها، بلَ كانت تقوم بإعلامِ قومها بما يَجْرِي مع زَوْجها لوط.

وأبان هذا النّص أن نَجَاةَ لوط وآله بخروجهم من أرض سَدُوم قد كان في وقت السَّحَر.

السَّحَرُ: آخِرُ اللَّيْلِ قُبَيْلَ الْفَجْر.

﴿نِّعۡمَةً مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾: **النِّعْمَةُ**: اسْمٌ للإنْعَام، وهو ما يَتَفَضَّل به صاحب الفضل ممَّا هو مَحْبُوبٌ لدَىٰ المنْعَم عَلَيْهِ، ومن الإنْعَامِ الْعَظِيم تخليصُ المنْعَم عليه من شُرُور قَوْمِهِ، أَوْ مِنَ العَذَابِ المقَدَّرِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِم، ومنَ الهلاك المقضيّ أن يَعُمَّهُمْ.

﴿مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾: أي: ممَّا هو عِنْدَنَا وَمَوْجُودُ في مِلْكِنَا من أشياءَ ووسائل.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾: أي: كذلِكَ الجزاء الذي جازينا بِهِ لُوطاً وآلَهُ نَجْزِي كُلُّ مَنْ شَكر مِنْ عبادنا، وفي هٰذه العبارة بيانٌ عَنْ فِقَرَةٍ مِنْ فِقَرَاتِ سُنَنِ اللَّهِ فِي عبادِه.

(١١) وجاء في سورة (الشُّعَرَاء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) عَقِبَ بيان دُعاء لُوطٍ رَبَّهُ بِقَوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ١٦٩﴾: أي: نَجِّنا من عِقَابِ وَعَذَابِ مَا يَعْمَلُ قَوْمي، قول الله عزّ وجل:

﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١﴾:

أي: فاسْتَجبْنَا لَهُ دُعاءَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إلاَّ عَجُوزاً هِيَ امرأتُهُ مَضَتْ مع الْهَالِكِينَ، لأنَّها كانت كافرةً وَمَعَ هَوىٰ قَوْمِهَا، فَهِيَ لا تَسْتَحِقُّ أَنْ يَسْتَجيبَ اللَّهُ دُعَاءَهُ فيها، إذْ كانت على غير دِينِهِ وعَلَىٰ غير طَرِيقَتِه.

(١٢) وَجَاء في سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل في معرض الحديث عن لوطٍ وَقومه:

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٥٧﴾:

﴿قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾: أي: جعَلْنَاهَا لَدَىٰ تَحْدِيد المقادير المتعلِّقَةِ بلُوطٍ وأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ مِنَ الماضِين من قَوْمِهِ بالتَّعْذِيب والإهْلاَك.

فأضافَ هٰذا النَّصُّ بَيَانَ أَنَّ الأَحْدَاثَ الَّتِي جرَت في قِصَّةِ لُوطٍ وقومه قَدْ كانَتْ مَسْبُوقَةً بِقَدَرٍ رَبَّانِيٍّ، يَشملُ صِغَارَهَا وكِبَارَها.

(١٣) وَجاء في سُورَة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ على النّصّ الذي في سورة (الشعراء) التوجِيهَ لِوَضْعِ هذا الحدَثِ مِنْ أَحْدَاث سُنَنِ اللَّهِ في عباده الممتَحَنِين، في الذّاكِرَة دَواماً، لِيَكُونَ دَافِعاً للاستقامة خوفاً من عَذَاب اللَّهِ وَنِقمَتِهِ.

﴿إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ﴾: أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقّي هذا الحدَث من أحداث سُنَنِ اللَّهِ في عباده.

(١٤) وَجاء في سُورَةِ (الذَّارِيات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن قِصَّةِ لُوطٍ وَقَوْمِه، قولُ الله عزّ وجل:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

فأبان هذا النَّصُّ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ أَصْدَرَ أَمْرَهُ للرُّسُلِ من الملائكَةِ المكلَّفِينَ أَنْ يُعَذِّبُوا قَوْمَ لُوطٍ وَيُهْلِكُوهم، بأَنْ يُخْرِجوا مِنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلِ العذابِ والإهلاك كُلَّ مُؤْمِنٍ صَادِقِ الإيمان.

ولَكِنْ بالْبَحْثِ وَالتَّنقِيبِ مِنَ الملائكة، وبالاستناد إلى عِلْمِ اللَّهِ الشامل، لَمْ يُوجَدْ فِيهِمْ غَيْرُ بَيْتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أي: مِنَ المؤمنين المسلمين، هو بَيْتُ لُوطٍ عليه السَّلاَم، قالُوا: هُوَ وابْنَتَاهُ، أو بَنَاتُهُ الثلاث.

(١٥) وَجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في معرضِ الحديث عَنْ لُوطٍ عليه السّلاَم، قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

فأضَاف هذا النّصُ بَياناتِ لم يأتِ ذِكْرُهَا في النُّصُوص الأُخرى.

نصوص أحْداثِ وُقُوعِ التعذيب والإهلاك بقوم لوط

(١) جاء في سُورَةِ (القَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا... ﴿٣٤﴾﴾.

وقولُهُ تَعَالى:

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿حَاصِبًا﴾: الحاصبُ، الريح الّتي تَحمِلُ الترابَ وَالْحَصْبَاءَ، فَتَضْرِبُ بِهَا الأَشْيَاءَ، فَيُصِيبُ اللّهُ بها مَنْ يَشَاءُ.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾: أيْ: ولَقَدْ جاءَهُمْ في وَقْتِ الصَّبَاحِ، وهو أوَّلُ النهار عِنْدَ الصُّبح بَدْءُ نُزول العذاب، واستمر طوال الْبُكرَة، وهي أول النهار إلى طلُوع الشمس.

﴿عَذَابٌ﴾: العذابُ: اسْمٌ للعِقَاب والنَّكالِ، فَهُوَ اسم لِمَصْدَر «عَذَّبَ، يُعَذِّبُ، تَعْذِيباً»: أي: عاقب ونَكَّلَ، وأصْلُ العذاب كلُّ مَا يَشُقُّ على النّفس ويُؤلِمُها.

﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾: أي: ثَابتٌ مُتمكّنٌ في مكانِ حُلُوله، حتى انْتِهَاءِ الْبُكْرَة.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٩﴾: عبارةٌ صَدَرَ بها أَمْرُ التكوين الرَّبَّانيّ بأنْ يَذُوقوا عذاب رَبّهم الّذي لم يكونوا يُصَدِّقُونَ رَسُولَ رَبِّهِمْ به، وبأَنْ يَذُوقوا تَطْبيقَ نُذُرِي الَّتي كانَ يُبَلِّغُهم إيَّاها.

(٢) وَجاء في سورة (الأَعْرَاف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾:

فأضَافَ هٰذا النَّصُ أنَّهُ قد جاءهُمْ مِنْ جِهَةِ السَّماءِ أشْيَاءَ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ مُعَذِّبَةً وَمُهْلِكَةً كَما يَنْزِلُ الْمَطَرُ الْغَزير.

وجاء فيه وصْف قوم لوطٍ بأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ، أي: مُرْتَكِبُونَ مِنَ الجرائم ما يجعلهم خالدين في النار يوم الدّين.

(٣) وَجاء في سورة (الشُّعَرَاء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بعد بيان نجاة لُوط وأهله باستثناء امرأته العجوز:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۝١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ۝١٧٣ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٧٥﴾:

فَأضَاف هذا النَّصّ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ دَمَّرَ كُلَّ مَنْ لم يَكُونوا ناجين مع لوطٍ من قومه، وأضافَ أنَّ المطر الّذي أمْطَرَهُ الله عليهم مَذْمُومٌ بعبارة: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾:

أي: الّذِينَ سبق أن أُنْذِرُوا بالعذاب والهلاك.

التدمير: هو الإهلاك باستئصال، ومَحْو المباني وآثارِها حتّىٰ لا يُرَىٰ مِنها شيء، وأصل التدمير تحطيم الشيء الْمُدَمَّر على وجْهٍ لا يُرجَىٰ بَعْدَهُ إصْلاَحُه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: إنَّ في ذَلِكَ الَّذِي أَجْراه اللَّهُ لِقَوْم لوطٍ

وبلادهم وَأشيائهم، لَعَلامَةَ تَدلُّ ذَوي الأَلْبَاب على سُنَّةٍ من سُنَنِ اللَّهِ الجزائية الَّتي يُعَاقِبُ بها المجرمين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾: أي: وما كان أكْثَرهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً مَهمَا أُمْهِلُوا، فاقتضت الحكمة إهلاكَهُمْ أجْمَعِين. ثُمَّ يُجازي اللَّهُ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَوْمَ الدِّين بِحَسَبِ مَا فِي نَفْسِهِ، أَشَارَ إلىٰ هذا قول الله تعالى في آخِرِ النَّصّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ أي: فالّذي يَسْتَحقُّ الْعِقَاب يُعاقِبُهُ اللَّهُ بِعِزّتِه، أي: بقُوَّتِهِ الْغَالِبَة.

والّذي يُلائم ما في داخل نفْسه أَنْ يَرْحَمُهُ فإنَّهُ يَرْحَمُهُ بِحِكْمَتِهِ.

(٤) وَجاء في سُورَة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

هذه العبارة تَكْرِير لما جاء في سورة (الشُّعراء) ومقتضي التكرير كونها بمثابَةِ العلاج الدَّوائي الّذي تَحْتَاجُ طَبَائِعُ النفوس إلى تكريره.

(٥) وَجَاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

فأضافَ هذا النصّ أنَّ تَدْمِيرَ قُرَىٰ قوم لوط كَانَ بِرَفْعِها في الْجَوِّ وَقَلْبِهَا حتّىٰ صَارَ أعلاها أسْفَلَها، وأَسْفَلَهَا أعْلاَهَا.

وأضاف أَنَّ المطَرَ الذي نَزَلَ على قَوْمِ لُوطٍ قَدْ كانَ حِجارةً مِنْ سَجِّيلٍ مَنْضُودٍ.

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾: أي: حجارة أصلها طِينٌ تَحجَّرَ، ورُبَّما كان للنار أَثَرٌ في جَعْلِه مُتحجِّراً.

﴿مَّنضُودٍ﴾: أي: قَد انضَمَّ بعضُهُ إلَىٰ بَعْضٍ باتِّسَاقٍ وَتَرَاصُفٍ مُنْتَظِم، ونزل عليهم كطلقات رَصَاصِ المدْفَعِ الرَّشَّاش.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: مُعلَّمَةً عِنْدَه بعلامَاتٍ تَخُصُّ مُجْرِمي قَوْمِ لُوط، وتَدُلُّ على أنّها مُرْسَلَةٌ بقَصْدٍ لإهلاك قوم لوط.

﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾: أي: وَمَا هي مِنْ ظَالِمِي قوم لُوطٍ بمَكانٍ بَعِيدٍ عنهم. ومَا هٰذِهِ الحجارةُ المسَوَّمَةُ من كُلّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الإهلاكَ بها بمكان بَعِيدٍ عَنْهُمْ في كُلِّ أُمَّةٍ وفي كُلّ عَصْر.

(٦) وَجاء في سُورَة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

فَأَضَافَ هٰذَا النَّصّ أَنَّ صَيْحَة إهْلاكِ قَوْمِ لُوطٍ قَدْ كَانَتْ بَعْدَ إشْرَاقِ الشَّمْس، فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّ الرِّجزَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الصُّبْحِ، قَدْ كانَ رِجزَ تَعْذِيبٍ لهم قَبْلَ إمَاتَتِهِمْ، وأنَّهُ اسْتَقَرَّ فيهم حتَّىٰ جاءَتْهُمُ الصَّيْحَةُ المهْلِكَةُ الْمُمِيتَةُ بَعْدَ شُرُوقِ الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾: ما جاء في هذ العبارة مُكَرَّرٌ لأنّهُ عِلاَجٌ تَرْهيبيٌّ للنفوسِ، تقتضي طبائِعُ النفوس تكريره.

لَكِنْ جَاء في هذا النّصّ إضافَةُ مَا يلي:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: أي: إنَّ في مَواطِنِ إهلاك قوم لوطٍ وَتَدْمِير قُراهم لآياتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ للمتفكّرين بتَعمُّق اسْتدلالاً بِسِمَاتِ الأشياء.

التَّوَسُّمُ: النَّظَرُ الفِكْرِيُّ بِتَعَمُّقٍ في سِمَاتِ الأشياء وصِفَاتها، لِمَعْرِفَةِ دَلَالَاتها، قال أبو عُبَيْدَة: ﴿لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: أي: للمتبصِّرين. وقال ثعلَبُ: الواسِمُ: الناظِرُ إليكَ مِنْ قَرْنِكَ إلَىٰ قَدَمِكَ.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾: أي: وإنَّ قُرَىٰ قَوْم لُوطٍ الَّتِي غَمَرَهَا الْبَحْرُ الميّت لَبِطَرِيق وَاضِحٍ مُقِيم ثَابتٍ غَيْرِ مُتَغَيّر، يُشَاهِدُ مَوَاقِعها مَنْ يَزُور أَرْضَ سَدُوم أَوْ مَا حَوْلها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾: أي: إنَّ في ذَلِكَ الْحَدَثِ العظيم الذي جَرَىٰ لِقَوْمِ لُوطٍ وَقُرَاهم لآيَةً مِنْ آياتِ اللَّهِ على سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عباده المجرمين، وهذه الآيَةُ يَنْتَفِعُ بها الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا.

اسم الفاعل «المؤمنون» بِقُوَّةِ الفِعْلِ المضارع يَصْلُحُ لأنْ يَقَعَ على الحال وعلى الاستقبال[1] بحَسَب الْوَضْعِ اللُّغَوِيّ.

(٧) وَجَاءَ في سُورَةِ (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) عَقِب بيان نجاة لوط وأهله باسْتثناء امرأته العجوز:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾: هٰذِهِ العبارة مُكَرَّرَةٌ اقْتَضَاهَا التَّمْهِيدُ لِمَا بَعْدَها.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

الخطابُ مُوَجَّهُ لكبراء مُشْرِكي قريش وَمنْ كان مثلهم، من الَّذين كانت لهم رِحلات تجاريَّةٌ إلى الشَّام، إذْ كانَتْ قَوَافِلُهُمْ تَمُرُّ بجوار أَرْض سَدُوم، ويُشاهِدُون آثار إهْلَاكِ اللَّهِ عزّ وجَلَّ لِقَوْم لُوط، ومَا أَنْزَلَ بهم من عَذَاب.

---

[1] هذا ما تأكّدَ لديَّ خلال تَدَبُّري للنصوص القرآنية.

وَكان من عادةِ قَوافلهم أَنْ تَمُرَّ بهٰذِهِ المواطن في أَسْفَارِها وَقَدْ دَخلُوا في الصَّباح، أَوْ في اللَّيْلِ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحُوا.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾؟: اسْتِفْهَامٌ عن عَدَمِ تَعَقُّلِهم، والمرادُ حَثُّهم على التعقل، والإنكارُ عليهم إذْ لم يَعْقِلُوا. والعقل هُنَا يَتَنَاوَلُ الْعَقْل العلميّ الفكري، والعقل الإراديّ الَّذِي يَعْقِلُون به أهواءهم وشهواتهم عن الشُّرُودِ إلى مواطن هلاكهم.

فأضاف هذا النصّ أنَّ المخاطبين يَمُرُّونَ في أَسْفَارِهم بمواطِنِ إهلاك قوم لوط، ويشاهِدُونَ آثار تَدْمِيرِ بلادِهم وإهْلاكِهِم، وأنّه كان عليهم أنْ يَعْقِلُوا وَيَتَعَظُوا.

(٨) وَجاء في سورة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن أَرْضِ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَ الإهلاك والتدمير:

﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾:

أي: وتَركنا في أَرَضِهم الَّتي كانوا يَعِيشونَ عليها عَلامَةً بَاقِيَةً دالَّةً على ما أَنْزَلْنا بهم من عَذَابٍ وَتَدْمِير وإهلاك، وهذه الآية يَنْتفِعُ بها الَّذِينَ يَخَافُونَ عَذَابَ اللّٰهِ الأَلِيم.

(٩) وَجاء في سورة (العنكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

بَيْنَ هذا النَّصّ والنَّص الذي قبلَهُ تَكامُلٌ وَاضحٌ.

- فالنَّصُّ الَّذِي في (الذّاريات): ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ ﴾.
- والنصّ الَّذي في (العنكبوت): ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ ﴾.

عبارَة: ﴿فِيهَا ﴾ تَدُلُّ على أَنَّ الله عزّ وجلّ تَرَكَ في أَرْض قوم لُوطٍ آيَةً لَيْسَتْ مِنْها، وَلَكِنْ أُنزِلَتْ عليها وبَقِيتْ فيها.

وعبارة: ﴿مِنْهَآ﴾ تَدُلُّ علَىٰ أَنَّ اللَّه عزّ وجلّ تَرَكَ في أرْض قوم لوط آيَةً هِيَ مِنْها، والمنَقِّبُون الآثاريُّون يَكْتَشِفُونَ في كُلِّ حِينٍ قِسْماً مِنها.

والتكامل بين: ﴿ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وبين: ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تَكامُلٌ وَاضح.

والحمد لله على فتحه ومعونته وتوفيقه

* * *

(٢٢)

الملحق السادس

دراسة تكاملية للنصوص بشأن شعيب عليه السلام وقومه في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد ذكْرُ شعيب عليه السَّلام وذكْرُ قومه في تسعة نصوص من تسع سور، ففي أربعة منها جاء التصريح باسم شعيب عليه السلام، وفي ثلاثة منها جاء ذكر قومه بعنوان: «مَدْيَن» وفي اثْنَيْن منها جاء ذكرهم بعنوان: «أصحاب مَدْينَ» وفي أربعة منها جاء ذكرهم بعنوان: «أصحاب الأيكة» واشتمل كلُّ نصّ منها على لقطات موجزات من مجمل قصة شعيب عليه السلام وقومِه.

«مَدْيَن» هم «أَصْحَابُ مَدْين» وهُمْ أنفسهم «أصحابُ الأيكة».

أُطْلِقَ عليهم عنوان: «مَدْين» باعتبار أَنَّ اسم جَدِّهِمْ «مَدْين» قَدْ أطلق عليهم، فصار علماً لهم. وأُطْلِقَ عليهم عنوان: «أَصْحَاب مَدْين» باعتبار أنهم أَصْحَابُ الأرض الّتي يُطْلَقُ عليها عنوان: «مَدْين». وأُطْلِقَ عليهم عنوان: «أصحاب الأيكة» إذْ كانت لهم أيكة (أي: غيضة) نفيسَةٌ تُقْصَدُ فيها نَاعم الشجر. هذا ما تَرَجَّحَ لديّ من أنَّ أصحاب الأيكة هُمْ من «مَدْين» وليسوا أُمَّةً أخرى، والله أعلم.

الأيكة: ويخفف اللَّفظُ فيقال فيه: «لَيْكة» الشجر الكثيف الكثير المُلْتَفُّ الناعم. وكانَ لأَصْحَابِ مدين غيضة نفيسة تقصد، فيها شجر كثيف كثير ناعم.

وهل «الأيكة» اسم «غيضَتِهم» أو اسم «قَرْيتهم الكُبْرى» احتمالان مذكوران، وقد يبدو رجحانُ أنّه اسم غيضتهم، واللَّهُ أعلم.

وأذكُرُ هذه النصوص التسعة أوّلاً مُرَتَّبةً على وَفْقِ تَرْتيب نُزُول سورها، وبعد ذكرها أشرع في دراستها دراسةً تدبّريّة تكامليَّةً على ما يفتح اللَّهُ به وَفق مشيئته.

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) في معرض الحديث عن مكذّبي الرَّسُول محمد ﷺ من قومه إبّان التنزيل:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾: أي: فثَبَتَ وَعِيدِي في الواقع التطبيقي، بعد كان إنذاراً خبريًا.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن مُشاقّي الرسول محمد ﷺ من كفّار قريش، تلويحاً بإنذارهم بإهلاك عامّ، كما حصل لمكذّبي أهل القرون السّابقة:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)﴾.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي: فثبتَ عِقَابي في الواقع التطبيقي، بعد أن كان إنذاراً خبَرِيًّا، بلَّغهُمْ إيَّاهُ رُسُلِي.

أَصْحَابُ الأيكة: همْ «مَدْين» و«أصْحابُ مَدْين، قوم النبيّ الرسول شُعَيْب عليه السلام، هذا ما ترجّح لديّ من أنّهم أُمّةٌ واحدة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾: أي: أولَئِك أحْزَابُ الكُفْرِ الكِبَار في التاريخ الذين استحقُّوا الإهلاك العامّ الشامل.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وقد سبق تدبُّره في موضعه من السورة:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟

هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ (٩٣) ﴾.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (١٧٦) إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ (١٧٨) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٨٠) ۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ (١٨١) وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (١٨٣) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٩١) ﴾.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ (٨٤) وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ (٨٦) قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ

وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي: وإِنَّ الأَيْكَةَ الَّتي كانَ أصْحابُها قَوْمَ شُعَيب عليه السلام، وإِنَّ أَصْحَابَهَا الْمُهْلَكِينَ، لَتُوجَدُ آثارهم في طَريق واضح.

لفظ «إِمَام» يُطْلَقُ على الطَّرِيق لأَنَّهُ يُؤْتَمُّ بِهِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ الغاية المقصودة.

النَّصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ

وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟!: أي: فكَيْفَ كَان إنكاري عَلَيْهِمْ، بمعنىٰ عِقَابِي الْمُهْلِكُ لَهُمْ إهْلاكَ اسْتِئصَال؟!

النصّ التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشَأْن المنافقين وعموم الكافرين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أوّلاً:

مقدمة

من الملاحظ أنَّ إيراد كلِّ نصٍّ من هذه النصوص التسعة في موضعه من السورة الّتي هو منها، قد استدعته مناسبة داعية لإيراده في السورة، وعسَىٰ أنْ نكْتَشِفَ بَعْدَ تَدَبُّرِها أنَّها مُتَكامِلَةٌ فيما بَيْنَها، ولم يُكَرَّرْ فيها إلاَّ ما يَقْتَضِيهِ إيراد القصة، وحلقَاتُ الرَّبط، وفِقَرَاتُ الإنْذارِ وَتَوْجِيهِ الْعِظَة، وَمَا

كَانَ شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ يُكَرِّرُهُ علَىٰ قَوْمِه، كنَهْيِهِمْ عَنْ رَذَائِلهم الَّتي كَانُوا مُصِرِّينَ على ممارَسَتِها، مِنْها أَكْل أموال الناس بالباطل، والإفْسَادُ في الأرض، وقَطْعُ السُّبُلِ على الناس للعدوان عليهم.

المناسبة التي اسْتَدْعَتْ كلّ نصّ في السورة التي هو منها:

(١) فالنص الذي جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) استَدْعتْهُ حكمة إنذار المكذّبين بنَبأ يوم الدّين، المنكرين للْيوم الآخر، لإعلامهم بأنَّهم إذا أصَرُّوا على موقفهم هذا فإنَّهم يُعَرِّضون أنفسهم للإهلاك، كما حصل للمكذّبين بيوْم الدّين من أهل القرون الأولى.

(٢) والنص الذي جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) استدعَتْهُ حكمة إنذار مُقاومي الرسول محمد ﷺ ومقاومي دَعْوته، الَّذين وصَلُوا إلى مَرْحلَةِ المشاقَّةِ والعِدَاء، والتفكير بإعداد الْقُوَّة المسلّحَةِ لِلْقَمْعِ وإيقاف حركة الدَّعْوَة، وقَطْع دابِرِ أنْصَارِها.

ويتضمَّن هذا الإنذارُ إعلامهم بأنّهم إذا أصَرُّوا على مَوْقِفِهم هَٰذَا فإنَّهم يُعَرِّضون أنفسهم للإهلاك الشّامل، كما حصَلَ للّذينَ وقفوا مِنْ رُسُلِ رَبّهم ومن الذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهُمْ مِثلَ مَوْقِفِهِمْ هَٰذا من أهْلِ الْقرون الأولى.

(٣) والنص الذي جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) استدعَتْهُ حِكمَةُ إنذار المكذّبين بآيات اللّهِ المنزّلاتِ على رسوله محمد ﷺ، واستكبروا عن اتّباع ما جاء فيها من شرائع وأَحْكامٍ ووصايا.

ويتضمن هذا الإنذار إعلامَهُمْ بأنّهم إذا أصَرُّوا على موقفهم من التكذيب بآيات اللّهِ المنزّلات في كتابه، والاستكبار مُعْرِضين عن اتّباعها، فإنّهم يُعَرِّضُون أنفسهم للإهلاك الشامل، كما حَصَلَ للّذينَ كذّبوا بآيَاتِ اللّهِ المنزّلاَتِ على رُسُلِه السّابقين، واستَكْبَرُوا مُعْرِضين عن اتّباعها من أهل القرون الأولى.

(٤) والنّصّ الذي جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) استدعَتْهُ حكْمَةُ إنْذَارِ الَّذِينَ كذَّبوا رَسُول ربّهم محمّد بْنَ عبد الله ﷺ، خاتم أنبياء الله ورُسله.

ويتضمَّن هذا الإنذَارُ إعلامَهُمْ بأنَّهم إذا أصَرُّوا على موقفهم هَٰذَا، فإنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ على مكَذِّبيه، كَمَا نَصَرَ رُسُلَهُ السَّابقين على الَّذِينَ كَذَّبُوهم مِنْ أُمَمِهم، واستكبروا عليهم، وأَعْرَضُوا عن اتّباعهم، وتَمَرَّدُوا على طَاعتهم، من أهل القرون الأولىٰ.

(٥) والنّص الذي جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) مع ما ذُكر في هذه السّورة من أمثلة إهلاك بعض أهل القرون الأولى، استدعتها حكمة تثبيت فؤاد الرّسُول محمّد ﷺ، تُجاهَ ما تَعَرَّضَ له من هزَّاتٍ نفسيَّةٍ بمقتضىٰ بشريّتهِ، بسبب شتائم الَّذِينَ كفرُوا به من قومه، وعَدَمِ استجابَةِ اللَّهِ لمقترحاتهم التعنتيَّةِ الَّتي اقترحوها، وبسبب ضيقِ صَدْرِهِ ببَعْضِ ما يُوحَىٰ إليه، ممَّا يُثير له مشكلاتٍ جدليَّةً مع كُفَّار قَوْمه، أو مشكلاتٍ عدائيَّة.

دلّ على هذه الحكمة قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في أوائل هذه السورة خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

وقولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في أواخِرِها:

﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

(٦) والنص الذي جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) استدعَتْهُ حكْمَةُ مُعَالجةِ أثَرِ اسْتِهْزَاءِ الْمُسْتَهزئين في نفس الرسول ﷺ، بأنّ اللَّهَ عزّ وجلّ سيَنْتَقِمُ منهم، كما انتقم من المستهزئين بالرُّسُلِ السّابقين، وحكمةُ معالجة شتيمَتِهم لَهُ بأنَّهُ لمَجْنُون.

دلَّ على هاتين الحكمتين قولُ الله عزّ وجلّ في أوائل هٰذه السّورة بشأن كفَّار قريش:

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٧)﴾.

وقول الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١١)﴾.

وقولُ الله عزّ وجلّ في آخر هذه السورة:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩)﴾.

(٧) والنص الذي جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) مع ما ذكر في السورة من أمْثِلَةِ إهلاك كفَّار القرون السالفة، قد استدعَتْهُ حِكْمَةُ تَثبيت قُلُوب المؤمنين، بمناسبَة ما تَعرَّضوا لَهُ من فتنةٍ من أجل دِينهم واتّباعهم رَسُولَ رَبّهم، ومَا نَزَلَ بهِمْ من بلاءٍ وتَعْذِيبٍ، من قِبَلِ الكافرين المكَذّبينَ، الّذين اسْتَشْرَىٰ فيهم اضطهاد المؤمنين.

دلَّ على هذه الحكمة قول الله عزّ وجل في صدْرِ هذه السورة:

﴿الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٣)﴾.

وقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

(٨) والنصّ الذي جاء في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣نزول) استدعَتْهُ حكْمَةُ مُعالجة مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ نُفوسُ الْمُؤمِنِينَ مِنْ مَشَاعِرِ استبطاء إنزال العذاب بالَّذِينَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ، وكَذَّبُوا بِمَا جَاءَ به، وحِكْمَةُ مُعالَجَةِ حالَةِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ رَأَوْا فِي تَأْخِيرِ إنْزَالِ الهَلاَكِ الشَّامِلِ بِهِمْ ذَرِيعَةً لإصرارهم على مواقفِهِم.

وأبان الله عزّ وجلّ فيه أنَّ سُنَّتَهُ في الأُمَم كلّها أن يُمْلِيَ لَهَا، ولاَ يُعَجِّلَ لَها العقاب، حتَّىٰ يَنْتَهِيَ كُلُّ رَجَاءٍ مَطْمُوعٍ فِيهِ من قِبَلِ الناسِ باستجابةِ فَرِيق مِنْهُمْ تقضي الحكمة بإضافَةِ إمْهَالِ أخيرٍ من أجلهم.

(٩) والنصّ الذي جاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) استَدْعَتْهُ حكْمَةُ إنْذَارِ المنافقين والمنافقات بأنَّهُمْ عُرْضَةٌ أيضاً لأنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بهم عقوباتِه المعجَّلاَتِ في الدُّنيا، كمَا أَنْزَلَ عُقُوبَاتِهِ المعجَّلاَتِ بكُفَّارِ أَهْل القرونِ الأُولى، لأنَّ المنافقين يَدْخُلُونَ في الحقيقة ضِمْنَ عُمُومِ الكافرين.

فهذا النَّصُّ قَدْ جاء في مَعْرِضِ الحديث عن المنافقين والمنافقات.

وهكذا ظهر لنا أن كلّ نُصّ من هذه النصوص التسعة، الّتي اشتملَتْ على لقطاتٍ من قِصَّةِ شُعَيْبِ عليه السَّلام وقَوْمِه، قَدْ كانَ لمُنَاسَبَةٍ خاصَّة استَدعتْ إيراده، مع أنّنا حينما ندرسُ هذه النصوص دراسةً تدبُّرِيّة تكاملية، فإننا نَجِدُها متكاملةً فيما بَيْنَها، لا مُكَرَّرَة.

* * *

ثانياً:

التدبر التكاملي

وفيه عشرة فصول:

الفصل الأول: مجريات دَعْوَة شعيب عليه السلام لقومه.

الفصل الثاني: مرحلة الجدليات بين قوم شعيب عليه السلام وبينه.

الفصل الثالث: مرحلة اضطهادٍ وتهديدٍ من قوم شعيب له وللذين آمنوا به وجدالٍ منطقي من شعيب دفاعاً عنهم.

الفصل الرابع: مرحلة تهديد قوم شعيب له باستحقاقه الرَّجم لولا رهطُهُ فيهم.

الفصل الخامس: مرحلة تحدّي قوم شعيب له بأن يأتيهم بما يَتَوَعَّدُهُمْ به من عذاب الله.

الفصل السادس: مرحلة توجيه كبراء كفار قوم شعيب إنذارَهم الأخير للذين آمنوا به واتّبعوه.

الفصل السابع: مرحلة إنزال العذاب الشامل المهلك الّذي اسْتأصَل الله به كُفَّار قوم شعيب عليه السلام.

الفصل الثامن: التعقيبُ الرَّبَّاني على إهلاك قوم شعيب عليه السلام.

الفصل التاسع: ماذا فعل شعيبٌ عليه السلام بعد أن أهلك الله قومه ونَجَّاهُ والَّذِينَ آمنوا معه.

الفصل العاشر: العظة بنَبأ إهلاك قوم شعيب عليه السلام.

* * *

الفصل الأول

مجريات دعوة شعيب عليه السلام لقومه

أولاً:

أوّل دعوة شعيب عليه السلام لقومه كانت مقتصرة على ثلاث قَضَايا، دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

دلّ على هٰذه الأَوّلية وُجودُ الفاء في: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾ الدالّة على الترتيب مع التعقيب، عَقِبَ بيان إرْسَالِهِ إلى مَدْينَ مُبَاشَرَةً.

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي: ولَقَدْ أرسَلْنَا إلَى القَوْمِ المعروفين بِاسْم «مَدْين» إذْ أُطْلِقَ عليهم اسْمُ جَدِّهم. أرْسَلْنَا النَّبِيَّ الرَّسُولَ أخاهُمْ نَسَباً ولُغَةً وَمَوْطِناً «شُعَيباً». ووصفه الله عزّ وجلّ بأنَّهُ أَخُوهُمْ مُرَاعَاةً لأُخُوَّتِه لهم فِي النسب واللُّغَةِ والموطن.

- ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: فقال لَهُمْ عَقِبَ إرْسَالِهِ إلَيْهِمْ مُبَاشَرَةً: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: بحَذْفِ يَاء المتكلّم من كلمة «قَوْمِ» وإبقاء الكَسْرَةِ دَليلاً عَلَيْها.

لَقَدْ بَدَأَهُمْ بالأَمْرِ بعبادةِ اللّهِ، لأنَّ هذه العبادة هِيَ الواجب الأوّل بَعْدَ الإيمان به، وإعلان الإسلام له، وإعْلانِ الحرصِ على طاعَتِه.

وأوّل العبادة لله تكونُ بطاعَتِه في فِعْلِ مَا أَمَرَ بفعله، وتَرْكِ ما نَهَىٰ عَنْه، وتكون بِدُعائه لتحقيق المطالب، ثُمَّ بالتقرُّب إليه بمحَابّه فعلاً أوْ تركاً.

- ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾: أي: وآمِنُوا باليوم الآخِرِ الموضوع في

خُطَّة التكوين للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَحْقِيق الجزاء، وتَوَقَّعُوا قُدُوم هٰذا الْيَوْم دواماً، وحُصُولَ مَا جعَلَ اللَّهُ فيه بقَدَرِه وقضائه من ثوابٍ للمؤمنين الَّذِين يَعْمَلُونَ الصَّالحات، وعِقَابٍ للكافِرِينَ وللعصاة الّذِين يَعْمَلُون السّيئات.

الرَّجاء: يأتي في اللُّغة بمعنَىٰ تَوَقُّعِ المرغُوب فيه، وتَوَقُّعِ المخوف مِنه.

فعبارة: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ تَنْحَلُّ إلى جملَتَيْن:

الأولى: وتَوقَّعُوا مَجِيء الْيَوْم الآخِرِ طامِعِين بثواب الله فيه.

الثانية: وتوقَّعُوا مجيءَ اليوم الآخر خائفين من عقاب الله فيه.

ويُؤَكّد أنَّ هٰذِهِ المقولة الّتي وجَّهَها شعيبٌ عليه السّلام لقومه هي المقولة الثانية، أنَّ النُّصُوص القرآنية قَدْ كَثُرَ فيها اقْتران الإيمان بالله بالإيمان بالْيَوْم الآخر، باعتبار أنَّ اليوم الآخِر هو اليوم الْمُعَدُّ في خُطّة التكوين للجزاء الذي هو أثَرُ صِفَتَي الْعَدْلِ والْفَضْل من صفات الله عزّ وجلّ، بَعْد رحلة الابتلاءِ في يَوْم الحياة الدُّنيا.

إنَّ رُكْنَ الإيمان بالْيَوْم الآخر هو الرُّكْنُ الأَعْظَمُ، بَعْد رُكْنِ الإيمان باللَّهِ الرَّبّ عزَّ وجلّ، وبحكْمتِهِ في خَلْق الإنسان، فَهُوَ المقولَةُ الثانية بحسب الترتيب المنْطِقيّ، بَعْدَ مَقُولَةِ الإيمان بالله وفُروع هذا الإيمان.

- ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٣٦﴾.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾: **الْعُثُوّ**: أشَدُّ الفساد، يُقَالُ لُغَةً: عَثِيَ يَعْثَىٰ عُثوّاً، أي: أفْسَدَ إفْساداً شَدِيداً جدًا.

لَقَدْ كان قَوْمُ شعيب عليه السلام من الَّذِين يُفْسِدُون في الأرض أَشَدَّ الفساد بأعْمَالِهم الإجراميّة الظالمَةِ الجائرَة، ولهذا رأى شعيب عليه السلام

من الحكمة أن يجعل مقولَتَه الثالثة لقومه، نَهْيَهُمْ عن العُثُوّ في الأرض مُفْسِدين، من مقولاته الدَّعويَّة لهم.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها.

الفساد في اللّغة: التَّلَفُ والْعَطَبُ، وتحوُّلُ الشيء من كونه صالحاً نافعاً إلى كونه غير صَالح وَلاَ نافع، بل رُبما يصير ضاراً كَرِيهاً مُفسِداً للأشياء الصالحة.

والإفساد: الإتلافُ وتَحْويلُ الشيء عن صلاحه، وقد يَصِلُ إلى جَعْلِ الشيء ضارًّا كَرِيهاً مُفْسِداً للأشيَاء الصالحة.

ويشمل النهيُ عن الإفساد في الْأرض بعمومه، النَّهْيَ عن كلّ الممارسَات الظَّالِمات الجائرات، ذوات العدوان على عباد الله، الَّتي كان قوم شُعَيْب يمارسونها بانتشار عامٍّ فيهم، ومنْها أنَّهم كانُوا من المطفِّفِينَ، إذا كالُوا للنّاس أو وزنُوا لهم يُخْسِرُون، فينقُصُون المكيال والميزَان، ويَنْقصون في الكَيْلِ والوزن، وكانوا يَبْخَسُونَ النَّاسَ أشياءَهم، أيْ: يَنْقُصُونَ قيمَتَها، فلا يُعْطُونهم حقوقهم بالعدْل.

لَقَدْ جعل شعيب عليه السَّلام هٰذه المقولة هي المقولة الثالِثَة من مقولاته لهم، وصار يُكَرِّرُها في بياناته وخُطَبِه لهم، بعباراتٍ مُتَمَاثِلاَتٍ، وبعباراتٍ مختلفات، رجاء أن يُقْلِعُوا عنها، إذ هي من كُبْرَيات الْقَبائِح والمنكرات والرَّذائل الاجتماعيَّة الّتي كانوا يمارسونها ممارساتٍ عَادِيَّة، دون أن يَشْعُروا بحَرَجٍ أَوْ وَخزِ ضمير.

* * *

ثانياً:

ثمّ إنّ شعيباً عليه السّلام زاد في مقولاته الدَّعَويَّة لقَوْمِهِ، مع تكرير نَهْيِهم عن القبائح والمنكراتِ والرَّذائل الاجتماعية المنتشرة فيهم، محتفظاً

بأسلوب البيان الإقناعيّ القائم على الرّفق واللّين في الخطاب، فقال لقومه ما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾:

- قرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامرٍ وأبُو جَعْفَر: **[أَصْحَابُ لَيْكَةَ]**.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[أَصْحَابُ الأَيْكَةِ]**. **لَيكَة**: تخفيف للأيكة.

- قرأ حفْصٌ، وحَمْزَةُ، والكسَائي، وخَلَف: **[بِالْقِسْطَاس]** بِكَسْرِ القاف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[بالْقُسْطَاس]** بضم القاف.

وهما وجهان عربيّان لنطق الكلمة.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾:

﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: هُمْ أصحابُ أرض مَدْين. **الأيكة**: غيضَةُ كثيفة الأشجار، كانت لهم، ومن صفاتها أنها كانت مُلْتَفَّةً تُنْبتُ ناعِمَ الشجر، ولتميُّزِها كان يُقَال لهم: أصحابُ الأَيْكَة.

ويَدُلُّ لفظ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ على أَنَّهُمْ قد جاءهم قبل شعيب عليه السلام رسولٌ أو أكثر، فلَمْ يستَجيبُوا لهم، فأرسلَ الله لهم شُعَيْباً عليه السَّلام، خَطِيباً فَصِيحاً يُعَالِجُ الموضُوع الواحد بأساليب مختلفة إقناعاً وجدالاً وَتَرْغيباً وَتَرْهِيباً.

وجيء بهذه الجملة توطِئَةً للحديث عن قوم شعيب، وربطاً بما جاء قبل هذا النصّ في سورة (الشعراء).

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾؟؟.

أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّهَا المتلَقّي لِتَتَذَكَّرَ آناً ثُمّ آناً قصَّةَ شُعَيْبٍ وقَوْمِهِ للاتّعاظ بهذا التذكّر، إذْ قال شُعَيْبٌ لهم: ألاَ تتَّقونَ عِقَابَ اللَّهِ وعَذَابَهُ على شِرْكيّاتكُمْ وَعلى ظُلْمِكُمْ لِعبَادِ اللَّهِ، ورَذَائِلكُم الاجتماعيَّةِ الشنيعة.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟؟ استفهامٌ يُرَادُ به هُنَا الْعَرْضُ برفْقٍ، ليْسَ فيه أمْرٌ وَلاَ نَهْيٌ ولا تَلْويم.

وقد دَعَاني أن أفهم هذا الْفَهم أنَّ هَٰذَا القول من أقوال شُعَيْبٍ لقَوْمه، قد كان في بداياتِ دعْوَتِه لهم، ولَيْسَ من الحكمة في أوائل الدّعْوَةِ الإنكارُ أو التَّلْويم أو التوبيخ، حتَّىٰ أعْتَبِرَ الاستفهام في عبارة ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ استفهاماً تَوْبيخيًا أو تَلْويميًا، أَوْ إِنكارِيًا.

- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

هذه الجملة موجز كَلاَمٍ وَجَّهَهُ شعيبٌ عليه السَّلام لقومه، أَبَانَ لهم فيه أنّ الله عزّ وجلّ اصطفاهُ بِالنُّبوّة، فأوحَىٰ إِلَيْهِ كما أوحىٰ إلى النَّبِيِّينَ من قبله، واختاره الله أن يكُونَ رسولاً لقَوْمِه الّذين هو منهم نسباً ولساناً وموطناً.

وقد اشتملت هذه الجملة على التأكيد بمؤكِّدَيْن: «إنّ - والجملة الاسمية» مراعاة لمقتضى حال قومه الّذين ظهرت عليهم أمارات عدم التصديق.

وجاء فيها تقديم المعمول ﴿لَكُمْ﴾ علَىٰ عامله ﴿رَسُولٌ﴾ لإفادة التخصيص فهو رسُولٌ لهم خاصّة، على معنى أنّ مهمّة رسالته ووظيفته أنْ يبلّغ قومه خاصّة.

أمّا مضمُون رِسالته فهو مِثْلُ المضمون الذي جاء به سائر رُسُلِ الله لأقوامهم، وعلى كلّ من بَلَغَتْهُ دعْوَتُه أنْ يُؤمِنَ به.

كلمة «رسُول» مصطلَحٌ دينيٌّ يُطْلَقُ على كُلّ نبيٍّ بعَثَه اللَّهُ رسولاً لِقَوْمِه خَاصَّةً، أو للناس جميعاً.

وبَدَهِيٌّ أن لا يختار الله عزّ وجلّ للنُّبوّة والرّسالة إلاَّ مَنْ كان أهلاً لَهُما، وأهلاً للقيام بوظائف رسالته، وتأدية ما يجب عليه فيها، وأَمِيناً في تبليغ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَكلّ حَرْفٍ، وكُلِّ فِكْرَة، وكُلِّ معنًى ممّا أَمَرَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بتبليغه، ولهذا وصَفَ شعيبٌ نَفْسَهُ لقَوْمه بأنَّهُ أمِين، أي: فَهُو لا يَزِيدُ على ما أَمَرَهُ اللَّهُ بتبليغه عن رَبّه، ولا يَنْقُصُ مِنْهُ شيئاً.

- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾:

رَتَّبَ شعيبٌ عليه السّلام على أنّه رَسُولٌ أمين مبعوث لقومِهِ خاصة، كلاماً جاء إيجازُه بهٰذه العبارة.

أي: فاتَّقُوا عذَابَ اللَّهِ الّذي جَعَلَه جزاءَ من كفَر بالله وبرسالَته وبرسوله، واتَّقُوا عذابه الذي جعَلَهُ جزاءَ لمن عصَىٰ أوامِرَهُ ونواهِيَه.

ولمَّا كان اتّقاءُ عذاب الله إنّما يَتِمُّ بمَعْرِفَةِ مطْلُوب اللَّهِ عزّ وجلّ من عباده، وهذا المطلوب إنّما يُعْرَفُ عن طريقِ رُسُله، كانت طاعَةُ الرَّسُولِ جُزْءاً من عُموم طاعة الله، يضافُ إلى هذا أنَّ الله عزّ وجلّ قد أَمَرَ بطاعة رُسُلِه، بنُصوصٍ صريحة، ولهذا طالب شعيبٌ قومَهُ بأن يُطِيعُون.

- ﴿وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾:

هذه العبارة أو نظيرُها جاءتْ في بيانات كلّ الرّسُل الذين عرض اللَّهُ عزّ وجلّ لقطات من قصصهم مع أقوامهم.

أي: ليست لي مصلحةٌ شخصيَّةٌ لديْكُم من دعوتي لكم، ومن صَبْري

على القيام بوظائف رسالَتِي فيكم، وتحمُّلِي أعباءها ومشقّاتها، لكنّي أطلُبُ أجري من ربِّي الّذي أرسَلَنِي إليكم، وكلّفَنِي القيامَ بمهمّات رِسالَتي وَوَظائفها، وتحمُّلِ مشقّاتِ آدائها لكم.

- ﴿۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾:

﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾: أي: اجْعَلُوا الكَيْلَ تامًّا كامِلاً وافياً غَيْرَ منقُوص.

الكَيل: مصْدَرُ «كَالَ» يقال لغة: كالَ الحبَّ أو نحوه من جامدٍ أو سائل كَيْلاً وَمَكالاً، أي: قَدَّر كميَّتَهُ بالمكيال، وهو كلُّ وِعاءٍ تعارَفَ الناسُ على مقدار ما يسْتَوعب، فتُكَالُ به الأشياء لمعرفة مقدار حَجْمها.

وقد كان أهل مدين يَتَلاعبون بالكَيْل وبالمكاييل، فينقصون الناس حقّهم إذا كالوا لهم، أمّا إذا كالُوا لأنفسهم من الناس، فإنّهم يوفون أو يَزِيدُونَ على الوفاء بالاحتيال، فيأكُلُونَ أموال النّاس بالباطل.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾: أي: ولا تكونوا من الذين يَنْقُصُونَ النّاس حقوقهم.

يُقَال: أخْسَرَ فلانٌ، الشيءَ، أي: نَقَصَه.

أمَرَهُمْ شعيبٌ عليه السلام بالوفاء، ونهاهم عن ضِدِّه الذي هو الإخسار، وهو النَّقْص، مع العلم به من الأمر بالوفاء، لأنّ الأمْرَ بالشيء نهيٌ عن ضدّه بداهةً، إلاّ أنّ النصّ تضمّن الدّلالة على أن شعيباً عليه السلام قد كان خطيباً بارعاً، ومن براعته في خطابته أنَّهُ كان يأمُرُ بالشيء، وينْهَىٰ عن ضِدِّه، لإيضاح مقُولاَتِه إيضاحاً لا يحتمل التأويل.

- ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾: أي: وزنوا بأضبط الموازين، وأقْوَمِها، وأعْدَلِها.

القِسْطاس: بضم القاف وكَسْرِها، أضْبَطُ الموازين وأقْوَمُها وأعْدَلَها.

المستقيم: المعتدل المستوي، الذي تُوزَنُ به الأشياء فلا يزيد على مقاديرها الحقيقيَّة، ولا ينقُص منها.

والمراد بإضافة هذا الوصف التنبِيهُ على وجوب عدم التلاعب بما يُسَمَّى في أعرافهم قسطاساً.

وقد كان أهل مدين يتلاعبُونَ بالوزن وبالموازين، ليأكلوا بتلاعُبِهم أموال الناس بالباطل، فأمَرَهم رسُولُهم شعيبٌ عليه السلام بأنْ يَزِنُوا بالقسطاس المستقيم، وفي هذا نهيٌ لهم عن التحايل بالْوَزْن وبالموازين، ليأكُلُوا أموال الناس بالباطل.

- ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: أي: وَلاَ تَنْقُصوا النَّاسَ أشْيَاءهم، سواءٌ أكان ذَلِكَ عن طريق الكَيْل أم المكيال، أم عن طَرِيق الوزن أم الميزان، أم عن طريق آخر، ففي هٰذِهِ العبارة تعميمٌ بَعْدَ تخصيص.

هذه العبارة مع الأمر بالوفاء في الكيل والوزن، وعَدَم الإخْسَارِ فيهما، من المكَرَّراتِ في النُّصُوص، للدّلالة على أنْ شُعَيْباً عليه السلام كان يُكَرِّرُها في دَعْوَتِه ونصائحه ووصاياه لقومه، إذْ لَمْ يكُنْ يَجِدُ لديهم استجابَةً لما يَدْعُوهم إليه.

الْبَخْسُ: النقص، وفعل «بخَسَ» مثل فعل «نقص» يتعدىٰ إلىٰ مفعولين. يقال لُغة: بَخسَ فُلاَنَ فُلاَنا حَقّه، أي: نقَصَهُ حقَّه.

والنقص عن الحقّ مع العلْمِ لاَ يكونُ إلاَّ بِظُلْم، وقَدْ تُسْتَخْدَمُ فيه وسائل الاحتيالِ والكَذِبِ والمخادعة.

إنّ أقوال شعيب عليه السلام لقومه، الّتي تدلُّ عليها عبارات:

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.. تُفِيدُ أنَّ شعيباً عليه السلام كان يَلْجأُ في

خطاباته ومواعظه لقومه إلى أسْلُوب الإطناب، لأنّ أحوالهم كانت تقتضي ذَلِك، ولأنَّهم كانوا يَفْعَلُونَ بالتفصيل كلّ هٰذِهِ الرَّذَائِلِ والعدوانَاتِ على عباد الله من قومهم ومن غير قومهم.

إنَّ بعض هذه العبارات كانت تكْفِي، للدّلاَلَة على أنّه يَحْرُمُ عليهم دِيناً وبمقتضَىٰ العقول السليمة العدوانُ على الناس في حقوقهم، لكنَّ أحوالهم النفسيَّة والسُّلُوكِيَّة والفِكْرِيَّة، كانت تقتضي الإطنابَ بتفصيل.

وقد كان من فصاحَتِه عليه السّلام، أنّه يُنَوّعُ في الكَلِماتِ وفي الأساليب، ويأتي للدَّلالة على المعنى الواحد من وُجُوهٍ مختلفة، فمرَّةً من جهة الإيجاب ومرَّةً من جِهَةِ السَّلْب، ومرَّةً بِتَعْيين القضيَّة، وأُخْرَىٰ بإدْخالها ضِمْنَ قضيَّةٍ عامّة.

وهكذا تكُونُ براعَةُ الْخُطَباء.

والله عزَّ وجل يَعْرِضُ عَلَيْنا بحكْمَتِه نماذِجَ من طَرائِقِ شُعَيْبٍ عليه السَّلام في دَعْوَته لقومه، ونُصْحِهِ لهم، ليُعَلِّمَ الدُّعَاةَ إلى دين الله، وخطباءَ الدَّعْوَةِ والأمْرِ بالمعْرُوفِ والنَّهْي عن المنكر، كَيْفَ يَكُونُ تَصريفُ الكَلامِ وَتَنْويعُهُ حَوْل قضيَّةٍ واحِدَةٍ يَهْتَمُّونَ بمُعَالَجَتِها، إذْ لَيْس من المستَحْسَن في نفوس الناس تكْريرُ الْجُمَلِ والأَلْفاظ تكريراً متطابقاً، ما لم تكُنْ من الكليّات العامّة، الّتي يرادُ تَثْبيتها وتَرْسِيخُها، وتَفْرِيعُ الفروع الكثيرة عليها، مثل عبارات التوحيد، والأمر بعبادة الله، ومثل كليّة: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ الّتي جاءت مُكَرَّرَةً في مقولات شعيب لقومه بصِيغتها دون تَنوِيعٍ، في مُخْتَلِفِ المواقف الداعية إلى التنبيه على مضْمُونها، أو التَّذكير به.

ومن المعلوم أنّ التحايلَ والتلاعُبَ في الكَيْلِ والمكاييل، وفي الْوَزْنِ والموازين، هو من أكل أموال الناس بالباطل، وهذا يَدْخُلُ في عُمُومِ «بَخسِ

النَّاسِ أشْيَاءَهُمْ» وكُلُّ ذَلِكَ من الظُّلْم الَّذِي حَرَّمَهُ الله على نَفْسِه، وَجَعَلَهُ بين عِبَادِه مُحَرَّماً.

● ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾:

سبَقَ تَدَبُّر نظير هٰذِهِ العبارة في النّصّ الذي من سورة (العنكبوت) وأضيف هنا بيان أنّ الإفساد يَشْمَلُ إِفسادَ أَخْلاَقِ الناس، وإِفْسَادَ سُلُوكهم، وإِفْسَادَ أفكارِهم ومَفْهُومَاتِهم، ويشملُ إِفْسَادَ الأشياء والأحياء، ومنه إفساد العمران الحضاريّ، وإفساد المدُن والْقُرَى، وإفساد النَّباتِ والجوّ، والإفسادُ في الجيناتِ الوراثية.

ونُلاحظ في زَمَانِنَا الّذِي نَعِيشُ فيه، أنَّهُ قَدْ ظهَرَ الْفَسَادُ في البرّ والْبَحْرِ والجوّ بما كَسَبَتْ أيدي الناس ظهوراً شنيعاً فَاحِشاً.

ومن مظاهر هذا الفساد في الأرض انْتِشارُ الفواحِشِ والمنكرات في المجتمع البشريّ، وانتشارُ الأوجاع والأمْرَاض والأسْقام، الّتي هي نتائجُ معاصِي الناس لِرَبِّهم، كمَرَض «الإيدْز».

ومن مظاهر إفساد الناس في الأرض نقص طبقة الأوزون في الجو، من جرّاء سوء استخدام الناس للموادّ الكيمائيّة، والغازات القواتل للأحياء.

فالإفساد في الأرض من أخْطَر أنواعِ السُّلوك الإنسانيّ، ومِنْ أجْلِ ذلك نهىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ عنه في كلّ الرسالات التي كَلَّفَ رُسُلَه أن يُبَلِّغُوها للناس، فَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ المفسدين، بلْ يَنْتَقِمُ منْهُمْ ويُهلِكُهم.

● ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾:

الْجِبِلَّة: الْأُمَّةُ مِنَ الْخلق، والجماعَةُ من الناس.

أي: واتَّقُوا عِقَابَ وَعَذَابَ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ، بالإيمان به، وبالإِسْلاَم له، وبطاعَتِه في أوامِرِه ونواهِيه.

فَمَنْ كان لدَيْه عقْلٌ وبَصِيرة، وعَلِمَ بأحوال الأُمَم السّالِفَة، ومَا أنْزَلَ اللَّهُ بالكافرين من عذابٍ وهلاكٍ شاملٍ، اقتنَعَ واتَّعَظَ، فلَمْ يُعَرِّضْ نَفسَه لسَخَطِ اللّهِ عليه بمعصيتِه من الكبائر، حتَّى لاَ يكُونَ عُرْضَةً لعِقَابِه العادلِ الذي لا مَحِيصَ عنهُ إلاَّ بالاسْتِغْفار والتوبة الصَّحيحة الصادقة، فاللَّهُ جلَّ جلالُهُ غفُورٌ رَحِيمٌ بِعِباده.

* * *

ثالثاً:

ثُمَّ وَسَّعَ شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ مَقُولاته في دَعْوَتِه لِقَوْمه، مع محافظته على أُسْلُوبِ الرِّفْقِ واللّين في القول.

فقال لقومه مَا جاء بيانُه بقول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

- قرأ الكِسَائي وأبو جعفر: [**مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غيْرِهِ**] بِكَسْرِ الراء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غيْرُهُ**] بضمّ الراء.

الكَسْرُ رُوعي فيه لفظ «إله» المجرور بحرف الجرّ الزائد. والضمّ روعي فيه محلُّ لفظ «إلَه» وهو الرفع.

- قرأ نافع، والْبَزّي، وأبو عَرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ أَرَاكُمْ**] بفتح ياء المتكلّم، وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**إِنِّي أَرَاكُمْ**] بإسْكانِ ياء المتكلم.

القراءتان وجهان عرَبيان لنطق يَاء المتكلّم.

● قرأ نافع، وابنَ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[وَإِنِّيَ أَخافُ]** بفتح ياء المتكلّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[وَإِنِّي آخافُ]** بإسْكان ياء المتكلم.

* * *

● ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: هٰذه الجملة بدايَةٌ للرَّبط بما قبلها في السورة، وهي تَوطئة لازمة للحديث عن شعيب وقومه، فتكْريرها في بعض النّصُوصِ تَسْتَدْعيه الحاجة في النصّ للرَّبْط والتوطئة. وقَدْ سبَقَ تَدَبُّر نظيرها.

● ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾:

هذه العبارة وَجَّهَها كُلُّ رُسُلِ اللّهِ لأقوامهم، لأَنَّها الفرع الأول من فروع القاعدة الإيمانية، الّتي هي جذْرُ شَجَرَةِ الدّين.

وقد سبَق تَدبُّر عبارة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ في النصّ الذي من سورة (العنبكوت).

لكِنْ جَاء في هٰذِهِ العبارة إضافَةُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ على ما جاء في النصّ الذي من سورة (العنبكوت).

لَقَدْ كرّر شعيبٌ عليه السلام لقومه الأمْرَ بعبادة الله، لأنّهم اسْتَمَرُّوا مُصرين على الاستغراق في أمور دنياهم، مُبْتَعِدين عن عبادةِ ربّهم وعن طاعته، واستَمَرُّوا على التخبُّطِ في أوحالِ كبائر الإثم والجرائم الّتي تُدْرِك العقولُ بالْبَديهة قباحَتَها وشناعتها. وأنَّها من الظُّلم الفاحِشِ لعباد الله.

ودلَّتْ عبارة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ عَلَىٰ أَنّهم كانوا مُشْرِكين لهم عباداتٌ شِرْكِيَّةٌ لغَيْرِ الله عزَّ وجلَّ، فأبان لهم عليه السلام أنّه ليس لهم في الوجود كُلّه من معبود يستحقُّ أَنْ يُعْبَدَ إلاّ اللّهُ وحْدَه لا شريك له، أي: لأنّه لا ربّ في الوجود كُلّه غير الله جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطانُه، فلا

إلَـه يُعْبَدُ بحقٍّ سواه، وكلُّ إلَـهٍ يُتَّخَذُ من دون الله فهو باطلٌ لاَ حَقِيقَةَ لإلَـهيّته، وما الآلِهَةُ الّتي يَعْبُدُها المشركون إلاَّ أسماءٌ سَمَّوْها من عِنْدِ أنْفُسِهم، ولَيْسَ لها من الإلَـهِيَّةِ شيْءٌ مُطْلقاً، إذا كان لها وجود في الواقع، كالملائكة والجنّ وأرواح الموتَىٰ من الصالحين وغير ذلك من أشياء أو أحياء، وإلاَّ فَهِيَ أَوْهَامٌ وتخيُّلاَتٌ باطلات.

وهذه العبارة تَدُلُّ عَنْ طريق اللُّزُوم الذهْنِيّ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ في اللَّفْظِ مُلاحَظٍ في الذِّهْنِ بعْدَ عبارة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبُدوا اللَّهَ ووَحِّدُوهُ في العبادة، ولاَ تُشْرِكُوا به شيئاً، لأنّه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾.

- ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾:

﴿ٱلۡمِكۡيَالَ﴾: ويجمع على «مكاييل» وعاء خاصٌّ يَتَعَارفُ الناس على مقدار مع يستوعِبُ في فراغه، تكالُ به الأشياء التي توضَعُ فيه لمعرفَةِ مقادير حجُومها، جامدةً كانت أَمْ سائلة. وقد يُراد بالمكيال الكَيْلُ.

﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾: ويجمع على «مَوازِين» آلَةٌ تُوزَنُ بها الأَشْيَاء لمَرِفَةِ مقادير ثِقَلِها. وقد يُرادُ بالميزان الْوَزْن.

ويُطْلَقُ لفظ «الميزان» أيضاً على الواحد من السَّنج الّتي تُوضَعُ بإحْدَىٰ كفَّتَيْهِ، ليُوزَنَ على مقدارها في الكِفَّةِ الأُخرى.

وقد دلَّ نَهْيُ شعيب عليه السلام قومَهُ عن نَقْصِ المِكْيَالِ والميزانِ، على أنَّهُمْ كانُوا ينقصون في معايير مكاييلهم وموازينهم، فيَجْعَلُونَ مِكْيالاً نَاقصاً يكيلُونَ به للناس، وهو مُشَابِهٌ في الصُّورَةِ لِلمِكْيَالِ الصّحيح، الّذي يَكيلون به لأنْفُسِهِمْ من أموال الناس، وقد يكيلُون لأنفسهم بمكاييلَ زائدة على المكاييل الصحيحة المتعارف عليها. ويَجْعَلُونَ موازينَ تنقصُ من مقدار الحقّ الذي للناس، فَيَزِنُونَ لهم بها، وموازين أخرى وافية أو زائدة يَزِنون بها لأنفسهم، هي مشابهةً في الصورة للموازين الصحيحة.

ولمَّا كانت أعمالهم هذه من أكْلِ أَمْوالِ النّاسِ بالباطل، كان من عناصر نُصْحِهِ عليه السّلام في دَعْوَته لهم، أَنْ ينهاهم عن النقص في المكيال، وعَنِ النَّقْص في الميزان.

وسَبَق في النّصِّ الذي من سورة (الشعراء) بيان أَنَّه قال لَهُمْ:

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

ومُؤَدّىٰ العبارات واحد، إلاَّ أنَّه كان عَلَيْهِ السَّلاَمُ لبَرَاعَتِهِ البيانيَّة يُنَوِّعُ لهم في العبارات، ابتعاداً عَنِ التكرير المتطابق.

وعلى كلّ الأَحْوال فإنَّ البيان القرآنيّ لاَ تَكْرِيرَ فيه، لأنه يُعَبِّرُ عَنِ الواقع المتكَرِّرِ الذي كان في خُطَبِ شعيبٍ عليه السلام وأحاديثه ونصائحه لقومه.

- ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾: أي: إنّي أَرَاكُمْ بِسَعَةٍ وَنِعْمَةٍ وَوَفْرةٍ من الرّزق، فلا دافع لَكُمْ لتَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بالباطِلِ إلاَّ الطَّمَعُ في الثراء الواسِعِ من أموالِ الضُّعَفَاءِ، وأَهْلِ السَّذَاجَةِ الَّذِينَ لاَ يكْتَشِفُونَ حِيلَ المتحايلين، وتَلاعُبَاتِ المتلاعبين.

وهؤلاء المتحايِلُون المطَفِّفُونَ يَسْتَهِينُونَ بِظُلْمِ عِباد اللَّهِ والْعُدْوانِ على حُقُوقِهم.

- ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾:

عذابُ هذا الْيَوْمِ المحيط، إمَّا أَنْ يكُونَ عَذَابَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّام الدُّنيا، كالأَيَّام الّتي أَهْلَكَ اللَّهُ عزّ وجلَّ فيها وعَذَّبَ مُجْرِمي الأُمَمِ السَّالِفَةِ، وإمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِه عَذَابَ يَوْمِ الدِّينِ، بَعْدَ الْبَعْثِ للحساب وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء.

ولا مانع مِنْ حَمْلِ العبارة على هَذَيْنِ المعنَيَيْنِ معاً، واللَّهُ أعلم.

وقد جاء في هٰذِهِ العبارة وصْفُ هذا اليوم بالإحاطَةِ، لإعْلاَمِهِمْ بأنَّه يَوْمٌ لاَ بُد أَنْ يُدْرِكَ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ بالعذاب، إذْ أزْمَانَ ذَلِكَ الْيَوْمِ المحيط بهم مَمْلُوءَةٌ بأحداثِ تَعْذِيبهم، وبوسائل تَعْذِيبهم، وزَمَانُهُ جَارٍ علىٰ كُلِّ واحدٍ مِنهُمْ لا مَحَالة.

بخلاف ما لو كانت الإحاطةُ وَصْفاً للعذاب، فقد يُتَوَهَّمُ معها أَنَّ العذَابَ الّذي يُحيطُ بالْقَوْم قَدْ لاَ يُصِيبُ بعض أفرادِهم المتخلِّلِينَ في الوسَط.

فَوَصْفُ يَوْمِ العذاب بالإحاطة بهم أُبلَغُ في الدَّلاَلَة على أنَّهُ لاَ يَنْجُو مِنهُمْ أحَدٌ.

● ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: أي بالْعَدْل، وهو التَّسَاوِي بين حقِّ صاحب الحق، وبَيْنَ مَا يُؤَدَّىٰ إلَيْه. **الْعَدْلُ**: هو إعطاءُ كلّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

دلَّتْ هذه الفِقْرة على أنّ شُعَيباً عَلَيْهِ السَّلامُ، قَدْ كَانَ يُكَرِّرُ على قومه النهْيَ عَنْ رَذِيلَةِ النقص في المكاييل والموازين بعبارات مختلفات، وأضاف هذا النصّ عبارة: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: أي: أَوْفُوا الكَيْلَ والمكيالَ والْوَزْنَ والميزان وفاءً مُتَّصِفاً بالقِسْط.

وكرَّرَ عليه السَّلامُ على قومه عبارَتَيْ: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ و﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ لأنَّهما من الكليَّات اللاَّتي يَحْسُنُ تَكْرِيرُها لترسِيخها، وبنَاء الفروع عليها.

فالعبارة الأولى قد جاءت في النصّ الذي من سورة (هود).

والعبارة الثانية قَدْ جاءت في النَّصّ الذي من سورة (العنكبوت) والنَّصّ الذي من سورة (هود).

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هاتَيْنِ العبارَتَيْن.

- ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

[**الْبَقِيَّةُ**]: مَا يَبْقَىٰ مِنَ الشيء، وَبَقِيَّةُ اللَّهِ هِيَ مَا يُبْقِيهِ اللَّهُ لِعَبْدِه من خَيْرٍ عاجلٍ أو آجل، فالعاجِلُ من الرِّزْق، مَا يَنْتَفِعُ به الإنْسَانُ في الحياة الدُّنيا، والآجِلُ مِنْهُ لِيَوْمِ الدِّين، ما ادَّخَرَهُ اللَّهُ وأبْقَاهُ لعبادِه المؤْمِنِين المتقين، يَنَالُونه في جنَّاتِ النَّعِيم رِزْقاً خَالِداً، غَيْرَ مَقْطُوعٍ ولا مَمْنُوع.

دلَّ هٰذا الموجَزُ القرآنيُّ على أنَّ شعيباً علي السَّلام قَدَّم بَيَاناً إقناعيًّا لقَوْمِه، بأنَّ ما يُبْقيه اللَّهُ لَهُم من رِبْحٍ أَذِنَ لهم به في تجاراتهم، وبيعهم وشرائهم وسائر مجالات كَسْبِ الرِّزْق، وما يُبْقِيه لَهُم من ثوابٍ جزيلٍ على طاعَتِهِمْ لِرَبِّهم، واسْتِقَامَتِهِم على صراطِه المستقيم، خَيْرٌ لَهُمْ في الدنيا والآخِرَة.

أمَّا مَا يَأْكُلُونه مِنْ أمْوَالِ النَّاسِ بالباطِلِ بوسائل التطفيف في المكاييل والموازين، وبَخْسِ الناس أشياءَهُمْ، والْعُتُوِّ في الأَرْضِ مُفْسِدِين، فسَيَمْحَقُهُ اللّه، ويَمْحَقُ مَعَهُ بَعْضَ حَلالِ أَمْوالهم، مع ما يُلاقُونَهُ من عذابٍ بِهِ في الحياة الدُّنيا، ثمّ من عَذَابٍ على معصيَةِ اللَّهِ فيه بالْعَدْلِ يَوْم الدِّين.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بِمَا أَدْعُوكُمْ إلى الإيمان به، وتَعْمَلُونَ بما يُوجبهُ عَلَيْكُمْ إيمانُكُمْ.

فإنْ لم تُؤْمِنُوا فإنَّ نُصْحِي لَنْ يَنفَعَكُمْ بشَيْءٍ، وسَتَسْتَمِرُّون على ظُلْمِكم وعُدْوانِكُمْ على عباد الله، وعلَىٰ قبائحكُمْ ومُنْكَرَاتِكُمْ.

- ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٤﴾﴾:

الحفيظ: القائم بعناية على حراسةِ وصيانَةِ ما هو مسؤولٌ عَن حفظه، والقائمُ بأداءِ حُقُوقه بأمانة، دون خيانةٍ ما، والمواظبُ على القيام برعايته،

وفِعْلِ ما يجب فِعْلُه، واجْتِنَاب ما يجب تَرْكُه، من كلِّ ما يقتضي حفظَهُ سالماً، لا يَتعرَّضُ لضرٍّ أَوْ أذىٰ، ممّا يَمْلِكُ رَدَّهُ أو دَفْعَه أو تَحْوِيلَه.

كَحَارِسِ قَطِيعِ الأغْنَامِ أو الأبقار القائم بصيانتها، وعَمَلِ كُلِّ ما يقتضي سلامَتَها، ولو بإكراهها، وسَوْقِهَا بِشِدَّةٍ إلى مواطِنِ سلامَتِها وحفظها من كُلِّ مَكْرُوه.

فالحفيظ مُكْرِهٌ مُجْبرٌ سَائِقٌ أو قائدٌ، يَصُونُ ويَحْمِي وَيُؤَدِّي وظائف حفظ ما يرعَاه بكلِّ أمانة، وعلى مقدار ما يَسْتَطيع.

فقول شعيب عليه السّلام لِقَومه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ معناه: وَمَا أنا مُرْسَلٌ إليكم لأكُونَ مُسَيْطِراً عَلَيْكُمْ، أَحْفَظُكُمْ بسُلْطان الجبر والإكْراه، من عَذَابِ رَبِّكُمُ الْعَاجِل والآجل، إنّما أنا مُبَلِّغٌ فقط رِسالَةَ رَبِّي إليكُمْ.

وهذا الذي أبانَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السّلام لقومه، قد أبانه اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ في عِدَّةِ نُصُوص:

- فقال له في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

- وجاء في هذه السورة أيضاً أنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ قد قال لِقَوْمه: ومَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفيظ، فقال الله عزّ وجلّ فيها مُبَيِّناً بعْضَ مقالاته لقومه:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

- وجاء في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ لرسُولِهِ مُحمَّد ﷺ بشأن إعراض قومه عَنْ دَعْوَته:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ . . . ﴿٤٨﴾﴾.

- وجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قولُ اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ بشأن مَنْ يَتَوَلّىٰ مُدْبراً عَنْ دَعْوَتِهِ:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

ومع أداء هذا المعنى الذي هو الأساس في عبارة شعيب لقومه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ فإنّ هذه العبارة تَحْمِلُ دَلاَلَةً أُخْرَىٰ، وَهِيَ أَنَّ شُعَيْباً عليه السّلاَم أَلْمَحَ إلى قَوْمِهِ ضِمْناً، أَنَّه مَهْمَا كَانَ رَحِيماً بِهِمْ، حَرِيصاً على دَفْعِ الضُّرِّ عَنهم، لأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَفِيهِم عَشِيرَتُه وَرَحِمُهُ، وهو واحدٌ منْهُم نَسَباً وَلُغَةً وَموْطِناً، ومَهْما كانت لهم في قَلْبِه مَكَانَةٌ، وَمَهْمَا كانَتْ لَهُ دَالَّةٌ علىٰ رَبّه، فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يكُونَ حَفِيظاً عليهم، يَقِيهِمْ مِنْ عَذَاب الله، إذا أراد الله عزّ وجلّ بحكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ، وَيُنْزِلَ بهم نِقْمَتَهُ وَعَذَابه.

إنّما يَقِيهم من عذاب الله إيمانُهُمْ وطَاعَتُهُمْ لربّهم، واتّباعُهُم ما أُنْزِلَ إليهم من رَبِّهِمْ.

* * *

رابعاً:

ثُمَّ إنَّ شُعيباً عليه السَّلاَمُ شَدَّدَ وَأَكَّدَ وزَادَ في مَقُولاتِهِ لِقَوْمه، فقال لهم مَا جاء بيانُه في سورة (الأَعْرَاف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

● قرأ الكِسَائي وأبو جَعْفر: [مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ] بِكَسْرِ الرَّاء.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ] بِضَمّ الرّاء.

وقد سبق أكثر من مَرَّة توجيه هاتين القراءتين.

● قرأ قُنبُل، ورُوَيس، وقرأ بالإشمام خَلَفٌ عَنْ حَمْزَة [سِرَاطِ] بالسين. وقرأ باقي القراء العشرة: [صراطِ] بالصاد.

سِرَاط وصِرَاط، لغتان عَرَبيتان في نطق هذه الكلمة.

● ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: هذه الجملة بدايَةٌ للرَّبط بما قبلها في السّورة، وتوطئة لازمة للحديث عن شعيبٍ وقومه، فتكْرِيرُهَا تَسْتَدْعِيه الحاجَةُ في النّصّ للرَّبْطِ والتوطئة.

وقد سبَقَ تَدَبُّر نظيرها.

● ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾:

هذه العبارة قد سبق نظيرها، وتكْرِيرُها ممَّا تَدْعُو حاجَةُ الدَّعْوَةِ الرَّشيدَةِ إِلَيْه، لأنّها من أوّليات فروع عناصِرِ القاعِدَةِ الإيمانية، الّتي اسْتَمرَّ قَوْمُ شعيب على الكفر بها حتّىٰ إهلاكهم، فكان من الحكمة أن يُكَرِّرَها عليهم في دَعْوَته.

وقد سبَقَ تَدَبُّرها في بعض النصوص السابقة في هذا الملحق، فلا حاجَة إلى إعادة البيان التفصِيليّ حولها.

● ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

﴿بَيِّنَةٌ﴾: صفةٌ لموصوف محذوف لفظاً مُرَادٍ في المعنى. **والبيّنَة** في اللّغة هي الواضحة الظاهرة، الّتي لا شَكّ فيها، ولاَ غموض، ولا غَبشَ عليها، من «بَانَ الشّيءُ يَبِينُ بيَاناً» أي: اتَّضحَ، فهو «بيِّنٌ» وهي «بَيِّنَةٌ».

وقَدْ أُطْلقَتِ البيِّنَةُ في القرآن على الرّسالة الرَّبّانيّة الواضِحَة، وعلى الرّسول، وعلى الصُّحُف المنَزَّلة من عند اللّهِ عزّ وجلّ، وعَلَىٰ الآيات والمعجزات الواضحات الجليّات الشاهدات على أنّ من أجراها الله عزّ وجلّ له صادقٌ في نُبُوَّتِه ورِسالَتِه وفيما يُبَلِّغ عن ربّه.

والمرادُ بالبيّنَةِ هُنَا على ما يظهر، مَا أنزل الله عزّ وجلّ على شُعَيْبٍ عليه السّلام من آياتِ الصُّحُف أو الكتاب الّتي اشتملَتْ على رسالات الله الّتي كانَ يَتْلُوها على قَوْمه، مُبلِّغا إيّاها عَنْ رَبّه كُلَّمَا أُنزِلَ علَيْه شيءٌ منها. وما آتاهُ اللَّهُ من آياتِ مُعْجزاتٍ تَدُلُّ علَىٰ أنَّهُ رَسُولٌ لهم من رَبّهم، مؤيَّدٌ مِنْهُ بما يُثْبِتُ نُبُوَّتَهُ ورِسالَتَه.

- ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾:

هاتان القضيَّتَانِ اللَّتَانِ جاءَتَا في هٰذِهِ العبارة، هُمَا من مقولات شعيب عليه السلام المكرَّرَاتِ الّتي جاءت في البيانات السابقات المعَبِّرَاتِ عن مَقُولاَتِه لقومه.

والدَّاعِي إلَىٰ تكريرها في البيان القرآني، الدَّلاَلَةُ على أنَّ شُعَيْباً عليه السَّلام قَدْ كَانَ يُكَرِّرُها في بيانَاتِه لِقَوْمِه، في خُطَبه وأحاديثه ونصائِحه وَجَدَليَّاتِه وتَحْذِيراته وإنذارته، لأنَّهم قد اسْتَمَرُّوا على ممارساتهم في ظلْم الناس والعدوان عليهم، بإخْسَارِ الكيْلِ والميزان، وَبخس الناس أشْيَاءَهم.

وقد سبَقَ تَدَبُّر نظير هذا البيان، فلا حاجة للإعادة، إلاَّ أَنَّ وجود «الفاء» هنا في [فَأَوْفُو] قد دلَّ على أنَّ شعيباً عليه السَّلام قد رَتَّبَ هٰذا البيانَ تَرْتيباً عقليًّا مَنْطِقِيّاً على أَنَّهُمْ قَدْ جاءَتْهُمْ بيِّنَةٌ من ربّهم ذاتُ بُرهانٍ دامِغٍ على أَنَّهُ نبيٌّ وَرَسُولٌ مَبْعُوثٌ لَهُمْ لهدايتهم مِنْ رَبّهم، وهٰذِهِ البيّنَةُ الدامغَةُ تَقْطَعُ كُلَّ عُذْرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا به لَدَى رَبِهم، في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء يوْمَ الدّين، أو يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لهم عُذْراً يمْنَعُ إِنْزَالَ العذابِ والْهَلاَكِ عليهم في الحياة الدنيا.

فهٰذِهِ الْفِكْرَةُ مِنَ الإضافات الّتي اشْتَمَلَ عليها هٰذا البيان، ولا يُوجَدُ نظيرٌ لَهَا في سائر النُّصُوص.

- ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾:

لَقَدْ تَكَرَّرَتْ في النُّصُوص السَّابقة عبارة: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ باعتبار أنّها من الكُلّيَّاتِ الكُبْرَى الّتي يَحْسُنُ تَكْرِيرُهَا لِتَرْسِيخِها، إذْ تتفَرَّعُ عَنْهَا فُرُوعٌ كثيرة.

أمّا هٰذِهِ العبارة: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ فإنّها لم تَرِدْ في سَائر النُّصوص الخاصَّة بشُعَيْب عليه السلام وقومه، إلاّ أنّها تَدْخُلُ في عُمُومِ ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

ولعلّ الداعيَ إلى ذِكْرِها هُنَا في النصّ الذي مِنْ سُورَةِ (الأعراف) التَّنْبيهُ على أنَّ قَوْم شعيب قَدْ كان من مُنْكراتهم وَشناعاتهم علَىٰ وَجْهِ الخصوص الإفساد في الأرض بَعْدِ إصلاحها، كَحَرْقِ مَزارِعِ خُصُومهم، وإتْلاَفِ مَحَاصِيلِهِم الزِّراعِيَّة، ونحو ذلك، فاحتاج شُعيبٌ عليه السَّلام إلىٰ تخصيص هٰذا الإفْسَادِ بالذِّكْرِ في بياناته المتأخِرَة الَّتي نَهَاهم فيها عن جرائم الفَسَاد والإفساد.

الفساد في اللّغة: التّلَفُ والْعَطَبُ، وتَحوُّلُ الشَّيْء من كَوْنِهِ صالحاً نَافِعاً، إلَىٰ كَوْنِهِ غَيْرَ صالحِ وَلاَ نَافِعٍ، بَلْ رُبَّما يَصِيرُ ضارًا كَرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

والإفساد: الإتْلاَفُ، وتَحْويلُ الشَّيْءِ عَنْ صلاحه، وقَدْ يَصِلُ إلى جَعْلِ الشَّيْء ضارًا كَرِيهاً مُفْسِداً لِلأَشْيَاءِ الصَّالِحة.

وقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ أنواعِ الفَسَادِ والإفْسَاد.

- ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾:

المشارُ إليه باسْم الإشَارَة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأَوَامِرُ والنَّواهِي الَّتِي جَاءَتْ فِي سوَابق هٰذِهِ العبارة في النَّصّ.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي: أعْظَمُ وَأَكْبَرُ في جَلْبِ الْخَيْرِ والسَّعَادَة لَكُمْ، وتحقيق مَا تُحِبُّونَ في عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وآجلِهِ، إِنْ كُنتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بِي نَبيًّا وَرَسُولاً، وتُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ من رَبّكم، فتَعْمَلُونَ به، وتطبّقُونه بالْعَمل بما يأمُرُكُمْ به، وَباجْتِنَابِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْه.

أمَّا ما تتصَوَّرُونَ أنَّكُمْ تَحْصُلونَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْر، كَزِيَادَةِ أَرْبَاحٍ وَمَكَاسِبَ عَاجِلَة، واسْتِمْتَاعَاتٍ تَسْتَمْتِعُونَ بها، بمعصِيَةِ اللَّهِ، فَهِيَ قَلِيلَةٌ ضَئِيلَةٌ في عَاجِلِ حيَاتِكُمْ، وتجلُبُ لَكُمْ شرًّا عظيماً، وعذاباً أَليما في آخِرَتِكُمْ، ورُبّما في دُنياكُمْ أيضاً، إذَا اقتضَتْ حكْمَةُ الله ذلك.

- ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾:

مَا تَضمّنَتْهُ هٰذِهِ العبارة، هو من القضايا الّتي أَضَافَهَا شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السّلام في بياناته الدَّعَوِيَّةِ اللاّحِقَات، ومواعظه ونصائحه لقومه، على ما كان قد اهْتَمَّ بتَوْجِيهِهِ لَهُمْ قَبْلَ ذلِكَ.

وفي هذا النهي من شعيبٍ عليه السّلام لقَوْمه، دَلاَلَةٌ عَلَىٰ أَنَّه قَدْ كانَ مِنْ قَبَائِحِهِم العدوانيَّةِ الظالِمَةِ الآثِمَة، أَنّهُم كانُوا يُرابطُون في الطُّرُقاتِ العامَّاتِ الواسعات، الّلاتي يجتازُها السَّابلَة، ويَمُرُّ منْها المسافِرُون، ويختارُونَها لِمَا فِيها مِنْ أَمْنٍ بِحَسَبِ عادَةِ الشُّعُوبِ والأُمَم في بُلْدَانهم وَطُرُقَاتِ أراضيهم، فيقطَعُ أَصْحَابُ مَدْيَنَ أو جُنُودُهُم وزبَانِيتُهم علَيْهِمُ الصراط، ويُكلّفُونَهُمْ دَفْعَ إِتَاواتٍ ومُكُوسٍ ظالمة، لا تخضع للأنظمة المتعَارَفِ عَلَيْهَا بين الشعوب، حَتَّىٰ يأذَنُوا لَهُمْ بالاجتياز والمرور، وَإِلاَّ كانُوا عُرْضَةً لمَا يكْرَهُونَ في أَجْسَادِهم، أَوْ ممتَلَكاتِهِم، من ضُرٍّ أو أذَىٰ، وسَلْبٍ ونَهْبٍ ومصادرات ونحو ذلك، ويَتَهَدَّدُونَهُمْ ويَتَوَعَّدُونهم ظلماً وعُدْواناً.

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾: المرادُ بالقُعُودِ الَّذِي نهاهم عنه رسُولُهُمْ شُعَيْبٌ عليه السّلام، المرابطَةُ والتَّرَبُّصُ لِقَطْعِ الصِّراط علَىٰ المارِّين من المجتازين والْمُسَافِرِين، من غَيْرِ قَوْمِهِمْ، وَرُبَّما كَانوا من ضُعَفَاءِ قَوْمِهِمْ أَيْضاً.

الصِّراط والسِّراط: الطريق الواضِحُ، الّذي يسْلُكُهُ في العادةِ من يُرِيدُ أَنْ يكون آمِناً.

﴿تُوعِدُونَ﴾: أي: تَتَهَدَّدُونَ وَتَتَوَعَّدُونَ باسْتِخْدامِ الْقُوَّةِ المسَلَّحَةِ، للإِكْرَاه وإِنْزَالِ المصائب القبيحة.

- **﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾**:

﴿وَتَصُدُّونَ﴾: أي: وتَمْنَعُونَ وتَصْرِفُون.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ سَبِيلُ اللَّهُ هو دين الله الّذي اصطفاه لعباده.

والمعنى: وتمنعون وتَصْرِفون عن دينِ اللَّهِ عزَّ وجلّ من آمن بهذا الدين الّذي بلّغتكُمْ أيّاهُ عَنْ رَبّي.

أمّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بَعْدُ في هٰذه المرحلَةِ من مراحِلِ دعوة شعيب علَيْه السَّلام لِقَوْمه، فهو على طريقتهم ومِلَّتِهِم، وصارَ فيما يظهر ميؤوساً من إيمانه، باستثناء القلَّةِ الّذين لديهم الاستعاد لأن يُؤْمِنُوا مستقبلاً.

- **﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾**: أي: وتَبْغُونَ السَّبِيلَ الَّتِي تَسْلُكُونَها سَبيلاً عِوَجاً، على وَفْقِ أهوائكم وشهواتِكُمْ ورَغباتكم الّتي لاَ تتحقَّقُ إلاَّ بالظُّلْمِ والْعِدْوان، والْفِسْقِ والْفُجُورِ والْعِصْيَان، للرَّبِّ الملِكِ الدَّيَّان.

إنَّ سَالِكَ السَّبيلِ الْعِوَج لاَ بُدَّ أنْ يَنْحرِفَ إلى مَتَعَرِّجَاتِ السُّبُلِ الهابِطَةِ إلىٰ حَضِيض الْفَسَادِ والظُّلْمِ الاجتماعيّ، وسَخَطِ الله وغَضَبِهِ وَنِقْمَتِه وعَذَابه.

الْعِوَج: بكَسْرِ الْعيْن، عَدَمُ الاستقامةِ في الأشياء المعنويَّة، وقد يُطْلَقُ علىٰ عدم الاستواءِ في الأَرْض.

- ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾: نصح شُعَيب قومَهُ بهٰذِهِ العبارة، أَنْ يَذْكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بتَكْثِيرِ أعدادهم في مُدَّةٍ وَجيزةٍ، حتَّىٰ صَارُوا ذوي قُوَّةٍ وَبَأْسٍ يتسلَّطُونَ عَلَىٰ عبادِ اللَّهِ ظُلْماً وَعُدْواناً، وقَدْ كَانُوا قِلَّةً ضُعفَاء بين المصْرِيِّين، والفلسطنيِّينَ، وعَرَبِ الحجاز. وأَبَانَ عليه السّلام لهم أَنَّ هٰذِهِ النِّعْمَةَ تَسْتَدْعِي منهُمْ أن يُؤَدُّوا واجِبَ الشكر عليها لرَبِّهم، بالإيمان به إيماناً صَحِيحاً صادقاً، وبِعِبَادَتِه وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، وبِطَاعَتِهِ جلَّ جلالُهُ في أَوَامِرِه، وفي نواهيه.

- ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨٦﴾:

أي: وانظُرُوا نَظَرَ تَفكّرٍ واتِّعَاظٍ، بأحْوالِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتي طَغَتْ وبَغَتْ وأفسَدَتْ في الْأَرْضِ، وكذَّبَتْ رَسُولَ رَبِّها، كَيْفَ جعَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بِعَدْلِهِ عاقِبتَها هَلاَكاً لأَحْيائها، ودماراً لمساكِنِهَا ومُمْتَلَكاتِها، وفي هٰذا العقاب العاجل دلالَةٌ على ما ستَلْقَاهُ مِنْ عذابِ يوْمَ الدِّين.

ويَظْهَرُ أنّ شعيباً عليه السّلام قد أشارَ ضِمْناً في عبارته العامَّةِ هذه إلى ما حَصَل لِقَوْمِ لُوطٍ عليه السَّلام، على وجْهِ الْخُصُوص، لِقُرْبِ زَمَانِهم وأَرْضِهم مِنْ زَمَانِ مَدْيَنَ وأرْضِهِم.

* * *

الفصل الثاني

مرحلة الجدليات بين قومِ شُعَيب عليه السلام وبَينَه

جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ

عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾.

- قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلَفٌ: **[أَصَلاتُكَ]** بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[أَصَلَوَاتُكَ]** بالجمع.

والمؤدّىٰ في القراءتَيْن واحد، فلفظ «صلاة» بالإفراد اسم جنْس، وهو مضافٌ لضَمِير المخاطب، فهُوَ يَعُمُّ كُلَّ صَلَواته.

- وقرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[شِقَاقِيَ أَنْ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة **[شِاقِيَ أَنْ]** بإسْكانِ يَاءِ المتكلّم مع المدّ في الوصل.

والقراءتان وجْهَان لنُطْقِ يَاءِ المتكلّم.

دلَّ هذا النصّ من سورة (هود) على أَنَّ قَوْمَ شُعَيْبِ عليه السَّلام لَجؤُوا أَوَّلَ الأمْرِ، إلى اسْتخدام مجادَلتِه حَوْلَ مَا يَدْعُوهم إليه من تَوحِيد اللَّهِ فِي عبادتِه، وتَرْكِ مَا هُمْ علَيْهِ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ مَوْرُوثَةٍ، وحَوْلَ ما كان يأْمُرُهم به مِنْ إِيفَاءِ الكَيْلِ والْوَزْنِ، والوزنِ بالقِسْطاسِ المستقيم، وعَدَمِ ظُلْم النّاس بالنقص في الكيل والمكيال، والْوَزْنِ والميزان، ليأكُلوا من أموال النّاس بالباطل، ومَا كان ينهاهم عنه من بَخْسِ النّاس أشياءهم.

وقد كان شعيبٌ عليه السَّلام يُصَلِّي لِلَّهِ على وفْقِ الصَّلاَة الموروثَةِ عَنْ إبراهيم عليه السَّلام في قَوْمه، والّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بأَنْ يُحَافِظَ عليها، وكان قَوْمُهُ يَرَوْنَ مِنْهُ هٰذِهِ المحافَظَةَ على الصَّلاَةِ الَّتِي بَقِيَتْ لدَىٰ بعْضِهم

مظاهِرُها، مع شِرْكِيّاتٍ أَحدَثُوها في عِبَادَاتهم، كَمَا كَانَ حَالُ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ الْعَرَبِيّة، قَبْلَ بِعْثة محمد ﷺ رسولاً.

وكانَ شُعَيْبُ علَيْهِ السَّلاَمُ مَعْرُوفاً في قَوْمِهِ، قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَه الله عزّ وجلّ إلى قومه رَسُولاً، بالتَّميُّزِ مِنْ دُون سَائِرِ أفراد قَوْمِه بأنّه الْحَلِيمُ الرَّشيد.

الْحَلِيمُ: ذو الأناة، القادر على ضَبْطِ نَفْسِهِ عنْدَ الغضب، أو عِنْد حُلُولِ مَكْرُوهٍ به، والَّذِي يَعْقِلُ بإرادَةٍ قَوِيَّة نوازِعَ نَفْسِه، عَنْ أَنْ تَدْفَعَهُ إلى ما لاَ يُحْمَدُ مِنْ قَوْل أَوْ عَمَل، والَّذِي يَعْفُو وَيَصْفَحُ مع قُدْرَتِه على الانتقام.

الرَّشِيدُ: ذُو السُّلُوكِ الفكْرِيّ والنفسيّ والخلُقِيّ الموافق للحقّ والصَّواب، أو لما هو الأفْضَلُ والأَحْسَنُ، والأكثر نفعاً، والأبْعَدُ عَن الضَرَر.

قالوا له ست مقولات، ثلاثٌ منها مُصَرَّحٌ بها في النصّ، وثلاثٌ منها مطويّاتٌ في مثانيه:

المقولات المصرّح بها في النص:

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾:

في هٰذِهِ الآية تلْخِيصٌ لِثَلاَثِ مَقُولاَتٍ جَدَلِيَّةٍ قَالَها قَوْمُ شعيب عليه السَّلامُ له.

المقولة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾؟!

لفظ الصلاة مستعملٌ هُنا فيما هو مَعْروفٌ في كلّ الرّسَالات الرَّبَّانِيَّةِ والشعوب الّتي فيها بقايا من دينٍ رَبَّاني، وهي الصلاة ذات القيام والرُّكوع والسُّجود والتلاوات والأذكار والأدعية، فهي عبادة محمودة عند كلّ

الشعوب حتى الشعوب الوثنيّة، فليست عبارة قوم شعيب هذه له عبارة استهزاء به، وليسَتْ بمعنىٰ مطْلَق القراءة، وليست بمعنى الدِّين، ولا غير ذلك من تأويلات مذكوراتٍ في كتبُ التفسير.

والاستفهامُ في هذه العبارة استفهامٌ تَعَجُّبيٌّ إنْكارِيٌّ مِنهم، أَنْ يكون من أهل الْمُحَافظة على عبادة رَبّه بالصَّلاَة، وأنْ يَنْهَىٰ مع ذلِكَ قَوْمَهُ عن عباداتٍ هي من الموروثاتِ لدَيْهم الّتي يَرَوْنَ أنّها حَقٌّ وَنافِعَةٌ لهم، فآبَاؤهم كبارُ السّنّ الْهَرِمُونَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ الله، وهُمْ قَدْ وَرِثُوا هٰذِه العباداتِ عَنِ الَّذِينَ مَاتُوا مِنْ آبائهم، أفيُعْقَلُ أنْ تكونَ هٰذِهِ العباداتُ الموروثاتُ عباداتٍ باطلاتٍ، وآبَاؤُهُم الْهَرِمُونَ يَعْبُدُونها، وَكَانَ آباؤُهُمْ من قَبْلِهم كَذَلِكَ، وهم وَرِثُوا الدِّين عن جَدّهِمُ الأعلى إبراهيم عليه السَّلام.

هذا الأُسْلُوبُ التعجُّبيُّ الإنكاريُّ نَجِدُهُ لَدَىٰ كثير من الناس، حِينَ يتصدَّىٰ مثلاً دَاعٍ من الدُّعاة، أو ناصِحٌ من الناصِحِينَ، ذُو الْتزامٍ بمُقْتَضَيَاتِ التقوى، فيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُو مألُوفٌ لهم مُعْتَادٌ لديهم من المحرَّمَات، كَشُرْبِ الخمور، وممارسَةِ الزّنا، أو غير ذلِكَ من الفواحش، فيقولُون له: أتَقْوَاكَ تأمرُك بأنْ تنهَانا عَمَّا هو مَوْرُوثٌ لَدَيْنَا، يمارِسُهُ كبارُ آبائِنَا، وقَدْ وَرِثُوهُ عن الّذين ماتُوا مِنْ آبائِهم؟!!.

لَقَدِ اعتبروا عبادة آبائهم لآلهة من دون الله حُجَّة يَصِحُ أَنْ يَحْتَجَّ بها الْعُقَلاء، مع أنَّ هٰذِهِ الحجَّة باطِلَةٌ ساقِطَةٌ، لِأَنَّ أفعَالَ النَّاسِ وَتَقَالِيدَهُم مَهْمَا تواطَؤُوا عليها، ليْسَتْ فِي الواقع البشريّ حُجَّةً علَىٰ الحقيقة الّتي تُثْبِتُها البراهينُ العقليّة.

فقد يكون الناس قَدْ تَأَثَّرُوا بضلالاتِ المضلّين، الذينَ زيَّنُوا لهم الباطل فرأَوْهُ حقًّا، أَوْ تأثرُوا بأوهامٍ لا أَسَاس لها مِنَ الحقيقة، لقلَّةِ عِلْمهم وانتشارِ الْجَهْلِ بَيْنَهُم، فهم بذلك لاَ يهتَدُون إلى الحقّ والصواب، فَيَقعون

في ضَلاَلاَتٍ فِكْرِيَّةٍ أو سُلوكيّة، ثمّ تكونُ مواريثَ في قومهم، أو دعَتْهُمْ إلى ممارساتهم الباطلة أهواؤهم وشهواتهم ورَغباتُهُمْ من الحياة الدُّنيا، ثُمَّ كانت مواريث في قومهم.

المقولة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾.

أي: أو صَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنهَانَا عَنْ أن نَفْعَلَ في أمْوَالنَا مَا نشاء؟!

مُرادُهم يمكن التَّعْبِيرُ عنه بعبارة أُخْرَىٰ: إنَّنا حينما نبادِلُ الناس في معامَلاتنا، فإنَّنَا نَأْخُذُ مِنهم وَنُعْطِيهم بحَسَب مَا لَدَىٰ كلٍّ مِنَّا من مهارات واحْتِيَالاَت، فَنَحْنُ نتصَرَّفُ معهم بحَسَبِ قُدْراتِنا وَمَهَارَاتِنا واحْتِيَالاَتِنا، وهُمْ يَتَصَرَّفُونَ مَعَنَا في تَعَامُلِهم بحَسَبِ قدراتهم ومَهاراتهم واحْتِيَالاَتهم.

إنَّهم يَفْعَلُونَ في أموالهم مَا يَشاءُون، ونَحْنُ نَفْعَلُ فِي أموالِنَا مَا نَشاءُ.

فَكَيْفَ تَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أموالِنَا مَا نشَاء؟!!

إنَّ هٰذَا لَأَمْرٌ عجيب يَتَنافَىٰ مع مُقْتَضَيَات صَلَواتِكَ الَّتِي تُصَلِّيها عبادَةً لِرَبّك.

المقولة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾:

أرى أنّ هذه العبارة على الاستفهام الإنكاري، بحذف أداة الاستفهام، أي: أإنَّكَ المعروف فينا قَبْلَ أَنْ تَدَّعِيَ أَنَّكَ رسُولُ الله لنا بأَنَّكَ لأَنْتَ الحليم الرَّشيد في قوْمِنا؟! فكيف تُشَدِّدُ عَلَيْنا في النهي عن عبادة ما يَعْبُد آباؤُنَا الوارثون لهذه العبادات عن آبائهم وتُشَدِّدُ علينا في الإنكار، وتكرّرُ نهيَنَا عن أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء؟!

إنّ هٰذا يتناقض مع ما عُرِفَ عَنْكَ في قَوْمِنا بأنَّكَ المتفرِّدُ من بَيْنِنَا بصفة الحِلْم من أعلى الدرجات، وبالرّشْدِ من أعلى الدرجات، حتَّىٰ صار يُقَالُ لَكَ: إنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الْرشيد المتَّميِّزُ الأَوْحَدُ بغَايَةَ صِفَتَي الْحِلْمُ والرُّشد.

فما الذي جرىٰ لَكَ حتّىٰ صِرْتَ تَتَصَرَّفُ تصرُّفاتٍ ليْسَ فيها حِلْمٌ ولاَ رُشْدٌ؟!! . ما بالُ شخصيَّتِك النفسيَّةِ قد تبدَّلَتْ وتغيرَتْ، حتّىٰ صِرْتَ غَيْرَ حَلِيمٍ ولاَ شيد، وانفَرَدْتَ بمفهوماتٍ وأقوالٍ خاصَّةٍ، مناقضَةٍ لمفْهُوماتِ عُقَلاءِ قومك، وأقوالهم وأعمالهم؟! .

لا شَكَّ أَنّ هذه المقولة منهم تَدُلُّ على أحَدِ احتمالين:

الاحتمال الأول: أنّهم يقولُونَها على سَبيل المغالطة والمخادعة لجماهيرهم، حتَّى يَتَأَثّروا بأقوالهم الجدليّة.

الاحتمال الثاني: أنّهم قد وصلوا إلى غاية انطماس البصيرة، بتأثير اتّباعِهم أهواءَهم وشهواتِهم وشَرَهِهِمْ للإثراءِ ولو بالظلْم والعدوان على عباد الله، وبتأثير المحافظة العصبيَّةِ علَىٰ تقليدهم الأعمىٰ لآبائهم وأجدادهم.

وهذا الانطماس في بصائرهم جعَلَهُمْ يَعْمَوْنَ عن إدراكِ الْبَدَهِيَّات، حتَّىٰ صاروا يَرَوْنَ الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً.

المقولات المطويات في مثاني النصّ:

وقالوا له مقولاَت أُخْرَىٰ طواها النّصُّ في مثانيه، ولكن يمكن كشْفُهَا واسْتِخْرَاجِها بالنظر التأمُّلِيّ في إجابات شعيب عليه السلام لقومه، المصرَّحِ بها في النصّ.

فالمقولة الرابعة: وهي من المطويات في المثاني: إنَّكَ يَا شعيب ذو مالٍ كثير، فكيف جمَعْته؟. لاَ بُدَّ أنَّكَ من الّذين يجمعون أموالهم الكثيرة سِرًّا بالوسال الّتي تَنهانا عنها.

والمقولة الخامسة: وهي أيضاً من المطويّات في المثاني: إنَّكَ تُرِيدُ بدَعْوَتِكَ الَّتِي جئتنابها، أنْ تكون سَيّداً ذا سُلطانٍ علينا، تُلْزِمُنَا بما تشاء بأوامِرِكَ ونواهيكَ، وتُكْرِهُنَا على طاعتك.

والمقولة السادسة، وهي أيضاً من المطويَّات في المثاني: هَلْ أَنْتَ ضامِنٌ أَنْ تُحقق ما تُريد بخطاباتك، وأحَادِيثك، وجَدَلِيَّاتِك، وأنت فِينا ضعيفٌ لا تَمْلِكُ قُوَةً تَسْتَطِيعُ أن تُلْزِمَنَا بها بما تُريدُ منّا، ونَحْنُ غَيْرُ مُؤْمِنينَ بكَ ولاَ بما جئتنا به؟.

فأجابهم شعيبٌ عليه السّلام على مقولاتهم السّتّ بإجابَاتٍ محكمات.

الإجابة الأولى: وَقَدْ اكْتَفَىٰ بِهَا لِلرَّدّ على مقولاتهم الثلاث المصرَّحِ بها في النصّ:

- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؟!:

أي: قالَ لهم: يَا قَوْمِ أفكَّرتُمْ وَتَدَبَّرتُمْ وَوَضَعْتُمْ في رُؤْيَتِكُمُ الفِكْرِيَّةِ احْتِمَالَ أنّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي، مُعْتَصِمٌ بها، ومُسْتَمْسِكٌ بالاعْتِمَاد عليها؟.

فإذا ثبت لديكم هذا الاحتمالُ الّذي تنكِرُونَه الآن، أَوْ تَشُكُّونَ فيه، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ فيما آمُرُكم به من عبادة الله وَحْدَه، لا تُشرِكُونَ به مَعْبُوداً آخر؟. أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ فيما أنهاكُمْ عَنْهُ من التطفيف في الكَيْلِ والْوَزْن، ومِنْ بَخْسِ النّاس أشياءهم، واتخاذِكُمْ الْحِيلَ لتأكُلُوا أموال الناس بالباطل، وفيما أنْهَاكُمْ عَنْهُ من العدوان علَىٰ الناس، إِذْ تَقْعُدُونَ بكلِّ صراطٍ تُوعِدُونَ، وفيما أنهاكُمْ عَنْهُ من الإفساد في الأرض؟؟.

أَخْبِرُوني ما هُوَ مَوْقفُكُمْ مِن هذا الاحتمال، أليس هو احْتِمالاً مُمْكِناً أن يكون؟؟.

ضَعُوا هذا الاحْتِمالَ في أَذْهَانِكُمْ وفكِّرُوا فِيما أَدْعُوكم إليه بمنْطِقِ العقل، لا بمنْطِق التقليد الأعْمَىٰ، والمصلحة الخاصّة، دُونَ بَصِيرَة فِكْرِيَّة.

فإذا قَبلْتُم برُؤْيِتِكُمُ الفكريَّةِ إمكانَ وجُود هذا الاحْتمال، فاسْأَلُوني عَنِ البيّنة الّتي أنا مُعْتَمِدٌ عليها، ومُتَمكِّنٌ مِنها أُجِبْكُمْ، حتّىٰ أُثبت لَكُمْ بالبراهين

القاطعة أنّ ما أَدْعوكُمْ إليه، وَمَا آمُرُكم به هو الحقُّ من ربكم، وهو الْخَيْرُ لَكُمْ، وهو ما يقتضيه العقل السّليم، والمصلحةُ الاجتماعية للجميع.

وإنْ شئتم معجزةً خارقةً تَشْهَدُ لِي بأني نبيٌّ ورسوُلٌ صادق مُرْسَلٌ من رَبّي وَرَبِّكُمْ إليكُمْ، فإنّي أسْأَلُ رَبّي أَنْ يَشْهَدَ لي بأنّي رسولُهُ حقًّا وصِدْقاً، بإجراء مُعْجِزَةٍ خَارِقَةٍ كَمَا أَجْرَىٰ لِغَيْرِي من المرسَلين.

البيّنة: هي هنا البراهين الواضحة، أو الآيَةُ والمعجزةُ الباهرة.

لقد عرض شعيبٌ عليه السلام على قومه احتمال أن يكون على بيّنَةٍ واضحة من رَبّه، واستعداده التّام لأن يُقَدِّمَ لهُمْ هٰذِهِ الْبَيِّنَة، إذَا كان لديهم الاستعداد لقبولها، على الرُّغم من أَنَّ ما يَدْعُوهم إليه هو من الأمور الّتي تُدرِكُ العقولُ صحَّتَها، وأنّها حقٌّ وخَيْرٌ بالْبَداهَة، أو مع تفكير قليلٍ ليس فيه إجهادٌ للأذهان.

الإجابة الثانية: من شعيب عليه السَّلام على مقولة قومه الرابعة المطويّة في مَثَاني النصّ: إنّكَ ذُو مالٍ كَثِيرٍ فكيف جمعْتَه؟ لا بُدَّ أنّك من الّذِين يجمعُون أموالهم الكثيرة سِرّاً بالوسائل الّتي تنهانا عنها.

فكان جوابُهُ عليه السلام:

- ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾:

أي: لَمْ أتجاوز في كَسْبِ مَا لَدَيَّ من أموالٍ حُدُودَ ما أَذِنَ رَبّي عزّ وجلّ في اكتسابها. فما رَزَقَنِي مِنْهُ كُلُّه رزقٌ حَسَنٌ لاَ معصية للّهِ فيه، ولا عُدْوان فيه على أَحَد، وكُلُّه حَلالٌ طيّبٌ قد بَارَكَ الله عزّ وجلّ فيه، فلَمْ أعْمَلْ فيما سَبَقَ عملاً نَهيتكُمْ وأنْهاكُمْ عَنْه.

ومَا أُرِيد الآن ولا مستقبلاً أن أقْصِدَ الشيْءَ الّذِي أدعُوكم إلى اجتنابه والانصراف عنه.

يقال لغة: خالَفَكَ فُلاَنٌ إلى كَذا، أي: قصَدَهُ وأنت مُنصرفٌ ومُتَولٍّ عنه، ويُقال: خالَفَ الرَّجُلُ صاحِبَهُ إلى مكان كذا، إذا قَصد هٰذَا المكان بعد أن انْصَرَفَ صاحبُه عنه.

قال الزمخشريّ: يلْقَاكَ الرَّجُلُ صادراً عن الماء، فتسْألُه عن صاحبه، فيقول: خالَفَنِي إلى الماء، يُرِيدُ أنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إلَيْهِ وارداً، وأنا ذاهِبٌ عَنْه صادراً.

أقول: إذا كانت وفْرَة المال الذي عند شعيب عليه السلام من الأنْعَام، فإنّ تَرْبية الأنعام الّتي تأكُلُ من الكَلأ المباح، قابلَةٌ لأن تَجْعَلَ مالِكَها ذا ثَرَاءٍ واسِعٍ جدًّا بنَحْو عَقْدٍ فأكْثَر من السنين، إذا بارك اللَّهُ عزَّ وجلَّ بمواليدها وَأصوافها وأوبارِهَا وشُعُورِها.

وإذا كانت وَفْرَةُ المال الذي عنده من الزّراعة، فمِنْ سُنَنِ الله تبارك وتعالى في عطاءاته لبعض عبادِ، أنْ يُبَارِكَ لهم بها، حَتَّىٰ يُنْبِتَ من الحبَّةِ الواحدة سَبْعَ سنابل، ويَجْعَلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مئَةَ حَبَّةٍ، وبسَنواتٍ مَعْدُودَاتٍ يكونُ الّذي بارَكَ اللَّهُ له بزارعَتِه مِنْ أكْثَرَ الناس مالاً، دون أن يَلْجَأَ إلى أكْلِ أموال النّاس بالباطل.

إلى غير ذلك من وجوه يبارك اللَّهُ بها على عَبْدِهِ في الرزق.

الإجابَة الثالِثَة: مِنْ شعيب عليه السَّلام على مقولة قومه الخامسة المطويَّةِ في مَثَاني النّص، وهي: إنَّكَ يا شُعَيب تُريد بدعْوَتك الّتي جئتنا بها أنْ تكُونَ سَيّداً ذَا سلطانٍ عَلَيْنا، تُلْزِمُنَا بما تَشَاءُ بأوامِرِكَ وَنواهيك، وتُكْرِهُنَا عَلَىٰ طاعَتِك.

فكان جوابه عليه السلام على مقولتهم هٰذِه:

- ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾:

أي: مَا أُرِيدُ بما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وأُكَرِّرُ عَلَيْكُمْ به نَصَائحي سيادَةً عليكم ولاَ سُلْطاناً، إنَّما أُرِيدُ لَكُمُ الإصلاحِ، والْخَلاصَ من الْفَسَادِ الذي أنتم فيه غارقون، ما استَطَعْتُ إلى ذٰلِكَ سبيلاً عن طريق الإقناع والموعظة الحسنة، والمجادَلَةِ بالّتي هي أحْسَن، من غَيْرِ جَبْرٍ وَلاَ إكْراه.

الإجابة الرابعة: من شعيب عليه السَّلام على مقولة قومه السّادسة المطويَّةِ في مَثَانِي النَّصّ، وهي: هَلْ أَنْتَ طامِعٌ أَنْ تَبْلُغَ ما تُرِيد بخطاباتك وأحاديثِكَ ومواعِظِكَ، وَجَدَلِيَّاتِكَ، وأَنْتَ فِينا ضعيفٌ لاَ تَمْلِكُ قُوَّة تَسْتَطِيعُ بها أَنْ تَبْلُغَ مَا تُرِيد، ونَحْنُ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بكَ وَلاَ بما جئتنا به، فَدَعْ دَعْوَتَكَ هٰذِهِ، إذْ لَنْ نَستجيبَ لَكَ.

فكان جوابُهُ عليه السَّلاَم على مَقُولتِهم هذه وذُيولها:

- ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾:

التوفيق من الله لعبده: يكون بإلْهامه الصواب، وبإعانته، وتَيْسِيرِ سُبُلِه، للعمل بما يحقِّقُ له النتيجة الَّتي تُرْضيه مما يَسْعَىٰ له مما هو له خير، مع تَسْدِيدِهِ في خطواتِ سَعْيه.

أي: وما إصابتي الرُّشْدَ في قَوْلي وفي عَمَلِي إلاَّ بمعونة اللّهِ وعطائه وَتَسْدِيده.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: عَلَيْهِ وَحْدَهُ توكَّلْتُ، اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ من تقديم المعمول [**عَلَيْهِ**] على عامِلِه [**تَوَكَّلْتُ**].

التوكُلُ على الله: هو الاستسلام إليه، والاعتماد عليه، وتفويض تدبير الأمور إليه، لتحقيق ما يَرْجو المتوكّل، مع قِيامِه بالأسْباب المستطاعة له المادّيّة والمعنويّة طاعَةً لأوامره ونواهيه.

[**وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**]: أي: وَإِلَيْهِ أَرْجِعُ في أُمُورِي كُلّها. يقالُ لغة: أناب،

إِذَا رَجَع. والمنيبُ إلى الله، هو ذُو الرُّجوع إليه دواماً بقَلْبِه وَنَفسِه وَفِكْرِه.

والمعنى: وما تَسْدِيدي في خُطواتِ سَعْيِي لتبليغ رسالاتِ رَبِّي إلاَّ بمعونَةِ الله وإلهامه وقضائه وقَدَرِه، فإذا قَدَّرَ ذَلِكَ لي وقضاه حقَّقَ لي ما عَزَمَتْ عليه إرادتي، وحقّق لي الغاية الَّتي أرْجُوها، وإلاَّ فَلَه الأَمْرُ كلُّه، وهو العليم الحكيم.

وإنِّي في قيامي بوظائف رسالتي الَّتي كلَّفَنِيها رَبِّي مُسْتَسْلِمٌ وَمُفَوّضٌ تَدْبير أموري إليه، مع قيامي بالأسباب المادّية والمعنوية الَّتِي أستطيعها. وإنِّي أَرْجَعُ إلَيْه دواماً في كلِّ أمْرٍ من أُمُوري مَهْما جَدَّ فيها جَدِيدٌ، على توالي الأزمان المتتابعة.

* * *

ثُمَّ رَأَىٰ شُعَيْبٌ عليه السَّلام قوْمَهُ يُصَعِّدُون مِنْ مَواقفِ عِدَائهم له وللذّين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، فوجَّه لهم التحذيرَ مِنْ أن تَحْمِلَهُمْ معاداتُهم ومُشَاقَّتُهُمْ له، على الإصرار على شِرْكِيَّاتهم، وارْتكاب جرائمهم الاجتماعيَّةِ العدوانيّة الظَّالِمَة، الَّتي تَجْعَلُهُمْ يَسْتَحِقُّونَ بِسَببِها الإهلاكَ الشَّامِلَ الَّذِي أَصَابَ الأقوام الّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ مِنْ قَبلهم، فقال لهم:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: أي: لاَ يَحْمِلنَّكُمْ، وفي اختيار هذا الفعل رائحةُ اكْتِسَاب جُرْم، فاخْتِيرَ في العبارة اختياراً ملائِماً، وجاء تأكيد الفعل بنون التوكيد الثقيلة.

﴿شِقَاقِىٓ﴾: الشّقَاقُ: الخِلاَفُ، والْعِداءُ الذي يكون مَعَه المعَادِي في شِقٍّ مضادٍّ لشِقِّ عَدُوِّه، وفي جِهَةٍ وناحِيَةٍ مُبَايِنَةٍ لِجهَتِهِ وَنَاحِيَتِهِ.

أي: لاَ يَحْمِلَنَّكُمْ مَا في نفوسِكُمْ مِن مخالَفَتِي ومُعَادَاتي حتَّىٰ ظهَر في أعمالكُمُ الاستعداد والتهيُّؤ للانتقام مِنِّي ومن الّذين آمَنُوا بِي واتَّبعُوني، على الإصرار على الباطل الّذي تُؤْمِنُون به، والإصْرار على الجرائم الّتي تَرْتَكِبُونها والقيامِ بأعمال إجراميّة ضِدَّنا، فهذا الإصرار سَيُسَبِّبُ لكم استحقاقَ الإهلاكِ الشامل الَّذِي استَحقَّه المهْلَكُونَ السَّابقون من قبلِكم، وفصَّلَ لَهُمْ عليه السَّلام بإطْنَابِ الأقوام الذين أُهْلِكُوا مِنْ قبلهم فقال لهم:

﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ﴾ وخَصَّ ذكرَ قومِ لُوطٍ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي: ومَا قوْمُ لوطٍ بِبَعِيدِين عَنْكُمْ زَمَاناً في الماضي، ولا مكاناً في الأرض.

بَعِيد: على وزن «فَعِيلٍ بمعنَى فاعل» عومل معاملة مَا يَسْتَوِي فيه المفرد والمثنىٰ والجمع والمذكّر والمؤنّث، إذا كان بمَعْنَىٰ «مَفْعُولٍ» مثل «جَرِيح». وقَدْ جاء في القرآن نظير هذا الاستعمال في: «كثير - قليل - ظَهِير - رَفِيق» ونحوها مع أنها بمعنى اسم الفاعل، لا بمعنى اسم المفعول.

والمعنى: فاحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكم مثلُ ما أصاب قومَ نوحٍ من إغراقٍ شامل أهلكهم اللَّهُ به، أو أن يصيبكم مثل ما أصَابَ قوم هود الَّذِينَ أهلكهم الله بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَة، أو أَنْ يصيبَكُمْ مِثْلُ مَا أصابَ قَوْمَ صَالح الَّذِينَ أَهْلَكَهُم الله بالصَّيْحَةِ الَّتي رَافقتها زَلْزَلَةٌ وصَاعِقَة، أو أن يُصِيبكم مثْلُ مَا أصَابَ قوم لُوطٍ الْقَرِيبِينَ منكُمْ زماناً وَمكاناً، الَّذِين أهلَكَهُمُ الله بحِجَارَةٍ من سِجِّيلٍ وَبصَيْحَةٍ وَبُرْكَانٍ قَلَبَ به اللَّهُ أَرْضَهُمْ فجعَلَ عَالِيَها سَافِلَها.

وتابع شعيبٌ عليه السَّلامُ نُصْحَهُ لِقَوْمِهِ، رحمةً بِهِم، وشفقةً عليهم، فقال لهم:

● ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾: أي: وادْعوا رَبَّكُمْ طَالِبِينَ مِنْهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ما سَبَقَ أَنِ ٱرْتَكَبْتُمْ من شِرْكِيَّاتٍ وجرائم وآثام.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾: أي: ثُمَّ بعْدَ الاستغفار الصادق الّذي تَطْمَئِنُّ إليه قُلُوبُكُمْ، جَاهِدُوا أنْفُسَكُمْ جهاداً شاقًا في زَمَنٍ طويل، حتَّىٰ تَرْجِعُوا إلَىٰ رَبّكُمْ، بالْقيام بالأَعْمَال الصالِحَةِ، وبتَرْكِ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ المتأصِّلَةِ في عاداتكُمْ، شيئاً فشيئاً، مُتَحَمِّلين مَشَقَّاتِ مخالفةِ عاداتِكُمْ، ومُصَارَعَةِ أهوائِكم وشهواتِكم، والتغلُّب على عقبات نفوسكم واقتحامها.

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾: في هٰذِهِ الجملة المتضمّنَةِ الثناءَ على اللّٰهِ بأنّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ، إطْماعٌ لهم بأنْ لا يَقْنَطُوا من رحمة اللَّهِ مهما أسْرَفُوا على أنفسهم قبل أن يسْتَغْفِرُوا وَيَتُوبوا، وبأنْ لا يقْنَطُوا مِنْ أَنْ يُحِيطَهُمُ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ بوُدّه، إذا اسْتَغْفَرُوا ثم تابوا إلَيْهِ شيَئاً فشيْئاً، حتَّىٰ يكُونوا من أهل الاستقامة علىٰ صراطه الّذِي أبانه لعباده، فيما أنزل على رُسُله.

[رَحِيمٌ]: صيغة تكثير لاسم الفاعل «راحم» أي: ذو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ بالِغَةٍ الغاية. **والرَّحْمَة**: صفة نفسيَّةٌ من صفات اللّٰهِ عزّ وجلّ، نُثْبِتُهَا لَهُ على مَا يَلِيقُ بجَلالِه، ومن آثارها الغفران والعفو، والعطاء والمعونة، والتوفيق في الأمور، وإزالَةُ البؤس والمكاره، والإمدادُ بِمَا يَسُرُّ، وبما تَسْكُنُ به النَّفْس، ويَطْمَئِنُّ به الْقَلْبُ، ويُمْتِعُ ذَا الحياة بما يَطِيبُ لَدَيه، ويَهَبُهُ مَا يُلَبِّي حاجاته، ويَكُفُّ عَنْهُ الشّرّ والضُّرَّ والسُّوءَ والأَذَىٰ، ويَهْدِيه إلى ما فيه خيرُه وسعادته في عاجِلِ أَمْرِه وآجِلِه، ويُبَيّنُ له ما فيه شرٌ له وضُرٌّ وأَذَىٰ ليجْتَنِبَه، ونحو ذلك.

[وَدُودٌ]: صيَغة تكْثِير لاسم الفاعل من فعل «وَدَّ». الْوُدُّ نَوْعٌ من الحبِّ الهادىء الثابت النافع. **وَالْوَدُد**: اسم من أسماء الله الحسنَىٰ، فمن وَدَّهُ الله أفاض عليه من نِعَمِه بحسب حكمته، وادَّخَرَ لَهُ السَّعادة العظمى إلى يوم الدين.

* * *

الفصل الثالث

مَرحلَة اضطهادٍ وتَهديدٍ من قوم شعيب له وللّذين آمَنُوا به وجدَالٍ منطقيٍ من شعيب عليه السلام دفاعاً عنهم

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عَزَّ وجل:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

دلَّ هذا النَّصُّ على لُجوء ذوي السُّلطان من كُفَّار قوم شعيب، إلى اضطهاد الّذين آمَنُوا به واتّبعُوه، بذَرِيعَةِ الدّفاع عن موروثاتهم الدّينيَّة، انتصاراً لِدِين الله الموروث عن جَدِّهِمْ إبراهيم عليه السلام، فتصَدَّىٰ شعيبٌ عليه السّلام للدفاع عن المؤمنين بأسلوبه القائم على مُجَرَّد رفْعِ الصَّوْتِ بالإِقناع الفكْرِيِّ والمجادَلَةِ بالّتي هي أحْسَن، فقال عليه السَّلام لذوي السُّلطان من كُفَّار قومه:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

الطائفة: تُطْلَقُ علَىٰ الواحِدِ فأكثر من الجماعة، أو القوم، أو الأمّة، وتُطْلَقُ أيضاً على الجماعَةِ، وعلى الفِرْقَة.

عبارة شعيب عليه السّلام هذه، تَدُلُّ على أن أهل مدين قد وصَلُوا بَعْدَ أطوارِ متصاعدة في الشّدّة، إلى طوْرِ إيقاف انتشار دعوة رسولهم بالْقُوَّة، ومواجهة الذين آمَنوا بِه واتَّبعُوه بالْقَمْع والاضطهاد.

ويظهر أنّهم تَذَرَّعُوا للقيام بأعْمَالِ الْقَمع بذرائع تَعْتَمِد على خِدَاعٍ دينيّ، زاعمينَ أنّ من حَقِّهم لحمايَةِ دينِهِم الموروثِ عن آبائهم، إلَىٰ جدّهم إبراهيم عليه السّلام، أنْ يمْنَعُوا بالْقُوَّةِ الَّذِين آمَنُوا بشُعَيْبٍ عن اتّباعه والدَّعْوَةِ إلى دينه، متجاهلين الشركيَّاتِ والتحريفات الضَّالات الباطلات، في المفهوماتِ الاعتقاديَّةِ وفي الأحكام الشرعيّة الّتي دخَلَتْ إلى دينهم.

فقال لهم شُعَيبٌ عليه السّلاَمُ: إنَّ كُنْتُمْ كَمَا تَزْعُمُونَ حَرِيصينَ على حمَايَةِ دِين الله، فاتْرُكُوا أَمْرَ نُصْرَةِ الدِّين لله، ولا تَجْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْصِيَاءَ علَيْه، حتَّىٰ تضطّهِدُوا مُخَالفيكُم، فاللَّهُ عزَّ وجلَّ قادِرٌ علَىٰ أَنْ يَنْتَصِرَ لِدِينِه الحقّ.

فإنْ كان الدّين الحقُّ هو نَدْعُو نَحْنُ إلَيْه، أو ما تتمسَّكُونَ أنتم به، فاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا، ويُنَفِّذَ حُكْمَهُ الْقَضَائِيّ لَنَا أوْ عَلَيْنا، لَكُمْ أو علَيْكُمْ، ولاَ تتعجَّلُوا منْعَ دَعْوَتِنَا من الانْتِشَار بالْقُوَّة، ولا تَقْمَعُوا الَّذِين آمَنُوا بِها وهم مِنْكُمْ نسباً ولُغَةً ومَوْطناً، واللَّهُ خَيْرُ الحاكمين. إنْ كُنَّا نَحْنُ على الحقّ الّذي يَرْضَاهُ حَكَمَ لَنَا فَنَصرَنَا فِي دَعْوَتِنَا وَأَيَّدنا، وإنْ كُنْتُمْ أَنتم الَّذِين هُمْ على الْحَقّ نَصَرَكم وأيَّدَكُمْ، وَخَذَلَنَا فِي دَعْوَتنا.

إذا تفكَّرْنَا في قَوْل شعيب عليه السّلام لذوي السُّلْطان من كبراء قومه: ﴿فَٱصۡبِرُواْ﴾. وحَلَّلْنَا مقتضيَاتِ مَوْقف المواجهة بيْنَ طائفتَيْنِ: طائفةٍ مُؤمِنَةٍ قَلِيلَةٍ ضعيفَةٍ، لا تَسْتَطِيعُ الدِّفاعَ عن نفسها بقواها المادّيَّة، وطائفةٍ غَيْرُ مُؤْمِنَةٍ كثيرة، وتَمْلِكُ من أدواتِ القوة ما تَسْتَطِيعُ به مُعَاقَبَةَ الطَّائِفَةِ المؤمِنَةِ مِنْ أَجْلِ إيمانها.

وإذا تفكّرْنَا في الذرائع الّتي يُمْكِنُ أن يَتخِذَها ذَوُو السُّلْطانِ من الَّذِين لم يُؤْمِنُوا، والَّتي يُلائِمُها أَنْ يَقُول لهم الرَّسُول شعيبٌ عليه السلام: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ وَجَدْنَا أَنَّ الْقَوْم أَرَادُوا

أنْ يُعَاقِبُوا المؤمِنِينَ بِذَرِيعَةِ الانتصار لدين الله الموروث، وهو دينٌ محرَّفٌ دَخَلَتْ فيه شركيَّات، وأحكامٌ سُلُوكيَّةٌ باطلَة، فاسدة ومُفْسِدَة منْسُوبَةٌ إلى دين اللَّهِ الموروث زُوراً وافتراءً على الله.

فقال لهم رسُولُهم شُعَيْبٌ عليه السَّلام: إنْ كانَ أَمْرُكُمْ كَما تَدَّعُونَ فاتْرُكُوا أَمْرَ الدِّينِ لله، فهو الذي يحْكُمُ بَيْنَ عباده، ولسْتُمْ أَنْتُمْ أوصياءَ على دينه. أمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهم يَحْمِلُونَ رِسالة دَعْوَةٍ إلى دين اللَّهِ الْحَقّ، ولاَ يُؤْذُونكُمْ في دُنْياكُمْ، ولاَ يَقِفُونَ في طريق مصالحكم بالقوة، إنَّما يُقَدِّمُون لمن يسْتَمِع إليهم النُّصْحَ فقط.

إنَّ هذا الحوار الاحْتِجَاجيَّ الْجَدَليَّ حِوارٌ بَارِعٌ جدًّا من شُعَيْبٍ عليه السلام، وهو حوارٌ في غايَةِ الْقُوَّةِ والإِلْزَام بالحجَّةِ الدَّامغة.

وتأزَّم المَوْقِفُ بين الفريقَيْن: فَرِيقِ شُعَيْب والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وفَرِيق ذوي السُّلْطانِ من قومه، الَّذين عَجزُوا عن مُقَارَعَةِ الحجَّةِ بِمِثْلِها، فَوَصَلَ هذا الْفَرِيقُ الأكْثَرُ والأَقْوَىٰ مادّيًا بالرِّجالِ والسِّلاَحِ، إلَىٰ طَوْرِ تَهْدِيدِ الفريقِ الأوّلِ بالإِخْرَاجِ من أرْضِهم، أو الْعَوْدَةِ عن دينهم الذي آمنوا به، والدُّخولِ في مِلَّةِ قَوْمِهم:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا... ﴿٨٨﴾﴾:

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: كُبَرَاءُ الْقَوْمِ وسَرَاتُهُمُ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيونَ العامَّة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: هذه العبارة كنايَةٌ عَنِ الَّذِين احْتَلُّوا في قَوْمهم مراكز السُّلْطَةِ الإداريَّة، فهم الَّذِين يُصْدِرُون قرارات الطَّرْدِ والإِبْعَادِ والحِرْمان من الإقامَةِ في البلاد، وكان هؤلاء من الملأ الّذين كَفَرُوا بشعيبٍ عليه السلام، وبما جاء به عن ربّه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾: أي: لنخرجنَّكَ يا شُعَيْبُ وَلَنُخْرِجَنَّ مَعَكَ الَّذِينَ آمَنُوا بك وبما جئْتَ به.

﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾: أي: من مُجمَّعاتنا السكنية، تُطْلَقُ الْقَرْيَة في اللُّغة على كلِّ أَرْضٍ فيها بُيُوتٌ وَمَساكِنُ مُجْتَمِعَةٌ قَلَّتْ أَمْ كَثُرَتْ، ولو بلَغَتْ مَدِينَةً عظيمةً جدًّا.

لَقَدْ أَصْدَرَ أَصْحَابُ السلطة في مَدْين قراراً بإكراه شعيْبٍ والَّذِين آمَنُوا بدينِه معَهُ على الخروج والابْتِعَادِ عن قُراهم، وعن كلِّ أرضهم وكُلِّ شعبهم، أَوْ إِكْرَاهِهِمْ على العودَةِ عَنْ دِينهِم والدُّخُول في مِلَّةِ قَوْمِهم، حتَّىٰ يَكُونُوا مُشَارِكين لَهُمْ في مِلَّتِهِمْ عقيدَةً وسُلُوكاً.

والإخراجُ هو ما يُعْرَفُ في أنظمة الدُّول بالنَّفْي والإبعادِ، والطَّرْدِ من البلاد.

اللاّمُ في [لَنُخْرِجَنَّكَ] وفي [لَتَعُودُنَّ] واقعةٌ في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ ملاحَظٍ ذهْناً، كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ في مِثْلِ هذا الاستعمال، فالْفِعْلُ في كُلٍّ من العبارتَيْنِ مُؤَكَّدٌ بِقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، وبنون التوكيد الثقيلة.

لَقَدِ انْهَزَمَ كُبَرَاء قَوْمِ شُعَيب عليه السّلام، وأَصْحَابُ السُّلْطَةِ الإدارِيَّة في مَدْيَنَ، تُجاهَ مُنَاظراتِهِ وبياناتِه وجَدَلياته هزائم فِكْرِيَّةً مُنْكَرَةً مُخْزِيَةً، فَلَجَؤوا إِلَىٰ قَرار اسْتِعْمالِ الْقُوَّةِ المادّيَّةِ المسلَّحَةِ الْعَسْكَرِيَّة، للتَّخْييربَيْنَ تَرْكِ دِينِهم، والدُّخول في مِلَّةِ قَوْمهم، وبَيْنَ الطَّرْدِ والإبْعَاد من البلاد.

لَقَدْ وَجَّهُوا قرارَهُم بصِيغَةٍ مُؤَكَّدَةٍ بالْقَسَمِ وبنُونِ التوكيد الثقيلَةِ اللازمة له، فَهُو قرار لا رجْعَةَ فيه بِحَسَبِ تَصَوُّرِهِمْ.

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: أي: أَوْ لَتَعُودُنَ عَنْ دِينِكُمُ الجديدِ، الّذي آمَنْتُمْ به، وَتَتَّبِعُونَ تَعْلِيمَاتِه وَلَتَدْخُلُنَّ في مِلَّتِنَا.

وَلاَ بُدَّ أن يَصْطَنِعُوا لِهَذَا نَعِلاَّتٍ مِنْ فِكْرَةِ وُجُوب اتّباعِ الدِّينِ الْمَوْرُوث، ومِنْ فِكْرَة الْوَحْدَةِ الْقَوْمِيَّة.

● ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

لَقَدِ اسْتَفَادَ شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ، مِنْ إصْدَار ذوي السُّلْطَةِ الإداريَّةِ في قَوْمِه، قَرَارَهُمُ التَّخْييرِيَّ بَيْنَ الإخْرَاج بالْقُوَّةِ مِنْ أَرْض مَدْين، وبَيْنَ الْعَوْدَة عن دينهم الجديد، والدُّخول في مِلَّةِ قومهم، فأَخَذَ جانِبَ الإكْرَاهِ في قَضِيَّةِ الدِّين، ليُنَاظِرَهم بِشَأْنِهِ، ولِيُقِيمَ الحجَّةَ علَيْهِم، بأَنَّهُ لا يَصِحُّ في الْعَقْلِ، ولا في الوِجْدَان، ولا في أَعْرَافِ الحرِّيَّةِ الإنسانِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، إكْرَاهُ الإنْسَانِ على اعْتِنَاقِ دِينٍ لاَ يُؤْمِنُ به، وهُوَ مقتَنِعٌ فِكْرِيًّا بالْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَبِسَبَبِ بُطْلاَنِهِ يَكْرَهُ أَنْ يَعْتَنِقَهُ وَيلْتَزِمَ لَوازمَه.

فَنَاظر عليه السَّلامُ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ مُنَاظَرَةً جَدَلِيَّةً مُفْحِمَةً حَوْل هٰذه الْقَضِيَّة، واشتملَتْ مُنَاظَرَتُه علىٰ ثَلاَثِ مَقُولاَتٍ جَدَلِيَّة، وأَعْقَبَها بِبَيانِ ثَبَاتِهِ علَىٰ مَوْقِفِهِ مِنْ دِينِهِ، مُتَوكِّلاً على الله، مهما كانت النتائِجُ والتَّدْبيراتُ الَّتي يُدَبِّرُونَها ضِدَّه، وضِدَّ الَّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، ثُمَّ بِدُعَاءٍ سَأَل اللَّه عَزَّ وجلَّ فيه أَنْ يَفْتَحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ بالْحَقِّ، مُثْنِياً عليه بِأَنَّهُ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ.

المقولة الجدليّة الأُولى: دَلَّتْ عَلَيْها بإيجاز عبارة: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾:

أي: أَتُكْرِهوننا على الْعَوْدَةِ عن دِينِنَا والدُّخُولِ في مِلَّتِكُمْ، وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ تَرْكَ دِيننا وَالدُّخولَ في مِلَّتِكُمْ؟!!.

إنَّ الكارِهَ لتَرْكِ الإيمان بقَضِيَّةٍ يُؤْمِنُ بها بقَلْبِهِ، لا يُمْكِنُ أن يَتْرُكَهُ، إذِ الإيمانُ إرادَةٌ داخِلِيَّةٌ لاَ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ من الناسِ إلاَّ صاحِبُها، وإنَّ الإكْرَاهَ علَىٰ الإيمان بقَضِيَّةٍ يَعْلَمُ الْمُكْرَهُ علَيْها أَنها قضيَّةٌ باطِلَةٌ، لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ إيماناً بها، إذِ الإيمانُ إرادَةٌ داخِلِيَّةٌ لاَ يَعْرِفُها أَحَدٌ من الناس إلاَّ صاحِبُها.

لَكِنْ قَدْ يُكْرَهُ الإنْسَانُ علَىٰ إعْلاَنِ الكُفرِ بما هُو مُؤْمِنٌ به في قَلْبه، فَيُعْلِنُ ذَلِكَ وهُو كاذِبٌ، وَقَدْ يُكْرَهُ علىٰ إعْلاَنِ الإيمان بما هُو كافِرٌ به، فَيُعْلِنُ ذَلِكَ وهُوَ كَاذِبٌ.

فعبارة: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ مع ما فيها من إيجاز بالغ تَدُلُّ على حقيقة من حقائق السُّلُوكِ الإنسَانِيِّ الدَّاخِلِيّ، وهي استحالَةُ إكْرَاهِ ذي الإرادة الحرَّةِ على أَنْ يَكْفُرَ بقَضِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ يَرَىٰ أَنَّها حَقٌّ، وهو يُؤْمِنُ بأَنَّها حقٌّ، أو على أَنْ يُؤْمِنَ بِفِكْرَةٍ لَمْ يَقْتَنِعْ بها، وَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُؤْمِنَ بها.

إنَّ من الحقائق الثابتَةِ الَّتي لا تَتَغيَّرُ ما دَامَ الإنسانُ على ما فَطَرَهُ اللَّهُ عليه ذا إرادَةٍ حُرَّةٍ، أَنَّهُ لاَ إكْرَاهَ في الدِّين، إذْ قاعِدَةُ الدّينِ الحق جَوْهَرُها الإيمانُ الْقَلْبِيُّ بمبادئه، والإيمانُ إِرادَةٌ داخِلِيَّةٌ، لاَ يُمْكِنُ إكْرَاهُ الإنسان على إيجاده أو نسخه، ما دَام ذا فِكْرٍ خاصٍّ به، وَذَا إرادَةٍ حُرَّةٍ.

بهذا المنطِق العقليّ ذي الحجَّةِ الدَّامغَةِ ناقَشَ شُعَيبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ قَوْمه.

قَدْ يُكْرَهُ الإنسانُ على العَمَل بِسُلُوكٍ ظاهِرِيٍّ مُعَيَّنٍ، وهُوَ لاَ يُؤْمِنُ بِصِحَّتِه وَلاَ بِجَدْوَاه، فَيُنَافِقُ في سُلُوكه الّذي أُكْرِهَ عَلَيْه، لَكِنَّه لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُكْرَهَ على الإيمان بِفِكْرَةٍ يراها باطلاً. أو لا يُرِيدُ الإيمان بها لئلاَّ يلْتَزِم مقتضَيَاتِها في السُّلُوك.

إنّ الإيمان إرادة قَلْبِيَّةٌ تَتَضَمَّنُ اعْتِرافاً بِفِكْرَةٍ ما، وينتج عنه استسلامٌ نَفْسِيٌّ لَها، ثُمَّ تَحَرُّكُ لِلْعَمَلِ بمُقْتَضَاها.

كذلِكَ سَائر العواطف القلبيّة والنفسيَّة.

ومِنْ أَجْلِ هٰذِهِ الحقيقة لَمْ يَكُنْ رُسُلُ اللَّهِ يُكْرِهُون النَّاسَ على الإيمان بالدِّين الرَّبَّانِيّ الحقّ، الّذي يَدْعُونَ الناسَ إلى تَفَهُّم مبادئه الاعتقاديّة والإيمان بها باختيارهم الحرّ، وليس في أيَّة رسالَةٍ رَبَّانِيّة صحيحة النسبة إلى الله ما يقتضي إكراهَ الناس على الإيمان بما جاء فيها.

إنَّ الإكراه على الإيمان أو على الكفر بقضيّة من القضايا الفكريّة من الأمور المرفوضة عقلاً وواقعاً، وكلُّ فَهْم على خلاف هذا فهم غير صحيح.

وإنَّ تَاريخ البشريَّة لَمْ يُسجّلْ على أُمّةٍ مُؤْمِنَةٍ برسالة ربَّانِيَّةٍ حَقٍّ، فاهِمَةٍ لمضمون دين رَبّها وَحقيقته، أنّها كانت تُكْرِه المخالِفِينَ لَهَا في الدين، على الإيمان بالدِّين الَّذِي آمَنتْ به، إنّما كانت تَدْعو إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدالِ بالّتي هي أَحْسَن، للإقناع الفكري، والترغيب والترهيب النفسي.

لكنّ تاريخَ البَشَريَّةِ مَلِيءٌ بالشواهد الدّالَّة على أَنّ أَصْحابَ المذاهب والأديان الّتي هي من أوضاع البشر، أو من تَحْرِيفاتِ المحرّفين لدِينٍ رَبَّانِيٍّ صَحِيح الأصل، وكَذَلِكَ سَائِرُ قادَةِ مِلَلِ الكُفْرِ، كَانُوا هُمُ الَّذِينَ يُكْرِهُونَ مُخَالِفِيهِمْ علَىٰ تَرْك أَدْيانهم، ومَبَادئهم وَمَذَاهِبِهِمْ، والإيمان والْعَمَل بِدِينِ المكْرِهين، أوْ بمذاهبهم، وإلاَّ كان العذابُ الشديدُ حتَّىٰ الموتِ مَصِيرَهم.

إنّ من مبادىء الرِّسَالاَتِ الرَّبَّانِيَّةِ كُلِّها أَنَّ الدِّينَ لِلَّهِ، وأَنَّهُ لاَ إكراهَ في الدِّين، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر، ولَكِنْ مَنِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الكُفْرَ فَعلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ تُجاهَ رَبِّهِ مسؤوليَّة اختياره الحرّ، وعلَيْهِ أَنْ يَتَرَقَّبَ عَذَابَ الله الْمُعَجّلَ في الدنيا، إذا اقتضَتْ حِكْمَتُهُ جلَّ جلالُهُ أَنْ يُذِيقَهُ شيئاً من العذاب المعجّل. وعليه أَنْ يَتَرَقَّبَ عذاب الله المؤجّلَ إلى يوم الدين، وهذا العذابُ سَوْف يَلْقَاهُ حتماً في جَهَنَّمَ دار العذاب الأكبر، خالداً فيها مُخلّداً، وقَدْ أَعْذَر مَنْ أَنْذَر.

المقولة الجدلية الثانية: دلّت عليها بإيجاز عبارة: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾:

لمَّا كانت مِلَّةُ قومه أَهْلِ مَدْين فيها شركيَّاتٌ، وفيها استباحَةُ ما

حَرَّمَ اللَّهُ عزّ وجلّ في كُلِّ ما أنْزلَ من دينٍ على رُسُله، كَقَطْع طُرُقِ الناس، وظلمهم والعدوان عليهم، وأكل أموالهم بالباطل، مع ادّعَاءِ أنَّ ذَلِكَ من الدّين الذي ورثوه عن جذهم «مَدْيَنَ» عن أبيه إبراهيم الخليل عليه السّلام، فإنَّ عودة شعيب عليه السّلام والذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ عن دينهم، وَدُخولهم في ملّةِ قَوْمهم، يَجْعَلُهم مِثْلَ قَوْمِهِمْ مُفتَرِين على الله كَذِباً.

الإفتراء: اختلاقُ الكذِب عَمْداً مع الْعِلْم بأنّه كذب.

الملّة: الدّين، والشريعة، صحيحةً كانت أم باطلة.

﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾: «إذْ» ظرف للزّمان الماضي، وهو مضاف إلى جملة ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾: أي: بَعْدَ حين تَنْجِيَةِ اللّهِ لنا مِنها. والمرادُ تنجيتهم من العقاب على اعتناقها، وهو الخلود في عذاب جهنّم المقرَّرِ عِنْدَ اللّهِ عزّ وجلّ لمن كفَرَ بالدِّينِ الحقّ، وافترى على اللّهِ كذباً.

﴿كَذِبًا﴾ مفعولٌ مطلَقٌ مؤكِّدٌ لعَامِله: ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾ إذْ هو مرادفٌ للمصدر الذي هو «افتراءً».

المقولة الجدليّةُ الثالثة: دلّت عليها بإيجاز عبارة: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾:

صيغة: «وَمَا يَكونُ لَنَا أنْ نفعل كذا» وأشباهها يُؤتَىٰ بها لتأكيد النفي بأبلَغِ تعبير، إذْ جاء فيها كَوْنٌ مَنفِيٌّ وبَعْدَهُ لاَمُ الجحود، كما يقول النحويُّون.

والمعنى: أنّ عَوْدَنا عن دينِ رَبّنا وَدُخولَنا في ملّتكُمْ أمْرٌ نَرفُضُه رَفضاً قَطْعيّاً، ولشدّة إصْرارنا على رفضه نُخْبركم من الآن بأنّه ما يكونُ لنا في المستقبل مِثْلُ هٰذَا الَّذِي تَطْلُبُونَه منّا، فهو لَنْ يُوجَدَ إلاّ إذا أردنا إيجادَه، ما دام الله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانُهُ يُمِدُّنا بإرادةٍ حُرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَةٍ، إذْ إنَّنا نَخْشَىٰ عقَابَ اللّهِ وعذابَه، وهو الخلُودُ في جَهَنَّمَ دَارِ العذاب يَوْم الدّين.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾: أي: إلاَّ أَنْ يَشَاء اللَّهُ رَبُّنَا أَنْ نُظْهِرَ لَكُمْ بألْسِنَتِنا وَبِبَعضِ تَصرُّفَاتِنَا مَا يُرْضِيكُمْ، لِحِكْمَةِ حِمَايَتِنَا مِنْكُمْ مُؤَقَّتاً بوقتٍ غير مَدِيد، حتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَمَّا قُلُوبُنَا ونفوسُنَا فَسَتَبْقَىٰ مُطْمَئِنَّةً بالْإيمان، وأَمَّا أَعْمَالُنَا في السِّرِّ فَسَتَبْقَىٰ على وفْقِ دين اللَّهِ الحقّ.

هذا ما فتح اللَّهُ به عليّ في فهم هذا الاستثناء من كلام شعيب عليه السَّلام، وهذا الفهم مطابقٌ لمَا جَاءَ في الإسلام بِشَأْنِ مَنْ أُكْرِه عَلَىٰ أعلان الكُفر وقَلْبُهُ مطمَئِنٌ بالإيمان.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾.

وقَدْ أشْكَلَتْ عبارة الاسْتِثْناء ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ في كلام شعيبٍ عليه السّلام على المفسّرين:

- فقال بعضهم: ذكرَ شعيبٌ عليه السّلامُ هذا تأدُّباً مع رَبّه، إذْ لِلَّهِ المشيئة المطلقة، وعلى المؤمن أنْ يُعْلِنَ خُضُوعَهُ لَهَا دائماً، وإنْ كان مُتَيَقّناً مِنْ أنَّ الله جلَّ جَلالُهُ لَنْ يَشَاءَ لِعِبَادِه أن يَعُودُوا عن الإيمان بالحقّ، والدُّخول في ملَّةِ الكافرين.

- وفهم الجبريُّون من هذا الاستثناء: إلاّ أنْ يشاء الله أن يَجْعَلَنا مجبورين على أنْ نَعُودَ عن الإيمان بالحقّ، والدُّخول في ملَّةِ الكافرين، وهٰذَا الْفَهْمُ مَرْفُوضٌ حتماً.

وما فتح اللَّهُ به عليَّ في فهم هذه العبارة، هو الحقُّ المطابقُ لقواعِد الإيمان، فاللَّهُ عزّ وجلّ لاَ يَرْضَىٰ لعباده الكُفْرَ، فَلاَ يُجْبِرُهُمْ عليه حتماً، ولا يأذَنُ لهم به حتماً، إلاَّ أن يكون تقيَّةً لِسَانِيَّةً، وببعض التصرُّفات الظاهرات، لدفع شرور المكْرِهين.

مقولة ثبات شعيب على مَوْقفه مُتَوكّلاً على الله: دلَّت عليها بإيجاز عبارة: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾:

﴿عِلْمًاۚ﴾ تمييز مُحَوَّلٌ عن الفاعل، والتقدير: وَسِعَ عِلْمُ الله فاسْتَوْعَبَ كُلَّ شيءٍ، سواءٌ أكان مَوْجوداً أمْ مَعْدُوماً، ففي جُمْلة ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ ثَنَاءٌ علىٰ اللّهِ عزّ وجلّ بِعِلْمه الشامِلِ كُلَّ شيء، والمحيطِ بكُلِّ شيء، والغرَضُ من إيراده التوطِئَةَ لجُمْلَةِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾.

أي: يَا قَوْمِ إذَا قَرَّرْتُمْ إخْرَاجي من أَرْضِكُمْ وَإِخْرَاجَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعِي، إذَا لَمْ نَعُدْ عَنْ دِينِنَا ونَدْخُلْ فِي مِلَّتِكُمْ، فإننا نُعْلِنُ لَكُمْ ثَبَاتَنَا على دينِنا، وَبَيْنَنَا وَبينكُمُ اللَّهُ الَّذِي وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وأحاطَتْ قُدْرَتُهُ العظيمة بكُلِّ شيءٍ، فَهُو الَّذِي يحكُمُ بيننا، فإنْ مَكَّنكُمْ من إخراجنا وهو العليم بِنَا وَبِكُمْ، فلِحِكْمَةٍ يفْعَلُ ذَلك، وَإِنْ لم يمكنكُمْ فهو لنا منه نَصْرٌ عليكم، فَدَبِّرُوا ما شِئْتُمْ، وافعلُوا مَا شئتم، فإنَّا علَيْه وَحْدَهُ تَوَكَّلْنَا.

التوكُل على الله: الاستسلامُ إلَيْهِ، وتَفْوِيضُ تدبيرِ الأَمْرِ وتحقيق ما يَرْجُو المتوكّل إليه، مع قيامه بالأسْباب المستطاعة الماديّة والمعنويّة طاعَةً لِأَمْرِه.

أفاد تَقْديمُ المعمول: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ علىٰ عامِله: ﴿تَوَكَّلْنَاۚ﴾ في الجملَةِ الْقَصْرَ والحصْرَ، أيْ: على اللّهِ وَحْدَه تَوَكَّلْنا، فهو القادر على حمايتنا ونَصْرِنا، وتَدْبِير أمُورِ نجاتنا وَتنفيذِها بِحِكْمَته.

مقولة دُعَاء شعيب أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمه: دَلَّتْ عليها عبارة:

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿رَبَّنَا﴾: أي: يا رَبَّنا، حُذِفَتْ أداة النداء بالدُّعاء، وهو الأَكْثَرُ استعمالاً في دُعاء الرَّبِّ جلَّ جلالُه وَعَظُمَ سُلْطانه، وفي حَذْفها معْنَىٰ عَدَم الحاجة إلى ذكْرِها في اللّفظ، لأنّ الله تعالى قريبٌ من عباده، يُجِيبُ دعوة الداعي إذا دعاه.

﴿ٱفْتَحْ﴾: الْفَتْحُ بين الخصْمَيْنِ هو القضاء والحكم، ويلْزَمُ مِنْ قَضاء الله وحُكْمِهِ نَصْرُ أَوْليائه على خُصُومِهِم وأعدائهم، وقد يُرادُ بالْفَتْحِ النَّصْرُ والتأييدُ العمليّان.

﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: اقض رَبَّنا بَيْنَنَا وبين قَوْمِنا الَّذِينَ هَدَّدُونَا بالإخْرَاج، قضاءً بالحق.

إنّ شُعَيباً علَيْهِ السَّلام، يَعْلَمُ عِلْمَ اليقين، أنَّ الحقَّ هو ما عليه هو والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وأنَّ قضاء الله لا بُدَّ أن يكونَ بنجاتهم وَنَصْرِهِمْ علَىٰ عَدُوِّهم من قومهم، لِأَنَّ الحق بجانبهم، لَكِنَّ الأدَبَ مَعَ اللَّهِ عزّ وجلّ في الدُّعاء بالفتح يقتضي تقييدَهُ بالحق، مَعَ ما في هذا التقْييد من إشعارٍ للخَصْم بأنَّ الدَّاعِي لاَ يَدْعُو رَبَّهُ بأنْ يَنْصُرَ الباطِلَ على الحقّ، بل يَدْعُوه بأنْ ينْصُرَ الحقَّ على الباطل، ولو كان الحقُّ بجانب خَصْمِهِ.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾: أي: وأنتَ يا رَبَّنا خير الحاكمين والناصرين، وفي هذا ثَنَاءٌ على الله فيه معنى الاستِعطاف لاستجابة الدُّعاء.

ويظْهَرُ أَنَّ شعيباً عليه السلام أسْمَعَ قَوْمَهُ دُعَاءَهُ فألْقَىٰ الرعْبَ في قلوبهم.

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

لقد ألْقَىٰ دُعَاءُ شُعَيْب عليه السَّلامُ الرُّعْبَ في قُلُوب الملأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمه، وخافُوا أن يُنْزِلَ اللَّهُ بهم مثْلَ الَّذي أنزَلَه بالْمُهلَكِينَ من قبلهم، قوم نوح، وعادٍ، وثمود، وقوم لوط، وكان شعيب عليه السَّلام قَدْ حَذَّرَهُمْ من ذلك، فصَرَفُوا النظر عن تنفيذ قرار إخراجه. وتوجّهوا للذين آمنوا به واتَّبعوه مُهَدِّدِين ومُتَوعِّدِين بالاضطهاد والتعذيب حتَّىٰ الموت.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾: أي: وقال الَّذِينَ كَفَرُوا من مَلأ قومه، وهم الكبراءُ والأعْيَانُ الَّذِينَ يَمْلَؤُون عُيُونَ العامّة، سواءٌ أكانوا ذوي سلطة إداريّة، أم من مستشاريهم وأهلِ الحلّ والعقد فيهم، وأمّا أصحاب السلطة الإداريَّة، فقد سبَق وصفهم بأنَّهم الَّذِين اسْتَكْبَرُوا.

ويظهر أنَّ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وَصْفٌ تقييديّ. يُشْعِرُ بأنَّ بَعْضَ مَلأ قَوْمِهِ هم من الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

وطَوَىٰ النَّصُّ المواجَهِينَ بهذا الخطاب، للعلم بهم من مضمون ما خوطِبُوا به، فَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيْبٍ عليه السَّلام واتَّبَعُوه.

﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾: أي: نُقْسِمُ: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً في إصْرارِهِ علَىٰ مَوْقِفِهِ الَّذِي أَعْلَنَهُ، إِنَّكُمْ إذاً لَخاسِرُونَ، أي: إِنَّكُمْ إذاً لتكُونُون خاسِرِينَ، إذْ سَنُسَلِّطُ عليكم من رِجَالِنا مَنْ يُعَذِّبُكُمْ وَيضطهِدُكم، وَيسْلُبُكُمْ ممتلَكاتهم، حتّىٰ تَصِيرُوا خاسِرِينَ كُلَّ شيءٍ، وقد تُقْتَلُون فتَخْسَرُونَ الحياة، وقَدْ تَخْسَرُونَ أَهْلِيكُمْ وَأولادَكُمْ بالتَّعْذِيب والتشريد والقتل.

أكَّدُوا تَهْدِيدهم بالقَسَم، فاللاَّمُ في [لَئِنْ] موطِّئةٌ لِلْقَسَمَ المنويّ ذهناً، وجُمْلَةُ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ الواقعة في جواب الْقَسَم مُؤَكَّدَةٌ أيضاً بالمؤكّدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاّم المزحلَقَةُ لِلْخَبَر ـ وَأَعْتبر (إذاً) هنا من المؤكدات أيضاً، لأنّ ما قَبْلَها مفتقرٌ لما بَعْدها، فهي زائِدَةٌ للتّأكيد».

* * *

الفصل الرابع

مرحلة تَهدِيد قوم شعيب له باستحقاقه الرّجمَ لَوْلاَ رَهْطُهُ فيهم

جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ مصحف/ ٥٢ نزول) قولُ الله عزّ وجل:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ (٩١) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ (٩٢) وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ (٩٣)﴾:

- قرأ نافع، وأبو عمْرو، وابْنُ كثير، وأبو جعفر، وابْنُ ذَكْوَان: [أَرَهطِيَ أعَزُّ] بِفَتْحِ يَاءَ المتكلّم.

وقرأ باقي القُرّاءِ العشرة: [أَرَهطِيْ أعَزُّ] بإسكان ياء المتكلم مع المدّ في الوصل.

والقراءتان وجهان عَرَبيان لنطقِ يَاء المتكلم.

- قرأ شعبة: [عَلَىٰ مَكَانَاتِكُمْ] بالْجَمْع. وقرأ باقي القراء العشرة [على مَكَانَتِكُمْ] بالإفراد. ومؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحِدٌ، لأنّ اسم الجنس إذا أضيف إلى معرفةٍ كان بقوّة الجمع.

دلَّ هذا النصّ على أنّ قوم شعيب عليه السَّلاَم، قَدْ أَحَسُّوا بالعجْزِ الكامِلِ عَنْ مقابلَةِ حُجَجِ شُعَيْبٍ عليه السلام القويّةِ، بما يَقِفُ معها مَوْقَفِ النّدّ ولَوْ في جولَةٍ واحدة من جولات الصّراع الفكري، فلَجَؤُوا إلى تَهْدِيدِهِ بالْقَتْلِ رَجماً بالحجارة، لكنّ له رهطاً من عشيرته لا يُرِيدُون إسخاطهم، وهُمْ على ملّتهم، إلاّ أنهم بحَسَبِ عاداتهم العشائِرِيَّة يَنْصُرُون شُعيباً نُصْرَةً عصَبِيَّةً جاهليّة، فهم يحفظون لعشيرته كرامَتَهُمْ.

- ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

لقَدْ أوقفُوا المناظرة القائمة على الفكر بينهم وبينه، متّهِمينَ إيَّاهُ بأنَّهُ يقول كلاماً لا يَفْقَهُون كثيراً منه، فلا فائدة من مُتَابَعَةِ المناظرات الفكريَّة بينهم وَبينه.

وفي هذه الآية إيجازٌ لِأَرْبَعِ مَقُولاَتٍ وَجَّهُوها له.

المقولة الأولى: دلَّت عليها عبارة: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾:

أي: ما نفهم كثيراً من أقوالِكَ الَّتي تَقُولُها لنا، فلا فائدة من متابعة الحديثِ الجدالي مَعَك، فاقْطَعْ كَلاَمَكَ مَعنا. ﴿نَفْقَهُ﴾ هنا بمعْنَىٰ نَفْهَمُ.

هذا القول يَدُلُّ دلالَةً صَرِيحةً على هُرُوبهم من المعركةِ الفكْرِيَّة، بادّعَاءِ أنَّهم لا يَفْقَهُون كثيراً ممَّا يَقُولُ في مُناظراتِه لهم.

إنَّهُمْ في الحقيقة منْهَزِمُون في معاركِ الفكر والمناظرة والبيان، ولهذا تَحَوَّلُوا إلى مَعْرَكَةِ الْقُوَىٰ الماديَّةِ الَّتي يَمْلِكُونَ مِنها ما لا يَمْلِكُ شُعَيبٌ عليه السَّلاَمُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

المقولة الثانية: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ﴾: هٰذه الجملة فيها تأكيد بثلاثة مؤكّدات: «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللاَّمُ المزحْلَقَةُ إلى الخبر».

أي: نُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّكَ ضَعِيفٌ فينا، فلا قُوَّةَ لَكَ تَسْتَطِيعُ بها مُواجهة قُوانَا إذَا أَرَدْنا قَتْلَكَ رَجْماً بالحجارة، لنتخلَّصَ مِنْكَ ومِنْ دَعْوَتِك، فَقَدْ وَصَلَ أَمْرُكَ معَنا إلى أقْصَىٰ ما نَحْتَمِلُ مِنكَ، ولَمْ يَبْقَ لنا إلاَّ أنْ نتخلَّصَ مِنْكَ بوسيلةٍ ما.

وفي هذا القول تَهْدِيدٌ قَوِيٌّ له بأنهم قَدْ بَدؤُوا يفكِّرُونَ تفكيراً جدِّيًا باسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ لإيقَافِ دعْوَته، خوفاً من انتشارها بين جماهيرهم.

المقولَةُ الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾:

﴿رَهْطُكَ﴾: رَهطُ الرَّجلِ عَشِيرَتُه الأَقْرَبُونَ فِي قَوْمه، وهَذَا هو المراد هنا، وقَدْ يراد برهط الرَّجل قبيلتُه، وقد يرادُ بهم قَوْمه.

﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾: أي: لَقَتَلْنَاكَ رَجْماً بالحجارة، وهٰذه عادَة الشعوب قديماً إذا خَرَجَ خارجٌ على قَوْمه رَجَمُوهُ حتَّىٰ الموت.

في هذه العبارة إعلان غاية العداء، إذ فيها دلالَةٌ على أنَّهُ قد وصل إلى حالةٍ يستَحِقُّ فيها أَنْ يُقْتَلَ رَجماً بالحجارة، تنكيلاً به، وعقاباً له، لولا أنَّ له عشيرةً عَزِيزَةً على نفوسهم، وهُمْ لاَ يُرِيدُون أَنْ يُسْخِطُوهم مُثِيرين فيهم عصبيَّتَهُمُ القبَلِيَّة، ولو كانوا غَيْرَ مُؤْمنين برسالَتِه، ولا بما جاء به عن رَبّه، إذْ من عادة القبائل والعشائر أنْ تَحْمِي الرَّجُلَ منها بدافع العصبيَّة، وَلَوْ خَرَجَ على مِلَّتِها ولم يَلْتَزِمْ طِرِيقَتَها.

المقولة الرابعة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾:

أي: وَمَا أَنتَ بذي كرَامَةٍ عَلَيْنا نُكْرِمُكَ عَنِ الرَّجْم من أجْلها، بَعْدَ الَّذِي كان منكَ من خُرُوجٍ علَىٰ مِلَّتِنا، ومخالفةٍ لطريقتنا، واتخاذ دينٍ يُعَارِضُ دِينَنا، وتجمَعُ عَلَيْهِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ من قَوْمِنا.

لكِنَّ رَهْطَكَ وهم عشيرتُكَ الأقْرَبُون أعِزَّاءُ عَلَيْنا، ذَوو كرامَةٍ بَيْنَنَا، ونَحْنُ حَرِيصُونَ على أن لا نَجْرَحَ كرامَتَهُمْ بَيْنَنَا، ولاَ نُؤْذِيَ مَشاعِرَهُمْ، ولاَ نُهِينَهُمْ بقَتْلِكَ.

العزيز: يأتي في اللّغَةِ بمعنَيَيْن:

المعنى الأول: القويُّ الغالِبُ الَّذِي لاَ يُغْلَبُ. يقولون: مَنَ عَزَّ بَزَّ، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَب.

المعنى الثاني: ذو الكرامة الذي لا يَصِحُّ أن تُهان كرامَتُه، وهذا المعنى هو المرد هنا.

- ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾:

لَمْ يَكْتَرِثْ شُعَيْبٌ عَلَيْه السَّلامُ لِتَهْدِيداتِ كُبَراءَ قَوْمِهِ وَوَعِيدِهم، واسْتَمَرَّ يُواجِهُهُمْ بِمَقُولاَتِهِ الإِقْنَاعِيَّةِ، لَكِنَّهُ ارْتَقَىٰ بِها إلى أُسْلُوبِ التثْرِيب والتلْوِيم والتعْنِيف، واتَّخذ معهم موقف المتحدِّي المنْذِر، المترقب الصَّامِد المتوكّل على رَبه.

لقد وجَّهَ لهم ثمانِيَ مقولات جاء إيجازُها في هاتَيْنِ الآيتَيْن، باخْتَزَالٍ شديد:

المقولة الأولى: دلَّت عليها عبارة: ﴿يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: أَرَهْطِي (عَشيرَتي الأَقْرَبُون) الّذينَ هُمْ عَبيدٌ مِثْلُكُمْ، وخَلْقٌ مِنْ خَلْق الله، أكْرَمُ عَلَيْكُمْ من الله رَبّكُمْ، الّذي يُمِدُّكم دواماً بعَطَاءَاتِ رُبُوبيّته، والّذي أَرْسَلَنِي رَسُولاً إليكم، فهو يَحْمِيني ويَصُونُنِي ويُنْجِينِي من شُرُوركم؟!!

إنَّ هٰذا مِنْكُمْ لأَمْرٌ يَسْتَدْعِي أشدّ العجب، لقَدْ كانَ مِنَ المفروض فيكُمْ وأنتُمْ تَدَّعُون الْعَقْلَ والرُّشْدَ والْحِكمة، وتَزْعُمُونَ أنكم تنصُرُونَ مُوْرُوثاتِكُمْ الدِّينيَّةَ الباقِيَةَ فيكُمْ من مِلَّةِ جَدّكُمْ مَدْيَنَ بن إبراهيم الخليل عليه السلام، أنْ يكُون اللَّهُ جلّ جلالُهُ أعزَّ على قُلوبكم ونُفُوسِكُمْ مِنْ كُلِّ عَزيز، وأكْرَمَ عندكم من كُلِّ ذي كرامة، فمَا أنا إلاَّ رَسُولٌ مِنْكُمْ أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِبادَةِ اللَّهِ رَبّكُمْ وحْدَهُ لاَ تُشركون بعبادتِه شيئاً، وأَدْعُوكم إلى طاعَته، واجْتِنابِ ظُلْم العباد، فما هو الشَّيْءُ الّذي يَصِحُّ في العقول السليمة أنْ تُنْكِرُوهُ عليَّ في دَعْوتي.

المقولةُ الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾:

أي: واتَّخَذْتُمْ دِينَ الله وأوامِرَهُ وشرائعه ومطالِبَهُ مِنْكُمْ وَرَاءَكُمْ، فَجَعَلْتُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ظِهْرِيًا، أي: مَنْبُوذاً مَنْسِيًّا مَتْرُوكاً وَرَاءَ ظُهُورِكم.

الظِّهْرِي: هو في اللُّغَةِ المنبوذُ ورَاءَ الظَّهْرِ، المتروكُ المنسِيُّ المسْتَهانُ به.

والياء في كلمة «ظِهْرِيّ» هي ياء النسب، فالظِّهْرِيُّ هو المنسوبُ إلَىٰ الظَّهْر، وكَسْرُ الظاء جاءَ من تغييرات النَّسَب الّذي يَرِدُ على غير قياس، كما قالُوا في النسبة إلى «دَهْرٍ» دُهْرِي بضم الدّال، وفي النّسْبَةِ إلى «أَمْس» إِمْسِي بِكَسْرِ الهمزة.

المقولة الثالثة: دلَّت عليها عبارَة: ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

أي: إنَّ ما تَعْمَلُونه مما يُسْخِطُ رَبَّكُمْ عليكم، وما تَعْمَلُونَهُ من تَدْبيراتٍ لقَمْعِ رَسُولِهِ، ولِقَمْعِ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه ونَصَرُوهُ، وللتنكيلِ بهم، ومَا تَعْمَلُونَه لإيقافِ امْتِدادِ الاسْتِجَابَةِ لدِينِه، أَعْمَالٌ يُحِيطُ بها الله جلّ جلالُهُ إحَاطَةً تَامَّةً، بعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وعَدْلِهِ وَقُدْرَتِه، وسَائِرِ صفاتِ رُبُوبيّتِه.

إنّ الدّينَ دِينُه، وَإنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ له، وأَنا واحِدٌ مِنْ أنبيائه ورُسُلِه، والمؤمِنُونَ بي من أوْليائه، ونَحْنُ جَمِيعاً نَفَوِّضُ أُمورَنا إلَيْهِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكيل.

المقولة الرابعة: دلَّت عليها عبارَةُ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾:

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: على مَوْضِعِكُمْ وجِهَتِكُمْ وَنَاحيتِكُمْ الَّتي اخْتَرْتُموها لأَنْفُسِكُمْ، المشاقَّةِ والمعادِيَةِ لِي وَلِدِيني ولِلّذِينَ آمَنُوا بي.

المكانة: مؤنَّثُ المكان، تُطْلَقُ على الموضع المادّيّ أو المعنوي. وتُطْلَقُ على المنزِلَة. والمرادُ هنا الموضع.

والمعنى: وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا وَأَنْتُم علَىٰ مَوضِعِكُمْ وَجِهتِكُمْ وَنَاحِيتَكُمُ المشَّاقَةِ لي، والنّائيةِ عن مَوْضِعِ الحقّ، وهي المكانَةُ الَّتي اخْتَرْتُمُوها لأنْفُسكم.

اعْمَلُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ عَمَلَهُ ضِدِّي، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بي، وضِدَّ رِسالَةِ رَبِّي وَرَبِّكم.

وظاهرٌ ما في هٰذِهِ المقولة من تحدٍّ لَهُم أن يَفْعَلُوا ما يَشَاءُونَ غير عابىءٍ بتدبيراتهم وأعمالهم.

المقولة الخامسة: دلّت عليها عبارة: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾: أي: إنّي متابعٌ القيام بعملي، على وَفْقِ ما أَمَرَني به رَبّي، وعلى وفْقِ ما تقتضيه مني رسالَتِي، فلا أتوقف، مع ملازمة مكانتي المضادّةِ والمشاقة لمكانتكم، حتّى يَقْضِي اللّٰهُ بيني وبينكم.

وظاهر في هذه المقولة أيضاً، أنّ شعيباً عليه السلام يتحدَّىٰ كُبَرَاء كُفَّارِ قَوْمِهِ، بأنه لَنْ يَتَوَقَّفَ عن دعْوَتِهِ، على الرُّغْمِ من كلّ تَهْدِيداتِهِم وتَدْبيراتهم الكَيْدِيّة.

المقولة السادسة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾:

من الظاهر في هذه المقولة أنَّ شعيباً عليه السَّلام يُنْذِرُ كُفَّار قَوْمه بأسْلُوب التَّلْويح لا التَّصْرِيح، بأنَّهم هم الّذِينَ سَيَنْزِلُ بهم العذابُ الّذي يُخْزِيهم.

الْخِزْيُ: الذُّلُّ والهَوان، والافتضاح بالقبائح والآثام المخجلة التي تجلُبُ العقوبات الْمُهِينات المذِلاّت.

ويُطْلَقُ الخزيُ على الوقوع في الشرّ والعذابِ، والْبَلايَا والنّكبات المصحوبة بذُلّ وهوان.

استعمال شعيب عليه السلام حرف «سَوْف» دون حرف «السّين» احتياط ذكيٌّ منه، إذْ لم يكُنْ لدَيْه عِلْمٌ بقُرْبِ وقْتِ وُقوع العذاب المخزي بقومه، الذي سيأتيهم من ربّهم.

أكثر ما يستعمل حرف «سوف» في القرآن المجيد للدلالة على ما سوف يكون يوم الدين، أو في المستقبل البعيد.

المقولة السابعة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾: أي: وسوف تعلمون حينما ينزل عذاب الله المخزي من هو كاذبٌ في ادّعاء أنّه على حقٍّ، وأنّهُ يَنْصُرُ دين الله بحَقٍّ وصِدْق.

هذا البيان يَدُلُّ على أنّهم كانوا يَزْعُمون أنهم على الحقّ، وأنّهُمْ يَنْصُرُونَ دين الله الموروثَ عن أبائهم إلى جدهم مدْيَن بن إبراهيم عليه السلام.

وفي هذا البيان تلويحٌ بأنّهم هم الكاذبون، كما في العبارة السابقة لها.

المقولة الثامنة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾:

أي: وانْتَظِرُوا انتظار المراقب بكلّ حواسّه، لكلّ ما تأتي به أحداثُ المستقبل، إنّي معَكُمْ رَقيب لهذه الأحْداث.

إنّه لا يتحدّىٰ مثلَ هذا التحدّي إلاّ مَنْ كان على ثقةٍ من رَبّه بأنّه سيَنْصُرُهُ، وسيَخْذُلُ ويُخزِي عَدُوّه بالعذاب الأليم الْمُهِين.

ولَقَدْ وَجّه شعيبٌ علَيْه السَّلام مقولاتِه هٰذِهِ لِلكُبَرَاء كُفّار قومه، وذوي السُّلْطة الإداريَّةِ فيهم، بقَلْبٍ ثابت شُجَاع، ونفْسٍ مطمئنّة واثقة بنَصْر الله العلِيّ الأعلَى، الحكيم القدير، المنْتَقِم الجبار.

* * *

الفصل الخامس

مرحلة تحدّي قوم شعيب له بأن يأتيهم بما يتوعّدهم به من عذاب اللّهِ

جاء في سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول الله عزّ وجل بشأن شعيب عليه السلام وقومه:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

هذا النصّ يكْشِفُ التحدّي الأَخير الَّذِي وَجَّهَهُ كُبَرَاءُ كُفَّارِ قَوْم شُعَيْب عليه السّلام له، ومن ورائهم جماهِيرُهُمْ، بَعْدَ أَنْ أَمْهَلَهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إمْهَالاً كَافِياً قَاطِعاً لكُلِّ أَعْذَارِهم.

وقد اشتمل هذا النّصّ على بيانِ موجَزِ ثلاثِ مقولاتٍ وَجَّهُوها له:

المقولة الأولى: دلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: أي: ما أنت إلاَّ من الَّذِينَ سُحِرُوا سِحْراً قَوِيًا، حتَّىٰ أَثَّرَ فيك هذا السِّحْرُ الشّديدُ، فأفْسَدَكَ وَغَيَّرَكَ عَمَّا كُنَّا نَعْهَدُهُ فيك من عَقْلٍ رَاجح، وفضائلَ تُحْمَدُ عليها، وسَلَبَكَ مَا كُنْتَ تتحلَّىٰ به من حِلْمٍ ورُشْدٍ عظيمَيْنِ انْفَرَدْت بهما دون سائر قومك.

أقول: لو أَنَّهُم نظروا إِلَىٰ مضمُون دَعْوَتِهِ بعقْلٍ وَبَصِيرَة، وأَبْعَدُوا عنْهُمْ مؤثّراتِ الأهواء والشهوات والمطامع، والتقاليد والتبعيَّات العمياء، لَرَأَوْا أنّه قَدْ زَاد حِلْماً وحكمةً، وعقْلاً ورُشداً، وأنّه ناصح لهم أمين.

إنّ انْطِماسَ الْبَصِيرة بغِشَاوات الأهواء والشهوات والتقاليد العمياء، يُفْسِدُ على أهل العقول عقولهم ومفهوماتهم، وقد يجعلهم كالْبُلْهِ، أو كالأنعام، أو أضلَّ سبيلاً.

المقولة الثانية: دلَّت عليها عبارة: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾: هذه تَعِلَّةُ كلِّ الذين كذّبُوا رُسُلَ رَبّهم، وكَفَرُوا بما جاءُهم به عنه، إذْ يَزْعُمون أنَّ البشريَّة لا تَصْلُح للاصطفاء بالنُّبوّة وبالرّسالة، مع أنَّ الحكمة الرفيعة السامِيَة تقتضي أن يكون الرَّسُولُ إلى البشر واحداً منهم، يَصْطَفيه الله بالوحي إليه، ويكلّفُه حَمْلَ رِسالَتِهِ وَتَبْلِيغها لقَوْمه.

إنّ الاعتراض على بَشرِيَّةِ الرَّسُولِ لا يسْتَنِدُ إلاَّ إلى مُجَرَّدِ إعلان الاسْتِبْعَادِ والاستِغْرابِ والتعجُّب، وَهَذَا لَيْسَ بدليلٍ مُطْلقاً، إذْ لا يوجَدُ مانِعٌ عَقْلِيٌّ من أَنْ يُوحِيَ اللَّهُ الرَّبُّ الخالِقُ إلى من يَشَاءُ مِنْ عباده، وهو جَلَّ جلالُهُ القدير على أَنْ يَفْعَل ما يشاء، وأن يخْلَقَ ما يشاء.

بل الحكمة تقتضي أن يجعل اللَّهُ الرَّسُولَ إلى البشر، من الْبَشَرِ أنفسهم، ليكون في سلوكه حُجَّةً عليهم.

المقولة الثالثة: دلَّت عليها عبارة: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾: أي: وَنُؤكِّدُ لَكَ أنّنا نَظُنُّكَ كاذِباً من الكاذبين، الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على رَبّهم، بادّعاء النبوَّةِ والرِّسَالة.

[إنْ] هي المخففة من الثقيلة، ويُؤَازِرُها في التأكيد اللاَّم في [لَمِنَ].

ونظراً إلى أنَّهُ قَدْ كان مَعْرُوفاً لدى عامَّةِ قومه وَخاصَّتِهم بأنَّهُ صادقٌ لا يَقُولُ إلاَّ حَقًّا، ما استطاعُوا أن يقولُوا له عِبَارَةً يَجْزِمُونَ فيها بأنَّهُ كاذِبٌ في دَعْوَاهُ النبوَّة والرّسَالَة، أو بأنّه واحِدٌ منَ المتنبّئِينَ الكاذبين، بل اكْتَفَوْا ببيَان أنَّ ما يتصوَّرُونه فيه هُوَ من قبيل الظَّنّ، لا من قبيل الْيَقين المستند إلى عِلْمٍ وَخِبْرَةٍ بأحْوالِهِ وأفعاله وأقواله.

وصبَر شعيبٌ عليه السلام على شتائم الكبراء من كفار قومه له، كما صبَر سَائِر رُسُلِ الله على شَتَائِم أقوامهم لهم، فلَمْ يُقابِلُوا شتائم أقوامهم بأمثالها.

وبعد هٰذه الْمَقُولات الثلاث وجَّهُوا له عبارة التحدِّي الأحْمَق، فقالوا له:

- ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾:

﴿كِسَفًا﴾: الكِسَفُ والكِسْفُ، بفَتْحِ السّين وإسكانها، القِطَعُ من أي شيء، وهو جمع واحدته: «كِسْفَةٌ» وهي القطعة من أيِّ شيءٍ.

والمعنى: فأسْقِط علينا ما تَسْتطِيع إِسْقاطه من قِطَعٍ من السَّماء تُعَذِّبُنَا وَتُهْلِكُنَا بها، إنْ كُنتَ من الصّادقين في أَنَّكَ نبيٌّ ورسُولٌ أرسَلَكَ اللَّهُ إلينا.

استعملوا حرف الشرط «إنْ» للإشعار بأنّهم لا يُؤْمِنُون بنبوّته ولا برسالته، فهم يطلُبُونَ منه هذا الطلَبَ على سبيل التعجيز.

لَقَدْ غرَّهم طولُ إمْهالِ اللَّهِ لهم، مع وجُودِ رَسُولِهِ بينهم يُعَالِجُهم بكل وسائل الحكمة والموعظة الحَسَنةِ والجدال بالّتي هي أحْسَن، ويَرَوْنَ أنهمْ مُمَكَّنُونَ في أرضهم.

- ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾: أي: لستُ أنا الَّذي أُسْقِطُ الكِسَفَ مِنَ السَّماءِ، إنَّمَا الَّذِي يَفْعَلُ ذَٰلِكَ هُو رَبّي، وربّي إنّما يَفْعَله أو يَفْعَلُ شيئا آخر يُهْلِكُكُمْ به، إذا عَلِمَ من أَعْمَالِكُمْ أَنَّكُمْ صِرْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ إِنْزَالَ العقابِ الشّامِلِ فيكم، واقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذلك.

إنه جلَّ جلالُهُ وعظم سُلْطانُهُ أَعْلَمُ بما تَعْمَلُون.

في ياء المتكلّم من ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ قراءتان الإسكان والفتح، ففَتَحها نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، وأسْكَنَها مع المدّ باقي القرّاء العشرة.

* * *

الفصل السادس

مرحلة توجيه كبراء كفّار قوم شعيب إنذارهم الأخير للّذين آمَنُوا به واتّبَعُوه

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

وصَلَ كُبَرَاءُ كُفَّار قومِ شُعَيْب إلى حالَةِ الحذَرِ من أن يُنزِلَ اللّٰهُ بهِمُ العذابَ والإهْلاكَ الشّامل، لمّا رَأَوْا أَنَّ شُعَيْباً غَيْرَ عَابِىءٍ بتهدِيداتهم، وغيرَ مُكْتَرِثٍ لأنَّه صار من وجهة نظرِهم مُسْتَحقًّا لِأَن يُقْتَلَ رَجماً بالحجارَةِ، ولَولاَ الكرامَةُ الّتي رَعَوْها لِعَشيرَتِهِ الأقربين لَرَجَمُوه.

فَوَجَّهُوا إِنْذَارَهُمْ للّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه منهم، وأَقْسَمُوا لهم قائلين: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾:

أي: نُقْسِمُ لَكُمْ: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيباً في إصْرارِه على مَوْقِفِهِ الَّذي أعْلَنَه، إنَّكُمْ إذاً لتكونون خاسِرين، إذْ سَنُسَلِّطُ عليكم بأوامرنا من رجالنا من يَسومُونكم سُوءَ العذاب، ويضطهِدُونَكُمْ، ويسلُبُونَكُمْ مُمْتَلكاتِكُمْ، حتَّىٰ تكونُوا خاسِرِين كلَّ شيءٍ، وَقَدْ تَخْسَرُونَ أَهْلِيكُمْ وَأَوْلاَدَكُمْ بالتَّعْذِيب والتَّشْرِيدِ والقتل.

أَكَّدُوا تهديدهم ووعِيدَهُمْ بالقسم، فاللام في [لَئِن] مُوطّئةٌ لِلْقَسَمِ المنويّ الملاحظ ذهناً، وجملةُ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ الواقِعَةُ في جواب القسم مؤكَّدَة بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاّم المزحلقة للخبر ـ وأُعْتَبِرُ [إذاً] هنا من المؤكّدات أيضاً، لأنّ مَا قَبْلَها مفتقرٌ لمَا بَعْدَها فهي زائدةٌ للتأكيد».

وقد تضمّن هذا القولُ قراراً بتنفيذ العقاب الماديّ بالّذين آمَنُوا بشُعَيْبٍ واتَّبَعُوه.

وبهذا اجتمعت الأسبابُ الّتي تقتضي إهلاكَ الْقَوْمِ الكافرين وهي:

(١) تكذيب الرسُول.

(٢) التكذيب بما جاء به عن رَبِّه.

(٣) تَحَدِّي الرَّسُولِ بأن يُنْزِلَ عليهم العذابَ الَّذِي كان يُنْذِرُهم به، متوهمين أنَّه ليس رسُولاً، فلَنْ يَسْتجيب الله لدُعائه.

(٤) إنذار الذين آمنوا به واتَّبَعُوه، بأن يُنْزِلُوا بهم العقاب القامع لهم جَمِيعاً، إذا اتَّبَعُوا شعيباً في مواقفه المخالفة لمطالبهم منه.

فقضى الله بتعذيبهم وإهلاكهم كما سيأتي بيانُه.

* * *

الفصل السابع

مرحلة إنزال العذاب الشامل المهلِك الذي استأصل الله به كُفَّار قوم شعيب عليه السلام

جاء في القرآن المجيد أرْبَعَةُ نصوص من أربع سُور، وفيها بيانُ إهلاك كفَّارِ قَوْمِ شعيبٍ عليه السلام، بعد أَنْ وصَلَ مُعْظَمُهُمْ إلى حالَةٍ ميؤوس معها من استجابتهم لدعْوَةِ رسول رَبّهم، مهْمَا مَدَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في إمْهالهم.

(١) فجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

(٢) وجاء في سُورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول اللّهِ عزّ وجلّ بشأن شعيبٍ وقومه:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

(٣) وَجاء في سورة (العنبكوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قول اللّهِ عزّ وجلّ بشأن شُعَيب وقومه أيضاً:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

(٤) وَجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

هذه النصوص الأَرْبعة أجتهد في تَدَبُّرها تَدَبُّراً تكامُلِيًّا، بمعونة الله وتَوْفيقه وتَسْدِيده.

● ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: ولمَّا جاء وَقْتُ تَنْفِيذِ أَمْرِنا السَّابقِ، بأَنْ نُنَجّي شُعَيْباً ونُنَجّيَ الّذِينَ آمَنُوا به معه برَحْمَةٍ مِنَّا، وَبأَنْ نُهلِكَ كُفَّارَ قَوْمه بعَذَابٍ على وَفْقِ حِكْمَتِنَا وعَدْلِنا نَفَّذْنَا ما يلي:

أوّلاً: (بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الّذِينَ نَجّاهُمُ الله): ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا... ﴿٩٤﴾﴾ «هود».

أي: نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَنَجَّيْنَا مَعَهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وبما جاء به عن رَبّه، بإبْعَادِهم عَنْ أَمَاكِن تَنزُّلِ وسَائِلِ التَّعْذِيب والإهلاك، وكان هذا بقَدَرٍ وقضَاءٍ، وأمْرٍ صَادِرَاتٍ مِنْ رَحْمَتِنا.

الرَّحْمة: صِفَةٌ من صِفَاتِ الله جلّ جلالُهُ، من آثارها الإنْعَامُ، والإكْرَامُ، والنَّجاةُ والنَّصْرُ، إلى أمور كثيرة.

ثانياً: (بالنسبة إلى الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ الله):

(١) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ (الشعراء):

(٢) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (العنكبوت):

(٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ (الأعراف):

(٤) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ (هود):

هٰذه النُّصوص مُتكامِلَةٌ فيما بينها.

● فَقَدْ دَلَّ النّصّ الَّذِي جاء في سورة (الشعراء) على أن الله عزّ وجلّ قَدْ شمِلَهُمْ بعَذَابٍ قَبَضَ عليهم في يَوْمِ الظُّلَّةِ.

وكانت الظُّلَّةُ غَمامَةً حَارَّةً ذَات سَمُومٍ يَنْدَفِعُ مِنْها إلَىٰ أَرْضِ مَدْين، فيُعَذِّبُ مَنْ قَضَىٰ اللّٰهُ علَيْه بالعذاب بَحرّها وسَمُومِها، ومَا تُحْدِثُهُ من اختناقات، واسْتَمرَّتْ هٰذه الْغَمامَةُ العذابيَّة، طَوَالَ يَوْم تَعْذِيبهم.

الظُّلَّة: هي في اللُّغَةِ كُلُّ شَيْءٍ أَظَلَّ وسَتَرَ وَأَطْبَقَ مِنْ فَوْق.

ووصَفَ الله عزّ وجلّ عَذَابَ يَوْم الظُّلَّةِ بِأَنَّهُ كان عَذَابَ يَوْم عظيم، ومَعْلُومٌ أَنَّ عَذابَ الْيَوْمِ الْعَظِيم لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَذاباً عظيماً مصَاحِباً كُلَّ أجْزاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ العظيم.

● ودَلَّ النصّ الَّذِي في سُورَةِ (العنكبوت) على أَنَّ اللّٰهَ عزّ وجلّ قَدْ زَلْزَلَ الْأَرْضَ من تَحتِ كُفَّارِ قَوْمِ شُعَيْبٍ زِلْزَالاً عظيماً مُدمِّراً ما عَلَيْها، ومُعَذّباً الكافرين الَّذِينَ يَسْكُنُونها.

ودَلَّ على أنَّهُمْ حينما دَخَلُوا في صُبْحِ الْيَوْمِ التَّالي لِيَوْمِ الظُّلَّة كانوا هَالِكِين جَاثِمِين.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لاَصِقِينَ بالأَرْضِ علَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، ومُلاَزِمِينَ أمْكِنَتَهُمْ هَلْكَىٰ.

● وَأَضاف النَّصُّ الذي جاء في سُورَة (الأعراف) على النصّ الذي جاء في سورة (العنبكوت) بَعْدَ ذِكْرِ العبارة المماثلة للَّتِي في (العنكبوت) قول اللَّهِ عزَّ وَجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ﴾: أي: كَأَنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ أَنْ أَقَامُوا في أَرْضِهِم، وَهٰذا يَدُلُّ عن طَرِيق الكِنَايَةِ ولَوازِمِ الأفكار على استِئْصَالِهِم، وَطَمْسِ كُلّ آثارِهم.

يُقَال لُغَةً: غَنِيَ بالْمَكَان يَغْنَىٰ، أي: أَقَامَ فيه، أَوْ طَالَ مُقَامُه فيه.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾: جاءَ هَٰذَا البيانُ التعقيبيُّ الرَّبَّانِيُّ، في مُقَابلِ تَهْدِيدِ وَوَعِيد هؤلاَءِ المكذّبين للّذِين آمَنُوا بشُعَيْبٍ عليه السّلام، إذْ قَالُوا لهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: في هذه العبارة قَصْرٌ إضافيٌّ، دَلَّ عليه تعريف طرفي الإسناد.

لقَدْ خَسِرَ المكذِّبُونَ دُنياهُمْ فكَانُوا جَمِيعاً هَلْكَىٰ، وخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ في آخِرَتهم، إذْ عَرَّضُوها لعذاب الله، وسوف يكُونُ مصيرُهم إلَىٰ الْخُلُودِ في عذاب الحريقِ بجهنَّم يَوْم الدّين خالِدين فيها مُخَلَّدِين.

● وَدَلَّ النّصّ الذي جاء في سورة (هود) على أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ أرْسَلَ

علَيهِم صَيحَةَ قَدْ تكُونُ مصاحِبَةً للزَّلْزَلة، فأصْبَحُوا في دِيَارِهِمْ جاثِمين، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها.

ويلاحظ أنَّه جاء في (العنبكوت) وفي (الأعراف): ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ بصيغَة الإفراد لكلمة «دار».

وجاء في سورة (هود): ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ بصيغة الجمع: «دِيَارِ».

فيحتَمِلُ أنْ تكونَ [في دَارِهِم] بصيغَة الإفراد، تُشِيرُ إلى حاضِرَة أهل مَدْين الكُبْرَىٰ، الَّتِي يَسْكُنُها كُبَرَاءُ كُفَّارِ القَوم، وأَنْ تكُونَ ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ بصيغَةِ الجمع تُشِيرُ إلى جميع أَرْضِ قوم مَدْين في قراهم وَبوادِيهم، وأنَّ هَلاَكَ البعيدين عن الحاضِرَةِ الكُبرَىٰ لبلاَدِهم قد كان بالصَّيْحَةِ الَّتي جاء ذكْرُها في سورة (هود) والله أعلم.

* * *

الفصل الثامن

التعقيب الرَّبَّاني على إهلاك قوم شعيب عليه السلام

(١) جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ عقب بيان إهلاك كُفَّار قوم شعيب عليه السلام:

- ﴿...أَلَا بُعۡدًا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿أَلَا﴾ أداة تَنبيه، وفيها معنَىٰ التَّوْكيد.

﴿بُعۡدًا لِّمَدۡيَنَ﴾: أي: طرداً لكُفَّار مَدْيَنَ الَّذِينَ أُهلِكُوا، مِنْ مَدَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ أن يكُونَ في الوجود شيئاً ينالُهُ قَدْرٌ ما من رحمة الله.

بُعْداً: مَفْعُول مطْلَق لِفِعْلٍ محذوفٍ وجوباً، وهو على تقدير: أُبْعِدُهم بُعداً، أي: أَطْرُدُهُمْ طَرْداً.

[كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ]: تُشْعِرُ هذه العبارة بأنّ كُفَّارَ قَوْم شعيب عليه السّلاَم، كانُوا يُشْبِهُونَ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَتَمرُّدِهم وَكثيرٍ مِنْ تَصرُّفَاتهم ثَمُوداً قَوْمَ النبيّ الرسُول صالحٍ عليه السّلام.

يُقَالُ لُغَةً: «بَعُدَ يَبْعُدُ بُعْداً» و«بَعِدَ يَبْعَدُ بَعَداً» ضدُّ قَرُبَ. واستُعْمِل بمعنى «هَلَكَ». ويقولون في الدُّعاء على مَنْ يُرِيدُونَ هَلاَكَهُ: «بُعْداً لَه».

وقد جاء في القرآن استعمال نظير هذه العبارة تعقيباً على إهلاك قوم نوح، وقَوْمِ هُود، وقَوْم صالح، وأقوام مُتَعَدِّدِين أُهْلِكُوا لَمْ تُذْكَرْ أسماؤهم ولا أسماء رسُلِهم.

(٢) وَجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) عَقِبَ بيان إهلاكهم أيضاً:

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾: أي: إنّ في ذَلِكَ الَّذِي جَرَىٰ لكفَّار قوم شعيب من الإهلاك الشّامل، لآيَةً وعَلامَةً على سُنّةِ الله في عباده، في مجاري حكمته وعَدْله.

﴿... وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾: أي: أَهْلَكْنَاهُمْ إهلاكاً عامًّا شامِلاً، لأنّ أكثَرَهم لم يكُونُوا مُسْتَعِدِّين لأنْ يُؤْمنوا مستقبلاً، مهما أمْهَلْنَاهم.

﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: جمع اسم الفاعل «مُؤْمِن» وهُوَ يستَعْمَلُ للحالِ والاستقبال كالمضارع.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

[الْعَزِيز]: اسم من أسماء الله الحسنىٰ، والعزيز في اللّغة: القويُّ

الغالِبُ. ومعناه بالنسبة إلى الله جلّ جلاله: الّذِي لا يعجِزُهُ ممكِنٌ من الممكنَاتِ العقلية، وذكر هذا الاسم من أسماء الله الحسنىٰ يُشيرُ هنا إلى أنَّه تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ قَدْ أهْلَكَ قَوْمَ شُعَيْبٍ بعِزَّته، وسَوف يجازيهم يوم الدّين بعزّته على جرائمهم في جهنّم دار تَعْذِيب المجرمين.

وصيغةُ «عزيز» من صِيَغِ المبالغة والتكثير.

[الرَّحِيم]: اسم من أسماء الله الحسنى، أي: ذو الرَّحْمَةِ البالغة مداها الأقصىٰ، صيغة «رحيم» من صيغ المبالغة والتكثير.

وذكر هذا الاسم من أسماء الله الحسنَىٰ هنا، يُشِيرُ إلى أنّ الله تبارَكَ وتَعَالى سوف يَرْحَمُ يوْمَ الدِّين، مَنْ كان لَدَيْه اسْتِعْدادُ من قَوْم شُعَيْب لأنْ يُؤْمِنَ فيما لَوْ أُمْهِلَ زمناً آخر، ولكِنْ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الله إهْلاَكَهُ مع المهلِكِين من قَوْمِه، إذْ بَلَغَ الفسادُ في مجْمُوعِهِم الأعْظَم أقْصَاه، وبَعْدَ البعْثِ يُحَاسِبُ اللَّهُ عزّ وجلّ كلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ على مقدار ما في قلْبِه مِنْ شَرٍّ أَوْ خَيْرٍ وإنْ قَلَّ.

(٣) وَجاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣) بشأن جُمْلَةٍ مِنَ المهلِكِينَ السابِقِين، ومنهم «أصْحَابُ مَدْيَنَ» قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: إنَّ المهلَكِينَ هُمُ الّذِينَ جَنَوْا عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ، فأصَرُّوا على الكُفر، وعلى أن يَعْمَلُوا مَا يَنْتَهِي بهم إلى العذاب والهلاك، ثمّ إلى العذاب في دار العذاب يوم الدّين، على الرُّغم من كلّ البيانات الكافيات، والتحْذِيراتِ الشديدات لهم.

ولم يُجْرِ اللَّهُ فيهم إلاَّ مقتضىٰ الحكْمَةِ والْعَدْلِ، كَمَنْ أَوْقَدَ ناراً،

وَرَمَىٰ نَفْسَهُ فيها معانداً، وَقَدْ جعل اللّٰهُ عزّ وجلّ من سُنَنِهِ التكوينيَّة أنْ يُحْرِقَ الأجْسَادَ الحيَّة الّتي تَدْخُلُ فِيها، فإنّ اللّٰهَ عظُمَتْ قُدْرَتُه، وجَلَّتْ حِكْمَتُهُ يُحْرِقُهُ بنارِهِ الّتِي أوْقَدَهَا وَقَذَفَ نفْسَهُ فيها.

فالْمُهْلَكُونَ والْمُعَذَّبُونَ لَمْ يَكُنِ اللّٰهُ جلّ جلالُهُ ليَظْلِمَهُمْ شيئاً، ولَكِنَّهُمْ هُمُ الّذِينَ كانُوا يَظْلِمُونَ أنْفُسَهُمْ.

* * *

الفصل التاسع

مَاذا فَعَلَ شُعَيبٌ عليه السّلام بَعْدَ أنْ أهْلَكَ اللّٰهُ قَوْمه ونَجّاهُ والّذينَ آمَنُوا معه

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قولُ اللّٰهِ عزّ وجلّ:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: فانْصَرَف شعيبٌ عليه السّلام مُدْبراً عن ديارِ إهْلاكِ الّذِينَ كَفَرُوا من قَوْمه، وربّما كان مَعَهُ في الانصراف الّذِين آمنُوا به واتَّبَعُوه، ونادى كفّار قَومِهِ وَهُمْ هَالِكُونَ قَائِلاً لهم:

﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾: أي: يا قَوْم لَقَدْ أبْلَغْتُكُمْ مَا كانَ يَنْزِلُ علَيَّ مِنْ صُحُفٍ أو كتابٍ تنزيلاً مُنَجّماً، وَمَا كَانَ يُوحَىٰ به إلَيَّ لِأُبلِّغَكُمْ إيّاه مِنْ مَعَانٍ وبيانات، دَلّتْ صيغَةُ الجمع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ على التَنْزِيلِ المنجّم. واختار أنْ يُشْعِرُهم بعبارَة: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أنَّهُ كان يَعْطِفُ عليهم لأنّهم قومه.

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أي: قَدَّمْتُ لَكُمْ مَا فيه خيركم خالصاً من الشوائب، فلَمْ آلُ جَهْداً في نُصْحِي لَكُمْ، لَكِنَّكُمْ لم تَسْتجيبوا لِدَعْوَتي، مع

شدَّةِ حِرْصِي على نجاتِكُمْ، ولم تَعْبَؤُوا بنُصْحِي، بل كَذَّبْتُموني، وكذَّبْتُمْ بما جئتكُمْ به عن رَبّي، وكَفَرْتُمْ مع عِلْمِكُمْ بأنَّ مَا جِئْتِكُمْ به هو الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾: أي: فكيف أَحْزَنُ علىٰ هَلاَكِ قَوْمٍ كافِرِين، وَكَيْفَ أَحْزَنُ من أجْلِهِمْ، إذا نزل بهم عذابُ رَبّهم المعجّل، وسَوْف يُعَذَّبُونَ عَذاباً خالِداً في جهنّم يوم الدّين بمقتضى حِكْمَةِ اللّهِ وَعَدْله.

يُقَال لغة: أسِيَ عَلَيْه، وأسِيَ لَهُ يأسَىٰ أسىً، أي: حَزِنَ، فهو «آسٍ، وآسِيٌّ، وَأَسْوَانٌ، وَأَسْيَانٌ». أصْلُ: «آسَىٰ» أَأْسَىٰ.

والمرادُ بالاستفهام عَنِ الكَيْفِيَّة، بيانُ أَنَّهُ لاَ تُوجَدُ كَيْفِيَّةٌ يَصِحُّ معها أَنْ أَحْزَنَ عَلَيْهِم، فَقَدِ اخْتَارُوا لأنفسهم بإراداتهم الحرَّةِ أَنْ يَكْفُرُوا بالحقّ، مَعَ عِلْمِهِمْ بأَنَّ مَا جِئْتُهُمْ به هو الحقُّ من رَبّهم، ولَكِنْ غَلَبَتْ شَهَواتُ نفوسهم، وأهْوَاؤهم عُقُولَهُمْ، وإراداتِهم الحرَّةَ، فاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ على الْهُدَىٰ، وآثَرُوا المتاع الزائلِ الفاني، على النعيم الخالد الباقي، وجَعَلُوا أعِنَّتَهُمْ بأَيْدِي الشياطين، فما نزلَ بهم هو نتيجة اختيارهم وهُمْ عَالِمونَ، فلا يَصِحُّ أَنْ أَحْزَنَ عليهم في كيفيَّةٍ من الكيفيَّات.

* * *

الفصل العاشر

العظة بنبأ إهلاك قوم شعيب عليه السلام

إنّ العظة الّتي تُقَدِّمُها أحداثُ قصّة قَوْمِ شعيب عليه السلام، وما نزل بهم من عذاب وإهلاك شامل، قد جاءت في القرآن المجيد في مُنَاسَبَاتٍ متعدِّدات سَبَقَ بيانُها في مُقَدِّمَةِ هذا الملْحق، فلا حاجة للإعادَة.

والحمد لله على توفيقه وفتحه ومعونته

(٢٣)

الملحق السابع

حولَ ما جاء في القرآن بشأن سُنَنِ اللّهِ في الأُمَمِ حتى استحقاقها الإهلاك الشامل

أولاً:

مقدمة

أبان الله عزّ وجلّ في القرآن المجيد سُنَنَهُ في عبادِهِ قبل أنْ يُنْزِل عَذَابَهُ الّذي يكونُ بِهِ إهلاكُ الأُمَمِ الكافِرَةِ المجْرِمة الّتي كذَّبَتْ رُسُل رَبِّها، وكذَّبَتْ بِما جَاءُوهم به من عِنْدِه، وظَلَمَتْ وطَغَتْ وبَغَتْ، ونَشَرَتِ الفساد والإفسادَ في الأرض.

وبالتَّتَبُّعِ الإحْصَائِيّ مَعَ التَّأَمُّلِ اكْتَشَفْتُ سُنَناً عشراً، فرأيْتُ أنّ من الْخَيْرِ ذِكْرَها في هذا الملْحَقَ، وعَرْضَ النُّصُوصِ الَّتي دَلَّت عليها، مَصْحُوبَةً ببعض التدبّر لآياتها وفِقَراتها.

ونظرتُ في النُّصُوص القرآنية الّتِي اشتملَتْ على تطبيقَاتِ هذه السُّنَن، فرأيْتُ أن أَسْتَعْرِضَها مُفَصَّلَةً فِي خَمْسَةِ فُصُول، بحَسَب ما اشتملَتْ عليه من دَلاَلاَتٍ يتلاءَمُ بعضها مع بعض.

ثانياً:

ذكر السُّنَنِ بصورَةٍ مُجملَةٍ

السُّنَّةُ الأُولَىٰ: أنّ الله عزّ وجلّ قضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ لا يَدَعَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ دُونَ أَنْ يَبْعَثَ لَها رسُولاً نبياً، يُبَيِّنُ لَهَا الغايَةَ من وُجُودها في الحياة الدُّنيا، ودِينَها الَّذي اصْطَفَاهُ لَها عقِيدَةً وشريعَةً ومِنْهَاجَ سُلُوك، ويُبَشِّرُ مَنْ آمَن وأطاع بالنَّعِيم الخَالد في الجنَّةِ، ويُنْذِرُ من كفر وعصىٰ بعذابٍ أليم يوْمَ الدِّين، في جَهَنَّمَ دار عَذَاب الْمُجْرِمِين.

السُّنَّةُ الثانية: أنْ يَبْعَثَ اللَّهُ الرَّسُولَ في المجَمَّع السَّكنيّ الأُمّ، لكلّ أُمَّةٍ يُرْسِلُ إلَيْهَا رَسُولاً، ويُلْحَقُ به سَائِرُ الْقُرَىٰ والبوادي التابعَةُ له، والّتي يسْكُنُهَا المنتَمُونَ إلى هٰذِهِ الأمَّة.

السُّنَّةُ الثالثة: أن لا يُهْلِكَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أُمَّةً كافرةً مُجْرِمَةً إهلاكاً شاملاً مقترناً بتعذِبها، إلاَّ بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ عليها الحجَّة، بَدْءاً بكُبَرَائها والمترفين فيها، وبَعْدَ أنْ يوجّه لهم الأوامر والنواهي فيتمرَّدُوا عليها، ويَفْسُقُوا خارجين خروجاً كاملاً عن الطَّاعة.

السُّنَّةُ الرَّابعة: أنَّ الله عزّ وجلّ لا يُهْلِكُ أهل الْقُرَىٰ ومُلْحقَاتِها إهلاكاً عامًا شاملاً، إلاّ في حالة كوْنِهم ظالِمين، عالِمينَ بما يجب عليهم تُجاهَ رَبّهم.

السُّنَّة الخامسة: أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ لا يُهْلِكُ أهل القرىٰ وملحقَاتِها، ما دَام فيها من يَسْتَجِيبُون لدعوة الرُّسُل تِباعاً، ويُصْلِحُونَ من أمْرِهم، وَإِنْ قَلُّوا، فَلاَ يُنْزِلُ الله بهم العذابَ المهْلِكَ لهم إهلاكاً شاملاً، حتَّىٰ يَصِلُوا إلى حالةِ مَيْؤُوسٍ مِنها بوجْهٍ عامّ.

السُّنَّة السادسة: أنّ الله عزّ وجل يُمْهِلُ عباده الظالمين ويُمْلِي لهم، ولاَ يَعْجَلُ بإنْزال العقاب الشَّامِلِ وَالإهلاكِ العامّ فيهم.

السُّنَّةُ السَّابعة: أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ يبدأ مُعَالجةَ الأُمَمِ قبلَ إهلاكها الشامل، بابتلائها بالبأساء والضَّرَّاء، والمصائِب والمكاره الْجُزْئِيَّةِ، رغبةً في أن يَتَضَرَّعُوا له مُسْتَغفِرين وتائبين، ومُلْتَزِمِينَ بِالتَّدرِيج الْعَمَلَ بما أمرهم به، والابْتِعَادَ عمَّا نَهَاهُمْ عنه.

السُّنَّةُ الثامنة: أن لا يُحَقِّقَ اللَّهُ إهلاك أُمَّةٍ إهلاكاً شاملاً، إلاَّ بعْدَ قَدَرٍ وقضاءٍ يُحَدَّدُ فيهما زَمَنُ إهْلاَكِها، وبَعْدَ كِتَابةِ ذَلِكَ، وإعلام ذَوِي الْعَلاَقَةَ بَتَنْفِذِه من الملائكة، ويكُونُ هذا الزّمَنُ أجَلَ بقاء هذه الأمَّةِ في الحياة الدنيا، ويكونُ التَّنفِيذُ فيه تماماً دُونَ سَبْقٍ ودونَ تَأْخير.

السُّنَّةُ التاسعة: غالباً ما يكُونُ إهْلاكُ الأُمَم الّتي قَضَىٰ اللّهُ بإهْلاَكها، عنْدَ الصُّبح، وقد يسْتَمِرُّ حتَّىٰ الإشراق، أو عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، أوْ يكُونُ بياتاً وهم نائمون، أَوْ في وسَط النَّهار وهم قائِلُون، أو في الضُّحَىٰ وهم يَلْعَبُون.

السُّنَّةُ العاشرة: أنّ الله عزّ وجلّ إذا أَنزَل بأْسَهُ فيمن استحقُّوا الإهلاك، وصَدَر الأمْرُ الرَّبَّانيُّ بإهلاكهم، فإنَّهُ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ يأخُذُهُمْ أَخْذاً أليماً شَدِيداً بِسُلْطَانِ الْقَهْرِ والْجَبَرُوت.

* * *

ثالثاً:

ذكر عنوانات الفصول التي اشتملت على بياناتِ تطبيقاتِ السُّنَنِ السابقة

الفصل الأول: كيْفَ قابلَتِ الأُمَمُ المهْلَكَةُ دَعوات رسُلِ رَبها.

الفصل الثاني: حَوْلَ تطبيق اللّهِ عزّ وجلّ سُنَّتَهُ في العذاب التأديبي التخويفي قبْلَ الإهلاك الشامل.

الفصل الثالث: حول بيان حالِ الذين كفَرُوا بالرَّسول محمد ﷺ، من أهل مكّةَ وهو فيهم يَدْعُوهم إلى دين الله وصراطه المستقيم.

الفصل الرابع: حول ما جاء في القرآن بشَأْنِ مستقبل الناسِ في مُجمَّعَاتهم السَّكنِيَّةِ وَتَوابِعها.

الفَصْل الخامس: حول تطبيق سُنَّةِ الله عزّ وجَلّ في إهْلاَك الأمم إهلاكاً شاملاً مقروناً بتعذيبهم، لأنّهم صارُوا بؤرةَ فسادٍ وإفساد، وأمّةً ميؤوساً من صَلاَحِها عن طريق إراداتِ أفرادِهَا الحرّة.

* * *

رابعاً:

شرح سُنَنِ اللّهِ في الأمم

شرح السُّنَّةُ الأولى:

وهيَ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَضتْ حِكْمَتُهُ أنْ لا يَدَعَ أُمَّةً من الْأُمَمِ دُون أَنْ يَبْعَثَ لَهَا رَسُولاً نَبِيًا، يُبَيِّنُ لَهَا الْغَايَة منْ وجُودهَا في الحياة الدنيا، ودِينَها الّذي اصْطَفَاهُ لَها عقيدَةً وشريعةً ومِنْهَاجَ سُلُوكٍ، ويُبَشِّرُ من آمَن وأطاعَ بالنَّعِيم الخالِدِ في الجنّة، ويُنْذِرُ من كفَرَ وعَصَىٰ بعذابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّين، في جهنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجرِمين.

فما من أُمَّةٍ سَلَفَتْ في تَارِيخِ النّاس، قبْلَ بِعْثَةِ خاتَم المرسلين، إلاَّ بعَثَ اللَّهُ إليها نبيًا رسُولاً، فأمَرَها بلاغاً من رَبّه بعِبادَة اللَّهِ وحْدَهُ، واجْتِنَابِ الطَّاغوت.

وبَدَهِيٌّ أَنَّ الْأَمْرَ بعِبادَةِ اللَّهِ وحْدَهُ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بِالإيمان بِهِ رَبًا واحداً لا شريكَ لَهُ في رُبُوبيَّتِهِ، وبالإيمان بكمال صفاته، ومنْها حكمتُهُ في الخلْق، ومنْها عَدْلُه.

وهذا الإيمان يستَلْزِمُ عَقْلاً التعريفَ بأنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ، قد خَلَقَ النَّاسَ ليَبْلُوَهُمْ في ظُرُوفِ الحياة الدنيا، سَرَّائِها وضرَّائها، محْبُوباتها ومَكْروهاتها. ويَسْتَلْزِمُ إعْلاَمَهُمْ بالمطْلُوب مِنْهُمْ في رحْلَة امتحانهم، وإعلامَهُمْ بأنّهم محاسَبُونَ ومَدِينُونَ ومُجَازَوْنَ يوم الدِّين.

أمّا الأمْرُ باجْتِنَابِ الطَّاغوت فَهُو يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عن فِعْلِ كلِّ شَرٍّ، وعن فِعْلِ كلِّ مَا يُفْضِي إلى شرّ، ويَتضمَّنُ النَّهْيَ عن اتّباع وَسَاوِسِ المضِلّين من الإنسِ والجنِّ الَّذِينَ يُحاولُون أن يُطْغُوا عباد الله بوسائلهم المضِلّة.

الطَّاغوت: هو كثير الطغيان والشيطانُ. وكلُّ رأسٍ في الضّلال. وكُلُّ ما عُبِدَ من دُون الله من الأوثَانِ (يَسْتَوِي فيه الواحد وغيرُه، والمذكر والمؤنث) ويجمع على «طواغيت» و«طَواغٍ».

هذه السُّنَّةُ الرّبانيّة قد دلَّت عليها عدَّة نصوصٍ في القرآن المجيد.

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسُوله محمَّدٍ ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾:

- قرأ جمهور القرّاءِ العشرة: ﴿نَكِيرِ﴾ بحَذْفِ ياءِ المتكلّم.

وقرأ وَرْشٌ [نَكِيرِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل فقط، وكذلك يعقوب في الوصل وفي الوقف.

والقراءتان وجهان عربيان مستَعْملان.

﴿نَكِيرِ﴾: أي نكيري. **النَّكِيرُ**: يأتي بمعنى الإنكار، ويأتي بمعنى العقاب، وإنكار القادر على المعاقبة والانتقام، يَدُلُّ على عقابِهِ وانتقَامِه، إذا كانت الحكمة تقتضي ذلك.

أي: ﴿إِنَّآ﴾: «بضمير المتكلّم العظيم» أرسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بالحقِّ الثابتِ الذي لا يأتيه الباطل من بين يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِه، بَشِيراً لِمَنْ آمَنَ بِكَ وبِمَا أَرْسَلْنَاكَ بِهِ واتَّبَعَكَ، بسَعَادَةِ الدُّنيا الّتي يُلاحَظُ مِنْها طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ، ورَاحَةُ النَّفْسِ، والأُنْسُ بالله، وبسَعَادَةِ الآخِرَة في جَنَّاتِ النعِيم الّتي وعَدَ اللّٰهُ المتقين بأنْ يكُونُوا يَوْمَ الدّين خالِدِينَ فيها مُنَعَّمِينَ بغايَةِ مَا يتَمَنَّوْن. ونَذِيراً لمَنْ كَفَرَ وعصَىٰ بِعَذَابٍ يُدْرِكُ الكافِرُونَ الجاحِدُونَ منه قَلَقَ

الْقَلْبِ، وظَمَأَ النَّفسِ، ومَتَاعِبَ الحياة في الدنْيَا، وبِعَذَابٍ في الآخرة في جهنَّمَ الَّتِي أعَدَّهَا الله جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُه، للكافِرِينَ الجاحِدِينَ المجرمين.

● ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: أي: ومَا مِنْ أُمَّةٍ سلَفَتْ في الأزمان الغوابر قبْلَ بعْثَةِ محمّد ﷺ إلاَّ جاءَها رَسُولٌ من ربّها إليها، بَشَّرَها إذا هي آمَنَتْ وأطَاعَت، فلَمَّا كَفَرَتْ وعَصَتْ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِ مَعَهَا أَنَّهُ كان بالنسْبَةِ إلَيْها نَذيراً بعَذَابِ الله.

﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: أي: مضَىٰ وذَهَبَ مَعَ ذَهَابِها نَذيرٌ كَانَ قَدْ دعاها إلى دين ربّها، وانتهىٰ أمْرُه معها إلَىٰ أَنَّهُ كَانَ بالنسبة إليها نَذِيراً.

● ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: وإنْ يُكَذِّبْكَ يَا مُحمَّد مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ أُمَّةِ دَعْوَتِك، فَلَسْتَ الْفَرِيدَ مِنْ بَيْنِ الرُسُلِ بهذا الأَمْر، فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِين من قَبْلِهم رُسُلَ رَبِّهم إليهم، كما كَذَّبَكَ من كذَّبَكَ مِنْ أُمَّةِ دَعْوَتِك، والمعنيّون الأوَّلُون كفَّار مكة ومن حولها.

● ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾: أي: إنَّ الأُمَمَ الَّذِينَ مَضَوْا قَدْ جاءَتْهُمْ أيضا رُسُلُهُمْ بالبيِّنَاتِ، وهي الواضِحَاتُ مِنَ البَيَانَاتِ، وكذلك الْعَلاَمَاتُ والآيَاتُ الدَّالأَت على صِدْقِ رِسَالاتِهم مِنْ خَوَارِقِ العاداتِ، وجَاءَتْهُمْ بالزُّبُرِ وهي الصُّحُفُ الرَّبَّانِيَّةُ الَّتي فيها شرائع اللَّهِ وَتَعْلِيمَاتُهُ لعباده، وجَاءَتهم بالكتاب المنير، كالكتابِ العظيم الّذي جاء به من وَحْي رَبّه بَعْضُ رُسُلِ الله، مثل التوراة الّذي جاء به مُوسَىٰ عليه السلام، والإنجيلِ الَّذي جاءَ به عيسَىٰ عليه السّلام.

وظاهرٌ أَنَّ الْبيِّنَاتِ والزُّبَرَ والكِتابَ المنير هي على التوزيع بين الرسُل، فبَعْضهم جاء من رَبّه بالبيِّنَات، وبعضهم جاء بالزُّبُر، وبعضهم جاء بالكِتَاب المنير.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾: أي: ثم عاقبتُ الذين كَفَرُوا بِرُسُلِي، وبما جاءُوهُمْ به عَنِّي عِقَابَ إهلاكٍ شامل.

فانظُرْ كَيْفَ كان إنكاري (أي: عقابي) لِلْكَفَرَةِ المكَذِّبين المشَاقِّين لرُسُلِي المقاومين لدعواتهم.

إنَّهُ كان عقاباً أليماً مُسْتَأصِلاً يَجعَلُ في قُلُوب أوليائي المضطَهَدِين الطُّمأنينَةَ بأنّي سَأَنْصُرُهُمْ كما نَصَرْتُ رُسُلِي والذين آمنوا بهم من قبلهم، ويَجعلُ فِي قُلُوب ذوي العقلِ والرُّشْدِ من الكافرين الذُّعْرَ من الهلاك والعذاب الذي يُعَرِّضُون أنفُسَهُمْ له، إذا أَصَرُّوا على مَا هم فيه من كُفْرٍ وعنادٍ، وفسادٍ وإفسادٍ في الأرض.

* * *

النصّ الثاني: قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: ولِكُلِّ أُمَّةٍ من الناسِ في قَضَاء اللَّهِ وقَدَرِهِ وتدابيرِه لاخْتِبَارِ الناس في ظُرُوفَ الحياة الدُّنْيا، رَسُولٌ نبيٌّ يبلِّغُهم عَنِّي الغايَةَ من خَلْقِ بني آدَمَ في الأرض، وهي الابتلاء الّذِي يسْتَلْزِمُ المحاسبَة وفَصْلَ الْقَضَاءِ وتَحْقِيقَ الجزاءِ يوْمَ الدِّين، ويُبَلِّغُهُمْ مَطْلُوبَ رَبِّهِم مِنْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم، وما سَوْفَ يُلَاقونَهُ من جزاءِ يوم الدِّينِ بالثواب أو بالْعِقَاب، ويُبَيِّنُ لَهُمْ مَا قَدْ يَنْزِلُ بهم في الحياة الدنيا من عذابٍ وإهلاك شاملٍ، إذا أَصَرُّوا على الكُفْرِ وعلَىٰ تكْذِيبِ رُسُلِ رَبّهم وشاقُّوهُمْ وعانَدُوا الحقَّ، ونَشَرُوا الفساد والإفسادَ في الأرض.

فإذا جاءَهُمْ رَسُولُهُمْ، وأدَّىٰ وظائِفَهُ فيهم كما أَمَرَهُ اللَّه رَبُّهُ ورَبُّهُمْ وَرَبُّ كلّ شيء، فآمَنَ بِهِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَسَعَىٰ يَسْلُكُ سبيلَ المتَّقِين، وكَفَرَ

به مَنْ كَفَرَ منهم، وانطَلَقَ يَسْلُكُ سُبُلَ الْفُجَّارِ الْمُجْرِمِينَ، وأصَرَّ هٰؤُلاَءِ على عِنادِهم ومُشَاقَّةِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، واضطهاد المؤمنين.

عندَئِذٍ يُجْرِي اللَّهُ فِيهم سُنَّتَهُ، فيقْضِي بَيْنَ الفريقَيْنِ بالْعَدْلِ، فَيُنْجِي الّذِين آمَنُوا، ويُعَذِّبُ ويُهْلِكُ المكذّبين.

والَّذِينَ يُهْلِكُهُمْ ويُعَذِّبُهُمْ رَبُّهُمْ، لا يُظْلَمُونَ حين إهلاكِهِمْ بالعذاب شيئاً.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أي: بالْعَدْل. **والقِسْطُ**: من المصادر التي يوصف بها «يوصف به الواحد فأكثَر، والمذكَّر والمؤنث».

* * *

النّصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

دلّ هذا النَّصُّ على أَنَّهُ ما مِنْ أُمَّةٍ سَلَفَتْ فِي تَاريخ البشَرِيَّةِ قبْلَ أُمَّةِ دَعْوَةِ مُحمَّدٍ ﷺ، وهُمُ النَّاسُ أجْمَعُونَ بَعْدَ بِعْثَتِه، إلاَّ بَعَثَ اللَّهُ بعظَمَةِ رُبُوبيّتِه فيها رَسُولاً:

- فأمَرَ أُمَّتَهُ بعبادة الله، وأمَرَهُمْ بكُلِّ ما لا بُدَّ منه لتحقيقِ عبادَةِ اللَّهِ علىٰ مُراد اللَّهِ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سلطانه فيما شَرَع لهم واصْطَفَى من الدّين.
- وأَمَرَهُمْ باجْتِنَابِ الطَّاغوتِ، وبكلّ ما يَلْزَمُ لتحقيق هذا الاجْتِنَاب.

الطَّاغُوت: هو الشيطانُ من الجنّ والإنسِ، وكُلُّ رأسٍ في الضلال، وكلُّ ما عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأوثان، وكلُّ من يُطْغِي وَيُبْعِدُ عن

صراط الله، وكلُّ ما يُطْغي من مُحَسٍّ وغَيْر مُحَسّ، حتَّىٰ الأفْكارُ والأهواء والشهوات والأوْهام والْخُرَافات.

«أَنْ» في عبارة: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ﴾ مصْدَرِيَّة، والتقدير: ولَقَدْ بَعَثْنَا في كلّ أُمَّةٍ رَسُولاً بِأَنِ اعْبُدُوا الله واجْتَنِبُوا الطَّاغوت، أو تَفْسيرِيَّة، لأنَّ في العبارة قَبلَها مغْنَىٰ التكْليفِ أَنْ يقول لقومه، دون حُروف القول.

فماذَا كان واقِعُ حَالِ الأُمَم تُجاهَ دَعواتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ إليهم؟:

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾: أي: فَمِنْهُم من حَكَمَ اللَّهُ لَهُم بالهدايَة، إذِ اسْتَجابُوا لَدَعوات رُسُلِ رَبِّهم باختيارِهم الحرّ، فآمَنُوا باللَّهِ وبِرَسُوله إليهم وبسائر رسُلِهِ، كُلٌّ على قَدْرِه، وعَبَدُوا اللَّهَ قَلِيلاً أو كَثِيراً، كُلٌّ على الْقَدْرِ الَّذِي اتَّجهتْ له إرادتُه الحرَّةُ وعَزِيمَتُهُ.

وهؤلاَء هُمُ الْعَدَدُ القليلُ بحَسَب واقع أحوال الناس.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: أي: ومِنْهُم مَنْ ثَبَتَتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ، إذ سَلَكَ سبُلَ الضّلالَة باختياره الحرّ، فحكَمَ اللَّهُ عليه بالضّلالة.

وإذْ قاوَمَ هؤلاءِ رُسُلَ رَبّهم والَّذِين آمَنُوا بهم، ووقَفُوا منهم مواقف العداء والشُّقاق واسْتِخْدام الْقُوَّةِ لِلْقَمْع، فقد اسْتَحقُّوا أنْ يُعَاقبهم الله بالعذاب والإهلاك الشامل، انتصاراً لِرُسُله وللّذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهم، فحقَّتْ عليهم عقوباتُ ضلالَتِهم، فعَذَّبَهُمْ وأهلكهم بذنوبهم، وأبْقَىٰ بعض آثارهم في الأرْضِ آياتٍ عَلَى ما جَرَىٰ لهم، رغْبَةً في أنْ يتعظ بها مَنْ شاء من الأمم الّتي تكون خَلائِفَ من بَعْدِهم.

﴿... فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾:

هذا أَمْرٌ لِكلّ الّذِينَ يَرْغُبون في معرفة عاقبة مكذّبي رُسُل رَبّهم من أهل القرونِ السالفة، ومعرفةِ كيْفَ أهلكهم الله إهلاكاً شَامِلاً مَقْرُوناً بِتَعذيب، فَدَمَّرَ عليهم دِيَارَهُمْ، واسْتَأْصَلَ شأفَتَهُمْ، وقطَعَ دَابِرَهم.

* * *

شرح السُّنَّةِ الثانية:

وهي أن يَبْعَثَ اللّٰهُ عزّ وجلّ الرَّسُولَ في المجمّع السّكَنِيِّ الأُمّ، لكُلِّ أمَّةٍ يُرْسِلُ إِلَيْهَا رَسُولاً، ويُلْحَقُ بِهِ سَائِرُ الْقُرَىٰ والبوادي التابعَةُ له، والَّتي يسْكُنُهَا المنتَمُونَ إِلَىٰ هٰذِهِ الأُمَّة.

وقد أطلق الله عزّ وجلّ على كلّ مجمّعٍ سَكَنِيٍّ اسْمَ قَرْيَةَ، ولو كانت مدينةً عظمى، لأنّ معنَىٰ الْقَرْيَةِ في اللّسَانِ العربيّ كذلك.

قال ابْنُ سِيدَة: الْقَرْيَةُ والْقِرْيَة، المِصْرُ الجامع.

أقول: أمّا تخصيصُ الْقَرْيَةِ بالمجمَّعَاتِ السكنيّة الصغرىٰ، بخلاف الكُبْرَىٰ، إِذْ يُطْلَقُ على الواحدة منها اسْمُ مَدِينَة، فَهُوَ عُرْفٌ اصطلاحيٌّ متأخّر.

وأمُّ الْقُرَىٰ: هي مكة المكَرَّمة، إمَّا لأنَّها أوَّلُ مَا بُنِيَ في الأَرْضِ من أبنية، إذْ فيها أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لعبادة الله. وإمَّا لأنَّ أهْلَ الْقُرَىٰ يَحُجُّوْنَ إلَيْها فَيَؤُمُّونَها.

دلَّ علىٰ هذه السُّنَّة قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الْقَصَص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا . . . ۝٥٩﴾:

- قرأ حَمْزَةُ والكِسَائي في الوصل ﴿إِمِّهَا﴾ بِكَسْرِ الهمزة، وهي لُغَةٌ عَرَبِيَّة.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرَةِ [أُمِّهَا] بضمّ الهمزة.

﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾: أي: حتَّىٰ يَبْعَثَ رَسُولاً في الْقَرِيَةِ الَّتي هي بمثابَة الأمّ، لِسَائِرِ قُرَىٰ الأُمَّةِ وَمُلْحَقَاتِها، وتكونُ هذه في العادة من

كُبْراها، ومَرْكَزَ سلطاتِها الإداريَّة، وكثيرٌ مِنْ أفرادِ هذه الأمَّةِ يَؤُمُّونَها لقضاء كثيرٍ من مصالحهم الحياتيَّة، وتجْتَمِعُ فيها غالباً معظمُ المصالِحِ الاقتصادية وغَيْرِها، وتُسَمَّىٰ في لُغَة عُصُورِنا «العاصِمَة».

وهذا الرَّسُولُ النبيُّ يُبَلِّغُ الأُمَّة مَا أَمَرَهُ الله بتبليغهم إيّاه، وهي قضايا دينِهم، وواجِبَاتِهم تُجاه ربّهم.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾: هٰذِهِ الْعِبَارة تَدُلُّ على أنَّهُ ما من رسُولٍ أَرْسَلَهُ اللّٰهُ، إلاّ كَانَ قَدْ تَلَقَّىٰ مِنْ رَبّهِ آياتٍ مِنَ البيَانِ مُنَزَّلاَتٍ عليه، وهو مُكَلَّفٌ أَنْ يتْلُوَها عليهم، ويُبَلِّغَهُمْ إيَّاها، سَواءٌ أكانت بمقْدَارِ صُحُفٍ ذَوَاتِ عَدَدٍ غير كثير، أو زُبُراً ذاتَ شَأن، أو كُتُباً عُظْمَىٰ، كالتوراةِ والإنجيل والقرآن.

* * *

شرح السُّنَّة الثالثة:

وهي أن لا يُهْلِكَ اللّٰهُ عزّ وجلّ أُمّة كافِرَةً مُجْرِمَةً إهْلاَكاً شاملاً مُقْتَرِناً بِتَعْذِيبها إلاَّ بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ عليها الحجّة، بدءاً بكُبَرائها والمتْرَفِينَ فيها، وبعد أن يوجّه لَهُمُ الأوامِرَ والنواهي، فيتَمَرَّدُوا عليها، ويَفْسُقُوا خارجين خُرُوجاً كاملاً عن الطاعة.

دلَّ على إقامة الحجّة عليها قَبْلَ إهلاكها ببيانات الرُّسُل قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾:

(مِنْ) في ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ حرف جرٍّ زيد للتنصيص على العموم، و«قرية» مفعول به منصوب محلاً.

أي: وما سَبَق أن أهلكْنا مِنْ أهْل قَرْيَةٍ من القرون السَّابقة، إلاَّ في

حالَةِ كونها لها مُنْذِرُونَ أَنْذَرُوهُمْ عذاب رَبِّهم على كفرهم وجرائمهم وإفسادهم في الأرض.

وهؤلاء المنذِرُون هُمْ رسُلٌ، أَوْ أنبياءُ متبِعُون رِسَالاَتِ رُسُلٍ، أو دُعَاةٌ مُبَلِّغُونَ دَعَوَاتِ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم.

وهذا الإهلاكُ الذي يُجْريه الله هو ذِكْرَىٰ، أي: يَجْعَلُه لْلأُمَمِ اللاَّحقة، حقيقةً يَضَعُونَها في ذاكراتهم، ليتَّعِظوا بها إنْ شاءوا.

وهذا الإهلاك لا يكونُ بحِكْمةِ اللَّهِ إلاَّ تحقيقاً للعدْلِ، فلا ظُلْمَ فيه ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

الذِكْرَىٰ: اسْمٌ للتذكير، ويكُونُ بمعنَىٰ التذكُّر، ويأتي اسماً للتَّذْكِرَة، وهي الوسيلة الّتي تُذَكِّرُ، كالْبطاقة.

ودلَّ على إقَامَةِ الحجَّةِ عَلَيْها قبْلَ تَعْذِيبها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل في (سورة الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾:

يتحدّث رَبُّنا جلّ جلالُهُ بِضَمِير المتكلّم العظيم إشارة إلى كمالِ صفاته ومنها حكْمَتُه.

أي: وَمَا مِنْ شأنِنا دَواماً أَنْ نَكُونَ مُعَذِّبين الأُمَمَ الكافِرَةَ المستحِقَّةَ للتَّعْذِيبِ الشَّامل، عذاباً مُعَجَّلاً في الدُّنيا مقروناً بإهلاكٍ شاملٍ، حتَّىٰ نَبْعث فيهم رسُولاً يُبَلِّغُهُمْ مَا يَجب عليهم تُجاه ربّهم من إيمانٍ وعَمَلٍ، في رِحْلَةِ امْتِحَانهم، ونقيمَ الحجَّةَ عليهم.

ويَكْفي أَنْ تَبْلُغَهُمْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ علىٰ أَلْسِنَةِ الدُّعَاةِ مِنْ أُمّتِهِ، أو تَبْلُغَهُمْ قَضَايَا الدِّين عن طريق قراءةِ كِتَابِ اللَّهِ الصحيح الثابت المنَزَّلِ لعباده، أو

معرفةِ ما جاء فيه بأيَّةِ وسِيلَة، وهُمْ مَسْؤُولُون عن البحث لمعرفة دين الله الحقّ الذي يُطَالِبُ الله به عباده الممتَحَنِين.

ودلَّ على الْبَدْءِ بكُبَرَاءِ الأمَّةِ والمترَفِين فِيها، قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

تمهيد:

خلَقَ اللّهُ النّاسَ مُتَفَاضِلين في هِبَاتِهم الفكريَّةِ والنفسيَّةِ والْجَسَدِيَّة، لتَتوزَّعَ بَيْنَ أَفْرَادِهِم مُهِمَّاتُ الْمُجْتَمِعِ البشري، فيكُونَ منهُمْ عمَّالٌ، وصُنَّاعٌ، وزُرَّاعٌ، وأَصْحَابُ مِهَنٍ وحِرَف، وتُجَّارٌ، ومفكِّرُونَ، ومُتَعَلِّمُونَ، ولِيَبْرُزَ فيهم قَادَةٌ يُدِيرُونَ كُبْرَيَات شُؤُونِ المجتمع.

والْقَادَةُ يكُونُونَ في سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ هُمُ الكُبراءَ في أَقْوَامِهِمْ ومُجْتَمِعَاتِهِم، ويكُونُونَ هُمُ الَّذِينَ تُسْنَدُ إِلَيْهِم الرِّيَاسَاتَ، ويُرْجَعُ إِلَيْهِمْ في الشُّؤُونِ العامَّة، وتَكُونُ الجماهير تَبعاً لَهُمْ، يَبْذُلُونَ لَهُمُ الْوَلاَءَ والطَّاعَةَ والانقِيَاد.

وهؤلاء القادةُ تتكَوّن لهم في مجتَمِعِهِمْ مصالحُ نَفْسِيَّةٌ ومَادِّيَّةٌ يَحْرِصُونَ على أن لا يُنَازِعَهُمْ عَلَيْها مُنَازِع، ولا يُشَارِكَهُمْ فيها مُشارك.

فإذَا كانَتْ للمجتمع مبادىء وعقائِدُ وتَقَالِيدُ وعاداتٌ تَرْتَبِطُ بِهَا مصالحُ كُبَرَاءِ الْقَوْمِ وَقَادَتِهم، فإنَّهُمْ يكُونُون في العادَة هُمُ الأعداء الطبيعيّين لِمَنْ يُرِيدُونَ تَغْيِيرَها، إِذْ يَرَوْنَ أَنَّ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيرَهَا يُرِيدُ أَنْ يَنْتَزِعَ مِنْهُمْ مَنَاصِبَهُمُ الاجْتِمَاعِيَّة، ويَسْلُبَهُمْ سُلْطَانهم ومصالِحَهُمُ المادّيَّة.

وتَبْرُزُ في كلّ مجتمعٍ مُعْتَقَداتٌ ومفهوماتٌ باطلات، وأنواعٌ من التقالِيد الّتي لا خير فيها، وأنواعٌ من السُّلُوك الفاسد، الّتي ترتَبِطُ بِها مصالِحُ كُبَرَاءِ الْقَومِ القياديَّة، والسُّلْطَانِيَّة، والنَّفْعِيَّة، وهي في الْغَالِبِ تُرْضِي الأهواءَ والشهواتِ والأنانيّاتِ الفرديَّة، وتَقُومُ على الظُّلْم والْعُدْوان والإفْسَادِ في الأرْض.

فيبعثُ اللَّهُ الرُّسُلَ لإعلام النَّاسِ بالغاية من خَلْقِهم في ظروفِ الحياة الدنيا، وإعْلامِهم بمَطْلُوب الله منهم في رحلة امتحانهم، وبالغاية المعدَّةِ لهم يَوْمَ الدّين، بَعْدَ الحسابِ وفَصْلِ القضاء.

وهؤلاء الرُّسُلُ يأمُرُونَ أقوامَهُمْ بالإيمان بالحقّ الّذي قامَتْ عليه الرِّسالاَت الرَّبَّانِيَّةُ كُلُّها، وبعبادة الله وحدَهُ لا شريك له، ويَنْهَوْنَهُمْ عن ارتكاب ما يُسْخِطُ الله مِنْ عباده، من فِسْقٍ وظُلْمٍ وإفْسَادٍ في الأرْض، وعُدْوانٍ وطُغْيَان.

فيقفُ كُبراءُ الْقَوْم في وُجُوههم مُعَارِضين ومُنْكِرين لمَا جاءوا به عن رَبّهم، ثُمَّ يَكُونُونَ مُعَادِينَ لهم، ثُمَّ يُعِدُّونَ ما يَلْزَمُ لإيقافِ دعْوَتِهِمْ بالْقُوَّةِ، وقَمْعِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم.

ويُسانِدُ هٰؤلاءِ القادَة الكبراءَ الْجُمْهُورُ الأعْظَمُ من قومِهِمْ، لأنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مصالِحَهُمْ وَمَا اعْتَادُوهُ في حياتهم، ممَّا يُرْضي أهواءَهُمْ وشَهَواتِهم وأَنَانِيَّاتِهِمْ، مُرْتَبِطَةٌ بمُنَاصَرَةِ قَادَتِهِمْ التَّقْلِيدِيّين من قومهم.

ويكُونُ لِلْقَادَةِ في أقوامِهِمْ بحَسَبِ مَا أُوتُوا من ذَكاءٍ وحِيلَةٍ، وقُدْراتٍ سلطانية، أنواعٌ من المكْرِ الكبير بجماهيرِ أَتْبَاعهم، لإحْكامِ رَبْطِهِمْ بهم، وأنواعٌ أُخرَى كثيرة من المكْر الشَّدِيد ضدَّ الرُّسُل وضِدَّ مَا جَاءُوا به عن رَبّهم، وضدَّ كُلّ ما اشْتَملَتْ عليه دَعْوتُهم، وضِدَّ أتباعِهم الّذِين آمَنُوا بهم من قَوْمهم واتَّبَعُوهم.

التدبّر:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾:

دلَّت سوابقُ هذا النَّصّ من سورة (الأنعام) على أوضاعٍ تكوينيَّةٍ تَمَّ بها نظامُ الخلْق العامّ، وما جاء في هذا النصّ معطوفٌ عليها.

أي: وكذلِكَ الوضعِ التكوينيّ الّذي تَمَّ به نِظَامُ الْخَلْقِ العامّ، والَّذِي يَتّبعُ فيه المؤمِنُونَ مَا يرَوْنَ من حَقٍّ وَخَيْرٍ وفَضِيلَةٍ بإراداتِهِمُ الحرَّة، ويَتَّبعُ فيه الَّذِينَ كَفرُوا أهْوَاءَهُمْ وشهواتهم وَمَا يُزَيّنُ لهم الطَّاغوتُ من جرائم في الحياة الدنيا، مع أنَّ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ يَتَعَرَّضَانِ لِلْمُرَغباتِ في سَبِيلِ الْهُدَىٰ، ولِلْبَهارِجِ والزِّيناتِ في سُبُلِ الضَّلاَلِ بِنِسْبَةٍ سواء.

كذَلِكَ الوضعِ التكوينيّ جعَلْنَا أيضاً في نظام الخلْقِ العامّ أَنْ يُوجَدَ في كُلّ مجتمِعٍ بَشَرِيٍّ فَرِيقٌ هُمُ القيادِيُّون، بما يُوهَبُونَ من خَصَائِصَ فِكْرِيَّةٍ وَنَفسِيَّة، تُؤَهِّلُهُمْ لِأَنْ يَكونُوا أكابِرَ في أقوامهم، وقادَةً تَتَهَيَّأُ لَهُمْ بِسَبَبِ قيادتهم مصالح نفسيَّةٌ سُلْطَانِيَّة، ومَصَالِحُ أُخرَىٰ تُرْضِي أهواءَهُمْ وشهَواتِهم، وَمَصَالِحُ مادِّيَّةٌ مختلفة.

وهُمْ في الغالِب لا يَسْتَطِيعُونَ تحقيقَ مطامعهم الشَّرِهَةِ، إلاَّ بوسائل إجْرَامِيَّةٍ ظاهِرَةٍ أَوْ خَفِيَّة.

فإذا بَعَثَ اللَّهُ رُسُلَهُ، وبَدَؤُوا بتَبْلِيغ أَوامِرِ اللَّهِ وَنَواهِيهِ أَكَابِرَ أَقْوامِهم، كان من أَمْرِ هؤلاء الكُبَراء أَنْ يَمْكُرُوا بِرُسُلِ الله مَكْرا كُبَّاراً، ليمنَعُوا رسالاتِهم من أَنْ يكُونَ لها انْتِشَارٌ في أقْوامِهِم، بغْيَةَ المحافَظَةِ على مصالحهم ومَنَافِعِهِمْ ومطامِعِهم الواسعة الإجْرَامِيَّةِ في أقوامهم، وبُغْيَةَ المحافظة على زَعاماتِهِمْ لهم، وربْطِهِمْ بهم تابعينَ مُنْقَادِين.

اللاّم في ﴿لِيَمْكُرُوا۟﴾ ليْسَتْ لاَمَ التَّعْلِيل، إنَّما هي لام العاقِبَةِ كما يَقُولُ النُّحَاة. **المكر**: تَدْبيرُ أَمْرٍ في خَفاء، ويكُونُ في الخير ويكونُ في الشرّ.

إنّ الحكمة التكوينيَّةَ قَضَتْ تَنظِيمَ حَالِ المجتمع البشري، وامْتِحَانَ الناس بِحَسَبِ مَوَاهِبِهِم وخَصَائِصهم، وبحسَبِ مكاناتِهِم في مجتمعاتهم، فاستغلّ القادَة من أكابر الأقوام ما لديهم من هِبَاتٍ في الإجْرَام، في معادات دعوات رُسُل رَبّهم، كما يَسْتَغِلُّ صاحِبُ المالِ الواسِعِ مالَهُ في الْفُجُورِ والإثم ومَعْصِيَةِ اللّهِ ورَسُوله، وكما يَسْتَغِلُّ أصْحابُ القُوىٰ الجسدِيَّةِ أجْسَادَهُمْ في السَّطْوِ على بَعْضِ عبادِ الله الضُّعَفعاء، وكما يَسْتِغلُّ أصْحَابُ الحيلَةِ قُدْرَاتهم في الحيلَةِ، لتحقيق مصالحَ لَهُمْ قَائِمَةٍ على الْعُدْوانِ والظُّلْم، وهكذا إلى سائر الخصائص الفِطْرِيَّة.

مع أَنَّ أصحاب الفِطَرِ المتميّزَةِ قَدْ مُنِحُوا فِطَرَهُم لِيَبْلُوهُمُ اللّهُ بِها، وباستطاعَتِهِم أَنْ يَفْعَلُوا فيها الْخَيْر والشَّرَّ، والصَّلاح والفسادَ، والطاعَةَ والمعصية، وأَنْ تكون وسيلَتَهُمْ للمَراتِب الْعَلِيَّةِ في جَنَّاتِ النعيم، وأَنْ تكون وسِيلَتَهُمْ للانْحِطَاط إلى الدركات السُّفْلَىٰ من دَرَكَاتِ الجحيم.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

أي: إنَّهُمْ حينما يَسْتَعْمِلُونَ هِبَاتهم الّتي مَيَّزَهُمُ اللّهُ بها، فيما يَسْتَطِيعون من مَكْرٍ بُغْيَة قَمْعِ دَعَوَاتِ رُسُلِ الله، ومُعَادَاتِ رسالاتهم، واضْطِهَادِ أتباعهم، فإنَّهُمْ في الحقيقة يَمْكُرون بأنفسهم، لِأَنَّهُمْ بمثابَةِ مَنْ يَنْقُبُ في ظُلُمَاتِ اللَّيلِ الجدار، لِيَسْرِقَ ما في الدّار، حتَّىٰ إذا كادَ أَنْ يَدْخُلَ وَيَظْفَرَ بمَا يُريد أُسْقِطَ علَيْه الجدار الّذي نَقَبَهُ أو صَخْرَةٌ عظيمَةٌ منْهُ فَقَتَلَتْه، أَوْ أُطْبِقَ عليه الْفَخُّ الموضوعُ وَرَاءَ النَّقْبِ الَّذِي يَنْقُبُه، فَنَشِبَتْ به مخالِبُهُ.

إنَّهم يَمْكُرُونَ مُتَرَقِّبِينَ الظَّفَرَ، وتُسَهَّلُ لَهُمُ المقدَّمَاتُ وهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بما يَتَرَصَّدُهم من ضَرْبَةٍ، أَوْ عَذَابٍ أَلِيم، وبَيْنَما هُمْ مُبْتَهِجُون بِقُرْبِ الظفَرَ، إذا بِهِمْ يُفَاجَؤُونَ بما لم يكُونوا يَتَوَقَّعُونَ، فَيَنْزِلُ بِهِمْ عِقَابُ اللّهِ وَعَذابه.

- ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

دلَّت هَٰذِه الفِقْرَةُ علىٰ أنَّ وَضْعَ هٰؤلاَءِ الكُبراءِ القِياديَّ في مجْتَمَعِهم، قَدْ نَفَخَ في نفوسِهِم وَصُدُورِهِمُ الكِبْرَ، فجعَلَهُمْ يسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتّباعِ رُسُلِ الله، معَ إقامَةِ الحجَّةِ علَيْهِم بآيَةٍ من آياتِ اللَّهِ المعْجِزاتِ المقْنِعَاتِ بأنَّ الرَّسُولَ الَّذِي يُبلّغُهُمْ عن ربِّهِ هو رسُولُ اللَّهِ حَقًّا وصِدْقاً.

وَيَرىٰ هؤلاء الكبراء أنَّهُمْ مُؤهَّلُونَ لأنْ يُوحِي اللَّهُ إلَيْهم، كما أَوْحَىٰ إلى رُسُلِه، وَأنْ تَنزِلَ علَيْهِمُ الملائكة بالوحي كما أَنْزَلَها اللَّهُ على رُسُلِه، وَغَرَضُهُمْ أَنْ يُحَافِظُوا على مَنَاصِبِهم الاجْتماعِيَّةِ في أقوامهم.

فيكابِرُونَ بالْبَاطِلِ، ويُعَانِدُونَ الحقَّ، ويَقُولون: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الله، مَعَ أَنَّهُمْ في الحقيقة لَيْسُوا مُؤَهَّلِينَ للاصطفاء بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالة، فالله جلّ جلاله عليم حكيم، إنَّما يَجْعَلُ رِسَالتَه حَيْثُ يَجِدُ في عَبْدِهِ الأهْلِيَّةَ التَّامَّة لحَمْلِهَا، والْقِيَامِ بوظَائِفِها وَأَعْبَائِها.

- ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾:

أي: إنَّ الاصْطِفَاءَ بِالْوَحْيِ والنُّبُوَّةِ، والاصْطِفَاءَ بالرِّسالة، لاَ يكُونُ على وفْق تَشَهِّيَاتِ الناس، ومَا يَتَصَوَّرُون في أَنْفُسِهِمْ أو يَتَمَنَّوْنَه، إنّما يكون ذَلِكَ مبنيًا على عِلْمِ الله بِعَبْدِه، هَلْ هو مُؤَهَّلٌ أَمْ لا؟ هَلْ يَصْلُحُ للنُّبُوَّةِ والرِّسَالة أم لاَ يَصْلُحُ؟.

ولَيْسَ كلُّ مَنْ يُمْكِنُ أن يكون مُؤَهَّلاً للنُّبُوَّةِ يصْطَفِيه اللَّهُ بها، ولَيْسَ كُلُّ من يُمْكِنُ أنْ يكُونَ مؤهَّلاً للرِّسَالَةِ يَصْطفِيهِ اللَّهُ بها. إنَّهُ جلَّ جلاله عليم حكيم.

- ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ١٢٤﴾:

أبانت هذه الفقرة عُقُوبَةَ هَٰؤُلاَءِ المستَكْبِرينَ عِنْدَ رَبّهم، جزاء مَكْرِهِمْ بِرُسُلِ اللَّهِ وبرسالاته، وإِذْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ مُؤَهَّلُونَ للاصْطفاءِ بالنبوّة والرِّسالة،

مغتَرّينَ بأنّهُمْ أكابِرُ أقوامهم، فيَفرِضُون على ربّهم أنْ يُؤْتِيَهُمْ مِثْلَ ما آتىٰ رُسُلَه، حتّىٰ يُؤْمِنُوا بما هو مطلوبٌ منهم أنْ يُؤْمِنُوا به، وجزاءَ ما يقترفُونه مِنْ جرائم ليُحَافِظوا على مناصِبِهم الاجْتماعيّة، ومصالحهم النفسيّة والمادّية.

أمّا الصَّغَارُ الذي سَيُصِيبُهُمْ فهو العقوبةُ المناسِبَةُ لحالة اسْتِكْبارِهم علىٰ آيَاتِ الله وعلى رسُلِهِ.

وأمّا العذاب الشّديدُ فَهُوَ العقوبةُ الملائمة لجُحُودِهم الحقّ، ولكُفرِهم، ولجرائمهم الكثيرة الّتي كانُوا يُمَارِسُونها.

ودَلّ على البَدْءِ بِكُبَرَاءِ الأُمَّةِ والمترفين فيها مَعَ التَّنْبيه علىٰ كونِهمْ مُتْرَفين، إذْ يُلْحَقُ بِكُبَرَاءِ الْقَوْمِ المتْرَفُونَ فِيهم، ولَوْ لم يَكونُوا أصْحَابَ سُلطةٍ إداريَّة، قول اللّهِ عَزَّ وجَلّ في سورة (الإسْراءِ/ ١٧ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾:

أي: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ تَسْتحِقُّ الإهْلاكَ لغُلُوّها في كُفرِهَا، وإسْرَافِها في الظُّلْمِ والطغيان، والإثم والبغي والعدوان، والإفساد في الأرض.

أُطْلِق لفظ قَرْية والمرادُ أَهْلُها، وهٰذا من المجاز المرسَل، كَما هو معروف عند علماء البلاغة، ونظائر هذا الإطلاق كثيرةٌ جدًّا في القرآن المجيد.

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: أرسَلْنا إليها رَسُولاً أو أكثر، ومَعَهُ مَنْ آمَنَ به واتَّبَعَهُ، وحَمَلَ مَعَهُ رسَالَةَ الدَّعْوَةِ إلى دينِ الله، فبَدَؤُوا بتبليغ مُتْرَفيها دِينَ الله لِعِبَادِهِ، وأوامِرَهُ ونواهِيه، وسَائرَ وصَايَاه، وأمْرُ الله لاَ يكُونُ إلاَّ بالخير، فلا يكُونُ بِالفحشاء والمنكر والبغي والشرّ.

المتْرَفُون: هم الّذِينَ وَسَّعَ اللَّهُ عليهم في الرِّزْقِ والمال، فكانوا من ذوي الاسْتِمتَاع الزَّائدِ بلَذَّتِ الحياة الدنيا، وبمطالبِ نفوسهم من زيناتِها، ورُبَّما جَعَلَهُمْ ذلِكَ مِنَ المستَكبِرين الْبَطِرين.

وَهَؤُلاء يَكُونُونَ في مُعْتَادِ الشُّعُوب الخارجَةِ عن العمل بِمِنْهاج رَبِّها، هُمْ الكُبَرَاءَ أَصْحابَ السُّلْطَةِ الإدارِيّة، أو الْهَالَةَ الاجْتِمَاعِيَّة المحيطَةَ بِهِم، ولو لم يكُونوا ذَوي سُلْطَةٍ إداريَّة مُباشِرَة.

يُقَال لُغَةً: أُتْرِفَ فُلاَنٌ، أي: وُسِّعَ عَلَيْهِ في الرزْقِ والمال، فكان بذلِكَ من المنَعَّمِين. وَيُقال: أَتْرَفَتِ النّعْمَةُ فُلاناً، أي: أَبْطَرَتْهُ فجعلَتْهُ من المستكْبرين.

ويكُونُ بَدْءُ تَوْجِيهِ أوامِرِ اللَّهِ للمُتْرَفِين، وهُمُ الكُبَراء والْهَالَةُ الاجْتِماعيَّةُ المحيطَةُ بهم، باعتبارهم وجُوهَ الْقَوْمِ وقَادَتَهُمْ، ومِنْ وَرائهم أتباعُهُمْ الموالُون لهم من قومهم، وهم السّوادُ الأعظم.

فالمقْصُودُ تَبْلِيغُ أَمْرِ اللَّهِ لجميعِ الأمَّةِ متْبُوعِينَ وأتباعاً.

﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾: أي: فَخَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ في قَرْيَتِهِمْ، متْبُوعِينَ مُتْرَفِينَ، وجماهِيرَ تابِعِينَ لهُمْ غَيْرَ مُتْرَفين.

الْفِسْقُ: هُو العِصْيَانُ والْخُرُوج عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ مَنْ تَجِبُ طَاعَتُه. يُقَالُ لغةً: فَسَقَ يَفْسُقُ وَيَفْسِقُ فِسْقاً وفُسُوقاً.

وَهُوَ مصطَلَحٌ إسْلامِيٌّ مأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَب: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ، إذا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِها، ومَعْلُومٌ أَنَّ الرُّطَبَةَ مَتَىٰ خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِها تعَرَّضَتْ للفَسَادِ السَّرِيع.

ودَرَكَةُ الْفِسْقِ المرادِ في هذا النَّصّ هي دَرَكَةُ الكُفْرِ ومَا يَجْتَمِعُ معه ويَنْتُجُ عَنْهُ، من فُجُورٍ وبَغْيٍ وجَرَائِمَ كثيرة.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾: أي: فَثَبَتَ عليها الْقَوْلُ بإهْلاَكها وتَعْذِيبها، وإصْدارِ الأمْرِ الرَّبَّانِيّ بذلك على وفْق قضاء الله وَقَدَرِه، وهذا يكُونُ قبل التَّنْفِيذ.

﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾: أي: فَدَمَّرْنَا الْقَرْيَةَ على أَهْلِها الْفَاسِقِين، هٰذه الجملَةُ تُعَبِّرُ عَنْ مَرْحَلَةِ التَّنْفِيذِ الفِعْليّ.

التَّدْمير: الإهْلاَكُ باستِئْصَال، ومَحْوُ المبَاني وآثارِها حتَّىٰ لاَ يُرَىٰ مِنها شيء، وهذا يكون بالنسبة إلى بَعْض الأُمَم لا كُلِّهم.

أَصْلُ التدميرِ تَحْطِيمُ الشَّيْءِ عَلَىٰ وَجْهٍ لاَ يُرْجَىٰ بَعْدَهُ إصْلاَحُه، وتَدْمِيرُ كُلِّ شيءٍ يكونُ بحَسَب ما يُلائمه.

﴿تَدْمِيرًا﴾: مَفْعُول مُطْلَق مُؤَكِّدٌ لِفِعْلِه، ومُشْعِرٌ بأَنَّ التَّدْمِيرَ كانَ شدِيداً عَنِيفاً مُسْتَأْصِلاً، مَاحِياً لكلّ أَثر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ﴾: أي: عَدَداً كثيراً أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِنْ بَعْدِ نُوحٍ عليه السلام.

﴿كَمْ﴾: اسْم ثُنَائي مَبْنِيٌّ على السُّكُونِ. وكَلِمَةُ «كَمْ» هنا خَبَرِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ عَدَدٍ كثير، ويُعَبَّرُ بِها عَنْ مُبْهَمٍ يَحْتَاجُ تمييزاً.

﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: تَمْييزُ «كَمْ» مَجْرُورٌ بحرف «مِنْ».

﴿ٱلْقُرُونِ﴾: جَمْعُ «قَرْنٍ» والْمُرَادُ هُنَا أَهْلُ زَمَانٍ واحِدٍ، وسُمُّوا قَرْناً في اللُّغَة، لأَنَّهُمْ اقْتَرَنُوا معاً في ذٰلِكَ الزَّمان:

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾: أي: وكَفَىٰ رَبُّكَ مُسْتَغْنياً بذاتِه وصِفَاتِهِ، حالَةَ كونه خَبِير بَصِيراً بِذُنوب عباده، فَهُوَ يُعَذِّبُهُمْ وَيُهلِكُهُمْ وَيَقْطَعُ رِحْلَةَ امْتِحَانِ أفْرَادهم في الحياة الدُّنيا، لعِلْمِهِ التّامِّ بهم القائم على خِبْرَةٍ دَقِيقَةٍ بأحْوالِهِمْ الظاهِرَة والباطنة، وبَصِيرٍ مُحِيطٍ مُدْرِك لكلِّ كبيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ مِمَّا يُرَىٰ بالأبْصار من أعمالهم الظاهرة والباطنة، الجَسَدِيَّة والنفسية.

الباء في ﴿بِرَبِّكَ﴾ حَرْفُ جَرٍ زِيدَ لتأكيد اسْتِغْنَائِه جلّ جلالُهُ بذاته وصفاته.

﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ معمولٌ مُتقدِّمٌ على عامِلِهِ ﴿خَبِيرًا﴾ لمراعاة الجمالِ التناسقي بيْنَ رُؤُوسِ الآيات.

الْخَبِيرُ: هُوَ ذُو الْعِلْم الدَّقيق القائم على الشُّهُود والحضور دواماً مع المعلوم.

الْبَصِير: هو ذو البصر المحِيط بالدَّقائِق.

* * *

شرح السّنَّةِ الرابعة:

وهي أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لاَ يُهْلِكُ أهْلَ الْقُرَىٰ ومُلْحَقَاتِها إهلاكاً عامًّا شاملاً، إلاَّ في حالَةِ كَوْنهم ظالمين، عالِمِينَ بما يجب عليهم تُجاهَ رَبّهم.

دَلَّ على هذه السُّنَّةِ الرَّبَّانِيّة قول اللّهِ عَزَّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾:

أُطْلِقَ لفظُ القرىٰ والمراد أهْلُها على طريقة المجاز المرسَل، والعلاقة الحاليّة والمحليّة.

أي: ومَا كَانَ من شأن الرَّبّ جلَّ جلالُهُ، وعظَم سلطانه، وسَمَتْ حكْمتُه، أَنْ يُهلِكَ أهلَ الْقُرَىٰ بسَبَبِ ظُلْمٍ هُمْ فيه، اقْتَرفُوهُ ويمارِسُونَهُ دواماً

دون استغفار ولا تَوْبَة، إلاَّ في حالَةِ كوْنِهِمْ عالِمِينَ بما هو مطلُوبٌ مِنْهُمْ تُجَاهَ رَبِّهِمْ من إيمان وعَمَلٍ، عن طريقِ المبلِّغين عن الله، وغَيْرَ غَافِلِينَ بِسَبَبِ جَهْلِهِم.

وهذا العلم يَشْمَلُ الإنْذَارَ بعذاب الله وبالهلاك الشامل، إذا أَصَرُّوا على مَا هُمْ فيه من ظُلم.

* * *

شرح السنة الخامسة:

وهي أنّ الله عزّ وجلّ لا يُهْلِكُ أهْلَ القرىٰ وملحقاتها، ما دامَ فيها من يستجيبُون لدَعْوَةِ الرُّسُلِ تِباعاً، ويُصْلِحُونَ مِنْ أَمْرِهِم وإنْ قَلُّوا، فلا يُنْزِلُ اللَّهُ بهم العذابَ الْمُهْلِكَ لَهُم إهلاكاً شاملاً، حتَّىٰ يَصِلُوا إلى حالةٍ ميؤُوس مِنها بوَجْهٍ عامٍّ.

- دلَّ على هذه السُّنَّة الرَّبَّانية قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

اللام الجارَّة في ﴿لِيُهْلِكَ﴾ هي لام الجحود لوقوعها بعد كون منفي، وهٰذه الصيغة من أبلغ صِيَغِ النفي في العربية، والمجرور باللاّم المصْدَرُ المؤوّل من «أن» المصدرية الناصبة للفعل المضارع والمقدرة بعد اللاّم ومن الفعل المضارع.

والمراد بالقرىٰ أَهْلُها، على طريقة المجاز المرسل.

أي: ليْسَ منْ سُنَّةِ رَبِّكَ، وَلاَ مِنْ أفعاله ولو على سبيل النُّدْرة، في معاملة أهل القرىٰ الظالمين ومَنْ يُلْحَقُ بهم، أَنْ يُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً عامًّا شَاملاً مُسْتَأْصِلاً لَهُمْ في حالة كَوْنِ أفرادٍ مِنهُمْ سَائِرِينَ في طَرِيق الإصْلاَح إيماناً

وعَملاً، فلاَ تَحِقُّ كَلِمةُ الإهلاك الشامل عليهم، حتَّىٰ يَصِيرَ تَدرُّجُهُم في طَرِيق الإصْلاَح بإراداتهم الحرَّة أمراً ميْؤُساً منه بوجْهٍ عامّ.

الإصلاح: الإتيان بما هو صالح. وإصْلاحُ الشيء، إزالَةُ فَسَاده.

● ودلّ عليها أيضاً قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾:

أي: إنَّ الَّذِينَ ثَبَتَتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ ربّك بأنْ يُعَذَّبُوا وَيُهْلَكُوا، لَمْ تَقْتَضِ الحكمة ذلك فيهم إلاَّ بسَبَب أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوس معها من أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقبلاً بإراداتِهم الحرَّة، ولَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ من الآيات البيانيّة، والإعجازيّة الكافية لإقناع ذي فِكْرٍ راغِبٍ في أَنْ يقْتَنِعَ بالحقّ.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾: أي: حتَّىٰ يرَوْا بَدْءَ نُزُول العذاب الأليم بهم، عِقَاباً لهم على كُفرِهم، وَعندَئذٍ يُعْلِنُونَ إِيمانَهم، لكِنَّ أيمانَهُمْ سَاعَتَئِذٍ لاَ يَنفَعُهُمْ، إذ تَكُونُ مُدَّةُ امتحانهم قد انتَهَتْ، وَجَاءَتْ مَرْحَلَةُ الجزاء، ويكونُ حالُهُمْ كحال فِرْعَوْنَ حِينَما أدْرَكَهُ الْغَرقُ، قال: آمَنْتُ أنَّهُ لاَ إِلَه إلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إسْرائيل، فلَمْ يَنفَعْهُ إيمانُهُ سَاعَتَئذٍ، قال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

● ودلَّ عليها أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ بشأن كُفّارِ أهل مكّة إبّانَ التّنْزِيلِ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾؟.

أي: لَمْ يَحْصُلْ إيمانٌ ما من أَهْلِ قَرْيَةٍ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ إِهْلَاكاً عامًّا شاملاً، فيما سبَقَ من أهل القرون السَّالِفَة، مع إمْهَالِهِمُ الطويل، وبذلك استحقُّوا التعذيبَ والإهلاكَ الشامل، ولَوْ أنّ أفراداً مِنْهُمْ كانُوا يُؤْمِنُون تِبَاعاً غَيْرَ الَّذِينَ سبَقَ أَنْ آمَنُوا مِنْهُمْ، واتَّبَعُوا رَسُولَ رَبهم، لما أَهْلكهم الله إهلاكاً عامًّا شاملاً.

أَفكفَّارُ أَهْلِ مكّة يُؤْمِنُونَ مُسْتَقْبلاً بالتَّدرُّج، حتّى لاَ يستَحِقُّوا الإِهْلَاكَ الشامل؟.

جوابُ هذا السؤال قَدْ كشفَهُ الواقع فيما بَعْدُ، وهو أنَّ أَكْثَرَ من كان كافراً من أهل مكَّةَ قَدْ آمَنَ فيما بَعْدُ، ولا سيما بعْدَ أن فَتَحها اللَّهُ للرَّسُول ﷺ وللْمَؤْمنين معه، ولهذا لم يُنْزِل اللَّهُ بهم الإهلاكَ الشامل.

● ودلَّ عليها أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٩٥﴾:

أي: وحرامٌ على أهل قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ بِظُلْمِهِمْ الْبَقَاءُ في حياة الابتلاء مُمْتَحَنِين، بسَبَبِ أَنَّهُمْ لا يَرجعون إلى فِطْرَةِ الإيمان والطاعَةِ مَهْمَا أَمْهَلْنَاهُمْ، بلْ هذا الرُّجوعُ مَيْؤُوس منه عَنْ طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة.

ولهذا استَحَقُّوا الإهلاكَ الشَّامِلَ، واللَّهُ هو العليم الخبير بعباده، الحكيم في تصاريف قضائه وقَدَره، وتنفيذ أَفعاله.

* * *

شرح السُّنة السادسة:

وهيَ أنّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ يُمْهِلُ عباده الظَّالمين ويُمْلِي لهم، ولا يَعْجَلُ بإِنْزَال العقاب الشَّامل والإهلاك العام فيهم.

لقد قَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ جلَّ وعلا، أنْ يمْنَحَ الظّالمين من عباده أقْصَىٰ إمْهال، وأطْوَل زَمَنٍ ضِمْنَ ظُرُوف رِحْلَةِ الحياة الدنيا، كافٍ لاسْتبصار الحقّ، والتراجع عن الباطل، ومُحَاسِبةِ الأنْفُس، والكَفِّ عن ارتكاب الجرائم.

والجهَلَةُ من الناس بسُنَّةِ اللَّهِ هٰذه قَدْ يَسْتَبْطِئُون نُزُولَ العذاب بالظَّالِمِينَ مِنَ الأمم، فتَتَوارَدُ على نفوسهم الشُّكُوك، ولكنّ الله عزّ وجلّ يُعَامِلُ عباده بمقْتَضَىٰ سُنَنِهِ الحكيمة، لا بمقتَضَىٰ أهواء الناس وتَشَهِّيَاتهم، ومَا يُرِيدُون أَنْ يَشْفُوابه غيظ صُدُورهم، من أعدائهم الكافرين.

دلَّ على هذه السُّنَة عدَّة نُصُوص في القرآن المجيد:

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾: أي: نمْهِلُهم ونُطَوّلُ مدَّة امْتِحانهم في الحياة الدُّنيا.

فالمعنى: ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالحقّ الَّذِي بلَّغَهُمْ إياه رُسُلُنَا، مَقْروناً بالبراهين الَّتي تُثْبِتُ أنَّه حقٌّ، وتَقُومُ بها الحجَّةُ عليهم بأنَّهُ حَقٌّ، أنَّ إمْهَالَنَا لَهُمْ وهُمْ مُصِرُّونَ على الكُفْرِ عالِمُونَ أنَّهم على باطلٍ وشرٍّ، وأنَّهم ظالِمُون، هُوَ خَيْرٌ لأنْفُسِهِمْ، إذْ تَطُولُ مُدَّةُ اسْتِمْتَاعِهم بِمَا حَرَّمْنَا عَلَيْهِم، دُونَ أنْ نُعَاقِبهم ونُعَذِّبَهُمْ ونُتْبعَ ذلك بإهلاكهم إهلاكَ اسْتِئصال.

ونفهم عقلاً أنَّ الغاية من الإمْهال إتَاحَةُ أوْسَع مُدَّةٍ لَهُمْ يُمكنُ أَنْ يتخلّصوا فيها من سُلْطان أهوائهم وشهواتهم ويُؤمنوا ويتوبوا، ودَلَّتِ الآيَةُ على أَنَّهُمْ إذا لم يُؤْمِنُوا في مُدَّةِ الإمْهَالِ فإنّهمْ سَيَزْدادُون إثْماً، وسَيَحْمِلُون أَوْزاراً مضافَةً إلى أوزارهم السَّابقات، وَيسْتَحقّون عليها عذاباً

مضافاً إلى ما كانوا قَدِ استَحقُّوهُ قَبْلَ الإمهال، ولهم إذا استَمَرُّوا علىٰ باطِلِهم وكُفْرِهم وآثامهم عَذَابٌ مُهِينٌ مُذِلٌّ لهم، على مقادير ما جَنَىٰ كلُّ واحدٍ مِنهُمْ من إثْم، إضافَةً إلَىٰ الكُفرِ الذي استحقوا به الخلودَ في عذاب النار، أخذاً من دلالات نُصُوصٍ قرآنيَةٍ أخرَى، إذ النُّصُوصُ القرآنيَّة مُتكاملة فيما بَيْنها.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجل في سورة (الرّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) خطاباً لرَسُولِهِ محمّد ﷺ طمَأنَةً له بعاقبة النصر، وتَسْلِيَةً له بشأن ما يُلاقيه من بعض كُفَّار قومه من استهزاءٍ به:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: فأمْهَلْتُ المستَهزئينَ برُسُلِي من قَبلِكَ إمْهَالاً كافياً لقَطْعِ كلّ أعْذارِهم، وعلى الرُّغم من الإمْهالِ الطويل الكافِي لم يَتُوبُوا، ولم يَسْتَغْفِرُوا، ولم يَرْجِعُوا إلى فِطَرِهم الإيمانيَّةِ بإراداتِهم الحرَّة، فأخذْتُهم أخْذَ عِقابٍ وعذابٍ وإهْلَاكٍ.

فانظُرْ كَيفَ كان عقابي الشديدُ لهم، وكيْفَ كانت نُصرتي لِرُسُلِي، فَكُنْ مُطْمَئِناً إلى أنّي سأنْصُرُكَ كما نَصَرْتُ رُسُلي السَّابِقِين، ضِمْنَ تَطْبيقَاتِ سُنَّتِي.

النص الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾: أي: ويَسْتَعْجِلُكَ الّذِينَ كَفَرُوا بك وبما جِئْتَ

به عَنْ رَبّك، بالعذاب الَّذِي وَعَدْتُهُمْ به فيما بلّغْتَهُمْ عَني، تَوَهُّماً مِنهُمْ أنَّك غَيْرُ صَادِقٍ فيما تُبَلِّغُهُمْ عَنِي.

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾: أي: ولَنْ أُخْلِفَ وَعْدِي، لأنّي أنا الله العليم الحكيم القدير على فِعْل ما أُريد، فإذا وَعَدْت بأمْرٍ فلا بُدَّ أنْ أُحَقِّقَ تَنفِيذَه، لَكِنَّ أيَّامِي في معاملة عبادي لَيْسَتْ كأيامِكُمْ.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: أي: إنَّ تقدير الزَّمَنِ الَّذِي أُعَامِلُ بِهِ عِبادي في امتحانهم، وإمْهَالِهم، وإنْزَالِ العقاب بهم، مختَلِفٌ عن تَقْدِيراتكم.

فاليوم الواحد عندي يُشْبِهُ ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ بِحَسَبِ أيَّامكم، وعلى هذا فالسَّاعة الواحدة من هذا الْيَوْمِ تعادلُ أكْثَرَ مِنْ أرْبَعِينَ سَنَةً بِحِسَاب أيَّامِنَا نَحن.

أي: فَمَا الداعي لاسْتِبْطَاءِ تَحْقِيقِ الوعْدِ؟!

﴿وَكَأَيِّن﴾: اسْمٌ مُرَكَّبٌ من كافِ التشبيه، و«أيٍّ» المنونَة، وهو يُفِيدُ تَكْثِيرَ الْعَدَدِ بمعنى «كَمْ» الخبريَّة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: أي: وأهْلُ قرىً كثيرة ظَالمون، طَوَّلْتُ لهم مُدَّة امْتِحانهم بحَسَب مقتضَى حِكْمَتِي.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾: أي: ثُمَّ أخَذْتُ أهْلَها الظَّالِمينَ، أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإهلاكٍ شامل.

﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: وإلَيَّ المصيرُ بَعْدَ البعث ليوم الدين، لمحاسَبَتِهِمْ ومجازاتهم على كُفْرِهم وَجرائِمهم الكثيرة.

* * *

شرح السنَّة السابعة:

وهي أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ يَبْدأُ مُعَالَجَةَ الأُمَمِ قَبْلَ إِهْلاَكها إهلاكاً شاملاً، بابْتِلائِها بالبأْسَاءِ والضَّرَّاءِ، والمصائب والمكاره الجزئيَّة، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضَرَّعوا مُسْتَغفِرِينَ وتَائِبين، ومُلْتَزِمِينَ بالتدرُيج العملَ بما أَمَرَهم به، والابْتِعَادَ عَمَّا نَهَاهُمْ عنه.

وبابتلائها بالبأْسَاءِ والضَرَّاءِ والمصائب الجزئية، تنبيهٌ لَهَا، وتذكير، وإنذار، فإذا فَعَلُوا ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا رَفع الله عنهم ما أنزل بهم، ولم يُنْزِلْ بهم العذابَ والإهلاكَ الشامِلَيْن.

وإلاَّ رَفَعَ اللَّهُ عنهم ما أنزلَ بهم من مصائب جزئيّة، وأَمْهَلَهُمْ مُدَّةً من الزّمن، ثم باغَتَهُمْ بالتَّعْذِيب والإهْلاكِ الشَّامِلَيْن.

- دلَّ على هذه السُّنَّة قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

أي: وما أرسَلْنَا في أهْل قَرْيَةٍ من نبيٍّ رَسُولاً لهم، لأنَّهم صارُوا بسبب كُفرِهم وظُلْمِهم وإفسادِهم في الأرض، بحاجَةٍ إلى رسُولٍ يُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهم ويُبَشِّرُهم ويُنْذِرُهم، فعانَدُوه وأصَرُّوا على كُفْرِهِم وَغَوَايتهم، إلاَّ أَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ تأديب وَتَنْبِيهٍ وإنْذَارٍ بالبأسَاء والضَّرَّاءِ.

البأسَاءُ: الجوعُ، والمشقة، والفقر، وضَنْكُ العيش، والحرب.

الضرَّاءُ: الشِّدَّة، وكُلُّ حَالةٍ تَضُرُّ في الأموال والأنفس.

والغرض من هذا الأخْذِ تَذْكيرُهم بِرَبّهم، ليَدْعُوه متضرّعين إليه، سائلين أن يكْشِفَ عنهم ما نزل بهم ممَّا يكْرَهُون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ يَتَذَكَّرُوا رَبَّهم، فيَتَضرَّعُوا له، مُعْتَرِفين بذنوبهم، سائِلِينَ أن يكْشِفَ عنهم ما نزل بهم.

التَّضرُّعُ: التذلُّلُ والخضوع، مأخوذٌ من خُضُوعِ وَلَدِ البهيمة الرَّضِيع، ليمتَصَّ حَلِيبَ أُمِّهِ من ضَرْعِها.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ اسْتَمَرَّتْ خِلاَلَها البأْسَاءُ والضَّرَّاء، بدَّلْنا مَوادَّ الابْتِلاَء، فجَعَلْنا الحَسَنَة في مَكانِ السيئة، فتَحَوَّلُوا إلى النعمة والرَّخاء والأمن.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾: أي: حتَّىٰ كَثُرَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ بأَنْسَالِهِمْ، وعادُوا إلى بَغْيِهم وعُدْوانِهِم وغَوايَتِهم، فأَخَذْنَاهم بالبأسَاءِ والضَّرَّاءِ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾: أي: ثُمَّ ذَهَبَتْ عنهم البأساء والضرّاء، وقالُوا: هي ظواهر طبيعيَّةٌ مُتكرِّرةٌ في الدَّهْرِ، ولَيْسَ من ورائها قَصْدُ تأْدِيب، أَوْ تَذْكير، أو تربية.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾: أي: فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإهلاكٍ شامِلَيْنِ مُبَاغِتَيْن، دون إشعارٍ لهم بمقَدِّمَاتٍ فِيها إِنْذارٌ، لأنّهم قد وصَلُوا إلى الحضيض كُفْراً، وفجوراً، واسْتِغراقاً في الآثام، مع تفسيرهم ظواهر حِكْمَةِ الله بأنها ظواهر طبيعيَّةٌ مُتَكَرِّرَة، وليس من ورائها قَصْدٌ رَبَّاني.

- ودلَّ علىٰ هٰذه السُّنَّة أيضاً قَوْلُ الله عزّ وجَلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبةً في أن يتضَرَّعُوا، أو لنجْعَلَهُمْ في مَوْقِفٍ من شأنِه أن يَدْفعَهُمْ - إذَا كان لدَيْهم رُشْدٌ ما - إلى أن يَتذَلَّلُوا لربّهم، ويخْضَعُوا ويتوبوا له، كي يرفَعَ عنهم ما أُنزل بهم، فإذا رفَعَ ما أنزل بهم كان مِنْ شأنِه أن يكُونَ مُذَكِّراً لهم دواماً بِرَبّهم، ومُنْذِراً لهم بنزول العذاب والإهلاكِ الشاملَيْن، فإِذَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بَعْدَ ذَلِكَ من هٰذِهِ المقدَّمات، استَحقُّوا التّعذيبَ والإهلاك الشاملين.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾: أي: فَهلَّا تَضرَّعُوا إِذْ جاءَهُمْ عَذَابُنَا التأديبيُّ الجُزئيّ، المُنْذِرُ بالعذابِ والإهْلاكِ الشامِلَيْنِ المسْتأْصِلَيْن.

«لَوْلاَ» هُنَا أداةُ تحضيض مثل «هَلاَّ».

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ولكنْ لَمْ يتضرعوا ولم يتوبُوا ولم يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهم، إذْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ فلَمْ تَلِنْ لما نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عذابٍ تأديبيٍّ إنْذَارِيّ، وجعَلَ الشَّيْطَانُ يُزَيّنُ لهم أَنَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَيْسَ هو الذي اقتضَىٰ أَنْ يُنْزِل اللّٰهُ بِهِمُ المصائِبَ وأنواعاً من البأساء والضرّاء، ويُزَيِّنُ لهم أَنَّ ما نزَلَ بهم هو من تَقلُّبَاتِ الدّهر، الّتي تَحدُثُ بصُورَةٍ طبيعيَّةٍ خالِيَةٍ مِنْ قَصْدٍ رَبَّانِيٍّ للتَّرْبِيَةِ والجزاء.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾: أي: فلَمَّا تَرَكُوا مَا ذُكِّرُوا به من البأساء والضَّرَّاءِ، وما ذكّرُوا به من قِبَلِ رُسُلِ رَبّهم، أو الدُّعَاةِ من الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، تَذْكيراً بيانيًا، بالنُّصْحِ والإرشاد، ولم يَكْتَرِثوا لكلّ ذَلِكَ ولم يَعْبَؤوا به.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: وسَّعْنَا لَهُمْ في الحياة الدنيا الأرْزاقَ، ويَسَّرْنا لَهُمُ المسالِكَ لنَيْلِ ما يَشْتَهُونَ من متاع الحياة الدنيا، من كلِّ شيْءٍ تتعلّقُ نفوسهم به.

شُبِّهَ تيسيرُ المسالِكِ للوصول إلى ما يَشْتَهُونَ بفَتْحِ الأبواب، فاسْتُعِيرتْ عبارة «فَتْحِ الأبْواب» للدَّلالَة على ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿فَرِحُواْ﴾ هُنَا، بمعنى بَطِرُوا واسْتَكْبَرُوا، وتَفَاخَرُوا وتَعَالَوْا علَىٰ الناس، فَطَغَوْا وبَغَوْا.

﴿بَغْتَةً﴾: أي: أخْذَ بَغْتَةٍ، أوْ مُباغِتين. **البَغْتَةُ**: المفاجأة.

﴿مُّبْلِسُونَ﴾: أي: ساكِتُون، يائِسُونَ، نادِمُون، لا يَقْدِرُون على شيء.

يقالُ لغة: **أبْلَسَ الرَّجل**، أي: قُطِعَ به، وسَكَتَ، ونَدِم.

وأبْلَسَ مِنْ رَحْمَةِ الله، أي: يَئِسَ.

والمعنى: حتَّىٰ إذا بَطِرُوا واسْتَكْبَرُوا وطَغَوْا وبَغَوْا بِمَا فُتِحَ عَلَيْهِم من متاع الحياة الدُّنيا، أخَذَهُمُ الله بالْعَذَاب والْإِهْلَاكِ الشامِلَيْنِ، بصُورَةٍ مفاجِئَةٍ غَيْرِ مُرْتَقَبَةٍ، فإذَا هم سَاكِتُون، يائسُونَ، نادِمُونَ، لاَ يَسْتطِيعُونَ أن يَفْعَلُوا شيئاً يَقِيهم من عَذَابِ الله، ونوازل الإهلاك الشامل.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أي: فأُهْلِكُوا جَمِيعاً، حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لهم تابعٌ يَتْبَعُهُمْ.

الدَّابِرُ: التابع، وهُوَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ آخِرُه، وقَطْعُ الدابِرُ كِنَايَةٌ عن الاستئصالِ التامّ.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: وكُلُّ الثناء على اللّهِ رَبِّ الْعَالَمِين، الّذِي خَلَّصَ المجتمع الْبَشَرِيَّ من قومٍ ظالِمِينَ، بَلَغُوا درَكَةَ اليأسِ من أن يَصْلُحوا عن طَرِيقِ إرادَاتِهم الحرَّة، في حَيَاةِ الابْتِلاءِ والاختبار في ظروفِ هٰذِه الحَياة الدنيا.

إنَّ إهلاكَ الْقَوْمِ الظالمين، الّذين أمْسَوْا بُؤرَةَ فَسَادٍ وإفسادٍ في

الأرض، وطُغْيانٍ وبَغْيٍ وعُدْوانٍ، نِعْمَةٌ عظيمةٌ تَنْتَزِعُ من قُلوب أولي الألبابِ الْحَمْدَ والثناءَ من دَرَجَةٍ قُصوىٰ، على رَبّ العباد الذي رحِمَهُمْ فخلَّصَهُمْ مِنْ وَبَاءٍ لا سبيلَ إلى الخلاص منه إلاَّ بالاستئصال التامّ، حتَّىٰ لا تبقَىٰ منهم جُرْثُومَةٌ تَنْشُرُ شرّاً في دنيا الناس.

* * *

شرح السُنَّة الثامنة:

وهي أنْ لا يحقِّقَ اللَّهُ عزّ وجلَّ إهْلاَكَ أُمَّةٍ إهلاكاً شاملاً، إلاَّ بَعْدَ قَدَرٍ وَقَضَاءٍ يُحَدِّدُ فيهما زمَنَ إهْلاَكِها، وبَعْدَ كِتَابَةِ ذَلِكَ، وإِعْلاَمِ ذوي الْعَلاَقَةِ بِتَنْفِيذِه من الملائكة.

ويكونُ زَمَنُ الإهْلاكِ هُوَ أَجَلَ بَقَاءِ هٰذِهِ الأمَّةِ في الحياة الدُّنيا، ويكُونُ التَّنْفِيذُ في هذا الأجَلِ بالتَّحْدِيدِ، دون سبْقٍ ودُونَ تأخِير.

- دلَّ على هٰذه السُّنَّةِ قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (الْحِجْرِ/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

- وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمِنُونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في معرض الحديث عن أقوامٍ أُهْلِكُوا، وعن أقْوَامٍ بَعْدَهُمْ أُهْلِكُوا أيضاً:

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾: أي: وما أهلكنا من أهْل قَرْيَةٍ اسْتَحَقُّوا الإهْلاَك الشَّامِلَ بِحِكْمَةِ الله وَقَضائِهِ وقَدَرِه، في حالٍ من الأحوال، إلاَّ في حالِ كَوْنِ إهلاكِهِمْ مُسَجَّلاً في كتابٍ مَعْلُومٍ للَّهِ، ومَعْلُوم لَدَىٰ الملائكة المأمُورين بالتنفيذ، وهذا الكتاب يَشْتَمِلُ علىٰ بيان زَمَنِ الإهْلاَكِ وكلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئيَّاتِ التَّنْفِيذ.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾: أيْ: مَا يكُونُ إهلاكُها سَابقاً لأجَلِهَا المقَدَّرِ لَهَا في كِتَابِها، إذْ لَوْ حَصَلَ مِثْلُ هٰذا التَّعْجِيلِ في أَجَلِ الْإِهْلَاكِ، لكانَ هَلاَكُهَا سَابِقاً أَجَلَها المقَدَّرَ لها.

وما يَسْتَطِيعُونَ أيْضاً أَنْ يُؤَخِرُّوا هٰذا الأَجَلَ المقَرَّر لإهلاكها بوسِيلَةٍ من الوسائل.

الأجل: يأتي في اللّغة:

(١) بمعنىٰ غايَةِ الوقت المحدَّدِ لشيء ما، أو المأذون به.

(٢) وبمعنى الوقْتِ المحدَّدِ أو المناسب لحصُول الشيء، وابتداء زمانه.

(٣) وبمعنى المدَّةِ المحدَّدَةِ للشَّيْءِ والمحصُورَة بَيْنَ أَوَّلٍ وآخر.

* * *

شرح السُّنَّة التاسعة:

وهي أنه غالباً ما يكونُ إهْلاَكُ الأُمَم الَّتي قضىٰ اللَّهُ بإهلاكها، عنْدَ الصُّبحْ، وقَدْ يَسْتَمِرُّ التَّعْذِيب والإهْلاِكُ حتّىٰ الإشراق. أو يكون عند شُرُوق الشمس، أوْ يكُونُ بَيَاتاً وهم نائمون، أَوْ في وسَطِ النّهارِ وهُمْ قَائِلُون، أو في الضُّحىٰ وهُمْ يَلْعبُونَ.

● دلَّ على هذه السُّنَّة قول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾:

أي: وَعَدَداً كثيراً منْ أَهْلِ الْقُرَىٰ وتوابعها قَدَّرْنا وقضينَا إهْلاَكَهُمْ، وعند التنفيذ جَاءَهم عذابُنَا بَيَاتاً وهم نَائِمُونَ، أو في وسَطِ النهار وهم نَائِمُون في وقْتِ الْقَيْلُولَة، أو مستريحون فيه.

﴿قَآئِلُونَ ﴾: أي: مُسْتَرِيحُونَ في وقْتِ القيْلُولَة، وهي الاستراحةُ في نصْفِ النهار عند اشتداد الحرّ، وفي الغالب ينامُ المستريحون في هذا الوقت.

● ودلّ عليها أيضاً قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن لُوطٍ عليه السلام، في حكاية خطاب الملائكة له:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

● وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: نزل العذاب بهم في وقت الصُّبح، وتمّ إهلاكهم بالصَّيْحَةِ في وقْتِ إشراق الشمس.

● وقول اللّهِ عزّ وجلّ بشأنهم أيضاً في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول): ضِمْنَ حكايَةِ قِصَّتِهم وقَوْلِ الملائِكة لِلُوطٍ عليه السَّلام:

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾:

وكان حَديثهم هذا مع لوط بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللّيل.

● ودَلّ عَلَيْها أيضا قولُ الله عزّ وجلّ بشأن ثمودَ قَوْمِ النبيّ الرسول صالح عليه السلام في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

● وقَدْ أَنْذَرَ اللّهُ عزّ وجلّ أَهْلَ القرى الظالِمِينَ باحْتِمال أَنْ يُنْزِلَ بَأْسَهُ بهم في وقت الضُّحَىٰ وهم يَلْعَبُونَ، فقال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

* * *

شرح السُّنَّة العاشرة:

وهي أنّ الله عزّ وجلّ إِذَا أَنْزَلَ بَأْسَهُ فِيمَنِ استَحقُّوا الإهلاك والتَّعْذِيبَ بوسائله، وَصَدَرَ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بِذَلِكَ، فإِنَّهُ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ يَأْخُذُهُمْ أَخْذاً أَلِيماً شَدِيداً بِسُلْطَانِ الْقَهْرِ والْجَبَرُوت.

دَلَّ على هذه السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّة قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل في سُورَة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ . . .﴾.

المشار إليْهِ بعبارَة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مَا سَبَقَ هذا النصّ من بيان إهلاك طائفةٍ من الأقوام السابقة الغابرَة.

وقد جعل الله عزّ وجلّ إهْلاَكَ الأُمَم المستَحِقَّةِ للتّعْذِيب والإهلاك بهٰذِهِ الصورة الشديدة الْعَنيفة المؤلمة، لِيَتَّعِظَ من يَخافُ عذابَ اللَّهِ يوْمَ الدِّين، لأنَّهُ سوْفَ يكُونُ أكْثَرَ إيلاماً وشِدَّةً ودَواماً.

* * *

خامساً:

فصولٌ خَمسَة تَشتَمِلُ على بيانَاتِ تَطبيقاتِ السُّنَنِ العشر السَّابقة

الفصل الأول

كيفَ قابَلَتِ الأممُ الْمُهلَكَةُ دَعواتِ رُسُلِ رَبّها قبل إنزال الْعَذابِ والهلاكِ فيها

(١) جاء في سُورَةِ (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: وما أرسَلْنَا في قَرْيَةٍ من رَسُولٍ كان آخِرُ أمْرِهِ مَعَ أهْلِها، أن أنْذَرَهُمْ بعذاب الله، إلاَّ قال مُتْرَفُوها وهم أصْحابُ السُّلْطَةِ الإداريَّة والْهَالَةُ مِنْ أصحاب الثراء في القوم حولهم: إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ.

فَدَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ مُتْرَفي الأُمَمِ وهُمْ أكابِرُ القوم وأصْحَابُ المالِ والثراء من حولهم، كانُوا يُواجِهُون رُسُلَ الله بالتكذِيب والجُحُودِ، والكُفْرِ بما جاءُوهُمْ به عَنْ رَبِّهم.

ويَتْبَعُ هؤلاء في العادة معظم جماهير قومهم، لأنَّهُمْ لهم أتباع، ويَتَأثَّرُونَ بوسائل مَكْرِهِمْ وتَزْييناتهم، وبسُلْطَانِهِمْ عليهم.

(٢) وجاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قول الله عزّ وجلَّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، مبيناً لكفَّار أهل مكَّة قِصَّةً من قِصَص الكافرين الغابِرين:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ وحتَّىٰ الآيَةِ (٣٠) من السّورة، وقَدِ انْتَهىٰ أَمْرُهُمْ بالإهْلاَكِ بالصَّيْحَةِ، فكانوا بها خامِدِين مَيِّتِين، كالرَّماد الَّذِي خَمَدَتْ ناره.

(٣) وجاء في سُورة (الزُّخْرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) قول اللّٰهِ عزّ وجل خطاباً لرسُوله محمد ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: أي: على طَرِيقةٍ من المبادىء والمفهومات والسُّلُوك.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾: أي: وإنَّا على آثارهم سَائِرُونَ، ونَحْنُ بهم مُقْتَدُون.

وكانَ كُلُّ رَسُولٍ يُجِيبُ قَوْمَهُ بما أبَانَهُ الله عزّ وجل في الآية التالية من السورة:

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فكانت النهاية أن استحقّ القوم أنْ يَنْتَقِمَ اللّهُ منهم، فيُعَذِّبَهُمْ وَيُهْلِكَهُمْ، وفي بيان هذه النهاية قال اللّهُ عزّ وجلّ في الآية التالية من السّورة:

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

(٤) وجاء في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ بشأنِ اليهود والنّصارى وأمثالهم من أهل المِلَلِ المحرَّفَةِ عَنْ أُصولها الرَّبّانيّة الصحيحة.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعْمَالَهُمْ التحريفيَّة والتبدِيليَّةِ، الَّتي حَرَّفُوا فيها دينَ اللّهِ وبَدَّلُوه، فلمَّا أدْخَلُوا تَحْرِيفاتهم وتَبْدِيلاتهم الاعتقادية والسُّلُوكيّة على دين الله، صار الشَّيْطَانُ هو وليُّهُمْ اليوم في الحياة الدنيا، يتولَّىٰ إغواءَهم فيَسُوقُهم أو يقودُهم موغلين في أوديَةِ الضَّلالِ والغَوَايَة.

ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَوْمَ الدِّين، أي: لأنَّهم كَذَّبُوا رَسُولي الَّذي خَتَمْتُ بِبِعْثَتِهِ النبّوات والرّسالاتِ، وكذّبُوا بما جاءهم به عَنّي، واتَّبَعُوا أهواءهم، وتقاليدَهم العمياء.

(٥) وجاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) في معرض الَّذِين كذّبوا رسُولَ الله محمّداً ﷺ، وكذَّبُوا بما جاءَهُمْ به عنْ رَبّه:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾:

﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: هُمْ أَحْزَابُ الكُفْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ نُوحٍ عليه السَّلام، مبْعُوثين لأقوامهم.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾: أيْ: ليأخُذوهُ أَخْذَ عَذابٍ وإهْلاَكٍ، ولَكِنْ كانَ هَمُّهُمْ دُونَ مُسْتَوىٰ الْإِرادَةِ المقرونَةِ بالتَّنْفِيذ.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾: أي: وجادَلُوا بالكلام الباطِلِ في حقيقَتِه، المزَخْرَفِ في ظاهره، لِيُدْحِضُوا به الحقّ، أي: لِيُزْلِقُوا به الحقّ الذي جاء به رسُولُهم، في مزالق الشُّبُهات والتَّلْبِيسات، فيُزِيلُوهُ عن مواقع ثباته في أذهان وقلوب المؤمنين به.

الإدْحَاض: الإزلَاقُ في المزالق للإسقاط.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾: أي: فأخَذْتُهُم أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإهلاكٍ عُقُوبَةً معجَّلَةً لهم في الدُّنيا.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾: أيْ: فَانْظُرْ أيُّها المتَفَكِّرُ بسُنَنِي في عبادي، كَيْفَ كان عَقابي الشديدُ الأليم المخيف.

(٦) وجاء في سورة (المؤمِنُون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بعد الحديث عن إهلاك قوم نوحٍ وقوم هودٍ عليهما السّلام:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِـَٔايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ القَرْنُ، أَهْل زمانٍ واحد، وجمعه قرون.

● ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وأهلكنا الأُمَمَ الكافِرَةَ مِنْ هٰذِهِ القرونِ، في آجالها المحدَّدةِ بقضائنا وقَدَرِنا، والمعلومَةِ والمكتوبةِ، أخْذاً ممَّا جاء في نُصُوصٍ أخرىٰ.

وحين إهلاكها مَا يَحْصُلُ سَبْقٌ، وَلاَ تَأْخِيرٌ لأُمَّةٍ عَنْ أَجَلِها المقَرَّر المحدَّدِ لإهلاكها، فالمرادُ نَفْيُ وُجودِ وحُصُولِ السَّبْقِ أو التأخُّر، لاَ نفي أنَّ الأمَّة تحاولُ أَوْ تَطْلُبُ تَعْجِيلَ أَجَلِ إهلاكها، أو تأجِيلَهُ، فهذا غَيْرُ وارِدٍ، لأنَّ إهلاكها يأتي بَغْتَةً.

ومثل هذا الاستعمال يُعَبَّر به عن حصول الشيء ووُجُودِهِ إِثْبَاتاً أو نفياً، نظير استعمال «كان» تامَّةً لا تحتاجُ إلى خبر.

● ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: ثُمَّ أَرسَلْنا رُسُلَنا مُتَتابعين، مع فاصلٍ زَمَنِيٍ بَيْنَ الرَّسُول وَبَيْنَ الَّذِي يَأْتي بَعْدَه، وهٰذا معنى «تَتْرَا».

● ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾: أي: كَذَّبُوه في أنّه نبيُّ اللّٰهِ وَرَسُولُه، وكذَّبُوهُ بما جاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبّه.

● ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾: أي: فأَتْبَعْنا بعْضَهُمُ المتأخِّر بَعْضَهُمُ المتقدّم بالتَّعْذِيب والإهلاك الشاملَيْن.

● ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾: أي: واستَأْصَلْنَاهُمْ فَلَمْ يَبْقَ في الحياة شيءٌ يَتَّصِلُ بهم إلاَّ الأحاديثُ الَّتي تُرْوَىٰ عَنْهُمْ، وعَنْ كُفْرِهم، وعن إهلاك الله لهم وهٰذا قد حصل بالنسبة إلى الّذين لم تبق لهم آثارٌ.

● ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: فَطَرْداً ولَعْناً وإهلاكاً لِقَوْمٍ لَيْسَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْداد لأنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أَمْهَلْنَاهُمْ في رِحْلَةِ الابتلاء.

● ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: ثُم أَرسَلْناهُمَا رَسُولَيْن يُبَلِّغَانِ عَنَّا الدِّينَ، الَّذِي اصْطَفيناهُ لعبادِنَا إيماناً وعملاً، مَصْحُوبَيْنِ بآيَاتِنا الْبَيَانِيَّةِ الَّتي تُتْلَىٰ، ليَتَّخِذَهَا الناسُ ذِكْراً، ومَصْحُوبَيْنِ بسُلْطَانٍ مُبِينٍ، والمرادُ به الْمُعْجِزَاتُ الَّتي آتاهَا الله لموسَىٰ عليْهِ السلام.

• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

مَلأُ فِرْعَوْنَ: حاشيتُهُ وكبارُ قَوْمِه الَّذِين يَدْعَمُونَ مُلْكَهُ وجَبَرُوته في الأرض.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عَنِ اتِّباعِ مُوسَىٰ وَأخِيه، الْمُرْسَلَيْنِ إلَيْهم من رَبّ العالمين.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾: أي: شاعِرِين بأنَّهُمْ فِي مَكانِ الْعُلُوّ فَوْقَ سائر الناس، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَ إنْسَانَيْنِ بَشَرَيْنِ مِنْ قَوْمٍ مُسْتَعْبَدِينَ لهم.

• ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: إنَّ هذا أمْرٌ لاَ نَفعلُه لأنَّه يَحُطُّ من مكانَتِنا العالية في جماهير شعْب مصر، إذْ يجْعَلُنَا أتباعاً، بَيْنَما نَحْنُ سادَةٌ مُطَاعُونَ طاعَةً تُشْبهُ العِبَادة.

• ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾: أي: فكان آخِرُ أمْرِهِمْ بَعْدَ إمْهَالٍ طَويلٍ من الله لهم، أنْ أصَرُّوا علَىٰ تَكْذِيبِهِمَا وَرَفْضِ اتِّباعِهما، فَعَلِمَ اللَّهُ مِنْ حَقَائِقِ ما في نفوسهم أنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً مهما أمْلَىٰ وطَوَّلَ لَهُمْ، وأمْهَلَهُمْ، فقَدَّرَ وَقَضَىٰ أَنْ يُهْلِكَهُمْ، فَكَانُوا مِنْ فَرِيق المهْلكِينَ الَّذِينَ أهلَكَهُمُ الله من أُمَمِ الكُفْر.

ولَقَدْ دَلَّت هذه النُّصوص على تَشَابُهِ الأقوام والأمم في مواجَهاتِهِم لِرُسُلِ رَبِّهِمْ، ومُعَامَلَتِهِمْ لهم.

* * *

الفصل الثاني
حول تطبيق الله سُنّتَهُ في العذاب التخويفي التأديبي قَبلَ الإهلاك الشامل

(١) جاء في سُورَةِ (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لِرَسُوله محمّدٍ ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

سبَقَ تَدَبُّرُ هذا النصّ تَدبُّراً كشَفَ مَا دَلَّ عليه من تطبيقات الْعَذابِ الجزئي التأديبيّ التخويفي، من تَوْطِئاتٍ وتَمْهِيداتٍ رَبَّانية مُذَكِّرَة ومُنَبِّهةٍ وواعظة لمن لدَيْه استعدادٌ لأن يتعظ.

ولكِنْ لم تَنْتَفِعْ بِهَا الأمَمُ الّتي قضىٰ الله بعْدَ ذلك بإهلاكها.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) بشأن فِرْعَوْن وَمَلَئِه وَقَوْمِه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

- ● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: الآيات تنطَبقُ على الآياتِ البيانيّة الّتي تتضَمَّنَ أوامر الله ونواهيه، كالنهْي عن الشِّرْك، وقَتْلِ النَّفْسِ التي حرَّم الله إلاّ بالحق، والسَّرِقة، والزّنا، والسّحر، ونحوها.

وتنطَبِقُ أيضاً على الآيات الدَّالأَتِ على صِدْق موسى عليه السلام في أنَّه رَسُولٌ مُرْسَلٌ من رَبِّ العالمين، مثل آيَةِ العصا، وآيَةِ الْيَد.

ولكن عبارة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧﴾ تَدُلُّ على أنَّ المراد الآياتُ الّتي تتضمَّنُ أوامر الله ونواهيَهُ، لأنّها هي الآيَاتُ الّتي تُثِيرُ ضَحِكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه، إذْ هُمْ في واقِعِهِمُ الْعَمَلِي يُخَالِفُونها ويعْتَبِرُونَ ما يمَارِسُونه من الْعَادَاتِ المستحبَّاتِ الّتي لا يَصِحُّ لِأَحَدِ أَنْ يُعَارِضَهُمْ فيها.

أمَّا الآيَاتُ الإعجازِيَّةُ فلا تُثِيرُ الضَّحِكَ، فآيَةُ العصا الّتِي تَنْقَلِبُ ثُعْبَانًا مُبيناً، آيَةٌ مُخِيفَةٌ تُثِير في الْقُلُوبِ الحذَرَ والرَّهْبَة، والانبهارَ والدَّهْشَة. وآيَةُ إدْخال الْيَدِ في الجيب وإخراجها بيْضَاءَ مُتَلأْلِئَةً كالمصْباح الدُّرِّيّ، آيَةٌ مُدْهِشَةٌ تُثير الإعْجَابَ. وآيَاتُ الْعَذاب العامّ كالطوفان والجراد والْقُمَّلِ والضفادع والدَّم، آيَاتٌ تُثِيرَ الأَلَمَ واسْتِجْداءَ رَفْعِ البلاء.

- ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾: المرادُ من الآياتِ هُنَا آيَاتُ الْعَذَابِ، إذْ هِيَ الّتي تُوصَفُ بأنَّ بَعْضَها أكْبَرُ من بَعْض، وهي الّتي يلائِمُها قَوْلُ اللّهِ عَقِبَها: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. أي: وقَبَضْنا عَلَيْهم، وأَنْزلنا بهم آياتِ العذابِ آيَةً فآيَةِ بالتتابع مع فواصِلَ زَمَنِيَّةٍ بَيْنَ كُلِّ آيَةٍ والآيَةِ التالِيَة لها، رَغْبَةً فِي أنْ يَرْجِعُوا عن غَيِّهِمْ فَيُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا، وكانت الغاية مِنْها التخويفَ، والتأديبَ والإِنْذارَ بالإهلاك الشامل.

- ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝٤٩﴾.

طَلَبُوا مِنْ مُوسَىٰ عليه السلام أنْ يَدْعُو رَبه لِيَرْفَعَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عذابٍ، ووعَدُوه بأن يُؤمنوا ويُسْلِمُوا لَهُ إذا رَفَعَ رَبُّهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ.

ومع هَٰذَا الطلب لم يَسْمَحُوا لأنفُسِهم بأنْ يَقُولُوا له: يا أيُّها الرسُول، بل أَصَرُّوا على اعتبارِه ساحراً، فقالُوا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ وقَدْ تَجاوز عَنْها مُوسى عليه السلام رَغْبَةً في أَنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: أي: بما جعَلَ عِنْدَك مِنْ عَهْدٍ في أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَك إِذَا دَعَوْتَه.

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾: أي: لَئِنْ رَفَعَ رَبُّكَ عَنَّا الْعَذَابَ بِدُعائك إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ إلى ما هَدَيْتَنا إِلَيْهِ من إيمانٍ، وإِسْلَامٍ، وعَمَلٍ بأوَامِرِ اللَّهِ ونواهِيه.

كانت هٰذِهِ العبارَةُ وعْداً مُؤكَّدَ بِعِدَّةِ مُؤكِّدَاتٍ، وفيها استعطافٌ لموسَىٰ عليه السّلام ليَدْعُو رَبَّهُ، باعتبار أنَّ مَا يَدْعُوهم إليه هو من قبيلِ الْهِداية، وما كانوا ليفْعَلُوا ذَلِكَ لَوْلاَ مُعَانَاتُهُمُ الشَّدِيدَةُ من البأسَاءِ والضَّرَّاءِ الَّتي نزلَتْ بهم تأدِيباً وإِنْذاراً.

● ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾: أي: فَدَعَا موسَىٰ رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنهم ما أَنْزَل بهم من أنواع عذابٍ جُزْئيّ تأديبيّ وإِنْذارِي:

﴿إِذَا﴾ فُجائِيَّةٌ ﴿هُمْ يَنكُثُونَ﴾: أي: يَنقُضُونَ عَهْدَهُمُ الَّذِي عاهدوا عليه موسَىٰ عليه السَّلام، جاء التعبير بالمفاجأة إذْ كانَ من المرتَقَبِ منْهُمْ أَنْ يَفُوا بِعَهْدِهِم فَيَهْتَدُوا، لاَ أَنْ يَنْقُضُوا عَهْدَهم، فَيُصِرُّوا على مَا كانُوا فيه من كُفْرٍ.

(٣) وقول الله عزّ وجل في سُورَة (المؤمنونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول): بشأن كُفَّارِ مكّة إذْ دعا الرَّسُولُ محمّد ﷺ عليهم بأنْ يُعَذِّبَهُمُ الله بسنِين كَسِنِي يُوسف، فاسْتَجَابَ اللَّهُ له فَأَنْزَلَ بِهِمْ عَذَابَ الْقَحْطِ والجوع.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾:

أي: ولَقَدْ قَبَضْنَا عَلَيْهِمْ بالْعَذَابِ الَّذِي لَيْسَ بالشدِيدِ على طرِيقَةِ الإِنْذَارِ الأَوَّلِي التَّأْدِيبِيِّ التمهيدي.

● ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾: أي: فَمَا خَضَعُوا وَلاَ ذَلُّوا لربِّهم الذي يُمِدُّهم بعطاءات رُبُوبيَّته. بل اسْتَمرُّوا على ما كانوا فيه من كفر وعِنادٍ.

يقال لغة: اسْتَكَانَ الرَّجُلُ، أي: خَضَعَ وَذَلَّ.

● ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾: أي: وما كانوا يُوالُونَ التَّذَلُّلَ لِربهم، داعِينَ، مستَجْدينَ أَنْ يُرفَعَ ما نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ ابْتدائي، استعمال الفعل المضارع هنّا يدُلُّ على أن الدُّعاءَ لِرَفعِ البلاء بالعذاب يحتاج مُتابعةً في التَّضَرُّع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

أي: واسْتَمَرُّوا غير مُسْتَكِينِينَ لِرَبهم وَمَا يَتضَرَّعُون، حتَّىٰ وقْتِ فَتْح باب ذي عَذَابٍ شَدِيدٍ عليهم، بِالْقَتْلِ في بَدْرٍ وبالهزائم المنكرة الَّتي كانَ فَتْحُ مَكَّةَ آخرهَا، إِذَا هُمْ في هذا العذاب مُبْلِسُونَ.

﴿مُبْلِسُونَ ﴾: أي: سَاكِتُونَ، ساكِنُونَ، نَادِمُونَ، مُتَحَيِّرُون، غَيْرُ قادِرِينَ على أَنْ يَصْنَعُوا شيئاً لِرَفْعِ العذاب الشديد عنهم.

وكان قد نزل بشأنهم أيضاً قَوْلُ الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

كان هذا العذابُ الَّذِي نَزَل بهم تَأْدِيباً وإنْذاراً وتَهْدِيداً بما هو أشد، وهو ما جاء بيانه في النَّصّ السّابق.

﴿رَغَدًا ﴾: أي: كثيراً طيّباً واسِعاً غزيراً رَفِيهاً.

﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾: أي: من كلِّ مَكَانٍ يُصَدَّرُ مِنْهُ رِزْقٌ بالنَّشاط التجاري.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾: في هَٰذِهِ العبارة تَشْبِيهُ ما نَزَلَ

بهم من جُوعٍ وَخَوْفٍ على حياتهم باللّبَاسِ، لأنّهُ كَانَ ذَا شُمُولٍ كَشُمُولِ اللّباسِ معظمَ الْبَدَنِ. وَشَبَّهَ مِقْدَارَ ما نَزَلَ بِهِمْ بالذَّوَاقِ، لأنَّ الألم به كان كالألم لدىٰ ذَواقِ الشيء الشديد المرارة، أو الشديد الحرارة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾: أي: فقبَضَ عليهُم العَذَابُ في حالة كَوْنِهِمْ ظالِمِين، متجاوزين حدُودَ الحقِّ والعدْلِ والخيْرِ والفضيلة، إلىٰ الْبَاطِلِ والجور والشرّ والرذيلَة.

* * *

الفصل الثالث
حولَ بيانِ حالِ الكفّارِ بمحمّد ﷺ من أهل مكة وهو فيهم يدعُوهُمْ إلى دين الله الحقّ

(١) جاء في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) بِشأنِ حَالِ كُفَّارِ مكّة قبلَ أَنْ يَبْعث اللّهُ إليهم رسُوله محمّداً ﷺ:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾: أي: غاية ما لَدَيْهِمْ من أيمَانٍ مؤكَّدَةٍ مُشَدَّدة.

جَهْدُ الشيء: يأتي في اللّغة بمعنىٰ غايتِه ونِهَايته. وبمعْنَىٰ وُسْعِهِ وطاقته. ويأتي الْجَهْدُ بمعنَىٰ المشقة.

- ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾: أي: ولا يُصِيبُ ولاَ يَنْزِلُ التَّدْبير السَّيِّئ ولاَ يُحِيطُ إلاَّ بأَهْلِهِ، المستحقِّينَ أَنْ يُصِيبَهُمْ، وهُمُ الكَفَرَةُ الظَّلَمَةُ الْمُفسِدُون.

دَلَّ هٰذا النَّصُّ على أنّ كُبَراءَ مُشْرِكي قُرَيشٍ، كانُوا يَقُولُون قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ مُقْسِمِين باللَّهِ أَبْلَغَ أَيْمَانِهِمْ وأَشَدَّهَا وأقْوَاها: لَئِنْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ من عِنْدَ الله، فبلَّغَهُمْ عن اللَّهِ، وَبَشَّرَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ، لَيَكُونُنَّ أَكْثَرَ هِدَايَةً من النَّصارى الّذِينَ جاءهم عيسَىٰ علَيْهِ السَّلام، أو مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ جاءهم موسَىٰ وَهارُونَ عليهما السّلام، بِحُسْنِ الْفَهم، وحُسْنِ الاتّبَاع، إذْ كانُوايَرَوْن تَفَوُّقَ الْيَهودِ وَالنَّصارَىٰ عليهم في الْهِدَايَةِ، بسَبَب الرُّسُل الّذِينَ بَعَثَهُمُ الله عزّ وجلَّ فيهم لهدايتهم، والكُتُب الَّتي أَنْزَلَهَا إلَيْهِم.

فلَمَّا بَعَثَ الله فيهم رسُولَهُ محمّداً ﷺ مَا زَادَهُمْ مَجِيئُهُ فيهم إلاَّ نُفُوراً من دين الله الحقّ، وتَمَسُّكاً بِشِرْكِهِمْ، وَجَاهِلِيّاتهم، ولم يَفُو بوُعُودِهم السَّابقة الّتِي كانوا يَقُولُونها، مفاخَرَةً بقَوْمِيَّتِهِمْ وأعراقهم، واسْتِعْدَاداتهم الفطريَّةِ، في مقابل شعورهم بتَفَوُّقِ أهْلِ الكِتَابِ عليهم، بسبب الرُّسُل الّذين أَرْسَلَهُمُ الله إليهم، والكُتب الّتي أنزَلَها عليهم، لاَ بسَبَب تميُّزهم الذَّاتِيّ عليهم.

ومن الملاحظ أنّ كُلَّ الَّذِينَ يَفْتَخرون بأعراقهم الْقَوْمِيَّةِ يقولُون مثلَ هذا القول، إذا رأَوْا غيرهم تفوَّقُوا عليهم بعِلْمٍ أوْ حَضارةٍ، بسَبَبٍ خارجٍ عن تميّزهم الذاتي بخصائص تكوينيَّة.

والسبب الّذي جعل كُبَراءَ مشركي مكةَ يَرْفضُون دعوة الرسول محمّد ﷺ وينْفِرونَ مِنها، يَرْجِعُ إلى باعِثَيْن نَفْسِيَّيْن:

الباعث الأول: الاسْتِكْبَارُ في الأرض، إذْ رأَوْا إيمانهم بالرَّسُولِ يُلْزِمُهُمْ باتّباعه، والخُضوع لقيادَتِه، وهذه قضيَّةٌ تتنافَىٰ مع مَشاعِرِ الاستكْبارِ في نفوسِهم.

الباعث الثاني: أنّ الإيمان بالرَّسُولِ وبما جاء به عن ربّه يمنَعُهُمْ مِنْ كثيرٍ من مصالحهم ومنافعهم المادّيَّة والنَّفْسِيَّة الّتي يحصُلُونَ عليها، باسْتخدامِ

أنواعٍ من المكر السَّيِّىءِ الّذي يَمْكرونه بجماهيرهم، وبغَيْرِهِمْ من الوافدين إليهم من شتَّىٰ قبائل الْعَرَب.

فالاسْتِكْبَارُ والمكْرُ السَّيِّىءُ هُما الأمران اللَّذَانِ جَعَلَاهم يَنفِرُون من دعوة الرسُول ﷺ.

وبما أنَّ المكْرَ السَّيِّىءَ لاَ يَحيقُ إلاَّ بأَهْلِهِ، بمقتضَىٰ سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إلاَّ أَنْ تَنزِلَ بهِمْ سُنَّةُ اللّهِ الّتِي أنزلَها بالكُفَّارِ السَّابقين في القرون السَّالفة، وهي سُنَّة التعْذِيب فالإهلاك الشامل، إذا وصَلَ القوْمُ إلى حالةٍ ميْؤوسٍ مِنْ صلاحِهم معَها عن طريق إراداتِهِمُ الحرَّة.

ولَنْ تجدَ لسُنَّةِ اللّهِ السَّابقةِ في تاريخ الناس تَبْدِيلاً لمَضْمُونها في المستقبل، ولَنْ تَجِدَ لَهَا تَحْوِيلاً عن مجراها.

(٢) وَجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بشأن كُبَراءِ مُشرِكي قُرَيشٍ أيضاً:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾:

- ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾: أي: إلَىٰ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ مَعْدُودَةِ الأجْزَاءِ عند الله.
- ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾: أي: لَيَقُولُنَّ على سَبِيلِ الاسْتِهْزَاءِ الدَّالِّ على إنكارهم نُذُرَ الْعَذَابِ: أيُّ شيْءٍ يمنَعُهُ عن أن يَنْزِلَ بِنا، وقَدْ بلَغنَا من دعوة محمَّدٍ أبلَغ الْجُحُودِ، وبلَغنَا من الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه الاضطهادَ، والعداءَ، والتَّهَيُّؤ للحرْبِ.
- ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: أي: تَنبيهٌ عامٌ، يَوْمَ يأتِيهِمُ العذابُ المقَدَّرُ لَهُ مُدَّةٌ زَمَنِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ، اقتَضَتهَا الحكْمَةُ البالغة، لَيسَ مَصْرُوفاً عَنهُمْ مُطْلَقاً مَهْمَا اتَّخَذُوا من وسائل.

- ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: وأصَابَهُمْ، وَنَزَلَ بهم العذابُ الَّذِي كانوا يسْتَهْزِئُون بالإنْذَاراتِ الَّتي كانت تُوَجَّهُ لَهُمْ بشأنه.

* * *

الفصل الرابع

حول ما جاء في القرآن بشأن مُستَقْبَل المجّمعاتِ التكنيّة وتوابعها في تاريخ البشريّة المستقبليّ

جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

أي: وَما مِنْ أهل قريَة من قُرَىٰ الناس في الأرْضِ يَظلِمُونَ، ويَسْتَحِقُّون بمقتضَىٰ سُنَّة الله الإهْلاَكَ أو التَّعْذِيبَ الشَّدِيد، إلاَّ نَحْنُ مُهْلِكوها إذا اسْتَحَقَّتِ الإهلاك، أو مُعَذِّبُوها إذا اسْتَحَقَّتِ العذاب دُونَ إهلاك.

وقَدْ يكونُ نَبأً عامًا شاملاً كُلَّ المجمَّعَاتِ السَّكَنِيَّةِ للناس في الأرض، ولِتَوابِعها. وإذا كان هذا هو المراد، فقد عَلِمَ الله جلَّ جَلالُهُ، أَنَّ الناس في كلّ مجمَّعَاتهم السَّكَنِيَّة وَلواحِقِها، سَيَفْسُدُونَ في الأرض فساداً يَسْتَحِقُّونَ عليه بمقتضَىٰ سُنَّتِه أَنْ يُهْلِكَهُمْ إهلاكاً شاملاً كما أَهْلَك كثيراً من كُفَّارِ أهل القرون السالفة، أو يَسْتَحِقُّون أَنْ يُعَذَّبُوا عذاباً شَدِيداً.

وهذه الحقيقة المستقبليَّة مَسْطُورَةٌ مَكْتُوبَةٌ في الكتاب عند الله جلَّ جلاله، وسَمَتْ حِكْمَتُهُ، وعظُمَ سلطانُه.

* * *

الفصل الخامس

حول تطبيق سُنَّة الله عزّ وجل في إهلاك الأمم إهلاكاً شاملاً مقروناً بتعذيبهم لِأَنَّهُمْ صَارُوا بُؤرَة فَسَادٍ وإفسادٍ، وأمّةً مَيؤُوساً من صلاحهم عن طريق إراداتِ أفرادها الحرَّة

(١) جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: وَعَدداً كثيراً مِنَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهَا جَزاء أنّها بَطِرَت مَعِيشَتَها والمراد أهْلُ هذه القرى.

﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ﴾: أي: بَطِرَتْ في معيشَتِها الّتي كانت فيها ذاتَ نِعَم كثيرة ورَخاءٍ وسَعَةٍ، والمرادُ الاستكبارُ بها، وجُحُودُ حقِّ المنْعِم الذي أَنْعَمَ بها عليها، فكفَرَتْ به، واستكْبَرَتْ عن الإيمان به وبِرَسُوله، وعن طَاعَتِه بفِعْلِ ما أمَرَ به، واجتناب ما نهىٰ عنه، فتمادتْ في ضلالها وفسادها، حتَّىٰ استحقت بحكْمَةِ اللَّهِ أن يُعَذِّبها، ويُهلِكَها إهلاكاً شاملاً، ففعل ذلك بها.

وجاء في هٰذِهِ الآيَةِ الكنايَةُ عَنْ إهْلاك أهل هذه القرىٰ، بالإشارة إلى مساكنهم الّتي لم تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً، وما جاء في هذا النصّ إهلاكٌ لم تُدَمَّرْ معَه الْقُرىٰ.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أي: لم نَجْعَلْ لمسَاكِنِهم خَلاَئِفَ يرِثُونَهَا، بَلْ صارَتْ لاَ مَالِكَ لَهَا مِنَ الناس، وانْكَشَفَ أنَّ مالِكَها هو الله الرَّبُّ خالِقُها، الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

(٢) وجاء في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في معرضِ خِطَابه لمُشِركي أهلِ مكة إبَّانَ التنزيل:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ويَا كُفَّارَ مكَّةَ قد أَهْلَكْنَا مَا حَوْلكم من أهْل الْقُرَىٰ، كَقَوْم هُودٍ، وقوم صالح، وقوم لُوطٍ، وقَوْم شُعَيْبٍ، لأنَّهم وصَلُوا في الكُفْرِ والعناد والفساد والإفساد إلى دَرَكَةٍ اسْتَحَقُّوا بها الإهْلاَكَ الشامل في الحياة الدُّنيا، قبل العذاب الخالد يوم الدِّين.

وكُنَّا قبل إهلاكهم صَرَّفْنَا الآيَاتِ، أي: نَوَّعْنَا في تقديم الآيات لهم، لنحاصِرَهُمْ بالأدلَّةِ من كُلّ جانب، فتتوافر لدَيْهم القناعَةُ بالحقّ، فيَسْتغْفِروا ويَتُوبوا إلى بارئهم، ويَرْجِعُوا إلى الَّذي ابْتَعَدُوا عَنْهُ بِشِرْكِيَّاتهم وجاهِلِيَّاتهم وضلاَلاَتهم.

- ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾:

أي: فَهلاَّ نَصرَهُمْ حِينَ وَجَّهَ اللَّهُ لهم أسْبَابَ العذابِ والإهلاك الشَّامل، الَّذينَ اتَّخَذُوهم آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَعَبَدُوهُمْ زاعِمِينَ أنَّهم بِعِبادَتِهِمْ يُقدِّمُونَ قُرْبَاناً إلى الله.

الْقُرْبان: كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِه إلى اللَّهِ مِنْ عبادة.

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾: أي: لم يَنْصُرُوهم، بلْ ضَاعُوا عنهم فلم يَجِدُوا لهم أثراً، أوْ لَمْ يَجِدُوا لهم نفعاً.

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: أي: وَذَلِكَ التعذيب والإهلاك، هو جزاء إفكِهِم المعجّل في الدنيا، وجزاءُ ما كانوا في رحلة امتحانهم يفْتَرون.

﴿إِفْكُهُمْ﴾: أي: كَذِبهمْ على الله.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: أي: وما كانوا يختلِقُونَ من ضلالاتٍ، ويَنْسُبُونَها إلى الدِّينِ ويَعْمَلُونَ بها.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، في مَعْرِضِ بيان اعْتِرَاض قَوْمه على بَشَرِّيته، وتَكْذِيبهم إيَّاه، وإتِّهَامِهم له بأنَّه افترىٰ القرآنَ من عِنْدِه ونسَبَهُ إلى الله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

- ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: فاسألوا أهلَ العِلْمِ مِنْ حُفَّاظِ تَاريخ الأُمَمِ السَّالِفَةِ: هَلْ كانَتْ أنبياؤُهُمْ ورُسُلُهُمْ إلاَّ رِجالاً من البشر. اصْطَفَاهُمْ الله من بين الناس بالوحي إليهم، وبَعَثَهُمْ إلى أقوامِهم لِيُبَلِّغُوا الناسَ ما أَنْزَلَ رَبُّهم إليهم.

وجاء استعمالُ «إنْ» في الشرط دون «إذا» للإشعار بأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقيقة فهم لا يحتاجون سؤال أهل الذكر، فإن الشرطية تُسْتَعمل كثيراً فيما هو غير واقع.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾: أي: وَمَا جَعَلْنَاهم كالملائكة، بَلْ هم بَشَرٌ يأكلون الطعام مثل سائر البشر.

- ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾: أي: بل ماتوا كما مَاتَ ويَمُوتُ سائر الناس، إذ الحياة الأولى لا خُلُودَ فيها لأحَدٍ.

• ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ إمْهالٍ لأقوامِ الرُّسُلِ، لِقَطْعِ كُلّ أعْذَارِهم الّتي يُمكِنُ أنْ يَعْتَذِرُوا بها، صَدَقْنا رُسُلَنا ما كُنّا وَعَدْنَاهُمْ إيّاه من النجاة من كلّ مكايِد مكَذِّبيهم من أقوامهم، ومِنْ تَعْذِيب وإهلاكِ المكذّبين الّذين أرادُوا بهم وبالَّذِين آمَنُوا بهم واتّبَعُوهم شرًّا وضُرًّا.

• ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾: أي: لَقد أنْزَلْنا إليكُمْ كتاباً هو القرآن الَّذِي يُبَلِّغُكُمْ إيّاهُ رسُولُنا مُحمّد.

وفي هذا الكتاب ذِكْرُكُمْ، أي: فيه شَرَفٌ لكُمْ لأنَّهُ نَزَلَ بلُغَتكم، فالخطابُ مُوجَّهٌ لمكذّبي الرَّسُولِ محمد ﷺ من قومه العَرب.

وفي هذا الكتاب ذِكْرُكُمْ، أي: ما يجب عليكُمْ أَنْ تَذْكُروه من شرائع وأحكام رَبّكم الّتِي اصطفاها لَكُمْ، والّتي ترتَبِطُ باتّباعها سعادتكم في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة. والخطابُ على هذا المعنىٰ مُوجَّهٌ لكلّ الناسِ من بَعْدِ بِعْثَةِ محمّد ﷺ.

أفلا تَعْقِلُونَ أهواءَكم وشهواتِكم بإرادةٍ عاقلةٍ حازمة، فَتَتَّبِعُونَ الحقَّ بِبَصِيرَةِ ذوي العَقْل العلميّ والعقل الإرادي، فلا تَنْزَلِقُوا إلى شقاوَتِكم، والعذاب الأليم الّذي أعْتَدَهُ الله جلّ جلالُهُ وعظُم سُلْطانُهُ للْمُجْرِمِينَ الظّالمين.

• ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾: أي: وعَدَداً كثيراً من الْقُرىٰ سَبَقَ في تاريخ الناس أنّنا قَصَمْنَا أَهْلَها الظّالمين، لأنّهم كذّبوا رُسُلَ رَبّهم وأجْرَمُوا.

﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي: من أهل قرية، وهذا الإطلاق هو من قبيل المجاز المرسل.

القصم في اللغة: الكَسْرُ، والمرادُ من كَسْرِ أَهْلِ القرى الظالمين، إهلاكُهُمْ بقُوّةٍ تَكْسِرُ وتُحَطِّمُ كلَّ قُواهم ودِفاعاتِهم وحُصُونهم.

● ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾: أي: فلمّا أحَسُّوا بحواسّهم الظّاهِرَةِ مُقَدِّماتِ إنْزالِ أسْبابِ العذاب والهلاك بهم.

البأس: العذاب.

● ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾: أي: فاجَؤوا برُدُودِ أفْعَالٍ سَرِيعَةٍ، يَبْتَغُون الفِرَار من مواطن تنزُّلِ أسباب تَعْذِيبهم وإهلاكهم، فجَعَلُوا يَرْكُضُونَ مِنْ جهة مساكِنِهِمْ إلى خارجها.

لكِنْ لا يَنْفَعُهم الفرارُ، فقد جعل الله وسَائِلَ تَعْذِيبهم وإهلاكهم تحيطُ بهم من كلّ جانب، وتحاصِرُهم حِصَاراً تاماً.

● ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

كان لسانُ حال كلّ جهةٍ يَرْكُضُونَ إليها يَقُولُ لهم: لا تَرْكُضُوا فَارِّينَ من نوازل أسْبابِ العذاب والهلاك، فقد أحاطَتْ هذه الأسْباب بكم من كلّ جانب، وارْجِعُوا إنْ كانت لكم قدرةٌ على الحركة، إلَىٰ ما أُتْرِفْتُمْ فيه من زينَةِ الحياة الدُّنيا، فَعَصَيْتُم الله به، واتَّخَذْتُمْ منْهُ وسائلَ لمُقَاوَمَة دَعْوَةِ رُسُل ربّكُمْ، واضطهاد الّذِينَ آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم، وارْجِعُوا إلى مساكِنكُمُ الّتي كنْتُمْ تتفاخرون بها، وتَحْتَمُون بِجُدْرانها وأسْوَارِها، لعلكُمْ تُسْأَلُونَ إنْ وَصَلْتُمْ إليها من قبل أهْلِكم عَنْ سَبَب هذا العذاب المهلِك الذي نزل بكم فأخَذْتُمْ مِنه تَفِرُّون مَذْعُورِين، أوْ تُسْأَلُونَ عن مساعدتهم بأسباب النجاة.

فإنْ سُئِلْتُمْ فستُجيبون بأنكم كنْتُمْ ظالمين، دلَّ على هذا ما يلي:

● ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: فَمَا زَالُوا يُرَدِّدُون قَوْلَهُمْ: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: نداء توجّع وتَحسُّرٍ وَنَدَمٍ بسبب ما نزل بهم من عذاب.

«وَيل» كَلِمة عذاب، وهي تُقال عند نُزول العذاب، وتقالُ عِنْدَ الإنْذار والتَّهْدِيد والوعيد به. ونداء هذا الويل نداءُ نَدمٍ وتَحَسُّرٍ وتَوجُّع.

إنّهمُ يُرَدِّدُون هٰذِهِ العِبَارة، معترفينَ بما كان منهم من ظلم، عالمين بأنَّ ما نزلَ بهم من عذاب الله المهْلِكِ، إنّما هو بسبب ظلمهم، طامعين بأنْ يخفّفَ اللّهُ عنهم.

وتوالَتْ عليهم ضربَاتُ عذَابِ اللّهِ المهلِكِ، حتَّىٰ جعَلَهُمْ رَبُّهُمْ كحصِيد الزَّرْع، هَلْكَىٰ خامِدِينَ، لا حركة لهم، ولا حَرَارَة فيهم.

لَقَدْ خَمَدُوا كما تَخْمُدُ النارُ فتصير رماداً.

لم يَنْفَعهُم اعترافُهم بظُلْمِهِمْ حينئذٍ، لأنَّهُ قد انتهىٰ دَوْرُ الابتلاء منذ بَدْءِ نزول العذاب بهم، وجاءَتْ مَرْحَلَةُ مُقدّماتِ الجزاء.

(٤) وَجاء في سورة (محمّد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمَّدٍ ﷺ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَكَأَيِّن﴾: كلمة مُبْهمة تَدُلُّ على تكثير العدد، ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييزٌ مجرور بـ «مِنْ».

أي: يا مُحَمّد، وعدداً كثيراً من الْقرىٰ (أي: من أهلها) هي أشَدُّ قوة من قريتك (وهي مكة) الّتي أخرَجَكَ أهْلُها، أهْلَكْنَاهم لأنّهم كذّبوا رُسُلَ ربّهم، وعَصَوْهم، وأكْثَرُوا في الأرض الفساد، وحين أهلكْنَاهُمْ ما كان لَهُمْ ناصِرٌ يَدْفَعُ أو يَرْفَعُ عنهم عذابنا.

لَقَدْ زُيِّنَ لهم قبل تعذيبهم سُوءُ عَمَلِهم، إذْ كان يحقّقُ لهم ما يَهْوَوْنَ ويَشْتَهُونَ، واتَّبَعُوا أهواءَهم الّتي انْحدَرَتْ بهم إلى حضيض الكُفْرِ والفساد

والبغي والطغيان، فجلب ذلك لهم نِقْمَةَ الله، فأنْزَلَ بهم العذابَ والإهْلاَكَ الشاملين.

وفي هذا النصّ طمأنَةٌ للرسول والذين آمنوا به واتَّبَعُوه، بأن الله جلَّ جلاله سينصُرُهم، وفيه إنْذَارٌ ضِمْنِيٌّ لكُفَّارِ أهْلِ مَكّة، بأنهم إذا أصَرُّوا على كفرهم فإنه سَيَحُلُّ بهم نَظِيرُ الذي حلَّ بالقرىٰ الكافرة من قبلهم.

(٥) وَجاء في سورة (الطّلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ . . . ﴿١٠﴾﴾:

- ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾: أي: طَغَتْ واسْتَكْبَرَت مُتجاوِزَةً أَمْرَ رَبِّها بالمخالفة والعِصْيان، ومتجاوزة أوامِرَ رُسُلِ رَبّها.

- ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ على ما كان منها من ظُلْمٍ وعُتُوّ، وقَدَّرْنا وقَضَيْنا أن نُعذِّبها ونُهْلِكَها.

- ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾: أي: وعذَّبناها عَذَاباً شَدِيداً صَعْباً.

النُّكْرُ والنُّكُرُ: في اللُّغَة، الشّدِيدُ الصَّعْب.

- ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾: أي: فَأَحَسَّتْ بآلاَمِ سُوءِ عاقِبَةِ أَمْرِها في الكُفْرِ والْعُتُوّ عَنْ أَمْرِ رَبّها وأوامِرِ رُسله.

- ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾: أي: وَكَانَ عاقِبةُ أَمْرِها في الكُفْر والْعُتُوّ خُسْراً لكلِّ شيء، إذْ خَسِرَتْ أنْفُسَها وَكُلَّ ما كانت تَمْلِكُ.

- ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾: أي: ولا يَقْتَصِر العذابُ على الّذي نزل بهم في الحياةِ الدنيا الذي تمّ به هلاكهم، فقد أعَدَّ اللَّهُ لهم عذاباً شدِيداً سوف يذوقُون آلامَه في جهنّم يوم الدّين.

(٦) وَجاء في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) قولُ اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾:

- ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: أي: فكثيرٌ من أُمَمِ قُرىً أهلكناها حالة كَوْنها ظالمة.

- ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي: فالْقَرْيَةُ المهْلَكُ أَهْلُهَا خاليَةٌ من ساكِنين فيها. يقال لغة: خَوىٰ المكان يَخْوِي، أي: خَلاَ.

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: تُطلَقُ الْعُرُوش على السُّقُوف، وعَلىٰ كُلِّ ما يُظَلِّلُ، والجارُ والمجرور متعلقان بمَحْذُوف قدَّرَهُ المفسِّرُونَ: «سَاقِطَةٌ» أي: فهي ساقِطَةٌ على عُرُوشِها، أخذاً من واقع حال كثير من الْقُرىٰ الَّتي أَهْلَكَ الله مَنْ كَانَ يَسْكُنَها من الظالِمين.

أقول: وَيُمْكِنُ تَقْدِير «بَاقِيَةٌ» إِذْ تُوجدُ قُرىً أهْلَكَ اللَّهُ أَهلَها وسُقُوفُهَا باقِيَةٌ لم تتهدّم ولم تَسْقُطْ، وهي خَاوِيَةَ من السَّاكنين، وهذا المعنى يلائم وصْفَها بالخاوية، لأنَّ سُقُوفها لو كانت سَاقطةً مُتهَدِّمةً لأغنَىٰ ذكر سُقُوطِها عن ذكْرِ خَوائِها، فالبيوتُ التي تَهَدَّمَتْ سُقُوفُها لا تُسْكَنُ من الناس.

ويلائم أيضاً ذِكَر بِئْرٍ مُعطَّلَةٍ، وذِكْرَ قَصْرٍ مَشِيدٍ.

- ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾: أي: مُهْمَلَةٍ مَتْرُوكَةٍ، لاَ يَسْتَقِي مِنْها الْوَارِدُون، مع صَلاحها للوُرُود منها.

- ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: أي: وقَصْرٍ رَفيعِ البناءِ مَطْلِيٍّ بالشِّيد. **الشِّيدُ**: كُلّ مَا يُطْلَىٰ بِهِ البناء من جصّ ونَحْوِه.

وقد كانت هذه الآثَارُ مَوْجُودَةً بِكَثْرَةٍ إبَّان التنزيل، والنصّ هنا يَتَحدَّث عَنْ أُمَمٍ أهْلِكَتْ إهلاَكاً شاملاً، دُون أن تُدَمَّرَ مساكِنَهُمْ تَدْمِيراً شاملاً، بل بقيت فيها بقايا.

- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أَلَزِمَ مُكَذِّبُوكَ يا محمّد مواطِنَ إقامتهم فلم يسيروا في الأرض فيَرَوْا آثار المهلكين السابقين ليَتَّعَظُوا بها، أمْ سَارُوا في الأرض ورأوْها ولكن رأوْها رؤيةً غَيْرَ ذاتِ أثَرٍ واعظٍ في قلوبهم، لأنّ قُلوبَهُمْ مُصَابَةٌ بعمًى يمنعها من إدراك حقائق دلالاتِ الأشياء:

- ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾: أي: فتكُونَ لَهُمْ بمشاهدة آثارِ السَّابِقين أعمالٌ في أجهزة التفْكِيرِ والفَهم لَدَيْهِم الَّتِي هي في دَاخِلِهم، يَعْقِلُونَ بها عَقْلاً عِلْمِيًا فيُدْرِكُونَ سُنَنَ اللَّهِ في عباده، ويَعْقِلُونَ بإراداتهم الّتي هي فيها، نفوسَهُمْ وأهواءَهم وشهواتِهم عن الإنزلاَقِ إلى المهالِكِ الّتي تُزْلِقُ إليها المعاصِي والذُّنُوبُ والآثام، وأخْبَثُها الكُفْرُ والشِّرْكُ بالله.

- ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ مِنْ تَالِي كتاب الله آياتِهِ المنزّلاَت، فيتَدَبَّرُونَها ويَهْتَدُونَ بِهَدْيها.

وتكُونَ لَهُمْ أبْصَارٌ يَرَوْنَ بها آياتِ الله فِي كوْنِهِ المدهِشِ، رُؤْيَةَ بَاحِثِين متدبِّرين مُهْتَدِينَ إلَىٰ الحق، لاَ رُؤْيَةَ مُسْتَمْتَعِين بالظَّواهر، غافلين عن البواطن ودَلاَلاتها، فَمَنْ يَكْتَفِي بِالاسْتِمتَاع بالظواهر، فَإنّ قَلْبَهُ المدْرِكَ الّذِي به يَفْهَمُ حقائق الأشياء وبواطنها قَلْبٌ أعْمَىٰ، لا يَرَىٰ الْحَقّ.

- ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: أي: لاَ تَعْمَىٰ الأبْصَار عَنْ إدْراك بَوَاطِنِ الآياتِ وحقَائِقها، لأنّها لا تَمْلِكُ بِفِطْرَتِها هٰذه القُدْراتِ الإدْرَاكيَّة.

- ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾: أي: ولَكِنْ تَعمَىٰ عَنْ إدْراك

دَلَالات آيات الله في كونه، أجْهِزَةُ الإدراك في الْقُلُوب الّتي في الصُّدُور، والْمُرَادُ بالْقُلُوب مَرَاكِزُ التفكِيرِ في الناس، والمرادُ بالصُّدُور مَا في داخلها في عُمْقِ المراكِزِ الإدْرَاكِيّة. هٰذِه هي الّتِي تَعْمَىٰ، إذْ تَمْلِكُ الْقُدْرَاتِ التفكيريَّةَ الإدْرَاكيَّة، في أَصْل فِطْرَتها الرَّبَّانِيَّة، ولَكِنَّ الأَهْوَاء والشهواتِ ورَغَبَاتِ الاستمتاع بمتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا تُغَشِّي عليها، فَتُعْمِيها.

● ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾: أي: وَيَسْتعجلُكَ يا مُحَمَّدُ الّذين كَذَّبُوك بتحقيق ما أنْذَرْتَهُمْ به من عَذَاب الله بلاغاً عَنَّا.

وظاهِرٌ أنّهم لا يَطْلُبُونَ نزولَ العذاب بهم، ولكنَّهم يَتَحَدَّوْنَه تَحَدِّي المكذّب له. أي: إنَّ ما كُنْتَ تُبَلّغُنا إيّاه من الإنْذَارِ بعذاب من الله معجَّل، قَدْ كان تَبْلِيغاً كاذباً تفتريه على رَبّك، ولهذا جاء في النصّ ما يلي:

● ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾: أي: ولا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ في المستقبل مَا وعَدَ اللّهُ به، وبلَّغَهُ رَسُولُه، ولَكِنَّ حِسَابَ الزَّمَنِ في مقاديرِ اللّهِ غيْرُ حِسَابِ النّاسِ للزّمَن، فالناسُ يَسْتَبْطِئُونَ وُقُوعَ الموعُودِ به، بحسب الأيّام الّتي يَعُدُّونها، أمّا اللّهُ جَلَّ جلالُهُ وعظم سُلطانه فتَقدير الزمن بالنسبة إلى أفعاله في كَوْنه كما يلي:

● ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: فإذَا وَعَدَ الله أَنْ يُحْدِثَ أَمْراً بعْد ساعة من حساب زمَنِهِ لمقاديره، فإنّ هذه السَّاعَة تعادل أكثر من أربعين سَنَة في حساب الناس لأيّامهم. والله جلّ جلالُهُ حَلِيمٌ صَبُور، يُمْلِي لعبادِه، ولا يَعْجَلُ بتَعذِيبهم وإهلاكهم، ليعطيَهُمْ أطْوَلَ مُدَّةٍ يُرَاجِعُون فيها أنفسهم، رَغْبَةً في أن يَسْتغفروا ويتوبوا، ويكونوا من أهْلِ النجاة، وليقْطَعَ فِيهَا كُلَّ أعْذَارِهم الّتي يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بها.

لكِنَّ إمْهَاله جلَّ جلالَهُ إذا أَخَذَ مَداه الأَقْصَىٰ، دون أنْ يَرْجِعَ عباده الظالمُون عَنْ ظُلْمهم، فإنَّهُ يُنْزِلُ بهم العذابَ والإهْلَاك، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ

إليه يَوْم الدِّين، للحسَابِ وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، وقد جاء بيانُ هذا فيما يلي:

- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾: أي: طَوَّلْتُ مُدَّةَ إمْهَالها.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾: أي: ثُمَّ قَبَضْتُ عليها بيدِ العذاب والإهْلاك.

﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: وإليَّ مُنْتهاهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ.

والحمد لله على مَعُونتِه وَتَوْفيقه

* * *

(٢٤)

الملحق الثامن

حول رغبة الكافر أن يقْضي الله له باستئناف رِحلة امتحانه حتى تمنيه أن يكون تراباً

جاء في القرآن المجيد عشَرَةُ نصوص، تبيّن رغبة الكافر في أنْ يُسْمَحَ له باستئناف رحلة امتحانه منذ اللحظة التي يلْمَسُ فيها عتبة الموت، ويَنْكِشفُ له شيءٌ من أحوال ما بَعْدَ الموت، وتَسْتَمِرُّ هذه الرغْبَةُ تتجدّد لَدَيْهِ في المواقف حتى خُلُوده في عذاب النار، ويأسه، ومُطَالَبتِه بأن يقضي الله عليه بالموت النهائي، وتمنّيه أن يكون تراباً.

وفي بَعْضِ هٰذِه المواقف يسْأل رَبَّهُ أن يُرْجعَهُ إلى الحياة الدُّنيا ليَعْمَلُ صالحاً فيُرْفَضُ طلَبُه، وفي بعضَها يُعْلِنُ تمنِّيَه ذلك، وفي دارِ العذاب يجْتَمِع مع الخالدين فيها، فيُنادُون نداءَ جماعيًا داعِينَ: رَبَّنا أخْرِجْنا نعمل صالحاً، فلا يُسْتَجابُ لهم، وفي بعضها يَسْألُونَ باسْتِعطَافِ خَزَنَةَ جَهَنَّم ليتوسّطوا لهم عند ربّهم داعين أن يُخَفِّفَ اللَّهُ عنهم يوماً من العذاب، وفي بعْضها يُنَادُونَ

مالكاً كبير خَزَنَةِ دَارِ العذاب، يطْلُبُون منه أنْ يَقْضِيَ الله عليهم بالموت، فيقول لهم: إنكم ماكِثُون، وأخيرا يتمنَّون أن يكونوا تراباً.

ولدَىٰ تدبُّر هذه النُّصُوص بعُمْقٍ، لِفَهْم دَلاَلاَتِها، تبيَّنَ أنَّها متكاملةٌ فيما بينها، ولا يُوجَدُ نصٌّ واحِدٌ مِنْها مُطابقاً لأيِّ نصٍّ آخر، وتبيَّن أنّها تُعَبِّرُ عَنْ مَوَاقِفَ عشَرَة، لا عَنْ مَوْقفٍ واحِدٍ، وأنَّها تكون في عشر مراحِلٍ.

الموقف الأوّل

ما يكونُ منه عندَ الموت

قال الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن الكافرين الظالمين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

دلّ هذه النصّ على أنّ الكافر الظالم إذا لاَمَسَ عتبة الموت، وانكَشَفَتْ لنَفْسِه بعض مصايره في الآخرة، وبدأت الملائكة المأمورون بتعذيبه يضربُون وجْهَهُ ودُبُرَهُ، يسْأَلُ رَبَّه بِذُلٍّ وانكِسَارٍ مُسْتَجْدِياً بِتَعبير فيه تعظيم للرّبّ جلّ جلاله، قائِلاً: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ في الحياة الدنيا، أي: مما كان يملُك التصرف به فيها.

لقد كان في حياته كافراً بربّه، جاحداً حقَّ رُبوبيّته، مستنكِفاً عن عبادته وحْدَه لا شريك له، مُكَذِّباً رَسُوله، ومُكذّباً بما جاء به عن رَبّه، ومكذباً بالجزاء وبيوم الدّين.

إنّه لا يَدْعُو بهذا الدُّعاء ما لم يكن قد رأىٰ بعض مشاهِدَ من عالم الآخرة، وكُشِفَ لَهُ عَنْ نُزُلِه من النار، وذاقت نفسه بعْض عذاب هو من

مقدّماتِ عذاب يوم الدين، مما يكون في البَرزَخ الفاصل بين الحياة الدنيا وبيْنَ الْبَعْث.

ودُعاؤه بهذا الدُّعاء يَدُلُّ على وجودِ أَمَلٍ لدَيْهِ باحتمالِ استجابة طلبه، لكنّ الجواب الرَّبّانيَّ قد دلَّ عليه قول الله تعالى:

- ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

﴿كَلَّآ﴾: أداةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ تُنْبِيءُ عن رَفض طلبه، فقد استوفَىٰ زمَنَ ابتلائه الّذي مُنِحَ فيه الإمْهال الكافي، طَوالَ عُمْرٍ كان يكفيه منه دقائق قبل أن يُلاَمِسَ عتبَةَ الموت، يُعْلِنُ فيها إيمانه بربّه وإسلامه له، على وجْهٍ يَحْمِيهِ من الخلود في عذاب النار، لكنّه لم يفعل.

- ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ هي كلمة دعائه: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الحياة الدّنيا مما كنتُ أستطيع أن أعملَ به صالحاً إذْ جَعَلْتَ يا رَبّ لي عليه سلطاناً، وفي عبَارة: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ استعمالُ ضمير المخاطب العظيم تذلُّلاً واستعطّافاً.

والمرادُ بكَوْنها كَلِمَةً هُو قائِلُها، أنّهُ غَيْرُ مأْذُون له بأن يَدْعُوَ بها، لسَبْقِ القضاء الرَّبَّانيّ بأَن لا يُسْتَجابَ له، إنّ أَبْواب الاستجابة مؤصدةٌ قُبالَتَهُ بعد انتهاء رحلة امتحانه، فكلمة دُعائه مَرْدُودَةٌ عليه بموته وهو على كُفْرِه وظُلْمِه، وهي حَبِيسَةٌ في مُحِيط نفسه لا سريانَ لها.

بخلاف دعاء الداعي وهو مأذونٌ له من رَبّه بأنْ يَدْعو، فإنّ كَلِمَةَ دُعَائِه مَجْذُوبَة إلى الله بجاذِب استقبالٍ من رحمته، إذْ قال لعباده وهم في رحلة ابتلائهم: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فكَلِمَةُ الداعي وهو في هٰذه الحالة لا تكون كَلِمتَهُ وَحْدَه، بل هي كَلِمَةٌ مَجْذُوبَةٌ إلى الاستجابة بكَلِمَةِ الله.

- ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: ويُوجَدُ من ورائهم وهو زَمَنُ المستقبل، فَاصِلٌ يفْصِلُ مَا بَيْنَ آخر الحياة الدُّنيا، وأوّل الحياة الأخرى، الّتي تبدأ عند البعث.

- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: النفخة الَّتي يكون بها بَعْثُ الموتَىٰ، إلى الحياة الأُخْرَىٰ.

- ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي: فلا أنسابَ نافِعةٌ لهم يؤمئذٍ، إذْ لا يستَطِيع أنْ يَنصُرَ قَرِيبٌ قريباً، ولا حَمِيمٌ حَمِيماً، ولاَ يسْأَلُ أَحَدٌ أحداً قائلاً له انصُرني بحَقّ الرَّحِم، إذْ لا يَسْتَطِيع أحَدٌ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَنْصُرَ أحداً.

يومَئِذٍ يَفِرُّ المرءُ من أخيه، وأُمِّه وأبيه، وصاحبتِه وبَنِيهِ، لكل امْرىء منهم يومَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه.

* * *

الموقف الثاني
ما يكونُ من الكافرين
في موقف الحشر بغد البعث عند حساب ربّهم لهم

قال الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وصف الله الكافرين الظالمين بأنّهم المجرون، أي: المستحقّون للخُلُودِ في عذاب جهنم، وأبَانَ في هٰذِهِ الآية حالَتَهُم حينما يكونون في موقف أَوْ أكثر من مواقف الحشْرِ، وأشدُّها ما يكُونُ عِنْد حسَابهم بين يَدي رَبّهم.

- أما حالَتُهم الْجَسَدِيةُ فَهُمْ ناكِسُو رُؤُوسهم، أي: مُطأطئو رؤوسهم ذُلاً وانكسارا وخضوعاً عنْدَ رَبّهم.

- وأمّا حَالَةُ تَعْبِيرَاتِهم بألْسِنَتِهِمْ، الدَّالَّةِ على رَغباتِ أَنْفُسِهِم الذَّلِيلَةِ

المنكَسِرَة، النادِمَة علىٰ مَا أَسْلَفَتْ من جرائم في رِحلة الحياة الدُّنيا، رِحْلَةِ الامتحان، فقد دلَّ عليها دُعاؤهم التالي:

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾.

أي: يا ربَّنا أبصَرنا الْيَوْم بأَعْيُنِنا، وسَمِعْنَا بآذانِنا، ما كُنَّا نَكَذِّبُ بِهِ في الحياة الدنيا، حينَما كان خَبَراً، جاء علَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ، ونَزَلَت به آياتُ كتُبِك، فَنَحْنُ اليومَ مُوقِنُونَ بكلِّ ما بَعَثْتَ به رُسُلَك، وبكلِّ ما أنزلْتَهُ فِي كتُبِكَ، فارْجِعْنَا إلَىٰ مِثْلِ الحياة الدّنيا، حياةِ الامتحان، فإنَّنَا نُعْطِيكَ يا رَبَّنَا عَهْداً بأنْ نَعْمَلَ صالحاً، بَعْدَ أَنْ صِرْنَا مُوقنين، إذْ صَارَ مَا كان خَبَراً عن غَيْبٍ أمْراً مشْهُوداً، رأيْنَاهُ بأَعْيُنِنَا وسمعناهُ بآذاننا.

اليقين: هو العلم الذي لا شكَّ فيه، مُوقِنٌ: اسم فاعل من فعل أيقن، أي: عَلِمَ الشيْءَ عِلْماً كامِلاً لا يخالطُه شكٌّ.

ولكن ما قيمة اليقين بَعْد الشهود الحسّيّ، في قضيّةٍ من قضايا الإيمان بالغيب الواجب، بالاستنادِ إلى براهين العقل وأدِلّته، وهذا الإيمانُ هو قاعدة الامتحان الكبرىٰ، في رحْلَة الحياة الدنيا.

لقَدْ سَقَطُوا في سَحِيق الكُفْر والجحود، عند عقبة الإيمان بالغيب، رافِضين البراهين العقليَّة، والحُجَجَ الدَّامغَة، ومُتَعَلِّلينَ بأنّ ما جاء به الدّين عن اللّهِ وصِفَاتِه، وعن اليوم الآخر، أمُورٌ غيبيَّة غَيْرُ مشهودَةٍ بحواسِّهم، فهم لا يُؤْمِنُون بها، لذلك فهم لا يَعْمَلُونَ بمقتضاها.

إنّ هَـٰذا اليقينَ بَعْدَ الشُّهُودِ الحسّيّ لاَ يَنْفَعُهُمْ عند رَبّهم بِشَيْءٍ لأمْرَين:

الأمر الأول: أنّ المطلُوبَ منْهُمْ في امتحانهم أَنْ يُؤْمِنُوا بالغيب.

الأمر الثاني: أنَّ مُدَّةَ امْتحِانهم قد انتهت بموتهم، وقد سقَطُوا في هذا الامْتِحان، واسْتَحقُّوا الخلُودَ في عَذَاب النار.

على أنّ الله ـ جلّت حِكْمتُه ـ لو استجاب لطَلَبهم باستئناف رحْلَةِ امتِحانهم، فإنّه لنْ يُعيدَهم إلاّ بَعْدَ أَنْ يَمْسَحَ مِنْ ذاكراتهم كُلَّ ما شَهِدُوه، ممَّا هو مطلوبٌ منهم أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ إيماناً غيْبيًّا، وعنْدَئذٍ يَعُودُون إلى مِثْلِ ما كانوا عليه في الحياة الدّنيا، وسيَكْفُرون كما كَفَرُوا في الامتحان السّابق، وسيَجْحَدُون كما جَحَدوا فيه، وسيكونون مجرمين كما سَبق أَنْ كانوا مجرمين، فإرْجاعُهُمْ ليَعْمَلُوا صالحاً لن يُفِيدَهُمْ شيئاً، إذْ لاَ يتغَيَّرُ من حال نفوسهم شيءٌ، لقد أعطاهم الله عزَّ وجلَّ في الحياة الدُّنيا إمْهَالاً ليؤْمِنُوا، وليكْسِبُوا فِي إيمانِهم خيراً ما، بِعَدَدِ سَاعَاتِ عُمُرِهم، فلَمْ يفعَلُوا.

﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ من فعل «رَجَعَهُ» المجرّد ـ ويقال في اللّغة أيضاً «أَرْجَعَهُ» ويأتي لازماً، فيقالُ: رَجَعَ المسافِرُ من سَفَرِه.

* * *

الموقف الثالث

ما يكونُ من الكافرين حين يَرَوْنَ العذابَ شهوداً بَصَرِيًّا بِعَرْضٍ سَرِيع

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

هٰذا النصُّ يُعَبِّر عن مَوْقِفٍ من مواقف الكُفَّار الظَّالِمين، الذين قَضىٰ الله عليهم بالخلُودِ في عذاب النار يوْمَ القيامة، وهو موقِفُ عرضهم عَرْضاً مُرُورِيًّا على النار دارِ تَعْذِيبهم المعدَّةِ لخُلُودِهم فيها، وقبل إيقافِهم على أبوابها تمهيداً لكَبْكَبَتِهِمْ في هَاوِيَتها، إذْ يَرَوْنَ ما فيها من هَوْلِ مَا سيُلاَقُونَهُ من عذابٍ، في عَرْضٍ سريعٍ.

إنَّهُمْ في هٰذا الموقف يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، أو يسألُون الملائكة القائمين على حشرهم وسَوْقهم وعَرْضِهِمْ على دار عذابهم، قائلين: هل إلى مَرَدٍ إلَىٰ الحياة الدّنيا من سبيلٍ، حتَّىٰ نَعْمَلَ صَالحاً، غَيْرَ الْعَمَلِ الفاسِدِ الّذِي كُنَّا نَعْمَلُ حين كُنَّا فِي حَيَاةِ الامتحان؟

إنَّهم يَطْرَحُونَ هذا السؤال على سبيل التَّمَنِّي، إذْ سَبَقَ أنْ رُفِضَ طَلَبُهُمْ مَرَّتَيْن: مَرَّةً عِنْدَ الموت، وأُخْرَىٰ وهم في موقف أو أكثر من مواقف الحشر نَاكِسُو رُؤوسهم عِنْدَ حِسَابِ ربْهم لهم.

وتَسَاؤلهم هذا يُشْعِرُ بأنّ أمَلَهُمْ باستئناف رِحْلَة امتحانهم لم ينقطع بَعْدُ.

● ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: أي: وتَرَىٰ يا مَنْ يَشْهَدُ الظَّالِمِينَ، مِنْ دَرَكَةِ ظُلْم الكُفر، حين يُدْنَون من دار العذاب النار، ويُعَرَضُون عرضاً سريعاً عَلَيْها لِيَشْهَدُوا قبْلَ إيقافهم عند أبوابها، ما سيُلاقونَ فيها مِنْ عذابٍ شدِيدٍ، بِالْحَريق وغَيْرِه من مُعَذِّبَاتٍ مؤلِمَاتٍ.

المرادُ بالظالمين هنا الكافِرُون المجْرِمُون المحكومُ عليهم بالخلود في دار العذاب، إذْ هم الذين يتَمنَّوْنَ اسْتِئْنَافَ رحْلَةِ امتحانهم ليؤمِنُوا ويَعْمَلُوا صالحاً، فـ (ال) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هي الدالَّةُ على بُلوغهم الطبَقَةَ السفلىٰ في الظلم الكامل.

﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: أي: لمَّا رَأَوْا دَارَ العذاب، ولَمَحُوا مَا فيها من أهوالٍ ذاتِ تَعْذِيب شديد، لمَنْ هم من أصحابها الملازِمِين لها. حُذِفَ المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه على طريقة المجاز المرسل.

العذاب: اسم للعقاب وللنَّكال، وهو كلُّ ما فيه إيلامٌ عِقَاباً عَلَى ذَنْب، ولفظ «عذاب» اسم لمصْدَرِ «عَذَّبَ يُعَذِّبُ تَعْذِيباً».

والمرادُ بالرُّؤيَةِ الرُّؤيَةُ البَصَرِيَّة، لأنَّهم يكونون عند عرضهم السريع

على دار عذابهم مُبْصِرِين، بخلاف حالِهِم عند حَشْرِهِمْ إذْ يكونون حينئذٍ عمياناً.

● ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؟ أي: يقولونَ مقالَةَ سائلٍ مُسْتَفْهِمٍ، يتمنَّىٰ أن يُقْضَىٰ له باسْتِئْنافِ حياةِ الامتحان: هَلْ لنا مِنْ سبيل يوصل إلى تحقيق هٰذه الأمْنِيَّة.

﴿مَرَدٍّ﴾: أي: مَرْجِعٍ إلى الحياة الأولى لإعادة الامتحان، وهو مَصْدرٌ ميمي من: «رَدَّهُ يَرُدُّهُ رَدّاً» بمعْنَىٰ: «أَرْجَعَهُ».

﴿مِّن سَبِيلٍ﴾: «مِنْ» حرف جرٍّ زيد لتنصِيصٍ على التعْمِيم، أي: هلْ يُوجدُ سبيلٌ ما نسلُكُهُ لإرْجاعنا إلى الحياة الدُّنيا، كي نستأنف امْتِحانَنا، فنعملَ صالحاً غير الذي كُنَّا نعمل.

● ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾: أي: وتَرَىٰ أيُّها المشاهِدُ لهؤلاء الظالمين، حينَ عَرْضِهِمْ على دَارِ عذابهم، كيْف يكون حالُهُمْ خاشِعِينَ من الذّلّ.

الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ يَعُودُ علَىٰ المضاف المحذوف قبل كلمة العذاب، وهي كلمة «دار» إذِ الكلامُ على تقدير: لمَّا رَأَوْا دار العذاب.

الْخُشُوع: هو الخضوع، والْخَوْف، والسُّكون. والخشُوعُ في الْبَصَر، الانكسارُ والنَّظَر إلى الأرض من الذِّلَّةِ.

﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾: الذُّلُّ، الضَّعْفُ والْهوان.

أي: يُعْرضون عرضاً دونَ وقوف على دار العذاب النّار، لِيَشْهَدُوا ما فيها من أهوالِ ذاتِ تَعْذِيبٍ شَدِيد، دون أنْ يوقَفُوا عنْد أبوابها، هُمْ وسائر أصحابها من الجنّ والإنْس الذين سيَخْلُدونَ فيها، فيكونُونَ خاشعين، أي: خاضعِين، خائِفين، سَاكِنِين، منكَسِرَةً أبْصارُهم يَنْظُرُون إلى الأرض نظر الضعيف الْمُهَانِ المحتقر.

وجاء قَيْدُ ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ لبَيَانِ أَنَّ خُشُوعَهم لَيْسَ خُشُوعَ العابِدِ لرَبِّه، المعتزِّ بعبودِيَّتِه له، بل هو خُشُوعٌ من الذُّلِّ والمهانَةِ والصَّغار، والشُّعُورِ بثِقَلِ الْجُرْمِ الّذي جَنَىٰ به على نفسه، فكَانَ سبباً في الحكم عليه بأنَّه من الخالدين في عذاب النار.

- ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: أي: يَنْظُرُون إلى ما في دار العذاب الّتي ستكون مصيرَهُمْ، من أهوالِ شديدَةِ التعذيب للذين يَدْخُلونَ فيها. ولكنَّهُمْ لاَ ينظرُونَ إليها بمِلْءِ عُيُونِهِمْ، بل: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ذُعراً وخَوْفاً فيَقْتَصِرُونَ على بَعْضِ النظر مُنْكَسِرِينَ أَذِلاَّء خزايَا نَادِمين.

الطَّرْفُ: تَحْرِيكُ الجفن، ويُطْلَقُ أيضاً على الْعَيْن. ومن شَأْنِ من كانَ خاشِعَ الْبَصرِ مُنْكَسِرَهُ أن يَنْظُرَ إلى الأرض من الذِّلة والْمَهانة، إذا أَرَادَ أَنْ يَرَىٰ شيْئاً يقَعُ قُبالَتَهُ دُونَ أَنْ يُمْعِن النظر إلَيْه، خَوْفاً، أوْ إخفاءً لرُؤْيَتِه له، فإنَّه يُحَرِّكُ جَفْنَه بسُرْعَة، ويُعِيدُهُ إلى ما كان عليه من انْكِسَارِ فَوْراً، فتَخْفَىٰ حَرَكَةُ جَفْنِه على مَنْ يُراقِبُهُ، حتَّىٰ يَظُنَّ أنَّه لم يَرَ ذَلِك الشيء.

هٰذا هو الطَّرْف الْخَفِيُّ، أي: الرُّؤيَةُ الخفيَّة، النَّاتِجَةُ عن تَحْرِيكِ الْجَفْنِ بسُرْعة.

و﴿مِن﴾ في عبارة ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: هي فيما أرىٰ بمَعْنى: مِنْ بَعْضِ طَرْفٍ خَفِيّ، وهذا يَدُلُّ على أنهم لا يفتحون جُفُونَهم لدىٰ تحرِيكها لاسْتِراقِ النَّظَرِ فَتْحاً واسعاً.

التبعيض: من معاني حرف «مِنْ» الذي هو أحد حروف الجرّ.

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

أي: وحِينَ يَشْهَدُ المؤمِنُونَ أصحابُ الجنَّةِ يَوْمَ الدِّين، أحْوَالَ الظالِمين المجرمين، الخالدين في عذاب الجحيم، يتّضحُ لهم بالشهود

الحسّي خَسَارَةُ هؤلاء من الدَّرَكَة السُّفلَىٰ، ويَرَوْنَ أنَّ خَسَارَتَهُمْ هِيَ الخَسَارَةُ الكامِلَة، إذْ خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ فألْقَوْها بجرائمهم في عَذَابِ الجَحِيم الْخَالِدِ، وهَذَا أعْظَمُ الْخُسْرَان، وخَسِرُوا الأنْسَ بأهْلِيهم ممَّنْ فَارقوا بَعْدَ رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، فلا لِقَاءَ بَيْنَهُمْ يوم الدين، إذِ الأَخِلَّاءُ يومئذٍ بعضُهم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاّ المتقين، وخَسِرُوا السَّعَادَة بأهليهم من الحور العين الّلاتي أعَدَّهُنَّ الله لَهُمْ في الجنَّة، بشَرْطِ أَنْ يموتُوا على إيمانٍ صَحِيحٍ مقبول عنْدَ رَبّهم، فلمَّا مَاتُوا كافِرِينَ جَعَلَهُنَّ اللّهُ مِيراثاً مُسْعداً للمؤمنين أصْحابِ الجنَّة. وخَسِرُوا السعادَة بأهْلِهِم المؤمنين الذين كانوا أهلهم في الحياة الدنيا.

● ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾:

هذا بَيَانٌ صادرٌ عن الله جَلّ جَلاَلُه، يُؤَكِّدُهُ الله بـ «أداة الاسْتِفتاح والتَّنْبيه ـ وبإنّ ـ وبالجملة الأسميَّة» فيُثْبتُ فيه أنَّ الظَّالِمين من دَركة الكُفْر، سَوْفَ يكونون خالِدِين في دار العذاب، وهذا العذابُ سيَكُونُ محيطاً بهم، ومُقيماً إقامةً دائمةً علىٰ ذواتهم، ويظهر أنَّ هٰذا بَيَانُ حُكْمِ الله عليهم بالعذاب المقيم.

● ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾:

أي: وحين أصْدَرَ اللّهُ حُكْمَهُ على الظالمين، بأنْ يكونوا في العذاب المقيم، لم يكن لَهُمْ بالاستِغْراقِ الشَّاملِ أيُّ نصيرٍ لهم يواليهم ويَنْصُرُهم من دون الله، فَيَدْفَعُ عَنهم العذاب المقيمَ في الجحيم.

«مِنْ» في: ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ زائدَةٌ للدلالة على تأكيد الاستغراق في النفي، واللاّم في ﴿لَهُم﴾ هي لام الجحود الواردة بَعْدَ كَوْنٍ منفي، ومثل هذه الصيغة هي من أبلغ صيغ النفي في اللّسانِ العربي.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من غير الله الذين هم جميعاً دُونه، وهو جلّ جلالُهُ العليُّ الأعلىٰ.

• ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾: أي: ومَنْ يَحْكُم اللَّهُ عليه بالضَّلَالِ، لأنّه كان في رحلة امتحانه ضالاً بإرادته الحرَّة، فَمَالَهُ من سَبِيلِ يُنْجِيهِ ممَّا حكَمَ اللَّهُ به عليه منْ عِقاب.

لا بصَرْفِ العذابِ عنه، ولا بقَبُول عُذْرٍ منه، ولاَ بقَبُولِ فداء، ولا بقبول شفاعَةٍ له من أحَدٍ، ولا باستجابة طلبه في استئناف رِحْلَةِ امتحانه.

وجاء التّعبير هنا بعبارة ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ مُناسباً لقولِ الظالمين لمَّا رأَوُا العذاب: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾.

السَّبيل: هُو الطريق الحسّي، وبالتوسّع في الاستعمال المجازي القائم على الاستعارة، صَارَ يُطْلَقُ على كلِّ مُوصِلٍ معنوي لغايةٍ من الغايات الحسيَّةِ والمعنوية.

وأصل هذه الاستعارة، تشبيهُ الْمُوصِلِ المعنويّ بِالسَّبِيل الحسّيّ الموصِلِ إلى مكانٍ مَا مِنَ الأرض.

* * *

الموقف الرابع

ما يكون من الكافرين من بحث عمّن يشفع لهم عند الله بصَرْفِ العذاب عنهم أو بردِّهم إلى حياة الابتلاء ليَعملوا صالحاً

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في معرض الحديث عن أصحاب النار الخالدين فيها:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

بَعْدَ تساؤُلِ المحكوم عليهم بالخلود في عذاب الجحيم، لمّا رَأَوْا أهوال العذاب بأعينهم، إذْ عُرِضُوا على النارِ عَرْضاً، قائلين: هَلْ إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ، كما جاء بيانُه في الموقف الثالث من مواقفهم يَوْمَ الدّين، وبَعْدَ تَشاوُرِهِمْ فيما بَيْنَهُم، والوصول إلى أنّ اللّهَ لَنْ يَسْتَجِيب طَلَبَهُمْ، إذا سَأَلُوهُ بصورة مباشِرَة، فقد سبَقَ أنْ رَفَضَ اللّهُ دُعَاءَهُمْ واسْتجداءَهُمْ مَرَّتين.

بَعْدَ هذا يتَساءَلُونَ عَنْ وُجود شُفعاء يشفَعُونَ لَهُمْ بإعْفَائهم من العذاب، أو بأنْ يَقْضِي الله لهم باستئناف امتحانهم، في حياةٍ ممثالَةٍ للحَيَاةِ الأولى الّتي كانوا فيها ظالمين كافِرين، فاستَحقُّوا الحكْمَ علَيْهم بالخُلُودِ في عذَابِ النّار، دارِ خلُودِ المجرمين في العذاب.

فجاء هذا النصّ من سورة (الأعراف) مبيّناً هٰذا الموقف الرابع من مواقفهم يوم الدّين، الذي يُعَبِّرُون فيه عن رغبتهم في استئناف رِحْلَةِ امتحانهم.

- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي: إنّهم اتّخذُوا دِينهم لَهْواً ولَعِباً وَغرَّتْهُمُ الحياة الدُّنيا، كما جاء في الآية السابقة لهذا النّصّ، والْحَالُ أنّنا لَقَدْ جئنَاهُمْ بكتابٍ بَلّغَهُمْ إيّاهُ رُسُلُنَا، ولَقَدْ فَصَّلْنَاه، أي: بيّنّاهُ علَىٰ عِلْمٍ كامِلٍ بحَقَائِقِ المعلومات، الّتي تتعلّق بأمور الدّين الذي اصطفيْنَاهُ لهم، تفصيلاً يتناوَل كُلّيّاتِها وجُزئيَّاتها، كبارَها وصِغارَها، ممّا فيه نجاتُهُمْ من العذاب يوم الدّين، في حُدُودِ تطوُّرِهم البشريّ الّذِي وصَلُوا إليه.

- ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾: أي: جئناهم بِكتَابٍ مُفَصَّلٍ لأجْلِ أَنْ يَكُونَ هُدًى ورَحْمَةً لِقَوْمٍ لدَيهم الاستعداد لأنْ يُؤْمِنُوا بالحقّ إذا جاءَهُمْ، فَيَدْفَعُوا عن أنفسهم العذَاب، ويجلُبُوا لأنفسهم السَّعَادَة الأبَدِيَّة، والنعيمَ الخالد.

﴿هُدًى﴾: أي: رَشاداً، وذا دلالَةٍ إلى ما يوصل إلى الفلاح، وطريقاً واضحاً جليًا يوصل إلى معرفة الحقّ والخير، أوْ مَا هو الأصلح والأنفع.

﴿وَرَحۡمَةً﴾: أي: ورحمة من الله لعباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، إذْ أبان الله عزّ وجلّ فيه لهم صراط سعادتهم في العاجلة، وفي الآجلة.

● ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾: أي: هَلْ يَنْتظرون بعد الأدلّة الكافية، والبراهين العقلية القاطعة، الْمُقْنِعَة لمن أراد أن يقتنع، إلاّ تَحَقُّقَ ما تؤول إليه الأخبار الّتي اشتمل عليها من أنباء يوم الدّين، إذْ تتحقَّقُ هٰذه الأنباء في الواقع، ويجدون أنفسهم في أنواع عذاب جهنم، بَعْدَ الحساب، وفصْل القضاء، يذوقُون آلاَمَ عقاب الله لهم.

﴿يَنظُرُونَ﴾: أي: ينتظِرُونَ.

﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾: أي: إلاّ الواقع التنفيذيّ الذي تَؤُولُ إليه.

● ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾: أي: يوم يأتي تحقُّقُ نبأ نُذُرِ العذاب، التي اشتمل عليها الكتاب، وهذا يكون في يوم الدّين.

● ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: يقولُ الكافرون الّذين تَركوا الإيمان بما جاء في كتاب رَبّهم لعباده، وتركوا الْعَمَل بأوامره ونواهيه ووصاياه: قد جاءَتْ رُسُل رَبّنا بالحقّ.

أصل معنى النسيان: الترك.

إنهم يعترفون يوم الدّين بأنّ رُسُلَ رَبّهم قد جاؤوا بالحقّ، ولكنْ ما فائدة اعترافهم هذا، وقد كانوا في رحلة امتحانهم قد كذَّبُوهم، وكذَّبُوا بما جاءُوهم به بلاغاً عن الله عزّ وجل.

● ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾؟: أي: فلم نُؤمِنْ برُسُل رَبّنا في حياة الامتحان، فقضَىٰ الله علينا بالعذاب الأبديّ يوم القيامة، فَهَلْ لنا من شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لنا عِنْدَ رَبّنَا، فيَرْفَعَ عنا ما قَضَاهُ علينا من عذابٍ أبديٍّ.

● ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾: أي: أو يَشْفَعُونَ لنا عِنْدَ رَبِّنَا فيَرُدُّنا إلَىٰ مِثْلِ مَا كُنَّا فِيه في حياة الامتحان، لنَسْتَأْنِفَ رحلة امتحاننا، فنَعْمَلَ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ أعمالٍ فاسِدَةٍ إجْراميَّة.

● ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾: هذا تعقيب رَبَّانِيٌّ يَدُلُّ بالكناية لا بصريح اللَّفْظ، على أنَّ أُمْنِيَّتَيْهِمْ لا يكونُ لَهُما أَثَرٌ في الواقع، إذ لاَ يجدون شفيعاً يَشْفَعُ لهم عند رَبّهم، لأنّ الله عزّ وجلّ لاَ يأذَنُ لأيِّ شافع بأن يشفع لهم مهما كان ذا قربٍ من رَبّه.

لقد خَسِرُوا أنفسهم إذ قَذَفُوا بها إلى عذاب الجحيم خالدين، وضَاعَ عنهم ما كانوا يفترون في الحياة الدُّنيا، ممَّا يُنافي الحقّ الذي جاءَهم به رُسُلُ رَبّهم، فَلَمْ يجدوا له أثراً. ﴿ضلَّ﴾: أي: ضاعَ.

أمّا شركاؤُهم الّذين كانوا يعبدونهم من دون الله، ليجلُبوا لهم نفعاً، أوْ يَدْفعوا عنهم ضرّاً، بما جعلوا لهم من بعض خصائص الرُّبوبيّة، افتراءً على الله، أو ليقرّبوهم إلى الله زلْفَىٰ، أو ليشفعوا لهم عند ربّهم، افتراءً على دين الله، فقد ضلُّوا عنهم، أي: ضاعوا عنهم فلم يجدوا لهم أثراً، أوْ لم يجدوا لديهم شفاعة، ولم يجدوا أنها قرَّبتهم إلى ربّهم، بل زادتهم عبادتهم لهم خيْبَةً وخُسْراناً.

* * *

الموقف الخامس
ما يكُون من الكافرين حينما يوقَفُونَ على النار قُبَيلَ إلقائهم فيها

قال الله عزّ وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

جاء في هذا النَّصّ بيان مَوْقفٍ من مواقف الكافرين يوم الدين، وهو ما يكُونُ منهم حينَ إيقافهم عندَ أبواب النّار، تَمْهِيداً لكَبْكَبَتِهم في هاويتها.

إنّهم يُنَادُون مُتَمَنّين أن يُرَدُّوا إلى حياة الامْتِحان، وأن لا يُكذّبوا بآيَات رَبّهم، وأَنْ يكونُوا من المؤمنين.

إنّهم يقْتَصِرُون علَىٰ إعْلَان تمَنّيهم بأسْلُوب النّداء، دونَ أَنْ يَدْعُوا رَبّهم أن يحقّق لهم أمْنِيَّتَهُم، إذْ سبَقَ أن سألُوه رَدَّهم إلى حياة الامْتِحان فلَمْ يَسْتَجِبْ لهم، وهذا النداء يعلنون فيه ندمهم وحسرتهم.

وقد كانُوا في المواقف السابقة بَعْد البعث يحاولون إخفاء ندمهم وحسْرتهم، طمعاً في أن يَجِدوا وسيلةً يتخلّصون بها من دخول النار، أو من الخلود فيها، ولكنَّهم لمّا وُقِفُوا على النار، وعاينوا مواقعهم فيها، وأنّهم صاروا على وشَكِ إلْقائهم فيها ليكونوا في عذابها خَالِدين، بدا لهم أن ينادوا بأصواتٍ عالِيَةٍ جهيرة متحسّرين نادمين، حتى يسمعهم في موقف الحشر من تَصِل إليهم أصواتهم، قائلين: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ إلى حياة الابتلاء، لاستئناف رحلة امتحاننا، ولاَ نُكذِّبَ بآيات رَبّنا ونكون من المؤمنين.

لكنّهم كاذِبُون في ادّعاءِ أنّهم لو رُدُّوا إلى حياة الامتحان لآمنوا وعملوا صالحاً، بل سَيُعيدون سِيرَتَهم الأولى، لأنّ رَدّهم إلى حياة الامتحان لو كان، فَلَنْ يكون إلاّ بَعْدَ أَنْ يَمْسَحَ اللَّهُ من ذاكراتِهِمْ كُلَّ مَشَاهِد الآخرة الَّتِي أخافَتْهم، فهُمْ يَعُودون إلى مثل ما كانت عليه نفوسهم من قبل، وسيكْفُرُون كما كَفَرُوا في الاختبار السَّابق، وسيَفْعَلُون كما فَعَلُوا في الاختبار السّابق، وسيكونُونَ ظالمين مجْرِيمن.

● ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أي: ولو ترىٰ أيُّها الرائي أيًّا كنْتَ الكَافِرينَ حِين وُقِفُوا عِنْدَ أبواب النّار قُبَيْلَ إلقائهم في هاويتها، ليستقروا في مواقع عذابهم الخالدِ دَاخِلَها، استعمل الفعل الماضي في ﴿وُقِفُوا۟﴾ للدلالة على تحقُّقِ الْوُقُوع مستقبلاً يوم الدين، حتّىٰ كأنَّه أمْرٌ قد وقع فعلاً.

﴿وُقِفُوا۟﴾: فعلٌ ماضٍ لما لم يُسَمَّ فاعله، والمعنى: وقفتهم الملائكة المأمورون بسوقهم وحشرِهم إلى أبواب دار عذابهم، بأمْرِ رَبّهم الذي له الأمْرُ والحكْم.

يقال لغة: وَقَفَ فُلَانٌ فُلاناً، أي: جعَلَهُ يَقِف، ويُقَال: وَقَفَهُ على الأمر، أي: أَطْلَعَهُ عليه.

﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: على المكان المشْرِفِ على هاوية النار، وهذا يكونُ عنْدَ أبوابها.

وبهذا الوقوف يَشْهَدُ المحكومُ عليهم بالخلود فيها مواقِعَهُم في داخلها، حيث تكونُ مصايرهم الأبدية.

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف مقدّر يفسّره ما جاء في تتمة الآية، أي: لرأيتهم ينادُون ﴿يَٰلَيْتَنَا . . .﴾.

● ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَٰلَيْتَنَا﴾: عبارة تَمَنٍّ وتَحَسُّرٍ ونَدَمٍ وتَفَجُّع، كأنهم ينادون ما يتَمَنَّوْنَه ممّا هو بعيد جدًّا، أو هو وراءَ حُدُودِ الممكنات.

﴿نُرَدُّ﴾: أي: نُرْجَعُ إلى مثل حياة الامتحان التي سلفت في أزْمان الحياة الدُّنيا.

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: بنَصْبِ ﴿نُكَذِّبَ﴾ في قراءة حَفْصٍ، وحَمْزة، ويَعْقُوب، ومثله: ﴿وَنَكُونَ﴾ المعطوف عليه. وبرفع

الفعلين في قراءة جمهور القرّاء العشرة. وقرأ ابْنُ عامر: ﴿وَلَا نُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

فالنَّصْبُ هو بأنْ مضمرةً بعد الواو، أي: وأنْ لا نكذِّبَ. ونكُونَ من المؤمنين، وهذا تابع للتمني:

والرّفع على الاستئناف، أي: ونحن إذا أُعِدْنَا إلى حياة الامتحان لاَ نُكَذِّبُ بآيات رَبّنا، وسَنكونُ من المؤمين، وهذا عَهْدٌ منهم يُقَدِّمُونه.

وقراءة ابن عامر من الوجوه العربية الجائزة، ولا تخرج دلالتها عن القراءتين الأخريين.

● ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ..﴾: «بَلْ» هنا: حرف إضراب انتقالي، أي: بل بدا لهمْ أنْ يُعْلِنُوا على رؤوس الأشهاد ندمهم وحسرتهُم، بَعْدَ أنْ عايَنُوا بأبصارهم، وهم واقفون مُشرفون على هاوية جهنّم، وعند أبوابها، مواقِعَهُم فيها، فاشتَدَّ ذعْرهُم وخوفهم، ولَعَلَّ في هذا الإعلان بأصواتهم العالية الجهيرة استجداءً للرحمة والعطف عليهم، وكانت لواعجُ النَّدَم والتحسُّر والاستجداء أموراً يُخْفُونها في مواقِفهم السَّابقة بَعْدَ بَعْثِهم، واستمرّوا في إخفائها فيما بينهم أو في صُدُورهم، حتَّىٰ عاينوا مباشرةً مصايرَهُمْ، وهُمْ عند أبواب جهنم خائفون مَذْعُورون.

ولم ينتبِه المفسرون إلى هذا المعنى، فكانت لهم آراءٌ متكلَّفة فيما أرى، ولا يحتمل النصّ إرادة شيء منها.

● ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾:

أي: ولَوْ رُدّوا إلى حياة الامتحان مرّةً أخرى، لَعَادوا لمثل الأمْر الّذي كانوا عليه في الحياة الدنيا، وهو الكفرُ والتكذيبُ بآيات الله والعصيانُ لربّهم بارتكاب الجرائم، وهو الأمر الذي كانوا قد نهوا عنه.

والسبب أنّ إعادة الامتحان تستلزم مَسْحَ كلٍّ مشاهد الآخرة من ذاكراتهم، فإذا أعيدوا إلى ظروف حياة أخرى كانت نُفوسُهم على مثلِ الْحَالِ الّتي كانَتْ عليها في الامتحان الأول لم يتَغيَّرْ فيها شيء، فهم يعودون إلى سيرتهم الأولى حتماً.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾: أي: في ادّعائهم أنهم إذا أعيدوا فسيكونون مؤمنين يعملون الصالحات، باعتبار أن واقع حالهم سيكون على نقيض هذا، وليس المراد أنّهم كاذبون في التعبير عن مشاعرهم الدّاخلية لدى تقديم وعُودهم بأنهم سيُؤمنون ويعملون الصالحات، إذْ هي مشاعر قد عبَّروا عنها بصِدْقٍ وهم عند أبواب جهنم، لكنّها لا تُطَابقُ واقع حالهم حينما يسْتَأْنفون رحلة امتحانهم.

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾: عَبّرت هٰذه الآية عن أوهام كلّ الكافرين، الّتي صارَتْ لديهم عَقِيدةً مُوَجِّهة لسلوكهم في الحياة الدنيا، فجعلَتْهُم يكذّبُونَ رُسُلَ الله، ويُكذّبون بآياته، وهي أنّ الحياة مقتصرة على الحياة الدُّنيا فقط، ولا تُوجَدُ حياةٌ أخرى بعدها، فلا بعْثَ ولاَ حَشْرَ، ولا حِسَابَ، ولا فَصْل قضاء رَبَّانيّ، ولا جزاء.

﴿إِنْ﴾ هنا حَرْفُ نفي بمعنى «ما» النافية ﴿هِىَ﴾ ضميرٌ يعودُ على ملاحَظٍ ذِهْناً، وهو «حياتنا» وهذا الملاحظ في الذهن مفسَّرٌ بما جاء بعد ﴿إِلَّا﴾.

فالمعنى: مَا حَيَاتُنَا الّتي لَنَا في الوجود كُلّه إلاّ حَيَاتُنَا الدُّنيا، ومَا نَحْنُ بمَبْعُوثين لحياة أُخرى يكون فيها الحسابُ، وفَصْل القضاء، وتنفيذُ الجزاء.

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أي: ولو تَرَىٰ حِينَ وُقِفوا على مَوْقِفِ مُحَاكمةِ رَبّهم لهم، لَرَأيتَ ما تضمَّنَه البيان في تتمّة الآية.

حُذِف جواب «لَوْ» لدلاَلَة تتمَّة الآية عليه. وحُذف أيضاً «مَوْقف مُحاكمة» لسهولة استخراجه بشيء من التدبّر. وهذان الحذفان المدرَكانِ ذهْناً من الإيجاز المعهود في القرآن المجيد.

● ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟: أي: قالَ اللّهُ للّذِينَ كانوا في الحياة الدُّنْيا كافِرِينَ مُكذِّبين بيَوْمِ الدّين، أَلَيْسَ هٰذَا الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تكْفُرُون وتكَذِّبُونَ بالواقع الْحقِّ الذي لاَ رَيْبَ فيه.

الباء في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ زائدة للتأكيد، أي: أليس هذا حقًّا مُؤكّداً؟.

● ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾: أي: بلَىٰ هو الْحَقُّ الّذِي لاَ شَكَ فيه، وأكّدُوا اعترافَهم بالْقَسَم بربّهم: ﴿وَرَبِّنَا﴾.

«بلَىٰ» حرف جَوَاب، ويختصُّ بالنَّفْي، ويُفِيدُ إبطاله. وإبطالُ النفي هنا معناه إثباتُ أنّ هذا الذي يُشَاهدُونَهُ يوم الدِّين حقٌّ، وفي هذا الاعتراف حُكْمٌ منهم على أنفسهم بأنهم كانوا في الحياة الدنيا كافِرين.

● ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: أي: قال الله عزّ وجلّ لَهُمْ: فقد حكمنا عليكم بالخلود في عذاب النّار حكماً عادلاً، على وفق بياناتنا الّتي بلّغكُمْ إيّاها رُسُلُنَا، وأنْزَلناها إليكم في كتابنا، فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تَكْفُرونَ جحوداً واستكباراً واتّباعاً للهوى.

الفاء في ﴿فَذُوقُوا۟﴾ فصيحةٌ عطفت على محذوف يسْهُل على المتدبّر إدْراكُ معناه.

● ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: في هذا البيان تعليقٌ رَبّانِيٌّ على ما جاء في سوابقه حول بيانِ بَعْضِ أحوال الكافِرِينَ يوم الدِّين، وعلَىٰ الحكْمِ عليهم بالخلودِ في عذاب النار.

قد خَسِرُوا، وجاء في نصِّ سَابِقٍ أَنّهم قد خَسِرُوا أَنْفُسَهم وأهْلِيهم.

والمرادُ بلِقاءِ الله لِقَاؤه لمحاسبتهم، والحكم عليهم، والأمْرِ بتنفيذ جزائهم، وهذا أمْرٌ كانوا يكذّبون به وهم في حياة الامتحان.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: يُمْكِنُ حَمْلُ لفظ الساعة هُنا علَىٰ ساعَةِ مَوْتِ كلّ واحِدٍ منهم، وعلى ساعَةِ إِنْهَاء ظروف الحياة الدنيا كُلّها، وعلى سَاعَةِ البَعْث.

﴿بَغۡتَةً﴾: أي: فَجْأَةً، فَهِي بَاغِتَةٌ لهم. ولفظ «بَغْتَةً» هُنَا مَصْدَرٌ في موضع الحال. وجواب إذا في العبارة التالية:

● ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾: عبارة يَقُولُها كلُّ واحدٍ منهم بَيْنَه وبين نفسه، لا يُعْلِنها مع نُظَرائه إعْلاناً جماعيًّا، لِمَا سبق بيانه، وهي عبارةٌ تُعَبّر عن النّدَم والتّحَسُّرِ والتفجُّع.

● ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾: أي: علىٰ مَا قَصَّرْنا وَضيَّعْنا وَتَرْكْنا في الحياة الدُّنيا، ممَّا هو سبَبُ نجاتنا وَسعادَتِنا يوم القيامة.

● ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾: أي: والحالُ أنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أحْمَالَهمُ الثقيلة عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ، مِنَ الذُّنُوب والمعاصي والآثام والجرائم، كما تَحْمِلُ البغالُ والْحَمِيرُ الأحْمالَ الثقيلَةَ على ظهورها.

الوِزْرُ: الحمْلُ الثقيل، وأُطْلِقَ على الذنْب، وجمعُهُ «الأوزار».

● ﴿... أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: ﴿أَلَا﴾: أداةُ استفتاحٍ وتنبيه، يُؤْتى بها في أوّل الجملة. ﴿سَآءَ﴾: كلمة تُقَال لإنشاء الذّمّ، مثل: «بِئْس» ﴿مَا يَزِرُونَ﴾: أي: مَا يَحْمِلُونَ من آثام وجرائم، يقال لُغَةً: «وَزَرَ يَزِرُ وِزْراً وَزِرَةً» أي: حَمَلَ مَا يُثْقِل ظَهْرَهُ من جرائم ثقيلَة.

* * *

الموقف السادس

مَا يكون من الكافرين بَعْدَ أن يُكَبُّوا في النّار ويُعَذّبُوا فيها إذ يتجدّد لديهم الأمَلُ أن يُقبل طلَبُهم استئناف امتحانهم

قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ

فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

هذا النّصّ يكشف موقف الكافرين يوْمَ الدّين بعْدَ أن دخلوا النار وذاقُوا بعْضَ عذابها، ولفَحتْ وُجوهَهُمُ النارُ فَهُمْ فيها كالحون.

حينئذٍ يقول الله لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾؟ فيَعْتَرفون على أنفسِهِمْ بأنّهم كانُوا ضالّين.

وتُطْمِعُهُمْ مُحادَثَةُ اللّهِ لهم، فيَتَجدَّدُ لديهم الأمل بأن يستجيبَ اللّهُ دُعَاءَهم، بشأن اسْتِئْنَافِ امْتِحَانهم، وإعادَتِهم إلى مثْلِ ما كانوا عليه في الحياة الدُّنيا، فيَسْألُون ربَّهم أَنْ يُخْرِجَهُمْ من النار، ويَرُدَّهم إلى حياة الامتحان ليؤمنوا ويعملوا صالحاً. فيقول الله لهم: اخْسَؤُوا فِي النّار وَلاَ تَكلُّموني، تَيْئِيساً لهم من إجابَةِ سُؤالهم.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: ومَنْ خَفَّتْ أعمالُهُ الموزونَةُ بموازِين الرحْمٰن يوم الدّين، إذْ كانَتْ سَالِبَةَ الضغط، لكُفْرِهِ وسُوءِ أَعْمَالِهِ في الدُّنيا، فلَمْ تَسَجّلْ لَهُ إشاراتُ الموازِينِ ثِقلاً ما، لِعَمَلٍ إراديّ صالحٍ، مَقْبُولٍ عِنْد الله، فأولئك البعداء عن رَحْمَةِ الله الّذِين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، إذْ تسبَّبُوا فِي إلقاءِ أنفسهم في دار العذاب النّار، يَذُوقون العذاب فيها خَالِدِين.

- ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: تَمَسُّ وجُوهَهُمُ النّار بإحْراقٍ غَيْرِ مُنْضِجٍ.
- ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾: أي: وَهُمْ فيها عَابِسُونَ، قَدْ غَيّرَ لَفْحُ النّار ألوانَ وُجُوهِهِمْ.

الوجْهُ الكالح: هو الوجْهُ الشاحِبُ العابِسُ، والّذِي قَصُرَتْ شفتُهُ عن أسْنانه.

وقد سبق تَدَبّر هذا في الملحق الثالث من هذه الملاحق، خلال تدبُّر النصّ السادس.

• ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾: أي: أَلَم تَكُنْ آياتِي الّتي أَنْزَلْتُها فِي كِتَابِي تُتلَىٰ عَلَيْكُمْ، مِنْ قِبَلِ الرَّسُول، أَوْ مِنْ قِبَلِ الدُّعاة والمذكِّرِينَ مِنَ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبعُوه؟!

استفهامُ تَوْبيخٍ وَتَأْنِيبٍ وَتَلْوِيم.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جوابُهُمْ: بَلَىٰ، فَهُمْ في العذاب الَّذِي حَكَمَ اللَّهُ به عليهم يَتَقَلَّبُونَ، ولو أَنْكَرُوا جحوداً لزادَ اللَّهُ من عذابِهِمْ.

• ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

وقرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَفُ: **[شَقَاوَتُنا]**.

الشِّقْوَة، والشَّقَاوَةُ، والشَّقَاء: التَّعَاسَةُ، وسُوءُ الحال، والشِّدَّةُ، والْعُسْرُ، والضَّلال.

أي: رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَىٰ إرادَاتِنا وعُقُولِنا مُسَبِّبَاتُ شِقْوَتِنا، وهي أهواؤُهم، وشَهَواتهم، ولذَّاتُهُمْ، ومطالِبُ نفوسهم من زِينَةِ الحياة الدُّنيا، وكِبْرُهُمْ، ورَغباتُهُمْ في الْفُجور، فجعلَتْهُمْ يكْفُرون بالحق، ويجْحَدونه، ويكَذِّبُون بآيات الله، ويُعْرِضون عنها، ثُمَّ يُدْبِرُون.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾: أي: وكُنّا بسَبب ذلِكَ قوماً ضالّين، بعيدين عن صراط الحقّ.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾: أطمعتهم محادَثَةُ رَبّهم لهم، ولو كانت على سبيل التوبيخ والتقريع والتثريب، فقالوا: رَبَّنا أَخْرِجنا مِنْ دَارِ العذاب، واقْضِ لنا باسْتِئنافِ رحلة امْتِحاننا، فإننا سَنُؤْمِنُ بما فَرَضْتَ علينا أَنْ نُؤْمِنَ به، وسَنَعْمَلُ صَالِحاً كما أَمَرْتنا.

فإن عُدْنَا إلى مِثْلِ ما كُنَّا عليه في الامْتحان الأوَّلِ فإنَّا ظَالِمُونَ ظُلْماً نَحْكُمُ به علىٰ أنْفُسِنَا بالْخُلُودِ في عذاب النار.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾: أي: كُونُوا بُعَداءَ أَذِلَّاءَ فِي جَهَنَّمَ مَطْرُودِين مُحْتَقرين مُهانين، ولا تكلموني.

يُقال لغة: خَسَأَ الكَلْبُ ونَحْوُه يَخْسَأُ خَسْئاً وَخُسُوءاً، أي: ذَلَّ وبَعُدَ مُحْتَقَراً مُهاناً مَطْروداً.

ولا يبقىٰ لهم في هذا الموقف إلاّ التمني فقال الله عزّ وجل بشأنهم وهم يُعذّبون ويتخاصمون في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول): ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

«لو» حرف تَمَنٍّ هنا. «كَرَّةً» أي: رجْعة لحياة الامتحان.

الموقف السابع

ما يكون من الكافرين في جهنم بَعْدَ أن يطول عذابُهم من تظاهرة جماعيّة يَضطَرِخُونَ فيها ويَضِجُّون ويَصِيحُونَ مطالبين باستئناف امتِحانهم

قال الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾:

دلّ هٰذا النصّ على أنّ الذين كفروا بَعْدَ بعْثَةِ محمّد ﷺ لَهُمْ من الجزاءِ عذابُ نارِ جهنّم، وأنّ هذا العذاب ملازم لهم دواماً، فلا يُقْضَىٰ عليهم بالْمَوْتِ فَيمُوتوا، ويَسْتَرِيحوا بالموت من العذاب، ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عذاب النار شيءٌ.

وأنّ كلَّ كفُورٍ من الإنْسِ والجنّ يَجْزِيهِ الله مثْلَ ذَلِكَ الجزاء العظيم الشديد.

وقرأ أبُو عَمْرو: [وَكَذٰلِكَ يُجزَىٰ كُلُّ كُفُور] ومؤدّى القراءتين واحد.

وجاء في هذا النصّ بيان مَوْقف من مواقف المعذّبين الخالدين في النار، بَعْدَ أن يَطُولَ فيها عذابهم، وهو موقف الاصطراخ في مظاهرة جماعيَّةٍ ينادُونَ فيها رَبّهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ من النّار، وأرجعنا إلى حياة الامتحان [نَعْمَلْ] عَملاً ﴿صَٰلِحًا غَيْرَ﴾ العمل الفاسد ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الحياة الدنيا حياة الامتحان.

فيقول اللّهُ لهم: أَلَمْ تَحمِلُوا الْأَمَانَةَ الّتي أبتْ حَمْلَها السَّمَاوَاتُ والأرض والجبال، وكانَ حَمْلُكُمْ للأمانةِ بكامِلِ حُرِّيّتِكُمْ، ودَخلْتُمْ حياة الامتحان مُخْتارينَ غيْرَ مَجْبُورين ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ عمراً ﴿مَّا﴾ طَويلاً كافِياً لأن تَهْتَدُوا فيه، وتضعوا في ذاكراتكم خلاله ما يجب عليكم في رحلة امتحانكم، فتؤمنوا وتَعْمَلُوا صالحاً، وهٰذا الْعُمْرَ ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ مستجيباً لمطلوب النجاة والسعادة ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾ من عِبادِنا المؤمنين الذين عملوا صالحاً ﴿وَجَآءَكُمُ﴾ الرّسُول المبلّغ عنّا آياتنا و ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ لَكُمْ بالخلود في عذاب النار إذا كَفَرْتم وجحدتم واستكبرتم عن عبادة ربكم، واتّبَعْتُمْ سُبُل الضلال والْغَيّ.

وهنا لا بُدّ أن يقولوا: بلىٰ.

عندئذٍ يقول الله لهم: ﴿فَذُوقُواْ﴾ العذابَ دَواماً ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

وجاء في آخر هذا النصّ بيانٌ لمَنْ يخْطُرُ لَهُ احْتِمالُ صِدْقِ بعض الكافرين، المطالبين باستئناف حياة الامتحان لهم، إذا أعْطاهُمُ الله فُرْصَةَ إعادَة الاختبار، في رحلة امتحان أخرى.

وهذا البيان يُشير إلىٰ أنّهم سيكونون مِثْلما كانوا عليه في الامتحان الأوّل، ولو أُعْطُوا ما شاءوا من إعادة إلى حياة الامتحان، فاللّٰهُ الذي يَعْلَمُ غيْبَ السَّماوات والأرض، هو الْعَلِيم بذاتِ الصدور، وهي الأشياء المختصّة بالصدور، والمصاحبة لها دواماً، من نِيّاتٍ وإراداتٍ موجّهات للسلوك الباطِنِ والظّاهر، فلو علم الله فيهم خيراً لَرَدَّهم إلى حياة الامتحان، ولمنحهم فرصَةَ إعادةِ الاختبار.

لكنهم حينما يُرَدّون إلى حياة الامتحان لو كان من الحكْمَةِ رَدُّهم لَمَسَحَ الله من ذاكراتهم كلّ مَشَاهِدِ الآخرة وذكرياتها، فيعودون حينئذٍ إلى مثل ما كانوا عليه في الامتحان الأول.

* * *

الموقف الثامن

ما يكون من الكافرين وهم يُعذّبونَ في النّار بَعْدَ أن يشتَدّ ضجرهم من طول عذابهم دُون انقطاع إذ يطالِبُون بتخفيف يَومٍ من العذاب فلا يُستَجابُ لهم

قال الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

دلّ هذا النصّ على أنّ المعذَّبِيْنَ في النار من الكافرين، يَصِلُونَ إلى دَرَكَةِ اليأس من استئناف امتحانهم، ومن إخراجهم من النار، فيُحَاوِلُون أن يَسْتَجدُوا من خَزَنَةِ جهنَّمَ، وهم ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَ يَعْصُونَ الله ما أَمَرَهم، ويَفْعَلُونَ ما يُؤمَرُون، أن يَشْفَعُوا لهم عِنْدَ رَبِّهم دَاعِينَ أَنْ يُخَفِّفَ اللّٰهُ عنهم يَوْماً من الْعَذاب.

فيقول لهم خَزَنَةُ جَهَنَّمَ: أَلَمْ تَدْخُلُوا رِحْلَةَ امْتِحَانِكُمْ باختياركُم الحرُّ ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ من الآيات الإعجازية، والآيات

الْبُرْهَانِيَّة العقليَّة، والآيات المنزلاَتِ من ربّكم لبيان مطلوب الله مِنْكُمْ في رحلة امتحانكم.

فيقول الخالدون في النّار: ﴿بَلَىٰ﴾.

فيقول لهم خَزَنَة جهنَّم: [فَادْعُوا أَنْتُمْ] فإنَّنا لَنْ نَدْعُو لكم، لأنّ ربّنا لم يأْذَنْ لنا بأن نَدْعُوَه من أجلكم، وإذا دَعَوْتم أنتم فلَنْ يَسْتَجِيبَ الله لكم فقد كنتم في حياة امتحانكم كافِرِين: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي: في ضياع، فلا يكون له أثَرٌ نافع.

وجاء النصّ بأسلوب حكاية أمْرٍ وقع ومضَىٰ، وهو من أحداث يوم الدّين، للدلالة على أنه سوف يتحقق يوم الدين حتماً، فهو بمثابة أمْرٍ قد وقع وتَحَقَّقَ فعلاً.

* * *

الموقف التاسع

ما يكون من الكافرين من اليأس النهائي من الخروج ومن استئناف حياة الامتحان ومن التخفيف من العذاب

إنهم بعد المواقف السابقة يَصِلُونَ إلى دركة اليأس الكامل من استئناف حياة امتحانهم، ومن التخفيف من العذاب، فينادُونَ مالكاً خازِنَ النار الأكبر، قائلين بأصوات عالية جهيرة فيها صُراخٌ وضجيج: يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ. فيجيبهم بقوله: إنَّكُمْ مَاكِثُون.

إِنَّهم يطالبون بالموت الأبدي، لكِنْ لا مَوْت بَعْدَ البعث ليوم الدين، بل حياة خالدة.

قال الله عزّ وجل في سورة (الزُّخْرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾: أي: لاَ يُخفَّفُ عنهم العذاب، ولاَ يُسَكَّنُ، ولا تُلَيَّنُ شِدَّتُه.

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: أي: وهم فيه ساكنون يائسون.

﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: أي: ليقض علينا بالموت النهائي الأبدي.

﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾: أي: إنَّكُمْ مُقِيمُون في العذاب لا تَحَوُّل لكم عنه.

وبَعْدَ هٰذه اللقطة من مشاهد يوم الدّين، أبَانَ الله لعباده مخاطباً لهم، بأسلوب إقناعيّ هادىء فقال عزّ وجل لهم:

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

* * *

الموقف العاشر

ما يكون من تمنّي الكافر أن يكون تراباً

بعد كلّ المواقف السابقة، والمحاولات الّتي اتخذها الكافرون للخلاص من عذاب الجحيم، لا يَبْقَىٰ أمام الكافر إلاّ أن يتمنى أن يكون تُراباً، كما عادت البهائم تراباً بَعْدَ بَعْثِها.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

وقد يكون هذا التمنّي مصاحباً لكلّ مواقفه بعد أصدار الحكم عليه بالخلود في عذاب النار، في محكمة العدل الرّبّانيّة.

* * *

وبهذا تمّ تَتَبُّعُ وَتَدَبُّر النصوص الموزعة في القرآن حول هذا الموضوع، والحمد لله على توفيقه وفتحه.

* * *

سُورَةُ ٱلْجِنِّ

٧٢ مصحف ٤٠ نزول

وَهِيَ كُلُّهَا مَكِّيَّة

وسُمّيت بسورة الجنّ لاشتمالها
على بيان قصة نفر من الجنّ وفَدُوا إلى الرسول ﷺ
واستمعوا القرآن منه، وآمَنُوا به، وانصرفوا دعاة بين قومهم

(١)

نص السورة وما فيها من فَرْش القراءات

سورة الجن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا
عَجَبًا (١) يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا
(٢) وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُۥ
كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ
ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ
يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ

من ٣ ـ ١٤● قرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، وَخلف، بفتح همزة «أَنَّ» في: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ و﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾ و﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ و﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾ و﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ و﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾ و﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾ و﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾ و﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ و﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾، و﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ و﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾.

- ● وقَرَأ أبو جَعْفَر بفتح «أَنَّ» في ثلاثة مما سبَق، وهي: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ و﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾ و﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾، والباقي بكَسْرِها.
- ● وقرأ باقي القراء العشرة، بكَسْرِ «إِنَّ» في جميع هذه المواضع.

ففتح «أَنَّ» على أنها وما بعدها بتأويل مصدر عطفاً على ضمير (به) في ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

وكسْرُها على أنها مَعْطوفة على: [إِنَّا سَمِعْنَا].

٥ ـ ● قَرَأَ يعقُوب: [أَنْ لَنْ تَقَوَّل]: أي: لَنْ تَتَقَولَ. التقوُّلُ افْتِرَاءُ الكذب.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ لَنْ تَقُول].

أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا
مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ
لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا
نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا
﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴿١١﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا
﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا
يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا
ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا
ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى
ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن
ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا
تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ

---

٨ ـ ● قرأ أبو جَعْفَر: [مُلِيَتْ] بالياء بدل الهمزة. وكذلك حمزة في الوقف.

● وقرأ باقي القراء ﴿مُلِئَتۡ﴾ بالهمزة.

١٧ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمرو، وابنُ عَامر، وأبو جَعْفَر: [نَسْلُكْهُ] بنون المتكلّم العظيم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ بياء الحديث عن الغائب والضمير يعود على الله.

١٩ ـ ● قرأ نافع وشعبة: [وَإِنَّهُ لمّا قَامَ] بكَسْرِ هِمْزَة «إِنَّ» وهو على الاستئناف.

● وقرأ بَاقي القراء العشرة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ بفتح همزة «أَنَّ» وهو على العطف.

وهما وجهان عربيان صحيحان.

يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا
﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن
يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا
بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ
أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ
ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا
﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ
وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

---

١٩ ـ ● قرأ هشام: [لُبَداً] بضمّ اللاّم في أحد وجهين له.
● وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِبَدًا﴾ بِكَسْر اللاّم، وهي الوجه الآخر لهشام.
والقراءتان وجهان عربيان للكلمة.

٢٠ ـ ●قرأ عاصم، وحَمْزَة، وأبو جَعْفَر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ﴾.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [قَالَ إِنَّمَا].
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: أمره الله فقال.

٢٥ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [رَبِّيَ أَمَداً] بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القراء العشرة: بإسْكانها مع المدّ في الوصل.

٢٨ ـ ● قرأ رُوَيس: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بالبناء لما لم يسمّ فاعلُه، وقرأ باقي القراء [لِيَعْلَمَ].
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

(٢)

موضوع سُورَةِ الجنّ

سورة الجنّ ذاتُ موضوع واحِدٍ يتناول قصَّةَ نَفَرٍ من الجنّ، اسْتَمَعُوا القرآن مِن الرَّسُول ﷺ، ولم يكن الرسول يَعْلَمُ بحُضُورِهم ولا باسْتِماعِهم القرآن من تلاوته، ولا بقصتهم.

وقد أعلمه الله عزّ وجلّ في هذه السورة بحضُورهم، وباسْتِماعِهِمُ القرآن منه، وأنبأه بقِصَّتهِم، وبما قَالُوه لإخوانهم من الجنّ حِينَ رجَعُوا إليهم، وأمَرَهُ بأن يُخبِرَ الناسَ بما أنْزَلَ عليه من نَبَئِهم في هٰذِه السُّورَة، وبما قَالُوه.

وأَتْبَعَ الله عزّ وجلّ قِصَّتهُمْ ببيانٍ تكْمِيلِيٍّ لأقْوالِهِم الإيمانيَّةِ، إشعاراً بصِحَّةِ أقوالهم الّتِي قالُوها.

وأتْبَعَ الله عزّ وجلّ ذَلِكَ ببياناتٍ تتعَلَّقُ بِرِسالة الرسول محمّد ﷺ، وبما أوصاه أَنْ يقوله لقومه، في المرحَلَةِ الَّتي نزلَتْ فيها هذه السورة، معالجةً للموقفِ الّذي وصَلَ إليه كُفَّارُ قومه في مكَّة المكرمة.

(٣)

دروس سورة الجنّ

تشتمل سورة الجنّ على ثلاثة دروس كما يلي:

الدرس الأول: يتضمَّنُ بيان قصَّةِ النَّفَر من الجنّ، الّذِينَ استمعوا القرآن من الرسول محمد ﷺ، فآمنوا به، وانْصَرَفُوا إلى أقوامهم من الجنّ دُعاةً إلى دِين الله الحقّ، الذي أنْزَله الله على خاتم أنبيائه ورُسُله، وجَعَلَهُ خاتم الرسالات الرّبانية للناس.

وهو الآيات من (١ ـ ١٥).

الدرس الثاني: يتضمَّنُ بياناً من الله عزّ وجلّ مكَمِّلاً لبعض قضايا دينيَّة، جاءت مضافةً إلى القضايا الَّتي ذكرَها دُعَاةُ الجنّ بين أقوامهم، ومعطوفَةً عليها، للإشعار بأنّ ما ذكره هؤلاء النَّفرُ من الجنّ بَيْنَ أقوامهم حقٌّ، وهو بمثابة التّصْديق من الله لها، واعتمادها، فتُنَزَّلُ منزلَةَ القول المباشر من الله جلّ جلاله.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩).

الدّرس الثالث: يتضمَّنُ تعلِيماً من الله للرسول محمّد ﷺ، ما يقولُه في دعوته، وقضايا هذا التعليم تُعْتَبر من القضايا الدِّينيَّةِ الأصول، الّتي تتناسَبُ مع القضايا الّتي ذكرها دعاةُ النفر من الجنّ، والقضايا الأخرىٰ الّتي أضافها البيان الرّبّاني المباشر، وتُلائِم المرحلة الدّعَوِيَّة الّتي نَزلَتْ فيها سورة الجنّ، وفيها معالجة الموقف الذي وصلَ إليه كبراء مشركي قومه في مكّة المكرَّمة.

وهو الآيات من (٢٠ ـ ٢٨) آخر السورة.

وبهذا تظْهَرُ لَنَا وَحْدَةُ مَوْضُوع السّورة، ويظهر لنا ترابطُ قضاياها، وَتَعَانُقُ آياتها.

* * *

(٤)

دراسة شاملة للجنّ

تعريف بالجن:

دلَّت النُّصوص على أنّ الجنّ خلْقٌ من خَلْقِ الله يُشبِهُون الإنْسَ في الصفاتِ الّتِي تُؤَهِّلُهُمْ للابْتِلَاء في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وقَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ ليَبْلُوهم أَيُّهُمْ أحْسَنُ عملاً، وكَلَّفَهُمْ في رحلة ابتلائهم أن يَعْبُدوه ولا يُشْرِكوا بعبادته أحداً.

وبَعْدَ رحلة الابتلاء والموت، ومرور فاصل زمنيّ بَعْدَ الموت، يكونُ بعثُهم للحياة الأخرىٰ، ليَلْقَوْا فيها حِسابَهُمْ وفَصْل القضاء بشَأْنِهم، وجزاءهم في دار النعيم التي هي الجنَّة المعَدَّةُ للمتّقين، أَوْ في دار العقاب والعذاب، المعَدَّةِ للمجرمين، والكفَرة، والعاصين.

أمّا طبيعة أجسامهم، فلطيفَةٌ لاَ تراها أعْيُنُ النّاس بحَسَبِ العادة، وبحَسَبِ شروط رؤيَةِ الناس في الحياة الدنيا، لَكِنْ لا يمْنَعُ الْعَقْلُ من إمكان رؤيَتِهم، إِذَا تَشَكَّلُوا بالْأَشْكَالِ الجسمانيّة، الّتي يمكن أنْ تراهَا أعْيُن الإنس، أو كان لدى الرائي من الإنس قُدرات خاصَّة تؤهّله لرؤيتهم.

وقد دلَّت النُّصُوصُ علىٰ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أعْطاهُمُ القدرة علَىٰ التشكُّل بأجسادٍ يراها الإنس، وهم قد يتشكلون بها أحياناً.

ولا يمْنَعُ العقْلُ أيضاً منْ إمْكانِ رؤيةِ بعْضِ الناس لهم، دونَ أن يتشكَّلُوا بالأشكال الجسمانيّة الكثيفة، ويكون هذا لمن وهبهم الله عزّ وجلّ قدراتٍ خاصَّةً فوْقَ قُدرَاتِ النَّاسِ العاديَّة، وهذه الرُّؤيَةُ تكونُ في أحوالٍ نادِرَةٍ.

وقد صحَّ أنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ رأىٰ بعْض الجنّ وهم على أَصْلِ طبيعتهم، دون أَنْ يتشكّلُوا بالأشكال الجسمانية، الّتي يمكن أن تراها أعْيُن الإنْس.

ويوجَدُ لدى بعْض الناس طاقاتٌ نَفْسِيَّةٌ نادرات، لا يُوجد نظيرها لدَىٰ سائر الناس، وبهٰذه الطاقات النفسيّة النادرات قد يَرَوْن الجنَّ وهُمْ على أصْلِ طبيعتهم دون أن يتشكَّلُوا.

وإنكارُ مِثْل هٰذِهِ الحقائق مكابَرَةٌ لاَ تغيّر من الحقّ والواقِع شيئاً، والله على كلّ شيءٍ قدير.

ولا يَنفِي وُجُودَ أَصْلِ هٰذِهِ الحقيقة وَفْرَةُ الدَّعَاوىٰ الكاذبة، الّتي يَدَّعيها

المشتَغِلون بالسِّحر، والمشعوِذون، ومُدَّعو الصِّلَةِ بالجنّ، الّذِين يتّخذُون السِّحْرَ والشعوذة مَهْنَةً لهم، يبْتَزُّونَ بها أمْوالَ الْبُسَطَاءِ، والسُّذَّج، وضُعفاء العقول، الّذِين يَجْرُونَ وراءَ الأوْهام، ويتَّبِعُونَ المشَعْوِذين، والدَّجّالِينَ، والمخَرِّفين.

* * *

مادّة كلمة (الجنّ) عند أهل اللّغة:

أخْذاً مما جاءَ في «لِسَان العرب» وغيره من المعاجم العربيّة حول مادّة كلمة الجنّ، أذكر البيان التالي:

المادّة اللّغوِيَّة لكلمة «الْجِنّ» تَدُلُّ في كلّ صِيَغِهَا على معْنَىٰ السَّتْر. فيقال: جَنَّ فُلاَنٌ الشيءَ يَجُنُّهُ جَنًّا، أي: سَتَره.

وكُلُّ شيءٍ سُتِرَ عَنْكَ، فَقَدْ جُنَّ عَنْكَ.

ويقال: جَنَّهُ اللَّيْلُ يَجُنُّهُ جَنًّا وَجُنُوناً، أي: سَتَرَه، ويقالُ: جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ يَجُنُّ جَنًّا وَجُنُوناً وجِناناً، وأجَنَّهُ، أي: سَتَره.

ومِنْ هٰذا سُمِّيَ **«الْجِنُّ»** بهذا الاسم لاستتارهم، واختفائهم عن أبْصار الناس. ويُطْلَقُ عليهم أيضاً لفظُ **«الْجِنَّة»**.

والْجَنِين في بَطْنِ أُمِّهِ سُمِّيَ «جَنِيناً» لاسْتِتَارِه في بَطْنِ أُمِّه.

ويُقال لغة: جَنَّ الْجَنِينُ في الرَّحِمِ يَجِنُّ جَنًّا، وأجَنَّتْهُ الحامل. أي: حمَلَتْ به.

وَيُسَمَّى التُّرسُ: **«مِجَنًّا»** لأنَّه آلةٌ تُسْتَخْدَمُ لسَتْرِ المقاتِلِ من ضَرَبَاتِ سِلاح خَصْمِه المحارب له.

ويُسَمَّىٰ الدِّرْعُ: **«جُنَّةً»** لأنَّهُ يَسْتُرُ ويقي من سلاح الْعَدُوّ، وكُلُّ وَاقٍ وواقيَةٍ يُسَمَّىٰ: **«جُنَّةً»**.

ويُسَمَّىٰ القَبْر: «**جَنَنَاً**» لأنَّه يسْتُرُ الميّت، وكذلِك يُسمَّىٰ الكَفَن.

ويُقَالُ: أَجَنَّهُ، أي: كَفَّنَه، أو دفنه في القَبْر.

ويُسَمَّىٰ الْقَلْبُ «**جَنَاناً**» لاسْتِتَارِه في الصَّدْرِ.

وتُسَمَّىٰ الْحَدِيقةُ ذَاتُ الأشجار الكثيرَةِ المتقاربة «**جَنَّةً**» لأنَّ أشجارها تَسْتُرُ أرْضَها.

وهكذَا تَدُورُ صِيَغُ هَٰذِهِ المادَّةِ دالَّةً على معانٍ مختَلِفَةٍ، تشْتَرِكُ جميعها بمعْنَىٰ السَّتْرِ والاسْتِتار.

ويُقَالُ للواحد من «**الجِنّ**» لفظ «**الْجِنّي**» فهو اسْمُ جنسٍ جَمْعِيٍّ يُفْرَقُ بَيْنَه وبَيْنَ وَاحِدِه بالْيَاء.

قال ابْن سِيدَه (من عُلَماء اللُّغَة): «الجِنُّ نوْعٌ من الْعَالَم، سُمُّوا بذلِكَ، لاجْتِنَانِهم عن الأبْصَار، ولأنَّهُم اسْتَجنُّوا من الناس، فَلاَ يُرَوْن» اهـ.

* * *

الجنّ مخلوقون من مارجٍ من نار، والملائكة من نور، والإنْسُ من الطين:

ودلَّت النُصوص الثابتة الصحيحة على أنّ الجنَّ مَخْلُوقُونَ مِنْ مَارِجٍ من نارٍ، أي: من أخْلاَطِ لَهَبٍ صافٍ من النار، وهٰذِه النار قَدْ اشتَدَّ تَوَقُّدُها بسَبَبِ السَّمُوم، وهي الرّيح ذاتُ الحرارة الشديدة الّتي تَنفُذ في مسَامّ الأشياء والأبْدَان.

أمّا الإنسُ فَهُمْ مَخْلُوقُونَ مِن الطّين، وأمّا الملائكَةُ فَهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنَ النُّور.

هٰذِهِ الحقائق قَدْ دَلَّتْ عليها نُصُوصٌ مِنَ القرآن والسُّنَّة، ومِنْها ما يلي:

(١) روىٰ مُسْلِمٌ عَنْ عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال:

«خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

أي: وخُلِقَ آدم من طين، كما جاء بيانُه في القرآن المجيد.

الْجَانّ: هو أبو الجنّ كما ذكر المفسّرون، أو هو جِنْسُ الجنّ، كما ذكر بعْضُ اللُّغويّين، وعلى هذا تُحمَلُ بعض النُّصُوصِ القرآنية.

(٢) قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

(٤) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾: **الصَّلْصَال**: هو الطِّينُ اليابسُ الّذِي إذَا نُقِرَ بشَيْءٍ أعْطَىٰ صَوْتاً فِيهِ تَرْجِيع، ومعلومٌ أنّه لا يكُونُ صَلْصَالاً حَتَّىٰ يَمُرَّ بِمَرْحَلَةِ الطِّين، وقَبْلَ الطّين كان تُراباً وماءً.

﴿مِن سُلَـٰلَةٍ﴾: **السُّلالَة**: ما اسْتُلَّ مِنَ الشيء وانْتُزِعَ برِفْقٍ، كانْتزاعِ الشَّعْرَةِ من العجين الطَّرِيّ اللَّيِّن.

وهكذا تُسْتَلُّ أغْذِيَةُ النّباتات من الطّين، وتُسْتَلُّ عَناصِرُ بِناء الأَجْسَادِ من الأغذِيَة، وتُسْتَلُّ عناصر النُّطفَةِ المنويَّةِ مِنَ الأجْسَادِ الحيَّة.

﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾: **الحَمأُ**: هو الطّينُ الأسْوَدُ الْمُنتِنُ. **المسْنُون**: هو المصوَّرُ المصْقُولُ الْمُمَلَّس.

﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾: **الفخار**: الأواني والأدواتُ الّتِي تُصْنَعُ من الطّين، وتُشْوَىٰ في النار حتَّىٰ تَشْتَدَّ وتتصلَّب.

﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾: أي: وخَلَقْنا المخلُوقَ الأوَّل من الجنّ من نَارٍ تَوقَّدَتْ من ريحٍ حارَّةٍ شديدة الحرارة، وهي الّتِي يُقَالُ لها: «**السَّمُوم**» لنُفوذِها في المسَامّ.

وهٰذِهِ النّار الملْتَهِبَةُ لَهباً صَافِياً مُكَوَّنَةٌ مِنْ عَنَاصِرَ مختلطة، باعتبار أنّ وقودَها عَناصر مختَلِطَةٌ مختلفة.

﴿مِن قَبۡلُ﴾: أي: من قبل خَلْق الإنسان.

﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾﴾: **الجَانّ**: أبو الجنّ. **مِنْ مَارِجٍ**: أي: من مُختلط. **المَارِجُ**: المختَلِط، فهو ذو العناصر المختَلِفَةِ المختَلِطة. ويقال: مَرَجَ اللَّهَبُ إذا ارتفع. **والمارج**: اللَّهَبُ الصافِي من الدُّخان.

* * *

إبليس من الْجِنّ:

إبليس من نوع الجنّ، فهو من سلالَةِ «الْجَانّ» أَبيهم.

لقد كان إبليسُ من الجنّ فانْدَسَّ في صفوف الملائكة، لوجود تشَابُهٍ ظاهِرِيٍّ بين الملائكة والجنّ، وجَعَلَ يتظاهر بالعبادةِ لِلّهِ كالملائكة، حتَّىٰ وَصَلَ إلى صفوف الملأ الأعلى.

ففسَقَ خَارِجاً عن طَاعَةِ أمْرِ رَبِّه، إذْ رَفَضَ أنْ يَسْجُدَ لآدَم، وكان قَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ بأنْ يَسْجُدَ مع الملائكة الَّذِينَ انْدَسّ فيهم، وأمَرَهُم اللَّهُ بأن يَسْجُدُوا لآدم، فكشَفَ بمَعْصِيته أنَّهُ لَيْسَ مِنْ صِنْف الملائكة الَّذِين لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ ما أمَرَهم بالْفِطْرَةِ، ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون، فأخْرَجه الله وطَرَدَه، وجعَلَه من المطرودين الملعونين ومن أهل النار، إذْ أصَرَّ على معصيته ولم يسْتَغْفِر، بَعْدَ ثلاث جَلَسَاتٍ كرَّرَ الله فيها محاكمته، ليَمْنَحَهُ فُرصَةَ التوبة والاستغفار فلَمْ يفعل.

قال الله عزّ وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

* * *

الجنّ سُلاَلَة كالإنْسِ أصْنافٌ وألوان ولهم مذاهب شتى وهُمْ يَرَوْنَنَا مِنْ حَيْثُ لاَ نَراهُمْ:

والجنُّ سُلاَلَةٌ كالإنْسِ أقوامٌ وقبائل، وأصنافٌ وألوان، ولَهُمْ مَسَاكِنُ وَمَنازل، يَرَوْنَنَا مِنْ حَيْثُ لاَ نراهم، وقَدْ يَجْلِسُونَ مَعَنَا، وَيُسَاكِنُونَنا فِي بُيُوتِنَا.

ومنهم الأقزام ومنهم العمالقة، وَمِنْهُمْ الضُّعَفَاءُ ومِنْهُمْ الأشدّاء الأقوياء، ومنهم الْغَوّاصُونَ في البحار، ومنهم الّذِين يسْتَطِيعون القيام بأعمال البناء، ومنهم الّذِين يَسْتطيعُونَ القيام بأعمال الصّناعات كالإنْس.

دلَّ على هذا ما جاء في قصّة سليمان عليه السّلام، إذْ سَلَّطَهُ الله عزّ وجلّ على الْجِنّ، فقال في عَرْضٍ لقطات من قصّته في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

وقد سبَق تدبُّر سورة (ص) فلْيُرْجَعْ إليها. **الشياطين**: هم كفرة الجنّ والدعاة إلى الكفر.

وجاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُصَفُّون ويُرَتَّبونَ بانتِظام.

فأبانت هذه الآية أنّ الله عز وجل قد سلّط سليمان عليه السلام على الجنّ، فاتّخذ منهم جنوداً، وأنه جمعهم مع جنوده من الإنس، وجنوده من الطير، ليَسُوقهم إلى الجهاد في سبيل الله، وهذا لا يدلّ على أن الإنس كانوا يَرَوْن جنوده من الجنّ.

وقال الله عز وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

المحاريب: جمع «**محراب**» وهو صَدْرُ البيت، وأكرم مَوْضِعٍ فيه، والغرفة، وأرفع بيتٍ في الدّار، وأرفع مكان في المسجد، ومحاريبُ بني إسرائيل مساجدهم التي كانوا يجلِسُون فيها.

التّماثيل: المجسَّمَات الّتي تُصْنَعُ على صُوَر الأحياء وغيرها.

الجفان: القِصَاع الّتي تُقَدَّمُ فيها الأطْعِمَةُ لِلأكْلِ منها.

﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: أي: كالأَحْوَاضِ مِنَ الماء، مَفْرَدُها «الْجَابِيَة».

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾: الْقُدور: هي الأواني الّتي يُطْبَخُ الطَّعَامُ فيها، الواحدة منها «قِدْر». **رَاسِيات**: أي: ثابتَات لا تتقَلْقَل لعظمها.

﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾: هي الأرضة، وهي دُوَيبَّةٌ تأكُلُ الخشَبَ ونحوه.

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾: **الْمِنْسَأَةُ**: العصا الغليظَةُ الّتي تكون مع الراعي.

لقد حفظ الله جسَدَ سليمان وهو على كرسيِّه متكئاً على عصَاه بعْدَ موته، حتّى أكلَتْها الأَرَضَة فضعفَتْ فخرَّ جَسَدُهُ إلى الأرض.

وقال الله عزّ وجلّ في عرض بعض قِصّته في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن عَرْشِ بِلْقِيس ملكة سَبأ:

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩﴾.

﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: أي: قَوِيٌّ مَاكِرٌ مِنهم، وكان هذا الجنيُّ العِفْرِيتُ أحَدَ المَلأِ الكبار من جُلَسَاءِ مَجْلِسِ سليمان عليه السلام، ويظهَرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ بِعَطَاءٍ خاصٍّ من رَبِّه يَرَىٰ الجِنَّ، ويَصْطَفِي مِنهُمْ صَفْوَةً لمجَالِسِه، فكان يراهُمْ فيها، في حين أَنّ غَيْرَهُ من جُلَسَاءِ مَجْلِسِهِ لاَ يَرَوْنَهُمْ، وَكان يَسْمَعُ أحاديثَهم وأسْئِلَتَهُمْ وأجْوِبَتَهُمْ في حِين أنّ جُلَسَاءَ مَجْلِسِه لاَ يَسْمَعُونها.

﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾: أي: قبل أن ينتَهِيَ وقْتُ مَجْلِسِكَ المعتاد الّذي تَجْلِسُ فيه للنَّاس.

* * *

الجنّ يأكُلُونَ ويَشْرَبُونَ ويتناكَحُونَ ويَتَنَاسَلُون:

دلّت النُّصوصُ الصحيحة على أنّ الجنّ يأكُلُونَ ويشربونَ، ويَتَنَاكَحُون، ويَتَناسَلُون، إِلاَّ أَنَّ كيفيّات طعامهم وشرابهم وتناكحهم وتناسُلِهم مجهولَةٌ لَنا.

ومن الأدلة على هَذِهِ الصّفات للجنّ ما يلي:

(١) روى مسلم والترمذيّ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ تَسْتَنْجُوا بالرَّوْثِ وَلاَ بالْعِظام، فإنَّها زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنّ».

الرّوث: هو ما تخرجه البهائم من فضلات طعامها، وهو طعام دوابّ إخواننا المؤمنين من الجنّ.

(٢) وروى أبو داود بإسْنَادٍ صحيح عن ابن مَسْعُودٍ أيضاً قال:

«لَمّا قَدِمَ وَفْدُ الْجِنّ عَلَىٰ النبيّ ﷺ قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ انه أُمّتَكَ أَنْ يَسْتَنْجُوا بِعَظْمٍ أَوْ رَوْثَةٍ أَوْ حُمَمَة، فَإنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَنَا فِيهَا رِزْقاً، فَنَهَانا رسُول الله ﷺ عَنْ ذَلِكَ».

حُمَمَة: أي: فَحْمَة، وجَمْعُها «حُمَم».

(٣) وروى مسلم عن ابنِ مَسْعُودٍ أيضاً قال: قالَ رسول الله ﷺ:

«أَتَانِي دَاعِي الْجِنّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ القرآن».

قَال: فانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثارَهُمْ، وآثارَ نيرانهم، وسأَلُوه الزَّادَ، فقال:

«لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْه، يَقَعُ في أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً، وكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لدَوَابّكُمْ».

فقال رسول الله ﷺ:

«لاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فإنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ».

(٤) وروى مُسْلِمٌ عن ابْن عُمَر رضي الله عنهما أنّ رَسُول الله ﷺ قال:

«إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ ويَشْرَبُ بِشِمَالِهِ».

وبما أنّ الشياطين من الجنّ، فقد دلّ هٰذَا الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ الْجِنَّ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وأنَّهُمْ ذَوُو أَيْدٍ كما لِلإنسِ أَيْدٍ، يَعْمَلُون بِها أعمالَهُم، وَيَأْكُلُونَ بِها، وَيَشْرَبُون بها.

(٤) وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنّه سَمِعَ النبيّ ﷺ يقول:

«إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ الله عِنْدَ دُخُولِهِ وعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ، وإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قال: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ والْعَشَاء».

(٥) وروى مُسْلِمٌ أيضاً عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قال: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النبيّ ﷺ طَعَاماً، لَمْ نَضَعْ أَيْدِينَا حَتَّىٰ يَبْدَأَ رَسُولُ الله ﷺ فيضَعَ يَدَهُ، وَأَنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَاماً، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا في الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِها، ثمّ جاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّهُ يُدْفَعُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فقال رسُول الله ﷺ:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لاَ يُذْكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهٰذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِها، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِي لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِها».

فدلَّ هذا الحديثُ على أنّ الجِنَّ يَأْكُلونَ، وأنَّ الشَّيَاطِين مِنْهُمْ يَسْتَحِلُّونَ الأَكْلَ مع الإنسِ مِنْ طعامهم، إذا لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيه، فإذَا ذَكَرُوا اسْمَ اللَّهِ كَانَ هٰذا الذِّكْرُ مَانِعاً لَهُمْ من مُشَارَكَةِ الإنْسِ فِي طَعَامِهِم، بِقُوىً غيبيَّةٍ يُسَخِّرهَا الله عزّ وجلّ، كملائكةٍ تمنعُهُمْ من مَدِّ أيديهم إلى الطعام، ومن الأكْلِ منه.

على أنّ مَوضوعَ الجنّ وتَصَرُّفَاتِهِمْ من الأمور الّتي هي غيْبٌ عن حَواسِّنَا هي وآثارُها فينا، باستثناءِ بَعْضِ الآثار الّتي تَبْدُو في الَّذِينَ يُصِيبُهم

مَسٌّ من الجنّ، بسَبَبِ عَدَم تَحصُّنِهم بذِكْرِ الله، والدُّعاء، وتلاوة القرآن، مع وُجودِ الاستِعْدَادِ في طبِيعَتِهم النفسِيَّةِ لتَقبُّلِ المسّ.

* * *

رسالةُ محمد ﷺ رسالةٌ عامَّةٌ للإنس والجنّ:

دلَّتْ سورة (الجنّ) ونُصوصٌ قرآنيَّةٌ أُخرَىٰ، وأحاديث نَبوِيَّةٌ، على أنّ الرسولَ محمّداً ﷺ قَدْ جاءَ بِرِسَالَةٍ عامَّةٍ شامِلَةٍ لِلْإِنْسِ والجنّ، وهو خاتم الأنبياء والمرسَلِينَ جَمِيعاً إنْسِهِمْ وجِنِّهِمْ.

* * *

هَلْ بَعثَ اللَّهُ رُسُلاً مِنَ الجنِّ إلَىٰ الجنّ؟:

اختلفت آراء عُلَماء المسلمين في الإجابة على هذا السؤال، لكِنْ ترجّح لدَيَّ أنّ الله عزّ وجلَّ قد أَرسَلَ إلَىٰ الجنِّ رُسُلاً مِنْهُمْ، فقد كانوا مَوْضُوعين مَوْضِع الامتحانِ في الحياة الدنيا قبْلَ خَلْقِ آدم عليه السلام، ومُكَلَّفِينَ أن يُؤْمِنُوا، ويَعْمَلُوا الصالحات، ويتركُوا السَّيِّئاتِ، إذْ لَهُمْ إراداتٌ حُرّةٌ، وقُدراتٌ فكريَّة على إدراك الخير والشرّ، والحسَنِ والقَبيحِ، والظُّلْمِ والْعَدْل، والتقوىٰ والبرّ والإحسان، ولهم غرائز وأهواء وشهوات، وقُدْراتٌ ما على تنفيذ ما يريدون من طاعةٍ لله ومعصيَةٍ له.

ومِنْ سُنَّة اللَّهِ العامَّةِ، أن يُرْسِلَ لِمَنْ يضَعُهُمْ موضِعَ الامتحانِ رُسُلاً لهم طبَائِعُ مَنْ يُرْسَلُونَ إلَيْهم.

وصَحَّ مَعَ هٰذِهِ السُّنَّةِ أَنْ يُرْسِلَ إلىٰ الجنِّ رُسُلا بشَراً، لأنَّ للبَشَرِ طبائعَ نَفسِيَّةً مُشَابِهةً لطبائِع الجنّ.

ولمّا كان الجنُّ مخلُوقِينَ قَبْلَ الإنس، كانَ منْ مقتضَىٰ حكْمَةِ اللَّهِ أَنْ لاَ يَدَعَهُمْ دُونَ رُسُلٍ في الْمُدَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا مُمْتَحَنُونَ، مع أنَّهُ لَمْ يكن

يُوجَدُ يَوْمَئِذٍ بَشر، ولا يكونُ رُسُلُ الجنّ من الملائكة، لِأَنَّ طبيعَةَ الملائِكَةِ مُخَالِفَةٌ لطبيعَةِ الإنْسِ والجنّ، فهُمْ لا يَعْصُون اللّهَ ما أَمَرَهُمْ ويفعَلُون مَا يُؤْمَرُونَ، بخلافِ الجِنّ والإنسِ، فقَدْ أبَانَ الواقع أَنَّهُمْ ذَوو طبَائِعَ قابلَةٍ لأنْ تُطِيعَ أو تَعْصِي بإرادة حُرَّة.

وقد جاء في القرآن المجيد ما يَدُلُّ على أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ أرسلَ إلى الجنّ رُسُلاً مِنهم، فقال الله تبارك وتعالى حكايَةً لما سَوْفَ يُخَاطب به الجنَّ والإنسَ يَوْمَ الحشرِ، في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿يَٰمَعْشَرَ﴾: **المعشر**: كلُّ جماعَةٍ أَمْرُهم واحد.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾: أي: يَتْلُونَ عليكم آياتِي بتَتَبُّعِ مُسْتَقْصٍ كلمةً فكلمة، وآيَةً فآية.

تقول لغة: قَصَصْتُ الشَّيْءَ، إذَا تَتَبعْتَ أَثَرَهُ شيئاً فشيئاً، قَصًّا وقَصَصاً.

فقول الله عزّ وجلّ للجنّ والإنس: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟ يَدُلُّ دَلاَلَةً واضِحَةً على أنّ الجنَّ أُرسِلَ إلَيْهم رسُلٌ مِنهم، وأنَّ الإنْس أُرسِلَ إلَيْهِمْ رُسُلٌ مِنْهم.

وحَمْلُ النّصّ على أنَّهُ من بابِ تغليب الإنْسِ على الجنّ خلاف الظاهر، ولا مقتضِي له.

ويضافُ إلى دَلالة هٰذا النّصّ مَا جاء في قصَّة إبليس وهو من الجنّ، ففسَقَ خَارجاً عن طاعة أمْرِ رَبّه، وأنّه كانَ من الكافِرِين باطناً قبلَ آدم، وقَبْلَ أَنْ يكونَ آدمُ رَسُولاً، وقَبْلَ أن يُرْسِلَ اللّهُ من ذُرّيَّتِهِ أحداً.

وما دَلَّت عليه النُّصوصُ منْ أنَّ الجنَّ كانُوا مكلَّفِين أَنْ يُؤمِنُوا بربّهم ويُسْلِمُوا له، وأنَّهُمْ كانوا مُبَلَّغِينَ بأنَّ الحياة الدنيا دارُ امتحانهم، وأنَّها ستنتهي ظروفها، وأنَّهُمْ سيُبْعَثُونَ للحساب، وفَصْلِ الْقَضَاء، وتنفيذ الجزاء.

دلّ على هذا ما جاء في قصَّةِ مُحَاكَمَة الله عزّ وجلّ إبليس علىٰ مغصِيَتِه، ورفْضِه أَنْ يَسْجُد لآدم، إذْ أَمَرَهُ اللّهُ عزّ وجلّ أن يَسْجُدَ لَهُ مع ملائكة الملأ الأعلى، باعتبار أنَّه كانَ مُنْدَسًّا فيهم مُنافقاً، ومتظاهراً بالعبادة والطَّاعة، كأنَّه واحدٌ منهم، طمعاً في أنْ يكونَ بينهم ذا رِياسَةٍ، فقد جاء في هذه القِصَّةِ أنّ إبْليسَ كان من الجنّ ففَسَقَّ عَنْ طَاعَةِ أمْرِ رَبِّه، وأنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ أنْ يُنْظِرَهُ إلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُون، وهذا يَدلُّ على أَنْ قضيَّةَ البعْثِ للحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتحْقِيق الجزاء، من القضايا الَّتي أُمِرَ الجنُّ بأَنْ يُؤْمِنُوا بها، وكان ذلك قَبْلَ خَلْق آدم.

وإذْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ آدم عليه السّلام رُسُلٌ من الإنس، فلاَ بُدَّ أن يكونَ الرُّسُلُ الْمُرْسَلُونَ إليهم من الجِنّ.

فينْبَغِي حَمْلُ الآيَةِ علَىٰ ظاهِرِها دُونَ تأويل، وإثباتُ أَنَّ اللّهَ عزَّ وجلّ قَدْ أَرْسَلَ إلى الجنّ رُسُلاً منهم.

لَكِنْ بَعْدَ أَنْ أَرسَلَ اللّهُ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ إلى البَشَرِ رُسُلاً مِنْهُمْ، مُبشِّرين ومُنْذِرِين، وصار باستطاعة الجنّ أَنْ يَتَبَلَّغُوا دِينَ اللّهِ عن طَرِيق الرُّسُلِ من الإنسِ، ولمّا كان تكوينُ الإنسِ أكْمَلَ وَأَحْسَنَ تَقْوِيماً من الجنّ، مع الاشتراك في طبائِعَ نَفْسِيَّةٍ مُتَشابهة، فقَدْ يكونُ من الحكْمَةِ الرَّبانيّة الاكتِفَاءُ بِرُسُل الإنسِ، لتَبْلِيغ الجنّ دينَ رَبّهم.

ورُبَّما كَانَ لهم أَيْضاً مع الرُّسُل من الإنسِ رُسُلٌ من الْجِنّ في عُصُورٍ سلَفَتْ، قَبْلَ بِعْثَة محمّد ﷺ، إذْ جعلَهُ اللّهُ رَسُولاً للإنس والجنّ، وخاتم الأنبياء والمرسَلين جَمِيعاً.

وكَوْنُ الرُّسُل والأنبيَاء بَعْدَ نُوحٍ علَيْهِ السَّلاَمُ من ذُرِّيَّته، وكَوْنُ اللّهِ عزّ وجلّ قَدْ جعَلَ في ذُرِّيَّةِ إبراهيم عَلَيْه السَّلام، النُّبوّة والكتابَ، كما جاء في النصوص القرآنيّة، لا يتعارَضُ مَعَ الَّذِي تَرَجَّحَ لدَيَّ في هذا الموضوع، فقد يكون للجنّ رُسُلٌ قَبْلَ نوح عَلَيْهِ السّلام، وقَدْ يكون ما جاء بشأن نوح وإبراهيم عليهما السَّلام خاصًا بالإنسِ، لأنَّ سوابق النُّصوص ولواحِقَها تتحدَّثُ عن الإنسِ دُونَ الجنّ.

* * *

الجنُّ يمُوتُونَ ويُبْعَثُونَ يوم القيامة للحساب والْقَضاء والجزاء:

ثبت في القرآن والسُّنَّة أَنَّ الجِنَّ يمُوتُون، وأَنَّهم يُبْعَثُونَ يوم القيامة، للحساب، وفَصْل القضاء، وتَنْفيذ الجزاء.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/٤٦ مصحف/٦٦ نزول) بشأن الكافِرين الخاسِرين إبَّانَ التَّنْزيل:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

فأَبَانَ اللّهُ عزّ وجلّ في هٰذا النَّصّ أَنَّهُ قَدْ خَلَتْ قَبْلَ الكافِرِينَ المعاصِرين لرسالة الرسول محمّد ﷺ أُمَمٌ مِنْ قبلهم، وهٰذِه الأمم تنقسم إلى قسمين:

- قِسْم من الجنّ.
- وقسم من الإنس.

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَتْ بالْمَوْتِ، فنظام الحياة والموت نظامٌ يَشْمَلُ الجنَّ والإنْسَ.

وقَدْ عَلِمَ إبليسُ وهو من الجِنّ، أَنَّهُ خاضِعٌ لِنظام الموتِ، كسَائِر

الجنّ، فسألَ رَبَّه بَعْدَ أن حَكَمَ عليه بالإخراج من الملأ الأعلى، والطَّرْدِ واللّعْن، أنْ يُنْظِرَهُ فَلا يُمِيتَهُ إلى يوم البعث، فَوَعَدَهُ الله ـ جلَّتْ حكْمَتُهُ وعَظُمَ سلطانُه ـ بأنْ يُنْظِرَهُ ولكِنْ لاَ إلَىٰ يَوْمِ الْبعْث، بلْ إلَىٰ وقْتِ إنْهَاءِ ظُرُوف الحياة الدُّنيا، ضِمْنَ المنْظَرِينَ إلى ذَلِكَ الوقْتِ من الملائكة، وبَعْدَهَا لاَ يَبْقَىٰ حَيٌّ في الوجُودِ كُلِّهِ إلاّ الله عزّ وجَلّ:

قال الله عزّ وجلّ في آخر سورة (الْقَصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ودلّ على أنّ الجنّ يموتُون، ما رواه البخاريُّ وابن حِبَّان، عن عبد الله بن عبّاسٍ رضي الله عنهما ـ أنّ النبيّ ﷺ كانَ يقولُ:

«أعُوذ بِعِزَّتِكَ الَّذي لاَ إله إلاّ أنْتَ، الَّذي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ والإنْسُ يَمُوتُون».

وجاء في بيان تَعْذِيب كفَرَةِ الجنّ في النار يوْمَ الدِّين قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكايةً لما يُخاطبُ به الَّذين كانُوا يفترونَ على الله كذباً، ويُكَذِّبُونَ بآياتِهِ كافرين:

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ... ﴿٣٨﴾﴾.

فدَلّ هذا النصّ على أنّ حالَ الجنّ كحال الإنْسِ امتحاناً وتكليفاً في الدُّنيا، وجزاءً يَوْمَ الدين.

وجاء فيها أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

مَا وَرَدَ بَشَأن وُفود الجنّ إلىٰ الرَّسُول ﷺ:

أوّلاً:

جاء في القرآن الكريم بشأن من وفَدَ إلى الرسول ﷺ من الجنّ نصانِ:

النّص الأوّل: مَا جَاء في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) وهو النّصّ الّذي أجتهد في تدبُّره إن شاء الله، خلال تدبّر دُرُوس السّورة.

النّص الثاني: ما جاء في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) وهو الآيات من (٢٩ ـ ٣٢) من هذه السورة.

وقد دلَّ ما جاء في النَّصِ الذي من سورة (الجنّ) على أنَّهُ يتحدَّث عن وفْدٍ لَمْ يَعْلَم الرَّسُول ﷺ بحضورهم، واستماعهم القرآن منه، ولم يَعْلَمْ بإيمانهم، ولا بانصرافهم إلى قومهم دُعاةً إلى دين الله، حتَّىٰ أَعْلَمَهُ الله بذلك، وأنزل عليه سورة (الجنّ) وأَمَرَهُ بأن يُحَدِّث الناسَ بخبرهم، كما جاء في هذه السورة.

أمّا ما جاء في سورة (الأحقاف) فليس فيه ما يَدُلُّ على أنّ الرسُولَ ﷺ لم يكُنْ يعلَمُ بحُضُورهم لدَىٰ وُفُودِهم إليه، ويُمْكن أنْ يُحْمَلَ علَيْه بعضُ ما ورَدَ من الأحاديث، الّتِي جاء فيها ذكْرُ وِفَادَة الجنّ إلى الرسول محمّد ﷺ.

ويَحْسُن تَدَبُّر النّصّ القصير الذي جاء في سورة (الأحقاف) قبل الدخول في تَدَبّر سورة (الجنّ) ذاتِ البيان الطويل الذي اشتملت عليه حكاية أقْوالهم، ليتّضِحَ التكامل بين النَّصَّيْن لدى المقارنة بينهما.

تدبّر نصّ الأحقاف بشأن وفْدٍ من وفود الجنّ إلى الرسول:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾.

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي: وَضَعْ في ذاكِرَتِكَ يا مُحَمَّد هذا الحدَثَ الذي جرَىٰ وقتَ صَرْف نَفَرٍ مِنَ الجنِّ عَمَّا كَانوا فيه، وأرسَلْنَاهُمْ إِلَيْكَ، واذْكُرْهُ في بياناتك التي تدعوَ بها إلى سبيل ربّك.

ضُمِّنَ فِعْلُ «صَرَفَ» معنىٰ فعْل «أَرْسَلَ» وعُدِّي تَعْدِيته، فأَغْنَتِ الجملة عَنْ جُمْلَتين، إحداهما دَلَّ عليها الفعل في ﴿صَرَفْنَآ﴾ والأخرى دلَّت علَيْها عبارة ﴿إِلَيْكَ﴾ وهذا من الإيجاز البديع في القرآن.

أَصْلُ فعل «صَرَفَ» يُعَدَّىٰ بحرف «عن». يقَالُ صَرَفَهُ عَنِ الأمْرِ، أو عن العمل. والمناسبُ للتعْدِية بـ ﴿إِلَيْكَ﴾ في هذا البيان فعل «بَعَثَ» أَوْ «أَرْسَلَ».

وتَحدَّثَ اللَّهُ عزَّ وجَلّ في هٰذَا البيان بنُونِ المتكلّم العظيم للإشعار بأنّ هذا الصَّرْفَ وهذا الإرْسالَ، قَدْ كَانَا بوسَائلَ لطيفةٍ خفيَّةٍ، لا يملكُها إلاَّ الرَّبُّ القديرُ اللَّطيفُ الخبير.

- ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: النَّفَر: يُطْلق على عدَدٍ مِنَ الرّجال ما بين الثلاثَةِ إلى العشرة. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفةٌ للفظ ﴿نَفَرًا﴾.

- ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: جملةٌ في محلّ نَصْب على أنها صفةٌ لـ «نَفَراً» أي: نَفَراً مستمعين للقرآن بعنايةٍ وقَصْدٍ، ويَدُلُّ هذا على أَنَّهم قَدْ بَلَغَتْهُمْ أنباءُ بِعْثَةِ الرّسول محمّد ﷺ، ونُزُولِ كِتَابٍ عَلَيْهِ من رَبّ العالمين،

فانبَعَثُوا لاستماع بعْضِ ما جاء في هذا الكتاب من تلاوة الرَّسُول الذي أرسلَه الله للإنْس وللجنّ. فالمعنى: نفراً موصوفين بأنهم من الجن، وبأنهم قدموا وهم يقصدون منذ بدْء توجههم استماعَ القرآن من الرسول محمد ﷺ.

ولا بُدّ أن يكون هؤلاءِ النفر من فضلاءِ وعقلاءِ وسَادَةِ قَوْمِهِم من الجنّ، ولعلّهم قد وفَدُوا إلى الرسُول بطَلَبِ منهم، إذ انْتَشَرَ بيْنَ الجِنّ أنَّ رَسُولاً في مكّة أَرْسَلَهُ اللّهُ، وأنْزَل عليه كتاباً.

أمّا كيف صرفهم الله إلى الرسول فلم يأت في النصّ ولا في بيانات الرسول ما يدُلُّ عليه.

- ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾: أي: فَحِينَ حضَرُوا القرآنَ والرَّسُولُ يتْلُوه. يُقَالُ لغةً: حضَرَ فُلاَنٌ الْمَجْلِسَ وَنَحْوَهُ، أي: شهِدَه.

فالمعنى: فحين شَهِدُوا تلاوة القرآن من الرسول ﷺ.

- ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾: أي: قال بعضُهم لبعْضٍ: اسكتُوا، ولا يَكُنْ من أحَدِكُم صَوتٌ ما، حتّى نُحْسِنَ الاستماع.

الإنْصَاتُ: هو السُّكوتُ وعَدَمُ الكلام، وعَدَمُ إحداثِ أي صَوْتٍ بمعنًى أو بغَيْر معنى، والسَّبَبُ في طلب الإنْصَاتِ تهيئَةُ الجوّ للاستماع الجيّد.

يقال لغة: أنْصَت فلانٌ فلاناً، أي: أسكته.

- ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾: أي: فحِينَ أُنهِيَ المقْدَارُ الّذِي كانَ الرَّسُولُ قد عَمَدَ إلى تلاوته من القرآن ﴿قُضِىَ﴾ بالبناء لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، ونائب الفاعل ضَمِيرٌ يعودُ على القرآن الّذي كان الرَّسُول يتْلُوه.

- ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: ﴿وَلَّوْاْ﴾: أي: أَدْبَرُوا ونَأَوْا ذَاهِبين

﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾ مِنَ الجنّ ﴿مُّنذِرِينَ﴾: أي: مبلّغين أولاً، وداعين إلى دين الله، ومُبَشِّرين من آمَنَ بالنعيم المقيم، ومُنْذِرِين أخيراً مَنْ كَفَرَ بعذابٍ أليمٍ، حَرِيقاً في الجحيم.

جاء التعبيرُ بالإنْذَارِ آخِرِ فِقَرَةٍ من فِقَرات الدَّعْوَة إلى دين الله، لِيَدُلَّ باللُّزوم الذِهْنِيّ على مَا يكونُ قَبْلَهُ من فِقراتٍ دعَوِيَّةٍ، يقتضيها الترتيبُ الحكيم، في الْبَيَان والإعلام، والدَّعْوةِ للدُخول في دينٍ متكامل البنيان، راسخ الأركان، عظيم الإتقان.

الإنْذَارُ: الإعْلَامُ بما هو مَخُوفٌ منه، ويجب على أهل الْعَقْل والرُّشْدِ أَنْ يتَّقُوه. والإنْذَار: التحذير والتخويف من شرّ.

- ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾: هذا بيانٌ تمهيديٌّ لبَدْءِ دَعْوَتهم قَوْمَهُمْ مِن الجنّ، وهذا يدلُّ على أنّ الجنّ أقوامٌ يُشْبِهُونَ في تقسيماتِهم أقوامَ الإنْسِ.

- ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾: أي: إنّا سَمِعْنا آيات من كِتَابٍ رَبَّانِي، أُنْزِلَ عَلَىٰ رسُولٍ من بَعْدِ مُوسَىٰ وكِتَابِهِ التوراة.

ويُشْعِرُ هذا البيانُ أنَّ هؤلاءِ النَّفَرَ مِنَ الجنّ كانُوا يَهُوداً، لذكرهم موسَىٰ عليه السّلام وكتابَه، وعَدَمِ ذِكْرِهم عيسَىٰ عليه السلام والكتابَ الَّذِي أُنْزِلَ علَيْه.

- ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: أي: مُصَدِّقاً لِمَا سَبَقَ إنزالُه من كُتُبٍ رَبَّانِيَّة، وللأنبياء والرُسُل السَّابِقِين للرَّسُولِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هذا الكتابُ الّذي سَمِعْنا بعْضَ آياته المنزَّلاَت.

الزمان الماضي هو ما بيْن يدي الأحياء المدركة، وأمّا المستقبلُ فهو الذي يكون خلفَهم لأنهم يجهلُونه.

- ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٠﴾: أي: يَهْدِي بما اشْتَمَلَ علَيْهِ من بيان إلىٰ أصْلَيْنِ رَئيسَيْن، هما:

الأصل الأول: الحقُّ في بيان العقائد الإيمانيّة، وفي بيان الأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلة، وفي بيان ما في الكون.

الأصل الثاني: الطريق المستقيم، وهو طريقُ سلُوكِ ذوي الإراداتِ الحرَّة، في رِحْلَة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، سواء أكان سلوكاً ظاهراً أم باطناً.

يقال لغة: هدَىٰ فلانٌ فلاناً الطَّرِيق، وهَدَاهُ لَهُ، وهَدَاهُ إليه، أي: عَرَّفَهُ به، وبَيَّنَهُ له.

هذه هي المقالة الأولى الّتي وجّهوها لقومهمْ في دَعْوَتهم قومهم إلى دين الإسلام.

● ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ نداءٌ دَعَوِيٌّ بَعْدَ النداءِ التمهيديّ الأوّل. أي: يَا قومنا أطيعوا داعي الله فيما يدعو إليه من إيمان وعمل.

يقال لغة: أجابَ دَعْوةَ الداعي، أي: قَبِلَ دعوته، وأطاعه، وحقَّقَ ما طلب منه.

وصفوا الرَّسُولَ محمّداً بأنّه دَاعِي الله، أي: الداعِي المبلِّغُ دينَ الله.

وكذلك وَصَفُوا القرآن بأنه داعي الله، أي: الْبَيَانُ المبيِّنُ دينَ الله.

وكُلٌّ منهما ينادِي: استجيبوا لدَعْوةِ الله، وأطيعوه، ولا تعصُوا، ونحن نناديكم فندعوكم إلى قَبُولِ الدّعوة، والطاعَةِ، والاستجابة بالإيمان بالحقّ، وسُلُوك الطريق المستقيم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا.

● ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾: الضمير يعُودُ على الداعي، وهو يشْمَلُ الرَّسُولَ والقرآنَ، أما الرَّسُول فَلأَنَّهُ رسُولُ الله الذي يُبَلِّغُ عن الله كتابَه، وبيانات الدين الذي أرسله الله به، وأَمَّا القرآنُ فِلأَنَّهُ كِتَابُ الله المشْتَمِلُ على مطلوب الله من عباده في رحلة امتحانهم.

● ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: أي: يَسْتُرْ لَكُمْ بعْض ذُنُوبكم بسبب الإجابَةِ والإيمان، وإذا سَتَرَهَا فإنَّهُ لاَ يُحَاسِبُكُمْ عَلَيْها، ولا يجازيكُمْ بعذابٍ عليها. ذكروا بعض الذنوب احترازاً من الذُّنُوبِ الّتي تَتَعَلّقُ بها حقُوق العباد.

غَفرُ الذُّنُوبِ سَتْرُهَا، وفَوقَهُ الْعَفْوُ، وفوقَهُمَا رَفْعُ الْجُنَاح، وفوقَها جميعاً أنْ يُبَدِّلَ اللَّهُ سَيّئاتِ المذنبين حَسَناتٍ.

● ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: ويَحْمِكُمْ مِنْ عذابٍ أليم في جَهَنَّمَ، فلا يُعَذِّبكم بالحريقِ فيها بسبب إيمانِكُمْ، فالإيمانُ يكون سبباً في وقايتكم.

يقالُ لغة: أجَارَ فُلاَنٌ فلاناً، أي: حَمَاهُ، وحَفِظَهُ، وَدَفَعَ عَنْه ما يكْرَه، ووَقَاهُ ممَّا استجار به منه.

فالجنُّ يعذَّبُون في النار كالإنسِ، إذا كانوا من الْكَافِرينَ المجرمين.

ومن أجارَه الله من الخلُود في عذاب النار أدْخَلَهُ الجنَّةَ لا محالة، سواءٌ أكان من الإنس أم من الجنّ، لقول الله عزّ وجل خطاباً للجنِّ والإنْسِ في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

ومعلوم أن المتقين من الجنّ قد خافوا مقام ربّهم يوم الدّين.

الفعْلان ﴿يَغْفِرْ﴾ و[يُجِرْ] مجزوان على أنَّهما واقِعَانِ في جواب الطَّلَب في: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾.

● ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَعْصِ بعَدَمِ إجابَتِهِ دعْوَةَ الرَّسُولِ، وَدَعْوَةَ القرآن، إلى الإيمانِ والإسلام، واتّباعِ الرَّسُولِ، واتّباعِ مَا أُنزِلَ للْمَوْضُوعِين مَوْضِعَ الامتحان في الحياة الدُّنيا من رَبِّهِمْ. ﴿مَنْ﴾ اسم

شَرْط جازم ﴿لَّا يُجِبْ ﴾ الفِعْلُ مجزوم على أنّه فِعْلُ الشَّرْط. وجوابُهُ دَلّت عليه عبارة:

● ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: فلَيْسَ بقادِرٍ علىٰ أنْ يَفْلَتَ من عقاب اللّهِ وَعَذَابه، مَهْمَا كانَتْ له قُدْرَةٌ على الْهَرَبِ، واجتياز المسَافاتِ بِسُرْعَاتٍ فائقات، إذْ هُوَ مُحَاطٌ بِقُدْرَةِ الرَّبّ من وراء كلّ الأبْعَادِ، الّتي يَتَوَهَّمُ أنَّهُ يُمْكِنُ أن يَهْرُبَ إلَيها، بقُدْرَاتِه العفريتِيَّة.

وقد جاءت هذه العبارة كِنَايَةً عن جواب الشرط، الّذِي يَدُلُّ دَلاَلَةً مباشِرَةً على نُزُول العقاب به لا محالة.

والمعنى: فَهُو مُعَذَّبٌ عَذَاباً أليما لاَ محالة، فلَو حاوَل الْهَرَبَ ليُفْلِتَ من العذاب، فلَيْسَ بمُعْجِز الْمَلاَئكةَ المأمُورينَ بالْقبضِ عَلَيْهِ، وبِتَعْذِيبه، وبإدْخاله جهنَّم دَارَ عذاب الكافرين المجرمين، فَضلاً عن أن يُعْجِزَ اللّهَ هرَباً، وهو الذي خلَقَهُ ومَنَحَهُ قُدراتِه التي يقطع بها المسافات الشّاسِعات، بسُرْعاتٍ فَائِقَات.

وجاءَتْ عِنايَةُ هؤلاء النَّفَرِ المؤمنينَ من الجنّ، بِالتَّوجيه في دَعْوَتِهِم لقوْمهم، لحقيقة أنّهم لا يُعْجِزُونَ رَبَّهُمْ في الأرض، إذا أراد اللّهُ معاقَبَتَهُمْ، نظراً إلىٰ أنَّ قَوْمَهُمْ من صنف الجنّ الطيَّارِين، الّذِين قَدْ يتَوَهَّمُونَ أنَّهُمْ قَادِرُون علىٰ الْهَرَب من جُنُودِ اللّهِ، بسَبَبِ ما آتاهُمُ اللّهُ من سُرْعَاتٍ فائقَاتٍ.

● ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾: أي: ولَيْسَ لَهُ من دُون اللّهِ نُصَراء يَنْصُرونَهُ، فيَدْفَعُونَ عَنه عذابَ الله علَىٰ معْصِيته وكُفْرِه.

الأولياء: هُنَا النُّصَراءُ الّذين يحْرِصُونَ على نُصْرَةِ أتباعهم، أو إخوانهم، والذين كانوا في أزمَان الامتحان يحرّضُونَ من يَتْبَعُهم على الإثم والظلم ونَشْرِ الفساد في الأرض.

- ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾: جاءت الإشارة إلى ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ باسم الإشارة الذي يُشارُ به إلىٰ الجمع، نظراً إلى أنّ اسم الشرط «مَنْ» لَهُ اعتباران، فلَفْظُهُ لفظُ مُفْرَدٌ، ومعناه قَدْ يكون جمعاً، فعلىٰ لفْظِهِ يُعَامل معامَلَة المفرد، وعلى اعتبار معناه يجوز معاملته معاملة الجمع.

وجاء اسم الإشارة الموضوع للمشارِ إليهم البعيدين، للإشعار بِبُعْدِهم مُتَسَفِّلين في اتجاه الدّركِ الأسفل، أو هم من أهل الدرْك الأسفل من النارِ، وهذا الْبُعْد السَّحِيقُ قَدْ أبْعَدَهُمْ عن تنزُّلاَتِ رَحَمَاتِ الله، إذْ جعَلُوا بيْنَهُم وبينها حُجُباً من الكُفْر باللّهِ وبِرسُوله وبِكتابِه، وعَدَمِ اتّباعِهم ما أنزل الله لعباده الموضوعين موضع الامتحان، وأمَرَهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا به.

ونلاحظ في دَعْوَةِ هؤلاء الفضلاء من الجنّ، أَنَّهُم اخْتَارُوا لدىٰ دَعْوَتهم قَوْمَهُمْ، التوجيهَ للكليّات الكبرىٰ، الّتي تَقَعُ في الدّرجةِ الأولى من الأولويَّاتِ الدّعَويَّة إلى دِينِ الله الحقّ.

* * *

ثانياً:

ومما جاء في السُّنّة بشأنِ وفاداتِ وفودٍ من الجنّ إلى الرسول محمد ﷺ، لاستماع القرآن، ولتلَقّي ما يُحَدِّثُهُمْ به من قضايا الدين ما يلي:

(١) روىٰ البخاري ومُسْلم وأحمد والترمذي وغيرهم عن ابن عباسٍ قال: انْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ في طائفةٍ من أصحابه، عامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكاظ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهب، فَرَجعَتِ الشّياطينُ، فقالُوا: مَا لَكُمْ؟ فقَالُوا: حِيلَ بيْننا وَبيْنَ خَبَرِ السَّماء، وأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهب.

قالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إلاَّ شيْءٌ حَدَثَ، فَاضرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، لِتَعرِفُوا مَا هَٰذَا الْأَمْرُ الّذِي حَالَ بَيْنَكُم وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ.

فانطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ ومَغَارِبها، يَنْظُرُونَ مَا هَٰذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاء.

قال: فانطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِنَخْلَة(١)، وهُوَ عَامِدٌ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ(٢)، وهو يُصَلِّي بأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فلَمَّا سَمِعُوا القرآن تَسَمَّعُوا له، فَقَالُوا: هَٰذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ، فقالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وَأَنْزَلَ اللَّهُ على نبيّه ﷺ:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْل الجنّ.

ورُوي عن ابن مَسْعودٍ أَنَّهم كانوا من جنِّ نَصِيبين.

(٢) وروى مُسْلِمٌ عن علْقَمة، قال: سأَلْتُ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقُلْتُ، هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الجنّ؟.

قَالَ: لاَ، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ. فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ والشِّعَابِ. فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ(٣)، أَوِ اغْتِيلَ.

قال: فبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْم، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ من قِبَلِ حِرَاء.

---

(١) **نخلة**: أَحَدُ واديين على ليلة من مكة في اتجاه الطائف، يقال لأحدهما: نخلة الشامية، ويقال للآخر: نخلة اليمانية.

(٢) **عكاظ**: مكان قريب من الطائف.

(٣) **استطير**: أي: طَارَتْ بِهِ الجنّ.

قال: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْنَاكَ، فَطَلَبْنَاكَ، فَلَمْ نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فقال:

«أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ» قال: فانطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ، وآثَارَ نِيرَانهم، وسَأَلُوه الزَّادَ، فقال:

«لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً، وكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ».

فقال رسُول الله ﷺ:

«فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ».

ورُوي عن ابن مسعود أنهم سبعة أحَدُهم زَوْبعة، ورُوي عَنه أَنَّهُمْ كانوا تِسْعَةً.

وظاهر أَنَّ مَا جَاءَ في هذا الحديث، يَدُلُّ على وِفَادَةٍ لِلْجِنّ غير الوفادة الّتِي دَلَّ عَلَيْها الحديث الذي جاء ذِكْرُهُ قبلَه.

وجاء بيانُ وِفَادَاتِ الجنّ إلى الرسول ﷺ في أحاديث مُتَعَدِّدَة، ونَفْهَمُ من هٰذِهِ الأحاديث المتَعَدِّدَةِ، أَنَّ وفاداتِ الجنِّ إِلَىٰ الرسُول ﷺ قَدْ كانت متَعَدِّدَة، أَوْصَلَهَا بَعْضُهُمْ إلىٰ سِتِّ وِفَادَات.

وبِنَاءً علىٰ هٰذا فَمَا جَاء في سُورَةِ (الجنّ) يَدُلُّ علىٰ حادثَةٍ غير الحادثَة الَّتي دَلَّ عليها النَّصُّ الذي جاء في سورة (الأحقاف).

وتوجَدُ وِفادات أُخرَىٰ لم يأتِ بيانٌ عنها في القرآن المجيد.

(٣) وَمن هذه الوفادات لقاء الرسول ﷺ بالجِنِّ في مكة، في مكانٍ يُعْرَفُ بالْحَجُون، ويُوجَدُ فيه الآن مَسْجِدٌ يُسَمَّىٰ «مَسْجِدَ الْجِنّ».

وقد اسْتَصْحَبَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَ أَرَادَ الْخُرُوجَ إليهم، «عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ» وأَجْلَسَهُ الرَّسولُ في مَكانٍ، وخَطَّ عَلَيْهِ خَطًّا في الأرْضِ، وقالَ له: «لاَ تُجَاوِزْهُ».

ثُمَّ مَضَىٰ إلى الْحَجُونِ، وابْنُ مَسْعُودٍ يَنْظُرُ، وكان الجنّ في هٰذِهِ المرَّةِ كثيرين، حتَّىٰ غَشُوهُ من كَثْرَتِهِمْ، فَصَارَ ابْنُ مَسْعُودٍ لاَ يَرَاهُ، فَأَسْمَعَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ القرآن.

وسَأَلُوهُ الزَّادَ، فزَوَّدَهُمُ الْعَظْمَ مِنْ بَقَايا طَعَام المسلمين، وزوَّدهم الْبَعَر، أي: لدوابّهم، كما جاء في صريح بعض الرِّوايَات.

وجاء في بعض الروايات كلمة «الرَّوْث» بدل «البعر».

(٤) ومن هَٰذِهِ الوفادات لقاءُ الرَّسُول ﷺ وفْداً مِنَ الجنّ بالمدينة، بَعْدَ الهجرة، واستَصْحَبَ الرّسُولُ معه في هذا اللّقاء الزبير بْنَ العوّام، وَمَشَىٰ بِهِ حتّىٰ ابتَعَدَ عَنِ الجبال، ووصل إلى أرضٍ فضاء واسعة.

قال الزبير بْنُ العوّام رضي الله عنه: وأَفْضَيْنَا إلىٰ أَرْضٍ بَرَازٍ، فإذا رِجالٌ طِوالٌ كأَنَّهُمُ الرّماح، مستَثْفِري ثيابهم(١)، مِنْ بَيْنِ أَرْجُلِهِمْ، فلمَّا رَأَيْتُهُمْ غَشِيَتْنِي رِعْدَةٌ شديدةٌ، حتَّىٰ ما تُمْسِكُنِي رِجْلاَي مِنَ الْفَرَقِ(٢)، فَلَمَّا دَنَوْنا منهم، خَطَّ رَسُولُ الله ﷺ بإبْهَام رِجْلِهِ في الأرض خطّاً، فَقَالَ لي:

«أقْعُدْ في وَسَطِهِ».

فلمَّا جَلَسْتُ ذَهَبَ عَنِّي كُلُّ شيْءٍ أجِدُهُ مِنْ رِيبة، ومضىٰ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنِي وبينهم، فَتَلاَ قُرْآناً رَفِيعاً حتَّىٰ طلَعَ الفجر، ثُمَّ أَقْبلَ حِينَ مَرَّ بي فقال لي: «الْحَقْ». فجَعَلْتُ أَمْشِي مَعَهُ، فمضَيْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ، فقال لي: «الْتَفِتْ فَانْظُرْ هَلْ تَرَىٰ حَيْثُ كَانَ أُولَئِكَ مِنْ أَحَدٍ؟».

---

(١) **الاستثفار بالثوب**: هو لَمُّ أطرافه وأَخْذُها مِنْ بَيْنِ الفخذين، فربطها في الوسط، وهذا عند الاستعداد للمصارعة ونحوها.

واستثفار الحائض هو اتّخاذها خِرْقَةً عَرِيضَةً بيْنَ فَخِذَيها تشدها في حزامها.

(٢) **الفرق**: الخوف.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَىٰ سَوَاداً كَثِيراً، فَخَفَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ إِلَىٰ الأَرْض، فنظَمَ عظْماً بروث⁽¹⁾، ثُمَّ رَمَىٰ بِهِ إِلَيْهِم، وقَالَ:

«رَشُدَ أُولَئِكَ مِنْ وَفْدِ قَوْم، هُمْ وَفْدُ نَصِيبِينَ، سَأَلُونِي الزَّادَ، فجعَلْتُ لهم كُلَّ عَظْمٍ وَرَوْثَة».

قال الزُّبَيْر: فلا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَنْجِيَ بعَظْمٍ وَلاَ رَوْثَةٍ أَبداً».

قال الهيثمي في مَجْمَعِ الزَّوائِد: رَوَاهُ الطَّبَرانِيُّ في الكبير، وإسناده حَسَن.

فالعظْمُ الذي يَرْمِيه المسْلِمُونَ يجْعَلُ اللَّهُ مِنْهُ طَعَاماً لإخوانِهم المسْلِمينَ من الجِنّ، ورَوْثُ دوابّ المسلمين يَجْعَلُ اللَّهُ منْهُ طعاماً لدوابّ إخوانهم المسلمين من الجنّ، لذَلِك فلا يَحِلُّ لنا أنْ نُنَجِّسَ لهُمْ طَعَامَهُمْ، لما في ذلك من إيذاء لهم، وإفسادٍ لما جَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ لَهُمْ وَلِدَوابِّهم من طعام.

* * *

احتمال حضور الجنّ مجالس الرسول اليوميّة:

واحتمال أنّ من الجنّ من كانوا يحضُرون مجالس الرسول ﷺ اليوميّة، لتلَقّي المعارف الدينيّة، وتبليغها لأقوامهم، احتمال قائمٌ، وهو الراجِحُ، لأنّهُمْ بعد أن يتبلّغوا وَيؤمنُوا، فإنّه يجب عليهم أن يتعلّمُوا أمور الدين الذي آمنوا به، واتبعوا رَسُولَه، وإِنْ كُنّا لاَ نَمْلِكُ دليلاً من القرآن والسنة على هذا.

* * *

---

(١) أي: جَمَعَهُما بيده.

تتمة متفرّقات عن الجنّ في النصوص القرآنيّة:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول):

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (١) مَلِكِ ٱلنَّاسِ (٢) إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ (٣) مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ (٤) ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ (٥) مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ (٦)﴾.

جاء في هذه السّورة ذِكْرٌ لِلْجِنِّ الَّذِين يُوَسْوِسُونَ فِي صُدُور النّاس، لإغْوَائِهم، وإغْرَائِهِمْ، بمَعْصِيَةِ الله، وبفِعْلِ الشّرّ، وهؤلاء هُمْ من شياطين الجنّ.

الجِنّ والجِنَّة: لفظان يُطْلَقَانِ على جنسٍ من مخلُوقاتِ الله عزّ وجلّ، يشبهون في صِفاتهم النفسيّة الإنس، ويختلِفُون عن الإنْسِ في تكوين أجسادهم، وهم مَسْتُورونَ عن أعْيُن الإنس.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجل في سُورَةِ (الإسْراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) مُتَحَدِّياً الإنْسَ والْجِنَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذا القرآنِ، الَّذِي يُنَزِّلُهُ على رسُوله محمّد بن عبد الله ﷺ، وقد أمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بأنْ يُوَجّه هذا التحدّي:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾.

وبدأ اللَّهُ بالإنْسِ لأنَّهُمُ المعْنِيُّونَ بالدَّرَجَةِ الأولىٰ بالتّحدّي، ولِأَنَّهُمُ الأقْدَرَ بياناً، والأعْلَمُ بمواطِن الإعجاز البلاغيّ.

[ظهيراً]: الظهير: المعين.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بشأنِ طائفةٍ من المشركين الَّذِينَ جَعَلُوا بَعْضَ الجِنّ شُرَكاء لله:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾.

﴿وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾: أي: واخْتَلَقُوا افْتِرَاءً وَكَذِباً، فَنَسَبُوا إلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، مَعَ أَنَّهُ ـ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُبْدِعُ السَّمَاواتِ والأَرْضِ علَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سبَق، ويَسْتَحِيلُ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، أَوْ أَنْ تَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ.

كيْفَ يكُونُ له صاحِبَةٌ أو وَلَدٌ وهو الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ.

النّص الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)﴾.

أي: وَكَذَلِكَ الّذي حصَلَ مِنْ عَدَوَاةِ المشْرِكِين وأوليائِهِمْ مِنَ الجِنّ للرَّسُولِ محمّد ﷺ، جَعَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بمقْتَضَىٰ التكوين الْقَدَرِيّ العامّ، الَّذِي هو نتيجة طبيعيَّةٌ لجَعْلِ الجنّ والإِنسِ مُخَيَّرِين غيْرَ مجْبُورين في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، حياة الابتلاء، أَنْ يُوجَدَ في الإِنْسِ والجنّ كَفَرَةٌ مُجْرِمُونَ، وَأَنْ يكُونُوا بمقْتَضَىٰ كُفرِهِمْ أَعْدَاءً للحَقّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وأعْداءً لِدُعَاةِ الحقّ والخيْر والْهُدَىٰ.

وفي مُقَدّمَةِ هٰؤلاء الدُّعَاةِ رُسُلُ الله وأنبياؤه.

وحين يلْتَقِي الإنْسُ والْجِنُّ عَلَىٰ مُعَاداة دُعَاةِ الحقّ والخير والْهُدَىٰ، فلاَ بُدَّ أَنْ يُوحِيَ بَعْضُهُمْ إلىٰ بَعْضٍ خُطَطَ مُقَاوَمَةِ هؤلاء الدُّعاة، ومُقَاوَمَةِ ومُقَارَعَةِ وَقَمْعِ دَعْوَتهم، بأقْوالٍ باطِلَةٍ، إلاَّ أَنَّها مُزَيَّنَةٌ بِزُخْرُفٍ ذَهَبِيٍّ في صُورَتِه الظَّاهِرَة، للإغراءِ والإغواء.

الزُّخْرُفُ: الذَّهبُ.

﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾: أي: الكلامُ المزَيَّنُ بما يَخْدَعُ وَيغُرُّ، لِتَزْيين الباطلِ والكَذِبِ، شُبِّهَ الكلامُ الباطل المزَيَّنُ المنَمَّقُ بِالْأَشياء الْحَقِيرَةِ الْمُزَخْرَفَةِ بالذَّهَب، طلاءً أو نَحْوه.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿... وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

أي: وإنْ أَطَعْتُمُ المشركين فيما أَوْحَتْ بِهِ إليهم الشياطين، أوْصَلُوكُمْ إلى الشِّرْكِ حَتْماً، وعِنْدَئِذٍ سَتَكُونُون مُشْرِكين مثْلَ المشركين الّذين اتَّخذُوا الشياطين أَوْلياءَ لهم، إِذْ صار بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُمْ مُناصَرَةٌ وتعاوُنٌ على الإثم والعدوان ومعْصِية الله ورسوله.

الشياطين: كفرة الجنّ، وجنودُ إبليس المضَلِّلُون بالإغراء وتزيينِ الباطل.

النص السادس:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى

بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

- ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ ﴾:

الْمَعْشَرُ: كُلُّ جَمَاعَةٍ أَمْرُهُمْ واحد.

أي: وَيَوْمَ يَحْشُرُ الله عزّ وجلّ عُصَاةَ الجِنِّ والإِنسِ جميعاً، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، يُنَادِيهم قائلاً: يَا مَعْشَرَ الجنّ قد استَكْثَرْتُمْ من اتِّخَاذِ أَوْلِياءَ من الإنس، تَنْصُرُونَهُمْ وَيَنْصُرُونَكُمْ على الضَّلالِ والإثم والْعِصْيَانِ.

فيَعْتَرِفُونَ بخطاياهم، هُمْ وأولياؤُهُمْ من الإنْسِ، لأنَّها مُسَجَّلَةٌ عليهم بالصُّورَةِ والصَّوْتِ والأَفْكَارِ والنيَّات، دَلَّ على هٰذا الاعتراف قول الله عزّ وجلّ في النّص:

- ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾:

أي: وَجَدْنَا في التَّنَاصُر فيما بيْنَنا مَنَافِع اسْتَمْتَعَ بِها بَعْضُنا بمناصَرَةِ بعْض، وهٰذا الّذِي جعَلَنا نَرْكَبُ مَراكِبَ المعصِيَةِ، وَيَتّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضاً أَوْلِيَاءَ.

﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ..﴾:

أي: واسْتَمرَّ حَالُنَا كَذَلِكَ، حَتَّىٰ انْتَهتْ آجالُنَا في الحياة الدُّنيا، كما قَضَيْتَها وَقَدَّرْتَها لنا يا رَبَّنا دُونَ أَنْ نَتوبَ مِنْ آثامِنَا.

- ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ..﴾.

أي: قَالَ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّين، وهذا على سبيل حكاية ما سوْف يقع فكأنَّهُ وقَعَ فِعلاً، للدَّلالَةِ على أنّه لاَ بُدَّ أن يَقَعَ حتماً، فهو يشْبهُ أَمْراً واقعاً:

﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾: أَيْ: النَّارُ مَكَانُ إِقَامَتِكُمْ واسْتِقْرَارِكم.

يُقَال لَهُ: ثَوَىٰ بالمكانِ يَثْوِي ثَوَاءً وَثُوِيًّا، أي: أَقَامَ به واسْتَقَرَّ.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: أي: بَاقِين فيها دواماً بلا نِهَايَة.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾: الذي يَظْهَرُ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ يكُونُ مع كَثْرَةِ جرائمِهِ وآثامه، قد بقي لدَيْه الإيمانُ بكَلِمَةِ التوحيد، وبها يَسْتَحِقُّ الخروج من النار، والدُّخولَ في الجنَّة، فقال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ وهذا يَرْجع إلى علم الله بعَبْدِهِ، ومَشيئَتِهِ المطلَقَة الّتي لا تُفَارِقُ حِكْمَته.

وهذا يكونُ بحَسَبِ ظاهره من الكَفَرَةِ الخالدينَ في عذاب النار.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: وكَذٰلِكَ الَّذِي حَصَلَ بَيْنَ الجِنِّ وَأَوْلِيَائِهِمْ من الإنسِ مِنْ تَنَاصُرِ علَىٰ الضَّلَالِ، تَجْرِي سُنَّةُ اللَّهِ عزّ وجلَّ في كُلِّ الظالمِين، الإنسِ مع الإنسِ، والجنِّ مع الجنّ، والإنسِ مع الجنّ.

وسبَقَ تَدَبُّر الآية (١٣٠) من هذا النّصّ.

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) في بيان بعض عقائد بعض المشركين، إِذْ جَعَلُوا بَيْنَ الله سُبحانه وتعالى وبَيْنَ سادَاتِ الجنّ وكُبَرائِهم نسباً، افتراءً على الله، والتزاماً بما يُثْبِتُ العقل بطلانه.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

- قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامرٍ، ويَعْقُوبَ [**المخلِصِينَ**] بكسر اللام.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللاّم على أنّهُ اسم مفعول.

فبَيْن القراءتَيْن تكامُلٌ في تأدية المعنىٰ المراد، وقد يكون المراد بالمخلَصِينَ بفَتْح اللاّم، المعْصُومُونَ من الجِنّ، وهم أنبياؤهم ورُسُلهم.

ذكر أبو حيّانٍ في الْبَحْر: أَنّه رُوي عن الكُفّارِ في ذَلِكَ مقالاتٌ شَنِيعات، منها أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صَاهَرَ سَرَواتِ الجِنّ، فولَدَ منْهُمُ الملائكة، وهم فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ، وذَكَر أنَّ بَعْضَ الكُفّارِ ذكَرَ هذا الأمْرَ لأبي بَكْرٍ رَضي الله عنه.

أقول: إنَّ حَمْلَ لفظ «الجِنَّة» على الجنّ، هو الّذي يتّفِق مع الاستعمالات القرآنية لهذه اللّفظة، وهو الّذي يتَسِقُ مع السّوابقِ واللّوَاحِقِ في السُّورَة، ولا يَصِحُّ حمْلُ لفظ «الجِنَّةِ» على الملائكة كما توهّم بعضهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

أي: ولَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ الكافِرُونَ بما جَاءَهُمْ من بَلاَغ عن اللّهِ إِنَّهم لَمُحْضَرُونَ في العذاب في نار جَهنَّم. كُسِرَت همزة [إِنّهم] لوقوع اللام في خبر «إِنَّ».

دَلَّ على أَنَّ المرادَ بالجنَّةِ المحْضَرِين في العَذاب في نَار جهنَّم الكافِرُونَ منهم، الاسْتثناءُ في قَوْلِ الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ على القراءتين بفتح اللاّم وبكسرها. أي: إلاّ عبادَ اللّهِ الذين اصطفاهم اللّهُ من الجنّ بالنبوّة، وإلاّ عبادَ اللّهِ الّذِينَ آمَنُوا باللّهِ صادقين مُخْلِصين، غيرَ مُنافقين ولا كاذبين.

وحَمْل عبارة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ على الإحْضَار في العذاب في نار جَهَنَّم، هو الّذي يَتَنَاسَبُ معَ نظائِر هَٰذَا النّصّ في السُّورَة، مع دلالة استثناء عبادِ اللّهِ المخلِصِينَ والمخْلَصِينَ.

فقد جاء في هٰذِهِ السّورَة بشأن قوْمِ إلياس عليه السّلام:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾:

فيها أيضاً القراءتان الآنفِتَا الذّكر بفتح اللاّم وبكسرها. ومعلومٌ أنَّ المكذِّبين يُحْضَرُونَ إكْراهاً في عذاب نَارِ جهنم.

وجاء في هٰذه السُّورَةِ أيضاً، بشأن مُخَاطَبَةِ المؤمِنِ وهو في الجَّنةِ، للّذي كانَ في الدنيا قَرِينَهُ يُوسْوِسُ لَهُ لِيُغْوِيَهُ:

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: في وَسَطِ الجحيم. قال الزَّجّاج: سَواءُ كُلّ شيءٍ وَسَطُه.

أي: ولولا نعْمَةُ رَبِّي عَليَّ إذْ لَمْ أَسْتَجِب لإغوائِكَ، لكنْتُ من المحضَرينَ في عذاب جهنّم كما أُحْضِرتَ أنْتَ فيه.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزُول) يَعْرِضُ لقْطَةً من مشَاهِدِ يَوْمِ الحشر، وفيها يَسْأَلُ الملائكة عَنْ عِبادَةِ بَعْضِ المشركين لَهُمْ كما يَزْعُمُ المشرِكُون:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾:

هذا النّصُّ يَدلُّ علىٰ أنَّ الجنَّ كَانُوا في الدُّنيا يَخْدَعُونَ أَولياءَهُمْ من الإنس، فَيَكْذِبُونَ عَلَيْهم، وقَدْ يَزْعُمون لَهُمْ أنَّهُمْ مَلائِكَةٌ، من أهْلِ الملأ الأعْلىٰ، فيَسْتَسْلِمُونَ لهم، ويطِيعونَهُمْ فِيمَا يأمُرُونهم به، مُشارِكِينَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ في رُبُوبيَّتِه، ليُحَقِّقُوا ما تكَفَّلَ بِهِ إبليسُ من إغْواءِ بَنِي آدَم، وسَوْقِهم مَعَهُ إلىٰ جَهَنَّمَ يَوْمَ الحِسَابِ والجزاء.

النصّ التاسع:

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) بِشَأْنِ قُرَنَاءِ الْإِنْسِ من شَيَاطين الجنّ، الَّذِينَ يُوَسْوِسُونَ في صُدُورِهِمْ بالشّرّ، إغْرَاءً ومُخَادَعَةً لِيُغْوُوهُمْ، ويَجْعَلُوهم من أَهْل النّار، والنَّصُّ يَتَحَدَّثُ عَن الَّذِينَ اسْتجابُوا لقُرَنَائِهِم من شَيَاطِينِ الجنّ، فَحَقَّ عليهم يَوْمَ الدِّين أَنَّهم في العذاب خالدون:

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

● ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾: أي: وَهَيَّأنَا لَهُمْ. [قُرناء] جمع «قَرِين» وهو المقارِنُ المصاحب، وهؤلاء القرناءُ هُمْ من الجنّ، مُهَيَّؤُون للوسْوسة في الصُّدُور، وللإِغْواءِ والاستدراجِ إلىٰ الإثم والغَواية، وهم شياطين من جنود إبليس.

ويُقَارِنُ الإنسانَ مع القرين من الشياطين، قَرِينٌ من الملائكَةِ يُزَيِّنُ لَهُ فعلَ الخيراتِ والصَّالِحاتِ، ويُقَبِّحُ لَهُ فِعْلَ الآثَام والمنكرات، فتتعادل الكفّتان، وإرادَةُ الإِنْسَانِ الحرَّةُ هي المرجِّحَةُ ذاتَ اليَمِين أو ذَاتَ الشمال.

● ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أيْ: فَحَسَّنُوا لَهُمْ مَا كَانُوا قَدْ فَعَلُوهُ من إِثْم وَبَغْيٍ وعِصْيَان، فهو بَيْنَ أيْديهم في جَانِب الماضي إذْ هُوَ مَعْلُومٌ لهم. ولَهُ في نفوسهم ذِكْرَيَاتُ لَذَّات، وحَسَّنُوا لَهُمْ أنْ يَرْتكِبُوا الآثامَ والمنكَراتِ والمعاصِيَ في مُسْتَقبلِ حياتهم، فالْمُسْتَقْبَلُ خَلْفَهُمْ، إذْ هُوَ مَجهولٌ لَهُمْ غَيْرُ مَعْلُومٍ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

● ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾: أي: وَحَقَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللَّهِ المبَيِّنُ مَصِير الكافرين المجرمين، بأَنَّهُمْ في عذاب النار خالدون.

● ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: أي: وحَقَّ عليهم

القولُ حَالَةَ كَوْنهم داخِلينَ في عُموم أُمَمٍ كافِرَةٍ مُجْرِمَةٍ، قد مَضَتْ من قبلهم من الجنّ والإنس.

● ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَسِرِينَ﴾: أي: إنَّهُمْ صَارُوا بِمَا قَدَّمُوا من سُوءِ إيمانٍ وعَمَلٍ خاسِرين كُلَّ شيءٍ، إِذْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ باخْتِيَارِ سُلُوكِ طريق جهَنَّم، دَارِ عذابِ الكافرين المجرمين، التي يخْلُدُون فيها ومَا هُمْ منها بمُخْرَجين، وهذا هو الخسرانُ الأعظم.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) أيضاً بَياناً لما يقولُه الكافِرُونَ وهُمْ يُعَذَّبُونَ في النار:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

النصّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الذّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾:

﴿ٱلْمَتِينُ﴾: الصُّلْبُ الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ. يقالُ لغة: مَتُنَ الشيءُ يَمْتُنُ مَتَانَةً، أيْ: صَلُبَ واشْتَدَّ وَقَوِي، ولفظ «الْمَتِين» من أسماء الله الحسنى.

أي: وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ في الحياةِ الدُّنيا ممتَحَنين مخْتَبَرِينَ، إلاَّ ليكُونَ المطْلُوبُ منهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ أَنْ يَعْبُدُوني، لاَ أن يُقَدِّمُوا لي رِزْقاً ولاَ أَنْ يُقَدِّمُوا لي طَعَاماً، كمَا يَتوهَّمُ المشركُونَ، إِذْ يُقَدِّمُونَ القرابينَ والْأَرْزَاقَ والأَطْعِمَةَ لشُرَكائهم.

وإذْ تَساوَىٰ الجنُّ والإنسُ في الابْتِلاء والتكليفِ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ لكُلٍّ مِنْهُما حِسابٌ وَجزاءٌ بالثَّوابِ أو بالْعِقاب، علَىٰ حَسَبِ أعْمَالهم.

النّصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سُورةِ (السَّجْدَة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ⑬﴾:

أي: ولَوْ شئْنا أَنْ نُؤْتِيَ كُلَّ نَفْسٍ هُدَاها بسُلْطَانِ الْجَبْرِ، لَسَلَبْنا الجنَّ والإنْسَ اختياراتِهم وإراداتِهم الحرَّة، ولَجَعَلْناهُمْ مَجْبُورِينَ غَيْرَ مُخَيَّرِين، وحِينئذٍ يكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ أنْ نُؤْتِيَ كُلَّ نفْسٍ هُداها، إذْ لاَ تكُونُ نَفْسٌ مَجْبُورَةً علىٰ الضَّلاَلَةِ، لِمُنَافاةِ هٰذَا لِحِكْمَةِ الحكِيم وَعَدْله.

ولكِنْ قَضَتِ الحكمةُ بأنْ يَكُونَ الجنُّ والإنْسُ مُخَيَّرِينَ لابْتَلاءِ إرَادَاتِهم في ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، فَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَعَمِلَ صَالحاً، كانَ مِنْ أَهْلِ دَارِ النَّعِيم، ومَنْ كَفَر وعَصَىٰ كَانَ مِنْ أَهْلِ دَارِ العذاب، وإذْ سَيَكُونُ هَؤلاَءِ هُمْ الأكْثَرِينَ بحَسَبِ سَابِقِ الْعِلْمِ بحالِهِمْ واخْتِيَارَاتِهم، فَقَدْ حَقَّ وَثَبَتَ الْقَوْلُ مِنِّي:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

النّصُّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ㉝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉞ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ㉟﴾.

المعْشَرُ: كلُّ جَمَاعَةٍ أمْرُهُمْ واحد، وخطابُ الجنّ والإنْسِ معاً يُشْعِرُ بأَنّ الله يتحدَّىٰ كَفَرَةَ الجنّ والإنسِ، إذْ يجْمَعُهم جامعُ الكُفر.

الشُّوَاظ: اللَّهَبُ الَّذي لا دُخان له.

والنفوذُ من أقْطَارِ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ هُو الخروجُ عَنْ دائرة الكوْنِ كُلّه، وهذا أمر لا يَسْتَطِيعُهُ مخلُوقٌ ما.

أمّا الوصُولُ إلىٰ الْقَمر والمريخ ونحوهما، فَهُوَ تَجوُّلٌ في أقْطارِ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ، لاَ نُفوذٌ مِنهُما وَخُرُوجٌ عَنْهُما.

النصّ الرّابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) أيضاً بشَأنِ أحْدَاثِ يَوْمِ القيامَة:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾:

إذْ يَرَىٰ كُلُّ واحِدٍ ذُنوبَهُ مُسَجَّلَةً فِي كِتَاب عَمَلِهِ، شَريطاً مُسَجَّلاً بالصُّورَةِ والصَّوْتِ، والنِّيَّاتِ والْخَوَاطِر.

النصّ الخامس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الرحمن) أيضاً بِشَأْنِ زَوّجاتِ المؤمنينَ الأبرار من الثَّقَلَيْنِ، في الجنتَيْنِ المعَدَّتَيْنِ للإنْسِ والجنّ ضِمْن عُمُوم الجنَّةِ الواحدة:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي: يَقْصُرْنَ أبْصَارَهُنّ على أزْواجِهِنّ، فلاَ يَنْظُرْنَ إلَىٰ غَيْرِهِمْ.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: أي: لم يفْتَضّ بكارَتَهُنَّ إنْسٌ قَبْلَ أَزْواجِهِنّ ولاَ جَانٌّ.

﴿إِنسٌ﴾: اسْمُ جِنْسٍ لنوع الإنسان.

﴿جَآنٌّ﴾: اسْمُ جِنْسٍ لنوع الْجِنّ.

النصّ السادس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّحْمٰنِ) أيضاً بشَأْنِ مَا للمُؤْمِنِين المتقين من حور عين:

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤)﴾.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٥)

قال اللّٰهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١) يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾:

تمهيد:

هذا الدّرس يُبيّنُ قصّةَ نَفرٍ من الجنّ استمعوا القرآن من الرسول ﷺ، دون أنْ يَعْلَم بحُضُورهم، ولا باسْتِماعِهم، ولا بأقوالهم، حتَّىٰ أوحى الله إليه بذلك، ويشتمل على ذكر أقوالهم بالتفصيل.

ويمكن أن تكُونَ قصَّةُ هؤلاء هي القصّة التي جَاء ذكْرُها في الحديث الأوّل، الذي سبَق بيانُه، لدَى بيان بعْضِ ما جاء في السنة بشأن وفادات وفودٍ من الجنّ إلى الرسول ﷺ، وهو الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذيّ وغيرُهم، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

التّدبُّر:

- ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ . . ۝١﴾:

بَدأ اللَّهُ عزّ وجَلَّ السُّورَةَ بخِطَابٍ لرَسُولِهِ يَأمُرُهُ فيه، بأَنْ يُخبِرَ عن وِفَادَةِ نَفَرٍ من الْجِنّ لاسْتماع القرآن مِنْهُ، دُونَ أن يكونَ عالماً بمَقْدَمِهِمْ إليه، واسْتِماعِهِم القرآن مِنْ تِلاوَتِه له، وأنَّ الْعِلْمَ بمَقْدَمِهِمْ إِلَيْهِ واسْتِمَاعِهِم القرآنَ منه، والعلْمَ بما تَذَاكَرُوا بِهِ، وبما نقَلُوهُ إلى قومهم دُعَاةً، قَضَايَا أوحَىٰ اللَّهُ بِها إلَيْه، إذْ لم يكُنِ الأمْرُ بالنِّسْبَةِ إلَيْه إدْراكاً حِسِّيًا مُباشراً في هٰذِهِ الحادثة، بل جَاءَه بشأْنِها خَبَرٌ صَادِقٌ عن الله عزّ وجَلَّ، أوحَىٰ اللَّهُ بِهِ إلَيْهِ في قرآنٍ يُتْلَىٰ، لاَ يأْتِيه الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْه وَلاَ مِنْ خلْفه.

وفي توجيه الأمْرِ من اللَّهِ لِرَسُوله بكلمة ﴿قُلْ﴾ تكْلِيفٌ إلزاميٌ لَهُ بأنْ يُحدِّثَ بما أَمَرَهُ الله بِهِ أنْ يَقُولَهُ، حتَّىٰ آخِرِ الأقوال الَّتِي قَالَها هٰؤُلاء النَّفَرُ مِن الجنّ، الّتي جاءَ بيانُها في السّورَة.

فإذا استَحْضَرْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ قد كَلَّفَهُ أَنْ يُبَلِّغَ كُلَّ القرآن، أَدْرَكْنا أَنَّ تكليفَه أنْ يقولَ: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.. وحتى آخر

أقوالهم، فيه مَزِيدُ تأكيدٍ بأن يُعْلِمَ النَّاسَ بِوَفْدِ الجِنّ وأقوالهم الإيمانيّة.

ونَسْتفيد من هٰذه العبارة القرآنيّة الّتِي بدأ الله بها سورة (الجنّ) عدَّة قَضَايا:

القضيّة الأولى: أنّ الله عزّ وجلّ يُبلِّغُ المؤمنين بحادثة حضور نفر من الجنّ إلى الرسول ﷺ، واستِماعِهِمُ القرآن من تلاوته، بأسلوب غيْرِ مُبَاشرٍ، مع تبليغ الرسولِ بطريقة مباشرة، فيتحقَّقُ بهذا تَبْلِيغَانِ، أَحَدُهُمَا من قِبَلِ الله، والآخَرُ من قِبَل الرسول.

ومعلُومٌ أنَّ مَا يأمُر الله به رسُولَهُ أنْ يَقُولَهُ يتضمَّنُ بلاغاً من اللّٰهِ للمؤمنين.

القضيّة الثانية: إبْعادُ الشُّبْهَةِ الّتي كان قد طَرَحَها في بدْءِ رسالة الرَّسُولِ بَعْضُ المشركين، بأنّ الوحي الّذِي كان يَنْزِلُ عليه هو رَئِيٌّ⁽¹⁾ من الجنّ، كان يأتي إلَيْه فيُحَدِّثُه، إذْ دلَّتْ سورة (الجنّ) على أنَّ أَوائِلَ وُفود الجنّ لاسْتماع القرآن منه، وتلَقّي معارفِ الدِّين عنه، لم يَكُن الرَّسُولُ يَعْلَم بوفادتهم إليه، إذْ لم يسْبِقْ له أنْ كانَ له مع الجنّ لقاء، لا قَبْلَ النُّبُوَّةِ ولاَ بَعْدَها.

والحكْمَةُ مِنْ هذا أن لا يختَلِطَ على النّاس الأمْرُ، ويَحْدُثَ في قُلُوبِهِمُ الشَّكُّ، فيَخْلِطُوا بين رسُولِ الله من الملائكة وهُوَ جبريلُ عليه السلام، وبَيْنَ لقَاءَاتِ الرَّسُول للجنّ، فجبريلُ مَلَكٌ يُبَلّغ عن الله عزّ وجلّ، والجنُّ عبادٌ ممتَحَنُونَ مكَلَّفُونَ متَلَقُّون متعلّمون من الرَّسُولِ كالإنْس، ولهذا لم يُهَيِّىءِ اللّٰهُ لرسُوله محمّدٍ ﷺ أن يلْتَقِي الجنَّ قبْلَ الرسالة، مع استعدادِهِ الفطْريّ لذلك، ولم يُهَيِّىء له أن يلتقيَهُمْ بَعْدَ الرسالة حتَّىٰ مضَتْ مُدَّةٌ مِنْ

---

(١) الرَّئِيّ: بفتح الراء وكسرها، الجنيُّ يَعْرِض للإنسان ويُخْبِره بما يزعم أنّه من الغيب.

رِسَالَتِه تَزِيد على تِسْعِ سنين، كما تَدُلُّ أحداثُ السِّيرة المحمّديَّة، وقد نزلَتْ عليه أَرْبعونَ سورةً دون أن يكون له اتصالٌ بالجنّ، وأعلمه الله في سورة (الجنّ/ ٤٠ نزول) بأنَّ نفراً منهُمُ اسْتَمَعُوا القرآنَ مِنه وهو يتْلُوه، فقالُوا ما حَكَىٰ اللَّهُ عنهم في هذه السورة.

ثم أعْلَمه في سورة (الأحقاف/ ٦٦ نزول) بأنَّهُ صَرَفَ نفراً من الجن عمَّا كانوا فيه، وبَعَثَهُمْ إليه، ليتَبَلَّغُوا الدِّين، ويَرْجعُوا إلى أقوامهم مُبَلِّغِين دعاةً ومُعَلّمين فَمُنْذِرِينَ، وكَانَ هٰذا في الثُّلُث الأخير من المرحَلَةِ المكيَّة.

القضية الثالثة: إعْلامُ اللَّهِ الناسَ عن طريق تكْلِيفِ رَسُولِه، بأنَّ الجنَّ مخْلُوقُونَ في ظرُوف الحياة الدُّنيا للابتلاء، كما أَنَّ الإنْسَ مخْلُقون في ظروف الحياة الدُّنيا أيْضاً لهٰذه الحكمة، وأنَّ الدار الآخِرَة لهما هي دار الحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، وأنَّ الجنَّ مكَلَّفُونَ أَنْ يَسْتَمِعُوا آياتِ اللَّهِ المنزَّلاَتِ، ليَعْلَمُوا مَا هُوَ مَطْلُوبٌ منهُمْ في رِحْلَةِ ابتِلاَئهم كالإنس.

ولهذا جاء نفر من أشرافهم لاستماع القرآن، وليقوموا بتبليغ أقوامهم هذا الدِّين الّذِي ختَمَ اللَّهُ به رِسَالاَتِهِ لأهل الأرض.

وَمَا جاء في سُورَة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) تَضَمَّنَ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اصطَفَىٰ نفَراً مختارين منَ الجنّ فصَرَفَهُمْ عن اتجاهاتهم وأعْمَالهم السَّابقات الّتي كانوا مُشْتَغِلينَ بها، وأرسَلَهُمْ إلى الرَّسُولِ محمّد ﷺ، بوسيلَةٍ لم يَذْكُرْها الله لنا، ليتبلَّغُوا القرآن منه، وليَرْجِعُوا إلىٰ أقوامهم مُبَلِّغين دِينَ الله الخاتم، الَّذِي أنزلَهُ إلىٰ الإنْسِ والجنّ، ومُنْذِرين بعَذَاب الله من لم يسْتَجِبْ من الجنّ لدَعْوَةِ هذا الدِّين العامّ الشَّامل الذي اصطفى الله عزّ وجلّ لتبليغِه خاتم الأنبياء والمرسَلِين من الإنْسِ، وهو أفضل رُسُلِ الله وأنبيائه أجْمَعِينَ.

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ﴾: جاء لفظ ﴿أُوحِىَ﴾ بصِيغَة المبني لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِله، لأنَّ الفاعل المرسِلَ لملَكِ الوحي جبريل عليه السّلام، قد صار معلوماً للمؤمنين والكافرين بأنّه الله جلَّ جلاله وعظم سلطانه، بَعْدَ مُرور سنين على إعلانِه نبوّته، وأنّه رَسُول الله، وأنَّهُ يَتَلَقَّىٰ الوحي عنه.

الْوحي: هو في اللّغة الإعلامُ الخفيُّ السَّرِيعُ، مهما اختلفت أسبابُ هذا الإعلام، ولهذا فهو يُطْلَقُ على الإيماء، وعلى الإشارة السّريعة، وعلى الكَلامِ الخفِيّ، وعلى الكتابة، وعلى إلقاء المعْنَىٰ في النفس، وعلى الإلْهَام، وعلى الرُّؤيا الصالحة الجليَّة.

أمّا الوحيُ إلى الأنْبياءِ والمرسلين، فَهُو نَامُوسُ الإعْلامِ الرَّبَّانِيّ للمصْطَفَيْن من عباده لرسَالته، أو لنبوّته، وبوحْي اللّهِ إليهم ينْطَبع فيهم ما يُنَزِّلُه عَلَيْهِم مِنْ مَعَانٍ أَوْ أقوالٍ وعُلُوم انْطِبَاعاً جَلِيًّا واضحاً لاَ يحْتَمِل الشَّكَّ، وتكونُ لديهم مَعَارِفَ يقينيَّةٌ مقْطوعاً بها.

ونستطيع أنْ نُعرّف الوحي الخاصّ بالأنبياء والرُّسُل بأن نقول: هو إعلام الله رسولاً من رُسُله أو نبيًّا من أنبيائه بما يشاء من كلام أو معنًى بطَريقَةٍ تُفِيدُ مَنْ يُوحَىٰ إليه الْعِلْمَ اليقينيَّ القاطع بما أعلمه الله به.

وجُوهُ تكليم اللّهِ لِبَشَرٍ مِنْ عباده:

وقد أبان الله عزّ وجل أنّ وَحْيَهُ إلى المصطَفَيْن مِن عباده، له ثلاثَةُ وجوه:

الوجْهُ الأول: أن يكُونَ بالإلْقاءِ في القلب مباشرةً من الله يقظةً أَوْ مَنَاماً.

وتحقيقُهُ أنْ يَخْلُقَ اللّهُ جلَّ جلالُه في قلْبِ الموحَىٰ إلَيْهِ المعصوم، عِلْماً ضَرُوريًّا بإدْراكِ مَا شاء اللّهُ أنْ يُدْرِكَهُ من كلامِه تباركَ وتعالى.

الوجه الثاني: أنْ يُسْمِعَ اللَّهُ الموحَىٰ إلَيْه كلامَهُ من وراء حجابٍ، كما حصَلَ لموسَىٰ علَيْهِ السّلام.

الوجْهُ الثالث: أن يكون بوَسَاطَةِ إرْسال رسُولٍ مَلَكٍ تُرَىٰ صورتُهُ الّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عليها، وقد يتمثَّلُ بصُورة أخرى، كَصُورَة إنْسان، وهو يُبَلِّغُ النبيَّ أو الرسولَ ما أَمَرَهُ الله بتبليغه إياه.

وهذا الوجْهُ هو الغالِبُ من وُجُوه الوحْي بالنسبة إلَىٰ الأنبياء والمرسَلِين عليهم السَّلام، فغالبُ أحوالهم أن يكون الوحي إليهم بوساطَةِ رُسُلٍ من الملائكة، وقد ثبت أن جبريل عليه السّلام هو في الغالب أمِينُ الْوَحْي، وهو الرَّسُول الذي يُرسلُهُ الله غَالِباً من الملائكة، ليقوم بالسِّفَارَةِ بَيْنه وبين أنبيائه ورُسُلِهِ من البشر.

وقد دَلَّ على هذه الوجوه الثلاثة قول الله عزّ وجل في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

يقال لغة: أوْحَىٰ إلَيْه، وأوحَىٰ له. ويقال: وحَىٰ إليه، ووَحَىٰ له. والَّذِي اسْتُعْمِلَ في القرآن صيغَة «أوْحَىٰ».

﴿ٱسْتَمَعَ﴾: أي: سَمِعَ بعِنَايَةٍ وأَصْغَىٰ، يُقَالُ لُغَةً: اسْتَمَعَهُ، واسْتَمَعَ إلَيْه، واسْتَمَعَ له.

دلَّتْ صيغَة «افْتَعَل» بزيادة التاء، الّتي تَدُلُّ على العناية والتكلّف، على معنى الْقَصْدِ بعنايَةٍ وإصغاء وإنْصاتٍ.

﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: النَّفر: يطْلَقُ لغةً على عدَدٍ من الرِّجال ما بين الثلاثة إلى العشرة.

فدلّ هذا على أنّهم كانوا رِجالاً من الجنّ لا نساءً، ودَلَّ على أنَّهم لا يَقِلُّون عن ثلاثة، ولا يَزِيدُون على عشرة.

وحُذِفَ المفعولُ به «الْمُسْتَمَعُ» لفعل ﴿أَسْتَمَعَ﴾ وهُو القرآن، لدَلاَلة ما جاء في الآية بَعْدَ ذلِكَ من بيان قولهم، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. وهذا من قبيل الحذف من الأوائل، لدلالَةِ ما في الأواخر.

ويظْهَرُ أَنَّ ما جاءَ في السُّورَةِ مِنْ بيَانِ أَقْوالهم، هو عَناوينُ المقالاَت الّتي تَحَدَّثُوا بها، ويترجّح لدي أنها مقالات دعويَّةٌ وجَّهُوها لقومهم من الجنّ.

أمّا القضايا الّتِي تَحَدَّثَ بها هؤلاَء النَّفَرُ من الجنّ، وذكَرَها اللَّهُ عزّ وجلَّ في السُّورَة، مُقِرّاً لها، ومُثْنِياً على ما كان منهم من إيمانٍ ومن التزام بأنْ لا يُشرِكُوا في مُسْتَقْبلِ حياتهم بربّهم أحداً، بأسْلُوبِ ذِكْرِها إِخْبَاراً عنهم، فهي سَبْعَ عشَرةَ قضيَّة:

القضية الأولى:

دلَّتْ عليها جُمْلَة: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾:

أي: إنَّا سَمِعْنَا كلاماً مُنزّلاً في كتاب يُقْرأ قُرآناً جَدِيراً بالاستماع إليه، وتدبّر معانيه، إذْ هو عجَبٌ في مبانيه، وفي معانيه.

لفظ «قرآن» مصْدَر «قَرَأَ» وأُطْلِقَ المصْدَرُ هُنا على الكلام الّذِي يُقْرأ، والقراءةُ تكُونُ عادة لكلامٍ مكتوبٍ، فدَلَّ قولُهم:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ على أَنَّهُمْ سَمِعُوا آياتِ كتابٍ يُقْرأُ.

وجاء وصْفُ هذا القرآن بأنَّهُ «عَجَبٌ» فقالوا: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. ولفظ «عَجَبٍ» مَصْدَرُ «عَجِبَ» تَقُول لُغَةً: «عَجِبَ يَعْجَبُ عَجَباً».

والوصْفُ بالمَصْدرِ فيه مُبالَغَةٌ في التعبير، إذْ فِيهِ ادّعَاءُ أنّ ذاتَ الشيء

صارت عيْنَ مفْهُوم المصْدَر، فهنا يقوم التَّصوُّرُ عَلَىٰ أَنَّ ذاتَ المقروءِ من كَثْرَةِ عجائِبه صارَتْ عجباً، فَلاَ شيءَ من عناصِرِه وأجزائِه إلاّ هو عجب. ونظيرُهُ مثلاً: رأيت عليًّا العَدْلَ. وُصِف بالمصدر بدَلَ اسْمِ الفاعل «عادِل» حتى كأنَّه هو العدل.

ولاَ يكون القرآنُ عجباً في مبَانِيه وفي معانيه إلاَّ إذَا كَانَ مُعْجِزاً، متَفَرِّداً متميّزاً عن كلّ كلامٍ آخر، فلا تَسْتَطِيعُ الخلائق أنْ تأتي بمثِلِه، ولو كان بعضهم لبَعْضٍ ظهيراً بالمساعدة والمعاونة والاشتراك في العمل، فَهُو إذَنْ كلامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

وقَدْ عَبَّر هؤلاء النَّفَرُ مِنَ الجِنّ عمَّا أَدْرَكُوا من عناصِرِ إعجاز القرآنِ الكثيرة بقولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾.

القضية الثَّانية:

دلَّتْ عليها جُمْلَةُ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ وَصْفاً لما سَمِعُوا من القرآن المجيد، من تِلاَوَةِ الرَّسُول ﷺ.

﴿يَهْدِىٓ ﴾: أي: يَدُلُّ وَيُرْشِد، يقالُ لغةً: هدَىٰ فُلاناً الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ له، وهَدَاهُ إليه، إذا عرَّفَهُ به، وبيَّنَهُ له.

﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾: **الرُّشْدُ**: هو السُّلُوكُ الفِكْرِيُّ أو النَّفْسِيُّ، أو الْعَمَلِيُّ، الموافِقُ للحقّ والصَّواب، أَوْ لـمَا هُو الأفْضَلُ والأحْسَنُ والأكْثَرُ نَفْعاً، والأبْعَدُ عن الضَّرَرِ أو الأذى.

فوصْفُ القرآن بأَنَّهُ يَهْدِي إلَىٰ الرُّشْدِ، وصْفٌ يجْمَعُ كُلّ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ القرآنُ من دَعْوَةٍ إلَىٰ الحقّ والْخَير، ومَا هُو الأفْضَلُ. والأحْسَنُ، والأنْفَعُ، والأبْعَدُ عن الضَّرَرِ والأذى، حَالاً، ومستقبلاً قريباً، ومستقبلاً بَعِيداً، حتَّىٰ يومِ الدِّين يَوْمِ الحسَابِ، وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، في دار النعيم، أو في دار العذاب الأليم.

القضيَّة الثَّالِثَةُ:

دلّت عليها عبارتُهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ ففي هَـٰذِهِ العبارة إعلانٌ منْهُمْ بأنّهم آمنوا بهذا القرآن الذي سمعوه من تلاوةَ الرَّسُول ﷺ له.

ومعلومٌ أنّ إيمانهم بالقرآن يسْتَلْزِم إيمانَهُمْ بالرَّسُولِ الذي يُبَلِّغُهُ عن رَبّهِ، وإيمانَهُمْ بسائر أركان الإيمان، وأيمانَهُمْ بكُلّ القضايا الدينيَّة، والخبريَّة، والعلميَّةِ، الّتي اشتَمَلَتْ عليها آيات القرآن المجيد، وهي تشْتَمِلُ على كلّ ما يجب الإيمان بهِ في رحلة الامتحان إجمالاً وتَفْصِيلاً.

الإيمان: هو التَّصْدِيقُ الإراديُّ القلْبِيُّ المقتَرِنُ بالاعْتِرَافِ والتَّسْلِيم، والباعِثُ عَلَى الْعَمل.

القضية الرابعة

دلَّت عليها عبارتُهم: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾: فأعْلَنُوا بهٰذه العبارة عزمَهُمُ الإرَادِيَّ على أنْ لاَ يُشرِكُوا في مُسْتَقْبَلِ حيَاتِهِمْ بِرَبِّهِمْ أحداً، لاَ في رُبُوبيّته، ولاَ فِي إلَهِيّتِهِ. وهذا منهم وَعْدٌ بِعَهْدٍ جازم قَطَعُوهُ على أَنْفُسِهِم.

وقد دَلَّ إلْزَامُهُمْ أنفُسَهُمْ بهٰذا الْوَعْدِ والْعَهْد، على أنَّ ما اسْتَمَعُوهُ من القرآن قد تضَمَّنَ فيما تضَمَّنَ التَّحْذِيرَ مِنَ الشِّرْكِ في رُبُوبيَّةِ الله، أَوْ في إلَهِيَّتِهِ، مَهْمَا كانَ نَوْعُ الشِّرْك جُزْئيًا وهَيّناً، كَشِرْك الّذين يَعْبُدونَ غَيْرَ اللّهِ لِيُقَرّبُوهم إلى اللّهِ زُلْفَىٰ، لأنّ الله عزّ وجلّ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به لاَ في رُبُوبيّته، ولا في إلَهيَّتِهِ، ويَغْفِرُ مَا دون ذلك لمنْ يشاء.

ودَلَّ هذا أيضاً على أَنَّهُمْ قَدْ كانَتْ لهم قبل اسْتِماعهم القرآنَ من الرَّسُول ﷺ، شِرْكِيَّاتٌ تَخلَّوْا عَنها، وأعْلَنُوا أَنَّهُمْ لَنْ يَعُودُوا إلَيْها ولاَ إلَىٰ مِثْلِهَا.

فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ نَصارَىٰ الجنّ فإنَّ عباداتِهم لعيسَى عليه السَّلام

وأمّه من الشِّرْك في إلَهيَّة اللَّهِ الواحدة، وإنّ اعْتِقَادَهُم في أَنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاَثَةٍ هو من الشّركِ في رُبُوبيّةِ اللّهِ الواحدة.

ولو أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ وَثنِيّي الجِنّ، فَشِرْكُهُمْ كَشرك وثَنِيِّي الإنس.

وإذْ قَدْ تَخَلَّوْا عن الشّرْكِ بربّهم الّذِي يُؤْمِنُونَ به رَبًّا خالقاً لاَ شرِيك له في رُبوبيّته، ولا شريكَ لَهُ في إلَهيَّته، فإنَّهُمْ عن سَائِر أنواع الكُفْر الّتي هي أشدُّ من الشِّرْك أَكْثَرُ تَبَرِّيًا وابتعاداً، وأكثرُ الْتِزاماً بأن لاَ يَقْرَبُوا شيئاً منها.

القضيّة الخامسة

دَلّتْ علَيْها مقالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾:

في هذه المقالة إشعار بوصولهم إلى قناعَةٍ تامَّةٍ، وقُدْرَةٍ على إقناع غيرِهم من قومهم، بتعالي الله عزّ وجلّ في صفاته السَّنِيَّةِ عَنْ أنْ يَتَّخِذَ صَاحِبَةً أوْ وَلَداً.

فاتّخاذُ الزَّوْجَاتِ من صِفاتِ النقْص في المخْلُوقاتِ الحادثات، وإنجابُ الأوْلادِ مُشَارَكَةٌ لِلَّهِ في خصائِصِ ذَاتِه الأزليَّةِ، والله ـ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه ـ مُنزَّهٌ عن كُلّ ذَلِكَ.

واتخاذُ الأَوْلاَدِ بالتَّبَنّي افْتِراءٌ على الحقيقة، فالْعَبْدُ المخلُوقُ لا يكونُ ابْناً لخَالِقِه الرَّبِّ سبحانَه وتَعَالَىٰ علوّاً كبيراً.

قراءة: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ لُوحِظَ فيها الْعَطْفُ على ضَمِير ﴿بِهِۦ﴾ في قولهم ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾: أي: فآمَنَّا بِهِ وَبِأَنَّهُ تعَالَىٰ جَدُّ رَبّنَا.

وقراءة: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ لُوحِظَ فيها العطف على قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾.

وفي القراءتَيْن تكامُلٌ فِكْرِيٌّ، فإحْدَىٰ القراءتَين يُعَبِّرُون بها عَنْ عِلْمٍ يُقَرِّرُونَهُ، والأخرى يُعَبِّرُون بها عَنْ إيمانٍ يُؤْمِنُون به.

﴿تَعَٰلَىٰ﴾: أي: هو بَالِغُ العلُوِّ الذي لا حُدُودَ له، ولا نهايةَ له، فَهُوَ مترَفِّعٌ عن كلّ الصِّفَاتِ الّتي لا تَلِيقُ بجَلاله، وأزليّته، وأبَدِيَّتِهِ، ووَحدانيته في رُبوبيّته وإلَهِيَّتِهِ، وأحَدِيَتِهِ وصَمَدِيَّتِهِ، ومُنَزَّهٌ عن الحاجَةِ لِذَاتِه، أو لصفاته.

﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾: الجدُّ في اللُّغَة هو الحَظُّ والْغِنَىٰ، وجَدُّ الرَّبّ جلَّ جلالُهُ هو حَظُّهُ من كمال الصّفات الذّاتيَّةِ الَّتي يتّصفُ بها، وغِناهُ سبحانَهُ بذَاته وصِفَاته عن كلِّ شيْءٍ سِواه، فهو بكمالِ صفاته وبغناه عمَّا سواهُ لاَ يتخذ صاحبَةً، ولا يُنجِبُ ولَداً، ولا يَتَبَنَّىٰ وَلداً.

وعبارة: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ على ما فهمنا منها هي بمثابَةِ الدليلِ العقْلِيِّ الَّذي يَدلُّ على أنّه سبحانه ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فتقديمها تَمْهِيدٌ حكيم، وهو من أساليب تقديم الدَّليل قَبْلَ تقْرير الدَّعْوىٰ.

وعبارة: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فيها حَذْفٌ يكْشِفُهُ التَّدبُّر بأناةٍ، والتقدير: ما اتَّخَذَ صاحبَة وَلاَ أنجبَ وَلا تبنَّىٰ ولَداً، وهو من قبيل الإيجاز بالحذْفِ، كقَوْل الشاعِرِ:

وَزَجَّجْنَ الْحواجِبَ والْعُيُونا(١).

أي: وزَجَّجْنَ الحواجِبَ، وكحَّلْنَ الْعُيُون.

وكلمة: ﴿صَٰحِبَةً﴾ تَعُمُّ كُلَّ أُنثَىٰ تُتَّخَذُ للمُعَاشَرَةِ، سواءٌ أكانَتْ زَوْجَةً أَمْ غَيْرَ زَوْجَة.

القضيَّة السادسة

دلَّتْ علَيْها مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾:

---

(١) **التَّزْجِيجُ في الحواجب**: جَعْلُها دَقِيقَةً طويلة مُقَوَّسة.

فأبَانَ هَؤُلاَءِ النَّفَرُ من الجنّ بمقالَتِهِمْ هَٰذِهِ أنَّ سَفِيهَهُمْ إبْلِيسَ وَكُلّ مَن اسْتَجابَ لَهُ، واتَّبَعَ كُفْرَهُ بِرَبِّه، كان يَقُولُ علىٰ اللَّهِ قَوْلاً شَطَطاً، أي: بعيداً عن الحقّ جائراً.

وظاهرٌ أنَّ كُلَّ قَوْلٍ بَعِيدٍ عن الحقّ هو باطلٌ وكذبٌ، ومعلومٌ أنّ كُلّ باطِلٍ وكَذِبٍ يُنْسَبُ إلىٰ اللَّهِ هو كُفرٌ بذاتِهِ أو بصِفَاتِهِ، أو بحَقّ رُبُوبيَّتِهِ أَوْ إلَٰهيّتِهِ.

قُرِىء كما سبَقَ بيانُهُ مَعَ نَصّ السّورة بفتح همزة ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ وبكَسْرِها، وسبَقَ توجيهُ القراءتين في نظيرَتَيْهِمَا في القضيَّة الخامسة.

الشَّطَطُ: هو في اللّغة البُعْدُ، وتجاوز الحدّ، والجوْرُ، وكُلُّ مَا بَعُدَ، وتجاوز حُدودَ الحق، وجارَ عن الطريق السّويّ، فهو باطلٌ، وهو في الأخبار كذب.

﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ هو من التنازعُ عنْدَ النحويّين، فيجوز عِنْدهم أن يكونَ لفظ «سَفِيهِ» من ﴿سَفِيهُنَا﴾ اسْمَ ﴿كَانَ﴾ أو فاعل [**يَقُولُ**] ويُقَدَّرُ للآخر ضَمِيرٌ مُلائِمٌ.

أقول: هذا من الإيجاز في اللّفظ، ويُمْكِنُ اعْتِبَارُ جُمْلَةِ ﴿يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ سَادَّةً مَسَدَّ اسم كان وخَبَرِها.

السَّفِيه: هو في الُّلغَةِ ناقِصُ الْعَقْل، الَّذِي لا يُحْكِمُ أَمْرَه بِرُشْدٍ، فيُجَانِبُ الحقَّ والصّوابَ وسبيلَ الْهُدَىٰ.

وإبليسُ إمَامُ سُفَهاءِ الجنّ، إذْ عَرَّضَ نَفْسَهُ للطّرْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، ومنَازِلِ الْقُرْبِ مِنْ رَبّه، وللعذابِ الأبَدِيّ، والشقاء الدائم، إرْضاءً لنزعَةِ الكِبْرِ والْحَسَد في نَفْسِه، إذْ رَفَضَ أمْرَ رَبّه لَهُ بأَنْ يَسْجُدَ لآدم، وجَحَد حَقَّ اللَّهِ على عباده في طاعَتِه بمَا يشَاء.

وهَـٰذَا من فَرْطِ سفاهَتِه، وقِلَّةِ عقْلِهِ الإرَادِيّ، إذْ لَمْ تَقْوَ إرادَتُهُ على ضَبْطِ جماحِ هواهُ في الكِبْرِ والحسَدِ، معَ وَفْرَةِ ذكائه العِلْمِيّ وواسِعِ حيلَتِه.

ويتْبَعُ إبليسَ في السَّفَاهَةِ كلُّ كفرَةِ الجنّ الَّذِين اتَّبعُوا سُبُلَه، وعبارة: ﴿سَفِيهُنَا﴾ تَعُمُّ كُلَّ كَفَرَةِ الجنّ، مُتَنَاوِلَةً إبْلِيسَ إمَامَهُمْ أوَّلَ ما تَتَناول.

أمَّا الشَّطَطُ الّذي أضَلَّ بِهِ إبْلِيسُ كفَرَةَ الجنّ، فيَدْخُلُ فيه كُلُّ قَوْلٍ يتضمَّنُ وصْفَ الله عزّ وجلَّ بما هُو مُنَزَّهٌ عنه في ذاته، أو في صفاته، أو في أفعاله، أو في أوامره ونواهيه وشرائعه لعِبَادِه، وتصاريفِهِ في كَوْنه، ونَحو ذلكَ مِنْ كُلّ ما فِيه طَعْنٌ أَوْ تشكيكٌ في حكمته.

ويَدْخل فيه كلُّ قَوْلٍ يَتَضَمَّنُ إنكارَ أَوْ جُحودَ وَصْفٍ ما، من صفاتِ الكمال الثابتة له.

وكُفرِيَّاتُ الجنّ مُشَابِهَةٌ لكُفرِيَّاتِ الإنسِ، إِذْ مِنْ شأنِهِمْ أنْ يُوْحِيَ بعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غروراً، كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعَام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

القضيَّة السابعة:

دلَّتْ علَيْها مقالَتُهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

قُرِىء كما سبَقَ بيانُه مَعَ نصّ السّورة بفَتْحِ هَمْزَة: ﴿وَأَنَّا﴾ وبِكسْرِها، وقَدْ سبَقَ توجيه القراءتَيْن في نظيرَتَيْهما في القضيَّةِ الخامسة.

أبانت هذه المقالة أنّ هؤلاء النَّفرَ مِنَ الجنّ كانُوا مَخْدُوعينَ بأقْوالِ

كَانُوا يَسْمعُونها من الإنسِ ومِنَ الجنّ، وفيها كذِبٌ عَلَىٰ الله، فيقْبلُونها، ظانِّينَ ظَنًّا تَوَهُّمِيًّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإنسُ والجنُّ علىٰ اللّهِ كَذِباً، فَلَمَّا اسْتَمَعُوا القرآن الْعَجَب من الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، تَبيَّنَ لَهُمْ أَنَّ مَا كانُوا يَسْمَعُونَه مِنَ الإنْسِ والجِنِّ من أقوالٍ على الله، ومنْها أقوالُ الْيَهُودِ والنصارىٰ، وأقوالُ الْوَثَنِيِّينَ هيَ أقوالٌ كاذِبَةٌ باطِلَةٌ، إذ كانت مضادَّةً لما جاء في كتابِ الله القرآن، فَمَنِ اعتقدها وآمَنَ بها كفَرَ بربِّه.

وكما دلَّتْ هٰذِهِ العبارة على أَنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ اسْتماع القرآنِ مَخْدُوعين بأقوالٍ كُفْرِيَّةٍ كَاذِبَةٍ كَانُوا يسمعُونها من الإنْسِ والجنّ، فقد دلَّتْ أيضاً على أنَّهم قَدْ كَفَرُوا بِها الآن، وآمَنُوا بما جاءَ في القرآن.

وقرأ يعْقُوبُ فقط: [أَنْ لَنْ تَقَوَّلَ]: أي: لَنْ تَتَقَوَّلَ، التَّقَوُّلُ: هو افتراء القول، واخْتِلاَقُه.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ ﴿تَقُولَ﴾ و [تَقَوَّلَ] تَكَامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد.

فقِرَاءَة الجمهور: ﴿تَقُولَ﴾ دَلَّتْ على الأقوال الّتي ينْقُلَها الإنْسُ والجنُّ حكايةً وروايَةً عن غيرهم، دُونَ أن يتحقَّقُوا من صِدْقها، ولَيْسُوا هُمُ المفترين لها، وكان يجب عليهم أن لا يَنْقُلُوا أقوالاً تَتَعلَّق بالله دون تحرّي أن تكون حقًّا.

وقراءة يعقوب: [تَقَوَّلَ] بتشدِيد الواو المفتوحة، دَلَّتْ علىٰ الأقوال التي يَفْتَرِيها ويخْتَلِقُها الإنْسُ والجِنُّ على الله عزّ وجلّ.

قدّموا الإنس في عبارتهم لشعورهم بأنّ الإنْسَ أفضلُ من الجنّ بأصل تكوينهم.

القضيّة الثامنة:

دلّت عليها مقالتهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾:

قُرِىءَ كما سبَقَ بيانه مع نَصِّ السورة بفَتْحِ همزة ﴿وَأَنَّهُ﴾ وبَكَسْرِها، وقد سبَقَ توجيهُ القراءَتَيْنِ في نَظِيرَتيهما في القضيَّة الخامسة.

وقد أبَانَتْ هذه المقالةُ من مقالاَتِ النفر من الجنّ أمراً واقعاً كَانَ يَجْرِي بين الإنس والجنّ، وهو أنّ رِجالاً من الإنْسِ الَّذِين هم أحْسَنُ تقْوِيماً من الجنّ، وأكثر علماً وذكَاءً، كَانُوا يَلْجَؤُونَ إلىٰ رجالٍ من الْجِنّ، مستعيذين بهم، ليُعِينُوهم وليُعِيذوهم مِمَّا يخافون، وذلكَ من فساد مَفْهُومَاتهم وتصَوُّرَاتهم عَنْ عالَم الجنّ، وكَانَ الرّجالُ من الجنّ يَزِيدون المستعيذين بِهِمْ من الإنسِ سَفهاً وحَمَاقَةً، وجَهْلاً وإثماً، وعَنَاءً بتكاليفَ ثقيلَة، ويَزيدونَهُم من رُكُوبِ الشّرّ، وغِشيَان المآثم والمعاصِي والشّركيّات.

ويُشْعِرُ هذا البيان بأن هؤلاء النفر يسْتَخِفُّون ويَسْتَهِينُون بالإنسِ الذين يَعُوذُون بالجنّ.

﴿يَعُوذُونَ﴾: أي: يَلْتَجِئُون، ويَعْتَصِمُون، برِجال من الجنّ، ويلازمون الالتصاقَ بهم.

يقال لغة: عَاذ به، يَعُوذُ، عَوْذاً، وعِيَاذاً، أي: الْتَجأ إليه، واعْتَصَمَ به، ولَزِمَه، رَجاءَ الحِمايَةِ وتحقيق المطالب.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي: فزادُوهُمْ تَعَباً، وسَفهاً، وحَمَاقَةً، وجهلاً وإثماً، وضلالاً.

الرَّهَقُ: يأتي في اللُّغة بمعنى: السَّفَهِ، والْحَماقَةِ، والْجَهْلِ، والإثْم، وحَمْلِ المشاقّ والمتْعِبَات، ورُكوبِ الشرّ والظُّلْمِ، وغشيان المحارم، وارتكاب كبَائر الإثم.

ويَدْخُلُ في هذا مُمَارَسة الشّرْكيّات وسَائر الكُفريّات.

ويُقَالُ لغة: أَرْهَقَ فُلانٌ فُلاَناً، إذَا حَمَّلَه ما لا يُطِيقُ.

والرَّهَقُ: مَصْدَرُ «رَهِقَ، يَرْهَقُ».

وهذا البيان من هؤلاء النفر من الجنّ بعبارَةِ الفِعْلِ الماضي: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ﴾ لاَ يُفِيدُ تَوَقُّفَ هٰذا الأمْر، إذْ هٰذِهِ الاستعاذَةُ بالجنّ من قبلِ الإنْسِ مَا زَالَتْ، ولَنْ تَزَال ما دَامَ في الأرْضِ عُصَاةٌ لِلّهِ ولِرَسُوله.

فالنفر من الجنّ قد عَبّروا عَنْ أَمْرٍ عَلِمُوهُ ممَّا مضَىٰ، ولم يتَحَدَّثُوا عن المستقبل وما سيجري فيه، إذِ المستقبل غَيْبٌ بالنّسبَةِ إليهم.

رُوي عن الحسَنِ وابْنِ زَيْدٍ وغيرهما: أَنّه كان من استعاذات العرب في الجاهلية، أنّه إذا نَزَلَ الرَّجُلُ منهم بوادٍ قال: أعُوذُ بسَيِّدِ هذا الوادي من شرّ سُفَهاءِ قَوْمِه، فيَبِيتُ بجواره حتَّىٰ يُصْبح.

ويؤكّدُ المشتَغِلُون بموضوعِ أعْمالِ السَّحَرة، وأَعْمَال الّذِينَ يتّصلون بالجنّ، لاستخدامهم في بعْضِ ما يُريدون منهم، أنّ الجنَّ الّذين يَلْجَؤُون إليهم، لا يُؤَدّون لهم الخدمات المطلوبة منهم، ما لم يَقُمْ مستخدموهم بأعمال أو أقوالٍ فيها شِرْكٌ، أو فيها بعْضُ كبائِرِ الإثم، مع أعْمالٍ أُخْرَىٰ فيها حماقة وسَفَهٌ وَجَهالة.

فهم بهٰذِهِ الأعمال والأقوال الّتي يطْلُبُونَ منهم تنفيذها يَزِيدونَهُمْ رَهَقاً، أي: يزِيدونهم سَفَهاً وحَماقةً وجهلاً وإثماً، وفي معظم الأحوال يأمُرُونَهُمْ بعزائم من أقوالٍ غير مفهومة، وهي ذاتُ مضامين شِرْكِية في لغةٍ قد تكون من اللّغات القديمة، أو يأمُرونهم بأعْمالٍ هي من الكفْرات العملية، كإلْقَاءِ القرآن الكريم أو آيات منه في النجاسات.

ومعظم الجنّ الذين يحضُرُونَ بالعَزَائم القولية للمستعيذين بهم من الإنس، هم من الشياطين الكَفَرة، جنُودِ إبليس علَيْهم لعنَةُ الله والملائكة والمؤمنين أجمعين.

وهؤلاء الجنّ الّذِين يحضُرون للمستعيذين بهم من الإنْس بالعزائم، قد

يُوهمون المستعيذين بهم أنّهم من الملائكة، وقد يطلُبون منهم عبادتهم، أو عبادة سيّدهم، وهو في الحقيقة الّتي يقْصِدُونها إبليس عَلَيْه لعْنَةُ الله، وقد يطلبون منهم عبادة وثَنٍ أو صخرة أو شجرة أو حيوان أو إنسانٍ حيٍّ أو ميّت.

وعبارة: ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ تفيد أنَّ الجنَّ فيهم رجالٌ ونِسَاء، وأنَّهُمْ يتزاوجُونَ، ويتناسلون كالإنس.

وبما أنَّهم يُشْبِهُون في صفاتهم النفسيَّة الإنس، وهم موضوعون موضع الامتحان في الحياة الدنيا كالإنس، وإنْ نزلَتْ رُتبتُهم عن الإنْسِ بوجْهٍ عامٍّ، وبما أنَّهم يتكلَّمُون بلُغَاتِ الإنس على اختلاف أَلسنَتِهم، مع احتمال أن تكُونَ لهم لُغَاتٌ خاصة يتخاطبون بها، فليس من المستغرب أن يُسَمُّوا ذُكورَهم البالغين رجالاً، وأنْ يُسَمُّوا إناثهم البالغات نساء، أو يَكُونُ النصُّ القرآنيُّ تَرْجَمةً لما قالوا. فلا يُقَال إنّ لفظة «رِجَال» خاصَّةٌ بالذكُورِ البالغين من الإنس.

أمّا الملائكة فبما أنَّهُمْ لاَ يتناكَحُونَ ولا يَتَناسَلُونَ، فلَيْسَ فيهم ذُكُورٌ ولاَ إنَاث، ولا رجالٌ ولا نساء.

وأمّا ذُكورُ وإناثُ البهائم فلا يُقالُ لمَنْ بلَغَ مِنْها رِجَالٌ وَلاَ نِسَاء، لأنَّها غيْرُ عاقلة، وغير موضوعة في الحياة الدُّنيا موضع الابتلاء.

وبهذا التحليل يَسْقُط الاعتراض، وتندفع الإشكالات، ويثبتُ أنَّ في الجنّ رِجالاً ونساءً، وأنَّهم يَتَنَاسَلُونَ، وأنَّ لهم ذُرّيات، ولهذا أبان الله عزّ وجلّ أنّ لإبْليس ذُرّيَّةً يُضِلُّون ويُغْوُونَ بالوسوسة والتسويل، فقال اللّهُ عزّ وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

القضيَّة التاسعة

دلّت عليها مقالتهم: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾:

قُرِىء كما سَبَق بيانه مع نصّ السُّورَة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وبكَسْرِها، وقد سَبَقَ تَوْجِيهُ القراءتَيْن في نظيرتيهما في القضيّة الخامسة.

فأبانَ هٰؤلاَءِ النفرُ من الجنّ لِقَوْمِهم أَنَّ الإنْسَ الَّذِينَ يقُولُونَ على اللَّهِ كَذِباً مثْلَ نُظَرائهم من الجنّ، قَدْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ لِيَوْم الحسَابِ أحداً، فَلاَ حِسَابَ، ولاَ فَصْلَ قَضاءٍ، ولاَ تَنْفِيذ جزاء.

أقول: ومِنْ شأن هذا الظَنّ التَوهُمِيّ الباطل، المنكر لبراهين العقل، وأنباء الدِّين الّتي بلّغها عن رَبّ العالمين، جميعُ الأنبياء والمرسَلِين، أنْ يجعلَ صاحبَهُ عَاصِياً لله، غَيْرَ متَّبع ما أنزل لعباده في كُتبِه، وبلَّغَها عَنْهُ رُسُلُه، وأن يجعَلَهُ منطلقاً في ارتكاب الآثامِ فاجراً، وأَنْ يُزَيِّنَ لَهُ الشّركيّاتِ الّتي يتوهَّمُ أَنّها تنفَعُهُ في الحياة الدنيا. ومنها بعْضُ الخدمات الحقِيرَاتِ الّتي تُقَدِّمُها له الشياطين.

فالإيمان بالبعث للحساب وفصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، هُو الرّادِعُ الْأَكْبَرُ للمخلُوق المدْرِكِ ذي الإرادة الحرَّة، الموضوع موضع الابتلاء في ظُرُوف الحياة الدُّنيا.

وقد اهتمّ هؤلاء النَّفَرُ ببيَانِ رُكْنِ الإيمان بالبعثِ، لإيمانهم بأنّ الجِنَّ سَوْف يُبْعَثُونَ ويُحَاسَبُونَ ويُجازَوْن، كما سَوْفَ يُبْعَثُ الإِنْسُ لِيَوْمِ الدّين.

وأُأَكِّدُ هُنَا أَنَّ مُؤمِني الجنّ المتَّقِين هُمْ من أصحاب الجنة كالمؤمنين المتّقين من الإنس، كما أنّ كفّارَهُمْ وعُصاتَهم يُعَذَّبُونَ في جهنم كنظرائهم من الإنس.

ورأَىٰ بعْضُ أهْل الاجتهاد وأهْلِ التأويل أَنَّ الجنَّ يُعَذَّبُونَ فِي النّار

على كُفرِهِمْ ومعاصيهم، لكنَّهُمْ لاَ يَدْخُلون الجنَّةَ إذا آمَنُوا واستقاموا وعَمِلُوا الصَّالحات، فثوابُهُمْ يكون بالنجاة من عذاب النار.

أما جُمْهُورُ أهْل العلم من أهل الاجتهاد، وجُمْهُورُ المفسّرين، فقالوا: الجنُّ كالإنْس في الابتلاء وفي البعث، وفي الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، فسُنَّةُ الله في النوعَيْنِ سَواء.

وأقول: بما أنّ الجنّ ممتَحنُون في الحياة الدّنيا بالإيمان والإسلام والعبادة كالإنْس، وبما أنَّ خصائِصَهُمُ النفسيَّة مُشابهة لخصائصِ الإنس، في اللّذَّاتِ والآلام، والأهواء والشهوات، والإدْرَاكِ وحُرِّيَّةِ الإرادة، فإن مِمَّا يَنْبَغي أنْ نُدْرِكه أنّ حِكْمَةَ الله ـ جلَّ جَلالُه ـ تقضي بأن يكونَ لمؤمِنيهِمْ في الآخرةِ ثوابٌ بنعيم في الجنة، كما أنّ لكفَّارهم وعُصَاتِهِمْ عِقاباً وعذاباً أليماً في النار، والمتقون من الجنّ يدخلون في عموم المتقين الذين أعدّت لهم جنات النعيم.

وقدْ ثبت في قواطع النّصوصِ أنَّ الجنّ يُحْشَرُونَ ويُحَاسَبُونَ علىٰ ما كَسَبُوا واكْتَسَبُوا في الحياة الدنيا، وفيما يلي طائفة منها:

(١) قول الله عزّ وجلّ لإبْلِيسَ رَئيسِ شياطين الجنّ، حِينَ ألْزَمَ نَفْسَه بإغواء بَنِي آدم، في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (السَّجْدَةِ/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

(٣) وقول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ . . ﴿٣٨﴾﴾.

هذا الخطاب يُوجَّهُ يوم الدِّين بَعْدَ الحساب، وفَصْلِ القضاء، من الله جلّ جلالُهُ، للّذِينَ كذَّبوا بآياتِه الّتي أَنْزلها على رسُولِهِ محمَّد ﷺ، وهو يشمل الإنْسَ والجنّ.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) مُبيناً بَعْضَ الثواب الذي يُخَصَّصُ لكُلّ مُؤْمِنٍ اتَّقَىٰ الله وَخَافَ مقامه يوم الدّين:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

ومعلوم أنّ مُتَّقِي الجنّ ممَّنْ خاف مَقَام رَبه.

(٦) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرحْمٰن) أيضاً:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: أي: لَم يَفتَضّ بكارَتَهنَّ إنسٌ قَبْلَ أَزْواجهنَّ الَّذِين هُنَّ مُخَصَّصَاتٌ لهم في الجنّة إنْسٌ وَلاَ جَانٌّ.

الطَّمْثُ: جماعٌ تفضُّ به البكارة.

ولولا أنّ مُؤْمِنِي الجنّ يَدْخُلُونَ الجنَّة، ولو لَمْ يَكُنْ فيهم رجالٌ يباشرون الزَّوْجات كالإنس، لمَا كان لهذا الاحتراز فائدة.

ولهذا النّصّ دلالَةٌ أُخرى، وهي أنّ رجال الجنّ لهم زوجاتٌ في الجنّة مُخصَّصات لهم، لم يطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ. ويَدُلُّ أيضاً على إمكان التزوج بين الجنّ والإنس، ولو ضِمْن شُرُوطٍ خاصّة.

القضيّة العاشرة

دلّت عليها مقالتهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾.

قُرِىء كما سبق بيانه مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا﴾ وبكسرها، وقد سبق توجيه القراءتين في نظيرتيهما في القضِيَّة الخامسة.

فأبَان هؤلاء النَّفَر من الجنّ في دعوتهم قوْمَهُمْ إلى الإيمان بالقرآن وبالرسول محمّد ﷺ، وبما جاء به عن ربّه، أنّهم ارتقَوْا حتى لَمَسُوا السَّماءَ لاسْتِراقِ السَّمْعِ من الملائكة كعادتهم السابقة فوجَدُوا السَّماء قَدْ مُلِئت حَرَساً شدِيداً، ومُلِئَتْ شُهُباً تلاحق مُسْتَرِقي السَّمْعِ من الجنّ بالرَّجم بالشُّهُب.

فدلَّت هذه المقالة على أَنَّ هؤلاء النَّفَرَ هم من فئِة الجنّ الطيّارين، الذين لهم قُدْرةٌ على الارتقاء في الجوّ باتّجاه السَّماء الدنيَا لاستراق السّمع، فهم يُخْبِرُونَ عَنْ ظاهرةٍ جَدِيدَةٍ في السماء، وهي امتلاءُ كُلّ الأماكن التي كانُوا يسْتَرِقُون السَّمْعَ مِنَ الْمَلاَئِكةِ إذا وصَلُوا إليها، لمنْعِهم من الاقتراب واسْتِراقِ السّمع.

﴿لَمَسْنَا﴾ **اللَّمْس**: هُوَ المسُّ باليَد، يقال لغة: لمَسَهُ يلْمِسُه ويَلْمُسُه، أي: مَسَّه بيده، ولاَمَسَهُ مُلاَمَسَةً ولِمَاساً، أي: تشاركا في المسّ، فكُلٌّ منهما مَسَّ الآخر.

فيظهَرُ أنَّ ارتقاءَهُمْ لم يكُنْ يزيد على بلُوغ مواطِنِ المسّ، دُونَ الدُّخول في السَّمَاء، حيْثُ الملائكَةُ مُنْتَشِرُونَ يَعْبُدون ربّهم.

﴿مُلِئَتْ﴾: التَّعبير بالملْء قَدْ يَدُلُّ على أنّه كان في السَّماءِ حَرَسٌ، وكَانَ الجنّ المسترقون للسَّمْعِ يُطْرَدُون رجماً بالشُّهب، لكنَّها لم تَكُنْ مَمْلُوءَةً بالْحَرَسِ والشُّهُب، بل كان فيها أماكِنُ غيْرُ مَحْرُوسة.

﴿حَرَسًا﴾: مُفْرَدُهُ «حَرَسِيٌّ» فهو اسْمُ جِنْسٍ جمعيّ، يوصف بالمفرد وبالجمع. **الْحَرَسُ**: هم الجنْدُ الّذين يُرَتَّبُون لحفظ ذي السلطان وحراسَتِه. وَوُصِف لفظ ﴿حَرَسًا﴾ بلفظ ﴿شَدِيدًا﴾ أي: قَوِيًا، صَعْباً، عظيمَ القدرة.

﴿وَشُهُبًا﴾: الشُّهُبُ: جمع «شِهاب» وهو الشعلة السّاطعة من النار.

والنجم المضيء اللامع. وجِرْمٌ سماويٌّ يسْبَحُ في الفضاء، فإذا دخل في جوّ الأرض جذبته الأرض فاشْتَعل وهو ينْطَلِقُ كالسَّهم وصَارَ رَماداً.

فإذا كان المرادُ بالشُّهُب الأجرام السَّماويَّةَ السّابحةَ في الفضاء، وأنّها هي التي تُلاحِقُ مسترقي السّمع بالرَّجْم، كان مُسْتَرقُو السَّمْعِ من الجنّ لا يجاوزون في ارتقاءاتهم آخِرَ حدود الغلاف الغازيّ المحيط بالأرض، وهذا يُطْلَقُ علَيْه لفظ «السماء» في اللّغة.

ويَشْهَد لهذا ما رواه الإمام مُسْلِمٌ عن عبد الله بن عبّاسٍ قال: أَخْبَرَنِي رجُلٌ من أصحاب النبيّ ﷺ من الأنصار، أنّهم بَيْنَما هُمْ جُلوسٌ لَيْلَةً مع رَسُولِ الله ﷺ، رُمِيَ بِنَجْمٍ فاسْتَنَارَ. فقال لهم رسُول الله ﷺ:

«مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ في الجاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بمِثْلِ هٰذَا»؟.

قالوا: اللَّهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، ومَاتَ رَجُلٌ عظيم.

فقال رسول الله ﷺ:

«فَإِنَّها لاَ يُرْمَىٰ بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، ولَكِنْ رَبُّنَا تبارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْراً سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أهل السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّىٰ يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هٰذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيا.

ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَملَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟.

فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ».

قال: «فَيَسْتَخْبِرُ بعضُ أهْل السماوات بَعْضاً، حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَٰذِهِ السَّمَاءَ الدُّنيا، فَتَخْطَفُ الجنُّ السَّمْعَ، فَيَقْذِفُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ، ويُرْمَوْنَ به، فَمَا جَاءَوا بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، ولكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ».

يَقْرِفُونَ: أي: يَكْذِبُ أولياؤهم من الإنس، ويُخَلِّطُون.

فدلَّ هذا الحديث على أنَّ المراد بالشُّهُبِ الأَجْرَامُ السَّمَاويَّة الّتي تَسْبَحُ في الفضاء فوق الغلاف الغازيّ المحيط بالأرض، فإذا دخل الواحد منها في جَوّ الأرض، اشْتَعَلَ وتَوَهَّج، وهذه هي التي جعلَها الله رُجوماً للشياطين، وكان أهل الجاهلية يُسَمُّونَ هٰذِهِ الشُّهُبَ نُجُوماً، وظاهر أنَّ لها وظيفتين: وظيفَةَ تَزْيِينِ السماء، ووظيفة رَجْمِ الشياطين، مُستَرقي السَّمْعِ من الملائكة إذا وَصَلُوا ضِمْنَ الْغِلَافِ الغازي المحيط بالأرض، إلى حَيْثُ يُبَلِّغُ بَعْض أهْلِ الملأ الأعلَىٰ مَلائِكَةَ الأرض مَا قضاه اللّٰهُ عزّ وجلّ، لِيَقُومَ كلُّ ذي وظيفَةٍ مِنْهُمْ بوظيفته في الأرض، ضِمْنَ نظام الأسباب والمسبَّبات الّتي جعَلَها الله في كونه، وهو جلَّ وعَلا الخَلَّاق الفعَّالُ لما يشاء، من خلالِ قنواتِ الأسْباب.

وعلى مَا جاء في هذا الحديث يُمْكِنُ حمْلُ مَا رَواه البخاريُّ عَنْ أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال:

«إِذَا قَضَىٰ اللّٰهُ الأَمْرَ في السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بأَجْنَحِتِها خُضْعَاناً لِقَوْله، كالسِّلْسِلَةِ عَلَىٰ صَفْوان، فإذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبهم(١)، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟.

قالُوا للَّذِي قَالَ: الْحَقَّ، وهُوَ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُها مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، ومُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا واحِدٌ فَوْقَ آخر».

ووَصَفَ سُفْيَانُ(٢) بِيَدِهِ، وفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ الْيُمْنَىٰ، نَصَبَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

«فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَىٰ صَاحِبِهِ فيُحْرِقَهُ، ورُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّىٰ يَرْمِيَ بِهَا إِلَىٰ الَّذِي يَلِيهِ، إِلَىٰ الّذِي هُوَ أَسْفَل مِنْهُ،

---

(١) **فُزِّعَ عن قلوبهم**: أي: أُزِيلَ الفزع عنها.

(٢) أحَدُ رواة الحديث عن أبي هريرة.

حَتَّىٰ يُلْقُوها إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَتُلْقَىٰ عَلَىٰ فَم السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كِذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ، فيقولُون: أَلَمْ يُخْبِرْنَا: يَوْمَ كَذَا وكَذَا، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعتْ مِنَ السَّمَاءِ».

وروى البخاريّ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الملائكة تَنزِلُ في الْعَنَانِ(١)، فَتَذْكُر الأَمْرَ قُضِي في السَّمَاءَ، فتَسْرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فتَسْمَعُهُ، فَتُوجّهُهُ إِلىٰ الكُهَّان، فَيَكْذِبُونَ مَعَها مِئَة كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أنفسهم».

ويَدُلُّ على أنَّ هؤلاء النفر من صنف الجنّ الطّيّارين، بيانُ أنّهم كانُوا يَرْتَقُونَ لاستراق السَّمْعِ من الملائكة الذين ينْزِلُون في العنان، وما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ من أنّ الجنّ علَىٰ ثلاثة أصناف، ومنهم صنف طيّارون لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء.

أخرج البيهقيُّ في الأسماء والصفات، بإسناد صحيح، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْر، عن أبي ثعْلَبَةَ الخُشَنِيّ قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْجِنُّ عَلَىٰ ثَلاَثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ بِهَا في الْهَوَاءِ، وصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلَابٌ، وصِنفٌ يَحِلُّون ويَظْعَنُونَ».

وأَخْرَجَ الحاكم في المسْتَدْرَكِ نَحْوَهُ، وصَحَّحَهُ، وتابَعَهُ الذهبيّ.

ويظْهَرُ أنّ العِفْريتَ(٢) من الجِنّ الّذِي عَرَض على النبيّ سليمان علَيْهِ السّلام، أنْ يأتِيَهُ بِعَرْشِ بِلْقِيس، قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقامِهِ في مَجْلِسِ الحكْمِ كانَ من صِنف الجنّ الطَّيَّارِين.

---

(١) **العنان**: ما يبدو لَكَ من السّمَاء إذا نظرت إليها. **والْعَنَانُ**: السّحاب.

(٢) **العفريت**: القويُّ الماكر.

فَمِنْ جُمْلَةِ النصوص، معَ تتبُّعِ البحوث العلميَّةِ الإنْسَانِيَّةِ عَنِ السَّماء، تَبَيَّنَ لِي أنَّه قَدْ يُرادُ بالسَّمَاءِ الدُّنيا الغِلَاف الهوائيّ الغازي المحيط بالأرض، فهو في اللّغَة يُسَمَّىٰ سماءً، إذْ كُلُّ مَا عَلَا فأَظَلَّ فَهُوَ سماءٌ في اللُّغَة، ومَعْلُومٌ أنَّ أوّلَ عُلُوٍّ فوْقَ سطح الأرض هو هذا الغلافُ الغازي، وقد تبيَّنَ لي أيضاً، أنَّهُ قد يُرادُ بلفظ النجوم في النُّصُوص، مَا كانَ العربُ يعتبرونه من النجوم، وهيَ في الحقيقة أجْرامٌ وَكُتَلٌ صَخْرِيَّةٌ مُنْبَثَّةٌ في الفراغ فوق الغلام الغازيّ حَوْلَ الأرْض، ودُونَ مَجَالِ الكواكِب التابعة للشمس، وهي من مجموعَتِها كالأرض، وتَجْرِي في أَفْلَاكٍ حوْلها.

فمُسْتَرِقو السَّمْعِ من الجنّ لا يتجاوَزُونَ هذا الغلاف، وهُمْ يُرْجَمون من هٰذِه الأجْرام، فإذا دَخَلَتْ هذه الأجرام الغلاف الجويّ التهبت وسَطَعَ ضَوْؤُها، وطَرَدَتِ المتَسمِّعِينَ، لَذْعاً بالنار، إذْ تَكونُ شُهُباً مُوَجَّهَةً عليهم فتَؤَدّي في أَعْيُنِ الناس في الأرض وظيفَة التزيين، مع النجوم العظمىٰ التي في المجرّاتِ، وتُؤَدّي وظيفة رَجْمِ مُسْتَرِقي السَّمْعِ من الجنّ، بأمْرٍ خفيٍّ عَنْ إحْسَاسَاتِنا.

وهل رَجْمُ مسْتَرِقي السَّمْعِ من الجنّ بالشُّهُبِ يكُونُ سَببا في قَتْلِهِمْ، أو لاَ يَقْتُلُهم، بَلْ يَمَسُّهُمْ بحَريق، أو يوقِعُ بِهِمْ عذاباً مضْنِياً؟.

أقول: يُمْكِنُ أن يَقْتُلَ بعْضَهُمْ، ويُمْكِنُ أَنْ يَقْتَصِرَ على إنْزالِ الضَّرَرِ والعَذاب بِهِمْ مِنْ دُون القتل، فالنُّصُوصُ ليسَ فيها تصريحٌ بأنَّ طَرْدَهُمْ بالشُّهُبِ يُسَبِّبُ قَتْلِهِمْ، فاحتمال الأمرَيْن قائم، والغرض أن يكونُوا مَعْزُولِينَ عن تَلَقّي ما يَنْزِلُ من السماء على أَلْسِنَةِ أَهْلِ الملأ الأعلى، لإعْلَام المَلأ من ملائكة الأرض، بما قضاهُ الله.

نظرة تدبّرية إلى النصوص القرآنية بشأن حفظ السَّماء من الشياطين:

وضِمْنَ هٰذا الذي تبيَّنَ لي يُمْكِنُ فَهْمُ مَا جاء في القرآن المجيد، حول هذا الموضوع، ولَدَينا أَرْبَعَةُ نُصُوصٍ مُوزّعَة في أربع سُور:

النصّ الأول:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في معرض الحديث عن القرآن:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾: أي: وَمَا يَسْهُل لهم التوصُّلُ إِلَىٰ تَلَقِّي القرآنِ من ملائكة، ومَا يَصْلُحون لمثل هذا التلَقِّي حتَّىٰ يَتَنَزَّلوا به، فهم مَعْزُولُونَ بسُلْطَانِ الْقَهْرِ الرَّبَّاني عن هٰذا التلَقِّي، وعَنْ هٰذَا التنزُّل.

النصّ الثاني:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

من المعلوم علميًا أنَّ نُجومَ السَّماءِ الموزَّعَةَ في مَجرَّتنا، ومَا فَوْقَها، لا تَظْهَرُ زِينَتُها لأَعْيُنِ الناظِرين في الأرض، إلاَّ بوساطة الخصائصِ التي خَلَقَها اللّهُ عزّ وجلّ في الغلاف الْغَازيّ حول الأرض، ولولاَهُ لم تَكُنْ زينةً للناظِرين.

وقَدْ حفظ الله السَّماءَ بَدْءاً من نهايات الغلاف الغازي، الذي جعله الله محيطاً بالأرض، من كُلِّ شيْطان مَرْجُومٍ مطرود، فهو لا يسْتَطِيعُ أن يَسْتَرِقَ السَّمْعَ من ملائكة السَّماء، لدَىٰ تبْلِيغِهِمْ ما أنْزَلَهُ الله لملائكة الأرْض.

وحين يَسْتَرِقُ بعْضُهُمْ السَّمْعَ فيخْطَفُ شيئاً بحيلَتِه وسُرْعَتِه، فإنَّ شِهَاباً مُبيناً يَتْبَعُهُ فَيُخرِقُهُ فيُمِيتُه، أو يُعَطِّلُ أجْهِزَتَهُ، فيجعَلُهُ غيْرَ قادِرٍ على نَقْلِ ما اخْتَطَفَهُ وتَبْلِيغِهِ، أو تَجْعَلُه يتَقَلَّبُ في عذابٍ موجع.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾: أي: فتبِعَهُ بسُرْعَةٍ وقُوَّة.

النصّ الثالث:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

- قرأ شعبة: [بِزِينَةٍ الكَوَاكِبَ] بتنويل «زِينةٍ» ونَصْب الكواكب.

أي: بزينَةٍ بديعة رائِعة، أعْنِي الكواكب، فجاء التنكير في كلمة ﴿بِزِينَةٍ﴾ للتفخيم والتعظيم. وجاء نصْبُ لفظ [الكَوَاكِبَ] بفعلٍ محذوف تقديره «أعْنِي» بياناً للشيء العظيم الفخم، الذي حصَلَ به التَّزْيين، إنَّها كواكب السماء.

والمرادُ بالسَّماء الدنيا هُنَا، الدائرةُ الهوائية الغازيّة حول الأرض، الّتي تَبْدُو الكواكب زِينَة فيها، لأنّ الّذِين يخرجون فوق هذه الدائرة لا يَرَوْن النجوم والكواكب ذات زينَةٍ ضوئية. والمرادُ بالكواكب النجوم.

- وقرأ حَفْصٌ، وحمزة: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بتنوينِ «زِينَةٍ» وبجرِّ «الكَواكِبِ» على أنها بَدَلٌ من لَفْظِ «زينةٍ» أي: وزَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيَا بالكواكب الّتي هي بنورها وتوزيعها في السماء زينَةٌ للناظرين إليها من سُكّان الأرض.

- وقرأ باقي القرّاء العشرة: [بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ] بإضافة لفظ «زينة» إلى الكواكب، والإضافة على تقدير اللاَّم، أوْ مِنْ، فالمعنى: بزينَةٍ لِلْكواكب، أو بزينةٍ من الكواكب.

ومؤدّىٰ هٰذه القراءات مُتَاشبه، وهي من قبيل التفَنُّنِ في التعبير الجميل.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾: أي: وحفظناها حِفْظاً شديداً محكماً مِنْ كُلِّ شيطان مَارِدٍ. ﴿وَحِفْظًا﴾ مفعُول مطلق لفعل محذوف.

﴿شَيۡطَٰنٍ﴾: المراد به هُنَا المغْوِي المضلُّ المفْسِدُ مِنْ كفَرَة الجنّ.

﴿مَّارِدٍ﴾: أي: بالغِ الغايَةَ في العتوّ وَالْخُبْثِ، واتّخاذِ وسائل الإغواء والإضلال والمهارة في اصطناع المكايد الشرّيرة.

وإذا كانت السّمَاءُ محفوظة من كلّ شيطان مَاردٍ، فهي محفوظَةٌ حتماً من الشياطين الذين لم يَبْلُغوا أن يكونوا مَرَدةً.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: قرأ حفصٌ، وحَمْزَةُ، والكسائي، وخَلَفٌ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾: أي: لاَ يَتَسَمَّعُون، أدْغمت التاء بالسين فصارت سيناً مشدّدة، والمعنى: لا يَقْدِرون على أن يتسَمَّعُوا ولو تكلّفُوا ذلك.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾: أي: لا يَقْدِرُون أَنْ يَسْمَعُوا لأنّهم عن السَّمْع معزُولُون محجوبُون مَمْنُوعون.

الملأ: السّادة والأشراف، والذين لهم التقدّم، والكلمةُ المسموعة، ولهم الأمْرُ والنهيُ والتبْليغ.

والمُرادِ بِـ ﴿ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أصْحَابُ الرّياسَةِ وحملةُ رِسَالاَت الله من ملائكة السَّمَاء، ومنهم سَادَةُ ملائكة السَّماءِ الدُّنيا، الَّذِين ينقُلُونَ إلى مَلأ ملائكة الأرض مَا قضاه الله، أو أنزل به بياناً. وُصِفَ الملأ بالأعلى لأنه اسم جنس، ويجمع على أمْلاء. ولكلّ سماءٍ من السماوات السَّبْع ملأ، وللأرض ملأ منهم.

﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾: أي: ويُرْمَوْنَ من كلّ جانب من جوانب السَّماء الدُّنيا، بالأجرام المنبثة في الفضاء الخارجي، وهي التي تَصِير شُهُباً تخِرُّ إذَا دَخَلَتْ في الغلاف الغازي الذي يُحيطُ بالأرض، فمنْها ما يُطْرَدُ به الشياطين عن اسْتراق السَّمْع، من الملأ الأعلى، أي: من ملأ السماء الدنيا.

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾: **دُحوراً**: أي: طرداً بعنف وشدَّةٍ مع إهَانَةٍ وإذلال. وهو مَصْدرُ «دَحَرَهُ، يَدْحَرُهُ، دَحْراً، وَدُحُوراً» أي: أبعده وطرده بعُنْفٍ وشدّةٍ.

و ﴿دُحُورًا﴾: مفعُول مطلق لفعل محذوف تقديره: يُدْحَرُونَ دُحُوراً.

والعذابُ الواصِبُ: هو العذاب الدّائم الذي لا يَنْقَطِع، وهو عذابُ يوم الدين في نار جهَنَّمَ.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾: أي: إلاَّ مَنْ اسْتَمَعَ اسْتِمَاعاً يَسِيراً، على سبيل الخطف، فإنَّه لا يَسْتَطيع أن يَهْرُبَ به لتبليغه إلى أهل الأرض، إذْ يَتْبَعُهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ فيقْتُله، أو يُعَطِّلُ أداة التبليغ عنده.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: أي: فتَبِعَهُ شَهابٌ ثَاقِبٌ فأدْركه فقتله، أوْ عَطَّلَ أداة التبليغ عنده.

شِهَابٌ ثَاقِبٌ: أي: شهابٌ نارِيٌّ مُلْتَهبٌ مُحْرِقٌ بنارِه المتوقّدة.

النصّ الرابع:

قول اللّٰهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الْمُلْكِ/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

المصابيح: جمع «المِصْبَاح» وهو شُعْلَةُ النّار الّتي تُرىٰ في القنديل، أو في السّراج. وهٰذِهِ المصابيح تَنْطَبِقُ على الشُّهُبِ أكثر من انْطِبَاقها على النجوم العليا.

فتكاملت النُّصُوصُ في الدَّلاَلَة على أنَّ المراد بالسَّمَاء الدّنيا الغلافُ الغازيُّ الهوائي المحيطُ بالأرض، فهي المزَيَّنَةُ للناظِرين من سُكَّان الأرض بالكواكب، وبالمصابيح، وضِمْنَ حُدُودِهَا تُحَاوِلُ الشياطين أَنْ تَتَسَمَّعَ إلى المَلأ الأعلى من الملائكة، النّازِلينَ إلى ملائكة الأرض بالرَّسَائِل الرَّبَّانيّة.

القضيَّة الحادية عشرة:

دلَّتْ عليها مقالتُهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

قُرِىءَ كما سَبَقَ بيانُه مع نصّ السورة بفَتْحِ همزة: ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ وبكَسْرِها، وقد سبق توجيه القراءَتَيْن في نَظِيرَتَيْهِما في الْقَضِيَّةِ الخامسة.

فأبان هؤلاء النفر من الجنّ أنّهم كانُوا يَصْعَدُون، فَيَقْعَدُونَ عند الأماكِنِ الّتي تتلَقَّىٰ بها مَلائكَةُ الأرضِ، مِنْ مَلأ مَلائكةِ السَّمَاءِ، ما يَتَعَلَّقُ بالأحْداثِ الّتي قضىٰ اللّهُ أن تَحْدُثَ في الأرض، فيلتَقِطُون مِنْهُمْ ما يَسْتَطِيعُونَ الْتِقَاطَهُ، ويهربون به هابطين إلى الأرض، متحاشين أن تصيبهم الشهب، وهذه الأخبار الّتي كانُوا يسْتَرِقونها، قد يُلْقُونها إلى أوليائهم مِنَ الإنس.

أمّا قُعُودُهم في مواطنَ من الغلاف الغازيّ المحيط بالأرض، فأمْرٌ سَهلٌ بالنِّسْبَةِ إلى الجنّ الطيّارين، إذْ هُمْ بأجسامهم الرقيقة الخفيفَةِ أقْدَرُ على الانتظار طويلاً في أيّ مكان من هذا الغلاف من الطَّيْر الّتي تَلْبَثُ صَافَاتٍ.

وكان غَرَضُهُمْ من هذا القُعُودِ استراقَ السَّمْع من الملائكة النازلين بمَا قضَىٰ الله، لتبليغِه إلى الملإ من ملائكة الأرض.

لكنَّهم وجَدُوا الآنَ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَا بَعْدَ الآن، أنّ من يُحاولُ أن يسْتَمِعَ فإنَّهُ يَجدُ شِهَاباً رَصَداً يُوَجَّهُ له لطَرْدِه أو قَتْلِه، أو إصابته بضرَرٍ بالغ.

﴿ٱلْـَٔانَ﴾: أي: بدْءاً من زَمَنِ بِعْثَة الرسول ﷺ، فما يأتي من أزمانٍ لاحقات.

﴿شِهَابًا﴾: سَبَق بيانه قريباً.

﴿رَصَدًا﴾: **الرَّصَدُ**: الراصِدُ الذي يُرَاقِب بعنايَةٍ بالغةٍ ما يترقَّبه ويرصُدُه.

يقال لغةً: «رَصَدَهُ، يَرْصُدُهُ، رَصْداً، ورَصَداً» أي: قَعَدَ لَهُ على الطريق يَرْقُبُه.

القضيَّةُ الثانية عشرة:

دَلَّتْ عليها مَقَالَتُهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ⑩﴾.

قرىء كما سبق بيانه مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾ وَبكسْرِها، وقد سبَق توجيه القراءتين في نظيرَتَيْهما في القضيَّة الخامسة.

فأبان هؤلاء النفر من الجنّ بَعْدَ منعِ الجنّ من اسْتراق السَّمْع، إذْ مُلِئَتِ السَّماءُ حَرَساً شدِيداً، جَهْلَهُمْ بالغايَةِ من هذا الإجراء الرَّبَّانيّ، هَلْ هُو لشرٍّ أُرِيدَ بمَنْ في الأرض عقاباً لهم، على ما انتشر فيهم مِنْ شرٍّ وفَسَادٍ وكُفرٍ، كإهلاكٍ شامل، دُونَ أنْ يكون أحَدٌ على عِلْمٍ به من الجنّ أو من الإنس. أمْ أَرادَ بهم رَبُّهم أمراً رَشَداً، يمْنَعُ به عنهم كِهَانَةَ الكُهَّان، وَمَا تُوحِي به إليهم الشياطين من الأنباء التي تنزل بها ملائكَةُ السَّماء.

وَنَفْهَمُ من سوابق هذا البيان ولَوَاحِقِه، أنَّ تُحَيُّرَهم هذا قَدْ كان قبل أن يَطُوفُوا الأرض باحثين عَنِ السّبب، وقَبْل أن يَسْتَمِعُوا القرآن الْعَجبَ من تلاوة الرَّسُولِ محمّد ﷺ.

فلمَّا اسْتَمْعُوا القرآنَ عَرَفُوا السَّبَب، وذَهَبَ عنهم التَّحيُّر، وعَلِمُوا أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ أراد بأهل الأرض أمراً رَشداً، إذْ منَعَ عنهم ما كانت الشياطين تُوحِيه إلى أوليائهم الإنس، من أخْبارٍ حَقِيقِيَّةٍ يَسْتَرِقُونها من مَلأ ملائكة السماء، حينما يَتلَقّاها مَلأُ ملائكة الأرض، ليقوم ملائكة الأرض بوظائفهم في الأرض على مقتضاها.

﴿رَشَدًا ﴾: الرَّشَدُ السُّلُوكُ الموافق للحقِّ والصواب، أما لما هو الأفضل، والأحْسَنُ والأكثر نفعاً.

القضية الثالثة عشرة:

دلّت عليها عبارتهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾:

قُرِىء كما سَبَقَ بيانه مع نصّ السورة بفتح همزة ﴿وَأَنَّا مِنَّا ﴾ وبكَسْرِها، وقد سَبَقَ توجيه القراءتَيْن في نظيرتهما في القضيَّة الخامسة.

فأبان هؤلاء النفر من الجنّ واقِعَ حَال قومهم من الجنّ، وأنَّهُ يُوجَدُ مِنْهُمْ صالِحُون، ويوجَدُ منهم آخرون تنازلاً في الدّرَجاتِ والدَّركات حتَّىٰ أخَسِّها وأسْفَلِها.

﴿ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾: جمع «الصّالح» وهو ضدُّ الفاسِد، وقد جاء في القرآن لفظ «الصَّالحين» وصفاً للأنبياء والمرسَلِين، والمؤمنين الّذِين يأمُرُونَ بالمعروف وينْهُونَ عن المنكرِ ويُسَارِعُون في الخيرات.

وأدْخل الله عزّ وجلَّ في الصَّالِحِينَ الأوَّابين، الَّذِينَ إذَا فَعَلُوا بعْضَ المعاصي والمخالفات، رجَعُوا إلى ربّهم بالتَّوبة والاستغفار على وَجْهِ السُّرْعَةِ دُون إبْطاءٍ، ولو تكرَّرَ منْهُمْ ذلِك.

فدَلَّ هذا على أنَّ الْفُسَّاقَ والْعُصَاةَ فاسِدُون، لأنَّهُمْ بالْعَمل الفاسِدِ غير الصالِحِ قَدْ عَرَّضُوا نُفُوسَهُمْ للفساد، باستثناء الأوّابين التوّابين، الّذِين يُدَاوُونَ مَا أصَابَ نُفُوسَهُمْ من عوارض الْفَسَاد، بما يُصْلِحُها وَيُعِيدُها إلى الصِّحَّةِ والسَّلاَمَة، فَيَعُودُونَ بسَبَبِ الإيمان والْعَمل الصالح صالحين.

وشَرُّ الفاسِدِين الكافِرُون، وتتفاقَمُ شُرُورُهُمْ بحَسَب دَرَكاتِ كُفْرِهم، وظُلْمهم، وبغيهم، وعدوانهم، وإفسادهم في الأرض، وأعمالهم الإغوائية الإضلالية، ومع أهل الدّرْك الأسفَل منهم أخْباثُ المنافقين.

فكُلُّ هؤلاء المتنازلين في الدَّرَجاتِ، فالدَّرَكاتِ، عن دَرَجات الصالحين، تَعُمُّهُمْ عبارة: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دُون فريق الصالحين، مراتبَ ودَرَجاتٍ ودركاتٍ.

وعبارتُهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ تُفيد أنّه قَدْ كان في الجنّ جنٌّ صالِحُونَ قَبْلَ وُصُولِ دَعْوَة الرَّسُول محمّد ﷺ إليهم، إذْ كانوا على مِلَّةٍ مقبولَةٍ عنْدَ اللَّهِ، غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ بِمِلَّةٍ لاحِقَة.

أمّا بَعْدَ أن وصَلَتْ إلى الجنّ دَعْوَةُ محمّد ﷺ، فلا يُوصَفُ بالصلاح إلاّ مَنْ كان مُؤْمناً مُسْلِماً تَقِيًّا، متَّبِعاً رسالةَ خاتَمِ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ عليه أفضلُ الصلاة وأتَمُّ التسليم.

ويقول الَّذين لهم اطّلاعٌ على بعض أحوال الجنّ: إنَّ فيهم يهوداً ونصارى وصابئين، وغَيْر ذلك، فأحوالهم ومذاهبهم، مناظرةٌ لأحوال الإنْسِ ومذاهبهم، والله أعلم.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾: أي: ذَوِي مذاهبَ وعقائِدَ ومِلَلٍ وأهواءٍ مختَلِفَةٍ متقطِّعَةٍ، لا جامِعةَ تجمع بينها، فنحن فِرَقٌ شَتَّىٰ.

﴿طَرَآئِقَ﴾: جَمْعُ «طَرِيقة» وهي في اللُّغَة تُطْلَقُ علىٰ السِّيرَةِ، والمذهب، والحالِ، والفرقة.

وإطلاق لفظ «طرائق» على الجنّ بمعنَى الْفِرَق، لا يحتاج إلى تأويلٍ ولا إلى تقدير.

أمّا إطلاق لفظ «طرائق» علىٰ الجنّ بمعنَىٰ المذاهب والسِّيَرِ والأحوال، فهو على تقدير: كنّا ذوي طرائق، بِحَذْفِ المضاف لفظاً وملاحظتِه ذهناً، أو هو من قبيل المجاز المرسَلِ، من إطلاق الشَّيْءِ على صاحبه، نظير قولي:

هو الْجُودُ إلاَّ أنَّ لِلْجُودِ زَلَّةً. هُوَ البِرُّ والتقْوَىٰ بِلَا صَبَوَاتِ.

أي: هو صاحب الجود والبرّ والتقوىٰ، أو هو عين الجود والبرّ والتقوىٰ لعظم هذه الصفات فيه، فكأنّه هي.

﴿قِدَدًا ﴾: جَمْعُ «قِدَّة» وهي القِطْعَةُ من الشيء، والفِرْقَةُ من الناس المتميِّزَةُ بهوًى، أو مَذْهب.

وأصْلُ مادّة الْقَدِّ، يَدُلُّ على القَطْعِ المستأصل، وعلى الشَّقِّ طُولاً، يقال لغةً: «قَدَّ الجلْدَ، يَقُدُّهُ، قَدّاً» أي: قَطَعَهُ قَطْعاً مُسْتَطِيلاً، فاسْتَخْرَجَ مِنْه سَيْراً.

وكان عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، إذا اسْتَعْلَىٰ في الحرب قَدَّ، أي: قَطَعَ مُنَازِلَهُ المحارِبَ لَهُ طُولاً، وكانَ إذَا اعْتَرَضَ قَطَّ، أي: قَطَعَ عَرْضاً.

القضيّة الرابعة عشرة:

دلَّتْ عليها عبارتهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ⑫﴾:

قرىء كما سبَقَ بَيَانُهُ مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾ وبكَسْرِها، وقد سبق توجيه القراءتَيْن في نَظِيرَتَيْهما في القضيّة الخامسة.

فَأَبَانَ هَؤلاءِ النَّفَرُ مِنَ الجنّ أَنَّهُمْ جَعَلُوا يُفَكِّرُونَ في أنَّ الله ـ جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه ـ لَوْ شَاءَ أَنْ يُنْزِلَ بالْعُصَاةِ من عباده عقابَهُ وعَذَابَه، ولو كَانُوا مِنْ أَقْوَىٰ رِجالِ الجِنّ، وأقْدَرِهِمْ على المقاوَمَةِ أَوِ الْهَرَبِ، فَهَلْ يَسْتَطِيعُون مُقَاوَمَةَ وَسَائِلِ عِقَابِهِ، بالمصارعَة، أو باتّخاذ ملاجِىءَ وَوَاقياتٍ تحْمِيهم، أو بالْهَرَبِ مِنْ مواقع تَنَزُّلِ أسبابِ عذاب الله، وهُمْ خَلْقٌ من خَلْقِه، وهو الذي مَنَحُهُم القوىٰ، وجَعَلَهُمْ يقْعُدُونَ في الأجواء العلْيَا مقاعِدَ للسَّمْع، لالتقاط أخبار السَّماءِ من ملائكة الملأ الأعلى.

وبعْدَ التَّفكِير المتأنّي غَلَبَ علىٰ ظَنّهِمْ، أَنَّهُمْ لَنْ يُعْجِزُوا الله إذا أرادَ معاقَبَتَهم والانتقام منهم، لا بالمقاومة والمصارعة، ولا باتخاذ الملاجي والواقِيَاتِ، ولا بالهَرَب إلى أماكن آمِنَة.

وكان هذا الظنُّ منْهُمْ ظَنًّا رَاجحاً لم يَبْلُغْ مبلغ اليقين، إذْ هم يُحَدِّثون عمَّا كانُوا عليه قبْلَ اسْتماع القرآن من الرسول، وقبْلَ الإيمان به وبالرَّسُول وبكل ما جاء به عن ربّه.

وسبق إلى أذهان بعض المفسّرين أنّ هؤلاء النفر من الجنّ يُحَدِّثُون عن حالهم بَعْدَ اسْتماع القرآن وَبعْدَ الإيمان به، ففسَّرُوا الظّنّ هُنَا بمعنى العِلْمِ واليقين، وقد نظرْتُ مُتَفكّراً في استعمالات مادة الظّنّ هُنَا بمعنى العِلْمِ واليقين، وقد نظرْتُ مُتَفكّرا في استعمالات مادة الظّنّ في القرآن مع الاستقراء التامّ، فثبَتَ لدَيَّ أنَّهُ لم يُسْتَعْمَلِ الظَّنُّ في آياته إلاّ بما هو دون اليقين، ونزولاً حتَّىٰ الظَّنُّ الضعيف المرفوض، الّذي لا يَصِحُ الأخْذُ به بوجْهِ من الوجوه. أمَّا الظَّنُّ المقبولُ فَهُوَ الظَّنُّ الراجح، ويَصِحُّ العَمَلُ به حتَّىٰ يأتِيَ مَا هُو أَرْجَحُ منه وأقوىٰ دليلاً.

وفي إعلان هؤلاء النفر من الجنّ عمَّا كانوا عليه قبل أن يؤمِنُوا، وهم يقومون بدَعْوَةِ قَوْمِهم إلى الإيمان بهذا الدّين الذي جاء به رسولُ اللّه محمّد ﷺ، استخدامٌ للأسلوب الحكيم في دعوتهم، إذْ أعْلنونَ تَدَرُّجَهُمْ في الاقتناع، حتى بلغوا إلى اليقينِ فآمَنُوا، وهذا الأسلوبُ من أنجح الأسَالِيب الحكيمة المؤثِّرَةِ في المدعُوِّين، لأنَّ طبائع النفوس في التدرُّج إلى الإيمان بالحقّ مُتَشَابهة.

القضيَّة الخامِسَة عشرة:

دلَّتْ عليها عبارتُهُمْ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ... ﴿١٣﴾﴾:

قُرِىء كما سَبَقَ بيانُهُ مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا لَمَّا﴾ وَبكسْرِها، وقد سبق توجيه القراءتين في نظيرتيهما في القضية الخامسة.

فأبانَ هؤلاء النفر في دعْوَتِهم لقومهم من الجنّ، أَنَّهُمْ لمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَمَا اشْتَمَل عليه من الْهُدَىٰ، آمَنُوا به، إذْ رأَوْهُ حَقًّا وداعِياً إلى صراط مُسْتقيم، ويَهْدِي إلى الرُّشْد.

اتَّخَذُوا الأُسْلُوب المؤثر الحكيم بالحديث عن أنفسهم لدى دعْوَتهم قومَهُمْ إلى الإيمان والإسلام، والاهتداء بَهَدْي القرآن.

القضية السادسة عشرة:

دلَّتْ عليها عبارتهم: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾:

هذا البيان من هؤلاء النفر من الجنّ أبان أَنَّهُمْ حَمَلَةُ رِسالَةِ دَعْوَةٍ في قومهم، إلَىٰ الإيمان بالرَّبّ جلَّ جلالُهُ إيماناً كاملاً، وهذا الإيمان الكامل الصحيح يسْتَلْزِمُ الإيمانَ بكلّ مَا جاء عن الله، وبكل ما أَمَرَ بالإيمان به، والإيمان يَسْتَلْزِمُ إعلانَ الطاعَةِ والإسْلام لله عزّ وجلّ باستلام كامل.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾: أي: فلا يخافُ نقصاً من أجْرِ إيمانه ولوازم إيمانه. ولاَ يَخافُ ظُلْماً. بل يُوفِّيه الله أجْرَه على إيمانه، إذ هو جلّ جلاَلُه كريم لاَ يُخْلِفُ الميعاد.

الْبَخْسُ: هو في اللُّغَةِ النقصانُ والظُّلْم، يقال لغة: بخس فلانٌ فلاناً، أي: ظَلَمَهُ بنُقْصَانٍ من حَقِّهِ الَّذِي هُو له.

﴿وَلَا رَهَقًا﴾: الرَّهَقُ يأتي للدَّلاَلَةِ على معانٍ مُتعَدِّدَة، سبَقَ بيانها لدى تَدَبُّر الآية (٦) من هذه السورة، وأنْسبُهَا لما جاء هُنَا في عبارة: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ولاَ يَخافُ أن يُحمَّلَ مَا لاَ يُطِيق.

قال الأزهري في هذه الآية: الرَّهَقُ اسْمٌ من الإرْهَاقِ، وهُوَ أَنْ يُحْمَلَ علَيْهِ مَا لا يُطيق.

أقول: إنَّ الإيمان بالخالق الرَّبِّ ـ جلَّ جَلاَلُهُ وعظُمَ سلطانه ـ يَسْتَلْزِمُ

قبول التكاليف الَّتِي يكلّفهُ اللَّهُ إياها، لكن رَحْمَةَ الله عزّ وجلّ قد جعلَتْ هٰذِهِ التكاليفَ ضِمْنَ حُدُود الطَّاقةِ والاسْتِطاعة والْيُسْر، إذْ لاَ يُكلّفُ اللَّهُ نفساً إلاَّ وُسْعَها، فَمَنْ يُؤْمِنْ بربِّهِ فهو لاَ يخَافُ رَهَقاً مِنْ تَكاليف لاَ يُطِيقُ حمْلَها.

ولعلّ هؤلاء النفر قد استفادُوا هذه الحقيقة ممَّا جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وظاهر من ترتيب النزول أنّ سورة (الأعراف) قد نزلَتْ قبل سورة (الجنّ).

القضيّة السّابعة عشرة:

دلّتْ عليها مقالتهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

قُرِىء كما سَبَق بيانُه مع نَصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا مِنَّا﴾ وبِكَسْرِها، وقَدْ سبَقَ توجيه القراءتَيْن في نظيرتَيْهما في القضيَّة الخامسة.

هاتان الآيتان اشتَمَلَتا على بيانٍ من هؤلاء النفر من الجنّ، عن حَالِ قَوْمِهِم من الجنّ، بَعْدَ أنْ قَامُوا برسالةِ الدّعوة إلى الله، وإلى صراطه المستقيم بينهم، فاستجابَ لدَعْوَتِهم فريقٌ منهم، ورفَضَ الاستجابَةَ فريق آخر.

فأبَانُوا أنّ من استجابَ منهم فأَسْلَمَ قَدِ اجْتَهَدُوا في طَلَب الحقّ وفي طلَب الصواب، وهذا هو تَحَرّي الرَّشد.

وأبانُوا أنّ الذين جارُوا وعَدَلُوا عن الحقّ والصَّواب، وعن صراط

الْهُدَى، فلم يتَحرَّوُا الرَّشد، قَدْ عَرَّضوا أنْفَسَهُمْ لعذابٍ أَلِيمٍ خالِدٍ في جهنم، إذْ جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ باختيارهم الكُفْرَ والعصيانَ، مُؤْثِرِينَ ذلك على الإيمان والإسلام والطَّاعَةِ لربّهم، وَقُوداً لجهنَّم يَوْمَ الدّين مع الحجارَة وسائِرِ الكَفَرَةِ المجرمينَ من الجنّ والإنس، فَهُمْ كالْحَطَب لجهنَّم، إلاَّ أن الحطَبَ يفْنَىٰ بالحَرِيق فَيَصِيرُ رَمَاداً، أمّا المجْرِمون الذين يذوقونَ عذاب الحريق في جهنَّم، فَكُلَّمَا نَضِجَتْ جلودُهم بدّلَهُمُ اللَّهُ جلوداً غَيْرَها لِيَذُوقوا العذاب.

● ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: وأنَّ قومَنا بعْدَ أن دَعَوْناهم إلى الإسلام صَارُوا فريقين:

الفريق الأول: المسْلِمُون، وهم الّذِين أعْلَنُوا إسلامهم، واتّباعَهم لأحكام الإسلام وشرائعه، إذ استجابوا لدَعْوَةِ إخوانهم النَّفَرِ من الجنّ الّذِين اسْتَمَعُوا القرآن فآمَنُوا بِهِ وبمَنْ أُنْزِلَ عليه، وأطاعُوا رَبَّهُمْ وأسْلَمُوا له.

وبإعْلانهم هٰذا اختارُوا لأنفُسِهم أَنْ يسْلُكوا الصراط المستقيم، صراط الذين أنْعَمَ الله عليهم من النبيّين والصّدّيقين، والشهداء والصالحين.

الفريق الثاني: القَاسِطُون، أي: الجائِرُون الذين عَدلوا عن الحقّ، وانْحَرَفُوا عن الصراط المستقيم.

والسبَبُ في عُدُولهم عن الحقّ والصِّرَاطِ المستقيم، أنّهم لم يُسْلِمُوا، فجاء الاستغناء ببيَان جَوْرِهم الكُلّيّ عن ذِكْرِ عَدَمِ إسلامهم.

أمّا المسلمونَ فإنّهم لا يجورُون جوراً كُلّيًا، ولا يتنكَّبُون الصراط المستقيم تنكُّباً كُلّيًا شَاملاً، وإنْ عَصَوْا معاصِيَ متفرّقَة، فالمعاصي من دون الكفر لاَ تَدمَغُهم بأنَّهُمْ القاسِطُونَ الجائرونَ جوراً كلّيًا عاماً.

استفَدْنا معنى جورهم الكلّي العامّ الشامل من أداة التعريف «ال» في كَلمة ﴿ٱلْقَٰسِطُونَ﴾: فهي هنا «ال» المستغرقة لكل معاني الجور وعناصره، وهذا إنما يكون بالكفر.

القاسط: هو في اللّغة، الجائر الذي يَعْدِلُ عن الحق، وعن طَرِيق الهدى، يقال لغة: «قَسْط، يَقْسِطُ، قَسْطاً، وقُسُوطاً، فهو قَاسِط» أي: عَدَلَ عن الحق وعن طريق الهدى، وطريق الهدى هو الصراط المستقيم، الذي أوضَحَ معالمه وحُدوده دِينُ رَبِّ العالمين.

أمّا «قَسَطَ يَقْسِطُ قِسْطاً (بكَسْر القاف في المصدر) وأقْسَطَ يُقْسِطُ إقْسَاطاً فَهُو مُقْسِطٌ، أي: عَادِلٌ غَيْرَ جائر.

● ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾:

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾: أي: فمن أعْلَنَ اسْتِسْلامَهُ لِلَّهِ صادقاً مُخْلِصاً، وأعْلَنَ قبولَهُ أنْ يَدْخُلَ في دين الإسلام طائعاً مختاراً، على ما أنْزَلَ الله لعبادِه، وبعَثَ به رسُولَهُ محمّداً ﷺ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المستَحِقُّون لأن يُشَار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البَعِيدِين، للدّلالة على ارتفاع منزلتهم، وسُمُوّ دَرجَتِهِم، عند رَبّهم.

﴿تَحَرَّوْاْ ﴾ أي: قَصَدُوا باهْتِمَامٍ واجتهادٍ وعنايَةٍ أفْضَلَ الأمور، واجتهدوا في الطَّلَب مع التدقيق.

يقال لُغةً: تحرَّىٰ الأمْرَ أو الشَّيْءَ، إذَا قَصَدَه وَتَوخَّاه، وتوجَّهَ له، واجتَهَدَ في طَلَبِهِ مُدَقّقاً بِعِنَايَة.

﴿رَشَدًا ﴾: **الرَّشَدُ، والرُّشْدُ. والرَّشَادُ**: الاهْتِداءُ إلَىٰ الحقّ والصواب، والأفضل والأحْسَن.

يُقَالُ لغة: «رَشَدَ، يَرْشُدُ، فهو راشِد» و«رَشِدَ، يَرْشَدُ، رَشَداً، ورَشاداً، فَهُوَ رَشِيدٌ» أي: اهْتَدَى إلى الحقّ والصّواب والأفضل.

ومن الاهتداء إلى الحقّ والصّواب ومَا هُو الأفْضَل، السُّلُوكُ الفكريُّ،

والنفسِيُّ، والخلقيُّ، والعَمليّ، الموافق للحقّ والصّوَاب، أو لما هُوَ الأفضل والأحْسَنُ والأكْثَرُ نفعاً والأبْعَدُ عن الضُّرّ والأذى.

ويُفْهَمُ من تحرِّي الّذين أسْلَمُوا الرَّشَد، أنَّهُمْ يجْتَهدون مُدَققين في قَصْدِ والْتزامِ ما يُحَقّق لهم السَّعَادَة العاجلة والآجلة يوم الدّين، وهٰذِه السَّعادَة إنّما تتحقَّقُ لهم بالإيمان بالحقّ، والأخذ بالصواب والعمل الصالح.

ولوحظ في اسم الموصُول في عبارة: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ معنى الجمْعِ فأشير إليه باسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

● ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾: أي: وأمّا الجائرون بعَدَم إسلامهم، وهم الَّذِين عَدَلُوا عن سلوك سبيل الْهُدَىٰ، وهُوَ صراط الله المستقيم، إذْ لم يُؤْمِنُوا بما أنزل اللّهُ عزّ وجلّ على رسُوله، بل أصَرُّوا على ما كانوا عليه من ضلالاتهم السّابقات، وشركيَّاتِهِمْ وكُفْرِيَّاتِهِمُ المختلفات، فجعَلُوا أنفسهم باختيارهم الحرّ مُسْتَحقّين لأنْ يكونوا لجهنّم يوْمَ الدِّين، بمثابَةِ الحطَبِ الَّذي يُعَدُّ لِتُوقَدَ بِه النّار، أو ليَزِيدَ به وَقُودُها.

وهذا من التشبيه البَلِيغ، إذْ حُذِفَتْ منْهُ أداة التشبيه ووجْهُ الشَّبه.

إنّهم سوف يُطْرَحُونَ ويُكَبُّونَ في جهنّم كما يُطْرَحُ ويُكَبُّ الحطَبُ في النار.

فالنار تزيدُ وقُوداً بأجْسَادِهم، وكلّما احترقَتْ جلُودُهم ونَضِجَتْ، بدَّلَهُمُ الله جلُوداً غيْرَها ليَذُوقُوا العذاب.

وفي تشبيههم بالحطَب دلاَلَةٌ أُخرَىٰ، وهِيَ أَنَّهُمْ بجحودِهم للحقّ، ورفْضِهم أن يسْتَجيبُوا لِنِداء رَبِّهِمْ في كتابِهِ المنزَّلِ، وإبائهم أنْ يَتَّبِعُوا الْهُدَىٰ، ويَسْلُكُوا الصراط المستقيم، صَارُوا كَمَنْ فَقَدَ قُوىٰ الإدْراكِ فيه، ثُمّ فَقَد قُوىٰ الإحْسَاسِ الباطِنَةَ والظّاهرةَ، فصار لا يُؤَثِّرُ فيه التَّخْويفُ والترهيب من عذاب الله في النار، ولا يُؤَثّر فيه الإطْماعُ والترغيبُ في نَعِيم اللّهِ الخالِدِ في الجنَّة.

ومَنْ فقد الإدْراكَ والإحْسَاس، وهو في الأصل جِسْمٌ نَام مُدْرِكٌ ذو حواسٍّ ظاهرةٍ وباطنةٍ، صَارَ كشجَرَةٍ مَجْثُوثَةٍ لاَ حَيَاةَ فيها، وقَدْ يَبِسَتْ بمُرُور الزَّمن، فهِيَ قطعةٌ من الحطَبِ الّذِي تُوقَدُ به النار.

وقد فَهِمَ هؤلاَءِ النَّفَرُ من الجنّ، أنّ الكَافرينَ منهم الذين يجُورُونَ فلا يتَّبِعُونَ صِراط الله المستقيم، يُعَذَّبُونَ في جهنم، ممّا سبَقَ أَنْ أنْزَلَهُ الله من قرآن قبل إنزال سورة (الجنّ).

فقد جاء في بعض السُّوَرِ النازلَةِ قبْلَها أَنَّ الجنّ يُعَذَّبُونَ في نار جهنّم كالإنس، إذا اختارُوا لأنفُسِهِمْ في الحياة الدنيا أن يكُونوا كافِرين، على أيّ مَذْهَبٍ من مذاهِبِ الكُفْر بالحقّ، وبما أنزل الله لعباده، وفق آخِر تنزيلٍ أنْزَلَهُ إليهم.

ويلاحظ في عبارة: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ ما يُسَمَّىٰ عند علماء البلاغةِ الاحْتِباك، وهو الحذْفُ من الأوائل لدَلاَلَة الأواخر، والحذْفُ من الأواخِرِ لدَلاَلَةِ الأَوائل.

إذ المعنى في هٰذهِ الْعِبَارة: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ فكانُوا من أهل الجنة دار النعيم يُنَعَّمُونَ فيها يوم الدين ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ فاتَّبَعُوا غيًا ولم يتحَرَّوا رَشداً ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ يُعَذَّبون فيها.

وبهذا ينتهي الدرس الأول من دُروس السورة الثلاثة
والحمد لله على فتحه وتوفيقه
ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله

* * *

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

تمهيد:

هذا الدرس الثاني من دروس السورة الثلاثة، درْسٌ يَعْطِفُ اللَّهُ عزّ وجلّ فيه بعْضَ قضايا دينيَّةٍ لا على سبيل الحكاية لمقالاَت النَّفَر من الجنّ، بل على سبيلِ إضافة قضايا جَدَيدَةٍ يُبَيِّنُها اللَّهُ عزّ وجلّ، هي بمثَابَةِ تَتِمَّاتٍ من عند اللَّهِ عزّ وجلّ لمقالاَتِ النَّفَر من الجنّ.

وقد ظهر لي أنَّ الغرضَ مِنْ هٰذا الأسْلُوب البيانيّ الإشعارُ بتصديق ما ذكر هؤلاء النَّفَرُ من الجنّ في مقالاتهم، وبهذا التصديق تكونُ مقالاتُهم بمثابَة مقالاتٍ صادراتٍ عن الله عزّ وجلّ مباشرة.

نظير أن يُقَرِّر تلميذُ الشيخ بحضُوره أحْكاماً تتعلَّق بمسْأَلَةٍ مِنْ مسائل العلم، حتّىٰ إذا أَتَمَّ التلْمِيذُ كلامَهُ، وأرادَ الشيخُ أنْ يُشْعِرَ الحاضرين المستمعين بأنّه يُقِرُّ تلميذه على ما قال، وأراد أن يضيف أشياء من عنده لم يذكُرْها التلميذ، فيبني كلاماً من عنْدِه، ويَعْطفُهُ على ما سَبَقَ أن ذكره تلميذُه.

أي: كُلُّ ما ذَكَرَهُ حقٌّ وصِدْقٌ، وأضيف إليه كذا وكذا. وهٰذا فَنٌّ إيجازيٌّ في الكلام بديع، ونستطيع أن نَضَعَ له عنواناً نقول فيه:

«تصديق المتكلّم بعَطْف كلامٍ لم يقُلْه علىٰ كلامه مع الإشعار بأنَّه ليْسَ مِنْ كلامه».

وهذا القيد لازم للاحتراز من الإدْراج، ومن التدليس.

القراءات:

● قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخَلَف، ويَعْقوب: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بياء الغائب. وقرأ باقي القراء العشرة «نافع، وابن كثير، وأبُو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعفر: [نَسْلُكْهُ] بنون المتكلّم العظيم.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، إذْ جاءت إحداهما بأُسلوب الحديث عن الغائب. وجاءت الأُخرى بأسلوب حديث المتكلّم العظيم عن نفسه.

ومعلومٌ أنّ الله عزّ وجلّ غائبٌ عن حواسّ المخاطبين، وحاضرٌ غير غائب بعلمه، وسمعه، وبصره، وسلطانه، وهيمنَتِه على عباده.

● وقرأ نافع، وشُعْبَةُ عن عاصم: [وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوه] بكَسْر همزَةِ [وَإِنَّهُ] وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَأَنَّهُ] بفتح الهمزة.

أمّا فتح الهمزة فلُوحِظَ فيه العطف على نظائرها، المبدوءة في أوّل السّورة بقول الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

وأمّا كَسْرُ الهمزة فلُوحظ فيه العطف على جُمْلَةِ ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ فهي مَقُول فعل: ﴿قُلْ﴾ ومعلومٌ أنّ همزة «إِنّ» تُكْسَرُ إذا كانت مقولَ القول، أو معطوفةً عليه.

والقراءتان هما من قبيل التفنُّن في التوجيه الإعرابي، ومؤدَّاهُما من جهة المعنى متشابهان.

● وقرأ هشام في إحدى روايتين عَنْه: [لُبَداً] بضم اللاّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِبَدًا﴾ بكَسْرِ اللام، وهو الوجْهُ الثاني لِهشام.

والقراءتان لغتان عَرَبِيّتان في النُّطْق، والمعنَىٰ فيهما واحد.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ . . . . .﴾.

﴿وَأَلَّوِ﴾: أصلُها «وَأنْ لَو» كُتبتْ كما تُنْطَقُ، إذْ تُدْغَمُ النون باللاّم، فتصير لاماً مُشَدَّدَة.

«أَنْ» هي المخففة من الثقيلة «أَنَّ» الّتي يؤتَى بها لتأكيد مضمون الجملة التالية لها، واسْمُها ضَميرُ الشأن العظيم، وخَبَرُها جملة: «لَوِ اسْتَقَامُوا على الطَّرِيقَةِ لأَسْقيْنَاهُمْ مَاءَ غدَقاً لِنَفتنَهُمْ فيه».

والمعنى: وأنَّ الشأنَ العظيم المؤكّد هو ما يلي: لو حَصَلَتْ منهم الاستقامة على الطريقة المثْلَىٰ، الّتي اصطفاها رَبُّهُمْ لهم، وأنزلَها في هذا الدين الخاتم، وهو صراط الله المستقيم، لأسقيناهُمْ بعظمة رُبوبيَّتِنا وفيض عَطايانا ماءَ وفيراً كثيراً، فكان السَّبَب في كثْرةِ النبات، ووفرة الأنْعام، وكُلّ رزقٍ طيّبٍ نافع في الأرض، ولعاشُوا في مَتَاعٍ حسَنٍ، ورَغَدٍ من الرزْق، وكان امتحانُهم في هذه الحياة الدنيا بوافر النعم وغزيرِها.

والحديث في هذا البيان عن الجنّ والإنْسِ معاً، لأنَّ هذين النوعَيْنِ كليهما ممتَحَنَان في ظروف الحياة الدنيا، والامتحان يكون بما يُحِبُّ الْعَبْدُ الممْتَحَنُ وبما يكْرَه.

واستقامتُهُمْ على الطريقة المثْلَى تتضَمَّنُ قيامهم بِشُكْرِ الله على نِعَمه، والشُّكْر يجلُبُ مَزِيدَ عطاءٍ من فضل الله، ضِمْن سُنَّتِه الثابتة في ظروف هٰذِهِ الحياة الدنيا.

- **[وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا]**: «لَوْ» حرف شرط للتّعليقِ في الماضي، وتقتضي لزوم امتناع جَوابِها لامْتِنَاعِ شَرْطها.

اسْتَقَاموا: أي: اعْتَدَلُوا واسْتَوَوْا ولَمْ يَنْحَرِفوا خُرُوجاً عن الطريقة المثلىٰ. **الاستقامة:** هي الاعتدال والاستواء وعَدَمُ الاعْوِجَاجِ خروجاً عن الصراط السّويّ.

فعل «اسْتَقامَ» مثل فعل «قَامَ» بمعنى «اعتَدَلَ» إلاَّ أنَّ «اسْتَقامَ» أبْلَغُ وأقوى في الدَّلالة على معنى الاعتدال، نظراً إلى زيادة المبْنَىٰ الّتي تُفِيدُ في العربيَّةِ زيادَةَ المعنى.

وقد تَدُلُّ هذه الصيغةُ على معنى المطاوعة لمطلب الاعتدال، فهم يستقيمون على صراط الله المستقيم طاعةً لأوامِرِهِ ونواهِيه، وإسلاماً واستسلاماً له جلّ جلالُه.

● ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾: **الطَّرِيقة:** هي السِّيرَةُ الكامِلَةُ المثْلَىٰ في الإيمانِ والعَمَل الصَّالح، وهي صراطُ الإسلام، صراطُ اللّهِ المستقيم.

ونفهم كمال الطريقة من أداة التعريف «ال» الدّالَةِ هُنَا على الكمال بمساعَدة القرائن. ومعلومٌ في الدِّين أن الطريقة المثْلَىٰ عند الله جلّ جلاله، صراطُهُ المستقيم.

والمعنيّون بضمير: ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الجنُّ والإنْسُ، لأنّ الحديث في السُّورَةِ متعلّقٌ بهِمَا وبابْتِلاَئهما.

● ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ اللاّم واقعة في جواب «لو» الشرطيَّة. والماءُ الغدق، هو الماء الغامِرُ الكثير.

أسْقيناهم: يقال لغة: سَقَاه سَقْياً، وأسقاه إسْقَاءً. والمرادُ إنْزَالُ الماءِ من السَّماءِ لسُقْيا أَرْضِهم وأنْعَامهم، ولسُقْياهُمْ بأفواهِهِمْ، ولاستخدام الماء في منافعهم ومصالحهم المختَلِفَة، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

وجاء تخصيص إسقائهم الماء بالذكر، لأنّ الماء من أجَلِّ نِعَم الله على الأحياء، وبه تتحقَّقُ سائر منافع الأرض لهم.

وقد أبانَ اللَّهُ عزّ وجلَّ أنّ مِنْ سُنَّتِه أَنْ يُفِيضَ اللَّهُ علىٰ عبادِهِ بركات من السَّمَاءِ والأَرْض، إذا آمَنُوا واتَّقَوْا، فقال اللَّهُ عزّ وجلَّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

وقال جلّ جلاله وعظُمَ سُلْطانُهُ في سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن أهل الكتاب:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾: أي: لا يَتوسَّعُون في فِعْلِ الخيرات والصَّالحات من مَرْتبتي البرّ والإحْسَان، بل يقتصرون مُقْتَصِدين على درجات مَرْتَبَةِ التقوى.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾: أي: وكثيرٌ مِنهُمْ عُصَاةٌ فاسِقُونَ ظالِمُونَ مُسْرفون في ارْتكاب الآثام، حتَّىٰ دَرَكَةِ الكُبَائر الكبرىٰ، فأعْمالُهُمْ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُذَمّ بأشَدّ عبارات الذمّ، فيُقَالَ بشأنهم: «سَاءَ مَا يَعْمَلُون» أي: ما أشدّ سُوءَ ما يَعْمَلُونَ.

أي: فلَوْ أنَّ أهْلَ التوراة أقاموا التوراة، ولو أنّ أَهْلَ الإنْجِيلِ أقَامُوا الإنْجِيلَ، فعَمِلُوا بما فيهما، لأكَلُوا مِنْ فوقهم من ثمار الأشجار بلا مصائب ولا جوائح، ولأكَلُوا من تَحت أَرْجُلِهِمْ ممَّا تُخرِجُ الأرضُ من خيرات بلا

مصائب ولا جوائح، ولكنَّهم لَم يقيموا التوراة والإنجيل، فأنزل الله بهم الجوائح والقحط والجدبَ، والمصائبَ في الأرْزَاقِ والأَمْوالِ، إذْ إنَّ الكثيرَ مِنهُمْ مَا أَشَدَّ سُوءَ ما يَعْمَلُونَ.

ووعَدَ كلٌّ من نوحٍ وهودٍ علَيْهما السَّلاَم أقْوامَهُمَا بِأَنْ يُرْسِلَ الله السّماء عَلَيْهم مِدْراراً إذا اسْتَغْفَرُوا ربَّهم وتابُوا إليه.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) حكايَةً لقَوْلِ نوحٍ عليه السلام لربّه عمَّا وَجَّهَهُ لقومه:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايةً لمَا قَالَ هُودٌ عليه السَّلامُ لقومه:

﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

وقد أَخْطَأَ من قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾:

«وأَنْ لو اسْتَقَامُوا علىٰ الطريقة الّتِي هُمْ عَلَيْها من الكُفر». وخطأ هذا القول يظْهَرُ من التحليل التالي:

(١) إنّ الكافرين ليست لهم استقامة مَا على طريقة، بل لهم طرائقُ قِدَدٌ مقطَّعَةٌ متفرّقة، كما قال النفر من الجنّ: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾:

(٢) وصَفَ الله عزّ وجلّ صراطه بأنّه صراطٌ مستقيم، وأمَرَ الناس باتّباعه، ونَهَاهُمْ عَنِ اتباع السُّبُلِ لأنّها سبُلُ الشيطان ومتّبِعِي الشيطان فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

(٣) إنَّ التوسِعَةَ علىٰ الكافِرِينَ ليْسَتْ من سُنَنِ اللَّهِ الثابتَةِ، وإنّما تَكُونُ بَعْدَ وُصُولِهِم إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ من صَلاحِهِمْ فيها عن طريق إراداتهم الحرَّة، وقبل إهلاكهم الشامل، إذْ يُوسِّعُ اللَّهُ عليهم حتَّىٰ ينكَشِفَ طُغْيانُهُمْ انْكِشَافاً تامًّا، وعِنْدَئذٍ يُنْزِلُ الله بهم الإِهْلاَكَ الشَّامِلَ بصُورَةٍ مُباغِتَة.

وقد أبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ هٰذِهِ السُّنَّة بقوله تعالَىٰ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

- ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: أي: لنَمْتَحِنَهُمْ ولنختَبِرَهُمْ فيما نُوسِّعُ عليهم من نِعَمٍ كَثِيرَةٍ، سَبَبُها إِفَاضَةُ الماء الْغَدَقِ عَلَيْهِم.

الفتنة: في اللّغة تأتي بمعنَىٰ الابتلاء والامتحانِ والاختبار، وهذا هو الأَصْلُ من معانيها.

وللفتْنَةِ فروعُ معانٍ أُخرَىٰ لاَ تَصْلُحُ هُنَا.

ونَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ نصوص قرآنية كثيرة أنّ الابتلاء بالنِّعَمِ والمصائب في الحياة الدنيا، هو الغايَةُ من خَلْقِ الإِنْسِ والجنّ في ظروف هذه الحياة بصفاتهم الّتي فَطَرهم الله عليها، وأجَلُّها الإرادة الحُرَّة، والقدرةُ الإدراكيّة، والصِّفات النفسيَّةُ، والتَّمكِينُ بالتسخير الرَّبّاني من تنفيذ المراد.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى: [نَسْلُكْه] بنُون المتكلّم العظيم، لإلْقاءِ الرَّهْبَةِ مِنْ عَذاب الرَّبّ العظيم.

- ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾:

الإعْراض: مَنْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بين الإقْبَالِ والإدْبار، وأَصْلُ الإعراض إعطاء الجانب، وعُرْضُ الشيء في اللُّغَةِ جانبه، وعارضاً الإنسان صفحَتَا خَدَّيْه.

ذِكْرُ الرَّبّ هو الكتاب المنزَّل من لَدُنْهُ، وهو القرآنُ بَعْدَ أوّل مراحِل إنزالِه على خاتم أنبيائه ورُسُله، إذْ أنزلَهُ الله جلَّ جلالُه وعظم سلطانُه ذكْراً للعالمين، أي: ليَتَبَلَّغوهُ وليتَدَبَّروه، وليَضَعوهُ في خزائن ذاكراتهم، ثُمَّ ليَذْكُروا بياناته وأحكامَه وأوامِره ونواهيَهُ كُلّما دَعَا أمْرٌ أو حَدَثٌ لتَذَكُّرِها، من أَجْلِ اتِّبَاعِهَا وَالْعَمَل بها.

واختصاراً لهٰذه المطالب بشأن القرآن سمَّاهُ الله ذِكْراً للعالَمين، فقال الله عزّ وجلّ في صورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) بشأن القرآن:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

والإعراضُ عن القرآن يكُونُ بعَدَمِ التوجُّه لتَلَقّيه وتَدَبُّرِ مَعَانيه، وتَفَهُّمِ ما اشْتَمل عليه من حقٍّ وهدايَةٍ إلى الصراط المستقيم، وما فيه من وصايا وبيانات وأحكامٍ وشرائع.

ومن أعْرَض عن القرآن هذا الإعراض، لم يكُنْ له في نَفْسِه ذِكْرٌ ما، بلْ يسْتَمِرُّ طَوالَ حَياتِه مُسْتَغْرِقاً في مطالبِها، وفي مطالب أهوائه وشهوات نفْسِه خلالَها، ومُسْتَغْرقاً في ضلالاته ومعاصِيهِ، مفتوناً بها.

وأشدّ من الإعراض الإدْبارُ والتولّي، وقد اكْتَفى النصُّ بذِكْر

الإعراض، عن ذكْرِ الإدْبار والتَّوَلّي، لأنَّ ذِكْر الأخفّ يَدُلُّ على الأشَدِّ من بَاب أولى عقلاً.

فَمَنْ يُعْرِضْ عن ذِكْرِ رَبِّهِ طَوالَ حَياتِه، ويَأْتِهِ أَجَلُهُ وهُوَ على إعْرَاضه، وتَنْزِلْ بِهِ مَنِيَّتُهُ، يَسْلُكْهُ رَبُّهُ عَذاباً صَعداً، أي: يُدْخِلْهُ كَمَا يُدْخَلُ السِّلْكُ في الثَّقْبِ الضَّيّقِ لتَعْذيبه في جهنَّمَ تَعْذيباً شَدِيداً، ولِيَذُوقَ بهذا الإدْخالِ عَذاباً شَدِيداً، جزاء إعْرَاضِهِ عَنْ دَعْوَةِ رَبّه له، وعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِ لِنِدَاء الدُّعَاةِ إلى دينِ الله، واتّباع كتابِه القرآن المجيد.

- ﴿يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾:

يُقَالُ لغة: «سَلَكَ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ سَلْكاً فَانْسَلَكَ» أي: أَدْخَلَهُ فيه فَدَخَلَ.

قال ابن الأعرابي من أئمة اللُّغَة: سَلَكْتُ الطَّرِيقَ، وسَلَكْتُهُ غَيْرِي، فجعَلَ من استعمالات فعل «سَلَك» أنَّهُ يتعدَّىٰ إلى مفعُولَيْنِ، فإذَا كان فعل «سَلَكَ» يتعدَّىٰ بنفسِه إلَىٰ مفعُولَيْن كَما ذَكر، فكَلِمَةُ ﴿عَذَابٗا﴾ مفعُولٌ به ثانٍ.

وإذا كان فعل «سَلَكَ» لا يَتَعَدَّىٰ إلاّ إلى مفعول به واحد، فكَلِمَة ﴿عَذَابٗا﴾ منصوبَةٌ بِنَزْعِ الخافض، والأصْلُ: «في عذابٍ».

أي: في مُحِيطٍ به يَذُوقُ منْهُ عذاباً دَواماً.

ويمكن أن تكونَ العبارة جاريَةً على تَضمِين فعل ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ معنى فعل «يُذِيقُهُ» والتقدير: يَسْلُكُهُ مُذِيقاً إيّاهُ عذاباً. وهذا التضمين كثيرٌ في القرآن، إذْ تُغْنِي الجملة الواحدة به عن جُمْلَتين، ذُكِرَ مِنْ إحداهُما عَامِلُها، وَذُكِرَ من الأخرى معمولُها، وهذا من بدائع الإيجاز في القرآن.

ومعنى العبارة عموماً: يُدْخِلْهُ مُكْرَهاً في مكانٍ ضَيّقٍ من جهنَّمَ يُعَذِّبُهُ بِه عَذاباً شَدِيداً.

﴿صَعَدًا﴾: أي: شاقًا شدِيداً، جاءتْ هٰذه الكلمة وصْفاً لكلمة: ﴿عَذَابًا﴾. فالمعْنَىٰ: يَسْلُكُهُ ويُذِيقُهُ عذاباً شاقًا شدِيداً.

الصَّعَدُ: هو في اللّغة المشقة. وَيُقَالُ لُغَةً: عذابٌ صَعَدٌ، أي: شدِيدٌ شاقٌّ.

وعبارَةُ ﴿يَسْلُكْهُ﴾ الّتي دَلَّتْ علَىٰ الإدْخال في مكانٍ ضَيّقٍ لا يَتَّسِعُ لأكْثَرَ مِنْهُ، قد جاء التصريح به في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الْفُرْقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

الثُّبُور: الْهَلاكُ بالْمَوْت، ولكنْ لا مَوْتَ بَعْدَ البعث ليوم الدين. فالمكذّبون بيَوْم الدّين، الْمُعْرِضُون عن القرآن الّذِي هو ذِكْرُ ربّهم، يُلْقَوْنَ إلْقَاءً مُهيناً مُذِلاً في مكانٍ ضيّقٍ من جهنّمَ، حيثُ السّعِيرُ مُلْتَهبٌ فيها، فَيُسْلَكُونَ فيهِ سَلْكاً، على مقادير مُحِيطِ أجْسادِهم، ليَذُوقُوا الْعَذَابَ من كلِّ جَانب.

فالتَّعْبيرُ بالسَّلْكِ الذي منه سَلْكُ الخيْطِ في ثَقْبِ الإبْرَة، منْ أدَقّ التعابير وأبْرَعِها، للدَّلاَلةِ علىٰ إحَاطَتِهِمْ بالوسائل الّتي تُدْخِلُ إلَىٰ مَرَاكِزِ الإحْسَاسِ في ذَوَاتِهِمْ مَا يُعَذَّبُون به.

هذا العذاب لا يَعْرِفُ مقْدارَه، ولا يَسْتَطيعُ تَصوُّرَهُ، إلاَّ مَنْ أُدْخِلَ في قَنَاةٍ من الْحَدِيدِ الْمَحْمِيّ بحرارة شَدِيدَةٍ، مع بقائِه حيًا مُحِسًّا واعياً لكل ما يجري له، وهذه القناة الحديدِيَّةُ علىٰ قَدْرِ جِسْمِهِ، أو أضْيَقُ قَلِيلاً من جِسْمِه، فَهُوَ يُسْلَكُ فيها بدَفْعٍ أوْ جَذْبٍ شَدِيدَيْن.

* * *

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

- ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾:

هذا الخطابُ في هٰذه الآيَةِ مُوجَّهٌ للإنْسِ والجنّ معاً.

﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾: جَمْعُ المَسْجد، وكَلِمةُ «**مَسْجِدِ**» على وزْنِ «مَفعِل» تأتي «**اسْمَ مكان**» وتأتي: «**اسْمَ زمان**» وتأتي «**مَصْدَراً مِيمِيًا**». وأصْلُ قياسِها «**مَسْجَد**» بفتح الجيم لأن مضارع فِعْلِها على وزن «يَفْعُل» بضم الْعَيْن، تقول: «**سَجَدَ يَسْجُدُ**».

قال عُلماء العربية: ويصحّ فيما جاء مسمُوعاً على خلافِ القياس أن يُنْطق على وفق القياس.

وأطلِقَ لفظ «مَسْجِدِ» في الاصطلاح العامّ الّذي يُعْتَبَرُ عُرْفاً شائعاً على كلّ مكانٍ بُنِيَ لعِبَادَةِ الله عزّ وجلّ.

وبالنظر إلى المعاني اللُّغَوِيّة التي يُطْلقُ عليها لفظ «مَسْجِد». وجَمْعُه «مَساجِد».

وبالنظر أيضاً إلى أنَّ كلَّ مَا في الوجودِ سِوىٰ اللّٰهِ عزَّ وجلَّ، هو مِلْكٌ للّٰهِ لاَ يُشَارِكُهُ في ملكيَتِه له أحَدٌ.

كانت عبارة: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ صالحةً للدَّلاَلَة على أنَّ كُلَّ ما يُطْلَقُ عَلَيْهِ لفظ «مسجد» وجمعه «مساجد» هو مِلْكٌ للّٰهِ وحْدَهُ، لا يُشَارِكُه في ملكيَّتِه أحَدٌ، وهو حَقٌّ للّٰهِ وَحْدَهُ إذَا كان مَصْدَراً مِيمِيًا بمعنَىٰ السُّجود.

ولهذا جاء في أقوال المفسّرين في تفسير كلمة ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ في هذا النصّ ما يلي:

- هي الأماكن المخصَّصة للعبادة.
- هي الأرض كُلُّها، إذْ جَعَلَ اللّٰهُ الأرْضَ كُلَّها للرسُولِ محمّد ﷺ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وهٰذِهِ مِنْ خُصُوصِيّاتِ هٰذِه الرسالة الرَّبَّانِيَّةِ الخاتمة.

- هي الأعضاء الَّتي يَسْجُدُ المصَلّي بها على الأرض في صلاته، وهي: جبهَتُهُ، وأنفُهُ، وكَفَّاهُ، ورُكْبَتاهُ، وعَظمَتا قَدَمَيْه.
- هي أعمال السُّجودِ كُلُّها، إذْ هِيَ حَقٌّ لِلَّهِ وَحْدَه.

أقول:

إنّ من الأسْلُوبِ المتَّبَع في القرآن المجيد لتحقيق الإعْجَازِ في الإيجاز البديع، اسْتِعْمَالَ اللَّفظ في كلّ المعاني الّتِي يَصْلُحُ لها في السِّياق والسِّباقِ من جُمْلَةِ المعاني الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا.

وهٰذا ما ذهَبَ إلَيْهِ أئِمَّةُ المذاهب الثلاثة: «مَالك، والشافعي، وأَحْمَد» رضي الله عنهم، وأجْزَل مَثُوبَتَهُم.

ولفظ «المساجد»، هُنَا يَصْلُحُ للدَّلاَلَة على كلّ معانيه، فلا داعيَ للتخصيص، إذْ كُلُّ ما يُطْلَقُ علَيْه لفظ «مسجد» هو مِلْكٌ لله عزّ وجلّ.

- ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ خطاباً للإنس والجنّ، أي: فلا تَعْبُدُوا مع الله أحداً.

أصل الدّعاء في اللّغة النّداء، ويأتي بمعنى الرَّغْبَة إلى الله والطَّلَبِ منه لأمور الدُّنيا أو الآخرة، ويأتي بمَعْنَىٰ مُطْلَق العبادة لله عزّ وجل.

والدُّعاء بمعنَىٰ سؤال الله من خَيْرَي الدّنيا والآخرة، هو من العبادة، بلْ هو رأسُ العبادة ومُخُّها، وأحَدُ عناصرها الكبرى.

فالأولى أنْ تُحْمَلَ الْعِبَارَةُ علىٰ مُطْلَقِ العبادة، لمَا فيها من شمول.

ويَدْخُلُ في العبادة تبليغ دين الله، وتبليغ كتاب اللَّهِ القرآن، وشرحُ معَانِيه ودلالاتِ آياته وعباراته وجُمَلِه، والإقْناعُ بما فيها من حقّ وهُدىً.

وهذا التبليغ من أفضل العبادات وأجلّها، إذ هُوَ وَظيفةُ الْمُرْسَلِين.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿لِبَدًا﴾ بكَسْرِ اللام لجمهور القرّاء، وفي قراءة لِهشام عن ابن عامر: [لُبَداً] بضَمّ اللام، وهُما لغتان والمعنى فيهما واحد. «لِبَداً» جَمْعُ «لِبْدة» و«لُبَداً» جَمْعُ «لُبْدَة».

اللِّبْدَة واللُّبْدَة: في اللُّغَةِ الجماعَةُ من الناسِ. ويُقال لغةً: النَّاسُ لُبَد، أي: مجتمعون. ومالٌ لُبَد، أي: كثيرٌ لا يُخَافُ فناؤه، كأنه الْتَبَدَ بعْضُه على بعض. ولِبْدَةُ الأسد: الشعر المتراكب بين كتفَيْه وسمّيت الجماعة من الناس لِبدة، لتلبُّدِهم كالصُّوفِ الذي يلْتَبِدُ بَعْضُهُ على بعض. أو كالشعر المتراكب بعضه على بعض.

ورُوي عن ابن عبّاس في تفسير: ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾: أي: مجتمعين بعضهم على بعض. قال: ومعنى «لبد»: يَرْكب بعضهم بعضاً(١).

أقول: الجماعاتُ المتألّبَةُ ضِدَّهُ، هذا أنسب المعاني الملائمة للسّياق في النصّ، لعبارة: ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ كما سيأتي إنْ شاء اللّه إيضاحه في التدبّر.

● ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾: أي: لـمّا قام عبد الله مُحمَّد ﷺ بوظيفَتِه الّتي كلّفَهُ الله إيّاها، وهي الدَّعْوَةُ إلى الله.

﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾: أي: كَادَ رافِضُو دَعْوتِه يكُونُونَ جماعَات مُجْتَمعةً بكَثافَةٍ ضِدَّهُ لمقَاوَمَةِ دَعْوته، ولمنعه من أداء رسالة رَبّه.

لقد شرّف اللّهُ رَسُولَهُ محمّداً بأنّه عَبْدُه، لأنّه قَدْ تحقَّق بعُبُوديّتِه له تحقُّقاً هو أقْصَىٰ ما يسْتطيعُهُ الكامِلُونَ من البشر باختِيارِهِم الحرّ، ضمن مفهوماتِ العبوديَّةِ الاختيارِيَّة.

---

(١) انظر، «لسَان العرب» لابن منظور: مادّة «لبد».

أمّا الْعُبُودِيّة الجبْرِيَّةُ للّهِ عزّ وجلّ فَهِيَ وصْفٌ ملازِمٌ لِلأنْسِ والجنّ والملائكةِ، ولكلِّ حَيٍّ، لأنّهُمْ جَمِيعاً خلْقُه، فهو بمقْتَضَىٰ خَلْقِه لهم هو مالِكُهم، وبمُقْتَضَىٰ سُلْطانِه عليهم دواماً، وإمدادِه لَهُمْ بالبقاء دواماً، وبمُقْتَضَىٰ خُضوعِهِمْ لمقاديره دواماً، فَهُمْ عَبِيدُهُ دواماً عُبُودِيَّةً جَبْرِيَّةً، لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنهُمْ الخروج عَنهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلاَ أَقَلَّ من ذَلِك، فالكفّارُ والفجّارُ عبيدٌ لله بالْقَهر.

وأمّا تحقُّقُ المؤمنين بالْعُبودِيّة الاختياريّة، فهو في الغالِبِ من أحوالهم، وفي معظم أفرادهم، تحَقُّقٌ ناقصٌ، لوَفْرَةِ مَا يَرْتكبُون من المعاصي والآثام والخطايا.

وقد شَرّف الله عزّ وجَلّ الرُّسُلَ والأنبياءَ في القرآن المجيد بالْعُبُودِيّة الاختياريّة الخاصّة، ذاتِ الدرجات القريبات منه جلّ جلاله.

ومنح بفَضْلِه جميع المؤمنين المتقين عُبُودِيَّةً ذاتَ تفضيل ما، بحسَب مراتبهم ودَرَجاتِهم في الإيمان والتقوى، والبرّ والإحْسَان.

والقرائنُ في النُّصُوص تدُلُّ بإشَاراتها على مُسْتَوىٰ المرتبة والدَّرَجَةِ في الْعُبُودِيّة التَّشْرِيفيّة الّتي يَمْنَحُهَا الله لعَبْدِه، أو لطوائفَ وزُمَرٍ من عباده.

وممَّن منَحَهُمُ اللّهُ ـ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه ـ مَرْتَبَةَ عُبُودِيَّةٍ تَشْرِيفيَّةٍ رفيعةٍ جدًّا:

(١) رَسُولُ الله محمَّدٌ ﷺ، ومن أوضح النصوص الدّالّةِ على هذه المرتبة العظيمة والدَّرَجَةِ الرَّفيعة فيها، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾.

(٢) رُسُلُ اللَّهِ: «إبراهيمُ وإسحَاق ويَعْقُوب» عليهم السّلام، ومن أوضح النصوص الدَّالَّةِ على مَرْتَبتِهِم العظيمة في عبوديتهم لله عزّ وجلّ ودَرَجَتِهِمُ الرَّفيعة فيها، قول الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

ومع ما في ذكْرِ العُبودِيَّةِ التَّشْرِيفيَّة للَّهِ عزَّ وجلّ وصْفاً للكامِلين من البشر، وتنويهاً بارْتِفاع مَرْتَبَتِهِمْ ودَرَجَتِهِمْ فيها، فإنَّ فيها تَنْبِيهاً على أنَّ أحداً سِوَىٰ اللَّهِ مَهْمَا ارْتَقَتْ مَنزِلَتُهُ قُرْباً من رَبّه، حتَّىٰ عُرِجَ بِهِ إلىٰ سِدْرَةِ المنتَهَىٰ، فإنَّهُ لاَ يَخْرُجُ عَنْ أَنْ يكُونَ عبداً للَّهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فلَنْ يكونَ ابْناً لله، ولا شَرِيكاً لَهُ في شَيْءٍ من رُبوبيّتِه، وَلاَ فِي شيْءٍ من إلٰهيَّته، فاللَّهُ عزّ وجلَّ غَنِيٌّ بذاته، وبصِفاته، عن أن يتَّخِذَ صاحِبَةً، أوْ وَلَداً، أَوْ شرِيكاً، ومُنزَّهٌ عَنْ أَنْ يلِدَ أو يُولَد، وعَنْ أن يكُونَ أحَدٌ كُفُؤاً له سبحانه.

إنَّه ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ أَحَدٌ صَمَد.

ولهذا قال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ بشأن عيسىٰ عليه السّلام وبشَأْن الملائكة المقربين، في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

اسْتَنْكَفَ: أي: أنِفَ وامْتَنع، يقال لغة: استَنْكَفَ من الشيء، واسْتَنكَفَ عنه، أي: أنِفَ وامْتَنَعَ كارِهاً له. واستنكفَ عن الْعَمَلِ امتنع عن القيام به كَارِهاً له، وقد تكون الكراهِيَةُ ناشئةً عن الاستكبار.

وَلِيًا: أي: سيّداً يحتَمُونَ به.

ولاَ نَصِيراً: أي: ولا نَصِيراً يَنصُرُهم، فيَدْفَعُ عَنهُمْ عذاب الله الأليم.

● ﴿يَدْعُوهُ﴾: أي: يَعْبُدُ الله بتَبْلِيغِ دِينِهِ، والدَّعْوَةِ إلى سبيلِ رَبّه، والْتِزَامِهِ بأنْ يكُونَ أوّلَ الْمُسْلِمينَ المجاهدين، الصّادِعِين بالحقّ، المتوكِّلِينَ علىٰ الله، والملتجئين إليه بالدُّعاء.

فالدَّعْوَةُ إلى اللّهِ مع الالْتِزام بشروطها، ومنها أنْ يكون مُطَبّقاً مَا يَدْعُو إليه، أشْرَفُ العباداتِ وأكْملها.

سَبَقَ أَنْ ظهر لَنَا بالتَّحْلِيل أنَّ الدُّعَاءَ يَشْمَلُ كُلَّ أنواع العبادات، وفي مُقَدّمتها الدَّعْوَةُ إلى الله.

ولـمّا قام الرَّسُول محمَّدٌ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ، فيَعْبُدُهُ بالدَّعْوَة إلى دِينهِ، بجهادٍ مُتواصِلٍ، وُمَتابَعَةٍ بِصَبْرٍ وَدَأبٍ، ويُبَلّغ ما يَنْزِلُ عليه، لاَ يَنْقُصُ منه شيئاً، أزْعجَ بجهاده وصَبْرِهِ ودَأبِه المشركينَ، وسائرَ الكافرين، وهاجَهُمْ، واسْتَثَارَ غَضَبَهُمْ، ولا سِيمَا حينما أخَذَ أتباعُهُ الّذين آمَنُوا به واستجابوا لدَعْوَتِه يَتكاثَرُون، وَيكُونُونَ من حوله قوّةً مُناصِرَة مؤازِرَة.

وخاف كبراء قوْمِه الّذين لم يسْتجيبوا لدَعْوتِهِ، أن يَفْقِدُوا في قوْمِهم مكاناتِهم الّتي لهم، وأنْ يسْلُبَهُمْ محمَّدٌ سُلطانَهم وزَعامَاتهم، وخافُوا أن تكون كلمةُ اللّهِ الّتي يَدْعو الناسَ إليها هي الْعُلْيَا، وأَنْ تكونَ كَلِمَاتُهُمْ هي السُّفْلَىٰ في مجتمعهم، عندَئذٍ تَداعَوْا عَلَيْهِ مُتَنَاصِرِينَ جماعَاتٍ جَماعَات، حتَّىٰ كَادُوا أن يَكُونُوا ضِدَّه لِبداً، ليواجِهُوا دعْوَتَه بالْقُوّةِ الّتي تَقْمَعُها، وتُفرِّقَ أنْصارَها، بالاضطهاد والعنْفِ القاسِر.

وكان هذا قُبَيْلَ إنْزَال سُورَةِ (الجنّ) وَإِبّان إنْزَالَـها، وهذا ما دَلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ فيها: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدًا﴾. لَمْ يَصِيرُوا بَعْدُ عليه لُبَداً، جماعَاتٍ مُتَألِّبَةٍ ضِدَّهُ، لمقاومَةِ دَعْوَتِهِ، واضطهاد الذين آمَنُوا به واتَّبعُوه، لكِنَّهُمْ كَادُوا أنْ يكونُوا كذلك.

هٰذه العبارة تَصِفُ المرحَلَةَ الّتي وَصَلَ إليها مُشْرِكُو مَكَّة من تاريخ دعوة الرسول محمّد ﷺ، وقد جاءت بَعْدَهَا مراحل أشدُّ مِنْها.

ولدَىٰ ملاحظة تَشْبيه مُقَاوِمي دَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ في أواسط المرحلة المكيّةَ باللُّبد، ومن معاني اللّبد جمع «لِبْدَة» وهي الشعَرُ المتراكب بين كَتِفي الأسَدِ، نجد إيحاءً بأنّ جماعات مُقَاومي دَعْوَته، ولو وَصَلُوا حتَّىٰ صارُوا لبداً بالفعل، فإنَّهم لَنْ يَضُرُّوه شيئاً، لأنّهم سَيَكُونون باجتماعهم عليه مثْلَ لِبْدَة الأسدِ بالنِّسْبَةِ إلَيْه، فاللّٰهُ عزّ وجلّ حَامِيه، وناصِرٌ دِينَهُ وخاذِلٌ كلَّ من يُعادِيه ويُقَاوِمُ دَعْوَته، ويَضْطهِدُ الّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وهذا هو الذي تحقَّقَ فيما بعد.

فالمعنى الذي نستخلصه مِنْ قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ كما يلي:

وأنّه لـمّا نَهَضَ عبْدُ اللّٰهِ مُحَمَّدٌ بِهِمَّةٍ وحَزْمٍ وعَزْمٍ وحكْمةٍ وصَبْرٍ ودأْبٍ، مُتَحلّياً بالْعُبُودِيَّةِ الاختياريَّةِ الْكَامِلَةِ لِرَبِّه، يُبَلِّغُ كِتَابَ اللّٰهِ الّذِي يَتَنَزَّلُ عليه، ويَدْعو إلى سَبِيلِ رَبِّهِ بالْحِكْمَةِ والموعظةِ الحسَنَةِ، مُطَبّقاً بذاته أحكامَ الإسلام وشرائعه، فاسْتَجَابَ لدَعْوَتِهِ من قومِه فَرِيقٌ صالحون مؤمنون مجاهدون، وصار أمْرُه مَخُوفاً بالنِّسْبَةِ إلى كُبَراء قَومه المشركين، إذْ صاروا يحْذَرُون من انتشار دَعْوته أن يفقدوا مكاناتهم ومصالحهم وزعاماتهم.

لـمّا حصل ذلك تنادَىٰ هؤلاء الكبراء الكافرون لمقاومَته، وإسْكاتِ دعْوَته، واضطهاد الذين آمنوا بِه واتَّبَعُوه، فأَخَذُوا يحاولون تجميع جماعَاتِ متكاثفاتٍ مُتَلبّدات، بُغْيَة الإحاطة بالرَّسُول حول رَقَبَتِه، كإحَاطَةِ لِبْدَةِ الأسَدِ حَوْلَ رَقبته.

وبالنظر إلى السُّوَر الّتي نزلَتْ قبل سُورَةِ (الجنّ) في نجوم التنزيل، نجد أنَّ هذه الآيَةَ، تَتحدَّث عَنْ طورٍ تَطَوَّرَت إِلَيْهِ مواقِفُ كبراء مُشْرِكي مكّة

قُبَيْل نُزُول سورة (الجن) وهو طَوْرُ التَّكتُّلِ في جماعات ضِدَّ الرسول محمد ﷺ، وضدّ الذين آمَنُوا به واتبعُوه.

وهذه مَرْحَلَةٌ طبيعيَّةٌ ارْتقائيَّةٌ في الْعِداء، وهي تكْشِفُ الطَّورَ الجديد الذي تحوّلَتْ إليه مواقفُ كُبَراءِ أعداءِ دعْوَتِه في مَكَّة.

لَقَدْ كانَ الطّورُ إبّان نُزُول سُورَة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) طوراً كان فيه هؤلاء الكبراء في عزّةٍ وشقاق.

وإبّان نُزولِ سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) تَرَقَّوْا إلى طَوْرِ من يحاول الاجتماع المتلَبِّدَ لِحَرْبه، وبهذا تظْهَرُ حَرَكِيَّةُ الأَطْوار في مواقف كُبَراء كفّار مكّة تجاه دَعْوَة الرَّسُول ﷺ.

أمّا ما ذكره بعض أهل التأويل في تفسير الآية، من أنّ الجنّ كادوا يكونون عليه لِبداً حينما حضَروا واستمعوا القرآن منه، فهو لا يتلاءم مطْلَقاً مع كونهم نفراً لا يتجاوزون العشرة، وجاء في الروايات أنهم كانوا سبعة أو تسعة، ولا يتلاءم مع المعنَىٰ اللّغويّ لكلمة «لُبَد» كما سبقَ بيانه.

وأظنُّ أنهم قد اختلطت عليهم حادثة لقاء الجنّ في الحَجُون أواخر الْعَهْد المكيّ على ما رواه ابن مَسْعود، بحادثَةِ النَّفر الّذين اسْتَمَعُوا القرآن من الرسول، وهو لا يَعْلَمُ بهم، حتَّىٰ أَوْحَىٰ الله إليه بقِصَّتِهم.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدّرسِ الثاني من دروس السورة والحمدُ لله على توفيقه ومعونته وفتحه.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآيات من (٢٠ ـ ٢٨) آخر السورة.

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ ومُعلّماً ما يقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا (٢٥) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا (٢٨)﴾.

القراءات:

● قرأ عاصم، وحمزة، وأبو جَعْفَر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ ﴿قُلْ﴾ فِعْلُ أمر. وقرأ باقي القرّاء العشرة **[قَالَ]** فعلاً ماضياً.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: قال اللّهُ له: **[قُلْ]** ف**[قَالَ]** كما أمَرَهُ الله.

● وقرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[رَبِّيَ أَمَداً]** بفَتْحِ يَاء المتكلّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ بإسْكانها ومَدّها وصْلاً. وهما وجْهان عرَبيان لنطق ياء المتكلّم.

● وقرأ رُوَيس: **[لِيُعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا]** ببناء «يُعْلَم» لما لم يُسَمَّ فاعِله. وقرأ بَاقِي القرّاء الْعَشَرةِ: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ بالبناء للمعلوم، والفاعل ضَمِير يَعُودُ على لفظ ﴿رَبِّيٓ﴾ في الآية (٢٥).

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فقراءة الجمهور دلَّتْ على عِلْمَ الله خاصَّة، وقراءة «رُوَيْس» دلّت على وُجود هذا الْعِلْم عِنْدَ غير اللّهِ كالملائكة المكلّفين أن يُسَجِّلُوا أعمال العباد.

تمهيد:

هذا الدّرس الثالث من دُرُوس السورة، دَرْسٌ يُعَلّم الله عزّ وجلّ فيه رسُولَهُ ما يقولُه لكفَّارِ قَوْمِه، في المرحلة الّتي نزلَتْ فيها سورة (الجنّ). في مواجَهَةِ الطَّوْر الّذي وَصَلوا إليه، حتَّى كادُوا يكونُون مُتَألّبِينَ جماعاتٍ علىٰ عداوَتِه، ومقاوَمَةِ دَعْوَته، واضطهاد الّذِين آمَنُوا بِهِ واتّبَعُوه، وهذه الجماعات متكاثفةٌ مُتَلَبِّدةٌ كتَلَبُّد الصُّوف، أو الشَّعر حين يتراكبُ بعْضُهُ على بعض، كما سبَقَ بيانه في الدرس الثاني من دُروس السورة، لدى تدبُّر قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

إنَّ هٰذا الطَّوْر يَسْتَدعي مقالاتٍ يُوَجِّهها الرَّسُولُ ﷺ لرافضي الاستجابَةِ لدَعْوَته، يُبَيّنُ لهم فيها مَسْؤُوليَّتَهُ تُجاهَ رَبّه، وخَوْفَهُ من مُخالَفَةِ مَا كَلَّفَهُ اللَّهُ إيَّاه من تَبْلِيغ دِينِهِ، ويُحَذِّرُهم فيها من عَاقِبَةِ مَعْصِيَتِهم لِلَّهِ ولِرَسُوله، ويُجِيبُهُمْ فيها على تَسَاؤلاَتِهم المتعلّقة بمَا كَانَ قَدْ أَنْذَرَهم به، من انتصار الحقّ الذي جاء به عن رَبّه، على بَاطِلِهم المصِرّين على الالتزام به بعنادٍ واستكبار، وما وَعَدَهم به من انتصار من آمَنَ به منهم، على مَنْ كَفَر ووقف مواقف العداء، والاستعداد للمقاومة والحرْب، حتّىٰ كادُوا يُجَمّعُون جماعاتهم اللِّبدِ لقَمْع دَعْوَتِه، واضطهاد أنْصارِه الذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، اضطهاداً يوقف مَسِيرَة دعوة الإسلام وانتشارها.

وكُلُّ قول يَقُولُه الرَّسُول ﷺ لكُفَّارِ الإنس، هو قولُ مُوَجَّهٌ أيضاً لكُفَّارِ الجنّ، لأنَّ الجنّ في قضايا الدِّين وبلاغاته تابعُونَ لنُظَرائهم من الإنْس في رسالة محمّد ﷺ، الخاتمة لرِسالاتِ الله لعِبادِه.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عَزّ وجلّ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠﴾.

وَفي القراءة الأخرى: [قَالَ]، أي: كما سَبَقَ بيانه: ﴿قُلْ﴾ فـ[قَالَ] كما أَمَرَهُ رَبُّهُ.

والمعنى: قُل: يا مُحَمَّدُ: مَا أَعْبُدُ إلاَّ رَبِّي في سُلُوكي الشَّخْصيّ، وفي دَعْوَتي إلى سَبيلِهِ، وَفِي البَلاَغَاتِ الّتِي أَمَرَني بأَنْ أُبَلِّغَها لِعِبادِه، وأَنَا لاَ أُشْرِكُ به أحداً.

﴿إِنَّمَآ﴾ أَدَاةُ حَصْرٍ، وهي في معناها تَدُلُّ على ما يَدُلُّ عليه النَّفْيُ والاستثناء بـ«إلاَّ» بَعْدَه، والمَقْصُورُ بِهَذِهِ الأَدَاةِ هُوَ مَا يَلِيهَا مُباشَرَةً، والمَقْصُورَ عليه هو الذي يجيء بَعْدَه. فالمعنى: أَقْصُرُ دُعَائي علىٰ رَبِّي، أي: ما دُعَائِي إلاَّ لِرَبِّي، فَرَبِّي وَحْدَهُ هو الموصُوفُ بأَنّي أَدْعُو إِلَيْه، وهُوَ قَصْرٌ حقيقيٌّ من قبيل قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف عند علماء البلاغة.

فقال الرَّسُولُ محمَّد وفق دَلالة القراءة الثانية: إنَّني فيما أَدْعُو، وفيما أُبَلِّغُ عَنْ رَبِّي، أَقُومُ بما يَجبُ عليَّ مِنْ عِبادَةٍ تُجاهَ رَبِّي الَّذِي لاَ شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّتِه، وَلاَ في إلَهِيَّتِه. فأَنَا لاَ أَتَلَقَّىٰ الأوامِرَ منْكُمْ ولاَ مِنْ آلِهَتِكُمُ الباطِلَةِ الَّتي تَعْبُدُونَها مِنْ دُون اللَّهِ عزَّ وجلَّ، حَتَّىٰ أَتَوَقَّفَ عَنْ عِبادَتِي لِرَبِّي في القيامِ بما يجبُ عليَّ منْ دَعْوَةٍ إِلَىٰ سَبِيلِهِ، وفيما يَجبُ عليَّ مِن تَبْلِيغِ كتابِهِ الّذِي يُنَزِّلُهُ عَليّ تباعاً نَجْماً فَنَجْماً.

إِنَّكُمْ تُطَالِبُونَنِي بأَنْ أَتوقفَ عَنْ دَعْوَتي إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّي، وبأَنْ أَتَوَقَّفَ عَنْ تَبْلِيغِ القرآنِ الّذي يُنَزِّلُهُ عَلَيَّ، وأَنَا لاَ اسْتَجِيبُ لِمَطْلَبِكُمْ هٰذا، فأَنَا أَعْبُدُ رَبّي الذي لاَ شريكَ له، وهو الَّذِي كلّفَنِي أنْ أَقُومَ بهَذا التَّبْلِيغِ، وأَنْ أَدْعُوَ إِلَىٰ سَبيلِهِ، وسَأُتَابعُ عِبادَتِي لِرَبِّي في تبليغِ دِينهِ، ونَشْرِهِ بَيْن عِبادِه، مَهْمَا

جَمَّعْتُهُمْ جُموعَكُمْ لِحَرْبِي، ومقاومَةِ دَعْوَتي، ومَهْما تَلَبَّدْتُم علَيَّ، مُتواطِئين ضدِّي، وضاغِطِينَ علىٰ صَدْرِي، لقَطْعِ أنْفاسِي، وإسْكَانِ لِسَاني.

لَقَدْ أشْعَرَ هَذَا القول: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ مع قَرِينَةِ تَلَبُّدِ كُبَراءِ مشركي قَوْمِه بأنَّهُمْ طالَبُوهُ بإلْحاحٍ أنْ يكُفَّ عن دَعْوَتِه إلى الدّين الذي جاءهم به عن رَبّه، وإلاَّ قَاوَمُوهُ بقُوَّةٍ، أوْ أنْزل به آلِهَتُهُمْ شرًّا، وأشعر أيضاً عن طريق اللُّزومِ الفِكْرِيّ بأنَّهُ لاَ يَخشَىٰ منهُمْ وَلاَ مِنْ آلِهَتِهم، فآلِهَتُهُمْ باطِلَةٌ لاَ يُؤمِنُ هو بها، ولاَ يَخْشَىٰ شرّاً يأتِيهِ مِنْ قِبَلِهَا، إذْ لا رَبَّ في الوجود إلاَّ رَبٌّ واحِدٌ، وهو سُبْحَانَهُ الإلهُ الأحَدُ، الَّذِي لاَ شريكَ له، ولا والِدَ، ولا صاحِبَةَ ولا وَلد. وهو لا يَخْشَىٰ أيضاً مِنْهُمْ، لأنَّ رَبَّهُ الَّذِي كلَّفَهُ القيامَ برسالَتِه سيَحْمِيه.

وأخَّرَ اللَّهُ عزّ وجلّ بحكْمَتِه، تَعْلِيمَ رَسُولِهِ ما يُجِيبُهُمْ به إجابَةً صَرِيحَةً، على تَهْدِيدِهِمُ الْعَمَلِيّ له، بما يُجَمّعُونَ من جُموعٍ لمقاوَمَةِ دَعْوَته، ورُبَّما اقْتَرَنَ بهٰذا التَّهْدِيدِ الْعَمليّ منهم تَهْدِيدٌ قَوْلِيٌّ أيضاً، إذْ جاءَ في هذا الدَّرْسِ التعليميّ ما يَدُلُّ علىٰ أنَّ اللَّهَ لَمْ يأذَنْ له بمُقَاوَمَتِهِمْ مُقَاوَمَةً دِفاعِيَّةً مُسَلَّحة، وجاءَ فيه ما يُشْعِرُ بأنَّهُ يُؤْثِرُ تَحَمُّلَ أذاهم، وتَحَمُّلَ اضطهادِهِمْ لضعفاء المؤمنين، مهما بَلَغَ ذَلِكَ، إذْ هُو يَحْمِي نَفْسَه مِنْ عِقَابِ الله الشَّدِيد الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ لَوْ كَفَّ عَنْ دَعْوَتِهِ، ولَمْ يَصْدَعْ بما أمَرَهُ اللَّهُ أنْ يَصْدَعَ به.

ونَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ سِيرَةِ الرَّسُول ﷺ أنَّ الْعَهْدَ المكِّيَّ كانَ عَهْدَ سِيَاسَةِ الصَّبْرِ وتَحَمُّلِ الأذىٰ، وكَفِّ الأيْدِي عن مُقَاوَمَةِ الْقُوَّةِ المادِّيَّةِ بِقُوَّةٍ مَادِّيَةٍ مُسَلَّحَةٍ.

* * *

قول اللَّهِ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

- ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾:

إذا تأمَّلْنَا بتَدْقيقٍ في الطَّوْرِ الَّذِي وَصَلَ إلَيْهِ المشركُون أعداءُ دعوة الرَّسُول ﷺ بمكّة، إبَّان نزول سورة (الجنّ) وجَدْنا أنَّهُمْ، مع تَخَوُّفِهم من تَفَاقُم دَعْوَتِهِ وتكاثُر أنْصَارِه ـ مَا زَالُوا يَشْعُرُون بأنَّ الرَّسُولَ والَّذِين آمَنُوا معه، لا يَمْلِكُونَ في ذلِكَ الوقْتِ قُوىٰ دِفاعٍ تُحَصِّنُهُمْ مِنْ قُوىٰ مشركي مكَّةَ، لو اجْتَمعُوا عَلَيْهِم، وأعَدُّوا الْعُدَّةَ لِقَمْعِهِمْ، لَكِنَّ أَمْرَهُمْ يتَفَاقَمُ يَوْماً فَيَوْماً، فَهُمْ لاَ بُدَّ أَنْ يَتَخَوَّفُوا مِن احْتِمالاتِ المستَقْبَل، وعَلَيْهِمْ أنْ يُسَارِعُوا حتَّىٰ يَتَدَارَكُوا الأمْرَ قَبْلَ أَنْ يسْتَفْحِلَ، ويَفْلَتَ زِمَامُهُ من أَيْديهم.

والسِّيَاسَةُ الحكِيمَةُ في مُواجَهَةِ هٰذا الطَّوْرِ الَّذِي بلَغَهُ مُشْرِكُو مَكّة، تَقْتَضِي إعْطَاءَهُمْ جزعاتٍ تَهْدِئةٍ تُخَدِّرُهم، وَتُبَرِّدُ لَهِيبَ تَوَجُّسِهم من احْتمالاتِ تفاقُمِ قُوَّةِ الرَّسُول والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه.

فحِينَما يقول لهم: ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ كما أمَرهُ اللهُ عزّ وجلّ أن يقول لهم، فإنَّ هذا القولَ يُوقِعُ في مشاعِرِهِمْ أنَّهُ ما زال بَعيداً بُعْداً كبيراً عن الاسْتِعْداد لِمُقارَعَتِهِمْ بقُوَّةٍ دِفاعيَّةٍ، فتَبْرُدُ حَماسَتُهُمْ، ويَتَوقَّفُ ولَوْ إلَىٰ حِينٍ تجمُّعُهُمْ لِلْقَمْعِ، ولإعْدادِ الْقُوىٰ القتاليَّةِ لإيقاف امْتِداد الْقُوَّةِ الإسلاميَّة.

● ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾: أي: مَاذَا أفْعَلُ مَعَكُمْ، وَحَالِي أَنّني لاَ أَمْلِكُ في مُقَابَلَةِ تَلَبُّدِكُم مُجْتَمِعِينَ ضِدَّ دَعْوَتِي، وَسِيلةً مَادِّيَّةً أَضُرُّكُمْ بِها ضرَراً ما، لأمْنَعَ بها تألُّبَكُمْ عليَّ وعلىٰ الَّذِين آمَنُوا بي واتّبَعُونِي، وأَنَا لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْصِيَ رَبّي بالتَّوقُّفِ عن تأدِيَةِ رِسَالاَتِه الَّتي اصطفانِي لَها، وأَمَرَنِي بأَن أقوم بأدائها؟

ويَطْوِي الرَّسُول ﷺ في نَفْسِه أنَّ الله عزّ وجلّ لم يأْذَنْ لَهُ بَعْدُ بذلك، ولم يأذَنْ له بَعْدُ بإعداد الْعُدَّةِ له، وأنّ الله سيأذن له مستَقْبلاً بقِتَالِهم، حينما تكون الظروف مواتية، وتكُونُ احتمالاتُ النَّصْر مَرْجُوَّةً ضِمْنَ سُنَنِ الله السَّبَبِيَّةِ في كوْنه.

ولا يخفَىٰ ما في هذا الإعلانِ من سياسة حكيمةٍ مُهدِّئةٍ لقَلَقِ المشركين، وثَوْرَتِهِمْ ضِدَّه، ومُبَرِّدَةٍ لحَرَارَةِ الحمَاسَةِ لتَجْميعِ القُوى، وإعْدَاد العُدَّة، إذْ لا يَمْلِكُ محمَّدٌ والّذِين آمَنُوا به واتبعُوه من الوسائل الماديَّةِ مَا يَخشُونَ تَفَاقُمَهُ الآن، فما الدّاعي إلَىٰ القلَق الدّافع إلى اتّخاذ القُوَىٰ الماديَّةِ قَبْلَ أنْ تُوجَدَ المشكِلَةُ في الواقع؟

● ﴿وَلَا رَشَدًا﴾: أي: وَلاَ أمْلِكُ وَسلية أُلْزِمُكُمْ بها إلْزاماً قَسْرِيًّا إكراهيًّا أن تكونوا رَاشِدِين، مُسْلِمِين، متَّبِعِينَ صراط الْهُدىٰ، ضامِنِينَ لأنفُسِكُمْ سَعَادَةَ الدّارَيْنِ.

لَقَدْ جَعَلَ اللّهُ الناسَ في الحياة الدُّنيا مُخيَّرِين غَيْرَ مَجْبُورِين، ليمتَحِنَهُمْ وَيَبْلُوَهم فيما آتاهم، ثم ليُحَاسِبَهم، ويَفْصِلَ الْقَضاء بَيْنهم، ثمّ يجَازِيهم على ما قدَّموا في رحْلَةِ امْتِحانهم.

هٰذه المقالة تدلُّ على أمْرَيْن:

الأمر الأوّلُ: أنّه لن يُلْزِمَهُمْ يَوْماً ما على الإيمان به واتّباعِه، وهذا يَزيد في تَبْريد حرارَة حَمَاسَتِهِم لمقاومَةِ دَعْوَتِهِ وَقَمْعِها.

الأمْرُ الثاني: أنَّهُ يُحمّلُهُمْ مَسْؤُولِيَّةَ اختيارِهم الحرّ تُجاهَ رَبّهم، الَّذِي سيُحاسِبُهم وسَيُجَازِيهِم يَوْمَ الدّين، وربّما يُعَجّلُ لَهُم بَعْضَ العِقَابِ في الحياة الدُّنيا، كما عَجّل لِكُفَّارِ الْقُرُون السابِقَةِ، الَّذين طَغَوْا وَبَغَوْا في الأرض.

* * *

قولُ الله عزّ وجلّ خِطاباً لرَسُولِهِ:

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾:

رُوِيَ أنّ كفّارَ قريش قالُوا للنّبيّ ﷺ: إنّكَ جئتَ بأمْر عظيم، وَقَدْ عَادَيْتَ النّاسَ كُلَّهمْ فَارْجَعْ عن هٰذَا فَنَحْنُ نُجيرُكَ.

فاقتضىٰ هذا أنْ يُبيّنَ لَهُمْ أنَّهُ مَسْؤول تُجاهَ رَبّه عَنْ تَبْليغ ما يأْمُرُهُ بتَبْليغِه للنّاس، وإنْ لم يَقُمْ بهٰذا الواجب العظيم، فإنَّ اللّهَ يُعَاقِبُهُ عقاباً شديداً، ولَنْ يُجيرَهُ فيحْمِيَهُ من عذاب اللّهِ أحَدٌ، ولَنْ يَجِدَ من دُون الله مكَاناً يميلُ إليه، ويَلْتَجئ فيه، ليَدْفَعَ عنْ نَفسِه عَذابَ اللّه، لَوْ أنّه تَرَكَ دَعْوَته إلى دِينِ ربّه، وكفّ عن القيام بأداء رسالته، فأنزل الله عزّ وجّل عليه هذا التعليم.

● ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾: أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ إِنِّي أُأَكِّدُ لَكُمْ أنّي إذا استجبْتُ لطَلَبِكُمْ فلَنْ يَمْنَعَنِي ولنْ يحْمِيَنِي من عذَابِ اللّهِ الشَّدِيدِ أحَدٌ في الْوُجُود كُلِّه، وإنّي أخاف من عذابِه.

أصل هذا التعبير أنَّ العَرَبَ كانُوا يَحْمُونَ ويمنعُونَ مَنْ يدْخُلُ في جوارهم ممَّنْ يُرِيدُه بِشَرّ، لأنَّ جارَهُمْ عَزِيزٌ بهم، وكانَ عَزِيزُ القَوْم إِذَا أَعْلَنَ أَنَّ فُلَاناً جارٌ لَهُ، فقد أعْلَنَ أنه يَمْنَعُهُ ويَحْمِيه، كما يَمْنَعُ أَهْلَهُ ويَحْميهم، ويُقَالُ لكُلّ من المستجيرِ والمجيرِ: «جَار».

وكانَ متَىٰ قال أحَدٌ يخافُ علىٰ نَفْسِهِ في مجتَمعٍ عَرَبّيٍ أنا جارُ فُلان، وكانَ ذلك الرَّجُلُ عزيزاً في قومه، فإنَّ أحداً لا يَسْتَطيع أن يَمَسَّهُ بما يكره، وَإنْ فعَلَ نَصَرَهُ المستجارُ به بكلّ ما يَمْلِكُ من قُوَّةٍ وعِزَّة.

● ﴿مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾: أي: لَنْ يجيرَني من عذاب الله وعقابه وانتقامه منّي أحَدٌ، وإنّي أخاف من عذاب الله.

«لَنْ» أَدَاةُ نَفْيٍ فيها معنىٰ تَأْكِيدِ النَّفْي، ويُفْهَمُ التأْبيد هُنَا من أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ الْقَادِرَ علىٰ كُلّ شيءٍ الأزليَّ الأبَدِيَّ هو المخوفُ من عَذَابِه.

● ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾: أيْ: ولَنْ أجدَ مِنْ شيءٍ في الوجودِ

إذْ هُو دُونَ الله جلّ جلالهُ ملْجأً ألْتَجِئُ إليه، وأَحْتَمِي به، إنْ أراد الله مُعَاقَبَتِي، فيما لو لَمْ أقُمْ بأدَاءِ رسالاته.

المُلْتَحَدُ: هو المَلْجَأُ الَّذِي يَمِيلُ اللاَّجِئُ إِلَيْهِ لِيَحْتَمِيَ به. إنَّهُ لاَ يُوجَدُ في الوجود كُلّهِ مَلْجَأٌ يَحْمِي من عذاب الله، ولهذا جاء في الصحيح من أدْعِيَةِ الرَّسُول ﷺ خطاباً لله عزّ وجل بالدّعاء عبارة: «لاَ مَلْجأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إلاَّ إليك».

روى البخاريُّ ومُسْلمٌ عن البراء بْنِ عازبٍ رضي الله عنهُمَا، قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضوءَكَ للصَّلاةِ، ثُمَّ اضطجِعْ علىٰ شِقِّكَ الأيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ:

اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وأَلْجأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَة وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إلاَّ إِلَيْكَ. اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ».

بما أنّ التكليفَ بِتَبْلِيغِ رسَالاَتِ اللَّهِ مُوجَّهٌ من الله جلّ جلاَلُهُ وعظُمَ سُلْطَانه، وبما أنَّه هو وحْدَهُ المحاسِبُ والمجازي، وبما أنَّهُ هو المِلِكُ والمالِكُ للوجود كُلّه، فَهَلْ يوجَدُ في الوجود من يُجِيرُ ويَحْمِي من عذابه إذا شاء تعْذِيبَ من عصاه؟ وهَلْ يُوجَدُ ملْجأٌ يَلْجأُ إِلَيْهِ العاصي، فيقي فيه نفْسَهُ من عذابه؟

- ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ... ﴿٢٣﴾﴾.

البَلاَغُ: اسْمٌ بمعنىٰ المصْدَر الَّذي هو الإبْلاغ، أو التَّبْليغ، والإبْلاغُ هو إيصالُ رسالةٍ كلامِيَّةٍ أو غير كلامِيَّةٍ إِلَىٰ مَنْ أُرسِلَتْ إِلَيْه.

وإذا نظَرْنَا بإمعان في سوابقِ هٰذا الاستثناء وَجَدْنَا قَضِيَّتَيْنِ يمكن أن يكون هذا الاستثناء تَعْقِيباً عليهما.

القضية الأولى: ما تضمَّنَتْهُ عبارة: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾: أي: ولَنْ أجِدَ مَلْجأً يَحْمِيني وَيَعْصِمُنِي من عِقابِ اللَّهِ، إلاَّ مَلْجأً واحداً هو أن أُطِيعَهُ فأقُومَ بتَبلِيغ ما أَمَرَني اللَّهُ بتَبْلِيغِهِ ممَّا أَوْحَىٰ بِهِ إليَّ، وَأَنْ أُوصِلَ رِسَالاَتِهِ إلى الَّذِين كلَّفَنِي أَنْ أُوصِلَها إليهم.

القضية الثانية: ما تضمَّنَتْهُ عبارة: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾: أي: لاَ أَمْلِكُ بِنَفْسِي ضَرّاً أَضُرُّكُم بِهِ، لأَدْفَعَ بِهِ أذاكُمْ واضطهاداتكُمْ للّذِين آمَنُوا واتّبَعُوني، وَلاَ أَمْلِكُ لَكُمْ رَشَداً أُكْرِهُكُمْ عَلَيْهِ بالْقَسْرِ، على خلافِ ما تختارُونَ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ.

لكِنْ أَمْلِكُ إبْلاغَكُمْ مَا أَمَرَني رَبّي أن أُوصِلَهُ إليكم، مما أَوْحَىٰ بِهِ إليّ، وأمْلِكُ أَنْ أُوصِلَ إِليكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي الَّتي أرْسَلَنِي بها إليكم.

والمعْنَيَانِ كِلاَهُما صَحِيحان، وجَدِيرانِ بالبيان، وقد دَلَّتْ عَلَيْهِمَا نُصُوصٌ قرآنيَّةٌ مُتَعَدِّدَة.

وأخْذاً بقاعِدَةِ حَمْلِ النّصّ القرآنيّ علىٰ المعاني المتعدِّدة، الّتي يحتَمِلها احتمالاً تكامليّاً لاَ تناقُضَ فيه ولاَ تَضادّ، أرى أنّ الاسْتثناء وارِدٌ على القضيَّتَيْنِ، أَحَدُهما اسْتِثْنَاءٌ مِنْ عُمومِ الملاجئ، والآخر استثناءٌ بمعنى «لَكِنْ» وهو لدى التأمُّلِ استثناءٌ من عُمُومِ الأشياء الَّتِي لاَ يَمْلِكُهَا لهم، والمعنى: لا أمْلِكُ لَكُمْ إلاّ بلاَغاً من الله ورِسَالاَته.

والعبارة على تقدير: إلاَّ إبْلاغَ وَحْيٍ من اللّهِ أمَرَني بإبْلاغه، وإبلاغَ رِسَالاَت الله الّتي أمَرَني بتوصيلها إليكم.

هذا ما أمْلِكُهُ لَكُمْ، وهذا هو المَلْجَأُ الوحِيدُ الذي يَحْمِينِي ويَعْصِمُنِي من عقاب الله، لا ما تُطَالِبُونَنِي بِهِ من تَرْكِ هذا الأمْرِ، والكَفُّ عن القيام بالدَّعْوَةِ إلى سَبِيلِ رَبِّي.

- ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾:

أي: قل لهم يا مُحَمَّدُ هذا البيان المنزَّل إليك من رَبّك، فحَذِّرْهُمْ من عاقِبةِ مَعْصِيَتِهم لِلَّهِ ورسُولهِ، في عَدم الاستجابَةِ للدَّعْوَةِ إلى الإيمان بما أُنزِلَ إليكم من عنْد رَبكم، وإعلان الإسلام للّهِ والاستِسْلَام لأحكام دينِه الذي اصطفاه لعباده، بَعْدَ أنْ تُبيِّنَ لَهُمْ أَنَّكَ عُرْضَةٌ لعقابِ اللَّهِ إذا عَصَيْتَه، إِذْ إنَّكَ عَبْدٌ مِثلُهم مُكَلَّفٌ من رَبّك، ولَنْ يُجِيرَكَ من اللَّهِ أَحَدٌ، ولَنْ تَجِدَ من دُونِه مُلْتَحداً إِذَا عَصَيْتَهُ، وخالَفْتَ أوامرَه، وفي مُقَدّمَتِها تبْلِيغُ دينِه كما أمَرَك.

والمراد بالْمَعْصِيَةِ الّتي تَسْتَوْجب الخلُودَ في نار جَهَنَّم جمعاً من مختلف النُّصُوص مَعَ هذا النّص، المعصية الكبرىٰ برَفْض الدُّخولِ في الإسلام، ورفْضِ الإيمان بالحقّ الّذِي اشتملَتْ عليه أركان الإيمان.

وهذه المعصيَةُ هي المغْنِيَّةُ في سِبَاق الآيَة وسِيَاقها، إذِ الحديثُ فيهما يتَعَلّقُ بالكافرين الّذين رَفَضُوا الاستجابَةَ لدَعْوةِ الرَّسُول، وهم الذين وصَلُوا إلى طور تكْوين جماعات متألّبَةٍ ضِدَّهُ تُحاوِلُ الإحَاطَةَ بمقاتِلهِ، وإبعادَ الّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه عَنْه بما يسْتطيعون من وسائل.

وجاء في هٰذه الآية تأكِيدُ الخلُودِ الّذي قَدْ يسْتَعْمل بمعنَىٰ طُولِ أمَدِ البقاء بكلمة، ﴿أَبَدًا﴾ الّتِي تَدُلُّ على التأبيد بلا نهاية، ولو كان المرادُ طُولَ أَمَدِ البقاء فقط، لمَا كان لكلمة ﴿أَبَدًا﴾ فائدة حتَّى يؤتىٰ بها في النصّ، وكلُّ من مارَسَ تَدَبُّر آيات القرآن المجيد يُدْرِكُ أنّه لا إطنابَ فيه بغير فائدة.

وقَدْ صَارتْ كلمةُ «أبداً» في المفهوم الديني تَعْنِي الأزمانَ المتتابِعَة في المستقبلِ بلا نهاية، إذا جاءَتْ مطْلَقَةً من دُون قَيْد.

ومعلومٌ أنّ كثيراً من الكلمات العربيّة، قد اكتسبت في الاستعمالات الإسلاميَّة معاني إسلاميَّةً خاصَّةً، لم تكُنْ مَعْرُوفةً في اسْتِعْمَالِ العرب لها، مثلِ كلماتِ النفاق، والزّكاة، والإسلام، والإيمان، والكفر وغيرهما، ومنها كلمة «أَبَداً» بمعنى أزمان المستقبل بلا نهاية.

لفظ ﴿مَنْ﴾ في عبارة: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الآيَة، يجوز في العربية إعادة الضمير عليه بالإفراد مُراعَاةً لِلَفْظِهِ المفرد، ويجوز إعادة الضمير عليه بالجمْعِ رِعَايَةً لمعناه إذا كان المراد به جمعاً، وقَدْ أُعِيد الضمير عليه في الآيَةِ بالإفراد أوّلاً مراعاةً للفظه، وبَعْدَهُ رُوعِيَ معناه الدّالُّ على الجمع فقال تَعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَـدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾: أي: أَمْهِلْهُمْ يا مُحَمّد واصْبِرْ عليهم، حتَّىٰ الْوَقْتِ الَّذِي يَرَوْن فيه ما يوعَدُون.

دلَّ على هذا المحذوف المقدّر ذهناً، وهو إمْهالُهم والصَّبْرُ علَيْهم، ما جاء في آية: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾: أي: فـأَمْـهِـلْـهُـمْ واصْبِرْ عَلَيْهِمْ وترقَّبْ مَا نُدَبِّرهُ ضدّهُمْ، ونُنْزِلُهُ بهمْ في المستقبل، فإنَّهُمْ سَيَرَوْن مَا يُوعَدُونَ من نكبَاتٍ تنزل بهم، إذْ نَنْصُرُكَ وننصُر الَّذِين آمَنُوا مَعَكَ عليهم، فتكونُوا أنتم الغالبين، وهُمُ المغلُوبُون المهزومُون.

الوَعْدُ: يسْتَعْمَلُ في الْخير، ويسْتَعْمَلُ في الشرّ، وقد يُخَصَّصُ الوعْدُ بالخير والإيعاد بالشرّ، فيُقَالُ: وَعَدَهُ بخير، ويقال: أَوْعَدَهُ بشرٍّ، ولكن هذا غيْرُ لازم.

وجاء في الآية استعمال «السّين» في: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ للدلالة على المستقبل غير البعيد.

أمّا في المستقبل البعيد فالغالب أن يستعمل للدلالة عليه حرف التسويف: «سَوْف».

جاءت هٰذِهِ الآيَةُ فيما أَرَىٰ بَيَاناً مُوَجّهاً مِنَ الله عزّ وجلّ لِرَسُوله ولِلّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، معالجةً لنُفوسِهم المكتَئِبَةِ بسبب مكايد كفّارِ مكّةَ واضطهاداتِهم لهم، إذْ فيها طَمْأنَةٌ لهم بأنَّ عاقِبةَ مضطهديهم إلى خِذْلاَنِ وهَزِيمَةٍ وَتَنَاقُصٍ في أعدادهم، أمَّا عَاقِبَةُ المؤمِنين فهي النَّصْرُ والظفَرُ وتكاثُر الأعداد.

وفيها تَلْوِيحٌ لكبراء مُشْرِكي مكة وأنْصارِهِمْ بأن عاقِبَةَ أمْرِهم إِلَىٰ خِذْلاَنِ، وهزائمَ، وتَنَاقُصٍ في الأعداد، وِفِيهَا إشارَةٌ إلى ما سَبَقَ إنزالُه بشأنهم، وهو قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

وفيها أيضاً تَذْكيرٌ بسَوابِقِ المواعيد الّتي وَعَدَهَا اللّهُ المؤمِنِين بالعزَّة والنَّصْرِ والتمكين، وهِيَ في معاريضها نُصوص وعيدٍ للكافرين، الّذِينَ يُعَامِلُون المؤمنين بالاضطّهاد والإذْلالِ والتهجير والتشريد.

إنّ من دِقَّةِ التدبّر لآيات كتاب الله عزّ وجلَّ أنْ نفهم أنّ كُلَّ جوابٍ يَسْتَدْعي سؤالاً، سواءٌ ذُكِرَ في النّص أمْ لم يُذْكَر. وأنَّ كلَّ تَوجيهٍ عِلاَجي يَسْتَدْعي أنّ الواقع كان يشتمل على حالة من شأنها توجيه هذا العلاج، سواءٌ ذُكِرَتْ هذِه الحالة في النَّصّ القرآنيّ أمْ لم تُذْكر، وهكذا إلى سائر النظائر والأشباه.

وهذا منْ أساليب الإيجاز القرآنيّ البديع.

والوعد الذي يشير إليه قولُ الله عزّ وجل: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا

وَأَقَلُّ عَـدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ في الآية هو وعْدٌ بانتصار المؤمنين عليهم في الدُّنيا، حينما يكون المؤمنون أقوىٰ ناصراً، وأَكْثَرَ عَدداً.

وقد دلَّتْ هذه العبارة على أنَّه يُوجَدُ للكافرين يومئذٍ نَاصِرُون، إلاَّ أنَّهم أضْعَفُ من أنصار المؤمنين، وتكونُ لهم جماعة ذاتُ عَدَدٍ، إلاَّ أنَّ عَدَدَهم أقل من عَدَد جيش المؤمنين.

وقَدْ ظَهَر هذا فِعْلاً في الغزوات الّتي انتصر فيها المؤمنون على مشركي مَكّة.

ففي غزوة بدر جاء إبليس في جنْدٍ من الشياطين على صور الناس، كما رُوي عن ابْنِ عباس، فقال للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإنّي جارٌ لَكُمْ، وأقبل جبريل إلى إبليسِ، فلَمَّا رآه ولّىٰ مُدْبراً هو وشيعَتُهُ، وقال لمن حولَهُ من المشركين: إنّي أرى ما لا ترَوْنَ، إني أخاف الله، واللّهُ شديد العقاب، فكان ناصِرُ المشركين ناصراً ضعِيفاً، وأمدّ الله المسلمين بالملائكة فكان ناصرهم، ناصراً قويّاً.

وفي سائر المعارك بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ كَانَ الرَّسُولُ والمُؤْمِنُونَ مَعَهُ أَقْوَى نَاصِراً، وَكَانُوا في بَعْضِهَا كفَتْحِ مكةَ أقوىٰ ناصراً وأَكْثَرَ عَدَداً، كما جاء في الآية، وهذا من الأَخْبَار الغيبيَّة المستقبليَّة الّتي تحققت، فهو من عناصر المعجزات الخبريَّة الْقُرآنية، إذْ حقّقَ اللّهُ وعْدَهُ، ونَصرَ عبْدَهُ، وهَزَم الأحزاب وحْدَه.

وقد نزل بعد نزول سورة (الجن) عدّةُ نُصوص تتضَمَّنُ إنذارَهُم بعذابِ مُعَجَّلٍ، أو بعذاب اللّهِ يَوْمَ الْقِيامة، ومن هذه النصوص ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: إمَّا العذاب المعجَّلَ في الدنيا بالإهلاك الانتقاميّ، أَوْ بنَصْرِ الرَّسُول والمؤمنين معه، وإمَّا السَّاعَةَ الّتي يلْقَوْنَ فيها الحسَابَ، وفَصْلَ القضاء، والجزاءَ في نار جَهَنَّمَ.

وفي هذا التَرْدِيد إخفاءَ للخُطَّةِ المدَبّرة الّتي منها الإعداد لمواجَهاتٍ قتاليَّة.

(٢) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الشُّعَراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

أي: أفرَأَيْتَ أيُّها الرائي المتفكِّر بتَصَاريف ربِّكَ الحكيمة، إنْ متَّعْنَاهُمْ فيما هُمْ فيه وهم يُعادُون رسُولَنَا والّذين آمَنُوا معه، سِنِينَ مَعْدُودَةً قَلِيلَةً، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَعْدَها مَا كانوا يُوعَدُون في آياتنا المنَزَّلاَت، وعلَىٰ لِسَانِ رَسُولِنَا، من هزيمتِهم وانتصار المسلمين المؤمنين عليهم، وقتْلِ عُتَاتِهم وجبَابرَتهم؟

كيف يَكُونُ حَالُهم يومَئِذٍ انكساراً وذِلَّةً وخِزْياً؟

ويظْهَرُ يَوْمَئِذٍ أنَّ مَا كَانُوا يُمتَّعُونَ به من مَالٍ وقُوَّةٍ وجُنُودٍ لَمْ يُغْنِهُمْ شيئاً.

(٣) وقوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خِطَاباً لمشركي مكّة، وتَعْلِيماً لرسوله ما يقوله لهم:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

في هذا إنْذاران:

الأول: إنْذَارٌ من اللّهِ مُبَاشَرَةً لِلْمَعْنِيِّينَ بالخطاب، بأنَّ الّذِي يُوعَدُونه من نَصْرِ رَسُولِهِ والّذِين آمَنُوا مَعَهُ، لآتٍ حَتْماً، وأَنَّ ما لَدَيْهِمْ من قوَّةٍ وجُنُودٍ وأَنْصَار، لَنْ تكُونَ مُعْجِزَةً لِمَنْ يَقْضِي اللّهُ لهم بالعزَّةِ والنَّصْرِ والظَّفر، وهذا ما أشارت إليه الآية (١٣٤).

فالله عزّ وجلّ يُبيّن لهم بخطابه مَا مَعْنَاهُ: إنَّ مَا تُوعَدُونَ في النُّصُوصِ المتتابعَةِ لآتٍ حتماً، إذْ هُو قَضاءٌ مُبْرَمٌ من الله بنَصْر رَسُوله والَّذِينَ آمَنُوا معَهُ، وهذا النَّصْرُ إمَّا أَنْ يكونَ بإهلاكٍ شاملٍ لهم، كما حَصَلَ لأقوام الرُّسْلِ السَّابقين، وإمَّا بإنْزَالِ الهزيمَةِ والخيبَةِ والخِذْلاَنِ بالكافرينَ في مَعارِكَ قتالِيَّة، يمْنَحُ اللّهُ عزَّ وجلَّ فيها التأييدَ والنَّصْرَ للرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا معه، واللّهُ يختارُ مَا هو الأحْكَم المناسِبُ لحال القوم.

والَّذِي تحقَّقَ في الواقع هو هذا الاختيار الثاني، وهو الذي جاءت الإشارة إليه في الآية (١١) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وفي الآية (٢٤) من سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

الثاني: تكليفٌ من الله لِرَسُولِه أنْ يُنْذِرَهم بعذَاب يَوْمِ الدّين، فجاء في هذا التعليم الرّبّانيّ له.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

المكانة: مؤنث المكان، وهي: الموضِعُ، والجهة، والناحية النائيَةُ عن موضع الحق.

أي: يَا قوم اعْمَلُوا حَالَةَ كَوْنِكُمْ ثابِتِينَ علَىٰ مَكانَتِكم النائية عن مكانِ الحقّ والخير والْهُدىٰ، إنّي عَاملٌ وأنَا ثابتٌ على المكانِ المشّاقّ لمكانتكم، فَسوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ الدِّينِ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدار النَّفِيسَةِ الرَّفيعَة المعدّة للمتقين السُّعداء، وهي الجنة.

إنَّكُمْ بِثَابتِكُمْ علىٰ مكانَتِكُمْ ظالِمُونَ، وإنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون.

الفَلاَح: الفوزُ والنجاةُ والظفر، وأصْلُ الفلاح البقاءُ في النعيم والخير.

والظالمون لا فَوْزَ ولا نجاة ولا ظفر لهم، فلا ينالون يوم الدين نعيماً ولا خيراً، بلْ يَنالون عذاباً أليما.

* * *

قول الله عزّ وجل:

- ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾:

من الطبيعيّ أن يتساءل القوم فيقولوا: متَىٰ يتحقَّقُ هٰذا الوعْدُ الّذي تُحذِّرُنا منْهُ يا مُحمَّد؟

إنّ هذا الموقفَ يقتضي بياناً تَعْلِيمِيّاً من الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، يُبَيّن له فيه ما يقوله لهم، فجاء هذا النَّصُّ الرَّبَّانِيُّ مُعَلّماً.

- ﴿إِنْ أَدْرِىٓ﴾: أي: ما أَدْرِي، ﴿إِنْ﴾ هنا حرف نفي بمعنى «ما» النافية. ﴿أَدْرِىٓ﴾: أي: أعلم. يقال لغة: دَرَىٰ الشيءَ، ودَرَىٰ به، إذا عَلِمَه. فعبارة: ﴿إِنْ أَدْرِىٓ﴾ معناها: ما أعلم، فالرّسول يبيّن بهذا لكُفّار مكّة المعادِينَ له ولدعوته، أنّهُ يبلّغُ عن ربّه ما أعْلَمه الله به، وأذِنَ لَهُ بأنْ يُبَلّغه.

أمّا تَحْدِيدُ الوقت الّذي يُحَقّقُ اللّهُ فيه وعْدَهُ، بإهْلاكِ أَعْدائِه أو نَصْره عليهم، فلَمْ يُعْلِمْهُ الله به.

فالرّسُولُ ﷺ يومئذٍ ما كان يَدْرِي: أقريبٌ هذا الوقت، أم يجْعَلُ الله له أمداً مُتَوَسّطاً، أَمْ أمداً بعيداً بُعْداً نَسْبِيًا يتَنَاسَبُ مع أعْمَارِ الناس.

الأَمَدُ: في اللُّغة الزّمَنُ الّذِي يكُونُ غايَةً لِلأجَلِ، وتكُونُ عنْدَه نِهايَةُ المدّة.

والمراد هنا: أم يجعل لَهُ رَبِّي غايَةً لَيْسَتْ بالقريبة، فإذا حلَّ زَمَنُ هٰذه الغايَةِ تحقَّقَ تنفيذ الوعد، وفُهِمَ نَفْيُ قُرْبِ هٰذهِ الغايَة من التقابُل مع: ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾.

ويُطْلَقُ الأمَدُ أيضاً على الزَّمَنِ الَّذِي يَبْدأ عنْدَه عُمْرُ الشَّيْءِ الحادث، كَوَقْت ميلاد الحيّ.

فحِينَ يقول الرَّسُولُ ﷺ لهم ما أمَرَهُ الله به في هٰذه الآية، فإنَّه يُبيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الله لم يُعْلِمْهُ بوَقْتِ تحقيقِ ما وَعَدَهُمُ الله به.

ومَا لَمْ يُعْلِمْهُ اللَّهُ به لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَعْلَمَهُ، ولا يَسْتَطِيع أَنْ يُخْبِرَ بما لَمْ يَعْلَمْ، والله عزَّ وجلَّ يُخْفِي مَا يَشَاءُ من مقاديرِ المستَقْبَلِ، أَوْ أوقات وُقوعِها، لِمَا لَهُ سُبْحَانه من حِكَمٍ جَلِيلَةٍ في إِخْفَاءِ ذلِكَ.

* * *

قول الله عزّ وجلّ في تَعْلِيم ما يقوله لقومه:

- ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ . . .﴾:

- ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾: وصْفٌ لعبارة: ﴿رَبِّيٓ ﴾ ممّا جاء في الآية السّابقَة: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴾ أي: رَبِّي الموصُوفُ بأنَّهُ عَالِمُ الغيب، وهو وصْفُ ثناءٍ عَلَيْهِ سُبْحانه بأنه عالِمُ كُلّ مَا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بأنَّهُ غَيْبٌ، ولو كانَ غيباً بالنِّسْبَةِ إلى بعْضِ الخلائِق دونَ بَعْض، أي: عالِمٌ بكلّ شيءٍ هو غيبٌ بالنسبة إلى الخلائق.

أو هو خَبَرٌ لمبْتَدأ مَحْذُوف تقديره: هو عالم الغيب، وهٰذا يُفِيدُ الثناء والمدْح أيضاً.

نظرات شاملات إلى مفهوم الغيب:

الغيب: كَلِمَةٌ تُطلَقُ على كلّ شيءٍ غابَ عن إدْراكِ حواسِّ الخلائق كلّهم أَوْ بعضهم، أمّا الله سبحانَهُ فلا شيءَ في الوجود كُلّه هو غيبٌ بالنسبة إليه، بل كلُّ ما في الوجود هو من عالم الشهادة بالنسبة إليه.

ويَدْخلُ في الغيْبِ ما تُدْرِكُهُ العُقُولُ دُونَ الحَواسِّ، فإدْرَاكُ العقول له لاَ يُخْرِجُهُ من عالَم الغيْب إلى عالَم الشَّهادَة، وَلهذا كان التَّصْديقُ بأرْكان الإيمان من الْإِيمان بالغيب، مَعَ أنّها أُمورٌ تُدْرَكُ بالعقول ببراهين قطْعِيَّة.

ولمَّا خَلَقَ اللَّهُ ـ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ المخْلُوقاتِ ذَواتَ الإدْراكات الحسّيَّةِ، جعَلَ حَوَّاسَّها قاصِرَةً عن إدْراكِ كلّ مَا في الوجود، ولو كان حَوْلها مُبَاشَرَةً، أو داخِلاً في ذَوَاتِها، وجَعَلَها متفاضِلَةً في إدراكاتها الحسِّية.

فبعضُ الخلائقِ تُدْرِكُ بحَوَاسِّها مَوْجُوداتٍ لاَ تُدْرِكُها خلائقُ أُخْرَىٰ بحواسّها، من نوعها أو من جنسِها، أو من غير نوعها وجنسها، وهذهِ حقيقَةٌ ثابتَةٌ علمياً، ومُشاهَدَةٌ في عوالم الأحياء.

فما يُدْركُهُ المخْلُوقُ من الموجودات الحسيّة بحَاسَّةٍ من حَواسِّهِ الظَّاهِرَةِ، بطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ يُعْتَبَرُ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ من عَالَم الشهادة، وما لاَ يُدْرِكُهُ منها بحَاسَّةٍ من حواسِّهِ الظَّاهِرَةِ بطريقَةٍ مُباشرة، يُعْتَبَرُ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ من عالَم الغيب.

من أجْلِ هٰذا نُلاحظُ أَنَّ ما هُوَ من عالَم الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِ المخلُوقَاتِ، هُوَ من عَالم الشَهادَةِ بالنّسْبَةِ إِلَى مَخْلُوقَات أُخْرى، هذه الحقيقة تنطبِقُ على أصناف المخْلُوقاتِ، وأنواعِها، وأجْناسِهَا، وتنطَبِقُ أيْضاً على أفْرادِ الصِّنْفِ الواحد أو النَّوع الواحد، أو الجنْسِ الواحد، فبَعْضُ الأفراد قد يَهَبُهُ اللهُ مَزِيداً مِنْ قُوَى الإدْرَاكِ الحسّيّ، وَبِهِ يُدْرِك إدْراكاً مباشراً

أشيَاء من موجودات الكون، في حِينٍ أنَّ أفراداً آخَرِينَ لاَ يُدْرِكُونها، فَهِيَ بالنِّسْبَةِ إلى مُدْرِكيهَا بالْحَواسّ إدْراكاً مُبَاشراً من عالَم الشهادة، وهي بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْر مُدْرِكيها كذلِكَ من عالم الغيب.

وبناءً على هذا فالْغُيُوب كثيرة جدًّا، وهي قضايا نِسْبِيَّةٌ تَخْضَعُ لحالاَتِ ذَوي الإِدْراك الحسِّي من أفراد ما خَلَقَ الله.

الجنُّ والملائكةُ يَرَوْنَ ما لا نرىٰ، فما يَرَوْنَهُ بأَبْصارِهِمْ ونَحْنُ لاَ نَرَاه، هو بالنِّسْبَةِ إليهم من عالَم الشهادة، وهوم بالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا من عالَم الْغَيب.

وبَعْضُ البهائِم تُدْرِكُ بحَوَاسّها ما لاَ يُدْرِكُهُ النَّاسُ بحواسّهم المباشرة، فهو بالنِسْبَةِ إليها من عالم الشهادة، وهو بالنِّسْبَةِ إلى الناس من عالم الْغَيْب.

وبَعْضُ الناس يُدْرِكون ببَعْضِ حواسِّهم إدراكاً مباشراً مَا لا يُدْرِكه غيْرُهم، فما أَدْرَكُوهُ فَهُو بالنِّسْبَةِ إليهم من عالم الشهادة، وهو بالنسبة إلى غيرهم الذين لم يُدْرِكُوه من عالَم الغيب.

وأحداثُ الماضي الَّتي لَمْ نَشْهَدْها شهوداً مباشراً بحواسِّنا، هي بالنِّسْبَةِ إلينا من عالم الغيب، وقد كانت مشهودةً لِمَنْ حَضَرَهَا، وكذلك الأحداثُ الآتيةُ في المستقبلِ هي بالنسبة إلى الخلائق مِنْ عَالَم الغيب، لأنهم لم يَشْهَدوها بحواسِّهم شهوداً مباشراً، إذْ لم تقع بَعْدُ.

والْعِلْمُ بشيء منها عِلْمٌ منْ أَنْبَاءِ الغيب إذا أَعْلَمَ اللَّه بِهِ، إذْ هِي من عِلْم الله الّذي أَحَاطَ بكلّ شيء علْماً.

وبَعْضُ ما هو غيبٌ عن بعْضِ الحواسْ الكَلِيلَةِ الضعيفة، قد يَصِيرُ مشْهُوداً بوسائل كاشفة، كمَعْرِفَةِ مَا في أرْحَامِ النساء، الذي توصَّلَ عُلَمَاء الصّناعات، والأجْهِزَةِ الألكترونيَّة، إلى اكتشاف وسائلَ، وتصْنيعِ أجْهِزَةٍ تكْشِفُ ما في أرْحَامِهِنّ من حَمْلٍ، وتكشف نوْعَ هٰذا الحمْلِ ذكراً كان أم أنثى، وتقدّم الأَجِنَّةَ للمشاهَدَة بالأبْصَار، فصار ما نُدْرِكُهُ منها بهٰذِه الأجْهِزَةِ

من عالَم الشهادة إذا رأيناه، ويَبْقَىٰ ما لا نُدْرِكُهُ منها ضِمْن أُمُور الغيب.

والشيءُ الواحد قد يكونُ غيباً بالنسْبَة إلى مَنْ لَمْ يُدْرِكْهُ بإحْدىٰ حَوَاسِّه إدْراكاً مباشراً، وقد يكون مشهوداً بالنسْبَةِ إلى مَنْ أَدْرَكه.

إنّ معظم ما في أجْسَادِنا وَمَا في الجبال وما في باطِنِ الأَرْض، وما في السّماء، وكُلّ ما هو بعيد عَنْ مجال إدْراكنا الحسّيّ المباشر، ولو كَانَ من الممكن أنْ نُدْرِكه بحواسّنا، أو بإحداها، هو غيْبٌ عنّا حتى نُدْرِكه، فإذا أَدْرَكْنَاهُ بِبَعْضِ حواسّنا إدْراكاً مُبَاشراً صار بالنّسْبَةِ إلَيْنَا أَمْراً مشهوداً، ويَبْقَىٰ بالنسْبَةِ إلَى مَنْ لم يُدْرِكْهُ إدْراكاً مباشراً بإحْدىٰ حواسّه أمْراً مِنْ أمُورِ الغيب عنه.

وكانت الجراثيم بالنسبة إلى أبْصَارِ النّاسِ أشياء من عالم الغيب، ولمّا وُجِدَتِ المجاهرُ الّتي تُكَبِّرُ الأشياء آلافَ المرّات من أحجامِها الحقيقيّة، صارت من الأشياء الّتي يُمْكِنُ رُؤيَتُها بالأبصار بوساطَةِ المجاهر، فمن رآها بمِجْهر منها فقد أَدْرَكَ ببَصَرِه مَخْلُوقاتٍ حيَّةً، هي من عالم الغيب بالنسبة إلى أبصار النّاس العاديَّةِ دُون استخدام المجاهر.

وقد يكون الشّيْءُ من أُمُورِ الْغَيْب عن حواسِّنا، لكنَّنَا نُدْرِكُ وُجُودَهُ وَوُجُودَ بعْضِ صفاتِهِ ببَرَاهِينَ عَقْلِيَّةٍ، والإدْراكُ بالْبُرْهَان الْعَقْلِيّ لاَ يَنْقُل الشيءَ مِنْ عالَم الْغَيبِ إلى عالَمَ الشهادة، لكِنْ يجْعَلُه معلوماً بَعْدَ أن كان غَيْرُ مَعْلُوم.

إنَّنَا نُدْرِكُ بعُقُولنا وفْقَ ما تُلْزِمُنَا بِهِ البراهين القواطع، وُجُود الرَّبّ الخالِقِ ـ جلّ جلالُه وعَظُمَ سلطانُه ـ ونُدْرِكُ طائفةً من صفاته، ونُؤْمِنُ إيماناً رَاسِخاً بما أَدْرَكْنَاهُ، وهذا من الإيمان بالغيب، لأنَّ هذا الإدْراكَ قد أكْسَبَنَا عِلْماً، لكِنَّهُ لم يَكُنْ إدْراكاً بالحسّ المباشر، فهو من العلم بالغيب، والإيمانِ بالغيب، بالنسْبَةِ إلى حواسّنا.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ ابْتِلاءٍ لِلنَّاسِ في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، هو ابتلاؤهم بقضايا الإيمان بالغيب، الَّتي تَدُلُّ عليها دَلائل الفطرة، من العقول، ومنْ مشَاعِرِ الْقُلُوب والنُّفوسِ، وتُنَبِّهُ عليها الآيات الرَّبَّانيّة الكونية، والآيات البيانية المنزلَة.

ونُطَالِعُ في النُّصوص القرآنيَّة، فنجدُ أنَّ كلمةَ «الغيب» قد أُطْلقَتْ على أحداثٍ ووَقائع جرَتْ في تاريخ الإنْسِ أو الجنّ أو الملائكة، وقَدْ كانت من الأمور المشهودة لِمَنْ شَهِدَها منهم، لكنَّها بَعْدَ انْتِهائها ومُرُور الزَّمن عليها صارَتْ من أُمُور الْغَيْبَ، وصار الإِخْبَارُ عنها إخباراً عن مغيَّبات.

ومن هذه النصوص ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) مخبراً عن أنْبَاءٍ مُتَعَدِّدَةٍ عن امْرأة عِمْران، ومَرْيَمَ، وزكريَّا، عليهم السَّلام، ومُبَيّناً في أثناء الحديث عَنْهُمْ أنّ هذه الأنباء هي من أنْباءِ الغيب:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ . . . ﴿٤٤﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) يَعْرِضُ طائفةً مِنْ قِصَّةِ نُوح عليه السَّلام وقَوْمِه:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

(٣) وقَصَّ الله عزّ وجلّ قصَّةَ يُوسُفَ الَّتي كانَتْ أحْداثُها أُمُوراً مَشْهُودَةً لِمَنْ شَهِدَها في زَمَانِ حُدُوثِها، وقال تَعالَىٰ بعد أنْ عَرَضَها بإِبْدَاعٍ رَائعٍ في سورة (يوسُفَ/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ويُوجَدُ قِسْمٌ عظيمٌ من عالَم الْغَيْب اختصَّ الله عزّ وجلّ به نَفْسه، ومنْهُ طائفةٌ من تراتيب قضائه وقَدَرِه، لأحْدَاثِ المستقبل.

وإنَّ الغيْبَ الّذي انفرد الله عزّ وجلّ بالْعِلْم به، فأضافَهُ إلى نَفْسِه، بقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ هُوَ غيبٌ قَضَتْ حكْمَتَهُ جلَّ جلالُهُ، أنْ لا يُطْلِعَ عَلَيْه أحداً من خَلْقِهِ إلاّ من ارْتَضَىٰ من رسُولٍ قضَتْ حكْمَتُهُ بأنْ يُكلّفَهُ القيامَ برِسَالَةٍ ما حوله.

ومن غَيْبِه جلَّ جلالُهُ مَقَادِيرُ إهلاكِ قَوْمٍ ما، أو مقاديرُ نَصْرِ قَوْمٍ ما، ومَوَاقِيتُ تنفيذِ ما وَعَدَ من خَيْرٍ أو شر بحسَبِ حكمته.

ويُوجَدُ غَيْبٌ لـم يُطْلِعِ اللَّهُ عزّ وجلّ عليه أحداً، مثل وقْت قيام السَّاعَةِ، فهي لاَ تأتِي إلاّ بغتَةً.

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾: أي: فلا يُطْلِعُ عليه. يُقَالَ لغة: أظْهَرَ فلاناً على السِّرّ، أي: أَطْلَعَهُ عليه.

﴿أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾: أي: إلاّ مَنْ رَضِيَهُ باختيارٍ حَكِيم فَجَعَلَهُ رَسُولاً، لأداءِ رسالَةٍ ما تَتَعَلَّقُ بالغيب الّذي أظْهَرَهُ عَلَيْه.

وسُنّةُ الله المعروفة لنا أن يكون هؤلاء الرُّسُلُ من الملائكة ذوي المكانة فيهم، وقد يكونُ من غيرهم لعموم اللفظِ في النص. وهو يَدلُّ أيضاً على أن الله عالم الغيب على اختلاف تنوُّعِ الغيوب بالنسبة إلى الخلائق.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

دلَّ هذا النصّ على أنَّ مَنْ يختارُهُ الله مِنْ رُسُلِهِ، فَيُطْلِعُهُ علىٰ بعْضِ «غَيْبِهِ» الّذِي اختصَّ نَفْسَه به، يُتَابِعُهُ جلَّ جلالُهُ بِرُقَبَاءَ يَرْصُدُونَ كُلَّ حركةٍ من حركاته، للتَّحقُّقِ من أَنَّهُ أبْلغَ رسالَةَ رَبِّه على الوجه المطلُوب منْهُ، دون زيادةٍ ولا نقصانٍ، ولاَ تحريفٍ ولا تَبْدِيلٍ وَلاَ خِيَانَةٍ للأمانة.

﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾:

﴿يَسْلُكُ﴾: أي: يُدْخِلُ، يُقَالُ لغةً: سَلَكَ فُلاَنٌ فُلاناً المكانَ، أي أَدْخَلَهُ إيَّاه، والفاعلُ لِفِعْل: **[يَسْلُكُ]** هو الله جلَّ جلاله.

﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ ﴾: أي: من أَمَامِهِ وَمِنْ وَرَاءِ ظَهْرِه.

﴿رَصَدًا ﴾ مَفْعُول به. **والرَّصَدُ:** هو الرَّقيب المتابع، وهو لفظ يَسْتَوِي فيه الواحد وغيره، والمذكَّر وغَيْرُه.

وفِعْل: ﴿يَسْلُكُ﴾ يَدُلُّ على أنّ راصدِي الرَّسُولِ المرتضىٰ لإطلاعه على بعضِ الغيب المختص بالله عزّ وجلّ، يدْخُلونَ من مداخلٍ لا يَراها الرَّسُولُ المراقَبُ، وهؤلاء الرَّاصِدُون المراقِبُون يَكُونُونَ من أَمَامِهِ، ومن خلفه كما قال تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فهم يَرْصُدُون حركاتهم، وأعمالَهُم، وأقوالهم، وسائر تصرّفاتهم، ويسجّلونها لديهم، ليبلّغُوهَا رَبّهم، وهُوَ العليم بها.

- ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾:

أي: إنَّ مَنْ يُطْلِعُهُمُ اللَّهُ عزّ وجلَّ من الرُّسل من الملائكةِ على غَيْبِه، الَّذِي اختصَّ بِهِ نَفْسَه من سَائِرِ الْغُيُوبِ الَّتِي وَزَّعَ الاطِّلاعَ عَلَيْهَا بيْنَ خَلْقِه، يجعل من بين أيديهم ومن خَلْفِهم رَصَداً، لِيُسَجِّلَ هؤلاء الرَّصَدُ عليهم كلّ تَصَرُّف يقومون به، وليقدِّموا ما سجَّلُوه لله، لِيَعلَمَهُ عن طريق شهادتهم، مع أنه سبحانه عليم به مباشرة.

قرأ جمهور القرّاء العشرة ﴿لِّيَعْلَمَ ﴾ بالبناء للمعلوم، والفاعل ضمير

يعود على: ﴿رَبِّي﴾. وقرأ رُوَيْسٌ عن يعقوب: [لِيُعْلَمَ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، وبين القراءتين تكامل فكريٌّ، أي: لِيَعْلَمَ الله، ولِيُعْلَمَ مِنْ قِبَلِ المختَّصِّين بهذا العلم من أهل الملأ الأعلى.

وهٰذه العبارَةُ جاءت بمثابَةِ جواب لسؤال يُقَالُ فِيه: لِمَ هؤلاء الراصِدُون من الملائكة؟ والجواب:

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

وقد يقول قائل: أَلَيْسَ الله عزّ وجلّ عليماً بكلّ حَرَكاتهم وسكنَاتِهم، ومحيطاً بكلّ شيءٍ علِماً، فلا تخفىٰ عَلَيْهِ خافِية.

والجواب: بلى، وهذا ما دَلَّ عليه البيان في النّص، على سبيل الاستِدْراكِ لدَفْعِ تَوَهُّمِ حَاجَةِ اللّهِ سبحانه وتعالى إلى تحصيل هذا العلم عن طريق الرَّاصِدِين، وهو قول الله تعالى فيه:

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

الإحاطَة بالْعِلم بالشّيء، هي العِلْمُ المسْتَغرِقُ كُلَّ صَغِيرَةٍ وكبيرة.

فهو جلَّ جلالُهُ مُحِيطٌ عِلماً بكُلِّ ما لَدَيهم من عَمَلٍ، وقَوْلٍ، وخاطراتٍ، وأحاديث نفس، ودِقَّةٍ في التَّنفيذِ، أو خِلاَفِ ذلِكَ، فَلاَ يَعْزُبُ عن عِلْمِه سبحانه مثقالُ ذَرَّةٍ في كُلّ الأكْوان، ولا أصْغَرُ من ذلِكَ ولاَ أكبر، مع كلّ زَمَنٍ حتَّىٰ أصْغَرِ أجزاءِ الثانية.

وعبارة: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ تَشمَلُ أَيْضاً إحاطَتَهُ به، بقُدْرَتِه وسَائِرِ صِفَاتِه ذَاتِ الهيمنَةِ على أكْوانِهِ، والتَّصْريفِ فيها علىٰ ما يَشَاءُ.

وقد يقول قائل: بما أنَّ اللَّهَ ـ جلَّ جَلاَلهُ وعَظُمَتْ حِكْمَتُه ـ مُحِيطٌ بكلّ أجزاء كلّ شيءٍ، هٰذِهِ الإحَاطَةَ الشاملة، فما الحكمةُ مِنْ أن يَسْلُكَ رَصداً من بَيْنِ أَيْدِي الّذِينَ يَرْتَضيهم من رُسُلِهِ لإطلاعهم على بعض غيبه،

ومن خَلْفِهِمْ، ليَعْلَمَ أنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ ربّهم؟!!!

أقول:

إنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أقامَ الكون كُلَّهُ ما هُوَ غَيْرُ منظورٌ مِنْهُ لبعض خَلْقِه، ومَا هُوَ منظور، وفْقَ نظام الأسباب والمسَبَّبات، وهو سبحانه يُجْرِي مقاديرَهُ من داخِلِ قنوات الأسباب، ويَرْبط النّتائجَ والمحاسبات، والأحكامَ، والأقضية، والجزاءاتِ، وفق ما تُقَدِّمُهُ الأسباب والمسببات من بيانات عن الواقع، فهو سبحانه يحاسِبُ ويَحْكُمُ ويُجَازِي بناءً على ما تُثْبِتُهُ الأدلّة السببيَّةُ من عِلْم، ولا يَبْنِي على عِلْمِهِ الخاصّ المحيط بكلّ شيءٍ، ليُعْطِي الْوُلاَةَ، والْقُضَاةَ، والْحُكّامَ، من عباده أسْوَةً منْ نفسه جلّ جلالُه، حتَّىٰ لاَ يَحْكُمُوا على العباد من خلال عِلْمِهِمُ الخاصّ، بمَنْ يحكُمونَ لَهُ أو علَيْه.

وسُنَنُ الله عزّ وجلّ في كونِه سُنَنٌ ثابتَةٌ ذَاتُ شُمُولٍ عامّ، وكَوْنُ الملائكَةِ معْصُومين، لا يَعْصُونَ الله ما أمَرَهُمْ ويَفْعَلُون مَا يُؤْمَرُون، وكَوْنُ المختارينَ منْهُمْ للقيام برسالاتِه، هُمْ أكْثَرُ عِصْمَةً عن المعاصي، لا يتنافىٰ مع إجراء الأنظمة السَّبَبِيَّة، التي جعلَها الله عزّ وجلّ من سُنَنِه الثابتة.

وقد تَدُلُّ إحاطَتُهم بالرَّاصِدِين لهم، المراقبين لأعمالهم، على احْتِمال تَعَرُّض الملائكة المختارين للخطَأ، أو السَّهْوِ، دُونَ قَصْدٍ مِنهم، وهذا لا يُسَمَّىٰ معصيةً ولا مخالفةً لأوامر الله، فتكونُ وَظيفةُ الرّصَدِ لَفْتَ النَّظَر للخطَأ غير المقصود، أو للسَّهْوِ الذي لم يأْتِ عن تهاون.

وقد يَدُلُّ أيضاً على احتمال تَتَبُّعِ الجنّ لهم وهم في الأرض لاستراقِ السَّمْع منهم، أوْ لِعَرْقَلَةِ بعض أعمالِهم، ولا سيما إذا كانوا من الشياطين، فتكون وظيفةُ الرَّصدِ طَرْدَ هؤلاءِ عَنهم، أو تَنْبِيهَهُمْ عليهم، حتَّىٰ يُؤدُّوا رسالاتِ رَبّهم كاملةً، وبغايَةِ الدِّقّة، دون تفريطٍ و وَلاَ غُلُوٍّ في صغير ولا كبير.

والله أعْلَمُ بمراده.

تتمة حول بعض مفهومات عن الغيب في القرآن المجيد:

بقي علينَا أن نستكْمِل بعض المفهومات القرآنيّة المتعلّقةِ بالغيب، وهي تدخلُ بوجْهٍ عامّ تحت عنوان لفظ «الغيب».

أوّلاً:

جاء في القرآن الكريم أنَّ الغيبَ كُلَّهُ لا يَعْلَمُه إلاّ الله، فَشُمُول علم الله للغيب كُلّه صفة خاصّةٌ به جلّ جلاله، لاَ يشاركُه فيها أحَدٌ. وممّا دلّ على هذه الحقيقة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: وَمَا يَعْلَمُ كُلُّ مَنْ في السّماواتِ والأَرْض المؤهّلِينَ لأنْ يَعْلَمُوا، من الملائكة والجنّ والإنس، كُلَّ الغيب، بَلْ يَعْلَمونَ من الغيب بعْضَهُ مُوزَّعاً بينهم.

إنّما يعلَمُ الْغَيْبَ كُلَّهُ اللَّهُ وحْدَهُ لاَ شريكِ له.

«ال» في ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ لاستغراق كلّ أفراد الغيوب، دلَّ على هذا الاستغراق، أن الملائكة يَعْلَمُون أشياء هي غيبٌ عن الإنس والجنّ، وأنّ الجنّ يَعْلَمُونَ أشيَاء هي غيبٌ عن الإنس، وأنّ بعض الإنس يعْلَمُون أشياء هي غيبٌ عن غيرهم من الإنس.

فالمراد إذن من الغيب اسْتغراق كُلّ أفراد الغيوب.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ... ﴿١٢٣﴾﴾.

أي: ولِلّهِ وحْدَهُ عِلْمُ كُلّ غَيْبِ السَّمَاوات والأرض، لاَ يُشاركُهُ في هذا الشمول العلْمِيّ أحد.

ثانياً:

وجاء في القرآن بيانُ أنَّ مَفَاتِحَ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاّ الله جلّ جلالُه وعَظُمَ سلطانُه.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾: المِفتَاح، والمِفْتَحُ: آلَةٌ يُفْتَحُ بها، وجَمْعُهَا: «مَفَاتِح ومَفَاتِيح».

أي: لا يَعْلَمُ مَا يُتَوَصَّلُ بهِ إلىٰ عِلْمِ كُلّ مَا فِي الْغَيْبِ إلاّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له بِعِلْمِ هذه المفاتيح، أمَّا بَعْضُ ما هو غَيْبٌ فقد يُطْلِعُ الله عزّ وجَلّ عليه خَلْقَهُ، على التوزيع فيما بينهم، دون أَنْ يَشْمَلَ ذَلِكَ كُلَّ الغيوب، على ما سَبَقَ بيانُهُ مُفَصَّلاً، لدَى تَدَبُّر قول الله تعالى في سورة (الجنّ):

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ . . .﴾.

ومن شُمُول عِلْمِهِ جَلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ بذكر بعْض التفصيلات، أَنَّهُ يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ في البرِّ، وإِنْ دَقَّ وصَغُر، ويَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ في الْبَحْرِ، وَإِنْ دَقَّ وصَغُرَ، ويَعْلَمُ كُلَّ حَدَثٍ وَتَغيُّرٍ يَجْري في الوجود كُلّه، ومِنْهُ سقُوطُ كلّ ورقةٍ من أوراق الأشجار في زمَانها ومكانها، ومنه أحداثُ كلّ حبَّةٍ مهمَا دقَّتْ وصَغُرت ولو كانت في ظُلُماتِ الأرض ظاهرها أو باطنها، ومنه أحداثُ كُلّ شيءٍ، رَطْباً كان أمْ يابِساً، وهذا تعميمٌ بَعْدَ تخصيص.

وبالإضافة إلى علم الله الشامل لكلّ شيء فإنّ عِلْمَه ـ جلّ جلاله ـ مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبِينٍ جَلِيٍّ واضح، والعبارة على تقدير: ولا أحْداثُ وتغيراتُ كلِّ حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرض ولا أحداثُ كلِّ رَطْبٍ ولا أحداث كلّ يابسٍ إلاّ مُدونَةٌ في كتاب مبين.

ثالثاً:

وجاء في القرآن بيانُ أنّ الله عنْدَهُ وحْدَهُ علْمُ السّاعَة، فلَمْ يُطْلِعْ عليه أحداً، وأثبت سُبْحَانه لِنَفْسِهِ أنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ ما في الأرحام، دُونَ أن يَرِدَ في النصِّ القُرْآنيّ قَصْرُ عِلْم ما في الأرحام عَلَيْهِ جلَّ جلالُهُ، بصِيَغَةٍ من صِيَغِ القَصْر في العَرَبيَّة.

فقال الله عزّ وجلَّ في سُورَة (لُقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

قَصْرُ علْم السَّاعَةِ على اللّهِ جلَّ جلالُه اسْتُفِيدَ هُنَا في هٰذِه الآيَة مِنْ تقديم المسْنَدِ ﴿عِندَهُۥ﴾ على المسْنَدِ إليه ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ والترتيب الأصليّ في الجملة الاسمية تقديم المبتَدأ «وهو المسند إليه» على الخبر «وهو المسند». وهٰذه الجملة خَبَرُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

أمّا عبارةُ: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ وعبارَةُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ وعبارة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فلا حَصْرَ ولاَ قَصْرَ في شَيْءٍ مِنْها.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ قَصْرَ عِلْمِ السَّاعَةِ على الله جلّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه قد جاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ قطعِيَّةِ الدلالة، ولا تَحْتَمِلُ التَّأْويل، ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لرسُوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وقَدْ سبَق تَدبُّر هذه الآية لدى تدبُّر سورة (الأعراف).

وبهذا تَمّ تَدبُّر سورة (الجنّ).

والحمد لله على توفيقه وفتحه وإمداده بالمعونة والتيسير.

* * *

ملاحق لتدبُّر سورة (الجنّ)

الملحق الأول: نظرة إجمالية عامة إلى وحْدَةِ مَوضوعِ سُورة الجنّ.

الملحق الثاني: مُسْتَخْرَجات بلاغية من السّورة.

الملحق الثالث: الابتلَاء والفتْنةُ في نُصُوص القرآن المجيد.

(٨)

الملحق الأوّل

نظرة إجماليّةٌ عامّة إلى وحْدَةِ مَوْضُوعِ سورَة الجنّ

سبق لدى تدبُّر السورة أنّها تشتمل على ثلاثة دروس:

الدرس الأول: يتضمّن عرض قصّة النفر من الجنّ الّذين استمعوا قَدْراً مَا منَ القرآن من تلاوة الرّسُول ﷺ له، وذهبوا إلى جماعاتهم دُعَاةً إلى الإسلام بيْنهم، دون أن يكون الرسول على علْم بهم، ولا بحضورهم، وبما كان من أمْرِهم، حتّى أَوْحَىٰ اللَّهُ إلَيْه بذلك في هذا الدَّرْس.

الدرس الثاني: يتضمّن بعض القضايا الدينية التكميليَّةِ من الله عزّ وجلّ لمقالأتِ الجنّ، ومعطوفةً عليها، للإشعار بتصديقِ أقوالِ هؤلاء النفر من الجنّ، في كلّ ما حكىٰ اللَّهُ عنهم، وهي تَتَضَمَّنُ تمهيداً للدُّخولِ في قضايا الدَّرْس الثالث.

الدرس الثالث: يتضَمَّنُ دَرْساً تَعْلِيميًا من اللَّهِ عزَّ وجلّ لرَسُوله ﷺ، يُعَالج بمقتضاه مَواقِفَ المشركين منه، ومن الّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، في الطَّوْر الذي وصَلُوا إلَيْه إبَّان نُزُول سُورَةِ (الجنّ) وقُبَيْلَه.

وجاء في هذا الدّرْسِ عِلاجٌ من الله عزّ وجلّ للمؤمنين الواقعين تحت الاضطهاد، بأنّ عَاقِبَةَ الأمْر ستكُونُ لهم، وأنّ الله سينْصُرهم، وسَيَخْذُلُ مضطّهديهم، مع ما في هذا منْ تَعْريضٍ وتَلْويح للمضطهدين بسُوءِ العاقبة الّتي سَتَكُون لهم في المستقبل غير البعيد.

وسَبقَ لدى تدبُّر السُّورة اكتشافُ تَرابُطِ وتَعانُقِ آياتِها وقضايَاها، وتَسَلْسُلِهَا في وحْدَةِ مَوْضوعٍ، من ثلاثة دروسٍ مطابقَةٍ للطَّوْرِ الّذي كان قَدْ وَصَلَ إليه المشركون وهم في شِقّ، والمسْلِمون وهم في شقٍّ مقابلٍ مضادٌّ، خلالَ المرحلَةِ الّتي نزلَتْ فيها السورة.

وهو الزّمن الذي بدأَتْ فيه دعوة الإسلام تنتَشِرُ في جماعَاتٍ من الجنّ.

- بدأت السُّورة بتكليفِ الرَّسُول ﷺ أنْ يقول: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وأن يَحْكِي مقالاَتِهم داعِين إلى الإسلام بين جماعاتِهم كما أنزلها الله عليه، وقد فهمنا أنَّهم كانوا دُعاةً بين قومهم، من إيحاءات الترابط الفِكْري بين مقالاتهم.
- كان أسْلُوبُهم في بدْء دَعْوتِهِمْ إلى الإسلام بين قومهم من الجنّ، يتضمَّن إنباءهم بالحدَث الجديد الّذي اكْتَشَفُوه في عالَم الإنس، وأنَّهم سَمِعُوا قرآناً عَجَباً مُعْجزاً يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمنوا به، وتخلَّصوا من الشِّرْكِ الذي كانُوا يعْتَقِدونه، ولَنْ يَعُودُوا إليه، وأبْعَدُوا عَنْ تَصَورَّاتِهم خُرَافَةَ أَنْ يَتَّخِذَ اللَّهُ صاحِبَةً أَوْ وَلداً، كما يَظُنُّ النصارىٰ.
- وبَعْدَ هذا الإعلان الابتدائي أخَذُوا يُبَيِّنُون بَيْن قومهم ما كانوا عليه قبل إيمانهم بالقرآن، واتّباعهم الرسول محمّداً ﷺ مُسْلِمين.

فذكَرُوا مَنْشَأ الضّلالِ الّذِي ضَلُّوا بِهِ، وضلَّ به جماعاتٌ كثيراتٌ منَ الجنّ، وهُو ما كان ينْشُرُهُ بينَهُمْ سَفِيهُهُم الأكْبَرُ إبليس، وسُفُهاء الجنّ من ورائه من ضلالاَت.

وأنَّ تأثُرَهُمْ به كانَ بسَبَب اعْتِمَادِهم على الظَّنّ الباطل، الذي جعلَهُم يُصَدِّقُونَ الكاذِبينَ من الإنسِ والجنّ، مُتَوَهِّمِينِ أنَّ الإنْسَ والْجنّ لَنْ يَقُولُوا على اللَّهِ كذباً.

- وعرضوا من أحْدَاثِ ضَلاَلاَتِ الإنسِ أَنَّ رِجَالاً مِنْهُم كَانُوا يَعُوذُونَ برِجالٍ من الجنّ الَّذِينَ كانُوا لاَ يَنْفعُونهم، بَلْ يَزِيدُونَهم أثقالاً مُرْهِقَةً ومَتَاعب.

وعَرَضوا أيضاً من ضلالاتِ الإنسِ المماثِلَةِ لضلالات الجنّ، إنكارَهُمْ البعْثَ للحسابِ وفَصْلِ القضاء وتحقيقِ الجزاء يوم الدين، اعتماداً علىٰ الظَّنّ التوهُّمِيّ الباطل.

- وبَعْدَ هذا العَرْضِ انْتَقَلُوا إلى بَيَانِ سَبَبِ تَحَوُّلِهِم وبَحْثِهِمْ عن الحقيقة.

فذكَرُوا أنَّهُمْ صَعَدُوا إلى السَّمَاءِ كَعَادَتِهم، إذْ هم من الجنّ الطَّيّارين، ليَسْتَرِقوا السَّمْعَ من الملائكة، فلَمَّا لَمَسُوا السَّماءَ، وَجَدُوها قَدْ مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وشُهَباً، وأنَّها صارت مَحْرُوسةَ كلِّ المنافذ والمقاعد.

وأنَّهم أَخَذُوا يُفكّرُونَ في أسْباب هٰذِهِ الظَّاهِرَة الجديدة، أهِيَ لِشَرٍّ وإهْلاَكٍ أُرِيدَ بأَهْل الأرض، أم أراد بهم ربُّهُمْ رَشداً، إذْ مَنَعَ الشَّياطين الَّذِينَ يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ من السَّمَاءِ، لنَقْلِ الأخبار إلى أوليائهم من الإنسِ، حتى يَقْطَعَ دابر الكِهَانَة، الّتي كانَتْ تُضِلُّ كَثِيراً من الناس؟

وأجابُوا على سؤال يمكن طرحُهُ على إيرادهم الاحتمالين على سبيل التكافُؤ، بأنّ الجنَّ فيهم الصالحونَ من الدَّرجَةِ الممتازة، وحَالُ هؤلاءِ لا يَسْتَدْعِي إنزالَ الإهلاك الشامل، وفيهم دُونَ الصَّالِحين حتَّىٰ أخَسّ دركاتِ الكُفْرِ والإجرام، وحال هؤلاء قد يسْتَدْعي الإهلاكَ الشامل.

فتكافأ الاحتمالان في نَظَرِهم.

وعلى تقدير احتمال الإهلاك الشامل، فهَلْ هم قادرون على حماية أنفسهم، في ملاجئ من الأرض، أو حماية أنفسهم بالْهَرَبِ في الآفَاق بعيداً عن الأرض، وهم من الجنّ الطيّارين؟! لكنّهم ظنّوا ظَنّا راجحاً أنَّهُمْ لَنْ يُعجِزُوا اللّهَ في الأرض، ولَنْ يُعجِزُوهُ هَرَباً في اتّجاه السَّماء.

● وبَعْدَ أَنْ أَتَمُّوا وصْفَ حالهم الّتي كانوا عليها، قبْلَ أن يَسْمَعُوا القرآن ويُؤْمِنُوا بهُدَاه، لا بُدَّ أن نُدرِك أَنَّهُم مَلَكُوا لَدَى فَرِيقٍ من الَّذِين يَنْشُرُونَ دَعْوَةَ الإسلام بينَهُم إمكانيَّةَ التأثير فيهم.

عندئذٍ أَبَانُوا أنَّ هذا الّذي عَرَضُوهُ قد كَوَّنَ لَدَيْهم قَنَاعَةً كافِيَةً بضَرُورَةِ الإيمان بمحمّد ﷺ، وبما جاء به، فآمَنُوا، وقالُوا:

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾.

وهُنَا نُدْرِكُ أَنَّ فَرِيقاً من الجنّ استجابوا لِدَعْوَةِ هؤلاَء النَّفر، تأَثُّراً بأقوالهم الصادقة، فأسْلَمُوا واتَّبَعُوا الهُدَىٰ، وأنَّ فريقاً آخَرِينَ أَبَوْا أَنْ يَسْتَجِيبوا، كَشَأْن كلِّ ذوي الإراداتِ الْحُرَّة، فكان من حالِ هؤلاء الّذينَ أبُوا أَنَّهُمْ جارُوا وَعَدَلُوا عن السَّبِيلِ الحقِّ، مُتَّبِعِينَ أهواءَهم، ومُلْتَزِمِين ضلالاتهم.

ثُمَّ نُدرِك أنَّ هؤلاء النَّفَر من الجنّ، تابَعُوا دَعْوَتَهُمْ بين قومهم بَعْدَ ما انضَمَّ إليهم الّذين استجابوا لهم، وآمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنُوا به، وأسْلَمُوا للّهِ رَبِّ العَالَمِين.

فأضافُوا إلى مقالاتِهِمُ السَّابقاتِ مقالَةً جَدِيدَة، حَكَاهَا اللّهُ عزَّ وجلَّ عنْهُمْ بقوله:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

وبهذا انتهىٰ الدرس الأوّل من دُروس السورة.

وهُنَا دخَلَ الدرس الثاني من كلام اللّهِ بياناً، لا على سبيل الحكاية لمَقَالاَتِ النّفر من الجنّ، وجاءت قضاياه معطوفة بحرف العطف (الواو)

على مقالات الجنّ، للإشعار ضِمْناً بتَصْدِيق الجنّ في مقالاتهم، ولإِضَافَةِ بيَانِ قضايا من الدِّين تُعْتَبَرُ في المرحَلَة الّتي نزلت فيها سورة (الجنّ) ذاتَ شأن، فقال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾﴾.

وأَضَافَ إلى هٰذِهِ القضايَا قضِيَّةً مُمَهِّدَةً للدُّخُولِ فِي الدرسِ الثالث من دُروس السورة، فقالَ اللّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾﴾.

أي: كادَ كبراء مُشْرِكي مكَّةَ يجْتَمِعُون ضدَّهُ لِحَرْبِهِ، ومُقَاوَمَةِ دعْوَتِه، واضطهاد الّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، اجْتِمَاعاً مُتَرَاصًا مُتَلَبِّداً كاللُّبُود الّتِي يُضْغَطُ فيها الصُّوفُ بَعْضُهُ على بَعْض، أو كالشَّعرِ المتراكب بعْضه على بعض كلِبْدَةِ الأسَد.

وبهذا فُتِحَ البابُ للدُّخول إلى الدَّرْسِ الثالث، الّذِي يُعَلِّمُ اللّهُ فيه رَسُولَهُ كيْفَ يُعَالِج المشركين ببيَانَاته، في تِلْكَ المرحَلَةِ الّتي بدَؤوا فيها يتجمَّعُونَ ضِدَّه، وضدَّ الّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، تَجَمُّعاً تكتُّلِيًا يُشْعِرُ بالإِعْدَادِ لِمُحَارَبَتِهِم لَهُ ولمَنْ آمَنَ بِه حَرْباً عسْكَرِيَّةً مُسَلَّحة.

إنَّهم لم يَبْلُغُوا بَعْدُ إلى هذا الاجتماعِ المكثّف ضِدَّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِه، لكنَّهُمْ كادُوا يبلُغُون ذلك، وهذا من دقَّةِ الأداء في التعبير لمطابقة الواقع، وعَدَمِ اللُّجُوء إلى المغالاَتِ في البيان.

إنّ مُحَاولاَتِ تجمُّعِهم ضِدَّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِه، قد كانت من أجْلِ صَرْفِه عنها، وجَعْلِهِ يَكُفُّ عمَّا هُو فيه من تَبْلِيغ رِسَالاَتِ رَبِّه، وإقْنَاع الناسِ بما جاءهم به عنه تبارك وتعالى.

ولا بُدَّ أن يكونُوا قَدْ أَمَرُوهُ بأَنْ يَكُفَّ عَنْ تبليغ رسالاَتِ رَبّه، تَخَوُّفاً مِنْهُمْ أَنْ تتحوَّلَ السِّيادَةُ والرِّيَاسَةُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ والّذِين آمَنُوا بِه واتَّبَعُوهُ، ويُؤَيِّدُ هذا ما ذَكَرَهُ كُتَّابُ السِّيرَةِ النَّبويَّةِ وَرُواتُها.

لكِنْ كانَ هذا منهُمْ تَدَخُّلاً في أعْظَمِ قضِيَّةٍ دِينِيَّةٍ لاَ يملِكُون منْها شيئاً، وهي في الحقيقة مشَارَكَةٌ للَّهِ عزّ وجلَّ في رُبُوبيّتِهِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الدَّاعِيَ إلى سَبِيلِ رَبِّهِ إنَّما يَعْبُد الله في دَعْوَتِه، فإذَا أَطَاعَ الْكَافِرِينَ في تَرْكِ هٰذِهِ العبادة، فَقَدْ رَضِيَ بأَنْ يَجْعَلَهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ في رُبُوبيّتِه.

والجوابُ المناسِبُ لتَدَخُّلِهِمْ في خَصَائِصِ رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ جلَّ جلاَلُهُ أَنْ يَقُول لهم، كَمَا جاء في تعليم اللَّهِ لِرَسُوله:

﴿. . إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾:

أي: لا أعْبُدُ في دَعْوَتي إلى سَبِيلِ رَبِّي إلاَّ رَبِّي وحْدَهُ، ولاَ أُشْرِك بعِبَادَتي لَهُ أحداً، وإنِّي لَسْتُ أَعْبُدُكُمْ، ولسْتُ أَعْبُدُ آلِهَتَكُمُ الباطِلَة، ولسْتُ أجْعَلُ أحَداً شَرِيكاً لِرَبِّي، حتَّىٰ أُطِيعَهُ في أمْرٍ أعْصِي فيه أَمْرَ رَبِّي.

وهُنَا يَقُولُ لِسَانُ حَالِهِمْ له: إذَنْ فأَنْتَ تُهَيِّئُ أَسْبَابَكَ ووسائِلَك لمحارَبَتِنا، وانْتِزَاعِ سُلْطَتِنا مِنَّا، وإِكْرَاهِنا على اتّباعِكَ واتّبَاعِ الدِّين الذي جئْتَنا به.

فاقْتضىٰ هذا الأمْرُ أَنْ يقولَ لَهُمْ كما جاء في تعْلِيم الله لرسوله:

﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾:

أيْ: إني لاَ أمْلِكُ وسائل مادّيَّةً أَضُرُّكُمْ بها، حتَّىٰ أُوقِفَ إيذاءَكُم لي، وعُدْوانَكُم علَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني.

وإنّي لاَ أَمْلِكُ أيْضاً وَسَائِلَ إكْرَاهٍ وجَبْرٍ حَتَّى تَقبَلُوا ديني الذي أدعوكم إليه، فاللَّهُ عزّ وجلّ لَمْ يأذَنْ لأحَدٍ من رُسُلِهِ بذلك، إذِ الدِّينُ لا إكراهَ فيه،

ولاَ يُمْكِنُ أن يكُونَ جَبْراً، فالابْتِلاء الصَّحِيحُ لا بُدَّ أَنْ يكُونَ مَصْحُوباً بِحُرِّيَّةِ الإرادة، وحُرِّيَةِ الاختيار.

وقد اقتضت الحكمةُ في الدَّعْوَةِ توجيهَ هذا البيان، لتهدئة نفوسِ كُبَرَاء المشْركين، المتوجِّسَةِ من تفاقُم توسُّعِ القاعِدَةِ البشريَّة العريضَة، من المستجيبين إلى الإسلام والدُّخولِ فيه، ولطَمْأَنَتِهم بأنَّ الدَّعْوَةَ لا تُعِدُّ لِحَرْبٍ عسْكَرِيَّةٍ مُسَلَّحَةٍ ضِدَّ خُصُومها وأعدائها، ولبيان حقيقةِ أنَّ الدّين لا يكونُ بالجبْرِ، ولا بالإكراه، أمَّا الجبْرُ فيكونُ بسَلْبِ الإرادةَ الحرَّة، وأمَّا الإكْراهُ فَيَكُونُ بالْقَسْرِ والْقَهْرِ مَعَ رَفْضِ الإرادة وَإبائِها، وكلاهُما مَرْفوضانِ في الدّين.

واقتَضَى حالُ المشركين الَّذِينَ أَخَذُوا يتجمَّعُونَ ضِدَّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِه، وضِدَّ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، أَنْ يُبَيِّنَ لهم أنَّهُ يَخْشَىٰ عِقَابَ اللَّهِ عزّ وجلّ، إذَا لم يُؤَدِّ رِسَالاَتِه، ولَمْ يُبَلِّغْ مَا أمَرَهُ اللَّهُ بتَبْلِيغِهِ للنّاس، وأن يُبَيِّن لهم أنَّ عِقَابَ اللَّهِ إذا نزل به، فإِنَّهُ لَنْ يُجيرَهُ مِنْهُ أحَدٌ، وأنَّهُ لا يَجِدُ للتّخلُّصِ منه ملْجأً يلْتَجِئُ إليه، فجاء في التَّعْليم الرَّبَّانيّ:

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

واقترَنَ بهذا التعليم استثناءٌ يُؤكِّدُ مضْمُونَهُ، وهو منْ فَنِّ تأكِيدِ الفِكْرَةِ بما يُوهِمُ في بَدْءِ الكَلاَمِ الاسْتِثْنَاءَ مِنْهَا، فجاء في التعليم:

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ . . . ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذي يمْلِكُهُ لهُمْ ويُنْجِيهِ مِنْ عَذاب اللَّهِ هو أنْ يُتَابعَ تَبْلِيغَ مَا يأمُرُهُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ للنّاسِ، وأنْ يُؤَدِّيَ الرّسَالاَتِ الَّتِي يَأْمُرُهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بأنْ يُوصِلَها للناس.

واقْتَضَىٰ هٰذا الأَمْرُ تَحْمِيلَهُمْ مَسْؤُولِيَّاتِهِمْ تُجاهَ رَبِّهِم، وإنْذارَهُمْ بعِقَاب اللَّهِ، إِذَا عَصَوُا اللَّهَ ورسُولَهُ المبلِّغَ عَنْهُ، فجاء في البيان الرَّبَّانيّ:

﴿. . . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

واسْتَتْبَعَ هذا الإنْذارُ تَنْبِيهَهُم على أَنَّ ما يَشْعُرُونَ بِه الآنَ (أي: في المرحَلَةِ الّتي نَزَلَتْ فيها سُورَةُ الجِنّ) من تَفَوُّقٍ في العَدَدِ وفي القُوَّة الغالبة، فإنَّهُمْ سَيَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ أضْعَفَ قُوَّةً وأقَلَّ عَدداً من المؤمنين المسلمين، إذا جاء وَعْدُ اللّهِ.

وقَدْ جاء البيان مُجْملاً غَيْرَ صَرِيح بأنَّهُ سَيَكُونُ في الدنيا قبْل الآخِرَة، لئَلا يَكُونَ التَّصْرِيحُ بالوَعْدِ الدنيويّ مُحَرِّضاً لهم على المبادَرة باتّخاذ وسَائل الْقَمْعِ الشّديدِ، قَبْلَ أَنْ يَجِدَ المسْلِمُونَ قاعِدَةَ أَرْضٍ يَتمكّنُون فيها، ويَجْمعُونَ فيها جَمْعَهُمْ، ويُعِدُّونَ فيها عُدَّتَهُمُ القتاليّة، فجاء في البيان قَوْلُ اللّهِ عزَّ وجَلَّ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾:

هٰذا البيانُ مُوجَّهٌ للمؤمنين لِطَمْأَنَتِهِمْ وبشارتهم بنَصْرِ اللّهِ بَعْدَ حين، وفيه تعريضٌ وتَلْوِيحٌ بأسْلوب غير مباشرٍ لمضطهِدِين، بأنَّهم سيكونُون أَضْعَفَ ناصراً وأقلَّ عَدَداً، وجاءَ غَيْرَ صَرِيحٍ بأَنَّ هذا الأمْر سيكُونُ في معارِكَ قتاليّة بينهم وبين الرَّسُولِ وأتباعه، ليُمْكِنَ صَرْفُه إلى وَعْدِ الجزاءِ يَوْمَ الدّين، أو إنزال عقاب ربّاني عليهم من السماء، حتّىٰ لا يكُونَ دليلاً على أنّ الخُطَّةَ المدَبَّرَةَ سيكونُ من مَرَاحِلِها محاربتهم في معارك قتالية حربيَّة، يكون فيها انتصار الرسُولِ والمؤمنين معَهُ عليهم.

وقد يَسْبِقُ إلى أَذْهَانِ المشركين أنَّ المرادَ الْوَعْدُ بالعذاب الأخرويّ، أو بكوارث ربّانية دنيويَّة فيسْأَلُون: متى يكُونُ تَحقيقُ هذا الْوَعْد، إنّنا لاَ نُشَاهِدُ لَهُ أثراً؟

وقد يضعُونَ في احْتِمَالِهِمْ أنْ يكون المرادُ بالوعْدِ، انتصارَ المسْلِمين، وهزيمة مضطهدِينَ.

فاقتضىٰ استبطاؤُهُمْ هذا الوعْدَ، واستِهَانَهُم به، حتّىٰ كأنَّهُ وَعْدٌ كاذِبٌ

لاَ يَتحقَّقُ، أَنْ يَأتِي في البيان مَا يُشعِرُ بأنَّ الوَعْدَ سَيَتَحقَّقُ حتماً، فجاء في التعليم:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

وهكذا ظهر لنا تعانُقُ دُروس السّورَة الثلاثة، وترابُطُ آيَاتِها وقضاياها ترابطاً فكريًا بَديعاً.

ولا بُدَّ من التنبيه على أنَّ إظهار الترابط بين دُروس السُّورة القرآنيّة وآياتها يسْتَدْعي تَأَمُّلاً دَقيقاً في مَلْء الفراغات بما تَقْتَضِيه اللّوازم الفكريَّة، ومَا تقتضيه مطويات يُمْكن اسْتِنباطُها مِنْ قِبَلِ أَهْلِ التَّدبُّر المتأنّي، ومَا تقتضيه أسْئلةٌ تُثِيرُها بَعْضُ القضايا، وهي تَسْتَدْعي إجاباتٍ ملائمات.

فَلْيكُفَّ طائفةٌ من المستَشْرِقين المضلِّلينَ، عن إيهاماتهم، إذْ يَنْتَقِدُون القرآنَ الْمَجِيدَ كَذِباً وتَزْييفاً وافتراءً، بأنَّهُ مُفكَّكٌ لاَ ترابُطَ بيْنَ فَقَراتِهِ وآياته.

إنَّ كِتاب اللّهِ لاَ بُدَّ لِحُسْنِ فَهْمِه، من مُتَدَبِّرِينَ مُؤهَّلِينَ لتَدَبُّرِه، صَادقين في اكْتِشَافِ دَلاَلاَته، مُؤْمِنينَ به.

* * *

(٩)

الملحق الثاني
مستخرجات بلاغية من السورة

توجد في سورة (الجنّ) أمثلة بلاغيَّةٌ متَعَدِّدَة، وقد فتح الله عليّ باستخراج الأَمْثلة التالية منها:

أولاً:

من الإيجاز، وهو في اللّغة، اختصار الكلام وتقليلُ ألفاظه مع بلاغته.

وتعريفه في اصطلاح البلاغيين: هو التعبير عن المراد بكلام قَصِير ناقصٍ عن الألفاظ الّتي يُؤَدَّىٰ بها عادةً في متعارف الناس، مع وفائه بالدَّلاَلة على المقصود.

وهو ينقسم إلى إيجازِ القِصَرِ، وإيجاز الحذْف.

ونجد في هذه السورة من الإيجاز الأمثلة التالية:

- **فمن أمثلة إيجاز القِصَرِ**: ما جاء في السُّورة من عرض أقوال النَّفر من الجنّ، بما يُشْبِه ذِكْرَ عُنوانَاتِ الموضوعات الّتي طَرَحُوها بيْنَ قَوْمِهم دُعَاةً إلىٰ دِينِ اللَّه، وكلٌّ واحد من هذه العنوانات قابلٌ للشَّرْح والتَّفْصِيل في مقالات مطوّلات.

وهي (١٧) مقالة.

- **ومن أمثلة إيجاز الحذف ما يلي:**

المثال الأوّل: حذْفُ المفعول به، إذْ يُوجَدُ في الكلام ما يَدُلُّ عليه، وهو إيجاز لا يحْسُنُ الْعُدُول عنه، ونجدُ هذا الإيجاز في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ①﴾:

حُذِفَ المفعول به من عبارة: ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ لدَلالَة ما جاء في العبارة الّتي بعْدَها: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾.

أي: اسْتَمع نَفَرٌ من الجنّ آياتٍ من القرآن فقالُوا: إنَّا سَمِعْنَا قرآناً عَجَباً.

فهذا من الإيجاز بالحذف الذي يوجد في الكلام ما يَدُلُّ عليه، وهو من الإيجاز الّذي لاَ يَحْسُنُ في الكلام البليغ الرفيع العدولُ عنه.

وهو من قبيل الحذف من الأوائل لدَلاَلَةِ الأواخر.

المثال الثاني: ما في الآية التالية من حذف:

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾:

ففي عبارة: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ دلَّ الفِكرُ على المحذوف منها، والتقدير: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا﴾ أنجبَ ولاَ تبنّىٰ ﴿وَلَدًا﴾.

المثال الثالث: ما في عبارة: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴿٢٢﴾﴾ ... أي: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ إنْ أنا عصَيْتُهُ فَلَمْ أقم بتأديَة رسالاته التي اصطفاني لتبليغِها وأمَرني به. والمحذوف في هذه العبارة يدُلُّ عليه التّدبُّر الفِكْري.

المثال الرابع: ما في الآية التالية من حذف:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾:

فالعبارة في هٰذه الآية على تقدير: أَمْهِلْهُمْ يا مُحمَّدُ واصْبِرْ عليهم، ولا تُقَابِلْ إيذاءاتِهم بمِثْلِها، وانتَظِرْ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ من نَصْرِ الله لكَ وللّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبعُوك ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

دلَّ على المحذوف في هذه الآية التُّدَبُّر الفكريّ، مع قرينة ما جاء في آية: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ أي: لا أمْلِكُ مَا أقاتِلُكُم به، ولاَ أَمْلِكُ مَا أكرهكُمْ به على الإيمان والإسلام، والمعنى: أمْهِلْهم واصْبِرْ عليهم، وتَرَقَّبْ مَا نُدَبِّرُهُ ضِدَّهم، ونُنْزِلُهُ بهم مستقبلاً، فإنَّهم سَيَرَوْنَ مَا يُوَعَدُون من نَكَبَاتٍ تَنْزِلُ بهم.

المثال الخامس: وهو من قسم الإيجاز الذي يُسَمِّيه البلاغيون «الاحْتِبَاك».

الاحْتِبَاك: أنْ يُحْذَفَ من الأوائل مَا جاء نظيرُه أو مقابلُه في الأواخر، ويُحْذَفُ أيضاً من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلُه في الأوائل.

ومن الاحتباك في هذه السورة ما جاء في الآيَتَيْن التاليتَيْن حكايةً لقولٍ من أقوال النَّفر من الجنّ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

فالتقدير: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ فكَانُوا منْ أهْلِ الجنَّةِ دَارِ النَّعِيم الّتِي ينعَمُونَ فيها يَوْمَ الدّين ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ فَاتَّبَعُوا غَيًّا ولَم يَتحرَّوْا رَشداً ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

دلَّ على المحاذيف في هذا النّصّ حُسْنُ التدبّر، مع التفكُّر في التّقابل في النَّصّ ما بين المسلمين وبيْنَ القاسِطِين.

المثال السادس: وهو من فُنُون الإيجاز الّتي فتح اللَّهُ عليّ باكتشافها، وأضَعُ لهذا الفنّ العنوان التالي:

«تَصْدِيقُ المتكلّم بعَطْفِ كلامٍ لم يَقُلْهُ على كَلَامِهِ معَ الْإِشْعَارِ بأنَّهُ ليسَ من كلامه».

وقَيْد: «مَعَ الإشعار بأنَّهُ لَيْسَ مِنْ كلامِهِ» قَيْدٌ لَازم للاحتراز من الإدْراج ومن التَّدْليس.

ومن أمثلة هذا الْفَنّ أن يُقَرّر تلميذُ الشيخ بحضوره أحكاماً تتعلّقُ بمسألةٍ من مسائل العلم، حتّىٰ إذَا أَتمَّ التلميذُ كلامَه، وأراد الشيخ أنْ يُشْعِر الحاضِرين المستمِعين بأنّه يُقِرُّ تلْميذَهُ على ما قال، وأراد أن يضيف إلى أقواله قولاً من عنده لم يَذْكُرْهُ تلْمِيذُه، فيبني كَلَاماً من عِنْدِه، ويَعْطِفُهُ على ما سَبَقَ أَنْ ذكرَهُ تلميذُه.

وقد هداني إلى هذا الْفَنّ من فنون الإيجاز ما جاء في هذه السُّورة، من عَطْفِ قَوْلٍ تأسِيسِيٍّ من عِنْدِ اللّهِ على أقوال النَّفَرِ من الجنّ الّتي حكاهَا اللَّهُ عنهم.

وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ وحتَّىٰ آخر الآية (١٩).

وفي هذا الكلام المعطوف على أقوال النفر من الجنّ، ما يُشْعِرُ بأنَّه من كلام الله وليس من أقوال النفر.

وفي هذا الإجراء البيانيّ تَصْدِيق للنَّفر من الجنّ في مقالاَتِهم، مع إنشاء بيان جَدِيد أراد اللّهُ عزّ وجلّ بيانَهُ وإضافته.

ولهذا الفنّ الإيجازي أمثلة أخرىٰ في القرآن المجيد، ومنه ما جاء في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) إذْ جاء فيها ذكْر بَيَانٍ ربَّانيّ مباشرٍ من الله عزّ وجلّ ضمْن وصَايا لُقْمانَ لابْنه.

فالآيتان (١٤ و١٥) من السّورَةِ بيانٌ رَبَّانيٌّ مباشِرٌ جاءَ ضِمْنَ وصايا لقمانَ لابنه، إذ الآية (١٣) اشتملَتْ على بعْضِ وصَايا لُقْمان لابنه، والآيات (١٦ ـ ١٩) جاءَتْ حكايةً لبقيّةِ وصَايا لقمان لابنه.

فدَلَّ هذا الإجراء البيانيُّ الرَّبَّانيّ على أن اللّهَ عزَّ وجلَّ يُقِرُّ ما جاء في وصايا لقمان، فهِيَ بحُكْمِ الكلام الصّادِر عن الله جلّ جلاله، وقد يكون لُقْمانُ قد تعلَّمَها مِنْ كتاب رَبَّانيّ سابق.

* * *

ثانياً:

من الكناية، وهي اللّفظ المستعملُ فيما وضع له في اصطلاح التخاطب، للدّلاَلة به على معنًى آخَرَ لازمٍ له أو مصاحب له، أو يُشارُ به عادة إليه، لما بيْنَهُما من الملابسَة بوجهٍ منَ الوجوه.

ومن أمثلة الكناية في هذه السّورة ما جاء في الآيتيْن (١٤ و١٥) حِكايةً لبعض أقوال النفر من الجن:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

القاسِطُون: هُمُ الجائِرُون أُطْلِقَ هٰذا اللَّفْظُ كِنايَةً عَنْ كَوْنِهِمْ لم يُسْلِمُوا، لأنَّ من لوازم عَدَمِ إسْلامهم أَنْ يَجُورُوا ويَبْتَعِدُوا عن الصراط المستقيم.

فَكُنِّي بإطْلاق اللازم للدَّلاَلَةَ عى مَلْزُومه، وهو عَدَمُ إسْلامهم.

ثالثاً:

من الْقَصَرْ، وهو في اصطلاح عُلَماء البلاغة، تخصيص شيءٍ بشيْءٍ بعبارة كلامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

ويقال في تعريفه: جَعْلُ شيءٍ مَقْصُوراً على شيءٍ آخر، بواحدٍ من طُرُقٍ مخصوصة من طُرُق القول المفيد للقصر.

ونجد من أمثلة الْقَصْر في هذه السورة مثالَيْن:

المثال الأول: ما جاء في قول الله عزّ وجل في السورة:

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ . . .﴾.

في هذا النّص قَصْرُ المجِيرِ والمَلْجأ علَىٰ تَأْدِيَةِ الواجب الرَّبَّانيّ وهُوَ تَبْلِيغُ رِسَالاَتِ الله على ما أَمَرَ الله به رَسُوله.

وهو من قبيل قَصْرِ صِفَةِ الحماية من عقاب الله على القيام بما فَرَض الله عليه، وفي مقدّمة ما فُرض عليه أن يقوم بتبليغ ما أَمَرَهُ بتبليغه للناس.

وفي هذا الاستثناء من البديع فنّ تأكيد الفكرة بما يُوهم في بَدْءِ الكلام الاستثناء منها.

المثال الثاني: ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ . . . ﴾:

ففي هٰذا النصّ ما يَدُلُّ على قَصْرِ إظهارِ عِلْمِ الْغَيبِ الّذي استأثَرَ اللّهُ عزّ وجلّ بعْلِمه به، على مَنِ ارْتَضَىٰ من رَسُول، فلاَ يُظْهِرُ عَلَيْهِ أحداً سِواه.

وهو من قبيل قَصْرِ الصّفَةِ على الموصوف، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

رابعاً:

ومن المجاز المرسل، ما جاء في عبارة: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ أي: ذوي طرائق قِدَدٍ، بحذف المضاف، مع ملاحظَتِه ذهناً، أو من إطلاق الشّيْءِ وإرادَةِ صاحِبِ الشيء.

خامساً:

ومن التشبيه ما جاء في عبارة: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ أي: كانوا شبيهِينَ بالحطَب، الّذِي يُعَدُّ لتُوقَدَ به النار، أَوْ لِيَزِيدَ به وَقُودُها.

إنّ الجائرين الّذِين لم يُسْلِمُوا سوْفَ يُطْرَحُونَ وَيُكَبُّونَ في جهَنَّمَ كما يُطْرَحُ ويُكَبُّ الحطَبُ في النار.

وهذا من التشبيه الْبَلِيغِ، إذْ حُذِفَتْ منه أَدَاةُ التشبيه وَوَجْهِ الشَّبه.

سادساً:

وجاء في السورة عدّة بدائع معنوية.

(١) فمنها بديعيّة «التنكيت» وهو أن يَقْصِدَ المتكلّمُ إلَىٰ كلمة أو كلامٍ بالذّكْرِ، دُونَ غَيْرِهِ ممَّا يَسُدُّ مسَدَّه، لأجْلِ نُكْتَةٍ في المذكور تُرَجِّحُ مجيئَه على ما سواه.

ومن أمثلة بديعيّة «التَّنْكيت» في السورة مثالان:

المثال الأوّل: عبارةُ ﴿سَفِيهُنَا﴾ في الآية (٤): ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾.

اخْتِيرت عبارة ﴿سَفِيهُنَا﴾ دون اسْمِه الْعَلَم: «إبليس» لِنُكْتَةٍ جديرَةٍ بالعناية، وهي:

- وصْفُه بالسَّفاهة، الّتِي هي قِلَّة العقل الّتي ساقته للشرّ والخلودِ في عذاب النار.
- إدْخَالُ كلّ جُنودِه من شياطين الجنّ ضمن عبارة: ﴿سَفِيهُنَا﴾ فالنكرة المضافة، إلى معرفة تعُمُّ كُلّ الأفراد التي ينْطَبِقُ على الواحد منها النكِرَةُ المضافة.

مثل: خذ من شاة الغني، ودِرْهَمِهِ وَدِيناره، أي: من شياهه ودراهمه، ودَنانيره.

المثال الثاني: عبارة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ في الآية (١٧) وهي قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾:

كان من الممكن أن يقول «يُدْخِلْهُ عَذَاباً صَعَداً» لكن اختيار عبارة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ كانَ لِنُكْتَةٍ في المعنى لا تُؤدّيها عبارة «يُدْخِلُه» فالسَّلْكُ الذي من مَعَانيه إدْخَالُ الخيْطِ في ثَقْبِ الإبْرَة، يُفِيدُ معنى إحاطَةِ المدخول فيه بالدَّاخل، إحاطَةً تَشْمَلُ كُلَّ حَجْمِ جسْمِهِ، إمْعَاناً في إيلامِهِ من كلّ جانب، بخلاف الدخول، فهي كلمة عامّةٌ تَصْلُحُ للدُّخول ولو مع سَعَةِ المدخُولِ فيه، كالْغُرْفَةِ والمدينَةِ على سَعَتِها.

(٢) ومنها بديعيَّة: «المبالغة».

والمبالغة تَنقسم إلى:

أ ـ تبليغ.
ب ـ وإغراق.
ج ـ وغُلُوّ.

والأول منها مقبول. ومنه الوصْفُ بالمصْدَر، إذْ هو قائم على ادّعاء أنّ الموصوفَ قد عَظُم الوصفُ فيه حتّى كان كلُّه بمثابة عيْنِ الموصوف، وهذا من الأمور المستعملة المقبولة.

ومن الوصف بالمصْدَرِ في السّورة ﴿قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾: أي: من كَثْرَةِ عجائبِهِ صَارَ كأنّه هو العجب.

(٣) ومنها بديعيَّة «الإدْمَاج».

الإدماج في علم البديع، إدْخالُ فِكْرَةٍ في فكرة، أو غَرَضٍ بلاغيّ في غرضٍ آخر، أو وَجْهٍ من وُجُوه البديع في وجْهٍ منه آخر، بأسلوب من الكلام لا يَظْهَرُ منه إلاّ إحدى الفكرتين، أو أَحَدُ الغرضَيْن، أو أحَدُ الوجْهَيْن.

ونجد في سورة (الجنّ) من أمْثلَة الإدْماج، إدْمَاجَ الثناء علَىٰ النَّفَر من الجنّ ضِمْن عرض أقوالهم عرضاً بيانيًا، بطريقة تُشْعِرُ بصدْقهم فيها، وتُشْعِر بفَضْلِهم إذ قاموا بين قومهم دُعاةً إلى دين الله، وتُشْعِرُ بأنَّ ما تَوَصَّلُوا إليه من قضايا دينيَّة قضايا مطابقة للحق والواقع والمفهومات الدّينية الصحيحة.

(٤) ومنها بديعيَّةٌ فتح الله عليَّ باكْتِشَافها، لم أَجِدْ أحداً ذكَرها من المهتمِّين بعلم البديع، وهي:

«تقديم ما هو بمثَابَة الدَّلِيلِ لما يأْتِي بعْدَه».

ومن أمثلته في سورة (الجنّ) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمقالةٍ من مقالاتِ النفر من الجنّ الذين اسْتَمَعُوا القرآن فآمنوا به.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾:

فعبارة: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: تَعالَىٰ حظُّ رَبّنا من كمال الصفات الذاتية، والتَّنْزِيه عن النقص والْحَاجَةِ، تعالياً لا حَدَّ له كمالاً وغنىً بذاته وصفاته عن كلّ شيءٍ سواه. هذه العبارة هي بمثابة الدليل العقليّ للعبارة التالية لها في الآية، وهي: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ إذْ لو اتَّخذَ صاحبةً أو أنجب أو تَبَنَّى وَلداً، لكان محتاجاً إلى الصاحبة، أو محتاجاً إلى الولَدِ، والعَقْلُ يدُل على أنَّ المحتاج لشيءٍ لا يكون ذَا غِنىً عنه.

فالعبارة الأولى تمهيد حكيمٌ للعبارة التالية لها، وهذا الإجراءُ البياني من أساليب تقديم الدليل قبل تقرير الدَّعْوَىٰ.

وأَكْتَفِي بهذه المستخرجات البلاغيّةِ غَيْرِ المستقصية، والحمد لله على فتحه وتيسيره.

* * *

(١٠)

الملحق الثالث
نصوص الابتلاء والفتنة في القرآن المجيد
وفيه أربع مقولات

المقولة الأولى:

تعريفات وبيانات تأسيسية:

جاء في النصوص الإسلامية استعمال كلمتي الابتلاء والفتنة بمعنى الاختبار والامتحان، وبيان أن الله عزّ وجلّ خلق الناس ليبلُوَهم في ظروف هذه الحياة الدنيا.

وجاء فيها بيان أن الله سخّر للناس مسخّراتٍ تظهر فيها اختياراتهم في امتحان الله لهم.

وعلينا قبل شرح ذلك أن ننظر في تعريفات كلمات: «الابتلاء والفتنة والتسخير ومشتقاتها» وننظر في العلاقة بين الابتلاء والتسخير.

أوّلاً: الابتلاء:

مادّة الابتلاء تدلُّ في أصل معناها على معنى الامتحان والاختبار لكشف ما لدى المُبتلى مِنْ صفاتٍ كامناتٍ، بعملٍ إراديّ ذي أثرٍ يُدْرَكُ في النفس أو في حركاتٍ وتصرفاتِ الجسد الإرادية.

قال أهل اللغة: بَلَوْتُ الرَّجُلَ بَلْواً وبَلاءً، وابتليتُه ابتلاءً، أي: اختبرته.

وبَلاهُ يَبْلُوهُ بَلْواً إذا جرَّبَهُ واختَبَرَهُ. وابتلاهُ الله، أي: امتحنه.

ويقالُ: بُلِيَ بالشيءِ بَلاءً، وابتُلِيَ به ابتلاءً.

والاسم: البَلوى، والبِلْوَة، والبِلْيَة، والْبَلِيَّة، والبلاء. كلُّها بمعنى الامتحان والاختبار، فعلى هذا المعنى تدور مادة الابتلاء ومشتقاتها في أكثر استعمالاتها.

وقد يُراد من مادة الابتلاء والبلاء مُطلقُ الكشف مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة [الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول] بشأن خلق الإنسان ورَجعِه يوم الدين:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ (٦) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ
وَٱلتَّرَآئِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٞ (٨) يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ (٩)﴾.

أي: يومَ تُكشَفُ السَّرائر التي كانت النفوس تُسِرُّها في الحياة الدنيا من نيّات ومقاصد وغيرِها من أعمال القلوب كالحسد والحُبّ والكراهية، للمحاسبة والجزاء.

وقد يُراد من مادة الابتلاء الوسيلة التي يكون بها الامتحان ولا سيما إذا كانت من المصائب الشديدة، فيقال فيها: بلاء عظيم.

وقد يأتي فعل: «أبلى بَلاءً» بمعنى اجتهد في العمل والبذل، وبمعنى «أنعم». يقال: أبلاه الله، إذا أنعم عليه وأكرمه، ومنه: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: ولينعم عليهم بالنصر والغنيمة.

ابتلاء الإرادة: وابتلاء الإرادة الحرّة: هو امتحانُها لكشف ما تختار من عَمَلٍ إراديٍّ ظاهر أو باطِنٍ في رحلة الحياة الدنيا، إذْ وهَبها الله عز وجل للمخلوق مصحوبةً بالصفات التي تؤهّله لأن يكون في هذه الحياة الدنيا مخلوقاً ممتحناً مختبراً.

وبعد الامتحان يأتي الحسابُ والجزاء، وإلا كان الامتحان عبثاً، والله عزّ وجلّ مُنزَّهٌ عن العبث.

المبتَلَى به: والمبتلى به كُلُّ ما يخضع لإرادة المخلوق الحرّة من عمل باطنٍ أو ظاهر، ومن الباطن أعمالُ القلوب والنفوس الإراديّة كالحبّ والكراهية والحسد.

موادّ الابتلاء: وموادّ الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا كلُّ ما فيها ممّا يَسُرُّ ويَلَذُّ فِعلُه أو تركه، أو مَسُّه أو الإصابة به، أو الخلاصُ منه، وكلُّ ما فيها ممّا يَسوءُ أو يُؤلم أو يَشُقُّ فِعلُه أو تركُه، أو مَسُّه أو الإصابة به، أو الحرمانُ منه.

المطلوب في الابتلاء: والمطلوب من العبد فيما هو مبتلًى به حَمْدُ الله والثناءُ عليه فيما يَسُرُّ وفيما لا يَسُرّ، وطاعةُ الله والعملُ بمراضيه فيما تحبُّ النفس وفيما لا تحبُّ على ما يُريدُ جلَّ جلالُه في مقاديره، وفي أوامره ونواهيه الإلزاميّة أو الترغيبيّة.

والمؤلماتُ وكلّ ما يَشُقُّ على النفس تكشِفُ مقادير الصبر لدى العبد المبتلَىٰ، والسّارّاتُ وكلُّ ما فيه مُتعَةٌ للنفس تكشِفُ مقادير الشكر لله لدى العبدِ المبتلَىٰ، مع مِقدار الحمد لله في كلٍّ منهما، والتزام طاعته وعدم معصيته.

* * *

ثانياً: الفتنة:

الفتنة: هي في الأصل الصهرُ بالنار للمعدِنِ، كالذهب والفضة، لتمييز الرديء من الجيّد.

تقول لغةً: فَتَنَ الصائغُ الذهبَ يَفْتِنُه فَتْناً وفُتُوناً، أي: أذابه بالنار ليختَبره.

ثُمَّ صارت مادّة هذه الكلمة تدلُّ على مطلق الابتلاء والامتحان والاختبار، فهي كلماتٌ مترادفات.

وبما أنّ اختبار الإرادة يكون غالباً بما تكْرَهُ النفوس من مصاعب ومشقات، أو يخالِفُ أهواءها وشهواتها، فإنّ جنس الألم الذي يُحْدِثُه مَسُّ النار باقٍ في دلالة المادّة، مع دلالتها على مطلق الاختبار.

ومن التوسّعات اللغوية في دلالة هذه المادّة ما يلي:

(١) إطلاقُها على الإحراق بالنار أو على مطلق التعذيب، أو على التعذيب بالنار، عقاباً أو انتقاماً، أو عدواناً وظُلماً، ويَسقُط معنى الاختبار حينئذٍ.

(٢) وإطلاقُها على فتنة الرَّجُل مثلاً بالمرأة، إذا أحبَّها فَوَلَّهَتْهُ، لأنّ في ذلك معنى اختباره بها، واكتوائه بنار حُبّها والشَّغَف بها.

(٣) وإطلاقُها على الإعجاب بالشيء، لأنّ الإعجاب ببعض الأشياء قد يُورّطُ صاحبَهُ فيوقِعُه بما تُكْرَهُ عاقبتُه.

(٤) وإطلاقُها على الضلال وارتكاب الإثم، لأنّ مَنْ زُيِّنَ له الضلالُ فوقع في الخطيئة، استحقّ العقاب فناله ما يكْرَه، ورُبّما استحقّ العذاب بالنّار.

ومن هذا يقال: فتَنَ الشيطانُ الإنسانَ إذا أغراهُ بوساوسه وتسويلاته، فاستجاب لخداعه وغروره، حتى أضلّه فأغواه، وعرّضه لعذاب الله، ولهذا

يُسمَّى الشيطان فاتِناً وفتّاناً، وكذلِكَ كلّ مُضِلٍّ من الإنس والجنّ، أو مؤثرٍ أثراً يصرِف عن صراط الله، أو يُكَرِّهُ الناس به.

(٥) ويُقالُ لِمَنْ أصابته فتنةٌ ما ذهب بها مَالُه وعقلُه: إنسانٌ مفتون، أي: مجنون، وفي هذا يُقالُ: فُتِنَ فهو مفتُون، مثل: جُنَّ فهو مجنون.

(٦) وتُطلق الفتنة على مُجَرَّد إزالة الإنسان عمّا كان عليه من أمرٍ محمود العاقبة إلى أمرٍ مكرُوهِ العاقبة.

(٧) وتُطلَقُ الفتنة على الاضطراب وبلبلة الأفكار وتعارُضها في المجتمع، ومناصرة كلّ فريق لما زُيّن له، وهذه الفتنة تُقارنُ الأحداث المثيرة للجمهور العامّ، وهي بمثابة نارٍ تشتعل في النفوس.

(٨) وتُطلَق الفتنة على الادّعاء الكاذب، بُغْيةَ الاعتذار أو التضليل، والمعنى فيها الرَّغبةُ بتضليل المخاطب عن الحقّ، وتحويله عن وجه الصواب.

* * *

ثالثاً: التسخير:

التسخير: تطويع المخلوق بالجَبْرِ لِلْعمَلِ والتحرُّك على وفق إرادة المسخِّر، ويأتي بمعنى تذليل المخلوقِ لعمل ما أو أمرٍ ما، وجعله مطاوعاً لما يرادُ منه ضِمْن قانون تسخيره، وهذه المطاوعة قد تكونُ بالطّبع، كتسخير الماء والهواء والنار وعناصر الأرض وسائر الأشياء التي لا حياة لها. وقد تكون بالقوة مع التذليل كتسخير العجماوات للإنسان. وقد تكون بالاختيار الحرّ لما في المطاوعة من مصلحةٍ للمطاوع أو تَخَلُّصٍ ممّا يكْره، كتسخير بعض الناس لبعض، ولو ملكوا تحقيق مصالحهم دون أن يكونوا مُسَخَّرين لما أطاعوا.

والتسخير الجبريّ قد يكون ضمن سُنَّةٍ ثابتة، كَسُنَنِ الله وقوانين خلقه في كونه. وقد يكون دون سُنَّةٍ ثابتةٍ، مثل المعجزات وخوارق العادات، ومنها تسخير عصا موسى عليه السلام، فيما أجرى الله فيها من معجزات.

والتسخير كلّه لا يخرج عن دائرة التحرّك ضِمْن إرادة الرّب الخالق وخَلْقِه دواماً.

وقد سخّر الله للنَّاسِ قِسْماً من طاقاتهم في ذواتهم، وسخّر لهم كثيراً من مخلوقاته في كَوْنِه، في الأرض وفي السّماوات، وهُم يَستَفيدون من المسخّرات لهم أو يُحرّكونَها بإراداتهم الحرّة التي منحهم الله إيّاها، وأعطاها بقضائه وقَدَرِه وقُدْرتِه القُدْرَة على أن تشاء بحُرّيَّة، ليختبر اختياراتها، وحينما تَشاءُ إرادةُ الإنسان شيئاً فإنّها لا تكون مَجْبُورة في ذلك الشيء الذي شاءته، لأنّها مُمَكَّنَةٌ بإرادة الله وقضائِه وقَدَره من أنْ تشاء بحرّيّة دون جَبْر.

العلاقة بين الابتلاء والتسخير:

- قد شاء الله الرّبّ الخالق العزيز العليم الحكيم أن يخلُق الإنسان في أحْسَنِ تقويم، مُزَوّداً بالصفات الّتي تؤهّله لأنْ يكون ممتحناً في ظروف هذه الحياة الدنيا، وأنْ يكون مناطُ المسؤولية فيه جهازَ إرادته الحرّة، المصحوبة بالإدراك العلمي الكافي للتكليف، والمصحوبة بالأهواء والشهوات ونزعات الخير ونزغات الشرّ، والمُمَكَّنَةِ من توجيه طاقاته لفعل ما تختار من خَيْرٍ وشَرٍّ، وطاعةٍ أو معصية.

- وإذْ تَمّتْ بهذا مشيئةُ الرب الخالق العزيز العليم الحكيم، فقد اقتضى هذا الأمر أن يُسَخِّرَ للإنسان بقضائه وقَدَرِه وخَلْقِه ضمن سُنَنٍ ثابتةٍ قِسْماً من طاقات العمل والحركة في داخل جَسَدِه، وأن يُسَخِّرَ لَهُ في الكَوْنِ من حوله مُسَخَّراتٍ كثيرات، تعمَلُ له بطاقاتها وتُطيعُه، لتحقيق ما يُريدُ من خيرٍ أو شرٍّ، متى اهتدى بما وَهَبَهُ الرّبُّ من حَوْلٍ وحيلَةٍ وفِكْرٍ، إلى مفاتيح

ما هي مسخّرةٌ فيه، ضمنَ سُنَنِ الله وقوانينه فيها، وأحسَنَ استخدامَ هذهِ المفاتيح على الوجه الذي تعمَلُ به وتتحرّكُ، موجّهةً طاقاتها المؤثراتِ، باعتبارها أسباباً تعمَلُ بقضاء الله وقدرِهِ وسُنَنِه الثابتة فيما هي مُسَخَّرةٌ فيه من عَمَلٍ في هذا الكون، وتحدُثُ بها المُحْدَثاتُ التي قضى الله وقدّر في سُنَنِه أنْ تَحْدُثَ بها.

فبالتمكين من الاختيار الحرّ وبالتسخير تمّتْ شروط الابتلاء الأمثل في ظروف هذه الحياة الدنيا، وكلٌّ منهما لا يوجَدُ إلا بخلقِ الله عزّ وجل، المسبوق بقضائه وقدره وعلمه الشامل وحكمته الجليلة.

* * *

المقولة الثانية:

نظرات تحليليّة
حول حكَم الله في النّعَم والمَصائب

كلٌّ من مارس العيش في هذه الحياة الدنيا، وكان ذا إدْراك واعٍ، فلا بُدَّ أن يُشاهِدَ فيها أشياءَ وأحداثاً ومقاديرَ وتصاريفَ، وعلاقاتٍ اجتماعية، وصراعاتٍ ومُنافَسات مختلفات الصور والأشكال والتأثير في النفوس، ولدى تصنيفها يُلاحظُ أنها تَرجِعُ إلى صِنفين:

الصنف الأول: صنف تجتمع أفرادُه في جدول ما تُحِبُّ النفسُ الإنسانيةُ وتُسَرُّ به، على اختلاف الصّور، وتفاوت الدرجات، من أعلى ما تُحِبُّ مِنْ محابَّ وأعظمِها درجةً وأشدها إمتاعاً وإسعاداً، حتى أدناها درجةً وأقلّها إمتاعاً للنفس أو الجسد، بما يَلَذُّ أو يَسُرّ.

ويُطلِقُ الناس على ما يَدخلُ في هذا الصنف اسم «النِّعَم» مفردُها

«نِعْمة» وقد يُسمّيها الناسُ «خيراً» مع أنّها ربّما كانت جالبةَ شرّ، أو سبباً لنزول شرّ، وعلى هذا المعنى جاء استعمال لفظ الخير في بعض النصوص، كاستعماله بمعن المال على وفق استعمال العرب له.

الصنف الثاني: صنفٌ تجتمع أفرادُه في جدولِ ما تكرهُ النَّفْس الإنسانية وتستاءُ به، على اختلاف الصور، وتفاوُتِ الدّركات، من أشدِّ ما تكرهُ النفسُ من مكاره، وأخسِّها دَرَكَةً، حتى أوّلِ دَرَكاتِ المكروهاتِ، وأخَفِّها إيلاماً للنفس أو الجسد.

ويُطلِقُ الناس على ما يدخل في هذا الصنف اسم «المصائب» مفردها «مصيبة» وقد يُسمّيها الناس «شرّاً» مع أنها ربما كانت جَالِبَةَ خيرٍ، أو سبباً للحصول عى خيرٍ عظيم، وعلى هذا المعنى جاء استعمال لفظ الشرّ في بعض النصوص على وفق استعمال العرب له.

وتتداخَلُ أفراد هذين الصنفين «النّعم والمصائب» في ظروف هذه الحياة الدنيا، ويَمُرُّ الإنسانُ في رحلة حياته يُقَلِّبُه الله عزّ وجلّ بحكمته على أفرادهما، ما قويَ منها وكثُرَتْ نسبتُه كَمّاً وكيفاً، وما ضَعُفَ منها وقَلَّتْ نسبتُهُ كمّاً وكيفاً، وما كان بين ذلك.

ويخضَعُ التَّقَلُّبُ على هذين الصنفين لنوعين من مقادير الله عز وجل:

الأول: مقاديرُ الله ذاتُ السُّنَن العامّة، التي تُصيب الجميع ضمن مجاري حكمته العامة، ثم يكون الجزاء بالعدل، والثوابُ بالفضل يوم الدين.

الثاني: مقاديرُ الله التي يختص بها في الحياة الدنيا من يشاء على ما يشاء، بحسب حكمته وعلمه بخلقه، إنه جلّ جلالُه عليم حكيم، كإيتاء الله المُلْكَ بعض عباده، وكإغنائه بعضهم وإفقاره بعضهم، إلى غير ذلك من صور ومفردات يَصعُبُ حصرها.

أنواع حكمة الله في النّعم والمصائب:

من استقرأ النصوص من القرآن والسُّنَّة، وتَأمَّلها تأمُّلاً دقيقاً بمنظارٍ إيمانيّ في لطائِف حِكَم الله عزّ وجلّ فيما تَجْري به مقاديره، من نِعَمٍ ومصائب، ضِمنَ ظروف الحياة الدنيا، اكْتشَفْتُ أن حِكَمَ الله في مقاديرِ النّعم والمصاب التي يُقَلِّبُ عبادَهُ ضمن أفرادهما ذوات النِّسب المختلفة شدّةَ وضَعفاً، تَرْجِعُ إلى ثلاث حِكَمٍ كُبْرى، قد تجتمع كلُّها أو بعضُها وقَدْ تَفْتَرق.

الحكمة الأولى: «الابتلاء»:

وهو امتحانُ الموضوع في الحياة الدنيا موضع الاختبار، ليجري بمقتضى نتائجه الحسابُ والجزاءُ يوم الدين.

وهذه الحكمة تختصّ بالمُمْتَحَنين المكلّفين، وهي في الحقيقة أولى الحِكَم وأجَلُّها وأعظمها.

- فمن حكمة الله عزّ وجلّ في الامتحانِ بالنعمة كَشْفُ ما لدى الممتَحَنِ مِنْ حَمْدِ لله المنعِم، وشكرٍ له على نعمته التي تفضّل بها عليه، ومن الشكرِ القيامُ بطاعةِ الله فيما أنعم به عليه، واستخدامُ النعمةِ في مراضيه عزّ وجلّ، وعدم استخدامها في معصيته، ليجزِيَهُ على حَمْدِهِ وشُكرهِ ثواباً عظيماً؛ ويجعله به من المتقين إذا فَعَل الواجبات وترك المحرّمات، فمن الأبْرَار فالمحسنين إذا توسّع في القُرَباتِ بفعل المندوبات وترك المكروهات، وأحسن عمله كأنه يشاهد ربّه.

- ومن حكمة الله عزّ وجلّ في الامتحان بالمصيبة كَشْفُ ما لدى الإنسان من حَمْدِ لله الْمُبْتَلِي، وصَبرٍ على ما اختار له في امتحانه ممّا يكرَهُه من أمورٍ مؤلمة أو غير سارّة، ليجزيَه على حَمْدِهِ وصبرِهِ ثواباً عظيماً، وقد يرفَعُهُ الصَّبْرُ غيرُ الواجب إلى منازل الأبرار فالمحسنين.

وكلٌّ من الابتلاء بالنِّعَم والمصائب يدخُلُ في مفهوم الخيرِ المطلقِ، إذ هو وسيلةٌ لتحقيق التمييز بين الطيّب والخبيث من النُّفوس، وهذا التمييز هو من الخير، والله عزّ وجلّ لا يَصْدُرُ عنه إلا الخير، والشرُّ المُطلقَ المحض لا يكون من الله ولا يصدُرُ عنه سبحانه، لكن قد يَصدُرُ عنه ما يُسمّيه الناسُ في عُرْفِهم شرّاً، إذ هو وسيلة مؤقّتة لتحقيق الخير العظيم الجليل.

الحكمة الثانية: «التربية والتأديب»:

هذه الحكمة تشملُ المكلّفين ومن هم خارج دائرة التكليف، كالأطفال الذين لم يبلُغوا مبلغ الامتحان والتكليف.

فالنّعم والمصائب التي يتعرّض لها كلُّ الناس صغاراً وكباراً، ضمْن مجاري سُنَنِ الله وقوانينه العامّة، قد تكون الحكمة منها تربيةَ وتأديبَ مَنْ تنزل بهم.

إنّ مما يُدرِكه الحكماء من المربّين المؤدّبين أنّهم قد يُربُّون مَنْ يتولَّوْن تربيتهم وتأديبهم، بما يُحِبُّون أحياناً، وبما يكْرَهونَ أحياناً أخرى، وما يكرهون قد يكون هو خيراً لهم، وما يحبُّون قد يكون هو شرّاً لهم، لو عقلوا وتدبَّروا النتائج والعواقب.

إنَّ الناشئ الذي لا يتعرَّضُ لما يكرهُه ولما يؤلِمُه، لا يكون في المستقبل رجلاً قادراً على تحمُّلِ ما قد يواجه من مصائب الحياة ومؤلماتها.

وإنّ الناشئ الذي لا يذوق طَعْم ما يحبُّ أحياناً ثم طعم ما يكره أحياناً، لا يكون إنساناً سَوِيّاً، قادراً على أن يُواجِه ألوان تصاريف الله في كونه ضمن سُنَنِه العامّة.

ونلاحظ أن الضُّبّاط العسكريّين الذين يُشْرِفون على تربية وتأديب الجنود، قد يحمِّلون جنودهم أعباءً شديدة، ويكلفونهم القيام بأعمالٍ شاقّة

جداً، مما يكرَهون من أعباءٍ وأعمالٍ شاقّة، نظراً إلى أن هذه الأعباء والأعمال الشاقة ضروريةٌ لتدريبهم وتربيتهم وتأديبهم، حتى يكونوا جنوداً صالحين قادرين على مواجهة الأعداء في الحرب، وحتى تكون أجسادُهم ونفوسهم قادرة على مواجهة الصعوبات الجسديّة والمشقاتِ الجسدية والنفسية.

فمن سُنَن الله في خَلْقِه أن اكتساب القُوّة في مختَلِفات الأمور الجسديّة والنفسية إنما يكون بالتدريبات والممارسات طوال أزمان تناسِبُ أحوالَها، واستعداداتِ النفوس لاكتسابها.

ومُدرِّبُ الرياضة البدنية يُحَمِّل من يُشْرِفُ على تربيتهم وتدريبهم مشقّاتٍ ذواتِ شدّة تكرَهُها النفوس، ثُمَّ يُذيقُهم حلاوة القدرة على اجتياز العقبات والصعوبات، أو حلاوة السَّبْق على المنافسين.

وفي كلٍّ من الصورتين المكروهة والمحبوبة للنفوس تدريباتٌ يجبُ أن يتعرّض لها ممارسُ الرياضة أو مُمتهِنُها.

ومن التربية اللازمة في ظروف هذه الحياة الدنيا التربيةُ على أن يذُوقَ الإنسان الشِّبَع أحياناً، والجوعَ أحياناً أخرى، والصحةَ أحياناً والمرضَ أحياناً أخرى، والسَّرَّاءَ أحياناً والضَّرَّاءَ أحياناً أخرى، وهكذا إلى سائر النِّعم والمصائب.

ولله حِكَمٌ لطيفةٌ في عباده، إذ يُعْطي كُلَّ فردٍ من وسائل التربية والتأديب وصورِهما ما يُلائِم ما فَطَرَهُ تبارك وتعالى عليه نَفْساً وفِكْراً وجسَداً.

وكلٌّ من التربية والتدريب بالنِّعَم والمصائب يَدخُل في مفهوم الخير المطلق، إذ هو وسيلة لازمةٌ لتحقيق فضيلةٍ جسدية أو نفسية، ونِسبَةُ الشرّ في المصائب تنحصر في مشاعر الألم المؤقت، أو كراهيةِ النفس المؤقتة، أمّا الخير الذي ينجم عنها فهو خيرٌ أعظم وأجلّ وأبقى.

الحكمة الثالثة: «الجزاء المعجَّلُ بالثّواب أو بالعقاب»:

● قد يمنَحُ الله بعض عباده بعضَ نِعَمِه في الحياة الدنيا ثواباً لهم على ما قدّموا من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ، أو على ما تحمَّلوهُ ابتغاء مرضاته من مشاقّ وآلامٍ وجهادٍ وصبرٍ وبذلٍ وتضحيةٍ ونحو ذلك من خيراتٍ، أو على صبرهِمْ على ما ابتلاهم به من مصائب، أو على شُكْرِهم لله فيما أولاهُمْ من نِعَمٍ وأفاض عليهم من خيراتٍ حسانٍ.

ففي منحهم بعضَ الثواب المعجّل إكرامٌ لهم، وتثبيتٌ لهمْ على الحقّ، كما يذوقون به نموذجاً مصغراً يُحاكي ما أعدَّ الله لهم من أجرٍ عظيم، وثوابٍ جزيل يوم الدّين، في جنّاتِ النعيم.

● وقد يُذيق الله عز وجل الكافرين والعصاة بمعاصٍ دون الكُفر، مسّاً من مكاره الحياة الدنيا وآلامها، أو يُنزِلُ بهمْ مصائبَ ذواتِ آلامٍ شديدةٍ، عُقوبةً لهم على ما قَدَّموا من أعمال سيّئة.

وهذه العقوبات قد تكون عقوباتٍ تذكيرٍ لهم لعلهم يرجعون، أو عقوبات تكفير لخطاياهم، وقد تكون جُزءاً من عقاب الله الأخير لهم، ثُمّ يُعَذِّبُهُمْ الله يومَ الدّينِ العذابَ الأكبرَ، ومنه ما أبانَهُ الله بقوله تبارك وتعالى في سورة [الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ومن حِكَمِ تَعْجيل العقاب للمجرمين وظالمي أنفسهم تقديمُ أمثلةٍ ونماذج من عقاب الله عز وجل للكافرين والعصاة، ليعتبر بها غيرُهُمْ من معاصري زمانهم الذين لم تبلُغْ حالُهمْ إلى مستوى إنزال العقاب بهم، أو من الذين سيأتون بعدهم من القرون القادمات.

ففي العقوبات المعجَّلات لمستحقّيها من المذنبين عِبَرٌ يعتَبِرُ بها أولو الألباب، وعظاتٌ يتعظون بها.

* * *

المقولة الثالثة:

استعراض نصوص «الابتلاء» بنظرات تدبّريّة إليها

النصّ الأول:

جاء في سورة [القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول] ثاني سورة مكيّة نصٌّ مدنيٌّ مضافٌ إليها، أبان الله فيه أنّه ابتلى أهل مكّة بعطاءات النّعم، إلا أنهم كفروا بنعمة الله عليهم فلم يؤمنوا بالرسول محمّد ﷺ ولا بما أنزل الله عليه فسلَبَهُمْ النعمة عقاباً لهم، وقد جاء هذا البيان ضمن تشبيه حالهم بحالِ أصحاب الجنة إذْ أقسمُوا أن يقطعوا ثمرها في الصّباح وأن يَحْرِموا المساكين حقوقهم، فطاف عليها طائف من الرّبّ مُهلِكٌ لها وهم نائمون، فأصبحت هالكة تالفة، فلمّا رأوها كذلك أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، واعترفوا بأنهم كانوا ظالمين طاغين، وقد جاء في أوّل عرض القصة قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾.

وجاء في آخرها:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

النصّ الثاني:

قول الله عز وجل في سورة [الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول]:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ . . .﴾.

فقدَرَ عليه رزقه: أي: فضيّقهُ عليه ولم يجعله واسعاً.

أبان هذا النص أنّ فيوضَ عطاءات المال ووفرة الرزق ليست تكريماً من الله لعبده، وأنّ تضييق العطاء وتقتيره وتقديره ليس إهانة من الله لعبده، بل كلٌّ منهما ابتلاء من الله لعبده.

فأكْرَمَه: بمعنى فوسّع عليه الرّزق.

رَبِّي أَكْرَمَنِ: أي: شرَّفَنِي وأعْظَمَني.

كلَّا: أي: ليس التخصيص بفيوض النعم وكثرة العطايا تكريماً، وليس التخصيص بالتقدير والتضييق إهانةً، بل كلٌّ منهما للابتلاء، كما جاء في قوله تعالى في كلٍّ منهما: ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾.

النص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ لبني إسرائيل في سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول]:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

وفي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبّكُمْ عَظيمٌ: أي: وفي ذلكم التمكين الذي مَكَّنَ ربُّكُمْ به آلَ فرعون من أن يسوموكم سُوءَ العذاب ابتلاءٌ عظيم بمصائبَ شديدة من مصائب الحياة الدنيا التي يكون سببُها الناس بعضهم لبعض.

ثم أنجاكم منه بعبور البحر وإغراق أعدائكم في مكان عبوركم.

ونظير هذا النّصّ ما جاء في الآية (٤٩) من سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول] وفي الآية (٦) من سورة [إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول].

النص الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول] المكية خطاباً لرسوله بشأن بني إسرائيل، في نصّ مدنيّ التنزيل مضمُوم لها:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

لقد حرّم الله على بني إسرائيل العملَ يوم السبت، وكان قسمٌ مِنْهُمْ يسكنون قرية عند خليج العقبة، يقال هي: «إيلة». وكان من مهْنَتِهم صيدُ السمك، وكانوا كثيري الفسق، فامتحنهم الله بأمر شديدٍ على نفوسهم، فجعل حيتان البحر تأتي قريباً من شاطئ قريتهم ظاهرةً وافرة يوم السبت، أمّا سائر الأيام فلا تأتيهم فيها، بل تظلُّ في الغَمْر البعيد، وهم يعلمون أن العمل في يوم السبت من الكبائر الكبرى في أحكام شريعتهم، وهو من الإصر الذي كان عليهم بسبب ظلمهم.

فخالفوا حكم شريعتهم، وعصَوْا أمْرَ رَبّهم، فوعظهم واعظون منهم، فما استجابوا فأخذهم الله بعذاب بئيس، تذكيراً لهم لعلّهم يرجعون، فما ارعَوَوْا بل عَتَوْا عن أمر ربّهم فمسخهم الله على أشكال القردة خاسئين.

النص الخامس:

جاء في سورة [النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول] عرض لقطات من قصة سليمان عليه السّلام، ومنها ما كان بينه وبين «بلقيس» ملكة اليمن، وكيف أحضر له الذي عنده علم من الكتاب عرشها قبل أن يَرْتَدَّ إليه طرُفه، ولمّا وَجَدَ عرشها حاضراً عنده قال:

﴿.... هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

عَلِم سليمان عليه السلام أنّ نعمة الله عليه بإحضار عرش ملكة سبأ القادمة إليه تابعةً طائعة، إنما كانت لابتلائه وامتحانه أيشْكُرُ رَبَّهُ أم يكفره، ولم يَرَهَا نعمةَ مكافأةٍ ولا ثوابٍ ولا تكريم، وهكذا فهم الرّسُل، والأنبياء، والمخلصين من عباد الله العلماءِ الصالحين.

النص السادس:

جاء في سورة [يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول] في وصف يوم الحشر:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ... ﴿٣٠﴾﴾.

تَبْلُو: في هذه الآية بمعنى تكشف، أي: تكشف في سجلّ أعمالها فتشاهد ما سبق أن أسلفت في الحياة الدنيا، إذْ لا يوجد امتحان يوم الدين، فالبلاء هنا بمعنى الكشف، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «تَتْلُو» من التلاوة، أي: تتابع ما في كتاب أعمالها من مُسَجَّلاتٍ عليها.

النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة [هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... ﴿٧﴾﴾.

دلَّ هذا النصّ على أن الله عزّ وجلَّ خلق السماوات والأرض وخلق الناس، لِيَمْتَحِنَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا أيُّهم أحسنُ عملاً، أي: فمن هو دون ذلك حتى أخسّهم في الدّركاتِ وأسفلهم، والامتحان يستلزم عقلاً الحسابَ والجزاء.

النص الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

دلَّ هذا النَّصّ على بعضِ مَوَادّ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وهو تفاضل درجاتِ عطاءِ الله لعباده، وهذا يشمَل كلّ ما آتى الله عبادَهُ من أشياء مادّيّة، وأشياء معنوية، ومما هو مشاهد في الناس أنّهم يتفاضلون في الصفات الفكرية وفي الصفات النفسيّة، وفي الصفات الجسديّة، وفي مقاديرِ الأرزاق، وفي المنازل الاجتماعيّة، إلى غير ذلك من أمور يتفاضلون فيها، وكلُّ إنسان مُمْتَحَنٌ من خلال عطاءات الله له، وبمقدار عطاءات الله له، ومُمْتَحَنٌ فيما هو مسؤول عنه تُجاه عطاءات الله لغيره، كعَدَمِ الحسد.

النص التاسع:

جاء في سورة [الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول] بيان قصة امتحان سيدنا إبراهيم عليه السلام بأمرِه أن يَذْبَح ولدَهُ إسماعيل، وكان هذا بلاءً من الله عظيماً مُبيناً، فاستجاب عليه السلام لأمرِ الله، وأطاعَ إسماعيل عليه السلام، وعندَ بَدْءِ التنفيذ فداه الله عزّ وجلَّ بِذبحٍ عظيم، قال الله تعالى فيها:

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

إنّ هذا لَهُوَ البلاءُ المُبين: أي: الامتحان الواضح بِمُصيبةٍ واضحة.

ووصف الله إبراهيم وإسماعيل بأنهما من المحسنين إمّا لأنّ الأمر بالذبح لم يكُنْ تكليفاً واجباً، بل كان ندباً، وإمّا لأنّ مرتبة الإحسان بالنسبة

إلى الرّسل تشتمل على أوامر واجبة عليهم، إذ هي في الأصل من مرتبة الإحسان بالنسبة إلى غيرهم فلو أُمِرُوا بها لم يكن أمْرَ إلزام.

النص العاشر:

جاء في سورة [الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول] عرض لقطات من قصة بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، ومنها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ما فيه امتحان واختبار لهم مبين، وقد اشتملت هذه الآيات على نِعَم كثيرة، منها ما أنزل الله عليهم من المنّ والسَّلْوى، ومنها الاثنتا عشرة عيناً التي فجّرها لهم من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه، ومنها تظْليلُهم من حرّ الشمس بالغمام.

واشتملت هذه الآيات على ما لم يكونوا يُحبُّون، فمنها زلزلة الأرض من تحتهم في رحلة الاعتذار من عبادة العجل الذهبي، التي اختار لها موسى عليه السلام صفوة قومه سبعين رجلاً. ومنها رفْعُ الجبل فوقهم كأنّه ظُلَّة ليأخذوا ما آتاهُمُ الله من شريعة بقوة.

فالبلاء في هذا النصّ على أصل معناه، وهو الامتحان والاختبار.

النص الحادي عشر:

قول الله عز وجلّ في سورة [الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول]:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

في هذه الآية بيانُ أن جميعَ ما على الأرض، ممّا هو مُزَيَّنٌ للناس، من مآكل ومشاربَ وقصورٍ وممتلكاتٍ ومراكب ومُمْتِعاتٍ وأشياءَ فيها للأنفس لذّات، هي موادّ لامتحان الإنسان في ظروف هذه الحياة الدنيا،

فمن نال منها شيئاً فقد ابتُلِيَ بالنعمة، ومَنْ سُلِبَ شيئاً منها أو حُرِمَهُ، فقد ابتُلِيَ بالمصيبة، أو بما يكرَهُ، أو بما يخالف هواه.

النص الثاني عشر:

جاء في سورة [النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول] الأمْرُ بالوفاء بالعهد، والنهي عن نقض الأيمان بالله بعد توكيدها، وجاء بعد هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ... ﴿٩٢﴾﴾.

أي: يمتحنكم ويختبركم في الوفاء بعهودكم، وعَدَم نقضكم لأيمانكم.

النص الثالث عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول]:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المرادُ بالشّرّ في هذه الآية المصائب والمكاره، كمصيبة الموت، والمرادُ بالْخَيْرِ النِّعَمُ ومَحَابُّ النفوس، وليس المراد بهما الخير الحقيقي المطلق، والشرّ الحقيقي المطلق، بل الخير والشر في مفهوم الناس.

ونَبْلُوكم: أي: ونختبركم ونمتحنكم.

فِتْنَةً: أي: اختباراً وامتحاناً.

فدلّت هذه الآية على أنّ من امتحان الله لعباده امتحانَهم بالمصائب وبما يكرهون، وبالنعم وبما يُحِبُّون.

النصّ الرابع عشر:

جاء في سورة [المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول] عَرْضُ لقطاتٍ من قصةِ نوح عليه السلام وقومه، وما واجهوه به من تكذيب، وبأنه رُجلٌ به جِنَّةٌ، وأنّ الله عز وجل أوحى إليه بأن يصنع الفُلْكَ، وأنه قضى بإغراق كُفَّار قومه، وقال تعالى في آخر عرض اللّقطات:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: لَمُخْتبِرين نوحاً وقومه في الأحداث التي جرَت.

النص الخامس عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول]:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الغاية من خلق الموت والحياة في ظروف هذه الحياة الدنيا ابتلاءُ الناس أيُّهم أحسَنُ عملاً، والابتلاء يستلزم عقلاً الحسابَ والجزاء، ويكونان في الحياة الأخرى بعد الموت.

وهو العزيز الغفور: أي: وهو سبحانه وتعالى القويُّ الغالب الذي يُعاقِب الكفرة والعاصين، ويَغفِرُ للمذنبين من المؤمنين، إذْ هو غفور كثيرُ الغفران.

النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول]:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أن الله عز وجل يمتَحِنُ عباده بشيءٍ من مصائب الخوف والجوع ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات، وأنّ المطلوب منهم في هذه المصائب الصَّبْرُ، وأن يقولوا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وجاء فيها أنّ طالوت ملكَ بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام لما خرج بهم إلى الجهاد في سبيل الله قال لهم:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ... ﴿٢٤٩﴾﴾.

أي: إن الله مُمْتَحِنُكُمْ بِنَهرٍ ستصِلُونَ إليه، والمطلوبُ منكم أن لا تشربوا منه، فمن شرب منه فلا يُتابع معي المسير إلى الجهاد باستثناء من اغترف غرفة بيده.

النص السابع عشر:

جاء في سورة [آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول] عَرْضُ بعض أحداث ووقائع غزوة أُحُد، ومنها معصية الرّماة وطمَعُهُمْ بحيازة الغنائم، وفي هذا العرض خاطب الله المؤمنين بقولِهِ:

﴿... ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ ... ﴿١٥٢﴾﴾.

أي: ليختبر صِدْقَ إيمانكم وثَباتكم على الحقّ.

وعلَّمَ الله رسوله ما يقولُهُ للمنافقين الذين اعترضوا على الخروج، فقال له:

﴿... قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

أي: وَلِيَكْشِفَ الله ما في صدوركم من شكٍّ أو نفاق.

النص الثامن عشر:

وجاء في سورة [الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول] عرض بعض أحداث ووقائع غزوة الأحزاب، وما تعرّض له المؤمنون من خوف شديد، وما دارت في نفوسهم من ظُنُون، وقال الله عز وجل في أثناء هذا العرض:

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

أي: هنالك امْتُحِنَ المؤمنون امتحاناً قاسياً شديداً، بما تعرَّضوا له من شدَّةٍ وخوفٍ زلزلَ قلوبهم ونفوسهم.

النص التاسع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول] خطاباً للذين آمنوا:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾.

أثْخَنتُموهم: أي: أوقعتم فيهم قتلاً كثيراً، وغلَبْتُموهم وتمكّنتُمْ منهم تمكُّناً تامّاً.

أبان هذا النّصّ للؤمنين أنَّ الله يدعوهم إلى قتال الكافرين ليس لأنه بحاجةٍ إلى نُصْرتِهِم له، إذ لو يشاءُ لانتصَرَ من الكافِرين دُونَ أن يدعو المؤمنين إلى قتالهم، فأمْرُ إهلاكهم هيّنٌ عليه، ولكنّه سبحانه يدعو المؤمنين إلى قتال الكافرين ليَبْلُو بعضَهُمْ ببعض، إذ ينكشف في القتال المجاهدون الصابِرُون، والضعفاء المتخاذلون، والمنهزمون، ويَظْهَرُ الصّادِقون من غير الصادقين.

والذين قُتِلوا في سبيل الله من المؤمنين فَلَنْ يُضِيعَ الله أعمالَهُم.

فالقتال في سبيل الله مادّة من مواد الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

وشَرَحَ الله عز وجلّ الابتلاء بالقتال في سبيله بقوله في الآية (٣١) من السورة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

ونَبْلُو أخبارَكم: أي: ونكشِفَ بالواقع العملي أخبارَكُمْ التي هي آثار اختياراتِكُمُ الإراديّة في مجالات الجهاد في سبيل الله، ولا سيما الجهادُ بالقتال.

النصّ العشرون:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول]:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

أمشاج: أي: أخلاط من عناصِرَ ذاتِ صفاتٍ مختلفات.

نبْتَليه: أي: مُبْتَلِينَ مختبرينَ له مستقبلاً حينما يبلغ مبلغ المسؤولية والتكليف، فالجملة حاليّة من قبيل الحال المقدرة، والحال المقدّرة تشبه في المعنى ما تدخل عليه لام التعليل، ففي نحو: «ادخلوها خالدين» نلاحظ أنه بمنزلة ادْخلوها لتَخلُدوا، أو لتكونوا خالدين فيها.

النص الحادي والعشرين:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول]:

﴿... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: ولَوْ شاء الله أن يجعَلَكُمْ أمّةً واحِدَة لَسَلَبَكُم إراداتِكم الحرَّة فكنتُمْ مجبُورين، وعندئذٍ يجعَلُكُمْ أمّةً واحدةً مَهْدِيِّين جميعاً، كالملائكة، لا

تَعْصُونَ الله ما أمرَكُمْ وتفعلُونَ ما تُؤْمَرُونَ، لكن ما شاء الله ذلك بل شاءَ أن يمنَحَكُمْ إراداتٍ حُرَّةً كرَّمكُمْ بها لِيَبْلُوكُمْ فيما آتاكم من قوى وطاقاتٍ ومُسَخَّرات.

وإذ كُنتُم مُمْتَحَنِين فيما آتاكم رَبكُم، فاستبقوا الخيرَاتِ لتنالوا عند الله ثواب أعمالكم، ولتحموا أنفُسَكُم من عذاب الله وعقابه باجتناب الكفر والفسوق والعصيان، فإنكم بعد رحلة امتحانكم يكون رُجوعكُم جميعاً إلى الله وحده، ويوم الدين يُنَبِّئكم الله بما كنتُمْ فيه تختلفون من عقائدَ ومفاهيم ومذاهب وأعمالٍ وغير ذلك، ويحاسبُكم ويجازيكم على مكتسباتكم الإرادية.

النص الثاني والعشرون:

قول الله عز وجل في سورة [المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ... ﴿٩٥﴾﴾.

حرّم الله عزّ وجلّ على المُحْرِم بالحج أو بالعمرة الصَّيد، وأبانَ الله للمؤمنين في هذا النّصّ أنه سيَمْتحِنُهم بشيءٍ من الصَّيْدِ يأتي إليهم وهُمْ مُحرِمُون، حتّى تستطيع أيديهم أن تتناول بعضه، لكونه صغيراً أو ضعيفاً، وأمّا بعضُهُ الآخر فيستطيعون أن يتناولوا منه برماحهم، فمن اتقى الله لم يتناول من الصيد شيئاً وهو مُحْرِمٌ، ومن عصى واعتدى فله عذابٌ إليم.

رُوي أن هذا النصّ نَزَلَ عام الحديبية، وقد ابتلى الله المؤمنين حينئذٍ بأنّ الصيد كان يأتيهم إلى منازلهم وهم مُحْرِمُون، ليكشف بهذا الامتحان مَنْ يُطيعُ منهم ومن يَعْصي.

* * *

في السنة:

وجاء في السنة استعمال مادّة «البلاء» بمعنى الامتحان، والأكثر فيها استعمالها في الامتحان بالمصائب.

- روى الترمذي وابن ماجه والدارمي عن سَعْدٍ، قال: سئل النبي ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال:

«الأنبياءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأمثل، يُبْتلى الرَّجُلُ على حَسَب دينهِ، فإنْ كان صُلْباً في دينهِ اشتَدَّ بَلاؤُه، وإن كان في دينهِ رِقَّةٌ هُوِّنَ عليه، فما يزالُ كذلِكَ حتى يمشي على الأرضِ ما لَهُ ذنبٌ».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (المشكاة ١٥٦٢).

- وروى البخاري عن أنس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله سبحانه وتعالى: «إذا ابتليتُ عبدي بحَبِيبَتَيْهِ ثمَّ صَبَرَ عوَّضْتُهُ منِهما الجنّة» يريد: عَيْنَيْه.

- وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ المؤمِنِ كمَثَل الزَّرْعِ لا تزالُ الرِّيحُ تُميلُهُ ولا يزالُ المؤمِنُ يُصيبهُ البلاء، ومَثَلُ المُنافِقِ كمَثَلِ شجرةِ الأرزَةِ لا تهتَزُّ حتى تُستحصَدَ».

المقولة الرابعة:

استعراض نصوص «الفتنة» بنظرات تدبُّرية إليها

النصّ الأول:

جاء في سورة [المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول] الحديث عن «سَقَرَ» اسم علَمٌ من أسماء جهنّم دارِ العذابِ يوم الدين، سُمِّيت بهذا الاسم لِبُعْدِ قعرِها، ولشدّة حَرِّها المذيب للأجسام. فالسَّقْرُ في اللغة يأتي بمعنى البُعد،

ويأتي بمعنى شدّة الحرّ، يقال: سَقَرَتْهُ الشمسُ إذا ضربتْ دماغهُ وأذابته، وجاء فيها عن «سَقَرَ» أنَّ عليها تِسعَةَ عشر مُعذِّباً لتعذيب أهلها.

فقال أبو الأشدَّينِ الجُمَحيُّ وكانَ قويّاً شديد البأس: أنا أكفيكُمْ سبعة عشرَ، واكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله قوله في السورة:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

● أي: وما جعلنا عدَدَ المُشرِفين على تعذيب المعذَّبين في سقَر مُحدَّداً بمقدارٍ قليلٍ هو تسعةَ عشر إلا امتحاناً فيه إغراءُ الذينَ كفروا بالاستهانة بهذا العدد القليل، حتى قال أبو الأشدِّين ما قال، وهذا الامتحانُ الإغرائي أحدُ معاني الفتنة، وأحدُ صُور الابتلاء.

● ولدفع توهُّم أنَّ هؤلاء التسعة عشر أمثالُ البشر، أبان الله عز وجل أنَّهم ملائكة، والمشركونَ يعلَمُونَ أنّ الملائكة أصحاب قوىً عظيمة، فمنهم مَنْ يُدمِّرُ المُدُنَ ويَنْسِفُ الجبال نسفاً.

● وأضاف في أواخر الآية قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ أي: إنّ هؤلاء التسعة عشر من الملائكة الذين هُمُ المشرفون على تعذيبِ المعذَّبين في سَقَرَ هُمْ بعضُ جُنُودِ رَبّك، أمّا سائر جنوده فهُمْ كثيرون جدّاً، ولا يعلَمُهُم جميعاً ولا يعلم أعدادهم إلا الله وحده.

● وهذه الفتنة نَفْسُها تجعلُ الذين أُوتوا الكتاب من علماء اليهود والنصارى يستَيْقِنُون بأنّ القرآن حقٌّ وأنّ الرسول محمداً صادقٌ فيما يُبَلِّغُ عن ربّه، إذْ هُمْ يعلمون من كُتبهم هذا الْعَدَد، ولكنّ الذين كفروا منهم يجحدون ولا يعترفُون في ألسنتهم بما اسْتَيْقَنَتْهُ قلوبهم، وفي بيان استيقانهم

قال الله عز وجل: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهذه العبارة بدَلٌ من عبارة ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الآية.

- وهذه الفتنة نفسُها تجعل الذين آمنوا يَزدادون إيماناً، إذْ تُثيرَ فيهم الخوف من عذاب الله الشديد يوم الدين، فقال الله عز وجل: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾.

- وتشكيكُ المشكِّكينَ من المشركين في توهُماتهم حول هذا الموضوع لا يُؤَثِّرُ على يقين عُلماءِ أهل الكتاب، ولا على الذين آمنوا، إذْ هي لا تجعل قلوبَهُمْ ترتاب، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

ولكنَّ الذينَ في قُلوبهم مرضُ النفاق أو ما هو قريبٌ منه، وكذلك سائر الكافرين من غير طارحي التشكيك السابق، فإنّهم كما أبان الله عز وجل يقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾؟ أي: إنهم يتأثرون بتشكيكات المشكِّكين من المشركين، فيقولون: إذا كان التسعة عشر الذين ذكرهم الله في القرآن قد جعلهم مثلاً من جنوده الكثيرين الذين يُعذِّبون مُستحقّي العذاب من عباده، فما هو المراد من بيان كونِهِمْ تِسعَةَ عشر؟ وهلْ لهذا العدد سِرٌّ خاصٌّ حتى يُختارَ دون غيرِه من الأعداد؟

- وهكذا يطرحون تساؤلاتٍ لا علاقة لها بأصل الموضوع، إذ البيان يدور حول إنذار المكذّبين بالرسول وبالقرآن وبيوم الدين، بأنهم سيُعذَّبونَ يوم الدين في سَقَر التي يُشْرِفُ على التعذيب فيها تسعةَ عشر. إنه لو كان المشرف على تعذيبهم فيها ملكاً واحداً أو أكثر إلى ما لا حصر له، فإنَّ ذلك لا يُغيِّر من أصل القضية شيئاً، إذ يكفي مَلَكٌ واحد يُعْطيه الله القدرة على تعذيب كلّ الكائنات الحية لو شاء الله ذلك، بل يكفي أمْرُ الله بالتعذيب دون وساطة أحدٍ من مخلوقاته.

- أما السؤال عن الحكمة الرّبانيّة من تحديد عدّة «التسعة عشر» فهو يجرُّ أسئلة لا حصر لها، حول أنظمة الله عز وجل في الأعداد التي جعلَها ضمن أنظمته التكوينيّة للكائنات كلّها، كأعداد السماوات السَّبْع، وأعداد أبواب جهنم، وأعداد أبواب الجنّة، إلى غير ذلك من كلّ ما هو خاضعٌ لأنظمة عددية، مما يلاحظه العلماء في العناصر الكونية، وفي الذرّات، وفي الخلايا، وفي الحواس، وفي أنظمة العظام والسُّلاميّات والأسنان إلى ما لا تستطيع الخلائق حصره.

- وأخيراً فإنَّ هذه الفتنة الاختباريّة ينتج عنها ظهورُ فريقين من الممتَحَنين.

الأول: فريق يَضِلُّ باختياره الحرّ، فيُضِلُّهُ الله بحِكْمَتِه، أي: يحكُمُ عليه بالضَّلال، استناداً إلى واقع حاله، وحُكْمُ الله عزّ وجلّ بضلال هذ الفريق يتمّ بمشيئته المطلقة، التي لا يجبره عليها شيءٌ، لكن تقتضيها حكمتُهُ، ومعلومٌ أنّ حكمته من صفاته سبحانه.

الثاني: فريقٌ يهتدي إلى الحقّ ويؤمن باختياره الحرّ، فيهديه الله بحكمته، أي: يحكُم له بالهداية، استناداً إلى واقع حاله، وحكمُ الله بهداية هذا الفريق يتمّ بمشيئته المطلقة، التي لا يجبره عليها شيءٌ، لكن تقتضيها حِكمَتُه، ومعلومٌ أن حكمته من صفاته سبحانه.

فقال الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كذلك الحكم على الذين كفروا في هذه الفتنة الاختباريّة في موضوع الملائكة التسعة عشر بالضلال، والحكم لِلّذين آمنوا بالهداية، والّذينَ دلَّ عليهما ذكرُ فريق بعنوان: «الذين كفروا» وذكرُ فريقٍ آخرَ بعنوان: «الذينَ آمنوا» ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: في سائر صُور الاختبار في الحياة الدنيا للمكلّفين من ذَوي الإراداتِ الحرّة الموضوعين موضع الابتلاء فيها.

قول الله عز وجل في آخر الآية: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: وما سَقَرُ إذْ نتحدَّث عنها وعن صفاتها إلا ذكرى للبشر، أي: لغرض أن يكونَ العِلْمُ بها لدى المؤمنين المتقين مُسْتِقرّاً في ذاكراتهم، يستدعُونَهُ عند المناسبات، فإذا تذكّرُوها كانت دافعةً لهم عن طريق اختيارهمُ الحرّ إلى أن يتّقُوا المعاصيَ والمخالفات التي تجعلُ مُرْتكبيها يستحقُّونَ عذابَ الله فيها.

النص الثاني:

وجاء في سورة [القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول] عرض لقطاتٍ من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، وجاء فيها بيان امتحان الله لهم بإجابة طلبهم أن يُخْرِجَ لهم بدعاء رسولهم ناقةً وصفُوها من صخرة عيّنوها، ولمّا أجاب الله طلبهم جعل للناقة في حياتها بينهم شروطاً قاسيةً عليهم في طعامها وشرابها فتنةً لهم، أي: امتحاناً قاسياً، فلم يصبروا على شروطها فعقروها فأهلكهم الله، قال الله عزّ وجلّ فيها، حكايةً لما خاطب به صالحاً عليه السلام:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ (٣١)﴾.

فِتْنَةً لَهُمْ: أي: امتحاناً واختباراً.

قِسمَةٌ بينهم: أي: بينهم وبين الناقة لهم شِرْبُ يَوْمٍ معلوم، ولها شِربُ يوم معلوم.

فتعاطَى: أي: فتطاول قائماً على أطراف أصابع قدميْه ورافعاً يديه إلى الشيء، ليتناوله أو لِيُصيبه.

فَعَقَر: عَقْرُ الناقة أو البعير: قطع إحدى قوائمه ليسقُط فيُنحَر. فدَلّ

تعاطيه حتى يَصِلَ إلى قطع إحدى قوائمها على أنَّها ناقة عظيمة جداً، إذْ مكان عَقْرِها من إحدى قوائمها أعلى من قامَةِ عاقِرِها مادّاً يديهِ وواقفاً على أطراف أصابعه، وهذا يدلُّ على أنْ نِصْفَ قائمتها أطولُ من مِتْرَيْن تقريباً.

كَهَشِيم الْمُحتَظِر: أي: كأعواد الحطب التي يجمعها من يُريد إقامَة حَظيرَة لدوابّه أو أنعامه.

فدلَّ هذا النص على أن الله عز وجل امتحن قوم صالح بهذه الناقة التي أخرجها لهم بطريقة خارقة للعادة، وجعل شروط حياتها فيهم شروطاً قاسية عليهم، فسقطوا في الامتحان وأصَرُّوا على كفرهم فأهلكهم، وأنجى صالحاً والذين آمنوا معه.

النص الثالث:

وفي سورة [ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول] أبان الله عز وجل أنَّه فتَنَ، أي: امتحنَ كلًّا من داود وابنه سليمان عليهما السلام، ودلَّ داودَ على أنّه لم يعمَلْ ما كان ينبغي له، عن طريق الخصمَيْن اللّذَين استفتَيَاهُ إذْ دخلا عليه وهو في خلوته، وهما من الملائكة جاءوا على صورة بشَر متعدّيَيْنِ الأسوارَ المحصنة المحروسة. فقال تعالى فيها:

﴿... وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أما سُليمان عليه السلام فقال تعالى بشأنه:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

فتَنَّا سُليمانَ: أي: امتحنَّاه، وكان ما امتحنه الله به شديداً على نفسه، فقد رأى فيه أنّ مُلْكَهُ قد انتزِعَ مِنه.

النص الرابع:

في سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول] جاء بيان خطاب الله عز وجل بني آدم منذ عهد آدم وإلى أن تقوم الساعة، فحذَّرهم من أن يفتِنَهُم الشيطان كما فَتَنَ أبويهم فأخرجهُما من الجنة، والفِتنةُ هنا هي بمعنى الإغواء والإغراء للإخراج عن صراط الله المستقيم، وهذا المعنى لا يخرُجُ عن أصلِ معنى الامتحان لأنَّ ما يُغريهم الشيطانُ به هو من العناصر التي جعلَهَا الله في كونه للابتلاء والاختبار.

قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾.

النص الخامس:

وفي سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول] أيضاً عرضَ الله عز وجل ضمن قصة موسى وبني إسرائيل بياناً عن الميقات الثاني ميقات الاعتذار الذي اختار موسى عليه السلام له خلاصة قومه وصفوتَهُمْ وكانوا سبعين رجلاً، فلمّا حضروا إلى جانب جبل الطُّور أخذَتْهُمُ الرَّجفةُ الإنذارية التأديبيّة، فخافَ موسى عليه السلام أن تكون هذه الرجفة لإهلاكهم، فأسرَع دون رَويَّة إذْ جعلَ الله في طبعِه حِدَّةً تغلبه، فقال: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾؟.

وعَقِبَ ذلكَ مُباشرةً فاءَ إلى رُشدِه، وتَنَبَّهَ إلى تَسرُّعِهِ في الاعتراض الذي انطلَقَ بحِدَّتِه دون رَوِيّة، فتجاوز ما قال مُستدرِكاً كأنَّهُ لم يقُلْه، فقال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ودعا ربَّهُ بعدَ ذلك.

أي: ما كُلُّ ما نحنُ فيه أنا وقومي وسائرُ الناس إلا امتحانٌ منك، فمن ضلّ باختياره الحرّ حكمْتَ عليه بالضّلال بمشيئتك الحكيمة، ومن اهتدى باختياره الحرّ حكمتَ لَهُ بالهداية بمشيئتك الحكيمة.

قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ. . . ﴿١٥٦﴾﴾.

إنّا هُدْنا إليك: أي: إنَّا تُبنا ورجَعنا إليكَ، يقال لغة: هادَ يَهودُ هَوْداً، إذا تابَ وأنابَ ورجَعَ إلى صراط الحقّ والهُدى.

النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة [الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول]:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ. . . ﴿١٧﴾﴾.

ماءً غَدَقاً: أي: ماءً كثيراً.

لنفتِنَهُمْ فيه: أي: لنبتليَهُمْ ونمتحنَهُمْ فيه.

الماء: هو العنصر اللازم بحسب نظام الله في الخلق لكلّ شيءٍ حيٍّ، من نباتات وحيوانات، فالامتحان بالماء هو امتحان به مباشرةً لحاجات الأحياء إليه في شرابها وطعامها وطهارتها ونظافتها وأنواع مُتعتِها وزينتها، وامتحانٌ بكلّ ما يخلُق الله منه من نباتٍ وحيوان.

النص السابع:

وجاء في سورة [الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول] بيان اعتراض المشركين على بشريّةِ الرسول محمد ﷺ، وتكذيبهم له، وتقديم مقترحات

رأوا أنها لازمة حتى يُسلِّموا بأنه رسولٌ صادقٌ أرسلهُ الله حقاً، وربما أحزَنَ الرسولَ هذا الأمرُ، فقال الله عز وجل له فيها مسلّياً ومبيناً له أنه مُمتَحَنٌ كسائر الممتحنين، فعلاقات الناس بعضهم ببعض إحدى موادّ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا فقال الله عزّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

النص الثامن:

وجاء في سورة [طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول] عرض لقطات من قصة موسى وقومه، وفي هذا العرض أبانَ الله عز وجلَّ أنهُ قال لموسى عليه السلام إذ كلّمه بجانب الطور، وكلّفه أن يذهب رسولاً إلى فرعون وقومه وهو راجعٌ بأهله من أهل مدين:

﴿... وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ... ﴿٤٠﴾﴾.

أي: وامتحنّاكَ امتحاناً شديداً، فنجحْتَ في الامتحان.

وجاء في هذا العرض بيان أنّ الله عز وجل قال لموسى عليه السلام في لقاء الميقات الأول بعد خروجه مع قومه من مصر، وإهلاك فرعون وجنوده:

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: قد امتحنّاهم، بعِجلٍ ذهبيٍّ له خُوار صنعهُ السامِريُّ لهم، وأوهمهم أنه هو إلَه موسى.

لكنَّ هارون عليه السلام قال لهم كما أخبرنا الله فيها:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾.

إنما فُتنتُمْ به: أي: ما فُتنتم فتنةَ إغراءٍ فخرجتمْ عن صراطِ الهُدى إلا بهذا العجل الذهبيّ الذي صنعه لكم السامريّ.

النص التاسع:

قول الله عز وجل في سورة [طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول] أيضاً خطاباً لرسوله فكلّ داعٍ إلى الله من بعده وكلّ مؤمنٍ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

أي: ولا تَنظُرْ نَظَرَ تطلُّعٍ وحسدٍ وتَشَهٍّ، إلى ما متَّعْنا به أزواجاً (أي: أصنافاً) منهم حالة كون ما متّعناهم به زهرةَ الحياة الدنيا هي سريعة الزوال لا بقاء لها كزهر الأشجار، لنَفْتِنَهُم فيه، أي: لنختبرهُمْ أيشكُرُون ويطيعون الله فيه، أم يَعصُونَ ولا يشكرون. وبعد الامتحان الحساب والجزاء.

ورزقُ ربّكَ خيرٌ وأبقى مما يعطيه الناس من فضول أموالهم، أو رزق ربك في الآخرة في الجنة خيرٌ مما أوتُوه في الدنيا وأبقى في جنسه أو نوعه، لأنّ رزقه يومئذ لا ينفد.

النص العاشر:

وعرض الله عز وجل في سورة [النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول] لقطاتٍ من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، وجاء فيها أن ثموداً قالوا له كما جاء في قوله الله فيها:

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

اطَّيَّرْنا: أي تَطَيَّرنا، بمعنى تشاءمْنا بك وبمن معك، إذ نزلتْ بهم عوامل قحط وجَدْبٍ ومصائب في الأموال والأنفس، فزعموا أن ما نزل بهم

قد كان بسبب دعوة صالح لهم إلى الدين الذي جاءهم به، ومخالفة العقيدة الوثنية.

قال طائركم عند الله: الطائر: يأتي بمعنى الحظ والنصيب من الخير أو الشرّ، سواءً أكان ابتلاءً ابتداءً، أو تربيةً وتأديباً، أو جزاءً للتذكير والإنذار. ويأتي بمعنى ما يتفاءلُ به الإنسان أو يتشاءم.

فقول صالح عليه السلام لهم: «طائرُكم عند الله» أي: حظُّكمْ من الخير أو من الشر عند الله، فهو الذي يُنزله بكم بحكمته، إما لامتحانكم، أو لتأديبكم وتربيتكم أو ليجزيكم على أعمالكم جزاءً معجَّلاً للتذكير، والإنذار بالعذاب الأكبر.

بل أنتُمْ قومٌ تُفتَنون: أي: تُمنحون وتُختبَرون بما كرهتم ممّا تشاءَمتُم به. أو تُفتنون بمعنى تُصرفون عن معرفة الحق بإغراء الشيطان إذ يوحي إليكم أنّ ما نزل بكم قد كان بسبب رسولكم والذين آمنوا معه، والمعنى على هذا أنهم امتُحِنوا فأغراهم الشيطان فصرفهم عن الحق والإيمان به.

النص الحادي عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول] خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿. . . وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

وما جعلنا الرُّؤيا التي أريناكَ: هي ما شاهده الرسولُ ﷺ ليلة الإسراء شهوداً ببصره.

إلا فِتنةً للناس: أي: إلا امتحاناً واختباراً، فمن كان صادق الإيمان بالله ورسوله لم يُشكَّ بأن ما جرى للرسول محمد ﷺ ليلة أسرِيَ به حقٌّ

وصِدق، ومن كان كافراً وتأكّدَ له أن ما يخبِرُ به الرسولُ حقٌّ وصِدقٌ مطابقٌ للواقع زعَمَ أنهُ سِحرٌ، ولم يُصَدِّقْ بأن الله قد أسرى به فعلاً إسراءً بالجسد والروح معاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة.

والشجرة الملعونَةَ في القُرآنِ: هي شجرة الزَّقُّوم التي تنبتُ في أصلِ الجحيم، وقد جعلها الله في جهنَمَ طعامَ الأثيم، وهي أيضاً فِتنةٌ، ونفهم من كونها فتنةً معنيين:

الأول: أنّ الإخبار بها امتحانٌ يُقابله المؤمنون بالتصديق، إيماناً بأنّ الله قادِرٌ على أن يُنبت في داخل النار شجراً، فيزيدون إيماناً وتسليماً، ويقابله الكافرون بالتكذيب قائلين: كيفَ تنبتُ أشجارٌ في داخل النار، زاعمين أن النظام الذي يُشاهدونه للنبات في الأرض نظامٌ واجب بطبعه، وليس نظاماً وضعه الله له، فيزيدون بتكذيبهم كُفراً.

الثاني: أنّ شجرة الزّقُّوم نفسها يعذبُ الله بها الظالمين في الجحيم يوم الدين، وقد سبقَ أن عرفنا أن التحريق والتعذيبَ من المعاني التي تدلُّ عليها مادّة الفتنة، وعلى هذا المعنى يُحمَل قول الله عزّ وجلّ بشأن شجرة الزقوم في سورة [الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول]:

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ (٦٤) طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ (٦٨)﴾.

﴿لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: لسائلاً مخلوطاً من عناصر في ماءٍ شديد الحرارة.

النص الثاني عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول]:

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ

﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثم لم تَكُنْ فِتنتُهُمْ: الفتنةُ هنا هي بمعنى الادّعاء الكاذب، بغية الاعتذار والتهرُّبِ من الإدانةِ بشركهم الذي كان منهم في الحياة الدنيا، فالنص يتحدث عن حالهم يوم الحساب والجزاء في الآخرة.

قالوا: هذه الآية مدنية مضمومة إلى سورةٍ مكيّة.

النص الثالث عشر:

طلب كبراء مشركي مكة من الرسول ﷺ أن يطرُد عن مجالسه فقراءَ المؤمنين حتى يتّبعُوه، ازدراءً منهم لهؤلاء المؤمنين الفقراء والضعفاء، واستكباراً عن أن يتساوَوا معهم في المجلس، فأنزل الله عز وجل على رسوله قوله في سورة [الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول]:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما عليك من حساب الناس من شيء إذا كفروا ولم يؤمنوا، بل كلُّ واحد منهم يحاسَبُ عن نفسه، فلا تَطرُدَ الفقراء طمعاً بإيمان الكبراء الأغنياء لتتخلص من مسؤولية محاسبتِكَ على عدم إيمانهم، إذ لا تحمِلُ أنت من حسابهم شيئاً، وبما أنك تقوم بواجب التبليغ فإن عليهم أن يتبَلَّغوا ويشاركوا في مجالس التبليغ سائرَ طالبي الهداية.

وأنت مسؤول عن تبليغ دين الله للجميع على سواء، فقراء الناس

وأغنيائهم، ضعفاء الناس وساداتهم، فإذا طردتَ الفقراءَ والضعفاءَ وأبعدتهم عن مجالسك استجابةً لطلب الأغنياء والكبراء، فإنك تعرّض نفسك للمحاسبة والمؤاخذة على إبعادهم عن مجالس العلم الديني، الذي أمرك ربُّك بتبليغه للناس دون تمييز ولا تخصيص، وإن أغنياء المشركين وكبراءَهم الذين تريد إرضاءهم والاستجابة لِطَلِبهِم ليُسلموا لا يحملون عنك من مسؤولية الحساب شيئاً، بل سَتُدان وحدكَ بطرد الفقراء والضعفاء وعدمِ تبليغهم دين ربّهم.

وعلى هاتين القاعدتين من قواعد المسؤولية والمحاسبة جاء التفريعُ بقول الله عز وجل لرسوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فطرد الفقراء بعد بيان هاتين القاعدتين ظُلمٌ، فلا تستجبْ لطلب الأغنياء والكبراء فتطرُدَ الفقراءَ والضعفاءَ فتكونَ بطردهم من الظالمين.

بعد هذا أبان الله أن من سُنَّتِه في الاجتماع البشري امتحانَ الناس بعضهم ببعض، ومنه امتحان الأغنياء والكبراء بالفُقَراء والضعفاء، وبالعكس، فقال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: وكذلك الامتحان الذي جرى لأغنياء المشركين وكبرائهم تُجاهَ فقراءِ المؤمنين وضعفائهم، فتنّا «= امتحنا» بعض الناس ببعض، ليقول الأغنياء والكبراء أهؤلاء الفقراء والضعفاء مَنَّ الله عليهم من بيننا؟! وجاء الجواب الرّباني: أليس اللَّهُ بِأَعْلَمَ بالشاكرين؟!!

النص الرابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

خوّلناهُ نِعمةً مِنّا: وهبناهُ وملّكناهُ نعمةً منّا.

بل هي فِتْنة: أي: بل النعمة التي وهبناها له وملّكناه إياها إنما هي فتنة، أي: ابتلاء وامتحان.

فمن خلائق الإنسان أنه إذا مسَّهُ ضُرٌّ دعا ربّه، ثم إذا أنعم الله عليه بنعمة زعم أنه إنما أصابها بعلمه ومهارته وقُدرته على كسب المال، وتحصيلِ ما يلذُّه ويُمتعه ويَسُرُّه.

فردّ الله عليه بأنّ ما خوَّله إياه من نعمة إنما كان لابتلائه واختباره، كما أنه لم يكن بعلمه ومهارته، بل بعطاءٍ من الله له.

وهذه الحقائق لا يعلمها أكثر الناس، بحسب تعلُّقهمْ بالأسباب دون مُسببها.

النص الخامس عشر:

تحدّث الله عز وجل عن الكافرين إبانَ نزول القرآن، وأنذرهم بعذاب كبير، يومَ تأتي السماءُ بدخانٍ مُبينٍ يغشى الناسَ هذا عذابٌ أليمٌ، وأعقبهُ بقوله عز وجل في سورة [الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول]:

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ⑰﴾.

أي: ولقدْ امتحنَّا قبلهم قومَ فِرعونَ، فكذّبوا رسول ربهم، فأهلكهم الله.

النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول]:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ㉟﴾.

سبق في مادة (الابتلاء) شرح هذه الآية:

وفي أواخر هذه السورة علّم الله رسولَهُ أن يُنذرَ من يتولى عن دعوته،

وأن يُبَيّن لهم أنه لا يدري أقريب أم بعيدٌ ما يُوعَدون، وأنه لا يدري لعلَّ الله قضى بأن يؤخّر أجلَ تعذيبهم ليُطيلَ مُدَّة امتحانهم، ويمتّعهم في الحياة الدنيا إلى حين، فقال الله عز وجل فيها:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾.

فتنةٌ لكمْ: أي: ابتلاءٌ لكم وامتحان.

النص السابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة [العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٤٩ نزول]:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

أي: أحسِبَ الناس الذين آمنوا أن يقولوا: آمنَّا وهم لا يُمتَحنونَ بما يكرهون من صنوف بلاء، ولقد امتحنّا بصنوف من البلاء الذين آمنوا من قبلهم، إذْ هذا الامتحان هو من السّنن الربانية الثابتة في كل الأمم الحاضرة والماضية والآتية، لهذا جاء في النص: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾؟ وهو استفهام إنكاريّ.

النص الثامن عشر:

وجاء في سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول] بيانُ أنَّ الله عزّ وجلَّ أنزلَ على المَلَكَيْنِ ببابلَ هاروتَ وماروتَ علماً ذا تأثيرٍ غيبيّ شبيهٍ بتأثير السِّحْرِ، وأنَّهما كانا يُعَلمانِ هذا العِلْمَ، وما يعلمانِ منْ أحدٍ حتى يقولا إنما نَحْنُ فِتنةٌ فلا تكفرْ، أي: إنما نُعَلِّمُ عِلْماً فيه امتحانٌ لمن يتعلَّمُهُ إذْ قد يُستعمَلُ في الخيرِ والتأليف بين المرءِ وزوجهِ، وقد يُستعملُ في الشرّ

والتفريق بين المرءِ وزوجه، والأعمال التي تُستخدمُ لتحقيق المقاصد بمقتضى هذا العِلْم منها أعمالٌ صالحةٌ ليس فيها معصية لله عز وجل، ومنها أعمالٌ فاسدَةٌ فيها معصيةٌ لله من مستوىً يُوصِلُ إلى الكفر، وكانا يُحذّران المتعلّم من الكفر ومن كلّ ما يوصل إليه.

لكنّ الذين كانوا يتعلّمونَ منهما كانوا يتعلّمُونَ منهما ما يَضُرُّ ولا ينفع لفساد نفوس الناس.

فقال الله عز وجل فيها في معرض الكلام على فريق من اليهود:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

فدلَّ هذا النصّ على أنه ما من وسيلة في الكَونِ ظاهِرَةٍ كالوسائل الماديّة المشهودة للناس بالحواس الظاهرة ووسائلها، أو خفيّة كأعمالِ السّحر وأعمالٍ شبيهةٍ بالسّحر، وهي ما كان يُعلّمه الملكان هاروت وماروت، إلاّ وهي قابلة لأن تُستعمَل في الخيرِ ولأن تستعمَل في الشّر، إلا أنَّ الناس بالنسبة إلى الوسائل الخفية تغلبهم نزعات الإثم والعدوان فيستعملون الوسائل الخفية في الشر، وربما استعملوا منها ما فيه كُفْرٌ أو يُوصِلُ إلى الكُفر.

وامتحانُ من يتعلّمُها امتحانٌ صعْبٌ جداً قلّما ينجو منه أحد، ولذلك حرَّم الإسلام السّحر، وجاء في بيان الرسول ﷺ أن الساحر يُقتَل، وقد تعلّم فريق من اليهود السِّحرَ فكفروا وصنعوا شروراً كثيرة، واستخدموه في

الإضرار بعباد الله، وهُمْ آمِنونَ من التعرّض للإدانة من قبل الحكام من البشر، لكنّ الله يتولى معاقبتهم، فالساحر لا يُفلح حيثُ أتى.

النص التاسع عشر:

وفي سورة [الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول] خاطب الله عز وجل الذين آمنوا بقوله:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

واتَّقُوا فِتنَةً: أي: واتقوا عِقاباً مؤلماً لكم لا يَقتَصرُ على إصابة الظالمين منكم فقط، بل يَعُمُّ الظالمين وغيرهم، فيكون للظالمينَ عقاباً، ويكون لغير الظالمين امتحاناً واختباراً، أو تربيةً وتأديباً.

فلفظ الفتنة في هذا النص مستعمل بمعنى العقاب بدليل ما جاء في الآية من أنها لا تُصيبُ الذين ظلموا خاصة، ومن تذييلها بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

النص العشرون:

قول الله عز وجل في سور [الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول] أيضاً خطاباً للذينَ آمنوا:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾.

فِتنةٌ: أي: إنما أموالكم وأولادُكم من عناصر امتحانكم وابتلائكم في ظروف الحياة الدنيا، فإذا التزمتُمْ بطاعة الله عز وجل كانَ لكم عندهُ أجرٌ عظيم.

ونظيره ما جاء في الآية (١٥) من سورة [التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول].

النص الحادي والعشرون:

ما جاء في الآية (٩١) من سورة [النِّساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول] فلفظ الفتنة الوارد فيها هو بمعنى الابتلاء والاختبار.

النص الثاني والعشرون:

قول الله عز وجل في سورة [الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول]:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ⑪﴾.

وإنْ أصابتهُ فتنةٌ: أي: وإنْ أصابتهُ مصيبةٌ لاختباره وابتلائِهِ.

وجاء في الآية (٥٣) منها لفظ الفتنة بمعنى الاختبار والابتلاء.

النص الثالث والعشرون:

قول الله عز وجل في سورة [المائدة ج/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول] خطاباً لرسوله:

﴿... وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا... ㊶﴾.

أي: ومن يُردِ الله امتحانَهُ في ظروف هذه الحياة الدّنيا لكشفِ ما في نفسه من خيرٍ وطاعة، أو شرٍّ ومعصية، فلنْ تملِكَ لَهُ من الله شيئاً لهدايته هدايةً جبريَّة، لأنّ من شروط الامتحان منحَ الإرادة الحرّة.

خاتمة هذا الملحق:

بهذا العرض الاستقرائي التَّدَبُّريّ ظهَرَ لنا التطابُق بين ما جاء من مادّة «الابتلاء» ومادة «الفتنة» في أنّ معظمه مُستعمَلٌ للدلالة على معنى الامتحان والاختبار، وأنَّ كُلَّ ما في الحياة الدّنيا ممّا يخضع سُلوكُ الإنسان تُجاهه للإرادة الحرّة هو مادّةٌ من موادّ الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا، سواءً أكان هذا السلوك سلوكاً ظاهراً بالأعمال الجسدية، أو سلوكاً باطناً بالأعمال النفسية أو القلبيّة أو الفِكريّة.

خاتمة المجلدين الرابع والخامس

هذا ما فتح الله به عليّ من تدبُّرٍ لسورتي (الأعراف) و(الجنّ) وللملاحق التابعةِ لهذا التدبّر، والحمدُ لله على ما تفضّل عليّ ومَنَّ، إنه جزيل العطاء، وعظيم المِنَنِ.

وكان الفراغ من كتابة المجلّدين الرابع والخامس الجامِعَيْنِ لتدبّر السُّورَتَيْنِ المذكورتَيْنِ آنفاً، ولِمَلاَحِقِهِما، يوم الجمعة/ ٢٧ من شهر رجب ١٤٢٠ هجرية.

الموافق لـ/ ٥/ ١١/ ١٩٩٩ ميلادية.

اللَّهمَّ انْفَعْ بما وفقتني لكتابته، وقضَيْتَ لي به، واجْعَلْهُ بفضلك ومَنِّك وكَرَمِكَ من صالح الْعَمَلِ الذي تكْتُبُ لي به عندك أجراً عظيماً، وثواباً جزيلاً في جنّات النَعيم يوم الدين.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

عبد الرحمٰن حسن حبنكه الميداني.

الفهرس

الموضوع الصفحة

تابع سورة الأعراف

(١١) التدبّر التحليليّ للدرس السابع من دروس سورة (الأعراف) وهو الآيات من (١٧٢ ـ ١٧٤) ٥

القراءات ٥

تمهيد ٦

التدبّر ٩

● ﴿وإذْ أخذ رَبُّكَ مِنْ بني آدم من ظهورهم ذُرّيتهم.. (١٧٢)﴾ ٩

● ﴿وأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بلى شهدنا.. (١٧٢)﴾ ١٠

الزمن الملائم لهذا الحدث من تاريخ أطوار وجود بني آدم ١١

● ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ ١٣

● ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ ١٤

ما هي الأمانة التي عرضها الرَّبُّ جلّ جلالُه؟ ١٦

الأشياء الّتي وضعها الرَّبُّ جلّ جلالُهُ أمانَة تحت سلطان الإنسان ٢٠

كيف كان حالُ معظم أفراد الإنسان بعد دخولهم رحلة الامتحان ٢١

● ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيات ولَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون (١٧٤)﴾ ٢٢

التفصيلُ في الأشياء ٢٣

استعراض النصوص حول تفصيل الآيات ٢٤

(١٢) التدبّر التحليليّ للدَّرْس الثامن من دُروس سورة (الأعراف) وهو الآيات من (١٧٥ ـ ١٧٧) ٢٧

الموضوع الصفحة

تمهيد ٢٨

- ﴿وَأتلُ عَلَيهم (١٧٥)﴾ ٢٨
- ﴿وَاتلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنهَا.. (١٧٥)﴾ ٢٩
- ﴿فَانسَلَخ مِنهَا﴾ ٣٠
- ﴿فَأَتبَعَهُ الشَّيطَانُ.. (١٧٥)﴾ ٣١
- ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ.. (١٧٥)﴾ ٣١
- ﴿وَلَوْ شِئنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا.. (١٧٦)﴾ ٣١
- ﴿وَلَكِنَّهُ أَخلَدَ إِلَىٰ الأَرْضِ واتَّبعَ هَواهُ... (١٧٦)﴾ ٣٢
- ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحمِلْ عَلَيهِ يَلْهَثْ وَإِن تَترُكهُ يَلْهَث.. (١٧٦)﴾ ٣٢
- ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوم الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ ٣٢
- ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)﴾ ... ٣٣

بيان عامٌّ حول هذا الدَّرْس ٣٤

(١٣) التدبُّر التحليليّ للدرس التاسع منْ دُروس سورة (الأعراف) وهو الآيتان: (١٧٨ و١٧٩) ٣٩

تمهيد ٤٠

- ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي.. (١٧٨)﴾ ٤٢
- ﴿وَمن يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون (١٧٨)﴾ ٤٣
- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ.. (١٧٩)﴾ ٤٤
- ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بها ولَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بها.. (١٧٩)﴾ ٤٦
- ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ.. (١٧٩)﴾ ٤٩
- ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ ٥١

(١٤) التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس سورة (الأعراف) وهو الآية (١٨٠) ٥١

الموضوع **الصفحة**

القراءات ٥١

تمهيد ٥٢

- ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحسنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا.. (١٨٠)﴾ ٥٤
- ﴿... وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ.. (١٨٠)﴾ ٥٦
- ﴿... سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ ٥٧

(١٥) التدبّر التحليلي للدرس الخامس عشر من دُروس سورة (الأعراف) وهو الآيات من (١٨١ ـ ١٩٨) ٥٧

القراءات ٥٨

تمهيد ٦١

- ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾ ٦٢

بقاءُ طائفة من أُمّة محمّدٍ ظاهِرينَ على الحقّ ٦٥

- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾ ٦٦
- ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ ٦٨
- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هو إلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤)﴾ ٧٠
- ﴿... إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مبِينٌ﴾ ٧٣
- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُون (١٨٥)﴾ ٧٤
- ﴿... وأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ.. (١٨٥)﴾ ٧٥
- ﴿... فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾ ٧٥
- ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾ ... ٧٦
- ﴿... ويَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾ ٧٨
- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا.. (١٨٧)﴾ ٧٩
- ﴿... قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً.. (١٨٧)﴾ ٨٢

الموضوع **الصفحة**

● ﴿... يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ ٨٨

● ﴿قُل لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ ٩١

● ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفاً فَمَرَّتْ به فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ له شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾ ٩٣

تمهيد ٩٣

● ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا... (١٨٩)﴾ ٩٤

● ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)﴾ ٩٥

● ﴿فَلَمَّا آتاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾ ٩٦

● ﴿... فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩١)﴾ ٩٩

● ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩٢)﴾ ١٠٠

● ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)﴾ ١٠١

● ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دون الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بها أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بها... (١٩٥)﴾ ١٠٢

تمهيد ١٠٣

● ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ... (١٩٣)﴾ ١٠٤

● ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُون﴾ ١٠٤

الموضوع الصفحة

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ ١٠٥
- ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا.. ﴿١٩٥﴾﴾ ١٠٦
- ﴿.. أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا.. ﴿١٩٥﴾﴾ ... ١٠٧
- ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونَ.. ﴿١٩٥﴾﴾ ١٠٩
- ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ ١٠٩
- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ ١١٠

(١٦) التدبُّر التحليليُّ للدَّرس الثاني عشر من دروس سورة (الأعراف) وهو الآيات من (١٩٩ ـ ٢٠٦) آخر السورة ١١٢

القراءات ١١٣

- **تمهيد** ١١٤
- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عن الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ ١١٥

(١) شرح الوصيّة الأولى: [**خُذِ الْعَفْوَ**] ١١٥

(٢) شرح الوصيّة الثانية: [**وَأْمُرْ بالعُرْفِ**] ١١٧

(٣) شرح الوصيّة الثالثة: [**وأعرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ**] ١١٩

- ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ .. ١٢٠

تمهيد ١٢٠

- ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ.. ﴿٢٠٠﴾﴾ ١٢١
- ﴿فاسْتَعِذْ باللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ ١٢١

جاء تأكيد مضمون الآية (٢١٠) في الآيات من (٣٣ ـ ٣٦) من سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مع تدبر هذا النصّ ١٢٣

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ من الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ ١٢٧

الموضوع الصفحة

- ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ ١٢٨
- ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا.. ﴿٢٠٣﴾﴾ ١٣٠
- ﴿.. قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي... ﴿٢٠٣﴾﴾ ١٣٣
- ﴿... هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ ١٣٣
- ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ ١٣٦
- ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ ١٣٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ ١٤٣

مَلاحِق لتدبُّر سورة (الأعراف) ١٤٦

(١٧) **الملحَقُ الأول**: مُسْتَخْرَجَات بَلاغِيَّةٌ مِنْ سُورَةِ (الأعراف) ١٤٧

(١٨) **الملحَقُ الثاني**: السؤال في محكمة الْعَدْل الرَّبَّانية يوم الدين ١٨١

(١٩) **الملحق الثالث**: الوزْن في مَحْكَمَةِ الْعَدْل الرَّبَّانية يوم الدين ٢٠٥

(٢٠) **الملحق الرابع**: حوْل اتخاذ الدِّين لَهْواً وَلَعِباً وَهُزُواً والاغترار بالحياة الدُّنيا ٢٢٤

(٢١) **الملحق الخامس**: دراسة تكاملية للنُّصُوص بشَأْن لُوطٍ عليه السلام وقومه في القرآن ٢٧٩

(٢٢) **الملحق السادس**: دراسة تكاملية للنصوص بشأن شعيب عليه السلام وقومه ٣٥١

(٢٣) **الملحق السابع**: حول ما جاء في القرآن بشَأْنِ سُنَنِ اللَّهِ في الْأُمم حتَّى اسْتِحقَاقها الإهلاك الشامل ٤٣٠

(٢٤) **الملحَقُ الثامن**: حول رَغبة الكافر أن يقْضي الله له باسْتِئْناف رِحْلَةِ امْتِحَانه حتَّىٰ تمنِّيهِ أَنْ يَكُونَ تراباً ٤٨٨

سُورَة الجنّ

٧٢ مصحف ٤٠ نزول

(١) **نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات** ٥١٧

(٢) **موضوع سورة الجنّ** ٥٢٠

الموضوع الصفحة

(٣) دُروس سورة الجنّ ٥٢٠

(٤) دراسة شاملة للجنّ ٥٢١

تعريف بالجنّ ٥٢١

مادّة كلمة (الجنّ) عند أهل اللُّغة ٥٢٣

الجن مخلوقون من مارج من نار والملائكة من نور، والإنْسُ من الطِّين ٥٢٤

إبليس من الجنّ ٥٢٦

الجنّ سُلاَلَةٌ كالإنس، أصناف وألوان ولهم مذاهب شتَّىٰ، وهم يَرَوْننا من حيثُ لاَ نراهُمْ ٥٢٧

الجن يأكلون ويشربون ويناكحون ويتناسلون ٥٢٩

هلْ بعَثَ الله رُسُلاً مِنَ الجنّ إلى الجنّ ٥٣٢

الجنّ يموتون ويُبْعَثُونَ يَوْمَ القيامة للحساب والقضاء والجزاء ٥٣٥

تَدَبُّرُ نَصِّ الأَحْقَافِ بشأن وفْدٍ من وفود الجنّ ٥٣٧

ممّا جاء في السُّنَّةِ بشأن وفادات وفود من الجنّ إلى الرسول ﷺ ٥٤٤

تَتِمَّةٌ مُتَفرِّقَاتٍ عن الجنّ في النُّصوص القرآنيّة ٥٤٩

(٥) التدبّر التحليليّ للدرس الأول من دُروس سورة (الجنّ) وهو الآيات من (١ ـ ١٥) ٥٦٠

تمهيد ٥٦١

- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ من الْجِنّ..﴿١﴾﴾ ٥٦١
- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ ٥٦٤

وجُوهُ تكليم الله لبَشرٍ من عباده ٥٦٤

- ﴿نَفَرٌ مِنَ الجِنّ﴾ ٥٦٥
- ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ ٥٦٦
- ﴿يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ﴾ ٥٦٧
- ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ ٥٦٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أحداً (٢)﴾ ٥٦٨
- ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً (٣)﴾ ٥٦٩
- ﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا (٤)﴾ ٥٧٠
- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ والْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (٥)﴾ ٥٧٢
- ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُون بِرِجَالٍ من الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (٦)﴾ ٥٧٣
- ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحداً (٧)﴾ ٥٧٧
- ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وشُهُباً (٨)﴾ ٥٧٩

نظرة تدبُريَّة إلى النصوص القرآنية بِشَأنِ حِفظِ السَّماء من الشياطين ٥٨٤

- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً (٩)﴾ ٥٨٩
- ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (١٠)﴾ .. ٥٩٠
- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (١١)﴾ ٥٩١
- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهِ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (١٢)﴾ ٥٩٣
- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ... (١٣)﴾ ٥٩٤
- ﴿... فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً﴾ ٥٩٥
- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لجهَنَّم حَطَباً (١٥)﴾ ٥٩٦

(٦) التدبّر التحليليّ للدَّرْس الثاني من دروس سورة (الجنّ) وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩) ٦٠١

تمهيد ٦٠١

القراءات ٦٠٢

- ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا على الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ....﴾ . ٦٠٣
- ﴿.. وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (١٧)﴾ ٦٠٧
- ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (١٨)﴾ ٦١١

الموضوع **الصفحة**

● ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (١٩)﴾ ٦١٣

(٧) التدبُّر التَّحلِيليُّ للدَّرْسِ الثالث من دُرُوسِ سُورَةِ (الجنّ) وهو الآيات من (٢٠ ـ ٢٨) آخر السورة ٦١٩

القراءات ٦١٩

تَمْهيد ٦٢٠

● ﴿قُلْ إِنَّما أَدْعُو رَبِّي وَلَنْ أُشْرِكَ بِهِ أَحَداً (٢٠)﴾ ٦٢١

● ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً (٢١)﴾ ٦٢٢

● ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحداً * إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (٢٣)﴾ ٦٢٤

● ﴿إِلاَّ بَلاغاً من اللَّهِ وَرِسَالاَتِهِ... (٢٣)﴾ ٦٢٦

● ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها أَبَداً﴾ ٦٢٧

● ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ منْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (٢٤)﴾ ٦٢٩

● ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (٢٥)﴾ ٦٣٤

● ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحداً (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ...﴾ ٦٣٥

نظرات شاملات إلى مفهوم الغيب ٦٣٦

● ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بما لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨)﴾ ٦٤٠

تَتِمَّةٌ حَوْلَ بَعْضِ مَفْهُومَاتٍ عَنِ الْغَيْبِ في الْقُرآنِ المجيد ٦٤٤

مَلاحق لتَدَبُّر سورة (الجنّ) ٦٤٧

(٨) **المُلحَقُ الأَوَّل**: نَظْرَة إِجْمَالِيَّةٌ عَامَّة إِلَىٰ وَحْدَةِ مَوْضُوع سورة (الجنّ) ... ٦٤٧

(٩) الملحق الثاني: مُسْتَخْرَجَات بلاغية من سُورَة (الجنّ) ٦٥٥

(١٠) **الملحق الثالث**: نصوصُ الابتلاء والفتنة في القرآن المجيد وفيه أربع مقُولات: ٦٦٤

الموضوع	الصفحة
المقولة الأولى: تَعْرِيفات وبيانَات تأسيسيَّة	٦٦٤
المقولة الثانية: نظرات تحليليّة حوْلَ حِكَمِ اللّهِ في النِّعَمِ والمصائب	٦٧٠
المقولة الثالثة: استِعْرَاض نصوص «الابتلاء» بنظراتِ تَدَبُّريّة إليها	٦٧٦
المقولة الرابعة: استِعْرَاض نصوص «الْفِتْنَة» بنظراتِ تَدَبُّريَّة إليها	٦٨٨
خاتِمة المجلّدين الرابع والخامس	٧٠٧

* * *

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرٌ تَدَبُّرِيٌّ لِلقُرْآنِ الكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ
وِفْقَ مَنْهَجِ كِتَابِ «قَوَاعِدِ التَّدَبُّرِ الأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»

المُجَلَّدُ السَّادِسُ

تَفْسِيرُ سُورَتَيْ

يس (٤١) - الفرقان (٤٢)

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

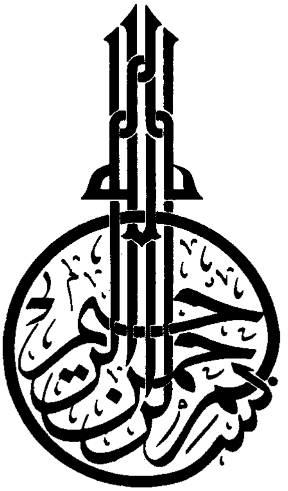
بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

حُقوقُ الطبْع محْفوظَة لِلمؤلِّف

تُطلبُ جميعُ كتُبنا مِنْ :
دَارُ القَلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعودية عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَةُ يس

٣٦ مصحف ٤١ نزول
وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ
إلا الآية ٤٥ فهي مدنية

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات
وهي مكية إلّا الآية (٤٥) منها فمدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا
مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ
فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى
ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ
خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ
ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ

---

٤ - • قرأ قُنْبُل، ورُوَيس: [سِرَاطِ] بالسّين بَدَلَ الصّاد، وهي لغة عربية.
وقرأ خلف عن حمزة: بإشمام الصاد زاياً.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿صِرَاطٍ﴾ بالصّاد.

٥ - • قَرَأ ابْنُ عامرٍ، وحفْص، وحمزة، والكسائي، وخَلف: ﴿تَنْزِيلَ﴾ بالنَّصب على تقدير منزّلاً تنزيل.
وقرأ باقي القراء العشرة: [تَنْزِيلُ] على أن اللّفظ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هُوَ تَنْزِيلُ.

٩ - • قرأ حفْص، وحَمْزة، والكِسَائي، وَخَلَف: ﴿سَدًّا﴾ بفتح السّين، في الموضعين.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [سُدًّا] بضم السّين في الموضعين أيضاً.
والقراءتان لغتان عربيتان.

كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ
وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾ وَٱضۡرِبۡ لَهُم
مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ
ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾
قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ
إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا
عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ
تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم
مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ

---

١٤ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [إِلَيهِمِ ٱثْنَيْنِ] بكَسْرِ الميم.

وقرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف: [إِلَيْهُمُ ٱثْنَين] بضم الهاء والميم.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِلَيهِمُ ٱثْنَين﴾ بكسر الهاء وضَمّ المِيم.

وهي وُجوه عَربية في النطق.

• وقرأ شُعْبَةُ [فَعَزَزْنَا] وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ بتشديد الزاي الأولى.

وهما لغتان متكافئتان.

وفي عَزَّزَ مزيد تقوية.

١٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [أَأَنْ ذُكِرْتُمْ] أي: لأجل أنْ ذُكِّرتم.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُم﴾: بكَسْرِ الهمزة الثانية. وهي على معنى الشرط، أي: أَئِنْ ذُكِّرتم تَطيَّرتم.

والاستفهام في القراءتين إنكاريّ.

١٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [ذُكِرتُمْ] أي: أخِفتُم أن تشتهروا بين الناس بقبائحكم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ أي: تُهَدِّدُوننا بالقتل لأجلِ تذكيرنا إيّاكُم بما فيه نجاتُكم وسَعادتُكم.

أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾
ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ
أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا
وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ
ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ
قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ
﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ
خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ

---

٢٢ ـ • قرأ حمزة، وخلف، ويعقوب: [**وَمَالِي لاَ أَعْبُدُ**] بإسْكَان ياء المتكلم. وقرأ باقي القراء العشرة بفتحها. وهمان لغتان عربيّتان لنطق هذه الياء.

٢٢ ـ • قرأ يعقوب: [**تَرْجِعُون**] وقرأ الباقون: ﴿**تُرْجَعُون**﴾. والقراءتان متكاملتَان في الأداء البياني.

٢٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [**يُرِدْنِيَ**] بياء مفتوحة وصلاً، ساكنةٍ وقفاً. وأثبتها يعْقُوب في الوقف. وحذَف الياء باقي القرّاء العشرة.

٢٤ ـ ٢٥ ـ• [**إِنِّيَ إِذاً**]: نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر ﴿**إِنِّي إِذاً**﴾ الباقون. ومثْلُها: [**إِنِّيَ آمَنتُ**] ويوافق ابن كثيرٍ على الفتح.

٢٥ ـ [**فَاسْمَعُونِي**] يعقوب في الوصل والوقف ﴿**فَاسْمَعُونِ**﴾ الباقُون.

٢٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [**إِلاَّ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ**] بالرفع على اعتبار أنَّ «**كَانَ**» تامة غير ناقصة. وقرأ جمهور القراء العشرة: ﴿**إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً**﴾ بالنصب على اعتبار أنّ «كان» ناقصة.

ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا
مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا
حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا
عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ
كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ
﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ
﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

---

٣٢ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وابن جمّاز: [لَمَّا] بتشديد الميم، وهي بمعنى «إلّا».

أي: وما كُلٌّ إلّا لدينا محضرون.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَمَا] بتخفيف الميم، وعلى هذه القراءة تكون «إنْ» هي المخففة من الثقيلة، واللام في [لَمَا] هي اللّام المزحلقة، وما صلة للتأكيد.

والقراءتان تفنُّن في التعبير، والمؤدىٰ منهما واحد.

٣٣ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [الميِّتَةُ] بتشديد الياء.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿المَيْتَةُ﴾ بتخفيف الياء. وهما لغتان متكافئتان.

٣٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وهشام، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، وخَلَف: ﴿الْعُيُونِ﴾ بضم العين. وقرأ الباقون: [العِيُونِ] بكَسْرِ العين، وهما لغتان.

٣٥ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [مِنْ ثُمُرِهِ] جمع «ثَمَرَة». وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ بفتح الثاء والميم، وهو اسم جنس جمعي يفرّق بينه وبين واحدة بالتاء، ومؤدّىٰ القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ اللّغوي.

٣٥ ـ • قرأ شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [وَمَا عَمِلَتْ] دون هاء الضمير، إيجازاً.

وقرأ الباقون: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾.

ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ
ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ
سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا
ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا
يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ
﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ
مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ
ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا
يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا

---

٣٩ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ورَوْح: [والقَمَرُ] بالرّفع على الابتداء.
وقرأ باقي القراء العشرة ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف، يفسّر [قدَّرْناه] لاشتغاله عنه بنصب ضميره.

٤١ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالإفراد، والمؤدى واحد.

٤٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [يَخْصِّمُونَ].
وقرأ ورش، وابن كثير، وهشام: [يَخَصِّمُونَ].
وقرأ أبو عمرو: باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد.
وقرأ قالون كأبي جعفر وأبي عمرو.

=

يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِى
ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا۟
يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ
ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ
جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ
ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧)
سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ
(٥٩) ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟

= وقرأ ابنُ ذكوان، وعاصم والكسائي ويعقوب، وخلف: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾.
وقرأ حمزة: [يَخْصِمُون]. وهي وجوهٌ في النطق والمؤدّىٰ واحد.

٥٣ ـ قرأ أبو جعفر: [إلاّ صَيْحةٌ وَاحِدَةٌ] على اعتبار أن «كان» تامّة.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ بالنصب على اعتبار أنّ «كان» ناقصة.

٥٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو: [في شُغْلٍ] بتسكين الغين.
وقرأ الباقون بضمها. وهما لغتان عربيتان.

٥٥ ـ • قَرأ أبو جعفر: [فَكِهُونَ] دون ألف بعد الفاء، جمع «فَكِهٍ».
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَاكِهُونَ﴾: جمع «فَاكِه».
والمعنى فيهما واحد. أي: ناعمون طيبة نفوسهم.

٥٦ ـ قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [فِي ظُلَلٍ] جمع ظُلَّة، وهي كلُّ ما أظلّ.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جمع «ظِلّ».
والقراءتان من التفنن في التعبير، والمؤدّىٰ واحد.

ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا
صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ
تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾
ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ
أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ
﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ
يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا
ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ
فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ

---

٦١ - • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، وخلف: ﴿وَأَنِ اعْبُدوني﴾ بكسر النون.
وقرأ الباقون: [وَأَنُ اعْبُدُوني] وهما وجهان في النطق للتخلّص من التقاء الساكنين.

٦٢ - • قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿جِبِلًّا﴾.
وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ورويس، وخلف: [جُبُلاً].
وقرأ أبو عمرو، وابن عامر: [جُبْلاً].
وقرأ روح: [جُبُلًّا].
وهي لغات متكافئة. والمعنى: جماعة من الناس.

٦٧ - • قرأ شعبة [مَكَانَاتِهِم] بالجمع، وقرأ الباقون ﴿مَكَانَتِهِمْ﴾ بالإفراد. والمؤدّى واحد.

٦٨ - • قرأ عاصم، وحمزة: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾. وقرأ الباقون: [نَنْكُسْهُ] وهما وجهان لغويان وفي «نُنَكِّسْهُ» معنى المبالغة في التنكيس، وهذا يلائم أحوال الذين يزيد الله في تنكيسهم.

٦٨ - • قرأ نافع، وابن ذكوان، وأبو جعفر، ويعقوب: [أفلا تَعْقِلُون] بتاء المخاطبين.
وقرأ الباقون: ﴿أفلا يَعْقِلُون﴾ بياء الغائبين. وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا
وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم
مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ
فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ
﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا
يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾
أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ
وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ
بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ
ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ

---

٧٠ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [لِتُنْذِر] خطاباً للرسول.
وقرأ الباقون: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ بياء الغائب. وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٧٦ ـ ● قرأ نافع: [فَلَا يُحْزِنكَ] من فعل «أَحْزَنَهُ».
وقرأ الباقون: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ﴾ من فعل «حَزَنَهُ».
وهما لغتان متكافئتان.

٧٨ ـ ٨١● قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكسائي، بإسْكان هاء الضمير في [وَهْي ـ وهْوَ].
وقرأ الباقون: [وَهِيَ] بكسر الهاء، و[هُوَ] بضم الهاء. وهي لغات.

٨١ ـ ● قرأ رُويس: [يَقْدِرُ] مضارع «قَدَر».
وقرأ الباقون: ﴿بِقَادِرٍ﴾.

=

ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

= وهما من التفنُّن في التعبير والمؤدّى واحد.

٨٢ ـ • قرأ ابن عامر، والكسائي: [فَيَكُونَ] بالنصب.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرفع.
والقراءتان وجهان صحيحان إعرابيًا عند النحويّين.

٨٣ ـ • قرأ رُوَيس بحذف صلة هاء الضمير في [بِيَدِهِ مَلَكُوت].
وقرأ باقي القراء العشرة بإثبات صلة هاء الضمير. وهمان وجهان في الأداء.

٨٣ ـ • قرأ يعقوب: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ من فعل «رجع» اللازم.
وقرأ باقي القراء العشر: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ على أن الفِعْل مبني لما لم يُسَمَّ فاعله.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد. أي: يُرْجِعُهُمْ رَبُّهُمْ، فهم يَرْجِعُونَ لا محالة بالجبر.

(٢)

ممّا ورد في فضل سورة (يسٓ)

جاء في كُتب السُّنَّة بشأن فضل سورة (يسٓ) رواياتٌ أسانيدها ضعيفة، وبعضها حسن، وهي بمجموعها تُشْعِر بأنّ لهذه السورة خُصُوصيَّة فَضْل، على أنَّ القرآنَ كلّه كلامُ الله، وكلامُ اللَّهِ المنزَّلُ فضْلُه عظيم جدًّا، فمنها ما يلي:

(١) ما جاء في الحديث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكلّ شَيْءٍ قَلْباً، وقَلْبُ الْقُرْآنِ يسٓ». ونظيره عن أبي هريرة أخرجه البزّار.

(٢) وروىٰ الحافظ أبو يَعْلَىٰ بإسْنَادٍ جَيّدٍ عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ (يَس) فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ، وَمَنْ قَرَأَ (حٓم) الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا الدُّخَانُ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ».

(٣) وروىٰ ابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ، عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ (يسٓ) في لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ غُفِرَ لَهُ».

قال ابن كثير: إسنادُهُ جَيِّدٌ.

(٤) وعنْدَ الإمام أحمد بسنَدٍ فيه مَجْهُولاَنِ عن النَّبي ﷺ قال: «الْبَقَرَةُ سَنَامُ الْقُرْآنِ وَذِرْوَتُهُ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكاً، وَاسْتُخْرِجَتْ [اللَّهُ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ] مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ فَوُصِلَتْ بِها، و(يسٓ) قَلْبُ الْقُرْآنِ لَا يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهَ تَعَالَىٰ والدَّارَ الآخِرَةَ إلَّا غُفِرَ لَهُ، واقْرَؤُوهَا عَلى مَوْتَاكُمْ».

وعنْد النسائيّ وَأَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَهْ نظيرُه.

قَالَ ابن كثير في تفسيره: ولهذا قالَ بَعْضُ العلماء. من خصائصِ هٰذِهِ السُّورَةِ أَنَّها لَا تُقْرَأُ عِنْدَ أَمْرٍ عَسِيرٍ إلَّا يَسَّرَهُ اللَّه.

أقول: وَتَجَارِبُ كثيرةٌ تُسَاعِدُ على إثباتِ هذه الخصيصة لسورة (يسٓ).

(٥) وَروىٰ البزَّارُ بسَنَدِهِ عن ابْن عباسٍ قالَ: قَال النَّبِيُّ ﷺ، بشأن سورة (يسٓ): «لَوَدِدْتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي».

(٦) وَروىٰ الدارمي عن ابن عباس قال: «مَن قَرَأ يسٓ حِينَ يُصْبِحُ أُعْطِيَ يُسْرَ يَوْمِهِ حَتَّىٰ يُمْسِي، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي صَدْرِ لَيْلَتِهِ أَعْطِيَ يُسْرَ لَيْلَتِهِ حَتَّىٰ يُصْبِحَ».

* * *

(٣)

موضوع سورة (يسٓ)

يَدُور موضوع هذه السُّورَةِ حول معالجة مشركي مكَّة إبّان المرحَلَةِ الّتي نزلت فيها السورة، بشأن مواقفِ أئمّتهم العنادِيَّة، والإيذائيَّة للرسول، والاضطهادية لضعفاءِ المؤمنين، وحَوْلَ اتّهامهم القرآن بأنّه نوعٌ من الشِّعر

واتهامهم الرسول بأنه شاعر، وإنكارِهم السَّاعةَ والبَعْثَ للحسابِ وفصلِ القضاء والجزاء.

وحول معالجة الرَّسُولِ ﷺ بشأن ما ينالُهُ من المشركين من أذىً، ومعالجة المؤمنين أصحابِ الرسول بشأن ما ينالُهم من أئمة الكفر والشرك من اضطهاد.

وتدور معالجة المشركين حول الإقناع الفكري، والبيان التَّهدِيديّ والإِنْذَارِيّ من الله عزّ وجلّ بالعقاب المؤجّل مع احتمال إِنْزالِ عِقابِهِ المعَجَّلِ في الدّنيا.

ومن الإقناع الفكْرِيّ دَفْعُ شُبهاتِهم بالبراهين الدامغة.

وتدُورُ معالجةُ اللَّهِ لِرسُولِه حولَ تَيْئِيسِه، من إيمان الذين مَرَدُوا عَلَى الكفر وعلى الإصرار على ما هم فيه من باطل، وإشعَارِهِ بالإعراض عنهم، وعدم شَغْلِ فِكْرِهِ ونَفْسِه بهم، توفيراً لجَهْدِهِ الجَسَدِي والنفسي، وبغية توجيهه لآخرين غير مَيْئُوسٍ منهم، وحول وصِيَّتِهِ بأن لا يَحْزَنَ بِسَبَبِ إِذاءاتهم القوليّة.

وتَدُور معالجة الله للمؤمنين حَوْلَ البشائر الضِّمْنِيَّة، بِأَنَّ الله سَيُنْزِلُ بمضطهديهم، ما يَرُدُّ مَكَايِدَهُمْ إلى نُحُورِهِمْ، كَمَا حَصَلَ لأمْثَالِهِمْ مِنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، والبشائر الصَّرِيحَةِ الجليَّة بما أَعَدَّ لَهُمْ من ثوابٍ جَزيلٍ في جنَّاتِ النَّعِيم.

واشتمل هذا الموضوع على ثلاثَ عشرة قَضِيَّة:

القَضِيَّةُ الأُولى: بيان صِدْقِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ في رسالته، بشهادة إعجاز القرآن الذي يَسْتحقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ به.

والمقصودُ بهذا البيان الذينَ لم يَصِلُوا إلى دركة اليأسِ من إيمانهم، عن طريق إراداتهم الحرّة.

القضية الثانية: بَيَانُ واقعِ حالِ أكْثَرِ أئمة الشِّركِ والكُفْرِ في مكَّةَ في المرحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا السُّورَة، إذْ وَصَلُوا إلىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ من إيمانهم مَعَهَا عن طريق إرادتهم الحرَّة، فَسَواءٌ عَلَيْهُمْ الإنْذَارُ وَعَدَمُهُ.

القضيَّةُ الثالثة: ضَرْبُ مَثَلٍ تاريخيّ لِقَوْمٍ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ، وَهُمْ أَصْحَابُ القرية الّتي جاءَهَا المرسَلُون، فكَذَّبُوهُم، وهَدَّدُوهم بالرَّجْمِ وبعذاب أليم، إذا لم يَنْتَهُوا عن تأْدِيَةِ رِسَالَتِهِمْ بَيْنَهُمْ.

وحالُ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي مكة قَدْ أَوْشَكَتْ أَنْ تَصِلَ إلى الدَّرَكَة الَّتِي وَصَلَ إلَيْهَا أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ، الّذِين أهلكهم اللَّهُ بالصَّيْحَة.

القضية الرابعة: اشتَمَلَتْ عَلىٰ إِثْبَاتِ الإحياء بعد الموت للحساب وفصل القضاء والجزاء، بأسْلُوب تشبيه إحياء الأحياءِ بعد موتهم، بإحْياء الأرض وإنْبَاتِ نباتها بَعْدَ مَوْتها.

وأُدْمِجَ في هذا العرض، ما يَدُلُّ على طائفة من صفات الرّب العليم الحكيم القدير، الذي يَفْعَلُ مَا يشاءُ ويختار بحِكْمَتِهِ السَّنِيَّة.

القضية الخامسة: بيان بَعْضِ نِعَمِ اللَّهِ علَى عِبَادِهِ في الحياة الدّنْيا، بياناً يَسْتَحِثُّ أَهْلَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ لمقابَلَةِ نِعَم اللَّهِ عَليهم بالثناء والحمْدِ، والشكر بالطاعة والاستجابة لما يَدْعُوهُمْ إليه مما فيه حياتُهُمْ وسعادَتهم الحقيقية.

ويتضمّن هذا البيان إثْبَاتَ طائفةٍ من صفات اللَّهِ وأسمائه الحسْنَى.

واقْتَرَنَ بِهِ تَهْدِيدٌ بالعقاب المعجَّلِ، إذا اقتضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ إنزالَهُ بالْمُصِرّين على الكُفْرِ والإفساد في الأرض من عِباده.

القضية السَّادسة: عَرْضُ طائفةٍ من ظواهر سلوك الكافرين المعاندين المصرّين على شركهم وكُفْرهم، إذ يُعْرِضُونَ عَمَّا يُوَجَّهُ لهم من مذكّراتٍ،

ويَسْخَرُونَ ممَّا يُوَجَّهُ لهم وَيُؤْمَرُون به من فعل الصالحات، كالإنفاق ممَّا رزقهم الله على ذوي الحاجات والضرورات.

القضية السابعة: عَرْض بعض جدليّاتِ قادَة أهل الكفر، الّتي لا قيمةَ لها في موازين الفكر السّليم، والّتي اتَّخذُوا منها ذَرائِعَ لرَفض الإيمان، وهي جدلياتٌ تتعلَّقُ ببيانِ وقْتِ قيام السّاعةِ.

وأُتْبِعَ عَرْضُ جَدَلِيَّاتِهِمْ بِعَرْضٍ سَرِيعٍ لبَعْضٍ مشاهد قيام الساعَةِ الّتي ينتهي بها نظام الحياة الدنيا، وعرض بعض مشاهِدِ يوم القيامة، يوم الدِّين الذي يَجْرِي فيه الحسابُ، وفَصْلُ القضاءِ وَتَنْفِيذُ الجزاء.

القضيَّة الثامنة: تهديدُ الذين مَرَدُوا على الكفر والعناد، بِطَمْسِ أَعْيُنِهِمْ، أو مَسْخِ أَجْسَادِهِمْ، وَتَثْبِيتِهَا في أمْكِنَتِهَا كالصُّخُور لا تَسْتَطِيع الحركة مع بيان حَالِ التَّنْكِيسِ في الخَلْقِ، لِمَن يُطِيلُ اللَّهُ عُمُره، وهو أَمْرٌ يُشْعِرُ بنهايَةِ الحياةِ في الدنيا، ويُذَكِّرُ باقترابِ الأجل.

القضيَّة التَّاسِعة: الرَّدُّ على مُتَّهِمي الرَّسُولِ ﷺ بأَنَّهُ شاعر، واتِّهَامِ القرآن بأنه نوعٌ من الشّعر.

القضية العاشرة: عودٌ إلى عرض طائفة من نِعمِ اللَّه على عباده في الدنيا.

القضية الحادية عشرة: بيان عقيدة المشركين في آلهتهم، بأنَّها عقيدة قائمة على أنّ آلهتهم تُشَارِكُ اللَّه في بعض عناصر ربوبيّته، ومنها نصرُها لعابِديها بوسائل غيبيَّة.

القضيَّة الثانية عشرة: تَسْلِيةُ الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمَّد ﷺ بشأن أقْوالِ المشركين فيه المحزنةِ له، مع إشعارهِ ضِمْناً بأنّ الله سَيَنْتَصِرُ له، وسَيُحْبِطُ مَكَايِدَ مُحْزِنِيهِ بأقوالهم الافترائية الظَّالِمَةَ.

القضية الثالثة عَشْرَة: إقامة الحجَّةِ البرهانية على مُنكِرِ الْبَعْثِ، إذْ قَدَّمَ عظماً نَخِراً بالياً، وقالَ: مَنْ يَحْيي الْعِظامَ وهي رَمِيم، ساخراً من قضية الإعادة إلى الحياة بَعْدَ الموتِ والفناء، دون أن يقدِّم دليلاً ما غير الاستبعاد والاستغراب.

* * *

(٤)

دروس السورة

اشتملت سورة (يسٓ) على عشرة دروس متعانقة داخل دائرة موضوع واحد، هو الموضوع الذي سبَقَ بيانُه في الفقرة السابقة، وهي ما يلي:

الدرس الأول:

- اشتمل هذا الدرس على خِطابٍ من الله ـ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه ـ لرسوله محمّد ﷺ، مؤكّداً له فيه، بأنّه من المرسلين، بدليل معجزة القرآن الحكيم الذي يُنزّله عليه مُفرّقاً مُنجماً بحَسَب مقتضيات الحِكْمَةِ البيانيَّة والدعويّة، ومثنياً عليه بأنَّه على صراط مستقيم، وبأنَّه يُنَزِّل عليه القرآن الحكيم ليُبَلِّغَهُ للناس، وليكون آخِرُ مراحِل رسَالَتِه مع كلِّ زُمْرَةٍ يَدْعُوهَا إلى دين الله الإنْذارَ بعذاب اللَّهِ المؤجّل إلى يوم الدين، مع احتمال أن ينزل الله بها عذاباً معجّلاً في الدنيا، إذا أصَرَّتْ على كُفْرِها وجحودِها، وفسادها وإفسادها في الأرض، ومقاومتِهَا لدَعْوَةِ الحقّ الرّبانيَّة.

وهذا الإنْذَارُ هو الشيْءُ نَفْسُه الَّذِي أُنْذِر به آباءُ الأقوام ومنهم العرب، في الكتب السَّابقة، أو على ألسنة الرُّسُل السابقين فمرَّتْ عليهم أزمان أَهْمَلَتِ الأقوامُ مَا كان آباؤهم قَدْ أُنْذِرُوا به فصاروا غافلين، غير منتبهين إلى ما كان آباؤهم قد أُنذروا به.

والغرض من هذه الفقرة من هذا الدرس إعلامُ النّاس بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشر، بوظيفة القرآن الحكيم، ووظيفة الرَّسُول الكريم محمّد ﷺ، فيما حمَّلَهُ رَبُّهُ من رسالة للناس، مع تثبيت فؤاد الرَّسُولِ في رسالته، غيرَ مُبَالٍ بما يَتَعَرَّض له من أذىً، ويتعرَّض له الذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ من اضطهاداتِ كبراء كفّار مكّة يومئذٍ.

- واشتمل على بيانٍ يتَعَلَّقُ بحال أكثر كبراء كُفَّار قومه المشركين في مكّة إبَّانَ نُزُول السُّورَة، بأنَّهم قد وصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ منها، فلا يُؤثِّر فيهم معها الإنْذَار: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

إذنْ فمن الخَيْرِ له أَنْ يُوَجِّه اهْتمامه وعنايتَهُ، لدَعْوَةِ غَيْرِهِمْ من الذّينَ لَمْ يَبْلُغُوا بَعْدُ إلى مِثْلِ حالَتِهم من العِناد والإصرار على الكُفْرِ والجحود، ومعاداة الرسول ودعوته، ولا سيّما الذي يَتفرَّسُ فيهم أنَّهُمْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ بِالْغَيْبِ.

- واشتمل على بيانٍ هُوَ مِنْ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمَانِيَّةِ في الإسلام.

وهو الآيات من (١ ـ ١٢).

الدرس الثاني:

- اشتمل على ضَرْبِ مَثَلٍ تاريخيّ لقوم أرسل الله إليهم رَسُولَيْنِ فَكَذَّبُوهُما، فَعزَّزَهما الله بثالث، فكذَّبُوهُمْ، وأخيراً هَدَّدُوهُمْ بالقَتْلِ رَجْماً بالحجارَةِ، وبِعَذَابٍ أليم، إذا لم يَنْتَهُوا عن أداء رِسَالَتِهِم.

وكان مَصِيرُ هؤلاء القوم الذين ذكرَهُم اللَّهُ بعنوان «أصحاب الْقَرْيَة» الإهلاكَ بالصيحة.

ويُشْعِرُ إيرادُ هذا المثل التاريخي، عقب بيان أنّ كُبراء كُفَّارِ مكَّة قد وصَلُوا إلى حَالَةٍ ميؤوسٍ من إيمانهم معها، بأنّ هؤلاء قَدْ أَوْشَكُوا أن تَصِلَ حَالَتُهم حينَئِذٍ إلى مثل حالة «أصحاب القريَة» الّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَزّ وَجَلّ إهْلاكاً شاملاً بالصَّيْحَة.

وهو الآيات من (١٣ ـ ٢٩).

الدرس الثالث:

- اشتمل هذا الدّرْسُ على بيان استحقاق أكْثَر الناس التَّحسُّرَ عليهم، إذْ يدفَعُونَ بأنفسهم إلى الهلاك بسَبَب كُفْرِهم ومُعَانَدَتِهِمْ الحقَّ، واسْتِهْزَائِهِمْ بِرُسُلِ رَبّهم، مع أَنَّ شواهِدَ التاريخ البشَرِيّ تَدُلُّ علَىٰ أَنَّ أَقْوَاماً كَثِيرِينَ، قَدْ كان مَصِيرهُمْ فِي الحياة الدنيا الإهلاك الشامل، بسَبَب كُفْرِهِم ومعاندتِهم الحقِّ واسْتِهْزَائهم بِرُسُلِ رَبِّهم، ومُقَاوَمَتِهِمْ لدَعْوَتِهم.

- واشتمل أيضاً على بَيانِ الجزاء الأُخْرَوِيّ يوم الدّين، مُقْتَرِناً بالدّليل على قُدْرَةِ اللَّهِ عزّ وجلّ على بَعْثِ الأَحْيَاء، بالقياس علىٰ إحيائه الأرض بَعْدَ موتها، مع إدْماج بيانِ نِعَم الله على عباده بالرّزْق المتلاحق عن طريق إحيائه الأرض بَعْدَ مَوْتِها في الْفُصُولِ الزّراعيّة.

ومع هذا أبَانَ اللَّهُ عزّ وجلَّ حقيقةً كونيةً، وهي أنّه بحِكْمَتِهِ جَعَلَ نظامَ الأزْواجِ نظاماً شاملاً للأحياء، وللنباتات، ولأشياء أُخرىٰ لَا يَعْلَمُهَا الناس، وفي بيان هٰذه الحقيقة الّتي اكْتَشَفَهَا بَعْدَ أكثر من أحد عشر قرناً من نزول القرآن، عُلَمَاءُ البحث الكوني، دَليلٌ علىٰ أَنَّ هذا القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ولَيْسَ مِنْ وَضْعِ البشر، وما الرّسُول محمّد ﷺ فِيهِ غَيْر مُبَلِّغٍ عنْ رَبِّهِ ما يُنزِّلُ عليه مِنْ كتابه.

- واشتمل أيضاً على بيان بَعْضِ آيات اللَّهِ في كونه، الدَّالَّاتِ على كمال عِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ، وحِكْمَتِهِ وَفَضْلِهِ على عباده، وأنّه يَفْعَل مَا يشاءُ ويختار، ومِنْهَا قُدْرَتُهُ على إهلاكِ مَنْ يَشَاء إهلاكَهُمْ من عباده المجْرِمِين.

وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤).

الدرس الرابع:

- اشتمل على عَرْضِ بَعْضِ ظَواهر سُلُوكِ الكَافِرِينَ المعاندين

المصرِّين على شركهم وكُفْرِهم، وهُمُ المَعْنِيُّونَ في السُّورَةِ، في مقابل ما يُوَجَّهُ لهم من دَعْوَةٍ لاتّقاءِ عِقَاب اللّهِ علىٰ ما قَدَّمُوا مِنْ جَرَائِمَ في الماضي، ولاتِّقَاءِ عقابه على ما يُرِيدُونَ ارْتكابَهُ من جرائم في المستقبل، وفي مُقَابل ما يَرَوْنَ من آيات اللّهِ في كونه، وفي مجاري تصاريفه، إذ يُقَابِلُونَ كلَّ ذَلِكَ بالإعراضِ وَعَدَمِ الاكْتِرَاثِ.

وإذا قِيلَ لهم: أنفقوا ممّا رَزَقَكُمْ الله على ذَوِي الضَّرُورَات والحاجات. سَخِرُوا مِمَّنْ دعاهم إلى هذا العمل من أعمال الخير قائلين: أنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللّهُ أطْعَمَهُ؟! بأسلوب استفهام السَّاخِر المستهزئ الذي لا يُؤْمِنُ بِفِعْلِ الخير.

وهو الآيات من (٤٥ ـ ٤٧).

الدّرس الخامس:

- اشتمل على عرض بعض جدليّات قادة المشركين المعاندين في مكة في المرحلة التي نزلَتْ فيها السورة، وهي جدلِيَّاتٌ غَيْرُ ذَاتِ قيمَةٍ في موازين الفكر السليم، اتَّخَذُوا منها ذرائع لرفْضِ الإيمان بالرَّسُولِ وبالقرآن وبما جاء فيه من حقٍّ.

وهي جدَلِيَّاتٌ كانوا يُكَرِّرُونَ فيها قولهم: متىٰ يكونُ وقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ؟!

فجاء التعليم الرَّبَّانيُّ مشْتَمِلاً على بيان أنّ السّاعة الّتي أخفى اللّهُ عزّ وجلّ العلم بوقتها عَنْ كُلّ ذي عِلْمٍ ممّن خلق، إذَا جاءَ وقْتُهَا فلا يحتاجُ الأمْرُ إلّا صيحَةً تَأْخُذُهم أخذاً سَرِيعاً جداً، إذْ يَكونُونَ بها هالِكِينَ، هُمْ وكُلُّ من قَضىٰ الله أن يُهْلِكَهُ ساعتئِذٍ، وإذْ تَحْدُثُ أَحْدَاثُهَا العظمىٰ في الكَوْنِ كُلّه.

ثمّ بَعْدَ مُرور مُدَّةٍ من الزَّمَنِ مُقَدَّرَةٍ في علم الله جلَّ جلالُهُ، يُنْفَخُ في

الصُّور، فيُبْعَثُ الأمواتُ إلى الحياة الأخرى، وتجري أحداثُ يَوْمَ الدّين، وما فيه من حسابٍ، وفصل قضاءٍ، وتنفيذ جزاء.

وجاء في هذا الدرس عرْضُ بَعْضِ المشاهد مما سَوْفَ يكون يوم الدّين.

وهو الآيات من (٤٨ ـ ٦٥).

الدّرس السادس:

• اشتمل على تَهْدِيد الّذين مَرَدُوا على الكُفْرِ والعناد، بأَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لَوْ شَاءَ لَطَمَسَ على أَعْيُنهم فَأَعْمَاهُم، ولو شاء لمسَخَهُمْ فأثْبَتَهُمْ في أمْكِنَتِهِمْ عِقاباً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهم الحقّ الجليَّ الواضح، الَّذِي تَدُلُّ عَليه الآياتُ البيّنات.

واشتمل على ظاهرة التنكيس الّتي يجريها الله في المعمَّرينَ من الناس، وهِيَ من قبيل النقص الجزئيّ في الخلْق، الذي هو جزءٌ من النقص الكلّي في حالَةِ المسْخ الشامل.

وهو الآيات من (٦٦ ـ ٦٨).

الدّرس السابع:

اشتمل على رَدّ أقوال بعض أئمة الشرك والكُفْر، الَّذِينَ اتَّهَمُوا الرّسول بأنّه شاعر، واتَّهموا القرآن بأنّه نَوْعٌ من الشّعر، وبيان أنَّ القرآن ذكْرٌ للعالمين، وقرآن مبين واضِحٌ لكل ذي فكْرٍ أَنَّهُ ليْس من الشِّعْر في شيء.

إنّما أنزلَهُ اللَّهُ عليه لِيُنْذِرَ أَهْلَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ أحياءَ الْقُلُوبِ، التي يُدْرِكُونَ بها مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهم، فيعْمَلُونَ لتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

أمّا من كانَ ميِّتَ القلْبِ فلَمْ يَسْتَجِبْ وأَصَرَّ على كُفْرِهِ وعناده، فإنَّه يحقُّ عليه قولُ الله بالعذاب الأبديّ.

وهو الآيتان (٦٩ و٧٠).

الدرس الثامن:

- اشتمل على عرض بَعْض نِعَم الله على عباده في الدنيا، الّتي نَسْتَحِثُّ ذوي الْعَقْلِ والرُّشْد لحمد الله عليها، والقيام بواجب شُكْرِه، علىٰ نِعَمِه، بالإيمان والإِسْلام والطَّاعة.
- واشتمل على بيان أنّ عبادة المشركين لشركائهم، إنّما يدعوهم إلى عبادتها اعتقادُهُمْ أَنَّها تنفعهم في أمور دنياهم، ومِنْها نَصْرُهم على أعدائهم، بوسَائِل غيبيَّة، هي من خصائص الرّبّ جلّ جلالُه.

وهو الآيات من (٧١ ـ ٧٥).

الدرس التاسع:.

درس من آية واحِدَةٍ اشتملت على تسْلِيَةِ الله عزّ وجلّ لرسُولِهِ ﷺ، بشأن أقوال المشركين فيه المحزنةِ له، مع إشعاره ضِمْناً بأنّ اللَّهَ سَيَنْصُرُهُ، وسَيُحْبِطُ مَكَايد مُحْزنيه بأقوالهم الافترائية الظالمة.

وهو الآية (٧٦)

الدرس العاشر:

- اشتمل على إقامَةِ الحجَّة الْبُرْهَانِيَّةِ على مُنْكِر الْبَعْثِ من أئمة المشركين، إذْ قَدَّمَ عظماً نَخِراً بالياً، وقال: مَنْ يُحْيي العظامَ وهي رميم، ساخراً من قضيَّةِ الإعادة إلىٰ الْحياة بَعْدَ الموت والفناء، دون أن يُقَدِّمَ دَليلاً غَيْرَ الاستبعاد والاستغراب، والإنكار جحوداً أو عناداً بلا دليل.

وهو الآيات من (٧٧ ـ ٨٣) آخر السورة.

* * *

وبالتدبر المتأني السَّليم، يظهر تعانُقُ دروس السورة وقضاياها ضِمْنَ شجرة موضوعٍ واحدٍ اتُّبع فيه أُسلُوبُ النظام الشجري، لا أسلوب النظام الطولي، الّذِي يشبه ترابط حلقات السِّلْسِلة.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأوّل من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٢)

قال الله عز وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ (١) وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ
(٦) لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا
فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ
سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ
شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)﴾.

تمهيد:

نزلت سورة (يسٓ) في أوَاسِطِ المرحَلَةِ المكيَّة من تاريخ دَعوة الرسول محمّد ﷺ، وقد كان أئمة الشِّرْك والكُفرِ فيها قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَة المشَاقَّة والعداء، ومحاولات التجمع بكثَافَةٍ ضدّ الرسول ودعوته، وضدّ الذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، مع القيام بأعمال اضطهاديّة لضعفاء المؤمنين، ووَصَلَ كثيرٌ مِنْهُم إلى دَرَكَةٍ ميؤُوسٍ مَعَهَا من استجابتهم لدَعْوَةِ الحق الرَّبّانيّة.

وقد كان لهؤلاء الأئمة في هٰذه المدّة الّتي نزلَتْ فِيها السّورة، مواقف عنادِيَّة وكَيْدِيَّة، اقْتَضَتْ إنْزالَ بياناتٍ إقناعيَّة وتربويَّةٍ وتوجيهاتٍ رَبَّانيَّة لعلاج مواقِفِهم معالجاتٍ تربويَّةً غير إكراهيَّة، وعلاجِ حالَةِ الرسُولِ وأحْوالِ المؤمنينَ حِينئذٍ تُجاهَها.

وحين يضَعُ المتدبّر لسورة (يسٓ) ظروف هذه المدّة الزمنيّة من تاريخ دعوة الرّسُول، فلا بُدَّ أَنْ تَتَفَتَّحَ أَمَامَهُ أبوابُ الْفَهْمِ الصحيح لآيات السورة، وإدْراكِ دَلَالاتها، وإدْراك ما تَرْمِي إليه من أغراض، وإدْراك أنَّ المعنيّين فيها هم المشركون في أُمّ القرى، والتابِعُونَ لهم ممّا حَوْلها، ويُقَاسُ أَمْثَالُهُمْ عَلَيْهِمْ، فإذا استقرت الدَّعْوة وتنامَتْ، فالخُطَّةُ الهادفة إلى تبليغ الناس أجمعين، أنْ تَتَّسِعَ شيئاً فَشَيْئاً ضمن دوائر تَنْداحُ باتّساعٍ حتَّى تَبْلُغَ كُلَّ سُكَّانِ الأرضِ في تَراتِيبِ خُطَّةِ الدَّعْوَةِ إلى دينِ اللَّهِ الرّبّانية.

التدبّر التحليلي:

قول الله عز وجلّ:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾،

- ﴿يسٓ ۝١﴾: حَرْفان مقطعان جاءا في أول هذه السورة «يا» و«س» وقد سبق في سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ بيان ما يَتعلَّقُ بالحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض السّور، فلا حاجة إلى الإعادة.

وأورد المفسّرون عدّة آراء حول معنى (يسٓ) إلَّا أنّها لا تَمْلِكُ دليلاً عقلياً، ولا نَقْلياً، ولا لُغوياً، فمن الخير أن نقول هي رُموز بين اللَّهِ ورسُوله وقَدْ يَكْتَشِفُ بَعْضُ الباحثين مستقبلاً باستخدام الحاسباتِ الآليّة دلَالَاتٍ لَهَا، لا يَسْتَطِيعُ الذِّهْنُ البشَرِيُّ وَحْدَهُ اكتشافها.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾: يُقْسِمُ اللَّهُ عزّ وجلّ في هٰذه العبارة بالقرآن الحكيم، «الواو» حرف جرّ حمَل معنى القسم، والجار والمجرور متعلقان بمحْذُوف تقديره: «أُقْسِمُ» فالمعنى: أُقْسِم بالقرآن الحكيم.

وقد وصف الله عزّ وجلّ القرآن بأنَّه حَكيم، أي: مُحْكَمٌ في مَبانِيه،

ومُحْكَمٌ في معانيه، ومُحْكَمٌ في أغْراضِهِ وَمَرَامِيهِ، ومحكَمٌ فيما اشتمل عليه من ترْبيةٍ، وَتعليم، وحقٍّ، وصراطٍ مُسْتَقيم، ووسائل على اختلافها، أو هو ذُو حِكْمَة في كلّ هذه الأمور.

لفظ: «حكيم» إمّا بمعنى اسم المفعول، وإمّا بمعنى اسم الفاعل، أو هو مستعْمَلٌ فيهما لتلازُمِ المعنيَيْنِ.

الحكمة: هي اختيار أحْسَنِ الأشياء ملأمَةً لِمَا يَخْتَارُ له. ووضْعُ الأشياء في مواضِعها عملاً، أو فكراً، أو مَعْرِفَةً، أو اعتقاداً، أو غَيْرَ ذَلِكَ من صُوَرِ السُّلُوكِ الإرادي(١).

والحكمة: تَرْجِعُ إلى جذرَين:

الجَذْر الأول: الحكمة في المعرفة، وتكون بمطابقة العِلْم للواقع، أو لأحْسَنِ وأَقْوَمِ صُورَةٍ مُمْكِنَةٍ تقتَرِبُ مِن مطابقة الكمال في الشيء.

الجَذْرُ الثاني: الحكمة في السُّلُوك، سواءٌ أكان خُلُقاً، أَمْ عَمَلاً جَسَدِياً، أم تَصَرُّفاً في قَوْلٍ، أو مشوَرَةٍ أو إفتاء، أو حُكْمِ، أَوْ سِيَاسَةٍ، أَوْ إِدَارَةٍ، أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

القرآن: هو هذا الكتابُ المنزَّلُ من لَدُن حَكِيمٍ عليم، والّذي نَتَدَبَّرُ آياته وسُوَرِهِ على قَدَرِنا.

والحكمةُ الّتي اشتملَ عليها القرآن تظْهَرُ للمتدبّرينَ الباحثين، في دَلالاتِ جُمَلِهِ وفِقَراتِه، وآيَاتِهِ، وفي سُورَهِ الّتي يُلاحَظُ في كُلِّ سُورَةٍ مِنْها وَحْدَةُ مَوْضُوعٍ عجيب البناء، كَشَجَرَةٍ ذاتِ جُذُور، وسَاقٍ أَوْ أَكْثَر، وذاتِ فُرُوع وأزْهَارٍ وثمَرَاتٍ، وَزِينَاتٍ جَماليّاتٍ رَائِعَات، وهي تُؤْتي ثمراتٍ جَدِيداتٍ كُلَّ حينٍ بإذْنِ رَبّها، إذْ يفْتَحُ اللَّهُ على أذْهانِ المتدبّرين لاكْتِشَافِها واسْتِنْبَاطِها.

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (القمر)، «الحكمة في القرآن».

وتظْهَرُ أيْضاً للمتدبّرين الباحثين في موضوعاتِه المنبَثّة في ثنايا سُوَرِهِ، حِينَ يَجْمَعُونَ نُصُوصَ كُلِّ مَوْضوعٍ، وَيَتَدَبَّرُونَهَا تَدَبُّراً تَكَامُلِياً، فَيكْتَشِفُونَ باسْتِخْرَاجِهَا، وَجَمعها، وتَدَبُّرها تَدَبُّراً تكامُلِيّاً، عجائِبَ ودَلَالَاتٍ تكامُليَّة، لم يَتَوَصَّلْ إلى اكْتِشَافِهَا عُلَمَاءُ الْقُرُونِ السَّابِقة، وَيَكْتَشِفُونَ أنَّهُ لَا تَنَاقُضَ ولا تضادّ بَيْنَ نُصُوصه، على الرُّغْم من بَثِّهَا في مُخْتَلِفِ السُّوَر، وتَنْزِيلها في أزْمانٍ مُتَعَدّدَةٍ في نُجُومٍ مُتفرِّقَة، ولو كان من عند غير اللَّهِ لوجَدَ الباحِثُونَ المنقِّبونَ فيه اختلافاً كثيراً. ويكْتَشِفُونَ التوافُقَ التَّامَّ بيْنَ ما عَرَضَهُ القرآن من بياناتٍ عن أُمُور كونيَّةٍ، وبيْنَ ما تَوَصَّلَتْ إلَيْهِ حَقَائِقُ الْعُلُومَ، بَعْدَ جُهُودٍ مضنيَةٍ بذَلَهَا علماء البحث الكوني طوال قرون، في القضايا التي عرض القرآن بيانَات عنها. وَيَكْتَشِفُونَ مطابَقَةَ شَرَائِعِهِ وتعليماتِهِ وأَحْكامِهِ وَوَصَايَاهُ للناس، لِلْفِطْرَة الَّتي فَطَرَ الرَّبُّ الخالِقُ النَّاسَ عليها، ويكْتَشِفُون أنَّهَا أَحْكَمُ وأَعْدَلُ وأَصْلَحُ وأَنْفَعُ مِنْ كُلِّ ما يصنَعُ النَّاسُ لأنفُسِهِمْ مِنْ قوانِينَ وأنْظِمَةٍ مخالفةٍ لِمَا جَاءَ فيه، ممَّا تَصَوَّرُوا أَنَّهَا صَالِحَةٌ نَافِعَةٌ، يُدْرِكُ هذا المنصفون منهم.

إنَّ هٰذِهِ العناصِرَ الحِكْمِيَّةَ الَّتي اشتَمَلَ عَلَيْهَا القرآنُ الحكيم، مَعَ عناصر أخرىٰ لَمْ يَكْتَشِفْهَا النَّاسُ بَعْدُ فيه، تَحْمِلُ بذاتِها شَهَادَةً علىٰ أنَّ هذا القرآن المجيد تَنْزِيلٌ من الله العزيز الحكيم الرحيم. إذْ لَوْ كَان من عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدَ النَّاسُ فيه اختلافاً كثيراً بَيْنَ بَعْضِ آياته وَبعْض، واختلافاً كثيراً بَيْنَ بَيَانَاتِه وحقائق الْعِلْم الإنساني، وبيْنَها وبيْنَ ما هوَ الأحْكَمُ والأعْدَلُ والأصْلَحُ والأنْفَعُ للنّاسِ مِنَ الشَّرائع والأحكام وتعليمات السّلوكِ في الحياة الدُّنيا، وهذا من دَلائل كوْنِه مُعْجِزَةً للناس.

وبما أَنَّ الْقُرْآنَ يَحْمِلُ بذاتِه الصِّفَاتِ الَّتِي تَشْهَدُ بأَنَّهُ كَلامُ اللَّهُ، وبما أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إلى الناسِ إلّا بلاغاً عَنِ الله جَلَّ جلالُه، من النبيّ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ، فإنّ إتْيَانَهُ بِهِ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ وَبُرْهَانٌ سَاطِعٌ، على أَنَّهُ رَسُول الله حَقًّا وَصِدْقاً.

فجاءت آية:

- ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ المتضمَّنةُ الْمُقْسَم عليه، بمثَابَةِ النتيجة الْقَطْعِيَّةِ للدَّلِيل الْقَطْعِيّ.

ففي قَسَمِ اللَّهِ عزَّ وجلّ بالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، على أَنَّ محمّداً لِمَنْ المرسَلِينَ، تنبيهٌ جَلِيٌّ عَلَىٰ بُرْهَانِ كونِهِ رَسُولاً.

إِذَنْ: فعلَىٰ النّاس أَنْ يفْحَصُوا هٰذا البرهَانَ القاطع، فَقَدْ فتح اللَّهُ عزّ وجلّ لهم باب البحث، إِذْ وَصَفَهُ بأَنَّهُ حكيمٌ.

فَمَنْ بَحَثَ فيه، واكْتَشَفَ مَا فِيهِ من حِكْمَةٍ مُعْجِزَة، عَلِمَ أَنَّهُ كلامٌ مُنَزَّلُ مِنْ لَدُنْ عليم خبيرٍ حكيم، وعَلِمَ أَنَّ مُحَمَّد بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، رَسُولُ الله بلا رَيْب، وعَلِم أنَّ القرآن وما فِيهِ من بيانات لِصِرَاط الله المستقيم، مشْتَمِلٌ على مَطْلُوب اللَّهِ من عباده في رحلةِ ابتلائهم في ظروف الحياة الدّنيا.

والغرض من خطاب الرسول بهٰذه الآية إسْمَاعُ مُنْكِرِي رسالَتِهِ، ولهذا جاءت الجملة مؤكَّدةً بالمؤكدات «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة» وقد أعرض الله عن خطابهم هنا لأنهم أصرُّوا على تكذيبهم، وجحودهم رسالته، وقد سَبَقَ في نجوم التَّنزيل أن واجَهَهُم بالخطاب، وأكّدَ لَهُمْ أَنَّ محمَّداً رسُولُهُ حَقاً وصِدْقاً فمنها ما يلي:

(١) قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) يخاطِبُهُمْ خطاباً مباشراً:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝١٦﴾.

(٢) ثم أنزل قولَهُ عزّ وجل في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ولمّا وَصَلَ كُبَرَاءُ مُشْرِكي أَهْلِ مكّة يَوْمَئِذٍ إلى مَوْقِفِ إدْبَارِ المكابر المعاند المتولّي، كَانَ من المناسِبِ الإعراضُ عنهم في الخطاب، وإسماعُهُمْ بأسْلُوب المُعْرِض عنهم، لإشْعَارِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَدْ تَحجَّرَتْ قُلُوبُهم، فَمُواجَهَتُهُمْ بالخِطابِ التكْرِيميّ، لا تُلائِمُ حَالةَ نُفُوسهم، لكن قَدْ يُلائم نِفُوسَهم في الأساليب التربويّة الدَّعويّةِ الإعراضُ عَنْهُمْ، مع مُتَابَعَةِ إسْمَاعِهم ما هم له مُنْكِرونَ جَاحِدون.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾. **صِراط**: فيها قراءتان كما سبَقَ، إحْدَاهُمَا بالصَّادِ، والأُخْرىٰ بالسّين، وهُما لغتان، وقرأ خلفٌ عن حمزة باشْمَام الصَّادِ زاي، وهو من اللّهجات العربيَّة.

الصِّرَاط والسِّرَاط: الطريق الواضح، وقيل: سُمِّي سِراطاً لأنّه يَسْتَرِطُ المارّة، أي: يَبْتَلِعُهُمْ بِيُسْرٍ وسُهُولَة، دُون تزاحم.

مُسْتَقِيم: أي: لا اعْوِجَاجَ فيه.

والمرادُ بالصِّراطِ المستقيم مَا جاء في الدِّين الَّذي اصْطَفَاهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ لعباده، الشامل للعقائد الإيمانيَّة، والأخلاق، وأَحْكَام السُّلُوكِ المنظمةِ لمَسِيرَة الإنْسان في حياته، من كلّ ما يَعْبُدُ به رَبَّهُ، في العباداتِ المحضَةِ وفي غيرها، الفرديَّة، والاجتماعيَّة(١).

وجاء استخدامُ حَرْفِ الجرّ «على» في آية ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ للدَّلاَلَة على أنّ الرَّسُول محمّداً ﷺ ثابتٌ على صراطِ اللَّهِ في عقائده،

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبر سورة الفاتحة حول ما جاء في القرآن من آيات فيها ألفاظ «سبيل ـ طَرِيق ـ منهاج ـ صراط».

وأخلاقه، وسُلُوكه، ومَفْهُوماته، ومتمكّنٌ مِنْه، فَهُوَ لا يَعْدِلُ عنْهُ إلىٰ مُتعَرِّجَاتِ السُّبُل، ولا يَنْحَرِفُ عن حُدُودِ حَافَّتَيْهِ اتّباعاً لِلْهَوَىٰ وَشَهواتِ النَّفْسِ، أو زِيناتِ الأفكار الضَّالةَ، والأقوال الزخرفية.

وهذه شهادة من اللَّهِ عزّ وجلّ لرَسُوله بالاستقامة التَّامَّةِ علىٰ أحكام الدّين فهو لا يَحِيدُ عنها.

ومثلُ هذا التعبير جاء في سورة (الزُّخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول). فقال الله عزّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: إنّ اسْتِمْسَاكَكَ بالّذي أُوحي إِلَيْكَ من رَبّكَ يجْعَلُكَ دواماً ثابِتاً على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمُتَمَكِّناً مِنه.

ووصَفَ هُودٌ عَلَيهِ السَّلام رَبَّهُ بأَنَّهُ على صِراطُ مستقيم، فقال الله عزّ وجل في سُورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) حكايةً لبعض مقالاتِ هُودٍ لقومه:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

وظاهرٌ أنَّ من أعْظَم الثناء على الرَّسُول محمد ﷺ، أَنْ يَصِفَهُ رَبُّهُ بوَصْفٍ هو من صِفَاتِ اللَّهِ جلَّ جلاَلَهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، بشأن الصّراط المستقيم.

- ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾: بنَصْبِ ﴿تَنزِيلَ﴾ وَبِرَفْعِهَا علَىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ. فالرَّفع على أنّه خبرُ مبتَدأ محذوف، والنَّصْبُ على أنه مَفْعُولٌ مطلَقٌ لحالٍ مَحْذُوفَةٍ، والتقدير: مُنَزَّلاً تَنْزِيلَ الْعَزِيز الرَّحيم، والعامل فعل «أقسم» الذي دلَّ عليه القسم.

التنزيلُ: مَعْلُومٌ، وهُوَ كالإنْزالِ، ويُفِيدُ أَنَّ الْفَاعِلَ المُنَزِّلَ وَهُوَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالىٰ ـ هو في جِهَةِ الْعُلُوِّ، وقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ المتَعَالي، وأنَّه الْعَلِيُّ الأَعْلَىٰ.

ويُفِيدُ أيضاً أَنَّ المنزَّلَ عَلَيْهِ هو في الجهة المقابِلَةِ لِجهَةِ العلوّ، فهو في الجهة الدنيا.

ونفْهَمُ من هٰذا أَنَّ كُلَّ عَطَاءٍ من عطاءاتِ الرُّبوبيَّةِ تَنْزِيل، لأنَّ الله عزّ وجلّ لا يُشاركُهُ في علوّه أحدٌ، وكُلُّ ما سِوَاهُ مَخْلُوقٌ له، فكلُّ ما يعطيه سبحانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنْزِيلٌ وإنْزالٌ، سواءٌ أكان مادياً مُحساً، أمْ مَعْنوياً مُدْرَكاً أَم غَيْرَ مُدْرَك.

ولهذا جاء التعبير بالإِنْزَالِ والتَّنْزِيل لدىٰ بيان كثير من العطاءاتِ الرَّبَّانيَّة، ومنها ما يلي:

«إنزال الأنعام ـ إنْزَالُ السَّكِينَة ـ إنْزَالُ الْكِتَابِ ـ إنْزَالُ المَنِّ والسَّلْوىٰ ـ إنْزَال اللّباس والرِّيَاش ـ إنْزَالُ الْحَدِيد».

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: أي: الْقَوِيّ الغالب، وهو من أسماء الله الحسنىٰ، وصفاته العليا.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: ذِي الرَّحْمَةِ العظيمة، وهو من أسماء الله الحسنى وصفاتِهِ العُلْيا.

وجاء اختيار هٰذيْن الاسْمَيْن من أسماء الله الحُسْنى، بَعْدَ ذِكْرِ القرآن الحكيم، وأنَّ مُحَمَّداً لَمِنَ المُرْسَلِين، وأنَّ الدِّينَ الَّذِي يُطَبِّقُهُ في ذَاتِهِ، ويَدْعُو الناس إلَيْهِ، هو صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ، إشَارَةً إلَىٰ أَنَّهُ بِقُوَّتِهِ الْغَالِبَةِ يُعَاقِبُ الْمُكَذِّبِين الّذينَ يُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ في رسالَتِهِ، وَيُكَذّبونَ بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبّه من كتابِ حَكِيمٍ مُعْجِزٍ، وصِرَاطٍ مُسْتَقِيم، وأَنَّهُ لا يَقِي من عذابِ اللَّهِ أَحَدٌ، إذا قَضىٰ بِهِ على مستحقِّيه. وإشارةً إلى أَنَّهُ بِرَحْمَتِهِ العَظِيمة أَنْزَلَ

الكِتَاب، وبَعَثَ الرَسُولَ، وأبانَ الصِّرَاطَ المستقيم للناس، وإشارةً إلى أَنَّهُ بِرَحْمَتِهِ العظِيمَةِ يَجْزِي عبادَهُ المؤمنين الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدين.

- ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

الإِنْذَارُ: هُو الإخْبَارُ بالْعَاقِبَةِ المؤلمة.

أي: جَعَلْنَاكَ يَا مُحَمَّد نبياً رَسُولاً، وأنْزَلْنا عَلَيْكَ القرآنَ، المشتمل على بيان الصِّراطِ المستقيم، وأنت سَائِرٌ عَلَيْهِ لا تَخْرُجُ عن حُدُوده، فأنت الأُسْوَةُ الحسنة، لتَكْلِيفِكَ أنْ تُنْذِرَ قوماً الإنْذار الَّذِي أُنْذِرَهُ آباؤُهم، فأَعْرَضُوا عَنْهُ وأَهْمَلُوهُ فَهُمْ غَافِلُونَ، مشغولُون في أمور دُنْيَاهُم، واتباع أهوائهم وشهواتهم، وضلَالَاتِ المضلّين، وعقائدهم الباطِلَةِ القائمة على الشِّرْكِ بالله في رُبُوبيّته وإِلٰهِيَّتِهِ، وإنكارِ الجزاء ويوم الدّين.

الغفلة: انصرافُ الذِّهْن عن ملاحظة الشيء ومراقبته، معَ وجوده في مجال الإدْراكِ أو وُجود أدلّتِه، وإمكان إدْراكِه، لولَا وُجُودُ الصارف أو السَّهْو، الّذِي هو بمثابَةِ إطباق الأجفان على العيون.

يُقَالُ لغة: غَفَلَ عَنِ الشيءِ يَغْفُلُ غُفُولاً وغَفْلَةً.

والإنْذَارُ هو المهمَّةُ الّتي تأتي بَعْدَ التَّبْلِيغ، والدَّعْوَةِ بالحكمة، والموعظة الحسنَةِ، والجدالِ بالّتي هي أحْسَن، وتَرْغيب من اسْتجابَ وأطاع بالعاقبة الحسْنَىٰ في جَنَّاتِ النعيم، أمّا مَنْ أَبَىٰ وَعَانَدَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لدعوة الحقّ، فيأتي إنْذاره بالعاقِبَةِ السَّيِّئَةِ في جهَنَّم دار عذاب الكَفَرة المكذِّبين.

فذِكْرُ الإنْذار الذي تَسْبِقُهُ مراحِلُ دَعويَّة تقْتَضِيها قواعِدُ الدَّعْوَةِ إلى الله، والتَّراتِيبُ الْعَقْلِيَّةُ الحكيمة، يَدُلُّ عن طريقِ اللُّزوم الذِّهنيّ على هذه المراحل.

كمن يقول لِوَلَدِهِ وهو ما زَال في المرحلة الابتدائية: لقد أَدْخَلْتُكَ يا وَلَدِي في المدْرَسَةِ لتنَال شهادة الدُّكتوراه، أي: بَعْدَ أن تجتاز المرحلة الابتدائية، والمرحلة الإعداديّة، والمرحلة الثانويَّةُ، والمرحَلَةَ الجامِعيَّة، ثمَّ الماجستير، فالدّكتوراه.

وكمن يقول لراغب في الحجّ، خُذْ هٰذا المقدار من المال لَتحجَّ به، أي: لتهيّئ كلَّ مَا تَحتَاج إليه، وتَسَافِرَ من بَلَدِكَ مجتازاً المسافات، على وسائل النقل الّتي تَتَيَسَّرُ لك، حَتَّىٰ تَصِلَ إلى مَكَّةَ في مَوْسِمِ الحجّ وَتَحُجَّ مع وفُود الرَّحْمٰن.

فالمعنى: لتُبَلِّغ الناس ما أوحىٰ رَبُّكَ إليك، وتُبَيِّنُ للناس ما أُنْزِلَ إليهم، وتَدْعُو إلى اللّٰهِ بالحكمة والموعظةِ الحسنة والجدال بالتي هي أَحْسَن، وتَضْرِبَ بِنَفْسِكَ المثَلَ الأعْلَىٰ، وَتُبَشِّرَ المؤمنين ثُمَّ لِتُنْذِرَ أخيراً الكافرين المكذّبين الْمُصرّين على عنادِهم وجُحُودِهم.

عبارة ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ تَرَدَّدَتْ في تفسيرها أقوالُ المفسّرين بين إثْباتِ إِنْذَارِ آبائهم ونَفْيه، وعلى النَّفْي فلَفْظُ ﴿مَا﴾ حرْف نفي، وعَلىٰ الإثْبات يُمْكن أن يَكُونَ لَفْظُ ﴿مَا﴾ اسم موصُول بمعنى الّذي، ويمكن أنْ يكون حرفاً مَصْدَرِياً يُؤَوَّلُ مع ما بَعْدَهُ بِمَصْدَر.

فعلىٰ أَنَّهُ اسْمُ مَوْصُولٍ يكون تقدير الكلام: لِتُنْذِرَ يَا مُحمَّد قوماً العذابَ الّذي أُنْذِرَهُ آباؤُهم.

وعلى أَنَّهُ حَرْفٌ مَصْدَرِيٌّ يكون تقدير الكلام: لِتُنْذِرَهُمْ إِنْذَارَ آبَائِهِمْ الَّذِي أُنْذَرُوهُ على لسانِ رَسُولِهِمْ وهو إسْمَاعِيل بْنِ إبراهيم عَلَيْه السّلام بالنسبة إلى العرب في جاهليتهم.

ونفي الإنْذَارِ وَجَّهَهُ القَائِلُونَ بِهِ لآبَائِهِم الأقربين، وذٰلِكَ لأنّ آباءَهُمْ الأبْعَدِينَ قَدْ أُنْذِرُوا حَتماً، فلا يَسْتَقِيمُ النفي العام، وعن إسماعيل عليه السلام ورث العرب عبادة الحجّ ومناسكه، والصَّلَوَاتِ الّتي كانو يُصَلُّونها،

والطواف الذي كانوا يطوفونه، واسْتَمَرَّتْ هذه المواريث حتَّىٰ بِعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ.

أدلة القول بالإثبات:

والفهم الذي اتَّضَحَ لي بِجَلاءِ هو القولُ بالإثْبَاتِ لا القولُ بالنفي، والدليل عليه مَا جاء في القرآن، من بيان أنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ خَلَتْ في الماضي من القرون، إلّا أرْسَلَ الله عزّ وجلَّ لها رَسُولاً أنْذَرَهَا، أو بَلَغَها إنْذَارُ رسُول، وبذلك قامت حُجَّةُ الله على الأُمم، وآباءُ الْعَرب أُمَّةٌ من الأمم، ومن الأدلة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/٤٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ومَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ إلا سَلَفَ وَمَضَىٰ فِيها نَذِيرٌ أَنْذَرَهَا بَعذابِ الله في نَارِ جَهنَّمَ إذَا هِيَ كَفَرَتْ، وَكَذَّبَتْ بآيَاتِ رَبّها، وَكَذَّبَتْ الرَّسُولَ المؤيَّدَ بآياتٍ مِنْهُ وَخوارق.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) حَدِيثاً عَنْ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّين إذْ يخاطب الله الجنّ والإِنْسَ مَعاً:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

فأثْبَتَ هٰذا البيانُ الرَّبَّاني أنَّ الله جلَّ جَلالُه يُنَادِي يَوْمَ الدِّين معشَرَ الجِنِّ والإنْسِ، فيَقُولُ لهم:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾؟

استفهام لانتزاع إقرارهم بأنّهم قد جاءتْهُمْ رُسُلُ منهم فبلّغوهم وأنْذَرُوهم، فلَمْ يكن لهم عُذْرٌ بالجَهْلِ، بل يشْهَدُونَ على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين.

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾: وظاهر أن آباءَ القوم المعنيين بقول الله عزّ وجل: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ يَدْخُلُونَ في عُمومِ نداء الله يوم الدين بقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ ويَشْهَدُونَ على أنفسهم، ولا يخرج عن عموم هذا النداء إلّا أفرادٌ لم تَبْلُغْهُمْ دعوةُ رَسُولٍ مَا، ولا بَلَغَهُمْ إِنْذَارٌ بعذاب اللَّهِ يوم الدّين، أمّا الأمَمُ والأقوام بوجْهٍ عامٌّ فما من أُمَّةٍ إلّا جاءَها نذير.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الْقَصَصِ/٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) بشأنِ مُشرِكي مكّة:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨﴾.

إنَّ عِلْمَهُمْ بِرِسَالَةِ مُوسَىٰ وَبِرِسَالَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلامُ مِنْ بَعْدِهِ، وَعِلْمَهُمْ بِرِسَالَةِ إِسْمَاعِيلَ وإبْرَاهِيمَ مِن قَبْلِهما، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ آباءَهُمْ قَدْ بَلَغَتْهُمْ إِنْذَارَاتُ الرُّسُل.

وقَدْ دَمَغَهُمُ الله عزّ وجلّ بأَنّهُمْ كَفَرُوا بما أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، وكان يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبِما أَنْزَلَ اللَّهُ عليه.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) عن عُتاة مُشْرِكِي مَكَّةَ المعانِدين المترفين:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنّ هؤلاء الكفرة المشركين المترفين من كبراء مكَّة، قدْ فَهِمُوا ما في القرآن من قضايا الإيمان والإنْذَارِ بعذاب الله يوم الدِّين للكافِرِين، وأنّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَ نظيرُهُ لآبائِهِمْ الأوَّلين، وأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ صِدْقَ الرَّسُول وما يتحلّىٰ به من خُلُقٍ عظيم، وما يَتَّصِفُ به من فِطْنَةٍ فائقةٍ وَعَقْلٍ راجح.

كُلُّ هٰذهِ النُّصُوص تَدُلَّ على أنّ المراد بقول الله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ على الإثبات لا علىٰ النفي.

وعبارة ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ في الآيَةِ تُؤَيِّد الإثبات، لأنَّ الغفلَة حالَةٌ عنْدَ اليقْظَان تجْعَلُه لا يَشْعُرُ ببعْضٍ مَا هُوَ فِي دَائِرَةِ إدْراكه من حَوْلِهِ أو في نفسه، لانْصِرَافِ كُلِّ هَمِّه وَتَوَجُّهِهِ لأمُور أخْرَى هو مُتَعَلّقٌ بها.

فإثباتُ أنَّهُمْ غَافِلُونَ يَدُلُّ على أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ما أنْذِرَ بِهِ آباؤُهم، إلَّا أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عنه، بسَبَبِ انْصِرَافِ نُفُوسِهِمْ إلى شَهَوَاتِهِم، وأهوائهم من الدُّنيا، فهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِتَرْكِ شيءٍ مِنْ حُظوظِ الدُّنْيَا، استجابةً لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ مَهْمَا حَذَّرَهُم وأنْذَرَهُم، ومهما كانَ لَدَيْهِم من أنباء الرُّسُل السَّابِقين في مواريث أخبار آبائهم.

فإنْذَارُ الرَّسُولِ لهم إنْذَارٌ يُنَبِّهُهُمْ من غَفْلَتِهِمْ، ولا يُعْلِمُهُمْ بما كانُوا يَجْهَلُونَهُ.

والعبارة على تقدير: لتُنْذِرَ قوْماً عذابَ اللَّهِ الَّذِي كَانَ آباؤُهم قَدْ أُنْذِرُوهُ، فَأهْمَلُوهُ وأعْرَضُوا عَنْ تَذَكُّرِهِ مع المناسبات الداعياتِ إلى تَذَكُّرِهِ، فَهُمْ غَافِلُونَ عنه، لا يَكْتَرِثُونَ لَهُ، ولا يَعْبَؤُونَ به.

وَيُحْمَلُ على هذا ما صحَّ من أحاديث الرَّسُول ﷺ، ومنها ما يلي:

(١) ما جاء عند البخاري ومسلم من أنّ الرّسُول ﷺ رأىٰ عَمْرو بن لُحَيّ في جَهَنَّمَ وهُوَ الَّذِي سيَّب السَّوَائِبَ في الجَاهِلِيَّةِ العَرَبيَّة.

وعند المؤرخين أنّ هٰذا الجاهليَّ أوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دين التوحيد الَّذي كان عليه العربُ من أيَّام أبيهم إسْمَاعِيلَ بن إبراهيم عليهما السلام.

(٢) وروى مُسْلِمٌ عن عائشة رضي الله عنها، أنَّها سألَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقالت: يَا رَسُولَ الله، إنَّ ابْنَ جُدْعَانَ كان في الجاهليَّةِ يَصِلُ الرَّحِم، ويُطْعِمُ المسكينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قال:

«لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْماً: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين».

(٣) وروى ابْنُ مَاجِهْ عن عبد الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ مُشْرِكٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ». وُصِفَ بأنّه صحيح.

(٤) وروى مُسْلِمٌ عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لي، واسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لي».

وظاهِرٌ أَنَّ الله عزَّ وَجلَّ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ بأنْ يَسْتَغْفِرَ لأُمِّهِ، لأنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، فهو لا يأْذَنُ بالاستغفار لمَنْ مَاتَ مُشْرِكاً.

(٥) ووردت عدَّة روايات يُقَوِّي بعضُها بعضاً، بشأن امْرِئ القيس، وأنَّ الرسُول قال فيه: صاحبُ لواء الشعراء إلى النار، وأنَّهُ نَبِيهُ الذِّكْرِ في الدُّنيا، خامِلُهُ في الآخرة(١).

أدلّة القائلين بالنفي في عبارة: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾:

أمّا القائلون بالنفي فقد اعْتَمَدُوا فيه على ما تَبَادَرَ لأذهانهم من فهم فيما يلي من نصوص:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سُورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) خطاباً لرَسوله محمّد ﷺ:

﴿... لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) انظر أيضاً تدبر الآية (٤٢) من سورة (فاطر/٣٥ مصحف/٤٣/ نزول) ففيها مزيد تأكيد لأدلة القول بالإثبات.

(٢) وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) بشأن القرآن:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

حملوا كلمة ﴿مَا﴾ في ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ على أنَّها حرف نَفْي على ما تبادر إلى أذهانهم.

مع أنّ هٰذيْنِ النَّصَّيْنِ يجب فَهْمُهُما بما يتطابَقُ مع دلالات النصوص الواضحات، الَّتي سبَق ذِكْرُها وَتَدَبُّرها تَحْتَ عنوان «أدِلَّة القول بالإثبات».

إنّ كلمة ﴿نَذِيرٍ﴾ تأتي في اللُّغة مَصْدراً بمعنى «الإِنْذَار». وتأتي بمعنى «المُنْذِر».

وانسجاماً مع مختَلِفِ النصوص يَنْبَغي حَمْلُ الكلمة في نَصَّي (القصص) (والسجدة)، على معنى «الإِنْذَار» فيكونُ المعنى فيهما كما يلي:

لتُنْذِر قوماً الّذي آتاهُمْ مِنْ إنْذَارٍ من قَبْلِكَ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كما جاء في (الْقَصَص) و﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ كما جاء في (السجدة). وإنْذارُكَ لَهُمْ يكون بمثابَةِ المُنَبِّهِ لهم من غفلاتهم، كما جاء في سورة (يسٓ).

أمّا قول اللَّهِ عزّ وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) بشأن كبراء كُفَّار مكّة في المرحلة المكيّة من دعوة الرسول ﷺ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

فظاهر فيه أن الآية (٤٤) هي من توابع أقْوَالِهِم، فهم يَفْتَرُونَ على اللَّهِ بأنَّهُمْ مَا أَتاهُمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ من نذير، ولهذا أَتْبَعَ الله عز وجل

الآية بقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: وكَذَّبَ هؤلاءِ بأقوالِهِمْ هذه، وكذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ منْ أَهْلِ الْقُرُونِ السابقة كذلك، وكانُوا أشَدَّ من كُفَّار مَكَّةَ قُوةً وبأساً فأهْلَكَهُمُ الله عزّ وجلّ.

وأمّا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول).

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾.

فقد اشتمل على أرْبَعَةِ قوانِينَ دُسْتُورِيَّةٍ عامَّةٍ مِنْ قَوانِينِ الجزاء الرَّبَّاني:

القانون الأول: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾: أي: إذْ يَجْلُبُ لَهَا باتّباعِهِ الْهُدَىٰ السَّعادَة الأبَدِيَّة بفضْلِ رَبّ العالمين، واهْتِدَاؤه الَّذِي يَجْلُبُ لَهُ سَعادَتَهُ لَا يُشارِكُهُ فِيهَا غَيْرُه، مهْمَا كان الْتِصاقُهُ بِهِ وَثيقاً بقرابَةٍ وَرَحِمٍ، أَوْ حُبٍّ، فثوابُه لَهُ وحْدَه.

القانونُ الثاني: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾: أي: يَضِلُّ جانِياً على نَفْسِهِ، إذْ يُلْقِي عليها عُقُوبَاتِ اخْتِيَارِه سُبُلَ الضَّلالِ. وضَلالُهُ لَا يَضُرُّ غَيْرَه، مَا لم يكن لَهُ تَسَبُّبٌ بإضْلَالِ غيره، ومن كان سبباً في إضلال غَيْرِه، فإنَّهُ يُعاقَبُ على أعمالِهِ السَّبَبِيَّةِ، لَا عَلَىٰ أَعْمَال الآخَرِينَ الاخْتِيَارِيَّة.

القانون الثالث: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾: أي: ولَا تَحْمِلُ نَفْسٌ تَكْتَسِبُ باخْتِيَارَاتِها أوْزارَهَا فهِي باكتِسَابها لها وازرة، وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ تَكْتَسِبُ باخْتِيَارَاتِها أوْزارَهَا.

القانون الرابع: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾: أي: وما كانَ من شأن الله وَلا من سُنَّتِهِ الحكيمة، أنْ يُعَذِّب الموضُوعين مَوْضِع الامْتحان، على كُفْرِهِمْ وعَدَم إيمانِهِمْ، حتَّى يَبْعَثَ رَسُولاً يُبَلِّغُ الممتَحَنِينَ مَطْلُوبَ اللَّهِ مِنْهم، وقَدْ بَعَثَ اللَّهُ في الواقع الفِعْلِيِّ لكلّ أُمَّةٍ رَسُولاً، فقد تحقَّقَ هذا

الأمْرُ بالنسبة إلى كلِّ الأُمَم، كما جاء في بيانات القرآن الكريم، ورَسُول اللَّهِ محمَّدٌ ﷺ بَعْدَ بِعْثَتِهِ هو الرَّسُولُ لكلّ العالمين من الإنس والجنّ.

أمّا الأفرادُ المنْعَزِلُون الَّذِينَ لم تبلُغْهُمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ، فَلِلَّهِ فيهم إجراءٌ خَاصٌّ قد يكون بإجراء امتحانٍ لهم يوم القيامة، كما جاء في بَعْضِ الأحاديث، واللَّهُ لَا يَظْلِمُ أحداً شيئاً، وقَدْ يكُونُ بمعاملتهم كمعاملة الأنعام، والله هو العليم بإجراءاته فيهم.

واعْتِبَارُ أَهْلِ الجاهليّة العربيَّةِ قبْلَ الإسلام، أهْلَ فَتْرَةٍ بصِفَةٍ عامَّة، أمْرٌ لا تُسَاعِدُ عليه النُّصوص، بل تَدُلُّ النُّصُوصُ على أَنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ ومُجَازَوْنَ علَىٰ كُفْرِهم.

وإطلاق عبارة: «أهْلِ الْفَتْرَة» مَأْخُوذَةٌ من قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾.

الْفَتْرَةُ: هي مُدَّة السَّكُونِ الّتي تَكُونُ بَيْنَ حَدَثَيْنِ من نوع واحد، كَسُكُونِ الْحُمَّىٰ بَيْنَ نَوْبَتَيْنِ، وكانْقِطَاعِ بَعْثِ رَسُولٍ بَيْنَ رَسُولِين.

فإنْ كان لأهْلِ الْفَتْرَةِ أحْكَامٌ خاصَّةٌ تُعَفْيهِمْ مِنَ الْمَسْؤُولِيَّة عن الإيمان الصحيح، فالأولىٰ بها أَهْلُ الكِتَابِ بمقْتَضَىٰ هٰذِهِ الآيَةِ، ولا مَعْنَىٰ لتَخْصِيصِهَا بأهْلِ الجاهليَّةِ الْعَرَبيَّة.

فأحكام أَهْلِ الفترة الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ عُلَمَاءِ التوحيد، لَمْ أَجِدْ ما يَدُلُّ عَلَيْهَا مِنَ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ، ولا من براهين العقل، باستثناء الأفراد الّذين لم تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ، ولا بيانَاتٌ صحيحةٌ عن أرْكان الإيمان، وما أَعَدَّ اللَّهُ للكافرين من عقابِ يوم الدين.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾.

كلمة: ﴿سَدًّا﴾ في الموضِعَيْن فيها قراءتان متواتران بفتح السِّين وبضَمِّها، وهُما لُغتان عَربيتان للْكَلِمَة.

- ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾:

المرادُ بأكْثَرِهِمْ أكْثَرُ قادَةِ وأئِمَّةِ مُشْرِكي مَكَّةَ حِينَئِذٍ، وهُمُ الّذِين يُطِيعُهُمُ السَّوادُ الْأَعْظَمُ مِنْ جُمْهُور الْقَوْم، وهؤلاءِ القادَةُ والْأَئِمَةُ من الأكابِر المجْرِمِينَ هُم الّذين كان الرسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ حَرِيصاً على أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَجِيبين لِدَعْوَتِه، لأنَّهم إذَا آمَنُوا بِه واتَّبَعُوهُ تَبِعَتْهُ مَعَهُمْ جَمَاهِيرُهم، ودَخَلَتْ في الإسْلام من بَعْدِهم جَمَاهِيرُ قبائلِ الْعَرب أفْواجاً، إذْ كانَتْ قبائلُ مُعْظَمِ الْعَرَب ترَىٰ لِقُرَيْشٍ سِيَادَةً وَفَضْلاً، وَلا سيما في أُمُورِ الدين.

وقد أيأسَ اللَّهُ عزّ وجلَّ رسُولَه بهٰذِهِ الآية مِنْ إيمَانِ أكْثَرِهم، لِعِلْمِه بمَا وصَلَتْ إليه نُفوسُهم وقُلُوبُهُمْ مِن عنادٍ واسِتكْبارٍ وإصرار على الباطل، وذلك لئلا تبقىٰ مطامِعُ الرَّسول متعلّقَةً بإيمانهم، بغية إعزاز الإسلام والمسلمين بهم، والإسراع بانتشار دين الإسلام في الأرض.

ولِيُوَجِّه الرَّسُولُ ﷺ الطاقات الكبرى من طاقات دعْوَتِه إلى آخَرِين، لم تَسْتَحْكِمْ في نُفُوسهم عُقْدَةُ العناد والاستكْبار والإصْرار على الباطل.

فالمعنىٰ الذي تَدُلُّ عَلَيْهِ هذه الآية يمْكِنُ شرحُهُ بما يلي:

لقد ثبت على أكثرهم قوْلُ اللَّهِ المحدِّدُ لأنْظِمَةِ النَّفْسِ الإنسانيَّة، المتَضَمِّنُ أنَّ من جعل نفْسَهُ باختياره الحرّ أسِير جوامِحِه من الأهواء والشهوات، والكِبْرِ وحُبِّ الْعُلُوّ في الأرْض، والرَّغْبَةِ في الفُجُور، فإنَّه لَا يُؤْمِنُ بالجزاء الرّبّاني، ولا يُؤْمِنُ بِيَوْم الدّين، لئلَّا يُلْجِمَ جوامِحَهُ عن مطالِبِها وَرَغباتها، مَهْمَا توالَتْ عَلَيْهِ الآيَاتُ البيّنات، والْحُجَجُ والبراهين الواضِحَات، ومهما تتابعتْ عليه الإنذارات.

وثبَتَ على أكْثَرِهِمْ قَوْلُ اللَّهِ هٰذَا، بأَنَّهم لَنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً، مهما وُجِّهَتْ لهم وسائل العلاج الإقناعيّ والترغيبيّ والترهيبي، وبأنَّ مَصِيرَهم إلى عذابِ جهنَّمَ، فحالَةُ نفوسهم حَالَةٌ مَيْؤُوسٌ منها، ولو مُنحُوا أزمان إمْهَالٍ طويلَةَ الأَجل.

لكن ما دام فيهم العدَدُ الأقلُّ قابلين لأنْ يُؤمِنوا مستقبلاً، ولَمْ يَصِلُوا إلَى حَالةٍ ميؤوسٍ منها، فإنَّ حِكْمَةَ الله عزّ وجلّ تَقْتَضِي عَدَمَ إهلاكهم إهلاكاً جماعِياً عَامًّا. كما أهْلَكَ الَّذِينَ أهلَكَهُمْ من كفار الْقُرُونِ السّالفة، من أُمَم المرسَلِين السَّابقين.

عبارة: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ تكَرَّرَ في القرآن المجيد نظيرها، فَمِنْهَا ما يلي:

- ﴿. . .فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ الإسراء/ ١٧.
- ﴿. . .وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ السجدة/ ٣٢.
- ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ الصافات/ ٣٧.
- ﴿. . .وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فصلت/ ٤١.

- ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يونس/ ١٠.
- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ الأحْقَاف/ ٤٦.
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يونس/ ١٠.

هذا الاسْتِعْمَالُ ونظائرُه قد جاء في القرآن بمعنى تحقُّقِ كَلِمَةِ الله في سُنَّتِهِ في عبادِهِ، إذْ يكُونُ مَصِيرُهُمْ بأسْبَابٍ مِنْهُمْ إلَىٰ عَذَابِ الله، عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة المختارة، حِينَ يَخْتارُون الْإِصْرَارَ على الكُفْرِ والجُحود، ورَغبَاتِ الْفُجُور، ومعانَدَةِ الخالِقِ العزيز الْقَهّار، بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُم رَبُّهم في امتحانهم في ظروف الحياة الدنيا كلّ ما يَلْزَمُ للابْتِلَاءِ الْأَمْثَل، وَأَمْهَلَهُم إمْهالاً كافِياً، فلو اسْتَمَرُّوا في الحياة الدُّنْيا إلَىٰ الْأَبَدِ، لاسْتَمَرُّوا كافِرِينَ إلَىٰ الْأَبَد.

وجاءت كلمة «على» في هذه الاستعمالَاتِ ونظائرها مُنَاسِبَةً لِقَضَاءِ الْعِقابِ الَّذِي يُسْقِطُهُ اللَّهُ عليهم.

ولو كان القضاء الرَّبَّانيُّ قضاءَ ثواب، لكان المناسبُ استعمال حَرْف اللام الّذي يُدَلُّ على الْمِلْكِ أو الاختصاص أو نَحْوِها.

إنَّ كَلِمَةَ الله بالعِقاب المعجّل في الدُّنيا، أو المؤجّل إلى يَوْم الدِّين، أو بالإهلاك الشامِلِ في الدُّنيا، كَلِمَةٌ مُعَلَّقَةٌ مَشْرُوطةٌ، سَبَقَتْ وَضْعَ الممتحنين في مجالَاتِ ابْتِلَائهم، وهي تَتَرَقَّبُ مَنْ يُحقِّقُ منهم في نَفْسِه باختياره الحرِّ الصِّفَاتِ الّتي تَجْعَلُهُ يَسْتَحِقُّ إنْزَال العقاب أو الإهْلَاكِ عليه.

فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ في نَفْسِهِ فَقَدْ حَقَّ قَوْلُ رَبِّه عَلَيْهِ، فانْطَبَقَ عَلَيْه، واسْتَقَرَّ وَثَبَتَ، كما تَنْطَبِقُ أسْنَانِ المفتاح على أسْنَانِ الْقُفْلِ، ويَنْتَظِرُ الْقُفْلُ حَرَكَةَ إدَارَة، وبإدارة مِفْتَاحِ قُفْلِ العذاب يَنْزِلُ العذابُ علَيهم بقضاء اللَّهِ وقَدَره، وهم مُسْتَحِقُّونَ له اسْتِحْقَاقاً تامًّا، بمقتضىٰ عَدْلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وَوَعِيدِهِ السَّابق.

أقْسَامُ قول الله:

إنّ «قَوْل الله» و«كلمة الله» سواء، ويكونُ قَوْلُ اللَّهِ تعالى في الأقسام الأرْبعة التالية:

القسمُ الأول: قَوْلُ الله عزّ وجلّ في موضوعٍ خَبَرِيّ، أزَلِيّ أو غير أزَليّ، من ماضٍ، أو حاضرٍ، أَوْ مسْتَقْبل، وهو قَوْلٌ دالٌ على مَعْلُومٍ منْ مَعْلُومات الله، وهو حقٌّ لا محالة، ولا يكونُ الواقِعُ إلَّا مطابقاً لِقَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجلّ بشأنه.

القِسْمُ الثَّانِي: قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في أَمْرٍ تَكْوِيني، وهو قَوْلٌ نافِذُ التَّكْوِينِ لَا مَحَالَة، ويتَحقَّقُ الْمُكَوَّنُ بأَمْرِ التَّكْوِينِ «كُنْ» كما قال الله عزّ وجلّ في أواخِرِ سُورَة (يسٓ):

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

القِسْمُ الثالث: قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلَّ فِي حُكْمٍ تَشْرِيعي، ويَتَحقَّقُ نَفَاذُهُ ويَتِمُّ بِبَتِّ الْحُكْم التَّشْرِيعيّ، وَوَضْعِ حُدُودِه، علىٰ مُرادِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ فيه، ويُوَجَّهُ الْبَيَانُ بِهِ للعباد، أمراً، أو نَهْياً، أو إباحَةً، أو تَرْغيباً، أو غير ذلك من الأحكام، ولَا يَتَوَقَّفُ الْقَوْلُ التَّشْرِيعِيُّ على طاعَةِ العبادِ لَهُ، إذْ تَتَحقَّقُ الإرادَةُ بإصْدَارِ الحكْمِ.

القسْم الرابع: قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ في مَوْضوعٍ جزائي، ويَتَحَقَّقُ نفاذُه بإصدار الْوَعْدِ والْوَعِيد به، وتَحْدِيدِ قواعِدِه وشُرُوطِه ومجالاته، على ما تَمَّتْ به إرَادَةُ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

وعِنْدَ تَنْفِيذِ الجزاء بالْوَعْدِ أو الْوَعِيد، يَأْتِي أمْرُ التكْوين، فَيَتِمُّ التَّنْفِيذُ بِكَلِمَةِ «كُنْ».

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾.

﴿أَغْلَٰلًا﴾: جمع «غُلّ» وهو طَوْقٌ من حَدِيدٍ أوْ جِلْدٍ، يُجْعَلُ في عُنُق الأسير، أو المجْرِم، أو في أيديهما، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُ المغْلُولِ إلى عُنُقِه، وتُطَوّقان بالْغُلّ.

﴿ٱلْأَذْقَانِ﴾: **الأذقان**: جمع «الذَّقَن» وهو مجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ مِنْ أسفَلِهما.

﴿مُّقْمَحُونَ﴾: أي: رافِعُوا رؤوسِهم إلى الأعْلَى، يُقَالُ لغةً: أقْمَحَ الْغُلُّ الْأَسِيرَ، أي: ضَيَّقَ الْغُلُّ عَلَىٰ عُنُقِهِ، إذ كان عَرْضُهُ أكثَرَ من مسافة عُنقه فاضطره إلى رفع رأسه.

والمراد بالجعْلِ هُنَا في عبارة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ تَطْبِيقُ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في كونه، وهِيَ أنَّ مَنْ جعَلَ نَفْسَه باختياره الحرّ أسِيرَ جوامحِهِ من الأهواء والشهوات والكِبْرِ، وحُبّ الْعُلُوّ في الأرض، والرَّغبةِ في الْفُجُور، فإنَّه لا بُدَّ أن يَرْفُضَ دَعْوَة الحقِّ الَّتِي جَاءَ بها الرَّسُول، ولَا بُدَّ أن يُعانِدَ ويَسْتَكْبِر، وهٰذا مِن سُنَنِ اللَّهِ عزّ وجلّ وقوانينه في النفوس ذواتِ الإرادات الحرَّةِ المبتَلاةِ في ظروف الحياة الدُّنيا.

وسُنَنُ اللَّهِ عزَّ وجلّ وقَوانِينُه تُعْطِي نتائِجَها بجَعْلٍ مِنْهُ تَبارَكَ وتَعالَىٰ، وإنْ كانَتْ أسْبَابُ اسْتِخْدَامِها مِنْ إراداتِ العباد.

فَمَنْ رمَىٰ نَفْسَه من شاهِقٍ على الصُّخُور، قَتَلَهُ اللَّهُ بالصُّخُور الّتِي ارْتَمَىٰ عَلَيْهَا، وكسَّرَ له بها عظامَه، ومزَّقَ لحْمَهُ، وشحْمَهُ، وأعصابَهُ، ضِمْنَ سُنَنِه وقوانِينِه الثَّابِتَة.

ومَنِ اسْتَجاب لدواعي الكُفْرِ في نَفْسِه، شَعَرَ بأنَّ شَيْئاً نَفْسِيًّا يَأْسِرُه،

كالْغُلِّ في عُنُقِه، فيجعَلُه يَرْفُضُ الإيمانَ والاعْتراف بالحقّ، ضِمْنَ سُنَنِ اللَّهِ وقوانينهِ الثابتة الَّتي نَظَّمَ بها حركات النفوس وأَعْمَالها.

فَهٰذِه الْآيَةُ تُقَدِّمُ صُورَةً تمثيليَّةً رائِعةً، لِحَالَةِ رَفْعِ رؤُوس الْكَافِرِين المستكْبِرِينَ، ورَفْعِ أُنوفِهِم إلى الأعلى، إذْ رفَضُوا الاستجابَة لدعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بعْدَ أَنْ دعَاهُمْ طويلاً إلى ما جاء في القرآن الحكيم، وبياناتِه وَحُجَجِه.

وهٰذه الصورةُ هيَ في الحقيقَةِ صُورَةٌ تمثيليَّةٌ لحالَةِ نُفُوسِهم من وراء رؤوسهم.

إنَّ هٰذِهِ الصورةَ التمثيليَّة تَدُلُّ على أنَّ رفْضَهُمْ وعنادَهُمْ ظاهِرَةٌ مادّيَّةٌ مَشْهُودَةٌ، لأسْبَابٍ نَفْسِيَّةٍ بعِيدَةٍ كُلَّ الْبُعْدِ عَنْ مَنْطِقِ الحقّ، وتَدُلُّ على أنَّ رَفْضَهُمْ وعنادَهُم ناتجان عن اختيارهم الحرّ، ولا أثَرَ لِلْجَبْرِ فيه، فَمَسْؤُوليَّتُهُمْ إذَنْ تُجاهه مَسْؤُوليَّةٌ تامَّة.

وكُلَّنَا نَعْلَمُ أنّ ظاهِرَةَ رَفْضِ شيءٍ ما قَدْ يُعَبَّرُ عَنْها برَفْعِ الرأسِ إلى الأعلى نَفْياً واسْتِكْبَاراً.

فما هو سبَبُ رفْعِ رُؤوسِهم عناداً لآيَاتِ اللَّهِ في القرآن الكريم، واسْتِكباراً عنها؟!

إنَّ الآيَةَ تُشِيرُ باللّمح البارع الَّذِي يتَصَيَّدُهُ المتفكّر المتدبّر الأَدِيب الأريب، إلَى أنَّهُمْ في حقيقَةِ نُفُوسِهِمْ أَسْرَىٰ.

ويطْرَحُ سائلٌ سؤالاً يقُولُ فيه: كيف هم أَسْرَىٰ وقد كَانُوا أصحابَ القوة والسُّلْطَانِ في مكَّة، وكانَ المسلمون أتباعُ الرسُول ﷺ مستضعفين بينَهُمْ؟!

ويُجِيبُ التَّحْلِيلُ اللَّمَاح بأَنَّهُمْ أَسْرَىٰ شهواتهم، وأهوائهم، وكِبْرِهِمْ،

وحُبِّهِم الاسْتِعْلَاءَ في الْأَرْضِ بغَيْرِ الحقّ، وأسْرَى رَغباتِهِمْ الجامحاتِ في الْفُجور، وأسْرَىٰ الشَّياطين الَّتي تَسُوقُهُمْ أَوْ تَقُودُهم إلى شقائهم.

ولَمَّا كان المعتادُ في الأسْرَىٰ أن تُوضَعَ الأغْلَالُ في أعناقِهم، وأن يُقَادُوا منها بالسَّلاسِلِ، ولمَّا كان من الأغْلَالِ ما هو ضَيِّقٌ عَرِيضٌ، وبِسَبَبِ ضِيقِهِ وعَرْضِهِ يُضطَّرُّ المغْلُولُ بواحدٍ منها إِلَىٰ أن يَرْفَعَ ذَقَنَهُ إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ، كان مُنْظَرُ الرَّافِضِ لِدَعْوةِ الحقّ الَّذِي يَرْفَعُ رأْسَهُ إلى الأعْلَىٰ نفْياً واسْتِكْباراً، مُشَابِهاً لمنظر هذا المغْلُولِ بالْغُلِّ الضَّيِّقِ العريض.

ولمّا كانت أغْلَالُ هٰؤلاء الكَفَرَةِ أَغْلَالاً غَيْرَ مَرِئْيَّةٍ، وهِيَ ضَاغِطَةٌ على رقابِهِمْ من داخِلِ نُفُوسِهِمْ، كانَ مَا يُرىٰ من ظاهِرِهم تَعْبِيراً مادِّيًا عن هٰذِهِ الأغْلَالِ النَّفْسِيَّةِ، الَّتِي جَنَوْا عَلَىٰ أنفُسِهِمْ بِتَقَلُّدِها، وأَجْرَمُوا وَظَلَمُوا، وَجَعَلُوا إراداتِهِمْ تُجَرُّ بسَلَاسِلِها إلى ما هُمْ به مغْتَرُّونَ مُنْخَدِعُونَ، وهُمْ بسَبَبِها زَادُوا كُفراً وعِناداً، وزادُوا إصراراً على الباطل، على الرَّغْمِ من تَبَلُّغِهِم الحقّ، وعلى الرُّغْمِ مِنْ عَرْضِ أدِلَّتِهِ البرهَانيَّةِ عليهم، وإقامة الحجَّةِ الدَّامِغَةِ لهم، وعلى الرُّغْم من الترغيب العظيم لمن آمن وأطاع بمَا يطمع فيه العقلاء الرَّاشِدُونَ فيَزْهَدُونَ بكُلِّ الدُّنيا من أجله، وعلى الرُّغْم من الترهيب المخيف لمَنْ كَفَر وعصَى، ممّا يَرْهَبُ منه رَهباً شَدِيداً الْعُقلاء الرَّاشِدُون، فيحْذَرُون من فِعْلِ كلِّ ما نهىٰ اللَّهُ عنه، ومِنْ تَرْكِ كُلِّ مَا أَمَرَ الله به.

وتقولُ إيحاءات هٰذِهِ الآية: فلا تحْسَبَنَّ أيُّها المتدبّر أنَّ ما تراهُ من رَفْع رؤوس الجاحدين المستكبرين إلى الأعلىٰ، رافضين الاستجابة لدَعْوَة الحقّ الرَّبانيّة مُعَبِّراً عَنْ عُلُوِّ نُفُوسِهم، بل هُمْ مُقْمَحُونَ أسْرَىٰ الجوامِح من أهوائهم وشهواتِهم وكِبْرِهِمْ وحُبهِم الاستِعْلاءَ في الأرْض بغَيْرِ الحق، وأسْرَىٰ رَغباتِهِمْ في الفجور، وأسْرَىٰ الشياطين.

وبما أنَّهُمْ أسْرَىٰ، فالأغْلاَلُ الضّيّقَةُ العَرِيضَةُ تَشُدُّ عَلَى أعناقهم، وتَدْفَعُ أَذْقَانَهُمْ، فَيَرْفَعُونَ بسَبَبِ ذلك رؤوسَهُمْ وأُنوفَهُمْ، فَيَظْهُرونَ للرَّائين مُسْتَكْبِرِينَ.

وهَلْ يُوجَدُ أَذَلُّ وأحْقَرُ من الأسِير، الّذِي يُجَرُّ بسِلْسِلَةٍ معْقُودَةٍ بغلٍّ يُطَوِّقُ عُنُقَه؟!.

هكذا صَوَّرَ الله عزّ وجلَّ حالَةَ هؤلاء المعانِدِين المستكبِرين، الّذِينَ رَفَضُوا دعوةَ الرسول محمّد ﷺ من كُبَراء مُشْرِكي أهل مكَّة حينئذٍ، ويُلْحَقُ بهم أشباهُهُمْ في كلّ عَصْرٍ وفي كُلِّ أمَّة.

* * *

قولُ الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾:

﴿سَدًّا﴾ و﴿**سُدًّا**﴾على القراءتَيْن المتواتِرَتين، بفتح السّين وضمها: هو الحاجِزُ بَيْن شيئين، ومنْه سَدُّ الصين، وسَدُّ ذي القرنَيْن، والسَّدُّ الّذي يَحْجُزُ المَاءَ.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: أي: فجعَلْنا عَلَىٰ بَصَائِرِهِمْ غِشَاءً، **الْغِشَاءُ والْغِشَاوَةُ:** الغِطَاءُ السَّاتر.

أي: وجَعَلْنَا بمقْتَضَىٰ سُنَنِنَا السَّبَبِيَّةِ، وقوانينِنَا في النفوس ذواتِ الإرادات الحرَّةِ المبتَلاة في ظروف الحياة الدنيا، حاجزاً مِنْ أمَامِهِمْ وحاجزاً من ورائهم، يَحْجُبُ عَنْهُمْ الرُّؤْيَةَ كَيْفَمَا اسْتَدَاروا، لأنَّهُمْ اختارُوا لأنْفُسِهِمْ ظُلُماتِ الكُفْرِ والْجُحُودِ، واتّباعِ الأهواءِ والشهواتِ ورَغَباتِ الْفُجُور، ومَواقِعُ هٰذِهِ الظُّلُماتِ مَحْجُوبَةٌ عَنْ مَواقِعِ أنوار الهدايَةِ الرَّبَّانِيَّة.

واقتصَرَ النصُّ على ما بين أيديهم وما خَلْفَهم، لأنّ ما بينَ يدَي

الناظر يشْمَلُ نصْفَ الدائرة من حوله، إذ البصَرُ يَرَىٰ من الجهة الّتي يتوجَّهُ لها مقدارَ نِصْفِ الدائرة أو الكُرَة من حول الناظر، فَيَدْخُلُ ما هو عن يمينه وما هو عن شماله وما هو من فوق هذه الجهة، فالسَّدُّ من بين يدَيْه كلّ هذه الجهة، وحِينَ يسْتَدِيرُ إلى خَلْفِهِ يَجِدُ سداً آخر بمقدار نصْفِ الدائرة أو الكُرَة من حَوْله، فعبارة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ تَشْمَلُ كُلَّ ما حَوْلَهُ، فَلا حاجَةَ إلى إضافَة: وعَنْ أيمانهم سَدًّا، وعن شمائلهم سَدّاً ومن فوقهم سَدًّا. وهذا من دقائق التعبيرات القرآنية.

وهذه الآية تُقَدّم صورةً تمثيليَّةً رائعةً لحالَةِ عَدَمِ رُؤيَتِهِمْ للحقّ، وهي تَعْرِضُ ما قامَ دُون بصائرهم من سُدُودٍ تَمْنَعُ عَنْهَا رؤية الحقّ، بسبَبِ كونِهِمْ سُجَنَاءَ شهواتهم وأهوائهم وكِبْرِهم، وحُبّهم الاستعلاء في الأرض بغَيْر الحقّ، ورغباتهم في الفجور، ومن ورائها الشياطين.

وجاء في الصورة تسْمِيَةُ الحجُب سُدوداً، ولم يُسّمها الله سُتُوراً أو نحو السُّتور، لأنّ هذه الحجب تصَلَّبَتْ وتحجَّرَتْ، فَهِي حَرِيَّةٌ بأَنْ تُسَمَّىٰ سُدوداً، إذْ هي بالنسْبَةِ إليهم وإلى مَنْ هُمْ مثلهم تُشْبِه السُّدُود.

وقد جعل الله ـ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه ـ في أنظمة النفوسِ الّتي هي إحْدَىٰ سُنَنِهِ وقوانينه في كونه، أنَّ من جعَلَ نَفْسَهُ باختياره الحرّ سَجين أهوائِهِ وشهواتِه إلى سائر الجوامح الأواسِرِ لنِفْسِه، أَنْ تُقَامَ بين بَصِيرَته وبيْنَ الحقّ سُدُودٌ مِنْ بين يدَيْهِ ومن خَلْفِه،، وهذه السُّدُود تحجب عن بصيرته رؤية الحقّ.

وهل يُوجَد أذَلُّ وأحْقر وأخْزَىٰ من أسيرِ سَجينٍ لا يَرَىٰ أنوار الهِدَاية الرَّبَّانِيَّة؟!

هكذا صَوَّرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ حالَةَ هٰؤلَاءِ الْمُعَانِدِينَ المستكْبِرين، الّذِين دَخَلُوا باخْتِيارِهُم الحرّ في سِجْنِ الجوامِح الأواسِرِ المتعلّقةِ بمتاعِ الحياة الدنيا وزينَتِهَا.

إنّهم بدُخولهمْ هذا السّجْنَ المظْلِمَ الخادعَ باللّذّاتِ، قَدْ جعَلُوا أنْفُسَهُمْ ضِمْنَ سُدُودٍ تَحْجُبُ عنْهُمْ رؤيَة الحقّ ضِمْنَ أنْظِمَةِ اللّهِ في كوْنِه للنُّفُوسِ، فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ.

إنّ نظام اللّهِ عزَّ وجَلَّ ضِمْنَ قَوانِينِه السَّبَبِيَّةِ للنُّفُوس، يُشْبِه نِظَامهُ ضِمْنَ قوانِينه السببيَّةِ للمُدْركَات الحسيَّة، التي نُلَاحِظُ فيها أَنَّ من أدْخل يَدَهُ في النار بإرادته الحرَّة أحْرَقَها اللّهُ له ضِمْنَ قوانينه السببيَّة في كونه، ومَنْ شَرِبَ سُمًّا قاتِلاً بإرادته الحرَّة أو بغير إرادته، قتله الله عزّ وجلّ بسُمّه، ضمْن قوانينه السببيَّةِ في كونه.

كذلك من اخْتَار بإرادَته أنْ يتَّبِعَ أهواءَه وشهواتِه من متاع الدنيا ويَسْتَجيبَ لوسَاوِسِ الشياطين، واخْتَارَ أَنْ تكون بصيرَتُهُ بَعِيدَةً عن أنوار الهداية الرَّبَّانِيَّةِ، جَعَلَ اللّهُ في عُنُقِهِ غُلاً يُصَيِّرُه مُقْمَحاً، وجَعَل بَيْنَه وبين أنوار الهداية الرَّبَّانيَّة، سَدًّا من بَيْنَ يَدَيْهِ وسَدًّا من خَلْفِه، وكلُّ ذَلِكَ ضِمْنَ قوانينهِ السَّبَبِيَّةِ في كَوْنِه تبَارَكَ وتَعَالى.

وحين تُوجَدُ هٰذِهِ الْأَغْلَالُ، وتُوجَدُ هٰذِهِ السُّدُودُ، فإنَّ الإنْذَارَاتِ والتَّحْذِيراتِ الَّتي تُوجَّهُ لَهُ لَا تُؤَثِّرُ في نَفْسِه أثراً ما، لأَنَّه في داخل نَفْسِهِ مَحْجُوبٌ عنها، مَقُودٌ كالأسِيرِ إلى الجهاتِ المضادَّةِ لما تَدْعُوا إلَيْهِ، أو تُحِذِّرُ منه، أوْ تُنْذِرُ به.

فسواءٌ عليه أأَنْذَرْتَهُ أَمْ لم تَنْذِرْهُ فإنَّهُ لَنْ يَسْتَجِيب.

قول الله تعالى:

- ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

الهمزة في: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ هنا هي همزة التسوية كما يقول النحويون.

أي: واسْتَوىٰ فَوْقَهُمْ إنْذَارُكَ لَهُمْ بِعَذَابِ الله المسَلَّطِ بِقَدَرِ اللّهِ

وقَضائِهِ علَيْهِم، والَّذي سَيَنْزِلُ عليهم إذا استَمَرُّوا على كُفْرِهِمْ وجُحودِهِمْ وإصرارهم على إتّباع الباطل، والتَّكْذِيبِ بالحقّ، وعَدَمُ إنْذارِكَ لهم، لأنَّهُمْ مَغْلُولُونَ أسْرىٰ، ومَحْجُوبُونَ عن أنوارِ الهداية، ومنْغَمِسُونَ في أَوْحَالِ كُفْرِهم ومعَاصِيهِم، لا يَنْظُرُونَ إلى ما هو مُعَدٌّ لهم من عذابٍ في آخِرِ رحْلَةِ امْتِحَانِهِم، مع احْتِمالِ أن يُنْزِل اللَّهُ عليهم عذاباً معجَّلاً، وهم ما زالوا يَتَقَلَّبُونَ في رِحْلَةِ الامتحان والابتلاء.

وجاء استعمال عبارة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ للدَّلَالَةِ على فوقيَّة الإنْذار، إذْ هو إنذارٌ بعذابِ اللَّهِ الَّذي يأتِي في العادَةِ مُنْصَبّاً من فَوْقِ المعذَّبين، ونَازِلاً عليهم.

فمِنْ دقَّةِ الأداء البيانيّ استعمالُ حَرْفِ «على» الّذي يَدُلُّ على الاسْتِعْلاء، دون غيره من الحروف.

وفيه أيضاً مَعْنَىٰ إعْلاءِ عبارات الإنْذار عن مستوىٰ الحضيض الذي هم منْغَمِسُون في أَوْحاله.

والخطابُ في الآية مُوجَّهٌ للرَّسُول محمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ لِكُلِّ حاملِ رسالةِ الدَّعْوَة إلى الله من أمّتِه، على سبيل الخطاب الإفرادي.

والمعنيُّون المتَحدَّثُ عَنْهُمْ هُمْ كُبراءُ وأئِمَّةُ مُشْرِكي مكَّة إبَّانَ التَّنْزِيلِ، ويُقَاسُ عليهم أشْبَاهُهُمُ ونُظراؤهم، في كلِّ عَصْرٍ وفي كلّ قوم.

* * *

قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ⑪﴾:

يُبَيِّنُ اللَّهُ عزّ وجلّ في هٰذِهِ الْآيَةِ لرَسُولِهِ ولكُلّ داعٍ إلى سبيل رَبِّه من

أمَّتِه، أنَّ الّذِي يَنْتَفِعُ بالإنذار، فيَسْتجيبُ لإنْذارات المنذرين الصَّادِقين، بعذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّين، واحْتِمَالِ أن يُنْزِلَ عذابَهُ المعجَّلَ في الدنيا أيْضاً، إذا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذلك، لا بُدَّ أنْ تتوافَر لَدَيْهِ صفتان:

الصِّفَةُ الأُولى: اتِّبَاعُ آيَاتِ الذِّكْرِ الحكيم، وهُو الْقُرآن المجيد، بالإصغاء والْفَهْم وحُسْنِ التَّدبُّر، واتِّبَاعُ المذَكِّرَاتِ الّتي تُبَيِّن ما فيه، وتَشْرَحُهُا بمقدار استيعاب المتلَقِّي وعلى مِقْدار مداركه.

فمن لم تكن لَدَيْهِ هٰذِهِ الصِّفَةُ فإنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَدَيْهِ الاقتناعُ بالحقِّ المنزَّلِ من عند الله عزّ وجل، ومِنْ شأن مَنْ لم يَحْصُل لديْه الاقتناعُ بالحقّ، أنْ لَا يَهْتَمَ للقضايا الّتِي اشْتَمَلَ عليها هذا الحقّ، وأنْ لَا يَكْتَرِثَ لها، وأنْ لا يَسْتَجيبَ لِدَعْوَةِ الدُّعاة إلَيْهِ، مَهْما اجْتَهَدُوا في الدَّعْوَةِ والبيان، والتذكير في كُلّ آن، وتكون دعوتُهم وبياناتهم وتَذْكيراتُهم كَمَنْ يَنْعِقُ في الأنعام، أَوْ يُخَاطِبُ صُمَّ الآذان.

الصِّفَةُ الثانية: خشيةُ الرَّحْمٰنِ بالغيب، **الخشية**: أصْلُ معْناها الخوف والحذَر، **والخشية من الله**: مزيجٌ من الإجلال والحبّ والخوف مع الطمع، لأنَّ مُرَاقَبَةَ اللَّهِ الّتِي تُحْدِثُ الخشيَةَ منه فيها كُلُّ هذه المعاني. وتُوجَدُ في النَّاس بنِسَبٍ مختلفة في مجموعِها الكُلّي وفي عناصِرِها.

وَلَا تَكُونُ الخشيةُ من الله إلّا بَعْدَ الْإِيمَانِ به، وبعلمه، وقدرته، وحكمتِه، وفَضْلِه، وعَدْلِه، إلى سائر صفاته، ومنها أنه عزيز منْتَقِمٌ جبارٌ، وأنَّه رحمٰنٌ رحِيمٌ، وأنَّهُ يجازي على الكفر به بالخلودِ في عذاب النار، وعلى السّيئة بِمِثْلِهَا، ويُجَازي على الإيمان الصحيح الصادق بالخُلودِ في جنَّاتِ النعيم، وعلى الحسَنَةِ بعَشْرِ أمثالها إلى سبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، إلىٰ أضْعَافٍ كثيرة.

واقتصر النَّصّ على ذكر اسم الله «الرحْمٰن» إطْمَاعاً بصِفَة رحْمَتِه، وإشعاراً بأنّ رحْمَتَهُ سبقت غَضَبَهُ.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ «إنّما» أداةُ حَصْر. و«تُنْذِرُ» أي: تُخبر بوعيد اللَّهِ بالعقاب إخْبَاراً مُؤَثِّراً نافعاً.

﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾: أي: من تكلَّفَ أن يتْبَع الاسْتِماع إلى القرآن الذي هو ذِكْرُ الله الرحْمٰن للناس، بالاستماع والإصغاء والتفهّم، وأن يتْبَعَ أقوال المذكرين باللَّهِ وبصفاته، وبما جاء عن الله في كتابه أو على لسان رسوله، لأنّ في قَلْبِهِ إيماناً ما باللَّهِ يدفعه إلَىٰ اتِّباع الذّكر.

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾: أي: وخَشِيَ الرحْمٰنَ حَالَةَ كوْنه سبحانه في عالم الغيب عن مجالاَت الإدْراكاتِ الحسِّيَّة لِعِبَادِه، في الحياة الدنيا، حياةِ الابتلاء.

فالمعنى: إنّك أيُّهَا المبلّغُ المبشّرُ المنذر، لَا تُنْذِرُ إنذاراً مُؤَثِّراً نافعاً، إلّا مَنِ اتَّبع الذّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالغيب.

وهذا من قَصْرِ صفة الاستجابة للإنذار والتأثّر به على الإنسان الذي اتّبع الذّكْرَ وخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالغيب، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

وبما أنّ الاقْتِنَاعَ بوجود الله عز وجل، وبصفاته الجليلة، إنَّما يتحقّقُ بالإيمان بالْغَيْبِ في ظروف الحياة الدُّنيا، نظراً إلى أنَّ أوّل عناصِرِ الابْتِلاءِ في هٰذه الحياة لذَوِي الأفكار والعقول هو الإيمانُ بالغيب المتّصِلِ باللَّهِ عزّ وجلّ وصِفَاته الجليلة، وما أَخْبَرَ به من جزاءِ يوْمَ الدّين، جاء في الآية: ﴿. . . وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

- ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪﴾: أي: فإذَا وَجَدْتَ يا مُحَمَّدُ، ويَا أيُّها الدَّاعِي إلى سَبِيلِ رَبِّه، هٰذا الَّذِي يَتّبِعُ الذِّكْرَ بالإصْغَاءِ والْفَهْمِ وحُسْنِ التَّفكُّرِ والتَّدبُّر، ويَخْشَىٰ الرَّحْمٰنَ بالْغَيْب، ويَنْتَفِعُ بالإنْذَارَاتِ اللّاتي توجّهها له، فبَشِّرْهُ بأمْرَيْن:

الأمر الأوّل: أنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ من ذُنوبه الّتي سلَفَتْ مِنه، وهي تتعلّقُ

بحُقُوق رَبّه عليه، وذنُوبه الّتي قد يرتكبها في المستقبل، بشرط أن يتوبَ منها ويسْتَغْفر ربّه، أخْذاً من دلالات نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

الأَمْرُ الثاني: أن يُعطِيَهُ اللَّهُ يَوْم الدِّين أجراً كرِيماً، على إيمانهِ وصالحات أعماله، في جنَّاتِ النَّعِيم، مع ما قَدْ يُعْطِيه من أَجْرٍ كريمٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا.

الأَجْرُ الكَرِيم: هو الأَجْرُ الكثير العظيم النفيس.

وكُلٌّ من الأمْرَيْنِ فيه بُشْرَىٰ عظيمَةٌ لِمَنْ يُؤْمِنُ برَبّه، ويَسْتَجِيبُ لدعْوة الرَّسُول ﷺ، أو لدعْوَةِ الدُّعَاة إلى سبيل الله من أُمَّتهِ المؤمنين المسلمين.

* * *

قول الله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾:

إنّ قانون الجزاء الرَّبَّانيّ للموضوعين موضع الابتلاء في الحياة الدنيا، الّذي دلَّتْ عليه الآيات السّابقاتُ بما اشتملَتْ عليه من بياناتٍ حولَ الإنْذَار بِالعقَابِ، والبشارةِ بالثواب مغفرةً وأجْراً كريماً، اقتضىٰ التعقيب علَيْهِ بقضايَا أساسيَّةٍ، من قضايا العقيدة الإيمانيَّة، لرَبْطِ فُروع الدّين بأصُوله الإيمانيَّةِ.

وهذا منْهَجٌ قُرْآنيٌّ مُلَاحَظٌ في عَدَدٍ كثيرٍ منَ النُّصوصِ القرآنيَّة.

والقضايا الّتي اشتملَتْ عليها هذه الآية من أصول الدّين الإيمانيَّة، هِيَ ثلاثُ قضايا.

القضيَّةُ الأولى: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يُحْيِي الموتَى يَوْم القيامة للْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

القضيَّةُ الثانية: أنَّ الله عزّ وجلَّ يَكْتُبُ بأمْرِهِ تِبَاعاً كَسْبَ النّاس الذي قَدَّمُوهُ في الحياة الدُّنيا لآخِرَتِهِمْ، ويكْتُبُ بأمْرِه تِباعاً آثارَ كَسْبِهِمْ في حياتِهِمْ، وبَعْدَ مَمَاتهم ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾.

القضية الثالثة: أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أحْصَىٰ كُلَّ شيْء عَدداً، سواءٌ أكَان مادّيًا، أمْ مَعْنويّاً، ممَّا كان، وممَّا هو كائن، ومِمَّا سيكُونُ، وأثبتَهُ في كِتَابٍ مُبينٍ واضِحٍ لمَنْ يَطَّلِعُ عليه. ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

شَرْح القضيَّةِ الأُولى:

هٰذه القضيّة قد دلَّ عليها في الآية قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: «إنَّا» أصْلُها «إنَّنَا» حُذفَتْ نُون «إنّ» الثانية، لتوالي الأمثال، وجاء في العبارة استعمال ضَمِير المتكلّم العظيم مَرَّتَيْن: «نا» و«نَحْنُ» إشعاراً بأنّ إحياء الموتى أَمْرٌ عظيم جدًّا.

وقد جاء تأكيدُ إحيائه ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ الموتى بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسْمِية ـ وضِميرُ الْفَصْل» مراعاةً لأحوال منكري البعث.

وعَلِمْنَا من قَرِينَةِ السِّياقِ أنَّ الْغَرض من بيان إحياء الموتَى، بيانُ تحقيق الوعْدِ بيَوْمِ الدِّين، وما فيه من حساب، وفَصْل قضاء، وتنفيذ جزاء.

وفي هذه العبارة قصر مستفاد من ضمير الفصل، وهو قصر إحياء الموتى على الله عزّ وجل، وهو قصرٌ حقيقي.

شرْح القضيَّة الثانية:

هذه القضية قد دلَّ عليها في الآية قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾: في هٰذِهِ الجِملَةِ أسْنَدَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ كِتابَةَ مَا يَكْسِبُ

المكلَّفونَ مِنْ أَعْمَالٍ إِلَىٰ نَفْسِهِ، لأنَّهُ هُوَ خَالِقُ الملائِكَةِ الكِرَام الكاتِبين، الّذِين يُسَجّلون أعْمالَ العِباد، ومَا يكْسِبُونَ في الحياة الدّنيا من خَيْرٍ وشرٍّ، وهو سبحانه وتعالَىٰ الذي وجَّهَهُمْ وَكَلَّفَهُمْ وهيّأ لَهُمْ بِقَضَائِهِ وقَدَرِهِ وخَلْقِهِ كُلَّ ما يلْزَمُ، حتَّىٰ يَقُومُوا بوظائِفِهِمْ الّتي كلّفَهُمُ اللّهُ إِيَّاهَا عَلَى أتَمّ وجْهِ واتْقَنِه.

وكُلُّ ما يَعْمَلُه العبادُ من طاعاتٍ أو مَعَاصٍ، فَقَدْ قَدَّمُوهُ لآخِرَتِهِم، الّتِي فيها يكونُ حِسَابُهم عليه، وفيها يكونُ فَصْل القضاءِ بشأنهم، وفيها يكون الجزاء بالثواب أو بالعقاب.

ومَا قَدَّمُوه هو ما أَنْجَزُوا فعْلَهُ من طاعةٍ أو معصية، وما أنْجَزُوا تركَه من طاعَةٍ أو معصية، والواجبُ المتروكُ قد جاء التعبير عنه في القرآن بأنَّ المكلَّفَ أَخَّرَهُ، أي: لم يَعْمَلْهُ، فقال الله تعالى في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بشأن أحداثٍ تجري يوم القيامة: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

وقال الله تعالى في سُورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول) كذلك:

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

أمّا آثارُهُمْ فَهِيَ آثَارُ أَعْمالهم، كَصَدَقَةٍ جاريةٍ في سبيل رضوان الله، وكسيّئَةٍ جاريةٍ وسُنَّةٍ سيّئَةٍ، مثل تأسيس دارٍ للزّنا، أو مؤسَّسةٍ رَبَوِيَّةٍ، أو دَارٍ للخَمْر والمَيْسر.

فآثار أعْمَالهم الصالحة المتجدِّدَةِ تُسَجَّلُ في صَحائف حسناتهم، وآثار أعمالهم السيِّئَةِ المتجدِّدَةِ تُسَجَّلُ في صحائف سيئاتهم، ولو بَعْدَ مُوْتِهِمْ، حتَّىٰ تتلاشَىٰ هٰذه الآثار.

وجاء في السُّنَّةِ بَيَانٌ بشأن كتابَةِ أعْمَالِ المكلَّفِين وآثار أَعْمَالِهم في عدَّة أحاديث، منها ما يلي:

(١) روَى البخاري ومُسْلم عن عبْد اللَّهِ بن عبَّاسٍ، عن الرسول ﷺ، أنَّه قال:

«إنَّ اللَّهَ تَعالَىٰ كَتَبَ الحسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بيَّنَ ذَلِك، فَمَنْ هَمَّ بِحسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَة، وإِنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

أي: مَنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَصَرَفَ نَفْسَهُ عن عَمَلِها طاعةً لِلَّهِ عزّ وجلّ، كتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كاملةً.

(٢) وروى مسْلِمٌ والبخاريُّ في الأدَب عن أبي هريرة، أنَّ الرسُولَ ﷺ قال:

«إذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

(٣) وروَىٰ مُسْلمٌ وأحْمَدُ والترمِذِيّ والنَّسَائي وابْن ماجه، عن جَرِير رضي الله عنه، أنّ رسُولَ الله ﷺ قال:

«مَنْ سَنَّ في الْإِسْلَام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وأَجْرُ مَنْ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

(٤) وَروَىٰ البخاري ومسلمٌ عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:

«لَا تُقْتَلُ نَفسٌ ظُلْماً إِلَّا كَانَ على ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

كِفلٌ: أي: نَصِيبٌ.

(٥) ورَوىٰ مُسْلِمٌ عَنْ جابر بن عبد الله، قال: خَلَتِ البقاعُ حَوْلَ الْمَسْجِد، فأرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْبَ المسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال لهم.

«إِنِّي بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ».

قالوا: نَعَمْ يا رَسُول الله، قَدْ أَرَدْنا ذلك، فقال رسول الله ﷺ:

«يَا بَنِي سَلَمَةَ، دِيَارَكُم تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُم تُكْتَبْ آثَارُكُمْ».

أي: الْزَمُوا دِيَارَكُمْ، لَا تَتَحَوَّلُوا عَنْهَا إِلَىٰ قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فإنَّ آثَارَ خُطُواتِكُم وتَحَرُّكَاتِكُمْ تُكْتَبُ في صحائفِ حَسَناتِكُمْ.

شرح القضية الثالثة:

هذه القضية قد دلَّ عليها في الآية قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾:

أحْصَيْناهُ: أي: عَرَفْنا مِقْدارَ عَدَدِ أجْزاءِ ذاتِه وأجْزاءِ صِفَاتِه، مع مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الذّاتِ والصِّفَات، وسَجَّلْنَا كُلَّ ذَلِكَ.

يقال لغة: أحْصَىٰ فلانٌ الشيْءَ أي: عَرَف مقداره، ويقالُ: أحْصَىٰ فُلانٌ الكِتَابَ، أي: حَفِظَهُ.

وحِفْظُ الأشْيَاءِ في كتابٍ أو في لَوْحٍ يَكُونُ بتَسْجِيلها فيه، وبِجَعْلِه مَحْفُوظاً من أيّ تغيير أَوْ تَبْدِيلٍ، أو زِيادَةٍ، أو نَقْص.

ولمَّا كانت الأشياء كُلُّها ذَوَات أجزاءٍ صُغْرىٰ هي مُؤَلَّفَةٌ مِنْهَا، كان ضَبْطُهَا في كتابٍ يَسْتَدْعي أنْ يَسْتَوْعِبَ كلَّ أجزائها، حتَّىٰ لا يَنِدَّ عنْهُ شَيْءٌ صَغيراً كانَ أمْ كبيراً، وكانَ المناسِبُ للدّلَالة على هٰذا الاسْتيعابِ اسْتِعْمَالُ

كَلِمَةِ «أحْصَىٰ» لِمَا في هذه الكلمة من معنَىٰ إحْصَاءِ أعْدَاد مَقَادِيرِ كُلِّ شيءٍ، وكأعداد الذَّرّات في كُلّ خَلِيَّةٍ، وأعْداد الألِكْتْرُونات في كُلِّ ذَرّة، وما دُون ذلك من صغريات، وأعداد أجزائها.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ نُصبَ لفظ: «كلَّ» بفعل محذوف مثل الفعل الذي جاء بَعْدَهُ، في عبارة: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ لاشتغالِه عنه بضميره، وفائدة هذا الإجراء إيرادُ جُمْلَتَيْنِ لتأكيد قضيَّةٍ واحدة، مع عدم الإشعار بأنهما جملتان.

وجاء استعمال ضمير المتكلّم العظيم في عبارة ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ إشعاراً بِعَظَمَةِ هذا الإحصاء، الّذي يَدُلُّ على عظمة قدرة الرّبّ جلَّ جَلَالُهُ، وشُمُول عِلْمِه كلَّ شيء يُعْلَمُ.

وعبارة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تَشْمَلُ كُلَّ ما يُحِيطُ به الْعِلْم.

﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: الإمام المبين للكُتُب هو اللَّوْحُ المحفوظ، لأن صحف الملائكة النازلة بما شاء الله تنزيلَه تُنْسَخُ عنه.

المبينُ: الواضح الجلي، والمظْهِرُ الموضِح.

الإمَامُ: هو في اللُّغَةِ مَا يُؤْتَمُّ به، أي: يُتَّبَعُ، فالإمام في الصَّلاةِ هو الذي يتّبِعُه المقتدون. ويطْلَقُ لفظ الإمام على الخليفة، وعلَىٰ قائد الجند، وعلى دَليلِ الْمُسَافِرِين، وعلى الطريق الواسع الواضح، وعلى المثال الذي يُوضَعُ لِيُعْمَلَ عَلَىٰ وفْقِهِ، وعلى الكتاب الذي تُنْسَخُ النُسَخُ على وَفْقِهِ، وتُؤْخَذُ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ مِنْهُ حرفاً بحَرْفٍ وَكَلِمَةً بِكَلِمَة.

وإنّ من عَظيم حكْمَةِ الباري جلّ جلالُهُ أنَّه دَلَّ على عِلْمِهِ الشامل لكلّ شيء، ما كان، وما هو كائن، وما سيكون أو سوف يكون، بكلماته التامّات، وكتَبَ كلماتهِ التامّاتِ الدّالّاتِ على عِلْمِه الشّامِلِ في كتاب من قَبْلِ أَنْ يَبْرأَ الْخَلْقَ، وأطْلَقَ على هذا الكتاب عدّة أسماء:

١ ـ الكتاب المبين.

٢ ـ أمّ الكتاب.

٣ ـ اللّوْح المحفوظ.

٤ ـ الإمام المبين.

٥ ـ الكتاب المكنون.

وَجاء في القرآن المجيد خَمْسةَ عشر نصًّا بشأنه في مناسبات مختلفات، وجاء في السُّنَّةِ عدّة نُصُوصٍ بشأنه أيضاً.

وقد اخْتَرْتُ أَنْ أعْقِدَ مُلْحَقاً خاصّاً بعد اسْتِكْمَالِ تدبُّرِ السّورة، أُثْبتُ فيه النُّصُوص القرآنيَّة بشأن اللّوح المحفوظ، مع ما يفتح الله به من تدبُّر لها، ومَعَ بعض النصوص من السُّنَّةِ المطهرة المتعلّقةِ باللوح المحفوظ، وأقتصر هنا على هذا البيان.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيات من (١٣ ـ ٢٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ
(١٦) وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٧) قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ
لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ
(٢٠) ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

القراءات:

(١٤) • قرأ أبو عَمْرو: [**إِلَيْهِمِ ٱثْنَيْنِ**] بِكَسْرِ «هاء» و«ميم» [إليهِمِ] وصلاً.

وقرأ حَمْزَة، والكِسائيُّ، ويعْقُوبُ، وخَلَف: [**إِلَيْهُمُ ٱثْنَيْنِ**] بضَمّ الهاء والميم وصلاً. وفي الوقف يضُمُ يَعْقوبُ وحمزة الهاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ بكَسْرِ الهاء وضم الميم وصْلاً.

(١٤) قَرأ شُعْبَةُ: [**فَعَزَزْنَا**] من قول الْعَربيّ: عَزَزْتُ الْقَوْم، أي: قوّيْتُهُمْ وشَدَدْتُهُم، وهذه القراءة تلائم مشاعِر بعض المعنيّين بالتقوية.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي: فَقَوَّينَا وشَدَّدنا، وهذه القراءة تَدُلُّ على زِيادَةِ التقويَة، وهي تلائم مشاعِرَ بعض المعنّيين بالتقوية.

يقال لغة: عَزَزْتُ، وأَعْزَزْتُ، وعَزَّزْتُ القَوْمَ.

(١٩) • قرأ أبو جَعْفر: ﴿**ذُكِرْتُمْ**﴾ بالتخفيف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ بالتَّشْديد.

وقد سبَقَ مع نصّ السورة توجيه هاتين القراءتين.

(٢٢) • قرأ حمزة، وخلف، ويعقوب: [**وَمَالِي لاَ أَعْبُدُ**] بإسْكانِ ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة بفتح هذه الياء ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾.

(٢٣) ● قرأ أبو جَعْفر: **[إِنْ يُرِدْنِيَ]** بإثبات ياء المتكلم مفتوحَةً في الوصل، وساكنة في الوقف.

وأثبت يعقوب هذه الياء في الوقف، وحذَفها في الوصل.

وحذفها في الوصل والوقف باقي القراء العشرة.

وهٰذه وُجوهٌ عرَبيَّة لياء المتكلم.

(٢٣) ● قرأ ورْش بإثبات ياء المتكلم وصلاً في **[يُنْقِذُني]** وبَحذْفها في الوقف.

وأثْبَتَها يَعْقُوبُ في الوصل والوقف، وحَذَفها باقي القراء العشرة مطلقاً.

(٢٤) ● قرأ نافِع، وأبو عمر، وأبو جعْفر: **[إِنّيَ إذاً]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

(٢٥) ● قرأ نافِع، وأبو عمر، وأبو جعفر: **[إِنّيَ آمَنْتُ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها، إلّا أن ابْنَ كثير يوافق على الفتح أيضاً.

(٢٥) ● أثبت يعقوب ياء المتكلم في **[فاسْمَعُوني]** وحذفها باقي القراء العشرة، وهذا من الإيجاز في النطق.

تمهيد:

هذا الدّرس اشتمل على تعليم من اللّٰهِ عزّ وجلّ لرسوله أنْ يُوجّه

علاجاً لمشركي مكّة إبّانَ تنزيل السّورة، بأن يُقَدّم لهم صورة من صُوَرِ الإقناع الّذي يَحْمِلُ عَصا الإنْذار بالعقاب المعجّل، للذين لم يُؤْمِنُوا به نبيًّا ورسُولاً، ولم يُؤمنوا بما جاء به عن رَبّه.

وهذا التعليم نَفْسُه مُوَجَّهٌ من اللّهِ عزّ وجلّ لهم بأسْلُوب غَيْرِ مُبَاشر، لأنَّه أُنْزِلَ قرآناً يُتْلَىٰ عليهم وعلى الناس أجمعين، فهو أيضاً مُوجَّهٌ لكل نظرائهم في كلّ عَصْرٍ وفي كلّ قوم، لأنّ رسالة محمّد ﷺ رسالةٌ عامّة للناس أجمعين، وللجنّ أيضاً.

وصورة الإقناع هذه تشتمل على ضرْبِ مَثَلٍ تاريخِيّ جرَىٰ لقوم أهلكهم الله، لأنّهم كذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم، وأنذُروهم بالقتل رَجْماً بالحجارة، وبعذابٍ أليم إذا لم يَنْتَهُوا عن تأدِيَةِ وظائف رسالَةِ ربهم الَّتِي أَرْسَلَهُمْ بها، مع الإلماح إلى أنّ أحوالَ كبراء مُشْركي مَكَّة قَدْ أشرَفَتْ أنْ تكون مماثلةً لأحوال هؤلاءِ القوم المهلكِين، فمتَىٰ بلَغُوا إلى مِثْل ما بَلَغَ إليه أولئك الْمُهْلَكُونَ أجرى اللَّهُ بهم سُنَّتَهُ فأهلكهم.

إنَّ هٰؤُلَاء المهلَكِين الَّذِينَ ضَرَبَ اللَّهُ بهم المثَل، هُمْ أصحاب قَرْيَةٍ وَثَنِيُّون، جاءَها مُرْسَلُونَ مِنْ غَيْرِ أهلها، كَانُوا اثْنَيْن، فعَزَّزَهم اللَّهُ بثالث، فَدَعَوْا أهلَ هذه القريَةِ إلى الإيمان الحقّ، وإلى تَرْكِ ما هُمْ فيه من وثنيَّةٍ باطلَة، فَكَذَّبُوهم في كوْنِهِم رُسُل رَبّهم، فأكَّدُوا لَهُم أَنَّهُمْ صادِقون مُرْسَلُون حَقّاً، وأنَّهُمْ ليْسُوا مُطالَبِين منْ رَبِّهم إلّا بالبلاغ المبين الواضح الموضِّح لقضايا الإيمان الحقّ، ولشرائع الله وأحكامِهِ لعباده بالحكمة والموعظة الحسنَة، وأنّهم ليْسُوا مكلَّفين أَنْ يُلْزِموا الْقَوْمَ أَنْ يُؤْمِنُوا بهم ويتّبِعُوهم إلْزاماً وهُمْ كارِهُونَ غَيْرُ رَاغِبين، فالاسْتِجَابَةُ لدَعْوَةِ الرُّسُلِ يجب أن تكُونَ استجابةً اختياريَّةً إرادِيَّةً طَوْعِيَّةً، لَا اسْتِجابةً جَبْرِيَّةً إكراهيَّةً على خلَافِ رَغْبَةِ المستجيب واختيارِه الحرّ.

فأَصَرّ أصْحَابُ الْقَرِيَةِ على تكذِيب رُسُلِ رَبّهم، وقالوا لهم:

﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

فزاد الرُّسُلُ الثلاثَةُ تَأْكِيدَهُمْ لِلْقَوْمِ بأَنَّهم إليهم مُرْسلون.

فأَخَذَ اللَّهُ الْقَوم بالبأسَاءِ والضَّرَّاءِ لعلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ وَيُؤْمِنُون برسُل رَبّهم، ضِمْنَ مُجْرَيَاتِ سُنّتِه جلَّ جَلَاله.

فجعل القومُ ما نزَلَ بِهِمْ من شُؤْمِ الرُّسُلِ، فقالوا لهم: إِنَّا تَطَيَّرْنَا بكُمْ فَكُفُوا عن جهادكُم الدَّعَوِي، وأقْسَمُوا بالأيمان، لَئِنْ لم ينْتَهُوا عن مُتَابَعَةِ مَا يَقومون به من دعْوةٍ لَيَقْتُلُنَّهُمْ رَجماً بالحجارة، مع تَعْذِيبهم عذاباً أليماً.

فقال لهم الرُّسُل: إنَّ ما نزل من مصَائِبَ أَنْتُمْ سَبَبُها، فَشُؤْمُكُمْ مَعَكُمْ، وهُو كُفْرُكُم وتكْذِيبكُمْ رُسُلَ رَبّكُم.

قال أصحاب القرية للرُّسل: إِنَّ مَنْ حَوْلَنَا مِنَ الْقُرىٰ هم مِثْلُنَا، ولم يُنْزِل اللَّهُ بِهِم المصائبَ كَمَا أَنْزَلَهَا بِنَا.

قال لهم الرُّسل: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُون، قَدْ زادَت شُرُوركُم وجرائِمكُمْ عن شُرور وجرائم أَهْلِ القرىٰ الذين لم يُنْزِل اللَّهُ بهم المذكِّراتِ والمنْذِرَاتِ منَ المصائب.

وَنَصَر المرسَلِينَ الثلاثَةَ رَجُلٌ من أصْحاب القريَة، جاءَ من أقصا المدينَةِ يسْعَىٰ، وكان هذا في آخِرِ مَوْقفٍ من مواقف دَعْوَةِ الْمُرْسَلِين لهم.

فدعَا هذا الرَّجُلُ قوْمَهُ إلى الإيمان بِرُسُلِ رَبِّهِمْ إليهم، وإِلَىٰ اتّبَاعِهِمْ، وحَاوَرَهُمْ وَنَاظرهم، وأخيراً رَفَعَ عَقِيرَتَهُ مُعْلِناً إيمانَهُ بِرَبِّهم الحقّ، وهٰذا يتَضَمَّنُ إعْلَان كُفْرِهِ بِوَثَنِيَّتِهِمْ، وبآلِهَتِهِم الَّتي يَعْبُدُونها من دون الله.

عندئذٍ الْتَهَبَتْ نِيرانُ غَيْظِهِمْ مِنْهُ وَثَارُوا عَلَيْهِ ثَوْرَةَ انْتِقَامٍ بغَضَبٍ هائج،

فقَتَلُوهُ، فَوَجَدَ عِنْدَ رَبِّهِ مَغْفِرَةً وإكْراماً عظيماً، فتمنَّى أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ بمَا نَالَ من كرَامَةٍ عِنْدَ رَبِّه، فَيُؤْمِنُوا برُسُلِ رَبِّهِمْ ويَتّبِعُوهم، هكذا أَخْبَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ عنه.

وَلَمْ يُنْظِر اللَّهِ جلّ جلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أصْحابَ الْقَرْيَةِ، بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا رَجُلَهُمُ الَّذِي نَصَحُهَمْ، وتَمَنَّىٰ لهُمُ الخيْرَ، بلْ عاجَلَهُمْ بالإهْلاَكِ الشَّامِلِ، بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ جَعَلَهُمْ بها خامِدِينَ، كَنَارٍ ثائِرَةٍ هَائِجَةٍ، انْطَفَأَتْ وَخَمَدَتْ فَجْأَةً بلَحْظَةٍ وَاحِدَة، دَلَّ عليها قَوْلُ الله عزّ وجل:

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

فدلَّ التعبير بالخمود على اقترانِ إهلاكِهِمْ بِلَهِيبِ ثَوْرَتِهِمْ على رَجُلِهِم الّذي قَتَلُوهُ، وهٰذا إنّما يكُونُ عَقِبَ قَتْلِهِمْ له.

ويَظْهَرُ أنَّ الرُّسُل الثلاثة انْسَحَبُوا من الموقف، لمَّا وَجَدُوا الرَّجُلَ يَنْصَحُ قَوْمَهُ، ويُناظِرُهم، وَوَجَدُوا الْقَوْمَ ثائِرِينَ عليه يُريدونَ قتْلَه.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

الخطاب موجَّهٌ للرسول ﷺ، ويوجّه من بَعْدِه لكل داعٍ إلى الله من أمّته.

والضمير في عبارة: ﴿لَهُم﴾ يَعُودُ على الذين تتحدَّث عنهم السورة في الدرس الأول منها، وهم مشركوا مكّة، إبّان تنزيلها.

- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾: أصْلُ الضَّرْب تَوْجيهُ شيءٍ لشيءٍ آخَرَ بقُوَّةٍ حتَّىٰ يَصْطَدِمَ بِهِ وَيُؤَثِّر فيه أثراً ما.

ولمَّا كانَ المسافِرُ يَضرِبُ رِجلَيْهِ في الأرض، أو تَضرِبُ دابَّتُهُ يَدَيْها ورِجْلَيْها في الأرض، سُمِّيَ السَّفَرُ ضَرْباً في الأرض.

ولمَّا كانَتْ صِنَاعَةُ الدَّراهِم والدَّنانير تَتِمُّ عن طريق ضَرْبِ صفائحِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ بقوالِبَ حَديدِيَّةٍ صُلْبَةٍ حُفِرَتْ فيها أَمْثِلَتُهَا، أَوْ ضِمْنَ قوالِبَ يَدْخُلُ بعضُها في بعضٍ، قالوا: ضَرَبَ فَلانٌ الدّراهِمَ أو الدَّنانير، إذا طَبَعَ على مَعْدِنِهما المثالَ المحْفُور في القالب.

ثُمَّ حصَلَ توسُّعٌ في معنى الضَّرب، فقالوا: ضَرَبَ مثلاً، أي: ذكَر أو صَنَع أو فَعَلَ مثلاً، أو مَثَّلَ مَثَلاً.

والأَصْلُ في المَثِل أنَّه قائم على تشبيه شيءٍ بشيءٍ، لوجُودِ عُنْصُر تَشابُهٍ أوْ تَمَاثُلٍ بَيْنَهما، أَوْ لِوُجُودِ أكْثَرَ مِن عُنْصرِ تَشَابُه.

- ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ عطْفُ بيان أو بدل من ﴿مَّثَلًا﴾.

وجاء في المراد بهذه القرية روايات ضعيفات الأسانيد عن ابن عباسٍ وغيره أنَّها مَدِينَةُ أنْطاكِيَّة، وهذا الاسم يُطْلَقُ على مَدِينتَيْن أَسَّسَهُما أَحَدُ قُوَّاد جَيْشِ الإسْكَنْدَرِ الأكْبر، واسْمُه «سُلُوقِسْ نِيكَاتُورِ» فالأُولى أَسَّسَها عام «٣٠٠» قبل الميلاد، على نَهْرِ العاصِي، وعلى مسَافَةِ خَمْسَةَ عَشَر مِيلاً من البَحْر الأَبْيَضِ المتوسّطِ، وسمَّاهَا أنطاكِيَّة نِسْبَةً إلى أبيه «أنطْيُوخُس» والأخرى أَسَّسَها في وسَط آسيا الصغرى.

واعْترض ابْنُ كثير على الرّوايات الواردات حول اعتبار أنطاكيّة هي المقصودة بالقرية، بثلاثَةِ وجُوه، منْها أنَّ أهْلَ أنطاكيَّة استجابُوا لِرُسُلِ المسَيحِ عَلَيْهِ السَّلام، وصَارَتْ هٰذِهِ المدينَة أهَمَّ مَرْكَزٍ للمسيحيَّةِ بعْدَ أُرُوشَلِيم.

أقول: ينبغي التوقُّفُ وعَدَمُ التعيين، ولعَلَّ الباحثين في الآثار سَيَكْتَشِفُونَ ما يَدُلُّ على القَرْيَة المرادة بالقصَّة القرآنِيَّة.

- ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: أي: واضرِبْ لكُفَّارِ قُريشٍ يَا محمَّد قصَّةَ أصْحَابِ الْقَرْيَةِ الَّتِي حَدَثَتْ في وقْتِ مَجِيءِ الْمُرْسَلِين إلَيْهَا، ودَعْوَتهمْ أَصْحَابَهَا إِلَىٰ دِينِ الله الحقّ.

* * *

قول الله تعالى:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

جُملَةُ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ . . .﴾ وَمَا بَعْدَها حتَّىٰ آخِرِ الْقِصَّة بَيَانٌ تَفْصِيليٌّ لجُمْلَةِ ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

دلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أرْسَلَ أوّلاً إلى أصحابِ هٰذِهِ القرية رَسُولَيْنِ اثْنَيْنِ، فَكَذَّبُوهُما، إذ اعْتَبَرُوهُما مُخْبِرَيْنِ كذَّابَيْنِ، يَدَّعِيَانِ أَنَّهُمَا يُبَلِّغَانِ الدِّينَ عَنِ اللَّهِ وهُمَا مُفْتَرِيَانِ، فَقَوَّاهُمَا اللَّهُ عَزَّ وجلّ برسُولٍ ثالثٍ، جاء الْقَرْيَةَ وهُوَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِها، فلَمَّا اجْتَمَعُوا ثَلاثَتُهُمْ قَالُوا لأَهْلِ الْقَرْيَةِ: إنَّا إليكُمْ مُرْسَلُون، بَعْدَ أَنْ كانَ الرَّسُولَان قَبْلَهُ يقولان: نَحْنُ إليكم مُرْسَلان، أو نحْنُ رَسُولا رَبِّكُمْ.

- ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾: هذه جملة جاء تأكيد الخبر فيها بمؤكدَيْن، «إنّ ـ والجملة الاسمية» وجاء تقديم ﴿إِلَيْكُمْ﴾ على العامل ﴿مُّرْسَلُونَ﴾ لرعاية رُؤوس الآيات، وقد يَدُلُّ هنا على التخصيص، أي: مرسَلُونَ إليكم على وجْهِ الخصوص.

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

هذا الكَلَامُ الّذِي وجَّهَهُ أهلُ القرية لرُسُلِهِم يتضمَّن اعتراضاً، وافتراءً، واتّهاماً، وربما قالُوا هذا على مراحل.

● **أمّا الاعتراض**: فقد دلَّ عليه قولُهم ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: وليْسَ مِنْ شأن البشر أَنْ يكونوا رُسُل رَبّهم.

وقد تكرّر هذا الاعتراض على ألْسِنَةِ كُفَّارِ القرون الذين أَهْلكهم الله، وجاء أيضاً على لسان العرب الّذين كفروا بالرّسول محمّد ﷺ.

وجاء في القرآن دفْع هذا الاعتراض بالحجَج والبراهين الدامغة.

وهو اعتراضٌ قائم على توهُّم أنّ رُسُلَ اللَّهِ إلى البشر لَا بُدَّ أَنْ يكونُوا من الملائكة، لا يأكُلُونَ ولا يَشْرَبُون ولا يَنكحون، ولا يمْشُونَ لكسْبِ أرزاقهم كما يفْعَلُ الناس، مع أنَّ الحكمة تقتضي أن يكون الرُّسُل إلى البشَرِ من البشر أنفسهم(١).

■ وأمّا الافتراء: فقد دلّ عليه قولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: وما أنزل الرحْمٰنُ على بَشَرٍ من شيْء يتضمَّن رسالةً من الله للناس، ككِتاب، وتعاليم، ووصايا، وأحكام، وشرائع.

أو وما أنزل الرَّحْمنُ مِنْ شيءٍ من ذلك للناس، على بشَرٍ أَوْ غير بشر.

«من» في عبارة ﴿مِن شَىْءٍ﴾ حرف جرّ زيد للدّلَالة على استغراق العموم أو التنصيص عليه. «شَيْءٍ» مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به.

وهذه المقولة الافترائيّة دلَّتْ على ثلاثة أمور:

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر هذه السورة «اعتراض الأمم على بشرية الرُّسُل».

الأمر الأوّل: أنّهم من الّذِينَ يُنْكِرُون الرّسالات الرّبانيَّة للناس، مع إيمانهم بالله عزّ وجلّ، وهذا ظاهر من قولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾.

الأمْرُ الثاني: أنّهم يُؤْمِنُون بأنَّ الله عزّ وجلّ هو الرحْمٰن، على خلاف عقيدة جمهور مُشْرِكي مكَّة قبل الإسلام، الّذين كانُوا يُؤْمِنُون بالله رَبًّا خالقاً للكَوْن، ولا يُؤْمِنُونَ بأَنَّهُ الرَّحْمٰنُ الرحيم، بل ينْسُبُونَ صفة الرحمة إلى شركائهم، ويلْتَمِسُون عنْد شركائهم منافِعَهُمْ ومصالِحَهُمُ الدُّنيوية، ودفع المضار عنهم، ويرجون لديهم أن ينصروهم على أعدائهم، فيجْعَلُونَ لشركائهم بعض خصائص الرّب، وينفونها عن الرَّبّ الخالق.

وبما أن أصحاب هذه القرية الّذين أرسل الله إليهم ثلاثة رسُل يُؤْمِنُون بأن الله هو الرَّحمن، فالظاهر أنَّ عقيدتهم في شركائهم تُشْبِهُ عقيدة بعض مشركي العرب، الّذين كانوا يقولون في شركائهم: مَا نَعْبُدُهم إِلَّا لِيُقَرّبونَا إلى اللَّهِ زُلْفَىٰ.

الأمر الثالث: أنَّهم يُنْكِرُون الآخرة ويَوْمَ الدين، لأنَّ أعظم ما تَشْتَمِلُ الرّسالات الرَّبَّانيّة بعد الإيمان بالله وبصفاته وأسمائه الحسنى، هو الإيمانُ بالجزاء، وبِيَوْم الدّين، وبمطالِب اللَّهِ مِنْ عبادِه في رحْلَة امتحانِهِمْ في الدُّنْيا، للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدّين.

■ وأمّا الاتّهام: فقد دلَّ عليه قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ خطاباً لِرُسُلِهم، أي: ما أَنْتُم إِلّا بَشَرٌ تكْذِبُون في ادّعاء أَنَّكُمْ رُسُلٌ تُبَلِّغُونَ دِينَ الله للنّاس.

وإذْ وَجَّهُوا هذا الاتّهام للرُّسُل الثلاثة، بناءً على تَوَهُّمِهِمْ بأنَّ الْبَشَر لَا يَصْلُحُونَ لتَلَقِّي رِسالَةٍ عن الله بوساطة الوحْي، وتوهُّمِهم بأنّ الرَّحْمٰنَ ما أَنْزَلَ للنَّاسِ رسالةً ما، فقد أَلْغَوْا كُلَّ احتمالٍ يَسْتَبْعِدُ عن الرُّسُل الثلاثة صِفَةَ الكذب، كاحْتِمَالِ أن يكونوا مُتَوَهّمِينَ لم يتعمَّدُوا الكَذِب، وكاحْتِمال

أَنْ يَكُونَ رِئْيٌّ مِنَ الجنِّ كذَبَ علَيْهِمْ فَصَدَّقوه، إلى غيرهما من احتمالات.

وإذْ ألْغَوْا من تصوُّراتهم كُلَّ الاحتمالات الّتي تَسْتَبعِدُ عنهم صفة الكذب، مع معتقداتهم الفاسداتِ المتأصِّلاتِ في أعماقِ نفوسهم، لم يبْقَ أمامَهُمْ إلّا أن يتَّهِمُوا الرُّسُل الثلاثة بأنَّهم يَكْذِبُون، لغايَةٍ يَقْصِدُونَها لأنفسهم من ادّعَائِهم أنّهم يُبَلّغون أهل هذه القرية دين الله.

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٧﴾.

في مقابل مقالات أصحاب القرية، التي تضمّنَتْ اعتراضاً، وافتراءً واتّهاماً، لم يكُنْ لدى الرسُل الثلاثَةِ إلَّا أن يُجيبُوا بجوابَيْن:

الجوابُ الأول: دلّ عليه قولهم: ﴿... رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝١٦﴾ لقد أعادوا بهذا الجواب بيان أنَّهُمْ مُرْسَلُونَ حَقًّا وَصِدْقاً من ربِّهِمْ، مع زيادة مُؤَكِّداتٍ في العبارة، على عبارتهم السّابقة الّتي قالُوها لهم، وهي: ﴿.. إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝١٤﴾.

فالعبارة السَّابقة قد اشتملت على مؤكِّدَين هما: «إِنَّ ـ والجملة الاسمية».

أمّا عبارة: ﴿... رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝١٦﴾ فقد اشتملَتْ على أربع مؤكّدات: «رَبُّنَا يَعْلَمُ (فهذِهِ العبارة بقُوَّةِ القسم) ـ وإنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّام المزحْلَقَة (وهي لام الابتداء زُحلِقَتْ للخبر بسبب دُخول «إِنَّ» على المبتدأ) ـ».

الجواب الثاني: دلَّ عليه قولُهُمْ: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٧﴾ أي: وما أوجب علينا رَبُّنَا إلّا أنْ نبَلّغكُمْ الرِّسالةَ التي كلّفَنَا أنْ نُوصِلَها

إليكُمْ واضِحَةً جَلِيّة، ومَا لَمْ تَفْهَمُوهُ منها فَعَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ لكم حتىٰ تَفْهَمُوه، ولَسْنَا مُكَلّفين أَنْ نُجْبِرَكم على الاستجابَةِ لدعوتنا، ولَا أَنْ نُلْزِمَكُمْ باتّباعِنَا وَأَنْتُم له كارِهُون.

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ﴾: أي: وَمَا يَجِبُ علينا.

﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾: أي: إلّا تبليغ رسالَةٍ كلامِيَّةٍ ذاتِ مَضْمُونٍ فكري، فإن شئتُمُ استجبْتُم، وإنْ شئتُمْ أَبَيْتُمْ، فلا جَبْرَ ولا قَهر، بلْ عَرْضٌ وتخيير.

البلاغ: اسْمُ بمعنى المصدر الّذي هو الإبلاغ أو التَّبْليغ، وهو في اللُّغة: إيصالُ رسالة كلاميَّةٍ أو غير كلاميَّة، إلىٰ مَنْ أُرْسِلَتْ إليه.

﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: أي: الواضح الظاهر، والموضِحُ المظهِرُ. و«مُبين» اسم فاعل من فعل «أبَانَ» وهذا الفعل يأتي لازماً ومُتَعَدِّياً، فيقال: أَبَانَ الشَّيْءُ، بمعنَىٰ ظَهَر واتَّضَحَ. ويقالُ: أبَانَ فُلَانٌ الشيءَ، بمعنى أظْهَرَهُ وأَوْضَحَه.

واللَّفْظُ هنا في الآيَة صالح لإرادَة المعنيين معاً. إذ الرِّسَالَةُ الّتي على الرُّسُل أن يُبلِّغُوها ظاهرةٌ وَاضِحَةٌ، وإذَا خَفِيَ على المبَلَّغِين منها شيءٌ، فعلَىٰ الرُّسُلِ إبانَةُ ذلك وإظهارُهُ وتوضيحه.

وقد دَفع الرُّسُل الثلاثة بهذا الجواب الثاني ظُنُون القوم بِهِمْ، الَّتي تَدُور حول سَعْيهم، لاتخاذ وسائل الإكراه على الدّين الجديد، كما يَفْعَلُ أصحابُ المذاهب الإنسانية الضَّالَةِ الفاسِدَة الباطلة، وتدور حول اتّهامهم بأنّ انتشار دعوتهم وقبُولَ الناسِ لَها، سيمكّنُهُمْ من تَحقيق أهدافِهِمْ، في الظفر بمنافع ومصالح عند أصحاب القرية، منها المالُ والجاهُ والسُّلْطان.

وصيغَة: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٧﴾ صيغة حَصْرٍ بالنفي والاسْتثناء، ويُفْهَمُ من هذا الحصْرِ أنّهم غَيْرُ مأمُورِينَ ولا مَأْذُونِ لهم، بأنْ يَقُوموا بوسيلَةٍ ما من وسائل الإلْزَام والإكراه عَلَىٰ قبول أهل القرية لما

يَدْعُونَهُمْ إلَيْه، بَلْ لا بُدَّ أن يكون قبولُهُمْ واسْتجابَتُهُمْ له باختيارهم الحرّ.

والقَصْر هنا من قبيل قَصْرِ الموصوف على صِفَة، وهو من قبيل القصر الإضافي، تطبيقاً لما يذكُرُه البلاغيون، أي: ليس لهم من الصفات بالإضافة إلى خُصُوص الرّسالة التي جاءُوا من أجْلِ تأديتها، إلّا الْبَلَاغُ الكلاميُّ الْمُبِينُ لما يَدُلُّ عليه من معاني.

* * *

قوله الله تعالى:

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾:

تمهيد:

لم يجد الملأ من أصْحاب القرْيَةِ مَا يُثيرونَ حوْلَهُ جدالاً فِكْرِيًّا، بَعْدَ أنْ وصَلُوا إلى ذِرْوة التذمُّرِ من دعوة الرُّسُلِ الثلاثة، وهذا يكون عادةً بعْدَ مُدَّةٍ من بَدْءِ دَعْوات الرُّسُل في كلِّ أمَّة، وحينما يَخْشَىٰ ذَوُو السلطان والنفوذ فيهم على مراكِزِهم ومصالحهم.

فلَجأ الملأ من أصحاب القرية إلى إثارة ذَريعةٍ ما ضدّ المرسلين الثلاثة.

والذّريعةُ الّتي اتّخذوها تدلُّ على أنّ الله عزَّ وجل قد أخَذَهُمْ بشيء من البأساء والضرّاء، كتوقف نزول الأمطار، وجفاف الأرض، ونزول أنواع من المصائب في الأموال والأنفس، رغبةً في أن يتذكَّرُوا فيتضرَّعوا لبارِئهم، فإذا فَعَلُوا ذلك كان مُناخاً ملائماً لأَنْ يفْتَحوا عُيُونَ بَصَائرهم، فيشْهَدُوا الحقَّ الَّذِي بلَّغَهُمْ إيَّاه رُسُلُ رَبّهم، فيُؤْمِنُوا.

لكنَّهم لم يَسْتفِيدُوا من هذا التذكير الرَّبَّانِيّ لهم، بلِ اتَّخذوه ذريعة لإطلاق خرافة التطيرِ برُسُلِ رَبّهم إليهم، والتطيُّر بدعْوتِهِمُ الّتي يُجاهِدُون في نشرها بين سُكَّانِ هذه القرية.

ومَعْلُومٌ أنَّ أَمْثَالَ هذه الذرائِع والتَّعِلَّات تَجِدُ رواجاً عند الجماهير، للغوغائيَّة الّتي تشِيعُ فيهم، ولسَيْطَرة المفهومات الخرافيَّة الّتي تكْثُرُ بَيْنَ أَهلِ الكُفر، ولا سيما أصحاب العقائد الوثنيَّة، الذين لا يُؤْمِنونَ بيَوْم الدّين، ويجعلون لأوثانهم تأثيرات غيبيَّةً في أحوال الناس، وفي الظواهر الطبيعيَّةِ في الأرض، الّتي تَتِمُّ بقضاء اللَّهِ وقَدَره.

وأَتْبَعُوا تطيُّرَهم برُسُلِ رَبّهم مُتَذَرّعين بأَنَّ ما نَزَل بِهِمْ مِنْ مصائب قَدْ كان بسَبَبِهِم، أن هَدَّدُوهم بالقَتْلِ رجماً بالحجارة، مع عذابٍ أليمٍ يمَسُّونَهُمْ بِهِ في أجسادِهِمْ ونفوسهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾: أي: قال الملأ من أهل القرية للرُّسُل الثّلاثَة، إِنَّا نَرَىٰ أنَّ ما نَزَلَ فينا من مصائب قد كَانَ بسَبَبِكُمْ وبَسَبَبِ دَعْوتِكم.

التطيُّر: التشاؤُمُ بالأشياء، أو بالأشْخاص، أو بالأحداث، كَمَرْئِي، أَوْ مَسْمُوع، وأصْلُ التَّطَيُّرِ مَأْخُوذُ من زَجْر العَرَبِ للطَّيْر، فإذا طَارَ إِلَىٰ جِهَة الْيَمين تَفاءَلُوا، وإذا طَار إِلَىٰ جهة الشِّمَال تَشاءَمُوا، ثُمَّ صَارَ كُلُّ تَشاؤُمٍ بشيءٍ ما يُطْلَقُ عَلَيْهِ لفظُ «طِيَرَة»، وضِدُّ الطِيَرَةِ التفاؤُلُ بالأشياء، وكان الرَّسُول ﷺ يتفاءَلُ ولَا يَتَطَيَّر.

وجاء فيما ثَبَتَ عنه صلوات اللَّهِ وسلاماته عليه قولُهُ: «لَا عَدْوَىٰ وَلَا طِيرَة».

أي: لا عَدْوَىٰ تُؤثِّر بذاتِها دُونَ قضاء اللَّهِ وقَدَرِه أوْ إِذْنه، ولا تُوجَدُ أشياءُ، ولا أحياء، ولا أحداثٌ، لها صفاتٌ خفيَّةٌ تَحْمِلُ شُؤْماً حتَّىٰ يُتَطَيَّرَ بها، وهذا المعنى لا يَتَنافىٰ مع وجوب اتقاء ما فيه شرٌّ أو ضُرٌّ أو أذىً، بحَسَب صفاتِهِ التي فطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْها، كالحيوانات المفترسة، أو السَّامَة، وكالحشراتِ الضارّةِ أو المؤذية، فتحاشيها حذراً من شرورها ليس من الطِّيَرَة، بل هو من وسائل الوقاية من شرٍّ ما خلَقَ اللَّهُ في كونه.

وقد أمرنا الله عزّ وجلّ بأن نَسْتَعِيذَ بِهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَق.

اشتملت هذه الآية على مَقُولَتَيْن قالَهُما ملأ أصحاب القرية لرُسُل رَبّهم.

المقولة الأولى: دلَّ عليها قولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾: أي: إنَّ ما نَزَلَ بنَا مِمَّا نَكْرَهُ من نَقْصٍ في الأموال والأنْفُسِ والثمراتِ، قد كان بسَبَب وُجُودِكم بَيْنَنَا، ودَعْوَتكم الّتِي جئْتُمونا بها.

والمعنى: فَكُفُّوا عَنْ دعْوَتِكُمْ حتَّىٰ يَذْهَبَ عنَّا ما نَزَل بنا من مكْرُوه.

المقولة الثانية: دلَّ عليها قوْلُهُمْ: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾:

﴿لَئِن﴾: اللّام موطئة للقسم، والتقدير: نُقْسِمُ لئن لم تَنْتَهُوا عن مُتَابعَةِ دَعْوَتِكُمْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ، ولَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أليم.

قُدّم التَّهدِيدُ بالْقَتْلِ بوسيلَةِ الرَّجْم بالحجارة، الَّذِي كان إحْدَىٰ وسائل القتلِ في العصور القديمة للمنْبُوذين المطْرُودين، للتخويف بأشَدِّ الأمْرَيْنِ ابْتِدَاءً، وعُطِفَ عليه التَّهْدِيدُ بأن يَمَسَّهُمْ منهم عذابٌ أليم بالواو الّتي هي لمَطْلَق الجمع فلا تفيدُ تَرْتيباً ولا تَعْقِيباً، مع ما في تأخِير جُمْلَتِه من صياغةٍ ملائِمَةٍ لِنَسَقِ الآيات، وإذْ كانَ من المعْلُوم بداهة أنّ تَعْذِيبَهُمْ عَذاباً أليماً غَيْرَ قاتِلٍ يكُونُ عادةً قَبْلَ الرَّجْم الْقَاتِلِ، كانت الدلالة الفكريَّةُ مغنيَةً عن استخدام التقديم في الترتيب، للإشعار بأنَّ الرَّجْمَ يكون هو المتأخِّر لدىٰ التنفيذ.

وجاء التعبير بالمسِّ للدّلَالَةِ علىٰ أنّ التعذيب قبل الرَّجْمِ لا يَصِلُ إلى مُسْتَوىٰ القتل.

❁ ❁ ❁

قول اللّهِ تعالى:

- ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

دلّتْ هذه الآيةُ على ثلاثِ مقولاتٍ أجابَ بها الرُّسُلُ الثلاثَة، ملأ أصحاب القريَةِ، على تهدِيدِهم لهم بالرَّجم وبالعذاب الأليم:

المقولَةُ الأُولَىٰ: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

يُطْلَقُ الطَّائر في اللُّغَةِ علىٰ مَا يَحْصُلُ به التَّشَاؤم، ولَهُ دلَالاتٌ أخرى، لكنَّ هذا المعنى هو الملائم هنا.

فالمعنى: إنَّكُمْ تَوَهَّمْتُم أنَّ دَعْوَتَنا هي السَّبَبُ فيما حلَّ بكم من مصائب، ونَقْصٍ في الأمْوَالِ والأَنْفُسِ والثمرات، فتَطَيَّرْتُمْ بِنَا تَطَيُّرَ تَشَاؤم. مع أنّ السَّبب في الْحقيقة هُو شِرْكُكُمْ وكُفْرُكم، وتَكْذِيبُكُم رُسُلَ رَبِّكُمْ، وجُحُودُكم ما جاءُوكُمْ بِهِ عَنْ رَبّكم، وهذا السَّبَبُ هو الّذِي جَلَبَ بَعْضَ المصائب لكم، وهو السبب الذي أنْزَلَ بِكُمْ بَعْضَ عقوبات اللَّهِ لكُمْ، رغْبَةً في أَنْ تَتُوبوا إليه، وتَسْتَغْفروه، وتَتَضَرَّعُوا له.

وهذا السَّبَبُ موجودٌ معكم لَا مَعَنا، فما هو فيكُمْ ومَعَكُمْ ممَّا لَا تُرِيدُونَ التخلُّصَ مِنْهُ هُو طَائرِكُم، وهو الّذي يجبُ أَنْ تَتَشَاءَمُوا مِنْه، لَا أَنْ تَتَشَاءَمُوا من رُسُل رَبِّكُمْ ومِنْ دَعْوَتِهم لكم إلى دينِ اللَّهِ الحقّ، وهُو الّذِي يَجِبُ أَنْ تُبْعِدُوهُ وتَرجُموهُ رَجْمَ طَرْدٍ أبَدِيٍّ، ومَا كان يَصِحُّ عقلاً وَرُشداً أَنْ تُهَدِّدُونا بالعذاب الأليم، وبالرَّجْمِ حتَّىٰ الموت.

المقولة الثانية: دلَّتْ عليها عبارةُ: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ وقَرَأَ أَبُو جَعْفر: **[أَأَنْ ذُكِرْتُمْ]**.

والمعنى على قراءة جمهور القرّاء العشرة: أَتَطَيَّرُونَ بنا وَبِدَعْوَتِنَا، وتُهَدِّدُونَنَا بالعذاب الأليم وبالرَّجْمِ حَتَّىٰ الموْت، إنْ تُذَكَّرُونَ مِنْ قِبَلِ رَبِّكم

بالمصائب الّتِي يُنْزِلُهَا بكُمْ، رَغْبَةً في أن تتذَكَّرُوا وتَصْحُوا من غَفَلَاتكُم، فتَتُوبُوا إِلَىٰ بارِئِكُمْ، قَبْلَ أن يُنْزِلَ بكُمْ هَلاكاً شاملاً، ضِمْنَ مُجْرِيَاتِ سُنَّتِه في عباده؟!. «إنْ» شرطية جاءت بعد همزة الاستفهام، والجواب محذوف تقديره: أإن ذُكِّرْتُم تتطيّرُون.

والاسْتِفْهَامُ في العبارة، هو من قبيل الاستفهام الإنكارِيّ التعجُّبيّ.

والمعنى على قراءة أبي جعفر: أَتَطَيَّرْتُمْ بِنَا وبَدَعْوَتِنا، وتُهَدِّدُونَنا بالعذاب الأليم وبالرَّجْم، لأجْلِ أَنْ ذُكِرْتُمْ بِبَعْضِ مَا فيكُمْ من عُيُوبٍ وَجَرَائم وعُدْوانٍ، وفَسَادٍ وَإِفْسَادٍ في الأرض؟!.

أخِفْتُمْ أَنْ تَشْتَهِرُوا بيْنَ النّاسِ بقبائِحكُمْ، فأرَدْتُمْ أَنْ تَنْتَقِمُوا مِنَّا بالتَّعْذِيبِ بعذابٍ أليمٍ، وبالرَّجْمِ حتَّى الموت؟!.

والاستفهام على هذه القراءة هو أيضاً من قبيلِ الاستفهام الإنكاريِّ التعجُّبيّ.

وهذه القراءة تُناسِبُ حَالَ ذوي السُّلْطَان فيهم، الَّذِين تَأْخُذُهُم العزَّةُ بالإثم، إذا ذُكِرُوا بسُوءِ أعمالهم، وكُشِفَتْ قبائحهم لجماهير قومهم. وقد تُنَاسِبُ حالَ سَائر الْقَوْمِ إذَا كَانَتْ لهم قبائِحِ يَخْشَوْنَ أَنْ يُذْكَرُوا بها لَدَىٰ غيرهم من أهل الْقُرىٰ.

وبهذا نُلاحِظ أنَّ القراءَتَيْنِ مُتكامِلَتَانِ في تأدِيَةِ المعاني المرادة.

المقولة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿. . بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ⑲﴾:

هذه المقولة تَدُلُّ على أَنَّ أصحابَ القرية، أَوْ أصحاب الجاه والسلطان في قَوْمِهِم، قابَلُوا نُصْحَ رُسُلِهِمْ لهم بالإقْلَاع عن قبائحهم وجرائمهم وفسادِهم وإفسادِهم في الأرض، وأنَّها من أسباب ما نزل بهم من مصائب مُذَكِّرَةٍ لهم ومُنْذِرَة، رغبةً في أنْ يَتَضَرَّعُوا إلى بارئهم، بقولهم لهم: لسْنَا الْوَحِيدِينَ بَيْنَ أَهْلِ الْمُدُنِ الأُخرىٰ في انتشارِ ما تَلُومُونَنا علَيْه

من ظُلْم وعُدْوانٍ، وفِسْقٍ وبغْي في الأرضِ وفسادٍ وإفساد، فكُلُّ أَهْلِ القُرَىٰ الأُخْرَىٰ يَعْمَلُونَ مِثْلَ أَعْمَالِنا.

فَقَال لَهُمْ رُسُلُهُمُ الثلاثة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: أي: ليْسَتْ أحوالُكُمْ العدوانيَّةُ الظالِمَةُ مِثْلَ أحوالِ أهل القرى الأخْرَىٰ، ولَيْسَتِ النِّسْبَةُ فيكُمْ مُمَاثِلَةً للنِّسْبَةِ في غَيْرِكم.

إنَّ نِسْبَة قبائِحِكُمْ وجرائِمِكُمْ قَدْ زادَتْ فيكم زِيادَةً فاحِشَةً إلَىٰ دَرَكَةِ الإسْرَافِ في الإثم، الَّذِي يَسْتَدْعي أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِكُمْ هَلاكاً عامًّا شاملاً، كما أنْزَلَ بالأقوام الَّذِينَ أَسْرَفُوا مِنْ قبلكُمُ فَأُهْلِكُوا إهلاكاً عَامًّا شاملاً.

وكان لا بُدَّ أنْ يَنْقَطع بهذا الحِوارُ الدَّعوِيُّ، ويَتَرَقَّب الرُّسُلُ الثلاثَةُ نَصْرَ اللَّهِ.

* * *

قول اللَّهِ عزّ وجل:

● ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾:

عند انقطاع الحوار الدَّعوِي وَتأزُّم الموقف، وُوُصُولِ ذوي السُّلْطان في المدينَةِ إلى طَوْر تَنْفيذ ما هَدَّدُوا الرُّسُل الثلاثة به، جاء من أَقْصا المدينة رجُلٌ مجاهِدٌ يسعَىٰ لِيَنْصُرَ دَعْوَةَ الرُّسُل ببَيَانه، مُضَحّياً بِنَفْسِهِ لنُصْرَةِ الحقِّ، فَوقَفَ في وسَطِ جماهير أهل المدينَةِ خطِيباً وهو منهم.

أَقْصَىٰ المدينة: هو أبْعَدُ أماكِنِ المدينَةِ عن وَسَطِها، وعَنْ مركز الحكْم وسُلْطَةِ التَّنْفيذِ فيها، يقال لغة: «قصَا يَقْصُو» و«قَصِيَ يَقْصَىٰ» أي: بَعُد.

قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ في بَدْءِ الحديث

عن قصَّةِ الرَّجُلِ المؤمِنِ الّذي أسْرَعَ يَسْعَىٰ مِنْ أَقْصَىٰ المدينة، حتَّىٰ وَصَلَ إلى حيْثُ اجْتَمَعَ قادَةُ أهْلِهَا، وجُمْهُورٌ من عامّتهم، لتَنْفِيذ ما تَوَعَّدُوا به الرُّسُل، قدْ دلَّ على مَبْلَغ إيمان هَذَا الرَّجُلِ وَتَضْحِيَتِه بنَفْسِه.

إنَّهُ مِنْ أَقْصَىٰ المدينة وعَلِمَ بالخبر، فجاء يَسْعَىٰ، ومِثْلُهُ لا بُدَّ أنْ يَشُقَّ صُفُوفَ الجماهِيرِ المجتَمِعينَ حتَّىٰ يَبْلُغَ دَائِرَةَ الوَسَط، وهذا العمل يدُلُّ على أنَّه مُجاهِدٌ أَقْبَلَ في حَالَةِ رَوِيَّةٍ وتَصْمِيم، ليَنْصُرَ المرسَلِينَ الوافِدِين إلى قَوْمِهِ من غَيْرِ قومه، ويَدُلُّ على أنَّه لم يَكُنْ حَاضراً في مجتمع القوْمِ، فبلَغَهُ الخبر، فَتَحمَّسَ بانْفِعالٍ لينْصُر الرُّسل، وقد كان من الذين آمَنُوا بهم، واستجابوا لدعوتهم.

ودلَّ تقديم عبارة: ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ على فاعل ﴿جَآءَ﴾ وهُو ﴿رَجُلٌ﴾ على أنّ حضوره من أقْصَىٰ المدينَةِ قَدْ كانَ سعْياً جهاديًّا عن حماسَةٍ وتصْميم وتضحِيَةٍ بالنفس، دفاعاً عن الحقّ الرَّبَّاني، وقد كانَ من نَتِيجَةِ سَعْيِهِ أنَّهُ جاهَدَ ونَصَرَ دَعوة الحقّ، واسْتُشْهِدَ في سبيل الله.

بخلاف الرجلُ الذي جاء مِن أَقْصَىٰ المدينَة يَسْعَىٰ مسْتَخْفياً، ليبلِّغَ موسى عليه السلام، بأنَّ القوْمَ يَأْتَمِرُون به لِيَقْتُلُوه، ولِيَنْصَحَهُ بأنْ يَخْرُج.

إنَّه إذْ لم يَكُنْ لقُدومِه من أقْصَىٰ المدينَةِ إلّا الإشارة إلَىٰ أنَّه من الَّذِينَ لهم معرفةٌ بما يجري في القصر الفرعوني، ومداخلة ضمن الملأ الذين يُقَرِّرُونَ، لم يكُنْ داعٍ لتقديم عبارة ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ على الفاعل الّذِي هو: ﴿رَجُلٌ﴾ في قولِ اللَّهِ عزّ وجلَّ في مَعْرِضِ الحديثِ عن قِصَّةِ موسى عليه السلام، في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

فمن دواعي تقديم ما حقُّهُ التأخيرُ في الجملَةِ العربيّة التَّنْبِيهُ علَىٰ أمْرٍ

ذي أَهَمِيَّةٍ، يَشْتَمِلُ عليه العنْصُر الذي قُدِّمَ من عناصِرِ الجملة عن موقِعِهِ الّذِي هو له في الجملة.

ولمّا وصَلَ مُؤْمِنُ أصْحَابِ الْقَرْيَةِ إِلَىٰ مَوْقِعِ الاجتماع ضِدَّ الرُّسُل، اخترق الجمْعَ حتَّىٰ وصَلَ إلى حيْثُ مِنَصَّةُ الحاكم والمَلأُ من حوله، فوقف خطيباً خُطْبَةً اشْتَمَلَتْ على ثلاث مقولات:

المقولَة الأُولَى: دلَّتْ عَلَيْها عبارَة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

فدعا قومَهُ إلى الإيمان بهؤلاء الرُّسُل الثلاثة، مُثْبتاً لهم أَنَّهُمْ رُسُلٌ صَادِقون ليْسُوا بكاذبين، ودَعَاهُمْ إلىٰ اتِّباعِهِمْ فيما جاءَوا بِهِ من شرائِعِ الدِّين وأحْكامه.

الاتّباع: هو في اللُّغَةِ سَيْرُ التَّابعِ علَىٰ أثَرِ المتْبُوعِ، وتَقْلِيد المقتَدِي إمَامَهُ في أقوالِه وأفْعَاله، وطَاعَتُهُ في أوامِرِه ونواهيه، والاستجابَةُ لَهُ في دَعْوَتِه، والاجْتِهَادُ في تَطْبِيقِ وصَايَاهُ.

ومعلومٌ أنَّ إثبات صِدْق الرسُل لا بُدَّ أن يتَضَمَّنَ التّنبيه على أدلّة رسالتهم، وأنَّ مضمون رسالتهم حقٌّ.

المقولة الثانية: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾:

ففي هذه العبارة تأكيد صِدْقِ هؤلاء الرُّسُل بأَنَّهُمْ ليْسُوا أصْحَابَ مصالح شخصيَّةٍ، لَدَىٰ قَوْمِه من دَعْوَتِهم إيَّاهُمْ إلى الإيمان ونَفْي الوثنيّةِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ باللَّهِ وسَائر خُرافاته.

فَهم لا يَسْأَلُون الْقَوْمَ أجراً على دعْوَتِهم لهُمْ إلى الإيمان الحقّ، والإسلام الحقِّ لله عزّ وجلّ وحْدَهُ لا شريكَ له، إنَّهُم لَا يَسْأَلُونَ أجراً ماليًّا، ولَا أجراً من سُلْطانٍ يَطْلُبُونه، ومُلْكٍ يَسْعَوْنَ للوصُولِ إليه، أوْ غير ذلك.

إنّهم غَيْرُ مُتَّهمِينَ في دعْوَتِهِم إلى الحقّ، وجاءَ هذا البيان لدَفْعِ تَوَهُّم أنَّهم يَتَّخِذُونَ الدَّعْوَةَ إلى الحقِّ وسيلَةً للوُصُولِ إلى مصَالِحَ شَخْصِيَّةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتهم عند القوم، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَدْعُونَ إلَىٰ الحقِّ بحُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ، لكِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ غِطاءً لمَصَالح دُنْيَوِيَّةٍ يُرِيدون الوُصُولَ إلَيْها، حتّىٰ إذا وَصَلُوا إلى مُراداتِهِم من الدُّنيا تَخَلَّوْا عن الحقِّ والدَّعْوَةِ إلَيْهِ ونُصْرَتِه، وتكَشَّفَتْ عُيُوبُهم، وظَهَرَ عدَمُ الْتِزَامِهِمْ بما كَانُوا يَدْعُونَ إليه.

ومنْ صِفَات كلّ الرُّسُلِ أَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ الناسَ أجراً، مقابل دعوتهم إلى دين الله الحقّ، للظفر بسعادَةِ الدنيا وسعادة الآخرة، فقد أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ كلَّ رسُولٍ بأن يقول لقومه: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجراً، فقال لقومه كما أمَرَهُ الله.

المقولة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿... وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾:

ففي هذه العبارَةِ تأكيدُ صِدْقِ هؤلَاءِ الرُّسُلِ في دَعْوَتِهم بِأَنَّهُمْ في ذواتِهِم مُهْتَدُونَ، علَىٰ صراطٍ مستقيم، في أَخْلَاقِهِم، ومعاملاتهم، وعباداتهم، والتزامِهِمْ بالحقّ، والعدْلِ، والعِفَّة، والزُّهْدِ فيما في أَيْدِي الناسِ، والصِّدْقِ، والأمانةِ، إلى غير هذه الصفات من كُلّ ما يَدْعُو الدين وتدعُو مَوازين العقل السليم للالتزام به، فَلَا شيْءَ يَجْرَحُ سُلُوكَهُمْ حتَّىٰ يَكُونُوا مُتَّهَمِينَ في دَعْوَتِهِمْ، بَلْ هُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لكُلِّ من أراد أن يتأسَّىٰ بذَوِي الفضائل ومحاسِنِ الأخْلاقِ والسُّلُوك.

وبهذه المقولات الثلاث أقامَ مُؤْمِنُ أصْحابِ القرية الحجَّةَ الدامِغَةَ على صِدْق الرُّسُلِ الثلاثة، وأنَّ على قَوْمِه أنْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ وَيَتَّبِعُوهم.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ

ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾:

تمهيد:

يظهر للمتدبّر أنَّ الْقَوْمَ قَدْ فُوجِئُوا بمداهَمةِ رَجُلٍ مِنْهُمْ جَمْعَهُمُ الحافلَ، بُغْيَةَ أنْ يَنْصُرَ الرُّسُلَ الثلاثَةَ بحُججٍ بُرْهَانِيَّةٍ تُثْبِتُ صِدْقَهم في أنَّهُمْ رُسُل الله.

فاسْتُثِيرَ غَضَبُهُمْ مِنْهُ، وتَحوَّلُوا عَنْ مُحَاكَمةِ الرُّسُل الَّذِينَ لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ دَعْوَتِهم، إلى مُحَاوَرَةِ الرَّجُلِ مِنْهُمْ ومُحَاكَمَتِهِ، إذْ أقْبَلَ مِنْ أَقْصَىٰ المدينَة لنُصْرَةِ الرُّسُلِ ببياناته الّتي قَدَّمتها خطيباً، حَرِيصاً على إقناع قَوْمِهِ بوُجوبِ الإيمان بالدَّعْوَةِ الَّتي جاءتهم بها الرُّسُل، وَوُجوب اتّباعهم.

ويظهر للمتدبّر من إيحاءاتِ النَّصّ والمطويَّاتِ فيه، أَنَّ ملأَ أصْحاب القرية قالُوا للرَّجل:

إذَنْ: فقد آمَنْتَ بهٰؤلاء الرُّسُلِ وَتَرَكْتَ مِلَّةَ قَوْمِكَ؟

قال: نَعَمْ، آمنْتُ بِهم وبما جاءُوا به عن رَبّي وَرَبّكُمْ.

فقالوا له: إذَنْ، فَأَنْتَ تَعْبُدُ الرَّبَّ وَحْدَهُ، وقَدْ هَجَرْتَ ونَبَذْتَ عبادَةَ آلِهَتِنا؟!.

قال: نعم.

وهُنَا يأتي النَّصُّ القرآنيُّ في السُّورَةِ، فَيُبَيِّنُ لَنَا أنَّه قَالَ لهم:

- ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾:
- قرأ يعقوب [**تَرْجِعُونَ**] بالبناء للمعلوم.

وقرأ باقي القراء العشرة [**تُرْجَعُونَ**] على البناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، من فعل «أَرْجَعَ» المتعدّي.

والقراءتان متكاملتان، إنَّهم يُرْجَعُونَ، فيُطَاوِعُون فَيَرْجِعُون بالجبر، ويظهر للمتدبّر أنّ ملأ قومه قالوا له: كَيْفَ تَعْبُدُ الرَّحْمٰنَ وَحْدَهُ، ولا تَعْبُدُ آلِهَةَ قَوْمِكَ، آلِهَةَ آبائِكَ وَأجْدَادِكَ.

فقال لهم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؟!

استفهامٌ فيه معْنَىٰ التَّعَجُّبِ والإنكار على اعتراض قوْمِهِ عليه.

أي: ما حُجَّتِي وما هو السُّلطان الّذِي لي يَحْمِينِي من عذابِ رَبّي الَّذي فَطَرَني، وما هُوَ النَّصِيرُ المدَافِعُ عَنِّي الذي يَنْصُرُني فَيَدْفَعُ عَنِّي عذابَه، حالَةَ كَوْني لَا أَعْبُدُهُ وهُوَ الَّذِي فَطَرَني وَحْدَهُ؟!

إنَّني إذَا لَمْ أَعْبُدْهُ وعَبَدْتُ آلِهَتَكُمْ مِنْ دُونِه، أَوْ جَعَلْتُهُمْ شُركاء له، دُونَ أَنْ يكُونَ لي في ذلِكَ بُرْهَانٌ مِن اللّهِ، فإنَّني أُعَرِّضُ نَفْسِي حَتْماً لعذابِهِ الأبَدِيّ، إذْ أكُونُ كافراً به، ولَوْ من كُفْرِ الشِّرْكِ الّذي هُو أَخَفُّ دَرَكاتِ الكُفر.

وهُنَا يَظْهَرُ للمتدبّر من المطويَّاتِ أنَّ الْقَوْمَ قَالُوا له: لَقَدْ عبَدَ آباؤُنَا وَأَجْدَادُنَا مِنْ قَبْلِنَا آلِهَتَنَا ولَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ عَذَابُ اللَّهِ كَمَا تَزْعُمُ؟!.

والجوابُ المناسب الّذي قَدْ أَجابَهُمْ به قد اعْتَمَدَ فِيه على الإيمانِ بالْيَوْمِ الآخِر، وأنَّ مَرْجِعَ النَّاسِ جميعاً إلَىٰ اللَّهِ يَوْمَ الدّين، ليُلاقوا حسَابَهُمْ، وفَصْلَ القضاءِ فيهم، وتنفيذ الجزاء، فَمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً دَخَلَ جنَّاتِ النَّعِيم، خالداً فيها مُخَلَّداً أبداً، ومَنْ كَفَرَ وأَجْرَمَ دخَلَ نارَ جَهَنَّمَ خالداً فيها مُخَلَّداً.

وهذا يَسْتَتْبِعُ أَنَّهُمْ قَالُوا له: أَتَخْشَىٰ أَنْ تَرْجِعَ إلَىٰ حياةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ الموتِ للحِسَابِ والجزاء من قِبَلِ ربِّك؟!

وكان جوابُه: أَنَا إلَيْهِ أُرْجَعُ وأَنْتُمْ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ، دلَّ على هذا قولُهُ لهم المذكورُ في الآية: ﴿... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وهُنَا يَظْهَرُ لِلمُتَدَبِّر أنَّهُمْ دَافَعُوا عَنْ عَقِيدَتِهِمْ في آلِهَتِهِمْ، وأنّ دِفَاعَهُمْ عَنْها يتَلَخَّصُ بأنَّ عَبادَة هذه الآلِهَة تَنْفَعُ عنْدَ الرَّحْمٰن، فإذا عَبَدْتَها كانَتْ شفيعَةً لَكَ عِنْدَه.

والجواب الذي اخْتَارَهُ هذا الرَّجُلُ المؤمِنُ المجاهِدُ بلسَانِهِ ومُحَاجَّتِه، هو ما دلَّ عليه القولُ المحكيُّ عنْه في النصّ:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾:

دلّ هذا النَّصُّ على أنَّ هذا الرَّجُلَ المؤمِنَ، قد وضَعَ قَوْمَهُ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ أمَام بُرْهانٍ مَسْبُوقٍ بتجارب، وهذا البُرْهَانُ يَدْعَمُ إيمانه، ويُسْقِطُ مَفْهُومَاتِهِم الشركيَّة.

فالنَّصُّ يُوحِي بأنَّهُ قَالَ لَهُمْ: لَقَدْ جَرَّبْتُ آلِهَتَكُمْ فيما نَزَلَ بِي مِنْ ضُرٍّ فيما مضىٰ، فَدَعَوْتُهَا، وعَبَدْتُهَا، واسْتَشفَعْتُ بها، فلَمْ تُغْنِ عبادَتي ودُعَائي لها عنّي شيئاً، لأنَّ ما نزل بي من ضُرٍّ قَدْ كانَ من اللَّهِ عزّ وجلَّ، لا مِنْ آلِهَتِكُمْ، فإنْ كانَ لَهَا شَفَاعَةٌ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا تَزْعُمونَ، وكانتْ تَمْنَحُ شَفَاعَتَها لمن يَدْعُوها ويَعْبدُها، فقَدْ جَرَّبْتُهَا في هذا فلَمْ تنفَعْنِي شفَاعَتُها شيئاً.

إذَنْ: فَلِماذا أَسْتَمِرُّ على عبادتها، وحالي مَعَها بَيْنَ يَدَي الرَّحْمٰنِ هو: إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ مُسْتَقْبلاً بِضُرٍّ، وعَبَدْتُها ودَعَوْتُها مُسْتَشْفِعاً بها، لا تَغْنِ عَنّي شفاعتها شيئاً عند الرحمن، ولا هي تُنْقِذِني بوسائل غَيْرِ الشفاعَة، ولا هي تَدْفَعُ عَنِّي الضُّرَّ الّذِي يُريد أن يُنْزِلَهُ الرَّحْمٰنُ بي.

ومعلومٌ أَنَّ الدَّلِيلَ التَّجرِيبيَّ مِنْ أقوىٰ الأدلَّة لقياس الْمُسْتَقْبَل عليه.

وقد آثَر هذا الرَّجُل المؤمن أن يذكر من أسماء الله اسم «الرَّحْمٰن» لِيُشْعِرَ الْقَوْمَ بإيمانه بأنَّ ما يُنْزِلِ اللَّهُ به من ضُرٍّ في الدنيا فإنَّهُ مظْهَرٌ من مظاهر رحْمَتِه، لا من مظاهِر غضبه ونقمته.

وقد سبَقَ أن ظهر لنا أن قومَهُ يُؤْمِنُونَ بأنَّ الرحْمَة من صفات اللَّهِ عزّ وجلّ مع عباده في الأرض، فهو الرَّحْمٰن، على خلاف عقيدة كثيرٍ من مُشْرِكي العرب الّذين كانوا يُنْكِرُون اسم الله الرحمٰن، ويَنْسُبُون صِفَةَ الرَّحْمَةِ إلى آلِهَتِهم الّتِي يَعْبُدُونها.

وبَعْدَ أنْ وضع هذا الرَّجُلُ المؤمن قومَه أمَامَ هذا البرهان التجريبيِّ، الَّذِي جرَّبَهُ بنَفْسِه، أَعْلَمَهُمْ بأنَّه إذا اسْتَمَرَّ على الباطِلِ الَّذِي كَانَ علَيْه، فإنَّه إذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ واضحِ جَلِيٍّ، دلَّ على هذا قولُه: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٢٤﴾.

وأرَىٰ أنَّهُ اسْتَعْمل الفِعْلِ المضارع في عبارته، أو ما يماثِلُهُ في لُغَتِه، إذْ قال لقومه: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ على معنَى أَتُرِيدُونَ مِنّي أَنْ أَتَّخِذَ مُسْتَقبلاً آلِهةً من دون ربّي، وحَالي معهم بين يَدَي الرَّحْمٰن أنّي: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مُسْتَقْبلاً ﴿بِضُرٍّ﴾ يُنْزِلُهُ بِي مَادّيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ بدَلَالَةِ تَجْرِبَتِي السَّابِقَةِ مَعَهُمْ؟؟!

إنَّنِي أكُونُ إذاً بَعْدَ سَوابقِ التجارِب في ضلالٍ مُبِينٍ واضحٍ جَلِيّ، أي: في ضياع واضح، وفي مجافاةٍ بيّنَةٍ لطَرِيق الحقّ والْهُدى.

وهنا ظهَرَتْ حُجَّةُ الرَّجُل المؤمن قَوِيَّةً واضِحَةً بُرْهانيَّة، وانقطَعَتْ حُجَجُ الْقَومِ وأُفْحِمُوا، فَلَمْ يَجِدُوا أَمَامَهُمْ إلّا أَنْ يَنْتَصِرُوا لأنْفُسِهم بقَتْلِهِ، فَقَدَّمُوه للقَتْلِ.

فتَوَجَّه هذا الرَّجُلُ المؤمنُ المجَاهِدُ الصَّابِر الشُّجاع، قُبَيْل تَنْفِيذ الأمْرِ بقتله، لجماهير قومه المحتشدين، فنادَىٰ بأعْلَىٰ صَوْته مُتحدِّياً داعياً، بما جاء في قول الله تعالى حكاية لقوله:

- ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ٢٥﴾.

وعقب هذا نَفَّذُوا فيه حُكْمَ الْقَتْلِ فَقَتَلُوه، فلفظ رُوحَهُ شهيداً في سبيل الله، دلَّ على هذا الحدَث المطويّ في النَّصّ من قصَّتِه:

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾: من البَدَهِيّ أنّ هَذا قَدْ كانَ بَعْد أنْ قَتلَهُ قومه، أي: أمَرَ الله ملائكةَ الرَّحْمَةِ أنْ تقولَ له: ادْخُلِ الجنَّة، فقالُوا له مُكَرِّمين: ادْخُلِ الجنَّة، إذْ لَفَظَ رُوحَهُ شهيداً في سَبيل الله، مجاهداً بأفْضَل أنواع الجهاد، وهي كَلِمَاتُ حَقٍّ وَصِدْقٍ ودَعْوَةٍ إلى دين الله، قالَها داعياً بها ذوي سُلْطانٍ كَفَرَةٍ فجَرَةٍ طُغَاةٍ بُغَاةٍ جبَّارِين.

والمرادُ بدخوله الجنَّة مَا جاءَ بيانُه فيما صَحَّ عن النبيّ ﷺ من أنَّ أَرْواحَ الشهداء، تَدْخُلُ فِي أجْوافِ طُيُورٍ خُضْرٍ، لها قناديلٌ معلّقةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ، تَسرَحُ من الجنَّةِ حيْثُ شاءَتْ، وتأكُلُ مِنْ ثِمَارِها.

وهذا في الحقيقة دُخولٌ جزئيٌّ في الجنَّةِ، وليس هو الدخول الموعُود به يوْمَ الدّين.

روَىٰ مُسْلِمٌ والتّرْمِذِيُّ عن ابْنِ مَسْعُودٍ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ تحت الْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَت، ثُمَّ تأوِي إلَىٰ تِلْكَ الْقَنادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطّلاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئاً؟.

قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي، ونَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجنَّةِ حيْثُ شِئْنَا؟!.

فَيُفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَمْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ إلينا أَرْوَاحَنَا في أَجْسَادِنا، حتَّىٰ نَرْجِعَ إلىٰ الدُّنيا، فَنُقْتَلَ في سبيلِكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

فلَمَّا رَأَىٰ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حاجةٌ تُرِكُوا».

وروى البخاريُّ ومُسْلمٌ والترمذيُّ عن أنسٍ قالَ: قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَإِنَّ لَهُ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرُ الشَّهِيدِ، فإِنَّهُ يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَىٰ مِنَ الكَرَامَةِ».

وعلى مَا جاء في حديث ابْنِ مَسْعودٍ، ينبغي أَنْ نَفْهم ما جَاءَ في القرآن منْ كَوْنِ الّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيل اللَّهِ أَحْياءً عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون، كما جاء في قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

وبَعْدَ أَنْ قالت الملائكة للرَّجُلِ المؤمِنِ المجاهد الشهيد في سبيلِ الله: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ ولَقِي مَا لَقِيَ من كرامَةٍ عظيمةٍ عِنْدَ ربِّهِ:

﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

نَادَىٰ وَهو في عَالَمِ الحياةِ الْبَرْزَخيَّة، وَلَا يَسْمَعُ الْبَشَرُ في الحياة الدُّنيا نداءَ المنادي من أهلِ الحياة البرزخيَّة، مَهْما رَفَعَ صَوْته.

نَادَىٰ مُتمنِّياً أنْ يعلَمَ قَوْمُه الَّذِين قَتَلُوهُ، وفَرِحُوا بقَتْلِهِ انْتِقَاماً منه، بأمْرِ ثوابَيْنِ عَظِيمَيْنِ ظَفِرَ بِهما عنْدَ رَبّه:

الثوابُ الأوّل: أَنَّ رَبَّهُ غَفرَ لَهُ ذُنوبَهُ، أي: سَتَرَهَا فَلَمْ يُحاسِبْهُ عليها.

الْغفرُ: في اللُّغَة هو السَّتْر.

الثوابُ الثاني: أنَّ رَبَّهُ جعَلَهُ من المكْرَمِينَ، وهم الّذِين خصَّهُمُ اللَّهُ،عزّ وجلّ بكَرَامَةٍ وإكرام منه، إذْ أَدْخَلَ أرْواحَهُمْ في أجوافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَأْوِي إلَىٰ قناديلَ معلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وتَسْرَحُ من الجنَّةِ حَيْثُ شاءَت، وتأكُلُ مِنْ ثَمَرِها.

رُوِيَ عَنِ ابن عباس أنّه قال بشأن هذا الرَّجُل المؤمن المجاهِدِ الشُّجَاع، نَصَحَ قَوْمَهُ في حَيَاتِهِ وبَعْدَ مَمَّاته.

فماذَا كانَ حالُ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ؟.

قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ:

- ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

- قرأ جمهور القرّاء العَشَرةِ: **[إنْ كَانَتْ إلاَّ صَيحةً واحِدَةً]** بِنَصْبِ: «صيحةً وَاحِدَةً» على اعتبار «كان» ناقِصَةً و«صَيْحَةً» خَبَرُها، أي: ما كانت وسيلة إهلاكهم إلَّا صَيْحَةً واحدة:

وقرأ أبو جَعْفَر: **[إنْ كَانَتْ إلاَّ صَيحَةٌ واحِدَةٌ]** على اعتبار «كان» تامَةٌ و«صَيْحَةٌ» فاعِلُها، أي: ما وُجِدَتْ إلَّا صَيْحَةٌ واحِدَةٌ جعلتهم خامِدِين.

فالمعْنَى: لَقَدْ أَهْلَكْنَاهُمْ بَعْدَ قَتْلِهِمُ الرَّجلَ المؤمِنَ الدَّاعِيَةَ إلَىٰ الله مِنْهُمْ بصَيْحةٍ واحِدَةٍ فَإذَا هُمْ صَرْعَىٰ هَلْكَىٰ.

الصَّيحةُ: صَوْتٌ عظيمٌ يَقْتُلُ بالصَّدْمَةِ الصَّوْتِيَّة الشَّديدة، وقَدْ أثبتَتْ وَسَائلُ الْعِلْم المعاصِرَةُ أنَّ الصَّدمَاتِ الصَّوْتِيَّة العظْمَىٰ قواتِلُ للأحياء، وقَدْ تُدمِّرُ الْبُنْيَانَ وَغَيْرَهُ مِن الأشياء.

ودَلَّت عبارَةُ: ﴿فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ على أنَّ إهلاكَهُمْ بالصَّيْحَةِ كَانَ

عَقِبَ قَتْلِهِمُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ دُونَ فَاصلٍ زمَنِيٍّ كبيرٍ، وذَلِكَ لأنَّ الْخُمودَ يُسْتَعْمَلُ لانْطِفَاءِ النّار، وتَحوُّلِها فَحْماً أَوْ رَماداً، فدَلَّ استِعْمَالُ الْخُمُودِ هُنَا على أنَّ لَهيبَ غَضبِهم الَّذي جَعَلَهُمْ يَقْتُلُون رَجُلَهُمُ الناصِحَ لهم، لأنَّه نَصَرَ المرسَلِينَ لَمْ يَنْطَفِئْ بقَتْلِهِمْ له، لكنَّهُ خَمَدَ بإهلاكهم، إذْ صَارُوا جَمِيعاً هُمْ وَنيرانُ غَضَبِهم الثّائر خَامِدِينَ، كَفَحْمٍ مُلْتَهِبٍ انْطَفَأَ دُفْعَةً واحِدَةً بصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ دَلّتْ عليها «إذا» الْفُجَائيّة، في عبارة: ﴿فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾.

وبياناً لوَسِيلَةِ إهْلاكهم ذكر اللَّهُ عزَّ وجلَّ أَنَّه لم يُنْزِلْ لإِهْلَاكِهِمْ جُنْداً من ملائكة السَّمَاءِ، أي: كما أَنْزل لإِهْلَاكِ قوْم لُوطٍ عليه السلام، أو غَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أهْلَكَهُمْ بإنْزَالِ جُنْدٍ من السماء. وذكَرَ جلّ جلالُهُ أنّ حالَ هؤلاء القوم ما كَانَ يَقْتَضِي أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللَّهُ إلَّا بالصَّيحَةِ المميتَةِ لهم، فقال تبارك وتعالى:

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وفي هذا دَفْعٌ لتَزَيُّدَاتِ المتَزَيِّدِينَ، وتَحْدِيدٌ قَدْ يُفِيدُ يوماً ما في مَعْرِفَةِ المراد بالْقَرْيَةِ، الّتي جاء ذكْرُهَا في هٰذِهِ الْقِصَّةِ القرآنِيَّة، لاحْتِمَالِ أَنْ تكُونَ الصيْحَةُ قَدْ أَهْلَكَتْ كُفَّارَ القريَةِ، ولم تُغَيِّرْ شيئاً مِنْ معالمها ومَبانيها، واللَّهُ أعلم.

ولعَلَّ في هذا إشارةً إلىٰ أَنَّ مَكَّةَ لَو قَضَتْ حكْمَةُ اللَّهِ بأن يُهْلِكَ كُفَّارَها يَوْمئذٍ، فلَنْ يُهْلِكَهُمْ إلَّا بالصَّيْحَةِ، تكْريماً وَصِيَانَةً لِلْبَلَدِ الأَمِين.

* * *

(٧)

التدبّر التحليليّ للدّرسِ الثالث مِنْ دُروس السورة وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٠) أَلَمۡ
يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلّٞ لَّمَّا
جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ (٣٢) وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ
يَأۡكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ
(٣٤) لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ (٣٥) سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ (٣٦)
وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ (٣٧) وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي
لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ (٣٨) وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ
كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ (٣٩) لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ
ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ (٤٠) وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ
(٤١) وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ (٤٤)﴾.

القراءات:

(٣٢) • قرأ ابْن عامر، وعاصم، وحمزة وابْنُ جمَّاز: [لَمَّا] بتَشْدِيدِ الميم، وهي هنا بمعنى «إلّا» وعلىٰ هذِه القراءَةِ تَكُونُ «إنْ» في: **[وَإِنْ كُلٌّ]** حرف نفي بمعنى «ما» النافية، أي: وَمَا كُلٌّ إلَّا جميعٌ لدَينا مُحْضَرُونَ، بَعْدَ بعْثِهِمْ للحياة الأخرىٰ، ليُلَاقوا حسَابهم، وفصْل قضاء اللّهِ فيهم، وجزاءَهُمْ على ما أسْلَفُوا في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا دار الابتلاء.

وقرأ بَاقِي القرّاء العشرة: [لَمَا] بتَخْفِيفِ الميم، وعلى هذه القراءة

تَكُون «إِنْ» في: [**وَإِنْ كُلٌّ**] هي المخفَّفَةَ مِن الثقيلة «إنَّ» ويكون اسم «إِنْ» ضَمِيرَ الشَّأْنِ، وتَكُونُ اللَّامُ في [**لَمَا**] هِيَ اللَّامَ المزَحْلَقَةِ، الّتِي يُؤْتَىٰ بها للتَّأْكيد. و«مَا» صِلَةٌ جِيءَ بِهَا لِزِيَادَةِ التَّأْكِيد.

(٣٣) ● قرأ نَافع، وأَبُو جَعْفر: [**الميّتَةُ**] بِتَشْدِيد الياء.

وقَرأ باقي القرّاء العشرة: [**الْمَيْتَةُ**] بإِسْكان الياء.

والقراءتان لغتان عَربيّتَان متكافِئَتَان.

(٣٤) ● قرأ نَافع، وأبو عَمْرو، وَهِشَام، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلَف: [**مِنَ الْعُيُونِ**] بضَمِّ الْعَيْن.

وقرأ باقي القراء العشرة: [**مِنَ الْعِيُونِ**] بِكَسْرِ العين.

ضمُّ عين العيون وكَسْرُها لُغتَانِ عربيّتان متكافئتان.

(٣٥) ● قَرَأ حمزة، والكسَائي، وخَلَفٌ: [**لِيَأْكُلُوا مِنْ ثُمُرِهِ**] بضَم الثاء والميم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [**لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ**] بفتح الثاء والميم.

«ثَمَرة» تجمع على: ثَمَرٍ، وثُمُرٍ، وثِمَارٍ، وأَثْمَار، ولفظ «ثَمر» اسم جنس جَمْعي، يفْرق بينه وبين واحده بالتاء.

(٣٥) ● قرأ شُعْبَة، وحمزة، والكسَائي، وخلفَ: [**وَمَا عَمِلَتْ**] بحذف الضمير، الذي هو مفعول به، ويعود على «ما» إيجازاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**وَمَا عَمِلَتْهُ**] بإثبات هاء الضمير.

والقراءتان من قبيل التفنُّن في التعبير، والمعنى واحد.

(٣٩) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، ورَوْحٌ: [**وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَاهُ**] برفع «الْقَمَر».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ**] بنَصْبِ «الْقَمَر».

والقرَاءتان جائزتان عربيًّا، كما يُقَرِّرُ النحاة، لأن لفظ «الْقَمَر» قد اشْتَغَلَ عنه عامله بنَصْبِ ضَمِيره، وفي هذه الحالة يجوز الوَجْهان في القمر، النَّصْبُ والرَّفْعُ، أَمّا الرَّفْعُ فعلَىٰ أَنَّه مبتدأ، وأمَّا النَّصْبُ فعلَىٰ أَنَّه مَفْعُولٌ به لِفِعْلٍ مَحْذُوف مقدَّرٍ ذِهْناً يُفَسِّرُه المشتغِلُ عنه بضميره.

(٤١) ● قرأ نَافع، وابْنُ عَامِر، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [**ذُرِّيَّاتِهِمْ**] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**ذُرِّيَّتَهُمْ**] بالإفراد.

ومؤدَّى القراءتَيْنِ واحد، لأنَّ إضافة «ذُرِّيَّة» إلى ضَمِيرِ النَّاس يَشْمَلُ كُلَّ ذُرِّيَّاتِهم.

تَمْهيد:

يَبْدأُ هذا الدرس الثالث من دُروس السُّورة بآيَةٍ صَالِحَةٍ لأَنْ تكُونَ بدايَةً له، وصالِحَةٍ أيْضاً لأنْ تكون نهايَةً وخِتَاماً للدرس الثاني، وهذا من لطائفِ سلاسِلِ الرَّبْطِ بَيْنَ الدروس في السُّورَةِ القرآنيَّة.

لقد تضمَّن الدّرس الأوّل من دُروس السورة كما سبَقَ في التَّدَبُّر خطاباً من اللَّهِ لرسوله محمّد ﷺ، يُبَيِّنُ فيه للناس تَعْرِيضاً آيَتَيْنِ من آياتِ صِدْقِه في نُبُوَّتِه ورسالَته:

الآية الأولى: آيَةُ القرآن الحكيم، الّذِي كانَ يَتَنَزَّلُ عليه من لَدُنْ عزيزٍ رَحِيم.

الآيَةُ الثانية: آيَةُ صِفَاتِه العظيمة الّتي يتحلَّىٰ بها صلوات اللَّهِ وسلامُه عليه، والّتِي هُو بها على صِرَاطٍ مستقيم.

ويُبيّن للرَّسُول فيه مَسْؤولياتِ رسالَتِه تجاه كُبراء مشركي مكّة، إبّان نُزول سورة (يسٓ).

ويبيّنُ له فيه الطَّوْر الّذي وصَلَ إلَيْه أكْثَرُ قَادَةِ كُفَّارِ مكَّة إبَّانَ هذه المرحلة من مراحل دَعْوتِه ﷺ.

أمّا الدَّرْسُ الثاني من دُروس السُّورَةِ، فقد تَضَمَّنَ تَوْجِيهاً للرَّسُولِ أنْ يَضْرِبَ لكُفَّارِ مكَّة يومَئِذٍ مَثلاً تاريخيًّا مُشَابهاً لِبَعْضِ حالهم، لعلَّهم يعتبِرُونَ به.

وهذا التوجِيهُ هو في الحقيقة تَوْجِيهٌ من اللَّهِ لهم بأسْلُوبٍ غَيْرِ مباشِرٍ، فيه معنى الإعراضِ عَنْهُمْ، لكَثْرَةِ عنادِهِمْ وإصْرَارِهِمْ على الباطل، ومعاداة الحقّ الرَّبَّاني.

هذا المثل التاريخيُّ هو واقع حال أصحاب الْقَرْيَةِ الّتي جاءها المرسَلُونَ الثلاثة، فكَذَّبُوهم، وتَوَعَّدُوهم بالْقَتْلِ رَجْماً بالحجارة، وبعذَابٍ ألِيم، ثُمَّ قَتَلُوا الرَّجُلَ المؤمِنَ من أَهْلِ قَرْيَتِهِمْ الَّذِي جاء يَسْعَىٰ من أقْصَىٰ المدِينَةِ لِنُصْرَةِ الرُّسُل ببياناته ومُنَاظراتِه، فلمَّا أفحمهم قَتَلُوه، فأهلكهم اللَّهُ بالصيْحةِ، أي: بصَوْتٍ عظيم قاتل.

وأمّا الدرس الثالث الّذِي أتوكَّلُ على الله عزّ وجلّ في تدبره، فهو يتضمن بيانات إقناعية موجهة من الله عز وجل للقوم بأسلوب الحديث الموجَّهِ للغائبين، مراعاةً لحالَةِ إعراضِهِمْ أوْ إدْبَارِهِمْ عن تقبُّل بَيَانَاتِ الدَّعْوَةِ إلى الحقِّ، والنَّجَاةِ والْفَوْزِ بالسَّعَادَةِ الخالِدَةِ، مع مُلَاحظة حال الّذين لَمْ يَصِيروا مَيْؤُوساً مِنْهُمْ من قَوْمه.

وابتدأ بالتعقيب على قصة أصحاب القرية المهلَكين بعبارة تتضَمَّنُ التَّحَسُّرَ على العباد الذين يُهلكون أنفسهم في العاجلة، ويُعرّضونَها للخلود في عذاب النار يوم الدين، بكفرهم وعنادهم وتكذيبهم رُسُل رَبّهم، واستهزائهم بهم.

التحسّر: أثر من آثار الرحمة التي تكون بسبب حلول المصيبة أو الخوف من حلولها.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾:

الْحَسْرَة عَلَىٰ الشيء: تأتي في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ التأسُّفِ، والحزْنِ، والتَّلَهُّف، وقد يرافِقُ ذَلِكَ النَّدَمُ، وتلويمُ النَّفْسِ على ما كانَ منها، ممّا جَرَّ إلَىٰ ما اقْتَضَىٰ الحسْرَةَ والنَّدم.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾: نداءٌ للْحَسْرَة، قالُوا: وهذا النداء على معنَىٰ: إنْ كانَ لَكِ وقْتٌ يَا حَسْرَةُ، فهذا أوانُ حُضُورِكِ.

وذكَر المفسّرون تخريجاتٍ أُخْرَىٰ، أرَىٰ أنَّها بَعِيدةٌ عَنْ أساليب الْقُرْآنِ الرَّفِيعة، مِنْهَا أَنَّ المنادىٰ محذوفٌ، ولفظُ «حَسْرَةً» منْصوبٌ على أنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف، والتقدير: يا هَؤلَاءِ تَحَسَّرُوا حَسْرَةً.

أقول:

لِمَ لَا يكُونُ نداءً للحَسْرةِ أنْ تَنْزِلَ بمُكَذِّبِي الرُّسُلِ المستهزئين بهم، وهو على معنى: يَا عقاباً عادلاً انْزِلْ عليهم، فاشْمَلْ قُلُوبَهُمْ ونفوسهم بالْحسْرَةِ والنَّدَم، على ما كان منْهم من ظُلْمٍ وإثْمٍ وعنادٍ والْتِزامٍ بالباطل، ورْفضٍ للحقّ.

جاء في العبارة النداء للحَسْرَةِ، والمرادُ ما يُسَبِّبُها من العقاب والعذاب.

أو لِمَ لا يكونُ هذا التعبير ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ مِنْ بَابِ النُّدْبَةِ، والمعنى أنَّ حالَ هؤلاء العباد المستهزئين برُسُلِ رَبِّهم، حال مَنْ يَتوجَّعُ مُحِبُّوهُمْ والمشْفِقُونَ عليهم من الحسْرَةِ لأجلهم، إذْ يَسْعَوْنَ كادِحينَ إلى عذابِ النار خالدين فيها.

النُّدْبَة الَّتِي ذكَرَها عُلَماءُ العربيَّة تكُونُ لمتَوَجَّعٍ على فَقْدِه، أو لِمُتَوَجَّعٍ مِنْهُ، أَوْ لِمُتَوَجَّعٍ لأَجْلِه.

وقد اسْتَعْمَلَ العرب صيغة النداءِ في النَّدْبَ تَوجُّعاً وَتَفَجُّعاً، وإنْ كان ما ذَكَرَهُ النَّحوِيّونَ مِنْ شُرُوط المنْدُوب غَيْرَ مُتَحقِّقٍ هُنَا، والأمْرُ يَسِيرٌ في أساليب التعبير.

وجاء المندوبُ هُنَا منْصُوباً دُون أَنْ يقْتَرِنَ بألِفِ النَّدْبَةِ الَّتِي تُزَادُ بَعْدَ المندُوب، لأنَّ النَّصَّ عبَّرَ عَنْ حالَةِ كُلّ مَنْ يُتَحَسَّرُ لأجْلِهم، لا عَنْ حَالَةِ مُتَحَسّر لأجْلِهِ خاصّ.

وهذا الأسلوب ابْتكارٌ قُرْآنيٌّ، علَّمَنَا اللَّهُ فِيه كيْفَ نُعَبِّرُ عن حالَةِ من سَيَسْقُطُونَ في عواقب وخيمةٍ، تَجْعَلُهُمْ يتحسَّرُون على أنفسهم، وتَجْعَلُ آخرين من ذوي الألباب والرَّحْمَةِ والشفقة يتحسَّرُون عليهم، ويتوَجَّعُونَ من أجْلِهم، إذْ يَرَوْنَهُمْ يَسْعَوْنَ كادِحِينَ في مَسَالِكَ تُوصِلُهُمْ إلى شقائهم الأبديّ في عذاب النار، كالفراش الذي يَتَهافت على الحريق، غَيْرَ أنَّ عذاب الكفار خالد، وعذاب حريق الفراشِ لَمْحة.

والتحسُّرُ في عبارة: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ﴾ كنايَةٌ عن تحقُّقِ نُزول العقاب فيهم، بسبب تكذيبهم رُسُلَ رَبِّهم، واسْتَهْزَائهم بهم.

والحاكم العادل قد يُوقع العقاب الشديد بمن يستحقه بمقتضىٰ العدل، وهو قد يتحسَّر على من يُنزِلُ به العقاب، إذ جنىٰ على نفسه باختياره الحرّ.

والعاقل الرحيم يشاهِدُ مُغَامراً يَقْذِفُ بنَفْسِهِ مِنْ شاهقٍ، اعتماداً على أنَّه يَسْقُط على ماء، وهو ماهِرٌ في السِّباحة، مع أنَّه في الحقيقة يسْقُطُ علَىٰ صَخْرٍ يُحَطِّمِه، أو نارٍ تُحرِقه، فيَصْرُخُ المشاهِدُ الرَّحيم به نَادِباً متفجّعاً مِنْ أَجْلِه، قائلاً: يَا حَسْرَةً عليه، قَتَلَ نَفْسَهُ، وقَذَفَ بها إلى العذاب.

أمّا السَّبب في سقوط أكْثر العباد في العواقب المشْقِيَة لهم، والّذي يسْتَدْعِي تَحسُّرَ الْعُقَلاءِ الرُّحَمَاءِ من أجْلهم، فهو موقفهم من رُسُلِ اللَّهِ إليهم، إذْ يُكَذِّبونهم فيما يُبلِّغون عن رَبّهم، ويَسْتَهْزِئُونَ بهم، وبِدَعْوَتِهم إلى دين الله الحق.

والعقلاء أولوا الألباب يَعْلَمُونَ أنَّ الاستهزاء بِدُعاةِ الحقّ، من وَسَائلِ الّذين يَعْجَزُونَ عن مواجهة الفكر بالفكر، والحجَّةِ بالحجَّة، والبرهان بالبرهان، فيَرَوْن الاستهزاء، وسيلةً من الوسائل الّتي تُغَطّي عَجْزَهُمْ أَمَامَ أنفُسِهم، وأَمَام جماهِيرِ أتباعهم، لكنَّهُمْ حِينَ يملكُونَ الْقُوَةَ القتاليَّةَ يُقَابِلُونَ بَراهِين الْعَقْلِ بحدّ السَّيْف، وقواتل الْحَديد والنّار.

هذا السَّبَب أبانَه اللَّهُ عزّ وجلّ بقوله بشأن الْعِباد الَّذين يُتَحَسَّرُ مِنْ أجلهم:

﴿..مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

«مِنْ» في عبارة: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ جيء بها لتأكِيدِ عُمُومِ النَّفْيِ والتَّنْصِيصِ علَيْهِ، وتُسَمَّىٰ زَائِدَةً لِهذا الْغَرَضِ.

الاسْتِهْزاء: السُّخْرِيَةُ بتَوْجِيهِ عباراتٍ وأَعْمَالٍ، فيها احْتِقَارٌ وازْدِراءٌ وتَنْقِيصٌ وتسْفِيهٌ لرأي المخالفِ أوْ عَمَلِه.

ونستَخْلِصُ من هذا البيان في هذه الآية أنَّ الموقف الّذي وصَلَ إليه كُبراء كُفَّار أهْل مكَّةَ إبَّان نُزُول سورة (يسٓ) هو موقف مواجهة الرَّسُول ﷺ ودَعْوَتِه بالاستهزاءِ العلَنِيّ الصَّريح، إذْ لَمْ يَجِدُوا حُجَجاً فِكْرِيَةً قادرةً على مُنَازَلَةِ حُجَجِهِ وبياناتِه الحقّ في معارِكِ الفكْرِ والبيان، فلَجَؤُوا إلَىٰ وَسِيلَةِ الضعفاء السُّخفاء السُّفَهاء في منْطِقِ الفكر، وهي وسيلة الْهُزْء والسُّخرية، وتَتْبَعُها وسِيلَةُ السِّبابِ والشَّتائم.

أمّا الهزْءُ والسُّخْرِيَةُ فَيُشْبِهُهما ضَحِكُ الْقُرود، وأمَّا الشتائم فيُشْبِهُهَا عُواءُ الكلاب، وَمَا أَبْعَدَهُما عَنْ أَدْنَىٰ مُسْتَويَاتِ الْفِكْرِ والإنْسَانيَّة.

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾؟!!.

أي: أَلَمْ يَرَوْا في آثارِ الْمُهْلَكِينَ السَّابقين إهلاكاً جماعيًّا شاملاً، ما يَدُلُّهم على أنّ إهلاكَهُمُ الشاملَ، قد كان بسبب تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وتَكْذِيبهم بما جاءُوهم به من الحقّ، جُحوداً وعناداً وإصراراً على الباطل، واتِّباعاً للأهواء والشهوات من زينةِ الحياة الدُّنيا، وإيثاراً للتقاليد العمياء الموروثَةِ عن آبائهم وأجدادهم.

﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: **الْقُرُون**: جمع «القرن» والقرنُ من الناس أهْلُ زمَانٍ واحد.

لم يُواجِه الله عزّ وجلّ في هذه الآية المعنيّين بالخطاب المباشر، بل تحدَّثَ عنْهُم بأسْلُوبِ الحديثِ عن الغائبين، لمقابَلةِ إدْبارِهم أو إعراضهم عن دَعْوة اللّهِ ورسُوله، بالإعراض عن المواجَهَةِ بالخطاب، ومَعْلُومٌ أنَّهم مُكَذِّبوا الرَّسُول إبّانَ تنزيل السورة، وأنّ الغرض إقناعُهم عن طريق تذكيرهم بالشواهد التاريخيَّةِ من قِصَص الْمُهْلَكِين السَّابقين، وهم ما بين مُدْبِرٍ ومُعْرِض.

فالمناسِبُ مخاطبَةُ المقبِلين عنْد التحدُّثِ عن المدْبرينَ أو المعرِضين الغائبين فِكْريًّا وَنَفْسِيًّا، لإِسْمَاعِهِمْ مَا يتعَلَّقُ بِهم دون مواجَهةٍ لهم بالخطاب التكريميّ.

إنَّ إهْلاَكَ اللّهِ عزّ وجلَّ مُكَذِّبي الْقُرونِ السّابقة من القضايا المعروفَةِ لدَىٰ المعنيِّينَ بالحديث، فأخْبارُ قوْمِ نوحٍ، وعادٍ، وثمود، وقوم لوطٍ، وأهلِ مَدْين، وفرعَوْن وجنودِه، وإهْلاكِ اللّهِ لهم، لأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وقاوَمُوا رسَالاتهم مشاقّين مُعَادِين، أخبارٌ مُنْتَشِرَةٌ مَشْهُورَة، وقَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ التَّذْكيرُ بها، والآثارُ في الأرض شواهِدُ تُؤَكِّدُ هٰذِهِ الأخبار.

ونظراً إلى ظُهُورِ هذِه الوقائع التاريخيَّةِ جاءَ في الآيَةِ استِعْمال فِعْلِ الرُّؤيَة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾؟! لأنَّ رُؤيَتَهُمُ الفكريَّةَ العلميَّةَ هِيَ منَ الوضوح بمثابَةِ الرُّؤيَةِ الْبَصَريَّة.

- ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾: ﴿كَمْ﴾ هُنا خَبَرِيَّة بمعنى: «كثير» وعبارة: ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيانُ لإبْهَامِها، وهي في محلِّ نَصْبٍ على أنّها مفْعُولٌ به لفِعْل: ﴿يَرَوْا﴾.

والمعنى: ألَمْ يَرَوْا كثيراً مِنَ الْقُرُونِ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ.

- ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: هذه العبارةُ مختَزَلَةٌ مِنْ كلامٍ مُنْفصل عَنْ جُمْلَةِ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾.

إنّ هذه الجملة مُصَدَّرَةٌ باستِفْهامٍ يحْمِلُ معنَىٰ الإنكار عليهم، والتعجيب من أمْرِهم، إذْ لم يعْتَبِرُوا بإهْلَاكِ اللَّهِ عزّ وجلّ مكذّبي القرون السابقة.

وممَّا يُثيرُ الإنكارَ والتعجُّبَ من حال هؤلاء الْقَوْم، أنّهم عَلِمُوا بإهلاك الله عزّ وجلّ مُكَذِّبي القرون السّابقة علماً يُشْبِهُ الرُّؤيَةَ البصريّة، ثُمَّ لَمْ يتَّعظُوا بذَلِكَ وَلم يَعْتَبِرُوا به، وانتهت الجُمْلَةُ عِنْدَ هذا الحدّ.

وبَعْدَهَا يَبْحثُ الذّهْنُ عَنْ سَبَبِ عدَمِ اتّعَاظهم واعتبارهم، بما جرى لمكذِّبي القرون السَّابقة، ويَتَسَاءَلُ:

- أبَلَغُوا من الحماقة أنْ يُعَرِّضُوا أنفسهم لإهلاك مماثلٍ لإهلاكِ مُكذِّبي الْقُرون السابقة؟!

هذا مستَبْعَدٌ وفيهم الأذكياء الْفُطَناء.

- أيَشُكُّونَ في أَنَّ مُهْلَكِي الْقُرُونِ السَّابقةِ قَدْ أُهلِكُوا بسبب تَكْذِيبهم رُسُلَ رَبّهم، والْعَمَلِ علَىٰ مَنْعِ رِسالَاتِه الَّتي أرْسَلَهُمْ بها من الانتشار؟!.

هذا احتمالٌ غَيْرُ مستبْعَد، بسَبَبِ أنَّ الّذِين أُهْلِكُوا مِنْ مكذبي الرُّسُل السَّابقين، لا يَرْجِعُون إلى الحياة الدّنيا، ليُخْبِرُوا بأنّ الله ـ جلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ أَهْلَكَهُمْ وعَذَّبَهم بسبب كُفرِهم وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهم، وبأنَّهم يُلاقُونَ عنْدَ رَبِّهِمْ عذاباً في البرزخ، وبأَنَّهُمْ يَترقَّبُونَ عَذاباً أليماً يَوْمَ الدّينِ في نَارِ جهنّم.

هذا الاحتمال دلَّت عليه عبارة: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾؟!

فالمعنى: أَيَشُكُونَ في سَبَبِ تَعَرُّضِ الْمُهْلَكِينَ السَّابقين للْهَلَاكِ الشَّامل، لأَنَّهُمْ إليهم لا يَرْجِعُونَ، فَلا يُخْبِرُونَ بما جَرَىٰ لَهُمْ؟!.

ومع أنّ هذا الاحتمال احتمال ساقط لا يعْتَمد عليه أولوا الألباب، إلَّا أنّه أقوى احتمالٍ يمكن أن يَتَذَرَّعَ به المكذبون المعاصِرُون للرسول محمّد ﷺ، على الرُّغم من ضَعْفِه وسقوطه وعَدَمِ صلاحيّته للاعتماد عليه.

وقد ابْتَعدَتْ عن هذا المعنى أذهان المفسّرين، إذْ تشَبَّثُوا بقيود الصناعة النحويَّة، وغَفَلُوا عن أنّ القرآن المجيد لهُ أسْلُوبُهُ الخاصّ في المحاذيف، وفي الاختزالات الإيجازيَّة الّتي يَكْشِفُ دَقائقها التأمُّل في المعاني وروابطها، وحُسْنُ التَّدَبُّر لمَا في القرآن المجيد من المثاني.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

سَبَقَ توجيه قراءتي [لَمَّا] بتَشْدِيد الميم و [لَمَا] بتخفيف الميم.

والمعنىٰ على قراءة [لَمَّا]: وَمَا كُلٌّ من الأوّلين والآخِرين إلَّا جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ، بَعْدَ بَعْثِهم للحياة الأخرى، ليُلَاقِيَ الممتَحَنُونَ في الحياة الدّنيا منهم حسابَهم، وفَصْلَ القضاءِ بشأنهم، وجزاءَهُمْ، على ما أسْلَفُوا في رِحْلَة الحياة الدُّنيا دار الابتلاء.

والمعنى على قراءة **[لَمَا]** بتخفيف الميم: وإنَّ الشَّأْنَ العظيم المؤكّد جدًّا أنّ العباد جميعهم لدَينا محضَرُونَ يوم الدّينِ للحسَابِ، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء. فإنْ هِيَ المخفَّفَة من الثقيلة، وهي مهملة عن العمل، واللّام في «لَمَا» تَسمّىٰ اللام الفارقة.

﴿جَمِيعٌ﴾ على وزن «فعيل» بمعنَىٰ: مَجْمُوعٍ، ضدّ متفرّق.

﴿لَدَيْنَا﴾: أي: عَنْدنا. «لَدَىٰ» ظرف مكان بمعنى «عند» وقد تستعمل في الزمان، وهي اسم جامد، وإذا أضيفت إلى ضَمِيرٍ قُلِبَتْ ألفها ياءً.

﴿مُحْضَرُونَ﴾: أي: مَسُوقُونَ قَهْراً حتَّىٰ يَحْضُرُوا لدَىٰ رَبّهم، لمُحَاسَبَتِهم، وفَصْلِ القضاء بشَأْنهم، ثم بَعْدَ ذلِكَ يكون تنفيذ الجزاء.

الحضور: نقيضُ الغيبة، يقال: «حضَرَ يحْضُر حضوراً» ضدّ «غَابَ يَغِيبُ غَيْبَةً». ويقال: حضر فلانٌ المجلس، ويقال: أَحْضَرَ فلانٌ الشَّيْءَ. ويُقالُ: أحْضَرْتُ الدَّائِنَ المالَ الذي له عندي.

والإحضارُ يكون بحسَب الغاية منه، فإذا كانت الغاية منه الحسَابَ وفَصْلَ القضاء، فالمُحْضَرُ يُسَاقُ إلى مجْلِسِ محاسَبَتِه وفَصْلِ القضاءِ بشأنِه، وإذا كانت الغاية منْهُ تَنْفِيذَ الجزاء، فالمحْضَرُ يُسَاقُ أو يُحْمَلُ إلى المكان المعَدِّ لتعذيبه.

وقد جاء في القرآن استعمال عبارة: «مُحْضَرُون» أو «مُحْضَرِين» بمعنَىٰ الإحضار لمجلِس الحساب وفَصْلِ القضاء لدَىٰ رَبّ العباد، وبمعنى الإحضار في دار العذاب المقضي به من الجزاء.

ودلائل السِّبَاق والسِّيَاق تُرْشِدُ إلى المراد بالإحضار، وظاهر هُنَا في هذه الآية أنّ الغرض من الإحضار هو الإحضار لمجلِسِ المحاسَبَةِ وفَصْلِ القضاء، وهذا الإحضار يكون بعْدَهُ الإحضار في دار العذاب، إذا كان المحْضَرُ من العباد المكذبين برُسُل الله، والمستهزئين بهم.

ولفظ [كُلٌّ] جاءَ التنوينُ فيه عوضاً عن المضاف إليه المحذوف، والتَّقْدير: ومَا كُلُّ مُمْتَحَنٍ من العباد في الدُّنيا إلَّا جميعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُون لمحاسبتهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، ثُمَّ لتنفيذ الجزاء عليهم أو لهم.

والتقدير على وفق القراءة الأخرى: وإنَّ الشَّأْنَ العظيم المرتقَبَ كُلُّ ممتَحَنٍ من العباد في الدُّنيا لَمَا جَميعٌ لدَينا محْضُرون لمحاسبتهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، ثمّ لتنفيذ الجزاءِ لَهُمْ أو عليهم.

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

القراءات في هذه الآيات سبَق بيانُها وتوجيهها، وليس فيها ما يحتاج نظراتِ تكامُلٍ في المعنى، إذْ هي لغاتٌ عربيّة، ومنها مَا هو جائز إثباتُه وحذفُه.

تمهيد:

يُقَدّمُ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذِهِ الآيات لمنْكِرِي الحياة بعد الموت يوْمَ القيامة للحساب والجزاء، دليلاً على قُدْرَتِهِ على إحياء الموتَىٰ، وهِيَ ظاهِرَةُ إحياء الأرض الميّتَة.

إنَّها آيَةٌ مِنْ آيات اللَّهِ المشهودَةِ بتكْرَارٍ للناس، إنَّ الأرض تكُونُ حيَّةً بأشجارِها وَزَرْعِها وثَمَراتِها، ثُمَّ تَأْتِيهَا آجالُها فَتَمُوت، وتَبْقَىٰ لها بُزُورٌ تَحْمِلُ خرائطَ صِفاتها، وعواملَ حياتِها مَرَّةً أُخْرَىٰ، وهي كامِنَةٌ فيها، تتَرَقَّبُ الشُّروط، الملائمةَ لِعَوْدَتِها إلَىٰ الحَياةِ، وحينَ تتوافَرُ لها هذه

الشروط، تَنْبُتُ منْ جديدٍ، وتَعُودُ إلَىٰ الحياة والنَّماء والْعَطاءِ والإثمار مِنْ جديد.

فَمَنْ جَعَلَ النَّبَاتَ الَّذِي مَاتَ وفَنِيَ يَعُودُ إلى الحياة مِنْ بَقَايا بُزُوره في الأَرْض، هل يَعْجَز عن إعادة الأحياء البشريَّة وغَيْرِها إلى الحياة، من بقايا تُخَلِّفُها، كَنَوَاةِ صُغْرَىٰ في عَجْبِ الذّنب، قد تجتمع ملايين منْها على رأسِ إبْرَة دقيقة؟!

هذا ما اختاره الله ـ جلّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُه ـ في نظام خَلْقِهِ لإعادة الأحياء.

إنّ الله العليَّ العليم الحكيم القدير، لا يَعْجَزُ عن ذلك، ولا يَعْجَزُ أيْضاً عن إعادة الأحياء إلى الحياة بعْدَ الموت، ولو انْعَدَمَتْ كُلُّ بَقَاياها، ولوْ لَمْ يَبْقَ من ذرَّاتِ الحيّ ذَرَّةٌ واحدةٌ تَحْمِلُ خريطَةَ صفاتِه، أو تحتوي على عوامل انْفِلَاقِهِ إلى الحياة مرَّةً أُخْرى.

لَقَدْ خلَقَ الله عزّ وجلّ الأحياءَ أوّلاً على وفْق قَدَرِه وقضائه السّابِقَين فيها، وقَدَرُهُ وقَضاؤُه مَشْمُولٌ بِعِلْمِهِ المحيطِ بكُلِّ شيءٍ، وعِلْمُهُ جَلَّ جَلَالُهُ قد أَثْبَتَه في اللَّوْحِ المحفوظ.

فإذا شاء أَنْ يُعيدَ أيَّ كائِنٍ بَعْدَ انْعدامِهِ، فإنَّه يُعيدُهُ كما خَلَقَهُ في المرّة الأولىٰ، مطابقاً لقَدَرِهِ وقضائه، وهو جلَّ جلالُه يُعيدُهُ بأمْرِ التكْوين، يقولُ لهُ: «كُنْ» فهو يكون، وهذا بالنسْبَةِ إلى خالق الكون كلِّه، وَرَبِّ السَّمَاوات والأَرْضِ أمْرٌ يَسِيرٌ سَهْل.

لكِنْ قضَىٰ اللَّهُ بحِكْمَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ لإنْشاءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ نظاماً، وأَنْ تكُونَ سُنَّتُهُ في الخلْقِ مُلْتَزِمَةً بالنظام الَّذِي وضَعَهُ لِنَفْسِهِ، لِيُسَهِّل على عبادِه مَوْضُوعَ الإيمانِ بالبعث، حينما يُشَاهِدُونَ تكْرار حياة الأرْضِ بَعْدَ مَوْتِها، تفجُّراً من الْبُزُور الَّتي تُخَلِّفُها الأشجار وسائر نباتاتِ الأرض.

التّدَبر:

قول الله تعالى:

- ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا ... ﴿٣٣﴾﴾:

الآية: هي في اللُّغةِ الْعَلامَةُ الّتي تتضَمَّنُ دَليلاً ما.

والآية في هذا النّصّ هي حُجَّةٌ بُرْهانيَّةٌ تقوم على قياسِ الغائب المتحدَّثِ عَنْه، على المشهود، مع تماثلهما في الصفات التي تَسْتَدْعي التماثُلَ في الحكم.

فكُلٌّ من الشاهد والغائب كان ذا حياةٍ ما، وفقدَ حياته، وكُلٌّ منهما ذو خَلَايا وَذَرَّاتٍ صُغْرَىٰ، وفي داخِلِ كلِّ خَلِيَّةٍ وَذَرَّةٍ خَرِيطَةُ صِفَاتِه الَّتي تَظْهَرُ فيه وهو حيٌّ، وَهذَا مَا يُسَمَّىٰ بالعوامل الوراثيّة، أو الجينات الوراثية عند عُلَماءِ الأحياء.

أيَعْجِزُ عن إعادة الأحياء إلى الحياة مرَّةً أُخرَىٰ، ومرَّاتٍ بلا نهاية، مَنْ يجعل الأشجار العظيمَة تعودُ إلى الحياة من بُزُورها الصغيرة، بل من نَوياتِ هذه البزور؟!

أيُتَصَوَّرُ عَجْزُهُ سُبْحانَهُ عن إعادة الحيِّ إلى الحياة بَعْدَ مَوْته وفناء جَسَدِه، وهو الذي سَبَقَ أنْ أعاد العُزيْرَ إلى الحياة بعد أن أَمَاته مئَةَ عام، وأعَادَ حِمَارَهُ إلى الحياة وهُوَ يُشَاهِدُ إنْشَاءَهُ، وأَعَادَ قَتِيلَ بَنِي إسرائيل إلى الحياة في عَهْدِ مُوسَىٰ عليه السلام، وجماهير بني إسرائيل يَنْظُرُونَ، وهو الَّذِي يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ موتها في أحْداثٍ متكَرّرة، وهو الّذِي بدأ خَلْقَ الأحياء ولم يكُونُوا شيئاً مَذْكُوراً؟!!.

إنّ الجواب الّذِي يَنْطَلِقُ من أفْوَاه أولي الألباب: اللّهُ ـ جَلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانه ـ يُحْيِي الموتى متَىٰ شاء، وهُوَ علىٰ كُلِّ شيءٍ قدِيرٌ.

قول الله تعالى:

• ﴿... وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

أتْبَعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ دَليلَ إحياء الموتَىٰ من خِلَالِ لَفْتِ الأنْظَارِ إلَىٰ إحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتها، بالامتِنَانِ على عبادِه، بما تُنْتِجُ النَّبَاتَاتُ اللَّاتي صارت ذوات حياة بَعْدَ مَوْتها، منْ حَبٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ النَّاس، ويَتلذَّذُونَ بأكْلِهِ مع تناوُلِ غذائِهِمْ منه. ومِنْ ثَمرٍ تُخْرِجُهُ الأشجارُ، فيَأْكُلُ منْهُ النَّاسُ غذاءً واسْتِمْتاعاً بُطُعُومِهِ اللَّذِيذة.

وأتْبَعَ الله عزّ وجلَّ هذَا الامتِنَانَ بالتوجيه لواجب شُكْرِهِ على نِعَمِه، أو التَّذْكِير به.

إنّ الامْتِنَانَ بطائفةٍ من نِعَمِ اللَّهِ علَىٰ عباده، اشتقاقاً من آيَةٍ كَوْنِيَّةٍ جاءَ لَفْتُ أنظار المتفكِّرين إلَىٰ كوْنِها إحْدَىٰ الآدِلَّة المتكرّرَةِ في أحداثِ الكَوْنِ على البعْثِ إلى الحياة يوْمَ الدِّين، بُغْيَةَ حَثِّ أُولي الألبابِ على شُكْرِ اللَّهِ على نِعَمِه، لاجتيازِ رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدّنيا بالإيمان، والعمل الصالح، من فُنُونِ البيان الرَّفيع الّذي اشْتَمَلَتْ عليه آيات القرآن المجيد.

وهذا يَدْخُلُ فيما يُسمَّىٰ عِنْدَ عُلَماء البديع: «الإدْماج» وهو إدْخَالُ غرضٍ بياني في غَرَضٍ آخر، أو إدخال فكرة في فكْرَة، والتذكير بواجب الشكر في العبارة الأخيرة: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ لَا يُلْغِي فيما أرىٰ بَدِيعيَّة «الإدْماج» في فقراتِ النّصّ قَبْلَها، بل هو يَكْشِفُ الفكرة المدمجة.

• ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾: أي: وأخْرَجْنا مِنَ الأرض الّتِي أحْيَيْنَاها حبًّا من مختلف الأجناسِ والأنْواعِ والأصناف، فمِنْهُ غذاءٌ، ومنْهُ دَواءٌ، ومنْهُ ذُو مَنَافِعَ أُخْرَىٰ.

وبما أنَّ أَجلَّ مَنافِعِ الحبِّ أَنْ يأكُلَ مِنْهُ النَّاس قال الله تعالَىٰ: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وسَكَتَ النَّصُّ هُنَا عمَّا في الحبّ من منافع لدوابّ النّاسِ وأنْعامهم، ومَا في الحبّ من منافع أُخْرَىٰ كثيرة، اكْتِفَاءً بذِكْرِ النَّفْعِ الأجلّ، ولِيَنْطَلِقَ ذهْنُ المتدبّر إلى مُلاحظةِ المنافع الأخرى بنفسه، واكتفاءً بما جاء التّصْرِيحُ بِه في نُصُوص أخرى، منها قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

واشْتِقَاقاً من إحياء الأرْضِ بَعْدَ مَوْتها في امْتِنَان اللَّهِ على عباده بعَظِيم نِعْمَتِه، جاءَ في النّصّ التّنْبِيهُ على ظاهرة الجنَّاتِ في الأرْض، وهي البسَاتين المستورَةُ أَرْضُها بأشْجارِها، وَخصَّ اللَّهُ عزّ وجلّ بالذِّكْرِ من الأشجار النّخيلَ والأعْنَابَ، فَهُما صِنْفَانِ لَهُما قِيمةٌ عُظْمَىٰ لَدَىٰ الصَّفِّ الأوّلِ من المخاطبينَ بالنَّصّ، وهُمُ العرب، مع ما في هذَين الصِّنْفين من ميزاتٍ عظيماتٍ كَشَفَتْ عنها بُحُوثُ علماء النَّبَاتِ، وعُلَمَاءِ الْغِذَاء.

وجاء في النصّ أيضاً التنبيهُ علَىٰ ظاهِرَة العيُون الّتي يُفَجِّرها الله من الأرض لسُقْيا الجنَّاتِ، فتجري فيها أنهاراً أو سواقي، ولسُقيا النّاس ودوابّهم وأنْعَامهم، فقال الله تعالى:

- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾: **الْجَعْلُ**: إذا كان منسوباً إلى اللَّهِ عزّ وجلّ فهو بمعنَىٰ الخلْقِ، ولو كان من التصاريف في مخلوقاته جلّ جلاله، لأنَّ كُلَّ أفْعَالِه ذواتِ الآثار التكوينيَّة خَلْقٌ، ولَوْ لَمْ يكن خَلْقاً من الْعَدم العامّ.

والضمير في: [فيها] يَعُودُ على الأرض في عبارة: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾.

﴿جَنَّٰتٍ﴾: جَمْعُ «جَنَّة» وهي ما يحتوي على أشجارٍ وثمارٍ وزُرُوع وأنهار، وقد تكونُ فيها قُصُورٌ، وتطْلَقُ «الجنّاتُ» على الحدائق والبساتين المكتَظَّةِ بالأشجار، فَهِيَ سَاتِرَةٌ لمَا تَحْتَها.

وأصْلُ مادَّةِ: «جَنَّ» تَدُورُ حَوْل معنىٰ السَّتْر.

﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ «**النَّخْلُ**» و«**النَّخِيلُ**» اسم جِنْسٍ جمعي، واحِدُه «النَّخْلَة» وهي شجرة معروفة، وثَمَرُ ما يُثْمِرُ مِنْها البَلَحُ والتَّمْرُ.

وقَدْ ذُكِرَت هنا الشجرة لتَشْمَلَ المثْمِرَ من النخل، وغيْرَ المثمر، وهو مَا يكون للزينة ولمنافع أخرىٰ غير الأكل منها.

[**وَأَعْنَابٍ**]: «**أَعْنَاب**» جمع «عِنَبٍ» وهو ثَمَرُ الشجر الذي يُسَمَّىٰ كَرْماً.

وقد ذُكِرَ هُنَا الثَّمَر، دون ذكر اسْم الشجر لأنّ أَجَلَّ منافع هذه الشجرة يكُون في ثمَرِها، وجاء في الصحيح عن أبي هُرَيرة، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لَا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الكَرْمَ»(١).

﴿وَفَجَّرْنَا﴾: **التَّفْجِير**: إخراج الشيء مُتَدَفّقاً بِقُوَّةٍ من باطِنِ شيءٍ آخَرَ حَاصِرٍ له.

ولفظ: [**مِنْ**] في عبارة: [**مِنْ نَخِيلٍ وأَعْنَابٍ**] لبيان الجنس.

وحرف: [**مِنْ**] في عبارَة: ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ للتَّبْعِيضِ، لأنَّ بَعْضَ العيون تتفَجَّرُ في البساتين، أو تجري أنهارُها فيها، وبعْضَ الْعُيُونِ تَتَفَجَّرُ في مواطِنَ أُخرىٰ لا تكون فيها بساتين وجنّات.

---

(١) رواه البخاري ومسلم، عن صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ٧٣٣٠.

- ﴿.. لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾: في هذِهِ العبارَة بيَانُ عِنَايَةِ اللَّهِ عزّ وجلَّ بعباده، ورحْمَتِه بهم، إذْ جعَلَ لَهُمْ جنَّاتٍ من شَجَرِ نَخِيلٍ وأَعْنَابٍ ليَأْكُلوا مِنْ ثَمَرِ هذا الشَّجر، ومَعْلُومٌ أنّ الأَكْلَ أَجَلُّ مَنَافِعِها، ويُقاسُ على شجر النّخِيل والأعْنابِ سَائرُ الشجر، ويُقَاسُ على الأكْلِ سَائِرُ المنافع.

وحرْفُ [مِنْ] في عبَارَة [مِنْ ثَمَرِهِ] للتَّبْعِيضِ، أيْ: ليأكُلُوا من بعْضِ ثَمَرِه أكْلاً مُبَاشراً. وأمّا بعضُهُ الآخر فيسْتفيدُ النَّاسُ منْهُ في غَيْرِ الأكْل.

- ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ﴾: أيْ: وليأكُلُوا ولِيَنْتَفِعُوا ممَّا عَمِلَتْهُ أيْدِيهم، بالتصنيع من كلِّ ما يُخْرِجُهُ اللَّهُ لَهُمْ من نبات الأرض.

ومعْلُومٌ أنَّ أيْدِيَ النَّاسِ تَصْنَعُ من نباتاتِ الأَرْض مَأكولَاتٍ تصِيرُ بالتَّصْنِيع صالحةً للأكل، أو صالحة لمنافع كثيرة غير الأكل، وكُلُّ ذلِكَ بتَوْفِيق الله، وبما سخَّرَ الله للناس في ذواتهم وفي الأشياء من مسَخَّراتٍ كثيرات، يصْنَعُونَ منها صناعاتٍ لا حَصْرَ لها.

﴿.. أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: استفهامٌ فيه معنَىٰ الحثّ على القيام بواجب شُكْرِ اللَّهِ على نِعَمِهِ الكثيرة، وفيه معنى الإنكار الشديدِ على جاحِدِي نِعَمِ اللَّهِ عليهم، أي: إنَّ عَدَمَ شُكْرِهِمْ لرَبِّهِمْ مَعَ كُلِّ هذِهِ النِّعَم الّتي يُنْعِمُ بها عَلَيْهِم لأمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ جدًّا، ويَدْعُو إلى اشْمئزاز ذوي النفوس السّوِيَّةِ الرَّشيدة.

الشُّكْر: مقابلَة إنْعَامِ المنْعِم بما يُرضِيه من فِعْلِ ما يُحِبُّ، وتَرْكِ ما يكره، وطاعَتِه في أوامره ونواهيه. وقد يَشْمَلُ القَوْلَ الّذِي فيه ما يُرْضي المنْعِمَ، إلَّا أَنَّ بعْضَ الْقَوْلِ يخْتَصُّ بعنوانِ الْحَمْدِ والثناء.

* * *

قوله اللَّهِ تعالى:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾:

تمهيد:

في هذه الآية يُوَجِّهُ الله ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ أنظار المتفكّرين، لآيةٍ عظيمةٍ من آياتِ رُبُوبيَّتِه المنبَّئَةِ في الكوْن، إذْ نظَّمَ الخلْق وَفْقَ سُنَّةِ الزَّوْجية، الّتي يُتِمُّ فيها كُلٌّ من الزَّوْجَيْنِ صَاحِبَهُ، ليَنْفرِدَ اللَّهُ عزّ وجلّ بالْوَحْدَانِيَّة.

وهذا النظامُ يشْهَدُ للرَّبّ الخالِقِ بأنَّهُ واحِدٌ أحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ، لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولَمْ يكُنْ له كُفُواً أحَدٌ، ولا صاحِبَةَ لَهُ ولَا نِدَّ.

ويُلاحَظُ في هذه الآيَةِ التنويعُ في البيان، إذْ جاء البيان فيها بأسْلُوب مشتَملٍ على تَغْيير النَّسَقِ في عَرْضِ آيَاتِ اللَّهِ في كَوْنه، على السُّنَّةِ المتَّبَعَةِ في القرآنِ، الّتي تُعْرَضُ بمقتضاهَا الأشباهُ دُونَ أَنْ تُلْتَزَمَ فيها الوتيرة الواحدة، بَلْ يَجْرِي فيها التنويع.

لقد بدأ عرضُ آياتِ اللَّهِ في كَوْنِه أوّلاً بأسْلُوب الاستفهام الإنكاري، في قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١)﴾؟!

وجاء بَعْدَه اسْتخدام أُسْلُوب الْعَرْضِ الخبريّ، فقال الله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾.

ثُمّ جاءَ اختيارُ أُسْلُوب افتتاح الْعَرْضِ بتَنْزِيه اللَّهِ فقال تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾.

إنَّ أَحْسَنَ كُتَّاب البشر يتَبَادَرُ لَهُ أَنْ يَقُولَ: وآيَةٌ لَهُمْ خَلْقُ الأَزْواج كلّها... عطفاً على مَا جاء قَبْلَها.

لكِنَّ فَنِّيَّةَ التَّنْوِيع الإبداعيّ دَعَتْ إلى مُفَاجَأةِ المَتَلَقِّي بِعِبَارَةِ تَنْزيهِ اللَّهِ عَنِ الزَّوْجِيَّةِ ولوازِمِها قَبْلَ بَدْءِ عَرْضِ آيَةِ اللَّهِ الكَوْنِيَّةِ في خَلْقِهِ للأشياء، وفْقَ نِظَام الزَّوْجِيَّةِ الّذِي تَنَزَّهَتْ ذَاتُ الباري جلّ جلالُهُ عنه وعن كلّ تَعَدُّد وعن كلّ حاجة إلى نظير، إذْ هو واحدٌ أحدٌ، لا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَد.

﴿سُبْحَٰنَ﴾: كلمة تَنْزيهٍ، فمَعْنَىٰ «سُبْحانَ اللَّهِ»: تَنْزِيهاً للَّهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَليقُ بجلالِهِ وعظيم سُلْطانه.

وتُسْتَعْمَلُ هذِهِ الكلمة في التَّعَجُّبِ وفي التعجيب.

وهي في موضع مفعول مطلَقٍ لِفِعْلٍ مَحْذُوف، قال النَّحْويُّون وهي اسْمُ علَمٌ لمعنى البراءة، والتنزيه، وليْس لها فعْلٌ من لَفْظِهَا، وهي ممنوعَةٌ من الصَّرْفِ إلَّا إذَا أُضِيفَتْ.

وجاء في لِسَان العرب لابن منظور: «وروى الأزهريُّ بإسناده، أَنَّ ابْنَ الكَوَّا سَأَلَ عَلِيًّا رضوانُ الله تعالى عنه، عن «سُبْحَانَ اللَّهِ» فقال: كلمةٌ رضِيها الله لنفسه، فَأَوْصَىٰ بِهَا».

وأصْلُ السَّبْحِ في اللُّغَة الحركةُ السَّهْلَةُ الّتِي يحْصُلُ بها الانتقالُ مِنْ مكان إلى آخر، في الماء أو في الهواء برفق ولين، ومنه سبْحُ السَّمَكِ فِي الماء، وسَبْحُ الكواكب والنجوم في مسيراتها في أفلاكها.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾: **الأزواج**: جمْع «زَوْج» والأزْواج تُطْلَقُ بمعنَىٰ الأصناف والأنواع المختلفة في صفاتها، وتُطْلَقُ بمعْنَىٰ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ لَهُ زَوْجٌ من جنْسِهِ، فَهُمَا يتكاملانِ في أَدَاءِ وَظِيفَتَيْهِما في الوجود.

ويُمْكِنُ حَمْلُ لَفْظَةِ «الأَزْوَاجِ» في النصّ هُنَا على المعنَيَيْنِ معاً، إلَّا

أنّ النَّصّ مُوَجَّهٌ بقُوَّةٍ للتفكُّرِ في المعنَىٰ الثاني، وهو نظام الزَّوْجيَّة في الكَوْن.

إنَّ نظَامَ الزَّوْجيّة في الكَوْنِ يَبْدُو للمتَأمِّلِ فِيه، أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ اخْتَارَ أَنْ يَجْعَل أجناسَ خَلْقِه، وأنواعَهم، وأصْنَافَهُمْ، وأَفْرَادَهُمْ جَمِيعاً خَاضِعَةً لنِظَام الزَّوْجيَّةِ، لئَلَّا يُشَارِكَ اللَّهَ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ في صِفَةِ الأَحَدِيَّةِ أَحَدٌ.

إنَّ هذا النظام يَبْدو أنَّه مُطَّرِدٌ في الْوُجُود كُلِّه في كُلِّ ما خَلَقَ الله، أَدْرَكَ الباحِثُونَ مِنْهُ مَا أَدْرَكُوا، وغَابَ عَنْهُمْ منْهُ مَا هُوَ في عالَمِ الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إليهم.

إنَّه مُلَاحَظٌ في الناس، وفي سائر الحيوانات، ومُلَاحظٌ في النَّبات، وقد لاحظَهُ عُلماءُ طبائِعِ الأشياء الكونيَّةِ في الذَّرَاتِ، وفي الْقُوىٰ الكهربائية والمغناطِيسِيَّةِ، وفي كُلِّ مَا تَوَصَّلُوا إلى معرفةِ طَبِيعَتِهِ من شيءٍ في الكون.

وقد أَعْلَمَنا اللَّهُ عزّ وجلَّ بهذا النظام في عِدَّةِ نُصُوصٍ من القرآن المجيد.

(١) ففي سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) أبان الله عزّ وجل أنَّه خلَقَ الزَّوْجَيْن الذكر والأنْثَىٰ مِن نُطْفَةٍ إذا تُمْنَىٰ، فذكَر قضِيَّةً ظاهرةً مشهودة، وهي الزَّوجيَّة القائمة على الذكورة والأنوثة، وقضيَّةً خفِيَّةً، وهي كوْنُ الذُّكُورَةِ والأُنُوثَةِ كِلَيْهِما مَوْجُودَتَيْنِ في نُطْفَةِ الذَّكر، الملَقِّحَةِ لبُيَيْضَةِ الأُنْثَىٰ، وهذه لم يتوصَّلْ إليها عُلَماءُ الْبَحْثِ الكوني إلّا في عَصْرِنا الحاضر، فهِيَ ممَّا في القرآن من إعْجازٍ عِلْمِي، فقال الله جلّ جلالُهُ فيها في معرض بيان صفات الرَّبّ تبارك وَتعالى:

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

(٢) ثُمَّ أنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (القيامة/٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) قولَه مُبَيِّناً بعض مراحل خَلْقِ الجنين، مع تأْكِيد أَنَّ الذُّكُورَةَ والأُنُوثَة تَرْجعان إلى أصْلِ التَّكْوِينِ في مَنِيِّ الذكر:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

(٣) ثُمَّ أنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ قَوْلَهُ في سورة (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) الّتي يجري تَدَبُّرُها على ما يفتح اللَّهُ به:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فأعْلَمنَا في هذه الآيَةِ أنَّ نِظَامَ الزَّوْجِيَّةِ في الكَوْنِ ليْسَ خاصًّا بالنّاس، ولا بالأحْياءِ الأخْرَىٰ الّتي نَشْهَدُ نظامَها الزّوجيَّ، بلْ هو نظامٌ تخضع له النباتات أيضاً، وتخضَعُ له أشياءُ أخرى لا نعْلَمُها.

وقد عَلِمَ النّاسُ في عَصْرِنا الحاضِر منْها عن طريق البحوث العلميَّةِ القائمة على التجربَةِ والملاحظة، نِظَام الزوجيَّةِ في الذّرّاتِ، ونظامَ الزَّوْجيَّةِ في الكهرباء، فعرَفنا الموجب والسَّالِبَ، ونظام الزَّوْجِيَّةِ فِي المغناطيس.

(٤) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (الذَّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بياناً كَشَفَ فيه سُنَّتَهُ فِي كُلِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شيءٍ، وأَنَّها قائمةٌ على نظام الزَّوْجيَّة، فقال جَلّ جلالُهُ فيها:

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: نُبَيّنُ لكم هذه الحقيقة التَّكْوِينيَّةَ رَاغبين أَنْ تَضَعُوها في ذاكراتِكُمْ أيُّها المتَلَقُّونَ المُتَدبِّرُونَ، فكُلَّما اكْتَشَفْتُمْ وُجُودَ نِظَام الزَّوْجِيَّةِ في شيءٍ جَدِيدٍ كَانَ خَفيًّا عليْكُمْ، تذكَّرْتُمْ هذا البيان من تنزيلِ رَبِّكُمْ في كِتَابه

المجيد، فَعَلِمْتُمْ أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْهُ، فازْدَاد إيمانُكُمْ بِهِ، وازْدَادَ إيمانكم بصِدْق نُبُوَّةِ ورِسَالَةِ مُبَلِّغِهِ عن رَبّه، محمَّدِ بن عبد الله ﷺ، وازداد حرصُكُمْ على اتِّبَاعِ تعليمات دين الإسلام، وأوامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ فِيهِ.

(٥) وَأخيراً أَنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّعْدِ/١٣ مصحف/٩٦ نُزُول) قولَهُ حَوْل موضوع الزَّوْجِيَّةِ نَفْسِه:

﴿.. وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ .. ۝٣﴾.

فأبانَ جلّ جلالُهُ في هذا النّصّ أنّ الزَّوْجِيَّة لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَعَدُّدٍ، بل هي زوجيَّةٌ من اثْنَيْن، كالذّكر والأنْثَىٰ في الأحْيَاء، والموجِبِ والسَّالِبِ في الكهرباء، وهكذا إلى سائر الأزواج في الأشياء.

وهذا من إبداع اللَّهِ ـ جلّ جَلاَلُهُ وعظُمَ سُلْطَانُه ـ في الْخَلْق، واخْتِيارٌ اختارَهُ سُبْحَانَهُ لكُلّ مَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ، لينْفرِدَ بالأَحَدِيَّة.

فتأَمَّلِ التَّدرُّجَ الارْتقائِيَّ التكامُلِيَّ، في بيانات النُّصُوصِ الّتي وَرَدَت في القرآن المجيد، بشَأن نِظَامِ الزَّوْجِيَّة، والذي اسْتَفَدْنَاهُ مِنْ تَتَبُّعِ تَرْتِيب نُزُولِ السُّوَر.

وبشأن نظام الزوجيَّةِ في الكون، نَسْأَلُ عُلَمَاءَ الكَوْنِيَّاتِ، كُلًّا مِنْهُمْ فِي مجال اختصاصِه، فَيُحَدِّثُونَنا عن معارفهم في مجالَات اختصاصاتهم، بما يُؤَكِّدُ أنَّ نظام الزَّوْجِيَّةِ نظامٌ شاملٌ.

- نَسْأَلُ عُلَمَاءَ النبات عن نظام الزَّوجيَّةِ في عالَمِ النبات، فيُثْبِتُونَه، ويُوَضِّحُونَ خَصَائِصَهُ، وطُرُق اللِّقَاحِ فيه.

ويذكُرُون أنَّ مِنَ اللّقاحِ ما يَتِمُّ عن طريق الرِّياح، الّتي تَحْمِلُ الموادَ المَلَقِّحَةَ مِنَ الذُّكُورِ إلى الإناث.

ومن اللِّقاح مَا تَنْقُلُهُ الحشرَاتُ بأَرْجُلِهَا وأجْنِحَتِها وأجْسَامِهَا من

الذُّكُورِ إلى الإناث، إذْ تَجْذِبُهَا الأزْهار بألوانها وروائحها، لتقومَ بهذِهِ الوظيفَةِ الحياتِيَّة.

ومن اللِّقَاحِ مَا يَتمُّ ذَاتِيًّا عن طَرِيق النَّبَاتِ نَفْسِه.

- ونَسْأَلُ عُلَمَاءَ الحيوان عن نظام الزوجيَّة في عالم الحيوان، فَيُحَدِّثُوننا عن مكتَشَفات مُذهشات، توصَّلُوا إليها خلال دراساتٍ واسعاتٍ وَدَقيقات.

- ونَسْأَلُ عُلَمَاءَ الذَّرَّة عن نظام الزَّوْجيَّةِ في عالم الذَّرَّاتِ، فيُثْبِتُونَهُ، ويُحَدِّثُونَنَا عن الْبُرُوتُون في نواة الذَّرَّة، وهو يَحْمِلُ شِحْنَةً كهربائية موجِبة، وعن الألكْتْرُون، الذي يَدُورُ في مَدارٍ حول النواة، وهو يَحْمِلُ شِحْنَةً كهربائيَّةً سَالِبَة، وهُمَا مترابِطَانِ في بناء ذَرَّاتِ هذا العالم المادِّي.

- ونلاحظ الطاقة الكهربائية إذْ نُمَدِّدُ أسْلاكَها في بُيُوتِنَا ومَتاجِرنا ومصانِعِنَا أزْواجاً، ونُدْرِك أنّ أحَد الزَّوْجَيْن موجِبٌ، وأنّ الآخَرَ سالب.

- ونلاحظ الطاقة المغناطيسِيَّة المجهولَةَ الْهُوِيَّة، فنُشَاهِدُ أنَّ لَهَا قُطْبَيْنِ: أَحَدُهما موجب، والآخر سالب.

بعد هذه اللّمحة السَّرِيعَةِ عن نظام الزوجيَّةِ في الكون، يَنْبَغي لنَا أن نَقُول كما عَلَّمَنَا اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

❀ ❀ ❀

قول الله تعالى:

- ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ

عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

سبَقَ تَوْجِيهُ قِراءَتَيْ رَفْع (الْقَمَر) ونَصْبِه.

في هذا النصّ وَجَّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنظارَ النَّاسِ لِسِتِّ آياتٍ من آياته في كونه، الّتي تَرْتَبِطُ بِها مصالِحُ العباد في الأرض، وهي من آثار رحْمَةِ اللَّهِ بهم، وهي فيما بَيْنَها مترابِطَاتٌ مُتَشابِكات.

الآية الكونية الأولىٰ: دلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

هذهِ الآية اشتملَتْ على نِعْمَتَيْنِ عظيمتَيْن مِنْ نِعَم اللَّهِ على عباده، الّتي تَسْتوْجِبُ مِنهُمُ الشُّكْر، هما نِعْمَةُ اللَّيْلِ والنهار، إذْ هُمَا يتَعاقَبَانِ ضِمْن نِظَامٍ دَوْرِيٍّ لَا يَتخَلّفُ، يُسَبِّبُهما نِظَامُ دَوْرَةِ الأرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا تُجاهَ الشَّمْس. فالْمقدارُ الّذي لا يكونُ مواجِهاً للشَّمْسِ منَ الأرْضِ تَظْهَرُ فِيهِ ظُلْمَةُ اللّيل.

ونظامُ الدَّوَرَانِ مُسْتَمِرٌّ بدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَّةٍ إلى مَا شاء الله.

وهذا من آياتِ اللَّهِ الْعُظْمىٰ في نِظَام الأبْعَادِ والحركَةِ، لتحقيقِ مصالح العبادِ بنِظَامِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، فَمَا يَتَحَقَّقُ مِنْ مَصَالِحَ في النَّهار لَا يتحقَّقُ في اللَّيْل، ومَا يتحقَّقُ من مصالح في اللّيل لا يتحقَّقُ في النهار.

- ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾: دَلَّتْ كَلِمةُ ﴿نَسۡلَخُ﴾ في هذِهِ العبارة على أنَّ الظُّلْمَةَ هي الأَصْلُ في كَوْكب الأرض، وكلّ الكواكب المماثلَةِ لها، فإذا قَابَلَتْ جِسْماً مُضيئاً كالشَّمْسِ ظَهَرَ عليها الضِّيَاءُ، وانْكَشَفَتْ لأبْصَارِ الرَّائين، ثُمَّ إِذَا انْعَدَمَتْ هذِهِ المقابَلَةُ، عادَتْ لها ظُلْمَتُها الّتي هي الأصْلُ فيها وفيما حَوْلَهَا من الجوّ.

السَّلْخ: كَشْط جِلْدِ الحَيَوانِ عَنْ جَسَدِهِ الواقِعِ تَحْتَهُ، وكُلُّ شيءٍ يُفْصَلُ عن شيْءٍ آخر كان مُلاصقاً له كجِلْدٍ أو قِشْرٍ فَقَدِ انْسَلَخَ منه.

ولمَّا كانَتْ حَرَكَةُ دَورانِ الأرْضِ حوْل نَفْسِها في مُقابَلَةِ الشَّمس، تَعْمَلُ بنِظَام ثابتٍ دَقيقٍ، كانَ مَا يَبْتَعِدُ عَنْ مواجَهَةِ الشَّمْسِ من الأرْض بِتَأْثِير حركَةِ الدوران، يَبْتَعِدُ عنْهُ الضَّوْءُ شيئاً فشَيْئاً، وتَظْهَرُ ظُلْمَتُهُ شيْئاً فشيئاً، بمثابَةِ الْجِسْم الأسْوَدِ المظْلِمِ الَّذِي ينْسَلخُ عَنْهُ الجلْدُ الأبْيَض الْمُضِيءُ، فَيَعُودُ إلىٰ ظُلْمتِهِ الأصْليَّة.

فالعبارة القرآنيَّةُ جَاءَتْ مُعبِّرَةً بإيجاز بالغٍ تعْبيراً دقيقاً جدًّا، مشيراً إلى عِدَّة حقائق.

الأولى: أنّ الأَرْضَ مظْلِمَةٌ هيَ وما حولَها من الجوّ بحسَب الأصْل.

الثانية: أنَّ ضياءَ النَّهار الذي يظْهَرُ على الأرض، إنَّما يأْتيها من ضياء الشمس، ويكون في الجهة الّتي تُقَابل الشَّمسَ منها.

الثالثة: أنّ النَّهارَ يَبْتَعِدُ شيئاً فشيئاً بمقدار نِسْبَةِ حَرَكة الدوران، ويكُون هذا من الجهَةِ الّتي يبْدأُ فيها ظُهُورُ اللّيْلِ شيئاً فشيئاً، كما ينْسَلِخُ جِلْدُ الحيوان عَنْهُ شيئاً فشَيْئاً.

الرابعة: أنَّ هذِهِ الظّاهِرَةَ تَسْتَلْزِمُ أنْ تكُونَ حركةُ الأرضِ في اتّجاه الشَّمْسِ حَرَكَةَ دَوَرَانٍ حَوْلَ نَفْسِها.

وهذه الحقائق هي الّتي أثبتَتْها الدراساتُ العلميّة الإنْسانيّة، وأكَّدَتْها الْعُلومُ المعاصرة، ولم تَكُنْ مَعْرُوفَةً للنّاسِ من قَبْل.

- ﴿. . فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾: هذِه العبارةُ تُؤكِّدُ أنّ الأرْضَ مظْلِمَةٌ هِيَ وما حَوْلَها من الجوّ بأصْلِ تَكْوينها، وأنّ الضّياء هو الذي يأتي من الخارج، فيُغَطّي أصْلَ ظُلْمَتِها إذْ يكْشِف سُطوحَها، فإذا ذَهَب عنْها الضياء

عادَتْ إلىٰ أصْل ظُلْمَتِها ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾: أي: فإذَا هُمْ يُفَاجَئُونَ بأنَّهُمْ داخِلون في الظلام.

يقال لغة: أظْلَمَ الْقَوْمُ، أي: دَخَلُوا في الظَّلَام.

فما أبْدَع التعبير القرآنيَّ عن هذهِ الظَّاهرة من ظواهر آيات الله في كونه!! القائم على استعارة فعل [نَسْلَخُ] للدلالة على معنى انحسار النهار شيئاً فشيئاً عن الأرض عند توالي حركة الغروب.

الآية الكونيّة الثانية: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾: **الجري:** السَّيْرُ المنتظم، يُسْتَعْمَلُ لذِي الأرجُلِ، ولِلْمَاء، ولكُلِّ سائرٍ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إلى مكان آخر.

﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾: **المستَقَرُّ:** مَكَانُ الاستقرارِ، وزمَانُهُ، ومَصْدَرٌ ميميٌّ بمعْنَىٰ الاسْتِقرار.

كانَ يُدَرَّسُ في مادَّةِ العلوم الطبيعيَّةِ في أوائل الْقَرْنِ العشرين الميلادِي، أنَّ الشَّمْس ثابِتَةٌ لا تَجْرِي، وأنَّ الأَرْضَ والكواكبَ منْ حَوْلِ الشَّمْس هيَ الّتي تَجْري حولَها.

وانْطَلَقَتْ يَوْمَئِذٍ الأسْئِلةُ حَوْلَ مخالَفَةِ الآيَةِ الْقُرْآنِيَّة لمَا هُو مُقَرَّرٌ في الْعُلُومِ الكَوْنِيَّةِ الإنْسَانِيَّة، وقامَتْ جَدَلِيَّاتٌ بيْنَ المؤمنينَ بالْقُرآن، والمؤمنينَ بمقالَات الْعُلوم، دون تحفُّظٍ، فِتْنَةً بما يَذْكُرُهُ عُلَمَاءُ الكَوْنِيات.

ثم تَقَدَّمَتِ البحُوثُ العلميَّةُ الفَلَكِيَّةُ، وأثْبتَ الْعُلَمَاءُ الفلكيُّونَ أنّ الشَّمْسَ بالنِّسْبَةِ إلى مَجْمُوعَتِها الدَّائِرَةِ حَوْلَها والّتي هِيَ أُسْرَتُها ثَابِتَةٌ، لكِنَّهَا مَعَ كُلِّ أُسْرَتِهَا تَجْرِي بحَرَكَةٍ خاصَّةٍ في فَلَكٍ أكْبَر ضِمْنَ المجرَّة.

فهي بالنِّسْبَةِ إلى أُسْرَتِهَا ثَابِتَةٌ، لكنَّها بالنِّسْبَةِ إلى وَضْعِها مع أُسْرَتِها

في المجرَّةِ جاريَةٌ غَيْرُ ثَابتَةٍ، فهي كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿تَجْرِى﴾ وظَهَرَ بهذَا نَقْصُ الْعُلُومِ الإنْسَانيَّةِ الأولى، الّتي كان يَقُولُ بها عُلَمَاءُ الدّراسَاتِ الكونية، وظَهَرَت مطابَقَةُ الْبَيانِ القرآنيّ للحقّ والواقع، وظهَرَتْ مطابَقَةُ كَلِمَةِ اللَّهِ البيانيَّةِ، لآثار كَلِمَةِ اللَّهِ التكوينيَّة في الكَوْنِ.

وهذِهِ إحدىٰ أمْثِلَةِ الإعْجازِ الْعِلْميّ في القرآن.

أمّا المسْتَقَرُّ الّذي يَتَوَقَّفُ جرَيانُ الشَّمْس عنده، والّذي دلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ في النّصّ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ فَهُو أمْرٌ من أمُورِ الغيب الذي سيَحْدُثُ مُسْتَقْبلاً، فَيَكُونُ للشّمس اسْتِقرار حتْماً، في مكان من الكَوْنِ، وزَمَانٍ من الدَّهر، ولَا يَزَالُ هذا الأمْرُ حتَّى الآن غَيْباً بالنِّسْبَةِ إلى الْعُلُوم الإنسانيَّة، ولهذا جاء تنكِيرُهُ، ولَمْ يُضَفْ إلى ضَمِيرِ الشَّمْس، بل جاءت العبارة ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾.

• ﴿.. ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾: أي: ذلك الجريَانُ المتْقَنُ الْعَجِيبُ، المسْتَمِرُّ لِبُلُوغِ مُسْتَقَرٍّ يتوَقَّفُ عِنْدَهُ جريانُ الشَّمس، في مَكَانٍ مَحَدَّدٍ مِنَ الكونِ، وَزَمَانٍ مُحَدَّدٍ من الدَّهْرِ، مَعْلُومٍ لله جلّ جلالُهُ، هُوَ مُبْرَمٌ بتقدير اللَّهِ الْعزيز العليم، ومُنَفَّذٌ بِقُدْرَتِهِ الَّتي يفْعَلُ بها مَا يَشَاءُ ويَختَار.

﴿ذَٰلِكَ﴾: جاء اسْتعمالُ اسم الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ البعيد، لدّلَالَةِ على عظَمَةِ هذَا التقدِير، وهذا التَّسْيير.

﴿تَقْدِيرُ﴾: أي: تحديد مقادير حركة الشمس، وتحديد مقادير الأمكنة والأزمِنَة الّتي تَجْري فيها، وتَحْدِيد مقادير حَجْمِها بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مجموعتها، وبالنِّسْبَةِ إلى مَجْمُوعات النجوم الأُخرى في السَّمَاوات.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: أي الْقَوِيُّ الْغَالب.

﴿ٱلْعَلِيمِ﴾: أي: البالِغُ الغايَةِ في شُمولِ عِلْمِهِ، لكلّ كَبِير مَهْمَا كَبُر، ولكلِّ صَغِيرٍ مَهْمَا صَغُر، وشمُول عِلْمِهِ للذَّواتِ وللصفات وللجواهِرِ وللأَعْراض، جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه.

الآيةُ الكونيَّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩﴾:

الْعُرْجُون: الأعوادُ الّتي تَحْمِلُ التَّمْر، والْعُودُ الواحِدُ مِنْهَا يُطْلَقُ علَيْهِ لَفْظُ «عُرْجُون» فإذا قَدُمَ ضَمُرَ واعْوَجّ، ولَوْنُهُ أصْفَر، فهو بهذِهِ الحالة يُشْبِهُ الهِلالَ آخِرَ الشهر.

وعن ابن عبَّاس «أنَّ الْعُرْجُونَ أصْلُ العِذْق» وهو الذي تتفرّع أعواد شمراخ التمر عنه:

أقول: مقْطَعُ أصْل العِذْق الذي يَحْمِلُ الْبَلَحَ المعَلَّقَ بأعْوَادِه، يُشْبِهُ الهلال آخِرَ الشهر.

ولَعَلَّ ما رُوي عن ابْنِ عبّاسٍ أَقْرَبُ إلى الواقع، وقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ به الْقَمَر وهو في آخِرِ الشَّهْرِ قَبْلَ يَوْمِ الْمَحاق.

إذْ هو يُشْبهُ بالنِّسْبَةِ إلى الناظر إلَيْهِ في الأَرْضِ أصْلَ الْعِذْقِ بَعْدَ قَطْع العِذْق عنه ويَبْقَى على ساقِ النّخلَةِ هذا الأصْلِ، فهو يُشبه الهلال آخر الشهر ولا سيما القديم منه، ويشبهُ أيضاً عوداً أصْفَر مُعْوَّجاً من الأعواد الّتي يَنْبُتُ عليها البلَح، وهذا التشبيه يناسب أهل النخيل.

ومنازِلُ الْقَمَر منازِلُ مَعْرُوفَةٌ لدَىٰ عُلَمَاءِ الْفَلَكِ، وتقدير هذه المنازل مِنْ آياتِ اللَّهِ الجليلَةِ العظيمةِ في الكوْن، وهي ناتجةٌ عن دَوْرَةِ القمر حَوْل الأرض، مع المحافظة على مُواجَهَتِه للأرض بوجْهٍ واحد.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾: جاء استعمالُ ضمير المتكلّم العظيم للدّلاَلَة على عَظَمَةِ تقدير منازِلِ الْقمر تقديراً محكَماً مُتْقَناً.

والقمر جسْمٌ لا ضياءَ فيه، إلَّا أنّه يَعْكس نوراً ناتجاً عن انْصِبَابِ ضَوْءِ الشمس علَيْه، فالْوَجْهُ المواجِهُ للشمس منه في دورته الشهريّةِ حول

الأرض، يُعْطِي مِنَ النور بمقدار ما يَرىٰ سُكَانُ الأَرْض من هذا الْوَجْه، وبهذا تظهر الأهِلَّة التكامليَّة حتى يصير القمر بدْراً في منْتَصَف الشهر، ثم تظهر الأهلَّة التناقُصِيَّة، حتى ليلَةِ الْمَحَاقِ، التي لا يَرىٰ فيها سُكَّان الأرضِ شيئاً من وَجْهِ القمر المواجهِ للشمس، ويكون الْقَمَرُ بين الشَّمْس والأرض تماماً.

ويَدُور القمر حَوْلَ الأرض في مَدارٍ بَيْضِيٍّ.

وهذا التقدير المتْقَنُ البديعُ من عجائبِ صُنْعِ اللَّهِ في كَوْنه، ومن عنايته الجليلَةِ بعباده.

الآية الكونيّة الرابعة: دلَّ عليها قول الله تعالى في النَّصّ:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ... ﴿٤٠﴾﴾:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾: أي: لَا الشَّمْسُ يَصْلُحُ لَهَا، ولَا يَتَسَهَّلُ لها، ولا يتيَسَّرُ لها.

يُقال لغة: لَا يَنْبَغِي لَهُ كَذا، أي: لا يَسْهُلُ له، ولا يُطَاوِعُهُ، وَلَا يَتَيَسَّرُ لَهُ، أَوْ لا يَصْلُحُ لَه، ولا يَكُونُ بَيْنَهما تَلاؤُمٌ أو قبول.

﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾: **تُدْرِك**: أي: تَلْحَق وتَبْلُغ وتَنال.

يقالُ لغة: أدْرَكَ الشرطيُّ المجرمَ، أي: لَحِقَهُ وبَلَغَهُ ونالَهُ قابضاً عَلَيْه، ويُقالُ: أدْرَكَ السَّهْمُ الْهَدَف، أي: أصابَهُ وثَبَتَ فيه.

ولمَّا كانتِ الشَّمْسُ ذَاتَ جاذبيَّةٍ عظيمةٍ لِكِبَرِ حَجمها وَوَزْنِها بالنسْبَةِ إِلَىٰ الْقَمر، كانت بطبيعَتِها مؤهَّلَةً لأنْ تجذب الْقَمَرَ إليها، وتَبْتَلِعَهُ إِذَا اقْتَرَبَ منها في دَوْرَته كلّ شهْرٍ حول الأرض.

لكِنَّ تقدير العزيز الْعَلِيم الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صنْعاً، قَدْ أَحْكَمَ وضْعَ الجاذبيات، وتَقْدِيرَ الحَرَكاتِ والسُّرْعاتِ، فجَعل الشمس مع جاذبِيَّتِها

الفائِقَةِ للْقَمَرِ، غيْرَ قادرةٍ على اجْتِذَابِه إليها وابْتِلَاعِهِ، ما دَامَ هذا النظام قائماً بتَقْدِيرِ اللَّهِ وقضائِه وإجراءات خلْقِه.

لكِنْ قضىٰ الله عزّ وجلَّ أن يأتي يومٌ تجتَمِعُ فِيه الشَّمْسُ والقمر، فَيَنْدَمِجَانِ، وهذا يكونُ يوم القيامة، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾؟.

هذه الآية الإتقانيَّةُ في الكَوْنِ دَلَّتْ عَلَيْها عبارةٌ أدَبيَّةٌ سامِيَةٌ في أدائها البياني: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾: إنَّ سُلْطانَ الْقَهْرِ الرَّبَّانِيّ، وَحِكْمَةَ اللَّهِ العظيمة الّتي حَدَّدَت مقادير طَاقَاتِ الأشياءِ الَّتي يُمْكِنُ أن تتغالَبَ في الكون، قد جعَلَتْ كلَّ طاقةٍ مَهْما عظمَتْ، مُلازمَةً للحدود الّتي حدَّهَا اللَّهُ لها، مُتْقِناً صنعَتَهُ فيها، فلا يَنْبَغي لذي القوّة العظيمة أن يتجاوز حدوده، إذْ جَعَلَ لذي القوّةِ الأضْعَفِ مُسَاعِدَاتٍ من جهاتٍ مختلفات، تمنَعُ عنه طُغْيانَ ذي الْقُوَّةِ الأشَدّ، وهذا يَرْجِعُ إلى ضابِطِ الْعَدْلِ، أحَدِ قَوانِينِ اللَّهِ جلَّ جَلَالُهُ في الكون، قال تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

فالشَّمْسُ لا يَصْلُحُ لها وَلَا يَسْهُل لها أن تُدرِكَ القمر فتبتلِعه، لأنّ ضابط الْعَدْلِ المتْقَن بين الجاذبيات والحركات، يمْنَعُها من أنْ تَطْغَىٰ متجاوزة حُدودَها الّتي قَدَّرَهَا اللَّهُ لَها وقضاها.

الآية الكونيّة الخامسة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿.. وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ..﴾:

ما المراد بنَفْي سبْقِ اللّيْلِ للنهار؟

أقول: استُعْمِلَ السَّبْقُ في القرآن المجيد بمعنيين:

المعنى الأول: السّبْق الزّماني، أو المكاني.

المعْنَىٰ الثاني: السّبْقُ المعنوي، كالتفوُّق في القوّة والْقُدْرَة، وكالتفوُّقِ في العلم، وكزيادة نِسْبَةِ الأعمالِ الصالحة، أو الأعمال السيئة، لدىٰ السابق، على ما لدى المسْبُوق.

وبالنظر إلى واقع اللّيلِ والنهار نُلاحظ أنّ الظُلمةَ بطبيعَتِها لا تَغْلِب الضوءَ، ولا تستطِيعُ أنْ تتفوّقَ عليه، ولمَّا كانَ اللَّيْلُ حدَثاً يحْصُل بسَبَبِ غيابِ ضَوْءِ النهار، كان اللَّيْل بطبيعَتِه غَيْرَ غالبٍ للنهار ولا مُتَفوّقٍ عليه، بل النهار بضيَائِه هُوَ السَّابقُ المتفوّق على اللَّيْل كُلَّما وُجِدَتْ أَسْبَابُ وجُود النهار، فَيَتوقَّفُ وُجُودُ اللَّيلِ على غيابِ النَّهار دُون العكْسِ، إذْ لا يَتَوَقَّفُ وجودُ النهار على غياب اللّيْلِ، بلْ يحدثُ النّهارُ بِمُجَرَّدِ إشراقِ الشَّمْسِ بضَوْئِها، وهذا مِن آياتِ اللَّهِ في كونه.

ونلاحظ أيضاً أنّ اللَّيْلَ لَا يَسْبِقُ زَمَانَ حُدُوث النهار، ولا يَسْبِقُ مَكانَ حُدوثه، إذْ كلَّما وُجِد النّهارُ في أي زمانٍ وفي أيّ مَكانٍ انْعَدم اللّيل، فلا يكُونُ للَّيلِ سبْقٌ للنّهار لَا في الزمان، ولا في المكان.

وقد أدّىٰ التَّعْبِيرُ القرآنيُّ كلَّ هذِهِ المعاني بأوْجَزِ كَلامٍ في قول اللَّهِ تعالىٰ: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ وهو من روائع البيان القرآني.

إنّ نظام مقادير الله في كوْنِه جعَلَ النهار وأسْبَابَه هي الغالبَةَ السَّابقَة لِلَّيْلِ وأسْبابه، كما جعَلَ نورَ الحقّ هو الغالبَ لظُلْمَةِ الباطل، وهذا سبْقٌ معنوي.

الآية الكونيّة السادسة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿.. وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

التنوين في: ﴿وَكُلٌّ﴾ عِوَضٌ عن مضاف إليه محذوف، ودلَّ على أنَّ المحذوفَ جمعٌ عبارة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ مع أنّ الظاهر أنّ يُقال: يسبحان، لأنَّ الحديث في النصّ عن الشَّمْس والْقَمَر، لكِنَّ الذِّهْنَ حين يلاحظ الشَّمْس والقمر يُلاحظ معهما حركتي اللّيل والنهار، ويُلاحظ المجموعةَ الشَّمْسِيّةَ كُلَّها، ثُمَّ يَنْطَلِقُ إلى سائر النجوم والكواكب، ولمَّا كان نظامُ الرّبّ ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ للأجرام السماوِّيةِ قائماً على قانون السبْحِ في الفضاء ضمن مَسِيراتٍ ومَدارَاتٍ مُحَدَّدَاتٍ لَا تتخطَّاها، جاء التعبير عنها بالجمع منزَّلَةً منْزِلَةَ العقلاء المدْرِكين المطيعين، وربما كان ذلك مراعاة لأحوال سُكَّانها من الملائكة والجنّ والإنس، وأنهم لا يستطيعون تغيير نظام الله فيها مهما اتخذوا من وسائل وأسباب.

الفَلَكُ: هو خطُّ السَّيْر المحدَّدُ في الجوّ، الذي يجري فيه النجم أو الكوكب، فلا يَحِيد عنْه بتقدير الله وقضائه، فهو يسْبَحُ في فراغه سبحاً.

والأفلاكُ خطُوطٌ ليْسَ لها معالم ترىٰ، لكنّ الأجرام السماويَّةَ لَا تَحِيدُ في مَسِيراتها عن أفلاكها المحدّدة لكلٍّ مِنْها.

هذا هو حال كُلِّ نُجُومِ السَّمَاءِ وكواكِبها، وقَدْ جاء القرآنُ بهٰذِهِ الحقيقةِ الكونيّةِ، على خلاف ما كان يعْتَقِدُهُ الأقْدَمُونَ من أَنَّها تَجْرِي على أجرامٍ صُلْبَةٍ، أو يَدُورُ بها فلَكَ صُلْبٌ هي مثبتَةٌ فيه.

ومُنْجزَاتُ الْعُلُومِ الكَوْنيَّةِ قد اكتَشَفَتْ ما سبقَ أنْ أبانَهُ القرآنُ، حوْلَ سَبْحِ النجومِ والكواكب في أفْلاكٍ لَهَا في فضاءِ السَّمَاواتِ، كما تَسْبَحُ الطَّائِرات.

وإِذْ كان لكلِّ نَجْمٍ أَوْ كوكَبٍ فَلَكٌ يجري فيه، وهُوَ خاصٌّ به، جاء لفظ «فَلَكٍ» في النّصّ مفرداً.

فالمعنى: ولكلِّ نجم أو كوكبٍ فلكٌ خاصّ به يَسِير على خطّهِ سَابحاً لا يتعَدَّىٰ حُدوده، وهم جميعاً يسْبَحُونَ بانتظامٍ عجيب، دون أن تتعارض أَوْ تتصادم، إلَّا إذا قدَّر الله شيئاً من ذَلِكَ وقَضَاهُ، وأجْرَاهُ بخَلْقِهِ في كونه، على ما يشاءُ من كلّ أمْرٍ حكيم.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)﴾.

سبق تَوْجِيهُ قراءتي: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ و[**ذُرِّيَّاتِهِمْ**] وبيان أنَّ مُؤَدَّاهما واحدٌ، فالإفراد مع الإضافة إلى معرفة، والجمْعُ مع الإضافة إلى المعرفة نفسها، متكافئتان في الدّلالة على العموم.

في هذا النصّ تَنْبيهٌ على آيَتَيْنِ من آيات الله الكونية، وهما مقترنتان ببيان نعْمتَيْن مِنْ نِعَم اللّهِ على عبادِهِ الّتِي توجب عليهم الشُّكْرَ للرَّبِّ المنعم جلَّ جلاله.

الآية الكونية الأولى: دلَّ عليها قول الله عز وجل في النص: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١)﴾.

إنّهَا آيَةُ المراكبِ الْبَحْرِيَّة، الّتي أوحَىٰ اللّهُ عزّ وجلَّ إلى نوحٍ عليه السَّلَامُ، أنْ يَصْنَعَ أوّلَ مركبَةٍ منها، فهي أُمُّ سائر المراكب البحريَّة، وقد جاء بَيَانُ هذا في القرآن الكريم، ومنه ما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايةً لما خاطب الله به نوحاً عليه السلام:

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾.

فدلَّ هذَا النَّصُّ علَىٰ أنَّ تنفِيذَ صُنعِ الْفُلْكِ، وخُطَّةَ الْعَمَلِ، وهَنْدَسَةَ البناء، وتَحْدِيدَ الموادّ الّتي يُصْنَعُ مِنْها، ممَّا كانَ مَوْجّوداً في بيئَةِ نوح البدائيّة، وطَريقَةَ التَّنْفِيذِ أُمورٌ مسْبُوقةٌ بالْوَحْي الرَّبَّاني، ومَحْفُوفَةٌ بعِنايَةِ اللَّهِ وتَوْجِيههِ وتَسْدِيدِه، حتَّىٰ يبلُغَ الغايَة المقْصُودَة من صُنْع الْفُلْكِ، ضمْن إمكاناتِ نوحٍ عليه السلام، المتاحَةِ لَهُ في زمانه.

إنّ التَّنْبيه على آيَةِ المراكب الْبَحْرِيَّةِ يسْتَدْعي التَّفَكُّرَ فِي جُمْلَةِ قوانين رَبَّانيَّة جعل الله نظام الكون قائماً عليها.

فمنها القوانين التالية:

الأول: قانون الطفْو على الماء، وأسْبابُه وعوامله.

الثاني: قانون جَرْي الطّافي على الماء، وأسباب جَرْيِهِ، وتوجيهه بحَسَبِ المقاصِدِ الّتي يَقْصِدُها العباد.

الثالث: قانونُ نِسْبَةِ قَدْرَةِ الطَّافِي على الحُمُولَةِ الَّتي يُمْكنُ أنْ تُحْمَلَ عليه، دون أن يتعرَّضَ بالثِّقَلِ للغَرَقِ في الماء.

إلى غير ذلك من قوانين نظَّم اللَّهُ عزّ وجلَّ هَذِهِ الآيَةَ الكونيَّةَ على مُقْتضَيَاتِ الغايَةِ منْها.

وتأتي من رواء هٰذِه القوانين عِنَايَةُ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ بتَقْدِيرِ السّلامة من المخاطر المحيطَةِ بهٰذِهِ الآيَةِ العظيمة، فاللَّهُ تبارَكَ وتعالى هو الّذي يُسَيِّر عبادَه في الْبَرِّ والْبَحْر، ويُلْحَقُ بهما الجوّ، إذ هو إمَّا جَوُّ الْبَرِّ وإمَّا جَوُّ الْبَحْر.

وقَد خاطب الله عز وجلَّ عبادَه في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) بقَوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ . . . ﴿٢٢﴾﴾.

وامْتَنَّ اللَّهُ عزّ وجل على بني آدَمَ بقَوْلِهِ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ . . . ﴿٧٠﴾﴾.

ففي هذا النصّ امتنانٌ بنِعْمَة اللَّهِ على بني آدم بأن حَمَلَهُمْ علىٰ مراكب في البَرِّ والْبَحْر، ودلَالَةٌ ضِمْنِيَّة على كون هذا الْحَمْلِ من آيات الله الدالّاتِ على عِلْمِهِ الشَّامل، وحكمته الجليلة، وقدرته العظيمة، وعنايته ورحْمَتِه بعِباده.

وجاء في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِى ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

وقد دلَّ هذا النصُّ علىٰ أنَّ جَمِيع الْبَشَر الَّذِين تناسَلُوا مِنْ بَعْدِ الطُّوفان قد حَمَلَهُم الله عزّ وجلّ في الجارية، أي: في سفينةِ نوح عليه السلام، علىٰ معنَىٰ أنّ أصول ذرّاتهم قَدْ كانَتْ في أصْلَاب أجدادِهم الَّذِين رَكِبُوا السَّفينَةَ ونَجَوْا من الغرَق، ولو كان هؤلاء الأجْدَاد قَدْ أُهْلِكُوا مع مَنْ أُهْلِكَ لم تكُنْ في الأرْضِ ذراري بشريَّة، فَحَمْلُ الأجداد في سفينة نوحِ الجارية وفي أصْلابهم ذرّاتُ ذَراريهم هو حمْلٌ للذّراري مع الأصول، وبهذا يكونُ الخطابُ مطابقاً للحقيقة والواقع، وعامًّا لكُلّ الناس الّذِينَ وُجِدُوا بَعْدَ الطوفان، والّذِين سَيُوجَدُونَ.

وفي هذا العرض امتنانٌ على الناس، مع الإشارة إلىٰ آية المراكب البحرية.

أمّا الآية التّي جاءت في النصّ من سورة (يسٓ) وهي قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾:

فقد جاء فيها البيانُ الصَّريحُ بأنَّ هذا الحمْلَ آيَةٌ من آياتِ الله في كونه.

أي: وآيَةٌ للعباد الّذين جاء الحديث عنهم في قوله تعالى في السورة:

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وهذه الآية آيَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لكلّ البشر، ما دامُوا يسْتَخْدِمون المراكب البحريّةَ لرُكوب البحار، وعُبُورها، وحَمْل أثقالهم عليها، ونَقْلِها إلى بلادٍ لم يكونوا بالغيها إلّا بشقِّ الأَنْفس.

الفُلْك: مركبُ البحر، يُطْلقُ على الواحد وغيره، ويُذَكَّرُ ويُئَنث، يقال: هذا فُلْك، وهذه فُلْك.

المشحون: أي: المملوءُ رَكّاباً وَأَحْمالاً. يقال لغة: شَحَنَ السفينة يشحَنُها، أي: ملأها ركّاباً وأحمالاً.

الآية الكونيّة الثانية: دلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

يرىٰ المفسّرُونَ أنّ الجِمَال في الصَّحْراءِ هي المماثِلَةُ للسُّفُنِ في الْبَحْرِ، فهُمْ يركبون الجمالَ ويَحْمِلُونَ عَلَيْهَا أثْقالَهُمْ، وأَخَذُوا من قول الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ أنَّ التعبير بالخَلقِ الرَّبَّانِيّ يَسْتَبْعِدُ ما تَتَدخَّلُ فِيه الصِّناعةُ البشَرِيَّة.

أقول:

لسْت أرىٰ مانعاً من جعل النَّصّ يشْمَلُ كُلَّ المراكب البرِّية، جمالاً كانَتْ أو خَيْلاً، أو بغالاً، أو حميراً، أو غيْرَ ذلك.

ولسْتُ أرى مانعاً من جعْلِه يشْمَلُ المراكب التي يصْنَعُها الناس، لأنّهم لَا يصْنَعُونَها إلّا بإلْهامٍ من الله وتوفيقٍ، وإمدادٍ منه لهُمْ بالمعُونَةِ والقوَّة، وتَسْخِير المسَخَّراتِ لهم في كونه، ولَا يُمْكنُ أن يسْتَفِيدوا من المسخَّرَاتِ إلّا مِنْ خلال قوانين اللَّهِ الّتِي جعَلَ كوْنَه مقيَّداً بها، وهي خاضِعَةٌ لخلْقِ الله، كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه، فيما حكاه اللَّهُ عَنْهُ مُقِرًّا له في سورة (الصَّافَّاتِ/٣٧ مصحف/٥٦ نزول):

﴿. . وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

وبهذا الْفَهْمِ يُمْكِنُ إِدْخالُ كلّ المراكب البريَّةِ والجويَّةِ والبرمائيَّة، وغَيْرِها، وكُلّ ما يُمْكِنُ أن يُسْتَحْدَث من مراكب.

والتعبير بالفعل الماضي في: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ يُحْمَلُ علَىٰ معْنَىٰ: وَقَدَّرْنا وقَضَيْنا، إذْ قضاءُ اللَّهِ وقدَرُهُ من الأمور النافِذَةِ حَتْماً، ولَوْ كانَتْ بوسَاطَةِ إلْهام اللَّهِ للعباد، وتَمْكينِهِمْ، من التنفيذ، وتسْخِير المسخَّرَاتِ لهم، لأنَّ ما سيَفْعَلُهُ العبادُ مَسْبُوقٌ بالْعِلْمِ الرَّبَّانيِّ الّذِي لا يُمْكِنُ تخلُّفُهُ.

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

إنَّهُ لمّا كانت سلامَةُ راكبي المراكبِ البحريَّةِ وغَيْرِها لَا تتحقَّقُ إلّا بقضاء الله وقدره، وعنايَته ورحْمْتِهِ بعِباده، كانَ من الحكمة إيرادُ هاتَيْنِ الآيتَيْن، للتنْبِيهِ علَىٰ فَضْلِ الله على عباده بِسَلَامَتِهِمْ في رِحْلَاتِهم البحريَّةِ وغَيْرِها، إذْ لو شاءَ الله عزَّ وجلّ إغراقهم لم تُغْنِهم وسائلُهم من الله شيئاً.

والمعنى: وإنّ نَشَأْ إغراقَهُمْ نُغْرِقْهُمْ، إذا كانوا في المراكب البحْرِيَّة، بوسِيلَةٍ من الوسائل التي لَا يَمْلِكُون دفْعَها ولا تحويلها، فإذَا صَرَخُوا مَسْتغيثين مسْتَنْجِدِينَ لَمْ يَجِدُوا مَنْ يُنجِدُهُمْ ويُغِيثُهُمْ ويُنْجِيهِمْ، إذْ لَا رَادَّ لِمَشِيئَةِ الله.

وكذلك يكُونُ حالُهم إنْ شاءَ اللَّهُ إهلاكهم في البرِّ أو في الجوّ، أو في أيّ موقع: بوسيلة غير الغرق، كإسقاط الطائرة أو إحراقها، أو نحو ذلك في المراكب البرّية.

الصَّرِيخُ: المغيث، ويُطْلَق هٰذا اللَّفْظُ أيضاً علَىٰ المسْتَغِيث، وعلى الاستغاثة، فيأْتي بمعنىٰ اسْم الفاعل، واسْم المفعُول، والمصْدر. والفعل منه: صرَخَ يَصْرُخُ صُراخاً وَصَرِيخاً، إذا صاحَ صياحاً شديداً، وإذا اسْتغَاثَ.

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾: أي: ولَا يُوجَدُ مَنْ يَنْقِذُهم من الهلاكِ، إن شاءَ اللَّهُ إهلاكهم.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾: أي: لكِنْ إذا شئنا أن لا نُهْلِكَهُمْ، فإنَّنَا نُنْقِذُهم، ممّا قد يتعرَّضُونَ لَهُ من مخَاطِرَ في مراكِبِهم، رحْمَةً منَّا بهم، ونبقيهِمْ أحْيَاءَ ليتمتَّعُوا متاعاً في الحياة الدنيا، إلَىٰ حين تأتِيهِمْ آجالُهُمْ بحسب أعْمَارهم المقضيَّةِ لهم في هذه الحياة.

المتاع: كُلُّ شيء يُنْتفَعُ به، والْفَنَاءُ يأتي عَلَيْهِ في الدنيا.

* * *

(٨)

التدبّر التحليليّ للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (٤٥ ـ ٤٧).

قول اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

تمهيد:

يَعْرِضُ هذا الدرسُ صورةً من صُوَر أحوال الكافِرِينَ إبَّانَ تنزيل السّورَة، المعرضين عن دعْوَةِ الحقّ، والمعرضين عن إنذاراتِ المنْذِرِينَ لهم بعقاب الله، والمعْرِضين عنْ آياتِ اللَّهِ رَبّهم، غَيْرَ مُكْتَرِثهينَ لها، ولَا مُبَالِين بها.

وهٰذِهِ الصّورَةُ صُورَةٌ مَشْهُودَةٌ بتكرار فِي كلّ الكافرين من قَبْلهم ومن بعْدهم، فهِيَ في الحقيقة تُعَبِّرُ عَنْ جانِبٍ من واقِع أحْوالِ كُلّ الكافِرِين برُسُلِ اللَّهِ وبما جاءُوا به من عند الله، والْمُعْرضين عن تَدَبُّر آيات الله البيانيَّة المنَزَّلة، والتفكُّرِ في آيات الله الكونية، والاتّعاظِ بآيات الله الجزائيّة، والاقْتِناع بآياتِ الله الإعجازيّة.

التدبّر:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

ذكر المختصُّون بعلُوم القرآن أنّ هذه الآية من السورة آيَةٌ نزلَتْ في المدينة، وقد ضُمَّتْ إلى سورة (يسٓ) المكيّة، وجُعِلَتْ في صَدْرِ هذا الدرس الرابع من دُرُوسها.

وبالتأمُّل ظهر لي أنَّ هذا الإجراء قد رُوعِيَ فيه اقتضاءان:

الاقتضاء الأول: أنّ عُتَاة كفّار مكّة إبَّانَ تنزيل السورة كَانُوا إذا قيل لهم: اتقوا الله أعْرَضُوا ولم يكْتَرِثُوا للإنْذار، فَمُنَاسَبَةُ السُّورة تَقْتَضِي ضَمَّ هٰذِهِ الآيَةِ إليها.

الاقتضاء الثاني: أنّ حال عُتَاة الكُفَّار في كلِّ عَصْرٍ مثلُ حال عُتَاةِ كُفَّار قُرَيش إبّان التنزيل، فاقتضىٰ هٰذا تأخيرَ إنْزَالِ هٰذه الآية إلى العهد

المدني، للإشعارِ بأنَّ الكافرين في كُلِّ عَصْرٍ تَنْطَبِقُ علَيْهِم الأَوْصَافُ الَّتِي جاء بيانُها في هذا الدَّرس، وإِنْ كان البيانُ قدْ نزَلَ بشَأْنِ عُتَاةِ كُفَّارِ قُرَيش.

- ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: ونتساءَل: ما هو الّذي بينَ أيْدِي الناس، وما هو الذي خَلْفَهُمْ؟. أيُّهما الماضي، وأيُّهما المستقبل؟.

والجواب على هذا يأتِينَا من التَّعْبيراتِ القرآنيّة، ومن التأمُّلِ الفكري.

فالتعبيرات القرآنية تدُلُّنا علىٰ أنَّ ما بَيْنَ يَدَيِ الشيءِ هُوَ مَا مضَىٰ وسَلَف، فقد جاء فيه وصفاً للقرآن، أنَّه مُصَدِّقٌ لمَا بيْنَ يَدَيْه، أي: للكُتُب المنزَّلَةِ قبْلَه، وجاء فيه بيانُ أنّ الرِّياحَ تَأْتي بُشْراً بَيْنَ يَدَيّ رَحْمَةِ الله للناس بالمطر، ونحو ذلك من استعمالاَ، فدَلَّ هذا على أنّ المراد بعبارَةِ ما بيْنَ يَدَي الشيءِ هو ما سَلَفَ ومضىٰ، وأنّ المراد بعبارةِ ما خلْفَ الشيءِ هو ما يأتي مستقبلاً.

وأمّا التأمُّل الفكريُّ: فهو يَدُلُّ على أنّ الأحياء ذوي الإدْرَاك العلميّ، قد رَكِبُوا مركبَاتِ حيواتهم وَوُجُوهُهُمْ فيها وأعْيُنُهُمْ مُوَجَّهةٌ فَقَطْ للماضي، بَدْءاً من لحظة الحاضر، وأمَّا ظُهُورُهْم فمُوجَّهَةٌ للمسْتَقْبَلِ الَّذِي لَا يُشَاهِدُونَهُ وَلَا يُشَاهِدُونَ أحداثهُ ولَا يَعْلَمُونَها حتّىٰ تَتَحَقَّ في الواقع، فَهُو من خَلْفِ ظُهُورِهم.

أمّا مَرْكبَاتُ حيواتهم فهي سائرةٌ في اتِّجاه المستقبل، وهَذَا المستَقْبَلُ هُو بالنِّسْبَةِ إليهم غَيْبٌ، وعِلْمُهُ عند الله جلّ جلالُه، كما قال تعالى في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

فتطابَقَتْ دَلَالَاتُ الْعِبَارَاتِ القرآنيَّةِ مع المفهومات الفكريَّة، وقَدْ أخْطَأَ منْ رأىٰ أنَّ ما بَيْنَ يَدَيِ الشيء هو المستقبل، وأنَّ ما خَلْفَهُ هُوَ الماضي.

■ أمّا ما سَلَفَ في الماضي ممّا يجبُ أنْ يُتَّقَىٰ فأمْران:

الأمْرُ الأول: العقوباتُ الّتِي أنزلها اللَّهُ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ، بكُفَّارِ الْقُرونِ السَّالفة، واتّقاء هذه العقوباتِ هو بمعْنَىٰ اتِّقاءِ نظيراتها الّتي يُمْكن أن تأتي في المستَقْبَل، لأنّ سُنَّةَ الله عزّ وجلّ في الأمم واحدة، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تحويلاً.

أي: اتَّقُوا عقوبَاتِ اللَّهِ الَّتي هي أمْثَالُ ما سبَقَ بين أيديكُمْ، من عقوباته لكفَّار القرون السالفة، تطْبيقاً لِسُنَّتِه الثابتة.

ويمكن اتقاء هذه العقوباتِ بالتوبة والاستغفار، والإيمانِ والعمل الصالح.

الأمْرُ الثاني: ذُنوبُهم وجَرَائِمُهُمْ، وكُفْرِيَّاتُهُمْ وشِرْكيَّاتُهُمُ السَّابقة، واتِّقَاؤها هو بمَعْنَىٰ اتّقاء العقاب عليها، وهذا يكون أيضاً بالتوبة والاستغفارِ، والإيمان والْعَمل الصالح.

فالإيمان يجُبُّ ما قبْلَهُ، فيغْفِرُ الله الذُّنوبَ والجرائم، فلا يُعَاقب عليها، وبهذا يتحقَّقُ اتِّقَاءُ العقابِ عليها.

والمعنى على الأمْرَين: اتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ على ما قَدَّمْتم بَيْن أيديكُم من ذُنُوبٍ وجرائم بالتوبة والاستغفار وبالإيمان الذي يَجُبُّ ما قبله، وبالعَمَلِ الصَّالح الدَّالّ على صِدْقِ الإيمان.

■ وَأمَّا اتِّقَاءُ مَا خَلْفَهُمْ فيكونُ باتّقَاء عُقُوباتِ الله المستقبلَةِ في الدنيا والآخرة، وهو يكون بأداء ما أوجب الله من إيمانٍ وعمل، وباجتناب ما حرَّمَه الله على عباده من اعتقادٍ وعمل.

وبالتوبة والاستغفار، بَعْد ارْتكاب الذُّنُوبِ والمعاصي، والخوضِ في أوحالِ الأخطار، التي تجلُبُ عذاب العزيز القَّهار.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: اتَّقُوا مَا بَيْن أَيْدِيكم ومَا خَلْفَكُمْ لِتَرْحَمُوا. كلمه «لَعَلَّ» في مثل هذا تحْمل معنى التعليل.

وعلى تقدير أنها للترجِّي، فالمعنَىٰ: اتَّقُوا رَاجين أن يَرْحمكم ربكم، فيغفر لكم، ويَحْميكم من عقابه وعذابه، ويمنحكم من فَضْلِهِ في العاجلة والآجلة، ويُرَجّيكُمْ برَحْمَته.

كلمة: «لَعَلَّ» تُسْتَعْمَلُ في القرآن بمعنَىٰ الترجية، وبمعني التعليل، وبمعنى لازِم الترجِيَة، وهو الرغبة والحبّ والودّ، والسّبَاق والسّيَاق والمعنى العامّ أمُورٌ تُساعِدُ على فهم المراد.

الرحْمة: صفَةٌ من صفات اللَّهِ عزَّ وجلّ من آثارها الحمايَةُ والحفظُ وعطاءاتُ النِّعْمَةِ الوافرة، والْوِقايَةُ من عذابِ النّار، والإِسْعادُ بدخول الجنَّة.

ويتساءَلُ المتدبّر للآَية: أيْنَ جَوابُ شَرْطِ [إِذَا] في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾؟

والجواب: أنَّهُ محذوفٌ لفظاً، مُقَدَّرٌ ذِهْناً، تَقْدِيره: أَعْرَضُوا، وقد دَلَّ عليه ما جاء في الآية التالية لها، وهي قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: فهم يقابلُون نُصْحَ الناصِحِينَ، ويُقَابلُونَ آيات رَبِّ العالَمِين بالإعْرَاض، وعَدَم الاكتراث.

الإعراض: منزلة وسْطَىٰ بين الإقبال والإدْبار، وأصل الإعراض

إعطاء الجانب، عُرْضُ الشيء في اللُّغَةِ جانبه، وعَارِضَا الإنْسان صَفْحتا خَدَّيه.

والمعرضُ عن الشيءِ يُشْعِرُ بعَدَمِ اهتمامه له، وعَدَمِ رَغْبَتِهِ فيه، وعَدَم العنايَةِ بفهم ما يَدُلُّ عليه، مهما كان ذا دلالَةٍ تُهِمُّ ذَوِي الألباب، لأنَّها تتعلَّقُ بمصيرِهِمْ سَعادَةً أوشقاءً.

عبارة: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ ...﴾ تَدُلُّ نصًّا على استغراقِ كلّ الآيات، بأنَّهم يُقَابلونها بالإعراض ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ دَلَّ النفي والاستثناء على أنّ مقابَلَتَهُمْ لآياتِ الله مَقْصُورَةٌ على إعراضهم عنها، فلا يَنْتَفِعُونَ مِنْهَا بشيءٍ ممّا هي آتيةٌ للدلالَةِ عليه، وفي هذه العبارة قصرٌ موصوف على صفة.

وآياتُ الله عزّ وجلّ تَشْمَلُ الآياتِ البيانيَّةَ المنزَّلَهُ، والآيات الكونيَّة الدَّالة على صفاتِ الخالق الرَّبّ العليم الحكيم القدير، وتشمل الآيات الإعجازيَّة التي يَشْهَدُ الله بها لرُسُلِه، والآيات الجزائية الدالة على صِفَتي عَدْلِ اللَّهِ وفَضْلِه.

الآية في اللّغة: العلامة، وبما أنَّ الله عزّ وجلَّ غيبٌ عن الحواسِ الظاهرة بذاته، فقد أقام في كوْنِهِ آياتٍ على صفاته، من مخْلُوقاتٍ ذوات قوانين مستمرّة، وتصاريف ذواتِ سُنَنٍ ثابتة، ومعجزاتٍ خارقاتٍ للسُّنَنِ شاهدات على صدْق الرُّسل، وشاهداتٍ على قُدْرَةِ اللَّهِ جلّ جلالُهُ على خَرْقِ قوانينه في كَوْنه، وأنزل تبارك وَتَعَالَىٰ آياتٍ بيانيَّةً فيها تعليم وهُدىً، ونورٌ وإعجازٌ، وإرْشادٌ إلى الصراطِ المستقيم.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾:

أبانَتْ هذهِ الآيةُ ظَاهِرَةً من ظواهِرِ سُلُوكِ عُتَاة كُفَّارِ مَكَّةَ إبَّانَ تنزيل السورة، وهي في الواقع الإنسانيّ ظاهرةٌ متكرّرة لدى كلِّ عتاة الكافِرِين بما جاء به المرسلون من لَدُنْ رَبِّ العالمين.

إنّها ظاهرةُ شُحِّهم الشَّدِيدِ ببذْلِ الصَّدقاتِ لذوي الحاجاتِ والضّرورات، مع تعلُّلِهم الفاسِد بعلَّةٍ مضادّةٍ لحكمة ابتلاء الأغنياء بالفقراء، في ظروف الحياة الدنيا، إذْ يقولُون على سبيل الفتنة والتثبيط للمؤمنين: أنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ إطعامَهُ أطعمه؟ ويقولون لهم: إنّ أنتم إلا في ضلالٍ مُبِينٍ في بذلكُمْ أمْوالكم للفقراء والمساكين، وفي دَعْوتِكُمْ لمسَاعَدَتِهم ومَعُونَتِهم وإطْعامِهم ورفْعِ المبؤسِ والضُّرِّ عَنهم.

إنّهم يَزْعمون في مقولتهم الباطلة، أنّ الله جلّ جلالُه قد أرَادَ أن يَجْعل الفقراء يُعَانُون متاعِبَ الْفَقْر وعذَابه، وأرادَ أنّ يُهِينَهُمْ، لأنّهم لا يسْتَحقون غير ذلِك، فإذا أَطْعَمْنَاهم وسَاعَدْنَاهُمْ ورَفَعْنَا الضُّرَّ والبؤسَ عنهم، فإنَّنا نَعْمَلُ عَلَىٰ خلافِ مشيئة الله فيهم، وهَذا ضَلالٌ مُبِين.

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: أي: في آيَةٍ قُرآنيَّةٍ، أو في بيانٍ نَبَوِيّ، أو في دَعْوةٍ من بَعْضِ المؤمنين.

- ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: أي: على ذوي الضَّرُوراتِ والحاجات من الفقراء والمساكين.

- ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي قال المدعُوُّون إلَىٰ الإنفاق من الَّذِينَ كَفَرُوا للمؤمِنِينَ الصادقين، بُغْيَةَ فِتْنَتهم عن فِعْلِ الخير، والبذْلِ لذوي الضرورات والحاجات من الفقراء والمساكين، ولتَحْسِين ما هُمْ فيه من شُحٍّ وقَسْوَةِ قَلْبٍ وجفافِ عاطفة مع كبْرٍ واستعلاء.

- ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾؟؛ أي: أَنُطْعِمُ جائعاً فقيراً لَوْ شَاءَ اللَّهُ إطْعَامَهُ أَطْعَمه، لكنه لم يشأ ذلك، بل شاء إهانته، وهذا القول

منهم جوابٌ جدليٌّ على دعوتهم إلى الإنفاق مما رزقهم الله، ودعوة مضادة إلى الشحّ.

اختِيرَ في الدَّعْوَةِ من سَدِّ حاجاتِ الفقراء الإِطْعام، لأنَّ الحاجة إلى الطّعام من ضَرُورِيَّاتِ الحياة، والأغنياءُ الكَفَرَة المستكْبرونَ ذوُو قلوبٍ أشَدُّ قَسْوَةً من الحجارة، لا تُلَيِّنُها مشاعِرُ رَحْمَة، ولا تَعْتَصِرُ نَداها ضواغِطُ عَاطفةٍ نبيلة، وهُمْ يَطْلُونَ وُجُوهَهُمُ القبيحَةَ بأصْبَاغ ذرائِعَ بَاطِلَةٍ، إذْ يَزْعُمُونَ أَنَّ حِكْمَةَ الله عزّ وجلّ، قد قضَتْ أنْ يُهِينَ الفقراء بالفقر، والجائعينَ بالْجُوع، وأنْ يُذلَّهم، لأنَّهم لا يسْتَحقُّونَ إلَّا ذَلِكَ، وأنَّ الناس مطالَبُونَ بأنّ لَا يُغَيِّرُوا مُرَادَ اللَّهِ فيهم.

- ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾: أي: ما أنْتُمْ أيُّها المؤمِنُونَ الباذِلُونَ أمْوَالكم لإطعام الجائعين، وسَدِّ حَاجات وضَرُورَاتِ الفقراءِ والمساكين، إلَّا في ضياعٍ واضحٍ جَلِيٍّ عن طَرِيق الحقّ والخير والْهُدىٰ.

﴿إِنْ﴾: هنا حرف نفي بمعنى «ما» النافية.

﴿فِى ضَلَـٰلٍ﴾: أي: في ضياع، وباطل، وعُدولٍ عن الطريق المستقيم.

وهٰذه الذَّريعة الباطلة الّتي يتَذَرَّع بها الكافرونَ وأشْبَاهُهم، إنما هي نتيجةُ سُوءِ فَهْمِهِمْ عن اللَّهِ عزّ وجلّ ومقاديره في خلْقه.

إنَّهم صَرَفُوا عَنْ تَفْكيرِهم أنّ رحلة الحياة الدنيا هي رِحْلَةُ امتحان، وأنَّ وراءَهَا حياةً أُخرَىٰ خالِدَةً أبَدِيَّةً هي حياة الجزاء، بَعْدَ الحساب و فَصْلِ القضاء، وأنّ الامتحان في الحياة الدنيا قد اقتضىٰ الامتحانَ بالمتضَادَّاتِ والمختلفات، ومِنْها الغِنَىٰ والْفَقْر، والقوّة والضعف، والصّحة والسَّقَم، والعزُّ والذّل، والجمالُ والْقُبْح، إلى سائر المتضاداتِ والمتناقضات والمتخالفات.

أنّه تَعَلُّلٌ جَدَليٌّ يعتَمِد على وَهْمِ أنَّ الرَّبَّ الخالِقَ أرادَ أن يَجْعَل قسْماً من النّاس أغنياء مُتْرَفين تكريماً لهم، وأرادَ أن يجْعَل قسْماً آخرَ من الناسِ فقراء مُعْوِزين ذوي ضروراتٍ وحاجاتٍ، يجوعونَ ويعيشُون في البؤسِ إهانَةً لهم، ولو يشاءُ اللَّهُ القادر ساعَةً بَعْدَ ساعَةٍ، ويَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، وشهراً بَعْدَ شَهْرٍ، أن يُطْعِمَهم، لوسَّع عليهم في الرِّزْق فأطْعَمَهُمْ، ولهيأ لهم وسائل الغنىٰ عن صَدَقاتَ المحْسِنِين، الّذين يجودون عليهم من أموالهم. أفيصحُّ أن نُعَارضَ مشيئة اللّه فيهم، فنُطْعِمَهم من طعامنَا، ونكفِيَهُمْ من أموالنا الّتي اكْتَسَبْنَاهَا بكدِّنا واجْتِهَادِنا، واختصَّنا اللّهُ بها.

يقولون هذا جَدَلاً، وهم لا يُؤْمِنُونَ بأنَّ الله رَحْمٰنٌ بعبادِه، بَلْ ينْسُبونَ مقَادِيرَ الرَّحْمَةِ لآلِهَتِهم الّتي يَعْبُدونها منْ دُونِ الله.

وحين يَرَوْن أنَّهم قَدْ مَلَكُوا ناصِيَة الحجَّةِ بزُخْرُفِ الْقَوْل، والإيهام الذي صَنَعُوه يقُولُون للّذين آمَنُوا بالله وبرسوله وبما أنزل عليه من آياتٍ بيّناتٍ: ما أنتم إلّا في ضَلَالٍ واضحٍ مبينٍ، ابْتَعَدْتم به عن طريق الصواب فيما تَبْذُلُونَ من أموالكم، وفيما تدعوننا إليه ممن البذْل.

هذه فلْسَفَةُ الأَنَانِيّين، وهَذا منْطِقُ المرضَىٰ بداء الشُّحِّ المقيت، مع اسْتِعْلاءِ واستكبارٍ في الأرض.

ولو أنّهم آمنوا بربّهم حقَّ الإيمان، وآمَنُوا بالْيَوْم الآخِرِ، وما فيه من جزاء بنعيمٍ مقيم، أو عذابٍ أليم. واستناروا بنُورِ الرِّسَالةِ الرَّبَّانيَّة، وفَهِمُوا ما جاء في كتاب اللّهِ وآمَنُوا بِه، لكانَ لهُمْ موقف آخر، ولكان لهم فَهْمٌ آخَرُ لمقادير الله في عباده.

وإذْ صَرَف الذين كفَرُوا عن تفكيرهم أنّ رحْلَة الحياة الدنيا رحْلَةُ امتحان، لم يقبلُوا أن يكونَ هذا الامتحانُ بالغِنَىٰ أحياناً، لابْتِلاءِ طَاعَةِ العبْدِ لربّه في بذْلِ قسْمٍ من الأموال الّتي آتاهُ اللّهُ إيّاها، واسْتَأْمَنَه على

حقوق ذوي الحقُوق فيها إلى مَنْ أَمَرَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بَبذْلها إليه، أو إلى الجهات الّتي أَمَرَهُ أن يَبْذُلَ من أمواله فيها.

ولم يقْبَلُوا أنْ يكون هذا الامتحانُ بالفقر والحاجةِ أحياناً، لابتلاء صبْرِ الْعَبْد، ورضاهُ عَنْ رَبِّه فيما ابتَلَاهُ به، وطاعَتِه وعدَم معصيَتِه في العُدْوان على ما وهَبَ اللَّهُ بعضَ عباده، ممّا لَاحَقَّ لَهُ فيه، وعَدَم تطَلّعه إلى ما امْتَحَنَ بِه سِوَاهُ من زينَةِ الحياة الدنيا، واقتناعه بَما قَسَم له من معيشة.

ولَمْ يأتِ هُنا في سورة (يسٓ) جوابُ مقالةِ الَّذِين كَفَرُوا، لأنَّه قَدْ سَبق في نجوم التنزيلِ القرآنيّ بيانُ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ إذا أغْنَىٰ بعضَ عبادِه فإنَّما يُغْنِيهِمْ ليَبْلُوَهم ويَخْتبرَهُم في ظُروف الحياة الدُّنيا، وليْسَ إغناؤهم من أجْلِ تكريمهم علىٰ من سواهم. وأنّ الله عزّ وجَلّ إذا أفقر بعض عباده فقَدَر علَيْهم رزْقَهُمْ فإنَّما يُفقِرُهُم ليبْلُوهُمْ ويخْتَبِرَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا، وليْسَ إفقارُهم من أَجْلِ إهانَتِهِمْ، فرحْلَةُ الحياةِ الدنيا بكُلِّ ما فيها من متناقضاتٍ ومتضادّاتٍ ومتخالفَاتٍ رِحْلَةُ ابتلاءٍ واختبار، وبعدها تأتي حياةُ الحسابِ وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء، وتِلْكَ هي الحياة الخالدة، أمَّا الحياةُ الدُّنيا فحياةٌ مُؤَقّتة قصيرة جدًّا بالنّسْبَةِ إلى حياة الخلود، وهي أقلُّ في مقاييس النِّسَبِ من ساعات الامتحان الّذِي يجريه الأساتذة لاختبار طلابهم، إذا انْتهت أُخْرِجُوا من مكان الامتحان، وانتزعَتْ مِنْهُمْ صُحُفُ إجَاباتهم بالإكراه، ثم يكون بعد ذلك إعلان النتائج.

لقد سبَق في نُجوم التنزيل، مَا يدُلُّ على أنَّ كُلًّا من مقادير التوسعة في الرّزْقِ والتضييق فيه، إنَّما هو للابتلاء، فلا الإغناء للتكريم، ولا الإفقار للإهانة، والغنيُّ يُطْلَبُ منه في ابتلائه الطاعة والقناعةُ والصبر، وعلى الغنيِّ حقٌّ في ماله للفقير، وحقٌّ من نَفْسِه بعَدَمِ الاستعلاء على من

هم دونه في الغني، وعلى الفقير حقٌّ للغنيِّ من نَفْسِه، أنّ لا يمُدَّ عيْنَيْه إلى متَّعَة ربِّه من زينَةِ الحياة الدنيا بحَسَد، وعليه أن لا يعتَرِض علىٰ الله في مقاديره، وأن لا يَحْقِدَ على مَنْ فضَّلَهُ اللَّهُ عليه في الرّزْق، وعليه أنْ يؤْمِنَ ويُوقِنَ بأنَّ اللَّهَ حكيم في كلِّ مَا يشَاءُ ويختار.

وممَّا سبَقَ في نجوم التنزيل بياناً لحكمة الابتلاء في مَجَالَي بَسْطِ الرِّزْق وَتَضْيِيقِه، قولُ الله عزّ وجَلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾.

فزجَر الله عزّ وجلّ في هذا النصّ مَنْ يتصَوَّرُ أنَّ التوسعة في الرزْقِ للإهانه، بعبارة:

﴿كَلَّا﴾ وَأَبَانَ أنَّ كُلًّا منهما للابتلاء، وهو الاختبار والامتحانُ في ظروفِ الحياة الدنيا، وأبَانَ ـ جلَّ جلالُه ـ أنّ من المطلوباتِ الّتي يُؤْمَرُ بها العَبْدُ الممتحن بالْغِنَىٰ أنْ يُكْرِمَ الْيَتِيمَ ويحُضَّ على إكرامه، وأنْ يُطْعِمَ المسكين ويَحُضَّ على إطعامه. أي: لَا أنْ يُراوِغَ ويُجَادِلَ بالباطل، ويقُولَ: أنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أطْعَمَهُ؟!! مصْطَنِعاً شُبْهةً في زُخْرُفٍ من القول، يسْتُرُ بِهِ أَنَانِيَّته وشُحَّه المقيت، ويتَجَاهل أنَّه في هٰذِهِ الحياة الدّنيا ممتحنٌ مُكَلَّفٌ، وأنّ من صور الابتلاء فيها ابْتِلَاء النَّاسِ بْعضِهِمْ ببَعْض، ومنه ابتلَاءُ الأغنياء بالفقراء، وابتلَاءُ الفقراء بالأغنياء، إلى غير ذلك من صُورِ ابتلاءٍ لَا تكاد تُحْصَىٰ.

وهنا أقول: من يُحْرَمِ البصيرة الإيمانيَّة يَسْقُطْ في أوحال الباطل، وقَدْ أحاطَتْ به مصَايدُ الشياطين مُلْتَفَّةً على ما فيه من مَقَاتِل، تجرُّهُ حتّىٰ يكونَ مع الأرْذَلِين، في أسْفَلِ سافِلِين، وفي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من الجحيم.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُروس السورة وهو الآيات من (٤٨ ـ ٦٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ
وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ
﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا
مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ
إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا
وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ
فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ
وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ
﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ
مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ
أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا
كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم
بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

القراءات:

(٤٩) توجد عدّة قراءات في نُطْقِ لفظ **[يخصمون]**.

- فقرأ أبو جَعْفَر: **[يَخْصِّمُونَ]** بإسْكان الخاء وتَشْدِيدِ الصَّاد بَعْدها مكسورة
- وقرأ وَرْشٌ، وابْنُ كثير، وهِشَام: **[يَخَصِّمُونَ]** بفَتْح الخاء، وتَشْدِيد الصَّاد بعدها مكْسُورة.

- وقرأ أبو عَمْرو باخْتِلَاس فتحةِ الخاء وتشْدِيد الصَّاد المكسورة بعدها.

- وقرأ قالُون كأبي جعفر، وأبي عَمْرو.

- وقرأ ابْنُ ذكوان، وعَاصم، والكسائي، ويعقوب، وخلَف: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بِكَسْرِ الخاء وتَشْدِيد الصّاد المكسورة بعدها.

- وقرأ حمْزَة: [يَخْصِمُونَ] بإسكان الخاء وكسر الصّاد دون تشديد.

وهي وجُوهٌ من الأداء في نُطْقِ اللّفظ، والمعنى فيها يخْتَصِمُونَ أو يخاصِمُون، وجميعها تدخل تحت الحروف السَّبْعَةِ الّتي أُنْزِل عَلَيْهَا القرآن مراعاةً للّهَجاتِ العربيّة.

(٥٢) سكَتَ حفْصٌ سكْتَةً لطيفة على ألف ﴿مَّرْقَدِنَا﴾ بدُون تنفُّسٍ، ولَمْ يسْكُتْ هٰذِهِ السَّكْتَة سَائر القرّاء العشرة.

(٥٣) • قرأ أَبُو جَعْفر: [إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيحَةٌ واحِدَةٌ] برفع [صَيحَةٌ واحِدَةٌ] على اعتبار أنّ «كان» تامّة تكتفي بمرفوع.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَة: ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ بنَصْبِهما على اعتبار أنّ «كان» ناقصة.

(٥٥) • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأَبُو عَمْرو: [شُغْلٍ] بإسكان الغين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿شُغُلٍ﴾ بضمّ الغين.

والقراءتان وجهان عربيان لنُطق هذه الكلمة.

(٥٥) • قرأ أبو جَعْفر: [فَكِهُونَ] جمع «فَكِه».

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ جمع «فَاكِه»، الفاكِه والْفكِهُ من كان طيِّبَ النفس، مُتَنَعِّماً بما يَسُرُّه.

فالقراءتان وجهان عربيان وهما بمعنى واحد.

(٥٦) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [فِي ظُلَلٍ] جَمْعُ «ظُلّة» وهي كُلُّ ما أظلَّ.

وقرأ باقي الْقُرَّاء العشرة: ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ جمع «ظِلّ».

ومعْلُومٌ أَنَّ مَنْ كَانَ في أجواء «ظُلّه» فهو في «ظِلٍّ»، فمؤدّى القراءتين واحد، وهما من التفنُّن في التعبير، وفي استعمالهما نكهةٌ أدبيَّة لطيفة مُسْتَساغة.

(٦١) • قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، وخَلَفٌ: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ بِكَسْر نون «أن» وهو وجْهٌ عَرَبِيّ للتخلّص من التقاء السَّكِنَيْن.

وقرأ باقي الْقُرّاء العشرة: [وَأَنُ اعْبُدوني] بضَمّ نون «أنْ» وهو وجْهٌ عربيٌّ آخر للتخلّص من التقاء السّاكنين.

فالقراءتان متكافئتان.

(٦٢) • كلمة: [جبلا] فيها قراءات تمِثْلُ وجوهاً عربيّة متكافئةً للكلمة، وكُلُّها بمعنىٰ «الْأُمَّة» والجماعة من الناس.

فقرأ نافع، وعاصم، وأبو جَعْفَر: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والياء وتشديد اللّام.

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ورُوَيس، وخلف: [جُبُلاً] بضم الجيم والباء واللّام المنصوبة دون تشديد.

وقرأ أبو عَمْرو، وابْنُ عَامر: [جُبْلاً] بضم الجيم وإسكان الباء، واللام المنصوبة دون تشديد.

وقرأ رَوْح: [جُبُلًّا] بضم الجيم والباء، وَتَشْديد اللّام المنصوبة.

تمهيد:

هذا الدرس الخامس من دورس السورة، يُعالجُ تَسَاؤُل الّذِين كَفَرُوا عن موْعِد تحقُّقِ الإنذار بعذاب الله المعجَّلِ فِي الدنيا، أو المؤجّل إلى يوم الدين بعْدَ الموتِ والبعث.

وطَرْح هذا التساؤل هو طَرْحٌ جَدلِيٌّ يُرادُ بِه الإشعار بِأَنَّهُمْ يُكذّبون بما أُنْذِرُوا به، بمعنَىٰ أنّ الإنْذارَ بالعذاب إذا لم يَقْتَرِن به تَحْدِيدُ الزَّمن الّذِي يتحقَّقُ فيه إنْزَالُه فَهُوَ إنْذارٌ وهُمِيٌّ لَا يُصَدَّق.

هكذا يُصَوّرُ الّذين كفروا قضيَّة الجزاء الرَّبَّانيّ، صانعينِ من أَوْهامهم حُجَّةً جَدَلِيَّةً، مع أنّ عقاب الله عزّ وجلّ الّذِي أنزلَهُ بكُفَّار القرون السَّابقة لَمْ يكن الإنذار بِه مقترناً بتَحْدِيدِ زَمَنِ إنزاله، إنّما جاءهم بغُتَةً وهُمْ نَائمون، أو وهم يلْعَبُون.

وأمَّا عذابُ يَوْم الدِّين فهو قضيَّةٌ خَبَرِيَّةٌ عن الله جلَّ جلالُهُ في كلّ رسالاته للناس، وعَقْلِيَّةٌ تسْتَنِدُ براهينُ العقل فيها إلى صفات اللَّهِ الجليلة، وَالغايَةِ من خلق ذوي الإراداتِ الحرَّة، في الحياة الدنيا وهي الامتحان، وحكْمَةُ الله العظيمة قاضيَة بأن الامتحان يسْتَلْزِمُ عقلاً الحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، وهذا لَا بُدَّ أن يكون بَعْدَ انتهاء ظروف الامتحان في الحياة الدنيا، وأَنْ يكُونَ في حياة أُخرى هي حياة الجزاء.

ومعْلُومٌ أنّ يوم الجزاء لا يأتي إلَّا بَعْد إنْهاء ظروف الحياة الدنيا، وقيام الساعة، وقَدْ أخْفىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ قيام السَّاعة عن كلّ مَنْ خَلَق في السماوات والأرض، وهيَ لَا تَأتي إلَّا بغتةً، ولا يتطَلّبُ الحدَثُ الغيبيُّ المستقْبَليُّ مَعْرفَةَ زَمَنِ وَقُوعه، للإيمان به، في موازِين الْعَقْل السّليم، والحجَجِ الفكريَّةِ الصحيحة، ما دامَتْ براهينُ الْعَقْل والأَخْبَارُ الدّينيَّةُ

عن اللَّهِ الرَّبِّ الخالق مُدبّر الكَوْن، ومُقَدِّر مقادِيره، ومُبْرِم قضائه فيه، قَطْعِيَّةٌ لَا رَيبَ فيها.

فالتَّشكيكُ في حقيقة من الحقائق، بِعِلَّةِ عَدَمِ مَعْرِفَةِ زَمَنِ وقوعها، تَعِلَّةٌ باطلةٌ، وليْسَ لها أساسٌ عَقْلَيٌّ صِحيح.

على أنّ ساعة كلّ إنسان تأتيه عنْد موْتِه، دون أن يَعْلَمَ بوقْت نزولها فيه، فَهَلْ يَشُكُّ ذو عَقْلٍ وبصيرة بواقع الحياة، في أنَّ موتَهُ قادمٌ لا محالة، لأنّه لا يعْلَمَ زَمَنَ مَوْته.

التدبّر:

قول الله عزّ وجل:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

الضمير في: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يَعُودُ على الكافِرين المعنيِّينَ في السّورة، الذين سبَقَ الحديث عنهم. وحَرْفُ العطف «الواو» يعطف هذه الجملة على الْجُمَلِ السابقة الّتي تحدَّثَتْ عنهُمْ، وآخرُها ما جاء في الآية (٤٧) التي هي آخر الدرس الرابع من دورس السورة.

ويبدأ الدرسُ الخامس بعَرْضِ قَوْلِ عتاة الذين كفروا في مكَّة إبَّان التنزيل، بشأن ما أُنْذِروا بهِ من عذاب الله على كفرهم، طَالِبين فيه تحديدَ الزَّمَنِ الذي سَيُنْزِلُ اللَّهُ بهم فيه هذا العذاب.

فَصِلَةُ هذا الدَّرْس بما سبَقَ من دُروس السورة صلةٌ جليَّةٌ واضحةٌ جدًّا، ولا تحتاج شرحاً ولا بياناً.

ودلَّت عبارة: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ الّتي اسْتُخْدِمَ فيها الْفِعْلُ المضارِعُ، الذِي يَدُلُّ على التكْريرِ مرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، على أنَّهم كانُوا يكرِّرُونَ مقالَتَهم مرَّة بعْدَ مَرَّة، متَّخِذين منْها وسِيلَةٍ إعلامِيَّةٍ، على الرَّغم من كونها مَقولَةً مَرْفوضةً في موازين العقول السليمة.

واسْتُعْمل في الآية لفظ «الوعْدِ» الّذي يأتي في اللّغة بمعنىٰ خبر الإنْذَارَ وخَبَرِ الْبِشَارة، لأنّ وَعِيد الكافِرين بما يُسوؤُهُمْ يَسْتَلْزِمُ وَعْدَ المؤمنين بما يَسُرُّهم

وقد يخصَّصُ في الاستعمال خبر الإنذار بلفظ «الوعيد» وخَبَرُ البشارة بلفظ الوعد.

فدَلّت هذه الآية على أنَّ عُتَاة الذينَ كَفَرُوا وأتْبَاعَهُمْ كانوا يكرِّرُون مقالَتَهُمْ للرَّسُولِ وللّذِينَ آمَنُوا في تَشْوِيشٍ إعلامِيّ مَتَىٰ هذا الوعْدُ الّذِي تُنْذِرُوننا به إنّ كُنْتُمْ صَادِقِين؟، أي: في أيِّ زَمَنٍ يَقَعُ إنْ كُنْتُم صَادِقِين في الإخبار به؟.

فجعَلُوا عدم الإخبار بالزّمن، دليلاً على عَدَمِ صِدْقِ ما تضمَّنهُ الوعْدُ الإنذاريُّ بالعذاب.

وهٰذِهِ مِنْهُمْ مُغَالَطَةٌ جَدَلِيَّةٌ سُوفسطائِيَّة، فالوعْدُ الصَّادِق بتحقيق أمْرٍ في المستقبل لا يشتَرَطُ فِيه تحديد الزّمن، ولا سيما إذا كان وعْداً بثوابٍ أو عقابٍ من الله عزّ وجل، لأنَّ الأصْلَ في مِثْلِ هذا الوعْدِ لِمَنْ هو موضوعٌ مَوْضِع الامتحانِ، أن يكُونَ مطْلقاً عن التحديد بزمن، وهذا ما تَقْتَضِيه حكمة الامتحان في حياةٍ لا يعْلَمُ فيها الممتَحَنُ متىٰ تَنْتهي.

* * *

قول الله عز وجل:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

تمهيد:

جاء في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ مُعَالجةٌ لمقالة الّذِينَ كفرُوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أنَّه لمّا لَمْ تكن مقالتُهُمْ هٰذِهِ مُقْتَرِنَةً بحُجَّةٍ ما، مهما كانت ضعيفة، حتَّى تُدْفَعَ بالحجَّةِ البرهانيَّةِ الدَّامِغَة، إذ مقالَتُهُمْ قائمة على ادّعاء لزوم اقتران الوعيد بالعقاب الذي تؤيْده البراهين، بتَحْدِيدِ زمن وقوعه في المستقبل، لم تكن هذه المقالة مؤهّلة لدفعها بحجَّةٍ ما.

إنّ الإدّعاء الذي اشتملت عليه مقالتهم لا دليل عليه من الْعَقْل، ولا دَليل علَيْه من واقع الأخبار الوَعِيدِيَّةِ، الَّتِي تَصْدُرُ عن ذوي السُّلْطانِ في الأرض، فذُوُو السُّلطان قَدْ يُنْذِرُونَ الْعُصَاةَ الخارجين على قانونهم بمفاجأتِهِمْ بالعقاب متَىٰ شَاءُوا، دُونَ أنْ يُحَدِّدُوا زَمناً معيَّناً لهٰذِهِ المفاجأة، ولا يُوجَدُ واحِدٌ لدَيْه فكرٌ سَلِيمٌ يَقُولُ لذوي السُّلْطَان، أو للمبَلِغين عَنْهم من المعتمدِين لدَيْهم: إنْ كنتُمْ صادقين في إنذاركم لنا فَحَدِّدُوا لنا زَمَنَ وُقوعه.

إنّ النّاس لا يسْتطيعون التَّطَاولَ على ذوي السُّلْطان من النّاس، بطَرْحِ مثْلِ هٰذه المقالَة علَيْهم، إذْ يخْشَوْنَ أن يُسارعُوا إلى الانتقام منهم، وأنْ لا يُمْهِلُوهم.

لكنّ الذين كفروا قد أطمعهم بالتطاوُل على رُسُلِ ربّهم، والمبلِّغين عنهم أنّ من سُنَّة الله جلَّ جلالُه أن يُمْهِلَ عبادَه، ولَا يُعاجِلَهُمْ بالعقاب، ليَمْنَح كلَّ واحِدٍ منْهم في امتحانِهِ في الحياة الدنيا، كلَّ الزَّمَنِ الذي قضاه لامتحانه، مع الإمهال والتَّوْسِعَةِ لَهُ في العمر بحَسَبِ الفِطْرَة الّتي فطَرَهُ عليها، وتختَلِفُ أزمان امتحانِ الممتَحَنِين المكلَّفِينَ بَحَسَبِ اخْتِلَافِ الْفِطَرِ النَّفْسِيَّةِ الَّتي فُطِرُوا عليها.

وإِذْ ليْسَ في مقالَةِ الّذين كفروا حجَّةٌ ما مهما كانت ضعيفةً، حتى تدفع، كانت المعالجة القرآنية لهم، مقتصرة على توجيه تَهْدِيدٍ لهم باحتمال مُفَاجأتهم بمُهْلِكةٍ ربّانية غير مرتَقَبة، تأتيهم وهم يتخاصمون فيما بينهم على

مصالح ومنافع وحقوقٍ ومبادلاتٍ ومنافساتٍ من أمور الحياة الدنيا، وعلاقاتٍ فيما بينهم حَوْلها، فإذا جاءتْهُمْ هذه المهلكةُ الرَّبانيَّةُ وهم في أماكن أعمالهم، ضربتهم ضربةً لم يسْتطيعوا معها أن ينْطِقُوا بوصيَّةٍ يوصُون بها ورثتَهُم، في قضايا يُهِمُّهم جدًّا أن يوصُوهم بها، وسَقَطوا صَرْعَىٰ في أماكن أعمالهم، أو أماكن لَهْوِهم، ودون أن يتمكَّنُوا من الرُّجوعِ إلى أهليهم، حتّىٰ يكون موتُهُمْ فيما بينَهُمْ.

التدبرّ:

- ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ٤٩﴾:

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾: أي: ما ينْتَظِرُونَ، يقال لغة: نظَرَ الشَّيءَ وانتظره، بمعنى: تَرَقَّبَ حصولَه، أو حُصُول ما يُتَوَقَّعُ مِنْه، أو يُطْلَبُ منه، أو نحو ذلك.

وهذا المعنى هو أَحَدُ معاني كلمة «نَظَر» وتأتي بمعنىٰ توجيه الْبَصَرِ لرؤية الشيْء بالْعَيْن، وبمعنى توجيه الفكر لمعرفة الشيءِ.

﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: **الصيحة**: الصّياح بصَوْتٍ عالٍ يبلُغ أقْصَىٰ ما يستطيع الصَّائح.

وصيْحةُ العذاب الرَّبانيّ صوتٌ عظيم يميت الأحياء، وقد يُدَمّر الأشياء.

وقد أَهْلَكَ الله عزّ وجلّ أُمماً كثيرة بالصَّيحة، منهم عادٌ قوم الرسول هُودٍ عليه السّلام، ومنهم ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام، وقوم لوطٍ عليه السّلام، وقوم شعيب عليه السلام، وأصحاب القرية الّتي جاءها المرسلون الثلاثة.

وقد أثبتَتِ الدراسات الإنسانية أنّ الصّوت العظيم قاتِلٌ، وقد يُدَمّر.

ووصَفَ الله عزّ وجلّ الصيحة بقوله: ﴿وَٰحِدَةً﴾ للدّلالَةِ على أنَّ إهلاكهم يكفي له صيحةٌ واحدةٌ.

﴿تَأْخُذُهُمْ﴾: أي: تُهْلِكُهُمْ وتميتُهم، فإهْلاكُهُمْ قَدْ أَطْلَقَ الله عزّ وجلّ عليه عبارة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ لأنّها تأخُذُهم من الحياة، وتجْعَلُهُمْ صَرْعَىٰ هَلْكَىٰ، لا يسْتَطِيعُونَ أن يَمْلِكُوا من أنْفُسِهِمْ شيئاً.

أصل الأخذ في اللّغة: معناه تناوُل الشيْءِ، والقبض عليه وحيازته، ويَحْمِل الأخْذُ في الاستعمال معنَىٰ ما يُؤْخذ له الشيء، فأخذ المذنب يحمل معنى معاقبه بذنبه، ولو لم يحْصُلْ أخْذٌ جسَدِيٌّ له، والإهْلاكُ أخْذٌ عقابي للمهْلَكِ، وفيه يكون أخْذُ حياته منه، مع تعذيبه.

وقد يسْتَعْمَلُ الأَخْذُ في الأشياء المعنويّة، كأخْذِ الْعَهْدِ والمثياق.

﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾: أي: تَأْخُذُهُمُ الصَّيْحَةُ، والحالُ أنَّهم يتَبادلُون الخصُومَانِ فيما بينهم على شؤُون دُنياهم، فتُبَاغِتُهُم، ويكون بها إهلاكُ اللَّهِ لهم.

فالمعنى: إنّ كَانُوا ينْتَظُرونَ جوابَ سُؤَالهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ حتى يُؤْمِنُوا ويتَّبِعُوا الرَّسُول، ويَعْمَلُوا بما جاءهم به من عند رَبّهم، وهم في ذلِكَ كاذبون يتعلَّلُون تعلُّلاً جدليًّا، فإنَّهُمْ في الواقع لا يَنْتَظِرُون إلّا تَحْقِيقَ الوعْدِ وتنفِيذَهُ بِمُهْلِكَةٍ عاجِلَةٍ، ثمَّ بعذابِ يومِ الدّين على ما قَدَّمُوا في الحياة الدنيا من كُفْرٍ وعِنادٍ، وبُعْدٍ عن سبيل الرَّشاد، وبغْيٍ وفَسَادٍ وإفسادٍ، وظُلْم للعباد.

فالله جلَّ جلالُه وعزَّ سلطانه لَنْ يُحَدِّد لهم زَمَنٍ تنفيذِ وَعِيدِه بعذابهم ومعاقبتهم وما أنْذَرَهم به من عقاب عاجلٍ في الحياة الدنيا، إذْ قَضَتْ حكمتُه في عباده أنْ لا يُحَدِّدَ لهم هذا الزمن.

وحينما يأتي الأمْرُ الرَّبّانيُّ بإنفاذه يأتِيهم بغتَةً وهُمْ لَا يَشْعُرُون.

- ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾:

أي: فإذا باغَتَتْهُمُ الصَّيْحَةُ العظيمة بالإهلاك، أهْلَكَتْهُمْ في مواقعهم الّتي يخْتَصِمُونَ فيها، بَعِيدِين عن أَهْلِهِمْ وَذَوِيهم فوراً، فسَقَطُوا صَرْعَىٰ، دون أنْ يسْتَطِيعُوا توصِيَةَ أُحدٍ بما يحبُّونَ أن يُوصُوا به قَبْلَ لحظة موتهم، ودون أنّ يستَطِيعُوا الرُّجُوع إلىٰ أَهْلِهم بوَسِيلَةٍ من الوسائل.

جاء التعبير عن فوريَّةِ الإهلاك بما يُسوؤُهم من لوازمها، إذْ من لوازم فوريَّة الإهلاك أن لا يسْتطيعُوا توصيةً ما، ولا الرجُوعَ إلى أَهْلِهِمْ ليكون موتُهُمْ بين من يُحِبُّهُمْ، بل يُهْلَكُون بين مَنْ يخاصِمُونهم.

* * *

قول الله عز وجل:

- ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾.

تمهيد:

تنتقل هٰذه الفقرة من الدرس الخامس إلى تقديم مشاهد ممَّا سَوفَ يكون بعْدَ البعث، وطُوِيَ في النصّ الحديث عن البرزخ، وهو الفاصل الزمنيّ بين الموت والبعث، لأنّ الإحساس بزمنه لا وُجُود له في نفوس من هُمْ في البرزخ موتى، مع وجود الإحساس بما تَلْقَاهُ النفوس فيه من عذابٍ أو نعيم دون شعورٍ بمرور الزَّمن.

وكانت الفِقَرةُ السّابقة لها في الدرس قد دارَتْ حول احتمالِ إهلاك الله الكافِرين الّذين يقولون بتكرارٍ للرَّسُول وللمبلّغين عنه: ﴿...مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾؟

بالصيحة المهلِكَة وهُمْ يتخاصَمُونَ من أجْلِ دنياهم.

وهذا الانتقالُ المفاجئ إلى عرض لقطاتٍ من لحظات البعثِ فما بَعْدَها، يُشْعِرُ بأنّ حقائق يَوْم الدِّين في خُطَّةِ الخلْقِ الرَّبَّانِيَّةِ لَا تَهْتَمُّ بِتشكُّكِ المتشكِّكين، ولا اعتراضات المعترضين، ولا جحود الجاحِدين، بلْ تجري في أوقاتها وبحسَبِ مقادير الله فيها، غيْرَ عابئةٍ بمخالف أو معترضٍ أو ناقدٍ، أو مُكذِّبٍ أو جاحد، فكُلُّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ اللَّهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعزّ سُلْطَانُهُ ـ ثابتٌ مُسْتَقِرٌّ، علَىٰ ما تمَّ به الْقَضَاء والْقَدر.

التدبّر:

قول اللَّهِ تَعَالَى:

- ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾:

جاء في هذه الآيَة بيانُ النفخة الثانيةِ في الصور، وهِيَ النفخة التي يخرج بها الموتَىٰ من الأرض، الّتي كانَتْ مقابِرَ أجْسَادِهم، أحياءً يَنْسِلُونَ إلى أرض المحشر، ليُلَاقُوا حِسَابِهم، وفَصْلَ القضاء بينهم، ثم ليُلَاقُوا جزاءهم، في جنَّاتِ النعيم، أَوْ في دار العذاب الأليم.

أمّا النفخَةُ الأولى في الصُّور فيكُونُ بها إمَاتَةُ الأحياء الّتي لم تَكُنْ قَدْ ماتَتْ في الأرض وغيرها، وذلِكَ عنْد قيام الساعة الّتي تَنْتَهِي عِنْدَهَا ظُرُوف الحياة الدنيا، إلّا ما شاء الله.

- ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾: **النفخ**: دفع الريح بقوّة من الفم أو آلة نافخة، وبهذا النفخ قد يحدُثُ صَوْتٌ ما بحَسَب الآلَةِ الّتي جَرَىٰ النفخ فيها.

الصُّور: مخْلُوقٌ من مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ كَهَيْئَةِ الْقَرْنِ، إحْدَىٰ جهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دائريَّةٌ ضَيِّقة، وفي الجهة الأخرىٰ فُتْحةٌ واسِعَةٌ، وباطِنُه فارغ، يمكن أن يُنْفَخَ فَيُصْدِرَ صوتاً بَحَسب خصائص تكوينه.

وجاء في السُّنَّةِ النبويَّةِ بيانُ أَنَّه كَبُوقٍ عظيم تأوي فيه أَرْواحُ الموتى. وجاءَتْ تسْمِيَتُه فيها أيضاً باسْمِ الْقَرْنِ، لأنّ الْبُوقَ يُشْبِهُ الْقَرْنَ المجوّف، الّذِي لَهُ فُتْحَتَانِ، إحداهما صُغْرَىٰ تُلْتَقَمْ للنفخ منها، والأخرىٰ كبرى لنَشْرِ الصّوت في مخْتَلِفِ الجهات.

وذكر البخاريُّ عن مجاهِدٍ أنَّ الصُّورَ كالْبُوق، وذكَرَ المفسّرُونَ أنّهُ قَرْنٌ من نور يُجْعَلُ فيه أرْواح الخلائِق ذوات الأرْواح.

وجاء في القرآن تَسْمِيَةُ الصّور أيضاً باسْم الناقور، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

ومن معاني النَّقْرِ في اللُّغَةِ إطْلَاقُ الصَّوت، ويقال لُغةً: نَقَرَ بِفُلانٍ إذا دعَاه.

فالناقُور هو الأداة الْمُصَوِّتَةُ العظيمة، الّتي يُنَادَىٰ بها، ويُدْعَىٰ بها إلى أَمْرٍ ما، وإطلاق الصَّوْتِ مِنْهُ يكونُ بالنفخ.

وقد جعَلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ مَلَكاً خاصّاً يَقُومُ بوظيفة النَّفْخِ في الصور، وورَدَ أنّه إسرافيل عليه السلام.

- روى الترمذي بسَنَدِه عن عبد الله بْنِ عَمْرو بن العاص، قال: جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيّ ﷺ فقال:

ما الصُّورُ؟

قال: «قَرْنٌ يَنْفَخُ فيه». [قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن].

- وروى الترمذيّ أيضاً عَنْ أبي سَعِيدِ الخدْريّ قال: قال رسُولُ الله ﷺ:

«كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْأُذْنَ، مَتَىٰ يُؤْمَرُ بالنَّفْخ»؟!.

فكأنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلىٰ أصْحَابِ النبيِّ ﷺ، فقال لهم قولُوا:

«حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ». [قال الترمذي: حديثٌ حسن].

• وعن عبد الله بن مَسْعُودٍ أنّ مَلَكَ الصُّور يقُومُ بيْنَ السَّماءِ والأرض، فينْفُخ فيه، فَلا يَبْقَىٰ لِلَّهِ خَلْقٌ في السماواتِ والأرض إلّا مات، إلَّا مَا شاء رَبُّكَ، ثُمَّ يَكُونُ بَيْنَ النفختين ما شاء الله أن يكون، فلَيْسَ من بني آدمَ خَلْقٌ إلَّا وفي الأرض شيءٌ منه.

وصَحَّ عن النبي ﷺ أنَّ كلَّ شيء في جَسَد الإنسان يفْنَىٰ إلَّا عَجْبَ الذَّنب، ومِنْهُ (أي: من جزء صغير جدًّا مِنْهُ» ينْبُتُ جَسدُهُ إلى الحياة الأخرى.

وهذا الذي رُوي عن ابْنِ مَسْعُود لا يُقال من قبَلِ الرَّأي والاجتهاد في فهم النصوص، فإذا صحَّ عنه قبِلْنَاه، فابْنُ مَسْعُودٍ من أجلاء الصحابة الثقات.

• ﴿.. فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾: أي: وَنُفِخَ في الصُّورِ النَّفْخَةُ الثانية، فيُفَاجَأُ الْمَوْتَىٰ بأَنَّهم يخْرُجُونَ إِلَىٰ الحياةِ مَرَّةً ثانية، لمُلَاقَاةِ ما وُعِدُوا به من حسابٍ، وفَصْلِ قضاءٍ، وتَنْفِيذُ جزاء.

• ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: من الْقبور، جمع «جَدَث» وهو الْقَبْرُ في لسانِ العرب، والمراد بالْقَبْر مَكَانُ وجُودِ نَوَاةِ نبات أجسادهم في الأرض، داخِلَ عَجْبِ الذَّنب.

• ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أي: إلى حسَابِ ربّهم على ما أسلَفُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الأولى، وإلى فَصْلِ قضائه، ثم إِلَىٰ تَنْفِيذِ جزائه.

• ﴿يَنسِلُونَ﴾: أي: يُسْرِعونَ في المشّي، يقال لغة: «نَسَلَ الماشي يَنْسِلُ وَيَنْسُل نَسْلاً ونَسَلَاناً» أي: أسرع في مشيه.

قال اللَّيْث: النَّسَلَانُ مِشْيَةُ الذِّئْب إذَا أسْرَع، والنَّسَلَانُ إسراعٌ في المشي دُون السَّعْي.

ورُوي أنَّ الصَّحابَةَ في أحَدِ الأسْفارِ شَكَوْا إلى الرسُول ﷺ الإعْياءَ والضَّعْفَ، فقال لهم:

«عَلَيْكُمْ بالنَّسْل» وجاء في رواية أخرى أنّه قال لهم: «عَلَيْكُمْ بِالنَّسَلَانِ» أي: بالإسراع في المشي «عن لسان العرب، مادة نسل» وهذا النَّسَلَانُ للمبْعُوثين يوْمَ الدِّين يكُونُ بَعْدَ أنْ يَنْبُتُوا في الأرض كما يَنْبُتُ الْبَقْل، وبَعْدَ أن تَعُودَ أرواحُهُمْ إلىٰ أجْسَادِهم.

رُوِي عن أبي هُرَيْرَة عن النبيّ ﷺ:

«أنّ اللَّهَ يُمْطِرُ على الموتَىٰ مَاءَ الحيَاةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ الْأَجْسَادَ فَتَنْبُتُ كَنَبَاتِ الطَّرَارِيثِ⁽¹⁾، (وهو نَباتٌ كالْفِطْر) وكَنَبَاتِ الْبُقُولِ، حتَّىٰ إذَا اكْتَملَتْ أَجسَادُهم، فَصارَتْ كَمَا كَانَتْ، أمَرَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ حَمَلَةَ الْعَرْش أنْ يَحْيَوْا فَيَحْيَونَ، ثُمَّ أمَرَ بِأَن يَحْيَىٰ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وإسْرَافِيلُ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ إسْرَافيل، فَيَأْخُذُ الصّورَ، ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ الأرْواحَ، فَتَأْتِي أَرْوَاحُ الْمُسْلِمِينَ تَتَوَهَّجُ نُوراً، وَتَأْتِي الْأُخْرَىٰ مُظْلِمَةً، فَيَأْخُذُها اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ، فَيُلْقِيهَا فِي الصُّور، ثُمَّ يَأْمُرُ إسْرَافِيلَ بِأَنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ، فَيَنْفُخُ فَتَخْرُجُ الأرْوَاحُ كُلُّهَا كَأَمْثَالِ النَّحْلِ، قَدْ مَلَأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ: وَعِزَّتِي وجَلَالِي، لِيَرْجِعْ كُلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِه، فَتَدْخُلُ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَرْضِ إِلَىٰ الْأَجْسَادِ».

وجاء فيها أيضاً: أنَّ الرَّسُول محمَّداً ﷺ أوّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ

---

(١) **الطَّرَارِيثُ**: جمعٌ مفرده «**الطُّرْثُوث**» وهو نبات طُفَيليٌ من الفصيلة السّنومورية، ومنه نوع طويل مُسْتَدِق كالفطر ينْبُت في بادية مصر، وحول بحر الرُّوم (المعجم الوسيط).

الْأَرْضِ، وَأَنَّ الرِّجَالَ يَخْرُجونَ شباباً كُلُّهُمْ أَبْنَاءُ ثَلاثٍ وثلاثين، وأَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾(١). واللَّهُ أعلم.

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ . . . ۝٥٢﴾:

أي: فإذَا خَرَجُوا مِنَ الأجْدَاث إلى رَبِّهم يَنْسِلُون، وفاجَأَهُمْ ما هُمْ فيه، قالُوا هذا القول.

- ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: **الويلُ**: يأتي في اللُّغة بمعنى الحزْنِ والهلاك، والمشقة من العذاب.

قال ابنُ سَيدة: «وَيْلٌ» كَلِمةُ عذاب، وهي كذلك عند النحويّين واللُّغويّين، ويقابلُها كلمة «وَيْح» الّتي هي كَلِمَةُ تَرَحُّم.

وفي النُّدْبَة يقول القائل: «يَاوَيْلَتِي» و«يَاوَيْلَتَا» ويَقُولُ النَّادِبُونَ: «يَاوَيْلَنا».

وهذا النداء هو على معنَىٰ التَّوَجُّع، والتفجُّع، والتخوُّفِ من العذاب المرتقب.

فالكافرون حين يُبْعَثُونَ ويَخْرُجُونَ سِراعاً إلى حِسَاب رَبّهم يُدْرِكُون صِدْق مَا كان قَدْ أَخْبَر به المرسَلُون، فلم يُؤمِنوا به، ولم يَعْمَلُوا بمقتضاه، ويُدْرِكُون أنَّهم يَسْتَحقُّون بمقتضى الوعيد السّابق أن يكونُوا من أهل النّار، فيُنَادُونَ خَوْفاً، وهلعاً، وحُزْناً: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: أي: يَا حُزْننا ممَّا سَنَلْقَىٰ مِنْ مشَقَّةٍ وعذابٍ أَليم.

---

(١) انظر «التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة» للقرطبي ص(٢٠٤ ـ ٢٠٥).

وحينَ يُبْعَثُونَ لَا يَشْعُرُونَ إلّا أنَّهم كَانُوا في مثْل نَوْمةٍ كانوا يَنامُونَها في الدُّنيا قبلَ مُنْتَصَفِ النَّهارِ، أو بَعْدَ منتَصَفِه، فكَأنّهم لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ المْوتِ والبعث إلّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاها.

أمّا العذابُ الّذِي ذاقُوهُ في مُدَّةِ البرْزَخِ فشُعُورُهم نَحْوَهُ بَعْدَ البَعْث يُشْبِهُ شُعُورَ من مَرَّتْ بِهِ في نَومه أحْلَامٌ مؤلِمَةٌ جدًّا باقيَةٌ في ذاكِرَته.

- ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟: إنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ يَنْدُبُوا أَنْفُسَهُمْ بالْوَيل خَوْفاً وَحُزْناً وَهَلَعاً، يقولُون هذا القول.

البعْث: يأتي في اللّغة بمْعنَىٰ الإحياء من الموت، ويأتي بمعنَىٰ الْإيقاظِ من النوم.

المرْقَدُ: المكانُ الّذِي يَنامُ فيه النَّائم، ويُطْلَقُ بَمعْنَىٰ الرُّقاد، على أنَّه مَصْدَرٌ ميميّ. **الرُّقَاد**: هو النَّوم، يقال لغة: «رَقَدَ، يَرْقُدُ، رَقْداً، ورُقُوداً، وَرُقاداً»: أي: نَامَ.

لقد كانَ الموتُ بالنسبة إلى إحساس نفوسهم بمثَابَةِ النَّوْم، وحينَ البعْثِ تَعُودُ إليهم مشاعِرُهُمْ الّتي كانوا علَيْها قَبْلَ الموت، فيقولُون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟!: أي: مَنْ أيْقَظنا مِنْ نَوْمِنا؟.

وعَقِبَ هذا التَّساؤُل يُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ في مَوْقف حَشْرٍ. يُسَاقُونَ حُفَاةً عُراةً إلَىٰ حِسَابِ رَبِّهم، وفَصْلِ قضائِه بَيْنَهم، ثم إلَىٰ تَنْفِيذ جزائِه بالعقاب أو بالثواب، بحَسَبِ حالِ العبْدِ الّذي كان مَوْضوعاً في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

* * *

قول الله تعالى:

﴿... هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢﴾:

هذا جوابُ تَسَاؤُلِهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟!. وهو إمَّا أنْ يكون اعْتِرافاً صادراً عن أصحاب التساؤلِ أنْفُسِهم، بعْدَ أنْ شَهِدُوا أنَّهُمْ في موقف حشْرٍ، وبعد أنْ أدْرَكُوا أنَّهُمْ في الحياة الأخرىٰ الْتي كانُوا قدْ وُعِدُوا بها فكَذَّبُوا رُسُلَ ربّهم، وكَذَّبُوهم بما أَخْبَرُوهُمْ به عن يَوْمِ الدّين، وَإِمَّا أنْ يكونَ جواباً يَتَلَقَّوْنَهُ مِنْ غيرهم، كَبعْضِ المؤمنين، أو الملائكة الذين يَسُوقونَهُمْ إلى مَحْشَرِهِمْ، وإلى مَوقفِ حسابِهم، وقد يكون جواباً صادراً منْهُمْ، ومِنَ المؤمنين ومن الملائكة.

أي: هذا هو البعْثُ إلَىٰ الحياة الأخرى، بَعْدَ الموت والفناء، وهو الأمْرُ الَّذِي كَانَ وَعَدَهُ الرَّحْمَنُ عِبادَهُ، إذْ كانُوا في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الحياةِ الدنيا، فكَذَّبَ به الكافِرُونَ، ولَمْ يُصَدِّقوا رُسُلَ رَبّهم، لكنَّهُ بَعْدَ أنْ صَارَ واقعاً مَشْهُوداً فقد ظَهَرَ أنَّهُ قَدْ صَدَقَ المرْسَلُونَ فيما كانوا قد أَنْبؤُوا بِه عن ربِّهِمْ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

* * *

قول اللَّهِ تعالى:

- ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ۝٥٣﴾.

أي: ما كانت وَسِيلةُ إحضارِ المحضَرِينَ إلى محكمَةِ الْعَدلِ الرَّبّانيّة يوْمَ الدّين إلَّا صَيْحةً واحدةً، فكانَتْ المفَاجَأةُ لهم أنّهم جَمِيعاً مجتَمِعين غَيْرَ مُتفرّقِين لدَىٰ رَبِّهِمْ مُحضَرُونَ، تَسُوقُهُمْ الملائكة، فلا تُبْقِي أَحَداً منهم دُونَ أن تَسُوقَهُ وتَضُمّه إلى جَمْع المحضرين لمحكمة العدل الرّبّانية.

ودلّت «إذا» الفجائيَّة على السُّرعة العظيمة الّتي يتمُّ بها الإحضار بالصَّيْحَة.

ويَبْدُو لي أنّ المرادَ بهٰذِهِ الصيْحَةِ نداءٌ تُحْشَرُ بِه الخلائق إلى مواقفِ حسابهم بيْنَ يَدَيْ رَبّهم.

﴿مُحۡضَرُونَ﴾: أي: يُؤْتَىٰ بِهِمْ حَتَّىٰ يَحْضُرُوا مَوَاقف حسابهم بين يدي رَبّهم، وفَصْلِ القضاء بينهم، تمهيداً لتنفيذ الجزاء الذي يقضي به الله لهم أو عليهم.

* * *

قول الله تعالى:

- ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

أي: فالْيومَ الّذي هُو يَوْمُ الحِسَابِ، وفَصْلِ القَضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء الرَّبّانِيّ، لَا تُظْلَمُ نفْسٌ ما شيئاً، بزيَادَةِ العَذاب على مَا قَدَّمَتْ منْ شَرّ، أَوْ بنُقْصَانِ الثوابِ عمَّا وُعِدَتْ به من أجْر على فِعْلِ خيرِ، أو عَمَلٍ صالح، ظاهرٍ أو باطن.

ويخاطِبُهُم اللَّهُ يَوْمَئِذٍ بقوله:

﴿... وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

أي: وَلَا تُجْزَوْن جزَاءَ عقابٍ إلَّا جزاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، تَطْبِيقاً للقانون الرَّبّاني: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ فاطر/ ١٨ والقانون الرَّبّاني: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ﴿٤٠﴾﴾ غافر.

ولكن يَدْخُلُ في وِزْر المكلّف آثار عَمَلِه أو إضلالِه أَوْ إغوائِه في كُلّ من تأثّر به، فآثَارُ الأوْزَارِ هي من الأوزار.

أمّا الجزاءُ بالثّوابِ فمِن البَدِهي أن لا يُظْلَمَ أَحدٌ فيه، لأنَّ الحسَنَةَ عند الله تُضَاعَفُ إلى عشَرَةِ أمثالها، إلى سبعمئة ضعف إلَىٰ أضعاف كثيرة لا يَعْلَمِها إلّا الله.

* * *

قول الله تعالَىٰ:

- ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ (٥٨)﴾.

عرضَتْ هٰذهِ الآياتُ الأربَعُ لوْحَةً تصويريَّة لمشهد من أحوال المتقين أصحاب الجنَّة في الجنَة، بَعْدَ فَصْل القضاء بشأنهم، وإدْخالِهِمْ الجنَّةَ جزَاءَ مَا قَدَّمُوا منْ إيمانٍ وعَمَلٍ صالحٍ، أو إدْخالِهِمْ الجنَّةَ بغَيْرِ حِسَابٍ، إذْ كانُوا من السّابقين المقرَّبين.

وفي هٰذِهِ اللّوْحَةِ التَّصْوِيريَّة، المتعلِّقَةِ بِمَشْهَدٍ من مشَاهِدِ أهْلِ دَارِ النَّعيم يَوْمَ الدّين، ثمانيَةُ مَقَاطِع:

المقطع الأوّل:

يُصَوّرُ أنّ أصْحَابَ الجنَةِ الملازمين لها، والمنَّعمِين فيها، هُمْ في شُغُلٍ فَاكِهُونَ، أيْ: هم في عَملٍ ما مِنَ الأعْمال الّتِي ينالُونَ بها نَعِيمَهُمْ، ويَحْصُلُونَ بها على لذّاتِهم الّتي يَطْلبُونَها، وتَشْتَهِيها نفوسُهم.

وهذه الأشغال الّتِي ينَالُونَ بِها أنواعَ نعيمهم، من مطاعِمَ ومشاربَ ومنَاكِح وغيرها تشْغَلُهُمْ، وتَمْلأُ فراغَ أزْمانهم عمَّا سِوَاها، فلا هَمَّ يُقْلِقُهم، ولا حُزْنَ يُقْعِدُهم عَنْ أعْمالِ نَعِيمهم.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ أصْحابَ الجنَّةِ لَا تأتيهم أنواعُ نَعِيمِهِمْ، وأنواعُ لَذَّاتِهم وهُمْ سَاكِنُونَ لَا حَرَكَةَ لَهُمْ وَلَا عَمَلٍ، بلْ هم ينفقون طاقاتهم الّتي تُمِدّهم بها الأغْذِيةُ في أشغالٍ إرادِيَّةٍ محبَّبَةٍ لهم، وهي جزءٌ مِنْ نعيمهم فيها، فالنعيم الذي يحصل عليه ذو الطّاقَة بعَمَلِه الّذِي يَشْغَلُهُ عَمَّا سِوَاهُ أعْظَمُ وَأكْبَرُ من النّعيم الّذي يأتيه وهو ساكِنٌ لَا يَعْمَلُ في تحصِيله.

إنّ إنفاق الطّاقاتِ في تناوُلِ أسْبَابِ النّعيم وتَحْصِيلِ لذّاتِه، هو من النّعيم الذي يُضاعفُ اللَّهُ به النعيم.

أصْحَابُ الجنة: هم ملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه، ومستحقوها.

أصْحاب: جمع «صَحْب» وهذا جمع «صاحب» والصاحب في اللّغة هو المعاشر المخالط المرافق، والمستحق والمالك، وهذان من التوسُّعات اللّغوية.

«الشُّغْلُ، والشُّغُلُ، والشَّغْلُ والشَّغَلُ» لغاتٌ بمْعنَىٰ العمل.

دلَّتْ على هذا المقطع عبارة: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٍ﴾.

المقطع الثاني:

أنّ أصحابَ الجنَّةِ في الجنَّةِ فَاكِهُونَ، أي: ناعِمُون، فرحون، مَسْرُورون ضاحكون، يَسْعَدون بلذّاتِهم طيِّبَةً بهَا نُفُوسهم، مَعْجَبُونَ بما آتاهُمْ رَبُّهُم، وكذلك «فَكِهُونَ» كما جاء في القراءة الأخرى.

الْفَاكِهُ والْفَكِهُ في اللّغة: هو من يَعِيشُ فَرِحاً مَسْرُوراً، أوضاحكاً طيِّبَ النَّفْس، نَاعِماً بمَا ينَالُ من نعيم، يتلَذَّذُ باللّذاتِ، ومن كان كذَلك سَرَّتْهُ المضحكاتِ المثيرة للعَجَب.

والْفَكِه: هو الّذي يأتي بالنّكاتِ والنوادِر المضحكة المثيرة للإعجاب.

دلّ على هذا المقطع وصْفُهم بأنهم: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ في الآية (٥٥).

المقطع الثالث:

أنّ أصْحَابَ الجنَّةِ في الجنَّةِ يتَنعَّمُونَ بصُحْبَةِ أَزْواجِهم من الحور العين، وأزواجهم المؤمنات اللّواتي جَعَلَهنَّ الله عزّ وجلّ بإيمانهِنَّ من أهل الجنَّة.

دلّت على هذا المقطع من النّصّ عبارة: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾.

المقْطَعُ الرابع:

أنَّ أصْحَابَ الجنةِ في الجنَّةِ يَكُونُونَ في ظلال دائم من أشجار الجنَّةِ وقُصُورها، فَلا تُؤْذِيهم أشِعَّةُ شَمْسٍ بحرارَتِها وَوَهجها. ويَكُونون في ظُلَلٍ سَواتر، كما جاء في القراءة الأخرى.

الظُّلَلُ: جَمْع «ظُلَّة» وهِيَ كُلُّ مَا عَلَا فَأظَلَّ، مثل المظلَّاتِ على اختلاف أشْكالها وأنواعها، ولو كانت لحجْبِ الأنْظَارِ أو للزينَة.

دَلَّتْ على هٰذا المقْطَع من النّصّ عبارَة: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ و[**في ظُلَلٍ**] كما جاء في القراءة الأخرى.

المقطع الخامس:

أنّ أصْحابُ الجنَّةِ في الجنَّةِ على الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُون.

قال المفسّرون: الأرائكُ هي الأسِرَّةُ فِي الحِجَال.

الحِجَال: جمع «حَجَلَة» وهي ساترٌ كالقبَّة يُزَيَّنُ بالثّياب والسُّتور للعروس، وسِتْرٌ يُضْرَبُ للعروسِ في جوف البيت.

وتطلقُ الأريكةُ في اللّغَةِ على كلِّ مَقْعَدٍ مُنَجّدٍ وثير، وعلَىٰ كلّ سَرِيرٍ عليه فراشٌ أَوْ فُرُشٌ مُنجَّدَةٌ وثِيرَة، وقد يكون فوقَهُ حَجَلَةٌ ساترةٌ مزيَّنة.

ومن هذا نستطيع أن نتصوّر أنّ أرائك الجنَّةِ مقاعِدُ وأسِرَّةٌ عظيمة، ومِنْها ذواتُ حِجالٍ عظيمة الرّفاهية.

﴿مُتَّكِئُونَ﴾ جمع «مُتّكِئٍ» وهو القاعد المتمكّن من قُعُوده، إذْ يضَعُ كُلَّ ثِقَلِهِ على الأريكَةِ الّتي يَقْعُدُ عليها، ويُلْقِي ثِقَلَ يدَيْهِ علىٰ مَا يَحْمِلُهُما منْها، كذِراعَيْنِ مُنَجَّدَيْن أوحَشِيَّتَيْن، أَوْ نحو ذلك.

ومن الاتكاء الاضطجَاعُ علىٰ جَنْبٍ، فهو وسَطٌ بين الاضطجاع الكامل والجلوس.

والمترفون يحبّون الاضطجاعَ على جَنْب راحةً أو كبْراً.

دلَّ على هذا المقطع وصفهم في النَّصّ بأنّهم: ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾.

المقطع السادس: أنّ أصحاب الجنَّةِ في الجنَّةِ لَهُمْ فيها فَاكِهَةٌ، أي: لَهُم فيها فَاكهة كثيرة الأنواع والأصناف، وكثيرة الكَمّ والمقادير بحَسَب ما يَرْغَبُون.

دلّت على هذا المقطع من النّصّ عبارة: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ ودلَّ التنكيرُ في لفظ: ﴿فَـٰكِهَةٌ﴾ على أنّها فاكِهةٌ كثيرة الكَمِّ، وكثيرة الأنواع والأصناف، فحذف صفة الاسم المنكّر قد يَدُلُّ مع القَرائن على التعميم والتكثير، أي: فاكهةٌ من كلّ الأنواعِ ومن كلّ الأصناف، وكثيرة جدًّا تفيضُ فوق رغباتِ الطالبينَ المتنعِّمِينَ بها.

وجاء في نُصُوص أخرى، أنَّ لهم من المطاعم غير الفاكهة، ما يشتَهُون، كلحمِ طيرٍ مشويّ وغير ذلك.

المقطع السابع:

أنّ أصحابَ الجنّةِ ذكوراً وإنَاثاً لهم فيها ما يَدَّعُونَ، أي: لهم فيها ما يَتَمَنَّون، من رغائب بَعِيدَةِ المنَالِ، أو متعذّرَةٍ في تصوُّرهم، لكِنَّ أَمَانِيَّ أَهْلِ الجنَّةِ سَهْلَةٌ مَيْسُورَةٌ، لَا شيءَ مِنْها يتَعَذَّرُ أوْ يَعْسُرُ الحصُولُ علَيْه، بخلافِ أمانيّ أَهْلِ الدُّنيا في الدُّنيا، فهِيَ عَسِيرَةُ الحصُول، أو متعذِّرةٌ، أو مستحيلَةٌ أحيانًا.

يقال لغة: ادَّعَىٰ الشَّيْءَ، أي: تَمَنَّاهُ وطلَبَهُ لِنَفْسِه، وهٰذا أحَدُ معَاني هٰذا الفعلِ، وهو المناسِبُ هُنَا.

دلَّت على هذا المقطع من النصّ عبارة: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.

المقطع الثامن:

أن أصحاب الجنة في الجنة يحييهم الله الرب الرحيم، وهم يتقلبون في أنواع النعيم الشاغل لهم بتحيةٍ منه، فيقول له «سلامٌ» وهذه التحية يسمعونها من ربهم، فتعمهم منه سعادة عظمى.

دلَّتْ على هذا المقْطعِ من النّصّ عبارة: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾.

جاء بيان هذا السّلام من رَبِّهم لهم مُقْتَطعاً من الحدَثِ الّذِي سَوْفَ يَكونُ لأصحاب الجنَّةِ وَهُمْ في الجنَّةِ يُنَعَّمُون، كاقْتِطاعِ الصُّوَرِ من أحداثِ الماضي، أَو أحداثِ المستقبل، وتقديمها عَرْضاً مُفَاجئاً، دُونَ أَنْ يَكُونَ موصولاً صلَةً إعرابيَّةً على منهج النحاة بما قبْلَهُ من بيان، فَهُو على طريقة القرآن في عرض بعض الأحداث المستقبلِيَّةِ أَو الماضِيَة.

إنّه لمّا جاء في النصّ عرضُ بعض ما سَوْف يكُونُ لأهل دار النّعيم وهم يتنعَّمُون في الجنَّة، ولمَّا قدَّم هذا العرضُ مَشْهداً متحرَّكاً يُشْعِر المؤمنين بأَنَّهم في الجنَّةِ تخيُّلاً، حَسُنَ في البيان أَنْ يُخاطِبَهُمُ الله بقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾.

وبما أَنَّهم في الدُّنيا لم يزالُوا في رِحْلَةِ امتحانِهِمْ جاءَ في البيان بَعْدَ عبارة «سَلامٌ» ما يَدُلُّ على أنّه قولٌ موجَّهٌ لَهُمْ من رَبٍّ رحِيمٍ.

فما ينالونَهُ من نَعيم في الجنَّةِ هو أثَرٌ مِنْ آثار رُبُوبيَّتِه تعالَىٰ خَلْقاً، وأثَرٌ من آثار رَحْمَتِهِ تعالَىٰ فضلاً.

وكلمة «سَلَامٌ» في النصّ مبتدأٌ، وهذا ممّا يجوز الابتداءُ فيه بالنكرة، وخَبَرُهُ محْذُوفٌ تقديرُهُ: «عليكم» وحُذِفَ للْعِلْمِ به، والتّنكيرُ والرَّفْع في لفظ «سلامٌ» للدلَالَة علىٰ عِظَمِ السَّلام واستمراريّتِه.

وعبارة: ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ حَالٌ. وهذا فيما أرىٰ أوْلَىٰ من الإعراباتِ الأخرى الّتي ذُكِرَتْ لهذه العبارة.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

تمهيد:

عرضت هٰذه الآيات السِّتّ لوحةً تصويريَّةً أخرى، لمَشْهَدٍ مِنْ أحْوالِ المجْرِمينَ يَوْمَ الدِّين، وهُم أصحابُ جَهنَّمَ الَّتِي كَانَ الكافِرُون في الدُّنْيا يُحَذَّرُون منها، ويُنْذَرُون بها.

وهذا المشْهَدُ في هذه اللّوحة منتزَعٌ منْ واقع ما سَوْفَ يَحْدُثُ يومَ القيامة بَعْدَ حَشْرِ الْخَلائِق وجَمْعِهِمْ، وتَهْيِئَتِهِمْ لموقف الحسَاب وفَصْل القضاء بَيْنَ يَدَي اللّٰهِ في محكمة العدْلِ الّتي يُقِيمُها لعباده.

ويظهر أنّ هذا المشْهَدَ يَحْدُثُ مَعَ مَنْ بقي في الموقف لم يُحَاسَبْ بَعْدُ، ولَمْ يُقْضَ بشَأْنِهِ مِنْ بَنِي آدم، وهُمُ الْمُجْرِمُونَ الكافرون، ومُرْتَكِبُوا الكَبَائِر من المؤمنين، ومنهم أَهْلُ الأعراف.

فَبَيْنما يكونُ أصْحَابُ الجنَّةِ الأوّلُونَ، المستَحِقُّونَ لَهَا بالوعْدِ الرَّبَّانِيّ الكريم، في شُغُلٍ فاكِهِينَ، هُمْ وأَزْوَاجُهُمْ في ظِلَالٍ على الأرَئِكِ مُتَّكِئونَ، لأنّ الله عجَّلَ لهم الحسابَ وفصْلَ القضاء، أو أدْخلَهُمُ الجنَّة بغَيْرِ

حسَاب، فهم في منازلهم في الجنَّةِ وفي نَعِيمها يَتَقَلَّبُونَ، تَحْدُثُ مَقَاطِعُ هٰذِهِ اللَّوحَةِ الخاصَّةِ بالباقين، وفيهم الكافرون المجرمون.

فهِمْنَا هذا أخذاً مِنْ دَلَالَةِ اللَّوحَةِ السَّابِقَة، الخاصَّةِ بأصْحاب الجَنَّةِ الأولين، إذْ جَاءَ في صَدْرِهَا قَول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾.

وبَعْدَ عَرْضِ هٰذِهِ اللَّوْحَةِ التصويريَّة، جاء عرضُ اللَّوْحَةِ التصويريَّة الخاصَّة بِمَنْ بَقِيَ في الموقف لَمْ يُحَاسَبُوا بَعْدُ، وفيهم المجرمون.

ونلاحظُ أيضاً في هٰذِهِ اللَّوْحَةِ التصويريَّةِ الثانية، أَنَّها صُورَةٌ مُنْتَزَعَةٌ من الواقع الّذي سوف يَحْدُثُ يوْمَ الدِّين، ومُقَدَّمَةٌ في صورة مَشْهَدٍ مِنَ المشاهد.

وفي هذا المشْهَدِ خطابٌ للمجْرِمين بتَأْنيبٍ وتَثْرِيب، بَعْدَ تمِييزٍ وعَزْلٍ لهم، إذْ يأمُرُهُمُ اللَّهُ بأنْ يمْتَازُوا. وفيه حديثٌ عن بَعْضِ ما يَجْرِي في محاسَبَتهم.

التدبّر:

هذه اللَّوحَةُ التصويريَّةُ مُؤَلَّفَةٌ من ثَمَانِيَةِ مَقَاطع، مُنَاظِرَةٍ لمقاطع اللَّوْحَةِ الأولى عدداً، والخاصَّة بأصْحَاب الجنَّةِ الأوّلين.

المقطع الأول:

دَلّ عليه قول الله تعالى في النصّ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ خطابٌ يُوجَّهُ للمجْرِمين، أي: انْفَصِلُوا وتَنَحَّوْا إلى جِهَةٍ خاصَّةٍ بكم عَنْ سَائِر من بَقِيَ مِنْ أَهْل الموقفِ من بَنِي آدم، لم يُحَاسَبْ بَعْدُ، ولَمْ يُفْصَلْ بشَأْنِه القضاء.

يقال لغةً: «**امْتَازَ**» الرَّجلُ و«**تَمَيَّزَ**» أي: صَارَ في نَاحِيَةٍ مُنْفَصِلاً عَنْ غَيْرِه.

ويقال: «امْتَازَ» القَومُ، أي: انْفَصَل بعضُهُمْ عَنْ بعْضٍ.

وتوجيه الأمْرِ للمجرمين يوْمَ الدّين بأنْ يمْتَازُوا مُنْفَصِلِينَ، توجِيهٌ لَا يَسْتَطِيعُونَ مخالفتَه، وقد يكونُ أمْراً تكوينيًّا يَجْعَلُهُمْ يَمْتَازُونَ بالجبْرِ، فَيَجدُونَ أنْفُسَهُمْ مُنْفَصِلِينَ في مكانٍ خاصٍّ بهم، هو أقربُ إلىٰ جِهَةِ دَار العذاب، بدليلِ نُصُوصٍ قرآنيّةٍ أخرىٰ، منها:

(١) قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾.

(٢) وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُجْمَعُونَ في مَكَانٍ خاصٍّ ويُحْصَرُونَ فِيه:

(٣) وقول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: يُجْمَعُونَ في مكانٍ هُو أقْرَبُ إلىٰ جِهَةِ جَهَنَّم.

المقطع الثاني:

دلَّ عليه قولُ الله تَعالَى في النّصّ: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾﴾:

خطابٌ سَوفَ يُوجَّهُ لكُلِّ مَنْ لَمْ يُحَاسَبْ بَعْدُ مِنْ أَهْلِ الموقف من بني آدم، مُجْرِمين فَمَنْ هُمْ أقلُّ مِنْهُمْ إثماً من الْعَصَاةِ الّذِينَ لَمْ يَشْمَلْهُمْ الْعَفْو مع أَهْلِ الجَنّةِ الأوّلين.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: أي: أَلَمْ أُوصِكُمْ وَصِيَّةً مُوثَّقةً فِيما أَمَرْتُكُمْ به ونَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وفيما بَشَّرْتُكُمْ بِهِ من خُلُودٍ في دار النعيم إذَا آمَنْتُمْ وأَطَعْتُمْ فَعَبَدْتُموني، وفيما أَنْذَرْتُكُمْ به من عَذابٍ في دار العذاب، إِذَا أَطَعْتُم الشيطانَ فَعَبَدْتُموهُ وعَصَيْتُمْ أَمْري، واسْتَكْبَرْتُم عن عِبَادَتي.

العَهْدُ: يأتي في اللُّغةِ بمعانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، منها: الوصِيَّة، وكُلُّ ما أمر الله به ونَهَىٰ عَنْه. ومنها: ما يكُونُ بَيْنَ العباد من مواثيق يَلْتَزِمُونَ بما جاء من بُنُودِها. ومِنْها: اليمين، والوفاء، والأمان، والحِفَاظِ، ورعَايَةُ الحُرْمَة، ويُطْلَق الْعَهْدُ على الزّمان.

يقال لُغَةً: عَهِدَ فُلَانٌ إلى فُلَانٍ عَهْداً، أي: أَلْقَىٰ إِلَيْهِ الْعَهْدَ وَأَوْصَاهُ به.

ويُقال: عَهِدَ إِلَيْهِ بالأَمْرِ، وعَهِدَ إليه في الأمْر، أي: أَوْصَاهُ به.

أمّا الْعَهْد بين الله وبيْن عبادِه المكلّفِين فقد تضمَّن أن يُؤْمِنُوا به وبما جاء من عنْده، وأنْ يَعْبُدوه ولَا يُشْرِكوا بعبادته شيئاً، وأن لَا يَعْبُدوا الشَّيطان ولا يَتّبعوا خُطُواته، فَمَنْ آمَنَ وأَطَاع اللَّهَ ربَّهُ، أدْخَلَهُ يوْم الدِّين جنَّاتِ النَّعِيم، وجعَلَهُ خالداً فيها بلا نهاية، ومَنْ كَفَرَ باللَّهِ وأطاع الشيطان واتَّبَع خُطُواتِه، أدْخَلة يومَ الدّين دارَ العذاب النار، وجعلَهُ خالداً فيها بلانهاية.

ومَنْ آمَنَ بالله إيماناً صحيحاً، وأَعْلَنَ إيمانَهُ وإِسْلامَهُ صادقاً، لكنَّهُ عصَىٰ اللَّهَ في أوامره ونواهيه، فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ من عقاب الله بالْعَدْلِ على مقاديرِ معَاصِيه، وقد يَغْفِرُ اللَّهُ له من ذُنوبِه على وفق حكمته.

هذا موجز الْعَهْد بَيْنَ الله وبَيْنَ عبادِهِ المكلفين من بني آدَم، منذ بَدْء تاريخ وُجُودِ الإنسان على الأرض، وحتَّىٰ إقفالِ باب التوبة بالنسبة إلى العباد.

أمّا البنُود المتعلّقَةُ باللَّهِ الرَّبِّ الخالق جلّ جلالُهُ فهي مستمرّةٌ خالدةٌ بِلا نِهَاية.

وجاء تفْسِير بَعْضِ ما تضمَّنَهُ عَهْدُ الله لعباده في النّصّ، بقول الله تعالى فيه: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿أَن﴾: تَفْسِيريَّة، فقد جاءتْ بَعْدَ عِبارَة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ﴾ إذْ فيها معْنَىٰ الْقَوْلِ دُون حُرُوفه، كما يَقُولُ النحويّون، وجاء بَعْد ﴿أَن﴾ التفسيريَّة بيانٌ لبَعْضِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْعَهْد.

فَمِنْ بُنُودِ الْعَهْدِ نَهْيُ بَنِي آدم عن عِبَادة الشَّيْطَانِ لأنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لهم.

إنَّ عبادَةَ الْعَبْدِ لسَيِّدِه تتحقَّقُ بأَنْ يَقُومَ الْعَبْدُ بمَطْلُوبِ سَيِّدِهِ مِنْه، ومَطْلُوبُ الله من عباده سبَقَ آنِفاً بيانُه.

ومَطْلُوبُ الشَّيْطانِ من عبادِ الله، أَنْ يَكْفُرُوا بِرَبِّهِمْ، ويَعْصُوا أوامِرَ اللَّهِ وَنَواهِيَه، ورَغْبَةُ الشيطان أن يكُونَ بَنُو آدَمَ معذَّبينَ مَعَهُ في جهَنَّمَ.

فالّذِينَ يَكْفُرُونَ بِرَبّهم ويَعْصُونَ أوامِرَهُ ونواهِيَهُ تَأَثُّراً بوَسَاوِسِ الشيطانِ وتَسْويلاته، فإنَّهُمْ يُحقِّقُونَ في أنفسهم مَطْلُوبَ الشيطان منهم، وهو على النقيض من مطْلُوبِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ منهم.

وبمقابَلَةِ النَّقِيضِ بالنَّقِيضِ يَظْهَرُ أَنَّهُم كانوا يَعْبُدونَ الشيطان، بِطَاعَتِه فيما دَعاهُمْ إِلَيْهِ، ومَا كانوا يَعْبُدون اللَّهَ رَبَّهم.

وقد أبانَ الله عزّ وجلّ في وصاياه الَّتي بلَّغَها عَنْهُ رُسُلُهُ الَّذِينَ أرْسَلَهُمْ إلى بَني آدم هذا العنْصُرَ من عناصِرِ عَهْدِهِ إِلَيْهم.

وأبانَ لهمْ أنّ الشيْطان عَدُوٌّ مُبينٌ لهم، أي: عدُوٌّ واضح العداوة، إذْ يَدْعُوهُمْ إلى سُلُوكِ سبل توصلهم في غاياتها إلى عذاب السّعير.

﴿مُّبِينٌ﴾ من فعل «أبَان» وهذا الفعلُ يأتي لازماً ومُتَعَدِّياً، واللازم منه هو بمعنى «ظَهَرَ وَوَضَحَ» واسم الفاعل منه «مُبِين» أي: ظاهر واضح، وما جاء في النّصّ هنا هو على هذا المعنى.

وقد قَصَّ الله عزَّ وجلّ في القرآن الكريم لبَنِي آدَمَ، قصَّةَ الشَّيطان مع أَبَويْهِم في الجنّة، وكيف أخرجَهُما منْها بوساوسه.

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

بيانٌ مُصَدَّرٌ باسْتِفْهَامٍ تَوْبِيخيٍّ يُوجَّهُ للمجْرِمِين الكفرة، وَلِسَائر العصاة الَّذِين لم يَشْمَلْهُمُ الْعَفْوُ في موقف الحشر.

والجواب الصادق لهذا الاستفهام التوبيخيّ يكون بعبارَةِ: بَلَىٰ.

المقطع الثالث:

دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلَّ في النّصّ: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

وهذا خطابٌ يُوجَّهُ أيْضاً لِكُلِّ مَنْ لَمْ يُحَاسَبْ بَعْدُ مِنْ أَهْلِ الموقف، وقد اشتمل على تَفْسِيرٍ لبَعْضِ عناصِرِ الْعَهْدِ الّذِي عَهِدَ اللَّهُ بِهِ إلى بني آدم.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾: أي: وأَنْ حَقِّقُوا مَطْلُوبي مِنْكُمْ، فَأَنْتُمْ عِبادِي، وأنا رَبُّكُمْ، والمعنى: فإذَا حقَّقْتُم مطْلَوبي مِنْكُمْ حَمَيْتُكُمْ مِنْ عذابي، وأَدْخَلْتُكُمْ جَنَّتِي.

﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: أي: إنَّ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ من عبادتي هو صراطٌ مُسْتَقِيمٌ لَكُمْ يُوصِلُكُمْ إِلَىٰ الْخُلُودِ في دار النَّعيم.

الصّراط: الطريق الواضح المُبِين الّذي لا ظُلْمَةَ فيه ولا غَبَش، وهو

الدِّين الَّذي بعَثَ اللَّهُ بهِ رُسُلَه إلَىٰ عباده، وأَمَرَهم بسُلُوكه واتّباعِ شرائعِه وأحْكَامِه وَوَصَايَاهُ فيه(١).

المقطع الرابع:

دلَّ عليه قول الله عزَّ وجل في النص: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا... ﴿٦٢﴾﴾ وهذا خِطابٌ من الله عزّ وجلّ يوجَّهَ أيضاً لكُلّ مَنْ لم يُحَاسَبْ بَعْدُ من أهْلِ الموقف.

أي: ولَقَدْ أَضَلَّ الشَّيْطانُ منْكُم وهو الْعَدُوُّ المبينُ لَكُمْ جِبلًا كثيراً، أي: جَمْعاً كثيراً منكُمْ، إذِ اسْتجابُوا لدَعْوتِه، واتَّبَعُوا خُطُواتِه، وغَرَّتْهُمْ زِيناتُ الحياة الدنيا، الَّتِي خَدَعَهُمْ بها بالباطل.

سَبَق بيان القراءات في كلمة «جبلًا». وبيان أنّ معنَىٰ الجِبلّ في اللّغَةِ: الأمَّةُ من الخلْقِ، والجماعة من الناس.

وجاء وصْفُ ﴿جِبِلًّا﴾ بمعنَىٰ الأمَّة والجماعَةِ من الناس بلَفْظِ [كثيراً] وهُو مفرد، لأنَّهُ على وزن «فَعِيل» وهٰذَا الوزْنُ قد يَسْتَوِي فيه المذكّر والمؤنَّثُ والمفردُ والمثنّىٰ والجمْعُ، ولَوْ كَانَ بمعنى «فاعل» إذْ لَهُ نظائِرُ مُتَعدِّدَةٌ في القرآن.

أمَّا إذا كان هذا الوزن بمعنى «مفعول» فهو كذلك دواماً عنْد النحاة.

وقالوا في تخريج لفظ «كثيراً» في النصّ هنا: معناه معنى الجمْعِ، فأغْنَىٰ المعنَى عن جَمْع اللَّفظ.

﴿وَلَقَدْ﴾: أي: وَأُأَكِّدُ لَكُم، فالّلام وحرف «قَدْ» يُفِيدان التأكيد.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبّر سورة (الفاتحة) حول ألفاظ «سبيل ـ طريق ـ منهاج ـ صراط» في القرآن.

﴿أَضَلَّ﴾: أي: كانَ الشَّيْطان السَّبَبَ في إضْلَالِ أُمَّةٍ كثيرةٍ منكم، بوساوسِهِ وَتَسْويلاته، وإغراءاته ومخادعاته، إِذِ استجابوا لدَعْوَتِهِ ووسَاوِسِهِ وإغراءاته، وكان السَّبَبَ في إخراجِهم عن الصراط المستقيم، الّذي هو صراط الله لعباده.

وكوْنُ الشيطان سَبَباً في إغوائهم وإضلالهم، لا يُخَفِّفُ من جرائمهم شيئاً، لأنّهم استجابوا له بإراداتهم الحرَّة، لتحقيقِ مطالب نفوسهم وشهواتهم وأهوائهم من زينَةِ الحياة الدنيا، وأعْرضُوا وأدْبَرُوا وَتَوَلَّوْا عَنْ دَعْوة الله لهم إلى الصراط المستقيم، وإلىٰ النجاة والْفَوْزِ بجنَّاتِ النّعيم، فمَسْؤُليّتُهم عن اختياراتِهِمُ الحرَّةِ مسْؤُوليَّةٌ تامَّة.

المقطع الخامس:

دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ في النّصّ: ﴿.. أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وهذا خِطَابٌ من الله عزّ وجلّ يُوجَّهُ أيضاً للّذِين لم يحاسَبُوا بَعْدُ من أهل الموقف.

في هذه العبارة استفهامٌ توبيخيٌ، فيهِ تأنيبٌ وَتَثْرِيبٌ وإنكار عليهم بالِغٌ، إِذْا لم يَسْتَعْمِلُوا عقولَهُمْ فيما خَلَقَها الله له، حتى كأنَّهُمْ قَدْ كانوا في الحياة الدنيا لَا يَعْقِلُون.

أي: أَسُلِبْتُمْ قُدْراتِ التفكير فيكُمْ، وسُلِبْتُمْ إراداتكُمُ الضابِطَةَ لأهوائكم وشهواتكم، ونزعاتكم ونزغاتكم فَلَمْ تكُونوا تَعْقِلُونَ.

العقل: يُطَلقُ في التعبيرات القرآنيَّةِ بمعنَيْن:

المعنىٰ الأَوَّل: العقل العلميّ، وبه تُدْرَكُ مَسَائِلُ المعرفة، وتحفَظُ معْقُولةً في الذاكرة، وقد جاءَتِ البيانات الدينيّة في كتاب الله وسُنَّةِ رسُولِه، لتُدْرَك معانيها وحقائِقُها، ولتحْفَظَ في الذاكرة، فتكُونَ ذِكراً عند كلّ مُنَاسَبَةٍ تَسْتَدْعِي منْها شيئاً.

المعنى الثاني: الْعَقْل الإرادي، وبهِ تُضْبَطُ النَّفْسُ عن اتّباع الأهواء والشهوات، والنزعات والنزغات الجانحات، المؤديات إلى عقاب الله وعذابه، وعن الاستجابة لوساوس الشياطين وتسويلاتهم، وعن اتّباع خطواتهم.

إنّ إبليسَ الشيطان الأكبر، وسائر جنوده يَعْمَلُونَ دواماً على إخراج بني آدم من صراط الله المستقيم، أو صَدِّهم عنه، وعلى اسْتِدْرَاجهم إلى السُّبُل الجانحة عن صراط الله، والضالَّة في متاهات الشّرّ والغيّ، والفسادِ وَالإفساد في الأرض، وهي السُّبُل الَّتِي تُؤَدّي بهم إلى عذاب النار، والشقاءِ الدّائم والخزْي والنَّدَامَة.

ومِنْ معنَى الْعَقْل في اللّغة الّذي هو إدْرَاكُ الشيْءِ وَرَبْطه، أُخِذَ لَفْظُ «الْعِقَال» وهو الحبْلُ الّذي يُعْقَلُ به البعير، ويكونُ عقْلُهُ بضَمِّ رُسُغِ يَدَيْهِ إلى عَضُدِه، وربْطِهِما معاً بالعقال، ليَبْقَىٰ بَارِكاً.

المقطع السادس:

دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في النّصّ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

هذا خطابٌ من الله رَبّ العباد، يُوجّهُهُ يَوْم الدِّين للكافرين المجرمين، الذينَ كانوا في الحياة الدّنيا يكَذّبُونَ بالبعث، وبأنباءِ ما بَعْدَ البعث، إذْ تكونُ الجحيم قد بُرّزَتْ وَأُظْهرت لهم، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾:

﴿وَبُرِّزَتِ﴾: أي: وأظْهِرَتْ، فصار الراؤُون يَرَونها.

﴿ٱلْجَحِيمُ﴾: اسم من أسماء النار دار عذاب المجرمين يوم الدين، وكُلُّ نارٍ عظيمةٍ في مَهْواةٍ تُسَمَّى جحيماً في اللُّغَة.

﴿لِلْغَاوِينَ﴾: الغاوُون جمع «الْغَاوي» وهو الضَّالُّ الخائب الفاسد، يُقَال لغة «غَوَىٰ يَغْوي غَيًّا فهو غاوٍ» ويقالُ: «غَوِيَ يَغْوَي غَيًّا فهو غاوٍ» أي: ضلّ وخابَ وفسَد، وترك سَبيل الرَّشد، عن قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ اتباعاً للهوى.

وضدُّ الغَيّ «الرَّشد» وهو الالتزام بالْهُدَىٰ والحقّ والخير، عن بَصِيرَةٍ وقَصْد لهذا الالتزام.

وكما قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول:

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

وإذْ صارت جهَنَّمُ قَرِيبةً مِنْهُمْ يُدْرِكونَها بِبَعْضِ حَوَاسِّهِمُ الظاهرة، يُقَال لهم:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾: أي: التي كَانَ اللَّهُ ورُسُلُهُ يُنْذِرُونكم بعذابها، وكُنْتُم بها تُكَذِّبُونَ، وكُنْتُمْ بها تَسْتَهِينُونَ، فلَا تَحْذَرُونَ عذابَ الله فيها، ولَا تَتَّقُونَهُ بطاعته، والْعَمَلِ بما طَلَبَ مِنْكُمْ مِنْ عبادته.

وَهَلْ بَعْدَ الشُّهُودِ الحِسِّيِّ إمْكَانٌ لإنكار أَوْ تَكْذِيب، أو مجالٌ للاسْتِهانَةِ وَعَدَمِ المبالَاةِ؟!

﴿جَهَنَّمُ﴾: اسْمٌ عَلَمٌ من أسْماء النّار الّتي أعَدَّهَا اللَّهُ لِيُعَذِّبَ فيها الكافرين والعصاة يوم الدّين، وهو ممنوعٌ من الصرف للعلمية والتأنيث.

ويقال لغة للقَعْرِ البعيد جهَنَّم، وبِئْرٌ جَهَنَّمٌ أي: بعيدةُ القعر.

﴿تُوعَدُونَ﴾: الوعْدُ: هو الإخبار بما تمّ العزْمُ على فعله في المستقبل، ويكون في الخير، وفي الشرّ، يقال لغة: وَعَدَهُ بنفع، ووَعَدَهُ بضُرّ.

أمّا الوعيد والإيعاد، فهما في الشرّ خاصّة.

قال الأزهري: كلامُ الْعَرب: وَعَدْتُ الرَّجُلَ خيراً، ووَعَدْتُه شرّاً.

المقطع السابع:

دلّ عَلَيْهِ قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

هذا خطابٌ من الله جلّ جلالُهُ يُوجّهه يوم الدّين للكافرين المجرمين خاصَّة.

﴿ٱصْلَوْهَا﴾: أي: ادْخُلُوهَا واحْتَرِقُوا بنَارِها. يقالُ لغة: صَلِيَ النَّارَ وَصَلِيَ بِها، أي: احتَرَقَ فيها، ولامَسَ جَسَدُهُ لَهَبَها مُحْتَرقاً به.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: أي: الْيَوْمَ الّذي هو يَوْمُ الدّين والجزاء، على ما سبَقَ أنْ قَدَّمْتُمْ في يوم الامتحان والابتلاء.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: أي: بسَبَبِ مَا كُنتُم في رحلة الحياة الدنيا تكْفُرُون، فما كَانَ يأتيكُمْ مِنْ حَقٍّ من ربّكم في أزمان حياتكم الأولى إلّا كُنْتُم تكْفُرُونَ به، حتَّىٰ انْتَهَتْ أعمارُكُمْ فيها وأنتم توالُون كُفْرَكم بالحقّ من ربّكم.

وقد سبَق بيانُ أنَّ الله عزّ وجلّ ميّزهم عن سائر أهل الموقف بقوله لهم: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ والمجرمون في الاستعمال القرآني هُم الكُفّارُ الذين يسْتَحقّونَ الخلُود في عذاب جهنّم، ويسْتَحقُّون الاحتراقَ بلَهَبِ نيرانها.

﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أمْرٌ تكْوِينيٌّ من الله العزيز القهار الجبَّار يَدْخُلُونَ به النّار قهراً.

وقد تقوم ملائكة التعذيب بتنفيذه فيهم، وفي توجيه هذا الخطاب لهم إهانَةٌ وإذْلَالٌ وتقريعٌ وَإخزاءٌ.

ويكون إدْخَالُهُمُ النَّار وتَصْليتهم بلهبِها بَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ والحكْمِ عليهم.

المقطع الثامن:

دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾.

في هذه الآية بيان لما يحْصُل قَبْلَ الحكْمِ عَلَيْهم بالتَّصْلِيَةِ في جهَنَّم، وهو بمثابة الخبَرِ لما هُو مقرَّرٌ أنْ يحصُل يوْم الحسَاب وفَصْلِ القضاء.

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: المرادُ بكلمة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يَوْمُ الحساب والْخَتْمُ على أفواهم كِنَايَةٌ عن إقْفَالِها إقفالاً لَا يَسْتَطِيعُونَ معه الكلام. فالأبوابُ إذا أُقْفِلَتْ وَوُضِعَتْ أخْتامُ الطِّينِ السُّلْطانية على الأقفال كان ذٰلِكَ دَلِيلاً علىٰ أنَّ الحكْمَ بإقْفالها حُكْمٌ مُبْرَمٌ، فَلَا تُفْتَحُ إلَّا بأمْرٍ سُلْطَاني.

وبهذا تكُونُ أفواهُهُمْ عاجزةً عجْزاً كُلِّيًّا عَنْ أيّ كلام.

ولَيْسَ المرادُ أَنَّ أفواهَهُمْ تكونُ كذلِكَ طَوَالَ يَوْمِ الحسَاب، بَلْ يُخْتَمُ عَلَيها إذا سُئِلُوا سَاعَةَ مُحَاسبَتِهم فجَحَدُوا أنَّهُمْ كَانُوا كافرين، وأَنَّهُمْ كانُوا طُغَاةً مُجْرِمِين، فَيُخْرِسُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ أَلْسِنَتَهُمْ، ويَحْبِسُ أفواهَهُم، فلا يَسْتَطِيعُون النُّطْقَ حتَّىٰ لَا يُثَرْثِرُوا بالْأَكاذِيب وأقوالِ الجحود.

وتُسْتَنْطَقُ جوارِحُهمُ الْأُخرىٰ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أيديهم وأَرْجُلُهُمْ بما كانُوا يكْسِبُونَ في الحياة الدنيا.

وقد جاء بيَانُ هذا في السُّنَّة، فقد أخرج أَحْمد ومُسْلم والنسائيّ وغيرهم، عن أنسٍ رضي الله عنه قال: كنّا عنْدَ النبيّ ﷺ، فضحِكَ حتَّىٰ بَدَتْ نواجِذُهُ(١).

---

(١) **نواجذه**: أي: أضراسه.

قال: «أتَدْرُونَ مِمَّ ضَحِكْتُ؟»

قلنا: لَا يَا رَسُولَ الله.

قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فيقول: بَلَىٰ. فَيَقُولُ: إنّي لَا أُجِيزُ عَلَيَّ إلّا شاهِداً مِنّي، فيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهيداً، وبالْكِرامِ الكاتِبينَ شُهُوداً، فَيُخْتَمُ علىٰ فِيهِ، ويُقَالُ لِأَرْكانِهِ انْطِقِي، فتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّىٰ بَيْنَهُ وبَيْنَ الكَلَام، فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ».

أُنَاضِلُ: أي: أحامِي وأُدافِعُ: يُقَالُ لغة: نَاضَلَ فلانٌ عن فلانٍ مُنَاضَلَةً ونِضَالاً، أي: حامَىٰ ودافع عنه.

هكذا يُفْعَلُ بالكافر الصَّرِيح، وكذلك يفعلُ بالمنافق، كما جاء في حديثٍ آخر، رواه مُسْلِمٌ وغَيْرُهُ عن أبي سعيد الخدريّ، وعن أبي هريرة.

أمّا ما جاء في سورة (النُّور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) من شهادة الألْسُنُ معَ الأيدي والأرْجُل، فقد جاء بشأن الَّذِينَ يَرْمُونَ المحصَناتِ الغافلات المؤمنات، إذْ جاء فيها قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فهذا النَّصُّ جاء في معرض الحديث عن أهْلِ الإفْكِ على عائشة أمّ المؤمنين، رضي الله عنها، وقد كان فيهم مؤمِنُونَ وَمُنَافِقُون.

أمّا المؤمِنُون مِنْهُمْ فيعْتَرِفونَ بألْسِنَتِهِمْ. وأمّا المنافِقُونَ، فإذَا كذَبُوا حينَ تُعبِّرُ ألْسِنَتُهُمْ عَمَّا يُرِيدُونَ، أنْطَقَ اللَّهُ أَلْسِنَتَهُمْ بِمَا صَدَرَ مِنْهَا من إفْكٍ في الحياة الدُّنيا، كجارِحَةٍ تَنْطِقُ بِمَا عَمِلَت، لَا أَلْسِنَةً تُعَبِّرُ عَنْ إراداتهم، والله أعلم.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة وهو الآيات من (٦٦ ـ ٦٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

القراءات:

(٦٧) ● قرأ جمهورُ القرّاء العشرة: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ بالإفراد.

وقرأ شُعْبَةُ عَنْ عَاصِم: [**عَلَى مَكَانَاتِهِمْ**] بالجمع.

المكَانَة، مثلُ المكَانِ: وهو الموضع، الذي يكون فيه الشَّيْء، إذْ يحْتَل فيه فراغاً على مقداره، ويُطْلَقَان على المنزلة المعنوية.

وقراءتا الإفراد والجمع بمعنى واحد، لأنّ اسم الجنس المضاف إلى الجمع يُعمُّ أفراد الجمع. وقد يكونُ في عبارات: [**مَكَانَاتِهِم**] إشارةٌ إلى مسْخٍ جماعي، يكون لهم معَهُ مكانَةٌ جماعيَّةٌ واحدةٌ مكتسبَةٌ من هيئتهم الجماعية، فتكونُ القراءتان متكاملتين في المعنى. أي: ولو نشاءُ لمسخناهم وهم على مكاناتهم الاجتماعيَّة التي يشتركون فيها بوصْفِهِمْ أمّة. ولمسخناهم على مَكانةِ كلّ فردٍ منهم باعتباره ذا مَكَانَةٍ خَاصَّة، في أُمَّتِه وجماعته، إذا حَمَلْنَا لفظ المكانَةِ على المنزلة المعنوية. أمّا إذا حَمَلْنَا المكانة على المكان بمعنى الموضع الذي يكون فيه الشيء أو الكائن، كما جاء في أقوال المفسرين، وأنّ المكانة مؤنث المكان، فالقراءتان متكافئتان.

(٦٨) ● قرأ جمهور القرّاء الْعَشَرة: [**نَنْكُسْهُ في الْخَلْقِ**]: من فعل «نَكَسَ» بالتخفيف، يقال لغة: «نَكَس فلان الشَّيْءَ يَنْكُسُهُ نَكْساً» أي: قَلَبَهُ وجَعَلَ أعلاه أسْفَلَه، أو جعلَهُ يميلُ شيئاً فشيئاً إلى أسْفلِه.

وقرأ عاصمٌ، وحمزة: ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾: من فعل «نَكَّسَهُ تَنْكِيساً» بالتشديد للتكثير.

والقراءتان متكاملتان في تأدية المعنى المراد، لأنّ من الناس من يضْعُف ويعجز عَجْزاً غَيْر كَثيرٍ بالشيخوخة والهَرم، ومن الناس مَنْ يضْعُفُ ويعجَزُ عجزاً كثيراً بالشيخوخة والهرم.

فَمِنَ النَّاس مَنْ يُنْكَسُ، ومن الناس منْ يُنَكَّسُ.

ومَعَلُومٌ أن مَنْ كبرَت سنُّهُ إلى مَرْحَلَةِ الشيخوخة فالهَرَم، رُدَّ إلى حالةِ عجْزٍ وضَعْفٍ، كما كان عند طفولَتِه عاجزاً ضعيفاً، إلى أنّ الطّفْلَ يتصاعَدُ إلى القوة، وأنَّ الشيخ الْهَرِمَ يَتَنَازل إلى الضّعْف والعجز.

(٦٨) ● قرأ نافع وابن ذكوان، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أفلا تَعْقِلُونَ**] بضمير المخاطبين.

وقرأ بَاقي القراء العشرة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بضمير الغائبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

تمهيد:

هذا درسٌ يُنْذِرُ الله عزّ وجلّ به المعنيِّين في بدايَة السورة، وهم عُتَاةُ مُشرِكي مكّة، ثمّ من كان على شاكِلَتهم إلى أن تقومَ السّاعة، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في أوائل السُّورة:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾.

وقال بشأنهم أيضاً:

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

التّدبّر:

قول الله تعالى:

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

جاء التعبير بضمير المتكلّم العظيم: **[وَلَوْ نَشَاءَ]** ـ **[لطَمَسْنَا]** للدلالة على جبَرُوت سُلْطان الرُّبوبيّة.

[لَوْ] شرطِيَّةٌ للتعْليق في المستقبل، وهي هنا مثل «إنْ» الشرطية.

﴿لَطَمَسۡنَا﴾: طَمْسُ الشيءِ، والطَّمْسُ عليه، يأتيان بمعنى التشويه والْمَحْوِ والإزالة.

يقال لغة: طَمَسَت الرِّيحُ الأثَر، أي: أزالَتْهُ ومَحَتْه.

وطَمَسَ الْغَيْم الكواكب: أي: حجَبَ ضَوْءَها. وطمَسَ الله عَيْنَ فلان، وطمَسَ على عيْنِه، أي: أعماها، وأزالَ قُوَّةَ إبصارها ومَحَا رُؤْيتها.

﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾: أي: جاوَزُوه وَتَرَكُوهُ فَضَلُّوا وسَارُوا في المتاهات. **الصّراط**: الطريق الواضح الجليّ.

فالمعنى: وَلَوْ نَشَاءُ في كُلِّ لحظَةٍ من لحظاتِ مستقبل وُجُودِهم في الحياة الدنيا، طَمْسَ أَعْيُنِهم وجعْلَهُمْ عُمْيَاناً بتَعْذِيبِ دُون الإهلاك، لطَمَسْنَا علىٰ أَعْيُنهم، فإذَا سَارُوا يبتَغُون مَكاناً مَا، وأَرَادُوا أن يسْلُكُوا إلَيه الطّرِيقَ الواضِحَ الْجَلِيّ، الَّذي لا يضِلُّ فِيه ولا يضِلُّ عنْهُ ذو نظَرَ ما مهما كان ضَعيفاً، لتجاوزوه، ولترَكُوهُ ضالين عنه، لانْطِماسِ أبْصارهم انطِمَاساً كاملاً، إذْ مَحَا الله عزّ وجلّ منها الْقُدْرَة على الإبْصارِ، وإذا محا الله عزّ

وجل من عيونهم القدرةَ على الإبصار مَحْواً كُلّيًّا، فإنَّهُمْ لَنْ يُبْصِرُوا شيئاً.

وجاء التعبيرُ عن اسْتِحالة إبْصَارِهم إذَا طَمَسَ اللَّهُ على أعينهم بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟!

﴿فَأَنَّىٰ﴾: أنّىٰ: تأتي استفهاميّةً بمعنى: «من أين»؟. وتأتي بمَعْنَىٰ: «كيف»؟. وتأتي بمعْنَىٰ: «متى»؟. وتأتي بمعنى: «حيث».

ويمكن حَمْلُ ﴿فَأَنَّىٰ﴾ في النصّ هنا على معنى: فمِنْ أيْنَ يُبْصِرُونَ بعْدَ أن يَطْمِس الله أبصارَهم؟! وعلى معنى: فكَيْفَ يُبْصِرُون؟!

وهو استفهامٌ يبيِّن استحالَة قُدْرَتهم على الإبصار، إذا شاءَ الله عزّ وجلّ سَلْبَهُمْ هذه القدرة.

وفي هذا تَهْدِيدٌ بتعجيل جُزْءٍ من عقوبتهم في الحياة الدنيا.

قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

[**لَمَسَخْناهم**] جاء التعبير بضمير المتكلم العظيم، **المسخ**: تحويل صُورَةٍ إلى صورة أخرى مشوّهة قبيحة، ومنه مسخ الإنسان إلى نحو قِرْدٍ أو خنزِير، أو إلى جَسَدٍ مُقَطَّعِ الأيدي والأرْجُل يَثْبُتُ في مكانِه، فلا يقْدِر على حركةٍ ما، مُضِيًّا إلى الأمام، أو رجوعاً إلى الوراء.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: على الموضع الذي هم فيه، أو على المنزلة الاجتماعية التي هم فيها، كما سبَقَ بيانُه آنفاً.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا﴾ أي: فما اسْتَطاعوا ذَهاباً أمامَهُمْ، يقال لغة: مضىٰ في الطريق، أيْ: ذهَبَ فيه ولم يتوقَّفْ فالمضيُّ هو الذهابُ دون توقف، وهو مصْدَر مضى، تقول لغة: مضىٰ الشيء يمْضِي مُضِيًّا ومضاءً، أي: مرَّ وذهب دون توقف. ومنه مُضِيُّ السيف ومضاؤُه، أي: مُروره فيما يقطعه دون توقُّفٍ، يُقال: سيفٌ ماضٍ.

والمعنى: ولو نشاء في كلّ لحظة من لحظاتِ مستقبل وُجُودِهم في الحياة الدنيا، تحويلَ صُورَتِهِمْ إلَىٰ صُورَةٍ أخْرَىٰ يكونون فيها كقِطْعَةِ لَحْمٍ وَعظم غيرِ قادرةٍ على الحركة إقبالاً أو إدْباراً، يَمِيناً أو يَساراً، لَفَعَلْنَا بهم ذَلِكَ، فثَبَتُوا في مكاناتهم الّتي يكونون عَلَيْها قبْلَ المسْخ، أي: على أماكِنِهم مُشَوَّهِينَ قِباحاً، خاسِرين مكانَاتهم الاجتماعيّة الّتي كانت لهم، خاسئين أذِلّاءَ يَسْتَهْزِئُ النّاسُ الأسْوياء بهم.

جاء التنويعُ في التعبير بين عبارة: ﴿مُضِيًّا﴾ وَعبارة ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ لداعِيَيْنِ بلَاغِيّيْن:

الداعي الأوّل: الخرُوجُ عن نمَطِيَّةِ التَّقابُل المتناظر، وفي هٰذا إبْداعٌ مُعْجب.

الداعي الثاني: مَراعَاة رُؤُوس الآي، الّذي فيه جمال التناظر عند النهايات.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: فإذا لم نَطْمِسْ على أعْيُنِهم، ولم نَمْسَخْهُمْ على مكاناتهم، لأنَّ مَشيئتنا الحكيمةَ اخْتَارَتْ إمْهَالَهُمْ، فلا بُدَّ أَنْ تأتِيَهُمْ آجالُهُمْ علىٰ ما قدَّرْنا وقَضَيْنَا لهم من أعمارٍ في هٰذِهِ الحياة الدنيا، ثُمَّ يمُوتُون بقضائنا وأمْرِنا، إذْ تَأتِيهم رُسُلُنَا من الملائكةِ فيتَوَفَّوْنهم، ويقولون لهم، أيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ منْ دُونِ الله؟!. فيكون جوابُهم: ضَلُّوا عَنَا، ويَشْهَدُونَ على أنفسهم بأنهم كانوا كافِرين، كما سبَق بيانُه فيما أنْزَل اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) فقد جاء فيها قول الله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾: أي: وَمَنْ نُطِلْ عُمُرَه، يقال لغةً: عَمَّرَ اللَّهُ فُلاناً، أَيْ: أَطالَ عُمُرَه.

﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أو (نُنْكِسْهُ في الْخلْقِ] على القراءتين: أي: ومَنْ نُطِلْ عُمُرَه نَجْعَلْهُ يتنازَل مَائِلاً إلى الأسْفَلِ ضَعْفاً وعَجزاً شيْئاً فَشيئاً، حتَّىٰ نَرُدَّهُ إلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمر، ومن المعمَّرِينَ من يكُونُ تَنْكِيسُه أشَدَّ من غَيْرِه.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾: أي: أيسْتَمِرُّون في فِتْنَتِهم بمظاهِرِ الحياة الدُّنيا، غارقين في غفلَاتهم، كأنَّهمْ خالِدُونَ فيها، فَلَا يَعْقِلُون عقلاً علْمِيًّا بِكَثْرَةِ مَا يُشَاهِدُون من مُنَكَّسينَ وَصَلُوا إلى عَتَبَاتِ قُبورهم، وأحَبُّ النّاس إلَيْهِم يَنْتَظِر الخلاصَ منهم ومن تَبِعَاتهم بالموت. ولا يَعْقِلُونَ عقلاً إراديًّا بِضَبْطِ نفوسهم عمَّا سَوْف يَجْعَلُهم يوم الدّين من المعذَّبين في دار عذاب المجرمين، والعُصَاة المذنبين.

الفاء في ﴿أَفَلَا﴾ فاء فصيحة عطفت على محْذُوفٍ، دلَّتْ علَيْهِ القرائن والدّلائل الفكرية في هذا الدرس.

وإذا أردْنا بَسْطَ معنى الآية، مُسْتفيدين مما جاء في دُرُوس السّورة قبلَها، لإحكام الرَّبْط الفكري، فباستطاعتنا أن نقول:

ومَنْ نُطِلْ عُمُرَهُ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهم، أكْثَر من نُظَرَائِهِ ومواليد سَنَةِ ميلادِه، فإنَّنا نُنْكِسُهُ أَوْ نُنَكِّسُهُ في الْخَلْق، فنَرُدُّهُ إلى الضَّعْفِ والعَجز، حتَّىٰ لَا يَجِدَ في حياتِه ما يُطْمِعُه بالْبَقاء، ورُبَّما تَمَنَّىٰ الموْتَ ليَتَخَلَّصَ ممَّا هو فيه من عجْزٍ وضَعْفٍ، وافتِقارٍ دائم إلىٰ من يُعِينُه في طعامه وشَرَابه وقضاءِ

حَاجاته. ولما يَرَى من تأفُّفِ أقرب النَّاسِ إِلَيْهِ واشْمِئزَازِهِمْ مِنْه، ورَغْبَتِهِمْ في أَنْ يمُوت.

وبهذا تكونُ السّورة قد أبانَتْ لهم كلّ الاحتمالاتِ الّتي يمكن أن يُعامِلَهُمُ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ بواحِدٍ منها:

الاحتمال الأوّل: أنْ يُهْلِكَهُمُ الله بِعِزَّتِهِ وَقَهْرِه، كما أَهْلَكَ أصحاب القرية الّتي جاءها المرسلون بصَيْحةٍ واحدة.

الاحتمال الثاني: أن يُعاقِبَهُمْ رَبُّهم عقاباً دُون الإهلاك الشامل، كالطَّمْسِ علَىٰ أَعْيُنِهم، وكَمَسْخِهِمْ علَىٰ مَكَانَاتهم.

الاحتمال الثالث: أن يُمْهِلَهُم رَبُّهم بِحِكْمَتِه، حتَّى تَأْتِيَهُم آجالُهُم الْمُقَدَّرَةُ لَهُمْ في الحياة الدُّنْيا، فيَمُوتُ مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ شابًّا، أَوْ كَهْلاً، أَوْ شيْخاً، أَوْ هَرِماً مُنَكَّساً في الْخَلْقِ قَدْ رُدَّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُر.

وعلى كلّ الأحوال فَسَوْفَ يلْقَوْنَ حِسَابَهُمْ وَجَزَاءَهُمْ يوْمَ الدّين، وسوف يكون مَصِيرُهُمْ أَنْ يَصْلَوْا جَهَنَّمَ بمَا كانُوا يَكْفُرُون.

وفي آخِرِ هذا البيان الذي جاء عرْضُه في السّورة وسيلةً لإقناع الكافرين المجرمين، قال الله عزّ وجل خطاباً لهم: [**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**]؟ كما جاء في إحدى القراءتين. وقال حديثاً عنهم بضمير الغائبين: ﴿**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**﴾؟!

وقد سبَقَ آنفاً تحليل هذه العبارة وشَرْحُها.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، ففي مواجَهَتِهم بالخطاب يُقَالُ لهم: [**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**]؟!. وفي الحديث عنهم مع غَيْرِهِمْ يقالُ: ﴿**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**﴾؟!

والاستفهام في هذه العبارة يَحْمِلُ معنىٰ الاستنكارِ التأنيبِيّ التوبيخِيّ

للكافِرِين المجرمين، سواء بمخاطبَتِهم به، أو بالحديث عنهم، إذْ تَصَرُّفَاتُهُمْ في الحياة الدنيا تَصَرُّفات الَّذِين لا يعقلون.

* * *

(١١)

التدبر التّحليلي للدرس السابع من دروس السورة وهو الآيتان: (٦٩ و٧٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

ما فيه من القراءات:

(٧٠) ● قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفَر، ويَعقُوب: [لِتُنْذِرَ] خطاباً للرَّسُول الّذي أنزل الله عزّ وجلّ عَلَيْه القرآن، وفي العبارة إلتفات إلى الرسول ﷺ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ حَدِيثاً عن الرَّسُولِ بضمير الغائب، أو حَدِيثاً عن القرآن، إذِ الرَّسُول مُنذِرٌ، والقرآنُ مُنْذِرٌ ببياناتِ الإنذار الّتي فيه.

ففي القراءتَيْنِ تكاملٌ في الأداء البياني، وتكامُلٌ فِكْرِيٌ في أداءِ المعنى المراد.

تمهيد:

هذا الدرس موصولٌ بما جاء في صَدْر السورة، وهو قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾.

وإذْ بدأ بعض قادة عتاة مشركي مكّة يتهامَسُونَ فيما بينهم، للعمل على ترويج إشاعة أنّ القرآن لونٌ من ألوان الشّعر، وأنّ الرّسول محمّداً ﷺ شاعر، فقد كان من المناسِب أخذ الأمور بقوابِلها، وبيان أنّ الرّسول ليس بشاعرٍ، وليْسَتْ لدَيْهِ مَوْهبَةُ نظْم الشعر، وبيان أنّ القرآن ليْسَ لَوْناً من ألوان الشّعر، ولا فَنَّا من فُنُونِه.

ودلَّ قولُ الله عزّ وجلّ في هذا الدرس السابع من دُروس السورة: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ حديثاً عن الرَّسُول وعن القرآن الذي يُبلّغه عن رَبّه، ربْطاً بما بَدَأَتْ بِه السُّورة، علىٰ أنّ بعْضَ قادِة مُشْرِكي مكة قد بَدَأ بعْضُهُمْ يَهمِسُ باتّهام الرَّسُول بأنّهُ شاعر، واتّهَامِ القرآن بأنّهُ لوْنٌ من ألْوَانِ الشّعر، للترويج بها بيْنَ الناس، بُغْيَة صَدِّهم عن الإيمان به وبما أُنْزِل عليه من رَبّه.

ويظهر أنّ هذه الهَمَسات قد كانت في بدايتها، لَمْ تَصِلْ إلى حَدِّ الإشاعَةِ السَّائرة، الّتي تتردَّدُ على ألْسِنَةِ جماهِيرِهم وعامّتهم، لكِنَّها قَدْ بَلَغَتْ أُذُنَ الرَّسُولِ ﷺ، بدليل قول الله عزّ وجلّ لَهُ بَعْدَ بِضْعِ آياتٍ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

فأشارت عبارة: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ إِلَىٰ أَنَّ هٰذا الاتهامَ ما زَالَ سِرّاً، وفي مراحِلِه الأولى تَهَامُساً فيما بين بعضهم.

أمّا ما أعْلَنُوه فقد سبَقَ في نجوم التنزيلِ بيانُه، والرَّدُّ عليه بالحجج الدّوامغ.

وتُحدّثُنا كُتب السّيرة عمَّا كان من شأن الوليد بن المغيرة، إذِ اجْتَمع إلَيْه نَفَرٌ من قُرَيش، واستشاروه بأن يتّهمُوا الرّسُولَ محمّداً ﷺ بأنّه شاعِرٌ،

إذَا سَأَلَتْهُمْ عنه وفود الحجاج، فأجابَهُمْ بقوله: مَا هُو بشاعر، وأبَانَ لهم أنّ القرآن الذي يتْلُوهُ عَليْهِم ليْسَ من أيّ لَوْنٍ من ألوان الشّعر، ولا من أيٍّ فنٍ من فنونه.

جاء في سيرة «ابن هشام» عن ابْنِ إسحاق، وهو عند البيهقي أيضاً: أنّ الوليد بْنَ المغيرة اجْتَمع إلَيْه نفرٌ من قريشٍ، وكانَ ذا سِنٍّ فيهم، وقد حضَرَ الموسِمُ⁽¹⁾، فقال لهم: يَا مَعْشَر قُرَيشٍ، إنَّهُ قَدْ حضَرَ هذا الموسم، وإنَّ وُفُودَ العَربِ سَتَقْدُمُ عَلَيْكُمْ فيه، وقد سَمِعُوا بأمْر صاحِبِكُم هٰذَا، فَأَجْمِعُوا فيه رأياً واحداً، ولا تخْتَلِفُوا فَيُكَذِّبَ بعْضُكُمْ بعضاً.

قالوا: فأَنْتَ يا أَبا عَبْدِ شَمْسٍ فَقُلْ، وأَقِمْ لَنا رَأْياً نَقُلْ به.

قال: بَلْ أَنْتُم فَقُولُوا، أَسْمَعْ.

قالوا: نقول: كاهِنٌ.

قال: لَا وَاللَّهِ مَا هُو بكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الكُهَّانَ، فما هُوَ بِزَمْزَمَةِ⁽²⁾ الْكَاهِنِ وَلا سَجْعِه.

قالوا: فنقُولُ مجْنُون.

قالَ: مَا هُو بمجنُونٍ، لقَدْ رَأَيْنَا الجنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هو بخنقه ولَا تخالُجِه، وَلَا وَسْوَسَتِه.

قالوا: فنقول: شاعر.

قال: مَا هو بشاعر، لقد عَرَفْنَا الشّعْرَ كلَّه، رَجزَهُ، وهَزَجَه، وقريضَهُ، ومقْبُوضَهُ، ومَبْسُوطَهُ، فما هو بالشّعر.

---

(١) أي: حضر موسم الحج.

(٢) **الزمْزَمة**: الكلام الخفيُّ الذي لا يُسْمَع.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحرٍ، لقَدْ رَأيْنا السُّحَّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ وَلَا عَقْدِهِمْ.

قالوا: فَمَا نَقُولُ يا أبَا عَبْدِ شَمْس؟

قال: وَاللَّهِ إنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، وإِنَّ أَصْلَهُ لَعَذْق(١)، وإنّ فَرْعَهُ لَجَناةٌ(٢).

وفي رواية ذكرها ابْنُ هشام: وَإِنَّ أَصْلَهُ لَغَدَقٌ(٣).

وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلَّا عُرِفَ أنَّهُ باطل، وإنَّ أَقْرَبَ القول فيه، لأَنْ تَقُولُوا: ساحرٌ، جاء بقوْلٍ هو سِحْرٌ، يُفَرِّقُ به بيْنَ المرْءِ وَأبيه، وبيْنَ المرْء وأخيه، وبين المرْءِ وزوجَتِه، وبَيْنَ المرْءِ وعَشِيرَته.

فتفرّقُوا عَنْهُ بذلك، فجَعَلُوا يَجْلِسُونَ بِسُبُلِ الناسِ حِينَ قَدِموا الموسم، لا يَمُرُّ بِهِمْ أحَدٌ إلَّا حَذَّرُوه إيّاه، وذَكَرُوا له أَمْرَه.

ويَبْدُو أنّ اتّهامَه بأنّه ساحِرٌ، لم يَصُدَّ النّاسَ عن التأثُرِ بالْقُرآن الَّذِي يَتْلُوه، فلم يجدُوا ذَرِيعةً إلَّا أن يتّهمُوه بأنّه شَاعِرٌ يقولُ لَوْناً من أَلْوان الشّعْرِ لا يَعْرِفونه، وكانَ هٰذَا تَهَامُساً لم يَبْلُغْ أنْ يكون إشاعَةً سائرة، بدَليل أنَّ النصَّ في سورة (يسٓ) لم يأتِ فيه التَّصْرِيحُ باتّهامِهم له بأنّه شاعر، ولا بأنّ القرآن هُوَ لَوْنٌ من ألوان الشعر، ولم يأْتِ فيما نزلَ من القرآن قبْلَ سُورَةِ (يسٓ) تصريحٌ ولا إشارَةٌ إلى مثْل هذا الاتّهام، لكنّ قول الله عزّ وجلّ في سورة (يسٓ): ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

---

(١) **الْعَذْق**: النخلة بِحَمْلها، يُشَبّه القرآن بالنخلة المثمرة.

(٢) **لَجَنَاة**: أي: لثمرة عظيمة طيبة.

(٣) **لَغَدَق**: أي: لكثير الماء.

يُشِيرُ إلى أنّ اتّهامَهُمْ له بأنَّهُ شَاعر، واتِّهَامَ الْقُرآنِ بأنَّهُ لَوْنٌ من أَلْوانِ الشّعر، قَدْ بدَأَتْ بوادِرُهُ سِرّاً، ووصَلَ بعْضُها إلى الرسُول ﷺ، فقال الله له: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

فجاءَتِ المبادَرَةُ الرَّبَّانيَّةُ إلىٰ دفع هٰذا الاتّهام وهو في مَهْدِه، في هذه السّورة، واشتمل البيانُ على أنّ الرَّسُول محمَّداً بطبيعَتِه لَا يَقْرِضُ الشِّعر، ولَا يَليقُ بِهِ أنْ يكون شاعراً، وأنَّ الذّكْرَ الحكيم في القرآن المبين، لا يَليقُ به أنْ يكونَ من قبيلِ الشّعر، بحسَبَ المعْرُوف من شعر معظم الشعراء، ومذاهبهم في البيان، وطبائع نفوسهم الّتي تجْعَلُهم يخوضُونَ في أوحال مختلف الأودية الهابطة عن مستَوَياتِ مكارم الأخلاق، ومحاسِنِ الشِّيم.

وكان هذا الذي جاء في سورة (يسۤ) أوّلَ بَيانٍ قُرآنِيّ نزَلَ حول هذا الموضوع.

التدبر:

قول الله تعالى:

- ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾:

يتحدَّثُ رَبُّنَا بضمير المتكلّم العظِيم، بشأن رَسُولهِ الّذي خاطبه في أوائل السُّورة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وبشأن القرآن الذي قال عنه في أوائلها أيضاً: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ وقال عنه أيضاً: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾.

أي: وما علَّمْنَا رَسُولَنَا محمّداً شعراً أَوْحَيْنا بِهِ إِلَيْه، ومَا جَعَلْنَا في طبيعَةِ نَفْسِه اسْتِعداداً لِقَرْضِ الشِّعْرِ ذِي الموازِينِ الخاصَّةِ به، إذِ الاستعداداتُ الَّتي يَجْعَلها الله عزّ وجلَّ في فِطَرِ النُّفُوسِ الحيَّة، وفي فِطَرِ

الناس، هي من عناصرِ التَّعْليم الرَّبَّانِيّ لهم، لأنَّها تُقْرَنُ بدوافع وَإِلْهَامَاتٍ تجْعَلُهُمْ يُؤَدُّونَ مقتضياتها مِنْ أعْمَالٍ، وكُلُّ ذَلِكَ بخَلْقِ الله، بَعْدَ قضائِه المسْبُوقِ بقَدَرِه.

ولهذا قال الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول): ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾.

أي: مَنَحَهُ الاسْتِعْدادَ الفِطْريَّ ليُبِينَ عَمَّا في نَفْسه من المعاني والأحاسيس والأفكار، بالمصْطَلَحَاتِ اللُّغَوِيَّة الْقَوْلية.

وقال في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول):

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

أي: علَّمَ جلّ جلالُهُ باستخدام الْقَلَم، كثيراً من المعارفِ لمنْ جَعَلَ في فِطَرِهِمْ الاسْتِعْدادَ لاكتساب الْعُلُومِ بوسائلها، ومنها وسيلة الْقَلم، وهو الذي يَخْلُقُ فيهم الْعِلْمَ بما يُعَلِّمُهُمْ إيّاهُ عن طريق قنواتِ الوسائل.

ولهذا لم يكن الرَّسُول محمّدٌ ﷺ من قارضي الشّعر، لَا قبْلَ النبوّةِ ولَا بَعْدها، ولَيْس ذلك لأنَّ الْقُدْرَة علَىٰ قَرْض الشّعر منْقَصَةٌ في الإنسان، بل هي هِبَةٌ من الله جلّ جلالُه لبعض عباده.

ولكن لم يمنحَ اللَّهُ جلَّ جلالُه رَسُولَهُ محمّداً ﷺ الاستعدادَ الفطريَّ لقَرْضِ الشّعر لحكْمَةٍ تتعَلَّقُ برِسالته، وهي سدُّ ذَرِيعة الّذين لَا يُؤْمِنُونَ بدعْوَته، ولئلا يجدوا رَواجاً لاتّهامهم له بأنّه شاعر، وبأنَّ النَّزْعَةَ الشِّعْرِيَّة هِيَ الّتي جعلَتْهُ يتخيَّلُ تخيُّلَاتِ النبوّة، والتَّفَوُّقِ في صِنَاعَةِ الْبَيان الرَّفيع، مع ما في نفوس معظم الشعراء من الاستعدادِ للدُّخُولِ هَائمين في كلّ وادٍ من أوْدِيَةِ الكلام، مهْمَا كان وادِياً سحيقاً هابطاً إلى مواطِنَ غيْرِ أخْلاقيّة، فيها الكذب، والهجاء الفاحش، والثناءُ بغَيْر حقٍّ، والاستِجْداء، والتَّغَزُّلُ بالْعَفِيفاتِ الشريفاتِ، الذي يُشْعِرُ برضاهنَّ، وبأَنّهنّ يُشَارِكْن الشاعرَ الهوىٰ، ولهنّ معه لقاءاتٌ غَيْرُ محمُودَة.

فالشِّعْر لا يَنْبغي لنَبيٍّ رسُولٍ بحَسَبِ نظراتِ معظم النّاسِ للشعراء.

على أنَّ الشعراء المؤمنينَ الصالحين من ذوي الاستقامة، يتَّقُونَ رَبَّهم، فلا يخوضُونَ في أوحالِ وِدْيَانِ الشّعر، التي يخوض فيها أكْثَر الشعراء.

وأقول أيضاً: إن عَدَمَ تعليم الله رَسُولَهُ الشّعر، هو نَظِيرُ عدم تعلِيمِهِ القراءةَ والكتابة، مع استعدادِهِ الفِطْرِيّ لذلك، وذلك لأنّ كوْنَهُ أُمِّيًّا أَدْعَىٰ إلى تَصْدِيقه بأَنَّهُ نبيٌّ ورسُولٌ أرسَلَهُ رَبُّ العالمين، بسَبَب المعْجِزَةِ الخاصَّةِ بهِ، وهِيَ مُعْجِزة القرآن، فلوْ كانَ قارئاً كاتباً، لراجَتْ مقالة الكفّارِ بشأن اتِّهامه بأنّه نَقَلَ القرآنَ من كتُب أهل الرسالاتِ السّابقات.

- ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾: أي: وما يَنْبَغِي لَهُ أنْ يكُونَ شاعراً، ومعنى «ما ينبغي له» في اللّغة: مَا يَصْلُح له ذلك، وما يَسْهُل لدَيْه أن ينْظمَ الشّعْرَ ويَقْرضه.

والسَبَ في كون قرضِ الشعر لَا يَصْلُحُ للرَّسُول محمّد ﷺ، تَصَوُّرُ الْعَرب في الْبِيئَةِ العربيّة أَنَّ الشُّعَراءَ كذّابُون، يصْطَنِعُون الهجاء والمديح افتراءً، ويسْتَجْدُونَ المُلُوكَ والأمَراء بشِعْرِهِم، وأنّهم أصحابُ أهواءٍ وشهواتٍ يُتَابِعُونَها فيما يَقْرِضونَ من شِعْر، وأنّهم خياليُّونَ غالباً، لا يحْرِصُونَ في كلامِهِمْ على بيانِ الحقّ، وقولِ الحكمة النافعة، باستثناء القليل منهم.

قول اللّهِ تعالى:

- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾:

قضيَّتَانِ جاءَتَا مُنْدَمِجَتَيْن في نصٍّ واحدٍ:

- قضيَة كَون الشِّعْرِ مَا يَصْلُحُ للرَّسُول.

- وقضية كونِ القرآنِ لَيْسَ شِعْراً، بَلْ هُو ذِكْرٌ وقُرآن مبين.

وفي إدْماجِ هَاتَيْنِ القضيَّتَيْنِ ببيانٍ واحدٍ؛ إبْداعٌ فكريٌّ وإيجازٌ لفظيّ.

أي: ما الكلام الذي يَتْلُوهُ محمَّدٌ مُبَلّغاً إيَّاهُ عن رَبّه، ويتحدَّىٰ الناسَ بأن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه، إلَّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مبين.

وَصَفَهُ اللَّهُ بأنَّهُ ذكْرٌ، نظراً إلى المطلوب الأخير من المكلّفين بالنسبة إليه، إذْ عليهم أن يتَلَقَّوْهُ، ويُصْغُوا إلى كلّ كلمةٍ وآيَةٍ منه، ويتفَهَّمُوه، ويَعْقِلُوا معانيَه، ويكون لهم ذِكْراً يذكُرُون مِنْهُ ما يَتَعَلَّقُ بالمنَاسَباتِ الداعيات إلى تَذكُّرِ شيءٍ منه، للعمل بمقتضاه.

ووصفه الله جلّ جلالُه بأنَّه قرآنٌ مبين:

قرآن: مَصْدَرُ قرأ، أُطْلِقَ على اسْم المفعول، فهو بمعنى مَقْرُوء، أي: مكْتُوبٌ في المصاحف يُقْرأُ منها. وفي هذا توجيه لوجوب كِتابَتِه، وقَدْ نفَّذَ الرَّسُول ﷺ والمسلمونَ منْ بَعْده هذا الواجب.

مُبين: أي: هو واضِحٌ في ذاتِه صِياغةً ونُطْقاً، ومبِينٌ للمعاني الّتي يَدُلُّ عليها، بما توافر فيه من صِيَغٍ بيانِيَّةٍ مختَلِفَةٍ للمعنى الواحد، وغير ذلك.

من فعل «أبان» اللّازم بمعنى ظهر ووضح، ومن فعل «أبَانَ» المتعدِّي، بمعنى أظهر وأوْضح.

* * *

قول الله تعالى:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

سبق توجيه قراءتَي: ﴿لِّيُـنذِرَ﴾ و[لِتُنْذِرَ] ونفهم من القراءتَيْنِ أنّ الرَّسول مُنْذِر، وأنّ القرآن منذر، وباستطاعة كلّ داعٍ إلى الله أن يُنْذِرَ بما جاء في القرآن.

الإنذار: هو الإخبارُ بما ينبغي التوقّي والحَذَرُ منه. والإنذارُ في دَلَالَاتِ النصوص القرآنية، هو الإخبار بعقاب الله المعدّ جزاءً على معصيته بالكُفْرِ فما دُون الكُفرِ من المعاصي، في الآخِرَةِ أو في الدنيا، أو فيهما معاً.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ و[لِتُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا] على القراءتين، أي: من كَانَ ذَا وَعْيٍ وفكر يُدْرِكُ أنَّ للكَوْنِ رَبًّا خَلَقَ النَّاسَ لِيَبْلُوهُمْ في ظروفِ الحياة الدّنيا، ثُمَّ لِيُجَازِيَهُمْ على ما قَدَّمُوا في رحْلَةِ امتحانهم بالثّواب أو بالعقاب يوم الدين. وهو بعد هذا الوعي يتَفَاعل تَفَاعُلَ استجابةٍ لما وعى، فيعملُ بمقتضاه إيماناً وعملاً صالحاً، طاعةً لله، كَشَأْنِ سائر الأحياء بالنّسْبَةِ إلى أمور حياتهم الدّنيا، فَإنَّ كُلَّ حَيٍّ يُدْرِك مَطْمَعاً يَسْتطيع الحصول عليه، فلا بُدَّ أَنْ يَسْعىٰ لتحصِيلِهِ، ويُدْرِكُ مخوفاً منه يسْتَطِيع حماية نفسه منه فلا بُدَّ أنْ يتّخذ وسائل للتَّوَقّي منه.

أمّا مَنْ عطَّلَ أدوات الإدْرَاكِ فيه، أو عطَّلَ أجْهِزَةَ الاستجابة النَّفْسِيَّةِ لما يُدْرِك، أو صَرَفَهَا عن وظائفها، ولوفي مجالٍ من مجالاتها، فهو بالنسبة إلى ذَلِك المجال بمثابَةِ الميّتِ الَّذِي لَا حَياة فيه.

فصَحَّ بهذا أن يُسْتعار لفظ «حَيّ» لمَنْ يُبيَّن له ما فيه خيرُهُ في عاجل أَمْرِهِ وآجِلِه، فَيُدْرِكُه، ويستجيبُ لما أَدْركَ مِنْهُ ووعَىٰ، الاستجابَةَ الملائمة له، خوفاً أو طمعاً.

وصحّ أن يُسْتَعَار لفظ «مَيّت» لمَنْ لَا يُدْرِكُ ولا يعي، معَطّلاً أدوات الإدْراكِ والوعْيِ فيه، أو صارفاً لها عمّا يجبُ عليه أن لا يَصْرِفَها عنه، أو هو لا يستجيب لما أَدْرَكه ووعَاه الاستجابة الملائِمَةَ له من خوفٍ أو طَمَع.

وبما أنّ الإنذارَ بعقاب الله لمَنْ كفَرَ مُعانداً مُصِرًّا علَىٰ باطله، إنَّما

يكون في آخِر مراحِل الدّعْوة الّتي تبدأُ بِمَرْحَلَةِ الإقناعِ البياني بالحق، وتأْتِي بعْدَها مَرْحَلَةُ الترغيب بالثواب العظيم، ثُمَّ تَأْتي مَرْحَلَةُ الإنْذَارِ والتَّرْهيب من العقابِ الأليم، فقد جاء في النصّ هنا الاكتفاء بذكر الإنذار، لأنّ هذا الكلامَ جاء في معرض الحديث عن الكافرين المشركين المصِرّين على مواقفهم الكفريّة العناديّة، وقد سبَقَ بيان الحقّ لهم بمختلف وسائل الإقناع، وسبَقَتْ بشارَتُهُمْ وتَرْغيبهم بالجزاء العظيم الكريم في جنَّاتِ النعيم، إذا آمنوا وعَمِلُوا صالحاً، والباقي من المراحل بالنسبَةِ إِلَيْهِم الإنْذارُ بعذاب الله الأليم، في دار العذاب يوْم الدّين، وبعقوبَاتٍ قد يعجّلُها الله لهُمْ في الحياة الدنيا.

فَمَن بَقِيَتْ فيه منهم بقيَّةُ حيَاةٍ يُدْرِكُ بها الإنْذَار، ويَسْتَجِيبُ بها لَهُ الاستجابَةَ الملائمة بالْخَوْفِ، وباتّخاذِ الوقاية المناسبَةِ، وهي تكونُ بالإيمان والإسلام، انْتَفَعَ بالإنذار، وَمَنْ لم تبْقَ فيهِ منْهم بقيَّةُ حياةٍ مَا، فإنَّه لا يَنْتَفِع بالإنذار.

فانْحَصَر الانتفاعُ بالإنذار في مَنْ بَقِيَتْ فيه منْهُم بقيَّةُ حياةٍ في مجالِ قضايا أُسُس الدّين، فجاء التعبير الملائم، بقول الله عزّ وجَلّ بالنِّسْبة إلى القرآن:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ في قراءة.

وبقول الله عزّ وجلّ خطاباً للرَّسُول ﷺ:

[لِتُنْذِر مَنْ كَانَ حَيًّا] في القراءة الأخرى.

وجاءت عبارةُ الحصْرِ الصريح بقول الله عزّ وَجَلَّ في أوائل السّورة:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ... ⑪﴾.

قوله تعالى:

﴿... وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: وليثبت على الكافرين أثَرُ القول الخاصّ بوعيدهم بعذاب جهنَّم، خالِدِينَ فيها أبداً، فيكونوا من أهل النار.

يقال لغة: حقَّ الأمْرُ يَحِقُّ حَقًّا، أي: ثبَتَ واسْتَقَرّ. أو المعنى: ليثْبُتَ القولُ نَفْسُه على الكافرين، عنْد انتهاء رِحْلةِ امتحانِهم قبْلَ أنْ يَتُوبُوا، بَعْدَ أنْ كان هذا القولُ وعيداً مُعَلّقاً بشَرْطِ عَدَمِ تَوْبَتِهِمْ قبل انتهاء رحْلة امتحانهم، ومَتىٰ ثَبَتَ القولُ عليهم فلا بُدَّ من تحقيق وقوع أثَرِه، لأنَّ الله عزّ وجلّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به، ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، والشّرْكُ أخَفُّ دَرَكاتِ الكُفْرِ.

وهذه العبارة مرتبطة بما جاء في صدر الصورة:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾.

وبالتأمّل التدبّريِّ العميق في قول الله عزّ وجل:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

نُدْرِكُ أنَّ فيه حَذْفاً من الجملة الأولى دلّت علَيْه الجملة الثانية، وأنّ في الجملة الثانية حذفاً دلّت عليه الجملة الأولى، وهذا النوع من الحذف يُطْلِقُ علَيْه البيانون اسْمَ «الاحْتِباك» مع ما فيه من استعارة لفظ: «حيًّا» لمَنْ ينتفع بالإنذار، أمّا من لا يُؤثّر فيه الإنذارُ فهو بمثابة الميّت.

وبإظهار المحاذيف يكونُ التقدير:

لِيُنْذِرَ القرآن والرّسُولُ مَنْ كانت لدَيْهِ بقيةٌ من حياةٍ إنْذاراً يَنْتَفِعُ بهِ، إذْ يُؤَثّر فيه فيُؤْمِنُ وَيَكْسِبُ في إيمَانِهِ خيراً، فيَحِقُّ قَوْلُ الْوَعْدِ بثوابِه، فيكُونُ من أهل الجنّة.

ومن كان بمثابة الميّتِ الذي لم تبقَ فيه بقية من حياة، فإنَّه لا يَنْتفع

بهذا الإنْذار، إذْ لَا يُؤَثّر فيه فلَا يُؤْمن، فيَحِقُّ عليه قَوْلُ الوعيدِ بأنَّه من أهل النار الخالدين فيها.

وقد تكرّر في القرآن بيانُ أنَّ القرآن مُنْذِرٌ بسبب مَا فيه من آياتِ إنذار، وبيانُ أنّ الرَّسُولَ مُنْذِرٌ، لأنَّه يُبلّغُ عَنْ رَبّه الوعِيد بعذاب الله للعُصَاة، ويتْلو الآيَاتِ القرآنِيَّة على المكذبين، وفيها وعِيدٌ بعذاب الله.

فممّا جاء من بيان أنّ القرآن منذر، قولُ الله عزّ وجل في أوّل سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾.

وممّا جاء من بيان أنّ الرَّسُول مُنْذر، قول الله عزّ وجلّ في أوائل سورة (يسٓ) كما سبَق في التدبّر خطاباً لرسوله:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾.

مَا عالَجه هذا الدَّرْس:

هذا الدّرس قد عالج قضيَّة اتِّهام الرَّسُول بأنَّه شاعر، واتّهام القرآن بأنّه لَوْنٌ من ألوان الشعر، لمَّا كان هذا الاتّهام همساً بيْنَ بعض كبراء عتاة الكفرة المشركين في مكة.

ولكن هذا الذي كَانَ إِبَّانَ نزول سورة (يسٓ) همساً، قَدْ صار بعْدَ ذَلِك قولاً يُصَرِّحُونَ بِه عَلانِيَة، فجاء في البياناتِ القرآنية ما يَدُلُّ على هٰذِه الأطوار، مع معالجة أقوالهم.

(١) فجاء في سورة (الصافّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) قول الله عزّ وجلّ بشأن أقوالهم:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿وَيَقُولُونَ﴾: جاء في هذه العبارة اختيارُ الْفِعل المضارع الدالّ على التكرير، للدّلالة على أنّ مقول هذا القول، قد صار عبارة دائرة على ألسنتهم ومقالة يُكرّرُونها، لتكون إشاعَةً سائرة بين جماهيرهم.

- ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾: مقالة استفهامية اسْتِنكاريّة، يُعبِّرُونَ بها عن استحالة تركهم عبادة آلهتهم من الأوثان، لأجْلِ مقالَاتِ شاعرٍ مجنون.

فاتَّهَمُوا الرَّسُول بأنّه شاعِرٌ مجنون، وزعَمُوا بصريح تعبيرهم أنّ القرآنَ الّذي يتْلُوهُ عليهم هو من قبيل الشعر الّذي تنْدَفِعُ إلَىٰ قوله أخْيِلَتُه الشّعْريّة، أَوْ يُمْلِيه عليه من الجنّ من أصابه بالجنون، إذْ مَسَّه، أو دخَلَ في جَسَدِهِ مشاركاً له فيه.

- ﴿..بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: ليس شاعراً ولا مجنوناً، بل جَاءَ بالحقّ، ومعلومٌ أنّ المجنُونَ لَا يكونُ كلُّ ما يأتي به حقًّا، وكذلِكَ الشاعِرُ بحسَب ما يعْلَمُ القوم من أحوال الشعراء.

«بَلْ» ابتدائيّة، ومعناها الإضرابُ الإبطالي.

وبما أنَّ القرآنَ كُلَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ فلا يُمْكن أن يكون مُبَلّغُهُ عن رَبّه الرَّسولُ محمَّدٌ شاعراً وَلَا مجنوناً.

- ﴿..وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: ويُضَافُ إلى كَوْنِه قَدْ جاءَ بالحقّ، أنَّهُ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ السَّابِقِين، فيما جاءُوا به عن رَبّهم.

فدَلَّ التطابُقُ بين ما جاء به محمّد بن عبد الله، وبين الأصول الصحيحة الّتي جاءَ بها المرسَلُونَ مِنْ قَبْلِه على أنَّهُ نبيٌّ مُرْسَلٌ، وأنّ الكتابَ الذي جاء به هُو منْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقاً.

(٢) ثُمَّ أنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ قولَهُ في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) بعد بيان اتّهام عُتاة المشركين في مكة للرّسول بأنّه ساحر:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾.

هذه مرحَلَةٌ غَلا فيها عُتَاةُ المشركين في طَرْح الاتهاماتِ الباطلاتِ المختلفات.

فاتَّهَمُوا الرَّسول بأنَّه سَاحِرٌ، وزَعَمُوا أنّ تَأْثير البيان القرآنيّ من نوع تأثير السّحر.

وطَرَحُوا احْتِمَال أَنْ يكُونَ القرآنُ من قَبِيلِ أضغاثِ الأحلام الّتي يراها النّائم، فإذا استَيْقَظَ حَفِظَها فَأَلْقَاها للنَّاسِ.

وَطَرَحُوا احْتِمَال أن يكُونَ مِنْ قبيل الافتراء، أي: هو يَصْنَعُهُ وَيَنْسُبُهُ إلى رَبّه افتراءً على الله.

وطَرَحُوا احْتمالَ أَنْ يكونَ من قبيل أَخْيلَةِ الشَاعِرِ وأقوالِه الشِّعْرِيّة.

وَرَفَضُوا آيَةَ القرآن، وطالَبُوا بآيَةٍ مادّيَّةٍ، كعَصَا مُوسَىٰ، وناقَةِ صالحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَام، ولو استجابَ اللَّهُ لطَلَبِهِمْ كما طَلَبُوا لمَا أمْهَلَهُمْ، بلْ لأهلَكَهُمْ بمقتضَىٰ سنَّتِه في عباده جلَّ جلالُه.

وقد دلَّ هٰذا النّصّ علىٰ بُلُوغهم مَرْحلةَ الاضطراب في طرح ذرائع رفض الحقّ.

(٣) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ قولَهُ بشأنهم في سورة (الطور/٥٢ مصحف/٧٦ نزول) خطاباً لرسُوله:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾:

فدلَّ هذا النصّ على إصرارهم على مُتَابَعَةِ توجيه الاتّهاماتِ له بأنَّه كاهِنٌ، أو مجنون، أو شاعر، وقالوا ننتظر موتَه فنتَخَلَّصُ من دَعْوَتِه ومِنْ قُوَّةِ بيانه.

﴿نَتَرَبَّصُ﴾: أي: نَنْتَظِر، يقالُ لغة: تَرَبَّصَ فُلانٌ بُفلانٍ، أي: انتظر خيراً أو شرّاً يَحُلُّ به.

﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: أي: حوادِثَ الدَّهر الْمُمِيتَة. **الرَّيب**: من معانيهِ صَرْفُ الدّهر وحوادثه. **الْمَنُون**: الموت.

ودَلَّ هذا النَّصُّ على أنّهم ما زالُوا في حالَةِ الاضطراب، وعدَم الثبات على رأيٍ مَقْبُولٍ يتّهمُونَه به.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: انْتَظِرُوا مَوْتي، وأنا مَعَكُمْ من المنتظرين، ولكِنّي أَنْتَظِرُ نَصْرَ اللَّهِ لي وللّذين آمَنُوا بي واتَّبَعُوني، وأَنْتَظِرُ عِقَابَ اللَّهِ لَكُمْ على إصراركُم على الباطل.

(٤) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلَّ بشَأْن القرآن في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: إنّ القرآن قَوْلٌ بلَّغَهُ الرَّسُول الكَريمُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، للرَّسول محمّد، وعَلَّمَهُ إيَّاهُ حَرْفاً بحَرْفٍ، وَكَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، وهو تنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

(٥) ثُمَّ أنزلَ اللَّهُ عزّ وجلّ آياتٍ مَدَنِيَّةً ضُمَّتْ إلىٰ سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) المكية، لمراعاة اقتضاءَين: أحَدُهُما يُنَاسِبُ أحوالاً وَقْتَ التنزيل، والآخَرُ يُنَاسِبُ مَوْضوعَ السُّورَةِ من الناحِيَةِ الفكريَّة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

في هٰذه الآياتِ بَيَانُ طبيعَةِ مُعْظَم الشُّعراء، المنافيةِ للاصطفاء برسالةٍ عظيمة فيها هُدىً ونُورٌ وحقٌّ، وشرائِعُ جادَّة، وأخْلاقٌ فاضِلَةٌ مُثْلَىٰ، والمنافية لما جاء في القرآن من حقٍّ.

وفيها استثناء الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات من عُمُومِ الشعراء، الَّذِينَ يَمِيلُ معظَمُهم إلىٰ الغوايَةِ.

وقُرِنَتْ هٰذه الآياتُ بما جاء في السُّورَةِ من رَدٍّ على اتِّهام الرَّسُولِ ﷺ بالكَهَانَة، وبأَنَّ ما جاء به هو من نوع ما يتلَقَّاهُ الكُهَّانُ من أَوْليائِهِمْ من الجنّ.

وَإِذْ كَانَ بَيْنَ الكَهانَةِ وَبَيْنَ الشِّعْرِ جامعٌ ما في خيال الْعَرَبِ قبل الإسلام، إذْ كانُوا يَتوهَّمُونَ أَنَّ للشّاعِرِ شيطاناً يُلْهِمُهُ الشّعر، كانَ من الحكمة البيانيَّة، أن يَدْفع اللَّهُ عزّ وجلَّ هاتَيْنِ الْفِرْيَتَيْنِ بالتتابع في هذه الآيات.

ودَلَّت هذه الآياتُ الَّتي يُخَاطب اللَّهُ عزّ وجلّ بها أئمة الكُفْرِ والشرك، بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾؟ على أنّ فِرِيتَي اتِّهام الرَّسُولِ والقرآن بالكِهَانَةِ والشّعر، قد بلَغَتَا مبلَغَ الإشاعَةِ الَّتي صَارُوا يُرَدّدُونَها بأفواهِهِمْ عَلَناً، وأنَّها خَرَجَتْ من الهَمَسَاتِ السِّرّيَّةِ إلَىٰ الأَقْوالِ العلنيَّة.

أَمَّا الكهانَةُ فَأَبَانَ اللَّهُ بشَأْنِهَا أَنَّ الأَخْبَارَ الّتي تأْتِي بها إنَّما تَتَنَزَّلُ بها الشَّيَاطِينُ، عَلَىٰ أَوْليائهم من الإنْسِ، وكُلُّ واحِدٍ من هَؤلاءِ أَفَّاكٌ أثِيمٌ،

كثيرُ الافْتِرَاءِ والصَّرْفِ عن صراط الحقِّ والْهُدَىٰ، كثيرُ الإثْمِ مُغْرِقٌ فيه، يُلْقُونَ أسْمَاعَهُمْ لقُرَنَائِهِم وأوليائهم من الشياطين الّذين يأتُونَ بالْأخبار، لنَشْرِ الكُفْرِ والشِّرْكِ بالله بَيْنَ النّاس، فيُضِيفُ الْكُهَّانُ من عنْدِ أنفسهم أكاذيبَ على مَا يَتَلَقَّوْنَ مِنْ قُرنائِهم، فَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُون، لَا يَقْتَصِرُونَ علىٰ مَا يَتَلَقَّوْنَ من شياطينهم.

وأمّا الشِّعْر والشعراء فلا يلتقيان بكتابٍ رَبَّانِيٍّ منزّلٍ بالحقّ والهدى، على نبيّ أرْسَلَهُ الله بالهَدىٰ ودِينِ الحقّ.

فالشُّعَراءُ أكْثَرُهُمْ غاوُون، يتَّبِعُونَ سُبُل الْغَيّ والضّلال، ويهجُرُونَ صِرَاطَ الرُّشْدِ والهداية.

وأتْبَاعُ الشُّعراء يَكونون من الغاوين، ذوي الإغراق في الغوايةِ عادةً، إِذْ يَجِدُونَ في شِعْرِهم أهواءَ نُفُوسهم، ورَغباتِ انحرافاتهم عن سَبِيل الحقّ والْهَدىٰ.

لكِنَّ محمَّداً ﷺ لم يتّبِعْهُ الغاوُونَ علىٰ عاداتهم في اتّباع الشعراء، بَل اتَّبَعَه ويَتّبِعُهُ الراشِدُونَ الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات.

والدّليل على أنّ معظم الشعراء غاوُونَ ويتّبِعُهُمُ الغاوونَ، أنّهم في كلّ وادٍ من الأدوية السّافلة الهابطة يَهِيمُون.

الهائم: هو الذي يُتَابعُ في مَسِيرِه أيّ طَرِيق يجدُه تُجَاهَه، فهو لا يَدْرِي أيْنَ يتوجّه. والمتحيّر المضطربُ الذاهب كلّ مذهب، ومن كان كذلك، مشَتْ به قَدَمَاه إلى المهالك.

ومعظم الشعراء يقولون ما لا يَفعلُون، أي: يَعِدُونَ بأن يَفْعَلُوا، مواعِيدَ كاذبَةً لَا يُريدون الوفاء بها، فهم لا يفْعَلُونَها، وهٰذِهِ من علامات النفاق.

ويقاسُ على هذا كذبُهم في الأخبار، يقولون: فَعَلْنَا وهم لم يفعلوا، وهذا يدخل في عموم: أنّهم في كلّ وادٍ يهيمون.

واستثنى الله عزّ وجلّ من عُمُوم الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وَذكُروا اللَّهَ كثيراً، وانْتَصَرُوا بشعرهم من بَعْدِ ما ظُلِمُوا فقال الله عزّ وجل في النص:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

ومن هؤلاء شعراء الصحابَة وَمَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ.

ممّا جاء في السُّنَّة بشأن الشّعر والشعراء:

لم يأت في السُّنَّةِ ذَمُّ كلّ الشِعْر وكُلّ الشعراء، بل جاء فيها ثناء على بعض الشعر، وحثٌّ لبَعْض الشعراء أن ينْصُروا الإسلام والرَّسُولَ بشِعْرِهم، وجاء فيها ذَمُّ بَعْضِ الشعر، وهو محمولٌ على الشعر الذي يَشْتَمِلُ على ما يحرُمُ في الإسلام قولُه، كعبارات الشرك، وكلام الْفُحْشِ، وإيذاء الناس في أعراضهم، ونَصْرِ أهل الكفر والنفاق، والفِسْق والفجور في الأرض، والثناء علىٰ الطغاة البغاة. وجاء فيها ذَمُ بعض الشعراء، وهم الذين يستخدمون شعرهم للطَّعْن في الإسلام والمسلمين، أو لإشاعَةِ الفاحشة في الأرض، أو لظُلْمِ البُرءَاء في أعراضهم، أو نحو ذَلِكَ ممّا حرَّمَهُ دينُ الله للنّاس.

فممّا ورَد في السَّنة ما يلي:

(١) روى البخاري وأبو داود عن ابن عباس، قال: جَاءَ أعرابيٌّ إلى النبيّ ﷺ، فجعل يَتكلَّم بِكَلامٍ فقال: «إنّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْراً، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَماً».

(٢) وروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يضَعُ لِحَسَّانَ مِنبَراً في الْمَسْجِدِ، يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِماً يُفَاخِرُ عَنِ النبيّ ﷺ، فيقول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا نَافَحَ أَوْ فَاخَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ».

رُوح القدس: هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَام.

(٣) وروى البخاريُّ عن البراء بْنِ عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه، أنّ النبيّ ﷺ قال يوم قُرَيْظَة لحسَّان رَضِي اللَّهُ عَنْهُ:

«أهْجُ الْمُشْرِكينَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ».

(٤) وروى البخاريّ ومسلم وأبو داود عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيّ ﷺ دخل مكّة في عُمْرَةِ القضاء، وعبْدُ اللَّهِ بْن رواحة يمشي بين يَدَيْه ويَقُول:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَىٰ تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ[1] ويُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فقال له عُمَر: يا ابْنَ رواحة، بين يَدَي رُسولِ الله ﷺ، وفي حَرَم الله تقول الشعر؟!

فقال رسول الله ﷺ:

«خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَر، فَهُوَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْل».

(٥) وروىٰ البخاري وأبو داود والترمذي عن عَمْرِو بْنِ الشريد عن أبيه قال: رَدِفْتُ النبيَّ ﷺ يوماً فقال:

---

[1] جاء في لسان العرب: الهام جمع هامة، وهي أعلىٰ الرأس، ومقيله موضعه، مستعارٌ من موضع القائلة (أي: القيلولة) وسكون الباء من «نَضرِبْكُمْ» من جائزات الشعر، وموضعها الرفع.

«هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أبي الصَّلْت؟» قُلتُ: نعم. قال: «هِيهِ» فَأَنْشَدْتُه بَيْتاً. قال: «هِيهِ» فأنْشَدْته. فقال: «هِيهِ» فَأَنْشَدْتُهُ مِئَة بَيْتٍ.

وجاء في رِواية أنّ النبيّ قال: «وَلَقَدْ كَادَ يُسْلِمُ في شِعْرِهِ».

(٦) وروىٰ مُسْلِمٌ عن جابر بن سُمرة قال: جالَسْتُ النبيّ ﷺ أكثر من مئة مرَّة، فكان أصحابُه يَتَناشَدُونَ الشِّعْرَ، ويَتَذَاكَرُونَ شيئاً مِنْ أَمْرِ الجاهِلِيَّةِ وَهو ساكت، فربَّما يَبْتَسِمُ مَعَهُم.

(٧) ورَوى الترمذيُّ عن أبي هريرة، أنَّ عُمَر مَرَّ بحَسَّانٍ وهو يُنْشِدُ الشِّعْرَ في الْمَسْجد، فَلَحَظَ إليه شَزْراً⁽¹⁾، فقال: لَقَدْ كُنْتُ أُنْشِدُ فيه، وفيه من هو خَيْرٌ مِنْك.

ثُمَّ الْتَفتَ إلى أبي هريرة، فقال: أَنْشُدُكَ اللَّهَ، أَسَمِعْتَ النبيَّ ﷺ يقول:

«أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ».

فقال: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

(٨) وروى الترمذيّ والنسائي عن أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ مَعَ النبيّ ﷺ في بعْضِ أسفاره غُلامٌ أسْودُ يُقالُ له: «أَنْجشَة» يَحْدُو، فقال له النبيّ ﷺ:

«وَيْحَكَ يَا أَنْجشَةُ، رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوارِيرِ».

(٩) وروى البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ عن أبي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَيْنَما نَحْنُ نَسِيرُ مع النبيّ ﷺ بالْعَرْج، إذْ عَرَض شاعِرٌ يُنْشِدُ، فقال النبيُّ ﷺ:

---

(١) أي: نظر إليه بمؤخر عينه معرضاً لائماً.

«خُذُو الشَّيْطَانَ، أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ، لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً».

ويَظْهَرُ أنَّ هذا الشاعِرَ قد كان من شعراء المجُون، من أَهْلِ الجاهليَّة، وكان الشِّعْرُ الّذي يَقُولُهُ ممّا يَحْرُمُ قولُهُ في الإسلام، فقولُه الرسُول ﷺ مَحْمُولٌ على الشِّعْرِ الفاجر، والداعي إلى الفجور، والشِّعْرِ الّذي يشتمل على مَا هو حرامٌ في الإسلام من الأقوال، أو الدَّعْوَة إلى معصية الله عزّ وجلّ.

(١٠) وروى البخاري ومسلم عن عائشة أمّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها سُئِلَتْ، هَلْ كان النبيُّ ﷺ يتسامع عنده الشعر؟. قالت: كَانَ أَبْغَضَ الْحَدِيثِ إِلَيْهِ.

ويظهر أنّ هذا محمولٌ على الشّعر الباطل الذي لا خير فيه، ولا حكمة، ولا حقَّ ولا رُشْدَ، والشعْرِ الصارفِ عن ذكر الله والهدىٰ والرشاد.

بخلاف الشعر الذي فيه فائدة ونفع وخيرٌ ما، أو مأذون به شرعاً.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دروس السورة وهو الآيات من (٧١ ـ ٧٥)

قال الله عزّ وجل:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرس عوْدٌ إلى التَّنْبِيهِ علَىٰ بَعْضِ آياتِ اللَّهِ في كونه ورَبْطٌ بها.

فقد جاء في الدرس الثالث من دُروس السُّورة عَرْضُ طائفةٍ منها، في الآيات من (٣١ ـ ٤٤) بدأها الله عزّ وجل بقوله:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وفي كلا الْعَرْضَيْنِ بيَانٌ لِبَعْض نِعَم الله على عبادهِ من خِلالِ هٰذِه الآيات الّتي يَعْرِضُها عليهم، مع إدْماج أغراضٍ أُخْرَىٰ غير الامتنان بالنِّعَم عليهم، ومن هذه الأَغْراضِ بيانُ قُدْرَتِه جلَّ وعَلَا على الْبَعْثِ بَعْدَ الموت، وهو ما جاء واضحاً في آيات الدَّرس الثالث.

وهذه النِّعَمُ الكثيرة الْجَلِيلَةُ تَسْتَدْعي منهم أن يشْكُروا ربَّهم علَيْها بالإيمان والإسلام والطاعة، وعبادته على ما يَرْضَىٰ، وأن لَا يُشْرِكوا بِه شيئاً، لا في رُبُوبيَّتِه وَلَا في إلَهيّته.

والآيات التي اشتمل عليها هذا الدرس الثامن من آياتِ اللَّهِ في كَوْنِه، قد جيء بها للامْتِنان بالْأَنْعامِ الَّتِي خَلَقَها اللَّهُ جلَّ جلالُهُ لِلْأَنام، وللتعْجِيب من عَدَم شُكْرِ العباد رَبَّهم على نِعْمَتِه عليهم بها.

ونُلاحِظُ أنَّ الدَّرسَ الثالث قد جاء فيه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا..﴾ أمّا الدَّرْسُ الثامِنُ فَقَدْ بُدَأَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بقوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

فجاء صَدْرُ هذا الدرس الثامِن معْطُوفاً بِحَرْفِ العطف «الواو» بَعْدَ

هَمْزَةِ الاستفهام، على ﴿أَلَمْ يَرَوْا ...﴾ التي جاءت في الدَّرس الثالث، لبَيان ارْتباطِ عَرْضِ آياتِ اللَّهِ في كونِهِ بِبَعْضِها في السُّورَة.

ونُلاحِظُ التّلاؤم في صيغة الاستفهام الإنكاريّ التعجيبيّ، بين المعطوف وبينَ المعطوف عليه، ولَا يُؤَثِّرُ الفاصِلُ الطويل بينهما، إذْ يَبْلُغ ثلاثين آيَة، لأنّ نظام وحْدَةِ مَوضوع السُّورَة القرآنيَّة نِظَامٌ شَجَرِيٌّ، ولَيْسَ نِظاماً طُولِيًّا كالسِّلْسِلَة، ومِثْلُ هذا العطف هو من العناصِرِ البيانيَّةِ الّتي تَكْشِفُ وحْدَة موضوع السورة، والّتي يَحْسُنُ بالمتَدَبِّرينَ لِكتَاب الله أنْ يُمْعِنُوا النّظر لاكْتِشَافِهَا، من خلال الدّلائل الّتِي تُشِيرُ إليها، وقد تكون دَلَائل دقيقة جدًّا، كإضافة حَرْفِ عطْفٍ، أَوْ تَماثُلٍ في أُسْلُوب الْعَرض وصيغته، وقد يكون رابطاً فِكْريًّا يكْشِفُهُ حُسْنُ التَّدبُّر، وإمعانُ النظر في معاني آياتِ السورة من أوّلِ آيَةٍ فيها، حتَّىٰ آخرِ آيَةٍ من آياتها.

التدبّر:

قول الله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١﴾:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: استفهامٌ إنكاريٌّ على الكافِرين، وتعْجيبيٌّ من حالهم، الأمْر الذي يَسْتَحِقُّونَ مَعَهُ أَنْ يُنْدَبُوا بالحسْرَةِ عليهم، إذْ يَدْفَعُونَ أنْفُسَهم بِكُفْرِهِمْ إلَىٰ الهلاك المخزي في العاجلة، والخلُودِ في عذاب النار يوم الدين، على الرُّغْم مِنْ وُجُودِ الآيَاتِ الكثيراتِ في أنْفُسِهم، وفيما حَوْلهم مِنَ الكوْن، الدَّالَّاتِ علىٰ الرَّبّ الخالِقِ جَلَّ جلالُه وعظم سلطانه، والّتِي توجِبُ عليهم شُكْرَهُ علَىٰ وَافِرِ نِعَمِهِ عَلَيْهم، الّتي لَا يَسْتَطِيعونَ إحْصَاءَهَا، دُونَ أنْ يكونَ لَهُمْ عُذْرٌ فيما اختاروا لأنفسهم مِنْ كُفْر، إذْ هُمْ مُعَانِدُون، يتّبِعُونَ سُلطانَ الهوىٰ، والتقْلِيد الأعْمَىٰ، والكِبْرِ، ورَغَباتِ الفجور.

والتَّحْسُّرُ عليهم قَدْ جاء في صَدْرِ الدَّرْسِ الثالث من دُروس السورة بقول اللَّهِ تَعَالى:

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٠﴾.

وجاء عطفُ صَدَرْ هذا الدَّرْسِ الثامِنِ على ما جاء في الآية (٣١) من آيات الدرس الثالث.

عبارة: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ دَلَّتْ علىٰ الرُّؤية البصريَّة، وعلى الرُّؤيَةِ الفكريَّة الواضِحَةِ المشابِهَةِ في وُضوحِها في الفكر، للرُّؤْيَةِ البَصَرِيَّة.

أي: أَوَلَمْ يَنْظُرُوا بأعْيُنِهِمْ، ويَتَفَكَّرُوا بِعقُولِهم الَّتي وهَبَهُم رَبُّهم إياها ليستَعْمِلُوهَا فيما خُلِقَتْ له.

- ﴿أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم﴾: أي: أنّا أبْدَعْنَا وَصَوَّرْنا وَأَوْجَدْنَا علىٰ غير مِثَالٍ سَبَقَ لِأَجْلِهِم، وجاء التعبيرُ بضمير المتكلّم العظيم، لأنّ الموضوعَ يتعلّق بالخلْقِ الْإبداعيّ من العدم، الذي لا يَسْتَطِيعُه إلّا ذو الصفات العظيمة الجليلة، وهو اللَّهُ الرَّبُّ الَّذِي لَا شريكَ له.

- ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾: أيْ: من بعْضِ مَا عَمِلَتْ أَيْدِينا أنْعاماً، وذِكْرُ ﴿أَيۡدِينَا﴾ فيه الإشعار بعناية اللَّهِ عزّ وجلّ ببني آدم وتكريمه لهم.

الأنعَام: هي الأموال الراعية، وهي الإبلُ والبقر والغنم. ولفظ «الأنعام» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، وجاء ذكرها مُنكراً: ﴿أَنۡعَٰمٗا﴾ للدلالة على الكثرة، وعظم المنافع.

ومع أنّ كُلَّ مَخْلُوقٍ في الوجود كُلِّهِ هو من صُنْع الله جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه، لم يُشارِكْهُ وَلَا يُشارِكُهُ في خَلْقِهِ أَحَدٌ، سَواءٌ في ذَلِكَ الإِبْدَاعُ الأول وغَيْرُه، فالتَنْبِيهُ على أنّه جلّ جلالُهُ قَدْ خَلَقَ الأنْعَامَ للنَّاسِ

يُرَادُ به تَحْرِيكُ الدَّوافع الفاضِلَةِ فيهم لأداء واجب شُكْرِ المنْعِمِ علىٰ إنْعَامِهِ.

والدَّلِيلُ الواقِعِيُّ التَّجْرِيبيُّ الدَّالُّ على أنَّهُ تبارَكَ وَتَعالَىٰ قَدْ خَلَقَها لهم وعِنَايَةً بِهم، أَنَّها مُسَخَّرَةٌ وَمُذَلَّلَةٌ لهم، وفيها منافِعُ كثيرة لهم، فيأكلونَ مِنْ لُحُومها، ويشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِها، ويَرْكَبُونَ ظُهورَ بَعْضِها كالجمال، فَتَحْمِلُهم إلى بَلادٍ لَمْ يكُونُوا بالغِيهَا إلَّا بشقِّ الأنفس.

وجاء تفصيل الامتنان بالأَنْعَام في نُصَوصٍ قرآنية عشرة، جاءت في «يسٓ» و«الشعراء» و«الأنعام» و«الزُّمَر» و«غافر» و«الشورى» و«الزخرف» و«النحل» و«المؤمنون»(١).

ذكر الله عزّ وجلّ في هذا النص عبارة [أيدينا] مبيناً أنه خلق الأنعام بها. وأبان جل جلالُه أنه خَلَقَ آدَمَ بِيَدَيْهِ، فقال تعالى في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) في حكايَةِ خِطَابِهِ لإبليس:

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾.

وأَبَانَ جَلَّ جلالُهُ أنَّ الَّذِينَ كَانُوا يُبايِعُونَ الرَّسُولَ ﷺ، قَدْ كَانَتْ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فقال تعالى في سورة (الفتح/٤٨ مصحف/١١١ نزول) خطَاباً لِرَسُوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

وأَبَانَ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّ يَدَيْهِ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ، رَدّاً على الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، فقال تبارك وتعالى في سُورَةِ (المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول):

---

(١) انظر تفصيلها وشيئاً من التدبر المتعلّق بها في الملحق الرابع من ملاحق تدبر هذه السورة (يسٓ).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ . . . ﴿٦٤﴾﴾.

فَنَسَبَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ إلى نَفْسِه في هٰذِه النُّصُوصَ الأيْدِيَ، والْيَدَيْنِ، والْيَدَ، وَرأي السَّلَفِ في مِثْلِ هٰذِهِ الصِّفَاتِ المنسوبَةِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ قَدْ لَخصَّهُ الإمَام مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ بقَولِهِ بالنِّسْبَةِ إلى الاسْتواء: الكَيْفُ غَيْرُ مَعقول، والاسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهُول، والإيمان به واجبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَة.

- ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾: أي: فَهُمْ لَهَا عَلَىٰ وَجْهِ الْخُصُوصِ مالِكُونَ مِلْكاً مُتَمَكِّناً مِمَّا يَرُومُونَ بِهَا بِحَسَبِ صِفَاتِها الَّتي فَطَرَها اللَّهُ عليها، إذْ سَخَّرَهَا اللَّهُ لهم، وَذَلَّلها لِطَاعَتِهِمْ علَىٰ أفْضَلِ وَجْهٍ، بِخِلَافِ بَعْضِ الْبَهائم الأخرى، كالْبَهائم الوحْشِيَّةِ، ومِنْها الظِّباءُ، وحُمُر الوحش، والْأَيَائل، فإنّها غَيْرُ مُطِيعَةٍ طاعَةَ الممْلُوكِ لِسَيِّدِه، مع أَنَّها مُسَخَّرَةٌ أيْضاً للنَّاس، إذْ هِي ذَوَاتُ نُفُورٍ عن الطاعَةِ بِطَبَائِعها.

فتَقْدِيم المعْمول على عامله في عبارة ﴿لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أَفَادَ تَمْيِيزَ الأنْعَامِ بِطَاعَتِهَا لِمَالِكيها من النّاسِ، طاعَةً زَائِدَةً علَىٰ مُطْلَقِ التَّسْخِيرِ الْعَامّ، مع ما في التّقديم من مُرَاعَاةِ التناسُقِ والتَّنَاظُرِ الْجَمِيلِ في رُؤوسِ الآياتِ السَّابقاتِ واللَّاحِقَاتِ.

واسْتُعْمِلَتِ الجملَةُ الاسْمِيَّة في عبارة: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ لإفادَةِ ثَبَاتِ مِلْكِهِمْ لها وَدَوَامِه، نظراً إلى مَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ.

والمراد بالملكيَّةِ الْقُدْرَةُ علىٰ التَّصرُّفِ فيها، وفي منافِعهم منها، فالمالكُ للشَّيْءِ مِنْ شَأْنِهِ أنْ يكونَ قادِراً على التَّصرُّفِ فيه.

- ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾: أي: وَأخْضعْناهَا لَهُم، وَجَعَلْنَاهَا مُطِيعةً مُنْقَادَةً لهم، بِمَا فَطَرْنَاهَا عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ الْخُضوعِ والطّاعَةِ والانْقِيادِ لِمَنْ يَقُودُها.

- ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۖ﴾:

في هذا البيان بَعْضُ تَفْصِيلٍ لِآثَارِ تَذْلِيلِ الأنْعام للنّاس.

«الفاء» في: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ تفريعِيَّةٍ، لتَفْصِيلِ بَعْضِ آثار التَّذْلِيل.

الرَّكُوب: بمَعْنَىٰ: الْمَرْكُوب، كالحَلُوب بمعنى المحلوب، فَهُوَ فَعُولٌ بمعنى اسم المفعول.

والمركوبُ من الأنعام الإبلُ، التي هي سُفُن الصحراء، وحاملَةُ الأحْمَالِ الثقيلَةِ للنَّاسِ في حِلِّهِمْ وَتَرْحَالهم.

- ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: أيْ: ومن الأنعام يَذْبَحُونَ، ويأْكُلُون من أجْسَادِها لَحْماً وَدُهْناً، وما يَطِيبُ لَهُمْ منها، إذْ جَعَلَهَا اللَّهُ عزّ وجلَّ بِحِكْمَتِهِ وَنِعْمَتِه مُذَلَّلَةً لهم.

- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُۖ﴾ أمَّا المشاربُ فهي الألْبَانُ الَّتِي تُحْلَبُ مِنْ ضُرُوعِ إنَاثِ الأنْعَام، وهي أنواع:

وأمَّا المنافِعُ فَهِيَ كَثِيرَةٌ مختَلِفَةُ الأنواعِ والأصناف.

فَيَسْتَخْدِم الناس البقر في الحرث، وَيَنْتَفِعُونَ مِنْ جُلُودِها وقرونِها، وكلّ شيءٍ فيها.

وَيَنْتَفِعُ الناسُ من أصواف الضَّأْن، وأشْعَارِ الماعِزِ، وأوبار الإبل، وجُلُودِ كلِّ الأنعام، وعِظامِها، وأَرْواثها، وأَبْوالِها.

ونِعَمُ اللَّهِ في كُلِّ مَا في الأنعام نِعَمٌ عظيمَةٌ جدّاً.

- ﴿.. أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ جاءت هذه العبارة في آخِرِ هذا العرضِ الامْتِنَائي بالْأنعام.

أي: ألَا يَتَفَكَّرُونَ في هٰذِهِ النِّعَم الْعَظِيمَةِ الَّتي أنْعَمَ اللَّهُ بها عليهم، فهم بسَبَب عَدَم تفكُّرِهم لَا يَشْكُرُون رَبَّهم عليها بالإيمان والإسلام والطاعة.

«الفاء في ﴿أَفَلَا﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ علىٰ مَحْذُوف تقديره ما سبَقَ بيَانه.

وهُوَ اسْتِفْهامٌ إنكاريٌّ يُنْكِرُ اللَّهُ عزّ وجل به على الكافرين بنعِمَهِ عَلَيْهم، وتَعْجِيبيٌّ مِنْ أَمْرِهم إذْ لَا تَتَحرَّكُ نفوسُهُمْ وقلوبهم لتأديَةِ واجب الشكر.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

تمهيد:

بعد أنْ عَرَض اللَّهُ عزّ وجلّ لقادة المشركينَ وأتْباعهم في مَكَّةَ إبّان نزول السورة، بعض آيَاتِهِ في كوْنِه الدَّالّاتِ على أنَّهُ واحِدٌ في رُبُوبيته لا شَريكَ له، فَيجَبُ عقْلاً أنْ يكون واحداً في إلٰهيَّتِهِ، فَلَا يُعْبَدُ مَعَهُ غَيْرُه، أبَان جَلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانُه ـ أنَّهُمْ مع كلِّ آيَاتِه في كَوْنِه، ووافِرِ نِعَمِهِ على النّاس، قَد اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً يَعْبُدونَهُم راجين أنْ ينْصُروهم، مع أنهم لا يستطيعون نَصْرَهم، ولا يسْتَطِيعون أن ينْفَعُوهُمْ بِشَيْءٍ.

هذه الآلَهةُ الّتي اتَّخذوا لها أوثاناً، هي رُمُوزُ ذَواتِ مَنْ يَعْبُدون مِنْ دُون الله، إنَّما يعبُدونهم لِمَا يَرْجونَ لَدَيهم بعِبَادَتِهم لهم مِنْ جلْبِ نفْع، أو دَفْعِ ضُرٍّ، من أمُور دنياهم، ومنها أن يُحَقِّقُوا لهم مَا يريدون في أعْدائِهم وخُصُومهم، أوْ أنْ يَكُونُوا لهُمْ مَدَدَ قُوَّةٍ وعِزّ، فَهُمْ في الحقيقة قَد جَعَلُوهم شركاء لله في بَعْضِ عناصر رُبوبيته.

فإذَا طَلَبُوا مطالِبَ لحياتِهِمْ من رزْقٍ، وصحَّةٍ، وأمْنٍ، ودفْعِ مخوفٍ منْهُ، وتَسْهِيل زواجٍ، وهِبَةِ بَنِين، ونحو ذلك من أمُور حياتهم، في إقامتهم

وفي أسفارهم، طَلَبُوهَا مِنْ آلِهَتهم، وقَرَّبُوا لهَا القرابين، مع اعتقادهم بأنّ الله هو الخالِقُ لهم وللكَوْنِ كُلِّه.

ولهذا لمّا قيل لهم: اسْجُدوا للرَّحْمٰن وَصفاً من أوصاف الرَّبّ جلَّ جلالُه، أنْكَرُوا أن يكُونَ الله عزّ وجلَّ رَحْمَاناً، كما جاء بيانه في سورة (الفُرْقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) في قول الله تعالى فيها:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: فهم يعْرِفُون أنّ الله خالِقُ السَّمَاوَاتِ والأرض، ولكنَّهم لَا يَعْرِفُون أنَّ اللَّهَ يَرْحَمُهُمْ، فيُلَبِّي دُعَاءَهم من أجل مطالب حياتهم. إنَّ هذه المطالب يطْلُبونها من آلهتهم لَا من اللَّهِ عزَّ وجلّ، وهذا مِنْهم إشراكٌ بالله في بعض عناصر رُبوبيته سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفُون، ويلزم من هذه العقيدة إشراكُهُم باللَّهِ في إلَهيّته، وبما أنَّ كُلَّ هُمُومِهِمْ متعلِّقَةٌ بمصالح دُنياهم فإنّهم يَعْبُدونَ شركاءَهُمْ ليُحقِّقُوها لهم، ولا يُوجِّهونَ اهتماماتٍ جَادَّةً لعبادة اللَّهِ جلّ جلالُه.

ولهذا جاءت النُّصُوصُ القرآنيَّةُ حَوْلَ هذا الموضوعِ مشتَمِلةً علىٰ إقناعهم بأنّ آلِهَتهم الّتي يَعْبُدُونها، لَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَفعاً ولَا ضرّاً، وأنّ اللَّهَ هو الذي يَسْتَجِيبُ الدُّعاء، وأنَّه هو وحْدَهُ الذي بِيَدِهِ نَفْعُهم وضُرُّهم، ومعونتهم ونَصْرُهم.

أمَّا آلِهَتُهم من دُون الله، فلا تَخْلُقُ لهم شيئاً، بَلْ هُمْ يُخْلَقُونَ، ولَا تَمْنَحُهم قُوَّةً وَلَا عِزًّا، وَلَا تَمنَعُهُمْ مِمَّنْ يُرِيدُهم بِشَرٍّ أو ضُرٍّ أو سوء، ولا تَنْصُرُهُمْ إذا طَلَبُوا مِنْها النَّصْرَ، مَهْما عَبَدُوها.

وقد وُزِّعَتْ هٰذِهِ المعاني في عَدَدٍ من النُّصوص القرآنية الموزَّعَةِ في كثير من السُّور، وجاء منها في هذه السورة بيانُ أنَّهم يَرْجُونَ من آلِهَتِهِم

الَّتِي يَعْبُدُونَها أنْ تَنْصُرَهم، ومعلومٌ أنَّ النَّصْرَ مِنْ آلِهةٍ ذَوَاتِ قُوىً غيبيَّةٍ غيْرِ مشهودَةٍ في اعتقاد المشركين، هُو عَمَلٌ من أعمالِ الرُّبُوبيَّة، وهٰذا يكْشِفُ للمتدبّر أنَّ المشركين يَعْتَقِدون في آلهتِهِمْ أنَّها شَرِيكَةٌ للَّهِ سبحانه وتعالى في بعْضِ عناصِرِ رُبُوبيَّته، على خلافِ ما يتصَوَّرُ بَعْضُ المدافِعينَ عن العقيدة الإسلامية، من أنّ مُشْرِكي العرب، كانُوا يُؤْمِنُونَ بتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لله تبارَك وتَعَالَىٰ، إلَّا أنَّهم يَجْعَلُون لَهُ شركاء في إلٰهيَّتِهِ.

التدبّر:

قول الله تعالى:

- ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

اتَّخذَ: على وزْنِ «افْتَعَلَ» مِنَ الأَخْذ، ومن معاني هٰذِهِ الصيغَةِ التكلُّفُ والتّصَنُّعَ على خِلاف طبيعَةِ الشيءِ أو الأمْر.

الضمير في: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ يَعُودُ على المشركين الَّذِين جرى الحديثُ عنهم في السورة، وهم مُشْرِكُوا مكَّةَ وَمَنَ كان على شاكِلَتِهِمْ إبَّانَ نزول السُّورة.

أيْ: واتَّخذُوا بتَكلُّفٍ وَتَصَنُّعٍ مخالِفٍ للحقيقَةِ بَاطلٍ، مِنْ دُون اللَّهِ العَليِّ الأَعْلَىٰ آلِهَةً سُفْلَىٰ يَعْبُدُونهم، راجِينَ منهم أن يَنْصُرُوهُمْ عَلَىٰ خُصُومهم وأعدائهم، في حَرْبٍ ظاهرةٍ، أوْ حَرْبٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ، بَلْ تَجْرِي مَكْراً في الخفاء.

﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ جُملَةٌ حاليّة، أي: حالَة كَوْنهم راجين أَنْ يُنْصَرُوا علَىٰ أعدائهم، من قِبَلِ آلهتِهِمُ الَّذِين يَعْبُدونهم من دُون الله.

قول الله تعالى:

- ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: إنَّ هٰؤُلَاءِ الآلِهَةَ الَّذِين يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُون اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهم بشَيْءٍ من الأشياء.

وجاء التعبير بضمير جماعَةِ العقلاء: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ نظراً إلى مَا يَعْتَقِدُ المشركون فيهم، إذْ يَرَوْنَ أنَّ الأوثانَ رُموزُ أَرْبابٍ يَعْلَمُونَ أحوال عابِدِيهم، وهؤلاء الآلِهَةُ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْر عابديهم بشَيْء، في حال أنَّ عابِدِيهِمْ قَدْ جَنَّدُوا أَنْفُسَهُمْ لنُصْرَةِ هؤلاء الآلِهَةِ المعْبُودين.

العابِدُونَ المشْرِكُونَ باللَّهِ يَنْصُرُونَ آلِهَتَهُمْ من دُون الله، والشُّرَكَاء المعْبُودُونَ لَا يَنْصُرُونَ عابِدِيهم، لأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهم.

ونلاحِظُ أنَّه قد جاء التعبير في الآية عن نُصْرَةِ المشركين لآلهتهم بكِنَايَةٍ غايَةٍ في الإبداع فِكْرَةً وَتَعْبِيراً، وهي قَوْلُ الله عزّ وجلَّ في الآية: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: أي: والمشركون لآلِهَتِهِمْ جُنْدٌ مُدافِعُونَ عَنْهم، مُناصِرون لهم دَواماً، تَسُوقُهُمُ الشَّيَاطين بوساوسِها للدّفاع عنهم، والحضُور الدائم لمناصَرتِهم، وإشارةً إلىٰ هَذَا السَّوْقِ مِنْ قِبَلِ الشَّيَاطِين، جاءَ التعبيرُ باسْمِ المفْعُول ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ لَا باسْمِ الفاعلِ «حاضِرُون» وهٰذا من إبْداعَات القرآن في انتقاء الكلمات الدَّالّاتِ على المراد دَلالاتٍ دَقيقَاتٍ مُحكَمَاتٍ.

ومعلومٌ أنّ الجنْدَ المحْضَرِينَ عِنْدَ رَئيسهم الذين يُحِبُّونَه ويُعَظِّمُونَه، ويَعْتَقِدُونَ أنَّهُ يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ، لَا بُدَّ أنْ يَكُونُوا مُتَأَهِّبِين لمناصَرَتِهِ دواماً.

* * *

(١٣)

التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس السورة وهو الآية (٧٦)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ خِطاباً لِرَسُولِه محمّد ﷺ:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

- قرأ نافع: [يُحْزِنْكَ]: من فِعْل: «أَحْزَنَهُ الأمْرُ».

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿يَحْزُنكَ﴾ من فعل «حَزَنَهُ الْأَمْرُ».

يقال لغة: «حَزَنَ الْأَمْرُ فَلاناً يَحْزُنُهُ حُزناً» أي: غَمَّه.

ويقال أيضا: «أَحْزَنَهُ يُحْزِنُهُ إِحْزَاناً» أي: غَمَّه.

فالقراءتان مُتكافِئتان، وهما لغتان عَربيّتان للكَلمة.

تمهيد:

هٰذِهِ الآيةُ جاءت دَرْساً قائماً بذاته من دُروس السورة، وهي تشتمل على علاج رَبَّانِيّ للرَّسُولِ ﷺ، وهذا العلاج مَوْصُولٌ بما جاء في الدرس السابع، وهو قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

وقد سبق أن ظَهَر لنا بالتدبّر أنّ هذا القول قد دلَّ على أنَّهم اتَّهَمُوا الرَّسُولَ بأنّه شاعِرٌ، وأنَّ القرآن لَوْنٌ مِنْ أَلْوانِ الشِّعر، إلّا أنّ هذا الاتهام لم يبلغ إبان نزول سورة (يسٓ) مبلغ الشائعة الّتي تتكرَّرُ على أَلْسِنَةِ المخالفين الكافِرين بِرِسَالة الرَّسُول ﷺ، بل كانت أقوالاً في السِّرّ، قِيلَتْ ضِمْنَ أَحَاديثِ قيادات المشركين، في مجالِسَ خاصَّةٍ، وَبما أنّها قَدْ بَلَغتِ الرَّسُول ﷺ، فإنّ مِنْ شَأْنِهَا بِحَسَبِ الطَّبَائع البشريَّةِ، أَنْ تُحْزِنَهُ لأنَّها أُكْذُوبَةٌ مُفْتَراة، وهو يخْشَى أنْ تَصير شائعةً تَلُوكُها الأَلسِنَةُ، فتُؤَثِّر على مَسِيرَةِ دَعْوَتِهِ وانتشارِها، وهو ﷺ يَعْلَمُ من نَفْسِه أَنّه غَيْرُ شاعر، ويَعْلَمُ أنّ القرآن تنزيلٌ من رَبّ العالمين، يُعَلّمه إيَّاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ حَرْفاً فَحَرْفاً، وكلمةً فكَلِمَةً، وآيَةً فآيَة، فَهُوَ يَتْلُوهُ علَىٰ قَوْمِهِ ويُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ كَمَا يُنَزَّلُ عليه، لا يَزِيدُ فيه شيئاً، ولا يَنْقُصُ مِنْهُ شيئاً.

وهذا الدرس والدرس السابع موصولان بالخطّ الّذِي بدأتْ به السّورَةُ في دَرْسها الأول، إذْ جاء فيه قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾.

وهذه اللّقطات الارْتباطيَّة في السُّورَةِ، مع تباعُدِ الفواصل بَيْنَها، مِمَّا يَدُلُّ علىٰ وَحْدَةِ مَوْضوعها.

وفي هذه المعالجة الرَّبَّانيَّة لِنَفْسِ الرَّسُول ﷺ بشأن اتّهامِهِ بأنَّه شَاعِرٌ، وبشأن اتِّهَام القرآن بأنَّهُ لَوْنٌ مِنْ ألوانِ الشعر، وهذا أمْرٌ قَدْ أحْزَنَه، قال الله له: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾.

وأبان الله عزّ وجلّ له مَا يُهَوّن عَلَيْهِ الأمْرَ، ويَجْعَلُهُ لَا يَحْزنَ لِمَا يَقُولُون، فقال له: ﴿... إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾.

أي: إنَّ الله الخالِقَ بعَظَمَةِ رُبُوبيّتِهِ، والّذي بِيَدِه مَقَالِيدُ السّماوات والأرض، والقادر على قَطْع ألْسِنتهم وأعْنَاقِهِمْ بِكلمة: «كُنْ» لَمْ يُعَاجِلْهُمْ بالعقوبة، إذْ قضت حِكْمَتُهُ إمْهَالهم، والحلْم والصَّبْر عليهم، فارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَهُ رَبُّكَ لِنَفْسه.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾: أي: فلا تَجْعَل لِقَوْلِهِمْ تأثيراً عَلَيْكَ، فَيُجَدِّدَ لَدَيْكَ الحزْنَ آناً فآناً، بل اصْرِف عن ذِهْنِكَ ونَفْسِكَ أقوالَهُمْ، وَلَا تَعْبَأْ بها، واعْلَمْ بأنَّ رَبَّكَ النَّصِيرَ لَكَ يَعْلَمُ كُلَّ مَا يُسِرُّونَ، وكُلَّ مَا يُعْلِنُون.

علاجٌ رَبَّاني عظيم، لَا يَدَعُ في نَفْسِ الرَّسُولِ حُزْناً بشَأْن هذا القول من أقْوال قادَةِ المشركين.

* * *

(١٤)

التدبر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الأخير وهو الآيات من (٧٧ ـ ٨٣)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا

ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

القراءات:

(٨١) • قرأ رُويس: [يَقْدِرُ] علىٰ أنه فعل مضارع.

وقرأ باقي القُرّاءِ العشرة: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ اسم فاعل مجرور بالباء.

والقراءتان متكافئتان، لأن اسم الفاعل بقوّةِ الفعل المضارع.

(٨٢) • قرأ ابْنُ عامر، والكِسَائي: [كُنْ فَيَكُونَ] بِنَصْبِ «يكون» بأن مضْمَرَة بَعْدَ فاء السَّبَبِيَّةِ.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بِرَفْعِ «يكون» أي: فهو يكون.

والقرائتان وجهان عَرَبيّان جائزان، فهما متكافئتان.

(٨٣) • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للفاعل.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

والقراءتان مُتَكامِلَتَان، لأنّ الله عزَّ وجلَّ يُرْجِعُهُم إلى الحياة بَعْدَ الموت، فَهُمْ يُطاوِعُونَ بالجبْرِ فَيَرْجِعُونَ.

تمهيد:

هذا الدرس يُعالِجُ قضيَّةَ جُحودِ المشْرِكينَ الَّذين جاء الحديث عَنْهُمْ في السّورة، للبَعْثِ وَيَوْم الدّين، إذْ رَأَوْا بِعُقُولهم الْقَاصِرَةِ اسْتِحالَةَ إحياء الموتَىٰ بَعْدَ فَنَاءِ أَجْسَادِهِم.

فأنْكَرُوا اليوم الآخر، وما أَعَدَّ اللَّهُ عزَّ وجلّ فيه من حسابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وجزاءٍ في دار النعيم المعدَّة للمتقين، وجزاءٍ في دار العذاب النار للكافِرينَ والْعَاصين.

وقد اشتمل العلاجُ الرَّبَّانيُّ في هٰذِهِ السُّورَةِ على الإقناع بعِدَّةِ عناصِرَ إقناعِيَّة.

التدبّر:

قول الله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾:

المرادُ بالإنسانِ هُنَا الإنْسَان المنْكِرُ للبَعْثِ ويَوْم الدِّين، مُتوهِّماً أنّ البعثَ إلى الحياة بَعْدَ الموت أمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ لَا تَقْبَلُهُ العقول.

وفي مُعَالَجَةِ هذا الاستبعاد أعادَ اللَّهُ هَذا الإنْسَان إلَىٰ قِصَّةِ خَلْقِهِ الأوّل مِنْ نُطْفَةٍ، وكيف تكوَّنَتْ هٰذِهِ النُّطْفَةُ، ثُمَّ كَيْفَ تَطوَّرَتْ بخَلْقِ اللَّهِ، حتَّىٰ صارتْ إنْسَاناً سَوِيّاً يُخَاصِمُ رَبَّهُ الذي خَلَقَهُ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ شيئاً مَذْكوراً، فجعَلَهُ إنْسَاناً سَوِيًّا.

إنّه يُخَاصِمُ رَبَّهُ في إخْبَارِهِ بِأنَّهُ سَوْفَ يُعِيدُ الناسَ إلىٰ الحياة مَرَّةً أُخْرىٰ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، ليحاسِبَهُمْ علَىٰ مَا قَدَّمُوا في حياة الامتحان، مَعَ أنّ الإعادة إلى الحياة مرَّةً أُخرَىٰ مِثْلُ بَدْئها في المرَّةِ الأولَىٰ، بل هي أهون من المرَّة الأولى بِحَسَبِ تجارِبِ ما يُبْدِعُ الناسُ من أعْمال.

- ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: جُمْلَةٌ معْطُوفَةٌ على جُمْلَةِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ الواردة في أوّل الدَّرْسِ الثامِنِ مِنْ دُرُوس السّورة.

وجاء في هذا الدرس العاشِرِ خِطابُ كُلِّ واحدٍ من مُنْكِري الْبَعْثِ

خِطاباً إفراديًّا، لأنَّ كُلَّ واحِدٍ من الناس قد مرَّ بهذا الطَّوْرِ من الخلْق.

أمّا النظائر التي جاءت في السورة فقد جاءَ خِطابُ المشركين فيها خِطاباً جماعَيًّا:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

لأنّ الرُّؤيَةَ الجماعِيَّةَ في هٰذَيْنِ الموضوعَيْنِ هي الرُّؤيَة الملائمة لَهُما.

أمّا عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فكُلُّ إنْسَانٍ مُدْرِكٍ يَعْرِفُ هذه الحقيقة.

إذَا سَأَلْنَا عُلَمَاءَ الْأَحْيَاءَ عَنْ تَكُوُّنِ الْجَنِين مِنَ النُّطْفَةِ، وتناميه حتَّىٰ يُولَد، وحَتَّىٰ يَكُونَ إنْسَاناً سَوِيًّا قادِراً علَىٰ الجدالِ والمخاصَمَةِ، فإنَّهم يَأْتُونَنَا بِبُحوثٍ مُذْهِلَةٍ عَنْ عجائب وغرائِب ومتقناتِ صُنْعِ الله عزّ وجلّ في خَلْقِ الإنْسَانِ وسائر الأحياء.

أفيليقُ بذي فِكْرٍ مُدْرِكٍ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ نَشْأَتِه، أَنْ يَجْحَدَ قُدْرَةَ الرَّبِّ القدير على مَا يَشَاء، فَيُنْكِرَ مَا أَخْبَرَ بِهِ عزّ وجلّ، من أنَّه سَوْفَ يُحْيي الموتَى، ليُحَاسِبَ الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدُّنيا، وليَقْضِيَ بَيْنَهُمْ لَهُمْ أو عليهم، وليجازيهم علىٰ ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانهم.

والاستفهام في عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾؟! استفهام إنكاريٌّ وتعجيبيّ من أمْرِ الإنْسَانِ الكافِرِ بما جاء عن اللَّهِ عزّ وجل من قضيَّةِ البعث للحسَاب وَفَصْل القضاء وَتنفيذ الجزاء بالعدل أو بالفضل.

أي: أوَلَـمْ يَرَ خَلْقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ، فيما يشاهد من نُظَرائِهِ الَّذِين يَخْلُقُهُمُ اللَّهُ مِنْ مثْلِ مَا خَلَقَهُ؟!

إنَّها سُنَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ مَشْهُودَةٌ دَواماً، فَهَلْ هُوَ أعْمَىٰ مُنْطَمِسُ الْبَصِيرَةِ

لَا يَرَىٰ هٰذه الحقيقة المتكَرِّرَة؟! أَمْ هو يَراها ويَتجاهَلُها وَيَصْرِفُ فِكْرَهُ عَنِ الاعْتِبَارِ بها؟! كِلَا الأَمْرَيْنِ مُسْتَنْكرانِ، يستثيران استِغْرابَ العقلاء وتَعجُّبَهُمْ الشّدِيدَ من فَرْطِ سفَاهَةِ المنكِرِ ونقصان عقْلِه، أو من عناده ومكابَرَتِه بالباطل.

﴿..فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: **الْخَصِيمُ**: المخاصِمُ الْمُجَادِلُ خِصَاماً شديداً بِحَقٍّ أو بباطل.

«إِذَا» فُجَائِيَّة، أي: كَانَ نُطْفَةً مَهِينَةً حَقِيرَةً، فَلَمَّا صَارَ إِنْسَاناً سَوِيًّا كامِلاً، فَاجأ بالْخُصُومَةِ دَاعِيَ رَبّه، وصَارَ يُجَادِلُ بالباطل، ونَسِيَ مَا كَانَ عَلَيْهِ حِينَما كانَ نُطْفَةً قَذِرَةً حَقِيرَةً.

﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: أي: واضح الخصومة والمجادلة، وقَدْ يَصِلُ إلى دَرَكة الوقاحَةِ وغايَةِ السَّفَاهة إِذَا كان يُجَادِلُ بالباطل.

وبما أنّ هٰذا الإنْسَانَ المتحدَّثَ عَنْهُ كافرٌ جاحِدٌ، فَإِنَّ وَصْفَهُ بأَنَّهُ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَصْفٌ مُهَذَّبٌ جدًّا، إذْ حَقُّهُ أنْ يقال بشَأْنه: خَصِيمٌ وقِحٌ سَفِيهٌ يجادل بالباطل لِيُدْحِضَ به الحقَّ.

قول الله تعالى:

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾:

أورد ابنُ كثير وغَيْرُهُ رِوَايَاتٍ حول أَسْباب نُزُولِ هاتَيْنِ الآيَتَيْن، جاء فيها: أنَّ أُبَيَّ بَنَ خَلْفٍ، أو العاص بْنَ وَائل، ورُبَّما كلاهما، قَدْ صَدَرَ عَنْهُمَا هذا القول الذي جاء في النصّ.

ففي رِوَايَةٍ أنَّ أُبيَّ بْنَ خَلَفٍ جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وفي يَدِهِ عَظْمٌ

رَمِيم(١) وَهُوَ يَفُتُّهُ، ويَذْرُوهُ في الْهَوَاءِ، وهو يقول: يا مُحَمَّدُ، أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هٰذا؟!

قال ﷺ: «نعَمْ، يُمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالىٰ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَىٰ النار».

ونزلَتْ هٰذِهِ الآيَاتُ من آخِرِ سورة (يسٓ).

وفي رِوايَةٍ عن ابْن عبَّاسٍ: أنّ الْعَاص بْنَ وَائلٍ، أَخَذَ عظماً مِنَ البَطْحَاءِ(٢)، ففَتَّهُ بِيَدِه، ثُمَّ قال لِرَسُولِ الله ﷺ: أَيُحْيِي الله هذا بَعْدَ مَا أَرَىٰ؟!

فقال رسول الله ﷺ:

«نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جهَنَّمَ».

عبارة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾: تفيد أنّ هذا الإِنْسَانَ الكافِر، قَدَّم لنا نَمُوذَجاً من جَسَدِ مَيّتٍ قَدْ بَلِي، وقَالَ مَقَالَة تَعَجُّبٍ واسْتِنْكار: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾؟!

وَنَسِيَ حِينَ ضَرَبَ هٰذَا المَثَلَ خَلَقَهُ، إِذْ خَلَقَهُ اللَّهُ عزّ وجلَّ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِين، ولم يَكُنْ شيئاً مَذْكوراً.

إِنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُ في أَنْ يَنْسَىٰ خَلَقَهُ، أي: كيف خَلَقَهُ الله وكيف أَنْشَأه؟ سواءٌ أكان هٰذَا النسْيَانُ مَحْواً مِنَ الذَّاكِرَة، أمْ كانَ نِسْيَاناً بِمَعْنَىٰ التَّرْك والإِهمال والإِعراض عن هٰذه الحقيقة، الّتي لا يُمْكِنُ أَنْ تُنْسَىٰ، لأنَّ شواهِدَهَا مُتَكَرِّرَةٌ دَواماً.

---

(١) رَمِم: أي: بَالٍ.

(٢) **البطحاء**: المكان المتّسِعُ من الأرض يمُرُّ به السيل، فيتْرُكُ فيه الرَّمْلَ والحصَىٰ الصغار.

أصل معنى «النِّسْيان» في اللُّغَةِ التَّرْكِ، ومن التَّرْكِ المتعمّد الإهمال.

وقَدْ علَّمَ اللَّهُ عزّ وجلّ الرَّسُولَ ﷺ فكُلَّ داعٍ إلى الله مِنْ أُمَّتِه، كيْفَ يُجيبُ على سؤال هذا السَّائلِ المتعجّبِ المسْتَنْكِر، بجوابٍ حَكِيمٍ هَادِئ، مَنْطِقِيٍّ بَارِدٍ، لَا عُنْفَ فِيهِ ولا انْفِعال، فقال تباركَ وتعالى:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿أَنشَأَهَآ﴾: **الإنشاء**: الإحْداثُ المصحوبُ بالتَّكامُلِ المتدرّج.

أي: إنَّ الذي أنْشأَ الْعِظَامَ في المرَّةِ الأولى، وَكَسَاهَا لحماً، وَصَوَّرَ الإنْسَانَ في رَحِمِ أُمّهِ بأحسَنِ صُورة، ونفخ فيه الرُّوحَ فَكَانَ حيًّا، هو نَفْسُهِ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه وقُدْرَته ـ القدير على إنْشَائِهَا وإحْيَائِهَا بَعْدَ الموتِ والفناء، مَرَّةً ثانِيةً وثالِثَةً، ثُمَّ إلى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنْ مَرَّاتٍ، لو شاء أن يميتَها وَيُفْنِيَها ثُمَّ يُحْيِيَها مَرَّاتٍ وَكَرَّاتٍ لَا حَصْرَ لَهَا، وهٰذِهِ قضيَّةٌ تُفْهَمُ باللُّزُوم العقليّ.

وإذا كانَ الإشْكالُ الّذِي أثار في نفس السَّائل الشُّبْهَةَ آتيا من جهَةِ التشكُّكِ في شمولِ عِلْم الله لِدَقَائِقِ الْخَلْقِ الأَوّل، فاللَّهُ الخالقُ الرَّبّ هُوَ بِكُلِّ خلْقٍ عَلِيمٌ، أي: مَهْما كان هذا الخلْقُ دَقيقاً في ذاتِه أو في صِفَاتِه، وعِلْمُهُ جلَّ جَلَالُهُ لَا يَتناقصُ وَلَا يَتبَدَّل، إنّه سبحانه لَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَىٰ، وَإِعَادَةُ المخْلُوقِ إلى الحياة بَعْدَ الفناء تأتي مطابقة تماماً لخلْقِه الأول، لِأَنَّهُ يَخْلُقُ عن عِلْمٍ:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾: أي: وهو بكُلِّ خَلْقٍ يَخْلُقُهُ عَلِيمٌ بِهِ قَبْلَ أَنْ يخْلُقَهُ، إذ الخلْقُ مَسْبُوقٌ بقضاء اللَّهِ وَقَدَرِه، وعَلِيمٌ بِهِ حِينَ خَلَقَهُ على وفْقِ خَرِيطَةِ تَكْوِينه، وعَلِيمٌ بِهِ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ، وَعَلِيم بمَا كَان عَلَيْهِ بَعْدَ أن أَمَاتَهُ وأفناه.

وهذا يُنَبِّهُنَا على أَنَّ كُلَّ دقيقةٍ من دَقَائقِ الخلْقِ، بدأً مِنْ نَواة الذَّرَّةِ

فما هو أصْغَرُ مِنها، حتّى أكْبَرِ مَجَرَّة فَمَا هُو أعظم مِنْهَا مُحَاطٌ بِعِلْم الله، ومشمولٌ بعمليَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبّاني دَواماً، لكلِّ تغيّرٍ فيه، ولكُلِّ حَدَثٍ من أحداثه، فكُلُّ ذَرَّةٍ في الوجُود هي خَلْقٌ إبْدَاعيٌّ مِنْ خَلْقِ الله، ولَمْ يَتِمَّ خَلْقُهُ له إلّا وهُوَ مَشْمولٌ بعلمه شمولاً تامًّا، وعِلْمُ اللَّهِ لا يُمْحَىٰ وَلَا يُنْسَىٰ، فإذا شَاءَ اللَّهُ إعَادَةَ الْخَلْقِ مَهْمَا كَان شأنُه، أعادَهُ فجعَلَهُ كَما كَان، مطابقاً لحالَتِه الأولىٰ، ونفَخَ فيهِ الرُّوحَ، فكَانَ هُوَ هُوَ لَمْ يتغيَّره مِنْهُ شيْءٌ، إنَّما حَصَل فيه تحليلٌ وتركيبٌ، على أنَّ هُوِيَّةَ الإنْسَانِ تَتمثَّلُ بِنفْسِه، لَا بِجَسِدِهِ ذي العوارضِ المتغيّرَة، ونَفْسُه ورُوحُه مِنَ الأسْرار الّتي لَا يَعْلَمُها إلَّا اللَّهُ جلَّ جَلَالُه.

وقد اشتملَتْ هٰذه الآية (٧٩) على عُنْصُرَيْنِ من عناصِرِ الإجابَةِ الّتِي جاءَتْ في التعليم الرَّبّاني:

العنصرُ الأول: دلَّ عليه من الآية: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقد سبَق شرْحُ هٰذا العنصر.

العنصر الثاني: دَلَّ عليه من الآية قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

وقد سبَق شرح هذا العنصر، وأُضيفُ أنّ هذا العنصر من الجواب يَعْتَمِد على التأمُّل في الخلْقِ كُلّه، وأنَّهُ لا يَتِمُّ فيه الإتقانُ المشهود مَا لم يَكُنْ عِلْمُ اللَّهِ شاملاً قَبْلَ الخَلْقِ، وحِينَ الخلْق، وبَعْد الخلْق، الذي تَسْتَمِرُّ في المخلوق معَهُ أعمالُ الخلْق، لكلّ عناصِرِ الذّرّاتِ وأجزائها، وأجزاء أجزائها، مِنْ كلِّ شيءٍ في الكونِ، الشامل للذّوات وللصفات، بدءاً من أصْغر صغير في الكون، حتَّىٰ أكْبَرِ كبير فيه.

وعلّم الله جلّ جلالُه لا يتعرَّضُ للمَحْو وَلا للنِّسْيَان.

وبِما أنَّ الكَوْنَ مُتْقَنٌ دَواماً، فَعِلْمُ اللَّهِ شاملٌ لكلّ خَلْقٍ فيه دواماً.

العنصر الثالث: دلَّ عليه ما جاء في الآية (٨٠) وهو:

قول الله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

جاء في هذه الآية التَّنْبِيهُ على ظاهِرةٍ من ظواهر خَلْق الله في الكون، وهي ظاهرة مصحوبةٌ بعِنَايَةِ اللَّهِ بالنّاس، وإنْعَامِهِ علَيْهم بالْوَقُودِ الَّذِي يُخْرِجُ اللَّهُ لهُمْ منْهُ ناراً، يَنْتَفِعُونَ بها في حياتهم انتفاعاً عظيماً، إذْ يَسْتَمِدُّونَ مِنْها طاقاتٍ عظيمات، للإنضاج، والصَّهْر، والصِّنَاعَاتِ المختلفات، وينتفِعُون بِها منافع جمَّةً في السِّلْم والحرْب.

من المعروفِ المشاهد أنّ النباتَ والأشجار على اختلافِ أنواعها وَأصْنَافِها قابِلَةٌ لِأَنْ تكونَ وَقُوداً، لأنَّها تختَزِنُ في ذَرَّاتِها الحرارة الَّتي تَحْتَفِظُ بها من أشِعَّةِ الشمس، عن طَريق الورَقَةِ الخضراء، الَّتي تَنْبُتُ في أغْصَانِهَا.

وما زَالَ الإنسان مُنْذُ عَرَفَ كَيْفَ يَقْدَحُ الزّنادَ، ويَسْتَخْرِجُ شرارة النار، يتَّخِذُ مِنَ الْأَشْجَار وقوداً لما يحْتاجُ إليه من النار.

وتتحوَّلُ النَّبَاتاتُ الّتي تَدْخُلُ تَحْتَ عنوان الشَّجر الأخْضر إلَىٰ أجْسَادٍ في الأحياء، وتَبْقَىٰ فيها صَلاحيَّةٌ أنْ تكُونَ وَقوداً، شحومُها، ولُحُومُها، وعِظَامُها، وَكُلُّ ما يَتَّصِلُ بها أَوْ يَخْرُجُ مِنها.

وتَنْضَغطُ ذَرَّاتُ النَّبَاتاتِ في الْأَرْض طَوالَ أحقَابٍ كثيرة، فتَصِيرُ فحْماً حَجَرِيًّا، قابلاً لأنْ يكونَ وَقُوداً لمَا يَحْتَاجُ إلَيْه النَّاسُ من نار، فيَسْتَخْرِجُ الْبَاحِثُونَ في مَنَاجِم الأرْضِ هٰذا الفحمَ الحجَرِيَّ، ويُسوِّقُونه في أسْواقِ الْوَقُودِ ذي الأهميَّةِ البالِغَةِ لِلنّاس.

وقد اتَّجهَتِ الآراء الْعلْميَّةُ إلى الاعتقاد بأنَّ النِّفْط المختزَنَ في باطِنِ

الأرْض، إنَّما هو من تَحَوُّلَاتِ المخلَّفَاتِ العضويّة الّتي تَرْجِعُ أصُولُها إلى الشّجر الأخضر، وقَدْ حَدَثَتْ فيها هٰذِه التحوّلاتُ باجتماع الحرارة والضُّغُوطِ وتَطاوُلِ الزّمن.

وهذا يُدُلُّنا على أنَّ معظم وَقُود النّار في الأرض هو من الشَّجَر الأخْضَر، فتكونُ الآيَةُ قَدْ أَرْشَدَتْ إلى المصْدَرِ الأعْظَمِ لأنواع وقود النّاسِ في الأرض.

وجاء فيها ذِكْرُ الخُضْرة وَصْفاً للشّجر، للإشارة إلى أنَّ الورقَة الخضراء هي الّتي جعلَها الله عزّ وجلّ مصْنَعَ الوقود، وهي تَنْقُلُه إلى الشَّجَرَةِ مقتبسةً الحرارةَ مِنْ أشِعَّةِ الشمس، وهذا الأمْرُ لم يَكُنِ النَّاسُ يَعْلَمُونَهُ قديماً، حتَّىٰ جَاءَت المكتَشَفَات العلميَّةِ الحديثَةِ فَأَبَانَتْه.

وكُلَّما اكتشَفَ الناسُ آيَةً ذَاتَ مَنْفَعَةٍ لَهُمْ من آياتِ الله في كونه، يُسَارِعُونَ إلى الانتفاع بها في حياتهم ومَعَايشِهِم بصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ عَجيبَةٍ، دُونَ أنْ يَنْتَفِعوا مِنْ دَلَالَاتها الإيمانيّة الّتي تَهْدِي أولي الألْبَابِ إلى إدراكِ بعض صفاتِ الرَّبّ جلَّ جلَالُه، وَإِدْرَاكِ نِعَمِهِ الّتي تَسْتَوْجِبُ مِنْهُمْ أن يشْكُروه، بالإيمان، والإسلام، والطّاعَةِ، والعبادَةِ على مَا يَرْضَىٰ، وأَنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شيئاً.

هذا مَا أشَارَ إليه قول الله عزَّ وجلَّ في التعليم: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ باستعمال كلمة «إذا» الْفُجَائِيّة، دون أنْ يتّجهوا إلَىٰ الإيمان، بدليل وجُودِ المنكرين لِبَعْضِ أَرْكانه من الَّذِينَ يُفَاجئُونَ بالانْتِفَاعِ بأنواع الْوَقود.

﴿تُوقِدُونَ﴾: أي: تَسْتَعْمِلُونَ منْهُ الوقود كلَّمَا احْتَجْتُمْ إلى النار.

العنصر الرابع: دلّ عليه ما جاء في الآية (٨١) وهو قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ . . . ﴿٨١﴾﴾:

من الواضح في أذهان المنكرين للبعث أنّ خَلْق السمٰاواتِ والأرض وما فيهما أكبر مِنْ خلق النّاس، فَمِن الحكمة في الاستدلال للإقناع أن يَطْرَحَ المناظر استدلالَهُ بأسْلُوب المستنكر المتعجِّب من واقع حال المنكرين للبعث، إذْ لم يسْتفيدوا من قُدْرَةِ اللَّهِ على خَلْق السّماوات وَالأَرْض اليَقِينَ بأنَّهُ قادِرٌ على خلق مِثْل أجْسَادهم التي تفنىٰ بَعْدَ الموت، وتَتَفَتَّتُ ذَرَّاتُها في الأرض، وبأنّه قادِرٌ على أن يَجْعَلَ فيها نفوسَهم وأرْواحَهم، الّتي هي هوّيّاتُهُمْ الحقيقية، أمّا الأجساد فأقفاصٌ أو قوالِب أو مَساكن لها، والله أعْلَمُ بأحْوَالِ خلقه، وهو على كُلّ شيءٍ قدير.

العنصر الخامس: دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في آخر الآية (٨١).

- ﴿. . وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾:

﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الخالق» الدَّالةِ على التكثير والتعظيم، وهي بالنسبة إلى الله جلّ جلالُه تَدُلُّ علىٰ قُدْرَتِه على خَلْقِ أقصىٰ الممكنات الْعَقْلِيَّة في الخلق.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الْعَالِم» الدَّالة أيضاً على التكثير والتعظيم، وهي بالنسبة إلى الله جلّ جلالُه تَدُلُّ على شمولِ عِلْمِهِ كلّ شيء.

فالله عزّ وجلّ له غاية القدرة على خَلْقِ ما يشاء فهو الْخَلَّاقُ الذي لَا يُشَارِكُهُ في صفته هٰذِه أحد. ولَهُ الْعِلْمُ الشّامل كلَّ شيء، ما كان وَما هو كائن وما سَيَكُونُ وما هو ممكن أن يكون وما هو مستحيلٌ أن يكون، ولا يُشَارِكُه في صفته هٰذِهِ أَحَد.

العنصر السادس: دلَّت عليه الآية (٨٢) وهي:

قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حَصْرٍ وقَصْر.

﴿أَمْرُهُۥٓ﴾: أي: شَأْنه ـ جلّ جلالُهُ وَعظم سُلْطانُه ـ وهو هُنَا يتعلَّقُ بكَوْنِه خَلَّاقاً.

والمعنى: ما شأنُهُ ـ تبارك وتَعَالَىٰ ـ إِذَا أرادَ شيئاً ما، إلَّا أن يقول لَهُ آمِراً أَمْرَ تَكْوين: ﴿كُن﴾ فَهُو ﴿يَكُونُ﴾ علَىٰ وفْق مَشيئته تماماً.

* * *

قول الله تعالى في آخِر تعليم عناصر الإقناع، وبه يختم السورة:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿فَسُبْحَٰنَ..﴾ أي: فتنزيهاً لِلَّهِ عَمَّا زَعَمَ مُنْكِرُو البعث، إذْ لَمْ يَقْدُرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه.

تسبيح الله: تنزيهُهُ وتقديسُه، عن كلّ ما لا يليق به جلّ جلاله من صفات النقص الّتي تتنافى مع أَزَليّته ووحدانيّته وأبديته وكمال صفاته الوجودية.

قال النحاة: «سُبْحَان» اسْمٌ علَمٌ لمعنى البراءة والتنزيه، ولَيْس له فعلٌ من لفظه، وهو ممنوعٌ من الصّرف إلّا إذا أضيف. ويأتي منصوباً في موضع المصْدَرِ المنصوب بفِعْلٍ محذوف.

جاء في «لِسَان العرب»: وروى الأزهريّ بإسناده، أنّ ابْنَ الكَوّا سأل

علياً رضي الله عنه عن «سُبْحانَ الله» فقال: كَلِمَةٌ رَضِيَها الله لنَفْسِه، فَأَوْصَىٰ بها.

- ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ﴾:

﴿مَلَكُوتَ﴾ على وزْنِ «فَعَلُوت» صيغةُ مبالغة غير قياسيَّة لكَلِمَةِ: «مِلك» بكَسْر الميم.

أي: الذي بِيَدِهِ التَّصَرُّفُ الكامِلُ التّامُّ بِكُلِّ شيءٍ في الوجود، لأَنَّهُ مِلْكُهُ الخاصّ به، الّذِي لَا يُشَارِكُه فيه أحد.

وتحْقِيقاً للغايَةِ من الخلْق وهي الابْتِلَاءُ، وثَمَرَتُه الّتي تكونُ بالْحِسَابِ، وَفَصْلِ القضاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء، لَا بُدَّ أن تَرْجِعُوا بَعْدَ مَوْتِكم إلى الحياة، لِتُلَاقُوا ثَمَرَةَ مَا قَدَّمْتُمُوهُ في رحلة امتحانكم، فقال تعالى:

- ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾: إذْ يَخْلُقُكُمْ خَلْقاً جَدِيداً يُرْجِعُكُمْ بِهِ إليه. فَتَرْجِعُونَ بالجبْر الرَّبَّاني.

وبهذا انتهى تدبّر السورة بعون الله وفَتْحِه.

* * *

ملاحق لتدبّر سورة (يسٓ)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيّة من السّورة.

الملحق الثاني: اللّوح المحفوظ في كلّ القرآن وبعض السنة.

الملحق الثالث: بيان اعتراض الأمم على بشريّة الرُّسل في القرآن.

الملحق الرابع: امتنان الله على العباد بالأنعام في نصوص القرآن.

(١٥)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغية من السورة

أوّلاً:

تأكيد الخبر بمؤكداتٍ مراعاة لأحوال المعنيّين بالخطاب الرَّبَّاني، ومنه في السورة ما يلي:

(١) القسم بالقرآن الحكيم على أنَّ الرَّسُول محمَّداً ﷺ من المرسلين، وأنّ الْقرآن تنزيل العزيز الحكيم.

جاء هذا في قول الله عزّ وجلّ:

﴿يسٓ ① وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ⑤﴾.

وفي القسم بالقرآن تَنْبيهٌ على أَنَّهُ عظيم جدًّا يَصِحُّ أَنْ يُقْسِمَ اللَّه به، فعلَىٰ أهل التدبّر أن يكتَشِفُوا مَا فيه ليُدْرِكوا إعجازه، وأنَّه أَهْلٌ لأن يُقْسَم به.

(٢) قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ③﴾ فيه من المؤكّدات: «إنّ ـ الجملة الاسميَّة ـ اللّام المزحْلَقة».

والغرض إسماعُ منْكري رسالته.

(٣) قول الرُّسل الثلاثة لأصحاب القرية كما حكاه الله بقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ⑭﴾ في مؤكدان: «إنَّ ـ الجملة الاسمية».

فقال لهم أصحاب القرية كما حكاه الله بقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ⑮﴾.

في هذا القول ثلاثة جُمَلٍ مقصورة، وفي الْقَصر تأكيدٌ للخبر من الدرجة القصوى.

- ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: أي: نَجْزِم بصورة قطعية أنّكم لسْتُمْ رُسُلاً مُرْسلين من عند الله.
- ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾: أي: ونجزم بصورة قطعيَّة أنّ ربَّنا الرَّحمٰن، ما أنْزَلَ شيئاً مَا للناس من تعليمات تتضمَّن مطلوبه منهم.
- ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾: أي: ونجزم بصورةٍ قطعيَّة أنَّكُمْ تكذِبُون في ادّعاء الرِّسالة، وتكذبُون في التبليغ عن الله الرحمٰن.

فقال لهم الرُّسُل الثلاثة كما حكاه اللَّهُ عزَّ وجلّ بقوله: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

في الآية (١٦) التأكيد بأربع مؤكدات: «ربُّنَا يَعْلَمُ (بقوة القسم) ـ إنَّ ـ الجملة الاسميَّة ـ اللّام المزحلقة» فزادوا في أدوات التأكيد.

وفي الآية (١٧) التأكيد بالقصر، أي: ونجزم لكم بصورة قطعيَّة أنّنا مبلّغون، ولسْنا مجبرين ولَا مُكْرِهين، فاختاروا لأنفسكم ما تشاؤونَ من إيمان أو كفر.

(٤) في قول أصحاب القرية لرسُلِهم كما حكاه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿... لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ التأكيد بالْقَسَم الذي دلّت علَيْه اللام الموطّئة للقسم، ونون التوكيد الثقيلة في: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ وفي: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾.

وتوجد أمثلة أخرى في السورة، فيها تأكيد الخبر بمؤكداتٍ، مراعاةً لأحوال المعنيّين بالخطاب الرَّبَّاني، تركت استخراجها للباحثين المهتمين بالبلاغيّات.

ثانياً:

توجد في السورة أمثلة متعدّد من الإيجاز، ومنها ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

في هذه الآية إيجازٌ بالحذف تَدُلُّ عليه اللُّوازم الفكرية، وبيان ذلك فيما يلي:

الإنذار: هو الإخبار بالعاقبة المكروهة للمنْذَرِين، وهو الوظيفة الّتي تأتي بعد التبليغ، والدَّعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالّتي هي أحْسَن، وتَرْغِيبِ المستجيبين المطيعين بالعاقبة الحسْنَىٰ في جنَّاتِ النّعيم، أمّا من أبَىٰ وعانَدَ ولَمْ يسْتَجبْ لدَعْوَةِ الحقّ، فيأتي إنذارُهُ بالعاقبة السُّوأىٰ في جهنَّمَ دَارِ عذاب الكفَرَةِ المكذّبين.

فذكْرُ الإنْذَارِ يَدُلُّ عن طَرِيق اللوازم الفكريَّة على أنَّه مَسْبوقٌ بهذه المراحل، وبما أنَّ هٰذه المراحل السابقة للإنْذَارِ لَمْ تكن ذاتَ جَدْوىٰ مع المعنيّين من الكفَّارِ المعاندين، كان الإنذار هو المناسب لهم بَعْدَ أَنْ وصَلُوا إلى حالة ميؤوس منها.

فالمعنى: لتُنْذِرَ هؤلاء، بعد أن اتّخذتَ مَعَهُمْ الوسائل السابقة له، فلم تُؤَثّر فيهم، ولم يَبْقَ لَدَيك ألا أن تنذرهم.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجل: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾.

الفاء في: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ هي الفصيحة الّتي تَعْطِف على محذوف، والتقدير: أيَسْتمرونَ في فتنتهم بمظاهر الحياة الدُّنيا، غارقين في غفلاتهم، كأنَّهم خالدون فيها، فَلا يَعْقِلُونَ عقْلاً علميًا، ولا يعقلون عقلاً إرادِيًا بضبط نفوسهم عمَّا سوف يجْعلهم من أهْل الجحيم يوم الدّين.

ونظيره في الآية (٧٣): ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: أي: ألَا يتفكّرُونَ في هذه النِّعَمِ العظيمة التي الّتي أنعم الله بها عليهم، فهم بسبب عدم تفكّرهم لا يشكرون رَبّهم عليها بالإيمان والإسلام والطاعة على مقدار الاستطاعة.

المثال الثالث: وهو من أمثلة الاحتباك، الذي هو الحذف من الأوائل لدلَالَةِ الأواخر، مع الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل.

قول الله عزّ وجلّ في السورة بشأن الرَّسُول ﷺ وبشأن القرآن:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: لِيُنْذِرَ الرَّسُول بالقرآن، ولِيُنْذِرَ القرآن، منْ كانَتْ فِيه بقيَّةٌ من حياة، إنْذاراً يَنْتَفِعُ به، فيَدْفَعُهُ إلى الإيمان والإسلام والعمل الصّالح، فيَحِقَّ قولُ الوَعْدِ بثوابه.

ولِيُنْذِرَ مَنْ كان بمثَابَةِ الميّت الذي لم تَبْقَ فيه بقيةٌ من حياةٍ، فلاَ يَنْتفع بهذا الإنْذارِ، فيحَقُّ علَيْهِ قولُ الوعيد بأنَّه من أهْل النار.

وتوجد في السُّورة أمْثلة أخرى من أمثلة الحذف تركت استخراجها للمتدبر المتأني.

ثالثاً:

توجد في السورة أمثلة متعدّدة من التشبيه، وهو الدلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنًى من المعاني أو أكثر، على سبيل التطابق أو التقارب لغرضٍ ما، ولا يكون وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدّد.

فإذا كان وجه الشبه فيه منتزعاً من متعدّدٍ فهو التشبيه المركّب، ويسمّيه البلاغيّون «تمثيلاً» وهو تشبيه يكون على شكل لوْحَةٍ تُصَوِّر أكثر من مفرد، ووجه الشَّبَهِ فيه لا يكون مأخوذاً من مفردٍ بعَيْنِه، بل يكون مأخوذاً مِنْهُ ومن غَيْرِه، أو من الصورة العامة.

المثال الأول: ما في قول الله عزّ وجل في وصف الكَفَرَةِ المكابرين المسْتَكْبِرين الميؤوس من إيمانهم:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧﴾:

أغلالاً: جمع «غُلّ» وهو طوق من حديدٍ أو جلد، يُجْعَلُ في عُنُقِ الأسِير أو المجْرِمِ، أو في أيْدِيهما، وقَدْ تجمع يَدُ المغْلُولِ إلى عُنُقِه وتُطَوَّقان بالغُلّ.

الأذْقان: جمع «الذَّقَن» وهو مجتمع اللَّحْيَيْنِ من أسْفَلِهما.

مُقْمَحُونَ: أي: رافعو رؤوسهم إلى الأعلىٰ، يقال لغةً: أقْمَحَ الغُلُّ الأسِير، أي: جعل الغُلُّ الأسير يضطر أنْ يرفع رأسه إلى الأعلى، إذْ كان عَرْضُه أوْسَعَ من طول عُنقِه.

هذه الآية تقدّم صورةً تمثيليَّةً رائعةً، لحالة رفْع رؤوس الكافِرين المستكْبرين، ورفْع أنوفهم إلى الأعلى إذْ رفضُوا الاستجابة لدعوة الحق.

وهي في الحقيقة صورة تمثيليَّةٌ لحالَةِ نفوسهم من وراءِ رَؤوسهم، وهي تدلُّ على أنّ رَفضهم وعنادهم ظاهرةٌ مادّيَّةٌ مشهودة، لأسباب نفسيَّةٍ بَعِيدَةٍ كُلَّ الْبُعْد عن منطِقِ الحقّ، وتَدُلُّ على أنَّ رَفْضَهُمْ وعنادَهم ناتجان عن اختيارهم الحرّ، ولا أثر للجبْرِ فيه.

ومعلومٌ أنَّ ظاهرة رفْضِ شيءٍ ما قد يُعَبَّرُ عنْها برفْعِ الرأس إلى الأعلى نفياً واستكباراً.

والآية تُشِيرُ باللَّمح إلى أنّهُم أسْرىٰ شهواتهم وأهوائهم وكِبْرِهِمْ وحُبّهم الاستعلاء في الأرض، وأسْرَىٰ رغباتهم الجامحات في الفجور، وأسْرَىٰ الشياطين التّي تَسُوقهم أَوْ تَقُودُهم إلى شقائهم.

ولمّا كان المعتادُ في الأسْرَىٰ أن تُوضَع الأغْلالُ في أعْنَاقهم، وأن يُقَادُوا منْها بالسَّلاسلِ، ولمّا كان من الأغلال ما هو عريضٌ وضيّقٌ على الرّقاب، فالمغلول بواحدِ منها يضطرُّ أنْ يَرْفَعَ ذَقَنَهُ إلى الأعلى، كان منظر

الرافض لدعوة الحق الذي يرفع رأسَهُ إلى الأعلى نفياً واستِكْبَاراً مشابهاً لمنظر هذا الأسير المغلول بالغُلّ الضيّقِ العريض.

لكنَّ أغلال المعاندين الجاحدين من أهْل الكفر أغلالٌ ضاغطةٌ على رقابهم من داخل نفوسهم، فكان ما يُرىٰ من ظاهِرِهم تعبيراً مادّيًّا عن الأغلال النفسيَّة الّتي جَنَوْا على أنْفُسِهم بتَقَلُّدِها، وأجْرَمُوا وظلموا، وجعلوا إراداتِهم تُجَرُّ بسَلاسِلِها إلى ما هم به مفترون مُنْخَدِعُونَ، وهُمْ بسببها زادوا كفْراً وعناداً، وزادوا إصراراً على الباطل.

المثال الثاني: ما في قول الله عزّ وجلّ بشأن الكفرة المكابرين المجرمين الرافضين دعوة الحقّ باختيارهم الحرّ:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

وهذه الآية تُقَدّمُ للمتدبر الأديب البليغ صورة تمثيليّةً رائعةً، لحالَة عدَمِ رُؤيَةِ الكافرين المكابرين المعاندين للحقّ، وما قام دون بصائرهم من سُدودٍ تمنع عنها رؤية الحق بسبب كونهم سُجَناء شهواتهم وأهوائهم وكِبْرهم، وحُبِّهِم الاستِعْلاءَ في الأرضِ بغير الحقّ، ورغباتهم في الفجور، ومن ورائها وساوس الشياطين وتسويلاتهم.

وجاء في هذه الصورة تسمية الحجُبِ سُدُوداً، على سبيل الاستعارة، ولم يُسَمِّها الله عزّ وجلّ ستوراً، أو نحو الستور، لأنّ هذه الحجُبَ تصَلّبتْ وتحجَّرَتْ، فهي حَرِيّةٌ بأنْ تُسَمَّىٰ سُدُوداً، إذْ هي بالنسْبَةِ إليهم وإلى من هم مِثْلُهُم تُشْبهُ السُّدود المانعة من التسرُّب أو العبور.

وقد جعل الله عزّ وجلّ في أنظمة النفوس الّتي هي إحدى سننه وقوانينِه في كونه، أنّ من جعَلَ نَفْسَهُ باختياره الحرّ سجين أهوائه وشهواته، إلى سائر الجوامح الأواسر لنفسه من مطالب الحياة الدنيا وزينتها، قامَتْ بين بصيرته وبينَ الحقّ سُدودٌ من بين يَدَيْها وَمِنْ خَلْفها، وهٰذِه السُّدُودُ تحجُبُ عنْ بَصِيرَتِهِ رُؤية الحقّ.

وهل يوجَدُ أَذَلُّ وأَحْقَرُ وأُخْزَى مِمَّن جعل نفسه باختيارِهِ الحرّ أسيراً سجيناً، لَا يَرَىٰ أنوار الهداية الرَّبَّانيّة.

هكذا صوَّر الله عزّ وجلّ حالةَ هؤلاء المعاندين المستكْبِرين، الذين دخلوا باختيارهم الحرّ في سِجْنِ الجوامح الأواسر من متاع الحياة الدنيا وزينَتِها.

إنّهم بدخولهم هذا السّجْنَ المظْلِمَ الخادع قد جَعَلُوا أنفسهم ضمن سُدودٍ نفسيَّةٍ تَحْجبُ عنْهُمْ رؤيةَ الحقّ، ضِمْنَ أنظمَةِ الله السببيَّة في كونه للنفوس فهم لا يبصرون.

ونظيرُهُ في المادّيّات، مَنْ أَدْخَلَ جَسَدَهُ في لَهَبِ النار المحْرِقَةِ باختياره الحرّ، فإنّ الله يُحْرقُه بالنار التي دخل فيها ضِمْنَ أنظمته السببيَّة.

المثال الثالث: ما في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.

ففي هذه الآية تَشْبِيه الْقَمَر آخِرَ الشَّهْرِ وأوَّلَهُ بالْعُرْجُونِ القديم، وقد أشار إلى تشبيه أوَّلِه بالْعُرْجون القديم فِعْلُ: ﴿عَادَ﴾: أي: وكان في أوَّلِه كالْعُرْجُون القديم.

الْعُرْجُون: الواحِدُ من الأعواد الّتي تَحْمِلُ الثَّمْرَ في الشمراخ، فإذا قَدُم هذا العود وضَمُرَ اعْوَجَّ مع بقاء لونه أصفر، فهو بهذه الحالة يشْبِه الهلال آخر الشهر وأوَّله.

وعن ابْنِ عباس: أنَّ الْعُرْجُونَ أصْلُ العِذْق، وهُو الذي تتفَرَّع عنه أعواد شمراخ التمر. وأصْلُ العِذْق الّذي يحْمِلُ البلَحَ المعلّقَ بأعواده، بَعْدَ قَطْعِهِ عن الشجرة يشْبِهُ الهلال أوّل الشهر وآخِرَه.

ويظهر أنّ ما رُوِي عن ابن عبّاسٍ أقربُ إلىٰ الواقع، إذْ هو مُرْتفع

على ساق النخلة، ومُقَوَّسٌ ضئيل الحجْم، ويراه الناظر وهو على الأرض كالهلال أوّلَ الشهر وآخِرَه.

رابعاً:

توجد في السورة أمثلة متعدّدة من الاستعارة، وهي عند علماء البيان: استعمال لفظ ما في غَيْرِ ما وُضِعَ له في اصطلاحٍ به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينةٍ صارفةٍ عن إرادة المعنىٰ الموضوع له في اصطلاحٍ به التخاطب.

وأصلُ الاستعارة تشبيهٌ حُذِف مِنْهُ المشَبَّهُ، وأداةُ التشبيه ووجْهُ الشَّبه، ولم يَبْقَ منه إلَّا ما يَدُلُّ على المشبَّهِ به، بأسْلُوب استعارة اللّفظ الدّالّ على المشبَّهِ به، أو استعارة بعض مشتقّاته، أو بعْضِ لوازمه، واستعمالها في الكلام بدلاً عن ذكر لفظ المشبَّهِ. ويُلاحظُ في هٰذا الاستعمال ادّعاءُ أنّ المشبَّهَ داخِلٌ في جنْسٍ أو نوعٍ أو صِنْفِ المشبَّهِ به، بسَبَبِ مشاركَتِه لَهُ في الصفة الّتي هيَ وجْهُ الشَّبه بَيْنَهما في رؤيَةِ الناطقِ بالعبارة.

وممّا جاء من الاستعارة في السُّورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزّ وجل:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

جاء في هذه الآية تشبيه انحسار النهار عن الأرض شيئاً فشيئاً، عنْدَ توالي حركة غروب الشمس واختفاء ضَوْئها، ووُجُود اللّيل في مواطن انحسار النّهار، بسَلْخِ الجلْدِ الأبْيَضِ عن الجسْمِ الأسْود، واسْتعير فعْلُ ﴿نَسْلَخُ﴾ للدّلَالة على مَعْنَى انحسَارِ النهار وذهابه شيئاً فشيئاً عن الأرض عند توالي حركة الغروب.

وهٰذه من أبْدَعِ الاستعارات، وفيها دلَالَةٌ على أنَّ الظلمة هي الأصل

في الأرض، وفيما يكون مثلها، وأنَّ النهار إنَّما يُوجَدُ بسبَبَ الضِّياء الذي يُسَلَّطُ عليها من جسْمٍ مُضِيءٍ يَبُثُّ أشعَّةً ضَوْئية.

المثال الثالث: قول الله عزّ وجل في السورة بشأن الرسُول ﷺ والقرآن:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾:

استعير لفظ ﴿حَيًّا﴾ في هذا النصّ للدلالة على من ينتفع بالإِنْذَارِ، فيؤْمِنُ ويُسْلِمُ ويَعْمَلُ صالحاً.

أمّا من لَا يُؤَثّرُ فيه الإنذار فينْطَبِقُ عليه لفظ «مَيّت» على سبيل الاستعارة أيضاً، فيكونُ من الكافرين موتى القلوب.

خامساً:

من البلاغة الرفيعة في الكلام اختيار الألفاظ الأكثر ملاءمة لأداء المعنى المراد، والسّورة تشتمل على أمثلة كثيرة جداً، ومن هٰذه الأمثلة ما يلي:

استعمال حرف «على»:

(١) في عبارة ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ للدَّلالة على أنَّ قول الله بتعذيب الكافرين قد صار مسَلَّطاً عليهم بسبب إصرارهم على الكفر، وبسبب أنّ إيمانهم مستقبلاً قد صار ميْؤُساً منه.

(٢) وفي عبارة: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ للدَّلالة على فوقيّة الإنذار، إذْ هو إنْذَارٌ بعذاب الله الذي يأتي في العادة منْصَبًّا من فوق المعذَّبين ونازلاً عليهم.

فمن الدقة في اختيار الألفاظ استعمال حرف «على» في العبارتين، إذْ هو يَدُلُّ على الاستعلاء دون غيره من الحروف.

وفيه أيضاً معنى إعلاء عبارات الإنذار عن مستوى الحضيض الذي هم منْغَمِسون في أوحاله.

سادساً:

توجد في السورة أمثلة متعدّدة من القصر، وهو عند البلاغيّين: تخصيص شيءٍ بشيءٍ بعبارة كلاميَّةٍ تدلُّ عليه. أو: جَعْلُ شيءٍ مقصوراً على شيءٍ آخر بواحدٍ من طُرُقٍ مخصوصةٍ من طُرُق القول المفيد للقصر، وهو نوعان: ١ ـ قصرٌ حقيقي. ٢ ـ وقصر إضافي.

ومن أمثلة القصر في السورة ما يلي:

المثال الأول: ما في قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪..﴾.

في هذه العبارة قصر صفة الاستجابة للإنذار والتأثُّر به، على المنْذَرِ الذي اتَّبع الذّكر وخَشِي الرَّحْمٰنَ بالغيب.

وهو قصر حقيقي، وأداة القصر فيه: ﴿إِنَّمَا﴾ أي: ما تنْذِرُ إنذاراً مُؤَثّراً إلّا من اتّصف بصفتين:

الصفة الأولى: اتباعُهُ الذّكر، أي: بيانات الله في القرآن.

الصفة الثانية: مقدارٌ من الإيمان بالله الرحمٰن يجعَلُهُ يخشاه وهو ملتبس بالغيب عن مشاهدته.

المثال الثاني: ما في قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ... ⑫﴾.

في هذه العبارة قصر مستفادٌ من ضمير الفصل، وهو قصر إحياء

الموتى على الله عزّ وجلّ، فهو وحده القادر على الإحياء، وهو قصر حقيقيٌّ، وهو من قبيل قصر صفةٍ على موصوف.

المثال الثالث: ما في قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول الرُّسل الثلاثة لأصحاب القرية:

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

القصْرُ في هذه العبارة مستفادٌ من النفي والاستثناء، ويفهم من هذا القصر أنهم غير مأمورين ولا مطالبين بأن يَقُوموا بوسيلةٍ من وسائل الإلزام والإكراه على قبول أهل القرية لما يَدْعونهم إليه، بل لا بُدَّ أن يكون قبولهم له، واستجابتهم له باختيارهم الحرّ.

والقصر هنا من قبيل قصر الموصوف على صفة، وهو قصر إضافي، أي: ليس لهم من الصفات بالإضافة إلى خصُوص الرّسالة الّتي جاءُوا لتأدِيَتها إلَّا البلاغ الكلاميُّ المبين الواضح الدّالة على ما يُرادُ إبلاغهم إياه.

المثال الرابع: ما في قول الله عزّ وجلّ بشَأْنِ العتاة الكفرة المعنيِّين في السورة:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآية قصر مستفادٌ من النفي والاستثناء، أي: إنَّ مُقَابَلَتُهمْ لآيات الله مقصورةٌ على إعراضهم عنها. وهو من قبيل قصر موصوفٍ على صفة. وهو قَصْرُ إضافي، أي: بالإضافة إلى استفادتهم من الآية بالإقبال على إدراكها، أو عدم استفادتهم بالإعراض عنها وعدم التفكر فيها.

المثال الخامس: ما في قول الله عزّ وجلّ وصفاً لمشيئَتِه وخَلْقه:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: ما أمْرُهُ التكوينيُّ إلَّا مُنْحصر في أَنَّه إذا أراد شيئاً فإنَّهُ يَقُولُ له: كُنْ، فهو يكون على وفق مشيئته جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه، والقصر هنا استفيد من الأداة ﴿إِنَّمَا﴾ وهذا قَصْرٌ حقيقيٌّ.

سابعاً:

من الفنون البلاغيَّة في علم المعاني، خروجُ الاستفهام عن أصل دلالته (وهي طلب الإفهام) إلى معانٍ أخرى أوصَلها البلاغيون إلى (٣٢) معنىً.

ومن أمثلة خروج الاستفهام عن أصل دلالته في السورة ما يلي:

المثال الأول: ما في قول اللّهِ عزّ وجلّ حكاية لقول الرُّسُل الثلاثةِ لأصحاب القرية:

﴿قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ⑲﴾؟.

فالاستفهام في عبارة: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُمۚ﴾ استفهامٌ إنكاريٌ تَعَجُّبِيٌّ من أَمْرِهم.

المثال الثاني: ما في قول الله عزّ وجل حكاية لقول مُؤْمِنِ أصْحَاب القرية الذي جاء من أقصا المدينة يَسْعَىٰ لنُصْرَةِ الرُّسل:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ㉒﴾؟.

في هذه العبارة استفهامٌ تعجُّبِيٌّ فيه إنكار على اعتراض قومه عليه بشأن عبادته الله وحْدَهُ لا شريكَ له، وهَجْرِهِ عبادة آلِهَةِ قَوْمِه، الَّتِي يَرْمُزُون إليها بأصْنَام ينْحِتُّونَهَا.

المثال الثالث: قول الله عزّ وجلّ بشأن عتاة الكفرة المشركين:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ㉛﴾؟!:

في هذه الآية استفهامان خرجا عن أصل دَلالة طلب الإفهام، للدَّلالة علىٰ الإنكار عليهم، والتعجيب من أمْرِهم، مع وضوح الشواهد التاريخيَّةِ على إهلاك الَّذين كذَّبُوا رُسُل ربّهم من أهل القرون الغابرة، ومع وضوح الأدلّة على قُدْرَةِ الله على البعث للحياة الأخرىٰ بَعْدَ الموت.

المثال الرابع: مَا في قول الله عزّ وجلّ بعد الامتنان بطائفةٍ من نِعَمِهِ على عباده:

﴿... أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟!.

في هٰذه العبارة استفهام يُرَادُ به الحثُّ على شُكْرِ الله على نِعَمِه على عباده، مع تلويم العباد على عدم شكرهم ربّهم على فيوضاتِ نعمه عليهم، وفيه الإنكار الشديد على جاحدي نعم الله عليهم، أي: إنّ عدم شكرهم لأمْرٌ مستنكرٌ جدًّا، ويدعو إلى اشمِئْزاز ذوي النفوس السّوِيَّةِ الرَّشيدة.

المثال الخامس: مَا في قول الله عزّ وجلّ حكاية لما سوف يخاطِبُ به بني آدم يوم الدّين:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾؟.

في هذه الآية استفهام تَوْبيخيٌّ يوجَّه للمجرمين الكفرة يوم الدين، ولسائر العصاة الذين لم يَشْمَلْهم العفْوُ في موقف الحساب.

ونظيره في: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟ وفي: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾؟ وفي: ﴿... أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾؟.

المثال السادس: ما في قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾؟

في هذه الآية استفهامٌ تعجيبيٌ من أمرِ الإنسان الكافر المنكر للبعث،

مع الإنكار عليه، إذْ لَمْ يَقِسْ إمكان بَعْثِه على بَدْءِ خَلْقِهِ، ولا سيما مَرْحَلَةُ كونه نُطْفَةً، وأن الذي خلقه من نطفة هو القدير على إنشائه مرّةً أخرى، وبعْثِه بَعْدَ الموت.

المثال السابع: ما في قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقول الكافر مِنْكِرِ البعث بَعْدَ الموت والفناء.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾؟!.

في عبارته: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ استفهام إنكاريٌّ وتَعْجِيبِيٌّ من نَبأ الْبَعْث، مع أنّ إنكارَهُ هو الذي يسْتَدْعي الإنكار، وتَعَجُّبَهُ هو الذي يَسْتَدْعِي التّعجب منه.

ثامناً:

ومن الفنون البلاغية تنزيل غَيرِ العاقل مَنْزِلَة العاقل ذي الإرَادَة في الْعِبَارَة، للإشعار بأن صورة الحركة تُشبِه صورة حركة العاقل ذي الإرادة.

ونجد هذا الفنّ البديع في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

التعبير الوارد في هذه الآية يُشْعِرُ بتنزيل الشمْسِ مَنْزِلَةَ ذي الإرادة الراغب في إدْراك القمر وابتلاعه، لكن لا يَسْهُل لها ذلك، وتنزيل اللّيل منزلة ذي الإرادة الراغب في أَنْ تَسْبِقَ النهار لكنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ ذلك.

وإذْ نُزِّلَتِ الشَّمْسُ والقمر واللّيلُ والنهار منزلة العقلاء ذوي الإرادات، جاء التعبير عنها في آخر الآية بقول الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بضمير جماعة العقلاء ذوي الإرادات.

تاسعاً:

ومن الفنون البلاغيّة الجميلة الخروج عن مقتضىٰ الظاهر، لداعٍ أو أكثر من الدواعي ذات الوقع الجميل في نفوس البلغاء والأدباء.

(١) فَمِن الخروج عن مقتضىٰ الظاهر اختيار البدائل التعبيرية الملائمة للغرض البلاغي، على خلاف ما تَسْبِقُ إليه الأذهان.

ومن أمثلة هذا النوع ما جاء في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

كان الظاهر الذي يَسْبِقُ إليه الذهن أن يقال: فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا رُجُوعاً، ولَكِنْ جاء البديلُ المختار: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

ولهذا الخروج عن مقتضىٰ الظاهر داعيان:

الداعي الأول: تَرْكُ نمطيَّةِ التقابل المتناظر المألوفة في الكلام، وفي هذا الترك إبداعٌ معجب.

الداعي الثاني: مراعاة رؤوس الآي، الّذي فيه جمال التناظر عند النهايات.

(٢) ومن الخروج عن مقتضى الظاهر ما يُسَمَّى «الالتفات» وهو في اصطلاح البلاغيين: التحويل في التعبير الكلاميّ من اتّجاهٍ إلى آخر من جهاتٍ أو طُرُق الكلام الثلاث: «التكلّم ـ الخطاب ـ الغيبة» مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أوّلاً دون التحوُّل عنها.

ولا يكون هذا التحويل جميلاً بديعاً، ما لم يكن لداعٍ بلاغي يُعبِّرُ التحويل عنه.

ومن الالتفات في السورة قول الله عزّ وجل في وصف الرسول محمّد ﷺ:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

فقد جاء بعد هذه الآية في قراءة نافع، وابْنِ عامر، وأبي جعفر، ويعقوب: ﴿لِتُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ خطاباً للرّسُول ﷺ، مع أنّ مقتضَىٰ الظاهر أن يكون التعبير كما جاء في القراءة الأخرى: [لِيُنْذِرَ].

وهذا الالتفات فنٌ بلاغيٌّ يَجِدُ عذوبَةً واستحساناً لدى البلغاء والأدباء، إذَا كان اختيارُهُ ملائماً، يتحقَّقُ به غرض أو أكْثر من الأغراض الّتي يقصدُها البلغاء.

ومن دواعي الالتفات الإيجاز والاقتصادِ في التعبير، واستثارة انتباه المتلَقّي.

عاشراً:

جاء التنكير في السورة في عدّة مواضع منها لإفادة التكثير والتنويع، ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: أنعاماً كثيرة الأعداد والأنسال والأنواع والأصناف، وكثيرة المنافع.

حادي عشر:

من الفنون البلاغية تقديم ما حقُّهُ التأخير لداعٍ أو أكثر من الدواعي البلاغية، فمن هذا الفن:

(١) ما جاء في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ... ﴿٢٠﴾﴾.

أصل الترتيب في الجملة العربيّة أن يقال: «وجاء رجلٌ من أقصَىٰ

المدينة يَسْعَىٰ» إذْ مَنْزِلَةُ الفاعل في الترتيب متقدمة على منزلة التابع المجرور.

لكن قد يدعو داعٍ بلاغي لتقديم ما حَقُّه التأخير، فيكون تقديمه دَالًّا على ذلك.

والداعي هنا التنْبيه على أنَّ حضور هذا الرَّجل من أقصىٰ المدينة قد كان سعياً جهاديًّا عن حماسة وتصميم وتضحيَةٍ بالنفس دفاعاً عن الحقّ الرَّبّانيّ.

(٢) ما جاء في قوله تعالى بالنسبة إلى نعمة الله بالأنعام على العباد: ﴿... فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١﴾:

جاء في هذه العبارة تقديم: ﴿لَهَا﴾ وهي معمولة لـ﴿مَٰلِكُونَ﴾ لإفادة تمييز الأنعام بطاعتها لمالكيها من الناس طاعةً زائِدَةً على مطلق التسخير العام.

أي: فهم لها على وجه الخصوص مالِكُونَ ملكاً متمكّناً ممّا يرومونَ بها، بحسَب صفاتها التي فطرها الله عليها، إذْ سخّرَهَا لَهُمْ وذلَّلها لطاعتهم على أفضل وجه، بخلاف بعض البهائم الأخرى، كالظباء، وحُمُر الوحْشِ، والأيائل، فإنها غير مطيعة كطاعة الأنعام.

ثاني عشر:

من فنون البديع عند علماء البلاغة «الإدْماج» وهو من المحسنات المعنوية، **والإدْمَاج**: هو إدخال غرض بيانيّ في غرض آخر، أو إدْخال فكرة في فكرة.

ومن أمثلة «الإدماج» في السورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزّ وجل:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟.

في هٰذه الآيات إدْمَاجُ الامتنان بما ذُكِرَ فيها مِنْ نِعَمِ اللَّهِ على عبادِه، ضمْن عرض الدليل على قدرة الله عزّ وجلّ على الْبَعْثِ إلى الحياة بعْدَ الموت.

وجاء التعليق على الفكرة الّتي أدْمِجَتْ، وهي الامتنان بالنِّعَم، بتوجيه الاستفهام الذي يراد به الحث على شكر الله على نِعَمِه على عباده بعبارة: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟

المثال الثاني: ما في قول الله عزّ وجلّ بشأن الرَّسُول والقرآن:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾:

في هٰذِه الآية قضيتان مُنْدَمجتَان:

الأولى: قضية كون الشعر ما يَصْلُحُ للرَّسُول محمّد ﷺ.

الثانية: قضيَّة كون الْقُرْآن لَيْسَ شِعراً، ولا لوناً مِنْ ألوان الشّعر، بل هو ذِكْرٌ وقرآنٌ مبين.

وفي إدْماج هاتين القضيتَيْن ببيانٍ واحدٍ إبداعٌ فكريٌّ، وإيجاز لفظيّ.

ثالث عشر:

ومن الفنون البلاغية البديعة «الكناية» وهي عند البلاغيين: اللفظ المستعمل فيما وُضِع له في اصطلاح التخاطب، للدّلَالة به على معنىً آخر لازمٍ له، أو مصاحِبٍ له، أو يُشَارُ به عادة إليه.

ومن أمثلة الكناية في السورة قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

في عبارة: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ كِنَايَةٌ غَايَةٌ في الْإِبْدَاعِ فِكْرَةً وَتَعْبيراً عنْ نُصْرةِ المشركين لآلهَتِهم، مع أَنَّ آلهتهم لَا يسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ نَصْراً ما، لكنَّ المشركينَ هم الذين يَنْصُرُونَ آلهتَهُمْ دَواماً إذْ هُمْ بمثَابَةِ الجنْدِ الذين يُحْضَرُونَ من قِبَلِ شياطين الإنْسِ والجنّ، مَسُوقِينَ أو مَقُودِين للدِّفاع عن هذه الآلِهَةِ الباطلة، الّتي لَيْسَ لَهَا من الإلَهية شيءٌ.

رابع عشر:

ومن الفنون البلاغية البديعة، التَّنْوِيعُ في أسْلُوب العرض للأشباه والنظائر.

ومن أمثلة هذا التنويع في السورة ما يلي:

(١) جاء عرض بعض آيات الله في كونه أوّلاً بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التَّلويْمِي، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

(٢) وجاء بَعْدَه استخْدَام أسلوب العرض الخبريّ، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

(٣) ثم جاء اختيار أسْلُوب افْتِتَاح الْعَرْض بِتَنْزِيهِ الله عزّ وجلّ عما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

إنّ أحْسَنَ كتّابِ البشر يتبادر له أن يقول: وآيَةٌ لهم خلْقُ الأزواج كلّها، عطَفاً على ما جاء قبلها.

لكنّ فنِّيّةَ التَّنْويع الإبداعيّ دعَتْ إلى مُفَاجَأة المَتَلَقِّي بعبارة تنزيه الله عن الزوجيَّة ولوازمها، قبل بدْءِ عرض آية الله الكونيَّة في خَلْقِهِ للأشياء، وفق نظام الزّوجيّةِ الّذي تنزَّهَتْ ذاتُ الْبَارِي جلّ جلالُه عنه.

خامس عشر:

ومن الفنون البلاغية البديعة الّتي لم تكن معروفة عند البلغاء والأدباء، استقطاع النَّصّ من الحدَث الماضي، أو الحدَث الّذي سيكون أو سوف يكون في المستقبل، دون الإشارة إلى أنَّهُ كان كذا فيما مضىٰ، أو سيكون كذا في المستقبل، أو سوف يكون.

ومن أمثلة هذا الاستقطاع البديع في السُّورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ حديثاً عمَّا سوف يخاطب الله عزّ وجَلَّ به أهل الجنَّة في الجنَّةَ:

﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾:

أي: سوف يقول الله لهم وهم في الجنَّة: ﴿سَلَٰمٌ﴾ ومعْلُومٌ أنّ هذا الكلام مستقطع من الحدث المستقبليّ.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلّ حديثاً عمّا سوف يخاطب به المجرمون في موقف الحشر والحساب يوم الدّين:

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤﴾:

هٰذا الكلام مستقطَعٌ من الحَدِثِ المستَقْبَلِيِّ الذي سَوْف يكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، وهو من فنون البلاغة القرآنية الّتِي لم تكُنْ مَعْرُوفة في كلام البلغاء قبل القرآن، ولا في شِعْر الشعراء.

وفي سورة (يسٓ) بلاغيات أخرى كثيرة تركت استخراجها للمهتمين بهذا الموضوع، من أهل الخبرة، وتَذَوُّقِ وإِدْراكِ فنون الكلام البليغ الرفيع.

* * *

(١٦)

الملحق الثاني

اللّوح المحفوظ في كلّ القرآن وبَعْضِ السُّنّة

أُطْلِقَ على كتَابِ العِلْمِ الرَّبَّاني في القرآن المجيدِ عدّةُ أسماء، وهي:

(١) الكتاب المبين.

(٢) الإمام المبين.

(٣) أمّ الكتاب.

(٤) اللَّوْحُ المحفوظ.

(٥) الكتاب المكنون.

وقد جاء في القرآن المجيد خَمْسَة عَشر نصًّا بشأن هذا الكتاب الرَّبَّانِيّ العظيم، أعْرِضُها في هٰذا الملْحَق، على وفْق تَرْتِيب نُزُولِ سُوَرِها، مَعَ مَا يَفْتَحُ الله به من تَدبُّرٍ لَهَا.

وأذكُرُ قَبْلَ الْبَدْء بها بعْضَ ما جاء في السُّنَّةِ بشأنه.

من السُّنة:

أَنْتَقِي من الرّوايات الواردات بشأن اللَّوْحِ المحفوظ عند المحدّثين روايتين:

الرواية الأولى:

نقل ابْنُ كثير ما رَوى الطبرانيُّ بسَنَدِهِ عن ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحاً مَحْفُوظاً مِنْ دُرَّةٍ بيْضاء، صَفَحَاتُها مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْراءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وكِتَابُهُ نورٌ، لِلَّهِ في كُلِّ يَوْمٍ سِتُّونَ وثَلاثُمِائَةِ لَحْظَةٍ، يَخْلُقُ، ويَرْزُقُ، ويُمِيتُ، ويُحْيِي، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَفْعَلُ مَا يَشَاءُ».

أقول: فاللّحظَةُ على هٰذا تُقَدَّرُ بأربع دقائق، أو هي على رأس كُلّ أَرْبع دقائق، إذْ (٤) دقائق تضرب بـ(٣٦٠) لحظة، فيكون الحاصل «١٤٤٠» دقيقة ÷ ٦٠ = ٢٤ ساعة، وهي كامل ساعات اليوم من أيّام الأرض.

الرواية الثانية: ما أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس أيضاً، قال:

«خَلَقَ اللَّهُ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظ كَمَسِيرَةِ مِئَةِ عَامٍ، فقال لِلْقَلَمِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: اكْتُبْ عِلْمِي فِي خَلْقِي، فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

أقول: مِثْلُ هٰذَا البيان لا يُقَالُ مِنْ قِبَلِ الرَّأْي، فإنْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فينْبَغِي اعْتِمَادُه.

واللَّهُ أعْلَم.

النُّصُوص القرآنِيَّة مع شَيْءٍ من التَّدبُّر.

النَّصُّ الأول:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾:

عَجب مُنْكِرِو بَعْثِ الأمواتِ بَعْدَ فَنَاءِ الْأَجساد، كَيْفَ يُحْصِي اللَّهُ ذَرَّاتِ كُلِّ جَسَدٍ مِنها، بَعْدَ فَنَائِهِ وَتَفرُّقِ ذَرَّاتِهِ في تُرَابِ الأرض وسائر عناصِرِها.

فَأَبَانَ الله عزّ وجلّ في هذا النَّصّ للمنْكِرِين قضيَّتَيْن:

الْقَضِيَّةُ الأُولَىٰ: أنَّهُ ـ جَلّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قد عَلِمَ بِعِلْمِ الشامِلِ لكلّ شَيْءٍ، مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ في تَتَابُعِ أجزاء الزَّمَن، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْدُثَ هٰذا النَّقْص، لِأَنَّ كُلَّ حَدَثٍ يَجْرِي في الكَوْنِ كُلّهِ، مَسْبُوقٌ بِقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ وَقَضَاء، إذا كان من مقاديره الجبْرِيَّةِ في خَلْقِه، ومَسْبُوقٌ بِعِلْمِه وَإِذْنِهِ، ومُقْتَرِنٌ بِخَلْقِهِ، إذا كان من اختيارات الْعِباد الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ لهم إراداتٍ حُرَّةً، لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدنيا.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: أنّ عنْدَ اللَّهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ كِتَاباً بَالِغَ الدِّقَّة فِي الحفْظِ، فَهُوَ [**حَفِيظٌ**] وقَدْ تَمَّتْ فِيهِ كِتَابَةُ كُلِّ شَيْءٍ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ، بذاتِهِ وصفاتِهِ كُلِّها، فَمَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ منْ أَجْسَاده الموتَىٰ بالفناء، مكْتُوبٌ فيه بالدِّقَّة المتناهِيَةِ، المطابقَةِ لِلْوَاقِع، دُونَ زِيَادَةٍ ولَا نُقْصَانٍ، بلِ الواقِعُ يَتَحَقَّقُ تَنْفِيذُه على وَفْقِ ما هو مُسَجَّلٌ فيه.

هذا الكِتَابُ هو اللَّوحْ المحفوظُ. ويُضاف إِلَيْهِ ما في صُحُفِ الملائكَةِ من كتابَةٍ وَتَسْجِيلٍ لأعمال العباد الاختياريَّةِ الظاهرةِ، والباطِنَةِ وكُلّ مَا يَتَعَلَّقُ بشُؤونهم، ممَّا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بتَسْجِيلِهِ.

النصّ الثاني:

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿... وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾:

أي: وكُلّ شيءٍ عَلِمْنَاهُ وسَجَّلْنَاهُ في كِتَابٍ هُو إِمَامٌ لِسَائِرِ الكُتُبِ،

وهُو مُبين، من فِعْلِ «أَبَانَ الشيْءُ» بمَعْنَىٰ ظَهَرَ واتَّضح، ومن فعل: «أَبَانَ فُلانٌ الشَّيْءَ» بمَعْنَىٰ: أفْصَحَ، وأظْهَرَ، وأَوْضَحَ، ففعل «أبان» يأتي لازماً، ويأتي مُتَعَدّياً، واسْمُ الفاعل منهما «مُبين».

ونَفْهَمُ من تسْمِيَتِه إمَاماً، أنَّهُ يُؤْتَمُّ به لدَىٰ تطبيق وقائع الخلْقِ، المقضِيَّةُ بقضاء اللّهِ جلَّ جلالُه، والمقدَّرَةُ بقَدَرِه.

أمَّا أفْعَالُ العباد الاختياريّةُ، فَيُلَاحَظُ فيها مُطَابَقَتُهَا لسَابقِ عِلْمِ اللّهِ بأحوالهم، واختياراتهم الَّتِي لَمْ يُجْبَروا علىٰ شيءٍ مِنْهَا، لكِنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ عَلِمَ ما سَيَخْتَارُونَ، وكتَبَ ذَلِكَ في اللَّوْحِ المحْفُوظِ، وَمَا تكْتُبُهُ الملائكَةُ من كَسْبِ العباد الاختياريّ مُتَابِعِينَ فيه ما يَصْدُرُ عنهم يأتي مُطابقاً تماماً لما هُوع مُسَجَّلٌ في اللَّوحِ المحفوظ.

ولم أَخْتَرْ تَفْسِيرَ «الإمام المبينِ» بالعِلْم الرَّبَّانيّ في ذاتِ الرَّبّ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه ـ لأنَّهُ تَبَارَكَ وتعالى وصف هذا الإمامَ بأنَّهُ مُبِين، أي: واضِحٌ ظاهِرٌ لمَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بأن يَطَّلِعَ عليه من الملائكة، وهذا الوصْفُ يَلِيقُ باللَّوْحِ المحفوظ الّذي لا يَمَسُّهُ إلّا المطَهَّرُونَ، لَا بما في نَفْسِ اللّهِ من عِلْم، لأنَّ ما في نَفْسِ اللّهِ لا يطَّلِعُ عليه أَحَدٌ إلّا ببيانٍ خارجٍ عن ذاتِ نَفْسِ الله.

النصّ الثالث:

قولُ الله عزَّ وجلّ في سُورَةِ (فاطرِ/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ⑪﴾.

أي: ومَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ «كُلّ أُنْثَىٰ تَحْمِلُ» حتَّىٰ الْبَعُوضَةِ فَمَا دُونها،

ولَا تَضَعُ حَمْلَها إلّا بِعِلْمه اللّهِ جلّ جلاله، وإلّا هُوَ مكْتُوبٌ في اللَّوْح المحفوظ بحِفْظِه ضِمْنَ برنامج خُطَّةِ الخلْقِ الرَّبَّانيَّة.

وَمَا يُعَمَّرُ من شَخْصٍ مُعَمَّرٍ «أي: يُطَوَّلُ في عُمُرِه» وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِ شَخْصٍ غَيْرِ مُعمَّر، فَيُجْعَلُ نَاقِصَ الْعُمر عَنْ نُظَرائِه، إلّا هو معْلُومٌ لِلَّهِ، ومكْتُوبٌ في اللَّوْحِ المحفوظ بحفظ الله.

أوْ وَمَا يُعْطَىٰ مُعَمَّرٌ في صُحُفِ الملائكةِ كامِلَ عُمُرِهِ المكتوب فيها، ولا يُنْقَصُ من عُمُرِ مُعَمَّرٍ في هٰذِهِ الصُّحف، فَلَا يُعْطَىٰ كَامِلَ عُمُرِهِ المكتوبِ فيها، إلَّا هُوَ مَعْلُومٌ لِلَّهِ، وَمَكْتُوبٌ في اللوّحِ المحفوظ بحفظ الله.

إنّ اللّوحَ المحفوظَ بحِفظِ الله، لَا يَحْصُلْ فِيه تَبْدِيلٌ ولَا تغيير ولا زيادة ولا نَقْصٌ، إذ هو مطابق لعِلْم الله.

أمّا صُحُفُ الملائكَةِ فيَمْحُو اللَّهُ عزَّ وجلَّ مِنْها مَا يَشاءُ ويُثْبِتُ، وعِنْدَهُ أُم الكِتَاب، وهو اللَّوْحُ المحفوظ، أَوْ هُوَ عِلْمُ الله.

وقد قرَّبَتْ للناسِ برامِجُ الحاسِبِ الآلي، فَهْمَ هٰذِهِ الحقائق المتعلّقة بِعِلْم الله، وباللَّوْحِ المحفُوظ، فَفِي لَوْحةٍ صَغِيرَةٍ يُمْكِنُ جَمْعُ مَعْلُومَاتِ مكتبَةٍ عُظمَىٰ، لوَقَائِعِ الماضي، أَوْ لخُطَطِ المستقْبَلِ، أو لمسائل العلوم.

النّصّ الرابع:

قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) يبيِّنُ فيه حواراً جرَىٰ بَيْنَ مُوسَىٰ وهارون، وبين فِرْعُون:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾:

﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: فَمَا شَأْنُ وَمَا حَالُ الْمَوْتَىٰ السَّابِقِينَ

من أهل الْقُرُونِ الْأُولى، الَّذِينَ صَارَت أَجْسَادُهُمْ ذَرَّاتٍ مُتَفَتّتاتٍ مُتَناثِراتٍ في تراب الأرض؟

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ﴾: أي: الْعِلْمُ بِهَا بالتفصيل الشامل، مَكْتُوبٌ عِنْدَ رَبِّي في كتاب، وهو اللَّوْحُ المحفوظُ مَعَ مَا في صُحُفِ الملائكة مِنْ مُسجَّلَاتٍ، والعلْمُ بها بالتفصِيل الشّامل عنْدَ رَبّي في ذاتِ نَفْسِه، فَمِنْ صفاتِهِ أَنَّهُ لَا يَضِلُّ مُبْتَعِداً عن أيِّ شَيْءٍ ممَّا اشْتَمَل عَلَيْهِ عِلْمُهُ، ولَا يَنْسَىٰ شَيْئاً مِنْ عِلْمِه، جلَّ جلالُ اللَّهِ وعظُمَ سُلْطانه.

النصّ الخامس:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول): ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

وصَفَ الله عزّ وجلّ في هٰذا النَّصّ اللَّوْحَ المحفوظَ بكَوْنِه كتاباً مَكْنُوناً.

المكْنُونُ: هُو في اللُّغَةِ المسْتُورُ الْمَخْفِيُّ الْمُبْعَدُ عن الوصُولِ إليْهِ بالنَّظر أَوْ بِغَيْرِه، فَهُو في كِنِّهِ الَّذي هو فيه مَصُون.

الْكِنُّ: هو المكانُ المحفوظ المحْجُوبُ ببناء أو بِغَيْرِهِ من الحُجُب، وهٰذا حالُ اللَّوْحِ الرَّبَّاني، إذْ حَفِظَهُ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ وَصَانَه. ولِهٰذَا جاء في وصْفِهِ مَا يلي:

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾: أي: لا يَمَسُّهُ إلّا الملائكة المطهّرُون مِنْ رِجْسِ المعاصِي والمخالفات، ومن الأهواء والشَّهوات الّتي تدفع إلى الخروج عن أوامر الله ونواهيه، ومن رجْسِ الإخْلالِ بحَقِّ أيِّ واجب من واجبات اللَّهِ عليهم، أو ارتكاب أيِّ مِنْهِيٍّ عَنْهُ حَرَّمَهُ اللَّهُ عليْهم، أوْ نَهَىٰ اللَّهُ عن الاقترابِ مِنه.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النَّمْل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول):

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾:

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: أي: ما تخفيه الصُّدُور، فلا تُعْلِنُهُ، فهو سِرٌّ فيها.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: ومَا من ذَاتٍ وَلَا صِفَةٍ غائِبَةٍ عَنْ إدْراكِ ذوي الإدْراك من جميع الخلائق. إلّا هِيَ مَكْتُوبَةٌ في كتاب مُبِين، واضِحٍ لمَنْ يَطَّلِعُ عليه ويقْرَأُ فِيهِ، من المطهرين من الملائكة.

النّصّ السّابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

أي: وَمَا مِنْ جَامِعَةِ مَسَاكِنَ بَشَرِيَّةٍ صَغِيرة أَمْ كَبِيرَةٍ حَتَّىٰ أعظم الْمُدُنِ وَأَكْبَرِها، إلّا قَدْ عَلِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ بأنَّ أهْلَها سيَصِلُونَ باختيارهم الحرّ، إلى حالة من الظلم والإجرام، والتمادي في الفسْقِ والْعِصْيان، والكُفْرِ والطُّغْيان، يَسْتَحِقُّونَ معها أن يَحِقّ عَلَيْها قَوْلُ اللّهِ جلّ جلالُه بالإهْلاكِ العقابيّ، أو بالعذابِ الشّديدِ من دُون الإهلاك، فَيُجْرِي اللَّهُ سُنَّتَهُ فيهم عُقُوبَةً وانتقاماً.

وهٰذا الْعِلْمُ الشّامِلُ لأحوال المجَمَّعَاتِ السَّكَنِيَّة البشَرِيَّةِ، ولِعِقابِ أهلها بالإهلاك الشامل، أو بالعذاب الشَّدِيد قَبْلَ يوم القيامة، كان في الكتاب «وهو اللَّوْحُ المحفوظ» مَسْطُوراً مِنْ قَبْلِ أن يَبْرأ اللَّهُ عزّ وجلّ الخلْق.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾: «إنْ» حرف نفي بمعنى «ما» النافية. «مِنْ» حرف جرّ زيد للتنصيص على العموم والشمول، «قَرْية» مبتدأ مجرور لفظاً بحَرْفِ الجرّ الزائد.

القرية: تطلقُ في اللّغة على كلّ أرضٍ فيها بُيُوتٌ وَمَسَاكِنُ مجتَمعَة، قَلَّتْ أم كثرت، ولَوْ بَلَغَتْ أعظم مُدُنِ الأرض، وقد تُطْلَقُ على قُرىً متقاربَة تمثّلُ في مجموعها وحْدَةً إداريَّة كقُرَىٰ قوم لوط.

مَسْطُوراً: أي: مكْتُوباً، يقال لغة: سَطَر الكاتبُ الكِتابَ يَسْطُرُهُ سَطْراً، أي: كتَبَهُ.

وجاء في هذا النص الاستغناء بلفظ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ للدَّلالَةِ على اللَّوْح المحفوظ، لأنّ «الْ» في هذا اللّفظ للكمال، واللّوحُ المحفوظُ هُوَ أكْمَلُ الكُتُب، وأَجْمَعُها لِعِلْم اللَّهِ الشَّامِلِ كُلَّ مَعْلُوم.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) خطاباً لرسولِهِ فللنَّاسِ جميعاً:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾: أي: وَمَا تَكُونُ يا مُحَمَّدُ في شأنٍ مَا مِنْ شؤون أدائِكَ رِسَالَةَ رَبّك، داعياً إلى الله، أو من شُؤون عباداتك لِرَبّك، أو من شؤونِك الخاصَّةِ بك في حياتك.

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾: ظهر لي أنّ الضميرَ في عبارة ﴿مِنْهُ﴾ يَعُودُ على القرآن الذي تكرَّرَ ذِكْرُه في السُّورة، فجاء في الآية الأولى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ

ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ وجاء في الآية (١٥): ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد هذه الآية الآيتان (١٦) و(١٧) تتعلَّقَانِ بالقرآن. وجاء الحديث عن القرآن أيضاً في الآيات من (٣٧ ـ ٤١) وجاء الحديث عن القرآن أيضاً في الآيَة (٥٧).

وهذا الإجراء في إعادة الضمير على القرآن ممَّا يَدُلُّ على وَحْدَةِ موضوع السُّورة، ولم يُلاحِظِ المفسّرون ظاهرة وَحْدة موضوع السّورة في الْقُرْآن، فبَحَثُوا عن أَقْرَبِ ما يُمْكِنُ إعادةُ الضَّمِير عليه في الآية.

فالمعنى فما تكونُ يا مُحَمَّدُ في شَأن وَمَا تَتْلُو مِن كتابنا من قُرآن إلَّا كُنَّا شاهِدِين، بدليل ما سيأتي في الآية:

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾: أي: يَا أَيُّهَا النَّاس.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: عَالِمِينَ بِكُلِّ أعمالِكُمْ صغارِها وكبارِها، حسَنِها وسَيِّئِها.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أيْ: إِذْ تَنْدَفِعُونَ في العمل بِهِمَّة وقُوَّةٍ، يخْتَلِطُ بَعْضُكُمْ ببَعْضٍ، فلاَ يَخْتَلِطُ علينا عَمَلُ بَعْضِكُمْ ببعْضٍ.

الإفاضَة: هي الانْدِفاعُ بقُوَّة في حركة سَيْرِ نَشِيط، كجريَان الماء الكثير الذي يفيض فيضاً، ومِنْهُ إفاضَةُ جماهير الحجَّاج من عَرَفات.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾: أي: ومَا يَبْعُدُ عَنْ شُهُودِ رَبِّكَ وعِلْمِه الدائم، يُقَالُ لغة: عَزَبَ الشَّيْءُ يَعْزُبُ عُزُوباً، أي: بَعُدَ فَخَفِيَ، قَرأَ الكِسَائي: [يَعْزِبُ] بكسْر الزاي، وقرأ باقي القراء العشرة ﴿يَعْزُبُ﴾ بضم الزاي وهما لغتان عربيتان.

﴿... مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

أي: ومَا يَبْعُدُ عَنْ شُهودِ رَبِّكِ، وما يَخْفَىٰ عَلَيْهِ، من مثقال ذَرَّةٍ في الكَوْنِ كُلِّه، ولا أصْغَر من الذَّرَّة ولا أكبر منها.

قرأ حمزة، ويعقوب، وخَلَف: [وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ] برفع «أصْغَرَ» و«أكْبَر» فنصب الرّاءِ في الكلمتين لُوحِظ فيه العطف على لفظ مثقال، فأصغر وأكبر ممنوعان من الصَّرف، والرَّفْعُ لوحظ فيه العطف على محلِّ مثقال، وهو الرفع لأن «من» حرف جرٍّ زيد لتأكيد النفي والتنصيص عليه، ومثقال في محل رفع فاعل «يَعْزُبُ».

وجاءت الإشارة إلى الذَّرَّةِ باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لأنَّ الذَّرات بَعِيداتٌ عن مُشَاهَدَةِ الناسِ لِشدَّةِ صِغَرِها.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾: أي: ولَا يَعْزُبُ عَنْ شهودِ ربّك، ولَا يُحْصَىٰ كُلُّ شَيْءٍ في الكَوْنِ عند غَيْرِ رَبِّكَ، إلّا في كتاب مُبِينٍ، هو اللَّوْح المحفوظ.

وهذا الاستثناء يُؤَكِّدُ عدم بُعْدِه، وعَدَمَ خفائه على الله، وهُو من قبيل تأكيد عُمُوم الْقَضِيَّةِ بما يُوهم الاستْثناء منها، فكَوْنُ كُلِّ شيءٍ مكْتُوباً في اللَّوْحْ المحفوظ، يُؤَكِّد أنَّ الله جل جلاله لا يخْفَىٰ عليه شيء.

أو نقول في تقدير الكلام: وما يَعْزُبُ عَنْ شُهُودِ رَبِّك مِنْ شيء، وَمَا مِنْ شيءٍ إلَّا هو مكْتُوبٌ في كتابٍ مُبين، هُوَ اللَّوْحُ المحْفُوظ.

وإيجازاً في العبارة حُذِفَ مِنها ما يَسْهُلُ على المتدَبِّر تقديره.

النصّ التاسع:

قول اللَّهِ عزّ وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾.

أي: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ قدّر اللَّهُ وَقضَىٰ أَنْ يَخْلُقَهَا، فَلا بُدَّ لَهَا مِنْ رِزْقٍ لبقاء حياتها إلى أَجَلِها المقدَّرِ المقْضِيّ لها، وهٰذا الرِّزْقُ قد أَلْزَمَ اللَّهُ نَفْسَهُ به، فجَعَلَهُ واجباً عليه.

وما من دابَّةٍ قَدَّرَ اللَّهُ وقضَىٰ أنْ يَخْلقها، وأجْرَى أَعْمَالَ خَلقِهِ لها، بدْءاً من أوَّلِ إنْشائها، إلَّا يَعْلَمُ كُلَّ أطْوارِها في مستقرّاتِ الذكور، وكلَّ أطوارها في مُسْتَودعات الإناث، ويَعْلَمُ تراتيب رِزْقِها، ومع عِلْمِ اللَّهِ الشّامِلِ لكلِّ ذٰلِكَ، فهو مُسَجَّلٌ مَكْتُوبٌ في كِتَابٍ مُبِينٍ، هو اللّوحُ المحفوظ، قَبْلَ أَنْ يَبْرأ هذه الدَّوابّ في الأرض، من أصْغَرِ دابَّةٍ فَيْرُوسيَّة، حتَّىٰ أكْبَرِ دَابَّةٍ في الْبَرِّ أَوْ في الْبَحْر.

ومَعْلُومٌ أنَّ كتابَةَ هذه الدَّقائقِ يُشْعِرُ بكِتابَةِ ما هو أَهْوَنُ وأَسْهَلُ منها.

وقَدْ تكون عبارةُ: ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ بمعنى: كُلُّ شَيْءٍ على وجْهِ الْعُمومِ في كتابٍ مُبِينٍ، ومِنْهُ مَا جاءَ ذِكْرُهُ في الآية.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (سَبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣﴾.

- قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جعْفر، ورُوَيس [عَالِمُ] بالرَّفع، أي: هو عالم.

وقرأ حَمْزَة، والكِسَائي: [عَلَّامِ] بصِيغَةِ المبالغة مع الجرّ صفة لـ«رَبّ» من [وربِّي].

وقرأ باقي القراء العشرة [عَالِمِ] بالجرّ صفة لـ«رَبّ» من ﴿وَرَبِّ﴾.

وقرأ الكِسَائي: [لاَ يَعْزِبُ] بكسر الزاي. وقرأ باقي القُرّاء العشرة: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ بضمّ الزاي، وهما لغتانِ عَرَبيَّتَان.

المعنىٰ العامّ الذي دلّت عليه هذه الآية بالنسبة إلى علم اللّٰهِ مماثل لمعنى الآية (٦١) التي سَبَقَ تَدَبّر معناها من سورة (يونس).

لكن آيَة (سبأ) جاء فيها لفظ «السَّمَاوَات» بالجمع، أمّا آيَةُ (يونس) فقد جاء فيها لفظ «السَّماء» بالإفراد، والمؤدّىٰ واحد.

وقُدِّم في آية (يونس) علم ما في الأرض على علم ما في السماء، وقُدّم في آية (سبأ) علم ما في السماوات على علم ما في الأرض، مُراعاة للمناسبة في كلٍّ منها.

فآية سورة (يونس) جاء فيها الحديث عن أحوال الناس في الأرض، وآيَةُ سورة (سبأ) جاء فيها الحديث عن السَّاعَةِ التي تَبْدَأ أحداثُها بتبَدُّلٍ في السَّمَاواتِ فالأرض.

فاقتضَتِ الحكْمَةُ البيانيَّة في كُلٍّ من الآيَتَيْنِ الإجراءَ الَّذِي تَمَّ فيها.

وسائر التحليل الذي سبَقَ في آية (يونس) يَنْطَبِقُ على ما جاء في آية (سبأ).

النَّصُّ الحادي عشر:

قول اللّٰهِ عزّ وجلّ في سورة (الزُّخْرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾:

أي: وإِنَّ الْقُرْآن مَكْتُوبٌ في اللَّوْح الْمَحْفُوظ الذي سمَّاه اللَّهُ عزّ

وجلَّ في هذا النّصّ «أمّ الكتاب» أي: الأصل الذي تُؤخَذُ منه كُتُبُ الملائكةِ، والكُتُبُ والصُّحُفُ المنَزَّلَةُ على رُسُلِ اللَّهِ.

وبما أنّ القرآن أكْمَلَ الكُتُبِ المنَزَّلَةِ على رُسُلِ اللَّهِ لعباده، فقد جَعَلَهُ اللَّهُ في اللَّوْح المحفوظ عَلِياً رَفيعَ المنزلة، موصوفاً بأنّه حَكيم.

النّصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: ويوْمَ تقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمَ الكافرون المجرمُونَ أَنّهم ما لَبِثُوا بيْنَ الموْتِ والْبَعْثِ غَيْرَ ساعَةٍ من نهار، وهذا المعنى قد تكَرَّرَ في القرآن المجيد، وذلِكَ لأنَّ الإحْساس بالزَّمَنِ ومُرُوره، يُلْغَىٰ من إدْراكِ أَرْوَاحِهم ونفوسهم، وهم ميّتون قد انفصلَتْ أرْواحُهُمْ عن أجْسَادِهِم ومُدْرَكاتها.

ولا يتعارض هٰذا مع إثبات عذاب القبر ونَعِيمه، فالمجرمون لهم في مُدَّةِ البرزخ بين الموت والبعث عذاب، والمؤمنون الطيّبون لهم فيها نعيم، ونفوسُ كلٍّ من الفريقين تُحِسُّ بذلك، إلّا أَنَّهم لا يَشْعُرُونَ بمُرُور الزَّمَنِ مَهْمَا طال.

أمّا المؤمنُون العالمون بأمُور دينهم، فيقولون للمُجْرِمين الّذِين كانوا في الحياة الدنيا كافرين بأنْباء الدين: لقَدْ لبثْتُم في مُدَّةِ البرْزَخِ زَمَناً مَكْتُوباً في كتاب الله، وهو اللَّوْح المحفوظ، وهذا الزَّمَنُ يَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ ما بَيْنَ مَوْتِ كُلِّ واحِدٍ وساعَةِ بَعْثِه، فهذا اليوم الذي أنتم فيه الآن هو يوْمُ البَعْثِ الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ به في الحياة الدّنيا.

وبما أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَرْفُضُون أَنْ تَعْلَمُوا هذا العلم، وتَرْفُضُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا به، إذْ كُنْتُمْ في رِحْلَةِ امتحانكم كافِرين مُكذِّبين بِيَوْم الدّين، فإنّكُمُ الْيَوْمَ تَتَوَهَّمُونَ أنّكُمْ مَا لبثْتُمْ في رَقْدَتِكُمْ بين الموْتِ والْبَعْثِ غيْرَ سَاعَةٍ زَمَنِيَّةٍ من سَاعاتِ حياتكم الأولى.

النّصّ الثالث عشر:

قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحديد/٥٧ مصحف/٩٤ نزول) خطاباً للناس:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: مَا أصَابَ من مُصِيبَةٍ على وجْه الاستغراق الشامل، شيئاً مَا في الأرض، كإتْلاف زَرْع، أو تدمير عمران، أو مصيبة في أيّ مُمْتَلك من الممتلكات من الأشياء أو الأحياء، أو شيئاً ما في أنْفُسِكُمْ أيُّها الناس إلَّا هو مكْتُوبٌ في كِتَابٍ، هو اللَّوْح المحفوظ، ومَا أُخِذَ عَنْهُ من مكتوباتٍ في صُحُفِ الْمَلَائِكة، مِنْ قَبْلِ أنْ يَخْلُقَ الأنفس، أو من قبل أن نَخْلُقَ الأرض أيْضاً.

﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ «من» حرف جرٍّ زيد لتأكيد العموم واستغراقه لكل الأفراد، «مصيبة» فاعل «أصاب» مجرور لفظاً مرفوع محلاً.

[من قبل أن نبرأها]: أي: من قبل أن نخلقها، قال ابن سِيدَه: بَرَأَ اللَّهُ الخلْقَ، يَبْرؤُهُمْ، بَرْءاً، وبُرُوءاً، خَلَقَهُمْ، يَكُونُ ذَلِكَ في الجواهر والأعراض.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾: أي: إنّ الْعِلْمَ بكُلِّ ذَلِكَ وتَسْجِيلَهُ في كِتَابٍ من قَبْلِ خَلْقِ الْخَلْقِ أَمْرٌ يَسِيرٌ سَهْلٌ على اللَّهِ.

النّصّ الرابع عشر:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشاءُ مَحْوَهُ، ويُثْبِتُ مَا يَشَاءُ إِثْبَاتَهُ، في صُحُفِ الْمَلَائِكَةِ، وعِنْدَهُ أُمُّ الكتاب (وهو اللَّوْحُ الْمَحْفُوظ) الَّذِي لَا يَتَعَرَّضُ لِلْمَحْوِ والتغيير، لأنّه قَدْ كُتِبَ فِيهِ عِلْمُ اللَّهِ.

النّصّ الخامس عشر:

قَول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣) خطاباً لرسُوله، ولكل صالح لأنْ يخاطب بهذا الخطاب على سبيل الخطاب الإفرادي:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: أَلَمْ تَعْلَمُ أيُّها المتفكّر في ظاهراتِ الكون، وما تدلُّ عَلَيْهِ مِنْ بواطِنه، أنَّ اللَّهَ المهيْمِنَ على كلّ شيءٍ، والمتصرِّفَ في كُلِّ شيءٍ، يَعْلَمُ كُلّ شيءٍ مهما كان صَغِيراً غايَةً في الصِّغَر، ومُسْتَخْفِياً غايَةَ الاستخفاء، في السَّمَاءِ الشَّامِلَةِ لكلّ مُرْتَفِعٍ عن الأرض عُلْويّ حَتَّىٰ آخِرِ ذي وجود، وفي الأَرْضِ.

اعْلَمْ بأنّ الله عليم به، واعْلَمْ بأنَّ ذَلِكَ العِلْمَ الرَّبَّانيَّ مُسَجَّلٌ في كتاب، هو اللَّوح المحفوظ، واعْلَمْ بأَنَّ ذَلِكَ العلْمَ العظيم، وتسجيلَ ذَلِكَ الْعِلْمِ في كتابٍ مُبِينٍ، أَمْرٌ يَسِيرٌ على الله جلَّ جلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

* * *

(١٧)

الملحق الثالث

بيان اعتراض الأمم على بشريّة الرُسُل في القرآن

لم يكُنْ كفّار العرب وحدهم المعترضين على بشريّة الرسول الذي له صفات البشر، ومنها أكل الطعام والمشيُ في الأسواق، بل سبقتهم إلى هذا الاعتراض نَفْسِه الأمم من قَبْلهم، إذْ تعلّلوا بأنّه ينبغي أن يكونَ رسولُ الله ملَكاً، زاعمين أنّ البشر لا يصلُحون للاتصال بعوالم ما وراء الأشياء الّتي تُدْرَك بالحواس، أو أنّ إرْسَال رسولٍ بشر للناس منافٍ لحكمة الله، فالله لا يفعله. فَمَنِ ادّعىٰ من الناس أنّه رسولٌ مَبْعُوثٌ من عند الله فهو كاذب، أو حصلتْ له تخيّلات أو تصوّراتٌ أو أمورٌ نفسيّة، ظنَّ بسببها أنّه رسول يتلقّىٰ الوحي عن الله، والواقع بخلاف ذلك.

وقد عرض القرآن المجيد قصّة اعتراض الأمم على بشريّة رُسُلِهم في عدّة نصوص مُوَزَّعةٍ في السُّوَر.

- **أوّلاً:**

جاء في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بيان تعجُّب كفار مكة من بشرية محمد ﷺ في قوله تعالى:

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

ثم ذكر الله عزَّ وجلّ اعتراض ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام على بشريّته، فأنزل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ۝٢٥﴾.

[سُعُر]: جُنُون. لقد زعموا أنّهم إذا اتّبعوا رسولاً بشراً واحداً منهم، فإنَّهم يكونُونَ عندئذٍ في ضلالٍ عن الحقّ والصّوَاب، وجُنونٍ في الفكر.

وأبان الله عزَّ وجلّ في السورة هذه عاقبة تكذيبهم، بأن أَرْسَلَ عليهم صيحةً واحدةً كانت القاضية عليهم جميعاً، بعد أن أَنْذَرَهُمْ وامتحنهم بآية الناقة، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أي: كأكوام الحطب والأعواد اليابسة التي يجمعها من يريد إقامة حظيرةٍ لدوابّه.

- **ثانياً:**

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) وعرض فيها لقطاتٍ من قصّةِ خلق الإنسان، وقصّةِ الرّسالات الرّبّانيّة للبشر، ولقطاتٍ من قِصَص المرسَلين مع أقوامهم، وضِمْنَ ما عَرَض من قصّة نوحٍ مع قومه، أبانَ ما ذكره نوحٌ عليه السلام لهم حول تَعَجُّبِهِمْ من أَنْ يأتِيَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبّهم مُنَزّلٌ على رجُلٍ منهم لِيُنْذِرَهُمْ، فقال تعالى فيها حِكَايَةً لمقالةِ نوحٍ لقومه:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وكان عرض هذا إبّان نزول سورة (الأعراف) إنذاراً لكفّار العرب، الذين كان واقعُهم الرافض لاتّباع الرسول هو واقع المتعجّب من أن يأتيهم رجلٌ منهم رسولاً من ربّهم ليُنذرهم، ويُبَلّغهم رسالات ربّه، لذلك جاء بعد هذه الآية قوله عزّ وجلّ في السورة:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وَضِمْنَ ما عَرَضَ اللَّهُ فِيها من قِصَّة هودٍ عليه السَّلامُ مع قومه عاد، أبانَ ما ذَكَرَهُ هُودٌ عليه السلام لهم حول تعجُّبِهم من أن يأتيهم ذِكْرٌ مِنْ رَبّهم منزّل على رجل منهم، فقال عزَّ وجلّ فيها حِكَايَةً لِمقالة هود لقومه:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وعرض سبحانه بعد هذه الآية طائفةً من جَدَلِيَّاتِهم وما أَجَابهم به هودٌ عليه السلام، وأبان أنهم كذّبوا فكانت عاقبتُهم إهلاكاً شاملاً.

- **ثالثاً:**

ويظهر أنّه قد بدأت تُساوِرُ كفارَ قريش فكرةُ اعتراضهم على بشرية الرسول محمد ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بياناً حَوْلَ قصّة أصحاب القرية التي بعث الله إليها رُسُلاً ثلاثاً (وهي أنطاكيّة كما ذكر المفسرون) فرفضوا الإِيمان بهم، وكذبوهم، وتعلَّلوا بأنّهم بشرٌ مثْلُهم، فقال الله عزَّ وجلّ مُوَجِّهاً رسولَه أن يضرب لَهُمْ مثلاً بِهِمْ:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

فأصرُّوا على موقفهم، وكذّبوا رسُلَ رَبّهم، وقتلوا ناصِحَهم من قومهم، فأهلَكَهُمُ الله بصيحة واحدة فإذا هم خامدون.

- **رابعاً:**

ثم صَرّح كفّار قريش باعتراضهم على بشريّة الرسول محمّد ﷺ، وجعلوا يردّدون مقالاتهم حول الاعتراض على بشريته، واعتراضهم على

أنه مثل سائر البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وهذا يتنافى مع كمال الرسول الذي يتلقّىٰ الوحي عن الله، ويؤمر بتبليغ رسالاته للناس.

فأنزل الله عزَّ وجلّ في (سورة الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بيانَ مقالتهم في ذلك بقوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨)﴾.

فرّد الله عليهم في هذه السّورة بأن جميع رُسل الله السابقين قد كانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

- **خامساً:**

وأصرَّ كُفَّار العرب على اعتراضهم هذا، ولم يُقْنِعْهُمْ أنّ جميع رُسُل الله في تاريخ البشريّة قد كانوا بشراً، فأنزل الله عزَّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بياناً إضافيّاً حول اعتراضِ ثمود قوم النبيّ صالح عليه السلاوم على بشريته. وبياناً ابتدائيّاً حول اعتراضِ قوم الرسول شُعَيب عليه السلام على بشريّته.

- أمّا البيان الإِضافي حول مقالة قوم صالح فقد جاء في قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤)﴾.

فطلبوا الآية، وأعطاهم الله ما سألوا، فأصَرُّوا على تكذيبهم، وعقَروا الناقة التي طَلبوها آية على صدق رسالته، فأهلكهم الله.

- وأمّا البيانُ الابْتدائيُّ حَوْلَ مقالة قوم شعيب في اعتراضهم على بشريته، فقد جاء في قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧)﴾.

﴿كِسَفٗا﴾: أي: قطعاً.

وأصَرُّوا على تكذيبهم، فأهلكهم الله بعذابٍ كما طَلَبُوا مُتَحَدِّينَ رسولَهُمْ شعيباً.

● **سادساً:**

وزاد كفّار قريشٍ من تَعَنُّتِهم، وبالَغُوا في اقتراحاتهم، وتصوّروا أنّ عدم تحقيق ما اقترحوا يُخَوِّلُهم أن يَتَحدَّوْا الرَّسُول بإنزال العذاب الذي أنذرهم به، وأصَرُّوا على اعتراضهم على بشريّته، بإنزال الملائكة، فأنزل الله عزَّ وجلّ قوله في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا (٨٩) وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا (٩٠) أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا (٩١) أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا (٩٣) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا (٩٤) قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا (٩٥) قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا (٩٦)﴾.

بيتٌ من زُخُرف: أي: بيت من ذهب، أو مُزَيَّنٌ مزخرف بالذهب.

وجاء الرّد على المطالبة برسولٍ ملك في هذا النصّ، ببيان أنّ الحكمة تقتضي إرسال رسول بشر لِمُرْسَلٍ إليهم بشر، يحمل طبائعهم وصفاتهم، ولو كان في الأرض ملائكةٌ مكلّفون يمشون في الأرض مطمئنّين كما

يمشي البشر، ومُمْتَحَنُونَ كامتحان البشر، لأَنْزَلَ الله إليهم من نوعهم رسولاً مَلَكاً يُبَلِّغهم رسالات ربّهم إليهم.

- **سابعاً:**

وفي أوّل سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) تحدّث الله عزَّ وجلّ عن موقف كفّار العرب إذْ تَعَجَّبُوا من أن يوحي الله إلى رجُلٍ منهم منذراً مبشّراً، فقال الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

- **ثامناً:**

ويظهر أنّ الرسول محمّداً ﷺ ضاق صدره عن موقف قومه المتعنّت، معلّقين الإيمان به على إلقاء كنزٍ إليه أَوْ مَجيء مَلَكٍ معه، ورُبَّما خطر له الاستجابةُ لطلبهم لعلّهم يؤمنون، فينجيهم الله من العذاب، فأنزل الله عزَّ وجلّ على رسوله قوله في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾.

وعرض فيها عزَّ وجلّ قصة تكذيبِ قومِ نوحٍ رَسُولَهم مُتَعلِّلين ببشريته، حتى انتهىٰ الأمر بهم إلى ما انتهىٰ إليه من إهلاكٍ شامل بالطوفان، وفي هذا العرضِ تحذيرٌ ضمنيٌّ لكفار قريش، فليتعظوا بما جرى للذين من قبلهم، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ

مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

- **تاسعاً:**

وَتابع مشركو قريش ترديد المطالبة بإنزال مَلَكٍ، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) قوله:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي: لو أنزل الله ملكاً كما طَلَبُوا فأصَرُّوا على تكذيبهم وكُفْرِهِمْ لأهلكهم الله دون إنظار كما هي سُنّته عزَّ وجلّ في الأمم، ولو أنزل الله ملكاً لأنزله على صورة إنسان رجل ليتسنّىٰ لهم مشاهدته، بحسب استعدادهم البشري، وعندئذٍ يلتبس عليهم الأمر، فلا يعرفون هل هو مَلَكٌ حقيقة، أو رجلٌ بشرٌ من الناس، إذ يَخْلطون بين الْمَلَكِ الذي هو على صورة رجل، وبين أيّ رجل آخر من الناس، وهذا يتمّ ضمن أفعال الله بحسب قوانينه القدريّة، إذْ تَلْتَبسُ الصور المتشابهة على أبصار الناظرين، وعنئذٍ يقولون: هذَا أيضاً بشر من البشر وليس ملكاً، فَيُكَذِّبون، فَيَسْتَحقُّون الإِهْلَاكَ.

- **عاشراً:**

ثُمَّ علَّمَ اللَّهُ رسوله أن يُعلن لقومه أنه ليس إلّا بشراً مثلهم في صفاته التكوينيّة، لكنّ الله اصطفاه بالوحي إليه، أي: ولله أن يصطفي من يشاء من عباده وهو العليم الحكيم، فقال الله عزَّ وجلّ له في سورة (فُصِّلَتْ/٤١ مصحف/٦١ نزول):

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾.

وعلَّمَهُ فيها أن يُنْذِرَهم بصاعقةٍ مثلِ صاعقة عادٍ وثمود إنْ أعرضوا كما فعل عادٌ وثمود مع رسُلِ ربّهم، وقالُوا: لو شاء رَبُّنا لأنْزَلَ مَلائكةً، فقال الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وعرض الله بعد ذلك موجز إهلاكهم، ليتعظ كفّار قريش ومن وراءهم.

- **حادي عشر:**

ثمّ أبان الله عزَّ وجلّ أنّ التعلُّل ببشريّة الرّسول ظاهرة من ظواهر كلّ المكذّبين لرسلهم من الأمم السابقة، فأنزل الله عزَّ وجلّ قوله في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) خطاباً للكافرين:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ كلّ المكذّبين من أقوام الرُّسل السابقين قد تعلّلوا بكون الرّسُلِ بشراً، ذريعةً لتكذِيبهم لهم، ورفض إيمانهم بهم.

فكان رَدُّ الرُّسُل على مقولة أقوامهم المعترضة على بشَرِيَّةِ الرسول

تتلخَّصُ بالإقرار بأنَّهم بَشَرٌ من البشر، مع بيان أنَّ البشريَّة لَا تتنافَى مع الرسالة، إذ الرسالةُ مِنَّةٌ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ يَمُنُّ بها عَلَىٰ من يشاء من عباده.

فإذا أراد اللَّهُ العليم القديرُ على ما يشاء أنْ يختَصَّ أحداً من خَلْقِه فيصطفيه للنُبوَّة والرسَالة، فَهَلْ يَعْجزُ سُبحْانَهُ عن ذلك؟! وهَلْ مِنْ حجْرٍ علَيْهِ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطانُه؟!

الجواب العقليُّ والواقِعِيّ: لَا، قطعاً.

دل على هذا الرَّدِ المنطْقِي قولُ اللَّهِ تعَالَى في النصّ:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ... ⑪﴾.

- **ثاني عشر:**

وأثار كُفَّارُ قريش قضيّةَ بشريَّة محمّد ﷺ مشْعِرين بأنَّها تتنافَى مع النبوّة والرّسالة، علىٰ شكْلِ همَسَاتٍ، دعائيَّةٍ لِصَدِّ الَّذِينَ آمَنُوا به عنه، وتحريضهم على الرِّدّة عن الإسلام، فأنزل الله عزّ وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ③﴾.

وردَّ اللَّهُ عزّ وجلَّ عليهم فيها وأنْذَرهم بسُوء العاقبة فقال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⑦ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ⑧ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ⑨﴾.

فالرُّسُل للبشر هم جميعاً رِجالٌ من البشر، خصَّهُمُ الله بالنُّبوةِ فأوحىٰ إليهم، ثم بَعَثَهُمْ رُسلاً.

- **ثالث عشر:**

ثمَّ أبان الله عزَّ وجلّ في عرض لقطات من قصّة نوحٍ مع قومه تعلّل ملأ قومه لرفض الإِيمان به بأنه بشَرٌ مثلهم، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

فأبان هذا النصّ أنّ كبراء قوم نوح قد حاولوا إقناع جماهيرهم لصدّهم عن الإِيمان به واتّباعه بأنّهُ بَشَرٌ مِثْلُهم، وبأنَّ البشر لا يصلحون أن يكونوا رُسُلاً يُرْسِلُهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلّ، زاعمين وموهمين بأنّ البشريّة، تَمْنَعُ من الاتصال بربّ العالمين، لتَلَقِّي رِسَالةٍ منه، وتمنعُ من الاتصال برسول ربّ العالمين من الملائكة لتلقّي رسالة الله عنه.

وأشاروا إلى نوحٍ عليه السلام في مقولتهم باسم الإِشارة «هذا» إشعاراً بأنّه رجلٌ لا يستحقُّ أنْ يُنْظر إليه باحترام وإكبار، وقصدوا تحقيره بحضوره أمام جماهيرهم ليصرفوهم عن احترامه كليّاً، وليثيروا نفوس صغار العقول منهم لازدرائه، والسخرية منه، باعتباره بشراً مثلهم، ويدّعي الاتصال بالله، وأنّه رسول مبعوث من قِبَلِه، ومثل هذا الادّعاء لا يدّعيه إلّا من بعقله اختلالٌ ما، أو نوع من أنواع الجنون.

وأبان الله عزَّ وجلّ في سورة (المؤمنون) نفسها أنّ عاداً قوم الرسول هود عليه السلام قالوا مثل مقالة قوم نوح عليه السلام، فقال الله عزَّ وجلّ فيها عطفاً على قصة قوم نوح:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

فكان موقفهم من رسولهم مثل موقف قوم نوح من رسولهم، والظاهر من القرن الآخرين الذين جاءوا بعد قوم نوح هم عادٌ قوم هود.

ثم عرض الله عزَّ وجلّ في سورة (المؤمنون) نفسها لقطةً من قصة إرْسَال مُوسَىٰ وهارون إلى فرعون ومَلَئِهِ، فكان موقفهم من بشريّة الرّسولين مثل موقف قوم نوح وقوم هود، فقال الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

فاستكبَرُوا واسْتنكفُوا عن الإيمان والإسلام لبشرين مثلهم من البشر، تعلُّلاً بِبَشَرِيتهما.

- **رابع عشر:**

وبعد النّصوص السابقة التي نزلت في المرحلة المكيّة، أنزل الله عزَّ وجلّ في المرحلة المدنيّة ردّاً على طائفةٍ من اليهود الذين قالُوا: ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيءٍ، إغراءً للعرب بأن يُفْتَنُوا بهذه المقالة، أنزلَ قوله تعالى في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) المكيّة إلّا أنّ الآية التالية منها مدنية فيما هو الراجح عند علماء علوم القرآن:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

وقَدْ يبدو عجيباً أن يقول بعض اليهود: ما أنزل الله على بشرٍ من

شيء، وهم يؤمنون بمُوسَىٰ، وبالكتاب الذي أنزله الله عليه، لكِنْ إذا علمنا أنّ من خطط اليهود أن يتظاهر بعضُهم أحياناً بالكفر بدينهم، أوْ بعض عناصره الأساسيّة لتضِليل الناس، وجعلهم يكفرون بما يؤمنون به من دين الله، سقط العجب، ولذلك وصفهم الله بوصفين:

الوصف الأول: أنَّهم يخوضون في مسائل الدين، كخوض من يخوض في الماء ليُعَكِّر صَفْوَهُ، فيُخْفِيَ الحقيقة بما يُثِير من مُعَكِّرات من القاع.

الوصف الثاني: أنَّهم يَلْعَبُونَ، أي: يَلْعَبُون بإصْدارِ الأقوال جُزَافاً للتضليل وتَشويه الحقائق.

وهذه الحركات هي من مكر اليهود المعروفة قديماً وحديثاً فيهم، وهم الذين يجعلون التوراة قراطيس يُبْدُون بعضها ويُخْفُون كثيراً منها كما جاء في الآية.

وجاراهم الله بحسب ظاهر قولهم فقال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . . .﴾.

أي: إِنَّهم اتَّهَمُوا اللَّهَ عزَّ وجلّ بالعجز عن أن يكلّم بشراً، أو يوحيَ إليه، أو يُنَزِّلَ عليه كتاباً، وهو القادر على ما يريد سبحانه.

أليس خالِقُ البشر قادراً على أن يُوحِيَ إليهم، ويُنَزِّلَ عليهم ما يشاء؟!

* * *

البيان القرآني الكاشف لفساد الاعتراض على بشريّة الرسول ومنافاة طلب إنزال الملائكة للحكمة

من خلال النصوص القرآنية التي اشتملت على بيان اعتراض المكذبين لرسُلِهم على بشريّة الرسولِ، والإقناعات الكاشفاتِ فسادَ هذا الاعتراض، والكاشفاتِ أنّ طَلَبَهُمْ إنزالَ ملائكة يكونون رسُلاً من الله بدل

إرسال رسُلٍ بشر أمرٌ منافٍ للحكمة نستطيعُ استخلاصَ الرُّدُودِ المنطقيّة العقليّةِ التالية:

(١) إنَّ الاعتراض على بشريّة الرَّسُولِ لَا يَسْتَنِدُ إلَّا إلَىٰ مُجَرَّدِ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَابِ والتعجُّب، وهذا ليس بدليل كما هو ظاهر.

فالسبيل الوحيد للإقناع هُو إِزَالَةِ تَوَهُّمِ أَنَّ البشرِيَّة تَتَنَافَىٰ مع الاصْطِفاءِ بالنبوّةِ وتَلَقِّي الوحي عن الله.

وإزالةُ هذا التَّوهُّم يكُونُ بانْتِزاع الاعْترافِ بعدم وجود مانعٍ عَقْلِيٍّ من ذلك، عن طَرِيقِ طَرْحِ الْأَسْئِلَةِ التّالية:

السؤال الأول: هلْ يُوجَد مانعٌ عقلي من أنْ يُوحِي الله الرّبُّ الخالق البارئ، بكلامٍ ما، أَوْ أَمْرٍ ما، لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِه، أو لما يشاءُ من خلقه، وهو الخالق البارئ المصوّر؟!

السؤال الثاني: هَلْ يعجز الرّبّ الخالقُ البارئ المصور عن أن يتّصل بعباده، أو بخلْقٍ من خلقه، فيوحي إليهم، ويأمُرَهُمْ، ويَنْهَاهُمْ، ويكلّفهم، ويُبَلِّغَهُمْ شَرِيعَتَهُ وَمِنْهَاجَهُ؟!

السؤال الثالث: هَلْ يُوجَدُ مَانعٌ عقليٌّ أَوْ حَجْرٌ عَلَىٰ اللَّهِ في أنْ يَمُنَّ علىٰ من يَشَاءُ من عباده بالاصطفاء بالنُّبُوّة، والاصْطفاءِ بالرسالة؟!

السؤال الرابع: هَلْ يَتَنَافَىٰ مع مُقْتضياتِ الحكمة أَنْ يُرْسِلَ الله إلى البشر رَسُولاً من البشر أنفسهم، فِيهِ جَميعُ خَصَائِصِ البشريّةِ، ليكون أُسْوَةً حَسَنَةً لهم، وحُجَّةً عَلَيْهِمْ، فِي إيمانِهِ واستِقَامَتِهِ علىٰ منهج الله؟!

إنّ الجواب الذي لا مناص منه لأولي الألباب عن كلِّ واحدٍ من هذه الأسئلة: هو النفي حتماً.

وبذلك تَنْجَلِي الشبهةُ ويَسْقُط التوهُّم.

واختصر القرآن ذلِكَ في بياناته، فذكر لنا حكاية مقالات الرّسُل لأقوامهم، جواباً على اعتراضهم على بشريّتهم، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ. . . (١١)﴾.

وعلّم الله عزَّ وجلّ رسوله محمّداً ﷺ أن يحتجّ بذلك علىٰ قَوْمِهِ في أَوْجَزِ عبارة، فقال تعالى خطاباً له في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ. . . (٦)﴾.

أي: فَهَلْ في هذا مانعٌ عَقْلِيٌّ؟! أو منافاةٌ لِحِكْمَةٍ؟! وهَلْ يُوجَدُ حَجْرٌ علَىٰ اللَّهِ في أنْ يُوحيَ إلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده؟! وهَلْ يَعْجِزُ اللَّهُ عن هذا؟!

وأبَانَ الله عزَّ وجلّ في آية مدنية التنزيل منضمة إلى سورة مكيّة، للمناسبة الفكريّة، هي سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) المكيّة التنزيل في معظمها، أنّ الّذين قالوا: «ما أَنْزلَ اللَّهُ على بَشَرٍ مِنْ شيء» ما قَدَروا الله حق قَدْرِه.

أي: اتَّهَمُوهُ سُبْحانه بالعجز عن ذلك، وهو خالق كلّ شيء، والملائكةُ هم خلْقٌ من خلقه، خلقهم كما خلق البشر، فقال تعالى فيها:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . . .﴾. [من الآية: ٩١].

وكذلك قال عزَّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)﴾.

* * *

(١) وَأمّا مَطْلَبُ أَنْ يَكُونَ الرُّسُل إلىٰ الْبَشَرِ مِنَ الْمَلائِكَةِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ مع الرَّسُولِ مِنَ الْبَشَرِ مَلَكٌ أَوْ أَكْثَرُ يَشْهَدُونَ لَهُ بِصِحّةِ الرِّسَالَة، فقد جاء في القرآن بيانُ مُنافاتِهِ للحكمة من عِدَّةِ وُجُوهٍ، مَعَ بَيَانه أَنّه لَا يُفِيدُهُمْ بِشَيْءٍ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَخْلِصَ من البيانات القرآنِيَّة ما يلي:

- **أوّلاً:**

أنّ الحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس المبعوث إليهم، حتّىٰ يكونَ أُسْوَةً لَهُمْ، وحُجَّةً عَلَيْهِمْ.

وقَدْ عَلَّمَ الله عزَّ وجلّ رسُوله محمّداً ﷺ تقديم هذا البيان بقوله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

- **ثانياً:**

أنّ الملائكة هم مخلوقاتٌ من عالم الغيب بالنسبة إلى البشر، وإنزالهم حتّى يراهم الناس على صفاتهم الّتي هم عليها يُنافي حكْمَةَ امتحان الناس بالإيمان بالغيب، وذلك لأنّ عالَم الغيب متى انكشف كلُّه أو بعضه للنّاس سقطت ظروف الامتحان في الحياة الدنيا، وتحلّ حينئذٍ ظروف الجزاء، وعندئذٍ يُنْزِلُ الله عقابه بالمكذّبين لا محالة، فيهلكهم، دلّ علىٰ هذا قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

وَيَقُولُون حِجْراً مَحْجُوراً: أي: يستعيذون من رؤيتهم خَوْفاً منهم، فيقولون هذا القول، على عادتهم إِذَا ذُعِرُوا من شيءٍ قالوا: حِجْراً مَحْجُوراً، أي: حراماً مُحَرَّماً، ولعلّ أصل العبارة يفيد طلب مكانٍ خاصٍّ مَحْمِيٍّ من الطّوارئ والكوارثِ.

ودلّت النصوص على أنهم يَرَوْنَ مَلَائِكَةَ الْعَذابِ عِنْدَ الموت، ويوم الدين بعد البعث للحساب والجزاء.

ففي كلتا الحالَتَيْن يَخافون من رؤية هؤلاء الملائكة، ويستعيذون منهم بالعبارات التي كانوا يألفونها في استعاذاتهم، والمتحدَّثُ عنهم في النصّ كانوا عند الخوف يقولون: حِجْراً مَحْجُوراً.

أمّا رؤية الناس الملائكة عند الموت فقد وردت فيه عدّة روايات منها ما هو ثابت في الصحيح.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أنّ النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه».

فقالت عائشة، أو بعض أزواجه: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ.

فقال: «لَيْسَ ذَاكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ مِنَ اللَّهِ وَكَرَامَةٍ فَلَيْسَ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَه. وإِنَّ الكافِرَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه».

وروى البخاريّ عن ابْنِ عُمَر قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا ماتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيّاً: إِمّا النّار، وإِمَّا الْجَنَّة، فَيُقَالُ: هٰذا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ تُبْعَثَ إِلَيْه».

وروى ابن ماجه عن النبي ﷺ قال:

«تَحْضُرُ الْمَلَائِكَةُ: فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحاً قالوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطّيّب. اُخْرجِي حَمِيدَةً وأَبْشِري بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ رَاضٍ غَيرِ غَضبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هٰذا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلانٍ. فَيُقَالُ: مَرْحَباً بالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ. اُدْخُلِي حَمِيدَةً، وأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ تنتَهِيَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيها اللَّهُ تَعَالى.

فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ، قالوا: اخْرُجي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخبيثَةُ كَانَتْ في الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجي ذَمِيمَةً، وأَبْشِرِي بِجَحِيم وَغَسَّاقٍ، وآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاج، فَلَا يَزَالَ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ، حَتَّىٰ تَخْرُجَ، ثُمّ يُعْرجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فيقالُ: مَنْ هذا؟ فيقالُ: فلان. فَيُقَالُ: لَا مَرْحَباً بالنَّفْسِ الخبيثة، كانت في الْجَسَدِ الخبيث. ارْجِعِي ذَمِيمة، فإنَّها لَا تُفْتَحُ لَكِ أبوابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَىٰ الْقَبْرِ».

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ الظالِمِينَ إذَا كانُوا في غَمَرَاتِ الموت، كانت ملائكة العذاب عندهم، باسطين أيديهم، يقولون لهم: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ غَيْرَ الْحَقّ، وكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأَنْفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

أمَّا رُؤيَتُهُمُ الملائكة يومَ الدينِ فمن القضايا الظاهرة التي تدلُّ عليها النُّصوص من القرآن والسنة.

ودَلَّ على أنّ إنْزَال الْمَلَائكةِ لِتَبليغ الناس رسالات الله بدل الرُّسل من البشر، تنتهي معه ظروف الامتحان، قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الْأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

أي: لَقُضِي أَمْرُ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، ولا يَبْقَىٰ مُقْتَضٍ لاسْتِمرار وجودهم فيها، ثُمَّ لَا يُؤَخَّرُونَ، بل تَنْزِلُ بهم نوازل الإِهلاك.

●ثالثاً:

لو أنزل الله رسولاً ملَكاً على غير صفتِهِ الملكيّة، لكان المناسب أن يأتيهم على صورة رجل من الناس، وعندئذٍ يلتبس عليهم الأمر، فلا يعرفون الفرق بين رجلٍ من الناس وبين هذا الملك الذي يأتيهم على صورة رجلٍ من الناس، ولعادوا لمثل اعتراضهم الأول، ولو أنّه صار يظهر فجأةً ويختفي فجأةً من مكان ظهوره، لالتبس عليهم أمره، هل هو جنيٌّ أو ملك، وربّما زعموه نوعاً من السحر، وهكذا تلتبس عليهم الأمور، دلّ على هذا قولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي: ولو جعلناه ملكاً في الحقيقة، وجسداً يراه الناس في الصورة،

لجعلناه على صورة رجُل، فاقتضىٰ قانون الخلق في الحياة، أن يَلْتَبس الأمْرُ عليهم، فلا يَعْرِفُوا هلْ هو مَلَكٌ أو بشر أو جنيّ؟

فتعود المشكلة، ويكون إنزال رَسُولِ مَلَكٍ غيرَ محقّق لما يطلبون.

وبما أنّ سُنَن الله عزَّ وجلّ في الوجود الكوني هي من خلق الله، قال تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ معنى اللَّبْس: الخلْطُ والاشتباه.

أي: ولمّا كان إرسال ملَكٍ بصورة بشر، يجعَلُهم يَلْبِسُون، أي: يخلطون في رؤيتهم الملك بالبشر، أو غير ذلك، فسَيَقُولون مرّة ثانية: هذا بشر، وليس بملك، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: ما يخلطون.

فمعنى الجملة: ولو أنزلنا الرسول الملك بصورة رجل بَشرٍ لَلَبَسُوا الْأَمْرَ، أي: خلطوه بين الملك والبشر، وهذا خاضع لنظام الرّب وقانونه في الخلق، وهذا من فعل الله وخلقه بالجملة.

نظيره أن نقول: من أغمضَ عينيه حجب الله عنه الرؤيَة، ومَنْ خَلَطَ الْأَشْيَاءَ المتشابِهةَ لَبَسَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ ضِمْنَ قَانُونِه في الْخَلْق.

* * *

(١٨)

الملحق الرابع

امتنان الله على العباد بالأنعام في نُصوص القرآن

بمناسبَةِ امتنان الله على العباد بالأنعام التي خَلَقَها لَهُمْ، وإنكارِه في سورة (يسٓ) على الكافِرين، وَتَعْجِيبه مِنْ عَدَمِ رُؤيَتِهِمْ لآية الله في الأنعام، وتعجيبه مِنْ عَدَم شُكْرِهم لِرَبّهم بالإيمان، والإسلام، والطاعة، والعبادة على ما يَرْضَىٰ، وأنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شيئاً، لَا في رُبوبيَّته وَلَا في إلَٰهيَّتِهِ.

رأيت أنّ من الخير استعراضَ مَا جاء في القرآن كلّه بشأْنِ آيات الله في الأنعام، والتّنْبيه علىٰ نِعْمَةِ الله على الناس بها، مع مقدارٍ ما من التدبُّر لهذه النصوص، وهي أحد عشر نصاً، وفيما يلي بيانها:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (يسٓ/٣٦ مصحف/٤١ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

سبق تدبّر هذا النصّ خلال تدبّر السّورة، وأُوجزُ هُنَا البيانَ، مكتفياً بذكر بَعْضِ ما اشتمل عليه النَّصُّ من دَلَالَاتٍ:

أي: أولم يَرَوْا رُؤية بَصَرِيَّةً ورُؤيَةً فِكريَّةً واضِحةً، أنَّا أبْدَعْنَا وَصَوَّرْنَا وأوْجَدْنَا على غير مثالٍ سبَقَ لأجلهم ممّا عَمِلَتْ أيدينا أنْعَاماً فَهُمْ لها على وجْهِ الخُصُوصِ مالِكُونَ مِلْكاً مُتمكّناً مِمّا يَرُومون بها، بحَسَب صِفَاتها الّتي فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْها، إذْ سخَّرَهَا الله لهم، وذلّلها لطاعَتِهم على أفْضَلِ وجْهٍ، وأخْضَعَها لهم، وجَعَلَها مطيعةً منقادةً لهم، فمِنْها مَرْكُوبٌ لَهُم، ومن لُحومها يأكُلُون، ومن ألْبَانِها يَشْرَبُون، ولهم فيها منافع كثيرة مختلفة الأنواعِ والأصناف.

ألَا يتفكّرُون في هذه النِّعَم العظيمة الّتي أنْعَم الله بها عليهم، فهم بسبَبَ عدَمِ تفكُّرِهم لَا يَشْكُرُونَ رَبَّهم عليها بالإيمان والإسلام والطاعَة.

وهو استفهامٌ إنكاريٌّ يُنْكِرُ الله بِهِ على الكافِرين بنِعَمِهِ عليهم، وتَعْجِيبٌ من أَمْرِهم، إذْ لَا تتحرَّكُ نفوسُهُمْ وقُلُوبهم لتأدية واجب شكر اللَّهِ على نِعَمِه الكثيرة عليهم، ومنها الأنعام.

الأنعام: هي الأموال الراعية، الإبل والبقر والغنم.

النّص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكايةً لقول هود عليه السلام لقومه، يَدْعُو إلى أن يتَّقُوا الله الذي أمَدَّهُمْ بِنِعَمٍ كثيرة يَعْلَمُونها، ومنها إمدادهم بنِعْمَةِ الأنعام:

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

- قرأ ابن كثير، وابنُ ذَكوان، وشُعْبَة، وحَمْزَة، والكِسَائي: **[وَعِيُونَ]** بكسر العين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضمّ العين.

كسر عين «العيون» وضمها وجهان عربيان لنُطْقِ الكلمة، فالقراءتان متكافئتان.

﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: أعانكم وأغاثكم ومنَحكُمْ عطاءً مُتَتَابِعَ التجدّد.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أنذر هودُ عليه السلام قومه إنذاراً مَقْرُوناً بالشفقة عليهم، بعذاب يوْمٍ عظيم يكون فيه هَلَاكُهُمُ الشّاملُ في الدنيا، وهو ما نزل بهم بَعْدَ ذلك. وأَنْذَرَهم بعذَابِ يَوْمٍ عظيم، وهو العذابُ الّذِي سَوْفَ يلاقونه يوم الدين على كفرهم، في دار العذاب النار.

فالعبارَة تُطْلِقُ سَهْمَي إنذارٍ معاً، إنذارٍ معجّل في الحياة الدنيا، وإنْذارٍ مُؤَجّل إلى يوم الدين.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) ممتنًّا على عباده بما في الأنعام من نِعَمٍ أنعم بِها عليهم، بَعْدَ أن امْتَنَّ عليهم بالجنَّاتِ والثمرات:

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

فجاء في هذا النصّ الامتنان بالأنعام، والتحذيرُ الشديد، من الافتراء على الله في أحكامٍ دينيَّة تتعلَّقُ بها، كتَحْرِيم مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ عزّ وجلّ منها.

فقد كان للمشركين في الجاهلية مفتريَات، إذْ كانوا يُحَرِّمُون بعْضَ الأنعام، ويَجْعلُونَ قِسماً مِنْهَا لآلِهَتهم الّتي جعَلُوها شُركاء لِلَّهِ، ويَجْعلُونَ بَعْضَ مَا فِي بُطُونِ الأنْعَام حَلالاً لِذُكُورهم ومُحَرَّماً على أَزْواجِهِم، ونَحْوِ ذلِكَ من أحكامٍ دينيَّةٍ كانُوا يَفْتَرُونَها على اللَّهِ عزّ وجل.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾:

الْحَمولَةُ: مَا أَطَاقَ الْعَمَلَ والْحَمْلَ مِنَ الأَنْعَام.

الْفَرْشُ: صِغَارُ الأَنْعَام الّتِي لَا تَسْتَطِيعُ الْحَمْلَ، أَوْ مَا يُتَّخذُ مِنَ الْأَنْعَامِ من فَرْشٍ، كَجُلُودِها، وَمَا يُنْسَجُ من أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعارها.

﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: **الضَّأْنُ**: ذَواتُ الصُّوف من الغنم، «**اثنين**»: أي: ذكراً وأنْثَىٰ.

﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾: الْمَعْز: ذَوات الأشعار والأذناب القصار. وهو اسم جنس، وواحد المعزِ «ماعِز» مثل «صَحْب» و«صاحب». «اثْنينِ»: أي: ذكراً وأنثىٰ.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾:

في هٰذه العبارَة تعليمُ تَوْجِيهِ الاستفهامِ الإنكاري، لاستنكار مُفْتريات أهل الجاهليَّة في تَحْريمهم بَعْضَ هذه الأنعام، وجاء في نصِّ قرآني آخر تَفْصِيلُ بَعْضِ مُحَرَّمَاتِ أَهْل الجاهلية من الأنعام، ولسْتُ هُنَا في صَدَدِ شَرْحِ مُفْتَرَياتِهم، بل في عَرْض امتنان الله على العباد بالأنعام.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول) في مَعْرِض بيان بعض آياته في كونه، الدّالّاتِ علىٰ عظيم صفاته، وإتقان صُنْعِهِ في خَلْقِه، وعنايَتِهِ بعِبادِه، وخِطَاباً للنّاس:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾:

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ هي: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضَّأنِ اثْنَيْنِ، ومِنَ المَعْز اثنين.

وَجَاءَ التعبير هُنَا بالإنْزَالِ إشَارَةً إلَىٰ أنَّ كُلَّ عَطَاءَاتِ الله لعباده، هِيَ إنْزَالُ مِنْهُ جلَّ جلالُه، ولو كان قد خَلَقَهَا لهم في الأرض حيْثُ إقَامَتهُمْ، ولَيْسَ المرادُ إنْزالَها لَهُمْ من السَّمَاء، لِأَنَّ الرَّبّ جَلَّ جَلالُه هو الْعَلِيّ

الْأَعلى، وَكلُّ مَا سِوَاه هُو مِنْ دُونه، فَعَطَاءَاتُهُ لِعَبَادِهِ إِنْزَالٌ من لَدُنْهُ لهم.

والْغَرَضُ من الامْتِنَانِ تَوْجِيهُ الْعِبادِ لُشْكر رَبّهم على نعَمِهِ الجليلة عليهم، مع بيان أنّهم لَوْ كَفرُوا وَلَمْ يَشْكُروا فَلَنْ يَضرُّوا الله شيئاً، لأنّه سبحانَه غَنِيٌّ عَنْهُم، وإنّما يَضرُّونَ أنْفُسَهم، ضِمْن قانون الله في ابْتلاء عباده، ومحاسبتهم ومجازاتهم.

ويشير النصّ إلى أنّ الله تعالى لا يُجْبر عباده على كُفْرٍ أو شُكر، وهو لا يَرْضَى لعباده الكفر، ويَرْضَىٰ لهم أنْ يكونوا شاكِرين.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

فجاء في هذا النّصّ بَيَانُ بَعْضِ آيَاتِ الله في كونِهِ الدَّالَّاتِ علىٰ عظيم صفاته، وعِنَايَتِهِ بِخَلْقِهِ، ومنها أَنَّه جلّ جلالُهُ وعظُمَ إنْعامه قد جَعل الأنْعَامَ للنَّاس لِيَرْكَبُوا مِنْهَا مَا يَصْلُحُ للرُّكوب، وهي الجمال، ولِيَأْكُلُوا مِنْ ذَبَائِحها، ولينتفعوا مِنْها في مَنَافِعَ أُخْرَىٰ كثيرة، من أصوافها وأشعارِها وأوبارها وجلودها وغير ذلك.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾: أي: خَلَقَ لِأَجلكُمُ الأنعامَ أيُّها الناس. ففعل ﴿جَعَلَ﴾ مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَىٰ فِعْلِ «خَلَقَ» وقد يَدُلُّ فعل ﴿جَعَلَ﴾ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ بَعْدَ أن أسْكَنَ النَّاسَ في الأرض، وكانَتِ الأنْعَامُ مَخْلُوقَةً فيها قبل ذلك، جَعَلَهَا بالإلهام لبني آدم وبالتسخير الذي فَطَرَهَا عَلَيه صَالِحةً لِمَا جَاءَ تَفْصِيلُهُ مِنْ منافع للناس.

﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾: أي: لِتَركبوا ما يَصْلُحُ للرُّكوب منها، وهي كبارُ الإبل.

﴿. . وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾: أي: ولتأكُلوا ما يَصْلُحُ لِلأكل منْها، وهي لُحَومُها وشحومها بعد ذبحها. قُدِّم المعمول ﴿مِنْهَا﴾ على عامله لمراعاة رؤوس الآيات.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾: أي: منافع أخرى غير الرُّكوب والأكل.

﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾: أي: ولِتُحَمِّلُوا علَىٰ ظُهُور ما يَصْلُحُ للحمل منها أثقالكم، وتبْعَثُوها إلى بلادٍ بعَيدةٍ، فتحقِّقُوا بذلك حَاجَةً تَقْصِدُونَ تحقيقها في صُدُوركم الحاوية لقُلُوبكم، الباعِثَةِ لإراداتِكُمْ، الّتي توجّهُها رَغَبَاتُ نفوسِكُم، كالتجارة والارتحال من بَلَد إلى بلَدٍ.

﴿. . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾: أي: وعلى الإبل منها تُحْمَلُونَ في الْبَرّ، وعلى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ في الْبَحْر.

ويُقَاسُ عليهما مَا تَوَصَّلَ النّاسُ إليه بإلهام الله وتسخيره، من مراكب بَرِّيَّةٍ وَجَوِّيَّة.

﴿. . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾: أي: ويُرِيكُمُ اللَّهُ آياته في الآفَاقِ وَفي أنْفُسِكُم غيْرَ آياتِ الأنعام، وهي آيَاتٌ جليلات دَالَّات عَلَىٰ عظيم صِفاته، وجليل آلائه.

فأيَّ آيات الله الظّاهراتِ لكلّ ذي حِسٍّ وفِكْرٍ تُنْكِرُونَ فَلَا تَعْرِفُون أيُّها الجاحدون مَا أنزلَ عليكم من بَيَانَاتِ كتابه، والمَكَذِّبُون رَسُولَهُ والمكذّبون بما يُبَلِّغُكُمْ عَنِ اللَّهِ من حقٍّ وهُدىٰ.

ونلاحظ أنّه جاء في هذا النّصّ بَعْضَ تفصيل لمنافع الأنْعَام، ولم يكن قد سبَقَ بيانه فيما أنْزِلَ قَبْلَهُ من نُصوص.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾:

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خالِقُ السَّماوات والأرض ضِمْنَ نِظام الفَطْر.

الفَطْرُ: الشَّقّ، وقد دَلَّت النُّصُوصُ على أنّ خَلْقَ اللَّهِ عزّ وجلَّ قائم على نِظَام الْفَطْرِ والْفَلْقِ، وإبْداع المخلوق من عُمْقِ المفطور المفلوق، والحكمة من هذا أنّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ الأقصَىٰ من كلّ شيءٍ هي الْعَدَم، فالله جلَّ جلالُهُ وعظمت قُدْرَته، هو الموجد من العدم.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ﴾: أي: خَلَقَ لَكُمْ مِنْ ذَوَاتِ أنْفُسِكُمْ أزواجاً إناثاً، وخَلَقَ مِن الأنعام أزواجاً إِنَاثاً، ليكون التكاثر عن طريق التناسل.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ﴾: أي: يخلقكم ويُكَثِّرُكُم، ويُكَثِّرُ أنْعَامكم في هذا الْجَعْل، القائم على التناسل.

ويأتي الذّرْءُ بمَعْنَىٰ الْبَثّ، أي: ويخْلُقُ بَاثاً ذراريكم بهذا الْجَعْلِ القائم على الزوجيّة: ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ.

فأبانَتْ هذه الآيَةُ أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ جَعَلَ نِظَامَ خَلْقِ النَّاسِ والأنْعَام قائماً علىٰ الأزواج من الذّكُورِ والإناث، ضِمْنَ سُنَّةِ التناسُل، ولم يَجْعَلْهُ على نِظَامِ الخلْقِ الإفرادي، لِتكون الوحدانيَّةُ الَّتي ليْسَ كَمِثْلِها شيء للَّهِ وحده الذي لا شريك له في ربوبيّته ولا في إلَهيَّته.

وجاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ بيان أنَّ الله تباركَ وتَعالىٰ خَلَقَ مِنْ كُلِّ شيءٍ زَوْجين، وأنّه جَعَل مِنْ كُلّ الثمرات زَوْجَيْنِ اثْنَيْن.

فَدَلّ بهذا على أن جميع المخلُوقات تخضع لنظام الزوجيَّة، ويَبْقَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء.

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾: تأْتي كلمة «مثل» بمعنى «وصْفٍ» وعلىٰ هذا فمعنىٰ العبارة: لَيْسَ مِثْلَ وصْفِه شيءٌ ما، ولا حاجة بهذا إلَى تأويلات متكلَّفات.

النصّ السّابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخْرُف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾.

﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾: في هذه العبارة إشارة إلى ما سَبَقَ إنْزَالُه في سورة (يسٓ) وهو قول الله تعالى فيها:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٦﴾.

وقد سبَقَ تَدبُّر هذه الآيَةِ في موضعها من السُّورَةِ بما فيه غُنْيَةٌ عن الإعادة.

﴿. . وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢﴾: أُعِيدَ التذكيرُ بهاتَيْن النِّعمتين من نِعَم الله على الناس، تمهيداً للتَّوْجيه لذكر نِعْمَةِ الرّب عند رُكوب الفُلْكِ والإبلِ، وسائِرِ المراكبِ الّتي أنْعَمَ الله بها على عباده، خَلْقاً مَباشراً، أو إلْهاماً وَتَسْخِيراً، وَلتَعْلِيم عِبَارَةِ الذِّكْر الخاصّ بهٰذِهِ المناسَبَة.

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾: يقال لغة: اسْتَوىٰ علىٰ كذا، أي: اعتَدَلَ واسْتَقَام فَوْقَه.

﴿. . وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ⑬﴾: أي: تَنَزَّهَ الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ الّذِي سَخَّرَ لنا هذا المركوب، وَمَا كُنّا لَهُ مُطِيقِينَ لَوْلَا أنْ سَخَّرَهُ اللَّهُ لنَا.

يُقَال لغة: أَقْرَنَ لِلشَّيْءِ، أي: أطاقَهُ وَقَوِي عَلَيْه.

وهذا ممّا جاء في هذا النصّ زائداً على ما جاء في النصوص السابقة له.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجل في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑧﴾:

فَأضاف هذا النَّصُّ بيانَ أنَّ مِنْ مَنَافِعِ الأَنْعَامِ للناسِ ما فيها من دِفْءٍ لَهُمْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ لَذَعَاتِ البَرْدِ وَأضراره، ومَا فيها مِنْ جَمَالٍ يَسْتَمْتِعُون به حِينَ يُرِيحُونَ وَحِينَ يَسْرَحُون.

﴿تُرِيحُونَ﴾: أي: تَسْتَرِيحُونَ من تَعَبِ الرَّعْي، وحين تَدْخُلونَ في الرَّواح، وهو اسم للوقت من زوال الشمس إلى اللَّيل، ويقابلُهُ الصّباح، ووقت الرواحُ يكونُ وقْتَ رَاحةٍ للرُّعاة عادة.

﴿تَسْرَحُونَ﴾: أي: تَرْعَوْنَ مَاشِيَتَكُمْ، وهٰذا يكونُ في الصَّباح عادة، يُقَالُ لُغةً: سَرَحَ يَسْرَحُ سَرْحاً وسُرُوحاً. أي: خَرَجَ بالْغَدَاة.

وأضَاف هٰذا النّصُّ أيضاً التَّنْبِيهَ علَىٰ نِعْمَةِ اللَّهِ على الناسِ بالْخَيْلِ والبغال والحمير، لِيَرْكَبُوها في مصالحهم، مع ما فيها من زينَةٍ لهم، والزِّينَةُ من الجمَالِ الَّذِي تَسْتَمتِع به النفوس.

وأضاف هذا النَّصُّ أيضاً أنّ الله سيَخْلُقُ للناس مستقبلاً مَا لَا يَعْلَمُونَ قبل أن يخلُقَهُ لهم، ومِمّا تحقَّقَ خَلْقُه إلْهاماً وتَسْخِيراً مَراكب البَرّ والجوّ المختلفة، والغوّاصَاتُ في البحر.

﴿لَمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾:

- قَرَأَ أبو جعفر: [**بِشَقِّ ٱلْأَنفُسِ**] بفتح الشين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ بِكَسْرِ الشّين.

شِقُّ الأَنْفُسِ، وشَقُّ الأَنْفُسِ: مَشَقَّتُها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: أي ومن رأفته ورحمته بكم أنْ سخّر لكم هٰذهِ المسخّرات، **رؤوف** صيغة مبالغة لرائف: والرأفة أشد الرحمة.

النصّ التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) أيضاً خطاباً للنّاس:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصُّ على النُّصوص السَّابقة بيان آيَةٍ من آيات اللّٰهِ في خَلْقِه، وهي إخْرَاجُ اللَّبَن من بُطُونِ الأنْعَام خالصاً سائِغاً للشّارِبين، مِنْ بين فَرْثٍ وَدَمٍ.

الفَرْث: بقايا الطَّعَام في الكَرِش.

الأنعام: الأموال الراعية، وهذا اللَّفظُ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، وقد أعيد الضمير عليه في هذه الآية بالتذكير، فقال تعالى: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) أيضاً خطاباً للناس:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ (٨٠)﴾:

فأضَاف هذا النَّصُّ بيان أنَّ مِنْ مَنَافِعِ الْأَنْعَامِ أنْ يَتَّخِذَ النَّاسُ من جُلُودِها بُيُوتاً، كبيوت الشَّعْرِ لعَرَبِ البادية، وأنْ يَتَّخِذُوا أثاثاً وَمَتَاعاً لهم من أصوافها وَأَوْبَارِها وَأشعارها.

﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾: أي: تجِدونها خَفيفَةً في الْحَمْل والنَّقْل.

﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾: أي: حين ارتحالكم مُسافِرين.

﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾: أي: وحين إقامَتِكُمْ في الأرضِ الّتي تَسْتَقِرُّون فيها.

النص الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول):

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٢١) وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ (٢٢)﴾)

هذا آخر النصوص في مَوْضوع الأنْعام، وقد جاء فيه إيجازٌ عامٌّ لمنافع الناس من الأنعام، الّتي امْتَنَّ اللَّهُ بها عليهم.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته

* * *

سُورَةُ ٱلفُرقَانْ

٢٥ مَصحَف ٤٢ نـزول

سُورَةٌ مَكيَّةٌ إلّا الآيات

(٦٨- ٦٩- ٧٠) فهي مَدنيَّة

فيما روي عن ابن عباس وقتادة

(١)

نص السّورة وما فيها من فرش القراءات

وهي مكية إلّا الآيات: (٦٨ و٦٩ و٧٠) فهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾
ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ
شَرِيكٞ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ
مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ
لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا
﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ
قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِىَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾
قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ
غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ
وَيَمۡشِى فِى ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ
نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ
يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا

---

٨ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [نَأْكُلُ].
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿يَأْكُلُ﴾.

مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا
مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا
﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا
﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾
وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾
لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ
أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ
جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ
رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ
ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن

---

١٠ ـ • قرأ ابنُ كثير، وابن عامر، وشعبة: [وَيَجْعَلُ لَكَ] برفع «يَجْعَلُ».
وقرأ باقي القرّاء العشرة [وَيَجْعَلْ لَكَ] بجزم «يَجْعَلْ».
وهما وجْهان عربيان جائزان.

١٣ ـ • قرأ ابن كثير: [ضَيْقاً] بإسكان الياء.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ضَيِّقاً﴾ بتَشْدِيد الياء.

١٧ ـ • قرأ ابن كثير، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بضمير الغائب.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نَحْشُرُهُمْ] بنون المتكلم العظيم.

١٧ ـ • قرأ ابن عامر: ﴿فَنَقُولُ﴾ بنون المتكلم العظيم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَيَقُولُ﴾ بضمير الغائب.

١٨ ـ • قرأ أبو جعفر: [نُتَّخَذَ].
وقرأ باقي القرّاء: ﴿نَتَّخِذَ﴾.

دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ
ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمَۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ
فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ
عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ
إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾
۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ
نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾
يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا
مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً
مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ
مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾
ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ

---

١٩ ـ • قرأ حفص: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بتاء المخاطبين.
وقرأ باقي القراء العشرة: [فَمَا يَسْتَطِيعُونَ].

٢٥ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وابن عامر، وأَبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [تَشَّقَّقُ] بتشديد الشين.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشين.

٢٥ ـ • قرأ ابن كثير: [وَنُنْزِلُ الْمَلائِكَةَ] بضمير المتكلم العظيم، ونصب الملائكة.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ﴾ بالفعل المبني لما لم يُسَمَّ فاعله، وبرفع الملائكة.

عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ
مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾
لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ
لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ
ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ
فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ
جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا
ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

---

٢٧ ـ ● قرأ أبو عمرو: [يَا لَيْتَنِيَ اتَّخَذْتُ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة بإسكان هذه الياء وهما وجهان عربيان.

٢٨ ـ ● وقف رويس بهاء السَّكت في [يَا وَيْلَتَاهْ] ووقف باقي القرّاء العشرة بالألف: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾. وهما وجهان عربيان.

٣٠ ـ ● قرأ نافع، والبزّي، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ورَوْح: [إِنَّ قَوْمِيَ اتَّخَذُوا] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكان هذه الياء.

٣٠ ـ قرأ ابْن كثير: [الْقُرَانَ] وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿الْقُرْءَانَ﴾. وهما وجهان من الأداء.

٣١ ـ ● قرأ نافع: [نَبِيءٍ]. وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿نَبِيٍّ﴾ وهما وجهان عربيان.

وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ
ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ
ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ
وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ
مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى
بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ
أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ
أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ
عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ
يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ

---

٣٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، ويعقوب: ﴿وَثَمُودَ﴾ على أنه ممنوع من الصرْف، ووقفوا على الدال بالسكون.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَثَمُوداً] على أن اللفظ مصرف، ووقفوا على الألف المبْدَلَةِ من التنوين.

٤٠ ـ • أبْدَل همزة الاستفهام ياءً محضةً، نافع، وأبو جعفر، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، ورُوَيْس.

٤١ ـ • قرأ حفص: ﴿هُزُواً﴾.

وقرأ حمْزَة وخلف: [هُزْءاً]. وهي وجوهٌ من الأداء.

٤٤ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، والكسائي، وخلَف: [أَمْ تَحْسِبُ] بكَسْرِ السّين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بفتح السين. وهما لغتان عَرَبيَّان والمعنى واحد.

إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ
نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا
وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ
شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ

---

٤٧ ـ ٤٨ ـ • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعْفر: [وَهْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضمّ الهاء.
وهُما وجهان في النُّطق عربيّان.

٤٨ ـ • قرأ ابنُ كثير: [الرِّيحَ] بالإفراد.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالْجَمْع.
ومؤدّى القراءتين واحد، فالإفراد اسم جنس يعُمّ، والجمع يُقْصَدُ به التنويع.

٤٨ ـ • قرأ ابنُ عَامر: [نُشْراً].
وقرأ عاصم: [بُشْراً].
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نُشُراً].
وسيأتي إن شاء الله التوجيه وبيان التكامل الفكري في هذه القراءات.

٤٩ ـ • قرأ أبو جَعْفَر: [مَيّتاً]. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَيْتاً﴾ وهما لغتان عربيّان والمعنى واحد.

٥٠ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [لِيَذْكُرُوا] بإسْكان الذال من فعل «ذَكَر».
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِيذَّكّروا﴾ بتَشْدِيد الذال، أي: ليَتذَكَّرُوا.

ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا
مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ
وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا
يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا
مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ
أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ
ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ
قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ
ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا
﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ

---

٥٩ ـ • قرأ ابْنُ كثير، والكسائي، وخلف، [فَسَلْ] وقرأ حمزة كذلِكَ في الوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فاسْأَلْ﴾ بإثبات الهمزة.
وهما وجهان من الأداء.

٦٠ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [يَأْمُرُنَا] بياء الغائب.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تَأْمُرُنَا﴾ بتاء المخاطب.
وبَيْن القراءتَيْن تكامل في الأداء البياني.

٦١ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [سُرُجاً] بالجمع.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿سِرَاجاً﴾ بالإفراد.
وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعْنَىٰ المراد.

٦٢ ـ • قرأ حمزة، وخلَف: [أَنْ يَذْكُرَ] من فعل: «ذَكَرَ».
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ من فعل: «تذَكَّر».

أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى
ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا
سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ
يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا
بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ
لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ
حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ

---

٦٧ ـ • قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر: [وَلَمْ يُقْتِرُوا] من فعل: «أَقْتَرَ».
وقرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، ويَعْقُوب: [وَلَمْ يَقْتِرُوا] مِنْ فعل: «قَتَرَ يَقْتِرُ» كضربَ يَضْرِب.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ من فعل: «قَتَرَ يَقْتُرُ» كنَصَرَ يَنْصُر.
وهي وجوه عربية.

٦٩ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبو جَعْفَر، ويعقوب، بالجزم في فِعْلَي: [يُضَعَّفْ] و [يَخْلُدْ].
وقرأ ابن عامر فيهما بالرَّفع: [يُضَعَّفُ] و [يَخْلُدُ].
وقرأ شعبة فيهما: [يُضَاعَفُ] و [يَخْلُدُ] بالرَّفع.
• وقرأ باقي القرّاء العشرة فيهما: ﴿يُضَاعَفْ﴾ و ﴿يَخْلُدْ﴾ بالجزم.

٦٩ ـ • قرأ بصلة هاء الضمير في: ﴿فِيهِ مُهَاناً﴾ ابن كثير وحفص.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بترك صلة هاء الضمير، وهما وجهان من الأداء.

صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ
ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ
بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا
دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

٧٤ - • قرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَذُرِّيَّتِنَا] بالإفراد.

ومؤدّى القراءتين واحد.

٧٥ - • قرأ شعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [وَيَلْقَوْنَ] من فعل: «لَقِيَ يَلْقَىٰ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾: من فِعْلِ «لقَّاهُ يُلقِّيه».

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ هُمْ يُلَقَّوْنَ، فيَلْقَوْنَ.

(٢)

مما جاء في السنة حول سورة (الفرقان)

روى البخاري ومسلم وغيرهما (واللفظ للبخاري) أنّ عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة (الفرقان) في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقْرِئنيها رسول الله ﷺ، فكدتُ أُسَاوِرُه(١) في الصلاة، فانتظرته حتّى سلَّم، ثمَّ لبَّبْتُه بردائه أو بردائي فقلت:

---

(١) **أُساوِرُه**: أي: أثب إليه مغاضباً.

مَنْ أَقْرَأَكَ هذِه السورة؟

قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ.

فقلت له: كَذَبْتَ، فوالله إنَّ رسول الله أقرأني هذه السورة التي سمعتُك تقرؤها، فانطلقْتُ أقودُه إلى رسول الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنِّي سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروفٍ لم تُقْرِئنيها، وأنت أقرأتني سورة (الفرقان).

فقال رسول الله ﷺ: «أرسلْهُ يا عُمَر، اقْرأْ يا هشام».

فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرَؤها.

قال رسول الله ﷺ: «هكذا أُنْزِلَت».

ثمّ قال رسول الله ﷺ: «إنّ هذا القرآن أُنزِل على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فاقْرَؤُوا ما تيسَّرَ منْهُ».

هذا الحديث هو أحد الأدلّة على موضوع القراءات، ونزول القرآن على سبعة أحرف.

والأحرف السبعة هي لهجاتُ أداءِ الألفاظ القرآنيَّة، تَسْهيلاً على أَلْسِنَةِ قبائل العرب الّذين كانت أَلْسِنَتُهُمْ لَا تُطَاوِعُهُمْ عَلَىٰ النُّطقِ بها وَفْقَ لهجة قريش.

وَقد أَحصَىٰ عُلَمَاءُ الْقِرَاءَاتِ الرِّوَايَاتِ الصّحِيحة منها، وهي موجودةٌ مُدَوَّنَةٌ محفوظةٌ بمَا يُعْرَفُ عِندهم بالْقِرَاءَاتِ الْعَشْر المتَواتِراتِ.

* * *

(٣)

موضوع السورة

يدور موضوع السورة حول كليات كبرى من عناصر القاعدة الإيمانية، وحال الناس في مرحلة نزول السورة تجاهها مع التوجيه والتربية والمعالجة.

البحث الكلّي الشامل لآيات سورة (الفرقان) دلّ على أن موضوعها يدور حول كلّيات كبرىٰ من عناصر القاعدة الإيمانيَّة تتعلّق بالله الربّ الخالق عزَّ وجلّ، والقرآن المنزّل من لَدُنه، وبالرسول المبلّغ له ثم الدعاة من بَعْده، وبالمرسَلِ إليهم إبَّان التنزيل ويُلْحق بهم من بعدهم.

فالعنصر الأوّل: جاء في السورة حوله بيان توحيد الربوبيّة لله عزَّ وجلّ، وما يلزم عنه عقلاً من توحيد الإلَهيّة له تبارك وتعالى، وواجب عبادته وحده لا شريك له، وموقف الذين كفروا من هذه القضايا، والمعالجة الرّبانيّة لهم حولها.

والعنصر الثاني: وهو القرآن، فقد جاء في السورة حوله بيان أنّه مُنزَّلٌ من عند الله على رسوله محمّد ﷺ، وبيان موقف الذين كفروا منه، وبعض مقالاتهم بشأنه، مع المعالجة الرّبانية.

والعنصر الثالث: وهو الرسول ثم الدعاة من بعده، فقد جاء في السورة حوله بيان إثبات نبوّة محمّد ورسالته، وأنّ رسالته عامّة للعالمين، وبيان موقف الذين كفروا منه، وشبهاتهم حوله، واتهاماتهم له، ومقترحاتهم حول ما يرون بالنسبة إلى وسيلة تبليغ الله دينه للنّاس، لو شاء الله أن يُرْسل رسولاً، وجاء فيها المعالجة الرّبّانية حول هذه القضايا، مع تربية الرسول وتسليته. وبيان وظيفته، والإشارة إلى الحكمة القاضية بعموم رسالته باعتبارها الرسالة الخاتمة. ثم بيان واجب الدّعاة الذين

يحملون وظيفة الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من بعده، وما ينبغي أن يتحلَّوْا به من صفاتٍ حتى يكونوا بحقٍّ عباد الرحمن وأئمةً للمتقين.

والعنصر الرابع: المرسل إليهم إبّانَ التنزيل، وهم ينقسمون إلى منكرين جاحدين يطرحون جَدَليّات ومقترحَات، وآخرين مؤمنين متبعين، وهؤلاء قسمان رئيسان: متقون، وأئمة المتقين، إذ هم أبرار أو محسنون يحملون لقب «عباد الرحمن» ويلحق بهذه الأقسام أمثالهم عبر التاريخ.

وقد جاء في سورة (الفرقان) بيان الطور الذي وصل إليه مشركو مكة إبّان نزولها، ومواقفهم من قضايا الإيمان بالله ووحدانيته وصفاته، والإيمان بالقرآن وما جاء فيه، والإيمان بالرّسول وبلاغاته، وبيان طائفة من الإنذارات للكافرين، والبشريات للمؤمنين، والمعالجات الفكرية والنفسيّة.

ونجد هذه العناصر الأربعة مشاراً إليها في الآية الأولى من السورة، كأنّها تحدّد خُطُوطَ مَسِير آيات السورة حول هذِه العناصر، فيقولُ الله عزَّ وجلّ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾	﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾	﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ﴾	﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾
الله عزَّ وجلّ وتوحيد ربوبيته وإلَهيته	القرآن وإعجازه وهدايته ووظيفته	الرسول ووظيفته والدعاة من بعده	المرسل إليهم إبَّانَ التنزيل ويُلْحَقُ بهم مَنْ بعدهم

فالسورة تسير ضمن أربعة خطوط، وقد وُزّعَتْ فقراتُها على هذه الخطوط توزيعاً مفرّقاً، وآياتُها كمصابيح مدلاّةٍ من خطوط فكريّة غير منظورة في اللّفظ، كالرسم البياني التالي:

كلّيات كبرى من عناصر القاعدة الإِيمانية (في الآية الأولى)

الله
- الآيتان
  - ① ②
- والآيات من (٤٥ ـ ٥٠)
- والآيات من (٥٣ ـ ٥٥)
- والآيات من (٥٩ ـ ٦٢)

القرآن
- الآيات من (٤ ـ ٦)
- وبالمشاركة مع الرسول في
- الآيات من (٣٠ ـ ٣٣)

الرسول والدعاة من بعده
- الآيات من (٧ ـ ١٠)
- ومن (٢٠ ـ ٢١) وبالمشاركة مع القرآن في الآيات
- من (٣٠ ـ ٣٣)
- ومن (٤١ ـ ٤٤)
- ومن (٥١ ـ ٥٢)
- ومن (٥٦ ـ ٥٨) وصفات الدعاة ونحوهم
- من (٦٣ ـ ٧٦)
- وآية (٧٧) في آخر خطاب للكافرين

المرسل إليهم
- الآيات من (١١ ـ ١٩)
- ومن (٢٢ ـ ٢٩)
- ومن (٣٤ ـ ٤٠) وبعض الآية (٤٢)

* * *

(٤)

بيان أطوار مواقف مشركي مكّة تُجاه عناصر موضوع السورة منذ بدء البعثة المحمّديّة حتىٰ نزول سورة الفرقان

دلّ استقراء وسَبْرُ معاني النصوص القرآنية النازلة قبل سورة (الفرقان) حتَّى نزولها على أنَّ مشركي مكة ومن ذهب مذهبهم ورأىٰ رأيهم، قد تطوّرت مواقفهم كما يلي:

الطَّور الأول: طور كان مع بدء الدعوة، إذ ظهرت محاولاتٌ أولَىٰ من بعضِ أفرادهم لمنع الرسول من الصلاة، وصدّه عنها، لئلا يفتتن الناس بصلاته، فيتبعوا دينه، وكان ذلك من أبي جهل، عَمْرو بْنِ هشام بن المغيرة المخزومي وطائفة من ملأ قريش.

دلّ على هذا الموقف قول الله عزَّ وجلّ في سورة (العلق/٩٦ مصحف/١ نزول):

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

الطور الثاني: ثم ظهر طورٌ بَرَزتْ فيه ظاهرتان:

الأولى: رغبة أكثر قيادات المشركين أن يداهنهم الرّسول في عقائدهم حتى يداهنوه فيما يدعو إليه.

الثانية: اتّهام بعض المشركين له بالجنون، مع اتخاذ وسيلة الهمز والنميمة وقول بعضهم عن القرآن: أساطير الأولين.

دلّ على هاتين الظاهرتين بعض ما جاء في سورة (القلم/٦٨ مصحف/٤ نزول):

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

وقوله تعالى فيها لرسوله:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٥)﴾.

الطور الثالث: ثمّ برزَ في كُفَّار مكّة بعضُ أصحاب الدّعايات الإعلاميّة المضادّة، وكان ذلك إبّان نزول بعض سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) إذْ جاء فيها عن الوليد بن المغيرة قول الله عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥)﴾.

والدعاية الإعلاميّة في هذا هي اتّهام القرآن بأنه سِحرٌ يؤثر، وبأنّه قول البشر، ويظهر أنَّ هذا القسم نزل بعد نزول سورة القلم والله أعلم.

الطور الرابع: ثم برزَ طورُ بعضِ الحركاتِ العدائية القولية والعمليّة الفرديّة، دلّ عليه ما جاء في سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) وما اشتملت عليه من الإشارة إلى أقوال وأعمال أبي لَهَبٍ وامرأته حمّالة الحطب.

الطور الخامس: ثمّ برز طَوْر تصيُّدِ بعض ما يمكن أن يُثِير بعضهم به حرْباً إعلاميّةً ضدّ دعوة الرسول ورسالته، وكان ذلك إبّان نزول سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول) إذْ قالُوا: إنَّ محمّداً قلاه ربّه.

الطور السّادس: ثمّ برز طورُ ظهورِ بعضِ المجاهرين ببغض الرسول محمد ﷺ، وكان ذلك إبّان نزول سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول) إذْ جاء فيها قول الله لرسوله:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ (٣)﴾.

أي: إنَّ مُبْغِضَكَ هو المقطوعُ من الخير الحقيرُ الذليل الخبيث.

الطور السَّابع: ثم بَرَزَ طَوْرُ المفَاوضَاتِ الاسْتِدْراجِيّة للرسول ﷺ، عسىٰ أن يتنازل عنْ بَعْضِ دَعْوَتِهِ، وكانَ ذلك إبّان نزول سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول).

الطّور الثامن: ثم دارت حركات الحسد، ورغبات الكيد سرًّا، مع إطلاق الوساوس في صدور الناس، الصادّة عن دين الله، واتباع الرسول وكان ذلك إبّانَ نزول سورتي (الفلق/ ١١٣ مصحف/ ٢٠ نزول) و(الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول).

الطور التاسع: ثم برزَ طَوْر إعْلان التعجُّبِ من مبادئ التوحيد، وأنباء يوم الدّين، وأنباء رحلَتَي الإسراء والمعراج المعجزتين، وكان ذلك إبّان نزول سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

سامدون: أي: لاهون لاعبون، غافلون، مشتغلون بالغناء، متكبّرون بَطِرُون، جَامِدُون لا تَتَأَثَّرون، أغبياء، مُتَحَيِّرون.

الطور العاشر: ثم برز طَوْرُ فتنةِ بعضِ جَبَابِرَةِ مُشْركي مكَّةَ لعبيدهم وإمائهم، بالتعذيب الشديد، لإكراهم على ترك الدِّين الذي آمنوا به، واتَّبعوا فيه رسول الله محمّداً ﷺ، وكان ذلِكَ إبّانَ نزول سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول).

وبدأ في هذا الطور استغراق هؤلاء الجبابرة في التكذيب، حتَّى كأنّ التكذيب محيط بهم.

دلّ على هذا الطور قصة أصحاب الأخدود الّتي جاءت في هذه السورة، وقول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

الطور الحادي عشر: ثمّ برز طورُ الْهَمْز واللّمزِ والطّعن الخفيّ للرّسول والذين آمنوا معه، من قِبَلِ ذوي الغنى والوجاهة من ملأ كفّار قريش، وكان ذلك إبّانَ نزول سورة (الهمزة/ ١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول).

الطَّورُ الثاني عشر: ثمَّ برز طورُ إطلاقِ عباراتِ التكذيبِ الصريح العلَني الجازم، والاتِّهام العلَني للرسول ﷺ بالافتراء على الله، وكان ذلك إبَّان نزول سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول): إذْ جاء في صدرها قول الله عزَّ وجلّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وجاء في أواخِرِهَا قول الله لرسوله:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

الطور الثالث عشر: ثمّ برز طورُ اتخاذِ أئمّة الكفر في مكة رسُول ربّهم فيها هَدَفاً وغرَضاً، مُسْتَحِلّين في البلَدِ الحرام إيذاءَهُ، غير مكترثين له، ولا عابئين بحرمة البلد الحرام الذي يعتقدون وجوب تقديسه والمحافظة على حرمته، ولكنّ ذلك لم يصِلْ إلى إعلان المواجهة بالقوّة الغالبة ذات السلطان، وكان ذلك إبّان نزول سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

دلّ على هذا الطور قول الله عزَّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾.

حلٌّ بهذا البلد: أي: قد اتّخذك بعض أئمته هدفاً وغرضاً، حتى صاروا يستحلُّون إيذاءك ورَمْيَ سِهَامهم إليك.

الطور الرابع عشر: ثمّ بَرَز طَوْرُ تدبير مَلأ كفّار قريشٍ المكايد ضدّ الرسول والذين آمنوا معه، وكان ذلك إبّان نزول سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول).

دلّ على هذا الطور قول الله عزَّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

الطّور الخامس عشر: طَوْرٌ بَرزَ فيه الإِصْرارُ الْعَنيد علىٰ رَفضِ تصديق الرسول مع ظهور آية انشقاق القمر بناءً على طلَبهم أن يُريهم آيةً مادِّيَّةً، وطورُ التوجُّه لإِعداد العدّة بغية التخلّص من الرسول ودعوته، خوف انتشارها، ووصول الذين يؤمنون بها إلى مستوى يعجز الذين كفروا عن قَمْعِه والانتصار عليه، وكان ذلك إبّان نزول سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول).

دلّ على هذا الطور ما جاء فيها مما هو مدنيّ التنزيل مكيُّ المناسبة، وهو قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

الطور السادس عشر: طورٌ بَرَزَ فيه استعراضِ القوى المادّية الغالبة، وإظهار العداء للرسول والذين آمنوا معه، وطورُ الوقوفِ في شِقٍّ مَنْ يَهُمُّ بأنْ يُعْلِنَ حرْباً، إذا استدعى الأمر ذلك، وكان ذلك إبّانَ نزول سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

دلّ على هذا الطور قول الله عزَّ وجلّ في صَدْرِها:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾.

ورافق هذا الطور إعلان الحرب الكلامية ضدّ الرسول ودعوته، فشتموا الرسول بأنّه ساحر كذّاب، وبأن له أغراضاً دنيوية خاصة من دعوته إلى التوحيد، وطرحوا التشكيك حول إمكان اختياره من دونهم لإِنزال القرآن عليه.

نجد ذلك في الآيات الأولى من سورة (ص) نفسها:

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا . . . ﴿٨﴾﴾.

الطور السّابع عشر: طَوْر ظهر فيه تجمُّع قيادات المشركين في مكة ضدّ الرسول حتى كادُوا يكُونُون عليه لبداً، وكان هذا الطَّوْر إبَّانَ نُزولِ سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

الطور الثامن عشر: وكان إبّانَ نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) إذ تابع الذين كفروا الحربَ الكلاميَّة وتوجيه الشتائم للرسول، فقالوا عن القرآن: هو إفْكٌ، واتَّهموا الرسول بأنّه افتراه، وأعانه عليه قومٌ آخرون، وقالوا أساطير الأوّلين اكتَتَبها فهيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بكْرَةً وأصيلاً، وأثاروا جدليات، وقدّموا مقترحات، وقالوا للذين آمنوا: إنْ تَتَّبِعُونَ إلّا رجُلاً مَسْحُوراً.

وكان موقفهم هذَا لَهُ صفةُ التحرُّكِ الْجَماعي، لا الأعمال الفرديّة المتناثرة.

* * *

(٥)

دروس سورة الفرقان

تشتمل هذه السّورة على أحَدَ عَشَر درساً، موزَّعةً على فروع شجرة موضوعها توزيعاً بديعاً.

الدرس الأوّل:

يشتمل على بيانٍ لفُروع شجرة موضوعها، وهي تتعلّق بما يلي: (الله ـ القرآن ـ الرّسول ـ المرسل إليهم». وهذا الموضوع مبيّن في الآية الأولى من السورة.

ويشتمل على بيان ثلاث صفات عظمىٰ من صفات الله جلّ جلاله وعظم سلطانه، وهو في الآية الثانية من السورة، وهذه الصفات هي:

(١) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

(٢) ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا﴾.

(٣) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

(٤) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

وهذا يتعلّق بالفرع الأوّل من فروع موضوع السّورة.

ويشتمل على بيان أنّ المشركين (وهم القسم الهابط من المرسَلِ إليهم، الفرع الرابع من فروع موضوع السّورة) قد اتخذوا من دون الله آلِهَة، لا يخلقون شيئاً، وهم يُخْلَقُونَ، ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وهو في الآية الثالثة من السّورة.

وظاهرٌ أنَّ هذا الدرس يتعلّق بالفرع الأول من فروع موضوع السورة، مع قسم هابط من الفرع الرابع من فروع موضوعها، وهو قسم المشركين، وعقيدتهم حول الفرع الأول.

وهو الآيات من (١ ـ ٣).

الدرس الثاني:

يشتمل على بيان بعض الأقوال الافترائية التي قالَها قسم الكافرين الهابط من الفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة (المرسل إليهم) بشأن القرآن (الفرع الثاني من فروع شجرة موضوعها) مع بيان بطلان أقوالهم، بطريقة يُدْركها الفطناء العقلاء.

وهو الآيات من (٤ ـ ٦).

الدرس الثالث:

يشتمل على بيان بعض الأقوال الاعتراضيّة والاقتراحيّة الّتي قالها قسم الكافرين الهابط، من الفرع الرابع من فروع موضوع السورة، بشأن الرسول (الفرع الثالث من فروع موضوعها).

مع بيان فساد أقوالهم بطريقة يدركها الفطناء العقلاء.

وهو الآيات من (٧ ـ ١٠).

الدرس الرابع:

يشتمل على بيان العلَّة النَّفْسيَّة لقسم الكافرين الهابط، من الفرع الرابع من فروع موضوع السورة، وأنّها ليْسَتْ قائمة على شكوك حقيقيّة، في الله، والقرآن، والرَّسُول، بل دافِعُها تكذِيبُهم بالسَّاعة الّتي يكون عندها بعثهم للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

ويشتمل على تقديم مشهد من مشاهد يوم الدين، المثيرة للرَّهب في قلوب أولي الألباب، من السّعِير في دار عذاب المجرمين.

ويشتمل على تقديم مشهد من مشاهد يوم الدّين، المثيرة للطّمع في قلوب أولي الألباب، بجَنَّةِ الخلْد الّتي وُعِدَ المتقون.

ويشتمل على عرض مشهد من مشاهد يوم الدّين، يتضمّن بيانَ سؤال الله للآلهة، الّذين كان المشركون في الدنيا يعْبُدونهم من دُون الله، وما يكون منهم من تنزيه الله، وتبرُّئِهِم من الذين كانوا يعبُدُونهم، وما يكون فيه من توجيه الخطاب للمشركين بأنهم كانوا هم المجرمين، إذْ كانوا يفترون على الله، وأنهم كاذبون في ادّعاء أنّ شركاءهم هُمُ الذين أضَلُّوهم.

إذن: فعليهم أن يُلاقوا عذابهم الذي كانوا يوعَدُونه.

وهو الآيات من (١١ ـ ١٩).

الدرس الخامس:

يشتمل على بيانٍ للرسول ﷺ (الفرع الثالث من فروع شجرة موضوع السورة) والمقصودُ به الرّدّ على تشكيك الكافرين برسالته، متعلِّلين بذَرِيعَة أنّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لكسب معايشه، كسائر البشر.

ويشتمل على إقناعٍ وتسليةٍ للرَّسُول ﷺ وللمؤمنين، بأنّ من عناصر الابتلاء في الحياة الدنيا ابتلاء بعض الناس ببعض، وأنّ المطلوب منهم في هذا الابتلاء أنْ يصْبِرُوا، لينالوا أجْرَ صَبْرِهم عند رَبّهم ثواباً عظيماً.

وهو الآية (٢٠) من السورة، وهذا الدَّرس يتعلّق بالفرع الثالث مِنْ فروع شجرة موضوعها (وهو الرَّسول) مع القِسْم الهابط من الفرع الرابع (وهم الكافرون الذين يؤذون الرسول والمؤمنين).

الدرس السادس:

يشتمل على عرض بعض أقوال الكافرين منكري الحياة الأخرى، الّتي يقترحون فيها إنزال الملائكة إليهم، واصطفاءهم بالوحي، كما اصطفى الله رسوله محمّداً، وهم القسم الهابط من الفرع الرابع من فروع موضوع السورة (المرسَلُ إليهم).

ويشتمل على إنذارهم بأنّهم حين يَرَوْنَ الملائكة عند موتهم، وبعد موتهم، ويوم الدين، فإنَّهم يلقَوْنهم مُعَذِّبين لهم، فلا بُشْرىٰ لهم، بخلاف أصحاب الجنَّة الّذين يكونُونَ يومئذٍ في سعادة برُؤيتهم لملائكة الرَّحمة.

ويشتمل على بيان الندم العظيم الذي يكون فيه الظالمون يوم الدين.

وهو الآيات من (٢١ ـ ٢٩).

الدرس السابع:

يشتمل على بيان شكوى الرسول ﷺ لربّه، بشأن اتخاذِ معظم قومه القرآن مهجوراً، مع كتمانه شكواه من عداوة مجرمي قومه له، ومعالجة الله ذلك بغاية العلاج الحكيم.

ويشتمل على بيان اعتراض الكافرين على تنزيل القرآن منجّماً، ومطالبتهم أن ينزل جُمْلَةً واحدة، مع بيان أن الحكْمَةَ اقتضت تنزيلَهُ منجّماً.

ويشتمل على إنذار الله للكافرين، بأنّهم إذا اسْتَمَرُّوا على كفرهم، وعنادهم، وإيذائهم لرسول ربّهم وللذين آمنوا به واتَّبَعُوه، أنزل الله بهم الهلاك كما أنزله على فرعون وملئه وجنوده، وعلى قوم نوح وعلى عادٍ وثمود وأصحاب الرَّس وقوم لوط، وغيرهم من مجرمي الأمم الغابرة.

ويشتمل على بيان مواقف الكافرين الاستهزائية بالرَّسول، وعلى بعض مقالاتهم، مع المعالجة الرَّبَّانية.

وهذا الدرس يتعلّق بالقسم الهابط من الفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة «وهو المرسل إليهم» وبالفرع الثالث «وهو الرسول».

وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤).

الدرس الثامن:

يشتمل على أدلّة من ظاهرات الكون تَدُلُّ على ربوبيّة اللَّهِ الواحد

الأحد، وهي تتعلَّق بالفرع الأول من فروع شجرة موضوع السورة، والمقصود بتوجيهها القسم الهابط من الفرع الرابع «وهو المرسل إليهم».

ويشتمل على علاج لهم بشأن بعض مقترحاتهم، وعلى بيان شركهم الباطل، إذ يعبُدونَ ما لا ينفعهم ولا يضُرُّهم، وعلى بيان أنهم يظاهرونَ عدوّ الله إبليس وجنوده من الجنّ والإنس.

ويشتمل على تربية الله رسُولَه بأن لا يطيع الكافرين، وعلى تعليم له بأن يُعْلِن لهم أنّه لا يسْألهم أجراً، وبأن يتوكَّلَ في قيامه بمهمَّاتِ رِسالته ووظائفها على ربه الحيّ الذي لا يموت، وبأن يَسَبّح بحمْدِ رَبّه، وبأن لا يهتمَّ لكُفْر الكافرين، فالله بصير بهم.

وهذا الدرس يتعلّقُ بالقسم الهابط من الفرع الرابع «وهو المرسل إليهم» مع الفرع الثالث «وهو الرسول» من فروع شجرة السُّورَة.

وهو الآيات من (٤٥ ـ ٥٨).

الدرس التاسع:

يشتمل على بيان كون الله الخالق للسماوات والأرض الذي يؤمن المشركون بكونه خالقاً لهما، هو الرحْمٰن الذي كان المشركون ينكرون كونه رَحْمَاناً، مع إقامة الدّليل الدالّ على رحمته جلّ جلاله بعباده.

وهو درس يتعَلَّقُ بالقسم الهابط من الفرع الرابع «وهو المرسل إليهم».

وهو الآيات من (٥٩ ـ ٦٢).

الدرس العاشر:

يشتمل على بيان صفات عباد الرحمن المرشّحين لأنْ يكونوا أئمةً للمتقين، والمتقون وأئمتهم هما القسمان الكريمان الشريفان الصاعدان من

الفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة، وأئمة المتقين هم أهل مرتبتَي البرّ والإِحسان.

وهي الآيات من (٦٣ ـ ٧٦).

الدرس الحادي عشر:

درس تعليميّ للرّسُول ولكل داع إلى الله من أُمته، بأسلوب التعليم الإِفراديّ، أنْ يقول للكافرين المصرّين على كفرهم: ما يعبأُ بكُفْرِكُمْ رَبّي، مهما كفرتم، لأنّكُمْ لَا تَضُرُّونه شيئاً.

ولولا عنايتهُ بدَعْوَتكم إلى سلوك الصراط المستقيم الذي تنالُون بسُلُوكه السّعادة الأبديّة، لأهملكم ولم يَعْبأُ بكم، نظراً إلى أنكم كذَّبتم بالحقِّ الذي جاءكم من رَبّكم جحوداً وعناداً، وإلىٰ أنّ جزاء هذا التكذيب سوف يكون ملازماً لكم.

وهو الآية الأخيرة (٧٧) من السورة.

وبهذا تنتهي دروس السورة.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الأوّل من دروس السورة
وهو الآيات من (١ ـ ٣)

قال الله عزّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

تمهيد:

هداني الله بالتأمُّل إلى أنّ موضوع السّورة مشارٌ إِلَيْهِ بالآية الأولى منها.

(١) وعُنْصُر توحيد الرُّبوبيَّة والإِلَهيَّة للَّهِ عزّ وجلّ وما يتعلّق به، قد جاءت الإشارة إليه في قول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾.

(٢) وعُنْصُر القرآن المنزّل كتاباً من عند الله، والمشتمل على أصول الدّين وكليّات فروعه، وما فيه من بيانات أخرى ربّانية، قد جاءت الإشارة إليه في قول الله تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

(٣) وعنصرُ الرّسُول محمّد ﷺ، وعموم رسالته، وما يتعلّق به من بيان وظيفته ووظيفة الدّعاة إلى سبيل ربّهم من بَعْدِه، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وما يَنْبغي لهم أن يتحلّوا به من صفات، قد جاءَت الإشارة إليه في قول الله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ﴾.

(٤) وعُنْصُر المرْسَلِ إليهم، ومواقفهم من قضايا الإيمان بالله، ووحدانيته، وسائر صفاته، بدءاً من المعنيِّين الأوّلين إبَّان التنزيل، والإيمان بالقرآن وما جاء فيه، والإيمان بالرسول وبلاغاته، وبيان طائفة من الإنذارات للكافرين، والبشريات للمؤمنين، مع المعالجات الفكريّة والنفسيَّة، قد جاءت الإشارة إليه في قول الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ولمَّا كان الإِنْذَارُ بعذاب الله للكافرين، الذين يَرْفضونَ الاستجابة لدعوة الحقّ الرَّبَّانيّة، إنَّما يكون بعد التّبليغ والبيان، واتّخاذ وسائلِ الإقناع

بالحكمة والنُّصْح والإرشاد والتذكير، وبعد الترغيب بالسعادة العاجلة والآجلة، لمن استجابَ فآمَنَ وأسْلَمَ وأطاع، كانَ ذكْرُ الإنْذَارِ الذي يكون في آخِرها بحَسَبِ سلسلة الترتيب الطبيعيّ، دليلاً عليها عن طريق تتبُّع اللّوازم العقلية، فهي من المطويات في الآية، والتي تدلُّ عليها دلالَةً عقليَّةً عبارة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

أي: ليكون للعالمين مبلّغاً، ومبيّناً، وشارحاً، ومتّخذاً وسائل الإقناع بالحكمة والنُّصْحِ والإرْشاد والتذكير، وواعظاً بالترغيب بالسَّعادة العاجلة والآجلة، لمن استجاب لدعوة الحقّ الرّبانيّة، فآمن وأسلم وأطاع واتَّبَعَ رضوان الله باتّباع رسوله.

ثم ليكون نذيراً بعذاب الله يومَ الدّين، مع احتمال عذاب معجّل في الدنيا، لمن عاند مكابراً جاحداً، متّبعاً أهواء نفسه وشهواتها من زِينات الحياة الدنيا، ومؤثراً العاجلة علَىٰ الآجلة، ومُتَّبِعاً خطواتِ الشيطان وجنوده من الجنّ والإنس، ومستجيباً لوساوسهم وتَسْويلاتهم.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾:

﴿تَبَارَكَ﴾: على وزن «تفاعل» من البركة، والبركة في اللّغة: هي النَّمَاء والزيادة، سواءٌ أكانت مادّيّة تُدْرك بالحواسّ الظاهرة أمْ غير مادّيّة ممّا يُدرَك بالحواس الباطنة، وقال الزجاج: البركة هي الكثرة من كلّ خير.

أقول: البركة وكلّ تصاريف هذه المادّة في نصوص القرآن والسنّة تدلّ على الزيادات التي تأتي من وراء المنظور، دون أن تُدْرَكَ لها حدود، فهي فيض من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أو زيادات في عالم الغيب بلا حدّ.

وفي عبارة ﴿تَبَارَكَ﴾ فعلاً ماضياً فاعله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو الله عزّ وجلّ، ثناء من الله عزَّ وجلّ على نفسه ليُعلّمنا صفاته، وليقدّم لنا الدليل عليها من آياته في كونه، وفيما أنزل من كتابه، فيصف نفسه بأنه ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تنامَىٰ وتزايد وتعاظم بالإطلاق العامّ عن كلّ ما يصفه به الواصفون من كمالات، والمعنى أنَّ كلَّ واصفٍ يَصِفُه بكمال ما فهو جلّ جلالُه أكثر وأعظم وأكبر.

وهذا يدُلُّ على أنَّه متّصفٌ بكلّ صفاتِ الكمال، ويلزم عقلاً من اتّصافه بصفات الكمال تنزُّهُه سبحانه عن كلّ صفات النقصان.

فمن كماله أنّه لا شريك له في ربُوبيَّته، فلا شريك له في الملك، ومن كماله أنّه لا ولد له ولا صاحبة، ومن كمال صفاته كمال علمه وقدرته وإرادته وحكمته، وهكذا إلى سائر صفات الكمال.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول، وهو كناية عن موصوف لم يُقْصد إلى ذكر اسمه، وإنما قُصِدَ إلى ذكر صفته التي تظهر في الجملة التالية له، أو شبه الجملة، والتي هي صلةُ الموصول.

والمعنى: تَبارَكَ الغيبيُّ عن حواسّكُم الظاهرة الذي دلّت عليه وعلى صفاته وأسمائه الحسنىٰ آياتُهُ فيما أَنْزل على رسوله محمّد من كتاب هو فرقان، وفيما خلق وبرأ من كائنات تشاهدونها، وتُدْرِكون بعقولكم أنّها آثار خالقٍ له كلُّ صفات الكمال، وهو منزَّهٌ عن كلّ صفات النقصان، فهو الذي له الحمدُ كلُّه، والثناءُ كلُّه لأَنَّه تبارك في كلّ وصف كمال، وهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كلّ شيء، وأكمل من كلّ ذي كمال، وهو منزَّه عن كلّ نقص.

فعل «نَزَّلَ» مثل فِعْلِ «أنزل».

فِعْلُ ﴿نَزَّلَ﴾: مثلُ «أنزل» وما يُقالُ من التفريق بين «نَزَّلَ» و«أَنْزَلَ» لم يُثْبِتْه الاستقراء والسَّبْرُ لما جاء في القرآن من فِعْلَيْ أنزل ونزّل.

فقد جاء في القرآن استعمال فعل «أنزل» للقرآن، كما جاء فيه استعمال فعل «نزّل»، فمن ذلك ما يلي:

(١) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾.

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ... ۝١٠٥﴾.

والإنزال والتَّنْزِيل معلوم، وهو يُفيد أنَّ الفاعل المنزل هو في مكان العلوّ، ومن العقائد الإيمانية في الإسلام أنّ الله عزَّ وجلّ هو المتعالي، وهو العليّ الأعلى. وهو يُفيد أيضاً أنَّ المنزَّلَ عليه هو في المكان المقابل لجهة العلوّ، فهو في الجهة الدنيا.

وبناء على هذا فكلّ عطاءٍ من عطاءات الرُّبوبيّة تنزيلٌ، لأنّ الله عزَّ وجلّ لا يُشَاركه في علوّه أحد، والكلُّ مخلوق له، فكلُّ عطائه تنزيل وإنزال، سواءٌ أكان ذلك العطاء ماديًّا مُحَسًّا، أمْ معنويًّا مُدرَكاً بالعقل، ولذلك جاء في القرآن المجيد التعبيرُ بالإنزال والتنزيل بجانب كثير من العطاءات الرّبّانيّة، للإعلام بأنّ عطاءاته كلَّها تنزيل، مثل:

(١) قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿... وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ... ۝٦﴾.

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ... ۝٤﴾.

(٣) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ... ﴿١٧﴾﴾.

(٤) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿... وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ... ﴿٥٧﴾﴾.

(٥) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ... ﴿٢٦﴾﴾.

(٦) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿... وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ... ﴿٢٥﴾﴾.

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: مصدَرُ فَرَقَ، تقول لغةً: فَرَقَ بينَ الشيئين أو الأشياء يَفْرُق فَرْقاً وفُرْقاناً إذا فَصَل وميّزَ بينهما، وفَرَقَ بين الخصوم إذا حكَمَ وفَصَل. وفرَق بين المتشابِهَيْنِ إذَا بيّن أوجُه الخلاف بينهما، وهكذا.

وقد أُطلق لفظ الفرقان هنا مراداً به القرآن المجيد، فهو أحد أوصافه، حتَّى اشتَهَرَ اسماً من أسمائه.

وقد وصف الله عزَّ وجلّ القرآن بهذا الوصف لأنَّه يَفْرُقُ بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشر، وبين الهدى والضلال، وبين الغيِّ والرَّشاد، وبين الحلال والحرام وسائر الأحكام، وبين ما أمر الله به وما نهى عنه، ويَفْرُقُ بين المتشابهات، ويُبيّن لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه، وما دخل في كُتبِهم وعقائدهم وشرائعهم من تحريفات عمّا أنْزَلَ اللّٰهُ إليهم.

وفي وصف القرآن بأنّه فرقان إشارةٌ إلى ما في القرآن من إعجازٍ فُرقانِيّ لا يمكن أن يأتي بمثله بشر، وأنّ هذا الإعجاز الفرقاني فيه دليلٌ على كمالِ مُنَزِّلِه، في صفات الربوبيّة وصفات الإلٰهيّة، ودليلٌ أيضاً على أنّ المبلّغ له عن ربّه صادقٌ في أنّه نبيٌّ ورسولٌ وأمينٌ فيما يبلّغ عن الله عزَّ وجلّ.

وقد أُطْلِقَ لفظُ الفرقان في القرآن على النصر الذي وهبه الله للرسول والذين آمنوا معه على المشركين يوم معركة بدر، لأنّ هذا النصر قد فرق بين الحقّ والباطل، فأبان أن الرسول والذين آمنوا معه هُم أهل الحقّ، وأنّ المشركين مبطلون، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿... وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

وأُطْلِقَ لفظُ الفرقان أيضاً على الْبُرْهَان والمعجزة والأحكام والسُّنَّة، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

فالكتاب هو التوراة، فيكون الفرقان ما آتى الله موسى من حجّة، وآيَاتٍ معجزاتٍ بيّناتٍ، وأحكامٍ وعِلْمٍ يفصلُ بِهِ بين الأمور في إدارته وسياسته ونصائحه ووصاياه وسُنَنِه.

وكذلك قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

وربما يكون هنا وصفاً للكتاب الذي أَنْزَلَهُ الله على موسى، فما أُنْزِلَ على موسىٰ قد آتاه الله أيضاً لِهَارُونَ باعتباره وزيراً له في الرسالة، فالتوراة هو فرقان وهو ضياء وهو ذكْرٌ للمتّقين، والمراد من كونه ضياءً أنّه يهدي إلى سواء السبيلِ المنجي والموصلِ إلى السعادة الخالدة.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: أي: على عبده محمّد ﷺ، وإنزالُ الفرقان «أي: القرآن» عليه يَدُلُّ باللّزوم العقليّ على قضيّتين:

القضية الأولى: أنّه نبيّ، لأنّه لا يكون هذا التنزيل من الله إلّا بالوحي إليه، والوحي من خصائص النبوّة.

القضية الثانية: أنّه رسول، لأنَّ القرآن يشتمل على بلاغات للناس، وقد جاء فيه تكليفه أن يبلّغه للناس، وأن يكون لهم بشيراً ونَذيراً، وذلك من أخصّ خصائص الرسالة.

وقد شرّف الله رسوله محمّداً ﷺ بأن جعله عبْدَهُ، فأضافه إلى نفسه، وهذا يتضمَّن أن الرسول قد حقَّق في نفسه أوصاف العبوديّة التامة لله تعالى، فمنحه الله هذا الوصف تشريفاً له.

هذه العبوديَّةُ الخاصّة غير العبوديّة العامّة التي هي لازم طبيعيٌّ للخلْقِ والْمِلْك، فالعبوديّة العامّة يشترك فيها كلٌّ من خلق الله من إنسٍ وجنٍّ وملائكة، ولكنّ الكافرين لم يحقّقوا في أنفسهم باختيارهم الحرّ عبوديّتَهُم لله عزَّ وجلّ، فالله تعالى يُخْرِجهم من دائرة الانتساب التشريفيّ إليه بالعبوديّة، كما يخرج الأب ولده العاقّ من دائرة البنوَّة المكرّمة.

والعصاة من المؤمنين يبتعدون عن مكان القرب التشريفي والتكريميّ بالعبوديّة لله عزَّ وجلّ، على مقادير معاصيهم شدَّةً وضعفاً، كثرةً وقلّة.

والمطيعون العُبَّادُ لله يزدلفون إلى مقام القرب إلى الله على مقادير طاعاتهم وقُرُبَاتهم.

روى البخاري بسنده عن أنس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّه عزَّ وجلّ «حديث قدسي»:

«إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعاً، وإذا تقرَّبَ إِلَيَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أتيْتُهُ هَرْوَلَةً».

وروي البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «حديث قدسي»:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَال:

مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالْحَرْبِ، وَمَا تَقرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، ولَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ».

آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ: أي: أَعْلَمْتُه بأنّي محاربٌ له دفاعاً عن وَلِيّي.

وقد وصف الله عزَّ وجلّ الملائكة بأنّهم عبادٌ مُكْرَمُونَ، ووصفَ طائفةً من رُسُلِهِ بأنهم عِبادُهُ تَشْرِيفاً لهم، كما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) بشأن داوُد وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل.

﴿لِيَكُونَ﴾: الضمير المستتر يعود على «عَبْدِه» أي: على الرسول محمّد ﷺ، ولا مانع من عوده أيضاً على «الفرقان» أي: القرآن، وذلك لأنّ القرآن بنصوصه الدائمة المتلوّة يتجدّد على ألسنة التالين، حاملاً وصف تبليغ مضامينه ومنها الإنذار، للعالمين المكلّفينَ أن يُؤمنوا ويُسْلِمُوا جَمِيعاً.

فالرَّسول مبلّغ ونذير، والقرآن فيه بلاغ وهو نذير للعالمين.

وقد جاء في القرآن وصف الرسول بأنّه نذير، ووصف القرآن بأنّه نذير، فالوصف صالح لهما كما سيأتي تفصيلُهُ إنْ شاء الله.

﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾: العالَمُونَ جمعٌ مفرده «العالَم» بفتح اللّام، وكلمةُ «عَالَم» تُطْلَقُ على كلّ موجودٍ سوى الله عزَّ وجلّ، وهُو مأخُوذٌ من «الْعَلَم» و«الْعَلَامَة» بمعنى الشيءِ الذي يُوضعُ ليكونَ دالًّا علىٰ شيءٍ آخر، كالأعلام الّتي توضع للدلالة على الطُرقِ أو حُدُودِ الأرض، أو غير ذلك.

وقد دلَّ الفكر على أنّ كلّ ما سوى الله عزَّ وجلّ من كائنات، هي مخلوقاتٌ دالّاتٌ على خالقها، وعلى جملةٍ من صفاته الحسنى، فهي آيات وعلامات دالّاتٌ عليه، فكان من المناسب أن يُطْلَقَ على ما سوى الله عزَّ وجلّ لفظةُ «عَالَم».

وإذا أردنا أن نجمع لفظة «عَالَم» بمعنى أجناس وأنواع وأصنافِ الموجودات سوىٰ اللَّهِ عزَّ وجلّ قلنا: «عوالم» كما نقول في جمع موجود «موجودات» بصيغة جمعٍ لغير العقلاء.

وإذا أَرَدْنَا أن نجمع لفظة «عالم» بمعْنَىٰ أنواع الموجودات الحيّة العاقلة، قلنا «عَالَمِين» بصيغة جمع العقلاء، كما نقول في جمع موجود عاقل «موجودين».

وقد يُراد من العقلاء بعضُهم في النّصّ، فيحملُ اللّفظ على المراد بدلالة القرائن، فقد يراد بالعالَمِينَ الإِنسُ والجنّ، وقد يرادُ بالعالمين الإِنْسُ فقط.

فممّا جاء في القرآن ممّا يمكن حملُ لفظ «العالَمِينَ» فيه على كلِّ ذي إدراكٍ وفَهْمٍ أو عقل، قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ۝٢﴾ فيدخل فيه الإِنس والجنّ والملائكة.

وممّا جاء في القرآن ممّا يُحْمَلُ فيه لفظ «العالَمِينَ» على الإِنس والجنّ فقط، قول الله عزَّ وجلّ في الآية الّتي نتدبَّرُها: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ وذلك لأنّ الرسول مبعوث للإِنْس وللجنّ، وكذلك القرآن هو للإِنس وللجنّ.

وممّا جاء في القرآن مما يُحْمَلُ فيه لفظ «العالَمِين» على الناس فقط، قول الله عزَّ وجلّ حكايةً لمقالة قوم لوطٍ له في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾؟.

أي: عن ملاقاة الناس جميع الناس، مَنْعاً له عن دعوة الناس إلى دينه الذي دعاهم إليه، وهذه طريقة كلِّ ذوي السلطان من الطغاة في الأرض، إذا خافُوا على جماهيرهم من داع يدعو إلى غير ملّتهم، أو مذهبهم، الديني، أو السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، ولو كان صاحبَ حقّ، وكانوا هم المبطلين.

وقد اختلفت أقوال المفسّرين في تفسير لفظة «الْعَالَمِين» في القرآن:

- فمنهم من قال: كلّ موجود سِوَىٰ الله.
- ومنهم من قال: هم كلّ من يعقل.
- وقال ابن عباس: هم الجنّ والإِنْسُ فقط، لأنّهم هم الذين بُعثَ رَسُولُ الله محمّد ﷺ إليهم. ورُوي عنه في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلُّ الخلق.

أقول: والسبب في هذا الاختلاف يرجع إلى اعتبار المفرد، وهو لفظ «الْعَالَم» وإلى دَلَالَةِ بعض النصوص، لكِنَّ ما انتهيْتُ إلَيْهِ ممّا سَبَقَ بيانُه هو ما هداني إليه الاستقراء والسَّبْرُ للنصوصِ القرآنية التي جاءت فيها كلمةُ «الْعَالَمِين»، مع النظر إلى أصل معنى كلمة «الْعَالَم» في اللُّغَة.

وأُنَبّهُ على أنَّه لَمْ يَأْتِ لفظ «عَالَم» في القرآن مفرداً، ولا مجموعاً على «عَوَالم»، وإنّما جاء مجموعاً جمع العقلاء.

﴿نَذِيرًا﴾: أي: مُنْذِراً مُبَلِّغاً أن الله سَيُعَاقِبُ الكافرين المكذبين لرسوله، والمشركين به، عقاباً يومَ الدّين وعقاباً معجّلاً إذا اقتضت حكمتُه ذلك.

يقال لغةً: أَنْذَرَ يُنْذِرُ إنْذاراً بكذا، إذَا أعلَمَ بما يُحْذَرُ ويُخَافُ مِنه، قالوا: الإِنذارُ هو الإِبْلاغُ ولا يكونُ إلَّا في التخويف.

ولفظ «نَذِير» يأتي بمعني مُنْذِر «فَعِيل» بمعنى «مُفْعل» ويُجْمَعُ علىٰ «نُذُر» ومنه قولُ الله عزَّ وجلّ لرسوله محمد في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ويأتي لفظ «نَذِير» اسمَ مصدرٍ بمعنى «الإِنْذَارِ» ويُجْمَعُ أيضاً علىٰ «نُذُرٍ» ومنه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾.

أي: كيف نَذِيري بمعنى إنْذَارِي.

ومن جَمْعِه علَىٰ «نُذُر» قولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ونُذُرِي، بِمَعنىٰ إِنْذاراتي.

وقد تُسكَّنُ الذّال، فيقالُ: «نُذْر» ومنه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.

أي: إعْذاراً أو إنذاراً.

فمعنى «أَنْذَرَهُ بالأمر» خوَّفه وحذَّره من سوءٍ أو شرٍّ أو عقاب أو هلاكٍ أو نحو ذلك.

وجاء وصف القرآن في القرآن بأنّ من مهمّاته الإِنْذار، وجاء وصفُه بأنه بشير ونذير، فمن ذلك ما يلي:

قول الله عزَّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

وبناءً على أنَّه قد جاء في القرآن وصفُ الرَّسُولِ بأنّه نذير، وجاء فيه وصف القرآن بأنّه نذير، كما يُقال: متكلّم بليغ، وكلامٌ بليغ، فالذي أراه أن يُحْمَلَ النصّ في الآية التي نتدبَّرُها على أنّ المعنيينِ مُرادان، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن، أَنْ يكونَ للنصّ الواحد دلالتان أو أكثر، وأن تكون كلُّها مُرادة، ما دامت صيغة اللفظ قابلةً بأدائها العربي للدلالة على المعنَيْينِ أو المعاني دُونَ تعارض، وهذا ما ذهب إليه فريق من كبار الأئمة(١).

فنقول: تبارك الذي نزّلَ الفرقان علىٰ عبده محمّد ليكون (كلٌّ من الفرقانِ وعَبْدِه) للعالمين نذيراً.

فالرّسول محمّد ﷺ هو الرسول الخاتم المبعوثُ للعالمين كافة (الإنس والجنّ).

والقرآن هو الكتاب الخاتم المنزّل للناس كافة (الإنس والجنّ).

واقتصرت الآية هنا على وصف كلّ من الرسول والقرآن بأنّه نذير، لأنَّ هذه الصفة هي الصفة المناسبة لكلّ العالمين، إذْ فيهم من لم يؤمن، وسيكونُ فيهم من لا يؤمنُ حتماً، ويكونُ الرسول وكذلك القرآن بالنسبة

---

(١) انظر القاعدة (٢٨) من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل» للمؤلف.

إليهم مُنْذِراً فقط، ولأَنَّ حالَ الكافرين إبَّانَ نُزول سورة (الفرقان) التي تناولت بتفصيلٍ عَرْض مواقفهم التَّعَنُّتِيّة تُجاهَ التوحيد، وتجاه القرآن، وتجاه الرسول، إنما يلائمهم معها من الرسالة الإِنذار الذي هو آخر المراحل لا البشارة.

يضاف إلى ذلك أنّه يمكن للذّهن أن يقدّر وظيفة البشارة التي ينتفع بها المتقون الذين يؤمنون، والتي جاء بيانها في نصوص أخرى من القرآن المجيد، والتي جاء بيان بعض مضمونها في سورة (الفرقان) نفسها، فكان من الحكمة البيانيّة التركيز في الآية الأولى منها على الإِنذار، مع ما سبق بيانُهُ من دلالة اللوازم العقلية على المطويّات في النّص.

ومن استقراء وسَبْرِ النصوص القرآنية التي جاء فيها استعمال مادّتي التبشير والإِنذار، نلاحظ ما يلي:

(١) ـ «ثلاثة عشر نصًّا» جاء فيها تقديم التبشير على الإِنذار، مثل: «بشيراً ونذيراً ـ مبشّراً ونذيراً ـ مبشرين ومنذرين».

(٢) ـ «نصّان» جاء فيهما تقديم الإِنذار على البشارة هما:

- قول الله عزَّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾﴾.

- وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

وقد رُوعِيَ في هذين النَّصَّيْن حالُ أكثر القوم المخاطبين الذين يغلبُ فيهم الكفرة، مع بيان تخصيص البِشَارة بالمؤمنين في الثاني منهما.

(٣) ـ (٣١) نصًا جاء فيها ذكر الإنذار دون التبشير، لأنّ المتحدَّث عنهم فيها كفرةٌ ماتُوا على الكفر، أو عانَدُوا وأصرّوا على الكفر وصار إيمانهم ميئوساً منه.

فلا يلائمهم من الرسالة إلّا الإنذار.

دلالة هذا الاستقراء والسّبر للدعوة:

من هذا الاستقراء وَالسَّبْر يَتَبيّن لَنا في الدعوة أنّ على الداعي أن يُقَدِّم في أكثر أحواله البشارةَ على الإنذار، وأن يضربَ على أوتار الطمع بثواب الله الجزيل قبل أن يَضْربَ على أوتار الخوف، حتّىٰ إذا يئس من استجابة المدعوّين، وظهر له عنادُهم وكفرُهم وجّه لهم الإنذارات والتحذيرات بعذابِ الله ونقمتِه في العاجلة والآجلة على مقدار ما يرىٰ من عنادهم وإصرارهم علَىٰ الكفر، ومهما وجَدَ لَدَيْهم ولو قليلاً من لِين الجانب نحو قبول الحقّ فَتَح لهم أبواب الطمع بعفو الله وغُفْرَانِهِ، وقدّم البشريات المرتبطات بإيمانهم واتّباعهم للحقّ.

ملاحظة أخيرة حول هذه الآية:

ويلاحظُ في هذه الآية الأولى من السورة أنّها قدّمت الدليل على كمال صفات الموجود الغيبيّ الّذِي نزّل القرآن على محمّد بن عبد الله ﷺ بالتوجيه لتدبُّر القرآنِ نفسِه الذي هو فرقان، وبفُرْقانيَّتِه يَدُلّ لَدَىٰ من تدبّره وأمعن التفكُّرَ فيه عَلَىٰ أنّه تنزيل من عزيز حكيم، وأنّه ليس كلاماً من كلام البشر.

فهو بذلك يحمل دلالَتَيْن:

الدلالة الأولى: أنَّ مُنَزّله عَزِيزٌ حكيم وليس بشراً، ولا خلقاً من خلق الله.

الدلالة الثانية: أن المبلغ له صادق في نبوّته ورسالته، وأمين فيما يبلّغ عن ربّه.

إجمال معاني الآية «الأولى» بوجه عامّ:

بعد التحليل اللّفظيّ لما جاء في هذه الآية نستطيع بعون الله عزَّ وجلّ أن نُقَدِّم تفسيراً عامًّا لها فيما يلي:

تنامَىٰ وتزايَدَ وتَعاظَمَ عَنْ كلِّ تصوُّرٍ يَتَصَوَّرُه المتصوّرون، ويُقَدِّرُهُ المقدِّرُون، الموجودُ الغيبيُّ عن إدراك الأبصار، في كمالاته، وتَنَزَّهَ عن كلِّ ما لا يليق به، في ربوبيّته الأحديّة، وفي كونه لا إلَه إلّا هو، الّذي نَزَّلَ الكتابَ الفرقانَ الذي يَفْرِقُ بيْنَ الحقّ والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والغيّ والرشاد، والحلال والحرام وسائرِ الأحكام، والْحَسَنِ والقبيح من أعمال العباد. وهذه الصفة الفرقانيّة في هذا الكتاب صفةٌ معجزةٌ، وهي آية دالّةٌ على أنّ مُنَزِّلَهُ غَيْرَ المشهودِ لِلْعِباد مُتَحلٍّ بكلّ صفات الكمال، ومنزَّهٌ عن كلّ صفات النقصان، وهو الله عزَّ وجلّ، ودالّةٌ على أنّ مبلّغه عن ربّه صادقٌ في نبوّته ورسالته، وأمينٌ فيما يُبَلّغ عن ربّه، وهو الرسول محمّد بن عبد الله ﷺ، الذي تحقّق بعبوديَّتِه الكاملة لله عزَّ وجلّ فاستَحقَّ أنْ يُمْدَحَ بأنّه عبدٌ حَقًّا لِمُنَزِّلِ الْفُرْقان، تكريماً له وتشريفاً، وقد أنزل الله هذا الْفُرقَانَ عَلَيه ليكونَ للعالَمِين كُلِّ العالَمِينَ نبيًّا رسُولاً وليكونَ الْفُرقَانُ الذي أُنْزل عليه بلاغاً عامًّا للعالَمِين، إنْسِهِمْ وجِنّهِم، فالبلاغُ القرآنيّ عامٌّ للعالمين، والرسولُ المبلّغ له رسولٌ للعالمين جميعاً. وكلٌّ منهما نذير للعالمين، وبشيرٌ للمؤمنين المتقين مِنْهُمْ.

فرسالة الرَّسُولِ عامّةٌ للعالمين إنسِهِم وجنّهم، وبلاغ القرآن عامٌّ للعالَمين إنْسِهِمْ وجِنِّهِمْ.

قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

الضميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يَعُودُ على ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ واللام الجارة هنا معناها المِلْك، كما ذكر النحاة، فالمعنى: أنّ السماوات والأرض وما فيهما ملكُه.

﴿لَهُۥ﴾ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم، و ﴿مُلْكُ﴾ مبتدأ مؤخّر. وقد أفاد التقديم حَصْر ملك السماوات والأرض به تبارك وتعالى.

﴿مُلْكُ﴾: يُقَال لغة: مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مُلكاً بضم الميم، وفتحها، وكَسْرها، أي: حازه، وانفرد بالتصرُّف فيه، وكان له عليه سلطان، وقدْرَةٌ على التصرُّف.

والله عزّ وجلّ الذي نزّل الفرقان على عبده هو مالك كل شيء، لأنَّه هو خالقه، والمتصرّف فيه، وهو الْمَلِكُ عليه ذو السلطان الذي لَا يُشاركه في سلطانه أحد.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جمع سماء، ولفظ السماء يُطْلَقُ لغة على كلّ ما كان في جهة العلوّ بالنسبة إلى اعتباراتنا التي نرى فيها الأرض تحتنا، فكلّ ما هو مقابل لها فهو في جهة العلوّ.

وقد أعلمنا الله عزَّ وجلّ أنه خلَقَ فوْقَنَا سبْعَ سماواتٍ طباقاً، أي: بعضها فوق بعض، يقال لُغةً: طابقَ بين قميصَيْنِ إذا لَبِسَ أحدَهُمَا فوق الآخر. وأعلمنا الله أنه جعل في السماء بُروجاً وأنّه جعل فيها سِراجاً وهي الشمس، وقمراً منيراً، وأعلمنا أنّه خلق سَبْعَ سماوات طباقاً وجَعَلَ القمر فيهنّ نوراً، وجعل الشمس سراجاً، كما جاء في سورة «نوح» وقرأ حمزة والكسائي وخلف «سُرُجاً» بالجمع في قوله تعالى في سورة (الفرقان):

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

وأعلمنا أنّه زَيّنَ السّمَاءَ الدُّنْيا بمصابيح.

فكون الشمس والقمر في السماء دليلٌ على أنَّ السماء محيطة بهما، وهما من دون النجوم التي هي مصابيح زيّن الله بها السماء، ولا يلزم عقلاً كونُ الزِّينَةِ خارجَ جِرْمِ المُزَيَّن، فاللَّهُ قَدْ زَيّن وجوه الناس بالعيون والحواجب والأنوف والخدود والأفواه، وزين الأفواه بالأسنان الجميلة، والنَّسَّاجُ يُزَيِّن الْقُمَاش بالألوان والرُّسُوم والخطوط وهي جزءٌ منه.

فالله أعلم بالمراد من حقيقة السماوات السبع الطباق، وتحديد أبعادها، وتحديد كلّ سماء منها، والبحثُ العلميّ الكوني لم يصل إلّا إلى النزر القليل منها.

ونحن نلاحظ في جهة العلوّ بالنسبة إلَيْنا نجوماً وكواكب ومجرّات، وأبعاداً يُقدِّرها علماء الفلك ببلايين السنين الضوئية، دون أن تَقْدِر وسائل المعرفة لديهم على الإحاطة بها، فلا يَستطيعون التعرّف إلّا على القدر اليسير جدًّا منها، وهو القدر الذي تكشفه المجاهر، وتُقَدّمه الصور الملتقطة بوساطة الأجهزة المرسلة في المركبات التي تُرسل إلى الكواكب القريبة من أرضنا.

وقد جاء في القرآن إطلاق لفظ «السماء» على السُّحُب التي يَنْزِلُ منها المطر والثلْجُ والبرد.

وجاء في القرآن لفظ «السماء» مفرداً، وجاء مجموعاً على «سماوات» ولكنّ لفظ الأرض لم يأتِ في القرآن إلّا مفرداً.

وأعلمنا الله أن طبيعة الأرض التي هي مستَقَرُّنا في هذه الحياة الدنيا تُشْبِه طبيعةَ السماوات، فقال تبارك وتعالى في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ⑫﴾.

ويكفي لتحقيق المماثلة أن تكون طبيعة الأرض في تكوينها وفي كونها مخلوقةً لله عزَّ وجلّ شبيهةً للسماوات في ذلك، أمّا العدد فلا تشترط المماثلة فيه، فلا يلزَمُ أن تُوجَدَ سبعُ أرضين إحداهنّ أرضنا هذه، إذْ يلزم أن تكون السماوات السبع فوقَهُنَّ طباقاً أيضاً، كما هو واقع حال أرضنا، ولا داعِيَ للسَّبْحِ الخياليِّ الذي لا دليل عليه من نصِّ المبلِّغِ المعصوم.

أمّا ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنْ أَرْضٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

فالمراد منه سبعُ طبقاتٍ منها، وهي الطبقات التي يمكن أن تعتبرَ ملكاً لمالِكِ الأرض. والمعنى أنّ ما وراء هذه الطبقات يدخل في الأملاك العامّة، والله أعلم.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: هذا الكوكب الذي نعيش عليه في هذه الحياة الدنيا، وهي التي منها خلقنا الله، وفيها يعيدنا، ومنها يخرجنا تارةً أُخرى.

ويطلق لفظ «الأرض» على جزءٍ ما من عموم الأرض.

وأرض كلّ شيءٍ أسفله، والأرض في اللّغة مؤنثة، وتجّمع على: «أَرَضِين ـ وأَرْضِين ـ وأَرَاضٍ ـ وأُرُوضٍ».

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

أي: ولم يجعلْ سبحانه لنفسه ممّا خلق من عباده ولداً.

إنّ نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، لها احتمالان:

الأول: أن تتضمّن ادّعاء أنّ الله انفصل عن ذاته ولد، نظير ما جعل للأحياء من خلقه من نظام التوالد، وهو نظام جعله الله في خطّة التكوين للحوادث ومن خصائصها، ودليلاً على حدوثها.

الثاني: أن تتضمّن ادّعاءَ أنّ الله خلق عباداً من عباده، واتّخذ منهم أولاداً لنفسه بالتبنّي، وهم خلقٌ من خلقه، وليسوا أبناءً حقيقةً له.

واتّخاذ الولد بالتبنّي: إمّا أَنْ يكون ناشئاً عن حاجة عاطفيّة إلى أن يكون له ولد، وبما أنّه لا يمكن أن يكون له ولد مشتقٌ من ذاته، فليتّخِذْ ولداً يخلقه هو. وإمّا أن يكون ناشئاً عن حاجةٍ إلى معينٍ له في ربوبيّته، فهو يخلق لنفسه هذا الولد المعين.

وكلّ ذلك نقصٌ لا يَلِيق بكمال صفات الله عزّ وجلّ.

وقد أثبت الله عزّ وجلّ تنزُّهَهُ عن أَنْ يكون له ولدٌ مشتقٌ من ذاته حقيقة، ومنفصل عنه، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾.

وأثبت سُبحانه غِناهُ عن اتِّخاذِ ولد، فقال في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

فاتّخاذ الولد يكون بناءً على الحاجة إلى الولد، لكنَّ اللَّهَ غنيٌّ بذاته عن الولد، ولو اتّخذ ولداً وهو الْغَنِيُّ عنه، لكان اتّخاذه له عبثاً، والله الذي تبارك في ذاته وفي صفاته مُنَزَّه عن العبث.

فتمّ بذلك الحصار الفكريُّ لإسقاط أوهام مُدَّعِي أنّ لله ولداً، منفصلاً من ذاته، أو أنّه اتّخَذَ لنفسه ممّا خلق من عباده ولداً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾:

أي: مَا كَان له شريك في مُلكِ السَّماواتِ والأَرْض أزلاً، ولا يَكُونُ له شريكٌ في الملك فيما لا يَزَال، ولَا يكون له شريك في الملك أبداً، لأنّه هو وَحْدَه الخالق ذو السلطان المالك لكل شيءٍ.

إنَّ الدليلَ العقليَّ الذي دلّ على أنّه ليس له شريكٌ في الْمُلْكِ أزلاً، يدلُّ أيضاً على أنّه ليس له شريك في المُلْكِ فيما لَا يَزال، ويَدُلّ أيضاً علَىٰ أنّه ليْسَ له شريكٌ في الْمُلْكِ أبداً، إذْ لا شريك له في الخلق ولا في الأزليّة، ولا شريكَ لَهُ في الأبديّة الذّاتية.

والفعل الماضي إيجاباً أو سلباً قد يستعمل فيما له الكينونة الدائمة، من الأزل إلى الأبد، ويكثر هذا في صفات الله عزَّ وجلّ، مثل: «وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ـ إنّ الله كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ـ وكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيراً»(١).

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

الخلْقُ: يأتي في اللّغة بمعنيَيْن:

---

(١) انظر القاعدة «الثلاثين» من «قواعد التدبّر الأمثل» للمؤلف.

المعنى الأول: التقدير، وهذا المعنى قد يكون من غير الله عزَّ وجلّ، بالتمكين القدري الذي يمنحه الله عبادَه، ومنه قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لعيسىٰ عليه السلام كما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى . . . ﴿١١٠﴾﴾.

أي: وإذْ تُقَدِّر فتصوِّر وتصنَعُ وفق التقدير.

المعنى الثاني: الإِبداع والإِيجاد من العدم، على غير مثالٍ سبق، ويدخل التقدير لُزوماً في معنى الإِبداع، إذْ لا يكون إبداعٌ من دون تقدير للعناصر، والأشكال، والصور، وكلّ ما يخضع للمقادير، كذلك يفعل كلّ حكيم.

ولمّا كان التقدير والتصوير والصّنع للأشياء من موادّ مكّنَ الله عزَّ وجلّ عبادَه من أعمالٍ ما فيها بتمكينه القدري في نظام الكون، تُسَمَّىٰ خَلْقاً في لسان العرب، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿. . . فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

فنسب إلى غيره خلقاً على هذا المعنى الذي مكَّنَ عباده منه.

أمّا الخَلْقُ بمعنى إبداع الأشياء وإيجادها من العدم المحض، فهو من صفات الربّ عزَّ وجلّ، التي لا يشاركه فيها أحد، ولم يُعطِ الله أحداً من خلقه هذا التمكين.

فالكائناتُ كلُّها خلْقُه إبداعاً وإيجاداً من العدم، فهي جميعها ملكُه، لا يُشاركُه فيها أحد، وهذه هي وحدةُ الله عزَّ وجلّ في ربوبيته.

ووحدة الرّبوبيّة تستلزم عقلاً وحدة الإِلَٰهيّة، فالذي هو سبحانه الرّبّ

الخالق، هو وحده المستحقّ لأن يكون الإِلّه المعبود، فلا إلّه إلّا الله، لأنّه لا ربّ إلّا الله.

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾.

أي: فقدَّر بالإِيجاد الفعليّ التنفيذي، مَا قَدَّر بعلمه وقضىٰ بإرادتِه أن يُوجِدَهُ، تقديراً دقيقاً مُحْكَماً دَالّاً على عظمته وجلاله وبديع صنعه.

التقدير: يدلُّ في اللّغة على تحديد مقادير الأشياء بالإِرادة، أو بالحُكْم، أو بالتصوّر، أو بالفعل والتنفيذ العملي للمراد.

وكلُّ شيءٍ يُمكن تجزئته إلى أقسام أو وحدات صغرى، أو قابل للقسمة ولو في التصوّر الذهني، هو ذو مقادير.

فالزمن ذو مقادير، والمكان ذو مقادير، والأعداد ذاتُ مقادير، والحرارة ذات مقادير، وكلّ جسم أو سطح أو خطّ ذو مقادير، وكلّ كائنٍ ذي أبعادٍ أو ذي أجزاء فهو ذو مقادير، إلى غير ذلك.

والمقادير تبدأ من أصغر وحدة ممكنة في الوجود، أو في التصور، ثم هي قابلة للتزايد من غير حصر في عالم الممكنات.

والله عزَّ وجلّ قد خلق كلّ شيءٍ له وجودٌ ما من الموجودات الممكنةِ فجعل مقادير كلّ عنصر من عناصره، وأجزائه مهما كانت صغيرة، على وفق الحكمة التامّة منها، وبالمقادير التي تؤدي فيها وظائفها في الكائن على أحسن وجه، وأكثره حكمة.

ويدلُّ الاستنتاج العقليُّ على أنَّ هذا لا يتمّ إلّا بأن يكون من صفات الله عزَّ وجلّ ما يلي:

(١) أنّه محيطٌ بكلّ شيءٍ علماً.

(٢) أنّ له إرادةً مختارة مبدعة، فهو يختار من الممكنات ما يشاء إيجاده، بلا جبر ولا ضرورة.

(٣) أنّ له الحكمة البالغة في تحديد وتقدير وتنفيذ كلّ صغير وكبير على وفق الغاية المقصودة منه.

(٤) أنّ له القدرة العظيمة القادرة على إيجاد كلّ ما سبق في قضائه وقدره.

ولعُلَماء الكون بحوثٌ مستفيضة مذهلة حول قضيّة مقادير العناصر في المخلوقات، سواءٌ أكانت من المتناهيات في الصغر، أم من الكائنات العظمىٰ. ففي العين ودقائق عناصرها، وفي الهرمونات ومقاديرها الصغرى، وفي الخليّة، وفي الذرّة، ما يحيّر ألباب أولي الألباب من أهل البحث العلمي.

فدلّ التّوجيه لقضيّة كون الله عزَّ وجلّ خلَقَ كُلَّ شيءٍ فقدَّرَه تقديراً، على أنّ النظر في الكون يهدي المتفكّرين الباحثين إلى جملةٍ من صفات الخالق، تجعلهم يشهدون له بوحدانيّته في ربُوبيّته.

ولمّا كان توحيد الربوبيّة يلزم عنه عقلاً توحيد الإلَهية للربّ الخالق، وجدنا أنّ طريقة القرآن في إثبات توحيد الإلَهيّة لله عزَّ وجلّ هو إثبات الرُّبوبيّة له، وإثبات انفراده وتوحُّدِه بها، ثمّ التنبيه على أنّ برهان العقل يقضي بأنّ من تفرّد بالرّبوبيّة فكان هو وحده الربّ الخالق، لا بدّ أن يكون هو وحده المتفرّد بالإلَهيّة، فلا يُعْبَدُ معه سواه، كائناً ما كان، وكائناً من كان، لأنّ العبادة والتأليه حقّ الرّبّ الخالق وحده عقلاً، فلا يَصحُّ عقلاً أن يُعْبَدَ غيره، ولا أن يُعبَدَ معه أحد، لأَنّ الإشراك في العبادة يقتضي الإِشْراكَ في الربوبيّة. أوْ أَنَّ اللَّهَ أَذِنَ بعبادَة غيْرِه، وهذا لم يكُنْ بل أمرَ الله بِعبادَتِه وحْدَهُ، وَنَهَىٰ عن عِبَادَةِ غيْرِه.

إجمال معاني هذه الآية:

وتبارك الذي له مُلْكُ السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما،

ويلزم عقلاً أنّه لا يكون له هذا الملك إلّا بوصف كونه هو الخالق وحده، وهو الرب وحده لكل ما سواه، ويلزم من هذا أيضاً أنّه لا ولد له في الوجود قد انفصل عن ذاته، لأنّ كلّ ما سواه ملكه، والمنفصل عن الذات هو جزء منها فهو شريك.

وتبارك الذي لم يتَّخذ ممَّن خلَقَ من عباده ولداً، لاستغنائه بذاته عن اتخاذ الولد.

وتبارَكَ الذي خلق كلّ شيءٍ في الوجود من دونه، إبداعاً على غير مثالٍ سبق، بعظيم قدرته، على وفق علمه وإرادته المختارة، وحكمَتِه البالغة، فقدَّرَ كلّ صغير وكبير ممّا خلق بالإيجاد التنفيذي الذي هو أثر قدرته العظيمة، تقديراً بالغ الدّقّة والإتقان والإحكام، على وفق ما كان قد حدّده بإرادته وحكمته، وقدّره وقضاهُ بعلمه وإرادته.

فاشتملت هذه الآية على أربع قضايا:

القضية الأولى: أنّ الذي نزّل الفرقان على عَبْدِهِ لَهُ مُلْكُ السّماوات والأرض (وهذه قضية تشتمل على تفرد الله بالربوبيّة).

القضية الثانية: أنّه سبحانه لم يتّخذ ولداً (وهذه قضيّةٌ تشتمل على تنزيه الرّب الخالق عمَّا افتراه عليه الذين جعلوا له ممّا خلق ولداً).

القضيّة الثالثة: أنّه سبحانه ليس له شريك في الملك (وهذه القضيّة تشتمل على تنزيه الرّب عَنْ أن يكون له شريك في ربوبيته، وتنزيهُهُ عَنْ أن يكون له شريك في إلَهيَّته باللّزوم العقلي).

القضية الرّابعة: أنه تَبَارَك وتَعَالَىٰ خَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدره تقديراً دقيقاً محكماً دالاً على عِلْمِه المحيط بكلّ شيءٍ، وحكْمَتِه البالغة، وقدرته العظيمة (وهذه القضية تلفت نظر المتفكرين إلى بعض آيات الله في كَوْنِه الدالّة على وجوده وعظيم صفاته).

هذه القضايا الأربع قد اشتملت بدَلَالَاتِها النّصّيّة واللُّزوميَّة الذِّهْنِيّة على توحيد الربوبيَّةِ لمنزّل الفرقان علىٰ عَبْدِه، الذي لا تُدركُهُ الحواسّ، ولكِنْ تُقِرُّ به العقول، وتُؤْمِنُ به القلوب والنفوس السّلِيمة، ودلّت باللُّزومِ العقليّ على ضرورة توحيد الإِلَهيّة له، وعدم اتِّخاذ شريكٍ له في العبادة. وبهذا لَزِمَت أهلَ الفِكْرِ الحجَّةُ الرّبّانيَّة الدَّامِغة.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ... ③﴾.

﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾: اتَّخَذَ على وزن «افْتَعَل» من الأخذ، ومن معاني هذه الصيغة التكلّف والتَّصنُّع على خلاف طبيعة الأمر، أي: جعلوا بصُنْعٍ منهم آلهة لأنفسهم، وهي ليست بطبيعتها آلهة.

والضمير في «واتَّخَذُوا» لا يحتاج أن يعود على مذكورٍ في اللفظ، لأنَّ من طبيعة الذهن المفكر ـ بعد أن تتضح له دلالات القضايا الأربع في الآية السابقة ـ أن يستحضر تلقائيًا صُوَراً من واقع أحوال الناس، فيجد فيهم مؤمنين موحّدين، ويجد فيهم مشركين يَعبُدون من دون الله آلهة، فيأتي الضمير في «واتَّخَذُوا» منطبقاً على فريق المشركين دون أيّة قرينةٍ لفظيّة.

﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: أي: من أشياء غيرِه هي بطبيعتها تقع دونه، في مقابل اتّصافه بالفوقية المطلقة، والضمير في «مِنْ دُونه» يعود على الذي نزّل الفرقان على عبده، والذي له ملك السماوات والأرض...

وكلمة «دُون» في اللُّغة تأتي في الأصل مقابل كلمة «فَوْق» فهي مثل «تحت». وكلٌّ من «فَوْق ودون» يستعملان في الحِسّيّات وفي المعنويات.

فمن الحسيات قول الله عزَّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: في جهة العلوّ الحسّي.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ أي: من تحتها.

ومن المعنويّات قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

أي: رفع بعضكم فوق بعضٍ درجات معنويّة، وأنْزَلَ بعضكم دون بعضٍ درجات معنوية.

ولذلك تستعمل «دون» في التحقير، فيقال: فلانٌ دُونٌ، أي: حقير خسيس.

قال أهل اللّغة: وتستعمل كلمة: «دون» في معانٍ كثيرة منها «قبل ـ أمام ـ وراء ـ تحت» إلى غير ذلك، والقرائن تحدّد المعنى.

ودرج المفسّرون على تفسير عبارة «من دونه» في القرآن بعبارة: من غيره.

وأقول: لمّا كان الله عزَّ وجلّ هو المتفرّد بالعلوّ المطلق الذي ليس فوقه علوّ، على كلّ معاني العلوّ والفوقيّة التي تليق بجلاله سبحانه، فلا يشاركه في العلوّ والفوقيّة شيء، كان كلّ ما عداه هو من دونه، وهذا يدلّ على معْنَيَيْن:

المعنى الأول: المغايرة التي يُدَلُّ عليها بعبارة «من غيره».

المعنى الثاني: التحتيّة المقابلة للفوقية التي تدلّ عليها كلِمات منها: «تحت ـ أسفل ـ دون».

فتفسير عبارة «مِنْ دُونِه» بمعنى: «مِنْ غيرِه» فيه تقصير عن دلالة العبارة القرآنيّة المنتقاة بعناية، التي نجدها في زائد على مئة وعشرين نصًّا، بمناسبة اتّخاذ المشركين آلهة من دون الله.

لذا أرى أنْ تُفَسَّرَ الكلمة بحسب أصل معناها المقابل للفوق، لأنّه لا أحد يُشارك الله في فوقيّته، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

لكن قد تأتي بعض النصوص الّتي ينبغي تفسير «دون» فيها بمعنى «غير» فقط مثل ما جاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ... ﴿٤١﴾﴾.

﴿ءَالِهَةً﴾: جمع إلَه، أي: معبود، فهم يتخذون معبودين يعبدونهم من دون الله، ويتقرّبون إليهم بالقرابين، ويدعونهم، ويسألونهم أن يدفَعُوا عنهم ضرًّا، أو يجلُبُوا لهم نفعاً، فهم يتَّخذونهم شركاء للذي له ملك السماوات والأرض في الإِلَهيّة التي لا يستحقّها سواه، لا على سبيل الانْفِراد دونه، ولا على سبيل المشاركة له.

فالذين يعبدون من دون الله الملائكةَ أو أحداً من البشرِ أو الجنّ أو رموزاً من الأوثان والأحجار والأشجار والنجوم والكواكب وغَيْرِها، هم مشركون مع الله آلهة يعبدونهم من دون الله، وربّما يعبدونهم مُهْمِلين أو ناسين عبادة الله.

والذين يقدّسون المادَّةَ والقوانينَ الطبيعيّة، ويجعلون لها ما لله عزَّ وجلّ من خلقٍ وتقدير، ويكْفُرون بالربّ الخالق العليم الحكيم القدير الحيّ المريد الذي يفعل ما يشاء ويختار، هم مادّيون أو دهريون مُلْحِدُون يَجْحَدون الله عزَّ وجلّ، وهؤلاء لا يجعلون لله شريكاً أو شركاء، وإنَّما يكفرون بالله كفراً كليًّا، ويجعلونَ مَا لله من ربوبيّة، لأنظمته وسُنَنِه التي وضَعَها هو في كونه، أو للعناصر المادّيّة التي خَلَقها هو سبحانه، وهو مالكها والمسيّر لها والمتصرف فيها بحكمته في مقاديره، وهو الْمُمْسِكُ لها في الوجود لِئلَّا تزول، ولو رفع عنها الإِمساك في الوجود لزالت، ولعادت كما كانت عدماً.

ولمّا كانت الآية تتحدّث عن واقِعِ حال المشركين الوثنيّين الذين كانوا هم الأكثريّة الغالبة في غير المؤمنين، جاء فيها وصف آلهة المشركين بأنَّهم لَا يخلقون شيئاً، وهُمْ يُخْلقُونَ، ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نُشُوراً.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾: أي: لَا يُوجِدُون شيئاً ما صغيراً أَمْ كبيراً من العدم، لأنَّ الله لم يُعْطِ أحداً من خلقه شيئاً من ذلك، ولا يَسْتَطِيعون صُنْعَ شيءٍ ممّا مكّنَ الله منه بعض خلقه بقانونه القدري، إلَّا بتَمْكِين اللَّهِ وإرَادَتِه وإذْنِه، فلَوْ فعلوا شيئاً لَمْ يكُونُوا خالقين لَهُ حقيقة، بل اللَّهُ يَخْلُقُه وهم متّخذو أسباب، وأعمالُهم أعمالٌ تحويليّة بتمكين الله إيّاهم، وخَلْقِهِ لقدراتهم.

ولمّا كان المتحدَّثُ عنهم يَعبُدون أوثاناً هيَ رموزٌ لما يَعبُدون من ورائها، فإنّ أوثانهم لا تَفْعَلُ شيئاً مطلقاً، لا علَىٰ سبيلِ الْخَلْقِ الحقيقيّ، ولَا عَلَىٰ سَبِيل السَّبَبِيَّة، إنّما هي في الحقيقة عبادةٌ لأوهامٍ يصطنعونها في مخيّلاتهم، ويفترونها على الحقيقة افتراءً.

وكلمةُ «شيء» تُطْلَقُ على كلّ قابل لأن يُعْلَم، من مادّةٍ أو معنى، عظُمَ أَمْ صَغُر ودَقَّ، بدليل قول الله عزَّ وجلّ في آية الكرسي من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ... ﴿٢٥٥﴾﴾.

وعلْمُ اللّٰهِ يشمَلُ الْمَوجُودَ والمعدومَ، الواجبَ والممكن والمستحيل، فلا يقتصر إطلاق كلمة «شيءٍ» على الموجود.

وكلمة «شيئاً» في قوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ جاءت نكرةً في سياق النفي، فهي تَعَمُّ كلَّ شيءٍ قابلٍ لأن يُخْلَقَ.

وذكر الله آلهة المشركين بضمير جمع العقلاء، لأنّ أوثانهم رموز وتماثيل من يَعبدونهم من العقلاء الأحياء أو الأموات، أو رموز وتماثيل من يتصوّرونهم كذلك.

ودلّ قول الله تعالى في وصف آلهة المشركين ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ على أنَّهم لم يكونُوا شركاءَ لله في الخَلقِ، وعلى أنّهم لا يمْلِكُون لِعُبَّادِهم شيئاً يحتاج خَلْقاً، فعبادتُهُمْ لشُرَكائِهم ظُلْمٌ عظيمٌ، إذْ يَجْعَلُون ما هُو حقٌّ لله وحْدَه مُوَّجهاً لغيره.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: أي: وشُرَكَاؤُهم هؤلاء هُمْ بأنْفُسِهم يُخْلَقُون ما تَجَدَّد بقَاؤُهم في الْوُجودِ خَلْقاً منْ بَعْدِ خَلْقٍ، فهم مفْتَقِرُون في أصْلِ وُجُودِهِمْ إلى الخالِقِ البارِئ عزَّ وجلَّ، ومفتَقِرُون في بَقاءِ وُجُودِهِمْ إلىٰ خَلْقِ البَارِئ لهم خلقاً من بعد خلْقٍ، مُمْسِكاً لَهُمْ في البقاء.

دلَّ على هذا استعمال صِيغَةِ الفعلِ المضَارع التي تَدُلُّ على الحدوث المتجدّد، فشَأْنُهُمْ كَشَأْنِ كلِّ الباقِيَاتِ في الْوُجُودِ، إنّما تبقىٰ بعمليات الخلْق الرّبّاني المتجدّد لها، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (فاطر/ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾.

أي: ولئن تركَ إِمْسَاكَهُما في الوجُودِ لَعَادَتا إلى طَبِيعَتَيْهما، وهي العدم مع إمكان الوجود بقدرة الْمَوْجُودِ الأزليِّ الأبدِيِّ، فلا مُمْسِكَ لَهُما في الوجود من بعد الله الرّبّ الخالق.

قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾:

أي: وهؤلاء الشركاء المعبودُون لا يملكونَ لأنفسهم دفع ضرّ على وجه العموم إذا أراد الله أن يُنْزِل بهم ضرًّا، ولا جلب نفع على وجه العموم إذا أراد الله أن يمنعه عنهم، فضلاً عن أن يَمْلِكُوا شيئاً من ذلك للّذين يتّخِذُونَهُمْ شركاءَ لِلَّه، فهم يعبُدونَهُمْ رَجَاءَ دَفْعِ ضرّ أو جلب نفع بسَبَبِهم لأنفسهم، أو رجَاءَ جَلْبِ ضرّ أو منع نفع بسببهم لمَنْ يُعادونهم.

فالَّذي لا يَمْلِكُ الشيءَ لنفسه لا يَمْلِكُه لغيره بداهةً.

وجاءت كلمتا «ضرًّا» و«نفعاً» نكرتين في سياق النفي ليَعُمّا كلَّ ضرّ وكلّ نَفْعٍ، جَلْباً أَوْ منعاً، وألْمَحَ النصّ إلى أن مالك النفع والضرّ هو الله وحده لا شريك له.

وجاء التعبير بنفي الملك ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ للدَّلَالة على أنَّهم لا يقدرون على التصرّف في الضرّ والنفع، لأنّ القادر على التصرف بشيءٍ ما لا بدّ أن يكون له فيه نوعُ ملكٍ، وَلَوْ بالتمليك والتمكين، لكن شركاءهم لا يملكون شيئاً من ذلك.

﴿ضَرّٗا﴾: الضَّرُّ، والضُّرُّ، والضَّرَرُ: الأمر المكروه، يُقال: ضَرَّهُ، وضرَّ به، ضُرًّا وضَرًّا وضَرَراً، إِذَا أَلْحَقَ به مكروهاً.

والضُّرُّ والضَّرُّ: مَا كان من سُوء حالٍ أو فَقْرٍ أو شِدَّةٍ في البدن، ومنه قول إخوة يوسف عليه السلام له وهم لا يعرفون أنه أخوهم كما جاء في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿... قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ... ﴿٨٨﴾﴾.

﴿نَفۡعًا﴾: النفع الخير، وكلّ ما يَتَوصّل به المخلوق إلى مطلوب يسُرُّه.

قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾﴾:

أي: وهؤلاء الشركاء المعبودون من دون الله لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً لم يُرِدْهُ الله، من دفع موتٍ أو جَلْبِه، أو منعِ حياةٍ أو جلبها، أو إحياء بعد الموت.

﴿نُشُورٗا﴾: أي: بَعْثاً إلى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْت. يقال لغةً: نَشَر اللَّهُ الميِّتَ يَنْشُرُه نَشْراً ونُشُوراً، ويقالُ أيضاً: أَنْشَرَهُ، فَنَشَرَ الميّتُ، إذا أحياه فَحَيِي.

وجاءت كلماتُ «مَوْتاً» و«حَيَاةً» و«نُشُوراً» نَكِرَاتٍ في سياق النفي لتعمَّ كلّ موتٍ وحياةٍ ونُشُورٍ، لأَنْفُسِهم وغَيْرِهم، وألْمَحَ النصّ إلى أنّ مالك الموت والحياة والنشور هو الله عزَّ وجلّ.

إجمال معاني هذه الآية بوجه عام:

واتخذ المشركون الكافرون اخْتِلاقاً واصطناعاً وافتراءً على الحقيقة من دون الذي له مُلْكُ السماوات والأرض الذي له الفوقيَّةُ الْمُطْلَقَةُ، معبودين سوى الله عزَّ وجلّ، فجعلوهم كذباً وزوراً آلهة يعبدونهم كعبادة الله، وهم لا يستحقون شيئاً من عناصر العبادة، لأنّهم مُجَرَّدونَ من الصفات التي يمكن أن يتوهَّمُها عابدوهم فيهم.

وقد ذكر الله عزَّ وجلّ من صفات الآلِهَةِ الذين يَعْبُدهم المشركون من دون الله أربع صفات، تقتضي فَسَادَ مذهبِ المشركين في اتّخاذهم إيّاهم آلهة، ومِنْ بديعِ البيان القرآنيّ أنَّ هذه الصفات الأربع قد ذُكِرتْ في مُقَابل الصّفات الأرْبع التي وصف الله بها نفسه في الآية الثانية من السورة.

الوصف الأوّل: أنّهم لَا يَخْلُقُون شيئاً ما، صغيراً كان أَمْ كبيراً.

الوصف الثاني: أَنَّهُم يُخْلَقُونَ خَلْقاً من بعد خلق، ما داموا في الوجود، وذلك بإمساكِهِمْ فيه، وإمدادِهم بما يحتاجون إليه لاسْتِمْرار وُجُودهم، بعد أنْ بدأ خَلْقَهُمْ إذْ أوجدهم ولم يكونوا من قَبْلُ شيئاً مذكوراً.

الوصف الثالث: أنّهم لا يملكون لأنفسهم دفع ضرٍّ أو جلْب نفع، فهم لا يملكون لعُبَّادِهم شيئاً من ذلك بداهة، ومن باب أولى.

الوصف الرابع: أنَّهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم موتاً ولَا حياةً ولا نُشوراً.

فاتّخاذُهُمْ آلهةً مِنْ دُونِ الّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ والأرض عَمَلٌ باطل وافتراءٌ على الله في حقه على عباده.

إنَّ المشركين لو اسْتَبْصَروا الحقَّ وعقلُوا وأَنْصَفُوا، وهجروا تقاليدهم العمياء، وتعصُّبَهُم لما كان عليه آباؤهم، وتَركُوا عِنَادَهم واتّباعَهُمْ لأهوائهم، لاستغفروا الله لذُنوبهم، وتابوا إليه، وآمنوا بالله وبرسوله وبِكتَابه الّذي نزّله عليه، وأَسْلَمُوا وعبدوا الله وَحْدَه نابِذين عبادَتَهُمْ لآلِهَتِهِم الّذين اتّخذُوهُمْ شُرَكاء لله، ولفَعَلُوا كما فعل الذين آمنوا وأسلموا من قومهم.

ميزان التقابل بين صفات الله وصفات آلهة المشركين

الله عزّ وجلّ	آلهة المشركين
١ ـ له مُلْكُ السَّماوَاتِ والأرْض.	١ ـ لا يَخْلُقُونَ شيئاً.
٢ ـ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً.	٢ ـ وَهُمْ يُخْلَقُون.
٣ ـ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في الْمُلْكِ.	٣ ـ وَلَا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً.
٤ ـ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً.	٤ ـ وَلَا يَمْلِكُون مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (٤ ـ ٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

في هذا الدرس بيان موقف الذين كفروا من القرآن (الفرع الثاني) من فروع موضوع السورة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

المرادُ بالّذِينَ كَفَرُوا هُنَا عُتَاة مُشْرِكي مكة، وكذلك الّذين بلغتهم

دعوة الرَّسُول وقالوا مثل قولهم، فالسورة كما سبق بيانُه مكيّة التنزيل، وهي تتحدَّثُ عنهم.

من المثير للإعجاب التنويع البديع في العبارات لدى الحديث عن الكافرين المعنيّين في السورة.

- ففي الآية (٣) تحدَّث اللَّهُ عزّ وجلّ عنهم بعبارة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾.
- وفي الآية (٤) تحدّث الله عزّ وجلّ عنهم بعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.
- وفي الآية (٢١) تحدّث الله عزّ وجلّ عنهم بعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾.
- وفي الآية (٣٢) تحدّث الله عنهم بعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ومع ما في هذا التنويع من تَفنُّنٍ بديع في التعبير عنهم نُلاحظ الملاءمة بين العبارة المختارة وما جاء بعدها من موضوع.

فعبارة: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ اقترنت ببيان ما كانوا عليه قبل عرض موقفهم من القرآن والرسول والدّعوة الجديدة في بيئتهم.

وعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ اقترنت ببيان موقفهم من القرآن والرسول والدِّين الجديد، إذْ هو موقف الكفر ورفض الحجج والبراهين الإيمانية.

وعبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يخافون لقاء الله، اقترنت ببيان مطالَبَتِهم بإنْزال الملائكة عليهم، أو برؤية ربّهم، مع أنّهم لو حَقَّقَ الله طَلَبَهُمْ لكان بذلك هلاكهم، بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿كَفَرُوٓاْ﴾: يأتي الكُفر في اللّغة بمعنى جُحُودِ النّعمة، وهو ضِدُّ الشكر، يقال: كَفَر بالنّعمةِ إذَا جَحَدها وسَتَرها.

وأصلُ معنى الكُفْرِ في اللّغة تَغْطِيَةُ الشيءِ تغطيةً تَسْتهلكُهُ، وكلُّ من سَتَرَ شيئاً فقد كَفَرَهُ وكَفَّرَهُ، ولذلك يقالُ للزَّرَّاع كافر، وتسمِّي الْعَربُ الزُّرَّاع كُفّاراً، لأنّهم يَكْفُرُونَ الحبَّ الْمَبْذُورَ بتراب الأرض.

فينبغي أن يكون الكافر في الدِّين هو الذي ستَرَ أدِلَّة الإِيمان وجَحَدَها، بعد أن وضحَتْ له، وليس الكافرُ هو مَنْ كَانَ خَالِيَ الذهن من أدلّة الإِيمان، ولا الباحثُ عنها، ولا المتريثُ حتَّىٰ تتّضح له أدلّة الإِيمان، بل هو العارف بحقائق عناصر الإِيمان الساترُ لها.

ومِنْ هذا يتّضح لنا أنَّ الكُفْر في مفهوم الدين هو موقف الرَّفْضِ والْجُحود، بعد معرفة الحقّ ببراهينه، وهذا ما تدلّ عليه الاستعمالات القرآنية، مثل: «**إنّ الذين كفروا ـ وقال الذين كفروا ـ وقال الكافرون ـ والذين كفروا ـ من كَفَر فعليه كُفْرُه ـ ومن كَفَر فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ**» إلى غير ذلك.

﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾:

أي: ما هذا القرآن إلّا إفْكٌ افْتَرَاهُ محمّد بنُ عبد الله على ربّه.

﴿إِنْ﴾: حرفُ نفي بمعنى «ما» النافية. والمشار إليه باسم الإشارة «هذا» القرآن الذي جاء الحديث عنه في الآية الأولى من السورة تحت عنوان (الفرقان).

﴿إِفْكٌ﴾: الإفْكُ الحديث والكلامُ الكذب بوجه عامّ، سواءٌ أكان عن عمْدٍ واختلاقٍ من المحدّث به، أم عن غير عمد منه، كأن كان متوهّماً أو ناقلاً.

يُقَالُ لُغَةً: أَفَكَ يَأْفِكُ أَفْكاً وَإِفْكاً وَأُفُوكاً، ويُقالُ أيضاً: أَفِكَ يأْفَكُ إِفكاً، إذا كذبَ، أوْ حدَّث بكلامٍ كَذِبٍ.

وأصْل الإفْكِ في اللّغةِ: صَرْفُ الشَّيْءِ عن وجهه الذي ينبغي أن يكون عليه. فيقالُ: أَفَكَ فُلَانٌ فُلاناً عن الشيءِ أَفْكاً إذا صرفه عنه، ومنه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾: أي: يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِفَ.

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي: اختلقه عن عَمْدٍ، يُقالُ لغة: افترى الحديثَ افتراءً، إذا اختلقه كذِباً عن عَمْد. ويقال أيضاً: فَرَىٰ فُلانٌ الكذِبَ يَفْرِيهِ إذا اخْتَلَقه واصطنعه كذباً.

والاسم منه «الْفِرْية» وجمعُها «الْفِرَىٰ».

وأصْلُ معنى الْفَرْي قَطْعُ الْجِلد، ومنه سُمّيَ قَطَّاعُ الجلودِ فَرّاءً، ويكون للإصلاح، ولصنع أشياء نافعةٍ من الجلد.

أمّا الإفراء فهو قطع الجلد في الإفساد، وهو مصدر أَفْرَىٰ الرّجُلُ الْجلْدَ إذا قَطَعَهُ مُفْسداً له.

ويُقالُ: افترىٰ الرجلُ الجِلْدَ افتراءً، ويَغلبُ في هذا أن يستعمل في الإفساد، وقد يُستعمل في الإصلاح.

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾:

هذه مقولة بيَّنَ الله عزَّ وجلّ أنَّهم قالوها، والظّاهر أنّها مقولة قالها بعضهم، وأقَرّها من بَلَغَتْه منهم، ولم يواجهوا بها الرسول، وقد جعلها الله قرآنا يُتْلَىٰ ليفضح ما يَهْمِسُون به، ويتحدّثون به فيما بينهم، دون أيّ دليل، ليكشِفَ للْعُمُومِ افتراءاتهم السّخيفات، وتعلّلاتهم الباطلات.

إنّه لو وُجِد قومٌ يُعِينُونَهُ على وضْعِ آياتِ القرآن وسُوَرِهِ فإنَّهُمْ لا بُدَّ أن يكونوا أحد فريقين:

- فإمّا أن يكونوا من الكَافِرين به المجافين لِدينِه، وهؤلاء لا بُدَّ أن يكشفوا سرّه.

- وإمَّا أن يكونوا من المتابعين له، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا صادقين في الإِيمان به، ولا بُدَّ أنْ يفرضوا عليه أن يكُونُوا شُركَاءَ له في قيادة الدعوة وتأسيسها واستثمارها، ثمّ لا بدّ أن يختلفوا معه وينْفَصِلُوا عنه، ويصنعوا لأنفسهم كتاباً مستقلًا.

لكنّ شيئاً من ذلك لم يَحْدُث البتّة، فقد كَانَ متابعوه متفانين في مناصرته، غير طالبين لأنْفُسِهم من الزعامة الدينيّة شيئاً، وكانوا مُضَحِّين بأنفسهم في سبيل دعوته، وهذا ما كان عليه جَمِيعُ مؤمني العهد المكيّ.

إنّها مقولة طرحوها جزافاً على سبيل الاحتمال التوهّمي، دون أن يُشِيروا فيما يهمسون به إلى أشخاص بأعيانهم. لذلك كان الردّ القرآني مقتصراً على بيان أنّهم في قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ظالمون ومدّعون ادّعاءً زوراً.

فقال الله تعالى:

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾:

الظُّلْمُ: الجورُ ومجاوزة الحدّ، ووضع الشيء في غير موضعه، والعدوان على حقّ ذي حقّ ما.

الزُّور: الباطل، وشهادة الباطل، والكذب.

إنّ قول الذين كفروا الذي عرضته الآية الرابعة من السورة يشتمل على ثلاث قضايا:

القضية الأولى: قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾.

أي: ادّعاء كونه كلامَ الله ادّعاءٌ كذب، فكل ما يشتمل عليه ليس من عند الله.

إنّ هذا القول منهم ظلم للحقيقة القرآنية، فما اشتمل عليه القرآن من

حقائق وبيانات معجزات دليل على أنّه ليس كلام بشر، ودليلٌ على أنّه تنزيل من حكيم حميد.

فقولهم: «إنَّه إفكٌ» جورٌ ومجاوزة للحدّ، ووضعٌ للشَّيْء في غير موضعه، وعدوانٌ على حقّ الله في أنّ هذا القرآن كتابه، أنزله على عبده محمد بن عبد الله ﷺ.

القضية الثانية: قولُهم عن الرسول: «إنّه افترى القرآن من عند نفسه، ونَسَبَهُ إلى الله عزَّ وجلّ».

وفي هذا القول اتهامٌ منهم للرسول بالافتراء على الله، وهذا الاتّهام منهم فيه ظلم لخُلُقِ الرسول الصادق الأمين، وفيه شهادةُ زورٍ عليه بأنّه مفترٍ.

فهم ظلْمٌ من جهة، وزورٌ من جهة أخرى.

القضية الثالثة: قولُهُمْ عن الرسول: «أعانه على وضع القرآن وتأليفه قومٌ آخرون» هو من قبيل شهادة الزور الكاذبة.

لذلك كان البيان القرآني في غاية الدّقة، إذْ ذكر أنّ ما جاءوا به ظلمٌ وزور، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

المجيء: الإتيان، يُقالُ لغةً: جَاءَ يَجيءُ جَيْئاً وَمَجِيئاً وجَيْئَةً، أي: أَتَى. ويقال نحو: جاء النذيرُ القومَ، أي: أتاهم. ويُقال: جاءَ إليه، إذا أتى إليه. وجاء بالشيءِ إذا أتى به. ويقال: جاءَ الغَيْثُ، إذا نَزَل. وَجاءَ الأمْرُ، إذا حَدَثَ وتحقّق. ويقال: جاءَ الرَّجلُ العملَ الفلانيّ، إذا فعله، وعلى هذا الأخير يُحمَل قولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾: أي: فقد فعلوا ظلماً وزوراً.

ونظيره قول الله عزَّ وجلّ حكاية لمقالة موسى للخضر في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿... قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

أي: لقد فعلْتَ شيئاً مُنْكراً.

وبناءً على هذا يكون فعل «جاءَ» قد نصبَ «ظُلْماً وَزُوراً» على سبيل التعدية المباشرة، والمرادُ من مجيء الإِنسانِ الشيءَ فِعلُه له، أو كأنَّه قَد جاءَ مكانه فتَلَّبسَ به، فلا داعي لما قاله الزجاج من أنّ «ظُلْماً» منصوب بنزع الخافض، وأنّ أصل الكلام: جاءُوا بظلم وزور.

وظاهرٌ أنَّ ادّعاءَهم أنّ قوماً آخرين قد أعانوا محمّداً على تأليف القرآن ادّعاءٌ توهُّميّ افترائيٌّ لا أساس له، ولا شبهةَ ترافقه، كما سبق في التحليل المنطقيّ.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾:

هذه مقالة أخرى قالوها بشأن القرآن، وهي لا تنسجم مع مقولتهم السابقة من أنّه إفكٌ افتراه من عنده وأعانه على تأليفه قومٌ آخرون.

فهذه المقالة تتضمّن أنّه ينقل من كتب الأوّلين، لا يضع من عند نفسه، ويفتري على الله.

لكنّ الكافرين يطرحون الأقوال المتعارضة فيما بينها لمجرّد التشكيك، والتعلّل للتكذيب بالحقّ.

﴿أَسَـٰطِيرُ﴾: تأتي في اللّغة بمعنيَيْن:

- فتأتي بمعنى: أباطيل، وأحاديث لا نظام لها، واحدتها: إِسْطارٌ، وإِسْطارةٌ، وأَسْطُورٌ، وأُسْطُورَة.

- وتأتي بمعْنى: مكتوبات الأوّلين ومسطوراتهم، قال أبو عبيدة: جُمِع «سَطْرٌ» على «أسْطُرٍ» ثمّ جمع «أسْطُر» على «أساطير».

أقول: فيمكن حمل قول الذين كفروا عن القرآن: «أسَاطِيرُ الأوّلِينَ اكْتَتَبَها» على المعنيَيْن معاً.

- فمنهم من لم يتدبّر ما جاء في القرآن فزعم أنّه أباطيل الأوّلين، وأحاديثهم التخريفيّة التي لا نظام لها.

- ومنهم من أدرك ما فيه من علم وحكمة وبلاغة رائعة، فزعم أنّه منقولٌ من مكتوبات الأوّلين، أي: من كتب أهل الكتاب.

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: أي: طَلَبَ أن تكتبَ له، لأنهم يعلمون أنّه أُمِّيٌّ لا يَقْرأ ولا يكتبُ.

﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾: أي: فهي تقرأ عليه فيأمر كاتبه بكتابتها. الإِملاءُ، والإِمْلاَلُ، في اللّغة: إلقاءُ القول أو قراءته على الكاتب ليكتبه كما أُمْلِيَ عليه.

يقال لغةً: أَمْلَىٰ القولَ، وأَمْلَلَهُ، إذا قاله، فكتبه له الكاتب كما قاله.

قال الفرّاء: أَمْلَلْتُ، في لُغة أهل الحجاز وبني أسد، وأَمْلَيْتُ لُغةُ بني تميم وقيس.

ويقال أيضاً: أَمَلَّ عليه شيئاً ليكتُبَه، أي: أَمْلاَهُ عليه.

﴿بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾: **الْبُكْرَةُ**: أوّل النّهارِ إلى طُلوع الشمس.

والأصيل: الوقت حين تصفَرُّ الشمس لمغربها، ويُجْمع على أُصُل، وأُصْلَان، وآصَال، وأصائل.

وقد حدّدوا وقْتَي الْبُكرَة والأصيل للإِيهام بأنَّ محمّداً يختار هذين الوقتين اللّذين تكونُ الطرقات فيهما غير مراقبة من الناس، فهو يتسلّل فيهما بعيداً عن الرّقباء، ليَكْتَتِب ما لدى بعض أهل الكتاب الموجودين في مكة آنَئِذٍ، أو ليكتتب خرافات وأباطيل الأوّلين.

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

في هذا النصّ يُعَلِّمُ الله عزَّ وجلّ رسوله وكلّ داعٍ إلى دين الله من بعده الرّدّ الذي يُجِيبُ به على من يَزْعُمُ أنّ القرآن اكتتبه محمّد من أساطير الأوّلين.

ومن الملاحظ أن هذه المقولةَ الجاهليَّة نفسَها يُرَدِّدها في عصورنا اليوم المبشرون والمستشرقون من اليهود والنصارى، على الرغم من سقوطها وبُطْلَانها تماماً بَعْدَ النظر المقارن بين القرآن وبين كلّ مكتوبات الأوّلين، إذ يَتَبَيَّنُ لكلّ باحثٍ أو قارئٍ عاديّ أنّها مقولة باطلة لا قيمة لها مطلقاً، وهي لا تزيد على كونها افتراءً يُكَذِّبه الواقع.

أما قَوْلُ من يزعم أنّ القرآن أباطيل وأحاديث لا نظام لها، فهو قولٌ يُسْقِطُه بداهةً استماعُ القرآن فقط، والتفكُّرُ العاديُّ في دلالاته، فإعجازُ القرآن في مبناه وفي معناه ينسف هذا الزعْمَ نَسْفاً، فهو لا يحتاج إلى ردّ.

وأمّا الرّدّ على من يزعم أنّ القرآن منقول من كُتب أهل الكتاب الأوّلين، فيتخلّص ببيان أنّه أَنْزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السّرَّ في السماوات والأرض.

ولنفْهَم مضمون هذا الرّدّ لا بدّ أن نُحلّل العناصر التي جاء بها القرآن، ولا بدّ أيضاً أن ننظر في أحوال أصحاب القول، وما يَعْلَمُ الله من أسرارهم التي يكتمونها.

- أمّا النظر من جهة تحليل العناصر الفكريّة الَّتي اشتمل عليها القرآن، والعناصر البلاغية التي اشتملت عليها مبانيه اللّفظية، فإنّه يَهْدِي الباحث إلى ما يلي:

أولاً: لا تشابُهَ مطلقاً بين ما جاء في القرآن من أسلوب بيانيّ معجز، وبين أيّ مكتوباتٍ سابقات جاءت قبل القرآن بصفةٍ عامّة، وهذا يدلّ على نفي الاقتباس اللّفظي حتماً.

ثانياً: إنّ ما جاء في القرآن من قضايا الدّين الّتي سبق إنزال معانيها

في الكتب الرّبّانيّة السابقة (صحف إبراهيم وموسى والتوراة والزبور والإِنجيل وغيرها) يؤكّد أنَّ الْمُنَزِّل واحد، هو الله عزَّ وجلَّ، لو أنَّ هذه الكتب السابقة قد بقيت كما أُنْزِلَتْ غَيْرَ محرّفة، ولا مُبدَّلة، ولا ضَائِعةِ الأصول.

لكنّ ما يتداوله أهل الكتاب إنَّما هو مكتوبات مُحَرَّفَةٌ مُبَدَّلَة عن أصولها الصحيحة، بتغييرٍ وزيادَةٍ ونقصٍ، فلا تطابق بين واقعها الذي هو في أيدي أهل الكتاب وبين ما جاء في القرآن، باستثناء القدر القليل غير المحرّف منها.

والأصولُ الصحيحةُ للكتب الّتي أنزلها الله عزّ وجلّ على الرسل السابقين قد أصبحت سِرًّا مخفيًّا من الأسرار، وبما أنّ دين الله واحد لكل الرسل فلا بُدّ أن تتطابق مضامين رسالات الرّسل المبعوثين من الله عزَّ وجلّ، لكنّ هذه الكتب مفقودة، فلا يستطيع أحد من الناس أن ينقل منها وهي سرٌّ من الأسرار.

وهذا يدلّ على أنّ القرآن قد أنزله الذي يعلَمُ السرّ في السماوات والأرض، فالقرآن مهيمن على ما لدى أهل الكتاب من كتب يقولون: هي من عند الله، فهو يُصحّحُ أغاليطها، ويكشف ما فيها من تحريفات، ويُثْبت ما ضاع منها، ويُضِيف ما اقتضاه تكميل الدين أو تعديل بعض ما فيه ممّا اقتضت الحكمة تعديله لمراعاة أحوال التطوّر البشري.

فالجواب الملائم على هذا ما جاء في التعليم الرّبّانيّ:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ثالثاً: قد جاء فيما نزل من القرآن قضايا هي حقائق من أسرار السماوات حول عوالم الأفلاك والكواكب والنجوم، ومن أسرار الأرض حول الأشياء والأحياء، ومنها الإِنسان، وهذه من خصائص القرآن وأنواع

إعجازه، وهي غير موجودة في الكتب السماويّة السابقة، وهذه لا يعلمها من الناس أحد إبّان التنزيل، ووجودها في القرآن دليل على أنّ منزّله هو الذي يعلَمُ السّرّ في السماوات والأرض، فالجواب الملائم للتنبيه على هذه القضايا هو ما جاء في التعليم الرّبّاني:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

رابعاً: إنّ الّذين قالوا: (أَسَاطِيرُ الأوّلين اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) يعلمون من حقيقة أنفسهم أنّهم كاذبون، وأنّهم لا بيّنةَ لهُمْ على ما يدّعون، وأنَّهم يقولون قولهم هذا لتضليل أتباعهم، وصَرْفِهم عن التأثر بالقرآن واتّباع الرسول.

فالجواب التهديديّ الملائم لحالتهم هذه ما جاء في التعليم الرّباني:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: فاحذروا عِقابه وعذابه ونقمته على شهادات الزور التي تَفْترونها على رسوله، وعلى أنواع الظلم التي ترتكبونها.

وبعد هذا التهديد أطمعهم الله بمغفرته ورحمته إذا استغفروه وتابوا إليه، وآمنوا واتّبعوا الرسول، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾:

أي: إنّه غفور رحيم دواماً، فَفِعْلُ الكينونة ولو جاء فعلاً ماضياً له دلالة الديمومة والاستمرار في بيان صفات الله عزّ وجلّ، لأنّ ما كان لله من الصّفات فهو أزليٌّ، وما هو أزليٌّ هو أَبَدِيٌّ باللُّزوم العقلي.

غَفُور: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «غافر»، أي: كثير الغفران وعظيمه، وأصل الْغَفْرِ في اللّغة السَّتْر. فهو سبحانه يَسْتُرُ ذُنُوبَ عباده.

ويأتي فوق الغفران «التكفير» الذي يدلّ على معنى الستر بالدفن،

ويأتي فوقه (العفْوُ) الذي يدلّ على معنى محو الأثر، ويأتي فوقه (رَفْعُ الْجُنَاح) الذي يدلّ على اعتبار الذنب كأن لم يكن، ويأتي فوقه (تبديل السيِّئات حسنات) وهذا أعلى المراتب التي يتفضّل الله بها على عباده(١).

ويظهرُ أنّ الذين كَفَرُوا لم يكونوا إبّانَ نزول سورة (الفرقان) يشيرون إلى أحد من الناس، يزعمون أنّه يُمْلِي على محمد ﷺ أساطير الأوّلين من كتب أهل الكتاب، لذلك لم يتعرّض النصّ هنا إلى الحديث عنهم، لكشف سُقُوط ادّعاء الذين كفروا، إذْ ينسبُون إليهم أنّهم يُمْلُون على الرسول ما لديهم من مكتوبات الأوّلين.

لكنّهم بعد مدّة من الزمن وجدوا لأنفسهم ذريعة، حين رأوا الرسول ﷺ ربّما مرّ لبعض مصالحه على بعض أهل الكتاب في مكّة، فكرّروا مقالتهم، وذكروا اسم أعجميّ جلس عنده الرسول أحياناً يدعوه إلى دين الله، فأنزل الله عزَّ وجلّ قولَه في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

وقد نزل بعد سورة (الفرقان) وقبل سورة (النحل) سبع وعشرون سورة مكيّة.

يُلْحِدُونَ إِلَيه: أي: يميلُون إلى ادّعاء أنّه هو الذي يُعلّمه، بعد أن ألْقَوْا قَوْلَهم السابق جُزافاً، دون أن يستطيعوا الإشارةَ إلى واحدٍ بعينه.

وفي اختيار عبارة «يُلْحِدُون» في هذه المناسبة براعة إلماحيّة، تفيد أن ميلهم هذا إلحاد، أي: دَفْنٌ للحقّ وانحراف عن سواء السبيل.

---

(١) انظر المثال الثاني من أمثلة القاعدة (١٨) من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف.

فاللّحدُ هو الشقّ الذي يكون في جانب القبر، لوضع الميت فيه، وسمّي لحداً لأنَّه قَدْ أُمِيلَ عن وسطه إلى جانبه. يقال: ألَحَدَ في الدّين ولَحَدَ، أي: حَادَ عنه. قال ابن السِّكِّيت: الملْحِدُ الْعَادِلُ عن الحقّ الْمُدْخِلُ فيه ما ليس فيه.

ومادّة الكلمة تدور حول الميل عن الحق، والجور، والظلم والمجادلة بالباطل. ولشَنَاعَةِ الجَوْرِ في مكة سُمِّيَ الجائرُ فيها مُلْحداً.

والرّدّ هنا في هذه الآية من سورة (النحل) واضح جَلِيٌّ، وهو أنّ القرآن مُنَزَّلٌ بلسانٍ عربيّ مبين، وبيانٍ عربيّ معجز، والرسولُ لا يَعلمُ اللّسَانَ الأعجميّ، والأعجميّ المشارُ إليه لا يُحسِنُ العربية، وحين يتكلّم شيئاً منها يتكلّمه بصعوبة بالغة ولُكْنَةٍ ولَحْنٍ، وبأساليبَ بعيدة عن أساليب العرب أصلاً، فادّعاء أنّ الأعجميّ المشار إليه هو الذي يُعلّمه القرآن ادّعاء ساقط جدًّا، لا يقبله ذو عقل منصف.

وفي بيان هذا الرجل الذي زعم الكافرون أنّ الرسول ﷺ كان يتعلّم منه القرآن، وردت بعض روايات.

(١) رُوِي عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمُ قَيْناً (أي: حَدّاداً) بمكة، وكان اسمه «بَلْعَام» وكان أعجميّ اللّسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنّما يُعَلِّمُهُ بلعام، فأنزل الله عزَّ وجلّ الآية من سورة (النحل).

(٢) وقال محمد بن إسحاق في السيرة: كان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلامٍ نصراني يقالُ له: جَبْر، عَبْدٍ لبعضِ بني الحضرمي.

وكذا قال عبد الله بن كثير، وعن عكرمة وقتادة: كان اسمه «يَعِيش».

وروي غير ذلك والله أعلم.

إجمال معاني هذا الدّرس:

وقال الذين كفروا من مشركي العرب بشأن القرآن إبّان نزول سورة (الفرقان) أربعة أقوال:

القول الأول: إنّ هذا القرآن الذي يقول محمّد إنّ الله ينزّله عليه، ما هو إلّا كذب لم ينزّله الله.

وليس في هذا القول إلّا التكذيب بغير دليل.

القول الثاني: هذا القرآن افتراه محمّد من عنده، وزعم أنّ الله ينزّله عليه.

وهذا القول الثاني اتهام غير مقترن بدليل، فهو اتّهام باطل ظالم، وشهادة زور.

القول الثالث: يوجد قومٌ آخرون أعانوا محمّداً على تأليف القرآن. وهذا القول الثالث لم يقترن ببيان ولا بتحديد القوم المتهمين بمعاونة محمّد على تأليف القرآن أو ابتكاره.

فارتكبوا بأقوالهم الثلاثة هذه جريمتين: جريمة الظلم لحقّ القرآن، وحق الرسول، وجريمة شهادة الزور ضدّ الرسول بأنّه مفتر، وبأنّه يعينه على افترائه على الله قومٌ آخرون.

القول الرابع: هذا القرآن منقولٌ عن أساطير الأوّلين، أباطيلهم أو مكتوباتهم، طلب محمّد إملأها عليه من بعض العارفين بمكتوبات الأوّلين، فهو يذهب إليه بُكْرَةً وأصيلاً، وهو يطلب من كتّابه أن يكتبوها له.

فردّ الله عليهم بأنّ مضامين القرآن تكذّب هذا القول من أقوالهم، لأنّ فيه حقائق وعلوماً لا يَعلَمُها أَحَدٌ من الناس، وهو منْ أسرار العلم،

وبأنّ الله مطّلع على ما يسِرُّونه في أنفسهم، من أنّهم يكذبون على الرسول في ادّعائهم هذا، ويضلّلون أتباعهم به، وقد أجمل الله عزَّ وجلّ هذا الرّدّ بقوله:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وأخيراً أطمعهم الله عزَّ وجلّ بغفرانه ورحمته، إذا استغفروا وتابوا وآمنوا واتّبعُوا الرسول، فقال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

فهو سبحانه كثير الغفران لعباده، عظيم الرحمة بهم.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الثاني من دروس السورة.

بعون الله ومدَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٧ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾﴾:

القراءات:

(٩) ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: [جنَّةٌ نَأْكُلُ مِنْها] بضمير المتكلمين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ بضمير الغائب العائد على الرسول ﷺ.

وبين القراءتين تكامل في تأدية المعنى المراد، إذْ عبّرتا عن قولهم، يأكُلُ الرَّسول منها، ونأكلُ نَحنُ منها أيضاً. فأغنت القراءتان في كلمة واحدة عن ذكر الكلمتين في بناء الجملة⁽¹⁾.

(١٠) ● قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ عامِرٍ، وشُعْبَةُ: **[وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُوراً]** برفع فعل «يَجْعَلُ» على الاستئناف، أي: وهو يَجْعَلُ لك قصوراً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ بجزم فعل «يَجْعَل» عطفاً على محلِّ «جَعَلَ» وهو الجزم، باعتباره جواب الشرط.

والقراءتان وجهان عربيان جائزان، ومؤدّاهما واحدٌ.

تمهيد:

هذا الدرس متعلقٌ بالفرع الثّالث من فروع شجرة السُّورة: (وهو الرسول) مع القسم الهابط من قسْمَيْ الفرع الرابع (وهو المرسل إليهم).

وقد تضمّن هذا الدرس بيان تعلُّل المشركين ببشَرِيَّة الرسول محمّد ﷺ، الّتي من مظاهرها أنَّهُ يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق لكسب معاشه، وقدموا مقترحات زعَمُوا أنَّها لازمة لو كان رسولاً حقًّا، فردّ الله عليهم بما يكفي لإقناع أولي الألباب.

---

(١) انظر القاعدة (٤٠) من كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل» للمؤلف.

التدبر التحليلي:

لقد اتَّخَذُوا كونَه بشراً من البشر ذريعة لإنكار نبوّته ورسالته، وتكذيبه فيهما، والكفر به وبما جاء به عن ربّه، دلّ على هذا قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾:

أي: وقالوا مستفهمين استفهاماً تَعَجُّبِيًا من ادِّعاءِ كونه رَسُولاً، والحالُ الثابتُ له أنّه يأكُلُ الطعامَ ويَمْشِي في الأَسْواق، والمعنى أنّ الرَّسُول الْمَبْعُوثَ من عِنْدِ الله لا ينبغي له أن يَكونَ بَشَراً يأكُلُ الطّعَامَ ويمشي في الأَسْواق كسائر البشر، فهٰذان أمرانِ مُتَنَافِيَان، فما هو الشَّيْءُ الَّذِي اختصّ به فجَعَلَهُ يخرج عمّا ينبغي للرّسول كما نفهم، فيكون رسولاً مع أنّ حاله الظاهرة أنّه يَأكُل الطعام كسائر البشر، ويمشي في الأسواق كآحاد النّاس.

فلفظ [مَا] اسم استفهام، وهو مبتدأ. وعبارة [لِهَذا] متعلّقة بمحذوف هو خبر المبتدأ. وكلمة [الرَّسُول] بدَل أو عطف بيان من اسم الإشارة [هذا] ومرادُهم: ما لهذا الذي يدّعي أنه رسول. واللّام في [لِهَذا] بمعنى المِلْكِ أو الاختصاص.

ومعنى الجملة: أيُّ شيءٍ امتلكه محمّد أو اختصّ به حتى استطاع بسببه أن يكون نبيًا رسولاً مع أن حاله أنّه يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، هذا أمرٌ يدعو إلى العَجَب منه، والإنكار عليه، فهو إذن ليس نبيًا ولا رسولاً.

هذا هو منطقهم الذي قَدّمُوه في هذه الجدليّة الباطلة، الَّتِي تَوَلَّى القرآن الرّدّ عليها فيما بعدُ في الآية (٢٠) من السورة.

بعد هذا الاعتراض على بشرية الرّسول محمّد ﷺ الذي رأوا أنّه من القوّة بحيث يُبْطِلُ في أذهان من يتأثّر به صِحّةَ ادّعاء كونه نبيًا رسولاً، قَدَّموا مُقْتَرَحَاتٍ زعَمُوا أنه لو أُوتِيَها أو بعضاً منها لكان قد مَلَكَ بذلك

شيئاً يجعل ادّعَاءَه أنّه نبيٌّ رسُولٌ أمراً صالحاً لأن يُقبل، ويُنْظَرَ فيه باهتمام من أهل الفكر والنظر.

الاقتراحُ الأوّل:

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾:

﴿لَوۡلَآ﴾: هنا حرفُ تحضِيضٍ بمعنى «هَلَّا».

والمعنى: هَلّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ يؤيّدهُ في كونه نبيًّا رسولاً، فيكونَ هذا الْمَلَكُ مَعَهُ مُبَلغاً ومبشراً ونَذِيراً، وعندئذٍ نُصَدِّقُه، إذْ يكون الْملَكُ معه بمثابة شاهدٍ له من عند الله، يشْهَدُ له بصدق نبوّته ورسالته، وصدق تلقّيه الوحيَ عن الله، وأنّ له مع عالم الملائكةِ الغيبيِّ صلةً تُؤهِّلُهُ لأن يكون نبيًّا رسولاً.

الاقتراح الثاني:

﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾:

أي: أو يُلْقَىٰ إليه بعطاءٍ من الله كنْزٌ يحوي مالاً وفيراً يُنْفق منه على نفسه وعلى أهله وعلى قومه، ولا يكونُ بحاجة إلى كسب رزقه كسائر الناس، نظير إلقاء الذكر أو إنْزَال الذّكْرِ عليه كما يدَّعي. فالقادر على إنزال الذكر عليه لو أنّه كان كلام الله حقًّا قادرٌ على إلقاء كَنْزٍ من السماء إليه.

﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ﴾: الإلقاء لشيءٍ ما يكون بدفعه مرّةً واحدة، لا على سبيل التجزئة والتدرّج.

وقد اقترحوا إلقاء الكنز إِلَيْهِ، لأنَّهم كَانُوا يعلمون أنّه ليس ذا مالٍ واسع، فهم يريدون أن يُفاجئهم بأنّه أُلقيَ إليه كنْزٌ من عند الله، لا أن يأتِيَه الغنىٰ واليَسار على سبيل التدرّج، كما يَجْمع الناس ثرواتهم، ليكون

هذا العطاء الرّباني بمثابة شَاهِدٍ له من الله يشهد بأنه نبيٌّ رسول صادق فيما يبلّغ عن ربه، ولعلّهم يُصيبون من عطاءاته المالية من الكنز الذي يُلقىٰ إليه.

الاقتراح الثالث:

﴿... أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ...﴾:

ويأكلون هم منها أيضاً، بدليل القراءة الأخرى.

﴿جَنَّةٌ﴾: أي: بستان فيه أشجار كثيرة ساترة وثمارٌ وزروع.

وهذا الاقتراح طَلَبُوا فيه أن يخصَّه الله بهذه الجنَّةِ في مكة الَّتي لم يكن بها زرْعٌ ولا بَسَاتين، على سبيل العطاء الرّبّاني المفاجئ وعلى خلاف مجرىٰ السُّنَن المعتادة، ليكون هذا العطاء الرّبّانيّ له بمثابة شاهد له من الله، يشهد بأنه نبيٌّ رسولٌ صادقٌ فيما يُبَلِّغ عن ربّه.

أي: وبما أنّه لم يُنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فيكُونَ مَعَهُ مبلغاً ومبشراً ونَذِيراً، ولم يُلْقَ إِلَيْهِ كَنْزٌ من عنْدِ رَبّه بطريقة مفاجئة، ولَمْ تَكُنْ له جَنَّةٌ في مكّةَ على خلاف مجرى العادات يخصُّهُ اللَّهُ بها، فهو إذن ليس نبيًّا ولا رسولاً صادقاً.

فاعترضوا على بشريّة محمّد التي تتنافىٰ بحسب زعمهم مع النبوة والرسالة، ثُمّ قدّموا مقترحات إصلاح الوضع ليَقْبَلُوه رسولاً على الرغم من بشريته.

فلم يستجب الله لمقترحاتهم لأنها منافيّة للحِكمة، وردّ على اعتراضهم بأنّ كلّ الرسل السابقين قد كانوا يأكُلون الطّعَام ويمشون في الأسواق كما جاء في الآية العشرين من السّورة، وردّ على مقترحاتهم بأنّه لو شاء لأعطىٰ رسولَهُ محمّداً أكثرَ مِمّا اقترحوا بكثير، لكنّ حكمته سبحانه

جَعَلَتْهُ لَا يَشَاءُ ذلك، وهذا الرّدّ قد جاء في الآية العاشرة من السورة.

أمّا مقترحاتهم فقد ورد في الخبر عنها ما يلي:

روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس: أنّ عتبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضرَ بن الحارث، وأبا البَخْتَري والأسود بن عبد المطلّب، وزمعة بن الأسود، والوليدَ بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أميّة، وأمية بنَ خلف، والعاص بن وائل، ونَبِيهَ بن الحجّاج، ومُنَبِّه بن الحجّاج، اجتمعوا، فقال بعضُهم لبعضٍ:

«ابعثُوا إلى محمّد، وكلِّمُوه، وخاصِمُوه، حتَّىٰ تُعذِروا مِنْهُ».

فبعثوا إليه: إنّ أشراف قومكَ قد اجتمعوا لك ليُكَلِّموكَ.

قال: فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد! إنّا بعثْنَا إلَيْكَ، لِنعذِر منك، فإن كُنتَ إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلُبُ به الشرف فنحن نسوِّدُك، وإنّ كنْتَ تُريدُ به مُلكاً ملَّكْنَاكَ.

فقال رسول الله ﷺ:

«ما بي ما تقولون، ما جئْتكُمْ بما جئتكم به أطلُبُ أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا المُلْكَ عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزلَ عليّ كتاباً، وأمرني أن أكُونَ لكم بَشِيراً ونذيراً، فبلّغتُكُمْ رِسالة ربّي، ونصَحْتُ لكم، فإنْ تقبلُوا منّي ما جئتكُمْ به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصْبِرْ لأمْرِ الله، حتَّىٰ يحكُمَ اللَّهُ بيني وبينكم».

قالوا: يا محمّد! فإنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابلٍ مِنَّا شيئاً ممّا عَرَضْنَا عليك، أو قالوا: فإذا لم تفعل هذا فَسَلْ لِنَفْسِكَ وَسَلْ لرَبّك أن يبعثَ مَعَكَ مَلَكاً

يُصَدِّقُكَ بما تقول، ويراجعُنا عنك، وسَلْهُ أنْ يجعلَ لك جِنَاناً وقُصُوراً من ذهب وفضّةٍ تغنيكَ عمّا نراك تبتغي، فإنّكَ تقوم في الأسواق، وتلتمسُ المعاش، كما نلتمسه، حتى نعرف فضلَكَ ومنزلتك من ربّك إنْ كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالّذي يسأل ربّه هذا، وما بُعِثْتُ إليكم بهذا، ولكنَّ الله بعثني بشيراً ونذيراً». فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ...﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾؟.

وبعد الاعتراض، والمقترحات، وعدم الاستجابة لها، وجد الكافرون ذريعة لأنفسهم أنْ يَتّهِمُوا الرّسُول محمّداً ﷺ بأنّه رجُلٌ مَسْحُور، فجاءوا إلى جماعات من المؤمنين به، وقالوا لهم عن الرسول ظلماً وعدواناً: إنْ تَتّبِعُونَ إلّا رَجُلاً مَسْحُوراً. عَسىٰ أن يرتدّوا عن دينهم الّذِي آمنوا به استجابةً لدعْوَةِ الرسول.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾:

﴿إِنْ﴾: حرْفُ نفي بمعنى «ما» النافية، أي: ما تَتّبِعُونَ أيّها المؤمنون به، المطِيعُون له، إلّا رجلاً مَسْحُوراً، والمغْنَى أنَّه ليس نبيًّا ولا رسولاً، بل هو رجل مَسْحور.

المسْحُور: هو الذي أصابه سِحْر السَّحَرة، ويريدون من ذلك أنّه يتصرّف بغير إرادَةٍ واعيةٍ منه، وهذا تراجعٌ منهم عن اتّهامهم الأوّل له: بأنّه مفترٍ على ربّه، كذّاب يَصْنَع الكذب، وعن اتهامهم له بأنّه سَاحِر، لأنّ الساحر ذكيٌّ خبيثٌ شيطان، وهو يتصرّف بتصنُّعٍ وَوَعْي كامل، بخلاف المسحور.

ففي سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) وصفوه بأنّه ساحر كذّاب، إذ جاء فيها قول الله عزَّ وجلّ بشأنهم:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾.

ويظهر أنّ هذا الاتّهام لم تستَجبْ له الجماهير، لا من أتباع الرسول محمّد ﷺ، ولا من أتباع الذين كفروا، فالرَّسول لم يظهر عليه شيءٌ من الكذب، ولم تظهر عليه أيّة أمارَةٍ تدُلُّ على أنّه ساحر.

فتراجعوا عن مقالهم الأول إبّان نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) فزعَمُوا أنّه رجلٌ مَسْحُورٌ يتصرّف بغير وعيٍ منه.

وهكذا تذبذبت أقوالهم وتردَّدَتْ بَيْنَ المتناقضات والأضداد، في تخبُّطٍ يُثير العجب حقًّا.

وقد ذكرهم الله عزَّ وجلّ بوصف «الظالمين» في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

لأنّ الصفة البارزة هنا فيما طرحوه من اتّهام الرسول بأنّه مسحور، هي صفةُ الظلم لشخص الرسول ﷺ، الذي يتلّقىٰ الوحي عن ربّه، ولا يَستطيع السَّحَرَةُ أَنْ يُؤَثّرُوا على شيءٍ من قدراته الفكريّة والنفسيّة، يُضاف إلى ذلك أنّه لم يظهر عليه شيْءٌ يدلُّ على أنّه مسْحُور، فلا اضطراب في عقله، ولا اضطراب في نفسه، ولا اختلال في تصرّفاته، فادّعاء أنه مسحور ظلم واضح جليّ لكلّ مُشَاهِدٍ للرسول محمّدٍ ومخالطٍ له، أو مُتَلَقٍ منه دعوةً وهداية. ويُضَافُ إلى ذلك أيضاً أنّ الحقائق الفكرية والعلميَّة الّتي يَعْرِضُها عليهم تُثْبِت للجميع أنّها حقّ وهدايةٌ ورُشدٌ، وقَضَايا مقرونةٌ ببراهينها الفكريّة والتجريبيَّة والمشاهَدِيَّة، وهذه أمور لا يأتي بها مَسْحُور، فادّعاء أنّه مسحور ظُلْمٌ له ولما جاء به من حقائق.

فوصْفُهُمْ بأنّهُمْ ظالمون هو الوصف الملائم في هذا الموضوع، والألف واللام في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للكمال، أي: فالظُّلْمُ فيهم قد بلغ دركته القصوىٰ التي جمعوا فيها أقبح الظلم وأخَسَّه.

* * *

الرّدّ القرآني على مقترحاتهم واتّهامهم للرّسول بأنه مَسْحُور:

جاء التعقيب المباشر على أقوال الذين كفروا بالرّدّ على مقترحاتهم وعلى اتّهامهم للرسول ﷺ بأنَّهُ مَسْحُور، وبدأ القرآن بالرّدّ على قضيّة اتّهامهم للرسول تطييباً لقلبه، ومواساةً له، واهتماماً بالدّفاع عنه، وثنّى بالرّدّ على قضيّة مقترحاتهم.

أما الرّدُ على تعلُّلِهم بِبَشَرِيَّةِ الرّسول، فقد جاء بعد عشر آيات من السورة، في الآية العشرين منها، إشعاراً بأنَّ هذا التعلُّل أمرٌ لا قيمة له ما دام كُلُّ الرّسُل السابقين في تاريخ البشريّة رجالٌ بشَرٌ يأكُلُونَ الطَّعَامَ ويَمْشُون في الأسواق، ولهم كلّ صفات البشر، باستثناء اصطفاء الله لهم بالنبوّة والرّسالة، وتكليفهم تبليغ رسالات الله التي يُوحي بها إليهم ليُبلِّغوها للناس، أمّا الرّدُّ على اقتراحهم تدعيم رسالته بإنزال ملك من السماء إليه يشاهدونه معه، فقد جاء في الآية (٢٢) من السورة.

أولاً: ففي الرّد على قول الكافرين للمؤمنين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾:

خاطَبَ الله بهذا الرّدّ رسُولَهُ، تطييباً لقلبه ونفسِه، ومَسْحاً لما أحدثه اتّهامُهُمْ لَهُ في نفسِه من أثَر، وإشعاراً لأصحاب الاتّهام بأنّهم مُجْرمون في حقِّ الرسول، لا يَسْتَحِقُّون مواجهةَ الله لهم بالخطاب، لأنّ في الخطاب نوع تقدير وتكريم.

﴿أَنظُرۡ﴾: تُستَعْمَل مادة «النظر» ويرادُ بها توجيهُ حاسَّة البصر «العين» لرؤية الأشياء الحسّيّة، وهذا هو الأصل في مادّة الكلمة.

وتُسْتَعْمَلُ ويُراد بها توجيه الفكر لإدراك قضيّةٍ فكرية إدراكاً واضحاً وضوح الأشياء التي تُدْرَكُ بحاسّة البصر «العين».

وقد وردت نصُوصٌ قرآنيّة متعدّدة فيها استعمال النظر بمعنى النظر الفكريّ للأمور التي يكون إدراكُها سهلاً، لا يحتاج إلى تفكير عميق، ومنها ما يلي:

(١) قولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾﴾.

إنّ تفضيل الناسِ بعضِهم على بعض في الحياة الدنيا لا يحتاج إلى تفكُّرٍ عميقٍ دقيقٍ، بل تكفي فيه الملاحظة الفكريّةُ الأُولى، التي تُشْبه نظر العيْن، لذلك جاء التوجيه بعبارة ﴿ٱنظُرۡ﴾.

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾.

إنّهم إبّانَ نُزول سورة (الإسراء) كرَّروا مَقَالَتَهُمْ فِي الرَّسول بأنّه رجُلٌ مَسْحُور، يفتِنُونَ بِها بعض المؤمنين، وبعضَ الذين بدأَتْ قُلُوبُهم تميلُ إلى الإيمان وإلى اتّباع الرّسول، يقولون ذلك لهم على سبيل المناجاةِ السّرّيّة فيما بينهم، ففضح الله أمرهم، فكرَّرَ ما سبَقَ أنْ أنزلَهُ بشأنهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بشأن المشركين الذين يحْلِفُون بالله ربِّهم يوم الحساب أنّهم ما كانوا في الدنيا مشركين، فيكْذِبُونَ على أنفسِهِم كذباً واضحاً، تشهدُ عَلَيْهم بضدّه جوارحُهم، ولا يستطيعون أن يكذبوا بذلك على الله.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

إنّ وضوح هذا الأمر لا يحتاج إلَّا إلَىٰ أقلّ تفكيرٍ يُشبه توجيه نظر العين.

(٤) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بشأن اليهود الذين يُزَكُّونَ أَنْفُسَهم، ويَزْعُمُون أَنَّهم أتقياء أطهارٌ، وهُمْ غارقون في الكفر، فيَفْتَرُون بذلك الكَذِبَ على الله، الذي يُزَكّي مَنْ يشاء ولا يَظْلمُ أحداً شيئاً:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

وظاهر أنّ حالهم لا يحتاج أكثر من توجيه الملاحظة الفكريّة الأولى، التي تُشْبه نظر العين.

(٥) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن النصارى الذينَ أَلَّهُوا عيسَىٰ ابْنَ مريم وأمَّهُ، مع أنهما كانا يأكلان الطعام، ومن البدهيّ أنّ من يأكُلُ الطعام لا يَصِحّ عقلاً أنْ يكون إلَهاً ولا جزءاً من الإِلَه، وهذه القضيّة لا تحتاج أكثر من توجيه الملاحظة الفكريّة الأولى، التي تشبه نظر العين:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: انظر بفكرك نظراً يشبه نظر العين: كيف نُبَيِّنُ لهم العلامات الظاهرات الدالّات على حقائق الأمور. ثم انْظُرْ كَيْفَ يُصْرَفُون عن هذه العلامات وما تدُلُّ عليه من حقائق.

﴿كَيْفَ﴾: اسم يستفهم به عن حالة الشيء، وهو مبنيٌّ على الفتح. والاستفهام بها هنا للاستنكار.

﴿ضَرَبُواْ﴾: أصل الضرب في وضْع اللّغة: توجيه شَيْءٍ لِشَيْءٍ آخر بِقُوَّةٍ حَتَّىٰ يصطدم به، ويكونُ بعضوٍ من أعضاء الجسد، أو بوسيلة ما، كالعصا أو الحجر أو غير ذلك.

ولمّا كان المسافر يضرب رجليه في الأرض، أو تضرب دابّتُه يَدَيْها ورِجْلَيْهَا في الأَرْضِ، سُمِّي السّفَرُ ضَرْباً في الأرض، سواءٌ أكان للتّجارة، أم الْغَزْو، أم العلم، أم غير ذلك.

ولمَّا كانت صناعة الدّراهم والدنانير تتمّ عن طريق ضرب صفائح الفضة والذهب بقوالب حديديّة صُلْبة حُفرت فيها أمثلتها، أو ضمن قوالب يدخل بعضها في بعض، قالوا: ضَرَبَ فلانٌ الدراهمَ أو الدنانيرَ، إذا طبع معدنهما على المثال المحفور في القالب.

ثم حصل توسُّعٌ في معنى الضرب، فقالوا: ضَرَبَ مثلاً، أي: ذكَرَ أم صَنَعَ أم فَعَل مثلاً، أم مثَّلَ مثلاً.

﴿لَكَ﴾: أي لِوَصْفِكَ يا محمّد.

﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: «الأمثال» جمع «الْمَثَل» وكلمات: «مِثْل، ومَثَل، ومَثِيل» تستعمل للدلالة على معنى التسوية، فهي نظير «شِبْه، وَشَبَه، وَشَبِيهٍ».

يُقالُ لغةً: هذا مِثْلُ هذا، ومَثَلُهُ، وَمَثِيلُهُ، كما يُقَالُ: شِبْهُهُ وَشَبَهُهُ وشَبِيهُهُ.

ويجمع «مثل» على «أمثال».

ويُطْلَق «الْمَثَلُ» على الشَّيْء الّذي يُضْربُ لشيءٍ آخر للدلالةِ على أنّه شبيهُهُ، فَيُدَّعَىٰ أنَّهُ مِثْلُه.

وقال الجوهري: ومَثَلُ الشيء صِفَتُه، ومنه قول الله تعالى في سورة (الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ... ﴿٣٥﴾﴾.

أي: صفة الجنة.

أقول: ومنه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفتح/٤٨ مصحف/١١١ نزول) في وصف أصحاب محمّد ﷺ ورضي عنهم:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: وصْفُهُمْ في التوراة، ووَصْفُهُمْ في الإنْجيل.

وكما قال الجوهري قال أبو إسحاق من أهل اللّغة. قال اللّيث: مَثَلُها هو الخَبَرُ عنها.

أقول: والّذي أراه: أنّ المثل يُراد به وصف الشيء بعبارةٍ كلاميّة، نظراً إلى أنَّ الأوصاف الكلاميّة الّتي تُذْكَرُ لشيءٍ ما، إنّما تَرْسُم له مِثَالاً وصْفِيًّا بدَلَالَاتٍ تعبيريّة.

فمعنى قوله تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ﴾:

انْظُر يا محمّد بفكرك الذي لا تحتاج معه إلى تأمُّلٍ وتَدْقيق وتعمُّق، متعجّباً مستنكراً كيف اصطنعوا كذباً وافتراءً لكَ أوصافاً يكشف الفكرُ القريبُ بطلانها، لمنافاتها لصفاتك العظيمة التي تتحلّىٰ بها، ويُدْرِكُها كلّ ذي فكرٍ، ولو لم يكن فَطناً ولا ألمعيًّا، ولا باحثاً متعمّقاً. والخطابُ للرسول خطاب لكلّ ذي نظرَ.

ويَردُ هنا سؤال: لِمَ جمع الله الأمثال، مع أنّ الذي ذكره النّصّ هنا هو قولهم عنه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. وهذا مَثَلٌ واحد (أي: وصف واحد) لا أمثال؟

ويمكن أن نجيب على هذا السؤال بأنّ الذين كفروا قد سبق لهم قبل نزول سورة (الفرقان) أنْ وصفوا الرّسُول بأنه ساحر كذّاب، ووصفوه بأنّه مجنون، وفي الآية الرابعة من سورة (الفرقان) وصفوه بأنّه مُفْتَرٍ مُتَقَوِّلٌ عَلَىٰ الله، فكان من المناسب الإشارة إلى كلّ هذه الأقوال بعبارة ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾.

والناظر في أقوالهم يلاحظ أنّها متناقضة متعارضة، فكيف يستقيم لهم منطق سديد وهم يطرحون هذه الأقوال المتعارضة.

إنّ المفتري الكذّاب السّاحر لا يكون مسحوراً، وذلك لأنّ المسحور تجري الأشياء على لسانه وحركاته بدون إرادته، بخلاف المفتري الكذّاب الساحر، كيف يكون المسحور ساحراً، هذا تناقض، والتناقض من الأمور المثيرة للتعجب، إذ التّناقض لا يقبله العقلاء على أنفسهم، فكيف يقبله أئمة المشركين، وهم يرون أنَّهم أصحابُ عقلٍ وفطنةٍ وَذَكاء.

ونلمح في عبارة ﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ إبداعاً قائماً على عكس التشبيه.

فمسيرة التشبيه العاديّة أن يُقَال: جعلوكَ مِثْلَ المَسْحور، أو مثْلَ السَّاحر، أو مِثلَ المجنون، أو مِثْلَ المفتري الكذّاب.

لكنّ النصّ القرآني كرّم الرّسول عن هذا، فعبّر عن عملهم بأنّهم اخترعوا من عندهم رُسُومات، وضرَبُوها كما تُضْربُ النقود تثبيتاً لها، وادَّعَوْا أَنَّها تُشْبهُ الرّسُول محمّداً، وهذا أسلوبٌ من تكريم الرّسول عن شتائم الكافرين له عجيب.

فَلْتَبْقَ رُسُومُهم عندهم، وأمْثَالُهُمْ عندهم، في أوهامهم وأقوالهم، لا يَمَسُّ الرَّسُولَ مِنْهَا شيْءٌ، ولا سيّما وهي فيما بينها متعارضات متناقضات.

وبناءً على أنّ الّذين كفروا قد وصَفُوا الرّسول بهذه الصفات المتعارضات المتناقضات، التي لا يمكن اجتماعها في شخص واحد، فإنّهم قد وضعوا أنفسهم في متاهةٍ فكريّة مظلمة، بعيدةٍ عن سبيل الحق.

ومن وضع نفسه في متاهة فكريّة، رافضاً سبيل الحق الواضح الوحيد، فإنّه لا يستطيع أن يجد لنفسه سبيلاً منطقيًّا علميًّا آخر، مهما بحث وفتَّشَ ضِمْن متاهته، إذ ليس بعد سبيل الحق الوحيد إلّا الضلال.

أمّا الذكاء فمهما بلغ فإنّه لا ينفع في إيجاد المعدوم، والسبيلُ الحقُّ معدوم في المتاهاتِ والْمَضلَّات، فلن يجده فيها الباحثون المفتشون.

ثانياً: وفي الرّدّ على اقتراحهم أن يُلْقىٰ للرّسُولِ كَنْزٌ، أو تكون لَهُ جنَّةٌ يَأْكُلُ منها، ويأكلون هم منها، قال الله عزَّ وجلّ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾: تَزَايَدَ وتَعَاظَمَ وَتَنَامَىٰ فَوْقَ كلّ وصْفِ كمالٍ يصفه به الواصفون.

﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾: أي: لكنّه لم يَشَأْ، لأنّ حكمته تعالى اقتضت أن لا يشاء أن يجعلك ذا ثراءٍ واسعٍ وجنّاتٍ وقصورٍ في الدّنيا، كما اقترح الذين كفروا.

﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾: أي خيراً من ذَلِكَ الَّذِي اقترحوه لَكَ من ثَرَاءٍ واسِعٍ في الدّنيا.

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي: بساتين مستورة بالأشجار الوارفةِ الظلال، الكثيرة الجمال، المملوءة بما لذّ وطاب من مأكول، ومشموم، ومُشاهَد.

ويَجْعَل لَكَ: فيها قراءتان، فقرأ جمهور القرّاء العشرة بالجزم «وَيَجْعَلْ» عطفاً على محلّ جواب الشرط ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ الذي هو الجزم.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وشعبة عن عاصم: ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ﴾ بالرفع، وهو أحد وَجهَيْن جائِزين في العطف على جواب الشرط بالواو أو بالفاء.

﴿قُصُورًا﴾: جمع قَصْر، والقصر هو البناء العظيم الواسع المحصَّنُ، وسُمِّيَ قصراً، لأنه تُقْصَرُ فيه الْحُرَمُ، أي: تُحْبَسُ وتُمْنَعُ ويُمْنَعُ عَنْها.

والمعنى: تزايد وتعاظم وتنامىٰ في كلّ صفات الكمال عن تصوّرات وأقوال الواصفين، وتنَزَّهَ عن كلّ صفات النقصان، ومنها العبث وفعل ما لا يليق بحكمته، الغنيُّ الجليلُ الذي إن قَضَتْ حكمتُه وشَاءَ أن يَجْعَلَكَ يا محمّد من أهل الغنىٰ الكثير، والثراء الوفير في الدنيا، جَعَلَ لَكَ أكْثَرَ بكثير ممّا اقترح لَكَ الّذين كفروا من إلْقاءِ كَنْزٍ إلَيْكَ، أو هِبَةِ ربّك لك بطريقة معجزة جَنَّةً تَأْكُلُ مِنْها وَيَأْكلونَ هم مِنْها، فهو إنْ شاء جعلَ لَكَ خيراً من ذلك الذي اقْتَرحُوه عليك، جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار لا جنَّةً واحدة، ويجعل لَكَ قُصُوراً تتجدّد دواماً، مباني وأثاثاً ورياشاً وزينةً، دلّ على هذا استعمالُ الفعل المضارع ﴿وَيَجْعَل﴾ الدّالّ على التجدّد.

أي: لكنّ الله عزّ وجلّ لم يشأ ذلك، لأنّه تباركَ وتعالى قضت حكمتُه أن يكونَ نبيُّهُ ورسُولُه محمّد بن عبد الله خاتمُ الأنبياء والمرسلين

عبداً داعياً إلى سبيل ربّه، ببراهينِ العقلِ، وأدلّةِ العلم، وأَنْوارِ الحكمة، ليكونَ أُسْوَةً وقُدْوَةً حسنةً للنّاسِ أجمعين، أغنيائِهم وفقرائِهم ومساكِينهم، ولتَكُونَ الاستجابةُ لما يدعو إليه استجابةً من أَجْلِ مضْمُونِ دعوتِه الحقّ الّتِي يدعو إليها، لَا مِنْ أجل مُلْكِه وسلطانه وغِنَاه، وليكون المؤمنون المسلمون جميعاً من بعده دعاةً هُداةً إلىٰ الإيمان وفعل الخير، ولئلا تكون تطلُّعَاتُ المؤمنينَ مِنْ بَعْدِه لزينة الحياة الدنيا، والتكاثُرِ من أموالها وما فيها من متاعٍ فَانٍ، ظانّين أنّ الرَّسُولَ أُسْوَتُهُمْ في ذلك.

إن نموذَجَ داودَ وسليمانَ عليهما السلام جَعَلَ بني إسرائيل باحثين عن المالِ والمُلك والسُّلطان، في كلّ ما يَعْمَلونَه ويفكّرون فيه ويهتَمُّون له، حتّى جعلهم ذلك شُيوخَ الفسَادِ وأئمَّةَ المفْسِدِين في الأرض، ولم يجعلْهم باحثين عن الحقّ والخير، وفضائلِ الإيمانِ، والعملِ الصَّالح في الحياة الدنيا، للظفر يوم الدين بجنّاتِ النعيم، والخيراتِ الحسان عنْدَ ربِّ العالمين، ولم يجْعَلْهُمْ دُعاةً هُداةً إلى الإِيمانِ بالحَقِّ، ونُصْرَةِ الحَقِّ، وإقامَةِ العَدْلِ وفعلِ الخيرِ وتَقْوَىٰ الله والبرّ والإحسان.

وفي هذا توجيه للدّعاة إلى الله بأن لا تكون الدُّنْيا أكْبَرَ همّهم، أو شغلهم الشاغل، وبأن لا يكونوا باحثين عن متاع الحياة الدنيا أو العلوّ في الأرض، بَلْ أَنْ يكونوا عاملين جَاهدين مجاهدين من أجل نشر دين الله والعمل به، مُضَحِّين في ذلك بأنْفُسِهم وبأموالهم.

إجمال معاني الدرس الثالث من دروس السورة

تضمّن هذا الدّرس من السورة خمس قضايا:

القضية الأولى: بيان اعتراض كفّار عرب مكة إبّان التنزيل على بشريّة الرسول محمّد ﷺ، بقولهم: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَـامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

أي: ما هو الشيءُ الذي ميّز محمّداً فجعله يخرج عمّا ينبغي للرّسول، فيكون رسولاً مع أنّه إنسانٌ بشَرٌ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كما يمشي سائر الناس، ساعين لكسب أرزاقهم وقضاء حاجاتِ أمور دنياهم؟!

القضية الثانية: بيان مقترحات قدّموها لسدّ ثُغرة بشريته بحسب زعمهم، وتكميل النقص عمّا ينبغي أن يكون عليه الرّسول، حتّى يُصدّقوه بأنّه رسول الله حقًّا.

الاقتراح الأول: أن يُنْزِل الله إليه ملكاً، فيكون مَعَهُ مرافقاً له، مبلّغاً دين الله، ومبشراً من آمن وأطاع، ومنذراً من خالف وكفر وعصى.

وقد قدّموا هذا الاقتراح بطريقة فيها حضّ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

الاقتراح الثاني: أن يُلقَىٰ إلَيْه منْ عِنْدِ الله بطريقة خارقة للعادة كنْزٌ يستغني به عن الكَسْبِ، ويوزّع منه على من ينتمي إليه.

وقد قدّموا هذا الاقتراح أيضاً بطريقة فيها حضّ، لأنّه جاء في النصّ معطوفاً على الاقتراح الأول، بحرف العطف «أو» التخييريّة: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

الاقتراح الثالث: أن تكون له جَنّة يأكُلُ هو وأهله منها، ويأكُلون هُم منها أيضاً، وقد دلّت على الأمرين القراءتان ﴿يَأْكُلُ﴾ و﴿نَأْكُلَ﴾.

وقد جاء هذا الاقتراح كسابقه معطوفاً بحرف العطف «أو» التخييريّة، فشمله التحضيض.

القضية الثالثة: بيان ظُلْمِهم له باتّهامهم إياه بين صُفُوفِ المؤمنين به بأنّه رجلٌ مسحور، يتصرّف تصرّفاته بادّعاء أنّه رسولٌ لِلَّه بغير إرادة واعيةٍ

منه، بعد أن اتّهموه قبل ذلك في مرحلة سابقة من مراحل دعوته بأنه ساحر، وفي هذا تقلّبٌ منهم في المواقف بين الأضداد.

وغرضهم من هذا الاتهام الجديد تحريض المؤمنين على الرِّدة عن دينه، والانصراف عن اتّباعهم له، مستثيرين فيهم الأنفة عن اتّباع رجل مسحورٍ مغلوبٍ على أمره، وهو يتوهّم أنه صادق.

القضيّة الرابعة: تطييبُ قلب الرسول ﷺ بالنسبة إلى اتهاماتهم له، بأنّ أمرهم جديرٌ بأن يَتَعَجَّبَ منه المتعجُّبون، نظراً إلى أنّهم ضلّوا في متاهات الأوصاف المتناقضة المتعارضة، فهم في متاهاتهم وضلالاتهم لا يستطيعون أن يجدوا سبيلاً حقًّا واضحاً يسلكونه، لذلك فهم يَتَنَقَّلُون في ضلالات متناقضات لدى اتّهامهم له، ليوهموا بأقوالهم المتعارضة المتناقضة أنّه ليس نبيًّا ولا رسولاً، فقال الله تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾.

أي: انظر مُتَعَجِّباً من أحوالهم المتقلّبة المحرومة من المنطق السليم، والفكر القويم، إذْ يصفونك بالمتناقضات والأضداد التي لا تجتمع.

ومن عجيب البيان القرآنيّ أنّ النصّ لم يأت فيه أنهم مثَّلُوهُ وشَبَّهُوهُ بنحوِ سَاحرٍ ومُفْتَرٍ ومجنونٍ ومسحورٍ، بل قَلَبَ النصُّ التَّشْبيه تكريماً له، فقال: ﴿ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: حاولوا أن يصْنَعُوا أمْثلةً لكَ من عند أنفسهم، يزعمون أَنَّها تُشْبهُكَ، كمن يأتي إلى صخرة فيَنْحَتُ فيها صورةً مشوّهةً لحيوانٍ حقيرٍ، ثُم يزْعُمُ أنَّها تِمْثَالٌ مطابقٌ لأكمل أسدٍ عرفه الناس.

إنّ هذا القلْبَ لصورة التشبيه من أبدع الأساليب الأدبيّة، والغرضُ منه تكريمُ الرّسُول عن حكاية ما فعلوه في تشبيههم له، وجعلُ ما فعلوه نقصاً في اصطناعهم الذي اصطنعوه، فبقي الرسول في قِمَّتِهِ لَمْ يَمَسَّهُ شيءٌ ممّا اصطنعوه، فوقع تطييب قلبه موقع العلاج الشافي.

القضية الخامسة: تعظيم الله وتنزيهه، وبيانُ أنّه لو قضت حكمته بالاستجابة لمقترحاتهم، لأعطى رسوله أكثر ممّا اقترحوه بكثير، فقال الله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

وبهذا انتهينا من تدّبر الدرس الثالث على ما فتح الله به، والحمد لله على معونته وتوفيقه.

* * *

(٩)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١١ ـ ١٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

القراءات:

(١٣) ● قرأ ابنُ كَثِير: [ضَيْقاً] بإسكان الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتَشْدِيد الياء.

ضيِّقاً وضَيْقاً: لغتان معناهما واحد، وهما في الصيغة مثل: «هيِّن وهَيْن ـ وليِّنْ ولَيْن».

(١٧) • قرأ ابن كثير، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء، والفاعل هو الله عزّ وجل، وهو ضمير يعود على معلوم غير مذكور في اللفظ فيما سبق.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَيَوْمَ نَحْشُرُهم] بنون المتكلّم العظيم.

وبين القراءتين تكامل بياني، ومؤدّاهما واحد.

(١٧) • قرأ ابنُ عامر: [فنَقُولُ] بنون المتكلّم العظيم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَيَقُولُ﴾ بضمير الغائب، وهو يعود على معلوم غير مذكور في اللّفظ وهو الله جلّ جلاله.

وبين القراءتين تكامل بيانيٌّ، ومؤدّاهما واحد.

(١٨) • قرأ أبو جَعْفر: [أَنْ نُتَّخَذَ مِنْ دُونِكَ] بالفِعْل المبني لما لم يُسَمَّ فاعله.

وقرأ باقي القُرّاء العشرة: ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ بالفِعْل المبني للمعلوم.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنىٰ المراد، إذ هم ينزّهون الله عن أن يَتَّخذوا من دونه أولياءَ لهم، ويُنَزِّهُون الله عَنْ رِضَاهم بأنْ يتخِذَهُمْ أحَدٌ أوْلِيَاءَ من دُونه.

(١٩) • قرأ حفْص: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَةِ: ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بيَاء الغائبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

تمهيد:

في هذا الدرس بيانٌ للعلَّة النفسيَّة الداخليّة، الّتي في المعنِيّين من الكافرين المشركين الذين يجادلون في القرآن، وفي الرسول، وهي تكذيبهم بيوم الدّين.

وفيه معالجتهم بعرض صورٍ من الترهيب والترغيب، الّتي تستثير أفئدة أولي الألْبَاب للإيمان والإسلام والطاعة، بما فيها من تقديم لقطاتٍ مؤثراتٍ مِنْ مَشاهِدِ يوم الدين.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾.

﴿بَلۡ﴾: هي في اللّغة حرف على وجهين:

الأول: «بل» الابتدائية، وهي التي تليها جملة، ومعناها الإضراب.

والإضراب: إمّا أنْ يكون معناه الإبطال، مثل قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: لم يتخذ الرحمن ولداً، بل الملائكة عبادٌ مكرمون.

وإمّا أنْ يكون معنى الإضراب الانتقالُ من غرضٍ إلى آخر، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾﴾.

الثاني: «بل» العاطفة، ومعناها الإضراب عن الأوّل، والإثباتُ

للتالي، ولا تكون حرف عطف إلَّا بشرطين: أن يكون معطوفُها مفرداً لا جملة. وأن تُسْبق بإيجابٍ أو أمرٍ أو نفيٍ أَوْ نَهْيٍ.

و«بل» في النّص هنا هي الابتدائية، لا العاطفة، وهي حرفٌ لا محلّ له من الإِعراب، والإِضراب فيها إضرابُ إبطالٍ لما قَبْلَها وإثباتٍ لما بعدها، لا إضراب انتقال من غرض إلى غرض فيما أرى.

قد يسهُل على الناظر دون تعمُّق أن يقول: هي للانتقال من غرضٍ إلى غرضٍ آخر، وينتهي بذلك البحثُ لَدَيْه، ولا يُفَكِّر في رَوَابِطِ النصِّ الفكريّة.

ولكنّ المتدبّر لمَا جاءَ قَبْلَها يُلاحظُ أنَّ الكَافِرينَ الْمتَحَدَّثَ عَنْهُمْ، قد جادلوا في الرّسول، وفي كون القرآن من عند الله، وطرحوا بأقوالهم تشكيكاتٍ مختلفاتٍ حول الرسول، وحول القرآن، فزعموا أنّ البشريّة تتنافى مع النبوّة والرّسالة، وزعموا أنّ القرآن قد افتراه محمّد، وزعموا أنّه أساطير الأوّلين اكتتبها، فهل كانوا حقيقةً شاكّين من عُمْق أفئدتهم في صدق الرسول، الذي يعرفون صدقه وأمانته وأنّه على خُلُق عظيم، ويعلَمُون كمالَ عَقْلِه وفِطْنَتِه؟ وهلْ كانوا حَقِيقةً يتصوَّرُون أنّ القرآن أباطيل، أَوْ أَنّه منقولٌ عن كُتب أهل الكتاب الأول؟ أم كانوا يتَظَاهَرون بهٰذِهِ التعلّلات مُمَاراةً جدليّةً فقط، وهم غير مقتنعين بأنّ ما يطرحونه قولٌ سديد، أو شكوكٌ حقيقية ينبغي أَنْ تُزالَ حتّى يؤمِنُوا بالرسُول وبالقرآن؟

الواقع أنّ ما كانوا عليه قد كان من قبيل الْمُمَاراة الجدليّة فقط، وليس لديهم قناعات بما يقولون.

إذنْ: فالإِضرابُ بحرف «بل» بعْدَ هذا يكون معناه الإِبطالَ، لا مُجرَّد الانتقال من غرض إلى آخر.

والمعنى: ليسوا مقتنعين بما قدّموا من تعلُّلاتٍ، وتشكيكاتٍ،

وجدلياتٍ، بل اتَّخذوها ذرائع، وعلَّتُهم الداخليّةُ أنّهم كذّبوا بالسَّاعة، أي: بيوم الدين وما فيه من جزاء بالثواب في جنّات النَّعيم، وبالعِقَابِ الأَلِيم فِي الْجَحِيم، وبِالْبَعْثِ بعد الموت للحياة الأخرى.

﴿بِٱلسَّاعَةِۖ﴾: أُطلِقَ لفظ الساعة في القرآن على وقت إنهاء ظروف هذه الحياة الدنيا. وأُطلِقَ على وقت بعث الناس من أجداثهم إلى الحياة الأخرىٰ. وأُطْلِقَ على مُدَّةٍ زمَنِيَّةٍ قليلة وَفْقَ مَفْهُومِ العرب للسّاعة. يقول العربيُّ: جلَسْتُ ساعةً، أو مَرَّ بي فلانٌ في ساعة، يُريد بذلك وقتاً ما قليلاً.

والعرب كانوا يقسّمون النهار واللّيل إلى أربع وعشرين جزءاً، ويجعلون كلّ جزءٍ منها ساعة، وهذا ما عليه اصطلاح الناس جميعاً حتّى اليوم. وتُجْمَعُ ساعة على ساعاتٍ وعلى ساعٍ، وتصغّر على سُويعة.

ومعنى ﴿كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾: جعلوا خبر الساعة خبراً كذباً ليس له مطابق في الواقع الذي سوف يحدث، وتكذيبهم هذا لا دليل لهم عليه مطلقاً، فهو مجرّد رَفْضٍ للخبر وتكذيبٍ به.

يقال لغةً: كَذَّبَ فُلانٌ فلاناً تكذيباً وَكِذَّاباً، إِذَا نَسَبَهُ إلى الكذبِ فيما أخبر به، واتّهمه بالكذب.

ويقالُ: كذَّبَ بالخبر تكذيباً وَكِذَّاباً إذا جعَلَه أو اعتبره خبراً كَذِباً غيرَ مُطابقٍ للواقع.

ولذلك نجد في القرآن أنّ فعل التكذيب، إذا كان معمولُهُ مُبلِّغَ الخبر جاء الفعل متعدّياً بنفسه إلى المفعول به، دون حرف الجرّ «الباء»، مثل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ـ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ـ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ـ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ـ فَإِن كَذَّبُوكَ ـ فَكَذَّبُوهُمَا﴾.

وإذا كان التكذيب للخبر نفسه جاء الفعل متعدياً بالباء، مثل: ﴿ٱلَّذِينَ

كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ـ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ـ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ـ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾.

والذي يظهر أنّ أصل الكلام في هذا: كذّبوا المخبِرَ بما أخبر به، فَكَذَّبوا الرَّسُولَ بما جاء به عن ربّه، وقد دلّ على هذا التقدير قول الله عزَّ وجلّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾.

ولدى الاستعمالات الكثيرة نلاحظ أنه قد يحذف من الكلام الباء وما دخلت عليه، وقد يحذف منه الْمُخْبِرُ بالخبر، وفي كلتا الحالتين يحسُن بمتدبّر كلام الله أن يتصوّر لدى تدبّره المحذوف منهما. وقد يحذفان معاً، ويُقْتَصر في النّص على ذكر التكذيب فقط، ومنه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ـ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ـ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

بعد هذا أقول: إنّ تكذيب الذين كفروا بنَبأ الساعة الذي جاء به رُسُل الله، هو الذي دفعهم إلى اصْطِناع جدليَّاتِهم وتعلُّلاتِهم حوْلَ الرسُولِ وحَوْلَ القرآن.

والساعةُ التي كذّبوا بها هي بالدرجة الأولى ساعَةُ البعْثِ إلى الحياة بعد الموت لِلْحِسَابِ والجَزَاءِ، ويَجُرُّ هَٰذا التكذيبُ إلى التكذيب بساعة إنْهاء ظروف هذه الحياة الدنيا، بإماتة الخلائق جَمِيعاً وإفنائِهم وتَغْيير هذا النّظام القائم.

والكافرون الّذِين يؤمنون بالرّب الخالق يرون أنّ أعمال خلقه قاصرةٌ على ظروف هذه الحياة الدنيا، فهم لا يَرَوْنَ لأنفُسِهم بقاءً إلّا ما يَحْيَوْنَه في هذه الحياة، فلا شيء بعد ذلك، ومن أجل هذا تكُونُ أعْمَالُهم وتصرّفاتهم دائرةً في حدود ما يُصِيبُون مِنْ خيرٍ أو شرّ في هذه الحياة، ولا يَتصَوَّرون لأنفسهم حياةً غَيْرَها.

فكلُّ دليلٍ أو آيةٍ أو برهانٍ عقليّ يتضمّن إخراجهم من هذه الدائرة التي يتصوّرونَها يُحَاوِلُون التشكيكَ فيه، وإيجادَ الذَّرائع التّعلُّليّةِ لرفْضِهِ والتكذيبِ به.

هذه هي عِلَّتهُم الداخليّة، وقد كَشَفَهَا الله عزَّ وجلّ بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾.

أمّا الباعث على تكذيبهم بالسَّاعة فَيَرْجع إلى نَوازِع الْهَوى واتّباع الشهوات ورَغَباتِ الفجور الوقِحِ في الأرض، دُونَ خَوْفٍ منْ مَصِير، ولا شُعُورٍ بوَخْزِ ضمير.

لكنَّ الجزاءَ وعدْلَ الله وحكْمَتَه في خَلْقه قد سَبَق بيانُ ما يَدُلُّ عليها فيما نزل من قرآن قبل نزول سورة (الفرقان).

وبما أنّ الذين كفروا لم يطْرَحُوا بعْدُ جَدَلِيَّاتِهم حول الْبَعْثِ للحياة بعد الموت، اقتصر النصّ هنا على بَيَانِ تكذيبهم، وتهديدِهم بالوعِيدِ بعذاب السعير، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: «أعْتَد» بمعنى «أعَدَّ» وهيَّأ. ويُقَالُ: شيءٌ عَتِيدٌ: أي: مُعَدٌّ حَاضِرٌ. و«الْعَتَادُ» الشيء يُعَدُّ لأمرٍ ما ويُهَيَّأُ له. ويقال: أخَذَ للأمْرِ عُدَّتَهُ وَعَتادَه: أي: أُهْبَتَهُ وآلَتَهُ ومَا يُحْتَاجُ فيه إليه.

﴿سَعِيرًا﴾: السَّعير في اللغة يأتي بمعنى النار، وقيل: السعير لَهَبُ النار. ويُقَالُ: نَارٌ سعِيرٌ، أي: نارٌ مَسْعُورة، بمعنى مُوقَدَة. ويقال: سَعَرَ النَّارَ يَسْعَرُها، وأَسْعَرَهَا وَسَعَّرَها، إذَا أوقَدَهَا، وَهيّجَها.

فالمعنى: وأعْدَدْنا وَهَيَّأنا ناراً مُلْتهبةً مَسْعُورةً مُوقَدةً، لتَعْذِيب مَنْ كذّب بالأخبار الرّبّانية الواردةِ عن السَّاعَة، التي تكون بها قِيامَةُ الأمْوَاتِ من أجداثِهِمْ أحياءً، قد بَعَثَهُم الله عزَّ وجلّ للحساب والجزاء.

وقد جاء ذكر السّعير كنايةً عن دار العذاب الّتي فيها هذا السعير الملْتهِبُ.

قول الله تعالى:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢﴾:

﴿تَغَيُّظًا﴾: التغيّظ(١): شِدّة الغيظ، والغيظ هو الغضب الشديد، فالمعنى: أشدُّ الغضب. وصيغة «تَفَعَّلَ تَفَعُّلاً» من معانيها التكلّف والمبالغة، فيدُلُّ تغيُّظ النّار على غليانٍ وتفجّراتٍ في داخلها لأشياءَ صُلْبَةٍ قاسيةٍ لا تتفجّر إلّا بقوّةٍ مُفَجِّرَةٍ شديدة.

والمراد: سمعوا صوت تَغَيُّظِها، يقال لغة: تغيّظتِ الهاجرة إذا اشتَدَّ حَمْيُها.

وقال الله تعالى في وصف جهنَّمَ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ . . . ۝٨﴾.

أي: تكاد تتمزّقُ وتَتَفرّقُ مُتَنَاثِرَةً من أشدّ الْغَضَب الذي في داخلها.

ووَصْفُ النارِ بأنّها ذاتُ غيظٍ استعارةٌ قائمة على تشبيهِ حركةٍ مادّيّةٍ في الأشياء غيرِ ذات الإحساس، بحركةٍ نَفْسِيَّةٍ في الأحياء التي تَنْفَعِل بالغضب، وتُحِسُّ به.

وبما أنّ المخاطَبِينَ من الناس يُدْرِكون مشاعر الغضب الشديد في

---

(١) التغيظ: مصدر تغيّظ، مطاوع غيَّظه فتغيظ، والغيظ إنفعال نفسيٌّ يضغط على الصدر، قد يكون له مظاهر صوتية. وقالوا: اغتاظت النار، إذا اشتَدَّ توقدها حتى سمعت منها أصوات تفجّراتها.

نفوسهم، فإنّ استعارةَ مادّةِ التغيُّظ لما يكون في النار من غليانٍ وتفجُّراتٍ تَجْعَلُهُمْ يَتَصوَّرُون ذلك بصورةٍ أفْضَلَ من الْمَشَاهِدِ الْبَصَرِيّةِ، وأكْثَرَ رَهْبَةً، معَ مَا تَحْمِلُ هٰذِه الصُّورة النفسيّة من دلالَةٍ علىٰ معْنَى الحِرْصِ علىٰ الانتقام والنّكاية والتنكيل بالذين سيعذّبون فيها، فهي كالمغتاظة منهم، تستَعِدّ للتنكيل بهم.

﴿وَزَفِيرًا﴾: الزّفِيرُ مَدُّ النَّفَسِ بقُوَّةٍ حتَّىٰ الْغَايَة، وإخراجُهُ من الصَّدر، أمّا الشَّهِيق فَهُو أخذ النَّفَسِ بقوّة إلَىٰ دَاخِلِ الصّدْرِ حتَّىٰ امْتِلاء الرئتَيْنِ به.

قال ابن سِيدَه: زَفَرَ يَزْفِرُ زَفْراً وَزَفِيراً، أخرجَ نَفَسَهُ بَعْدَ مَدِّه إيّاه.

ويقال لغة: زَفَرَتِ النّار، إذا سُمِعَ لاتّقادها صوت.

ويُطْلَق الشهيقُ والزّفير على ما يكون في النار من دُخول الرياح إلى باطنها، وخروجها حارَّةً من باطِنِها على سبيل التوسُّع في الاستعمال القائم على تشبيه ما يحْدُثُ في الأشياء غَيْرِ ذات الحياة، بما يَحْدُثُ في الأحياء التي تَتَنَفَّسُ الرياح.

ولزَفِير النّارِ صَوْتٌ غَيْرُ صَوْتِ التغيّظ الذي تُحْدِثُه التفجّراتُ الناريّة، وكذلك للشهيق صوت آخر.

ونُلاحظُ أنَّ التعبير في قَوْلِ الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قد جاء بإسْنَادِ الرُّؤْيةِ إلى السَّعِير، وهي النار المُلْتَهِبة الموقَدَة، ولم يأْتِ بإسناد الرُّؤْيةِ إلى المكذبين بالسَّاعَةِ الذين يَسْمَعُون تغيُّظَها وَزَفِيرَها، مع أنّ الرُّؤْية إنّما تُسْنَدُ لذي عَيْنَيْنِ تَرَيان وتُحِسَّانِ، والنَّارُ كَائِنٌ غيْرُ ذي حياةٍ وإحساسٍ بحَسَبِ الظاهِرِ المألُوفِ، لكِنْ إذَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَجْعَلَ لَهَا ذَلِك جَعَلَهُ لها بقدرته.

فإذا اعتبرنا هذا الإسناد مُراعًى فيهِ وَاقعُ حَالِ المألُوفِ من الأشياء الّتي ليس لها أدواتٌ تُحِسُّ بها، فالإسنادُ هُنَا هُوَ من قبيل المجاز العقلي

«وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة من علاقات المجاز الكثيرة» والعلاقة هنا «الفاعليّة والمفعوليّة» فَأُسْنِدَ ما هو للْفَاعِلِ لِلْمَفْعول.

ومن أساليب العرب قولُهُمْ في المتَبَاعِدَيْن: لا تَتَرَاءَىٰ نَارَاهُما، أي: لا ترى كلٌّ منْهُمَا الأخرى، للبُعْدِ الشاسع بينهما.

ونَتَساءَلُ هُنَا: هل يدُلّ التعبيرُ الّذي جاءَ في الآية على أنّ المكَذِّبين بالسَّاعَةِ يكونُونَ في هذِه الحَالَةِ عُمْياناً لا يَرَوْنَ النَّار، إلّا أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي مَوْقِعِ مَنْ يَراهَا لَوْ كَانَ بَصِيراً، بدليلِ التعبِيرِ بأَنَّ النَّارَ تَرَاهم؟

أقول: هذا من الاحتمالاتِ المقْبُولَة، وقد يؤكّده أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ صَوْتَ تغيُّظِها، ويَسْمَعُونَ زَفِيرَها. ولم يُذْكَرِ الشَّهيق، إمّا إيجازاً لأنّ الزّفيرَ يَدُلُّ عليه، وإمّا لأنّ الشَّهِيق يكُونُ الصَّوْتُ مَعَهُ أَخْفَضَ، إذْ يَدْخُلُ إِلَىٰ النَّارِ بِرِفْقٍ، فهم لا يسمعونه من ذلك الْبُعْدِ الْمُشَارِ إليه في النصّ.

وبنَظْرةٍ عامَّةٍ حوْلَ واقعِ حالِ الحَوَاسِّ الثّلاث للمُسوقين إلىٰ العذَابِ يومَ الدِّين (البصر، والسمع، والنطق) استنباطاً ممّا جاء في القرآن، نلاحظ ما يلي:

(١) جاء في بعض النصوص ما يُثْبِتُ أنّهم يحشرون على وجوههم عُمْياً وبُكماً وَصُمًّا.

(٢) وجاء بالنسبة إلىٰ مَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْرِ الله بَعْدَ مَعْرِفَتِه، وسلوك سبيله، بأنّه يُحْشَرُ يوْمَ القيامَةِ أعْمَىٰ، ولم يأت أنه يُحْشَرُ أيضاً أصمّ ولا أبكم، بل جاء أنه يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾(١).

أي: كنت من أهل الإيمان، فيقول الله لَهُ كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

---

(١) (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) آية ١٢٥.

﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ... ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: فعلنا بك مثل ذلك الذي كان مِنْكَ في الحياة الدّنيا، أَتَتْكَ آياتنا فتبلَّغْتَها، وأخذْتَها، وذَكَرْتَهَا مِقْداراً ما من الزمن، ثُمَّ أعرضت عنها إعراضاً تامًّا، فصِرْتَ كَمَنْ عَمِيَ عَنْهَا، حتّى نَسِيتَهَا.

فَبِمِثْل ذلك الذي كان منْكَ في الدّنيا نُعاقِبُكَ اليوم، وذلك بأن تُحْشَر أعْمَىٰ كما عَمِيتَ عَنْ آياتنا بعْدَ أَنْ رأيتها، ونُهْمِلُكَ الْيَوْمَ ونتركُكَ مِثْلَ أهل العمىٰ من الكافرين، كما أَهْمَلْتَ آياتِنَا وهَجَرْتَها، حتى نَسِيتَها.

(٣) وجاء في سائر النصوص ما يُثْبِتُ سلامَةَ حواسِّهم عند البعث، وعقب البعث، وعند السؤال والحساب، وعند إيقافِهِمْ علىٰ النار، وبعد دُخولهم فيها، فهم يتعارفون بينهم، ويقرأون كتبهم، ويتكلمون.

والجمع بين هذه النصوص يكون بأن نفهم أَنَّ سَلْبَ الكافرين حواسَّهُمْ الثلاثَ (البصر، والسمع، والنطق) وسَلْبَ المعْرِضين عن ذكر الله أبصارهم فقط يكون في بعض أحوالهم يوم الدّين.

ويظهر أنّ ذلك يكون في مُدَّةٍ وُسْطَىٰ، وهم في الحشر، بعد زمن ما من وقت بعثهم، الله أعلم به، إذْ يُبعثُون بحواسّهم سَلِيمة، ثم تُطْمَسُ أَبْصَارُ وأَسْمَاعُ وأَلْسِنَةُ الكافرين، وتُطْمَسُ أبصار الذين أعرضوا عن ذكر الله في الدنيا إعراضاً تامًّا، بعد أن كانوا مؤمنين من أهل الذكر، مَسُوقين إلى الْحَشْر.

وعند الحساب وفصل القضاء تُرَدُّ إليهم حواسُّهم، فقد ثبت في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) أنّ بصَر المسوق إلى موقف الحساب يكون بصراً حَدِيداً، أي: قويًّا.

ويحتمل أنّ الكافرين بعد الحساب وإصدار أحكام مجازاتهم، تُطْمَسُ أبصارهم مرّةً أخرى، وتبقى لهم أسماعهم، حتّى يُساقُوا ويُوقَفُوا على

النار، عندئذٍ تُرَدُّ إليهم أبصارهم لِيَرَوْا مَصِيرهم فيها، وهذا الاحتمال يمكن أن يكون هو المراد المدلولَ عليه ضمناً في قول الله تعالى:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

وقد ذكر القرطبي «شمسُ الدين محمد بن أحمد الأنصاري» صاحب التفسيرِ المشهور، في كتابه «التّذْكِرَة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» جمعاً بين الآيات الواردات في أحوال الكافرين في الآخرة، ما خلاصته أنّ الناس لا يكونون يوم الدّين على حالةٍ واحدةٍ دواماً، بل لهم أحوال، وأنّ اختلاف بعض النصوص عن بعضها، ليسَ تعارضاً فيما بينها، ولكنّ بعضَها يتحدَّثُ عن بعض الأحوال، وبعضَها الآخر يتحدّثُ عن أحوال أُخْرىٰ.

وهذا الذي ذكره القرطبي حقّ وواضح من دلالات النصوص.

ثم ذكر خمس أحوال، هي: (١ ـ حالة البعث من القبور. ٢ ـ حالة السوق إلى موضع الحساب. ٣ ـ حالة المحاسبة. ٤ ـ حالة السوق إلى دار الجزاء. ٥ ـ حالة الإِقامة في دار الجزاء).

ووجّه طائفةً من النصوص القرآنية لبعض هذه الأحوال، وذكر أنّ قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإِسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

يُرادُ به حشْرُ الْكَافِرِينَ عُمْياً وبكماً وصُمًّا في حالة السَّوْقِ إلى دار الجزاء.

ثـمّ قال بعد توجيهاته لطائفةٍ من النصوص: فهذا وجه الجمْعِ بين الآيات، على ما قاله عُلَماؤنا، والله أعلم.

أقول: تَعْيِينُ أنَّ حشر الكافرين عُمْياً وبُكْماً وصُمًّا هو في حالة السَّوْق إلى دار الجزاء، لا دليل عليه من النصّ، بل قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الفرقان) التي نتدبّرها:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

يدلُّ على أنّهم لا يكونون صُمًّا حين سوقهم إلى دار الجزاء، بل يسمعون تغيُّظَها وزفيرها، إذِ اقْترابُهُمْ منها يكون عند سوقهم إليها.

والظاهر أنّ انطماس حواسّهم الثلاث يكون كما ذكرتُ آنفاً، في موقف الحشر، الذي يكون فيه الانتظار الطويلِ للحساب وفصْل القضاء، وهو الذي يتلاءم معه قول المعْرِضِ عن ذكر الله في الدنيا، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿... رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ... ﴿١٢٥﴾﴾.

أمّا في حالة سوق الكافرين إلى النار، فيكونون عُمْياً، ولا يكونون صُمًّا. ودلّ على أنّ سماعهم لتغيُّظها وزفيرها يكون عند سوقهم إليها، مَا جاء عقب هذا البيان، وهو قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾:

فالترتيب في البيانِ يُشعرُ بالترتيب في الواقع، والله أعلم.

فمعنىٰ الآيةَ بعد هذا البيان التحليليّ:

إذا كان المكذّبون بالساعة يوم الدين في مكان يمكن أن يَرَوْا فيه النار، لو كانوا ذوي أبصار، لم يُسْلَبُوا القُدْرَةَ على الرؤية بها، سَمِعُوا أصواتَ غَلَيَانِ وفورانِ المنصهرات فيها، وسمعوا ما فيها من تَفجُّرات، وسمعوا أصْواتَ الأنْفاسِ والرِّياحِ السّموم التي تَدْفَعُ بها عند الزَّفِير.

ولو أنهم كانوا يَرَوْن لرأوا حتماً لهب النار، لأنّ مدى قدرة الأبصار

على الرؤية أبعد من مدى قدرة الأسماع على السمع، ويحتمل أن تكون بينهم وبين النار حُجُبٌ غيْرُ انطماس أبصارهم، فهي التي تمنعهم من رؤيتها، والله أعلم.

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ⑬ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ⑭﴾.

﴿أُلْقُوا۟﴾: فعل ماضٍ مبني للمجهول، والضمير فيه نائب عن الفاعل.

الإِلقاء: هو الرمْيُ الذي يكون دفعةً واحدة، كإلقاء صَخْرةٍ من شاهقٍ في الهواء، وتركها حتى تصطدم بما تقع عليه من شيءٍ.

﴿مِنْهَا﴾: أي: من السعير «النار» التي جاء ذكرها في الآية «١١» والجار والمجرور متعلقان بمحذوفٍ هو في الأصل صفة لـ«مكاناً» فلمّا قُدّم عليه صار حالاً.

أي: إذا أُلْقُوا في مكانٍ ضيِّقٍ كائنٍ من السَّعير.

﴿مَكَانًا﴾: أي: في مكان، فلفظ «مكاناً» منصوبٌ بنزع الخافض منه، الذي هو لفظ «في» الظرفية.

﴿ضَيِّقًا﴾: صفة للمكان، فالمكذّبون بالساعة يُلْقَوْنَ في مكانٍ ضيّقٍ من النار غير واسع، لكي يكون أشدّ تعذيباً لهم.

يقال لغة: ضَاقَ المكانُ، أي: لم يتَّسِعْ للحالّ فيه، يَضِيقُ ضِيقاً وَضَيْقاً، فهو ضَيِّقٌ، وضَيْقٌ، وضَائق، أي: ذو ضيقٍ.

قَرَأَ الْجُمْهُور ﴿ضَيِّقًا﴾ بِتَشديد الياء، وقرأ ابن كثير [ضَيْقاً] بِسكونِ الياء، وهما في المعنى سواءٌ لغة، مثل: هَيْنٍ وَهَيِّنٍ، ولَيْنٍ ولَيِّنٍ، فالضَّيْقُ تخفيفٌ في اللّفظ للضَّيِّق.

وإذا قُلنا: إنّ ضَيْقاً مصدَرُ ضَاقَ، فتكونُ المبالغة آتيةً من الوصف بالمصدر.

والمعنى على كُلٍّ: أنّه مكان فيه ضِيقٌ شَديدٌ مؤلمٌ لِمَنْ يُلْقَىٰ فيه، فيزيدُ ضِيقُه من عذابه.

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: منصوبٌ على الحال من الضمير في ﴿أُلْقُوا۟﴾ العائد على الَّذِين كذّبوا بالساعة. وهو جمع «مُقَرَّنٍ». والْمُقَرَّنُ هو المشدود بقوَّةٍ إلى غيره بحبْلٍ أو نحوه.

«الْقَرَنَ» بفتح الراء هو الحبلُ الذي يُشدُّ به الأسير أو السجين ونحوهما، وجمعه «أَقْران». والْقَرِينُ: الأسير، وكلّ مُقارن ملازم.

يُقال لغة: قَرَنَ الشيءَ بالشيءِ، وقَرَنَهُ إليه يَقْرِنُهُ ويَقْرُنُهُ قَرْناً، إذا شدّهُ إليه.

ويُقال: قُرِّنَتِ الأُسَارَىٰ بالحبالِ إِذَا شُدَّتْ بكثرة، شُدِّد لفظ الفعل للدلالة على الكثرة والمبالغة.

قال الأصمعي: الْقَرْنُ جَمْعُكَ بَيْن دابتَيْنِ في حبل، والْحَبْلُ الّذِي يُلَزّانِ به يُدْعَىٰ «قَرَناً».

قال ابن شُمَيل: قَرَنْتُ بين البعيرين، وقرنتُهُما، إذا جمعتَ بينهما في حبلٍ قَرْناً.

والمعنى: أنّ المكذبين بالساعة يُشَدُّون بالحبال ويُسْحَبُونَ إلى عذاب السَّعِير، فَيُلْقَوْن فيها، وقد يُجْمَعُون معاً أزواجاً أو أكثر من ذلك، ويُلْقَوْنَ في مكانٍ ضَيِّقٍ من النار، لينالُوا عذاب ما كذّبوا به في الحياة الدنيا.

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾: أي: نادَوْا هنالك بأعلى أصواتهم، طالبين خلاصهم بالهلاك العام الشامل. أو نَدَبُوا هنالك هلاكهم كما يُنْدَبُ الميّت

بِتعداد محاسنه، والتفجُّعِ والتوجُّعِ لفقده. فهم يندبون الهلاكَ لأنّه أفضل لهم ممّا هم فيه، ويتوجّعون لفقده وحرمانهم منه، فيقولون: يَا ثُبوراه، يا هَلاكاه.

الدُّعاء في اللّغة: النّداء بصوت عالٍ، يقال لغةً: دعا فلاناً إذا ناداه صائحاً به. **والدُّعاءُ**: النُّدْبَةُ بذكرِ محاسن المندوب والتفجُّع عليه، يُقَالُ: دَعَا الميّتَ إذا نَدَبَه.

وأُشِيرَ في النصّ إلى المكان الّذِي يُلْقَىٰ فِيه المكذِّبُونَ بالساعة بإشارة البعيد «هُنَالِكَ» لِشِدَّةِ بُعْدِهِ عن مَهَابِطِ تَنَزُّلِ رحماتِ الباري عزَّ وجلّ.

﴿ثُبُورًا﴾: الثبورُ: الهلاك، يُقَالُ لُغَةً: ثَبَرَ فُلانٌ يَثْبُرُ ثَبراً وثُبوراً، إذَا هَلَكَ، ويُقَالُ: ثَبَرَهُ الله، إذا أهلكَهُ.

فالثُّبور: مصدرُ «ثَبَرَ» بمعنى هَلَكَ، وبمعنى أهلك.

ولفظ ﴿ثُبُورًا﴾ منصوبٌ على أنه مفعول به لفعل **[نَادَوا]**.

والمعنى أنهم يقولون: يا ثبوراً، أي: يا هلاكاً أدْرِكْنا من هذا العذاب الذي نحن فيه. أوْ يا إهلاكاً من ربّنا أدْركنا. أو يا ثُبورَاهُ ما أحسنك وما أفضلك بالنسبة إلى ما نحن فيه. وهذه المعاني كلُّها صالحة، ويمكن أن تَصْدُر جَمِيعُها عنهم، وهذا من الإِيجاز البديع في القرآن.

فيقال لهم:

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: لا خلاص لكم من العذاب الذي أنتم فيه، فلو أنّكم أُهْلِكْتُمْ لأُعِدْتُمْ إلى الحياة لتنالُوا عذابكم بالعدل، فتدعونَ ثُبوراً آخر، وهكذا دواماً. ثمّ إنّكم مع كلّ عذاب جديد ستَتَمَنَّوْنَ الخلاصَ منه، بأن تدعوا الثبور، وتَنْدُبُوه، وتَسْألوه ربّكُمْ، وهكذا تكراراً ومِرَاراً.

ويَحْمِلُ التعبيرُ أيضاً الدَّلالة على المعنى التالي: لا يكفيكم للخلاص من عذابكم هلاكٌ واحد من نوع واحد، بل أنواعٌ من الهلاك كثيرة، لأنّكم تحتاجون مع كلّ نوع إلى أن تدعوا نوعاً من الهلاك ليُرِيحكم منه، وهي فكرةٌ بديعةٌ تدلُّ على أنّ الآلام تأتيهم مُتَنَوِّعَةً بكثرة، فهم مع كلّ نوع منها يحتاجون أن يدعوا ثبوراً، على سبيل الطلب، أو على سبيل النُّدْبة.

فمعنى الآية: وَإِذَا أُلْقُوا عِنْدَ تَنْفِيذِ أَمْرِ تعذيبهم في مكان ضيِّقٍ من النّار، حالَةَ كوْنِهم مُقَيّدِين أسرى، مسوقين إلى العذاب، صَاحُوا مُنَادين هُنَالك في ذلك المكان البعيد عن مَهَابِطِ تَنَزُّلِ رَحَمَاتِ الله، يا هلاكاً أَقْبِلْ وأرِحْنا ممّا نحن فيه، وَيا رَبّنا أَهْلِكْنَا لِتُرِيحَنَا ممّا نَحْنُ فيه، ويَا ثُبوراهُ ويا هَلَاكَاهُ مَا أَفْضَلَكَ بالنّسبَةِ إلىٰ ما نَحْنُ فيه.

فيُقَالُ لهم رَفْضاً لِدُعَائِهِم وتَيْئِيساً: لا تدعوا (نداءً أوْ طلباً أوْ نُدْبَةً) هلاكاً واحداً، وادْعُوا هلاكاً كثيراً، فطلبكم مرفوض، ودعاؤكم مردود عليكم، فكرّروه كثيراً مع الأزمان، ومع أنواع العذاب، واندبوا هلاكَكُمْ دواماً، أي: فإذا كان النداء يُرِيحُكم فكرّروه ما شئتم، ولا حظّ لكم في الهلاك الذي تَدْعُونه، لأنّ الله عزَّ وجلّ قضى بأنّه لا موت بعد البعث إلى يوم الدّين.

روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«يُؤْتَى بالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامة، فَيُوقَفُ عَلَى الصّراط، فيقالُ: يَا أَهْلَ الجنَّةِ، فيَطَّلِعُونَ خَائِفين وَجِلِينَ أَنْ يُخرَجُوا مِنْ مَكانِهِمُ الّذِي هُمْ فيه. ثُمّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النّارِ، فَيَطَّلِعُوْنَ مُسْتَبْشِرِينَ فَرِحِينَ، أَنْ يُخرَجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الّذِي هُمْ فيه، فيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ: كِلَاهُمَا خُلُودٌ فيما تَجِدُون، لَا مَوْت فِيهَا أبداً».

وأمَّا ما ورَدَ من مَوْتِ المعذَّبين بالنار من أهل الجنة موتةً مؤقّتَةً في النار، فينبغي أن يُحْمَلَ علَى الْغَيْبُوبَةِ الّتي تُشْبِه الموت، وهي ليسَتْ مَوْتاً حقيقيًّا، وتكونُ لهم للتخفيف من عذابهم قبل إخراجهم من النار، وسَوْقِهِم إلى الجنّة، والله أعلم.

* * *

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿قُلْ﴾: خطابٌ للرسول فلكلّ داعٍ إلى الله من بعده، بأنْ يقول للّذين كذّبوا بالساعة (أي: بيوم الدين وما فيه من جزاء، إذْ يكون بعدها، وهو المقصود من التصديق بالسّاعة والإيمان بها).

﴿أَذَٰلِكَ﴾: أي: أذلِكَ العذاب المقرّر للمكذبين، الذي سبق بيان لقطاتٍ منه.

﴿خَيْرٌ﴾: أي: أَخيَرُ، بمعنى أنه أكثر خيراً، فهو «أَفْعَلُ» تفضيل، جاء على هذه الصيغة «خير» بغير همزة، خروجاً عن القياس، لكثرة الاستعمال، ونظيره في الخروج عن قياس «أفْعَل» مع استعماله في التفضيل، كلمة «شرٌّ» فيقال: هذا خيرٌ من هذا، وهذا شرٌّ من هذا⁽¹⁾.

أمّا السؤال عن الأَخْيَرِيَّةِ بَيْنَ أمرين أحدهما لا خير فيه مطلقاً،

---

(١) ومع هذا الشذوذ عن قياس «أفعل» فهما أيضاً لا فعل لكلّ منهما، وهذا شذوذ آخر فيهما، لأنّ «أفعل» التفضيل له شروطٌ حتّى يكون قياسيًّا، وهو أن يُصاغ من فِعْلٍ ثلاثيٍّ، مبنيٍّ للمعلوم، متصرِّفٍ، تامٍّ، قابلٍ للتفاوت، غير منفي، وليس الوصْفُ منه على أفعل وفعلاء، مثل: أحمر وحمراء.

والآخر لا شرّ فيه مطلقاً، فسؤالٌ فيه التعجيب من أمرهم، واسْتِثَارةُ ما لديهم من تمييزٍ بين الخير والشرّ، لم تطمسه الأهواء والشهوات وحبُّ العاجلةِ ورغباتُ الفجور، أو الكبرُ والعنادُ وحبُّ الاستعلاء في الأرض.

ومثل هذا الأسلوب مستعمل في عبارات الناس، فيقول ذو السلطان لأحد الذين كانوا من المقرّبين لديه، وله مكانة وحظوة، فخرج عليه، فحكم عليه بالسجن والتعذيب، وأمر بتنفيذ الحكم فيه: أترى هذا العذاب خيراً لك، أم ما كنت فيه من نعمة ومكانةٍ لدَيْنا، ومطَالِبَ مستجابة؟!

ويحتمل أن يكُونَ المشارُ إليه في ﴿أَذَٰلِكَ﴾ مجموع حالهم الشاملة لما كانوا عليه في الحياة الدنيا، وما سيصيرون إليه من عذابِ يَوْمَ الدين، إذْ يَرَوْنَ أنّ ما هم فيه في الحياة الدنيا يشتمل على خير يُحبُّونه، من مالٍ وسلطانٍ واستمتاعٍ بلذّاتِ تحقيقِ شهواتِهم وأهوائهم، فَلَدَيْهِمْ بِحَسَب رُؤْيَتهم قدْرٌ كبيرٌ من الْخيْر، يَصْلُح للمشاركةِ في التَّفَاضُل بيْنَ خيرَيْن.

أمّا مُقَابِلُهُ فهو حال المؤمنين الذين يَرَوْنهم دُونَهُمْ في متاع الحياة الدنيا وزينتها وخيراتِها، لكنَّهُمْ صائِرون بفضل الله إلى جنَّةِ الْخُلْدِ الّتي وعَدَهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلّ أن يكونُوا خالدين فيها يوْمَ الدّين.

وعلىٰ هذا الاحتمال يكون السؤال عن الأخيريّة لا إشكال فيه، ولا يحتاج تأويلاً، إذْ هو يلفت نظرهم إلى جميع حياتَيْهِم معاً، في العاجلة والآجلة، لحثّهم على التبصُّر بأمرهم.

والاستفهام في ﴿أَذَٰلِكَ؟!﴾ للإنكار التوبيخيّ التَّعْجِيبيّ من أمرهم، وفيه استثارةُ بواعِثِهِم لترك التكذيب بالساعة ويوم الدين، واختيارِ الإيمان والعمل بمقتضاه، عن طريق التنبيه الشديد المقرون بالتَّلْوِيم.

﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾؟!: أي: أيُّهما أفضل لكم: الانطلاقُ في الحياة الدنيا على أهوائِكم وشهواتِكم، ثم عذابٌ أليم في السعير، أم استقامةٌ

وطاعة لله ورسوله في الحياة، وضبْطٌ للأهواء والشهوات، ثُمّ نعيمٌ مقيمٌ في جنّةِ الْخُلْدِ التي وُعِدَهَا المتّقون؟!

﴿ٱلْخُلْدِ﴾: المراد به هنا البقاءُ الدائم الذي لا نهاية له، وهو معنى الخلود المضاف إلى يوم الدّين، وقد تُطلَق مادّة: «خَلَدَ يَخْلُدُ خُلْداً وخُلُوداً» بمعنى طول البقاء النِّسْبِيِّ، حتّى كأنّه لا نِهايَةَ له، ومنه أطلق العرب على الجبال والحجارة والصخور: الخوالد، لطول بقائها بعد دُرُوسِ الأطلال.

وإضافة «الجنة» إلى «الخلد» هي على معنى اللّام، الّتي تفيد الاختصاص، أي: الجنة المختصة بالبقاء الدائم الذي لا نهاية له.

﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: صفة للجنّة، والمعنى: أذلك الحال الذي يصير إلى عذاب السعير خيرٌ، أم حال المؤمنين المتقين الذي يصير إلى الظفر بجنَّة الْخلدِ التي وُعِدَهَا المتقون خير؟

والجواب الذي لا يختلف عليه عاقلان، هو أنّ حال المؤمنين المتقين خير حتماً.

والمتقون على درجات، أدناها من اتّقىٰ الخلود في عذاب النار، بالإيمان الصحيح الصادق وإعلان الشهادتين، وأعلاها يكون بعد الإيمان الصحيح بفعل الواجبات وتركِ المحرّمات، وفوقَ مَرْتَبَةِ التقوى مرتبةُ البرِّ فمرتبةُ الإِحْسَانِ.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾: أي: حالة كون الجنة للمتقين جزاءً ومصيراً، على رأي الكوفيين والأخفش من البصريين، الذين لا يشترطون في الجملة الفعلية الحالية التي فعلها فعلٌ ماضٍ اقترانَه بحرف «قد». أمّا البصريون فيشترطون ذلك، لكنّ المعنى في كثير من النّصوص القرآنية يرجّح رأي الكوفيين في هذه المسألة.

﴿جَزَآءً﴾: يُطلق الجزاء لغةً على كلٍّ من الثواب والعقاب، فجزاء الحسنة يكون بالحسنة، وجزاءُ السيّئة يكونُ بالسيّئة. وقد يكون الجزاء بالحسنة تفضُّلاً على حسنةٍ لم تنفع المجازِيَ بشيء، وقد يكون الجزاء بالسيّئة عدلاً مقابل سيّئةٍ لم تضُرَّ المجازي بشيْءٍ، وجزاء الله بالثواب هو فضل منه دواماً، يستحقُّهُ الْمُحْسِنُ بوعْدِ الله الحقّ، وجزاء الله بالعقاب هو عدلٌ من الله دواماً يستحقُّه الْمُسِيءُ بعمله.

﴿وَمَصِيرًا﴾: يأتي لفظ «مصير» مصدراً، يقال: صار الأمر إلى كذا يَصِيرُ صَيْراً ومَصِيراً وصَيْرُورة. ويأتي «المصير» بمعنى الموضع الذي تصير إليه المياه، فهو اسم مكان، ويأتي بمعنى المنزل الطيّب، يقال: أين مصيرُكم؟ أي: أيْنَ منزلكُمْ؟

والمصيرُ قياساً اسم المكان الذي يُصارُ إليه طيّباً كان أَمْ خبيثاً.

قال أهل اللّغة: مَصِير الأمر مُنتهاهُ وعاقبته، قال الأزهري: وأمّا «صار» فهي على ضربين: بلوغٍ في الحال، وبلوغٍ في المكان.

أقول: فالجنة التي وُعِدَها المتّقون، هي جزاءٌ بالثواب على ما قدّموا من عمل صالح في الدنيا، وهي منتهاهم وعاقبتُهم، إذْ هي آخر ما ينالونه من أنواع ثواب، بعد ثواب الدنيا، وبعد ما ينالونه من نعيم في البرزخ، إن كانوا من أهله، وبعد ما يكافؤون به في مدّة الحشر والعرض والحساب، كالشرب من ماء الكوثر، والاسْتِظْلالِ بظلّ العرش، وهي أيضاً آخر ما يناله المؤمنون العصاة من جزاء، بعد تَطْهيرهم من ذُنُوبهم بالعقاب الذي يستحقّونه بالعدل. ثم تكون الجنة هي المنزل الطيب لهم آخر الأمر.

ولم يأتِ في القرآن لفظ «مصير» وصفاً للجنّة إلّا في هذه الآية، أمّا دار العذاب يوم الدين فقد جاء في القرآن وصفها بنحو: «بئس المصير ـ وساءت مصيراً» أربع عشرة مرّة.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ﴾: أي: يَمْتَلِكُ المتّقون في الجنّة يوم الدين ما يشاءون، مهما يكُنْ ذلك الشيءُ الذي يشاءونه، أو يقدَّمُ لَهُمْ فيها ما يشاءون.

فهم يستطيعون التَّنَعُّم بما يشاءون من أنواع نعيم مهما بالغوا في التخيُّل والتصوُّر، لأنّهم مالكوه، ويُقَدَّم لهم متى شاءوا، ويأتى إليهم بما يَطْلبُون.

وجاء في نُصوصٍ أخرَىٰ أنّ الله عزَّ وجلّ يَزِيدُهُمْ من لَدُنْه نعيماً لا يخطر على قلوبهم، ولا تستطيع تخيُّلاتُهم أن تختَرِعَه، فمن ذلك قول الله عزَّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿خَـٰلِدِينَ﴾: حال مقدَّرة، أي: حالة كونهم سيخلدون فيها.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾: أي: كان هذا الجزاء في الجنّة التي لهم فيها ما يشاءون حقًّا على ربّك، أوجَبَهُ اللَّهُ على نفسه بوعْدِه التفضُّلِيّ الكريم. فمن حقّ الذين وعَدَهُم الله هذا الوعْدَ أن يسألُوهُ ربَّهُمْ داعِينَ ومُطَالِبِينَ بأنْ يحقّقه لهم.

والتعبير بكونه وَعْداً مسؤولاً كنايةٌ عن تحقُّقِ وقوعه، لأنّ الله عزَّ وجلّ لَا يُخْلِفُ الميعاد، فمن حقّ العباد على ربِّهم الذي منحهم إيّاه أنْ يسألوه تحقيق ما وعدهم من ثوابٍ تفضُّلِيٍّ كريم.

وقد أبان الله عزَّ وجلّ في نصٍّ لاحقٍ بحسب ترتيب النُّزُولِ: أنّ الذين يحملون العرش ومَنْ حَولَهُ من الملائكة يسألون الله داعين للذين آمنوا بأن يُدْخلهم جنّات عدنٍ الّتِي وعَدَهُم، دلّ على هذا قول الله عزَّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٩)﴾.

ومن لطيف البيان أنّه جاء التوجيه لعرض الجزاء بالثواب في جنَّة الْخُلْدِ للمتَّقِينَ المقابلِ للجزاء بالسَّعير للذين كذّبوا بالساعة، مُعلِّماً استِخدامَ أسلوب الاستفهام عن المقارنة والموازنة بين حالَي المكذّبين والمتقين، مع شمول هذين الحَالَيْنِ حياةَ الابتلاء في الدُّنيا، وحياةَ الجَزَاء يَوْمَ الدّين، والاستفهامُ من شأنه أن يُحرّك عوامل التفكير والتأمل، أكثر من الحديث الخبريّ الذي ليس فيه تحريك المخاطبين للمشاركة في التفكير والتأمّل في القضايا المعروضة.

والسبب في ذلك أنّ الإنسان يحبُّ أن يكون فاعِلاً، وكثيراً ما يَكْرَه أن يكون مجرّد متلَقٍّ منفعل.

فعلى الدعاة إلى الله أن يلاحظوا هذه الفِطْرَةَ من فِطَرِ الناس، وأن يراعوا التَّوْجيهَ الرّبّانيّ في هذا المجال، ولا يَقْتَصِرُوا على مجرّد الأمر والنهي والإخبار والتوجيه التكليفيّ والتأنيب والتلويم، فقد تكون هذه منفّرات، والمطلوبُ تأليف القلوب والنفوس، لتقبُّل التوجيه، والاستجابةِ لمضمونه.

وقد وُصِفَت جَنَّةُ الْخُلْدِ في الآيَتَيْنِ (١٥ ـ ١٦) من السورة بأربع جُمل:

الجملة الأولى: ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ أي: التي وُعِدَهَا المتَّقُون،

ومعلومٌ أنّ الذي وَعَدَهُمْ بها هو الله عزَّ وجلّ في كتابه وفيما أنزل على رسُلِه جميعاً.

الجملة الثانية: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ أي: فهي ثوابُهم يوم الدين، بوعد الله الكريم، وهي النهاية والمصير الذي هم إليه صائرون، بعد البرزخ، والبعث، والحساب، وفصل القضاء.

الجملة الثالثة: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ﴾ أي: لهم في جنّة الخُلْدِ كلُّ مَا يشاءُون بالغاً ما بلغ، حَالة كونهم خالدين خلوداً أبديًّا لا نهاية له.

الجملة الرابعة: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: وهذا الجزاء في جنة الخلد للمتقين حقٌّ على ربّك أوجبه على نفسه، وجَعَلَ لعبادِه بوَعْدِه الكريم الحقَّ في أن يسألوه إيّاه ويطالبوه به، كما جَعَل سبحانَهُ حمَلَةَ العرش ومَنْ حَوْلَه من الملائكة يدعون به لذوي درجة مرتفعة من المؤمنين، فيسألُون الله أن يُدْخِلَهم جنّاتِ عدْنٍ التي وعَدَهم.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الفقرة عرض لمشهد من مشاهد الحساب يوم الدين، يتضمّن بيان ما سيكون بأسلوبين:

- بصيغة الفعل المضارع الذي يُتحَدَّثُ به عن المستقبل.

- فبصيغة الفعل الماضي الذي يُتَحَدَّثُ به عن أمر وقع ومضى، للدلالة على تحقُّقِ وُقوعه. والإبداعُ البياني في هذا قائم على الاستعلاء فوق الزمن، ماضيه وحاضره ومستقبله، واقتطاعِ الحدث من المستقبل، وتقديمه في صورة أمْرٍ وقع وَتَمَّ، للإشعار بأنّه لا مَحَالةَ سيقع.

التدبّر التحليلي:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾: الحَشْرُ: هو الجمع والسَّوْق، يقال لغةً: حشَرَ الأمير جُنْدَهُ يَحْشُرُهُمْ وَيَحْشِرُهم حَشْراً، إذا جمعهم وساقهم.

ويَوْمُ المَحْشَرِ، ويَوْمُ الحَشْر، هو يوم جمع الناس للحساب والجزاء يوم القيامة.

المَحْشَرُ، والمحْشِرُ: بفتح الشين وكسرها، المجمَعُ الذي يُحْشَرُ إليه القوم.

ويُقال لغةً: حَشَرَ الإبلَ إذا جمعها.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من كائنٍ مَا غَيْرِ الله، وكلّ الكائنات سوى الله تقع دونه، في مقابل اتّصافهِ بالفوقية المطلقة.

وقد سبق شرح كلمة «دون» عند تحليل الآية (٣) من السُّورة.

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: فيقول الله عزَّ وجلّ عند محاسبةِ المشركين الذين كانوا يعبدون من دون الله، والمعبودين الذين اتّخذَهم المشركون آلهةً يعبُدونهُمْ كعبادة الله: أأنتم أَضْلَلْتُمْ...

ويكون توجيه السؤال أولاً للمعبودين، لأخذ شهادتهم، باعتبار أنَّهم

لو كانوا قد أَضَلُّوا عابديهم بوسائلهم، فاتَّخَذُوا أنفسهم آلهةً من دون الله، وجعلوا أتباعهم يعبدونهم، لكانوا أكْثَرَ جُرْماً، إذْ تطاولوا إلى مقام الرّبُوبيّة والإِلَهيّة، وهم مخلوقون لله، وعبيدٌ من عبيده، فَجَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ شُركَاء لله، وجمعوا إلى ضلالهم القبيح، واستعلائهم إلى مقام الرّب جلّ وعلا، إِضْلالَ الّذِين عَبَدُوهُمْ.

الضلال والإضلال: كلّ منهما يستعمل للدلالة على معانٍ متعدّدة:

- فالضلال: يأتي بمعنى الجهل بالشيء، لخلوّ الذهن من معرفته، وعلى هذا المعنى ما جاء في قول الله تعالى لرسوله محمّد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ أي: جاهلاً فعلّمك.

- ويأتي الضلال بمعنى عدم الاهتداء إلى الحق، أو إلى السبيل السويّ الذي تكون فيه السلامة والنجاة، وينتهي بتحقيق المحبوب أو المرغوب فيه، وقد يقترن هذا الضلال بإرادَةِ التوصُّلِ إلى الحقّ أو إلى السبيل السويّ، وهذا يُعذَر به صاحبه، إنْ لم يَكُنْ لإرادَتِه تدخُلٌ في الإِعراض عن الحق أو سبيل الرشاد.

- ويأتي الضلال بمعنى الضّياع في متاهات الباطل والشرّ، ويكونُ هذا ناشئاً عن إعراضٍ إراديٍّ عن الحق، أو عن السبيل السويّ، أو عن الآيات الدّالّات عليهما، بتأثير الأهواء والشهوات، أو التقاليد العمياء، والعصبيَّاتِ الذَّميمَةِ، أو بسبب مُعَانَدة الحقّ، ورَفْضِ إرْشَادِ المرشدين، والاستنكاف عن هداية الدالّين على الحقّ وسواء السبيل.

وأمّا الإضلال: فيأتي للدلالة على معانٍ متعدِّدة أيضاً، فمنها ما يلي:

(١) التّجهِيل، بالصَّدِّ والصَّرْفِ عن الاتّجاه لمعرفة الحقّ، أو معرفة السبيل السويّ، أو الأخذ بهما.

(٢) الإِغواء بمختلف وسائل الإِغواء القوليّة الزخرفيّة، ووسائل

الإغواء العملية التي تُسْتَرْضىٰ بها الأهواء والشهوات ونوازعُ النفوس ونوازعُها ودوافعها، لمجافاة الحقّ والتزام الباطل، ومجافاة السبيل القويم، والانطلاق في متاهات الظلم والبغي والعدوان والفجور في الأرض، للاستمتاع بزينة الحياة الدنيا.

(٣) الحكم على الضّالّ بالضلال، فإضلالُه هو الحكْمُ عليه بأنَّه ضال، كتجريم القاضي المجرم بالحُكْمِ عَلَيْهِ بأنّه مُجْرِمٌ، استناداً إلى أدلّة إدَانَتِه بالْجَرِيمَة.

والملائم للنصّ الذي نتدبّره من معاني الضلال والإضلال، هو الإضلال بمعنى الإغواء، بمختلف الوسائل القوليَّة، أو العمليَّة، لحمْلِ المستجيب على الدخول في المتاهات التي فيها الظُّلْمُ والعُدوانُ والبَغْيُ فِي الأَرْض، والفِسْق، والفجور، ومعصيةُ الله ورسوله.

والضلال بمعنى العدول الإراديّ عن الحقّ وعن السبيل القويم، إلى المتاهات التي فيها ظلم وعدوان وبغيٌ في الأرض وفسق وفجور ومعصيةٌ لله والرّسول.

﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا﴾: «أَمْ»: هي هُنَا «أم» المتصلة، وهي التي لا يكون الكلام بها إلّا استفهاماً، وقد تأتي مسبوقَةً بهمزة الاستفهام، فيكون المعنى قائماً على ادّعاء وجود أحد الأمرين أو الأمور المستفهم عنها على الأقل، وقد تجتمع، والمراد بالاستفهام تعيين الواقع.

فالمعنى من سؤالهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا﴾: أنّ ضَلال هَؤُلاءِ المشركينَ أمْرٌ واقع، ولكن لا يخلو الأمر من أن يكون ضلالُهم ناشئاً عن إضلالكُمْ لَهُمْ بالإغواء والإغراء، أو ناشئاً عن اختيارهم بأنفسهم الانطلاق في متاهات الضلال الاعتقاديّ والعمليّ بالشِّرْكِ الذي كَانُوا عليه، أو ناشئاً عن الأمرين معاً، فأنتم أضْلَلْتُمُوهُمْ بالإغواء

والإغراء، وهم قد ضَلُّوا معَ عِلْمِهم بأنّهم مُجَانِبُون للحقّ وللسبيل القويم، إذْ رأَوْا في هذا الضلال ما يسْتَطِيبُونَهُ مِنْ لذّات الحياة الدنيا، وأهوائها، ومتاعها، وزينتها، أو يُرضِي نُفُوسَهُمْ وَرَغَباتِها.

وتُوجَدُ «أَمْ» المنقطعة، وهي التي تكون بمعنى «بل» وهذه قد جاءت في نصوصٍ قرآنيّةٍ كثيرة.

وبعد طرح هذا السؤال يُجِيبُ المعْبُودُونَ من دون الله، الذين لم يكُنْ منهم ما يُؤَاخَذُونَ عَلَيْهِ من إضلالٍ بإغواءٍ أو إغراءٍ ما، كالمَلَائِكَة، وعيسَىٰ عليه السلام، وأمِّه، والْعُزَير، والرّجَالِ الصالحين الذين اتّخَذَ لَهُم أقوامُهُم مِنْ بَعْدِهِمْ أوثاناً على صُوَرِهِمْ، فعَبدُوهَا مِنْ دُونِ الله، وجَعَلُوا يُقَرِّبُونَ لَها الْقرَابِينَ، كما قال الله عزَّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ . . . ﴿١٨﴾﴾.

﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾: أيْ: تَنزَّهْتَ وَتَعَاليتَ يا رَبَّنا عن أن يكُونَ لكَ شُرَكَاءُ في ربُوبيَّتِك، أو شركاءُ في إلَهيَّتِك، فنحن مؤمنون بك ربًّا وإلٰهاً واحداً أحداً لا شريك لك، ومُؤْمِنُون بفَضْلِكَ وعَدْلِكَ، فَلَمْ يكُنْ منّا إضلالٌ لهم بإغواءٍ أو إغراء.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾: أي: ما كان يَصْلُحُ لَنَا ونَحْنُ خلْقٌ من خَلْقِك، وعَبِيدٌ من عبيدِكِ، ومؤمنون بك إيماناً كاملاً، أن نتطاول إلى مقام الرُّبوبيّة أو الإلَهية، فَنَتَخِذَ لأَنْفُسِنا من دونك من أولياء، ولَا أَنْ نُتَّخَذَ ولو بغير علم مِنَّا من دُونِكَ من أولياء.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمع «ولي» والوليّ يأتي في اللّغة بمعانٍ كثيرة، منها: «الرَّبّ ـ المالك ـ السيّد ـ المنعِم ـ الْمُعْتِق ـ الناصر والنصير ـ المحبّ ـ التابع ـ الصِّهر ـ الْعَبْد ـ المعتَقُ ـ المنْعَمُ عليه ـ الصديق ـ وكلّ من عَبَدَ شيئاً فقد اتّخذَهُ وليًّا».

وأصل مادّة الكلمة يدور حول معنى الاتِّباع، فكلمة «وليّ» تطلق على التابع والمتبوع «فعيل» بمعنى «فاعل» أو بمعنى «مفعول» وجرى استعمال الكلمة بتوسّع في مختلف المعاني، لأنها جميعها تدور حول كون «الوليّ» تابعاً أو متبوعاً، فيشْملَ المتبوع الرّبّ، وهكذا تنازلاً حتّى الرفيق والصديق وأيّ مَتْبُوعٍ. ويشمل التابعَ العبْدَ الذي يَعْبُد ربّه، وهكذا حتى الْمُتَابع والمنَاصِر من كُلِّ المستويات.

والمراد هنا في النصّ: تنزَّهْتَ يا رَبَّنا عن الشُّركاء، ما كان ينبغي لنا دواماً وأبداً أن نَتّخِذَ أَتْباعاً يعْبُدوننا من دُونِك، ولا أَنْ نُتَّخَذَ مِنْ دُونِك آلهةً نُعْبَد، يَتْبعُنَا تابعون، يسْتَنْصِرُون بنا، ويلْتَمِسُون عندنا جَلْبَ نفع، أو دفع ضرّ، ونحن مؤمنون بك رَبًّا واحِداً، وإلَهاً لَا شَريكَ لكَ، فلَا يَليقُ بنَا، ولا يَصْلُح لَنَا ونَحْنُ نؤمن بك هذا الايمانَ، أَنْ نُؤَلّه أنفسنا، أو يُؤَلِّهَنا أحدٌ من خلقك، ونحن في المقام الدُّون، وأنت العليّ الأعلىٰ، فلا يُدانِيكَ أحَدٌ، ولكنّ هؤلاء عَبَدُوا مِنْ دُونِكَ مَا لَيْس لَهُم أن يَعبدُوه، ولَمْ يَكُنْ مِنَّا تأثيرٌ مَا عَلَيهم بإرادَةٍ منّا.

وبَعْدَ أنْ تبرّؤوا من إضلالهم، ومن التأثير عليهم بشيء، ذكروا علّة إشراكهم، لإبعاد كلِّ تُهمةٍ عن أَنْفُسِهم مهما كانت صغيرةً، فقالوا كما أخبرنا الله:

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾:

﴿مَّتَّعْتَهُمْ﴾: أي: جعلْتَهُمْ يستَمْتِعُون بأنواعٍ من متَاعِ الحياةِ الدُّنيا مُدَّةً مُتَطاوِلة، والمتاعُ كلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ويُتَبَلَّغُ به والفَناءُ يأتي عليه في الدنيا.

وقد سمَّىٰ الله ما تشتهيه الأنفس من الحياة الدنيا متاعاً، لأنَّه زائلٌ لا دَوامَ لَه، وقليل كمًّا وكَيْفاً، ووَصَفَ الحياةَ الدُّنْيا بأنّها مَتَاعُ الْغُرورِ،

أي: المتاع الذي يَتعلَّقُ به غرور الأَنْفُسِ، أمّا ذو العقل الراجح والإِيمانِ بيوم الدِّين فلا يَنْخَدع به.

وسمَّىٰ الله ما فِي الجنة يوم الدين من لذّاتٍ نَعِيماً، وَوَصَفَهُ بأنَّهُ مُقِيمٌ، فدلّ ذلك على الفرق الكبير جدًّا بين ما في الدنيا من متاعٍ قليل إلى حين، وما في الجنّة من نعيم مقيم خالد.

﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾: أي: حتَّىٰ تَهَاوَنُوا في الْقِيام بمَا أَمَرْتَهُمْ به ونَهَيْتَهُمْ عنه، في الذِّكْرِ الذي أنْزَلْته إليهم، وبَلغَهُمْ إيَّاه رُسُلُهُمْ، ثمّ أعرضوا عن الذّكر إعراضاً تامًّا، حتَّىٰ نَسُوهُ ولَمْ يَبْقَ في ذاكراتِهِمْ منْه شيء، فدخَلَتْ إلَيْهِمُ الْخُرافَاتُ، واسْتَوْلَتْ على أَفْكَارِهِمْ الأباطيل، وتعلَّقوا بأوهامٍ جَسَّدوها، وجَعَلُوهَا شُركَاءَ لله عزَّ وجلّ، وعَبَدُوها من دون الله البارِيءِ المحْيِي الْمُمِيتِ الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو على كلّ شيءٍ قدير.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾: أي: وكانوا قوماً فاسدين لا خير فيهم، وفسادُهُم يُفْضِي بهم إلى أن يكونوا هالكين.

﴿بُورًا﴾: يقال: «بُور» للواحد والاثنين والْجَمْعِ والمذَكَّر والمؤنّث. وقد يكون جمع «بائر»⁽¹⁾.

والْبَوارُ في اللُّغة الهَلاكُ، فالْبُورُ الْهَلْكَىٰ. قالَ الجوهري: الرَّجُلُ الْبُور، الفاسِدُ الْهَالِكُ الّذِي لا خَيْرَ فيه.

أقول: ويمكن أن نفهم أنّ كلّ ذي فَسَادٍ يؤدّي به فسادُه إلى الهلاك فهو «بُور» واللَّفْظُ يَسْتَوِي فِيه الواحِدُ وغَيْرُه كما سبق.

وعلَىٰ هذا نَفْهَمُ معنىٰ ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: وكَانُوا قَوْماً فاسدين لا

---

(١) يقال لغة: بَار يَبُور بَوراً، أي: هلك. وأبارَهُ الله إذا أهلكه.

خير فيهم، ولا بُدَّ أَنْ يُؤدِّيَ بهِمْ فسَادُهم إلىٰ أَنْ يَكُونوا هَالِكِين، تَحُلُّ عَلَيْهِم نَقْمَةُ الله وعذابهُ في الدنيا، وأن يكونوا من الخالدين في العذاب يوم الدين.

ومن مجموع عبارة التَّعْلِيل الَّتِي يذْكُرُهَا المعْبُودُونَ من الْمَلائِكَةِ والأَنْبِياء والصالحين، لتبرئَةِ أنْفُسِهم في مَوْقِفِ الحِسَابِ، ومِنْ لَوازِمِها الفكريَّة نستطيع أن نستخرج المَعانِيَ التالية:

لَقَدْ كانَ لَدىٰ هؤلاء الْقَوم يَا رَبَّنا ذِكْرٌ مُنَزَّلٌ من لدُنْكَ، أبَانَهُ لَهُمْ رُسُلُهُم، وتَلَقَّوْهُ عنهم، وفَهِمُوهُ، وعَمِلوا بمَقْتَضاه، فعَبَدُوك أوَّلَ الأمر وحْدَك.

ولكِنَّ أجْيالَهُمْ المتَتَابِعَةَ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ يتَقَلّبُونَ في مَتَاعٍ مِنْ زِينَةِ الحياة الدُّنيا، بفضلٍ منك، فشغَلَهُمْ ما هُمْ فيه من مَتَاعٍ عنْ العَملِ بمَا أنزلْتَ إلَيْهِمْ مِنْ ذِكْر، فصَارَ هَمّهُمْ أن يَسْتَغِلُوا من دُنْيَاهم أوسَعَ مَتاعٍ، وتَحوَّلَ الدِّينُ عِنْدَهُمْ مِنْ كوْنِه عملاً بمرضاةِ اللّهِ للظَّفَرِ بالسعادة الأخرويّة يَوْمَ الدّين، إلى كوْنِهِ وسيلةً للاستزادة من مَتَاعِ الحَياةِ الدنيا.

ومن طبيعة الإنسان إذا أهْمَلَ الْعَمَلَ بالتَّعَاليم أن يَصْرِفَها عَنْ ذَاكِرَتِه، ويَسْتَبْعِدَها، وهذا يجرُّ إلى نِسْيَانها، وعندئذٍ تَنْبُتُ في النَّفْسِ مَفاهِيمُ دَخِيلَةٌ منْ شَأْنِها أن تَخْدُمَ مطالِبَها منَ الحَيَاةِ الدُّنيا، ومِنْ هَذِهِ المفَاهِيم الاسْتِغْنَاءُ بالوُسَطاءِ شُفَعاءَ لهم عند الله، وابتداعُ وسائلَ ما أنْزَلَ الله بها مِنْ سُلْطان، للتَّقَرُّب إلى هؤلاء الوسطاء، ويَبَدأُ التحريفُ في الدّين، مِنْ عِبادَةِ الله إلىٰ تَعْظِيمِ الْوُسَطاءِ، ثُمَّ إلىٰ عِبادَتِهم.

وعِلَّتُهم الأولَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ أنْ يدخُلَ إليهم الشّركُ قَوْماً فاسدين، طُلّابَ متاعِ الحياةِ الدُّنيا، لا هَمَّ لهم غَيْرُ الحصول على لذّاتهم منها، والدِّينُ لَدَيْهِم وسيلةٌ لتحصيل الدنيا فقط، ومن طبيعة هذا النوع من الدِّين أن تَدْخُلَ إليه البدَعُ والتحريفاتُ والخرافاتُ والشّرْكيَّاتُ، وجَعْلُ المعَاصِي

مِنَ الْعِبَادَاتِ، أَوْ مِنَ الأُمُورِ التي تُكَفِّرُها الشِّرْكِيَّاتُ، أَوْ يَتحمَّلُها الْوُسَطاءُ الشُّفعاء، إلى غير ذلك من ضلالات.

وهل للذِّكْر الرّبّاني الْحقِّ المنزّل من عند الله على رُسُلِ الله نصيبٌ لدى هَؤلاء؟!

إنّه لا بُدَّ أن يُهْمَلَ، ثُمَّ يُنْسَىٰ، وهم مَسْؤُولون عن إهماله ونسيانه، إذْ تدخلّتْ إراداتُهم فيما وصلوا إليه، وكانوا قوماً فاسدين لا خيرَ فيهم، عصاةً مُجْرِمين، يَتَّبِعُون أهواءهم وشهواتهم، التي تَقُودُها الشياطين.

* * *

ويظهر أنّ المشركين في موقف الحساب يُدافعون عن أنفسهم، بأنّ الّذين كَانُوا يَجْعَلُونَهُمْ شُركاءَ لله، هُمُ الذين كانوا أَغْوَوْهُم وأَغْروْهُم بهذا الشرك بوسائلهم، كأن يقول عُبَّاد الملائكة إنّ الملائكة كَانُوا يظْهَرُون لَنَا بِكَذا وكَذا، ويفعلون لنا كذا وكذا، عن طريق بعض البَشَرِ منا، فيَردُّ الملائكة بأنّ هؤلاء الذين كانوا يَظْهَرُون لهم كانوا شَيَاطِينَ مِنَ الْجِنِّ، ولَمْ يَكُونُوا من الملائكة، ورُبَّما كذَبُوا عليهم فادّعَوْا أنّهم من الملائكة.

ويُدانُ المشرِكُون بمخالفة تَعَالِيمِ الذِّكْرِ الرّبّانيّ وعدَمِ الرجوعِ إليه.

وكأَنْ يزعَمُ النصارىٰ أَنَّ في إنْجِيلِهِمْ وكتُبِهم الأُخْرَىٰ مَا يدُلُّ على أنّ عيسى عليه السلام هو ابن الله، وهو جُزْءٌ منه، وأنّ عَلَيْهِمْ أن يَعْبُدُوه ويَجْعَلُوهُ شَرِيكاً لله في العبادة، فَيُكَذِّبهُمْ سيِّدُنا عيسَىٰ عليه السلام بذلك، ويُثْبِتُ أنّ هذا من التحريفات الّتِي أَدْخَلُوها في الدِّين، ولَيْسَ مِنَ الذِّكْرِ الذي أُنْزِلَ إليهم.

ويُدَانُون بمُخَالَفَة بُرْهَانِ الْعَقْلِ، ومُخَالَفَةِ تَعَالِيمِ الذِّكْرِ الرَّبَّانِيّ، وَعَدَمِ الرُّجُوعِ إلىٰ الأُصُولِ الصَّحِيحَةِ الْمُنَزَّلَة.

دلَّ علىٰ هذَا قولُ الله عزَّ وجلّ خطاباً لهم في موقف الحساب:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ... ﴿١٩﴾﴾.

أي: فقد كَذّبَتْكُمْ آلهتُكُمُ الّذين تعبُدونهم من دون الله، من ملائكة، وأنبياء، وصالحين، ونحوهم.

فالباء في ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ للتعدية، أي: أَثْبَتُوا أنّ قولكم الذي قُلْتُمْ بشأنهم قولٌ كذب عليهم. وبما أنّهم كذّبوكم بما تَقُولُونَ فقَدْ سَقَطَتْ كُلُّ الذَّرائِعِ الّتي تَتَصَوَّرُونَ أنّها تَنْفَعُكُمْ فِي الاحْتِجَاجِ للدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِكم، فلم يبق إلّا أن يُقْضَىٰ عليكم بالشرك وعقوبته.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾: أي: فما تستطيعون أنْ تَتَّخِذُوا حِيلَةً تَصْرِفُونَ بها عن أنفسكم حُكْمَ عِقَابِ الله.

﴿وَلَا نَصْرًا﴾: أي: وما تستطيعون تحقيق نَصْرٍ يَدْفَعُ عَنْكُمْ عذابَ الله.

فالمعنى: وبعد إصدار الحكم مَا تَسْتَطِيعُونَ صرف العقاب عنكم بمعاذير أو شفعاء أو ملاجئ، وما تستطيعون مُغَالَبَةَ مُنَفِّذِي الْعِقَاب فيكم والانتصارَ عليهم، إذْ أنتم مسوقون إلى عذابكُمْ بالْقَهْر.

وجاء في قراءة جمهور القرّاء: **[فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً]**.

والقراءتان ـ كما سبق بيانه ـ متكاملتان في الأداء البياني.

بعد هذه اللّقطة المقتَطَعة من موقف الحِسَابِ يوم الدين، والّتي يَعْرِضُ الله فيها حالةَ الْمُحَاسَبِين منْ عبَّادِ الملائكة والأنْبِياءِ والصَّالِحِين، وجّه الله عزَّ وجلّ للمشركينَ الظّالِمين لأنْفسِهم، والّذين لم يَتُوبوا وَلَمْ يَسْتَغْفِروا قبل موتهم، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: ومن يَظْلِم منكم بالشّركِ فبما هو أشدّ منه من أنواع الكفر،

ويَسْلُكْ مَسْلَكَ المشْرِكينَ السَّابِقين أو أشدّ منه نُذِقْهُ عذاباً كبيراً، فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء واتّخذُوهُمْ شُركَاءَ لله يكُونُ حَالهُم كما سبق، فكيف أنتم؟!

نُذِقْهُ: أَصْلُ الذّوق يكون للطعام بحاسّة الذوق في الفم، يُقال: ذاقَ الطّعامَ يَذُوقه ذوقاً وذوقاناً ومَذَاقاً، إذا اختبر طعمه أو أحسّ به.

ثمّ حصل توسُّع في اللّفظ، فصار يُطْلَق على الإِحساس باللَّذة، والإِحساس بالألم.

وأَذَاقَه: إذا جَعَلَه يَذُوق، فمعنى ﴿نُذِقْهُ﴾ نُنْزِلْ به العذابَ حتّى يُحِسّ بآلامه.

وفي وصْفِ اللّهِ عزَّ وجلّ العذابَ بأنّه كَبِيرٌ دلالةٌ على عِظَمِ قَدْره كمًّا وكيفاً.

فالألَمُ منْهُ مَا هُو كَثِير في توالي الأوقات، وهذا الكثير إذا نظرنا إليه نظرةً واحدةً وَجدناه كبيراً في حجمه أيضاً، فالْعَذَابُ الكبيرُ قَويُّ الشدّةِ في الْوَقْتِ الواحد عَظِيمُ المقدار في تَوالي الأوقات.

إنّ الألم الكَبِيرَ فِي ثَانِيةٍ يَكُونُ عَظِيماً لَا يُطَاقُ، فإذَا اسْتَمَرَّ على تَوالِي الأوقات كانَ أشدّ وأَعْظَم، وأحْرَىٰ أن يَسْتَنْفِدَ كلَّ طَاقَاتِ الصَّبْر.

عَذَاباً: العذابُ والعقابُ والنَّكالُ في اللُّغَةِ بمعنى إنزال المكروه المؤلم الموجِعِ بالْمُذْنِبِ الْمُسِيء، جزاءً لَهُ علَىٰ ما اقْتَرفَ من إثم بإرادته.

وحين يكون العذابُ مُعجَّلاً في الدنيا، فإنَّه قَدْ يَتَضَمَّنُ مَعَ تَحْقِيق مبدأ العدل، معنى الرّدْع عن الإِثم للمذنب إذا لم يُهْلِكْهُ العذاب، فلغيره ممّن تحدّثه نفسه بأن يَقْتَرِفَ مِثْلَ الإِثم الذي اقترفه.

والمراد بـ: ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ نُذِقْهُ أَلَمَ عَذَابٍ كبير، وقد جاء

لفظ عذاب مُنَكَّراً، لأنّ أنْواعَ العَذَابِ كثيرةٌ جدًّا، ولأنَّ نِسَبَ مقاديرها متفاوتة متفاضلةٌ جدًّا، ويَحْصُلُ الإِنْذَارُ الْمُخِيفُ والرادِعُ لأُولِي الأَلْبَابِ بوَصْفِهِ بأنّه كبير.

إجمالُ مَعَاني الدرس الرابع من دروس السورة

اشتمل هذا الدرسُ من دروس السورة على خمس قضايا:

القضية الأولى: بَيَانُ العِلَّة الدّاخِليّة الّتي جَعَلَتْ الْمُشْرِكينَ يُجَادِلُون في الرسُولِ والقرآن، وهي تَكْذِيبُهم بالسَّاعة، أي: بالبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِيَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الحساب. وفَصْلِ القَضاء، وتَنْفِيذ الجزاء، والخلودِ، فقال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾.

وقد دلّ هَذا علَىٰ أنَّ البَاعِثَ علَىٰ التَّشْكِيك في القرآن، والتشكِيكِ في صدق نبوّة محمّد ورسالته، لَيْسَ هُوَ مِنْ شَيْءٍ في القرآن نَفْسِه، ولَا مِنْ شَيْءٍ في الرسول نفسه، ولَكِنْ مِنْ شَيْءٍ آخر هو أنّهم لَا يُرِيدُون أنْ يُصَدِّقوا بِيَوْمِ الدِّين، لئلّا يَمْنَعَهُمْ ذَلِك عن الانطِلاقِ علَىٰ أَهْوائِهم ورغَباتِهم وشَهَواتِهم منَ الدنيا، فهم لذلك يَطْرَحُون التعلُّلَاتِ ضِدَّ القُرْآن الْحَامِلِ لبيانَاتِ الدِّين وتكاليفِه، وضِدَّ الرَّسُول مبلّغِ هَذِه البيانات والتكاليفِ عَنْ رَبّ العالمين.

القضية الثانية: إنْذارُ وتَحْذِيرُ مَنْ كَذَّبَ بالسَّاعَةِ ويَوْم الدِّين، بأنّ الله عزَّ وجلّ قد اعْتَد لَهُمْ سَعِيراً، واقْتَرَنَ هَذا الإِنذارُ بعَرْضِ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ مِنْ بَعْضِ صُوَرِ العذَابِ في السَّعِير، ولقَطاتٍ من حَالِ الْمُعَذَّبِينَ يَوْمَئِذٍ فيها، فقال تعالى:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا

وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

فَدَارُ تعذيب المكذِّبينَ بيومِ الدين، وهي السعير (النار الموقدة الملْتَهِبَةُ) قد أَعْتَدَهَا اللَّهُ بِعِنَايةٍ لإقامة الْعَدْلِ دُونَ ظُلْمٍ ولا جور.

ومن أحوالهم معها ما يلي:

أولاً: إِذَا اقْتَرَبَتْ منهم اقْتِراباً مَا، بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَراهَا الرَّائِي في مكانهم، أو يَرَاهُمُ الرَّائِي في مَكَانِهَا، وهو مكان بعيدٌ نِسْبِيًّا، سمعوا أَصْوَاتَ غَلَيَانِها وتفجُّرَاتِها الَّتِي تُشْبِهُ غَيْظَ النُّفُوسِ والْقُلُوبِ الْمُغْتَاظَة، وأَصْوَاتَ انْدِفَاعِ الرِّيَاحِ السَّمُوم من داخلها الّذِي يُشْبه الزفيرَ في تنفُّسِ الأحياء، وذلكَ دليلٌ عَلَىٰ شِدَّة الأصواتِ، إذْ هي تُسْمَعُ من أقصىٰ بُعْدٍ يُدْرِكُهُ البصر، والمعروفُ في أنظمةِ الحَواسِّ أنّ الأشياء تُرىٰ بالْبَصَرِ، وقَدْ لَا تُسْمَعُ أصْواتُها الشّديدة، لأنّ مكان بعدها يَسْمَحُ بالإِدراك البصري، ولا يَسْمَحُ بالإِدْراكِ السَّمْعِي. ويَدلُّ إسنادُ الرُّؤية إلى النَّارِ على أنّهم يكونون في تلك الحالة عُمْيَاناً، وَلَوْلَا ذلكَ لقَالَ تعالى: إذَا رَأَوْها مِنْ مَكَانٍ بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً، أو على أنَّ بَيْنَهُمْ وبَيْنَها حِجَاباً يمنعهم من رؤيتها.

ثانياً: إذا أُلْقُوا مِنْهَا إِلْقَاءً بإهانَةٍ وَإِذْلالٍ في مكانٍ ضَيِّقٍ لتَعْذِيبهم، حالَةَ كَوْنِهم مشْدُودِينَ بالحبال والسَّلَاسِل، مجموعين مع نظرائهم، دعَوْا هُنالِكَ فِي ذَلِكَ المَكَانِ البَعِيدِ السَّحِيقِ الْمَهِين: هَلَاكاً مَا أن يَحُلَّ بِهم للخَلاصِ ممَّا هُمْ فِيه مِنْ عَذَابٍ، ويَسْأَلُونَ الله ذَلِكَ الْهَلاكَ، ويَنْدُبُونَ ذَلِكَ الْهَلاكَ تَحَسُّراً عَلَىٰ فَقْدِه وحِرْمَانِهِمْ مِنْهُ، لأَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ مُسْتَمِرّ، ولَوْ نَزَل بهم الهلاكُ لكَانَ ذَلِكَ رَاحَةً لهُم، لكنّهم لَا يَمْلِكُونَ التَّخَلُّصَ مِنْ حَيَاتِهم، ولا يملكُونَ إماتَةَ أَنْفُسِهِمْ.

فَيُقَالُ لهم: إنّ أَنْوَاعَ عَذَابِكُمْ مُتعدِّدَةٌ، ومُتَجَدِّدَة، فلا يكْفِيكُمْ أَنْ تَدْعوا ثُبُوراً واحداً، بلْ تَحْتَاجُون أَنْ تَدْعُوا ثبوراً كثيراً، فَمَعَ كلّ نَوْعِ عَذَابٍ تَدْعُون ثبوراً، ومع كلّ مُتَجَدِّدِ عذابٍ تَدعُونَ ثبوراً.

الثُّبور: كما سبق بيانه هو الهلاك، بمعنى الْمَوْتِ والْفَنَاءِ، وفي تمنّي الكافر لنفسه الهلاك قال الله تعالى في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

القضية الثالثة: عرضُ البشَارَة الّتي بَشَّرَ الله بها المتَّقِين، بأنْ وَعَدَهُمْ أن تكونَ جَنَّةُ الْخُلْدِ جزاءً لهُمْ على تَقْواهُمْ، تَفَضُّلاً مِنْهُ بهَا عَلَيْهِم، وأَنْ تَكُونَ مَصِيراً يَصِيرُونَ في نِهَايَةِ مراحِلهم إليه، فهي مَنْزِلُهم الطيّبُ الدائم الخالِدُ، ولَهُمْ فيها ما يَشاءُون، وجَعَلَ الله من حَقِّهِمْ أنْ يُطالِبوا به.

وجاء هذا العرْضُ بأسْلُوبِ الاسْتِفْهامِ الْمَطْلُوبِ تَوْجِيهَهُ لِلْمُكَذِّبينَ بِيَوم الدِّين، حَوْلَ المقارنةِ والْمُوازَنَةِ بين حالِ المكذبين وحالِ المتّقين، بدءاً من حياة الابتلاء، ومآلاً في حياة الجزاء، والغرضُ مِنْ هذا السؤال الاستفهاميّ استثارتُهم للتفكير الذّاتِي، والاسْتِبْصارِ فِي حَقيقَةِ الأمر، بَعِيداً عن الْعَقَبةِ النفْسِيَّة، التي يَرْفُضُ بعضُ النَّاسِ بسَبَبِها التَّوْجِيهَ الْمُبَاشِر التَّعْلِيميَّ، لَكِنَّهم لا يَرْفُضُونَ الْمُشَارَكَةَ في التَّفْكِير واسْتِخْلاصِ الحَقائقِ بالتأمُّل، فقال الله عزَّ وجلّ للرسُول ولكُلّ داعٍ مِنْ بَعْدِه إلى سَبيلِ الله:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

ونلاحظ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾ أنّ الله يوجّه الخطاب لِلْمُفْرَدِ، ويأمره بأنْ يخاطب المفرد، إذْ لم يَقُلْ: قُلْ: أذلكُمْ. وفي هذا

إشعار بأنّ الإقناع يَحْسُنُ أن يكُونَ بأُسْلُوب الإقناعِ الإفرادي، لا الإقناعِ الْجَمَاعِيّ، فهُوَ منَ الْوَسَائِل الفضلىٰ في كثير من الأحيان.

وعلى الدُّعاة أن يَتَنَبَّهُوا إلى هذه القضية من قضايا الدّعوة.

القضية الرابعة: عرضُ مَشْهدٍ من مشاهِدِ موْقِفِ حِسَابٍ ومحاكَمَةِ المشركين الذين اتَّخَذُوا من الملائكة والأنبياء والصالحين آلهةً، وفيه بيانٌ سُؤَالِ معبُودِيهم في مجلس المحاكمة، لإظهار براءَةِ المعبودين من إضلالهم للعابدين، فَدَلّ هذا على أن هؤلاء المعْبُودِين الذين يُسألون هُمْ ملائكةٌ أو أنبياء أو صَالِحُون ونَحْوُهم من الذين لم يكن منهم إضلالٌ مَا بإغواءٍ أو إغراءٍ للعَابِدِين الذين اتّخذوهم شركاء من دون الله، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾.

لقد دَلَّ هذا المشْهَدُ المقتطعُ من موقف حسابٍ ومحاكَمَةِ المشركين يومَ الدّين، على أَنّ المعْبُودِين من الملائكة والأنبياءِ والصالحين ونَحْوِهم يَتَبَرّؤون من اتّخاذ أيَّةِ وسيلةٍ لإغْوَاءِ وإغْرَاءِ عابِدِيهم منْ دُونِ الله، فالْعَابِدُون هُمُ المَدِينُونَ وحْدَهُمْ في الشِّركِ الّذي كانَ مِنْهُم، إذ يَقُولون لربّهم عزَّ وجلّ:

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: تنزَّهْتَ عن الشركاء في ربوبيّتك، وفي إلٰهيتك. ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ أي: ما كان يليق بنا ولا يُلائمنا ولا يُنَاسِبُ عُبوديتنا لَكَ ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أتْباعاً يَعْبُدُونَنا، ولا [**أَنْ نُتَّخَذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء**] مَتبُوعِين مَعْبُودِين نُعْبَدُ مِنْ دُونك.

ولكنّ علّةَ هؤلاء المشركين الدّاخليّة أنّهم قومٌ فاسدون لا خير فيهم،

وجَدُوا أَنفُسَهم يَتَمتَّعون بما وسَّعتَ يا ربّنا عليهم من متاع الحياة الدنيا، هم وآباؤهم، فاستغرقوا فيها، وأهملوا تَطْبِيق تَعالِيم الذِّكْرِ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ إِلَيْهِم على لسان رُسُلهم، حتّى أفضىٰ بهم الأمر إلى نِسْيان الذِّكْر نسياناً كلّيًا، وابتداعِ مُخْتَرَعَاتٍ في الدّين جرّتْهُمْ إلى الشِّرْكِ، ظانِّينَ أن الشُّرَكَاء يُحقِّقُون لَهُمْ مَطالِبَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ويَكُونُونَ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ الرّبّ الأعلى، فقالوا:

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾.

ويُدافِعُ المشْرِكون عن أنفسهم باتّهام شُرَكائِهم بأَنَّهُمْ قَد كَانَ مِنْهُمْ إضلالٌ لهم، فَيَقُولُ الله لَهُم:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾: أي: فحقَّ عليكم أنّكم كنْتُمْ أنْتُمْ الْمُجْرمين، وصَدَر في حَقِّكُمْ الْقَضَاءُ العادِل بمؤاخذتكم، وتعذيبكم على وفق سابق الإنذار الذي بلّغكُمْ إيّاه رُسُلكُمْ، فانصَرِفوا، أو فانطلقوا إلى السَّعِير دَارِ تَعْذِيبكُمْ، مُقَرَّنِينَ مَشْدُودِينَ بالْحِبالِ والسَّلاسِلِ.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾: لِلْعَذابِ عَنْكُم، ومَا تَسْتَطِيعُونَ مُقَاومَةً تُحَقِّقُونَ بِها ﴿نَصْرًا﴾.

القضيّة الخامسة: تَوْجِيهُ الإنْذَارِ لكُلِّ مَنْ يَظْلِمُ، فَيُشْرِكُ بالله، أَوْ يكْفُرُ بكفرٍ آخَرَ أَشَدَّ من الشِّرْكِ، منْ كلِّ من يبلُغُهُ الخطابُ بِآياتِ الْقُرْآنِ، بأنَّ الله يُذِيقُهُ يوْمَ الدِّينِ عَذَاباً كَبِيراً كَيْفاً وكَمًّا.

نسأل الله السلامة وحسن الاستقامة.

وبهذا تم تدبّر الدرس الرابع من دروس السورة على ما فتح الله به.

* * *

(١٠)

التّدبُّر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة وهو الآية (٢٠)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

تمهيد:

تضمَّنَ هذا الدرْسُ الرَّدّ على قول المشركين المذكور في الآية (٧) الذي دلَّ علىٰ رفْضِهِمُ الإيمان بالرَّسول محمّد ﷺ، وبما جاء به عن ربّه، بسبب كونه بشراً من البشر.

وتضمَّنَ مُعالَجَة حالَةِ الرّسولِ النَّفْسيَّةِ بِشأْنِ هذه القضيّة، وتُقاسَ على حالة الرسول هذه، أحْوالُ نُفوسِ الدُّعاة إلى الله من بَعْدِه، المشابهة لهذه الحالة.

فهو متعلّق بالفرع الثالث (وهو الرسول) من فروع شجرة موضوع السورة.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ...﴾:

﴿أَرْسَلْنَا﴾: أي: أوحينا إلى نَبيٍّ وَأَمَرْناه بأنْ يتوجَّهَ حَامِلاً رِسَالَةً مِنَّا لِيُبلِّغَها، ويَقُومَ فيمن وُجِّه لهم بما كلَّفْنَاهُ من وظائف.

الإِرسال: التوجيه لأداء مُهِمَّة مَا بتُؤَدَةٍ وَتَرَفُّقٍ وأَنَاةٍ وَتَعَقُّلٍ وحِكْمَة.

والرّسول: هو الذي يُتَابع أخبارَ الّذِي أَرْسَلَه، ويَقُومُ بمهمّاتِه مُتَتَابِعَةً، أَخْذاً مِنْ قول العرب: جاءَتِ الإِبلُ رَسَلاً، أي: جاءَتْ مُتَتابعَةً، ومادّةُ الكلمة تدور حول التوجيه برفق وتُؤَدَةٍ وتَتَابُعٍ وأَنَاةٍ، كتوجيه الرَّسَلِ من الإِبل والغنم، قطيعاً بعد قطيع برفق ويُسرٍ، لا بشدَّةٍ وعُنْفٍ.

ويُقالُ: أَرْسَلْتُ فُلاناً في رسالةٍ، فهو مُرْسَلٌ وَرَسُول.

ويأتي الإِرسالُ في اللّغة بمعنى: الإِطلاق والإِهمال، وتَرْكِ الْمُرْسَلِ يتصرّف بنفسه على ما يُريد، ويُحْمَل على هذا المعنى قول الله عزَّ وجلّ في سورة (مَرْيم/١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾.

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أيْ: تهزّهم وتُحرّكهم وتُغْرِيهم وتُهيّجُهُمْ بِشدَّة، وتوسوس لهم راغبةً في استثارتهم لارتكاب الآثام والشرور.

والمعنى: تركنا الشياطين تفعَلُ ما تريد بالكافرين، دون رعايةٍ مِنّا للكافرين بعصمة، بسبب أنّهم كفروا بإراداتٍ جازمات منهم، لم يكونوا فيها مجبورين ولا مُكْرَهين.

قول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾:

الجملة فيها حصر، بالنفي والاستثناء، والمعنى: وما أرسَلْنَا جميع المرسَلِينَ قبلَكَ يا مُحمَّد إلّا متّصِفينَ بأنَّهُمْ يأكُلُونَ الطّعام ويَمْشُونَ فِي الأَسْواق مثْلَكَ.

وجاء تأكيد الخبر بالمؤكدات التّاليات «إنّ، والجملة الاسمية،

واللّام المزحلقة» رعايةً لِحَالِ المشركين المعترضين على كون محمّد يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، مُوهِمِينَ باعتراضهم أنّ هذا الوصفَ لا يليقُ بحال نبيٍّ يَبْعَثُهُ الله رسولاً.

﴿وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾: أي: ويمشُونَ في الأسواق طَلَباً لمعاشهم، واكتساب أرْزاقهم بالبيع والشراء ونحوهما، وليس المراد مُجَرَّدَ المشي في الأسواق داعين إلى سبيل ربّهم، فهذا أمْرٌ لا يُعْقَل أن يكون محلّ اعتراض أحد، لأنّ كلّ رسول لا بدّ أن يَغْشَىٰ قوْمَه في مواطِنِ تجمّعَاتِهم، والأسواقُ منها، وهُمْ قَدْ طَلَبُوا إنزال ملائكة يشاهدونهم ويبلِّغونَهُمُ الذّكر.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ...﴾:

﴿وَجَعَلْنَا﴾: الضمير في هذا الفعل ضمير المتكلّم العظيم، وهو الله عزَّ وجلّ، وقد جاء في القرآن استعمال فعل «جَعَلَ» للدّلالة على عدّةِ معانٍ، أبرَزُها المعاني التالية:

المعنى الأول: الخلْق والتكوين، وهو الذي عليه معظم الآيات التي وردت فيها مادّةُ «جعل» ومن هذه النصوص قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ... ﴿٢٦﴾﴾.

وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

وينْبغِي أَنْ نَعْلَمَ أنّ هذا الجعل التكوينيّ الخَلْقِيَّ الّذي يتناوَلُ التنظيم

العامّ لسُنَن الله في كونه، لا يَتَنَافَىٰ مع مِنْحَةِ حرّيّة الاختيار للمكلّفين المخيَّرِينَ، لأنّ هذا الْجَعْلَ يشْتَمِلُ على طريقي الخيْر والشرّ، والإِنسان المكلف المختار المُمْتحَن، إذا اختار مثلاً الكفر وانعقدت عليه إرادته الحرّة، حجبه الله عن الإِصغاء لآيات القرآن، وجعله غير قادر على أن يفْقَه معانِيَها، وجَعَله نافراً عن الاستماع إليها. أمّا إذا اختار الإِيمان وانعقدت عليه إرادتُه الحرَّةُ الصَّادِقَةُ، فإنّ الله عزَّ وجلّ يشرح صدره للإِصغاء لآيات القرآن، ويُنَوِّر قلبه لتدبّر معَانِيها وفَهْمِها، ويجعل سمْعَه ميّالاً لاستماعها ومُنْجَذِباً إليها.

وهذا المعنى هو المعنى الملائم للنصّ الذي نتدبَّره، إذِ امْتِحانُ النّاسِ بَعْضِهِم ببَعْضٍ من سُنَن الله في ظروف الحياة الدّنيا.

المعنى الثاني: الجعل بمعنى الحكم الدِّيني، الذي يَمْتَحِنُ الله الناس به، وقد وردت عدّة نصُوص قرآنية يدلُّ فيها الجعل على معنى الحكم الديني، ومن هذه النصوص قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإِسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ... ﴿٣٣﴾﴾.

أيْ: فقد جَعَلْنَا في أحكام الشريعة الإِسلاميّة حكماً يَضْمَنُ حقَّ وليِّ الْقَتِيلِ الَّذي قُتل مظلوماً.

المعنى الثالث: الجعل بمعنى الحكم الإِنسانيّ الصادر عن تَصَوُّرٍ بَشَرِيّ، أصَابَ فِيه صَاحِبُه أمْ أخطأ، وضمن هذه الدلالة وردت عدّة نصوص قرآنيّة، ومن هذه النصوص قول الله عزَّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: حكمتم بحسب تصوُّركم الباطل.

المعنى الرابع: الجعل بمعنى الفعل ذي الأثر من أيّ مَخْلوق، سواءٌ أكان صَادِراً عن إرادة، أم عن غير إرادة.

فمن الأول قول الله عزَّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

ومِنَ الثاني قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

جعلته كالرّميم: أي: كالشيء البالِي المتفتِّتِ الّذِي صار قطعاً صغيرة، كحبَّاتِ التراب والرّمل.

قوله تعالى: ﴿فِتْنَةً﴾: أي: مادَّةً من موادّ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدنيا.

الفتنة: في اللّغة تدور حول معنى الابتلاء والامْتِحَان والاختبار. قال الأزهريُّ وغيره: جِمَاعُ معنَى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصْلُها مأخوذٌ مِنْ قولك: فَتَنْتُ الفِضَّةَ والذَّهَبَ إذا أَذَبْتَهُمَا بالنَّارِ، لتُميّزَ الرّديء من الجيّد.

ويأتي الْفَتْنُ في اللُّغة بمعنى الإحراق، ويُسَمَّى الصائغُ الْفَتَّانَ، لأنّ صنعته قائمة على تعريض ما يَصُوغُ مِنْ مَعَادِنَ لِلَهَبِ النّار، ويُحْمَل على هذا المعنى قول الله عزَّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) بشأن أصحاب الأخدود:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿أَتَصْبِرُونَ؟﴾: استفهامٌ بمعنى الحضّ والحثّ، أو الأمر، أي: هلّا صبرتم، أو اصْبِرُوا. والصبْرُ هو ضبط النفس في تحمُّل المكاره.

ومعنى الحضّ هو الأولَىٰ فيما أرى، لأنّ الخطاب موجّه للرسول وللدعاة من بَعْدِه.

وهذا من أمثلة الاستفهام الذي خرج عن أصل دلالَتِه، وهي طلب الإفهام.

ويُلاحظ أنّ الله عزَّ وجلّ قد أمر رسوله محمّداً ﷺ بالصبْرِ في مراحل التنزيل قبل نزول سورة الفرقان ثلاث مرّات:

أولاً: ففي سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) قال الله عزَّ وجلّ لرسوله مع بدايات تكليفه مسؤولية التبليغ والإنذار:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾.

فكان ما جاء في هذا النصّ أوّل أمْرٍ بالصَّبْرِ مُوَجّه من الله لرسوله محمّد ﷺ، وإعداداً له حتّى يَتلقّىٰ ما يَتَلقّاه من قومه، وهو يُبَلّغهم رسالَةَ رَبّه، ويَقُومُ فيهم بوظائفها، صَابِراً لأجْلِ رَبّه، وابتغاءَ مرْضَاتِه.

ثانياً: ثمَّ أنزل الله عزَّ وجلّ عليه في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ١٤ نزول) قوله تعالى:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

وقد أمر الله رسوله بالصَّبْر في هذه المرحلة الّتِي نزلت فيها سورة (ق) تثبيتاً له، في مُقَابِل ما تعرَّضَ الرّسولُ لَهُ مِنْ تكْذِيبِ واتّهامات وشتائِمَ وأنواعٍ من الأذى، تُقِضُّ مَضاجعَ عُظَماء الأبطال، وأرشده إلى الدَّواءِ الْمُسَاعِد، وهو أن يُسَبّح بحمد ربّه فيما حدّد له من أوقات.

ثالثاً: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلّ عليه في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) قوله تعالى:

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

وقد أمر الله رسوله بالصبرِ في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (ص) تثبيتاً آخَرَ لَهُ، في مُقَابل تصاعُدِ اتّهامات كُبَراءِ قَوْمِهِ له، بأنّه مُفْتَرٍ وكذَّاب وساحر، وفي مُقابلِ وقُوفِهم منه ومن دعوته ومن الّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه مَوْقِفَ المعادي الذي استَعَدَّ للْقَمْعِ بالْعُنْفِ واستخْدَامِ السلاح والْحَرْبِ، مُعْتَزًّا بقوّته العسكريّة الحربيّة، ومُعْلِناً عِداءَهُ السَّافر.

ومع الأَمْر بالصّبر قدّم الله عزَّ وجلّ نَمَاذِجَ من قِصَصِ الرُّسُل السابقين، ومَا تَعرَّضُوا لَهُ مِنْ مَكارِهِ صَبَرُوا فيها ابتغاء مرضاة الله.

رابعاً: ثم أنزل الله عزّ وجلّ عليه هذا التوجيه الرّابع للصّبر الذي نتدبَّرُهُ من سورة (الفرقان) بصيغة: ﴿أَتَصْبِرُونَ؟﴾ فضمّ الله عزَّ وجلّ مع تَوْجِيه رسولِهِ للصبْر تَوجيهَ الدّعاة من أَتْباعِ الرّسول للصّبر صراحةً، لِمَا كَانُوا يلْقَوْنه من أذَى من قومهم واضطهادٍ، ولَا سيَّما الضعفاءُ منهم، ويدخل في هذا العموم كلُّ داعٍ إلى الله من أمّتِهِ.

أما قبل هذا النصّ فكان تَوجِيهُ الدُّعَاة للصّبْرِ يُفْهمُ ضِمْناً من توجيه الرسول له.

وإذَا قال قائل: إنَّنا نَجِدُ في سورة (القلم/٦٨ مصحف/٤ نزول) قول الله عزّ وجلّ لرسوله.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

ونَجِدُ في سورة (المزّمّل/٧٣ مصحف/٣ نزول) قول الله عزّ وجلّ لرسُوله:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾.

فلِمَ لَمْ تَذْكُرْهُما ضِمْن مراحل التنزيل السابقة؟

فالجواب: أنّ هذيْنِ النّصّيْنِ مَدَنيّان تنزيلاً، ضُمَّا إلى سورتين هُمَا من أوائل التنزيل المكي. والحكمة من ذلِكَ أنَّ الرّسول إبَّان نُزُولِ سورتي القلم والمزّمّل لم يكن بحاجَةٍ في شخصِهِ إلى مثل هذا التوجيه الشَّدِيد للصَّبْر، فقد كان مُحَقّقاً في ذاته هذه الصفة.

لكنّ هذه المرحلة سَيُصَادفُ الدعاة إلىٰ الله نظيرَهَا في مَسِيرَةِ دَعْوَتِهم، وهم بحاجةٍ إلى توجيههم للصَّبْرِ عِنْدَها، فكَانَ من الحِكْمَةِ البيانيّة التربَوِيّة توجيهُهُمْ للصبرْ على ما ينالون من أذًى وضُرّ فِي دَعْوَتِهم إلى سبيل ربّهم.

واقْتَضَىٰ الأُسْلُوبَ التربويّ أن يُوجَّهَ الأَمْرُ بالصَّبر لرسولِ الله أوّلِ المسلمين، الذي حقّق المطلوب منه فعلاً قبل توجيه الأمر له، ليَفْهَمَ الدُّعاةُ من بَعْدِهِ أَنَّهُمْ هُمُ المَقْصُودُونَ بالتوجيه، وأنّ الأمر بالصَّبْرِ عامٌّ شاملٌ لكلّ داعٍ إلى الله ابتداءً من الرسول أوّلِ الدّعاةِ، حتى آخِرِ داعٍ إلى الله ما توالت القرونُ من بعده.

وليفهم المجتهدون الْمُسْتَنْبِطُون للأحكام أن الأوامِرَ والنواهِيَ الموجَّهَةَ للرّسول هي أوامِرُ ونواهٍ مُوَجَّهةٌ لكلّ تابعٍ لَهُ من أمّته، ما لم يكن الأمْرُ والنَّهْيُ مِنْ خُصُوصِيَّات الرّسول بالنّص.

دلَّ علىٰ كلّ ذلك هذا الإجراءُ الدّقيقُ في حركة تأخير إنزال النّصّ وضمِّه إلى سورة سابقة التنزيل، إذْ مَرْحلةُ نُزُولِها تستدعي أن يكون فيها هذا النصّ بالنسبة إلى الدعاة دون الرّسول، وكان هذا الإجراءُ الحَكِيمُ مُراعاة للاقتضاءَيْن معاً(١).

قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

فيه وعد ضمني للصابرين على أذى الكافرين في مجال دعوتهم إلى سبيل ربّهم بمعونة الله لهم، وإعطائهم العاقبة الّتِي تُرْضِيهِمْ في الدُّنْيا والآخرة مهما قدّموا من تَضْحِيَاتٍ، وتحمَّلُوا من مكاره، وواجهوا من عقبات ومشكلات، ومهما نالهم من ضُرٍّ وأذى عبر المسيرة، ومهما سقط منهم من شهداء.

فالرّب البصير، حكيم عليم قدير، وهُوَ لأَوْلِيائه المجاهدين في سبيله نصير.

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب البياني غير المباشر من أدبٍ رفيعٍ، وفنٍّ بديع، وهو من الكنايات التي يُدْرِكها الفطناء.

* * *

إجمال معاني هذا الدرس

في هذه الآية الّتي هي الدرس الخامس من دروس السورة قضيتان:

القضية الأولى: الرّدّ من الله عزَّ وجلّ على قول المشركين الذي جاء بيانه في قوله تعالى في الآية (٧) من السورة:

---

(١) انظر ما جاء في القاعدة العاشرة من كتاب: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾.

أي: لو كان رسولاً يوحي الله إليه لأغناه الله عن أكل الطعام كما يأكل الناس، ولأغناه عن المشْيِ في الأَسْواق لتَحْصِيل رِزقه واكْتِسَابِ معَاشِه كما يفعل سائر الناس.

وقد جاء ردُّ الله عزَّ وجلّ على مقالتهم هذه بأسلوب توجيه الخطاب لرسوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لأمْرَين:

(١) الاهتمام بالْبَدْء بمعالَجَةِ نفس الرسول التي توالت عليها طَعَنات الاتّهام الموجّهة من كُبَراء قومه لِصِدْقِه وأمانَتِه وكمال عقله وفطنته، مع عدم استجابة الله لأيّ مقترح من المقْتَرحاتِ التي أوردوها، لإقْنَاعِ عامّتهم، أو لكَشْفِ أنّ مقترحاتهم إنّما هي مطالب تعنُّتِيَّةٌ، ولَيْسَتْ في الحَقِيقَةِ مطالبَ يَقْصِدُون بِهَا التحقُّقَ مِنْ صِدْقِ نبوّته ورسالته.

(٢) الإِعراضُ عَنْ مُواجَهَةِ قومه بالخطاب، مع إسْمَاعِهم إيّاه عن طريق خِطَابِ الرّسول، لإشعارهم بأنّهم مُتَعَنِّتُون، وأنّ مواجهتهم بالخطاب لا يُغَيّر شيئاً من موقفهم، ولإشعارهم بأنّ المقْصُودَ معالجة نفس الرسول، وأنّ الرّسول قَدْ تَطَلَّعَتْ نفسه لأنْ يستجيبَ الله لبَعْضِ مطالبهم، حرصاً منه على إيمانهم وإنقاذهم من الكفر وعَذَابِ الله، ولكنَّ حِكْمةَ اللَّهِ فِي سُنّتِه الثَّابِتَةِ تأبىٰ ذلك.

فما أرْسَلَ اللَّهُ أحداً قبل محمّد من المرسلين إلّا كان من صفاته الّتي عرفتْها فيه أُمَّتُه وتناقَلَتْها الأجيالُ من بعدهم، أنَّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كما يمشي سائر الناس طالبين وسائل معاشهم.

فالبشريَّةُ وأكْلُ الطَّعَامِ والمشْيُ فِي الأَسْوَاقِ لَمْ تَكُنْ مُنَافِيَةً لِلاصْطِفاء بالنبوّة والرِّسالة.

واللَّهُ عزَّ وجلّ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُوحِيَ إلى بَشَرٍ أَوْ كَائِنٍ آخر من حيوانٍ

أو نباتٍ أو جماد. إنّه سُبْحانه متى شاء ذلك جَعَلَ في ذات مُتلقِّي وَحْيِه الاسْتِعْدَادَ لِتَلَقِّي الوحْيِ، فَيُوحِي إِلَيْهِ، دُونَ أَنْ يَسْلُبَهُ صِفَاتِه الْعَامَّة السَّابِقَة.

والمُنكِرُ لِهَذَا بَعْدَ ثُبُوتِهِ بالبرهان العقْلِيّ يتّهم الرّبّ الخالق سبحانه بالعجز عن شيءٍ هو من صلاحيّات قدرته.

وبما أنّ هذِه هي سُنَّةُ الله في جَمِيع المرسلين السابِقين بدون استثناء، فإنّه سُبْحانه لا يغيّر سُنّتَه هذِه استرضاءً منه لتَشَهِيَات الكافرين التعنتيّة العناديّة، الّتي لا تستند إلى مُقْتَضٍ عَقْلِي، أَوْ إِلَىٰ مُقْتَضٍ منْ سَوابِقِ أَحْوالِ الأنْبِيَاءِ والمُرْسَلين.

بعد هذا يَظْهَرُ لنَا أنّ أصْحَابَ المقالة: إنْ كانوا يَجْهَلُون أنّ الرسل السابقين كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كسائر الناس لكسب أرزاقهم وتحصيل معايشهم، فباستطاعتهم أن يسألوا أهل الكتاب من قبلهم، ليعلموا منهم أن رُسُل بني إسرائيل كانوا كذلك.

لكنَّهُمْ لا يجهلون هذه الحقيقة، فهم إذنْ مُتَعنِّتُون، وحَسْبُهم أن يَسْمَعُوا جوابهم من خلال خطاب الله لرسوله، دون أن يَسْتَحِقُّوا المواجَهةَ بالخطاب، فالذي هو أهلٌ لأنْ يُوَاجه بالخِطَاب ينْبَغِي أن تكونَ لَدَيْه شُبْهَةٌ حَقِيقيَّةٌ، لا تَعِلَّةٌ تَعَنُّتِيَّة.

القضية الثانية: معالجةُ نفسِ الرسول ﷺ مع تربية الدّعاة إلى سبيل الله من بعده تجاه جُمْلَةِ مقالاتِ الكافرين فيه وأعمالِهم، منْهَا ما سبق بيانه فيما أنزل قبل سورة (الفرقان) ومنها ما جَاء بيانه في سورة (الفرقان) ومِنْها أَنْوَاعُ أذىً لَمْ يَذْكُرْها القرآن.

وهذِه المعالَجَةُ مَعَ تَرْبِيةِ الدُّعاة إلى سبيل الله من بعد الرّسول كان من الحكمة الرّبّانيّة فيها بَيَانُ حَقِيقةٍ من حقائق حكْمَةِ الله فِي إيجادِ ظُروفِ هذِه الحياة الدنيا.

هذه الحقيقة هِيَ أنّ الرّسُول وسَائِرَ النَّاسِ مُمْتَحَنُونَ فِي هذِهِ الحياة الدنيا، والمطلوبُ في هذَا الامْتِحَانِ تُجاهَ الْمَكَارِهِ الَّتِي تَأْتِي من قِبَلِ الذين لم يَسْتجيبُوا للدَّعْوة هو الصَّبْرَ، فَمَنْ صَبَر اجْتَازَ هذا الامتحان بنجاحٍ عظيم.

وظاهِرٌ أَنَّ هذا النوعَ من أنْواعِ الامْتِحان في ظروف الحياة الدنيا، يَشْمَل كُلَّ الدّعاة إلى سَبِيل ربّهم من بعد الرسول ﷺ، ولذلِكَ كَانَ مِنَ الحِكْمَة في البيان التَّنْبِيهُ على قضيةٍ كلّيّة من قَضَايَا سُنّةِ الله في خلقه، وهِيَ أنَّ مِنْ مَوادِّ الامْتِحانِ في ظُرُوفِ هذه الحياة الدنيا بوجه عامّ، فِي شَبَكَةِ عَلاقَاتِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، أنّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ هذِهِ الْعَلاقَاتِ بما فيها من أُمُورٍ مؤلماتٍ نَكِدَاتٍ، وما فيها من أمور سارَّاتٍ هيِّناتٍ، هِيَ مِنْ عَنَاصِر امتحانِ النَّاسِ فِي ظُروفِ هذِه الحَيَاةِ الدُّنيا.

ومعْلُومٌ أنّ مِنْها مَا يَحْتَاج صَبْراً، والنَجَاحُ فِيه يكُونُ بالصَّبْرِ، ومنْها ما يَسْتَدْعِي شكراً، والنجَاحُ فِيه يكُونُ بالشُّكر.

وبما أنّ ما تعرَّضَ لَهُ الرَّسُول من قِبَلِ كُفَّار قَوْمِه، ويَتَعَرَّضُ له الدُّعاة إلى سبيل الله دواماً في مَسِيراتهم دَاعِين إلىٰ الله بيْنَ النَّاسِ، ممّا يحتاج قدراً كبيراً من الصَّبْر، قال الله عزَّ وجلّ: في بيان هذه القضيّة الكليّة:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾؟.

فجاء التوجيه للصبر بأسلوب الاستفهام الذي فيه معنى الحض والحث والطلب، وجاء بصيغة عامّةٍ تَشْمَلُ الرسُولَ والدُّعاةَ مِنْ بَعْدِه.

وترغيباً في الأجر العظيم الذي تدلُّ عليه لوازم مشاهدة الله للصابرين ختم الله الآية بقولِه بأسلوب خطاب المفرد للدلالة على أنّ كلّ فرد واقع تحت نظر الله:

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ⦗٢٠⦘﴾.

في هذه العبارة كنايةٌ عن الأجْرِ العظيم، والنَّصْرِ المبين الّذَيْنِ يمنَحُهمَا الله عزّ وجلّ لأوليائه الصابرين من الدُّعاة، فمن لوازم كَوْن الرَّبّ جلّ جلاله بصيراً بهم، أن يكون ولو بَعْدَ حين ناصراً لهم، ومؤيداً لهم، إضافةً إلى ما يَكْتُبُه لهم من أجْرٍ جزيل على صَبْرِهم، وهو ما بينته نصوص قرآنيةٌ كثيرة.

* * *

(١١)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة وهو الآيات من (٢١ ـ ٢٩)

في هذا الدرس بيان طلب الذين كفروا وكذَّبُوا بيوم الدين أن يُنَزِّل الله عليهم الملائكة لِيَتَلَقَّوْا عنهم مُباشرةً وحْيَ السماء، أو يَرَوْا ربَّهُمْ عياناً، ويُبلِّغَهم ما يطلَب منهم في حياتهم. مع معالجة الله عزَّ وجلّ لطلبهم هذا، ببيان علّتهم النّفسية، وبعرض لَقَطَات من خِطَّته المستقبليّة المقرَّرة التي جعل بحكمته من عناصرها رؤيتَهم للملائكة وملاقاتَهُمْ لربّهم في موقف الحساب وفصل القضاء، دون أن يَرَوْه، وفي تلك الأحوال يتمنَّوْن أن لا يَرَوْا الملائكة ولا يُلاقُوا ربّهم.

* * *

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ⦗٢١⦘ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ⦗٢٢⦘ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً

مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ
ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ
ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ
ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

القراءات:

(٢٥) • قرأ أبو عمْرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ أصل الفعل «تتشقق» حُذفت منه تاء الفعل تخفيفاً.

وقرأ باقي القراء العشرة [**وَيَوْمَ تَشَّقَّقُ**] أُدْغمت تاء الفعل بالشّين فصارت شيناً مُشدّدة.

والقراءتان وجهان متكافئان.

(٢٥) ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ ببناء الفعل لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، قراءة جمهور القرّاء العشرة.

[**وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلاً**] بالبناء للمعلوم من فعل أَنْزَلَ، والفاعل ضمير المتكلّم العظيم، ولفظ «الملائكة» منصوبٌ على أنَّه مَفْعُولٌ به، قراءة ابن كثير.

والقراءتان وَجْهَانِ متكافئان من الأداء البياني، وقراءة ابن كثير تفيد أنّ ما جاء في القرآن مَبْنِيًّا لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله من أحداث الكون فالفاعل له هو الله عزَّ وجلّ، خلقاً أو أمراً، إلّا ما يَدُلّ السياقُ فيه على أنَّ الفاعل بعض مخلوقاته.

(٢٧) ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ بإسكان ياء المتكلّم، قراءة جمهور القرّاء.

[**يَا لَيْتَنِيَ**] بتحريك ياء المتكلّم بالفتح، قراءة أبي عمرو.

وهما وجهان عربيان متكافئان.

(٢٨) ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ في الوصل والوقف لجمهور القُرّاء العشرة.

[يَا وَيلَتَاهْ] بهاء السكْتِ مع المدّ الطويل عند الوقف، قراءة رُوَيْسٍ فقط.

والقراءتان وجهان عربيان متكافئان.

تمهيد:

تضمّن هذا الدّرْسُ بيان طلَب الّذين كفروا وكَذَّبُوا بيَوْم الدّين، أن يُنزّلَ اللَّهُ عليهُم الملائكة، ليتلَقَّوْا عَنهُمُ الْوَحْيَ الرَّبَّانِيّ، أَوْ يَروْا ربَّهُمْ عِيَاناً، ويُبَلِّغَهُمْ مَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ في حياتهم.

وتضمّن أيضاً معالجة الله عزّ وجلّ لطلبهم هذا، ببيان عِلّتِهم النَّفْسِيّة، وبعَرْضِ لقطاتٍ من خُطّتِه المستقبليّة الّتي جعل بحكْمَته من عناصِرِهَا أنْ يَرَوْا الملائكة، وأن يُلاقوا ربَّهُمْ في مَوْقف الحساب وفَصْل القضاء، دون أنْ يَرَوْهُ ، وفي تِلْكَ الأحوال يتمنّونَ أن لا يَرَوا الملائكة، وأنْ لا يُلاقوا ربّهم.

ومن الملاحظ تَدرُّجُ الّذين كفروا وكذّبوا الرسولَ وكذّبوا بالساعة، وجادلوا في صحة نُبوّة الرسولِ ورسَالَتِه، متعلّلين ببشريته، منَ المُطَالَبَةِ بأن يُنْزِلَ الله إليه ملكاً فيكونَ معه رسولاً نذيراً، أو يُلْقَىٰ إليه كَنْزٌ أو تكون له جنّةٌ يأكُلُ هو وأهله منها، ويأكلون هم منها أيضاً، إلى المطَالَبَةِ بأن يُنَزّل الله عَلَيْهِم الملائكةَ، فيتَلَقَّوُا الوحْيَ منْهُمْ مُبَاشَرة، استكباراً عن أن يكُونَ بَلاغُ الدِّين إليهم بوسَاطَةِ بشَرٍ مِثْلِهم، أو أنْ يَرَوْا رَبَّهم مُباشَرةً رُؤْيةً بَصَرِيّة، فَيُبَلِّغَهُمْ دُونَ وِسَاطَةِ بشَرٍ ولَا مَلَائِكَةٍ بَلاغَاتِ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا . . . ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: أي: لا يَنْتَظِرون وَلَا يَتَوَقَّعُونَ ولا يَخافُونَ لقاءَ الله يومَ الدِّين، في موقف الحساب وفصل القضاء، لتطبيق الجزاء بالعدل.

الضمير في «لقاءَنا» ضمير المتكلّم العظيم، وهو الله عزَّ وجلّ.

﴿لَا يَرْجُونَ﴾: الرَّجاءُ في اللّغة يأتي بمعنَيْين:

المعنى الأول: توقُّعُ حُصُولِ الأَمْر، وترقُّبُه.

المعنى الثاني: الْخَوْفُ مِنَ الشَّيْء.

يقالُ لغة: رَجاه يَرْجُوهُ رَجواً ورَجاءً، ويُقالُ أيضاً: رَجِيَه، وارْتَجاه وَتَرَجَّاه.

- فمن الأول نحو قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ـ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ـ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

- ومن الثاني نَحْوُ قولِ الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ أي: ما لكم لا تخافون عظمة الله وقُدراته الجليلة.

ويجتمع المعْنَيَانِ في نحو قول الله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ـ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ـ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ـ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾.

ويظهر من الاستعمالات القرآنية أنّ أَصْل معنىٰ الرَّجاءِ هو مُطْلَقُ التَّوَقُّعِ للمرْغُوبِ فيه أو المخُوفِ منْه، ويُفْهَمُ من الرَّجاءِ في كلّ نصّ بحَسَبه.

فالّذين لا يَرجُون لقاءَ الله، هم الّذين لا يتَوَقَّعُونَ هَذا اللّقاءَ، فلا يرغَبُونَ في ثوابِ الله، ولا يَخافُونَ مِنْ عِقَابه.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أي: هلَّا أُنزِلَ علينا الملائكة، فَحَرْفُ «لولا» مستعمل هنا بمعنى التحضيض، مثل «هَلَّا».

وجاء وصْفُ أصْحَابِ القوْلِ هُنَا بأنّهم لا يَرْجُون لِقَاءَ الله رَغباً ولا رَهَباً، مناسباً لطلَبِهِمْ إنْزَالَ الملائِكَةِ عليهم، وهُمُ الَّذِينَ لَا تَكُونُ رُؤْيَتُهُم لهُم إلَّا بَعْدَ انْتِهاءِ ظُروفِ امْتِحانهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، فحِينَئذٍ يَرَوْنَ الملائِكَةَ الَّذِينَ يأْتُونَهُمْ بمَا يَكْرَهُونَ، منْ مُخِيفَاتٍ ومُحْزِنَاتٍ وصُوَرٍ مِنَ العَذابِ، ولَيْسَ فِي شيءٍ من ذلك خَيْرٌ لَهُمْ أو بُشْرَىٰ.

﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾: أي: أو نَرَىٰ رَبَّنا رؤيَةً بَصَرِيّة فيأْمُرَنا ويَنْهانا مباشرةً، ويكلِّمَنَا بما يطلُبُ منا، ويُخاطِبَنا بالقرآن مُبَاشَرةً، دُونَ وِسَاطة رَسُولٍ مِنَ الْبَشَر، أو رَسُولٍ من الملائِكَةِ.

فَهُمْ بِهٰذَيْنِ المَطْلَبَيْنِ يقْتَرِحُون على ربّهم ما يُريدُون هُمْ مِنْ وَسِيلَةٍ لتَلَقّي مطَالبِ الرَّبِّ منْهُمْ وهُمْ عَبِيدُه، وخَلْقٌ منْ خَلْقِه، لقَدْ أَسْرَفُوا أيّما إسْرَافٍ في استِكْبَارِهِمْ وعنادهم وتعنُّتِهِمْ، وعُتُوِّهِم، لذلك قال اللَّهُ عزَّ وجلّ بشأنهم:

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

هَلْ يفْعَلُ النّاسُ مثْلَ هذَا بالنِّسْبَةِ إلىٰ مُلُوكِهِمْ منْ أهْلِ الأَرْضِ، فَيَرْفُضُونَ أوامِرَ ونَواهِيَ وبَلاغَاتِ الْمَلِكِ، حتَّىٰ يَبْعَثَ لَهُمْ الخَاصَّةَ مِنْ حَاشِيَتِه أهلِ قصره، أو يَظْهَر لَهُمْ جَمِيعاً فَيُخَاطِبَهُمْ بها؟!

إنّ هذا لَاسْتِكْبَارٌ حَقِيقةً وعُتُوٌّ كبير.

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: يؤكد رَبُّنا أنَّ الْبَاعِثَ لهم على طَلَبِ إنْزَالِ الملائكَةِ عليهم، أو ظُهورِ الرَّبّ لَهُمْ حتَّىٰ يرَوْه، إنَّما هُوَ الكِبْرُ الْمُتَعَاظِمُ في أنْفُسِهم، والتأكيدُ جَاءَ باللّام، وَحَرْفِ «قد».

ومعنى «اسْتَكْبَرُوا في أَنْفُسِهِمْ» عَظُمَ الكِبْرُ واشْتَدَّ وقَوِيَ في أنفُسِهِم، فَمِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَدُلُّ عليْهَا صِيغَةُ «اسْتَفْعَل» تعاظُمُ واشْتِدَادُ وقُوَّةُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مَادَّةُ الفِعْل.

إنّ فِعْلَ «كَبُر» يَدُلُّ على حُدُوثِ الكِبْرِ، أمَّا صِيغَةُ «اسْتَكْبَر» فمِنْ مَعَانيها الدَّلَالَةُ علَىٰ أنّ هذا الكِبْرَ قَدْ تعاظَمَ واشْتَدَّ وقَوِيَ.

ونظيره فعل «غَلُظَ» النَّباتُ، إذا كَبرَ حجمه، واكتمل قوامُه، فإذا تَعاظم واشْتَدّ وقوي قالوا: «اسْتَغْلَظَ».

وكذلِك فِعْل «حَبَّ» فلانٌ الشيءَ، إذا رغب فيه، وتعلَّقَ به، فإذا اشْتَدَّ حبُّهُ له وقَوِي حتَّى آثَرَهُ عَلَىٰ غيْرِه، قالُوا: «اسْتَحَبَّهُ» أي: قوي حُبُّهُ لَهُ حَتَّىٰ آثَره، ومِنْهُ ما جاء في قول الله عزَّ وجلّ بشأنِ ثَمُودَ قومِ النبيّ صَالِحِ عليه السلام في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: اشتدّ حُبُّهم للكفر ولَوَازِمه، الَّذِي هو كَالْعَمَىٰ، حتى آثَرُوه بِإصْرارٍ علَىٰ الإِيمانِ ولوَازِمِه، والإِيمَانُ بمَا جَاءَ بِه الرَّسُولُ هُو الْهُدَىٰ.

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: **الْعُتُوُّ في اللُّغَة:** تَجَاوُزُ الْحَدّ، والتَّجَبُّر، **والْعَاتِي:** الجبَّار الْمُتَمرِّدُ الشَّدِيد الدخول فِي الْفَسَادِ، الّذِي لا يَقْبَلُ مَوْعِظَةً، وجَمْعُ الْعَاتِي: الْعُتَاة.

يُقال لغة: عَتَا يَعْتُو عُتُوًّا وَعِتِيًّا، إذا جاوز الحدّ، وتجبَّرَ وتمرّد، وعَانَدَ، وكانَ ذا فسادٍ عَريضٍ.

وبعد بيان هذا الدَّاءِ المسْتَحْكِم في أنفسهم، ألَا وهو دَاءُ الاستكبار، والْعُتوّ الكبير، الذي جعَلَهُمْ يُطَالِبُونَ بأَنْ يَكُونُوا هُمُ الأنْبِيَاء الَّذِين تُنَزَّل

عليهم الملائكةُ بالْوَحْي، أَوْ فَوْقَ الأنبياء بأن يَروا ربّهم جَهْرَة ويكَلّمَهُمْ بما يَطْلُبُ مِنْهم، قال الله عزَّ وجلّ تعقيباً على ذلك:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: إنّ رؤيتهم للملائكة لا تكُونُ لهُمْ وهم في ظُروفِ هذه الحياة الدنيا، حياةِ الابْتِلَاء وهم يُخْتَبَرُون، لكِنْ تَبْدأُ رُؤْيَتُهم للمَلَائِكَةِ مُنْذُ يَبْلُغُونَ عتَبَةَ الْموتِ، ويبدؤُون رِحْلَة البرْزَخ، وحينما يُبْعَثُون ويُسَاقُون إلى موقف الحساب وفَصْل القضاء، وحينما يُساقُون إلَىٰ عَذَابِهِم، وحِينَما يُكَبُّونَ في النَّارِ علىٰ وجُوهِهم ويَسْتَقِرُّون فيها.

وفي كلّ هذه المراحل التي يَرَوْنَ فيها الملَائِكَةَ لَا تَكُونُ لهُمْ بُشْرَىٰ مطلقاً بالاسْتِغْرَاقِ الشّاملِ الذي دلَّت عليه كلمة «لا» النافية للجنس، في عبارة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

بل تكون لهم أحْزَانٌ وحَسَراتٌ ومخَاوفُ وآلامٌ، ممّا يمَسُّهُمْ، وممّا هُمْ إلَيْهِ صائرون، ويُعْلِنُونَ نَدَمَهم، ويَنْدُبُون مَصَائِبَهُمْ، ويَتمنَّوْنَ أَمَانِيَّ لا تَتَحقَّق لهم.

﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾: **الْبُشرى**: اسم يُطْلَق على الشَّيْءِ السّارّ الْمُفْرِح الذي يأتي به الْخَبَرُ أو العلم.

والتَّبْشِيرُ: الإخبار بما يَسُرُّ وَيُفْرِح، إذا جاء لفظ التبشير مطلقاً من غير قيد، وقد يُسْتَعْمَلُ مُقيّداً في ضدّه على سبيل التّهكّم، ومنه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ويُلَاحَظُ أنَّ جُمْلَة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قد جاءَتْ عَامَّةً شاملةً لكلّ المجرمين، ويُفْهَمُ منْهَا دخولُ طالِبي رُؤْيَةِ الملائِكَةِ من مشركي مكة فيهم، إذْ هُمْ يدخلون في عموم الْمُجْرِمين.

ولقَصْدِ هذا التعميم على كُلِّ المجرمين جاءَ تَكْرِيرُ لفظ «يوم» في الجملة، والَّذي صَارَتْ به جملةً تامّة مُسْتَقِلّة، وهي جملة سَدَّتْ في المعنى مسَدَّ ما تُسْتَكْمَل به جُمْلَةُ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: هُمْ لَا بُشْرَىٰ لهم يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة، إذ هم داخلون في عموم المجرمين الذين لا بُشرىٰ لهم يومئذٍ.

وهُنا نقولُ: إنَّ نفي الْبُشرىٰ لهم لا يَسْتَلْزِمُ عقلاً إثْبَاتَ مُلاقَاتِهم لما يَكْرَهُون من محزناتٍ ومؤلماتٍ ومُخِيفاتٍ، فمن أيْنَ نفهم أنّ هذِه ستَكُونُ لَهُم يوم يَرَوْن الملائكة؟

ونجيب على هذا السؤال بأنّ قَوْلَ الله عزَّ وجلّ عقب ذلك:

﴿. . . وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ يَدُلُّ على أَنَّهُمْ يُشَاهِدُون ما يُخِيفُهُمْ ويُثِير الْهَلَع في قُلوبهم، فَيُطْلِقُونَ عبَارةَ الاستِعَاذَةِ هذِه، الّتي كَان مِنْ عادَتِهِمْ أَنْ يَقُولُوها عِنْدَ المَخَاوف.

﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أَصْل معنى «الحُجْر» في اللّغة «الْمَنْع».

يقال لغة: حَجَرَ عَلَيْهِ يَحْجُرُ حَجْراً وَحُجْراً وَحِجْراً وحُجْراناً وحِجْراناً، إذا مَنَعَهُ من التصرُّف.

ويُقالُ: لَا حُجْرَ عنه، أي: لا دفْعَ ولا مَنْعَ.

والعرَبُ تقولُ عنْدَ الأمْرِ تُنكِرهُ: حُجْراً لَه، أي: دفعاً له.

ويُقالُ: حَجَر عليه القاضي يَحْجُر حَجْراً، إذا مَنَعَه من التصرّف في ماله.

ويُطْلَق لفظ «الحجْر» بفتح الحاء وكسرها وضمِّها بمعنى الحرام.

قال اللَّيث: كان الرجلُ في الجَاهِلِيَّة يَلْقَىٰ الرجُلَ يَخَافُه في الشّهر الحرام، فيقول: حِجْراً محْجُوراً، أي: حرامٌ مُحرّم عليك في هذا الشهر، فلا يبدؤه منه شرّ.

قال أبو عبيدة ـ كما نقل أبو حيان الأندلُسِي في تفسيره (البحر) ـ: هاتان اللّفظتان «حِجْراً محْجُوراً» عوذةٌ للعرب، يقولُها من خاف آخر (أي: إنساناً آخر) في الْحَرَمِ، أو في شَهْرٍ حَرامٍ إذا لَقِيَهُ وبينهم تِرَةٌ.

التِرَة: هي حقّ أولياء القتيل على قاتله، والموتور هو الّذي يُطالب بالثأر، ويدُلُّ لفظ «التِّرَة» على الحفيظة التي في النفس، أو الحقد مع النزوع بغضب لطلب الثأر.

أقول: فيظهر أن عبارة «حِجْراً مَحْجُوراً» قد صارت عَوْذَةً دارجةً على ألسنة العرب، كلّما دَاهَمَهُمْ أمرٌ مَخُوف، مِنْ إنْسٍ أَوْ جِنٍّ أَوْ غَيْرِهِما.

بعد هذا نستَطِيعَ أن نَفْهم من الآية ما يَلِي:

بما أَنَّ مُجْرِمي مُشْركي مكَّة قد طَلَبُوا إنْزَالَ الْمَلَائِكَةِ عليهم لتَبْلِيغِهِمْ مُبَاشَرةً وحْيَ الله، رَافِضِينَ حِكْمَتَهُ في إرْسَالِ رسُولٍ بَشرٍ منهم، اسْتكباراً في أَنْفُسِهم، وعُتُوًّا كَبِيراً منهم، فلْيَعْلَموا أَنَّهُمْ سَيَرَوْنَ الملائِكَةَ بعْدَ رحْلَة امْتِحانِهم في الحياة الدُّنيا، وسَيَكُونُ ذلك اليوم شَديداً علَيْهِم، مُخِيفاً لَهُمْ، وعنْدَ أوّلِ مُواجَهَةٍ يَرَوْن بها ملائِكَةَ اللَّهِ عنْدَ أوّل خُطْوَةٍ يخْطُونَها ساعَةَ الْمَوْتِ، منْتَقِلِين من حَياةِ الابتلاء، يُشَاهِدُون مَشَاهِدَ مُرْعِبةً مخيفةً تَنْطَلقُ مَعَها أَلْسِنَتُهُمْ علَىٰ عَادَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا إذا واجَهُوا شَيْئاً مُخِيفاً مرعباً قائلين: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

أمّا أَهْلُ الإيمان أولياءُ الله فإنّ لَهُمَ الْبُشْرىٰ، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

يَدلُّ قول الله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ بِصِيغَةِ الفِعْل المَاضِي، علَىٰ

أنّ الْبُشْرَىٰ فِي الحَياةِ الدُّنيا لَهُمْ تَكُونُ بَعْدَ رحْلَةِ أعمالِ التَّقْوَىٰ، وهذه تبدأ عند النَّزْعِ قبل الْمَوْتِ معَ دُخُولِ عتَبةِ الْبَرْزَخِ، وهذِه اللّحَظاتُ هِيَ مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا، والْبُشْرىٰ تكون للمؤمن المتقي بأَنْ يُكْشَفَ له حتّى يَرى مَنْزِلَهُ في جنّات النعيم، وبأَنْ تُخْبِرَه الملائكة بما أَعَدَّ اللّهُ له من عَاقبة حَسَنة.

وقد جاء في الصحيح عن النبيّ ﷺ ما يُثْبت هذه البشرىٰ، كما سيأتي إن شاء الله.

ووردَتْ عِدَّة روايات عن عبادة بن الصامت في سندها رجلٌ مجهول عن النبيّ ﷺ في تفسير: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بأنّها الرؤيا الصالحة يراها الْعَبْدُ أو تُرَى له.

أقول: لا مانع أن تكون الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ من الْبُشْرىٰ لهم في الحياة الدنيا، دُونَ أَنْ تَنْحَصِرَ فيها.

والْبُشْرَىٰ حَاصِلَةٌ لأهْلِ الإيمَانِ بمَا جَاء مِنْ تبشير لهم في القرآن، وفي أقوال الرسول محمّد ﷺ، وهذه في الحياة الدنيا، والنُّصوص في هذا كثيرة، منها قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

وأحسَنُ القول الذي يُسْتَمَعُ هو قول الله عزَّ وجلّ، ثمّ قول الرّسول ﷺ، فهم يَتّبِعُونَ ما جاء فيهما.

وتَتَنزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ بالْبُشْرَىٰ على المؤمنين الذين استَقَامُوا بعدَ استقرار الإِيمان في قُلُوبهم، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

فأثْبَتَ هذا النصّ أنّ الملائكةَ تَتَنزَّل علىٰ الّذين قَالُوا: ربُّنا اللَّهُ، فأعْلَنُوا إيمانهم به، ثمّ اسْتَقَامُوا على الطريقَةِ في الاتّجاهِ إلى مَرْضَاةِ رَبِّهم، لَمْ يَنْحَرفوا ولم يخرُجُوا عن الصّراط، وفي التَّنزُّلاتِ التي تَتَنزَّلُ عَلَيْهم الملائكة تقول لهم بلغاتهم وألسنتهم مضمونَ: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ . . .﴾.

أمّا مَتىٰ يكُونُ هذا التنزُّل، فغَيْرُ ظاهِرٍ في أَحْوَالِ المؤمنين وهم في الحياة الدنيا قَبْلَ اقْتِرابِ حُلُولِ الأَجَلِ عِنْدَ نَزْعِ الرُّوح.

بقي أنْ نَفْهَم أنّه يكون بعد ذلك بدءاً من اللّحَظَاتِ الَّتِي يكُونُ عِنْدَها الْمَوْتُ.

قال ابن زيد ومُجَاهِدُ من أهل التأويل: تتنزَّل عليهم عند الموت.

وقال قتادة: تتنزّل عليهم إذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ عند البعث.

وقال وكيع: البشْرَىٰ فِي ثَلاثَةِ مواضِع: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث.

أقول: ما قاله وكيع هو الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ جُمْلَةُ النُّصُوص، ودلّ قول الله تعالى في هذا النصّ: ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ عَلَىٰ أنّ بِشَارَةَ الملائكة تكونُ بعد انتهاء رحلة الابتلاء في الْحَيَاةِ الدّنيا، وهي تنتهي عند الغرغرة مع نزع الرُّوح.

وثبت أنّهم يُبَشَّرونَ وَهُمْ في الْمَوْقِف ويَوْمَ القِيامَة، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

مما ورد في السنّة:

(١) روى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَه، ومَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه».

فقالت عائشة ـ أو بعْضُ أزْواجِه ـ إنّا لنَكْرَهُ الموتَ، فقال: «لَيْسَ ذَاكِ، ولكِنَّ المؤمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ من اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ.

وإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بعَذَابِ اللَّهِ وعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

ورواه مسلم وابن ماجه عن عائشة، وأخرجه ابن المبارك من حديث أنس.

(٢) وروى الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «تَحْضُرُ الملائكة (أي: عند الموت):

- فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحاً قَالُوا: اخرُجي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بَرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وربٍّ رَاضٍ غير غَضْبَان. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لها ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعرَجُ بِهَا إلى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فيُقَالُ: مَنْ هذا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. فَيُقَالُ: مَرْحَباً بالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّب. أدْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِري بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حتَّى تَنْتَهِيَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيها اللَّهُ تَعالَىٰ.

- وإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالُوا: أَخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخبِيثَةُ كَانَتْ

فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ. اخْرُجِي ذَمِيمَةً، وأَبْشِرِي بحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ، فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لها ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فيُقَالُ: مَنْ هذا؟ فَيُقَالُ: فُلاَنٌ. فَيُقَالُ: لَا مَرْحَباً بالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الخَبِيثِ. ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فإِنَّها لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَىٰ الْقَبْرِ».

(٣) وروى مسْلمٌ عن أبي هريرة قال:

«إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا».

قال حَمّادُ ـ وهو أحد الرُّواة في سند الحديث ـ:

فَذَكَرَ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا، وذَكَرَ الْمِسْكَ. قال:

«ويَقُولُ أَهْلُ السَّمَاء: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكِ وَعَلَىٰ جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، فيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَقُول: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَىٰ آخِرِ الأَجَلِ».

قال: «وإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ».

قال حَمَّاد: وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا، وذَكَرَ لَعْناً «ويَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ خَبِيثَةٌ جاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ».

قال: فيُقَالُ: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَىٰ آخِرِ الأَجَلِ».

قال أبو هريرة: فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَيْطَةً كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَىٰ أَنْفِهِ هكذا.

الرَّيْطَةُ: كُلُّ ثَوْبٍ لَيِّنٍ رَقِيق. والْمُلَاءَة التي كُلُّها نَسْجٌ وَاحِدٌ وقِطْعَةٌ وَاحِدَة.

(٤) وروىٰ مسلم عن ابن عُمَر، أنّ رسول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ

أَهْلِ الْجَنَّةِ، وإِنْ كَانَ مِنْ أهل النار فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ القيامة».

(٥) وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[1] مِنْ حَنُوطِ الجنَّة، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ بَصَرِهِ.

ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة، أخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ».

قال:

«فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقاء (أي: من فَم السِّقَاء) فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِه طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا في ذٰلِكَ الكَفَنِ، وفي ذٰلِكَ الْحَنُوط، ويَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَب نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا (يَعْنِي عَلَىٰ مَلأٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ) إِلَّا قالُوا: مَا هٰذِهِ الرُّوح الطَّيِّبَة؟

فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسَمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيا، فَيَسْتَفتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ له، فَيُشَيِّعُهُ من كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْها أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ».

---

[1] الْحَنُوط، والْحِنَاطُ: كُلُّ ما يُخْلَطُ من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسادهم من مسك وورد وصندل وعنبر وكافور وغير ذلك.

قَال:

«فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فيقول: رَبِّي الله.

فيقولان له: وَمَا عِلْمُكَ؟

فيقول: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فآمَنْتُ به، وَصَدَّقْتُ.

فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَىٰ الْجَنَّةِ».

قَال:

«فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، ويُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مدَّ بَصَره، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بالخَيْرِ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةِ، حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي ومَالِي».

قال:

«وإنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ في انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ سُودُ الْوُجوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ(١)، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصر.

---

(١) الْمُسُوحُ: جَمْعُ «مِسْحٍ» وهو الكساء من شعر، وثوب خشن يَلْبَسُه الرُّهْبَان.

ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأسِهِ، فيقول:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، ٱخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ».

قال:

«فَتفْرَقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[1] مِنَ الصُّوفِ المَبْلُول، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حتَّىٰ يَجْعَلُوهَا في تِلْكَ الْمُسُوحِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيح جيفةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلأٍ مِنَ الملائِكَةِ إلّا قَالُوا: مَا هذِهِ الرُّوحُ الخبيثة؟

فَيَقُولونَ: فُلَانُ بْنُ فُلان، بأقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا في الدُّنْيا، حتَّى يُنْتَهىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ.

ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول). [من الآية: ٤٠].

فيقولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ في الأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً، ثُمَّ قَرَأَ:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول). [من الآية: ٣١].

فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، ويَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟

فيقولُ: هاه هاه، لا أدري.

---

[1] السَّفُّود: عودٌ من حَدِيد يُنظمُ فيه اللّحمُ لِيُشْوَىٰ.

فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّماءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وافْتَحُوا له بَاباً إِلَىٰ النَّارِ، فَيأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ، ويأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أَبْشِرْ بالَّذِي يَسُوؤُكَ، هذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فيقول: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الّذِي يَجِيءُ بالشّرّ.

فيقولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ.

فيقولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ».

هذا الحديث رواه أيضاً أَبو دَاود من حديث الأعمش، ورواه النسائي وابن ماجه من حديث المِنْهَال بن عَمْرو.

* * *

قَوْلُ اللّهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ﴾: يقالُ لغة: قَدِمَ إلى الأَمْرِ إذا قَصَده.

﴿مِنْ عَمَلٍ﴾: أي: من عَمَل حَسَنٍ من أعْمَالِ الخَيْرِ، ولفظ «مِنْ» بيانيّة، تُبَيّن الإِبْهامَ فِي «مَا» من قوله «مَا عَمِلُوا» ودلّ على أنّ المراد أعمالُهُمُ الحَسَنةُ قرينة أنهم يحاسبون على أعمالهم السيئة وفي مقدمتها كفرهم.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً﴾: الهَبَاءُ دقائِقُ خفيفَةٌ تتطايَرُ في الفضاء، تُرىٰ في أشعّة الشّمس الداخلةِ مِنْ كَوَّةٍ إلى مكانٍ مظلم.

﴿مَّنثُورًا﴾: الْمَنْثُور هُوَ الْمُفرَّقُ بِلَا نِظَام، يُقَالُ لُغَةً: نَثَرَ الشيءَ نَثْراً، وَنِثَاراً، إذا رَمَىٰ به مُفَرَّقاً على غير نظام.

في هذا البيان جوابٌ علَىٰ سؤالٍ يطْرَحُهُ المشركون وكُلُّ مُتَسائلٍ مِنْ غيرهم، عَنِ الأعْمَالِ الحَسَنةِ التي فِيهَا خَيرٌ فِي الحَياةِ الدُّنْيَا، والّتِي يَعْمَلُها المشْرِكُونَ وسَائِرُ أَهْلِ الكُفْر، أليسَ لها جزاءٌ عنْدَ اللّهِ يومَ الدِّين بمُقْتَضَىٰ قانون الْعَدْلِ الرَّبّاني الذي لا يُضِيعُ مثقال ذَرَّةٍ؟

وخُلَاصَةُ الْجَوابِ: أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الكُفْرِ الحَسَنَةَ، سَوَاءٌ أكانُوا مشْرِكينَ أَوْ أحطَّ منْهُم دَرَكةً، أعْمَالٌ لَا قِيمَةَ لَها عنْدَ الله يَوْمَ الدّين، لأنها غَيرُ ذاتِ وزنٍ حتّىٰ تُوضَعَ في موازينِ أعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ، إنَّهَا طَائِشَةٌ بِطَبْعِها، أمّا المَظْهَرُ الَّذِي يَبْدُو لَهَا فَهُو مَظْهَرٌ خَادِعٌ مُتَشَكّلٌ مِنْ مِثل هَبَاءٍ يَتَجَمَّعُ بعضُه إلى بعْضٍ على صُورَةِ شيءٍ ذي قيمة، لكنَّهُ عِنْدَ كَشْفِ حَقِيقَتِه يظْهَرُ أنّه كَالْهَبَاءِ الْمَنْثُورِ المُتَطايِرِ الّذِي لَا وَزنَ له.

إنّ الأعْمَالَ الصَّالِحَةَ ذاتَ الوزْنِ عنْدَ اللّهِ في موازينِ أعْمَالِ العِبَادِ يَوْمَ الدِّين، إنّما هِيَ الأعمالُ الّتي يَتَحقّق فِيها شرطان:

الشرط الأول: أن تكون مَبْنِيَّةً عَلَىٰ إيمان صَحِيحٍ، وخَالِصَةً لوَجْهِ اللّهِ، يَبْتَغِي العامل بها طَاعَةَ اللّهِ ورِضْوانَه، والتَّقَرُّبَ بِها إلَيْهِ. وذَلِكَ يكُونُ بصِحَّةِ النِّيَّةِ فِيها، وصحّةُ النيّة تكُونُ بِعَقْدِ الْقَلْبِ عَلَىٰ طلَب الثوابِ عليها من الله عزَّ وجلّ وحده لا شَرِيكَ له، مِنْ مَعْبُودٍ مِنْ دُونهِ، أو مَصْلَحَةٍ دُنْيوية تُسْتَفَاد من النَّاسِ بِسَبَبِها.

وهذا ما يُعْرفُ بالإخلاص لله في العمل، فلا يَقْبَلُ الله الأعمالَ التي يعملُها المشركون لشركائهم، ولو كان فيها معنى التقرّب بها إلى الله عن طريق الشركاء، ولا يَقبلُ اللّهُ الأعمالَ التي يَعْمَلُها المراءُون لتَحْقِيقِ مَصَالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ يُراءُونَ الناسَ بها، إنّ الله سبحانَه أغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«قال الله تعالى: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

وفي رواية: «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ هُوَ لِلَّذِي عَمِلَهُ».

وروى الإمامُ أحْمَدُ والترمذيُّ وابنُ مَاجَهْ عَنِ أَبِي سَعْدِ بْنِ أَبِي فَضَالَةَ، عَنْ رَسول الله ﷺ قال:

«إذَا جَمَعَ اللَّهُ النّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ نَادَىٰ مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ أَحَداً، فَلْيَطْلُبْ ثَوابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإنَّ اللَّهَ أَغْنَىٰ الشّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ». (قال الترمذي: حديث حسن).

الشرط الثاني: أنْ تَكُونَ الأعْمَالُ مُوافِقَةً لِمَا شَرَعَ اللَّهُ لِعِبادِه، أَوْ مَأذُوناً بِها شَرْعاً، كالعَمَلِ باجْتِهَادٍ خاطِئٍ يُعْذَرُ فيه الْمُجْتَهِدُ الّذي هُو أَهْلٌ للاجْتِهَادِ في حُكْم الشَّرِيعَةِ الرّبّانيَّة.

فإذَا فُقِد هذَانِ الشَّرْطَانِ أَوْ أَحَدُهما لم يكُنْ للأعمالِ الْحَسَنَةِ وَزْنٌ عنْد اللَّهِ يَوْمَ الدِّين، ويَكْشِفُ لمَنْ يُطالِبُ بأجْرِهِ عَلَيْها منْهُ أَنَّهَا فَاقِدَةُ الْوَزنِ فِي مَوازِينِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عِنْدَه، باعْتِبارِ أَنَّها كانَتْ لشُرَكَائِهم، أو لِمَصَالِحِهم الدُّنْيَوِيَّةِ عنْدَ النَّاسِ، إذْ كانوا يُراءُونَ الناسَ بها.

وقد صَوَّر اللَّهُ حَقِيقةَ خِفّتِها وخُلُوّ بَاطِنِها من الْوَزْنِ الْحَقِيقيّ، بأنّه يأتِي إلَى طَالِبِي الأجر عَلَيْها عِنْده، فَيُظْهِر لَهُمْ أنها كَصُوَرٍ مُتَجَمِّعَةٍ مِنْ هَباءٍ، فَهِي لَا وزْنَ لها ولا قيمةَ لها عَنْدَه، ومَنْ يَأْتي ليَقْبِضَ علَىٰ الْهَبَاءِ الّذي يَرَاهُ خِلَال أشعَّةِ الشَّمْسِ الّتِي تَدْخلُ إلَىٰ مَكَانٍ مُظْلمٍ، فإنّه لَا يَسْتَطِيعُ أن يُمْسِك منْهُ شَيْئاً.

وبمَا أنَّ منْ قانُونِ الأعْمَالِ الْحَسَنَةِ الَّذِي جعَلَهُ الله فِي كَوْنِه، أَنَّهَا لَا تَكُونَ ذاتَ وزنٍ حقيقيٍّ يوْمَ الدّين إلّا إذَا كَانَتْ خالِصَةً لوَجْهه، ومُتَقَيِّدَةٍ بمَا شَرَعَهُ أوْ أَذِنَ به، وبما أنَّ هذا القَانُون مِنْ خَلْقِ الله وسُنَنِه الثابتَةِ، قال الله عزَّ وجلّ:

﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: أَجْرَيْنَا فيه مُقْتَضى القانونِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلأعْمَالِ بخَلْقِنا، نَظِيرَ إجْرَاءِ قَانُونِ إحْرَاقِ النَّارِ جَسَدَ مَنْ دَخَل فِيها.

ويظهر أنّ إجراءَ مُقْتَضىٰ هذا الْقَانُونِ بالنِّسْبَةِ إلى أَعْمَالِ الْمُشْرِكينَ وسَائِر الكَافِرينَ، بإلْغَاءِ أَثَرِها في موازينِ الله لِلْجَزاء الأخْرَوِي، يكونُ مُنْذُ انْتِهَاء رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بالمَوْتِ، والدُّخُولِ في أَحْوالِ الآخِرَةِ، بدْءاً مِنْ خُطْوَة الموت، فما بَعْدَ الْموتِ، وَهكذا حتّى الْمَصِير الأخِير، فلَا يَكُونُ لأعْمَالِهم الحَسَنَةِ الّتي عَمِلُوها في الحياةِ الدُّنيا أثَرٌ مَا في مَرْحَلةِ الْبَرْزَخ، ولا عِنْدَ البعثِ، ولا فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ، ولا فِي موْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، ولَا في دَارِ عَذَابِهم يوْمَ الدِّينِ. ويَقْتَصِر أثَرُهَا على الآثار الَّتِي تَحْصُل بمُقْتَضىٰ سُنَةِ الله في الْحَيَاةِ الدُّنيا، كَصِيتٍ حسَنٍ، ومكانةٍ عاليةٍ بَيْنَ النَّاسِ، وعَطَايَا مِنْ لذّاتٍ وأَمْوَالٍ وبَنِينَ ومَسَاكِنَ طَيِّبَةٍ، وَخَدَمٍ وأَنْصَارٍ وأعْوانٍ وَغَيْرِ ذَلِك.

* * *

وبَعْدَ بيانِ ما يَتَعَلَّقُ بحَالِ الْمُشْرِكِينَ وَسائِرِ الْكَافِرينَ بَدْءاً مِنَ أَوّلِ لَحَظَاتِ رُؤْيَتِهِمْ للْمَلَائِكَةِ عنْدَ الْمَوْتِ، عرض الله عزَّ وجلّ بياناً يتَعلَّقُ بالْفَرِيقِ السَّعِيد، وهُمْ أصحابُ الجَنَّة، على طَرِيقَتِه في القرآن مِنَ الْجَمْع بين بَيَانَي الإنذار والْبِشَارة في النُّصُوص القرآنيّة، فإذَا سَبَقَتِ المنْذِرَاتُ تَبِعَتْهَا الْمُبَشِّرات، وإذَا سَبقَتِ المبشراتُ جاءَتْ بَعْدَها المنْذِرات، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: أَهلُها المـلازِمُونَ لَـهَا مُلازَمةَ الـصَّاحِب للصَّاحِبِ، قراراً ربّانياً قبل أن يدخلوها، وحقيقةً واقعةً قائمةً بعْدَ أَنْ يَدْخُلُوها، وهُمُ المؤمنون المتّقون بدْءاً من أَدْنَى مستَوياتِ الإيمان المقبولِ

الذي يُتَّقَىٰ به الخلودُ في النار، حتّى أعلَىٰ درجات المحسنين، فهؤلاء هم أصحاب الجنّة بمقتضى دلالات نصوص كثيرة، فمنها ما سبَق إنزالُه في مراحل التنزيل، ومنها ما نزل بعد سورة (الفرقان).

﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يومَ إذْ يرَىٰ الناس الملائِكَةَ عنْدَ الْمَوْت فما بعد ذلك حتى دخول أهل الجنةِ الجنّةَ، ودخول أهل النارِ النارَ، فشَمَلَ هذا اليومُ كلّ أحوال اليوم الآخِر، بدءاً من انْتِهَاءِ رِحْلَةِ الإِنسان منصرفاً عَنْ حَيَاةِ الابْتِلاء، وداخلاً فِي يَوْمِ الحساب والجزاء.

والتنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو هنا تنوين العِوَضِ عَنْ جُمْلَة ﴿يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿خَيْرٌ﴾: أفعل تفضيل، كما سبق بيانه في تحليل الآية (١٥) من السورة، وهو تفضيل علىٰ معنى التهكّم والتوبيخ الضمني، إذْ ليس في حال المجرمين خير، فلْيُرْجَع إلىٰ مَا سبق من بيان.

﴿مُّسْتَقَرًّا﴾: المستَقَرُّ هو مكان الاستقرار في معظم الأوقات أو كلّها، يقال: استقرّ في المكان إذا تمكّن فيه، واشتدّ ثُبُوتُه فيه. ويأتي مصدراً ميميًّا بمعنى القرار والثبوت.

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾: المقيل هو المكان الذي يَنَامُ الإنسان فيه نومَةَ الْقَيْلُولَة، من «قَالَ يَقِيلُ» إذَا نَام وَسَط النهار، ونَوْمَةُ وسَطِ النهار هذه تسمَّى «الْقَيْلُولة» فالمكان الذي يُنَامُ فيه وسط النّهار يُسمَّى «الْمَقِيل».

وظاهِرُ أنَّ الجنَّةَ هيَ مستَقَرُّ أهْلِها، على أنّ «مُسْتَقَراً» اسمُ مكان الاسْتقرار، وأنّ فِيها يَكونُ استِقْرارُهُمْ على أن «مُسْتَقَرًّا» مَصْدَرٌ مِيميٌّ بمَعْنَىٰ الاستقرار، فما هو المكان الذي يَقِيلونَ فيه؟ وكيف يَقِيلُون؟

نظرتُ في أقوال أهل التأويل فَلَمْ أجِدْ فيها شيئاً مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، ولا كلاماً مؤيّداً بمفاهيم قرآنية، ورأيتُ أن القضيّة هي من الأمورِ الأُخْرَوِيّة الغيبيّة التي لا تُقال من قِبَلِ الرأي.

ثم نظرتُ في النصوص القرآنيّة فوجدتُ أنَّ الله وصَفَ الجنَّة بأنّها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقَاماً، وَوَصَفَ النّارَ بأنها ساءت مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً، كما جاء في أواخر سورة (الفرقان) التي نتدبّرها، وقَدْ عَرَفْنا معنى كلمة «مستقر» أما كلمة «مُقَام» فتُطْلَق بمعنَيْين:

المعنى الأول: الإقامة.

المعنى الثاني: موضع الإقامة.

وسمّى الله الجنّة «دار الْمُقَامَة» والْمُقَامةُ في اللّغة مثل الإِقَامَة، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) يَصِفُ حال أهل الجنّة في الجنَّة:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾.

واستبعاداً للترادُفِ بَيْنَ كلمتَيْ «مُسْتَقَرّ» و«مُقَام» لا بدّ أنْ نفهم أنّ إحداهما تدلُّ على المكان، والأخرى تدلُّ على الحدث.

فكُلٌّ مِنَ الجنّةِ والنّار مَكانُ استقرار ومكانُ إقامة، وكلٌّ منهما يَحْصُل فيه استقرارٌ وإقامة.

ومن لطيف البيان الجمع بين الكلمتين لتُحْمَل إحداهما على معنى الْمَكَانِ، ولتُحْمَلَ الأُخْرَىٰ على معنى الْحَدَث، مع صلاحيّة كلٍّ مِنْهُمَا للمكان والحدث معاً.

ومنْ هذا نفْهَمُ أنَّ الْجَنّة لا تكونُ مَقِيلاً، فلا تكون مكان نومٍ مؤقت، أو راحةٍ مؤقتة، بل هي مكان استقرار دائم، وإقامة دائمة.

وكذلك النّار لا تكون مكان قيلولة، لأنّ في القيلولة راحَةً، ولا قَيْلُولَةَ لأَهْلِ النار، ولَوْ كَان دُخُولُهُمْ إِلَيْها مؤقّتاً للتطهير من الذنوب.

إِذَنْ فَأَيْنَ يَكُونُ المَقِيل؟

تابعت النَّظَرَ في النُّصوص القرآنيّة، فوجَدْتُ أنَّ الله عَزَّ وجلّ ذكَرَ أنّ النَّومَ والموت كلاهُما وفاة، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ووجدت أنّ الله عزَّ وجلّ وَصَفَ اللُّبْثَ في القبر (أي: في خزانةِ الأرض مُدَّةَ البرزخ) بين الموت والبعث، بأنَّهُ حالة تُشبهُ حالةَ الرُّقاد، وهو النوم، فالكافرون حين يُبْعَثُونَ يقولون كما جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ووجدت التأكيدات في القرآن على أنّ شُعور الناس عن المدّة الَّتي لبِثُوها بين الموت والبعث يساوي شُعورَ النَّائِم في قيلُولَتِه ساعةً من نَهارٍ، باعتبار أنّ حِسَّ الزّمن يُلْغَىٰ مِنْ مَراكِز إدْرَاكهم عَنْ هذِه المدّة، إذْ يَكُونُ وضْعُهُمْ كَوَضْعِ النَّائمِ وقت القَيْلُولَة فِي النّهار، ومن النصوص التي أكّدت هذه الصفةَ فِيهم، قولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ... ﴿٥٥﴾﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقولُ الله عزَّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿... كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بشأن ساعة البعث:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

بعْدَ هذه النظراتِ القرآنيّة ظَهَر لِي أنّ المراد من الْمَقِيل في قول الله تعالى في سورة (الفرقان) التي نتدبَّرُها:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

هو المكانُ الذي تَبْقَىٰ فيه أجسادُ الموتى ونفوسهم مُنْذُ الْمَوْتِ حتَّىٰ البعث إلى الحياة الأخرى.

فحالُ أصْحَابِ الجنة منذ بَدْءِ دُخولهم عتبةَ اليوم الآخر بالْمَوْتِ، حتَّىٰ المصير الأخير، خَيرٌ منْ حَالِ الَّذِين لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ الله عزَّ وجلّ، منْذُ بَدْءِ دُخُولِهِمْ أيضاً عتبة اليوم الآخر بالْموتِ، حتَّىٰ الْمَصِير الأخِير في العذاب.

وهذه الأخْيَرِيّة تتناول مُسْتَقَرَّهُم الأخير في دار مُقامهم، وتَتَناوَلُ وقت بقائهم فِي مَضَاجِعِهِمْ ومَرَاقدِهِمْ فِي قُبُورِهِم بعد الموت.

فَمُسْتَقَرُّ أصْحَابِ الجنّة الذي هو مكان إقامتهم الخالدة خيرٌ من مُسْتَقَرّ الذين لا يرْجُون لقَاءَ الله، الذي هو مكان إقامَتِهم الخالدة.

ومَقِيلُ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الَّذِي هُوَ مَكَانُ بَقَاءِ أَجْسَادِهِم ونُفُوسِهم بين الموت والبعث، أَحْسَنُ مِنْ مَقِيلِ الَّذِين لا يَرْجُونَ لِقَاءَ الله، الَّذِي هُو مَكَانُ بقَاءِ أَجْسَادِهم ونُفُوسِهم بينَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ.

ويكون النصُّ بهَذا الْفَهْم أحَدَ الأدلَّةِ الّتي تُثْبِتُ مَا يِنْزلُ مِنْ جَزَاءِ حَسَنٍ أو سَيّءٍ فِي مدّة البرْزَخِ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، بالْمُؤْمِنِينَ والكَافِرين.

وعلى هذا فالقبر (أي: مكان لُبْثِ الأجساد والنفوس) بين الْمَوْتِ والبَعْثِ، هو بمثابة رَوْضَةٍ من رياضِ الجنَّة أو حُفْرةٍ من حُفَر النّار، لكِنَّ إحْسَاسَ المبعُوثِينَ بَعْدَ البعْثِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ الزَّمَنِ لا يَزِيدُ عَلَى إحْسَاسِ النَّائمينَ سَاعَةً مِنْ نَهارٍ في وقت قَيْلُولتِهِم.

بعْدَ هذا انتقل النصُّ إلى بَيَان مَوْقِفٍ آخرَ يَرَىٰ الملائكةَ فِيه الذين قالوا: لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

وهذا الموقف لا تكون فيه أيْضاً بُشْرَىٰ للْمُجْرِمينَ المكَذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، بل يكُونُ لهم فيه ما هُو مُحْزِنٌ ومُخِيفٌ ومُؤلم.

﴿تَشَقَّقُ﴾ أو [تَشّقَّقُ السَّمَاءُ] في القراءة الأخرى: أي: يحصل فيها تصدُّع، التصدُّعُ هو الانقسام والانفصال الذي يَحْدُثُ فِي عدّة مواضع داخلَ جرم ملتئم الأجزاء، وقد دلّ على حدوث هذا التعدّد في الشقوق صيغة «تَفَعَّلَ يَتَفَعَّلُ».

لَقَدْ أبانَ الله عزَّ وجلّ أنّ هَذَا التَّشَقُّقَ فِي السَّمَاءِ سَيَحْدُثُ في المسْتَقْبَل، ويَكُونُ هذا التشقُّقُ مصْحُوباً بالْغَمام.

﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾: الغمامُ مُفْرَدُه «الْغَمَامة» وهي السحابة، وتُجْمَعُ أيضاً على «غَمَائِم» قال ابن عَرَفَةَ: الغمام الغيم الأبيض، وإنّما سُمّي غماماً لأنه يَغُمُّ السماء، أي: يَسْتُرها، وسُمّي الغَمُّ لاشتماله على القلب.

أمّا الباء في: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾، فهي في أظهر ما أرىٰ باءُ السَّببيَّة، والمعنى أنَّ التّشَقُّقَ يظهر في السماء بسبب هبوط غمامٍ من الأعلى مصحوبٍ بأفواج الملائكة، هابطين إلى أرض المحشر.

كما نقول انشقّت الأرض بالنَّبَات، أو انشقّت الأرض بالْبَرَاكِين والأبخرة الصَّاعِدَةِ منها.

ويدلُّ علَىٰ هـذِه الصُّورة قول الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

فَتَنْزِيلُ الْمَلائِكَةِ يومئذٍ يكُونُ مصحوباً بظُلَلٍ مِنَ الْغَمَام، ونُزُولُ الرّبّ تبارَكَ وتعالى للحساب وفصل القضاء، يكُون يومئذٍ في ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وتنزل معه ملائكة الملأ الأعلى.

وممّا يدُلُّ على أنّ تَشَقُّقَ السَّماء وتنزيلَ الملائكة يكونُ يوم القيامة، والناسُ في انْتِظَارِ مَوْقِفِ الْحِسَاب وفَصْلِ الْقَضَاء قولُ الله عزَّ وجلّ عقب ذلك:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

فَيَوْمَ يَبْعَثُ الله الناس إلى الْحَيَاةِ الأُخرَىٰ مِنْ أَجْدَاثِهِم، تتَّجِهُ أنظارُهُمْ في دَهْشَةٍ يترقّبُون الأحْدَاث، فَيَرَوْن أنَّ السّماء على امتداد قُبّتِها تَتَشَقَّقُ بالْغَمام الذي يخرج من الشُّقوق، ويَهْبِط في اتّجاه الأَرْض، وتُنَزَّل

الملائكة بالأمرِ الرّبّاني تنزيلاً مُتتَابعاً في أفواج، خِلَالَ الْغَمام المنْبَعِثِ من تَشَقُّقَات السماء.

لكنَّ هذه المشاهدةَ للمَلَائِكَةِ تكُونُ مُشَاهَدةً غير سارّةٍ للْمُجْرِمين، فلا بُشرىٰ لَهُمْ بها، بخِلَافِ حَالِ أصْحَاب الجنَّة.

إنّ الملائكة تُنَزَّلُ لِتَقُومَ بوَظَائِفِها في موْقِفِ الحِسَابِ وفَصْل القضاء، فرؤيةُ الْمُجْرِمينَ للْمَلَائِكَة يومئذٍ رؤيةُ همٍّ وغمٍّ وحَزَنٍ وخَوْفٍ شديد.

فالمعنى: ويوم تَشَقَّق السَّماءُ بالْغَمَام ونُزِّلَ الملائِكَةُ تَنْزِيلاً يَرَىٰ الْمُجْرِمُون الملائِكَةَ رُؤْيَةً غَيْرَ سَارّة، لا بُشْرَىٰ لهم معها.

وقول الله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يدلُّ على أنّ الله عزَّ وجلّ يُلْغِي قَوانِينَ التَّسْخِيرِ الْمَعْرُوفَةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، والّتِي بمقْتَضَاها تَتَصَرَّفُ الأحياء بالْمَسَخَّرَاتِ، ويكونُ للّهِ وَحْدَهُ الملْكُ الحقُّ الَّذِي لا تُصَاحِبُه ظَواهِرُ مُلْكٍ آخر للمَخْلُوقَاتِ مِنْ دُونِه، فَلا إنْسَ ولَا جِنَّ تَسْتَطِيعُ أنْ تَفْعَلَ شيئاً بشيء، لأنَّ تَسْخِيرَ الأشياء لقُدْراتِهِم الَّذِي كانَ في الحَياةِ الدنيا يكُونُ قَدْ ألْغِي وحَلّ لِتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ الّجَبْرِيّ فِي الْمُجْرِمِينَ دَوْرُ التَّحَرُّكِ الْجَبْرِي، أمّا المَلَائِكَةُ فلا يَفْعَلُونَ ولَا يَقُولُونَ إلّا مَا يُؤْمَرُون به، أو يُؤْذَنُ لَهُمْ بهِ من قَوْلٍ صَوابٍ، ومِنْ ذَلِك الشَّفَاعَةُ فَإنَّ أحَداً لا يَشْفَعُ لأحَدٍ إلّا بإذْنِ الله يومئذٍ.

ونَلْحَظُ مَعَ ذَلِكَ أنّ الْمَلِكَ الذي بيده الأمر كُلُّه هو «رَحْمَان» لذلك جاء في البيان اخْتِيارُ اسْمِ الله «الرّحمن» من أسماء الله الحسنى.

ويظهر أنّ الله عزَّ وجلّ يُعْطِي بعض ملائكته مُلْكاً صوريًا تَقُومُ فِيه بوظائفها بحَسَبِ أمْرِهِ أو إذْنِه، لذلِكَ وصَفَ مُلْكَهُ تعالى بأنّهُ الْمُلْكُ الحَقُّ، أمّا الْمُلْكُ الذي يُعْطِيه الله لبَعْضِ ملائكته، كرِضْوانِ خازِنِ الْجنَّةِ، ومالك خَازِنِ النّار، فهو مُلْكٌ صُورِيٌّ، وليس مُلكاً حَقًّا، نظراً إلَىٰ أنَّهُمْ لا يَتحرَّكُونَ إلّا بالأمْرِ أو بِالإذْنِ.

ثُمّ إذَا دَخل أَهْلُ الْجنَّةِ الْجنَّةَ أطْلَقَ الله لَهُمْ الْمَسَخَّرَاتِ، وأعْطَاهُمْ بقانون تسخيريٍّ واسِع مُلْكاً كَبِيراً، دلّ على هذا قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإِنسان/٧٦ مصحف/٩٨ نزول) في وصف أهل الجنّة:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وإذا رأيتَ هُنَاك في الجنة رأيتَ نعِيماً وَمُلْكاً كبيراً لأصحابها.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

﴿عَسِيرًا﴾: الْعَسِيرُ وَالْعَسِرُ: الصَّعْبُ الشديد، يُقالُ: عَسُرَ الأمْرُ، وعَسُرَ الزمانُ يَعْسُرُ عَسَراً، إذا صَعُبَ واشْتَدّ، وكانَ شاقاً، والْعُسْرُ ضِدُّ الْيُسْر.

ويقولُ الكافِرُون في ذلك الْيَوم: هَذا يَوْمٌ عَسِرٌ، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (القمر/٥٤ مصحف/٣٧ نزول) بشأنهم:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

ووصف الله عزَّ وجلّ ذلِكَ اليوم بأنّه يوم عَسِيرٌ على الكافرين غير يسير، مشيراً بهذا إلى أنّه لا يكون عَسِيراً على المؤمنين، فقال تعالى في سورة (المدثر/٧٤ مصحف/٤ نزول):

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾.

* * *

بعد هذا انتقل النصّ إلى بيان حَالةِ التحَسُّر والنَّدَم والأماني الَّتِي يكُونُ فيها المتحدَّثُ عَنهم فيه، وجَاءَ هذا ضِمْنَ صِيغَةٍ تشمَلُ كُلَّ مُجْرِمٍ كَافِرٍ ظَالِمٍ يَوْمَئِذٍ، فَيُقَدِّمُ لقطةً من حَرَكاتِ الظّالم وأَقْوالِه بَعْدَ حِسَابه، وفَصْلِ القضاء بِشَأنه، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

ففِي هذا البيانِ لقْطَةٌ مِنْ مَشاهِدِ أحْوالِ الْكَافِرِ الظَّالِمِ يَوْمَ الدِّينِ، فبَعْدَ مُحَاسَبَتِه وفَصْلِ القضَاء بشأنه يُعْلِنُ ندَامَتَه وتحسُّرَهُ، ويَتَمَنَّىٰ أمَانيَّ فَاتَ أوانُ تَحْقِيقِها، ولَا رَجْعَةَ لاسْتِئْنَافِ رِحْلَةِ الامْتِحَان.

أمّا نَدَمُه فَقَدْ جَاءَ التعبيرُ عَنْهُ بعبارة ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إذِ العضُّ على الْيَدَيْن يكون أحياناً حركةً تِلْقَائِيَّةً فِي حالَةِ النَّدَم والتَّحَسُّر، فَحِينَ لَا يَجِدُ الظَّالِمُ لِنَفْسِه جِهَةً غيرَ ذَاتِهِ يَطْرَحُ عَلَيْها غَضَبه، يتَّخِذُ وَسِيلةً يُؤْلِمُ بها نفسَهُ بنَفْسِه، وأقربُ ذلك مع الاحتفاظ بمظهر الوقَارِ والثَّبَاتِ الْعَضُّ على الْيَدِ، وحين يؤلمه العض على إحداهما يتركها ويعضُّ على الأُخرى، وهكذا على سبيل التَّنَاوُبِ.

فالتعبيرُ بالعضّ علَىٰ الْيَدَينِ كِنَايةٌ عَنْ شِدَّة نَدَمِه وغَضَبِه مِنْ نَفْسِه، ولا يَلْزَمُ من هذه الكناية أنّ التَّعْبير هُو من قَبيل الْمَجازِ لا الحقيقة، بَلْ هُو مُسْتَعْمَل على سبيل الحَقِيقَةِ، والمعنى الآخر يُفْهَمُ باللُّزوم الذهني كسائر الكنايات.

وجاء البيانُ شاملاً كلَّ ظَالِم ليأخُذَ صِفَةَ القَضِيَّةِ الْعَامَّةِ، وليُدْرِكَ الْمُتَحدَّثُ عَنهُمْ فِي السِّياقِ، وهُمْ المكذِّبون بالساعة، الّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ الله، أنّهم داخلون في عُمُومِ الظَّالِمين.

وجاءَ البيانُ بالإفرادِ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ للدَّلَالَةِ علَىٰ أنَّ ظَوَاهِرِ النَّدَمِ والتَّحسُّر وتَوْجِيهَ الأَمانِيّ تَكُونُ بصِفَةٍ إفراديّةٍ لَا جَماعِيَّة.

ولمَّا كان المؤمن العاصي يدخل في عُمُوم الظَّالِم لنَفْسِه، فإنَّنا نَفْهَمُ أَنَّه يَحْدُثُ لَهُ النَّدَمُ والتَّحسُّر والتَّمَنِّي يَوْمَئِذٍ أَيْضاً، وَلكِنْ بِنِسْبَةٍ أخفّ.

وحينَ يُعْلنُ الظَّالِمُ لِنَفْسِه تحسُّرَه ونَدَمَهُ، يَتَمَنّىٰ أَمَانيَّ فاتَ أَوَانُ تَحْقِيقِها، وغَدَتْ غَيْرَ مُمْكِنَةِ التَّحْقِيقِ، إذْ لَا رَجْعَةَ إِلَىٰ زَمَنِ الابْتِلَاءِ بَعْدَ أَنْ جَاءَ زَمَنُ الْجَزاء.

الأمنيَّةُ الأولَىٰ: تمنِّيهِ أنْ لو كان في الحَياةِ الدُّنْيا قَدِ اتّخذ في مَسِيرَتِه سَبِيلاً يكُونُ مُصَاحِباً فِيه رَسُولَ الله، ولا بدّ أن نَفْهَم أنّ كُلَّ مَنْ يَسِير عَلَىٰ مِنْهاجِ كتاب الله وسنَّة رَسُولِه هُوَ مَعَ الرَّسُولِ، ولو كَانَ آخِرَ مُسْلِمٍ وتَابعٍ مِنْ أَتْبَاعِه فِي تَعَاقُبِ الْقُرُون.

وفي هذا التمنّي يقول:

﴿يَـٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾.

﴿يَا﴾: حرف نداء، داخلٌ على عِبارَةِ التّمني: ﴿لَيْتَنِي﴾ فأيَّ شيءٍ ينادي؟

قالوا: المنادى محْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ نَحْو: يا قَوْمِ، أَوْ يَا رَبِّ.

والأولىٰ من هذا قول بعض المفسّرين: هو نداءٌ للْكَلَامِ الدَّالِّ على التمنّي، بتنزيل الكَلِمَةِ منْزِلَةَ الْعَاقِل الذي يُطْلَبُ حُضُورُه، لأنّ الحاجة تدعو إليه في حالة الندامة.

وقيل: هو حرف تنبيه.

أقول: حرف «يَا» في مِثْلِ هذا الاسْتِعْمَالِ أَشْبَهُ بأَنْ يَكُونَ حَرْفَ نُدْبَة وتَحسّرٍ وَتَفَجُّع أو تَوجُّع، فالَّذِي يقول: يا لَيْتَني فَعَلْتُ كَذا، أو لَمْ أفْعَلْ

كذا، فإنّه يُعلِنُ تفجُّعَهُ أوْ تَوجُّعَهُ من أجل أمنيَّةٍ تجاوزَتْ حَدَّ الْمُمْكِنَات، ودخَلَت في غَيْهَبِ الْمُسْتَحِيلاتِ أو الأمور التي لا يُمْكِنُ الْحُصُولُ عليها، وكذلك كلُّ مَنْدُوب يُتَفَجَّعُ عليه، ودُونَ ذَلك ما يُتَوَجَّعُ منْهُ، مثل: (واكبدي ـ واكبداه)، فكأنّه يقول متفجعاً متوجّعاً: وَاأُمْنِيَّتَاه التي لا سبيل إلى الوصول إليها، والحصول عليها، أو تكون جملة التمنّي واقِعةً مَوْقِعَ عبارة «مَصِيبَتي الْعُظْمَى في أنّي لم أتَّخِذْ مع الرسُولِ سبيلاً» ولم يذكر النُّحاةُ ولا المفسِّرُون مثل هذا.

الأمنية الثانية: تَمَنِّيهِ أنْ لَا يَكُونَ قدِ اتَّخَذَ خَلِيلاً فلاناً الَّذِي كان قَدْ أضلّه في الدُّنيا، وصَرَفَهُ عَنْ الذِّكرِ المنزَّلِ منْ عِنْدِ الله، الّذِي جَاءَهُ عَلَىٰ لِسَانِ الرَّسُول، ويُعلِنُ هذِه الأمنيَّةَ مَسْبوقةً بالتَّوجُّع مِنْ آلامه، والتَفجُّعِ عَلَى نَفْسِه الصَّائِرَةِ إلى عَذَابِ النَّارِ وبِئْسَ الْمَصِير، فيقول:

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾: يَنْدُبُ نَفْسَهُ ويَتَحسَّرُ ويَتَوجَّعُ من الخَوْفِ الَّذِي نزَلَ بِه، ومن ترقُّب العذابِ الأليمِ الصَّائِرِ إلَيْهِ، والأَمْرِ الْفَظِيعِ الَّذِي دهَاه، بمَا جَنَىٰ عَلَىٰ نَفْسِه فِي الْحياةِ الدُّنيا، أصْلُها «يا وَيْلَتِي» قلبت كسرة التاء فتحة وقلبت الياء ألفاً، وهي إحدى وجوه عربية في المنادَىٰ المضاف إلى يَاء المتكلم.

الويل في اللّغة: يأتي بمعنى الحُزْنِ، والهَلَاكِ، والمشقة من العذاب. قال ابن سِيدَه: «وَيْلٌ كلمة عذاب». **والْوَيْلَة:** الفضيحة والْبَلِيَّة. وفي النُّدْبَة يقول القائل: يَا وَيْلَتَا، يَا وَيْلَتَاه، واويْلَتَاه، أي: وافَضِيحَتَاه، وابليَّتَاه، وهي عباراتٌ تحمل معنى التَّفجُّع والتحَسُّر والْحُزْنِ والتَّوجُّعِ.

ولمّا كَانَ لكُلِّ ظَالِمٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا خَلِيلٌ اشْتَرَكَ مَعه فِي الظُّلْمِ

الَّذِي كان منه، وآزَرَهُ عَلَيْه، ورُبَّما شَجَّعَه، وربّما دفَعَهُ إليه، فإنّه يُحَاول أن يُلْقِيَ عليه تَبِعةَ إضلاله له، لِيُخفِّفَ مِنْ مَسْؤُولِيَّةِ نَفْسِه، فَيَتَمَنَّىٰ لَوْ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيا خَلِيلاً لَه، مُقَدِّراً فِي نَفْسِهِ أَنَّه لَوْ لَمْ يَكُنْ خَلِيلَهُ لمَا ضَلَّ عنِ الذِّكْرِ الرّبّاني الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُول، فيقول:

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

ولفظ «فُلان» كِنَايةٌ عَنْ عَلَم مُذَكَّرٍ عاقل، ومؤنّثه فُلَانَة.

والخَلِيلُ: الصَّدِيقُ الّذي تخلَّلَتْ موَدَّتُه قلْبَ صديقه، حتّى صار مُدَاخلاً مخالطاً يطّلع على بواطِنِه وأسْرَارِه.

فَهُو فِي تَمَنّيه يَذْكُر اسْمَ خَلِيلِه الَّذِي كانَ مُشَارِكاً لَهُ فِي ضَلَالِه، ونَفْهَمُ مِنْ هذا أنّ كُلًّا من الخَلِيلَيْنِ يَتَمَنَّىٰ هذا التَّمَنِّي.

ويَذْكُر بَعْدَ هذا التمنّي أنّ خَلِيلَهُ قَدْ كانَ هُو السَّبَبَ فِي إضْلَالِه، فيقول:

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾.

فيؤكِّدُ أنّ خَلِيلَهُ الَّذِي سَمَّاهُ هُو الَّذِي أَضَلَّه عَنِ الذِّكْر، الذي هو كتاب الله المنزّل ومَا جَاءَ فِيه مِنْ هُدىً، ثم بياناتُ الرَّسُولِ له.

﴿أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾: أي: أضلني فِي طُرُقِ الغَوَاية، مُبْعِداً إياي عن كِتَابِ الله الَّذِي يَجِبُ أنْ يَكُونَ ذِكْراً دواماً لِلْعَمَلِ بمَا جَاءَ بِه.

﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾: «بَعْدَ» ظرْفٌ مَنْصُوبٌ علَىٰ الظَّرفِيَّةِ مُضَافٌ لـ«إذْ» التي هي ظَرْفٌ للزَّمَن الْمَاضِي، وهي مضافة لجملة «جاءني» والمعنى بعد زَمَنِ مجيئه إليّ.

إنَّ كلَّ مَنْ بلَغَهُ الذِّكْر عن ربّه علىٰ لسانِ الرّسُولِ أوْ عَنْ طَرِيقِ المبلِّغِينَ لِكِتَابِ اللّهِ وسنّة رسوله من بعده، فقد جاءه الذكر.

فكُلُّ ظَالِمٍ بَلَغَهُ كتابُ الله يَعْتَرِفُ يَوْمَ الدِّين بأنْ الذِّكْرَ قَدْ جَاءَهُ، فَانْصَرَفَ عنه مُعْرِضاً، ومُتَولّياً، فَضَلَّ في طُرُق الْغَوَايَة.

الأمنية الثالثة: أمنيّة مطويّة في النصّ غَيْرُ مَذْكُورَة، وباستطاعة المتأمّل المتدبّر أن يستخرجها استنباطاً.

إنّه يقول فيها: يا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّبِعْ وسَاوِسَ الشيطانِ وتَسْوِيلَاتِه، ولم أسلك سُبُله.

وشَيْطَانُه فِيمَا يَظْهَرُ هُوَ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ الَّذِي كَانَ يُوَسْوِسُ لَه، ويَجْرِي منه مَجْرَىٰ الدَّمِ، وخَلِيلُهُ مِنَ الإِنْسِ هو الَّذِي وَسْوَسَ لَه واشْتَرَكَ مَعَهُ في الضلال.

بعد هذا التّمنّي يُخَاطِبُ خَلِيلَه الشَّيطانَ مِنَ الإِنْسِ أو الجن، فيقول له: أنت الذي أَغْوَيْتَنِي فأَطْغَيْتَنِي، فأَنْقِذْنِي اليوم، ويشكُوهُ لِرَبّه فيقول: رَبِّ هذا الَّذِي أَغْوَانِي فأَطْغَانِي، فزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّار، فيتبرّأُ مِنْهُ خَلِيلُهُ مِنَ الإِنْسِ.

ويقول قرينه من الجنّ، كما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿... رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾.

فيقول الله عزّ وجلّ كما جاء أيضاً في سورة (ق):

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

وهَكَذَا لَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إلّا الخِذْلَانُ، إنّه لَا يُرِيدُ أَنْ يَتَحَمَّلَ مِنَ مَسْؤُولِيَّةِ تَحْرِيضِه على الطُّغيانِ شَيْئاً، ويُحَاوِلُ أنْ يَتَبَرَّأَ مِنْه، وهِي طَرِيقَتُه الَّتِي أبَانَها الله عزَّ وجلّ في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

هذه المطويّات التي دلّت عليها نصوص أخرى، دلّ عَلَيْهَا آخِرُ هذا الدرسِ من دُروسِ سورة (الفرقان) التي نتدبَّرُها:

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: إبْلِيسُ الرَّئِيسُ ثمّ كلُّ جُنْدِيٍّ مِنْ جُنُودِهِ يُوَسْوِسُ، ولَا سِيَمَا قَرِينُ الإِنْسَانِ مِنَ الجِنّ الْمُلازِمُ لَهُ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ، وخَلِيلُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الإِنْسِ.

﴿خَذُولًا﴾: خَذُولٌ على وزن «فَعُول» صِيغة مبالغةٍ لخاذل. والخذلان هو التخلّي عَنِ الْمَعُونَةِ والنُّصْرَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ أو الحَاجَة.

يقال لغة: خَذَلَهُ يَخْذُلُهُ خَذْلاً وَخِذْلَاناً، إذا تخلّىٰ عنه وابتعد، فلم ينصُرْهُ ولم يُعِنْه.

والّذِي يَنْفَصِل عَنِ الْجَيْشِ فَلا يُشَارِكُ فِي القتالِ بعْدَ أَنْ خَرَجَ مَعَه، أَوْ لَا يَخْرُج مَعَهُ بعد أنْ يكون قَدْ وَعَدَهُ بأَنْ يَخْرُجَ مَعَه مُقَاتِلاً، هُو مُنْخَذِلٌ، وخَاذِل، وصيغة المبالغة «خَذُول».

وقَدْ جَاءَتْ هذه الجملة التي يُعبَّر بها عادةً في آخِرِ عَرْضِ قِصَّةٍ تتضمَّنُ طلَبَ المناصرة أو المعونة عند ضرورة تستدعي ذلك، فلا يكون من المستنصَرِ به أو المستَعَان به استجابة، وكان منْ قَبْلُ يَعِدُهُ ويُمَنِّيهِ أَيَّامَ الرَّخَاء، ويُلاطِفُه ويُظْهِر له الصَّدَاقَة والوَلَاء، ويُوافِقُه في الأعْمال والْمَفَاهِيم والآرَاءِ، كمَا قالَ الله عَزَّ وجلّ يَصِف الشيطان في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾: مُتَعَلِّقٌ بـ﴿خَذُولًا﴾ مَعْمُولٌ مُقَدَّمٌ على عَامِلِه، ويُفيد هذا التَّقْدِيمُ نوعاً مِنَ التَّخْصِيصِ، أي: إنّ الشيطانَ للإِنسانِ عَلَىٰ وَجْهِ الْخُصُوصِ خَذُولٌ، نظراً إِلَىٰ أنّه عدوٌّ له ابتداءً، إذْ هو من جنود إبليس الذي رفض السجودَ لآدم، وأَصَرَّ على مَوْقِفِه، فَلعَنَهُ اللَّهُ، فأَقْسَمَ أنْ يُغْوِيَ آدَمَ وذُرِّيَّتَه أجْمَعِين إلّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِين.

وفعل ﴿كَانَ﴾ في هذه الجملة يُفيد الكينونة الدائمة، والمعنى أنّ الشيطان خذولٌ دواماً للإِنسان.

* * *

كلمة يوم:

يظهر أنّ كلمة «يوم» يُرادُ بها في هذا النصّ وفي كثير من النصوص غيره مُطْلَقُ معنى الحين والوقت، الذي هو جزءٌ ما من اليوم الكبير المديد، الذي تجري فيه الأحداث بدءاً من اللّحظة الّتي يُواجه بها الإِنسان عتبة الموت إلى ما لا نهاية له في الحياة الأخرى.

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: أي: حين يرون الملائكة.

وقولُه تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾: أي: وحين تشقق السماء بالغمام.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: الْمُلْكُ حينئذٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾: أي: وحين يعضُّ الظالم على يديه.

وعلى هذا المعنى يمكن أن نفهم مثل: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ـ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ـ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ـ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ـ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ ونحو ذلك.

ويأتي لفظ «اليوم» في القرآن بمعنى عموم يوم الدين يوم الحياة الأخرى، المقابل ليوم الحياة الدنيا كُلِّها، فزمن الحياة الدنيا كلِّها بجميع أيّامه هو «يوم». وزمن الحياة الأُخْرَىٰ على تواليه بلا نهاية هو «يومٌ» أيضاً، ويُحْمَل على هذا المعنى التعبيرُ باليوم الوارد في آيات كثيرات من القرآن المجيد، فأزمان الحياة الدنيا يجمعها كلَّها يومٌ واحد، هو اليوم الأول، والأزمَانُ غير المتناهية بعد انتهاء ظروف الحياة الدنيا جاء التعبير عنها باليوم الآخر.

* * *

إجمال معاني الدّرس السادس

ارتقى الَّذِين لا يتَرقَّبُون لقاءَ الله ولا يخافُونه وهم المشركون الّذين كذّبوا بالسَّاعَة في مطالبهم التعنتيّة، فطَلبُوا إنْزَال الملائكةِ عَلَيْهِم بالْوَحْيِ الْمُباشِر، أو رُؤية ربّهمْ وتَلَقِّي الدِّين عَنْهُ مُبَاشَرةً، فأبانَ الله عزَّ وجلّ أنّ طلبهم هذا مظهر من مظاهر شِدَّةِ الكِبْرِ الذي في نفوسهم عَن اتِّبَاعِ مَنْ اصْطَفَاهُ اللَّهَ رَسُولاً، وتَلَقِّي وَحْيِ الله عنه، وتَطَاوُلٌ منهم إلى مَنْزِلَةٍ يُريدُون بها أن يكونوا هُمْ بَدَلَ النبيِّ الرَّسُولِ، وجَعَلوا ذلك شَرْطاً على الله عزَّ وجلّ حتَّىٰ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا، مع أَنَّهُمْ لَيْسُوا أهلاً لذلك بمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ الله، ومَعَ أنّ الحِكْمَةَ فِي الامْتِحَانِ بعُقْدَةِ الإيمانِ بالْغَيْب، ، والْعَمَلِ بمُقْتَضَىٰ هذا الإيمان، أنْ يَكُونَ النَّاسُ المُمْتَحَنُونَ المَكلَّفُونَ مَحْجُوبِين عادةً عن هذا الغيب، ومسؤولين عن إدراك الحقِّ المطلوب منهم بدلائل عقولهم عن طريق آيات الله في كونه، وبلاغات رُسُلِهِ الذين يصطفيهم اصطفاءً خاصًّا، مَبْنِيًّا على علمه بهم بأنهم مؤمنون بالغيب الحقّ، إيماناً كاملاً، ومسلمون مطيعون لله، سواءٌ أشاهدوا بحواسّهم شيئاً من عالم الغيب أم لم يُشَاهدوا.

وأبان الله أنّ تعنُّتَهُمْ هذا عُتُوٌّ كبيرٌ منهم، تَجاوَزُوا به أقصىٰ مدىً يَبْلُغُهُ الْمُعانِدُونَ الْمُتَعَنِّتون، إذْ هُمْ يَفْرِضُونَ شُرُوطَهُمْ عَلَى بَارِئِهِمْ، مع أنّ ما يُدْعَوْنَ إليه هُوَ لِسَعَادَتِهم، وأنّ إباءَهُمْ سَبَبٌ لِشَقَائِهم وتعاسَتِهم الأبدية.

وكان العلاج القرآنيّ لموقفهم هذا ببيانٍ حَوْلَ رُؤْيَتِهِمْ للملائكة، وببيانٍ آخر حَوْلَ عَدَمِ رؤْيَتِهِمْ رَبَّهُم وَأَنَّهُمْ محجوبون عنه، ولكن لم يأت في النصّ هنا هذا البيان بَلْ جَاءَ في سورة أخرى.

أمّا البيان الأول حول رؤيتهم للملائكة، فقد تضمّن أنّهم سَيَرَوْنَ الملائكة، ولكِنْ بعْدَ انتهاء ظُروفِ امْتِحَانِهم في الحياة الدنيا.

- إنّهم سيَرَوْنَ الملائكة عِنْدَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ يَخْطُونَها إلى عتبة الموت، وحينئذٍ لا تكون لهم بُشْرىٰ في هذه المشاهدة، بل هم يخافون منها إلى حدّ الذعر الشديد والْهَلَع، حتى يقولوا عندها: حِجْراً محجوراً مستعيذين من نزول العذاب فيهم، شأنهم كشأن سائر المجرمين، دلّ على هذا:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

وإنْ كانوا يتصوَّرُون أنَّ بعض أعمالهم الحسنة، كسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، تَنْفعُهُم بشيء، فَلْيَعْلَمُوا أنَّ أَعْمالَهُمْ الحَسنَة لا تُقْبَلُ منهم إلّا بَعْدَ إيمَانِهم الكامِلِ باللَّهِ وَحْدَهُ، وبِرَسُولِه، وبالكِتابِ الذي أُنزل عليه وبكلّ ما جاء فيه، ومن ذلك الإيمان بيَوْمِ الدّين، دلّ على هذا الحكم الرّبّاني الْمُبْرَم:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: لا قيمةَ لكلِّ عملٍ حَسَنٍ عملوه في الدنيا غَيْرِ مَبْنِيٍّ على إيمانٍ صحيح، مع ابتِغَاءِ رِضْوانِ الله فيه، ولا وَزْنَ لَهُ حَتَّى يُوضَعَ فِي مَوَازِينَ أعمالهم الصَّالِحَة.

واسْتَدْعى بيان حالِهم ضِمْنَ حالِ سائر المجرمين، بَيَانَ حالِ فريق المؤمنين أصحاب الجنّة، فهم في حالٍ حسَنةٍ خَيْرٍ من حَالهم، سَواءٌ في المصير الذي يكون به استقرارُهم في جنّات النَّعِيم، أم في مُدّة البرزخ بين الموت والبعث، حيث تبقى نفوسُهم في حَالةٍ تُشْبِهُ حَالَةَ النَّائِمِ في قَيْلُولَتِهِ، وَسَطَ النَّهار، دلّ على هذا

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

● وإنّهم سَيَرَوْنَ الملائكة يَوْمَ القيامة، بَعْدَ بعثهم من قبورهم، وسَتَكُون رؤيتهم لهم حِينئذٍ كَارِثَةً، لأنّ الْمَلاَئِكَةَ سَتَسُوقُهُمْ يومئذٍ إِلَىٰ مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثمّ إِلَىٰ مَصِيرِهِمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ المعَدَّةِ لَهُمْ.

وَقَدَّمَ النصّ لقطةً تصويريَّةً تُمثِّل صورةَ تَنَزُّلِ الملائكة من السماء يومئذٍ، وهي صورةٌ تَتَشقَّقُ فيها السماء على أرجاءِها، وتخرُجُ من الشُّقُوق سُحُبٌ بيضاءُ رقيقة، هابطةٌ من السماء في اتّجاه الأرض، ومعها أفواج الملائكة تتتابع، دلّ على هذه اللقطة التصويريّة:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

لكنّ المَلاَئِكَة يُنَزَّلُونَ بالأمر الرّبّاني، ليقُومُوا بوظائفهم يَوْمَ الدِّين، على ما يُرِيدُ الله عزَّ وجلّ، فَلَا أحَد يومئذٍ غيرَ الله يفعلُ بحرّيّة، لا بحرّيّة مطلقةٍ، ولا بحرّيّة تخييريّة، ضِمْنَ حِكْمَةِ الامتحان، كما هو شأْنُ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، بل الأمر والْمُلْكُ كلُّه يومئذٍ لله وَحْدَهُ، وَمَعَ ذَٰلِكَ فَهُوَ يَتَجلَّى عَلَىٰ عِبَادِهِ باسمه الرَّحْمٰن، لكنّه يومٌ عَسِيرٌ على الكفارين، يَسِيرٌ للمؤمنين، دل على ذلك:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

ويساقُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، ويُلاقُون ربَّهم، ويحاسبُهُم على ما قدّمُوا في الْحَيَاةِ الدُّنيا، ويندم الظالمون، ويتحسَّرون، ولكنْ لا

ينفعهم ذلك شيئاً، فيتمنَّوْنَ الأماني، التي لا سبيل إلى تحقيق شيء منها. وسكت النصّ هنا عن بيان عدم رؤية المجرمين لربّهم في ملاقاتهم له، ويحاولون طرح مسؤولية غَوايتهم على أخلَّائهم في الدنيا، وعلى شياطينِهم الذين أغوَوْهم من الإنس والجنّ، ويستنجدون بهم، فيخذُلونهم، فلا ينصرونهم ولا يحملون عنهم شيئاً من مسؤولية ضَلالهم، ويَصْرُخونَ على أنفسهم بالويل، يَنْدُبونَ الهلاكَ لأنّه أهون عليهم من الْخُلُودِ في الْعَذَابِ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِ، فَلا يُغِيثُهُم، دلّ على كلّ ذلك:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا (٢٩)﴾.

- يتمنَّى أنْ يكُونَ في الدُّنيا قَدْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ، وَسَلَكَ مَعَهُ سَبِيلَه
- ويتمنّى أنّه لَمْ يَكُنْ قَدِ اتَّخذَ فُلَاناً مِنَ الأَخِلَّاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، خليلاً، ويُسمِّيه باسْمِه، ويُعْلِنُ أنّه قدْ كانَ سَبَبَ ضَلَالِه.
- ويتمنّىٰ أن يَنْزِلَ به الهلاك وهو الموت، ليتخلّص من العذاب المقيم، ويصْرُخ بذلك نادباً نفسه قائلاً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾.
- ويستَنصرُ بالشَّيْطانِ الَّذِي أغْواهُ، ويَسْتَعِينُ بِهِ، فيخذُلُهُ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ للإنسان خَذُولاً.

* * *

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس السورة وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا
(٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ
وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ
ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا
(٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ
كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى
بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ
وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ
هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ
يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾.

القراءات:

(٣٠) • ﴿إِنَّ قَوْمِى﴾ بإسكان ياء المتكلّم، قراءة جمهور القرّاء العشرة.

[إِنَّ قَوْمِيَ] بفتح ياء المتكلّم في الوصل فقط، قراءة نافع، وأبي جعفر، والبزّي عن ابن كثير، وأبي عمرو، وروح عن يعقوب.

والقراءتان وجهان عربيان متكافئان، والإِسكان أيسر في النطق.

(٣١) • قرأ نافع [نَبِيءٍ] وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿نَبِيٍّ﴾ وهما وجهان لنطْق الكلمة.

(٣٨) • ﴿وَثَمُودَاْ﴾ بفتح الدال من غير تنوين على أنَّ اللفظ ممنوعٌ من الصرف، قراءة حفْصٍ عن عاصم، وحمزة، ويعقوب، وعند الوقف يقف هؤلاء على الدّال ساكنة.

[**وَثَمُوداً**] بفتح الدال مع التنوين، على أنّ اللفظ مصْرُوفٌ، قراءة باقي القرّاء العشرة، وعند الوقف يقف هؤلاء بالألف المبدَلة من التنوين: ﴿وَثَمُودَا﴾.

والقراءتان وجهان عربيان لكلمة «ثمود» فعند ملاحظة اسم القبيلة يكون اللفظ ممنوعاً من الصرف، وعند ملاحظة اسم جدّها يكون اللفظ مَصْرُوفاً.

(٤١) ● قرأ حفْصٌ عن عاصم: ﴿هُزُوًا﴾. وقرأ حمزة، وخَلَفٌ: [**هُزْءاً**]، وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**هُزُءاً**]، وهي وُجوهٌ عربيّة لنُطْق الكلمة.

(٤٤) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأَبُو عَمْرِو، والكِسَائِيّ، وَخَلَفٌ: [**أَمْ تَحْسِبُ**] بِكَسْرِ السِّين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بِفَتْحِ السِّين.

والقراءتان وجهان عَرَبيَّان لنُطْقِ الكَلِمَةِ.

تمهيد:

اشتمل هذا الدرس على بيان شكوىٰ الرَّسُول محمّد ﷺ لربّه، من كَوْنِ مَلأ قَوْمِه الَّذِين لَمْ يُؤْمِنُوا به نبياً ورسولاً، لم يَكْتَرِثُوا لبَيَانَاتِ القرآن، ولَمْ يَعْبَؤُا بآيَاتِهِ، واتَّخذُوه مهجوراً، بَعْدَ أن اسْتَمَعُوا إِلَيْهِ يَتْلُوهُ عَليهم، واسْتَبَانُوا كليّاتِ الحقائق التي يَدْعُوا إليها، وعَلِمُوا ما فِيهِ مِنْ تَبْشِيرٍ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وإِنْذَارٍ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ لمَنْ كَفر بِهِ وَعَصىٰ.

واشتمل على بيان اعتراضهم على كوْن القرآن لم يُنَزّلْ جُمْلَةً وَاحِدَةً، إنّما يُنَزَّلُ مُنَجّماً مُفَرَّقاً، مع مطالبتِهِم على سَبِيلِ التحضيض بأنْ يُنَزّلَ جُمْلَةً وَاحِدةً إنْ كان حقاً من عِنْدِ الله.

واشْتَمَلَ على الْمُعَالَجَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِهَذَا الموقف، وهذه المعالجة قد

لُوحِظَ فِيها مَا أَعْلَنَهُ الرَّسُول ﷺ، وما طَوَاهُ فِي نَفْسِهِ وَلَم يُعْلِنْهُ مِمَّا يتعلَّقُ بشَخْصِهِ فِي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ من سِيرَةِ دَعْوَته. وهذه المعالجة موجَّهةٌ في وقتٍ وَاحِدٍ لِعِدَّةِ أهدافٍ:

(١) للرَّسُولِ ﷺ.

(٢) ولِمَنْ اتَّبَعَهُ من المؤمنين.

(٣) ولِمَنْ جَحَدَ وَجَادَلَ وَكَفَرَ.

(٤) وللدعاة إلى الله من أُمَّةِ مُحَمَّد ﷺ إذا واجه أَحَدُهُمْ مِثْلَ ما وَاجَهَ من قومه في هٰذِه الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلت فيها سورة (الفرقان).

وبالتَّأمل في هذا الدرس يَظْهَرُ للمتدبر ما يلي:

(١) أنّ الرسول ﷺ اشتكى لرَبِّه شكوَيَيْنِ بشأن القرآن:

الأولى: أن قومه «أي: معظمهم أو كبراءهم» في بلدة مكة، اتَّخَذُوا القرآن المنزَّلَ عليه مهجوراً.

الثانية: أنّ قومه اعترضوا على تنزيله منجَّماً مفرّقاً، وقالوا: لولا نُزِّل عليه القرآن جملةً واحدةً.

(٢) وأنّ الرسول ﷺ سكت عن مواقف قومه من شخصه ومن الذين آمنوا به واتّبعون.

(٣) وأنّ الحكمة الرّبانية بدأتْ بمُعالَجَةِ مواقف قومه من شخصه ومن المؤمنين، وتتعلَّقُ بها الشكوىٰ التي سكت الرَّسُولُ عَنْها وطَواهَا، اهْتِماماً بِمَضْمُونِ رسالته، وابتعاداً عن تقديم الشّكوى فيما يتعلّق بشخصه وبالمؤمنين.

(٤) أنّ كُبراء قومه قد كان لهم في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (الفرقان) موقفان:

الموقف الأول: مُعَادَاتُهُم له، واستعدادهم للإجهاز عليه وعلى المؤمنين به، وعلىٰ دعوته، ولو بالقتل، أو بالإخراج من مكّة وإلجائهم إلى الهجرة.

الموقف الثاني: اسْتِهْزَاؤُهم من حالة الضعف التي عليها الرَّسُول والمؤمنون، معَ عَدَمِ نُصْرَةِ الله لهم وهدايتهم إلى سُبُل حماية أنفسهم من اضطهاد أعدائهم لهم، أو الخَلاص منهم، فضلاً عن عجزهم عن مقاوَمَتِهِمْ والانتصار عليهم.

وهذا الاسْتِهْزَاءُ يحمِلُ مَعْنَى أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَلَىٰ حَقٍّ مِنَ الله لَنَصَرَهُمْ، ولَمَا وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ ضَالّين عَنِ الاهْتِدَاءِ إلى سُبُلِ حِمَايَتِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ وانْتِصَارِهِمْ.

إنّ هٰذِهِ الظاهِرَةَ تتكرَّر في الناس دواماً، فلا يتأخّر نَصْرُ الله للمؤمنين به ضمن مَجَارِي حِكْمَتِهِ في امْتِحَانِ خَلْقِه، إلّا اتَّخَذَ الكَافِرُونَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً للاسْتِهْزَاءِ منهم، والتشْهِير بِهِمْ بأنّهُمْ لَيْسُوا عَلَىٰ حَقٍّ.

فَعَلَىٰ الدُّعاة إلىٰ الله في كلّ عَصْرٍ أَنْ يُهَيئوا أنفُسَهُمْ لِمُوَاجَةِ مِثْلِ هٰذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَهٰذِهِ الظَّاهِرَةِ الْبَشَرِيَّةِ.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾: أي: مُحَمَّدٌ ﷺ.

﴿يَـٰرَبِّ﴾: بِحَذْفِ يَاءِ المتكلّم، والاكتِفاءِ بِالكَسْرَةِ، وهٰذا الحذفُ أَحَدُ وُجُوهِ عَرَبِيَّةٍ جَائزةٍ في المنادَىٰ المضافِ إلى يَاءِ المتكلّم.

قال النحاة: وهذا الحذفُ أَجْوَدُ الوجُوهِ الجائزة وَأَكْثَرُها وُرُوداً في القرآن الكريم.

ويلاحَظُ في هذا النداء أنَّ الرسُول ﷺ استَعْمَلَ أداةَ نِدَاءِ الْبَعِيدِ مَعَ قُرْبه من رَبّه، ويظهر أنّ الغرض الدلالَةُ على مَعنىٰ شَكْوَىٰ المستغيث من أجْلِ رِسالَتِه، لا مِنْ أجْلِ نفسه.

ولم يأتِ في القرآن الكريم نداءُ الرَّسُولِ ﷺ رَبَّهُ بحَرْفِ النِّدَاء «يَا» غير مَرَّتَيْنِ، وكلاهُما بمَعْنَىٰ الاستغاثة مِنْ أَجْلِ رِسالَتِه، لا من أجْلِ نفسه.

فالأولى: مَا جاء في هذا النصّ الذي نتدبَّرُه.

الأخرى: مَا جاء في أواخر سورة (الزُّخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقول الرسول ﷺ لرَبه.

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أيْ: لم يظهر مِنْهُم ما يَدُلُّ على أَنَّهُمْ مطْمُوعٌ بأنْ يُؤْمِنُوا مسْتقبلاً، والمعنيُّون هم الّذين ظهَرَتْ منهم المكابَرَةُ والعنادُ وجُحُودُ الحقّ مع ظُهُوره لهم.

أمّا سائر نداءات الرسول ﷺ، ونداءات المرسلين، فقد جاءت بصِيغَةِ «رَبّ» تعليماً أو بياناً، دون ذكْرِ أدَاةٍ ما من أدوات النداء، إشعاراً بقُرْب الرَّبّ جلّ جلالُهُ ممّن يَدْعُوه، إذ هو أقْرَبُ إلى من يَدْعُوه من حبْلِ الوَرِيد.

﴿إِنَّ قَوْمِى﴾ المرادُ الّذين كفروا منْهُمْ ووَلُّوا أدبارهم من ملأ قَوْمِهِ في مكة وأتباعُهُمْ، بدلَالَة القرائن، إذ الَّذِين آمَنُوا من قومه واتَّبَعُوهُ لم يَتَّخِذُوا القُرآنَ مهجوراً، وكذلك الَّذِينَ لم تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَةُ بَعْدَ إبَّانَ نُزُولِ السُّورَةِ، أوْ لَمْ يَجْرِ بَيْنَهُمْ وبين الرسُولِ مُناظراتٌ واحْتِكاكات، أوْ لم يَصلُوا بَعْدُ إلىٰ دَرَكَة اتّخاذِ القُرآن مَهْجُوراً.

﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾: أي: جعَلُوا. صيغَةُ فِعْلِ «اتَّخذ» على وزْنِ «افْتَعَلَ» من

تصاريف فعل «أخَذَ» أصْلُهَا، «ائتَخذَ» سُهِّلَتِ الهمزة فصارَت: «ايتخذ» ثمَّ أُبْدِلَتِ الْيَاءُ تاءً وأُدْغِمَتْ في التاء بَعْدَهَا، فَصَارَتْ «اتَّخَذَ».

أصْلُ الأَخْذِ تَنَاوُلُ الشيْءِ والْقَبْضُ عَلَيْهِ وَحيازَتُه، ويَحْمِلُ الأَخْذُ أحياناً معنَىٰ ما يُؤخَذُ له الشيْءُ، فأَخْذُ المذْنِبِ يَحمِلُ مَعْنَى معاقبتِه بذَنْبِهِ، ولو لَمْ يَحْصُلْ أَخْذٌ جَسَدِيٌّ له، ومنه قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن ثَمُودَ قَوْم النبيّ الرَّسُول صالح عليه السّلام بَعْد أن عَقَرُوا الناقة وَعَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبّهم وتحدَّوا رَسُوله:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

والمراد بالأخذ العِقَابُ ولو لم يكن أخذاً فِعْلِيّاً، وهذا من الكنايات التي يراد بها لازم ما دَلَّ عليه اللَّفْظِ مع بقاء دلالة اللفظ على أَصْل معناه.

والأمثلة القرآنيَّةُ على هذا كثيرة.

ويكون الأخذ للأشياء المعنوية أيضاً، كأخذ العهد والميثاق.

ومعنى «آخَذَهُ» عاقبه على ذنبه دون تساهل، فصيغة «فاعل» تدلّ على المبالغة في الْفِعْل، وأصلها الدلالة على معنى المشاركة، فحين لا تكون مشاركة في الواقع، فهي تدلّ على الزيادة في مضمون الفعل.

وحصل توسُّع لُغَويٌّ في معنى فعلِ «اتّخذ» فصار يُسْتعمل بمعنى «جَعَل» لذلك يَنْصبُ مفعولين مثل «جعل».

﴿مَهْجُورًا﴾: اسم مفعُول من «هَجرَ الشيءَ» إذَا تَركَه وتَباعَدَ عَنْه، ومَعْلُومٌ أنّ المتباعِدَ عَنِ الشَّيْءِ الهاجِرَ له لا يَبْحَثُ عَنْه، ولا يَنْظُر إليه، فإذَا كَانَ الْمَهْجُورُ كِتاباً يُتْلىٰ فَإنّ الهَاجِرَ لا يَخْطُر عَلىٰ بَالِه أنْ يُفَكّر فيما جاءَ فِيه مِنْ عِلْمٍ أو بياناتٍ أو مَواعِظَ أو أوامرَ ونواهي، وَلَوْ تُلِيَ عليه، والْهَجْرُ ضِدُّ الوصل ففيه معنى التباعد والترك بعد اللّقاء والمخالطة.

فدلت عبارة: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ على أنّ الرَّسُولَ يشكُو لربّه من تولّي الذين كَفروا من كُبَراء قومِه في مكّة عن مُتابَعَة التفكُّر في القرآن لتدبُّر وتفهُّم آياته، حتى جَعَلُوه مهجوراً بعد أن اسْتَمَعُوا ابتداءً له وَعَرَفُوا ما فيه من إعْجَاز، هذا ما يُفِيدُه معنى الْهَجْر، إذِ الْهَجْر إنّما يكُونَ بعْدَ اللّقاء والْمُخالَطَة.

هَكَذا شكىٰ الرسول ﷺ شكوىٰ تتعلَّقُ بِهَجْرِ كفّار قومه للقرآن، وسكت عمّا يتعلّق بشخصه من معاداتهم له ولمن آمن به واتّبعه.

فكانت المعالجة الرّبّانيّة لهٰذهِ الشّكْوىٰ في التَّعْقِيبِ القرآني بأنْ تَجاوَزَ البيان قضيَّةَ اتِّخاذ قوْمِهِ القرآن مهْجُوراً، واهتمَّ مُباشَرَةً بما سَكَتَ عَنْهُ الرسولُ ممَّا يتعلّق بمعاداة قومِهِ لشَخْصِه وللَّذِين آمنوا به واتّبعُوه، وأَخَّرَ الْحَدِيثَ عن قضيّة الشكوىٰ إلى آخِرِ الفِقْرة، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

[وكذلك]: نتساءل: ما هو المشار إليه؟ وما هو المشبّه به؟

لو كَانَ المشَارُ إلَيْهِ اتِّخاذَ قوم الرسول القرآنَ مَهْجُوراً لكانَ المناسِبُ أن يُشَارَ إلَيْهِ باسْمِ الإشَارَةِ الموضُوعِ للقَرِيب، لا للبعيد، إذن فهو شيءٌ آخر غير المذكور في اللّفْظِ، فما هو؟

بالتدبّر يظهر لنا أنّ المشبّه به في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ينبغي أنْ يَكُون مِنْ نَوْعِ المشبَّه بَعْدَها، وهو أنّ لِكُلِّ نبيٍّ سبَقَ فِي تَاريخِ البشريَّةِ عدوّاً من المجرمين.

لكنَّ المشبَّه به مَطْوِيٌ سَكَتَ عنه الرسول ﷺ، اهتماماً بقضيّة الدين، وكتماً للقضيّة الشخصيّة، على الرغم مِنْ أنّ هذا الذي كتمه يعيشُه في أحَاسِيسِه، ويتَردَّدُ في خاطره ونَفْسِه، فإذا أَرَدْنَا نَشْر هٰذا المطويّ قلنا:

وقال الرسول: يَا رَبِّ إنّ قَوْمي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مهجوراً، واتَّخَذُونِي وَمَنْ آمَن بِي أعداءً، فهم يتهيّؤُون لِقَمْعِي والتخلُّصِ مِنّي ومنْ أتباعي.

وبِمَا أَنَّ الرسولَ قَدْ سَكَتَ عَنِ الأَمْرِ الثاني الشَّخْصِيّ، وأبْعَدَهُ عَنْ مَقَالَةِ اللِّسَانِ، كَانْ مِنْ دقَّةِ الأداء في البيان الإشارة إليه باسم الإشارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْبَعِيدِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أيْ: وكَذٰلِكَ الّذِي طويتَهُ وأبعدْتَهُ عن بَيَانِك في مقالِك جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً من المجرمين.

والمعنى: أنّك لسْتَ أوّل نبيٍّ عادَاهُ قَوْمُه، وأرادُوا قَتْله والتخلّصَ مِنَ الَّذِين آمنوا به واتّبعوه، بل كلُّ نبيٍّ قَبْلَكَ واجَهَ مثْلَ هٰذا الأمْرَ مِنْ قوْمِه، فَتحمَّلْ كَمَا تَحمَّلُوا، واصْبَر كَما صَبَروا.

ولَمْ يقْتَصِر النصّ علىٰ بَيانِ الأُسْوةِ الحَسَنَةِ مِنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ السّابِقِين، توجيهاً للصّبْر وتحمُّل المشقّات، بل أَلْمَحَ إلْمَاحاً يفهَمُه اللّبيب إلى قَضيَّتين:

القضية الأولىٰ: وُجوبُ اتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ السَّبَبِيَّةِ المضادَّة الّتي تَمْنَعُ العدُوّ من تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنّ اتِّخَاذَ هٰذِهِ الوَسَائِلِ السَّبَبِيَّةِ يَحْتَاجُ تَفْكِيراً وَتَدْبِيراً وإعداداً عَمَلِيّاً، وليستْ هِي من الأُمور الْجَاهِزَةِ دَوَاماً، والموجُودَةِ عِنْدَ إرادَةِ الاسْتِعْمَال، بل التوصُّل إليها لا يكُون إلّا بالاهْتِدَاءِ إلىٰ إدْرَاكِها فِكْرياً، ثُمَّ الاهْتِداءِ إلىٰ طُرُقِ الْحُصُولِ عَلَيْهَا عَمَلِياً، حتّى تكُونَ مُعَدَّةً جاهزةً للاسْتِعْمال، وعِنْدَئِذٍ يُمْكِنُ مُواجَهَةُ العَدُوّ بها، لإلقاء الرّعْبِ في قَلْبه، وَمنْعِه مِنْ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ، فَإذَا أَرَادَ الْمُوَاجَهَةَ بالقُوَّةِ كَانَتِ الوسائلُ السببيَّةُ جاهزةً لمواجَهَتِه بالقوّة المكافئة.

ومن قواعد الفكر ومبادئ الدّين أنّ ما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب.

هذه القضيّة ألمَحَ الله عزَّ وجلّ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ لرسوله:

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا. . .﴾.

والمعنى لعلّك تَقُولُ في نَفْسِك؛ لَيْسَ لديَّ الْقُدْرَةُ بِمُقْتَضَىٰ أَسْبَابِي الإِنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ مَنْعِ عَدُوِّي من تحْقيقِ أهدافِه، فالجواب.

ابْدأ باتّخاذِ هٰذِهِ الأسْبَاب، وكَفَىٰ بربّك هَادياً يَهْدِيكَ سُبُلَكَ فِي الْحَيَاةِ، حتَّى تُعِدَّ مَا يَلْزَمُ لمُواجَهَةِ قُوَّة عَدُوِّكَ بقوّة مضادّةٍ مكافِئَةٍ أوْ فَائِقَةٍ عَلَيْهَا.

القضية الثانية: وُجُوبُ الاعْتِمَادِ والتوكُّلِ على الله، والثّقَةِ بنَصْرِهِ بَعْدَ الْقِيَامِ باتّخَاذِ الْوَسَائِلِ والأسْبَابِ المضَادَّة الّتي تَقْضِي بها سُنَنُ الله في كَوْنه.

وقد ألمح الله عزَّ وجلّ إلىٰ هٰذِه القضيّة الثانية بعبارة: ﴿وَنَصِيرًا﴾ عَطْفاً على كلمة ﴿هَادِيًا﴾.

أي: وكَفَىٰ بربّك يا مُحَمّدُ هادِياً يهْديك إلىٰ اتّخَاذِ الْوَسَائِلِ والأسباب المضادّة لوسائل وأسباب أعدائك.

أمّا تحليل الحالة النفسية لهؤلاء الكافرينَ ولأمثالِهم فقد أخّره الله إلىٰ آخِر الدرس فذَكَرَهُ في الآيتين (٤٣ و٤٤).

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ. . .﴾.

المراد من الجعل هُنا الجعلُ التكوينيّ الخَلْقِيُّ الّذِي يَتَنَاوَلُ التَّنْظِيم العامّ لسُنَن الله في كونه، والذي لا يتنافَىٰ مَعَ كَوْنِ النَّاسِ يَفْعَلُونَ أَفْعَالَهُمْ باخْتِيَارِهِم الحُرّ، فمن مقتَضىٰ جَعْلِ الله الناسَ أحْرَاراً في اخْتِيَاراتِهم أن يَخْتَارَ بَعْضُهم الإيمانَ فيكُونُوا أَنْصاراً للحَقّ وللأنبياء والمُرْسَلِين، وأنْ يَخْتَارَ بُعْضُهُمُ الكُفْرَ فيكُونُوا أعْدَاءً للأنْبياء والمُرْسَلِين، وأعداءً لأتْبَاعِهِم من المؤمنين، وَتَمْكِينُ النَّاسِ في سُنَنِ الله الكونيّة من اسْتِخْدَامِ الوسَائِلِ والأسْبَابِ لمَا اخْتَاروا مِنَ أعْمَالٍ، هو من الْجَعْلِ التَّكْوِينيّ الرّبّاني، ولَيْسَ فِي شَيْءٍ من ذلك إجبارٌ لإرَادَاتِ النَّاسِ، بل يفعلونَ ما يفعلون باخْتِيَارِهِمُ الْحُرِّ، وَقَدْ سَخَّرَ الله لَهُمْ فِي سُنَنِهِ الثَّابِتَةِ بخَلْقِهِ الأسْبابَ الكَوْنِيَّة(١).

﴿عَدُوًّا﴾: العدوُّ: هُو الَّذِي يَعْدُو بالْمَكْرُوهُ ويَظْلِمُ، أصلُهُ مأخوذٌ من «عَدَا» عَلَيْهِ إذا أقْبَلَ إلَيْهِ يَعْدُو ليُنْزِلَ بِهِ مَكْرُوهاً، أو لِيَظْلِمَه.

والعدوّ هو الّذي وصلَ به الحالُ إلى إرَادةِ النِّكَايَةِ بِخَصْمِه، وإنْزَالِ الْمَكْرُوهِ فِيه، بأيّة وَسِيلَةٍ، وَلَوْ بِالقِتَالِ والْحَرْبِ.

ويُطلق لفظ «العدوّ» هكذا بالإفرادِ على المفرد، والمثنّى، والجمع، والمذكَّرِ والمؤنث، ويستعمل أيضاً على الأصل فيُثَنَّىٰ ويُجْمَعُ ويُؤَنَّث، فيقال: هو عدُوّ، وهُمَا عَدُوّان، وهم أعداء، وهُنَّ عَدُوّات.

﴿مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: جمع «المجرم» وهو المتعدّي بذنب كبير، يقال لُغَةً: «أَجْرَمَ يُجْرِمُ إجْرَاماً» إذَا فَعَلَ ذَنْباً كَبِيراً، وتعدَّىٰ الْحُدُودَ الَّتي يَجِبُ أنْ يَقِفُ دُونَهَا.

ويقال: أجْرَمَ عَلىٰ الْقَوْمِ، وأجْرَمَ إلَيْهِمْ، أَيْ: جَنَىٰ عَلَيْهِمْ جِنَايَةً.

ويقال: جَرَمَ يَجْرِمُ جَرْماً، واجْتَرَمَ يَجْتَرِمُ اجْتِراماً.

---

(١) سبق تفصيل معاني الجعل في القرآن لدى تدبّر الآية رقم (٢٠) من هذه السورة.

وجاء لفظ الْمُجْرِمِينَ فِي القرآن عنواناً مقابلاً للمسلمين، ووصفاً للكافرين الذين أهْلَكَهُمْ الله في الدُّنْيا، ووصفاً لِلْمُعَذَّبين في النَّار، فيظهر أنّ المراد بِهِمْ في الاصطلاح القرآني مُرْتَكِبُو الآثامِ منْ مُسْتَوىٰ الكفر، لذلك فَهُمْ مِنْ أَهْلِ النّار.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

التفكُّر في مجمل هذا الدرس الذي نتدَبَّرُهُ من السورة يرجّح لدينا أنّ جملة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، فهي على هذا ممّا قاله الرسول لِرَبّه في شكْواه، وهي الشكوى الثانية التي اشتكاها الرَّسُول لربّه بشأن القرآن، وسكت صلوات الله عليه عمّا يتعلّق بشخصه، وعمّا يتعلّق بالّذين اتَّبعوه من المؤمنين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هُم المتحدَّثُ عنهم مُنْذُ بِدَايَةِ السورة، كُبَراءُ كُفَّارِ قومِهِ في مكّة ومن اتّبعهم.

﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾: أي: هَلَّا نُزِّل على مُحَمَّدٍ الْقُرآنُ كُلُّه دُفعَةً واحدةً، مجْتَمِعَ الآيَاتِ والسُّور.

جُمْلَةً وَاحدَةً: أي مُجْتَمِع الآيات والسّور كلّها غيْرَ مُفرّق.

والمراد: ما الدَّاعي إلى تنزيله مُفرَّقاً مُنجّماً، إنّ تنزيله مُفرَّقاً مُنْجّماً يَدْعو إلى الشّكّ في أنّه كلامُ الله، أليس الله عليماً بكلّ شيءٍ، قديراً على أن يُنزّل القرآن كلّه في وقت واحدٍ؟!

هذه خلاصة اعتراض الذين كفروا على تنزيل القرآن منجّماً.

وعقب هذا جاء الرّدّ الرّبّاني ببيان الحكمة من تنزيله منجّماً مُفَرَّقاً، فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: نَزّلْناه كَذَلِكَ التَّنْزيلِ الّذي اعترض عليه الذين كفروا، وهو التنزيل المنجّم المفرّق، والاكتفاء بمثل عبارة «كذلك» للدلالة على ما هو مفهوم من سِبَاق وسِيَاق الكلام، وهو من الإيجاز الذي لا يخْفَىٰ إدْرَاكُه، فالكبراءُ والبلغاءُ يستعملون في كلامهم نظيره بكثرة، وربّما يقتصرون على الجواب دون الإشارة مطلقاً إلى الشيء الْمُعْتَرَضِ عليه، أو المسؤول عنه.

وقد تضمّن الجواب بيانَ حِكَمٍ ثلاثٍ اقْتَضَتْ تَنْزِيلَ القرآنِ مُنَجّماً، وهو موجّه لهدفين: إرشادِ الرسول إلى الحكمة، والردّ على مقولة الذين كفروا.

الحكمة الأولى: ما تضمّنه قولُ الله عزَّ وجلّ: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾.

الفؤاد: في مفهوم البيانات القرآنيّة هو أعمق دائرة من دوائر النفس الإنسانية، وهي تقَعُ ضمْنَ دائرة القلب(١)، وإذا ثبت القلب من عمقه ثبت سائره، وثبتت دوائر النفس كلها.

وتَثبِيتُ الفؤاد يكون بما يُورِثُه السكون والطُّمأنينة تُجاه ما يمكن أن يهزّه ويُقْلِقَه ويُزْعِجَهُ من أحداث يوميّة غير سارّة.

---

(١) انظر ما يتعلق بالفؤاد والقلب وسائر دوائر النفس في كتاب: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

وكان الرسولُ ﷺ يتعرّض دواماً من قِبَلِ كُفّار قومه لأحداثٍ غير سارَّة تُقْلِق وتُزَعِجُ أفئِدَةَ عُظَمَاءِ الرّجال، فإذا وَجَدَ نفسه على صِلَةٍ بالوحي من آنٍ لآخر، لم تُزْعِجْه ولم تُقْلِقْهُ الأحْداث، لأنّه يَشْعُر بأنّ الرّبّ الجليل الذي أرسله، وأنزل عليه جبريل بالوحي، لم يَتْرُكْهُ لنفسه يؤدّي وظائف رسالته، بل هو عَلَى صِلَة به، يُنَزِّل عليه الآيات القرآنيّة تباعاً، ويعالِجُ الأحداثَ التي يتعرّضُ لها تِباعاً، ويُقَدِّم له الوصايا والتعليمات الْهَادِيات له في مسيرته، وهو يقوم بوظائف رسالته، ويَشْعُرُ أيضاً بأنّه مدعُومٌ بقوَّةٍ عَظِيمَةٍ منَ الْغَيْبِ، تُتَابِعُهُ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَة.

ولهذا الأمر شأن عظيمٌ جدّاً في تَثْبِيتِ فُؤادِه، لِيَقُومَ بجَلائِل الأُمُورِ، ضِمْنَ قَوْمٍ يَخْشَىٰ أن يَتألَّبُوا عليه، ويمْنَعُوه بالْقُوَّةِ من متابعة تأدية وظائف رسَالَتِه.

إنّ فُؤادَ حَامِلِ رسالَةٍ عَظِيمَةٍ، فِي قَوْمٍ هم أعداءٌ لَهَا، وَيَتَرَبَّصُونَ بهِ الدَّوائر، يتعرَّضُ للقَلَقِ والاضطرابِ والانْفِعَالَاتِ المُزْعِجَةِ بَيْنَ حِينٍ وآخَر، فهو بِحَاجَةٍ ماسّةٍ إلىّ ما يُثَبِّتُه.

وأعظَمُ سَبَبٍ للتّثْبِيت أَنْ تكُون الجهة القويّةُ العَظِيمَةُ الّتِي أرسلتْهُ ذاتَ صلةٍ به مِنْ حِينٍ لآخَر، كُلَّمَا بَدأَتْ لَدَيْهِ حَرَكَاتُ الْقَلَقِ والاضْطِرَاب.

الحكمة الثانية: ما تَضَمَّنه قولُ الله عزَّ وجلّ: ﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

التَّرْتِيلُ؛ هو التمهُّل والتأنّي في الكلام، والتبيينُ له للتَّمْكين والتَّحْقِيق، وبناءِ المعْرِفَةِ في المتلقِّين بناءً تكامليّاً، وذَلِكَ لا يَحْصُل بإنزاله جُمْلَةً واحدةً، بل يحصل بإنزالِه في دُروسٍ تَعْلِيمِيَّةٍ قِسْماً بَعْدَ قِسْم، مع الاستِفادَة من الأحْداثِ والمناسبات.

وقد جاء شرح هذه الحكمة في قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

فَرَقْنَاهُ: أي: جزّأناه، وفصَّلْنَاهُ، وبيَّنّاهُ، وأصْلُ مَعْنَىٰ الْفَرْقِ الفصْلُ بين الشيئَيْن أو الأشياء، وتمييزُ بَعْضِها عن بَعْض، وأوضَحُ صُوَرِ هٰذا الفَصْلِ والتَّمْييزِ أنْ يُنزَّل الكِتَابُ علَىٰ مراحِلَ زَمَنيَّة مُتَفَاصِلة متباعدة.

عَلَىٰ مُكْثٍ: أي: على تَمهُّلٍ، وَتوقُّفٍ وانتِظَار، رَيْثَما تثبت معرفة القسم المنزّل.

يقال لغة: مَكَثَ بالمكانِ يَمْكُثُ مُكْثاً وَمَكْثاً وَمُكُوثاً، إذا توقف وانْتَظَر.

وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً: أي: ونَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً بأَنَاةٍ وتَمَهُّلٍ وتَحْقِيقٍ مَعَ كُلِّ قِسْمٍ يُنَزَّلُ مِنْهُ، فالتأكِيدُ بالمفعُولِ المُطْلَقِ للإِشَارَةِ إِلَىٰ نَوْعِ التنزيل.

الحكمة الثالثة: ما تضمّنه قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: من حِكَم تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مُنجماً مُفرَّقاً مُتابَعةُ جَدليّاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا فيما يُقَدِّمُونَه من أَمْثِلَةٍ يَصْطَنِعُونَها بآرائِهِمْ، وَيَقْتَرِحُونَهَا، وَيَرَوْنَ أَنّها هي الصُّور الأفضل التي يَنْبَغي أنْ يَكُونَ عَلَيْهَا حَالُ الرَّسُول، أو حَالُ الْقُرْآن، أو حَالَ أحكام الشريعة والمنهاج.

فبهٰذِه المتابعة يُقدّم الله فِي النصّ اللّاحِقِ ما يَكْشِفُ بِهِ وجْهَ الحقّ، لمن يَطْلُبُ الحقَّ بِصِدْق، إذَا كَانَ ما اقْتَرَحَهُ الكافرون من الأمُورِ الباطِلَة، ويقدّم في النصّ اللّاحق ما يتضمَّنُ تَفْسِير وَجْهِ الحِكْمَةِ للطَّرِيقَةِ الرّبّانيَّة المخْتَارة، إذَا كَانَ ما اقْتَرَحَهُ الكَافِرُونَ إحْدَىٰ الصُّور الْمُمْكِنَة غَيْر المَرْفُوضَةِ عَقلاً، لكِنَّ الاختيار الرّبّانيّ قَدْ كَانَ هُو الأَفْضَل والأَحْسَن والأَحْكَم، فَيَكُونُ تَفْسِيرُ ما جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله في كلِّ ذلِكَ لملاءمَةِ الأفضَلِ والأَحْسَنِ والأَحْكَم، أَحْسَنَ مِنْ تَفْسِير مَا اقْتَرحوه.

وحينما يَكُونُ تَفْسِير مَا أنْزل الله أحْسَن من تَفْسِير ما اقْتَرَحُوهُ، يكُونُ ما أنزلَ الله عزَّ وجلّ أحْسَنَ ممَّا اقْتَرَحُوه حَتْماً.

والمُرادُ بالمَثَلِ هنا: النموذَجُ المقترَحُ الّذي يُقَدِّمُه الكافرون، في اعْتِرَاضَاتِهم وجَدَليَّاتهم، حَوْلَ مَا يَنْبَغِي ـ بحَسَب آرائِهِم الْقَاصِرَةَ ـ أَنْ يكُونَ عَلَيْه الرَّسُول، أو يكونَ عَلَيْهِ الْقُرآن، أو يكُونُ عليه الْحُكْمُ الدِّيني، أو تكُونُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَةُ الرّبّانية فِي وَسِيْلَةِ التَّبْلِيغ، أَوْ غَيْر ذلك.

ولمّا كانَ كلُّ مُقْتَرحٍ مِنْ مُقْتَرَحَاتِ النَّاسِ، بِمَثَابَةِ صُورَةٍ مَرْسُومَةٍ يُقَدِّمُونها، ليكُونَ الوَاقِعُ التَّطْبِيقي عَلى وفقِها، كانَ أدقُّ تَعْبيرٍ جَامِعٍ، هو التعبير عنها بأنّها «مَثَل».

والأمْثَالُ: إمّا أنْ تُقدَّم لشَبَهِهَا بالأمر الواقع، بقَصْدِ تَقْرِيبِ الأمر الواقِع إلى الأذْهَانِ، وإمّا أنْ تُقدَّم اقْتِراحاً علَىٰ سَبِيل نَمُوذَجٍ، ليَكُونَ الأمْرُ الوَاقِعُ مُشَابِهاً لَها، وهذا «المَثَل» النَّمُوذَجُ المُقْتَرحُ، إمّا أَنْ يَقَدَّم بَدِيلاً لأمر واقِعٍ وُجِّه الاعْتِراضُ ضدّه، وإمّا أن يُقدّم ابْتِداءً قَبْلَ الْعَمَلِ ليَجْرِيَ الْعَمَلُ علىٰ وَفْقِه، كالنَّماذِجِ التي يُعِدُّها المهَنْدِسُون للمباني المقترحة.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا
(٣٤) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا (٣٥) فَقُلۡنَا
ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا (٣٦) وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا
كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا
(٣٧) وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا (٣٨) وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ
ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا (٣٩) وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ
أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا (٤٠) وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ

أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

تمهيد:

في هذه الآيات معالجةٌ لما يعتلج في نفس الرسول ﷺ ونفوسِ المؤمنين، ممّا كَتَمَهُ الرسولُ ولَمْ يذكُرْه في شكواه لربّه، لأنّه من القضايا الشخصيّة التي تُؤلمه من قومه.

ونُلاحِظُ في هذه الآيات أنّ الله تباركَ وتعالى عَالَجَ بَعْضَ هذا المطوي دون أن يَذْكُرَه، ونستطيع استنباطَهُ من الْعِلَاج، وذَكَرَ بعضاً آخر بالعِبارَةِ الصّريحَة، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بالعلاج الملائم. وختم الآيات بتحليلِ الحالة النفسيّة للكافرين الذين اشتكى الرسُولُ مِنْ كَوْنِهم اتّخَذُوا الْقُرآنَ مَهْجُوراً، ومن قولهم: لولا نُزّل عليه القرآن جُمْلَةً واحدة، وهُم كُبَراء كفَّار مكة وأتباعُهم، وجَاءَ بصِيغَةٍ عامَّةٍ للدَّلَالَةِ على أنّ من اتّصف بمِثْلِ ما اتَّصَفُوا به يُصَابُ بالدَّاءِ الَّذِي أُصِيبُوا به، وهوَ أنْ لَا يَسْمَعَ ولا يَعْقِلَ بيانات الهِدايَة الرَّبَّانية التي تُوجّه له مهما كان شأنها.

- أمّا الشكوى المكتومة التي عالجها البيان القرآنيُ في هذه الآيات دون أن يَذْكُرها، ونَسْتَطِيعُ فهمها من العلاج، فَهِيَ الخواطر التي تُعبِّر عن حالَةِ اسْتِضْعَافِ كفَّارِ مكّة للرّسُول وللذين آمَنُوا به واتّبعوه، واحْتِقَارِهم لقُوَّتِهم، وتصوّرِهم أنّ مُحَمَّداً لَوْ كان رسولاً لله حقّاً، لأمَدَّهُ اللَّهُ بالْقُوّة، ولاتَّخَذَ لَهُ مَخارِجَ وسُبُلاً، تَحْمِيهِ وَتَحْمِي الذين آمنوا به ممّا يَتَعَرَّضُونَ لَهُ من اضطهادٍ وإذْلَالٍ وَتَعْذيب، أو لَسَلَب أَعْدَاءَهُ المشْرِكِينَ قُوَّتَهُمْ وعِزَّتَهُمْ وسُلْطَانَهُمْ، وهٰذِه الأفكَارُ كَان كُفَّار مكَّة يتحدَّثون بها، فَتَعْتَلِجَ في نَفْسِ الرسُول صلوات الله عليه، دُونَ أنْ يُفْصِحَ عَنها بِلِسَانِهِ.

- وأمّا الشكوى الأخرىٰ المكتومة التي ذَكَرَها البيانُ الْقُرآنِيُ وأَتْبَعها بالْعِلاج، فهي ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا . . . ﴿٤٢﴾﴾.

وجاء العلاجُ القرآنيُّ مُوجّهاً لهدفين:

الهدفُ الأول: طمأنةُ قلْبِ الرَّسُول والذين آمنوا معه.

الهدفُ الثاني: تَهْدِيدُ الَّذِين كَفرُوا بالْعَاقِبَة الوَخِيمَة.

وقد تضمَّن الْعِلَاجُ أربعة أمور:

الأمر الأول: بَيَانُ وَاقِعِ حالِ الَّذِينَ كَفرُوا يَوْمَ الدِّين.

الأمر الثاني: بيانُ أنّ الْعَاقِبَةَ الْمُرْضِيَةَ سَتَكُون للرسولِ ولِلَّذِينَ آمَنُوا معه في الدُّنيا، حين يَنْصُرُه الله علَىٰ عدُوّه كمَا نَصرَ الرُّسُل السَّابِقِينَ مِنْ قبله.

الأمر الثالث: إعْلامُ اللَّهِ رسُوله بأنّه لَيْسَ مُكلّفاً أنْ يَكُونَ وَكِيلاً عَلَىٰ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ، لأنَّ هذا الكَافِرِ مسؤُولٌ مسؤوليَّةً تامَّة عَنْ أُمُورِ نَفْسِهِ، وما اخْتَار لها.

الأمر الرابع: بَيَانُ أَنَّ الَّذِينَ كَفَروا كُفْراً نَاتِجاً عن إصرارٍ وعنادٍ بَعْدَ بيانِ الحقّ لهم، ومُجَادَلَتِهم حَوْلَه، أَكْثَرُهُمْ لا يَسْمَعُونَ آيَاتِ القرآن التي تُتْلَى عليهم، ولا يَعْقِلُونَها، لأنّهُمْ مَصْرُوفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْهَا، مُتّبِعُونَ لأهوائِهم وَشَهَوَاتِهِمْ، غَارِقُونَ فِي لذَّاتِ أَجْسَادِهِمْ الْبَهِمِيَّة، فَهُمْ كالأنْعام، بل هُمْ أضلّ سبيلاً.

* * *

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

هذا البيانُ الرّبّاني في هذا الدرس من دروس السُّورة، يُشعِر بأنّ المعنيّين من الذين كفروا، قد كان لهم موقفٌ من الرسول والمؤمنين

يُلائمه هذا البيان، وهذا الموقِفُ سكت عنه الرسول ولم يَشْكُهُ لربّه لأنّه من القضايا الشخصيَّة.

وعبارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ تَدُلُّ المتدبِّرَ علىٰ أنَّ موقفهم هذا هو موقف من يَحْتَقِر مكانةَ الرَّسُولِ والمؤمنين الاجتماعية، إذْ لَا قُوَّةَ لهم، ولا مَنَعَةَ ولا سلطان، ويَسْتَهين بهم لأنَّهم لا يَهْتَدُون إلى سبيلٍ يُنْقذهم من الاضطهاد الذي يعانون منه، ويتّخِذُ هذا الواقع ذريعةً للتّشكِيكِ في صِدْقِ رِسَالَةِ الرَّسول.

فجاءت هذه الآية فأزاحَتِ السّتار لتكشف مكانةَ الذين كفروا حين يُحْشَرون على وُجُوهِهم مَسُوقِين إلىٰ جهنم، لا حول لهم، ولا قوّة تُنْقِذُهم من هذه المهانة مع العذاب الأليم.

فإذا أَدْرَكَ المؤمِنُون هذا وَجَدُوا أنهم الْيَوْمَ فِي عَافِيَةٍ عَظِيمَةٍ، على الرّغم من كلّ الّذي يُلاقونَ من عدُوّهم من اضطهاد.

ومَنْ مَسَحَ عن بصيرته الغشاوَةَ من الذين كفروا وَجَدَ في هذا البيان تهديداً مُخِيفاً من عَظِيمٍ جبّار، تَنْخَلِعُ له قلوبَ الجبابرة.

فالمعنى: لا تَهْتَمَّ يا محمَّدُ لِمَوْقِفِ الذين كفروا منْك وممّن اتّبعك اليوم، ولا تَكْتَرِثْ لِنَظَرَاتِ الاحْتِقَارِ والاسْتِضْعَافِ الّتي ينظرون بها إليكم، ويَرَوْنَ فيها أنّ مَكَانَكُمْ فِي مكَّةَ مكانُ المضطهَدِ المستَذَلّ، الذي لا يقْوىٰ على الدّفاع عن نَفْسِه، فإنّهم إذا لم يؤمنوا ولَمْ يتّبعوك فسَيُحْشَرونَ يوم القيامة على وجوههم مَسْحُوبين إلى جهنّم.

ولدى المقارنة بين ما هم عليه الآن وما سَيَصِيرُون إليه، وما أَنْتُمْ عَلَيْه وما سَتَصِيرُون إليه، يظهر أَنَّهُمْ شرٌّ مكاناً وأضلّ سبيلاً، لأنّهم لا يَجِدُون سبيلاً يومئذٍ إلىٰ نَجاتِهم.

﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: الحَشْرُ في اللّغة: الجمعُ والسَّوْقُ مع الاجتماع، أو للجمع، يُقال لغة: حشَرَ الله الخَلْقَ حشراً بعد

البعث، أي: ساقهم وجمعهم في أرض المحشر. وضُمّن فعل «يُحْشَرون» معنى فعل «يُسَاقُون» فَعُدِّي تعديته، فجاء التعبير: يُحْشَرُون إلى جَهَنَّم، بمعنى يُجْمَعُونَ مَسُوقين إلى جهنّم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: أولٰئِكَ الْبُعَدَاءُ عن رَحْمَةِ الله، المنحَطُّونَ إلى الأسفل البعيد.

﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾: شرّ بمعنى «أَشَرّ» أفعل تفضيل.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: يقالُ لغة: ضلّ الطريق إذا لم يهتَدِ إليه.

و«مكاناً» و«سبيلاً» منصوبان على التمييز.

والمعنى: أولئك البُعَداءُ عن رَحْمَةِ الله بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ العِنَادِيّ، ومَعَادَاتِهم للرسول والذين آمنوا معه، المنحطُّون إلى الأسفلِ الْبَعِيدِ، والذين لا يَسْتَحِقّونَ أن يُشار إليهم بإشارة القريب، هم أشدُّ من واقع حال المؤمنين اليوم نُزُولَ مكانَةٍ وضلالَ سبيل.

وقد تَسَاءَلَ صحابيٌّ: كيف يُحْشَرُ الكافر على وجهه؟ فأجابه الرّسول ﷺ بأنَّ الذي أَمْشَاهُ على الرجلين في الدنيا قادِرٌ على أن يُمَشِّيهُ على وجهه يوم القيامة.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن قتادة، قال: حدّثنا أنس بن مالك رضي الله عنه، أنّ رجلاً قال: يَا نَبِيَّ الله، كيفَ يُحْشَرُ الكافِرُ على وجهه؟ قال: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ علىٰ الرِّجْلَيْنِ في الدُّنْيَا قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟!».

قال قتادة: بَلَىٰ وعِزَّةِ رَبِّنا.

وَيَظْهَر لِي أَنّ هذا الحَشْرَ لِلْمُجْرِمِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إمّا أَنْ يَكُونَ لَدَىٰ جَمْعِهِمْ لَسَوْقِهِمْ إِلَى جهنَّم بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ القضاء، بدليل ما جاء في العبارة من أنّهم يُحْشَرُونَ إلىٰ جهنّم، وهذا يلزم عنه أنهم يُحْشَرُون قَبْلَ ذَلِكَ لسَوْقِهم إلى الحساب وفَصْل القضاء، أو أن موقف حسابهم يكون

قريباً من جهنم التي حُشِرُوا إليها، فيُحَاسَبُون ويُفصل القضاء بشأنهم، ويُلقَون في جهنم.

وقد جاء في الحشْرِ الأَوَّلِ بَعْدَ الْبَعْثِ للحِسَاب وفَصْل القضاء عدَّةُ نصوص قرآنية متكامِلَةُ الدلالة فيما بينهما.

(١) فجاء في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾؟؟

يُوزعُونَ: يُصَفُّونَ وَيُرَتَّبُونَ بحسب أفواجهم، لسَوقهم إلى موقف الحساب وفَصل القضاء.

فهذا الْحَشْرُ يكُونُ قَبْلَ الحساب وفَصْلِ القضاء، بدليل أن سؤالهم يكون بعده.

(٢) وجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

وظاهر هنا أنّ الحشر في الآيتين يَكُونُ قَبْلَ الحِساب وفَصْل القضاء، لأنّ سؤالهم في موقف الحساب يَكُونُ بَعْدَه.

(٣) وجاء في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) قول الله عزَّ وجلّ يخاطِبُ الملائكةَ المكلَّفين أن يَسُوقوا الظالمين:

﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤)﴾.

فالحشر هنا حشرٌ إلى مُقَدّمة صراط الجحيم الذي يكون عنده حسابُهم، وفَصْلُ قَضائهم، فهو حشرٌ قَبْلَ الحِسَاب.

(٤) وجاء في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) قول الله عزَّ وجل:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾.

وظاهر أنَّ هذا الحشر يكون قبل موقِفِ الحِساب وفَصْل القضاء.

(٥) وجاء في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ...﴾.

يدلُّ هذا النصّ على أنّ موقف حساب هؤلاء الذين هم أعداءُ الله يكون على مَقْرُبَةٍ من النَّار، لذلك يكون حشرهم وسَوْقُهم إلى موقف حسابهم حَشْراً وسَوْقاً إلى النار، فَيُحَاسَبُون ويُقْضَى عليهم وهم على مَقْرُبَةٍ من مصيرهم في النار الذي هم إليه صائرون.

وهذا يدلّ على أنّ مواقف الْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء يَوْمَ القيامة

مَواقِفُ مُتَعَدِّدَة، بحسب أحوال الناس المُحَاسَبِين، والله أعلم، فتكاملت دلالات النصوص.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

في هَاتَيْنِ الآيَتَيْن عرضٌ لِلَقْطَةٍ منَ اللَّقَطاتِ المتضمِّنَاتِ طمأنَةَ قَلْب الرسُول ﷺ وقلوب الذين آمَنُوا معه، إلى عاقبة أمْرِهِم في الدُّنيا، وأنَّهُمْ هُمُ المنْصُورُون أخيراً، وأنّ الكافرينَ هُمْ المُخْذُلُون بالإهلاك الربّانيّ لهم، كما حصل لفرعون وجنوده، أو بتَمْكِينِ أهْلِ الإيمانِ في الأَرْضِ، ونَصْرِهم على أعدائهم، مع ما فيها من تهديد للكافرين.

وقد جاءت هذه اللّقطة بصُورَةٍ مُوجَزَةٍ جدّاً مُؤدِّيَةٍ غَرضَ طَمْأَنَةِ المؤمِنين وتَهْدِيد الكافرين في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (الفرقان) من مراحل دعوة الرسول.

﴿وَلَقَدْ﴾: جاء تأكيد مضْمُونِ هذِه اللَّقْطَةِ بمؤكدين: «اللَّام» وحرف «قد» مراعاة لِحَالِ المؤمِنِينَ المتطَلِّعِينَ بِلَهْفَةٍ للخلاص من الاضطهاد الذي يعانون منه، ولحَالِ الكَافِرِينَ السَّادِرِينَ في غَيِّهِم، والغَالِينَ في عُتوِّهِم، كأنَّهم لا عِلْم لهم بعظات التاريخ وما جرىٰ لمُكَذِّبي الرُّسُلِ من الأمم السالفة.

﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أتينا مُوسىٰ التوراة، وقد يكُونُ في هذا إشارة ضِمْنِيَّةٌ إلَىٰ أنّه قد أُنْزِلَ على موسى جُمْلَةً واحدة، ومع هذا فقد كذَّبَ بِهِ المكذّبون من قوم موسى.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا﴾: أي: وجعلنا معه أخاه هارون نبيّاً رَسولاً على صفة وَزِيرٍ مُسَاعِدٍ لمُوسَىٰ، فقد طلب موسى ذلك من ربّه، لأنّه أفصح منه لساناً.

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

الّذين كَذَّبُوا بآيات الله: هم فرعون وملؤه وجُنُودُه.

ومعنى ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أهْلَكْنَاهُمْ إهْلاكاً عَنِيفاً شديداً، وكان إهلاك فرعون وجنوده بالغرق كما هو معروف.

التدمير يأتي بمعنى الإهلاك المُسْتأْصِل للأحياء وهو أشدّ الإهلاك، ويستعمل التدمير بمعنى إِبَادَةِ الأشياء. وأصْلُ التَّدْمِير تحطيم الشيء على وجه لا يُرْجَىٰ بَعْدَهُ إصلاحه. فتدمير القوم يكون بإهلاكهم وإماتتهم بوسيلة إهلاك فيها عقابٌ كالإِغراق، والحريق، والريح، والصيحة. وتدميرُ المباني والقصور يكون بتخريبها وإبادتها حتّى تكون دوارس، وتدمير الحقول والبساتين يكون بإتلاف ما فيها وتبديدها حتّى تُصْبحَ أرضاً جَرْدَاء، وهكذا.

يُقال لغة: دَمَرَ الْقَوْمُ يَدْمُرونَ دُموراً وَدَمَاراً إذا هلكُوا. ودَمَرَهُمُ الله، أي: أهْلَكَهُم، ودَمَرَ الْقَرْيَةَ، إذا أَبَادَها حتّى دَرَسَت.

ويُقَالُ: دَمَّرَهُمْ اللَّهُ تَدْمِيراً، وَدَمَّر عَليهم، إذا أهلكهم، ودَمَّر اللَّهُ القريةَ ودَمَّرَ عليها، إذا أبادها وجعلها دراسة.

ومن عجيب الإِيجاز الاختزالي في هذه الآية، التقاط ثلاث عبارات من قصة موسى وقومه الطويلة التي جاء تفصيلها موزعاً في قرابة ثلاثين سورة.

فعبارة ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى﴾، مقْتَطَعَةٌ من أوائل القصة.

وعبارة: ﴿إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، مُقْتَطَعَةٌ من أواخر القصة، فهم لَمْ يَكُونُوا مكذّبينَ عنْدَ بدَايَةِ الإرسال، وإنّما ظهر تكذيبُهم العِنادِيّ الذي استحقّوا عليه الإهلال بعدَ عدة سنين.

وعبارةُ: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾، مقتطعة من ختام القصّة.

والفراغات بين هذه العبارات الثلاث تملؤُها قِصّةٌ طَوِيلَةٌ جدّاً، جَرَتْ أَحْدَاثُها في سنين عديدة، هي المدّة ما بين عودة موسى عليه السلام إلى مصر حتى خروجه ببني إسرائيل، ومتابعةِ فرعون وجنودِه لهم.

وفي هذا الاختزال ضُمَّ أوّل التكليف، إلى صفة القوم بعد مراحل القيام بوظائف التكْلِيفِ، وخُتِمَ ببيان العاقبة المعجّلة في الدنيا.

ولمّا كَانَ تَدْمِيرُهُمْ عَقِبَ آخر مراحِلِ تكذيبهم جاءَ عَطْفُه بالْفَاءِ الّتي تدلُّ على الترتيب مع التعقيب.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآية عَرْضُ لَقْطَةٍ ثانية من اللَّقَطات المتضمِّنَات طمأنَةَ قَلْبِ الرَّسُول ﷺ وقلوب الّذين آمنوا معه، إلى عاقبتهم في الدنيا، وأنهُمْ هُمُ المنصُورون أخِيراً، وأنّ الكافرين هم المَخْذُولُونَ معَ ما فِيها من تهديد للكافرين.

وجَاءَتْ هٰذِه اللَّقْطَةُ بصُورَةٍ شَدِيدةِ الإيجاز، والاخْتِزَالِ أيضاً، لأنَّ الْغَرَضَ طَمْأَنَةُ المؤْمِنِينَ، وتَهْدِيدُ الكَافرين.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ هٰذه الجملة معطوفَةٌ عَلَىٰ جملة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

ٱلْكِتَٰبَ﴾. ولفْظُ ﴿وَقَوْمَ﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوف تقديرُه: وأغْرَقْنَا قَوْمَ نُوحٍ، وهٰذا الفعل المحذوف يُفَسِّرُهُ الْفِعْل الذي جاء بعد ذلك ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ لأَنَّهُ اشْتَغَلَ عن مَعْمُوله بضَمِيره كما يقولُ النحاة⁽¹⁾.

﴿لَمَّا﴾ هُنَا ظَرْفِيَّةٌ بمعنى «حين» أَوْ بِمَعْنَى «إِذْ» وتَخْتَصُّ بالماضي، وتقتضي جُمْلَتَيْنِ، وُجِدَتْ ثَانيتهما عِنْدَ وُجُودِ أولاهُما، ويكونُ جَوابُها فِعْلاً ماضِياً، أو جُمْلَةً اسْمِيَّةً مقرونة بـ«إِذَا» الْفُجَائِيَّة، أو بالفاء، وتُسَمَّى: حَرْفَ وُجُودٍ لِوُجُودٍ.

أقول: الَّذي يَظْهَرُ من الاستعمالات أنها تَضُمُّ في معناها أَمْرَين: معنى الظرفية الزمانية، ومعنى «بَعْدَ» وكلُّ ما جاء في القرآن منها يَحْمِلُ هٰذين المعنيَيْن: الْبَعْدِيَّة الزمنيّة، ولا يشتَرطُ في الْبَعْدِيَّة الزمنيَّة مُدَّةٌ مُعَيَّنَةٌ، بلْ كُلُّ زَمَنٍ يَكُونُ بَعْدَ حُدُوثِ مضمون الجملة الأولى صَالِحٌ لِحُدُوثِ مضمون الجملة الثانية، كأن نقول: لمّا كان اللَّهُ قادراً عليماً حكيماً خَلَقَ الإنسان في أحسن تقويم ـ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ والأرض وقدَّر في الأرض أقواتها خَلَقَ الإنسان.

ولفظ ﴿لَمَّا﴾ في الآية مُضَافٌ، وجملة ﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ مضاف إليه والمعنى: وقومَ نوحٍ بَعْدَ زمن تكذيبهم الرُّسُلَ أغْرَقْناهُم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾: أي: وجعلْنا إهْلاكَهُمْ عَلامَةً قَائِمةً للنَّاسِ يَسْتَدِلُّونَ بها علَىٰ عدْلِ الله وحِكْمَتِهِ في مُعاقَبَةِ الْمُجْرِمِينَ بالإِهْلاكِ الشّامل.

وهٰذه الآية: (= العلامة) يتّعظ بها ويَعْتَبرُ بدلالاتها أولو الألباب الذين يخشون أن يُصيبهم ما أَصَابَ الأُمَمَ مِنْ قَبلهم.

---

(١) أقول: هذه صناعة نحويَّة، ويمكنُ تعليل الكلام العربي بغير هذا، كأنْ نقولَ: فعل «أغْرَقْنَا» المتأخِرَ نَصَبَ لفظ «قوم» وجاء الضمير مؤكّداً، ولا حاجة لتقدير فعل آخر.

وأفْهَمُ مِنْ قول الله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ بالجَمْعِ لَا بالإِفراد، أنَّ نوحاً عليه السلام قد كان آخِرَ مجموعة من الرُّسُل أُرْسِلُوا إلى قومه، أو أنه كان واحداً مِنهم، إلّا أنَّهُ كان أطْوَلهم عمْراً، أو كان المقدَّم فيهم، والرَّئيس لهم.

واستَبْعِدُ احتمالَ كوْنِ تكذيبهم لنوح بمثابة تكذيبهم لعدد من الرسل والله أعلم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: «أعْتَدَ» بمعنى: أعَدَّ وهَيَّأَ ﴿عَذَابًا﴾: أي: عقاباً على ما قَدَّمُوا مِنْ عَمَلٍ سَيِّءٍ. ﴿أَلِيمًا﴾ على وزن «فَعِيل» من صِيَغ المبَالغة والتكثير.

والمعنى: وأعددنا وهيأنا لقوم نوح ولسائر الظالمين عذاباً مؤلماً يَوْمَ الدِّين.

وقد جاءت العبارة عامّة شاملة في سياق الحديث عن قَوْمِ نُوحٍ، للإِشعار بأنهم داخلون في عموم الظالمين الَّذين أعتَدَ الله لهم عذاباً أليماً.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

في هٰذه الآية عَرْضٌ لِلَقْطَةٍ ثالثةٍ من اللَّقَطاتِ التاريخيَّات المتضمّنات طمأنةَ قَلْبِ الرَّسُول ﷺ وقُلُوب المؤمنين إلى عَاقِبَتِهم في الدُّنيا، وأنّهم هم المنصُورُون أخيراً، وأنَّ الكافرين هم المخذولون، مع ما فيها من تهديد للكافرين.

وقد بلغ الاختزال في هذه اللّقطة إلى الاكتفاء بذكر أسماء أقوام سبق إهلاكهم، وقد عُلِم من عطفهم على مَنْ ذُكِرَ قَبْلَهُمْ من المهلكين أنهم

كَانُوا مِثْلَهُمْ في تكذيب الرُّسل، وبعد ذكر أسْمَاءِ ثلاثةِ أقْوَامٍ جاءَتْ عبارةٌ عامّة.

وجاء النّصبُ متّسقاً مع نصب ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ وهو على تقدير: وأهلكنا عاداً وثمودَ وأَصْحَابَ الرَّسّ وقُرُوناً بين ذلك كثيراً.

أمّا عاد، فهم قوم النبي الرسول هود عليه السلام، وكانت مساكنهم في أرض الأحقاف⁽¹⁾.

وأمّا ثمود، فهم قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، وكانت مساكنهم في الحِجْر⁽²⁾. وأمّا أصحاب الرّس، فللمفسّرين في بيانهم عدّة أقوال:

- قوم من بقايا ثمود.
- قوم كانوا في عَدَن.
- قوم شعيب عليه السلام، أو كانوا مع قوم شعيب.
- أهل أنطاكيّة.
- وقيل غير ذلك والله أعلم.

واتفق المفسّرون على أنّ «الرَّسّ» بئرٌ عظيمة، أو حفيرة كبيرة، ولفظ «الرّس» أطلقه العرب على أماكن كثيرة في بلادهم. ويُطلقُ أيضاً اسماً على أماكن أخرى في غير بلاد العرب.

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾: **قُروناً**: جمع قَرْن، والقرن من الزمان مئة سنة، ومن الناس أهل زمان واحد، دون تحديدٍ لمدّة الزَّمَن، ومنه ماجاء

---

(١) الأحقاف: بين حضرموت والربع الخالي.

(٢) الحِجْر: أرض معروفة بين الشام والحجاز، وفيها آثار مدائنهم التي تُسمّى مدائن صالح.

في قول الرسول ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد والطيالسي، عن عِمْران بن حصين:

«خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يَسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذُرُونَ ولَا يُوفُونَ، ويَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: المشار إليه ما سبق ذكره في النّص من أقوام أهلكت، فمن أساليب الكلام أن يَذْكُرَ المتكلّم أشياء مختلفة ثم يُشِيرُ إليها مجتمعةً بإشارة البعيد «ذٰلك».

﴿كَثِيرًا﴾: على وزن «فعيل» وقد جاءت هنا وصفاً لكلمة ﴿قُرُونًا﴾ ولفظها جمع، وكلّ جمع مؤنث، والأصل في فعيل بمعنى «فاعل» أن يؤنّث مع المؤنّث، ويذكّر مع المذكّر، فيقال: وقُروناً كثيرة، لكِنْ قد يجرّد من تاء التأنيث، فيصيرُ كفَعِيل بمعنى «مَفْعُولٍ» الذي يستوي فيه المذكر والمؤنث، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مراعاةً للفظ الجلالة في «رحمة الله» وللإشارة إلى أنَّ الله يكون هو برحمته قريباً من المحسنين.

وجاء هنا ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ مراعاةً لفواصل الآيات السابقة واللّاحقة.

وسيأتي في تدبر قوله تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ تفصيل يتضمن ترجيح جواز استعمال «فعيل» بمعنى «فاعل» كاستعمال «فعيل» بمعنى «مفعول» في أنه يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع، أخذاً من الاستقراء القرآني.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَكُلًّا﴾: التنوينُ في لفظ «كُلًّا» يُسمِّيه النحاة تنوين العوض، وهو عوض عن المضاف إليه المحذوف، أي: وَكُلَّ قَرنٍ منهم، وتنوينُ العوض هذا يلحقُ لفظتي «كلّ» و«بعض» إذا حذف المضاف إليه في كلٍّ منهما. ونُصِبَ لفظ ﴿كُلًّا﴾ في الآية بنزع الخافض وتنزيله منزلة المفعول به لفعل ﴿ضَرَبْنَا لَهُ﴾ أي: ولكلٍّ ضربنا له الأمثال.

﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: أي: وصَفْنا لهُ أحْوالُ الأُمَمِ السَّابقةِ الّتي أهلكناها، ليتَّعِظَ بها ويعتبر.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾: التَّتْبِير: التكسير الشديد للشيء حتَّى يصير فُتاتاً، فهو بمعنى التحطيم والتَّفْتِيت والإِهلاك.

«تتبيراً» مفعول مطلق لتأكيد حصول الفعل حقيقةً بكامل معناه. يقال لغة: تبَّره يُتَبِّرُه، إذا كسَّره وحطَّمه وفتّته إلى أجزاء صغيرة.

* * *

قوله الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآية عَرضٌ لِلَقْطَةٍ رابعة ذات أهميّة تستحق أن يُذَكَّرَ بها بشكل خاص، من اللّقطات التاريخيَّة المتعلقةِ بالْمُهْلَكِين من أهل القرون الأولى، ويَبْرُزُ في عرض هذه اللّقطة التاريخيّة هدف تهديد الذين كفروا.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾: يؤكّد الله عزّ وجلّ أنّ الكافرين موضوعَ البيان في السورة، قد أتوا بلاد الشّام في رحلاتهم

التجاريّة مارّين مُشْرِفين في طريقهم على القرية التي دمَّرها الله، أي: فلِمَ لَمْ يعتبروا بها.

والمراد بهٰذِه الْقَرْيَة أرضُ سَدُوم حيث كانت مساكنُ قَوْمِ لُوطٍ المدمّرة، والتي غار معظمها في البحر الميّت من أرض الأردن.

قال المؤرخون: كانت لهم خمس قرى، هي: «صَبْغَة ـ عَمْرَة ـ أَدْما ـ صَبُويم ـ بالع» تجمعها أرضُ سَدُوم، أطلق الله عليها عنوان قرية.

وقد عرفنا أنّها هي المرادة بقَوْلِه تعالى في وصفها: ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ وقد سبق في نجوم التنزيل ذكر قومِ لوط في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وجاء فيها بيان أنّ الله أرسل عليهم حاصباً فأهلكهم، وهذا الحاصب هو مطر السَّوْء الَّذِي أنْزَلَهُ الله علَيْهِمْ، وقد جاء بَيَانُه بتَفْصِيل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿أَتَوۡاْ عَلَى﴾: فعل «أَتى» يَتَعَدَّى بنفسه، وعُدِّي هنا بحرف «على» لتضمينه معنى فعل «مَرَّ».

﴿أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾: المراد: أُمطِرَتْ حِجَارةً أُنْزِلَتْ عليها كالمطر العامّ الشامل.

يقال لغة: مَطَرَتِ السماءُ تُمْطُرُ مَطْراً وَمَطَراً، أي: نزل مطرها، فهي ماطرة. ومَطَرَتِ السماءُ القومَ، أي: أصابتهم بالمطر، وأمطرتِ السَّماءُ، إذا نَزَلَ مطَرُها، وأمطر اللّٰهُ السَّمَاءَ على القوم أو الأرض، إذا أنزل منها المطر عليهم.

السَّوْء: بفتح السين: اسم للضُّرّ، وسُوءِ الحالِ، والعذاب. الإضافة

في «مَطَرَ السَّوْءِ» بمعنى «اللّام» أي: مَطَراً للضُّرّ والعذاب، أو بمعنى «مِنْ» أي: مطراً من العذاب.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾: استفهام على سبيل التعجيب من حالهم مع أنهم أتَوْا عليها. أي: أفلم يكونوا في رحلاتهم الكثيرة إلىٰ بِلَادِ الشَّامِ للتجارة يرون آثار أرْضِ قوْمِ لُوطٍ الّذِين أهلكهم الله، مع أنّها تقع في طريقهم، وهم يسيرون إلى البلاد التي يقصدونها للتجارة من بلاد الشام.

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: بعد الاستفهام التعجيبي السابق جاء هذا التعقيب. أي: بل كانوا يرونها رؤيةَ غَيْرِ مُعْتَبَرٍ بها ولَا مُتّعِظٍ، لأنّهم كانُوا فِي مرّاتِ مُرُورِهِمْ لَا يَرْجُونَ نشوراً.

﴿لَا يَرْجُونَ﴾: بمعنى لا يَتَوَقَّعُونَ ولا يَتَرَقَّبُونَ ولَا يَخافُونَ⁽¹⁾.

﴿نُشُورًا﴾: النشور: هو الحياة بعد الموت، وهذا النشور إنّما يكون للحساب وفَصْلِ القضاء والجزاء.

يقال لغة: نشر الله الموتىٰ نَشْراً ونُشُوراً، أي: بعثهم وأحياهم.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

بعد أن طمأن الله رسوله والمؤمنين معه بأنّ عاقبة الظفر لهم في الدنيا والآخرة، وعاقبة الخيبة والهلاك والعذاب ستكون لأعدائهم الذين

---

(١) سبق الشرح اللّغوي لدى تحليل الآية رقم (٢١) من السورة.

يضطهدونهم، ويُدَبِّرون ما يُدَبّرون للتخلّص منهم، في الدنيا والآخرة أيضاً، دون أن يَذْكُرَ بالعبارة الصريحة ما يُعِدُّونه ضدّ الرّسول والمؤمنين معه، من وسائل كيديّة اضطهاديّة بالقوّة المادّيّة للإجهاز عليهم، لتعليمنا ما يجب علينا من كتمان ما نعلَمُه ممّا يُدَبِّره أعداؤنا ضِدّنا، حتى نُحْكِمَ الخِطَطَ والتدبيرات المضادّة السّرّية.

بعد ذلك ذكر الله عزَّ وجلّ بالعبارة الصريحة ما يُجَاهرون به من اتّخاذ الرّسُول هُزُواً، قائلين بأسلوبِ احتقارِ قُوّتِه وازدرائها: أهذا الذي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً؟!

أي: أهذا الذي بعثه الله إلينا، حالَة كونه رسولاً، أو مُتَّخِذاً إيّاه رسُولاً، وهو لا ينصره ولا يؤيّده، ولا يُعْطيه قوّة التغلُّب على من يضطهدُه ويضطهد أتباعه المؤمنين به، ولا يهديه إلى السُّبل التي يُنْجي بها نفسه والذين آمنوا معه!؟

الاستفهام في عبارتهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ استفهام إنكاري فيه معنى الاحتقار والازدراء، أي: فهو ليس نبياً ولا رَسُولاً ما دامَ ربُّهُ لا ينْصُرُه.

فالظاهر من اتّخاذ الكافرين الرّسُولَ هزُواً في هذه المرحلة التي نزلت خلالها سورة (الفرقان) من مراحل دعوته في مكة، هو استهزاؤهم من عَدَمِ قُدْرَتِه على مقاومة اضطهادهم له وللذين آمنوا معه، وعَدَمِ قُدْرتِه على مدافعة إيذائهم له ولمن آمن به ولعشيرته، كالحصار الاقتصادي الذي آذوهم به.

والمعنى: كيف يكون رسولاً لله كما يدّعي وهو لا يَجِدُ من رّبه نُصْرةً تجعلُه يتفوّقُ بها علَىٰ أعْدائه، ولا يَهْدِيهِ إلَىٰ سَبِيلٍ يَسْلكُهُ لإنْقَاذ أتباعه؟!

واتَّخَذُوا من هذه الظاهرة دليلاً على عدم صدق نبوّة محمّد ورسالته ﷺ.

﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾: «إنْ» هُنا حرف نفي بمعنى «ما». والمعنى: ما يَتَّخِذُونَكَ إلَّا هُزُواً، أي: مَهْزوءاً بِكَ، استُعْمِلَ المصدر بمعنى اسم المفعول.

الهُزْؤ، والْهُزُؤُ في اللُّغة السُّخْرية، وتُقْرَأُ بوجوهٍ فَتُبْدَلُ الهمزةُ واواً مع ضمّ الزاي، وهي قراءة حفص، وتُقْرأُ هُزْءاً بإسكان الزاي وتحقيق الهمزة، وهي قراءة خلف، وتُقْرَأُ هُزُءاً بضم الزاي مع تحقيق الهمزة، وهي قراءة جمهور القراء العشرة، وكلّها لَهَجَاتٌ عربية.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ﴾.

لَمَّا شَعَرُوا بأنهم هم الأقوى والأعزّ في مكّة، ظنّوا أنّ ذلك بسبب إصرارهم على التمسك بآلِهَتِهم والتّقرُّب إليها بالقرابين، والصَّبْرِ عَلَىٰ عِبادتها، وتذكّروا ما كانُوا قد تواصَوْا بِهِ من الصَّبْر على عبادة آلِهَتِهُم والتمسُّكِ بِإلٰهِيَّتِها، الذي كان منهم إبّانَ نزول سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ بشأنهم:

﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾.

فبعد مرور مُدَّةٍ من الزّمن، دون أنْ يَتَغَيَّر من أوضاعهم شيء، ودون أن يَجِد الرَّسُولُ فيما يَرَوْنَ سبيلاً للانْتِصَارِ عليهم، ولَمْ يُمِدَّه الله بما يجعله هو الأَقْوَىٰ والأعزّ في مكّة، قالوا:

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ﴾.

وفي هذا اعترافٌ مِنْهُمْ بِقُوَّةِ حُجَجه الفكريّة التي كان يحاجّهم بها، وبُرهانات القرآن التي كانُوا يَسْمَعُونَها، حتّى كادوا يتأثّرون بأقواله وبما جاء في القرآن، ويهجُرون آلهتهم، وظنُّوا أنّ في ذلِكَ ضلالاً لهم، بإبعادهم عن آلهتهم، فعبَّروا عن ذلك بهذه المقالة.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾؛ «إنْ» هنا في المخفّفة من الثقيلة «إنَّ» وهي مؤكِّدَةٌ لمضمون الجملة، وتأتي بعدها لام الابتداء، وتسمّى اللّام الفارقة، لأنّها تَفْرِقُ بين «إنْ» المخفَّفَةِ من الثقيلة وبين «إنْ» النافية.

كلمة ﴿لَوْلَا﴾ هنا هي حرفٌ يدلُّ على امتناع جوابه لوجود تاليه، أي: لولا صبْرُنا على آلهتنا لَقَارَبَ محمدٌ ببيانه وحُجَجِهِ إِبْعَادَنا عنها، وإخْرَاجَنَا إلى الضّلال الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ.

فأوعَدَهُم الله عزَّ وجلّ بالعاقبةِ الوخيمة، ونَبَّهَهُمْ على أَنَّ مَعركتهُمْ معَ الرسُول ﷺ ومع المؤمنين لم تَنْتَهِ بَعْدُ، بل هي مسْتَمِرَّة، وسَوْفَ يعلمون حين يَرَوْنَ العذابَ في الدنيا الذي يرافقه انتصار الرسول والذين آمنوا معه، والْعَذَابَ فِي الآخرة، مَنْ هُوَ أَضلُّ سَبِيلاً، وأَبْعَدُ عن صِراطِ الهداية وسبُل النجاة للدُّنيا وللآخرة، إِنَّهُمُ الكافرون بالله ورَسُولِهِ لا محالة.

* * *

قول الله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

تمهيد:

ممّا كان يَعْتَلِجُ في قلب الرسول ﷺ في المرحلة التي نزلت فيها

سورة (الفرقان) تُجاه الذين أصَرُّوا على الكفر من قومه، حِرْصُهُ الشَّدِيدُ على اسْتِجَابَتِهِمْ لدَعْوَتِهِ، رَغْبَةً في تَحَوُّلِهِمْ عن سُبُلِ جَهَنَّمَ إلىٰ صِرَاطِ الجنّة، وإنقاذِهم من سُوءِ المَصِير الذي سيَصِيرُون إليه حتماً، إذا استمرّوا علَىٰ ما هُمُ عليْهِ من كُفْر.

وربّما يَخْطُرُ فِي نَفْسِ الرسُولِ صلوات الله عليه أنّ رسالَتَهُ إلَيهم تحمِلُ أكْثَرَ من واجبِ تَبْلِيغِهم ونُصْحِهم وإقناعهم بالحقّ وإرشادِهِمْ والشَّفَقَةِ عليهم، فرُبَّما يَتَصَوَّرُ نَفْسَهُ أنّهُ بِمَثَابَةِ الْوَكِيلِ علىٰ قَاصِرِينَ، فهُوَ مسؤولٌ عنْ حِمَايَتِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ، وكَفِّ مَنْ يُعرِّضُ نفسَه منهم للأذى أو الضرّ أو الهلاك، بكلّ ما يستطيع من قوّة، ولو بالقَهْرِ والإِلْزام، وهذا أمْرٌ لم يَجِدْ سبيلاً إليه، فهو لذلك يَحْمِلُ همَّ الشُّعُورِ بالتَّقْصِيرِ فِي الْقِيامِ بوَاجِبَاتِ رِسَالَتِهِ الَّتِي أرسَلَهُ الله بها.

فاقتضى البيان الرَّبانيُّ في هذا الدّرس الذي اشتمل على عدّة عناصر علاجيّة للرسول ﷺ، ولكلِّ الدّعاة إلى الإِسْلام مِنْ بَعْدِه، أنْ يكون ضِمْنَ هٰذِه العناصر التّخْفِيفُ عن نفس الرسول بأربعة أمور:

الأمر الأول: بيان أنّه ليس مسؤولاً عنْ تَحْوِيلهم إلى صِراطِ الله، لأنّه ليس وَكِيلاً عَلَيْهم، وإنّما هو مُبَلّغٌ مُعلِّم ناصِحٌ مُرشِد، يجْتَهِد في إقناعهم بالحقّ على مقْدَارِ الاسْتِطَاعَة، ثمَّ إنّهُمْ هُمُ المسؤولون مَسْؤُوليَّةً شخصيَّةً عَنِ اختيارِ طَرِيق سعَادَتِهم، والتحوّلِ عن سبيل شَقَائِهم، فإنْ لم يَفْعَلُوا اسْتَحقّوا المؤاخَذَةَ والعِقَاب.

الأمر الثاني: بيان علَّتِهم النفسيّةِ الّتي تجْعلهم يصُدُّون ابتِدَاءً عنِ الاسْتِجَابَةِ لدَعْوَةِ الرَّسُولِ الرشِيدة، وعَنِ الاسْتِماعِ الواعِي إلىٰ القرآن، وتدبُّرِ ما جاء فيه، حتّى كانَ فيهم مهجوراً.

إنّ علتهم النفسيّة هي أنّهم عَبِيدُ أهوائهم، فحواسُّهم مُسَخرةٌ لهٰذِهِ

الأهْواء، لذلك فهم مُنْصَرِفُونَ نفِسيّاً عن الاستماع لأيّ حديث يتضمّن إخراجَهُمْ من عُبُودِيَّتهم لأهوائِهم، أمّا عُقُولُهم وأفكارُهُمْ وكلُّ قُدْراتِ الذَّكَاء فِيهم فَمشْدُودةٌ بِقُوّةٍ لِخِدْمةِ أهْوائهم، لذلك فَهُمْ مُنْصَرِفون عَنْ إدراك أيَّةِ فكرةٍ تُخْرِجُهم من هذه البُؤْرة المُحِيطَةِ بهم.

الأمر الثالث: تأكيد أنّ وظِيفة الرَّسُول في الّذين يقومُ بدَعْوتِهم إلىٰ الإسلام وظيفةٌ تبليغيَّةٌ بيانيَّةٌ إقناعيَّة، لا وظيفةٌ تحويليّة.

وإعْلَامُ الرسُولِ بأنّ عليه أن يدَعَهُم لما يختَارون لأنفُسهم من إيمان أو كفر، فإذا أَقَامُوا دُونَ الإِصْغَاءِ إلىٰ دَعْوَتِهِ حِجَاباً فهٰذا شأنُهم بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبّهِمْ، وليسَ هُوَ مَسؤولاً عَنْ رَفْضِهم الاستِجابَةَ لدَعْوَتِهِ، وما عليه إلّا أن يَدَعَهُمْ ومَا اخْتَارُوا لأنفسهم، ويَدَعَ الْحُكْمَ بشَأْنِهم لله عزَّ وجلّ.

الأمر الرابع: بيانُ أنّ الَّذِينَ كَفَرُوا إصْراراً وعِناداً، إذْ عطَّلوا أسماعَهُمْ وأبْصارَهُمْ وَعُقُولَهُمْ عَنْ إدْرَاكِ الْحَقِّ، وعَنِ النَّظَرِ إلَى المُسْتَقْبَلِ الْبَعِيدِ، بِسَبَبِ كَوْنِهمْ عَبِيدَ أَهْوَائِهم المرتَبِطَةِ بِزِينَةِ الحَيَاةِ الدُّنيا، قد نَزَلُوا عَنْ إنْسَانِيَّتِهم الّتي خُلِقَتْ في أحْسَنِ تَقْوِيمٍ، إلَى مُسْتَوىٰ الْمَخْلُوقَاتِ الّتِي لا تَعْرِفُ غَيْرَ شَهَوَاتِهَا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمطَالِب غَرَائِزِهَا.

إذَنْ: فَهُمْ كالأنْعَامِ أكْلاً وشُرْباً وَمَنَاماً وسِفَاداً وَنَحْوَ ذلك، وليس لهم هَمٌّ إلّا اتّخاذ الوَسَائِلِ لتَحْقِيقِ أَكْبَرَ اسْتِمْتَاعٍ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

هذا بالنظر إلى التَّصَرُّفَاتِ المشهودَةِ بالْحَواسِ الظاهِرَةِ، أمّا في الحَقِيقَةِ فهم أَضَلُّ سَبِيلاً مِنَ الأنْعَام، لأنّ الأَنْعَامَ تَتَصَرَّفُ بِغَرَائِزِهَا عَلَى وِفْقِ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهَا اللَّهُ عَلَيْهَا، إذْ لَمْ يَهَبْهَا اللَّهُ قُدْرَاتِ التَّفْكِيرِ الْعُلْيَا، ولَمْ يَفتَحْ لَهَا نَوافِذَ الْمَعْرِفَةِ، ولَمْ يُسَخِّرْ لَهَا طَاقَاتِ الكَوْنِ الكُبْرىٰ مِنْ حَوْلِهَا.

بخِلاف الإنسان، فقد وَهَبَهُ الله كلَّ ذَلِكَ، فَمَنْ عَطَّلَ مِنَ النَّاسِ مَا

وَهَبَهُ الله، فَلَمْ يَسْتَخْدِمْهُ فيمَا خُلِق من أجْله، فهو حتماً أضلّ سبيلاً من الأَنْعَام.

هذه المفاهيم يستطيع المتدبّر بأناة أَنْ يَسْتَنْبِطها من هاتين الآيتين (٤٣) و(٤٤) من السورة، فإلىٰ التدبُّر التحليليّ لما جاء فيهما:

التدبر التحليلي:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ الخطابُ للرَّسُولِ ولكُلّ دَاعٍ إلىٰ دِينِ الله مِنْ بَعْدِه، وفي هذه الجملة استفهامٌ عن حصول الرؤية القلبيّة العلميّة، والفِعْلُ علىٰ هذا من أفعال القلوب التي تِنْصِبُ مفعولين، والمعنى: «أظنَنْتَ».

﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: أي: مَنْ جَعَلَ مَعْبُودَهُ الذي يُوَجِّهُ لَهُ الطاعَةَ والانْقِيَادَ فِي أُمُورِهِ كُلِّها هَوَاه.

﴿ٱتَّخَذَ﴾: بمعنى «جعل» يَنْصِبُ مفعولين، والمفعولان هنا أصلهما مبتدأ وخبر كما يلي: «مَعْبُودُهُ هَوَاهُ» وكلٌّ منهما معرفة صالح لأن يكون هو المبتدأ.

أمّا أيُّهما أحقّ بأن يكونَ هُوَ المبتدأ فهذا يرجع إلى تحديد الأكْثَرِ منهما معرفةً بالنسبة إلى المتحدَّث عنه، فإنْ كانَ الأكثرُ مَعْرفة هو المعبودُ كانَ هو الأحقّ بالابتداء به، وكان هو الأحق بالتقديم، وإنْ كان الأكْثَرُ مَعْرِفَةً هو هواه كانَ هُو المُبْتدأ وكان هو الأحقّ بالتّقديم.

فإذا نظرنا إلى المشرك وجدنا مَعْبُودَه (= إلٰهه) هو الأكثر معرفة، ووجَدْنا «هَوَاهُ» الأمْرَ الخفيَّ هو المطلوبُ التعرّف عليه بأنّه المعبود.

وعلى هذا فالتعبيرُ قد جاء موافقاً تماماً للترتيب المنطقي الذي يُقَرِّرُه علماء المعاني حينما يكون المبتدأُ والخَبَرُ مَعْرِفَتَيْنِ، فلَا دَاعِي أصْلاً لما ذكره بعض المفسّرين من الْقَلْبِ في اللَّفْظِ، على اعتبار أنَّ أصل الكلام

اتَّخذَ هَوَاهُ إلٰهه، ولَا لِمَا جاءَ عَلىٰ هٰذَا الرَّأْيِ من تعقيبات، فالتعبيرُ الْقُرْآني هُوَ الذي ينبغي أنْ يكون عليه البيان.

﴿مَنِ﴾: مفعول به أوّل لـ﴿رَأَيْتَ﴾، أمّا المفعول الثاني فمحذوف تُفَسِّرُه جملة: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؟! والتقدير: أَظَنَنْتَ منِ اتَّخذَ إلٰهَهُ هَوَاهُ واحداً ممَّن أنتَ عَلَيْهِ وكيلٌ من الْقَاصِرِينَ فَأَنْتَ مسْؤُولٌ عَنْ حِمَايَتِهِ وكلّ أموره؟

الواقع بخلاف ذلك، إنّه هُوَ المسْؤُول عنْ نَفْسِه مسؤوليّةً تامّة، وما عَلَيْكَ إلّا تَبْلِيغُه وتعليمُه واتّخاذُ الوسائلِ الإقناعيّة الكافية معه، سواءٌ استجاب أمْ لَمْ يَسْتَجِبْ.

هذه هي حدود مسؤوليّتك تُجاهه.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؟!: أي: أفأنت تكُونُ بعد أنْ عرَفْتَ حُدُودَ مسؤوليّتِكَ تُجاهَهُ وَكِيلاً عَلَيْهِ مَسْؤُولاً عَنْ ضَلالِه، حَتّىٰ تَشْعُرَ فِي نَفْسِكَ بآلَامِ عَدَمِ اسْتِجابَتِهِ لِدَعْوَتِكَ وَمَا تَبْذُلُهُ مِنْ أَجْلِ هِدَايَتِهِ، كَمَا يَشْعُر المقصِّر في تأدِيَةِ وَظِيفَتِهِ تُجاهَ مَنْ هُوَ وَكِيلٌ عَلَيْهِ مِنَ الْقَاصِرين؟!

والمعنىٰ: لسْتَ وَكِيلاً عَلَيْهِ، فالاستفهامُ للإعلامِ بأنّ الرّسُولَ ليس وكيلاً على قَوْمِه الّذين يَدْعُوهُمْ إلى دِينِ رَبّه.

إنّه متى بَلَّغَهُمْ ونَصَحُهُمْ وَأَرْشَدَهم، واتَّخذَ الْوَسَائِلَ الكَافِيَةِ لإقْنَاعِهِمْ فَقَدْ أدَّىٰ وَظِيفَتَهُ تُجاهَهُمْ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ تماماً، فلا تَقْصِيرَ من قِبَلِهِ.

إِذَنْ: فَعَلَيْهِ أنْ لَا يَحْزَن ولا يَتَأَلَّم من أَجْلِ الَّذين كفروا مُعَانِدِينَ مُصِرِّينَ على اتّباع أهوائِهِمْ، وسُلُوكِ سُبُل الضلالة.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؟: «أم» هُنَا هي «أم» المنقطعة، وهي بمنزلة «بل» مقرونةً باسْتِفْهام، أيْ: بَلْ أَتَحْسَبُ؟ والمعنى

مع الجملة السابقة: أَظَنَنْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلٰهه هَواهُ من الذين تدعُوهُم إلى صراط ربّك، بمنزلةِ مَنْ هُوَ تحتَ وِلايةِ وِكَالَتِك عَلَيْهِ؟! بَلْ أَتَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ تَدْعُوهُمْ فَلا يَسْتَجِيبُونَ يَسْمَعُونَ أو يَعْقلون؟!

إنَّ مَنِ اتَّخَذَ إلٰهه هواه من الَّذِينَ دَعَوْتَهم لَسْتَ وَكِيلاً عَلَيْهِ، وإنّ أَكْثَرَ الَّذين تَدْعُوهُمْ إلىٰ صِراط ربّك لَا يَسْمَعُونَ بيانَاتِكَ ولَا آياتِ القرآن، وإذَا سَمِعُوها بآذانِهم فإنّهم لا يَعْقِلُونَها ولا يُحَاوِلُونَ تفهُّمَهَا وتدبُّرها.

إنَّهُمْ مَعْزُولُونَ عن ذلك بِسَبَبِ أنّهم يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُم، ويُطِيعُونَ مَطَالِبَها طاعةَ الْعَابِدِ لمَعْبُودِهِ، فَقَامَ بِسَبَبِ ذَلِكَ بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ الْحَقِّ وصِرَاطِ الله الْمُسْتَقِيمِ حِجَاب، وقَامَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اسْتِمَاعِ بَيَانَاتِ الحَقِّ وَالْهُدى وتعقُّلِها وتفهُّمِها حِجَاب.

فَلَا تَحْزَنْ مِنْ أَجْلِهِمْ، لأَنَّهُمْ يَتَصَرَّفُون بِاخْتِيَارِهم الحرّ.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾: «إنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بمعنى «مَا» النافية، أيْ: ما هُمْ إلّا كَالأنعام. ولدَىٰ النَّظَرِ فِي واقِعِ الأَنْعَام نَجِدُها لَا هَمَّ لَهَا في حَيَواتها إلّا الْبَحْثُ عَنْ تَلْبِيَةِ غَرَائِزِها الْجَسَدِيَّةِ والنفسِيَّةِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، (طعام ـ شراب ـ منام ـ أمْن ـ سِفاد ـ وربّما حبُّ قيادة واستعلاء ـ وَوَالِدِيَّة ـ واجتماع) ونحو ذلك من مطالب.

ولدى النَّظَرِ أَيْضاً في الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِيَوْمِ الْحِسَابِ نَجِدُهُمْ لا هَمَّ لَهُمْ إلّا ما يَدْخُلُ فِي دَوَائِرِ هٰذِهِ الأُمُورِ، مَعَ ارْتِقَاءِ الْمستَوَىٰ في دَرَجَاتِ هٰذِهِ الْمَطَالِبِ، وفي السَّعْي لتَحْصِيلها، وفي طريقَةِ الاسْتِمْتَاع بها، باستِخْدَام قُدُرَاتِ الفِكْرِ والعَمَلِ لَدَيْهِمْ فِي مُخْتَلِفِ تَصرُّفَاتِهِم بَحْثاً وتَحْصِيلاً وجَمْعاً واسْتِمْتَاعاً، مع زَائدِ رَغَبَاتِ التَّفَاخُر والتَّنَافس، والتَّقَاتل، وهُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ لا يَخْرُجُون عن دَائِرَةِ البَحْثِ لتحْقِيق مطالب الجَسَدِ والنَّفْسِ من الحَياة الدُّنيا.

وبالمقارنة يظهر أنَّ شأنَهُمْ كشأنِ الأنعام.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وهذا يرجع إلى ملاحظة أمرين:

الأمر الأول: أنّ الأنعامَ لا تَمْلِكُ قُدُراتِ الفِكْرِ الَّتِي تَنْقُلُها مِنْ مَطَالِبِ الجَسَدِ والنَّفْسِ الدُّنْيوِيَّة، إلَىٰ كَمالاتِ الفِكْرِ، ومَعْرِفَةِ الْغَايَةِ مِنَ الْوُجُودِ فِي هٰذِهِ الْحَيَاة الدُّنْيا، والمسْؤولِيَّةِ الَّتي وَضَعَ الرَّبّ الخالِقُ الناسَ فِيها، ليَمْتَحِنَهُمْ، ثُمَّ لِيُحَاسِبَهم ويُجازِيَهُم.

لذلِكَ فالأنعامُ مَعْذُورةٌ لأَنَّها تَتَصَرَّف ضِمْنَ حُدُودِ غَرائِزِهَا والفِطْرَةِ الّتي فَطَرَها الله عَلَيْهَا، لا تَتَعَدَّاها.

بخِلافِ الإنْسَانِ الَّذي يمْلِكُ تِلْكَ القُدُرَاتِ العَظِيمَةَ، ثُمّ يُعطِّلُها عَمّا خُلِقَتْ مِنْ أَجْلِه، ويسْتَخْدِمُها مِنْ أَجْل غَرائِزِ الجَسَدِ والنَّفْسِ البَهِمِيَّة.

الأمر الثاني: أنّ الإنْسَانَ يَسْتَخْدِمُ قُدْرَاتِ الفِكْرِ لَدَيْهِ، ومَا سَخَّرَ الله لَهُ فِي الْكَوْنِ، فِي نَشْرِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ، وإقَامَةِ الحُروب وسَفْكِ الدّماء، وظُلْمِ عبادِ الله، والاستِئْثَارِ بالأَمْوَالِ ولَوْ لَمْ يَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا، وفَرْضِ اسْتِعْلائِهِ وسُلْطَانِهِ فِي الأرْضِ بالْقُوَّةِ، وارْتِكَابِ شُرُورٍ لا حَدَّ لها.

بخِلافِ الأنْعَام، فإنّها متَى حقَّقَتْ مَطالِبها الآنيَّةَ سَكَنَتْ وهدأَتْ، ولم يكن منها شرٌّ ولا ضُرٌّ ولا فَسَاد.

فثبت أنّ الإنسانَ الكَافِرِ الّذي لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الدِّينَ أَضَلُّ مِنَ الأنْعَامِ سَبِيلاً.

* * *

إجمال معاني هذا الدرس السابع من دروس السورة

في هذا الدرس مُعَالَجَةُ شَكَاوىٰ عبَّر الرَّسُول ﷺ عن بعضها لتعلُّقه بشأن رسالته، وكَتَمَ بَعْضَها لتعلُّقِه بشخْصِهِ وبأشْخَاصِ المؤمنين معه.

(١) يُخبِر الله عزّ وجلّ أنّ الرسول محمّداً ﷺ نادى ربّه نداء الشّاكِي المسْتَغِيثِ، من أجْلِ رسالته، لَا مِنْ أجْلِ نَفْسِه قائلاً.

﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾.

أي: يَا رَبِّ إنّ مَلأ قَوْمِي في مكّة وأتْباعَهُمْ جعَلُوا هٰذا الْقُرْآن الذي تُنزّله عليَّ مَهْجُوراً، لَا يَتفكَّرُون فيه، ولا يَتدَبّرونه، ولَا يُؤمِنُونَ بِه، ولا يتَّبِعُونَ مَا جَاءَ فِيه، بعد أن بلّغتُهم ما أنزلْتَ عَليَّ مِنْه، وكرَّرتُ عَلَيْهِمْ تِلَاوَتَه، وأَدْرَكُوا بَعْضَ مَا فِيهِ مِنْ حقٍّ وَخَيْرٍ وَحِكْمَةٍ وإعْجَاز.

والهجرُ إنّما يَكُونُ بالتَّرْكِ والْمُبَاعَدَةِ بَعْدَ اللِّقَاءُ والْمُخَالَطَةِ، فَهُوَ ضدُّ الْوَصْلِ.

وهٰذِهِ الشَّكْوَى تَتَضَمَّنُ السُّؤال عَمَّا يَفْعَلُ مَعَ قَوْمِهِ لِجَعْلِهِمْ يُخالِطُونَ القرآنَ ويتدبَّرون آيَاته، وتَتَضمَّن الْخَوْفَ مِنْ كَوْنِهِ قَدْ قصَّر في أمْرٍ مَا، كَانَ يَجب عَلَيهِ أن يَفْعَلَه، حَتَّىٰ لَا يَتَّخِذَ قَوْمُه الْمَعْنِيُّونَ فِي الشّكْوىٰ القرآنَ مَهْجُوراً.

(٢) وكَتَمَ الرَّسُولُ ﷺ فِي نَفْسِهِ أنّ مَنْ عَنَاهُمْ مِنْ قَوْمِهِ قَدْ وَقَفُوا مِنْهُ ومِمَّنْ آمن به واتَّبعه مَوْقِفَ العِدَاء، والاسْتِعْدَادِ لقَمْعِ الدَّعْوَةِ والدَّاعي إلَيْها، والذين آمنوا بها بالقوّة المسلّحة.

(٣) فبدأ البيان القرآنيُّ بمُعَالَجَةِ مَا كَتَمَهُ الرَّسُولُ وَلَمْ يُفْصِحْ عَنْهُ فِي شَكْوَاه.

فأبانَ اللَّهُ عزَّ وجلّ أنَّ هٰذه الظّاهِرَة هِيَ مِنْ سُنَن اللَّهِ التَّكْوِينيَّةِ في الاجتماع البشري، وهِيَ إحْدَىٰ اللَّوازِمِ الطَّبِيعيَّة لَجَعْلِ النَّاسِ في الحَيَاةِ الدّنْيا مُخيَّرِينَ، ذوي إراداتٍ حُرَّةٍ، لامْتِحَانِهم فيما يَخْتَارون مِنْ خَيْرٍ أو شرّ، وإحْدىٰ اللّوازِمِ الطَّبيعيَّةِ لتَسْخِيرِ اللَّهِ الأشْيَاء للنَّاس المُخيَّرين، حتَّىٰ يَتحقَّقَ امْتِحَانُهُمْ عَلَىٰ الْوَجْهِ الأمْثَلِ.

فَمَنْ اختارَ الإِيمانَ وسُلوكَ صِراطِ اللَّهِ المسْتَقيم أحَبَّ ذٰلِكَ، واسْتَخْدَم ما سَخَّر اللَّهُ للنَّاسِ فِي كَوْنِهِ بالجَعْلِ التكْوينيّ العَامّ مِنْ أَسْبابٍ، في نُصْرَةِ الكُفْرِ، ونُصْرَةِ مَا يَقْتَضِيهِ الكُفْر، وفي سُلُوكِ سبُل الضَّلَالة والْغَوَاية، وفي مُعَادَاةِ الرَّسُولِ والمُؤْمِنِينَ، ومُحَارَبَتِهِم لقَمْعِهِمْ، ومُعَادَاةِ كلّ حقٍّ وخيرٍ وهدىً، ممّا يَصْطَدِمُ مَعَ أَهْوَائِهِ، وانْخرَط بِذٰلِكَ فِي سَلْكِ الْمُجْرِمِينِ.

فَمِثْلُ ذٰلِكَ الَّذِي وَجدْتَهُ مِنْ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّد جعَلْنَا بِمُقْتَضَىٰ السُّنَنِ التَّكْوِينيَّة لكُلّ نبيٍّ أعْداءً من الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ تَدْفَعُهُمْ رَغَبَاتُ أَنْفسِهم لارتِكاب الآثام الكُبْرىٰ الَّتي تَجْعَل مُرْتَكِبيهَا مِنَ المُجْرِمِين.

وبمَا أنّ هٰذِهِ الظَّاهِرَةَ هِيَ إِحْدَىٰ اللَّوازِم التَّكْوِينيّة لِحِكْمَتَي التَّخْيِيرِ والتَّسْخِيرِ، وهُمَا مَوْضُوعَانِ للنَّاسِ جَمِيعاً فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ، لِمَنْ آمَنَ، ولِمَنْ كَفرَ، فَعَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ وَعَلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ تَسْتَفِيدُوا مِنْ قَوَانِينِ تَسْخِيرِ المسخراتِ للنَّاسِ، فتَتَّخِذُوا الوَسَائِلَ والأسْبَابَ المضادَّةَ لِوَسَائِلِ وأَسْبَابِ أَعْدَائِكُمْ، فَتَدْفَعُوا بِوَسَائِلِكُمْ وأَسْبَابِكُمْ شُرُورَ أَعْدَائِكُمْ عَنْكُمْ، وَتَنْصُرُوا الْحَقَّ والخَيْرَ والهِدَايَةِ، وَتَنْصِرُوا الضُّعَفَاء من المؤمنين.

وإذا قُلْتُمْ: إِنَّكُمْ الآنَ في مَوْقِفِ الْمُسْتَضْعَفِ الْمُسْتَذَلّ، ولَا تَجِدُونَ بحَسَبِ اسْتِطَاعَاتِكُمْ الْحَالِيَّةِ مَا يَهْدِيكُمْ إلىٰ السُّبل التي تَسْتَطِيعُونَ عن طريقها إعداد الوسائل والأسباب المضادّة لوسائل وأسباب أعدائكم، فإنّ عليكم أن تَبْدَؤُوا بالْعَمَلِ وتَجْمَعُوا ما يَتَيَسَّرُ لكُمْ وَتَسْتَعِينُوا باللَّهِ، فإذَا وَجَّهْتُمْ أفْكَارَكُمْ وَطاقَاتِكم لهٰذا الأمر، فإنّ الله سيكُونُ هَادِياً يَهْدِيكم مَعَ كُلّ خُطوةٍ تَخْطُونَها، حتّى تَصِلُوا إلى إعْدَادِ وَتَهْيِئَةِ الوَسَائِلِ والأسْبَابِ المكافِئَةِ المضادَّة لوَسَائِلِ وأَسْبَابِ أعْدَائِكُم.

ثُمَّ إذَا اضطرِرتُم لمُواجَهَةِ أعْدَائِكُم بقواكم المادّيّة الحَرْبِيَّة، وحقَّقْتُمْ

في أنفُسِكُم مَا يأمُرَكُمْ الله بِهِ لِيُمِدَّكُمْ بِنَصْرٍ مِنْ عنده، فإنَّ الله عزَّ وجلّ سينصركم حتماً.

وكفَى بالله في الحالتين هادياً يهديكم، ونصيراً ينصركم.

كلّ هذه المعاني نستطيع استنباطها من قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

(٤) ويُخبِرُ الله عزَّ وجَلَّ أنّ الرَّسول محمّداً ﷺ شَكَا في ندائه لربّه اعْتِراضَ قَوْمِهِ المعنيّينَ في النّصّ، على تنزيل القرآنِ منجّماً مُفرّقاً، مُطالِبينَ بأسْلُوبِ التحْضِيضِ أن يُنزَّلَ جُمْلَةً واحَدةً، وفي هٰذه الشكّوىٰ إشارةٌ ضِمْنيّة إلى أنّهم اتّخذوا تَنْزِيلَهُ مفرّقاً ذريعةً للتشكيك في صحّة رِسَالَتِه، وفِي صدقه فيما يُبلّغ عن ربّه.

فعالَجَ الله عزَّ وجَلّ هٰذهِ الشكّوىٰ بِبَيَانِ ثلاثِ حِكَمٍ اقْتَضَتْ تنزيل القرآن منجّماً مُفرَّقاً، وهي:

الحكمة الأولى: تَثْبِيتُ فؤاد الرسُول، بمُتابعة تَنَزُّلِ الوحي عليه بما يُثبّته من دلَالة آياتٍ قُرْآنيّة، كُلَّمَا تعرّضَ لأحْدَاثٍ جِسَامٍ مُزْعِجَةٍ مُقْلِقَةٍ غَيْرِ سَارَّةٍ تأتِيهِ مِنْ قِبَلِ كُفّار قَوْمِهِ.

الحكمة الثانية: التمهُّلُ والتَأنّي في بَيَانِ مَفَاهِيم الدّينِ، وتَعَالِيمِ شَرِيعَةِ الله ومِنْهَاجِهِ، وفي تَنْويع وَسَائِلِ التَّعْلِيم والتَّرْبِيَةِ، لِبِنَاءِ الْمَعْرِفَةِ، بناءً تَكَامُلِيّاً، واسْتِخْدَامِ عَنَاصِرِ التَّرْبِيَةِ وفْقَ مُقْتَضَيَاتِ الْحِكْمَةِ الارتِقَائِيَّة، بما يتّفقُ وطَبَائِعَ النَّاس.

وفي التَّمهُّلِ والتَّأنّي تَمْكِينٌ لِلْمَعْرِفَة وتحقيقٌ لها وترسيخ.

والتَّمهُّلُ والتَّأنّي أرْجَىٰ لتأثِيرِ وَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ الارْتِقَائِيَّة.

الحكمة الثالثة: متابعة جَدَلِيَّاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيمَا يُقَدِّمُونَه من أَمْثِلَةٍ يَصْطَنِعُونَهَا بآرائِهِمْ ويَقْتَرِحُونَها، ويرَوْنَ أَنَّها هِيَ الصُّوَرُ الأَفْضَلُ، الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا حَالُ الرَّسُولِ، أو حَال الْقُرآن، أَوْ حَالُ أَحْكَامِ شَرِيعَةِ الله ومِنْهَاجِهِ.

فبهٰذِهِ المتَابعةِ يُبَيِّن الله عزَّ وجلّ فِي النصّ اللَّاحِقِ وَجْهَ الحَقّ، إذا كَانَ مَا قدّمه الكافرون باطلاً، ويُبَيِّنُ تفسيرَ وجه الحكمة من الطريقة الرّبانيّة المختارة، إذا كان ما قدّمه الكافرون إحدى الصُّوَر الممكنة غير المرفوضة عقلاً رفضاً كلّيّاً، إلاَّ أنّ الاختيار الرّبّاني قد كان هو الأفضل والأحسن والأحكم.

كلّ هٰذه المَعَانِي نَسْتَطِيع استنباطها من قول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

(٥) وكتَمَ الرَّسُول ﷺ في نفسه ما يُزْعِجه من استِضعافِ قَوْمِه المعنيِّين في النصّ لهُ ولِلَّذِين آمَنُوا به واتّبَعُوه، واحْتِقَارِهِمْ وازْدِرَائِهِمْ لِقُوَّتِهِمْ، وتَصَوّرِهِمْ أنّ محمّداً لو كان رسولاً لله حقّاً، لأمدّه بالقوة الغالبة، ولاتّخذ له مخارجَ وسُبُلاً تحْمِيهِ وتَحْمِي الذين آمنوا به ممّا يتعرّضونَ لهُ مِنِ اضطهادٍ وإذْلالٍ وتعذيب، أو لَسَلَبَ أعْدَاءَه مِنْ قَوْمِهِ قُوَّتَهم وعِزَّتَهم وسُلْطَانَهُمْ.

فجَاءَ البيانُ القُرْآنيُّ متضمّناً عِلاجَ هٰذَا الّذِي كَتَمه الرَّسُول في نَفْسِه، وفيه طمأنةُ قَلْبِ الرَّسُول والمؤمنين، وتهديدُ الذين كفروا بالعاقبة الوَخِيمَةِ الْمُعَجّلة في الدُّنيا، كَمَا حَصَل لِفَرْعُونَ وجنوده، ولِقَوْمِ نوح وعاد وثمود وأصحاب الرسّ وغيرِهم وقومِ لوط.

وفيه أيضاً بيانُ وَاقع حَالِ الَّذِينَ كَفرُوا يَوْمَ الدِّين، وَبَيَانُ أنّ الْعَاقِبة الحَسَنة ستَكُونُ للرسُولِ وللَّذِين آمَنُوا مَعَهُ في الدُّنيا، حينَ يَنْصُرُهُ الله علَىٰ أعْدَائِهِ، كما نَصرَ الله رُسُله السَّابِقين.

ولَمْ يَذْكُر الله بالعِبَارةِ الصَّريحَةِ مَا يُعِدُّه الْكَافِرُونَ مِنْ وَسَائِلَ لِقَمْعِ الرَّسُولِ والمؤمنين، ليُعَلِّمنا بهذا وُجُوبَ كِتْمَانِ ما نَعْلَمُه من استِعْدَادَاتِ أعْدَائِنَا ضِدَّنَا مع اتّخَاذِ وَسَائِلَ وأَسْبَابِ دَفْعِها والتغلُّب عليها.

كلُّ هذه المعاني نَسْتَطِيعُ اسْتنباطها من قول الله عزَّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)﴾.

(٦) بَعْدَ ذٰلِكَ ذَكَرَ الله عزَّ وجلّ بالعِبارَةِ الصَّريحَةِ ما يُجَاهِر به الَّذِين كَفروا من اتّخاذِ الرَّسُول هُزواً، إذْ لَمْ يُؤَيِّدْهُ رَبُّهُ وَلَمْ يَنْصُرْهُ حَتَّىٰ هٰذا التَّاريخِ، مُتَّخِذِينَ ذٰلِكَ ذَريعةً للتَّشْكِيكِ في كَوْنِ محمَّدٍ رَسُولَ رَبّه حقّاً، بِمَعْنَىٰ أنّهُ لَوْ كَانَ رَسُولاً حَقّاً لما تَرَكَهُ رَبُّه هو ومن آمن به في حالَةِ ضَعْفٍ وذِلَّةٍ يَتَحَمَّلُون الاضطهادَ والأذىٰ والتَّعْذِيبَ حتّىٰ هٰذا التَّارِيخِ، مِنْ بَدْءِ الدَّعْوَةِ حَتَّىٰ نُزولِ سُورَةِ (الفرقان).

واسْتَرْجَعَ الذين كفروا في مقالهم قوّة بَيَانِ الرَّسُول، وما كان يقدِّمُهُ لَهُمْ من حجَجٍ وبَرَاهِينَ، حتّىٰ كَادَ أنْ يُضِلَّهُمْ بِها ـ بِحَسَبِ زَعْمِهِم ـ وكادَ أنْ يَصْرِفَهُمْ بِهَا عَنْ آلِهَتِهِمْ، لَوْلَا أنْ نفَذُوا مَا كَانُوا قَدْ تَوَاصَوْا بِهِ مِن الصَّبْرِ على الاسْتِمْسَاكِ بآلهتهم وعِبَادَتِها.

فأبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَهُمْ أنّ مَعْرَكَتَهُمْ ضِدَّ الرَّسُولِ والذين آمنوا لَمْ تَنْتَهِ بَعْدُ، وَأَشَارَ ضِمْناً إلى أنّه تبارَك وتعَالَى يُمْهِلُهُمْ بِحِكْمَتِهِ، لَعلَّهم يُدْركون رُشْدَهم، ويَسْتَغْفِرُونَ ربّهم.

لَكِنَّهُمْ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهُمْ وَوُقُوفِهِمْ مِنَ الرَّسُولِ مَوْقِفَ الْعِدَاء، والاسْتِعْدَادِ لِلْقَمْعِ بِالْقُوَّةِ، فَسَيَنْصُرُ الله رسولَهُ والمؤمنين، وسيُمَكِّنُهم من التغلُّب علىٰ أَعْدَائِهِمْ، وعِنْدَئِذٍ يَعْلَمُ الذين كفروا أنَّهم كانُوا أضلَّ سبيلاً، وأجْهَلَ بالمَصْير الْوَخِيم والْعَاقِبَةِ السَّيِّئَةِ مِنْ كُلّ ضَالّ.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

(٧) وَجَاءَ فِي خَاتِمَةِ هٰذا الدرس من دروس السورة دور معالَجَةِ شَكْوَىٰ الرَّسُولِ مِنْ كَوْنِ قَوْمِهِ اتَّخذُوا القرآنَ مَهْجُوراً، الدالَّةَ عَلَىٰ حِرْصِ الرسُولِ علىٰ اسْتِجَابَةِ كُلِّ قَوْمِهِ لدَعْوَتِهِ، وَخَوْفِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُقَصِّراً في أمْرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ يُخْرُجُون من الكُفْرِ الّذي هُمْ فيهِ، ويَتَحَوّلُون إلىٰ الإِيمانِ واتّباعِ رَسُولِ ربّهم.

وفي هٰذه المعالَجَةِ أبانَ الله عزَّ وجلّ ما يلي:

أولاً: أنّ العِلَّة النفسيَّة لدَىٰ الَّذين كَفروا أنّهم عَبِيد أهْوائهم.

ثانياً: أنّ الرَّسُولَ لَيْسَ مَسْؤولاً في رِسَالَتِهِ عَنْ تَحْوِيلِهِمْ إلىٰ صِراطِ الله، لأنّه لَيْسَ وَكِيلاً عَلَيْهِمْ، كَوَكَالَةِ الْوَلِي علىٰ قَاصِرِينَ، وإنّما هُو مبلّغٌ مُعلّم نَاصِحٌ مُرْشِد، يَجْتَهِدُ فِي إقناعِهِمْ بالْحَقّ على مِقْدَارِ الاستطاعة، ثم إنّهم هُمُ المسؤُولون مسؤوليَّةً شخصيّة عن اخْتياراتِهم.

ومثْلُ الرَّسُول في هذا كلّ داعٍ من بَعْدِ.

ثالثاً: أنَّ أَكْثَرَ من اتَّخَذَ إلٰهِهِ هَواهُ مُطِيعاً لَهُ فِي أُمُورِهِ ومُتَّبِعاً له، هُمْ مَحْجُوبُونُ عن استِماعِ بيَانَاتِ الحَقّ والْخَيْرِ والْهِدَايَةِ، وعَنْ إدْرَاكِ الْعِظَاتِ والْعِبَرِ، وعَنِ التَّفَكُّرِ فيها وَتَعَقُّلها، وهُمْ أَيضاً لا يَسْتَطِيعُونَ ضَبْطَ نُفُوسِهِمْ عن اتّبَاعِ أَهْوَائِها، بسَبَبِ أنَّ حَوَّاسَّهُمْ وعُقُولَهُمْ مُسَخَّرة لهٰذه الأهواء.

رابعاً: أنَّ الّذِينَ عَطّلُوا أسْمَاعَهُمْ وأبْصَارَهُمْ وعقولَهم عن إدْرَاكِ الحَقّ، وعن النّظَر إلى الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيدِ، بِسبَبِ كونِهِمْ عبيد أهْوَائِهِم المُرْتَبِطَةِ بزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، قَدْ نَزَلُوا عَنْ إنْسَانِيَّتِهِم الّتي خُلِقَتْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، إلَىٰ مُسْتَوىٰ الْمَخْلُوقَاتِ التي لا تَعْرِفُ غَيْر شَهَوَاتِهَا وَمَطَالِب غَرَائِزِها، فَهُمْ كَالأنعامِ ظَاهِراً، وأَضَلُّ مِنَ الأنْعَامِ حَقيقةً، لأنّ الأنْعَامَ تَتَصَرَّفُ بِغَرَائِزِها عَلىٰ وَفْقِ فِطَرِهَا، بخلاف هٰؤلاء الضَّالِّين، فإنَّ الله قَدْ وَهَبَهُمْ مَا جَعَلَهُمْ بِهِ في أحَسنِ تَقْوِيم، فَعَطَّلُوا مَا وَهَبَهُمْ الله، ولَمْ يَسْتَعْمِلوهُ فِيمَا خُلِقَ مِنْ أجْلِهِ، فَكَانُوا بِذٰلِكَ أضَلّ مِن الأنْعَامِ سَبيلاً.

كلُّ هٰذه المَعَانِي نَسْتَطِيعَ اسْتِنْبَاطَها مِنْ قَوْلِ الله عزَّ وجلّ:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

وبهذا انتهى تدبر الدرس السابع من دروس السورة على ما فتح الله به وأعَانَ ويَسَّر.

* * *

(١٣)

التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دروس السّورة
وهو الآيات من (٤٥ ـ ٥٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ
يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا
خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ
وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ
بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ
وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦)
قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا (٥٨)﴾.

القراءات:

(٤٧) و(٤٨) • قرأ قالُونُ، وأبُو عَمْرو، والكِسَائيُّ، وأبُو جَعْفر: [وَهْوَ] بإسكان الهاء. وقرأ باقي القرَّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضمّ الهاء.

وهما وجهان عربيّان في النُّطق.

(٤٨) • قرأ ابْنُ كثير: [الرِّيحَ] بالإفراد. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع. والقراءتان وجْهَانِ عَربيَّان متكافئان، فالقراءة الّتي بالإفراد مقترنة بأداة التعريف الّتي للجنس، فتَشْمَلُ أنواع الرّياح، فتكون قراءة ابْنِ كثير مؤدّية المعنى الّذي أدّتْهُ قراءة جُمْهور القراء.

أداة التعريف الّتي للجنسِ بقُوَّة جمع المفرد، وهي في الرّياح لعموم أنواع الرّياح(١).

---

(١) كلّ ما جاء في القرآن بالجمع من لفظ: «الرياح» في إحدى القراءات، فقد قُرِئَ أيضاً بالإفراد باستثناء قول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠): ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ. . . (٤٦)﴾.

(٤٨) • قرأ عَاصم: ﴿بُشْرًا﴾ وهو مصْدَر بَشَرَهُ، أي: أخْبَرَهُ بما يُفْرِحه ويَسُرُّه، أو هو مُخَفَّف «بُشُر» جمع «بَشُور» صيغة مبالغة اسم الفاعل «بَاشِر». وهذه القراءة تدلُّ على التبشير بالمطر.

وقرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [نُشُراً] وهو جَمْعُ «نَشُور» مثل: رَسُول ورُسُل، ولفظ: «نَشُور» على وزن «فَعُول» مبالغة اسم الفاعل «ناشر».

وقرأ ابْنُ عَامر: [نُشْراً] وهو جمع «نَشُور» مع تَسْكِين الشّين تخفيفاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نَشْراً] وهو مصدر فعل «نَشَرَهُ يَنْشُرُهُ» إذا بسَطَهُ ومَدَّه. **النَّشْرُ**: خلاف الطيّ، وهو الْبَسْطُ والمدّ. والنَّشْرُ والنُّشُور: الإحياء بَعْدَ الموت.

وقراءتا «نُشُراً وَنُشْراً» بمعنى أن الرياح تَنْشُر ما تَحْمِلُه من بخار الماء، والسحاب، واللّقاحات، وذَرَّات الأتْرِبة والرمل، وأوْرَاق الأشجار وغير ذلك.

وفي بعض هذه القراءات تكامل في أداء المعنى المراد، وفي بعضها تكامل في الأداء البياني، وفي بعضها وجوهٌ عربيَّة متكافئة.

(٤٩) • قرأ أبو جَعْفر: [مَيّتاً] بتَشْدِيد الياء. وقرأ جمهور الْقُرّاء العشرة: ﴿مَيْتًا﴾ بإسكان الياء. والقراءتان وجْهان عربيّان متكافئان.

(٥٠) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [لِيَذْكُرُوا]. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ بتَشْدِيد الذال والكاف المفتوحتين. وفي هاتين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فبعض الناس يكفي أن يَذْكُرُوا ذِكْراً بحسب العادة، وآخرونَ تستَدْعي أحوالُهُمْ أن يتذكَّرُوا تذكُّراً زائداً بتكلُّف.

تمهيد:

في هذا الدّرس من دروس السورة ما يلي:

(١) عرض طائفة من آيات الله في الكون دليلاً على توحيد الربوبيّة لله عزَّ وجلّ، الذي يلزم عنه عقلاً توحيد الإِلٰهيّة له.

ولهذا يتّصل بالعنصر الأول من عناصر موضوع السورة، وهو: (الله عزَّ وجلَّ منزّل القرآن وباعث الرسول محمد ﷺ للعالمين نذيراً). وقد جاء هذا العرض في الآيات (٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩) و(٥٣ ـ ٥٤).

(٢) بيان توزيع الأساليب والحجج وألوان التربية ووجوه العظة المختلفة، فيما أنزل الله عزَّ وجلّ من القرآن قبل إنزال سورة (الفرقان) فلم يكن من أكثر الناس المعنيّين، وهم كُبَراءُ مكَّة وأتباعُهم ومن حَوْلَها ممّن هم قريبون منها، إلّا المبالغة والتشدّد في الكفر، ستراً للحقائق الدّينيّة الرّبّانيّة وأدلّتها، وجُحُوداً لها، ولم يكن منهم إلَّا الإِصْرَارُ علىٰ مُوَاصَلَةِ عبادَتِهم لما اتَّخَذُوا من آلهة لا يُرجىٰ نفعُها ولا يُخشى ضرّها.

وهذا يتصل بالعنصر الثاني من عناصر موضوع السورة، وهو (الفرقان = القرآن) وبالعنصر الرابع من هذه العناصر وهو: (الْمُرْسَلُ إليهم).

وقد جاء هذا البيان في الآية (٥٠) والآية (٥٥).

(٣) بيان أنّ الله عزَّ وجلّ لو شاء لأَرْسَل في كلِّ قريَةٍ رسولاً يبلّغ أهلها رسالات ربه، ويُنْذِرُ من كفر منهم بعقاب الله المعجّل والمؤجّل، ولم يقتصر على رسول واحدٍ للعالمين جميعاً، ليكون خاتم المرسلين. ولكن ما شاء الله ذلك، ونفهم من عدم مشيئته، مع دلائل نصوص أخرى، ومع التأمُّلِ في مجَارِي حِكمتِه، أنّ حكمته سبحانه قضت بعد بعث الرسُل السابقين الأوّلين في الأمم السالفة، أن يختم الرسالات برَسُولٍ خاتم، تكون رسالته عامّةً للنّاس أجمعين.

واقْتَرَنَ بهذَا الْبَيَانِ إعْلامُ الرَّسُولِ محمّد ﷺ بأمور:

الأول: ألّا يُطِيعَ الكَافِرينَ، فلا يتأثر بمقترحاتهم وما يطرحونه من تشكيكات، قد يرغب معها في الاستِجَابَةِ لبَعْضِ مطالِبِهِمْ، بتَقْدِير أنَّها قَدْ تَقْطَعُ معَاذِيرَهُمْ، وتَمْنَعُ وُرُودَ تَشْكِيكَاتِهم، فالمقترحاتُ والتشكيكات لا تَنْتَهِي احتمالاتها، ولا يصحّ أن تكون مقادير الحكمة الرّبانيّة أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي الْمُعَانِدِين، تتقاذفُها تشهّياتُهُمْ، بالنظر إلى أنَّهُم لا تَنْقُصُهُمْ أدلّة الاقْتِنَاعِ بِالْحَقّ، وإنّما تَنْقُصُهم الإرادَةُ الْعَاقِلَة الحَازِمَةُ لاتّباعه بَعْد وضُوحِ أَدِلَّتِهِ، والتخلُّصِ مِنْ مُؤَثِّرَاتِ الأهْوَاءِ والشَّهواتِ والتَّقَالِيدِ الْعَمْيَاء.

الثاني: أن يُجَاهِدَ الكَافِرين بالقرآن، أي: بمَفَاهِيمِهِ وحُجَجِه وبرَاهِينِه وبياناته الحقّ، وما فيه من تَرْغِيبٍ وتَرْهِيبٍ ووَسَائِلِ إِقْنَاعٍ وَتَرْبِيَةٍ، ويَتَلَخَّصُ ذَلِكَ بِالْإِقْنَاعِ الفكْرِيّ، وبِوَسَائِل التَّرْغِيب والتَّرْهِيبِ والتربية.

الثالث: أنّ رسالَتَهُ رسالَةُ تكْليفٍ بالتَّبلِيغ والإِقْنَاع والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ والتَّرْبِيَةِ، ثُمَّ الإنذار لمَنْ كفَر وعصَىٰ، وليْسَتْ رِسَالَتُهُ رسالةَ تَكْلِيفٍ أنْ يُحَوِّلَ النَّاسَ مِنَ الكُفْرِ إلَىٰ الإيمَانِ.

إذَنْ: فما عَلَيْهِ إلّا أَنْ يكُونَ لمَنْ أَطَاعَ مُبَشِّراً، ولِمَنْ أَبَىٰ نذيراً.

الرابع: أن يُعْلن للجميع أنّه ما يَسْأَلُ النّاسَ أجراً علىٰ مَا يُقَدِّم لَهُمُ مِنَ هِدَاية وخير، وما يَبْذُلَ لَهُمْ مِنْ نُصْحٍ ومُجَاهدَةٍ، تَحتَاجُ مِنْه تحمُّلَ مشقَّاتٍ كَثِيرَاتٍ، لكِنْ مَنْ شَاءَ مِنَ المؤْمِنينَ الّذِينَ اتبعُوه أَنْ يتقرَّبَ إلَىٰ الله بَشْيءٍ ينالُ بِه عند الله ثواباً مضاعفاً أضعافاً كثيرة، فلَهُ أَنْ يُقَدِّمَ للرّسُولِ شَيْئاً، كالدُّعَاءِ لَهُ، والصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وكَهَدِيَّةٍ خَالصَةٍ لوَجْهِ الله، وكَمَعُونَةٍ فِي أَمْرٍ، ودِفَاعٍ عَنْه أوْ تَضْحِيَةٍ لحِمَايَته. فَالْبَاذِلُ لشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ يُتَاجِر مَعَ رَبِّه طَالباً الأَجْرَ الْعَظِيمَ عِنْدَه، ولا يُقَدِّم به أجراً للرسول ﷺ علىٰ رِسَالَتِه، فمَا أَجْرُ الرسُولِ إلّا على ربّه.

الخامس: أن يتوكّلَ في مَسِيرَتِه ذَاتِ الأَعْبَاءِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ الْحَيّ الّذِي لا يَمُوت.

السادس: أن يُسَبّح بحَمْدِ الله، ليكُونَ لَهُ هٰذا التسبيحُ عِلاجاً لمَا قَدْ يَتَراكَمُ علَىٰ نَفْسِه مِنْ أُمُورٍ غَيْرِ سَارّة يَتَعَرَّضُ لَهَا مِنْ قِبَلِ كُفّارِ قَوْمِه، وطَاقةً يَسْتَمِدُّ مِنْها مَا يُجَدِّدُ بِه نَشَاطَهُ لِمُواصَلَةِ الاجْتِهَادِ مِنْ آنٍ لآخَر.

السابع: ألّا يَحْمِلَ هَمَّ مَا يُشَاهِد مِنْ ذُنوبِ عِبَادِ اللَّهِ الكَثِيرَة، مُوقِناً بأنّ الله خَبِيرٌ بِهِم عَلِيمٌ بأحْوالِهِم، وكفَىٰ بالله خَبِيراً بذنوب عباده.

وهذا البيان مع ما اقترن به مِنْ إعْلامٍ للرسول ﷺ يتّصل بالعنصر الثالث من عناصر موضوع السُّورة (الرسول ومهمّات رسالته) وقد جاء هذا البيان مع ما اقترن به في الآيات (٥١ ـ ٥٢) و(٥٦ ـ ٥٧ ـ ٥٨).

وعلَينا أنْ نَفْهَم أنّ هٰذِه الْوَصَايَا السّبَع الَّتِي أَوْصَىٰ الله بها رَسُولَه محمّداً ﷺ، هِيَ وَصَايَا موجّهةٌ لكلّ الدُّعَاة إلىٰ سَبِيل ربّهم من بعده، لأنّ الدّعاة من أتباع الرسول محمد ﷺ هُم المسؤولون في هذه الرّسالة الخاتمة عن تبليغ دين الله للناس أجمعين في كلّ مُدُنِهِم وقُرَاهُمْ وبَوادِيهِمْ، وتَحْمِيلُ الدُّعَاةِ هٰذِهِ المسؤوليَّةَ هُو الْبَدِيلُ عَنْ بَعْثِ رسُولٍ نَذِير فِي كلِّ قَرْيةٍ.

* * *

التدبّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي: ألَمْ تعْلَمْ نَاظراً إلَىٰ آثَار صُنْع رَبِّكَ الّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ. عُدّي فعل ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والمراد منه الرُّؤية العلمية القلبيّة، بحرف الجرّ: ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمينه معنى فِعْلِ «نَظَر» فاجْتَمَعَتْ في اللَّفْظِ دَلَالَتَان: إحداهُمَا بالْفِعْلِ المذْكُور بلفظه، والأُخْرَى عن طَرِيقِ حَرْف الْجَرّ

الذي حُذِف فعْلُه وذُكِرَتْ تَعْدِيته، فصَارَ المعنى: أَلَمْ تَعْلَم نَاظراً إِلَىٰ رَبّك، ودلّتْ الْقَرِيْنَة على أنّ الْمُرَاد النظَرُ إِلَىٰ آثارِ صُنْعِ ربّك.

والمرادُ بالاستفهام الدعوةُ إلىٰ النَّظر فِي هٰذه الظَّاهِرَةِ مِنْ ظَواهر خَلْقِ الله، للتَّوَصُّلِ إِلَىٰ الْعِلْم بِأَنَّ اللَّهَ هو الرَّبُ العَليمُ الحكيمُ الّذي أتقَنَ كلَّ شَيْءٍ بإرادَتِه وقُدْرَتِه، وأنّه واحدٌ لا شريكَ لَه في رُبُوبِيَّتِه، ويَلْزَمُ مِنْ ذَلِك عَقْلاً أنَّهُ وَاحِدٌ فِي إِلَهِيّتِه لَا شَرِيكَ لَه.

والدَّعْوَةُ إِلَىٰ النَّظَر المُوصِل إلى الْعِلْم بأسْلوبِ الاسْتِفْهام دعوةٌ تَقُومُ عَلَىٰ لَفْتِ النَّظَرِ بِرِفْقٍ شَدِيدٍ، وتَلَطُّفٍ فِي الْعَرْضِ، وهِيَ مِنْ الأَسَالِيبِ الحَكِيمَةِ الَّتِي يَحْسُن أَنْ يَبْتَعِد بِهَا الدَّاعِي عَنْ أُسْلُوبِ الأمْرِ أَوِ النَّهْيِ أو التَّحْضِيضِ، إلّا إذَا اسْتَدْعَىٰ حَالُ المُخَاطَبِ. أو المقصود بالخِطَاب شيئاً مِنْ ذلك.

والاستفهامُ كَثِيراً مَا يَخْرُجُ فِي أَسَالِيبِ الْبُلَغَاءِ عَن طَلَبِ الإفْهَام أَوِ التَّقْرِيرِ بالمسْتَفْهَمِ عَنْهُ إلَىٰ مَعَانٍ كَثِيرَةٍ، أوْصَلَهَا عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ إلَى نَحْو اثْنَيْنِ وثَلاثِينَ معنىً، ويُسْتَدَلُّ علَى المعنَى الْمُرَادِ بالقَرائِن.

[كَيفَ مَدَّ الظِّلّ]: يَأْتِي لفْظُ «كَيْفَ» اسْمَ اسْتِفْهام، وهُو مبنيٌّ علىٰ الْفَتْحِ دواماً، ويَأتِي عَلَىٰ وُجُوهٍ من الإعْرابِ بحَسَبِ الكَلَامِ، وقَدْ يُجَرَّدُ مِنْ مَعْنَىٰ الاستفهام ويَبْقَىٰ دالًّا علىٰ الكَيْفِيَّة.

والمعنى: أَلَمْ تَعْلَمْ طَائِفةً مِنْ صِفَاتِ رَبِّكَ نَاظِراً إِلَىٰ آثَارِ صُنْعِهِ الْبَدِيعِ الْمُشْتَمِلِ عَلَىٰ كَيْفِيَّةِ مَدِّه الظلّ.

الظلّ: هُوَ مَا يُرَىٰ في المَكَانِ إذَا قَامَ حَاجِزٌ بَيْنَه وبَيْنَ مَنْبَع الضَّوْءِ، مَعَ وصُولِ مِقْدَارٍ مِنَ النُورِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ بأَشِعَّتِه يَسْمَحُ بِالرُّؤْيَةِ، ولَوْ بِغَبَشٍ وَعَدَمِ وُضُوحٍ تامٍّ لِلْمَرْئِي.

ويكون الظلّ في الصباح بالنسبة إلى الشمس إلى جهة الغرب، فإذا تحوّل مساءً إلى جهة الشرق سُمِّيَ فيئاً، من «فَاءَ» إذا رجع.

أمّا المكان الذي لا تصلُ إليه أضواءٌ مباشرة بأشعتها ولا غير مباشرة فلا يُرىٰ منه شيء، فالذي يعمُّه هو الظّلام، والظُلْمةُ، ودلت نصوص القرآن على أنّ الظلمات ذوات مستويات بعضها أشدّ من بعض، لاختلاط بعض النور بالظلمة، بنِسبٍ متفاوتة، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

وأثْبتَ القرآن أنّ الظُّلُماتِ تحصُل بجَعْلٍ ربّاني، كما أنّ النور يتمّ بجَعْلِ الله له، ويحْتَمِلُ أنْ يكون الْجَعْلُ للظُّلُماتِ بسَبَبِ التَّفاوُتِ في نِسبِ الظُّلْمة فِيهَا، فَهِيَ تَتَفَاوَتُ بسَبَبِ مَا يَخْتَلِطُ فِيهَا مِنْ نُور، ويكُونُ ذَلِكَ بتَدْبيرِ اللَّهِ عزَّ وجلّ، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

وبالنظر إلى أنّ الظّلّ هو ما يُرَىٰ في المَكَانِ إذا قام حاجزٌ بينه وبين منبع الضّوْءِ مع وصول مقدارٍ من النُّورِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ بأشِعَّتِهِ يسْمَحُ بالرُّؤية في مُسْتَوياتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، فإنّ باستطاعتنا أنْ نَعْتَبِرَ اللّيْلَ الَّذِي يَمْتَدّ علَىٰ الأرْضِ نَوعاً مِنَ الظّلّ، لأنَّ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ الضَّارِبَةَ علَىٰ الأفُقِ الْبَعِيدِ تَنْعكِسُ بمِقْدَارٍ قليلٍ يَسْمَحُ فِي اللَّيْلِ بِرُؤْيَةٍ مَا مصْحُوبَةٍ بغَبَشٍ، لأَنّ نِسْبَةَ الأنْوَارِ المُنْعَكِسَةَ قَلِيلَةٌ، ويَتَزايَدُ هٰذَا النُّورُ بَعْدَ الْفَجْرِ حَتَّىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فيكُونُ الظِلُّ فِي هٰذِهِ المُدَّةِ علىٰ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ من انكِشَافِ المَرْئِيَّاتِ فِيه، فَإذا أَخذَتِ الشَّمْسُ تَمْتَدُّ إِشْرَاقاً صارَتْ أَمَاكِنُ الظّلّ أكْثَرَ انْكِشَافاً،

وتَمْشِي الشَّمْسُ بأَشْعَّتِهَا حتَّى يَقِلَّ الظلُّ جِدّاً على سَطْحِ الأَرْضِ المَكْشُوفَةِ وسَطَ النَّهَارِ، ثُمَّ يَفِيءُ الظِّلّ شيئاً فشيئاً إِلَىٰ جِهَةِ الشَّرْقِ حَتَّىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ، ويَحْدث علَىٰ الأرْضِ مِنَ الظِّلّ بُعَيْدَ الْغُرُوبِ نَظِيرَ الَّذِي حَدَثَ فِيها قُبَيْل الشُّروق.

ويُسمِّي العربُ المكانَ الَّذِي تمتدّ إِلَيْهِ أشِعّةُ الشَّمْسِ «ضِحّاً» ويُسمُّونَ حَرَارَةَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ حَرُوراً.

ونُطالعُ في الْقُرآنِ حَوْلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورِ، والظِّلّ والْحَرُورِ، عِدَّة نُصُوصٍ، مِنْهَا ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾.

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

داخرون: جمع «داخرٍ» وهو الذليلُ الصَّاغِر الخَاضِع.

(٣) وقول الله عزَّ جلّ في سورة (النحل) أيضاً:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وقد وصف الله الجنّة بأنّها ذَاتُ ظلّ دَائِمٍ، أي تُرى فيها الأشياء رؤية جميلة، دون إزعاج للأبْصارِ بأشعَّةِ الْمَنابعِ الضَّوْئِيَّةِ الَّتِي تُبْعِدُ عَنْهَا الظُّلْمَةَ فَهِي تَعْكِسُ أنْوارَهَا البارِدَةَ الْهَادِئَةَ عَلَىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ مُرِيحٍ للمَرَاكِزِ الْحِسِّيَّةِ فِي الأحْيَاءِ.

ولمّا كان الظّلُّ فِي الأَرْضِ يَتْبَعُ حَرَكَةَ دَوَرَانِ الأَرْض حَوْلَ نَفْسِهَا باتِّجَاهِ الشَّمْس، كانَ منْ مظَاهِرِه أَنَّهُ بَعْدَ غُروبِ الشَّمْسِ يَكُونُ الظّلُّ مُمْتَدّاً شَاملاً، ويشتدُّ قليلاً قليلاً، ثم يَبْدأُ بالْوُضُوحِ بَعْدَ الْفَجْرِ شَيْئاً فشَيئاً، فإذَا أَشْرَقَتِ الشّمُسُ أخذَ الظّلُّ مَعَ حَرَكَةِ دورَانِ الأَرْضِ يَنْقَبِضُ شَيْئاً فشَيئاً، فَيَزِيدُ الضِّحُّ ويَقِلُّ الظِّلُّ، وعند وصول الشمسِ إلىٰ وَسَطِ السّمَاءِ تَمَاماً لا يَبْقَىٰ في الأَرْضِ إلّا أَقَلُّ الظّلّ، ثُمَّ يَفِيءُ الظِّلّ إلىٰ جِهَةِ الشَّرْقِ شَيئاً فشيئاً، حتَّىٰ يكُونَ عِنْدَ الغُروبِ مُمْتَدّاً شَاملاً.

ونلاحظ أنّ الله عزَّ وجلّ يُخَاطِب بالخِطَابِ الإِفْرَادِيّ كُلَّ ذِي فِكْرٍ يَتَفَكّر وكُلَّ ذِي بَصَرٍ يَنْظُر، مِنَ الَّذِينَ يَدْعُوهُم لِمُشَاهَدَةِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِه فَيقُولُ تَعالَىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: أي: كَيْفَ مَدَّ الظّلّ عَلَىٰ وَجْهِ الأرض، حتَّىٰ تُرىٰ مَعَهُ الأشياءُ دُونَ انْزِعَاجٍ بأشِعَّةِ الشَّمْسِ الْمُبَاشِرة.

وجاء الاستغناء بعبَارَة: **[مدَّ الظلّ]** عن مقابلها وهي: تَقْلِيصُ الظِّلّ.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: أي: ولو شَاءَ ربُّكَ لجَعَلَ الظِلَّ ثَابتاً دواماً غيْرَ مُتحرِّكٍ، ويكُونُ ذَلِكَ بِجَعْلِ نِظَام الأرْضِ والشَّمْسِ عَلَىٰ وَضْعٍ آخر يَبْقَىٰ مَعَهُ الظّلُّ علىٰ الأرْضِ دَائِماً سَاكِناً لا يَتَحرَّكُ.

ولكِنّه سبحانَهُ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، لأنَّ حِكْمَتَه في نِظَامِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا قَدْ قَضَتْ ذلِكَ، فَجَعَلَتْ حَاجَاتٍ كثيراتٍ للنَّبَاتِ والأحْيَاءِ والأشْيَاءِ مُرْتَبِطَةً بوُصُولِ أشِعَّةِ الشَّمْسِ إلَيْهَا، ضِمْنَ النِّظَامِ الَّذِي وضَعَه لها.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مدِّ الظّلّ طوالَ ليْلٍ كامل تُشرقُ الشَّمْس، فتدلُّ على أنَّ الّذي كَانَ عَلَىٰ الأَرْضِ مِن انْكِشَافٍ مُخْتَلِفِ النّسب، منْذُ بدْءِ الْغُروبِ حتَّىٰ الشُّروق، إنّمَا كَانَ مِنْ قِبَلِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الّتي تَنْعَكِسُ أضواؤها على الأرض مرْتَدّةً مِنْ جِهَاتِ الأفق.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾: أي: ثم قبضنا الظلّ قبضاً هيّناً ليّناً.

الْقَبْضُ الْيَسِيرُ: حَرَكَةُ ضَمِّ الشَّيْءِ الْمَبْسوطِ، فَيَقِلُّ امْتِدَادُه بذلك شيئاً فشيئاً، حتّى النِّهاية، كقَبْضِ أصابعِ الكَفِّ علىٰ الكَفِّ حتّىٰ النهاية، والمرادُ نَسْخُ أشِعَّةِ الشّمس للظّلّ.

[إلَيْنَا]: أي: إلىٰ الغيب المحجوب عن أنظار العباد.

ولمّا كَانَ القبْضُ للشّيْءِ يُخْفِيهِ عَنِ الأنْظَارِ، وكانَتْ الشمسُ آيَةً من آياتِ الله الضَّوْئِيّةِ، وكانَتْ هي السّبب النَّاسِخ القابض للظّلِّ والْمُخْفِيَ لَه قالَ تَعالَى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا﴾ أي: أخْفَيْنَاهُ إلىٰ جِهَةِ آيَتِنَا الضَّوْئِيَّةِ، الّتِي هي الشَّمْسُ، والشَّيْءُ الَّذِي يَنْعَدِمُ منَ الوُجُودِ يَذْهَبُ إلَىٰ جِهَةِ بارِئِه، إذْ هُوَ مَصْدَرُ خَلْقِه.

والصُّورَةُ تُمثِّلُ صُورَةَ أَصَابع أَشِعَّةِ الشَّمْسِ تَأْتِي مِنْ أعْلَىٰ الظِلِّ فَتَقْبِضُهُ إلَىٰ دَاخِلِ رَاحَتِهَا مِنْ أسْفل فَيَخْتَفِي، وهٰكَذَا بِتَتَابُعِ قَبْضاً يَسِيراً سَهْلاً قَلِيلاً قَلِيلاً، لَا يُدْرَكُ إلّا بَعْدَ ذَهابِ الظّلّ وامْتِدَادِ أَشِعَّةِ الشمس.

اليسير: في اللّغة يأْتِي بمَعْنَىٰ الهيِّنِ اللَّين، ويأْتِي بمَعْنَىٰ الْقَلِيل.

والْيُسْر في اللّغة ضِدُّ الْعُسْرِ، والمَادَّةُ فِي اللُّغَةِ تَدُورُ حَوْلَ مَعْنَىٰ اللَّيِّن والانْقِيَادِ والسُّهُولَة.

ومِنَ الظَّاهِرِ الْبدَهِيّ أنّ حَرَكَةَ انْقِبَاضِ الظلّ وامْتِدَادِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ إلَىٰ مواطِنِ انْقِبَاضِ الظّلّ تَتِمّ بغَايَةِ الْيُسْرِ واللّينِ والسُّهولَةِ، ويأْتِي بالتدرُّجِ قَلِيلاً قليلاً.

وفِي التَّوْجِيه الإِفرادي لِرُؤْيَة هٰذِهِ الآيَةِ الرّبّانِيَّةِ والتفكُّرِ فِيها حَثٌّ عَلَىٰ الْبَحْثِ العلْمِيّ فِي النِّظَامِ الكَوْنِيّ الَّذِي نَجمَتْ عَنه هٰذِهِ الظاهِرَةِ. وهُو

النِّظَامُ الذي تمَّ بمَقْتَضَاه خَلْقُ الشَّمْسِ والأرضِ، وجَعْلُ الشَّمْسِ جِرْماً حَرَارِيّاً بَاعِثاً للأَشِعَّةِ الضَّوْئِيَّةِ الحارَّةِ، وجَعْلُ الأَرْضِ كَوْكباً بَارِداً فيه كُلُّ مَا يَلْزَمُ لحياةِ الأحْيَاءِ عليها، ولحيَاةِ النَّاسِ طَوال أعْمارِهِم المقدَّرَةِ لامْتِحانِهِم فِي حَيَاتِهم الأولى حَيَاةِ الابْتِلَاء، ومِنْ ذَلِكَ تَدَاوُل اللّيل والنَّهارِ عَلَيْهَا، وحَرَكَةِ الظّلّ والضّح عَلَيْهَا بانْتِظَامِ مُتَعاقِبٍ.

وبالدراسَةِ العلْمِيّة بالوسَائِل الإِنْسَانِيّة تَوصَّل الباحِثُونَ في الظواهر الكونيّة إلى عجائبَ مذْهلَةٍ معجزةٍ من آياتِ الله في كَونه، حولَ آيَةِ حَرَكَةِ الظِّلِّ والضّحّ عَلَى الأرْضِ، وأنّها مَظْهَر إتْقانٍ عَجِيبٍ لَمْ يَخْتلّ طَوالَ أُلُوفِ الْمَلَايِين مِنَ السِّنِين، تمَّ بِه وضْعُ الأَرْضِ في بُعْدٍ معيّنٍ عن الشمس لو كَانَ عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ بُعْداً عن الشمس أو قرباً مِنْهَا لَمَا كَانَتِ الأرْضُ صَالِحةً لِظُهورِ الْحَيَاةِ عَلَيْهَا، ولَا لِبَقَاءِ الحَياة على سَطْحِها، وتَمّ بِه تَحْرِيكُ الأَرْضِ بحَرَكَتَيْنِ تتحرّكَانِ مَعاً، حَرَكَةٍ حول نَفْسِهَا باتّجاه الشَّمْس، وحَرَكَةٍ أُخرى في مَسِيرِها في الفَلَكِ حوْلَ الشَّمْس، فَيَنْتُج عَن حَرَكَتِهَا حوْلَ نَفْسِهَا حركةً دورانيّةً فِي أربعٍ وعشرين ساعةً اللّيلُ والنهار، وينْتُجُ عن حركتها في مَدَارِها حَوْلَ الشَّمْسِ السنَّةُ الشَّمْسيّة بفُصُولِها الأربع.

ولو كانت حركةُ الأرض في دَوَرَانِها حَوْلَ نفسها أبطأَ لطَال كُلٌّ مِنَ اللّيلِ والنهار، أَوْ أَسْرعَ لَقَصُر كلٌّ مِنَ اللّيل والنهار.

وهِي مُحَافِظَةٌ عَلَىٰ نِظَامِهَا دَواماً، لَمْ تَخْرِم مِنْهُ ثَانِيةً وَاحِدَةً طَوَالَ مَلايِينِ السِّنين.

ولوْ كَانَتِ الأَرْضُ ذاتَ مَدارٍ أَقْرَبَ إِلَىٰ الشَّمْسِ لاشْتَدَّتْ حَرَارَتُها وتَبَخَّرَتْ مِياهُهَا، أَوْ أَبْعَدَ لاشْتَدَّتْ بُرُودَتُها ولصَارَتْ كُلُّ مِيَاهِهَا جَلِيداً، وتَنْعَدِمُ بذلك الشروطُ الصَّالِحَةُ للْحَيَاة.

وكَلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ علىٰ أنَّ المُتْقِن المُنَظِّمَ المُهَيْمِنَ علىٰ نِظَام الأَرْضِ والشَّمْسِ خالقٌ ربٌّ واحدٌ لا شريكَ لَه في ربوبيّته.

فمَنْ وصَل إلىٰ إدْراك هٰذِه الحَقِيقةِ، وإلىٰ الْإيمانِ بها لَزِمَهُ عقلاً أَنْ يُؤْمِنَ بأنّه لَا يَسْتَحِقّ الْعِبَادة في الوجُودِ سِوَاهُ، فَلا شَرِيكَ لَهُ فِي إلَهِيّتِه، إذَنْ: فَيَجِبُ أَنْ يَعْبُده العِبادُ وَحْدَه لَا يُشْرِكُون بعبادِته أحداً.

* * *

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ﴾: هذا الضّمير يعود على لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ في الآية السابقة.

﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾: سبقَ بيان معنَىٰ «الْجعْل» في تحليل الآية (١٠).

﴿ٱلَّيۡلِ﴾: اسم للزمن الكائن بين غُروبِ الشمس وطُلوع الفجر الصَّادق، في دَلَالاتِ النُّصُوصِ الدّينيَّة. وربّما اعْتَبره العَرَبُ مُمْتَدّاً حتَّىٰ الإسْفَار الَّذِي يكُونْ قبل شُروق الشَّمْسِ بظُهُورِ قُرْصِها، لأنّ الظلمة عند الفجر وبعده بقليل تشبه الظلمة التي تكون بَعْدَ الْغُروبِ حتَّىٰ قُرْبِ مَغِيب الشَّفَقِ الأَحْمر.

﴿لِبَاسًا﴾: أي: كاللِّبَاسِ لأَنَّهُ يُجلِّل الأشْيَاءَ ويَسْتُرها بِمَا فِيهِ مِنْ ظُلْمَةٍ، فَهُو كاللِّبَاسِ الَّذِي يسْترُ منَ الأشياءِ الَّتِي يكونُ عَلَيْهَا بِمِقْدارِ كَثَافَتِه الحَاجِبَة.

وقول الله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ هُو مِنْ قِبَيل التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ، لأَنَّهُ تَشْبِيهِ حذفت منه أداة التشبيه.

﴿وَٱلنَّوۡمَ﴾: **النَّوْم**: حَاجَةٌ متكرِّرَة مَعْرُوفَةٌ مِنْ حَاجَاتِ الأحياء، وهُو فِي حَقِيقَتِه وَفَاةٌ صُغْرىٰ للنُّفوسِ، فَفِيه يَتَوَقَّفُ الحِسُّ الظاهر عن العمل، فيكون النائم كالميّت الذي لا يَسْتَجِيبُ لِشَيْءٍ ممَّا حَوْلَه.

وقد أبان الله عزَّ وجلّ أنّ النَّوْمَ جُزْءُ مِنْ وفَاةِ الأنْفُس، وأنّه وَفَاةٌ دُونَ وَفَاة الْمَوْتِ، إذْ تَعُود الأنْفُسُ إلىٰ الْحَيَاةِ الْجَسَدِيَّةِ عنْدَ الْيَقَظَةِ، وأمَّا الْمَوْتُ فَهُوَ وَفَاةُ تَامَّةٌ للأنْفسِ، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ومن عَجِيبِ ظَاهِرَةِ النَّوْمِ أنّه عَرَضٌ يتمُّ في الإنسان عَنْ غَيْرِ طَرِيقِ سُلْطَانِ إرَادَتِهِ، فهو لا يَمْلِكُ بإرادَتِه السيطرةَ علَىٰ النَّوْم، وقَدْ يَتمنَّاه مُحْتَاجاً له فلَا يَسْتَطِيعُه، وقدْ يَشْتَهِي السَّهَر فَيَغْلِبُه سُلْطَانَ النَّوْم.

وقد اتّضَح للباحِثين من علماءِ الطَّبِيعة أنّ حَاجَةَ الإنْسان إلى النَّوْم مِثْلُ حاجته إلى الطعام والشَراب، ورُبّما تكونُ أشد.

ومن آيات الله التي اكتشفها العلماء الطبيعيّون في ظاهرة النوم، أنّ مَلايِينَ الخلايا في الْمُخّ تَنْفَصِلُ عَنْ مُقَابِلَاتِها حالَةَ النَّوْم، وَتَتّصِل فتتماسّ ببَعْضِها حالة اليقظة، فالحَادِثَةُ شَبِيهَةٌ بِفَصْلِ مجمَّعٍ كَهْرَبَائِيّ ذِي أسْلَاكِ اتِّصَالٍ تُعَدُّ بالْمَلَايِين، وكُلُّ مِنْهَا يُؤدّي وظيفةً خاصّةً تَتَّصِل بنَاحِيَةٍ مِنْ أنْحاءِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَة.

والأحْيَاءُ الّتي جعل الله عزّ وجلّ من نظام حياتها أنَّها بحاجة إلى النَّوْم، يَدْفَعُنَا واقِعُ حالها إلى السؤال عَمَّنْ يُدبِّر أمُورَ حياتها وهي نائمة؟!

إنّ منطق حقَائقِ هٰذا الكون يهدينا إلى ضَرُورَةِ وُجُودِ مَوْجُودٍ عظيم حيّ لا تَأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ، وهُوَ ما بيَّنَه الله عزَّ وجلّ بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴿٢٥٥﴾﴾.

فالله عزَّ وجلّ يدبّرُ الأمْر كُلَّه بقيُّوميّته، ويحْفَظُ خَلائِقَه وَمَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءِ فِي الكَوْنِ بِعِلْمه وقُدْرَتِه وحِكْمَته.

﴿سُبَاتًا﴾: السُّبَاتُ أصْلُهُ الرَّاحَة والسُّكُوْنَ، قَالَ الزجَّاجُ: السُّباتُ: أن ينقطع (أي: الْحَيُّ) عن الْحَرَكَةِ والرُّوحُ في بَدَنِه، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ أي: وجعلنا نومَكُمْ رَاحَةً لكم.

تقول لغة: سَبَتَ يَسْبُت، إِذَا نَامَ لِيَنَالَ مَا يَحْتَاجُهُ مِنَ الرَّاحَةِ.

أقول: النَّومُ نعْمةٌ من نعم الله، يكتسب به المخلوق الحيّ راحَةَ جِسْمِهِ من متَاعِبِ الحَرَكَةِ والْعَمَلِ والْيَقَظَةِ الطَّويلَةِ، وَمَا يَتَرَسَّبُ بسَببها فِي الْجِسْم مِنْ عَنَاصِر كِيمِيَائِيَّةٍ ضَارّةٍ في مَواطِنَ النَّشَاطِ والحَرَكَةِ فِي الْعَضَلَاتِ أَوْ عَلَىٰ الأَعْصَاب.

وقد أثبت علماء الأحياء أنّ اسْتِرْخاء الجسم في حالة النّوْم يساعِد علىٰ تَنْظِيم الدَّوْرَةِ الدمويّة، ومَدِّهَا بالنَّشَاط الْجَدِيد، لِيُسَاعِدَ ذَلِكَ علىٰ طَرْد مَا عَلِقَ في أنْحاءِ الجِسْم من موادّ ضارَّةٍ، كانَ الْإِجْهَادُ أو اليَقَظَةُ الطَّوِيلَةُ السَّبَبَ فِي عُلُوقِهَا وَتَرَسُّبِها.

لذلك امتنّ الله علينا بأنّه جعلَ لنَا النَّوْمَ سُباتاً.

وقال الله عزَّ وجلّ أيضاً في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾: النُّشورُ الحياةُ بعْدَ المَوْتِ، ولمَّا كانَ النَّومُ مثل المَوْتِ كانَ الَّذي يَصْحُو من نَوْمه مثْلَ الَّذِي يَحْيَىٰ بَعْدَ مَوْتِه.

ويأتي النُّشور بمعنى التفرُّق.

ومما رُوي عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه إذا أفاقَ مِنْ نَوْمِهِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَاً بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُور».

فالمعنى: وجعل النّهار وقتاً مُنَاسِباً لِيَنْتَشِرَ النَّاسُ فِيهِ من نوْمهم، وليَتَفرَّقُوا فيه يَبْتَغونَ بأعْمَالِهِمْ فَضْلَ اللَّهِ، من أُمورِ دُنْياهم وأُخراهم.

قول الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿أَرْسَلَ﴾: بالْفِعْلِ المَاضِي لبيَانِ ما سَبَقَ أنْ حَدَثَ، وَجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ... ﴿٥٧﴾﴾.

بالفعل المضارع لبيان ما يحدث بتجدّد في ظاهرات تصاريف الله في كونه.

والإرسالُ فيه معنى البَعْثِ لمُهمَّةٍ، وقد جَاء التّعْبيرُ بالإرسال ليدُلَّ على أنّ بعْثَ الرِّيَاحِ مَقْصُودٌ به تَبْلِيغُ رِسَالةٍ من الله بمَقْدَمِ غَيْثٍ هُوَ مِنْ عَطَاءِ رَحْمَتِه، مَعَ قِيامِهَا بوَظَائِفِهَا الْمَادِّيَّةِ.

﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: إحْدَىٰ آياتِ اللَّهِ في كَوْنهِ، وهي آيةٌ عَجِيبَةٌ ذَاتَ أَحْدَاثٍ كُبْرَىٰ في الكَوْنِ، فَمِنْهَا ما يأْتِي بالنَّفْعِ الْعَظِيم، ومِنْهَا مَا يَأْتِي بالتَّدْمِيرِ والعَذَابِ الأليم.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ في كتابه آية الرِّياح في نصوص كثيرة سبق أن أفردت لها ملحقاً خاصًا، تابعاً لتدبُّر سورة (المرسلات).

﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي: إعلاماً ساراً بمقْدَم غَيْثٍ تَسُوقُهُ أوامر اللَّهِ الّتي هي من آثار رحْمَتِه جلَّ جلالُه.

وعلى قِرَاءَات: [نُشراً ونُشْراً وَنَشْراً] فالمعنى: أرسل الرياح ناشِرَةً ما

يَدُلُّ ذوي الحسّ والفكر، على أنَّ الغيْث من رحمة اللَّهِ قادِمٌ بَعْدَ هُبُوبها، وهٰذا من عنايَةِ الله بعباده.

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي: سابقاً ومتقدّماً ما ستأتي به رحْمَةُ الله بعباده، من غيثٍ أو غيره، ممّا جعل الله عزّ وجلّ الرّياح سبباً فيه، كَحَمْلِ غُبَار اللِّقَاحِ من ذُكور النباتات إلى إناثها، لإنضاج الثمار.

ومن الملاحظ أنّه يُرادُ بإطْلاقِ عبارة: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وأشباهها في القرآن مَا أتَىٰ سابقاً، فكُلُّ مَا بَيْنَ يَدَي الإنْسَانِ أو الشيءِ، هُوَ ما كان سابقاً له فيما مضىٰ، بالنِّسْبَةِ إلى القضايَا الزمنية، أمّا ما هو خَلْفَ الإنسان أو الشيء في الزمنيات فَهُوَ المستقبل وكُلُّ ما فيه.

وقد وَرَدَ في القرآن المجيد استعمال مثل: [مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ ـ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ـ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ ـ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ـ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ـ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ].

ومن استقراء وسَبْر معاني هٰذِهِ العبارات القرآنيّة ونظائرها، وتتبّع دَلَالاتها، ظهر لي أنَّ مَا بَيْنَ يَدَي المتحدَّثِ عَنْهُ، أو المتحدَّث له، وأنَّ ما خَلْفَهُ على وجهين:

الْوَجْهُ الأول: أن يكون زمانيًا.

الوجْهُ الثاني: أن يكون مكانيًا.

(١) فإذَا كانَ زمانيًا، فما بين يدي المخلوق المخاطب بالكلام هو الماضي، لأنَّه هو المرئيُّ الذي سبَقَ أن كان مشهوداً له، أو لمثله، فهو الذي بيْنَ يَدَيْهِ، نظراً إلَىٰ أنَّ مركبة حياته في زمانه تسير به وظَهْرُهُ إلى مقدمتها، إذا المستقْبَلُ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إليه، ووجْهُه وصَدْرُهُ وبَصَرُهُ وكُلُّ حوَاسِه متوجِّهَةٌ لمؤخِّرَتِها، يَرَىٰ ويُدْرِكُ ما تَسْتَطِيعُ حواسُّهُ أن تُدْرِكَهُ، ممّا

حَصَلَ ووقَعَ ومضَىٰ، بدْءاً من لحظَةِ الحاضِر فَما كان قَبْلَها، وآخِرُهَا في الترتيب الزمَنِيّ لحْظَةُ الحاضِر.

أمَّا ما سَيأتي فهو مجهولٌ وغيب.

وبناءً على هذا الْفَهْمِ يكونُ مَا خَلْفَهُ هو المستقبل بالنسْبَةِ إليه، وبمقْتَضىٰ هذا التحليل الكاشف للحق والواقع نَسْتَطِيعُ أن نفهم كُلَّ الاسْتِعْمَالات القرآنية التي يَكُونُ فيها ما بين يَدَي المخلوق وما خَلْفَهُ أمراً زمانيًا، ومنْهَا عبارة: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ في النّصّ الذي نتدَبَّرُه، أي: قَبْلَ زمان نزول آثار رحمته، جلَّ جلالُه وَعظُمَ سُلْطانُه.

(٢) وإذا كان مكانيًا، فما بين يدي المخلوق المخاطب بالكلام هو ما يقع إلى جهة وجْهِهِ وصَدْره، وما خلفه هو ما يقع إلى جهة ظهره.

ومن التوسّع في دلالة هذا الاستعمال اعتبار المرئي والمدرك هو من الذي بين يدي المخاطب مكانيًا، واعتبار غير المرئي أو ما لا يقع في دائرة المتحدّث عنه، من الأشياء التي هي من خلفه، ولو كان غير المرئي هذا من الأشياء التي تقع مكانيًا من جهة وجه الرائي وصدره، إذْ هو من خلف مرئيّاته ومدركاته.

وقد تكون المكانيّة مكانيّةً مجازيّةً مجازيّة.

(٣) وَما يصلُح للمكانيّة والزمانيّة معاً يُحْمَلُ عليهما⁽¹⁾.

* * *

وقد عبّر الله عزَّ وجلّ عن الحالَةِ المقارِنَةِ أو السَّابِقَةِ لنُزُولِ الأمْطَارِ النَّافِعَةِ التي يُكْرِمُ الله بِهَا عِبَادَه بأنّها رَحْمَةٌ مِنه، فقال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

---

(١) انظر القاعدة (٣٦) من كتاب: «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف.

ونستَطِيعُ أن نُدرِكَ أنَّ هٰذه الحَالَةَ الْمُقَارِنَة أو السَّابِقة هِيَ أَمْرُ التَّكْوِينِ بِإنْزَال المَطَر، وأَمْرُ التَّكْوِين هذٰا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ صِفَةِ رَحْمَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ بعَبَادِه، وهٰذِه الصِّفَةُ هِيَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِه عزَّ وجلّ.

فالتعبيرُ بالرَّحمَةِ هُوَ مِنْ إِطْلاقِ اسْمِ السَّبَبِ عَلَىٰ الْمُسَبَّبِ، أو نقول: هو من إِطْلَاق الصِّفَة علىٰ بَعْضِ آثارِها وما يَنْجُمُ عَنْها، وهو أَمْرُ التكْوِينِ الّذِي تَتِمُّ بِه نعمةٌ مِنْ نِعَمِ الله عَلَىٰ عِبادِه.

فمَا هُوَ المْظَهرُ الماديُّ للأَمْرِ التكْوِينّي الّذي صَدر بمقْتَضَىٰ صِفَةِ الرَّحْمَةِ الّتِي جاءَتْ الرياحُ مُبَشِّرَةً بِه، وناشرةً الرِّسَالة الرّبّانيّة الْمُعْلِمَةَ به؟

لقد جاء الجواب في قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾.

عطفت هذه الجملة بالواو للدلالة على أنّ إنزال الماء من السماء هو شيءٌ آخر غير الذي أُطلِقَ علَيْه لفظ ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ وهٰذا هو الَّذِي يُنَبِّهُ المتدَبِّرَ على أنَّ المُرادَ بـ ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ هُو أَمْرُ التَّكْوِين الَّذِي يكون عقِبَهُ مُبَاشَرَةً المأْمُورُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

ويُلاحظ أنّه جاء في النصّ التفاتٌ من ضَمِيرِ الْغَائِبِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾، إلىٰ ضَمِيرِ المَتَكلِّم الْعَظِيم في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، والغرضُ، التنويعُ الجَمَالِيُّ فِي الأداء الْبَيَانِيّ، والمواجهةُ بالامتنان على العِبادِ بإنزالِ المَاءِ الطَّهُورِ الَّذِي هُوَ المادّةُ الْعُظْمَىٰ مِنْ مَوَادِّ أرْزَاقِهِمْ الّتِي جعَلَ الله بِها بقاءَ حَياتهم، وربط بها كثيراً من مَنَافِعِهم فِي دُنْيَاهُم.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: من السحاب، فالسّماء في اللّغة هي كلّ ما عَلَا فأظلّ، وقد أثبتت المشاهدة أنّ الأمطارَ تَنْزِلُ من السُّحُب، وهي تتكون في

الغلاف الغازي المحيط بالأرض، نَتِيجَةَ تَبَخُّر المياه على سطحها وَسْوقِ الرِّياحِ لبخار الماء وللسُّحُب.

﴿طَهُورًا﴾: على وزن «فَعُول» إحدى صِيغ المبالغة لاسم الفاعل. واسم الفاعل من «طَهُرَ» يأتي بضيغة «طاهر».

وقد فهم الفقهاء من صيغة «طَهُور» وصفاً للماء، أنّه طاهر بذاته مُطهّرٌ لغيره.

قال الأزهري: الطَّهُور في اللّغة هو الطاهر المطهّر، لأنه لا يكون طَهُوراً إلَّا وهو يُتَطَهَّرُ به، كالْوَضوء هو الماءُ الذي يُتَوَضّأُ به، والنَّشُوق ما يُستَنْشَقُ به، والْفَطُور ما يُفْطَرُ عليه من شراب و طعام.

وقال ابن الأثير: الطُّهُور بالضمّ التطهُّر، وبالفتح الماء الذي يُتَطهَّرُ به، كالوُضوء، والْوَضوء، والسُّحور والسَّحُور، وسئل رسول الله عن ماء البحر، فقال: «هو الطَّهُورُ ماؤه، الحلّ ميتته» أي: المطهّر، أراد أنه طاهر يُطهّر.

وقد أثبتت الدراسات العلميَّةُ الإِنْسَانِيَّة أنّ أنقى الماء هو الماء المقطّر، بالتبخّر والتقاطر بعد تَصَاعُدِ بُخَارِه، فهو بالتبخّر يُصَفَّىٰ من كلّ الشوائب، ومن كلّ ما علق به مِنْ أدْرانٍ وأَوْسَاخٍ وغَيْرِ ذلك.

وقد أبان الله عزَّ وجلَّ أنّ المَاءَ المنزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ له ثلاث منافع:

المنفعة الأولى: أنّه مطهّر للأشياء، وهذه المنفعة جاء بيانها مُدْمَجاً في تسميته بأنّه طَهُور.

المنفعة الثانية: جاء بيانها في قول الله تعالى:

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

وقد جاء التعبير بصيغة المتكلّم العظيم ﴿لِّنُحْـِۧيَ﴾ إشعاراً بأنّ هذا

الإِحْيَاءَ يدلُّ على عظمة الخالق جلَّ جلاله، والعبارة: بمعنى نُخْرِجُ بالماء نَباتَاتِ الأرْضِ، بِمَا فِيهَا مِنْ نماءٍ وخُضْرَةٍ واسْتِجَابَاتٍ تَقَعُ فِي دَرَجَةٍ دُنْيا مِنْ دَرَجَاتِ سُلَّم الْحَيَاةِ.

ونلاحظ في القرآن المجيد إطلاقَ الحياةِ والموتِ على أقسامٍ ثلاثة:

القسم الأول: حياةُ الكائنات الحيّة المُتحرِّكَةِ بالإِرَادَةِ ذات الإِحْسَاسِ بِمَا هُو مَرْغُوبٌ فِيه، وبِمَا هُوَ مَكْرُوهٌ، كالنَّاسِ والأَنْعَامِ والطَّيْرِ وسَائِرِ مَا يَدِبُّ عَلَىٰ الأَرْضِ، حتَّى الميكروبات الدّقيقة والفيْرُوسَات.

فإذا انْفَصَلَتْ أرْواحُها عَنْ أجْسَادِها، فأجْسَادُهَا ونُفُوسُها مَيِّتَةٌ.

القسم الثاني: حياةُ الأَرْضِ بالنَّبَاتِ النَّامِي مِنَ الزُّرُوعِ والأشجار، فإذَا خَلَتِ الأرضُ من النّباتِ وصَارَتْ جَرْداءَ لا نَبَاتَ فيها فهي ميّتَة، والمُرادُ بحياة الأرض حياةُ النَّباتِ فيها.

القسم الثالث: حَيَاةُ القُلُوبِ والنُّفُوسِ بالإِيمان بالله وبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ الله، فإذا خَلَتْ مِن الْإِيمَانِ فكَانَتْ كَافِرَةً فَهِي مَيِّتَةٌ، لأنَّها مُنْقَطِعَةُ الصِّلَةِ بواهِبِ الحَيَاةِ لكُلِّ ذِي حَياةٍ.

أمّا الحَياةُ والموتُ فِي عُرْفِ النَّاسِ فَهُمَا مَا يَكُونُ لِلقِسْمِ الأَوَّلُ، وقد يُطْلِقُونَهما علَىٰ حَياةِ الأَرْضِ بالنَّباتِ، وعلَىٰ مَوْتِها بخلوّها منه، وعلى حَياةِ النَّبَاتِ حِينَ يَكُونُ نامياً نضراً، وعلى موته حين يكون يابساً لا نماء فيه ولا نضرة، فيقولون: شجرة حيّة وشجرة ميْتة لا حياة فيها، إذا صارت حطباً لا يخرج منها عرقٌ رطب نامٍ، ولا ورقة نامية رطبة.

أمّا نسبة الحياة والموت إلى النباتات فمن الظاهر أنّه على سبيل الحقيقة لا المجاز، لأنّ مفهوم الحياة والموت في حقيقة التكوين أوسع من تصوّرات الناس لهما.

إنّ الحياة ذات سُلَّم مختلف الدرجات، وهي متفاوتات بعضها أعلى من بعض، ومن مظاهرها النماء والحركة، والإحساس بالمؤثرات، وترتقي حتّى تصل إلى ما نعرفه ونحسّ به من حياتنا.

والعلوم الإنسانية تتوالى اكتِشَافَاتُها التي تَدُلّ على أن لبعض النبَاتَاتِ إحساسَاتٍ تُؤَثّر عليها، وبعضُ هٰذهِ الإحْسَاسَات تَتَجَاوزُ حُدُود الإِحْسَاسَاتِ الكيميائيّة أو الفيزيائيّة، إلى ما يُشْبِه الإحْسَاسَاتِ النفسيّة.

وفوق كلّ ذي علمٍ علم.

﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: جاء في اللّغة لفظتا «بلد» بالتذكير، و«بلدة» بالتأنيث للدلالة على كلّ موضع أو قطعة أرضٍ ذات حدود ما، سواءٌ أكانت عامرة أم غير عامرة، مسكونةً أمْ غير مسكونة، ويجمع لفظ «بلد» على «بلاد» و«بلدان» وتطلق لفظتا «البلد» و«البلدة» على التراب. ويطلق لفظ «البلدة» على الأرض، تقول العرب: هذه بلدتنا، أي: هذه أرضنا.

ووصفت البلدة ولفظها مؤنث بلفظ «ميْت» ولفظه مذكّر، قال الزجاج: الميْتُ والميِّت بالتخفيف والتشديد والمعنى واحد، ويستوي فيه المذكر والمؤنث.

أقول: لمْ يَأت في القرآن وصف البلدة بالموتِ إلّا بصيغة: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وذلك في ثلاثة نصوص:

(١) في الآية (١١) من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

(٢) وفي الآية (٤٥) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) وفي الآية (١١) من سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

وقد يؤنَّث لفظ «مَيّتٍ» مع المؤنث غير لفظ «البلْدة» ومنه قول الله تعالى في سورة (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقيل: قال: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ولم يَقُلْ ميْتَةً، لأنّ البلدة في معنى البلد.

أقول: ما قاله الزجاج أحسن ممّا ذكره غيره من تأويلات لا داعي لها، فالاستعمال جارٍ في هذا اللفظ على ما يستعمله العرب، والقرآن شاهد عليه.

المنفعة الثالثة: جاء بيانها في قوله تعالى:

﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾.

السّقي والإِسقاء والتَّسْقِيةُ: تقديم الماء أو نحوه لمن يشرَبُه.

يقال لغة: سَقاهُ يَسْقِيه سَقْياً، وأَسْقَاهُ يُسْقِيه إِسْقاءً، وسَقَّاهُ يُسَقِّيه تَسْقِيَةً، وهذه الأفعال تَتعدَّىٰ إلى مفعولين، تقول: سقَيْتُ وأَسْقَيْتُ وَسَقَّيْتُ الظمآنَ ماءً.

وتقول العرب في الدّعاء: سَقياً لَهُ وَرَعْياً، أيَ: سَقَاهُ اللّٰهُ ورَعَاه.

والضمير الظاهر في [نُسْقِيهِ] يعود على المَاء، وهو أَحَدُ مفعْولَيْ الفِعل، والمفعول به الآخر ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ﴾.

﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾: متعلق بمحذوف حال متقدّم على صَاحِبه، على قاعدة أنّ الوصف إذا تقدّم على الموصوف انقلب حالاً فانتصب.

الأنعام: هي الإِبل والبقر والغنم.

الأناسي: جمع «إِنْسِيّ» وهو الواحد من البشر، قال الفرّاء: وإِنْ شئتَ جعلت الواحد «إِنْسَاناً» ثُمَّ جَمَعْتَه «أَنَاسِيّ» أَصْلُه «أَناسِين» قُلبَتِ النُّون يَاءً، كما قلبوا باء أرانِب ياءً فقالوا: «أَرَانِي» ونُون «سَرَاحِينَ» ياءً فقالوا: «سَراحِيّ».

أقوال: والمادّة تدور حول معنى الأُنسِ، وهُوَ ضِدُّ الْوَحْشَةِ، يُقَالُ: أَنِسَ واسْتَأْنَسَ وَتَأَنَّسَ.

ويُلاحظُ في البَيانِ ذكْر إحْيَاء الأرْضِ بالنَّباتِ قَبْل ذِكْر الأنْعَام، وذِكْرُ الأنْعَامِ قَبْلَ ذِكْر الأنَاسِيّ، ولَا يَخْفَىٰ ما في هذا من مُراعاةٍ للتَّرْتِيبِ الطَّبِيعيِّ فِي الواقع وفي الخَلْقِ، فالمَاءُ يُنْبتُ النَّباتَاتِ، والأنعامُ تَأْكُل من النباتَاتِ وتَشْرَبُ مِن الماء، والأَنَاسِيُّ يأْكُلُونَ مِن الزَّرْعِ ومنَ الأَنْعام، ويَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبانِ الأنْعَامِ ويَشْرَبُون مِن المَاء، فجَاء فِي البيَانِ امْتِنَانُ الله علىٰ النّاسِ بالْمَاءِ الذي يُنْبِتُ لَهُمْ بِه النَّباتَ، فيُقِيتُ ويَسْقِي لَهُم الأَنْعامَ، ويُقيتُهم من النباتِ والأَنْعَامِ ويُسقيهم، فمَا جَاء فِي النصّ هو التَّرتيبُ الْمُناسِبُ تماماً.

يضاف إلَىٰ هذا أنَّ مرحَلَة تكْوينِ إنْباتِ النَّباتِ فِي الأرض كانَتْ سَابقَةً لتَكْوينِ الأنعامِ، وأنّ مرحلةَ تَكْوينِ الأَنْعَامِ والأحياء الأُخرىٰ كانَتْ سَابقَةً لتَكْوِينِ الإنْسَان، فجاءَ البيانُ مُلائِماً لهذا الواقِعِ أيْضاً.

كثيراً: يُقالُ لُغةً: كَثُر الشَّيءُ يكْثُر كَثْرَةً وكَثَارَةً فَهُو كَثِير، وكثَّر الله الشَّيْءَ جَعَلَهُ كثيراً.

ويلاحَظُ أنَّه جَاءَ وَصْفَ ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ﴾ فِي النّصّ بالمفرَدِ المذَكَّرِ «كَثيراً» فَما السبب؟.

قَالُوا: لفْظُ «كَثير» معْنَاهُ مَعْنَىٰ الْجَمْع، إذِ الكثرةُ المستفادةُ من مادَّةِ الكَلِمَةِ دلَّتْ علىٰ الْمَعْنى الذي يدلُّ عليه الْجَمْع، فأغْنَى الْمُفْردُ فيه عن الْجمع.

أقول: يُضَافُ إلىٰ هذا ما سبق ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾. [من الآية: ٣٨] من أنّ صِيغَةَ «فَعِيل» ولو كَانَتْ بمَعْنَىٰ «فَاعِل» قَدْ تُعامَلُ مُعَامَلة صيغة «فَعِيلٍ» بمَعْنى «مَفْعُول» فيَسْتَوى فيها المذكر

والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع، ومنه لفظ: «وَكِيلٍ» فَيَجُوز أن يقال: هُمْ وَكِيلٌ، وهما وَكِيلٌ، وهي وكِيلٌ، وهكذا، ولفظ «كَفِيل» ومنه قولهم للجماعة: هم صَدِيقٌ، وهم فَرِيقٌ، ومن نظائره ما يلي:

(١) كلمةُ «ظَهِير» بمعنى معين، ومنه قوله تعالى في سورة: (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول): ﴿... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

فلم يَقُلْ ظُهَراء.

٢ ـ كلمة «رفيق» ومنه قوله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول): ﴿... وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾.

فلم يَقُلْ رُفقاء.

وجاءت في القرآن لفظ «كثير» بالإفراد مع أن الموصوف بها جمع في النصوص التالية:

١ ـ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول): ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ... ﴿١٤٦﴾﴾.

٢ ـ وفي سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول): ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً... ﴿١﴾﴾.

٣ ـ وفي سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ... ﴿٤٣﴾﴾.

فجاء في هذه الآية أيضاً لفظ «قليل» بالإفراد وصفاً لجمع، وهو من هذا الباب.

فتكرار مثل هذا الاستعمال في القرآن يدلُّ على أنّ «فَعِيلاً» بمعنى «فاعل» قد يُعَامل معاملة «فعيل» بمعنى «مفعول»، وأنّ كلا الوجهين فيه جائزان، فيجوز فيه الإفراد مع التذكير، وتجوز فيه المطابقة، ونستغني بهذا عن التأويلات، والله أعلم.

* * *

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾.

﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾: التَّصْريفُ هو التنويُع والتغييرُ واتّخاذُ مخْتَلِف الوجوه الممكنة للوصُولِ إلى الْغَايَة، أو لِمُعَالَجَةِ الأمْرِ الَذِي يُرادُ التأْثِير فِيه بأَحْسَنِ الْوَسَائِل والأسْبَابِ، ومنْ أَحْسَنِ الطُّرق، ويُرادُ الاحتيالُ عليه بمُخْتَلِفِ الحِيَلِ، وهٰذا في أَفْعَالِ العباد.

أمّا تَصْرِيفُ الله الرياحَ والْمِيَاهَ ونَحْوَ ذَلَكَ فيَكُونُ بتَغْيِير حركَاتِها لتؤَدِّيَ وظَائِفَها في الكَوْنِ علىٰ مُرادِ الله فِي كُلِّ حركَةٍ، وفي كلِّ صُورَةِ تَغِيير، إذْ إنّ أفعالَ الله منْضَبطَةٌ بحكْمَةٍ لَا تَجْرِيبَ فِيها، وتؤدِّي وظائفها علَىٰ أحْسَن وَجْهٍ. وأكملهُ، ومَا يَبْدو من تنويع الأساليب ولوْ مَعَ مُخَاطَبٍ بِعَيْنِهِ فالغَرَض منه إقامَةُ الحَجةِ عَلَيْه.

وأمَّا تَصْرِيفُ الْقُرْآنِ فيكونُ بتَنْوِيعِ أسَاليبِ الحُجَجِ والبَراهِين والإِقْنَاعَاتِ، وبَتنْوِيعِ أسَاليبِ التَّرْغيب والتَّرْهيب والتَّرْبِيَةِ، بحَسَبِ اختِلَافِ طَبَائِعِ النَّاس، ومستَوَيَاتِ أسَاليبِ التَّرْغيب والتَّرْهيب والتَّرْبِيَةِ، بحَسَبِ اختِلَافِ طَبَائِعِ النَّاس، ومستَوَيَاتِ قُدْرَاتِ الْفَهْمِ لدَيْهم، وبحَسَبِ مَا لدَى أصْنافِهم من استِعْدَادَاتٍ للاسْتِجَابة، وقدرةٍ على مُخَالفَة الأهْواءِ والشّهواتِ، ومخَالَفةِ المعْتَادِ المألوف من البَاطِل أو الشّرِّ، أوْ مَا فِيه ضُرٌّ أوْ أذَى.

ويَسْتَوْفِي هذا التصريف كلَّ الاحْتِمالَاتِ الَّتِي يُرجَىٰ نَفْعُها ولَوْ لبَعْضِ الأَفْرادِ أو الجماعَاتِ، لقَطْعِ أَعذار المكلَّفِين، حتَّى لا تَكُونَ لهُمْ حُجّةٌ بين يدَيْ رَبِّهِم.

ولمّا كَانَ النَّاس مخيَّرين في أَصْل تكوينهم لامْتِحانهم فيما يَخْتَارُوَن لأنَفسِهم في الحياة الدنيا من طَاعةٍ أو عصيانٍ لبارئِهم، لم يكُنْ هذا التَّصْريفُ فِي الْقُرآن مؤثِّراً فيهم تأثيراً جَبْرِيّاً، ولو أَنَّهُم كَانُوا مَجْبُورِين لكَانُوا جَمِيعاً مُؤْمِنين.

والّذِي يظْهَر لِي من خطوط موضوع سورة (الفرقان) أنّ ضَمِيرَ النَّصْبِ في «صَرَّفْنَاهُ» من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾، يعودُ على القرآن.

وقال تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾، ولم يَقُلْ: لهم، للإشارة إلى اخْتِلَاف طَبَائع الناس، ومستويَاتِ أفكارِهم وأَفْهامِهم واستِعْدَاداتِهم، حتّىٰ تَتَلاءَمَ الأَنْواعُ التصْرِيفيةُ للقرآن معَ أنواعِ البَشَر فِي طَبائِعهم واخْتِلافِ مُسْتَوياتهم.

والمعنىٰ: أنَّ مَا سَبقَ من تَنْزِيلٍ قرآنيّ قبْلَ إنْزَال سورة (الفرقان) قد صرَّف الله فِيه الحُجَجَ والبَراهِينِ والإِقْنَاعَاتِ ووَسَائِلَ الترغيب والترهيب لإِقْنَاعِهم بالحقّ.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾: وفي القراءة الأخرى [لِيَذْكُرُوا]، أي: ليضعوا البيانات الربّانية بَعْدَ أن يَتَبلَّغُوها ويَفْهَمُوا دَلالَاتِها في ذَاكِراتهم، فمنهم من يُوَجِّه عِنايةً شديدة ليتذَكَّرَها حتَّىٰ يعْمَل بوصَايَاهَا، ومنْهُمْ من يَذْكُرُها أَحْيَاناً علىٰ مِقْدَار تَقْواه إن كان من أهل الإِيمانِ والتقْوَىٰ، وآخرون يكْفُرون بِها فلا يُدْخِلُونَها في مُسَجِّلَاتِ ذَاكِراتهم ابتداءً، ولو تَبلَّغُوهَا وفَهِمُوا دَلَالَاتِها.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾: المرادُ من أَكْثَرُ النَّاسِ هنا كُفَّارُ مكّة ومن تُأَثّر بِهم، وهم الّذِين اشتَكَىٰ الرسُول ﷺ من اتِّخاذِهم الْقُرآن

مَهْجُوراً، كما جاء في الآية (٣٠) من السُّورة، والمُرَادُ بالناس هم من بلَّغَهُم الرسولُ القرآن يومئذٍ.

كُفُوراً: الكُفُور مصدرٌ بمعنى «الكُفْر» وهو أبلغ من الكُفْر أخذاً من زيادة المبنَىٰ الَّتي تَدُلُّ علىٰ زِيادَةِ المعنى.

والكُفْر: هو سَتْرُ الحَقّ وأدلَّةِ الحَقّ وبراهِينِه بالْمُغَالَطَاتِ وزَخَارِفِ الأَقْوَالِ، وبالْجُحِودِ والْعِنَادِ وطَرْحِ التَّشْكِيكَاتِ.

وأَصْلُ الكُفْر فِي اللُّغَة هُو بمَعْنَى تَغْطِيَةِ الشَّيْءِ تَغْطِيةً تَسْتَهْلِكه، يقال: كفَرَ يَكْفُرُ كُفْراً وَكُفُوراً وَكُفْراناً. وكَفر النِّعْمةَ وكَفَرَ بِهَا إذا جَحدَهَا وَسَتَرهَا. ويقالُ: كافَرَهُ حَقَّهُ إذا جَحَده.

ويُجْمَعُ «كافر» على «كُفَّار ـ وكَفَرَة ـ وكِفَار» وجَمْعُ كافرةٍ «كَوَافِر».

قال الأخفش: الكُفُور جمع «الكُفْر» مثل بُرْدٍ، وبُرود.

يُخْبِرُ الله عزَّ وجلّ في قوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ عن الّذِين كَفَرُوا بإصْرَارٍ وعِنادٍ مع أنّهم تلَقَّوا ما جَاء في القرآن من تَصْرِيفِ الأَدِلَّة والبيَانَاتِ والترغيب والتَّرهِيب والعِظَاتِ وضَرْبِ الأمثال قَبْلَ إنزل سورة (الفرقان) ويُبَيِّن أنّ أكْثرَهُمْ أبَىٰ إلّا الإِصْرارَ بِعنادٍ علَىٰ سَتْرِ الحَقّ وأَدِلَّته، وعَلَىٰ الجُحُودِ ورَفْضِ الإِيْمَانِ والاتِّبَاع.

وقد سبق أنْ أنزل في آخر سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) قوله جلّ جلالُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾.

أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الْحَدِيثِ، فلَا يُوجَدُ حَدِيثٌ بَيَانِيٌّ بَعْدَه أكْثَرُ تأثيراً على النفوس حتَّىٰ يُؤْمِنُوا به، إذَا كَان ذَا مَضْمُونِ حَقٍّ، كالمَضْمُونِ الَّذي تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ آيَاتُ الْقُرْآن.

ونستطيع اكتشافَ تَنْوِيع الأدِلَّةِ والبراهين والإقناعات، وضَربِ

الأَمْثَالِ، واسْتِثَارة مَحَاوِرِ الرَّغب والرَّهَب فِي النفوس، من تدبُّر السُّور الإِحْدَىٰ والأربعين التِّي نزلَتْ قبل سورة (الفرقان) ومن تتبُّع ما جاء فيها، ممّا يتعلَّق بذلك، لكَشْفِ كلِّ خَفَاء، وتَجْلِيه كُلِّ غَامِض، ودَفْع كلِّ شُبْهَة: وبَيَانِ وُجوهِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي كُلِّ ما اعترضَ عليه أهْلُ الكُفْرِ، حَوْلَ الرَّسُولِ، والقُرآن، وحَوْلَ الاصْطِفَاء بالنُّبُوَّة والرِّسَالَة، وطَرِيقَةِ إعْلامِ اللَّهِ عِبَادَهُ عَنْ طَرِيقِ رسُلِهِ من الْبَشَر.

* * *

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

إِذَا اسْتَرْجَعْنا مَا سَبَقَ أنْ تَدبّرناه من هٰذِه السُّورة فإنَّنا نُلَاحِظُ أَنَّها أشْتَمَلَتْ عَلَىٰ مُعَالَجَةِ طَائفةٍ من أقْوَالِ كُبراءِ كُفَّار أهلِ مكَّة وأعْمَالِهم وتَحْلِيلِها ومُنَاقَشَتِها، وبَيانِ وجْهِ الحَقّ والحِكْمَةِ الربّانية حَوْلَ الْقَضَايَا الَّتِي أَثَارُوها فِي أَقْوالِهِمْ، ومِنْ هٰذِه الأَقْوَالِ ما صرَّحَتْ بِه السُّورَة، ومِنْهَا مَا لَمْ تُصرِّحْ بِه. وإنَّمَا فَهِمْنَاه مِنْ مضمُون المُعَالَجة، وكذلك بعضُ أعمالِهم جاء التَّعْقِيبُ علَيْهَا دُون التصريح بها، وقد فَهِمْناها من مضْمُون التعقيب، مثل قول الله عزّ وجلَّ فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

ويدلُّ هنا قول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ علَىٰ أنّ الذين أصَرُّوا على الكُفرِ مِن كُبَراءِ أهل مكّة قد اعْتَرَضوا على قضية عموم رسالة الرسول محمَّدٍ ﷺ للعالَمِين جَمِيعاً، الّتِي جاء بيانُها في الآية الأولى من السورة، والّتِي اشْتَمَلَتْ علَىٰ عَنَاصِرِ مَوضُوعِها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

لكنّ عبارةَ اعْتراضِهم مطويَّةٌ لم تُذكَرْ في السُّورَة، بَيْدَ أنّ الذِّهْنَ اللّمّاحَ يَسْتِدلُّ على الاعْتِراضِ مِنْ إيرَادِ الجَواب.

وفحوىٰ الاعتِراضِ أنّ الّذين كَفَرُوا قَالُوا: ما هٰذِه الدّعوىٰ العريضة الواسعة التي يدّعِي فِيها محمّدٌ أنَّه رسُولُ الله للنَّاسِ أجمعين عرَبِهم وعَجَمِهم، وفيهم إمبراطوريّات الرُّوم وفارِس والحَبَشَة، أمَا كانَ يكْفِيه أن يَكُونَ رَسُول الحِجاز، أو رَسُولَ العَرب؟!.

فقال الله عزَّ وجلّ دُونَ أَنْ يَذْكُرَ اعْتِرَاضهم:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

ويَدلّ هذا الْجَوابُ مُقْتَرِناً بإدْراك صِفَات الله الربّ العليم الحكيم علىٰ أنَّ حِكْمَةَ الله قَضَتْ أنْ يَخْتِمَ رِسَالَاتِه للنَّاسِ أجْمَعِينَ بِرِسَالَةٍ خَاتِمَةٍ بَعَثَ بها محمّداً، ولذَٰلِكَ جَعَلَهُ رَسُولاً نَذِيراً للعالمين.

إنّ إرسالَ رسُولٍ واحدٍ للنَّاسِ أجْمَعِين أحَدُ الاحْتِمالَاتِ الْمُمْكِنَة بالنسبة إلى إرَادَةِ الله وقُدْرَته بوجّهٍ عامّ، وهُوَ الاحتمالُ الّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُه بَعْدَ أنْ بَعَثَ فِي أُممِ الأَرْضِ رسُلاً كَثِيرينَ فِي الْقُرُونِ الخَوالي، ووَصَلَ المجْتَمَعُ البَشَرِيّ إلىٰ مَرْحَلَةٍ تَاريخِيَّةٍ تؤهِّلُه لِجَمْعِه على رَسُولٍ واحِدٍ، وكِتَابٍ وَاحِدٍ، بِرِسَالَةٍ عَامَّةٍ شَامِلَةٍ، مُسْتَوْفِيَةٍ كلَّ العناصِر المطْلُوبَةِ فِي الدّين للنَّاسِ أجمعين.

ولو شَاء الله أن يَبْعَثَ رَسُلاً مُتَعَدِّدين فِي القارَّاتِ لبَعَثَ كمَا حَصَلَ فِيما مضىٰ، حتّى لَوْ شَاء أنّ يَبْعَثَ فِي كُلِّ قريَةٍ رَسُولاً مُبَلّغاً دين الله للناس ودَاعياً إلى سبيل ربّه، ومبشراً ونذيراً، لَفَعَلَ جلَّ جلالَهُ وعظم سلطانه.

لكنّه لم يبعث، لأنه لم يَشَأ، فدلّ هذا الاخْتِيار الرّبّاني علىٰ أنّ مَالَمْ يشأْهُ سبْحانه قد تركه لأنَّ ضِدّه الّذِي شَاءَهُ هو الأَحْكَم مِنْ كُلِّ مَا سِواه، والأكْثَرُ تَأْدِيَةً لأغْرَاضِ امْتِحَانِ الْبَشَرِ، بَعْدَ أنّ وَصَلَ النَّاسُ إلىٰ هٰذِه المرْحَلَةِ التَّارِيخيّة الّتِي نَمَتْ فِيها الْعَلَاقَاتُ والْمُواصَلاتُ، وَبَدأَتْ تَتَقَارَبُ

بيْنَهُم المسَافاتُ، وهُمْ جَمِيعاً مِنْ أَصْلٍ واحِدٍ، أبُوهُمْ آدَم، وأمُّهم حوَّاء، والأصْلُ أنَّ يكُونُوا أمَّةً واحِدةً لَا أُمَماً متَفرِّقَةً، وَإِنَّ اخْتَلفتْ لُغاتُهم وتَباعَدَتْ مَسَاكِنهم، وقَدْ كَان بَعْثُ رسُلٍ وأنْبياء متَعَدِّدين لَهُمْ أَمْراً اقْتَضَتْه ظُروفُ مَراحِلَ تاريخيَّةٍ مضَتْ.

لِكنَّ هٰذِه الظروفَ قد اخْتَلَفَتْ، واقتربَتْ المُجْتَمَعَاتُ البَشَرِيَّةُ من مرحَلَةِ تَشَابُكٍ عَالَمِيٍّ، فاقتضَتْ الحِكمَةُ الرّبّانيّةُ جَمْعَهُمْ عَلَىٰ رِسَالَةٍ وَاحِدَةٍ، ورسولٍ واحدٍ، وكِتَابٍ واحِدٍ، وهٰذِه الرِّسَالة لِهَا شَرِيعةٌ واحِدةٌ ومِنْهاجٌ واحِدٌ مُرَاعَى فيهما كمالُ الدينِ الّذي اصْطَفَاهُ الله للنَّاسِ أَجْمَعِين.

لقد دلَّتِ الآيَةُ بمَنْطُوقِها ومَفْهُومِها ولَوازِمِها الفِكْرِيَّة علَىٰ كلِّ هٰذَا، وتَنْكَشِفُ لنَا هٰذه المَفاهِيمُ واللّوازِم بالعرض التالي:

قوله الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾، أي: ما شِئْنا فَمَا بَعَثْنَا.

س: لِمَاذا لم تحدُثْ هذه المشيئة؟.

ج: لأنَّ الحِكْمَةَ المُقْتَرِنَةِ بالعِلْمِ المُحِيطِ بكُلِّ شَيْءٍ جَعلَتِ المشيئَةَ تَخْتَارُ مَا هُو الأَحْكَمُ والأَصْلَح؟

س: ما هو الأَحْكَمْ والأَصْلَحُ؟.

ج: هُوَ إِرْسَالُ رَسُولٍ وَاحِدٍ للنَّاسِ أجْمَعِين، خاتم للرسُل، برسَالَةٍ خَاتِمة، بعد أنْ وصَلَتِ البشريّة في تَنامِيها الاجتماعِي، وتَنَامِيها العدَدِي، وتَقَارُبِ الْمَسَافَاتِ بين شُعُوبِها، إلىٰ عَتَبةِ تَشَابُكٍ عالميّ.

وهٰذا هُو الَّذِي تَمَّتْ به المشيئةُ الربَّانيَّة، وتمَّ تنفِيذُه، بإرسالِ مُحَمَّدِ بن عبد الله نَذِيراً للعالمين، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الفرقان.

* * *

قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ... ﴿٥٢﴾﴾.

س: نَتساءَل: مَا هِيَ صِلةُ هٰذا النَّهيِ للرسُولِ بِمَا جاء في السورة؟.

ج: لنُحسنَ التدبُّرَ لا بُدَّ أن نَستَرجعَ ما جَاء فيها، فلَقَدَ جَاء فِيها عرْضُ بَعْضِ مُقْتَرَحَاتِ الّذِين كَفَرُوا، مُلوِّحِين فِيها بأنّها لَوْ تحقَّقَتْ لآمَنُوا واتّبعُوا الرَّسول، فقالوا في مقترحاتهم:

١ ـ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ.

٢ ـ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ.

٣ ـ أَوْ تَكُونُ لَهُ جنَّةٌ يأكُلُ مِنْها، ونَأْكُلُ مِنْها.

٤ ـ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

أمَامَ هٰذِه المقترحَاتِ التي وجّهها الذين كفروا، مع شدّة حرص الرسول ﷺ على إيمان قومه، لإنقاذهم من عذاب الله، فقد يَجِدُ في نفسه رغبةً في تلبية بعض مطالبهم الّتِي اقْتَرحوها، لعلَّ فريقاً يَجِدُ في تَحْقِيق هٰذِه المطالِبِ مَا يَدْفَعُه إلى تَصْدِيق الرسول والإيمان به وبما جَاء به. وهٰذِه الرغْبَة فِي نفْسِ الرسول قد تحرّكه لسؤال ربّه تَلْبِيةَ بَعْضِ مطالبهم، وهذا من طاعتهم، إذْ لو فَعَلَ لكَانَ قد أطاعهم فِيمَا اسْتَدْرَجُوه إليه.

لكنَّ حِكْمَةَ الله تقتضي خِلَافَ ذلكَ، ولَا يُحِبُّ الله ردَّ سُؤالِ رَسُولِه المْجَتبَىٰ فبادر تبارك وتعالى بقوله لرسوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

إن الله عزَّ وجلَّ عَلِيمٌ بمَا فِي قلوب القوم ونفوسهم، من عنادٍ وإصرار على الباطل، وعليمٌ بأنّهم ليسوا بحاجة إلى الاقْتِناع، وإنّما يطْرَحُون مطالبهم ومقترحاتِهم علَىٰ سَبِيل التَّشهِّي والتَّلَاعُبِ بسُنَنِ الله الثَّابِتَة، واخْتِيَارَاتِه الحَكِيمَةِ، وهو سبحانه لا يَجْعَلُ سُنَنَهُ واختياراته أُلْعوبَةً فِي أيدِي المتَلَاعِبين الّذِينَ يطْرَحُونَ تشهيّاتهم على بارئهم.

ففي هذه الجملة المصدّرة بالنهي تنبيهٌ للرسول ﷺ، حَوْلَ مَا يَعْتَلِجُ في صدره من رَغْبةٍ في تَلْبِيَةِ بعْضِ مَطَالِبهم، الأمْر الذي قد يَنْجُم عنْهُ سؤال الرسول ربّه شيئاً من ذلك ، فيتَعَّرضُ لِمثْلِ ما تَعرّضَ لَهُ نوحٌ عليه السلام إذْ سأل ربّه بشأن ابنه الكافر الغريق، وهو ما أبانه الله عزَّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤٦)﴾.

فبَادَر الله عزَّ وجلّ رسُولَهُ محمّداً بالنَّهْي قَبْلَ حُدُوثِ شَيْءٍ من الْمَنْهِيّ عنه فقال له: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

هذا ما تدلُّ عليه سَوابِقُ هذا النَّهْي فِي السُّورة، مع مُلَاحَظَة مَوْقِفِ الكَافِرِينَ فِي الْمَرْحَلَةِ الّتِي وصَلُوا إِلَيْها إِبَّانَ نُزُولِها، ومُلاحَظَةِ حَالَةِ الرَّسُولِ النَّفْسِيَّةِ تُجَاه مُخْتَلفِ قضَايا رِسَالَتِه، وموقف قومه منها، والله أعلم.

وباستقراء ما نزل من قرآن قبل سورة (الفرقان) نُلاحِظ أنَّ هذا النَّهي هو ثَالِثُ نَهْي للرسول والدُّعاة إلى الإِسلام معه عن طاعة الكافرين:

فالنهي الأول قد جاء في سورة (العلق) أوّل سورة القرآن نزولاً:

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ (١٩)﴾.

والنهي الثاني قد جاء في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠)﴾.

* * *

قول الله عزَّ وجلّ لرسوله:

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على القرآن الذي له فَرعٌ من فُروعِ موضوع السورة الأربعة وممّا ارتبط بهذا الفرع قُبَيْلَ هٰذه الجملة التكليفيّة للرسول قولُه تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

ومِمَّا ارْتَبَطَ به أيضاً قبل ذلك قوله تعالى لرسوله:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

وقد جاءت هذه الآية جواباً على شكوى الرسول لربّه الواردة في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

ولم يقطَعِ الله عزَّ وجلّ الرسول عَنْ قَابليَّةِ بعْضِ الّذين تحدّثَت السّورةُ عنْهم من قومه للاسْتِجابَةِ لدَعْوَتِه، إذْ قال له:

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

وإذْ قَالَ له:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ ... ﴿٤٤﴾﴾.

وذَلِكَ لأنَّه يُوجد في مُقَابل هذا الفريق الأكْثر فريقٌ من قَوْمِه المتحدَّث عنهم في السُّورةِ لا تَزالُ لديه القابليّة للاستِجابَةِ، ولم يَصِرْ بَعْدُ مَيْؤُوساً من اسْتِجابته.

وأمامَ هذا الموقفِ لا بدَّ أنْ تكُونَ من الخَواطِر الّتي تتردَّدُ في نَفْسِ

الرسول ﷺ ونفوس أنصاره في الدَّعوة، أن يَتحوَّل عن مُجَاهَدةِ الّذِين ما زَالُوا مُصِرِّينَ علَىٰ الكُفْرِ من أهْلِ مكَّة بالقرآن بَعْدَ أنْ اتَّخذُوه مَهْجُوراً، وكان الله قَدْ أنْزَلَ عَلَيْهِ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) قوله:

﴿. . . فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أمَّا الّذِي لَا يَخَافُ مُطْلَقاً وَعِيد اللَّهِ بالعذابِ فَلا فَائِدَةَ من تذكيره بالقرآن منْ حِينٍ لآخر.

وكانَ قَدْ أَنْزلَ عَلَيه أيضاً مِنْ قَبْلُ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾.

أي: فذكِّرْ إنْ كَانَ لَدَيْكَ رجاءٌ لِأَنْ تَنْفَعَ الذِّكْرىٰ، ولَمْ تَصِلْ إلى مرحلة اليأسِ التّامّ من نَفْعها بالنِّسْبَةِ إلى الفريق أو الْفَرد الّذي تُذَكِّرهُ.

ومَعَ حَالَةِ الانْزعاجِ من العِنَادِ الشَّديدِ الّذي وصَلَ إلَيْهِ كُفَّارُ قَوْمِهِ، فقد يتَبادَرُ إلى ذِهْنه أنّ مُقَابِلَ «الأَكْثر» هُمُ الّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وأمَّا الّذينَ لَمْ يُؤْمِنُوا به حتَّى هٰذا التاريخِ فَهُم الّذِين أيأسَهُ الله مِنْهم، فالتَّوْجيه الْقُرْآنيُّ يُشْعِرُهُ بأنَّه ينبغي التحوُّلُ عنهم، قاطعاً طمَعَهُ في إصْلَاحِ أيّ فريقٍ مِنْهُم بَعْد هٰذه المرحلة.

ودَفْعاً لِهٰذِهِ الخَوَاطِر، مَعَ الإِشَارَةِ إلىٰ أَنَّ بَعْضَهُمْ ما تَزال لَدَيْهِ الْقَابِليّة للاسْتِجابة، ولٰكِنّه يَحْتَاجُ إلىٰ جِهاد كَبير بالبَيَانَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الإِقْنَاعيَّة والترغيبيّة والترهيبيّة وسائرِ وسَائلِ التربيَةِ الّتي اشْتَمَلَ علَيها القرآن، جاءَ التَّوجِيهُ لمُجَاهَدَتِهم بالقرآن.

إذَنْ: فَالْحِكْمَةُ في الدعوة تَقْتَضي الصَّبْرَ عَلَيْهِم، ومُتَابَعَةَ مُجَاهَدَتِهم بالدَّعْوةِ البيانيّة القُرآنيّة، حتَّىٰ دَرَجةِ اليأسِ الشّامل، أو الْقَرِيبِ منه، فقالَ الله عزَّ وجلّ له:

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

ونُلاحظُ هُنا أنّ الله عزَّ وجلّ وصَفَ الجِهَاد المطلوبَ بالنسبة إلى هذا الْفَريق الذين ما زَالَ رجاءُ اسْتِجَابَتِهم لَمْ يَنْقَطِعْ بكَونِه «كَبيراً» ففِي هَذا تَوجيهٌ لمضاعفة الجَهْد والمُجاهَدة بالنِّسْبةِ إلَيْهم، مراعاةً لأحْوالِهم، فقد سَبقَتْ مُجَاهَدتُهم بالقُرآن، لكنَّهم لم يَصِلُوا بَعْدُ إلى حالَةٍ ميؤوسٍ منها، والحرصُ على إنْقَاذِهم وقَطْعِ كلّ أعذارهم يسْتَدعي توجيهُ مَزيدٍ من مُجَاهَدَتِهم بالْقُرآن، ويكُونُ ذلك بالمتابَعةِ والصّبر معَ الحِكْمةِ والتعرُّفِ على المَدَاخِلِ المَفْتُوحَةِ إلىٰ نفوسهم، فهٰذِه أمورٌ يُرْجَىٰ معها استِنْقَاذُ بعْضِهم من أوْحَالِ الكُفْر والفُسُوقِ والعِصْيانِ، وضَمُّهُم إلىٰ رَكْبِ الْمُؤْمِنين.

الجهاد، كالمجاهدة: بَذْلُ جَهْدٍ، فيه معنَى المُغالَبة أو المنَافَسةِ لمُعَارِضٍ يشارك ببذل جَهْدٍ مُضَادٌّ لقوّة مُغَالبة أو مُنَافِسة أو مقاومة صادّة.

تقول لغة: جاهَدَ يُجاهد مُجَاهَدةً وجهاداً.

وقد فُهِمَتِ المغالبة أو المنافسة من صِيغَة «فَاعَل» الدالَّة على مَعْنَى المُشَاركة مع الضدِّيّة، أو النِدِّية، فَهِيَ تَكُونُ على سبيلِ المغالَبَةِ، مثل «صَارع وَقاتَل» أو المنافسة، مثل «سَابقَ وواثَبَ» أو مع مطلق المشاركة في العمل، مثل: «آكَلَ وشَارَبَ» أو على سبيل بذلِ الجَهْدِ من جهة، والمُقَاومَةِ له من جهة أخرى، وهذه المقاومة تحتاج إلىٰ مَزيدٍ من بَذْلِ الْجَهْد.

وَوُصِفَ الجهادُ بكونه كبيراً، معَ أنّ الجِهَاد بطبيعَتِه يحْتَاجُ مَزيد قوّةٍ للمغَالَبة أو المنَافَسةِ أو التأثير ضِدّ المقاوَمَةِ الصّادّة، يُفيد أنّه جِهَادٌ من الدَّرجَةِ القُصوىٰ، التي تكُونُ بَعْدَها عادةً حالَةُ اليأسِ، إذا لَمْ تَحصُلْ بِهذا الجِهادِ الكَبِير تأثيراتٌ نافعاتٌ.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿مَرَجَ﴾: يأتي فعل «مَرَج» بمعنيين:

١ ـ بمعنىٰ مزَجَ وخلَطَ.

٢ ـ وبمعنى أرْسَلَ.

﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾: أي: حلوٌ شَدِيدُ الْعُذُوبَةِ مُسْتَطابٌ للشَّارِبِينَ.

﴿مِلْحٌ﴾: أيْ: مَالِحٌ، يقال: مَلُحَ الماءُ يَمْلُحُ مُلوحَةً ومَلاحةً، فَهُوَ مِلْحٌ، ومَلِيحٌ، ومالِحٌ.

﴿أُجَاجٌ﴾: أي: يَلْذَعُ اللِّسَانَ بمَرَارَتِهِ أو مُلُوحَتِه.

﴿بَرْزَخًا﴾: البَرْزَخُ الحاجزُ، والْفَاصِل الماذّيُّ أو المعنويُّ بين شَيْئَيْنِ، وقَدْ يكُونُ الحَاجِزُ المادّيُّ غَيْرَ مَنْظُور.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: الحِجْرُ: مصدر بمعنى المَنْعِ، من «حَجَرَ يَحْجُرُ حَجْراً، وحُجْراً، وحِجْراً» أي: مَنَعَ.

ويُطلق الحِجْر بمعنى العَقْلِ واللّبّ «= القوة المدْرِكَة الفَاهِمَةِ الوَاعِيَةِ» من إطْلاقِ المَصْدَر بمَعْنَى اسْمِ الفاعل «حَاجِر» لأنّ الْعَقْلَ يمْنَعُ صَاحِبَه من التورّط في المَهَالِك.

وحِجْرُ الإنْسَانِ هُوَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ ثَوْبِه، لأنّ الإنسان يُحِيطُ بِهِ ويَحْجُرُه.

ويُطْلَقُ «الحِجْر» بمعنى اسم المفعول «مَحْجُور» على كلّ شيءٍ قَدْ حُجِرَ بشَيْءٍ ما، فجُعِلَ مَفْصُولاً عن غَيْرِه، ويَلْزَمُ من ذَلِكَ أن يكُونَ هو

فاصِلاً أيضاً، ومنه سُمِّيَ «حِجْرُ إسْمَاعيل» وهو المكان المفْصُولُ بِجِدارٍ قَصِيرٍ إلى جانِب الكَعْبَة من جِهَةِ الشّمال، وهذا المعْنَى هو المناسب هنا.

أي: وجعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ فاصِلاً يمْنَعُ نُفُوذَ أَحَدِهما إلى الآخر.

﴿مَّحْجُورًا﴾: أي: وهذا الفاصلُ بين الْبَحْرَيْنِ هو أيضاً محجورٌ، بمعنَىٰ أنَّهُ مَمْنُوعٌ، وبالتأمُّلِ نُدْرِكُ أنَّهُ ممنوعٌ من الانْحِلال بهِما أو بأحَدِهما.

ما جاء في القرآن حول آيات الله في البحرين:

وقد جاء حول الموضوع العامّ الذي تحدَّثَتْ هذه الآيَةُ عَنْ جانبٍ منه ثلاثة نصوص أخرى، فهي جميعاً نصوصٌ أرْبعة.

النصّ الأول منها: آيَةُ «الفرقان» الّتي نتدبَّرُها.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

النَّصُّ الثالث: قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

النَّصُّ الرابع: قوْلُ اللّهِ عزّ وجلَّ في سورة (الرَّحْمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

هٰذه الآياتُ الأرْبَعُ تحدَّثت عمَّا علَيْهِ حَالُ الْبَحْرَيْنِ مَنْ تَفَاضُلٍ قَدْ تَمَّ بِقُدْرَة قادِرٍ عظيم عليم حَكيمٍ ذِي عِنَايَةٍ وَرَحْمَةٍ بِعبادِه.

فَمَا هُما البَحْرَان المشارُ إِلَيْهِما في كلٍّ من هذه الآيات الأربع، وقد جاءا فيها جميعاً مُعَرَّفَيْن؟.

- لكِنْ جاء في آية سورة (الفرقان) وصْفُ أَحَدِهِمَا بأنَّه عذْبٌ فُراتٌ، ووصْفُ الآخَرِ مِنهما بأَنَّهُ مِلْحٌ أُجاجٌ.

- وجاء في آية سورة (فاطر) أيضاً وصْفُ أَحَدِهِمَا بأنَّهُ عَذْبٌ فُراتٌ سَائِغٌ شرابُه، ووصْفُ الآخر مِنهما بأنَّهُ مِلْحٌ أُجَاجٌ، ووَصْفُهُما معاً بأن الناس يستخرجون من كل منهما لحماً طرياً، وهي الأحياء البحرية في المياه المالحَةِ والمياهِ الحلوة، ويَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُما حِلْيَةً يَلْبَسُونَها لِيَتَزَيَّنُوا بها، وبأنَّهما قابِلَان لأن تَجْرِي الْفُلْكُ المواخِرُ فيهما.

مَوَاخِر: أي: تَجْري شاقَّةَ الماءَ شَقًّا. **المَخْرُ**: الشَّقُّ، ومنْهُ شَقُّ النَّباتِ للأرْضِ حتَّىٰ يخْرُج.

- وجاء في آيَةِ سورة (النمل) تَرْكُ وَصْفِهما، مع إثبات الحاجز بيْنَهُما..

- وجاء في نَصّ سورة (الرَّحْمٰن) بأنَّ الله عزّ وجلَّ مَرَجَهُما، أي: جَعَلَ كُلًّا مِنْهُما مَزِيجاً مُخْتَلِطاً من عناصر، وبأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَخْرُجُ مِنْهُ اللُّؤْلُؤ والْمَرْجَانِ.

أقول: إذا تَدَبَّرْنا هٰذِهِ النُّصُوصَ الأرْبَعة ضِمْنَ قاعدة التَّكامُل بَيْنَ النصوص القرآنيّة، الواردة حول موضوعٍ عامٍّ واحِدٍ، واسْتَبْعَدْنا فِكْرَة التَّكْرارِ، اسْتَطَعْنا أَنْ نَفْهَمَ ما يلي:

أولاً:

إنَّ آية سورة (الفرقان) قَدْ أَثْبَتَتِ لِلَّه عزَّ وجلَّ الخَلْقَ والتَّدْبير، في ظاهرَةٍ مِنْ ظاهرات آياتِه في الماء، إذْ تَحَدَّثَتْ عن الماء العذْبِ الْحُلْو، والماءِ الْمِلْحِ الأُجَاج.

إنَّهما فِي الأرْضِ بَحْرانِ عَظِيمان، خَلَقهما الله عزَّ وجلّ لمنافع الحياة والناس، وكلٌّ منهما ينبغي لتحقيق المنفعة منه حسب النظام العامّ للكون، أن يظلّ على وصفه في النسبة المزيجيّة التي جعله الله عليها.

ومعلوم أنّ الماءَ الْحُلْوَ فِيه عَنَاصِر مخلوطة ممزوجة، قد مرَجَها الله عزَّ وجلّ، أي: خلَطَها وفق حِكْمَتِه بِنِسَبٍ صَالِحَةٍ لحَيَاةِ النَّاسِ والنَّباتِ، وأرسلها في الأرض، فاندفَعَتْ تُؤَدّي وظائفها. وأنّ الْمَاء المِلْح الأُجاج فيه عناصر إضافية مخلوطة وممْزُوجَةٌ فيه، قَدْ مَرَجَها اللَّهُ عزَّ وجلّ، أي: خلطها وأَرْسَلَها في الأرض، فانْدَفَعَتْ تؤدّي وظائفها المقدّرة لها.

وإيجازاً فِي التَّعْبِير استخدم في القرآن كَلِمَةُ «مَرَجَ» للدلالة على معنىٰ «خَلَطَ» العناصِرَ، حتى تتكوَّن ماءً حُلْواً، أو ماءً مِلْحاً أُجاجاً، وعَلَىٰ معنى «أرسل» هذا الماء بوصفيه العذْبِ الفراتِ والمِلْح الأجاج، لِما في الماء من سيولة قابلة للتَّدَافُع المتلاحِق. كأنّ مُرْسِلاً أرسَلَه لِيُؤدّي وظائفه التي أُرْسِل من أجْلها.

ودلّت هذه الآية أيضاً على العناية الرّبّانيّة التي حفَّتْ هٰذين البحْرَيْنِ حتّى لا يمتزجا، فتذهب خصائص الماء العذب الفرات، التي بها حَيَاةُ الحَيوانِ والنَّبَات، ومصالِحُ أُخْرى كثيرةٌ للنَّاسِ والحياةِ، وذَلِكَ بأنْ جَعَل اللَّهُ عزَّ وجلّ بَيْنَ الْبَحْرَين حاجزاً، إذْ جعَلَ تَكْوِينَ الأرْضِ في أَوْضَاعِها صَالِحةً لاحْتِواء الماءِ الْعَذْبِ الْفُرَات في تَجَاوِيفها ومَسَارِبها، ولِإجْرائِهِ فِي السُّهُولِ والوِدْيَانِ، وإخْرَاجِه مِنَ الْعُيُون، وبذَلِكَ أقامَ الحَواجِزَ والفَواصِلَ الّتِي تَفْصِل بَيْنَ البَحْرَيْنِ، حتَّىٰ لا يَنْتَهِي أمْرُهُما إلى الامْتِزاج

والاخْتِلاط ببعْضِهما، وتذْهَبَ الخصَائِصُ المطْلُوبَةُ، وقَدْ لَزِمَ لِذَلِكَ تَدْبِيرُ قَوانِينَ طَبِيعِيَّةٍ، والأمرُ التكوينيُّ بِجَعْلِهَا قوانين قَدَرِيَّة لازِمةً.

وهٰذِه الحواجِزُ الَّتِي عبَّرَ اللَّهُ عَنْهَا بالْبَرْزَخِ حَواجِزُ مشهُودَةٌ يَشْهَدُها الناس جميعاً، إذْ هِيَ جِبَالٌ وَسُهُولٌ وأتربة، ونحو ذلك.

ويَزِيدُ الباحثون العلميّون عَلىٰ ذَلِكَ ما تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ مِنْ قَوانِينَ تُفَسِّر ظَاهِرَةَ هذا البرْزَخِ وتَوابِعِه.

ووصَفَ الله عزّ وجلّ هٰذا البرزَخَ بأنَّهُ حِجْرٌ مَحْجُورٌ، أي: هو مانِعٌ من اختراقه إلى صِنْفِ الماءِ الآخَر، وهو ممنوعٌ من الذَّوبانِ والاختلاطِ بالماء، فلَوْ لم يكُنْ مانِعاً لاخْتَلط البحْرَان، ولو لم يكُنْ مَمْنُوعاً لاخْتَلَط هو بالماءَين.

وهذا الوصْفُ لهذا الْبَرْزخ، وهو أنَّهُ حجْرٌ مَحْجُورٌ يَدُلُّ على أنَّهُ مادَّةٌ ممَّا قَدْ يُتَصَوَّرُ فِيه الانْحِلَالُ في الماء، إلَّا أنَّهُ مَحْجُورٌ عَنْ ذلِكَ، بما جعلَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيه من صفاتٍ وخَصَائص.

ثانياً:

وإنّ آية سورة (فاطر) قَدْ نَبَّهَتْ علىٰ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَىٰ عباده باللَّحْمِ الطَّرِيّ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ من الماء العذب، ويُسْتَخْرجُ مِنَ الماءِ المِلْحِ الأُجاج. ونَبَّهَتْ على مِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِم باستخراج الْحُلِيّ منهما.

فالمياهُ الْحُلْوةُ يُسْتَخرَجُ مِنْ أنهارِها وسَواقيها الألماسُ، وبَعْضُ الحجارة الكريمة.

والمياه المالحة يُسْتَخْرَجُ مِنْ بحارها اللُّؤْلُؤُ والْمَرْجَان.

ثالثاً:

وإنَّ آيَةَ سورة (النَّمْل) قَدْ وَجَّهَتِ السُّؤَالَ للمشركين باللَّهِ في العبادة،

حوْلَ عِدَّةِ ظواهرَ كوْنِيَّة، هي من آثار رُبُوبيَّةِ الخالِق وحْدَهُ، ليَدُلَّ بذَلِك على أَنَّ من لَهُ الرُّبوبيَّة وحْدَهُ، وجَبَ عَقْلاً أَنْ يكُونَ هو الإلَٰهَ المعْبُودَ، فيُفْرَدَ بالإِلَٰهيَّةِ.

وهذه الظواهر المذكورَةُ في الآية هي ما يلي:

(١) جَعْلُ الأرْضِ قراراً، أيْ: صَالِحةً للاسْتِقْرارِ عَلَيْهَا والتَّمكُّنِ، لَا قَلِقَةً مُضطَّربةً، لا تَصْلُحُ للثَّبَاتِ عَلَيْها.

(٢) إرسالُ المِيَاهِ الْحُلْوةِ الْعَذْبَةِ خِلالَها أنهاراً.

(٣) تَثْبيتُ قِشْرَةِ الأرْضِ بالجِبَالِ الرَّواسي، معَ مَا فِي الجِبَالِ مِنْ مِنَافِعَ أُخرىٰ.

(٤) إِقَامَةُ الحَاجِزِ الفاصِلِ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ: العذب الفُراتِ، والمِلْح الأجاج.

ومن المفْرُوضِ أنْ يَأْتِي جَوَابُ السُّؤالِ مِنَ الْمُنْصِفِين الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْحَقِّ عقلاءَ وعُلماء وحُكَماء، ولو بَعْدَ مَراحِل جَدَلِيَّة، أو مَراحِلَ زمنيّةٍ منَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ، بأنّ الْجَاعِلَ لِكُلِّ ذَلِكَ هو اللَّهُ الربُّ الخالِقُ وحْدَهُ لَا شَرِيك له.

إذن: وجَبَ أَنْ تكُونَ لَهُ وحْدَهُ الإِلَٰهيّة، أي: أن تُوجَّهَ لَهُ وحْدَهُ عِبَادَةُ العَابِدين جميعاً.

والظاهِرُ أنّ البحْرَيْنِ فِي هٰذه الآية هُمَا الْبَحْرَانِ الْمَذْكُورَانِ فِي آية (الفرقان) فَقَدْ جَاء الحديثُ عَنْهُمَا فِي آيةِ (النمل) علىٰ طَرِيقةِ سؤالِ المشْرِكِينَ عمّنْ جَعَلَ بَيْنَ هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ هٰذا البرزَخُ، لانْتِزَاعِ الإِقْرَارِ مِنْهُمْ بأَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ الخَالِقُ، وسيلةً لإِلْزَامِهِم بتَرْكِ الشِّرْكِ، وَوُجُوبِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ.

رابعاً:

وأخيراً نزل نَصُّ سورَة (الرَّحْمٰنِ) في أوَاسِطِ المرحَلَةِ المَدَنِيَّةِ، وفيهِ حَدِيثٌ عن البَحْرَيْنِ اللّذِيْنَ يَلْتَقِيانِ، ومعَ الْتِقَائِهِمَا يُوجَدُ بَيْنَهما بْرزخٌ فَاصِلٌ، فَهوُ مَانِعٌ لَهُمَا من التَّمَازُجِ، لكِنَّهُ لَمْ يُوصَفْ بأنَّه مَحْجُورٌ، أيّ: مَمْنُوعٌ مِنْ أنْ يَخْتَلِطَ هُوَ بِهِمَا، إذْ لَيْس هو ممَّا يُظَنُّ فيه قَابليّةُ الانْحِلَالِ والاخْتِلاط. ومعَ الْتِقَاءِ هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ أيضاً يظَلُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عِنْدَ حَدِّه، فَلَا يَبْغِي أَحَدُهُمَا، عَلَىٰ الآخر، فيُغيِّرَ مِنْ خَصَائِصه، ومِنْ نِسْبَةِ الْعَنَاصِر الْمُخْتَلِطَةِ فيه.

وقَدْ وُصِفَ في هذا النَّصّ هَذان الْبَحْرانِ بأنّهما يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ والْمَرْجَان، إشارةً إلىٰ أنّ كُلًّا مِنهما مِلْحٌ أجاج، إذْ مِنَ الْمَعْرُوفِ أنّ اللُّؤلؤ والْمَرْجَانِ يُسْتَخْرَجَانِ عَادةً من الْبَحْرِ المِلْحِ الأجاج.

وتحيَّرَ الْمُفَسِّرُونَ فِي فَهْمِ الْمُرادِ بهَذِهِ الآية.

- هل المراد بالبحرين بَحْرُ الماء العذب الفرات، والمِلْح الأجاج، وذَلِك في ظاهرة دخول مياه الأنهر في مياه البحار، ونحو ذلك، إذْ يستمرّ الماء العذب الفرات على صِفَاتِه مَسَافةً طويلة قبل أن يمتزج بماء البحر؟.

وأخذ الباحثون من علماء العلوم الإنسانية يفسّرون هذه الظاهرة بما يُسمَّى بقانون «الْمَطّ السَّطْحِي» الذي يفصل بين السائلين، لأنّ تجَاذُبَ الْجُزَيْئَاتِ يختلف من سائل إلى آخر، ولهذا يحتفظ كلّ سائل باستقلاله في مجاله.

- أم الْمُرادُ شيءٌ آخر غير ذلك؟

ثم جاءت الكشوفُ العلميَّةُ الْمُعَاصِرَةُ، فأثبتت أنّ في البحار الموصوفة بأنّها مِلْحٌ أُجاج ظَاهِرَةَ الْبَحْرَيْن اللّذَيْن يَلْتَقِيان، وبينهما برزخ، أي: فاصل، وهما لا يبغيان، أي: لا يَبْغِي كلّ واحِدٍ منهما على جَارِه، ويَخْرُجُ مِنْهمَا اللُّؤلؤُ والمرجان.

فَعَلِمْنَا أنّ وَصْفَ خروج اللّؤلؤ والمرجان من كُلٍّ مِنْهُمَا قَدْ كَانَ مَقْصُوداً للإشارة إِلَىٰ أنّ كلًّا مِنْهُمَا بَحْرٌ مِلْحٌ أُجاج، معَ مَا فِي ذِكْرِ هذا الوصْفِ من امْتِنانِ الله على عِبَادِهِ باللُّؤْلؤ والمرجان، اللّذين يَتّخِذُ النَّاسُ مِنْهُما حِلْيَةً وزينةً ومنافع أخرى.

ذكر تَقْرِيرٌ لبَعْثَةٍ عِلْميَّةٍ بَيْنَ جَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ المِصْرِيّة، وجَامِعَةِ أَدنْبَرَة الإِنكليزيّة: أنّ مَاءَ الْبَحرِ فِي خَلِيجِ الْعَقَبة تَخْتَلِفُ خَواصُّهُ وتَراكِيبُهُ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ الأَحْمرَ.

واسْتَطاعَتِ البَعْثَةَ بوَسَاطَةِ قِيَاسِ الأَعْمَاقِ اكْتِشَاف حَاجِزٍ مَغْمُورٍ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، يَبْلُغُ ارْتِفاعُه أَكْثَر مِنْ أَلْفِ مِتْر.

ولعلَّ مَجْمَع الْبَحْرَيْنِ هٰذا هُوَ مجمَعُ الْبَحْرَيْنِ المشارُ إِلَيْهِ فِي قصَّةِ مُوسَى عليه السلام، إذ انْطَلَق مَعَ فَتاهُ لِلِقَاءِ الْخَضِرِ، في القصّة المذْكُورَةِ في سورة (الكهف).

وكذٰلِكَ استطاعَتِ الْبَعْثَةُ العِلْمِيَّة الّتي اتَّجَهَتْ فِي الْبَحْرِ علَىٰ السَّفِينَةِ «مَبَاحِث» فِي رِحْلَتِها الأولَىٰ فِي الْمُحِيطِ الهِنْدِي والْبَحْرِ الأَحْمَر، إِذْ توصّلت إلى اكْتِشَافِ حَاجِزٍ مَغْمُورٍ بَيْنَ الْبَحْرَيْن، وظَهَر لَهَا بِالتَّحَالِيلِ أنَّ مَاءَ الْمُحِيطِ الهِنْدِيّ مُخْتَلِفٌ فِي خَواصّهِ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ الأَحْمَر⁽¹⁾.

* * *

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

---

(١) انظر: «الإسلام والنظر في آيات الله الكونية» تأليف د. محمد عبد الله الشرقاوي، كتاب سلسلة دعوة الحق ـ «العدد/ ٤٧ ـ طبع رابطة العالم الإسلامي ـ ص١١٦، ١١٧».

﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: المرادُ مِنْ جِنْسِ المَاء، فَيَصْدُق بنوع من أنواعه الذي هو السَّائِلُ المَنَوِيُّ.

فمِن المعلُوم أنّ المَاء كُلَّه عَلىٰ اخْتِلَافِ أنْواعِه مادَّةٌ سَائِلَةٌ مُرَكَّبة من عُنْصُرَيْن أساسَيْن هما: الهيدروجين، والأكسجين، وعَناصِرَ أخرى مُخالِطَة من تُراب الأرض كالمِلْح، والكِلْس، والكِبْريتِ أحياناً، وبعض المعادن المنحلّة فيه، خلال مروره في مساربه من الأرض، وقد تُكَوِّنُ فيه خَلَايَا نَباتِيَّة مُتَفَتّتة أوْ مُنْحلَّة، وقد تكون فيه كَائِنَات حَيَّة صَغِيرَةٌ لَا تُرىٰ إلّا بالمجاهر.

وتَتَفَاوَتُ نِسَبُ الْعَناصِر المُخَالِطَةِ للّمَاء، من نَوْعٍ منْ أَنْواعِ المَاءِ إلىٰ نَوْعٍ آخر، وبذَلِكَ تَخْتَلِفُ خَصَائِصُ المِيَاه، بحَسَبِ اخْتِلافِ العَنَاصِر المُخَالِطَةِ له، وبِحَسَبِ اخْتِلافِ نِسَبِها.

﴿بَشَرًا﴾: البشر اسْمُ للإنسان، ويطلق لفظ «بشر» على المذكر والمؤنث، والواحد والاثنين فأكثر، فلا يؤنث ولا يثنىٰ ولا يُجْمع، فتقول: هو بشر، وهي بشر، وهما بشر، وهنّ بشر، وهم بشر.

وقد يثنّى، ومنه قول الله عزَّ وجلّ حكايةً لمقالة فرعون وملئه عن موسى وهارون عليهما السلام، في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقد يجمع لفظ «بَشر» على «أَبْشار».

و«البشَرُ والْبَشَرَةُ» ظاهر جلد الإنسان، والجمع «أَبْشار». ومنه اشتقّ فعل: بَاشَرَهُ يُبَاشِرُهُ مُبَاشَرةً، إذا ألصق بشرة جَسَدِه ببشَرَة جَسَدِه، ومن هذا مباشرة الرجل للمرأة، لالتصاق أبشارهما.

﴿نَسَبًا﴾: النسَبُ القَرابَةُ الَّتِي تَنْشأُ عَنْ طَريقِ التوالُدِ بَيْنَ الأحْيَاءِ، وهي أُصُولٌ وفروع، وما اشْتُقّ من الأصُولِ والفروع، فيدخل فيما اشْتُقَّ من الأصول الإِخوة والأخوات، والأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، ولو عَلَتِ الدَّرجَاتُ. ويدْخُلُ فيما اشْتُقَّ مِنَ الْفُروعِ الأحْفَادُ والحَفِيدَاتُ.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً . . . ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَصِهْرًا﴾: الصِّهْرُ هو على أَحْسَنِ أقوالِ أَهْلِ اللّغة اسْمٌ يُطلَقُ على أقارب الزوج وأقارب الزوجَةِ جَمِيعاً، وهٰذا هو المُلائِمُ للتَّقْسِيم الوَارِدِ في الآية التي نتدبّرُها.

ويُطْلَقُ على أقَاربِ الزَّوْج: «أحْمَاء» والمفرد «حَمُو» و«حما» والمؤنث «حَمَاة».

ويُطْلَقُ علَىٰ أَقَارِبِ الزَّوْجَةِ: «أَخْتَان» والْمُفْردُ المُذَكَّرُ «خَتَن» والأنثىٰ «خَتَنَة».

ويُطْلَقُ أَيْضاً علَىٰ زَوْجُ البِنْتِ أو زَوْجِ الأُخْتِ لَفْظُ «خَتَن».

فعلاقات التواصل بين الناس في الإجتماع البشري بمقتضىٰ هذا التقسيم القرآني ترجع إلى أساسَيْن:

الأول: «النَّسب»: وهي علاقةُ رَحِم، منْشَؤُهَا مَا نظَّم الله عَزَّ وجَلَّ تَكَاثُر الأحْيَاءِ بِمُقْتَضَاه، وهو التَّنَاسُلُ القائم على اشتقاق الأحياء بعضِها مِنَ بَعْضٍ.

الثاني: «الصِّهر»: وهي علاقَةٌ منشؤُها التَّزَاوُجُ بيْنَ الذُّكُورِ والإِنَاثِ، وهي الْوَسِيلَةُ الْمُخْتَارَةُ فِي الْخَلْقِ لتَناسُلِ الأحْيَاءِ، وبِالتَّزاوُجِ تَتَقارَبُ

أُسْرَتَانِ مِنَ المجْتَمَعِ، فتحْصُلُ مُصَاهَرةٌ بينهما، تلتحم بها وشائج صلةٍ ذاتِ قوة، ولو لم تكن بينهما قرابة ملحوظة في شجرة القرابة البشريّة، نظراً إلى بُعْدِها، وعَدَم قُدْرَةِ الناسِ على تصوُّر خيُوطها التي ضعفت بالبُعْدِ.

فالقراباتُ النسبيّة كُلَّما ابْتَعَدَتْ ضَعُفَتْ خُيُوطُ التَّرابُطِ بَيْنَها، حتّىٰ تَكُونَ في تصوُّر الناسِ كالمنعدمة، ولا يَبْقَىٰ في أذهانِ النَّاسِ مِنْهَا إلّا العِلْمُ العامّ بالتِقَائِهم في الجَدِّ الأعْلَىٰ.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾: أي: وَربُّكَ قَدِيرٌ دَواماً مِنَ الأَزَلِ إلى الأبد، في الكينونة الدائمة، ذُو قُدْرَةٍ بَالِغَةٍ مُسْتَواهَا الأَقْصَىٰ.

إنّ هذه الجملَةَ تَتَحدَّثُ عن قضيّةٍ من قضايا صِفَاتِ الرَّبِّ عزَّ وجلّ بوجهٍ عامّ، وقد جَاءَ ذِكْرُهَا عَقِبَ بَيانِ أَنَّهُ تَبَارَكَ وتعالَىٰ خَلَقَ مِن الْمَاءِ بَشَراً، فجعله بعد آدم وحوَّاءَ يَنْقَسِمُ إلىٰ قِسْمَي النَّسَبِ والصِّهْرِ، لِلإلْمَاحِ إلَىٰ أنّ نِظَامَ تَنَاسُلِ الأحْيَاءِ عن طَرِيقِ التّزاوُجِ الَّذِي يَنْجُمُ عَنْهُ علاقات رَحِم نَسبيّة، وعلاقَاتُ مصاهَرَةٍ، هُوَ مِنْ عجَائِبِ التدّبيرِ الحَكِيم فِي الْخَلْق، الَّذي لَا يتمّ إلّا بقُدرَةِ ربٍّ قَدِيرٍ، عَلِيم حَكِيم يفعلُ ما يَشَاءُ ويَخْتَار، ولا سِيمَا إذَا لَاحَظْنَا عَجَائِبَ الْخَلْقِ الربّانِيّ المُحْكَم المتقَنِ في تَكْوِينِ النُّطِفِ فِي الذُّكُور، والْبُيَيْضَاتِ فِي الإنَاثِ، وكيْفَ يَتِمُّ التَّوَاصُلُ والانْدِمَاجِ بَيْنَها، ثُمَّ التَّنَامِي، حَتَّىٰ يَنْشَأ الْمَخْلُوقُ الجَدِيدُ الابْن أو الابنة للزَوْجَيْن.

فمَن درسَ ذلك، وأحْسَنَ التفكُّر، لَمْ يَجِدْ وَسِيلةً يُعبِّر بها عن مشاعره إلّا أَنْ يُؤْمِنَ بالرَّبِ الخالق ويَحْمَدَه، ويَسْجُد لَه، ويتقرَّبَ إلَيْهِ بمَرَاضِيه.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

بَعْدَ التَّنْبيه علىٰ بَعْضِ ظواهِرِ الخلْقِ الدّالّة على الرّبّ الْخالِق للكَوْنِ كُلّه، بمَا فيه مِنْ دَقَائِقَ وعجائِبَ ومُتْقَناتٍ، والدَّالَّةِ علىٰ وَحْدَانِيَّته فِي رُبُوبِيّتِه، التي يَلْزَمُ عَنْها عقْلاً وحْدَانِيّتُه فِي إلٰهيّتِه، أبَانَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ واقِعَ حَالِ المشْرِكِينَ، القائم علىٰ عِبادَةِ الآلِهَةِ الّتي اتَّخذُوها مِن دُون الله، كَمَا جَاءَ في الآية (٣) من السُّورة، والْمَعْنَى أنَّهُمْ اصْطَنَعُوهَا آلِهةً منْ دُونِ اللَّهِ، مَعَ أنّها تُخْلَقُ ولا تَخْلُقُ ولَا تَمْلِكُ لأنْفُسِها ضَرّاً ولا نَفْعاً، ولا تَمْلِكُ مَوْتاً ولَا حَياةً ولا نُشُوراً، ثُمّ عَبَدُوها من دُونِ الله، مع أنّها لا تنفَعُهم ولا تَضُرُّهم، فتَكَامَلَ النّصّان في الدَّلَالَةِ المُرادِ بيانُها، وبَيْنَهما بياناتٌ كَاشِفاتٌ بِالأدِلّة بُطْلانَ هذا الذي اخْتارَهُ المشْرِكُون الكافرون لأنْفُسِهم.

إنّه واقعٌ يسْتَدّعي عجَبَ المتَعَجّبينَ، واسْتِنْكَارَ المُسْتَنْكِرينَ، فَظواهِرُ الْخَلْقِ فِي الكَوْنِ، وتَصَارِيفُ أحْدَاثِه، تُورِثُ اقْتِنَاعَ مُخْتَلِفِ مُسْتَوياتِ النَّاسِ في أفْكارِهم ومَفَاهِيمِهِمْ، بأنَّ الرّبَّ الْخالِقَ وَاحِدٌ، وبِمَا أنَّ الأَمْرَ كذلك فَإنَّه يَجِبُ أنْ يَكُونَ هُوَ الإلٰه الواحِدَ، فَكَيْفَ يَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: ويَعْبُدُ الكَافِرُون المشْرِكُونَ آلِهةً اتَّخذُوها لأنْفُسِهِمْ، هِيَ مِنْ دُونِ الله الرّبّ الخالق.

ودلّ الْفِعْلُ المُضَارِعُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ علىٰ أنَّ هٰذه العبادة منهم لآلِهتِهم مسْتَمِرَّة متكرِّرَة تَتَجَدّد دواماً على الرغمّ مِنْ كلِّ البيَاناتِ الإقْنَاعِيَّةِ الّتِي وُجِّهَتْ لَهُمْ قَبْلَ نُزول سورة (الفرقان) بأنّها لا تَصْلُحُ لأنْ تَكُون آلهةً تُعْبَد أصلاً.

﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾: عَبَّرَ الله عنْ آلهَتِهم باسْمِ المَوْصُولِ «مَا» الموضُوعِ لمَا لَا يَعْقِلُ وَلَا يَعْلَمُ، للدَّلَالَةِ علَىٰ أنَّ مَعْبوداتِهِمْ لَا تَعْلَمُ عَنْ عَابِديها شَيْئاً، فهُمْ يَعْبُدونَ أَوْهَاماً اصْطَنعوها فِي مُخيِّلَتِهِم، إذْ هِيَ لَا تَنْفَعُهُمْ حَتَّىٰ يَعْبُدُوها فَيَسْتَزِيدُوا بِعِبَادتِهِمْ لهَا مَا لَدَيْها مِنْ نَفْع، وهِيَ لا تَضُرُّهم حتَّى يَعْبُدوها فَيَحْمُوا بِعبادَتِهم لهَا أَنْفُسَهُمْ مِنْ ضرّها.

هذا هو حَضيضُ السُّخْفِ، وفَسَاد الرَّأْي، وضَلَال العَمَل.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾: كَلِمةُ «ظَهِير» تأتي في اللّغة بمعنَيْن:

(١) فتأتي بمعْنَى: «مُعِين» والأصْلُ فِي هذا الاستعمال أنّه يُقوّي من يُعينُه من جِهَةِ ظَهْرِه. ويَسْتَوِي في هذِهِ الكَلِمَةِ المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع.

يقال: الكافر ظهيرٌ للشَّيْطانِ علَىٰ رَبّه، أي: مُعْينٌ للشيطان ضِدَّ مَرْضَاةِ رَبّه.

(٢) وتأتي بمعنى: «شَديدِ قَوِيّ الظَّهْرِ لَا يُطَاوِعُ وَلَا يَلِين».

- فعلى أنّ «ظَهِيراً» بِمَعْنَى «مُعِينٍ» يُمْكِنُ أن نَفْهَم أنّ الكَافِرَ قَد جَعَلَ نَفْسَه مُعِيناً للشَّيْطَانِ عَلَى مَعْصِيَةِ رَبِّه، ومُخَالَفةِ أمْرِه، فِيمَا تَعَهَّدَ به مِنْ إغْوَاء بني آدمَ، إذْ قال لربّه كما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وجعَلَ نَفْسَهُ مُعِيناً للشيطان إبْلِيس إذْ صَدَّقَ عَلَيْه إبليسُ ظَنَّهُ فيه، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) بشأن القبائل اليمنيّة الّتِي تَرْجِعُ إلَىٰ «سبأ» جدّها الأعلى والتي أرْسَلَ اللّهُ عَلْيها سَيْلَ الْعَرِمِ:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

• وعلى أنّ «ظَهِيراً» بمعنى: «شَدِيدٍ قَوِيّ الظَّهر لَا يُطاوع ولا يَلين» يُمْكِن أن نَفهمَ أنَّ الكَافِر صُلبٌ مُعَانِدٌ لبيَانَاتِ رَبِّه الإِقْنَاعِيّة والتَّرغِيبِيَّةِ والتَّرهِيبِيَّةِ وسَائِر الوسَائلِ التَّربَوِيَّةِ، فلَا يَلِينُ لشَيءٍ مِنْها، ولا يُطَاوِع، معَ أنّ ربّه قد تلطّفَ به فصَرَّفَ له آيات الْقُرآن تصريفاً مخْتَلِفَ الأنْواعِ والصّوَرِ، ليَسْتَجِيبَ لِلْحَقّ، ويَسْلُكَ سَبِيلَ الْهُدَى، ويُنقِذَ نَفْسَه من اسْتِحَقاق العِقَاب، فَلَمْ يَفْعَلْ.

وتكُون الجُمْلَةُ علَىٰ هذا بمَعْنى: وكَان الكَافِرُ مُعَانِداً قاسياً صُلْباً قويّ الظهر، مُسْتَعلِياً على بيَاناتِ رَبِّه غَيْرُ مُطاوعٍ لهَا، ولَا لَيِّن تُجاهَها.

وتَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ علىٰ عَامِله فِي عبارة ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يُفِيد نَوْعاً من الْحَصْر، وهٰذا يَدلُّ علىٰ أنّه بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِ بيَانَاتِ ربِّهِ كوَسَاوِسِ الشَّيَاطِين، وتَضْلِيلَاتِ الْمُضِلّينَ الَّذِين يُؤَثّرونَ عَلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ شَهَواتِه وأهْوَائِه هُوَ ضَعِيفٌ لَا قُوَّة لَه، ولا مُقَاوَمَة عنْدَه، إذْ إِنَّهُمْ يُؤَثّرون عَلَيْه بأَضْعَفِ الوَسَاوِسِ والتَّسْويلَاتِ.

ونَظِير هذا نقُولُ بالنّسبة إلىٰ الْمَعْنى الأوّل، فَهُو مُعِينٌ للشَّيْطَانِ عَلَى ربّه، ولا يُعِينُ علىٰ نُصْرَةِ الحَقّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ الَّتِي يُعِينُ عَلَىٰ نُصْرَتِها الْمُؤْمِنُونَ ابْتِغَاء مَرْضَاةِ الله.

ويُمْكِنُ حَمْلُ كَلِمَةِ «ظَهِير» فِي الآيَةَ عَلَىٰ المَعْنَيَيْنِ مَعاً، وقَدْ تأكّد لنَا أنّ حَمْلَ اللّفْظِ على الْمَعَانِي التي يَدُلّ عَلَيْها دُون تعارضُ فِي النُّصُوصِ الْقُرآنِيَّةِ ممّا يَنْبَغِي أن يَكُون إِحدَىٰ الْقَوَاعِد الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْها المتدبِّر لِكِتَابِ الله عزَّ وجلّ(١).

* * *

---

(١) انظر القاعدة (٢٨) حول استعمال الكلام في أكثر من معنى من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

تمهيد:

- جَاءَ فِي الآيَةِ الأُولَىٰ مِنَ السُّورَةِ بيانُ أنّ الله نَزَّلَ الفرقانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ليكُونَ للعالَمِين نَذِيراً، أي: مُنْذِراً بعذاب الله لمَنْ كَفر وعَصَى، نَظَراً إلَىٰ أنّ أكْثَر الْعَالَمِين سَيَرفُضون الاسْتِجَابَةَ لدَعْوةِ الرَّسُول، فلا يَكُونُ لَهُمْ حَظٌّ منْ رِسَالَتِهِ أَخِيراً إلّا الإنذارُ بعذاب الله المعجّل والمؤجّل إلى يوم الدين، بعد أن بلّغهم وأبَانَ لَهُمُ الحقّ وبشّرَهم بالسّعَادة الأبدية إذا آمنوا، واتبعوا ما أنزل الله إليهم.

- وجاء في الآية (٣٠) من السورة بيانُ شكْوىٰ الرَّسُولِ لرَبِّه منْ كَوْنِ مُعْظَم قَوْمِه فِي مكّةَ اتّخذُوا هٰذا الْقُرْآن مَهْجُوراً، بَعْدَ أَنْ بلَّغَهُمْ إيَّاهُ وأبَانَ لَهُمْ مَا فِيه مِنْ حقٍّ، ومَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ.

- وجَاءَ فِي الآية (٤٣) بَيَانُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ أنّه لَيْسَ وَكِيلاً علىٰ النَّاسِ حتّىٰ يتصَوَّرَ أنّه مَسْؤُولٌ عندَ الله عَنْ كُفْرِ مَنْ كَفر منْهُم.

- وَجاء في الآيَة (٥٠) بَيَانُ أنّ الله عزَّ وجلَّ قَدْ نَوَّعَ أَسَالِيبَ الإِقْنَاعِ والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ فِيمَا نَزَّلَ مِنَ القرآن قَبْلَ سُورَة (الفرقان) فَلَمْ يُؤْمِن من النَّاسِ فِي مَكَّةَ ومُلْحَقَاتِها إلّا الأقلّ، وأمّا أَكْثَرَ النّاس مِنْهُم فقد أَبَوْا إلّا كُفُوراً.

وهذا يَدُلُّ علَىٰ أنّ النَّاسَ قَدْ صَارُوا بالنِّسْبَةِ إلى الدَّعْوَةِ الإِسْلاميّة قِسْمَيْنِ: مؤمنين، وكافرين، وأكْثَرُ الكَافِرينَ مُعَانِدُون مِنْ دَرجَةِ المُتَشَدِّدِينَ فِي كُفْرِهِمْ.

- وفي الآية (٥٢) أَمَرَ الله عزَّ وجلّ رسُولَه بأمرين:

الأمر الأول: ألّا يُطِيع الكَافِرينَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَطَالِبهِم ومُقْتَرَحَاتِهِمْ التَّعَنُّتِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ فِي السُّورَةِ بيانُ طَائِفةٍ منها.

الأمر الثاني: أنْ يُضَاعِفَ مُجَاهَدَتَهُ لِلْكَافِرِينَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ إقْنَاعٍ وترغيب وتَرْهِيبٍ وتَرْبِيَة، نظراً إلىٰ أنَّهُ مَا زَالَ أَمْرُ اسْتِجَابَةِ بَعْضِهم مَطْلَباً مرجوّاً، ولَمْ يَصِلْ بَعْدُ إلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ منها.

- وبعد وُضُوح وُجُود مؤمِنين وكافِرين في أمّة الدّعوة جاءَتِ الآية (٥٦) تُبيّن للرَّسُول أنّ وظيفَتَهُ مُنْحَصِرَةٌ فِي كَوْنِهِ مُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَلَّ حَصْرُ وَظِيفَتِهِ فِي هَذَيْنِ الأمْرَيْنِ التَّبْشِيرِ والإنذار ـ وهما الْحَلْقَةُ الأخِيرَةُ مِنْ سِلْسِلَةِ التَّبْلِيغِ والتَّعْلِيمِ والإقْنَاعِ واتّخاذ كُلِّ الوَسَائِلِ الَّتِي يُرْجَىٰ بِهَا اسْتِجابة المدْعُوِّين، عَنْ طَرِيقِ اخْتِيارِهِمْ الحُرِّ، دُونَ إكْرَاهٍ ولَا إلْزَامٍ ولَا جَبْر ـ علىٰ أنّه صلوات الله عليه لَيْسَ مسؤولاً عَنِ التَّغْيير والتَّحْوِيلِ في واقِعِ النَّاسِ، لأنَّهُمْ مُمْتَحَنُونَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، والْمُمْتَحَنُ لا بُدَّ أنْ يَكُونَ غَيْرَ مَجْبُورٍ ولا مُكْرَهٍ، إذِ الإيمانُ يَجِبُ أنْ يَكُونَ بالاخْتِيَارِ الْحُرِّ، وكذٰلكَ مُقْتَضِيَاتُ الإيمَان، ومَنْ يَأبَى فإنَّه يأبَىٰ أَيْضاً باخْتِيَارِهِ الْحُرِّ، فقال الله له:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

في هٰذه الْجُمْلَةِ حَصْرٌ لإرْسَالِ الرسُولِ بالتَّبْشِيرِ والإنْذَار، ولكن لمَّا كَانَ التَّبْشِيرُ والإنذارُ إنّما يَكُونَانِ بَعْدَ سِلْسِلَةِ أعْمَالٍ يَقُومُ بها الرسول، يَبْرُزُ مِنْهَا التبلِيغُ والتَّعْلِيمُ والإقْنَاعُ والصَّبْرُ عَلَى الأذىٰ، واتِّخَاذُ كُلِّ الْوَسَائِلِ الَّتِي يُرجَىٰ بها استجابةُ المدْعُوِّينَ عن طَرِيقِ اخْتِيَارِهِمْ الحُرِّ، فإنّ حَلْقَاتِ هٰذِه السِّلْسِلَةِ السَّابِقَةِ للتَّبْشِيرِ والإنْذَارِ دَاخِلَةٌ فِي المَحْصُور بأداة الحَصْرِ «ما» و«إلّا».

- ولتَأْكِيدِ إزَالَةِ عَقَبةِ اتّهامِ الرَّسُولِ بالْمَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ مِنْ دَعْوَتِه،

واتّهامِه بأنّه يسْعَىٰ لِيَحْصَلَ عَلَيْهَا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ له، قَال الله عزّ وجلّ له:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . . ﴿٥٧﴾﴾.

فأَمَرَهُ أَنْ يُعْلِن للنَّاسِ بالْعِبَارةِ الصَّرِيحَةِ الواضْحَة أنّهُ مَا يَسْأَلُ أحداً مِن النَّاسِ أَجْراً عَلَى مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ مُجَاهَدَةٍ لإِنقَاذِهِمْ مِنْ عَذَابِ الله، ولِهِدَايَتِهِم إِلَىٰ سَبِيلِ سَعَادَتِهِم في الدُّنْيا والآخِرة.

﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: «مِنْ» حَرفُ جرٍّ زيد للتَّنْصِيصِ علىٰ الْعُمُومِ، ولَفْظ «أَجْر» مفعول به منصوبٌ محلًّا مَجْرُورٌ لفظاً.

وَمَا جَاءَ فِي هٰذِهِ الآيَةِ هُوَ التَّكْلِيفُ الرَّبّانِي الثَّانِي للرسُول حَوْلَ هذا الموضوع، أمّا التكْليفُ الأوَّلُ فقَدْ جَاءَ في سُورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) في قول الله عزَّ وجلّ له:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . . ﴿٨٦﴾﴾.

وقد جاءَ هٰذا تَعْقِيباً علَىٰ اتِّهامِ مَلأِ قَوْمِه لَهُ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي صَدْرِ سورة (ص) بقوله تعالى فيها:

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾.

أي: يُرادُ لمصلحةٍ شخصيّة من أمُور الدُّنيا.

لكنّ التأكِيدَ الّذي جاء في سورة (الفرقان) لم يكن مُجَرَّد تأكيد، بَلْ جَاءَ مُقْتَرِناً بإضَافَةٍ تَتَعلَّقُ بالْمُؤْمِنِينَ، وهٰذِه الإِضَافَةُ قَدْ تَضَمَّنَتْ اسْتِثْنَاءَ مَا يُرِيدُ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَتَقرَّبُوا بِهِ إِلَىٰ رَبِّهم، مِنْ إِكْرَامَاتٍ للرَّسُولِ قَدْ يَبْدُو فِي ظَاهِرِهَا أَنَّهَا بِمَثَابَةِ الأَجْرِ لَهُ، عَلَىٰ جِهَادِهِ مِنْ أَجلِ خَيْرِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ، كالصَّلَاةِ والتَّسْلِيم عليه، والدُّعَاءِ لَهُ، وَكَتَقْدِيم بَعْضِ الْهَدَايَا والخَدَمَاتِ، والتَّضْحِيَاتِ مِنْ أَجلِ حِمَايَتِهِ وَنُصْرَتِهِ والدِّفَاعِ عَنهُ، ونَحْوِ ذلك، فقال الله عزَّ وجلّ له:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

أي: لَكِنْ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً فَلَهُ أَنْ يُقَدِّمَ للرَّسُولِ شَيْئاً مِمَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِقَبُولِهِ.

أو إِلَّا مَا يُقَدِّمُه مِنْ إِكْرَام للرَّسُولِ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً، وهٰذَا فِي الْحَقِيقَةِ لَيْس أَجْراً للرَّسُولِ، لَكِنَّهُ عَمَلٌ يَتَقَرَّبُ بِهِ الْمُؤْمِنُ إِلَىٰ رَبِّهِ لِيُعْطِيَهُ اللَّهُ أَضْعَافَ مَا قَدَّمَ لِرَسُولِهِ.

فَمَنْ صَلَّىٰ عَلىٰ النَّبيّ مرّة صلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً، وَمَنْ قَدَّمَ للرَّسُولِ خِدْمَةً أو إِكراماً أَعْطَاهُ الله بذَلِكَ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً.

ولَوْلا هٰذا الاستِثْنَاءِ لَتَحَرَّجَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ مِنْ قَبُولِ أيِّ شَيْءٍ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا. ولتحَرَّجَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ تَقْدِيمِ أيِّ شَيْءٍ للرَّسُولِ صلوات الله عليه.

وبِهٰذا نُلاحظ أنَّ البَيَانَ الْقُرْآنيَّ فِي مَرَاحِل تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ قَدْ جَاءَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْبِنَاءِ الارْتِقَائِي فِي الأفْكَار.

وقَدْ دَعا إِلىٰ هٰذِهِ الإِضَافَةِ هُنَا فِي سُورةِ (الفرقان) الْمُنَاسَبَةُ الَّتِي أَوْضَحَتْ أنّ الرَّسُولَ قَدْ صَارَ لَهُ أتباعٌ مُؤمِنُونَ بِهِ، ويَحْرِصُونَ عَلَىٰ أَنْ يُقَدِّمُوا للرَّسُولِ أشْيَاءَ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَىٰ رَبِّهِمْ، ممّا يأذن الله به(١).

• وبِناءً علىٰ الإِلمَاحِ السَّابق الَّذِي جَاءَ فِي الآية (٣١) مِنَ السُّورَةِ، الدَّالّ علىٰ أنّ الرَّسُولَ والْمُؤمِنِينَ سَتَقُومُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعارِكَ قِتَالِيَّة، أَوَصْىٰ الله رسوله بثلاثةِ أمُور:

---

(١) انظر تتمة هذا الموضوع القرآني في المثال السادس من القاعدة (٦) من «كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف ص٩١.

الأمْرُ الأول: أن يَتَوَكَّلَ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ.

الأمر الثاني: أن يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ.

الأمر الثالث: أن لا يهتَمَّ لأحْوَالِ الكَافِرِينَ، وَمَعَاصِيهِمْ لِرَبِّهم، وذُنُوبِهِمْ، فالله عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِها، وكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً.

فقال الله له::

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

تمهيد:

أمّا التوكُّلُ عَلَىٰ الله فَهُوَ وظيفة قلبيّة نفسيّة، وهو ثمرةٌ من ثمرات صِدْقِ الإِيمانِ وعُمْقِهِ في القَلْب.

وأمّا التسبيح بحمد الله فهو ذكْرٌ لِسَانيٌّ وفكريٌّ يُسَاعِدُ على شَغْل ساحة التصوّرات الْفِكْرِيَّة بِعَناصِرِ مِنَ القَاعِدَةِ الإِيمانية، إنَّهُ تسبيحٌ لله ممتزجٌ بِحَمْدِهِ والثَّناءِ عليه.

وأمّا تَوْجِيهُهُ لِعَدَمِ الاهْتِمَامِ لأحْوَالِ الكَافِرِينَ وَمَعَاصِيهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، بِدَافِعِ حِرْصِهِ عَلَىٰ أنْ يَكُونَ الناسُ جَمِيعاً مُؤْمِنِينَ بِرَبِّهِمْ، عَابِدِينَ لَهُ، يُؤَدُّونَ حقّه عَلَيْهِمْ، غيرةً مِنْ أَجْلِ رَبّه عزّ وجلّ، فقد جاء بأسلوب أنّ الله الَّذِي هُوَ صَاحِبُ الْعَلاقَةِ مُطّلِعٌ عَلَيْهِمْ خَبِيرٌ بِهِمْ، لَا يَحْتَاجُ إلى مَنْ يَهْتَمُّ لِقَضَايَاهُ، وإنّه مَتَىٰ رَأَىٰ مِنَ الْحِكْمَةِ أنْ يُعَاقِبَ عَاقَبَ، أَوْ أَنْ يَنْتَقِمَ انْتَقَمَ، وَبِمَا أنَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا كُلَّهَا حَيَاةُ امْتِحَانٍ فإنّ مِنَ حِكْمَةِ الله وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ أَنْ يُمْلِيَ لَهُمْ وَيُمْهِلَهُمْ، حَتَّىٰ لا يَتْرُكَ عُذْراً لِمُعْتَذِرٍ.

التدبر التحليلي:

﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فعلُ أمرٍ من: «تَوَكَّلَ يَتَوَكَّلُ تَوَكُّلاً» يُقال: تَوَكَّلَ على الله إذَا اعْتَمَدَ عليه بقلبه اعتماداً صادقاً، مستسلماً لما يختاره له من أمْر، مع قيامِهِ بالأَسْبَابِ الكَوْنِيَّةِ الَّتي لَمْ يَحرّم اللَّهُ اتِّخَاذَها، دونَ تَفْرِيطٍ بشيءٍ منها، فالقيام بِهَا هُو مِنْ طَاعَةِ الله في تَراتيبِ أَنْظِمَتِه فِي كَوْنِه، ومَعَ قِيامِه بالأَسْبَابِ التَّعبُّدِيَّةِ الَّتِي أوصَىٰ الله بِهَا في كتابه، أَوْ أَوْصَىٰ بِهَا الرَّسُولُ فِي سُنَّتِه، كالذِّكْرِ والدُّعاءِ.

﴿عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾: هُوَ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ، وقَدْ اخْتَارَ الله مِنْ أَسْمائِه وأوْصَافِه هنا: «الحيّ الذي لا يموت» للتَّنْبيهِ علَىٰ أنّ مَنْ تَوكَّلَ عليه فإنّه لَا يَخِيبُ فِي حَالٍ من الأحْوَالِ، لأنَّهُ سُبْحَانه وَتَعَالَىٰ بَاقٍ دَواماً، حَيٌّ دَواماً لَا يَمُوتُ أبداً.

ويَدْخُل فِي عُمُوم الْمَوْتِ المنفيّ النَّوْمُ الَّذِي هُوَ شَبِيهٌ بالمَوْتِ، حَتَّى أَقَلّ دَرَجَاتِه وهِيَ «السِّنَةُ» وقَدْ جَاء التصريح بِهِمَا في آيَةِ الكُرْسِي من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ . . . ﴿٢٥٥﴾﴾.

والحيُّ الّذِي لَا يَمُوتُ الْمُحِيطُ بكُلِ شَيْءٍ عِلْماً، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شَهِيداً عَلَىٰ عِبَادِهِ دَواماً، حَاضِراً مَعَهُمْ دَواماً، فَمَنْ تَوكَّل عَلَيْهِ مَعَ طَاعَتِهِ باتِّخَاذِ الأَسْبَابِ كَفَاهُ، ولا سِيمَا في الأُمُور الّتي لا يَمْلِكُ جَلْبَها أَوْ دَفْعَهَا، فهو يُيَسِّرُ له الأسبابَ الخفيَّة، ويمِدُّهُ بمعُونَتِه، حتّىٰ يَقْضِيَ لَهُ بحِكْمَتِه مَا هُوَ لَهُ خَيْرٌ بحَسَبِ عِلْمِه الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، جلّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانه.

والتّعريفُ بالألِفِ واللّام في اسْم الله «الْحَيّ» للْكَمَالِ، أي: الّذِي لَهُ كَمَالُ الْحياة، ومَنْ لَهُ كَمَالُ الْحَيَاةِ فَلَا بُدّ أَنْ يَكُونَ ذَاتِيّ الْحَيَاةِ أزليَّها

وأَبَدِيَّها، ولا تَحتَاجُ حَيَاتُه إِلَىٰ شَيْءٍ يُمِدُّهَا، كَحَاجَةِ حَيَواتِ الكَائِنَاتِ الْمَخْلُوقَة.

فالرسُلُ والْمُؤْمِنُونَ باللَّهِ يتوكَّلُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الحَيّ الَّذِي لا يَمُوتُ.

أمّا المشركُونَ وسَائِرُ الكَافِرينَ، فَهُمْ يَتوكَّلُونَ عَلَىٰ أَمْوَاتٍ غَيْرِ أَحْياءٍ، أَوْ أَحْياءٍ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيءٍ، فإنْ كَانُوا جِنّاً زَادُوهُمْ رَهَقاً، أَوْ يَتَوَكّلُونَ عَلَىٰ أَسْبَابٍ غَيْرِ حيّةٍ، وهٰذِه إِنَّمَا تُعْطِي عَطَاءَاتِهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وقَدَرِه ضِمْنَ أَنْظِمَتِهَا العامَّةِ الْقَدَرِيّة، وَهِيَ مُسَخَّرَة لِمَنْ أَحْسَنَ اسْتِخْدَامَهَا مِنْ مَفَاتِيحِهَا، تَوَكَّلَ بقلبه عليها أَمْ لم يَتوكَّلْ، فَلَا تَزِيدُ مَنْ توكّل عَلَيْهَا شيئاً، لَكِنَّ توكُّلَه عَلَيْهَا يَخْدِشُ إيمَانَه بالرَّبِّ الْخَالِقِ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾: أَصْلُ السَّبْحِ فِي اللُّغَةِ الحَرَكَةُ السَّهْلَةُ الّتِي يَحْصُلَ بِهَا الانتقَالُ فِي المَاءِ أَوْ فِي الْهَوَاءِ بِرِفْقٍ ولِينٍ، ومِنْهُ سَبْحُ السَّمَكِ في الماء، وسَبْح الكَواكِبِ والنُّجُوم في مَسِيرَاتِها فِي أفلاكِها، وكذٰلِكَ حَرَكَةُ اللَّيْلِ والنَّهَار الدَّائِرةُ فِي فَلَكِهَا سَبْحاً، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ولمّا كَانَتْ حَرَكَةُ الْخُيُولِ عِنْدَ جَرْيِها تُشْبِهُ بِخِفَّتِها عَلَىٰ الأَرْضِ حَرَكَةَ السَّبْحِ في الهَواء، سمَّىٰ الْعَربُ جَرْيَها سَبْحاً، وقالُوا عَنِ الفرسِ الّذِي يَجْرِي: «سَابح» و«سَبُوح».

والتّسْبِيحُ لله ذِكْرٌ يَتَضَمَّنُ معنىٰ تنزيه الله عمّا لا يليقُ بجَلالِه، مَعَ الحَرَكَةِ اللّسَانيّة والفِكْرِيّة التّلْقَائيّة الّتِي تُشْبِه حَرَكَةَ السَّابِحِ فِي الْهَواءِ أَوْ فِي الْمَاء.

وقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الأشْياءَ والأَحْيَاءَ وفَطَرَ مَا كَانَ مَجْبُوراً مِنْها عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مُسَبِّحاً لِلَّهِ دواماً، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾.

وقَالَ فيها أيضاً:

﴿... يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ㉔﴾.

وقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿... وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... ㊹﴾.

والملائكة تُسَبِّحُ بحمْدِ الله دواماً بإِرَادَةٍ فِطْرِيّةٍ فيها هي بمثابة الغريزة.

ولمّا أعطىٰ الله الإنس والجنّ إرادَاتٍ حُرّةً ليبْلُوهم لَمْ يَجْعَلْ مَا هُوَ مختارٌ فيهم مُسَبِّحاً بالفطرة، فأمَرَهُمْ تَكْلِيفاً بأن يُسبِّحُوهُ، لِيَدْخُلُوا بإراداتِهِمْ فِي عُمُومِ مَا يُسَبّحُ لله بالْجَبْر أَوْ بِالْفِطْرة.

ولـمّا كَانَ التّسْبِيحُ لله ذكراً لله بمعنى تنزِيهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِه، أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ بأَنْ يَكُونَ التَّسْبِيحُ لَهُ مُقْتَرِناً ومُلْتَبِساً بحَمْدِه، أيْ: بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بصِفَاتِه الْعَظِيمَةِ وأسْمَائِه الْحُسْنَى، وبِكُلِّ مَا يَسْتَحِقُّ أنْ يُحْمَدَ عَلَيْهِ، ولمّا كَانَ لِلَّهِ عزَّ وجلّ كلُّ كَمَالٍ كَانَ لَهُ كُلُّ الْحَمْدِ.

وقد تكرَّر في القرآن نحو: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ـ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ـ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وسَبِّحْ تَسْبِيحاً مُلْتَبِساً مُقْتَرِناً بحَمْدِه.

وجاء في السُّنّة تعليمُنَا كيف نُسَبّحُ بِحمد الله بأن نقول نحو: **[سبحان الله وبحمده]** أي: أُسبّح سُبْحَانَ الله، وأَحْمَدُهُ بِحَمْدِهِ، والمعنى: أُنزّه الله كتنزيه الله لنفسه، وَأُثْنِي على الله بما أثْنَىٰ به عَلَىٰ نَفْسِه.

وفي التسبيح بحمد الله الفوائد العظيمة التالية:

الفائدة الأولى: أنّه عبادةٌ لِلَّهِ ينالُ بِهَا الْعَابِد عِنْدَ اللَّهِ أَجْراً عظيماً، إذِ التَّسْبِيحُ المستوفي عَناصِرَهُ يَشْغَلُ لِسَانَ الذَّاكِر وفِكْرَهُ وقَلْبَهُ بِربّه.

الفائدة الثانية: أَنَّهُ يُذكّر الْمُسَبّح بحَمْدِ رَبّه على الوجه المطلوب، بعَنَاصِر القاعِدَةِ الإِيمَانِيَّة، وهذا التَّذْكِيرُ مَعَ حُضُورِ الْقَلْبِ وتَوَجُّهِهِ للتَّفَكُّرِ بِمَعَانِي تَنْزِيهِ اللَّهِ ومَعانِي الثَّنَاءِ عَلَيْه بصِفَاتِه الجَلِيلَة وأَسْمَائه الحُسْنَى، يُوجِّهُ الْعَواطِفَ نَحْوَ طَاعَةِ الله والْتِزَام أَوَامِره، واجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، فَيَكُونُ الذَّاكِرُ المَسبِّحُ بحَمْدِ ربّه أكْثَر تقيُّداً بمُقْتَضَياتِ مَرْتَبةِ التَّقْوَىٰ، ثُمَّ مقْتَضيَاتِ مَرْتَبَةِ البِرّ، ثُمَّ مُقْتَضَيَاتِ مَرْتَبَةِ الإِحْسَان.

الفائدة الثالثة: أنَّهُ بِمَثَابَةِ الْعِلاجِ الَّذِي يُفَرِّغُ النَّفْسَ مِنَ الأحْزَانِ والْهُمُومِ والْمَخَاوِفِ، ويَصْرِفُ عَنْها وارِدَاتِها، فتَكْتَسِبُ نَفْسُ المُسَبِّح بحَمْدِ ربِّه عَافِيَتها، وتَسْتَجْمِعُ قُواهَا لِمُوَاجَهَةِ الصِّعَاب مَهْمَا كَانَ شَأْنُها.

الفائدة الرابعة: أنّه بمثَابَةِ السِّلْكِ الكَهْرَبائِيِّ المُوصِلِ بمَصْدَرِ الطَّاقَةِ الحَقِيقِيَّةِ الكُبْرَىٰ فِي الْوُجُودِ، الّتي تُمِدُّ الْعِبَادَ بِالعَوْنِ والتَّوْفِيق والسَّدادِ والرَّشَاد.

وحَظُّ المُسبِّح بحَمْدِ ربِّه مِنْ هذِه الفوائد يَكُونُ بِمِقْدَارِ حُضُورِ قَلْبِه ونَفْسِه وفِكْرِه مَعَ ربِّه فِي أَوْقَاتِ ذِكْرِه، فتَنْقُصُ مِنْها الغَفَلاتُ، وتَنْقُصُ مِنهَا شَوَارِدُ الأفْكَارِ، وتنْقُصُ مِنْها عَوارِضُ الشَّهَواتِ والأَهْوَاءِ، ولَوْ كَانَ اللِّسَانُ مُشْتَغِلاً بالتَّسْبِيحِ والْحَمْدِ، ويزْدَادُ النَّقْصُ حَتَّى يُصْبِحَ الذِّكْرُ اللِّسَانِيّ حَرَكَةً آلِيَّةً لا يَتَجَاوَزُ تَأْثِيرُها الْعَضَلاتِ والأعْصَابَ المَادِيَّة الَّتِي تَتَحَرَّكُ بأَلْفَاظِ التَّسْبِيح بِحَمْدِ الله، وكَذلِكَ كُلُّ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ وصُوَرِهِ الَّتِي يُؤَدِّيها الذَّاكِرُونَ لِلَّه عزَّ وجلّ.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾.

أي: كَفَىٰ اللَّهُ حَالَة كَوْنه عَلِيماً خَبِيراً بذُنُوبِ عِبادِه، وهُو الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ دَواماً.

﴿وَكَفَىٰ﴾: فِعْلٌ مَاضٍ ﴿بِهِۦ﴾ الباء حَرْفُ جَرٍّ زَائِد يزاد في فَاعِلِ كَفَىٰ للتَّأْكِيد، والضَّميرُ العَائِدُ عَلَىٰ الله هُو الْفَاعِل، وهو مرفوعٌ محلًّا علىٰ أنّه مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ ضَمِير الرَّفْع.

﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾: مَعْمُولٌ تَقَدَّمَ علَىٰ عَامِله وهو لفظ «خَبِيراً» لمُراعَاةِ جَمَالِ التَّعْبِير في الآيةِ الّذِي يَسْتَدْعِيه التَّنَاظُرُ فِي فَواصِلِ الآيَاتِ، مَعَ مَا فِي هذا التَّقديم مِنَ الدَّلَالةِ علَىٰ تَخصِيص الخبْرَةِ بأعْمَالِ الْعِبَادِ الَّذِينَ مَنَحَهُمْ اللَّهُ إرَادَاتٍ حُرَّةً غَيْرِ خاضِعةٍ لبَرنَامج جَبْرِيّ سَابِقٍ لِيَمْتَحِنُهم فِي رِحْلَةِ الحَياةِ الدُّنيا، ومُرَاعَاةً لهذا الْمَعنىٰ تَكَرَّر في القرآنِ وصفُ الله عَزَّ وجلّ بأَنَّهُ خَبِيرٌ في مَوْضُوعِ أعْمَالِ العِبادِ الَّذِين منَحَهُمُ الله إرَادَاتٍ حرَّةً تتحرَّكُ باخْتِيارِهِمْ، لَا وَفْقَ برنَامَجٍ جَبْرِيٍّ سَابقٍ.

﴿خَبِيرًا﴾: خَبير على وزن «فَعِيل» مُبَالَغة لاسْمِ الفَاعل مِنَ الْخِبْرَةِ، وهِي العِلْمُ الحَاصِلُ عَنْ تَجْرِبَة.

ويظْهَر لَنَا مِنْ إيرَادِ هذِه الجُمْلَةِ غَرَضَانِ:

الغرض الأول: تأكِيدُ تَحْدِيدِ مَسْؤُولِيَّةِ الرَّسُولِ بأَنَّها مسْؤُوليَّة تَبشِيرٍ وإنْذارٍ، ومَا يَسْبِقُهُما مِنْ تَبْلِيغٍ وتَعْلِيم وإقْناعٍ وتَرْبيةٍ ونَحو ذلك، والتَّهْوِينُ علَىٰ نَفْسِه حتَّىٰ لا يَهْتَمَّ لِمَا عَلَيْهِ الْقُومُ مِنْ كفر وعِصيَان غَيْرةً مِنْ أَجْلِ رَبِّه، فالرَّبُّ الَّذِي أَمَرَ بالإِيمَانِ والطَّاعَةِ، وَوَعَدَ وأَوْعَد، وهُوَ الْقَدِيرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُعْجِزُه شَيْءٌ، ولَا يَنْقُصُ مِن مُلْكِهِ شَيء، خَبِيرٌ بِذُنُوبِ عِبادِه، لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْها شَيْءٌ، وحِينَ يرىٰ الحِكْمَةَ فِي الْعِقَابِ فإنّه يُعَاقِب.

الغرض الثاني: تَهْدِيدُ الكَافِرين بأنَّ اللَّهَ مُطَلِعٌ علَيْهم، خَبِيرٌ بِكُلِّ مَا يَكْتَسِبُونَ مِنْ ذُنُوبٍ وآثَام، ويَلْزَمُ مِنْ خِبْرَته بِهِمْ وهُوَ الْحَكِيمُ الْعَدْلُ أَنَّهُ سَيُجازِيهِمْ عَلَىٰ ذُنُوبِهِم بِمَا يَسْتَحِقّونَ، مَتَىٰ حَانَ حِينُ الْجَزاء.

وهذا الغرض يناسب ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في السّورة:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

* * *

إجمال معاني هذا الدرس الثامن

• بدأ هذا الدرسُ بتَوْجيهِ الفِكْرِ الَّذِي يَعْتَمِدُ على النَّظَرِ الْعِلْمِيِّ باسْتِخْدَام الْمُلاحَظَةِ عَنْ طَريقِ الْوَسَائِل الإنْسَانِيَّة لِدِرَاسَةِ ظَاهِرَةِ الظِلّ مِنْ ظواهِر خلْقِ الله الَّذِي أتْقَن كلَّ شيْءٍ، وارْتِباطِ هذِه الظاهِرةِ في الأرْضِ بالشَّمْسِ الَّتِي هِيَ فِي السَّمَاءِ، لأنّ هذِه الدّراسَةَ سَتَهْدِي أُولِي الألْبَابِ إلَىٰ رُبُوبيَّةِ الرّبِّ الْخَالِق، ووَحْدَانِيَّتِه فِي رُبُوبِيَّتِه، للتَّوْصُّلِ مِنْ ذَلك إلى تَوْحيدِ اللَّهِ فِي إِلَهِيَّتِه الَّذِي هُوَ اللَّازِمُ الْعَقْلِيُّ الأوّلُ لِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِه.

إنّ دِراسَةَ الظِّلّ من خَصائِصِ عُلَمَاءِ الْفِيزِيَاءِ، الَّذِين يَبْحَثُونَ في الضَّوْءِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِه، ويَبْحَثُونَ فِي حَرَكَتِه، وسُرْعَتِه، وانْكِسَارَاتِه وانْعِكَاسَاتِه، وكُلِّ مَا يَتَعلَّقُ بِه، ولَا بُدَّ أنْ تَهْدِيَهُمْ بُحُوثُهُم إلَىٰ الإِيمَانِ بالرَّبِ الْوَاحِد.

ولمّا كَانَ الظِّلُّ في الأَرْضِ مِنْ أثرِ الشَّمْسِ، فإنَّ دِراسَتَه تَسْتَدْعِي نَظَرَ عُلَمَاءِ الْفَلَكَ الَّذِين يَبْحَثُون في النُّجُوم والكَواكِبِ وحَرَكَتِها وسَبْحِهَا في مَسِيرَاتِها، وقَدْ عَلِمْنا أنَّ بُحوثَهُمْ أوْصَلَتْهُمْ إلى عَجَائِبَ مِنْ إتقان صُنْعِ الله، مِنْها: حَرَكَةُ الأرْضِ باتّجاه الشَّمْس حَوْل نَفْسِها، وحَوْل الشَّمْسِ فِي مَدارٍ مُعَيَّنٍ، ضِمْنَ بُعْدٍ مُعَيَّنٍ لَا تَتَعَدَّاه، وذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بسُلْطانِ ربٍّ خَالقٍ وَاحِدٍ أحَدٍ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِه، فَلا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِه.

• وانتقل الدرسُ إلىٰ تَوْجيهِ الفِكْرِ الَّذي يَعْتَمِدُ علىٰ النَّظَر العِلْمِي أيضاً، باسْتِخدام المُلَاحَظَةِ عنْ طَرِيقِ الوسائلِ الإِنسانيّة، لدِراسَة ظاهراتٍ ثلاث، من ظواهر خَلْقِ الرَّبِّ الواحِدِ الأحَدِ الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، وهِيَ اللَّيْلُ والنَّومُ والنَّهار، ودِرَاسَةُ هذه الظواهِر تَسْتَدْعِي نَظَر عُلَمَاءِ الفَلَكِ، وعُلَمَاء الطّبّ البَشَرِي، وعُلَماء النَّفْسِ والاجْتماع، الّذِين يَبْحَثُون في اللّيل والنهار باعْتبارِهِما أثَرَيْنِ لحَرَكَةِ الأرض في دورانها حَوْلَ نَفْسِها في اتّجاهِ الشَّمْس، ويَبْحَثُونَ في النَّوم وحَاجَةِ الأجْسَامِ له، والوَقْتِ الْمُفَضَّلِ لَهُ الَّذي يُلائِمُ صِحَّةَ الإِنْسَان، وهُوَ اللَّيْل، ويَبْحثُونَ فِي النَّفْس الإِنْسَانِيَّةِ، في حَالَتَي يَقْظَتِها ومَنَامِها، ويَبْحَثُون فِي النَّهَارِ ومَنَافِعِه لِلأرْضِ، ولانْتِشَارِ النّاسِ فيه، ويَبحثُون فِي اللّيْلِ ومَنَافِعه لِلأرْضِ ولِلنّاس والدَّوابّ، ومَا فِيه مِنْ سِتْرٍ يُمَثِّلُ حَاجَة ضَرُورِيَّةً مِنْ حَاجَاتِ الْبَشَرِيَّة.

• وانتقل الدرسُ إلى تَوجيهِ الْفِكْرِ الَّذي يعْتَمِد على النظر أيضاً باستخدام الملاحظة عن طريق الوسائل الإنسانية، لِدِرَاسَةِ ظَاهرتَي الرِّياحِ ومِيَاه الأمْطار، إنّ دِراسَة هَاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْن تَسْتَدْعِي نظَرَ عُلَماء الطّبيعةِ الَّذِينَ يبحثون في مَنْشأِ الرّياح، وحَرَكَتِها، وأنواعِها وأَصْنافِها وسُرْعَاتِها وآثارِهَا ووظَائِفها في الكَوْنِ، ويَبْحَثُونَ في تَبخُّر المِياهِ وتَصاعُدِهَا وتَكَوُّنِها سُحُباً، وسَوْقِ الرِّياح لها، وكيْفَ تَتَجَمعُ، وكَيْفَ تتقاطَر مَاءً أو تُنْزِلُ ثَلْجاً أَوْ بَرداً، ويَبْحَثُون فِي الآثَارِ النّافِعَةِ والضَّارّة لِهَاتَيِنِ الظاهرتَيْن، وقَدْ عَلِمنا أَنَّ بُحُوثَهُمْ أَوْصَلَتْهُمْ إِلَىٰ عَجَائِبَ مِنْ إتْقَانِ صُنْعِ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ، وهذِه الْعَجائِبُ تَهْدِي أُولِي الألْبابِ إِلَىٰ الإيمَانِ بالرَّبِّ الخَالق الوَاحدِ الأحد الَّذِي لا شَرِيكَ لَه في رُبُوبيّته، فلَا شَريكَ لَهُ فِي إِلَٰهِيّته.

ومع تَوْجِيه الفكر إلى هاتَيْنِ الظاهرتَيْن العَظيمَتَيْن نبَّهَ هذا الدرسُ عَلَىٰ نِعْمَةِ الله علىٰ عِبادِه بالرياح وبالأمطار الّتي تَحْيا بِها الأرضُ، ويَشْربُ منها أنعامٌ وأناسِيُّ كثير.

- وانتقل الدرسُ إلىٰ بَيانِ مَا اشْتَمل عَلَيْهِ الْقُرآنُ فِيما نَزَلَ قبْلَ سُورة (الفرقان) مِنْ تَنْويعٍ في الحُجَج والبَراهينِ وأسَالِيبِ الترْغِيب والترْهِيب والتربيةِ لإقْنَاعِ أَهْلِ مَكَّةَ ومُلْحقاتِها بأُسُسِ الدِّينِ، الَّذِي بَعَثَ الله بِه رَسُولَهُ مُحَمّداً، فآمَنَ بِه قَليلٌ مِنهُمْ، وأبَىٰ أكْثَرُهُمْ إلّا كُفُوراً.

ونعْلَمُ أَنَّه قَدْ كَان التَّركِيزُ الأوَّلُ عَلَيْهِم ليَكُونُوا قاعِدةً بَشَرِيَّةً لانْطِلاقِ الدَّعْوةِ الإِسْلامِيَّة للْعَالَمِين.

- وانتقل الدرسُ إلىٰ الإِشَارة إلى حِكْمَةِ اللّهِ في إرسَالِ رَسُولٍ خَاتِمٍ للرسالَاتِ السابقات، يكونُ لكُلّ الْعَالَمِين دَاعِياً هَادِياً مُبَلّغاً مُبَشّراً لَمَنْ أطَاعَهُ، ومُنْذِراً لِمَنْ أَبَىٰ اتّباعَهُ وعَصَاه، ودلَّتْ هذِه الإِشَارَةُ علىٰ أنَّ الّذِين كَفَرُوا قَدْ رأَوْا أنّ ادّعَاءَ مُحمَّدٍ قَدْ زادَ عَلَىٰ مَا كَانَ يَأْتِي به الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِه، إذِ ادَّعَىٰ أنَّهُ رسُولٌ للْعَالَمِين جَمِيعاً وأنَّهُ الرَّسُولُ الخَاتِم، فأطْلَقُوا أَلْسِنَتَهُمْ بتَكْذِيبِه، مُتَّخِذينَ مِن ادّعَائِه أنّه نَذِيرٌ للْعَالَمِين ذَرِيعةً للإقْناعِ بأنّه تَجاوَزَ حُدُودَ الرسُلِ مِنْ قَبْلِه فَهُو فيما يدَّعِيه غَيْرُ صَادِق.

- وانتَقلَ الدرس إلَىٰ تَنْبِيه الرَّسُولِ علَىٰ مَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يفْعَلَه في هذِه المَرْحَلةِ الّتي نزلَتْ فيها سورة (الفرقان) واشْتَمَلَ هذا التَّنبِيهُ على أمرين:

الأول: ألّا يُطيعَ الكَافِرِينَ فِي مَطالِبهم ومُقْتَرحَاتِهم، فيسْأَلَ ربَّه شَيْئاً مِنْها، رجَاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا ويَتّبِعُوه.

أي: فمِثْلُ هذا الأمْرِ مُنافٍ للْحِكْمَةِ، لأنَّهُمْ يَتَشَهَّوْنَ ولَيْسُوا بِحَاجَةٍ إلَىٰ أدِلَّة.

الثاني: أنْ يُضَاعِفَ مُجَاهَدتَه لَهُمْ بِمَا فِي القُرْآنِ مِنْ حُجَجٍ وبيَانَاتٍ وتَرْغِيبٍ وتَرْهِيب وَوَسَائِل تَرْبَوِيّة أُخْرَىٰ.

- ثم اسْتَأْنف الدرسُ تَوْجيه الفِكْرِ الَّذِي يَعْتَمِدُ علَىٰ النَّظَرِ الْعِلْمِّي

باسْتِخْدَام الملاحَظَة عن طَريق الوسائل الإنسانية، لِدِرَاسَةِ ظاهرتَيْنِ مِنْ ظَوَاهِر الْخَلْقِ الرَّبَّانِيّ، الدّالّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّبَّ عَلِيمُ حَكِيمٌ قَدِيرٌ أتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ، وأنَّهُ وَاحِدٌ أحدٌ لا شريكَ له في ربوبيَّتِه، فيجب أنْ لَا يكُونَ له شَرِيكٌ في إلَهيَّته.

الظاهرة الأولى: ظاهرَةُ الْبَحْرَينِ فِي الأَرْضِ، العذْبِ الْفُراتِ، والمِلْح الأُجاج، بما لَهُمَا مِنْ خَصَائِص يَبْرُزُ مِنْها تَحْلِيلُ عناصِر كلّ نَوْعٍ منْهُما، ومَا اشْتَمَلا عَلَيْهِ مِنْ منافِعَ ومَصَالِحَ للأحْيَاءِ، هِيَ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ الله بِعبَادِه. ويَبْرُزُ مِنْهَا فَصْلُهُمَا عَنْ بَعْضِهِما بفاصِلٍ يَمْنَعُ تَمَازُجَهُمَا، ليبقىٰ كلٌّ منهما يؤدّي وظائِفه الَّتِي أَرْسَلَهُ الله في الأرض ليَقُومَ بها.

الظاهرة الثانية: ظاهِرَةُ خَلْقِ الْبَشَرِ منْ نَوْعٍ منْ أَنْوَاعِ الْمَاء، وهُوَ المَنِيّ، الَّذِي هُو أُعْجُوبَةٌ عَظِيمةٌ منْ أعَاجِيبِ الْخَلْقِ الربَّانِيّ، بمَا فِيه منْ خَصَائِصَ مُذْهِلَةٍ. ومَا فِي هذهِ الظاهِرَة الّتِي تَعْتَمِدُ علىٰ التزاوج، مِنْ عَلاقَاتٍ اجْتِمَاعِيَّة في الاجْتِماعِ البَشَرِيّ تنقَسِم إلى قِسْمَيْن:

القسم الأول: العلاقَةُ القائِمَةُ علَى رَابِطَةِ النَّسَبِ الْمُشْتَقَّةِ مِنَ الرَّحِم.

القسم الثاني: العلاقَةُ القائِمَةُ علَى رَابِطَةِ الصِّهْرِ، الَّتِي يُسَبِّبُها التَّزَاوج.

ودراسَةُ هاتَيْنِ الظاهِرَتَيْن تَسْتَدْعِي نَظَرَ عُلَمَاء الكِيمياءِ، والْجُيُولُوجْيَا وعُلَمَاء الأَحْياء، وعُلَمَاء الاجْتِماع.

ومن يُطَالع ما توصّل إليه هؤلَاءِ العُلَماءُ حَوْلَ هَاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ يَجِد مَا يَمْلَؤُهُ دَهْشَةً بعَظَمَةِ الْخَالِقِ الْعَلِيم الحَكِيم الْقَدِير الّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْء، وهذِه الدَّهْشَةُ تَدْفعه إلى الإِيمَانِ به، والخُضُوع لجَلَالِه، والعِلْم بأنّه وَاحِدٌ أحَدٌ في ربُوبِيّتِه لا شَرِيكَ له، فَيَعْبُدُه وحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِعبادَتِه أَحَداً.

- وبَعْدَ مَا سَبق مِنْ تَوْجِيهِ الْفِكْرِ لِدراسَةِ قَدْرٍ كَافٍ مِنْ آيَاتِ اللّهِ في

كَوْنِه لإقْناع أشدّ المتعَنِّتين الْمُتَمَسِّكِينَ بالشُّبُهاتِ، حوْلَ انْفِرادِ اللَّهِ بالرُّبُوبِيَّة في الْوُجُودِ، الذي يَلْزَمُ عَنْهُ عَقْلاً وجُوبُ إفْرادِه بالعبادة، فلا يُعْبَد معه أحَدٌ، إذْ لا يُشارِكُه في رِبُوبيَّتِه أحَدٌ. أبانَ الله عزَّ وجلّ في هذا الدرسِ أنَّ الْمُشْرِكينَ الَّذِين كَفَرُوا لَا يَزَالُون يَعْبُدونَ بإصْرَارٍ وعِنَادٍ ما لَا يَنْفَعُهُم ولَا يَضُرُّهُمْ، فلَمْ تُلَيِّنْ عِنَادَهُم الْمُتَصَلِّبَ المتشدِّد أشَدُّ الْبَراهِين، فكَانُوا بعِنَادِهِمْ وتَصَلُّبِهم وتَشَدُّدِهِمْ مُظَاهِرِين لإبْلِيسَ فِيمَا تَعَهَّد به لرَبِّهِ إذْ قالَ لَهُ، مَا جاء بيانُهُ في قول الله عزَّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

- وأخيراً حدَّد الله عزَّ وجلّ لرسُولِه وظِيفَتَه، فأبَانَ لَهُ أنَّه مَا أَرْسَله إلّا مُبَشِّراً ونَذِيراً، أيْ: لَيْسَ عَلَيْهِ منْ وَظِيفَةٍ بعْدَ أنْ يُبَلِّغ ويُبَيِّن ويُعَلِّم ويَنْصَح ويَسْتَخْدِمَ كُلَّ وسَائِلِ الإقْناعِ والتَّرْبِيةِ إلّا أنْ يُبَشِّرَ مَنْ آمَن به واتَّبَعُه، ويُنْذِر مَنْ كَفَر وأبىٰ، والمعْنَىٰ أنَّه لَيْسَ مَسْؤُولاً عَنْ تَحْوِيلِ النَّاسِ بالإكْرَاهِ والإلْزَامِ والْجَبْرِ إلَىٰ مَا هُوَ مَطلُوبٌ مِنْهُمْ في الدّين، فَهُمْ مُزَوَّدُون بإرادَات حُرَّةٍ، وهُمْ مُمْتَحَنُونَ، والْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ أنْ يَخْتَارُوا بِحُرِّيّاتِهم مَا يَشَاءُون، والله بَعْدَ ذَلِكَ يُجَازِيهِمْ علَىٰ أعْمَالِهم الَّتِي قَدَّمُوهَا باخْتِيَارِهِمُ الحرّ. إنّه الاخْتِيَارُ الْمُسْتَتْبَعُ بالمَسْؤُوليَّةِ والجَزاء.

وبعْدَ أَنْ حدَّدَ الله لِرَسُولِه مَسْؤُولِيَّتَه، وجَّهَه لأرْبَعِ قضايا:

القضيةُ الأولى: أن يُعْلِنَ للْجَميع فيقول: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قَلَّ أم كَثُرَ، إلّا مَنْ شَاءَ أنْ يَتَّخِذَ إلى ربّه سَبيلاً، حتَّى يُثِيبَهُ اللَّهُ علَىٰ ما يُقَدِّمُه لرَسُولِه مِمَّا قَدْ يُوهِمُ فِي ظَاهِرِه أَنَّهُ أجر للرَّسُول علَىٰ مَا يَبْذُلُ لأمَّتِه مِنْ نُصْح وتَعْلِيم وَتَرْبِيَةٍ وحِرْصٍ عَلَىٰ نَجاتِهم وسَعَادَتِهم وَتَضْحِيَاتٍ مِنْ أجْلِهم، فلَهُ أَنْ يَفْعَل ابْتِغاءَ مَرْضَاةِ رَبِّه.

القضيةُ الثانية: أنْ يتوكَّل فِي أَمْرِهِ كُلّه عَلىٰ الحَيِّ الّذي لا يَمُوت، مَعَ اتّخاذِه الأسْبَابَ الكَونيّة والدِّينيَّة لتَحْقِيقِ مَا يَرْجُو مِنْ خَيْرٍ في مَسِيرَةِ دَعْوَتِه.

القضيةُ الثالثة: أَنْ يُسبِّح بحَمْدِ الله مَعَ أَدَائِه رِسَالَتَه فِي قَوْمِه، لِمَا للتَّسْبِيح بحَمْدِ الله مِنْ فَوائِدَ جَلِيلَةٍ إيمَانِيَّة، ونَفْسِيَّةٍ، وجَزائِيَّةٌ مُعَجَّلَةٍ ومُؤَجَّلَة.

القضيةُ الرابعة: ألّا يَهْتَمَّ لمَا عَلَيْه الْكَافِرُون مِنْ كُفْرٍ وعِصْيانٍ، فاللَّهُ صَاحِبُ الشَّأْن خَبِيرٌ بِهِمْ، وكَفَىٰ بِه بذُنُوبِ عِبَادِه خَبِيراً.

وفي هذا التوجيه تأْكِيدٌ لتَحْدِيدِ مَسْؤُولِيَّةِ الرّسُول، وتَهْدِيدٌ للكَافِرِينَ بأَنَّ العِقَابَ آتِيهم لا مَحَالة إذَا لَمْ يَتُوبوا ويَسْتَغْفِروا ربَّهُمْ.

وبهذا انتهى تدبّر الدّرْس الثامن من دُروس السورة على ما فتح الله به، وأَمَدَّ، وأعان، ويسَّر.

* * *

(١٤)

التدبر التحليلي للدّرسِ التاسِعِ من دُروس السورة
وهو الآيات من (٥٩ ـ ٦٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

القراءات:

(٥٩) • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائِيُّ، وخَلَفٌ في اختياره: **[فَسَلْ]** بحَذْف الهمزة ونقل حَرَكَتِها إلى السّين، وهو وجْهٌ عَرَبي. وهي قراءة حمزة في الوقف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَسْئَلْ﴾ على أصل القاعدة في التصريف دون حذف.

(٦٠) • قرأ حمزة، والكِسَائي: **[يَأْمُرُنَا]** بضَمِير الغائب، يقْصِدُون الرسول محمّداً ﷺ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تَأْمُرُنَا﴾ خطاباً للرسول ﷺ.

والقراءتان تدُلّان على أنّهم واجَهُوا الرَّسُولَ بقولهم له: **[أَنسجُدُ لَمَا تأمُرنَا]** وأنَّهُمْ قَالُوا في غيابه: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا﴾ فبَيْنَ القراءتين تكامُلٌ في حكايَةِ ما جَرىٰ من مشركي مكة الّذين كانوا ينكرون أنّ «الرَّحْمٰن» من أسماء الله عزَّ وجل.

(٦١) • قرأ حمزة، وَالكِسَائِيُّ، وخَلَفٌ: **[سُرُجاً]** بالْجَمْع، وهي تَدُلُّ على الشَّمْسِ مع النجوم البعيدة عنّا في السّماء، فهي كالشَّمْسِ أجرامٌ ناريّة ملتهبة، ومنها ما هو أعظم وأكبر من الشمس.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سِرَاجًا﴾ بالإفراد، مراداً به الشَّمْسُ القريبة منا.

فبَيْن القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد.

(٦٢) • قرأ حمزة وخلف: **[لِمَنْ أرادَ أنْ يَذْكُر]** من فِعْلِ «ذَكر».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ من فعلِ «تذكّر».

وفي هاتَيْن القراءتَيْن تكاملٌ فكرِيٌّ، إذْ من أهْل الإيمان من يكُونُ ذَا

إيمانٍ قويّ، وحِرْصٍ على الارتقاء إلى دَرَجاتِ التقوىٰ العليا، فإلى دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ البرّ، فدَرَجاتِ مرتبة الإحسان، فيريدُ زِيَادة الاهتمام والعناية بالتَّذَكُّر، وهذا الصنف تُناسبُ حالَهُ قراءة: ﴿يَذَّكَّرَ﴾ ومن أهل الإيمان من تقصُرُ همَّتُهُ، فيُرِيدُ أن يَذْكُرُ أحياناً، وهذا الصّنْفُ تناسبُ حَالَهُ قراءَة: [يَذْكُرَ] وفي كلّ من الصنفين درجات.

تمهيد:

في هذا الدرس بيانُ مَوْقِفِ كُبَراء كُفّار مكّة من صِفَةِ الرَّحْمَة لله عزَّ وجلّ، ومن اسْمِه المشْتَقّ مِنْها، وهو اسم الله الرحْمٰن، ويَتْبَعُهُ اسْمُ الله الرَّحِيم، إنَّهُم يُنْكِرون ذلك، وإنكارُهُمْ لَهُ يدلُّ عَلَىٰ أنّهم يُنْكَرُونَ بَعْضَ عَناصِر رُبُوبِيَّةِ الله عزَّ وجلّ، وهو ما يتَّصِل بعنايَتِه بهم.

وهذا الدَّرْسُ من السورة يُعالِجَ هذِه القضيَّةَ من قَضايا كُفّار مكّة إبّانَ تَنْزِيل سُورَةِ (الفرقان).

إنّ كُفّار مكّةَ يُؤْمِنُونَ بأنَّ الله عزَّ وجلّ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ورَبُّهُما، لكِنَّهُمْ يُنْكِرُون مِنْ صِفَاتِه أنَّهُ الرَّحْمٰن.

لِذَلِكَ فَهُمْ يَلْتَمِسُونَ الرَّحْمَةَ مِنْ آلِهَتِهِم الَّتي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ الله، مَعَ أنّها في الحَقِيقَةِ لا تَرْحَمُهُم، فَلَا تَجْلُبُ لهم نفعاً، ولا تَدْفَعُ عَنْهم ضرًّا. ولا يَلْتَمِسون الرَّحْمَةَ مِن الله خَالِقِهِم الّذي يشْمَلُهُم بفُيُوضِ عَطاءَاتِه رَحْمَةً بِهِمْ، وإذَا دَعَوْهُ مضطَّرِّين اسْتَجَابَ لَهُمْ ولَوْ كَانُوا كَافِرِينَ بِهِ.

وظَلُّوا مُصِرِّينَ عَلَىٰ إنْكَارِ أنّ مِنْ صِفَاتِه عزَّ وجلّ صِفَةَ الرَّحْمةِ، وأنّ مِنْ أسْمَائِه تبارك وتعالى أنَّه الرَّحَمنُ الرَّحيم.

وممّا يَدُلُّ علىٰ هذا أنَّ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرو رَسُولَ قُرَيْشٍ إلَىٰ النبيُّ ﷺ في صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذي كانَ فِي آخِرِ سَنَةِ سِتٌ للهِجْرَة، أَنْكَرَ أَنْ يَبْدأ الرسُول ﷺ كِتَابَ الصُّلْحِ بـ«**بسم الله الرحمن الرحيم**».

فبَعْدَ الاتّفَاقِ علَىٰ أنْ يَرْجِعَ الرسُولُ وأصْحَابُه مِنْ عَامِهِمْ ذَلِكَ، دُونَ أَنْ يُؤَدُّوا عُمْرَتَهُم، دَعَا رسُولُ الله ﷺ عليَّ بنْ أَبِي طالبٍ فقال: اكْتُبْ: بسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم.

فقالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرو: لَا أعْرِفُ هذا، ولَكِن اكْتُبْ: باسْمِكَ اللّهُمّ.

فقال رسولُ الله ﷺ: اكْتُبْ: باسْمِكَ اللّهُمَّ، فكَتَبَها...

إنّ كُفَّارَ مكَّةَ ومثْلُهُم كَثِيرُ مِنْ كُفَّارِ العَرَبِ كَانُوا يؤمنون بأنّ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ والأَرْضَ هُو الله، لَكِنَّهُمْ يُنْكِرُون مِنْ صِفَاتِه مَا لَهُ تعلُّقٌ بِهِمْ مِنْ مَظَاهِر الرَّحْمَةِ، كالرّزق، والنَّصْرِ، والشِّفَاء والْعَافِيَةِ، وجَلْبِ المَنَافِعِ ودَفْعِ المَضَار. ويَجْعَلُونَ هذِه لآلِهَتِم الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ الله، فَهُمْ يَعْبُدُونَها مِنْ أَجْلِ ذَلِك، وهذا إشْرَاكٌ فِي رُبُوبيَّةِ الله.

* * *

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

اسم الموصول مع صلته وما عطف عليها، مبتدأ، خبره: «الرّحمٰنُ» وقد سبق إلى أذهان كثيرٍ من أهل التأويل أَنَّ اسم الموصول في هذه الآية صفة لـ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ الوارد في الآية السابقة، فجعلوا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: هو الرحمن، فابْتَعَدُوا بهذا عَنِ الْغَرضِ الّذِي جاءَتِ الآيةُ لمُعَالَجتِه، وهو إقْنَاعُ الْمُشرِكِينَ بأَنَّ الَّذِي يُؤْمِنُونَ به خَالِقاً للسَّمَاوَاتِ والأرْضِ ومَا بَيْنَهما هُوَ الَّذِي لَهُ صِفَةُ الرَّحْمَةِ الّتِي يَرْحَمُ بِها عِبادَه، فَهُو الّذِي إنْ شَاءَ دَفَعَ عَنْهُم الضُّرّ وجَلَبُ لَهُمُ النَّفْعَ، علَىٰ خِلَافِ زَعْمِهِم مِنْ إسْنَادِ ذَلِكَ إلى مَا اتَّخَذُوه مِنْ آلِهَةٍ مِنْ دُونِه.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي: فِي سِتَّةِ أحقَابٍ زَمَنِيَّة، الله أعْلَمُ بِمِقْدَارِ كُلِّ حِقْبَةٍ مِنها.

إنّ لَفْظَ «الْيومِ» قد جاءَ في القرآنِ علَىٰ أنْواعٍ، منها يَوْمُ النَّاسِ في الأرْض، ومنْها يَوْمُ الْحياة الدُّنْيا، ومنْهَا يَوْمُ الدِّين، ومِنْهَا يَوْمٌ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ ممّا يَعُدُّ النَّاسُ، ومِنْها يَوْمٌ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ ممَّا يَعُدُّ النَّاسُ، وجاءَ إطْلَاقُ لَفْظِ الْيَوْمِ علَىٰ مُطْلقِ زَمَنٍ مَا.

وبمَا أنّ قَضِيَّةَ الأَيَّام السِّتَّةِ هِيَ مِنَ أُمُورِ الْغَيْبِ الْمَاضِي، ولَمْ يَأْتِ عَنِ الشَّارِعِ بَيَانُ نَوْعِ هذِهِ الأيَّامِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ ومَا بَيْنَهُما، وقَدْ تَنَوَّعَتْ مَفاهِيمُ الْيَومِ فِي عِبَارَاتِ الشَّارِعِ، فَمن الواجب علىٰ الْمُؤْمِنِ التَّسْلِيمُ بمَا جَاءَ في النصِّ مِنْ تَحْدِيدِ سِتَّةِ أيَّامٍ، دُون تَحْدِيدِ مُدَّةِ كُلِّ يَوْمٍ منها.

ولعُلَمَاء البَحْثِ الكَوْنِي تَقْدِيرَاتٌ زَمَنِيَّة لَا تَسْتَطِيع الأَذْهَانُ تَصوُّر أَرْقَامِها، لَدَىٰ تَقْرِيبِ مَقَادِيرِ الأَزْمَانِ الَّتِي تَمَّتْ خِلالَها التحوُّلَاتُ في الكَوْنِ، ممَّا كَانَ عَلَيْهِ سَدِيماً، حتَّى صَارَ إلىٰ مَا وَصَلَ إلَيْهِ عِنْدَ ظُهورِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ الأرض.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ﴾: اسْتِوَاءُ الله على العرش شَيْءٌ وَصَفَ الله بِهِ نَفْسَه، وَإِنَّ أَحْسَنَ بيانٍ حَوْلَ هذا الْوَصْف مَا قَالَه الإمام مالك: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والاسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهُول، والإِيمَانُ به وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَة».

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: اسمُ من أسماء الله مشتقٌّ من الرَّحْمَةِ كالرَّحِيم، وهُمَا وَصْفَانِ دَاخِلان فِيمَا يُسَمِّيه عُلَماءُ العربيّة «الصِّفَةَ المشبّهة باسْمِ الْفَاعِل».

ولا شكّ أن «الرَّحمٰن» و«الرَّحِيم» أبْلَغُ من اسم الفَاعِل «رَاحِم» لزيادة مَبْنَاهُما، فَزِيَادَةُ الْمَبْنَىٰ فِي لسَانِ الْعَربِ تَدُلُّ غَالباً عَلىٰ زِيادَةِ المَعْنَىٰ.

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾: أيْ: فاسْأَلْ عَنْه خَبِيراً، فَحَرْفُ البَاء هُنَا فِي ﴿بِهِۦ﴾ بِمَعْنَىٰ «عَنْ» ونظيره قولُ الشَّاعِرِ عَلْقَمة:

فَإنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإنَّنِي خَبِيرٌ بِأدْواءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

أي: فإن تَسأَلُونِي عَنِ النِّساء.

ونَتساءَلُ: مَنْ هُو الْخَبِيرُ الّذِي يُفيدُ الْمُشْرِكَ إذَا سَأَلَهُ عن كَوْنِ الله عَظِيم الرَّحْمَة بعباده؟

أقول: الْخَبِير في اللّغة هو الْعَالِمُ بالأمْرِ عَنْ تَجْرِبَةٍ ومُمَارَسة.

ويقولون: الْمَخْبَرُ خِلَافُ المنْظَر، أي: ما تُظْهِرُه التَّجْرِبَةُ مِنَ الوَاقِعِ الْخَفِيّ خِلافُ ما يُبْدِيه المنْظَر للعُيُونِ.

ويقال: صدَّقَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ، أي: صَدَّقَ الْعِلْمُ الْمُسْتَنِدُ إلَىٰ اخْتِبارٍ وتَجْرِبَةٍ ما حدَّثَ بِه الْمُخْبِر فِي خَبَرِه.

وقال أبو الدرداء: وجَدْتُ النّاسَ: اخْبُرْ تَقْلَهُ، أيْ: إذا امْتَحَنْت واحِداً منهم بالتَّجْرِبَة والاخْتِبارِ قَلَيْته، بمَعْنَىٰ هَجَرْتَهُ أوْ أبْغضْتَه.

فقولُه تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، يُرْشِدُ إلىٰ اسْتِخْدَام طَرِيقَةِ اسْتِقْراء الْخُبَراء، الَّذِين جَرَّبُوا فِي حَيَاتِهِم رَبّهم عَنْ طَرِيقِ الدُّعَاء، والتَّضَرُّع إلَيْهِ في الْمُلِمَّاتِ والأزَمَات والضَّرُورَاتِ، فإنَّهُمْ سَيُخْبِرُون بمَا جرىٰ لَهُمْ فِي تَجَارِبِهِمْ مع ربِّهم، ويُثْبِتُون أنَّه قَدْ رَحِمَهُمْ فاسْتَجَابَ لَهُمْ لمَّا الْتَجؤوا إلَيْه متَضَرِّعِينَ دَاعِين عَابِدين.

فَإنْ كَانُوا في ضُرٍّ رَحِمَهُم فَكَشَفَ عَنْهُم الضُّرّ، لأنَّه الرَّحْمٰنُ الرَّحِيم، وإن كانوا في ضَرُورَةٍ رَحِمَهُمْ فَاسْتَجَابَ لَهُم، فآتَاهُمْ مَا دَفَعَ بِهِ ضَرُورَاتِهم، لأنَّه الرَّحْمَنُ الرّحِيم.

ومِنَ الْحَقّ أَنّ إجَابَةَ الله لمُضْطَرٍّ إذا دعاه مخْلِصاً لَهُ الدُّعَاء، إحْدَىٰ

الأدِلَّةِ القويَّة التَّجْرِيبِيَّةِ الدَّالَّةِ علَىٰ وُجُودِه سُبْحَانَه، والدَّالَّةِ علَىٰ رَحْمَتِه وعِنَايَتِه بِعِبَادِه، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول):

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وهذا البرهَانُ التَّجْرِيبيُّ يستَطِيع أنْ يَخْتَبِرَهُ كُلُّ إنْسَانٍ رَاغِبٍ فِي التَّحقُّق من وجُودِ الرّبّ الخالق عزَّ وجلّ، صَادِقٍ في الْبَحْثِ عَنِ الْحَقّ ليُؤْمِنَ بِه، غير مُتَشَهٍ في المَطَالِب، ولَا مُتلاعِبٍ فِي الْمَقَادِير والسُّنَن الرَّبَّانِيّة، بشَرْطِ أنْ يَكُونَ مُخْلِصاً للَّهِ فِي دُعَائِه لَا يُشْرِكُ بِه شيئاً.

إنّ تَجَارِبَ النَّاس الْمُتَكَرِّرَة لِهذِه الظَّاهِرَةِ لَا تُحصَىٰ ولَا تُسْتَقْصَىٰ، وأكَادُ أُأَكِّدُ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مَرَّتْ فِي حَيَاتِه ضَرُورَةٌ، والْتَجأَ فِيها إلى ربّه دَاعِياً مُتَضرِّعاً، إلّا اسْتَجَابَ الله لَهُ.

لكِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ، كُلَّمَا الْتَجأ إلىٰ رَبِّه فِي شِدَّةٍ أَحَاطَتْ به، ليَكْشِفَ عَنْه الضُّرَّ، ثمّ كَشَفَ الله عَنْه مَا أَحَاطَ بِهِ، مُسْتَجِيباً لِدُعَائِه، عَادَ إلَىٰ جُحُودِه، وكُفْرَانِ نِعْمَةِ الله عَلَيْه، ويُعلِّلُ كَشْفَ ما أَحَاطَ بِه مِنْ بَلاءٍ بالأَسْبَابِ والْمُصَادَفَات.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: قَالُوا: لَا نَسْجُدُ للرَّحْمٰن، وَمَا الرَّحْمٰنُ؟ دلَّ عَلَىٰ هَذا الكَلَامِ الْمَحْذُوفِ وجُودُ حَرْفِ الْعَطْفِ (الواو) في صَدْرِ جُمْلة: وَمَا الرَّحْمٰن؟

ولَوْلَا ذَلكَ لكَانَ يَنْبَغِي أن يكون التعبير: قالوا: مَا الرحمٰن، بدُونِ حَرْفِ العطف.

إنَّ الإِيمان بربُوبيَّة الله عزَّ وجلّ لا يكون تامًّا حتى يكون شاملاً لكلّ عناصر ربوبيته التي تدلُّ عليها صفاته وأسماؤه الحسنى، ومنها اسم الله الرحمن الدالّ على رحمته التي وسعت كلّ شيءٍ، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

ولمّا كَانَ كفّارُ مكّةَ يَوْمئذٍ غير مؤمنينَ بهَذَا الْعُنْصِر مِنْ عَنَاصِر رُبُوبِيَّةِ الله عَزَّ وَجَلّ أَنْكَرُوا اسْمَ اللّهِ الرَّحْمٰن، وإذَا قِيل لَهُم اسْجُدوا للرّحْمَنِ قَالوا: لَا نَسْجُدُ للرّحْمٰن، ومَا الرَّحْمَن؟

إنّهُمْ لَا يَجْهَلُون الْمَعْنَى الَّذِي يَدُلُّ عليه لَفْظُ «الرَّحْمَن» المشْتَقّ مِنَ الرَّحْمَةِ، ولَا يَجْهَلُون أَنَّ مَنْ يتّصِفُ بالرَّحْمَةِ الْعَظِيمة الوَاسِعَةِ يُطْلَق عَلَيْهِ أَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم.

لكنَّهُم غَيْر مُؤمنين بأنّ اللّهَ الْخَالِقَ يتَّصِفُ بالرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْوَاسِعَةِ، إنَّهُم يروْنَه خَالِقاً قويًّا عزيزاً، أَمَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَلِك رَحْماناً رحِيماً فهٰذا بَعيدٌ عن تصوُّرِهم، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُون أنَّ مطَالِبَهُم فِي حَيَاتِهِمْ تَقْضِيهَا لَهُمْ آلِهَتُهم الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله.

ثُمّ لمّا قَالَ لَهُم الرَّسُول: اسْجُدُوا لله الرَّحْمٰنِ الّذي يَشْمَلُكُمْ برَحْمَتِه، فَيَرْزُقُكُم ويُمِدُّكُمْ بفُيُوضِ عَطَاءَاتِه لَمْ يَقُولُوا: ومَنِ الرَّحْمٰنِ؟ بَلْ قَالُوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾.

لأنَّ لَفْظَة «مَا» يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنْ أَعْيَانِ الأشياء، الَّتِي لا تَعْقِلُ ولا تَعْلَمُ، أَوْ عَنْ أَجْنَاسِها وصِفَاتِها، أَوْ عَنْ أجْنَاسِ أُولِي الْعِلْم وأَنْواعِهِم وصِفَاتِهِم، ولا يُسْتَفْهَمُ بها عَنْ أَعْيَانِ أُولي العِلْم.

فقولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ؟﴾ يَدُلُّ علَىٰ أنّهم يَسْتَفْهِمُونَ عَنِ الظَّواهِرِ الَّتِي تَدلُّ علَىٰ أنّ الله القويَّ الْعَزِيزَ مُتّصِفٌ حَقِيقةً بالرَّحْمَةِ، أيْ: ومَا هِيَ ظَواهِرُ كَوْنِ الله رَحْمَاناً؟

لذَلِكَ جَاء في الآيَتَيْنِ التالِيَتَيْنِ لِهَذِهِ الآية بَيَانُ بَعْضِ ظَواهِرِ رَحْمَتِه عزَّ وجلّ، وبَعْضِ آيَاتِه فِي كَوْنِه الدَّالَّةِ علىٰ أنَّه هو الرَّحْمَنُ الرَّحِيم.

فلَقَدْ جَعَل مِنْ رَحْمَتِه بعبادِهِ في السَّمَاءِ بُروجاً، وجَعَلَ فِيهَا سِراجاً وقَمَراً مُنِيراً، وجَعَل اللّيلَ والنَّهارَ يَتَعَاقَبان بِنِظامٍ دَقِيقٍ، وفي كُلِّ ذَلِك مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ للنَّاسِ، وهِيَ مِنْ عِنَاية اللَّهِ ورَحْمَتِه بِعِبادِه.

ومِنْ حِكْمَةِ الله أنَّهُ اخْتَار تَقْدِيمَ ظَواهِرَ وآياتٍ سَمَاوِيَّةٍ ذَاتِ آثَارٍ أَرْضِيَّةٍ، لأنّ آلِهَتَهُم أَرْضِيُّونَ لَا يَصِلُونَ إلَىٰ التَّصرُّفِ بمَا فِي السَّمَاءِ بحَسَبِ مُعْتَقَدَاتِهم، ولَوْ أنّه اخْتَار ظَواهِرَ وآيَاتٍ أَرْضِيّة لَقَالُوا: هَذِه مِنْ رَحْمَة آلِهَتِهم بِهِم، ولَجَادَلُوا فيها.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أو [أَنسْجدُ لِمَا يأمُرنا]: أيْ: أَنَسْجُدُ لِوَصْفٍ تَأْمُرنا أنْ نَسْجُدَ لله مِنْ أجْلِه ـ وأنسْجُدُ لوَصْفٍ يأمُرنا مَحَمَّدٌ أنْ نَسْجُدَ للَّهِ مِنْ أجْلِه، ونَحْنُ لَا نعلَمُهُ، ولَا نَجِدُ لَهُ أثَراً فِي حَيَاتِنَا؟!

وسَبَبُ إنْكَارِهِمْ هذا أنّهُم يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ الَّتِي يَعْبدُونَها منْ دُونِ الله هِيَ الَّتِي تَجْلُبُ لَهُمْ المَنَافِعَ فِي حَيَاتِهم، وتَدْفَعُ عَنْهُم الْمَضَارّ.

ولذلك قالَ أَبُو سُفْيان قَائِدُ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَة أُحُدٍ، بَعَدَ أَنِ انْكَشَفَ المُسْلِمون، وتحوَّلَتْ عَنْهُم رِيَاحُ النَّصْرِ: أُعْلُ هُبَل، زَاعِماً أنّ انْتِصَارَ الْمُشْرِكِينَ قد كَانَ بِسَبب إمْدَادِ الصَّنَم الْمَعْروفِ «هُبَل» لَهُمْ بالنَّصر.

فأَجَابَه عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِي الله عَنهُ بقَولِه: اللَّهُ أَعلَىٰ وأجلّ.

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾: أيْ: وزَادَهُـم الـرَّسُـولُ إذْ قَـال لَـهُـمْ: اسْـجُـدُوا للرَّحْمٰنِ، نُفُوراً عَنِ السُّجُودِ لله عزَّ وجَلّ.

النُّفُور: الإِعْرَاضُ والصَّدُّ والابْتِعَادُ كحَالَةِ الْمَذْعُورِ الشَّارِدِ، أَو الْمُتَمَنِّع المتَراجِعِ بِحِران.

وبيانُ زِيَادةِ نُفُورِهم عنْدَ دَعْوَتِهم إِلَىٰ السُّجُودِ للرَّحْمَنِ يدُلُّ علَىٰ أنَّهم حينَ كَانَ يُقال لَهُم: اسْجُدوا لله خَالِقِكُم وخَالِقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ كانُوا يُعْرِضُونَ ويَتولَّوْن ويَنْفِرُون، مَعَ إيمَانِهم بأنَّه خَالِقُهم وخَالِقُ السَّمَاواتِ والأَرضِ، وذَلِكَ بسَبَبِ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ فِي سُجُودِهم لله فَائِدةً لَهُمْ، فَحِينَ أُثِيرَتْ قَضِيّة سُجُودِهِم للرّحمن زَادَهُمْ ذَلِكَ نُفُوراً، ذَلِكَ لأَنَّهُمْ لا يُؤمِنُون بأنّ الرَّحْمَةَ مِنْ صِفَاتِه.

وقَدْ سَبَقَ أنْ أَمَرَهُمْ الله بالسُّجُود لَهُ فِي سُورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) فقالَ تعَالى لَهُم:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

لكنَّهُمْ لم يَسْتَجِيبُوا لهٰذا التَّكْلِيف، فلَمْ يُؤْمِنُوا ولَمْ يَسْجُدوا.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾: أيْ: تَنامَى وتَزَايَدَ وتَعَاظَم بالإِطْلَاقِ العَامِّ عَنْ كُلّ مَا يَصِفُه الواصِفُونَ مِنْ كَمَالاتٍ، لأَنَّه أجَلُّ وأَكْبَر وأَعْظَمُ وأَكْثر.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: **الْبُروجُ**: هِيَ مَنَازِلُ الكَوَاكِبِ والنُّجُومِ السيَّارَة، وأَصْلُ مَعْنَى البُروجِ فِي اللُّغَة الْقُصُورُ الْعَالِية الْمُشْرِفَة الظاهِرَة الْمُتَطَاوِلَة فِي السَّمَاءِ، وسُمِيَّتْ مَنازِلُ السيَّاراتِ فِي السَّماء بُرُوجاً، لأَنَّها لِهذِه السَّيَّارَاتِ بمَثَابَةِ الْقُصُورِ الْعَالِية الْمُشْرِفة لِسُكَانِها.

ويقال لغة: بَرَجَ الشيءُ يَبْرُجُ بُروجاً إذَا ارْتَفَع وظَهَر، ويقال: تبرَّجَت السَّماء، أي: تزيَّنَتْ بالكَواكِب. وتبرَّجَتِ الْمَرأَة، إذَا أَظْهَرَتْ مَحَاسِنها وتَزَيَّنَتْ، ومَا يَحْتَاجُ مِنْها لإبْرازِ جَمَالِه إلىٰ رَفْعٍ رَفَعَتْهُ وأَعَلَتْهُ وأَظْهَرَتْهُ.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾: أيْ: وجَعَلَ فِي الْبُروجِ أَوْ فِي السَّمَاءِ لأنّ البُروجَ هِيَ أيْضاً فِي السَّمَاء ـ سِرَاجاً، وهِيَ الشَّمْسُ الَّتِي هِيَ كالسِّرَاجِ، إذْ هِيَ كَوْكَبٌ نَاريٌّ مُشْتَعِلٌ ذُو لَهَب. وقَمَراً منيراً، أيْ: ذَا نُورٍ، وقَدْ كَشَفَتِ الدّرَاسَاتُ الإنْسَانِيَّةُ ثُمّ الْمُشَاهَدَة أنّ الْقَمر كَوْكَبٌ بَارِدٌ، وأنّ النُّورَ الذي يَنْبَعِثُ مِنْه هُو انْعِكَاس ضَوْءِ الشَّمْسِ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَىٰ سَطْحِه.

وفي الشَّمس والقَمر قال الله عزَّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا . . . ﴿٥﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

فدلّتْ هذِه النُّصُوصُ علَىٰ مَا أَثْبَتَتْه الْمَعَارِفُ الإِنْسَانِيَّة الَّتِي جَاءَتْ مُتَأَخِّرَةً مِنْ أنّ الْقَمر عَاكِسُ نُورٍ فَقَطْ، ولَيْسَ لَهُ ضِياءٌ ذَاتِيٌّ صَادِرٌ عَنْه.

وقد أَثْبَتَتِ الْمَعَارِفُ الإنْسَانِيَّة أنَّ الطَّاقَة الشَّمْسِيَّةَ الّتي تَصِلُ إِلَى الأَرْضِ هِيَ سَبَبُ كُلِّ مظَاهِر الحَيَاةِ فِيها، ولَوْلَا الطَّاقَةُ الشَّمْسِيَّةُ لبَرَدَتْ وجَمَدَتْ، ولمَا كَانَتْ صَالِحةً لظُهورِ الحَياةِ عليها.

ولا شَكّ أنَّ كُلًّا مِنَ الشَّمْسِ والقَمَر مُسَخّرٌ برَحْمَةِ اللّهِ وعِنَايَتِه لمَصَالِحِ الأحْيَاءِ علَىٰ الأَرْضِ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾: أيْ: جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهارَ يَتَعاقَبان فيَخْلُفُ كلٌّ مِنْهُما الآخر.

يقال لغة: رَجلَانِ خِلْفَةٌ، أيْ: يَخْلُفُ أَحَدُهُما الآخر.

إنّ تَعاقَبَ اللَّيْلُ والنَّهار مِنْ نِعَم اللَّهِ الظَّاهِرَةِ فِي الأَرْضِ، بتَأْثِيرِ نِظَامِ حَرَكَةِ الأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِها، وهَذا النِّظَامُ مُرْتَبِطٌ بالشَّمْسِ الَّتِي هِيَ فِي السماء.

فَثَبَتَ بهَذا أَنَّ الله الّذِي يَعْتَقِدُ الْمُشْرِكُونَ أَنّه خَالِقٌ عَزِيزٌ عَليم، هو أَيْضاً رَحمانٌ رَحِيمٌ بِعبادِه، فَمِنْ مَظَاهِرِ عِنَايَتِه ورَحْمَتِه بِعبادِه رَبْط أَسْبَابِ حَيَاتِهِمْ ومَعَايِشِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ فِي الْأَرْضِ، بمَا يَعْتَقِدُون أَنَّه خَاضِعٌ لسُلْطانِهِ فِي السَّمَاءِ.

وهٰذِه حُجَّةٌ دَامِغَةٌ، فِيهَا إِلْزَامٌ للمُنْكِرِ مِنْ خِلَالِ الأَشْيَاءِ الَّتِي يَعْتَقِدُ هُو بِهَا.

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَكْمَلَ الدَّلِيلُ عَنَاصِرَهُ قال الله عزَّ وجلّ:

﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾: أيُّ: هٰذِهِ الظَّواهِرُ والآيَاتُ هِيَ مِنْ نِعَم اللَّهِ علىٰ النَّاسِ فِي الأَرْضِ، مَعَ أَنّهَا خَاضِعَةٌ لُسْلَطَانِهِ فِي السَّمَاءِ كَمَا يَعْتَقِدُ المشركون، وقد جعلها الله ضمن أنظمته ليتذكر من أراد أن يتذكر، أي ليضعها في ذَاكِرَته بعِنَاية، فَتكُونَ دَافِعةً لَهُ إِلىٰ الإِيمانِ بالله، والاسْتِجابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُول، ونِداءَاتِ الْقُرآن، فَيَكُون مِنَ الْمُتَّقِين.

وليَشْكُرَ مَنْ أَرادَ شُكُوراً، فَهُو يَزِيدُ مِنَ الْقُرباتِ وَنَوَافِلِ الطَّاعَاتِ رَجاءَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الأَبْرَارِ أَوِ الْمُحْسِنين.

* * *

إجمال معاني هٰذا الدّرس التاسع

• يُبَيّنُ الله عزَّ وجلّ في هذا الدَّرس أنَّ اللَّهَ الرّبَّ الخالِقَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرْضَ وما بَيْنَهُما فِي ستَّةِ أيَّام ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ هُوَ نَفْسُه الرَّحْمَنُ، عَلَىٰ خِلَافِ مَا يَزْعُمُه مُشْرِكُو مكَّةَ مِنْ أنّه لا يَتْصِفُ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ، لذَلِك فَهُمْ لاَ يَلْتَمِسون رَحْمَته، ولَا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ اسْمَ الرَّحْمٰن أو اسْمَ الرَّحِيم، بَلْ يُنْكِرُون ذلك.

• وبعْدَ بَيانِ أنَّ الله الخَالِقَ للسَّماوات والأرْض وما بَينهما هُوَ الرّحْمٰن أيضاً، أرشَدَ الله إلى اسْتِخْدامِ طَرِيقَةِ سُؤال أَهْلِ الْخِبْرَةِ الْمُجَرِّبين، الَّذِين جَرَّبوا في حَيَاتِهم رَبَّهُمْ عَنْ طَرِيقِ الدُّعَاء والتضرُّع إلَيه في المُلِمَّاتِ والضَّرُورَاتِ، فَإنّهُمْ سَيُخْبِرونَ بِمَا جَرَىٰ لَهُم، والنَّتائِجُ سَتُثْبِتُ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الرَّحْمٰنُ، لأنّه قَدْ رَحِمَهُم فاسْتَجَابَ لَهُمْ، وهٰذَا مَا دَلّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

• وبَعْدَ ذَلِكَ أبَانَ الله عَزَّ وجَلَّ وَاقِعَ حَالِ مُشْركي مكة وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ مَذْهَبِهم فِي إنْكَارِ عُنْصُرِ الرَّحْمَةِ مِنْ عَنَاصِر رُبُوبِيَّةِ الله عَزَّ وجَلَّ. فَهُمْ إذا قِيل لَهُم: اسْجُدُوا للرّحْمٰن، أي: لِلَّه الذِي مِنْ أَسْمَائِه الرَّحْمٰن، لأَنَّهُ مُتَّصِفٌ بصِفَةِ الرَّحْمَة، قالوا: لا نَسْجُدُ للرَّحْمٰنِ، وَمَا هِيَ حَقِيقة الرَّحْمَةِ الَّتِي تُدَّعَىٰ للَّهِ حَتَّىٰ يُسَمّىٰ الرّحْمٰن، وَمَا دَلَائِلُها وآثارُها؟! وَقَالُوا للرَّسُول: أَنَسْجُدُ لِوَصْفٍ لَا نَعْرِفُه ولاسْمٍ لَا نَعْرِفُهُ لله؟! أَنَسْجُدُ لاسْمٍ أَنْتَ تَأْمُرنَا أَنْ نَسْجُدَ لَهُ، ونَحْنُ لَا نُؤْمِنُ بِه؟!

لَقَدْ كَانُوا نَافِرِينَ مِنْ أَنْ يَسْجُدُوا لله خَالِقِ السَّمَاوَاتِ الرَّبِّ الْعَزِيزِ الْعَلِيم، فَلَمَّا دَعَاهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ بوَصْفِهِ الرَّحْمٰنِ زَادَهُمْ ذَلِكَ نُفُوراً.

• وبعْدَ ذَلِكَ عرَض الله عزَّ وجلّ بعْضَ آيَاتِ كَوْنِه الدَّالّاتِ علَىٰ أَنَّه رَحْمَانٌ رَحِيمٌ، مُخْتاراً مِنْهَا مَا يَعْتَقِد الْمُشْرِكُون أنّها خَاضِعَةٌ لسُلْطَانِ الله

وتَدْبيرِه، إذْ هِيَ فِي السَّماء، لكِنَّ لَهَا آثاراً في الأَرْضِ، وهٰذِه الآثَارُ مُرْتَبِطَةٌ بأَرْزَاقِ الأَحْياءِ فِي الأَرْضِ، ومصالحهم وكلِّ شؤون حياتهم، ولولا هذه الآيات التي هي في السماء والخاضعة لسُلْطَانِ اللَّهِ وتَدْبِيرِهِ، لانْعَدَمَتْ كُلُّ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ فِي الأَرْضِ. أَفَلا تَكْفِي هٰذِه ضِمْنَ مَفَاهِيم الْمُشْرِكِينَ لإِثْبَاتِ أنّ الله الْخَالِقَ هُوَ الرَّحْمٰن الرَّحِيم؟!

إنّ الشَّمْسَ الَّتِي في السَّماء، وقَدْ شبَّهها الله بالسَّرَاجِ، إشارةً إلَىٰ أَنَّها كُتْلَةٌ ناريَّةٌ مُلْتَهِبةٌ، هِي الْمُمِدَّةُ للأرضِ بالطَّاقَةِ، الّتِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا كُلُّ مظَاهِرِ الْحَياةِ فِي الأَرْض.

وإنّ الْقَمَر الْمُنِير في السَّمَاءِ قَدْ جَعَلَه اللَّهُ كَوْكَباً مُنِيراً لمَنافِعِ النَّاسِ سُكَّانِ الأَرْضِ، فِي إنَارَتِه وفِي تَنْظِيم حَرَكَتِه ضِمْنَ بُرُوجِه وظُهُورِهِ أَهِلَّةً مُتزايدَة فَبَدْراً فأهِلَّة مُتَنَاقِصَةً، حَتَّىٰ اخْتِفَائِه، ثُمَّ عَوْدَتِه، وفِي مَنَافِعه الأُخْرَىٰ الَّتِي يَظْهَر مِنْهَا المَدُّ والْجَزْرُ فِي الْبِحَار.

وإنّ تَداوُلَ اللَّيْل والنَّهارِ عَلَىٰ الأرض من آثَارِ التَّنْظِيم الْمُتَكَامِل بَيْنَ الشَّمْس وَحَرَكَةِ الأرْضِ. وظَاهِرٌ أنّ تَدَاوُلَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ عَلَىٰ الأرض يُحَقِّق مَنَافِعَ كثيرةً للأحياء علَيْها، وهِي مِنْ آثار رَحْمَةِ المدبّر الخالق.

أفَلا يَجِبُ علىٰ الْمُتَفَكِّرينَ بَعْدَ أَنْ يُدْرِكُوا كُلَّ هٰذَا أَنْ يُؤْمِنُوا بأَنَّ الله الْخَالِقَ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيم؟!

فمَنْ أرَادَ أَنْ يَسْتَفِيد مِنْ دَلَالَاتِ آيَاتِ اللَّهِ في كَوْنِه جعَل هٰذِه الآيَاتِ مُتحرِّكَةً بتَداوُلٍ فِي ذَاكِرَتِه، لتَكُونَ هَادِيَةً له إلىٰ الإِيمَانِ بصِفَاتِ الله الْعَلِيم الحَكِيم الْعَزِيز الْقَدِير الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم، ودَافِعةً لَهُ إلَىٰ الإِسْلَامِ لَه، والْخُضُوعِ لجَلَالِه وطَاعَتِهِ، وعبادَتِه وحْدَه لا يُشْرِكُ بعبادَتِه أحداً.

ومن أَرادَ أَنْ يَكُونَ شاكراً لأَنْعُم الله اسْتَفَادَ من آيات الله في كَوْنه الدّالّاتِ عَلَىٰ رَحْمَتِه بعِبَادِهِ، وعِنَايَتِهِ بِهِم، وإنعامِه عَليهم، فدَفَعَهُ التَّفَكُّر

فِيها إلىٰ الْقِيام بِمَا يُعَبِّرُ بِه عَنْ شُكْرِه لِرَبِّه عَلَىٰ نِعَمِه الكَثِيرَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ إحْصَاءَها.

ويَتَفَاضَلُ الْمُتَذَكِّرون فِي دَرَجَاتِ التَّذَكُّر، ويَتَفَاضَلُ الشَّاكِرُونَ فِي دَرَجاتِ الشُّكْر، فمِنْهُم المتَّقُون، ومِنْهُم الأبْرارُ، ومِنْهُم الْمُحْسِنُون.

أمّا مَنْ لَمْ يُرِدْ أنْ يَتَذَكَّر، ولَمْ يُرِدْ أنْ يَكُونَ شَاكِراً لأنْعُم الله عَلَيه، فإنّه يَتَقَلَّبُ فِي نِعَم الله الَّتِي هِي مِنْ آثارِ رَحْمَتِه، ويُشَاهِدُ آيَاتِ الله فِي كَوْنِه مُعْرِضاً عَنْ دَلَالَاتِها، وَلَا يَرَىٰ مِنْهَا إلّا صُوراً جَمَالِيَّةً لِلْمُتْعَةِ والزِّينَةِ، كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُوَ أضَلُّ سَبِيلاً.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس التاسع من دروس السورة على ما فتح الله به، وأَمَدَّ وأعَانَ وَوَفّق، والْحَمْد لَهُ عَلَىٰ ما وهبَ.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليليّ للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآيات من (٦٣ ـ ٧٦)

قال اللّٰهُ عزّ وجلّ:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا (٦٣) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا

فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا
مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا
صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ
أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

القراءات:

(٦٧) • قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفر: **[وَلَمْ يُقْتِرُوا]** من فعل «أَقْتَر يُقْتِرُ إقتاراً».

وقرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: **[وَلَمْ يَقْتِرُوا]** من فِعْلِ «قَتَرَ يَقْتِرُ» كضَرَبَ يَضْرِب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ من فعل «قَتَرَ يَقْتُرُ قَتْراً».

وهي لُغَات عربيّة، والمعنى فيها واحد، أي: لم يُضَيِّقُوا النَّفَقَة على أنفسهم ولا على من تجبُ عليهم نفقتهم، ولم يجعلوها أقلَّ من الحاجة.

(٦٩) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: **[يُضَعَّفْ ويَخْلُدْ]** بجزم الفِعْلَيْن، وفي الأوّل من فعل: «ضَعَّفَ يُضَعِّفُ».

وقرأ ابْنُ عامر: **[يُضَعَّفُ... ويَخْلُدُ]** برَفع الفِعْلَين، وفي الأول كالقراءة السابقة.

وقرأ شُعْبة: **[يُضَاعَفُ... ويَخْلُدُ]** برَفْع الفِعْلَيْنِ، وفي الأوّل من فعل: «ضاعَفَ يُضاعِفُ» ومؤدّىٰ «ضاعَفُ» مثل «ضَعَّفَ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[يُضَاعَفْ... ويَخْلُدْ]** بِجَزم الفعلين، وفي الأوّل كقِرَاءة شعبة في الصيغة.

والقراءات الأرْبَعُ هٰذِه وجُوهٌ عربيّةٌ ونحوية جائزة ومتكافئة.

(٦٩) • قرأ ابْنُ كثير، وحفص ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ بصِلَةِ هاء ﴿فِيهِۦ﴾.

وقرأ باقي الْقُرّاء العشرة بترك الصِّلَة.

وهما وجهان من الأداء في اللّسان العربي.

(٧٤) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: ﴿وَذُرِّيَّـٰتِنَا﴾ بصِيغَة الجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَذُرِّيَّتِنَا] بصيغة الإفراد.

وهما قراءتان مُتكافِئَتان، لأنَّ الإفراد في الذُّرِّية مع الإضافة بمعنى الجمع، لما فيها من الدلالة على العموم.

(٧٥) • قرأ شُعبَةُ، وحَمْزة، والكِسائي، وخلَف: [وَيَلْقَوْنَ] من فعل: «لَقِيَ يَلْقَىٰ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ من فعل: «لَقَّاهُ يُلَقِّيهِ».

وفي القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني، فَعِبَاد الرحْمٰنِ يُلَقَّوْنَ من قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ والْحُورِ الْعِينِ والوِلْدَانِ المخلَّدِين تَحِيَّةً وسَلاماً، ويَلْقَوْنَ مستقْبِلين مِنْهُمْ تحيَّةً وسلاماً، وهذا نظير أعطاني وأخَذْتُ.

تمهيد:

في هذا الدرس من دروس السورة بيانُ جملة من صِفَاتِ عباد الرَّحْمٰن، المرشّحين لأنْ يكُونوا أئِمَّةً للمتقين، بمعنَى أنَّهُمْ قد ارْتَقَوْا فَوْقَ أعْلَىٰ دَرَجات المتقين، وتوجَّهوا صاعِدِينَ يَتَرَقَوْنَ في دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الأبْرار، ورُبَّما اجتازوها عُلُواً وتوجَّهُوا صَاعِدِينَ في دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ المحسنين التي ارتقي الأنبياء والمرسلون إلى ذروتها، أو إلى قريب من الذورة.

ومن هؤلاء الذين هم **«عباد الرحمٰن وأئمة المتَّقِين»** زُمْرَة الدُّعاة إلى سبيل ربّهم، الحامِلُونَ رِسَالَةَ تَبْلِيغ دين الله للنّاس أجْمَعِين، ومنهم الناصِحُون، والمرْشِدُون، والوعاظ، والمذَكِّرُون، ومنهم الآمِرُون بالمعروف النَّاهون عن المنكر داخل صفوف المسلمين.

وجاء في عدّة سُوَرٍ أخرى من القرآن المجيد بيان طائفة أخرى من صفاتهم، وبدراسة هذه النصوص الموزَّعَةِ في القرآن، مع دراسة ما جاء في سورة (الفرقان) عن صفاتهم، مجموعةً مع صفات المتقين الواردة في القرآن، نظراً إلى أنّ عباد الرَّحْمٰن هم أئمةُ المتقين، فَلَا بُدَّ أنْ تتحقَّقَ فيهم صفات المتقين مع الصفات الأخرى التي هي من مرْتَبَتَي الأبرار والمحسنين.

ولدى هذه الدراسة المتكاملة نستطيع استخراج كلّ الصفات التي ينْبَغي أن يتحلَّىٰ بها المؤمن، حتَّىٰ يكون من زُمْرَةِ عباد الرحمٰن.

* * *

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

العطْفُ بالواو في مطلع ذكر عباد الرحمٰن وصِفاتِهم، يُلاحظُ فيه أنّ ما جاء قبله يتضمّن دَعْوَة النّاسِ إلَىٰ أنْ يَكُونُوا من المتَّقِين، فيؤمنوا بالله، ولا يُشْرِكُوا به شيئاً، ويؤمنوا بالقرآنِ المنزّل من عند الله، ويؤمنوا بالرّسول ويَتَّبِعُوه، فإذا فعلوا ذلك دخلوا في زُمَرِ عباد الله المتقين عَلَىٰ تَفَاضُلِ درجاتهم.

ولَكِنْ فَوْقَ زُمَرِ المتقين يأْتِي فَرِيقُ عِبَادِ الرَّحْمٰن الجامعُ لزُمَرِ الأَبْرَارِ، ولزُمَر الْمُحْسِنين علَىٰ تَفاضُلِ دَرَجاتِ كلٍّ منهم، وصِفَاتُهُمْ فِيمَا يَلي: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا . . .﴾. إلى آخر النص.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

عِباد: جمْعٌ مُفْردُه «عَبْد» ويُجْمَعُ أَيْضاً على عَبِيدٍ، وأعْبُدُ، وعُبْدَان.

والأَصْلُ فِي الْعَبْدِ أَنَّه الإِنسان الْمَمْلُوكُ، وهو خِلَافُ الحرّ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الإِنسانِ حُرّاً كَانَ أَمْ مملوكاً.

ولمَّا كَانَ النَّاسُ جَمِيعاً مَمْلُوكِين لربِّهم الخَالقِ البارِئِ المُصَوّر المُمِدّ بالحياة والرِّزْق ومَطالِب الْحَيَاةِ، كانُوا جَمِيعاً عِباداً لَهُ، أي: مَمْلُوكِين لَهُ تَبارَكَ وَتَعالَى، وكذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ والْجِنُّ.

كما قال الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

[ومَنْ عِنْدَهُ]: وهم الملائكة.

[لاَ يَسْتَحْسِرُونَ]: أيْ: لا يَكِلُّون ولَا يَتْعبُونَ.

وكما قال تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مَنْ في السماوات والأرْض: هُمْ كلّ ذي علم من الملائكة والإِنْس والجنّ.

كلٌّ لَهُ قَانِتُونَ: أي: كلٌّ لَه خَاضِعُونَ مُطِيعُون لِأمْرِ الله، إمّا بالاخْتِيارِ وإمّا بالْجَبْر، فمن لم يكن مطيعاً لأمرِ اللّهِ التَّكْليفي كانَ مُطِيعاً وَخَاضِعاً لأمْرِ الله التكْوِيني بالْقَهْرِ والْجَبْر.

ووصف الله عزّ وجلّ الملائكة بأنّهم عباد الرحمٰن، أي: هُمْ يَتحلّونَ بأعْلَىٰ درجات الطاعة لله برّاً وإحْسَاناً، فقال تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) بشأنٍ بعض عقائد المشركين في الملائكة:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

الرّحمٰن: اسم من أسماء الله الحسنى «كالرحيم». ولفظ رَحْمان صفة مشبَّهة باسم الفاعل على وزن «فَعْلان» للمبالغة، مأخوذةٌ من الرحمة، تقول لغة: «رَحِمَه يَرْحَمُه رَحْمَةً ورُحْماً ومَرْحَمَةً فهو راحم».

قالوا: ولفظ الرحمٰن خاصّ بالله تعالى، فلا يُسْتَعْمَلُ في وصْفِ غيره، فأشبه أن يكون عَلَماً له.

وفي لفظ «رحمان» قولان: **الأول**: أنّه مصروف. **والثاني**: أنّه غير مصروف. ومال السعد التفتازاني إلى جواز الأمرين فيه.

وعباد الرحمٰن فريق متفوّق من المؤمنين ارتقوا فوق كلّ درجات مرتبة المتقين، فيدخل فيهم الأبرار والمحسنون.

وقد أضَاف الله عزَّ وجلّ هذا الفريق من عباده إلى اسْمِه الرَّحْمٰن، إشارة إلى أنّ **حَظَّهم** الأوْفَر من أسماء الله الحسنى، هو من اسمه «الرَّحْمٰن» لأنّهم علّقُوا إرادَاتِهم بأسْبَابِ الطَّاعَات والعِبَادَاتِ، والسَّعْي لِلْعَمَلِ بمَراضِي الله، الَّتِي يَسْتَدرُّون بها فُيوض رحماتِ الله، مع التعلُّق باسْمَي الله «الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم» فاستَحقُّوا أَنْ يَظْفَرُوا بجَائِزَةٍ رَبّانيَّة خَاصَّة بِهم، عُنْوانُها: «عِبَادُ الرَّحْمٰنِ».

وهم يحْمِلُون بهٰذا الْوَصْفِ لِيَوْمِ الدِّين وثيقةً يَنالُونَ بِها الثَّوابَ الْعَظِيمَ الْخَاصَّ بعِبادِ الرَّحْمٰنِ.

وقد جَاءَ في القرآن الْمَجيد وَصْفٌ مفصَّلٌ لِفَريق عبادِ الرحمٰن، باعْتِبار أنَّهُمْ فَريقٌ ذُو تَفوُّقٍ من الْمُؤْمنين، يَتحلَّوْنَ بطَائِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ الإِيمانِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، يَظْفَرُونَ بِسَبَبِها بِرَحْمَةٍ خَاصَّةٍ من رَحَمات الله العظِيمَةِ الْجَليلة، ويَسْتَحِقُّون بها شَرَفَ النِّسْبَةِ إِلَىٰ اسْم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ، ويَأْخُذُونَ بِها شَهَادَةَ تفوُّقٍ خَاصَّة عُنْوانُها عند الله عزَّ وجلّ: «عِبَادُ الرَّحْمٰن».

الرَّحْمَةُ فِي الْمَخْلُوقِ رِقَّةٌ فِي الْقَلْبِ مِنْ آثَارِهَا الْعَطْفُ وَالْإِحْسَانُ وَالْعَطَاء، وَهِيَ فِي الْخَالِقِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِه عزَّ وجلّ، نُؤْمِنُ بأنَّها لَهُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِذَاتِه، وهِي صِفَةٌ تَسْتَلْزِم الإِنعامَ والإِحْسَانَ والإِكْرامَ، وهي أَجَلُّ صِفَةٍ تَتَدَفَّقُ بفَيْضِ الْعَطَاءِ دُونَ حِسَاب، فمَنْ كان من عباد الرحمٰن حقّاً كان مؤهّلاً لأنْ تَتَدَفَّقَ عَلَيْه من ربّه فُيُوضُ عطاء، لا يَسْتَطِيعُ الْمُحْصُونَ إِحْصَاءَها، ولا يستطيع الواصفون الْإِحَاطة بوَصْفِها، ولا بَيَانَ مَقَادِيرِهَا، ولا تَصوُّرَ حَقِيقَتِها.

ولَقَدْ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ رَحْمةً وعِلْماً، فَبِرَحْمَتِه هدَىٰ عِبادَهُ إلى سَبِيلِ سَعَادَتِهم، وبرَحْمَتِه أَنْزَلَ عَلَيْهِم الشَّرِيعةَ الكَفِيلَةَ بِتَحْقِيقِ الْخَيْرِ والسَّعَادَةِ لَهُمْ فِي دُنْياهُم وأُخراهم، وبِرَحْمَتِه يُدْخِلُ الْمُؤْمنينَ فِي جَنَّتِه دَارِ النَّعِيم، ويَغْفِرُ لِلْمُسِيئِينَ، ويَسْتَجِيبُ للمُضطرِّين.

ولَقَدَ كتَبَ اللَّهُ عَلَىٰ نَفْسِه الرَّحْمَةَ، وَوَصَفَ نَفْسَه بأنَّهُ أَرْحَمُ الرّاحِمينَ، وبأنّه خَيْرُ الرّاحِمينَ.

وأبَانَ الرَّسُولُ ﷺ مَبْلَغَ عَظَمَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ بالنِّسْبَة إِلَىٰ كُلّ الرَّحْمَةِ الْمَوْجُودَةِ لَدَىٰ جَمِيعِ خَلْقِ اللَّهِ لَوْ جُمِعَتْ، بِأَنَّها جَمِيعَها جُزْءٌ مِنْ مِئَةِ جُزْءٍ مِنْ رَحْمَةِ الله.

روى البخاريُّ ومُسْلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْها رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنّ وَالْإِنسِ وَالْبَهَائِم

والْهَوَامّ، فبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَىٰ وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي رِوَاية:

«جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّىٰ تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

وَمَنْ كَانَ بعبودِيَّتِه فِي ظِلّ اسْم الله «الرَّحْمٰن» وتَحَلَّىٰ بِصِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ صَادِقاً مُخْلِصاً، كَانَ مِنْ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» وتَدَفَّقَ عَلَيْه مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَيْضٌ عَظِيمٌ، وَكَانَ سَعِيداً فِي الدُّنيا، سَعِيداً في الآخِرَةِ، وتَوَالَىٰ عَلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشر.

والخلْقُ كلُّهم عِبَاد اللَّهِ، مَمْلُوكُونَ لَهُ، لِأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَهُوَ وَحْدَه الَّذِي يَرْزُقُهم ويُحْيِيهِم، ويُمِدُّهُمْ بمُخْتَلِف عَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِه وهُوَ وَحْدَه الَّذِي يُمِيتُهُم، ثُمّ يَبْعَثُهم ويُحَاسِبُهُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِهِم، ضِمْنَ قَانُون عَدْلِه وَفُيوضِ فَضْلِه.

وعلى الرغم مِنْ خُضُوعِ جَمِيعِ الْخَلْقِ الْقَهْرِيّ لِسُلْطَانِ رُبُوبِيَّة اللَّهِ لَهُم، وعُبُودِيَّتِهِمْ لَهُ، تَخْتَلِفُ حُظُوظُهُمْ مِنْ أَسْمَائِه الْحُسْنَىٰ.

فَحَظُّ بَعْضِ عِبَادِ اللَّهِ الأوْفَرِ مِنْ أَسْمَاءِ الله الْحُسْنَى هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ: «الْمُنْتَقِم الجبّار القهّار» لأنّهم لم يعترفوا له بالرُّبوبيّة، أو بالوحدانية، أو اتخذوا له شريكاً في ربوبيّته أَوْ فِي إلٰهيَّتِه.

وحظُّ بَعْضِ عِبادِ الله الأوْفَر من أسماء الله الحسنى يَنالُهم مِنْ أَسْمَاءِ: «الْعَفُوِّ، الْغفورِ، الْغفَّارِ، التَّوابِ» لأنَّهُم كَثِيرو الذُّنُوب والْمَعَاصِي، وهُمْ يُتْبِعُونَهَا بالاسْتِغْفار والتَّوْبَةِ والنَّدَمِ وطَلَبِ الْعفوِ، فَهُمْ مُؤْمِنُون، ولَكِنَّهُمْ مِن الّذين أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم.

وَحَظُّ عِبادِ الرَّحْمٰن الأَوْفَر هو مِن اسْم الله الرَّحْمٰن.

وبَابُ: «عِبَادِ الرَّحْمٰن» مفتوحٌ لكلِّ مَنْ أرادَ صادقاً أنْ يكونَ وَاحِداً مِنهم، وعَمِلَ بتَوْفِيق اللَّهِ لِتَحْقِيق مَا أرَادَ.

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا . . . ﴿٦٣﴾﴾.

الْمَشْي: هو انْتِقَال الكَائِن بِحَرَكَةٍ مُتَتَابِعَةٍ مِنْ مَكَانٍ إلَىٰ مَا بَعْدَه، وهُو يُطْلَقُ علَىٰ الانْتِقَالِ بِرفْقٍ ورَصَانَةٍ، دُون تَباطُؤٍ ولَا سُرْعة.

وفَوْقَ الْمَشْي السَّعْيُ الّذِي هُو حَرَكَةُ انْتِقَال بِهِمّةٍ ونَشَاطٍ وجِدّ، وفَوْقَ السَّعْي الرّمَل (= الْهَرْوَلَة) ثُمّ يأتي فوق الرَّمَل الرَّكْض، وهُوَ الْعَدْوُ بِسْرعة.

هَوْناً: الْهَوْنُ الخِفَّةُ والرِّفْق، والسَّكِينَةُ والْوَقَار، والْعَمَلُ والتَّصرُّفُ بِرِفْقٍ وسَمْتٍ حَسَنٍ، وعَقْل ورَوِيّةٍ.

فَمِنْ صِفاتِ عِبادِ الرَّحْمٰن الّتي يُلاحِظُها النَّاظِر إلَيْهِم مُنْذُ أوَّلِ مُشَاهَدَةٍ لِحَرَكَتِهم فِي حَيَاتِهم، أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأرْضِ هَوْناً، أي: يَمْشُونَ لقَضَاءِ شُؤُون حَيَاتِهم الدُّنْيا عَلَىٰ الأَرْضِ برِفْقٍ وسَمْتٍ حَسَنٍ، وعَقْلٍ ورَوِيّة، ويَطْلُبُون أرزَاقَهُم بأن يَمْشُوا فِي مَنَاكِبِ الأَرْضِ هوناً.

وضِدُّ ذَلِكَ السَّعْيُ، والْهَرْوَلَةُ والرَّكْضُ دُونَ مُقْتَضٍ لذَلِكَ، وضِدُّ ذَلِكَ أَيْضاً الْمَشْيُ بعُنْفٍ أَو اسْتِكْبارٍ، وضَرْبٍ لِلأرْضِ وتَطاوُلٍ فِي السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ الْمَشْيُ بضَعْفٍ وَتَمَاوُتٍ، أَوْ خِفّةٍ ورُعُونَةٍ، أَوْ خَفْقٍ سَرِيعٍ بِغَيْرِ رَوِيّةٍ ولَا عَقْل.

وضِدُّ ذَلِك أَيْضاً السَّعْيُ لِطَلَبِ الدُّنْيا بإِسْرَاعٍ ومُغَالَبَةٍ ومُقَاتَلةٍ ومُنَازَعَةٍ لأَهْلِها.

فأضدَادُ مَشْيِ الْهُونِ لمَطَالِب الْحَيَاةِ الدُّنيا لَيْسَتْ مِنْ صِفاتِ عبادِ الرَّحْمٰن.

أمّا الآخِرَةُ فإنَّهم يَسْعَونَ لَهَا سَعْيَها بِهِمَّةٍ ونَشَاطٍ وقُوَّةٍ، ويُسَارِعُونَ فِي طَلَبِ الْخَيْرَاتِ، ويُسَابِقُونَ لِاغْتِنَامِ رِضْوَانِ اللَّهِ، كَمَا قال الله عزَّ وجلّ بشأن الْحُضورِ إلى صلاة الجمعة في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾.

وكما قال تعالى بشَأْنِ طَلَبِ ثَوابِ الآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾.

فَعِبادُ الرَّحْمٰنِ يَمْشُون علَىٰ الأَرْضِ بخفَّةٍ ورِفْقٍ وسَكِينةٍ ووَقَارٍ، ويَطْلُبُون مَطَالِبَهُمْ لِدُنْيَاهُمْ بِالْمَشْيِ الرَّفِيق في مَناكِبِ الأَرْضِ، وإنِ اقْتَضَىٰ مِنْهُمْ كَدّاً وجَهْداً، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الْمُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾.

وعبادُ الرحْمٰنِ لَا يَمْشُون عَلَىٰ الأرض بعُنْفٍ، ومَرَحٍ، واسْتِكْبَارٍ، وبَطَرٍ، وتَبَخْتُرٍ، وتَعَاظُم، وضَرْبٍ علَىٰ الأَرْضِ، وتَطَاوُلٍ في السّماء، كما يفعل الجبَّارون.

ولا يَسْعَوْنَ فِي الأرض سَعْياً، لِطَلَبِ الدُّنيا ومَا فِيها مِنْ متَاع، ولذَّاتٍ، وشهَواتٍ، ومَا تَهْوَىٰ الأَنْفُسُ مِنْ فَانِياتٍ، بَلْ يَجْعَلُونَ هٰذَا السَّعْيَ لطَلَبِ الآخِرَة، ويُجْمِلُونَ فِي طَلَبِ أَرْزَاقِهم وحَاجَاتِ دُنْيَاهُمْ، دُونَ شَرَهٍ، ولا جَشَعٍ وَلَا مَعْصِيةٍ للّهِ عزَّ وجلّ.

ولا يَسْعُون فِي الأرْضِ فَسَاداً، أَوْ طَلباً لِلْعُلُوّ فِي الأَرْضِ، والاسْتِئْثَارِ بحُظُوظِها الْفَانِيَة، كَمَا يَفْعَلُ طُلَّابُ الدُّنيا، من الفاسِقِين والفاجِرين والطُّغَاةِ والْمُتَكَبِّرِينَ وعُبَّادِ الشَّهَواتِ والأَهْواء.

إنَّ عِبَادَ الرَّحْمٰن متواضِعُون لله، هَيِّنُون لَينُون، لا جَبَّارُونَ وَلَا مُسْتَكِبْرُون.

لَقَدْ سَمِعُوا نَهْيَ الله عزَّ وجلّ عَنْ مِشْيَةِ المرَحِ (أي: الْبَطَرِ والكِبْرِ) في قوله تعالى في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

فأطَاعُوا، تَحْقِيقاً لعُبُودِيَّتِهم للرحمٰن، وعَلِموا أنّ الْغَايَةَ مِنْ هٰذا النّهي أَنْ لا يَكُونُوا مُسْتَكْبِرين مُتَعاظِمينَ عَلَىٰ عِبادِ اللَّهِ، فَوَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ لأَنْ يَجْتَنِبوا كُلَّ مَظْهَرٍ مِنْ الْمَظاهِرِ الدّالّة على الكِبْر والْعُجْبِ بالنفس.

وأَدْرَكُوا أنَّ مِشْيَةَ الْخُيَلاءِ يُبْغِضُها الله، فَهُمْ يَجْتَنِبُونَها، عَلَىٰ أنّ خُلُقَهُمْ يُلْجِمُهُم عن أن يكُونُوا مستكْبِرين عَلَىٰ عِبَادِ الله.

لقَدْ كَشَفَ الله عزَّ وجلّ فِي هٰذه الآيَةِ من سورة (الإسراء) للمُسْتَكْبِر الّذي يتبخْتَر ويَمْشِي علَىٰ الأَرْضِ مَرحاً وَاقِعَ حَالِه الصَّغِيرِ، فأبَانَ لَهُ أنَّه حِينَ يَضْرِبُ الأرضَ بِرِجْلِه، ويتَطاوَلُ مُسْتَعْلِياً بقَامَتِه علَىٰ النَّاس، فَإنّه لَنْ يَسْتَطِيع أنْ يَخْرِقَ الأرْضَ، فَهِي أَصْلَبُ مِنْه، ولن يَستَطِيعَ أنْ يَبْلُغ الجبالَ طُولاً، فَهِي أَعْظَمُ وأَطْوَلُ جِسْماً منه.

وفِي هٰذا إمْعَانٌ إيمَائِيٌّ بتَحْقِيرِ الْمُسْتَكْبِر، قائلاً له: إنَّ الأَرْضَ الّتِي تَمْشِي علَيْها أصْلَبُ مِنْ قُوَّتك، وإنَّ الصُّخُورَ الْجَامِدَةِ المكَدَّسَةَ جِبالاً أَطْوَلُ مِنْ قَامَتِك مَهْمَا تطاولتَ بها، فَلَا تَظنَّنَّ أنّ شِدَّةَ وَطْئِكَ عَلَىٰ الأَرْضِ، وأنَّ تَطاوُلَكَ بِجِسْمِكَ يَمْنَحانِكَ عِظَماً حَقِيقِيّاً، وقائلاً له: مَهْلاً

بِنَفْسِكَ أيُّها الْمُسْتَكْبِر الْمُتَبَخْتِر، إلَىٰ أيْنَ أنْتَ ذَاهِبٌ بنَفْسِك مُتَطاوِلاً؟ إلَىٰ جِهَةِ الأرْضِ فَتَضْرِبُها بقَدَمَيْكَ، أو إلَىٰ جِهَةِ السَّماءِ فَتَنْطَحُها بِرَأْسِكَ، هَوِّنْ عَلَيْكَ، إنّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ أنْ تَخْرِقَ الأرْضَ مَهْمَا تَبَخْتَرْتَ عَلَيْهَا، إنّكَ إنْ تَحَدَّيْتَها هَشَّمْتَ جِسْمَكَ وحَطّمْتَه، ثمّ إنّكَ مَهْما تَطاوَلْتَ بجِسْمِكَ إلَىٰ الأعْلَىٰ فَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً.

إنّ الْجِبَالَ مَهْمَا عَلَتْ بأجْسَامِها عَنْ مُسْتَوى الأرْضِ فَهِيَ أقَلُّ قِيمَةً مِنَ الْإنْسَانِ الّذي فضّلَهُ اللّهُ بالصِّفَاتِ الّتِي مَنَحَهُ إيَّاهَا، وَهِيَ مِنْ دَرَجاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَلَا تُحَاوِلْ أن تَكْسِبَ المَجْدَ بالانْتِفَاخِ الجَسَدِيِّ والتَّعَاظُمِ، أوْ بِالتَّبَخْتُر والْخُيَلَاءِ والاسْتِكْبار عَلَىٰ خَلْقِ الله.

إنّ المَجْدَ الإنْسَانِيَّ لَا يَكُونُ بطُولِ الأجْسَامِ ولَا بِعَرْضِها، ولَا بِتَبَخْتُرِهَا وضَرْبِها الأرْضَ بأقْدامِها حِينَ مَشْيها.

يَا لِهَذَا مِنْ تَبْكِيتٍ بَدِيعٍ ورَائعٍ للمُسْتَكْبِرين!

وَعِبادُ الرَّحْمٰن لا يُسْرِعُونَ إسْراعاً يَدُلُّ عَلَىٰ الخِفَّةِ والطَّيْشِ، ولا يُبطِّئُون تبطيئاً يدُلُّ عَلَىٰ الكَسَلِ والْخُمُولِ والتَّمَاوُتِ، بَلْ يَمْشُونَ هَوْناً بِهِمَّةٍ وعَزْمٍ ورُجُولَةٍ وفُتُوَّة، ويَعْمَلُونَ بِوَصِيَّةِ لُقْمَان لِابْنِه فِي قولِه لَهُ كَمَا أَخْبَرَنَا الله عَزَّ وَجَلّ بقَوْلِه في سورة(لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ . . . ١٩﴾.

القَصْدُ: هو الاعْتِدال فِي الأمْرِ دُونَ إفْراطٍ ولَا تَفْرِيط.

والنّاشِئُ الّذي يَمْشِي عَلَىٰ الأرْضِ هوناً تدلُّ بدايته على أنّه مُرَشّح لأن يكون مستقبلاً من عباد الرحمٰن، إذا كان مؤمناً متّقِياً متأسّياً بالأبْرَارِ والْمَحْسِنين.

قول الله تعالى:

﴿... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

خَاطَبَهُمْ: أي: جَعَلَ يُراجِعُ مَعَهُمْ الكَلَامَ، يقال لغة: خاطبَهُ بالكَلَامِ مُخَاطَبَةً وخِطَاباً، إذا تَرَاجَعا الكَلَامَ بَيْنَهُما في خَطْبٍ مَا، أي: في أَمْرٍ مَا، أو شأنٍ ما، فالخطب هو الأمْرُ والشَّأْنُ والْحَالُ أيّاً كَانَ، سَواءٌ أكان كبيراً أمْ صغيراً. فالمخَاطَبَةُ مراجَعَةُ الكَلَام.

الجاهلون: المُراد بهمْ هُنا الَّذِينَ لَا عَقْلَ لَهُم يُمْسِكُهُمْ عَنِ السَّفه والغَضَبِ، وإطْلَاقِ الشَّتَائِم والألْفَاظِ الْقَبِيحَةِ، الأمْرِ الَّذِي قَدْ يَجُرُّ إِلَىٰ التَّقَاتُلِ، ومِنْه مَقَالَةُ العربيّ الجاهلي:

أَلَا لَا يَـجْـهَـلَـنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا فَـنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

إنَّ هٰذا التَّعْلِيمَ الجَاهِلِيَّ الّذِي يَحُضُّ أَفْرَادَ الْقَبِيلَةِ أَو الْعَشِيرَةِ عَلَىٰ مُقَابَلَةِ الشَّتَائِم وقَبائِحِ الأَقْوَالِ والانْفِعَالَاتِ الْغَضَبِيَّة الَّتِي لَا يَضْبِطُها عَقْلٌ إراديٌّ حَازِم، بأَشَدَّ منها، ويُنذِرُ الآخَرِينَ بأَنَّ أَحَداً مِنْهُمْ إذَا قَابَلَهُمْ بسَفَاهَةٍ رَدُّوا عَلَيْهِ بِأَقْبَحَ مِنْهَا، قَدْ جَاءَ الإِسْلَامُ بإلْغَائِه، وشَرَعَ لِلْمُسْلِمِينَ تَعْلِيماً آخر، يَنْبُعُ مِنْ مَنَابع الأخْلَاقِ الإِيمانِيَّة، الَّتي مِنْهَا الحلْمُ، وعَدَمُ مقَابلَةِ الجَهَالَةِ بمِثْلِها، وإعْلَانُ أنّ المجْتَمع الإِسْلامِيَّ مجْتَمع سَلام، مجْتَمَعٌ آمِنٌ، لَا مَكَان فِيه للْجَاهلين وأَهْلِ الْغَضَبِ، أنْ يُثِيرُوا الفِتَن الدَّاخِلِيَّة، ويَبْذُروا بُزُورَ الْعداوَاتِ والخُصُومَاتِ، ولا مكان فِيه للسُّفَهَاءِ الَّذِين يتَعرَّضُون لكَرَامَاتِ الْمُسْلِمِينَ بالإِهَانَةِ.

فعِبادُ الرحْمٰن إذا خَاطَبَهُم الْجَاهِلُون بجَهالَةٍ وسَفَهٍ، مُسْتَثِيرين غَضَبَهُم قَالُوا لهم: سَلَاماً، فيُفَارِقُون بإعْلَان السَّلَامَ مَجْلِسَ الْجَاهِلين.

والسَّلَامُ يَشْمَلُ سَلامة الْعِرْضِ والْجِسْمِ والمَالِ، وكُلَّ مَا يُهِمُّ الإِنْسَان سَلَامَتُهُ.

والْمُسْلِمُونَ إذَا لَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً تَلاقَوْا بِالسَّلَامِ، فيُكَرِّمُ بعضُهم بَعْضاً بالتَّحِيَّة، ويُعْلِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ شِعَارَ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِم، ألَا وَهُو شِعَارُ الأمْنِ والسَّلَام بَيْنَهم.

وَعبادُ الرَّحْمٰن بَعْدَ سَلَامِ اللِّقَاء إِذَا رأَوْا جَهَالَةً مِنْ جَاهِلٍ، أوْ سَفَاهَةً مِنْ سَفِيهٍ، قَطَعُوا جَهَالَتَهُ بالْحِلْم، وَبِمُفَارِقَةِ مَجْلِسهِ بَعْدَ تَذْكِيره بحَقِ الْمُسْلِم عَلَىٰ الْمُسْلِم، وهُوَ السَّلَام والأَمْنُ، الَّذِي يُعْلِنَهُ الْمُسْلِمُونَ فِيمَا بَيْنَهُم عِنْدَ اللِّقَاء، وهو مَا تَضَمَّنَتْهُ عِبَارَةُ السَّلَام.

وقد بيّن الرَّسُول ﷺ أنّ مِنَ الصِّفَاتِ الأساسيّةِ لِلْمُسْلِمِ، أَنْ يَسْلَمَ أَخُوهُ الْمِسْلِمُ منْ لِسَانِه ويَدِه.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبيّ ﷺ قال: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ، والْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ».

فمَنْ لَمْ يَتَحقَّقْ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ هٰذَا الاسْمِ حقّاً، ولَمْ يَكُنْ مُلْتَزِماً مُقْتَضَيات نِسْبَتِه الشَّرِيفَةِ للإِسْلَام.

فَمِن صِفاتِ عِبادِ الرَّحْمٰن هٰذه الظَّاهِرةُ فِي السُّلوك: إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُون قالوا: سَلاماً. فلا يُقابلُونَ السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئَةِ، وَلَوْ كَانَتْ هذِهِ الْمقابَلَةُ لَا تُنافِي حُقُوقَ مَرْتَبةِ التقوى، إلَّا أَنّها تُنافِي حُقُوقَ مَرْتَبَتي البرِّ والإحْسان.

إنّها ظَاهِرَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ خُلُقِ الحِلْمِ الْمُتَأصِّل فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ وَكِيَانِهِمْ الدَّاخِليّ، وتَدُلُّ عَلَىٰ رُجْحان الْعَقْلِ لدَيْهِم، فلا يَسْتَثِيرُهم جَهْلُ الجَاهِلين، ولَا يَدْفَعُ بِهِم إلىٰ مَواقِع الْحَماقَةِ والرُّعُونَة، بَلْ يَضْبِطُونَ أَلْسِنَتَهُمْ، ولَا يُقَابِلُون الجَهَالَةَ الْقَوْلِيّة بمِثْلِها، ويَضْبِطُون أعْصَابَهُمْ، فَلَا يَتَصَرَّفُونَ تَصرُّفاً غَيْرَ مَحْمُودٍ.

إِنَّهُمْ يَقْطَعُونَ عَلَىٰ الجَاهِلِين طَرِيقَ الْفِتْنَةِ والشَّرِّ، ويُطْفِئُونَ الشَّرَارَةَ الأُولَىٰ الَّتِي لَوْ قُوبِلَتْ بِمِثْلِها لَكَانَتْ ناراً متأجِّجة، قد تَجُرُّ إِلَىٰ قِتالٍ كَبِير، وشَرٍّ مُسْتَطِير.

إنّ عِبادَ الرحْمٰنِ بِدافِعٍ مِنْ إيمانِهم وحُسْنِ إسْلامِهم، إِذَا خَاطَبَهُمْ الجاهِلُون بجَهَالَةٍ تُثِيرُ الْغَضَبَ مَلكُوا أَنْفُسَهُم بِبُطولَةِ الْحِلْم، وبُطولةُ الحلْمِ هٰذِه هي الْبُطُولَةُ حقّاً.

إنّ البُطُولَةَ فِي مَقَايِيس مَكَارِمِ الأَخْلاقِ لَيْسَتْ بِقُوَّةِ الْجِسْمِ، والْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْغَلَبِ فِي الْمُصارَعَةِ، وَهٰذَا مَا أَوْضَحَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِبيانِه البَدِيع.

رَوَىٰ مسلم عن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فيكُمْ؟».

فقالُوا: الّذِي لَا تَصْرَعُهُ الرِّجالُ.

فقال: «وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ».

إِنَّ العَرَبَ يُطْلِقُونَ علَىٰ بَطَلِ الْمُصارَعَةِ الّذِي يُصَارِعُ النَّاسَ فَيَغْلِبُهُمْ كَلِمَةَ «صُرَعَة» ويُكَبِّرُون أَمْرَه، ويُعَظِّمُون شَأنه، فَاسْتَغَلَّ الرَّسُولُ ﷺ إِعْجَابَ النَّاسِ به، وتَقْدِيرَهُمْ لَهُ، ثُمَّ حَوَّلَهُمْ عَنه إِلَىٰ الْبَطَلِ الحَقِيقيّ وهو الّذِي يَمْلِكُ نَفْسَه عِنْد الغَضَب، وذَلِكَ لِأنّ مَلْكَ النّفْسِ عِنْدَ الغَضبِ بُطُولَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ فِعْلاً، تَعْتَمِدُ عَلَىٰ الْعَقْلِ وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ.

أَمّا بُطُولَةُ الْمُصارَعَةِ فَهِي امْتِيَازٌ جَسَدِيٌّ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ قُوَّةِ الْعَضَلَاتِ، والأَعْصَابِ، والتَّدْرِيبِ الجَسَدِيّ، والْحِيلَة.

وهٰذه الصِّفَةُ الّتِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ عِباد الرَّحْمٰنِ مَعَ سَائِرِ صِفَاتِهِمْ تُرَشِّحُ مَنْ تَحلّىٰ بِهَا أَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلْمُتَّقِينَ، لأنَّهُ بها قد ارتقىٰ إلى مَرْتبة الأبرار وَرُبَّما قد ارتقىٰ أيضاً إلى مَرْتبة المحسنين.

ولمَّا كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ قِمَّةَ عِبادِ الرَّحْمٰنِ جَمِيعاً، كَانَ أَكْثَرَالنَّاسِ حِلْماً، وَكَانَ لَا يَزِيدُهُ جَهْلُ الجَاهِلِينَ إِلَّا حِلْماً.

فَمِنْ رَوائِعِ حِلْمِ الرَّسُولِ ﷺ أنّ أَعْرَابِيّاً جاءَ إِلَيْهِ يَطْلُبُ مِنْه عَطاءً، فأَعْطاهُ الرسُولُ، ثُمَّ قَالَ له:

«أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟».

قال الأعْرَابِيّ: لَا، وَلَا أَجْمَلَتَ. (اسْتَقَلَّ العَطاءَ) فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ وَقَامُوا إِلَيْهِ، وقَدْ هَمُّوا أَنْ يُؤَدِّبُوه بالْعُنْفِ، فأشَارَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ كُفُّوا. ثُمَّ قَامَ وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، وزادَهُ شَيْئاً، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

«أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟».

قَالَ: نَعَمْ، فَجزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلٍ وَعِشيرَةٍ خَيْراً. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

«إِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ آنِفاً، وَفِي نَفْسِ أَصْحَابِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ، حَتَّىٰ يَذْهَبَ مَا فِي صُدُورِهِمْ عَنْكَ».

قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ جَاء، فقال النبيّ ﷺ:

«إِنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ قَالَ مَا قَالَ فَزِدْنَاهُ، فَزَعَمَ أَنَّهُ رَضِيَ، أَكَذَلِكَ؟».

قَالَ: نَعَمْ، فَجزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلٍ وعَشِيرةٍ خَيْراً.

فقال الرسول ﷺ لأصحابه:

«مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا، كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَأَتْبَعَهَا النَّاسُ، فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُوراً، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا، فَقَالَ لَهُمْ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَإِنِّي أَرْفَقُ بِهَا مِنْكُمْ وأَعْلَمُ، فَتوجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَأَخَذَ مِنْ قُمَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا، حَتَّىٰ جَاءَتْ واسْتَنَاخَتْ، وشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، واسْتَوَىٰ عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

قُمَامُ الْأَرْضِ: الْقُمَامُ جَمْعُ الْقُمَامَة، وهِيَ الكُنَاسَةُ الَّتِي تُجْمَعُ لإِبْعَادِهَا عَنِ الْبُيُوتِ والطُّرُقِ، وتَنْظِيفِ الأَرْضِ مِنْهَا، شَبَّهَ الرَّسُولُ الْمَالَ بالْقُمَامِ.

صلواتُ الله عليك يا رسول الله ما أَحْلَمَكَ! وما أَعْلَمَكَ! وما أَحْكَمَكَ!.

وإِذْ وصَفَ الله عزَّ وجلّ عبادَ الرَّحْمٰنِ بأنّهم إذَا خَاطَبَهُم الجاهلون قالوا: سلاماً، فقد دَلَّ بِذَلكَ علَىٰ أنَّ تعامُلَهُمْ مَعَ النَّاسِ تَعَامُلٌ بالْخُلُقِ الْحَسَنِ، إذْ فِي قِمَّةِ ذَلِكَ الحِلْمُ والصَّبْرُ عَلَىٰ الْأذَىٰ، وإعْلَانُ السَّلَامِ.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾.

يَبِيتُون: أيْ: يَدْخُلُ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ. قال الزَّجّاج: كُلُّ مَنْ أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ. فقد بات، نَامَ أَمْ لَمْ يَنَمْ.

ويُقال لُغةً: باتَ يَفْعَلُ كَذا، أيْ: دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ، وهُوَ فِيه يَفْعَلُ كَذا، كَمَا يُقَالُ: ظَلَّ يفْعَل كَذا، أيْ: هُوَ يَفْعَل كَذَا فِي النَّهار. ويرىٰ الفرّاء أنّ فعل «بَات» يدلُّ على السّهر في اللّيل.

سُجّدًا: جَمْعُ «سَاجِدٍ» وأَصْلُ السُّجُودِ الْخُضُوعُ وَطأْطَأَةُ الرَّأْسِ، ويُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَىٰ الخُضُوعِ التَّام، أوْ غَايَةِ الخُضُوعِ، ومِنْهُ سُجُودٌ بالاخْتِيار، كسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ عزَّ وجلّ، وكَسُجُودِ الْعُبّادِ من الإِنس والْجِنّ لَهُ. ومنه سجُودٌ بالْجَبْرِ لأَمْرِ الله التَّكْوِينِيّ، وهُوَ خُضُوعُ كُلِّ شَيْءٍ لأَمْرِ اللَّهِ التَكوِيني: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ وفِيهِمَا يقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩ ﴿١٥﴾﴾.

وفِي سُجُودِ الدَّوابِّ والْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ بِمَعْنىٰ غَايَةِ الْخُضُوعِ لَهُ تَبَارَكَ وتعالى، يقول الله تعالى في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

وفي سُجُودِ النَّبَاتِ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ الله تعالى في سورة (الرحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾.

النَّجْمُ: مِنَ النبات مَا لَا سَاقَ لَهُ. **والشَّجَرُ**: من النَّبَاتِ مَا قَامَ عَلَى سَاقٍ صُلْبَةٍ.

وفِي آيَةٍ جَامِعَةٍ يقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾﴾.

فمَنْ فِي السَّمَاواتِ يَسْجدونَ لله سُجوداً جبْرِيّاً وسُجوداً اخْتِيارِيّاً، ومَنْ فِي الأرْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَذٰلِكَ، والشَّمْسُ والْقَمَر والنُّجُوم والْجِبَال والشَّجَرُ والدَّوَابُّ تَسْجُدُ لِلَّهِ سُجوداً جَبْرِيّاً بِمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْخُضُوعِ الْكَامِلِ لله عَزَّ وجَلَّ. وَمَنْ فِي الأَرْضِ مِنَ الإِنْسِ والْجِنِّ يَسْجُدُونَ جَمِيعاً لِلَّهِ سُجوداً جَبْرِيّاً فِي كُلِّ مَا يُرِيدُ مِنْهُمْ بالإِرادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ. ومِنْهُمْ مُؤْمِنُون يَسْجدون لِلَّه سُجوداً اخْتِيارِيّاً فِي عِبَادَاتِهِمْ له. وَمِنْهُمْ كَافِرُون لا

يَسْجُدُونَ سُجُوداً اخْتِيارِيّاً لِأَمْرِ اللَّهِ التَّكْلِيفِي، وهَؤُلَاءِ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِم الْعَذَابُ، ومَع هذا الْعَذاب لَهُمْ عقاباً عَلَىٰ استكْبَارِهِم عن السجود الاخْتِياريّ لِبَارِئهم، فإنَّ الله عَزَّ وجل يُهِينُهُم يَوْمَ الدِّين ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾.

هٰذا فِي السُّجُودِ العامِّ بِمَعْنَىٰ غَايَةِ الخُضُوعِ لأمْرِ الله التكويني، وأمْرِ اللَّهِ التَّكْلِيفيّ.

أمّا السُّجُودُ فِي عِبادَةِ الصَّلاةِ، فَلَهُ صِفَةٌ خاصَّةٌ مَعْرُوفَةٌ، تُوضَعُ فِيه الْجَبْهَةُ والكفّان والرُّكْبَتان ومُقَدَّمُ الْقَدَمَيْنِ عَلَى الْأَرْضِ. وَهٰذَا السُّجُودُ الجَسَدِيّ يَتَضَمَّنُ تَعْبِيراً مَادِّيّاً جِسْمِيّاً عَنْ غَايَةِ الْخُضُوعِ الْإِرَادِيِّ لِلَّهِ عَزَّ وجلّ في عبادته.

وقِياماً: قِياماً: جَمْعُ «قائم» وَيُجْمَعُ أَيْضاً عَلَىٰ قُوَّم، وقُيَّمٍ وقُوَّام، وقُيَّام.

وفي تَقْدِيم ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ على ﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ حَصْرُ وقَصْرٌ، أي: يَسْجُدُونَ ويَقُومُونَ لِلَّهِ وَحْدَه.

والمعنىٰ: أنَّ مِنْ صِفَاتِ عِبادِ الرَّحْمٰنِ أنّهم يَتفرَّغُون فِي لَيالِيهِم لعِبادَةِ رَبِّهم، يَتَهَجَّدُونَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ وَحْدَه، وكَثْرَةِ الْقِيامِ لِلَّهِ وَحْدَه، ذَاكِرِينَ اللَّهَ عزَّ وجلّ، بِألْسِنَتِهم، وقُلُوبِهِمْ، وأَفْكَارِهِم، يُمَجِّدُونَه، ويَحْمَدُونَه، ويُسَبِّحُونَ بِحَمْدِه، ويُقَدِّسُونَ له، ويَسْأَلُونَه خَوْفاً وطَمَعاً، يَخْشَوْنَ عَذَابَه، ويَرْجُونَ ثَوابَه.

إِنَّهُمْ عُبَّادٌ لِرَبِّهم وَحْدَه، لَا يُشْرِكُونَ بِعِبادَتِه أَحَداً، وهُمْ فِي غَايَةِ الْخُضُوعِ له بصِدْقٍ وإخْلاصٍ، إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِم اللَّيْلُ انْتَهَزُوا فُرْصَتَه لِلْخَلْوَةِ بِرَبِّهم، فَبَاتُوا سُجَّداً لَهُ وقياماً له وحْدَه، ولَمْ يَبِيتُوا لِأَهْوَائِهم وشَهَوَاتِهِم.

إِنَّهُمْ يَجْعَلُون لَيْلَهُم لِرَبِّهم، أيْ: لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، حَالَةَ كَوْنِهم سُجَّداً

وَقِياماً، أَوْ هُمْ يَبِيتُونَ سُجَّداً وَقِياماً لِرَبِّهِم، وعلَىٰ هٰذَا الْفَهْم فَقَدْ قُدِّم الْمَعْمُولُ عَلَىٰ الْعَامِلِ لِلْحَصْر، والْمَعْنَىٰ أَنَّهُم لا يَسجُدُونَ وَلَا يَقُومُون لِغَيْرِه، لأَنَّهُمْ مُوَحِّدُونَ لَا يُشْرِكُون بِعِبَادَةِ رَبِّهم أحداً.

ومعْلَومٌ أَنَّ صَلاةَ الْعَابِد خَالِياً بِرَبِّه فِي جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَبُ إِلَىٰ الصِّدْقِ والإِخْلَاصِ لله، والبُعْدِ عَنِ الرِّياءِ والسُّمْعَة.

إنّ سَاعَاتِ خَلْوَة «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، مَشْغُولَةٌ بِالتَّوَجُّهِ لِله، يَعْبُدُونَه، لَا يُشْرِكُون بعبادَتِه أَحَداً، لأَنَّهُم يَعْلَمُون مَا فِي الْعِبَادَةِ لله عَزَّ وجَلّ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيلِ، بَعِيداً عَنْ كُلِّ رِيَاءٍ ورَغْبَةٍ فِي سُمْعَةٍ أَوْ مَغَانِم، مِنْ سَعَادَةٍ لِقُلُوبِهِمْ، وطُمَأْنِينَةٍ لنفُوسِهم، وَتَنْوِيرٍ لبَصَائِرِهِمْ، وشَحْنٍ لِقُواهُم الْمَعْنَوِيَّةِ، بِطَاقَاتٍ رُوحِيَّةٍ عَظِيمَةٍ، لَا يَظْفُرون بِها إِلَّا بِالْعِبَادَةِ الْمُخْلِصَةِ لله عَزَّ وَجلّ، وَبِالصِّلَةِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ لَهُمْ حِينَما يَقِفُونَ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ، ويُوَجِّهُونَ وُجُوهَهُمْ لَهُ، يُصَلُّونَ قَائِمين وَرَاكِعِينَ وسَاجِدِينَ، يَذْكُرُونَه، ويُنَاجُونَه، ويَتْلُونَ آيَاتِه آنَاءَ اللَّيْلِ.

إنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» يَعْلَمُونَ ذَلِكَ بِإِرْشَادِ كِتَابِ اللَّهِ، وإِرْشَادِ سُنَّةِ رَسُولِه، وبالْمُمَارَسَةِ الَّتِي يَذُوقُونَ بِهَا حَلَاوَةَ الإِيمَان، وحَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ، وحَلَاوَةَ الصِّلَةِ باللَّهِ، وحَلَاوَةَ الأُنْسِ به، وحَلَاوَةَ انْفِتَاحِ الْبَصِيرَةِ لإِدْرَاكِ مَعَارِفَ لَا يَنَالُهَا إِلَّا مَنْ نَوَّرَ اللَّهُ بَصَائِرَهم، وفَتَحَ مَغَالِيقَ قُلُوبِهِمْ وأفكَارِهم، وأَمَدَّهُمْ بِعَطَاءٍ مِنْ عِنْدِه، وأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ بالْقُرْبِ والْمَحَبَّةِ.

إنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» الَّذِين تَشَرَّفُوا بِوِسَام الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ مُسْتَظِلِّينَ بِظِلِّ رَحْمَةِ اللَّهِ عزَّ وجلّ، وبِظِلّ اسم اللَّهِ «الرَّحْمٰنِ» يَبِيتُونَ فِي لَيَالِيهِمْ مَا تَجَدَّدَتْ، لِرَبِّهم وَحْدَه، سُجَّداً وَقِياماً، فَهٰذَ الْوَصْفُ مُلازِمٌ لَهُمْ غَالِباً كُلَّما بَاتُوا، ودَخَلَ عَلَيْهِمْ اللَّيْلُ، وخَلَوْا بِأَنْفُسِهِم لِرَبِّهِم. (دلَّ عَلَىٰ هَذا فِعْلُ «يَبِيتُونَ» لِأَنَّهُ فعْلٌ مُضَارِع يَدُلُّ عَلَىٰ التجدُّدِ والتَّكْرَارِ).

ويتحقّقُ فِي «عبادِ الرحمٰنِ» هٰذا الوصْفُ بأَنْ يَقُومُوا مُتَهَجِّدينَ بَعْضَ اللَّيْلِ، ولا يُشْتَرَطُ أنْ يَقُومُوا اللّيلَ كُلَّه، فالرَّسُولُ الأعْظَمُ وهو سيِّدُ عِبادِ الرحمٰنِ وإمَامُهُم الأعْظَمُ، لَمْ يَكَلِّفْه اللَّهُ أنْ يَقُومَ كُلَّ اللَّيْلِ، فقد أنْزَلَ عَلَيْه فِي أَوائِلِ مَا أَنْزَلَ مِنْ قُرآنٍ قولَه عزَّ وجلّ في سورة (المزّمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

فناشِئَةُ اللّيلِ ـ وَهِيَ سَاعَاتُه وَآنَاؤُه ـ هِيَ أَثْبَتُ لِلْقِيام بِطَاعَةِ اللَّهِ وَعِبادَتِه، وَهِيَ أَبْعَدُ عَنِ الْقَلَقِ والتّذَبْذُبِ فِي اتّجاهِ الرِّيَاءِ والسُّمْعَةِ وأَهْوَاءِ النَّفْسِ، وطلَبِ الدُّنيا مِنَ النَّاسِ بِمَظَاهِر الْعِبَادَةِ، وَهِيَ أَقْوَمُ قِيلاً، أي: أَصَحُّ قَوْلاً وَمُنَاجَاة لِلَّهِ عزَّ وجلّ، بِسَبَبِ صَفَاءِ الذِّهنِ، وسُكُونِ النَّفسِ، وهُدُوءِ الجَوِّ مِنَ الأصْوَاتِ، فَهِيَ أَكْثَرُ تَحْقِيقاً لِلْخَلْوَةِ بِالله، ومُنَاجَاتِه بالذِّكْرِ والدُّعَاءِ وتِلَاوَةِ الْقُرْآن.

وَمِنَ المجرَّبِ أَنَّ الفِكْرَ الصَّافِي، والْجوَّ السَّاكِنَ، والنَّفْسَ الهَادِئَة الْمُطْمَئِنَّةَ، شُرُوطٌ تُهَيِّئُ أَفْضَلَ الأوقاتِ لأنْ يَقُولَ الإِنْسَانُ قَوْلاً قَويماً، فَإذا كَانَ فِي مَجالِ البَحْثِ الْعِلْمِيّ قَالَ أَقْوَمَ الكَلِم المُتَضمِّنِ لِلْعِلْم الصَّحِيحِ أَوْ الأَقْرَبَ إِلَىٰ الصِّحَّةِ، وإِذَا كَانَ فِي مَجالِ الدُّعَاءِ دَعَا بأَقْوَمِ الْقَوْلِ المُتَضمِّنِ أكْرَمَ المطَالِب وأحْسَنَها، وطلَبَ سَعَادَتَي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وإذا كَانَ فِي مَجَالِ الذِّكْرِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بأَقْوَمِ الْقَوْلِ المتضمِّنِ تَوْحِيدَ اللَّهِ والتّسبيحَ بحَمْدِه، والثناءَ عَلَيْه بالمَحَامِدِ الْعَظِيمَةِ الّتِي تَلِيقُ بجَلَالِه، وإذا كانَ فِي مَجَالِ مُنَاجَاةِ اللَّهِ نَاجَىٰ اللَّهَ بأَقْوَمِ الْقَوْلِ فِي الْمُنَاجَاةِ، فَتَلا آيَاتِ اللَّهِ بتَرْتيلٍ، وتدبُّر.

حتَّىٰ الكَاتِبُ والشَّاعِرُ يجِدُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ ولَا سِيمَا الثُّلُثُ الأخِيرُ منه أفْضَل الأوْقَاتِ لِتوارُدِ أَفْضَلِ الأَفْكَارِ وأَحْسَنِها، وأَفْضَل الْكَلِمِ وأَقْوَمِهِ.

و«عِبادُ الرَّحْمٰنِ» إذْ يَبيتُونَ لِرَبّهم سُجَّدًا وَقِياماً، يَتَذَوَّقُونَ مَعَانِيَ التَّوْحِيدِ الْكَامِلِ لِلَّهِ عَزَّ وجلّ، فَهُمْ يَسْجُدُونَ وَيَقُومُونَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لا شَرِيكَ لَهُ، بدَلَالَة تَقْدِيمِ **[لِرَبِّهِمْ]** على **[سُجَّداً وَقِياماً]** كما سبَقَ بيانه.

وقَدْ جَاء فِي الآية تَقْدِيمُ السُّجُودِ عَلَىٰ الْقِيَامِ مَعَ أنّ التَّرْتِيب فِي الصَّلاةِ مَبْنِيٌّ علىٰ تَقْدِيمِ الْقِيام عَلَىٰ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، لِأنّ الْعَبْدَ يَكُونُ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ مِنْ رَبِّهِ وهُو سَاجِد، ولِأنَّ عِبَادَ الرَّحْمٰنِ يُكْثِرُون مِنَ السُّجُودِ ويُطِيلُونَ فِيه، لِيَسْتَمْتِعُوا بِحَالَاتِ الْقُرْبِ مِن الله تَعَالَىٰ، ولِأنَّ السُّجُودَ تَعْبِيرٌ مادِّيٌّ جَسَدِيٌّ عَنْ كَمَالِ الخُضُوعِ والطَّاعَةِ لله تَعالَىٰ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ، وفِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ، وَمَا دَامَ سُجُودُهُمْ هٰذَا فِي لَيَالِيهِمْ وخَلَواتِهِمْ مَعَ بَارِئهم الرَّحْمٰنِ، فهو سُجُودٌ صَادِق التَّعْبِيرِ، صَادقُ الدَّلَالَةِ علىٰ مَعْنَىٰ خُضُوعِهِم القلْبِيّ والنَّفْسِي لله تَعالَىٰ.

ومنَ الْمَعْلُوم أنّ قِيامَ اللّيلِ علَىٰ الْوَجْهِ الّذِي سبَقَ بَيَانُه هُو مِنْ صِفَاتِ الأَبَرارِ والْمُحْسِنين، الّذِين ارْتَقُوا فَوْقَ سَقْفِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾.

من صِفات عِبادِ الرحمٰن أنّهم يَدْعُونَ رَبَّهُمْ آناءَ اللَّيْل والنّهارِ مَا تَعاقَبَتْ عَلَيْهِم الأَيَامُ بأَنْ يَصْرفَ عَنهم عَذَابَ جهَنَّمَ.

﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾: أي: ربَّنا رُدّ عنَّا عِقَابَ جَهَنَّم، وأَبْعِدْه وحَوِّلْهُ عَنّا. وهٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أنّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بخَطَايَا قَد ارْتَكَبُوها، فَهُمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَصْرِفَ فَيَرُدَّ عَنْهُمْ الْعِقَابَ الأُخْرَوِيَّ عَلَيْهَا فِي جَهَنَّمَ، وَيَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِم بِالْحِفْظِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي والآثَامِ، وبِذَلِكَ يَصْرِفُ عَنْهُمْ عَذَابَ جهَنّم.

﴿جَهَنَّمَ﴾: اسْمٌ عَلَمٌ عَلَىٰ دَارِ الْعَذَابِ الّتِي أَعْتَدَهَا اللّهُ عَزَّ وجَلَّ لِلْمُجْرِمِين، ولِلْعُصَاةِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ يَوْمَ الدِّينِ فِيها، إذَا لَمْ تَشْمَلْهُم رحْمَةُ اللّهِ بالْعَفْو أو الْغُفْرانِ.

ولفظ: «جَهنّم» يُطْلَقُ عَلَىٰ القَعْرِ الْبَعِيدِ، يقالُ لغَةً: بئْرٌ جَهَنّم، وَجِهِنّام، أي: بَعِيدَةُ القَعْر. وهُوَ مَمْنُوع من الصَّرْف، قيلَ: لِلْعَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيثِ، وقِيلَ: لِلْعَلَمِيَّة والعُجْمَة، والأَوَّلُ فِيمَا أَرَىٰ أَرْجَحُ، لأنَّ اللَّفْظ مُسْتَعْمَلُ فِي العربيّةِ وَصْفاً بمَعْنَىٰ القَعْرِ الْبَعِيد، ولا دَاعِيَ لِأَنْ نَقُولَ: هُو تَعْرِيبٌ لِلَفْظِ «كِهِنَّام» فِي الْعِبْرَانِيَّة، فاللّغات تَشْتَرِكُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَلْفَاظ، ولا سيما ذَواتُ الأُصُولِ الواحِدة.

﴿غَرَامًا﴾: جَاءَ فِي التَّفْسِير أنّه الْعَذَابُ المُلَازم، وأنّه الْعَذَابُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ التَّخَلُّصُ مِنْه. وجَاءَ أَنَّه الْهَلَاك، ويُبْعِدُ هذَا الأَخِيرَ أنّ الهَلَاكَ الْمَوْتُ والفَنَاء، وعَذَابُ جَهَنَّمَ يَومَ الدِّين لا مَوْتَ فِيه ولا فَناء يرافِقُه.

وأَحْسَنُ مَا أرَى فِي تَفْسِيرِ «غراماً» مَا قَالَهُ الزَّجاج: الْغَرَامُ أَشَدُّ الْعَذَابِ فِي اللّغة، وهٰذا يَنْطَبِقُ تَماماً عَلَىٰ عَذَابِ جَهَنَّم سَواءٌ أكان عذاباً ملازماً أبداً، أمْ كَانَ عَذَاباً مؤقتاً وهو الّذِي يَكُونُ لِعُصَاةِ المؤمنين.

﴿سَآءَتْ﴾: فِعْلٌ من أفْعَالِ الذَّمِّ، مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْجُّبِ، أيْ: مَا أَسْوأَ جَهَنَّم مُسْتَقراً ومُقَاماً.

﴿مُسْتَقَرًّا﴾: أي: مَكانَ اسْتِقْرارٍ دَائِمٍ، والاسْتِقْرار هُوَ الْبَقَاءُ الدَّائِمُ

فِي الْقَرَارِ (وهو المكانُ الْمُنْخَفِض) أو هُو الْبَقَاءُ الطَّويلُ الأَمَدِ، لأنّ الشيْءَ متىٰ لَصِقَ فِي مَكَانِه وثَبَتَ أُطْلِقَ عَلَيْه فِي اللّغة أنَّهُ مُسْتَقِرٌّ فِيه، وتَقُولُ العربُ لِمَا يَلْصَقُ مِنَ الطَّبْخِ بِأَسْفَلِ القِدْر قَرَارَةٌ وقِرَارَة وقُرُورَة، لأنّها تَلْصَقُ وتَسْتَقِرُّ ولَا تَخرُجُ إلّا اقْتِلاعاً.

﴿وَمُقَامًا﴾: أي: ومَكَانَ إِقَامَةٍ، والْإِقَامَةُ هي بَقاءٌ نِسْبِيٌّ لا يُشْتَرَطُ فِيهِ الدَّوَامُ الطّويلِ.

ومنْهُ مَقَالَةُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُنَافِقين فِي غَزْوَةِ «الْخَنْدَقِ»: يَا أَهْل يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فارْجِعُوا، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ . . . ﴿١٣﴾﴾.

ومعلومٌ أنَّ الإقامةَ فِي الْغَزْوَة إقامةٌ مَحْدُودَةٌ بحُدُودِ مَعَارِكِها السَّالِمَةِ أَوِ الظَّافِرَة، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَكُونُ العَوْدَة، بِخِلَافِ الاسْتِقْرَارِ فِي الْمَكَان.

فَمِنْ صِفاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهُم يَشْعُرون دَواماً بِتَقْصِيرَاتِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ، وأَنَّهُمْ يستَحِقُّونَ بِسَبَبِ مَعَاصِيهِمْ ومُخَالَفَاتِهم وتَقْصِيراتِهم الّتِي قَدْ تَقَعُ مِنْهُمْ، أَنْ يُعَذَّبوا بعَذابِ جهَنَّمَ، ولَوْ كَانَ عَذَابَ مُقِيم إِقَامَةً قَلِيلَةً، لَا عَذَابَ مُسْتَقِرٍّ خَالِدٍ فيها، وهُمْ يتخوَّفُونَ مِنْ أنّ تَنقلبَ أحْوَالُهُم مُسْتَقبلاً إلىٰ مِثلِ أَحْوالِ الْعُصاةِ، فَيَسْأَلُونَ رَبَّهُمُ الحِفْظَ والْعِصْمِة.

لذَلِكَ فَهُمْ يَسْأَلونَ اللَّهَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، وأَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ، وأَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ بِفَضْلِه وامْتِنَانِه عَذَابَ جهَنَّم، الَّذِي قَدْ يَسْتَحِقُّونَهُ بأَعْمَالِهِم، ويسألون ربّهم أيضاً أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيهِم بالحِفْظِ مِنَ الْمَعَاصِي والآثام مُسْتَقْبَلًا.

وبهٰذا يَظْهَرُ لَنا أنَّ الْوُقُوعَ فِي الْمَعَاصِي أحياناً لَا يَتَنَافَىٰ مَعَ كَوْنِ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِم مِنْ فَرِيقِ «عباد الرَّحْمٰن» علَىٰ وَجْهِ الْعُمُومِ، لأَنَّهُمْ بشَرٌ،

وهُمْ لَيْسُوا بِمَعْصُومِين، وهٰذا المَعْنَىٰ يُؤَيِّدُهُ قول الله عزَّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ولَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالْحِفْظِ والتَّوْفِيق، ورَحْمَتُه إيَّاكُمْ بالْغُفْرَانِ والْعَفو، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ أَبَداً، بَلْ لَكَانَ كلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مُدَنَّساً بِأرْجاسِ المعَاصِي والآثام.

فهٰذا التَّعْمِيمُ يَشْمَلُ المتَّقين والأبْرارَ والْمُحْسِنينَ، ومنَ الأبْرَار والْمُحْسِنِينَ عِبادُ الرَّحْمٰن مَهْمَا اسْتَقَامُوا، لِذَلِكَ فَهُمْ بحَاجَةٍ دَائِمَةٍ إلَىٰ الاسْتِغْفَارِ، وسُؤَالِ الله أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ، بالْحِفْظِ مَنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي، وهُوَ فَضْلٌ مِنَ الله، أو الْغُفْرانِ والْعَفْوِ بَعْدَ الْوقُوعِ فِي الْمَعَاصِي، وَتِلْكَ رَحْمَةٌ مِنَ الله.

وفي مقالة «عباد الرحمٰن» فِي دُعَائِهم إنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً، إشارةٌ إلى مَواطِنِ تَخَوُّفِهِمْ، فَهُمْ يَخَافُونَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ مُسْتقراً بِالشِّرْكِ أو مَا هُوَ شَرٌّ مِنْه، ويَخَافُون أَنْ تكُون لَهُمْ مُقَاماً، بِالْمَعَاصِي الَّتِي لَا تَكُونُ مَشْمُولَةً بِعَفْوِ الله، أَوْ غُفْرانِه.

وفي ذِكْرِ هٰذهِ الْمَقَالَةِ ضِمْنَ دُعَائِهم معْنَىٰ الاسْتِعْطَافِ، واسْتِدْرَارِ رَحْمَةِ الله، مَعَ التَّعْبِير عَنْ إيمَانِهم بهٰذِه الْقَضِيَّةِ مِنْ قَضَايَا يَوْمِ الدِّين.

ومنْ هٰذَا الْبَيان يَتَّضِحُ لَنا أَنَّ الاسْتِقْرَارَ فِي جَهَنَّمَ يَكُونُ لأَهْلِ الكُفْرِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ مَنَازِلِهِمْ ودرَكَاتِهِمْ، ولِأَهْلِ النِّفَاقِ الَّذِينَ هُمْ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَل مِنَ النَّارِ، وأَنَّ الإِقَامَةَ فِي جَهَنَم تَكُونُ لِلْعُصَاة والَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ، عَلَىٰ أنّ جَهَنَّمَ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا قَدْ سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً، وسَاءَتْ مُقَاماً.

و«عِبَادُ الرّحمٰنِ» يَسْأَلُونَ الله عزَّ وجلّ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ عَذَابَ جهنَّمَ كُلَّه، سَوَاءٌ أَكَانَ عَذَابَ أَهْلِ الاسْتِقرارِ فِيها، أَمْ عَذَابَ أَهْلِ الْإِقَامَة.

وهٰذَا الدُّعَاءُ يَتَضَمَّنُ عَنْ طَرِيقِ اللُّزُومِ الذِّهْنِيِّ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ عَزَّ وجلّ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ بِمَعُونَتِه وتَوْفِيقِه مَا يَستَحقُّون بِهِ أَنْ يَعذِّبَهُم فِي جَهَنَّم، فَهُو دَعاءٌ بِصَرْفِ الأَسْبَابِ الَّتِي تَقْتَضِي تَعْذِيبَهُم، ويكُونُ هٰذا الصَّرْفُ بتَوْفِيقِهِمْ للإِيمَان الصَّادِق الصَّحِيح، والْعَمَلِ الصَّالِح، فَبالْإِيمَانِ يَحْمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الكُفْرِ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ عَنْهُمْ الاسْتِقْرَار فِي جَهَنم، وبالْعَمَلِ الصَّالِح يَحْمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْفُسُوقِ والْعِصْيَانِ، فَيَصْرِفُ الله عَنْهُمُ الْإِقَامَة فِي جهَنّمَ، ولَوْ كَانَتْ إِقَامَةً قَلِيلَةً ويَسِيرَةً.

وما دَامَ كلُّ ذلك لا يتِمُّ إلّا بتَوْفِيقِ الله ومَعْونَتِه، بَعْدَ صِحَّةِ إرادَةِ الْعَبْدِ، وصِدْقِ عَزِيمَتِه، فإنَّ «عِبَادَ الرَّحْمٰن» يُعْلِنُون عَنْ صِحَّةِ إرادَاتِهم، وصِدْقِ عزائِمِهِمْ، فَيَدْعُونَ الله مَعَ عِبادَاتِهم لِربّهم آنا بَعْدَ آنٍ، أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ عَذَابَ جهَنّم كلَّه دائِمَهُ ومؤقَّتَهُ.

ويتَضَمَّنُ دُعَاؤهُمْ هٰذا أَيْضاً معَنَىٰ تَوْفِيقِهِمْ للتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ والإِنَابَةِ إِلَىٰ الله، كُلَّما بَدرتْ مِنْهُمْ بَادِرَةُ مَعْصِيَةٍ، أَوْ وَقَعَتْ مِنْهُمْ خَطِيئَةٌ، حتَّى يُكفِّرَ اللَّهُ عَنهُم ذُنُوبَهُمْ وخَطَايَاهُمْ، ويَعْفُو عَنْهُم بفَضْلِه، فَيَأْتُون بَارِئَهُمْ بِصَحَائِفَ لَيْسَ فِيها مَا يَقْتَضِي تَعْذِيبَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّم.

ومَعْلُومٌ أَنّ الَّذِينَ يَحرِصُونَ عَلَىٰ أَنْ يَصْرِفَ اللَّهُ عَنْهُم كُلَّ عَذَابِ جهَنّم، لَا بُدَّ أَنْ يَجْتَهِدوا حَتَّىٰ يَسْتَوفُوا حُقُوقَ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، بِكُلِّ دَرَجَاتِها، لِأَنَّهُم لَا يرْتَقُونَ إِلَىٰ مَا فَوْقَهَا حتَّى يَسْتَوْفُوا حُقُوقَها، فَاسْتِيفَاءُ حُقُوقِ الْمَرْتَبَةِ الدُّنْيا شَرْطٌ للارْتِقَاءِ إِلَىٰ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي فَوْقَهَا.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أَنفَقُوا۟﴾: أي: بَذَلُوا مِنْ أموالِهم فيمَا أذِن الله بِبَذْلِ المالِ فيه مِنْ وُجوه، وهٰذا شَأن عَامَّةِ الْمُتَّقِين، وسُمِّي بَذْلُ المَالِ إنفْاقاً لأَنَّهُ يُؤَدّي إلَىٰ نَفَادِهِ وفَنَائِه، فالإِنْفَاقُ فِي اللُّغة الْفَقْرُ والإِمْلاقُ بِنَفَادِ المَالِ، ويقالُ: نَفَقَ الشيءُ يَنْفُقُ نَفْقاً إِذَا نَفِد، وكذلِكَ نَفَق الزّادُ، ولكنّ المال الذي يُنْفقه المنْفِقُ في سبيل الله وطاعته فإنّ الله يُخْلِفُه.

﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾: أيْ لَمْ يَتَجَاوَزوا حدَّ الحِكْمَةِ فِي الإِنْفَاق، يُقَالُ لُغَةً: أَسْرَف فِي المال، أوْ فِي الكلام، أو فِي الْقَتْل، أو نَحْوِ ذٰلِك، إذَا تَجَاوَزَ حدَّ الحَقِّ، أو الْحِكْمَةِ أو ما يَقْتَضِيه الْعَقْلُ الرَّاجِحُ.

﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [وَلَمْ يَقْتِرُوا] [وَلَمْ يُقْتِرُوا]: في القراءات الثلاث، أي: لم يُضَيِّقُوا النفقة على أنفسهم، وعلى من تجب عليهم نَفَقَتُهم، ولم يجعلوها أقلّ من المطلوب منهم أو أقلّ من الحاجة.

يقال لغة: قَتَرَ الرَّجُلُ عَلَىٰ عِيَاله يَقْتُر ويَقْتِرُ قَتْراً، وأَقْتَرَ عليهم وقَتَّر عليهم، إذا بَخِل وضَيَّقَ عليهم في النَّفَقَة.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾: أي: وكَان بَيْنَ الإِسْرَافِ والتَّقْتِيرِ وسَطاً مُعْتَدِلاً مُسْتَقِيماً غَيْرَ مَائِلٍ ولاَ مُعْوَجّ.

الْقَوَامُ في اللّغة: العدل، ويُقالُ: رُمْحٌ قَوَام، إذَا كَان مُسْتَقِيماً مُعْتَدِلاً.

فدَلّ هٰذَا عَلَى أنّ كُلًّا مِنَ الْإِسْرَافِ والتَّقْتِير انْحِرَافٌ واعْوِجَاجٌ عَمَّا تَقْتَضِيه الحِكْمَةُ مِنَ الاسْتِقَامَةِ والْعَدْل.

فَمِنْ صِفَات «عبادِ الرَّحْمٰن» أنَّهُم عُقَلاءُ حُكَماءُ فِي الإِنْفَاق مِنْ أمْوَالِهم، لا يَتَأَثّرُون بدَوَافِع الْبَذْلِ مِنْ أهواءِ وشَهَواتٍ وعَواطِفَ فَيُسْرِفُونَ،

ولَا يَتَأَثَّرُون بِدَاوَافِعِ الإِمْسَاكِ مِنْ بُخْلٍ وشُحٍّ وخَوْفٍ مِن الْفَقْرِ فَيُقَتِّرُون، وهٰذا سُلُوكٌ فِي حَياةِ بَعْضِ النَّاس، يدُلّ عَلَىٰ تَعادُلٍ فِي شَخْصِيَّاتِهِم يُرَشِّحُهُمْ لأَنْ يَرْتَقُوا فِي الدَّرجات، حَتَّىٰ يَكُونُوا مِن عبادِ الرحمٰنِ حَقًّا نَظِير سُلُوكِ الّذِينَ يَمْشُونَ علىٰ الأَرْضِ هَوْناً وَإذَا خَاطِبَهُمُ الْجَاهِلُون قالوا: سَلاماً.

وكِلَا السُّلُوكَيْن هُمَا مِنْ دَرَجاتِ مَرْتَبَتي الأَبْرَارِ والْمُحْسِنين، لِأَنَّ الْإِسْرَافَ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ لا يُخِلُّ بِحُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، والتَّقْتِيرَ مِنْ غَيْرِ مَنْعٍ للْحَقِّ والْوَاجِب، لا يُخِلّ أيضاً بحُقُوقِها، فالْقَوَامُ فِي الإِنْفَاقِ هُوَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ مَرْتَبَتِي الأَبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ، الْجَامِعَتَيْنِ لفَرِيقِ عِبادِ الرّحْمٰن.

ومَنْ لَمْ يَكُنْ في أَصْلِ خُلُقِه هٰذانِ السُّلُوكَانِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهِما إذَا أَرَادَ أَنْ يَكُونَ من «عِبادِ الرحْمٰن» حقاً.

و«عِبَاد الرّحْمٰن» حِينَما يَكُونُ إنْفَاقُهُمْ لِأَموالِهِمْ وَسَطاً مُعْتَدِلاً قَوَاماً لَا إسْرَافَ فِيه ولَا تَضْيِيقَ، فإنّهم يَتَحَلَّوْنَ بهٰذِه الصِّفَةِ الْتِزَاماً بِمَنْهَجِ الإِسْلَامِ فِي إنْفَاقِ الأَمْوال، فإذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ببَذْلِ أمْوالِهم في الْمَعَاصِي والتَّرَفِ والرَّفَاهِيَةِ الزَّائِدَة، زُهْداً بمَتَاعِ الحَياة الدُّنيا، واسْتِخْداماً لِلْمال فِيما خُلِقَ مِنْ أَجْلِه، ولم يَقْتُروا عَلَىٰ أَنْفُسِهم وأَهْلِيهِمْ، بَلْ مَنْهَجُهُم مَنْهَجٌ وَسَط لَا إسْرَافَ فِيهِ ولَا تَقْتِير.

ومع تَحلِّيهِمْ بهٰذه الصِّفَة فإنّهم يُدْرِكُونَ قِيمَةَ الْمَالِ فِي الإِسْلَام، وأَنَّه قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ قِياماً لِلنَّاسِ، فِيه قِيَامُ مَعَاشِهم.

لقد أَوْصَىٰ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ الإِنْسَانَ الْمُؤْمِن الْمُسْلِمَ بقوله في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ

ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

فَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ يَعْمَلُون بِهٰذِهِ الوَصِيَّة الرَّبَّانِيَّة، فَلَا يَكُونُونَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْمُبَذِّرِين إذا أَنْفَقُوا، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أنّ الْمُبَذِّرِينَ إِخْوَانُ الشَّيَاطِين، وذَلِكَ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ تَأْمُر بالْفَحْشَاءِ والْمُنْكَر، وهٰذِه تَسْتَدْعِي بَذْلاً بإِسْرَافٍ فِي الْمَعَاصِي، وَمَنْ سَارَ فِي هٰذِه الطَّرِيقِ الْمُنْحَدِرة إِلَىٰ الْمَهَالِك، لَمْ يَجِدْ مَعَهُ إلّا رُفَقَاءَ السُّوءِ، وشَيَاطِينُ الإِنْسِ والْجِنِّ تَسْتَهْوِيه وَتَسْتَدْرِجُه، حَتّى تَقْذِفَ بِهِ فِي حَمْأَةِ الْإِثْمِ والْمَرَضِ والْمَذَلّة، ثُمَّ فِي أَودِيَةِ سَخَطِ اللَّهِ، ثُمّ إِلَىٰ جَهَنَّم وبِئْسَ الْمَصِير.

أمّا الإِنْفَاقُ فِي الْخَيْرِ وفِي طَاعَاتِ اللَّهِ، فَلَا يَكُونُ مِنَ الْإِسْرَافِ والتَّبْذِيرِ بَالِغاً ما بَلَغ، بشَرْطِ أَنْ تُؤدَّىٰ من الْأَمْوَال الْحُقُوقُ والْوَاجِبَاتُ أوّلاً، وأن لَا يكون فيه تعْريض أسْرَة المنفق إِلَىٰ الفقر والحاجة من بَعْدِه.

والقرآنُ يُعَلّمُ المؤمِنِينَ قاعِدَةَ الاقتِصَادِ الكُبْرَىٰ فِي الإِنْفَاقِ، وهِيَ التَّوسُّط والاعْتِدَالُ بَيْنَ الْقَبْضِ الشَّدِيدِ والْبَسْطِ الشَّدِيدِ، فَمَنْ أسْرَف فِي الْقَبْض، أو أسْرَفَ فِي الإنفاقِ والْبَسْطِ، قَعَدَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ حَزِيناً، شَدِيدَ النَّدَم، مَلُوماً عَلَىٰ بُخْلِه بالْوَاجِبِ إذَا بَخِلَ، وَمُلوماً علَىٰ إسْرَافِه وتَبْذِيرِه إذَا أَسْرَفَ، مِنَ الْخَالِق، ومِنْ المخْلُوقِين، ومِنْ نَفْسِه، ومَحْسُوراً لِمَا فَرَّط فِي جَنْبِ الله، بِإِمْسَاكِه مَا أَوْجبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إنْفَاقَه، ولِمَا فَرَّط أيضاً بإسْرَافِه وتَبْذِيره بالإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ الله ومَرَاضِيه، وَفِي تَضْيِيعِه مَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ مَالٍ فِيمَا لَا فَائِدَةَ مِنْه، ولَا نَفْعَ فِيه.

الْمَحْسُورُ: هُوَ الكالُّ الّذِي أَصَابَهُ الْعَجْزُ فأَقْعَدَهُ عَنْ مَتابَعَةِ السَّيْر، وكَذٰلِكَ مَنْ جَنَىٰ عَلَىٰ نَفْسِه بسُوءِ تَصَرُّفِه حتَّىٰ قَعَد عَاجِزاً ضَعِيفاً، وبَاتَ حَزِيناً كَئِيباً نَادِماً عَلَىٰ مَا فَاتَه، يَلُومُ نَفْسَه علَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ، ويَحْمِلُ هٰذا

الوَصْفُ أيْضاً معْنَىٰ انْحِسَارِ الثَّوابِ والأجْرِ عَنْه، وانْحِسَارِ مَالِه عَنْه فِي حالَةِ التَّبْذيرِ، وانْحِسَارِ النَّاسِ عَنْهُ فِي حَالَةِ الْبُخْل.

وقد أبانَ الرَّسُول ﷺ فَائِدَةَ الالْتِزَام بقَاعِدِة الاقْتِصَاد الكُبْرَىٰ فِي الإنْفَاق، وهِيَ قَاعِدَةُ الاعْتِدالَ والتَّوسُّطِ بَيْنَ الْقَبْضِ والْبَسْطِ، فَقَدْ رَوَىٰ الإمَامُ أحْمَد عن عَبْدِ الله بن مَسْعُود قال: قال رسول الله ﷺ.

«مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ».

أي: مَا افْتَقَرَ ومَا مَسَّتْهُ الْحَاجَةُ مَنِ اقْتصَدَ فِي مَعِيشَتِه. والْقَصْدُ والاقْتِصَادُ هو الاعْتِدَالُ مِنْ غَيْرِ إفْرَاطٍ ولَا تَفْرِيطٍ.

وهٰذا الاعْتِدَالُ الّذي أرْشَد إلَيْهِ الإسْلَامُ فِي الإنْفَاقِ قَدْ أكَّدَتْهُ نُصوصُ النَّهْي عَنِ الْبُخْلِ والشُّحّ، ونَصُوصُ الأَمْرِ بالإنْفَاقِ فِي الْخَيْرِ، وفِي سَبِيلِ اللَّهِ، ونُصُوصُ الأمْرِ بإيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ واليتامَىٰ والْمَسَاكِينِ وأبْنَاءِ السَّبِيلِ والْفُقَراءِ وغَيرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْخَيْر.

وأكَّدَتْهُ أيْضاً نُصوصُ النَّهْيِ عَنِ الإسْرَافِ والتَّبْذِيرِ.

فإذا كان البُخْلُ والشُّحُّ يَقَعَانِ فِي أقْصَىٰ طَرَفِ الشِّمَالِ، وكَانَ الإسْرَافُ والتَّبْذِيرُ يَقَعَانِ فِي أقْصَىٰ طَرَفِ الْيَمِينِ، فإنَّ الاعْتَدَالَ الَّذِي حَدَّدَه الإسْلَامُ مَنْهجاً لِلإنْفَاقِ يَقَعُ فِي قِمَّةٍ مُتَوَسِّطَةٍ بَيْنَهُمَا، وهٰذَا الْمَنْهَجُ الْمُتَوَسِّطُ هُو مَا تَقْتَضِيه الحِكْمَةُ، ومَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً.

ولَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يُمثِّلُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ قِمَّةَ دُعَاةِ الشَّرِّ والسُّوءِ والْفِتْنَةِ، ومُجَافَاةِ سَبِيلِ الحِكْمَةِ، وكَانَ الرَّحْمٰنُ مَصْدَر كُلِّ دَعْوَةٍ إلَىٰ الْخَيرِ والْفَضِيلَةِ والأَخْذِ بالْحِكْمَةِ النَّافِعَة، قال الله عزَّ وجلّ في سورة البقرة: (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بعد أنْ حَثَّ عَلَىٰ الإنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وأبَانَ وَاجِبَاتِه وآدَابَه:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٦٩)﴾.

أي: إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْهَاكُمْ عَنِ الإنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، إذْ يخوِّفكُمْ مِنَ الفقْر إذَا اتّجهتُمْ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ، ويَأْمُرُكُم بالْفَحْشَاءِ مَهْمَا كَانَتْ سُبُلُ الْفَحْشَاءِ تَقْتَضِي مِنْ سَالِكِيهَا إسْرافاً وتَبْذِيراً.

فَفِي وُجُوهِ الْخَيْرِ يُبَخِّلُكُمْ، وفِي وُجُوهِ الشَّرّ يَحُضُّكُمْ عَلَىٰ الْبَذْلِ والْإِنْفَاقِ بإسْرَافٍ وتَبْذِيرٍ.

أمّا الله عزَّ وَجلّ الرَّحِيمُ الرَّحْمٰنُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ فَهُو إنْ وَقَعْتُمْ فِي الْإِثْم بغَلَبَةِ الْهَوىٰ والشَّهْوة دَعَاكُمْ إلَىٰ التَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ، وهُو يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ، وإنْ بَذلْتُم فِي سَبِيل اللَّهِ عَوَّضَكُمْ خيْراً وأَخْلَفَ لَكُمْ، وهُو يَعِدُكُم فَضْلاً مِنه. واللَّهُ عزَّ وجلّ يُرشِدُكُمْ دَائِماً إلَىٰ الْحِكْمَةِ فِي الأمْرِ، وذٰلِكَ بأنْ تُنفِقُوا كُلَّما كَانَ الإنْفَاقُ يَجْلُبُ لَكُم ثَمرَاتٍ طَيِّباتٍ، وبِأَنْ تُمْسِكُوا عَنِ الإنْفَاقِ كُلَّمَا كَانَ الإنْفَاقُ إسْرَافاً وتَبْذِيراً، وجَالِباً لَكُمْ شَرّاً وإثْماً.

و«عِبَادُ الرَّحْمٰنِ» يُدْرِكُونَ هٰذِهِ الْحقَائِقَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا الْبَيَانَاتُ والْوَصَايَا الرَّبَّانِيَّةُ، والْبَيَانَاتُ والوصَايَا النَّبويَّة، فَيلْتزِمُونَ فِي تَصرُّفَاتِهم فِي الأَمْوَالِ مَنْهجَ الحِكْمَة، وهُوَ الْمَنْهَج الرّبّانِيُّ الْمَتوسِّطُ الْمُعْتَدِلُ بَيْنَ الْقَبْضِ والْبَسْطِ، لذٰلِكَ فهُمْ إذَا أنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يقْتِرُوا وكَان بَيْنَ ذٰلِكَ قَواماً.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ

ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

(١) ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾:

أي: لَا يَسألُونَ لِمَطَالِب دُنْياهُمْ وأُخْرَاهُم مَعَ سُؤالِهِم اللّٰهَ عَزَّ وجلّ إِلٰهاً آخَرَ يَجْعَلُونَه شَرِيكاً لله.

فالدُّعَاء والدَّعْوَىٰ والدَّعْوَةُ والدَّعْوُ: السُّؤَالُ والطَّلَبُ لأيِّ أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ، وقَدْ يَكُونُ مَصْحُوباً بِالنِّدَاء وَرفْعِ الصَّوْتِ.

يُقالُ لغةً: دَعَا اللّٰهَ يَدْعُوهُ دَعْواً ودَعْوَةً ودُعاءً ودَعْوَىٰ، أي: سَأَلَهُ ورَغِبَ إِلَيْه، وطَلَبَ مِنْهُ.

ويقال: دَعَا فُلاناً، إِذَا اسْتَعَانَ بِهِ أَوِ اسْتَغَاث.

ويُقَالُ: دَعا بالشَّيء إذا طَلَبَ إِحْضَارَه. ودَعَا إِلَىٰ فِكْرَةٍ مَا، أَوْ مَذْهَبٍ ما أَوْ طريقة ما، إِذَا طَلَبَ الْتِزَامَ ذَلك.

فالْمَادَّة تَدُور حَوْلَ مَعْنَى الطَّلَبِ والسُّؤَالِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِه مِنَ الأدْنَىٰ إِلَىٰ الأَعْلَىٰ أَوْ بِالْعَكْسِ، أَوْ مِنَ الْمُسَاوِي، وفِي الدُّعَاء عُمُوماً مَعْنَىٰ تَكْرِيم الْمَدْعوِّ وسُؤَالِهِ بِرِفْقٍ، وقَدْ يَصِلُ إِلَىٰ مَسْتَوىٰ الاسْتِعْطَافِ فَالتَّذَلُّلِ والتَّضَرُّع.

ولـمَّا كَانَ دُعَاءُ الْعَبْدِ ربّه مِنْ أَجَلِّ عَنَاصِرِ عِبَادَتِه لَهُ، حَمَلَ هٰذا الدُّعَاءُ معْنَىٰ الْعِبادَةِ، فَقَدْ يُطْلَق الدُّعَاءَ ويُرَادُ بِهِ مُطْلَقُ العِبادَة، ويَدْخُل فِيها السُّؤَالُ والطَّلَبُ مِنَ الله، أو مِنْ آلِهَةِ الْمُشْرِكينَ إذَا كَانَ مُوَجَّهاً لَها.

و«عِبَادُ الرَّحْمٰنِ» مِنْ أَوْصَافِهِم أَنَّهُمْ لا يَعْبُدُونَ مَعَ الله إِلَهاً آخَر، بأيِّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الْعِبادَةِ، وفِي مُقَدِّمَتِها السُّؤَالُ والطَّلَبُ عَلَىٰ سَبِيل التَّضَرُّعِ

والتَّذَلُّلِ واعْتِقَادِ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ التَّصرُّفِ فِي الْغَيْبِيَّاتِ، فَلَا يَسْأَلُونَ لِمَطَالِب دُنْيَاهُمْ أَوْ آخِرَتِهم مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخر.

وهٰذا الْوَصْفُ هُوَ مِنْ حُقُوقِ مَرْتَبةِ الْمُتَّقِين، ولَكِنْ لمَّا كَانَتْ شُرُوطُ مَرْتبَةِ المُتَّقِينَ كُلُّهَا شُرُوطاً أَسَاسِيَّةً لِمَرْتَبَةِ الأَبْرارِ ولِمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين، وعِبَادُ الرَّحْمٰنِ هُمْ مِنْ الأَبْرَارِ أَوْ الْمُحْسِنينِ، كانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّنْبيهُ عَلَىٰ الكُلِّيَّاتِ الكُبْرىٰ المَطْلُوبَةِ لِمَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، ضِمْنَ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ ارْتَقَوْا فَوْقَ مَرْتَبَةِ المُتَّقِينَ لِيَكُونُوا أَئِمَّةً لَهُمْ، باعْتِبارِ أَنْ شُرُوط الْمَرْتَبَةِ الأَدْنَىٰ هِيَ شُرُوط طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَراتِبِ الَّتِي فَوْقَها.

وقَدْ يَزِيد «عِبادُ الرَّحْمٰنِ» مِنْ مُسْتَوىٰ حَذَرِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ، الَّذِي رُبَّمَا يَقَعُ بِهِ بَعْضُ الْمُتَّقِين وهُمْ لَا يَشْعُرونَ.

لَقَدْ عَرَفُوا أَنَّه لَا خَالِقَ فِي الْوُجُودِ إِلّا اللَّهُ، ولَا رَازِقَ إِلّا اللَّهُ، ولَا مُحْيِيَ إِلّا اللَّهُ، ولَا مُمِيتَ إِلّا اللَّهُ، ولَا شَافِيَ ولَا مُتَصرِّفَ فِي الكَوْنِ كله إِلّا اللَّهُ، فَآمَنُوا بِهِ إِيماناً خَالِصاً صَادِقاً، وعَلَّقُوا قُلوبَهُمْ بِهِ وَحْدَهُ.

إنّهم نظروا إلى ظواهر نظام الكون، فعرفوا أنّ كلّ مُؤَثِّرَاتِها أَسْبَابٌ تَخْضَعُ لِلْمُهَيْمِن العَزِيزِ الجَبَّارِ، فَلَا تُؤَثّر إلا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ فِيها خَصَائِصَها وصِفَاتِهَا، ويُمِدُّهَا دَوَاماً بِمَا بِه تُؤثّر، أَوْ أَسْبَابُها أَسْبَابٌ فِي الصُّورَةِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا تَمْلِكُ تَأْثِيراً، إِنَّمَا يُجْرِي اللَّهُ مَقَادِيرَهُ مِنْ خِلَالِها، فَيَجْعَلُها عند مَظْهَرِ التَّأْثِيرِ تُؤَثِّرُ بأَمْرِهِ وخَلْقِهِ الْمَسْبُوق بقَضَائِه وقَدَرِهِ وتَدْبِيرِهِ، وهٰذَا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَةٌ إذا تَدَبَّرْنَاها بِبَصِيرَةٍ مُتَعَمِّقة.

وعَرَفَ «عِبادُ الرَّحْمٰن» أَنَّ الإِنْسَ والْجِنَّ لَو اجْتَمَعُوا علَىٰ أَنْ يَنْفَعُوا أَحَداً بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوه إلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَهُ، ولَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوا أَحَداً بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوه إلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

لِذٰلك فَهُمْ يُبَاشِرُون اتِّخاذَ الوَسَائِلِ والأَسْبَابِ طَاعةً لأَمْرِ اللَّهِ، ولَا يُعلِّقُونَ قُلُوبَهمْ بالوسَائِلِ والأَسْبَابِ، بَلْ بِخَالِقِ الوَسَائِلِ ومُسَبِّبِ الأَسْبَابِ، فَهُوَ الّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، والْأَسْبابُ والوسَائلُ لا تؤثّر إلّا بِإذْنِه، أَوْ بأَمْرِه التَّكْويني الْخَلَّاقِ.

إنّهُمْ فِي ظَواهِرِ الأَعْمَالِ سَبَبِيُّونَ، وفِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ مَتَوَكِّلُونَ عَلَىٰ اللَّهِ وحْدَهُ، يُبَاشِرُونَ الْأَسْبَابَ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يُحَقِّقَ لَهُمْ مَا يَرْجُون مِنْ نَتَائِجَ، وَهٰذَا مَا يَفْرِضُهُ عَلَيْهِمْ وَاجِبُ الْإِيْمَانِ باللَّهِ، وَواجِبُ الطَّاعَةِ لأَوَامِرِ اللَّهِ، فَهُمْ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخَر، مِنَ الْإِنْسِ، أو الْجِنِّ، أو المَلَائِكَةِ، أَو الأَوْثَانِ، أو الْمَوْتَىٰ وأَهْلِ الْقُبُورِ، أَوْ قَوانِينِ الطَّبيعَةِ وأَسْبَابِ الْكَوْنِ، لِأَنَّهُمْ يَعلَمُونَ أنَّ كُلّ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ خَاضِعٌ لأَمْرِه وسُلْطَانِه، وهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ، ولَا يَكُونُ لَهُ عَمَلٌ ولَا تَصَرُّفٌ إلّا بِإذْنِه، أَوْ بِقَضَائِه وقَدَرِهِ مُبَاشَرة وخَلْقِهِ.

هكذَا كُلُّ عِبادِ الرحْمٰنِ مِنَ الأنْبياءِ والْمُرْسَلِين والْمُحْسِنين والْمُقَرَّبِينَ والأَبْرَارِ والشُّهَداءِ والصَّالِحِين.

ومِنْ آثَارِ تَوْحِيد اللَّهِ فِي قُلُوبِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، ولَا يَتَّخِذُوا لِأَنْفُسِهِمْ حَاكِماً يَحْكُمُ بِغَيْرِ حُكْمِهِ، لأَنَّهُمْ يَعْلَمُون أَنَّ مِنْ مُقْتَضَىٰ إيمانِهِم بأنّه لَا إلَهَ إلّا اللَّهُ وَحْدَه، أن يُؤْمِنُوا بأنّه لَا حُكْمَ إلّا لِلَّه، وَلِمَنْ أَذِنَ لَهُ اللَّهُ.

إنّ الْحَاكِمِيَّة فِي عَقِيدَتِهِمْ الرَّاسِخَةِ هِيَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَهُوَ يَأْمُرُ بِمَا يَشَاءُ، وَيَنْهَىٰ عمّا يَشَاء، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، دَلِيلُهُمْ فِي ذٰلِكَ أَنَّ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ الأَمْرُ، وَمِنْ طَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ طَاعَةُ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ، ضِمْنَ الشُّرُوطِ الّتِي حَدَّدَها لِهٰذِهِ الطَّاعَةِ، إذْ لَا طَاعَة لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

هٰذِه الصِّفَةُ الْإِيمَانِيّة الّتِي يَتحلَّىٰ بِها عِبادُ الرحمٰنِ، قَدْ أَعْلَنَهَا مِنْ قَبلُ إبْرَاهِيمُ عَلَيْه الصَّلاة والسَّلام، قالَ الله عزَّ وجلّ في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

فَأَعْلَنَ إبراهيمُ عليه السلام أنَّ الله عزَّ وجلّ هُو الخَالقُ، وهُو الْهَادِي، وهُو الّذي يُطعِمُ ويَسْقِي، وهُو الّذِي يُدَاوِي ويَشْفِي، وهُوَ الَّذِي يُمِيتُ ويُحْيِي، وهُو الّذِي يَغْفِرُ الْخَطَايَا.

إِذَنْ: فأَيَّةُ فَائِدَةٍ مِنْ دُعاءِ غير الله عزَّ وجلّ، وكُلُّ مَا سِواهُ لا نَفْعَ عِنْدَه ولَا ضُرّ.

وهٰذه الصِّفَةُ الإيمَانيّة قَدْ عَلَّمَهَا الرّسولُ ﷺ أُمَّته فِي رَوائِعِ بَيَانَاتِه.

فعَنْ عَبْدِ الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبيّ ﷺ يوماً، فقَالَ:

«يَا غُلَامُ، إِنّي أُعلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وإِنْ اجْتَمعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

رواه الترمذي، وقال: هو حديث حسن صحيح.

وفي رواية عند غير الترمذي:

احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمعا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً».

(٢) ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ... ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ومِنْ صِفَاتِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ» أنَّهم لا يَقْتُلونَ النّفس الّتِي حَرَّم اللَّهُ قَتْلَها، مَهْمَا تحرّكَتْ فِي نُفُوسِهِمْ الدَّواعِي إِلَىٰ ذَلِك، إلّا بِالْحَقِّ الّذِي أَمَر به اللَّهُ عَزَّ وجلّ، أَوْ أَذِن به، كَحَدٍّ، أَوْ قِصاصٍ، أَوْ قِتالٍ لإعْلاء كَلِمَةِ الله، أو دِفَاعٍ عَنِ النَّفْس، الّتي جَاء بَيانُها فِيما نَزل بَعْدَ سُورَة (الفرقان).

إنّ الْقَتْلَ الّذِي لَمْ يَأْذَنْ بِه اللَّهُ لإِنْسَانٍ مَعْصُومِ الدَّمِ، هُوَ مِنَ الكَبَائِر الكُبْرَىٰ، فعِبادُ الرَّحْمٰنِ شَدِيدُو الْحَذَرِ مِنَ الْوُقُوعِ بِه.

وهٰذا الْوَصْفُ هُوَ مِنْ أَوْصَافِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، وأَقُولُ هُنا كَمَا قُلْتُ فِي صِفَة: «أَنَّهُم لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَر»:

إنّ صِفَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين هِي شُروطٌ طَبيعيّة لِلْمَرَاتِبِ الَّتِي فَوْقَها، وذِكْرُ بَعْضِها ضِمْنَ صِفَاتِ عِبادِ الرَّحْمٰنِ هُوَ للتّنْبِيهِ عَلَىٰ هٰذِه الْحَقِيقَةِ، فالأَصْلُ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ أَلّا يَقْتُل النَّفْسَ الّتِي حَرَّمَ اللَّه قَتْلَها إلّا بِالْحَقِّ.

وذلِك لِأَنَّ الأَصْلَ فِي النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ أَنَّهُ يَحْرُم قَتْلُها فِي دِين اللَّهِ، مَهْمَا كَانَ شأنُها، لأنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلّ قَدْ خَلَقَهَا وأَمَدَّها بالْحَياةِ، لِتُؤَدِّي دَوْرَهَا فِي الابْتِلَاء، ولِتَجْتَاز مَرْحَلَةَ امْتِحَانها الّتِي قَضَىٰ اللَّهُ أنْ تَجْتَازَها، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِك يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ حِسَابُها وجَزَاؤُها.

ولَكِنَّ مَصْلَحَة الْمُجْتَمِع الْبَشَرِيّ قَدْ تَقْتَضِي عِقَابَ بَعْضِ النُّفُوسِ الإِنْسَانِيَّةِ بالْقَتْل، فَشَرَعَ الله الْقَتْلَ فِي الأحْوالِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تُوجِبُ الْحِكْمَةُ الْقَتْلَ فِيها، والْقَتْلُ فِي هٰذِهِ الأحْوالِ يَكُونُ قَتْلاً بِالْحَقّ.

«وعِبَادُ الرَّحْمٰنِ» مِنْ أَوْصَافِهِم أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله قَتْلَها إلّا بالْحَقّ، وقَد جَاءَ هٰذا فِي سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) تَوْجِيهاً بِصِيغَةِ الْخَبَرِ لَا بِصِيغَةِ النَهْي، لِيَتَضَمَّن مَعْنَىٰ الثَّنَاءِ عَلَيْهِم بأَنَّهُمْ مُتَحَقِّقُونَ بهٰذَا الْوَصْفِ، وبأنّ الوَصْفَ الْخَبَرِيّ يَكْفِي بالنِّسْبَةِ إلَيْهِم ـ وهُمْ أَصْحَابُ مَرْتَبَةَ الأَبْرَارِ أَوْ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين ـ عَنْ تَوْجِيه النَّهْي لَهُمْ.

وهٰذا الّذي جَاءَ بَيَاناً وصفيّاً لِفَريقِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ»، جَاءَ تَكْلِيفاً بالنَّهْي الصَّرِيحِ لعامَّةِ الْمُؤْمِنين، فيمَا نزَلَ بعده في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بقَولِ الله عزَّ وجَلّ:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

ثم أنزلَ الله عزَّ وجلّ مَا يَدُلُّ بصَراحةٍ على أنّ هذا النّهي نهيّ تَحْرِيمٍ، فقال تعالىٰ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرَسُولِه:

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

وهذه الآية من سورة (الأنعام) مدنية التنزيل مع أن السورة مكيّة في معظمها.

ثُمَّ تَتَابَعَتِ البيَانَاتُ التَّفْصِيلِيَّة فِي الْقُرآنِ والسُّنَّة فِي مَرَاحِلِ دَعْوَةِ

الرَّسُول ﷺ حَوْلَ أَحكَام الْقَتْلِ الْمَأْذُون به وغَيْرِ المأْذُون بِه، وأَحْكَامِ الْعُقُوبَاتِ بالْقَتْلِ، وأَحْكَام الْقِصَاصِ، ومنها ما يلي:

(أ) روَىٰ البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفْسُ بالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».

(ب) وروى البُخاريُّ ومسلم عن ٱبْنِ عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول اللَّهِ ﷺ قال:

«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، ويُقِيمُوا الصَّلَاةَ، ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَام، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ».

قوله ﷺ: «حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله...» لَيْسَ بياناً لعلَّةِ الأَمْرِ بالْقِتَالِ، حتى يُعْتَبَرَ الْقِتَالُ إِكْرَاهاً عَلَىٰ الإِسْلَام، فَعِلَّة الأمر بالْقِتَال تَرْجِعُ إِلَىٰ أَسْبَابٍ أُخرَىٰ، كَتَأْمِين تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيّةِ، والدِّفَاعِ عَنِ حُقُوقِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ، والدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ، وإِقَامَةِ الْعَدْلِ، ولَكِنَّهُ لِبَيَانِ الْغَايَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَوقَّفَ عَنْدَهَا القِتال، نظير قول الجنود: أُمِرْنَا أن نُقَاتِلَ قُطَّاعَ الطّريقِ حتى حدود الدُّوَلِ المجاورة لدَوْلَتِنا.

وقد جَاءَ فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ بَيَانُ الْحَقِّ الّذِي يُشْرَعُ فِيه قَتْلُ النَّفْس.

- فالْقَاتِلُ ظُلْماً وعُدْواناً يُقتلُ قَوداً، أي: قِصَاصاً.

- والزَّانِي الْمُحْصَنُ يُقتل رَجْماً، إِذَا ثَبَتَ عَلَيْهِ ذَلِكَ باعْتِرَافِهِ دُونَ إِكْرَاهٍ، أو بشَهَادَةِ أَرْبعَةِ شُهُودٍ عُدُولٍ، تَوَافَرَتْ فِيهِمْ شُرُوطُ الشَّهَادَةِ والْمُشَاهَدَة.

- والْمُرْتَدُّ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، يُقْتَل حِمَايَةً لِلْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَلَاعِبِينَ الْفَتَّانِينَ.

- والّذِينَ يَسعَوْن فِي الأَرْضِ فَساداً، فَيَقْطَعُونَ الطُّرُقِ، فَيَقْتُلُونَ وَيَسْلُبُونَ، هٰؤلَاءِ يُقَتَّلُونَ ويُصَلَّبُون وتُقَطَّعُ أَيْدِيهم وأرجُلُهم مِنْ خِلَافٍ، عَلَىٰ حَسَبِ أحْوَالِهِمْ.
- والْمُحَارِبُونَ لِلْمُسْلِمِينَ، الوَاقِفُونَ فِي طَرِيقِ دَعْوةِ الأَسْلَام يَمْنَعُونَ تَبْلِيغَها وانْتِشَارَها بالْقَهْرِ والْقُوَّة، يُقَاتَلُون لِإِزَاحَتِهِم عَنْ طَرِيقِ الدّعْوَةِ إلَىٰ الله.

(ج) وصَانَ اللَّهُ عزَّ وَجلّ أرْواحَ النَّاسِ في نِظَام الْإِسْلَامِ بأَحْكَامِ الْقِصَاصِ، فأنزل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٧٨) وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾.

فَمَنْ كَانَ مِنْ أولي الألْبَاب، ومِنَ الْحَرِيصَيْنِ عَلَىٰ حِمَايةِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ وَعِقَابِه، لَمْ يَعْتَدِ عَلَىٰ أحدٍ بالْقَتْل، إلّا بِحقّ الإسْلَام، ولَمْ يُعَرِّضْ نَفْسَهُ لِعُقُوبَةِ القِصَاصِ، ولَمْ يُعَرِّضْ نَفْسَه لِلْعَذَابِ الأَلِيم الذي تَوعَّدَ اللَّهُ بِهِ مَنْ قَتَلَ مُؤمِناً ظُلْماً وعُدْواناً.

وحُكْمُ القِصَاصِ حُكْمٌ رَادِعٌ لِكُلّ مَنْ يَحْرِصُ عَلَىٰ أَنْ يَقِيَ نَفْسَهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنيا، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الّذِين يَتَّقُون عِقَابَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّين.

وفي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ في هذا النصّ من سورة (البقرة): ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بيان بديعٌ رائع، يُرْشِد إلى نظام صيانة المجتمع من المجرمين القتلة. وذلك لأنّ العاقل إذا علم أنّه إذا قَتَل عمداً وعدواناً اقْتُصَّ منه بالقتل، لم يتجرّأ أنْ يُقْدِمَ على هذه الجريمة، بلْ يحسُبُ قَبْلَ أنْ يُقدِمَ عَلَيْها ألْف حسابٍ، يُلْجِمُهُ أَنَّهُ يخشَىٰ أنْ يُقْتَل قِصَاصاً.

فإعلانُ حُكْمِ الْقِصَاصِ فِي الإِسْلَام وتَطبِيقُه مِنْ شَأْنِه أَنْ يَمْنَحَ الْمُسْلِمينَ الحَياةَ الآمِنَة البَعِيدَةَ عَنْ قَلَقِ الْخَوْفِ مِن جرَائِم الْقَتْلِ.

ولَوْ أَنَّ أَحْكَامَ الإِسْلَام تُطَبَّقُ عَلَىٰ وَجْهِها كَمَا أَمَر اللَّهُ، لعَاشَ النَّاسُ فِي دُنْيَاهُمْ عَيْشاً آمِناً سَعِيداً.

(د) وفي بيَانه أنّ قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَها مِنَ الكَبَائِر الكُبْرَىٰ، أَنْزَلَ الله عَزَّ وجلّ فِي سُورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قوله:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

وَهلْ يَجْرُؤُ عَلَىٰ اقْتِحَامِ هٰذا الْخَطَرِ الْعَظِيمِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ من الْعَقْل ومِنَ التَّقْوىٰ؟

إنَّه خَطَرٌ مؤلَّفٌ مِنْ أَرْبَعَةِ عَنَاصِر، وهِي: إقامةٌ طويلةٌ في جَهَنَّم، وغَضَبٌ مِنَ اللَّهِ، وَطَردٌ مِنْ رَحْمَتِه، وعَذَابٌ عَظِيمٌ.

(هـ) وجَاء فِي بَيانِ عِظَم كَبِيرَة الْقَتْلِ فِي الإِسْلَامِ، مَا رُوي عَنِ الرسول ﷺ مِنْ أنَّ زَوال الدُّنيا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ.

روى الترمذي والنسائي عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو بن العاص أن النبي ﷺ قال:

«لَزَوالُ الدُّنْيَا أهْوَنُ عَلَىٰ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ.

قال في المشكاة: والأَصَحُّ أَنَّه مَوْقُوف.

(٣) ﴿وَلَا يَزْنُونَ ... ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ومِنْ صِفَاتِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهُمْ لَا يَزْنُون، لأنَّهُم شَدِيدُو الحِرْصِ علَىٰ اجْتِنَابِ كَبَائِر الإِثْم، فَهُمْ يَبْتَعِدُون عَنِ الْمَواطِنِ الّتِي تَجُرُّهُم إلىٰ السُّقُوطِ فِي كَبِيرَةِ الزِّنىٰ، ويَتّخِذُونَ الْوَسَائِلَ الّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، لِيَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَىٰ الْإِمْسَاكِ بِحَبْلِ الْعِفَّة.

وإذَا كَانُوا لَا يَزْنُونَ فَهُمْ لَا يَرْتَكِبُونَ مِنَ الفَواحِشِ مَا هُو أَقْبَحُ مِنَ الزِّنَىٰ، كاللِّواطِ، وقَدْ جَاء هٰذا التَّوْجِيهُ بِصِيغَةِ الْخَبَر لَا بِصِيغَةِ النَّهْي، لِيَتَضَمَّنَ مَعْنَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِم، وأنَّ الوَصْفَ الْخَبَرِيّ يَكْفِي بالنِّسْبَةِ إلَيْهِم.

﴿يَزْنُونَ﴾: يُقالُ لغةً: زنَىٰ يَزْنِي زِنًى (بالْقَصْر) وزِناءً (بالمَدّ) ويُقال: زَانَىٰ يُزَانِي مُزَانَاةً، ويُقَالُ: زَنَّىٰ يُزَنِّي تَزْنِيَةً، كلُّ ذٰلِكَ بِمَعْنَىٰ الْجِماعِ بَيْنَ الرَّجُلِ والْمَرْأَة عَلَىٰ الوَجْهِ الطَّبِيعِيِّ دُون نِكَاحٍ وَلَا شُبْهَةٍ.

وهٰذَ الَّذِي جَاء بَياناً وَصْفِيًّا لِفَرِيقِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» فِي سُورَةِ (الْفُرْقَانِ) جَاءَ تَكْلِيفاً بِالنَّهْيِ الصَّرِيحِ لِعَامّة الْمُؤْمِنِين، بقَوْلِ اللَّه عزَّ وجلّ فِيمَا نَزَلَ بَعْدَهُ فِي سورة (الإِسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

فِي هٰذا النّصّ نَهَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلّ عَنِ الاقْتِرَابِ مِنَ الزنَىٰ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ النَّهْيِ عَنْ مُمَارَسَةِ أَسْبَابِه، ومُقَدِّماتِه، ودَواعِيهِ، فَهُمْ يَكُفّونَ أَبْصَارَهُمْ وأَيْدِيَهُمْ وأَسْمَاعَهُمْ وسَائِرَ حواسِّهِمْ عَنِ الْمَعَاصِي، الّتِي قَدْ تَسْتَدْرِجُهُمْ إلَىٰ ارْتِكَابِ فَاحِشَةِ الزِّنَىٰ، والسُّقوطِ فيها.

ووصَفَ اللَّهُ الزِّنَىٰ بأنّه فَاحِشَةٌ، أيْ: ذَنْبٌ عَظِيمٌ، وإِثْمٌ كَبِيرٌ.

الفَاحِشَةُ، والْفَحْشَاءُ، والْفُحْشُ: فِي اللّغة: كُلُّ قَبِيحٍ مِنَ الْقَوْلِ والْفِعْلِ، وجَمْعُها «الْفَواحِشُ» وكُلُّ أمْرٍ لَا يَكُونُ مُوافِقاً لِلْحَقّ والْقَدْرِ الْمُنَاسِبِ فَهُوَ فَاحِشَة.

ووَصَفَ اللَّهُ الزِّنىٰ بأَنَّهُ سَاءَ سَبِيلاً، أيْ: قَبُحَ وخَبُثَ سَبِيلاً لِقَضَاءِ وَطَرِ الشَّهْوَةِ إلَىٰ الْجِمَاعِ، أيْ: فَمَا أَسْوَءَهُ سَبِيلاً.

أمّا كَوْنه فاحِشَةً: أي: ذَنْباً عظيماً وَإثْماً كبيراً، فَلِأَنّ اللَّهَ عزَّ وجلّ شدَّدَ النَّهْيَ عنه، وشَدَّدَ الْعُقوبَةَ عَلَيْهِ، وجَعَلَهُ مُحرَّماً فِي كُلِّ مَا أَنْزَلَ مِنْ

شَرَائِعَ عَلَىٰ عِبَادِه، مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ خَاتَمِ رسُلِه مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقدْ جَعَل اللَّهُ عزَّ وجلّ ضَبْطَ النَّفْسِ ومَلْكَ شَهْوَةِ الْغَرِيزَةِ فِي هٰذَا الْمَجَالِ، والْتِزَامَ جَانِبِ العِفَّةِ، مِنَ الأُمُورِ الكُبْرَىٰ الَّتِي وُضِعَتْ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ فِيهَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

والامْتِحَانُ وَمَا يَسْتَتِبْعُهُ هُو الْغَايَةُ مِنْ خَلْقِ الإِنْسَانِ مُزَوَّداً بِخَصَائِصِهِ الَّتِي هو عَلَيْهَا.

وأمّا كَوْنُهُ سَاءَ سَبيلاً: فذَلِكَ لِأَنّ الله عزَّ وجَلّ لمَّا شَاءَ أَنْ يُحرِّمَ الزِّنَىٰ، ويَجْعَلَهُ مَادّةً كُبْرَىٰ مِنْ موادِّ ابْتِلَاءِ إِرَادَةِ الإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَضَعَ فِيه مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ نَتَائِج وَخِيمَةٍ مَا يَجْعَلُه سَبِيلاً سَيِّئاً مِنْ سُبُل مُمَارَسَةِ قَضَاءِ الْوَطَر.

فَمِن النَّاحِيَةِ الصِّحيَّةِ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ انْتِشَارَ طَائِفَةٍ مِنَ الأمْرَاضِ الْخَطِيرَةِ الْمُؤْلِمَةِ، والأَوْبِئَةِ الْقَاتِلَةِ، مَنُوطاً بِانْتِشَارِ فاحشة الزِّنَىٰ فِي الْمُجْتَمَع، وهٰذِهِ حَقِيقَةٌ أثبتَتْها الدِّرَاسَاتُ الطِّبِّيَّة، والْمُؤسَّسَاتُ الصِّحِّيَّة الْعَالَمِيَّة، ولَا يُجَادِلُ فِي هٰذَا مُجَادِلٌ لَدْيهِ اطِّلاعٌ مَا عَلَىٰ مَا يُقَرِّرُه الطِّبُّ فِي هٰذا المَجَالِ، وفِي آخِر سِلْسِلَةِ هٰذِهِ الأمراض الخطيرة التِّي ظَهَرَتْ، مَرَضُ فَقَدْ الْمَنَاعَةِ الْمُكْتَسَبِ الْمُسَمَّىٰ «الإِيدْز».

ومِنَ النّاحِية الاجْتِمَاعيَّة جَعَلَ اللَّهُ عزَّ وجلّ نِظَامَ الْمُجْتَمَع البشَرِيّ مَبْنِيًّا علَىٰ خَلَايا الأُسَرِ الْمُتَرَابِطَةِ بالأَنْسَابِ، ورَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ حُقُوقَ التَّكافُلِ الاجْتِمَاعِيّ بالنَّفَقَةِ الوَاجِبَةِ عَلَى الأَقْرَبِينَ، وحُقُوقَ التَّوارُثِ بالْقَرَابَةِ والْمُصَاهِرَةِ، وأَوْجَدَ فِي فِطَرِ النَّاس لدَعْمِ التَّرابُطِ الأُسْرِيّ عَواطِفَ الْقَرَابَةِ النَّسَبِيَّة.

هٰذا النِّظَامُ الرَّبّانيُّ الْمُتَمَاسِكُ بالْفِطْرَةِ وبِالتَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ، يَخْتَلُّ مَتَىٰ شَاعَ الزِّنَىٰ فِي الْمُجْتمعِ، إِذْ تُحْرَمُ الأُسْرَةُ مِنَ الثِّقَةِ بِصِحّةِ الْقَرَابَةِ النسَبِيَّة،

فَتَنْعَدِمُ الْعَاطِفَةُ الصَّادِقَةُ، فَيَنْحَلُّ الالْتِزَامُ بِوَاجِبِ التَّكَافُلِ، وبذَلِكَ يَنْهَارُ نِظَامُ الأُسْرَةِ، وَمَا يَرْتَبِطُ بِها مِنْ وَاجِبَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ. وَمَتَىٰ شَاعَ الزِّنَىٰ كَثُرَ اللُّقَطَاءُ الّذِينَ لَا يُعْرَفُ لَهُمْ آباءٌ يُسْأَلُون عَنْهُمْ، لِاخْتِلَاطِ الأَمْرِ، وَمَتَىٰ كَثُرَ اللُّقَطاء كَثُرَ الجَانِحُونَ والْمُشَرَّدُونَ، وَكَانُوا مادَّةً لِإفْسادِ الْمُجْتَمع.

وقد أَوْجَزَ اللَّهُ التَّعْبِيرَ عَنِ الْقَبَائِحِ والسَّيِّئَات الصِّحِّيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّة، بقَوْلِهِ عَزَّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧):

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

مِنْ أَجْلِ ما سبَق بيانُه صَانَ اللَّهُ الْمُجْتَمَعَ الإِسْلَامِيَّ عَنِ انْتِشَارِ الزِّنَىٰ فِيهِ، بالنَّصَائِحِ الْوِقَائيّة، وبِالأَحْكَام الشَّرْعِيّة، وبِالْقَاعِدَةِ الإِيمَانِيّة، وبِالْعُقُوبَاتِ الْمُقَرَّرَة الّتِي تُنفِّذُها الإِدَارَةُ الْمُسْلِمَةُ بِسُلْطَانِها، وهِيَ الْجَلْدُ عَلَناً لِلزّانِي غَيْرِ الْمُحصَنِ، والرَّجْمُ عَلَناً حَتَّىٰ الْمَوْتِ للزّانِي الْمُحْصَن.

بهذه الوَسائِلِ تَخِفُّ فَاحِشَةُ الزِّنَىٰ فِي الْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ إِلَىٰ أَقَلِّ نِسْبَةٍ مُمْكِنَةٍ فِي الْمُجْتَمَعِ الْبَشرِيّ.

ولا بُدَّ مِنْ مُلاحَظَةِ أَنَّهُ لَا يَتِمُّ إثباتُ الزِّنَىٰ قَضَاءً إلّا باعْتِرَافِ الزّانِي وهُوَ مُتَّصِفٌ بكُلّ حُرّيّتِهِ وكَامِلِ عَقْلِه، أوْ بِشَهَادَةِ أَرْبَعَةِ شُهُودٍ يَشْهَدُون عَلَيْهِ أَنَّهُ زَنَىٰ، وأَنَّهُمْ رَأَوْا ذَلِكَ مِنْهُ بأَعْيُنِهِمْ دُونَ شُبْهَةٍ مِنْهُمْ فِي الرُّؤْيَةِ، أَوْ شُبْهَةٍ مِنْهُ فِي الْعَمَلِ، وتَكَادُ هَذه البيّنَةُ أَنْ تَكُونَ مُتَعَذِّرَةَ الوُقُوع.

وفي بَيانِ عُقُوبَةِ الزّانِيَةِ والزّانِي غَيْرِ الْمُحْصَنين، قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

(٤) ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾: الْمُشَارُ إِلَيْهِ باسْمِ الإِشَارَة «ذَٰلِكَ» الكَبَائِرُ الثَّلَاثُ الَّتِي سَبَقَ فِي النَّصّ ذِكْرُها مَعَ بَيَانِ أَنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» لَا يَفْعَلُونَها، وَهِيَ:

١ ـ الشركُ بأَنْ يَدْعُوَ الدَّاعِي إِلَهاً آخَرَ مَعَ الله.

٢ ـ قَتْلُ النّفس الَّتِي حَرَّم اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

٣ ـ الزِّنَىٰ.

﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: فِعْلُ «يَلْقَ» مَجْزُومٌ بحَذْفِ حَرْفِ العِلَّة، لأَنَّهُ جَوابُ الشَّرْطِ «مَنْ» والْمَعْنَىٰ: وَمَنْ يَفْعَلْ هٰذِهِ الكَبَائِرَ يَسْتَقْبِلْ فِي عَاقِبَةِ أمْرِهِ وَيَجِدْ أثاماً.

أَثَاماً: مَصْدَر «أَثِمَ» يقالُ لغةً: «أَثِمَ يَأْثَمُ أَثَماً، وإِثْماً، وَأَثَاماً، ومَأْثماً» إذَا وَقَعَ فِي الإِثْم، فهو «أَثِمٌ وآثِمٌ وَأَثِيمٌ وَأَثَّامٌ وَأَثُوم».

الإِثْمُ: هو الذَّنْبُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ مُرْتكِبُه الْعُقُوبَة عَلَيْه.

ويأْتِي لَفْظُ «أثَام» بمَعْنَىٰ جَزاءِ الإِثْمِ، قال الْفَرّاء: أَثَمَهُ اللَّهُ يَأْثِمُهُ إِثْماً وَأَثَاماً، إِذَا جَازَاهُ جَزَاءَ الإِثْم، فالعبْدُ مأْثوم، أي: مجزيٌّ جَزَاءَ إِثْمه، وهذا المعنى هو الملائم للنصّ هنا. فالمعنى: ومن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ جَزَاءَ إِثْمِه.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ضِعْفُ الشَّيْءِ مِثْلُهُ، فَمُضَاعَفَةُ الْعَدَدِ تَكُونُ بِإِضَافَةِ مِثْلِهِ إِلَيْهِ.

فما الحِكْمَةُ من مُضَاعَفَة العَذَابِ لِمَنْ سَقَطَ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ في بَعْض كَبَائِرِ الشِّرْكِ وَالْقَتْلِ والزّنا؟

أقول: إنّ الْجَزَاءَ بالْعَدْلِ عَلَى السَّيِّئَاتِ الْمبيَّنَ فِي نُصُوصِ الْقُرآن والسُّنّة، هو أنّ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجزَىٰ إلّا مِثْلَها، ومَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا، والَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها. فَيَنْبَغِي أَنْ

نَفْهَمَ أنَّ مُضَاعَفَةَ الْعَذَابِ فِي هٰذا النّصِّ خَاصٌّ بِعِبَادِ الرَّحْمٰنِ الَّذِين ارْتَقَوْا فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، وَصَارُوا مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِين، وأَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمَةِ الْبَصِيرَةِ مَا أفَاضَ، وعَرَفُوا مِنَ الدِّينِ أَكْثَر مِمَّا عَرَفَ عَامَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، وصَارُوا فِي نظر العامّة قُدْوَةً وأُسْوَةً حَسَنَة. فَكَانَ جَزَاءُ كَبَائِرِهِمْ الْمَسَاوِي لها مُضَاعَفاً بِقَدْرِ مِثْلَيْن لِمَنْ هُمْ دُونَهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ، فِي مُقَابِلِ أنّ أُجُورَهُمْ عَلَىٰ صَالِحَاتِ أَعْمَالِهِمْ مُضَاعَفَةٌ أَيْضاً.

ونظير هذا ما جاء في قَوْلِ الله عزَّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لنساء النبيّ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾.

ومِنْ هٰذا يَظْهَرُ لَنَا أنَّ زِيَادَةَ الغُرْمِ قَدْ جَاءَتْ فِي مُقَابِلِ زِيَادَةِ الْغُنْم، وهُوَ مِنَ الْعَدْل.

فَمَنْ وَصَلَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ كَان سُقُوطُهُ فِي كَبِيرَةِ الشِّرْكِ، أو الْقَتْل، أو الزِّنَىٰ، ذَا حَجْم مُضَاعَفٍ عَمَّا لَوْ سَقَط بِهَا وَاحِدٌ مِنْ عَامَّةِ المؤمنين، فَالْعِقَابُ بالْعَدْلِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِقَدْرِ هٰذَا الْحَجْمِ الْمُضَاعَفِ.

وهٰذا الْعَذَابُ الْمُضَاعَفُ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا مَاتَ مُرْتَكِبُ هٰذِهِ الكَبَائِرِ الَّذِي ارْتَقَىٰ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، دُونَ تَوْبَةٍ صَحِيحَةٍ صادقةٍ ممّا سَقَطَ فِيه، فَهُوَ بِشِرْكِه كأنّما خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَهَوتْ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ، وَيَجُرُّهُ شِرْكُهُ إِلَىٰ الْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وارْتِكَاب فَاحِشَةِ الزِّنَىٰ بِفُجُورٍ.

لذَلِك كَانَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يَخْلُدَ فِي عَذَابِه الْمُضَاعَفِ مُهَاناً.

﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾: أمّا خُلُودُهُ فِي الْعَذَابِ فَبِسَبَبِ مَوْتِه وهُوَ مُشْرِكٌ

لَمْ يَتُبْ مِنْ شِرْكِه. وأمَّا إهَانَتُه، فَهُو أَنَّهُ قَابَلَ تَكْرِيمَ اللَّهِ لَهُ إِذْ كَانَ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، بالانْتِكَاسِ الَّذِي انْتَكَسَهُ، فَكَفَرَ إِذْ أَشْرَك، وارْتَكَبَ أَقْبَحَ الكَبَائِر، الْقَتْلَ وَالزِّنَىٰ.

وإهانَتُه تكون بوضْعِه في مواضِعِ يَكُونُ بِها أَحْقَرَ مِنْ عامّة المشركين الْعُصَاة، جزَاءَ انتكاسِهِ وارْتكاسِه بَعْدَ ارْتِقَائِهِ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰن.

ونَتَسَاءَلُ: كَيْفَ يَسْقُطُ مَنْ وَصَلَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» فِي كَبَائِرِ الشِّرْكِ والْقَتْلِ والزِّنَىٰ، ولَوْ كَانَ شِرْكُهُ مِنْ أخفّ دَرَكَاتِ الشِّرْكِ وأَوَّلِهَا انْحِداراً؟!

ويُمْكِنُ أَنْ نُجِيبَ بِأَنَّ حَمَلَةَ جَائِزَةِ التَّفَوُّقِ هٰذِهِ يَكُونُونَ مُرَشَّحِينَ لِمَنَاصِبَ دِينِيَّةٍ رَفِيعَةٍ، فَإِذَا قَبِلُوهَا كَانُوا عُرْضَةً لضُغُوط كَثِيرةٍ سُلْطَانِيَّةٍ وغَيْرِ سُلْطَانِيَّة، وهٰذِهِ الضُّغُوط تَجْعَلُهُمْ يَسْقُطُونَ فِي ارْتِكابِ هٰذِهِ الكَبَائِر، فَيَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ، مُداراةً لِسُلْطَانِ ظَالِمٍ طَاغٍ، أو خوفاً على مَنَاصِبِهِمْ.

فكَانَ مِنَ الحكْمَةِ بَيَانُ احْتِمالِ سُقُوطِ بَعْضِ «عِبَادِ الرَّحْمٰن» بِهٰذِهِ الكبيرة ضِمْنَ بيانِ صِفَاتِهِمْ.

وقَدْ تَجْعَلُهُمُ الضُّغُوطُ يُفْتُونَ بإهْدَار دَم مُعَارِضٍ للسُّلْطَانِ مُعَارضَةً لَا تَقْتَضي إهْدَارَ دَمِه، فتكُونُ فَتْواهُمْ مُشَارَكَةً مِنْهُمْ فِي الْقَتْلِ الّذِي حرَّمَهُ اللَّهُ.

وَقَدْ يَفْتِنُهُمْ مَا هُمْ فِيهِ منْ سُلْطانٍ فَيَقْتُلُونَ مُنَافِسِيهِمْ فيه بِغَيْرِ حَقٍّ، لِيَسْلَمَ لَهُمْ سُلْطَانُهُم.

وقَدْ يَتَعَرَّضُونَ وهُمْ فِي مَنَاصِبِهِمْ لفِتْنَةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ النِّسَاءِ الْحَسْنَاوات، وقَدْ يَجِدُ بَعْضُهُمْ نَفْسه مُنْهَارَ الْمُقَاوَمَة، فَيَقَعُ فِي كَبِيرَة الزِّنَىٰ.

فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّنْبيهُ على احْتِمالِ سُقُوطِ بَعْضِ «عِبَادِ الرَّحْمٰن» فِي هٰذِهِ الكَبائِر ضِمْنَ بَيَانِ جُمْلَةِ صِفَاتهم.

(٥) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾.

بهذا الاسْتِثْنَاء الّذي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هٰذِهِ الآيَة، يفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ سُلْطَانُهُ وعَظُمَ جُودُهُ وإحْسَانُه، لِمَنْ كَانَ مِنْ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» فَسَقَطَ فِي شَرَكِ الشِّرْكِ الّذِي جَرَّهُ إلَى كَبِيرتَي الْقَتْلِ والزِّنَىٰ، بَابَ التَّوْبَةِ والرَّجْعَةِ إِلَىٰ مَا كَان فِيه مِنْ مَرْتَبَةٍ، ويُبَيِّنُ اللَّهُ جلَّ جَلاَلُهُ أَنَّ هٰذِهِ التَّوْبَة لَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

الشَّرْطُ الأوّل: صِدْقُ التَّوْبَةِ، دَلّ عَلَيْهِ عبارة: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾.

الشَّرْطَ الثاني: تَجْدِيدُ الإيمان للتخلُّصِ مِنِ انْتِكَاسَةِ الشِّرك، دَلَّتْ عَلَيْهِ عبارة: ﴿وَءَامَنَ﴾.

الشَّرْطُ الثَالِثُ: التَّعْبِيرُ الْمَادِّيُّ عَنِ التَّوْبَةِ وصِدْقِ الإيمَان، بالْعَمَل الصَّالِحِ الّذِي يُبْتَغَىٰ بِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَزَّ وجَلّ، دلت عليه عبارة: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

وبَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عزّ وجلَّ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَعَدَهُمْ وَعْداً كَرِيماً، بِأَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ، فَيُبَدِّلَ سَيِّئَاتِهِمْ الَّتِي سَقَطُوا فِيها فَيَجْعَلَهَا لَهُمْ حَسَنَات، دَلَّ عَلَىٰ هذا قولُهُ تَعالىٰ في الآيَةِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: وبذَٰلِكَ يَعُودُونَ إِلَىٰ مَرْتَبَتِهم الَّتِي كَانُوا فيها، ودَرَجَتِهم الّتِي كانُوا فيها، ومَا كُتِبَ فِي سِجِل أعْمَالِهِمْ زَمَنَ الانْتِكاس من سَيِّئَاتٍ يَمْحُوهُ اللَّهُ بفَضْلِهِ، ويَجْعَلُ بَدَلَهُ حَسَنَاتٍ، لِئَلّا تَبْقَىٰ سُطُورُ ذٰلِكَ الزَّمَنِ فَارِغَةً يُشِيرُ فَراغُها إِلَىٰ أَنّها سَيِّئَاتٌ أَمَرَ الله بِمَحْوِها.

وهٰذا كَرَمٌ مِنَ اللَّهِ عظيم، وفَضْلٌ مِنْهُ جَسِيمٌ، وإغْرَاءٌ عَجِيبٌ بالتَّوْبَةِ فِي قواعِدِ الْحِسَابِ والجزاء، إِنَّهُ فَوْقَ تَكْفِير السَّيِّئاتِ، وَالغُفْران والْعَفْو، بِدَرَجاتٍ رَفِيعَاتٍ، إِنَّهُ قَلْبٌ للدَّرَكاتِ بِجَعْلِها دَرجات، فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَىٰ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ».

وجاءت الإشارةُ إلَيْهم بلَفْظِ [**أُولَٰئِكَ**] في الآية، الّذي يُسْتَعْمَلُ بحَسَب الوضْعِ اللُّغَوِيّ في الإشارة إلى المشَارِ إلَيْهِ الْبَعِيدِ، للدَّلَالَة علَىٰ عَوْدَتِهِمْ إلَىٰ مَنْزِلَتِهم الرَّفِيعَةِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، بَعْدَ انْتِكَاسَتِهم إلىٰ الْمَنْزِلةِ الوضِيعَةِ التي انْحَدَروا إليها.

(٦) ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾:

يبيِّنُ الله عزَّ وجلّ فِي هذه الآيةِ قَاعِدَةَ المَتَاب الصَّادِق النَّصُوح، فالْمَتَابُ الصَّادِق النَّصُوح هُوَ مَا تَبِعَهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، ويَكُونُ ذَٰلِكَ بالإِقْلَاعِ عَنْ فِعْلِ مَا تَابَ عَنْ فَعْلِهِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، وبالْمُوَاظَبَةِ عَلَىٰ فِعْلِ مَا تَابَ عَنْ تَرْكِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ.

وجَاءَ تَنْكِيرُ ﴿مَتَابًا﴾ إشَارَةً إلَىٰ أَنَّهُ مَتَابٌ حَسَنُ الْمَكَانَةِ، وَهُوَ الْمَتَابُ الصَّادِقُ النَّصُوح.

فالْمَعْنَى: والْمَتَابُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ النَّصُوحُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مِمَّنْ تَابَ حَقّاً مِنْ عُمْقِ قَلْبِهِ، وَعَبَّرَ عَنْ تَوْبَتِهِ الصَّادِقَةِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُلائِمِ لِمُقْتَضَيَاتِ هٰذِهِ التَّوْبَة.

﴿تَابَ﴾: في اللُّغة بمعنىٰ رَجَعَ، يقال: تَابَ الْعَبْدُ إلَىٰ رَبِّهِ، أَيْ: عَزَمَ عَلَىٰ الرُّجُوعِ إلَىٰ الطَّاعَةِ والاسْتِقَامَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِه، أَيْ: قَبِلَ رَجْعَتَهُ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ بِفَضْلِ الْعَطَاءِ وَالْغُفْرَانِ والْعَفْوِ.

تَقُولُ لغةً: «تَابَ يَتُوبُ، تَوْباً، وتَوْبةً، وَمَتَاباً، وتَابَةً». فَلَفْظُ «مَتَاب» أَحَدُ مَصَادِرِ «تَابَ».

قَالُوا: وَالتَّوْبَةُ الصَّحِيحَةُ تَكُونُ بأَنْ يُقْلِعَ الْمُذْنِبُ عَنْ ذَنْبِهِ، وَيَنْدَمَ عَلَىٰ مَا فَرَّطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ويَعْزِمَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَعُودَ.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾﴾:

(١) ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾:

فعل «شَهِدَ يَشْهَدُ شُهُوداً» يأتِي بِمَعْنَى حَضَر، يقال: شَهِدَ الْجُمَعَةَ إذا حَضَرَها، فَهُوَ شَاهِدٌ، وَهُمْ شُهُود أي: حُضُور. وشَهِدَ الْمَشَاهِدَ، أيْ: حَضَرَهَا. والشَّاهِدُ والشَّهِيدُ الْحَاضِر، والجمعُ شُهَدَاء، وشُهُود، وأشْهَاد، وشُهَّد.

وفعل «شَهِدَ يَشْهَدُ شَهَادَةً» يأتِي بِمَعْنَى الإِخْبَارِ بأنّهُ يَعْلَمُ بأنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا يُقَدِّمُهُ فِي شَهَادَتِهِ مِنْ خبر.

﴿ٱلزُّورَ﴾: الْبَاطِلُ، والكَذِبُ، وشَهَادَةُ الْبَاطِل، ولَعَلَّ أَصْلَه مِنَ الإزْوِرَارِ، وَهُوَ الْعُدُولُ عَنِ الشَّيْءِ، والْمَيْلُ عَنْه، والكذبُ والباطلُ وشهادةُ الباطِلِ كُلُّها مَائِلَةٌ ومُزْوَرَّةٌ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والصِّدْقِ.

فَعَلَىٰ الْمَعْنَى الأوَّلِ لِفِعْلِ «شَهِدَ» بمعنىٰ «حَضَر» يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أنّ مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ أنَهُمْ لَا يَحْضُرُونَ الْبَاطِلَ، كَمَجَالِسِ أَهْلِ الشِّرْكِ والضَّلَالِ، الَّتِي يَكُونُ فِيهَا أُمُورٌ بَاطِلَةٌ وأَكَاذِيبُ وَمَعَاصٍ، فَهُمْ يِنزِّهُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ حُضُورِهَا وَمُشَاهَدَتِها، ولَوْ لَمْ يُشَارِكُوا فِيهَا، لأنَّ مُجَرَّدَ شُهُودِهَا مَعْصِيَةٌ.

وعَلَىٰ الْمَعْنَى الآخَرِ لِفِعْلِ «شَهِدَ» أيْ: أَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ بأنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا يُقَدِّمُهُ فِي شَهَادَتِهِ مِنْ خَبَرٍ، يَكُونُ الْمُرَادُ أنّ مِنْ صِفَاتِ «عِبادِ الرَّحْمٰن» أنّهم لا يُخْبِرُونَ فِي شَهَادَاتِهِمْ إلَّا بِمَا يَعْلَمُونَ، فَلَا يَشْهَدُونَ بالْبَاطِلِ، ولَا بِالْكَذِبِ، مُدَّعِينَ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي يَعْلَمُونَهُ.

ومَنْ يَشْهَدُ بِشَيْءٍ هُوَ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، هُوَ كَاذِبٌ فِي شَهَادَتِهِ، ولَوْ كَانَ

ذَلِكَ الشَّيْءُ حقّاً في وَاقِعِ أَمْرِهِ، ولِذَلِكَ قَال الله عزَّ وجلّ بشَأْنِ الْمُنَافِقِين في سورة (المنافقون/٦٣ مصحف/١٠٤ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾.

فأبَانَ أنّهُمْ كَاذِبُونَ فِي شَهَادَتِهِمْ، مَعَ أنّ مَا قَالُوهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لأنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِمَا قَالُوا وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ كَاذِبُونَ مُنَافِقُونَ، لَا يُؤْمِنُونَ بأنّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، فالكَذِبُ فِي ادّعَاءِ مُطَابَقَةِ الاعْتِقَادِ لِلْقَوْلِ، لَا فِي مُطَابَقَةِ الْقَول لِلْوَاقِعِ، إذِ الْقَولُ مُطَابِقٌ لِلحَقّ وَالْواقِعِ.

فقولُ اللَّهِ عزَّ وجلّ فِي وَصْفِ «عِبَاد الرَّحمَنِ»: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ يَنْبَغِي أَنْ يُحمَل عَلَىٰ الْمَعْنَيَيْنِ مَعاً، عَمَلاً بِقَاعِدَةِ «اسْتِعْمَال الكَلَامِ فِي أَكْثَر مِنْ مَعْنىً معاً» إذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ المَعَانِي تَضَادّ[1].

أمّا الْمَعْنَى الأَوّلُ وَهُوَ عَدَمُ حُضُورِهِمْ الْبَاطِلَ، فَظَاهِرُ الْعِبَارَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ دونَ حَاجَةٍ إلَىٰ تَخْرِيجٍ نَحْوِي، يُقَالُ: «شَهِدَ الزّور» إذا حَضَرَهُ، «ولا يَشْهَدُ الزُّورَ» أَيْ: لَا يَحْضُرُه.

وأمّا الْمَعْنَىٰ الآخرُ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ بِالْبَاطِلِ والكَذِبَ، فالْعِبَارَةُ تَدُلّ عَلَيْهِ عَلَىٰ تَقْدِير أَنّ لَفْظَ «الزُّورِ» مَنْصُوبٌ بنَزْعِ الْخَافِضِ، أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ نَائِبٌ عَنْ الْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ الْمَحْذُوفِ، أيْ: لَا يَشْهَدُونَ الشَّهَادَةَ الزُّورَ، فالمَفْعُولُ الْمُطْلَقُ هُنا مُبَيِّنٌ للنَّوْعِ.

كَيْفَ يَشْهَدُ «عِبَادُ الرَّحْمٰنِ» شَهَادَةَ الزورِ، وَهِيَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ نَوْعٌ خَطِيرٌ مِنَ الكَذِبِ، شَدِيدُ القُبحِ، سَيِّءُ الأَثَرِ؟!

إنَّ الأَصْلَ فِي الشَّهَادَةِ أَنْ تَكُونَ سَنَداً لِجَانِبِ الحَقِّ، وَمُعِينَةً لِلْقَضَاءِ

---

[1] انظر القاعدة (٢٨) من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ» للمؤلف.

عَلَىٰ إقَامَةِ الْعَدلِ، والحُكْم عَلَىٰ الْجُنَاةِ الَّذِينَ تَنْحَرِفُ بِهِمْ أَهْوَاؤُهُمْ وشَهَوَاتُهُمْ، فَيَظْلِمُونَ. أَوْ يَبْغُونَ، أَوْ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، فَإِذَا تَحَوَّلَتِ الشَّهَادَةُ عَنْ وَظِيفَتِهَا فَكَانَتْ سَنَداً لِلْبَاطِلِ، ومُضَلِّلَةً لِلْقَضَاءِ، حَتَّىٰ يَحْكُمَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، اسْتِنَاداً إِلَىٰ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ إثْبَاتٍ أَوْ نَفْيٍ، فَإِنَّهَا تَحْمِلُ حِينَئِذٍ إثْمَ جَرِيمَتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

الجريمةُ الأولَى: عَدَمُ تَأْدِيَتِهَا وَظِيفَتَها الطَّبِيعِيَّة، وهِيَ من هٰذه الناحيَةِ أَسْوأُ حَالاً مِنْ كِتْمَانِ الشَّهَادة.

الجريمة الثَّانية: قِيَامُهَا بعُدْوَانٍ إيجَابِيّ، تُهْضَمُ فِيهِ الْحُقُوقُ، ويُظْلَمُ فِيهِ الْبُرَآءُ، ويُسْتَعانُ بِهِ عَلَىٰ الإِثْمِ وَالْبَغْيِ وَظُلْمِ عِبَادِ اللَّهِ.

فَهِيَ فِي هٰذَا كَالْقَاضِي الَّذِي بِيَدِهِ سُلْطَةُ الْقَضَاءِ لِيَحْكُمَ بِالْعَدْلِ، فَيَحْكُمُ بِالْجَوْرِ وَالظُّلْمِ والْعُدْوَانَ، وَيَنْصُرُ الظَّالِمَ عَلَى الْمَظْلُوم، وَيَشُدُّ عَضُدَ الْبَاغِي، اتِّبَاعاً لِلْهَوَىٰ، أَوْ طَمَعاً بِعَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الْحَياةِ الدُّنْيَا، أو تأثُّراً بِقَرَابَةٍ، أوِ اسْتِجَابَةً لِشَهْوَةٍ، أَوْ تَلْبِيَةً لِرَغْبَةِ ذِي سُلْطَانٍ، أَوْ ذِي جَاهٍ فِي قَوْمِهِ.

وَهِيَ فِي هٰذَا كَالْمستَأْمَنِ الّذِي يَخُونُ مَنِ اسْتَأْمَنَهُ.

إنّ الْجَرِيمَةَ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِجَرِيمَتَيْنِ، والظُّلْمَ بِظُلْمَيْنِ، ولكُلٍّ مِنْ أَصْحَابِ هٰذِهِ الْجَرَائِمِ كِفْلَانِ مِنَ الْعِقَابِ.

إنّ شَهَادَةَ الزُّورِ مِنَ الكَذِبِ الْمُفْتَرَىٰ، وَلَوْ لَمْ يُلاحَظْ فِيهَا اشْتِمَالُهَا عَلَىٰ جَرِيمَتَيْنِ، وَقَدْ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجلّ أنّهُ لَا يَفْتَرِي الكَذِبَ إلَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَقَالَ الله عزَّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول).

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

فَدَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ حَصْرِ افْتِرَاءِ الكَذِبِ فِي الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، وأقْبَحُ أَنْوَاعِ الكَذِبِ افْتِرَاءُ الكَذِبِ عَلَىٰ اللَّهِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ.

وأَبَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ كَذّاباً، فقد رَوَىٰ الإِمَامُ مَالِكٌ فِي الموطّأ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْم، أَنَّهُ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَاناً؟. قَالَ: «نَعَمْ» فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقِيلَ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذّاباً؟ قال: «لَا».

فَدَلَّ هٰذَا الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ كَذّاباً، أَيْ: لَا يَصِلُ إِلَىٰ مُسْتَوىٰ تَحَرِّي الكَذِبِ، حَتَّىٰ يُدْمَغَ بِأَنَّهُ كَذّابٌ، خُلُقُهُ الْكَذِب.

وقَدْ عَلَّمنا أنَّ شَهَادَةَ الزُّورِ مِنْ أَقْبَحِ صُوَرِ الْكَذب، فَهِيَ لا تَصْدُرُ عَنْ آحَادِ الْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ الْعَادَةِ، فَضْلاً عَنْ أَنْ تَصْدُرَ عَنْ أحَدٍ مِنْ زُمْرَةِ عِبادِ الرَّحْمٰنِ.

وفي التَّحْذِيرِ مِنْ شَهَادَةِ الزُّورِ، روَىٰ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِم عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«أَلَا أُنبّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قلنا: بلىٰ يا رسول الله، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجلَسَ فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُها حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ.

ورَوىٰ أَبُو دَاوُدَ وابْنُ مَاجَهْ، عَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِك، قَالَ: صَلَّىٰ رَسُولُ الله ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِماً فَقَالَ:

«عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ باللَّهِ، عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالإِشْرَاكِ بالله، عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ».

ثم قرأ قول الله تعالى في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿... فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ... ﴿٣١﴾﴾.

ومَعْلُومٌ أنّ قَوْلَ الزّورِ، وَشَهَادَة الزُّورِ مِنَ الْكَبَائِرِ فِي حُدُودِ مَرْتَبَةِ المتّقِين، فاجتِنَابُهما مِنْ حُقُوق هذه المرتبة، ولمَّا كانت حُقُوقُ مرتبة المتّقينَ كُلُّها حُقُوقاً أَسَاسِيَّةً لِمَرْتَبَتَي الأبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ، الجَامِعَتَيْنِ لِفَرِيقِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ ضِمْنَ عَرْضِ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ التّنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ عِبَادَ الرَّحْمٰنِ مِنْ شَأْنِهِمْ أَلّا يَسْقُطُوا فِي كَبِيرَتَيْ قَوْلِ الزّورِ وَشَهَادَةِ الزّورِ، لأنّ ذَلِكَ يَجْعَلُهُمْ يَهْبِطُونَ عَنْ دَرَجَاتِهم، إِلَىٰ دَرَجَاتِ عُصَاةِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ.

(٢) ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾:

﴿مَرُّوا۟﴾: يقال لغة: مرَّ فُلَاناً، ومرَّ بِهِ، ومرَّ عَلَيْه، إِذَا أَقْبَلَ إِليه، واقْتَرَبَ مِنْهُ أَوْ خَالَطَهُ ثُمّ اجْتَازَه، وَأَرَىٰ أَنّ عِبَارَةَ «مَرَّ بِهِ» فِيها بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَعْنَى الإِقْبَالِ والاجْتِيَازِ مَعْنىً مِنْ مَعَانِي الْبَاءِ كَالظَّرْفِيَّةِ والمُلَابَسَةِ والإِلْصَاقِ، وأنّ عِبَارَةَ «مَرَّ عَلَيْهِ» فِيهَا مَعْنَى الاسْتِعْلَاءِ، الَّذِي يَدلّ عَلَيْهِ حَرْفُ «عَلَىٰ».

﴿بِٱللَّغْوِ﴾: اللَّغْوُ في اللُّغَةِ: هُوَ كُلُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْغَىٰ ويُتْرَكَ، لِعَدَمِ تَحْصِيلِ فَائِدَةٍ منه، أُخْرَوِيَّةٍ أو دُنْيَوِيَّة.

قَال أهلُ اللّغة: اللّغْوِ السّقَطُ، وَمَا لَا يُعتَدّ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَغَيْرِهِ، ولا يُحْصَلُ مِنْهُ عَلَىٰ فَائِدَةٍ أَوْ نَفْعٍ.

وفَرِيقُ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» إذا مَرُّوا باللّغْوِ، دُخولاً فِي مُجَالِسِهِ، أَوْ اقْتِرَاباً مِنْهَا، أَوْ مُلَابَسَةً لِلَّغْوِ بِبَعْضِ مَا هُوَ مِنْهُ، مِنْ أَقْوَالٍ أَوْ أَعْمَالٍ، فَإِنَّهُمْ يَمُرُّون مُرُورَ الْكِرَام فِي نُفُوسِهِمْ، يُكَرِّمُونَهَا عَنْ تَضْيِيعِ الْوَقْتِ فِي اللَّغْوِ، سَوَاءٌ أَكَانَ قَوْلاً أَمْ عَمَلاً.

إنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» يُدْرِكُونَ قِيمَةَ الْوَقْتِ، وَيَعْلَمُونَ أَنّ الزّمَنَ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيهِم هُوَ رَأْسُ مَالِهِمْ فِي هٰذِهِ الْحَيَاةِ، مَعَ مَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنْ طَاقَاتٍ جَسَدِيَّةٍ وفِكْرِيَّة وَنَفْسِيَّة، فإِذَا سَمَحُوا لأوْقَاتِهِمْ أَنْ تَضِيعَ فِي اللَّغْوِ الَّذِي لَا

فَائِدَةَ مِنْهُ لِدُنْيَاهُمْ أَوْ أُخْرَاهُمْ، فَقَدْ بَدَّدُوا مِنْ رُؤُوس أَمْوَالِهِمْ بِمِقْدَارِ الزَّمَنِ الَّذِي أَنْفَقُوهُ فِي اللَّغْوِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنّ الْخَسَارَةَ الَّتِي يَخْسَرُونَهَا بِذَلِكَ لَا تُعَوَّضُ، ولمَّا كَانُوا عُقَلَاءَ، وأَهْلَ بَصِيرَةٍ فَإِنَّهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَخْسَرُوا هٰذِهِ الخَسَارَةَ الَّتِي لا تُعَوَّضُ، مَهْمَا حَاوَلَ الإِنْسَانُ ذَلِكَ، لأنَّ الْعُمْرَ مَحْدُودٌ، وَمَهْمَا طَلَب الإِنْسَانُ التَّأْجِيلَ فِيهِ لِتَدَارُكِ الْعَمَلِ لَمْ يُعْطَ تأجيلاً ولَا بِمِقْدَارِ سَاعَةٍ، وإِذَا طَلَبَ الرَّجْعَةَ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ رُفِضَ طَلَبُهُ مَعَ الزَّجْرِ والتَّلْوِيم.

لِذَلِكَ أَقْسَمَ الله عَزَّ وجلّ بالعَصْر عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، كُلَّمَا مَرَّ مِنْ عُمْرِهِ لَحْظَةٌ، لأنَّهُ بِمُرُورِ الزَّمَنْ يُبَدِّدُ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ وَهُوَ عُمْرُه الْمُقَدَّرُ لَهُ، تَبْدِيداً هُوَ فِيهِ خَاسِرٌ لَا مَحَالَة، فَهُوَ فِي مُنْزَلَقٍ مِنَ الْخُسْرِ، لَكِنَّ الله عزَّ وجلّ اسْتَثْنَىٰ مِنْ عُمُومِ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوْا بالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْر، وذَلِك لأنّهم يُنْفِقُون أوقات أعْمَارهِمْ فِي تِجَارَةٍ مَع اللَّهِ رَابِحَةٍ، ورِبْحُهَا عَظِيمٌ جِدّاً، فَوْقَ مَا يَسْتَطِيعُ تَقْدِيرَهُ أَيّ مُقدِّر مِنَ النَّاسِ⁽¹⁾.

و«عباد الرَّحْمٰن» مِنْ هٰذا الْقِسم الْمُسْتَثْنَىٰ، لأَنَّهُمْ حَمَلَةُ جَائِزَةِ تَفَوُّق، فإذا مَرّوا باللَّغْوِ مَرَّوا مُروراً عَابِراً، حَالَةَ كَوْنِهم كِراماً فِي أَنْفسِهم، إِذْ لَا يُهِينُونَها بالْهُبُوطِ إِلَىٰ السَّفَاسِفِ ومُحْقَرَاتِ الأُمُورِ، وهُمْ يَخْشَوْنَ دَائِماً أَنْ يَخْسَرُوا مَقَادِيرَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِمْ دُونَ تَحْقِيقِ رِبْحٍ وَفِيرٍ بِعَمَلٍ صَالِحٍ.

وشَأْنُ الكَرِيم أَنَّهُ إِذَا مَرَّ بِشَيْءٍ لَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنْ ذَاتِهِ أو مِنْ اهْتِمَامِهِ أَوْ وَقْتِهِ أو طَاقَتِهِ، ولَا يُرِيدُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ جَافِياً غَلِيظاً، مَرّ بِخِفَّةٍ وَلُطفٍ، فَشَارَكَ بِنَظْرَةٍ عَابِرَة، وفي لَمَحَاتٍ غَيْرِ خَاسِرَة، ولَمْ يَجْفُ وَلَمْ يَعْنُفْ، وَلَمْ يَكُنْ فَظّاً وَلاَ غَلِيظاً، ونَصَحَ بِرِفْقٍ بَالِغٍ، وأَرْشَدَ إِلَىٰ أَنَّ

---

(١) انظر تدبُّر سورة (العصر/ ٢٢ مصحف/ ١٣ نزول).

الْعُمْرَ ثَمِينٌ جِدّاً، ولا يَصِحُّ أنْ يُضَيَّع فِي اللَّغْو الَّذِي لَا فَائِدَةَ تَحْصُل مِنْ وَرَائِهِ، ولا خَيْرَ يُرْجَىٰ مِنْهُ.

هٰكَذَا يَكُونُ مُرُورَ الكِرَام، إنّه مُرورُ تَحِيَّة وسَلَام، لا مُرُور تَطَفُّل ومُقَام.

و«عِبادُ الرَّحْمٰن» مِنْ خُلُقِهم عُلُوُّ الْهِمَّةِ، الَّتِي يَتَرَفَّعُونَ بِهَا عَنْ مُحْقَراتِ الأُمُور وصَغَائِرِهَا، ويَنْشُدُون بِهَا مَعَالِيَ الأُمُورِ وَكَمَالَاتِهَا، إذْ يُدْرِكُونَ أنَّ التَّعَلُّقَ بمُحْقَراتِ الأُمُورِ مِنْ دَنَاءَةِ النَّفْسِ، وانْحِطَاطِ هِمَّتِها، وهٰذَا لَا يَفْعَلُهُ كِبَارُ الْقُلُوبِ والنُّفوسِ، لِذَلِكَ فَهُمْ أَصْحَابُ نَظَرَاتٍ آخِذَاتٍ فِي طَرِيقٍ صَاعِدَةٍ، وَمُتَطَلِّعَاتٍ إلَىٰ آفَاقِ المَعَالِي، وهُمْ بِهٰذِهِ النَّظَرَاتِ يَرَوْنَ أنّ اللَّغْوَ مِنَ الْقَوْلِ أو الْفِعْلِ أو التَّفْكِيرِ، هُوَ مِنْ مُحْقَرَاتِ الأُمُورِ وسَفَاسِفِهَا، لِذٰلِكَ فَهُمْ لا يُضَيِّعُونَ فِيهَا إلَّا اليَسِيرَ الْقَلِيلَ مِنْ طَاقَاتِهِمْ وأوْقَاتِهِم.

فَإذا مَرُّوا فِي حَياتِهِمْ بأمْرٍ مِنْ أُمُورِ اللَّغْوِ أَعْرَضُوا عَنْهُ، أو خَفّوا فِي اجْتِيَازِ سَاحَتِه، وكَرَّموا نُفوسَهُمْ عَنِ الإقَامَةِ فِيها، ولَمْ يَسْمَحُوا لأوْقَاتِهِمْ الثَّمِينَةِ الَّتِي هِيَ رَأْسُ مَالِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ بِأنْ تَضِيعَ فِي اللَّغْوِ سُدَىٰ.

ولَمَّا كَانَ اللَّغْوُ اشْتِغالاً بمَا لَا نَفْعَ فِيهِ ولاَ فَائِدَةَ، كَانَ مِنَ الأشْيَاءِ الَّتِي لا تَعْنِي الْعُقَلاء (أي: لا تُهِمَّهُمْ فَلَا يَحْتَفِلُونَ بِهَا) و«عِبَادُ الرَّحْمٰنِ» عُقَلَاءُ حَرِيصُونَ عَلَىٰ مَا يَعْنِيهِمْ ويَنْفَعُهُمْ)، ولَا يَشْتَغِلُونَ فِيمَا لا يعنيهم، عملاً بِوَصِيَّةِ الرَّسُول ﷺ.

روى مالك وأحمد عن عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْن، وروى ابن ماجه عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«مِنْ حُسْنِ إسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنيه». (حديث صحيح).

وأُنَبِّهُ عَلَىٰ أَنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ اللَّغْوِ (أي: إعْطَاءَهُ جَانِبَ الْعَارِضِ الَّذِي هُوَ وَسَطٌ بَيْنَ الإِدْبَارِ والإِقْبَالِ) والْمُرُورَ بِهِ مرَّ الكِرام (أي: دُونَ إِقَامَةٍ ومُلاَزَمَةٍ) هُوَ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، وَمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، لأَنَّ اللَّغْوَ الَّذِي لَا مَعْصِيَةَ لله فِيهِ لَا يَخْدِشُ حُقُوقَ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، فَقَدْ يَقَعُ مِنْهُمْ، لَكِنَّهُ لَا يَتَلَاءَمُ مَعَ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، فَضْلاً عَنْ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، ومِنْ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ فَرِيقُ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، فاللَّغْوُ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ إِلَّا لِمَاماً وبِخِفَّةٍ وسُرْعَة.

واهْتِمَاماً بِتَرْبِيَةِ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِم حَتَّى يَرْتَقِي فَيَكُونَ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ (مِنَ الأَبْرَارِ فَالْمُحْسِنِينَ) وَصَفَ الله عزَّ وجلّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُفْلِحِينَ بأَنَّهُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، فَقَالَ تَعَالَى في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ (٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (٤) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١)﴾.

فَأَثْبَتَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فِي هٰذَا النَّصِّ الفَلَاحَ وَهُوَ الظَّفَرُ بِمَا يَطْمَحُ الإِنْسَانُ الْعَاقِلُ الرشيد إِلَيْهِ، وأَبَانَ أَنَّهُ مِيرَاثُ الفِرْدَوْسِ يَوْمَ الدِّينِ، وهُوَ أَوْسَطُ الْجِنَّةِ وأَعْلَاهَا، لِمَنِ اسْتَجْمَعَ عِدَّةَ صِفَاتٍ، مِنْهَا مَا هُوَ مِنْ حُقُوقِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ كَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَحِفْظِ الْفُرُوجِ، ومِنْهَا مَا هُوَ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، فَدَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، وَهُمَا صِفَتَانِ: الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ، والإِعْرَاضِ عَنِ اللَّغْوِ.

ولَمَّا ارْتَقَوْا فَوْقَ سَقْفِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، اسْتَحَقُّوا أَنْ يَرِثُوا دَرَجَاتٍ فِي أَعْلَىٰ الْجَنَّة، حَيْثُ الفِرْدَوْس.

وأثْنَى اللَّهُ عزَّ وَجلّ عَلَىٰ بَعْضِ أَهْلِ الكِتَابِ الأوَّلِ الَّذِينَ يَصِلُهُمْ البَلاغُ الْقُرْآنِيُّ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، ويُعْلِنُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ، وأَبَانَ تَعَالَىٰ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا، وَذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، وأَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، وأَنَّهُمْ إذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وقَالُوا لِلَّذِينَ يَسْتَغْرِقُونَ فِي أَقْوَالِ اللَّغْوِ: لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ مِنْ زُمْرَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ (الأَبْرَارِ أَوِ الْمُحْسِنِينَ) بِدَلِيلِ إِثْبَاتِ الأَجْرِ الْمُضَاعَفِ لَهُمْ، مَعَ وَصْفِهِمْ بِالصَّبْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِ الأبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ، وَوَصْفِهِم بِأَنَّهُمْ يَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، وأَنّهُمْ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَرَدُّوا بالسَّلَامِ، ولَا يَرُدُّونَ الْجَهَالَةَ بِمِثْلِهَا، وَهٰذِهِ مِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، الْجَامِعِينَ لِلأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ.

وفِي ذَلِكَ يَقُولُ الله عزَّ وجلّ في سُورَةِ (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

هٰذا النّصّ مَدَنيُّ التنزيل من سورة (القصص) المكية في معظمها.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿يَخِرُّوا﴾: الخَرِيرُ والخُرُورُ السُّقُوطُ السَّرِيعُ مِنْ أَعْلَىٰ إِلَىٰ أَسْفَلِ، فيُرَافِقُهُ أَحْيَاناً صَوْتٌ يُلائِمُ مَا يَخِرُّ، كخريرُ المَاءِ، والصَّخْرِ، والسَّقْفِ، وغَيْرِها، ويُقَالُ: خَرَّ لله سَاجِداً، أي: أَسْرَعَ فَسَجَدَ لله واضعاً جَبْهَتَهُ عَلَىٰ الأرض.

مِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهُمْ أَهْلُ حُضُورٍ مَعَ رَبِّهم في عِبَادَاتِهِمْ لَهُ، فَمِنْ خَلَائِقِهِمْ الدَّائِمَةِ الَّتِي تَتَكَرَّرُ فِي حَيَاتِهِمْ، أَنَّهُمْ إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ تَذَكَّرُوا، وتَدَبَّرُوا، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِهِ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ، وَحِينَمَا يَخِرُّونَ عِنْدَ التَّذْكِيرِ بآيَاتِ اللَّهِ فَهمْ يَخِرُّونَ تَعْظِيماً لَهَا واحْتِرَاماً، وكَأَنَّهُمْ يَخِرُّونَ لِيَضَعُوا علىٰ الأرْضِ طَبْعَةَ سُجُودِ أَعْلَىٰ شَيْءٍ فِي وُجُوهِهِمْ، وَهِيَ جِباهُهُمْ، إذْ يَعْبِدُونَ الله ويُعَظِّمُونَهُ بِذَلِكَ، ويُعْلِنُونَ خُضُوعَهُمْ لَهُ.

وَلَمْ يَخِرُّوا عَلَيها (خُرُوراً شَكْلياً خالِياً منَ الْحُضُورِ مَعَ اللَّهِ، أَوْ بِتَأْثِيرِ الْعَادَةِ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْغَفْلَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ لَا يَكُونُ لَهُمْ حُضُورٌ مَعَ رَبِّهِمْ فِي صَلَوَاتِهِمْ، وَلَا كَمَا يَفْعَلُ الْمُنَافِقُونَ أو الْمُرَاؤُونَ إِذْ يَخِرُّونَ خُرُوراً شَكْلِياً بأجْسَادِهِمْ، لَا مِنْ أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ، فَأَفْكَارُ هٰؤُلاءِ وَتَصَوُّراتُهم وَحَرَكَاتُ قُلُوبِهم وسَائِرُ دَوَائِرِ نُفُوسِهِمْ تَكُونُ مُنْصَرِفَةً عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَمَا فِيهَا، مَشْغُولَةً لَاهِيَةً بِشُؤُونِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِها، ولَذَّاتِها، وَمَطَامِعِهَا، وأَسْبَابِهَا، أَمَّا آيَاتُ اللَّهِ الْمَشْهُودَةُ فَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا بِمَثَابَةِ العُمْيِ، وأمّا آياتُ الله الْمَتْلُوَّةُ فَهُم بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا بِمَثَابَةِ الصُّمِّ.

لَكِنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» يُدْرِكُونَ دَلَالَاتِ آيَاتِ الله الْمَشْهُودَةَ والْمَتْلُوَّةَ فَإِذَا ذُكِّرُوا بِهَا كَانَ حَالُهُمْ تُجَاهَهَا كَمَا ذَكَرَ الله عزَّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول).

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: مَا يُؤْمِنُ بآياتِ اللَّهِ إيماناً كَامِلاً ذا أَثَرٍ فِي السُّلُوكِ إِلّا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِها خَضَعُوا لَها، وأَعْلَنُوا عَنْ خُضوعِهِمْ النَّفْسِيّ والْقَلْبِيّ لَهَا، بِأنْ يَخِرّوا سُجّداً لله، مُتَذَكِّرِينَ مُسَبِحِينَ بِحَمْدِهِ، سَامِعِينَ لِمَا فِي مَتْلوِّهَا، ومُتَدَبِّرِينَ لَهُ، ومُتَفَكِّرِينَ فِي مشهُودِهَا ومُدْرِكِينَ لِدَلَالاتِهِ وإشَارَاتِهِ، وَفِي تَدَبُّرِهِمْ وَتَفَكُّرِهِمْ يَسْتَبْصِرُونَ أَوَامِرَ الله وَوَصَايَاهُ وَنَصَائِحَهُ وَهِدَايَتَهُ، وَيَسْتَبْصِرُونَ الْمَنْهَجَ الَّذِي تُرْشِدُهُمْ إِلَيْهِ وَتَدُلُّهُمْ عَلَيْهِ.

ونُلَاحِظ مِنْ رَوَائِع الْبَيَانِ الْقُرآني البديع في النَّصَّيْن الَّذي في (الفرقان) وَالَّذِي فِي (السجدة) ما يلي:

- أنّ الّذِي فِي (الفُرْقَانِ) قَدْ نَفَىٰ عَنْ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» صِفَةَ الْخُرُورِ الشَّكْلِيّ الَّذِي لَا يُرَافِقُهُ حُضورٌ فِكْرِيٌ وَقَلْبِيٌ لَدَىٰ تَذْكِيرِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ، وهٰذَا الْمَنْفِيُّ عَنهُمْ هُوَ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْغَفْلَةِ والْمُرَائِين والْمُنَافِقين.

وأنّ الَّذِي فِي (السجدة) قَدْ حَصَرَ كَمَالَ الإِيمَانِ فِي الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ، فأَثْبَتَ الْخُرُورَ، والسُّجُودَ، والتَّسْبِيحَ بِحَمْدِ اللَّهِ، لِذَوِي الإِيمَانِ الكَامِلِ بآيَاتِ اللَّهِ، وَهٰذِهِ صِفَاتُ أَهْلِ الْحُضورِ الفِكْرِيّ والْقَلْبِيّ لَدى تَذْكِيرِهِمْ بِآيَاتِ الله.

وَمِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ النصين نَفْهَمُ بِيَقِينٍ وَوُضُوحٍ تَامٍّ أَنَّ مِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهُمْ إذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ اللَّهِ خَرُّوا سُجّداً وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ، مَعَ حُضُورٍ قَلْبِي وفِكْرِيٍّ فِي تَدَبُّرِ آيَاتِ اللَّهِ الْمَسْمُوعَةِ، والتَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ المَشْهُودَةِ، وَلَمْ يَخِرّوا غَافِلِينَ ولَا مُرَائِينَ ولَا مُنَافِقِينَ صُمّاً عَنْ آيَاتِ الله الْمُتْلُوَّةِ، وعُمْياً عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَشْهُودَةِ.

وهٰذا مَا دَعَا الزَّمَخْشرِيّ إِلَىٰ أَنْ يَقُولَ في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، لَيْسَ بِنَفْيٍ لِلْخُرُور، إنّمَا هُوَ إِثباتٌ لَهُ، وَنَفْيٌ لِلصَّمَمِ والْعَمىٰ، كَمَا يُقَال: لَا يَلْقَانِي زَيْدٌ مُسَلِّماً، هُوَ نَفْيٌ للسَّلَام، لَا لِلِّقَاءِ، والْمَعْنَى: أَنَّهُمْ إذَا ذُكِّرُوا بِهَا أَكَبُّوا عَلَيْهَا حِرْصاً عَلَىٰ اسْتِمَاعِهَا، وأَقْبَلُوا عَلَىٰ الْمُذَكِّر بِهَا، وهُمْ فِي إِكْبَابِهِم عَلَيْه سَامِعُونَ بآذانٍ وَاعِيةٍ، مُبْصِرُونَ بِعيُونٍ رَاعِيَة، لَا كَالَّذِينَ يُذَكَّرُونَ بِهَا فَتَرَاهُمْ مُكِبِّينَ عَلَيْهَا، مُقْبِلِينَ عَلَىٰ مَنْ يُذَكِّرُهُمْ بِهَا، مُظْهِرِينَ الْحِرْصَ الشَّدِيدَ عَلَىٰ اسْتِمَاعِهَا، وهُمْ كالصُّمِّ والْعُمْيَانِ، حَيْثُ لا يَفْهَمُونَها، ولا يُبْصِرُونَ مَا فِيها، كَالْمُنَافِقِينَ.

وهٰذَا الَّذِي نَبَّهَ عَلَيْهِ الزَّمَخْشَرِيّ، وَنَقَلَهُ عَنْهُ الرَّازِي صَحِيحٌ وسَدِيدٌ بِدَلِيلِ الآيَةِ الَّتِي في «السجدة».

أقسام الناس عِنْدَ تذكِيرِهِمْ بآيات ربّهم:

لدَىٰ مُلاحظَة أَحْوَالِ النَّاسِ عِنْدَ تَذْكِيرِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ الْمَتْلُوَّةِ أو المَنْظُورَةِ فِي كُلِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ، يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّهُم يَنْقَسِمُونَ إلى أقسام ستَّةٍ:

القسم الأول: قِسْمٌ يُذَكَّرُ بآيَاتِ رَبِّه فَيُعْرِضُ عَنْهَا مُبَاشَرَةً، دُونَ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ نَفْسِهِ عَاطِفَةً ولَا فِكْراً، وَلَا سَمْعاً ولَا بَصَراً.

إنَّه قَدْ أَقَامَ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ ابْتِدَاءً مَا يَصُدُّهَا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَهِدَايَةٍ ونُصْحٍ، فَهُوَ لَا يَتَقَبَّلُ مَا يَهْدِيهِ إِلَىٰ الْحَقِّ، أَوْ يُخَفِّفُ مِنْ غُلَوَاءِ تَعَلُّقِهِ بالدُّنْيا وزِينَتِها، وشَهَوَاتِها ومَلَذَّاتِها والتَّفاخر بِهَا والتَّكَاثُرِ مِنْهَا.

وهٰذَا الْقِسْمُ مِنَ النَّاسِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هِدَايَةِ رَبِّهِ حِجَابٌ غَلِيظٌ، مِنْ أَهْوَائِهِ، وشَهَوَاتِهِ، وَكِبْرِ نَفْسِهِ، واسْتِغْرَاقِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وقَدْ جَاءَتِ الإِشَارَةُ إِلَىٰ هٰذَا القِسْمِ مِنَ النَّاس فِي قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

فَقُلُوبُ أَهْلِ هٰذَا الْقِسْمِ مِنَ النَّاسِ في أَكِنَّة (أيْ: مُغَلَّفَةٌ بِأُغْطِيَةٍ) بِسَبَبِ انْصِرَافِ كُلِّ مَشَاعِرِهِمْ بِإِرَادَتِهِمْ لِمَطَالِبِ أَجْسَادِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ مِنْ دُنْيَاهُم، فَهِيَ لَا تَفْقَهُ مَا تُذَكَّرُ بِهِ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ، وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ نُصْحاً مَهْمَا كَانَ بَيِّناً وَاضِحاً لا يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيلٍ، لأَنَّ الاسْتِمَاعَ إِلَىٰ الْقَوْلِ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ إِرَادَةِ فَهْمِ الْمُرَادِ بِهِ، ومَنْ لا يُرِيدُ ذٰلِكَ انْصَرَفَ سَمْعُهُ عَنْهُ، فَهُوَ لَا يَسْمَعُ إِلَّا صَوْتاً لَا مَعْنَى لَهُ، كَمَنْ فِي أُذُنِهِ وَقْرٌ، (الوَقْرُ: ثِقْلٌ فِي السَّمْعِ حَتَّىٰ الصَّمَمِ).

القسم الثاني: قِسْمٌ يُذَكَّرُ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَيَسْمَعُها، ويَتَفَكَّرُ فِي دَلَالَاتِها، وقَدْ يَنْتَفِعُ بِهَا، لكِنْ تَغْلِبُهُ بَعْدَ ذَلِكَ شَهَوَاتُه وأَهْوَاءُ نَفْسِهِ، فَيُعْرِضُ عَنْهَا.

وَهٰذَا القِسْمُ مِنَ النَّاسِ قِسْمٌ يَصطَرِعُ فِي دَاخِلِهِ الفِكْرُ والْهَوَى، والضَّمِيرُ الرَّشِيدُ والشَّهَوَاتُ الْجَانِحَاتُ، ثُمَّ تَكُونُ أَهْوَاؤُه وشَهَوَاتُه بَعْدَ مَرْحَلَةِ صِرَاعٍ قَدْ تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ هِيَ الْغَالِبَةُ، فَتَخْضَعُ إِرَادَتُهُ، وَيَنْتُجُ عَنْ ذٰلِكَ إِعْرَاضُهُ عَنْ آيَاتِ رَبِّهِ بَعْدَ أَنْ تَأَمَّلَ فِيهَا، وأَدْرَكَ مِنْ دَلَالَاتِها مَا يَكْفِيه للاقْتِنَاعِ بالْحَقِّ، وسُلُوكِ سَبِيلِ الرُّشْدِ.

وقد جَاءَتِ الإِشَارة إلىٰ هذا القسم مِنَ النَّاس فِي قول الله عزَّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

إنّ هٰذا القِسْمَ مِنَ النَّاسِ قِسْمٌ مُجرمٌ كالْقِسْمِ الأوّلِ، إلَّا أَنّ احْتِمَالَ إِصْلَاحِهِ أرْجَىٰ مِنْ إِصْلَاحِ الْقِسْمِ اللأوَّلِ، ولذٰلِكَ جَاءَ فِي بَيَانِ حَالِ الْقِسْمِ الأَوَّلِ قَوْلُ الله عزَّ وجلّ:

﴿... وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

ولَمْ يَأْتِ مِثْلُ هٰذا فِي بَيَانِ الْقِسْمِ الثَّانِي. وقَدِ اسْتَطَعْنَا أَنْ نُدرِكَ أَنَّهُمَا قِسْمَانِ مُخْتَلِفَانِ مِنْ دَلَالَةِ تَغْيِير حَرْفِ الْعَطْفِ لَدَىٰ بَيَانِ كُلٍّ مِنْهُمَا، إذْ جَاءَ عَطْفُ فِعْلِ (أَعْرَضَ) بِالفَاءِ لَدَىٰ بَيَانِ الْقِسْمِ الأَوَّل:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ... ﴿٥٧﴾﴾.

والفاء في اللّغة للتَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ.

وجاءَ عَطْفُهُ بحَرْفِ «ثُمَّ» لَدَىٰ بَيَانِ الْقِسْمِ الثَّانِي:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ... ﴿٢٢﴾﴾.

وحرف «ثم» في اللُّغة للتَّرْتِيب مع التراخي.

القسم الثالث: قِسْمٌ مُنافِقٌ يُذَكَّرُ بآيَاتِ رَبّه فَيُشَارِكُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَظْهَرِ الاسْتِجَابَةِ لَهَا، فَيَخِرّ سَاجِداً سُجُودَ الْجَسَدِ فَقَطْ، لٰكِنَّهُ فِي قَلْبِهِ كَافِرٌ، فأذنُهُ صَمَّاءُ وَعَيْنُهُ عَمْيَاءُ عَمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ التَّذْكِيرُ، وحَالَهُ كَحَالِ أَصْحَابِ الْقِسْمِ الأَوَّلِ أوِ القِسْمِ الثاني.

القسم الرابع: قِسْمٌ مُرَاءٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، هُوِ كَذٰلِكَ يَسْجُدُ سُجُودَ الْجَسَدِ، لا سُجُودَ الْقَلْبِ وَخُضُوعَ النَّفْسِ، لأنَّ إرادَتَهُ مُوَجَّهَةٌ لِمَصَالِحِ دُنْيَاهُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ مَظَاهِرِ عِبَادَةِ الله، وَرِيَاءُ هٰذَا المرائي يُحْبِطُ عَمَلَهُ عِنْدَ رَبِّهِ فَلا يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ عَلَيْهِ.

القسم الخامس: قِسْمٌ غَافِلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَسْجُدُ سُجُودَ الْعَادَةِ لَا سُجُودَ الْعِبَادَةِ، فَفِكْرُهُ وَقَلْبُهُ أَجْهِزَةٌ مُنْصَرِفَةٌ إِلَىٰ مَا هِيَ مَشْغُولَةٌ بِهِ مِن أُمُورِ الدُّنْيَا، ولهذا القسم من الأجرِ عندَ رَبِّهِ بمقدار قيمة عَمَلِهِ الناقِصِ في موازينِ الله.

القسم السادس: قِسْمٌ حَاضِرُ الْقَلْبِ والنَّفِسِ والفِكْرِ، يَسْجُدُ سُجُودَ

السَّمِيعِ الْبَصِيرِ الْمُتَدبِّرِ لآيَاتِ اللَّهِ الْمَتْلُوَّة والمُتفَكِّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْظُورَةِ، وهٰذَا القِسْمُ عَلى مراتِب ودَرَجاتٍ، فمنهم مُؤْمِنُونَ مِنْ مَرْتَبَةِ المتَّقين، ومنْهُمْ مُؤْمِنُونَ مِنْ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، ومِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ مِنْ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ (وَعِبادُ الرَّحْمٰنِ أَبْرَارٌ أَوْ مُحْسِنُونَ).

وقد دَلَّ عَلَىٰ هٰذا القِسْمِ الأخِيرِ قولُ الله عزَّ وجلّ: في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾﴾.

ودَلّ عَلَى الأَقْسَامِ الأَرْبَعَةِ الأَخِيرَةِ مَنْطُوقُ وَمَفْهُومُ قَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) فِي وَصْفِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

* * *

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾:

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: أي: بَرْدَ أعيُن، ولَا تكُونُ الأَعْيُنُ كَذٰلِكَ حَتَّىٰ تَمْتَلِئَ الأَنْفُس والْقُلُوبُ سُرُوراً.

ومِنْ صِفَاتِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهم يَتَمَنَّوْنَ أَنْ تَكُونَ أَزْوَاجُهُمْ وذُرِّيَّاتُهُم مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ والتَّقْوَىٰ والْعَمَلِ الصَّالِحِ، حَتَّىٰ تَكُونَ أُسَرُهُمْ مُعِينَةً لَهُم عَلىٰ مَرْضَاةِ اللَّهِ ونَشْرِ الدِّينِ، وأُسْوَةً حَسَنَةً بَيْنَ النَّاسِ، وبذلِكَ تَكُونُ قُرَّةَ أعيُنٍ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ.

لذَلِكَ فَهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ اخْتِيارِ الزَّوْجَاتِ الصَّالِحَاتِ، وعلى

مُجاهَدَتِهِنَّ حَتَّىٰ يَكُنَّ قُدْوَةً حَسَنَةً للزَّوْجَاتِ، ويَحْرِصُونَ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ ذُرِّيَّة صَالِحَةٍ يُقَدِّمُونَها لِمُجْتَمعاتِهِم أمْثِلَةً فَاضِلَةً وأُسْوَةً حَسَنَةً.

فَالدُّعَاءُ بأَنْ يَكُونُوا قُرَّةَ أعْيُنٍ لَهُمْ هُو كِنَايَةٌ عِنِ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ والتَّقْوَىٰ والْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَعَ مَا يتحلَّوْنَ بِهِ مِنْ صِفَاتٍ يَسْعَدُ ويَهْنأُ بِهَا الأَزْواجُ والآبَاءُ فِي الدُّنْيا، ومِنْها الطَّاعَةُ والبِرُّ والصِّحَّةُ والسَّلاَمَةُ، وإِنْعَامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بالْحَياةِ الرَّضِيَّةِ السَّعِيدَةِ.

ومِنَ الأَزْواجِ الْمُلاَءَمَةُ، وحُسْنُ الْمَعَاشَرَةِ، وحُسْنُ الْخُلُقِ، والطَّاعَةُ، والصِّفَاتُ النَّفْسِيَّةُ و الْجَسَدِيَّةُ الأُخْرَىٰ، الَّتِي تُسَاعِدُ الزَّوْجَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ غَضّاً لِلْبَصَرِ، وأَكْثَرَ حَصَانَةً وَعِفَّةً.

ومِنَ الذُّرِّيَّاتِ الطَّاعَةُ والْبِرُّ، وَأَنْ يَكُونُوا مُوَفَّقِينَ سُعَدَاءَ فِي حَيَاتِهِمْ، أَمْجَاداً أَطْهَاراً، أَصْحَابَ ذِكْرٍ حَسَنٍ، إِلَىٰ غَيْرِ ذلك مِمَّا يَسُرُّ الآبَاءَ أَنْ يَجِدُوهُ فِي أَبْنَائِهِمْ.

ومِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» أَنَّهُمْ يَطْمَحُونَ دَواماً إِلَىٰ الارْتِقَاءِ فِي دَرَجاتِ مَرْتَبَتَي الأَبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ حَتَّىٰ يَكُونُوا أَئِمَّةً يَقْتَدِي بِهِمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، لِذَلِكَ فَهُمْ مَعَ اجْتِهَادِهِمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُعِينَهُم علَىٰ تَحْقِيقِ هٰذَا الْمَطْلَبِ، حَتَّىٰ يَكُونُوا أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، فَيَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ الَّذِي يُكَرِّرُونَهُ ضِمْنَ أَدْعِيَتِهِمْ: رَبَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنا قُرَّة أَعْيُنٍ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِين إِمَاماً.

إِنَّهُ دُعَاءٌ ذُو شِقَّيْنِ: فالأَوَّلُ يَتَعَلَّقُ بِأُسَرِهِمْ: أَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ، والآخَرُ يَتَعَلَّقُ بِأَنْفُسِهِمْ، وتَحْقِيقُهُما يُسَهِّل لَهُمُ الْقِيَامَ بِوَظِيفَتَي الدَّعْوَةِ إِلىٰ اللَّهِ، والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَر.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: أي: ويَقُولُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ: رَبِّ اجْعَلْنِي لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً. وَقِيلَ: لَفْظُ «إِمَامِ» هُنَا جَمْعٌ، نَظِيرُ صَائِمٍ وصِيَامٍ،

وقائِمٍ وقِيَامٍ، فاسْمُ الْفَاعِلِ مِنْ «أَمَّ الْقَوْمَ يَؤُمُّهُمْ أمّاً» هو «آمٌّ لَهُمْ» أَصْلُهُ «آمِمٌ».

أقول: ويأْتِي لَفْظ «إِمَام» مَصْدَراً لِفِعْلِ «أَمَّ الْقَوْمَ» يُقَالُ لُغَةً: أَمَّ الْقَوْمَ يؤمُّهُم أَمّاً وإِمَاماً وَإِمَامَةً، إِذَا تَقَدَّمَهُمْ فِي الصَّلَاةِ أَوْ غَيْرِهَا، فَهُمْ يَقْتَدُونَ بِهِ، وعَلَىٰ هَذَا فَالتَّعْبِيرُ فِي الآيَةِ هُو مِنْ قَبِيلِ الإِخْبَارِ أو الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ الَّذِي يَسْتَوِي فِيه الْمُفْرَدُ والْمُثنىٰ والْجَمْعُ والْمُذكَّرُ والْمُؤنَّث، تَقُولُ فِي الإِخْبَارِ: هُوَ عَدْلٌ، وهُمَا عَدْلٌ، وهُمْ عَدْلٌ، وهِيَ عَدْلٌ، وهُنَّ عَدْلٌ، وكذَلِكَ تَقُولُ هُنَا: هُو إِمَامٌ، وهُمَا إِمَامٌ، وَهُمْ إِمَامٌ إِلَىٰ آخِرِ الأَقْسَامِ.

ومِنْ الظَّاهِرِ أَنَّه يَنْبَغِي لِلْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ أَرْقَىٰ دَرَجَةً أَوْ مَرْتَبَةً مِنَ الْمُقْتَدِينَ بِهِ، وإِذْ يَسْأَلُ «عِبادُ الرَّحْمٰنِ» رَبَّهُمْ أَنْ يُعِينَهُمْ ويُوَفِّقَهُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا فَوْقَ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، لِيَكُونُوا صَالِحِينَ لِهَذِهِ الإِمَامَةِ، ومِنَ الّذِينَ هُمْ فَوْقَ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين، وَهُمُ الأَبْرَارُ فَالْمُحْسِنُونَ.

الأبرارُ: هُمُ الْمُتوسّعُونَ فِي نَوَافِلِ الطَّاعَاتِ وفِعْلِ الخَيْراتِ زِيَادَةً على حُقَوقِ مَرْتبةِ التقوى، ومَرْتَبَةُ الْبِرِ هِي الْمَرْتَبَةُ الْوُسْطَىٰ، وَهِي ذاتُ دَرَجَاتٍ.

المُحْسِنُونَ: هُمُ الّذِينَ يَعْبُدُونَ الله كَأَنَّهُم يَرَوْنَهُ، ومَرْتَبَةُ الإِحْسَانِ أَعْلَىٰ المَرَاتِبِ، وهي ذَاتُ دَرَجَاتٍ.

ونَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هٰذَا التَّوْجِيهِ لِهٰذا الدُّعَاءِ حَاجَةَ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ دَواماً إِلَىٰ أَئمَّةٍ يَكُونُونَ قُدْوةً لِلْمُتَّقِينَ، وأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ البِرِّ، أَوْ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ.

إِنّ «عِبَادَ الرَّحْمٰنِ» إِذْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَهَبَهُمْ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِماماً، فَإِنَّهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ عزَّ وجلّ أَمْتَعَ ما فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وأَرْفَعَ مَرْتَبَةٍ إِيمَانِيَّةٍ وعَمَلِيَّةٍ تُهيِّئُهُمْ لِأَرْفَعِ مَنْزِلَةٍ وأَنْعَمِهَا

يَوْمَ الدِّينِ، فِي الْغُرُفَاتِ الْعَالِيَاتِ مِنْ الفردَوْسِ الّذِي هُوَ أَوْسَطَ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا.

أَمَّا الزَّوْجَةُ الْمُلَائِمَةُ الصَّالِحَةُ فِهِيَ خَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا، روىٰ الإِمامُ مُسْلِمٌ عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو بنِ الْعَاصِ، أن رسول الله ﷺ قَال:

«الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ».

ثُمَّ إِنّ أَجَلّ مَا يُصِيبُ الإِنْسَانُ مِنْ سَعَادَةٍ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا الذُّرِّيَّةُ الصَّالِحَةُ النَّجِيبَةَ، الْبَارَّةُ الرَّشِيدَةُ السَّعِيدَة، ولذلِكَ دَعَا سَيِّدُنا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّه أَنْ يَهَبَهُ ذُرِّيَّةً مِنَ الصَّالِحِينَ، فَقَالَ: «**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِين**».

قَالَ اللَّهُ عزَّ وجَلّ يَقُصُّ عَلَيْنَا جَانِباً مِنْ قَصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وكَانَ هَذَا الْمُبَشَّرُ بِه هُوَ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقَدِ امْتَحنَهُ اللَّهُ بِه، فَأَمَرَهُ بِذَبْحِهِ، ولَمَّا أَسْلَمَا وَباشَرا التَّنْفِيذَ، فَدَاهُ اللَّهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

وَلِذَلِكَ أَيْضاً دَعا زَكَرِيَّا رَبّه أَنْ يَهَبَهُ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، وفِي بَيَانِ هَذا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

ولَمَّا جَعَلَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام إِمَاماً، رَغِبَ إِلَىٰ رَبِّه أَنْ يَكُونَ مِثْلُ ذَلِكَ لِبَعْضِ ذُرِّيَّتِه، فَقَالَ: «**وَمِنْ ذُرِّيتي**» فقَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَهُ: ﴿لَا

يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وفي بَيَانِ هذا قَالَ الله عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فاللَّهُ عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ إبْرَاهِيمَ للنَّاسِ إِمَاماً بَعْدَ أَنِ امْتَحَنَهُ بكَلِمَاتٍ مِنَ الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي والتَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ النُّفُوسِ، فأتَمَّهُنَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السلام، واجْتَازَ الامْتِحَانَ بِنَجَاحٍ بَاهِرٍ، فأَعْطَاهُ اللَّهُ شَهَادَةَ التَّفَوُّقِ فِي الامْتِحَانِ، وأعْطَاهُ حَقَّ التَّقَدُّمِ والإِمَامَةِ للنَّاسِ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أُسْوَةً حَسَنَةً لِلنَّاسِ، حتَّىٰ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ مِنْ بَعْدِهُ، فقال الله عزَّ وجلّ لِلْمُؤْمِنِين في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ... ﴿٤﴾﴾.

إنَّ مَطْلَبَ الإِمَامَةِ الَّذِي يَسْأَلُهُ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ لِأَنْفُسِهِمْ إِذْ يقُولُونَ: واجْعَلْنَا لْلمُتَّقِينَ إمَاماً، مَطْلَبٌ لَا يَكْفِي لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمُتَّقِين فَقَطْ، فَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَبْرَارِ وهُمْ فَوْقَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الْمُتَفَوِّقِينَ فِي الإِيْمَانِ والْعَمَلِ الصَّالحِ الّذِينَ يَعْبُدونَ اللَّهَ كَأَنَّهُمْ يرَوْنَه.

ولمّا كَانَ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ جَعَلَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ إِمَاماً للناس، وكذلِكَ لمَّا كَانَ إسْحَاقُ ويَعْقُوبُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الْمُحْسِنِين جَعَلَهُمَا اللَّهُ مِنَ الأَئِمَّةِ الّذِين يَهْدُونَ بأَمْرِهِ تَعَالَىٰ، فَقَال الله عزَّ وجلّ في سياق الحديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣)﴾.

وقال الله عزَّ وجلّ بشأْنِ الصَّالِحين الْمُهْتَدِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سُورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾.

فَمَرْتَبَةُ الْإِمَامَةِ مَرْتَبة جَلَيْلَةٌ خَطِيرةٌ، إنَّهَا وَظِيفَةٌ مِنْ وَظَائِفِ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ وَلَا يَنالُها عَنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْمُحْسِنُونَ أَوِ الأَبْرَارُ، وهُمْ مِنْ عِبادِ الرَّحْمٰنِ.

* * *

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا (٧٥) خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾:

في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ عَرْضُ لَقَطاتٍ مِنْ ثَوَابِ «عِبادِ الرَّحْمٰنِ» عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ بَيانِ السَّبَبِ الَّذِي قَدَّمُوهُ فَاسْتَحَقُّوا بِهِ هَذَا الثَّوابَ الْعَظِيمَ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ هُمْ «عِبادُ الرَّحْمَنِ» واختِيرَ اسْمُ الإِشَارَةِ أُولئِكَ الْمَوْضُوع لِلْمُشَارِ إِلَيْهِمُ الْبَعِيدِينَ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ عَنْدِ رَبِّهِمْ عِنْ سَائِرِ المتَّقِينَ الَّذِينَ لَمْ يَرْتَقُوا في دَرجات مرتبتي الأَبْرَارِ والمحسنين، بنوافل الفضائل النَّفْسِيَّةِ والسُّلُوكيَّة التِي تَزِيدُهُمْ من اللَّهِ قُرْباً وحُبًّا.

﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾: أي: يَجْزِيهِمُ اللَّهُ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ

مَنْزِلَةَ الْغُرْفَةِ الرَّفِيعَةِ، كَمَا ارْتَفَعتْ مَنْزِلَتَهُمْ بِالإِيمَانِ والْعَمَلِ الصَّالِحِ والتَّحَلِّي بِالصِّفَاتِ الَّتِي جَاءَ وَصْفُهُمْ بِهَا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، أَوْ مَرْتَبة الْمُحْسِنِينَ فِي الدُّنْيَا.

والْغُرْفَةُ فِي الْقُصُورِ الدُّنْيَوِيَّة عِنْدَ الْعَرَب ذاتُ مَنْزِلَةٍ رَفيعَةٍ فِيها، تُخْتَارُ لِسَيِّدِ الْقَصْرِ ومُتْعَتِهِ الخَاصَّةِ ، و يُصْعَدُ إِلَيْها بِدَرَجٍ، وتَكُونُ فِي الْعَادَةِ عَالِيَةً مُشْرِفَةً.

والمراد بِلَفظِ [الْغُرْفَةِ] الجِنْسُ الشَّامِلُ لمَا يَكُونُ لَهُمْ مِنْ غُرُفَاتٍ رَفيعَاتِ الْمَنَازِلِ فِي الْفِرْدَوْسِ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: أيْ: بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ عَلَىٰ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وتَرْكِ المَخَالَفَاتِ، وصَبْرِهِمْ عَلَى الاسْتِزَادَةِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ ونَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ فَوْقَ الْوَاجبَاتِ، وَصَبْرِهِمْ عَلَى تَرْكِ الْمَكْرُوهَاتِ ومَا لَا يَلِيقُ بالأَبْرَارِ والْمُحْسِنينَ، فَوْقَ تَرْكِ الْمُحرَّمَاتِ، وصَبْرِهِمْ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ، والأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، والتَّحَلِّي بِمَا يَلْزَمُ لإِمَامَةِ الْمُتَّقِينَ.

﴿وَيُلَقَّوْنَ ـ أوْ وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾: عَلَىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ، تَقُولُ لُغَةً: لَقِيَ الشَّيْءَ إذا اسْتَقْبَلَهُ، وتَقُولُ: لقَّيْتُه الشَّيْءَ إِذَا قَدَّمْتَهُ إِلَيْهِ لِيَسْتَقْبِلَهُ ويَتَلَقَّاهُ مِنْكَ.

وبِهٰذَا نَرَىٰ أَنَّ القِراءَتَيْنِ قَدْ تَكَامَلَتَا فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ، فَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ يُلَقَّوْنَ مِنْ قِبَلِ المَلَائِكَةِ والْحُورِ الْعِينِ والوِلْدَانِ المُخَلَّدين تَحِيَّةً وسَلَاماً، وهُمْ مِنْ قِبَلِهِمْ يَلْقَوْنَ ذَلِكَ سُعَدَاء بِه.

وجَاءَ الْجَمعُ هُنا بينَ التَّحِيَّةِ والسَّلَام علَىٰ سَبِيلِ الْعَطْفِ الذي يَقْتَضِي التَّغَايُرَ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُلَقَّوْنَ فِي الْغُرْفَةِ فَيَلْقَوْنَ أَمْرَين: التحيَّةَ والسَّلَامَ، فَمَا الْفَرْقُ بَيْنهما؟.

جَاءَ فِي كُتُبِ اللُّغَة أَنَّ «التَّحِيَّة» تَفْعِلَةٌ مِنَ الْحَيَاةِ بِمَعْنَىٰ الْبَقَاءِ فِي

الْحَيَاةِ. وجاءَ فِيهَا أنَّ التَّحِيَّةَ تَأْتِي بمَعْنَىٰ الْمُلْكِ، وتَأْتِي بمَعْنَىٰ مُطْلَقِ السَّلَامِ.

وأمّا السَّلامُ فَهُوَ الْبَرَاءَةُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وكُلِّ نَقْصٍ، والْعَافِيَةُ، والأَمْنُ، كالسَّلَامَةِ. واخْتَارَهُ اللَّهُ لِيَكُونَ عِبَارَةَ اللِّقَاء بَيْنَ الْمُسْلِمين، إخاءً وتَكْرِيماً وإيناساً وَدُعاءً بالسَّلامة والأمن.

وباسْتِطَاعَتِنَا أنْ نُدْرِكَ بَعْدَ هٰذَا أنَّ عِبَادَ الرَّحْمٰنِ يَلْقَوْنَ فِي الْغُرْفَةِ من الفِرْدَوس عِبَارَةَ تَحِيَّةٍ فِيهَا مَعْنى الدّعَاء بالحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ، مِثْل حيَّاكَ اللَّهُ، وقَدْ يُضَافُ إلَيْهَا مَا يَدُلُّ عَلىٰ تَسْلِيمِهِمْ مُلْكَهُمُ البَاذِخَ الكَبِيرَ فِيها، كما قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) فِي وَصْفِ نَعِيمِ الأبْرَارِ فِي الْجَنَّة:

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

ويَلْقَوْنَ أيْضاً عِبَارَةَ سَلَامٍ، بمَعْنَىٰ الأمْنِ والسَّلَامَةِ من كُلِّ مَكْرُوهٍ ونَقْصٍ فِي أنْفُسِهِمْ وفِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنّةِ، مثل: سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ.

ويُلاحَظُ مِن اسْتِقْراءِ وَسَبْرِ النُّصُوصِ القُرآنِيَةِ أنّ الْجَمْعَ بَيْنَ التَّحِيَّةِ والسَّلَام مِمَّا فَضَّل اللَّهُ بِه عِبَادَ الرَّحْمٰنِ فِي الْجَنَّةِ، أمّا الَّذِينَ هُمْ دُونَهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ فَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ فَقَطْ.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: أيْ: يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ فِي الْفِرْدَوْسِ من الجنَّةِ حَالَة كَوْنِهم بَاقِينَ فِيها بَقَاءً أبدِيّاً بِلَا نِهَايَةٍ.

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: أيْ: يُلَازِمُها وَصْفُ الْحُسْنِ الْعَظِيم، سَواءٌ أكَانَتْ مُسْتَقَرّاً لِأَهْلِهَا الَّذِينَ أُوتُوا مُلْكَهَا، أمْ مُقَاماً لزُوّارِهَا مِنْ أهْلِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ.

* * *

نظرة عامة
حول هذا الدرس من دروس السورة

- أولاً:

يُلاحَظُ أنَّ الصِّفَات الّتِي ذَكَرَتْهَا سُورَة (الفرقان) لِعبَادِ الرَّحْمٰنِ، تَشْتَمِلَ عَلَىٰ صِفَاتٍ أَسَاسِيَّةٍ هِيَ مِنْ صِفَاتِ مَرْتَبَةِ المُتَّقِين، لِلدَّلاَلَةِ عَلَىٰ أَنَّ الانْتِقَالَ إلَىٰ مَرْتَبَةِ الأبْرَارِ، فَمَرْتَبَةِ المُحْسِنينَ الْجَامِعَتَيْنِ لِزُمْرَةِ «عِبَادِ الرَّحْمنِ» لَا يَتَحقَّقُ دُونَ التَّحقُّقِ أوّلاً بالصِّفَاتِ الكُلِّيَّةِ الكُبْرَىٰ الّتِي تُشْتَرَطُ لاسْتِيفَاءِ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِين.

فمَا جَاء فِي غُضُونِ ذِكْرِ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ مِنْ كَوْنِهِمْ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَٰهاً آخر، ولَا يَقْتُلُونَ النّفْس التي حَرّمَ اللَّهُ إلا بِالحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ، ولَا يَشْهَدُونَ شَهَادَةَ الزُّورِ، كُلُّهَا وَاجِبَةٌ لاسْتِيفَاءِ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ المُتَّقِينَ، قَبْلَ الانْتِقَالِ إلىٰ مَا فَوْقَها، وهُمَا مَرْتَبَةُ الأَبْرَارِ، ومَرْتَبَةُ الْمُحْسِنِينَ. لَكِنْ لمَّا كَانَتْ شُرُوطُ وَأرْكَانُ الْمَرْتَبَةِ الدُّنْيَا شُرُوطاً وأَرْكَاناً أَيْضاً لِمَا فَوْقَها مِنْ مَرَاتِب، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا أَوِ الْإِشارَةِ إلَىٰ أَهَمِّهَا لِقِيَاسِ سَائِرِ الشُّرُوطِ والأَرْكَانِ عَلَيْهَا.

ويَظْهَر لي أنَّ تَخْصِيص هٰذِهِ الصِّفَاتِ الّتِي هِيَ مِنْ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، بِذِكْرِهَا ضِمْنَ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ»، مُلَاحَظٌ فيه أنَّ أَشَدَّ الفِتَنِ الّتِي يَتَعرَّضُ لَهَا عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إذ يَصِلُون فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ إلَىٰ مَرْتَبَةِ الْإِمَامَةِ، حَتَّىٰ يَكُونَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، ويَنْصُرُونَهُمْ، هُوَ تَوجُّهُ عُظَمَاءِ قَوْمِهِمْ لَهُمْ بِالتَّعْظِيمِ والاحْتِرَام والاسْتِدْرَاجِ، لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِمْ عَنْ طَرِيقِهِمْ، أَوْ بِالاضْطِهَادِ والمُلاحَقَةِ وأَنْواع الضُّرِّ والأذىٰ، فَيلْجَؤُونَ إلَىٰ غَيْرِ اللَّهِ لِلنَّجاةِ، الأَمْر الّذِي قَدْ يَجُرُّهُمْ إلَىٰ بَعْضِ الشِّرْكِ، كَاعْتِقَادِ الْفَاعِلِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ لِلأَسْبَابِ، وقَدْ يُسْتَدْرَجُونَ لِإِصْدَارِ أحْكَامِ الْقَتْلِ ضِدَّ خُصُومِ السُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ، فَيُصْدِرُونَ هٰذِهِ الأَحْكَامَ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، فيكُونُونَ شُرَكَاءَ فِي الْقَتْلِ

بغَيْرِ حَقٍّ، وقَدْ يُسْتَدْرَجون بجَمِيلَاتِ النِّسَاءِ لمُسَاعَدَةِ الْحُكَّام الظَّالِمِين عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ فَيَزْنُونَ، وقَدْ يُسْتَدْرَجُونَ لِحُضُورِ مَشَاهِدِ الْبَاطِلِ وَالْإِثْمِ، أَوْ لِتَقْدِيم شَهَادَاتِ الزُّورِ، إرْضَاءً لِلْحُكَّامِ الطُّغَاةِ الْبُغاةِ، فَيَفْعَلُون ذلِك.

لذَلِكَ جَاءَ التَّشْدِيدُ فِي بَيَانِ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا بمُضاعفَةِ الْعَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ، والخُلُودِ فِيه مَع الإهَانةِ، وجَاءَ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ الْإِهَانَةِ لَهُمْ لِأَنَّ مِنْ دُوَافِعِهِمْ لِلاسْتِجَابَةِ لمَّا اسْتُدرجُوا إلَيْهِ رغْبَتُهُمْ فِي المُحَافَظَةِ عَلَىٰ كَرَامَتِهِمْ وَمكَانَتِهِمْ الاجْتِمَاعِيَّةِ الّتِي بَلغُوهَا واسْتَمْتعُوا بِشَرَابِها.

- ثانياً:

ويُلَاحَظُ أَنَّهُ جاءَ فِي غُضُونِ عَرْضِ صِفَاتِ عِبادِ الرَّحْمٰنِ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بقَوْلِهِم: رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إنّ عَذَابَها كَانَ غَراماً، وبقَوْلِهِمْ: رَبَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ، وهَذِهِ دَعَواتٌ يَدْعُو بِهَا المُؤْمِنُونَ جَمِيعاً، أَهْلُ دَرجَاتِ مَرْتَبَةِ المُتَّقِين، وأَهْلُ درَجَاتِ مَرْتَبَةِ الأبْرَارِ، وأَهْلُ دَرجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ.

- ثالثاً:

أَمَّا الصِّفَاتُ الّتِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ الأَبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ، وتُؤَهِّلُ مَنْ يَسْتَكْمِلُ حُقُوقَ مَرْتَبَةِ المُتَّقِينَ لِلدُّخُولِ فِي زُمْرَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، فهِي:

١ ـ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هُوْناً.

٢ ـ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قَالُوا: سَلَاماً.

٣ ـ وَأَنَّهُمْ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً.

٤ ـ وَأَنَّهُمْ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً.

٥ ـ وَأَنَّهُمْ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً.

٦ ـ وَأَنّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً لِلْمُتَّقِين. وَيَنْدَرِجُ فِي هَذا

الدُّعَاءِ كُلُّ الصِّفَاتِ وَفَضَائِلِ الأعْمَالِ الّتِي تُلائِمُ حُقُوقَ مَرْتَبَتِي الْبِرِّ والإِحْسَانِ.

- رابعاً:

لَا يُشْتَرَطُ لِلاحْتِفَاظِ بالمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا، أَوْ الدُّخُولِ فِي زُمْرَةِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» عَدَمُ الْوُقُوعِ مُطْلَقاً بِالْمَعَاصِي الْمُنَافِيَةِ لشُرُوطِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، فَعَوارِضُ الْمَعَاصِي دُونَ إِصْرَارٍ، إذَا تَبِعَتْهَا التَّوْبَةُ والاسْتِغْفَارُ والْحَسَنَاتُ الْمُذْهِبَاتُ للسَّيِّئَاتِ، لَا تُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنْ مَرْتَبَةٍ إيمانِيَّةٍ احْتَلَّهَا بِعَمَلِهِ وصَبْرِهِ وَجِهَادِهِ، وفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

وهٰذَا كَرَمٌ وفَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، يُرَاعِي اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ بِهِ حَالَةَ الضَّعْفِ الْبَشرِيِّ، مَهْمَا اسْتَقَامَ الإِنْسَانُ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ، واسْتَزَادَ مِنَ أَعْمَالِ البِرِّ والْإِحْسَانِ، وجَاهَدَ لِلاتِّصَافِ بِصِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ.

* * *

نظرة عامة
حول ما جاء من صفات عباد الرحمٰن في سائر القرآن

- أولاً:

كُلُّ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الّتِي جَاءَ فِيها نِدَاءٌ لِلّذِينَ آمَنُوا وَفِيهَا دَعْوَةٌ إِلَىٰ فِعْلِ خَيْرٍ مَا هُوَ مِنْ الْبِرِّ أَوِ مِنَ الإحْسَانِ، فَهُوَ مُلْحَقٌ بِصِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، وَبِالتَّحَلِّي بِهِ يَرْتَقِي الْمُتَّقُونَ فِي دَرَجَاتِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وجَلّ.

- ثانياً:

كُلُّ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ بَيَانِ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ، أَوْ أَعْمَالٍ أَوْجَبَهَا اللَّهُ أَوْ حرَّمَها عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، فَالالتِزَامُ بِهَا هُوَ مِنْ حُقُوقِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، ولَا يَرْتَقِي المُؤْمِنُ إِلَىٰ زُمْرَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ

حَتَّىٰ يَتَحقَّقَ بِهَا، إذْ كُلُّ مَا هُوَ رُكْنٌ أَوْ شَرْطٌ لِلْمَرْتَبَةِ الدُّنْيا، هُوَ رُكْنٌ أَوْ شَرْطٌ لِمَا فَوْقَها مِنْ مَرَاتِبَ.

- ثالثاً:

جَاءَ بَيَانُ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمَنِ» الْمُتَغَلْغِلَةِ فِي عُمْقِ النَّفْسِ خِلَالَ نِصُوصٍ قُرْآنِيّة مُوَزَّعَةٍ فِي عَدَدٍ مِنْ سُوَرِ الْقُرْآن الكَرِيمِ، وَهِيَ مَا يَلِي:

(١) ففي سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول) جَاءَتِ الإِشَارَةُ إِلَىٰ صِفَتَيْنِ مِنْها، فِي قول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ... ﴿٢٩﴾﴾.

- الصفة الأولى:

هِيَ صِفَةُ الإِيمَانِ، ومِنَ الْمَعْلُومِ فِي الدِّينِ وقَوَاعِدِهِ الأُولَىٰ، أنَّ الإِيْمَانَ شَرْطٌ أَسَاسِيٌّ للنَّجَاةِ، ولَا يُمْكِنُ الارْتِقَاءُ فِي مَرْتَبَةٍ مِنَ المَرَاتِبِ الصَّاعِدَةِ الَّتِي تَرْفَعُ الإِنْسَانَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، دُونَ التَّحَقُّقِ بِشَرْطِ صِحَّةِ الإِيمَانِ.

فَصِحَّةُ الإِيمَانِ وسَلَامَتُه هِيَ الْقَاعِدَةُ الأُولَىٰ، وهِي الأَسَاسُ لِكُلِّ أَبْنِيَةِ الكَمَالِ الإنْسَانِيّ، الّذِي يُقَرِّبُ العَبْدَ إِلَىٰ رَبِّه، ويَحِقّق لَهُ السَّعَادَةَ الْعُظْمَىٰ.

وبَيَانُ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ وبَيانُ أَرْكَانِه مُوَزَّعٌ فِي كِتَابِ الله وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ، ونُصُوصُ ذَلِكَ يُمْكِنُ أَنْ تُشْرَحَ فِي مُجَلَّدَاتٍ.

وبِنَظْرَةٍ عَامَّةٍ فَاحِصَةٍ نُلَاحِظُ أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ الْقَاعِدَةُ الأُولىٰ، أَو الأَسَاسُ الأَعْظَمُ فِي بِنَاءِ الدِّينِ، وهُوَ الأَسَاسُ الأَعْظَمُ أيضاً فِي بِنَاءِ الْفِكْرِ السَّوِيّ ومَفهُومات ومُعْتَقَدات الْحَيِّ المُدْرِكِ السَّوِيِّ، إِذْ لَا يَسْتَقِيمُ أَمْرُ إِنْسَانٍ، ولا يَكُونُ ذَا سُلُوكٍ عَاقِلٍ مُتَّزِنٍ، ما لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ قَاعِدَةٌ إيمَانِيَّةٌ تُوَجِّهُ سُلُوكَهُ، وتُحَدِّدُ فِي الحَيَاةِ غَايَتَه.

والإِيمَانُ فِي الإِسْلَامِ هُوَ الاعْتِرافُ الإِرَادِي بِالْحَقِّ، النَّابعُ مِنْ عُمْقِ الْفُؤَادِ، وأعْظَمُ الْحقَائِقِ الّتِي كَلّفَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِها تَأسِيساً لِقَاعِدَةِ الدِّينِ الأُولَىٰ، هِيَ حَقِيقَةُ وُجُودِ اللَّهِ الْخَالِقِ، ووَحْدَتُهُ فِي رُبُوبِيَّتِه وإِلَٰهِيَّتِه، وصِفَاتِه وأَسْمَائِه الْحُسْنَى، ومِنْ ذلِكَ حِكْمَته فِي الْخَلْقِ، وأَنَّهُ خَلَقَ ذَوِي الإِرَادَاتِ الحُرَّةِ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وأَنَّهُ أَعَدَّ حَيَاةً أُخْرَىٰ لِإِدَانَتِهِمْ، تَأْتِي بَعْدَ هذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وأنّه أَرْسَلَ رُسُلاً وخَتَمَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لِيُبَلِّغُوا النَّاسَ شَرِيعَةَ اللَّهِ لَهُمْ، إِلَىٰ سَائِرِ أَرْكَانِ الإِيمَانِ وتَفْصِيلَاتِها، ومَا يَتَعَلَّقَ بِهَا.

ولذَلِكَ كَانَ الإِيمَانُ هُوَ الْقَضِيَّةَ الأُولَىٰ مِنْ قَضَايَا الإِسْلَامِ.

ولَمَّا كَانَ الإِيمَانُ هُوَ الأَسَاسَ الأَوَّلَ فِي بِنَاءِ الدِّينِ، وجَدْنَا أَنَّ أَوَّلَ مَا بَدَأَتْ بِه دَعَواتُ الرُّسُلِ عليهم الصلاة والسلام، تَأْسِيسُ الإِيمانِ فِي قُلُوبِ مَنْ يَدْعُونَهُم إِلَىٰ دِينِ الله، وَوَجَدْنا سيّدَنا محمّداً رسول الله وخاتم النبيّين، قَدْ بَدأ أَوّل مَا بَدأ بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ تَصْحِيحِ الإِيمَانِ، والاهْتِمَام بتَأْسِيسِه، وبَذْلِ غَايَةِ الْجَهْدِ للإِقْنَاعِ بِعَنَاصِرِه، وتَرْسِيخ قَاعِدَتِه، وَوَجَدْنَا الْقُرْآنَ الكَرِيمَ يُوَجِّه أَعْظَمَ اهْتِمَامِه لقَضَايَا الإِيمانِ، وَوَجَدْنَا أنّ مَا نزَلَ مِنْه في مُدَّة الدَّعْوَةِ المكّيَّةِ ـ وهِيَ المُدَّة الأُولَىٰ في الدَّعْوَةِ المُحَمَّدِيَّة الإِسْلَامِيَّة ـ يُعَالِجُ بالدَّرَجَةِ الأُولَى تَأْسِيسَ قَضَايا الإِيمانِ بمُخْتَلِفِ الوَسَائِلِ الإِقْنَاعيَّة، ويُوَجِّهُ اهْتِمَامَهُ الأَكْبَر لِتَصْحِيحِ عَقَائِد النَّاسِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْها.

إِنَّ المَفَاهِيمَ الاعْتِقَادِيَّةَ الإِيمَانِيَّةَ ضَرُورِيَّةٌ لتوجيهِ كُلِّ أَنْواعِ السُّلُوكِ الإِنْسَانِيّ، فمَنْ لَيْسَ لَدَيْهِ مَفْهُومٌ صَحِيحٌ ثَابتٌ عَنْ أَمْرٍ مَا مِنْ أُمُورِ حَيَاتِه، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّخِذَ تُجاهَهُ قَراراً يَطْمَئِنُّ إِلَيْه، ولَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَجِّهَ نَحْوَه عَاطِفَةً صَادِقَةً، ولَا يَسْتَطِيعُ أن يَرْسُمَ لِنَفْسِه بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سُلُوكاً لا تَرَدُّدَ فيه ولا اضْطِرَابَ.

إنَّنا حِينَ نُلاحِظُ أنْوَاعَ سُلُوكِنَا الْعَادِيّ فِي الحَيَاةِ، نَجِدُ أنّ إرَادَاتِنَا تَتَصَرَّفُ بتَوْجِيهٍ مِنْ مَفَاهِيمِنَا الثَّابِتَةِ فِي نُفُوسِنَا، وهذِه المَفاهِيمُ الثابِتَةُ تُمَثِّلُ فِينَا مَجْمُوعَةَ عَقَائِدِنا في الحَيَاةِ.

مِنْ هذا نُدْرِكُ أهَمِيَّةَ مفَاهِيمِنَا الثَّابِتَة ـ وهِيَ مَجْمُوعَةُ عَقَائِدِنَا ـ فِي تَوْجِيهِ إرَادَاتِنَا لأنْوَاعٍ مِنَ السُّلُوكِ، نَتَصَوَّرُ أنَّها تَجْلُبُ لَنَا مَصَالِحَ أوْ مَنَافِعَ أوْ لَذّاتٍ، وَهٰذِه أُمُورٌ نُحِبُّها، أو نَتصوَّر أنّها تَدْفَعُ عَنَّا مَفَاسِدَ أوْ مَضَارّ أوْ آلاماً، وهذِه أُمورٌ نَكْرَهُهَا.

والمَفَاهِيمُ متَىٰ غَدَتْ ثابِتَةً رَاسِخةً في نُفُوسِنَا، واطْمَأَنّتْ قُلُوبُنَا إلَيْها، وصَارَتْ عَوَاطِفُنَا تَتَأثّر بِهَا، كَانَتْ عَقَائدَ رَاسخَةً لدَيْنَا، وهذا الْمُسْتَوىٰ مِنْ رُسُوخِ المَفَاهِيم، مَعَ طُمَأْنِينَةِ القَلْبِ إلَيْهَا، وتَأثُّر الْعَوَاطِفِ بِهَا، هُوَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ «الإِيمَانِ» ومُشْتَقّاتُ هذا اللّفْظ.

والإِيمَانُ فِي اللُّغَة هُوَ التَّصْدِيقُ، والتَّصْدِيقُ الْقَلْبِيُّ الإرادِيُّ الّذي يَعْتَرِفُ بِه ذُو الإِرَادَةِ اعْتِرافاً داخلياً صَادقاً يَتَنَامَىٰ حَتَّىٰ تَقْتَرِنَ به الطُّمَأْنِينَةُ، ومِنَ التَّصْدِيقِ الْقَلْبِيِّ والطُّمأنِينَةِ تَتولَّدُ العاطفة السامية، وهذه العاطِفَةُ تَحرِّكُ الإِرَادَةَ لِلسُّلُوكِ الْمُلائِمِ الْمُحقِّقِ للمطلوب.

وفِي «الإِيمَانِ» مَعَ دَلَالَتِه علَىٰ التَّصْدِيقِ الإِرَادِيِّ مَعْنَىٰ الأَمْنِ، والأَمْنُ متَىٰ لَامَسَ الْقُلُوبَ اطْمَأَنَّتْ وسَكَنَتْ، ولَمْ يَكُنْ فيها خَوْفٌ ولَا قَلَقٌ ولا اضْطِرَابٌ تُجاهَ الجِهَةِ الّتِي شَعَرَتْ نَحْوَها بالأَمْنِ.

إذَنْ: فالإِيمَانُ هُو طُمَأْنِينَةُ القَلْبِ لمَفْهُوم صَدَّقَ بِه تَصْدِيقاً إرَادِياً، وَأمِنَ مِنِ احْتِمَالِ الْخَطأ فيهِ، وغَدَا قَادِراً علَىٰ تَحْرِيكِ العَاطِفَةِ بمُوجِبه، وتَوجِيهِ السُّلُوكِ عَلَىٰ مُقْتَضاه.

وهذَا الإِيمَانُ هُوَ الرُّكْنُ الأَسَاسِيُّ الّذِي بَدَأَ به الإِسْلَامُ فِي تَكوِينِ شخصِيَّةِ المُسْلِمِ، نَظَراً إلى أنّهُ الْجَذْرُ الأوّلُ فِي بِنَاءِ شَخْصِيَّتِه، وأنَّهُ العُنْصُرُ الأَسَاسِيُّ المُحَرِّكُ لِعَواطِفِه والْمُوَجِّهُ لسُلُوكِه.

ومتَىٰ صَحَّتْ عَنَاصِرُ الإيمَانِ فِي إنْسَانٍ مَا اسْتَقَامَت الأَسَاسِيَّاتُ الكُبْرَىٰ لَدَيْهِ، فَسَلَكَ طَرِيقَ الْخَيْرِ والحَقِّ والرَّشَادِ، واسْتَطَاعَ التَّحَكُّمَ بأَنْوَاعِ سُلُوكِه، واسْتَطَاعَ ضَبْطَهَا فِيمَا يَدْفَعُ عَنْه الضُّرَّ، والأَلَمَ والْمَفْسَدَةَ، العَاجِلَ مِنْ ذلِكَ والآجِلَ، وفِيمَا يَجْلُبُ لَهُ النَّفْعَ واللَّذَّةَ والْمَصْلَحَةَ كَذلِكَ.

وقَدْ أدْرَكَ البَاحِثُونَ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِينَ حَدِيثاً قِيمَةَ الْعَقَائِدِ الإيمَانِيَّةِ، فِي تَوْجِيهِ سُلُوكِ الإنْسَانِ، فَبَدؤُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا تَحْتَ عُنْوَانِ: «أَيْدَيُولُوجِيَّات» وَلَكِنَّهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ المُسْتَوىٰ الّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ الإِسلامُ، إِذْ هُوَ يَبْنِي فِي الْفَرْدِ الْمُسْلِمِ إِيمَاناً لَا يُضَارِعُه وَلَا يُشَابِهُهُ أيُّ عُنْصُرٍ اعْتِقَادِيٍّ يُحَاوِلُونَ غَرْسَهُ فِي نَفْسِ الْفَرْدِ مِنْ أَفْرَادِهِمْ، أو التَّابِعِ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ.

إنّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ الإِيمَانِ، وجَعْلَها هِيَ الْقَضِيَّةَ الأُولَىٰ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ، هُوَ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ بِنَاءِ الدِّينِ، وهِيَ طَبِيعَةُ كُلِّ دَعْوَةٍ تَسْتَدْعِي سُلُوكاً إرادِيًّا واعِياً.

إنّها فِكْرَةٌ مُدَعَّمَةٌ بالدَّلِيلِ الْحَقِّ، فَعَقِيدَةٌ إِرَادِيَّةٌ اخْتِيارِيَّةٌ، فَعَاطِفَةٌ، فإِرَادَةٌ سُلُوكِيَّةٌ، فَسُلُوكٌ.

أمَّا السُّلُوكُ مِنْ غَيْرِ إرادَةٍ فَهُو إكْرَاهٌ، ولَا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ، وأَمَّا الإِرَادَةُ مِنْ غَيْرِ عَاطِفَةٍ مُلَائِمَةٍ فَهِيَ إرَادَةٌ بَارِدَةٌ لَا حَرَارَةَ فِيهَا ولَا قُوَّة، وأَمَّا الْعَاطِفَةُ مِنْ غَيْرِ عَقِيدَةٍ فَهِيَ عَاطِفَةٌ انْفِعَالِيَّة هَوائِيَّة، سَرِيعَةُ التَّغَيُّرِ، سَهْلَةُ التقَلُّبِ، وأمّا الْعَقِيدَةُ الإِرَادِيَّةُ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ مُدَعَّمَةٍ بالدَّلِيلِ الْحَقِّ فَهِيَ عَقِيدَةٌ خُرَافِيَّةٌ لَا قِيمَةَ لَهَا، ولَا وَزْنَ لَها.

مِنْ أَجلِ كُلِّ ذَلِكَ كانَ الإيمانُ في البِنَاءِ الإِسْلامِيِّ الصَّحِيحِ إنَّمَا يَتِمُّ بَعْدَ أَنْ تَبْلُغَ الْفِكْرَةُ مُستَوىٰ الْجزمِ، بِالدَّلِيلِ الّذي يَرْتَضِيهِ الفِكْرُ السَّلِيمُ، والمَنْطِقُ الصَّحِيحُ.

و«عِبَادُ الرَّحْمٰنِ» يَبْدَؤُونَ مَسِيرَتَهُمْ بالإِيمانِ بالحَقِّ الّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم، عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَىٰ الْمُخْتَارِ، الّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

- الصفة الثانية:

هِيَ صِفَةُ التَّوكُلِ الصَّادِقِ عَلَىٰ الرَّحْمٰنِ، وصِدْقُ التَّوكُّلِ لَا يَتَحَقَّقُ إلّا إذَا كَانَتْ نِسْبَةُ الإِيمَانِ باللَّهِ نِسْبَةً عَظِيمةً كَبِيرَةً، مُهَيمِنَةً عَلَىٰ التَّصَوُّرِ، مُسَكِّنَةً قلَقَ النَّفسِ تُجاهَ مَطَالِبِها.

وصِدْقُ التَّوَكُّلِ علَىٰ اللَّهِ وَظِيفَةٌ قَلْبِيَّةٌ وَنفْسيَّةٌ، وهِيَ فِي داخِلِ القَلْبِ وسَائِرِ جَوَانِبِ النَّفْسِ منْ ثَمَراتِ الإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ.

أَمَّا الأَعْمَالُ والإِعْدَادُ لَها، والتَّخطِيطُ لَهَا، فَنِظَامُهَا سَبَبِيٌّ، والْوَاجِبُ الدِّينِيُّ بالنِّسْبَةِ إليها هُوَ الأَخْذُ بِكَامِلِ الأَسْبَابِ، دُونَ التَّفرِيطِ بأيِّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِهَا، أَوْ جُزْءٍ مِنْ أَجزائِها، أَوْ شَرْطٍ مِنْ شُرُوطِهَا.

فالتَّفرِيطُ فِي الأَسْبَابِ مِنَ الْعِصْيَانِ لأَمْرِ اللَّهِ بِوُجوبِ اتِّخَاذِها، وهُوَ يُفْضِي إِلَىٰ الحِرْمَانِ مِنْ تَحْقِيقِ الْمَطَالِبِ، الّتِي جَعَلَ اللَّهُ فِي سُنَنِهِ التَّكْوِينِيَّةِ تَحْقِيقَها بِهَا، سَواءٌ أَكَانَتْ مَطَالِبَ دُنْيوِيّة، أَمْ مَطَالِبَ أُخْرَوِيةً.

واعْتِمَادُ الْقَلْبِ وسَائِرِ جَوَانِبِ النَّفْسِ عَلَىٰ الأَسْبَابِ، والثِّقَةُ بأَنَّها هِيَ الْمُؤَثِّرَةُ، مِمَّا يُخِلُّ بِصِحَّةِ الإِيمَانِ وسَلامَتِه، وهُوَ فِي الحَقِيقَةِ شِرْكٌ باللَّهِ، وهُوَ مِنْ قَبِيلِ جَعْلِ الأَسْبَابِ شَرِيكَةً للَّهِ عَزَّ وجلَ في رُبُوبِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّ الله هُوَ خالقُ الأَسْبَابِ، وهُوَ المُسَخِّر لَهَا، وهُوَ الَّذِي قَضَىٰ وقَدَّرَ أَنْ تكُونَ أَسْبَاباً، لا يَسْتَطِيعُ المَخْلُوقُ الْمُرِيدُ إِلّا أنْ يَتَقَيَّدَ بها في أَعْمَالِه وحَرَكَاتِه الإِرَادِيَّة، مَعَ أَنَّ آثَارَهَا لَا تَتَحَقَّقُ إِلّا بِخَلْقِ اللَّهِ وَإِرادَتِه، إِذْناً وتَمْكِيناً بَعْدَ التَّسْخِير، أَوْ خَلْقاً مُبَاشِراً مِنْ خِلالَ مَظَاهِرِ القَنَواتِ السَّبَبِيَّة.

ولِمَعْرِفَةِ أنّ التَّوَكُّلَ عَلَىٰ اللَّهِ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، وأنَّهُ وَظِيفَةٌ مِنْ وَظَائِفِ الْقَلْبِ وسَائِرِ جَوانبِ النَّفْسِ، لَدَىٰ مُمَارَسَةِ الأعْمَال طَاعةً لِلَّهِ عزَّ وجلّ، لَا بُدَّ أَنْ نُحْضِرَ فِي تَصَوُّرِنا أنّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَدِيرٌ خَلَّاقٌ، بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وهُوَ الْمُهَيْمِنُ علَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، ولَهُ الْخَلْقُ والأَمْرُ، وهُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ، وهُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الحَيَاةُ والْمَوْتُ، والنَّفْعُ والضُّرُّ، والتَّوْفِيقُ والنَّصْرُ، وكُلُّ مَا يَجْرِي في الكَوْنِ إنّما يَجرِي بأمْرِه أَوْ بإذْنِه وَتَمْكِينِه، إنَّهُ سُبْحَانَهُ إذا شَاءَ وَهَبَ، وإذَا شَاءَ حَجَبَ، وإذَا شَاءَ أَذِنَ لـلأسْبَابِ فـأثَّـرتْ آثَارَهَا، أَوْ أَلْغَاهَا، أَوْ قَطَعَهَا، أَوْ سَلَبَ تَأْثِيرَاتِها، فَلَمْ تُغْنِ شَيْئاً، وهُوَ الَّذِي إذا شَاءَ صَرَفَ الْمَوَانِعَ أَوْ أَقَامَهَا، حُكْمُهُ هُو النَّافِذُ، فَلَا مُعَقِّبَ لِحُكمِه، وقَضَاؤُه هُو الْمُنجَزُ فَلَا مُعَدِّلَ لِقَضَائِه.

كلُّ هذا هُوَ منْ عَناصِر القاعِدَةِ الإِيمَانِيَّةِ، وهذِهِ العَنَاصِرُ مَتَىٰ كَانَتْ حَاضِرَةً في تَصَوُّرِ المُؤْمِنِ، جَعَلَتْهُ يُعَلِّقُ قَلْبَهُ وسَائِرَ جَوَانِبِ نَفْسِهِ باللَّهِ، فَيَطْلُبُ كُلَّ مَطَالِبِ حَيَاتِه مِنْه، وهُوَ يُبَاشِر أَعْمَالَهُ، ويَتَّخِذُ الأَسْبَابَ لِتَحْقِيقِهَا، ويَتَوكَّلُ بِقَلْبِه عَلَيْهِ سُبْحَانَه، ويَدْعُوهُ أنْ يُحَقِّق لَه الخَيْر، لأنَّه يُؤْمِنُ إيمَاناً جَازِماً رَاسِخاً بأنَّ الله عزَّ وجلّ إذَا قَضَىٰ أَمْراً أَوْ أَذِنَ بِهِ يَسَّرَ أَسْبَابَهُ، ودَفَعَ عَنْهُ الْمَوانِعَ، وحقَّقَ النَّتَائِجَ الْمَرجُوَّة، وإذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ في الأَمْرِ قَضَاءٌ أَوْ إِذْنٌ، لَمْ يُيَسِّرْ أَسْبَابَه، ولَمْ يَدْفَعْ المَوانِعَ، ولَمْ يُحَقِّقِ النَّتائِجَ الّتِي يَرْجُوهَا الْعَامِلُونَ مِنْ عِبَادِه.

فالتَّوَكُّل عَلَى اللَّهِ سُلُوكٌ دَاخِلِيٌّ مِنْ عُمْقِ النَّفْسِ فَحَواشِيهَا، يَقْتَضِيهِ الإِيمَانُ الصَّحِيحُ السَّلِيمُ، الْمَاثِلُ فِي سَاحَةِ التَّصَوُّرِ الْمُوَجِّهِ للسُّلُوكِ.

والتَّوكُّلُ علَىٰ اللَّهِ وظَيفَةٌ مِنْ وَظَائِفِ الْقَلْبِ وسَائِرِ جَوَانِبِ النَّفْسِ لَدَىٰ الْمُؤْمِنِ، ومِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَشْحَنَ قُوَىٰ العَمَلِ بالثَّبَاتِ والصَّبْرِ والثِّقَةِ،

ويَدْفَعُ إلَى طَاعَةِ اللَّهِ باتِّخَاذِ الأسْبَابِ الّتي أَمَر تبارَكَ وتَعَالَىٰ باتِّخَاذِها، والقِيامِ بالْعَمَلِ الّذي رَبَطَ به مَطَالِبَ العِبَادِ فِي حَيَاتِهِمْ، وأَمَرَهُمْ بِهِ، سَواءٌ أكَانَتْ هذِه المطالِبُ مِنْ مَطَالِب الآخِرَةِ، أمْ مِنْ مَطَالِبِ الدُّنْيَا.

ولَيْسَ التَّوكُّلُ عَلَىٰ اللَّهِ وَظِيفَةً مِنْ وَظَائِفِ الْعَمَل الْجَسَدِيِّ أَوِ التَّدْبِيرِيِّ أو التَّخْطِيطِيِّ، حَتّىٰ يَكُونَ مُثَبِّطاً عَنِ الْعَمَلِ، أَوْ دَاعِياً إلَىٰ التَّهَاوُنِ بِمُبَاشَرَةِ الأَسْبَابِ، والإخْلَادِ إلى الرَّاحَةِ، وتَرْكِ الأَمْرِ تَرْكاً كُلِّياً، اعْتِمَاداً علَىٰ المَقَادِيرِ الربَّانِيَّة، فَمِنَ المَقَادِيرِ الرّبّانِيَّةِ مَا هُوَ مَنُوطٌ بِأَعْمَالِ العِبَادِ، فإذا عَمِلُوا مَا يَجِبُ أنْ يَعْمَلُوهُ لِمَا يَرْجُونَه، تحقَّقَتْ لَهُم ثَمَرَاتُ أَعْمَالِهِم، وإذَا تَرَكُوا الْعَمَلَ الوَاجِبَ الّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوهُ، تَحَقَّقَتْ لهُمُ بالمَقَادِيرِ الرّبّانِيّة نَتَائِجَ كَسَلِهِمْ وتَهَاوُنِهِمْ خَيْبَةً وفَشَلاً ونَدَماً، وإنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ توَكَّلُوا علَىٰ اللَّهِ.

فَلَا يَلُومَنَّ تَارِكُ العَمَلِ السَّبَبِيِّ الْوَاجِبِ إلَّا نَفْسَه، ولَا يَتَّهِمَنَّ المَقَادِيرَ بأَنَّهَا لم تُعْطِهِ ما تَمَنَّىٰ، بعْدَ أَنْ لَمْ يُقَدِّمْ لتحقيق رغائبِهِ ومَطَالِبِهِ مَا جَعَلَتْه المَقَادِيرُ الرَّبَّانِيَّة سَبَباً لها، فِي سُنَنِ اللَّهِ التَّكْوِينِيَّةِ.

وَفِي بَيَانِ ارْتِبَاطِ التَّوَكُّلِ علَىٰ اللَّهِ بالإيمانِ، وبَيَانِ أنَّهُ ثَمَرَةٌ من ثَمَرَاتِه فِي السُّلُوكِ الدَّاخِلِيِّ مِنْ عُمْقِ الْقَلْبِ حتَّىٰ سَائِرِ دَوَائِرِ النَّفْسِ، قالَ الله عزَّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

أي: مَا الْمُؤْمِنُون كَامِلُو الإيْمَانِ حقًّا إلّا الّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، أي: خَافَتْ مِنْ عِقَابِه، لأنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِعَدْلِه، وبِكَمَالِ قُدْرَتِه، ومُؤْمِنُونَ بِعَظَمَتِه وجَلَالِه، وإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُه زَادَتْهُمْ إيماناً، لأنَّهَا تَزِيدُهُمْ عِلْماً ومَعْرِفَةً بِحِكْمَتِه وَعِلْمِه، وإعْجَازِ قُرْآنِه المُنَزَّلِ، فَيَزِيدُهُمْ ذلك

إيماناً بصِدْقِ وصِحَّةِ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِه علَىٰ لِسَانِ رَسُولِه، وإيمَاناً بِصِدْقِ رَسُولِه فِيمَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّه، وبأَنَّهُ الأَمِينُ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، وصِفَتُهُمْ الدَّائِمَة المتجدِّدَة الْحَرَكَة مَعَ كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ، أَنَّهُمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وحْدَه يتوكّلُونَ في كُلِّ أُمُورِهِمْ، ولَا يَتوكَّلُون عَلَىٰ غَيْرِهِ مُطْلقاً.

ولمّا كَانَ التَّوكُّلُ علَىٰ اللَّهِ مِنْ لوَازِمِ الإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، وتَعْبِيراً دَاخِليًّا يَتَحرَّكُ مِنْ عُمْقِ الْقَلْبِ حَتَّى سَائرِ دَوائِرِ النَّفْسِ عَنْ صِحَّةِ اليَقِينِ بأنّهُ لَا إلَهَ إلّا اللَّهُ، أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤمِنِينَ بأَنْ يَتوكّلُوا عَلَيْهِ وحْدَهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/١٠٨ نزول):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

وقال عزَّ وجلّ في سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول):

﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

(٢) وفِي سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وفي سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) جاءت الإِشارةُ إِلَىٰ صِفَةٍ ثَالِثَةٍ مِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» الْمُتَغَلْغِلَةِ فِي عُمْقِ النَّفْسِ، وهِي: خَشْيَةُ الرَّحْمٰنِ بِالْغَيْبِ، وهذِه الصِّفَة ثَمَرَةٌ مِنْ ثمراتِ الإِيمانِ فِي حَرَكَةِ النَّفْسِ ومَشَاعِرِ الْقَلْب.

فمَنْ صَحَّ إيمانُهُ بالله الرَّحْمٰن، وكَان إيمَانه هذا مُهَيْمِناً علَىٰ تَصَوُّرِه مَعَ حَرَكَاتِ خَواطِره، خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالْغَيْبِ، أي: خَشِيَهُ مَعَ أَنَّه غَيْبٌ عَنْ حَوَاسِّه، لكِنَّ حُضُورَه الذِّهْنِيّ والتصَوُّرِيَّ مَعَ الرَّحْمنِ الّذِي يَجْعَلُه يُدْرِكُ مَعَ صِفَةِ رَحْمَتِه صِفَةَ عَدْلِه وقُدْرَتِه، لَا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي حَالَةِ خَشْيَةٍ مِنَ اللَّهِ، لأَنّه قَدْ بَلَغَ مَبْلغاً قَرِيباً مِنَ الشُّهُودِ، لِشِدَّةِ يَقِينِه بمَا آمَن بِه، فَهُو يَعْبُدُ الله كَأنَّه يَراهُ، فَيَسْعَىٰ فِي طَاعَتِهِ طَلَباً لِرِضْوَانِه، ويَجْتَنِبُ مَعْصِيَته حَذَراً مِنْ عِقَابِه.

والخَشْيَةُ فِي مُسْتَواهَا الأَعْلَىٰ شُعُورٌ نَفسِيٌّ بالإِجْلَالِ، فِيهِ مَزِيجٌ مِنَ

الطَّمَعِ بفَيْضِ الْعَطَاءِ، والخَوْفِ مِنَ الْجَزَاءِ بالْعَدْلِ علَىٰ التَّفْرِيطِ فِي جَنْبِ اللَّهِ فِي سَاحَةِ الابْتِلَاءِ.

ومِنْ لَوازِمِ هذه الخَشْيَةِ الإِنَابَةُ إِلَىٰ اللَّهِ، والرُّجُوعُ إِلَيْهِ كُلَّما بَدَرَتْ مِنْ صَاحِبِ الخَشْيَةِ مَعْصِيَةٌ أو مُخالَفَةٌ يَخافُ عِقَابها، فَهُو يُنِيبُ رَاجِعاً إِلَىٰ ظِلّ اسْمِ اللَّهِ «الرَّحْمٰنِ» لِيَغْفِرَ لَهُ، ويُكَفِّرَ عَنْهُ خَطِيئَتَهُ، ومِنْ ثَمَراتِها فِي السُّلوكِ الدَّائِم أنْ يَكُونَ صَاحِبُها حَفِيظاً شَدِيدَ الْمُحافَظَةِ علَىٰ فِعْلِ مَا أمَرَ اللَّهُ بِهِ، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ، شَدِيدَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى عَهْدِه مَعَ اللَّهِ الّذِي عَاهَدَهُ يَوْمَ أَسْلَمَ.

● أمّا النَّصُّ الَّذِي في سُورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فهو قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أُزْلِفَتْ﴾: أي: قُرِّبَتْ.

﴿أَوَّابٍ﴾: الأوّاب هو الرّجاع إلى الله بالتوبة والندم.

﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: أي: بقلب راجع إلى ربّه كلّما صرفته عن ساحة القرب منه عوارض الغفلات، وغشاواتُ الزّلّات، والتقصير في الطاعات والعبادات؛ وكانَ أخِرُ أَمْرِهِ الرُّجُوعَ إلى اللَّهِ بالتوبة والنّدم والطّاعة، ومَات علَىٰ ذَلِكَ.

دلّ هذا النصّ علىٰ مشْهَدٍ من مَشَاهِدِ يوْمِ القِيَامَةِ، فَقَبْلَ أنْ يَصْدُرَ الأَمْرُ بإدْخَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ الجَنّةَ، وإدْخَالِ أَهْلِ النَّارِ النّارَ، يَسُرُّ اللَّهُ عَزَّ وجَلّ الْمُتَّقِينَ، فيُقَرِّبُ لهُم الجنّة تَقْرِيباً إلى مَكَانٍ غَيْرِ بَعِيدٍ عَنْهُم، حتَّىٰ يتَمكّنُوا مِنْ رُؤْيَتِها، ومُشَاهَدَةِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ لَهُمْ، وفي هذا التَّقْرِيبِ بِشَارةٌ لهُمْ ومَسَرَّةٌ، وتَشْوِيقٌ لدُخُولِها، وطُمَأْنِينَةُ قَلْبٍ بأنّهُمْ مِنْ أَهْلِها.

وبَعْدَ هذَا الإِزْلَافِ يُقالُ لِكُلِّ أوَّابٍ حَفِيظٍ مِنَ المتَّقِين: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾.

جَاءَ التَّعْبِيرُ بصِيغَةِ الفِعْلِ المُضَارِع، لأَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ بَعْدُ، فهم ما زَالُوا يُوعَدُون، إلّا أنَّهُمْ يُشَاهِدُون حينئذٍ بأبْصَارهم ما كانوا يُوعَدُونَ مِنْ قَبْلُ، ومَا زَالُوا يُوعَدُونه.

ويَظْهَرُ أنَّ الْمُشَارَ إلَيْهِ بكَلِمَةِ (هذا) قِسْمٌ خَاصٌّ مِنَ الجنَّة، مُعَدٌّ لكُلِّ أوّابٍ حَفِيظٍ مِنْ عُمُوم الْمُتَّقِين ذَوِي الدَّرَجاتِ المُخْتَلِفَاتِ، لِذلِكَ جَاءَ في النَّصّ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: هذا ما تُوعَدُونَ بِه جَمِيعاً وَعْداً مَشْرُوطاً بِأنَّ مُسْتَحِقَّه لَا بدَّ أنْ يَكُونَ في أَدْنَىٰ الدَّرَجاتِ أَوَّاباً حَفِيظاً.

الأَوّابُ من المُتقِين: هو كَثِيرُ الرُّجُوعِ إلىٰ رَبِّه لَدَىٰ كُلِّ بَادِرَةِ مَعْصِيَةٍ تَكُونُ مِنْهُ، وكذَلِكَ سَرِيعُ الرُّجُوعِ إِلَىٰ رَبِّه بالتَّوْبَةِ والنَّدَمِ والاسْتِغْفَارِ، وكَثِيرُ الرُّجُوعِ إِلَىٰ مَوَاطِن الْقُرْبِ مِنْ ربِّه كلّما ابتعَدَ بمَشَاغِلِ الدُّنْيَا ولَوْ مِنْ دُونِ مَعْصِيَةٍ، فَصِيغَةُ الْمُبَالَغَة والتكْثِيرِ فِي كَلِمَة «أوَّاب» يُمْكِنُ حَمْلُهَا عَلَىٰ كُلِّ ذَلِكَ.

أمَّا الْحَفِيظُ: فَهُوَ كَثِيرُ الْمُرَاقَبَةِ لأعْمَالِه، وَأَوَامِرِ اللَّهِ ونَوَاهِيهِ الْمُتَعلِّقَةِ بِهَا، وكَثِيرُ الحِمَايَةِ لِنَفْسِه مِنْ مَزَالِقِ الْمَعَاصِي والآثَامِ والْمُخَالَفَاتِ، وكَثِيرُ الْعِنَايَةِ بتَغْذِيَةِ قَلْبه وفِكْرِهِ ونَفْسِه ورُوحِهِ بِمَا يُنَمِّي فِيهَا الارْتِقَاءَ فِي مَعَارِجِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، والسَّعَادَةِ بِعِبَادَتِه ومُنَاجَاتِه وتَدَبُّر آياتِه، وكُلُّ هذِه الْمَعَانِي تَدْخُلُ فِي عُمُوم دَلَالَةِ كَلِمَةِ الْحِفْظ.

فالحَفِيظُ عَلَىٰ مَالِه يُراقِبُه خَوْفَ الْعَوَارِضِ والمَكَارِهِ فِيه، ويَحْمِيهِ، ويَعْتَنِي بِه بالتَّنْمِيَةِ، حَتَّىٰ لَا تُفْنِيَهُ آكِلَاتُ الزَّمَانِ.

والأوابُ الْحَفِيظُ هُوَ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالْغَيْبِ، إذْ خَشْيَتُهُ نَابِعَةٌ مِنْ

شُهُودِه فِي عُمْقِ فُؤَادِه مَعْنَىٰ اسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ، واسْتَمَرّ حَالُهُ علَىٰ ذَلِكَ حتَّىٰ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَجَاءَ إِلَىٰ رَبِّه بِقَلْبٍ مُنيبٍ، أيْ: بِقَلْبٍ راجِعٍ إلى رَبِّه، تَائِبٍ ومُسْتَغْفِرٍ مِنْ ذَنْبِه، عَامِلٍ بِمَا أَمَرَهُ الله به، مُجْتَنِبٍ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ.

● وأمّا النصّ الذي في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) فهو قول الله عزَّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪﴾.

أي: إنّما يَنْفَعُ إنْذَارُكَ حِينَما تُنْذِرُ مَنْ أَصْغَىٰ للذِّكْرِ وهُوَ الْقُرْآنُ، واتّبَعَ دَلَالَاتِه لِيَتَدبَّرَها ويَنْتَفِعَ بها، وخَشِيَ الرحْمٰنَ بالْغَيْبِ.

وقَدْ ظَهر لَنا أنَّ خَشْيَةَ الرَّحْمٰنِ بالْغَيْبِ هِيَ ثَمَرَةُ الإيمانِ الصَّحِيحِ الصَّادِق، المَاثِلِ فِي تَصوُّراتِ الْمُؤمِنِ الحَاضِرَةِ الْمُتحَرِّكَةِ الْفَاعِلَةِ.

ومَنْ كَانَ كَذَلِكَ حَقَّتْ لَهُ البِشَارَةُ بمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وأجْرٍ كريمٍ، الأَجْرُ الكَرِيمُ هُوَ الأجْرُ الْعَظِيمُ الجَزِيلُ الْمَقْرُونُ بالتَّكْرِيمِ.

وهكَذا ظَهَرَ لَنا أنَّ مِنْ صِفَاتِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» الْمُتَغَلْغِلَةِ فِي عُمْقِ النَّفْسِ ما يَلِي:

الصفة الأولى: الإيمانُ الصَّحِيح الصَّادِقُ الْمُسْتَوْفِي كُلَّ عَنَاصِرِه.

الصفة الثانية: التَّوكُّلُ الصّادِقُ علَىٰ الرَّحْمٰن مَعَ اتِّخَاذِ كَامِلِ الأَسْبَابِ.

الصفة الثالثة: خَشْيَةُ الرَّحْمٰنِ بالْغَيْبِ.

وبهذا نَخْتِمَ التدبُّرَ التَّحْليليَّ لِمَا جَاءَ بِشَأْنِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ فِي الْقُرْآنِ.

* * *

إجمال صفات عباد الرحمن في سورة (الفرقان) وغيرها

(١) كُلُّ مَا هُو مَطْلُوبٌ مِنَ المتَّقِينَ بإلْزَامٍ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً فَهُو مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ.

(٢) مِنْ أَهَمِّ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ الْمُتَغلْغِلَةِ في عُمْقِ النَّفْسِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ التاليات:

أ ـ الإيمَانُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ الْمُسْتَوْفِي كُلَّ عَناصِرِهِ.

ب ـ التَّوكُّل الصَّادِقُ عَلَىٰ الرَّحْمٰنِ مَعَ اتِّخَاذِ كَامِلِ الأَسْبَابِ.

ج ـ خَشْيَةُ الرَّحْمٰنِ بِالْغَيْبِ.

(٣) صِفَاتُ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ الْمُفَصَّلَةُ فِي سُورَةِ (الفرقان) هِيَ اثْنَتَا عَشْرَةَ صِفَة:

الصفة الأولى: أَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ هَوْناً، بِخِفَّةٍ وَرِفْقٍ وسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ، غَيْرَ بَطِرِينَ ولَا مُسْتَكْبِرِينَ ولَا مُتَبَخْتِرِينَ، وَلَا يَكِدُّونَ لِمَطَالِبِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِسَعْيٍ يَسْتَهْلِكُ كُلَّ طَاقَاتِهِمْ وأَوْقَاتِهِمْ.

الصفةُ الثانيةُ: أَنَّهُمْ إذا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ بجَهَالَةٍ وسَفَهٍ مُسْتَثِيرِينَ غَضَبَهُمْ قَالُوا: سَلَاماً، وفَارَقُوا بإعْلَانِ الأَمْنِ مَجَالِسَ الْجَاهِلِينَ.

الصفةُ الثَّالِثَة: أَنَّهُمْ قَوَّامُونَ فِي لَيَالِيهِمْ، يَتَهَجَّدُونَ لِلَّهِ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لَهُ وَحْدَهُ، ذَاكِرِينَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وقُلُوبِهِمْ، وأَفْكَارِهِمْ، يُمَجِّدُونَه، ويَحْمَدُونَه، ويُسَبِّحُونَ بِحَمْدِهِ، ويُقَدِّسُونَ لَهُ، ويَسْأَلُونَه خَوْفاً وطَمْعاً، يَخْشُونَ عَذَابَهُ، ويَرْجُونَ ثَوَابَهُ.

الصفةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُمْ يُكَرِّرُونَ فِي دُعَائِهِمْ لِرَبِّهِمْ قَوْلَهُم: رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ، مُتَضَرِّعِينَ إلَىٰ اللَّهِ، مُسْتَعْطِفِينَه بِبَيَانِ أَنَّ عَذَابَ جَهَنَّم هُوَ

أَشَدُّ الْعَذَابِ، وهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ تَحمُّلَه، سَوَاءٌ أَكَانَتْ مُسْتَقَرًّا دَائِماً، أمْ مُقَاماً مُؤَقّتاً، ويَتَضَمَّنُ الدُّعَاءُ طَلَبَ إعانَتِهِمْ عَلَى حُسْنِ عِبادَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وتَوْفِيقِهِمْ لِلتَّحقُّقِ بِمَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ كُلَّ عَذابِ جهَنَّمَ.

الصفةُ الخامسَةُ: أَنَّهُمْ اقْتِصَادِيُّونَ أَهْلُ عَقْلٍ وبَصِيرَةٍ فِي تَصَرُّفَاتِهِمْ الْمَالِيَّةِ، إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُروا، بَلْ يَكُونُ إنْفَاقُهُم إنْفَاقاً مُعْتَدِلاً قَوَاماً بَيْنَ الإِسْرَافِ والتَّضْيِيقِ.

الصفةُ السّادسةُ: أَنَّهُمْ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخَرَ، مَهْمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمُ الضُّغُوطُ أَوِ الإِغْرَاءَاتُ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ والْجَاهِ، بِسَبَبِ مَكَانَاتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ الّتِي يَبْلُغُونَها، والْتِفَافِ جَمَاهِيرِ النَّاسِ حَوْلَهُمْ (ورُبمَا سَقَطَ بهذَا سَاقِطُونَ كَانُوا مِنْ عِبادِ الرَّحْمٰنِ).

الصفةُ السابعةُ: أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلّا بِالْحَقّ، ولا يُفْتُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، مَهْمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمُ الضُّغُوط أَوِ الإِغْرَاءَاتُ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ والْجَاهِ، لِتَحْرِيضِهِمْ عَلَىٰ إِصْدَارِ فَتَاوَىٰ أَوْ أحْكَام الْقَتْلِ بغَيْرِ حَقٍّ، باعْتِبَارِهِمْ أئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، ومَرْجِعاً لإِصْدَارِ الْفَتَاوَىٰ والأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ (ورُبمَا سَقَطَ بهذَا سَاقِطُونَ كَانُوا مِنْ عِبادِ الرَّحْمٰنِ).

الصفةُ الثامنةُ: أَنَّهُمْ لا يَزْنُونَ، مَهْمَا تَيَسَّرَتْ لَهُمُ الْوَسَائِلُ بالنَظَرِ إِلَىٰ مَكَانَتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّة الْرفيعَةِ، أَوْ مَنَاصِبِهِمْ فِي الْقَضَاءِ، أَوِ الْفَتْوَىٰ، الَّتِي تُغْرِي الْمُجْرِمِينَ بمُحَاوَلَاتِ رِشْوَتِهِمْ واسْتِدْرَاجِهِمْ لِلْحُكْم بِالْبَاطِلِ عَنْ طَرِيقِ اسْتِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِمْ (ورُبمَا سَقَطَ بهذَا سَاقِطُونَ كَانُوا مِنْ عِبادِ الرَّحْمٰنِ).

الصفة التاسِعَةُ: أَنَّهُمْ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (أي: الْبَاطِلَ والْكَذِبَ) فَلَا يَحْضُرُونَ مَجَالِسَ الزُّورِ، لِمَا فِي حُضُورِهَا مِنْ مُشَارَكَةٍ فِي الإِثْمِ، ولَا يَشْهَدُونَ شِهَادَاتٍ كَاذِبَاتٍ تُغَيِّرُ وَجْهَ الْحَقِّ.

وعبادُ الرَّحْمٰنِ يَتعرَّضُونَ لِضُغُوطٍ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ أَوْ الْجَاهِ أَو

الْمَصَالِحِ بالنَّظَرِ إِلَىٰ مَكَانَتِهِمُ الاجْتماعِيَّةِ، لاسْتِدْرَاجِهِمْ إِلَىٰ حُضُورِ مَجَالِسِ الْبَاطِلِ والإِثْم، أَوْ لِتَقْدِيم شَهَادَاتِهِمُ الكَاذِبَاتِ، الَّتِي يُغَطِي بِهَا الْمُجْرِمُونَ بَاطِلَهُمْ وجَرَائِمُهُمْ (ورُبمَا سَقَطَ بهذَا سَاقِطُونَ كَانُوا مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ).

الصفة العاشِرَةُ: أَنَّهُمْ حَرِيصُونَ جِدًّا عَلَىٰ أَوْقَاتِهِمْ أَنْ تَضِيعَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِدُنْيَاهُمْ أَوْ آخِرَتِهِمْ، فَلَا يَشْتَغِلُونَ باللَّغْوِ واللَّهْوِ وسَفَاسِفِ الأُمُورِ، فَإِذَا مَرُوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً عَابِرِينَ غَيْرَ مَاكِثِينَ، فَشَارَكُوا بالْقَلِيلِ الْيَسِيرِ مِنْهُ، وانْصَرَفُوا بسُرْعَةٍ، وهذا مِنْ كَمَالِ عَقْلِهْم وحُسْنِ بَصِيرَتِهِم، وحِرْصِهِمْ علَىٰ مَا يَنْفَعُهُمْ، واقْتِصَادِهِمْ فِي أَوْقَاتِهِم الّتِي هِي رأْسُ مَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الصفة الحادية عشرة: أَنَّهُمْ إذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ خَضَعُوا لَهَا إيمَاناً بِهَا، وخَرُّوا لِرَبِّهْم سُجَّداً ذَاكِرِينَ اللَّهَ، مَعَ حُضُورٍ قَلْبِيٍّ وفِكْرِيٍّ ونَفْسِيٍّ.

ولَا يَكُونُ مِنْهُمْ خُضُوعٌ شَكْلِيٌّ جَسَدِيٌّ فَقَطْ، خَالٍ مِنَ الْخُضُوعِ الْقَلْبِيّ والنَّفْسِيّ، وخَالٍ مِنَ الْحُضُورِ الْفِكْرِيّ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُرَاءُونَ والمُنَافِقُونَ.

فَهُمْ إِذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وعُمْيَاناً، وإنَّما يَخِرُّونَ عَلَيْها سَمِعِينَ ومُبْصِرِينَ، ومُسَبِّحِينَ بحَمْدِ رَبِّهِمْ لَا يَسْتَكْبِرُون.

الصفة الثانيةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُمْ حَرِيصُونَ عَلَىٰ اخْتِيَارِ الزَّوْجَاتِ الصَّالِحَاتِ، اللَّائِي يَكُنَّ مُسَاعِدَاتٍ لَهُمْ عَلَىٰ مُهِمَّاتِهِمْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، والْقِيَام بإمَامَةِ الْمُتَّقِينَ حَقًّا.

وأَنَّهُمْ حَرِيصُونَ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ ذُرِّيَّةٍ صَالِحَةٍ يُقَدِّمُونَها لِمُجْتَمَعَاتِهِمْ أَمْثِلَةً فَاضِلَةً.

وحَرِيصُونَ عَلَىٰ الارْتِقَاءِ فِي دَرَجَاتِ السَّابِقِينَ في الإِيْمَانِ، والْعَمَلِ الصَّالِحِ، والتَّوسُّعِ فِي فِعْلِ الخَيْرَاتِ، حتّىٰ يَكُونُوا أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، وقُدْوَةً حَسَنةً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

لِذٰلِكَ فَهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ دَاعِينَ قَائِلِينَ: **رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا للمتَّقِينَ إِمَاماً.**

ونَفْهَمُ مِنْ هذا أنَّ كُلَّ مَا يَتَّخِذُ الإِنْسَانُ أَسْبَابَهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ أنْ يُعِينَهُ عَلَيْه ويُوَفِّقَهُ فِيهِ.

* * *

وأَخِيراً أَبَانَ اللَّهُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ، الّذِي أَعَدَّهُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، لِزُمْرَةِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليليّ للدرس الحادي عشر من دروس السورة وهو الآية الأخيرة (٧٧) من آيات السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُرْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾.

تمهيد:

هذه الآية التي تمثّلُ الدرس الأَخير من دروس السورة، وهو درْسٌ موجَزٌ يعلم الله عزّ وجلّ فيه رَسُولَه، وكلَّ داعٍ إلى الله من أُمَّتِهِ مَا يَقُولُه لِكُفَّار قَوْمِهِ الّذِين أَصَرُّوا عَلَىٰ مَواقِفِهِمْ بَعْدَ سِلْسِلَةِ الإِقْنَاعَاتِ والتَّرْغِيبَاتِ والتَّرْهِيبَاتِ والعِبَرِ والْعِظَاتِ، الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا هذِهِ السُّورَة، وَمَا سَبَقَها من سُوَرٍ في مَرَاحِلِ التنزيل.

التدبُّر التحليلي:

﴿قُلْ﴾: هذا خطابٌ للرّسول ثمّ لكلّ داعٍ إلى الله من بعده.

﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾: أي: مَا يُبَالِي بِكُمْ، أَصْلُ الْعِبْءِ في اللُّغَةِ الْحِمْل، والْجَمْعُ «أَعْبَاء» بمَعْنَىٰ أَحْمَال. والْعِبْءُ أيضاً الْعِدْلُ، لِمَا يُوضَعُ فِيهِ مِنْ أَشْيَاءَ تُحْمَلُ اهْتِمَاماً بِمَا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ. وإِنَّمَا يَحْمِلُ الْعُقَلَاءُ مَا لَهُ قِيمَةٌ، أَوْ لَهُمْ بِهِ مَصْلَحَةٌ أَوْ مَنْفَعَةٌ، أَمَّا مَا لَا مَصْلَحَةَ لَهُمْ بِه فَإِنَّهُمْ يُهْمِلُونَهُ فَلَا يَحْمِلُونَهُ، ولَا يَجْعَلُونَهُ فِي أَوْعِيَتِهِمْ.

ومِنْ هُنَا يَأْتِي اسْتِعْمَال عِبَارَةِ: «لَا يَعْبَأُ بِه» بِمَعْنَىٰ: لَا يُبَالِي بِهِ لِعَدَمِ مَصْلَحَةٍ لَهُ فِيه.

وهُنَا نَقُول: هَلِ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ مَصْلَحَةٌ لِذَاتِهِ لَدَىٰ عِبَادِه؟

والجوابُ: لَقَدْ تَنَزَّهَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ، إنّ عِبَادَةَ عَابِدِيهِمْ لَا تَنْفَعُهُ بِشَيْءٍ، وَكُفْرَ كُفَّارِهِمْ وفُجُورَ فُجَّارِهِمْ لَا يَضُرُّه بِشَيْءٍ، إِذَنْ فَهُو لَا يُبَالِي مِنْ أَجْلِ ذَاتِه سُبْحَانَهُ بِعِبَادَةِ الْعَابِدِينَ، ولَا بِكُفْرِ الْكَافِرِينَ، أَوْ جُحُودِ الْجَاحِدِينَ، أَوْ فُجُورِ الْفَاجِرِينَ.

هذِه الْحَقِيقَةُ قَدْ جاءَ بَيَانُهَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيّ الّذِي رَوَاهُ الإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ الله عَنْه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَقَدْ جاءَ فِيهِ أنّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ:

«يَا عِبَادِي! إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبادي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذلِكَ في مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنسَكُمْ وجِنَّكُمْ كانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْب رجُلٍ وَاحِدٍ مَا نقَصَ ذلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خيراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

هذا الحديث القدسي يفسّر معنى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾ أيْ: مَا يُبَالِي بِكُمْ مِنْ أَجْلِ ذَاتِه، لأنّكُمْ لَنْ تَبْلُغوا ضَرَّهُ فَتَضُرُّوه، وَلَنْ تَبْلُغوا نَفْعَهُ فَتَنْفَعُوهُ.

وهُنَا يَأْتِي سُؤالٌ، وهُوَ: إِذَنْ فَلِمَاذَا بَعَثَ اللَّهُ لَنَا الرَّسُولَ، وأَنْزَلَ إلَيْنَا الكِتَابَ، وَلِمَاذَا يُعَالِجُنَا بِالإِقْنَاعِ والْمُجَادَلَةِ والْهِدَايَةِ والتَّرْغِيبِ، والتَّرْهِيبِ، وسَائِرِ وَسَائِلِ التَّرْبِيَة؟

أَلَيْسَ هَذَا مِنْ مُبَالَاتِه بِنَا؟ وعِنَايَتِه بشُؤُونِنَا؟

والجواب: بَلَىٰ، إِنَّهُ سُبْحَانَه يَعْبَأُ بِكُمْ وَلكِنْ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِه وذَاتِه، بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ أَنْتُمْ، رَحْمَةً بِكُمْ، واسْتِيفَاءَ لِكُلِّ مَا يَلْزَمُ لِتَبْصِيرِكُمْ وَهِدَايَتِكُمْ وَإِرْشَادِكُمْ، فِي دَعْوَتِكُمْ إِلَىٰ سَبِيلِ سَعَادَتِكُمْ ونَجَاتِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْمُعَدِّ لأَهْلِ الكُفْرِ والْفُجُورِ والْعِصْيَانِ.

فَلَوْلَا دُعاؤُكُمْ ـ أَيْ: دَعْوَتُكُمْ إِلَىٰ سُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِسَعَادَتِكُمْ ونَجَاتِكُمْ ـ مَا كَانَ رَبِّي يَعْبَأُ بِكُمْ.

فَمَعْنَى: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾: لَوْلَا دُعَاءُ اللَّهِ إِيَّاكُمْ، لَفْظُ «دُعَاء» مَصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَىٰ الْمَفْعُولِ بِه، والْفَاعِلُ مَعْلُومٌ مِنَ السَّابِقِ واللَّاحِقِ، وهُوَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ.

فَعِنَايَةُ اللَّهِ بِكُمْ هِيَ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَتِكُمْ، واسْتِيفَاءِ شُرُوطِ دَعْوَتِكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي هذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ولَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَعْبَأ اللَّهُ بِكُمْ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وذَاتِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَه الْغَنِيُّ الْعَزِيزُ مَالِكُ الْمُلْكِ، وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلَكِنَّكُمْ مَعَ هذِهِ الْعِنَايَةِ الْبَالِغَةِ بِكُمْ مِنْ أَجْلِكُمْ أَنْتُمْ، ورَحْمَةً بِكُمْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِه مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ وَنَجَاتِكُمْ، والْخِطَابُ هُنَا لِلَّذِينَ أَصَرُوا عَلَىٰ الكُفْرِ على الرغْمِ مِن كُلِّ أَنْواعِ الْعِلَاجِ الَّتِي جَاءَتْ فِي سُورَة (الفرقان) ومَا نَزَلَ قَبْلَهَا مِنْ سُور القرآن.

﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾: أيْ: فَقَدْ كَذَّبْتُمْ الرَّسُولَ الْمَبْعُوثَ إِلَيْكُمْ، وكَذَّبْتُم بالْقُرْآنِ، وكَذَّبْتُمْ بالْجَزَاءِ وَبِيَوْمِ الدِّينِ، وأَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ مَوَاقِفِ الكُفْرِ، وَمَا لَكُمْ بِذَلِكَ حُجَّةٌ تَحْتَجُّونَ بِهَا لَدَىٰ رَبِّكُمْ، ولَا عُذْرٌ تَعْتَذِرُونَ بِهِ سَاعَةَ حِسَابِكُمْ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾: أيْ: فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبُكُمْ هَذَا لِزَاماً.

اللِّزَامُ: مَصْدَرٌ كالْمُلَازَمَة، تَقُولُ لُغَةً: لَازَمَهُ مُلَازَمَةً وَلِزَاماً. والْمَعْنَىٰ فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبُكُمْ هذا مُلَازِماً لَكُمْ حَتَّىٰ تَنَالُوا عِقَابَهُ يَوْمَ الدِّينِ، ضِمْنَ قَوَاعِدِ الْجَزَاءِ الْمُقَرَّرَةِ لِكُلِّ مَنْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَبْلُوَهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، فَمَا دُونَ ذَلِكَ حتَّىٰ أَكْفَرِهِمْ وأَفْجَرِهِمْ، والذَّنْبُ الْمُلَازِمُ لِمَنِ ارْتَكَبَهُ لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ حتَّىٰ يَنَالَ عِقَابَهُ، ومَعْلُوم أَنَّ عَذَابَ التَّكْذِيبِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَذَابٌ مُلَازِمٌ خالِدٌ في السَّعِيرِ دُونَ نِهَاية.

وتنتهي السورة وينقطع الحِوَارُ مَعَ الّذِين كَفَرُوا بِهٰذَا الْخِتَامِ الْحَاسِمِ.

* * *

ملاحق تَدبُّرِ سُورة الفرقان

الملحق الأول: شجرة موضوع السّورة.

الملحق الثاني: مستخرجات بلاغيّة وفنيّة من السّورة.

الملحق الثالث: حول البيان المقرون بالحجّة والبرهان وبالتفسيرات الموضِّحَات للحكمة من الاختيار الرّبّاني في السورة.

الملحق الرابع: حول منهاج الدّعوة ووسائل التربية في السورة.

الملحق الخامس: حول ما يَنْبَغي أن يَتحلَّى به حامل الرسالة أَخْذاً ممّا جاء في السُّورة.

(١٦)

الملحق الأول

شجرة موضوع سورة (الفرقان)

سبق في مُقَدِّمَات تدبّر السُّورة بيَانُ موضُوعِها وبَيَانُ فُروع شَجَرَتِها، وفي هذا الملحق تَفْصِيلٌ لآياتها على خُطوطها في جداولَ مع التذكير بموضوعها وفروع شجرتها:

موضوع السُّورة: كُليَّاتٌ كُبْرَىٰ مِنْ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإِيمانِيَة وحال النَّاسِ فِي مَرْحَلَةِ نُزُولِ السُّورَةِ تُجَاهها مع التوجيه والتربيّة والمعالجة.

تَسِير آياتُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ علىٰ أَرْبَعَةِ خُطُوطٍ رَئِيسَةٍ ذَاتِ فُرُوعٍ:

الخطّ الأول: الله عزَّ وجلّ، وبَعْضُ صِفَاتِه وأَسْمَائِه الْحُسْنَىٰ، وآيَاتِه فِي كَوْنِه الدّالّاتِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِه وأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، ومِنْهَا اسْمُ اللَّهِ الرّحْمٰنِ، مَعَ العِلْمِ بأَنّ كلَّ مَا دَلَّ عَلَىٰ الصِّفَةِ دَلَّ عَلَىٰ وُجودِ الذَّاتِ.

الخط الثاني: كِتَابُ اللَّهِ (القُرآن) وكَوْنُهُ فُرْقاناً، ومَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ تَنْوِيعِ الأَدِلَّةِ وتَصْرِيفِهَا فيه، وأَقْوَالِ الَّذِين كَفَرُوا فِي مَعَاذِيرِهِمْ وتَعلَّاتِهِمْ لِرَفْضِ الإِيمَانِ بِه، مُدَّعِينَ أَنَّه لَيسَ كَلَامَ اللَّهِ، وَلَيْسَ مُنزَّلاً مِنْ لَدُنْهُ، مَعَ الْمُعَالَجةِ الرَّبَّانِيَّةِ، ومَعَ تَوْجِيهَاتِ الله لِرَسُولِه بِشَأْنِه، وهَذِهِ التَّوْجِيهَاتُ هِيَ تَوْجِيهَاتٌ لِخُلَفَاءِ الرَّسُولِ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ جَمِيعاً إِلَى سَبِيل اللَّهِ، وَفِي الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيّ، وهَؤلَاءِ الْخُلَفَاءُ هُمْ أَئِمَّةُ الْمُتَّقِين.

الخطّ الثالث: الرَّسُولُ مُحمَّدٌ ﷺ وَرِسَالَتُهُ، وأَقْوَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَعَاذِيرِهِمْ وتَعِلَّاتِهِمْ لِرَفْضِ الإِيْمَانِ بِه واتِّبَاعِه، وَفِي مُقْتَرَحَاتِهِمُ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا بِشَأْنِه حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بأَنّه رَسُولُ اللَّهِ حقًّا ويَتّبِعُوه.

وشَكَاوَىٰ الرَّسُولِ مِنْ أَحْوالِ قَوْمِه بشَأْنِ الْقُرْآن، وبِشَأْنِ رِسَالَتِه فِيهِمْ، وكِتْمَانِ مَا يَتَعَلّقُ بِشَخْصِهِ وَبِالَّذِينَ آمَنُوا بِه واتَّبَعُوهُ.

مَعَ الْمُعَالَجَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَلِمَا صَرَّحَ بِهِ الرَّسُولُ فِي شَكْوَاهُ، ومُعَالَجَةِ نَفْسِهِ بِشَأْنِ مَا كَتَمَهُ مِنْ شَكَاوَىٰ لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا، وتَنْسَحِبُ هٰذِهِ الْمُعَالَجَةُ عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، لأنَّ مَا نَالَهُ مِنْ قَوْمِه قَدْ نَالَهُمْ، وَرُبَّمَا تَعَرَّضُوا لأَذَىً مَادِّيٍّ أَكْثَر.

الخط الرابع: الْمُرْسَلُ إِلَيْهِم، الَّذِين صَارُوا فِي مَرْحَلَةِ نُزُولِ سُورَةِ (الفرقان) فَرِيقَيْنِ وَاضِحَيْنِ:

الفريق الأول: المؤْمِنُونَ وهُمُ القِلَّةُ المُضْطَّهَدَةُ، مَعَ تَوْجِيه طَائِفَةٍ مِنْهُمْ لِيَكُونُوا خُلَفَاء الرَّسُولِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ، وفِي الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وهُمْ طَائِفَةُ (عِبَادِ الرَّحْمٰنِ).

الفريق الثاني: الّذِين كَفَرُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وهُمُ الكَثْرَةُ ذَاتُ الْعِزَّةِ والسُّلْطَانِ فِي مَكَّةَ وتَوابعِها يومئذٍ.

واشْتَمَلَ هذَا الْخَطُّ عَلَىٰ عَرْضِ مَوَاقِفِهِمْ من توحِيدِ اللّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ، ومَوَاقِفِهِمْ مِنَ الْقُرْآن، ومِنَ الرَّسُولِ وَرِسَالَتِه.

مَعَ الْعَالَجَةِ الرَّبَّانِيَّة لَهُمْ بالحُجَجِ والبَرَاهِينِ الإِقْنَاعِيَّةِ، وبالتَّرْغِيبِ، وبالتَّرْهِيبِ مِنْ عِقَابِ اللّهِ الْمُؤَجَّلِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وعِقَابِه المُعَجَّلِ فِي الدُّنْيا.

واشْتَمَلَتْ هذه الْمُعَالَجَةُ عَلَىٰ عَرْضِ مَشَاهِدَ مِنْ يَوْمِ الدِّينِ، ومَوْقِفِ الْحِسَابِ، ولَقَطَاتٍ مِنْ صُوَرِ الْعِقَابِ، وعَلَىٰ عَرْضِ عِبَرٍ تاريخيَّةٍ مِنْ قِصَصِ الْمُهْلَكِين السّابِقِينَ الّذِين كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ.

وقَدْ جَاءَتْ الإِشَارَةُ إِلَىٰ مَوْضُوعِ السُّورَةِ فِي الآيةِ الأُوْلَىٰ مِنْها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾.

وفِيمَا يَلِي جَدَاوِلُ خُطُوطِ السورة مَعَ توزيع آيات السُّورَةِ عليها.

الخط الأول:

الله وبعض صفاته وأسمائه وآياته في كونه:

(أ) من صفات الله عزّ وجلّ الدالة على توحيد ربوبيته فإلّهيته:

١ ـ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.

٢ ـ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

٣ـ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ.

٤ ـوَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الآية: ٢].

(ب)من آيات الله في كونه الدالّات على بعض صفاته وأسمائه الحسنى، دليلاً على التوحيدين:

أولاً:

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ.

٢ ـ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا.

٣ ـثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا.

٤ ـثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الآيتان: ٤٥، ٤٦].

ثانياً:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا.

٢ ـ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا.

٣ ـ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الآية: ٤٧].

ثالثاً:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ.

الخط الثاني:

كتاب الله (القرآن) والأقوال بشأنه مع المعالجة والتوجيهات:

(أ) من أقوال المشركين حول القرآن باتهام الرسول مع المعالجة الربّانية:

أولاً:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟:

١ ـ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ (أي: كذب).

٢ ـ ٱفْتَرَىٰهُ (أي: محمد).

٣ ـوَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ.

(تعقيب):

- ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الآية: ٤].

ثانياً:

﴿وَقَالُوٓا۟:

١ ـ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ.

٢ ـ ٱكْتَتَبَهَا (أي: محمد).

٣ ـفَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الآية: ٥].

(تعقيب):

- ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾. [الآية: ٦].

(ب)شكاوى الرسول التي صرح بها بشأن القرآن، والمعالجة الرّبانية لما كتمه الرسول، ثم لِمَا صرّح به:

أولاً:

(شكوى):

تابع الخط الأول:

الله وبعض صفاته وأسمائه وآياته في كونه:

٢ ـ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا [الآية: ٤٨].

٣ ـ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا.

٤ ـ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا [الآية: ٤٩].

رابعاً:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ.

٢ ـ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ.

٣ ـ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا.

٤ ـ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الآية: ٥٣].

خامساً:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا.

٢ ـ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا.

٣ ـ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الآية: ٥٤].

سادساً:

١ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ.

٢ ـ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الآية: ٥٩].

سابعاً:

(الاستدلال لإثبات اسم الله الرحمن):

تابع الخط الثاني:

كتاب الله (القرآن) والأقوال بشأنه مع المعالجة والتوجيهات:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ:

١ ـ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا.

٢ ـ . . . (شيء طواه الرسول) [الآية: ٣٠].

(معالجة لما طواه الرسول).

١ ـ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ.

٢ ـ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الآية: ٣١].

ثانياً:

(شكوى):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟:

١ ـ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً.

٢ ـ . . . (شيءٌ آخر طواه الرسول).

(معالجة لما صرّح به الرسول):

كذلك:

(أي: أنزلناه منجماً).

١ ـ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ. (الخطاب للرسول).

٢ ـ ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الآية: ٣٢].

٣ ـ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

(معالجة لما طواه الرسول):

٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

(ج) بيان تنويع أساليب الإقناع والتربية والترغيب والترهيب فيما نزل من قرآن قبل سورة (الفرقان) مع التوجيه بشأنه.

تابع الخط الأول:

الله وبعض صفاته وأسمائه وآياته في كونه:

١ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا.

٢ ـ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾
[الآية: ٦١].

٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً.

٤ ـ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾
[الآية: ٦٢].

* * *

تابع الخط الثاني:

كتاب الله (القرآن) والأقوال بشأنه مع المعالجة والتوجيهات:

١ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ.

٢ ـ لِيَذَّكَّرُوا۟.

٣ ـ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾
[الآية: ٥٠].

(تكليف الرسول مجاهدةَ قومه بالقرآن):

٤ ـ ﴿. . . وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾
[مِنَ الآية: ٥٢].

* * *

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

(أ) من أقوال المشركين في الرسول ومقترحاتهم بشأنه، مع المعالجات الربّانية:

أولاً:

﴿وَقَالُوا:

١ ـ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ.

٢ ـ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الآية: ٧].

٣ ـ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا.

ثانياً:

وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ:

٤ ـ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الآية: ٨].

- (معالجة بالبيان والحجّة):

الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١)
فريق مَن آمن واتَّبع

فريق المؤمنين

(٢)
وفريق مَن تولَّى وكَفَر

فريق الكافرين

(أ) بيان صفات آلهتهم التي اتخذوها شركاء من دون الله:

﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً:

١ ـ لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا.

٢ ـ وَهُمْ يُخْلَقُونَ.

٣ ـ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

٤ ـ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الآية: ٣].

(ب) بيان أساس العلة لدى المشركين وهو تكذيبهم بالجزاء يوم الدين:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ ...﴾ [من الآية: ١١].

(معالجة بالوعيد بعذاب السعير):

﴿... وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [من الآية: ١١].

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

١ ـ ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩)﴾.
٢ ـ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ.
٣ ـ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.
٤ ـ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الآية: ١٠].

- (معالجة أخرى وفيها توجيه للرسول):

١ ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ.
٢ ـ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً.
٣ ـ أَتَصْبِرُونَ؟
٤ ـ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الآية: ٢٠].

(ب) من أعمال وأقوال المشركين ضد الرسول ورسالته، مع المعالجات الربّانية:

الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١)
فريق مَن آمن واتَّبع

(٢)
وفريق مَن تولَّى وكَفَر

فريق المؤمنين

بيان أن المتقين قد وعدوا جنة الخلد:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦)﴾.

فريق الكافرين

١ ـ ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢)﴾.
٢ ـ ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣)﴾.
٣ ـ ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا.
٤ ـ وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الآية: ١٤].

(ج) مقارنة بين حال الكافرين وحال المؤمنين المتقين يوم الدين بتكليف الرسول مواجهتهم بها:

﴿قُلْ:
١ ـ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ؟
٢ ـ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ [الآية: ١٥].

الخط الثالث: **الرسول محمد ﷺ وأقوال الذين كفروا بشأنه، ومقترحاتهم حوله، مع المعالجات الربانية:**	**الخط الرابع:** **المرسل إليهم، وهم فريقان:**	
	(١) **فريق مَن آمن واتّبع**	(٢) **وفريق مَن تولّى وكفر**
	فريق المؤمنين	**فريق الكافرين**
١ ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا. ٢ ـ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الآية: ٤١]. ٣ ـ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا. (معالجة للمستهزئين بالتلويح بالوعيد): ٤ ـ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٤٢]. (معالجة للرسول بشأن شكواه من أن قومه اتخذوا هذا القرآن مهجوراً): ١ ـ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾. ٢ ـ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟ ٣ ـ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ. ٤ ـ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٤٤].		٣ ـ ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ. ٤ ـ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الآية: ١٦]. (د) عرض مشهد من مشاهد محاسبة المشركين يوم الدين: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ: ١ ـ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ؟ ٢ ـ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ؟﴾ [الآية: ١٧]. ﴿قَالُوا: ١ ـ . سُبْحَٰنَكَ ٢ ـ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ. ٣ ـ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ. ٤ ـ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الآية: ١٨].

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

(معالجة للمعترضين على كون رسالة محمد عامّة للعالمين):

١ ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١)﴾.

(معالجة للرسول بشأن مقترحات الذين كفروا):

٢ ـ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ . . .

٣ ـ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الآية: ٥٢].

(أي: بالقرآن وما فيه).

(ج) تربية الله لرسوله بشأن عدد من القضايا:

١ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦)﴾.

(أي: لست مكلّفاً إلزام الناس أو تحويلهم إلى الإيمان).

الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١) فريق مَن آمن واتّبع

(٢) وفريق مَن تولّى وكفَر

فريق المؤمنين

فريق الكافرين

(تعقيب على موقف الحساب والمحاكمة):

١ ـ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ.

٢ ـ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا.

٣ ـ وَلَا نَصْرًا.

٤ ـ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الآية: ١٩].

(هـ) بيان مقترحات الذين كفروا بشأن تلقيهم الوحي مباشرة عن الملائكة أو عن الله:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا:

(أي: لا يخافون لقاء الله).

١ ـ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ.

٢ ـ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا . . .﴾ [من الآية: ٢١].

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

٢ ـ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧﴾.
٣ ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ.
٤ ـ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ.
٥ ـ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الآية: ٥٨].

(أي: لا تحمل همّ ذنوب الناس من أجل ربّك، فهو خبير بأحوالهم، وقدير على إجراء ما يريد فيهم).

الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١)
فريق مَن آمن واتّبع

(٢)
وفريق مَن تولّى وكفَر

فريق المؤمنين

فريق الكافرين

(تعقيب ببيان علتهم النفسية وأثرها في سلوكهم):

٣ ـ ﴿... لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ.

٤ ـ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [من الآية: ٢١].

(معالجة لاقتراحهم تلقي الوحي عن الملائكة):

● ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ:

١ ـ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ

أصحاب الاقتراح وغيرهم.

٢ ـ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الآية: ٢٢].

٣ ـ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾.

الخط الثالث:

الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

الخط الرابع:

المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١)
فريق مَن آمن واتّبع

(٢)
وفريق مَن تولّى وكَفر

فريق المؤمنين

بيان ثواب المؤمنين بأنهم أصحاب الجنة وبأنهم خير مستقراً فيها وأحسن مقيلاً في البرزخ:

- ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الآية: ٢٤].

فريق الكافرين

(مقارنة بينهم وبين المؤمنين المتقين):

٤ ـ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾.

(معالجة لاقتراحهم تلقي الوحي عن ربّهم مُباشرة):

- ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾.

(أي: وجاء الربّ لمحاسبة عباده ومحاكمتهم).

١ ـ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ.

٢ ـ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الآية: ٢٦].

(معالجة بعرض مشهد من مشاهد ندم الظالمين يوم الدين):

الخط الثالث: **الرسول محمد ﷺ** **وأقوال الذين كفروا بشأنه،** **ومقترحاتهم حوله،** **مع المعالجات الربانية:**	**الخط الرابع:** **المرسل إليهم، وهم فريقان:** **(١)** **فريق مَن آمن واتَّبع**	**(٢)** **وفريق مَن تولَّى وكَفَر**
	فريق المؤمنين	**فريق الكافرين**
		• ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ: ١ ـ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ [الآية: ٢٧]. ٢ ـ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الآية: ٢٨]. ٣ ـ ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ . . .﴾. (تعقيب بشأن الشيطان سواء أكان من الجنّ أو من الإنس): ٤ ـ ﴿. . . وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الآية: ٢٩]. (و) التلويح بالعقاب المعجل بأسلوب عرض قصص بعض المهلكين من الأمم الماضية للاعتبار:

الخط الثالث:

الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

الخط الرابع:

المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١) فريق مَن آمن واتّبع

(٢) وفريق مَن تولّى وكَفَر

فريق المؤمنين

فريق الكافرين

● (عبرة من قصة موسى وقومه):

١ - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ.

٢ - وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الآية: ٣٥].

٣ - ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا.

٤ - فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الآية: ٣٦].

● (عبرة من قصة نوح وقومه):

١ - ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ . . .

(أي: كذلك).

٢ - . . . لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ.

٣ - وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً.

٤ - وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآية: ٣٧].

<table>
<tr>
<td>الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:</td>
<td colspan="2">الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:
(١) فريق مَن آمن واتَّبع
(٢) وفريق مَن تولّى وكَفَر</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>فريق المؤمنين</td>
<td>فريق الكافرين</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td></td>
<td>● (عبرة من قصص جملة أقوام):
١ ـ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ.
٢ ـ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الآية: ٣٨].
٣ ـ ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ.
٤ ـ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الآية: ٣٩].
● (عبرة من قصة قوم لوط):
١ ـ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ.
٢ ـ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا؟!
(التعقيب):
٣ ـ بَلْ: (بل كانوا يرونها ولكن)..
٤ ـ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الآية: ٤٠].</td>
</tr>
</table>

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١) فريق مَن آمن واتَّبع

(٢) وفريق مَن تولَّى وكَفَر

فريق المؤمنين	فريق الكافرين
	(ز) بيان أن الذين كفروا من المشركين ما زالوا مصرّين على أن يعبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم معاندين مظاهرين للشيطان: ١ - ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ. ٢ - وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ [الآية: ٥٥]. (ح) عرض إنكار الذين كفروا اسم الله «الرحمن» أي: إنكارهم صفة الرحمة من صفاته الجليلة: (بعد إثبات أن الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش هو الرحمٰن الذي يعرف رحمته المجربون أهل الخبرة، جاء العرض):

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١)
فريق مَن آمن واتَّبع

(٢)
وفريق مَن تولَّى وكَفَر

فريق المؤمنين	**فريق الكافرين**
بيان صفات عباد الرحمن من المؤمنين، وهم أئمة المتقين في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم وآدابهم، ومنهم الدعاة إلى سبيل الله في عموم الناس، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر بين جماعات المسلمين.	١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ. ٢ ـ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ؟! ٣ ـ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟! ٤ ـ وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الآية: ٦٠]. (المعالجة بعرض بعض آيات الله التي يؤمنون بأنها من آياته في السماء لتوجيههم لما لها من آثار في الأرض هي من آثار رحمته تعالى): ١ ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا. ٢ ـ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الآية: ٦١]. ٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً. ٤ ـ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الآية: ٦٢].

الخط الثالث:

الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

الخط الرابع:

المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١)
فريق مَن آمن واتَّبع

(٢)
وفريق مَن تولَّى وكَفَر

فريق المؤمنين	**فريق الكافرين**
وهم خلفاء الرسول في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ: ١ ـ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا. ٢ ـ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الآية: ٦٣]. ٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾. ٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ: • رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ. • إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الآية: ٦٥]. • ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾.	

الخط الثالث:

الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

الخط الرابع:

المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١)
فريق مَن آمن واتَّبع

(٢)
وفريق مَن تولَّى وكَفَر

فريق المؤمنين

فريق الكافرين

٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ:

- لَمْ يُسْرِفُواْ.
- وَلَمْ يَقْتُرُواْ.
- وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الآية: ٦٧].

٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ

٧ ـ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ.

٨ ـ وَلَا يَزْنُونَ.

(تحذير بشأن الشرك والقتل والزنا):

- وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الآية: ٦٨].
- ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

(استثناء من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً):

الخط الثالث:
الرسول محمد ﷺ
وأقوال الذين كفروا بشأنه،
ومقترحاتهم حوله،
مع المعالجات الربانية:

الخط الرابع:
المرسل إليهم، وهم فريقان:

(١)
فريق مَن آمن واتّبع

(٢)
وفريق مَن تولّى وكفر

فريق المؤمنين	فريق الكافرين
• ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ. • وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الآية: ٧٠]. (بيان شرط هذه التوبة): • ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾. ٩ - ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ. ١٠ - وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الآية: ٧٢]. ١١ - ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)﴾. ١٢ - ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ:	

الخط الثالث: **الرسول محمد ﷺ** **وأقوال الذين كفروا بشأنه،** **ومقترحاتهم حوله،** **مع المعالجات الربانية:**	**الخط الرابع:** **المرسل إليهم، وهم فريقان:** **(١)** **فريق مَن آمن واتّبع** **(٢)** **وفريق مَن تولّى وكفَر**

فريق المؤمنين	**فريق الكافرين**
• رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٖ . • وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الآية: ٧٤]. (بيان جزائهم يوم الدين في جنات النعيم): • ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ . • وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الآية: ٧٥]. • ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾.	

تكليف الرسول أن يقول للذين أصرّوا على الكفر في نهاية السورة:

﴿قُلۡ .... 〉 ١ ـ ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ .

٢ ـ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ .

٣ ـ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ [الآية: ٧٧].

وانتهت السورة

* * *

(١٧)

الملحق الثاني
مستخرجات بلاغية وفنيّة من السورة

(١) نظام التقسيم المتناظر

من الروائع الملاحظة في سورة (الفرقان) رائعة التقسيم الرُّباعي المنتظم القائم على ذكر أربع جمل ضمن كلّ وحدة فكريّة يجمعها جامع ما.

ونجد هذا في معظم وحدات السورة التي يَجْمَعُ كلَّ وحدةٍ منها جامع، وخرج عن هذا التنظيم المتناظر بعض الوَحَدَات، إذْ جَاءَتْ ثُلاثيَّة، وبَعْضُ الْوَحَدَاتِ إذْ جَاءت ثُنائيّة، وقَدْ تأتِي خرجةٌ خامسةٌ فوق التقسيم الرّباعي، وقدْ تأتي جُمْلَةٌ واحِدَة ذاتُ وحدة فكريّة تامّة، وأخيراً جاءت صفات عباد الرحمٰن جامعة (١٢) صفة، وهي حاصل ضرب أَرْبَعَةٍ في ثَلاثَة، وكلّ ذلك ضِمْنَ نَسقٍ جَمَاليٍّ بديع.

ولعلّ التزام التقسيم الرّباعي غالباً في السورة قد لوحظ فيه أنّ موضوعها الذي أشارت إليه آيَتُها الأولى قد اشتمل على أقسام أربعة، هي:

«الله ـ الكتاب ـ الرسول ـ المرسَلُ إليهم».

وباستطاعة المتدبّر أن يتأكّد من هذه الملاحظة بأن ينظر في شجرة موضوع السورة، كما هو مفصّل في الملحق الأول، بدءاً من الآية الثانية في السورة، فالثالثة، وهكذا إلى سائر وحدات السورة، فجمل الوحدات مرقَّمَةٌ في جَدَاوِلِ الشجرة.

فالآية الثانية مثلاً اشتملت على أربع صفاتٍ لله عزَّ وجلّ.

والآيةُ الثالثة اشتَمَلَتْ على أربع صِفَاتٍ للآلهة التي اتّخَذَها الْمُشْرِكُونَ.

وانظر متتبّعاً في الجداول.

* * *

(٢) التوطئة لما يُرادُ التفصيل فيه

من أغراض السورة الأساسيّة بيان أنّ من صفات الله عزَّ وجلّ صِفَةَ الرَّحْمَةِ، وأنّ من أسمائه الحسْنَى اسْمَهُ «الرَّحْمٰن» الأمر الذي لا يؤمِنُ بِهِ الكافرون المتحدّثُ عنهم في السورة، وأن اسم الله «الرحمٰن» هو الاسم الذي يكون حظّ أئمة المتّقين منه حظّاً وفيراً، إذِ ارتَقَوا فوق مرتبة «التقوى» ودخلوا في درجات مرتبة «البرّ» ثم مرتبة «الإِحسان» لذلك استحقُّوا أن يُلقَّبوا بلقب «عباد الرحمٰن» وهذا اللَّقب هو بمثابة جائزة تفوّق، أو شهادة تفوّق، عنوانها «عباد الرحمٰن».

وقد جاءت التوطئة باختيار ذكر اسم «الرحمٰن» من أسماء الله الحسنىٰ، في الآية (٢٦) بقوله تعالى بشأن يوم الدين:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

مع ما في ذكر هذا الاسم هنا من الإشارة إلى الرحمة العظيمة التي يرحم الله بها عباده يوم القيامة، على الرغم من أنه يومٌ عسيرٌ على الكافرين.

ثم جاء تفصيل الحديث عن اسم الله «الرحمٰنِ» مع الأدلّة على صفة رحمة الله من الظاهرات الكونية، في الآيات (من ٥٩ إلى ٦٢) لإقناع المنكرين لهذا الاسم من أسماء الله الحسنى، باعتبار أنّهم ينكرون اتصافَهُ عزَّ وجلّ بصفة الرحمة.

وبعد ذلك جاء وصف عباد الرحمٰن، المستحقين لهذا اللّقب الشريف، بسبب تفوُّقهم، حتى صاروا أئمةً للمتقين.

* * *

(٣) ذكر القضايا الكليّة
عَقِبَ القضايا الجزئيّةِ لبَيانِ دُخُولها فِي عُمُومِها

من روائع أساليب القرآن البيانيّة ذكر القضايا الكلّيّة عقب الحديث عن قضايا جزئية للإشعار بدخول هذه القضايا الجزئية المتحدّث عنها في عموم القضايا الكلّيّة التي جاءت عقبها.

فيستفاد من هذا الأسلوب الرائع ما يلي:

١ ـ تأصيل القضيّة الكلّيّة، وبيان أنّها تنطبق على جزئيات كثيرة، ومنها الجزئية التي جاءت سابقةً لها.

٢ ـ الحُكْمُ عَلىٰ الْقَضِيَّةِ الْجُزْئِيَّةِ المتَحدَّثِ عَنْها بأنّها إحْدَىٰ جُزْئِيّاتِ هٰذِهِ القضيّة الكلّيّة العامّة.

٣ ـ إدخالُ أشباه هذه القضيّة الجزئية ونظيراتها في عموم القضية الكلّيّة، فينطبق عليها حُكْمُها بمقتضىٰ دلالة العموم.

الأمثلة:

المثال الأول: في الآية (٦) من السورة، يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾.

أي: أنزل القرآن الذي يعلم كلّ السرّ، وممّا يعلم من السرِّ ما تخفونه في أنفسكم منْ عِلْمٍ بأنّ القرآنُ كلامُ الله، وبأنّ محمّداً رسول الله حقّاً، وبأنّه صادق فيما يبلغ عن ربّه.

وإنّ من صفات الله الثابتة له دواماً أنّه غفور رحيم، وبما أنكم من عباده، فإنه يَفْتَح لَكُم أبْوابَ غُفْرانِه ورَحْمته، إذا تُبْتُمْ وآمَنْتُمْ وأصْلَحْتُمْ قَبْلَ فَوَاتِ الأوان.

المثال الثاني: في الآية (١١) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ بشأن كفّار مكة المتحدَّثِ عنهم فيها:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

أي: وأعتدنا لكل من كذّب بالساعة عذاب السعير، ولمّا كان كفّار مكة المتحدّثُ عنهم في السورة ممَّن كذّب بالساعة كانوا داخلين في عموم هذه القضيّة الكليّة، فهم سينالون عذاب السعير، إذا انتهت مدّة امتحانهم قبل أن يتوبوا ويستغفروا ويُصْلِحوا.

المثال الثالث: في الآية (٢٠) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ في معالجة نفسه ممّا يعتلج فيها بسبب رفض كفار قومه أن يؤمنوا به، لأنه بَشَرٌ يأكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأسْوَاقِ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وجعلنا بعضكم يا أيّها الناس لبعضٍ فتنة (= مادَّة لِلامْتِحَان).

ولـمّا كان الرسول ﷺ واحداً من عموم الناس فهو عرضة لهذا الامتحان.

وجاءت جملة ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ قضيّة كلية، والرسول في عمومها مدعوٌّ لهذا الصبر.

وجاءت جملة: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ قضيَّةً كليّةً أيضاً، وحالة الرسول مع قومه من الحالات التي يُبْصِرُها اللَّهُ وَيَعْلَمُها، ويَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُعَالِجُها بِحِكْمَتِهِ فَيَنْصُرُ رَسُولَه وَيَخْذُلُ أَعْدَاءَه.

المثال الرابع: في الآية (٢٦) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ بشأن بعض أحوال يوم القيامة:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وكان يوم القيامة يوماً عسيراً على كلّ الكافرين، ولمّا كان المتحدّث عنهم في السورة هم من الكافرين كان يوم القيامة يوماً عَسِيراً عليهم، إذا ماتوا وهم على كفرهم.

المثال الخامس: في الآية (٢٧) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ويوم يعض كلّ ظالم على يديه ويقول كلّ ظالم: يا ليتني.

ولمّا كان المتحدّث عنهم في السورة من الظالمين، كما جاء في الآية (٨) عنهم، كانوا من الذين يعضون على أيديهم، ويقول كل واحد منهم: يا ليتني...

المثال السادس: في الآية (٢٩) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: خذولاً لكلّ إنسان، ولمّا كان كلُّ واحِدٍ من المتحدَّث عنهم التَّابِعِين للشيطان تأثُّراً بوَسَاوِسِه وتَسْوِيلاته هو إنْسَان كانَ من الذين يَخْذُلُهم الشيطان يوم الدِّين لأنَّه خَذُولُ لِلإِنْسان.

المثال السابع: في الآية (٣٧) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: واعْتَدْنَا لكلّ الظّالمين عذاباً أليماً، ولمّا كان قوم نوحٍ من

الظالمين كانوا من الّذين أعدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً يَذُوقُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ.

وكذلك لمّا كانَ كُفَّار مكّة من الظالمين، كانوا من الذين أعدّ الله لهم عذاباً أليماً يَذُوقُه مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ.

المثال الثامن: في الآية (٥٥): من السُّورَةَ يَقُولُ الله عزَّ وجلّ بشَأْنِ المتحَدَّثِ عَنْهُم فِيهَا وهُمْ كُفَّار مَكَّة إبَّان تَنْزِيلِها:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

أي: وَكَانَ كُلّ كَافِرٍ عَلَى رَبّه ظَهِيراً، ولمّا كَانَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ المتحدّث عنهم هُو كافرٌ، كَانَ ظَهِيراً علَىٰ ربّه.

* * *

(٤) الالتفات

الالتفات هو الانتقال في الكلام بين الضمائر مع اتّحاد المقصود، كالانتقال من المواجهة بالخطاب إلى الحديث بضمير الغائب، ومن ضمير المتكلّم إلى ضمير الغائب، ونحو ذلك، مع أنّ المقصود واحد.

وقالوا في تعريفه: هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلُّم، والخطاب، والغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها.

ويُلَقَّبُ الالتفات بـ«شجاعة العربيّة».

ومن أغراض الالتفات التنويع في أساليب الكلام، لأنّ النُّفوسَ تُحبُّ التجديد، وتملُّ الوتيرة أو النَّمَطِيَّة الوَاحِدَة، فبالتجديد يتجدّد الانتباه لإِدراك الدَّلاَلاَتِ المقصوداتِ مِن الكلام.

وللالتفات أغراضٌ أُخرى يمكن استنباطُها لدى تحليل كلّ نصٍّ من النصوص المشتملة عليه.

قالوا: وله ست صور، وهي كما يلي:

١ ـ الانتقال من التكلّم إلى الخطاب.

٢ ـ الانتقال من التكلّم إلى الغيبة.

٣ ـ الانتقال من الخطاب إلى التكلّم.

٤ ـ الانتقال من الخطاب إلى الغيبة.

٥ ـ الانتقال من الغيبة إلى التكلّم.

٦ ـ الانتقال من الغيبة إلى الخطاب.

الأمثلة:

المثال الأول: في الآيات (من ٤٥ إلى ٤٩) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

في هذا النصّ التفات من الغيبة في ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ إلى ضمير المتكلّم العظيم في: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًاثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ فإلى الغيبة في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا... ـ حتى ـ: بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ فإلى ضمير المتكلّم العظيم في: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا... ـ حتى ـ: وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾.

ونلاحظ أنّ في هٰذه الالتفاتات تَنْويعاً جَمَالِيّاً يشُدُّ الانْتِباه، ويُعلّمنا كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ التَّنْوِيعُ فِي الكَلَامِ.

ومع هٰذا التَّنْوِيعِ الجَمَالِي يُلاحَظُ أيضاً ما يلي:

١ ـ غرض إظهار عظمة التقدير الحكيم البديعِ من الربّ العظيم، وغرض إظهار الامْتِنَانِ مِنَ الرّب العظيم على عباده في إتْقَانِ وضْعِ الأَرْضِ والشَّمْسِ في مَواضِعِهِمَا مِنَ الْفَلَكِ، وإتقانِ حَرَكَةِ الأرض حَوْلَ نَفْسِهَا باتّجَاهِ الشَّمْسِ في دَوْرَةِ اللَّيل والنهار.

دلّ على ذلك ضمير المتكلّم العظيم في: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

٢ ـ وغرض إِظْهَارِ عَظَمَةِ التَّقْدِيرِ الحَكِيم البَدِيعِ من الرّب العظيم في إنزال الماء الطهور من السماء بوسيلة التبخّر بحرارة الشمس، مع حركة اختلاف درجة الحرارة الناتج عن حركة الأرض حول نفسها كلّ يوم، وحول الشمس كلّ عام شمسيّ.

وغَرَضُ الامْتِنَان مِنَ الربِّ العَظِيمِ عَلَىٰ عِباده بإنزال الماء من السماء الذي فيه حياة النبات والحيوان ومنافع كثيرة للناس.

كلّ ذلك في: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

وقد دلّ على ذلك أيضاً ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّم الْعَظِيم.

* * *

(٥) الكناية والتعريض

الكناية: التعبير عن قضيّة مع إرادَةِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ مِنَ اللَّوازم الفكريّة لها.

والتعريض: التعبير عن قضيّة ضمن مجراها الحقيقي أو المجازي،

للإشارة بها إلى أمرٍ آخر ليس هو من اللّوازم الْفِكْرِيَّةِ لِلقضيّة، لكنَّهُ يُفْهَمُ مِنَ الْقَرَائِن.

- ويلاحظ من الكناية أو التعريض في سورة (الفرقان) مثالان:

المثال الأول: في الآية (١٢) منها يقول الله عزَّ وجلّ في وصف السعير.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

فدَلَّ الْعُدُول فِي التَّعْبِير عَنْ بَيَانِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ السَّعِير إِلىٰ أنّ السَّعِيرَ هِيَ الَّتِي تَرَاهُمْ مَعَ إِثْبَاتِ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ تَغَيّظَهَا وزَفِيرَهَا عَلىٰ أَنَّ أَبْصَارَهُمْ مَحْجُوبَةٌ عَنْهَا، فَقَدْ يَدُلّ هٰذا عَلَىٰ أَنَّهُمْ يَكُونُون حِينَئِذٍ عُمْيَاناً.

وفي الآيَة إسْنَادُ الرُّؤْيَة إلَىٰ السَّعِير عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، أي: إذَا صَارَتِ السَّعِيرُ فِي مَكَانٍ يُمْكِن فِيهِ أَنْ تَرَاهُمْ لَوْ كَانَ لَهَا بَصَرٌ كَأَبْصَارِ الأَحْيَاءِ، فاسْتُعِيرَتِ الرُّؤْيَةُ للدّلالَةِ عَلَىٰ وُصُولِ النّارِ إلَىٰ مَسَافَةٍ يَرَىٰ مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ أَهْلِ الرُّؤْيَةِ الكَافِرِينَ الْمَجْمُوعِين في أَرْضِ الْمَحْشَرِ بانْتِظَارِ إدْخَالِهِمْ فِيها.

أو عَلَىٰ سَبِيلِ الْمَجَازِ بالْحَذْفِ: أيْ: إذَا رَأَتْهُمْ مَلَائِكَتُها، لَكِنَّ الاسْتِعَارَةَ هُنَا أوْلَى بالاعْتِبار، فَهِي أكْثَر إبْداعاً.

المثال الثاني: في الآية (٢٧) منها يقول لله عزَّ وجلّ في معرض الحديث عن كفّار مكّة إبّان التنزيل:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ...﴾.

في هذا التعبير كناية عن النّدم الشديد، لأنّ من حركات النادم على مَا كَان منه أن يتصرّف تصرُّفاً يُؤْلم به نَفْسَه، ومنْ ذَلِكَ أن يَعَضّ عَلَىٰ يَدَيْهِ، أو يَضْرِبَ رَأْسَه، أوْ يَلْطُم وجْهَه، وَلَو اسْتَطَاع الكَافِر يَوْمَ الدِّينِ أَنْ يَنْتَحِرَ لانْتَحر.

فالتعبير بعبارات تدلّ على بعض هذه الحركات والأعمال هو من الكناية عن الباعث لها وهو الندم الشديد.

• ويلاحظ من التعريض في سورة (الفرقان) ما جاء في الآية (٤٢) منها، فلْنَنْظر في قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله بشأن كفّار مكة:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ تعريض لكفار مكة بأنّهم هم الذين يَنْزل العذاب بهم، وأنّهم هم الذين يظهر لهم أنّهم كانوا أضلّ سبيلاً، إذْ لم يهتدوا إلى سبيل نجاتهم من عذابِ رَبِّهُمْ علىٰ أيْدِي المُؤْمنين فِي الدُّنيا، ومن عَذَابِ رَبِّهم في جَهَنَّم دَارِ العَذاب يَوْمَ الدِّين، وهذا المعْنَى يُفْهَمُ تَعْرِيضاً بمُسَاعَدَةِ الْقَرائِن.

* * *

(٦) الإظهار في مقام الإضمار

من أساليب الكلام البليغ لتحقيق أغراضٍ فكرية في معاني الكلام، الإظهار في مقام الإضمار، وعكسه.

فمن الإظهار في مقام الإضمار في سورة (الفرقان) ما يلي:

المثال الأول: في الآية (٤) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ هو من الإظهار في مقام الإضمار، إذ الكلام السابق يتحدّث عن كفّار مكّة، وهُمْ أصْحَاب هذا

القول، فالكلام يستدعي الإضمار، لكن جاء النصّ على خلاف هذا لحكمة بلاغية.

ويلاحظ أنّ الغرض من هذا الإظهار وصْفُهُمْ بأنّهم قَدْ كَفَرُوا، بمعنى أنّهم ستروا الحقّ الواضح الذي عرفوه حقّاً في قرارة نفوسهم، وإذْ ستروه ظلماً زعموا زوراً أنّ القرآن إفكٌ لَيْسَ كَلامَ الله، وأنّ محمّداً افتراه، أي: اختلقه، وأنّ قوماً آخرين أعانوه على افترائه.

المثال الثاني: في الآيتين (٧ ـ ٨) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ هو من الإظهار في مقام الإضمار، إذِ الكلام السابق يستدعي الإضمار بأن يقال: وقالوا: إنْ تَتّبعون إلّا رَجلاً مسحوراً.

ويُلاحظ أنّ الغرض من هذا الإظهار في مقام الإضمار وصْفُهم بأنهم ظالمون في قولهم لبعض الذين آمنوا بالرسول: إنْ تَتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً.

فلقد ظلموا بهذا القول الرسول الصادق الأمين ظلماً فاحشاً، وهم يَعْلَمُون أنّهم ظَالِمُون، لأنهم يَعْلَمُون أنّه غَيْرُ مَسْحُورٍ، لكنّهم يتّهِمُونَه بِأنّه مَسْحُورٌ ظلماً وعدواناً.

المثال الثالث: في الآية (٢١) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

لقد عرفنا أنّ الحديث في السورة يدور حول مقالاتٍ وبَعْضِ أَعْمَالٍ صادرات عن كُبَراء كُفَّار مكَّة في مرحلة نزولها، وظاهر من سوابق هذا النص أنّ الكلام يستدعي الحديث عنهم بالإِضمار، فيقال: وقالوا:

لكنّ الله عزَّ وجلّ قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فهو من الإِظهار في مقام الإِضمار.

ويلاحظ أنّ الغرض من هذا الإِظهار بيان أن دافعهم الذي جعلهم يقولون مقالهم هذا أنّهم لا يَخَافُونَ لِقَاء اللَّهِ للْحِسَابِ وَالجَزَاءِ يَوْمَ الدِّين، ولا يَتَوَقَّعُونَه، ولو أنهم كانوا يتوقعونه ويخافونه ما استكبروا هذا الاستكبار عَنِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ، ولا عَتوا هذا العتوّ حتى طلبوا أن يتلَقَّوْا الوحي مُبَاشرة عن الملائكة أو عن الله.

المثال الرابع: في الآية (٣٢) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

الحديث في سوابق الآية يتعلّق بكُبَراءِ كفّار مكة، والكلام عنهم يستدعي الإِضمار، بأن يقال: وقالوا:

لكنّ الله تعالى قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فهو من الإِظهار في مقام الإِضمار.

ويلاحظ أنّ الغرض بيان أنّهم يعلمون أنّ القرآن كَلامُ الله، لَكِنَّهُمْ يَسْتُرون هٰذِه الحَقِيقَةَ بِمَقَالَاتِهم، ومُقْتَرَحَاتِهِمْ واعْتِرَاضَاتِهم.

* * *

(٧) استعمال الاستفهام في غير معناه الأصلي.

أَصْلُ الاسْتِفْهَام مَوْضُوعٌ لِطَلَبِ الْفَهْمِ أَوِ الإِفْهَامِ، ويَخْرُجُ عَنْ هٰذا الْمَعْنَىٰ مَجَازاً إِلَىٰ مَعانٍ كَثِيرَةٍ.

وقد جاء في سورة (الفرقان) اسْتِعْمالُ الاستِفْهَامِ فِي غَيْرِ الْمَعْنَى الأَصْلِيِّ الَّذِي هُوَ لَهُ فِي وَضْعِ اللُّغَةِ، لِدَوَاعٍ بَلَاغِيَّةٍ.

الأمثلة:

المثال الأول: في الآية (١٥) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

نفهم من الاسْتِفْهَامِ في هذه الآية مَعْنَىٰ اسْتِثَارَةِ نِفُوسِهِم للتَّبَصُّر بِعِقَابِ المكذِّبين، وثَوابِ الْمُتَّقِين، عسَىٰ أَنْ يَتَأَثَّرُوا بالْوَعِيدِ فَيَرْهَبوا، وبِالْوَعْدِ فَيَرْغَبُوا، فَيَكُونَ هَذَانِ المحْوَرَانِ بَاعِثَيْنِ لَهُمْ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بالرَّسُولِ واتِّبَاعِهِ.

المثال الثاني: في الآية (٢٠) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَتَصْبِرُونَ ۗ﴾؟

والْغَرَضُ الحَثُّ عَلَىٰ الصَّبْرِ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الَّذِي فِيهِ رِفْقٌ فِي الطَّلَبِ، والمَعْنَى: اصْبِرُوا فالصَّبْرُ خَيْرٌ لَكُم.

المثال الثالث: في الآية (٤٠) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾؟

الاستِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيريٌّ، ومَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَها، لَكِنَّهُمْ كَانُوا مُنْصَرِفِينَ عَنِ الاعْتِبَارِ بِهَا، لأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَخَافُونَ نُشُوراً.

والْغَرَضُ مِنْ اسْتِخْدَام الاسْتِفْهَام التَّقْرِيريّ هُنا انْتِزَاعُ اعْتِرَافِهِمْ، لِلَفْتِ أَنْظَارِهِمْ إلىٰ مَوْطِنِ الْعِبْرَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا آثَارُ قَومِ لُوطٍ عليه السلام.

المثال الرابع: في الآية (٤٣) يقول الله عزَّ وجلّ لرسوله:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾؟

الاسْتِفْهَامِ فِي: ﴿أَرَءَيْتَ﴾؟ بِمَعْنَىٰ اعْلَم، ولَكِنْ لَمْ يَأتِ تَكْلِيفاً بِفِعْلِ الأَمْرِ، وإِنَّمَا جَاءَ بأُسْلُوبِ الاستِفْهَامِ: «أَرَأَيْتَ؟» أَيْ: أَعَلِمْتَ؟.

والاسْتِفْهَامُ فِي ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ هُوَ بِمَعْنَى أَنْتَ لَا تَكُونَ عَلَيْهِ وَكِيلاً، وقدْ جَاءَ هٰذا النَّفْي بأُسْلُوبِ الاستِفْهَامِ الَّذِي يَدُلُّ علَى أَنَّهُ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَكُونَ مَسْؤُولاً عَنْ إِيمَانِهِمْ أَوْ مُحَاسَباً عَلَىٰ كُفْرِهِمْ.

والْغَرَضُ بَيَانُ أَنَّ هٰذا المسْتَفْهَمَ عَنْهُ أَمْرٌ يَستدعي التَّعَجُّبَ بأُسْلُوبِ الاستِفْهَامِ، إِذْ عَلَى الرَّسُول أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ يَقِينٍ بأَنَّهُ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَى مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ، حَتَّىٰ يَحْمِلَ هَمَّ مَنْ كَفَرَ مِنْهُم.

المثال الخامس: في الآية (٤٤) يقول الله عزَّ وجلّ لرسوله:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

الاسْتِفْهَامُ هُنَا بمَعْنَى: لَا تَحْسَبْ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُون. ولَكِنْ لَمْ يَأْتِ بأُسْلُوبِ النهي، لِمَا فِي النَّهْي مِنْ عُنفِ المُوَاجَهَةِ بالتَّكْلِيفِ مَعَ عَدَمِ الدَّاعِي إِلَيْهِ، وإنّما جاء بأسلوبٍ أَلْطَفَ مُرَاعَاةً لمُقْتَضَىٰ الحَالِ، وكَانَ ذَلِكَ بأُسْلُوبِ الاستِفْهَام، لأنّ الجَوَابَ عَنِ الاسْتِفْهَام يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِوُجُوهٍ مِنْهَا: لَا أَحْسَبُ أَنَّ أكثرهم يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ، بخِلَافِ المُواجَهَةِ بالنَّهْيِ، فَإِنَّ الرّدّ يَكُونُ مِنَ الرَّسُول بِوَجْهٍ وَاحِدٍ، هُوَ إعلانُ السَّمعِ والطَّاعَةِ، وهُوَ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ كَانَ يَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُون.

المثال السادس: في الآية (٤٥) يقول الله تعالى خِطاباً لِكُلّ ذِي فِكْرٍ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾.

فِي هٰذا الاسْتِفْهَامِ دَعْوَةٌ لِكُلِّ مُتَفَكِّرٍ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي هٰذِهِ الظَّاهِرَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا، ولكِنَّ هٰذِه الدَّعْوَةَ لَمْ تَأْتِ بِأُسْلُوبِ الأَمْرِ، وإِنَّمَا جَاءَتْ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ عَدَمِ حُصُولِ هٰذا التَّفَكُّر، تَرَفُّقاً بالْمَدْعُوِّين، لأنّ الْمَوْضُوعَ يَحْتَاجُ تَأَمُّلاً دَقِيقاً وبَحْثاً عِلْمِيّاً.

* * *

(٨) الإيجاز بالحذف

من البلاغة الرفيعة الإِيجاز بالحَذْف، مع وُجُود ما يَدُلُّ عليه، من النصّ المَذْكُور باللَّفظ، أو مِنْ اللَّوازِم الفِكْرِيَّة.

وفي سورة (الفرقان) عدّة أمثلة من هذا الإِيجاز.

المثال الأول: في الآية الأولى من السورة يقول الله عزَّ وجل:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

وكذلك في الآية (٧):

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾.

لَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عزَّ وجَلّ مِنْ مُهِمَّاتِ الرَّسُولِ وَصْف الإِنْذَارِ، وبالتَّأمّلِ نُلاحِظُ أَنَّ الإِنْذَارَ هُوَ الْحَلَقَةُ الأَخِيرَةُ مِنْ حَلَقَاتِ سِلْسِلَةِ مُهِمَّاتِ الرَّسُولِ فِي رِسَالَتِهِ، وهٰذِهِ الْحَلَقَةُ تَدُلُّ بِاللُّزُومِ الفِكْرِيّ عَلَىٰ الْحَلَقَاتِ السَّابِقَاتِ لَهَا.

وذَلِكَ لأنَّ الرَّسُولَ يَكُونُ فِي الْمَرْحَلَةِ الأُولَى دَاعِياً مُبَلِّغاً، ثُمَّ يَكُونُ مُبَيِّناً وشَارِحاً، ثُمَّ مُعَالِجاً بِمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ والتَّرْبِيَةِ والتَّوْجِيهِ، ومِنْهَا

وَسَائِلُ الإِقْنَاعِ الكَثِيرَةِ الَّتِي تَدْخُل فِيهَا الْمُجَادَلَةُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وأَخِيراً تَأْتِي حَلْقَةُ الإِنْذَارِ الّتِي يُوَاجِهُ بِهَا مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ للدَّعْوَةِ، وَلَمَّا كَانَ أَكْثَرُ الْعَالَمِينَ مِنْ فِئَةِ الَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لدَعْوَةِ الرَّسُولِ كَانَ اللَّاصِقُ بِهِمْ أَخِيراً هُوَ الإِنْذَار، فَهُوَ حَظُّهُمْ مِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

وبهٰذَا ظَهَرَ لَنَا أَنَّ ذِكْرَ الْإِنْذَارِ الَّذِي هُوَ آخِرُ حَلْقَاتِ سِلْسِلَةِ مُهِمّاتِ الرَّسُولِ يَدُلُّ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ بِاللّزُومِ الذّهْنِيّ.

ومِثْلُ هٰذَا فِي اسْتِعْمَالَاتِ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَسُكَّانِهَا: «مَشَيْتُ عَلَىٰ سُورِ الصِّينِ» فإنّه يدلّ باللّزوم الذّهني علىٰ أنّه اتَّخَذَ كُلَّ الْوَسَائِلِ حَتَّى وَصَلَ إِلىٰ السُّوَرِ وارْتَقَاهُ وَمَشَىٰ عَلَيْهِ. أَوْ يَقُولَ قَائِلٌ مِنَ أَهْلِ الصِّينِ وسُكَّانها: «طُفْتُ بِالْكَعْبَةِ الْمشَرَّفَةِ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ» فَإِنَّهُ يَدُلُّ باللُّزومِ الذِّهْنِي عَلَىٰ أَنَّهُ اتَّخَذَ كُلَّ الوَسَائِلِ حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ مَكَّةَ وَطَافَ بِالْكَعْبَةِ.

المثال الثاني: في الآية (٣) من السورة يصفُ الله عزَّ وجلّ آلهة المشركين بقوله:

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ... ۝٣﴾.

إنّ كَوْنَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً مَعَ حَاجَتِهِمْ إِلَىٰ جَلْبِ مَنَافِعَ لأنْفُسِهِمْ ودَفْعِ مَضَارّ عَنْهَا، يَدُلّ باللّزُومِ الذّهْنِي عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِغَيْرِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ.

وقد جَاءَ التَّصْرِيحُ بِهٰذَا اللَّازِمُ الذِّهْنِي في الآية (٥٥) من السورة فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾.

المثال الثالث: في الآية (١١) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

إنّ حَرْفَ ﴿بَلْ﴾ في هذه الآيةِ يَدُلُّ باللُّزُوم الذِّهْنِي عَلَىٰ مَحْذُوفٍ قَبْلَه، أيْ: لَيْسَ مَا يُقَدِّمُونَهُ مِن اعتِرَاضَاتٍ عَلَىٰ الْقُرْآنِ أو عَلَىٰ الرَّسُول، ولَا ما يُقَدِّمُونَهُ مِنْ مُقْتَرَحَاتٍ. هُو للتَّثَبُّتِ مِنْ صِحَّةِ رِسَالَةِ الرَّسُولِ، وصِحَّةِ كَوْنِ هٰذا الَّذِي يُبَلِّغُه عَنْ رَبِّهِ كَلَامَ اللَّه.

بَلْ مُشْكِلَتُهُمْ وَبَاعِثُهُم الدَّاخِلِيُّ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالْجَزَاءِ ولا بِيَوْم الدِّين، لِذَلِكَ فَهُمْ لَا يُرِيدُون اتِّبَاعَ الرَّسُولِ والْإِيمَانَ بِهِ، لِئَلَّا يَلْتَزِمُوا بأَوَامِرِ الدِّينِ ونَواهِيهِ، فَيَعْمَلُوا بِوَاجِبَاتِهِ، وَيَجْتَنِبُوا مُحَرَّمَاتِهِ.

المثال الرابع: في الآية (٤٠) من السورة يقول الله عزَّ وجلّ بِشَأْنِ كُبَرَاءِ كفار مكة:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

إنّ حَرْفَ ﴿بَلْ﴾ فِي هٰذِهِ الآية يَدُلُّ باللُّزُومِ الذِّهْنِيِّ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ بَعْدَهُ، وباستطاعة المتدبّر المتأنّي أن يكتشفه، فالمعنى: بل كانوا يَرَوْنَها، ولَكِنْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً.

المثال الخامس: في الآيتين (٢٥ ـ ٢٦) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

لقد جَاءَتْ هَاتَانِ الآيتان جَواباً على طَلَب كُبَراء كُفّار مكّة أنْ يتلقَّوا الْوَحْيَ مِنَ المَلائِكَةِ مُبَاشَرة دُون وِسَاطَةَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ، أَوْ مِنْ رَبِّهِمْ

مُباشَرَةً مِنْ خِلَالِ طَلَبِهِمْ رُؤْيَتَهُ، كَمَا جَاءَ بيانُه في الآية (٢١) وقد جاء في الآية (٢٢) بَيَانُ أَنَّ رُؤْيَتَهُمْ للملَائِكَةِ لَا تَكُونُ مُقْتَرِنةً بِبُشْرَىٰ لَهُمْ بَلْ تَكُونُ بِمَا يُخِيفُهُمْ حَتَّى يَقُولُوا: حِجْراً مَحْجُوراً، وهٰذا يَكُونُ عِنْدَ مَوْتِهِمْ.

أمّا يَوْمَ القيامَةِ فَتُنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ مِنَ السَّمَاءِ فِي مَوَاكِبَ عَلَىٰ أَهْلِ الْمَوْقِفِ.

وقد سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) قوله:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

ثمّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) تأْكِيدَه، فَقَالَ تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

وجَاء فِيما رُوِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وصْفُ نُزُول الملائكة لِمَوْقِفِ الحِسَابِ، وفِيه: «وَيَنْزِلُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَمَعَهُ الْكُرُوبِيُّونَ».

فدلّ هذا على أنّ الملائكة تُنَزَّلُ بأَمْرِ اللَّهِ، وأنّ الرَّبَّ يَجِيءُ لِلْحِسَابِ والْجَزَاءِ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرِ: وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً وَجَاءَ رَبُّكَ.

قد دلّ على هذا الحذف أمران:

الأمر الأول: قَرِينَةُ السُّؤَالِ.

الأمر الثاني: ما سَبَقَ أَنْ نَزَلَ مِنْ قُرآنٍ فِي سُورَةِ (الفجر).

ثم جَاءَ تَأْكِيدُهُ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي سُورَةِ (البقرة) أَوَائِلَ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ.

المثال السادس: في الآيتين (٣٠ ـ ٣١) من السورة قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ۝٣١﴾.

في هذا النصّ نُلاحظُ أنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ۝٣١﴾، قَدْ دلَّ عَلَى أمْرٍ مكْتُومٍ بَيْنَ شَكْوَىٰ الرَّسُولِ الْمُعْلَنَةِ وَبَيْنَهُ، وَهٰذا الْمَكْتُومُ هُوَ شَيْءٌ آخَرَ غَيْرُ الَّذي أَعْلَنَهُ الرَّسُولَ.

لِكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلّ بَنَىٰ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾.

وَيَسْتَطِيعُ الْمُتَدبِّر أَنْ يَكْتَشِفَ هٰذَا الَّذِي كَتَمَهُ الرَّسُولُ وَلَمْ يُصَرِّحُ بِهِ النَّصُّ الْقُرآنيّ، وَهُوَ أَنّ قَوْمَهُ اتَّخذُوهُ عَدُوّاً وبَدَؤُوا يُعِدّونَ الْعُدَّةَ لِحَرْبِهِ، وَحَرْبِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَقَمْعِ دَعْوَتِهِ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ فأَشَارَ إِلَىٰ الْمَكْتُومِ الْمَطْوِيِّ فِي اللَّفْظِ باسْمِ الإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ الْبَعِيدِ، أيْ: وَكَمَا اتّخذَكَ قَوْمُكَ عَدُوّاً وبَدَؤُوا يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ لِحَرْبِكَ، جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِيٍّ عَدُواً مِنَ الْمُجْرِمِينَ.

إذن: فَلا يَضِقْ صَدْرُكَ مِنْ هٰذَا الأَمْرِ، وأَعِدَّ العِدَّةَ لِمُواجَهَةِ حَرْبِهِمْ بِحَرْبٍ مُضادَّةٍ، وَسَيَهْدِيكَ رَبُّكَ إِلَىٰ سُبُلِ السَّلامَةِ مِنْهُمْ، وَيَنْصُرُكَ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾.

المثال السابع: في الآيتين (٣٢ ـ ٣٣) من السورة قال الله عزَّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ۝٣٣﴾.

قوله تعالى في هذا النصّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ يُفْهَمُ مِنَ السَّوابِقِ واللَّوَاحِقِ.

وباسْتِطَاعَةِ الْمُتَدَبِّرِ أَنْ يَكْتَشِفَ هٰذَا الْمَحْذُوفَ، فَالمَعْنَى: أَنْزَلْنَا مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مُنَجَّماً، وَسَنُنَزِّلُ مَا بَقِيَ مِنَ الْقُرْآنِ مُنَجَّماً كَذٰلِكَ التَّنْزِيلِ الَّذِي اعْتَرَضُوا عَلَيْهِ واقْتَرَحُوا خِلَافَه لِلْحِكَمِ التَّالِية.

١ ـ لِنثبّت به فؤادك.

٢ ـ ولِنُرتّله تَرْتيلاً.

٣ ـ ولِنُتَابع أقْوالَ أَهْلِ الاعْتِرَاضِ، بِبَيَانِ الْحَقِّ، وَبَيَانِ مَا هُوَ أَحْسَنُ تَفْسِيراً.

المثال الثامن: في الآية (٣٤) يقول الله عزَّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

هٰذه الآيةُ تَدلُّ عَلَىٰ أنّ مَوْقِفَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الرَّسُولِ ومِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَدْ كَانَ مَوْقِفَ الْمُحْتَقِر الْمُزْدَرِي لِمَكَانَتِهِمْ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي مَكَّةَ، والسَّاخِرِ مِنْ عَدَمِ تَوَصُّلِهِمْ إِلَىٰ سَبِيلٍ يَتَخَلَّصُونَ بِهِ مِن اضطّهَادِ الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي مَرْحَلَةِ الاضطّهادِ مِنْ أَجْلِ الدّينِ.

لَكِنْ لَمْ يَأْتِ فِي سَوَابِقِ الآيَةِ التَّصْرِيحُ بِبَيَانِ هَذَا الْمَوْقِفِ، بَيْدَ أَنَّ إيرَادَ الآيَةِ بهٰذِهِ الصِّيغَةِ يُشِيرُ إِلَيْهِ ضِمْناً، مَعَ دَلَالَةِ مَا جَاءَ فِي الآية (٣١) الْمُشِيرَةِ إِلَى أنّ كُفَّارَ مَكَّةَ قَدْ أَعْلَنُوا عَدَاوَتَهُمْ لِلرُّسُلِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَبَدَؤوا يُعِدُّونَ لِلْحَرْبِ.

المثال التاسع: مَا يُلاحَظُ مِنَ الاخْتِزَالِ الشَّدِيدِ فِي عَرْضِ قِصَّةِ مُوسَىٰ وقَوْمِهِ، وهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ الْحَذْفِ، والاكْتِفَاءِ بالْتِقَاطِ ثَلَاثِ جُمَلٍ مِنَ الْقِصَّةِ الطَّوِيلَةِ.

وكذٰلِكَ فِي سَائِر العِبَر الَّتِي وَرَدَتْ بَعْدَها مِنْ قِصَصِ السَّابِقِين.

المثال العاشر: في الآية(٤١) يقول الله عزَّ وجلّ لرسوله بشأن كبراء كفّار مكة:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

من الظاهر في هذه الآية حَذْفُ مَحْذُوفٍ قَبْلَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ ويمكن تقديره كما يلي: وقَالُوا: أَهٰذا الَّذِي... أَوْ: قَائِلِينَ: أَهَذَا الذي...

* * *

(٩) القصر

في هٰذه السورة من أمثلة القصر ما يلي:

المثال الأول: ما جاء في قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

أي: ما تَتَّبِعُونَ يا أيُّها المؤمِنُونَ بِرِسالة مُحَمَّد إلّا رَجُلاً مَسْحُوراً، لَا نَبِياً مُرْسلاً من رَبِّه.

فقَصَرُوا صِفَةَ اتّباعِهِمْ عَلى اتّباعِ رجُلٍ مَسْحُور، وهو قصْرٌ إضافيّ، أي: بالإضافة إلى اتّباعهم في قضايا الدّين، إذْ لهم اتّباعٌ آخَرُ في غير قضايا الدّين.

المثال الثاني: ما جاء في قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرسوله وَرَداً على اعتراض الّذِينَ كَفَرُوا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ... ﴿٢٠﴾﴾.

في هٰذا النَّصِّ بَيانُ قَصْرِ صِفَةِ إرْسَالِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ لِتَبْلِيغِ دِينِ الله

للناس على بَشَرٍ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ في الأسواق.

وهو قَصْرٌ حَقيقيٌ مِنْ قبيل قَصْرِ الصفة على الموصوف.

المثال الثالث: مَا جَاء في قول الله عزَّ وجلّ خطاباً لرَسوله بشأن اعْتراضِ الَّذِين كَفَرُوا على تنزيل القرْآن منجّماً:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ومِنْ حِكَم تَنْزِيل الْقُرآنِ مُنَجّماً، أَنْ نَرُدَّ على اعْتِرَاضَاتِ الكافِرين بالبيانات الشافيات، فلا يأتُونَ باقتراحٍ على خلاف مقتضىٰ الحكمةِ الّتي راعيناها، إلّا جِئْنَا بردٍّ فيه بيَانُ الحقّ، أوْ فِيهِ بيان الْوَجْهِ الأحْسَنِ والأَحْكَمِ الَّذِي اخْتَرْنَاهُ.

وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌ من قبيلِ قَصْرِ مَا يأتون به من مقْتَرحات علىٰ الرَّدّ الرَّبّاني بما هُوَ الحقُّ أو الأحْسَنُ تَفْسِيراً.

المثال الرابع: ما جاء في قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وجلّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ بشَأْنِ الكافِرِينَ بِهِ:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

أي: مَا يَتَّخِذُونَكَ إلّا مَهْزُوءاً به، وفي هٰذا قَصْرُ اتخاذِهِمْ لَهُ علىٰ صفة الهزْءِ به، وهو قَصْرٌ إضافي كما هو ظاهر.

المثال الخامس: ما جاء في قول اللَّهِ عزَّ وجلّ خطاباً لِرَسُولِهِ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

في هذه الآية بَيَانُ قَصْرِ إرْسَال الرَّسُولِ عَلَى كونِهِ مبشّراً ونَذِيراً، وهو قَصْرُ إضافي كما هو ظاهر، وهو من قبيلِ قَصْرِ الموصوف على صفة.

* * *

(١٨)

الملحق الثالث

حَولَ البيان المقرون بالحجّة والبرهان وبالتفسيرات الموضّحاتِ لِلحكمة من الاختيار الرّباني في السّورة

إذَا كَانَتِ الْقَضِيَّةُ الْمَعْرُوضَةُ فِي الْبَيَانِ مِنَ قَضَايَا الحَقّ، الَّتِي يُرَادُ الإِقْنَاعُ بِهَا، وجَدْنَا الْقُرآنَ يُقيمُ عَلَيْهَا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ الْعَقْلِيَّة المثْبِتَةَ لَهَا.

وإِذَا كَانَتْ الْقَضِيَّةُ الْمَعْرُوضَةُ فِي الْبَيَانِ مِنْ قَضَايَا الباطِل، الَّتِي يُرادُ الإِقْنَاعُ بِبُطْلَانِها وفَسَادِها، وجَدْنَا الْقُرْآنَ يُقِيمُ الأدِلَّةَ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الْكَاشِفَةِ أَنَّهَا بَاطِلٌ لَا يَلِيقُ بِذِي عَقْلٍ أَنْ يَعْتَقِدَهَا وَيَسْتَمْسِكَ بِهَا.

وإِذَا كَانَتْ الْقَضِيَّةُ الْمَعْرُوضَةُ فِي الْبَيَانِ مِنَ الأُمُورِ ذَاتِ الاحْتِمَالَاتِ الْمُتَعَدِّدَاتِ، والَّتِي تُقَدَّمُ فِيهَا عِدَّةُ مُقْتَرَحَاتٍ، لَكِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ اخْتَارَ وَاحِداً مِنْهَا فِي تَدْبِيرِهِ لِكَوْنِهِ أَوْ لِشُؤُونِ عِبَادِهِ، وَجَدْنَا الْقُرْآنَ يُفَسِّرُ وَجْهَ الحِكْمَةِ مِنَ الاخْتِيَارِ الرَّبَّانِيِّ، كَمَا فِي قَضِيَّةِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنَجَّماً لا دُفْعَةً وَاحِدَةً.

ونلاحظ في سورة (الفرقان) من ذلك ما يلي:

- أولاً:

عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ فِيهَا عِدَّة قَضَايَا مِنْ قَضايا حَقَائِقَ الإيمَانِ، وأَتْبَعَهَا فِي ثَنَايَا السّورَةِ بِالحُجَجِ والْبَرَاهِينِ الدّالّاتِ عَلَىٰ ثُبوتِها، وأَنَّهَا مِنْ قَضَايَا الْحَقّ.

وعَرَضَ عِدَّةَ قَضَايَا مِنْ قَضَايَا بَاطِلِ الْمُشْرِكِينَ الّذين كَفَرُوا، وأَتْبَعَهَا فِي ثَنَايَا السُّورَةِ بالحُجَجِ والبَراهِينِ الدّالّاتِ عَلَىٰ أنّها باطِلٌ، وأَنَّ اعْتِقَادَهَا يَتَنَافَى مَعَ مَنْطِقِ الْعَقْلِ وَمَوَازِينِهِ الْفِطْرِيَّةِ السَّلِيمَة.

١ ـ فَكَوْنُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ، قَدْ جَاءَ فِي السُّورَةِ الاسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ الّتي هِيَ آثَارُ خَلْقِه وَحْدَه، لَا شَرِيكَ لَهُ، إذْ هِيَ آثَارُ رَبٍّ خَالِقٍ وَاحِدٍ أَحَدٍ فَرْدٍ لَهُ كُلّ صِفَاتِ الْكَمَالِ.

وَهٰذَا الاسْتِدْلَالُ يَظْهَرُ فِي الآيَاتِ الَّتِي أَرْشَدَتْ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّة، انظر الآيات (من ٤٥ إلى ٤٩) و(٥٣ ـ ٥٤) و(٥٩ ـ ٦١ ـ ٦٢).

وَيَلْزَمُ عَقْلاً مِنْ كَوْنِهِ خَالِقاً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكاً لِكُلِّ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، أَنَّهُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ، فَهُوَ مُنْذُ الأزَلِ مُسْتَغْنٍ عَنِ الشَّرِيكِ، والصَّاحِبَةِ، وَالْوَلَدِ، ولَمَّا كَانَ فِي أَزَلِيَّتِهِ مُسْتَغْنِياً عَنْ كُلِّ ذَلِكَ، فَإِنَّ مَا كَانَ أَزَلِيّاً لَا يَتَبَدَّلُ، فَلَا يَكُونُ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ شَرِيكٍ، أَوْ صَاحِبَةٍ، أَوْ وَلَد.

فَسِلْسِلَةُ الْبُرْهَانِ تَبْدَأُ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ إِلَىٰ اللَّوَازِمِ الْعَقْلِيَّةِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ حَقَائِقَ أُخْرَىٰ تَهْدِي إِلَيْهَا اللَّوَازِمُ.

وَكُلُّ ذَلِكَ يُخَاطِبُ اللَّهُ عَزَّ وَجلّ بِهِ الْعُقُولَ، بِسَبَبِ مَا فَطَرَهَا عَلَيْهِ مِنْ مَوَازِينَ مَنْطِقِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ فِطْرِيَّةٍ، تَتَحَاكَمُ إِلَيْهَا فِي مُخْتَلِفِ قَضَايَا الْفِكْرِ.

٢ ـ وَقَضِيَّةُ اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ جَاءَ فِي السُّورَةِ الاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لِلَّهِ فِي الْوَاقِعِ، وادِّعَاءُ أنَّ الله عزَّ وجلّ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ ادِّعَاءٌ بَاطِلٌ، لَا يَصِحُّ بِأَيِّ وَجْهٍ مِنَ الْوَجُوهِ.

والاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ فَسَادِ الْفِكْرِ الَّذِي اتّخَذَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: بُرْهَانُ إِثْبَاتِ تَوْحِيدِ االرّبُوبِيَّةِ والْخَلْقِ والْمِلْكِ لِلَّهِ عزَّ وجلّ.

الأمر الثاني: بُرْهَانُ التَّجرِبَةِ الَّذِي يُثْبِتُ أنَّ هٰذِهِ الآلِهَةَ لَا تَمْلِكُ لأنفُسِهَا دَفْعَ ضَرٍّ ولَا جَلْبَ نَفْعٍ، ولَا تَمْلِكُ لِغَيْرِهَا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ.

وهٰذَانِ الْبُرْهَانَانِ كَافِيَانِ لإِسْقَاطِ مَقُولَةِ الْمُشْرِكِينَ، فِي اتِّخَاذِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وِلِبَيَانِ فَسَادِهَا وَبُطْلَانِها.

- ثانياً:

عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ مَقَالَاتِ الّذِينَ كَفَرُوا حَوْلَ الْقُرْآنِ، وأَبَانَ أَنَّهَا مَقَالَاتُ ظُلْمٍ وَزُورٍ، لأنّهَا دَعَاوىٰ غَيْرُ مُقْتَرِنَةٍ بأيِّ دَلِيلٍ، فَهِيَ سَاقِطَةٌ مِنْ تِلْقَاءِ أنفُسِهَا، وذَلِكَ لأنَّ الدَّعَاوَىٰ لَوْ كَانَتْ تُقْبَلُ بِمُجَرَّدِ إلْقَاءِ كَلِمَةِ الادِّعَاءِ، أَوِ الاتِّهَامِ، لاسْتَطَاعَ أيُّ سَخِيفٍ أو أحْمَقَ أَنْ يَقُولَ حِينَ تَكُونَ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً تَغْمُرُ أشعَّتُهَا مَا امْتَدّ إِلَيْهِ الْبَصَرُ مِنَ الأَرْضِ، إنَّ الوَقْتَ لَيْلٌ دَامِسٌ، ولَا تُوجَدُ شَمْسٌ مُشْرِقَةٌ هُنَا.

- ثالثاً:

عَرَضَ الله عَزَّ وَجلَّ مُقْتَرَحَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا حَوْلَ الرَّسُولِ، وَحوْلَ الْقُرآنِ، وأَبَانَ أَنّهَا مُقْتَرَحَاتٌ تُخَالِفُ الاحْتِمَالَ الأَحْكَمَ والأَفْضَلَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَاقِعُ عَلَيْهِ، فاشْتَمَلَ الْبَيَانُ عَلَىٰ تَفْسِيرِ أَنَّ الاحْتِمَالَ الْمُخْتَارَ فِي الإِرَادَةِ الرّبّانِيَّةِ هُوَ الأَحْسَنُ والأفْضَلُ والأَحْكَمُ.

- رابعاً:

عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ قَضِيَّةَ إِنْكَارِ مُشْرِكِي مَكَّةَ صِفَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ، واسْمَ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ، وأَتْبَعَهُ بالاسْتِدْلَالِ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وأنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ.

* * *

(١٩)

الملحق الرابع

في منهاج الدعوة ووسائل التربية

نستَنْبِطُ مِنْ سُورَةِ الفُرْقَانِ لِمِنْهَاجِ الدَّعْوَةِ وَوَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ مَا يَلِي:

● أولاً:

الإِعْرَاضُ فِي تَوْجِيهِ الْبَيَانِ عَمَّنْ تولّى وكَفَرَ، بَعْدَ أَنْ وَصَلَ إِلَىٰ حَالِ الْمُكَابَرَةِ وَالعِنَادِ، وَمُعَادَاةِ الرَّسُولِ والمُؤْمِنِينَ، والْعَمَلِ عَلَىٰ قَمْعِ الدَّعْوَةِ بِالْقُوَّةِ، وَهوَ الْمَوْقِفُ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ كُفَّارُ مَكَّةَ فِي مَرْحَلَةِ نُزُولِ سُورة (الفرقان).

فَمِنَ الْمُلَاحَظِ في سورة (الفرقان) أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ مِنْ حَدِيثٍ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَدْ جَاءَ بِأُسْلُوب الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ، أَوْ تَكْلِيفِ الرَّسُولِ مُخَاطبَتَهُمْ، مِثْل:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

إلَّا ما جاء في الآية (١٩) مِنْها في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

فَفِيهِ مُوَاجَهَةٌ بِالْوَعِيد.

أمّا قولُهُ تَعالَىٰ فِي هٰذِهِ الآيَةِ نَفْسِها.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ﴾.

فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً لِمَا يُقَالُ لِلْمُشْرِكِينَ فِي مَوْقِفِ مُحَاسَبَتِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وقَدِ اقْتُطِعَ هٰذَا الْقَوْلُ مِنْ مَشْهَدِ الْمُحَاسَبَةِ، وقُدِّمَ فِي الْبَيَانِ كَمَا هُو.

وَيُلاحَظُ أنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ أَنْ وَصَلُوا إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ، بأُسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ، فِيهِ مَعْنَىٰ نَبْذِهِمْ، والتَّوَلِّي عَنْهُمْ، أَوِ الإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، مَعَ إِسْمَاعِهِمْ مَا يُرَادُ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ وَهُمْ بِحُكْمِ الْغَائِبِ، أَوْ بِوِسَاطَةِ مُبَلِّغ.

- ثانياً:

التَّرْبِيَةُ عَنْ طَرِيقِ الإِقْنَاعِ بِوَسَائِلِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، ومِنْهَا:

١ ـ بَيَانُ الْحَقِّ، وإتْبَاعُهُ بالأدِلَّة الَّتِي تُثْبِتُ أَنَّهُ حَقٌّ «كَأَدِلَّةِ إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ، مِنْهَا مَا فِي الآيَاتِ مِنْ ٤٥ إلى ٤٩ و٥٣ ـ ٥٤، و٦١ ـ ٦٢».

٢ ـ بَيَانُ الْبَاطِلِ، وإتْبَاعه بِالأدِلَّةِ الَّتِي تَكْشِفُ أَنَّهُ بَاطِلٌ «كَأَدِلَّةِ إِبْطَالِ الشِّرْكِ فِي السُّورَةِ «انظر الآيتين ٣ و٥٥».

٣ ـ الإِحَالَةُ عَلَى دَلِيلِ الْمُلاَحَظَةِ والتَّجْرِبَةِ «كَتَوْجِيهِ الأنْظَارِ للتَّأَمُّلِ فِي الظَّاهِرَات الكَوْنِيَّةِ بُغْيَةَ مُلاحِظَةِ مَا يُلاحَظُ فِيهَا، وتَجْرِبَةِ مَا يُجَرَّبُ مِنْهَا، والْبَحْثِ والتَّنْقِيبِ عَنْ خَفَايَاهَا بُغْيَةَ التَّوَصُّلِ إِلَىٰ دَقَائِقِ الْمَعَارِفِ، واسْتِنْبَاطِ الكَوَامِنِ وإِدْرَاكِ مَا وَرَاء الظَّوَاهِرِ «وهٰذَا كَثِيرٌ فِي السُّورَة».

٤ ـ الإِحَالَةُ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ «كَمَا فِي الآية ٢٠».

٥ ـ سُؤَالُ الْمُجْرِمِينَ أَهْلِ الْخِبْرَةِ، للتَّوَصُّلِ عَنْ طَرِيقِ خِبْرَاتِهِمْ وَتَجَارِبِهِمْ إِلَىٰ الْحَقِّ، مِثْلِ مَا جَاءَ فِي الآية (٥٩): ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

٦ ـ تَفْسِيرُ تَرَاتِيبِ الْقَضَاءِ والْقَدَرِ بِمَا يَكْشِفُ وَجْهَ الْحِكْمَةِ «كَالتَّفْسِيرَاتِ الَّتِي كَشَفَتْ وُجُوهَ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي اخْتِيَارِ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَعَدَمِ إِعْطَائِهِ الْخَوارِقَ الَّتِي طَلَبَهَا الَّذِينَ كَفَرُوا، لأَنَّهَا مَطَالِبُ تَعَنُّتِيَّة، لَا مَطَالِبُ بَاحِثٍ عَنْ دَلِيلٍ لإِثْبَاتِ الحَقِّ والصِّدْقِ، وَكَشَفَتْ وُجُوهَ الْحِكْمَةِ فِي اخْتِيَارِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مُفَرّقاً».

- ثالثاً:

التَّرْبِيَةُ عَنْ طَرِيقِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ بأَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ، منها ما يلي:

١ ـ الوَعْدُ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم «كالَّذِي جَاءَ فِي الآيَاتِ ١٥ و١٦ و٢٤ و٧٥ و٧٦ من السورة».

٢ ـ الْوَعِيدُ بِمَا أَعْتَدَ اللَّهُ لِلْمُجْرِمِينَ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ «كالَّذِي جَاءَ فِي الآياتِ ١١ و١٢ و١٣ و١٩ و٦٩».

٣ ـ اقْتِطَاعُ مَشَاهِدَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، لِكَشْفِ أَنَّهَا أُمُورٌ مُدَبَّرَةٌ تَدْبِيراً كَامِلاً، مَرْسُومَةٌ رَسْماً دَقِيقاً بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا، حَتَّىٰ كَأَنَّهَا أُمُورٌ قَدْ وَقَعَتْ فِعْلاً، وَالْبَيَانُ يَحْكِي قِصَّةَ أَمْرٍ وَاقِعٍ بالْفِعْلِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ إِنْذَارٍ بِوَعِيدٍ عَامٍّ، سَتُدبَّر تَفَاصِيلُهُ فِيمَا بَعْدُ «كالَّذِي فِي الآيات ١٢ و١٣ و١٤ و١٧ و١٨ و١٩ و٢٢ و٢٣ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٤ من السورة».

٤ ـ تَوْجِيهُ الأفْكَارِ لِلاعْتِبَارِ بِمَا جَرَىٰ فِي سَالِفِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ مِن جزاءاتٍ رَبَّانِيَّة، مَعَ الإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّهَا مِنْ ظَوَاهِرِ سُنَنِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا ولَا تَحْوِيلَ «كالذي في الآيات ٣٦ و٣٧ و٣٨ و٣٩ و٤٠».

ومعْلومٌ أنَّ سَوابِقَ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ ولا سِيَّما التاريخُ البَشَرِيُّ، تُقَدِّمُ لِأُولِي الأَلْبَاب عِبَراً وعِظَاتٍ مُؤَثِّرَاتٍ، فِيهَا تَرْهِيبٌ وتَرْغِيبٌ، فالنَّاسُ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ سَوَابِقِ الأَحْدَاثِ فَوَائِدَ كَثِيرَةً فِي حَيَاتِهِمْ.

فَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً فَتَعَرَّضَ فِيهِ لَمَكَارِهَ وَمَخَاطِرَ، كَانَتْ حَادِثَتُهُ تَارِيخاً يُذْكَرُ، وَيَعْتَبِرُ بِهِ وَيَتَّعِظُ كُلُّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْلُكَ هٰذَا الطَّرِيقَ.

وَمَنْ زَرَعَ زِرَاعَةً فَأَثْرَىٰ مِنْهَا كَانَتْ تَجْرِبَتُه قِصَّةً يَعْتَبِر بِهَا الْمُزَارِعُونَ، فَيُقَلِّدُونَهُ لَعَلَّهُمْ يُصِيبُونَ مِنَ الرِّبْحِ مِثْلَ مَا أَصَابَ.

ومَنْ سَرَقَ سَرِقَةً قُطِعَتْ يَدُهُ بِسَبَبِهَا، كَانَ مَا جَرَىٰ لَهُ عِبْرَةً وَعِظَةً لِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِأَنْ يَسْرِقَ، فَيَمْتَنِعُ لِئَلَّا تُقْطَعَ يَدُهُ.

٥ ـ الْوَعِيدُ بِالْعِقَابِ الْمُعَجَّلِ فِي الدُّنْيَا قِيَاساً عَلَىٰ أَمْثِلَةِ الْعِقَابِ الْمُعَجَّلِ الذِي جَرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ السَّابِقِينَ «كَمَا فِي الآية ـ ٣١ ـ بالإِشَارَةِ الضِّمْنِيَّةِ، والآية ـ ٤٢ ـ بالإِشَارَةِ الضِّمْنِيَّةِ أيضاً». وَهُوَ نَفْسُهُ وَعْدٌ للمُؤْمِنِينَ بالنَّصْرِ والتَّأْيِيدِ عَلَىٰ أعْدَائِهِمْ.

٦ ـ الْوَعْدُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ بِثَوَابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنْيَا، ومِنْهُ النَّجَاةُ مِنْ عَدُوِّهِمْ، والنَّصْرُ، والتَّمْكِينُ فِي الأرْضِ «كَمَا في إشارة الآيتين ٣١ و٤٢ من السورة» مع دلَالَةِ نَجَاةِ الرُّسُلِ والّذين آمَنُوا مَعَهُمْ فِي قِصَصِ الأَقْوَامِ الْمُهْلَكَةِ.

● رابعاً:

تَرْبِيَةُ الرَّسُولِ والدُّعَاةِ مِنْ بَعْدِهِ بالأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ «كَمَا فِي الآية ٢٠ والآية ٣١» وفِي هٰذِهِ التَّرْبِيَةِ إقْنَاعٌ، وَتَسْلِيَةٌ، وَتَطْيِيبُ نَفْسٍ.

● خامساً:

معالَجَةُ نَفْسِ الرَّسُولِ تُجَاهَ أَنْوَاعِ الأَذَىٰ والصُّعُوبَاتِ الَّتِي لَقِيَهَا مِنْ قَوْمِهِ بما يلي:

١ ـ طَمْأَنَةُ قَلْبِهِ وَقُلُوب الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ.

٢ ـ تَهْدِيدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْعَاقِبَةِ الْوَخِيمَةِ.

انظر تفسير الآيات من (٣٤ إلى ٤٤).

● سادساً:

تَرْبِيَةُ الرَّسُولِ وَكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِ بالأُسْلُوبِ الْمُبَاشِرِ، عَنْ طَرِيقِ الأَمْرِ والنَّهْيِ، كما في:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

لأنَّ المَوْضُوعَ يَتَعَلَّقُ بِوَظِيفَةِ الرِّسَالَةِ، وَبَيَانِ التَّكَالِيفِ الوَاجِبَةِ فِيهَا.

- سابعاً:

تَرْبِيَةُ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللَّهِ والآمِرينَ بِالمَعْرُوفِ النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِينَ هُمْ فِئَةُ عَبَادِ الرَّحْمٰنِ وأَئِمَّةِ المُتَّقِينَ بِعَرْضِ صِفَاتِهِمْ عَرْضاً خَبَرِيّاً، وإِتْبَاعِهَا بِبَيَانِ مَنْزِلَتِهِمُ الرَّفِيعَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، لأنَّ الارْتِقَاء إِلَىٰ فِئَةِ الدُّعَاةِ «عِبَادِ الرَّحْمٰنِ» بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأفْرَادِ لَيْسَ أَمْراً إِلْزَامِياً، فالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ تَكُونُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّرْغِيبِ والنَّدْبِ، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِلْزَامِ والتَّكْلِيفِ الْفَرْدِي.

* * *

(٢٥)

الملحق الخامس

فيما ينبغي أن يتحلّى به أو يأخذ به الدّاعي إلى سبيل الله والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أخذاً من سورة الفرقان

نَسْتَنْبِطُ مِنْ سُورة (الفرقان) طَائِفَةً مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَلَّىٰ بِهَا أَوْ يَأْخُذَ بِهَا الدَّاعِي إِلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ والآمِرُ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ، والنَّاصِحُ والمُرْشِدُ، ومنها ما يلي:

- أوّلاً:

الصَّبْرُ عَلَىٰ أَنْوَاعِ الأَذَىٰ الَّتِي يَلْقَاهَا الدَّاعِي إِلَىٰ اللَّهِ والآمِرُ بِالْمَعْروفِ النَّاهِي عَنِ المنكر، والنَّاصح والمرشد، مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ يُوَجِّهُ لَهُمْ دَعْوَتَهُ وَنَصَائِحَهُ وَوَصَايَاهُ.

وَعَلَيْهِ أَنْ يَضَعَ فِي تَصَوُّرِهِ دواماً أَنَّهُ مُمْتَحَنٌ بِالَّذِينَ يُوَجِّهُ لَهُمْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ فِي السُّورة:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

- ثانياً:

أَلَّا يُطِيعَ الْكَافِرِينَ، فَلَا يَتَأَثَّرَ بِمُقْتَرَحَاتِهِمْ، وَمَزَالِقِهِمْ، وَمَا يَطْرَحُونَهُ مِنْ تَشْكِيكَاتٍ، عَمَلاً بقول الله لرسوله:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

- ثالثاً:

أَنْ يُجَاهِدَ الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً، عملاً بِقَوْلِ الله لِرَسُولِه:

﴿... وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

- رابعاً:

أَنْ يَضَعَ فِي تَصَوُّرِهِ دَوَاماً أَنَّ رِسَالَتَهُ رِسَالَةُ تَكْلِيفٍ لِلتَّبْلِيغِ والإِقْنَاعِ والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ والتَّرْبِيَةِ، ثُمَّ الإِنْذَارِ بِعَذَابِ اللَّهِ لِمَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ، وَلَيْسَتْ رِسَالَتُهُ رِسَالَةَ تَكْلِيفٍ أَنْ يُحَوِّلَ النَّاسَ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإِيمَانِ.

وأَخِيراً فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِمَنْ أَطَاعَ مُبَشِّراً، ولمن أبىٰ نذيراً، كما قال اللَّهُ لرسوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

- خامساً:

أَنْ يُعْلِنَ لِلْجَمِيعِ أَنَّهُ مَا يَسْأَلُ النَّاسَ أَجْراً عَلَىٰ مَا يُقَدِّمُ لَهُمْ مِنْ هِدَايَةٍ وَخَيْرٍ، ومَا يَبْذُلُ مِنْ نُصْحٍ وَمُجَاهَدَةٍ، عَمَلاً بقول الله لرسوله:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

- سادساً:

أَنْ يَتَوَكَّلَ فِي مَسِيرَتِهِ ذَاتِ الأَعْبَاءِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وأَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النَّهَار وكُلَّما حَزَبَهُ أَمْرٌ، وأَنْ لا يَحْمِلَ هَمَّ مَا يُشَاهِدُ من ذُنوبِ عباد اللَّهِ الكثيرة، وأَنْ يُؤْمِنَ بأَنَّ اللَّهَ خبيرٌ بِهِمْ، عَلِيمٌ بأَحْوَالِهِمْ، وَكَفَىٰ بالله خبيراً بذُنوبِ عباده، عَملاً بقول الله عزّ وجلّ لِرَسُوله:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

- سابعاً:

أَنْ يَتَحَلَّى بِصِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ.

* * *

(٢١)

الملحق السادس

مِنْ أَدَبِ الرَّسُولِ مَعَ رَبِّهِ وَكَيفَ جَاءَ التَّعْقِيبُ الرَّبَّانِيُّ

لَقَدْ كَتَمَ الرَّسُولُ مَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ نَفْسِهِ، ومِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَشْخَاصِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، أَدَباً مَعَ اللَّهِ، وَصَبْراً عَلَىٰ الشَّدَائِدِ، وَرِضاً بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

وَنَادَىٰ شَاكِياً مَا تَعَرَّضَ لَهُ الْقُرْآنَ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ، مِنْ هَجْرٍ لَهُ، وانْتِقَادَاتٍ عَلَىٰ إِنْزَالِهِ مُفَرَّقاً.

فَكَانَ التَّعْقِيبُ الرَّبَّانِيُّ بِالْبَدْءِ بِمُعَالَجَةِ مَا كَتَمَهُ الرَّسُولُ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِهِ، فَبِمُعَالَجَةِ مَا صَرَحَ بِهِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْقُرآن، ثُمَّ الْعَوْدَةِ إِلَىٰ مُتَابَعَةِ مُعَالَجَةِ مَا كَتَمَهُ الرَّسُولُ ﷺ «تفكّرْ في الآيات من الآيَةِ (٣٠ وَحتّى الآية ٤٠) ثم «تفكّر فِي الآيات منَ الآية (٤١ وحتّى الآية ٤٤).

* * *

الخاتمة

هذا ما فَتَحَ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ فِي تَدَبُّري لِسُورَةِ (الْفرقان). وأَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ قَدَّمْتَ فِي هٰذَا التَّدَبُّرِ بِفَتْحٍ مِنَ الرَّبِّ الْجَلِيلِ الْوَهَّابِ جَدِيداً يَخْدِمُ الفِكْرَ الإِسْلَامِيَّ، وَيَخْدِمُ كِتَابَ اللَّهِ الْمَجِيدِ، ويُقَدِّمُ نَمُوذَجاً يَجِدُ فِيهِ الْمُتَدَبِّرُونَ مَا يُشَجِّعُهُمْ عَلىٰ الاجْتِهَادِ فِي تَدَبُّرِ كِتَابِ الله بِمَنْهَجٍ ارْتِقَائِيٍّ لَا يَتَوَقَّفُ عَنْدَ حُدُودِ النَّقْلِ والْجَمْعِ وحَشْرِ الأقْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلْمُفَسِّرِينَ، دونَ نَظَرٍ فِكْرِيٍّ شَامِلٍ يَهْتَمُّ بِقَضِيَّة أنَّ السُّورَةَ الْقُرْآنِيَّةَ ذَاتُ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، ويَهْتَمُّ أَيْضاً بمُلاحَظَةِ أنَّ مُعْظَم الْمَوْضُوعَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ ذَاتُ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، ويَهْتَمُّ أَيْضاً بمُلاحَظَةِ أنّ مُعْظَمَ الْمَوْضُوعَاتِ الْقُرآنِيَّةِ ذَاتُ عَنَاصِرَ فِكْرِيَّة مُوَزَّعَة فِي الْقُرْآن الْمَجِيدِ تَوْزِيعاً حَكِيماً مُعْجِزاً بِلَا تَنَاقُضٍ ولَا تَخالُفٍ، وأنَّ عَلىٰ الْمُتَدَبِّر أَنْ يَجْمَعَ عَنَاصِرَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي يَبْحَثُ فِيهِ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ السُّوَرِ الْقُرْآنِيَّة، ويَنْظِمُهَا فِي نَسَقٍ فِكْرِيٍّ مُتَكَامِلٍ، عَلىٰ مِثْلِ عِقْدٍ مِنْ نَفِيسِ الْجَوَاهِرِ، كُلُّ عُنْصُرٍ مِنْهُ فِي نَصٍّ مِنَ الْقُرْآنِ يَمْلأُ فَرَاغَ حَبَّةٍ مِنْ حَبَّاتِ هَذَا العِقْدِ الْبَدِيعِ.

بهذا يستطيعُ المتفكرون المتدَبِّرون أنْ يَخْدموا كتابَ الله خدَمَاتٍ جديداتٍ يُضِيفُونَها إِلَىٰ خَدَمَاتِ السَّابِقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اهْتَمُّوا بتَدَبُّرِ كِتَابِ الله.

والحمْدُ لله على فتْحِه ومَنِّهِ ومَعُونَتِهِ وتوفيقه.

وكان الفراغ من إعداد هذا المجلد لتدبّر سورتي (يسٓ) و(الفرقان) مساء يوم الخميس ٤ من شهر ذي القعدة ١٤٢٠هـ الموافق لـ١٠/ ٢/ ٢٠٠٠م.

* * *

الفهرس

الموضوع الصفحة

سُورة يسٓ

٣٦ مصحف/ ٤١ نزول

(١) نَصُّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٧
(٢) ممّا ورد في فضل سورة (يسٓ) ١٥
(٣) موضوع سورة (يسٓ) ١٦
(٤) دروسُ سورة (يسٓ) ٢٠
(٥) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٢) ٢٦
ـ تمهيد ٢٦
- ﴿يسٓ * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * علي صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (٦)﴾ ٢٧
- ﴿يسٓ﴾ ٢٧
- ﴿والقرآن الحكيم (٢)﴾ ٢٧
الحكمة ٢٨
- ﴿إنك لمن المرسلين (٣)﴾ ٣٠
- ﴿على صراط مستقيم (٤)﴾ ٣١
- ﴿تنزيل العزيز الرحيم (٥)﴾ ٣٢
﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (٦)﴾ ٣٤
الإنذار: ٣٤
الغفلةُ: ٣٤
بيان الأقوال في معنى: ﴿ما أنذر آباؤهم﴾ بين كون «مَا» نافية، أو غير نافية ٣٥
- ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون (٧)﴾ ٤٣

الموضوع **الصفحة**

ـ بيان المراد من عبارة «حَقَّ الْقَوْلُ» ٤٤
ـ أقسام «قولِ الله» و«كلمة الله» ٤٦
• ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون (٨)﴾ ... ٤٧
• ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون (٩)﴾ ٥٠
• ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (١٠)﴾ ٥٢
• ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم(١١)﴾ ٥٣
﴿إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين (١٢)﴾ ٥٦
ـ شرح القضية الأول: ﴿إنا نحن نحي الموتى﴾ ٥٧
ـ شرح القضية الثانية: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ ٥٧
ـ شرح القضيَّة الثالثة: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ ٦٠
(٦) التدبُّر التَّحْلِيلِيُّ للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآياتُ من (١٣ ـ ٢٩) . ٦٢
القراءات: ٦٣
ـ تمهيد، وفيه بيان قصة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون ٦٤
ـ **التدبّر التحليلي:** ٦٧
• ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون (١٣)﴾ ٦٧
• ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون (١٤)﴾ ٦٩
• ﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون (١٥)﴾ ٦٩
• ﴿قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين (١٧)﴾ ٧٢
• ﴿وقالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم (١٨)﴾ ٧٤
ـ تمهيد ٧٤
ـ **التطيُّر:** ٧٥
• ﴿قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون (١٩)﴾ ٧٧

الموضوع **الصفحة**

- في هذه الآية بيان ثلاث مقولات ٧٧

- ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون (٢١)﴾ ٧٩
- ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى﴾ ٧٩
- ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين (٢٠)﴾ ٨١
- ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾ ٨١
- ﴿وهم مهتدون (٢١)﴾ ٨٢
- ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بِضُر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إني إذن لفي ضلال مبين (٢٤)﴾ ٨٢

- تمهيد ٨٣

- ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون (٢٢)﴾ ٨٣
- ﴿أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إني إذا لفي ضلال مبين (٢٤)﴾ ٨٥
- ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون (٢٥)﴾ ٨٦
- ﴿قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (٢٦)﴾ ٨٧

- ما المراد بدخول هذا المؤمن الجنة؟ ٨٧

- ﴿قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي وجعلني من المكرمين (٢٧)﴾ ٨٨
- ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون (٢٩)﴾ ٨٩

(٧) التّدبّر التحليلي للدَّرسِ الثالث من دُرُوس السّورة وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤) ٩١

- **القراءات** ٩١
- تمهيد ٩٣

- ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (٣٠)﴾ ٩٥

الموضوع **الصفحة**

تحليل عبارة: ﴿يا حسرة﴾ ٩٥
- ﴿ألم يَرَوْا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون (٣١)﴾؟!! ٩٨
- ﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون (٣٢)﴾ ١٠٠
- ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون (٣٥)﴾ ١٠٢

ـ تمهيد ١٠٢
- ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها.. (٣٣)﴾ ١٠٤
- ﴿وأخرجنا منها حباً.... إلى.. أفلا يشكرون (٣٥)﴾ ١٠٥
- ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦)﴾ ١٠٩

ـ تمهيد.... حول التنويع في الأسلوب البياني ١٠٩

ـ نظام الزَّوْجيَّةِ في الكون ١١١
- ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون (٣٧)﴾ ١١٥
- ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (٣٨)﴾ ١١٧
- ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (٣٩)﴾ ١١٩
- ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر.... (٤٠)﴾ ١٢٠
- ﴿ولا الليل سابق النهار... (٤٠)﴾ ١٢١
- ﴿وكل في فلك يسبحون (٤٠)﴾ ١٢٣
- ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون (٤١)﴾ ١٢٤
- ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون (٤٢)﴾ ١٢٧
- ﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين (٤٤)﴾ ١٢٨

(٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (٤٥ ـ ٤٧) ١٢٩

ـ تمهيد ١٣٠

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (٤٥)﴾ . ١٣٠
- ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤٦)﴾ ١٣٣
- ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين (٤٧)﴾ ١٣٤

(٩) التدبّر التحليليّ للدرس الخامس من دروس السورة وهو الآيات من (٤٨ ـ ٦٥) ١٤٠

- القراءات ١٤٠
- تمهيد ١٤٣
- ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤٨)﴾ ١٤٤
- ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون (٥٠)﴾ ١٤٥
- تمهيد ١٤٥
- التدبر ١٤٧
- ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون (٥١)﴾ ١٥٠

الصور: ١٥٠

الناقور: ١٥١

- ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا... (٥٢)﴾ ١٥٤
- ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (٥٢)﴾ ١٥٥
- ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون (٥٣)﴾ ١٥٦
- ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون (٥٤)﴾ ١٥٧
- ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون * هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون * سلام قولاً من رب رحيم (٥٨)﴾ ١٥٨
- ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون * ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التي كنتم توعدون * اصلوها اليوم بما كنتم تكفُرون * اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون (٦٥)﴾ ١٦٣

الموضوع **الصفحة**

ـ تمهيد ١٦٣

ـ التدبّر ١٦٤

ـ العقل ١٧٠

ـ شهادة الجوارح في موقف الحساب يوم الدين ١٧٤

(١٠) التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة وهو الآيات من (٦٦ ـ ٦٨) ١٧٦

- ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فَأَنَّى يبصرون * ولو نشاء لمسخناهم على مكانتِهِم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون * ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون (٦٨)﴾ ١٧٦

ـ القراءات ١٧٦

ـ تمهيد ١٧٧

ـ التدبّر ١٧٨

- ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون (٦٦)﴾ . ١٧٨
- ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون (٦٧)﴾ ١٧٩
- ﴿ومن نعمرة ننكسه في الخلق أفلا يعقلون (٦٨)﴾ ١٨٠

(١١) التدبّر التَّحلِيلي للدَّرس السابع من دروس السورة وهو الآيتان: (٧٩ و٧٠) ١٨٣

- ﴿وما علمناه الشِّعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين (٧٠)﴾ ١٨٣

القراءات ١٨٣

تمهيد ١٨٣

التدبر ١٨٧

- ﴿وما علمناه الشعر﴾ ١٨٧
- ﴿وما ينبغي له﴾ ١٨٩
- ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (٦٩)﴾ ١٨٩
- ﴿لينذر من كان حيّاً.... (٧٠)﴾ ١٩٠

الموضوع **الصفحة**

- ﴿ويحق القول على الكافرين (٧٠)﴾ ١٩٣

ـ مَا عَالجهُ هذا الدرس ١٩٤

ـ ممّا جاء في السُّنَّةِ بِشَأن الشِّعْرِ والشُّعَراء ٢٠٠

(١٢) التدبّر التحليليّ للدَّرس الثّامِنِ من دروس السورة وهو الآيات من (٧١ ـ ٧٥) ٢٠٣

تمهيد ٢٠٤

التدبر ٢٠٥

- ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون (٧١)﴾ .. ٢٠٥

ـ نِسبة «الأَيْدِي» واليدين» و«اليد» إلى الله عزّ وجلّ ٢٠٨

- ﴿وذللناها لهم... (٧٢)﴾ ٢٠٨

- ﴿فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٧٣)﴾ ٢٠٨

- ﴿واتخذوا من دون الله آلِهَةً لعلهم ينصرون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٤)﴾ ٢١٠

تمهيد ٢١٠

التدبر ٢١٢

- ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون (٧٤)﴾ ٢١٢

- ﴿لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٥)﴾ ٢١٢

(١٣) التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس السورة وهو الآية (٧٦) ٢١٣

ـ القراءات ٢١٣

ـ تمهيد ٢١٤

- ﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون (٧٦)﴾ ٢١٥

(١٤) التدبر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآيات من (٧٧ ـ ٨٣) آخر السورة ٢١٥

ـ القراءات ٢١٦

ـ تمهيد ٢١٦

الموضوع الصفحة

ـ التدبر ٢١٧

• ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٧٧)﴾ ... ٢١٧

• ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٧٩)﴾ ٢١٩

• ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون (٨٠)﴾ ٢٢٣

• ﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى... (٨١)﴾ ٢٢٥

• ﴿... وهو الخلاق العليم (٨١)﴾ ٢٢٥

• ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون (٨٢)﴾ ٢٢٦

• ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون (٨٣)﴾ ٢٢٦

ملاحق لتدبر سورة (يسٓ)

(١٥) الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة ٢٢٨

(١٦) الملحق الثاني: اللوح المحفوظ في القرآن وبعض السنة ٢٤٨

(١٧) الملحق الثالث: بيان اعتراض الأمم على بشرية الرُسُل في القرآن ٢٦٣

(١٨) الملحق الرابع: امْتنان الله على العباد بالأنعام في نصوص القرآن ٢٨١

سورة الفرقان

٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول

(١) نصُّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٢٩٥

(٢) مما جاء في السنة حول سورة الفرقان ٣٠٣

(٣) موضع سورة الفرقان ٣٠٥

(٤) بيان أطوار مواقف مشركي مكة تجاه عناصر موضوع السورة منذ بدء البعثة المحمدية حتى نزول سورة (الفرقان) ٣٠٨

(٥) دروس سورة الفرقان ٣١٤

(٦) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٣) ٣١٩

تمهيد ٣٢٠

الموضوع **الصفحة**

التدبّر التحليلي ٣٢١

- ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ①﴾ ٣٢١

ـ فِعْلُ «نَزَّلَ» مثل فِعْلِ «أَنْزَلَ» دُون فرقٍ في المعنى ٣٢٢

- ﴿على عبده ①﴾ ٣٢٥
- ﴿للعالمين ①﴾ ٣٢٧
- ﴿.. نذيراً ①﴾ ٣٢٩

ـ إجمال معاني الآية (١) بوجه عام ٣٣٤

- ﴿الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ②﴾ ٣٣٥
- ﴿الذي له ملك السماوات والأرض ②﴾ ٣٣٥
- ﴿.. ولم يتخذ ولداً ②﴾ ٣٣٧
- ﴿.. ولم يكن له شريك في الملك..﴾ ٣٣٩
- ﴿.. وخلق كل شيء فقدره تقديراً ②﴾ ٣٣٩

ـ إجمال معاني الآية (٢) بوجه عامّ ٣٤٢

- ﴿واتخذوا من دونِهِ آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ③﴾ ٣٤٤
- ﴿.. وَلا يَمْلِكُون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً.. ③﴾ ٣٤٩
- ﴿.. ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ③﴾ ٣٥٠

ـ إجمال معاني الآية (٣) بوجه عامٍّ ٣٥٠

ـ ميزان التقابل بين صفات الله وصفات آلهة المشركين ٣٥٢

(٧) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة الفرقان وهو الآيات من (٤ ـ ٦) ٣٥٢

- ﴿وقال الذين كفروا ④﴾ ٣٥٢
- ﴿.. إن هذا إلا إفك افتراه ④﴾ ٣٥٤
- ﴿... وأعانَه عليه قوم آخرون ④﴾ ٣٥٥
- ﴿... فقد جاءوا ظلماً وزوراً ④﴾ ٣٥٦
- ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ⑤﴾ ٣٥٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿.. فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً (٥)﴾ ٣٥٩
- ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.. (٦)﴾ ٣٥٩
- ﴿.. إنه كان غفوراً رحيماً (٦)﴾ ٣٦٢

ـ إجمالُ معاني هذا الدرس الثاني من دورس السورة ٣٦٥

(٨) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٧ ـ ١٠) ٣٦٦

القراءات: ٣٦٧

تمهيد ٣٦٧

التدبر التحليلي ٣٦٨

- ﴿وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسْواق (٧)﴾ ٣٦٨
- ﴿.. لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً (٧)﴾ ٣٦٩
- ﴿أو يُلقى إليه كنز (٨)﴾ ٣٦٩
- ﴿.. أو تكون له جنة يأكل منها.. (٨)﴾ ٣٧٠
- ﴿... وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً (٨)﴾ ٣٧٢

ـ الرَّدُّ القراني على مقترحات الكافرين وإتهامهم للرسول ﷺ بأنه مسحور .. ٣٧٤

- ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً (٩)﴾ ٣٧٤
- ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً (١٠)﴾ ٣٨٠

ـ إجمالُ معاني الدرس الثالث من دروس سورة الفرقان ٣٨٢

(٩) التدبر التحليليّ للدرس الرابع من دُروس سورة الفرقان وهو الآيات من (١١ ـ ١٩) ٣٨٥

ـ القراءات ٣٨٥

ـ تمهيد ٣٨٧

ـ التدبّر التحليلي ٣٨٧

- ﴿بل كذبوا بالساعة (١١)﴾ ٣٨٧
- ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً (١١)﴾ ٣٩١

الموضوع **الصفحة**

- ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً (١٢)﴾ ٣٩٢
- ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً (١٣)﴾ ٣٩٨
- ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً (١٤)﴾ ٤٠٠

ـ ذبحُ الموت على الصراط ٤٠١

- ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وُعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً * لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسئولاً (١٦)﴾ .. ٤٠٢
- ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءَهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً * فقد كذبوكم بما تقولون مما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً (١٩)﴾ ٤٠٨

ـ تمهيد ٤٠٨

ـ التدبّر التحليلي ٤٠٩

ـ **المحشر** ٤٠٩

﴿من دون الله﴾ ٤٠٩

- ﴿فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل (١٧)﴾ ٤٠٩

ـ الضلال والإضلال ٤١٠

- ﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء... (١٨)﴾ .. ٤١٢

ـ الولي ٤١٢

- ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً (١٨)﴾ ٤١٣
- ﴿فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً... (١٩)﴾ ... ٤١٧
- ﴿ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً (١٩)﴾ ٤١٧

ـ إجمالُ معاني الدَّرْس الرابع من دروس الفرقان ٤١٩

(١٠) **التدبر التحليلي للدَّرس الخامس من دروس سورة الفرقان وهو الآية (٢٠)** ٤٢٤

- ﴿وما أرسلنا قبْلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً (٢٠)﴾ ٤٢٤

الموضوع **الصفحة**

تمهيد ٤٢٤
التدبر التحليلي ٤٢٤
- ﴿.. وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون (٢٠)﴾؟ ٤٢٦
استعمال فعل «جَعَلَ» في القرآن ٤٢٦
أتصبرون؟ ٤٢٩
ـ إجمال معاني الدرس الخامس من دروس سورة الفرقان ٤٣٢
(١١) التدبّر التحليليّ للدرس السادس من دروس سورة الفرقان وهو الآيات من (٢١ ـ ٢٩) ٤٣٦
القراءات ٤٣٧
تمهيد ٤٣٨
التدبّر التحليلي ٤٣٨
- ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا (٢١)﴾ ... ٤٣٩
- ﴿.. لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً (٢١)﴾ ٤٤٠
- ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً (٢٢)﴾ ٤٤٢
ـ معْنَى الحجر المحجور ٤٤٣
ـ ما جاء في القرآن والسُّنَّةِ ممَّا يُثْبِتُ البشْرَىٰ للمؤمنين المتقين ٤٤٤
- ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً (٢٣)﴾ ٤٥٢
ـ شَرطا قبول العمل الصالح عند الله ٤٥٣
- ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً (٢٤)﴾ ٤٥٥
أين يكونُ مقيلُ أصحاب الجنَّةِ بَعد الموتِ ٤٥٦
- ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً * الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً (٢٦)﴾ ٤٦٠
- ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً (٢٩)﴾ ٤٦٤
ـ خذلانُ الشيطان لمن أغواه من الناس ٤٦٩

الموضوع **الصفحة**

ـ كلمة «يوم» والمراد بها في مختلف الاستعمالات ٤٧٠
ـ إجمال معاني الدرس السادس من دروس سورة الفرقان ٤٧١
(١٢) التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة الفرقان وهو الآيات من (٣٠ ـ ٤٤) ٤٧٤
ـ القراءات ٤٧٥
ـ تمهيد ٤٧٦
ـ التدبّر التحليلي ٤٧٨
● ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هٰذا القرآن مهجوراً * وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً (٣١)﴾ ٤٧٨
ـ ﴿اتخذوا﴾ أصل معنى الأخذ. وما يحمل اللفظ من معاني ٤٧٩
ـ شكوىٰ صرّح بها الرَّسول وشَكوى سكت عنها فبدأ التعليق الرّباني بما سكت عنه الرسول ٤٨١
● ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين (٣١)﴾ ٤٨٣
● ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك وَرَتَّلْنَاهُ ترتيلاً * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً (٣٣)﴾ . ٤٨٥
ـ حِكَمُ تنزيل القرآن منجماً ٤٨٥
ـ المراد بالمثل في هذا النصّ ٤٨٩
● الآيات من (٣٤ ـ ٤٤) ٤٨٩
تمهيد ٤٩٠
ـ التدبّر التحليلي ٤٩١
● ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً (٣٤)﴾ ٤٩١
● ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هَارون وزيراً * فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً (٣٦)﴾ ٤٩٦
● ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذاباً أليماً (٣٧)﴾ ٤٩٨
● ﴿وعاداً وثموداً وأصحاب الرَّس وقروناً بين ذلك كثيراً (٣٨)﴾ ٥٠٠

الموضوع الصفحة

- ﴿وكلا ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تتبيراً (٣٩)﴾ ٥٠٣
- ﴿ولقد أتوا على القرية التي أُمطِرَتْ مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً (٤٠)﴾ ٥٠٣
- ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً * إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً (٤٢)﴾ ٥٠٥
- ﴿أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً (٤٤)﴾ ٥٠٨

ـ إجمال معاني الدرس السابع من دروس السورة ٥١٤

(١٣) **التدبر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة الفرقان وهو الآيات من (٤٥ ـ ٥٨)** ٥٢١

ـ القراءات ٥٢٢

ـ تمهيد ٥٢٣

ـ التدبر التحليليّ ٥٢٦

- ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً * ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً (٤٦)﴾ ٥٢٦
- ﴿وهو الذي جعل لكم اللَّيل لباساً والنوم سباتاً وجعل النَّهار نشوراً (٤٧)﴾ . ٥٣٣
- ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا في السماء ماءً طهوراً * لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مِمَّا خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً (٤٩)﴾ ٥٣٦

ـ تحليل المراد بعبارة: «بَيْنَ يَدَي الشيء» ٥٣٧

ـ إطلاق الحياة والموتِ في القُرْآن ٥٤١

- ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً (٥٠)﴾ ٥٤٦
- ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً (٥١)﴾ ٥٤٩
- ﴿فلا تطع الكافرين... (٥٢)﴾ ٥٥٢
- ﴿... وجاهدهم به جهاداً كبيراً (٥٢)﴾ ٥٥٤
- ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذبٌ فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً (٥٣)﴾ ٥٥٧

الموضوع **الصفحة**

- ما جاء في القرآن حول آيات الله في البحرين ٥٥٨

• ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً (٥٤)﴾ ٥٦٤

• ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً (٥٥)﴾ ٥٦٨

• ﴿وما أرسلناك إلا مُبَشّراً ونذيراً * قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً (٥٧)﴾ ٥٧١

- تمهيد ٥٧١

- التدبّر ٥٧٢

• ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفىٰ به بذنوب عباده خبيراً (٥٨)﴾ ٥٧٥

- تمهيد ٥٧٥

- التدبر التحليلي ٥٧٦

• ﴿.. على الحي الذي لا يموت (٥٨)﴾ ٥٧٦

• ﴿.. وسبح بحمده (٥٨)﴾ ٥٧٧

- فوائد التسبيح بحمد الله ٥٧٨

• ﴿وكفى به بذنوب عِبَاده خبيراً (٥٨)﴾ ٥٧٩

- إجمال معاني الدرس الثامن من دروس سورة الفرقان ٥٨١

(١٤) التدبّر التحليليّ للدرس التاسع من دروس سورة الفرقان وهو الآيات من (٥٩ ـ ٦٢) ٥٨٦

- القراءات ٥٨٧

- تمهيد ٥٨٨

- التدبر التحليلي ٥٨٩

• ﴿الذي خلق السماواتِ والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فأسأل به خبيراً (٥٩)﴾ ٥٨٩

• ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً (٦٠)﴾ ٥٩٢

الموضوع **الصفحة**

- ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً * وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً (٦٢)﴾ ٥٩٥

ـ إجمال معاني الدرس التاسع من دروس سورة الفرقان ٥٩٨

(١٥) التَّدَبّر التَّحليلي للدرس العاشر من دروس سورة الفرقان وهو الآيات من (٦٣ ـ ٧٦) بشأن صفاتِ عباد الرحمن ٦٠٠

ـ القراءات ٦٠١

ـ تمهيد ٦٠٢

ـ التدبّر التحليلي ٦٠٣

- ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً (٦٣)﴾ ٦٠٣

ـ بعض ما جاء في السنة بشأن رحمة الله ٦٠٦

- ﴿.. الذين يمشون على الأرض هوناً (٦٣)﴾ ٦٠٨

ـ التوجيه للمشي في أمور الدنيا وللسعيِ في أمور الأخرة ٦٠٨

ـ أضداد مشي الهون ٦٠٨

- ﴿... وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً (٦٣)﴾ ٦١٢

- ﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً (٦٤)﴾ ٦١٦

- ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم أن عذابها كان غراماً * إنها ساءت مستقراً ومقاماً (٦٦)﴾ ٦٢١

- ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً (٦٧)﴾ . ٦٢٦

- ﴿والذين لا يدعون مع الله إلَهاً أخَرَ.. (٦٨)﴾ ٦٣١

- ﴿... ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق.. (٦٨)﴾ ٦٣٥

- ﴿... ولا يزنون... (٦٨)﴾ ٦٣٩

- ﴿... ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً (٦٩)﴾ ٦٤٢

- ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً (٧٠)﴾ ٦٤٦

- ﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً (٧١)﴾ ٦٤٧

الموضوع **الصفحة**

- ﴿والذين لا يشهدون الزور... (٧٢)﴾ ٦٤٨
- ﴿... وإذا مروا باللغو مروا كِرَاماً (٧٢)﴾ ٦٥٢
- ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمّاً وعمياناً (٧٣)﴾ .. ٦٥٦

ـ أقسام الناس عند تذكيرهم بآيات ربهم ٦٥٩

- ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً (٧٤)﴾ ٦٦٢
- ﴿أولئك يجزون الغُرْفَةَ بمَا صبروا ويُلقون فيها تحية وسلاماً * خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً (٧٦)﴾ ٦٦٧

ـ نظرة عامة حول هذا الدرس العاشر من دروس السورة ٦٧٠

ـ نظرة عامّة حول ما جاء من صفات عباد الرَّحمن في سائر القرآن ٦٧٢

ـ إجمال صفات عباد الرحمن في سورة (الفرقان) وغيرها ٦٨٤

(١٥) التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دروس سورة الفرقان وهو الآية الآخيرة (٧٧) من آيات السورة ٦٨٧

تمهيد ٦٨٧

التدبر التحليلي ٦٨٧

ملاحِق تدبر سورة الفرقان

(١٦) **الملحق الأول**: شجرة موضوع السورة ٦٩١

(١٧) **الملحق الثاني**: مستخرجات بلاغية وفنية من السورة ٧١١

(١٨) **الملحق الثالث**: حول البيان المقرون بالحجة والبرهان وبالتفسيرات الموضحات للحكمة من الاختيار الرباني في السورة ٧٣٣

(١٩) ـ **الملحق الرابع**: حول منهاج الدعوة ووسائل التربية في السورة ٧٣٦

(٢٠) **الملحق الخامس**: حول ما ينبغي أن يتحلى به حامل الرسالة أخذاً ممَّا جاءَ في السورة ٧٤٠

(٢١) **الملحق السادس**: من أدب الرسول مع ربه وكيف جاء التعقيب الرباني .. ٦٤٢

الخاتمة ٦٤٣

الفهرس ٧٤٤

معارج التفكر
ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

المجلد السابع

تفسير سورتي
فاطر/٤٣ - مريم/٤٤

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

معارج التّفكّر
ودقائق التّدبّر

الطّبْعَة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

حُقوقُ الطبْع محْفوظة للمؤلّف

تُطلبُ جميعُ كتُبنا مِنْ :
دَارُ القَلَمْ - دمَشق : صَ.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشّاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
صَ.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورة فاطِر

٣٥ مصحَف ـ ٤٣ نُزُول

وَهِيَ مَكّيَّةٌ كُلّهَا

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ
وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن
يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾

---

١ ـ • ﴿مَا يَشَآءُ إِنَّ﴾ سهّل الهمزة الثانية وأبدَلَها واواً مكسورة، نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ورُوَيس، وقرأها باقي القرّاء العشرة همزاً محققة.

٢ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: **[وهْو]** بإسكان الهاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وهُو]** بضمّ الهاء. وهما وجهان عربيان. ووقف يعقوب بهاء السكت.

٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف: **[هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللّه]** بكسر راء «غيرِ» على أنَّها صفة للفظ خالق المجرور بحرف الجرّ الزائد. وقرأ باقي القرّاء العشرة بضم راء «غيرُ» على أنّها صفة لمحلّ لفظ خالق وهو الرفع.

٤ ـ • قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[تَرْجِعُ الأمُورُ]** ببناء فعل «ترجع» للمعلوم. وقرأ باقي القرّاء العشرة **[تُرْجَعُ]** ببناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله. والقراءتان متكاملتان، أي: تُرجَعُ بقضاء الله وقدره فتَرْجِعُ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم
بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ
حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن
زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن
يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ
﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا
بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ
ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ
وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ
﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا
تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ

---

٨ - • قرأ أبو جعفر: [فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ]. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ] ومؤدّىٰ القراءتين واحدٌ، وهما من قبيل التفنُّن في التعبير.

٩ - • قرأ ابنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف [الرِّيح] بالإفراد. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [الرِّيَاحَ] بالجمع. ومؤدّي القراءتين واحد، إلّا أنّ في الجمع دلالةً صريحة على أنواعِ الرِّياح.

٩ - • قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخَلف: [مَيِّتٍ] بتشديد الياء المكسورة. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مَيْتٍ] بإسكان الياء. «مَيْت ومَيِّت» لغتان عربيتان.

١١ - • قرأ يَعْقُوب: [وَلاَ يَنْقُصُ] من فعل «نَقَصَ». وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَلاَ يُنْقَصُ] من فعل «أَنْقَصَ». «نَقَصَ وأَنْقَصَ» لغتان بمعنى قلّلَ من مقدار الشيء.

مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾ وَمَا
يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ
وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ
وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ
﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ
ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ
مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ
مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ
مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ
وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ
بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ
شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم
بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى

---

١٥ ـ • ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى﴾: سهّل همزة «إلى» وأبدلها واواً مكسورة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورُوَيس. وقرأها باقي القرّاء العشرة همزةً محققة.

١٦ ـ • قرأ أبو جعفر: ﴿إِن يَشَا﴾ بدون همز، وقرأها كذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿إِن يَشَأۡ﴾ بهمزة محقّقة ساكنة.

ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا
ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا
يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ
أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ
﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ
بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى
ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا
رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾

---

٢٥ ـ • قرأ أبو عمْرو: [رُسْلَهُمْ] بإسكان السّين. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [رُسُلَهُمْ] بضم السّين. والقراءتان لغتان عربيتان.

٢٦ ـ • قرأ: [نَكِيري] بإثبات ياء المتكلم، ورشٌ في الوصل، وقرأها كذلك يعقوب في الوصل والوقف، وقرأها باقي القرّاء العشرة: [نَكِيرِ] بحذف ياء المتكلم. وحذف ياء المتكلم لغة عربية يحسنها الإيجاز في النطق.

٢٨ ـ • ﴿ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ﴾: سهّل همزة «إنَّ» وأبْدَلَها واواً، نافعَ، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ورُويس. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالتحقيق.

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ
أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ
﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا
لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا
يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم
مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ

---

٣٣ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [يُدْخَلُونَها] من فعل «أدْخَلَه» وقرأ باقي القراء العشرة: [يَدْخُلُونَهَا]: من فعل «دَخَلَهُ» وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ هم يُدْخَلُونها بأمر الله، فهم يَدْخُلُونها طائعين مكرّمين.

٣٣ ـ • قرأ نافع وحفص: [وَلُؤْلُؤًا] بتحقيق الهمزتين. وقرأ شعبة، وأبو جعفر: [وَلُولُؤًا] بتسهيل الهمزة الأولى، وتحقيق الثانية. وقرأ الدوري عن أبي عمْرو: [وَلُؤْلُؤٍ] بالجرّ عطفاً على [مِن ذَهَبٍ] مع تحقيق الهمزتين. وقرأ السّوسي: [ولُولُؤٍ] بالجرّ مع تسهيل الهمزة الأولى وتحقيق الثانية. وقرأ باقي القراء العشرة: [وَلُؤْلُؤٍ] بالجرّ مع تحقيق الهمزتين. وفيهاقراءات أخرىٰ هي من قبيل الأداء.

٣٦ ـ • قرأ أبو عمْرو: [كَذَلِكَ يُجْزَىٰ كُلُّ كَفُورٍ] ببناء فعل «يُجْزَى» لما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ باقِي القرّاء العشرة: [كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ] ببناء الفعل للمعلوم، مع نون المتكلّم العظيم.

فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ
نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ
فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨ هُوَ ٱلَّذِي
جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ
ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ
إِلَّا خَسَارٗا ٣٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ
كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا
إِلَّا غُرُورًا ٤٠ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن
تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ
كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن
جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا
زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا

---

٤٠ ـ ● [أَرَأَيْتُمْ] سهّلَ الهمزة الثانية نافع، وأبو جعفر، وحذفها الكسائي، وحقّقها باقي القرّاء العشرة.

٤٠ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، وحمزة، وخلف: [عَلَى بَيِّنَتٍ مِنۡهُ] بإفراد «بيّنة» وقرأ باقي القراء العشرة: [على بيّناتٍ مِنۡهُ] بالجمع. والمؤدّي واحد، فالبيّنة اسم جنس يشمل البينات، ولكن في قراءة الجمع دلالة صريحة على تعدّد البيّنات وتنوّعها.

٤٣ ـ ● قرأ حمزة: [وَمَكۡرَ السَّيِّءۡ] بإسكان الهمزة في الوصل. ووقف بإبدال الهمزة ياءً، وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَمَكۡرَ السَّيِّءِ] بكسر الهمزة المحققة، ويقف هشام كحمزة، وله غير ذلك من الأداء.

يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ
فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾
أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ
يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن
دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ .

* * *

---

٤٣ ـ • [الْمَكْرُ السَّيّئُ إلاَّ] سهّل همزة «إلّا» نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وجعفر، ورُوَيس. وأبدلوها واواً مكسورة. وقرأها باقي القراء العشرة همزة محققة.

٤٣ ـ • [سُنَّتَ] وقف بالهاء ابن كثير، وأبو عمْرو، والكسائي، ويعقوب، «سُنَّهْ» وقرأ الباقون بالتاء «سُنَّتْ».

٤٥ ـ • [جَاءَ أَجَلُهُمْ]: قرأ بإسقاط الهمزة الأولى: قالون، والبزّي، وأبو عمرو. وقرأ بتسهيل الهمزة الثانية: ورْشٌ، وقنبل، وأبو جعفر، ورُوَيْس. وقرأ بتحقيق الهمزتين باقي القراء العشرة.

(٢)

موضوع سورة «فاطر»

لدى تأمُّلي في سورة (فاطر) وآيات دُروسها ظهر لي أنَّها تتابع تفصيل بياناتٍ تتعلّق بفروع شجرة موضوع سورة (الفرقان) التي نزلَتْ قبلها مباشرة، وأن موضوع سورة (فاطر) هو موضوع سورة (الفرقان).

إنّ سورة (فاطر) سورة منفصلة، إلَّا أنّها في البياناتِ الّتي اشتملت عليها بمثابة سورة مُلْحَقَةٍ بسورة (الفرقان) وتابعةٍ لَهَا، ومضيفة تفصيلاتٍ تتعلَّقُ بعناصر موضوعها.

وقد سبق أنّ عرفنا أن موضوع سورة (الفرقان) جذْرٌ من عناصر القاعدة الإيمانية تنطلق منه شجرةٌ ذات أربعة فروع، وأنّ آياتها موزعات على هٰذهِ الفُرُوع الأربعة، فبعضها يختصُّ بفرعٍ منها، وبعضها يشْترِكُ بفرعَيْنِ أو أكثر منها.

وهذه الفروع الأربعة هي ما يلي:

الفرع الأوّل:

فرعٌ يتعلّقُ بالله عزّ وجلّ وبعض صفاته الجليلة، ولا سيما توحيد رُبُوبيّته وتوحيد إلٰهيَّتِه، ويتعلَّقُ بمناقشة المشركين ومناظرَتِهم حوْلَ عَقَائِدِهم المخالفة للحقِّ الّذي جاء به الإسلام، لإقناع من لَدَيْهِ استعدادٌ للاقتناع بالحقّ، ولإقامة البراهين الدامغَةِ القاطعة لأعذار المكابرين المصرّين على باطلهم من عقائدهم الشركيّة.

الفرع الثاني:

فرع يتعلّق بالقرآن المنزَّل على الرسول محمد ﷺ وتكذيب المشركين الكافرين به، ومناظرتهم حول تشكيكاتهم فيه، وشبهاتهم حوله، والرّدّ على اعتراضاتهم ومقترحاتهم بشأنه، وإقامة الحجَجِ عليهم لإقناع طالب الحقّ منهم، ودَمْغِ المعاند المكابر المصرّ على الباطل وجُحود الحقّ.

الفرع الثالث:

فرع يتعلّق بالرسول محمّد ﷺ، وتكذيب المشركين الكافرين له، وتكذيبهم بما جاء به عن رَبّه، والردّ على اعتراضاتهم وتشكيكاتهم في

صحة نبوته ورسالته، لإقناع طالب الحقّ، ودَفْعِ المعاند المكابر المصرّ على الباطلِ وجُحُودِ الحقّ.

الفرع الرابع:

فرع يتعلّق بالمرسَلِ إليهم وهم جميع العالمين، مع التركيز على الّذين تبلّغوا إبّان التنزيل دعوة الرَّسول محمّد صلوات الله وسلاماته عليه، وهم يومئذٍ قسمان، ويقاسُ عليهم كلُّ الناس حتّىٰ آخر مُمْتَحَنٍ منهم في الحياة الدنيا.

القسم الأول: الذين آمنوا وصدّقوا واتّبعوا الرَّسول، واتّبعوا ما أُنْزِلَ إليهم من رَبّهم، على مراتبهم ودراجاتهم في الإيمان والعمل الصالح، والالتزام بمطلوب الله منهم إلزاماً أو ترغيباً.

وهؤلاء لهم ثلاث مراتب:

- ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾: وهم أهل مرتَبَةِ التقوىٰ على تفاضلهم ارتفاعاً ونزولاً في درجات هذه المرتبة (مرتبةُ التقوىٰ هي المرتبة الدنيا).

التقوى تكون بفعل الواجبات وترك المحرّمات.

- ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: وهم أهل مرتبة البرّ على تفاضُلهم في درجات هذه المرتبة (مرتَبَةُ البر هي المرتبة الوسطى).
- ﴿ٱلْبِرَّ﴾: هو التوسّع في أعمال الخير من نوافل العِبَاداتِ والْقُربان.
- ﴿مُحْسِنُونَ﴾: وهم أهْلُ مَرْتَبَةِ الإحسان، على تفاضُلِهم في درجات مرتبة الإحسان (مرتَبَةُ الإحسان هي المرتبة العلْيَا).
- ﴿ٱلْإِحْسَٰنِ﴾: أن يَعْبُد المؤمن ربّه كأنّه يراه فيُحْسِن عمله ويجوّده.

وقد اختير للسابقين في الخيرات بإذْن الله وهم أهل مرتبتي البرّ

والإحسان عنوان: «عباد الرحمن» وقد جاء في سورة (الفرقان) بيان الصفات الّتي امتازُوا بها، فجعلَتْهُم مُرَشّحِين لأن يكونوا أئمّةً للمتقين.

القسم الثاني: الّذين كَذَّبُوا وَكفَروا على مهابطهم في دركاتهم كُفْراً وإجراماً وعناداً، ومعاداةً للحق الرّبّانيّ، ومقاومةً للذين آمَنُوا، ومحاربَةً لأنصار الحقّ ودُعاته، واضطهاداً لهم.

وقد سبَق شَرْحُ ما جاء في سورة (الفرقان) ممّا يتعلَّقُ بمعالجتهم إقناعاً ومجادلةً، وموعظةً بالترغيب والترهيب، وضرب الأمثال التاريخية، وبيان سُنَّةِ الله في عباده.

واقتضت الحكمة البيانيّة الرّبّانيّة إتباع سورة (فاطر) لسورة (الفرقان) في التنزيل، وجَعْل آياتها تتوزّع على الفروع نفْسِها التي توزّعَتْ عليها آياتُ سورة (الفرقان) استقصاءً لكلّ ما يَحْسُنُ تفْصِيله، ومُحاصَرةً لنُفوس المتَلَقِّين المبلَّغِين من كلّ جوانبها الفكرية، والعاطفيّة، والوجدانيّة، بغْيَةَ قَطْعِ أعذار المعرضين، والمدْبِرين، الّذين يمْكِنُ أَنْ يتذَرَّعُوا بباطلات المعاذير، لدى الحساب وفصل القضاء يوْمَ الدِّين، أو لدىٰ مناظرات المؤمنين الدُّعاة إلى الله لهم في الدنيا.

* * *

(٣)

دروس سورة فاطر

تشتملُ سورة (فاطر) على أحد عشر درساً ضمن وحدة موضوعها، الذي تفرّعت شجرته إلى أربعة فروع كما سبَق بيانه.

الدرس الأول: يتضمن الثناء على الله بكل المحامد، وبيان أنه فاطر السماوات والأرض، وأنه جاعل الملائكة رسلاً له، يؤدّون وظائفهم في

كونه بحسَبِ أوامِرِه لَهُمْ، وأنَّهم أصناف ذوو أجنحة مثنى وثُلَاثَ ورُبَاع وأكثَر، وأنَّهُ سُبْحَانه على كلِ شيء قدير.

وهذا الدرس يتَعَلَّق بالْفَرْعِ الأوَّلِ من فروع موضوع السورة، وهي الفروع الممتدَّة من شجرة موضوع سورة (الفرقان) كما سبَقَ به البيان.

وفي هذا الدّرس ربط بما جاء في سورة (الفرقان) بشأن طلب المشركين أن يُنَزِّلَ اللَّهُ عليهم الملائكة، لتبليغهم دينه، وأنْ لا يقتصر الأمر على إنْزَالِ الوحي على محمّد الذي ادّعَىٰ أنه رسول الله وأنّه يوحىٰ إليه، وهذا ما جاء بَيَانُه في الآيتين (٢١ ـ ٢٢) منها.

هذا الدرس الأوّل هو الآية الأولى من سورة (فاطر).

الدرس الثاني: درْسٌ له صلةٌ ببعْضِ ما جاء في سورة (الفرقان) إذْ جاء فيها بيان اعتراض قادة المشركين في مكّة على حالة الرسول محمّد الماليّة، فلم يؤته سعةً من المال، وهو يدّعي أنَّه رسولُ رَبِّه الّذِي اصطفاه لحمْلِ رسالته.

وقَدْ تَضَمَّن هذا الدرس بيانَ أنّ الله عزّ وجلّ بحكمته يفتح على بعض عباده ما يشاءُ من رحمته، فإذا فتح شيئاً من رحمته على بعض عباده فلا ممسك له، وإذا أمْسَك شيئاً من رحمته عن بعض عباده فلا مُرْسِلَ له، ومن رحمته عطاء النبوة والرّسالة، إلى سائر عطاءاته لعباده.

ويتضمّن بيان أنّه تبارك وتعالى عزيز حكيم، فهو بعزّته يفعل ما يشاء، ويخلق ما يشاء، وهو بحكمته يَخْتَارُ من الممكنات في تصاريفه ما هو الأحكم والأجْدَرُ بالاختيار.

ويتضمَّنُ تذكيرَ النّاس بنعمة الله عليهم التي اختَصَّهُم بها، ففضَّلهم على كثيرٍ ممَّن خَلَقَ وممّا خَلَقَ تفضيلاً عظيماً، فجعلهم في أحسن تقويم، وأمدهم بعَطَاءات رُبُوبيَّتِه، ويُمِدُّهم دواماً بأرْزاقِهم، مع بَيَانِ أنّه لا رازق في الوجود غيره، إذَنْ فلا إلّه إلّا هو.

ويتضمَّنُ تأنيب المشركين على شِرْكهم الّذي صُرِفُوا به عن قاعدة الحقّ وصراطِ الهُدَىٰ.

هذا الدرس هو الآيتان (٢ و٣) من السورة.

الدرس الثالث: درسٌ يتضمن علاج نفس الرَّسول محمّد ﷺ بشأن تكذيب كفّار قومه في مكة له.

وفي هذا العلاج أَبَان الله عزّ وجلّ له أنّ رُسُلاً كثيرين من قَبْلِه قَدْ كُذِّبُوا من قِبَلِ أقوامهم، أي: فَصَبَروا على ما كُذِّبُوا وأوذوا، فَعَلَيْه أنْ يقْتَدِيَ بهُدَاهُمْ، وظاهرٌ في هذا الدرس أنّه يتعلّق بفرع الرسول من فروع موضوع السورة.

هذا الدرس هو الآية (٤) من السورة.

الدرس الرابع: درسٌ يتضمَّن نداءً تحذيريًّا من الله عزّ وجلّ للناس أجمعين، بأنَّ وَعْدَهُ بشَأْنِ يُومِ الدّين، وما فيه من دار للنّعيم ودارٍ للعذاب وعْدٌ حقٌّ. ويتضمَّنُ معالجةً إقناعيّةً لَهُمْ بأنْ لا تغُرَّهُمُ الحياةُ الدنيا، وبأن لا يَغُرَّهم الشيطانُ الغَرُور، إذْ هُوَ عَدُوٌّ لهم، فعَلَيْهم أن يتّخِذُوهُ عدُوّاً.

ويتضمّن الترهيب من العذاب الشديد للّذين كفروا، والترغيب في المغفرة والأجر الكبير للذين آمنوا.

ويتضمّن معالجةَ نَفْسِ الرسول محمّد ﷺ بأنْ لا تتأثّر نفسه بالحسْرَة على أنّ كفَّار قومه لم يستجيبوا لدعوته، مع إشعارِهِ بأنّهم في رحلة امتحان، وبأنّ الله عليم بما يصْنَعُون.

وظاهرٌ اتّصال هذا الدرس بفروع شجرة موضوع السورة، وهي الفروعُ الممتدة من سورة (الفرقان) والسائرة مع آيات سورة (فاطر) وهو موصولٌ بفرْعَي المرْسَلِ إليهم والرَّسُول.

هذا الدَّرْسُ هو الآيات من (٥ ـ ٨) من السورة.

الدُرسُ الخامس: درسٌ يتضمَّن بياناً لبعض الظواهر الكونيّة الدالّة على رُبوبيَّةِ الله للكَوْن كلِّه، ووحدانيَّته فيها، ويلْزَم عقلاً من توحيد الله في رُبوبيَّتِهِ وجوبُ تُوحيدِه في الإِلَهيَّة. وهذا موصول بالفرع الأول من فروع شجرةِ موضوع السورة (الله).

هذا الدرس هو الآية (٩) من السورة.

الدرس السادس: درسٌ يتضمَّنُ إقناعاً للمشركين الّذين يعبدون آلهة من دون الله ليكونوا لهم عزّاً، بأنّ العزّةَ (وهي القوة الغالبة) كُلَّها في الوجود كلّه هي لله وحده لا شريك له، فلا عزَّة لدىٰ آلهة المشركين حتىٰ يطلبوها منهم.

ويتضمّن إقناعاً بأنّ دُعَاءَ غير الله من آلِهَةٍ دُعاءٌ ضائع، أمَّا دُعَاءُ الله عزّ وجلّ فهو من الكلام الطيّب وإلَيْه جلّ جلالَهُ يَصْعَدُ، فهو بحكْمَتِهِ يجيبُ دُعَاءَ من دَعَاهُ إذا شاء.

ويتضمَّنُ بَيَانَ أن الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يعْمَلُه المؤمنون يرفَعُه جلَّ جلاله، فَيَرْتَفِعُ بِرَفْعِه أهْلُه.

ويتَضمَّنُ بيانَ أنّ الذين يمكُرُون السّيئات ضد الرسول وضدّ المؤمنين وضدّ دين الله لَهُمْ عذابٌ شديد، مع أنّ مكرهم السَّيِّئَ لا يُعْطِيهم ما يُحبون من نتائج، إذْ يُحبِط الله أعمالهم.

وظاهرٌ ارْتِباطُ هذا الدرس بالفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة (المرسل إليهم) إقناعاً وتوجيهاً وترغيباً وترهيباً.

هذا الدرس هو الآية (١٠) من السورة.

الدرس السابع: درسٌ يتضمن عوداً إلى عرض بعض آيات اللَّهِ في

كونه، الدالة على أنَّهُ هو وحْدَه رَبُّ كُلِّ شيءٍ، فهو الإلَه وحْدَهُ الّذي يسْتَحِقُّ أن يُعْبَد.

وفيه تنبيهٌ على عدّة ظاهراتٍ كونيّة، من ظاهرات خَلْقِ الله الدالّات على كمال قدرته، وإتقانِ صُنْعِه لكلِّ شيء، وشمول علمه، وعظيم نِعَمِه علىٰ عباده رحمةً بهم.

وفيه إقناع للمشركين بأنّ عبادتهم لشركائهم لا تنفَعُهم شيئاً..

هذا الدرس هو الآيات من (١١ ـ ١٤) من السورة.

الدرس الثامن: درسٌ يتضمَّن بياناتٍ كثيراتٍ للنَّاس، حول قضايا من أصول الدين، وأصول حقائق الأشياء، تعليماً وإقناعاً.

وفيه إنذارٌ للمشركين. وفيه بيانٌ حول طائفة من آيات الله في كونه.

وهذا الدرس هو الآيات من (١٥ ـ ٢٦) من السورة.

الدرس التاسع: درسٌ فيه عوْدٌ إلى عرض بعض آيات الله في كونه، وهيَ آيات تتعلَّق بظاهرة الألْوَان في الأكْوَان.

هذا الدرس هو الآيتان: (٢٧ و٢٨) من السورة.

الدرس العاشر: درسٌ يتعلّق بالقرآن المجيد، الفرع الثاني من فروع شجرة موضوع السورة.

وفيه بيان مطلوب الله من المؤمنين بشأن تلاوته والعمل بما أوجب الله عليهم فيه.

وفيه بيانٌ يتعلَّقُ بالأمَّة المحمّديّة الوارثة له، مع بيان أقسامها..

وفيه وعْدٌ للّذين آمَنُوا بجنّاتِ النعيم، مع عرض بعض أحوالهم فيها، على سبيل الترغيب.

وفيه وَعِيدٌ للذين كفروا بنار جَهنَّم، مع عَرْض بَعْض أحوالهم فيها، على سبيل الترهيب.

هذا الدرس هو الآيات من (٢٩ ـ ٣٨) من السورة.

الدرس الحادي عشر: دَرْسٌ يشتمل على أساليب إقناعيّة للمشركين الّذِين اشتملت سورتا (الفرقان) و(فاطر) على كثير من معالجاتهم الإقناعيّة بمختَلِفِ الحجَجِ، لقطع أعذارهم، وبيان أنهم معاندون مكابرون جاحدون، يستَحقُّون الخلود في عذاب النارِ يَوْمَ الدين.

هذا الدرس هو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) آخر السورة.

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآية (١) منها

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.

تمهيد:

من ارتباط سورة (فاطر) بشجرة موضوع سورة (الفرقان) نلاحظ في بدء سورة (فاطر) الثناء على الله عزّ وجلّ بعبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كما جاء في بدء سورة (الفرقان) الثناء عليه جلّ جلالُه بعبارة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ وكذلك في الآية (١٠) منها، وفي الآية (٦١) منها.

فكان من الحكمة البيانيّة في سورة (فاطر) افتتاحُها بإثباتِ كلّ

الحمْدِ لله، ما يمكن أن تُدْرِكه الخلائق منه، وما لا يمكن أن تُدْرِكه، وكان إثباتُ كلّ الحمدِ لله في افتتاح (فاطر) بمثابة التعميم الشامل، بعْد ذكر أنواع من الثناء على الله مقترنة بشيءٍ من التفصيل في سورة (الفرقان).

التدبر:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: **الحمْدُ**: هو التحدُّثُ على وجْهِ التمجيد بصفات المحْمُود الجميلة، وهو مرادِفٌ لكلِمَةِ: «الثناء».

وتعريف بعض أهل العلم للْحَمْد: «بأنَّهُ الثناءُ باللّسَان عَلَىٰ الجميل الاختياري» تعريفٌ قاصر، لأنّ صفاتِ الله الذاتيّةَ الأزليّة تُحْمَدُ، مع أنّها ليسَتْ من أفعاله الاختياريّة، ولأنّ القلب والنَّفْس قَدْ يتحدَّثان بالْحَمْد ولو لم يتحرَّكِ اللّسانُ بعبارة الْحَمْد.

و(ال) في كَلمة «الْحَمْدِ» هُنا استغراقيّة، تعمُّ كُلَّ أجناس الحْمدِ، وأنواعه، وأصنافه، وأفراده.

والحْمدُ لله يتناوَلُ تمجيدَهُ بصِفَاته الوُجوديّةِ الّتي هي من ذاته، وبصفات أفعاله، فهو يشْمَلُ الثناء على الله بكُلِّ صفاته وأسمائه الحسْنَىٰ، مَا عَلِمْنَا منْها وما لم نَعْلَمْ.

ويتناول أيضاً تنزُّهه جلّ جلالُه عن كلّ الصفاتِ الّتي لا تليقُ به، ما عَلِمْنا منها وما لَمْ نَعلَمْ، فله الحمْدُ لبراءَتِه منْها وتنزُّهِهِ عنها.

واللّام الجارّة في ﴿لِلَّهِ﴾ هي هنا بمعنىٰ المِلْكِ أو الاختصاص.

ولفظ الجلالَة «الله» علَمٌ في اللّسان العربيّ على خالِقِ الكون الأزلِيّ الأبَدَيّ الّذِي لَا أوّلَ لَهُ ولَا آخِر، فَهُو الأوّل والآخر.

فمعنى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: كلُّ الْحَمْدِ مَا نَسْتَطِيعُ تَصوُّرَهُ ومَا لا

تَسْتَطيع تَصَوُّرَهُ، منْ صفات ذاتِ الله، وصفاتِ أفعاله، وبراءَتِه من كلّ الصفات الّتي لا تليقُ بجلَالِه، هو لله ملكاً أو اختصاصاً.

ويَلْزَمُ من كوْنِ كلِّ الحمْدِ لله تفرُّدُهُ بهذا الحمدِ، فلا يُشارِكه في كمال الحمْد شيءٌ في الوجود، وهذا يتضمَّنُ الْإعْلانَ عن توحيد الله في ذاته، وفي صفاته وأسمائه الحسْنىٰ.

بهذه الجملَةِ القصيرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُعَلّمُنا رَبُّنا جلَّ جلالُهُ كيْفَ نَحْمَدُهُ تَبارَك وتَعالىٰ، وكيف نثني عليه، إذْ نحنُ بوصفنا بشراً مَحْدُودِي المدارك لا نَسْتطِيعُ أنْ نُدْرِكَ من كمالات الله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانهُ إلّا على مقادير أوعيتنا الإدْراكيّة، إذنْ فنَحْنُ لا نسْتَطيعُ أنْ نُحْصِي الثناءَ علَيْه بما هو لَهُ من كمالاتٍ على وجْهِ التفصيل، لكن نَسْتَطيعُ أن نقول على وجه الإجمال: كلُّ الحمْدِ الذي يُمْكن أنْ يُحْمَدَ به اللّٰهُ هو لَهُ وَحْدَهُ لَا يُشارِكُهُ فيه أحَدٌ، ولدَىٰ اختصار هٰذه العبارة إلَىٰ أقَلِّ الكلِماتِ الدَّالَّاتِ علَيْها نقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

وهذه العبارة متعلقة بالفرع الأول من فروع السّورة الأربعة، الممتَدَّة إلى سورة (فاطر) من سورة (الفرقان).

- ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: كلمة: «**فَاطِر**» اسْمُ فاعل من فعْلِ «فَطَرَ» أي: فاعل الْفَطْرِ، وهي هُنَا صفَةٌ للَّهِ، أو بَدَلٌ منه، إذا اعتبرنا الإضافة غير محضة.

الفَطْر: هو في اللُّغَة الشَّقُّ، ويُسْتَعْمَلُ في شَقِّ ظاهرِ الشيْءِ من باطِنِه، وخروجِ ما من أَجْلِه حصَلَ الشَّقُّ من الباطن.

يقال لغة: فَطَر السِّنُّ اللَّحْمَ في الْفَمِ وطَلَع نامِياً، أي: شَقَّهُ وخرجَ من باطنه، ويُقال: فَطرَ النَّبَاتُ الأرْضَ، أي: شقَّها ونَبَتَ مِنْ باطِنِها مُتَنامياً.

وقَدْ حَمَلَ الْفَطْرُ مَعْنَى الْخَلْق على نظام ابتداءِ الشيْءِ منْ عُمْقِ باطِنِه، والاتّسَاعِ به إلى الأبْعاد الّتي تكُونُ في ظاهره، فالنواةُ الصُّغرىٰ تنشَقُّ وَتَنْمُو وتتكاثَرُ حتَّىٰ تكون شجرةً عظيمة، والْبُيَيْضَةُ بعْدَ تَلْقِيحِها بالْحُوَيْنِ الّذي يأتي إليها من الذّكَر تَنْفَطِر مُنْشَقَّةً ومُنْشَطِرَةً، وتَنْمُو وتتكاثر وفْقَ الْخَرِيطَةِ المسجَّلَةِ في عُمْقِ نَوَاتها، حتَّىٰ تكُونَ حيواناً كبيراً مُطَابقاً لِبَرْنامج خريطَتِه المسجَّلَةِ في نواتِه الأولىٰ الْمُودَعَة في عُمْقِ بُيَيْضَتِه بَعْدَ أن اتَّحَدَتْ معَ نَواةِ الْحُوَيْن الذي اقترن بها قادِماً من الملَقِّحِ الذّكر، إذْ تتكامل بهما خريطة إيجادِه.

وقد كان الله عزّ وجلّ ولَا شيْءَ معَه، وفَطَر السَّمَاواتِ والأرضَ، أي: خَلَقَهُمَا وفْقَ نِظَام الْفَطْرِ ابْتِداءً من الْعَدم. والْعَدَمُ يتَّضِحُ تَصَوُّرُه من مَرْكَزِ عُمْقِ كُلّ شيءٍ، إذْ يَتَفَجَّرُ منْهُ الموجُودُ مُتَنَامِياً بإيجاد الخالق البارئ المصَوِّرِ له.

وقد اخْتار الله عزَّ وجلَّ لأعْمَالِ خَلْقِهِ لِلْأَكْوان نِظَامَ خَلْقٍ قَائمٍ على أمْرين:

الأمر الأول: نظام الْفَطْرِ من الْعُمْق الّذي يَسْهُلُ تَصَوُّرُ الْعَدَمِ عِنْدَ مَرْكَزِهِ، مع قُدْرَتِه ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانُه ـ على أنْ يَخْلُقَ من الظاهر إلى الباطن، إلّا أنّ الْخَلْقَ من الباطن إلى الظاهر أدلُّ على الْخَلْقِ من العَدَم.

الأمْرُ الثاني: نظامُ الإنشاء المتدرّج للأشياء حتَّىٰ غايَاتِها الّتِي تتكامَلُ عنْدَها، وهو نظام التربيَة، ولِهٰذَا عرَّفَنا اللّٰهُ عزّ وجلّ، أنّ من صفاته الجليلة العظيمة أنَّهُ رَبُّ العالمين، أي: موجد العالمين بُربوبيَّتِه وفْقَ نظام الإنشاء المتدرّج، والإنقاص التنكيسِيّ المتَدرِّج أيضاً، مع قُدْرَته جلّ جلالُهُ على أن يخْلُقَ أيَّ شيءٍ يُريد خَلْقَه دُفْعَةً واحدةً، فَمَا يُنْشئه ويُرَبّيهِ خلالَ

مليارات السنين، قادِرٌ على أن يُوجِدَهُ بكَلِمَة: «كُنْ» في أقلَّ من طرْفة عَيْنٍ، ولَكِنَّ حِكْمَتَه في التكوين اقتضَتْ أن يكونَ خَلْقُهُ على نظام التَّربية، فهو جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ربُّ العالمين، ومن حكْمَةِ هذا الاختيار أنْ يكون خالقاً دواماً مهما تعاقَبَتِ الأزمان.

وإنّ بَدْءَ إيجاد الشَّيْء من عُمْقِ باطنه إلى ظاهره، أكثَرُ دَلَالَةً لدى أذهان المخلوقين، على أعمال الخلْقِ الإبداعي، من تجميع العناصر على الشيء من أبعاد ظاهره.

إنّ أعمال الناس الإبداعيَّةَ في البنَاء والإنشاء والمخترعاتِ كلّها تَتِمُّ عن طريق جلْب العناصر من خارج الشيءِ، وضمّ بَعضِها إلى بعْضٍ عن طريق الظاهر حتَّىٰ تتكامل، وهم لا يستطيعون مهما كان بعْضُهُم لبَعْضٍ ظهيراً، أن يجعَلُوا ما يُبْدِعُونه ينفطر من باطنِه، ولو من خِلَالِ قنواتِ صغرياتِ نواتِه الأولىٰ التي علَيْهم أن يبدعوها، وأن تكون هذه الصُّغْرياتُ هي المحدِّدَةَ لخريطَةِ صفاته الجسديّة والنفسيَّة، الماديّة والمعنويّة، حتَّىٰ يتكامَلَ خلْقُهُ وفْقَ مَا قُدِّر له في خريطة إيجاده.

إنّ مَرْكز جِسْم ما، كَكُرَةٍ حَجَرِيَّةٍ أو مَعْدَنيَّةٍ مثلاً، هي نقْطَةُ الْعَدَم المطْلَقِ الْذِي يَبْدَأُ عِنْدَها الإيجادُ من العَدَم، لأنّ الخطُوطَ التقديريَّة المتَصَّورَة في الذّهن، والممتدّةَ من سَطْحِ الْكَرَةِ إلى عُمْقِها، ستنقطع حتْماً عند التلاقي في الْعُمْق.

فالمركزُ الّذي تنقطِعُ عنْدَهُ مُتَلَاقيَةً هُوَ عَدَمٌ حَتْماً، لأنَّهُ لَيْسَ شيئاً ماديّاً، ولا فراغاً قابلاً للامتلاء.

ومن هذا البذْءِ الْعَدَمِيّ خَلَقَ الله السَّمَاواتِ والأرض، على طريقَةِ الْفَطْر، ويجري تتابُعُ عَمَلِيَّاتِ الخلْق قي تصاعُدٍ وتنامٍ ضمن الأبعاد حوْلَه،

ويَحصُلُ التوسِيعُ في المخلوقاتِ مع التقيُّد بنظام الْفَطْر، سواءٌ أكانَتْ هٰذهِ الأبعادُ حول ظاهر الشيءِ فراغاً مطلقاً، أمْ كانت مملُوءةً بَعْضَ امْتِلاءٍ بأشياء سَبَق إيجادُها.

ولِلْإشارة إلى أنّ عمليّاتِ الخلْقِ الرَّبَّانية تجري وفْقَ نِظَام الْفَطْرِ من عُمْقِ الباطن، الّذي يتّضحُ عنْدَهُ تصوُّرُ الْعَدَم المطْلَق، ولا سيما عند بَدْءِ إيجاد الأكوان، جاء في القرآن المجيد وَصْفُ الله عزّ وجلّ بأنّه فاطر السَّماوات والأرض في عدّة نصوص، وبأنّه فطَرَ السّماوات والأرض، وبأنَّهُ فَطَر الناس.

ومثْلُ كلمة «الْفَطْر» ومشتقَّاتها التي هي بمعنى «الشَّقّ» كلمة: «الْفَلْق» ومشتقاتها، وقد جاء في القرآن بيان أنّ الله عزّ وجلّ فالق الحبّ والنّوى، أي: خالق النّباتات والأشجار على وفق نظام الْفَلْق، وهو الشّقّ، ويَكُونُ الإخْراجُ والإنماءُ من الباطن إلَىٰ الظاهر. وجاء فيه بأنّه تبارك وتعالى فالِقُ الإصباح، أي: مُخْرِجُهُ ضِمْنَ نظام الفلْق، وبأنَّه رَبُّ الْفَلَق، وهو الصّبْح.

سُمِّيَ الصُّبْحُ فَلقاً، لأنَّهُ يشُقُّ ظُلُمات اللّيل، وينْبَثِقُ نوره من داخلها.

ومن معنى ابتداء الخلْقِ وفْقَ نظام الشّقّ من عُمْق باطن الشيء الْمُرَادِ خَلْقُه، اشْتُقَّتْ كلمة: «الفِطْرَة» أي: الخِلْقَة الّتِي فُطِرَ المخلُوقُ وهو عليها تقديراً وقضاءً وتنْفِيذاً، منْذُ بَدْءِ إيجاده من عُمْقِ نواتِه الأولى، المشتملَة على خريطة تكوينه الّذي يتِمُّ إنماؤه على وَفْقِها.

وعلى هذا نَفْهَمُ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

فالناسُ منْذُ بَدْءِ نَشْأَتِهِمُ الأولىٰ مفطُورون على أنْ يكونَ دِينُ الله

الْقيمّ هو الملائم لسَعَادتهم وصَلاح أحوالهم، وهو الّذي تَنْزِعُ إلى قبوله أعماقُ قلوبهم ونُفوسهم، وتقبلُهُ عقُولُهم، لولا نزعات أهوائهم، ومطالِبُ شهواتهم، ونَزَغَاتُ ووَساوِسُ شياطينهم.

وهذا المعنى هو الذي جعل سيّدنا إبراهيم يَرْفُضُ الشّرْك بالله عزّ وجلّ، ويقولُ كما جاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) مخاطباً قومَهُ:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وهذا هو الذي جَعَلَ مُؤْمِنَ أَصْحَاب الْقَرْيَةِ يَقُولُ لِقَوْمِه كما جاء في سورة (يسٓ/٣٦ مصحف/٤١ نزول):

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وجُمْلَةُ النُصوص القرآنيَّة الّتِي جاءت فيها هذه المادَّةُ بمعْنَى الخْلقِ وفْقَ نظام الشّقّ، وإخراجِ نماء المخلُوقِ من باطنه إلى ظاهره خمسْةَ عشَرَ نَصّاً.

• ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾: الحديث هُنا عن الملائكة تابع للحديث عنهم في سورة (الفرقان) وهو ما جاء في الآيتين (٢١ و٢٢) منها.

جاعل: اسم فاعل من فِعْل «جَعَل» أي: فَعَل، أو عَمِل، أو صَنَع. ويأتي فِعْل «جَعَل» بمعاني: صَيَّر، وادّعَىٰ، واعتقد، وحَكَم، وقَضَىٰ، وقدّر.

وهو بمعنَى «فَعَل أو عَمِل» قد يكون على سبيل الخلْق والتكوين الإبداعي، وقد يكون بمعنىٰ إجراء حدَثٍ ما من الأحداث، كقَطْع شجرة وجَعْلها حطباً وإلقائها في النّار وقوداً، وكجَعْلِ الكرسيّ في الزاوية اليمنَىٰ دون اليُسْرَىٰ، وكجَعْل المدير أحد الموظفين أمين سِرِّ مكتبه.

فالجعْلُ اسم جنْسٍ يشْمَلُ إحداث شيءٍ ما، ومن الإحداثات أعمال الخلْق والإبداع على غير مثالٍ سبَق، ومنْها أمُورٌ أخرىٰ مادّيّةٌ أو معنويَّةٌ ليسَتْ من قبيل الخلْق والإبداع.

ولا يشترط في الجعْلِ أن يوافقَ الحقَّ أو الحكمة، لكن ما يجعله الله عزّ وجلّ هو حقٌّ وموافقٌ للحكمة حتماً، فكلُّ أفعال الله واختياراته وإجراءاتِه في الوجود كلِّه أمورٌ حكيمة، إنَّه جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانُه يفْعَل ما يَشَاءُ ويختار، وهو العليم الحكيم القدير.

- ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾: نوْعٌ من الأحياء النُّورَانيّة الّتي لم نُعْطَ القدْرة على إدْراكها بحواسِّنا في مجرَىٰ العادات، ما لم تتشكَّلْ هي بالأشكال الجسمانية التي نستطيع إدْراكَها بحواسِّنَا.

وقد خلق الله الملائكة من نور، وخلَقَ الجنَّ من مَارِجٍ من نارٍ، أي: من أصْناف مختلطة من نار صافية، وخلَق الإنْسَ من طينٍ، أي: من ماءٍ وتراب.

وأُجْمِلُ التَّعْرِيفَ بالملائكة فيما يلي:

هُمْ مخلوقاتٌ غيبيَّةٌ عنَّا، لهَا حياةٌ وعِلْم، وهي ذواتُ أجسام نورانيَّة لطيفة، لا نراهم في الحالة العادية، قادرون على التشكُّلِ بالأشكال الجسمانيّة المختَلِفة المرئيَّةِ لنا، أُولُو أجنحة مثْنَىٰ، وثُلاثَ، ورُباعَ، وأكثر، لَا حَصْرَ لهم إلّا في عِلْم الله، مُخْبِتُونَ إلى الله، مطيعون له، لا يعصون الله ما أمَرَهم، ويفعلون مَا يُؤْمَرُون، لا يتناكحون ولا يتناسَلُون، ولا يأكلون ولا يشربون، إنّما هُمْ عبادٌ مُكْرَمُون، يُسَبّحون الله ويذكُرُونه، ويَعْبدونَهُ لا يَفْتُرون، يحملون رسالات ربّهم في العالمين، ويُؤَدّون وظائفَهم في الأكوان، بحسَب تَدْبِيراتِ الأقْدار، على مراد العزيز الحكيم الجبّار.

ولفظ «الملائكة» جمعٌ مفردُه «مَلَك» و«مَلَاك». ومادّة الكلمة مأخوذةٌ من «الأَلُوك» و«الْمَأْلَكَة» بفتح اللّام، و«الْمَأْلُكَة» بضم اللّام، وهذه الأصول هي بمعنى الرّسالة الّتي يحْمِلُها الرّسول، ويؤدّيها على وفْق التكليف.

يقالُ لغة: أَلَكَ بين القوْمِ أَلْكاً وأُلُوكاً، أي: حمل بينهم رِسالة، وتَدَخَّلَ التصْريف في الكَلِمة بَعْدَ ذلك.

ولمّا كانت الملائكةُ رُسُلَ رَبِّهم في كَوْنِه لتأدية الوظائف الَّتي يأمُرُهم بها، كانَ من المناسب تسْمِيتُهُمْ «ملَائكة» والواحِدُ منهم «مُلْأَك» أي: حامل رسالة، وبتسهِيلِ الهمزة صار اللّفظ يُنْطَقُ «مَلَاكاً» وبحذف الألف صار «مَلَكاً».

- ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾.

وصف الله عزّ وجلّ الملائكة في الآية بأنَّهُمْ أولُو أجْنِحَةٍ مثنىٰ وثُلاثَ ورُبَاعَ، أي: وأكثر من ذلك بدليل قوله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾: أي: لِمَنْ شاء، ولِمَا شاء.

كلمة: ﴿أُوْلِيٓ﴾ جمْعٌ لا واحد له من لفظه، وهو بمعنى: «أصحاب» ويُعْرَبُ بالْحُرُوفِ إلْحاقاً بجمع المذكّر السّالم، وقد جاءت في الآية نعْتاً لكلمة: ﴿رُسُلًا﴾.

فالملائكةُ أصحابُ أجْنِحَةٍ تستعملها للصّعود والهبوط بين السَّماء والأرْض، قائمة بوظائفها المأمورة بها.

- ﴿أَجْنِحَةٖ﴾: جمْعٌ مفردُه «جَنَاح» وهو الأداة الّتي يطير بها الطائر فيما نعلَمُ من مخلوقاتٍ نُدْركُها بحواسّنا، وموضِعُه في الطائر نظير موضع اليد في الإنسان.

وظاهر العبارة في الآية يدلُّ على أنَّ الملائكَةَ أصْناف، فصنْفٌ أولُو أجنحة مثْنَىٰ، وصنف أولُو أجْنِحَةٍ ثُلاثٍ، وصِنْفٌ أولو أجنحةٍ رُباع، بمعنى: كلٌّ واحدٍ من الصنف له جناحان، أو ثلاثة أجنحة، أو أربعة أجنحة.

وأشارت عبارة: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ إلى أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُجْري بتجَدُّدٍ مسْتمرٍّ في أعمال خلْقه زياداتٍ تقتضيها حكْمتُه، لم تكُنْ موجودَةً فيما كان قد خلَق سابقاً، من أجناسٍ، وأنواعٍ، وأصنافٍ، وصفاتٍ، وزياداتٍ أُخرىٰ، ويدخُلُ ضمن هٰذِهِ الزّياداتِ في أعمال الخلْقِ ما يزيدُهُ من خَلْقِ أجْنِحَةٍ لأصنافٍ من الملائكة فوْقَ الرُّبَاع.

- ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: ألفاظ ممنوعة من الصرف، للوصْفيَّةِ والعدْل، لأن «مثنى» معدولة عن «اثْنَيْنِ اثْنين» و«ثُلاثَ» معدولة عن «ثَلاثٍ ثَلاثٍ» وهكذا...

وهي هنا منصوبَةٌ على أَنَّها أحوال، أي: أولي أجنحةٍ حالة كونها مثنَىٰ وثُلاثَ وَرُباعَ.

وعموم قوله الله عزّ وجل: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يَدُلُّ على أنَّ ما يزيدُه اللَّهُ في الخلْقِ بتَجَدُّدٍ مستمِرٍّ لَا يقتصر على الزيادات في أجنحة الملائكة، بلْ هو يَشْمَلُ ما يزيدُهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعظم سلطانُه ـ في الْخَلْقِ من كلِّ شيءٍ تقتضي حكمتُهُ أَنْ يزيدَ فيه، ومن ذلك ما جاء في قوله تبارك وتعالى في سورة (الذّاريات / ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿بِأَيْيْدٍ﴾: أي: بقُوَّة عظيمة.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: أي: وإنَّا لَموسِعُونَ في السَّماء الّتي بنَيْناهَا بقُوَّةٍ عظيمة، توسِعَاتٍ مُتَجَدِّدَاتٍ باستمرار، معَ توالي الأزمان، وهذا من زياداتِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ في الخلْق.

وقد جاء عند البخاريّ في «صحيحه» عن عبد الله بن مسعود، أَنَّ النبيَّ ﷺ رأىٰ جبريلَ ليلَةَ المعراج له سِتُّمِئَةِ جناح.

ومثل هذا لا يكون من قِبَلِ الرّأي حتماً، فلَهُ قوةُ الخبرِ المرفوع إلى الرسول ﷺ.

• ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: ختم الله عزّ وجلّ الآيَةَ بهذه الجُمْلَةِ، لِرَبْطِ ظواهر الخلق الرّباني في الوجود بهذه القاعدة العامّة من قواعد أصول الإيمان بالله جلّ جلالُه وعظُم سلطانه، الّتي دلَّت عليها ظاهراتُ الخلقِ في الكون، في السَّمَاواتِ وفي الأرض، وفي الأحياء وفي النباتات، وفي قِمَّةِ الأحياء المشاهدة لنا خَلْقُ الإنسانِ بصفاتِه العجيبة.

هذه الظاهرات الكونيَّةُ البديعة العجيبة تَدُلُّ على أنّ الله علىٰ كلّ شيءٍ قدير، ومن ذلك أنَّه يزيد في الخلْقِ ما يشاء، ومَا سبَقَ أن خَلَقَهُ اللَّهُ ـ جلَّ جلالُه وعظُم سلطانُه ـ دليلٌ على أنَّه قادِرٌ على أن يْخلُقَ مستَقْبلاً مَا يَشَاءُ، إنَّه على كلّ شيءٍ قدِير.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيتان (٢ و٣) منها

قال الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)﴾.

القراءات:

(٢) • قرأ قالُون، وأَبُو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جَعْفَر: ﴿وَهْوَ﴾

بإسكان الهاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بضم الهاء، ووقف يعقوبُ بهاء السَّكتْ. وهي وجوه في النطق العربي.

(٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلَف: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرِ اللهِ﴾ بجرّ لفظ «غَيْرِ» مراعاةً للفظ «خالقٍ» المجرور بحرف الجرّ الزائد. وقرأها باقي القرّاء العشرة برفْعِ لفظ «غَيْرُ» مراعاةً لمحل لفظ «خالق» إذ هو مبتدأ مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ محلًّا.

تمهيد:

هذا الدرس موصول بما جاء في سورة (الفرقان) بشأن اعتراض قادةِ المشركين على ادّعاء محمد بأنّه نبيُّ الله ورسولُه مقترحين إنزال مَلكٍ معه أو إلْقاءَ كنزٍ عليه يُغْنِيه عن المشْيِ في الأسواق لكسب رزقه، وهو ما جاء في الآيتين (٧ و٨) منها.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

ورَدّ الله عزّ وجلّ عليهم في سورة (الفرقان) بأسْلُوب خطاب رسوله، فقال عزّ وجلّ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

لكِنَّ هذا الموضوعَ يحتاجُ إلى مَزيدٍ من التفصيلِ الّذي يُبَيّنُ مَشِيئةَ اللَّهِ العامّةَ في العطاء والمنْعِ، إذْ هُو وَحْدَهُ في الوجود كُلِّه المعطي والمانع، على وفق حكْمَتِه السنيَّة، جَلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه.

فجاء في هذا الدرس الثاني من دروس سورة (فاطر) بعْضُ تفصيل

له، نظراً إلى أنّ سورة (فاطر) تَسِير على فروع شجرة موضوع سورة (الفرقان) كما أَسْلَفْتُ في بيان موضوع السورة ودروسها.

وفي هذا الدرس الثاني أبان الله عزّ وجلّ أنّ عطاءاته، الّتي هي من رحمته الشاملة لِعَطَاءِ النبوّة وعَطَاءِ الرّسالة لمن يصطفيهم، ولِعطاءاتِ أنواعِ النّعَمِ الماديّة لعباده، مع التفاضُلِ فيما بيْنَهم فيها، في الخَلْق، وفي الرزق، وفي غير ذلك، أمورٌ خاضِعَةٌ لمشيئَتِه الحكيمة، جلَّ جلالُه وعظُم سلطانُه.

فَمَنْ قَضَىٰ الله لَه بعطاءِ شيْءٍ من ذلك فإنَّهُ لَا أَحَد في الوجود يستطيع أن يُمْسِكَهُ عنه، ومن قضى اللَّهُ بمَنْعِهِ فإنَّه لَا أحَد في الوجود يسْتَطِيعُ أن يُعْطِيَهُ ما منَعَهُ الله إيّاه.

إنّه لا مانِعَ لِمَا يُعْطي، ولَا مُعْطيَ لما يَمْنَع.

ومَنْ وَجَدَ نفسه محرُوماً من بعْض العطاءاتِ الرَّبّانيّة، كعَطاءِ النبوةِ أو الرّسالة، فلينْظُر إلَىٰ أنواعِ وأفرادِ النِّعَمِ الكثيرة والجليلَةِ في الخلْقِ والرِّزق وغَيْرِ ذلك مما أنْعمَ اللَّهُ به عليه، ولِيَنْظُرْ كَيْفَ فضَّلَهُ الله بعَطَاءاتِه علىٰ كثيرٍ ممَّنْ خلَقَ تفضيلاً عظيماً، وليَذْكُرْ هذه النِّعَمَ دَواماً، فَمِنْ شأنِ هذا التذكُّرِ أنْ يَدْفعَهُ إلى أن يَحْمَد رَبَّه على ما أولاهُ من نِعَم، إذا كانَ ما زالَ على فِطْرَتِه السليمة التي فطَرَهُ الله عليها، ومن شأن هذا التذكّر أن يَدْفعَهُ أيضاً إلى أن يَعْمَلَ بما يتطَلَّبُهُ منْهُ إذْ هُو جلّ جلالُه رَبُّهُ الخالق، وهو رَبُّهُ الرازق، المُمِدُّ لَهُ بعَطَاءاتِ رُبُوبيَّتِهِ دَواماً، دُونَ أنْ يعْتَرِضَ عليه في شيءٍ من عطائِه ومَنْعِه، ودُونَ أن يَتَطاوَلَ إلى ما لَيْسَ هُوَ لَهُ بأهل، كَطَلَب النُّبُوَّةِ أو الرسالة، أو نحو ذلك، فالله أعْلَم بعباده، وأعْلَمُ حيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه، ألَا يَعْلَمُ مَنْ خلَقَ وهُوَ اللّطيف الخبير.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾.

جاء في هذه الآية إطلاق فعل «يَفْتَح» للدّلالة على معنىٰ إجراء النّعم الرّبّانيّة بالتّتابُع مع الزمن، لأنّ فَتْح سُدود مجاري النِّعَم يجْعَلُها تتدَفَّقُ شَطْرَ من هيَ موجَّهةٌ له، فينتَفِعُ بها، ويقضي منْها أَوْطَارَه لدُنياه أو لآخِرَته.

ويمكن بالتحليل أن نقول: شُبّهَ إجراءُ النِّعَم بالتتابُع مَعَ الزّمن بفَتْحِ سُدُودِ وأبواب مجاري المياه، لمن يَنْتَفِعَ بِهَا على التوالي.

فعطاءاتُ اللّهِ عزّ وجلّ من نِعَمِهِ تَأْتي غالباً على سُنَّةِ الجريان المتتابع، نظيرَ جريَانِ الكهْرُباء في الأسلاك، لإضاءة المصابيح الكهربائية، وعَمَلِ الآلات التي تسْتَمِدُّ قُوتَ عَمَلِها من الكهرباء، ولا تأتي عَطَاءَاتُ الله مِنْ نِعَمِهِ في الغالِب على سُنَّةِ العطاء دُفْعةً واحدةً ثمّ تنقطع، والحكمةُ من هذا أن يظَلَّ الْعَبْد المؤمِنُ مُرتبطاً بربِّه دَواماً، يُلاحِظُ عطاءاته المتواليات، فيُتَابعُ هذه العطاءاتِ بالحمْدِ والشُّكر، ويكونُ دائِمَ الدُّعاء والالتجاءِ إليه، شاعراً بدوام افتقارِه إلَيْه، وخاضعاً له يَعْبُدُهُ وحْدَه لا شريك له.

- ﴿لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾: أطْلِقَت الرَّحْمَةُ الّتي هي صفَةٌ من صفاتِ اللّهِ النفسيَّة على وفْقِ ما يليقُ به ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه ـ وأُريد بإطلاقها آثارها في المخْلُوقين المرحُومِين.

وجاء ذكْرُ الناس بالتَّعْيين، معَ أنّ آثار رحْمَة الله عزّ وجلَّ ليْسَتْ قاصِرَةً علَيْهم، لأنَّهم في هذا الدرس من دُروس السورة هُمُ المقصُودُون بالْبَيان لإقناعهم.

- ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾: إمْسَاكُ الشيءِ عَنِ الشيْءِ: منْعُه إيّاه عَنْه، يقال لغة: أمْسَك الله الغيثَ، أي: منعَ نزوله، وأمْسَك الرَّجُلُ عَنِ النّفقَةِ على عياله، أي: منعَها فلَمْ يُنفِقْ عليهم.

إنّه لمّا كانَ فتْح أبْواب مجاري عطاءاتِ الرَّبّ يجْعَلُها تتدَفّقُ مُرْسَلَةً حتّى ينالَ منْها منْ هي مُوجّهةٌ له، كانَ منْعُ وُصُولها إلى من قضىٰ الله بأنْ يمْنَحه عطاءَه إمْسَاكاً لها عن متابَعَةِ جَرَيانها حتَّىٰ تَصِلَ إليه، فكان من فنِّيَّةِ الأداء البياني أنْ يأتِيَ التعبير القرآنيُّ بنَفْيِ وجُودِ الْمُمْسِك لَهَا.

وجاء الضمير في ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾ عائداً على الرَّحْمَةِ لأنّها سبَبُ عطاءات الله لعباده، الّتي يَفْتَحُها لهم، وهذا من إطلاق السَّبَبِ وإرادة المسبَّب.

والْفَتْحُ الرَّبَّانيُّ لمجاري عطاءاتِه قَدْ يكونُ على سبيل التخْصِيصِ لبَعْضِ الأفراد، وقد يكون لجماعةٍ من الناس، وقد يكون لجمِيع الناس، وكُلُّ ذَلِكَ خاضِعٌ لمشيئَةِ اللَّهِ الحكيمة.

وفي مقابلِ هذا الفتح لأبواب عطاءاتِ الرّبّ ـ جلَّ جلالُه ـ يأتي الإمْسَاك، وهو مَنْعُ النِّعَم عن أنْ تَجْرِيَ في مجاريها، لئلّا تَصِل إلى من قضىٰ الله بأن يَحْرِمه، ويمنَعَ عنه العطاء.

فما يُمْسِكُهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بحِكْمَتِهِ من نِعَم عن بْعضِ عباده، فيمْنَعُها عنهم، فَلا يَسْتَطِيعُ أحَدٌ في الوجود أنْ يُرْسِلَ النِّعَم الّتي أمْسَكها الله، ولا يسْتطيع أحَدٌ في الْوُجُود أن يجعلها تجري في المجاري الموصلة إلى من قضى الله أن يمْنَعَ وُصُولَها إليه.

وهو جلّ جَلَالُهُ في فَتْحِه وإمْسَاكِه عزيزٌ قَوِيٌّ غالب، وحكيم في تصاريفه.

وهذا المقابل دَلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ في الآية:

- ﴿.. وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ..﴾.

وجاء الضمير هنا في: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ عائداً على «مَا» وَلَمْ يأتِ عائداً على «رَحْمة» كما جاء في العبارة الأولى، لأنّ الْإمْسَاكَ قد يكون من آثار عَدْلِه الحكيم جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه، أَوْ من آثار ابتلائِه الحكيم، فاقتضى عود الضمير هنا على ما يكون فيه الإمْسَاك.

إنّ توزيع الإرسَال والإمْسَاكِ في مجاري القضاء والقدر إنّما يَتِمُّ باختيارِ حكيم، ولله الحكمة البالغة.

وختم اللَّهُ عزّ وجلّ الآية بقوله:

- ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: أي: وهو في الوجود كُلِّه ذو القُدْرة وَالْقُوّةِ الغالبة الْتي لا تستطيع أن تعانِدَها أو تُعَارِضَها قُوَّة. وهو الحكيمُ في تصاريفِهِ، إذْ يختار بعِلْمِه الشّامِل التدبير الحكيم، فيضَعُ الأشياءَ في مواضِعها الّتي تقتضيها الحكمة السَّامية، ولا بُدَّ أنْ يكون الحكيمُ عليماً خبيراً، فبعِلْمِه الشامل، وخِبْرَته بعباده، يختارُ ويَنْتَقِي من الاحتمالَاتِ الممكِنَاتِ في التَّصوُّر مَا هُو حكيم، فيَقْضِيه بمشيئته جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه.

ومشيئة الله تبارك وتعالَىٰ غيْرُ اعتباطيّة ولا عشوائيَّة، بل هي اختيارٌ حكيم، ومن الثابتِ الحقّ أنْ صفاتِ الله عزّ وجل متكاملَةٌ فيما بيْنَها لا مُتَعَارِضَة ولا مُتَغالبة، وطلَاقة إرادته سبحانه لَا تطْغَىٰ على كَمالِ حِكْمَتِه.

«ما» في عبارة: ﴿مَّا يَفْتَحِ﴾ وفي عبارة: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ شرطيّةٌ جازمة، تَرْبِط بيْنَ جملتَيْن، ويُعبَّرُ بها عن غير ذي العلم، وتجزِمُ فِعْلَيْن، يُسمَّىٰ أوّلُهما: فِعْلَ الشّرْط، ويُسَمَّىٰ الثاني: جوابَهُ وجزاءه، وهي هنا مفعولٌ به لِفعْل الشرط الذي جزمته.

والضمير في: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ يعود على لفظ «ما» الشرطية، أي:

وما يُمْسِكُهُ اللَّهُ مِنْ شيءٍ مَا عَنْ عبْدٍ من عباده فلا مُرْسِلَ له، لأنَّهُ هو جلّ جلالَهُ العزيز الغالب على أمْرِه.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③﴾.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يُنادي الله عزّ وجل النَّاس بأداة النّداءِ الموضوعة لنِداء البعيد، مع أنَّه جلّ جلالُه أقْرَبُ إليهم من حَبْلِ الوريد، للإشعار بأنَّ أكْثَر النَّاسِ قَدْ أبْعَدُوا نُفُوسَهُمْ عنِ الله ربّهم، في تصوُّراتهم ومكتَسبَاتِ قلوبهم ونفوسهِمْ وسائِرِ جوارِحِهِمْ، فكانَ من المناسِبِ بَلاغيًّا أنْ يُنَادَوْا بأداة النّداء الموضوعَةِ لنداء البعيد.

نادىٰ الله عزّ وجلَّ النَّاسَ بأَنْ يَذْكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِم في أجْهزَةِ التَّذْكُر الْتي منَحَهُمْ إيَّاها، وفي أَلْسِنَتِهِمْ الّتي تُسَاعِدُ ذَاكِرَاتِهم على التذكُّر دواماً، بعد أن أبانَ لهُمْ في الآية السابقة أنَّ كُلَّ مَا يتقلَّبُونَ فيه منْ نَعَم ظَاهرةٍ وباطِنَةٍ، هو مِنْ عطاء الله لهم، لا يُشَارِكُه في خَلْقِه وتَدْبيرِهِ إرْسالاً وَلا إمْسَاكاً شريكٌ ما، لأنّ كُلَّ ما سِواهُ جلَّ جلالُهُ لَا يَمْلِكُ شيئاً من ذلك، إذ المخلُوقُ لَا يُمْلِكُ إلَّا مَا مَلَّكَهُ الله، وكلُّ ما سِوَىٰ الله مخلُوقٌ له جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

- ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أي: أحْضِرُوا في ذاكراتِكم آناً فآناً نِعْمَةَ اللَّهِ عليكم، ونَعْلَمُ أنَّ مِن وسائل هذا الإحضار الذكر اللِّسَانيُّ، والتَّفكُّر في آلَاءِ اللَّهِ في نُفُوسِنا وفي الكَوْن من حولِنا، ليكون هذا التذكر باعثاً لَنا على حَمْدِهِ وشُكْرِه، وعَدَمِ الاعتراضِ على مجاري حكمته في تصاريفه.

لفظ ﴿نِعۡمَتَ﴾ اسم جنْسٍ في الآية، وبإضافته إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ شمل كلَّ نعَمِه على عباده استغراقاً، فصارت العبارة بقوّة: اذْكُروا نِعَمَ الله عليكم.

إنّ نِعَمَ الله جليلة وكثيرة جدّاً، لا يَسْتَطيع العبادُ إحْصَاءَ أفرادِها، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾.

إنَّ نِعَمَ الله علىٰ عِبَادِهِ الّتي تَفيضُ بها مقاديرُهُ، تشْمَلُ أَعْمَالَ الخلْقِ المتتابعَةَ، الّتي يجعلُهُمْ بها باقين في الوجود، ولَا يشاركه فيها أَحَدٌ، وتشْمَلُ ما يَرْزُقُهمْ مِنَ السَّماءِ والأرض، فالرزقُ الآتي من جهة السَّماءِ، نُلاحظُ مِنْهُ الأمْطَارَ الَّتي تَنْزِل من السُّحُبِ على الأرض، فيُحْيِي اللَّهُ بها الأرْضَ بالنَّبَاتِ بَعْدَ مَوْتِ نباتاتها الّتي كانَتْ علَيْها في دوراتِ إنباتٍ سابق، ونُلاحظ منه أشِعَّةَ الشَّمْسِ الّتِي تَصُبُّ على الأرضِ ما دامَتْ مُشْرقةً علَيْها، فَتُمِدُّها بأسْبَابِ الحياة لكلِّ ذي حياةٍ نباتيّة وحيوانيّة.

وتتَدَخَّلُ حرارةُ أَشِعَّةُ الشّمْسِ في عمليات تَبَخُّرِ المياه الموجودة على سَطْحِ الأرض إلَىٰ الجوّ، فإذَا تَجمَّعَتِ المتبخّراتُ صارت سُحُباً، وهي قطرات ماءٍ مُتَمَدّدات، ثم يَسُوقُها الله ويُزّجيها بعلْمِه وحكمته وقدرته، ويَرْحَمُ بها من يشاءُ من عباده، فيُنْزِلُهَا علَيْهم مطراً نافعاً، للشُّرْب والإنبات وغير ذلك من منافع للأحياء.

فَنِعَمُ الله تَشْمَلُ فيما تَشْملُ أعمالَ الْخَلْق وعطاءات الرزْق، وهذان الصنفان يُصيبُ منهما الناس جميعاً، المؤمنون منهم والكافرون.

وبما أنّه لا خالق إلّا الله، ولا رازق في الوجود إلّا الله، كان من الحكمة الإقناعيَّة والتربويَّة، أن يُوجّه الله عزّ وجلّ للنّاس سؤالاً استفهاميًّا، لانتزاع إقرارهم بهذِه الحقيقة، فقال تعالى في هذه الآية:

- ﴿.. هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾؟.

﴿هَلْ﴾ حرف استفهام يُسْتَفْهَمُ بهِ عَنْ حُكْمٍ في قضيَّةٍ خبرية موجبة أو سالبة، ولا يسْتَفْهَمُ بها لتَصوُّر مفرد.

وبعد البحث والتأمُّلِ لَا بُدَّ أَنْ يقولَ كلُّ ذي لُبٍّ منْصِفٍ جواباً لهذا السؤال: لَا خالقَ في الوجُودِ غيْرُ الله، ولا رَازِقَ فِي الوجود من السَّماءِ والأرض، في عَمَلِيَّاتِ خَلْقٍ مُتَتابعةٍ غَيْرُ الله.

وقد دلَّتْ هٰذِهِ العبارةُ القرآنية المصدّرةُ بأداة الاستفهام ﴿هَلْ﴾ علىٰ أنّ أعمال الرزْقِ من السّماء والأرض الّتي يرزُقُ الله بها عباده، هيَ صُوَرٌ من صُوَرِ الخلْقِ الرَّبَّانيّ الّتي يجريها اللّٰهُ في كونه تِباعاً، لأنّ جملة: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في الآية، قد جاءت صفة لاسم الفاعل: ﴿خَٰلِقٍ﴾ ونفهم من هذا أنَّه يرزُقُ دواماً من السَّماء والأرض بوصْفِ كونه خالقاً، فالخلْقُ يشملُ الأحداث كُلَّها الّتي تُنْتِج للنَّاسِ أرْزاقَهم، ومنها إرْسَال أشعَّة الشمس، وأحْداثُ تبخُّرِ المياه، وإنزالِ الأمطار من السّماء، وإنْبَاتِ الزّرُوع والثمار.

إنّ الله جل جلالُه خالِقُ كُلّ شيءٍ، وخَلْقُ الرزْقِ من آثار وظواهر رَحْمَةِ اللّٰهِ بعباده، وقد أنكر المشركون أن يكون من أسماء الله اسْمُ «الرَّحْمٰن» كما جاء بيانه في سورة (الفرقان) فجاء في سورة (فاطر) متابعَةُ البيان الإقناعيّ بأنّ الرَّحْمَةَ من صفات الرّبّ الخالق جلّ جلالُه وعظُم سلطانه، فلا بُدَّ أن يكون من أسمائه «الرَّحمٰن».

وبعد إثبات حقيقة أن الله عزّ وجلّ هو وحْدَهُ الخالق الرازق لا شريك له قال الله عزّ وجلّ في الآية:

- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ..﴾.

أي: لَا معْبُودَ بحَقٍّ إِلّا الرَّبُّ الخالق الرازق، الذي لا خالق ولا

رازقَ في الوجود إلَّا هو، جلَّ جلالُه، وتعالَىٰ وتنزَّهَ عن أيِّ شريكٍ له في رُبوبيّته الّتي بها يخْلُقُ ويَرْزُقُ مَرْبُوبيه، وتعالىٰ وتنزَّهَ عنْ أيِّ شريكٍ له في إلَٰهيَّته، أي: في استحقاق العبادة.

أو نقول في شرح العبارة: لَا مُسْتَحقّ للإلَٰهيَّةِ بأَنْ يكونَ معبوداً لأيّ عابدٍ إلَّا هُوَ جَلّ جلالُه وتنزّه عن الشركاء.

إنّ الّلازم العقليّ الأوّلَ لإثباتِ الرُّبُوبيَّةِ إثباتُ الإلَٰهيَّةِ لمَنْ هُو الرَّب، أي: إثباتُ استحقاقه لأنْ يُعْبَد وحْدَهُ من قِبَلِ مَرْبُوبيه، وإثباتُ حقِّهِ عليهم بأن يَعْبُدوه دون أَنْ يُشْرِكوا بعبادته أحداً ما، أو شيئاً ما، مهما عظُم، فعبادةُ العابدين حقُّ رُبُوبيَّةِ الله لهم، وإعطاءُ هذا الحقّ لغير من هو الرَّبُّ وحْدَهُ ظُلْمٌ عظيم، وكُفْرٌ برُبُوبيّته أو بإلَٰهيَّتهِ كُفْراً كُليًّا أَوْ كُفْراً جُزْئيًّا، والكُفْر الجزئيُّ لا يَغْفِرُهُ الله، ويستَحِقُّ به الكافر الخلودَ في عذاب النار يوم الدّين، إذا مات على كُفْرِهِ ولم يتُبْ منه.

فقولُ الله في الآية: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمثابة استخراج النتيجة، بعْدَ ذِكْرِ مُقَدّماتها العقليّة، الّتي تلْزَمُ عنها عقلاً النتيجة المستخرجة.

ويمكن أن نصوغ الدّليل العقليّ الذي أشار إليه النصّ صياغةً منطقيّة، فنقول:

الله وحْدَهُ في الوجود هو الرّبّ الخالق الرازق، فهو وحده المالِكُ لمَرْبُوبيه، ومَنْ كان وحْدَه هو المالك فهو وحْدَهُ الذي يجبُ على عَبِيدِه أن يَعْبدُوه وحْدَه، ولَا يُشْرِكوا بعبادته أحداً، ولا يُشْرِكوا بعبادتهِ شيئاً.

إذن: فلا إلَٰهَ إلَّا هُوَ.

والمعنى المطويُّ: هُو الأمْرُ بعبادته وحْدَه، أي: لا إلَٰه إلّا هُوَ فاعْبُدُوهُ وحْدَه.

وختم الله عزّ وجلّ الآية بقوله خطاباً للمشركين من الناس فمَنْ هم أشَدُّ كُفْراً مِنَ المشْرِكين:

- ﴿.. فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾:

أي: فكيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ هٰذِهِ الحقيقة الواضحة الجليَّة، الَّتي يُثْبتُها البرهانُ العقليُّ القاطع.

«أنَّىٰ» هُنَا استفهاميَّةٌ بمعْنَىٰ «كَيْفَ» والاستفهامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ إنكاريٌّ، فيه معنَىٰ التعجيب من انصرافهم إلى الشِّرْكِ أو ما هو أشدُّ كُفْراً منه، مع أنّ الدليلَ العقليّ بُرْهانٌ قاطعٌ دامغ.

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصْرَفُون، الإفْكُ في الأصْل هُو الصَّرْفُ عن وجه الحقّ، ويأتي بمعنى افتراء الكذب.

أي: إنَّهُ لأمْرٌ جديرٌ بأنْ يتعَجبَ منْهُ العُقَلاءُ ذَوُو الْأَلْبَاب والرُّشد.

كيف يَعْبُد الإنسانُ ذو الفِكْر والإرادة الحرَّة مَنْ لَا يسْتَحِقُّ أن يُعْبَد بوَجْه من الوجوه؟!!.

وكيْفَ يجْعَلُ ما يَعْبُدهُ من دُونِ الرّبّ الخالقِ الرازق شريكاً لَهُ في إلَهيّتِه، الّتي هيَ حَقُّهُ وحْدَهُ بمقتضىٰ مَلَكِيَّتِه لهم التي لا يشاركه فيها أحد.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآية (٤) منها

قال اللَّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾:

القراءات:

• قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [**وَإِلَى ٱللَّهِ تَرْجِعُ ٱلْأُمُورُ**] بفتح التاء وكَسْرِ الجيم على أنّ الفعل مبنيٌّ للمعلوم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ بضَمّ التاء وفتح الجيم، على أنَّ الفعل مبنيٌّ لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءَتَيْن تكامُلٌ في الأداء البيانيّ، أي: إنّ الله عزّ وجلّ بسُلْطَانِه العظيم يُرْجِعُ الأمُور كُلَّها إليه يوْمَ الدّين، فتطاوع الأمُورُ بالجبْرِ فتَرْجِعُ إليه، إنَّه تباركَ وتعالى يُلْغي يَوْمئذٍ كلَّ أثَرٍ لإراداتِ من منحهم في الحياة الدُّنيا إراداتٍ حُرَّة، ولا يَبْقَىٰ يومئذٍ إلَّا سلطانُه وحده، إذِ انْتَهَتْ حياةُ الابتلاء، وجاءت حياة الجزاء، وعندئذ يكون السُّلْطانُ كُلُّهُ للْقَهْرِ الرّبّاني.

تمهيد:

هذا الدرس موصولٌ بالفرع الثالث من فروع شجرة موضوع السُّورة، الممتَدَّةِ من موضوع سورة (الفرقان) التي جاءت سورة (فاطر) تابعةً في موضوعها لها، وكالملْحقة بها، مع انفصالها التامّ في بناء وَحْدَتها، إنَّه فرْعُ (الرّسول) وما يتعلّق به.

لقد جاء في سورة (الفرقان) بيان تكذيب مشركي مكّة رسولَ الله محمَّداً ﷺ في نبوّته ورسالته وفيما يحدِّثُهم به عن رَبّه، فكان من الحكمة التربويَّة من الله للرّسول تَسْلِيَتُه وإرْشادُه إلى التأسّي بالرُّسُلِ الكثيرين الذين كذّبتهم أقوامُهم، فَصَبروا على مَا كُذِّبُوا وأُوذوا.

التدبّر:

قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ . .﴾:

«إِنْ» هُنَا شَرْطِيَّة، والأصْلُ في استعمالها كما يقولُ البلاغيون، أن تُسْتَعمل في الأمْر المشكوك فيه، أو في القليلِ لا في الكثير، فكيْفَ جاءت هنا مع أنّ تكذيب المشركين له مُتحقِّقٌ غير مشكوكٍ فيه، والمكذّبون إبّان نزول السّورة هم الأكثرون، والمصدّقون المتابعون هم الأقَلُّون؟

أقول: إنّ كُبَراء مشركي مكّة المعْنيين إبَّانَ التنزيل، كانَ لَهُمْ ظَاهر وباطن.

- فهم في ظاهر تصَرُّفاتهم كانوا يكَذّبُون الرَّسُولَ ويتّهمونه بالافتراء على الله عزّ وجلّ.

- لكنّهم في باطِنِ نفوسهم وقلوبهم كانُوا في الغالِب مصدِّقين له، إلّا قليلين شاكّين، إنّما كانوا جاحدين بآياتِ الله، والجاحِدُ عالمٌ بالحقِّ في باطنِه، مُنْكِرٌ لَهُ في ظاهره وَلِسَانِه.

هذا الواقع قَدْ أبَانَهُ الله لرَسُوله في قوله له في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾.

وبهذا نُدْرِكَ أنّ كلمة «إِنْ» الشرطيّة في الآية مستعملةٌ في الأمْرِ المشكوك فيه أو القليل، على وفْقِ ما ذكَرَهُ علماء البلاغة.

- ﴿. . فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ . .﴾: أي: فنُؤَكِّدُ لَكَ أنَّ رُسُلاً كثيرين ومن المفَضّلين الكبار قَدْ كُذِّبوا من قبلك، أي: فصَبَرُوا على مَا كُذِّبوا وَأُوذوا، فتأسَّ بهم فاصْبِرْ كما صَبَروا، وتحمَّلِ الْأَذىٰ كما تَحَمَّلُوا،

وهذا المطويُّ قَدْ جاء مُصَرَّحاً بِهِ في نُصُوصٍ أُخْرَى، دلَّ تنكير «رُسُل» على الكثرة ورفعة المكانة.

(١) فجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قول الله له:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

(٢) وَجاء في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) قول الله له:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

كلمة ﴿رُسُلٌ﴾ جاءت في الآية منكّرة، ونفهم من هذا التنكير معنى الكثرة، ومعنى رِفْعَةِ المنزلة، أي: فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ كثيرون، وذَوُو مكاناتٍ رَفيعاتٍ من قَبْلِكَ، فصبروا فتأسَّ بهم، وبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه، والإشارة إلى ذوي المكانات الرفيعات من المرسلين يلائم حالَ الرَّسُول محمد ﷺ وحال خُلقِهِ العظيم.

قوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ في الآية:

- ﴿.. وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وفي القراءة الأخرىٰ:

[وَإِلَى ٱللَّهِ تَرجِعُ ٱلْأُمورُ] ببناءِ فعل [تَرجِعُ] للمعلوم.

جاء في هذه العبارة تَقْديم المعمول وهو: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ على عامِلِهِ وهو فعل: [تُرجَعُ] أو [تَرجِعُ] لإفادة الحصْرِ والتخْصيص، أي: لَا تَرْجِعُ كُلُّ الْأُمور إلّا إليه جلّ جلالُهُ ممَّا يجري في الحياة الدنيا، وله حاجَةٌ للرُّجوعِ إليه لإقامة العدْلِ أو الفضل.

والمرادُ المطويُّ: فتوكَّلْ على الله، وسَلِّمْ أمْرَكَ إليه، لأَنَّ الأمور كُلَّها تُرْجِعُ إلَيْه وحده لَا شريك له.

وفي هذه الجملة إلماحٌ في بَيانٍ ضِمْنيٍّ، إلى أنّ الله عزّ وجل سيَجْزِي رَسُوله علىٰ صبْرِهِ وتحمُّلِه الأذىٰ من قومه جزاءً عظيماً، ومن هذا الجزاء تَأْيِيدُهُ بنَصْرِه في الحياة الدنيا، ثُمَّ يمنَحُهُ يوْمَ الدّين الأجْرَ العظيم الجليل في الفردوس الأعلىٰ من جنّاتِ النعيم.

وفيها أيضاً إلماحٌ في بيانٍ ضِمْنِيٍّ إلى أنّ الله عزّ وجلّ سينتقم من مكذّبي رسُوله، بعقوباتٍ في الدنيا تناسبُ أحوالهم، ثم بعقوبات يوم الدين إذا ماتوا وهُمْ كافرون مُكذِّبون، وهذه العقوبات الآخرويّة مقرونَةٌ بالخُلودِ في دار العذاب الّتي أعدّها الله عزّ وجلّ للمجرمين.

وما جاء في هذه الآية يشْمَلُ بظلالِه حملَةَ رسالَتِه من أمّته، فَهُمْ مُطالَبُون بالتحمُّل والصَّبْرِ على الأذى، وموعودون بالأجْرِ العظيم، وبالتأييد والنصر والتمكين، إذا صَدَقُوا، وأخْلَصُوا لله في تَبْلِيغ دين الله، وفي القيام بفضائل الدعوة إلى الله وحمل رسالة الرسول ﷺ.

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (٥ ـ ٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

القراءات:

(٨) • قرأ جُمهور الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾ بفَتْح التاء والْهَاء من فعل «ذَهَبَ» اللازم، وقَرَؤوا: ﴿نَفْسُكَ﴾ بضمّ السّين على أنّها فاعل «تَذْهَبْ».

• وقَرَأ أبو جَعْفَرْ: [**فَلَا تُذْهِبْ**] بضَمّ التّاء وكَسْرِ الهاء، من فِعْلَ «أذْهَبَ» المتعدّي بالهمزة، وقَرَأ: [**نَفْسَكَ**] بفتح السّين على أنّها مفْعُولٌ بِهِ لِفِعْل «تُذْهِبْ».

والقِراءَتَان مُتكامِلَتان في الأداء البياني، فقِرَاءَةُ أبي جَعْفَر، هيَ بمعْنَىٰ: فَلَا تَكُنْ سبباً بحُزْنِكَ مِنْ أجْلِ الّذين كَفَرُوا مِنْ أهْلِكَ وعَشِيرتِكَ وَقَوْمِكَ الأَقْربين في أنْ تَذْهَبَ نَفْسُكَ عليهم حَسَرَاتٍ، أي: لَا تَكُنْ سبباً في أن تَهْلِكَ حُزْناً مِنْ أَجْلِهِمْ إذا لم يُؤْمِنُوا، وإذا عَرَّضُوا أنْفُسَهُمْ لعذابٍ خَالِدٍ في جَهَنَّمَ يوْم الدّين.

حَسَرَات: جَمْعُ «حَسْرَة»: وهي شِدَّةُ التلَهُّفِ والحُزْن.

وقراءة الجمهور هي بمعنى: فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ بالانْسِيَاقِ مع عواطفها تَذْهَبُ هَالِكَةً حُزْناً علَيْهم وتَحَسُّراً مِنْ أجْلِهِمْ.

تمهيد:

هذا الدرس من سورة (فاطر): تابعٌ لْلِحَدِيث عن السَّاعة الّتي كذَّبَ بها المشركون، والّذِي جاء بيان عنه في سورة (الفرقان) إذْ جاء فيها قول الله عزّ وجلَّ بشَأْنهم:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ⑪ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ⑫﴾.

وقَدْ سبَقَ أن عَلِمْنا أنّ سورة (الفرقان) قَدْ نزلت قبل سورة (فاطر)

مباشرة، وأنّ سورة (فاطر) بمثابة التابعة والملحقَةِ بسُورة (الفرقان) وأنّ آياتها تتوزَّع على فروع شجرة موضوعها، مع أنَّها جاءَتْ سُورةً منْفَصِلَةً وذاتَ وحْدَةٍ مستقلّة.

فنداء اللَّهِ عزّ وجَلَّ النَّاسَ في هذا الدَّرُس بأنّ وعْدَ الله حقٌّ، هُوَ وعْدُهُ بالبَعْثِ وبالحياة الأخرىٰ للحِسَابِ وفَضْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء، ويكونُ هذا البعثُ عنْدَ قيام سَاعَةِ إحْيَاءِ الأموات، الَّتي كذّبَ بها الّذين كَفُروا عناداً وحُجُوداً، على الرُّغم من إقامَةِ البراهينِ الدامِغَةِ لهم، لكنَّهُمْ آثرُوا اتّباعَ أهوائهم وشهواتهم من زينةِ الحياة الدنيا العاجلة.

التَّدبُّر:

قول الله عزّ وجل:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هَذا هو النّداء الثّاني من الله جلّ جلالُه في هذه السورة، وقد سبَقَ أن عرفْنَا أنّ نِداءَ الله عزّ وجلَّ للنّاس بأداة النداء التي تُسْتَعْمَلُ لِنداءِ المنَادَىٰ الْبعيد، مع أَنّه سُبْحَانَه أقربُ إلى كُلّ عَبْدٍ من عِبَاده مِنْ حَبْلِ الوريد، ويُسَمَّىٰ الْوَتِينَ الّذي هو الشّرْيانُ الرئيسُ الذي يُغَذِّي الجِسْمَ بالدَّم النَّقِيّ الخارج من الْقَلْب، باعْتِبَار أنَّ أكْثَرَ النّاسِ قداً أبْعَدُوا أنْفُسَهُم عَنِ اللَّهِ رَبّهم، في أذْهانهم، ومشاعر قلوبهم، ومُخْتَلِفِ أنواع سُلُوكِهم الإراديّ، الظاهر والباطن، فَحَسُنَ بلاغيًّا نداؤهم بحرف النداء «يا» الّذي ينادَىٰ به البعيد.

قول الله عزّ وجل:

- ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾: وعْدُ اللَّهِ الّذِي وعَدَهُ عبادَهُ الموضُوعِين في ظُروفِ الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، يَشْمَلُ البعثَ إلى الحياة بَعْدَ الموْتِ يوْمَ القيامة، وهو الْيَوْمُ الآخِرُ، ويَشْمَلُ مَا يُجْرِي اللَّهُ فيه من الحِسَاب، وفَضْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء في الجنَّةِ أَوْ في النار، ولهذَا سمَّاهُ اللَّهُ يَوْمَ الدّين، فَمِنْ معاني الدّينِ الحسَابُ والجزاء.

وهذه العبارةُ تشْمَلُ بعْمومِها كُلَّ وَعْدٍ يَصْدُر عَنِ الله جلَّ جلالُه، فَكُلُّ وعْدِهِ حَقٌّ.

الْوَعْدُ: هو الإخبارُ بأمْرٍ تَمَّ الْعَزْمُ على فِعْلِه في المستقْبل أو ادّعَىٰ المخْبِرُ به بأنَّه سيَقَعُ.

يُقَالُ لُغَةً: وَعَدَهُ الْأَمْرَ، وَوَعَدَهُ بِه، عِدَةً، وَوَعْداً، ومَوْعِدَةً.

ويكون الوعْدُ في الخيْرِ، وفي الشّرّ، يُقَالُ لُغَةً: وعَدَهُ بنَفْعٍ، ووعَدَه بضُرٍّ، أمَّا الْوَعِيدُ والإيعادُ فَهُما في الشّرّ خاصَّةً، وفِعْلُ «أَوْعَدَهُ» لا يُسْتَعْمَلُ إلَّا في الشّرّ خاصَّةً.

والمقْصُودُ الأوَّلُ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ عزّ وجَلَّ في هذا النَّصّ الأجْرُ العظيم الّذي يمنَحُهُ عبادَهُ المتقينَ في جنَّاتِ النَّعِيم يْومَ الدّين، والعذابُ الأليم الّذي يُعاقب اللَّهُ به المجرِمِينَ والْعُصَاةَ بَعدْلِه، في دَار الْعَذَابِ يوْمَ الدّين، ومَا يكُونَ قَبْلَ ذَلِكَ من أجْرٍ أَوْ عِقَابٍ بعد انتهاء رِحْلَةِ الامتحان في الحياة الدُّنيا.

والْوَعْدُ الحقُّ: هو الْوَعْدُ الصادقُ الَّذي يأْتي الواقعُ في المستَقْبَلِ مُطابقاً لمَا دَلَّ علَيْهِ الإخْبارُ به.

ويُقَابِلُ الْوَعْدَ الحقَّ في الضِّدّ الأقْصَىٰ الْوَعْدُ الْبَاطلُ المزّيَّنُ بمَا يَغُرُّ ويَخْدَعُ، وهو خَبَرٌ كاذب.

فوعْدُ اللَّهِ وَعْدٌ حَقٌّ، سيَقَعُ حَتْماً بقُدْرَتِهِ على ما يشَاء، وهو العزيز الْقَهَّارُ، إذْ تَمَّ إمضاؤهُ بقضائه وقَدَره ومشيئَتِه الحكيمة.

أمَا وُعُودُ الشَّياطين فهي وَعُودُ باطِلَةٌ كاذِبَةٌ، مدْهُونَةٌ بأَصْبَاغٍ تزيينيَّةٍ زُخْرُفيَّة خادِعَةٍ، تَغُرُّ الكافرين وضُعَفاءَ الإيمان.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس:

- ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: فلا تَخْدعَنَّكُم الحياةُ الدُّنْيا، بظَوَاهِر زِينَاتِها ولذَّاتِها ومَتاعِها، فتَصْرِفَكُمْ عن الْبَصِيرَة المدركَةِ للحقّ.

يقالُ لغةً: غَرَّه، أي: خَدَعَهُ وأطمعَهُ بالباطل.

ومعْلُومٌ أنَّ الحياة الدنيا بزيناتها ولَذَّاتها ومَتَاعِهَا تخْدعُ من يتعلَّقُ بها، ويُعْطِيها كُلَّ هَمّ نَفْسِه، غافلاً عن أكدارها، ونِهَايَتِها الحتميَّةِ بالموت، وقاطعاً نظَرَهُ عَنِ الحياة الأُخرى، وما سَوْفَ يَجْرِي فيها من حسَابٍ، وفَصْلِ قضاءٍ، وتحقيق جزاءٍ، علَىٰ ما قَدَّمَ في رِحْلَة امتحانه في الحياة الدُّنيا، وقاطعاً نَظَرَهُ عن أنَّ الحياة الأُخْرىٰ هي حياة الخلود الدّائم الّذِي لَا يَنْقَطِعُ بموت.

فَمَنْ قَطع نَظَرَهُ عن الحياة الأخرىٰ الخالدة، وعمَّا يَجْرِي فيها من جزاءٍ بالثواب وبالعقاب، غَرَّتْهُ الحياةُ الدُّنيا، بظواهِر زيناتها، ولذَّاتها، ومَا فيها من متاعٍ سَرِيعِ الزّوالِ، وغَفَلَ عن أنَّها دَارُ فناءٍ لَا دَارُ بَقَاءٍ، وغفل عن أنَّ الموْتَ غايَةُ كلّ حَيٍّ فيها.

قول الله عزّ وجلَّ خطاباً للناس أيضاً:

﴿... وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: أي: لَا تَغْتَرُّوا بما يَخْدَعُكُمْ به الْغَرُور.

الْغَرُور: هو في اللُّغةِ كُلّ خَدَّاعٍ يُطْمِعُ بالْبَاطِلِ، وبُزخرُفِ الْقَوْلِ الكاذب، والأفكار التي ليس لها نَصِيبٌ من الحقّ.

وصيغة «غَرُور» من صِيَغِ المبالغة، أي: شدِيدُ الخدْع. ويُطْلَقُ غالباً على الشيطان سواءٌ أكان من الجنّ أمْ من الإنْس، والتعريف في لفظ «الغرور» يُشْعِرُ بأنَّه الشيطان المعْهُودُ منه أنَّه كثير الخدع بالباطل.

ويُطْلَق لفظ «الْغَرُور» على كُلِّ مُضَلِّلٍ بتَزييناته ووساوسه وتسويلاته،

فهو كُلّ مُوَسْوِسٍ خنَّاسٍ، يُوَسْوِسُ في صُدُور الناسِ، من الجنَّةِ والنَّاسِ، فيغُرُّ ويَخْدَعُ بالتَّزْيينات التّي تَسْتَدْرِجُ الإنسان إلى مواطِن الإثْم والشّرّ، وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ ورسُولِهِ، وتُصَوِّرُ لَهُ الْبَاطِلَ بصُورَةِ الحقّ، عن طَرِيق زُخْرُفِ الْقَوْل.

التَّغْرِيرُ والْغُرُور: الإطْمَاعُ بالْبَاطل، وإِيهامُ النَّفْعِ والصَّلَاحِ فيما هُو ضُرٌّ وَفَسَاد.

وقَدْ نَهىٰ الله عزّ وجلّ الناسَ بهذه الجملة عَنْ أَنْ يَغُرَّهُم الْغَرُور، أي: عن أنْ يتَأَثَّروا بوسَائِله التَّغْريريَّةِ الّتي يخادِعُ بها.

فمْعنَى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾: لا تَغْتَرُّوا بما يخْدَعُكُمْ به.

إنَّ منطوق عبارة هذا النهْي يَدُلُّ على أنّ الشَّيْطَانَ الْغَرُورَ هُوَ المنهيُّ عن التغرير، ومعلومٌ أنّ الشيطانَ يمارِسُ تغريرَهُ دواماً، تَنْفِيذاً لما كان قد توعَّدَ به من الإغواء، فكان لا بُدَّ مِنْ حَمْلِ العبارة على معنىٰ: لَا تُمَكّنُوا الْغَرُورَ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَيْكم، بإفساد مفهوماتكم، وإفساد نُفُوسكم بوساوِسِه وتَسْويلاته وتغريراته.

ونتساءل: كيْفَ يَغُرُّ الشيطانُ الْغَرُورُ بالله جلّ جلالُهُ وعزَّ سُلْطانه؟! وتَنْفَتح أمامَنا في الإجابَةِ عَلَىٰ هذا السُّؤَالِ آفاقٌ متعدّدةٌ، مِنْها فكريَّة، ومِنْها عاطفيّة، ومِنْها نَفْسِيَّةٌ شَهْوِيَّة، وبعضُها يَدْخلُ من أبواب عَفْوِ الله وغُفْرَانِه، لاسْتِدْراجِ الإنْسَان إلى ارتكاب المعاصي، ثُمّ الانتقالِ به خطْوَةً فَخُطْوةً حتَّىٰ يَجْحَد ربَّه، ويكونَ من الكافرين الّذين يسْتَحِقُّون الخُلودَ في عَذَابِ السَّعِير.

فالتغريرُ بالله هو بمعنى التَّغرير بمطالبِ اللَّهِ من عبادِهِ للتَّهاوُنِ بها، ثُمَّ معْصِيَةِ الله فيها، والتَّغرير بِمفْهُوماتِ الدّين الّذي اصطفاه لهم، تشكيكاً فيها، والتَّغْرِيرِ بوَعْدِ اللَّهِ ووعِيدِه، لتَكْذيبهِمَا، أو اعتبارهما لمجرَّد التخْوِيفِ والترغيب، لا للتحقيق والتّنفيذ.

فالعِبَارَةُ على تَقْدِيرِ مُضَافٍ محذوفٍ، صالحٍ لتعميمه على كلّ ما يمكِنُ التغرير به، للتشكِيكِ في أنَّهُ حَقٌّ، أو للتكْذِيب به، أو لجُحُوده.

كأن نقول مثلاً: فلا يغُرَّنَّكُمْ بدِينِ الله لكم تشكيكاً فيه، أو إبطالاً له، أو جحوداً به ، ونحو ذلك.

والشيطان يغُرُّ فيخْدَعُ عن طريق الأفكار تشكيكاً في مسائل الدين، واحِدَةً فواحدةً، حتَّىٰ يُوصِلَ مَنْ يسْتجيبُ لَهُ ويتّبعُهُ في تشكيكاتِهِ التَّضْلِيلِيَّة إلَىٰ الكُفْر بالله، وهذا هو حَضِيضُ اسْتِدْراجاتِه التغريريَّةِ، الّتِي تَجْعَلُ مَنْ يَسْتَجِيبُ له فيها من أصحابِ السَّعير في نار جهنم.

ويغُرُّ فيَخْدَعُ عن طَرِيقِ العواطفِ استثارةً لها، حتَّىٰ يقَعَ الإنسانُ في المعصيةِ والإثم، وبتَكْرَارِ ارتكابِ المعاصي والآثام تَصِيرُ أمُوراً مُزَيَّنَةً مقْبُولَةً في الأفكار، فإذا استحسنَتْها الأفكارُ بَدَأ الشَّكُّ في أحكام اللّه الدّينيَّةِ يتَسَرَّبُ إلىٰ مَفهوماتِ الإنسانِ الرَّاسخات، وعندئذٍ تَبْدَأُ سِلْسِلَةُ الاستدراجاتِ الفكريَّةِ، حتَّىٰ يوصِلَ الشَّيْطانُ الإنسانَ إلى الكُفْرِ بالله، وهذا هو حضيض استدراجاته تغريراً بالله، وهذا الحضيض يجعل من يَصِلُ إلَيْه من أصحاب السّعِير في نار جهنم.

وكذلك يفْعَلُ الشّيْطانُ عَنْ طَرِيق الشَّهَواتِ واللّذّاتِ المحرَّمات، وقَدْ تكونُ البِدَايَةُ إِطْمَاعَهُ بِغُفران الله وعَفْوه.

ولهذا جاء في الآية (٦) الآتية التَّفْسِيرُ الضِّمْنِيُّ لِلْغَرُورِ بأنّه الشيطان، مع بيان عداوتِه الدَّائِمةِ لبَنِي الإنسانِ، وبيانِ غايَتِه من تغريراتِهِ، وهي أن يَسُوقَ أو يَقُودَ حزْبَهُ الَّذِين يَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَيَتَّبِعُونَهُ حتَّىٰ يكونوا مِنْ أصحاب السَّعِير، الملازمين للَهَبِ النار الذي يُحرِقُ أجْسَادَهم، وكُلَّما نضجت جلودُهم بدّلَهم الله جُلوداً غيرها ليَذُوقوا العذاب.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً للنّاس أيضاً:

- ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾.

- ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾: هذه جملَةٌ اسْتِئْنَافِيَّةٌ تفسيريَّةٌ وتَعْلِيلِيَّةٌ، جاء فيها بيان المراد بكَلِمَة: **[الْغَرُور]** وجاء فيها تَعْلِيلٌ للنَّهْي عن الاسِتجابَةِ لِتَغْرِيرِه، واتّباعِهِ فيما يَدْعُو إلَيْهِ من بَاطلٍ وشَرّ، وإثْمٍ ومعْصِيَةٍ لله ولرَسُوله.

والشَّيْطانُ الّذي يشْمَلُ إبْلِيسَ ثُمَّ جُنُودَهُ من الجنّ أَعْداءٌ لبَنِي آدم، منْذُ رفَض إبليسُ السُّجُودَ لآدمَ علَيْه السّلام، وعَمِل بوَسَاوسه وتَسْويلاتِه حتَّىٰ خَدعَ آدمَ وزَوْجَهُ، فَجَعَلَهُما يأكُلان من الشجرة الّتي نَهَاهُمَا اللَّهُ عَنْ أنْ يَأْكُلا منْها، فأوقَعَهُما في معْصِية الله عزَّ وجلّ، وتَسَبَّبَ بإخراجِهما من الجنَّةِ عقاباً لَهُما على معْصِيتَهما.

وحَمَل إبليسُ منذ ذلِكَ الحينِ في صَدْرِهِ العداوةَ لآدَمَ ولزَوْجِهِ ولِذُرِّياتهما، وأخذ على نَفْسِهِ عَهْداً بأَنْ يُغْوِيَهُمْ أجمعين، إلّا عبادَ اللّهِ المُخْلِصينَ (بكسر اللام) وعبادَ اللّهِ المخلَصِينَ (بفتح اللّام).

- ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾: أي: فاجْعَلُوهُ عَدُوّاً، أصْلُ «اتَّخَذَ» علَىٰ وزْنِ «افْتَعَلَ» فعلٌ مزيدٌ من فعْلِ «أَخذَ» للدَّلالَة على معنَىٰ التكلُّفِ والزِّيادة في الأخْذِ والشّدّةِ فيه. وحصَلَ تَوسُّعٌ لُغويٌّ في فعل «اتَّخَذَ» فصار يستَعْمَلُ بمعنى «جَعَلَ» بشِدَّةٍ ومبَالغة، ولهذا صار يَنْصِبُ مَفْعولَيْنِ مثل فعل «جَعَلَ».

والمفعولُ به الأولُ في الجملة هُنَا ضميرُ الشيطان ، والمفعول به الثاني كلمة: «عَدُوًّا».

الْعَدُوُّ: الّذِي يعْدُو بالمكروه ويظْلِم، مأخُوذٌ من: «عَدَا عَلَيْهِ» إذَا أقْبل إلَيْه يَعْدُو لِيُنْزِلَ به مكْرُوهاً، أوْ يظْلِمَهُ.

وأشَدُّ الأعداء مَنْ يُخادِعُ ويفْتِنُ ليُغْوِيَ فَيُوقِعَ في عذابٍ أَلِيمٍ خالد.

والْعَدُوّ: هو الّذي وصَلَ به الحالُ إلى إرادة النكايَةِ بخَصْمِه وإنْزَالِ المكروهِ فيه، بأيَّةِ وسِيلَة.

ويُطْلَقُ لفظ «الْعَدُوّ» بالإفراد على المفرَدِ والمثَنَّىٰ والْجَمْع، والمذكّر من كلّ ذلك والمؤنث، وقد يُسْتَعملُ على الأصل.

واتّخاذ الشيطان عدُوّاً يكون باعتقاد عَداوته، ومقابلَتِه بالعَداوة، وبعدَم الاستجابة لإغراءاته وتَزْييناته الَّتي يُقَدّمُها في ثياب ناصح، وبالاستعاذة بالله منه، وبرَجْمِه وطَرْدِه والتحذير منه، وبالعَمَل بطاعَةِ الله وطاعة رَسُوله، وبكل ما يُرْضِي الرحيم الرَّحْمٰن من صالحاتٍ وقُرُبات.

- ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: أي: ليْسَ للشيطان في الحياة هَمٌّ يُكابِدُ لبلُوغه إلَّا أن يَدْعُوَ مَنْ يتأثَّرُ بِه ويَسْتَجيبُ لدَعْوته، فيَجْعَلَهم حزْباً له مُشاقًّا لحزْبِ اللّهِ، ومُعَادياً لَه، ومتَنكّباً في مَسِيرَتِه في حياتِه صِراط اللّهِ المستقيم، صِراطَ الحقّ والْهُدَىٰ والْخَيْر، ومُتّبعاً سُبُلَ الباطل والضَّلالِ والشّرّ والإثْم ومعْصِية الله ورَسُوله.

فإذا اتَّبَعَ أفرادُ حِزْبه هذه السُّبُلَ أوْصلَتْهُمْ إلى سَخَط الله وغَضَبِه، فكانوا بعَدْلِ الله من أصحاب السّعِيرِ يوْمَ الدّين.

وبوصولهم إلى عذاب السّعير يشْفِي إبليسُ غِلَّهُ الّذِي يَحْمِله في عَدَاوَتِه لبَني آدم، إذْ يكُونُون شُرَكَاءَه في العذاب الأليم الخالد.

الحزب: كلُّ جماعَةٍ تَشاكَلَتْ أهْوَاءُ أفْرادها وأعمالُهم، واتَّفقُوا على التعاون والتناصر والعَمل، ضِمْن بَرْنامجٍ وضَعُوه لأنْفُسِهم، أو وَضَعَهُ لهم قائِدُهُمْ وسَيّدُهم.

فأتْباعُ حِزْبِ الشيطان يَعْمَلُون ضمْنَ بَرنامجٍ شيطانيّ، ويتَّبِعُونَ سبُلَ الباطل والضَّلالِ والشّرّ، ومعْصِيَةِ اللّهِ ورَسُولِه، حتّى يَصِلُوا إلى دَرَكَةٍ يكونُون فِيها منْ أصْحابِ السَّعِيرِ في نارِ جَهنَّم.

وأتْبَاعُ حزْب الله يَسِيرُونَ على صراط الله المستقيم، ويَعْملونَ بمراضي الله حتَّىٰ ينالُوا رضوان الله، ويكُونُوا يومَ الدِّين سُعَدَاء في جنَّات النعيم.

السعير: يأتي في اللُّغَةِ بِمعنَىٰ النّار، وقيل: السَّعِيرُ لَهَبُ النّار، وأصحاب السّعير هم الملازمون لِلَهَب النَّار، الّذين يحترقون بها ويَذُوقون عذاب الحريق.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾.

بَعْدَ تحذيرِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ النَّاسَ من الشيطان، وأمْرِهِ إيَّاهُمْ بأنْ يتَّخُذُوا الشيطانَ عَدُوّاً، مُعَلِّلا هذا الأمْرَ بأنَّ الشيطان لَا يَدْعُو أفراد حِزْبِه لاتّباع خُطُواته إلَّا ليكونُوا باتّباعِهم لَهَا مِنْ أصحاب السَّعير، جاءَتْ هذه الآية (٧) مُبَيِّنَةً جَزاءَ الّذين كفروا وجَزَاءَ الَّذِين آمَنُوا بصُورَةٍ مُجْملَةٍ كُلّيَّة.

وبما أنَّ دعْوَةَ الشيطان لأفْراد حزْبه غايَتُها إيصالُهُمْ إلَىٰ الكُفْرِ بالله ورُسُلِه، وكلِّ ما جاء عن الله وبلَّغَهُ رُسُلُه الصَّادقون، المؤَيَّدُونَ مِنَ الله بالمعْجزاتِ الباهرات، وهذا الكُفْرُ يَجْعَلُ لَهُم في دار العذاب يوْمَ الدين عذاباً شديداً، كمًّا وكَيْفاً وزمَناً مَدِيداً، إذْ هُمْ يَخْلُدون فيه، دُونَ أنْ يخَفَّفَ عَنْهُمْ شَيْءٌ مِنْهُ، كان من الحكمة البيانيّة التّذْكِيرُ بهذه الحقيقة، في سياق بَيَانِ غاية الشيطان من إغواءاته وتزييناته، فقال الله تبارك وتعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ..﴾.

أي: الّذين كَفَرُوا كُفراً إراديّاً عِناديًا جَاحِدِين فيه الحقّ الرَّبَّانيَّ، وانْتَهَتْ حَيَاةُ امتحانِهم دون أن يُراجِعُوا أنفسهم بالتَّوْبة والإيمان، فمَاتُوا وهُمْ كافرون بربِّهم، وكافرون بِبيَاناتِه الّتي أنْزَلها على رُسُله، لَهُمْ عذابٌ

شديدٌ في دار العذاب الّتي أعدَّها للمجرمين والعصاة الفاجرين.

هذه البيانات الشارِحَاتُ مقْتَبَسَاتٌ من نُصُوصٍ قرآنية موزَّعَةٍ في كثير من السُّور.

أمّا الدَّعْوَةُ الرَّبَّانيَّة فهي دَعْوَةٌ إلَىٰ الإيمان بالحقّ، المتَّصِلِ بالغاية من خَلْقِ النَّاسِ، وجَعْلِ الحياة الدُّنيا هي مجال امتحانِهم، لمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصْل القضاء بشَأْنهم، ومُجَازَاتِهم يوْمَ الدّينِ، علىٰ ما قَدَّمُوا وَأَخَّرُوا⁽¹⁾ في رِحْلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، ودَعْوَةٌ إلىٰ الْعَمل الصّالح الّذي هو في أنْواع سُلُوكهم الظَّاهر والْبَاطِن من آثار إيمانهم، ومِنْ ظواهِرِهِ في السُّلُوك. وغايَةُ هٰذِهِ الدَّعْوةِ الرَّبَّانيَّة إسْعادُ مَنِ استجابَ لَهَا واتَّبَع ما أَنْزَلَ اللَّهُ لعباده، بعْدَ أنْ يظْفَرُوا بسَتْرِ ذُنُوبهم الّتي سلَفَتْ منْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانهم، ويظْفرُوا بالتجاوُز عن سيّئات أعمالهم، ويكونُ إسْعَادُهم بالظفر بالأجْرِ العظيم علىٰ إيمانهم الصحيح الصادق، وعلى ما قَدَّمُوا في الحياة الدُّنيا من أعْمَالٍ صالِحَةٍ، وعلى ما جاهدوا نفوسَهُم فيها من اجتناب أعمال سيِّئَةٍ كانَ لَهُمْ فيها هوىً، يَبْتَغُونَ بكلّ ذلِكَ رِضْوانَ رَبِّهِم، والظفَرَ بالسّعادة الّتي أعَدَّها اللَّهُ عزّ وجلّ للمتّقين في جنَّاتِ النعيم.

ولمَّا كانَ كُلُّ بَنِي آدَمَ خطَّائين، لَا تَخْلُو حياةُ كلّ فردٍ منْهُمْ من المعاصي والآثام الظاهرة أو الباطنة، الجسَدِيَّةِ أو النَّفْسِيَّة، ولو كان من المتَّقِينَ البالغين سَقْفَ دَرَجات مرْتبة التَّقْوى، ولو كان أيْضاً من الأبرار أو المحسنين، كان من حكمة الله في بيان ثواب الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات أنْ يكون مشتملاً على عُنْصُرَين:

العنصر الأول: مغفرةُ ذُنوبهم.

---

(١) وأخَّرُوا: أي: وتركوا ما كان يجب عليهم أن يعملوه، وهو استعمالٌ قرآني.

العنصر الثاني: أجْرٌ كبيرٌ على صالحاتِ أعمالهم، ولا يَصِفُهُ الله جلّ جلالُه بأنَّهُ أجْرٌ كبيرٌ، إلّا إذا كان كِبَرُهُ مُنَاسباً لِكِبَرِ الله وعَظيم عطاءاتِه الجليلَةِ لعباده.

فقال تبارك وتعالى في بيان جزائهم: ﴿... لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

اشتملت هذه الآيةُ على ثلاثِ قضايا مُتواليةٍ تواليًا ترتيبيًّا، إذْ تدُلُّ كلُّ سابقَةٍ منْها باللُّزوم الفكريّ على الّتي تَلِيها.

القضية الأولى: دلَّ عليها قولهُ الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ..﴾؟!.

لقَدِ اقتضى البيانُ نَفْيَ التَّساوي بيْنَ حِزْب الشيطان وحزب الرَّحْمٰن، مع الإشارة الضمْنيَّةِ إلى أنَّ الرَّبَّ الّذي هو أَحْكَمُ الْحَاكِمينَ، ليْسَ من حكْمتِه أَنْ يُسَوِّي بَيْنهما في الحكْم، وليْسَ من حكْمَتِه أنْ يُسَوِّيَ بَيْنَهُما في الجزاء، فجاءت هذِهِ العبارة دَالَّة على نَفْي التساوي بَيْن الفريقَين.

وطُوِيَ في هذه العبارة الكلامُ عن الفريق المقابل لمنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فرآهُ حَسَناً، وهُوَ فَرِيقُ مَنْ حَبَّبَ اللَّهُ إلَيْهِمُ الإيمانَ وآثارَهُ وظواهِرَهُ في السُّلُوك وزيَّنَهُ في قُلُوبهم، لأنَّ إرادَاتِهم الصَّادِقاتِ توجَّهَتْ لابتغاء الحقِّ والخيرِ، فجاءتْهُمُ المعونَةُ من الله جلّ جَلَالُه وعظُمَ سلطانه.

والمعنى: أيَسْتَوي هذان الفريقان: حزْبُ الرَّحْمٰن، وحِزْبُ الشيطان، في ميزان الْعَقْلِ وميزان الْعَدْلِ والفضل؟!.

استفهام لا جوابَ له لدَىٰ العقلاء وأولي الألباب، إلَّا نفي التساوي بين الفريقين.

أي: وبما أن الله جلّ جلالُهُ أحْكَمُ الحاكمين، وأعْدَل العادِلين، وأعظَمُ المتفضّلِين، فإنّه ليْسَ من حكْمَتِه وعَدْلِه وفضْلِه سبحانَه أن يُسَوّيَ بين هٰذيْن الفريقَيْن، بلْ لا بُدَّ أنْ يَحْكُم علَىٰ حِزْب الشيطانِ بالضَّلَالَةِ، ضِمْنَ مشيئتِه الحكيمة، ولا بُدَّ أنْ يَحْكُمَ للّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات بالهداية ضمْن مشيئته الحكيمة.

﴿زُيِّنَ﴾: فعْلٌ مبْنِيٌّ لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ، وبالتَّدبُّر نُدْركَ أن فاعل هذا التزيين هو الشيطانُ والنَّفْسُ الأمَّارة بالسُّوء، وهذا ما جاء بيانُه في نُصُوصٍ قرآنيَّةٍ آخرى.

- فَمِنْها قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

- ومنْها قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكايةٌ لقول يوسُفَ عليه السّلام:

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

القضيَّةُ الثانية: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ...﴾:

أي: ولمَّا كانت حكْمَةُ اللَّهِ الجليلةُ تَأْبَىٰ التَّسْوية بين هٰذين الفريقين: حِزْب الرَّحْمٰن، وحِزْبِ الشَّيْطان، في فَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء يوْمَ

الدّين، بعْدَ المحاسَبَة على المكتَسَباتِ الإراديَّةِ للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، كانَ من المناسِبِ في البيان القرآنيّ كَشْفُ أنَّ اللَّهَ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، سوف يحْكُمُ يوم الدّين، في الموقف الذي يحكُمُ فيه بين العباد، على الفريق الّذي ضَلَّ في الحياة الدُّنيا بالضّلال، وعلىٰ الفريق الّذِي اهْتَدَىٰ بالْهِدايَة، ويكونُ هذا بمحْضِ مشيئَتِهِ الحكيمة القائمة على الفضل والْعَدْل، دُونَ أنْ يكون على مشيئته الحكيمَةِ سُلْطانٌ ما مِنْ غَيْرِ صِفاتِ كمالِه جلَّ جلالُه.

وبناءً علىٰ أنَّ الحكمةَ تقْتَضي نَفْي التَّساوي بيْنَ المجرمين والمسلمين رتَّبَ اللَّهُ عزّ وجلّ عليه قوله: ﴿. . فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ . .﴾: أي: يَحْكُمُ في محكمة يَوْمِ الدّينِ على منْ ضَلَّ في رِحْلَة امتحانِه بالضَّلال، فَيُضِلُّهُ بمَشِيئته القضائيَّة الّتي لا سُلْطانَ عَلَيْهَا من غَيْر ذاتِ الله وصفاته، لكنَّه سبْحَانَهُ وتعالى لَا يحكُمُ بمَشِيئَتِه المطلَقَةِ الحكيمَةِ على من ضلَّ إلَّا بالعدْل، فلا يَظْلِمُ أحداً مثقالَ ذَرَّة.

ويحكم في محكمة يوْم الدّين لِمَن اهْتَدىٰ في رِحْلَةِ امتحانِه بالهداية، فَيَهْدِيه بمَشيئَتِهِ القضائيَّةِ الَّتي لَا سُلْطانَ علَيْها من غير ذَاتِ الله وصفاتِه، لكنّه بمشيئته المطلقَةِ الحكيمة لَا يَحْكُمُ لِمَن اهْتَدى إلَّا بالْهِدايَةِ، على مقدار الدَّرَجَةِ الَّتي بَلَغَها قَبْلَ مَوْته، فيجْعَلُهُ مَشْمُولاً بالْعَدْلِ والْفَضْلِ معاً، ولا يَظْلِمُ ربُّنَا في حُكْمِهِ أَحَداً مثقالَ ذرَّةٍ.

وحُكْمُ الله عزّ وجلَّ يكُونُ لكلّ فَرْدٍ بما يُلائم ما كَسَب ومَا اكْتَسَبَ من خَيْرٍ أوْ شرّ، ولَا يكُونُ حُكْماً جماعيّاً، بدليل ما سيأتي في السُّورة من بيانِ أنَّهُ لَا تزرُ وازرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجل: ﴿. . . فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ خطاباً لرسوله محمد ﷺ، فلكُلّ

حامِلٍ مِقداراً ما من رسالَتِه من أمَّتِه. وفي القراءة الأخرى: **[فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ]**.

إنَّه لمّا كانت رِحلَةُ الحياة الدنيا رِحْلَةَ امْتحانٍ، لكَشْفِ أحوال نفوس العباد فيها، وما تكسِبُهُ فيها باختياراتِها الحرّة، لمحاسبتهم يوم الدّين، وفصل القضاء بينهم على مقادير ما قَدّموا من خَيْرٍ أو شرّ، ثمَّ لمجازاتهم بمقتضىٰ عَدْلِ الله أو فضله، كانَ من شأن الرَّسُول ﷺ ويُلْحَقُ به كلُّ داعٍ إلى سبيل الله من أمَّتِه، أنْ يُسَلِّمُوا للَّهِ تَدْبيراتِه في مجاري حكْمَتِه، فلا يحزَنُوا من أجل الّذين يختارُونَ لنفوسهم اتّباعَ سُبلِ الضلالات الشيطانية، فالحزْنُ من أجّلِهم يخالف مقتَضياتِ حكمة الله، إذْ قَضىٰ وقَدَّر أنْ يمتَحِنَ عباده، فيكْشِفَ بالامتحان أحوال نُفوسهم، وما تختارُ باختيارها الحرِّ من خَيْرٍ أو شرّ، ثم ليُحاسبهم، ويفْصِلَ القضاء بيْنَهم، وليجازِيَهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ على ما كان منهم باختياراتهم الحرَّة، الّتي لم يُجّبَرُوا فيها على اختيار أيّ شيءٍ بالْقَهْر، ولم يُجْبَرُوا فيها على سُلُوك أيّ شيءٍ بالقهر.

إذن: فَمَن أرادَ شيئاً باختياره الحرّ، فعَلَيْهِ أن يتحمَّلَ هو وَحْدَهُ نتيجة اختياره.

فجاء هذا الخطابُ البيانيُّ التوجيهيُّ كاشفاً لهذه الحقيقة، ومُعْلِماً بها، ومُرَبِّياً حَمَلَةَ الرّسالة الرَّبَّانيّة على ما ينبغي أَنْ يَلْتَزِمُوا به.

النفس: قد تُطْلَقُ في اللُّغَةِ وَيُرَادُ بها الرُّوح، وجاء إطلاق النفس في القرآن على ما يجمع طَبْعَةَ خصائص الإنسان، في كلّ فرد من أفراد الناس، وهي الّتي تَذُوقُ الموْتَ بمفارقة الرّوح لها.

والمعنى الّذي يُفْهم من هٰذه القضيّة: فَيَا حَامِلَ الرِّسالة الرَّبَّانِيَّةِ! لَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ تَذْهَبُ من جَسَدِك بالموت، بسبب توالي الحَسَراتِ فيها، وشدّة الأحزان فيها، من أجْلِ الّذين اختاروا لأنفسهم الكفرَ بما أوجب

رَبُّهُمْ عليهم من إيمانٍ ومنْ عَمَل صالح يُرْضيه، دُونَ أنْ تكُفَّها بالتّسليم التّامّ للّهِ في تَدْبِيراتِ كونه، والتّسليم التامّ لحكْمَته في قضائه وقَدَرِه، واعْلَم بأنّه عَلِيمٌ بكلّ ما يَصْنَعُونَ من أعمالٍ ظاهرة وباطنة، في أجسادهم وفي نفوسهم، وأنّ هٰذه الأعمال من آثار إراداتهم الحرَّة.

أو: فيا حامل الرّسالة الرّبّانيَّة، لَا تَعْمَلْ على إذْهَاب نَفْسِكَ من الحياة فتذوقَ بذلِكَ الموت، بسَبَب توالي الحَسَراتِ والأحْزَانِ الشديدة عليها، من أجْلِهم إذْ لم يُؤْمِنُوا ولم يَعْمَلُوا صَالحاً، بَلْ قابِلْ حِكْمَةَ اللّهِ في مقاديره وتدبيراته بالتّسْلِيم التّام، ولو كان من اختار لنَفْسِهِ الكُفْرَ والعِصْيَانَ من أقْرَب النّاسِ إلَيْكَ رَحِماً أو وَلاءً، واعْلَمْ بأنَّ الله عَلِيمٌ بما يصْنَعُون بإراداتهم الحرَّة من أعمالٍ ظاهرة وباطِنَةٍ في أجْسَادهم وفي نفوسهم.

إنّ الحياة الدُّنيا حيَاةُ ابْتِلَاءٍ كاشفٍ لإراداتِ الموضوعين فيها موضع الامتحان، وإراداتُهُمْ فيها حُرَّةٌ غَيْرُ مجْبُورَة، ثم يكونُ في الحياة الأخرى الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذ الجزاء الرَّبَّاني بالْعَدْلِ لمستحقيه، أو بالفضل لمستحقيه.

بهذا قَضَتْ حكْمَةُ اللّهِ في خَلْقِ النَّاس.

ولمَّا كانت أحكام الله ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ الّتي يفْصِل بها بَيْنَ عباده يَوْمَ الدّين بالضّلال أوْ بالْهدَاية، لَا بُدَّ أنْ تكون مُسْتَنِدةً إلى علْمِه الشّامل الّذي لا يغادر صغيرةً ولَا كبيرَةً من مُكْتَسباتِهم الإرادية، الظاهرة والباطنة، الجسَدِيَّةِ والنفسيَّةِ إلَّا أحْصَاها إحصاءً تامًّا، قال الله عزّ وجلّ في آخر الآية (٨): ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

﴿يَصۡنَعُونَ﴾: أي: يَعْمَلُون.

وقد جاءت هٰذه الجملة بمثابَة جواب سؤالٍ مطويٍّ، يُثِيرُه كَوْنُ الله

عزّ وجلّ يحكم يَوْمَ الدّين علَىٰ من كان في الحياة الدُّنيا ضالًّا بالضّلَال، ويَحْكُمُ لمَنْ كَانَ في الحياة الدُّنيا مهتدياً بالْهُدىٰ وهو ما جاء بيانه في الآية نَفْسها، ومُفَادُ هذا السؤال المطويّ: هل يعْلَمُ الله ما كان عباده يصْنَعُونَ في الدُّنيا من خَيْرٍ وشرّ، وحَسَنٍ وقبيح، حتَّىٰ ما كان من مكتَسَباتِ قُلُوبهم وإراداتهم ونفوسهم وأجْهزَةِ الإدراك لديهم؟

فجاءت هذه الجملة جواباً على هذا السؤال المطويّ.

﴿عَلِيمٌ﴾: صيغةُ مبالغة، أي: بالِغٌ علْمُهُ بِهِمْ كُلَّ شيءٍ، كبيراً كان أم صغيراً، ظاهراً كان أم باطناً، جسَدِيًّا كان أم نَفْسِيًّا، حتىٰ مكتسبات القلوب والنفوس والأذهان الإراديَّة.

﴿عَلِيمٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾: أي: عليم بما يَعْمَلُون الآن في الحياة الدُّنيا لحظة فلحظَة، وما يصْنَعُونَ في أقَلّ زَمَنٍ يحْصُلُ فيه عمَلٌ ما جَسَدِيٌّ أو نفسي.

وما يَعْلَمُهُ اللَّه ـ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانه ـ يظَلُّ معلوماً لدَيْهِ أبداً، لأنّ الله سبحانه لا يَضِلُّ ولا ينْسَىٰ، ويَعْلَمُ السِّرّ وأخفى.

كيْفَ لَا يَعْلَمُ سبحانه أعمال العباد ومكْتَسَباتهم الإراديّة، الظاهرة والباطنة، الجَسَدِيَّة والنفسيَّة، مع أنَّه ما مِنْ ذَرَّةٍ في الوجود كُلّه، ولا أصغر ولا أكبر إلَّا هو عليم بها، وبخصائصها، وصفاتها، وموقعها، وأجزائها، وحرَكة أجزائها، حتى الإلكترونات حول نويات الذّرّات، وهو مع علمه بها يُمِدُّها بِقُوتِ بقائها في الوجود، وبِقُوتِ حَرَكاتها في دَورانِها في مَدَارَاتها الذَّرّيَّة.

وقد جاء بعضُ تفصيل لشمول علم الله في القرآن، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ

وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

- وقال اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿. . . وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾﴾.

- وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن المنافقين:

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

إلى غيرها من نصوص كثيرة موزّعَةٍ في سُور القرآن المجيد.

وقد جاء توكيد الجُملتَيْنِ من الآية (٨) الّتي نتدبَّرها: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ بمؤكّدين: «إنَّ - والجملة الإسميَّة» مراعاةً لأحوال الشَّاكّين من الّذين يتلَقَّوْنَ الخبر، فمُجْمَلُ الخطاب في النصّ ليْسَ خاصّاً بالرَّسول ﷺ.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس الرابع من السورة والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته.

* * *

(٨)

التدبّر التحليليّ للدرس الخامس من دُروس السُّورة وهو الآية (٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

القراءات:

• قرأ ابْنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ بالإفْراد، وهو اسم جنس يَعُمُّ أنواع الرّياح وأصْنَافها ذوات الآثار المختلفة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، وهذه القراءة ذاتُ دَلَالة صريحة على أنّ الرّياح أنواع وأصناف مختلفة.

فبَيْن القراءتَيْنِ تكامل في الأداء البياني، وقراءة الجمع تُفَسِّر المرادَ بقراءة الإفراد، إذْ فيها دلالة صريحة على اختلاف أنواع الرِّياح وأصنافِها. وفي قراءة الإفراد دلالة على جواز إطلاق اسْم الجنْسِ المفرد على المعنى الجامع للأنواع والأصناف المختلفة.

• وقرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكِسَائي، وأبو جَعْفر، وخلف: [مَيِّتٍ] بتَشْديد الياء المكسورة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مَيْتٍ] بإسْكان الياء.

والقراءتان لغتان عربيّتان للكلمة.

تمهيد:

هذا الدرس يتعلّقُ ببعض الظواهر الكونيّة الدالّة على رُبوبيّة اللّهِ للكَوْن كُلّه، ووحدانيّته في رُبوبيّته، ويلْزَمُ عقلاً من توحيد الله في الرُّبُوبيّة تَوْحِيدُهُ في الْإلَهيّة، فَمَنْ أثْبَتَ البرهان العقليُّ أَنَّهُ هو الرَّبُ وَحْدَهُ، كَان لا بُدَّ باللُّزُوم العقليّ الحتميّ أنْ يكونَ هو الإلَه المعبود وحْدَه لا شريك له.

وقد جاءت آيَةُ هذا الدرس معطوفة على قول الله عزّ وجلّ في الآية (٣) من السُّورَة:

﴿... هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

وكُلٌّ منْهما من توابع البيانات المتعلّقات بالفرع الأول من فروع شجرة موضوع السورة التابع لفروع شجرة موضوع سورة (الفرقان) وهو فرع: «الله جلّ جلاله» الذي يتعلّق به إثباتُ وَحْدَانيّتِه في رُبوبيّته، وفي إلَهيّته، والرَّدُّ على المشركين، والكافرين الجاحدين.

ودلَّ هذا الرَّبط على أنَّ موقِفَ المشركين إبَّانَ نُزُول سورة (فاطر) لم يتَغَيَّرْ فيه شيْءٌ عمَّا كانُوا عَليْهِ إبَّانَ نُزُولِ سورة (الفرقان).

التدبّر:

هٰذه الآية بشأن ظاهرة الرّياح، إحدى آياتِ الله في كونه ذوات الآثار النفعيَّة للناس، وقد يكون فيها إهلاكٌ وتدمير إذا شاء الله عقاب المجرمين، وقد يكون فيها مصائبُ دون ذلك إذا شاء الله عقاب أو تذكير العصاة والظالمين، وقد جاءت هنا لبيان أثرٍ من آثارها النفعيّة الّتي يمُنُّ الله بها على عباده.

وسبق أن نزل في نجوم التنزيل قبْلَها نَصَّان آخران حول موضوعها نفسه، وفيهما يمُنُّ الله عزّ وجلّ على عباده بآيَةِ الرّياح وآثارها النفعيّة.

إذْ أنزل الله عزّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وأنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) قوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

وسبَق تَدَبُّر هٰذَيْنِ النَّصَّيْن في مواضعهما، وأضيفُ هُنا أنّ هٰذَيْن النَّصَّين مع النّصّ الثالثِ وهُو الآيَةُ (٩) من سورة (فاطر) الّتي نتَدَبَّرُها، نُصُوصٌ مُتَكامِلَةٌ في دَلَالاتها، وغير متطابقة، مع أنّ موضوعها واحد، وهذا التكامل هو أَحَدُ خَصَائص القرآن الإعجازيّة القائمة على تجزئة عناصِرِ الموضوع الواحد في إطاره الكُلّي، وتوزيع دلَالاتِهَا في عدَّة نُصُوص، وفي أكْثَر من سورة، وقد تُكَرَّرُ بَعْضُ عناصِر الموضوع لاستكمال الصّورة البيانيّة في النّصّ، أو للاهْتِمام بهٰذِه العناصِر وتأكيدها لكِنْ لَا علىٰ سبيل التَّطابُقِ الكُلّيّ في الغالب.

وعلى المتدبِّرِ أنْ يَضَعَ في تصوُّره دواماً أنّ التَّكَامُلَ هُو القاعِدَة، وأَنَّ التَّطابُقَ قَدْ تقتضيه الْأَهَمِّيَّة القُصْوى لتكرير الموضوع، كأَنْ يكُونَ من الأسُسِ الاعتقادية، أو تقتضيه العِلاجَاتُ التربويَّةُ الفكريَّةُ أو النفسية.

وبنظرة عَجْلَىٰ لبيان التكامل في هذه النُّصوص الثلاثة نلاحظُ ما يلي:

(١) أنّ ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بالنسبَة إلىٰ إرْسَال الرّياح بُشْراً بين يَدَيْ رَحْمَة الله، أي: مُبَشّرَاتٍ بنزول المطر، قد جاء بصِيغَةِ الفعل المضارع، لبَيانِ ما يحْدُثُ بتجدُّدٍ في ظاهراتِ تصاريفِ اللّهِ في كونه، فَحَرَكة هٰذا الإرْسالِ حَرَكَةٌ مُتجدّدةٌ قبْلَ كلّ سحابِ ثِقَالٍ بالماء تتجمَّعُ في السَّماء، فقال الله تعالى فيه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا . . . ﴿٥٧﴾﴾.

سحاب: اسم جنس جمعي، مفرده «سَحابة».

وهذا الحدث المتجدِّدُ في المسْتَقْبَل من الأزمنة، هو من الأحداث الّتي سبَقَتْ في الماضي، وقد جاء بيان إرسال الرياح في هذا النصّ في

مَعْرِضِ الحديث عن الرّياح التي تثير السُّحُب، وتجمعها، وتحملها، وهي ثِقَالٌ بمياهِ الأمطار.

(٢) ومَا جاءَ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن إرْسال الرّياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رحْمَةِ الله، أي: مبشّراتٍ بنزول المطر، قد جاء بصيغَةِ الْفِعْلِ الماضي، للدّلالة على أنّ سُنَّة الله فيما مضى مِثْلُ سُنَّتِه فيما يتجدّد في أزمان المستقبل، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾﴾.

وقد جاء بيان إرسال الرّياح في هذا النصّ في معرض الحديث عن تأثير الرياح في إنزال الماء الطهور من السحاب.

(٣) وَمَا جاء في سورة (فاطر/ ٢٥ مصحف/ ٤٣ نزول) قَدْ جاء بصيغة الفعل الماضي، إلّا أنّه اشتمل على عناصر مُضافة لَمْ تَرِدْ في النَّصَّيْن السابقين، كما جاء في النَّصَّيْن السابقين عناصر لم تَرِدْ فيما جاء في سورة (فاطر).

ففي آية سورة (فاطر) جاءت أفعال: «أَرْسَلَ ـ سُقْنَاهُ ـ أَحْيَيْنَا» بصيغة الفعل الماضي، للدّلالة على سُنَّة اللّهِ في الأحداث الماضية، لكنَّهُ أضاف إثارة الرّياح للسّحاب، وسَوْق الله له إلى بَلَدٍ بعيدٍ ميّت، في خُطَّة تكامليّة.

أمّا فِعْلُ ﴿فَتُثِيرُ﴾ في آية (فاطر) فقَدْ جاء فعلاً مضارعاً، ضمْن سِبَاقِ وسِيَاقِ أفْعالٍ ماضية على خلاف مقتضى الظاهر، لغَرَضٍ بلاغيّ، وهو تصويرُ حَدَثٍ مَضَىٰ بصُورَةِ حَدَثٍ يجْري بالتّتابعُ في الحاضر، ولأنَّهُ لَيْسَ في اللّغة العربيَّة صيغةُ فِعْلٍ مَاضٍ يَدُلُّ على الحركة المتكرِّرة بتَتَابع، فاسْتُعِيرَتْ صِيغَةُ الفعلِ المضارعِ للدّلالَةِ علَىٰ هٰذا المعنى، فجاء تعبير ﴿فَتُثِيرُ﴾ بقُوَّةِ قولنا: فأثارَتْ إثاراتٍ متتابعاتٍ سَحَاباً.

الإرسال: البعثُ والتوجيهُ، لأداء عَمَلٍ يقصد المرسِلُ أداءه بتُؤَدَةٍ وتَرَفُّق وأناة وتعقُّلٍ وحكمة.

الإثارة: التَّهْيِيجُ والنَّشْر، يقال لغة؛ أثارَهُ، أيْ: هيَّجَهُ ونَشَرَه، ويُقَال، ثارَ يثُورُ، إذا هَاجَ وانْتَشر.

وبالنظر التأمُّلِيّ في هٰذه النصوص الثلاثة الواردة في سور: «الأعراف والفرقان وفاطر» نُدْرك أنّه لَا تكرار في الدّلاَلاَتِ المقْصُوداتِ فيها.

- فنصّ (الأعراف) يتحدّث عن الرّياح الّتي تجمع السُّحُبَ حتَّىٰ تكونَ ثقالاً بالماء، وأضاف الدّلالةِ على أنَّ السحاب الثقال تُسَاقُ لمكان قريب من تجمُّعِه، أخذاً من دلالة حرف اللام في: [**لِبلَد مَيت**] وعلى أن الله يخرج به من كلّ الثمرات، وعلى أنّ إخراج الموتى إلى الحياة الأخرى مشابه لإخراج النبات من الأرض بماء المطر، وعلى أن الغاية من هذا التدبير الكوني تذكير الناس بقدرة الله على إحياء الموتىٰ.

- ونصّ (الفرقان) يتحدَّث عن الرّياح التي يعقُبُها إنزال المطر من السماء، أي: من السحاب، وأضاف الدّلالة على أنّ الماء الذي ينزل من السّحاب ماء طهور، والدّلَالةَ على الغاية من إنزاله في خُطّة التكوين، وهي إحياءُ أرض ميّتة، وإسقاء كثير من الأنعام والأناسيّ.

- ونصُّ (فاطر) أضاف الدّلالة على أنّ الرّياحَ تُثيرُ سَحاباً فيسوقُه الله عزّ وجلّ إلى بلَدٍ بعيد ميّت، وفي هذه الحالة لا يشترط أنْ تكون السُّحُب المسُوقَةُ ثِقالاً بالماء، لأنّ سَوْقها يكونُ إلى بَلَدٍ بعيد، بدليل استعمال حرف [**إِلَىٰ**] بخلاف النصّ الذي جاء في (الأعراف).

وفي فعل [**فَسُقْنَاهُ**] في آية (فاطر) التفات من الغيبَةِ إلى المتكلّم، وهذا من فنون الأساليب البلاغيّة ذوات اللطائف النَّفِيسة.

وجاء تكرير الدّلالة على أنّ إحياء الموتى يوم البعث يُشبِهُ إحياء

الأرض بَعْدَ موتها في كلٍّ من (الأعراف) و(فاطر) لأنّ هٰذه القضيّة من الأمور الْعَقَدِيَّة المهمَّة، الّتي اهْتَمَّ القرآنُ بالإقناع بها، وتكرير الدّلالة عليها في نصوصٍ مُتَعَدِّدَة من القرآن.

ولكن جاءت هذه الدّلالة بعبارتَيْن مختلفتَيْن، ففي سورة (الأعراف) قال الله عزّ وجلّ: ﴿... كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾. وفي سورة (فاطر) قال الله عزّ وجلّ: ﴿... كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

النُّشُور: مصْدَرُ «نَشَرَهُ» أي: أحياه بَعْدَ الموت.

وهذه العبارة موصولة بما جاء في الآية (٥) من سورة (فاطر): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فظهر لنا بالتحليل التّكاملُ في الدّلالات بيْنَ النصوص الثلاثة الّتي في (الأعراف، والفرقان، وفاطر).

والحمْدُ للّه على فَتْحِه وتوفيقه ومعونته.

* * *

(٩)

التدبّر التحليليّ للدّرس السّادس من دُروس السّورة وهو الآية (١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

تمهيد:

إنّ المشركين الَّذِينَ تُعَالج سورة (فاطر) كفريّاتهم بالبيانات العقليّة التربويّة، متابعةً لمعالجاتها الّتي سبقت في سورة (الفرقان) قد اتَّخذُوا آلِهَةً

مِنْ دُون الله كما جاء بيانه في سورة (الفرقان) واضِعين في تصَوُّرِهم الاعتقاديّ الباطل غرضَيْنِ من عبادتهم شُرَكَاءَهم:

الغرض الأول: أنْ تَرْحَمَهُمْ شُرَكَاؤهم في قضايا أرْزاقهم المادّيّة والمعنويَّة، زاعِمينَ أَنَّها هي الّتِي تَرْحَمُهُمْ، ولهٰذا أنْكَروا اسْم الله الرحمٰن، وهُوَ ما دَلَّ عليه قول الله عزّ وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأنهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ﴿٦٠﴾﴾.

وقد سبق في سورة (الفرقان) بيانٌ بُرْهَانيٌّ يدُلُّ على بُطْلانِ اعتقادِهم الفاسدِ هذا، وإثباتِ أنّ أرْزَاقهم إنَّما تَصِلُ إليهم من آثار رحمة الله لعباده.

الغرض الثاني: أنْ تَنْصُرَهُمْ شُرَكَاؤهُم عَلَى خُصُومهم وأعدائِهم في معاركهم الباردة والسَّاخنة، بتأييد غَيْبيّ.

وقد جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) ما يَدُلُّ على اعْتقادهم بأنّ تَفَوُّقَهم على الرَّسُول وعلى الذين آمنوا به واتَّبَعُوه في العَهْدِ المكيّ من سيرَة الرسول ﷺ، إنَّما هو بسبَبِ تأييد ونَصْرِ شُرَكَائهم لهم، يُشِيرُ إلى هذا قول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسُوله ﷺ بشأنهم:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: فهم يوم يرَوْنَ العذابَ يَوْمَ الدِّين، لَا يَجدُونَ مِنْ شُرَكَائِهِمْ تَأْييداً وَلَا نَصْراً، بل سَوْف يخْذُلُونَهم، وَيَتَبَرَّؤُون منهم.

وقد جاء بيانُ هذا الغرض مُصَرَّحاً به في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) إذْ جَاءَ فيها قولُ الله عزَّ وجلَّ بشَأْنهم:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

فجاء في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/٤٣ نزول) مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ المَعْتَقَدَين الفاسِدَيْن الباطِلَيْنِ للمشركين، حوْلَ قضيَّةِ الرّزْق الّذي هو مظهر من مظاهر رَحْمَةِ الله لعباده، والنَّصْرِ الَّذِي تقتضِيهِ مُكافَأَةُ المعْبُود لعابده.

أمّا قضية الرُّزْقِ فقد جاءَتْ مُتَابَعَةُ مُعَالجة اعتقاد المشركين حولَها في الآية (٣) فقال اللَّهُ عَزّ وجلّ فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقد سبَقَ أن تَدَبّرْنا هٰذِه الآيَةَ على قَدْرِنا.

وأمّا قضيَّةُ النَّصْر، فقد جاءَتْ مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ اعتقاد المشركين حوْلَها في هٰذا الدَّرْس من دروس السورة، وهو الآية (١٠) منها.

التدبّر:

اشتمَلَتْ آيَةُ هٰذا الدّرس على بيَانِ أرْبَعِ قضايا مترابطَةٍ تَرَابُطَ أعْضاءِ جَسَدٍ وَاحِدٍ.

القضيَّةُ الأُولى: دَلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا . . .﴾.

الْعِزَّة: هيَ القُوَّة الغالبة، يقول الْعَرب: مَنْ عَزَّ بَزَّ، أي: من غَلَبَ سَلَبَ.

هذه القضيّة تكْشِفُ عن حقيقَةٍ من حقائق الوُجُودِ الكبرى، مع تضمُّنِها البُرْهَانَ العقْلِيَّ عليها.

فالله عزّ وجلّ في اعتقاد المشركين هُو خالق الكون كُلّه بقُدْرته العظيمة، وكلُّ ذي فكْرٍ يُدرِكُ أنَّ الْقُدْرَة العظيمة الّتي خلَقَ اللّه عزّ وجلّ بها الكون، وهو مُهَيْمِنٌ عليه برُبُوبيّته الدائمة، لا بُدَّ حَتْماً أنْ تكون هيَ القوّة الغالبةَ دَواماً.

فَمَنْ نَصَرَهُ الله بقُدْرَتِه مُكافَأَةً لَهُ عَلَى حُسْنِ عبادَتِهِ لَهُ، وصِدْق الْتِجائه إلَيْه واعتماده عليه، فهو المنْصُورُ العزيز الغالِبُ لا مَحالَة، ومَنْ خذَلَهُ الله وأذَلَّهُ لَمْ تَنْفَعْه قُوَّةٌ فِي الوجُودِ بَالِغَةً مَا بَلَغَتْ.

إذَنْ: فَشُرَكاءُ المشركين لَا يملكُون لعابدِيهم وطالِبي النَّصْر منْهُمْ تأييداً وَلَا نَصراً، ولا يملكون أن يجلُبُوا لهم نفعاً، أو يدفعوا عنهم ضُرّاً.

فَمَن كان يُرِيدُ العزَّة، أي: القوَّة الغالبة، فلْيعْلَمْ، ولْيَضَعْ في تَصَوُّرِه دائماً أنَّ العزَّةَ لله جميعاً، وعَلَيْه أن يكون مؤمناً حقّاً، وعابداً لله حقّاً، وعاملاً بمراضيه، ومُلْتزماً في سِلْمِهِ وحَرْبِهِ بأوامر الله ونواهيه، وناصراً دينَهُ على وفْقِ شرائعه، وضِمْنَ صراطه المستقيم، وداعياً مُلْتجئاً إلَيْهِ أن يهبَهُ النَّصْرَ المبين.

فإذا فَعَلَ ذَلِكَ نَصَرَهُ الله وَأعزَّه، وكان هو الغالبَ لَا محالة، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (محمّد/٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾.

وهذه القضيّة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ مُؤلَّفَةٌ من جُمْلَةٍ شَرْطيَّة.

﴿مَن﴾ اسْمُ شرطٍ جازم وهو مبتدأ وخبرُهُ جُمْلَةُ الجزاء.

وجاءت جملةُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ دَالَّةً على جُمْلَةِ الجَزاءِ، وسادّةً مَسَدَّها، وأصل العبارة يمكن تقديره كما يلي: مَنْ كانَ يُرِيدُ العزَّةَ طَلَبها من اللّهِ على وفْق أحكام شريعته لعباده، فَلِلّهِ العزّةُ جميعاً.

لفظ ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ، أي: فلِلّه العزَّةُ حالَةَ كوْنها جميعاً له لا يشاركه فيها غيره.

القضية الثانية: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ...﴾.

إنَّهُ بعْدَ تهْيئَة الشروط السّببيَّة الّتي أمر الله بها لاكْتِساب النَّصْر بعزَّة الله ـ جلَّ جلالُهْ وَعَظُمَ سلطانُه ـ يأتي طلَبُ النَّصْرِ بعبادَةِ الدُّعاء الخالص لله وحْدَه لَا شريك له.

والدُّعَاءُ الخالصُ لله وحْدَه هو من الكلم الطيِّب الّذي يَصْعَدُ إليه، ولا يكونُ دون وُصوله إلى الله عزّ وجلّ حاجزٌ ولا حاجب، وهو في صُعوده لا يحتَاجُ زَمَناً لوُصوله، بل يَصِل صاعداً إلَيْه فوْرَ الدُّعاء الخالص له.

وجاء استعمال حرف «إلى» في لفظ: ﴿إِلَيْهِ﴾ مُرَاعَاةً لمقام الْعُلُوّ المعنويّ لله تبارك وتعالى، إذْ هو العِليُّ الأعلى دواماً.

والله جلّ جلالُه يُمِدُّ على وفْقِ مقْتَضَىٰ حكْمَتِه عبادَه المؤمنين الصادقين، بالتأييد والنصر علَىٰ أعدائِهم الكافرين.

ويُستفادُ الْقَصْر في العبارة من تقديم المعمول: ﴿إِلَيْهِ﴾ على عامله: ﴿يَصْعَدُ﴾. أي: إلَيْهِ وَحْدَهُ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيّبُ، ولا أَحَدَ في الوجود يَصْعَدُ إلَيْه كَلِمٌ طيّب.

إنَّ الدُّعَاء الخالصَ لله عزّ وجلّ من نفائس الكَلِمِ الطيّب الّذِي يتقبَّلُهُ الله جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

الكَلِمُ: اسْم جنس جمعي، مُفْرَدُ «الكَلِمَة» مثل النَّبِق والنَّبِقة، ولا يكون أقلّ من ثلاث كلمات.

والكلام جمع «الكلمة» أيضاً، وهو اسم جنس يقع على القليل والكثير.

الطيّب: أي: الطاهر الخالص من الشوائب، النظيف الذي لا خَبَث فيه، وهو ضدُّ الخبيث.

أمّا الدُّعاء لغير الله فَهُوَ كَلِمٌ خبيثٌ، لأنّ فيه رِجْسَ الشّرك والكُفْرِ بالله سبحانه وتعالى.

وجاءت جملة ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عامَّةً شاملةً كُلَّ كَلِمٍ طيّبٍ، كعبَارة «لا إلَه إلّا الله» وكلمات الذّكر لله عزّ وجل، وكلمات الدَّعْوَة إلى الله، وكلماتِ الحُجَجِ والْبَراهين المثبتَةِ لحقائق الدّين وشرائعه وأحكامه، لتكون ذاتَ دَلَالَةٍ كُلّيّة يُسْتَشْهَدُ بها لكُلّ كَلِمٍ طيّبٍ، ولتَدُلَّ على دُعَاء المؤمنين رَبَّهم طالبين منه التأييد والنّصر، وهو الأَمْرُ الذي يَسْتَدْعيه السِّباقُ والسِّيَاقُ في الآية.

أي: فادْعُوا الله أَنْ ينْصُرَكم عَلَىٰ عَدُوّكم أيُّها المؤمنون، بَعْدَ اسْتِكْمَال الوسائل السببيَّة المادّيَّة الّتي أَمَرَكم بها، فهذا الدُّعاءُ هو من الكَلِم الطيّب الّذي يَصْعَدُ إليه، وهو يستجيب بحِكْمَتِهِ لكم فيَنْصُرُكم ويُعِزُّكم، إذا عَلِمَ أَنَّكُمْ صادقون تَسْتَحِقُّون التأييد والنّصر.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عليها قول اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾.

أي: ولكِنْ مع الدُّعاء بالكَلِم الطيّب، لَا بُدَّ من القيام بالْعَمَل الصّالح، الّذي يُلائِمُ صَلاحُهُ في نظام الأسْباب والمسَبَّبات الرَّبَّانيّة، مَا يَتَحَقَّقُ بِهِ النَّصْر والظفر، حتَّىٰ يَرْفَعَهُ اللّٰهُ - جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه - بحكمَتِهِ ومعونته وألْطَافِهِ ومقاديرِهِ الخفيَّة، ويُحقِّقَ به لأولِيَائه النَّصْرَ والعزَّةَ والتمكين.

فالدُّعاء وحْدَهُ دُونَ اتّخاذ الأسباب الّتي أمَرَ اللّٰهُ ويأمُرُ باتّخاذها، لا

يُحقّقُ اللَّهُ بهِ النَّصْرَ والظفرَ والعزَّةَ والتمكين، إذْ لَمْ يَعِدِ الله عزّ وجلّ المؤمنين المهْمِلين في اتّخاذ الأسباب الكونية المادّيّة والمعنويّة بأنْ ينْصُرَهُمْ وهُمْ كُسَالَىٰ، مخالفون لأوامِرِهِ ونواهِيهِ، بلْ هم قد يكونون معرَّضين للعقاب على معاصيهم، ومن العقاب ما يُنْزِلُ اللَّهُ بِهِمْ من هزائم.

وقَدْ يُثَابُونَ علىٰ صِدْق دُعَائِهم والتجائهم إلىٰ رَبّهم ثواباً حسناً يَوْمَ الدّين، لأنَّ الدُّعاء عبادةٌ مقبولَةٌ عنْدَ الله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه.

وهذه القضيّة الثالثة، تَدُلُّ على أَنَّ جَعْلَ المؤمنين الداعين بالدُّعاء الخالص يَعْلُونَ ويَرْتَفِعُونَ علىٰ الكافِرِين في المعارك الباردة والسَّاخنة مشروطٌ بالْعَمَلَ الصالح.

فقول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾: أي: والْعَمَلُ الصالحُ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ الْعُلُوَّ والارْتفاع على الأعْمالِ الأخْرَىٰ غَيْرِ الصالحة.

وَرَفْعُ العَمَلِ الصَّالِحِ كِنَايَةٌ عَنْ رَفْع أصْحَابه، ومَنْحِهِمُ العُلوَّ والْعِزَّةَ الغالِيَة.

وقد جاءت هٰذه الجملَةُ عامَّةً شاملَةً للدَّلَالَة على سُنَّةِ الله في خَلْقه أنْ يَرْفَعَ ويُعْلِيَ الأعمالَ الصالحة، ويَخْفِضَ الأعمال غَيْرَ الصالحة.

ومن ضِمْن الأعمال الصالحةِ، الأعْمَالُ الجهاديَّةُ الّتي يقُومُ بها المؤمنون الصادقون لاكْتِسَاب النَّصْر على أعدائهم إعلاءً لكلمة الله عزّ وجلّ.

القضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

المكر: تدبير أمْرٍ في خفاء، يكونُ في الخير ويكونُ في الشرّ.

﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي: يُدبّرُون أُمُورَهُمْ في خفاء، قاصدين

بمكرهم السَّيِّئَاتِ ضِدَّ الّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات، إذْلَالَهُمْ والتخَلُّص مِنْهُمْ ومن دَعْوَتهم إلى دين الله الحقّ.

أرَىٰ أنّ فعل ﴿يَمْكُرُونَ﴾ قد ضُمّن معْنَىٰ فِعْلَ «يَقْصِدُون» أو «يَعْمَلُونَ» فَعُدّيَ تَعْدِيته فأغنت الجملة عن جملتين، والفعل المضارع يَدُلُّ على حركة مكرهم المتجدّدة.

وعُلِمَ من قرينَة السِّبَاق والسِّيَاق أنّ مَكْرَهُمُ السّيِّئَاتِ هو لمقاومة المؤمنين المسلمين المجاهدين في نَشْر دين الله الحقّ.

وكلمةُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تَشْمَلُ كلَّ ما يَسُوءُ الْمَمْكُورين المقصودين بالمكر، من أَخَفّ ما يَسُوءُ حَتَّىٰ أشدِّهِ الذي يكون بالتعذيب والْقَتْل.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: أي: لهم عقابٌ شديدٌ يوم الدِّين على ما سبَقَ أن مَكَرُوه في الحياة الدّنيا، ضدّ الحقّ الرَّبّاني، وضدّ الّذين آمنوا به واتَّبَعُوا تعليماته ووصاياه.

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: أي: ومَكْرُ أُولَئِكَ الْبُعَداء إلى الحضيض هو يَهْلِكُ وَيَضْمَحِلُّ، ثم يكونون هُمُ الخاسِرين الخائبين، لَا يحقِّقُونَ بمكرهم النَّصْرَ والعزّة على المؤمنين العاملين بما أوصاهم الله به.

﴿يَبُورُ﴾: أي: يَهْلِكُ وَيَضْمَحِلّ.

وجاءت الإشارة إلى الكافرين باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع للبعيدين، تعبيراً عن انحطاط منزلتهم إلى الحضيض الأسفل.

لفظ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لتوكيد أنّ مكرَهم لَا بُدَّ أنْ يبور هالكاً مضمَحلًا، واضمحْلَال مَكْرِهم وبوارُه كنايَةٌ عن أنَّهم هُمُ البائرون المضمَحِلُّون الهالكون، وهم الخاسرون المغلوبُونَ الخائبُونَ أخيراً.

وقد دلّت هٰذه القضيَّة الرابعة على أنَّ الأعمال السّيِّئة التي يُدَبِّرُها في

الخفاء أعداء الرسُول ﷺ، وأعداء الذين آمَنُوا به واتَّبعُوهُ، سيُحْبِطُها اللَّهُ ـ جلّ جلالُه ـ في الدّنيا، ويَجْزِي الماكرين بعذاب شديد يَوْمَ الدّين، وقَدْ يُنْزِلُ اللَّه بهم عذاباً شديداً في الدُّنيا أيضاً.

وقد جاءت عبارة هذه القضيَّةِ عامّة كسابقاتها، لتكونَ دالَّةً على سُنَّةِ الله في عباده، في كلّ تصَرُّفاتهم أنّ الَّذِينَ يمكُرُونَ السَّيئاتِ لَهُمْ عذابٌ شديد، وأنَّ مَكْرَهُمْ مَهْما كان مَكْراً كُبَّاراً سيكُونَ بائراً هالكاً مضْمَحِلًّا، وأنَّ أصحابه سيكونون هم الخاسِرِين الخائبين أخيراً.

وقد جاء هذا الدرس السادس في المرحلة المكيّة، بمثابة التوطئة الرَّمزِيَّة للأحداث الّتي تحققت في المرحلة المدنية. من مسيرة الرسول الدعوية.

وبهذا انتهى تدبّر الدرس السادس من دُروس السّورة والحمد لله على معونته وفتحه وتوفيقه.

* * *

(١٠)

التّدبُّر التحليلي للدرس السّابع من دُروس السورة وهو الآيات من (١١ ـ ١٤)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ⑪ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑫ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ

ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ
ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ
(١٣) إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ (١٤)﴾.

القراءات:

- قرأ جُمهور القراء العشرة: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ مَبْنيًّا لما لم يُسَمّ فاعله، من فِعْلِ: «أَنْقَصَ».

وقرأ يعقوبُ فقط: [وَلاَ يَنْقُصُ] مبنيًّا لِلْمعَلُوم من فعل: «نَقَصَ».

يُقال لغة: نقَصَ الشَّيْءُ، أي: قَلَّ مقْدارُه. ويُقَال: نَقَصَ فلانٌ الشَّيْءَ، أي: قَلَّلَ مِقْدارَهُ. ويقال أيضاً: أَنْقَصَ فُلانٌ الشَّيْءَ، أي: قَلَّلَ مِقْدارَه.

وعلى هٰذا فالقراءتان متكاملتان في المعنى، وجاريَتَانِ على وَجْهَيْنِ عَرَبِيَّيْنِ جائزَين ومستعملَيْن.

والتكامُل يُفْهَمُ على معنىٰ: أَنْقَصَ اللَّهُ من عُمْرِه، فنقص مطاوعاً.

تمهيد:

في هٰذا الدرس عَوْدٌ إلى عَرْض بَعْضِ آياتِ الله في كونه الدَّالَّاتِ على رُبوبيَّةِ الخالق فيها، وهٰذه الصفة يلْزَمُ عنها عقلاً وحدانيّةُ الله الخالق الرَّبّ في إلٰهيّته، فَمَنْ عَبَدَ مع الله أحداً من دُونه كان من المشركين، وأشْنَعُ منْهُ مِنْ عبَد إلٰهاً أو آلهةً من دُونِ الله، ولَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ رَبَّه، الّذي لَهُ عليه حقٌّ أن يَعْبُدَه وحْدَهُ لا يُشْرِكُ بعبادتِه أحداً، وأشنع منهما جاحِدُ الرُّبوبيّةِ والإلٰهيَّةِ كلَيْهِما، ويَعْتَقِد أَنَّهُ لا ربَّ في الوجود ولا إلٰه يُعْبَد.

واشتمَلَ هذا الدرس على التَّنْبيه علىٰ عدَّةِ ظاهراتٍ كونيَّةٍ مِن

ظَاهراتِ خَلْق الله، وآياته الجليلاتِ، الدَّالاَتِ علىٰ كَمالِ قُدْرَته، وإتقان صُنْعِه، وشُمولِ عِلْمِه، وعظيم نِعَمِه عَلَىٰ عِبَادِه رَحْمَةً بهم، وأنَّ له المُلْكَ كلَّه لَا يُشَارِكُه في مُلكِهِ ومِلكِه أَحَدٌ.

واشْتَمل أيضاً على إقناعِ المشْرِكينَ، بأنَّ عبادَتَهُمْ لشُرَكائهم بالدُّعاءِ اسْتِجْداءً لِرَحْمَتِهم، لَا تَنْفَعُهُمْ شيئاً، لِأَنّ شركاءَهُمْ لَا يَمْلِكُون شَيْئاً من الكَوْنِ الّذي هُوَ مِلْكٌ لِلّهِ وَحْدَه، ولأنّ شركاءَهم لا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ إذَا دَعَوْهم، ولو كان فيهم من يسْمَعُونَ دُعَاءَهم كالمعْبُودين من الجنِّ والملائكة لم يسْتجيبوا لَهُم، لأنّهم لا يملكون ذلك، ويوْمَ القيامَةِ يكْفُرُ المعْبُودونَ بشِرْكِ عَابديهم من المشركين، إذْ يتبرَّؤُونَ مِنْهُمْ ومِنْ دَعْوَتِهِمْ إلى اتّخاذهم آلِهَةً من دُونِ الله.

التدبر:

اشتمل هذا الدرس على تِسْعِ قضايا، وبيانات مُفَصَّلاتٍ في بعضها:

القضية الأولى: دلّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا . . . ﴿١١﴾﴾:

في هٰذه القضيَّة عرضُ الآيَة الرَّبّانيّة التكْوينيَّة الأولىٰ، من الآيات الّتي عرضها هذا الدرس من دروس السورة.

والخطابُ في هٰذِهِ العبارة مَوَجَّهٌ للنّاس، إذْ هو تابع لنداء الله للنّاسِ الّذِي جاء في الآية (٥): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . .﴾.

جاء بيانُ خَلْقِ آدم من تُرابٍ ومن طين في نصوص قرآنيّة متعدّدة، وهذا البيانُ هو فيما أرىٰ يَدُلُّ علىٰ السِّلْسِلَةِ الغذائيَّة الّتِي يخْلُقُها اللَّهُ عزّ وجلّ من التراب والماء نباتاً، فتأكُلُ منْهُ الأنعام، ويأكُلُ منْهُمَا النّاس، ويتحوّل الغذاء دماً ولَحْماً وعظماً بخَلْقِ الله، ثُمَّ تَجْرِي تَحَوُّلَاتٌ بِخَلْق الله

داخلَ الأجسادَ فَتَتَكَوَّنُ بخلْقِه النُّطَفُ المنَوِيَّةُ فيها، ثُمَّ تَتَكَوَّنُ في النُّطَفِ المنويَّة الأزْواجُ منْ صِنْفَي الذَّكرِ والْأُنْثَىٰ، ثُمَّ يكونُ الحمْلُ بالتقاء الْحُيَيْوَانِ الصغير جدًّا الَّذي يجتمع الألُوفُ منْهُ على رأس إبْرَةٍ، والقادم من نُطْفَةِ الرَّجُل، بالْبُيَيْضَةِ الهابِطَةِ من المرأة إلى الرَّحم، فإذا كانَ هٰذا الْحُيَيْوانُ من صِنْفِ الذكورِ انْعَقَدَ الجنِينُ بخَلْق اللَّهِ ذكراً، وإذا كان من صنف الإناث انعقد الجنين أنْثَىٰ بخلْقِهِ وقَضائه وقَدَرَه، على وفْق حكْمَتِه.

وطوَىٰ النصُّ هُنَا ذكْر الماء واقتصر على ذكر التراب، إذْ جاء بيان الماء في نُصُوص أخرى، ولعلَّ في هذا الاقتصار هنا إشارةً إلى أنّ العناصر الترابية هي العناصر البانيَّةُ للموادِّ الأساسيَّة للأجساد الحية، وأمّا الماء فهو على الرَّغم من كونه أكثرَ قِوَام الأجساد فإنه المادة المالِئَةُ للفراغات بين الموادّ الأساسية.

وهذه الآيةُ هي من عجائب التكوين الرَّبّاني، الدّالّةِ علىٰ قُدْرَةِ الله العظيمة، وإتْقَانِه البالِغ غايَةَ الإبْداع، والدَّالَّةِ على شُمُولِ عِلْمِهِ كلَّ صغيرة وكبيرَة، والدّالّة علىٰ لُطْفِهِ المذْهِشِ في عَمَلِيَّاتِ الخَلْقِ الَّتي يَقُومُ بها آناً فآناً.

ولمرَاعاة الْفَوارِقِ الزَّمَنِيَّةِ بيْنَ المرْحَلَةِ الترابيّة، والمرحلَة الّتي تتكَوَّنُ فيها النُّطَفُ المنَويَّة، والمرحلة الّتي يَجْعَلُ الله فيها أزواجَ الذُّكور والإناث في النُّطَف، أو عنْد الْتِقاءِ الحيَيْوان بالبيَيْضة جاء في العبارة العطفُ بحَرْفِ العطف «ثُمَّ» الّذي يَدُلُّ على الزمن المتراخي نِسْبِيًّا.

ولعلماء الأحياء من مُخْتَلِف التخصُّصاتِ دراساتٌ مستفيضَاتٌ، حول إتقانِ الخالق الرَّبّ جلَّ جلَالهُ وعظُمَ سُلطانه، وعجائب تكوينه في المراحل الّتي دَلَّتْ عَلَيْها هٰذهِ القضيَّة، من قضايا هذا الدرس.

* * *

القضيّة الثانية: دلَّ علَيْها قول الله تعالَى: ﴿... وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ...﴾.

في هٰذِهِ الجملة بيانٌ بأسْلُوب الحصْرِ بالنَّفْي والاسْتثناء، أنَّهُ لَا تَحْمِلُ أنْثَىٰ من النَّاس، ولا أنْثَىٰ منْ غيْرِ النَّاسِ في الْوُجُودِ كُلّه إلّا بعِلْم اللَّهِ جلّ جلالُه وعظُم سلطانه. وأنّه لَا تضَعُ أنْثَىٰ من النّاسِ حَمْلَها، ولَا أُنْثَىٰ من غَيْرِ النّاسِ في الوجود كُلّه إلّا بعِلْمِه.

أي: إنّ عَمِليّاتِ الخَلْق الرَّبّانيّ مقْتَرِنَةٌ بعِلْمِه الشّامل لكلّ صغيرةٍ وكبيرة في الوجود كلّه.

إنَّهُ لَوْلَا مُتابعَةُ عمَليّاتِ الخلق بشمولِ العلْم لتعرَّضَتِ أعْمالُ الخلْق للخَلَلِ والْفَساد.

وبما أنّ النّسْبة العظمى من الأحياء تأتي مواليدُها مستجمعةً كمالَاتِها المقدّرَةَ لها، كانَ واقعُها المشاهَدُ دليلاً على شمول عِلْمِهِ كلَّ شيءٍ فيها من الذّوات والصفات، جلَّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه.

فالخبَرُ الواردُ في هذهِ القضيّة مُقْتَرِنٌ من الواقع بالبُرْهان على أنّ الله حقٌّ لا شكّ فيه، وعلى أنَّ عِلْمَهُ محيطٌ بكُلّ شيْء.

وقد جاءت عبارة هذه القضيّة بصيغَةٍ عامّة، لتَشْمَلَ كلّ أنْثَىٰ، والعمومُ الّذي دلَّ علَيْه النفْيُ والاستثناء، قد جاء توكيدُه والتنصيص عليه بحرف الجرّ الزّائد «مِنْ» في ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ فهو صِلَةٌ للتَّوْكيد والتنصيص على العموم.

والإناثُ في الأحياء لا يُحيط بعلْمِها إلّا الله الرَّبُّ المهيْمِنُ عليها برُبُوبيّتِه دواماً، فلا تأخُذُهُ عنها سِنَةٌ ولَا نَوْم.

ويَدْخُلُ في العبارَة الكليّة العامّة لهذه القضيَّة الإناثُ من النّاس، إذْ

كُلٌّ من السِّبَاق والسِّيَاق يتعلَّقُ بخَلْقِ النَّاس، فهم المخاطبون في النصّ.

وقد هدانا التدبُّر لنُصُوصِ القرآن إلى أنَّ من أساليبه لإثْراء الفائدة، الإتيانَ بالكّليَّاتِ العامّاتِ اللّوَاتِي هي من جوامع الكَلِم، مع أنّ السِّبَاقَ والسِّيَاقَ يتعلّقَانِ بمَوْضوعٍ خاصّ، أوْ أنّ الكلامَ واردٌ في مَعْرِضِ مَوْضوع خاصّ. وعلىٰ متدبّر آياتِ كتاب الله المجيد أنْ يضَعَ هٰذِهِ الطريقة القرآنية نُصْبَ عَيْنَيْه دواماً.

* * *

القضيَّةُ الثالثة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ الله تعالى: ﴿... وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ...﴾

إنّ الحديث عن إنْشاء الخلْق من تُراب، ثُمَّ من نُطْفَةٍ ثُمَّ ما يتْبَعُ ذٰلِكَ مِنْ تَحْدِيد الذكور والإناث في النُّطَف، وحَمْلِ الأمَّهَاتِ أَجنَّتَها بعِلْمِ الله وقدره وقضائه وخلْقه، يسْتَدْعي الْحَدِيث عن إنْهاء أعمار الأحياء بالموت في آجالها المقدّرة لها.

فجاءت عبارَةُ هٰذه القضيّة مُبيِّنةً وَاقِعَ حال المقادير الرّبّانيَّة في الآجال.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾: يقالُ لُغَةً: عمَّرَ اللّٰهُ فُلاناً، أي: أطَالَ عُمُرَه، فَهُو مُعمَّر.

الْعُمر: هو مُدَّةُ حياة الحيّ، ومُدَّةُ بقَاءِ كُلّ مَخْلُوق أيضاً، وتَدُلُّنا الملاحظة المتكرّرة على أنّ النباتات لها أعمار، حتَّى الأشجار العظيمة، فإذا جاءت آجالُها انتهت أعمارُها، وأنّ الأدوات المصنوعة لها أعمار، حتَّى عَنَاصر الأرض ونجوم السماء لها أعمار.

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾: أي: ولَا يُقَلّلُ من عُمْرِه، يقالُ لغة: نَقَصَ

الشَّيْءُ، أي: قَلَّ مقداره. ويُقالُ: نَقَصَهُ فلانٌ وَأنْقَصه، أي: قَلَّلَ مقداره.

ولا تَدُلُّ هٰذِه العبارَةُ لُغةً علىٰ أنّ المقدارَ كانَ أكْثَر فتَعَرَّضَ للنَّقْصِ أو الإنْقَاصِ.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾: أيْ: إلَّا مُسَجَّلةٌ فِي كتابٍ عنْد الله جلّ جلاله، والتسجيلُ في كتاب يَدُلُّ عن طريق اللُّزُوم الذّهْنِي على سَوابق التَّسْجيْل، وهي العِلْمُ، والتقدير، والقضاء.

إنّ كُلَّ مُسَجَّلٍ عنْدَ اللَّهِ في كتابٍ، ممَّا يَتَعَلَّقُ بمخْلُوقاته ـ جلّ جلالُه وعظُم سُلْطانُه ـ مَسْبُوقٌ حتماً بعِلْمٍ شامِلٍ، وقضاء وقَدَر، وعِلْمُ اللَّهِ ثابتٌ دواماً، إنّ رَبَّنَا لا يَضِلُّ ولا يَنْسَىٰ.

فالمعنىٰ: وَمَا يَطُوَّلُ في عُمْرِ مخْلُوقٍ مُعَمّر، وَما يُقَلَّلُ منْ عُمْرِ مَخْلُوقٍ آخر غير مُعَمّر، إلَّا التَّطْوِيلُ والتقليل مَسْبُوقانِ بِعِلْم رَبَّاني شَامل، وبقَدَرٍ مُحَدِّدٍ للمقدار، وقضاءٍ تَمَّ به بَتُّ مُرادِ اللَّه في المخْلُوق، وتسْجِيلٍ لكلِّ ذَٰلِكَ في كتاب، ثُمَّ يَأْتي التَّنْفِيذُ بالخلْقِ عَلَى وفْق كلّ ذلِك، والعلْمُ الشاملُ مُصَاحِبٌ لكلّ أطوار الخلْقِ، حتّىٰ إنْهاءِ عُمْرِ المخلوق فما بَعْدَ ذلك.

* * *

القضيّة الرابعة: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿... إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ⑪﴾:

اليَسِيرُ: الْهَيِّن اللَّيِّنُ، والْيُسْرُ في اللُّغَةِ ضِدُّ الْعُسْر، ومادّة الكلمة تدور حول معنى اللّين والانقياد والسُّهُولة.

والمشارُ إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو فيما أرىٰ يَعُودُ إلى كُلّ القضايا التي أبانَتْها الآية (١١).

وهي قضايا مراحل خلْق الأحياء، وعلْم الله الشامل، وتَسْجِيلِ قضائه وقَدَرِه في كتاب عنده، جلّ جلالُه وعظُم سلطانه.

فكُلُّ ذَلِكَ يَسِيرٌ علَىٰ الله ليْسَ بعَسِيرٍ، إنَّما أَمْرُهُ إذَا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فيكُون.

فعلَىٰ المؤمن أن يُرِيحَ نفسَهُ من عناء التفكير، فكُل شيء ممّا يريدُه اللَّهُ يسيرٌ عليه وليْسَ بعَسِير.

* * *

القضيّة الخامسة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑫﴾.

في هذه القضية ستّةُ بيانات:

البيان (١): ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . . .﴾:

تحدَّث هذا البيان عن آيةٍ من آياتِ اللّهِ في كَوْنِه، وهي ظاهرة الْبَحْرَين: الْبَحْر العذب الْفُرات، والْبَحْرِ الْمِلْح الأُجاج.

إنّهما من ظاهرات الخلْقِ الرَّبَّانيّ العجيب المتقن الحكيم، الّذي انْدَمَجَ فيه إنعامُ الله على عباده بنِعَمٍ عظيمَةٍ وفيرة.

وفي هذا البيان نَفْيُ التساوي بَيْنَ البحْرين، ونَفْيُ التساوي لا يَقْتضي إثباتَ أفْضلِيَّةِ أحدِ الْبَحْرَيْن على الآخر بشكل عامّ، إذِ الواقعُ المشهودُ يثْبِتُ أنَّ لكلٍّ من الْبَحْرَيْنِ أفضلِيَّةً من بعضِ الوجوه للغايَة الَّتي خُلِقَ أَوْ هُيّئَ لَهَا، فَمَا يَتَحقَّقُ بالْبَحْرِ الْعَذْب الفُرَاتِ من المصالح والمنافع لا

يتحقَّقُ بالبَحْر الملْحِ الأُجَاج، وما يتحقَّقُ بالبَحْر الملْحِ الأجاج من المصالح والمنافع، لا يَتحقَّقُ بالبَحْرِ الْعَذْب الْفُرات.

الْعَذْب: هو المسْتَّسَاغُ من الشَّراب والطّعام، والماءُ الطيِّبُ الحلْوُ الّذي لا مُلُوحة فيه، ولا مَرَارة، ولا شوائب مُسْتكْرَهَة.

الفُرَات: هو أفْضَلُ الماء عُذُوبةً، يقالُ لغة: فَرُتَ الماءُ يَفْرُتُ فُروتَةً، أيْ: عَذُب، فَهُو فُرَات.

سِائِغٌ شرابُهُ: أي: يمُرُّ في الحَلْق سَهْلاً طيّباً مُسْتَمْرأً، يقال لغة: ساغ الشرابُ أو الطّعامُ، أي: طابَ وسَهُلَ دخولُه في الحَلْق، وسهُلَ انحدارُهُ إلى الجوف.

مِلْحٌ: المِلْحُ: هُو المالح، يقالُ لغة: مَلُحَ الماء يمْلُحُ مُلُوحةً ومَلَاحةً، أي: صار مِلْحاً ومَالحاً ومَلِيحاً.

الأجاجُ: ما يَلْذَعُ الْفَمَ بمرارَته أو مُلُوحَتِه، فهو المالِحُ الْمُرّ.

وقد دلّ هذا البيان على أنّ من آيات اللَّهِ في الأرض ونِعَمِهِ العظيمة على عباده، أنْ خلَقَ لهم الماءَ، وجعَلَ لهم منْه بَحْريْنِ عظيمْين:

فالْعَذْبُ الْفُراتُ مِنْ هٰذَيْن الْبَحْرَين جعَلَهُ اللَّه عزَّ وجلّ في الأنهار، والآبار الحلْوَة، والعيُون، والْبُحَيْرات الكبيرة الْحُلْوة، وفيما اخْتُزِن في باطِنِ الأرْض ومَسَاربها وتجاويفها، وفيما جَمَدَ مِنْ ثُلُوج.

والملْحُ الْأُجَاجُ جعلَهُ الله عزَّ وجلّ في الْبِحَارِ العظيمة الّتي غَطَّتْ قُرابَةَ ثُلثَي الأرْض.

وحينَ يَتَتَبَّعُ الباحثُونَ ما في كلٍّ من هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْن العظيمَيْنِ مِنْ منافع ومصالح للنّاس، ولسائر الأحياء في الأرض، يَسْتطيعون كِتَابَةَ مُجَلَّدَاتٍ يفَصِّلُونَ فيها ذخائر نِعَم اللَّهِ على خلْقِه فيهما، وما فيهما من إبْداعٍ وإعجاز في الخلْقِ وإتقان الصُّنْع.

فتبارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخالقين.

البيان (٢): ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: أي: ومنْ نِعَم اللَّهِ على النّاس في البَحْرَيْنِ: الْعَذْب الفراتِ، والمِلْح الأجاج، مَا هيّأ لهم فيهما من أحياءٍ بحريَّة يَسْتَخرِجُونها، فيأكلون منها لحماً طَرِيًّا لهم فيه لذَّةٌ وغذاء.

ولعلماء الغذاء في الأسْمَاك بُحوثٌ مُوَسَّعةٌ، دلَّتْهُمْ عَلَيْها الملاحَظاتُ والتّجربَاتُ والمَختَبراتُ الكاشفات للخصائص، فَمَنْ شاء التوسُّع في معرفتها، فليَرْجع إلى الأبحاث العلميّة الإنسانيّة في هذا المجال.

البيان (٣): ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: أي: ومنْ نِعَمِ اللَّهِ على الناس في الْبَحْرَيْن، أن هيّأ لهم فيهما ما يَسْتَخرِجُونه من حُلِيّ يلْبَسُونها للزّينة.

- فمن البَحْر الملْحِ الأُجاج يسْتَخْرِجون اللُّؤلُؤ والمرجان.
- ومنَ الأنهار ومجاري المياه الحلْوَة العذبة يَسْتَخْرجون الألماس.

عبارة: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾: أي: ومِنْ كُلٍّ من الْبَحْرَيْن: الْعَذْب الفرات والملْحِ الأجاج. والتنوين في لفظ «كُلٍّ» عِوَضٌ عن المضاف إليه المحذوف كمايقول النّحويّون.

والخطابُ في هٰذين البيانَيْن مُوجَّه من الله للناس، مذكّراً لهم ببعض نعمه عليهم.

الحِلْيَةُ والْحَلْيُ: ما يُتَزَيَّنُ به من حجارة كريمة، أو مَصُوغ من المعادن، كالذّهب والفضّة، وغيرهما.

وفي الامتنان بما يُتَزَيَّنُ به إشعارٌ بجواز التزيُّن به، إلَّا ما ثبتَ المنع منه، . كتَزَيُّنِ الرّجال بالْحُلِيِّ من الذّهب.

البيان (٤): ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾: أي: في كُلٍّ، أُعِيدَ الضمير على لفظ [**كُلّ**] بالإفراد والتذكير، لأنّ حُكْمَ لفظها الإفرادُ والتذكير، كما يقولُ النُّحاة.

أي: ومن آيات الله في البحرين: الْعَذْب الْفُرات، والملْحِ الأجاج، ومن نِعَمه على الناس، تَسْخيرُهُ المِيَاهَ لإجراء المراكب فيها، بمقتضىٰ قانون الطَّفو، الذي جعَلَهُ عزّ وجلّ بين الماء وبين الأشياء القابلة للطَّفْو عليه، والْجَرْي فيه، والانتقال عليه بالأحْمَالِ والأثقالِ العظيمة، إلى بلادٍ بَعِيدَة، وأرْضٍ لَا يَبْلُغُ إليها قاصِدُوها إلّا بشِقِّ الأنفس.

الْفُلْك: مَرْكبُ البَحْر، يُطْلَقُ على الواحد والاثنَيْن والجمع، ويُذَكّر ويُؤنّث، فيقال: هو الفُلْك، وهي الفُلْك.

كان الخطابُ مُوجّهاً للناس بصيغة الجمع، ولكن تحوّلَ في هٰذا البيان إلى خطاب كلّ صالح للخطاب بصورة إفرادية أي: وترَىٰ أيها الرَّائي أيًّا كُنتَ الْفُلْكَ في كلٍّ من البحرين مواخر.

وقد ترجّحَ لدَيَّ أنّ مثل هذا التحوّل هو من الخروج عن مقتضىٰ الظاهر، الذي سمّاه عُلَماءُ المعاني «الْالتفات» وأنّ الالتفاتَ لا يقتصر على التحوُّل بين التكلّم والخطاب والغيبة.

والغرض من هذا التحوّل من خطاب الجماعة إلى الخطاب الإفرادي، التَّنْويعُ لشَدّ الانتباه، وإشعارُ المخاطب بالعناية بمخاطبته بصورةٍ إفرادية، ليُوَجّه اهتمامه للتفكُّر في الموضوع الّذي دعاه البَيانُ للتفكّر فيه.

﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾: أي: جاريَات تَشُقّ الماء شقًّا، متَنقّلةً فيه وقاطعة المسافات البعيدات.

يقال لغة: مَخَرَت السفينةُ تمخُرُ مَخْراً ومُخُوراً، أي: شَقَّتِ الماءَ جارِيَةً فيه.

أصل معنى المخرِ الشّقُّ، ومنْهُ مَخَرَ الزّارعُ الأرضَ، أي: شقها للزّراعة.

في هذا البيان جاء التعبير ﴿... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ بتقديم: ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مَوَاخِرَ﴾.

أمّا في سُورة (النّحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) فقد جاء التعبير فيها: ﴿... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ...﴾ بتقديم: ﴿مَوَاخِرَ﴾ على: ﴿فِيهِ﴾.

فما الحكمةُ من هذا الإجراء؟

بالتأمُّل نُدْركُ أنّ الناظرَ إلى الْبَحْر وامْتِداد سطحه، يَشْهَدُ فيه عند إقبال سفينَةٍ جارِيَةٍ شيْئاً يشُقُّه، وهذا المنظر تُلائمُه عبارة سورة (فاطر): ﴿... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ...﴾.

أمّا النَّاظِرُ إلى السُّفُنِ وهي تجري في الْبَحْر، فإنَّه يَشْهَدُ أَنَّها تشُقُّ الماءَ شَقًّا، وهذا المنظر تُلائمُه عبارة سورة (النحل): ﴿... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ...﴾.

فتكامل النَّصّان في التعبير عن المنْظَرَيْن، إِذْ كُلٌّ من التعبيرَيْن يَتْبَعُ ابتداءَ النظر، هل هو من جِهَةِ الْبَحْر، أم من جِهَةِ الفُلْك؟

فجاء الأداء البيانيُّ في النَّصَّيْن مُلائماً للحالتَيْن، وهٰذا مِنْ فِنِّيَّةِ الْأَداء البيانيّ والإِبْدَاعِ فيه.

البيان (٥): ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي: سَخَّرَ الله لَكُمْ أيُّها الناس الفُلْكَ تَجْرِي في الماء مَواخِرَ، لتبتَغُوا في التّنَقُّلِ مَحْمُولِينَ عليها، أَنْتُمْ وأثقالُكم ودَوابُّكم وأمْتِعتُكم، مَصَالح دُنْيَاكم وأرْزاقَكُمْ مِنْ فَضْل رَبِّكُمْ عليكم.

إنّ تَسْهِيلَ المصالحِ واكْتِسَاب الْأَرْزاقِ، إنّما يكونان بفضلِ اللّهِ على عباده، من خِلَالِ اتّخاذ الْأَسْباب الّتي جعَلها بحكْمَته أسْباباً صُورية، ليُجْرِي مقاديرَه وأعمال خَلْقِه من خِلَالِ قنواتها.

البيان (٦): ﴿... وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: ورَغْبَةً في تَهْيئَةِ المنافع والمصالح وقضاء الحوائج، الّتي تَدْعو الراغبين في الْفَوْز والْفَلاح والمنازل الرفيعة، أنْ يَشْكُروا نِعَمَ الله عَلَيْهِم بالعمل بمراضيه والتزام طاعته.

أصل معنى «لَعَلَّ» الترجّي، ويَلْزَمُ من معنَىٰ التَّرجّي الرَّغْبَةُ في الْمَرْجُوّ، فأُطْلِقَت عبارة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ مُراداً بها لَازِمُ معنَىٰ التَّرَجّي، وهو الرَّغْبَة.

ومعلوم أنّ اللّه ـ جلّ جلاله وعظم سلْطانه ـ يَرْضَىٰ ويُحِبُّ لعباده أن يكونُوا شاكرين، ليُثِيبَهُم على شكرهم ثواباً عظيماً من فيض فضله، ولكن دُونَ أن يجعلَهُمْ مجبورين على الشكر، بل يُحِبُّ لهم أن يكونوا شاكرين باختيارهم الحرّ.

وكذلك لا يَرْضَىٰ ـ جلّ جلاله ـ لعباده أن يكونوا كافرين، ويَكْرَهُ كُفْرَهُمْ وخُروجَهم عن طاعته وصراطه المستقيم، ولَكِنْ دون أن يَجْعَلَهُم مجبورين على تَرْك الكفر، بل يَتْرُكُهُمْ لاختيارهم الحرّ.

والسّبَب في عدم الْجَبْر أنّهم في حياة امتحان واختبار، والْجَبْر يتنافى مع الامتحان القائم على حُرِّيَّةِ إرادة الممتَحَنِ فيما يختار لنفسه.

نظرة عامة حول عبارة الْبَحْرَيْنِ فِي نُصُوص القرآن:

لدَىٰ تَتَبُّعِ النُّصُوص القرآنيّة، تَبَيَّنَ لي أَنَّ القرآن المجيد قَد اشْتَمَلَ عَلَى أَرْبَعَة نُصُوص، تَتحدَّث عن آيات اللّهِ في كونه، وعن نِعَمِهِ على عباده

بالبَحْرين: العذب السَّائغ، والمِلْح الأُجاج، وعن ظاهرة بَحْرَيْن مُتجاوِرَيْنِ مُتَلاصِقَيْنِ ماءً، ولكنْ بينهما برزَخٌ غَيْرَ مَرْئي، يَحجُزُ كُلًّا منهما عن أن يُمْتَزِجَ بالآخر. فلْنَتَتَبَّعْ هٰذهِ النُّصوص بِتَدَبُّرٍ لَهَا، وِفْقَ تَرْتِيب نزولِها لاكتشاف تكامل الدّلات فيما بيْنَها.

النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

سَبَقَ أن تَدَبَّرنا هذه الآية، لدى تدبّر سورة (الفرقان).

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سُورة (الرّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول).

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢)﴾.

مَرَجَ: يأتي بمعنَىٰ: مَزَجَ وخلط، وبمعنى: أَرْسَلَ. وهٰذان المعنيان مُرادان في النُّصوص الّتي وَرَدَ فيها هذا الفعل.

عَذْبٌ: أي: مسْتَسَاغٌ حُلْوٌ، لَا مُلُوحَةَ فيه ولا مَرارة وَلَا شَوائب.

فُرَاتٌ: الْفُرَاتُ هو أَفْضَلُ الماء عُذُوبَةً.

سَائِغٌ شَرَابُهُ: أي: يَمُرُّ في الْحَلْقِ سَهْلاً طَيِّباً مسْتَمْرَأً.

مِلْحٌ: أي: مَالِحٌ.

أُجَاجٌ: أي: يَلْذَعُ الْفَمَ بِمَرَارَتِهِ أَوْ مُلُوحَتِهِ.

الْبَرْزَخ: الْفَاصِلُ الحَاجِزُ، وَالْبَرْزَخُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ هو الحاجز الّذِي يَمْنَعُ اختلاطَهما وامْتِزَاجهُمَا.

وَحِجْراً مَحْجُوراً: أي: وفاصلاً يَمْنَعُ نُفُوذ أَحَدِ الْبَحْرَيْنِ إِلَى الآخرِ، وَهذا الفاصِلُ مَمْنُوعٌ بمادَّتِهِ التكوينيَّة من الانْحلال في كلا البَحرَيْن أو في أَحَدِهما.

لا يَبْغِيَان: أي: لا يتجاوز كُلٌّ من الْبَحْرَيْنِ المتلاقِيَيْنِ حَدَّهُ الْمَقَدَّر له.

هٰذه النُّصوص الأربعة دَلالاتُها في موضوع الْبَحْرَيْنِ مُتكاملاتٌ فيما بينها، لا متطابقات.

(١) فما جاء في سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) تحدَّث عن البَحْرَيْنِ: العَذْب الفراتِ، والمِلْحِ الأجاج، وعَنْ حِكْمَةِ اللَّهِ في جَعل كُلٍّ مِنهما له مَزِيج خاصٌّ به، وله إِرْسَالٌ في الأرض خاصٌّ به، وعن حِكْمَةِ اللَّهِ في فَصْلِ كُلٍّ مِنْهُمَا عَن الآخَرِ بحاجِزٍ من الأرض يَمْنَعُ اختلاطهما، وهذا

الحاجزُ مَحْجُورٌ عَنْ أنْ يَنْحَلَّ بأيّ واحدٍ منهما، إذْ هو من عناصر الأرض صُخُورِها ورِمَالِها وأتْربَتها.

إنَّهما في الأَرْضِ بَحْرَانِ عَظِيمان، خلقهما الله عزّ وجلّ لمنافِع الحياة والناس، وكُلٌّ مِنْهُما يقتضي لتحقيق المنفعة به أَنْ يستَمِرَّ علىٰ وَصْفِه في النِّسْبَةِ المزيجيّة الّتي جعلَهُ اللّٰه عليها.

ومَعلُومٌ أنَّ الماء الحلْوُ فيه عناصر مخلوطة ممزُوجة، قد مَرَجَها اللَّهُ ـ جَلَّتْ حِكْمَتَهُ ـ أيْ: خلطها بِنِسَبٍ صالحةٍ لحياة الناس والنّبات، وأرْسَلَهَا في الأرض، فانْدَفعَتْ تُؤَدّي وظائِفها.

وَمَعْلومٌ أنّ الماءَ المِلْحَ الأُجاج فيه عناصر إضافيَّةٌ مَخْلُوطَةٌ فيه مَمْزُوجَة، قَدْ مَرَجَها اللّٰه بحكمَتِه، أي: خَلَطَها وَأرْسَلَها في الأرض، فانْدَفعَتْ تُؤَدّي وَظائِفَها.

وإيجازاً في التعبير جاء في القرآن استخدامُ كلمة «مَرَجَ» للدَّلَالة على معنىٰ: «خَلَطَ» العناصِرَ، حتَّى تكوّنَتْ ماءً حُلْواً، أو ماءً مِلْحاً أُجاجاً. وعلى معنى «أرْسَلَ» كُلًّا من الماءَيْنِ: العذْبِ الفُرات والملْحِ الأجاج، لما في الماء من سيولة قابلة للتَّدافُع المتلاحق، كأنّ مُرسلاً أَرْسَلَهُ لِيُؤَدّيَ وظائفه الّتي أُرْسِلَ مِن أجْلِها.

ودلّ هذا النّص على العناية الرَّبّانيَّةِ الّتي حفَّتْ هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ حتَّى لا يَمْتَزِجَا وَيَختَلِطَا، فتذهَبَ خصائص الماء العَذْبِ الفُرات، الّتي بها حياة الحيوان والنبات، ومصالح أُخرىٰ كثيرَةٌ للناس والحياة، وذلك بأنْ جَعَلَ اللّٰهُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجزاً، إذْ جَعَلَ تَكْوِينَ الأَرْض في أوضاعها صالحةً لاحتواء الماء العذْب في تجاويفها ومَسَاربها، ولإجرائه في السُّهُول والوِدْيان، وأخراجه من العيونِ، فأقامَ جلَّ جلالُه بحكْمَتِهِ الحواجز والفواصلَ الّتي تَفْصِل بين البَحْرَيْن، حتّىٰ لَا يَنْتَهِيَ أَمْرُهُمَا إلى الامْتِزاج

والاختلاط ببعضهما، فتذهب الخصائص المطلوبة من كلٍّ منهما.

وقد لزم لتحقيق ذلك تدبير قوانين طبيعيّة، فتَمَّ تَدْبيرها بقَدَرِ اللَّهِ فقضائه، ثم بأمْرِهِ التكوينيّ الذي تحقّق به المطلوبُ الحكيم.

وهٰذه الحواجز الّتي جاء التعبير عنها البرْزَخ، هي حواجزُ مَشْهُودَةٌ، يَشْهَدُها الناس جميعاً، إذْ هي جبال ورِمال وأتربةٌ وسُهول ونحو ذلك.

ويزيد الباحثُونَ العلميّون على ذلك ما توصَّلوا إلَيْهِ من قوانين تُفسِّر ظاهرة هذا البرزخ وتوابعه.

ووصف الله هذا البرزخ بأنّه حِجْرٌ مَحْجُورٌ، أي: هو مانع من اختراق أحَدِ الْبَحْرَيْنِ له، حتّىٰ لا يختلط بالماء الآخر، وهو مَمْنُوعٌ بالتَّكْوِين الذي فطَرَهُ اللَّهُ عَلَيه من الذوبان والاختلاط بأحد البحرين.

فلو لَمْ يكن مانعاً لاختلط البحران، ولو لم يكُنْ هو ممنوعاً لذاب في البحرين واختلط بهما.

والوصف لهذا البَرْزخ بأنّه حِجْرٌ مَحْجُورٌ يدلُّ على أنَّه مادّةٌ ممّا قَدْ يُتَصَوَّرُ فيه الانحلال في الماء، إلَّا أنّه محجُورٌ عن ذلك بما جعل الله الحكيم القديرُ فيه من صفاتٍ وخصائص.

(٢) وَمَا جاء في سورة (فاطر/٤٣ نزول) تحدَّث عن البحرين: العذْبِ الْفُراتِ الذي جعل اللَّهُ شرابَهُ سائِغاً، وعن المِلْحِ الأُجاج، بسِتّ بيانات، سبَق في النصّ لدى تَدَبُّرِه شَرْحُها، وهي:

١ ـ أنّهما لا يَسْتَوِيَانِ.

٢ ـ وأنّ الناس يأكلُونَ مِنْهُما لحماً طَرِياً.

٣ ـ وأنّ الناسَ يَسْتَخْرِجونَ منهما حِلْيَةً يَلْبِسُونَها.

٤ ـ وأنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فيهما مَواخِرَ.

٥ ـ وأنّ إحْدَى الغايتين من هٰذا التدبير الرَّبَّاني، أنْ يَبْتَغِي الناس بركوبهم الفُلْك أرْزاقَهم ومصالِحَهُمْ من فضل ربِّهم.

٦ ـ وأنّ الغاية الأخرىٰ رغْبَةُ الله في أن يكونوا شاكرين نِعَمَهُ عليهم، حتّى يَجْزِيَهُمْ يوم الدّين ثواباً عظيماً خالداً.

(٣) وما جاء في سورة (النمل/٤٨ نزول) دلَّ على أنّ الأنهار في الأرض هي جزْءٌ من البْحر العذْبِ الفرات المحجوز عن البَحْرِ المِلْحِ الأجاج.

وفيه طرح سؤالٍ على المشركين عن الرّبّ الخالِقِ الّذي جعَلَ الأرض قراراً للناس، وأجْرَى لهم خلالها أنهاراً لسُقياهم، وسُقْيا أنعامهم وزُروعهم وأشجارهم.

وآيات الله عزّ وجلّ المذكورة في هذا النصّ والتي وُجّه السّؤالُ عنها هي:

١ ـ جعْلُ الأرض قراراً، أي: صالحةً للاستقرار علَيْها، والتَّمكُّنِ فيها، إذْ هي لَيْسَتْ بقَلِقَة ولا مضطربة، لا تَصْلُحُ للثبات عليها.

٢ ـ إرْسالُ المياه الحلْوَةِ الْعَذْبَةِ خِلَالَ أَنْهَارِها.

٣ ـ تثبيتُ قِشْرَةِ الأرض بالجبالِ الرّواسي، مع ما في الجبال من منافع أخرى.

٤ ـ إقامة الحاجز الفاصل بَيْنَ البحريْن: الْعَذْب الْفُراتِ، والْمِلْحِ الأُجاج.

ومن المفروض أنْ يأتي جواب السُّؤال من المنصفين الّذين يؤمنُونَ بالحقّ، عُقَلاءَ وعُلَماء وحُكماء، ولو بَعْدَ مراحِلَ جَدَليّة، أو مراحل زمنيّة من البحث العِلْمِيّ، بأنّ الجاعل لكُلّ ذَلِكَ هو الله الرَّبُّ الخالِقُ وَحْدَه لا شريك لَهُ فِي رُبُوبِيَّته.

إذَنْ: وجب أن تكونَ له وَحْدَهُ الإلٰهيَّة، فلا يَصِحُّ أنْ تُوجَّهَ عبادةُ عابدٍ إلَّا لَهُ، إذْ عبادَةُ غَيْرِه ظُلْمٌ عَظِيمٌ لحقّ رَبّه عَلَيْه، وهو من الكفر به، ولا يَغْفِرُه اللَّه، لأنَّه لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به.

ويظهر أنّ المرَادَ بالبَحْرَيْنِ في هٰذا النّصّ البحران المذكوران في نصّ سورة (الفرقان) وهما: الْعَذْبُ الْفُراتُ، والمِلْحُ الأجاج، وقد جاء الحديث عنهما في نصّ سورة (النمل) على طريقة سؤال المشركين عمَّنْ جعَلَ بَيْنَ هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ هٰذا البرزخ، لانْتِزَاعِ الإقرار منهم بأنَّه هو الرَّبُّ الخالق، وسيلةً لإلْزَامِهِم بوجوب أن يتْرُكوا شِرْكَهُم، ويَعْبُدوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

(٤) وما جاء في سورة (الرَّحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) وهيَ من أواسط التنزيل المدني، فقد جاء الحديث فيه عن الْبَحْرَيْن اللَّذَيْن يَلْتَقِيَانِ، ومع الْتقائهما يُوجَدُ بينهما بَرزَخٌ فاصل، فهو مانعٌ لَهُمَا من التمازُج، لكنَّه لم يُوصَفْ بأنّه محجور، أي: مَمْنُوعٌ من أن يَخْتَلِطَ هو بهما، إذْ ليس هُو ممَّا يظَنُّ فيه قابليَّةُ الانْحِلالِ والاختلاط ـ وهٰذان البحرانِ مع الْتِقَائهما يَسْتَمِرُّ كُلُّ واحدٍ مِنْهُما عِنْدَ حَدِّه، فَلا يَبْغِي أَحَدُهما على الآخر، فيُغَيّر من خصائصه، ومن نِسْبَة العناصر المختلطة فيه.

وقد وُصِفَ هٰذان البحران بأنهما يخْرُجُ منهما اللُّؤْلُؤُ والمرجان، إشارةً إلى أنَّ كُلًّا منهما مِلْحٌ أُجاجٌ، إذْ من المعْرُوف أنّ اللُّؤلؤ والمرجان يُسْتَخْرَجان عادةً من الْبَحْرِ الملْحِ الأُجاج.

وتحيّر المفسّرون في فهم المراد بهذا النصّ:

- هل المرادُ بالبحريْن في هذا النصّ بحْر الماء الْعَذْبِ الْفُرَاتِ والملْحِ الأجاج، وذلك في ظاهرة دُخول مياه الأنْهُر في مِيَاهِ البحار، إذْ يَسْتَمِرّ الماءُ الْعَذْبُ الفراتُ على صفاتِه مسافةً طَوِيلةً قَبْلَ أن يَمْتَزِجَ بماء الْبَحْر.

وأخَذَ الباحِثُون العلميّون في دراسة الكونيات يفسّرُونَ هٰذِه الظاهرة بما يُسَمَّى بقانون «الْمَطّ السَّطْحِيّ» الّذي يَفصِلُ بَيْنَ السَّائلَيْن، لأنّ تجاذُبَ الجزئياتِ يختَلِفُ من سائل إلى سائل آخر، ولهذا يَحْتَفِظُ كلٌّ سائل باستقلاله في مجاله.

- أم المرادُ شيْءٌ آخَرُ؟

ثم جاءت المكتشفاتُ العلميّة المعاصرة. فأثبتَتْ أنّ في البحار الموصوفة بأنّها ملحٌ أجاجٌ ظاهرة الْبَحْرَيْنِ اللَّذَيْنِ يلتقيان، وبينهما برزخٌ، أي: فاصل، وهما لا يبغيان، أي: لا يَبْغِي كُلٌّ منْهُما على جاره، ويَخْرُجُ منْهما اللُّؤْلُؤ والمرجان.

فعَلِمْنَا أنّ وصْفَ خُروج اللُّؤلُؤ والمرجان من كلّ منْهما قد كان مقْصُوداً، للإشارة إلىٰ أنّ كُلًّا منهما بَحْرٌ مِلْحٌ أُجَاجٍ مع ما في ذكر هذا الوصف من امتنان الله على عباده باللُّؤلؤ والمرجان، اللَّذَيْن يتخذ الناسُ منهما حِلْيَةً يَلْبِسُونَها للزّينة، مع منافع أخرى.

ذكر تقرير لبِعْثَةٍ علميّة بين جامعة القاهرة المصرية، وجامعة «أدنبرة» الإنكليزية: أنّ ماء الْبَحْرِ في خليج العقبة تختلف خواصُّه وتراكيبُهُ عن ماء الْبَحْر الأحمر.

واستطاعت البعثة بوساطة قياس الأعماق اكتشاف حاجزٍ مَغْمُورٍ عنْدَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، يَبْلُغُ ارتفاعُهُ أكْثَرَ من ألف متر.

أقول: ولعلَّ مجمع الْبَحْرَين هذا هو المجْمَعُ المشار إليه في قصّة موسى عليه السلام، إذ انْطَلَقَ مع فتاهُ للقاء الخضر في القصّة المذكرة في سورة (الكهف).

وكذلك استطاعت البعثة العلميَّة الّتي اتَّجهَتْ في البَحْرِ على السَّفينة «مباحث» في رحلتها الأولى في المحيط الهنديّ وَالْبَحْر الأحمر، إذْ

تَوَصَّلَتْ إلى اكْتشاف حاجزٍ مَغْمُورٍ بَيْنَ الْبَحْرَين، وظهر لهما بالتحليل أنَّ ماء المحيط الهندي مختلفٌ في خواصّه عن ماء الْبَحْرِ الأحمر(١).

* * *

القضية السادسة: دَلَّ عليها قول الله عز وجل:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ . . .﴾.

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدْخل. يقال لغة: أَوْلَجَ الشيءَ في الشيءِ أي: أدخله فيه. ويُقال: وَلَجَ يلِجُ وُلُوجاً ولِجَةً شيءٌ في شَيْءٍ إذا دخل فيه.

وإيلاجُ شيءٍ في شيءٍ آخر يكون غالباً بإدْخاله فيه شيئاً فشيئاً بالتتابع، لا على طريقة دَفْعِه بمَرَّة واحدة، أو إلْقائه وقَذْفِهِ فيه.

هٰذه الْقضيّة تَدُلُّنا على آيَةٍ باهرةٍ من آيات الله في كونه، نشاهدُ منها على سَطْح الأرْض تتابُع اللّيل والنهار دائرين، فكلَّما امْتَدَّ أَحَدُهُما من جهة تقلَّص الآخر من الجهة نفْسِها، وكلَّما اختفىٰ أحَدُهما من جهة ظَهَرَ الآخر من الجهة نفسها، وهكذا دوالَيْكَ مع توالي الأيّام.

واكتشف علماء الكونيّات بالبحث العلميّ، أنّ حركةَ دوران الأرض حَولَ نَفْسِها باتّجاه الشمس ضِمْنَ نظامٍ مُتْقَنٍ عجيب، يَجْعَلُ اللَّيلَ يختفي شيئاً فشيئاً على سَطْحِ الأرضِ كلَّما امتدَّت بالتدرُّج أشعَّةُ الشمس صباحاً، على مَسَافات من الأرض بتتابع الشروق.

هٰذه الظاهرة تُشْبِهُ إيْلاجُ شيءٍ في شيءٍ آخر، إذْ يختفي من الوالج بمقدار ما يَدْخُل منه في المولوج فيه، فكأنّ اللَّيْل مع تتابع الشروق على مسَافَةٍ فمسَافَةٍ من الأرض يَلِجُ في النهار الّذي يُخْفِيه.

---

(١) انظر «الإسلام والنظر في آيات الله الكونية» تأليف الدكتور: «محمد عبد الله الشرقاوي» كتاب من سلسلة دعوة الحق العدد (٤٧) طبع رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. ص(١١٦ ـ ١١٧).

وهذه الحركة نَفْسُها إذا شاهدها الناظر، وهو مرتفع في الطائرة ويَنْظُر من الجوّ، عند تَتابُع الغروب على مسافةٍ فمسَافةٍ من الأرض، فإنّه يَرَىٰ اختفاء النهار شيئاً فشيئاً، كما يختفي منَ الوالج بمقدار ما يَدْخُلُ مِنْه في المولوج فيه، فكأنّ النّهار مع تتابُع الغروب يَلِجُ في اللَّيْل الّذي يُخْفِيه.

فَجاء في النصّ تشبيهُ تتابُعِ ذَهَابِ اللّيل، عند تتابُع حَالَات الشروق، وتشبيه ذهاب النهار عند تتابُع حالات الغروب، بولوج شيءٍ في شيءٍ آخر.

ولكِنْ طُوِيَ التَّشْبِيهُ، واسْتُعِيرَ منه لفظ «يُولِج» للدّلالة عليه، ففي العبارة استعارة.

إنّ هذا التشبيه مع ما فيه من إبداعٍ رائعٍ في عَرْضِ الصّورة، ومع ما فيه من دقَّةٍ بالغةِ الغاية في توصيل المعنَىٰ المراد، يَدُلُّ بأوْجَزِ عبارَة على حركة شَيْئَيْنِ متلاصقَيْن، أحَدُهُما يَخْتَفِي والآخَرُ يَظهر، واختفاء اللَّيلِ عند الشروق من جهة مطلع الشمس، واختفاء النهار عند الغروب من جهة مغرب الشَّمْس، يَدُلُّ على أنّ الحركَةَ حَرَكَةٌ دائِرِيَّة، إذْ يَدْخُلُ كُلُّ طَرَفٍ من طَرَفَي أَحَدِهِمَا في الطَّرَفِ الآخَرَ من الآخَر منهما، وهكذا دوالَيْكَ مع تتابُع الأيّام.

وعَرْضُ هٰذه الآية من آيات الله في كَوْنِه، يَدْفَعُ المشتغلين بالبحث العلميّ في الكونيّات، للبحث الْجَادّ عَنْ سَبَبِها التكوينيّ، وحين يتوصَّلُون إلى معرفة السَّبَب، وأنّه يَرْجَعُ إلى التَّنْظِيم البديع، والاتقان الرائع العجيب، في وضْعِ كُلٍّ من الشّمْس والأرض في مَجْمُوعَةِ نجوم مَجَرَّتنا وكواكبها، وفي حركة دوران الأَرْض حوْل نفسها في اتجاه الشمس، مع المحافظة على المسافة ومقدار الحركة، طَوالَ مئات الملايين من القرون، فإنّ ذوي الألباب المنْصِفين منهم، لا بُدَّ أن يُؤْمِنوا بالخالقِ الرَّب جلَّ

جلالُه وعظم إتقانه وسمَتْ حكمته، ولا بُدَّ أَنْ يُذْعنوا لَهُ وَيَخْضَعُوا، وأنْ يَتَوَجَّهُوا لَهُ بالعبادة، دون أنْ يُشْرِكُوا بعبادته شيئاً.

ومع ما في هٰذه الآية الكونيَّة من دَلالاتٍ على قُدْرَةِ الله، وشمول عِلْمه، وعظيم إتقانه، وجليلِ حِكْمَتِه، ففيها أيضاً دلالةً على عنايَتِهِ بعباده، وعلى واسع رحْمَتِه، وفُيوضِ إنْعَامِهِ على خَلْقِهِ الَّذِين لهم منافع جليلَةٌ من تتابع اللَّيْل والنّهار على سَطْح الأرض.

واهتماماً بظاهرة تَتَابُعِ اللَّيْلِ والنّهارِ، على طريقةٍ تُشْبِه إيْلاج شيءٍ في شيءٍ آخَرَ برفْقٍ بالنسْبَةِ إلى النَّاظرين، فَقَدْ جاء في القرآن المجيدِ التّنْبِيهُ عَلَيْهَا في خَمْسَةِ نُصُوص:

النّصّ الأول: هذا الّذي تدبّرناه من سورة (فاطر) وقَدْ جاء هذا النّصّ في مَعْرِضِ بيانٍ خَبَرِيٍّ، يشتمل عَلَى عَرْض بعض آيات الله في كونه، المتضمّنَةِ الإشعارِ بإنْعَامِهِ على عباده.

وهذا النّصُّ مُوجَّهٌ لمشركي مكَّة، في أواسط المرحلة المكيّة، من سيرة قيام الرّسولِ ﷺ بتأديَة رسالة ربّه.

النّصّ الثاني: قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴿٢٩﴾﴾؟!

وقد جاء هٰذا النصّ بأسلوب حثّ كلّ ذي نَظَرٍ بَصَريٍّ، وفِكْرٍ تَدبُّرِيّ، أنْ يَتفكَّرَ في آيَتي اللّيلِ والنهار.

وقد جاء الخطابُ فيه بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، والاستفهامِ الذي يراد به الحثُّ على التأمُّل والتفكّر.

النصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٢٧)﴾.

وقد جاء هذا النصّ في سِبَاق وسِيَاق تعليم المؤمن بأسْلُوب الخطاب الإفرادي ذِكراً ودُعاءً يُخاطِبُ به المؤمنُ اللهَ رَبَّه.

النصّ الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٦)﴾.

وقد جاء هٰذا النصّ في معرض الكلام على بعض صفات الله عزّ وجلّ، وأسمائه الحسْنَى، وطائِفَةٍ من آياتِهِ في كَوْنِهِ.

ومنها إثباتُ مِلكِيَّةِ الله للسَّمَاوَاتِ والأرض، وقيامه بتدبير تصاريف كلّ شيءٍ فيهما دواماً، ما توالت الأزمان، فالمالك الْعَلِيمُ الخبير، الحكيمُ القدير، هو المتصرّف دواماً فيما يَمْلك.

النصّ الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ (٦١)﴾.

وقد جاء هذا النصّ في معْرِض الاسْتِدْلَالِ علَىٰ حِكْمَةِ اللّٰهِ وقُدْرَته، بشأن إدْخالِ أهل الكُفْر النّار، وإدْخال أهل الإيمان الجنّة يوم الدّين، وأنّ ذلك يَسِيرٌ عليه كَيُسْرِ إيلاج اللَّيْلِ في النّهار، وإيلَاج النَّهارِ في اللّيلِ.

والتَّكامُلُ في هذه النُّصوص هو من جِهةِ المناسبة الداعِيَةِ لكلٍّ منها، والتي اقتضاها السِّبَاق والسِّيَاق في السورة الّتي هو منها.

ويُلاحظُ في كُلّ هذه النصوص أنّه قد جاء فيها بيانُ إيلاج اللّيل في النّهار، قبْلَ بيانِ إيلاج النّهار في اللّيل، ونفهم من هذا الإجراء الحكيم إيثار الْبَدْء بما يَدُلُّ على الصَّباح، المقْتَرِن بظهور ضَوْءِ النَّهار، على الغروب المقترن باخْتِفاء ضوء النهار وقُدوم ظُلْمة الليل.

وهٰذا يُشْعِرُ بأنّ تقديم ما هو الأَشرفُ في البيان هو الذي يَنْبَغي الْأَخْذُ به واتّباعُه.

* * *

القضية السابعة: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ⑬﴾:

في هذه القضية امتنانٌ من الله عزّ وجلّ على الناس بنعمة تسخير الشَّمْس والْقَمر من أجرام السّماء.

فبالشَّمْس يكون ضياءُ النهار، ومنّها يأتي الدّفْءُ والحرارةُ الضروريَّةُ لكلّ ذي حياة على الأرض، وبدون الضوْءِ والحرارة لا تنبت النباتات الّتي هي المادّة الأولىٰ لِغِذاء الأحياء، وإمْدادِها بقُوتِ بقائها إلى آجالها المقدَّرة لها.

﴿وَسَخَّرَ﴾: **التَّسْخِيرُ**: يأتي بمعنى تطْويع المخلوق بالْجَبْرِ الرَّبانِيّ، للعَمَل والتحرُّكِ على وفق إرادَتِهِ جلّ جلالُه وعظُم سلطانه.

ويأتي بمعنى تَذْلِيلِ المخْلُوقِ لِعَمَلٍ ما أو أمْرٍ ما، وجعله مطاوعاً لما يُراد به أو يرادُ منه ضِمْنَ قانون تَسْخِيرِهِ.

وهذه المطاوعة ذاتُ وجوه:

- فقد تكون بالطَّبْع، كتَسْخير الماء والهواء والنار وعناصر الأرض، وسائر الأشياء الّتي لا حياة لها للناس يقضون بها مصالحهم، وهي مطاوعة لهم ضمْن قوانينها.

ومن هذا الوجه تَسْخِيرُ الشمسِ والْقَمَرِ في السَّماء لمنافع الناس وسائر الأحياء على الأرض، وتسخير النجوم الّتي يَهْتَدي النّاس بها في البرّ والْبَحْرِ.

- وقد تكون المطاوعَةُ بالْقُوّةِ مع التَّذْلِيلِ كتسْخِيرِ الْعَجماوات من البهائم للناس.
- وقد تكونُ بالاختيار الحرّ، لمَا في المطاوعة من مصْلَحَةٍ للمطاوع، أو تخلُّصٍ ممَّا يكْره، كتَسْخِير بَعْضِ الناس لبَعْض، ولو مَلَكُوا أن يُحَقّقُوا مصالحهم وما يَرومُونه من مطالب أجسادهم أو نفوسهم دون أن يُطاوعوا لما فَعَلُوا.

والتسخيرُ الجبريُّ قد يكون ضمْنَ سُنَّة ثابتَةٍ، كَسُنَنِ اللَّهِ وقوانين خلقه في كونه، وقد يكونُ على خلاف السُّنَّة الثابتة، كتَسْخِير الأشياء في معجزاتٍ وخوارق عادات، ومن هذه تسخير الله عزّ وجلّ الْعَصا لموسَى عليه السلام فيما كان يُجْرِيه له فيها من معجزات كبرى.

والتسخير كُلُّه لا يخْرُجُ عن دائرة التحرُّكِ ضمْن إرادة الرَّبّ الخالق وخَلْقِه دواماً، جلّ جلالُه وعظُم سلطانه.

هذه القضيّة تُنَبِّهُنا علَىٰ أنّ من آيات الله في كونه، ونِعَمِه الوفيرة والجليلة على الناس في الأرض، تسخيرَه الشَّمْسَ والْقَمَرَ لهم، لتحقيق كثيرٍ من منافعهم ومصالحهم، وضروريّات حياتهم.

وقَدْ جاء في القرآن المجيد التّنبيهُ على مَا فيهما من دَلَائِلِ خَلْقِهِ، وَرُبُوبيّتِهِ الدَّائِمَةِ المهيْمِنَةِ عَلَىٰ كَوْنِهِ ـ جَلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وعلى مِنّتِه على الناس بتَسْخِيرِهما لَهُمْ فِي عدّة نصوص.

وقد أَثْبَتَ الله عزّ وجلّ في القرآن جَرَيان كلٍّ من الشَّمْسِ والْقَمَرِ في السّماء، وخصّ الشّمْسَ بالتعبيرِ عَنْ جَرَيَانِها بعبارة صَريحة، في قولِه تبارَكَ وتعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾.

كان يُدَرَّسُ في مادّةِ الْعُلُوم الطَّبِيعِيَّةِ المأخُوذَةِ من مُقَرَّرات الْعُلومِ الْغَرْبِيَّة، قَبْلَ عشراتِ السِّنين من هٰذا القرن العشرين الميلاديّ، أنّ الشَّمْسَ ثابتَةٌ لا تَجْرِي، وأنّ الأَرْضَ وَالْكواكِبَ مِنْ حَوْلِ الشمس هي الّتي تَجْري حَوْلَها.

وانْطَلَقَتِ الأَسْئِلَةُ حينئذٍ تَدُورُ مِنْ قِبَلِ دَارِسي هٰذه العلوم الطبيعيَّة، حوْلَ مخالَفَةِ هَذا النَّصّ القرآنيّ وأشباهِهِ لِمَا هو مُقَرَّرٌ في العلوم الطبيعيَّة الإنْسانِيَّةِ عن الكونيات.

وأَخَذَ المشكِّكُون حينئذٍ يُوجّهون المغامِزَ والمطاعن للبَيَانِ القرآني.

وقامَتْ جَدَلِيّاتٌ بَيْنَ المؤمنين بالقرآن، وبين المؤمنين بمقالات العلوم الطبيعيَّة الإنسانيّة، دون تحفُّظ.

فالمؤمِنون يَبْنُونَ أقوالَهُمْ على أنّ القرآن من عند الله، وأنَّ الله عزّ وجلَّ عَلِيمٌ بكُلّ شيءٍ، وأنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ كَوْنُهُ وَخَلْقُهُ، فَهوَ الْعَلِيمُ الخبيرُ به، ولا يُمْكِنُ أنْ يُخْبِرَنَا إلَّا بالْحَقِّ والصِّدْقِ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يُنْزِلَ في كتابه إلَّا حقاً وصِدْقاً.

أمّا مُقَرَّرَاتُ عُلَمَاءِ الْعُلُومِ الْكَوْنِيَّة، المستَنِدَةِ إلى مُلاحظاتهم، وتأمُّلاتهم، وتجرباتهم، فكثير مِنْها قَدْ كان مبنياً على الْحَدْسِ والظنّ، والرُّؤىٰ الناقِصَة، مع إعطائها قراراتٍ عامّاتٍ، تتَنَاوَلُ ما لَم تَصِلْ بَعْدُ إلَيْها عُلُومُهُمْ المحقّقَة، وكَان هٰذا الكثيرُ من مُقَرَّراتِهم غيْرَ مَبْنِيّ على الْبُرْهَانِ القاطع واليقين.

وكان أَهْلُ الْعَقْلِ والْعِلْم والإنْصَافِ من عُلَماءِ المسلمين ذوي التمكّن في مُخْتَلِفِ العلوم الإسلاميّة، يُقرّرُون أنّه إذَا تَناقَضَتْ مقرّراتُ الْعُلُومَ الكونيّة الإنسانيّة، الّتي لم تَبلُغْ مَبْلَغَ اليقين الذي لا يقبل التعديل والتبديلَ

والنقض، مع مفاهيم النُّصُوصِ الدينيَّة الصَّحِيحَةِ الثابتَة، دون إمكان التأويل الذي تَسْمَحُ به قواعِدُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وقواعِدُ استنباطِ المعاني والأحكام لدى عُلَماءِ المُسْلِمِينَ الموْثوقين، فالحقُّ مَا جاء في القرآن، أو في السُّنَّةِ الْقَطْعِيَّة الثبوت، والقطعيّة الدّلالة، لا ما قرَّرَتْهُ النظراتُ الظنِّيَّةُ الإنسانيَّةُ الناقصة في العلوم الكونية.

ثُمَّ تَقَدَّمَتِ البحوثُ العِلْميَّة الْفَلَكِيَّة، وأثبتَتْ دراساتُ عُلَمَاءَ الْفَلَكِ أنَّ الشَّمْسَ بِالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَجْمُوعَتِها الدّائرةِ حَوْلَهَا، والّتي هِيَ أُسْرَتُها، ذَاتُ وَضْعٍ ثابت، لَكِنَّها مَعَ كُلّ أُسْرَتِها تَجْرِي بِحَرَكَةٍ خاصَّةٍ في فَلَكٍ أَكْبَرَ ضِمْنَ المَجَرَّةَ، فَهِيَ بالنِّسْبَةِ إلى وَضْعِهَا مَعَ أُسْرَتِهَا في المجرَّةِ جارية غير ثابتة.

وظَهَرَ بهٰذا صدْق النصّ القرآنيّ، ومطابقته للواقع، وظَهَرَ نَقْصُ الدراسات الإنسانيَّة في هذا الموضوع، عن مطابقته للواقع.

ونظير ما جاء في هذه القضية من سورتي (يس/ ٤١ نزول) و (فاطر/ ٤٣) قد جاء في الآية (٥) من سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) وفي الآية (٢) من سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) لَكِنْ جاء في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

فجاء فيه استعمالُ حَرْف ﴿إِلَىٰ﴾ في ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ بينما جاء في النّصوص الأخرى الّتي سبقت الإشارة إليها استعمال حرف (اللام) فما الحكمةُ في هٰذا التنويع؟

يقولُ كثيرٌ من المفسّرين: إنّ اللام بمعنى «إلى» الدَّالَّة على الغاية، فَهُما يَصْلُحَان في موضع واحدٍ والمخالفةُ تفنّنٌ في النظم.

لكِنَّ الزَّمَخْشَرِيّ رَفَضَ هٰذا بِشِدَّة، واعتَبَرَهُ من ضِيقِ موقع المتدبّر، في فهم الفروق اللّغويّة، وفَهْم النصوص.

وقد فهم الزّمخشريُّ أنّ اللام في النُّصوص الثلاثة الّتي جاء فيها: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هِيَ بمعنَىٰ «التعليل ـ أي: لتحقيق الوظيفة المسَخَّرَيْنِ لَهَا طَوال مُدَّةِ الأَجَلِ.

أمّا حَرْف «إلىٰ» فَهُوَ بمعنىٰ بُلُوغِ الغاية.

أقول: إنّ من مَعَانِي «الأجل» المدَّة المحدَّدَة للشَّيْءِ، والمحصُورةَ بَيْنَ أوّلٍ وآخِرٍ، وهذا المعنى يناسِبُهُ ويلائمُه اسْتِعمالُ حَرْفِ اللام» للإشَارَة إلى قيام كلٍّ من الشَّمْسِ والقمر بوظائفهما الّتي سَخَّرَهُما اللَّهُ لَهَا طَوالَ هذا الأَجَلَ من بدايَتِهِ وحتى نهايته.

ومِنْ مَعاني الأجَل غايَةُ الزَّمَنِ المحدَّدِ لشيءٍ ما، وهذا المعنىٰ يلائمُهُ ويناسبُهُ استعمالُ حرف «إلىٰ» أي: كلٌّ يجري إلى بُلُوغ غاية الزّمن المحدّد، إذْ يَتَوَقَّفُ جَرَيانُها عنْده.

﴿مُّسَمًّى﴾: أي: مُعَيَّنٌ باسمه المحدَّدِ لَه في عِلْم الله، وفي الكتاب الّذي كتَبَ اللَّهُ فيه قضاءَهُ وقَدَرَهُ، وكُلُّ زمن له عند الله عزّ وجلّ اسْمٌ يُحَدِّدُه، ويُمَيِّزُهُ عن سائر الأزمان، كما نقول نَحْنُ مثلاً ولِلَّهِ المثلُ الأعلى، سَتَصِلُ الطائرةُ بَعْدَ إقْلاعها من ميناء «كذا» الجوي، إلى ميناء «كذا» الجويّ في الدقيقة العاشرة بَعْدَ طَيرانٍ يَسْتَمِرُّ أرْبَعَ سَاعَاتٍ، وفي الدقائق العشر يكونُ هُبُوطُها على أرض الميناء.

* * *

القضية الثامنة: دلَّ علَيْها قولُ اللَّه عزّ وجَلَّ:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ... ⑬﴾:

أي: ذَلِكُم الجليلُ العظيمُ الْعَلِيُّ الّذي سَبَقَ في البيان التنْبيهُ على بعْضِ آياتِهِ وتَدْبيراته في كونه، وعلى بعضِ ظاهراتِ رَحْمَتِهِ لعباده والذي

هو اللَّهُ رَبُّكُمْ، والمتابعُ مَعَ كُلِّ أَقلِّ زَمَنٍ تَرْبيتَكم بالخلْقِ والتدبير، والهَيْمَنةِ والعِنَاية، وكمال التقدير ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾: أي: له وَحْدَهُ مُلْكُ ومِلْكُ كُلِّ شيءٍ في الكَوْن، فَلا يُشَارِكُهُ فيه غيره، جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

الْمُلك: يأتي بمعْنَيَيْنِ:

- فيأتي بمعنَىٰ الامْتِلاك والانْفِراد بحقّ التصرّف.
- ويَأْتي بمعنىٰ حقّ التَّسَلُّطِ بالأمْر والنَّهْي، والتَّصَرُّفاتِ الإراديّة.

يُقَال لغة: ملَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مِلْكاً، ومُلْكاً، وَمَلْكاً، أي: حَازَهُ وانْفَرَدَ بحَقِّ التَّصَرُّفِ فيه، وكَانَ لَهُ عَلَيْهِ سُلطانٌ وقُدْرَةٌ عَلى التَّصَرُّف.

* * *

القضيّة التاسعة: دل عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿... وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾: الْقِطْمِيرُ: الْقِشْرَةُ البيضاء الرقيقة الّتي تكون حَوْلَ النواة، فاصلةً بَيْنَ التَّمْرَةِ وَنَواتها.

أي: إنّ الْمُلْكَ كُلَّهُ في الكونِ كُلِّهِ للَّهِ وَحْدَهُ، إذَنْ: لَا تَمْلِكُ آلهة المشركين مِنْ كَوْنِ الله شيئاً، لا خَلْقاً ولا تصرُّفاً.

فيا أيُّها المشركون إذَا كانت آلِهَتكُمْ لَا يَملِكُون من الكون مقدار قِطْمِير، حتَّىٰ يَتَصرَّفوا به، ويَنْفَعُوا بِهِ الّذين يعبدونهم من دون الله رَبِّهم، فكَيْفَ بِما هو أكْبَرُ من قطمير، كالخلْق، والرزْقِ، والنَّصر.

إنّ عبادَتَكُمْ لآلِهتكُمْ ضَائِعَةٌ كضَياعِ أوْهَام الَّذِينَ لا عَقْلَ لَهُم، ولا بَصِيرَةَ لَهُمْ تَكْشِفُ لَهُم الحق.

والمعنى: فَمَا هِيَ فَائِدَتُكُمْ أَيُّها المشركون من عبادة الّذين اتَّخَذْتُمُوهُم آلِهَةً مِنْ دُون الله تَعْبُدُونَهُمْ، وتَدْعُونَهُمْ، رجاء أن يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، فَيُحَقِّقُوا مَطَالِبَكُمُ الّتي تَطْلُبُونها منهم؟!

- ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾.

أي: إنْ تَدْعُوا يا أيُّها المشركونَ آلِهَتَكُمْ من دُونِ رَبّكم طالبين منهم نفعاً، أو معونَةً أو نصراً، أوْ دَفْعَ ضُرٍّ أو رَفْعَهُ، فإنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَكُم، لأنّهم أشياء جَامِدَةٌ لا تَسْمَعَ، أو مَوْتَىٰ لَا تَصِلُ إلى أَرْوَاحِهِم أَصْوَاتُكُم، فكيْفَ تَسْمَحُ لكم عقولُكُمْ بأنْ تَدْعُوهم، وهم لَا يَسْمَعُونَ أصْواتَكُمْ؟!!

ولو سَمِعَ مِنْهُمْ أحَدٌ كَأَنْ كانَ المَعْبُودُ من الجنّ، أو مِمّنْ يَزْعُمُ المشركون أنّهم من الملائكة، فإنّهم لا يَسْتَجِيبُونَ لدُعاء من دَعَاهم، لأنَّهُمْ لَو أراد بَعْضُهُمْ الإجابَةَ لما استطاع، إذْ هو غير مُمَكَّنٍ من ذلِكَ بسُلْطان القهر الرَّبّاني.

الدعاء: النّداء وَرَفْعُ الصَّوْتِ بأمْرٍ ما، وطلَبُ أَمْرٍ ما على سبيل الاستجداء المقرون بالخضوع، ولهذا كانَ الدُّعاء من العبادة التي يجب أنْ تكون لله وحْدَهُ لا شَرِيك له.

نظرة عامة إلى آلهة المشركين:

تنقسم آلهةُ المشركين إلى قسمين:

القسم الأول: أشياء لا حياة لها، كأحجارٍ وأشجارٍ وأشياء أُخرى من الكون، من الأرض أو السماوات، ممّا لا حياة له، والمشركون يتَوَهَّمُون أنَّ لها حياةً خفِيَّةً، وأنّ لها تأثيراتٍ في الكون، أو يتوهَّمُون أنّها رُموز ذوي حياةٍ مُدْرِكة لَهُم اطّلاع على عابديها، فَهُمْ يَسْتَجِيبونَ لعابديها مطالبهم، بسبب أنّ عبادة الرُّموز إنّما هي عبادةٌ لمن دَلَّتْ عليه.

وبالنسبة إلى هذا الصنف من آلهة المشركين جاء في نصّ هٰذِه القضية التاسعة، قول الله عزّ وجلّ خطاباً للمشركين:

- ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ . . .﴾:

أي: يا أيُّها المشركون، إنَّكُمْ إنْ تَدْعُوا آلهتَكُمْ الّتي اتَّخذْتُمُوها من أشياء الكون شركاء لله، فاعلموا أنّ آلهتَكُمْ هٰذهِ لَا تَسْمَعُ دُعاءَكُمْ.

والبُرْهَانُ على هذا هو الواقع التجريبي، فامْتَحِنُوها إنْ شِئْتُمْ، فتكرار الخِبْرَةِ شاهد من الواقع لا يَرْفضه إلَّا غبيٌّ، أو مكابرٌ مُعاند.

الْقِسْمُ الثاني: غيبيَّاتٌ من الأحياء، أو مما يُظَنُّ أنّ لها حياة، كالجنّ، وإبليسُ أخبثُهم، وكالملائكة بزعم عابديهم، وكأرْواحِ موتَىٰ صالحين، أو كافرين.

أمّا الملائكة فإنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبونَ لدُعاء عابديهم، ولو سَمِعُوا دعاءَهُمْ، لأنَّهم بفِطْرتهم لا يَعْصُون اللَّهَ ما أمَرَهُم ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّهم لو استجابُوا لدُعاء عابديهم لعَصَوُا الله رَبَّهم، وهُمْ مَعْصُومُونَ عن ذلك.

وأمّا الجنُّ والشياطين، فإنَّهم ممنوعون بسلطان الرَّبّ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانُه ـ من أنْ يسْتجيبُوا لدُعاء عابديهم، إلَّا بإذْنِ الله لامتحان الناس في بعض قضايا السِّحر، كالتفريق بيْنَ المرْء وزوجه.

وأمّا أرْواحُ الموتَىٰ فهِيَ في عالَم الْبرْزَخ لا تَمْلِكُ أن تَعْمَلَ شيئاً، فأرواح الكافرين منْها حَبِيسَةٌ، وأرْواحُ المؤمنين ولو كانوا من أهل الصلاح أبراراً أو محسنين قد انقطع عنها بالموت إنشاءُ أيّ عَمَلٍ جديدٍ في الدُّنيا.

وبالنسبة إلى هذا الصنف من آلهة المشركين جاء في نصّ هٰذه القضيّة التاسعة، قول الله عزّ وجلّ خطاباً للمشركين:

﴿.. وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ...﴾.

وبرْهَانُ عَدَم استجابتهم يَدُلُّ عَلَيْهِ الواقع التجريبيُّ المتكرّر، الّذي اكْتَسَبَ بِهِ المُجرّبُونَ خبراتٍ عَمَلِيَّةً واقعيَّة.

- ﴿... وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ...﴾:

هذه الجملَةُ تنطَبِقُ علىٰ كُلِّ الْمَعْبُودِين من دُون اللّهِ من إنْسٍ وجنّ وملائكة.

أمّا الشيطان المعبُود بالطاعة من دون الله عزّ وجلّ، فقد قال الله عزّ وجلّ بشأنِهِ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢) إخباراً عمّا سوفَ يقول يوم الدِّين:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾: أي: ما أنا بمُغيثكم لأنْقِذَكُمْ من عذاب الله، وما أنتم بمغيثيَّ لإنقاذي من عذاب الله.

- وقال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) يتحدّث عَنْ مَشْهَدٍ من المشاهِدِ الّتي يُحَاسِبُ اللّهُ فيها المشركين وشركاءَهم الذين كانوا يَعْبُدونُهم في الحياة الدُّنيا، متوَهّمين أنّهم سَوْفَ يَدْفعون عَنْهُمْ عذابَ ربّهم يوم الدين، على تقدير صحّة البعث إلىٰ الحياة الأخرى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ (٦٤)﴾.

في هٰذا النصّ تصويرٌ لمشْهَدٍ مِنْ مشاهد الحساب الّتي سوف تكونُ يوم الدّين، وفي هذا المشهد يَجْمَعُ اللّٰهُ فيه المشركينَ وشُركَاءهم.

(١) ينادي الله المشركين فيقول لهم: أَيْنَ شُرَكائي في رُبُوبيتي وفي إلٰهيّتي، الّذين كُنْتُمْ تَزْعُمُون أنَّهُمْ شُركائي؟

فيقولون: هٰؤلاء أمَامَنا.

(٢) فيقول اللّٰهُ لهؤلاء الّذِين حقَّ عليهم العَذَاب الأليم الخالِدُ في الدَّرْك الأسْفَلِ من النّار: لماذَا أَضْلَلْتُمْ هؤلاء حتَّىٰ أوقَعْتُموهم في الغَوَايَة؟ (معنى هذا السؤال مطويٌّ في النّصّ غير مُصرَّحٍ به، ولكن يُفْهَمُ باللُّزُوم الذهني).

(٣) فيقول هؤلاء الشُّركاء: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ﴾: أي: كُنَّا نَحْنُ غَاوِينَ، فوَسْوَسْنا لهم حتَّىٰ صاروا غاوين مثْلَنا...

ويقولون أيضاً: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ﴾ رَبَّنا مِنْ عِبادَتِهم لَنا ومِنْ أنَّا دَعَوْنا لِنَكُونَ آلِهَةً يَعْبُدونَنا، وهم في واقع حَالِهم ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ وإنَّما كَانُوا يَعْبُدُونَ أهْوَاءَهم وشَهَواتِهِمْ ولَذَّاتِهِمْ وَمَطالِبَ نُفُوسهم من الحياة الدُّنيا.

(٤) فيُقَال للمشركين: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾.

(٥) فَيَدْعُونَهُمْ لِيَنْصُرُوهم ويَدْفَعُوا عنهم عذابَ الله في نار جَهَنَّمَ.

(٦) فلا يستجيبُ الَّذِينَ كَانُوا شركاءَهُمْ في الحياة الدُّنيا لهم بِشَيْءٍ.

(٧) ويُدْنَونَ مِنْ أبوابِ جَهَنَّم لِيَرَوْا مَا فيها من عذاب، فَيَرَوْنَه، فَتَنْخَلِعُ قُلُوبُهُمْ ذُعْراً ممّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ.

(٨) عندئذٍ يَتَمَنَّونَ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الحياة الدُّنيا ﴿يَهْتَدُونَ﴾ مُتَّبِعين دَعَوَات الَّذين كانوا يَدْعُونَهُمْ إلى دين الله الحق، واتِّبَاع ما جاء بِهِ المُرْسَلُون، وما أَنْزَلَ رَبُّهُمْ إليهم في كتابه المبين.

• وقال اللّٰهُ عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) متحدثاً عن بَعْضِ مشاهِدِ يوم الدّين:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: أي: لَوْ أَنَّ لَنا رَجْعَةِ إلى الحياة الدُّنيا حَياةِ الابْتلاء.

• حتَّىٰ عيسَىٰ النبيّ الرَّسُول الّذي عُبِدَ مِنْ دُون الله، يَسْأَلُهُ الله عزّ وجلَّ بشَأْن الَّذِينَ عَبَدُوه، كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ . . . ﴿١١٧﴾﴾.

• عبارة: ﴿. . . وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ في آخر هذه القضيَّةِ التاسعة.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾: أي: ولَا يُخبِّرُكَ بالْخبَرِ الجليل الرفيع الحقّ.

الإنباء والتنبيء: الإخبارُ والإعلام، يقالُ لغة: أَنبأَهُ وَنَبَّأَهُ الخَبَرَ وَبالْخَبَر، أي: أَعْلَمَهُ به.

ويُسْتَعْمَل النبأُ كثيراً في الْخَبَر ذِي الأهميّة، لأنّ مَادَّة الْكَلِمَةِ تَدُورُ حَوْلَ الارْتفاعِ والظُّهورِ.

فالنبأ: الْخَبَرُ البارزُ الظاهِرُ ذُو الأَهَمِيَّة، ومِنْ هٰذا سُمِيَ المنَبَّأُ بِأَخْبَارِ الوْحِي «نَبِيَّاً» و«نَبِيئاً».

الخبيرُ: هو الْمُجَرِّبُ الممارِسُ لِلْأَمْرِ بصُورَةٍ مُتكَرِّرَة أكْسَبَتْهُ عِلْماً مُسْتفاداً مِنْ خِبْرَةٍ اطَّلَعَ فيها على أجْزاءِ الْعَمَلِ الّذي مارسه، ظاهره وباطنه.

والْعَليمُ الخبير الأجَلُّ الّذي لا تخفى عليه خافِيَةٌ في السماوات ولَا في الأرض، هو الله جَلَّ جلالُهُ وعظُم سُلْطَانه.

ومن دونِه الخبراءُ من عباده، وتَدُلُّ هذه العبارةُ على أنَّ مُجَرِّبي دُعاءِ الآلِهَةِ من دون الله من قِبَلِ المشركين، يُثْبِتُونَ بَعْدَ تَجرِبَاتِهِمْ المتكرّرات طَوالَ حياتِهم، أنّ آلِهَتَهُمْ لَمْ تَجْلُبْ لهم رِزْقاً ولا نَصْراً، ولَمْ تَدْفَعْ عَنْهُمْ أذًى ولا ضُرّاً، وَلَمْ تَنْفَعْهُمْ بنافِعَة.

والمعنى: فاسْأَلُوا مُجَرّبي دُعاءِ شُرَكَائهم من دون الله، هلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدُهُمْ إثْبَاتَ اسْتِجَابَةِ شُرَكَائِهِمْ لدعَائِهِم في تَجْرِبَةٍ مُتكَرِّرَة، أَثْبَتَتْ لَدَيْهِمْ خِبْرَةً مُؤَكَّدَة.

أمّا الحوادث الفرديّة الّتي اقترنَتْ بمُصَادَفَاتٍ فلا تُثْبتُ حقيقَةً عِلْميَّة.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: أي: ولا يُنَبّئُكَ نَبأً صَحيحاً مُطابقاً لِلْواقِعِ تَماماً، مِثْلُ خَبِيرٍ ذي تَجرِبَاتٍ متكَرّراتٍ أكْسَبَتْهُ خِبرةً تامّة.

هذه العبارة قد جرت مَجْرَىٰ الأمثال.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرْس السَّابع من دُروس السورة، والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه المبين.

❁ ❁ ❁

(١١)

التدبّر التحليليّ للدّرس الثامن من دُروس السورة وهو الآيات من (١٥ ـ ٢٦)

قال الله عزّ وجل:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾.

القراءات:

- (١٥) في عبارة: ﴿ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى﴾ قرأ نافع، وابْنُ كَثِير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، بِتَسْهِيل الْهَمْزَةِ الثانية كالْيَاء، وبإبدالِها واواً مكْسُورة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة همزةً محقّقة.

- وكلمة: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ فيها لحمزة في الوقف تَسْهيلُ الهمزة، وإبدالُها ياءً.

- (١٦) قرأ أبو جعفر: [إِنْ يَشَا] بتسهيل الهمزة وجعلها ألفاً مَديَّة في الوصل والوقف، وقرأها كذلِك حَمْزَة في الوقف.

وقرأها باقي القُرّاء العشرة [**إِنْ يَشَأْ**] بتحقيق الهمزة.

- (٢٥) قرأ أبو عمرو: [**رُسْلَهَمْ**] بإسْكَان السّين.

وقرها باقي القرّاء العشرة: [**رُسُلَهُمْ**] بضم السِّين.

وهما لغتان عربيتان في نُطْق الكلمة.

- (٢٦) قرأ ورْش: [**نَكِيري**] بإثبات ياء المتكلّم في الوصّل. وقرأها كذلك يعْقُوبُ في الوْصْل والوقف.

وقرأها باقي الْقُرَّاء الْعَشَرَةِ [**نَكِيرِ**] بحذف ياء المتكلّم مطلقاً، وإبقاء الكَسْرَةِ دَليلاً عليها. وهذا الحذْف من الوجوه العربيَّة الجائزة، ويَكْثُرُ في القرآن حذْف ياء المتكلّم.

تمهيد:

هذا الدرسُ من درُوس السورة، تتراوح مسيرتُهُ على فرعي الرسول، والمشركين من فروع شجرة موضوعها، ويُلْحَقُ بالرَّسول حَمَلةُ رِسالَته من أمّته، وقد سبق أن علمنا أنّ فروع موضوعِها مُمْتَدَّةٌ من فروع شجرة موضوع سورة (الفرقان).

أولاً: فهو يتابع معالجة المشركين بشأن إنكارهم أنّ الله عزّ وجلّ رحْمنٌ يَرْزُقُهُمْ من فَضْلِه، ويُبَيّنُ لهم أَنَّهُمْ فُقراء إلى اللَّهِ دوماً في كل مطلبٍ من مطالب حياتهم.

ويُتابِعُ معالجتهم بشأن عدم إيمانهم بالجزاء الّذي سوف يلاقونه يوم الدّين، ورُبما بعقاب الله لهم في الدنيا أيضاً، إذا اقتضت حكمة الله أن يُعجّل لهم شيئاً من عقابهم.

(١) فإنكارُهم لرحمة الله لهم في قضايا رزقهم وسائر حاجاتهم ومطالب حياتهم، جاءت حوْلَه المتابعة للمعالجات السابقات ببيان أنّ

حالَهم مَقْصُورٌ علىٰ أَنَّهُمْ فُقَراء إلىٰ اللّهِ في كلّ مطْلَبٍ مِنْ مَطالِب حياتهم، وأنّ اللّه بغِنَاهُ المطْلَق هو الّذي يَمُدُّهم بالرّزْق وغيرِه من مطالب حَيواتِهم.

(٢) وجاءت مُتَابَعَةُ عَدَمِ إيمانِهم بالجزاء الرَّبَّاني المؤجل إلى يوم الدّين، وما تَقْتَضِيه حِكْمَةُ الله من جَزاءٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا، بِبَيَانِ أَمْرَيْن:

الأمر الأول: أن الله عزّ وجلّ من صفاته أنّه حَمِيد، أيْ: يَحْمَدُ من آمَنَ به وأطاعه.

وحَمْدُ الله يَكُونُ بالثناء على عباده المؤمنين العابدين في الملأ الأعلى، وبما أنّه جلَّ جلالُه كريم جواد، فَحَمْدُهُ لهم يَسْتَلْزِمُ مجازاتَهُمْ على إيمانهم وصالحات أعْمَالهم بالثواب الجزيل يَوْمَ الدِّين، مع ما قَدْ يُكْرِمُهُمْ بِهِ من أنواع وأفْراد ثوابٍ مُعَجَّل في الحياة الدنيا.

الأمر الثاني: بَيَانُ قُدْرَةِ اللّهِ عَزّ وجلَّ على إهلاكهم والذَّهَابِ بهم من الوجود إلى العدَمِ، كما أَوْجَدَهُمْ، وأنْشَأَهُمْ من الْعَدَمِ، وَمَنَحَهُمْ الوجود، وسائر صفاتهم في هذا الوجود.

وبيانُ قُدْرَتِهِ على أنْ يأتيَ بخَلْقٍ جَدِيدٍ يكونُون خَلفاً لهم.

وكُلُّ ذَلِكَ أَمْرٌ هَيِّنٌ يَسِيرٌ عليه جلّ جلاله وعظم سلطانه، إنَّما أَمْرُهُ إِذَا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقُول له: كُنْ فَيَكُون.

إلَّا أنّ حكْمَةَ الله اقتضَتْ أنْ يُمْهِلَهُمْ ليقْطَع كُلَّ أعْذارِهِمْ.

واستَتْبَعَ هٰذا الْبيانُ عن الجزاء الرّبّانيّ بالثواب أو بالعقاب، بيانَ بَعْضِ مَوَادِّ قانونه عند الله العليم الحكيم القدير الْعَدْلِ ذي الفضل.

وما وردَ في هذا الدّرس من موادِّهِ بصورة مفرّقة غير متتابعة، ما يلي:

المادة الأولى: أنّه لَا تَزِرُ نَفْسٌ من شَأْنِهَا أن تكونَ وازِرَةً وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ.

المادة الثانية: أنّ النَّفْسَ الَّتِي تَحْمِلُ أَوْزَارَها الثقيلَةَ، إنْ دَعَتْ إلى حَمْلِ شَيءٍ من أَوْزَارِهَا، ولَوْ أَقْرَبَ الناسِ إليها، لم يَسْتَجِبْ لَهَا مِنْهُمْ أحَدٌ.

المادة الثالثة: أنّ مَنْ تَزَكَّىٰ (أي: تَطَهَّرَ من الكُفْرِ والعِصْيَانِ) فإنَّما يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ فقط: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

المادّة الرابعة: أنّ الجزاءَ الأَمْثَلَ مُؤَجَّلٌ إلَىٰ يَوْمِ الدّينِ الذي يكُونُ فِيهِ الْمَصِيرُ إلَىٰ الله وَحْدَه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾.

المادّة الخامسة: أنَّ تَطْبِيقَاتِ الجزاء بالثواب أو بالعقاب تكون بحَسَبِ مَا يَكْسَبُ كُلُّ فَرْدٍ من عَمَلٍ ظاهرٍ أو باطنٍ في رحلة ابتلائه، وأنّه لَيْسَ من الحكمةِ التسْوِيَةُ فيه بَيْنَ المتفاضِلين ارْتقاءً، ولا بَيْنَ المتفاوِتين تَسَفُّلاً.

فقانون الوجود كُلِّه قائم على العدل، ومن شأن العدل ما يلي:

(١) أنّه لا يَسْتَوِي الأعْمَىٰ والْبَصِير.

(٢) أنّه لا تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ المتفاوتات، ولا يَسْتَوِي النُّورُ المتفاضل.

(٣) أنّه لا تَسْتَوِي أفرادُ الظّلّ في الوجود، ولا تَسْتَوِي فِيهِ أفْرادُ الْحَرُور.

(٤) أنّه لا تَسْتَوي في الْوُجُود والصفات والخصائص أَفْراد الأحياء، ولا تَسْتَوِي أفراد الأمواتِ في البرزخ الذي لهم فيه جزاءٌ بالثواب أو بالعقاب.

ثانياً: وهٰذا الدَّرْسُ يُتَابعُ أيضاً تَرْبِيَةَ الرَّسُولِ ﷺ بِتَراوحِ غَيْرِ مُتَتَابع، إيثاراً لفَنِّيةِ التَّنقُّل في المُتَابَعَات المجَدِّدَة للانْتِبَاه، والمحرّكة للأذْهان.

ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ كُلُّ حَامِلٍ لرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

(١) فَيُؤَكِّدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه لِرَسُوله أنَّ إنْذارَهُ المؤثّر النافِعَ إنَّما يَكُونُ لِلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ولَوْ من أدْنَى الحدُود: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ . . . ﴿١٨﴾﴾.

أي: فَلا تَعْبأْ بالمَيْؤُوس مِنْهُمْ بَعْدَ التجربات الكافيات لليَأْسِ من استجابتهم، ويَكْفِيكَ أنْ تُوَجِّه لَهُمْ الإنْذارَ الأخير وأنْتَ منْصَرِفٌ عن معالَجَتِهم، وإنْفَاقِ أوقاتِكَ في أمْرٍ لا جَدْوَىٰ منْه.

وإنْ تُتَابعُ هؤلاء بالإقناع والمجادلة والترغيب والترهيب فإنَّكَ تكُونُ فيهم كَمَنْ يُحَاوِل أنْ يُسْمِعَ الْمَوْتَى وَهُمْ فِي قُبُورِهِم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢) وأبان الله عزّ وجلّ فيه لِرَسُوله بأسْلُوب الْقَصْرِ والحصْرِ، أنَّ وَظِيفَتَهُ الأخِيرَةَ بالنّسْبَةِ إلىٰ الميؤُوس من إصلاحهم عن طريق إراداتهم الحرّة، هو توجيه الإنْذار في آخِرِ مراحِلِ معالجاتهم: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

(٣) وأبانَ الله عزّ وجلّ فيه لرسُوله، أنَّ وظيفتَهُ العامَّة للجميع بَعْدَ تَبْلِيغ الحقّ الرَّبَّانِي وبيانه والتذكير به، في مجالات الموعظة المحرِّكة للنُّفُوسِ مِنْ مُحْوَرَي ما تُحِبُّ وَمَا تَكْرَهُ قائمة على الترغيب بثواب الله العظيم، والترهيب من عقابه الأليم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ . . . ﴿٢٤﴾﴾.

(٤) وأبان الله عزّ وجلّ فيه لرسوله، أنَّه مَا منْ أُمَّةٍ سَلَفَتْ في تاريخ الْبَشَرِيَّة، إلَّا خَلَا فِيها نَذِير: ﴿. . . وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ووصل حالُهُ مع قومه أنْ وجَّهَ لَهُمْ آخِرَ وظائف رِسالَتِه، وهي

الإنْذَارُ، لأنَّهُمْ قد وَصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوسٍ من إصْلاحِهم مَعَها عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة.

(٥) وأخيراً أبان اللَّهُ لرسوله فيه أنَّ قَوْمِه إنْ يَكذِّبوه، وهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي قرارة نفوسهم أنّه كذَّاب، وهذا احتمال نادِرٌ وقليل، فقد سبَقَ أنْ كَذَّبَ الَّذِين من قَبْلِهم رُسُلَ رَبّهم، الّذِين جاءوهم بالبيّنات وبالزُّبرُ وبالكتاب المنير.

وأبان لَهُ أنّ الله جلَّتْ حِكْمَتُهُ قد أخذ الّذين كَفَرُوا بإهْلاكٍ جماعيّ شامل، ونَصَرَ رُسُلَه والّذين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهُم في آخر مَرَاحِلِ تأديَةِ الرُّسُلِ وظَائِفَ رِسالاَتِهِم: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

بهذا التحليل لهذا الدرس القائم على اكتشاف الروابط غير المنظورة، في عباراته الملفوظة، بفروع شجرة موضوع السّورة، ظهرت لنا الوحْدة الفكريَّة العجيبة الّتي انْتَظَمَتْ آيات السّورة وفقراتها بهذا الدَّرْس، من أوّل آيةٍ فيها حتَّى آخر هذا الدرس الثامن، وأنّ فقراتها بمثابة أفنان وأزهار وثمرات وأوْراق نابتات من فروع شجرة موضوع السورة الأربعة، التي سبق في المقدمات بيانها، وأنّها تابعَةٌ لفروعِ شجرة موضوع سورة (الفرقان) التي نزلت قبل سورة (فاطر) دون فاصل تنزيلٍ آخر بينهما.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هذا النداء من الله عزّ وجلّ للناس هو النداء الثالثُ لَهُمْ في هٰذِهِ السُّورة، والمعنيّونَ الأوّلُون من عموم الناس هنا، هُمُ الكافرون المكذِّبُون بِرِسالة محمد ﷺ من قومه إبّان نزول السورة.

والمنادىٰ به في هٰذه الآيات الثلاث (١٥ ـ ١٦ ـ ١٧) ثلاث قضايا:

القضيَّة الأولى: دَلَّ عليها خطاباً للناس: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ . . .﴾:

الْفُقَراءُ: جَمْع الْفَقِير، وهو من الناس ذو الحاجَةِ الّذي لا يَمْلِكُ ما يَكْفِي مطالِبَ معيشته.

ويقال لغة: افْتَقَرَ إلى الشيء أو إلى الْأَمْر، أي: احتاج إليه.

فالمعنى: أنْتُمُ الفقراءُ الْمُحْتَاجُونَ دَوْماً إلى إمْدَادِ الله لكم بعطاءاتِ رُبُوبيته لكم، لا تنفَكُّ عَنْكُمْ حَاجَتُكُمْ إِلَيْهِ مقدار أقَلِّ زَمَنٍ مِنْ وُجُوداتكم وحيواتكم.

فوجُودَاتكم، وأرْزَاقُكُمْ، وَمَطَالِبُ حَيواتِكُمْ، وعِزُّكم، ونَصْرُكم، وعَافياتكم، وقُوَّاتُكُمْ، وَحَرَكَاتُكُمْ، وسَكَنَاتُكُمْ، وسائر ما يجري فيكم، أو يَصْدُرُ عنكم، لَا تَتِمُّ إلَّا بإمْدَادٍ مُتَتابع من الله لكم، كتتابُعِ تَيَّارِ الكَهْرباء لإمْدَادِ الآلات الكهربائيَّة بقُوتِ أعمالها، ففي اللَّحظة الَّتي يَتوقَّفُ عنها التَّيَّارُ الكهربائي تَتَوَقَّفُ عن أعمالها.

أي: والآلِهَةُ الّتي تَجعَلُونَها شركاءَ لِلَّهِ في إلٰهِيَّتِهِ الّتي لا تكون لها حقًّا، ما لَمْ تَكُنْ شُرَكاء لله في رُبُوبِيَّتِهِ، وهذا باطل حتماً بالبراهين الْعَقْلِيَّةِ القواطع، فآلهتكُمُ التي تَعْبُدونَها من دُون اللَّهِ أيّها الناسُ المشركون، لا تَمْلِكُ لَكُمْ جَلْبَ نَفْعٍ ولَا دَفْعَ ضُرّ، ولَا تَمْلِكُ لَكُمْ عِزّاً وَلَا نَصْراً.

وهٰذه الجملة: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ جاءت على طرائق الْجُمَلِ الّتي تفيد الحصْر والقصْرَ، لأنَّها من مُبْتَدأ وخَبرٍ مَعْرِفَتَيْنِ، ولَكِنْ كَيْفَ

نَفْهَمُ الحَصْرَ والْقَصْرَ هُنَا مع أنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ في الْوُجُودِ، هُوَ فَقِيرٌ دَواماً، مُحْتاجٌ إلى خالِقِهِ ومُمِدِّهِ بالْبَقاء.

وفي الإجابة على هذا السؤال أقول:

إنَّ المشركين المعنيِّين بالْخِطَاب، كانُوا يَعْتَقِدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ الّتي يَعْبُدُونَها من دُون الله، هيَ التي تَرْحَمُهُمْ، فَتَرْزُقُهم مُخْتَلِفَ أَرْزَاقِهِمْ الماديّة والمعنوية، ممّا لا يُكْتَسَبُ بالْوَسَائِلِ السَّبَبِيَّةِ الكونيَّة، أمّا مالَهُ وسائل سَبَبِيَّةٌ كَونيَّة، فإنَّهُمْ يَقُومُونَ بِهَا بأنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَغْنُونَ بها عن الرّبّ الخالق الرازق.

فجاءت العبارة على طريقة الْقَصْر الإضافيّ المراد بِهِ قَلْبُ اعتقادهم إلى نَقِيضِهِ تَماماً، أي: يا أَيُّهَا الشَّاكُّون في افتقاركم إلى الله ربكم، أَنْتُمْ المحتاجُونَ إلى الاعتقاد بأَنَّكُمُ الْفُقَراء إلى الله، أمّا غَيْرُكم من أهل الإيمان، فإنَّهُمْ لَا يَشُكُّونَ في هٰذِهِ الحقيقة، بَلْ يُؤْمِنُونَ بأَنَّهُمْ أغنياء بالله.

وهذا قد يَدْخُلُ في قِسْمِ قَصْر القلْب الّذي ذكره علماء البلاغة، ويُمْكِنُ أن نُسَمِيَهُ «قَصْرَ بَيَان» وأنْ نُضِيفَهُ إلى الأقْسَام الأرْبَعَةَ الّتي ذكرها البلاغيون، أو نَجْعَلَهُ من قسم القَصْرِ الإضافيَّ إذَا تَوَسَّعْنَا في مَفْهُوم هٰذَا الْقِسْمِ من أقْسَام القصر.

وفي هٰذِهِ القضية نَجِدُ مُتَابَعَةَ مُعَالَجَةِ المشركين إبّان التَّنْزِيل، بشأن عقيدتهم في أنَّ أرْزاقهم ومطالِبَ حيواتهم، إنَّما تُمِدُّهم بها آلِهَتُهُمْ الّتي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللَّهِ بوسائل غَيْبِيَّة.

وقد سَبَقَ أنْ جَاءَتْ معالَجَتُها في سورة (الفرقان) وفي أوائل سورة (فاطر).

- ففي سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) أبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لهؤلاء المشركين، بأنَّهُ هُو الرَّحْمٰنُ الّذِي يَرْحَمُهُمْ دواماً، فَيُمِدُّهم من السَّماءِ بأسْبَابِ الرِّزْق، ومنْها أنْ جَعَلَ لَهُمْ في السَّمَاءِ الشَّمْسَ سِرَاجاً تُمِدُّ الأَرْضَ بالضَّوْءِ والحَرارة، وهما عُنْصُران ضَرُورِيَّان للحياة.

نجد هذا في الآيات (٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢) منها.

- وفي السوابق من سورة (فاطر/٤٣ نزول) ناداهُمُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

وأبانَ لهم في الآيات (٩ ـ ١٢ ـ ١٣) منها أنّه جلّ جلاله أرسَلَ الرِّياح المثيرة للسَّحاب، فَساقتها إلى بَلَد ميّت، فأحيا بالماء الأرْض بَعْد موتها، فأنبتت لهم ولأنعامهم الزُّرُوعَ والثمار، وكلّ ذلك من عنايتِهِ ورحمته بهم، ومن عنايته بتَهْيِئَةِ أرْزَاقِهم.

وأنّه سخَّر لهم البَحْرَ يَأْكُلُونَ مِنْهُ لَحماً طِرِيًّا، وسخَّر لهم الْفُلْكَ، ليبتَغُوا بالسَّفَرِ على ظهورها من فَضْلِ اللَّهِ أرْزاقهم وتحقيق مصالح ومنافع لهم.

وأنّه سخّرَ لَهُمُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ، وكلُّ ذلك من عنايتِهِ ورحمته بهم.

القضية الثانية: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

هذه الجملة واردة على طريقة الحصْرِ والقَصْر أيضاً بتعريفِ طَرَفي الإسناد، وبالتأكيد بضمير الفصل، والقصْر فيها قَصْرٌ حقيقي، لأنّ الله عزّ وجلّ هو وَحْدَهُ الغني عن كُلّ ما سواه، فلا يحْتَاج شيئاً، وعبادَةُ العِباد لَهُ هِيَ لمصْلَحَتِهم، فلا تزيدُ في مُلْكِ اللَّهِ شيئاً، ولا تُقَدِّمُ لِنَفْسِهِ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ فيها.

وكَذَلِكَ كُفْرُ الْعِبادِ لَهُ هُو لشقائهم، فلا يَنْتَقِصُ من مُلْك الله شيئاً، ولا يُؤَثِّرُ على نَفْسِ الله عزّ وجلَّ بشَيْءٍ، وسخَطُهُ وغضبُهُ عليهم هو من آثار عَدْلِه.

﴿ٱلْغَنِيُّ﴾: من أسماء الله عزّ وجلّ: أي: الّذي لا يَحْتَاجُ إلَىٰ أحَدٍ أَوْ شَيْءٍ في ذَاتِهِ أو صِفَاتِهِ، وكلُّ شيءٍ في الوجُود مُحْتَاجٌ إلَيْهِ.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: وهُو وَحْدَهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ الكامِلُ الْحَمْد، سواءٌ في كوْنِهِ مَحْمُوداً، إذْ لَهُ الْحَمْدُ كُلُّه، أمْ في كَوْنه حامداً، إذْ هو يُكافِئ كُلَّ فاعِلِ خَيْرٍ بالْحَمْدِ الّذِي يَسْتَحِقُّه، مع زيادَاتِ فَضْلٍ منه.

الحمِيد: على وزن «فَعِيل» من صِيَغِ المبالغة، وصيغ المبالغة في وصْفِ الله، تَدُلُّ على الكمالِ المطلق في اتّصافِهِ بهذا الوصف.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾:

أي: إنْ يشَأْ إذْهابَكُم إلَىٰ الْعَدَم يُذْهِبْكُمْ، فَقَدْ كُنْتُمْ عَدَماً، فَخَلَقكم، وهُوَ القدير على أن يَصْرِفكم من الوجود ويُعِيدَكُمْ إلى العدم، وإن يَشَأْ أَنْ يَأْتِيَ بِخَلْقٍ آخَرَ جَدِيدٍ، يأتِ به.

الخلْقُ هُنا: هو بمعْنىٰ المخْلُوق.

وَمَا ذَلِكَ الْإِذْهَابُ والإتيان على الله بصَعْبٍ ولا شَاقٍّ وَلَا عَسِير بلْ هو هيّن عليه، إذْ يَتِمُّ بِأَمْرِ التكوين.

﴿بِعَزِيزٍ﴾: أي: بِصَعْبٍ، أو شاقٍّ، أو عسير.

والمعنى: أنّه لمَّا كان من عناصِرِ افتقار النّاسِ إلىٰ الله جلَّ جلالُه، افتقارُهم في بَقَائِهم في الوجود إلى إمداد الله بِقُوتِ البقاءِ آناً فآناً، كان من الحكمة في الأداء البيانيّ أن يُنَبِّهَهُمْ على حقيقةٍ هُمْ غَافِلُونَ عنها.

وهي أنهم مخلوقون لله كَما يَعْتَقِدُ المشركون المعنيُّون الأوَّلُون بالخطاب في السورة.

وبمقتضىٰ قُدْرَةِ الله على الخلْق، فإنَّه قادرٌ إنْ شاءَ علىٰ أَنْ يُذْهِبَهُمْ إلى الْعَدَم بالإهْلاك، ويَأْتِي بِخَلْقٍ آخَرَ جَدِيد، كما خَلَقَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يكونُوا شيئاً مَذْكوراً.

والذَّهَابُ بِهم إلى الْعَدَم، والإتيانُ بِخَلْقٍ آخر جَدِيد هيّنٌ عليه، لَيْسَ صعباً وَلا شاقاً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ⑱﴾.

في هٰذِه الآية بَيانُ بَعْضِ مَوادِّ الجزاء الرَّبّاني، بالعقاب أو بالثواب، مع توجيه فِقَرَةٍ تَرْبَوِيّةٍ للرَّسُول ﷺ في أثنائها عقب بيان مادَّتَيْنِ تَتَعَلَّقانِ بحاملِ الوِزْرِ المستحقّ للعقاب.

وهذه الفقرة التربويّة استدعَتْها مُناسبةُ الحدِيثِ عن حاملي الأوزار، الّذين يخُصُّهم بيانُ بَعْضِ موادّ الجزاء الرَّبّانيّ بالعقاب.

وقد اشتملت هذه الآية على بيان خَمْسِ قضايا مُترابطة فكْرياً:

القضية الأولى: دَلّ عَلَيْها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾:

أي: ولَا تَحْمِلُ نَفْسٌ وازِرَةٌ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْمِلَ أوزارَها الّتي تكْتَسِبُها، وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ قَدْ حَملَتْ بما اكْتَسَبَتْ أَوْزاراً وذُنوباً.

الْوِزْرُ: هُو في اللُّغَةِ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ، ومن الأحْمَالِ الثقيلة أسْلِحَةُ الْحَرْبِ.

ولـمّا كان ارْتِكابُ الذَّنْبِ وفِعْلُ الإثْمِ، ممَّا يَتَحَمَّلُ بِه الْإِنْسَانُ مَا يُشْبِهُ الْحِمْلَ الثقيلَ، أُطْلِقَ في اللُّغة لفظ «الوِزرِ» علىٰ الذَّنْبِ الّذِي يرْتَكِبُهُ المكلَّفُ المختارُ، المسؤولُ عن أعمالِهِ الإراديَّة.

وجمع الوِزْرِ الأَوْزَارِ، يُقالُ لغة: وَزَرَ يَزِرُ وِزْراً، وَوَزْراً، وزِرَةً، أي: حَمَلَ حِمْلاً ثَقِيلاً، أو ارْتَكَبَ ذَنْباً، فَهُوَ «وَازِرٌ» وَهِيَ «وَازِرَةٌ».

هذه القضيَّة دلَّتْ على أنَّ المسؤوليَّةَ عن الأوزار مسؤوليَّةٌ شَخْصِيَّة، وهٰذا هو ما يقتضيه الْعَدْل.

ونستطيع أن نعتبر هذه العبارة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ مادّة من موادِّ قانون الجزاء الرّبّاني.

القضيَّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾:

أي: وإنْ تَدْعُ نَفْسٌ تَحْمِلُ حِمْلاً ثَقِيلاً مِنْ أوْزارها الّتي اكْتَسَبَتْهَا في الحياة الدّنيا، صَدِيقاً حَمِيماً، أو قريباً مُشْفِقاً، لِيَحْمَلَ عنها بَعْضَ أَوْزَارِها، ويُخفّفُ عنها بمُشَارَكَتِها أثامَها مقدار ما من العقوبَةِ الّتي يُبْدِي استعدَادَهُ لتحمُّلها عَنها، فإنَّها لا تَجِدُ أَحداً يَسْتَجِيبُ لَهَا.

﴿مُثْقَلَةٌ﴾: أي: مُحَمَّلَةٌ حِمْلاً ثقيلاً مِنْ أَوْزَارِهَا الّتي اكْتَسَبَتْهَا.

إنّ كُلّ نفسٍ كاسبةٍ أوزاراً، تَأْتِي يَوْمَ الدِّينِ إلى مَوْقف الحسابِ وفَصْلِ القضاء، حاملةً أوزارَها الّتي اكْتَسَبَتْها في رِحْلَة الحياة الدُّنيا، رحلة الابْتِلاء.

فَلَوْ بَدَا لها أَنْ تَدْعُوَ صَدِيقاً أَوْ قَرِيباً، أَوْ مَنْ كانَ مُحِباً في الحياة الدّنْيا، إلىٰ أَنْ يَحْمِلَ عَنْهَا شيئاً مِنْ أوزارِها، إذا كانَ حِمْلُهُ من الذُّنُوب

أخفَّ منْ حِمْلِها، فإِنَّهُ لا يَسْتَجيبُ لها، فَلَا يَحْمِلُ عَنْهَا شَيئاً مَهْمَا قَلَّ مِقْدَارُهُ.

يمْنَعُهُ من الاسْتِجَابَة لِهٰذِهِ الدَّعْوَةَ أَمْرَان:

الأَمْرُ الْأَوَّل: أنَّ قانون الجزاء الرَّبَّانِي لا يَأْذَنُ لَهُ بِذَلِكَ، فَمُوافَقَتُهُ ـ لَوْ أنَّه وافَقَ ـ لا قيمة لها عند الله.

الأَمْرُ الثاني: أنَّ كُلَّ مَدْعُوٍّ لِلْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، مُهْتَمٌّ يَوْمَئِذٍ بنَفْسِهِ، يَطْلُبُ النجاة، والفوزَ بالجَنَّةِ، ومَنَازِلها.

وقد جاءَ في البيانَاتِ القرآنيّة ما يَدُلُّ على هٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ دَلَالَةً صَرِيحة:

- فقال اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

- وقال الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

عبارة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾: أي: ولَوْ كَانَ المَدْعُوُّ للمشاركة في حَمْلِ شَيْءٍ من الْأَوْزَارِ، ذَا قُرْبَى، كَأَخٍ، أَو أبٍ، أو ابْنٍ، أوْ أُمٍّ، أَوْ نَحْوِهِمْ مِنْ الْأَقْرَبِين.

وجاء استعمال حَرْف الشَّرْطِ «إنْ» في عبارة: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ إشارةً إلىٰ أنّ مِثْلَ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ الميْؤوس من إجابتها لَا تَحْصُل، فَهيَ افتراضيَّة.

ونستطيع أن نعتبر هذه القضية مادة من موادّ قانون الجزاء الرَّباني.

القضيَّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

بمناسَبَة الْإِلْمَاحِ إلى المكذِّبين المعَانِدين الْمِصرّين على كُفْرهم، في القضيّتَيْن الْأُولَىٰ والثانية، جاءَتْ هٰذِهِ الْقَضِيَّةُ مُشْتَملَةً على تَرْبِيَةِ الرَّسُولِ في موضوع دعْوتِه للّذين وَصلُوا في كُفْرِهِمْ إلى دركَةٍ مَيْؤُوسٍ من إصْلَاحِهِمْ معها، عن طريق إراداتِهم الحرَّة.

ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ إلى النَّاس مِنْ أُمَّتِهِ.

الْإِنْذَارُ هُنَا: هُو الْإِخْبارُ بما أَعَدَّ اللَّهُ للكافرين يوم الدِّينِ من عذابٍ أليم خالدٍ في نار جهنم، مع ما يُمْكِن أنْ يُعَاقِبَهُمْ بِهِ الله في الحيَاةِ الدُّنيا.

والحصْرُ في عبارة ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ خطاباً للرَّسول ﷺ يُرادُ به حَصْرُ فائِدَةِ الْإِنْذَارِ، وتأْثيرِهِ فِي الَّذِينَ يُوَجَّهُ لَهُم.

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾: أيْ: يخافُونَ عِقَابَ رَبِّهِمْ خَوْفاً مصحوباً بتعظيم وإجلالٍ ومَهابَة.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِ محجوباً عن حواسّهم الظاهرة، مَسْتُوراً بالغيب، إلَّا أَنَّهُ مَعْلُومُ الْوُجُودِ وبَعْضِ الصِّفَاتِ العظمى له، بالفكر وأدَوَاتِ الإدْرَاكِ في العقل، وفي هذا إلْمَاحُ إلى أنَّ تَأْسِيسَ الإيمان بالإقناع يجب أن يَكونَ قبل الترغيب والترهيب والإنذار.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ودفعهم إيمانُهُمْ بِهِ إلى إقامة الصلاة لَهُ، ولَوْ من مُسْتَوىٰ أدْنَىٰ الْحُدُود المعبِّرَةِ عَنْ صَحَّةِ الإيمان بالرَّبِّ جلَّ جلالُهُ، وَلَوْ لم يَسْتَكْمِلُوا الإيمان بسَائِرِ ما يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ من أرْكانه.

فالمعنى: ولَا تَطْمَعْ في أنْ يَنْفَعَ إنْذَارُكَ الَّذِي تُنْذِرَ به، مُخَوِّفاً مِنْ عذاب اللَّهِ ونِقْمَتِهِ، إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بربّهم إيماناً صَحِيحاً، وهُوَ غَيْبٌ عن

حَوَاسّهم الظاهرة، واثِقين بالأدِلَّة الْبُرْهَانِيَّة العقليَّة، فَهُمْ يَخْشَوْنَهُ بالغيب، وكانوا علىٰ صِلَةٍ بِهِ عَنْ طَرِيقِ إقامَةِ الصَّلاةَ بوَجْهٍ من الوجوه، وهٰذِه الصَّلَاةُ تُذَكِّرُهُمْ به وبِصفَاتِه الجليلة، ومنها علْمُهُ وحكمتُه وعَدْلُه.

ويتضمَّنُ هٰذا التوجيه للرَّسُول ثُم لكُلّ حاملٍ لرِسَالته من أمَّتِه، إشعارَ المشركين المعانِدِينَ الْمَقْصُودِين الأوَّلِينَ بالْبَيَان في السُّورَة، بأنَّهم غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بربِّهم إيماناً صحيحاً، ومن أجل هذا فإنّ الإنْذَارَ بعقابه لا يُؤَثِّرُ فيهم، ويَنْبَغِي معالجتُهُمْ بأدِلَّةِ الإيمان قَبْلَ الإنْذَارِ.

القضيَّة الرابعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾:

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تَطَهَّرَ منْ رِجْس المعاصي والآثام، بطاعَةِ الله والْتِزَامِ صِرَاطِهِ المستقيم، وبالإيمان الصحيح الخالي من الشرك، وبالعمل الصالح.

وفي التعبير بالتَّزَكّي هُنا إشارة إلىٰ أنَّ حامل الأوزار مُتَدَنّس بأرْجاس أوْزاره.

ودَلَّتْ هٰذه القضيَّة علىٰ أنّ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، كَانَ هو المستفيد وَحْدَهُ مِنْ تَزْكِيَتِهِ لِنَفْسِهِ، لا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ في ذلك.

ونستطيع أن نعتبر هٰذه القضيّة مادّةٌ من موادّ قانون الجزاء الرّبّاني.

القضيّة الخامسة: دَلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجل: ﴿... وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ أي: وإلى الله نِهَايَاتُ الأمُورِ كُلّهَا، ومِنْهَا مَصِيرُ الموضوعين في الحيَاة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابتلاء، إذْ يَنْتَهُونَ إلَى حِسَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّين، وفَصْلِ قضائِه، وتَنْفِيذ جزائه.

الْمَصير: هو ما يَنْتَهِي إِلَيْهِ الأَمْرُ، ومنه مَصِيرُ المياه، وهو آخر مَكانٍ لتجَمُّعِها بَعْدَ جَرْيِهَا في المنْحَدَرَاتِ إلى الأخفض فالْأَخْفض.

ولفظ «المصير» يصْلُح اسْمَ مكان، واسم زَمَانٍ، ومَصْدراً مِيمياً، وهذه المعاني كلُّها صالحةٌ هنا.

وعبارة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ كنايةٌ عن مادَّة من موادّ قانون الجزاء الرّبّانيّ، مُفَادُها: والجزاءُ الْأَمْثَلُ يكونُ يَوْمَ الدين بَعْدَ بَعْثِ الموتَىٰ إلى الحياة مرَّةً أُخْرىٰ، إذْ يَكونُ مَصِيرُ حِسَابِهم، وفَصْلِ القضاء بَيْنَهُمْ، وتَنْفِيذِ الجزاء، إلى الله وَحْدَهُ لا شريك له.

بيان الترابط الفكري بين الفقرات:

(١) في إعلام الكافرين منكري رحمة الله بفقرهم الدائم إلى الله الغنيّ الحميد، الذي يَحْمَد المؤمِنينَ الّذين يَعْبُدُونَه لَا يَشْرِكُون بعبادته شيئاً، فيَجْزيهم من فَضْله على صالحات أعمالهم جزاءً حسناً يُرْضيهم، في هذا الإعلام حثٌّ وتَحْرِيضٌ ضِمْنيّ للكافرين على أنْ يَلْتَمِسُوا مِنَ الله رَبِّهم مطالِبَهم مُخْلصِينَ في دُعائهم له، لِتُثْبِتَ لَهُم التَّجْرِبَةُ أنّ اللّهَ يَسْتَجِيبُ دُعَائَهُمْ، بُرْهاناً على أنَّهُ هو الرَّبَّ الّذِي لا إلٰه إلّا هو.

(٢) وفي إعلامهم بأنّ الله إنْ يَشَأْ يُهْلِكْهُم بِذُنُوبهم ويأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيد يكُونون خلفاً لهم، تهديدٌ لهم بإهلاكهم جَميعاً إهلاكاً عاماً شاملاً، إذا اسْتَمَرُّوا على كُفْرِهم ومعانَدَتِهم الحقّ، ومعاداتهم رسُول رَبّهم، واضطهادهم للّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

وهٰذا الإعلامُ المشْتَمِلُ على هٰذَيْن الأمْرَيْنِ يَسْتَدْعي بيان موادّ تتعلّقُ بقانُون الجزاء الرَّبَّانيّ، على ما يكسبُهُ الممتحنون المكلّفُون بإراداتهم الحرَّة، من كُفْرٍ وشرٍّ وإثم وسيّئات، أو إيمانٍ وخَيْرٍ وطاعةٍ وقُرُبات.

فجاء البيانُ القرآني دَالاً على أنّ المسؤولية والحسابَ والجزاءَ كُلَّها فَرْدِيَّةٌ شخصيَّة.

- فَمُكْتَسِبُ الوِزْرِ وحاملُه هو وحْدَهُ الَّذِي يتحمَّل عقُوبَةَ وِزْرِه يوم الدّين، لا يُشاركُه غَيْرُهُ فيه.
- وكاسِبُ العمل الصّالح إنّما يَكْسِبُه لمصْلَحة نَفْسِه، لا يشاركُهُ فيه أحد.

وهذا من البيان التفصيليّ في الْقُرآنِ المجيد.

واستدعى الإلْماحُ إلى أنّ كُبَراء مشركي مكّة، قد وصلوا في كُفْرِهم إلى دَرَكةٍ مَيْؤُوسٍ من إصلاحهم معها عن طريق إراداتهم الحرَّة، وذلك إبَّان تنزيل السورة، أنْ يُوجِّه الله عزّ وجلّ في الأثناء تَربيةً للرَّسُول بأنَّ إنْذارَه النافِعَ المؤثِّرَ فيمن يُوجّهه لهم، مقصورٌ عليّ الّذين يَخْشَوْن رَبّهم بالغيب، وأثَّرَتْ فيهم هٰذه الخشية فصَلَّوْا له.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾.

تمهيد:

إنّ بيان موادَّ مُهمَّةٍ مِنْ قانون الجزاء الرَّبّاني في الآية (١٨) يسْتَدْعي

بيانَ أنّ هٰذا القانون الرَّبَّانيَّ الجزائي القائم على العدل، لا على التسوية بين المتفاضلين في الدرجات، أو المتفاوتين في الدركات، مُتَّسِقٌ مع الأصول العقليّة المنطقية، الّتي تَنْطَبِقُ على كلّ المتناقضاتِ والمتضادَّاتِ والمتفاضِلَاتِ والمتفاوتات، في المادّيات والمعنويّات، والّتي يُدْرِكُها كُلُّ ذي فكْرٍ يَتأَمَّل في الظاهرات الكونيّة، وفي نظائِرها من الأمور المعنويَّة.

إنّه ليْسَ من الحكمة بحالٍ من الأحْوال التَّسْوِيَةُ في الجزاءِ بَيْنَ من كفر وعصَىٰ وتمرَّدَ على بارئه، وآخَر آمن وأطاعَ وأذْعَنَ لَهُ مُسْلِماً مُسْتَسْلِماً.

ونظير هذا في الظاهرات الكونية الأعمى والبصير، فهل يَصِحُّ عقلاً بالنِّسْبَةِ إلى المرئيات البصرّية أنْ نُسَوّي بين الأعمىٰ الّذي لَا يَرَىٰ المشهوداتِ الْبَصَرِيّة، وبين البصير الذي يراها بعَيْنَيْنِ سليمتين.

وكذلك سائر المتضادات الّتي يقومُ تضادُّها على الوجود والعدَم، سواءٌ أكان ذلك في وُجُودٍ وعَدَم كلّيَّيْن، أم في وجودٍ وعَدَم نِسْبِيَّيْنِ كالظُّلُمات، إذْ هي متفاضلاتُ النِّسَب فيما بيْنَها، بالنَّظَرِ إلى مَا في كُلٍّ منْها من مقاديرَ من أنْوارٍ مختلطةٍ بها، وكالأنوار المختلفة، إذْ هي متفاضلاتُ النّسَب فيما بيْنَها شِدَّةً وضَعْفاً.

وكذلك الظُّلْمَةُ الّتي لم يخالطها شيءٌ من النور، بالقياس على الأنوار المتفاضِلَات حتّى النور الأعظم.

فهل يَصِحُّ عقلاً التَّسْوِيَة بين المتضادّات من كُلّ ذلك، أو التسوِيَةُ بيْنَ المختلفات؟!!

وهل يصحُّ عقلاً التّسْوِيَةُ بين المتفاضلاتِ والمتفاوتات من الظّل، أو من الحرُور (وهو حرارة الشمس المباشرة للشيء) أو بين قِسْمَيِ الظّلّ والْحرُور؟!!

وهل يَصِحُّ عقلاً التسويةُ بين المتفاضلات من الأحياء، أو بَيْنَ المتفاضِلاتِ من الأموات؟!!

إنّ الأحياء تبدأ من أدْنَىٰ المراتب في الحياة حتَّىٰ الإنسان، وأفرادُ الإنسان الحيّ متفاضلو الدَّرجات تفاضلاً كثيراً، بتفاضل الصفات فيما بينَهُمْ.

وإنَّ الأمْوَات ينطبق عليهم واقع التفاضل، فمن الميّتات حقيرات سامّات، ومنها طيّباتٌ نَافعات، كالأسماك.

ومن أموات الناس خُبَثاء تُعَذَّبُ نفوسُهم، ومنْهُم أطهارٌ منعَّمونَ عنْدَ رَبّ العالمين.

إنّ سُنَّة الخالق في الوجود قائمةٌ غالباً على قانون التفاضل، وقانُونُ التفاضل يُلائمه الحكْمُ بالعدل، وهو إعطاءُ كلّ ذي حقٍّ حقّه، ومن الظُّلْم التَّسْوِيَة بَيْنَ المتفاضلات والمتفاضلين، ولا تَصِحُّ التّسويةُ في الحكْمِ إلَّا في حالَةِ التَّساوي في الواقع بين الشيئَيْن أو الأشياء.

هٰذه الحقائق جاء بيانُها في الآيات: (١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢) من هذا الدرس دليلاً على حِكْمَة الله في إقامة العدل بَيْنَ الناس الموضوعين في الحياة الدّنيا موضع الابتلاء.

فالذّين كَفَرُوا لهم عذابٌ شَدِيدٌ يُلائم ما لَدىٰ كلٍّ منْهم من مكتسباتٍ إراديّة.

والَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالحات لَهُم مع المغفرة أجْرٌ كبيرٌ يُلائم ما قدَّم كُلُّ فَرْدٍ منْهُمْ من إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

وإنَّ تَرْبية اللَّهِ لرسُولِهِ في الآية (١٨) اسْتَدْعَتْ ضمن أُسْلوب المراوحة مُتابعة تَرْبِيَتِهِ في الآيات: (٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦)، من هذا الدَّرس، كما سيأتي في التَّدَبُّر إن شاء الله.

التدبّر:

- قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ١٩﴾:

الأَعْمَىٰ: هو الّذي لا يَرَىٰ شيئاً بِبَصَرِهِ، ومعلومٌ أنَّ الْعَمَىٰ الكُلّي لا يُتَصَوّر معه التفاضل.

البصير: هو سَليم الرُّؤية، الّذي يَرَىٰ الأشياء بأداة الإبْصارِ لَدَيه.

وقد جاء نفْيُ التساوي بين الأعمىٰ والبصير، بمثابة شاهدٍ على أنَّه لا تَصِحُّ التسويَةُ بين الجاهل الّذي ساقه الجهلُ إلى الكُفر، وبيْنَ العالم الّذي هَدَاهُ عِلْمُهُ إلَىٰ الإيمان.

فالجاهل كالأعمىٰ، والعالم كالبصير.

- قول الله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾:

أي: وَلَا تَسْتَوي أفرادُ الظُّلُمَات، لأنّ الظلمات متفاوتات فيما بينها في مقادير ظلماتها، ولا تَسْتَوي أفرادُ النّور للتفاضُل المشهود فيما بينها في المصابيح الكهربائيّة وغيرها.

وجاء هذا بمثابة شاهد على أنّه لا يَصِحُّ التسويةُ بيْنَ الكافر الضّالّ في الظلُمات، والمؤمن الذي يَسِيرُ في النور مَهْدِيّاً.

وقد جاء في هذه العبارة تكرير حَرْفِ النَّفْي «لَا» إشارة إلىٰ التّفاضل والتفاوت بين أفراد الظلمات وأفراد النور.

فالظلمات ذواتُ مقادير من الظلمة متفاوتات، والأنوار ذوات مقادير من النور متفاضلات.

ويضاف إلى ذلك التضادّ بين عموم الظلمات وعُموم النُّور.

- قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١﴾:

أي: ولَا تَسْتَوِي أفْرادُ الأشياء ذواتِ الظلّ، ولا تستوي أفرادُ الأشياء ذواتِ الحرُور.

الظلّ: هو ما يبقَىٰ من انكشاف في المرئيّ بعْدَ ستْر أشعَّة الشَّمْسِ عنْه بساترٍ ما، وهو يختلف بحَسَبِ اختلافِ كثافة السَّاتر.

الْحَرُور: هو حَرَارَةُ أشِعَّةِ الشمسَ المباشرة للشَّيْءِ، وأفراد الْحَرُور مختلفة في درجات حَرَارَتِها، بحَسَب اختلافِ الْفُصُول من السَّنة، وبحَسَب اختلاف الأقاليم والمواقع من الأرض، والقرب والبُعْدِ عن تساقط أشعة الشمس.

وجاء في هذه العبارة أيضاً تكرير حرف النفي «لا» إشارةً إلى التفاوت بَيْنَ أفراد الأشياء ذواتِ الظلّ، وأفْرادِ الأشياء ذواتِ الحرور.

ويلاحظ أن الظلّ قبْل طلوع الشمس ظِلٌّ بارد، وهو في الظهيرة حارّ، وهو في البلاد الباردة شديدُ البرودة.

وكذلك الحَرُور مختلف النّسب باختلاف الأزمنة والأمكنة.

يضاف إلى ذلك التضادّ بين عُمُوم الظلّ وعموم الْحرُور.

- قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾:

أي: وَمَا يَسْتَوِي أنْوَاعُ الأحياء، ولا أفرادُ الأحياء من نوع واحد، فَلِلْأحياء سُلَّمٌ يَبْدَأُ من أدْناها ذواتِ الخليَّة الواحدة، وفوْقَهُ دَرجاتٌ متفاضلاتٌ، حتىٰ الإنسان الّذي خلقه الله في أحْسَن تقويم.

وأفراد الناس مُتَفَاضِلُونَ في صفاتهم الجسَدِيَّةِ والنَّفسيَّة.

وما يستوي أنواع الأموات، ولا أفراد الأموات من نوع واحد، وقد سبق بيانُ هٰذِه الحقيقة، فلا يصِحُّ الحكمُ بالتساوي بين المتفاضلات منها.

وقد جاء بيَانُ عدم التساوي هذا بمثابة شاهدٍ على أنّه لا يَصِحُّ

التسويةُ بيْنَ المؤمِنِ الّذي يُشْبِه الحيَّ، لأنَّهُ حيُّ الفِكْرِ والقلْب والوِجْدانِ بالإيمان، وبَيْنَ الكافِرِ الّذي يُشْبه الميّت، لأنَّهُ مَحْرُومٌ بكُفْره من نَعْمة التفكير بما وراء الظواهر، ومن سعادَة القلْبِ وتَحَرُّكِ الوِجْدَانِ بالخيْر والعواطف النبيلة.

والقرائنُ تدُلُّ على أنّ هٰذِه الْعبارة تحمل دلالَتَيْن معاً حقيقيَّةً ومجازيةً، والمجازية هي دلالتها على المؤمنين والكافرين.

وجاء في هٰذه العبارة أيضاً تكريرُ حرف النفي «لا» إشارة إلى التفاوُتِ بَيْنَ أفراد الأحياء، وبَيْنَ أفراد الأموات.

فالأحياءُ بالإيمان والْعمَل الصَّالح متفاضِلُون فيما بَيْنَهم، بِنِسْبَةِ ما لدى كُلٍّ منهم من إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

والأمواتُ بالكُفْرِ وانطماسِ البصيرَة عن رُؤية الحقِّ، واستماع كَلمة الحقّ والْهُدى، متفاوتون فيما بينهم، بِنِسْبةِ ما لدى كُلٍّ منهم من كفر وأعمال سيِّئَةٍ وقبيحة.

وإطلاق الأحياء على الأحياء بالإيمان والعمل الصالح، وإطلاق الأموات على مَوْتى الْقُلُوب بالكفر والمعاصي وارتكاب كبائر الإثم، إطلاقٌ هو من قبيل المجاز، وهذا المجاز أساسه استعارةُ لفظ «الحياة» أو مشتقاته وإطلاقُه على الإيمان الذي ينتج عنه العمل الصالح، ويَنْتِجُ عنه الإصلاح، واستعارة لفظ «الموت» أو مشتقاته وإطلاقه على الكُفْر الّذي يَنْتُجُ عنْهُ الْعَمَلُ الْفاسِدُ السّيِّءُ، ويَنْتُجُ عنه الإفساد.

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾:

بمناسبة قول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ﴾ ودَلالَتِهِ المجازيّة على المؤمنين والكافرين، كان من الحكمة

التربوية عند المناسبة الملائمة أن يُوجّه الله لرسوله بشأن الذين وصَلَتْ حالَةُ نفوسهم إلى دركة الموت المجازيّ، بالكُفْر الذي يَطْمِسُ البصيرة، فيَجْعَلُها لَا تُبْصر آيات الله في كونه، ولَا تَسْمَع البيانات الدّاعيات إلى الحقّ والْهُدَى، مهما اتَّخَذَ الدّاعي لإسماعِها من وسائل وأسباب، ما يلي:

إنَّ مَنْ وصَلَتْ حالَةُ نُفُوسِهِمْ إلى مثل حالة مَنْ في الْقُبور، فإنَّهُ لا فائدة من تكْرِيرِ الاشتغال بدعْوَتهم، وإضاعَةِ الأوقات في معالجاتهم، بُغْيَة إصلاحهم عن طريق إراداتهم الحرّة.

فالدَّاعي إلى الله ليْسَ أكْثَر من مُبَلّغ، يُبَلّغ ما أمَرَهُ اللَّهُ بتَبْلِيغه لِذَوِي الإراداتِ الحرّة. الّذين أعطاهم الله إراداتهم الحرّة المختارة ليبْلُوهم فيما آتاهم، وليْسَ الداعي إلى الله مُجْبِراً وَلَا مُحَوِّلاً بالإكراه.

أمّا القادر على الْجَبْرِ، بتغيير طبائع النفوس، فهو الرَّبّ الخالق جَلَّ جَلالُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ بتَغْيِير طبيعةِ تكوينِه، وجَعْلِه مَجْبُوراً لا مختاراً.

لكنه ـ جلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلطانه ـ لا يجْعَلُ عبادَهُ مَجبورين، بعْد أنْ تمّتْ مشيئتُه بأنْ يجْعَلَهُمْ مُخيّرين، ليمتَحِنَهم بالتكاليف الّتي يَجِبُ عَلَيْهم أنْ يَلْتَزِمُوا بها من خلال اختيارهِمْ الحرّ، لا مِنْ خلالِ الجبْرِ الّذِي تُجْبَلُ عليه طبائع نفوسهم، فهم لا يملكونَ القدْرَة على الخروجِ عن نظامها.

هٰذا البيان الذي عرضْتُه عَرْضاً تَحْلِيلياً مُطوّلاً، قَدْ جاء التعبير عنه في الآية (٢٢) بعبارة وجيزةٍ بديعة، خطاباً من الله لرسوله، فلكُلّ داعٍ إلى الله من أمّته بأُسلوب الخطاب الإفرادي فقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾. عقِبَ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾.

أي: فَمَنْ وصَل إلى حالةٍ تُشْبهُ حالَةَ الميِّتِ المقبورِ، الَّذِي صارَ ميؤوساً من إسْماعِه بياناتِ الدَّعْوَةِ إلى الله إسْماعاً مؤثراً في نَفْسِه، فَلَا تَطْمَعْ بإسْمَاعه، واشتغل بدَعْوَةِ من لم يَصِلُوا إلى حالةٍ ميؤوس منها، لأنَّك لا تَسْتَطِيعُ أنْ تُوصِلَ الإسْمَاع إلى مراكز الإدْراكِ فيهم بالجبْرِ، وقَدْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ ذوي إراداتٍ حُرَّاتٍ مختاراتٍ بأصلِ تكوينِهِم الفِطْرِيّ، وقد وصَلُوا باختياراتهم الحرَّة إلى دَرَكَةِ المقبُورين، بَعْدَ مَوْتِ كيانَاتِهم الداخِلِيَّةِ بالكُفْر بالحقّ.

إنّ الذي يسْتَطيع إيصالَ الإسْمَاعِ إلى مراكز الإدْراكِ بالْجَبْرِ هو الله القادر على تَحْوِيلِ طبائع النفوس وتغييرها، وجَعْلِها مجْبُورَةً غَيْرَ مختارة، لكِنَّ الله ـ جلّ جلالُهُ وَعظُمَ سُلْطانُه ـ ليْسَ من حكمته أن يشَاءَ لعباده الممتَحَنين المخيّرين ليَكْشِفَ أيُّهُمْ أحْسَنُ عَملاً، فيجعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ، إذ المجبورُ لا اختيارَ لَهُ، فلا يُوضَعُ مَوْضِعَ الامتحان، ولو كان كذلِكَ لم يَكُنْ مَسُوقاً يَوْمَ الدِّينِ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، وهٰذا نَقْضٌ لأصْلِ حكْمةِ وَضْعِ العبادِ المكلّفين موضع الامتحان، ومعلومٌ أنّ مشيئات الله لا تتناقض.

- قول الله تعالى خطاباً لرسوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾:

بعد الإشعار بأنّ المعنيّين الأولين بالمعالجة في السورة، وهم كبراء مشركي مكّة إبّان التنزيل، قد وصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوسٍ منْها، فهم كالموتىٰ المقبورين، أبان الله لرَسُولِهِ أنَّ وَظيفتَهُ الأخيرة، بالنِّسْبَةِ إليهم مقْصُورَةٌ على إنْذارهم بعذاب الله وعقابه ونقمَتِه يَوْمَ الدّين، مع ما قَدْ يُنْزِلُ بِهِمْ من عذابٍ مُعَجّل.

أي: ما أَنْتَ بالنِّسْبَةِ إلىٰ هؤلاءِ إلَّا نَذِير، أي: مُنْذِرٌ تُوجِّه لَهُمُ الإنْذَارَ بعذاب الله.

«إنْ» حَرْفُ نفي بمعنى «ما» والقَصْرُ هُنا قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: بالإضافَةِ إليهم.

- قول الله تعالى خطاباً لرسوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ . . .﴾:

أي: لكِنَّكَ يَا مُحَمَّد بوجْهٍ عَامّ، لا بخُصُوصِ الميؤوس منهم، قَدْ أَرْسَلْناكَ حاملاً عدّة وظائف.

الوظيفة الأولى: دلَّ عليها: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: إنَّا حَمَّلْنَاكَ رِسَالَةَ تَبْلِيغِ الحقِّ الدّيني للناس، فأنْتَ حامل رسالَةِ حقٍّ من رَبِّك رَبّ السّماواتِ والأرض وربّ كُلِّ شيْءٍ، ومُكَلَّفٌ أن تُبلّغ رِسالَته، بكُلِّ وَسِيلَةٍ طيّبةٍ تُتَاحُ لَكَ، وتَسْتَطِيعُ الْقِيامَ بها.

والتبليغ التّامّ يَسْتَدْعِي الْبيَان والشَّرْحَ والإقناعَ، والمتابَعةَ بالتذكير، والمجادلة بالتي هي أحسن.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلم العظيم، للدَّلَالَةِ على ارتفاع منزلة هٰذِهِ الرّسالة وعظَمَتها، وللدلَالَةِ على عِظَمِ المسؤوليّة التي اصطفاه الله للاضطلاع بأعبائها الجليلة.

الوظيفة الثانية: دلّ عليها: ﴿بَشِيرًا﴾: أي: مُبَشّراً برِضوان اللّهِ وجنَّتِه، الّذِين يَسْتجيبون لدَعْوةِ الحقّ، ويتّبِعُون مَا أُنْزِلَ إلَيْهم منْ ربِّهم.

الوظيفة الثالثة: دل عليها: ﴿وَنَذِيرًاۚ﴾: أي: ومُنْذِراً بسَخَطِ الله ونِقْمَتِهِ وعذابه الأليم الخالد، الّذين لا يسْتَجِيبُونَ لدَعْوةِ الحقّ الرّبّانيّة، ويَعْصُون مُعْرِضين، أو مُدْبِرين ومُوَلّين.

وهاتان الوظيفتان «الثانية والثالِثَة» قَدْ جاءتا تَفْصيلاً للموعظة الحسَنَةِ، إذْ هي: النُّصْحُ بالفِعْلِ أوْ بالتَّرْك المقْرُون بما يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أو الرَّهْبَة في النفس للانتفاع بالنُّصح.

- قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾:

أي: وَمَا مِنْ أُمَّةٍ مَضَت في تاريخ الناس إلَّا مَضَىٰ نَذِيرٌ كان فيها، بلّغَهَا ما أرْسَلَهُ الله لِيُبلِّغَهُ إليها، وبشَّرَها برضوان الله وجنَّتِه، إذا استجابَتْ لِدَعْوَةِ رَبِّها وأطاعت، وأنْذَرَها بسَخَط الله وَنِقْمَتِهِ وعذابه، إذا أبَتْ وعانَدَتْ ولم تَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ رَبّها في بَلاغاتِ رسُوله.

لكِنَّ معْظَمَ هذه الأمم لم تستجب لدَعْوَةِ رَبّها في بَلاغاتِ رُسُله، فكانَتِ الوظيفَةُ الأخيرَةُ من وظائِفهم في أُمَمِهِمْ، أنَّ كُلَّ واحِدٍ منهم كان في أُمَّتِهِ مُنْذِراً لَهُمْ بالإهْلاك الشامل للَّذِينَ كَفَرُوا وعَانَدُوا، وآذَوْا رَسُولَهُمْ، واضْطَهَدُوا الّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ.

وقد تحقّق في الواقع ما أَنْذَرُوهُم به فَأخَذَهُمُ الله بعَذَابٍ شاملٍ مُهْلِكٍ مُدَمِّر، ومن أمثلة ذلك ما حصل لعَادٍ وثمود وأهل مدين، وفرعون وآله وجنودهم.

فكُلُّ أُمَّةٍ أُهْلِكت إهلاكاً عامّاً شاملاً مَقْروناً بتَعْذِيبٍ لها في تاريخ الناس، قدْ كان لدَيْها رَسُولٌ مُرْسَلٌ إليها من رَبّها، وفي آخِرِ آمْرِه مَعَها أنْذَرَها بعقاب الله وعذابه وإهلاكه الشامل لكفَّارِها.

﴿إِنْ﴾ حرفِ نفي بمعنى: «ما».

﴿مِنْ﴾ حَرْفُ جَرٍ جيء به زائداً، وداخلاً على المبتدأ، لتأكيد عُمُوم النفْي والتَّنصِيص عليه.

﴿خَلَا﴾: أي: مضَىٰ.

- قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

تمهيد:

سبق في الآية (٤) من هٰذه السّورة قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ④﴾.

ويتساءل المتفكّر قائلاً: ما الدّاعي لإعادة هذه القضية في السّورة نفسها؟!

أقول: بالتأمُّل في النَّصّين يَكْتَشِفُ المتدبّر، أنّ الآية (٤) جاءت لتربية الرَّسُول ﷺ بشأن تَكْذِيب كبراء قومه له، وهذه التربية تَعْتَمِدُ على بيان أنّ رُسُلاً كثيرين سابقين قد كُذِّبُوا من قِبَلِ الْأُمَم الّتي أُرْسلوا إليها، فتَعَرُّض خاتَمِ المرسَلِينَ للتَّكْذِيب لَيْسَ بِدْعاً في الرُّسُل، وعليه أنْ يَصْبِر مِثْلَمَا صَبَرُوا، وأن يتحمَّلَ الأذى مثْلما تحمَّلُوا، متأسِّياً بأُولي العزْمِ منهم، وعليه أن يتَوَكَّلَ على ربّه في أمُورِهِ كُلِّها، وأنْ يُفوّضَ كُلَّ أمْرِهِ إليه، كما فَعَلَ الرُّسُلُ من قَبْلِهِ، مُوقِناً بأنّ إلَىٰ اللّهِ وَحْدَهُ تُرْجعُ الْأُمُورِ كُلّها.

أي: وبما أَنَّ الأمْرَ كذَلِكَ فإنَّ رَبَّكَ الَّذِي أَرْسَلَكَ لَنْ يُضَيِّعَكَ، وهو مَعَكَ دواماً.

أمّا الآيتان (٢٥ و٢٦) فقد جيءَ بِهِما لتَهْدِيد مُكَذِّبي الرَّسُول ﷺ، من الَّذِين بلّغَهُمْ رسالة رَبّه، وَوَصَلُوا إلَىٰ حالة ميؤوس من إصلاحهم معها عن طريق إراداتهم الحرَّة.

ولهذا جاء فيهما بعضُ تفصيلٍ لتَكْذِيبهم، وبيانٌ لمعاقبتهم بالإهلاك الشامل، حينما أَمْسَت حالَتُهُمْ حالَةً مَيْؤُوساً منها.

ويُسْتَفَادُ من بيان هٰذه الحقيقةِ التاريخيّة، الّتي سلَفَتْ في تاريخ الناس، مع مُلاحظة أنَّ سُنَّة الله في عباده واحدة، أنَّ مُكَذِّبي الرَّسُولِ محمد ﷺ من قَوْمه، يُعَرِّضُونَ أنْفُسَهُم لمعاقبةِ الله لهم بالإهلاك الشامل،

متىٰ وَصَلُوا إلى مِثْلِ ما وَصَلَ إليه مُكَذِّبُو الرُّسُل من قبلهم، فَلْيَأْخُذُوا حِذَرَهم إنْ كانُوا عُقَلَاء، ولْيَسْتَجِيبُوا لدَعْوَةِ رَسُولِ ربّهم، فالله عزّ وجلّ لهم بالمرصاد، إذْ إنَّ كُفَّارَ سُكّانِ مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيل لَيْسُوا أكْرَمَ عنْدَ الله من الّذين سلَفُوا من كُفَّار الأمم السّابقة، الّذين أهلَكَهُمُ الله بكُفْرهم وتماديهم في العِنَادِ والْغَيِّ ومعاداةِ الرَّسُولِ ومقاوَمَةِ دَعْوَته.

وفي هذا البيان غايَةُ التَّهديد والإنذار، لكِنَّ واقع حال معظم مشركي مكّة إبّانَ التنزيل لم يَصلْ بوجْهٍ عامٍّ إلى مثل ما وصَلَ إليه الَّذِين أهْلَكَهُم الله من كُفَّارِ الْقَرونِ السَّابقة، قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شُعيب، وإخوان لُوط، وآلِ فِرْعَون، بِدَليل أنَّ الله ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ لم يُنزِلْ بهم إهلاكاً عامّاً، وإنّما اقتضَتْ حكْمَتُهُ أن يُهْلِك بَعْضَهُمْ إهلاكاً إفرادياً، وأنْ يَنْصُرَ رسُولَه والّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه في مَعارِك القتال، على الّذين تَجَمَّعُوا لحَرْبِهِمْ ومُقَاتَلَتِهِمْ.

ولا يفوتني أن أُنَبِّهَ على أنَّ هٰذا الإجراءَ في النَّصَّيْنِ، هو من البيان التَّفْصِيليِّ في القرآن، الّذي هو أحَدُ سِمَاتِ القُرْآن المجيد، إذْ يأتي فيه التّعبيرُ عن كلّ قضيَّةٍ جُزْئِيَّة يَعْتَنِي البيانُ الْقُرآنيُّ بإبْرازها بعبارة خاصَّةٍ منْفَصلة، مَعَ ما فيه منْ عباراتٍ كُلّيَّةٍ هِيَ من جوامع الْكَلِم.

وقد دَلَّ على التفصيل في القرآن المجيد عدَّة نُصُوصٍ فيه، ومنها آخر آيَةٍ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) فقد قال الله عزّ وجلّ فيها بشَأْنِ الْقُرآن:

﴿... مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

التدبُّر:

قول الله تعالى:

- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴿٢٥﴾﴾.

أقول في استعمال «إنْ» الشرطيّة هنا نظير الذي سبَقَ بيانُه لدى تدبّر الآية (٤) من السورة، وهي الدرس الثالث من دروسها.

أي: وإنْ يكُنْ من قومك يا محمَّد تكذِيبٌ لَكَ فيما أخْبَرْتَهُم به، من أَنَّكَ نَبِيّ الله ورسولُه، تُبلّغُهم عن الله ما أمَرَكَ الله بتبليغه، فقد سَلَف في تاريخ النّاس، أنَّ الأقوامَ الّذين مَرُّوا برحلة ابتلائهم من قبلهم، قَدْ كَذَّبُوا مُعَانِدِينَ رُسُلَ رَبّهم، كما كَذَّبَ هٰؤلاء.

إنَّ طبائع النّاس متشابهة، وهم يسْتَعْمِلونَ إراداتهم الحرَّة فيما يُرْضُون به أهواءَهم، وشهواتِهم ولذَّاتِهِمْ من زينةِ الحياة الدُّنْيا العاجلة الضئيلة الفانية، ويُؤْثِرُونها على النَّعِيم الخالِدِ العظيم، فكلّما جاءهُم الحقُّ الّذي يُخَالِفُ أهْوَاءَهم وشَهُواتِهِم ولذاتِهم العاجلات، وما يَحْرِصُونَ على الاستمتاع بِهِ من زينَةِ الحياة الدُّنيا، كذَّبوا به، وكذّبُوا من يُبَلّغُهُمْ إيَّاه، ولَوْ كان رَسُولَ رَبِّهم المؤيَّدَ منَ الله بالآياتِ البيِّنَات، والمعجزات الباهرات، والبراهين الدَّامِغات.

قول الله تعالى:

- ﴿... جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: إنَّهم كذَّبوا الرُّسُلَ، معَ أنَّ رُسُل رَبِّهم قَدْ جاءُوهم بما يَكْفِي لإقناعهم بأنّ ما دَعَوْهُمْ إلَيْهِ هو الحقُّ من رَبّهم، الَّذِي لا شَكَّ فيه، ولاَ رَيْبَ يَخْدِشُه.

- ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي: بالْوَاضِحاتِ الجَليَّات، واللّفظ هنا صِفَةٌ لموصوفٍ محذُوف أغْنَى ذكْرُ صِفتِه عنْ ذكره.

فما هو الموصوفُ المحذوف هُنا؟

أقول: الظاهر أنّ المُرَادَ الآياتُ المعجزاتُ، وخوارقُ العادات، الّتي

كانت بمثابَة شهاداتٍ من الله عزَّ وجلَّ، على صِدْقِ الرّسُلِ المبلّغينَ عنه ما أمَرَهم بتبْلِيغه لأقوامهم.

• ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾: الأصْلُ في الْعَطْف أنَّه يقتضي التّغاير، فدَلتْ هٰذه العبارَةُ على أنّ بَعْضَ الرُّسُل أتاهم الله عزَّ وجلَّ زُبُراً، وأنّ بَعْضُهم آتاهم الله كتاباً منيراً.

والْجَمْعُ في لفظ «الزُّبُر» دون لفظ «الكِتَابِ المنير» يُشْعِرُ بأنّ أكْثَرَ الرُّسُلِ كانَ يُنْزِلُ اللَّهُ على الواحِدِ منهم «زَبُوراً».

وأنّ الأقَلَّ من الرُّسل كان يُنْزِلُ الله عَلَيْهِ «كِتاباً مُنِيراً» مثل التوراة، والإنجيل، والقرآن المجيد.

«**الزُّبُر**»: جَمْع «الزَّبُور» وهو الكِتَابُ المزبُور، يقال لُغَةً: زَبَرَ الكتابَ، أيْ: كَتَبه، أو اتْقَنَ كتابته، فَهُوَ مَزْبُورٌ، وزَبُور.

وأطْلِقَ لَفْظُ «الزَّبُور» وجمعه «الزُّبُر» على البياناتِ اللَّفْظِية المنزّلة من عنْدِ اللَّهِ على رَسُولٍ من رُسله، إلَّا أنها لم تَبْلُغْ أنْ تكونَ كتاباً منيراً، حافلاً بالشّرائع والأحكام والبراهين، كالتوراة والإنجيل والقرآن المجيد.

ومن الزُّبُر صُحُفُ إبراهيم عليه السلام، وزَبُورُ داود عليه السلام.

«**الكِتَابُ الْمُنِيرُ**»: يُرادُ به الْكِتَابُ العظيم الذي يشْتَمِلُ علىٰ آياتٍ بيانيَّة كالمصابيح، تَكْشِفُ الحقَّ والخيرَ وصِرَاطَ الله المستقيم، للعقول والقُلُوبِ والنّفوس، بما فيها من بياناتٍ هَادِيَاتٍ دَالَّاتٍ على ما فيه سَعَادَةُ النّاس في دُنياهُمْ وفي آخِرَتهم.

وقد جاء في القرآن بيانُ أنَّ التَّوْراة «كتابٌ» وجاء في وصفه أنَّهُ هُدًى ونور، أي: فَهُوَ منير.

فقال الله عزّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ... ﴿٨٧﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... ﴿٤٤﴾﴾.

وجاء بشأن عيسى عليه السلام قول الله عز وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) حكاية لما نطَقَ به وهو في المهْدِ صبيّ:

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن عيسى عليه السلام.

﴿... وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ...﴾.

وقال الله عزّ وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لرسوله محمَّدٍ ﷺ:

﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ونفهم من قوله تعالى: ﴿... جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أنَّ كُلَّ رُسُل الله قد أيَّدَهُم الله بآياتٍ بيّناتٍ تُثْبِتُ أنَّهُم صادقون في ادّعاء أنَّهُمْ رُسُلُ رَبّهم، وأنّ بعض الرسُلِ عليهم السلام قد أنْزَلَ اللَّه عليهم زُبُراً، هي بمثابة صُحُفٍ أو أكثر من ذلك، دُون أن تَبْلُغَ كُتُباً كُبرىٰ، وأنّ بعض الرُّسُل عليهم السلام قَدْ أَنْزَلَ الله عزّ وجلَّ عَلَيْهم كتُباً عظيمَةً هي كُتُبٌ مُنيرة، وأكْمَلُها وأَجْمَعُها وأعظمها القرآنُ المجيد.

قول الله تعالى:

- ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ دَلَّ اسْتِعمالُ هذا الحرف الدّال على الترتيب مع التراخي، عَلَىٰ أنّ الّذين أهْلَكَهُمُ اللّهُ من كفَّارِ أهْل الْقُرون السَّابقة قَدْ أَمْهَلَهُم، وأمْلَىٰ لهم، ولم يُعجّل بمعاقبتهم، حتَّىٰ إذا وصَلُوا إلى حَالَةٍ ميؤوسٍ منها أخَذَهم أخْذَ إهلاكٍ شامل، مُعَذّباً ومُعاقباً ومُنْتقماً، ضمْن مجاري إرادته الحكيمة العادلة.

أصل الأخْذِ تناوُل الشيءِ والقَبْضُ عليه، وأخْذُ المجْرِم يُعَبَّرُ بِه عن مُعاقَبَتِه على جُرْمه.

وقَدْ دَلَّتِ الأخبارُ التاريخيَّةُ على أنَّ أَخْذَ اللَّهِ لكُفَّارِ الْقُرون السَّالِفَةِ قَدْ كانَ بإهْلاكِهِمْ بعَذَابٍ شامل، وإنْهاء وجودهم في ظُرُوف الحياة الدنيا.

﴿... فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي: فانْظُر أيُّها المتفكّر العاقِلُ الرشيد المتَلقِّي لهذا البيان، أو التالي أو القارئ له، كيفَ كانَ إنكاري على المعانِدين المصرّين على كُفرِهم من كُفَّار القرون السالفة، ووصولهم بَعْدَ إمْهالهم إلى دَرَكَةِ اليأس من استجاباتهم.

ويُطْلَقُ لفظ «النَّكير» على العقاب والعذاب، أي: فانْظُرْ متفكّراً كيْفَ كان عقابي وعَذَابي، وآمِنْ بَعْدْلي وبحكمتي، واتّعظ بآثارهما في عبادي.

الاستفهام عن حال الإنكار، الّذي يَسْتَلْزِمُ عِقَابَ القادر الْعَدْل الحكيم، استفهام خارجٌ عن أصْلِ دَلاَلَتِه الّتي هي طَلَبُ الْفَهْم، والمرادُ المطالبةُ بالنظر والاعتبار.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الثامن من دروس السورة، والحمد لله على معونته وفَتْحِه وفَيْض عطاءاته.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليلي للدّرس التاسع من دُروس السّورة وهو الآيتان: (٢٧ و٢٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

تمهيد:

في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ عَوْدٌ إلَى عَرْضِ بَعْضِ آيات اللَّهِ في كونه، وهي آياتٌ تَتعلَّقُ بظَاهِرَة الْأَلْوَانِ في الْأَكْوَانِ.

اختلافُ الألْوَانِ اختلافاً كثيراً وعجيباً في الثَّمَراتِ إحْدَىٰ آياتِ اللَّهِ في كونه، ومعلومٌ أنَّ أصْنافَ الزُّهُور والوُرُودِ هي من الثمرات، وفي الثمرات الأخرى ألوانٌ عجيبة تُمَيِّزُ كُلَّ نوعٍ وكُلّ صنف منها.

وكذلك اختلاف الألوان في الجبالِ والصُّخور، وتُلْحَقُ بها الرّمالُ والأتْرِبَة وسائر عناصر الأرض.

وكذلك اختلاف الألوان في النّاس والدّواب والأنعام، ويلْحَقُ بها سائر الأحياء، كالطُّيُور والأسماكِ وأنواع الفراش وخشاش الأرض والحشرات.

إنّ آيات الله عزّ وجلّ في اختلاف الْأَلْوان في الأكْوان، من الظواهر الكونيّة الدّالّة على رُبُوبيَّة اللَّهِ في الكَوْن، وعلَىٰ وحْدَتِه في رُبُوبيّته ومعلُومٌ أنّ توحيدَه في ربوبيّته يَسْتَلْزِمُ عقلاً توحيدَهُ في إلهيّته، فهو المسْتَحقُّ وحْدَه في الوجود كُلِّهِ أنْ يُعْبد، فلا إله بحقٍ إلّا هو.

هذا الدرس مرتبط بالفرع الأول من فروع شجرة موضوع السّورة، وفيه متابعةُ معالجةِ إقناع المشركين بشأن وحدانيَّةِ الله في ربُوبيته لِلْكَوْن كُلّه، ووحْدَانِيَّتِهِ في استحقاقِهِ أنْ يكون هو الإلٰه المعبود وحده.

وظاهرة الألْوانِ المختلفة اختلافاً عجيباً في الأكوان، هي من آيات الله المنبثَّة في الأرضِ وفي الكائنات عليها.

وبما أنّ اختلاف الألوانِ في الأشياء والنباتاتِ والأحياء يعتمد على طبائع الأشياء الموجودَةِ في الذَّرَّات، وهذه لا يستطيع التوصُّل إليها إلَّا أهْلُ البَحْث العلميّ، جاء في هذا الدَّرْسِ قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

وعلى الرُّغْم من أنّ علماء البَصريات والألوان، من علماء الظاهرات الكونيَّة، قد تَوَصَّلُوا إلى مَعْرِفَةِ أشْيَاءَ ذَواتِ شأْنٍ عن الألْوانِ ورُؤيتها بالأبْصار، إلَّا أَنَّهُمْ لم يتوصَّلُوا بَعْدُ إلى مَعْرِفَةِ آلِيَّةِ إدْرَاكِهَا في الأدْمغَة، بعْدَ مُرورها في أجْهزَةِ الإدْراكِ البَصرِيّ.

ومَا تَوَصَّلُوا إلى معرفتِه هُو من الأمور المدهشةِ حقاً، والدَّالَّةِ عَلَىٰ أنّ الرَّبّ الخالِقَ قَدْ أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، إذْ أحْكَمَ الرَّبْط التكامُلِيَّ بَيْنَ الطَّاقَة الضَّوْئِيَّة، ومَوْجاتِ الضَّوْءِ ذَوات الأطْوال المختلِفَةِ، الَّتي تَرَىٰ منْها أعْيُنُ الْبَشَرِ سِتّاً على شَكْلِ سِتَّةِ ألْوانٍ هي ألوان قَوْسِ قُزَح، وهٰذِه تُسَمَّىٰ الطَّيْفَ المرْئِيّ، وأقْصرُ مَا تَرَىٰ أعْيُنُ الناس طَيْفَهُ مِنْ هٰذِهِ الأمْوَاج الضَّوْئِيَّة تَرَاهُ باللَّوْن البنفسَجيّ، والأطْوَلُ منْهُ ضِمْنَ السُّلَّم الارتقائي تَراهُ باللَّونِ الأزْرق، ثُمَّ تَرَى الأطول باللَّوْنِ الأخْضَر، ثمَّ تَرَى الأطْوَلَ باللَّوْنِ الأصْفر، ثُمَّ تَرَىٰ الأطْول باللَّوْنِ البرتقالي، ثُمَّ تَرَى الأطول باللَّونِ الأحْمَر، وهذا اللَّونُ هو آخِرُ سُلَّم الطُّيُوفِ الضَّوْئِيَّة، الَّتِي تَسْتَطِيع عُيُونُ النّاسِ رُؤْيَتَها.

والضَّوْءُ ذُو الموجَةِ الأطْوَلِ مِنَ الموجَةِ ذَاتِ الطَّيْفِ الأحمر، ضَوْءٌ لَا تَرَاهُ أَعْيُنُ الناس، وكذلِكَ الضوْءُ ذو المَوْجَةِ الأقْصَرِ من الموجة ذات الطيف البنفسجِيّ ضَوْءٌ لَا تَراهُ أَعْيُن الناس.

وبعض الكائنات الحيَّةِ تَرىٰ طُيُوفَ أشِعَّةِ الضوءِ ذي الموجات الأقْصَر مِنْ مَوْجَة الضَّوْءِ الذي ترىٰ أعيُن الناس طيْفَهُ بنَفْسَجياً، وهٰذِهِ الموجَاتُ الضَّوْئِيَّةِ الأقْصَرُ محجوبةٌ عن أعْيُن الناس، لأنّ الخَالقَ المدبّر الحكيم لم يَمْنَحْهُمُ القدرة على رؤيتها، ولم يجعل فيهم الوسائل الصالحة الّتي تُمَكِّنُهُمْ من رُؤيتها.

ونَسْأَلُ عُلَمَاءَ البَصَرِيَات والألْوان: كَيْفَ نَرَىٰ الأشْيَاءَ ذوَاتَ أَلْوانٍ مختلفة.

وتُجِيبُنا مُدَوَّنات العلُوم، بأنَّ الضوءَ الَّذِي يَرْتَدُّ إلىٰ أعْيُنِ الناس مُنْعَكِساً عن سُطُوحِ المرئيّات، هو الَّذِي يَجْعَلُهُمْ يَرَوْنَها بِأشْكَالِها، وأنّ سُطُوح المرئيّاتِ تختَلِفُ عناصِرُها، فَمِنْ هٰذِهِ العناصِرِ مَا يَعْكِسُ إلىٰ أعْيُنِ الرَّائين كُلَّ الموجاتِ الضوئيَّة السِّتَّة الّتِي لدَىٰ الناسِ قابليَّاتٌ لِرُؤْيَةِ طُيوفها، فتراها الأعْيُنِ بيضاء، لأنّ اللّونَ الأبيض لَوْنٌ مُرَكَّبٌ من الألوانِ السّتَّةِ بنِسَبٍ مُتَساوية، وتختَلِفُ دَرَجَةُ البياض بسَبَبِ نَقْصِ الارْتِدادِ المُنْعَكِس، إذْ يَمْتَصُّ سَطْحُ الجسْمِ المرئيّ بَعْضَ أخْلاطٍ من أمْواج الضَّوْء.

وحين يَمْتَصُّ سَطْحُ الجسْمِ المرئيّ كُلَّ أَمْوَاجِ الضوء الّتي يراها الناس، ولا يَعْكِسُ إلى أعْيُنِ الرَّائين منها شيئاً، تَراهُ أَعْيُنُهُمْ أسْوَدَ شَدِيدَ السّواد، ويُفَسِّرُ علماءُ البصريّات هذا بانْعِدامِ اللَّوْن، وتَخِفُّ حدَّة السّواد بسَبَبِ انْعِكَاسِ بَعْضِ الأشعَّة.

أمّا الألْوانُ السّتَّةُ: البَنَفْسَجِيُّ، فالأزرق، فالأخْضَرُ، فالأصْفَرُ، فالبُرْتُقَالِيُّ، فالأحْمَرُ، فعيونُ الناسِ تَرىٰ الأشياء بواحِدٍ منها من خلال

انعِكَاسِ الموجَةِ الضَّوْئِيَّة ذاتِ اللَّوْنِ الَّذِي يَرَوْنَ بِهِ طَيْفَهَا، وأمّا الموجاتُ الأُخْرَىٰ الّتي امْتَصَّهَا سَطْحُ الجِسْمِ المرئيّ، واحْتَفَظَ بِطَاقَتِها داخِلَه، فإنّ الأعْيُنَ لَا تَرَىٰ ألوان طُيُوفها.

فما يَعْكِسُ الموجَةَ الْقَصِيرَة منْها فقط، تراه أعين الرائين بنفْسَجِياً، وَمَا يَعْكِسُ الموجَة الأطْوَل التالية، تراه الأَعْيُن أزْرَق، ومَا يَعْكِسُ الموجَة الأطْوَل التالية فقط تراه أخْضَر، وهكذا حتّى أطول الموجات منها فقط، فإنَّ الأعْيُن تراه أحْمَرَ.

وتختَلِطُ عناصر الأشياء في المرئيات، وتكُونُ مِنْهَا مُرَكَّبات، ينْتُجُ عنْها انْعِكاسَاتٌ مختلطاتٌ مختلفات من الأمواج الضوئية، الّتي ترىٰ عُيُونُ الناسِ طُيُوفها، وبهٰذا الاختلاط تَظْهَرُ أَلْوَان كثيرةٌ جدّاً، يَعْجَزُ النَّاس عن حَصْرِها.

والعامِلُ في عَكْسِ الأمواج الضَّوْئِيَّة أو امْتِصَاصِها، يَرْجِعُ إلى طَبيعَةِ الموادّ الكيمائِيَّة في الأشياء، وما أودَعَ الْعَلِيم الحكيم الخبير فيها من قابليَّاتٍ لامْتِصَاصِ الأمْواجِ الضَّوْئِيَّةِ أو عَكْسِها.

وكلُّ ذَلِك من آيات الله العجيبَةِ في هٰذا الكون الْمَليء بالعجائب، والمحفوف بإتْقان صُنْعِ الخالِق، جلَّ جلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُهُ.

فمن الحكمة في البيان القرآنيّ التّنْبيهُ علىٰ ظاهرة الألْوانِ المتقنة العجيبة، مع الإشارة إلى أنَّ العلماء المتَتَبِّعينَ للظاهرات بالبَحْث والتنقيب والدّراسة والتأمّل، لِمَعْرِفَةِ إتقان صُنْعِ الله لها، هم الجدِيرُون بأن يَشْهَدُوا أنَّهُ لَا رَبَّ إلّا الله، فَلَا إله في الوجود كُلّه بحَقٍّ إلّا هو، وهم الجدِيرُونَ بأنْ يَخْشَوْهُ، فيُعَظِّمُوهُ ويُجِلُّوه، ويُؤْمِنُوا بأنَّهُ لَمْ يَخْلُق الناسَ عبثاً، وإنَّما خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ في ظروف الحياة الدُّنيا، ثُمَّ لِيُحَاسِبَهُمْ وَيَفْصِلَ القضاء بَيْنَهم يَوْم الّدين، ويَجْزِيهم على ما قَدَّمُوا وأخَّرُوا في رِحْلَةِ امتحانِهِمْ

بالثواب أو بالعقاب، على وفْقِ مُكْتَسَبَاتِهِم الإراديَّةِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

وبِسَبَبِ وُضوحِ الرُّؤيَة الفكريَّة لديهم، يَطْمَعُونَ بثواب الله، ويخافونَ من عقابه، وبِذَلِكَ تتحقَّقُ في نفوسهم حتَّىٰ عُمْقِ أفئِدَتِهم الخشْيَةُ مِنْهُ، جَلَّ جَلَالُه وعَظُمَ سُلْطانه.

وللدَّلَالة على أنَّ الْعُلَمَاءَ المتحقِّقِين بعِلْمِ ظواهر الحياة الدُّنيا وبَوَاطِنِها وَدَلَالَاتها على الرّبّ الخالق وعَظيم صفاته، قال اللَّهُ عزَّ وجَلّ في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول):

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾.

وللدَّلَالَة على أنَّ هؤلاءِ العلماء هم المؤهَّلُون من الناسِ للْخَشْيَةِ من الله قال الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْسَ التاسع من دُرُوس السَّورَةِ الّتي نَتدَبَّرُها:

﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾.

التدبّر:

قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ ... ۝٢٧﴾.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: من السّحاب، لأنّ كلّ ما عَلَا فَأظل يُسَمَّىٰ في اللُّغَة «سماءً».

جاء هٰذا الخطابُ بأسْلُوب الخطاب الإفرادي الموجّه لكلّ صالح للخطاب، والمقْصُودُ الأوّلُ كُلُّ فَرْدٍ يُعْوِزُهُ الاقتناع بأنَّ ظاهرةَ اختلاف

الألوان في الأكْوَان ظَاهِرةٌ عجيبة، ذات آياتٍ دَالَّاتٍ على عجيبِ إتقان صُنْعِ الخالق البارئ جلَّ جلاله.

إنّ هٰذه العجيبَة من عجائب صُنْع الله وآيَاتِه في كوْنِه تَهْدِي أُولي الألباب، وأصْحَابَ النُّفُوسِ الزَّكِيَّة الْبَرِيئَةِ من الانحرافِ الْخُلُقِيّ، إلى الإيمان بأوَّلِ أرْكَان الإيمانِ في الدِّين الحق، وتَهْدِي إلى الاستمساك به، واتّبَاع صِراطِ الله المستقيم.

- ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ استفهامٌ عن عَدَمِ الرُّؤْيَةِ، والْغَرَضِ مِنْهُ أَحَدُ أمرَين:

الأمْرُ الأوّل: التقريرُ بحُصُولِ الرُّؤْية، وهٰذا يُوَجَّهُ لِمَنْ رَأىٰ فَعْلاً ظاهِرَة اختلاف الألوان في الأكْوان، وأدْرَكَ أنَّها آيَةٌ عَظيمَةٌ من آيات الله في كونه.

ويتضمَّنُ هذا التقريرُ التَّلْويمَ إلىٰ حَدِّ الإنْكارِ والتوبيخ، إذَا كانَ غَيْرَ مستفيدٍ منْها في التَّوَجُّهِ للإيمان بالحقّ الّذي دلّتْ عليه، وهو الخالق البارئ الّذي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

الأمْرُ الثاني: الحثُّ على توجيه النَّظَرِ التفكّريّ، والبحث العلميّ، لدراسة هٰذه الظاهرة والتنقيب في أسبابها وعَوَامِلها، وَمَجَارِي مقادير الله عزّ وجلّ في بواطِنِ أمُورها، للتَّوصُّل إلى إدْراكِ عجائب اتقان الصُّنْع الرَّبَّانيّ فيها.

فإذا أدْرَكَ ذَلِكَ كانَ هٰذا الإدْراكُ مُحَرّضاً لَهُ على الإيمان بِرُبُوبيَّةِ الله عزّ وجلَّ، والإيمان بإلهيَّتِهِ، وتوحيده فيهما، فلا يُشارِكُه فيهما أو في أَحَدِهما مشاركٌ في الوجُودِ كلّه.

والاستفهامُ وفْقَ هذا المعنى مُوجَّهٌ لِمَنْ هُو مؤهَّلٌ مِنْ أهل البحث العلميّ لمثْلِ هٰذا التفكُّر والتأمُّل لمتابَعَةِ البحث والدّرْسِ وإجراء التجرباتِ في المختبراتِ الْعِلْمِيَّةِ.

حتَّىٰ الإنسانُ العاديّ الّذي لَيْسَتْ لدَيْهِ الأهْليَّةُ للبحْثِ الْعِلْمِي، الكاشِفِ لأسرار اختلاف الألْوانِ في الأكوان، صالحٌ لأنْ يُكَلَّفَ أنْ يُوجِّه نَظَرَهُ التفكُّريَّ لِهَذِهِ الظاهرة، إذْ باستِطاعتِه أنْ يُدْرِكَ مِنْهَا حِكْمَةَ الله عزّ وجلّ، إذْ جَعَلَ الألوانَ المختلفة إحْدَىٰ الأدِلَّةِ على الأشياء واختلاف صفاتِها وطبائعها.

فَمَنْ رأىٰ الثمرةَ خَضْراءَ على شجرتها، وسبَقَ في تَجْرِبَتِهِ أنها لَا تَنْضَجُ إلَّا إذا احْمَرَّتْ أو اصْفَرّت، أو نحو ذلك، أدْركَ أنّها لم تنضج بَعْدُ.

ومن رأىٰ النّباتَ قَدْ بَدَأَتْ الصُّفْرَةُ تَدِبُّ في أوراقه، أدْرك أنّهُ قد بدأ يَنْضَجُ إذا حَانَ حِينُ نُضْجِهِ، أو أنَّه قد أُصِيبَ بعِلَّةٍ مَرَضِيَّةٍ، إذَا لَمْ يَحِنْ حِينُ نُضْجِهِ.

وهكَذَا إلَىٰ أُمُورٍ كثيرة جدّاً تَدُلُّ عليها ظواهِرُ الألوان، في الجامِدَاتِ والنَّباتاتِ والأحياء.

ومن الألْوان في الجامداتِ الحجَرِيَّةِ يُسْتَدَلُّ علىٰ الجواهر الكريمة، ومن الْأَلْوان في اللّآلئ يُسْتَدَلُّ علىٰ دَرَجَاتِ نفاستها.

ومن الألوان في الأحياء يُسْتَدَلُّ علىٰ صِحَّتِها، أو مَرَضِها، أو انفعالاتها، أو خَصَائِصِها النَّفْسِيَّة.

يُضَافُ إلىٰ كُلّ ذلك ما في الألوان منْ خصائِصَ جماليّة، تَفُوقُ ما لَدَى الخلائق من قُدْرَاتِ حَصْر، ومِنْهَا المتلائمات، ومنها المتنافرات، ومِنْها الهادئات، ومنْها المثيرات، وهكذا إلى ما لا حصر له في إدراك الناس.

ومن تأمَّلَ فِي أنْواع وأصْناف الزُّهُور والْوُرودِ وألْوانِها وأشكالها، دَهِشَ وتَحيَّرَ لمَا فيها من بديع صُنْعِ الله.

ومعلومٌ أنّ هٰذه الأشياء وأمثالَها، يَسْتَطِيعُ الأذكياء التوصُّلَ إلى إدْرَاكِ إتقان الله المذْهش فيها، دون بحوثٍ علميّة دقيقة ومستفيضة، ودُون معامل ومختبرات.

ولا ينقطع وُجودُ أمثالِ هؤلاء في الناس مُنْذُ عصر تَنْزِيلِ القرآن المجيد، وحتّى آخر الدَّهر، والخطابُ في النصّ يصْلُح لأنْ يُوجَّهَ لهم.

وممَّا يسْتَطِيعُ أنْ يُدْرِكَهُ الأذكياء العادِيُّون أيضاً، ما نَبَّه عليه النصّ، من أنّ ظاهرة اختلاف الألوان في النباتات الذي يتسبَّبُ عن اختلاف عناصر المركبات فيها، يُسْقَىٰ بماء واحد، هو ما ينزل من السحاب، ويَدُلُّ الواقعُ عَلَىٰ أنَّهُ قد يكون في أرْضٍ واحدة.

إنّ اختلاف الألوان في النباتات سَبَبُهُ اختلاف الخصائص الكيمائية، الّتي تتأثّر بالجينات الوراثيّة لبُزُور النَّباتات، وهٰذِهِ الجينات في البُزُور من بدائع صُنْع الرَّبّ الجليل القدير، كما أنَّ نماءَها حتَّىٰ تكُونَ أشجاراً ذوات ثمارٍ، إنّما يَكُونُ بالخلْقِ الرَّبّانيِّ المتلاحقِ آناً فآناً.

﴿... فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ... ﴿٢٧﴾﴾: في هذه العبارة الْتِفَاتٌ إلى التكلُّم بضمير المتكلّم العظيم، المشْعِر بعظمة إتقان صُنْعِهِ، في اختلاف ألوان الثمرات، وفي إخراج الثمرات وأشجارها ونباتاتها من بزورها وجُذورها، بعد اختلاط الماء بتُرابِ الأرض حوْلها.

وقبل هذه العبارة كان الحديث عن الخالق بضمير الغيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾.

﴿ثَمَرَٰتٍ﴾: تَشْمَلُ الأزهار والوُرُودَ وكلَّ نَوْرٍ تَنْشَقُّ عَنْهُ البراعِم، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أوحىٰ إلى النحل أن تأكُلُ من كُلّ الثمرات، ومعلومٌ أنّ أجْوَد غِذَاءِ النَّحْلِ رَحِيقُ الأزهار والوُرُودِ وكلّ نَوْرٍ تنشقُّ عنه البراعم.

قول الله تعالى:

﴿... وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾:

الجِبَال: هي من عناصر الأرض، وقَدْ ذُكِرَتْ في النصّ على وجْهِ الْخُصُوص لبُرُوزِها لِأَنْظَارِ النَّاسِ، وسُهُولَةِ اكْتِشَافِ اخْتِلافِ الْأَلْوَانِ في صُخُورها، وفي قِطَع منْها.

أمّا السُّهولُ فقَدْ تَحْتَاجُ حُفَراً لاكتشافِ اختلاف ألوان طبقاتها وأقسامٍ منها.

- ﴿جُدَدٌۢ﴾: جَمْعُ «جُدَّة» وهي الطريقَةُ في السّماء، وفي الجَبل.

قال الفرّاء: **الجُدَدُ**: الخِطَطُ والطُّرُقُ تَكُونُ في الجبال، أي: هَيَ طَبقَاتٌ مخْتَلفاتُ الألوان بيضٌ وحُمْرٌ وسُودٌ، فَهِيَ تُشْبِهُ الطُّرُق.

أقول: من الظاهِر أنّ المرادَ بيانُ اختلاف الألوان في الصخور، ونظيرُه اختِلافُ الألْوانِ في أقْسامٍ من الأرضِ على مُسْتَوىٰ السُّطُوحِ وعلى مسْتَوىٰ الأعْمَاقِ وَطَبقَاتِ الأرض، لاختلَاف العناصِر في ذرّاتِ كُلٍّ منها.

وجاء ذِكْرُ الأبْيَض لأنّهُ الجامِعُ لكُلّ ألْوانِ الطَّيْفِ السّتَّة: «البنَفْسَجِي، فَالْأَزْرَقِ، فَالْأَخْضَرِ، فَالْأَصْفَرِ، فَالْبُرْتُقَالِي، فَالْأحْمَر».

وجاء ذِكْرُ اللَّوْن الأحْمَرِ على وجْهِ الْخُصُوصِ لأنّ الموجَةَ الضوئيَّة الّتي يَرَىٰ الناسُ من طَيْفِها اللَّوْنَ الأحْمَرَ، هيَ أَطْوَلُ الموجاتِ الضَّوْئيّة الّتي تَسْتَطِيعُ أعْيُنُ النّاس رُؤْيَةَ أَلْوَانِ طُيُوفها.

وجاء في النَّصّ ذكْرُ الأسْود، لأنّ السَّطْحَ الّذي تراه أَعْيُنُ الناس أسْوَد قد امتصَّ كُلَّ الأمواج الضُوئية التي ترىٰ أعْيُنُ الناس طُيُوف ألْوانها، فالْأَسْوَدُ يُمَثِّلُ انْعِدَامِ اللَّوْنِ بالنّسْبَةِ إلينا.

- ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾: جاءَتْ هٰذه العبارة للدّلَالة على أنَّ الأقسامَ البِيض والأقْسَامَ الْحُمْر مُخْتَلِفَةُ الدَّرَجَاتِ فيما بينها، فالبيضُ متفاوتة

الدرجات في بياضها، والحُمْرُ متفاوتة الدَّرجات في حُمْرَتها، ويقاسُ عليهما سائر الألْوان.

- ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾: كَلِمَة «غَرابيب» هي جَمْع «غِرْبيب» وهو الأسْوَدُ المتناهِي في السَّوَاد.

وقد جاء ذكر «الغرابِيب السُّودِ» بَعْدَ ذِكْرِ اخْتِلافِ الألْوَانِ الْبِيضِ والْحُمْرِ، لأنَّ السَّوَادَ لَيْسَ لَوْناً في الحقيقة، بَلْ هُوَ انْعِدَامٌ لِلَّون.

والمعنى: وجُدَدٌ غرابيبُ سُودٌ، فَلَمْ تُجْمَعْ مع البِيضِ والْحُمْر.

وذِكْرُ الْغَرَابِيبِ المتناهية في السّوادِ يُشير عن طَرِيق اللُّزُومِ الفكْرِيّ المستَنِدِ إلى الواقع المشاهد إلى وُجُودِ أَشْيَاءَ يراها الناسُ سَوْدَاء، لكِنَّها في الحقيقة مختلطَةٌ بألْوانٍ قَرِيبة من السَّواد المتناهي في السّواد.

وجاء ذكْرُ لفظ «سُود» بَعْدَ ذكْر لفظ «غرابيب» بَدَلًا شارحاً للْمُرادِ بِلَفْظ «غرابيب» إذْ كَلِمَةُ: «غرابيب» قَلِيلَةُ الاستعمال، واقتضىٰ الْبَيَانُ الجمْعَ بيْنَهُما للدَّلالة على معنىٰ التناهي في السَّوادِ الذي دَلَّ عليه لفْظُ: «غرابيب».

واقتضىٰ إيثارُ الجمالِ اللَّفظيّ في تَرْتِيب كلمات الآية، تأخيرَ لفظ «سُود» ليكون رأسْ آية.

ولفظُ «سُود» هو جمع «أسْوَد».

ولا يفوتُني بيان ما في اختلاف الألوانِ من نِعْمَةٍ عظيمة للنَّاس، إذْ يَتَعَرَّفُونَ عن طَرِيق اختلاف الألوان على تَنَوُّعِ الأشياء وخصائصها، مع ما يَسْتَمِعُونَ به من جمالياتٍ كثيرات تكون بسَبَب الألْوَانِ الّتي يُحسُّونَ بها، حِينَ يَرَوْنَ مُرَكَّبَاتٍ كثيراتِ الاختلافِ من ألْوانِ الطيْفِ المنعكِسِ عنها.

قول الله تعالى:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ... ﴿٢٨﴾﴾.

الدَّواب: جمع «الدَّابّة» وهي اسمٌ لما يَدِبُّ من الحيوان، سواءٌ أكان مُمَيِّزاً أمْ غيْر مُمَيِّز.

يقالُ لغة: دَبَّ يَدِبُّ دَباً وَدَبِيباً، أي: مشىٰ على هينَتِه. وكُلُّ ماشٍ على الأرْض دابَّةٌ، ودَبِيب.

وقد غَلَبَ هٰذا الاسمُ على ما يُرْكَبُ من الدَّوابّ، كالخيل والبِغَال والحمير.

وجاء في القرآن إطلاقُ لفظ «دابَّة» على كلّ ما يمْشِي على الأرض، حتَّىٰ ما يَمْشي علىٰ بَطْنِه، أو رِجْلَيْن، أو أرْبَعَ، أو أكثر.

وجاء في هذا النّصّ تخصيص ذكْرِ النّاس من عُمُومِ الدَّوابّ قَبْلَ ذِكْرِها اهتماماً بالمخاطَبِين، وبَعْدَ ذكْرِ الناس جاء ذكْرُ عُمُوم الدّوابّ، وبَعْدَ الدّوابّ جاء ذكْر الأنعام على سبيل الخُصُوصِ، مع أنّ الأنْعامَ من الدّوابّ، لأنَّها تَمْشِي على الأرض، وسبب تخصيص الأنعام بالذكر أنّ المخاطبين إبّانَ التنزيل لهم عنايَةٌ عظيمة بها، إذْ هي أفضل أموالهم، وأعظم مجالات استثماراتهم الناميات، ولهم عناية بألْوانِها، وفي مُقَدَّمَتِها حُمْرُ الْإِبْل الّتي هي أكْرَمُ أمْوالهم.

﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مُتعلّقٌ بخبر مُتقدّم ﴿مُخۡتَلِفٌ﴾ مبتدأ متأخّر، وهو اسْمُ فاعل صِفَة لموصوفٍ محذوف، قيل: تقديره: «نوع، أو صنف، أو بعض» وقال الفرّاء: تقديره: «خَلْقٌ».

أقول: يتَرَجّحُ لدَيّ أنّ تقْدِيرَه: «مَرْئِيٌّ» مُراعاةً لما جاء في صدر الآية (٢٧): ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ ولأنّ ظاهرة الألوان ظاهرةٌ مرئيَّة. ولفظ ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ فاعل لاسم الْفاعِل ﴿مُخۡتَلِفٌ﴾ إذْ هو يَعْمَلُ عَمَل فِعْله.

فالمعنى: ومَرْئِيٌ مُخْتَلِفٌ ألْوانُهُ من الناس والدَّواب والأنعام.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ عبارة جيءَ بها لتَدُلَّ على أنّ اختلاف ألوان هٰذهِ الأحياء، نظير اختلاف الألْوانِ في الثّمرات وجُدَدِ الجبال، وهو يخْضَع للقانون العامّ الذي تختلف فيه ألْوان الأشياء بمقتضىٰ اختلاف موادّها وعناصرها.

وبناء على هذا يُقاسُ على المذكوراتِ كلَّ ما يُرىٰ له لوْنٌ ممَّا خَلَقَ اللَّهُ من شيء، فقانون الله عزَّ وجلَّ في المرئيَّات من الألوان واحِدٌ في الكائنات المادّية، وهو يعتمد على أمْرَين:

الأمر الأول: خَصَائِصُ مُرَكَّبَات المرئيّ الكيمائيَّة.

الأمر الثاني: ألْوانُ طُيوف أمواجِ الضَّوْءِ المنْعَكِسَةِ عن المرئيّ إلَىٰ أعْيُن الناس.

وهٰذِه قدْ تَوصَّلَ إلَيْها عُلَماء البَصَرِيَّاتِ والألْوان بعد نزول النَّص القرآني بقُرُون.

قول الله تعالى:

﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ... ﴿٢٨﴾﴾:

في هٰذهِ العبارة إشارةٌ ضِمْنِيَّةٌ إلىٰ أنَّ إدْراكَ سرِّ ظاهرة اختلاف الألوان يتطلّبُ بحثاً علمياً متعمّقاً، ولا يُتَوَصَّلُ إليه بمجَرَّدِ النظر السَّطْحِي الَّذي يَسْتَمْتِع بجمالها، ويستفِيدُ من اختلاف دَلالاتها على خصائص الأشياء من ورائها.

ويُلاحظ أنّ هٰذه العبارة قد جاءت في النصّ بِصيغَةٍ كُلِّيَّةٍ عَامَّةٍ، لَا تختَصُّ بالألْوان، لتَدُلَّ على انْحِصَار الخشية الحقيقيّة (الخوف، والإجْلالِ، والتعظيم، والْحُبّ) من الله بالْعُلَماءِ به، وبعظيم صفاتِه جلّ جلالُه، وَيَدْخُلُ فيهم عُلَمَاءُ الْبَصَرِيَّاتِ والألوان.

ولَيْسَ مَعنى هذه العبارة أنّ كُلَّ الْعُلَمَاءِ يَخْشَوْنَ الله، لكِنَّ معناها أنَّ كُلَّ الّذِينَ يخْشَوْنَ الله جلَّ جَلالُهُ حقّ خشيَتِهِ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا عُلَمَاءَ بهِ وبجلائل بَعْضِ صفاته.

فالعبارة فيها حَصْرُ الخشية الحقيقيَّة بِعُمُومِ طَائِفَةِ العلماء، لا بكلّ فردٍ من إفرادهم، وأداة الحصر هي: لفظ «إنَّما».

قول الله تعالى:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾:

يتساءل المتدبّر: ما الحكمةُ مِنْ خَتْمِ هذا الدَّرْس بالتذكير باسْمَي الله: «العزيز الغفور».

أقول: بشيء من التفكّر التّدَبُّري، يظهر للمتدبّر أن الخطابَ موجَّهٌ توجيهاً أوّلياً للمشركين وسائر الكافرين، لإقناعهم بقضيَّةِ الإيمان الكُبْرىٰ، وهؤلاء يُلائم حالَهُم التَّخْوِيفُ من الله، والإطْمَاعُ بغُفْرانِه، إذا آمنوا وتابُوا واسْتَغْفَرُوا.

أمّا التَّخويف من الله وعقابه وانتقامه، فيَتَلَاءَمُ مَعَهُ من أسماء الله عزّ وجلّ أنَّهُ «**العَزِيزُ**» أي: القويُّ القدير الغالب، الّذي لا تَمْنَعُهُ قُوَّةٌ معارضة من غَيْر ذاته.

وأمّا الإطْماعُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ لِمَنْ يؤمن ويَتُوبُ ويستغْفِر، فيتَلَاءَم معه من أسماء الله الحسنىٰ أنَّهُ «**الغُفُور**» أي: كثيرُ المغفرة وعظيمها.

فجاء في آخر الدرس الجمع بينهما.

* * *

نظرة تكامليّة حول ما جاء في سائر القرآن بشأن الألوان (موضوع هذا الدرس):

(١) سبَق أن تَدَبّرنا ما جاء في سورة (فاطر/٤٣ نزول) بشأن الألْوانِ في الأكوان.

(٢) ثـم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الزُّمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

جاء الخطابُ في هذه الآية بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، كالّذي جاء في سورة (فاطر) وصَدْرُ النَّصَّيْنِ مُتَماثلان، فما ذكرتُه من تَدَبُّرٍ هُناك يُغْني عن إعادته هُنا.

- ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: أي: فَأَدْخلـه. السُّلُوكُ: في اللُّغة، الدُّخُولُ، والإدْخال. يقال لغةً: سَلَكَ الشيْءُ في الشَّيْءِ، أي: دَخلَ فيه. ويقال: سلَكَ فُلانٌ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ، أيْ: أدْخَلَهُ فيهِ، وَجَعَلَهُ يَعْبرُهُ.

- ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ جمْع: «يَنْبُوع» وهو عَيْنُ الماء. والمعنى: فَسَلَكَهُ مَسالِكَ في باطِنِ الأرضِ، وأخْرجَهُ منْها يَنابيع، أي: خارجاً منْها عُيُونَ ماء. والمسالِكُ في الأرض هي العُرُوقُ الّتي يجري فيها الماءُ في باطِنِ الأرض، ثُمَّ يَخْرُجُ منْها يَنابِيعَ متفرِّقَةً سدّاً لحاجات الناس، وسائر الأحياء في أماكن من سَطْحِ الأرض، وليَسْقِيَ النّاسُ منها أشجارهم ومزارعهم.

والعبارة فيها تَضْمِينُ: ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ معنى فِعْلِ: «فَأَخْرَجَهُ» أي: فَسَلَكَهُ مُخْرجاً إيّاهُ يَنابِيع، فأغنت الجملةُ عن جُمْلَتَين، وهذا من إبْداعات القرآن المجيد.

فَأَضاف هٰذا النَّصُّ من سورة (الزّمر): فِكْرَةَ إِدْخَالِ الْمَاءِ في مَسَالِكَ من عُروق الأرْض، وإخراجِهِ يَنَابِيعَ تَتَفَجَّرُ مِنْهَا، وهذه الفكرة لم تُذْكَرْ في النّص الذي من سورة (فاطر).

ويكونُ النَّصُّ الذي في سورة (فاطر) قد دَلَّ على المطر الَّذي يَنْبُتُ به الزَّرْعُ دُونَ أن يكون عن طريق الينابيع، أمّا النَّصُّ الّذي في سورة (الزّمر) فقد دَلَّ على الْيَنَابِيعَ الَّتِي تُسْقَىٰ منها الأرضُ فَتَنْبُتُ الزُّرُوع بمائها.

وهذا الأسْلوبُ البيانيُّ هو من منْهَجِ القرآن القائم على التفصيل والتكامُل في نُصُوصِه.

- ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ جاءت هذه العبارة معطوفَةً بحَرْف العطفِ «ثُمَّ» الدَّالِّ علَىٰ التراخي في الزَّمن، للدَّلالة على أنْ الماءَ الذي يَدْخُلُ في الأرض، وتحتَفِظُ به خزَّاناتها، ويَسْلُكُهُ اللَّهُ عزّ وجلّ في عُرُوقِ الأرض، ويُخْرِجُهُ منها ينابيع، يتطَلَّبُ زَمناً فيه طُولٌ نِسْبِيٌّ، حتَّىٰ تُسْقَىٰ به الأرضُ المشْتَمِلَةُ على بزُورِ النباتَاتِ أو جُذُورِها، ويُخْرِجَ اللَّهُ بِهِ زَرْعاً من أنواعٍ شَتَّىٰ، ومُخْتَلِفاً ألْوانُه.

بخلاف العبارة الْتي جاءت في سورة (فاطر) فقد جاءت بحرف العَطْف «الفاء» الّذي يَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، لأنّ البيان فيها يتناوَلُ الحديثَ عن إنْزالِ الماء على الأرض المشْتَمِلَةِ على البزور مباشرةً.

فتكامَلَ النَّصَّان في الدَّلَالة على الوُجُوهِ الواقِعيَّةِ المختلفة.

يُضَافُ إلى هٰذا أنّ نصّ (فاطر) تحدّث عن الثمرات، أمّا نصُّ (الزُّمر) فتحدّث عن عُموم الزّرْع، وهٰذا تكامُلٌ آخرُ أَساسُهُ التفصيلُ في النُّصوص القرآنية.

- ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾:

﴿يَهِيجُ﴾: أي: يَيْبَسُ وَيَصْفَرُّ. يُقَالُ لغة: هَاجَ النَّباتُ يَهِيجُ هَيْجاً وَهَيَجاناً، أي: يَبِسَ واصفرّ، وهاجَتِ الأرض، أي: يَبِسَ بَقْلُها واصْفَرَّ.

فذكَرَتِ العبارة هُنا اللَّوْنَ الأصْفر، إضافة إلى الألوان الَّتي ذُكِرَتْ في سورة (فاطر) لأنّ الصَّفْرَة هي اللَّونُ المألُوفُ لما يَيْبَسُ من النبات.

وجاء العطفُ بحرف «ثُمَّ» للدَّلَالَةِ على التراخي الزمني بيْنَ إخراج الزَّرْع ويُبْسِهِ واصفراره.

- ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَٰمًاۚ﴾:

الْحُطَامُ: هو من كُلِّ شيْءٍ مَا تَكَسَّرَ مِنْه. يُقالُ لغة: **حَطَمَ** فلانٌ الشيءَ يَحْطِمُه حَطْماً، أي: كَسَرَهُ. **وحطَّمَهُ**، أي: كَسَّرَه. فَهُوَ «حُطَام».

وهكذا تكونُ الزُّروع بَعْدَ يُبْسِهَا واصْفِرارها، وذهاب ماء الحياة منها. ولا يَحْدُثُ هٰذا مُبَاشَرَة، بَلْ يَحْدُثُ بَعْدَ تَراخٍ زَمَنِيّ.

- ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢١﴾:

الذِّكْرَى: اسْمٌ للتَّذْكير، ويأتي اللَّفْظُ اسْماً للتَّذْكِرَةِ، أي: إنّ في إنْزَالِ الماءِ من السَّماءِ، وإنْبَاتِ الزَّرْع ذي الألوان المختلفة، ثُمَّ يَبْسِهِ واصْفِراره، ثُمَّ جَعْلِهِ حُطاماً متكسِّراً، لَتَذْكِرَةً مُتَكَرِّرَةً في الظّاهرات الكونيّة الّتي هِيَ من آيات الله الكونيّة، تُنَبّهُ أُولي الألْبَابِ علَىٰ عظيم قُدْرَةِ اللَّهِ وجليل حكمته، وأنّ بَعْثَ الناس إلى يَوْم الدّين يُشْبِهُ إنْباتَ الزّرْع من بزُوره بَعْدَ أنْ يَبِسَ وَصَارَ حُطَاماً.

﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: لِأَصْحَاب الْعُقُول الحصيفة. **اللُّبُّ**: هو الْعَقْلُ الخالِصُ مِنَ الشَّوائب.

(٣) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) نصَّيْن:

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ فيها ضِمْنَ عَرْضِ بَعْضِ نِعَمِهِ على عباده التي هي من آياته في كونه:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ⑬﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: وَمَا خَلَقَ لَكُمْ في الأرض. ويأتي الذَّرْءُ بمعْنَىٰ الْبَثّ.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: سبَقَ أنْ عَلِمْنا أنّ ذِكْرَ اختلاف الألْوَانِ يَدُلُّ علىٰ اخْتِلافِ الْخَصَائِصِ الكيمائيَّة للمُرَكَّبَاتِ، لأنَّ اختلاف الألْوانِ الّتي تَراها الأعْيُنُ للأشياء، إنَّما هُوَ أثَرٌ لاخْتِلَافِ الْمَرْئِيَّاتِ في عَنَاصِرِها الكِيمائيَّة، واختلافُ العناصر الكيمائيَّة يَلْزَمُ عَنْهُ اختلاف الخصائص.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن النَّحْلِ إحْدَىٰ آيَاتِ الله في كوْنه:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ㊻ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)﴾.

﴿ذُلُلًا﴾: أي: سَهْلَةً مُمَهَّدَةً مُيَسَّرَةَ السُّلُوك، وهو جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «ذَلُول».

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾: أي: يَخرُجُ من بُطُونِ النَّحْلِ بقضاء الله وقَدَرِه وجَلِيل تَدْبيره لِكَوْنِهِ، شرابٌ هُوَ «الْعَسَلُ» مُخْتَلِفٌ أَلْوانه.

اختلافُ الألْوانِ يُشِيرُ إلى اختلاف خصائِص مُرَكَّبَاتِ أصْناف الْعَسل، كما سَبَقَ بيانُه، وفي كلّ صِنْفٍ من أصناف الْعَسَلِ شفاءٌ مَا لِصِنْفٍ من أصْنافِ الأمْراضِ والْأوجاع، وعَلَىٰ النَّاسِ أنْ يُتَابِعُوا البحْثَ والتَّجْرِبَة لمَعْرِفَة خصائِصِ كُلِّ صِنْفٍ وتَأْثيراته العلاجيَّة.

(٤) ثم أنزل الله عز وجل في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) قوله بَيَاناً لِبَعْضِ آياتِهِ في كونه:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

فَنَبَّهَتْ هذه الآيَةُ علىٰ أنّ إدْرَاك آيَاتِ اللَّهِ في خَلْقِ السَّمَاواتِ والأرْض، وفي اخْتِلافِ أَلْسِنَةِ النّاسِ وَلُغَاتِهِم في شُعُوبِهِم، وفي اختلاف أَلْوَانِهِم، إنَّما يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ الْعَالِمُونَ، الّذِين يُتَابِعُونَ البحثَ العلميَّ التجريبيَّ لِمَعْرِفَة أَسْرَارِ نَشْأَةِ وَتَرْكِيبِ وخَصَائِصِ هٰذِهِ الظَّاهِراتِ الكونيَّة، الدَّالّاتِ على حِكْمَةِ الخالِقِ العظيم، وعلى قُدْرَتِهِ على أن يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، وعلى إتْقَانِ صُنْعِهِ لكلِّ ما خَلَقَ، جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه.

فأضاف هذا النصّ بياناتٍ لم تأتِ في النُّصُوص السّابقات، وهذا مُنْسَجِمٌ مع منهج بيان الله في القُرْآنِ المجيد، القائم على التفصِيل والتكامُل في النُّصُوص التي تتناول مَوْضوعاً كُليّاً واحداً.

وبهذا تمَّ تدبّر الدَّرْس التاسع من دروس السورة، والحمد لله على معونته، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

(١٣)

التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآيات من (٢٩ ـ ٣٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن

فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ
ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ
أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن
فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ
جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ
كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا
نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ
مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ».

القراءات:

(٣٣) • قرأ أَبو عَمْرو: **[يُدْخَلُونَهَا]** بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه. وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[يَدْخُلُونَها]** بالبناء لِلْمَعْلُوم. وبَيْن القراءتين تكامل في الأداء البياني، أي: إنّ الله عزّ وجلّ يُدْخِلُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جنّاتِ عَدْن، فَهُمْ يَدْخُلونها حامِدِينَ رَبَّهم على ما تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ به.

(٣٣) • قرأ نافع، وحفصٌ: **[وَلُؤْلُؤاً]** بالنَّصْبِ عطْفاً على محلّ: **[مِنْ ذَهَبٍ]** وبتحقيق الهمزتَيْن. وقرأ شعبة، وأبو جَعْفر: **[وَلُولُؤاً]** بالنَّصْبِ، وبإبدال الهمزة الأولى واواً مِدِّيَّة، وبتحقيق الهمزة الثانية.

وقرأ الدُّوري عن أبي عَمْروٍ: **[وَلُؤْلُؤٍ]** بالجرّ عطفاً على لفظ **[مِنْ ذَهَبٍ]** وبتحقيق الهمزتَيْن.

وقرأ السُّوسي: **[وَلُولُؤٍ]** بالجرّ، وبإبْدال الهمزة الأولى واواً مَدِّيّة.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرة: [**وَلُؤْلُؤٍ**] بالجرّ، وبتحقيق الهمزَتيْن، ولحمزة وهشام في الوقف إبْدال الهمزة الثانية واواً مع سكونها، أو رَوْم حَرَكتها، ولَهُمَا تسهيلها مع الرَّوْم.

وحمْزَةُ في الوقف يَبْدِلُ الهمزة الأولى واواً خلافاً لهشام.

(٣٦) • قرأ أبو عمرو: [**يُجْزَى كُلُّ**] بالبناء لما لم يُسَمَّ فَاعله، ورفع «كُلٌّ»، وقرأ باقي القراء العشرة: [**نَجْزِي كُلَّ كَفُور**] بالبناء للمعلوم ونَصْبِ «كلَّ».

وبَيْن القراءتَيْن تكَامُلٌ في الأداء البياني.

تمهيد:

هذا الدرس من دروس السورة يتعلّق بأمَّةِ دَعْوة مُحَمَّدٍ ﷺ وهُمْ كُلُّ النّاس بَعْدَ بِعْثَتِه، والمسْؤوليَّة تلْزَم أعْنَاقَ مَنْ بَلَغَتْهُمْ بِعْثَتُه، وأنَّهُ رَسُول اللَّهِ الخاتم لِرِسَالَات الله للناس.

وجاء في هذا الدرس ما يلي:

(١) دعوة المؤمنين إلى تلاوة كتاب الله القرآن، وإقام الصلاة، والإنفاق ممّا رزَقهم الله سرّاً وعلانِيةً، وهم يرجون الربح العظيم من ربهم، مع غفران ذُنوبهم.

(٢) بيانُ أنّ ما أوحى الله بِهِ إلىٰ رسوله من القرآن هو الحقّ، فما ناقَضَهُ باطِلٌ لَا مَحَالة.

(٣) بيانُ أنّ القرآن مُصدِّقٌ للكُتُب الرَّبَّانِيَّة الّتي أَنْزَلَها الله عزَّ وجلّ على رُسُلِه من قبله.

(٤) بيان أنّ الله بعباده السّابقين واللّاحِقِينَ لخبير بصير، أي: فهو يحاسِبُهم، ويفْصِلُ القضاء بينهم، ويجازيهم بحسب ما قَدَّمُوا وأَخَّرُوا من أعمال في رحلة امتحانهم.

(٥) بيان أنَّ الله عزّ وجلّ أوْرَثَ الأُمَّةَ المحمَّدِيَّةَ الّتي اصطفاها من عبادِه، الكِتَابَ الجامع لزُبْدَةِ مَا أنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ أوْ زَبُورٍ أَوْ صُحُفٍ، على رُسُلِهِ السَّابقين، لِعَلْمِهِ بأنَّ هٰذِهِ الأمَّةَ بوجْهٍ عامّ هي الأمّة الحافظة الراعية المتدبّرة لكتابه الخاتم وهو القرآن.

(٦) بيان أن هٰذهِ الأمّة المحمديَّة تَنْقَسِمُ إلى ثلاثة أقسام:

القِسْمُ الأول الأدنى: الظالمون لأنْفُسِهِمْ بالمعاصي، مَعَ صحَّةِ إيمانهم، وهؤلاء هم الجمهور الأكثر منهم، وهُمُ القِسْمُ الأدنىٰ في سلّم الإيمان والعمل الصالح.

القسم الثاني الأوسط: المقْتَصِدُون، وهم الّذين يُؤدّون الواجبات، ويتركون المحرَّمات، ولا يَسْتَزِيدُونَ من نوافل القربات، وهؤلاء قَلِيلون بالنِّسْبَةِ إلى القِسْمِ الأول الأدنىٰ، وهم القسم الأوسَطُ في سلَّم الإيمان والعمل الصالح.

القسم الثالث الأعلى: وهم السابقون بالخيرات والأعمال الصالحات، فَوْق فِعْلِ الواجبَاتِ وَتَرْكِ المحرَّمات، وهؤلاء هم الأقَلُّون بالنسبة إلى عموم المؤمنين المسلمين، وهم القسم الأعلى في سُلَّم الإيمان والْعَمَلِ الصالح، وهم على مرتبتين: «أبرارٌ ومحسنون» أخذاً من نصوصٍ أخرى.

ومن حِكْمَةِ الترتيب مع النَّظَرِ إلى الواقع فَهِمْنَا أنّ الظالمين لأنفسهم هم الأكثرون، وأن المقْتَصِدِين هم الأقلُّ منهم، وأنَّ السَّابقين بالخيراتِ بإذْنِ الله هم الأقلُّون، مع أنّ الأمَّة المحمّدِيَّة بمجْمُوعِها العامّ مصطفاة، لأنّها لا تجتمع على ضلالة، بخلاف الأممِ الأخرىٰ السابقة فقد اجتمع خَلْفُ كلٍّ منها على ضلالَة، فحرَّفوا وبَدَّلُوا فِي دِين الله، ولم يؤمِنُوا بمَنْ جاء بَعْدَ رَسُولِهم من رسول، ولا بما أنزل الله عَلَيْه من كتاب.

(٧) بيانُ لَقْطَةٍ تصويريَّة من لقطات ما أعَدَّ اللَّهُ لِلْأُمَّةِ المحمّدِيَّة، من ثوابٍ عظيم في جنَّات النَّعِيم يَوْمَ الدّين، وما يَجْرِي منهم وهم يُنَعَّمُون.

(٨) بيانُ لقطة تصويريَّةٍ من لقطات ما أعَدَّ الله للّذين كَفَرُوا برسالة محمّد ﷺ من أُمَّة دَعْوَتِه، وما يَجْري منهم في دار عَذَابِهم من مطالب، وما يُجَابُونَ به، مع بيان الحكمة ممّا يجابون به.

وهذا الدرس موصول بالفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة، التابعة لفروع شجرة موضوع سورة (الفرقان) كما سبق بيان ذلك، وهو فرع المرْسَلِ إليهم، وهم العالَمُونَ بَعْدَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ، من آمَن واتَّبع، ومن كفَرَ وتولّى.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

مقدمة:

القرانُ المجيدُ أنْزَلَه الله الرَّبُّ العليم الحكيمُ الخبير جلّ جلالُهُ، ليكونَ ذكراً لِمَنْ آمَنَ وأسْلَم، واتَّبَعَ خاتَمَ رُسُلِ الله محمداً ﷺ، أي: ليتَجَدَّدَ حُضُورُ معانيه في ذاكراتِ الّذِينَ آمنوا واستجابوا لدَعْوَته، مُصَدّقين رَسُول رَبّهم مؤمنين به.

وتَجَدُّدُ حُضُور معاني القرآن إنَّما يكونُ بتلاوته بالتتابُعِ آناً فآناً، في الأيّام واللّيالي، حِزْباً فَحِزْباً، ليكونَ قوتَ العقول والأفكار والقلُوب والنفوس، ولهذا سمَّىٰ الله عزّ وجلّ القرآن ذِكْراً.

وتلاوةُ المؤمن المسْلِم لكتابِ الله القرآن ينبغي أن تكُونَ وِرْداً يومِيًّا متكَرّراً، كالطّعام والشّراب، وتلاوَةُ قِسْمٍ منْهُ واجبٌ مفروضٌ يَوْمياً في الصلوات الْخَمس المفروضة، وما زاد علىٰ ذَلِكَ فَهو مَنْدُوبٌ إلَيْهِ بتأْكِيد.

وتلاوة شيءٍ من القرآن ينبغي أن تكُونُ مَصْحُوبَةً بِتَفَهُّمٍ ما، وتَدَبُّرٍ لما تدلُّ عليه ألفاظُهُ من مَعَانٍ.

وللتالي من الأجْرِ عْشر حَسَناتٍ على تلاوةِ كُلِّ حَرْفٍ من حُرُوفِهِ بِفَهْمٍ أو بغير فَهْمٍ، لكِنَّ الثّوابَ علىٰ الْفَهْمِ وحُسْنِ التَّدَبُّرِ أَجَلُّ من ذَلِكَ وأعظَمُ، وعلى مقدار اجتهاد التالي في التدبّر يكونُ ثوابُهُ عند الله تباركَ وتعالى.

قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ... ﴿٢٩﴾﴾:

التِّلاوَة: هي في اللّغة الاتّباع، واستُعْمِلَتْ كلمةُ التلاوة بالنّسبةِ إلى القرآن، بمعْنَى النُّطْقِ به، مع تَتَبُّعِ حُرُوفه وكلماتِه كما أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزّ وجلّ على رسوله مُحَمَّد ﷺ.

فإذا كانت التلاوة تَتَبُّعاً لِلْمَكْتُوب مِنْهُ فهِيَ قراءة، تقول لغة: تَلَوْتُ القرآنَ أتْلُوهُ تِلاوَةً، إذَا تَتَبَّعَت حُرُوفَهُ وكَلِمَاتِه، فنطَقْتَ بها، فإذا كان ذلك من المصْحَفِ مثلاً، فهي قراءةٌ وتِلَاوَة، وقد يُقال: «قَرَأ» ولو من حفظه دون نظر إلى المكتوب ممّا تَلا تَوَسُّعاً. ومادّة «تَلَا» تَدُور حَوْلَ معْنَى اتّباع التّالي للمتْلُوّ، يقال لغةً: تَلَا المأمُومُ إمَامَهُ، أي: تَبِعَهُ في أعْماله، وتَلا الطِّفلُ أمَّهُ، أي: أتْبَعَها.

والمرادُ بكتاب الله هُنا الْقُرْآن المنزّل على محمّد بن عبد الله ﷺ، لأنَّ الخطابَ هُنا مُوَجَّهُ لِمَنْ آمَنَ به.

قول الله تعالى:

- ﴿... وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾: المرادُ بإقامة الصَّلاة إقامة الصَّلاةِ المفروضة، والصَّلاةُ المفروضة إبَّانَ نُزُول سورة (فاطر) الّتي نزلَتْ في أواسِط العهد المكيّ من تاريخ دعوة الرَّسُول هي الصلاة الّتي كانت مَفْرُوضَةً على المسلمين مُنْذُ أوائل الرّسالة المحمّدية، قَبْلَ حَادِثَةِ الإسراء الّتي فُرِضَتْ الصَّلواتُ الْخَمْسُ فيها على المسلمين.

قد يقال هي الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، لأنَّ الأقوال في زَمَنِ حُدُوثِ قِصَّةِ الإسْراء والمعراج كثيرة، ومِنْهَا أنّها حَدَثَتْ قَبْلَ الهجرَةِ بِنَحْوِ سِتِّ سِنين، فَمِنَ الممكِنِ أنْ تكونَ سُورَةُ (فاطر) قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَهَا، لكن سورة (الإسراء) الّتي افتتحها الله بذكر حادثة الإسراء قد نزلت بعد (فاطر) بست سور، فالظاهر أنّ المراد الصلاة التي كان يصليها المسلمون قبل فَرْضِ الصلوات الخمس.

على أنّ عبارة ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها إيحاءٌ بأن المراد الصَّلاةُ الّتي سَتَسْتَقِرُّ فَرْضِيَّتُها في الإسلام، وسَتَجِب إقَامَتُها في أوقاتها، الّتي ستكون من المعلومات الثابتاتِ الّتي يَعْرِفُها عُمُوم المسْلِمين.

فالصَّلاةُ عبادَةٌ تَلْزَمُ المؤمِنَ بَعْدَ إعلانِه الشَّهادَتَيْن، ودُخُوله في الأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّة المسلمة، سواءٌ أكانت رِكْعَتَيْنِ في أوّل النهار، ورَكْعَتَيْنِ في أوّل اللَّيل، كما قيل: إنّها كانت كذلِكَ في أول الأمْر، أمْ كانَتْ خَمْسَ صَلَواتٍ في الأوقات الخمس، الّتي اسْتَمرَّ علَيْها الحكْمُ التَّشْرِيعيّ بَعْدَ حَادِثَة الإسْراءِ والمعراج. وسواءٌ أكانت ثِنْتَيْن من الرَّكَعَاتِ باسْتِثْنَاءِ صلاة المغرب، أمْ كانت أَرْبَع رَكَعاتٍ في الظُّهر والْعَصْر والعشاء، ثُمَّ قَصُرَتِ إلى ثنتَيْنِ في السَّفَر تخفيفاً، أمّا الْفَجْر والمغرب فقد بَقِيَتا على ما كانتا عليه.

فعِبَادَةُ الله بالصَّلاةِ تَأْتِي في التَّعْليمِ الدّينيّ عَقِبَ إعْلانِ الإسلام مُبَاشَرَةً، لما فيها من تعبيرات التَّوَجُّهِ لِلَّهِ، والخضوع لَهُ بالرُّكوع والسُّجُود، والانقطاع له بالذّكر والتسبيح.

والمراد بإقامَة الصَّلاة هُنا المداوَمَةُ والمواظَبةُ عَلَيْها في أوقاتها، وأداؤها على الوجْهِ الشَّرْعِيّ المطلوب فيها، أي: جَعْلُها مستقيمةً لا عِوَجَ فيها، ومعنىٰ المداومة يدُلُّ على معنى التكرار والتجدُّد فيها.

يقال لغة: أقامَ الرَّجُلُ الشيءَ، أي: أدامَهُ وواظبَ عليه، وأدّاهُ مُوَفِّياً حَقَّهُ تماماً غير مَنْقُوص.

و«ال» في كلمة «الصَّلاة» هي «أل» التي للعهد، أي: هي الصلاة المعهودة في الإسلام، والتي لا تكون إلا لله وحده.

قول الله تعالى:

- ﴿... وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ...﴾:

- ﴿وَأَنفَقُواْ﴾: أصْلُ الإنفاق في اللّغة للمال، هو بمعنى إفنائِه وإنْفاده، يُقَالُ لغة: أنفَقَ المال، أي: أَنْفَدَهُ وأفناه.

وجرى الاستعمال على مَعْنَى بَذْلِ المال أوْ قِسْمٍ منه في أمرٍ ما، بطاعة الله أو معصيته، نظراً إلى أن المبذول منه لم يبق له عند باذله وجود.

والمراد بالإنفاق هُنا هو ما كان في طاعة الله ومراضيه ووجوه الخير، كالزّكاة والصَّدَقة، ومصالح الإسلام والمسلمين الّتي رغَّبَ الإسلام في الإنفاق فيها.

وجاء استعمال الفعل الماضي في ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ بَعْدَ استعمال الفعل المضارع في: ﴿يَتْلُونَ﴾ للدلالة على أن الإنفاق لا يشترط فيه التزام

التكرار والتجدّد دواماً، كالتلاوة لكتاب الله، بل تثبت الصفة الإسلامية بحُصُول الإنفاق المطلُوبِ شرعاً فيما مضىٰ، وأمّا المستقبل فَقَدْ يُوجَدُ فيهِ المقْتَضِي للإنفاق وقد لَا تُوجد، بخلاف التلاوة للقرآن، فَهِيَ مَطْلُوبَةٌ تَرْغيباً في كُلّ آنٍ.

﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: كلُّ ما يَمْلِكُ الناسُ من أموالٍ على اختلاف أنواعها وأصْنافِها، هي رِزْقٌ يَرْزُقُهُ الله عبادَهُ بعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِه لهم، وجميل ألطافِه الخفِيَّة، وإشارةً إلى هٰذا المعنى جاء في العبارة اسْتِعْمالُ ضَميرِ المتكَلِّمِ العظِيمِ.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: أي: في الخفاء عن أعين الناس بُعْداً عن الرّياء، وعَلانيَةً مع الإخلاص لله في الإنفاق في طاعَتِه طلَباً للثواب العظيم والأجْرِ الجسيم، وهما وصفان لمصدر «**أَنْفَقُوا**» المحذوف، فهما نائبان عنه.

وجاء تَقْدِيمُ الْإِنْفَاقِ في السِّرِّ، لأَنَّهُ أَفْضَلُ من الإنفاق في العلانية غالباً، بسبب بُعْدِه عن الرِّياء والسُّمْعَةِ المحْبِطَيْنِ لْلعَمَل الصالح.

﴿... يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾:

أَصْلُ معنى الرَّجاء مُطْلَقُ التَّوَقُّعِ للمرغُوبِ فيه، أو المخوف منه، ويُفْهَمُ منه في كلّ نصٍّ بحسبه، وهٰذه الجملة خبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

وفعل ﴿يَرْجُونَ﴾ هُنَا هو بمعنىٰ تَوَقُّع الثواب العظيم من فيضِ فَضْلِ الله عليهم، مقابل تلاوتهم لكتاب الله وإقامتهم للصّلاة وإنفاقهم من أموالهم ابتغاء مرضاة الله جلّ جلاله، وعظُمَ جُودُه وفَضْله، وهذا التوقُّع مبنيٌّ على يقينٍ إيماني مستندٍ إلى وَعْدِ الله الصادق، وعلمهم بأنّ الله لا يُخْلفُ الميعاد.

وجاءت هٰذه العبارةُ للدَّلالَةِ علىٰ النيَّةِ الصَّادقَةِ المُخْلِصَةِ لَدَىٰ هؤلاء المؤمنين وهي أنهم يُؤدُّون مطلوب الله منهم ابتغاء مرضاة الله، إذِ التجارَةُ الرَّابِحَةُ الَّتي لَنْ تَبورَ مُسْتَقبلاً هي التجارة مع الله الأزَلِيّ الأبَدِيّ، الَّذِي يُعْطِي أجُورَ العامِلينَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ كامِلَةً غَيْرَ منقوصَةٍ، ويزِيدهم من فَضْلِهِ.

﴿تِجَـٰرَةً﴾: **التِجَارَةُ**: هي أعْمالُ الْبَيْعِ والشّراء بقَصْدِ الرِّبْحِ من فرقِ القيمَةِ بين الشراء والبيع.

وأطْلِقَت التجارة على التَّعامُل مع الله بالأعمال الصالحة ابتغاء مرضاته، على سبيل الاستعارة، لأنَّ فيه ربحاً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

﴿لَّن تَـبُورَ﴾: أي: لن تَكْسَدَ ولَنْ تَخْسَر، إذ هي تجارة مع الله جل جلالُه وعظم سُلطانه.

- ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

- ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾: أي: ليُعطِيهم اللّهُ أُجورَهُم على أعمالهم الصالحة في الحياة الدُّنيا كما وعَدَهُمْ، وهو وعْدُ تفضُّلٍ منْهُ عليهم. وفي العبارة مطويٌّ يمكن تقديره. بأن نقول فيه: إنهم يتقرّبون إلى الله بمحابّه ليوفيهم أجورهم.

- ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: وليزيدَهم من فَضْلِه على ما سَبَقَ أنْ وَعَدَهُمْ إيَّاه زياداتٍ لَا تَخْطُر على بالهم، ولا تقَعُ في تَصَوُّراتهم التوهميَّة.

الفضل: هو الإحسانُ ابتداءً دون مقابلٍ ولا رجاء مكافأة أو شكر، وأصل الفضل الزيادة.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: إنّه كثير المغفرة وعظيمها، وكثير الشُّكْرِ وعظيمه، أخذاً من صيغة المبالغة «فَعُول» في كلٍّ منهما.

المغفرة: ستْرُ الذُّنوبِ والآثام وعَدَمُ المحاسبة عليها.

الشُّكر: المقابلَةُ على الْعَمَلَ الصَّالح، بما يسُرُّ العامل ويُرْضِيه.

ومن الزيادة من فضل الله أمران:

الأمر الأوّل: أن يَغْفِرَ الله عزّ وجلّ لهم ذُنُوبَهم فيَسْتُرَها ولا يُحاسِبَهُمْ عليها، لأنّه جَلَّ جَلالُهُ «غَفُورٌ» أي: كثير المغفرة وعظيمها.

الأمر الثاني: أن يُضَاعِف لَهُم أُجُورَهُمْ على أعْمَالِهِمْ الّتي عَمِلُوها، لأنَّه شَكُورٌ، أي: كثير الشكر وعظيمه.

إنّ الإنفاق في وجُوه الخير الّتي فيها طاعةٌ لله عزّ وجلَّ وتقرُّبٌ إلَيْه بمحابّه، قد كان مطلوباً في الإسلام منْذُ أوائل الرّسالة المحمّديّة، إلّا أن الزّكاة المفروضة المحدّدَة في مقاديرها وشروطها، قد تَأَخَّرَ إنْزَالُ فَرْضِيَّتِها إلى ما بَعْدَ الهجرة إلى الْمَدِينَةِ، وقيامِ الدَّوْلة الإسلاميَّة فِيها.

ولا يخفىٰ على ذي الفكْرِ المتأنّي أنَّ إنفاقَ الأموال في سبيل الله هو التعبير العَمَلِيُّ التَّالي لعبادة الصلاة، لما فيه من معاني شُكْرِ الله على نِعَمِه الّتي أنْعَمَ بها على عَبْدِه، في تيْسِيرِ أسْباب الرزْق، وفتح أبوابه، من ثَرَواتٍ حيوانيَّة، وثرواتٍ زراعيَّة، وثرواتٍ تجاريَّة، إلى غَيْر ذلك من أسباب.

ولهذا جاء في نُصُوص القرآن المجيد غالباً الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله، عَقِبَ ذِكْر الصلاة، للإشعار باقترانهما في التعبيرات الإسلامية، مع الإشعار بأن رُتْبَةَ الإنفاق في سبيل الله تاليَةٌ لرتْبَةِ إقامَةِ الصّلاة المفروضة.

ومُطْلَقُ إنفاق المال دون قَيْد قد يكون إنفاقاً من أجل شهوات النفس ومصالحها، وقد يكون إنفاقاً على مَنْ يُحِبُّ المنْفِقُ من أهْلٍ ووَلَد، أو إنفاقاً للفَخْرِ، أو لتحقيق مصالح دُنيويَّةٍ لدَىٰ الناس، فاحْتَاجَ البيانُ إلى الإشْعار بأنَّهُ يُقْصَدُ به رِضْوانُ الله، وشُكْرُهُ على ما رَزَقَ عَبْدَهُ من أنواعِ رِزْقٍ.

وحينما يكون الإنفاق ابتغاء مَرْضاة الله حَقّاً، فلا حرج أنْ يكون إنفاقاً في السّرّ أوْ إنفاقاً في العَلَن، ولكن جاء في النصّ تقديم الإنفاق في السّر على الإنفاق في العلن، للإشعار بأنّ الإنفاقَ في سبيل الله في السِّرّ أفْضَلُ من الإنفاقِ في العلانية، لأنَّهُ أعْوَنُ على استجماع النّيَّة الخالصة في ابتغاء مرضاة الله.

على أنّه قَدْ يكونُ الإنفاقُ في العلانية في بعض الأحْوال أكْثَرَ تشجيعاً لِذَوِي الأمْوال على البذلِ، تأسّياً بالْقُدْوَة الحسنة، فيكُون الأمْرُ العلنيّ أنْفعَ للبَذْلِ في جهات الخير، التي يُحقّقُ الإنفاق فيها رِضوان الله عزّ وجل.

* * *

قول الله تعالى خطاباً لرسُوله محمد ﷺ:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٣٢﴾﴾.

تمهيد:

عَقِب توجيه المؤمنين المسْلِمينَ لِتِلاوةِ كتاب الله عزّ وجلّ (القرآنِ المجيد) اقتضتِ الحكمةُ في البيان، أنْ يَأتيَ الحديثُ في هذا الدّرْس عَن القرآن بأنَّهُ حَقٌّ، وبأنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَلَ قَبْلَهُ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّةٍ، ومِنْهَا فيما نَعلَمُ التوراةُ والزبُورُ والإنجيلُ وصُحُفُ إبراهيمَ ومُوسى، وتَشْتَمِلُ العبارةُ سائِرَ ما أنْزَلَ الله على الْمُرسَلِينَ السَّابِقِينَ، ومُصَدِّقٌ أيضاً باللزُوم الْعَقْلِيّ للرُّسُلِ والأنبياء الصادقين الّذين جاءُوا قَبْلَ محمَّد صلّى الله وسلَّم عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ، لأنَّهم حَمَلَةُ رِسَالاَتِ رَبّهم، وهُمْ دُعاةٌ صَادِقُون لها.

التدبّر:

﴿وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾:

هٰذه العبارةُ معطوفةٌ على: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ . . .﴾ من قَبيلِ عَطْفِ الْجُمل.

وقد جاء توجيه الخطاب فيها للرَّسُولِ ﷺ، والْغَرَضُ إعلام الَّذين يَشُكُّون في أَنّ الْقُرْآن وَحْيٌ من الله إلى رسوله.

وعبارةُ: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَدُلُّ على أنَّ الَّذي أُنْزِلَ عَلَىٰ الرَّسُول ﷺ من سُوَرٍ وآيات قَبْلَ نزول هٰذا النصّ من سورة (فاطر) هو بعض القرآن، ولَيْسَ هو كلَّ الكتاب، فَلَيْسَ حَرْف «مِنْ» للبيان كما ذهَبَ إليه بعض المفَسِّرين، وإنّما هو لبيان البعضِيَّة كما هو الواقع قبلَ إنزال سَائر القرآن.

وعبارةُ: ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ بتَعْرف طَرَفي الإسناد (المبتدأ والخبر) تَدُلُّ على الْقَصْرِ والْحَصْرِ، وهو من قبيل الْقَصْرِ الإضافي، أي: ما جاء فيه من بيان عن الأمور الّتي يكُونُ الحديثُ عَنْها حقًّا أو باطلاً هو الحقُّ وَحْدَهُ بالإضافة إلى ما ناقَضَهُ من أحاديثَ وأقوالٍ وادّعاءات، أمَّا ما وافَقَهُ فَهوَ مطابقٌ له، ويَنْطَبِقُ عَلَيْهما أنَّه هو الحقُّ في الموضوع الّذي اتَّفقا في بيانه.

ومعلومٌ ظاهرٌ أنَّه لَيْسَ ما أنْزِلَ هُوَ كُلُّ الحقّ بالإطلاقِ العامِّ، إذْ كثيرٌ جدّاً من القضايا الّتي هي حقٌّ في واسعِ عِلم اللّهِ وفيما آتاه اللّهُ عبادَه لم يأتِ بيانُها في القرآن، إنَّ القرآن قَدْ أُنْزِل لبيان قضايا الدّين الّذي اصطفاه الله لعباده، الّذين وضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

- ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: أي: والذي أوْحَيْنَا إلَيْكَ مِنَ الكتاب الذي هو القرآن خَاتمة الكُتُب الرَّبَّانيّة هو الحقُّ حالةَ كونه شاهداً لما جاء قَبْلَهُ بالصِّدْق، أو حالُهُ ووصْفُهُ وما جاء فيه مطابقٌ لما جاءَ من إخبارٍ عنْهُ في الكُتُب والزُّبرِ والصُّحُفِ الرَّبَّانِيَّةِ المنَزَّلَة قَبْله.

وقد تَشْتَمِلُ العبارة الرُّسُلَ والأنبياءَ، إذا اعتَبَرْنَا لفظ «مَا» أُطْلِقَ بالتغليب على ذوي الْعِلْم أيضاً، معَ ما هي له في أصْلِ الوضْعِ اللُّغوي.

واللام في: [لِمَا] يَقُول عنها علماء النحو «لاَمَ التقوية» لضعف عَمَلِ اسْم الفاعل عن عمل الفعل.

وعبارة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تُفِيدُ ما سَبَقَهُ في الزّمان، لأنَّ المخاطبين في النصّ هم الناسُ، ومَعْلُومٌ أنّ ما بَيْنَ يَدَي النَّاسِ هو الأحداثُ السَّابِقَةُ في الزّمن، إذ المستقبلُ بِالنِّسْبَة إلَى المخْلُوقِ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَرْئي، فهُو يُشْبِهُ مَا وَراء ظَهْرِه، أمَّا ما سَلَفَ فقَدْ سَبَقَ به الْعِلْمُ، فَهُوَ يُشْبِهُ المرئيّ بَيْنَ يَدَيْه.

إنّ الناس يَرْكَبُونَ مَرْكَبَةَ حَيَاتِهم وظُهُورُهُم إلى مُقَدِّمَةِ مَسِيرها، وَوُجُوهُهُمْ إلى مُؤَخِّرَتِها، فَهُمْ يَرَوْنَ الحاضِرَ والماضي، ولاَ يَرَوْنَ الآتِيَ مُسْتَقْبلاً.

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾:

في هٰذهِ العبارة تَهْدِيدٌ وتَحْذِيرٌ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا بما أنْزَلَ اللَّهُ من القرآن، ولا سيما أهل الكتاب الّذين بَلَغَهُم مَا أُنْزِلَ من القرآن فَكَذَّبُوا بِهِ وَلَمْ يُصَدّقوه.

وقد جاءت هٰذه العبارة بِصِيغَةِ قضيَّةٍ كُلّيَّةٍ عَامَّة، لأنَّها تتعلَّقُ بصفات الله عزّ وجلّ، الّتي تَنْطَبِقُ على جُزْئِيَّاتٍ كثيراتٍ بعَدَدِ أفرادِ العباد الَّذين خَلَقَهُمْ، من كُلّ الأجْناسِ والأنواع والأصناف.

وفي هٰذه العبارة أيضاً إطْماعٌ للمؤمنين بالأجر العظيم والثواب الجزيل، فَمَنْ هو خبيرٌ بَصِيرٌ بعباده الَّذين خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثم ليحاسِبَهُمْ يَوْمَ الدّين، ويَفْصِل قضاءه بينهم، ثُمَّ لِيُجَازِيَهُمْ، فلا بُدَّ أَنْ يُحقِّقَ لَهُمْ وَعْدَه.

والإلْماحُ في هذه الآية (٣١) إلى تحقيق وَعْدِ الله جلَّ جلالُهُ عبادَه، يُشِيرُ إلى ما جاء في الآية (٥) من السورة، وهي قول الله عزَّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾.

وبشيءٍ من التفكّر نُدْرِكُ أنّ وَعْدَ الله بالبعث، والحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتحْقِيق الجزاء يَوْمَ الدّين، يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً أنّه لَا بُدَّ أنْ يكون اللّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعظُمَ سُلطانُه ـ عَلِيماً بأَحْوالِ عِبَادِهِ كُلّها عِلْماً تفصيليّاً دقيقاً.

وقد جاء توكيد العبارة بأدوات التوكيد: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحْلَقة».

﴿خَبِيرٌۢ﴾: من صيغ المبالغة، أي: له غايَةُ الخِبْرَة.

﴿بَصِيرٌ﴾: من صِيَغ المبالغة أيضاً، أي: له غايَةُ الْبَصَرِ المحيطِ بكُلِّ مَا يُمْكِن عقلاً أن يُدْرَكَ بالبَصر.

الخِبْرَة: هي العِلْم بالْعَمَل عِنْدَ ممارَسَتِه، على سَبِيل الشُّهودِ والحضُور المصاحِبِ لكُلّ أجْزاء الْعَمَلِ، ظَواهِره وبواطِنِه.

وهيَ غَيْرُ العِلْمِ بالْعَمَل قَبْلَ حُصُوله، أو العلْمُ به بَعْدَ حُصُولِهِ عن طَرِيقِ الأخبار ونحوها.

ومعلومٌ من المفهومات الدّينيَّة، أنّ عِلْمَ الله بعباده، وبكُلّ شيْءٍ، يَشْمَلُ دَقَائِقَ الأمُور وَجلائِلَها، وخَفَاياها وظواهرها، وكلَّ ما يتعلَّقُ بها، وهُو أكْثَرُ مِنْ عِلْم أصْحاب الأعمال بأعْمالِ أنفسهم.

وجاء الجمع بين الاسْمَينِ «خَبِير وبَصِير» لأنّ الخبرَةَ قَدْ تكُون دُونَ مُشَاهَدَةٍ بَصَرِيَّة، فاقتضَت الدِّقَّةُ في البيان إضافَة أنَّ الله ـ جلَّ جلالُه ـ بَصِيرٌ بِعِباده.

قول الله عزّ وجل:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

تمهيد:

إنّ الكتاب الرَّبَّانيَّ الَّذي تَضَمَّنَ تعليماتِ الدّين الذي هو عنْدَ الله الإسلامُ دَواماً، وتَضَمَّنَ أحكام الشَّرائع والْوَصَايا للموضوعين موضع الابتلاء في ظروف الحياة الدُّنيا، وتضمَّن بيانات الحسَابِ والجزاء يومَ الدِّين، وبياناتٍ تتعلَّقُ بدَاري الجزاء فيه، قدْ أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ مِنْهُ على رُسُلِهِ مُنْذُ عَهْدِ آدم عليه السلام، وحتَّى عَهْدِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الأُمَمُ لصَلَاحِ أمُورِ دينهم ودُنياهم، ومَا يُعِدُّهم لسَعادَتهم في آخِرَتهم في جنَّاتِ النَّعيم، وكان ذلِكَ في الأُمم، وتتابع أجيالهم بحسَب أحوالهم، وتَطَوُّرِ ثقافاتهم، وتزايُدِ علاقاتهم الاجتماعيّة، وتنامي تجمُّعاتِهم الْبَشَرِيَّة.

وادَّخَرَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ الصِّيغَةَ النهائيَّة الجامعة لكلّ تعاليم الدّين الّذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، فجَعَلها للرّسالة الخاتمة، الّتي اصْطَفَىٰ لهَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْد الله عليه الصلاة والسلام، خاتَمَ أنبيائه ورُسُلِهِ، وهذه الصّيغَةُ التَّامَّةُ الكاملة الخِتَاميّة، هي القرآنُ الْعَربيُّ المبين.

وأبان الله فيه أنَّ هذا الكتاب الْخَاتم مَوْجُودٌ مضْمُونُه في زُبُر الأوّلين، والظاهِرُ أنّ وُجُودَهُ فيها وُجُودٌ على سَبِيلِ التوزيع، مع وُجود الأصُول العامَّة الكُبْرَىٰ في كُلٍّ منها.

فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأنِ القرآن خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

أي: وإنَّهُ لَفِي مَجْمَوع كُتُب الأوَّلين.

لكِنَّ الأوَّلين من الأُمَم لَمْ يُحافِظُوا علَىٰ ما أَنْزَلَ اللَّهُ على رُسُلِهِمْ منْ كُتُب، فَدَخَلَ فيها النّسْيَانُ والضّياع، والتحريفُ في الألفاظ وفي المعاني، إذْ لَمْ يتكَفَّلِ الله عزّ وجلّ بحفظها.

فكان من الحكمة أن يصْطَفِي اللَّهُ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وَعظُم سلطانُه ـ لكتابه الخاتم الأمَّة الخاتمة لِلْأُمَم جَمِيعاً، والمؤهَّلَة لحفْظِه وحُسْنِ فهمِه وتدبُّرِه، كما اصطفى لها الرسُولَ الخاتم لأنبيائه ورُسُله أجمعين، محمَّد بْنَ عَبْدِ الله العربيَّ من ذُرّيَّة إسماعيل بْنِ إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وإذ اصْطَفَى اللَّهُ الأمَّةَ الّتي تُؤْمِنُ بخَاتَم الأنبياء والمرسلين، من مختَلِفِ الشُّعُوبِ عَرَبِها وعَجَمِها، لحَمْلِ الرِّسَالَةِ الخاتِمَةِ، وَتَبْلِيغها للنّاسِ أجْمَعِينَ، كانَ من الحكمة أن يَصْطَفِيها لتكون وَارِثَةَ كِتَابِ اللَّهِ لعباده، وفْقَ الصيغَةِ الختاميَّةِ المسْتَوْفَاةِ الجامِعةِ لكُلِّ مَا قَضَتْ حكْمَةُ اللَّهِ بإنزالِهِ للناسِ أجْمَعِينَ إلى أن تقوم السَّاعة، ممّا يَشْتَمِلُ على بياناتِ الدين الّذي اصْطَفاهُ اللَّهُ للناس، وهو الإسلام، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ... ﴿١٩﴾﴾.

واقتضت حكمةُ الله أيضاً أنْ يجْعَلَ هٰذِهِ الأمَّةَ الخاتمَةَ المصطَفَاةَ مُؤهَّلَةً لحفظ كتابِهِ الخاتم، من كلِّ تحريفٍ أو زيادةٍ أو نقْصٍ أو نِسْيانٍ أوْ ضَياعٍ، وأنّ يَعْصِمَها منْ أنْ تجتمع على ضلالةٍ، بعصمَةٍ منْهُ، جلَّ جلالُه وعظُم سُلْطانُه.

فهٰذِه الأمَّة المؤمنَةُ المسلمةُ الّتي هِيَ آخِرُ الأُمَم الرَّبَّانِيَّةِ وَخاتِمَتُها، هيَ الْأُمَّةُ الوارِثَةُ لكتاب اللَّهِ المشتَمِلِ على بيان الإسْلام الّذي هو دِينُ الله للنّاس أجْمَعين.

ولا تختصُّ هٰذهِ الأمَّةُ بقَوْمٍ دُونَ قوم، ولا بشَعْبٍ دُونَ شعب، ولا بأهل لِسَانٍ دُونَ أهل لسَانٍ آخر، بلْ كُلُّ من آمَنَ بهذا الدِّين إيماناً صَحِيحاً صادقاً لا شائبَةَ تَشُوبُه، فهُو من هٰذه الأُمَّةِ المصطفاة في مجْمُوعها، لا في جميع أفرادها، هو من الأمَّة الوارثةِ لكتاب الله، وفْق الصيغَة الخِتامِيَّة، المنزّلة قُرآناً عَرَبياً مبيناً، على رسُول الله محمّد، خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلاماته عليهم أجمعين.

فالمؤمنون المسْلِمُونَ من كلّ شَعْبٍ، ومن كلّ أمَّة، ومن كلّ لِسَانٍ، ومن كلّ لَوْنٍ، هم الوارثون للقرآن، آخِرِ كتب الله المنزلَةِ وخاتِمها.

التدبّر:

قول الله تعالى:

- ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ... ﴿٣٢﴾﴾:

جاء العطف بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالّ على الترتيب مع التراخي مُعَبّراً عن الواقع، لأنّ الأمّة المحمَّديَّة الوارثَةَ لِكِتَابِ اللَّهِ، قد جاءَتْ بَعْدَ أَزْمَانٍ مَدِيدَة تَتَابَعَتْ فيها الأُمَمُ، الَّتِي أنزلَ الله على رُسُلِهِم زُبُراً وكُتُباً فيها هُدىً ونور.

﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أي: جَعَلْنَاهُمْ يَرِثُونَ الكتابَ المنزَّل وفْقَ صيغته الختامِيَّة التامَّةِ الكاملة.

وَرِث المالَ أو الشيءَ: أي: صارَ هُوَ المالِكَ لَهُ، أو الحائزَ عَلَيْهِ، أو المتصرّف فيه، أو صاحبَ السُّلْطانِ عليه، بَعْدَ من كان له ذلك قبلَه.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾: هم الأمَّةُ المحمَّديَّة الّتي آمنت به، واتَّبَعَتْهُ، في مجموعها لا في جَمِيعِ أفرادها، وقد يكون المرادُ حملةَ الرِّسَالة الرَّبَّانِيَّةِ مِنْهُم بصِدْق، الَّذِينَ لا يَضُرُّهم مَنْ خالفهم، ويَبْقَوْنَ ظاهِرِينَ على الحقّ، أو هؤلاء هم الأئمة فيهم.

أورثنا: فعلٌ يتعدَّىٰ إلى مفعولين، الأوّل منهما هنا لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والثاني: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾.

وقد جاء في البيان القرآني توكيد هٰذا الاصطفاء لأمَّة محمّد ﷺ، في خطاب الله عزّ وجلّ الّذين آمنُوا في خواتيم سورة (الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول) فقال تعالى فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ربَّكُم هو الّذي اصْطفاكُم واخْتارَكم لِحَمْلِ هٰذه الرّسالة الخاتِمَة، وتبلِيغها للنّاس، لتكُونُوا شُهدَاء على مَنْ بَلّغتُمْ دِين ربّكم يَوْمَ الدِّين، كما أنّ الرّسُولَ محمّداً شَهِيدٌ عليكم بأنّه أدّى إليكم الرّسالة، وبَلّغَ الأمانَةَ، ونَصَحَ الأمّة.

وبالتّدَبُّر نُلاحِظُ أنَّ هٰذَيْنِ النَّصَّيْنِ من سورتي (فاطر) و(الحج) مُتَكاملانِ في موضوع اصْطفاء الله للأمّة المحمّديّة المؤمِنَة المسلِمَة، ولَيْسَا بمُتَطابقَيْنِ لِمُطْلَق التوكيد بالتكرير.

فما جاء في سورة (فاطر) المنزّلة في أواسط العَهْدِ المكّي مِنْ مَسِيرَة دَعْوَة الرَّسُولِ ﷺ، قد تَضَمَّنَ بيان اصطفاء أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ لِورِاثَةِ الكتاب الخاتم، الجامع لصَفْوة ما في كُتُبِ الله السابقة المنزَّلة على الرُّسُل السابقين عليهم السلام، فهو الكتابُ الصفوة.

وما جاء في خواتِيم سورة (الحج) المنزَّلة في أواسط العَهْدِ المدَنِيّ من مَسِيرة دَعْوَة الرَّسُول، قَدْ تَضَمَّن بيان اصطفاء أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، لتبليغ

دين الله للناس، والدَّعْوَةِ إلَيْهِ، والمجاهَدَةِ في الله حَقَّ جِهَادِهِ، وقَبُولِ شَهَادَتِهِمْ على النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ، بأنَّهُمْ بَلَّغُوهُمُ الرِّسَالَةَ الَّتِي آمَنُوا بِها، وَتَحَمَّلُوا أَمَانَةَ تَبْلِيغها للنَّاس، كما يكونُ الرَّسُول ﷺ شهيداً عليهم، بأنَّهُ بَلَّغَ مَنْ لَقِيَ مِنْهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ الَّتي أنْزَلَها عليه، وأَمَرَهُ بأنْ يُبَلِّغَها، ويُحَمِّلَ المُبَلَّغين الَّذينَ آمَنُوا بِهِ أَمَانَةَ تَبْلِيغِها.

وبهذا تتواصَلُ حَلْقَاتُ سِلْسِلَة التَّبْلِيغِ، ويَكُونُ المبَلِّغُ يوم القيامة شهيداً علىٰ مَنْ أَوْصَلَ إِلَيْهِم البلاغ.

إنَّ الرِّسالَةَ الخاتِمَةَ المصْطَفَاة، اقتضَتِ اصطفاءَ الرَّسُولِ الخاتم، واصطِفَاءَ الْأُمَّةِ الخاتِمَةِ لِورَاثَةِ كِتَابِ الله الخاتم لكتب الله، واصطِفاءَها لحَمْلِ رِسالة الرَّسُولِ الخاتم، وتبْلِيغِيها للنَّاسِ كافَّة، واصطفاءَها لتشْهَدَ علىٰ الناس بالبلاغ يوْم الدّين، وبهذا تكامَلَتْ عناصرُ حكْمَةِ الله في هذا الأمر.

ولا يخفى على المفكّر المتدبّر المراقب لواقع حال الأمَّة المحمّدية المسلمة، أنَّه ليس المرادُ باصطفاء أمَّةِ محمَّد ﷺ، أنّ كُلَّ فَرْدٍ من أفراد هٰذه الأمَّة، قَدْ حَظِيَ بهذا الاصطفاء من الله جَلَّتْ حكمَتُه، بل المرادُ وُجودُ هٰذا الاصطفاء فيها، ولو لطائفةٍ منْها في كلّ عَصْر، وتُوَزَّعُ عناصِرُ الاصطفاء علىٰ أفراد هٰذِه الطائفة.

وقدْ دلّنا على هذا ما جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ، فيما رواه البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن المغيرة، أنّه قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

وروىٰ مُسْلِمٌ والترمذيُّ وغَيْرُهُما عَنْ ثَوْبَانَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذٰلِكَ».

وروى البخاري ومُسْلِمٌ وأحْمَدُ عن مُعاوية، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يأتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ».

أقول: المرادُ بظهور هٰذه الطَّائِفَة جُرْأَتُها في إعْلانِ الْحَقّ وعَدَمُ مُوافَقَتِها علىٰ انتشار الباطل والدَّعْوَةِ إليه، وانتصارُها لِدِينِ الله، والمجاهَدَةُ في تَبْلِيغِهِ ما استطاعَتْ إلى ذلك سبيلاً.

ويَدُلُّ علىٰ أنّ المرادَ وُجودُ هؤلاء المصطفين في أمَّةِ محمّد ﷺ، وأنّه ليس الْمرادُ اصْطِفاء كُلّ فَرْدٍ من أفْراد هٰذه الأمَّة المسلمين، قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر):

- ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ . . . ﴿٣٢﴾﴾.

فأبان الله عزّ وجلَّ أنَّ هٰذِهِ الأمَّة المحمّديَّة المسلِمة تَنْقَسِمُ إلى ثلاثة أقْسام كُبْرَىٰ، وأفراد كُلِّ قِسْمٍ من هٰذِه الأقسامُ مُتَفاضِلُونَ فيما بينهم:

القسم الأدنى وهُمُ الأكْثرُ عَدداً: دَلَّ عَلَيْهم قول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: أي: ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بالمعاصي والمخالفات وارْتكاب كبائر الذّنوب والآثام.

وكلّ فرد من أفراد هذا القِسْم صحّ إيمانه وإسلامه، ولكِنَّهُ ظلم نفسه، وأَسْرَفَ عليها، باقترافِ المعاصي والآثام، وارْتكاب الكبائر التي نهىٰ الله عنها نهياً مَقْروناً بتَحْذِيرٍ شَديد، وقَدْ رتَّب عليها عقاباً أليماً.

وأفرادُ هذا القسم، الظالمون لأنفسهم، والمسْرفونَ عليها، يَتَنازَلُونَ في دَرَكَاتٍ هابِطاتٍ عن سَقْف مَرْتبة التقوى.

وهٰذه الدّركاتُ لا يُحْصِي عَدَدَها إلّا الله جلّ جلاله، ومن شاء تبارك وتعالى أنْ يُعلِّمَهُ من ملائكته أو رُسُلِه.

فقول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: أي: فقِسْمٌ من وارثي الكتاب الرَّبَّاني، الّذي ختمَ الله عزّ وجل به الكُتُبَ المنزّلة، هو قِسْمٌ ظَالِمٌ لنفسه.

لقد وصَفَ الله عُصاةُ المؤمنين المسْلِمين بأنَّهُمْ ظالمون لأنْفُسِهم، بسَبَب تَعْرِيضِهم أنفُسَهم بمعاصيهم لعقاب الله العادل، وبِسَبَبِ حِرْمَانِهِمْ أَنْفُسَهُمْ من النَّجاة، ومن الْفَوْزِ بالأجْرِ العظيم، والثواب الجزيل، الّذي وعَدَ اللَّهُ به عِبادَه كاملي التقوى.

وهذا الوصف يَنْطَبِقُ على الكافرين من بَابِ أولَىٰ، لأنَّهُمْ جَلَبُوا لأنفسهم بكُفْرهم عذاباً أبَدِياً خالداً.

إنّ الله ـ جلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه ـ لا يَضُرُّهُ كُفْرُ الكافرين، ولا جُحودُ الجاحِدين، ولا عِصْيَانُ العاصين مهما أسْرَفُوا على أنفسهم بالمعاصي، ولكنّ هؤلاء يضُرُّونَ أنفُسَهم بما يَكْتَسِبُونَ، لأنَّهم يجلُبُون لأنفسهم العذابَ الخالِدَ الأليم العادل، أو يُعَرّضُونَها لِعِقَاب الله الْعَادِلِ، فهم يظلمون أنفسهم، إذْ لا يَقُومون بحُقُوقِ أنْفُسِهم عليهم، منْ صيانةٍ وحمايةٍ، وجَلْب منَافِعَ ضَرُوريَّة، وهٰذِهِ لَا تَتحقَّقُ لها إلا بأنْ يُؤَدّوا ما أوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهم، وبِأَنْ يَجْتَنِبُوا مَا نَهَاهُمْ الله عنه نهي إلْزامٍ وتَحْرِيم.

وفي مقابل ذلك فإنّ الله لا ينفَعُهُ إيمانُ المؤمنين، ولاَ إسلام المسلمين، ولا طاعة المطِيعين، ولكنّ هؤلاء ينفَعُونَ أنْفُسَهُمْ بما يَكْسِبُون من أعمال صالحة يرضىٰ بها اللَّهُ عنهم.

إنَّهم بما يكسبون من صالحاتٍ يحْمُونَ أنفُسَهم من عقاب اللَّهِ وعذابه ونِقْمَتِهِ، ويَجْلُبُونَ لأنْفُسِهم الثوابَ العظيم الذي جَعَلَهُ اللَّهُ بفَضْلِهِ للمتَّقِينَ الْقَانِتِينَ العاملين بمراضيه.

إنّ أقْبَحَ الظُّلْم وأشْنَعَهُ وَأَكْثَرَهُ دَلَالَةً على حماقَةِ مُرْتَكِبِهِ، وَسَفَاهَتِهِ، وقِلَّة عَقْلِهِ، أنْ يَظْلِمَ الإنسان نَفْسَه.

مَا أَشَدَّ حَمَاقَةَ مَنْ يَنْطَحُ الْجَبَلَ الْعَظِيمَ بهامَتِهِ، أو يُعَانِدُ الْحَدِيدَ المحمِي فَيُدْنِيهِ مِنْ بُؤْبُؤ عَيْنَيْه، لِيَسْتَمتِعَ برُؤيَةِ وَهج النّار الّذي يُسَبِّبُ له انطفاءَ نِور عينيه، أو يَشْرَبُ السُّمَّ القاتل المحلّىٰ بالْعَسَلِ أو يَعْصِي اللَّهَ رَبَّه، مُسْتَهِيناً بما رَتَّبَ من عقابٍ على من عصاه في أوامره ونواهيه.

وبهذا يظهر لنا أنَّ أدنى وصْفٍ وأحْكَمَهُ لِقِسْم العصاة لله عزَّ وجلَّ أنَّهم ظالمون لأنفسهم.

القسم الأوسط: وعَدَدُهم أقَلُّ من عددِ القسم الأدنى بفارق كبير، وقد دلَّ على هذا القسم قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فهو قسم المقتصدين.

المقتصد: هو الّذي يتوسَّط في أَمْرِهِ، فلا يَزيد على المطلوب الواجب عليه، ولا ينقُصُ منه، والمقتصد في النفقة هو الذي لا يُسْرِف ولا يُقتّر، بل تكون نَفَقَتُهُ وسطاً.

والمرادُ بالمقْتَصِد في السُّلُوك الديني، هو مَنْ يَحْرِص على فِعْلِ الواجبات، وترك المحرَّمات، ولا يعتني بالتوسُّع في نوافل العبادات والْقُرُبات، بفِعْلِ المنْدُوباتِ وتَرْك المكْرُوهَات.

فقولُ الله تعالىٰ؛ ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: أي: ومن وارثي الكتاب الرَّبَّاني، الذي ختم الله عزّ وجلّ به الكُتُبَ المنزّلة، قِسْمٌ مقتصد.

وأَصْلُ معنى المقتصد المتوسِّطُ بَيْنَ طَرَفَيْن، فإذَا كَانَ توسُّطُهُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ غَيرِ مَحْمُودَيْنِ، كان توسُّطه هو الأفْضَلَ والأكْمَلَ والأَعْلَىٰ، وإذَا كان تَوَسُّطُهُ بيْنَ جِهةٍ غَير مَحْمُودَةٍ هابِطَةٍ في الدَّرَكَاتِ، وَبَيْنَ جِهَةٍ صَاعِدَةٍ مَحْمُودَةٍ ذَاتِ دَرَجَاتٍ تَتَرَقَّى في الكَمَالات، كانَ اقتصادُهُ مُنقِذاً لَهُ مِنَ الذّمِّ والمؤاخذة، ومُحَقّقاً لَهُ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الكمال.

والمقْتَصِدُ في فَضائل السُّلوك الإسلاميّ، هوُ الَّذي يُؤَدّي حُقُوقَ أَدْنَىٰ

دَرَجَاتِ الكمال، ويكونُ هذا كما سبَقَ بيانُه بتأْدِيَةِ الواجبات، واجتنابِ المحرَّمات، وقدْ يُجْبَرُ الْخَلَلُ فيها بالاستغفار والتَّوْبة، وبتأدية بَعْضِ نَوافِلِ الْقُرُبَاتِ من غير فعل الواجبات وتَرْكُ المحرَّمات.

ودَرَجَةُ الاقتصاد هي أُولَىٰ دَرَجَاتِ الكمال إذَا نَظَرْنَا إلىٰ مَا فَوْقها، وهي أعْلَىٰ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التقوى، إذ نَظَرْنا إلى مَا تَحْتَها.

فَمَنْ كانت أعمالُه هابطةً عَنْهَا كانَتْ مُخْتَلِطَةً بالمعاصي والمخالفات وكان من الظَّالِمِينَ لأنْفُسِهم على مقدار تناقُصِ دَرَجاته عن أَعْلَى دَرَجات مُرْتَبَةِ التقوى.

القسم الأعلى: وهم الأقل عدداً، وقد دَلَّ على هذا القسم قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

فهو قسم السّابقين بالخيرات، وأفرادُ هذا القِسْم همُ الَّذِينَ يتَقَرَّبُونَ إلىٰ الله بالنَّوافِلِ ممَّا يُحِبُّهُ الله من عباده، فوق أدائهم للواجبات، وتركهم للمحرَّماتِ، طَلَباً لمرضاة الله، والثواب الجزيل عنده.

وأفراد هذا القسم علىٰ دَرَجات متفاضِلاتٍ كثيرات، بمقدار سَبْق كلّ واحِدٍ منهم بِفِعْلِ الخيراتِ الّتي يَحِبُّ الله من عباده الصالحين أَنْ يَفْعَلُوها، وبتَرْكِ المكروهات التي يحبُّ الله من عباده الصالحين أن يَتْرِكُوها، مع أَنَّه جلَّ جلالُه يُلْزِمْهُمْ بذلك رحمةً بهم.

الْخَيْرات: مُفْرَدُها «الخَيْرَة» وهي الخَصْلَةُ الفاضِلَةُ من كلِّ شيءٍ، أيْ: ذاتُ الزيادة من الخيْر فِعلاً أو تَرْكاً.

وقسم السّابقين بالخيْرات قد سمَّاهم الله عزَّ وجلّ باسم «عباد الرحْمٰن» في سورة (الفرقان).

وجاء في القرآن بيانُ أَنَّهُمْ على مرتبتَيْن:

المرتبة الأدنى: «الأبرار» وهُمُ الذين ارتَقَوْا فَوْقَ مرتَبَةِ المتقين، ودَخَلوا في درجات مرتبة «**البرّ**» بسَبَب توسُّعِهِم في القيام بنوافل القربات من مَرَاضي الله عزّ وجل، وتركهم للمكْرُوهات وما هو خلاف الأولى، فوقَ أدائهم للواجبات وتركهم للمحرمات.

وهؤلاء يتفاضلون في الدرجات بمقدار توسُّع كلّ فردٍ منهم في ذلك.

المرتبة الأعلى: «المحْسِنُون» وهم الذين ارْتَقَوا فَوْقَ مرتبتي المتقين والأبرار معاً، ودخلوا في درجات مرتبة «**الإحسان**» مع قيامهم بحُقُوق مَرْتَبتي «**الْبِرّ**» و«**التَّقْوَى**».

والْمُحْسِنُونَ: هُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الله من مستوى مرتبة «**الإحْسان**»: وقد شرح الرَّسُول ﷺ الإحْسَانَ بأنْ يَعْبُدَ العابِدُ لله عزّ وجلَّ كأَنَّهُ يَرَاهُ، وظاهرٌ جَليٌّ أنّ من يَعْبُدُ الله وَهُوَ يَراهُ تكونُ عبادَتُه في أعْلَىٰ دَرَجَةٍ من التجويد والإتْقَانِ والإحْسَان والإخلاص.

وهؤلاء يتفاضَلُونَ في الدَّرَجاتِ، بحَسَبِ تفَاضُلِهم في أعمال الْبِرّ والإحْسَان.

وقد وصَفَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أهْلَ مَرْتَبَتَي **الأبرار** و «**المحسنين**» بوَصْفِ «**المقرَّبين**» في سورة (الواقعة) إذْ هُمْ بما كَسَبُوا من أَعْمال البرّ والإحسان قد جَعَلَهم الله بفَضْلِه وجُودِه من المقرَّبين إليه، وقد أعْطاهم الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان) لقَبَ «**عِباد الرَّحْمٰنِ**» إذْ جَعَلَ حَظَّهُمُ الأوفَىٰ عندَهُ من اسْمِه «الرَّحْمٰنُ» فَيْضَ عَطاءٍ وإسْعَادٍ ونَعِيمٍ ورضوان.

فقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: أي: ومِنْ وَارِثي الكتاب الرَّبَّاني الّذي خَتَمَ الله عزّ وجلّ به الكتُبَ المنزَّلَة، قِسْمٌ سَابِقٌ بالخيْرات الّتي يُحِبُّ اللَّهُ جلَّ جَلالُهُ من عباده الصالحين أنْ يَفْعَلُوها، ممَّا

لم يَفْرِضْهُ فيما اصطفىٰ لعباده من الدّين، وبتركِ ما لَا خَيْرَ فيه ممّا يحبُّ الله من عباده الصالِحينَ أنْ يَتْرُكوه، وهُوَ بحِكْمَتِهِ لم يُحرِّمْهُ عَلَيْهم رَحْمَةً بهم وَتَيْسِيراً.

وهٰذا القِسْمُ السَّابِقُ بفعل الخيرات هو سابقٌ لِقِسْم «**المقتصد**» الذي اقتصر على فِعْل الواجبات وترك المحرَّمات، ولم يتوسَّعْ في أعمال الْبِرّ، ولم تصِلْ إلى درجات مَرْتبة «الإحْسان»، والباء في عِبارة: ﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ سببيَّة.

ولمّا كانت الخيراتُ كثيراتٍ جدّاً كانت مجالاً واسعاً، ومَيْداناً مَدِيداً للتنافُس والتَّسَابُق وتفاضُلِ الدّرجات.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: في هٰذه العبارة بيانٌ دقيقٌ يُفيدُ أنّ كَسْبَ العباد سواءً أكانوا ظالمين لأنْفُسهم، أمْ مُقْتَصِدِين، أم سابقينَ بِفَعْلِ الخيرات، إنّما يَتِمّ بِإِذْنِ الله جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُه.

فإذَا لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ عزّ وجلّ بِحُدُوث أمْرٍ ما، أوْ لكاسبٍ أن يَكْسِبَ عملاً ما، لم يكُنْ ذلِكَ الأمْرُ، ولا ذلِكَ الكَسْب.

إنَّهُ بَعْدَ التمكين العامّ من استخدام المسَخَّراتِ لا بُدَّ من الإذْنِ الخاصّ من الله تبارك وتعالى، عِنْدَ مُمَارَسَةِ الكَسْبِ الذي يَكْسِبُهُ الْعَبْدُ باختيارِهِ الحرّ.

وأُقَرِّبُ هذا إلى الأذهان، ولِلَّه المثَلُ الأَعْلَى ـ بِمَنْ يُمِدَّ بالطَّاقَةِ الكَهْرَبَائِيَّةِ عَدَداً من السَّاكِنِينَ في عمارته ضُيُوفاً عليه، وهُوَ مُراقِبٌ دواماً لاسْتخدامهم لهٰذه الطاقة، فَمَا دَامُوا يستخدمون الطاقَة الكهربائية ضِمْنَ الحدود الّتي لا تُضِرُّ بنظام العمارة العامّ، فإنَّهُ يَتْرُكُ لَهُمْ الحرِّيَّةَ في اسْتِخْدَامِها، ويَسْتَمِرُّ على إمدادهم بها، لكِنْ إذا جاء أحَدُهم بآلة كهْرُبائيَّة،

إلى مكان إقامته، وأراد أَنْ يَسْتَخْدِمَ الطَّاقَةَ الكهْربائية الّتي يُمِدُّ بها صاحِبُ العمارة في جعل الآلة تعمل بها، ومِنْ شأنِ عَمَلِ هذِهِ الآلَة أَنْ يُضِرَّ بِالْعِمَارَةِ أو بمصالح السّاكنين الآخرين عِنْدَه فيها، فإنَّهُ يَفْصِلُ عنْهُ التَّيَّارَ الكهربائي، ولَا يَأْذَنُ لَهُ بأن يَفْعَل ما يُرِيد بآلته.

وبهذا نُدْرِكُ أنَّ أعمال العباد، الّتي تَتَحَقَّقُ في الأكْوان عن طريق اختياراتهم الحرَّة، إنَّما تَتِمّ بإذْنِ الله، لأنّه جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه هو الّذي يُمِدُّهم بطاقاتهم التي يَعْمَلُونَ بها أعمالهم، وهو عالم دواماً باختياراتهم، وشهيدٌ دواماً على ما يَعْمَلونَ، فإذا لم يأْذَنْ بما اختارُوه من عَمَل قطَعَ عَنْهُمْ مَدَدَه، بوسيلة من وسائله الخفية، فلم يُمَكِّنْهُمْ مِن تحقيق ما اختارُوا عَمَلَهُ وإنْجازه.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿... ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

تمهيد:

في هٰذِهِ الآياتِ بيان مَشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِ فَضْلِ اللّهِ الكبير يَوْمَ الدّين، على المؤمنين المسلمين الّذِين أورثَهُم الله الكتابَ الخاتم، واصْطَفاهم لتَبْليغ رسالة الإسلام إلى العالمين، لأنّ سَوابِقَ هٰذِهِ الآياتِ كان الحديث فيها عنهم، ويختصّ هذا الفضل الكبير بقِسْمِ السابقين بالخيرات منهم.

ولا يفيدُ النصّ أنَّ هٰذا المشْهَدَ خاصٌّ بهم، دون المؤمنين المسلمين السابقين بالخيرات من أتباع الرُّسُلِ قَبْلَهُم، فَلِكُلِّ المؤمنين السابقين

بالخيرات من سائر الأمم قبلهم فضْلٌ كبير من الله في جنَّات عَدْن، وقد جاء بيانُ هذا في نُصُوصٍ أُخرى.

ولَكِنْ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ، لا يُقْبَلُ مِمَّنْ بَلَغَتْهُ إلَّا الإيمانُ به، واتِّباعُ ما جاء به، فَلَا حظَّ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعْ مَا جَاءَ به في هذا الْفَضْلِ الكبير، الذي جاء بيانُهُ في هذه الآيات، ولا حظَّ في دُخول الجنَّة بسَبب كُفْرِهِ الذي لا عُذْرَ لَهُ فيهِ.

وينبغي أن لا نغْفُل عن أنَّ هٰذا المشْهَدَ هو أحَدُ المشاهِدِ الكثيرة، الّتي عَرَضَها القرآن المجيد، لنعيم المؤمنين المسلمين يوْم الدين، وبضَمّ بَعْضِها إلى بَعْضٍ، معَ التّدَبُّر التحليليّ، يُمْكِنْ إخراجُ سِفْرٍ كبيرٍ، يَشْتَمِلُ علَىٰ مَا سَوْفَ يَكُونُ لأَصْحَاب الجنَّةِ فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ عظيم، بفضل الله على عباده المتقين.

التدبّر:

قول الله تعَالَى:

﴿. . ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . .﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: المُشَارُ إلَيْه بهذا الاسم من أسماء الإشارة الموضوع للمشارِ إلَيْه البعيد، هو: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ والغرضُ بيانُ عُلُوّ شأن جنَّاتِ عَدْنٍ وارْتِفاعِ مَنْزِلَتِها الفاخِرَة.

﴿هُوَ﴾ ضمير فَصْلٍ ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ خَبَرُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ وتَعْريفُ طَرَفَي الإسْنَادِ يَدُلُّ على الْحَصْرِ والْقَصْرِ، فالمشارُ إليه هو الْفَضْلُ الكبيرُ لا غَيْرُهُ، لأنَّ جنَّاتِ عَدْنٍ أعْظَمُ ما أعَدَّ الله للمتقين من عباده.

وعبارة ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يُنْعِمُ الله فيها على عِبادِهِ، ومن ذلِكَ رِضوانُه الَّذِي يُفْرِغُهُ عليهم.

وعلى الأديبِ الذَّوَّاقِ للأدَب الرَّفيع أنْ يَتأمَّلَ مُسْتَمْتعاً بهٰذه المفاجأة في البيان، إذْ يقولُ اللَّهُ عزّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ فإذا انْدَفَعَتْ نَفْسُهُ للسُّؤالِ عَنِ المشارِ إلَيْهِ مُسْتَجْمِعاً كُلَّ وَعْيِهِ، جاءه البيانُ التالي: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

﴿جَنَّٰتُ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أو عطفُ بيان.

إنَّ هذا الجزاءَ ذا المنزلَة الرَّفيعة في جنّاتِ عَدْنٍ خاصٌّ بالسّابقين بالخيرات، يَدُلُّ على هذا ما يلي:

(١) أنّ جنّاتِ عَدْنٍ منازِلُ رَفِيعَةٌ في عُمُومِ الجنَّة.

(٢) أنَّ أهْلَ جَنَّاتِ عَدْنٍ يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهب، وهذا خاصّ بالسَّابقين بفعل الخيرات أيضاً.

أمّا غير السّابقين فقد جاء في سورة (الإنسان/٧٦ مصحف/٩٨ نزول) بيان أنّهم يُحَلَّوْنَ أَسَاوِرَ من فضَّةٍ، فقال الله عزّ وجلّ فيها بشأنهم:

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾.

وجاء توكيد أنَّ السّابقين بالخيرات يُحَلَّوْن في الجنَّةِ من أَساور من ذهب فيما يلي:

- في الآية (٣١) من سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول).
- وفي الآية (٢٣) من سورة (الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول).

الجنَّة: هي في الدنّيا الحديقةُ ذاتُ الشَّجَر الكثير السّاتر لما تحتَهُ سَتْراً يُعْطِي ظِلاً ولا يمنَعُ النور، والبُسْتَانُ ذو الأشجار الكثيرة المتَنوّعة.

وجاء إطلاقُ اسم «الجنَّة» في النصوص الدينيَّة علىٰ دار النعيم في الآخرة، الّتي وُصِفَتْ بأنّ عَرْضَها كَعَرْضِ السّماوات والأرض، ومَعَ كونِها

بِعُمُومها جَنَّةٌ واحِدَةٌ، إلاَّ أنَّها بالنِّسْبَةِ إلى أقْسَامِها ودَرَجاتِها المتفاضلات، ومنازِلِ المنَعَّمِينَ فيها، هي جنّاتٌ مُتَعَدِّدات، وحظوظ أصْحَابها فيها متفاضلات أيضاً. ولهذا جاء إطلاق لفظ «جنَّات» في القرآن على دار النعيم يوم الدِّين (٦٩) مرَّة أمَّا إطلاق لفظ «جنَّة» بالإفراد فقد جاء في القرآن (٦٦) مرَّة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: أي: جنَّاتُ ثَباتٍ واسْتِقْرارٍ دائم، يُقالُ لغة: عَدَنَ بالمكان يَعْدِنُ، ويَعْدُنُ، عَدْناً وعُدُوناً، أي: استقرَّ فيه وثبت. وجنَّاتُ عَدْنٍ منازِلُ رفيعة في عموم الجنّة، ذات حظوظ أوفر للمقيمين فيها.

﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وفي القراءة الأخرى [**يُدْخَلونَها**]: أي: يُسَاقُون إلى دُخُولها مُكَرَّمين يَوْمَ الدِّين، فَيَدْخُلُونَها سُعَداءَ فرِحين بما آتاهم الله من فضله. وجملة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ خَبَرُ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾.

ودلَّ على السَّوْقِ قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر/٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قول الله تعالى:

﴿... يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾؛ خَبَرٌ ثانٍ لـ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ وهو فيما أرى أولى من اعتبارها حالًا مقدَّرة.

أي: يَلْبَسُونَ في جنَّاتِ عَدْنٍ تَزْييناً لهم حُلِياً مِنْ صِنْفِ أسَاوِرَ مِنْ

ذَهَب، ويُلْبَسُونَ فيها أيضاً لُؤلُؤاً، على شَكْلِ أطْواقٍ وتيجانٍ وأسَاوِرَ، وغير ذلك.

وقراءة الجرّ للفظ **[لُؤلؤ]** تَدُلُّ على أنّ الأساور من ذهبٍ مُطَعَّمَةٌ ومُزَيَّنَةٌ باللُّؤلُؤ.

فالقراءتان متكاملتان في تأدية المعنى المراد.

يُقَال لغة: **حلاَّهُ**، أي: أَلْبَسَهُ حُلِيّاً، أو أعطاه حُلِيّاً لَيَلْبَسَه.

الْحُلِيُّ: جَمْعٌ مُفْرَدُه «**الْحَلْيُ**» وهو ما يُتَزَيَّنُ به من مصُوغ المعادن، كالذَّهَب والْفِضَّة، وما يُتَزَيَّنُ به مِن اللَّآلِئِ والْحِجَارَة الكريمة، كالأَلْمَاس، والزُّمُرّدِ والياقوت، وغيرها.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: أيْ: وكُلُّ أنواع أَلْبِسَتِهِمْ في جنّاتِ عَدْنٍ مصنوعةٌ بخَلْقِ الله عزّ وجل، من خيوط الْحَرِير، أَنْفَسِ الْخُيُوطِ وَأَنْعَمها، إلاَّ أنَّ حَرِيرَ الْجَنَّة لا نظير له في حَرِير الدُّنيا، إذِ هو يتناسَبُ مع ما فيها من كلّ رفيع نفيس، ومع ما فيها مما لا عينٌ رأتْ ولا أذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. ودلّ هٰذا البيان على أنّ النظام العامّ لأهل الجنَّةِ نَظَامُ ارْتِداء أَلْبِسَةٍ ساترة، لا نظامُ عُرْيٍ وكَشْفٍ لِلْعَوْراتِ.

قول الله تعالى:

- ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

مَقَالَةٌ يَقُولُها أهلُ جنَّاتِ عَدْنٍ بَعْدَ أن يَسْتَقِرُّوا فيها، وقد جاءت هٰذه المقالَةُ مسْتَقْطعةً من حَدَثٍ مُسْتَقْبلي، ومَقَدَّمَةً في النّصّ بأسْلُوب حَدَثٍ وَقَعَ ومضَىٰ، لتأكيد أنّه سَوْفَ يَقَعُ حَتْماً.

وفي هذه المقالة ثناءٌ من أهْلِ جَنَّاتِ عَدْنٍ على الله ـ جلّ جلالُه

وعَظُمَ جُودُه وفَيْضُ عطائه ـ بإسْنَادِ كلّ الحَمْدِ له، إذْ يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

والّذي أطْلَقَ ألسنَتَهُم بهٰذا الحمْدِ ما نَالُوه في جنَّاتِ عَدْنٍ من فَضْلِ الله عليهم، ويذكُرُون في هذا الثناء ممّا تفضَّل الله به عليهم خَمْسَةَ إنْعَامات:

الإنْعَامُ الأوّل: دلَّ عليه قولهم في الثناء على الله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾:

الْحَزَنُ والْحُزنُ: مَا يُصِيبُ النَّفْسَ من غَمٍّ وأَلَم بِسَبَبِ مُصِيبَةٍ لَمْ يُمْكِنْ دَفْعُهَا وَلَا رَفْعُها، أَوْ بسَبَب فَوَاتِ مَحْبُوبٍ، أو مَرْغُوبٍ فيه.

إنَّ أهْلَ الجنَّةِ في الجنَّةِ لَا يَجِدُونَ في أَنْفُسِهِمْ حُزْناً عَلىٰ شَيْءٍ فَاتَهُمْ قَبْلَها، ولا حُزْناً على شيْء لم يَنَالُوه فيها، إذْ لَهُمْ فيها مَا يَدَّعُون.

ولا يَجِدُونَ في أَنفُسِهم حُزناً على مُعَذَّب في النّار مِمَّن كانَتْ لَهُمْ بِهِ قرابَةٌ، أو خُلَّةٌ، أو صَدَاقَة، لأَنَّهُمْ لا يُرْضِيهم يَوْمَئِذٍ إلَّا ما يَرْضَىٰ الله به، فلا يَجِدُونَ في أنفسهم حُزْناً على أحَدٍ قضَىٰ اللَّهُ عَلَيْه بأنْ يكونَ من المعذَّبين.

الإنْعامُ الثاني: دلَّ عليه قولُهُمْ في الثناء على الله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

إنّهم يتَذَكَّرُونَ مَا سَعَوْا في الحياة الدُّنيا، فَيَجِدُونَ ذُنُوباً كثيرةً جدّاً قَدْ غَفَرها الله لهم، وتَجاوَزَ لَهُم عَنْها، ويَجِدُون أعمالاً صالحةً قَلِيلةً قَدْ أثابَهُمْ اللَّهُ عليْها ثواباً جزيلاً جدّاً، لَا يَسْتَحِقُّونَه، فَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾: أي: نؤَكّد أن رَبّنا لكثير المغفِرة وعظيمها، ولَكثيرُ الشُّكْرِ وعظيمه، والْغَرَضُ من التأكيد تعظيم الثناء على الله.

غَفُور: صيغة مبالغةٍ وتكثيرٍ وتعظيمٍ لصيغة «غافر».

شَكُور: صيغة مبالغة وتكثير وتعظيم أيضاً لصيغة «شاكر».

ومن آثار شُكْرِهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أنَّه يَجْزِي على الْعَمل الصالح اليَسِير، بالجزاء الجزيل الكثير الْوَفير.

ويؤكدون عبارَتَهُمْ بالمؤكدات: «إن ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة» لما سبق بيانه.

الإنعامُ الثالث: دلَّ عليه قولهم في الثَّناء على الله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾:

أي: الّذي جَعَلَنا نَحُلُّ دَارَ الإقَامَةِ الدَّائِمَةِ من فضله، لا بِعَمَلِنا وكَسْبِنا، وهذه الإقامة لا نهاية لها لأنّ أهل الجنّة خالدون فيها.

إنَّهم حينئذٍ يُدْرِكُون، أنَّ ما قَدَّمُوه من أعمالٍ صالحةٍ في الحياة الدُّنيا، لا يُكافِئ نِعَمَ اللَّهِ عليهم فيها. فَمَا أنْعَمَ اللَّهُ عليهم به في الآخرة قَدْ كان بمحْضِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

ومن هذا نفهم أنَّ «الباء» في: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصف/ ٣٩ نزول) بشأن أصحاب الجنّة:

﴿... وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وفي قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠):

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

هي «بَاءٌ» سَبَبِيَّة، دالَّةٌ على أنّ ما كانوا يَعْمَلُونه من صالحات في الحياة الدُّنيا، قَدْ كانَ سَبَباً في تَحْقِيقِ وَعْدِ الله لهم بأنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بإدْخالِهِمُ الجنَّةَ مُنَعَّمِين خالِدين، ولا تَدُلُّ هٰذِهِ الباء على أنَّ المتّقين يَسْتَحِقُّونَ دُخولَ الجنَّةِ بأعْمالِهم استحقاقاً ذاتياً.

وهذا ما أبانه الرَّسُول ﷺ بقوله فيما روى البخاري ومسلم عن أبي هُرَيرة:

«لَنْ يُدْخِلَ أَحداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا أَنَا، إلَّا أَنْ يَتغَمَّدَني اللَّهُ بِفضْلِ رَحْمَتِهِ»(١).

﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾ هي في اللُّغة: الإقَامَة، ومَوْضِعُ الإقامة. ويقال لغة: أقام بالمكان، أي: لبث فيه واتَّخَذَهُ وَطناً.

الإنعام الرابع: دلَّ عليه قولُهُم في الثناء على الله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾:

الْمَسُّ: أَخَفُّ الْتِصَاقٍ يَشْعُرُ بِهِ ذو الحِسّ.

النَّصَبُ: هو التَّعَبُ من الاجتهادِ والكَدْحِ في الْعَمل.

إنّ أهْلَ الجنَّةِ لَا يحْتَاجُونَ فيها إلى عَملٍ لِكَسْبِ أرْزَاقهم، وتحقيق حاجاتهم، فَهُمْ لَا يَمَسُّهُمْ فيها تَعَبٌ ما، أمّا مُمارَسَةُ لذَّاتِهم مَع أزْواجِهم فهي ممارَسةٌ مُرِيحَةٌ سَعِيدَة.

فَهُمْ يُثْنون على الله بِفُيُوض نِعَمِه عليهم، الّتي لا يَمسُّهَمْ في الحصُولِ عليها تَعَبٌ ما.

الإنْعَام الخامس: دَلَّ عَلَيه قولهم في الثناء على الله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾:

اللُّغوبُ: هو الإعْيَاءُ والعجْزُ عن مُتَابعَةِ العمل.

وفي هٰذا الثناء على الله منْهم إشارَةٌ إلى أنَّهُمْ لا يَعْيَوْنَ من كَثْرَةِ مُعَاشَرَتِهم لأزْواجهم، بَسَبِب الْقُوَّة الّتي يَمْنَحُهُمْ دوامَها في الجنّة.

* * *

---

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير وَزِيَادَته» رقم الحديث «٥٢٢٢».

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

تمهيد:

بعد بيان مشْهَدٍ من مَشاهِدِ فَضْلِ الله الكبير يَوْم الدين، على المؤمنين الّذين أورثَهُمُ الله الكتاب الخاتم، بَعْدَ بِعْثَةِ مُحمّد وإيمانهم به واتّباعهم له ولمَا أُنْزِلَ علَيْه من ربّه، كان من الحكمَة تقديمُ لَوْحَة من جزاء الكفورين، الذين كَفَرُوا بِرِسَالة محمّد ﷺ، وفي هذه اللّوْحَةِ مَشْهَدٌ تَصْويريٌ من مشاهِدِهِمْ وهُمْ يُعذَّبونَ في نار جهَنَّمَ، إذْ كَانُوا في الحياة الدّنيا كَفُورين من أشنَعِ وأخسِّ دركَاتِ الكفر.

التدبّر:

جاء في هَاتَيْن الآيتَيْن (٣٦ و٣٧) بيانُ ثَماني قضايا:

القضيّةُ الأولى: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾:

هذه الجمْلَةُ معطوفَةٌ علَىٰ الكلَام الّذي جاء فيه بَيَانُ ثوابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحمَّدٍ ﷺ، وكانُوا باجتهادهم ومجاهَدَتهم من السَّابقين بالْخَيْرات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي: والّذِينَ سَتَرُوا بَراهينَ الحقّ الَّذِي جاء به رسُولُ الله محمَّدٌ ﷺ، بتَشْكِيكَاتِهم وشُبُهَاتِهم، وحِيَلِهم الكلاميَّة، وزُخْرُفِ أقوالهم، فَجَحَدُوا حَقَّ رَبّهم عليهم، واتّبَعُوا أهواءَهم وشهواتِهم وأوغَلُوا

في سُبُل الضلال، فكانوا بذلك كَفُورِين جاحدين، يَعْلَمُونَ الحقَّ ويُنْكِرُونَهُ جُحُوداً.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾: أي: أُعِدَّتْ لهم نارُ جَهَنَّم لِتَعْذِيبهم بالْحَرِيقِ فيها على كُفْرِهِم وجُحُودِهم الحقَّ الَّذِي جاءهم به رَسُولُ رَبِّهم.

فَهُمُ الَّذِينَ يَصْلَوْنَها مُحْتَرِقِينَ بِلَهَبِهَا، إِذْ هُمُ الأشْقَوْنَ، الكَفُورُون.

﴿جَهَنَّمُ﴾: اسمٌ عَلَمٌ من أسماء دار العذاب يوم الدين، الّتي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِيُعَذِّب بها الكافرين والعصاة في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا. وهو ممنوعٌ من الصَّرْف للعلميَّة والتأنيث.

ويُقَالُ لُغَةً للقَعْرِ البعيد: جَهَنَّم. ويُقَال: بِئْرٌ جَهَنَّم: أي: بَعِيدَةُ الْقَعْر.

القضية الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾:

أي: لا يُقْضَى علَيْهم بالموت فَيَمُوتُوا بتَنْفِيذِ قَضَاءِ الله بموتِهِم، فَيَسْتَرِيحُوا به من العذاب الذي يُحِيطُ بهم في نار جَهَنَّم وَيُلازِمُهُم، فقد ذُبْحِ مِثَالُ الْمَوْتِ على الصِّراطِ، ورأَوْا ذبْحَه قبل إدْخالهم دار العذاب.

قضاء الأمر: إمضاؤه وإنهاؤه:

- فإذا كان حُكْماً قَدَرِياً فَهُوَ إمضاءٌ وإنْهَاءٌ لَهُ بالبتّ، ثُمَّ يكون التنفيذ على وَفْقِ ما تمَّ به القضاء.

- وإذا كان عملاً تَنفيذيّاً كانَ قضَاؤه إنْهَاءَ تَنْفِيذِهِ، وإحْدَاثُهُ في الواقع.

- وإذا كان حُكْماً تَشْرِيعياً مَطْلُوباً من الْعِبَادِ أَنْ يَعْلَمُوا به، فَهُوَ إمضاءٌ له بالْبَتِّ، والمكلّفون مطالَبُون باتّباع ما جاء فيه من أمْرٍ أو نْهي أو تَرْغِيب أو إباحة.

وتكرَّرَتْ في الاستعمال عبارة «قَضَىٰ عَلَيْهِ» بمَعْنَىٰ اتَّخذَ وسيلَةً أماتَهُ بِها.

إنَّ الخالِدِين في عذاب النّارِ حِينَ يَيْأَسُونَ مِنْ إجَابَةِ دُعَائِهم، في استئنافِ رِحْلَةِ ابْتِلائهم، يَسْأَلُون أَنْ يُقْضَىٰ عليهم بالموتِ الأَبَدِي، لَيَسْتَرِيحُوا من العذاب، فلا يُسْتَجابُ لهم، بل يقالُ لَهُمْ: إنَّكُمْ ماكِثُونَ في عذاب نار جَهَنَّم، دلَّ على هٰذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ بشَأْنهم في سورة (الزُّخْرُفُ/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

مَالك: هو خَازِنُ النَّار الأكْبَرُ من الملائكة، والمسؤولُ عن أهْلِ النّارِ في النّار.

القضيّة الثالثة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾:

أي: إنّ نِسْبَةَ تَعْذِيبِهِمْ فِي نَار جَهَنَّم تَسْتَمِرُّ دواماً على مِقْدارِها، فَلَا يُخَفَّفُ مِنْهَا شيءٌ مَهْمَا طَالَتْ مُدَّةُ إقامَتِهِمْ، لأَنَّهُمْ كَفُورُونَ من أشْنَعِ دَرَكَةِ وأخَسِّ كُفْرٍ وجُحُودٍ.

القضيّة الرابِعَة: دَلَّ عَليها قَوْلُ الله عزَّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾:

أي: مِثْلَ ذَلِكَ الجزاءِ الشّدِيدِ ذي الدّرَكَة السَّحِيقَةِ الّذي نَجْزيه الّذِين كَفَروا برسالة مُحَمَّدٍ ﷺ، نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ من الأمم السابقة الَّذِينَ كَفَرُوا برسالاتِ رَبِّهم، وكذَّبوا رُسُلَه، فَسُنَّة الله عزّ وجلّ في عباده واحدة.

﴿نَجْزِى﴾: جاء الفعل بنُون المتكلّم العظيم، لتَرْبيَةِ المهابة، فالموقفُ موقِفُ سُلْطانِ الْقَهْرِ والجبرُوت لتحقيق العدْل الرَّبّاني.

وجاء في قراءة أبي عَمْرو الْبَصْري: [**يُجزَىٰ**] على أنّ الفِعْل مَبْنِيٌّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه، وبرفع لفظ [**كُلُّ**] على أنّه نائبٌ عن الفاعل في الإعراب.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، فاللَّهُ يَجْزي جزاءً مِثْلَ ذَلِكَ الجزاء كُلَّ كَفُورٍ، وكُلُّ كَفُورٍ لَا بُدَّ أنْ يُجْزَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ الجزاء، لأنَّه لَا أَحَدَ غَيْرَ الله يَمْلِكُ أنْ يجْزِيَ العبادَ يوم الدّين، سواءٌ أكانُوا من الكَفُورين برسالة محمد ﷺ بَعْدَ بِعْثَته، أمْ من الكَفُورين الّذين كَفَرُوا برسَالَاتِ الرُّسُل السَّابقين، فَسُنَّةُ اللَّهِ في عبادِه واحدَة.

القضية الخامسة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾:

في هٰذه العبارة تصويرٌ لِمَشْهَدٍ منْ مَشاهِدِ أَهْلِ النَّارِ المعذَّبينَ فيهاعذاباً خالداً.

وهٰذِهِ الصّورَةُ تَعْرِضُ مَشْهَدَ صِياحِهِم وصُراخِهِم الشديد، في تَظَاهُرَةٍ جماعيَّةٍ يُنادُون فيها قائلين: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحاً غير الذي كُنَّا نَعْمَلُ.

أي: أَعِدْ لَنَا رِحْلة امْتحاننا، فإنَّنا نَعِدُكَ بِأَنْ نُطيعَ أوامركَ وَنواهِيك، ونَعْمَلَ عملاً صالحاً تَرْضَاهُ مِنَّا، غَيْرَ الْعَمَلِ السَّيِّءِ الذي سَبَقَ أنْ عملْناهُ عُصاةً لك، فأسْخَطَكَ عَلَيْنا.

﴿يَصْطَرِخُونَ﴾: أي: يَصْرُخُونَ بِشِدَّةٍ وَصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ جدّاً، أخذاً من زيادة المبنىٰ بإضافة تاء الافتعال إلى فعل «صَرَخَ يَصْرُخ».

القضيّة السّادسة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾.

أي: وبَعْدَ أن يَصْطرخوا قائلين: رَبَّنا أخْرِجْنا نَعْمَلْ صالحاً غَيْرَ الَّذي

كُنَّا نَعْمَلُ، يجابُونَ مِنْ ربِّهم بهذا الجواب أوّلاً. الواو في: ﴿أَوَلَمْ﴾ عاطِفَةٌ على مَحْذُوفٍ يُمْكِنُ تقديره بما يلي، أَلَمْ نُمْهِلْكُمْ بَعْدَ البيانات الكافيات والتَّحْذِيرات الكثيرات في الحياة الدُّنيا، أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ عُمْراً كافياً، وأخّرَتِ «الواو» عن همزة الاستفهام، لأنّ الاستفهام لَهُ الصَّدارَةُ فِي الْجُمَلِ الْعَرَبِيَّة.

والاسْتِفْهَامُ في: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ فيه معنىٰ تَكْذِيبهم في ادِّعائهم، أَنَّهُمْ إذَا أُعِيدَ امْتِحَانُهُمْ عَمِلُوا صالحاً غير الذي كانوا يَعْمَلُونَه، إذْ لَوْ رُدُّوا إلى حياة الامتحان مَرَّةً أخْرَىٰ، لَعَادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ، ولَمْ يَعْمَلُوا صالحاً.

والسَّبَبُ في هٰذا أَنَّهُمْ حينَ يَرَدُّونَ لَا بُدَّ أَنْ يُمْسَحَ مِنْ ذَاكِرَتِهِمْ كُلُّ مَا هُمْ فِيهِ من عَذابٍ في نارِ جَهَنَّم، وعندئذٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعُودُوا لَمَا كَانُوا عليه في رِحْلَةِ امتحانهم الْأُولىٰ.

وفي هٰذا الاستفهام أيضاً معنى انتزاع إقرارهم، بأنَّ رَبَّهُم قَدْ أَعْطَاهُمْ فُرْصَةَ الإيمانِ في الحياة الدنيا، الّتي تَكْفِي لَهُ السَّاعَةُ الأخيرة من عُمْرِهم، قَبْلَ أَنْ يَعْبُرُوا عَتَبَةَ الْآخِرَة.

وفيه أيضاً توبيخٌ وَتَقْرِيعٌ وإسكاتٌ لهم عن الصُّرَاخ والثرثَرَة.

وكلمة ﴿مَّا﴾ في عبارة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا﴾ كناية عن المدَّة الّتي عاشُوها في الحياة الدُّنيا، الّتي كانَ باستطاعتهم أن يُعْلِنُوا إيمانَهم وتَوْبَتَهم وإسْلامهم في سَاعَةٍ واحدةٍ منها، لينْقِذُوا أنْفُسَهُمْ من الخُلُودِ في عَذَابِ النَّار.

فالمعنى: أو لَمْ نُطِلْ عُمْرَكُمْ زماناً مَا، كافِياً لأنْ يَتَذَكَّرَ فِيه تَذكّراً نافعاً، من قَدْ تَذَكَّرَ فِعْلاً منْكُمْ، فيتوبَ إلىٰ ربّه، ويُؤْمِنَ به، ويُعْلِنَ إسْلَامه له.

ومعلومٌ أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنهُمْ قَدْ أطالَ الله عُمْرَهُ بِحَسْبه، وقَدْ تَذَكَّرَ

فَعلاً تَذَكُّراً ذِهْنِياً إلّا أنَّهُ لم يسْتَجِب لما دَعَاهُ إليه تَذَكُّره، فلم يؤمن ولم يُسْلم ولم يَعْمل عملاً صالحاً يُصَدِّقُ به صحَّة إيمانه وإسلامه.

فلفظ: ﴿مَّا﴾ هنا هو فيما أرى نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ بجملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ والتقدير: أَو لَمْ نُعَمِّرْكم عُمْراً مَا يَتَذَكَّرُ فيه تَذَكُّراً نافعاً يَتُوبُ فيه إلى ربّه فَيُؤْمِنُ به ويُسْلِمُ مَنْ تَذَكَّرَ فَعْلاً، وكُلٌّ مِنْكُمْ قَدْ حَصَلَ في ذِهْنِهِ هذا التَّذَكُّر، لكنَّهُ لم يَسْتَجِب لِدَاعِيهِ.

فالمراد بفِعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أَثَرُ التَّذَكُّرِ في الْإِيمانِ والإسلام والسُّلُوك.

والمراد بفعْلِ: ﴿تَذَكَّرَ﴾ بَيَانُ أَنَّ كُلَّ مَنْ عَمَّرَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ عُمْراً مَا، جَعَلَهُ فِيهِ مُمْتَحَناً مُكَلَّفاً مسؤولاً، ووضَعَهُ فيهِ مَوْضع المحاسَبَةِ والجزاء، فلا بُدّ أن يكون قَدْ تَذَكَّرَ فِعْلاً مَا يَجِبُ عليه من الإيمانِ بربّه، والْإِسْلامِ له، والتعبيرِ عن صِحَّةِ إيمانه وإسلامِه في سُلُوكِه بِعَمَلٍ صالح، فإذا لم يَفْعَلْ ذلك علىٰ الرُّغم من تَذَكُّرِهِ فقد اسْتَحَقَّ بالْعَدْلِ الْخُلُودَ في عَذَابِ النار، لأنَّه لو اسْتَمَرَّ خالداً في الحياة الدُّنيا، لَبَقِيَ جاحِداً كَفُوراً أبداً.

القضيَّة السابعة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ خطاباً لهم: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾:

أي: ومع حُصُولِ تَذَكُّرِكُمْ لما يجب عَلَيْكُمْ تُجاه رَبّكُم، فقد جاءكم النّذير، وهو أمْران:

الأول: الرَّسُولُ الَّذِي أَنْذَرَكُمْ بِعذَابِ رَبّكُمْ يَوْمَ الدّين.

الثاني: كتابُ رَبّكم الّذي جاءَ فِيه إنْذارٌ من الله للكافرين الجاحدين المجرمين، بعذابٍ خالِدٍ في نارِ جهنَّم.

فلا عُذْرَ لَكُمْ تَعْتَذِرُونَ به، وقَدْ كُنْتُمْ على عِلْمٍ كَافٍ بما أَنْتُمْ فيه

الآنَ من عَذَابٍ أليم، إذْ كُنْتُمْ في رحْلَةِ امتحانكم في الحياة الدُّنيا عالمين جَاحِدين.

القضيَّة الثامنة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ خطاباً لهم: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾:

أي: فَذُوقُوا اسْتِمْرارِيَّةَ عَذَابِ النَّار، فَمَا لَكُمْ من نَصِيرٍ يَنْصُرُكُمْ فَيُخرجُكم من هذا العذاب، لأنَّكُمْ مِنَ الظالِمِينَ.

والقَاعِدَةُ الرَّبَّانِيَّة الْعَامَّةُ من قَواعِد جَزائِه بالعدل، أنَّهُ لا يُوجَدُ للظالمين أمام عَدْلِ الله وتنفيذ قضائه بالعدل، من نَصِيرٍ ينْصُرُهم، فَيَرْفَعُ عَنْهُمْ مَا قَضَىٰ اللَّهُ به عليهم.

لفظ ﴿مِن﴾ في ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ حَرْفَ جَرٍّ زائِدٍ جيء به لتأكيد استغراقِ النَّفْي.

* * *

قول الله عزَّ وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾.

تمهيد:

تضمَّنتْ هذه الآية دَفْعَ إشْكالٍ، قَدْ يثيرُه مَا جاء من بيان عذاب الكافرين الخالد يوْمَ الدِّين، في نار جهنَّمَ، وبأنَّهم لا يُقْضَىٰ عليهم فَيَمُوتوا، ولا يُخفَّفُ عنهم من عذابها، وبأنَّهُمْ لا يُستَجابُ لطلبهم إعادة امتحانهم في رِحْلَة امتحان أُخْرىٰ، غيْر رحلَة امتحانهم الأولى في الحياة الدنيا.

وهذا الإشكالُ يَدُورُ حَوْلَ احْتمال أنَّهُمْ قَدْ يُغَيِّرُون من أحوالهم إذا أُخْرِجوا من نار جهنَّم، وأعِيدَ امْتِحَانُهُمْ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فلماذا لَا يُمْنَحُونَ

هٰذه الْفُرصَة، عسَىٰ أن يكونَ لهم وضْعٌ آخَرُ غَيْرُ الوضْعِ السَّابق، الذي كانُوا علَيْه في الحياة الدُّنيا، فيُؤْمِنُوا إيماناً صَحِيحاً صالحاً، ويُسْلِمُوا إسلاماً صحيحاً صادقاً، ويَعْمَلُوا عملاً صالحاً يَدُلُّ على صِدْقِ إيمانهم وإسلامهم؟!

وجاء دفع هذا الإشكال ببَيَان أنَّ الله عَالِمُ غَيْبِ السماواتِ والأرض، وأنَّهُ عَلِيمٌ بذَاتِ الصُّدُور، أي: عليم بالنّيّاتِ والسرائر صَاحبة الاستقرار في الصُّدُور داخل النفوس، ويشْمَلُ ما في الصُّدُور ما في القلُوب، وما في الأَفْئِدَة، الّتي هي أَعْمَقُ في داخل دوائرِ النُّفُوسِ في الصُّدُور، فهي فيها حتماً.

أي: فلَوْ عَلِمَ اللَّهُ في صُدُورِهم خيراً قابلاً لتغيير أحْوالهم، وتغيير أوْضَاعهم، إذا أعَادَ امتحانَهُمْ إعادةً مُشَابهةً لِظُرُوفِ ولشُروطِ الامتحان الّذي كانوا فيه، لاستجاب لِطَلَبِهِمْ، لِكِنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إلى مِثْلِ أَحْوالهم الّتي كانوا عليها في الحياة الدُّنيا، لعَادُوا إلَىٰ مِثْلِ مَا كانُوا عليه، من كُفْرِ وعِنادٍ وجُحودٍ وسُوءِ عَمَلٍ وجرائم، ولَوْ كَرَّرَ اللَّهُ لهم هٰذه الإعادةَ مرَّاتٍ لَا حَصْرَ لها.

إذَنْ: فإعَادةُ امْتِحانهم لا تُفِيدُ شيئاً، ولا تغيِّرُ من أمورهم شيئاً، وتكُونُ صُورَةً من صُوَرِ الْعَبَث.

وفي تحْليل هذه الحقيقَةِ أقولُ مُكرّراً:

إنَّ إعادَةَ امْتِحَانِهم مرَّةً أُخرَىٰ تَسْتَدْعِي إيجادَهُمْ في أحوالٍ وظروفِ مطابقَةٍ تماماً لأحوالهم وظروفهم الّتي كانوا عَلَيْها في رِحْلَةِ الامْتِحان الأولى، وأوّلُها وأَوْلاها بالعناية أنْ يُمْسَحَ من ذاكراتِهم ما شَهِدُوه من عَذَابٍ في نار جَهَنَّمَ علىٰ كُفْرهم وجُحودِهم وسُوءِ عَمَلهم في امتحانهم الأول، وأن يُمْسَحَ من ذاكراتهم كُلُّ ما شَهِدُوه من أحداث البعث ويوم

القيامَةِ والحِسَاب وفَصْل القضاء والسَّوْقِ إلى دار العذاب، فلا يَذْكُروا منه شيئاً، وأن تكون خصائص نفوسهم مثل ما كانت عليه في الحياة الأولىٰ، وأنْ تكونَ مجالاتُ فعْل الخير وفِعْلِ الشّرّ مفتوحةً أمامَهُمْ، كَمَا كانت عليه في الحياة الأولى.

بهذا يَتِمُّ التكافُؤ بيْنَ الامتحان في الْبَدْءِ والامتحانِ في الإعادة.

وَعَلينا هُنا أنْ نَتفكّر بمنْطِق العقْلِ السَّوِيّ، وتَجْرِبَات واقع حالِ النفوس، ونتساءَل: هل سَيُغَيِّرُ هؤلاء من سلوكهم النفسيّ والظاهري، في امتحان الإعادة، فيؤمنوا ويُسْلِمُوا صادقين ويَعْملوا صالحاً، وهم لا يَذْكُرُون شيئاً ممّا كانوا فيه أو شَهِدُوه يوم الدّين، ولا يذْكُرُونَ شيئاً من رِحْلَةِ امتحانهم الأول؟

الجواب الحق: إنَّهم سيُعِيدُونَ حتماً سيرتَهُمُ الأولى كُفْراً وجُحوداً وعناداً وإصراراً على الباطل، اتّباعاً للأهواء والشهوات بفُجُورٍ وَقِحٍ، وظُلْماً وبَغْياً وفساداً في الأرض، مِثْلَما كانوا عَليْه في رْحَلة الامتحان الأوّل.

فلَوْ كَرَّر الله امتحانَهُمْ ما لا حصر له من المرّاتِ، ضِمْنَ شروط وظروف الامتحان الأوّل لكان حالُهُمْ في كُلّ مرَّاتِ الامتحان المستأنَفِ مُطابقاً في النتيجة للامتحان الأوّل.

فما الداعي إلى إعادة امتحانِهم، وأحوالُهُم لا تتغيَّرُ نتائجُها ولا أحكامُها الجزائيَّة؟!!

إنّ الله جلّ جَلاَلُهُ وأحَاطَ عِلْمُهُ بكلّ شيءٍ عليمٌ بذاتِ الصُّدُور، وهذا جُزْءٌ من شُمُول عِلْمِه لكُلّ شيء، ومنْهُ غَيْبُ السَّمَاواتِ والأرْض.

إنّ إعادة امتحانهم عبَثٌ لَا يَليقُ بِحِكْمَةِ الحكيم، فالاستجابَةُ لطلَبهم أمْرٌ يُنافي الحكمة، والله جلّ جلالُه عَلِيمٌ حكيم، لَا يُجْرِي في مقاديره شيئاً مُنافياً للحكمة المقترنَةِ بالْعِلْمِ المحيط الشامل.

هذا الجواب الذي دلَّتْ عليه هٰذه الآيَةُ بمضْمُونها ولوازمه، قد دلَّ عليه أيضاً قول الله لهم الذي سَبَق تَدبُّره: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ جواباً لطَلَبِهِمْ إذْ قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

وقد جاء التصريح بأنَّهم لَوْ رُدُّوا إلى حياة الامتحان، لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عنه، من كُفْرٍ وجحودٍ، وفسادٍ في الأرض وسُوءِ عمل، في قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وهكذا تكامَلَت النُّصوص القُرْآنيَّةُ في دَلَالاتها، فَدَلَّ كُلُّ نَصٍّ على جانبٍ من الموضوع، مع دلالَتِهِ باللُّزُوم الذّهْنِيِّ عَلَىٰ سائرِ الجوانب، وهذا من روائع القرآن المجيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿٣٨﴾﴾:

الغَيْب: هو ما غاب عن الشهود الحسّيّ، والمغيَّباتُ بالنِّسْبَةِ إلى المَخْلُوقَاتِ كثيراتٌ لَا تُحْصَر، ومنها ذات الله جلَّ جلالُه، وكمالات صِفاته، وممّا هو غيبٌ عنَّا أرْوَاحُنا في ذَواتنا، ونفوسُنا داخل أجسامنا، وممّا هو غيبٌ عنَّا عالَمُ الملائكة، وعالَمُ الجِنّ، ومَا هو في الأَبْعَادِ البَعِيدَة في السَّماوات، وما هو في الأعماق حتَّىٰ أَعْمَاقِ الذَّرَّات.

فهَلْ يُوجَدُ شيءٌ في الوجُودِ كُلّه هو بالنِّسْبَةِ إلى الله غيبٌ؟

الواقع أنّه لا يُوجَدُ شيءٌ هو بالنسبة إلى الله غيب، فالله علىٰ كُلّ شيءٍ شهيدٌ، حاضرٌ مشاهِدٌ له يَراه، لا تَخفَىٰ عليه خافيَةٌ في السَّماواتِ والأَرْض، وهذا ما دَلّت عليه النصوص القرآنية، ومنها ما يلي:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

- وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

إلى غير ذلك من نُصُوص.

وبما أنَّ اللَّهَ على كُلّ شيءٍ شَهِيدٌ، وأنَّهُ لَا غَيْبَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، فما الغرضُ من ذكر لفظ «غَيب» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾؟؟

أقول: إنّ المرادَ بَيَانُ أنَّ كُلَّ مَا هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إلى غير الله عزّ وجلّ، فاللَّهُ عالم به، لا تخفَىٰ عَلَيهِ منْهُ خافِيَة، والعالِمُ بالغيب لا بُدَّ أن يكون عالماً أيضاً بما هُو ليْسَ بغَيْبٍ بالنِّسْبَةِ إلى غيره، وعِلْمُ الله ـ جلَّ جلالُهُ ـ عِلْمٌ مَقْرُونٌ بِشُهُودٍ.

وجاء تأكيدُ الجملَةِ بمؤكّدَيْن: «إنَّ ـ والجملة الإسميَّة» مراعاةً لحالِ طَارِحِي الْإِشْكال في نفوسهم، كما سَبَقَ بيانُه آنفاً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾:

في هذه العبارة من الآية (٣٨) انتقالٌ من قضيَّةٍ كُلّيَّةٍ عامَّة، هي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى بيان قضيَّةٍ هِيَ جُزْئِيَّةٌ من جزئيَّاتها، فَعِلْمُ ذواتِ الصُّدُور جزئيَّةٌ من كُلّيَّةِ عِلْم غَيْبِ السَّمَاواتِ والأَرْض، والسَّبَبُ إرادة التأكيد للْقَضِيَّة الجزئيَّة، لأنَّ الإشكال الذي يُمْكِنُ أن تُثِيرَهُ الآيتان (٣٦ و٣٧) يَتَعَلَّقُ بهٰذِهِ القضيَّةِ الجزئية بالذات.

كلمة «ذات» من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

هي بمعنى **«صاحبة»** وهي مؤنث «ذي» بمعنى «صاحب». وصاحِبَةُ الصُّدُور، هي الملازمة لها، وهِيَ النيّاتُ والضمائر، والسَّرَائِر، وما تُخْفِيهِ الصُّدُور ولا تُظْهِرُه.

وقد تكون **«ذات»** بمعنى حقيقة الشيء، فيكُونُ المعنىٰ: إنَّهُ عليمٌ بحقِيقَةِ الصُّدُور ومَا تُخْفِيهِ وتُكِنُّهُ فيها.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس العاشر من دروس السورة، والحمْدُ لله مُفِيض النِّعَم على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٤)

التدبّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دروس السورة وهو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) آخر السورة

قال الله عزَّ وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ

ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾.

القراءات:

(٤٠) ● قرأ ابنُ كثير، وأَبُو عَمْرٍو، وحَفْصٌ، وحَمْزَة، وخلف: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٖ﴾ بالإفراد.

وقرأ باقي القُرّاء العَشرةِ [**عَلَى بَيِّنَاتٍ**] بالْجَمْعِ.

وَبيْنَ القراءتَيْنِ تكاملٌ في أداء المراد، أي: فمن ادعى وجُودَ بَيِّنَاتٍ فَلْيَأْتِ بها، ومَنِ ادَّعَىٰ وُجُودَ بَيِّنَةٍ واحدةٍ فَلْيَأْتِ بها.

ولَكِنْ لَا وُجُود لشيءٍ من ذلك.

وتوجد قراءاتٌ في أداء: [**وَمَكْرَ السَّيِّء ـ السَّيِّءُ إلاَّ ـ سُنَتَ ـ أَرَأَيْتُمْ ـ جَاءَ أَجَلُهُمْ**] وهي قراءات لا أثَر لها من جهة المعنى، فلم أذكُرْها هُنا.

تمهيد:

في هذا الدَّرس بيانُ أسَاليبَ وَمُنَاظراتٍ إقناعيَّةٍ وإرهابيَّة لِلْمُشْرِكين، الّذين تَدُورُ السُّورَةُ حَوْلَ مُعَالجاتهم في القضايا الشّرْكيَّة ولوازمها، التي جاء في سورة (الفرقان) بيانُ جدَليَّاتهم واعْتِرَاضَاتِهم ومقترحاتهم حوْلها، وسبق أن عرفنا أن سورة (فاطر) نزَلَتْ بَعْدَها، فهي بمثابَةِ السُّورَة المُلْحَقَة.

التدبّر:

قول الله عزّ وجل خطاباً للناس جميعاً:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

تمهيد:

هذا هو الخطاب الرابع في السورة لعموم الناس، والمقصودون الأوّلون بالخطاب هم الّذين كفَرُوا برسالة محمّد ﷺ.

- فالخطاب الأول: جاء في الآية (٣) منها، فقال الله عزّ وجل لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

فأبانَ لَهُمْ أنّ الرّازق الوحيد لَهُم هو اللّهُ جَلَّ جلالُه، وكان المشركون يَجْحَدُون هٰذه الحقيقة، إذْ كانوا يَعْتَقِدُونَ أنّ شركاءهم الذين يَعْبُدونهم من دون الله هم الذين يَرْحَمُونَهم فَيَرْزُقونَهم.

- والخطاب الثاني: جاء في الآية (٥) منها، فقال الله عزَّ وجلّ لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ فأبان لَهُمْ أنّ الحياةَ الدُّنيا مَرْحلة امتحان، وأنّ وَعْدَ اللّهِ بالبَعْثِ بَعْدَ الموت للحساب وفَصْل القضاء والجزاء وعْدٌ حقٌّ، وأنّ الصارف لهم عن الإيمان بهذا الوعْدِ الرَّبّانيّ، وعن الْعَمَلِ للآخرة أمران:

الأمْرُ الأول: الْغُرورُ بالحياة الدُّنْيا.

الأمْرُ الثالث: الْغُرُورُ بوساوس الشيطان الْغَرُور.

- والخطاب الثالث: جاء في الآيات (١٥ و١٦ و١٧) فقال الله عزّ وجلّ لهم:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ⑮ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⑯ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ⑰﴾.

فأبان لهم حاجاتهم الدّائمة في أرْزاقهم، وفي تحقيق مطالب حيواتهم، وفي بقائِهِمْ في الحياة إلى آجالهم، هي لله وحْدَهُ الَّذِي هو الغنيُّ الحميد، فلا يَلْتَمِسُوا تحقيق حاجاتهم عنْدَ غَيْره، إنَّه إنْ يَشَأْ يُذْهِبْهُمْ وَيأْتِ بخَلْقٍ جَدِيدٍ.

- والخطابُ الرابع: جاء في الآية (٣٩) في صَدْر هذا الدرس الحادي عشر آخرِ دُروس السُّورة.

قول الله تعالى خطاباً للناس:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ... ㊴﴾:

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: جَمْعُ «**خَلِيفَة**» على وزن «**فَعِيلَة**» وصِيغَةُ «**فَعِيل**» تأتي بمعنىٰ اسم الفاعل، مثل «**خَالِف**» في حالة التذكير ومثل «**خالفة**» في حالة التأنيث، وتَأْتي بمعنى اسم المفعول، مثل «**مَخْلُوف**» في حالة التذكير، ومثل «**مَخْلُوفَة**» في حالة التأنيث.

وقد جاءت ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ هُنَا للدَّلالة على المعْنَيَيْن معاً. فأجْيالُ النَّاسِ خَالِفُونَ مَنْ سَبَقَهُم، ومَخْلُوفُون مِمَّنْ جاءَ بَعْدَهم، أي: يأتي اللَّاحِقُ فيكُونُ خَلَفاً للسَّالف، وحالاً محَلَّهُ امْتِلاكاً واسْتِيطاناً وانتفاعاً.

والمعنى أنّ الله ـ جلّ جلالُه ـ جعَلَ الناسَ ضمن خطَّة حكيمَةٍ في الْخَلْقِ يتعاقَبُونَ أجيالاً، جِيلاً فجيلاً، فلم يَخْلُقْهُمْ دُفْعَةً واحِدَةً ولا في عصْرٍ واحِدٍ.

وهٰذا يَدُلُّ على أنَّهُ إنْ يَشَأْ أنْ يُذْهِبَهُمْ من الوجود أَذْهَبَهُمْ، وإنْ يَشَأْ أنْ يَأتِيَ بخَلْقٍ جَدِيد أتىٰ بِه، لا يُعْجِزُهُ إعْدامُ مَوْجُود، ولَا إيجادُ مَعْدُوم، فَدَلِيلُ التَّعَاقُب في الأجْيَال قائِمٌ باسْتِمرار.

أي: إنَّكُمْ أيُّها الناسُ تُشاهِدُونَ دَواماً أجْيَالاً تنقَرِض، وأجيالاً تأْتِي بَعْدَهَا خَلَفاً لها، وكُلَّما انْتَهَى دَوْرُ امْتِحَانِ واحدٍ من النّاس، أَوْ جِيلٍ مِنَ أجيالِهم أهْلَكَهُ الله، وتتعاقَبُ الأجْيالُ الْبَشَرِيَّةُ لِيَعْبُرَ كُلٌّ مِنْهُمْ رِحْلَةَ امْتحانه، وبَعْدَ رِحْلَةِ الامتحان يأتي دَوْرُ الحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء يَوْمَ الدِّين.

هٰذه هي خُطّة الله ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُهُ ـ فِي إيجاد النّاسِ وامْتِحَانِهم في ظروف الحياة الدنيا.

ونتيجَةُ الامتحان لا بُدَّ أن يكونَ التمييز في الجزاء بَيْنَ مَنْ آمَنَ وأسْلَمَ وعَمِلَ صالحاً، وبَيْنَ من كَفَرَ وأجْرَمَ وَعَمِلَ السَّيِّئاتِ، واتَّبَعَ أهواءَهُ وشهواته، وَوَسَاوِسَ الشياطين.

وكُفَّارُ الْعَرَب إبَّانَ نُزُول القرآن كانَ أَكْثَرُهم مُشْرِكين ولَا يُؤْمِنُونَ بيَوْمِ الدِّين، ويَعْتَقِدُونَ اعتقاداً تَوَهُّمياً، أنَّ شُرَكاءَهم الّتي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله هيَ الّتي تَرْحَمُهُمْ في شُؤُون دُنْيَاهم.

وكانَ بَعْضُ العَرَب طبيعيِّينَ، يَرَوْنَ أنَّ ظَاهِرَةَ الْحَيَاةِ والمَوْتِ أثَرُ الْتِقَاء وافتراقِ العناصِر في الكوْن، بما فيها من طبائع مختلفة، مع عامل مُرُور الزَّمن، وهؤلاء لا يُؤْمِنُونَ باللّٰهِ الخالق، الرَّبِّ الأزَلِيِّ الأبَدِيّ، وكانُوا يُعَبِّرُونَ عن تَصَوّراتِهِمْ الباطلة هٰذه بقولهم: إنْ هيَ إلّا أرْحَامٌ تَدْفَعُ، وأَرْضٌ تَبْلَعُ، وبقولهم: إنْ هي إلّا حياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنا إلّا الدَّهر.

فجاء قول الله عزّ وجل لهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

مبيّناً للحقيقة المخالفة لما يَعْتَقِدُ الفريقان من الكافرين، ومشيراً ضمناً إلىٰ حكمة الباري جلَّ وعَلا، في اختيار جَعْلِ إيجاد الناس في الحَياة الدُّنيا حياةِ الامتحان، ضِمْنَ خُطَّة الخلائف.

ومن حِكَمِ الله عزَّ وجلَّ في هٰذا الاختيار أنْ يَعْتَبِرَ اللَّاحقونَ بما جَرَىٰ للسَّابقين، وأن يكون من عناصر امتحانِهم ابتلاءُ الأجيالِ التي اقتربت آجَالُ انتهاء حَيواتِها، بالأجْيَال الوافِدَةِ والسَّائِرَةِ في تنامِي حيواتها، وبالعكس.

فإذا أهلك اللَّهُ عزّ وجلّ كُفَّارَ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، إهلاكاً جماعياً مَقْرُوناً بعذابٍ أليم، واستخلف في الأرض غَيْرَهم ليَبْلُوهم فيما آتاهم، كانَتْ قِصَّةُ المهْلَكِينَ السَّابقين عِبْرَةً مَاثِلَةً في تَصَوُّراتِ الَّذِينَ خَلَفُوهم في الأرض، فإذا كانُوا أهْلَ عَقْلٍ ورُشْدٍ اتَّعَظُوا ولَمْ يعملوا مثل أعمالهم الَّتي جنَتْ عليهم، فأنزل الله بهم عقابَهُ، فأبْعَدَهُمْ عَنِ الوجود في ظُروف الحياة الدنيا، بمُهْلِكَاتٍ سَاحِقَاتٍ ماحقاتٍ شاملات.

أي: أنْتُمْ أيُّها المتلقُّونَ هٰذا الخطاب، خَلائفُ في الأرض لأَسلافٍ لَكُمْ كَانُوا فيها، وقَدْ تَحقَّقَ هٰذا بقضاء الله وقَدَرِه وخَلْقِهِ.

وسكَتَتِ العبارةُ هُنا في سورة (فاطر) عن بيان الحكمة صراحةً، ولكنْ يُدْرِكُها المتَدَبّرُ بالاسْتِنْباط الذهني.

ثـمَّ جاء بيانُ بَعْض الحكمة في آية نَزَلَتْ بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمن، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (يُونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) خطاباً للكافِرين في معرضِ الحديث عن كُفَّارِ القرون السابقة:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ثُـمَّ جاء التَّصْرِيحُ في آخِرِ آيَةٍ من سُورَة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول)، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿... فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

بما أنّ الخطاب مُوجَّهٌ للكافرين، كانَ من الحكمة الاقتصارُ في هذا البيان من سورة (فاطر) على توجيه الإقناعِ لَهُمْ بأنّ الكُفْرَ شَرٌّ لهم، وهو ضِدُّ مَصْلَحتِهِم، ولا يَجْلُبُ لهمْ نفعاً ولا رِبْحاً في حياتهم، بلْ يجلُب لهم مَقْتَ اللَّهِ الّذي يَحْرِمُهُمْ من مشاعر السَّعادة التي يَسْعَوْنَ للحُصُولِ عليها، ويَجلُبُ لَهُمْ خساراً عظيماً في عاجلِ أمْرِهِمْ وآجله، وعلى نقيض ما يتوهَّمُونَ من أنَّ الكُفْرَ يَجْلُبُ لهُمْ زِيادَةً في حُبِّ الناسِ لهم، وزيادَةً في الرِّبْحِ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: عبارة «عَلَيْهِ» تفِيدُ أنَّ كُفْرَهُ جَانٍ عليه، وحِمْلٌ ثقيلٌ كرِيه يضنِيه ويُشْقيه، ثمَّ يكونُ وبالاً مُنصباً عليه، وعذَاباً أبَدِياً أليماً.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾:

المقتُ: هُوَ أشَدُّ الْبُغْض، ومن مقتَهُ اللَّهُ أشقَاهُ في ذاتِ نَفْسِه، حتَّىٰ إنَّهُ ليَمْقُتُ نَفْسَهُ وهو في بَعْضِ أشواط حياته، الّتي يَسْعَىٰ فيها لتحقيق ما يتوهَّمُ من سَعادَة.

وكُلّما اسْتَمَرَّ في الكُفْرِ مَعَ تتابُعِ الزَّمَن زَادَ مَقْتُ اللَّهِ له، فزادَهُ شقاءً وعذاباً نَفْسِياً.

إنّ الكافر يَسْعَىٰ في حياتِهِ متوهّماً أنّه بِكُفْرِهِ ولوازم كُفْرِهِ يَسْتَزِيدُ من لذَّاتِ الحياة الدُّنيا، فَيَجِدُ نفسه بَعْدَ حين أنّه لم يَزْدَدْ إلا اكتئاباً، وضِيقَ صَدْرٍ، وهماً وغماً، وبحْثاً عمَّا يُسْعِدُهُ، ولكن في الأشياء التي كانت سببَ اكتِئابِهِ وضيقِ صَدْرِهِ وهَمِّه وغَمِّه، فَيُدَاوِي نَفْسَهِ بالأشياء الّتي جلَبَتْ له الدَّاء.

ولو عَقَلَ فآمَنَ وأسْلَمَ وسَعَىٰ في صراط اللَّهِ المستقيم، لَمَنَحَهُ الله السَّعادة، وسَقَاهُ برحمته الدواءَ الشافي.

﴿... وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

الْخَسَارُ: النَّقْصُ ممَّا يَمْلِكُ الإنسان، أو يَكُونُ حائزاً عَلَيْه ومنتفعاً به، وخَسَارَة التاجِرِ تَظْهَرُ حِينما يكونُ ثَمَنُ ما باعَهُ أقَلَّ من الثمن الذي اشتراه به، أو حينما تَتْلَفُ بضاعَتُه، أو حينما يَتَعَرَّض لسَلْبٍ أو نَهب أو جائحة أو نحو ذلك.

يقال لغة: خَسِرَ التَّاجِرُ في تجارته يَخْسَرُ خَسْراً، وخَسَراً، وخُسْراً، وَخُسُراً، وَخَسَاراً وخُسْراناً، فهو «خاسِرٌ» و«خَسِرٌ».

ويقالُ: خَسَرَ يَخْسِرُ، خَسْراً، وخُسْراً، وَخَسَارَةً، وَخُسْراناً، أَيْ: نَقَصَ مالُهُ في تجارَته، وغُبِنَ فيها.

إنَّ الكافِرَ الّذي يَسْعَىٰ لتحصِيل اللَّذَّاتِ والشهوات والممتلكاتِ من متاع الحياة الدُّنيا، يَتَوَهَّمُ أنّ سَعْيَه فيما حَرَّم الله على عبادِهِ، سيزيدُهُ رِبْحاً وثراءً من الممتَلَكاتِ من متاع الحياة الدُّنيا، فيَجِدُ نَفْسَهُ بَعْدَ حينٍ أنَّهُ لَمْ يَزِدْهُ سَعْيُه إلّا خساراً، وأنَّ ما استفادَهُ من أرْبَاحٍ في مَعْصِيَة الله، لم يَلْبَثْ عِنْدَهُ لُبْثاً مفيداً نافعاً، إذْ تتوالَى عليه المخْسِرات مِنْ جِهاتٍ لم يَكُنْ يَتَرَقَّبُها، فاسْتَهْلَكَتْ ما جَناه من أرْباحٍ بمعصِيَةِ الله، واسْتَهْلَكَتْ أموالاً له أخْرى لم يَحْصُلْ علَيْها بمَعْصِيَةِ الله، وتراكبَتْ عليه بها المؤلِمات

والمشقيات والْهُمُوم والأحزان، وصَارَ يَشْكُو من الخَسَارِ الذي حلَّ به.

فالكُفْرُ يجْعَلُ الإنْسَانَ في حالة خُسْرٍ من رأْسِ مالِهِ في الحياة، وفي حالة خُسْرٍ من سَعادَتِه وَرَاحَةِ نفسِهِ، وكُلَّمَا اسْتَمَرَّ في كُفْرِهِ عناداً وجُحُوداً وانطلاقاً في الفجور ازْدَادَ خساراً.

التحليل النفسِيّ مع سُنَنِ الله في كَوْنه:

والتحليل النَّفسيُّ لكَوْنِ الكُفْر بالله وبما جاء عن الله على لِسَانِ رُسُلِ الله الصَّادِقين لا يزيدُ الكافرين عنْدَ ربِّهِمْ إلَّا مقْتاً، ولا يزيدُهم إلَّا خَسَاراً، مع مُلاحظة سُنَنِ الله في كونه، يكشِفُهُ البيانُ التالي:

إنَّ الكُفْرَ باللَّهِ وبما أنْزَلَ لِعِبَادِهِ من شرائع وأحكام، وبما أعَدَّ من جزاءٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا، ومؤجَّل إلى يوم الدّين، يُوَلِّدُ في النَّفْسِ أنَانِيَّةً مُسْرِفَةً جدّاً، وهذه الأنانيَّة تَجْعَلُهُ شحيحاً حَرِيصاً على الحياة، حَرِيصاً على امْتِلاكِ كُلّ شيءٍ لنَفْسِهِ، لاغْتِنَام لذَّاتِ الحياة الدنيا، وتجعَلُه شَرِهاً لحيازة مَا يتصوَّرُ أنَّهُ يُحقّقُ له أهواءَهُ وشهواتِه ومطالِبَهُ من الحياة الدُّنيا. وهذه الصِّفاتُ النَّفْسيَّةُ تَجْعَلُهُ ظَلَّاماً لعباد الله في جَمْعِه ومَنْعِه، نَهَّاباً لمَا لَا حقَّ لَهُ فيه ممَّا هو من حقُوقِ الآخرين، منَّاعاً لحقوقِ ذوي الحقوق عندَه، فيَكْرَهُهُ النَّاسُ ويَمْقُتُونه، حتَّىٰ يمقُتُهُ أقْرَبُ النَّاسِ إلَيْهِ، فإذا وَجَدَهُمْ يَمْقُتُونَهُ ويُخْفُونَ مقتهم بالنفاق، مقَتَهُمْ ونَفَرَ منهم.

وبهذا يُحْرَمُ من مشَاعِرِ المحبَّةِ السَّعِيدَةِ، ويعيشُ في مشاعِرِ المقْتِ الكَرِيهِ، والاكتِئاب الخانق للصَّدْر، والجاعل له ضَيِّقاً حَرَجاً، وكلَّما تطاوَلَ الزَّمَنُ زادَ هذا المقتُ بيْنَه وبَيْنَ النَّاس، إلَّا أن يَرْجِعَ إلى رحاب الإيمان والإسْلاَمِ والعمل بمراضي الله.

وهذا المقْتُ هُوَ في الحقيقة أثَرٌ في قانون الوجود من آثار مقْتِ الله له، لأنَّ مقادير الله عزّ وجلّ تجري ضِمْنَ سُنَنِهِ التكوينيَّة.

وبسَبَبِ هٰذا المقت يَجِدُ الكافِرُ نَفْسَهُ مُتَتابعَ الْخَسارَةِ مِنْ سعادةِ نفسه، ومن أصحابِه وأوليائه المقرّبين الطامعين بثَرْوَتِه وميراثهم منها، أو المتضايقين والنافِرين والمتضجِّرين من خِدْمَتِه وعجْزِه، وكَثْرَةِ مطالِبه المزْعجَة.

وقدْ تتلاحَقُ عَليْه الْخَسارَةُ المادّيَّةُ مِنْ مَالِه، لجفَاءِ النّاسِ له وانقطاعهم عنه.

وفوقَ كُلِّ ذَلِك يأتي مَقْتُ اللَّهِ له، وعذابُه الشديدُ يَوْمَ الدّين، وما يُلْحَقُ به مِنْ خَسارَةٍ أبدِيَّة.

فهل الكُفر يجلُبُ للكافر منافعَ ومَصالح حقيقيَّةً دائمةً، أمْ يُوقع عليه عذاباً وشقاءً وخَساراً أبدِياً؟!.

اللَّهُمَّ إنا نَعُوذُ بكَ من الكُفر، وممّا يجلُبه الْكُفْرُ، من تَعاسَةٍ وشقاءٍ وعَذَابٍ وخسارَةٍ أبديَّة.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

تمهيد:

في هٰذه الآيَةِ يُعَلِّمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الرَّسُول ﷺ فكُلَّ دَاعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، حواراً جَدَلياً لإقْناع المشركين بأنّ شِرْكَهُمُ اعتقادٌ باطلٌ، لَيْس له أسَاسٌ فِكْرِيٌّ عَقْلِيٌّ يَعْتَمِدُ عَليْه، ولَيْسَ لَهُ أساسٌ خَبَرِيٌّ من نصٍّ دينيٍّ في كتابٍ مُنَزّلٍ مِنْ رَبِّ العالَمِين، ولَيْسَ له شاهِدٌ من الواقِعِ يُمْكِنُ أن يُعْتَمَدَ عليه لإثباته.

أمّا ذَرَائع الشِّرْكِ فأوهَامٌ ومواعيدُ كواذِبُ، يَغُرُّ بها دُعَاةُ الشِّرْك وَسَدَنَةُ الشُّرَكاء المعْبُودِين من دون الله من يسْتَجِيبُ لَهُمْ، وهٰذه المواعيدُ تَدُورُ حَوْلَ تَحْقِيقِ مطالب المشركين في أمُور دُنْيَاهم، بدُعائهم لآلِهَتهم الّتي يَعْبُدونَها من دون الله، ويُقَرِّبُونَ لَهَا القرابين الّتي يَسْتَحوذُ عليها السَّدَنَة.

وفي هذا التَّعليم الجدليّ مُحَاصَرَةٌ فِكْرِيَّةٌ للمشْرِكِينَ، حَوْلَ اتِّخَاذِهِمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ في إلٰهِيَّتِهِ، الَّتِي لا تَصِحُّ عقلاً ما لَمْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ لَهُ في رُبوبيَّتِه، أو يأمُرْهم الرَّبُّ عزَّ وجلَّ أَوْ يأذَنْ لهم بعِبَادَتِهم.

وهذه المحاصَرةُ تَدُور حَوْلَ مطالبة المشركين بإثْباتِ شَيْءٍ من الرُّبُوبيَّةِ لآلِهَتِهم، الَّذِين يَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ، حَتَّىٰ يَسْتَحِقَّ هؤُلَاءِ الآلِهَةُ أنْ يَكُونُوا مَعْبُودِينَ من دون الله، أو مشاركين للَّهِ في استحقاق العبادة بوصْفِ الرُّبُوبِيَّة.

فإذَا لَم تَكُنْ لَهُمْ مُشَارَكَةٌ لِلَّهِ في الرُّبُوبِيَّة في واقِعِ الأمْر، فالمشركون مُطَالَبُونَ بأنْ يأتُوا بدليلٍ صحيح ثابتٍ عن الله جلَّ جلاله، وهٰذا الدليلُ يُثْبِتُ أنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَ أَوْ أَذِنَ بعبادتِهم.

فإذا لَمْ يَفْعَلُوا فقد سَقَطَتْ كُلّ ذَرَائِعهم، وظهر أنَّ شِرْكَهُمْ باطِلٌ يَعْتَمِدُ علىٰ أوْهامٍ باطلة، وأنَّ شِرْكَهُمْ يتضمَّنُ كُفْراً باللَّهِ الرَّبِّ الجليل العظيم، وظُلْماً عَظيماً لحقّ الله عَلَيْهم في أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ولا يُشْرِكُوا بعِبَادَتِهِ أحداً.

إنّ استحقاق العبادة لا يكُونُ إلَّا لِمَنْ هُوَ الرَّبُّ، الَّذي يَخْلُقُ ويَرْزُقُ، ويُحْيِي ويُمِيتُ، ويَرْحَمُ ويَنْتَقِمُ، ويُثِيبُ ويُعَاقب، ويُمِدُّ بالبقاء، ويَتَصَرَّفُ بمَخْلُوقاتِهِ على ما يَشَاءُ، ويُهَيْمِنُ بسُلْطَان الرُّبوبيَّةِ وخصائصها، أو لِمَنْ هوَ مشارِكٌ لله في شيءٍ مِنْ ذلِكَ، أو لمن يأمُرُ الرَّبُّ جَلَّ جلالُهُ أو يَأْذَنُ بِعبادَته.

التدبر:

إنَّ التعليم الجدَليَّ الَّذِي اشتَمَلَتْ عَلَيْهِ هٰذِهِ الآية قَدْ جَاء مُفَصَّلاً وَمُقَسَّماً إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: دلَّ عليها قول الله عزَّ وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ . . .﴾.

دلَّ هذا البيان على أنّ من الحكمة في مناظرة المشركين الْبَدْءَ بسُؤالهم عن رُبُوبيَّةِ شركائهم، فإنْ كانَتْ لَهُمْ ربُوبيَّةٌ ما، اسْتَحقُّوا بها أنْ يَكُونُوا آلِهَةً تُعْبَدُ مِنْ دُون الله، وإذا لم تكُنْ لهم رُبُوبِيَّة ما، فَعِبادتُهم لَا تَجلُبُ نَفعاً ولا تَدْفَعُ ضُرّاً، فهي عَمَلٌ باطل، وهي ظُلْمٌ عظيم لحقِّ الخالِقِ الرَّبّ الذي يجب أنْ يُعْبَدَ، لأنَّهُ هو الرَّبُّ المالك لِعَبيدِهِ، ويجِبُ أَنْ يُفْرَدَ وَحْدَهُ بالعبادة، إذْ لا يُشارِكُهُ في رُبُوبِيَّتِهِ للكَوْنِ أحَدٌ.

والمناظر السَّائل المؤمِنُ برَبّه وبأنه لا شريك له في الرُّبُوبيَّةِ، يطرح السُّؤال التالي على المشركين:

إنْ كانَتْ آلِهَتِكُمُ الذين تَدْعُونَ من دُونِ الله شركاءَ اللّهِ في رُبُوبيَّتِهِ في الأرض، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا من الأرض.

أي: أَرونِي رُؤْيَا بَصَرِيَّة، أو رُؤيا فِكْرِيَّة، شيئاً ما. ـ أيَّ شيء ـ من الأرض الّتي هم يَسْكُنُونها، ويسْتَمتعون بخيراتها، وهذا الشيءُ قد خَلَقَهُ شُركاؤُهُمْ، حتّى يكونَ ذلك مُثْبتاً لها شيئاً من الرُّبُوبيَّة، الّتي تَسْتَحقُّ بها أنْ تُعْبَدَ عبادةً ما، فتكُونَ مُشَارِكةً لله في إِلٰهيَّتِهِ.

لكنَّ المشركين لا يسْتَطيعون أنْ يأتُوا بشيءٍ من الأرْضِ مُثْبِتِينَ أَنَّه ممَّا خَلَقَهُ شركاؤهم، جَبلاً، أو وادياً، أوْ أرضاً مُنْبَسِطَةً، أو بَحْراً، أو شَجراً، أو رِزْقاً ما، أو غير ذلك من الأشياء غيْرِ ذاتِ الحياة، أو حيًّا من الأحياء بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَها من الأحياء، أو فما دُون الْبَعُوضَةِ كوَحِيدِ

الْخَلِيَّة، أَو شَيئاً من التصاريف المختلفة، غَيْرَ ادِّعاءاتٍ كاذباتٍ لا دَلِيلَ عليها.

وبعَجْز المشركين عن تحقِيق المطْلُوب في هٰذا السُّؤالِ، يَسْقُط احتمالُ مُشَارَكَة آلِهَتِهِمْ للّهِ في صِفَةِ الرُّبُوبيَّة المُهَيمِنَةِ على كُلّ الأرض.

وقد جاء وصْفُ شُركاء المشركين في هٰذا البيان بعبَارَة: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إشَارَةً إلى أنَّ المرْمُوزَ لهم بالأوثَانِ أحْيَاءُ عُقَلاء مُدْرِكونَ في اعتقاد المشركين.

وكذلك جاءت إعادة الضمير فيه عليهم بضَمِير جماعَةِ الذُّكُور الْعُقَلاء العلماء.

﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: تَسْأَلُونَهم وتطْلُبُونَ مِنْهُمْ مطالبكم في حياتكم، وتَسْتَعِينُون وتسْتَغيثون بهم، بعِبَادَة الدُّعاء.

مِنْ دُونِ اللَّهِ: أي: من أشياء غير الله، هي بطبيعَتِها تَقَعُ دُونه، في مقابل اتّصافِهِ جلَّ جلالُه بالفَوْقيَّة المطلَقَة، فهو الْعِليُّ الأعلى.

والمعنى: قلْ: يا أيُّها المشركون الَّذِين تَعْبُدونَ آلِهَةً من دُونِ الله، تَجعَلُون لها أوثاناً وصُوراً رُموزاً، فتَدْعُونها وتتقَرَّبُون إليها بالْقرابين، وتَلْتَمِسُونَ مِنْهَا أَنْ تَرْحَمَكُمْ في مطالِبِ دُنْيَاكُمْ، وأنْ تَنْصُركم على أعدائكم.

أرأيْتم هذه الآلهة الّتي اتَّخَذْتُمُوها شُركاءَ لله، واعْتَقَدْتُمْ أنَّ لَهَا الْقُدْرَةَ على جَلْبِ النَّفْع لَكُمْ، ودَفْعِ الضُّرِّ عَنْكُمْ، وأَنَّ لها الْقُدْرَةَ على نَصْرِكُمْ، وَتَغْلِبِكُمْ على أعدائكم، واعتقدْتُم أنَّهم من وراء رُمُوزهم أحياء يَسْمَعُونَ دُعاءكم، ويفْهَمُونَ مَطَالِبَكُمْ، وتُرْضِيهم قرابينُكُمْ فَيَسْتَجيبُونَ لدُعائكم ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿أَرُونِي﴾: أي: أَرُوني بالشُّهُودِ الحسِّيّ، أو أَرُوني بالدَّلِيلِ الْعَقْلي.

﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾: «مَا» اسم استفهام، وهو مبتدأ «ذا» اسمْ موصول بمعنى: «الذي» وهو خبر. أو «مَاذَا» بمَنْزِلَةِ اسْم واحد، وهو مَفعُولٌ به لِفِعْلِ ﴿خَلَقُوا﴾ وجْهَانِ مقبولان عند النحاة.

والاسْتِفْهَام في هٰذه العبارة استِفْهامٌ تَعْجِيزي، أيْ: أيَّ شَيْءٍ خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ، حتَّىٰ اسْتَحَقُّوا في نَظَرِكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهم.

وهذا مَبْنيٌّ على أنّ الْعِبَادَةِ حَقُّ الرُّبُوبيَّة علىٰ المرْبُوبين، لكِنَّ المشركين لا يَسْتَطِيعُونَ إثبات رُبُوبِيَّةٍ لغَيْرِ الله.

فتَنْتَهِي هٰذه المرحَلَةِ الجداليَّة بإفْحَامهم، أَوْ بتَسْلِيمِهِم، وهو المطلوب.

المرحلة الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾:

دَلَّ هٰذا البيان على أنّ من الحكمة في المناظَرَةِ الانتقالَ إلَىٰ طَرْحِ السُّؤالِ التالي على المشركين: أَيْ:

بَلْ أتَعْتَقِدُونَ أنَّ من تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ، شُرَكاءُ للَّهِ في خَلْقِ شيءٍ من السَّمَاوَاتِ، أو في إجراء تَصَارِيفها، حتَّى تَسْتَحِقَّ برُبُوبِيَّتِها في السَّماواتِ أَنْ تُعبَد؟؟!

لكنَّ حَال المشركين تُجاهَ هٰذا السؤال أضْعَفُ من حالِهم في السؤال الذي طُرِحَ عليهم في المرحَلَةِ الأولى إنَّهُمْ إذا كانوا لا يملكون إثبات شيءٍ من الرُّبُوبيَّةِ لشُرَكائهم في الأرض، وموادُّها والتصاريفُ فيها مَشْهُودَة، فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُونَ إثْبَاتَ شَيْءٍ من الرُّبُوبِيَّةِ لشُرَكائهم في السَّماوات؟!

إنَّهم سيكُونُونَ أشَدَّ عجزاً، وسيَنْقَطعُونَ، وتَنْتَهِي المرْحَلَةُ بإفحامهم، أو بتَسْلِيمهم، وهو المطلوب.

على أنَّ مُشْركِي العَرَبِ كانُوا يُؤْمِنُونَ بتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لله عزّ وجلّ في السَّمَاوات، إلَّا أنَّهم كانُوا يَنْسُبُونَ إلى شُرَكَائِهم بَعْضَ صفات الرُّبوبيَّةِ في الأَرْضِ.

﴿أَمْ﴾ هٰذه «أم» المنقطعة، وفيها معنى الإضراب عمَّا جاءَ قَبْلَها، والانتقالِ إلى ما يُراد بيانُهُ بَعْدَها، فهي في قُوَّةِ «بَلْ» الإضرابيَّة الممزوجَةِ بمعنىٰ الاستفهام.

﴿شِرْكٌ﴾ مَصْدَرُ «شَرِكَ» يُقَالُ لغة: شَرِكَ فُلاناً فِي الأمْرِ «شِرْكاً» و«شَرِكَةً» و«شِرْكَةً» أي: كان لكُلٍّ منهما نصيب فيه، فهو شَرِيك.

المَرْحَلَة الثالثة: دلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ﴾ وفي القراءة الأخْرَى: [عَلَىٰ بيِّنَاتٍ مِنْهُ] بالجَمْعِ.

بعد إفحام المشركين في المرحلتين السابقتين من مراحل مناظرَتهم، لم يَبْقَ من الاحتمالات الّتي قَدْ يَتذَرَّعُونَ بها، غَيْرَ ذَرِيعةٍ واحِدَةٍ للدّفاع عن صحَّةِ شِرْكِهِم، وهي إدِّعاؤهُمْ أنَّ اللَّهَ قد أَمَرَهم أو أذِنَ لهم بعِبادَةِ آلهتهم.

وهُنا يُوَجِّه الداعي إلى الله المناظرُ لَهُمْ السُّؤال التالي:

هلْ لديكم نَصٌّ صَرِيحٌ واضح الدَّلالة، في كتابٍ مُنَزَّلٍ من عِنْدِ الله صَحِيح النِّسْبَةِ إليه، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، أو آيَةٌ بَيِّنَةٌ واحِدَةٌ، يأمُرُكم اللَّهُ بها، أو يَأْذَنُ لكُمْ بعبادَةِ آلِهَتِكُمْ.

إنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا بياناً واحداً، في كتاب رَبَّانيّ صحيح النِّسْبَةِ إلَىٰ الله، يأذَنُ لَهُمْ بأَنْ يَعْبُدُوا غير الله، أوْ أن يُشْرِكُوا بعبادَتِهِ أحداً.

بَلْ كان الرُّسُلُ جَمِيعاً، والأنْبياء جَمِيعاً، يَأْمُرُونَ بعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَه، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الإشراك به.

ولا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ هٰذه المرحَلَةُ بانْقِطَاعِهم إفحاماً، أو أنْ يُعْلِنُوا تَسْلِيمَهُمْ بأنَّهُ لا إله إلَّا الله، وهو المطلوب.

وهُنا لا بُدَّ أن تَنتهيَ المناظرةُ بانْتِصَارِ الدَّاعي إلَىٰ اللَّهِ على المشْركين.

وفي نهاية التعليم خَتَمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ بقوله:

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ۝٤٠﴾:

أي: بل مَا يَعِدُ الظَّالِمُونَ المشْرِكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إلَّا وَعْداً كاذِباً، يَغُرُّونَهُمْ بِه، ويَدَّعُونَ به دَعَاوىٰ كاذِبة.

ويَظْهَرُ للمتَدبِّر أنَّ الكَهَنَةَ، وسَدَنَة الأوثان، والمنْتَفِعينَ من شِرْك المشركين، هُمُ الّذِين يَفْتَرُونَ الأكاذيب، ويَزْعُمُونَ لِمُقَدِّمي القرابين لأوثانهم، أنَّ عِبادَتَهُمْ لها تَنْفَعُهم في مطالِبِهِمْ من الحياة الدُّنيا، كالرِّزْقِ، وَمَنْحِ الذُّرِّيَّة، والنَّصْرِ، والشَّفاءِ من الأمْراضِ، وتَيْسِيرِ الأمور، وغيْر ذلك من مصالِحِ ومنافِعِ الناس في حيواتهم، ويُوهِمُونَهُمْ بالمواعيد الكواذب أنَّ عبادتهم لشُرَكائهم تَنْفَعُهُمْ في أُمُور دُنياهم، وهٰذا منْهُمْ تَغرير وإطماعٌ بالباطل.

الْغُرُور: مصْدَرُ فعل «غرَّهُ». يُقال لغة: غَرَّهُ، يَغُرُّهُ، غَرّاً، وَغُرُوراً، وَغِرَّةً، أيْ: خَدَعَهُ وأطْعَمَهُ بالباطل.

وكلمة [**غُرُوراً**] في العبارة صفةٌ نائبة عن المفعول المطْلق، أي: ما يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بعضاً إلَّا وَعْداً غُروراً، أي: إلَّا وَعْداً كَاذِباً باطلاً يَغُرُّونَ به غُروراً.

* * *

قول الله عزّ وجل:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾.

تمهيد:

بعد إسْقاط شِرْكِ المشركين، وبيان بُطلانِهِ جُملةً وتفصيلاً، كان من المناسب بَيَانُ حقيقة اعتماد الكَوْنِ كلِّه في وجُودِهِ أوّلاً، وفي بَقَائِهِ مع تَتَابُعِ الأزمان وتواليها، على رُبُوبيَّةِ اللَّهِ وحْدَهُ لا شَريك له، وعلى هيمنَتِهِ عليه، وسلطانه الدّائم، الّذِي لا يَنْقَطِعُ أقلَّ زَمَنٍ يُمْكن أن تُقَسَّمَ الثانية الواحدة فيه إلى عشرات المليارات، بحِسَاب سُرْعَاتِ الأشياء في الوجود، والتي تجتاز فيها مسافات في أبْعاد الكَوْن.

إنّ الكَوْنَ الّذي منْهُ السَّمَاوَاتُ والأرض، وما فيهما، ومنْ فيهما، ومنه الْعَرْشُ والْكُرْسِيُّ وسِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ، لم يَكُنْ لَهُ وجُودٌ، إذْ أَصْلُهُ الْعَدم، ووجُودُهُ مُمْكِنٌ عقلاً غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ، هو بالبرهان العقْليّ يحْتاجُ إلى مُوجِدٍ أزَلِيٍّ أَبَدِيٍّ يُوجِدُهُ بِقُدْرَتِهِ، عَلَىٰ وَفْق عِلْمِهِ وَإرادَتِهِ وحِكْمَتِهِ، وإيجادُهُ يَتِمُّ بأمْرِ التكْوين منه، بَعْدَ إبْرام قضائِه وقَدَرِه بشأْنه.

وهٰذا الأزلِيُّ الأبَدِيُّ واحِدٌ أحَدٌ لا شَريكَ له، وهو الله الخالقُ الرَّبُّ القادر على الإيجاد ابْتِداءً، وعلى الإمداد بالبقاء دواماً.

ومعلومٌ أنّ الإيجاد ابْتِداءً يحْتَاجُ إلى خَلْقٍ إبداعِيّ، وقَدْ دَلَّ بُرهان الْعَقل على أنّ الواحد الأحَدَ الأزَلِيَّ الأبَدِيَّ هُوَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْض، أي: خَالِقُهُما خَلْقاً إبْداعياً عَلَىٰ غَيْرِ مثالٍ سبَق، فَهُوَ مُبْدِعُهما، ولهذا جاء من صفات الله جلّ جلالُهُ في القرآن المجيد: أنَّهُ بَدِيع السَّماواتِ والْأَرْض، أي: مُبْدِعُهما على غَيْر مثالٍ سَبَقَ.

لكِنَّ كُلَّ مَا خَلَقَ الله في الْوُجُودِ كُلِّه، لَمْ يَمْنَحْهُ تبارَكَ وتعالىٰ وُجوداً له صِفَةُ الْبَقاء المتواصِلِ دون إمدادٍ منْه له بالْبَقَاء مع تتابُع الزَّمن.

بل جعل وُجُودَهُ يحْتَاجُ منْهُ إمْداداً مُتتَابَعاً للبقاء كَنُورِ المِصْبَاح الكَهْرَبَائي، لا يتَتَابَعُ نُورُهُ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَدَدٌ مُتَتَابِعٌ من الطَّاقَةِ الكَهْرَبَائِيَّة، فَهُوَ مَشْدُودٌ إلى الْعَدَم الَّذِي هُو الأصْلُ فِيه، ولا بُدَّ لَهُ من قُدْرَةٍ تُمْسِكُهُ في الْوُجُودِ زَمَناً فَزَمَناً، أو تَجَدُّدُ بقاءَهُ في الوجود زمَناً فزمناً مَعَ أصْغَرِ الْوَحَدات الزَّمنيَّة، ما دام له وجُودٌ مُقَدَّرٌ في خُطَّةِ التكْوِين الّتي قَدَّرَها وقضاها.

وهٰذِهِ الْقُدْرَةُ الّتي تُمْسِكُهُ في الوجود زمناً فزمناً، لا تكونُ إلَّا لِمَنْ خَلَقَهُ ابْتِداءً، وأبْدَعَهُ على غَيْرِ مثالٍ سبَقَ، لأنَّ كُلَّ مَا سِوَى الله ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ هو جُزْءٌ مِنْ هٰذا الْكَوْنِ المشْدُودِ إلى أصْلِهِ الّذِي هو العدَم، ويَحْتَاجُ بقَاؤُه في الوجُودِ إلى قُدْرَةٍ تُمْسِكُهُ فيه حتَّىٰ لَا يَزُولَ عن الْوُجُودِ، ويَعُودَ إلى الْعَدَم الَّذِي هُوَ أصْلُهُ، وهٰذِهِ الْقُدْرَة هي قُدْرَةُ الْخَالِقِ الأزلي الأبَدِي الَّذي أبْدَعَهُ، إذْ لا وُجُودَ لِقُدْرَةٍ أزليَّةٍ أبَدِيَّةٍ سواها.

التدبّر:

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ ... ﴿٤١﴾﴾:

﴿يُمۡسِكُ﴾: إمْسَاكُ الشيء، القبض عليه حتىٰ لا يُغَيِّرَ مَوْضِعَه أو وضْعَهُ وَحَالَتَهُ الّتي هو عليها.

يقال لغة: أَمْسَكَ الشيءَ بيَدِهِ أيْ: قَبَضَ عليه بها.

﴿أَن تَزُولَاۚ﴾: أي: أنْ تَنْتَقِلا من الوجود إلى الْعَدَمِ الذي هو الأصْلُ فيهما.

الزّوال: هو في اللُّغَةِ التحرُّكُ والانتقال، فزَوَالُ الشَّمْسِ عَنْ كَبِدِ السَّمَاءِ، هو انتقالُها من وسَطِها إلى جهة الغروبِ المقابِلَةِ لجهة الشُّرُوق.

لكِنَّ كُلَّ شيءٍ في الوجود هو متَحرِّكٌ دواماً، من أجزاء الذَّرَّةِ إلى كُلِّ المجرَّاتِ في السَّماوات، وكُلِّ أجرام الْوُجُود الصغرىٰ والكبرىٰ، فلا ساكِنَ في الموجودات الكونيَّةِ سُكُوناً كُلّياً، لَكِنْ قد يَكُونُ سَاكِناً سُكُوناً نِسْبِياً، أي: بالنِّسْبَةِ إلى حركة غَيْرِهِ.

وهذا يَدُلُّنَا على أنَّ المرادَ بالزَّوالِ في الآيَة الزَّوالُ عَنِ الْوُجُودِ إلى العَدَمِ، لا مُجَرَّدُ الانتقال من مكان إلى مَكَانٍ آخر.

وظاهِرٌ عقلاً أنَّ الزَّوالَ عن الوجود لَا يَكُونُ إلَّا إلَىٰ الْعَدَمِ، إذْ لا واسِطَةَ بَيْنَ الوجود والْعَدَمِ.

فالله ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ ـ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ إمْدَاداً لها بالبقاء، ويَدْخُلُ في السَّماواتِ كُلُّ مَا هُوَ فِي جهتها من كُلِّ ما سِوَىٰ الله عزّ وجلّ.

وبالتأمُّل الفكريّ نُدْرِكُ أنَّ الإمْدَادَ بالبقاء هو في حَقِيقَتِهِ إيجادٌ بَعْدَ إيجاد بصُورة متتابعة، وخَلْقٌ من بَعْدِ خَلْق.

ومن أمثلة ذلك الطّاقةُ الّتي تُحرِّكُ الآلة الميكانيكيَّةَ ـ ولِلّه الْمَثَلُ الأعْلَىٰ ـ إذا انْقَطَعَتْ عنها تَوَقَّفَتْ حَرَكتها، لكِنَّها إذا استَمَرَّتْ تُمِدُّ بأجزائها تتابَعَتْ الآلة الميكانيكيَّة في حَرَكَتِها، ما دَامَتْ سَلِيمة لم تتعرَّضْ لِخَلَلٍ ما، فإيجاد التحريك المتتابع يكُونُ بالإمْدَاد بالطَّاقةِ المحرِّكة.

وإذا كَانَ الإمداد بالإيجاد المتَتابع من الخالق الرَّبّ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَهُوَ خَلْقٌ رَبَّانِيٌّ بَعْدَ خَلْقٍ بصُورَةٍ مُتَتَابعة.

فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ أي:

إنّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ الْجَلِيلَةِ العظيمة في الوجود، مَنْعَ أَنْ تَزُولَا إلى العَدم الذي هو الأَصْلُ فيهما، فيما لَوْ تَرَكَ إمْسَاكَهُما في الْوُجُود.

إنّ إمْسَاكَ شيْءٍ ثَقِيلٍ في جَوّ الأرضِ يَنْجَذِبُ إلَيْهَا بجاذِبِيَّتِها، لا يكُونُ إلَّا بِبَذْلِ قُوَّةٍ مُتَجَدِّدَةٍ تَتَوَالَىٰ مع الزَّمَنِ آناً فآناً، وفي اللَّحظَةِ الّتي يَرْتَفِعُ عَنْهُ فيها الإمْسَاكُ، يَسْقُط ذلك الشيءُ إلى الأَرْض الّتي تَجْذِبُهُ إلَيْها.

ولمَّا كَانَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى الله مَشْدُوداً ومُنْجَذِباً إلَىٰ الْعَدَم الَّذِي هو الأصْلُ فِيهِ، وكانَ الإمْدَادُ بالْبَقَاءِ في الْوُجُودِ لَا يُقَابِلُهُ إلَّا الْعَدَم، كانَ التَّعْبِيرُ بالإمْسَاكِ أدَقَّ تَعْبيرٍ عَنِ الإمْدَاد المتَتابِعِ بالبقاء، للإشعار بأنّ الإمْسَاكَ من الله للمَوْجُودات في الوُجُودِ، متىٰ ارْتَفَعَ عَنْهَا عَادَتْ إلى الْعَدَمِ الّذِي هو الأصْلُ فيها.

ولَنْ تُوجَدَ قُدْرَةٌ بَعْدَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُبْقِي في الْوُجُودِ مَا رَفَعَ اللَّهُ إمْسَاكَهُ لَهُ فِيهِ.

قول الله تعالى:

﴿... وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ... ﴿٤١﴾﴾.

أي: وأقْسِمُ لَئِنْ زَالَتِ السَّمَاوَاتُ والأرض فيما لو رفع الله إمْسَاكَهُ لَهُما في الوجود بقُدْرَته، مَا أمْسَكَهُمَا في الوجود من أحَدٍ من بَعْدِه، على سبيل الاستغراق العامّ الشامل المؤكّد، وأضيف إلى العبارة حَرْف «مِنْ» في: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ الّذي هو حرف جرٍّ زائد، لتأكيد التنصيص على العموم المنفي بحَرْف النَّفْي ﴿إِنْ﴾.

إنَّ كُلَّ شَيْءٍ سوىٰ اللَّهِ عزّ وجلّ في الوجود، سَيَنْصَرِفُ فوراً إلى العدم، فيما لو رفع الله إمْسَاكَهُ لَهُ في الْوُجُود، إذِ الْعَدَمُ هُوَ الأصْلُ فيه.

فأَيَّةُ قُوَّةٍ إذَنْ تُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضَ في الْوُجُودِ بَعْدَ قُوَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلالَهُ وَعَظُمَ سلطانه.

قول الله تعالى:

﴿... إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾:

البيانُ السَّابِقُ يُثِير سُؤالاً في أذْهَانِ بَعْضِ النّاسِ، مُفَادُهُ: إذَا كَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ هُوَ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضَ في الْوُجُودِ مَنْعَ أَنْ تَزُولَا إلَىٰ أصْلِهِما الذي هو الْعَدَم، فَلِمَاذَا يُمِدُّ الْكَافِرِينَ والمشركينَ والْمُجْرِمينَ والمعَانِدِين بالبقاء في الوجود، وفي يَدهِ رَفْعُ إمْسَاكِهِ لَهُمْ فيه، حتَّىٰ يَنْصَرِفُوا إلى الْعَدَم؟!

هذا السؤال المطويُّ جاءت الإجابَةُ عليه في هٰذه العبارة.

أي: إنَّهُ جَلَّ جلالُهُ يُمْلِي للظَّالِمِينَ بِحِلْمِهِ، لِيَتْرُكَ لَهُمْ أَقْصَىٰ أَمَدٍ يُرْجَىٰ فيه هِدَايَةُ ذِي ضلالَةٍ لَدَيْهِ إرادةٌ صَحِيحةٌ لِلْبَحْثِ عن الْحَقِّ والإيمان به.

وهو جلَّ جلالُهُ بِرَحْمَتِهِ غَفُورٌ لعباده المذنبينَ، إذا تَابُوا وآمَنُوا واسْتَغْفَرُوا وأصْلَحُوا.

فِعْلُ ﴿كَانَ﴾ بالنِّسْبَةِ إلىٰ الله يَدُلُّ على الدَّوام في الأزْمانِ كُلّها، لأنّ ما كان للَّهِ أزَلاً فَهُوَ لَهُ أبداً، وبرهان العقل يَدُلُّ على أنَّ كُلَّ أَزَلِيٍّ لا بُدَّ أن يَكُونَ أَبَدِياً، إذْ لا يُوجَد ما يُمكِنُ عقْلاً أنْ يُحوِّلَهُ من كوْنه واجِبَ الْوُجود إلى جائز الوجود.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ

وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

تمهيد:

هذا البيان متعلّقٌ بالمشركين المعنيّين بالْمُعَالَجَة في سُورَتي (الفرقان) و(فاطر).

وقد كانوا قَبْلَ بعْثَةِ محمَّد ﷺ يَنْظُرون إلَىٰ أهْلِ الكتاب من الْيَهُودِ والنَّصارىٰ نَظْرَة إكبارٍ وإعجاب، وكانوا حينَ يَدْعُوهُمْ دُعَاةُ النَّصرانيَّة إلى الإيمان بعيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، وإلى اتّباع الدّين الذي يقولون لهم بشأْنِهِ إنَّهُ الدّين الذي جاءَ بِهِ عيسىَ عليه السَّلام، يَرْفُضونَ دَعْوَتهم، ويَرَوْنَ أَنَّ دَعْوَةَ عيسَىٰ غَيْرُ مُلْزِمَةٍ لهم.

لكن تأثَرَتْ بدَعْوَة دُعَاة النَّصرانية بَعْضُ قبائل العرب، منها: «تَغْلِب، ولَخْم، وكَلْب، وأهْلُ نجران».

بَيْدَ أَنَّ قُرَيشاً لم تَسْتَجِبْ اعتزازاً بعُرُوبتها، وبأنَّها على مواريثِ ما بَقِيَ من الدّينِ الّذي تَلَقَّوْهُ مِنْ إسماعيلَ بْنِ إبراهيم عليهما السَّلام، كمناسك الحجِّ، وأثَارَةٍ من عبادات وأخلاقٍ، وبعْضِ عِلْمٍ من قضايا الدّين.

وكان قادَتُهم وزُعَماؤهم يتمَنَّوْنَ أنْ يَأتِيَهُمْ رَسُولٌ عَرَبيٌّ منْهُمْ، حتَّى يَتَّبِعُوهُ، ويَكُونُوا باتِّبَاعِهِ أكْثَرَ هِدَايَةً والْتِزَاماً بشرائع الدّين وأحكامه من إحْدَىٰ الأُمَمِ الَّتِي تَعْتَزُّ بِرَسُولِها وبالكتاب الَّذِي أُنْزِلَ عليه، ويَعْنُونَ بإحْدَاها أكْثَرَها هدايَةً والْتِزاماً بشرائع الدّين الرَّبّاني وأحكامه، يَهُودِيَّةً كانت أمْ نصرانيَّة أم غيرهما، إلّا أنّ اليهود والنصارى كانوا هُمُ الْمَرْمُوقِين في بلاد الْعَرَب بأنَّهُمْ أهْلُ الكتاب.

وكانوا يُقْسِمُونَ بالأيمانِ المؤكّدَةِ المغلَّظَةِ، الَّتِي يَجْتَهِدُونَ في جَمْعِها بعبارات الْقَسَمِ الّتي يَقُولُونَها باذِلِين غَايَةَ جَهْدِهِمْ، قائلين بَعْدَ عبارات القَسم: لَئِنْ جاءنا رَسُولٌ فبلَّغَنَا مَا أنْزَلَ الله عليه، وعَلَّمَنا وبَشَّرَنا وأخيراً أنْذَرنا بما أعْتَدَ الله لمن كَفَرَ من عذاب، لَنكُونَنَّ أهْدَىٰ من النَّصارىٰ، أو لنكونَنَّ أهْدَىٰ من اليهود.

فمن كان منهم يَرَىٰ أنَّ النصارىٰ هُمُ الأكثر هداية قال: لنَكُونَنَّ أهْدَىٰ من النصارىٰ، ومن كان منهم يَرَىٰ أنَّ الْيَهُودَ هم الأكْثَرُ هِدَايَةً قَالَ: لَنكُونَنَّ أهْدَىٰ من اليهود.

فلَمَّا بَعَثَ الله فيهم رسُولاً مِنْهُمْ كَفرُوا بِهِ، وأمْعَنُوا في الكُفْرِ برسَالاَتِ الله للنَّاس، فبَدَلَ أنْ يَزْدَادُوا بِبَعْثَتِهِ اقتراباً مِنْ دِينِ اللَّهِ الحقّ، ازْدَادُوا نُفوراً منْه، فزادَتْهُمْ بياناتُ دِينِ الله، وتكاليفُ أحْكام شريعَتِهِ اسْتِكْبَاراً في الأرض، وزادتهم اتّخاذاً لأنواع وأصْنافِ وتدابير المكْرِ السَّيِّءِ، ضِدَّ الحقّ الرّبَّانيّ، ودُعَاتِهِ.

فأبَانَ الله لَهُمْ أنْ مَكْرهم سَيَحِيقُ بهم، وأنّ سُنَّة اللَّهِ في الكافِرِينَ السَّابِقِينَ سَيَتِمُّ تَحْقِيقها فيهم، إذا أصَرُّوا على ما هُمْ عليه من كُفْرٍ وعِنَادٍ وفجور، ومُقَاوَمَةٍ للحقّ الرَّبَّانِيّ ودُعَاته.

التدبر:

قول الله تعالى:

- ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ . . . ﴿٤٢﴾﴾.

- ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: كان من أمْرِهم قَبْلَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ هذا القسم، ولكِنْ لم يَبَرُّوا بقسمهم بَعْدَ بِعْثَتِهِ، بل أخْلَفُوا ما وَعَدُوا رَبَّهُمْ به.

القَسَم: هو الْحَلِفُ بمُعَظَّم عنْدَ المقْسِم، يقال لغة: أَقْسَمَ باللَّهِ، أي: حلَفَ باسم الله مُوَثِّقاً بحَلِفِهِ خبراً أخْبَرَ بِهِ، أوْ وَعْداً وَعَدَهُ، وألْزَمَ نَفْسَهُ باليمين أنْ يَفِيَ بِهِ.

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾: أي: أبْلَغَ أيمانهم، وآكَدَها، وأجْمَعَها للعبارات.

الْجَهْد: في اللُّغَةِ، الجِدُّ والاجْتِهاد، وبَذْلُ أقْصَىٰ الطَّاقَة، ويُطْلَقُ علَىٰ تقديم غَايَةِ ما عِنْدَ الإنسانِ من شيءٍ، فبَذْلُ غايَةِ ما يَمْلِكُ مِنْ مالٍ، يُقَالُ فيهِ: **جَهْدُ الْمالِ**، أي: غايَتُهُ وأقصاه. **وجَهْدُ الْقُوَّة**: أي: غايةُ ما لَدىٰ الإنْسَانِ من قُوَّة، وبذْلُ ذَلِكَ يُوقِعُ في المشقَّةِ والإعْياء.

وجَهْدُ الأيْمَانِ: غايَةُ ما لدىٰ الإنْسَانِ منها.

- ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛

أي: لَئِنْ جاءهم رسُولٌ صادقٌ يُبَلِّغُ عن رَبِّه مَا أنزل الله عليه، فعلَّمَهُمْ وَبَيَّنَ لَهُمْ وَبَشَّرَهُمْ وأنْذرَهُمْ لآمَنُوا به، ولاتَّبَعُوا ما أنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ من شرائع وأحكام، ولَكَانُوا أهْدَىٰ منْ إحْدَىٰ الأُمَم الَّتِي بَعثَ اللَّهُ لها رَسُولاً، وأنْزَلَ عليه كتاباً، وفي عبارتهم إلْماحٌ إلى اليهود والنَّصَارى، وَقَدْ ظَهَرَ لي أنَّ بَعْضَهُمْ قال: لنكونَنَّ أهْدىٰ من النصارى. وبعضهم قال: لنكونَنَّ أهْدَىٰ من اليهود، بحَسَب اعتقاد كُلٍّ منْهم في اليهود أو في النصارى.

جاء في هذا البيان التعبيرُ عن الرَّسُول المبلّغ المعلّم المبشِّر المنذر، بعبارة ﴿نَذِيرٌ﴾ إيجازاً في العبارة، لأنّ الإنْذار بعذاب الله، على رَفض الاستجابة لدَعْوَةِ الرَّسُول، تكونُ عادةً كما سبَقَ شَرْحُهُ عدَّة مرَّاتٍ، في آخر المراحل الدَّعَويّة، فَهُو يَدُلُّ باللُّزُوم الفكرِيّ علىٰ كُلّ المراحِلِ الّتي تَسْبِقُهُ من التبليغ، والتعليم، والتَّذكير، والنُّصْح، والجدالِ بالَّتي هي أحْسَنُ، والإرشادِ بأحْكم الوسائل، والبشارَة، وغَيْرِ ذَلِكَ من الوسائل الدَّعَوِّية.

وفي عبارة: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ إيجازٌ يُشِيرُ إلى مقالَاتهم في هذا الشأن، بحَسَبِ اعتقاد كُلٍّ منهم: هل الْيَهُودُ أهْدَىٰ، أم النصارىٰ أهْدَى، أم المجوسُ أهْدَىٰ.

﴿أَهْدَىٰ﴾: أفعل تفضيل، أي: أكْثَرُ هِدَايَةً والْتِزاماً بالحق، وبشرائع اللَّهِ وأحكامه من إحدى الأمم.

﴿... فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾:

أي: فلَّما جاءهم الرسول المبلغ عن رَبّه، والمعلّم الناصح الأمين، والمرشد إلى صراط النَّجاةِ والسعادة العاجلة والآجلة، والبشيرُ النذير محمَّدٌ ﷺ، لم يَبرُّوا بقَسَمِهِم، وكَانَ المترقَّبُ منهم بحَسَب قَسَمِهم المؤكّد المشدّد أن يزْدادوا ببعْثَتِه اقتراباً من الحقّ الرَّبَّانيّ، وأن يزْدادوا اهتداءً إلىٰ رحاب النُّور وصراط الهدى، لكِنَّهُمْ في واقِع حالِهم لم يَزْدادوا إلَّا نُفُوراً من الحقّ والخير والْهُدَىٰ، ونُفُوراً من الدّين الرَّبَّانِيّ الحقّ.

النُّفُور: هو الإعراضُ والصَّدُّ والابتِعَادُ كحالَة المذعُور الخائف الشارد، أو كَحالَة الممتَنِع المتراجِعِ بحِرانٍ.

لقَدْ كَانُوا نَافِرِينَ عن اتّباع دِين الله، إذْ كانَ بإمكانهم أن يستجيبوا لدُعاة النَّصارىٰ، الَّذين كانوا قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسُول مُحمّد ﷺ، يَدْعُونَ إلى الله على بَصِيرَةٍ وهُدىٰ، دَعْوةً لَيْسَ فيها شركٌ ولا تحريفٌ في دين الله، لكِنَّهُمْ نَفَرُوا، فلم يسْتجيبوا، فلمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بالحقِّ ازْدَادُوا نُفوراً عن دِينِ الله، وازْدادُوا تَمَسُّكاً بِشِرْكياتهم.

لقد كان المفروض فيهم بالنَّظر إلى ما حَلَفُوهُ من أيمان مُغَلَّظَة، أنْ تَزِيدَ مَعْرِفَتُهم للحقّ الرَّبَّاني، وأنْ يَزْدَادَ مَيْلُهُمْ إلى الاستجابةِ لدِين الله، وأنْ يتّبِعوا رَسُول الله محمّداً ﷺ.

لكن كان منْهُمْ ضِدُّ ذَلِكَ تَماماً، فَقَدِ ازْدادُوا نفوراً.

وكان قادتهم وزعماؤهم يَتَمَنَّوْن أن يكُونَ عِنْدَهم كتابٌ ربَّانيٌّ مَوْرُوثٌ عن إسماعيل عليه السلام، أو أبيه إبراهيم عليه السلام، لاتّخذوه ذكراً يتلُونَه ويَعْمَلُون به، مثل الذكر الّذي لدى اليهود، أو لدى النصارى، ولكانُوا عبادَ اللَّهِ المخلِصِينَ والمخلَصِينَ.

فَلَمَّا جاءهم القرآن أعظم كتابٍ رَبَّانِيٍّ هو ذِكْرٌ للعالمين، وبلِسَانٍ عَرَبيٍّ مُبِينٍ كفَرُوا به، فظهر من سُلُوكهم أنَّهم كانوا كاذبين فيما كانوا يَدَّعُون.

دلَّ على هٰذا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾:

وفي قراءة متواترة أخرى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ ٱلْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام، اسْم فاعل من فعل «أخْلَصَ».

أي: لو أنّ عِنْدنا كتاباً هو ذِكْرٌ لنا من رُسُلِ اللَّهِ الأوّلين، كإسماعيل وإبراهيم عليهما السّلام، لَكُنَّا عَمِلْنَا بِهِ مُخْلِصِين لله، ومُخْلَصِينَ من قِبَلِه.

فلَمَّا جاءهم الْقُرآن، وبلَّغَهُمْ الرَّسُول ما نزل عليه منه كَفُروا به، ولم يُؤْمِنُوا به، ولَمْ يَتَّبِعُوه، وكذَّبوا رَسُول رَبِّهم محمّداً ﷺ.

وأبان الله عزّ وجلّ مِنْ خلائقِهم الْجَدَلِيَّة الاحْتِجاجيّة، أنَّهُ لو عذَّبَهُمْ بما قَدَّمُوا من كُفْرٍ وشرْكٍ وقبائِحَ وسَيِّئاتٍ عذاباً مُعَجَّلاً في الدُّنيا، لَقَالُوا محتجّين على رَبّهم هلَّا أَرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُولاً، وأنزلْتَ إلينا كتاباً، فنتَّبعَ آياتِكَ، ونَكُونَ من المؤمنين، فلَمَّا جَاءَهم رسولُ الله ﷺ كذَّبُوه، وقالُوا: هَلَّا أُوتي من المعجزات مثْلَ ما أوتي مُوسَىٰ، فقال الله بشَأْنِهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ مع كلّ الآيات المعجزاتِ الّتي آتاه الله

إيَّاها، وقالوا عن التوراة وعَنِ القرْآن ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ وقَالُوا: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

دلَّ على هذا من خلائقهم الشَّنِيعَة قول الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

فوبَّخَهُمُ اللَّهُ علىٰ كُفرِهِمْ بما أُوتِيَ مُوسَىٰ منْ كتاب، وكَانَ الواجب علَيْهم أَنْ يُؤْمِنُوا بالْحَقّ الرَّبَّانِيِّ من أيِّ مُبَلِّغٍ رَسُولٍ صادقٍ تَلَقَّوْهُ، أو مُبلِّغِينَ عَنْهُ صَادِقِين سَمِعُوه.

ويُرَجّحُ عِنْدِي أنَّ المراد بما جاء في عبارة: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾: لَيكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ اليهود أو من النصارىٰ، وأنَّ هٰذِهِ العبارة تُشِيرُ إِلَىٰ أنَّ كُلَّ فريقٍ من المشركين كَانَ مُعْجباً بأُمَّةٍ دِينِيَّة من أُمَمِ الأَرْض في زَمَانهم، قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً للمشركين، في مَعْرِض الحديث عن الكتاب الّذي أنزلَهُ الله عزّ وجلّ على موسىٰ عليه السلام، تماماً على الّذي أحْسَنَ، وتفصيلاً لكُلّ شيءٍ من أحكام الدّين المنزَّلِ على موسى وهُدًى ورحمة.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿يَصْدِفُونَ﴾: أي: يُعْرِضُونَ وينْصَرِفُون غير عابئين.

فدَلّ هذا النَّصُّ على أنّ الأمم الدينيَّة الماثِلَةَ في أذهانِ مشركي الْعَرب، ومنهم زعماءُ قريش وقادتُهم، هم أهل الكتاب الْيَهُودُ والنَّصارى، فعبارة: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ في سورة (فاطر) تُحْمَلُ علَيْهم.

ولهذا قال الله عزّ وجلّ في سُورَة (الأنعام) قاطعاً معاذِيرَ وتَعِلَّاتِ المشركين الّتي يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بها يَوْمَ الدّين: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ أي: القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾: أي: كثير الْعطاءِ العلميّ والمعْرِفِي، وكَثِيرُ الْهِدَايَةِ والتأثيراتِ القلبيّة والنفسيَّة، وعَلَىٰ رسولٍ منكم، بلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ عِقَابَ رَبّكم بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: راجِين أن يرحَمَكُمْ رَبُّكم، فَيَغْفِرَ لَكُمْ ويُدْخِلَكُمْ في جنَّتِهِ مع عبادِهِ المتقين، وبَعْدَ إرْسال الرَّسُول وإنْزالِ الكِتاب الّذِي كُنْتُمْ تَتَمَنَّونَ أن يكون عنْدَكُمْ مِثْله ذكراً قبل بِعْثَةِ محمد، فلا عُذْرَ لَكُمْ وَلَا تَعِلَّةَ تجعلُكُمْ تتذَرَّعُونَ بها لتَكْذِيبه والتكْذِيب بما جاء به عَنْ رَبّه، والصُّدُوفِ عنه، وببِعْثَته وإنْزالِ الكتاب عليه امْتنَعَ عليكُمْ ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ هم الْيَهودُ والنَّصارى ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: فَلَمْ تَكُنْ لنا معهم مُدَارَسَاتٌ دينيَّة ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾: أي: وامتنع عليكم أَنْ تَقُولُوا هٰذِهِ المقالة في إلْقَاءِ معاذيرِكم يوْمَ الحساب ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ وهو القرآن المجيد.

قول الله عزّ وجل:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ . . .﴾:

أي: فلَمّا جاءهم الرَّسُولُ محمّد ﷺ، وبلَّغَهُمْ دِينَ الله، وتَلا عَلَيْهِمْ ما أنْزَلَ اللّهُ عليه من كتاب رَبّهم القرآنِ المجيد، وأنْذَرَهُمْ عذابَ الله إذا أَصَرُّوا على كُفْرِهم وعنادِهم وفجورهم، ما زادَهُمْ اقتراباً من دعْوَةِ الحق،

بل زادَهم نُفُوراً عن الاستجابَةِ لِمَا جَاءَهُمْ بهِ عن رَبّهم، ونُفُوراً عن تَلَقِّي كتاب اللَّهِ وتَدَبُّرِه، والعمل بما جاء فيه، ونُفُوراً عن الإيمان بالحقّ، واتّباعِهِ، والاهتداء بهَدْيه.

والسَّبَبُ الذي جَعَلَهُمْ يَنْفِرُونَ هٰذا النُّفُورَ الغبيَّ الأحْمَق، يَرْجِعُ إلى دَاءَيْنِ نَفسِيَّيْنِ خبيثَيْن:

الدَّاءُ الأولَ: حُبُّ الاسْتِكْبَار في الأرض، واتّخاذ الوسائل المختلفة للْعُلُوّ فيها، واحتلالِ مراكز العظَمَة والكِبْرِياء على الناس، ومراكِزِ الزَّعَامات المختلفات، والأنَفَة من اتّباع رسول اللَّهِ محمّد فيما جاءهم به عن رّبهم.

وهذا الدّاءُ يظْهَرُ في قادَةِ أهْلِ الكُفْر وزُعَمائهم وذوي نَزَعَاتِ الكِبْرِ فيهم، وقَدْ دَلَّ عليه قول الله تعالى في العبارة: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ازْدادوا نفوراً لأجْلِ أنْ يُحقّقُوا لأنْفُسِهِم الاستكْبَارَ في الأرض، متوهّمِينَ أنَّ اتّباعَهُمْ للرَّسُولِ يَحْرِمُهم من مكاناتِهم الاجْتماعيَّةِ الرَّفِيعة، أوْ لا يَسْمَحُ لَهُمْ بأنْ يَعْمَلُوا لبلُوغ ما يطْمَحُونَ إليه منها.

الدَّاءُ الثاني: شَهَواتُ النُّفُوسِ وأهْوَاؤها، ومطالِبُها من زِينَةِ الحياة الدُّنيا بفجورٍ وقِحٍ، وانْطلاقٍ بلا قُيُودٍ ولا حُدُودٍ، وهذه لَا تَتَحقَّقُ لِطُلَّابها إلّا بالْمَكْرِ السَّيّئ، فأُطْلِقَ المكْرُ السَّيّىءُ كنايَةً عَمَّا يتَحَقَّقُ بِهِ من فُجُورٍ وقبائحَ وسيّئاتٍ وظُلْمٍ وفسادٍ في الأرض.

المكر: هو تَدْبيرُ أَمْرٍ في خفاء، يكُونُ في الْخَيْر، ويكُونُ في الشرّ، فالمؤمنون المتقون يَمْكُرونَ، أي: يُدَبّرون أُمُورَهُمْ في خفاء، ومَكْرُهم يكون في الخير.

والله ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ يَمْكُر في الخير دائماً، وهو خَيْرُ الماكرين، والمكْرُ في الخير مَكْرٌ حَسَنٌ دواماً.

والكافرون الفاجِرُونَ يَمْكُرُون، أي: يُدَبِّرُون أُمُورَهُمْ في خفاء، ومَكْرُهُمْ يكُونُ في الشّرّ غالباً، والشيطان يَمْكُرُ في الشّرّ دائماً، وهو شرّ الماكرين، والمكْرُ في الشّرّ مَكْرٌ سَيِّىءٌ دواماً.

ولمّا كان المكْرُ صالحاً لأن يكون في الخيْر، وصالِحاً لأنْ يَكُونَ في الشَّرّ، كانَ لَا بُدَّ مِنْ وصْفِ المذْمُومِ منْهُ بأنَّهُ سَيِّىءٌ بالوصف الصّريح أو بدلالة الْقَرائن.

وجاءَ التعبير بالمكْرِ السَّيِّئِ عن رغبات الفجور في الْأرض، إمَّا على سبيل الكنايةِ، بإطلاق العبارة وإرادة لوَازِمِها في السُّلُوك، وإمَّا على طريقة المجاز الْمُرْسل، وهو هنا من إطلاق الوسيلة عَلَى ما يُتوسَّلُ بها إليه.

وإضافة كلمة «مَكْر» إلى كَلِمة «السَّيِّئ» هي من قبيل إضافة الموصُوف إلى صفته، على رأي الكوفيّين، وبالإضافة لا تشترط المطابقة بين الصفة والموصوف، وبهذا حصل تقييد المكْر بأن يكون سَيّئاً، لاسْتِبعَاد المكر الحسن.

ويَرَىٰ الْبَصْرِيُّونَ أنّ هذه العبارة على تقدير: ومَكْرَ الْعَمَلِ السَّيِّئ، ويُقَاسُ عليها أمْثَالُها، لأنّهم لَا يَرَوْن جواز إضافَةِ الموصُوف إلى صفته.

أقول: الأمْرُ سَهْلٌ يَدُورُ في فَلَكِ الصّناعة النحويَّة، أمَّا المعنى المرادُ بالعبارة فواضِحٌ لَا يَحْتَاجُ جَدَلاً.

والمكْرُ السّيّئ يَشْتَرِكُ فيه المسْتَكْبرون الْحَرِيصُون على تحقيق رغبات نفوسهم في الْعُلُوّ في الأرض، وأهْلُ الأهواءِ والشَّهَواتِ وإرَادَةِ الفجور.

قول الله تعالى:

- ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾: أي: ولا يُصيبُ المكْرُ ويُحِيطُ إلّا بأهْلِه المستحقّين له.

يقالُ لغة: حَاقَ بِهِ الشيءُ، أي: أصابه وأحاط به. ويُقالُ: حَاقَ به الأَمْرُ، أي: لَزِمَهُ وَوَجَبَ عليه.

هذه سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في كوْنِهِ، فَمَنْ كان أَهْلاً لأَنْ يَحِيقَ به المكرُ السَّيِّئُ حَاق به، ومَنْ لَمْ يكُنْ أهلاً لَهُ أنْجاهُ اللَّهُ منْهُ.

يُلاحظُ في بيان هٰذه السُّنَّة مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في المجتمع الإنسانيّ، أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ بَعْدَ أنْ أبان الدَّاءَ الذي جعَلَ المشركين يمْكُرُونَ المكْرَ السَّيِّئَ، لبُلُوغ ما يَرْغبون فيه من انْطِلَاق وقِحٍ في الفجور، كان من الحكمة بيَانُ سُنَّةٍ من سُنَنِهِ في الاجتماع البشريّ، وهِيَ أنَّ المكْرَ السَّيّئ لَا يَحِيقُ إلَّا بأهْلِه، في آخر المراحل.

ولا يُفِيدُ هٰذا البيان أنّ الممْكُورَ بِهِمْ لَا يَصِيبُهم شيءٌ من الأذىٰ أو الضَّرّ، بَلْ قَدْ يُصِيبُهُمْ شيءٌ من ذلِكَ، وقَدْ يكونُ ضُرّاً بالغاً، على سبيل ابْتِلَاء الله لهم في الحياة الدُّنيا، لَكِنَّ الإحَاطَةَ الشَّامِلَةَ للمكْرِ السَّيِّئ لَا تَكُونُ إلَّا بِمُسْتَحِقِّيهِ الَّذِين هُمْ أَهْلٌ له، وتكُونُ العاقبةُ الحُسْنَىٰ للمتقين، وللأبرار، ولِلْمُحْسِنِين.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿... فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

بعد بيان الدّائَيْنِ اللَّذِين جَعَلا المشركين المعنِيِّين يُصِرُّون على الكُفْرِ وعَدَم الاستجابة لدعوة الحقّ، وجَعَلاهم يزْدادُونَ نُفُوراً، بدَلَ أن يَزْدُادوا اقتراباً إلى رِحَابِ الحقّ والخير والهدى، صار من المناسب في العلاج التربويّ أنْ يُهَدَّدُوا بعذابٍ مُعجّلٍ في الحياة الدُّنيا، يُهْلِكُهُمْ وَيَسْتَأْصِلُهُمْ، كما أهْلَكَ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سلطانُهُ ـ كُفَّارَ الْقُرُونِ الأولى، ضِمْن سُنَّتِهِ الَّتي لَا تَبْدِيلَ لَهَا، ولا تَحْوِيل.

- ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: فَهَلْ يَنْتَظِرُون ويَتَرقَّبُونَ إلَّا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتي أجْرَاهَا في الكافرين الأوَّلين.

السُّنَّةُ: هي الطريقة المتَّبَعَةُ دَواماً.

الإضافَة في ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دلَّتْ على أنّ الإضافات يكْفِي فيها أدْنَىٰ مُلَابَسَة. وهي هُنا على تقدير مضاف محذوف، أي: إلَّا سُنَّةَ اللَّهِ في الْأَوَّلين، وهُمْ كُفَّارُ الْقُرُونِ السَّابقة.

والمعنى: إنْ كانُوا يَنْتَظِرُونَ وَيَتَرقَّبُونَ في أوهامِهم وتَصَوُّراتِهم أَنْ يَسْتَمِرَّ لَهُمُ الْعُلُوُّ في الأرض، مستكْبرِين على الرَّسُول والّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، ويَنْتظرون وَيَتَرقَّبُونَ أَنْ يَجْلُبَ لَهُمْ مَكْرُهُمُ السَّيِّئُ مَا يُحِبُّونَ من القضاءِ على الإسلام ودُعَاته، ومَا يُحِبُّونَ مِن مطالِبِهِم الفاجرات من زينَةِ الحياة الدُّنيا، فَلْيَعْلَمُوا أنّهم لا يَنْتَظرون في الحقيقة وواقع الأمْرِ إلَّا أَنْ تَجْرِيَ عَلَيْهِم سُنَّةُ الله الَّتي أجْرَاها علَىٰ الكُفَّارِ الْأَوَّلِين، بتَكْرارٍ في الأَقْوَامِ والْأُمَمِ السَّابِقَة. وأدْنَىٰ ذَلِكَ أَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ عليهم، وأن يُحْبِطَ مَكْرَهم وكُلَّ مكايدهم الَّتي يَكِيدُونها ضدَّ الإسلام، وضدّ الرَّسُول، وضِدَّ الذين آمَنُوا بِه واتَّبَعُوه.

فَلْيَكُونُوا بإنْذَارِ الله لَهُمْ في كتابِه الْمِبين، على بَيِّنَةٍ من أَمْرِهم.

وإنْ كانُوا أَهْلَ عَقْلٍ وَرُشْدٍ وَبَصِيرَة، لم يُعَرِّضُوا أَنْفُسَهم لِنِقْمَةِ الله وسَخَطه، وإجراء سُنَّته فِيهم.

- ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

بعد بَيَانِ أنَّ المشركين المعنيّين، لا يَنْتظرون في الحقيقة وواقع الأمر إلَّا أن يُجْرِيَ اللَّهُ فيهم سُنَّتَهُ الَّتي أجراها في الكافرين الأوّلينَ، من أهْلِ القرون الأولى، وهي الانتصارُ لرُسله وأتباعهم على من عاداهُمْ من كفَّار الأُمَم، كان من الحكمة بيانُ أنَّ سُنَّة الله التربويّة والجزائيّة سُنَّةٌ ثابتة، لَا

تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّل، ولا تُوجَدُ قُوَّةٌ في الوجود قادِرَة على تَبْدِيلها أو تَحْويلها، إذْ كُلُّ قُوَّةٍ في الوجود لا تتوجَّهُ إلّا بإمْدَادٍ مِنْهُ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه ـ وَبِإِذْنٍ مِنْهُ في أَنْ تَعْمَلَ وَتُحَقِّقَ آثارَها.

والله عزّ وجلَّ لَا يُجرِي في سُنَّتِه تَبْدِيلاً وَلَا تَحْويلاً، إِذْ هي قائمةٌ علىٰ الحقّ والْعَدْلِ وكَمَالِ الحكمة.

التَّبْدِيل: يَكُونُ بِتَنْفِيذِ عَمَلٍ آخَرَ غَيْرِ الْعَمَلِ الَّذِي تَقْتَضِيه سُنَّةُ الله، وهٰذا لا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ في الكَوْنِ الّذِي هو مِلْكُ اللَّهِ وَخَاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّته الغالِبَة.

والتَّحْويلُ: يكونُ بصَرْفِ الْعَمَل الّذي تقتضيه سُنَّةُ اللَّهِ عن مَجْراه الْمُحدَّدِ له بقضاء الله وقَدَرِه.

ولن يَسْتَطِيعَ أحَدٌ في الوجُود أنْ يُجْرِيَ هٰذا التَّحْويل.

إذَنْ: فلا تَبْدِيل لسُنّةِ الله، ولا تَحْوِيلَ لسُنَّةِ الله.

وإذا كان الأمْرُ كذلك، فلَنْ تجدَ أيُّها المُتَلَقّي لهذا البيان أيًّا كُنْت لسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللَّهِ تَحْويلاً.

فَكُونُوا أيّها المشركون على بيّنَةٍ من أَمْرِكم، ومن أمْرِ سُنَّةِ الله في عباده، ولَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لعقاب اللَّهِ ونِقْمَتِه.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

أي: أَلَمْ يَتَّعِظُوا بما جاءَهُمْ من أخبارٍ عَنْ قَوْم نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ،

وأهْلِ مَدْيَنَ، وقَوْمِ لوطٍ، وفِرْعَوْنَ ومَلَئِه وجنُوده، وأنّ اللَّهَ بعِزَّتِه ضِمْن مجاري سُنَّتِه الحكيمة أهلَكَهُم، لمَّا كذّبوا الرُّسُل وعانَدُوا وعَتَوْا في الأرض.

أوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأرضِ فَيَنْظُروا في آثار المهْلَكِينَ الأوّلينَ، وكَيْفَ كانَتْ عَاقِبَتُهُمْ، بسَبَبِ تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وتَوَلِّيهم عن دَعْوَتِهم إلى دين اللَّهِ الحقّ، وبسَبَبِ طُغْيانهم، وظُلْمِهِمْ وعُتُوّهم وفجورهم.

فهٰذِهِ مَدَاينُ صالح المدَمَّرَة على أهلها ثمود، يشاهدون آثارها في طَريق سَفَرِهم إلى الشّام للتجارة.

وهذهِ آثار قوم لوطٍ عند البَحْرِ الميّت، التي يُشَاهِدُونها في أسْفَارِهُم التجاريَّةِ إلى بلاد الشام، ألَا تكْفِي لأنْ تَكُونَ واعظةً لهم، ومنْذِرَةً بحالها، إذْ حَالُها يَنْطِقُ بِلِسَانٍ تَسْمَعُهُ العقول والألْباب، دُون أن تَسْمَعَهُ الآذان.

إنّ آثار المهلكين الأوّلين، تَدُلُّ على سُنَّةِ اللَّهِ في عباده الكافرين الظالمين المجرمين المعاندين بإصرار، والذين يَسْعون في الأرض فساداً.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾: الواو في: ﴿أَوَلَمْ﴾ تعطف على محذوف مُقَدَّرٍ ذهناً: أي: ألَمْ يَتَّعِظُوا بما جاءَهم من أخبار عن المهْلَكِينَ الأوَّلين من أهل الكُفْرِ والعناد، كما سبَقَ في التحليل⁽¹⁾.

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: أي: كانَ هٰؤلاء المهلَكُون السَّابقون أكْثَرَ أمْوالاً، وأعظم حضارة وعمراناً من المشركين المعنيين الأولين بالخطاب، وهم قَادَة مُشْرِكي مكّةَ إبَّان التنزيل، وكانوا أشَدَّ منهم قُوَّةً ومَنَعَةً وتمكُّناً في الأرض.

الواو في ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ عَاطفة على محذوف أيضاً⁽¹⁾، وهذا المحذوف قد فَسَّرَتْهُ آياتٌ أُخْرَىٰ في القرآن:

---

(١) تأكد عندي أن العطف على محذوف لا يقتصر على الفاء الفصيحة الّتي تَنَبَّه إليها النحاة، بل قد يكون بكُلّ حروف العطف، والقرائن الّتي تحفُّ هي الكواشف، وقد سبق أن ذكرت هذا في مناسبات متعدّدات.

فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

ومِنْها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

فأضافت آية سورة (غافر) أنّ المهْلَكينَ الأوَّلينَ أثارُوا الأرض، أي: حَرَثُوها للزّراعة، والمعْنِيّون بالْبَيان من كفّار مكَّةَ إبَّان التنزيل لم يكن منهم إثارة للأرض.

وأضافت آية الرُّوم أنّ المهْلكين الأولين أثارُوا الأرض وعَمَرُوها أكثر ممّا عَمَرها المعنيون بالبيان.

إلى غير ذلك من إضافات جاءت في آيتي «غافر» و«الرُّوم» ضِمْنَ حكمة التكامل في القرآن المجيد.

أيْ: فلَمْ تَحْمِ الْأَوَّلين من عَذَابِ الله وإهلاكه لَهُمْ، قُوّتُهم ولَا مزارِعُهم، ولا تَقَدُّمُهُم العمرانيّ(١).

قول الله تعالى:

﴿... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ ...﴾:

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبّر سورة (فاطر): «الدعوة في القرآن إلى السّير في الأرض للاعتبار».

كيْفَ يُعْجِزُهُ شيْءٌ في الكون، وكُلُّ شيءٍ فيه خَلْقٌ من خَلْقِه ابتداءً، وخاضِعٌ لإمْدَادِهِ بالْبَقَاء مع استِمرار وجُوده، إذْ لا يكون لشيءٍ في الوجود بقاءٌ إلّا بإمْسَاك الله لَه فيه، خلقاً من بَعْدِ خلق، كما سبَقَ بيان هذا.

وجاءَتِ العبارةُ بأسْلُوبِ كوْنٍ منفيٍّ بَعْدَهُ لَامُ الجحود، وهذا من أقوى أساليب النفي، مع تأكيد النفي بحرف الجرّ الزائد «من» الّذي يفيد التنصيص على عموم النفي.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾: أي: إنَّهُ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ على الدَّوام عَلِيمٌ بِكُلِّ شيءٍ، بَدْءاً من أجزاء الذَّرَّة، وانْطِلَاقاً إلى أعْظَمِ كائن في الوجود. وقَدِيرٌ على ما يُرِيدُ من إيجادٍ وإعدام، لا نِدَّ لَهُ، ولا مُعارِضَ لسلطانه.

وقد سبَق بيانُ أنّ فعل «كَانَ» بالنِّسْبَةِ إلى الله يَدُلُّ على الدَّوام في الأزمان كُلّها، لأنَّ ما هو أزليٌّ لا بُدَّ أن يكونَ أبدِيًّا.

* * *

قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

دلَّت هٰذه الآيَة بمنْطُوقِها، وبلَوَازِمِها الفكريَّة، من الجذور الّتي تشْتَبكُ معها أركانُ القاعدةِ الإيمانية، ومن الفروع الَّتي تُزَيِّنُها أوراقُ المفاهيم الخضراءِ عَنِ اللّهِ وتصَارِيفهِ في كونه، وتُثْمِرُ الرِّضا عن الله في اختياراتِه، والفَهْمَ السَّلِيمَ لآثار حَكْمَتِه السَّنيَّةَ، دلَّتْ على حقائقَ جَلِيلَة يَشْرَحُ بعْضَ جوانبها البيانُ التالي:

إنّ عطاءاتِ الرُّبوبيَّةِ عطاءاتٌ متواصِلَاتٌ مُتَتَابعاتٌ لَا تنقطع عن الْعَبْد المخْلُوقِ لله والممْلُوكِ له، ما دامَ مَوْجُوداً حيًّا يُرْزَق.

وإمدادُ الله له بعطَاءاتِ رُبوبيّتِه لبَقَاءِ وُجود ذاته وبَقَاء صفاتِه، يُشْبِهُهُ ـ ولِلَّهِ المثلُ الأعْلَىٰ ـ إمْدَادُ الطاقة الكهربائية للمصْبَاح الكهربائيّ، بالطّاقَةِ اللّازمَةِ لوجود الضياء والنور فيه.

ولَوْ أنَّ الرَّبَّ ـ جلّ جلالُه ـ فَصَل عن عباده عطاءات رُبوبيّتِه المتَتابِعات المتواصلات، لكانوا في زَمَنِ الْفَصْل مَهْما قلَّ عَدَماً، لأنَّ أصْلَهُمُ الْعدَم، ولم يُوجَدُوا إلّا بخَلْقٍ منه ابتداءً، ولم يَبْقَوْا إلّا بإمْدَادٍ منْهُ لَهُمْ دَواماً.

ولَوْ فَصَلَ الرَّبُّ ـ جلَّ جلالُهُ ـ الإمْدَادَ بِبَعْضِ عطاءاتِ رُبُوبيَّته المتَتابعاتِ المتواصِلَاتِ، لتعطَّلَتْ، أو لَانْعَدَمَتْ الْجِهَةُ الّتي فُصِلَ عَنْهَا تَيَّارُ الإمْدَادِ بالْعَطاء الرَّبَّانيّ.

فإنْ كانت الجهةُ دِمَاغاً أَوْ جُزْءاً مُحَدَّداً منْهُ لكان هذا الجزْءُ بفَصْلِ تيَّارِ العطاء الرَّبَّانيّ عنْهُ عاطلاً عن العمل، أو ميّتاً، أو مُنْعَدِماً، على حَسَب حالة الفصْل.

وإنْ كانت الجهةُ قَلْباً أو جُزْءاً مُحَدَّداً من الْقَلْب، لكان هذا الجزْءُ بفَصْلِ تَيَّارِ العطاء الرَّبَّانيّ عَنْهُ عاطلاً عن العمل، أَوْ مَيّتاً، أو مُنْعَدِماً، على حسب حالة الْفَصْل.

وإنْ كانت الجهة عيناً أو جُزْءاً مُحَدَّداً من الْعيْن، لكانَ هذا الجزْءُ بفَصْل تيّار الْعطاءِ الرَّبَّانيّ عَنه عاطلاً عن الْعَمل، أو ميّتاً، أو مُنْعَدِماً على حَسَب حالة الفَصْل.

ونَظِير ذلك كلُّ عُضْو، وكُلُّ جُزْءٍ من أجزاء العضو، وكُلُّ جُزْءٍ من أجزاء العَبْدِ المخْلُوق، حتّىٰ آخرِ كُلّ خَلِيَّةٍ من خَلَايَاهُ.

ونظير ذلك كلُّ شَيْءٍ في الْوُجود مادِّيٍّ أو معنويّ، من أجزاء الذَّرَّة، إلى المخْلُوقاتِ العظمىٰ المادّيّةِ والرُّوحيّة، وإلَىٰ الْقُوىٰ الْمُنْبَثَّةِ في الوجود كُلّه سِوَىٰ ذاتِ اللَّهِ وصفاته.

وبناءً على هذا فإنَّ منْطِقَ الفكرِ السَّلِيم، والْفَهْمِ الصَّحِيح المستقيم، القائم على قواعد الحقّ، يقْضِي بأنْ يكون الْعِبَادُ في حالة طاعَةٍ دائمة، وعُبُودِيَّةٍ إراديَّةٍ للَّهِ عزّ وجلّ لَا تنقطع، في مُقَابل عطاءَاتِ الرُّبُوبيَّةِ المتَتَابِعاتِ المتواصِلات، ما دامَ الواحِدُ منهم حيًّا مَرْزُوقاً مُدْرِكاً، يَمْلِكُ بعَطَاءِ الله إرادةً حُرَّة.

وبناءً على هٰذا أيضاً فإنَّ قواعِدَ الْعَدْلِ المستَنِدَةَ إلى قواعِدِ الحقّ، تَقْضي بأنْ يُفْصَلَ عَنِ الْعَبْدِ الَّذِي يَسْتَمِدُّ بَقَاءَ وجُودِ ذاته وصفاته دواماً من عَطَاءاتِ رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ جلّ جلالُه تيَّارُ الإمْدَادِ عَنِ الجهَةِ الَّتي يَعْصِي رَبَّهُ فيها.

وإذا كانت المعصِيَةُ جُحوداً كاملاً لكلّ رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ جلّ جلالُه، فإنَّ قواعِدَ الْعَدْلِ تَقْضِي باستحقاقه فَصْلَ كُلّ تيَّارِ الإمْدَادِ عنه، وبهذا الْفَصْلِ يكونُ مَيِّتًا، أو عَدَماً.

ولولا أنّ الله ـ جلَّ جلالُهُ ـ قَدْ وَضَعَ الإنْسَ مَوْضِعَ الامتحان في ظروف الحياة الدُّنيا، لِيَكْشِفَ اختياراتهم الحرَّةَ في أنواع الطاعات، وأنواع المعاصي، وفي الإيمان على اختلاف درجاته، وفي الكُفْرِ على اختلاف دَرَكاته، خِلَالَ مُدَّةٍ من الزَّمن حدَّدَها لِكُلٍّ منهم، لكانت المؤاخَذَةُ تقضي بأنْ لَا يَتْرُكَ على ظَهْرِ الأَرض دابَّةً ما.

وحالُ الجنِّ كحالِ الإنْسِ في هٰذِه القضيَّة، لأنَّ كُلًّا منْهُمَا مختارٌ مكلَّفٌ، موضوعٌ في الحياة الدُّنيا مَوْضع الامتحان، وفي كلٍّ منهما المسلمونَ والمجرمون، وفي كلّ منهما المطيعونَ والعاصُون، وفي كلٍّ منهما المؤمنون والكافرون على اختلاف الدّرجاتِ والدَّرَكات.

أمّا الدَّوابُّ غيرُ المكلَّفة، إذْ لَمْ تُوضَعْ مَوْضِع الامتحان في ظروف الحياة الدُّنيا، فهي مخْلُوقَةٌ لانتفاع الناسِ بها، ولخِدْمَةِ مصالحهم.

فإذا قَضىٰ اللَّهُ إهْلاكَ النَّاسِ جميعاً، لم تَبْقَ للدَّواب المخلوقَةِ لهم وظيفَةٌ في الأرض، فيعُمُّها الإهلاك الذي يكون بإمَاتَتها، وهذا ليس تَعْذِيباً لها، بل هو إنْهَاءٌ لوُجُودِها دفْعةً واحدة، بدلَ إمَاتتها في آجالها المقدَّرة لكلّ منها، إذْ يموت كلٌّ مِنْها في أجله.

وأمّا المؤمِنُونَ الصالحون من عباد الله فيكُونُونَ قد أدَّوْا امتحانهم، وظفِرُوا بالنجاة من النار، وبالنّعيم المقيم الخالد في جنّاتِ النعيم، ويميتُهُمُ اللَّهُ نظير إماتَتِهِ لَهُمْ في مجاري سنّتِه الدائمة، ويكونُ موتُهُمْ راحَةً لهم من عناء الحياة الدُّنيا وَكدْحِها.

فلَوْ يُؤَاخذ اللَّهُ النَّاسَ بما كَسَبُوا من كُفْرٍ وشِرْكٍ وجُحُودٍ وفِسْقٍ وفُجُورٍ وعِصْيَانٍ، ما تَرَكَ على ظَهرِ الْأَرْضِ من دابَّةٍ تَدِبُّ عليها مُطْلَقاً.

أي: ما تَرَكَ عَلى الأرض مَخْلُوقاً ذَا حَيَاةٍ، لأنّ كُلَّ مَخْلُوقٍ ذي حياةٍ جَسَدِيَّة، من شَأْنِه أنّه يدبّ على الأرض، مَهْمَا صَغُرَ جسْمُهُ وخَفَّ وزنُه.

لكنَّهُ ـ وهو الرَّحْمٰن الرحيم ـ يَرْحَمُهُمْ فَلَا يُؤَاخِذُهم في الحياة الدنيا هذه المؤاخذة، بل يُمْهِلُهُمْ، ويُمْلِي لهم، ويؤخِّرُهم إلى آجالهم المسمَّاة لكلٍّ منهم، والمقرَّرة بقضائه وقدره في خُطَّتِهِ التكوينيَّة لابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا.

فإذا جاء أجَلُ كُلّ واحدٍ منهم بعد أنْ منَحَهُ الله بحِكْمَتِه أوْسَعَ فُرْصَةٍ لامتحانه، مُلائمة لخصائص نفسه، أماتَهُ اللَّه، ليَلْقَىٰ يَوْمَ الدّين حِسَابَه، وفَصَلْ الْقَضاء بشأْنِه، ثمّ ليَلْقَىٰ جزاءَهُ بالْعَدْلِ أو بالفضل.

أمّا المجْرِمُون والظالمون والكَفَرةُ الجاحدون فيَلْقَوْنَ جزاءَهم بالْعَدْلِ، عذاباً أليماً خالِدين في جهنّم وبئس المصير.

وأمَّا المؤمِنُون الَّذِينَ عَمِلُوا الصّالحات، فَيلْقَوْنَ جزاءَهُمْ بالفضل الرَّبَّانيِّ مَغْفِرَةً وأجْراً كبيراً خالداً في جنَّاتِ النعيم.

بَعْدَ هذا البيان التحليليّ، أَتَناول فِقَراتِ الآية الأخيرة من الدَّرس الأخير من دُرُوس السُّورَة، بتَدَبُّرٍ مُتابع لألفاظِها.

قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ . . . ﴿٤٥﴾﴾:

﴿وَلَوْ﴾: «**لَوْ**» حرْف شَرْطٍ يَدُلُّ على امْتِنَاع الجواب لامتناع الشرط.

﴿يُؤَاخِذُ﴾: **المؤَاخَذة**: المعاقبة على الذَّنب. تقولُ لغة: آخَذَه بذَنْبِه، أي: عاقبه عليه.

وفعل ﴿يُؤَاخِذُ﴾ فِعْلٌ مضارع، ومعناه المضي، والغرضُ الدلالة، على أنه لو كان من سُنَّةِ الله في الماضي أنْ يُؤَاخِذَ الناسَ مَرَّةً فَمَرَّةً بِذُنوبهم الَّتي كَسَبُوها لأَهْلَكَهُمْ جمِيعاً، ولَمَا ترك على ظهر الأرض من دابّة.

﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾: أي: بما كَسَبُوا من جرائم وذنوب عظيمة تستحقُّ الْإِهْلَاك، والباء سببيَّة.

﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾: أي: ما تَرَك على ظَهْر الأرض المعَدَّةِ في الحياة الدُّنيا لسكنَىٰ الناس في رحلة امتحانهم.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: **الدَّابَّة**: اسمٌ يُطلَقُ علَىٰ كلّ ما يَدِبُّ من ذي حياة على الأرض، ولو كان من نَوْع الطير، وأصنافه الصُّغرى.

ولفظ «من» في هذه العبارة حرْفُ جَرٍّ زِيدَ لإفادة التنصيص على استغراق العموم.

فالمعنى: لقد انْتَفَتْ مؤاخَذَةُ الله للنّاسَ بما كَسَبُوا، فتسبَّبَ عن عدم المؤاخذة انتفاءُ إهْلَاك اللَّهِ النَّاسَ وكُلَّ دابَّةٍ علَىٰ ظهر الأرض.

ونَفْهَمُ عقلاً ومن دَلالاتِ نُصُوصٍ قرآنيَّة أخرَىٰ مُوزَّعَةٍ في السُّوَر، أنّ الله ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وعظُم حِلْمُه ـ لم يُؤَاخِذِ الناسَ في الحياة الدُّنيا بما كَسَبُوا إمْهالاً لهم، ورحمةً بهم، إذْ يمْنَحُهُمْ بذلك أوْسَع فُرصَةٍ لامْتِحَانِهم.

قَوْل الله تعالى:

﴿... وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ...﴾ أي: لا يُؤَاخِذُهُمْ بما كَسَبُوا ولَكِنْ يُؤَخِّرُ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ إلَىٰ أَجَلِهِ الّذي قضاهُ اللَّهُ له، لامتحانه في ظُرُوف الحياة الدُّنيا.

هٰذا في الحالاتِ العادِيَّة، لَكِنْ إذا طَغَتْ أُمَّةٌ وبَغَتْ، وصار بقاؤها في الحياة وبَاءً عامًّا، وعَلِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنّ الحكمة تقضي بتَعْذِيبها وإهلاكها، فإنَّ اللَّهَ ـ جلّ جلالُهُ ـ يُهْلِكُها، كما أهْلَكَ مُجْرِمي الْقُرُون الأولى.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: المرادُ بالأَجَلِ هُنَا الوقْتُ المحدَّدُ بقضاء الله وقَدَرِه، لإنْهَاءِ حياة كلّ ذي حياة بصُورَةٍ إفراديَّة.

﴿مُّسَمًّى﴾: أي: مذكور باسْمِه الزَّمَنِيّ على وَجْهِ التحدِيد. وتَحْدِيدُ الْعُمْر بقضاء الله يكون بأصْغَرِ وَحدَاتِ الزّمَنِ من أجزاءِ الثانية.

قول الله تعالى:

- ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾: أي: فإذا جاء أَجَلُ كُلّ واحِدٍ منهم أماتَهُ الله، وبَعْدَ ذٰلِكَ يَلْقَىٰ حسابَهُ، وفَصْلَ القضاء بشأنِه، وأخيراً يَلْقَىٰ مُؤَاخَذَتَهُ ومُعَاقَبَتَهُ علىٰ ذُنُوبه، إذا كانَ من الَّذين قضَىٰ اللَّه عليهم بالعقاب.

أو يَلْقَىٰ فَضلَ اللَّهِ عَلَيْهِ بالمغفرة ودخول جنَّةِ النعيم خالداً فيها، إذا كان من الَّذين قَضَىٰ اللَّهُ بأن يَغْفِرَ لهم ويُدْخِلُهُمْ جنَّته.

ولَا يَخْفَىٰ علىٰ اللَّهِ مِمَّا كَسَبَ عبادُهُ في رحلة امتحانهم شيء، فإنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بعبادِه دواماً، ويقضي لهم بالفضل، ويقضي عليهم بالْعَدْل، بحسَب أحوالهم.

والله ـ جلَّ جلالُهُ وعظَمَ سُلْطانُه ـ قَدْ أَحَاطَ بكُلِّ شيءٍ علماً.

وفي هٰذه العبارة كِنَايَةٌ عَنْ كلِّ أحداثِ يَوْمِ الدِّين، لأنَّ عِلْمَ اللَّهِ وشُهُودَهُ لكُلِّ أعْمَالِ عِبَادِه الظَّاهِرَةِ والباطنة، إحدىٰ القضايا الضروريَّة، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

والمعنى: فإذا جاءت آجالُهُم أماتهم الله بجَبَرُوته، ثُمَّ بَعَثَهُمْ بقُدْرَتِهِ وحكمته، ثم حاسَبَهُم بفضله أو بِعَدْله، محاسبة تَعْتَمِدُ على علْمِهِ الشاملِ عِلْماً شهوديًّا لكُلِّ أحوالهم الظاهرة والباطنة، مع وسائل الإثبات الأخرى، كصُحف الملائكة، والشهود الصادقين، ومن الشهود أعضاؤه وجوارحه، إذا جَحَد وجادَل ربّه. ثمّ يَفْصِلُ الله قضاءه بعباده، ثم يجازيهم بالثواب أو بالعقاب، بفضله أو بعَدْله.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة (فاطر) والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

ملاحق لتدبر سورة فاطر

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من سورة (فاطر).

الملحق الثاني: الدعوة في القرآن إلى السَّيْرِ في الأرض للاعتبار.

الملحق الثالث: توحيد الرُّبوبية وتوحيد الإلهية في الدلالات القرآنيّة.

* * *

(١٥)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغيّة من السورة

تشتمل سورة (فاطر) على جماليّات وروائع بلاغيّة متعدّدة أُقَدّمُ منها في هذا الملحق المستخرجات التاليات:

أوّلاً:

في هذه السورة من إيجاز القِصَرِ ومن إيجاز الحذف ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (١): [الْحَمْدُ لله] ففي هذه الجملة إيجازٌ هو من نوع إيجاز الْقِصَر، إذْ لَا تُوجَدُ جُمْلَةٌ تُؤَدِّي معناها هي أقْصَرُ مِنها، فمعانيها غزيرة ثَرَّة تُشْرَح بصفحات، مع دلالَتِها على الْقَصْر والْحَصْر بمضمونِها الفكري.

لكن يُمْكن صوغ عبارات كثيرات طويلات مؤديات لمعانيها.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٨): ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾.

والإيجاز في هذه العبارة هو من نوع الإيجاز بالحذف، ويُمْكن تقْدِير المحذوف بعبارة: كمَنْ لَمْ يُزَيَّنْ له سُوءُ عَمَلِه، بل رأى سبيل الْهُدَىٰ فاتَّبعه.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (١١): ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾.

ففي عبارة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ إيجازٌ هو من نوع الإيجاز بالحذف، الذي يَسْهُلُ استخراجه، أي: إِلَّا هُوَ مُدَوَّنٌ ومُسَجَّلٌ في كتاب.

(٤) وفي قول الله تعالى في الآية (١٠): ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

والإيجاز في هٰذِه العبارة هو من نوع الإيجاز بالحذف مع تَضْمِينِ المذكور معنَىٰ المحذوف، إذْ ضُمّن فيها فِعْل ﴿يَمْكُرُونَ﴾ معْنَىٰ فعل: «يَقْصِدُون» أو فعل «يَعْمَلُونَ» فَعُدِّي تَعْدِيته، والتقدير: والذين يمكُرون قاصِدِينَ عَمَلَ السَّيِّئات.

التضمين: هو تضمين الكلمة معنى كلمة أخرى، وتَعْدِيتُها بالطريقَة الّتِي تُعَدَّىٰ بها الكَلِمَةُ غَيْرُ المصرَّح بِهِا لفظاً، وبهٰذا التضمين تغني الجُمْلَةُ الواحِدَةُ عن جُمْلَتين.

والتضمين من الإبداعات القرآنيّة النفيسة في الإيجاز.

(٥) وفي قول الله تعالى في الآية (٣٠): ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾.

في هذا البيان إيجاز هو من نوع الإيجاز بالحذف، والتقدير: يَعْمَلُونَ أعمالهم الصَّالحات ابتغاءَ مَرْضاة الله لِيُوَفِّيَهُمْ أُجورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ من فضله، وقد جاء هذا البيان في مَعْرض الحديث عن المؤمنين الَّذين يتلون كتابَ الله ويقيمُون الصلاة ومما رزَقَهُمُ اللَّهُ يُنْفِقُونَ.

* * *

ثانياً:

وفي هذه السُّورَة من الْقَصْر ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (١): [الْحَمْدُ لِلَّهِ] والْقَصْرُ فيها مستفادٌ من مَضْمُونِ العبارة، لَا بِدَليلِ أداةٍ مِنْ أدوات الْقَصْرِ، لأنَّ الْحَمْدَ كُلَّه إذا كان لله، فَهُو مَقْصُورٌ عليه. وهو من نوع قَصْرِ صِفَةٍ على موصوف، وهو هنا قَصْرٌ حقيقيّ.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٢): ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾.

في هذا البيان قَصْرُ إرْسَالِ آثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ للناس وإِمْسَاكِهَا عَنْهُمْ على الله عزّ وجلّ، والأداة المسْتَعْمَلَةُ للدّلالة عليه النَّفْي بحرف النَّفْي «لَا» في: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾ وفي: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ بعد بيان ما يفتح الله وما يُمْسِك وهو من قَصْر الصفة على الموصوف وهو الله عزّ وجلّ، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (٣):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾.

في هٰذه الآية قَصْران:

الأول: في قول الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؟ إذ المراد بالاستفهام هنا النفي، أي: لَا يُوجَدُ خَالِقٌ ما غير الله، فالطريق المستعمل هنا للدّلَالة على الْقَصْر النَّفْيُ والاستثناء، وهو من قَصْرِ صفَةِ الْخَلْق على الله عزّ وجلّ، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ.

الثاني: في قول الله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والطريق المستعْمَلُ للدّلَالة على الْقَصْر النَّفْيُ والاستثناء، وهو من قَصْر صِفَةِ الإلَهِيَّة الحقّ على الله عزّ وجل، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ.

(٤) وفي قول الله تعالى في الآية (٤): ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ والْقَصْر هُنَا مُسْتَفَادٌ من تقديم المعمول على عامله، إذ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَعْمُولٌ لـ: ﴿تُرْجَعُ﴾ أي: لَا تُرْجَعُ كُلُّ الْأُمُور إلَّا إلى الله.

وهذا من قصر الصفة على الموصوف، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ.

(٥) وفي قول الله تعالى في الآية (٦): ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾.

في هذه الآية قَصْرُ دَعْوَةِ الشيطانِ المؤثّرة على حِزْبِهِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونه لَهم وَلِيًّا. والأداة المستعملة في هذا الْقَصْر: «إِنَّمَا».

أي: ما يَدْعو دَعْوةً مُغْوِيةً مُضِلَّةً فِعلاً إلَّا حِزْبَه.

(٦) وفي قول الله تعالى في الآية (١٥): ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيةِ قَصْران:

الأول: في قول اللَّهِ تَعالى خطاباً للنَّاس الكافرين: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ والقصر في هذه العبارة دلَّ عليه تعريفُ طَرَفي الإسْناد. وهو من قبيل قَصْر الْقَلْب، أي: أنتم تعْتَقِدُونَ غناكم عن الله، ونُبيّنُ لَكُمْ أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إلى الله. مع أنّ سائر عبادِ الله في الكائِنَات كُلِّها فقراءُ إلَيْه.

الثاني: في قول اللَّهِ تعالى: [واللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ] والْقَصْر في هٰذه الْجُملة مُسْتَفَادُ من تعريف طَرَفَي الإسناد «المبتدأ والخبر» مع توكيده بضمير الفصل «هو».

(٧) وفي قول الله تعالى خطاباً لرسوله في الآية (١٨): ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

في هذه الآية من الْقَصْر ثلاثَةُ أمْثِلة:

الأول: في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ ...﴾ والقصر في هذه العبارة مُسْتفادٌ من الأداة: ﴿إِنَّمَا﴾ أي: ما تُنْذِرُ إنْذاراً مؤثّراً إلّا مَنْ يَخْشَىٰ رَبَّه وهو غَيْبٌ عن حواسّه الظاهرة، وهو من قَصْر صِفَةِ الإنذار النافع المؤثر على الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهم بالغيب، وهو قَصْرٌ حقيقي.

الثاني: في قول اللَّهِ تَعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ والقصر في هٰذه العبارة أيْضاً مُسْتَفَادٌ من الأداة «إِنَّما» أي: ومن تَزَكَّىٰ فَلا يَتَزَكَّىٰ إلّا لنَفْسِه، إذْ هو المستفيد الوحيد من تزكيَتِه نفسه، وهو من قَصْر صِفَةِ نَفْعِ تَزْكِيَةِ الإنسانِ نَفْسَهُ، على أنَّه لا يَنْفَع بِتَزْكيتِهِ إلَّا نَفْسَه.

الثالث: في قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: وإلى الله وحْدَهُ تَصِيرُ كُلُّ الْأُمور، والقصر هنا مستفاد من تقديم المعول على عامله، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

(٨) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٣) خطاباً لرسوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ والقصْرُ في هٰذِهِ العبارة مستفاد من النفي والاستثناء، وهو من قَصْرِ الموصُوف على صفة، وهو قَصْر إضافي غَيْر حقيقيّ، أي: ما أنت بالإضافةِ إلى المعاندين المكابرين المصرِّين على كُفْرِهم إلَّا نذيرٌ لهم بعذاب الله. أي: ليس عليك من الوظائف بالنسبة إليهم إلا وظيفة الإنذار.

(٩) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٤): ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمّة سَلَفَتْ في تاريخ البشرِيَّةِ إلَّا كانَ فيها نَذِيرٌ أنذر كفَّارَها بعذاب الله.

والقصر في هذه العبارة مستفاد من النفي والاستثناء، والقصر فيها قصر إضافيّ، وهو من قَصْر موصوفٍ على صفة.

(١٠) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٨): ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: مَا يَخْشَىٰ اللَّهَ خَشْيَةً حقيقيَّةً من عباده إلَّا الْعُلَمَاءُ ببعض صفاته الجليلة. وهو من قصر صفة على موصوف، وهو قصر حقيقي، والأداة الّتي دلَّتْ عليه هي: «إنَّما».

(١١) وفي قول الله تعالى في الآية (٣١): ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

في هذه العبارة قَصْرُ صفة الحق على ما أنزل الله على رسوله، وقد دلّ على هذا القصر تَعْريف طَرَفَي الإسناد: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: هو الحقُّ بالإضافة إلى ما ناقَضَه أوضادّه، فهو قصْرٌ إضافي.

(١٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٣٢): ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ والقصر في هذه العبارة دَلَّ عليه تعريف طرَفَي الإسناد، أي: ذلك هو الْفَضْلُ الكبير يوم الدّين لا غَيْرُه. ودونه فَضْلٌ أدْنَىٰ مِنْه، وفوقه فضلٌ أكبَرُ منه.

* * *

ثالثاً:

وفي هذه السورة من خروج الاستفهام عن أصل دلالته وهي طلَبُ الإفهام، إلى معانٍ أخرى ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٣): ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟!.

المراد بالاستفهام هنا التلويم، والتوبيخ والتقريع للمشركين، إذْ يُصْرَفُون عن الحقّ إلى اعتقاد الباطل، واتّباع ضَلَالَاته.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٨): ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾؟!.

المراد بالاستفهام هُنَا الإعْلَامُ وانْتِزَاعُ الإقرار بأنَّه لا يَسْتَوِي من زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرآهُ حَسَناً فانْدَفَعَ في غَيِّه، مع من لم يُزَيَّنْ لَهُ ذلك، بل استبان الحقّ والعملَ الصالح، ورأىٰ العمل السَّيِّئَ سَيِّئاً فاجتنبه.

وظاهر أنّ هذا الاستفهامَ خارجٌ عن أصل دلالَتِه وهو طَلَبُ الإفْهام.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٦): ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟.

المراد بالاستفهام هنا التوجيه للنظر التفكُّرِيّ في عقاب اللّهِ لمكَذّبي الرُّسل الأوّلين.

(٤) وفي قول الله تعالى في الآية (٤٤): ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟.

المراد بالاستفهام هُنَا الحثُّ على السَّيْر في الأرْض للذين لم يسْبِقْ لهم أن ساروا ولا نظروا كيف كان عاقبة مُكذّبي الرُّسُل السابقين. وتلويم وتوبيخٌ وتقريع الّذين سارُوا ونظروا كيف كان عاقبة مكذّبي الرُّسُل السَّابقين، ولكِنَّهُمْ لم يعْتَبِرُوا بما شاهدوا وبما عَلِمُوا.

* * *

رابعاً:

وفي هٰذه السورة من اختيار أحَدِ البدائل من الكلمات للدّلالة علَى المعاني المرادة، ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٤) خطاباً للرَّسول ﷺ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾. ونظيره في الآية (٢٥).

كان مقتضىٰ ظاهر تكْذِيب المشركين رسُولَ الله محمّداً ﷺ أنْ يُقال: «وإذا كَذَّبُوك» لأنَّهم مُعْلِنُون تكذيبهم، وهذا أَمْرُ محقَّقٌ تُلائِمهُ كلمة «إذا» كما يقول علماء المعاني.

لكِنْ جاء التعبير بكلمة «إنْ» الّتي تُستَعْمَلُ في الغالب فيما هو مَشْكُوكُ فيه، للإشارة إلى أنَّهم مُصَدّقون له باطناً، إلَّا أنّهم يَجْحَدُون بآيات الله، والجحود إنكار للحقّ مع العلم به، وقد جاء بيان هذا في نصّ آخر.

وقد سبق في تدبر السورة شرح هذا شرحاً وافياً.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٩): ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

كان المتبادِرُ أَنْ يُقَالَ: «فأَثَارَتْ» ليَتَلاءَم الفِعْلُ الماضِي مع الْفِعْل الماضي الذي قبله: «أَرْسَل».

ولكِنْ عُدِلَ عَنْ هذا الظّاهر للدّلالَة على أنَّ إثارَة الرّياحِ السَّحابَ عَمَلٌ مُتجدّدٌ مُتَكَرِّرُ الْحرَكة، وخاضع لقانون رَبَّانِيٍّ عام. وللإشعار بأنّ سُنَّة الله الدائمة في الرّياح بوجْهٍ عامٍّ أن تكونَ مِنْ صفاتها هٰذِهِ الإثارة، بخلاف سَوْقِ الرّياح إلى بلَدٍ ميّتٍ فإنَّهُ لا يَتِمُّ وَفْق سُنَّةٍ ثابِتَةٍ، بل هو عَمَلٌ مَقْصُودٌ بعناية رَبَّانِيَّةٍ مَعَ حَرَكَةِ السَّوْقِ، في كلّ مَرَّةٍ يَحْصُل فيها هذا السَّوْق.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (١٠): ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

كان الظاهر المتبادر أن يقال: «ومكرُهم هو يَبُور» فَعُدِل عن الضمير إلى اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ والغرض من هذا العدول الدّلالة على أنَّ الكافرين الّذِين يمْكُرُونَ السَّيِّئَات بَعِيدُونَ تَسَفُّلاً في الدَّرَكاتِ، حتَّىٰ يَصِحَّ أنْ يُشارَ إليهم بعبارة «أولٓئك» أي: أولٓئك البعداء المنحطّين في الدركاتِ السَّافلات.

وقد يسْتَعْمَلُ نَظِيرُ هذا الاستعمال للدلالة على ارْتفاع المنزلَةِ، وبُعْدِها الشاسِع إلى جهة العلوّ، كما في عبارة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ في الآية (٣٢) إشارة إلى جَنَاتِ عَدْن.

* * *

خامساً:

وفي هذه السّورة من التوكيد لوجود الدّاعي إليه ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآيتين (٥ و٦): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾.

جاء في هذا النَّصّ التوكيد بالمؤكداتِ في أربعة مواضع:

الأول: في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ وقَدْ أُكِدّ هذا الخبر بمؤكّدَين: «إنَّ ـ والجملة الإسميَّة» لوجود الداعي إليه.

الثاني: في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقد جاء توكيد النهي هنا بنون التوكيد الثقيلة، لوجود الدّاعي إليه، وهو اغترار معظم الناس بما في الحياة الدّنيا من زينات.

الثالث: في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ والتوكيد هنا نظير سابقه.

الرابع: في قول الله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ والتوكيد هنا نظير التوكيد في الأول: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (١٠): ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ في هذه العبارة التوكيد بضمير الفصل «هو» مراعاةً لحال ذوي المكر الذين يتوَهّمونَ أنّ مكرَهم يجْلُب لهم نَفْعاً ويَدْفع عنهم ضرّاً.

مع ما في هذه العبارة من قَصْرٍ دلَّ عليه تعريف طرفي الإسناد.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (١١): ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ﴾.

في هذا البيان التوكيد بحرف الجرّ الزائد «مِنْ» مرَّتَيْن، والْغَرض توكيد عُمُوم النفي والتنصيصُ عليه.

(٤) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٢): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: من يشاء إسماعه، والتوكيد في هذه العبارة بمؤكدَين: «إنَّ ـ والجملة الإسمية».

وفي قول الله تعالى فيها أيضاً: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ والتوكيد في هذه العبارة قد جاء بحرف الجرّ الزائد «الباء».

(٥) وفي قول الله عزّ وجلّ في الآية (٣٤): ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ والتوكيد في هذه العبارة قد جاء بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الإسمية ـ واللّام المزحلقة للخبر».

والغرض من هذا التوكيد مع أنّ هذا القولَ يَقُولُهُ المؤمِنُونَ في الجنَّة، تَقْوِية اعترافهم لله بهذا الدُّعاء، وتوكيد يقينهم بأنَّ الله قد غَفَر كثيراً من ذُنُوبهم فتفَضَّل عليهم بدُخول الجنَّة دُونَ مُؤَاخَذَتهم عليها، ودُونَ أن يكون دُخولُهُمْ عوضاً عن أعمالهم، وتوكيد اعترافهم بأنّ الله عزّ وجلّ قد قابل أعمالهم الصالحة القليلة بشُكْرٍ عظيم.

(٦) وفي قول الله تعالى في الآية (٣٧): ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ في هذه الجملة توكيد عموم النفي مع التنصيص عليه بحرف الجرّ الزائد «من».

(٧) وفي قول الله تعالى في الآية (٣٨): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾.

في هذه الآية التوكيد للخبر في موضعين، وفي كلّ منهما التوكيد بـ «إنَّ ـ والجملة الإسميّة» لأنّ المقصودين بالإعلام لديهم داعٍ لهذا التوكيد.

(٨) وفي قول الله تعالى في الآية (٤٢): ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢﴾.

يُبَيّن اللَّهُ عزّ وجلّ في هٰذِهِ الآية ما كان كبراء مُشْركي مكّةَ يَقولُونه قبل بِعْثَة محمّد ﷺ، وكيف كانوا يُؤَكِّدُونَ مقالتهم.

والتوكيد فيها جاء بما يلي: «الْقَسَم ولواحقه ـ ومن لواحقه اللّامُ الموطئة له، واللام الواقعة في جوابه، ونون التوكيد الثقيلة».

(٩) وفي قول الله تعالى في الآية (٤٥): ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

في هذه الجملة التوكيد بـ«إنّ ـ والجملة الإسمية» لحاجَة المتلقّين إلى التوكيد، إذِ الكافرونَ منهم مِنكِرُونَ.

* * *

سادساً:

وفي هذه السورة من الكناية ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٨): ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ ...﴾.

في عبارة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ﴾ كِنايةٌ عن انقسام الناس الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا إلى قسمين: ضالين، ومهتدين.

وبناءً على انقسام الناس إلى ضالّين ومهتدين، فإنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يَحْكُمُ بمشيئته الحكيمة على الضّالّ منْهُمْ بالضَّلالة، ويحكُمُ بمشيئته الحكيمة للمهتدي بالهداية، وكلُّ ذَلِكَ بمقْتَضَىٰ عَدْلِه مع مقتضىٰ فَضْلِه.

فجاءت الكناية عن وُجُودِ الضَّالّين بعبارة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ وجاءت الكنَاية عن وُجُود المهتدين بعبارة: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ومعلومٌ من أسْسِ الإيمان بالله وجَليلِ صفاتهِ وأسمائه الحسنىٰ، أنّ حكْمَةَ الله وعَدْلَهُ وفضْلَهُ تقتضي باللُّزُوم العقلِيّ، أنْ لَا يَحْكُمَ علىٰ أحَدٍ بالضَّلال إلَّا إذَا كَانَ هو في واقع اختياره الحرّ ضالًّا، ولا يَحْكُمَ لأحَدٍ بالهدايَةِ ما لم يكن لَدَيْه من الهداية باختيارِه الحرّ مقدارُ ما يَصِحُّ مَعَهُ وَمَعَ فَضْلِ اللَّهِ عليه بأنْ يَحْكُمَ لَهُ بالهداية.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (١٠): ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾.

في عبارة: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ كنايَةٌ عن جُمْلَةٍ أُخرىٰ يُمْكن التعبير عَنْها بأن نقول: فَلْيَرْجُها عنْدَ الله وحده، بدعائه، وبالعمل بمراضيه، وبالجهاد في سبيله، ولا يَطْلُبْها عند غيره بحالٍ من الأحوال.

فمن كانت القوَّة الغالِبَةُ في الوجود كُلّه لَهُ وحْدَه، كانَ طَلَبُ العزّة عند غَيْرِهِ من الحماقة وقلَّة العَقْلِ وسُوء التفكير والتدبير، وهذا هو الذي يفْعَلُه المشركون، إذْ يَبْتَغُونَ العزَّة عند شركائهم، فيَعْبُدونهم ويَدْعونهم ليكُونوا لهم عزّاً.

(٣) وفي قول الله عزّ وجل في الآية (١٠) أيضاً: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ في هذه العبارة الدّالة بمنْطوقها اللّفظيّ على رفع العمل الصالح كِنَايَةٌ، والْمُكْنَىٰ عَنْه بها، رَفْعُ أصْحَابِ العمل الصالح.

فالّذين يَعْمَلُونَ عملاً صالحاً في القتال في سبيلِ الله، إعداداً قَبْلَه، وأداءَ أثناءَهُ، مُتَّخِذِينَ الوسائل السَببيّة الكونية اللّازمة، بمقتضىٰ قوانين الأسْباب والمسبَّبَاتِ الرَّبانيَّة، يَرْفَعُهُم اللَّهُ ويُعْلِي سُلْطَانهم، ويَنْصُرُهم على عَدُوّهم.

فجاء التعبير برفْع العمل الصالح كنايةً عن رفْع أصحابه، ومَنْحِهِمُ الْعُلُوَّ والْعِزَّة الغالبة.

* * *

سابعاً:

وجاء في هذه السّورة من الالْتِفَاتِ ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٩): ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾.

في هذا البيان التفاتٌ من الغيبة في: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ إلى ضمير المتكلّم العظيم في: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا﴾.

والغرض من هذا الالْتِفَاتِ، التّنْبِيهُ على أنَّ سَوْقَ السَّحَاب إلى بلَدٍ مَيّتٍ، وإحياءَ الْأَرض بَعْدَ موتها، قَدْ كان أمراً مقْصُوداً بعناية من قِبَلِ الرَّبّ العظيم، الّذي يوجّه مقاديره لعباده بحكمةٍ عظيمة تتناسَبُ مع عظمتِهِ رحمةً بعباده المحتاجين إلى أن يُحْيِيَ الرَّبُّ العظيم لهم الأرض بَعْدَ مَوْتها.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٧): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾.

في هذا البيان التفات من الغيبة إلى التكلّم بضمير المتكلّم العظيم كسابقه. والغرض التَّنْبيهُ على عظمة إتقان صُنع الله في اختلاف ألوان الثمرات.

ثامناً:

وجاء في هذه السورة من الاستعارة ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٢): ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

في هذه العبارة استعارة قائمة على تَشْبيه القيام بتَتابُع النِّعَم الرَّبّانيّة على النّاس بفتح أبواب سُدود مجاري المياه لمن ينْتَفِعُ بها علىٰ التوالي.

واسْتُعِيرَ لفْظُ ﴿يَفْتَحُ﴾ للدّلالَة على إجراء تتابُع نِعَم اللّهِ على عباده، حينما يتوالَىٰ عطاؤه.

وجاءت عبارة: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ دالَّة على المراد بعبارة: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (١٣): ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

في هذه العبارة استعارة قائمة على تَشْبِيه تَقَلُّصِ اللَّيْلِ عنْدَ قُدُوم النهار، وتقلُّصِ النهار عند قُدُوم اللّيل، بِوُلُوج شَيْءٍ في شَيْءٍ آخر.

واستعير لفظ: ﴿يُولِجُ﴾ للدَّلَالة على هاتَيْن الظَّاهِرَين من الظواهر الكونية اليوميّة، الدّالّة على إتقان صُنْع الرَّب الجليل العظيم الّذي أتْقَن كُلَّ شيءٍ صُنْعاً.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٩): ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

في هذه العبارة استعارة قائمة على تَشْبِيه التعاملُ مع اللَّهِ عزّ وجلَّ بالأعمال الحسنة الصالحة ابتغاء مرضاته، بالأعْمال التجاريّة الرابحة، لأنَّ في هذا التعامُل مع الله ربحاً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

* * *

تاسعاً:

وجاء في هذه السورة من المجاز المرسل:

قول الله تعالى في الآية (٢): ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾.

في هذه العبارة إطلاق لفظ ﴿رَحْمَتَ﴾ التي هي صفة من صفاتِ الله النَّفْسِيَّة، على آثارها من عطاءات الله لعباده من النِّعَم.

وهذا من إطلاق السَّبَب وإرادة المسبَّب، على طريقة ما يُسَمّيه البلاغيّون مجازاً مُرْسلاً في اصطلاحهم.

* * *

عاشراً:

وجاء في هذه السّورة من التقاط لَقَطاتٍ من أحداثٍ مستقبليَّة، وتقديمها كأنّها تجري الآن، وهذا من الفُنُون الّتي انْفَرَدَ بِهَا القرآنُ المجيد:

قول الله عزّ وجلّ في الآية (٣٧) بشأن الكافرين وهم يُعَذَّبُونَ في نار جهنم:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

* * *

حادي عشر:

وجاء في هذه السّورة من المذهب الكلاميّ، وهو أن يأتي الأديب البليغ على صحّة دعواه وإبطال دعوىٰ خَصْمه بِحُجَجٍ عقلية برهانية أو دونها.

والسبَبُ في هٰذه التسميَة الّتي تُنْسَبُ إلى الجاحظ، أنّ علْمَ الكلام يَعْتَمِدُ في حُجَجِه على الحجَجِ العقلية، فإذا جاء في الكلام الأدبِيّ استخدام الْحَجَجِ العَقْلِيَّةِ، كانَ المذهَبُ فيه جارياً على مذهب علماءِ الكلام.

ومنه قول الله تعالى في الآية (٤٠): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

ففي هذا النصّ استقصاءٌ لِكُلّ الاحْتمالَاتِ الّتي يمكن أنْ يَتَذَرَّعَ بها المشْرِكُونَ، ونَقْضٌ لها واحدةً فواحدة، بالبرهان العقْلِيّ.

* * *

ثاني عشر:

وجاء في هذه السورة من البديع «اللَّفُّ والنَّشْر» ونجد منه فيها ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (١٢): ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . . .﴾.

في هذا البيان من البدائع المعنويّة لَفٌّ مُجْملٌ وَنَشْرٌ مُفَصَّلٌ، فاللَّفُّ في عبارة: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ فَقَد ذُكِرَ فيها البحرانِ على طريقة اللَّفّ المجْمل. والنَّشْرُ جاء في عبارة: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

ويحْسُن مثْلُ هذا الإجراء البديع لما فيه من مساعَدةٍ للْفِكْرِ على استيعاب الأقْسَام بَعْدَ ذكْرِ الجامع بينها، وتَحْديد حُدُودِ الكلّيَّاتِ والجزئيَّات.

(٢) وفي قول الله تعالىٰ في الآية (٣٢): ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ . . .﴾.

ففي هذا البيان من البدائع المعنويّة لَفٌّ مُجْمَلٌ بعبارة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾ ونَشْرٌ مُفَصَّلٌ بعبارة: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

والحكمة سبَق بيانُها في المثال الأول.

* * *

ثالث عشر:

وجاء في هذه السُّورة ممَّا هو جارٍ مجرىٰ الأمثال السائرة ما يلي:

(١) قول الله تعالى في الآية (١٤): ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾. أي: ولَا يُنَبِّئُكَ نَبَأً مُطَابقاً للواقع تماماً مثل ما يُنَبِّئُكَ بِهِ خَبير.

(٢) وقول الله تعالى في الآية (١٨): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. أي: ولَا تَزِرُ نَفْسٌ مِنْ شَأْنِها أَنْ تَكْتَسِبَ وِزراً، وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرىٰ اكْتَسَبَتْ في الواقِع وزراً.

إذْ كُلُّ نَفْسٍ مسؤولَةٌ مسؤوليّةً شخصيَّةً عن عَمَلِها فقط، وعَنْ آثار عَمَلها، ولا تُسْأَل عن عَمَلِ غَيْرِها الَّذِي لم يكن لَهَا تأثِيرٌ مساعِدٌ على ارْتكابه.

(٣) وقول اللَّهِ تعالى في الآية (١٨) أيضاً: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: ومَنْ تَطَهَّرَ من الكُفْر والآثام والذُّنوب، فإنَّما يتَطَهَّر جالباً لِنَفْسِه فَقَط جزاءَهُ الْحَسَن، دون غيره من الناس مهما كان قريباً وحَبِيباً.

(٤) وفي قوله تعالى في الآيات من (١٩ ـ ٢٢): ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾:

في هذه الآيات خمْس جُمَل جاريَةٍ مجْرىٰ الأمثال السّائرة، يَسْتَعْمِلُها ذَوّاقُو الأدَب الرَّفيع:

١ ـ وما يَسْتَوِي الأعمى والبصير.
٢ ـ ولا تستوي الظُّلُمَات ولا النور.
٣ ـ ولا يسْتَوِي الظّلُّ ولا الْحُرور.
٤ ـ ومَا يَسْتَوِي الأحياء ولا الأموات.
٥ ـ ومَا أنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور.

والحمد لله على توفيقه وتيسيره وفتحه.

* * *

(١٦)

الملحق الثاني

الدعوة في القرآن إلى السَّيرِ في الأرض والنظر في الآثار للاعتبار

لقد جاء في القرآن حثُّ الكافرين على السَّيْرِ في الأرضِ والتَّنْقِيبِ فيها، بحثاً عن آثار المهْلَكِينَ إهلاكاً جماعيًّا عامًّا، من كُفّار أهل القرون الأولى ومُجْرِميهم ومُكذّبي رُسُلِ الله إليهم، للاعتبار والاتعاظ بما أَجْرَىٰ لهم من عقابٍ معجَّلٍ لهم، ولمعرفة أنَّ سُنَّةَ الجزاء الرَّبَّانيّ المعجَّل، شاهدٌ دُنيويٌّ على قانون الجزاء الرَّبَّانيّ المؤجّل إلى يوم الدين.

ولمَّا كانت الحكمة الرَّبَّانِيّة في تَعَدُّدِ النُّصُوصِ القرآنية حَوْلَ موضوع واحد، قد قضَتْ في معظم أحوالها أن تَكُونَ نُصُوصاً تكامليَّةً لا تطابقيَّة، وكان موضوع «الدَّعْوة في القرآن المجيد إلى السَّيْرِ في الأرض والنَّظَرِ في الآثار للاعتبار» قد جاء حوله في سور القرآن (١٣) نصّاً، كان من الخير والبحث العلميّ الرَّشيد تدَبُّرها جميعاً، على أنّها نُصُوصٌ متكاملة فيما بينها لا متطابقة.

إنّ إيراد نصوص متعدّدة حول موضوع واحدٍ، في مناسباتٍ مختلفات، قد تستدعيه الحكمة التربويّة، كتَكْرِير العلاج الدوائي حتَّىٰ يُؤَثّر آثارَه داخل الجسَد، وكذلك يكون تكريرُ العلاج الدوائيّ النَّفْسِي، إذْ يَعْمَلُ على استمرار حضور العلاج في حركة النفس، رجاء أن يؤثر فيها، ويُسَيْطرَ على العوارض والعوامل الّتي تُمْرِضُها، وتُؤَثر فيها آثاراً ضارةً مُفْسِدَة.

ومع تأدية النصوص القرآنية المتعدِّدة حول موضوع واحد لهذه الوظيفة النافعة، فإنّنا نجدُ في معظم الأحوال أنَّها متكاملةٌ فيما بينها، وهذا التكاملُ يجْعَلُها غيْرَ مُكرَّرَة، وبهٰذِه البراعة التكامليّة تؤدّي وظيفتَي التأْسِيسِ والتأكيدِ معاً، وتَسِيرُ في بناء المعرفة لدَىٰ المتلَقِّين على سُنَّةِ التجزئة والترَقّي.

وإنّي أُوثِر لدى دراسة مجموعة من النصوص القرآنية حوْلَ موضوع واحد، أنْ أستَبْعِدَ فِكْرَة التكْرِير التطابُقِيّ ما استَطَعْت، باحثاً عن فُروق الدّلالات في النُّصُوصِ المتعدّدة، لأَنَّنِي وجَدْتُ أمثلةً كثيرة جدًّا منها قد جزّأتِ الحكْمَةُ الرَّبّانِيَّة أفكار موضوعاتها، ووَزَّعَتْهَا على النصوص المتعدّدة الَّتِي ورَدَتْ بشأنها، ضمن المناسَبَاتِ الّتي اقتضَتْ إيرادَها.

وأتابع دراسة نصوص هذا الموضوع الثلاثة عشرة ضِمْن هذا المنهج، عسَىٰ أن يَكْتَشِفَ المتدبّر مَعِي فُرُوقَ دَلَالَاتها، وأنْ نتوصّل معاً إلى فَهْمِ مُجْمَلِ الموضوع الّذي دَلَّتْ عليه النُّصُوصُ المتعَدّدة، الَّتي تَبْدو في أوّل النَّظَرِ، وتُخَيِّلُ لبادي الرأي، أنَّها مُكرَّراتٌ مُتطابقات، وهي ليْسَت مع التدبُّر كذلك.

وفيما يلي استعراض هذه النصوص (١٣) وفق ترتيب نزول سُورها، مع مقدارٍ ما من التَّدبّر.

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

سبق تَدَبُّر هذا النَّصّ في موضعه من سورة (فاطر) وهو أوّل نصّ نزَلَ في نجوم التنزيل بشأن دعْوَة الذين كفروا بالرّسول محمّد ﷺ، وبما جاء به عن الله، إلى السَّيْر في الأرض للاعتبار بالّذين أُهْلِكُوا من قَبْلهم من كُفَّار القرون السّابقة، الّذين كذّبوا رسُلَ ربّهم، وقاوَمُوهم واضطهدوا الّذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهم من أقوامهم.

وهذا الاعتبار يأتي عن التفكّر في أسْباب إهلاكهم إهلاكاً جماعيًّا عامّاً، وعن طريق دراسة آثارهم وبقايا قراهم ومساكنهم، وكيْفَ دمّرَ اللَّهُ عليهم، فهٰذِه شواهدُ على أنَّ الله بعزّتهِ وعَدْله وحِكْمَتِه أهْلَكَهُمْ بأحْدَاثٍ عظيمَةٍ كُبْرَىٰ مُدَمّرة تدميراً شاملاً، على خلاف مجاري الكوارث الصغرى، الّتي يَبْتَلِي اللَّهُ بها عبادَه، والّتي تأتي بها السُّيولُ والفيضانات والرّياحُ وغيرها والّتي تُصِيبُ بمصائب جزئية محدودة، ولكنّها لا تُدمِّر تَدْميراً كُلّيًّا شاملاً.

فإذا دَرَسُوا وتفكّرُوا بأحوال هذه الْقُرَىٰ والمدُنِ المدمَّرَة تدميراً شاملاً، وعلموا أنّ ذلك قد حصل بسَبَبَ تَمادِيهم في الكفر والعناد وتكذيب الرُّسُل، ونَشْرِ الفساد والإفْساد في الأرض، وعَلِمُوا أنَّ الله جلّ جلالُه قد أنجَىٰ الّذين آمنوا واتّبَعُوا رُسُلَ رَبّهم، من هٰذا الهلاك الشامل، تحقَّقَ لدَيْهم دليلٌ ذُو آثار حِسِّيَّة مشهودة، وهذا الدّليلُ يضافُ إلى الدليل العقليِّ الّذي يكْشِفُ للنّاظِرين بأفكارهم النّظِيفَة، وعقولهم الحصيفة، أنّ حكمةَ الله ـ جلّ جلاله ـ لا بُدَّ أن تُمَيِّز بَيْنَ المؤمن والكافر في الجزاء، ولا يُمْكن أن تُسَوّيَ بين المسْلِمين والْمُجْرِمين.

وقد جاء هذا النّصُّ معطوفاً بحرف العطف «الواو» على معطوف عليه مطويّ، دلّت عليه النُّصُوص السابقة له في سورة (فاطر) ومنها الدّالّةُ على أنّ الله ليْسَ من حكْمَته أنْ يُسَوّيَ في الجزاء بَيْنَ مَنْ زُيّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فرآهُ حسناً، وبين من آمَنَ وعمل صالحاً.

وتحليل العبارة يكونُ كما يلي:

أَلَم يَكْفِهِم الدَّليل العقليُّ الدّالُّ على أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ ليْسَ من شأنه أن يُسَوّي في الجزاء بين المسلمين والمجرمين، والدّال على أن سُنَّةَ اللَّهِ في عباده سُنَّةٌ ثابتَةٌ لَا تَبْدِيل لها، ولا تحويل فيها، أَوَلَمْ يَسِيروا في

الأرض فيَنْظُرُوا آثار الّذين عاقَبَهُمُ اللّه على كُفْرِهم، وتكذيبهم رُسُلَ ربّهم، وإسْرافهم في جرائمهم وفجورهم وظلمهم وطغيانهم، ليأْخُذُوا مِنْهَا شواهد واقعيّة على سُنَّةِ الله الثابتَة في مجازاةِ عباده.

قول الله تعالى:

- ﴿... وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...﴾.

جاءت هذه الجملة أيضاً معطوفة على محذوف مقدّر ذهناً، ويستطيع المتدبّر إدْراكه، أي: كانُوا أكثر من المشركين المعنِّيّين بالخطاب عدداً، وأكثر منهم عمراناً وحضارةً، وأشدّ منهم قُوَّةً.

وهذا المطويُّ المحذوفُ من اللّفظ قد جاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ مَا يكشِفُه، ويَدُلُّ عليه، كما سيأتي إن شاء الله، وهذا من التكامُلِ في النُّصُوص القرآنية.

قولُ اللَّهِ تعالى:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وَمَا كان اللّهُ عزّ وجلَّ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شيءٍ يُرِيدهُ مَهْمَا كان عظيماً، خَلْقاً، أَوْ إفْنَاءً، إحياءً أوْ إمَاتَةً، إيجاداً أو إعداماً، لأنَّ مِنْ شَأْنِ قُدْرَتِه ـ جلّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطانه ـ أنّه إذا أرادَ شيئاً، فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ فيَكُون.

فبِأَمْرِ التكوينِ الرَّبّانِيِّ تكُونُ الأَكْوانُ إيجاداً، وبالأَمْرِ الرّباني تَنْعَدِمُ الأَكْوان، أو تفنى، وتموتُ الأحياء، ويُعَذَّبُ من يُعَذَّبُ مِنْها، ويُنَعِّمُ مَنْ يُنَعَّم مِنْهَا.

ولَمَّا كَانَ الإيجاد والإعدام، وإجراءُ الأحداث في الأكْوانِ على اختلافها لا تتحقق إلّا بصِفَتِي الْعِلْم والقدرة قال اللَّهُ عزّ وجلّ في آخر الآيَة:

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾:

أي: إنَّهُ على الدّوام من الأزَلِ إلى الأبَدِ عليم قدير، ففِعْلُ «كان» إذا كان مُسْنَداً إلى الله جلّ جلالُه كان معناه ثباتَ الوصف النَّفْسِيّ ودوامَه لَهُ من الأزل إلى الأبد، فما هو أزلِيٌّ لَا بُدَّ أن يكون أبديًّا، ولا يَصحُّ في العقل تَعرُّض ما هو أزليُّ الْوُجُودِ إلى العدم الكلّيّ أو الجزئي.

* * *

النص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

أنكر الْمُشْركونَ مَا أنبأهم به الرَّسُول محمّد ﷺ من أحداثِ الآخِرَةِ وَيَوْم الدّين، مع أنَّهُمْ قد تتابَع عليهم الْعِلْمُ بيومِ الدِّين، ممّا وَرِثُوه من دين إسْماعيل عليه السلام، وممّا سَمِعُوه من عُلَماء الْيَهودِ والنصارى، وقد كانَ هذا الْعِلْمُ مَوْجوداً عنْد آبائهم، لَكِنَّ آباءَهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ به، فَهُمْ على سُنَّة آبائهم في التكذيب بيوم الدّين.

وأنْكرُوا أيْضاً الجزاء الرَّبَّانيَّ على أعمال العباد، سواءٌ أكانَ مؤجّلاً إلى ما بَعْدَ الموت، أمْ مُعَجّلاً في الدّنيا قبلَ الموت.

أمّا بالنّسبة إلى المؤجّل منه إلى يوم الدّين، فقد جعلوا يتعلَّلُون باستِبْعَادِ البعث إلى حياةٍ أخرى، بعْدَ صَيْرُورة الأجساد إلى تراب، فقالوا:

- ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾: أي: وكان آباؤُنا تُراباً ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾:

أي: أئِنّا لَمخْرَجُون إلىٰ حَياة أُخْرَى، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، استفهام يَقصِدون به إنكار الحياة بَعْدَ الموت.

فأعْلَنُوا بهذا الاستفهام الإنكاريّ عَدَم إيمانهم بالبعث وبما بَعْدَ البعث من أحداث يوم الدين.

وقالوا أيضاً:

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ فَشَهِدُوا علَىٰ أنفسهم وعلى آبائهم بأَنَّهُمْ قَدْ أُنْذِرُوا بعَذَاب الله يَوْم الدِّين، من قَبْلِ بِعْثَةِ محمّد ﷺ.

وهذا يُؤَكِّدُ عِنْدِي مَا سَبَقَ أَنْ أوضَحْتُه في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) عند قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾: أي: لتُنْذِر قَوْماً الَّذي أُنْذِرَه آباؤُهم من قَبْل، فهُمْ عَنْه غافِلُونَ مَعَ عِلْمِهِمْ به.

وأرَىٰ أنَّ من الخطأ حَمْلَ كَلِمةِ ﴿مَّآ﴾ في عبارة: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ على أنّها حرف نَفْي، بل هي اسم موصول، فقولُهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ يَدُلُّ على أَنَّهُمْ قد جاءَهُمْ نَذِيرٌ، وأَنْذَرَهم بعذاب الله يوم الدّين، بَعْدَ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إلى الحياة مَرَّةً أُخرَىٰ، وأنذرهم بأنهم سوف يُحَاسَبُون، ويفْصِلُ اللَّهُ قضاءَهُ فيهم، ثُمَّ يُنَفِّذُ مَا قَضَىٰ به من جزاء، كالَّذِي أَنْذَرَهُمْ به الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَقَالُوا أيضاً:

﴿. . . إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: ما هذا النبأ الذي جاء به محمَّد بشأن البعث إلى الحياة الأخرىٰ، والحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتحْقِيق الجزْاء، إلَّا منقولٌ من أباطيلِ الأوّلين.

ولمَّا كان هذا الإنكارُ للبعث يُشْعِرُ بإنكارِهم لأصْل الجزاء الرَّبَّانيّ، أمَرَ اللَّهُ رَسولَهُ، فكُلَّ دَاعٍ إلىٰ اللَّهِ من أمَّته بأن يقول لهم: سيروا في

الأرْض فانْظُرُوا كيْفَ عاقَبَ اللَّهُ عزّ وجلّ كُفَّارَ الْقُرُونِ الأولى، وكيف أهْلَكهم ودمَّر عليهم مُدُنَهم وقُراهم بأحداث عظْمَىٰ خارقة لِعَادة الكوارث الّتي قَدْ تَأتي بها الرّياح أو الفيضانات، أو الزلازل أو النيران، فقال تعالى:

- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

المجْرِم: هو في اللّغَة المعتدي بذنْب كبير، وجاء وصف المجرمين في القرآن المجيد عنواناً مقابلاً لوصف المسلمين. وجاء وصفاً للكافرين الّذِين أهلكهم الله في الدنيا، ووصفاً للخالدين في عذاب النار يوم الدّين.

هذا النصّ الثاني الذي جاء في سورة (النمل) أضاف إلى ما جاء في النّصّ الأول، فكرةَ أنَّ مشركي العرب كانوا يَعْلَمُونَ من المواريثِ الدّينيَّة، عقيدةَ البَعْث للحساب والجزاء، ويَعْلَمُونَ أنَّ الله قد يُجَازي عباده على جرائمهم في الحياة الدُّنيا، إلّا أنّهم كانوا يَجْحدون ذلك، ويَذْكُرون أنّ مقولَةَ الجزاء الرَّبَّاني هي من أساطير الأولين، أي: من أباطيلهم الّتي كانوا يتحدَّثون بها، دون أن يكونَ لَهَا حقيقَةٌ في واقع الأمر.

* * *

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن

تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَىۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

بمناسَبَةِ اعتراض المشركين علىٰ بشَرِيَّةِ الرَّسُول محمّد ﷺ، وادّعائهم أنّ الرَّسُول يَنْبَغِي أن يكون مَلَكاً، أَوْ لا يأكُلُ الطَّعام ولَا يَتَزَوَّجُ النِّسَاء ولا يَمْشِي في الأسْواقِ لكَسْبِ رِزْقه، كانَ الرَّدُّ الرَّبَّانِيُّ عليهم بأنَّ كُلَّ الرُّسُلِ السَّابِقين، الَّذِين يعْتَقِدُ المشركون أَنَّهم كانوا رُسُلاً، مثل إسماعيل وإبراهيم وموسى وعيسَىٰ عليهم السلام، قَدْ كانُوا رِجالاً مِثْلَ سَائِرِ الرّجال من الناس، إلّا أنَّ اللَّهَ بِحِكْمَتِه اصْطَفاهُمْ بِالْوَحْي إليهم، فَلَمّا كَذَّبَتْهُمْ أَقْوامُهُمْ نَصَرَ اللَّهُ رُسُلَه والَّذِين آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، وأنْزَلَ بَأْسَهُ العقابيَّ بالمكذِّبينَ المجرمين.

واقتضىٰ البيان هُنا توجيه اللَّوْم الشديد للمشركين بأسْلُوب الاستفهام التوبيخي، الّذي لم يُواجِهْهُم الله عزّ وجلّ به، بلْ تَحَدَّثَ عَنْهُمْ فيه بضمير الغائبين، فقال تعالى:

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ . . .﴾.

أي: ألَيْسَ لَدَيْهم عِلْم بِأَنَّ الرُّسُل السَّابِقين، الَّذِينَ أَهْلَكَ اللَّهُ أقوامَهُمُ الَّذِين كَذَّبُوهم وكَذَّبُوا بما جاءُوهم به عن رَبّهم، أَنَّهم كانُوا رِجالاً كَسائِرِ رجال الناس، أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرض فينْظُرُوا في آثار الأولّين، ويُشَاهِدُوا كيْفَ كانَتْ عاقِبَةُ مَكَذِّبي رُسُل رَبّهم من قبلهم من أهل القرون السَّابقة، مع أنهم كانوا رُسُلاً رجالاً كسائر الرّجال من الناس؟!. الواقع أنهم كانوا يعلمون ذلك ويَجْحَدونه.

وبَعْدَ هٰذا التوبيخ بأسلوب الاسْتفهام أبان الله عزّ وجلَّ أن الدَّار الآخرة خَيْرٌ للّذين اتَّقَوْا في الحياة الدُّنيا عقابَ اللَّهِ وعذابه، فآمَنُوا وأسْلَمُوا واتَّبَعُوا ما أنزل الله إليهم.

وفي هٰذا البيان إشارة إلى أن سَبَبَ تَكْذِيب المكذبين فِتْنَتُهُمْ بالحياة الدّنيا وزينتها، واستبعادُ الدّار الآخرة وجَنَّةِ النعيم فيها عَنْ أذهانهم، فقال تعالى:

﴿... وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

هُنَا الْتفَتَ الله عزّ وجلّ إليهم في البيان فقال لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!. أي: أَلَيْسَ لديكم عَقْلٌ عِلْمِيٌّ ولَا عَقْلٌ إرَادِي يجعلكُم تَضْبِطُونَ نفوسَكُمْ عن اتِّباع الأهواء والشهواتِ وسائرِ زينات الحياة الدّنيا، ناظرِين إلى الآخرة، وما فيها من نعيم مُقِيمٍ في جنَّاتِ النعيم، وما فيها من عذابٍ أليم خالدٍ في دار العذاب النار.

وبَعْدَ هٰذا أبَان الله عزّ وجلّ، أنَّ نَصْرَ رُسُلِهِ وعِقَابَ مُكَذِّبِيهم لم يَتَحَقَّقْ في سُنَّةِ الله إلَّا بَعْدَ إمهالٍ طَوِيلٍ للكافرين الَّذِين كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهم، وأعْلَنُوا عِدَاءَهُمْ لَهُمْ ولِدَعْوَتهم.

وهذا الإمْهَالُ الطويلُ جعَلَ الرُّسُلَ يَسْتَيْئِسُون، أي: يَيْأَسُونَ يَأساً شَدِيداً من نَصْرِ الله لهم في الدّنيا، وإنزال العقاب في المجرمين من أقوامهم.

فلمَّا وَصَلُوا بحَسَب طبائعهم البشريَّةِ إلى هذا اليأس الشديد، ظَنُّوا ظنًّا تَوَهُّمِيًّا ضعيفاً أنَّ أخبار الإنذار بالعقاب المعجّل أخبارٌ تَهْدِيدِيَّة، ولَيْسَتْ وَعداً لَا بُدَّ من تَحْقِيقِه، جاءهم نَصْرُ الله، فأهْلَكَ اللَّهُ بحكْمتِه المجْرمين من أقوامهم، ونَجَّىٰ مَنْ شَاءَ أن يُنْجِيَهُ من أقوامهم، وهم المؤمِنُون، والَّذِينَ لم يَصِلُوا إلَىٰ دَرَكَةِ اليأسِ من إيمانِهم وقَبُولهم دَعْوة الحقّ، فقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾: الظنُّ هُنَا هو من قبيل الظّنّ التوهُّمِي الضعيف الذي يَمُرُّ على شَكْل خاطراتٍ لا يُسْتطاعُ دَفْعُها، ثُمَّ يَصْرِف هذا الظّنَّ التوهُّمِيَّ العارضَ صِدْقُ اليقين بالله ـ جلّ جلالُه وعظم سلطانه ـ والثقةُ بحكمتِه العظيمة.

وفي هذا البيان إشارةٌ إلى أنّ اللّهَ جلَّتْ حكْمَتُهُ أَمْهَلَ الكَفَرَة المكذبين إِمْهالاً بَلَغَ أقصَىٰ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَصَوَّرَ من إِمْهَالٍ، والدّليلُ عليه أنَّ الرُّسُلَ بدَأَتْ تَتَوارَدُ عليهم الخواطِرُ بأَنَّ الإنْذَارَ بالعذاب المعجل قَدْ كان الغرض منه التَّهْدِيد لا التنفيذ في الواقع، وهٰذِه الخواطر لم تَعْدُ أن تكونَ ظنُوناً توهميّةً ضعيفة.

ومثل هٰذِهِ الظنُونِ التوهميَّة الْعَارِضَة على شكل خواطر لا يَمْلِكُ إنسان ما مَنْعَ تواردِها، لكِنَّهُ يَمْلِكُ صَرْفَهَا باليقين الثابت، وبَعْدَ صَرْفِها يعْتَصِمُ بالصَّبْر وبالثقة بوعد الله الحقّ.

ومثل هٰذِهِ الخواطر لا تَخْدِشُ عِصْمَةَ الرُّسل عليهم السلام، لأنّ حَالَهُمْ بَعْدَهَا كان حَالَ ذي يقين راسِخٍ بوَعْدِ الله، وثِقَةٍ تَامَّةٍ بحكْمَتِه في تصاريفه في كونه.

وخَتَمَ اللّهُ عزَّ وجل النصّ ببيان الحكْمَة من ذِكْرِ قِصَصِ الأوَّلين، وهي أنّ فيها عِبْرَةً لِأُولي الألباب، يَعْتَبِرُون بها، إِذْ يَقِيسُونَ أحْدَاث المستقبل على أحداث الماضي، ثقةً مِنْهُمْ بأنَّ سُنَّة اللّهِ في عباده واحدة، فما جرى لِلْأَوَّلين لَا بُدَّ أنْ يَجْرِي نظيرُه للآخرين، إذَا وَصَلُوا إلى الدَّرَكَةِ الَّتي وَصَلَ إليها الأوّلُون، واقتضت أحوالهم إهلاكهم، فقال الله تعالى:

- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ . . .﴾.

الْعِبْرَةُ: الاتّعَاظُ والاعْتِبَارُ بما مضىٰ، وأصْلُها الانتقالُ عُبُوراً من حادثة جَرَت إلى حادثةٍ لم تَجْرِ بَعْدُ، بقياسِهَا عليها، والحكْم عَلَيْها بأنّها سَتَحْدُث مِثْلَ الماضِيَة، إذا تَماثَلَتِ الصِّفَاتُ والأَسباب.

ومَرْجعُ هذا القياس ثَباتُ سُنَن الله في كونه.

أولُوا الألباب: هم أصحابُ العقول السليمةِ من الْخَلل، والسديدةِ في فهم حقائق الأمور.

اللُّبّ: هو العقل الخالص من الشوائب.

وختم الله عزّ وجل سورة (يوسف) بقوله عن القرآن:

﴿... مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾: أي: مَا كان القرآنُ حديثاً قابلاً بصِفَاتِهِ الإعْجازيَّة لِأنْ يُفترىٰ، فَيُصْنَعَ كذباً على الله، بل هو تنزيل من حكيم حميد.

ولو كان قابلاً لأنْ يُفْترىٰ لما تَحدَّىٰ الله عزّ وجلّ الإنْسَ والجنّ بأنْ يأتُوا بمِثْلِهِ أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه، ولو كان بعْضُهم لِبَعْضٍ ظهيراً.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: ولـكِـنْ أنْـزَلَـهُ الـلَّـهُ حـالَـة كَـوْنِـهِ تَصْدِيقَ الّذي بيْنَ يَدَيْه، وهي الكتُب الرَّبَّانيَّة الّتِي أنْزَلَهَا اللَّهُ قَبْله.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: أي: ولـكِـنْ أنْـزَلَـهُ الـلَّـه أيْـضـاً حـالَـة كَـوْنـه تَفصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، مِمَّا هُوَ مَقْصُودٌ بيانُه من أمُور الدّين الذي اصْطَفاه اللَّهُ لعباده.

﴿وَهُدًى﴾: أي: وَلَكِنْ أنزلَهُ الله أيضاً حالَةَ كوْنِهِ هُدىً، أي: يهدي من يَتَّبِعُ أوامره، ونواهيه، ونصائِحهُ، ووصاياه، وبياناته، إلى كلّ خير.

وبما أنَّه يَهْدِي لِكُلّ خَيْرٍ على صراط اللَّهِ المستقيم، فَهُوَ حَرِيٌّ بأنْ يُطْلَقَ عليه أنَّهُ «هُدىً» أي: عَيْنُ الْهدىٰ.

﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: ولكِنْ أنْزَلَه الله أيضاً رَحْمةً لِقَوْمٍ يُتَابِعُونَ آيَاتِهِ الَّتِي تَنْزِلُ بإيمان مُتَجَدِّد.

إنّ القرآن مظْهَرٌ من مظاهر رَحْمَةِ الله بعباده، وأُطْلِقَ عليه أنه: «رَحْمَةَ» من باب إطلاق اسم السَّبَب على المسَبَّبِ، وهذا من المجاز المرسل، والْغَرَضَ الإشعار بأنَّهُ هو بذاتِه رحْمَةٌ لقَوْم يتابِعُونَ آياته بإيمان متجدّد وعمل بما جاء فيها.

ويَظهر للمتدبّر أنّه قد جاء في هذا النصّ إضافاتٌ على ما جاءَ في النَّصَّيْنِ السَّابقَيْن.

* * *

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

بمناسبة الحديث عن اسْتِهْزَاء قادة مُشْرِكي مَكّة وزُعمائهم بالرَّسُولُ مُحَمَّد ﷺ في أواسط العهد المكيّ من سيرته الدعوية، واستهزائهم بما أنبَأهُمْ من إنذاراتِ مُعَجَّلَةٍ وَمُؤَجَّلَةٍ إذا لَمْ يُؤْمِنُوا به رسُولاً وبما جاءهم به عن رَبّه، إذْ أَمْهَلَهُمُ اللَّهُ فلم يُنْزِلْ بهم عِقَابَهُ المعجّل، قال الله عزّ وجلّ لرسوله مُهَوّناً عليه أَمْرَ تَكْذِيبهم له، ومُبّيناً له أنّ حالَهُ مع قومه مثلُ حَالِ الرُّسُل مِنْ قَبْلِه مع أقوامهم، ومُطْمِئناً لَهُ ولّلذِين آمنوا به واتَّبعُوه، بأنّ الله سيَنْصُرُه كما نَصَر الرُّسل السَّابقين والذين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم، على المكَذِّبين المستهزئين من أقوامهم بما كانُوا يَتَوَعَّدُونَهُمْ به بلاغاً عن رَبّهم.

جاء تأكيد الخبر في الآية (١٠) بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ لطَمْأنَةِ قُلُوب المؤمنين.

ودلَّ على أنّ قادة مُشْرِكي مكة حينئذٍ، كانُوا يَسْتَهْزِئُون بإنْذارَات الرَّسول محمَّدٍ لهم بعقاب الله المعجل قول الله تعالى:

- ﴿... فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

أي: فأصَابَ الَّذِينَ اسْتَهْزَؤُوا بالرُّسُلِ وأحاط بهم العقابُ الرَّباني المعجَّل الذي كانوا به يَسْتَهْزِئون.

وفي هذا بيانٌ ضِمْنِيٌّ للمشركين، بأنَّهُمْ يُعَرّضون أنْفُسَهم باستهزائهم، لأنْ يُنْزِل اللَّهُ بهم ما هُمْ به يَسْتَهْزِئون، كما أَنْزَل بالمكَذّبين برُسُل رَبّهم من أهل القرون الأولى.

وبَعْدَ هذا أمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ، فكُلَّ داعٍ إلى الله من أمَّتِه بأَنْ يُطالِبَ المشركين بالسَّيْر في الأرض، بحْثاً وَتَنْقِيباً في آثار الأولين، فإنَّهُمْ بالبحث والتنقيب يتوصَّلُونَ إلى أنَّ كثيرينَ من أهْل الْقُرى والمُدنِ السَّابقة قَدْ أُهْلِكُوا بعقابٍ رَبَّانِيٍّ عامّ شامل.

دلَّ على هذا العطف بحرف العطف «ثُمَّ» الذي يَدُلُّ على التراخي الزّمَنِي المشير إلى البحْثِ والتنقيب في قوله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ أنّ من الأُمَم السَّابقَةِ الّتِي أَهْلَكَها اللَّهُ بِتَدْمِيرٍ شامل قَدْ طُمِرَتْ في الأَرْضِ كُلُّ آثارها، فَلَا يَكْشِفُها إلَّا البحثُ والتَّنْقِيبُ وأعْمَالُ الحفريّات.

وبهذا نَحمِلُ النُّصُوصَ الَّتي جاء فيها العطف بالفاء، على الأُمَمِ المهْلَكَةِ الَّتي لها آثارٌ ظاهرة على سطح الأرض، أو في الجبال، كَمَدَاين صالح، وأهرامات الفراعِنَة.

لكن تُوجَدُ مُدُنٌ وقُرَىٰ مُدْفُونَةٌ في الأرض لأُمَم سالِفَةٍ مُهْلَكَة، وهٰذِه لَا تَكْتَشَفُ إلَّا بمُتَابَعَةِ التَّنْقِيب والحفريات.

وقد صارت ظاهر التنقيب والحفريات إحدى الأعمال الكبرى الّتِي يقوم بها عُلَماءُ الآثار في عُصُورنا.

* * *

النصوص الخامِسُ والسَّادِس والسَّابع:

هي نصوص ثلاثة جاءت في سورة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول):

الأول: قول الله عزّ وجلّ في أوائل السّورة:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

- ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: أي: فَلَا تَنْخَدِعَنَّ بتَمْكِينِ الله لَهُمْ من التّقَلُّبِ في البلاد، تَقَلُّباً يُحقِّقُونَ به مطالِبَهُمْ وَرَغَبَاتِهم من الحياة، فهُمْ ما زالُوا في مُدَّةِ الامتحان، والله - جلّ جَلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُهُ - يُمْلِي لهم، ليُعْطِيَهُمْ غايَةَ الْفُرَصِ الَّتي تَقْطَعُ كلَّ أعْذَارِهم يوْمَ الحساب وفَصْل القضاء، وتَقْطَعُ كُلَّ أعْذارِهِمْ إذا قَضَىٰ اللَّهُ بأَنْ يُنْزِلَ بِهِمُ الْعِقَاب الْمُهْلِكَ في الحياة الدنيا.

- ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾: المرادُ بكلمة «الأحزاب» الأُمَمُ المهْلَكَة بسبب كُفْرِها، وتكْذِيب رُسُلِ ربِّها، وطغيانها وإفسادها في الأرض، وقد جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) التصريح بالمراد بالأحزاب، في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ

وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر) أيضاً بشأن المشركين الذين كذَّبوا رسُول الله محمّداً ﷺ:

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

هذا النّصّ جاء فيه بَعْضُ تغيير في العبارة، وجاء فيه إضافة أن المهلَكينَ من قَبْلِ مشركي مكَّة كانُوا أعْظَمَ منهم آثاراً في الأرض، فآثارُ فِرْعونَ مثلاً أعظَمُ من آثار مُشْرِكي قريشٍ ومُشْرِكي سائر العرب.

وجَاءَ فيه إضَافةُ بيانِ أنَّ الْمُهْلَكِينَ السَّابقين مَا كَانَ لهم مِنْ واقٍ يَقِيهم من عذاب الله، مع أنَّهُمْ كانُوا أشَدَّ من مُشْرِكي كُلِّ الْعَرَبِ وكُفَّارِهم قُوَّةً وآثاراً في الْأَرْض، فَلَمْ يَقِهِمْ ذَلِكَ من عذاب الله، إذْ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنوبهم، وقَدْ كان أخْذُ اللَّهِ لهم أخْذَ تَعْذِيبٍ وإهلاك.

وجاء فيه أيضاً بَيَانُ أنّ مِنْ أسباب إهلاك الله لهم، أَنَّهُمْ كانت رُسُلُ اللَّهِ لهم تأتيهم بالبيّناتِ: (أي: بالآيَاتِ الواضحات الدَّلَالَات) من خوارِق العادات، ومن الآيات المنزّلَات على الرُّسُل، المبيِّناتِ لأصول الدّين وأحكام الشريعة، ومطلوبات اللَّهِ من عباده في رِحْلَةِ امتحانهم، فكفَرُوا بها، وكذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم، فأخَذَهُمُ اللَّهُ أخْذَ إهلاكٍ شاملٍ مقْرُونٍ بعذاب شديدٍ، دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ في آخِرِ النّصّ: ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر) أيضاً بشأن مشركي العرب، وفي مقدمتهم كفار قريش، وبه ختم الله السورة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ أنَّ المهلَكينَ السَّابقين من مُكَذِّبي رُسُل الله، المستهزئين بما كَانُوا يُنْذِرُونَهُمْ به مِنْ عذاب اللّهِ المعجّل، كانوا أكثر عدداً من الَّذِين كَذَّبوا رَسُول الله محمداً ﷺ من مُشْركي العَرب إبَّانَ نزول السورة، مع أنّهم كانوا أشدّ منهم قوة، وأشَدَّ مِنْهُمْ آثاراً باقيَةً في الأرض.

وعلى الرُّغم من كلّ ذلك فما أغنَىٰ عنهم شيئاً ما كانوا يكْسِبُون من وسائل قُوَّةٍ وتَمكُّنٍ في الأرض.

وأضاف هذا النَّصُّ أيضاً، أنَّ هؤلاء المكَذِّبين السَّابقين لمَّا جاءتهم رسُلُ رَبِّهِمْ إليْهم بالْبَيِّنَاتِ، من آيات الله الإعجازية، وآيات اللّهِ البيانيَّة، لَمْ يَعْبَؤوا بها، بلْ فرحوا بما عندهم من عِلْمٍ يُكْسِبُهُم تفوُّقاً في الْقُوىٰ والصِّناعاتِ والعمران، وجَعلُوا ذلك من أسباب تفاخُرِهِمْ على الرُّسُل وعلَى الَّذين آمَنُوا بهم وبما أنزل الله عليهم وجعلوا ذلك أيضاً من أسباب استهزائِهم بحالَةِ الضعف الذي كان عليه الرُّسُلُ وأتباعُهم من المؤمنين.

ثمّ كانت العاقبة أن حَاقَ بالكَفَرَةِ المكذّبين مَا كَانُوا بِهِ يسْتَهزِئُونَ من إنذاراتِ رُسُل ربهم لهم.

وأضاف هذا النص أنّ هؤلاءِ الْمُهلَكِينَ لمَّا رَأوْا بِدَايَاتِ مَا أَنْذَرَهُمْ به رُسُلُ رَبّهم تقتربُ منهم، ويَنْزِلُ بعضُها عَلَيْهم عذاباً من ربّهم، قَالُوا: آمَنَّا باللَّهِ وَحْدَه، وكَفَرْنَا بما كُنَّا بِه مُشْرِكين.

لَكِنَّ الإيمانَ بعد القضاء بالإهلاك، وبَعْدَ رُؤيَةِ مُقَدِّماتِه، لا يَنْفع الّذين كانوا كافرين مُكذِّبين، لأنَّهُ إيمانٌ بَعْدَ الشُّهُودِ الحسِّيِّ، إذ الإيمان

الذي ينْفَعُ المؤمنين عند ربّهم هو الإيمان بالغيب، الْقَائم على أَدِلّة الْعَقْلِ وبراهينه، فالعقْلُ ومداركُ الفكر وأدوات الفهم الذهنيّ، هي التي ميّزَ اللَّهُ بها الإنسان، وجعلَه مسْؤُولاً في الحياة الدّنيا عما تَهْدِى إليه، كما قال عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أي: وَلَا تَتبعْ، يقال لغة: قَفَاهُ يَقْفُوه، أي: تَبِعَه. فأبانت هذه الآية أنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عنْدَ اللَّهِ وعند أهل الحقّ والعدل من عباده، عن العلْم الّذي يأتي عن طريق السَّمْع، أو عن طريق الْبَصَر، أو عن طريق الفؤاد، وما يأتي عن طريق الفؤاد هو ما تُدْركُه العقُولُ من غَيْبيّاتٍ بالأدلَّة العقلية، واللَّوازم الفكريَّةِ البرهانيَّة.

وقد جعل اللَّهُ عزّ وجلّ من أوّل أركان الإيمان في رحلة امتحان الإنسانِ في الحياة الدُّنيا الإيمانَ بالغيبِ الَّذِي يَتعلَّقُ بذات الله وصفاته، ثمّ بالغيب الّذي صحّتْ به الأخبار عنْه بلاغاً عن الله من قِبَلِ رُسُلِه المؤيّدين من لدُنْهُ بالمعجزاتِ الباهرات، والآيات البينات، أو عمَّن بلَّغ عنهم بلاغاتٍ صادقاتٍ يشْهَدُ العقْلُ بصِدْقها.

وأضاف هذا النّصّ أنّ المكُذِّبينَ السَّابقين المهْلَكِينَ، لمَّا رَأَوْا مُقَدَّماتِ بأسِ اللَّهِ الوافِدِ عليهم بالعذاب والإهلاك الشامل، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ ولَكِنْ لَمْ يكن يَنْفَعُهُمْ إيمانُهم حينئذٍ، لأنَّهُ إيمان بَعْدَ شهُودِ مُقَدّماتِ عذاب اللَّهِ لهم، ومَا كانوا قد أُنْذِرُوا به من قبل.

وأضاف أنَّ عدمَ قبول إيمانهم حينئذٍ هو سُنَّةٌ من سُنَنِ اللَّهِ، الثابتَةِ بقضائه وقَدَرِه، وهذه السُّنَّةُ الرَّبَّانيَّةُ قَدْ جَرَتْ تَطْبِيقاتٌ لها في الأمم السَّالفة

لَهُم: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦٓ﴾ أي: قَدْ مَضَتْ تَطْبيقاتٌ لها في عباده السابقين.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ في الأمْكِنَةِ الَّتي جرَتْ فيها سُنَّةُ الله التَّعْذِيبيَّة والإهلاكيَّة ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالله وبما جاء من عند الله، على ألسنة رُسُلِه الصادقين.

❀ ❀ ❀

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

فأبان هذا النّص أنَّ كُلَّ أمَّةٍ سالفةٍ قَدْ بَعَثَ اللَّهُ فيها رسُولاً، فأمَرَهم بأنْ يعْبُدوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَبِأَنْ يَجْتَنِبُوا الطَّاغوت.

اجتنابُ الشَّيْء: الابتعادُ عَنْه وعَدُم الاقتراب منه، يقال لغة: اجتنَبَ الشَّيْءَ، أي: ابْتَعَدَ عنه. والأمْرُ باجتنابِ عَمَلٍ مَا، أشدّ من النَّهْي عن فِعْله، لأنَّ الاجتنابَ يَسْتَدْعي وُجُودَ فاصِلٍ بَيْنَ الإنسان وبَيْنَ المنهيّ عنه، بخلاف النهْي عن العمل فإنَّه لا يَسْتَدْعي وجودَ فاصل ما، إذْ قد يكونُ المنهيُّ قريباً جدًّا من المنهيّ عَنْهُ وَلَا يَعْمَلُه، فيكون بذلك ممتثلاً مطيعاً.

الطاغوت: هو كثير الطغيان، وكلُّ رأْسٍ في الضلال، ويُطْلَقُ على الشيطان، وعلى كُلّ ما عُبِدَ من دون الله (يستوي فيه الواحد وغيره والمذكّر والمؤنث).

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾: أي: فمنهم من استجاب لدعوة الحقّ، فآمن بالله وبرسوله، وبما أنزل اللَّهُ على رسوله، وعبد الله وحده لم يُشْرِكْ به أحداً، وابْتَعَدَ بُعْداً كافياً لتحقيق الأمن ممّا يقذف به الطاغوت، من شرَرٍ وشَرٍّ، وإغْراءٍ وإغْوَاءٍ بالشّهوات والأهواء، فَكَانَ بذلك مُهْتدياً إلى الحقّ وسُلُوك صراط الله المستقيم، بإيمانه وعمله، فَهَداه الله، أيْ: فحكَمَ لَهُ بالهداية.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: أي: ومنهم من لم يسْتَجِبْ لدَعْوَةِ الحقِّ، فلَمْ يُؤْمن بالله ولا برسوله، ولا بما أنزل اللَّهُ على رسُوله، بل اسْتَمرَّ على ما كان عليه من شرك وكُفْرٍ واتباعٍ للطاغوت، فحَكَمَ اللَّه عليه بالضَّلالَة، فَحقَّتْ عليه (أي: ثبَتَتْ عليه) عقُوبَةُ ضلالته، فكان مع المهْلَكِينَ المكذبين رسول رَبّهم لهم، إهلاكاً عامًّا شاملاً مقترناً بعذاب.

وبعد هذا البيان توجّه الله عزّ وجلّ في النّصّ بالخطاب المباشر للمشركين المكذّبين رَسُولَ الله محمّداً ﷺ، فقال لهم:

﴿... فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فانظروا بأعينِكُمْ آثار ديارهم وبلادهم، وانْظُرُوا بأفكاركم وعُقُولِكُمْ كيف كانت عقوبة الله لهم، فاعْتَبِرُوا بها، وقيسوا أحوالكم على أحوالهم الّتي استدعَتْ إهلاك الله لهم إهلاكاً عامًّا شاملاً مقترناً بعذاب.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: هي الإهلاك والتدمير الشّامل لأقوام تواطَؤُوا على التكذيب والكفر، واتّباع الطاغوت.

وتشْمُلُ هذه العبارة مَنْ عاقَبَهُ الله عِقاباً خاصًّابه، إذْ كان معانداً طاغيةً جباراً في الأرض، مثل: «قارون» إذ خَسَفَ الله بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض.

النّصان التاسع والعاشر:

جاء هٰذان النّصّان في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

الأول: قول الله عزّ وجلّ في أول السّورة:

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ⑥ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ⑦ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ⑧ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ⑨ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ⑩﴾.

- جاء في هذا النّصّ ذِكْرُ انتصار الفُرْس على الرُّوم في حربٍ قامَتْ بَيْنَ هاتَيْنِ الأمّتين العظيمتَيْن حينئذٍ، وأتْبع الله ذلكَ بخَبَرٍ مُسْتَقْبَليٍّ كَانَ آيَةً من آياتِ اللّٰهِ الإعجازيَّةِ في القرآن المجيد، وقد تضمَّنَ هذا الخبَرُ أنَّ الرُّوم سَتَغْلِبُ فارسَ في بِضْعِ سنين، أي: في مُدَّةٍ أدْناهَا ثلاث سنين، وأقْصاها تِسْعُ سنين.

وقد تحقَّق في الواقع هذا الخبَرُ المستقبَليُّ كما أنزل الله عزّ وجلّ في القرآن.

وقَدْ رُوِيَ أنّ انْتِصَارَ الرُّوم على فَارِسَ كَانَ يومَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ بَيْنَ المسلمين ومشركي مَكّة، فإنْ صحّتْ هذه الرّوايَة فَقَدْ أبان الله عزّ وجلّ أنَّ الزَّمَنَ الّذِي ينْتَصِرُ فيه الرُّوم على فارس، يكونُ فيه أيضاً نَصْرٌ للرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ على مُشْرِكي مكة، فيكُونُ النَّصُّ قد

اشتَمَل علىٰ نَبأَيْنِ مِنْ أنْباءِ الْغَيْبِ المسْتَقْبَلِيّ: نَبأ انْتِصَارِ الرَّسولِ وأصحابه على مُشْرِكي مكة، ونبأ انْتصار الرُّوم على فارس.

والمتدبّر لقول الله عزّ وجلّ في النّصّ: ﴿... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ يلْمَحُ دَلَالَةً قويَّةً على أنّ فرح المؤمنين قَدْ كان بانتصارهم على مشركي مكة، أكثر من فرحهم بانتصار الرُّوم أهل الكتاب على فارس عُبَّادِ النّار بما لا يُقاس، وهذا البيان يتضمَّنُ بشارةً للرّسول وللمؤمنين به بانتصارهم على المشركين، وبهذا الانتصار يفْرَحُونَ بتَحْقِيق وعْدِ الله لهم، وتنزيل سورة (الروم) كان في أواخر العهد المكيّ من مسيرة الرسول الدعوية.

وظاهِرُ النصّ يُشْعرُ بأنّ المؤمنين يفْرَحُون بانتصار الرُّوم على الْفُرس وهذا الظاهر هو الذي جعل المفسّرين يَقْصُرُون تفسيرهم للنصّ عليه.

وقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يَصْلُحُ للنبأيْن، إلَّا أنَّ خَتْمَ الآية باسم الله «الرَّحيم» أكثر مُلاءَمةً لانتصار الرَّسُول والمؤمنين المستضْعَفِين على مشركي مكَّة الّذين كانُوا يضطهدونهم، فانتصار دوْلَةِ الرُّوم على دولة الفرس يومئذٍ يُلائِمَه من أسماء اللَّهِ الحسْنَىٰ اسم الله «الحكيم» أمّا اسم الله «الرحيم» فهو يلائم أحوال المؤمنين المضطهدين المستضعفين، والله أعلم.

● وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ أنّه لا يُخْلفُ الميعاد، فكَمَا سيتحقَّقُ النَّصْر الذي وعَدَ به، وسيُشَاهدونه في بِضْع سنين لَا محالة، فلَا بُدَّ أَنْ يتحقَّقَ وَعْدُ الآخِرَة، ولا بُدَّ أن يتحقّقَ الْبَعْثُ إلى يوم الدّين.

وكان المناسِبُ هُنَا أَنْ يتحدَّثَ النَّصُّ عن الناس عامَّة، لَا عن مشركي مكَّة يومئذٍ خاصَّة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

- وإذْ جاء الحديث عن النّاس عامّةً كان من الحكمة في موضوع قانون الجزاء الرّبّانيّ المؤجَّلِ إلى يوم الدين، الّذي تَدُلُّ عليه عُقُوباتُ الله المعجَّلَةُ في الدنيا للكافرين، أن يكون الحديثُ عن عُمُوم النَّاس من مختَلِف الشعوب، وفي مقدمتهم أمَّتَا أعظم دولَتَيْنِ يومئذٍ «فارس والرُّوم» فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ⑧﴾.

في هذا الاستفهام مزيجٌ من التَّلْويم على عدم التفكّر مع الحثِّ عليه، وإشعارٌ لهم بأنَّهُ كان عليهم أنْ يتفكّروا في أنفسهم دون تَنْبيهٍ وَلَا حثٍّ، والشَّيْءُ الذي كان يَنْبَغِي أن يتوصَّلُوا إلَيْه بالتفكُّر هُوَ أنَّ الخالق البارئ جلَّ جلالُه، مَا خَلَقَ السَّمَاواتِ والْأَرْض إلّا بالْحَقّ، فَلَمْ يَخْلُقْهُما عبثاً، فإبْدَاعُهُما، واتْقَانُ صُنْعِهما، وتَسْخِيرُهُما للنّاس، وجَعْلُ كُلِّ شيءٍ فيهما ذا أجَلٍ تَنْتَهِي عِنْدَهُ وظيفَتُه، دليلٌ علىٰ أنَّ السَّمَاواتِ والأرْضَ وما فيهما ومَنْ فيهما مخْلُوقَاتٌ لغاية، والتفكُّرُ في خَلْق النَّاسِ يَدُلُّ على أنَّهُمْ مَخْلُوقونَ للامتحان، والامْتِحانُ يقتضي الجزاء، وبما أنّ الجزاءَ الّذي يُلائم طبيعَةَ الامتحان غَيْرُ متحقِّقٍ فِي ظروف الحياة الدُّنيا، فلا بُدَّ أن يكُونَ في خُطَّة الخالق العليم الحكيم، إيجَادُ ظُرُوفِ حياةٍ أُخْرَىٰ يتحقَّقُ فيها الجزاءُ الأمثل، لكنّ واقع حال الناس كما قال الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿... وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ⑧﴾.

- وبعْدَ هذا نَبَّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ على ظاهرة الجزاء المعجَّل الدَّال عَلَىٰ الجزاء المؤجّل، فقال تعالى في الآيات من سورة (الروم):

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⑨ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ⑩﴾.

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾: أي: وحَرَثُوها للزراعة، ونَقَّبُوا فيها لاسْتِخراجِ مخْزُوناتها ومعادِنِها وكُنُوزها، وأخذ موادّ العمران منها.

وقد جاء في هاتَيْن الآيتَيْن إضافَةُ أنَّ السَّابقين المهلَكِين، قَدْ عَمَرُوا الأرْضَ أكثَرَ ممّا عَمَرَها المشركون المعنيُّونَ بالحديث في النَّصّ، مع تغيير في صياغة بعض العبارات.

السُّوأىٰ: مؤنَّثُ الأسْوَءِ، فَدَلّتْ على أنّ إساءاتهم قد كانت شديدةً جدّاً تقتضي نظيرها من العقاب.

الثاني: قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الرُّوم) أيضاً:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

في هٰذه الآية خاطب اللَّهُ عزّ وجلَّ كُلَّ داعٍ إلى الله من أمَّة محمد ﷺ بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ، بأنْ يَدْعُو النَّاسَ إلى السَّيْرِ في الأرض، والنظر في عاقبة المشركين من قَبْلِهم.

وأضافت هٰذِهِ الآية بيان أنّ أكثر المهْلَكِينَ السَّابقِين من أهل القرون الماضِيَة كَانُوا مشركين عَبَدَة أَوْثان.

* * *

النَّصُّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) خطاباً للمؤمنين ووعْداً ضِمْنِيًّا لهم بأنّهم سيَنْتَصِرُون وَسَيُهْلِكُ اللَّهُ أعداءهم، مبيّناً لَهُمْ أنَّ هٰذِهِ هي سُنَّتُه الَّتي أجراها في الأمم الَّتي خلَتْ، فعليهم أن يَطْمَئِنُّوا وَيَثِقُوا بِوَعْدِ الله لهم:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

هذا النصّ موجَّه للمؤمنين، لتطمينهم وَتَرْبِيَتِهِمْ ودفْعِهم إلى الجهاد في سبيل الله، فقد نزل في المرحلة المدَنيَّة حينماكانت معارك القتال قائمةً بَيْنَهُم وبَيْنَ المشركين، ومنها معركة أُحد.

* * *

النصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⑦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ⑧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ⑨ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ⑩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ⑪﴾.

نزل هذا النَّصُّ المدنيُّ في أجْواءِ قتالٍ قائمٍ بين المؤمنِينَ والكافرين، والحكمةُ البيانيَّةُ التربويَّة تقتضي رَفْعَ الرُّوح المعنويَّة لدىٰ المؤمنين ضِدّ الكافرين، وتقتضِي تَوْهِينَ الكافِرين، وتَثْبيطَهُمْ، وإضْعافَ قُوَّاتِهِم، وإشعارَهم بأنَّ أعمالَهُمْ قَدْ أَضَلَّها الله وجَعَلَها ضائعةً لا تُقَدِّمُ لهم نَصْراً ولا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرّاً، وقَدْ أحبَطَها فأبْطَلَ تأْثيراتها، فلَمْ تُحقِّقْ أَهْدافَها الّتي قَصَدُوها منها، فجاء البيان موجّهاً لتحقيق الهدفين معاً.

﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾: أي: فَهلاكاً وخيبَةً لَهُم، يُقال لغة: تَعَس يَتْعَسُ، وتَعِسَ يَتْعَسُ تَعْساً فهو تاعِسٌ، وتَعِسٌ وتَعِيسٌ، أي: هَلَكَ. وهذا أمْرٌ من اللّهِ بأن يَهْلَكوا، فهو أمْرٌ نافذ لا محالة في الأجَل المقدّر له.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي: وجَعَلَ أعمالهم الّتي اجْتَهَدُوا في تدبيرها ضِدَّ المؤمنين ضَالَّةً ضائِعة، لَا تَجِدُ الأهداف الّتي دُبِّرَتْ مِنْ أَجْلها لتوغُّلِها في الضَّياع.

وأضاف هذا النصّ فكرة أنّ الله دَمَّرَ علىٰ الكافرين الأوّلين مُدُنَهُمْ وقُراهم وحُصُونهم، وهذا يَنْطَبِقُ على كُفَّارِ عَادٍ وثَمُودَ وأمْثَالِهم، لكِنَّ كافِرِينَ آخَرين أُهْلِكُوا وبقيت قراهم خاوية وباقية على عروشها، وبَقِيتْ لهم قصور مشيدة، كما سيأتي في النصّ الثالث عشر.

وأضاف هذا النصّ أيضاً أنّ لكُلّ الكافِرِين الَّذِين يُصِرُّونَ على كُفْرهم وطغيانهم بِشَكْلٍ جماعيّ غالِب، والّذين يتتابَعُونَ في التاريخ، أمثال الأحداث التدمِيريَّةِ الّتِي أنزلَها الله على الكافرين السابقين.

وجاء في آخر النّصّ إضافةُ تعليل نَصْرِ المؤمنين وإهلاك الكافرين بأنّ الله مَوْلَىٰ الّذينَ آمَنُوا، وأنَّ الكافِرِين لا مَوْلَىٰ لهم، أي: لا نَصِير لهم يَنْصُرُهم بخلاف المؤمنين.

النصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/٢٢ مصحف/١٠٢ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن الّذين كذّبُوه من قومه، وهو الخطاب الأخير له في هذا الموضوع:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ (٤٦)﴾.

- فجاء في هذا النّصّ تفصيل لبَعْضِ الأقوام الْمُهْلَكَة الّتي كذَّبَتْ رُسُلَ رَبّها، وهذا التَّفصيل لم يأت في النصوص السابقة بشأن موضوع هذا الملحق.

• وجاء فيه بيانُ أنَّ الله عزّ وجلّ أمْلَىٰ للكافِرِينَ وأمْهَلَهُم، ثُمَّ أَخَذَهُم بالعذاب والإهلاك العامّ الشامل، وهذا البيان الواضح لم يأتِ في النُّصُوصِ السَّابقة.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: أُطْلِق لفظ ﴿قَرْيَةٍ﴾ والمرادُ أهْلُهَا، وهُوَ مِنْ إطْلاق اسم المحلّ على الحالّ فِيه على سبيل المجاز المرسل.

أي: فَعَدَدٌ كَثِيرٌ من القرىٰ أهلَكَها اللَّهُ وهِي ظالِمَةٌ بِكُفرِها وتَكْذِيبها رُسُل رَبّها.

والمعنى: أنّه لم يكن إهلاكُها بَعْدَ إمْهَالِهَا الطويل إلّا وهي ظالمة مستمرَّة على ظلمها. والإمهال دلَّ عليه: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ نَكِيرِ: بحذف ياء المتكلم، أي: إنكاري، والمرادُ فكيف كانَ عقابي، ألم يكن عقاباً شديداً مؤلماً مُهْلِكاً إهلاكاً عامًّا شاملاً، إنّ إنكار القادر على العقاب والانتقام يَدُلُّ على عقابه وانتقامه.

كَأَيِّنْ: اسم مركَّبٌ من كاف التَّشْبِيهِ و«أيٍّ» المنوّنة، ومعناهُ التكثير، وهو بمعنى «كم».

﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾: أي: فهي فَارِغَةٌ لَا سَاكِنَ فيها.

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: الْعُرُوش جَمْعُ الْعَرْش، وهو كُلُّ مَا يُسْتَظَلُّ به، ويُطْلَقُ على السَّقْف، وهذه العبارة تَصْلُح لأن تُفَسَّرَ بأنَّ القرىٰ المعنيّة بَاقِيةٌ على عُرُوشِها، وهذا المعنىٰ يتلاءم مع: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ ومَعَ ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾. وَتَصْلُحُ لأنْ تُفَسَّرَ بأنّها ساقِطَةٌ متهاوية على عُرُوشها، وهذا المعنَىٰ يُلائِمُ وَاقِعَ حَالِ كثيرٍ من القرىٰ الّتي أهْلَكَ اللَّهُ أهْلَها، ودَمَّرَ مَا دَمَّر منها، لكنّ فكرة تكامل النصوص القرآنية ترجّحُ حمْلَ هذا النّصّ على القرىٰ التي بقي من آثارها عروش لم تسقط، وقصورٌ مشيدة، وآبارٌ معطّلة.

﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾: أي: وقَصْرٍ مُحْكَمِ البناء مَطْلِيٍّ بالشِّيد. **الشِّيدُ**: كُلُّ مَا يُطْلَىٰ بِهِ البناء من جِصٍّ ونَحْوه.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآية تَلْوِيمٌ للمعنيّين بالبيان ويَنْسَحِبُ على أمثالهم، بِسَبَب عَدَم استعمالهم قُلُوبَهُمْ، (أي: مراكز الْفِكْرِ والإِدْراك والفهم والعقل لدَيْهِم) فيما خُلِقَتْ له من إدراك حقائق الأمور، وعَدَم اسْتِعْمالِهِمْ آذانهم في سَمَاعِ أَخْبار أهل القرون الأولى والاتّعاظ بها، وكذلك عدم استعمال أعينهم في إبصار آيات الله في كونه، دلَّ على هذا ما يلي.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾: أي؛ عن إدْراك الحقِّ وصراط الْهُدىٰ، لأنَّ عمَىٰ الأبصار يَحْجُبُ عن أصحابها رُؤيَةَ الأشياء المادّية بحُجُومها وألوانها، ولَا يحْجُبُ عَنْهُمْ إدْرَاكَ الحق، وإدراك صراط الهدىٰ.

﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾: أي: ولكِنَّ مَرَاكِزَ الفكر والْفَهْمِ والْعَقْلِ هي الّتِي تَعْمَىٰ عن إدْراكِ الحقّ، وإدراك صراط الهدى، بانْصِرافها إلى ظاهراتِ من الحياة الدنيا، وبإعراضها وإدْبارها عن التفكير فيما خُلِقَتْ له.

وبهذا انتهى الملحق الثاني، والحمْدُ لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٧)

الملحق الثالث

توحيد الرّبُوبيّة وتوحيد الإلَهيّة في الدلالات القرآنية

أوّلاً: مفهومات تأسيسية:

١ ـ حول الإلَهيّة والألُوهيّة

يخطِئُ كثير من المتحدّثين والكاتبين، وقد كنْتُ واحداً من هؤلاء المخطئين، فيُطْلِقُونَ عبارة توحيد الألوهيَّةِ على معْنَىٰ تَفرُّدِ اللَّهِ عزَّ وَجَلَّ

بأنَّهُ الإلَه، الَّذِي لا إلَه (أيْ: لا معْبُودَ بحَقٍّ) سِوَاه، مع أنّ الأُلُوهيَّة في بيانَاتِ عُلَماءِ اللُّغَةِ هِيَ الْعِبادة، ومعْلُومٌ أنَّ العبادَةَ من صِفَاتِ الْعِبَاد، لَا من صفات المعبود، فالعبادةُ شيءٌ، وكونُ المعْبُودِ هو الإلَه المسْتَحِقّ للعبادة بوصْفِ كوْنِهِ رَبًّا شَيْءٌ آخَرُ.

والمصْدَرُ الصناعِيُّ الّذي يُصَاغُ من كَلِمة: (إلَه) هو لفْظُ (الإلَهيَّة).

وسَتَأْتي إنْ شَاءَ اللّهُ الْبيَانَاتُ اللُّغَوِيَّة الَّتي تُحَرِّرُ هذه المسألة، وتَهْدِي إلَىٰ ضَبْطِ الْألْفَاظ لتَحْدِيدِ المفهومات المرادات فيها.

إنّ منهج علماء المسلمين في تحديد معاني الألفاظ اللّغويّة والاصطلاحيّة بالتعريفات، هو المنهج الذي حَمَىٰ العلوم الإسلاميّة من المتلاعبين الْمُحَرِّفِينَ، الّذين يَكْسِرُونَ حُدُودَ الألفاظ اللُّغَوِيَّة والاصطلاحيَّةِ، لِإدْخالِ مَا يُرِيدُونَ إدْخالَهُ من المعاني تزييفاً، ولإخراج ما يُرِيدُونَ إخراجَهُ من المعاني تحريفاً.

* * *

٢ ـ حول عقائد كفَّارِ العرب في جاهليتهم

ويخطئُ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنّ جميع العرب في جاهليَّتهم كانُوا يؤمنون بتَوْحيد الرُّبوبيَّة لله عزّ وجلّ، إلَّا أنَّهم يعبدون مع الله آلهةً أُخرىٰ فيجعلونها شركاءَ للّهِ في إلَهيَّته، دون أنْ يَجْعَلُوها شُرَكاء للّهِ في ربوبيّته.

- بيْدَ أنّ النُّصوص القرآنيَّة تبيّن أنّ أكْثَرَ الْعَرب كانُوا يَجْعلون مع الله شُركاءَ في بَعْضِ عناصر رُبُوبيّته، لا في كلّ عناصر ربوبيّته وصفاتها، وبسبب هذا كانوا يلْتَمِسُونَ من شركائهم الرَّحْمَةَ والرّزْقَ والنَّصر وكثيراً من مطالبهم في الحياة الدُّنْيا، وهم يُوجّهون عباداتهم لآلهتهم، طمعاً في أن يحقِّقوا لَهُمْ ما يَرْجون بمَعُوناتٍ غَيْبيَّةٍ، هِيَ من خصائص الرَّبّ الخالِقِ الذي بيده مقاليد كلّ شيء، وهُوَ علَىٰ كلّ شيءٍ قَدِير.

ومناظرة هؤلاء تكون بإقْنَاعهم بأنّ كُلَّ عناصِرِ الرّبُوبيَّةِ وصفاتها هي لله عزّ وجلّ وَحْدَه، ومنها الرِّزْقُ والنَّصْر وهِبَةُ الذّرّيّةِ الصالحة، وتحقيق أيّ مطلب من مطالب الحياة الدنيا بقُدْرَةٍ وَمَعُونَةٍ غيبيّة، فآلِهَتُهم الّتي يعبُدونها من دون الله عزّ وجلّ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ رزْقاً، ولَا تَسْتَطِيعُ أن تنصُرهم إذا اسْتَنْصَرُوا بها، ولا تكُونُ لهم عِزّاً، ولا تَهَبُهُمْ ذُرِّيَّةً يحبُّونها.

واعتقاد أنّها تفعل لهم شيئاً من ذلك هو شِرْكٌ ببعض عناصر الرُّبوبيّة، الّتي ليس شيءٌ منْها لغير الله عزّ وجلّ، وسبحانَهُ وتعالى عمّا يصِفُون.

وسيأتي شرْحُ هذا وتفصيله من خلال دلالات النصوص القرآنيّة إن شاء الله.

- وبعض العرب في جاهليّتهم كانوا يَعْبُدون آلهتهم على عادة آبائهم وأجدادهم، وتَطْغَىٰ على تَوَهّمَاتهم أنّ هٰذِه العبادة تَنْفَعُهم في أمور دنياهم.

ولدى إقامة الحجَّةِ عليهم بأنّ آلهتهم الّتي جعلُوها شُرَكَاءَ لله جلّ جلاله، لا تَمْلِكُ لَهُمْ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا حَجْبَهُ، ولا دفْعَ ضُرٍّ ولا إنْزالَهُ بهم، ثم حينما لا يَجِدُونَ جواباً مقنعاً لأولي الألباب، يقولُون: ما نَعْبُدُهم إلّا ليُقَرّبُونا إلى اللّهِ زُلْفَىٰ، أو ليكونوا شُفعاءَنا عند الله.

ومُنَاظرةُ هؤلاء تكونُ بمطالَبَتِهِمْ بنَصّ صحيحٍ عن الله عزّ وجلّ صاحِب الحقّ الأوْحَد في العبادة، يأْذَنُ لهم بأنْ يَعْبُدواْ آلِهَتَهُم، ويُبَيّنُ لهم أنَّ عبادتهم لآلهتِهِمْ تُقَرّبُهُمْ إلى الله زلْفَىٰ، أو يكونُون بها شُفَعَاءهم عند الله، حتى يكونَ لديْهِمْ من اللّهِ برهانٌ يحتَجُّونَ به عند الناس، ويَعْتَذِرُون به عند ربهم.

- وبعض العرب في جاهليَّتهم كانُوا دهريّين، يتَوَهَّمُونَ أنّ الكون أزليٌّ أبَدِيٌّ لا أوّلَ لَهُ ولا آخر، ولا تُوجَدُ حياةٌ أخرى غيْرُ هٰذه الحياة

الدُّنيا، ويَرَوْنَ أنّ التغيُّراتِ في الكون ترجعُ إلى أسباب تتولَّد فيه بمرور الزمن، ويَرَوْن أنَّ هلاكَ النّاس (أي: موتهم) يحْدُثُ بمرور الزمن في إحداث التغيُّرات.

وهؤلاء قد اتَّخذُوا آلِهَتَهُمْ أَهْواءَهم، وأنْكرُوا اللّٰهَ واليوم الآخِر، وأبْعَدُوا عن تصوُّراتهم ضَرُورةَ العدْلِ في الوجود، وضَرُورة الحساب والجزاء، وقد عرض الله عزّ وجلّ عقيدتهم، وذكر مقالَتَهُم الدَّهرية، فقال تعالى في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ونظير هؤلاء الدّهريين السابقين في عقائدهم ومفهوماتهم الباطلات، دَهْرِيُّونَ آخَرُون مُعَاصِرُونَ، يُعْرَفُونَ بعنوان: «الملاحدة المادّيون».

وهؤلاء الملاحدة المادّيون يفترون على الحقائق العلميّة، فيدَّعُون أزلِيَّةَ المادّة، وأنّ التغيُّرَاتِ في الكون تنتج عن حركة ذرّات المادّة وأجزائها مع مُرُور الزمن، وما يَحْدُثُ فيها من مُصَادَفاتِ تلاقٍ وافتراقٍ بينها.

أمّا الماركسيُّون فيضيفُونَ إلىٰ هٰذه الفكرةِ أكْذُوبَةَ صِرَاعِ الأضْداد والمتناقضات في أجزاء المادّة. ويَزْعُمونَ أنَّ هٰذَا الصّراع ينتُجُ عَنْهُ نُشُوءٌ جديدٌ لكائناتٍ لم تَكُنْ فيما مضىٰ، وارتقاءٌ إلىٰ الأَحْسَنِ والأكْمَلِ في النَّاشئات الجديدات، ويفترُونَ على الحقائقِ العلميَّة، فيدَّعُونَ أَنَّ الحياةَ نَتِيجَةٌ طبيعيَّةٌ لتكوُّنِ أجْزَاء المادَّة بصورة خاصَّةٍ، ومع أَنَّ الواقع العلميَّ كذَّبَهُمْ في فِرْيَتِهِمْ هٰذِهِ وفي كلّ الدوائر العلميّة في العالم، إلّا أَنَّهم ما زالوا يُصِرُّونَ علىٰ الأَخْذِ بفكْرَتِهِمْ مبدأً فلْسَفِيًّا، ولو كان الواقع الكونِيُّ علىٰ خلافه.

٣ ـ الربوبيّة هي الأَسَاسُ العقْلِيُّ الّذِي تُبْنَىٰ عليه الإلَهيّة

من كانت له رُبُوبيَّةٌ مَا، فَمِنْ حَقِّهِ على مَرْبوبيه أن يؤلِّهوهُ، أي: أن يَعْبُدوه على مقدار ماله من ربُوبيّة.

إنَّ حَقَّ الإلَهيَّة يستَنِدُ عقلاً إلى ما للإلَه المعبُود من رُبُوبيَّة، ومَنْ ليْسَ له رُبوبيَّةٌ ما، فتوجيه العبادة له ظُلْمٌ عظيم لحقِّ من له الرُّبوبيّة.

إذا كان إنسَانٌ ما مَمْلُوكَ الذَّاتِ أَو مَمْلُوكَ الوقْتِ والطّاقاتِ لمالكٍ ما، يُنْفِقُ عليه ويُقَدِّم له كلّ حاجات حياته، فوجَّه هذا المملوكُ طاعَتَه وخَدَماتِه كُلَّها أو بعْضَها لغَيْرِ مَالِكِهِ، دُونَ تكليفٍ أَوْ إذْنٍ من مالكه، أفلا يكونُ ظالماً ظُلْماً عظيماً لحقِّ مالكِهِ عليه.

بأيّ حقٍّ يَتَصَرَّفُ هٰذَا المملوك حينما يبْذُلُ مَا هُو حقٌّ لمالِكِهِ، فيُوجِّهُه لمَنْ جعَلَهُ هو كذِباً وزوراً نِدّاً لمالكه، أو شريكاً له؟!

إنّ أَحَدَنَا لَيَسْخَطُ سخطاً عظيماً من أجيرٍ عنده، يأخُذُ مِنْهُ الأجْرَ، ثُمّ يَرَىٰ أنّ أجيره يَبْذُلُ طاقاتِ عَمَلِهِ لغَيْرِه، ويَزْدَادُ سَخَطُنَا إذا جَعَلَ من يَبْذُلُ طَاقاتِ عَمَله له نِدًّا لَنَا أو شريكاً، وهذا النِّدُّ أو الشّريكُ لا ينْفَعُ أجيرَنَا بشيْءٍ، فلَا يَجْلُبُ له نَفْعاً، ولا يَدْفَعُ عَنْهُ ضرًّا، وليس لدَيْه حَوْلٌ ولا قُوَّةٌ حتَّىٰ يَخْشَىٰ ضُرَّهُ أو بأْسَه.

هذا مثال اتّخاذ إلَه أو آلهةٍ من دُون الله، تُعْبَدُ كَعِبَادَةِ الله، على سَبيلِ الانفراد أو على سَبيلِ المشاركة.

إنَّ الرُّبوبيَّةَ الْمُمِدَّة بعطاءاتها دواماً هي لله وحده لا شريكَ له فيها، ومن حقِّ رُبوبيّتِه لَنَا ولسائر الكائناتِ من دُونه، والتفرّدِ بها، أن نَجْعَلَهُ هو الإلَه المعبود فقط، وأنْ لا نَتَّخذَ من دونه إلَهاً آخرَ أَوْ آلِهَةً أُخْرَىٰ، لأَنَّهُ هو المالك لَنَا بمقتضى ربوبيّته، وهو الآمر الناهي الملِكُ ذو السُّلْطان الأوحد.

إنّ الله عزّ وجلّ هو مانِحُ الوجود لكل مَوْجودٍ سواه، وهو مانِحُ الحياة لكلّ حيٍّ سواه، وهو المِدُّ بالبقاء لكلّ باقٍ في الوجود سواه، وقد جعل لمخلوقاته آجالاً معلومة له ومُسَمّاةً عنده، وهو الرزّاق، وهو المميت، وهو القابض والباسط، وهو المحاسِبُ والمجازي بالفضل أو بالعدل، وهو المتصرّفُ دواماً في كلّ ذرّة من ذرّات الموجودات كلّها، وفي كلّ جزءٍ زمنيٍّ يمُرُّ بها.

وهو جلّ وعَلَا الّذِي خلَقَنا لِيَبْلُوَنا في ظروف الحياة الدنيا، وصُوَرُ امتحانه لنا ترجع إلى القواعد التالية:

القاعدة الأولى: الإيمان بالله رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيته، إذْ لَا رَبَّ في الوجود غَيْرُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالَهُ، لا على سَبيل الانْفِرَاد، ولا على سبيل المشاركة.

فالإيمانُ بأَنَّ الرَّبَّ في الوجود واحِدٌ هو اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ، اعْتِرافٌ بالحقّ، وإِذْعَانٌ له.

وإِسْنَادُ الرُّبُوبيَّةِ كُلِّها أو جُزْءٍ منها إلى غير اللَّهِ عزّ وجلَّ أَمْرٌ باطل، وهو في الحقيقة كُفرٌ بالله، ومِنْ هذا الكُفْرِ اعْتِقَادُ تَأْثير الأَسْبَابِ تأثيراً ذَاتِيًّا في مُسَبَّبَاتِها، من دُونِ خَلْقِ اللَّهِ وقضائِهِ وقَدَرِه.

القاعدة الثانية: الإيمانُ بأَنَّ الله عزَّ وجلَّ هُو وَحْدَهُ الإلَٰه المسْتَحِقُّ للعبادة، لأَنَّهُ هُو وَحْدَهُ الرَّبُّ المتصرّفُ في الكائناتِ ابتداءً ودَواماً حتَّىٰ غايات آجالها في الوجود.

وهٰذه القاعدة مبنيَّةٌ بناءً عقْلِيًّا مَنْطقِيًّا على القاعدة الأولى، فَهِي تُمثّل اللّازم الفكْرِيَّ الْأَوَّلَ لَكَوْنِ الله جلَّ جَلالُه هُوَ الرَّبَّ الّذي لا رَبَّ في الوجود سواه.

وإِذْ لا يُوجَدُ أَحَدٌ في الوجود كُلّه يشارك الله تبارك وتَعالىٰ في كلّ

عناصر رُبُوبيَّتِه أو في بَعْضِها، مهْمَا قلَّتْ وضَؤُلَتْ، فإنّه لَا يُوجَدُ أَحَدٌ سَوَىٰ اللَّهِ عزّ وجَلّ يَسْتَحِقُّ أن يكون إلٓهاً يُعْبَدُ، لا على سَبِيلِ الانفراد، ولا عَلَىٰ سبيل المشاركةِ للَّهِ سُبْحَانَهُ في إلٓهيَّتِه، لأنّه هو المالك الأوحد لمخلوقاته، وهو الملك ذو الأمر والنهي والسلطان.

هٰذه قضيَّةٌ عقليَّةٌ لَا يُخَالفُ فيها إلَّا جاهِلٌ، أَوْ أَحْمَقُ، أو ضِلِّيلٌ زِنْدِيق.

القاعدة الثالثة: إعلانُ الموضُوعِ مَوْضِعَ الامتحان في الحياة الدُّنيا، أَنَّهُ «لَا إلَهَ إلَّا الله» وهذا الإعلان هُو التعبير عن الإيمان بما جاء في القاعِدَتَيْنِ الأولَىٰ والثانية، وهو تعبير واجبٌ على من استطاعه، فَمَنِ اسْتَطَاعَهُ ولم يفْعَلْهُ فهو مُسْتنِكفٌ عن الاعْتِرافِ جاحِدٌ، متأثِّرٌ بدافعِ خبيثٍ من دوافع النَّفْسِ والْهَوَىٰ.

ولا بُدَّ أنْ نُدرِكَ أنّ عبارة التوحيد «لا إلَه إلَّا الله» تسْتَلْزِمُ عقْلاً سَبْقَ الإيمانِ بأَنَّهُ لا رَبّ إلّا الله، فعبارة (لا إلَه إلّا الله) تتضمّنُ باللُّزُوم الفكريّ الإعلانَ بأَنَّهُ لَا رَبَّ إلّا الله.

وهذا نظير مَنْ أعلَنَ أنّه ابْنُ فاطِمَةَ بنت رسول اللَّهِ ﷺ، فإنّ كَلَامَهُ هذا يتَضَمَّنُ الإعْلانَ بأَنَّهُ حَفِيدُ رسول الله ﷺ، إنّ هَذَا يُفْهَمُ باللُّزُوم العقْلِيّ حَتْماً، فلا حاجَةَ إلىٰ التصريح به، والتصريح به فُضُولٌ مِنَ القولَ.

القاعدة الرابعة: إعْلَانُ الطَّاعة على مقدار الاستطاعة، ومن المعلوم بداهَةً أنّ الطاعَةَ للَّهِ مِنْ أوّل عَنَاصِرِ عبادته.

القاعدة الخامسة: تقديمُ الدّليل العمليّ الدّالّ على صِدْقِ إعلان الطاعة، بأداء من أعلن طاعته عباداتٍ نفسيَّةً وجَسَدِيَّةً خالِصَةً لله وحْدَه لا شَرِيكَ له، فيكون بأدائه هذه العبادات قد كَسَبَ بإيمانه خيراً ما.

بتحقيق هذه القواعد الخمس يتِمُّ النجاح للممتحنين في ظروف الحياة

الدنيا، والخلاص من رذيلَة الكُفْرِ، الّذي يُعْتَبر الإشراكُ بالله في إلَهيَّتِهِ أولَىٰ دركاتِهِ وأخفها جُرْماً، وتنْحَدِرُ مِنْ دُونِها الدَّرَكَاتُ، حتَّىٰ دَرَكَةِ إنكار رُبوبيَّةِ اللَّهِ عزّ وجلّ إنْكاراً كُلِّيًّا، على اختلاف ذرائع الإنكار، ودوافِعِه في النفس.

ومن أراد أن يَرْقى في الدرجات ليسْتَحق النجاة من عذاب الله، فعلَيْهِ أن يَسْتَكْملَ حقوقَ مرتبة التقوى بأداء الواجبات وترك المحرّمات.

ومن أراد أن يَرْقَى فوق دَرجات مَرْتَبَةِ التقوىٰ، ليستحقّ الرُّقِيَّ في دَرَجات الجنَّةِ الصاعدات، بفِعْلِ القربات والصالحات من غير الواجبات، وبترك المكروهات وغير المستحبّات من غير المحرّمات، فليستكثِرْ من أعمال البرّ، صاعداً في درجات الأبْرار.

ومن أرادَ أن يَرْقَىٰ فَوْقَ دَرَجات البرِّ، ليستَحِقَّ في الجنَّةِ منازِلَ المحسنين، فلْيَعْبُدِ اللَّهَ كأنَّهُ يَراه، وبهٰذه العبادة يَرْتَقِي في دَرَجَات الإحْسان، الَّتِي يَحْتَلُّ قِمَمَهَا المرسَلُونَ والأنْبَياءُ والصالِحُون الْمُحْسِنُون، بحَسَب دَرَجاتِ إحسانهم، في رِحْلَة امتحانِهِمْ في الحياة الدنيا.

هذا ما تَسْتَدْعيه الحكمةُ العظمىٰ، من خَلْقِ الناس ممتحنين في ظروف الحياة الدنيا.

* * *

٤ ـ منهج القرآن في إثبات الربوبيَّة لله عزّ وجل وحْدَه

مُتَتَبّع النُّصُوص القرآنيَّة يُلاحِظُ أنّ منهج القرآن الكريم في إثْباتِ أنّ الله عزّ وجلّ ربُّ السَّماوات والأرض ورَبُّ كلِّ شيْءٍ في الكائنات الحادثات، خلْقاً وإمْدَاداً وتَصرُّفاً دواماً، وفي إثبات أنّه واحدٌ في ربوبيَّته لا يُشَاركه فيها أحَدٌ، يعْتَمَدُ على توجيه أنظار المتفكّرين للنظر في آياتِ الله

في أنفُسِهم، وفي آياته في سائر الأكْوَان في السماوات وفي الأرض وفيما بَيْنَها، إذْ جعل الله عزّ وجلّ في كلِّ شيءٍ خلقَه آياتٍ تدُلُّ علَىٰ أنّ له ربًّا يتَصَرَّفُ فيه بربوبيته دواماً، وتدُلُّ علَىٰ أنَّ هذا الرّبّ للكائنات كُلِّها واحدٌ لا شريك له.

إذْ لو تعدَّدتِ الآلِهَةُ الأرْبابُ في الكَوْنِ لفَسَدَتِ الكائنات في السماوات وفي الأرض وفيما بينها، إذْ هي خاضِعَاتٌ جَمِيعُها لنظام واحدٍ، من أصْغَرِ ذرَّةٍ فيها إلى أكْبَر مجرَّةٍ.

إنَّ تكوين الكائنات في الوجود كلِّه سِوَىٰ اللَّهِ يَدُلُّ على أَنَّ لَهَا خَالقاً ابتدأ إيجادَها، وهو ربُّها الذي يُمِدُّها بالبقاء دواماً، ويتصرَّف فيها دواماً بحِكْمَتِه على ما يشاء، ضِمْن صِفَات ربُوبيَّتِه لها، ذوات الآثار المختلفات، إيجاداً أو إعداماً، زيادةً أو نقصاً، عطاءً أوْ منْعاً، بسْطاً أو قبضاً، نفعاً أو ضرًّا، إلىٰ غير ذلك ممّا يجري فيها من أحداثٍ وتغيُّرات.

والنصوص القرآنيَّةُ المشتملة على هذا المنهج إجمالاً وتفصيلاً كثيرة جدًّا، ولعلّها تُعَادِلُ رُبْعَ القرآن الكريم أو أكثر.

* * *

٥ ـ منهج القرآن الكريم للإقناع بتوحيد الإلَهيَّة لله عزَّ وجَلّ

لَمَّا كانَت الإلَهيَّةُ هي اللّازم العقليّ المباشِرَ للرُّبُوبيَّة، وكانَتِ الرُّبوبيَّةُ في الوجود كُلِّهِ للَّهِ وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ فيها، وجَبَ عقْلاً وُجوباً حتميًّا أنْ تكُونَ الإلَهيَّةُ خاصَّةً باللَّهِ وحْدَهُ، لا يُشارِكُهُ فيها أحدٌ، كما سبَقَ بيانُ هذا.

ومن أجْلِ هٰذِهِ الحقيقَةِ كان منْهَجُ القرآن الكريم، للإقناع بتوحيد الإلَهيَّةِ لله وحْدَهُ لا شريك له، يعْتَمِد على تذكير ذوي الفكر بتوحِيدِ

الرُّبوبيَّة للَّهِ عزّ وجلّ، وأنَّه لَا شريك له في رُبُوبيّته، أو على تَنْبِيهِهم على هذه الحقيقة، ويَعْتَمِدُ في بَعْضِ النُّصوصِ على اسْتِئْنافِ عَرْضِ أَدِلَّةٍ تُثْبِتُ أنَّ الرُّبوبيَّةَ في الوجود كُلِّه للَّهِ وَحْدَهُ لا شريك له، وَتُرَاعَىٰ في هٰذَا التَّنْوِيع مُقْتَضَيَاتُ أحوالِ المخاطبين إبَّانَ نُزُولِ النَّصّ.

- فَقِسْمٌ من المخاطَبِين يكْفِي بالنِّسْبَةِ إليهم التذكير.
- وقِسْمٌ آخَرُ يحْتَاجُ إِلىٰ تَنْبيهٍ لأنّه مستغرقٌ في غَفْلَتِه.
- وقِسْمٌ ثالِثٌ يحْتَاجُ إلى اسْتِئْنَافِ عرض طائفةٍ من الأدلة عليه، ومناظرته مُنَاظَرَةً عقليَّةً علميَّةً مُقْنِعةً، أَوْ مُلْزِمَةً، أو مُفْحِمَة.

وسيأتي إن شاء الله لدى استعراض وَتَدَبُّر النُّصُوصِ القرآنيَّةِ، المبيِّنَةِ لهذا المنهج القرآنيّ، ما يكشف حِكْمَةَ هٰذَا المنْهَج، ويكْشِفُ وجُوهَهُ التذكيريَّة والتَّنْبيهيَّة والإقناعيَّة لأهْل التفكّر والتدبُّر.

ولا يطْمَعَنَ مُمَاحِكٌ مُجَادِلٌ بالسَّفْسَطَاتِ، في أَنْ يَجِدَ دليلاً واحداً عَلَىٰ توحِيدِ الإلَٰهيَّة للَّهِ عَزَّ وجلَّ، غَيْرَ دَلِيلِ إثْباتِ توحِيدِ الرُّبوبيَّةِ له، ثُمَّ يَنْتَقِلُ مُبَاشَرَةً إِلَىٰ بيان أنّ اللَّازِمَ العقْلِيَّ الحتْمِيَّ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبيَّةِ، هو توحيدُ الإلَٰهيَّة لِمَنْ هُوَ الرَّبُّ الّذي لَا شريكَ لَهُ في رُبوبيَّته.

إنّ المشْرِكين قد اتَّخذُوا آلِهةً يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله، فهٰذِهِ الآلِهَةُ المعبودة مَوْجودَةٌ في الواقع، ومُمَثَّلَةٌ عِنْدَ المشركين بتماثيل، ولا يُسْتَطَاعُ نَفْيُ وُجودِها، لكنَّها ليْسَتْ في الواقع أرْبَاباً، ولَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ في رُبُوبيَّته، ولَا أَذِنَ اللَّهُ بعِبَادَتِهَا تَقَرُّباً إِلَيْهِ، بَلْ نَهَىٰ عَنْ عبادَتِهَا نَهْياً يُوقِعُ مخالِفَهُ في الشِّرْكِ، الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وقد بَعَثَ اللَّهِ بِهِ كُلَّ الرُّسُلِ، وأَبَانَهُ في كُلِّ ما أَنْزَلَ مِنْ كِتَاب.

* * *

ثانياً: معنى الربوبيّة:

الرُّبوبيّة: اسم مصوغ للدّلالة على الصفات التي يتَّصِفُ بها الرب الخالق جلّ جلاله، أي: الصفات التي تُفهَمُ من معنى كَونِه رَبّاً كما سيأتي في معنى كلمة «الرّبّ».

الرَّب: كلمة هي في الأصل مصدَرُ فعل «رَبَّ». يُقال لغةً: ربَّ فلانٌ الولَدَ أو الصبِيَّ أو المُهرَ مثلاً يَرُبُّهُ رَبّاً. كما يقال: رَبَّاه يُربيّهِ تربيةً. وكما يُقالُ: ربَّبهُ يُرَبّبُهُ تربيباً.

فكلمات: «الرَّبّ ـ والتربية ـ والتَّرْبِيب» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِها ومعناها واحد، وهو الإنشاء المتدرّج للشيء حيّاً كان أم غير ذي حياة، وتَعَهُّدُ الشيءِ حالاً فحالاً، وطوراً فطوراً، بحسب فطرته واستعداداته، فيشمل هذا التعهُّد بعموم معناه التغذيَةَ، والتنمية، والإرشاد، والإصلاح، والتقويم، والحفظ، والرعاية، والتأديب، والتهذيب، والتعليم إذا كان المُربَّى يحتاج تأديباً أو تهذيباً أو تعليماً، ويشمَلُ الإمداد المستمرّ بما يحتاج إليه لبقائه وسلامته، إلى غير ذلك من مفاهيم يدركها الباحثون في مجالات التربية والتعليم.

وهذه التربية تتناول الأحياء والنباتات والأشياء غير ذات الحياة، من كلّ ما يحتاج لبقائه أو سلامته تعهُّداً وإمداداً، أو رعاية وحفظاً.

ثم استعيرت كلمة «الرّبّ» من المصدريّة إلى اسم الفاعل، فصارت تطلق كلمة «الرب» بمعنى «المُربّي».

ونظراً إلى معنى التربية ولوازمها أطلقت كلمة «الرّب» في لسان العرب على معانٍ كثيرة، منها: «المَلِك ـ الأمير ـ السيّد المطاع ـ مالِكُ الشيء أو مستحقه (فَرَبُّ كل شيء مالكه أو مستحقه) ـ المدبّر ـ القيّم ـ المُنعِم ـ المُصلِح للشيء ـ المنمّي للشيء» إلى غير هذه المعاني ممّايشبهها وتدخُلُ ضمن المفهوم العامّ للتربية.

ولمّا كانت التّربية الحقيقية لكل شيءٍ في الوجود سوى الله عزّ وجلّ، سواء بخلقه ابتداءً أم بمتابعة بقائه وإمداده ورعايته وتنميته دواماً صفةً من صفات الله عزّ وجلّ كان سبحانه هو رَبّ العالمين، ورَبّ كل شيء.

ولهذا جاء وصفُهُ في القرآن المجيد بأنه: «رَبُّ العالمين - ورَبُّ كُل شيءٍ - وربُّ السماوات والأرض - ورَبُّ السماوات السَّبع وربُّ العرشِ العظيم - ورب الشِّعْرَى (نجم كان يُعبَدُ في الجاهلية) - ورب المشرق والمغرب - ورب المشرقين والمغربين - ورب المشارق والمغارب - وربُّ الفَلَق - وربُّ الناس - وربُّ البيت (أي: الكعبة المشرفة)».

فالرّبوبية هي الوصف الجامع لكلِّ صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته، واسم «الرَّبّ» هو الاسم الدّالّ على كل هذه الصفات.

وهنا نلاحظ أن الله جل جلاله قد اختار بعلمه وحكمته لعمليات خلقه وإبدّاعه لمخلوقاته، وهيمنته على كل ما خَلَق بدءاً ودَواماً أن يكون على نظام التربية التي سبق شرح معانيها، لا على نظام الخلق دفعة واحدة، ثُمَّ ترْكِ المخلوقِ يسير وفق البرنامج الموضوع له، دون إمداد ورعاية وحفظ وتعهُّدٍ من خالقه، بل خلَقَ الخلْقَ وفق نظام لا يستغني فيه المخلوق عن خالقه طرفةَ عين، ولا أقلّ من ذلك، في كلّ صغير وكبير من ذاته ومن صفاته، فلو رفع إمداده عن كونه وإمساكَهُ له في الوجود خلال أقصر زمنٍ لَعادَت الموجوداتُ إلى أصلِها وهو العدم، هذا النظام هو نظام التربية، فلِلَّهِ عزّ وجلّ الرّبُوبية المستمرة التي لا تنقطع، والمؤثرة بكل شيءٍ في الكون من غيبيّ ومشهود، مادّيّ ومعنوي.

دلّ على هذه الحقيقة قول الله عزّ وجلّ في سورة [فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول]:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾.

فالله عزّ وجلّ في رُبُوبيّته لكَوْنِه المستمرّة بلا انقطاع لا تأخُذه سِنَةٌ ولا نومٌ، فلا يخرج عن علمه وهيمنته وسلطانه وكل عناصر ربوبيته صغير في الوجود مهما صَغُر، وكبير مهما كبُر وعظم.

ولهذا فالله وحده هو ربُّ العالمين، وربُّ كُلِّ شيء، وهو المالِكُ والمَلِكُ، والسيّد الذي يجب أن يُطاع، والإله المستَحِقُّ أن يُعبَد دُونَ سواه.

فإذا أُطْلقت كلمةُ «الرّبّ» لم يجز أن يُراد بها غير الله عزّ وجلّ.

ولملاحظة معنى الخلق والتربية المستمرة في كلمة «الرّبّ» جاء معنى كون الله مَلِكاً للناس، ومعنى كونه إلَهاً للناس بحُكمِ المُرَتبين على معنى كلمة «الرّبّ» في سورة [الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول] فقال تعالى فيها:

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾.

فمن كان هو الرب كان هو المَلِكَ وكان هو الإلَه حتماً.

أسماء الله الحسنى التي تدلُّ على عناصر ربوبيّة الرب جلّ جلاله.

إن صفات رُبُوبيّة الرّبّ جلّ وعلا تدلُّ عليها أسماء الله الحسنى ذوات التعلّق بشيء من الكون ضمن مفهومٍ ما من مفاهيم التربية، كالأسماء التالية:

«الخالق، الرازق، الرحمن، الرحيم، الملك، المهيمن، العزيز، الجبار، البارئ، المصور، العفو، الغفار، الغفور، القهار، الوهاب، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض الرافع، المعزّ المذلّ، السميع البصير، الحكَم العدل، اللطيف الخبير، الحليم الصبور، الحميد الشكور،

الحفيظ، المغيث، الرقيب، الحسيب، المُجيب، الحكيم، الودود، الباعث، الشهيد، الوكيل، الوليّ، المحصي، المبدئ المعيد، المحيي المميت، القادر المقتدر، المقدّم المؤخر، البَرُّ، التوّاب، المنتقم، الرؤوف، مالك الملك، المقسط، الجامع، المانع، المغني، الضارّ النافع، الهادي البديع».

هذه الأسماء وأشباهها تدخل تحت مفهوم كلمة «الرَّبّ» لأنّ الله عزّ وجلّ يتصرّف بمخلوقاته ويعامِلُها من خلال اتصافه بما تدلُّ عليه هذه الأسماء الحسنى، فربُوبيّتُه لها تشتمل على كلِّ معانيها.

فبكَوْنه جلّ وعلا رَبّاً خالقاً يَخْلُق وفق نظام التربية الذي اختاره لعمليّات خلقه، وبكوّنِه رباً رَازقاً يُمِدّ مخلوقاته بأرزاقها، وبكونه رَبّاً رحماناً رَحيماً يعامل مَرْبوبيه برحمته، وهو بسلطانه على مربوبيه مالِكُهُمْ ومَلِكُهُمْ والمهيمن عليهم، وهو بكونه رَبّاً خالقاً لا بد أن يكون قادراً مقتدراً عزيزاً يفعل ما يشاء ويختار، وهو بكونه رَبّاً يغفر ويعفو عن المذنبين، ويراقب ويحاسب، ويحكُمُ بالعدل وينتقم، ويجيب سؤال السائلين، ويحيي ويميت، ويبعث ليوم الحساب.. وهكذا إلى سائر الأسماء التي تقتضيها مفاهيم رُبوبيّته لخلقه جميعاً.

وبهذا ظهر لنا أنّ الرُّبوبيّة التي تَدُلُّ عليها لفظة «الرَّب» إحدى أسماء الله الكلية العامة، التي تنضوي تحتها أسماءٌ حُسنى كثيرة، هي الصفة التي تجعل من تتعلَّقُ به عَبْداً.

فالإنس والجنّ والملائكة وكلُّ كائنٍ حيٍّ مُدْرِكٍ جميعُهُمْ عِبادُ الله، مملوكونَ له، مُحاطُونَ إحاطةً شامِلَةً برُبوبيَّته جلّ وعلا.

* * *

ثالثاً: معنى العبودية:

العبد: في اللغة هو الرقيق المملوك، ومن المعلوم بداهةً أنّ من حقّ المالك على العبد الرقيق المملوك أن يقوم بخدمته، وأن يطيع أوامره ونواهيه.

فالعبودية في مفاهيم الناس تقتضي حقّ المالك على مملوكه بأن يقوم بخدمته على مراده، ويُطيعَه في أوامره ونواهيه وكلّ مطالبه منه، مما يستطيعه.

ولمّا كان الناسُ جميعاً مخلوقين لله، ومربوبين له دواماً، كانوا جميعاً مملوكين له، فيجب عليهم بداهةً طاعتُهُ في أوامره ونواهيه، والتقرُّب إليه بمحابّه ومراضيه، لحقّ الْمِلْكِ، وحَقِّ الإمداد بالنّعم الكثيرة الظاهرة والباطنة التي لا تنقطع ما داموا في الحياة، وفي الوجود ولو بعد انفصال الروح عن النفس والجسد.

هذه مفاهيم أوّليّة عامّة لمعنى العبودية، فإذا دقّقْنا النظر وجدنا أن من البَدَهيِّ أن يكونَ المخلوقُ عبداً مملوكاً لخالقه، فيكون به إذا كان لا بقاء لذاته ولا لصفاته إلّا بإبقاء الخالق الربّ له في الوجود، ولا قُدرةَ له ولا حول إلّا به، ولا رزق ولا صحة ولا حياة ولا أمنَ إلّا بإمدادٍ منه، ولا عِلمَ ولا فَهمَ له إلّا بعطاءات الله له ومعونته، وهكذا إلى كلِّ خليّة من خلاياه، وكلّ حركة ظاهرة أو باطنة من حركاته، وكل خاطرة من خواطره، وعاطفة من عواطفه ولذّة من لذّاته.

إنّ رُبُوبيّة الله لنا لم تَدَع فينا ذرّةً من الذّرات المادّيّة والمعنوية ولا أصغر خارجةً عن سُلطانِها ومَدَدِها وعطاءاتها وسائر وجوه تربيتها، في كلِّ لحظة من لحظات وجودها.

وعلاقة الأكوان كلّها بالله عزّ وجلّ هي علاقة مَرْبُوبٍ برَبٍّ، ولكلّ

مَرْبُوبٍ من هذه الأكوان علائقُ عبودية جبْريّة موصولةٍ بأسماء الله الحسنى ذوات التأثير فيه من عموم الأسماء التي تدخل تحت مفهوم الرَّبّ.

* * *

العبودية الجبرية والعبودية الاختيارية

من أصول المفاهيم الاعتقادية في ركن القضاء والقدر، أحَدِ أركان الإيمان، أنّ الناس في حياتهم واقعون ضمن نوعين من خطوط حركة الوجود والحياة:

النوع الأول: ما هم فيه مجبورون لا سلطان لإراداتهم عليه مطلقاً، وهو خارجٌ عن حدود مسؤوليّاتهم التكليفيَّة والجزائية، مثل: «أصل وجودهم، نموّ أجسادهم، حركة خلاياهم، القبض والبسط في قلوبهم، الأعمال العجيبة المدهشة التي تقوم بها أجهزة الكبد والطحال والرئة والكلى والأَمعاء والأعصاب، وغير ذلك».

فكلُّ ما يجري للناس أو على الناس مما يحبّون أو ممّا يكرهون ضمن خطوط هذا النوع يتمّ دون توسُّط إراداتهم فيه، وهو يخضع لسلطان قضاء الله وقدَرِه بصورة مباشرة، ولو كان بعضه استجابة من الله عزّ وجلّ لدعاء عباده، أو تربيةً وتأديباً، أو ابتلاءً لهم، أو جزاءً بثوابٍ أو عقاب، إذْ إرادة العباد لا تملك منه شيئاً، بل هو يَتِمّ بتقدير الله وتدبيره وقضائه وخلقه.

والناس في هذا النوع عبيدٌ لله الرَّبّ جلّ جلالُهُ عُبوديةً جبريةً، كسائر الكائنات المجبورة في الكون التي لا تملك في مسيرتها في الوجود إرادةً ما.

النجوم والكواكب والمجرّات تسير مسيراً جبرياً، والذرّاتُ في

حركاتها تسير مسيراً جبرياً، والخلايا في الأجساد تسير مسيراً جبريّاً، والنباتات على اختلافها نماءً وذُبُولاً ونهايةً تسير مَسيراً جبرياً، والأحياء غير المريدة تسير ضمن غرائزها مَسيراً جبرياً، وقوانينُ الطبيعة في كل عناصرها تسير مسيراً جبريّاً.

وليس شيءٌ في الوجود يسير في حركاته مَسيراً جبرياً هو مسؤولٌ عما هو مجبورٌ فيه، لا عند خالقه، ولا في مفاهيم أيّ ذي فكر يُدرِكُ حقائق الأمور، ويفهَمُ حدودَ المسؤوليات.

ولا يستطيع الكائن المجبورُ التحرُّرَ من عبوديته الجبرية بِوجْهٍ من الوجوه.

النوع الثاني: ما يكون الناس فيه ذوي إراداتٍ حُرَّة، ويكون لإراداتهم سلطانٌ عليه بتقدير الله، كالأعمال والحركات الظاهرة والباطنة التي إذا أرادوا عَمِلُوها وإذا لم يُريدُوا لم يعمَلُوها.

مثل حركات الأيدي والأرجل في أفعالها الإرادية، وفتح الأجفان وغَمْضِها بالإرادة، وشُرْب الشراب وأكل الطعام ونُطْقِ الكلام بتوجيه الإرادة، ومثل توجيه التفكير لبحث موضوعٍ ما، وتوجيهِ النفس إرادياً لمحبَّةِ شيءٍ ما، أو كراهيةِ شيءٍ ما، وعَقْدِ نيّةٍ وتحديد قَصدٍ من عمَلٍ ما بحركةٍ إراديّة داخلية، إلى غير هذه الأشياء مما يخضع لسلطان الإرادة التي مَنَحها الخالق بتقديره وقضائه حُرّيَّة اتخاذِ مُرادٍ ما من احتمالين فأكثر يستطيع الإنسان أن يختاره ويُحدِّده ويعمل لتحقيقه.

وبعد تحديد المُراد يجدُ الإنسانُ وسائل مسخَّرةً مختلفة في ذاته وفي الكون من حوله، قد سخّرها الرَّبُّ بتقديره الحكيم وقضائه النافذ لذوي الإرادات الحرَّة، حتى يتَّخِذُوا منها ما يُحققون به مراداتهم.

هذه المسخّرات في ذات المخلوق الحي المريد، وفي الكون من

حوله قد سخّرها له العليم الحكيم القدير الربُّ جلّ وعلا بقضائه وقدره، ليمتحنه في ظروف الحياة الدنيا، فهي تُطيعُه بخلق الله وتقديره ضمْنَ قوانينها وأنظمتها، إذا أحْسَنَ اسْتخدامَ مَفاتيحِها التي جعلها الله لها، وأحسنَ جمع العناصر التي تحتاج جمعاً وتأليفاً لتحقيق الغاية منها، وأحسنَ تفريق العناصر التي يتطلّبُ تحقيقُ الغاية منها تفريقاً.

مثلاً: من أحسَنَ استخراج النِّفْط وتصفيته وتمييز بعضه من بعض، وأحسن صنع المكنات الحديدية الآلية، وأحسن استخدامها، وأحسن استخدام كثير من الموادّ المختلفة في الكون لصناعة طائرة، وأحسَنَ قيادتها، طارت به في الجو بقضاء الله وقَدَرِه إلى حيثُ يُريد.

فمِنْحَةُ الإِرادةِ الحرَّة، وتسخيرُ المسخّراتِ، قد كانا ـ بمقتضى حكمة الرب العليم القدير الحكيم ـ لغاية امتحان الإنس، وكذلك الجنُّ في ظروف هذه الحياة الدنيا، وبعد الامتحان يكونُ الحسابُ وفَصْلُ القضاء، ثم الجزاء بالعدل أو بالفضل، في ظروف حياةٍ خالدةٍ لا نهاية لها ولا فَناءَ فيها.

وهنا نتساءل: ما هو المطلوبُ من الممتحَنِ في رِحْلةِ امتحانه خلال المدَّة المقدَّرة لبقائِه في الامتحان، وهي الزمن المقرَّر لتكليفه من عُمْره المقدَّر له في الحياة الدُّنْيا؟

والجواب: أن يحقق عبوديّته الاختيارية لربِّهِ فيما مَنحَ إرادتَهُ الحُرّةَ من سُلطةٍ على المسخَّراتِ له في ذاته، وفي الكون من حوله.

وهذه «العبودية الاختيارية» هي التي دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة [الذّارِيات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول]:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

فبالعُبُوديّة الاختيارية يحقِّقُ العبدُ الممتحَنُ بإرادتِهِ أنه أهلٌ لما

منحهُ الله من إرادةٍ حُرَّة، وما سخَّرَ له بتقديره وقضائه وخلقه من مُسخَّراتٍ تُطيعه في الكون، إذا التزم بقوانينها وأنظمتها الجبريّة، وأحسن استخدامَ مفاتيحها.

أما مَن رفضَ هذه «العبوديةَ الاختيارية» فإنه يكشف بما اختار لنفسه في رحلة امتحانه عن تمرّدِه واستكبارِه على ربه، بارئِه ومُمدِّه بعطاءات ربُوبيته، ويَدُلُّ بما اختار لنفسه من سلوك على أنه ظلومٌ جَهولٌ، ليس أهلاً للمِنْحةِ العظيمة التي منحه الله إيّاها، وهي مِنحةُ الإرادة الحرة، ومِنْحةُ التسلُّط على المسخّرات في ذاته وفي الكون من حوله، فحَسْبُه جهنَّمُ يُساقُ إليها يوم الدّين، مجبوراً مضطراً، لا قدرة له على دفعٍ أو رفْعٍ أو نجاةٍ، ولا يملِكُ صَرْفاً ولا عَدلاً، إذا لا قُدرة له على شيءٍ يصرف به عن نفسه العذاب، ولا على شيءٍ يَبذُلُ منه ما يُعادِلُ ما استحقَّ بظُلمِه من عذاب أليم خالد.

بهذا ظهر لنا الفرق بين العبودية الجبريّة للرب عزّ وجلّ وبين العبودية الاختيارية.

وللعبودية الاخيارية مراتبُ ودرجاتٌ لكل مرتبة، وكمال العبودية الاختيارية يتحقق حينما يكون العابد في المجالات التي هو فيها ذو إرادةٍ حُرّةٍ ذا أحوالٍ اختياريّة مشابهةٍ لأحوال المجالات التي هو فيها خاضعٌ للعُبوديّة الجبرية، حتى يظفر بأسمى درجات القُرْبِ من الرَّبِّ الجليل.

وتكون هذه العبودية بأن يُحقِّق العبد بإرادته الحرَّة معاني افتقاره لربوبية الربّ له، وخضوعِه لمالكيته، وذُلِّهِ لسلطانه، وطاعتِه لأوامره ونواهيه، وتقرُّبِهِ إليه بمحابّه ومراضيه على ما شرَعَ وأنزل على رسوله من تعاليم دينه الذي اصطفاه لعبادِه، ومُقابلةِ كلِّ صِفةٍ تتعلقُ به من صفات الربوبية بما يلائمها من صفات العبودية.

إن الرب الجليل الذي له كُلُّ كمالات الرُّبوبية دواماً يُدْني عبدَهُ إلى ممنازل القرب منه بمقدار ما يحقِّقُ العَبْدُ ضِمنَ مستطاعه من عُبوديةٍ اختيارية.

بهذا التحليل نُدرِك أن مُمارسةَ السلوك الإرادي في الأعمال الجسدية الظاهرة، والأعمال النفسية الباطنة، مما يُحقِّق معاني العبوديّة الاختيارية أو شيئاً منها هو ما يُسمى «عبادَةَ العبد لربّه».

خلاصة تعريف العبوديّة الجبريّة والعبوديّة الاختياريّة:

بعد البيان التحليليّ السابق نستطيع أن نُلخْص تعريفاً لكلٍّ من العبوديّتين:

العبودية الجبريَّة: كون الكائن الحي عبداً مملوكاً مَربُوباً لربّه، خاضعاً لتصاريف قضائه وقدره بالجبر، في كلّ ما يجري فيه مما يحبّ ومما يكره، من كلّ ما لا يتصرّف فيه العبدُ المملوكُ بإراداته الحرّة.

وهذه العبودية الجبرية لا مسؤولية على العبد في شيءٍ مما يحصُل بها وجوداً أو عدماً.

العبوديّة الاختيارية: هي السلوكُ الإراديُّ المحقِّقُ لمطلوب الربِّ من عبدِه ولما يُرضيه منه على ما شَرَعَ مع قصْدِ عِبادتِهِ له وحده.

وترتبط مسؤولية العبد المكلّف بكل ما هو خاضع لإرادته الحرّة من سلوكٍ ظاهرٍ وباطن، إذ عليه في كل ذلك أن يحقِّقَ عُبوديَّتَهُ الاختيارية باتّباع ما شرع الرب له من سُلوك، ضمن حدود الإلزام أو الترغيب أو الإباحة.

وأوّل هذه العبودية الاختياريّة إيمانُ العبدِ بربِّهِ وبكمالِ صفاته، وبما أوجب على عباده أنْ يؤمنوا به من حقائق، وبكلِّ ما أنزَلَ من بياناتٍ وشرائع ثبت لديهم صِحّة نِسبتها إلى الرسُول ﷺ، وهو مبلغ عن الوحي، أو مأذون من رَبّه فيما أبان.

وبعد الإيمان الكامل الصحيح يكونُ العبد مُطالباً في سلوكه الإراديّ الظاهر والباطن بالإسلام، أي: بإعلان طاعته لربّه المالك، ومبايعته على الالتزام بالطاعة على مقدار الاستطاعة، وتتمُّ هذه المبايعةُ بإعلان الشهادتين، إذ العبوديةُ من أوائل صفاتها إعلانُ العبدِ طاعتَهُ لِسَيِّدهِ المالك، وبعد هذا يأتي تطبيقُ هذا الإعلان بالسلوك العملي، وكان الرسول ﷺ يُبايع أصحابَهُ على السَّمع والطاعة في العُسرِ واليُسر، والمَنْشَطِ والمكرَهِ ضمن حدود الاستطاعة.

ومن أحقُّ بهذه الطاعة من الرب الذي لا تنقطع عن عباده عطاءات ربوبيته؟!.

والطاعة تكون بفعل ما أمر الله به أمراً إلزامياً ورتَّبَ على تركه العقوبة، وبترك ما نهى الله عنه نهياً إلزامياً ورتّب على فِعلِه العقوبة.

ثم يأتي فوق الطاعة أفعالٌ صالحة لم يُلزِم الله بفعلها، ولكنْ يُحِبُّ من عباده أن يفعلوها، ويثيبهم إذا فعلوها من أجله، ولا يعاقبُهم على تركها إلا بالحرمان من ثواب الفعل، وأفعالٌ مكروهة لم يُلزِم الله بتركها، ولكن يُحِبُّ من عباده أن يتركُوها، ويُثيبُهم إذا تركوها من أجله، ولا يُعاقبهم على فِعلِها، إلا بالحرمان من ثواب الترك.

وهنا يظهر تسابق المتسابقين في مراضي الله للظفر بالقرب منه، والظفر بشَرَفِ ونِعمةِ محبَّةِ الله على مِقدار السَّبْق.

وكمالُ العبودية الاختيارية في العبد أن يكون عبداً لربِّهِ على مقدار رُبوبيةِ الله له. إلا أنَّ بُلُوغَ هذا الكمال أمرٌ عسيرٌ، ما دامَ في نفوس الناس عقباتُ أهواء وشهوات وآلامٍ ولَذَّاتٍ، فأقربُ المتسابقين إلى الله أكثرُهُمْ تحقُّقاً بعبوديتِه لله المسايَرَةِ لعناصِرِ رُبُوبيةِ الله له. وتَتَناقصُ الدرجاتُ بمقدار التقصير في تطبيقِ عناصر العبودية لله عزّ وجلّ، إلا أن

غُفرانَ الله وعفوَه وصفحَةَ أُمورٌ مساعدة لبعض عباد الله الصالحين، حتى ينالوا كمالَ العبودية بفضل الله.

* * *

رابعاً: معنىٰ الأُلُوهِيَّة ومعنى الإلَهِيَّة:

قال ابن سِيده من أئمة اللّغة: «الأُلوهية» هي العبادة، ويُقال فيها: «أُلُوهةٌ» و«إلَهَةٌ».

وقال أهل اللغة: «التألُّهُ» هو التعبُّد والتنسُّك. و«التأليهُ» هو التعبيد.

وقالوا: «إلَه» على وزن «فِعَال» هو بمعنى «مفعول» أي: «مَألوه» بمعنى معبود، سواءٌ أكان معبوداً بحقٍّ أو بباطل، فالإلَهُ هو المعبود (انظر لسان العرب).

أقول: فإذا أردنا أن نصوغ مصدراً صناعياً من كلمةِ «إلَه» بمعنى معبود قُلنا «إلَهيَّة» لا «أُلُوهية» إذْ جاءت هذه الكلمة لغة بمعنى العبادة.

وكثيرٌ من الناس يُطلقون كلمة «الإلَه» بمعنى «الرَّبِّ» وهذا غلطٌ ينشأ عنه عدة أغاليط لدى تفسير النصوص، فمعنى «لا إله إلا الله» لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، أو لا معبود يستحقُّ أن يُعبَد إلا الله، أمَّا الرَّبّ فهو المتصف بصفات الربوبية التي سبق بيانها.

فالَّذين يعبُدون إلَهاً أو آلهةً من دون الله همْ على أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: الذين يُؤمنونَ بالله الرب العليّ الأعلى، ولا يعتقدون فيما يعبدون أو مَنْ يعبدون من دون الله مُشاركةً لله في ربوبيّته، لا من مستوى الخلقِ ولا من مستويات دنيا، كبعضِ تَصَرُّفٍ في أحوال أهلِ الأرض، من رِزقٍ وصحَّةٍ وحَبَلٍ ووِلادَةٍ وكونِ الجنين ذكراً أو سليماً ونحو ذلك، فهم غير مشركين في ربوبيّة الله عز وجل بحسب ما يذكرون.

وأهل هذا الصّنْف مشركون شِرْكَ ألوهيَّة فقط (أي: شرك عبادة) إذا كانوا صادقين في دعاواهم.

وكُفرُ هؤلاء هو كُفرٌ جُزْئيٌّ بِبَعْض عناصر إلَهيَّة الله عزّ وجلّ، إذ لا يوجدُ أحدٌ في الوجود يستحقُّ أن يكون معبوداً سوى الله سبحانه وتعالى عن الشركاء، فالمعبودية (أي: الإلَهية) من خصائص الربِّ الواحد الأحد، وعِبادةُ غيرِ الله مع عبادة الله إشراك في إلَهيته الواحدة التي لا مُشارك له فيها.

وكان بعض مشركي الجاهلية من هذا الصنف، وتحدّث الله عنهم بقوله في سورة [الزُّمَر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول]:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ③﴾.

لكِنّنا إذا دقَّقنا النَّظرَ وجَدْنا أنّ بعض مفاهيم الشرك في ربوبيةِ الله داخلة على أهل هذا الصنف بدليل قول الله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: هم كاذبون في ادّعاء أنّ عبادة الملائكة أو غيرهم تقرّب إلى الله زُلفى.

الصنف الثاني: الذي يعتقدون أن من يعبدونهم من دون الله يشاركون الله في ربوبيته، ولو بالتصرّف في بعض أحوال العباد، دون بيان من الله أو إذن بكتاب منزّل من لدنه، أو ببيانٍ من رسول صادق مؤيّد بالمعجزات.

وأهل هذا الصنف مشركون في ربوبية الله عزّ وجل، وشركهم أشدّ وأقبحُ من شرك أهل الصنف الأول، ويلزم عن هذا الشرك شركٌ في الألوهية أيضاً وفي الإلَهية.

وكفرُ هؤلاء هو كُفْرٌ جزئيٌّ ببعض عناصر ربوبية الرب الخالق سبحانه وتعالى عمّا يشركون، وشرك في إلّهية الله، مع أنّ الله عزّ وجلّ واحدٌ لا شريك له في ربوبيته ولا في إلّهيّته.

وهنا نلاحظ أنّ معظم المشركين يعتقدون في شركائهم أنَّهُمْ ينفعونهم، ويدفعون الضّرَر عنهم، أو يُنْزلون الضرر بخصومهم، فهم من أهل هذا الصنف مشركون شِرْكاً في الربوبية وفي الإلّهيَّة معاً.

الصنف الثالث: الذين يعتقدون فيمن يعبدونهم أنهم هم الأرباب، وأنه لا خالق للسماوات والأرض ولا متصرّف فيهما إلا أربابُهُمْ التي يعبدونها، فمنهم أهل التثنية ومنهم أهل التثليث، ومنهم من يُعَدِّدُون الأرباب فوق ذلك.

وأهل هذا الصنف لهم أربابٌ يجعلونها مشتركةً فيما بينها في الرُّبوبية وتصاريفها في الكون، وقد يجسّدونَها في أجسادٍ مادّية، أو يعتقدون أنها قد تحلُّ في أجسادٍ مادّيّة، أو تظهر بصُوَرٍ بشريَّة.

وكُفْر هؤلاء كُفْر بكُلّ عناصر الرُّبوبيَّة الَّتي يختصّ بها الله عزّ وجلّ، إذْ يتَّخِذُون أرْبَاباً باطلةً غير الله عزّ وجلّ، ويكفُرُون بالله الحقِّ كُفْراً من الدَّرجة القُصوى، وكُفرُ هؤلاءِ يساوي كُفر الملاحدة المادّيين الذي يجحدون وجود أيِّ رَبٍّ لهذا الكون، إنهم يجعلون المربوبين أرباباً.

وعبادةُ هؤلاءِ كُلُّها تكونُ لغير الله الذي لا رَبَّ غيره، ولا إلّه إلا هو، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يقبل في عبادته شركاً.

وقد سار الإقناع الفكريُّ في القرآن المجيد لكلّ أصناف المشركين على أساس إقامة البراهين الدّالّة على أنّ الله عزّ وجلّ هو واحدٌ في ربُوبيته، مع بيان أنّ العبادة لا تكون إلا للرَّبِّ، وذلك بمقتضى بديهة العقل، واللزومِ الفكري، فالعبادة حقُّ الرَّبِّ وحدَه، وبما أنّ الربَّ واحد

لا شريك له فهو الذي يجب أن يكون وحده هو الإلٰه (أي: المعبود بلا شريك).

ولدفع احتمال ادّعاء من يدّعي أنّ الله أمَرَ أو أذِن بعبادة غَيْرِه جعلَ من أوائل عناصر رسالاته المنزلة على رُسُلِه نَهْيَهُ المشدَّد عن عبادة غيره، وجعْلَه عبادَةَ غيره شركاً به وكُفراً، ولو كانت هذه العبادة على سبيل الاحترام، أو إرادة التقرّب إلى الله بعبادة من يُحِبُّهم الله، وذلك لئلا تدخل مفاهيم الشرك بربوبيَّةِ الله إلى أفكار الناس من مُنْزَلَق عِبادَةِ غيره.

* * *

خامساً: أمثلة من الأدلة القرآنية على توحيد الربوبية لله عزَّ وجلَّ:

سبَقَ أنْ عرفنا أن منهج القرآن في تقديم الأدلّة على توحيد الربوبيّة لله عزّ وجلّ، يعْتَمِدُ على توجيه أنظار المتفكّرينَ للنظر في آيات الله عزّ وجلّ، في أنفسهم وفي سائر الأكوان في السّماوات والأرض وما بينهما.

وسبَقَ أن عرفنا أنّ النُّصوص القرآنيّة المشتملة على هذه الأدلة تحتلُّ مساحةً واسعة جداً من القرآن الكريم، منْها الْمُجْملُ ومنها المفصَّل.

وفي هذا الفصل أقدّم بعَوْن الله وتوفيقه طائفة من هذه الأمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ

بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

جاء في هٰذا النصّ مخاطبةُ النّاس بأنّ ربَّهُمُ الَّذي يُهَيْمِنُ عَلَيْهِمْ بصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ، فيرحَمُهُمْ، ويُمِدَّهم بعطاءات رُبُوبيته لهم، ويَسْتَجيبُ دُعَاءهُمْ هو اللّٰهُ.

وعرض هذا النصّ من آثار ومظاهر رُبُوبيّته للكَوْنِ ثَماني ظواهر، كُلُّ واحدةٍ منْها تَدُلُّ على أنَّها لَمْ تَحْدُثْ إلَّا مِنْ قِبَلِ رَبٍّ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ ويَخْتَارُ، وهذا الرَّبُّ واحدٌ لَا شَرِيكَ له في رُبوبِيَّتِهِ، في الكون كُلّه، وفي كلّ جُزْءٍ مِنْ أجزائه مهما صغُر ودقَّ.

أمّا اسْمُ هذا الرَّبِ الّذي تَدُلُّ عليه وعلى طائفةٍ من صفاته الجليلة ظواهر الكون، في اللّسان العربيّ فكلمة (الله).

قال الله عزّ وجلّ في أوّل هذا النص:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾.

- الظاهرة الأولى: من ظواهر رُبوبيته الواردة في هذا النصّ، خَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ في سِتَّةِ أيّام.

قال الله عزّ وجلّ فيه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾:

إنَّ صِفَاتِ أجرام السَّماوَاتِ والأَرْضِ وكُلِّ شيءٍ فيهما صفاتٌ تَدُلُّ على حُدوثِها، وأنّها ذَوَاتُ بداياتٍ، فهي غَيْرُ أزليَّة، والفكر السّليم يُدْرك هٰذه الحقيقة من ملاحظة تغيُّرات كلّ شيءٍ فيهما، وقد سبق أنْ أدرك هذه الحقيقة المتفكّرون والفلاسِفَةُ، وأدْرَكَ أجزاءَ منها النَّاسُ العاديُّون.

ثمّ جاءت العلومُ المعاصرة فأثْبَتَتْها بالأدلة والشواهد العلميَّة.

وحُدُوثُها يَجْعَلُ العقل السليم يَجْزِمُ بأنّ لها خالقاً خَلَقَها، دون أن يكون لدَيْه شَكٌّ أو رَيْبٌ في هذا الأمْر، إذ المعدوم لا يُمْكن أن يتحوَّل إلى موجود بنفسه، فلا بُدَّ له من موجد قَدْ أوجده، وبما أنّ بقاءه في الوجود يحتاج إلى إمدادٍ له بالبقاء، وبما أنَّ التغييرات الّتي تَحدُثُ فيه لا بُدَّ لها من فاعلٍ متصرّف، فالخالِقُ لها لا بُدَّ أنْ يكون مِهَيْمِناً عَلْيها بصِفَاتِ رُبُوبيته لها.

والأدلّة العلميَّة الّتي لا بُدَّ أن يتوصَّلَ إلَيْها العلماءُ البحَّاثُون مَهْما طال الزمن، تَدُلُّ على أنّ خلْقَ السماوات والأرض قد مَرَّ في سِتَّةِ أطوارٍ ضمن سِتِّ أحقاب زَمَنِيَّة، جاءَ التّعْبِيرُ عنها في القرآن بعبارة: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

ودفْعاً لتَوَهُّم أنّ الخالِقَ الرَّبَّ حَالٌّ في أجرام السَّماواتِ والأرضِ، حُلُول مقارنَةٍ أوْ حُلُولَ اتّحاد، أبان النَّصُّ أنَّ اللَّهَ الرَّبَّ جلَّ جلالُهُ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، مباينٌ لِمَا خَلَقَ، فجاءَتْ فيه عبارة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إذ العرشُ أعظم ما خلَقَ اللَّهُ في الكون، وهو في السَّماء أعْلَىٰ ما خلَقَ، فهو سُبْحَانَهُ مُسْتَوٍ من فَوْق العرش، وهو العليُّ الأعلى، وهو مباينٌ لكلّ ما خلق.

- (الظاهرة الثانية): من ظواهر ربُوبيّة الله جلّ جلاله الواردة في هذا النصّ: أنّهُ يُغْشِي اللّيْلَ النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً.

قال الله عزَّ وجلَّ فيه:

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

أي: جَعَل الله الرَّبُّ بتسخيره بَعْضَ ما خَلَقَ في كونه النَّهارَ يَغْشَىٰ بضوئه المنْبَعِث من الشمس سَوادَ اللّيل فيَسْتُرُهُ ويُغَطّيه، وجعَلَ نِظَامَ حركةِ

الأرض في دورانها حول نَفْسِها ضِمْنَ نِظَام مُحَدَّدٍ يُؤَدِّي إلى أَنْ يُتَابعَ ضَوْءُ الشَّمْسِ أوَاخِرَ اللَّيلِ في كلِّ جزءٍ من الأَرض، في حَرَكَةٍ دائِرِيَّةٍ، فَيسْتُرَهُ شيئاً فَشَيْئاً، حتَّىٰ كأَنَّهُ يَطْلُبُهُ ليقْبِض عليه طَلَباً حَثِيثاً، أي: جاداً دائباً بتَتَابُعٍ في طلبه.

وبسَتْرِ ضوءِ الشَّمْس ما يسْتُر من اللَّيْل يَظْهَر النَّهارُ على الْقِسْمِ الذي امتدَّ عَلَيْه الضَّوْء.

ولا يتمّ كلُّ ذَلِكَ إلّا من قِبَل رَبٍّ عليم حكيم قَدِير يَفْعَلُ ما يشاءُ ويختار.

- (الظاهرة الثالثة): من ظواهر ربُوبيَّةِ الله جلَّ جلالُه الواردة في النّصّ: أنّه تبارك وتَعالَىٰ خلَقَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجومَ مُسَخَّرَاتٍ بأَمْرِهِ.

لقَدْ خلَقَ الله الشَّمْسَ مُسَخَّرَةً بأمْرِهِ للقيام بوظائِفها في الكون.

وخلَقَ القمر مسخَّراً بأمْرِهِ للقيام بوظائفه في الكون.

وخَلَقَ النُّجوم مسخَّراتٍ بأمره للقيام بوظائفها في الكون.

قال الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ . . .﴾.

وإذْ أبان الله عزّ وجلّ أنَّ خَلْقَ هٰذه الأجرام العظيمة وتَسْخِيرَها للقِيَام بوظائفها في الكون قد كان بأمْرِهِ في كلٍّ مِنَ الْخَلْقِ والتَّسْخير، فهِيَ تَقُومُ بوظائفها بصِفَةٍ جَبْرِيَّةٍ، كَانَ من المناسِبِ أَنْ يُبَيِّنِ للمخيَّرينَ الموضوعَين موضِعَ الامْتِحانِ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيا، أنَّ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ فَلَهُ الْأَمْرُ حَتْماً، لأَنَّهُ مَالِكٌ لِمَنْ خَلَقَ ومَلِكٌ عَلَيْهم، والواجبُ المفرُوضُ علَيْهم أَنْ يُطِيعُوا باختيارهم أمْرَهُ التكليفيَّ كما أطاعُوا في وجودهم وفي تَسْخِيرِ المسخَّراتِ فيهم أمْرَهُ التكوينيَّ الجبْرِيّ.

فقال الله عزّ وجلَّ في النَّصّ مبيّناً هذه الحقيقة ومُنبّهاً عليها:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ . . .﴾.

وتأكيداً على أنّه جلّ وعلا هو ربّهم، إذْ هو رَبُّ كُلِّ العالَمين، قال الله عزَّ وجلَّ في النّصّ:

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

● (الظاهرة الرابعة): من ظواهر ربوبيَّة الله جلَّ جلالُهُ الواردة في النّصّ: استجابتُهُ دُعَاءَ الدَّاعينَ المتضرِّعين له في خُفْيَةٍ، ودُون عُدْوانٍ في دُعائِهِمْ على أحَدٍ، ودُونَ رَغْبَةٍ في الإفْسَادِ في الأرض بَعْدَ إصلاحها، في حَالَتِي الخوف والطَّمع.

قال الله عزّ وجلَّ مُشِيراً إلىٰ هٰذِه الظَّاهِرَةِ في النَّصّ:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

فأبانَ الله عزّ وجلّ شُروط استجابة ربِّهم لدُعائهم، بأسْلُوبٍ عجيب، هو أسلوبُ الْأوامر الموجَّهَةِ المصُوغةِ بعباراتٍ كُلِّيَّةٍ عامّة.

وتتلخَّص شروط الدُّعاء المستجاب من قِبَل الرَّبّ جلَّ جلاله بما يلي:

(١) التَّضَرُّع، وهو التَّذَلُّلُ والخُضوع، مَعَ خَفْضِ الرأسِ والجَسَد.

(٢) أن يَكُونَ الدُّعاءُ فِي خُفْيَةٍ، ليكون أكثر إخلاصاً وصِدْقاً.

(٣) أنْ لا يكون في الدُّعاء عُدْوان على أحَدٍ من خَلْقِ الله، وأنْ لا يقترِنَ به عُدْوانٌ على أَحَدٍ من خَلْق الله، وأنِ لَا يَقْتَرِنَ بِعُدْوانٍ على حُدودِ اللّهِ، فَمَنْ كانَ يَدْعُو رَبَّهُ ومَطْعَمُهُ حَرام، ومَلبَسُهُ حرام، وغُذِي بالحرام، فكيْفَ يَسْتَجِيب اللّهُ دُعاءَهُ؟!

(٤) أنْ لَا يَكون الدُّعاءُ في الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وأن لا يقترن بالإفساد في الأرض من قِبَلِ مُوجِّه الدُّعَاء.

(٥) أن يكون الدُّعَاء إمّا في حالة الخوف، وإمّا في حالة الطَّمَع.

(٦) أنْ يكون الدُّعَاءُ خالصاً لِلَّهِ وَحْدَهُ، وواصلاً الإخلاص فيه إلى مرتبةِ الإحسان، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ رحْمَةَ اللَّهِ الّتي تُسْتَدَرُّ بالدُّعَاء الخالص لله وحده، الذي يكون الداعي به ملتزماً بشروط استجابة الدُّعاء وآدابه، قَريبَةٌ من الذين يكونون في دُعائهم محسنين، من أهل مرتبة الإحْسَانِ في الدُّعاء.

● (الظاهرة الخامسة): من ظواهر ربُوبيَّة الله جلَّ جلالُه الواردة في النّصّ: إرسالُه الرّياحَ المبَشّرات بإنْزال الأمطار الّتي هي من أسباب إنبات الزروع، وإخْراج الثمرات، رحمةً بالعباد، إذْ هي مقْرُونةٌ بالحكمة الدّالة على بعض صفات الرُّبوبيَّة لله تبارك وتعالىٰ.

قال الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ . . .﴾.

أي: وربُّكُمُ اللَّهُ هو الذي يُرْسل الرّياح الّتي تَسوقُ السُّحُبَ، وهٰذِهِ الرِّياحُ تَكُون مُبَشِّرَاتٍ للناسِ بَيْنَ يَدَيْ إنْزَالِ الْأَمْطَارِ النَّافِعَات اللَّائي هي من آثار رحْمَته تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ.

● (الظاهرة السادسة): من ظواهر رُبُوبيَّةِ الله جلَّ جلالُهُ الواردة في النّصّ: سَوْقُ السُّحُبِ الثّقال بِحَمْلِ مِيَاهِ الأمْطَارِ، لِبَلَدٍ ظامِئٍ، لا نَبَاتَ فِيهِ ولا زَرْعَ، فَهُوَ كَالْجَسَدِ المَيِّتِ، وإنْزَالُ الْأَمْطَارِ بِهِ، الّتي تكونَ من الأَسْبَاب في حياتِهِ.

قال الله عزّ وجلّ في النّصّ متابعةً للحديث عن ظاهرة الرّياح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ . . .﴾.

أي: فَكَانَ الماءُ سَبَباً من أَسْبَابِ حياة البلد الميّت، بإنْبات الزُّروع فيه، وإخراج الثمرات منْها، لتكون متاعاً للناسِ والأنْعام.

● (الظاهرة السابعة): من ظواهر رُبُوبيَّةِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ الواردة في النّصّ: إخراج الله بالماء الذي يختلط به تراب الأرض من كلّ الثمرات التي تأْكُلُ مِنْها ومن نواتجها النّاس، وسائر الكائنات الحيَّةِ في الأرض.

قال الله عزَّ وجلّ في النصّ متابعةً للحديث عن مَاءِ الأمْطَار:

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ . . .﴾.

أي: فأَخْرجنا بالماء من كلِّ الثمَراتِ المَوْجُودَةِ في الأرض، على اختلاف أشكالها وألوانها وطُعُومِها ومنافِعِها والغاية المقصودة منها.

ولمّا كان بعْثُ الموتىٰ وإحياؤهم وإخراجهم من الأرض، بَعْدَ فناء أجْسَادِهِمْ، مماثلاً لإحياء الأرض بالنَّبَاتِ، كَانَ من المناسب إعلامُ الشَّاكِّين بالبعْثِ إلى الحياة الأخرى، بأنَّ إحياء الموتىٰ من نُقْطَةٍ صغيرة باقيةٍ في الأرض من أجْسَادِهم، يُشْبِهُ إحْيَاءَ نبات الأرض من الْبُزُور المدفونَةِ فِيها، رَغْبَةً في أنْ يَضَعُوا هذه الحقيقة في ذَاكِرَتِهِمْ، وفي أن يَتَذَكَّرُوها، ويَخَافُوا من حساب الله وعذابه يوم الدين، ويطمعوا بثوابه العظيم إذا آمنوا به وبما بعَثَ به رسُوله.

قال الله عزَّ وجلَّ في التعقيب على هذه الظاهرة السابقة:

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

● (الظاهرة الثامنة): من ظواهر ربوبيَّة الله جلّ جلالُهُ الواردة في النص: أنّه تبارك وتعالىٰ جعل بحكْمَتِهِ طائفةً من الأرض طيّبَةً منْبِتَة، يخْرُجُ نباتُها بإذن ربها، وجعل طائفة أخرى خبيثَةً لَا يخْرُجُ نباتُها إلَّا نَكِداً عسيراً، لِيَدُلَّ عباده على سلطانه في خَلْقِهِ، وحكمته في العطاء والمنع، والبَسْط والقبض، والإمداد والإمْسَاكِ، وليدُلَّهُمْ على قُدْرَتِهِ على تنويع الآيات الدالَّات عليه في كونه.

قال الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾.

نَكِداً: أي: عَسِيراً شَحِيحاً قليلَ النَّفْع.

وتَعْقيباً على هذه الظواهر الثماني قال الله عزّ وجلّ في آخر النّصّ:

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

أي: مثل ذَلِكَ التنويع في الآيات الّتي جاء بيانُها في هذا النّصّ، يَجْرِي تنويعُ الآيات في كلّ الظاهرات من ظواهر رُبوبية اللَّهِ في كونه. والمستفيدون من الظواهر الكونيَّة الدَّالَّة على ربوبيَّة اللَّهِ الخالِقِ الحكيم، هم المسْتَعِدُّون لأن يكُونوا لربِّهِم المنْعِمِ عليهم بنِعَمِه الجليلَةِ الكثيرة شاكرين.

الشاكِرُونَ: هُمُ الذين يُقَابِلُون نِعَمَ الله عَلَيْهِمْ بالطاعات، والقيام بأنواع العبادات النفسيَّة والجسديَّة.

ولا يكونون شاكِرِينَ إلّا إذا كانوا حامِدِينَ، لأن الشكْر أشَقُّ على النفوس من الحمد، فالحمد ثناء باللّسان والقلب، والشُّكْرُ مجاهدة عَمَلِيَّةٌ في مخالفة الشهوات والأهواء، وتحمل المشقات.

* * *

المثال الثاني:

قول الله عزّ وجل في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول): خطاباً للناس:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾﴾.

في هذا النَّصّ يُبيّن الله عزّ وجلَّ مِنْ ظواهر رُبُوبيَّتِهِ للنَّاسِ، أنَّهُ كَرَّمَهُمْ وفضَّلَهُمْ على كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً عظِيماً.

ومن مظاهر مِنَّتِهِ عَلَيْهِم أَنَّهُ حَمَلَهُمْ في البرّ والْبَحْر، ويُلْحَقُ بِهِمَا الجوُّ، لأنَّ حَمْلَهُمْ في الجوّ على الرِّياح يُشْبِهُ حَمْلَهُمْ في الْبَحْرِ على الماء.

ومن مظاهر مِنَّتِهِ علَيْهِم ورَحْمَتِهِ بهم، أنَّه رزقهم من الطيبات.

أَمَّا حَمْلُهُمْ في الْبَحْرِ فَقَدْ كَانَ بِتَسْخِيرِ الْفُلْكِ لَهُمْ، إذْ وَضَعَ في قوانين كوْنِهِ قانُونَ الطَّفْوِ على الماء السائل القابل لانتقال الجامدات الطافِياتِ على سَطْحِهِ، وَجَعَلَ انتقالَها يَتِمُّ بإزجائها، أي: بسَوْقِها، أو بِدَفْعِها بِرِفْقٍ ويُسْرٍ واسْتِقَامَة.

لكِنَّ معظم الناس يتَقلَّبُونَ في نِعَمِ رَبِّهِم عَلَيْهِمْ، ولَا يشْكُرُونه عليها.

وإذا ابتلاهُمْ وهُمْ في الْبَحْرِ برياحٍ عاصفَةٍ، وهيجان بَحْرِيّ مُنْذِرٍ لَهُمْ ولمراكِبِهم البحريَّةِ بالغرق، لم يَجِدُوا من يُسْعِفُهُمْ فَيُنْجِيهم من الهلاكِ إلَّا اللَّهَ رَبَّهُمْ، إذا دَعَوْه صَادِقِين مُخْلصين.

وحين يَسْتَيْقِظ إيمانُهم بربّهم في ساعات الْخَوْفِ الشديد، فَيَدْعُونَهُ لِيُنْجِيَهُمْ، فَقَدْ يَسْتَجِيبُ ربُّهُمْ دُعاءَهم، فَيَجْعَلُ لَهُمُ الْبَحْرَ هَادِئاً سَاكِناً، ويَجْعَلُ لهم الرِّيح رُخاءً، فَيُنْجِيهم.

لَكِنَّهُمْ مَتَىٰ وَجَدُوا أنفُسَهُمْ عَلَىٰ اليابِسَةِ في البرّ الآمِنِ أعْرَضوا عَنْ ربّهم كُفراً بنِعْمَتِهِ عليهم، وجُحُوداً لمَا تفضَّلَ بهِ عليهم.

ما أشدّ خِسَّةَ وجَهْلَ أهْلِ الكُفْرِ والجحودِ من الناس!!

أَلَيْسَ رَبُّهُمْ بقادِرٍ على أنْ يَخْسِفَ بِهِمْ جَانِبَ الْبَرّ، فَيَدْفِنَهُمْ في باطِنِ الأرض، ويُهلِكَهُمْ بِرُكَام عناصرها.

أليس رَبُّهُمْ بقادِرٍ على أن يُرْسِلَ عليهم حجارَةً من السَّماء تَحْصِبُهُمْ فَتُهْلِكَهُمْ رَجْماً؟!!

أليس ربُّهُمْ بقادر على أن يُعِيدَهم إلى ركوب الْبَحْرِ طمَعاً في تجارة رابحة، أو سياحة ممتعة، أو غير ذلك، ثُمَّ يَجْعَلَهُمْ في وسْطِ المخاوف المماثلة لما كانوا فيه سابقاً، ثُمَّ يُهْلِكَهُمْ بقاصِفٍ منَ الرِّيحِ، غير مستجيب لدُعائهم إذا دَعَوْهُ؟!!

* * *

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ
(٩٨) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ
أَعْنَٰبٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ
وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

خَضِراً: أي: زَرْعاً غضاً أخْضَرَ.

مُتَراكِباً: أي: يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضاً.

من طَلْعِها: الطَّلْعُ: غِلافٌ يشبه الكوز، يَنْفَتِحُ عن حبٍّ منْضُودٍ فيه مادَّة إخصاب النخلة.

قِنْوان: جمع «قِنْو» وهو العِذْق الذي يكون ثَمَرُ النَّخْلِ نابِتاً منه ومتعلقاً به.

ويَنْعِهِ: الْيَنْعُ مَصْدَرُ يَنعَ، يُقَالُ: يَنَعَ الثَّمَرُ يَنْعاً، إذا أدْرَكَ وَطَابَ وحانَ قِطافُهُ.

خَرَقُوا: أي اختلقوا وافتروا.

بديع: أي: خَالِقٌ إبْداعاً على غَيْرِ مثالٍ سبَق.

عرض الله عزّ وجلّ في هذا النّص طائفةً من آياتِ رُبُوبيّته في كونه، وقال تعالى بَعْدَ عَرْضها خطاباً للناس:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ . . .﴾.

وبَنَىٰ عَلَىٰ أنَّهُ هُوَ رَبُّهُمْ الّذِي لا رَبَّ لَهُم سِوَاهُ، بَيَانُ أَنَّهُ هو إلٰهُهُمْ الواحد الذي لا إلٰه إلا هو، فقال تعالى:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ . . .﴾.

أما آيَاتُ رُبُوبيّتِهِ الّتي جاء عرضُها في هذا النّصّ، فهي:

(١) فَلْقُ الحبِّ والنَّوىٰ في تُراب الأرض، وإخراجِ الزّرْع والشجر منه.

(٢) إخراجُ الحيّ من الميّتِ، كإخْراج الفرخ من البيضة.

(٣) إخراج الميّت من الحيّ، كإخراج البَيْضِ من الطيور وغيرها.

(٤) فلْقُ الصُّبْحِ ضِمْنَ نِظَام دَورانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا باتجاه الشمس.

(٥) جَعْلُ اللَّيل سَكَناً، أي: للْهُدُوءِ والراحة والسكون، ضِمْنَ نظامٍ بديع تتلاءَمُ فيه أوضاع راحةِ الأحياء وسكونها، مع اللَّيْلِ وخصائصه.

(٦) جَعْلُ حركَةِ كُلٍّ مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ مُقَدَّرَةً بِحِسَابٍ دَقِيق، ملائمٍ لِوَظَائِفِهما النافعة للنَّاسِ على الأرض، وإجراءُ أمْرِهِمَا ضِمْنَ هذا الْحِسَابِ الدَّقِيقِ، وهذا التقديرُ الحكيم لَا يَكُونُ إلَّا من عَزِيزٍ ذِي قُوَّةٍ غَالِبَةٍ، عَلِيمٍ مُحِيطٍ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً.

(٧) إنْشَاؤُهُ النَّاس من نَفْسٍ واحِدَةٍ هي نَفْسُ آدَمَ أَبِي الْبَشَرَ، واشْتِقَاقُ زَوْجَتِهِ مِنْهُ، وَبَثُّ سُلالتِهِما من بَعْدِهما وفْقَ نِظَامٍ خَاضِعٍ لِمُسْتَقَرٌّ هُوَ ظُهُورُ الرّجال، ومُسْتَوْدَعٍ هُوَ أرْحَامُ النِّسَاء.

(٨) إنْزَالُهُ الماءَ من السماء (أي: من السَّحَاب) على الأرض حتَّىٰ يخْتَلِطُ بِتُرابِها، ثُمَّ إخراجُ نَباتِ كُلِّ شَيْءٍ بِفَلْقِ الحبّ والنَّوى، وإخْرَاج الْخَضِرِ مُنْهُ، ثُمَّ إخراج الحبّ المتراكب من الخضر.

(٩) إخراج أشجار النخيل، الّتي يُخْرِجُ اللَّهُ مِنْهَا أصْنَافَ الْبَلَحِ والتَّمْرِ المعلقة بالقِنْوانِ.

(١٠) إخراج جنَّاتِ أشجار الْعِنَبِ وأشجار الزيتون، وأشجار الرُّمَّان، المشتبه وغير المتشابه، في الشكل والطعم والنفع.

(١١) بيانُ كونِهِ جلَّ جلالُهُ مُبْدِعَ كلِّ شيءٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْض، وكونه خالِقَ كلِّ شيءٍ، وكونه بكلِّ شيءٍ عَلِيم.

وبعد عَرْض هذه الآيات الكونيَّة من آيات رُبُوبيّتِه قال تعالى في النَّصّ كما جاء بيانُه آنفاً:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ...﴾.

ولمَّا كانتِ الإلٰهيَّةُ الصِّفَةَ الأُولَىٰ واللَّازِمَ المباشِرَ لصفاتِ الرُّبُوبيَّة، قال الله تعالى عقب بيانُ ربُوبيَّتِهِ لكل شيءٍ في الكون: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

ولمّا كانَتْ مَعْرِفَةُ وُجودِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةُ صِفَاتِهِ مُسْتَنِدَةً إلى إدْراكِ آيَاتِهِ في كونِه.

ولمّا كان إدْراكُ ذاتِهِ أمْراً غَيْرَ مَطْمُوعٍ فيه ضِمْنَ ظُروفِ الحياة الدُّنيا، قال تعالىٰ عَقِبَ ذَلِكَ:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

* * *

المثال الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

في هٰذا النَّصِّ توجيهٌ للنَّظَر في آيات رُبُوبيّةِ اللَّهِ في الأرضِ، وآيات رُبُوبيَّتِهِ في الْأَنْفسِ، بصُورَةٍ مُجمَلَةٍ غَيْرِ مُفَصَّلة.

وإعْلامٌ للنَّاسِ بأنَّ أوامِرَ رِزْقِهِم ومَقَاديره تَنْزلُ من السَّماءِ مِنْ لَدُن الرّبّ الرحيم الرَّزّاق، وبأنّ أوامر ما يُوعَدُونَ فِي الدنيا والآخرة تَنْزِلُ من السّماء أيضاً.

وجاء فيه قَسَمٌ بِربّ السّماءِ والأَرْضِ على أن رزْقَهُمْ، وأَنَّ ما

يُوعَدُونَ حقٌّ لَا شَكَّ فيه، وهذا الحقُّ مُمَاثِلٌ لِنُطْقِهِمُ الّذِي يُؤْمِنُونَ بأنَّهُ مِنْ صِفَاتِهِمْ.

ومن هٰذه النصوص وأشبَاهِهَا في القرآنِ نستخلصُ أنّ علاقة العباد بالله جلَّ جلالُهُ عَلَاقَةُ مَرْبُوبين بِرَبّ، إذْ كُلُّ مَا فِي ذَوَاتِهِم، وكُلُّ ما يَجْرِي لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ مِنْ تَصَارِيف يَتَعَرَّضُونَ لَهَا دَوَاماً، إنّما هِيَ آثَارٌ من آثار رُبوبيَّة الله عزَّ وجلَّ لهم، الّتي لا تَنْقَطِعُ عنهم طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقَلَّ من ذَلِكَ.

* * *

سادساً: أمثلة من الأَدِلَّةِ القُرآنيَّة عَلَىٰ تَوْحِيدِ الإلٰهِيَّةِ لِلّٰهِ عزَّ وجلَّ:

سبقَ أن عَرَفْنَا أنّ مَنْهَجَ القرآن الكريم للإقناع أو الإلتزام أو الإفحام بتوحيد الإلٰهيَّة لِلّٰهِ عزَّ وجلَّ، يَعْتَمِدُ عَلَىٰ بَيَانِ أَنَّ اللَّازِمَ العقليَّ المباشِرَ لتَوْحِيدِ الرُّبُوبيَّةِ لِلّٰهِ عزَّ وجلَّ، هو تَوْحِيدُ الإلٰهيَّةِ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، فَمَنْ كَانَ هُوَ الرَّبَّ الَّذِي لا رَبَّ في الوجود سِواه، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الإلٰهُ الذي لا إلٰهَ يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَدَ إلاَّ هُوَ، وكلُّ عبادةٍ لِغَيْرِهِ جُحُودٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ جحوداً كلّياً أو جُحُوداً جُزْئياً، أو جُحُود لحقِّ رُبوبيَّته بأنْ يكونَ هُوَ وحْدَهُ الإلٰه المعْبُود الّذِي لا إلٰه غَيْرُهُ.

والشواهد القرآنيَّةُ الدَّالَّة على هذا المنْهج القرآنيّ في الاسْتِدْلَالِ كثيرةٌ، وأعْرض في الاسْتِعْراضِ التالي طائفةً من الأمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

فجاء في هذا النَّصّ تَوْحيدُ الإلٰهيَّةِ للَّهِ عزّ وجلَّ مُرَتّباً علىٰ كَوْنِهِ جلَّ جلالُهُ رَبَّ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ، أيْ: على كَوْنِ اللَّهِ عزّ وجلَّ المهيْمِنَ بقضائه وقَدَرِهِ وخَلْقِهِ دَواماً علىٰ ظاهِرَتي الشُّرُوقِ والْغُرُوبِ، وعَلَى كُلِّ مَكانٍ يَحْدُثُ عَلَيْهِ شُرُوقٌ، وكلّ مَكَانٍ يُحْدُثُ عَلَيْهِ غُرُوب، وهٰذا يَشْمَلُ الشَّمْسَ وكلّ ما تُشرِقُ عليه الشَّمْسُ وكلَّ ما تَغْرُبُ عنْهُ الشَّمْسُ.

المثال الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول):

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ . . .﴾.

جاءَ الْبَيَانُ في هٰذِهِ السُّورَة مُرَتَّباً تَرْتِيباً عَقْلِياً مَنْطَقياً، فإثْبَاتُ رُبُوبيَّةِ اللَّهِ للنَّاسِ يَلْزَمُ عَنْهُ لزوماً عَقْلِياً منْطِقِياً إثْبَاتُ كَوْنِهِ مالِكاً لَهُمْ فَهُمْ عَبِيدُهُ، وكونه مَلِكاً عَلَيْهم، ويَلْزَمُ عَنْهُما لزُوماً عَقْلياً منطقياً إثباتُ إلهيَّتِهِ لهم، وبما أنهم لا رَبَّ لهم غَيْرُه فلا إلٰه لهم إلَّا هو.

❁ ❁ ❁

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٦٦﴾.

جاء في هذا النَّصّ إثْباتُ تَوْحيد الإلٰهيَّةِ لله عزّ وجلّ، وجاء بَعْدَهُ بيانُ أنَّهُ رَبُّ السَّماوَاتِ والْأَرْض وما بَيْنَهما، فكان هذا البيانُ المقتَرِنُ بالبيان السَّابق له بمثابة الدَّليل على توحيد الإلٰهية له، فمن كان هو وحده ربَّ السَّماوات والأرض وما بينهما، فلا بُدَّ أنْ يكون هو وحده الإلٰه المعبود الذي لا إلٰه إلَّا هو.

❁ ❁ ❁

المثال الرابع:

قول الله عزّ وجل في سُورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) في مَعْرِض ذكر قصّة أصحاب القرية، الّتي جاءها المرسَلُون الثلاثة، وقِصَّة الرجل الذي جاء من أقصا المدينة ينصرهم، وما احتجَّ به على قَوْمه، إذْ قال لهم:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغۡنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ (٢٥)﴾.

فأبَانَ هذا الرجُلُ المؤمِنُ في حُجَّتِهِ أنَّ آلهَةَ قَوْمِهِ الَّتي يَعْبُدُونَها من دُون اللَّهِ، لَا تَمْلِكُ شَيْئاً مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ حَتَّىٰ تَسْتَحِقُّ بها أن تُعْبَدَ، وَلَا تَمْلِكُ شَفَاعَةً تَنْفَعُهُ عند الله شيئاً، وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ إذا اتَّخَذَ من دون الله آلِهَةً كَانَ إذاً في ضَلَالٍ مُبين.

ثُمَّ رَفَعَ عَقِيرَتِهِ وأعلنَ مُنادِياً بأعْلَى صَوْتِهِ في جماهير قومه: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ (٢٥)﴾.

فقتلوه فكان شهيداً مجاهداً، بدفاعه عن دين الله، ونُصْرَتِهِ للرُّسُلِ الثلاثة.

* * *

المثال الخامس:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن المشركين:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا (٣)﴾.

فإبان هذا النَّصّ أنَّ شِرْكَ المشركين باتّخاذهم آلِهَةٍ من دون الله عزَّ وجلَّ أمْرٌ باطِلٌ وَعَمَلٌ سَاقِطٌ، إذْ لَيْسَ لَهُ أيُّ سَنَدٍ عَقْلِيٍّ، ولَا وَاقِعيٍّ، فآلِهتُهُمْ الّذين يَعْبُدُونَهم من دون الله ليس لهم شيءٌ من الرُّبُوبِيَّة، وهم لا يَمْلِكُونَ لأنْفُسِهمْ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا دَفْعَ ضُرّ، فضلاً عن أنْ يملكوا شيئاً من ذلِكَ لعابديهم.

* * *

المثال السادس:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③﴾.

فجاء في هذا النَّصّ مخاطبَةُ النَّاسِ بتكليفهم أنْ يَذْكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لهم، الَّتي لا يَخْلُقُ شَيْئاً مِنْهَا غير اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

ووجَّهَ بَعْدَ هٰذا استفهاماً فقال لهم: هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزِقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأرض؟!

وهو استفهامٌ يَتَضَمَّنُ إنْكَارَ أَنْ يكون لهم خالقٌ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقهم، فهو بذلك يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْبُدُوهُ من دون الله.

وبَنَىٰ على ذَلِكَ إثْبَاتَ تَوْحِيدِ الإلٰهِيَّةِ للَّهِ عزّ وجلّ، فقالَ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنَّ توحيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ جَلَّ جلالُهُ، يَلْزَمُ عَنْهُ عَقْلاً تَوْحِيدُ الإلٰهية له.

ثُمَّ خَاطَبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ المشركين بقولِهِ لهم مِنْكِراً عَلَيهِم انصرافهم عن توحيد الإلٰهية له: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عن الحق، وتُؤْمِنُونَ بالباطل، فتَعْبُدون آلهة لا يخلُقُونَ ولا يَرْزُقُونَ.

* * *

المثال السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) أيضاً، يُعَلِّمُ الرَّسُول وكلّ داعٍ إلى الله من أمَّتِه أسلوباً من أساليب محاجَّةِ المشركين:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

في هذا النَّصّ تَعْلِيمٌ لأُسلُوبٍ مِنْ أسَالِيب مُنَاظَرَةِ المشركينَ، حول آلهتهم الَّذِين يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله.

هٰذِهِ المناظَرَةُ تَبْدَأُ بِسُؤال المشركين عنْ آثار رُبُوبيَّة شُرَكائهم، بأن يقول لهم المناظر:

أرُوني مَاذَا خَلَقَ شُرَكَاؤُكُم مِنَ الأرْضِ؟!

وهنا لا يسْتَطِيعُ المشركون أن يُثْبِتُوا بدليلٍ صَحِيحٍ تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ، أنَّ شركاءهم قد خَلَقُوا شيئاً من الأرض.

وعندئذٍ يَنْتَقِلُ المناظر إلى سؤالهم سؤالاً ثانياً، فيقول لهم:

هل خلَقَ شركاؤكُمْ شيئاً في السَّماواتِ فكانُوا بذلك شُركاءَ لله في رُبُوبيته؟!

وهنا لا يستطيع المشركون أن يُثبتوا بدليلٍ صَحِيحٍ تقبَلُهُ العقول، أنَّ شُرَكَاءهم قد خَلَقُوا شيئاً في السَّمَاوَاتِ.

وعندئذٍ يَنْتَقِلُ المناظر إلى سؤالهم سؤالاً ثالثاً، فيقول لهم: هل لديكم بيانٌ من عند ربِّكم في كتاب صحيح قد تَضَمَّنَ أمراً من عند الرَّبّ الخالق يأمُرُكُمْ بعبادة آلِهَتِكُمْ، أو إذْناً من عِنْدِه يأذن لكم بعبادتهم؟!!

لكنَّهُمْ لا يملكُونَ مِثْلَ هذا البيان، وعنْدئذٍ تسقط كُلُّ ذَرائِعِهِم، ولا تبقى لهم إلاَّ ادّعاءات باطلاتٌ، يخْدَعُهُمْ بها سدنة آلهتهم، أو كهنتهم أو أحبارُهم ورهبانهم وقسّيسُوهم.

* * *

المثال الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) يُعَلِّمُ الرَّسول ﷺ وكلّ داعٍ إلى توحيد الإلٰهيَّةِ لِلَّهِ من أمَّتِهِ، كيْفَ يَدْعُو، وكَيْفَ يَحْتجُّ على المشركين، لإثباتِ توْحيدِ الإلٰهِيَّة لله عزَّ وجلَّ، مِنْ خِلالِ إثباتِ تَوْحِيدِ الرّبُوبيَّةِ له، الَّتِي يَلْزَمُ عَنْهَا عقلاً تَوْحِيدُ الإلٰهِية له:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

في هذا النصّ البديع تفصيلٌ لطائفةٍ من ظواهر رُبوبيَّةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في كونه، الّتي لا يُشارِكه في رُبوبيته لها أَحَدٌ من دونه، ولمّا كانت وَحْدَتُه في ربوبيته تَسْتلزم عقْلاً وحْدَتَهُ في إلٰهيَّتِه، جاء في النصّ بعد ذِكْر كُلّ ظاهرَةٍ منها استفهامٌ تَعْجِيبيّ من شِرْك الْمُشْرِكِينَ في إلٰهيته بعبارة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾؟!!.

وجاء في التَّعْقِيبُ على هذا الاستفهام التَّعْجِيبيّ، بعباراتٍ تَنْدِيديَّةٍ، تُنَدِّدُ بالْمُشْركين ومَذْهَبِهم الشَّركيّ.

(١) فجاء التعقيب الأوّل بعبارة، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يعدلون عن الحق إلى الباطل.

(٢) وجاء التعقيب الثاني بعبارة: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يَرْغَبُون في أن يَعْلَمُوا الحقَّ، وأدِلَّة الحقّ، ولا يَسْتَعْمِلون ما وهبهم الله من أدواتٍ يَعْلَمُونَ بها الحقّ والباطلَ، والخَيْرَ والشَّرَّ، فيما خُلِقَتْ من أجْله.

(٣) وجَاء التعقيبُ الثالث خطاباً للمشركين بعبارة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلاً ما تَضَعُونَ في ذاكرتكم مَا تجري به الأحداثُ الكونيَّة الّتي لا يجريها إلَّا الرّبُّ الخالق، حتَّىٰ تستفيدوا منها ما يهديكم إلى نبذ الشرك الذي أنتم فيه.

(٤) وَجاء التعقيب الرابع بعبارة: ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٥) وجاء التعقيب الخامس الأخير بعبارة موجَّهةٍ للرَّسول ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أمَّته: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: طالبهم بتقديم برهانهم على أنَّ آلهتكم شَريكَةٌ لِلَّهِ في رُبُوبيَّته، فهي بذلك تَسْتَحِقُّ أَنْ تَكُونَ شريكَةً للَّهِ في إلٰهِيَّتِه، ولَنْ يَسْتَطِيعوا أَنْ يُقَدِّمُوا أيَّ دليلٍ مقبولٍ، فضلاً عن أنْ يكونَ دليلاً بُرْهانياً غَيْرَ قابلٍ للنقض.

وعلى هذا النَّسَق تَسِيرُ سائر الأدلّة القرآنيَّة، للإقناع أو الإلزام أو الإفحام بتوحيد الإلٰهية للَّهِ عزَّ وجلَّ، وهي تتضمَّنُ إثبات توحيد الربوبيّة الَّذي يلزَم عنه عقلاً توحيدُ الإلٰهية.

* * *

سابعاً: عقائد المشركين في جاهليّاتهم أخذاً من الدلالات القرآنية:

أخذاً من دَلَالات النّصوص القرآنيّة، يُلاحظُ المتتبّع باستقراء تامّ، أنّ عقائد المشركين في جاهليّاتهم تدورُ حول واحدٍ من المفاهيم الباطلة التالية:

المفهوم الأول: أنّ الآلهةَ الّتي اتخذوها من دون الله، وصَنَعُوا لها رُمُوزاً من الأوثان، لها بَعْضُ مُشاركةٍ لله في رُبُوبيَّته، فَلَهَا بِهٰذِهِ المشاركة لله في رُبُوبيَّته مُشاركةٌ له في إلٰهِيَّتِهِ، فَهُمْ يَعْبُدونَها رَجاءَ أن تَرْحَمَهُمْ فَتَجْلِبَ لَهُم نَفْعاً، أو تَدْفَعَ عنهم ضُرّاً، أو رجاء أن تَحْجُبَ عن أعدائهم نفعاً، أَوْ تُنْزِلَ بأعدائهم ضُراً.

المفهوم الثاني: أنَّ الآلِهَةَ الّتي اتَّخَذُوهَا من دُونِ الله، تُقَرِّبُهُمْ إلى الله زُلْفَىٰ.

المفهوم الثالث: أنّ الآلهةَ الّتي اتَّخَذُوها من دون الله تَشْفَعُ لَهُمْ عند الله، فَيَرْفَعُ اللَّهُ عَنْهُم الْعَذَابَ بشفاعَتِها لهم.

المفهوم الرابع: أنَّ آلِهَتَهُم الَّتِي اتَّخَذُوا لها أوثاناً يَعْبُدُونها ويُقَدّسونها قد كانت بمثابة رُمُوز رباطِ وحْدَةٍ قوميَّةٍ، تَجْمَعُ أفرادهم على مَوَدَّةٍ توجِبُ عليهم التعاوُنَ والتناصُرَ وكُلَّ ما تقتضيه الأُخُوَّةُ بَيْنَ جماعَةٍ ذَاتِ كَيَانٍ واحِدٍ.

وهذا ما كشفه إبراهيمُ عليه السلام لقومه.

قال الله عزَّ وجَلَّ في مَعْرِضِ ذِكْرِ لَقَطاتٍ من قِصَّةِ إبراهيم وقومه في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا

مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: جَعَلُوا الأوثانَ الّتي يَعْبُدُونَهَا من دُون الله، رُمُوزَ رابطَةِ مَوَدَّةٍ بَيْنَهُمْ، نَظِيرَ الشِّعَارَاتِ والأعْلَام الَّتي تَتَّخِذُها الشُّعُوبُ رُمُوزاً لِوِحْدَتِهِمْ القوميَّة، أو وحْدَتِهِمْ الوطنيَّة، إلَّا أنَّهُم أضَافُوا إلىٰ هٰذِهِ الرَّمْزِيَّةِ تَقْدِيسها وعبادتها من دون الله.

فكشَفَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ بمقالته لقَوْمِهِ الدَّوَافع الأولَىٰ لاتّخاذهم أوْثانهم، ورُبَّما تكُونُ عامَّةُ جماهيرهم جَاهِلَةً بهٰذه الدوافع الأولى، وتعبُدُ الأوثان بالتقليد الأعمَىٰ، وتَحْسَبُ أنها تنتفع في دنياها بهٰذِهِ العبادة.

من الأدلّة القرآنيّة على المفهوم الأوّل:

وهو اعتقاد المشركين أنّ شُركاءهم الذين يَعْبُدُونهم من دون الله، لهم مشاركة للّهِ في بَعْضِ خصائص رُبُوبيّته.

(١) قال الله عزّ وجلّ بشأن المشركين في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: لعَلَّ آلِهَتَهُمْ تَنْصُرُهم على أعدائِهم في الحروب الساخنة والباردة بمعوناتٍ غَيْبيَّةٍ، بِسَبَبِ عبادتهم لهم، فالمشركون يطمعون بأن تنصُرَهُمْ آلهَتُهم في المواطن الّتي يحتاجون فيها النَّصْر بوَسَائل غيبيّة.

إنّ النَّصْرَ بأعْمَالٍ غَيْبِيَّةٍ تَجْلُبُهَا عِبَادَةُ طالِبِ النَّصْر، هُو مِنْ خصائص رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ جَلَّ جلالُهُ، فَمَنْ عَبَدَ من دون اللَّهِ آلِهةً رَجاءَ أنْ تَنْصُرَهُ آلِهَتُه، فَقَدْ جَعَلَها شريكةً لله في بعض خصائص رُبُوبِيَّته، فجرَّهُ هذا الاعتقاد إلى

جَعْلِها شريكَةً لله عزَّ وجلَّ في إلٰهيته، تعالىٰ الله عن كُلّ ذَلِكَ عُلُوًّا كبيراً.

فآلِهَتُهُمْ من دون الله لا يستطيعون نَصْرَهُمْ، لأنَّهُم لا يَملكون شيئاً من الرُّبُوبيَّةِ عَلىٰ أيّ شيءٍ في الكون.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؛ أي: والْمُشْرِكُون يوم القيامةِ يكونُون في مَوْقف الحساب وفَصْل القضاء مُحْضَرِينَ مَعَ آلِهَتِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ جُنْدٌ مِنْ جُنُودهم، وتابعون لهم.

فإذا كانت آلهتُهم عالمين بالأمْرِ وراضين به، أُحْضِرُوا جميعاً في جهنَّم، وإذا كانوا جاهلين أو غير راضين، تبرأ آلهتهم منهم، وأبانوا لبارئهم عُذْرَهُمْ، وأُحْضِرَ عَابِدُوهُم في نار جَهَنَّم لينالوا عذابَ شركهم، خالدين فيه، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به.

* * *

(٢) وقال الله عزّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن مشركي مكّة إبَّان التنزيل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

لقد رفض مشركو مكة أن يسْجُدُوا للرَّحْمٰن قائلين: وما الرَّحْمٰن؟ أي: لا نسْجُدُ للرحمٰن، وما الرَّحْمٰن؟! على طريقة الاستفهام الإنكاريّ، دلَّ على هذا الكلام المحذوف حرف العطف (الواو) في صدر جملة: وما الرَّحْمٰن؟! ولولا ذلك لكان ينبغي أن يكون تعبيرهم: ما الرحمٰن؟! بدون حرف عطف.

إنّ مشركي مكة كانوا ينكرون صفة الرحمة لله عزَّ وجلَّ، فلا يُطْلِقُون

على الله اسْمَ الرَّحْمٰنِ من أسمائه الحسنى، ويعتقدون أنّ الرحمة من صفات من اتَّخذوهم آلهة من دون الله، فهم يعبدون هذه الآلِهَةَ لترحمهم فتستجيب لمطالبهم.

ومعلوم أنّ الإيمان برُبوبيَّة اللَّهِ جلّ جلالُه لا يكُون تامًّا حتَّى يكون شاملاً لكلّ عناصر ربُوبيته الّتي تَدُلُّ عليها صفاتُه وأسماؤه الْحُسْنىٰ، ومنها اسم الله الرحمٰن الدالُّ على رحمته الّتي وسِعَتْ كُلَّ شيء.

ولمّا كان كُفّارُ مكَّة غيْرَ مؤمنين بهذا العنصر من عناصر رُبوبيَّة الله تبارك وتعالى أنكروا اسم الله الرَّحمٰن.

إنّهم لاَ يجهلون المعنى الذي يدُلُّ عليه لفظ (الرحمٰن) المشتقّ من الرحمة، ولا يجهلون أنّ من يتصف بالرحمة العظيمة الواسعة يطْلَقُ عليه اسم الرحمٰن، واسم الرحيم.

لكنَّهم غير مؤمنين بأنّ الله الخالق للسماوات والأرض يتّصفُ بالرحمة العظيمة الواسعة التي يَرْحَمُ بها عبادَه، فيفيض عليهم بعطاءات ربوبيَّته، ومنها الرزق، والعافيةُ، والتوفيق، والمعونة، والنصر.

فقولهم الذي ذكره النّصُّ: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟! باستعمال اسم الاستفهام «ما» يدلُّ على أنهم يستفهمون عن الظواهر الّتي تدلُّ على أنّ الخالق للسماوات والأرض متَّصفٌ حقيقة بالرحمة.

لهذا جاء في النّصّ بيانُ بعض ظواهر رحمته جلّ جلاله، وبيان بعض آياته في كونه الدَّالة على أنَّه الرحمٰن الرحيم.

فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بعباده أنَّه جعل في السَّماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وجعل اللَّيْلَ والنهار يتعاقبان بنظامٍ دقيق، وفي كلُّ ذلك منافع كثيرة للناس، وهذه المنافع من عناية الله ورحمته بعباده.

وسبب نفور المشركين من سُجودهم لله الرّبّ الرحمٰن، أنّهم كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم الّتي يَعْبُدُونها من دون الله هي الّتي تجلُبُ لهم المنافع، وتدفع عنهم المضار، وتحقّق لهم النصر، وتُحقِّقُ لهم العزّة والقوة الغالبة، وهذا في الحقيقة اعتقادٌ منهم بأنّ آلِهَتَهُمْ تشارِكُ اللَّهَ عزَّ وجلّ في بعض عناصر الرُّبوبيَّة، الّتي لَيْسَ شيءٌ منها لغير الله تبارك وتعالى.

* * *

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) بشأن المشركين:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾.

عِزًّا: العِزُّ والعِزَّةُ الْقُوَّةُ الغالبة، يقال لغة: عَزّ يَعِزُّ عِزًّا وعِزَّةً، إذا قويَ واشتدَّ، وصار ذا قُوَّةٍ غالبة.

أي: واتَّخَذَ المشركون من دون الله آلهةً يعبُدونَهُمْ، ليجازوهم على عبادتهم لهم بأنْ يكونُوا لهم بتأثيراتهم الغُيبيَّة قُوَّةً غالِبَةً، تنصُرُهم على أعدائهم.

وقد زجرهم الله عزّ وجل بكلمة: [كلَّا] أي: لن تكون آلهتهم لهم عزّاً، إذ العزّةُ لله ولرسوله وللمؤمنين.

وحين يَنْصُر الله أولياءَهُ المؤمنين به وبرسوله، ويَمْنَحُهم العِزَّةَ، ويُذِلُّ أعداءَهم المشركين، سَيَكْفُرُ المشكرون بعبادَةِ آلِهَتِهم، إذْ يَرَوْن أنَّها عملٌ باطل، واعتقادٌ فاسِدٌ، وسيكونُون عليهم ضِداً، فيحطّمون الأوثان الّتي كانوا يعبُدونها، ويُشاركون المؤمنين في تكْسِيرها وتحطيمها ومعاداتها، ويسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ إلى توحِيد الرُّبُوبيَّة والإلٰهيَّة للَّهِ عزّ وجلّ.

وقد دلّ على أن هذا سيكون في الحياة الدنيا استعمال (السين) دون (سوف) في عبارة: ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ وقد حصل هذا بعد الانتصارات الإسلاميَّة في الغزوات، ولا سيما فتح مكّة.

* * *

من الأدلة القرآنية على المفهوم الثاني:

وهو أنَّ الآلِهَةَ التي اتَّخذَها بَعْضُ المشركين من دون الله، ما اتَّخذُوها ولا عَبَدُوها إلَّا لِتُقرِّبَهُمْ إلى الله زُلْفَىٰ.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿. . . فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ③﴾.

زُلْفَىٰ: الزُّلْفَىٰ والزُّلْفَةُ الْقُرْبَةُ والمنزلة. يقال لغةً: زَلَفَ إليه يَزْلُفُ زَلْفاً وَزَلِيفاً، أي: دنا إليه وقَرُبَ منه.

ويقال أيضاً: زَلَفَ فُلانٌ الشيْءَ إذا قَرَّبَه وأدناه، ويُقَالُ: أزْلَفه.

ولفظ ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ في النّصّ هنا اسمٌ أقيم مقامَ المصدر، أي: ما نعبُدهم إلَّا ليُقَرِّبُونا إلى الله مَنْزِلَة.

لَمَّا وضَحَ لبعضِ المشركين أنَّ آلهتهم لا تَمْلِكُ نفعاً ولا تَمْلِكُ ضُرّاً، لا جلباً ولا دفعاً ولا رفعاً، بَعْدَ أن أقيمَتْ عليهم الحُجَجُ البرهانيَّة، لجَؤوا إلى انْتِحَال مَعَاذيرَ لمَا وَرِثُوهُ عن آبائهم وأجدادِهم من عبادتها، فبَدَا لهم أنْ يُعَلِّلُوا عبادَتَهُمْ لَهَا بأنّ الْغَرَضَ منْهُ أنْ تُقرِّبَهُمْ إلىٰ اللّهِ مَنْزِلَةً، وهذا يَتَضَمَّنُ أنّ الله أذِنَ بعبادتها لتحقيق هذه الغاية.

فأبانَ اللّهُ عزّ وجلّ أنَّهُمْ كاذِبُون في مقالتهم مُبالِغُون في الكُفْرِ بالله عزّ وجلّ، فقال تعالى في النّصّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

أي: إنّ تَعِلَّتَهُمُ الّتِي قَدَّمُوها لا تَجْعَلُهم عنْد الله مَعْذورِين، فلا يَحْكُمُ اللّٰهُ لهم بالهداية والنجاة من عذاب المشركين، لأنَّ الله لَا يَهْدِي (أي: لا يَحْكُمُ بِهِدَايَةِ) مَنْ هُو كاذِبٌ كَفَّار.

إنّ عبادَةَ أولياء من دون الله لتُقَرّبهم منزلةً عند الله لاَ تَكُونُ إلَّا بأمْرٍ من الله أوْ إذْن، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يأذن بعبادة غيره كائناً ما كان، واعتبرها من الشِّرْك الّذي لا يغْفِرُهُ، في كلّ ما أنزَلَ من بيانات، وفي كلّ ما أرْسَل من رسالات.

فادّعاءُ أنَّ عِبادَتَهُمْ لأوليائهم تُقَرِّبهم إلى الله زُلْفَىٰ ادّعاءٌ كذِبٌ على الله، لا دليلَ عليه من العقل، ولا دليل عليه من بيان صحيحٍ في نصّ من كتُب الله، أو قولٍ عن رسول من رُسله.

وتقديمهم هذا الْعُذْرَ تَزْيينٌ لما هم فيه من كُفْرٍ، ومبالغَةٌ في الإصرار عليه.

ولمّا كان للمشركين مذاهِبُ في الشّرك مختلفة، وكانَتْ محكمة العدل الرَّبّانية مؤجّلة إلى يَوْم الدين، قال الله عزَّ وجلَّ في النصّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...﴾.

والله عزّ وجلّ لا يظلم في أحكامه أحدًا من عباده مثقال ذرّة.

* * *

من الأدلة القرآنية على المفهوم الثالث:

وهو أنّ الآلهة التي اتّخذها بَعْضُ المشركين من دون الله، إنّما عَبَدُوها لتشفَعَ لهم عند الله، فيرفَعَ اللّٰهُ عنهم العذابَ بشفاعتها لهم.

(٢) قال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) بشأن المشركين:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أبان هذا النَّصُّ أَنَّ فريقاً من المشركين يَعْبُدونَ آلهةً مِنْ دُون الله يَعْتَقِدُون أَنّها لَا تَضرُّهم، فهم يَعْبُدونها لا لتَكُفّ ضررها عنهم، وأَنَّهَا لَا تَنْفَعُهم فهم يعْبُدونَها لا لتَنْفَعَهُم في أمور دُنياهم، بلْ يَعْبُدونها لتكون شفعاءهم عند الله. [وَيَقُولُونَ: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤنَا عِنْدَ اللَّهِ].

لكنّ مقولتهم هذه مقولَةٌ كاذبة لا دليل عليها من عَقْلٍ صحيح، ولا دليلَ عليها من بيانٍ ثابتٍ عن الله أو عن رسولٍ من رسُله.

بل تُثْبت الأدلة العقليّة أنّ العبادة لا تكونُ إلَّا لِلَّهِ الرَّبّ وحده لا شريك له، وتثبت البيانات الدينيَّةُ أَنَّ عبادةَ غيْرِ الله كُفْرٌ باللَّهِ صاحبِ الحقّ في العبادة، فإذا كانت مع عبادة اللَّهِ فَهِيَ شِرْكٌ.

وإثباتُ الشفاعة لمعبوداتهم، واعتقادُ أنَّها تَشْفَعُ لَهُمْ عند الله، هو من الافتراء على الله، إذْ لم يثبُتْ عن اللَّهِ عزّ وجلّ شيءٌ من ذلك.

وقد جاء بَيَانُ كَذِبهم وافترائِهم على الله في ادّعاء أنّ آلهتهم تَشْفَعُ لهم عند الله، بأسْلُوب من البيان بديع، فقال الله عزّ وجلَّ معلّماً رسَولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى دين الله من أُمّته:

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

أي: شفَاعَةُ الشفعاء عند الله قَضِيَّة لا تُعرَفُ إلَّا بِبَيَان مُنَزَّلٍ عن الله جلّ جلالَهُ، ولا تتحقّقُ الشفاعة لأحد عند الله إلّا بقضاءٍ من الله يصْدُر به أَمْرٌ أو إذْن.

لكنّ وجُودَ آلهة من دون الله يُقْصَدُ بِعِبَادَتِها أن تشفع لعابديها عند الله قَضِيَّةٌ لَا يَعْلَمُها اللَّهُ، كما أبَانَ الله عزّ وجلّ في الآية، وهُوَ العليم بكلّ شيءٍ، بَلْ يَعْلَمُ نقيضها، وهو أنَّه لا وُجُود لآلهة من هذا القبيل.

فالباطل يعْلَمُ اللَّهُ أنه باطل، ولا يَعْلَمُ أَنَّه حقٌّ، والمعدومُ يعْلَمُ اللَّهُ أنَّهُ مَعْدُومٌ، ولا يَعْلَمُ أَنَّهُ موجود فعدم علم الله بشيءٍ هو علم بنقيضه.

وإذا كان شيءٌ لا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ حقٌّ، فهو يَعْلَمُ حتماً أَنَّهُ غَيْرُ حَقٍّ.

والذينَ يُثْبِتُون آلِهَةً تشفع لهم عند الله يُنَبِّئُونَ اللَّهَ بما لَا يَعْلَمُ في السَّمَاوات ولا في الأرض، فهم كاذبون مَفْتَرون على الله جلّ جلاله، وهم مُشْرِكون.

* * *

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) بشأن المشركين:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: بل اتَّخذَ المشركون من دون الله آلهةً بقصد أن تكون شُفَعَاءَ لهم عند الله؟!

قل لهم أيها الداعي إلى التوحيد ونَبْذِ الشرك: أتتخذون آلهة لَتَشْفَعَ لكم عند الله ولو كانوا لَا يَمْلِكُونَ من أمرِ اللَّهِ شيئاً شفاعةً فما فوقها، ولَوْ كانوا أصناماً لا تفهم شيئاً، أَوْ أحياءً ذَوَاتَ أهواء لَا تَعْقِل أهواءها عن الوقوع في المهالك وفي عذاب الله؟!!

قل لهم: لله الشفاعة جميعاً، فما من شافِعٍ يَشْفَعُ عنده إلّا بإذنه. له

مُلك السماوات والأرض، وإليه تُرجعون للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء.

* * *

وأمّا المفهوم الرابع فقد سبق بيان الدليل عليه عند ذكره، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

ثامناً:

خطأ الرأي القائل إنَّ العربَ في جاهليتهم كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبيَّة.

لدىٰ تتبع النصوص القرآنيّة الّتي تتحدَّث عن شِرْكِ مشركي العرب قبل تنزيل القرآن وإبَّانَ تنزيله ظهر لي:

(١) أنّ معظمهم كانوا يُؤمنون بأنّ الذي خلَقَ السماوات والأرض هو الله العزيز العليم.

(٢) لكِنَّ هؤلاء كانوا يَرْبطون رزقهم وحياتهم وتدبير أمورهم، وما يُصيبهم من منافع تَسُرُّهم، ومضارّ تسؤوهم، بآلهتهم الَّتي اتّخذوها من دون الله، ويعتقدون أنها هي الّتي تنفعُ وتَضُرُّ.

أمّا الله الرَّبّ الخالِقُ فَرُبُوبِيَّتُه ربوبيَّةُ التكوين، لا ربوبيَّةُ التَّدْبير والعناية بما خلق، ولا رُبوبيَّةُ الرَّحْمٰنِ الذي يرْحَمُ عباده، فيُمِدُّهُمْ بعطاءاته ويدفَعُ عنْهُم الضُّرَّ، ويَكْشِفُ عنْهُمُ السُّوءَ، ولا رُبُوبيَّةُ المهيْمِنِ على كلّ شيءٍ، الّذي يراقب أعمال العباد ليجازيهم بحَسَبِها، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فَشَرٌّ.

وفيما يلي استعراض طائفة من النصوص القرآنيّة حول هذا الموضوع، مقرونةٍ بنظراتٍ تدبُّرِيَّة.

النّصّ الأول:

قَوْل الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) يُعَلّم رسُوله فكُلَّ داعٍ إلى الله من أمّته، أسْلُوبَ محاجَّةِ المشركين عن طريق طرح الأسئلة:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذا النّص النازِلُ في أواسط المرحلة المكيّة لم يَأْت التَّعبير فيه عمَّا يُجِيبُ به المشركون: «لَيَقُولُنّ: الله» إنما جاء التعبير فيه: [فَسَيَقُولُونَ: الله].

أي: فسَيَقُولُونَ لمُناظِرِهم بعد إقامَةِ الْحُجَجِ والبراهين عليهم: [الله] بدليل وجود حرف الاستقبال الذي هو «السّين» إذْ هو يَدُلُّ على أَنَّ الجوابَ غيْرُ حاضرٍ في أذهانِهِمْ، وفي الجاهزٌ من عقائدهم، حتَّىٰ يقولوه، فالأسئلة في النّصّ موجَّهَةٌ لمعرفة عقائدهم بشأن مَنْ يَرْزُق، ومَنْ يَمْلِكُ السمع والأبصار، ومن يحيي ويميت، ومن يُدَبّر الأمر في الكون كلّه، وهم يعتقدون أنّ هذه الأمور من خصائص الآلهة الّتي يعبدونها من دون الله، فهم بهذا يَجْعَلُونَ لله شركاء فيما هو من خصائص ربوبيته.

فاقتضى واقع حالهم تصحيح عقيدتهم حول توحيد كلّ عناصر الرُّبوبيّة لله عزّ وجلّ، حتَّىٰ يقتنعوا بضرورة توحيد الإلَٰهيَّة له، فلا يُشْرِكوا بعبادته أحداً.

وهذا التصحيح يكون بالمناظرة المنطقيّة العقليّة، وإقامة الحجج والأدلة البرهانية.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) بشأن المشركين:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

تَضَمَّنَ هذا النّصّ أنّ إيمانَهم بأنّ الله عزّ وجَلَّ هُو الذي خَلَقَ السَّماوَاتِ والْأَرض، إيمانٌ حَاضِرٌ في أذهانهم، وثابتٌ في عقيدتهم، لَا يحْتَاجُ محاجَّةٌ ولَا مُناظَرة، فجوابُ السؤال عنه جاهزٌ لديهم، وجاء التعبير الذي يعبّرون به بصيغة: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾.

لكنّ خلق السَّماوات والأرض لا يشْمَل كُلّ عناصر رُبوبيّة الرّبّ جلّ وعلا، فهم يؤمنون بهذا العنصر، لكنَّهُمْ لا يؤمنون بأنّ الله هو الذي يرزقهم، ويمدّهم بعطاءات ربوبيته، ويُدَبّر الأمْر كُلَّهُ في كلّ شيءٍ من الكون ومن العباد، إنَّهم يَجْعَلُونَ هذه الأمُور من أعمال آلِهتهم، وهذا شِرْكُ بربوبيَّة الله عزّ وجلّ، وهذا الشّركُ جرّهم إلى أن يعبدوا آلِهَتَهُمْ لِتُحقِّق لهم مطالبهم من دُنياهم.

* * *

النصّ الثالث:

قَوْل الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذا النصّ تعليم جدليّ يبدأ مِنْ أرضيَّةٍ مُشْتَرَكة بين الداعي إلى توحيد اللَّهِ في الرُّبوبيَّةِ وفي الإلَهيَّةِ، وبين المشركين.

أمّا الأرضيَّةُ المشتركة، فهي إيمانهم بأنَّ اللَّهَ هو الذي خلَقَ السَّمَاواتَ والأرض، وهم يعترفون بهذه الحقيقة بتلقائيَّة، لذلك فهم يقولون في جواب السؤال عمَّنْ خلَقَ السَّماوات والأرض دون تريُّثٍ: [الله] وجاء التعبير القرآني: [لَيقولُنَّ اللَّهُ].

عندئذ يَنْقُلُهم الداعي إلى عناصر أُخرَىٰ من عناصر رُبوبيَّةِ الله، وهي من الأمور الّتي يجعلونها لشركائِهم، فجرَّهُمْ اعتقادُهُم الباطل إلى عبادتها، ويُقيمُ لهم البراهين على أنّ آلهتهم لا تَمْلِكُ شيئاً منها.

* * *

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) يعلّم الله رسُوله ﷺ فكُلَّ دَاعٍ إلى دين الله من أُمته أسلوباً من أساليب مجادلة المشركين:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

موضوعاتُ الأسئلة الموجهة في هذا النّص للمشركين، تَتَعَلَّقُ بعناصر من عناصر رُبوبيَّة الله لكونه، وهي عناصر لا يؤمِنُ المشركون بأنّ للَّهِ عزَّ وجَلَّ رُبُوبيَّةً عليها، بل يَجْعَلُونَ الرُّبوبيَّة عليها لشركائِهم التي يعبدونها من دون الله.

لكن بَعْدَ أنْ يَقَدِّم الدّاعي إلى اللَّهِ حُجَجه وبراهينه، سيقول من لديه استعداد للإيمان بالحقّ منهم: إنّ الرُّبوبيَّة حقًّا هي لله عزّ وجل، في الموضوع الذي جرى حوله سؤال الداعي.

وقد اشتمل النصّ على أسئلة ثلاثة، وجاء عقب كلّ سؤال منها بيان أنّ المشركين [سَيَقُولُونَ لله] فجاء في العبارة حرف الاستقبال الذي هو «السين» للدّلَالَة على أنّ المشركين ليسَتْ لديهم عقيدة حاضرة بأنّ الربوبيَّة في موضوعات الأسئلة الثلاثة هي لله، بل هي لشركائهم.

لكنَّ الحجَجَ والبراهين تُلْزِمُهُمْ مُسْتَقْبلاً بأنْ يَعْتَرِفُوا بالحقِّ، ما لم يكونوا من المعاندين المكابرين المصرِّين على الباطل الذي ليس لهم دليلٌ عليه.

* * *

خاتمة:

إن الذين قالوا: إنّ مُشْرِكي العرب كانوا يؤمنون بتوحيد الرُّبوبية لله عزّ وجلّ، إلّا أنهم لم يكونوا يؤمنُون بتوحيد الإلهيَّة له، لم يَتَنَبَّهوا إلى الفرق الكبير بين العبارة القرآنية [لَيَقُولُنَّ الله] والعبارة الأخرى [فسيقولونَ الله] أو [سيقولُون لله]. ولا إلى الفرق الكبير بين المسؤول عنْهُ في المناظرة، هل هو خَلْقُ السَّماوَات والأرض، الذي هو بعض عناصر الرّبوبيّة، أو هو قضايا الرزقِ، والرحمة، والنصر، والعناية بالعباد، والإحياء والإماتة، وتَدْبيرِ كلِّ شيء في الكون في الأرض وفي السماء، وهذه القضايا واقعة تحت سلطان ربوبيَّةِ الله، وقد جعل المشركون الرُّبوبيَّة عليها لآلهتهم التي يَعْبُدونها من دون الله.

وسبب الخطأ التعجُّل في الفهم، وإغفالُ استقراء النصوص، وعَدَمُ تَدَبُّر معانيها بسَبْرٍ عميق.

* * *

تاسعاً: القبوريُّون من المسلمين:

تبدَأُ الانحرافاتُ إلى الشرك على اختلاف دركاته من الغُلوّ في تعظيم الصالحين، الّذين قَدْ يُجْرِي الله عزَّ وجلّ لهُمْ بعض الكرامات المادّيّة أو المعنويّة.

ويتعلَّقُ عَوامُّ المسلمين بقبورهم بعْدَ موتهم، وتعظُم شجرة الاعتقاد بولاياتهم، وبأنَّهم أهل الله وخاصّته.

ثمّ يتدرَّج المعظِّمون لهم إلى التوسُّل بهم إلى ربّهم، رَجَاء أن يُحَقِّق الله لهم مطالبهم، إكراماً لهم باعتبارهم من أوليائه الصالحين.

ثُمَّ يقوم في ظنّ هؤلاءِ المعظِّمين للموتى من الصالحين أن يُرضوهم ببذل شيءٍ لأرواحهم، كذبائح يذبحونها لهم، وقربانات يتقربون بها إليهم، وهي من نوع عبادات المشركين لأوثانهم، وكأموال يبذلُونها لأضرحتهم، وهذه الأموال يَسْتَحوذُ عليها سدنة الأضرحة، والقائمون عليها.

ويتفاقم الأمر حتى يقوم معظِّمو هذه الأضرحة بأعمالٍ تشبه الركوع والسجود والطواف، وهي من العبادات الّتي لا تكون إلّا لله عزّ وجلّ، ويرافق هذه الأعمال نداءُ الموتَىٰ وسؤالُهم أن يحققوا لهم مطالبهم في حياتهم، ولو بالتوسل لهم، والشفاعة لدى بارئهم، وهذه المطالب تتعلّق بالرزق، أو التوفيق في الأعمال، أو الزواج، أو الحمل والولادة، إلى غير ذلك من مطالب الناس في حياتهم.

وعندئذٍ تضاهي أحوال هؤلاء أحوال المشركين من أهل الجاهليّة، ويدخلون تحت قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

فالواجب سدُّ الذريعة مُنْذُ بوادرها الأولَىٰ، واقتلاع نبتاتها منذ بداياتها مهما كانت خفيفة، حتَّىٰ لا تتفاقَمَ في نفوس الجاهلين، فالنفوسُ البشريّة سَريعةُ الإنْسِيَاق وراء الأوهام إلى أوديةِ الشّرْكِ الخفيّ، فالشّرْكِ الجليّ.

نعوذ بالله من كلّ شرك، ونسأله العصمة والحفظ والحماية، وسلامة الاعتقاد وسلامة العمل، إنّه سميعٌ مجيب.

إنّ الذين يُنادُون أهل القبور دُعاءً وتوسُّلاً يدخلون في عموم قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

من قِطْمير: القِطْمِيرُ القشرة البيضاء الرقيقة التي تكون حول النواة، تفصل بين التمرة ونواتها.

فالواجب على المؤمن أن يسألُ الله عزّ وجلّ مباشرة في كلّ أمْرٍ من أمور آخرته أو دنياه، ولو رأىٰ نفسه كثير المعاصي والمخالفات، فالدُّعاءُ من أجلّ العبادات وأوصلها إلى الله متَىٰ كان خالصاً لله من الشرك وشوائبه.

* * *

عاشراً: الدهريّون والملْحِدُون الماديّون:

الدهريّون من أهل الجاهليات الأولى:

قَصُرَتْ نظراتُ عُبّادِ أهوائهم وشهواتهم مَنْذُ الجاهليات الأولىٰ، فرأَوْا أنّ التّغيُّراتِ الكونيَّة، والأحداثَ المتنوّعة الّتِي تَجْرِي في الأرض

وفي السماء، تأتي ضِمْنَ مُرورِ الأزمان من نَهْرِ الزّمَنِ الْكُلّيّ الجاري الّذي يُطْلِقُونَ عليه لفظ «الدهر» فتوهَّموا أنَّ الدّهر هو المؤثر في أحداث الكون، من بناءٍ وهدم، واجتماعٍ وافتراق، وليلٍ ونهار، وفصولٍ سُنَوِيَّةٍ دائرةٍ، وحياةٍ وموت، وإنشاءٍ وَإفناءٍ، وأنكَرُوا وجود رَبٍّ خالقٍ مُهَيْمنٍ علىٰ الكون، ومُتَصرّفٍ فيه بعلمه وحكمته وقدرته، ضِمْنَ قضائه وقَدَرِهِ الحكيمَيْن، وقالوا: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنيا نَمُوتُ ونَحْيا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهر.

وانْطَلَقُوا خاضعينَ ذَلِيلينَ مُطِيعن لأهوائِهِم وشهواتِهِم، مَهْما حَمَّلَتْهُمْ من أَعْباءٍ ومَشَقَّاتٍ، حتّى دَرَكَةِ التضحيةِ بالحياة كلّها.

فَمَا كانَ يَجِبُ أنْ يكونَ لله عزّ وجلّ من عبادَةٍ بالطَّاعَةِ والخضوعِ والذُّلّ، جَعَلُوهُ لِأَهْوَائهم، وشَهَوَاتِهِمْ، ومَطَالِبِ نُفُوسِهِمْ.

الملحدون المادِّيُّون المعاصرون:

ورأىٰ المِلحِدُونَ المادِّيُّونَ المعاصِرُون عُبَّادُ أهوائهم وشهواتهم، أنّ ذَرّاتِ الكَوْن تتحرَّك باسْتمرار، فأضافُوا إلى فِكْرَةِ الدهريّين القدماء عاملاً آخَر مع عامل مرور أجزاء الزّمن من الدهر الجاري باستمرار، وهو عامل حركَةِ أجزاء الكَوْن، فَتوهَّمُوا أنّ تغيّراتِ الكون وأحداثه تتحقّق بمؤثِّرَين:

المؤثر الأول: حركَةُ أجْزَاء الكَوْنِ المستمرّة الّتي يَحْصَل بها اجتماعٌ وافتراق وتفاعل.

المؤثر الثاني: مُرور الزّمن.

وانتهوا إلى النهاية الّتي انْتَهَىٰ إليها الدهريون القدماء، فأنْكَرُوا وجُودَ رَبٍّ خالقٍ مُهَيْمِن على الكون ومتصرِّف فيه، وانْطَلَقُوا خاضعين ذَلِيلين مطيعين لأهوائهم وشهواتهم، مهْمَا حَمَّلَتْهُمْ من أعْباءٍ ومشقّاتٍ، حتّىٰ دَرَكَةِ التضحية بالحياة كُلّها.

ونستطيع أن نطلق على هؤلاء عنوان «الدهريون المادّيون» وهم أشباه الدهريّين من أهل الجاهليات الأولى.

وكُلٌّ واحدٍ من الفريقين قد اتخذ إلَهه هواه، وينطبق عليهم جميعاً قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: أي: جَعَلَ مَعْبودَهُ في حياته هَواهُ، فَهُو يُطِيعُه في كلّ مطالبه، ويخضَعُ له ويَذِلُّ، ولَوْ جَرَّهُ إلى أوديَةِ العذابِ، وألقاه في المهالك.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي: وحَكَمَ اللَّهُ عليه بالضَّلالِ استناداً إلى واقع حالِه الضَّالِّ عن صراط الحقِّ والهدَىٰ، وهذا الواقع مشمولٌ بعِلْم الله الذي لا يَعْزُبُ عن علْمِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولا في السَّماواتِ ولا في الوجود كلِّه.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾: أي: وكَانَ من أثَرِ ضَلَالِهِ الْبَعيد عن صِرَاطِ الحقِّ والهدى، أن تَتَحقَّقَ فيه سُنَّةٌ من سُنَنِ اللَّهِ في عبادِه، الَّتِي تَجْرِي بِهَا مَقَادِيرُهُ الْعَامَّةِ، وهي الْخَتْمُ علىٰ سَمْعِهِ، فَهُوَ لَا يَسْمَعُ دَعْوَةً إلىٰ الْحَقِّ والْهُدَى، والْخَتْمُ عَلَىٰ قَلْبِهِ، فَهُوَ لا يُفكِّرُ في أَدِلَّةٍ تَهْدِيهِ إلى الحقّ، والْغِشَاوَةُ على بَصَرِهِ، فَهُوَ لَا يَرىٰ آياتِ اللَّهِ في كونه.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾: أي: فَمَنْ يَحْكُمُ لَهُ بالْهِدَايَةِ بَعْدَ أَنْ حكم الله عليه بالضلال حكماً مبنِيًّا عَلَى علْمٍ بحاله الضّال.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: أي: أفَلَا تَضَعُونَ هٰذه الحقائق في ذاكراتِكُم لتميّزُوا بَيْنَ أهل الضلالَةِ وأهل الْهُدَىٰ.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾:

لمّا اتّخذ هؤلاء الْجَاحِدُونَ لِرَبّهم، آلِهَتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ، وانْطَلَقُوا يمارسون القبائِح والمنكرات وَيُفْسِدُون في الأرض، أخَذُوا يدافِعُون عن جرائِمِهم بأنَّهُمْ لا يخشَوْنَ من عِقَابِ أحَدٍ، إذْ لا رَبَّ في الوجود يجازي النَّاسَ بالعدل على أعمالهم، وهم يَغْتَنِمُون ما يَلذُّ لهم في حياتهم، الّتي ليس لهم حياة بعدها، وقالوا: ما هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنيا، أمْوَاتٌ يموتون، وأحياءٌ يَحْيَوْنَ، وما يُهْلِكُنَا بالموتِ إلَّا مُرُور الزمن من نهر الدهر الذي لا نهاية له.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: أي: ومَا لَهُمْ بذلك الذي قَالُوهُ مِنْ عِلْم اعتَمَدُوا عليه، بلْ هم يتّبِعُونَ ظنًّا ضعيفاً لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ صَحيحةٌ مقبولَة، ومعلومٌ أنّ الظنَّ لَا يغني من الحق شيئاً.

وحين تُقدَّمُ لهم آياتُ الله البيّنات المثبتَاتُ لرُبوبيّة اللّهِ وإلٰهيَّتِه وَعَدْله، وَمَا أنبأ به من الحساب وفصل القضاء والجزاء يوْم الدّين، يَوْم يَبْعَثُ اللّهُ الموتَىٰ لإقامة عدله وفضله في عباده، لا يجدون حجَّةً يَحْتَجُّونَ بها إلَّا أنْ يقولُوا: ائْتُوا بآبائِنَا إنْ كنْتُمْ صَادِقِين بخبر البعثِ إلى الحياة مرَّةً أُخرَىٰ.

إنّهم سيَنْدَمُون يوم يُبْعثون، يَوْمَ لا ينفعهم النَّدم شيئاً، وسيخلُدُون في عذابِ السعير، في جهنَّمَ وبئْسَ المصير.

وبهذا انتهىٰ الملحق الثالث والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

سورة مريم

١٩ مصحف ـ ٤٤ نزول

مَكّيّة كُلّها إلّا الآية (٥٨)
والآية (٧١) فهُما مدنيّتان

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ
نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي
وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾
وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ
لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ
وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ

---

١ ـ سكت أبو جعفر على كُلّ حَرْف سكتة لطيفة بدون تنفس من [**كهيعص**]، وباقي القراء العشرة ليس لديهم هذا السكت.

٢ ـ مع ٣ ـ قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**زَكَرِيًا إِذْ**] دون إثبات همزة: زكرياء. وقرأ باقي القراء العشرة: [**زَكَرِيَّاءَ إِذْ**] بإثبات همزة: زكرياء إذ».
وسهّل الهمزة الثانية: نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمرو، ورُوَيس.

٥ ـ قرأ ابن كثير: [**من وَرَائِيَ**] بفتح ياء المتكلّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكان ياء المتكلم هذه، وهما وجهان عربيان.

٦ ـ قرأ أبو عمرو، والكسائي: [**يَرِثْنِي وَيَرِثْ**] بجزم الفعلين على أنهما جواب الطلب في: [**فَهَبْ**] وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**يَرِثُنِي وَيَرِثُ**] برَفْع الفعلين، على اعتبار أنَّ جملة [**يَرِثُنِي**] صفة لـ [**وَلِياً**] أي: ولياً وارثاً لي.

٧ ـ قرأ حفص، وحمزة والكسائي، وخلف: [**يَا زَكَرِيًا إِنَّا**] بحذف الهمزة من «زَكَرِيًا» وقرأ باقي القراء العشرة: [**يَا زَكَرِيَّاءُ إِنَّا**] بإثبات همزة «زَكَرِيَّاء».
وسهَّل الهمزة الثانية وأبدلها واواً خالصة: نافع، وابن كثير، وابو عمر، وأبو جعفر: ورُوَيس. =

يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ
لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ
عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ
خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ
ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ
وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا
﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ
وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ
وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ
أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ
إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ

---

٧ - قرأ حمزة: **[نَبْشُرُكَ]** من فعل «بَشَرَه» وقرأ الباقون: **[نُبَشِّرُكَ]** من فعل «بَشَّرَه» وهم لغتان.

٨ - قرأ حفص، وحمزة، والكسائي: **[عِتِيًّا]** بكسر العين. وقرأ الباقون: **[عُتِيًّا]** بضم العين، وهما لغتان.

٩ - قرأ حمزة والكسائي: **[وَلَقَدْ خَلَقْنَاكَ]** وقرأ الباقون: **[وَلَقَدْ خَلَقْتُكَ]** القراءتان تدلان على بيانين لزكريًّا.

١٠ - قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[لِيَ آية]** بفتح ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإسكانها، وهما وجهان عربيان.

١٨ - قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[إنِّيَ أَعُوذُ]** بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ
لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ
يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ
عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا
مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا
﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ
هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي
قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ
تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا

---

١٩ ـ قرأ قالون بخُلْف عنه، وورش، وأبو عمرو، ويعقوب: **[لِيَهَبَ لَكِ]** أي: رَبُّكَ. وقرأ باقي القراء العشرة: **[لِأَهَبَ لَكِ]** أي: لأكون سبباً في إيصال هِبَةِ رَبِّك لك. ودلت القراءتان على أنّ جبريل عليه السلام أبلغ مريم البيانين كليهما. فأبان لها الواهب وأبان لها السَّبب.

٢٣ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابْن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: **[مُتُّ]** بضم الميم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[مِتُّ]**بكسْر الميم. وهما وجهان عَربيان.

٢٣ ـ قرأ حفص، وحمزة: **[نَسْياً]** بفتح النون. وقرأ باقي القراء العشرة: **[نِسْيًا]** بِكَسْرِ النون. وهما وجهان عَرَبيان.

٢٤ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابْن عامر، وشعبة، ورُويس: **[مَنْ تَحْتَها]** أي: الّذي هو تحتها، على أن «مَنْ» اسم موصول.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[مِنْ تَحْتِهَا]** على أنّ «مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ.
والقراءتان هُما من قبيل التَفَنُّنِ الجميل في التعبير، مع إفادة «مَنْ» الموصوليّة أنَّ المنادي حيٌّ ذو عِلْم.

٢٥ ـ قرأ حَفْصٌ: **[تُسَاقِطْ]** وقَرأ حمزة **[تَسَاقَطْ]** أي: تَتَساقَطْ.
وقرأ يعقوب: **[يَسَّاقَطْ]** أي: يَتَسَاقَطُ، وقرأ باقي القراء العشرة: **[تَسَّاقَطْ]** أي: تَتَسَاقط، وهذه القراءات من التفنّن البديع في التعبير، والمؤدّى واحد.

تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ
أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ
يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ
أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ
قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي
عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا
أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا
﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ
عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ
عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا
كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا

---

٣٠ - قرأ حمزة [**آتَاني الكِتَابَ**] بإسكان ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بفتحها وهما وجهان عربيان.

٣٤ - قرأ ابن عامر، وعاصم، ويعقوب: [**قَوْلَ الْحَقِّ**] بنَصْبِ «قَوْلَ» وقرأها باقي القراء العشرة: [**قَوْلُ الْحَقِّ**] برفع «قول». وهما وجهان إعرابيان جائزان.

٣٥ - قرأ ابن عامر: [**كُنْ فَيَكُونَ**] بنَصْب «فَيَكُونَ» على أن الفاء سببيَّة والفعل بعدها منصوب بأن مضمَرة وجوباً. وقرأ باقي القراء العشرة: [**كُنْ فَيَكُونُ**] برفع «فَيَكُونُ» على أنّ الفاء حرف عطف، أيْ: كُنْ فهو يكون فوراً.

٣٦ - قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي**] بفتح همزة «أَنَّ» على أنّ الجملة معطوفة بالرفع على [**والسَّلَامُ عليَّ**]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي**] بكسر همزة «إنَّ» على أنَّها واقعة في ابتداء الكلام والواو استئنائية، والقراءتان متكاملتان.

صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ
مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ
ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ
ٱلۡأَمۡرُۚ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ
عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا
نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا
يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ
فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ
ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ
عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ

---

٣٦ ـ قرأ قُنبُل، ورُويس [سِرَاطٌ] بالسين، وأشَمَّ الصاد زاياً خَلَفٌ عن حمزة. وقرأها باقي القراء العشرة: [صِراطٌ] بالصاد. وهي وجوه عربية في نطق الكلمة.

٤٠ ـ قرأ يعقوب: [يَرْجِعُونَ] بالمبني للمعلوم، وقرأ باقي القراء العشرة [يُرْجَعُونَ] بالمبني لما لم يُسَمَّ فاعله. والقراءتان متكاملتان، أي: يُرْجَعُونَ بأمر الله، فيَرْجعون مطاوعين.

٤١ ـ قرأ هشام: [إِبْرَاهَامَ]. وقرأ الباقون: [إِبْرَاهِيمَ]. وهما وجهان لنطق اسمه في العربية.

٤٢ ـ قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [يَا أَبَتَ] بفتح التاء في هذه وفي المواضع الثلاثة الأخرى (٤٣) و(٤٤) و(٤٥). وقرأها الباقون: [يا أبتِ]، وهما وجهان عربيّان جائزان.

٤٣ ـ في كلمة [صِراط] القراءات التي سبقت في الآية (٣٦).

٤٥ ـ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنّيَ أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأ الباقون بإسكانها.

ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾
قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا
﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَـٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا
لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِى
ٱلۡكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ
مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ
أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَـٰبِ إِسۡمَـٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ
ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ
وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَـٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ
صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ

---

٤٦ ـ في [يا إبْراهيمُ] القراءات التي سبقت في الآية (٤١).

٤٧ ـ قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ إِنَّهُ] بفتح ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإسكانها.

٥١ ـ قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [مُخْلَصاً] بفتح اللّام. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُخْلِصاً] بكسر اللام. والقراءتان متكامِلَتان في أداء المعنى المراد، أي: هو مخلِصٌ لله، وقد جعله الله مُخْلَصاً.

٥١ ـ قرأ نافع: [نَبِيئاً] بياء مدّية وهمزة بعدها. وقرأها باقي القراء العشرة: [نبيّاً] بياء مشدّدة. وهما وجهان لنطق الكلمة في العربية.

٥٣ ـ في كلمة [نَبِيّاً] القراءات التي سبقت في الآية (٥١) وكذلك في الموضعين الآخرين في الآية (٥٤) وفي الآية (٥٦).

عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ
إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ
خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن
تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا
﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ
مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا
بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ
تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا

---

٥٨ ـ وقرأ حمزة، ويعقوب: **[عَلَيۡهُمۡ]** بضم الهاء. وقرأ الباقون **[عَلَيۡهِمۡ]** بِكَسْرِ الهاء. والقراءتان وجهان عربيَّان في النطق.

٥٨ ـ قرأ نافع: **[مِنَ النَّبيئِينَ]**، وقرأها الباقون: **[مِنَ النَّبِيِّين]**. والقراءتان وجهان عربيان في النطق.

٥٨ ـ قرأ أبو جعفر: **[وإِسْرَايِيلَ]** بالتسهيل مع المدّ والقصر. وقرأها الباقون: **[وإِسْرَائِيلَ]** بالتحقيق. والقراءتان من وجوه النطق الجائزة في العربية.

٥٨ ـ قرأ حمزة، والكسائي: **[وَبِكِيّاً]** بكسر الباء. وقرأها الباقون: **[وَبُكِيّاً]** بضم الباء. وهما وجهان عربيان.

٦٠ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرُو، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: **[يُدْخَلُونَ الجنَّةَ]** بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ باقي القراء العشرة: **[يَدْخُلُونَ الجنَّةَ]** بالبناء للمعلوم.

والقراءتان متكاملتان في تأدية المعنى المراد، أي: يُدْخلهم الله فيدخلونها حامدين.

٦٣ ـ قرأ رُوَيس: **[نُوَرِّثُ]** بتشديد الراء من فعل: «وَرَّثَ» المضعف، وقرأها باقي القراء العشرة: **[نُورِثُ]** من فعل «أَوْرَثَ» المهموز. والقراءتان متكافئتان، إذ الهمز أخو التضعيف.

خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا
﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا
يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾
فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا
﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا
﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ
إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا

---

٦٦ ـ قرأ ابن ذكوانٍ بخُلفٍ عنه: [إذا] بحذف همزة الاستفهام. وقرأ الباقون: [أءِذَا] بإثبات همزة الاستفهام، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

٦٦ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: [مُتُّ] بضم الميم. وقرأ الباقون: [مِتُّ] بِكَسْرِ الميم. وهما وجهان عربيان.

٦٧ ـ قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم: [أَوَ لاَ يَذْكُرُ] من فعل «ذَكَرَ» وقرأ الباقون [أَوَ لا يَذَّكَّرُ] أي: أولا يَتَذَكَّر، من فعل «تَذكر»، وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد: إذ بعض أفراد نوع الإنسان تلائمه قراءة «يَذْكُرُ» وآخرون يلائمهم قراءة «يَذَّكَّرُ» حثاً لهم على أن يتذكَّروا.

٦٨ ـ قرأ حفص، وحمزة، والكسائي: [جِثِياً] بكسر الجيم. وقرأ الباقون: [جُثِياً] بضم الجيم، وكذلك في الآية (٧٢). وهما لغتان عربيتان. ونظير هاتين القراءتين في كلمتَيْ: [عِتِيًا] و[عُتِياً] وفي [صِلِيًا] و[صُلِيًا] في الآيتين (٦٩) و(٧٠).

٧٢ ـ قرأ الكسائي، ويعقوب: [نُنْجِي] من فعل: «أَنجَىٰ» المهموز. وقرأ الباقون: [نُنَجِّي] من فِعل: «نَجَّىٰ» المضعف. والقراءتان متكافئتان، لأن الهمز أخو التضعيف.

٧٣ ـ قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيهُم] بضم الهاء، وقرأ الباقون: [عَلَيهِمْ] بكسر الهاء. وهو نطقان عربيان.

بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا
وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا
وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ
إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ
شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ
هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾
أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾
أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ
مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا
فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا
﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ

---

٧٣ - قرأ ابن كثير: **[مُقاماً]** بضم الميم، من فعل «أَقَامَ» يقال: أقامه مُقَامه. وقرأ الباقون: **[مَقاماً]** بفتح الميم، من فعل: «قَامَ» الثلاثي. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، أي: يُهَيَّأ لهم «مُقَامٌ» فيتَّخِذُونَهُ «مَقَاماً».

٧٤ - قرأ قالون وابن ذكوان، وأبو جعفر: **[وَرِيّاً]** الرِّيُّ: امتلاء البَدَنِ امتلاءً يعطي نضارة. وقرأ الباقون: **[وَرِئياً]**. الرِّئْيُ: حُسْنُ المنظر والبهاء والجمال، والمؤدّى في القراءتين واحد.

٧٧ - **[أَفَرَأَيْتَ]** قرأ نافع، وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية، ولِوَرْشٍ إِبْدَالُها ألفاً مع المدّ المشْبَعِ وصلاً فقط. وقرأ الكسائي: **[أَفَرَيْتَ]** وقرأ باقي القراء العشرة بتحقيق الهمزة، ووقف حمزة بالتسهيل.

٧٧ - قرأ حمزة، والكسائي، **[وَوُلْداً]** بضم واو «وُلْد» وإسكان اللام. وقرأ باقي القراء العشرة: **[وَوَلَداً]** بفتح واو «ولد» وفتح لامها. **الوَلَدَ والوُلْدَ**: كلُّ ما وُلِد (يطلق على الذكر والأنثى والمثنى والجمع). فالقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة، والمعنى فيهما واحد.

أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ
إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾
وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ
ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ
جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ
ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي
لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ
ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا
قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾ .

---

٨٤ ـ قرأ حمزة، ويعقوب [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء. وقرأ الباقون: [عَلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاءِ وهما نطقان عربيّان.

٩٠ ـ قرأ نافع، والكسائي: [يَكَادُ]. وقرأ الباقون: [تَكَادُ]. والقراءتان وجهان عربيان جائزان.

٩٠ ـ قرأ نافع، وابن كثير، وحفص، والكسائيّ، وأبو جَعْفَر: [يَتَفَطَّرْنَ] من فعل: «تَفَطَّرَ» وقرأ باقي القراءِ العشرة: [يَنْفَطِرْنَ] من فعل: «انْفَطَرَ». والقراءتان لُغتان عربيتان متكافئتان.

٩٧ ـ قرأ حمزة: [لِتَبْشُرَ] من فعل: «بَشَرَهُ يَبْشُره» الثلاثي. وقرأ باقي القراء العشرة: [لِتُبَشِّرَ] من فعل «بَشَّرَ» المضعف والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، إذ بَعْضُ المتقين تكفيهم البشارة العادية، وبعض المتقين يحتاجون إلى تشديد وتأكيد.

(٢)

موضوع سورة مريم

يدرك المتدبّر بأناةٍ وتعمّقٍ فكري، أنَّ الموضوع الأساس لسورة (مريم) متابعةُ معالجة كفّار مكّة ومن حولهم من المشركين في قضايا فكريَّةٍ اعتقاديَّة، لتصحيح اعتقادَاتِم بشأنها، أو إقامة الحجَّةِ عَلَيهم، وقَطْعِ أعذارهم، إذا أصَرُّوا على كفرهم معاندين، ولتَرُدَّ على طائفة من مقولاتهم، الّتي يَتَّخِذُونَها ذَرائع لتَحْسِين موقِعهم المعاند للحقّ.

والموضوع الذي تدور في فلكه هذه القضايا الفكريّة الاعتقاديّة، يتعلَّقُ بمتابعة معالجة منْكري البعث ليوم الدين، ويتضمَّن الرَّدَّ على بعض أقوالهم الّتي قالوها، متذرّعين بها لتحْسِين إصرارهم على مواقفِهم العنادية، وبيانَ الدافع الّذي يدفَعُ المشركين لاتَّخاذ آلهَةٍ من دُونِ الله عزَّ وجلَّ، وهو اعتقادُهُم أنّ آلهتَهم تكُونُ لهُم عزًّا، وبَيَانَ أنّ الكافرين تَؤُزُّهم شياطينُهُم أزّاً، أي تُغْريهم وتُهَيّجُهمْ وتَهُزُّهم وتُحرِّكُهُم تَحْريكاً شَديداً، من مغامزِ شهواتِهم ومصالِحهم، ومثيراتِ غَضَبِهم.

ولكن اقتضىٰ الإبداع التربويُّ الحكيم، أنْ يبدأ الله عزّ وجلّ السورة بالتَّمهيد لهٰذه المعالجة الممثّلة لموضوعها، والذي هو الموضوع الأساس فيها، بعَرْض لقطاتٍ من قِصَصِ الأنْبِياء السَّابقين، الذين جاهدوا في سبيل الله مُجَاهَداتٍ دعويّة مُضْنِية، وقد كان لمجاهداتِهم آثارٌ نافعة في الأمَم السالفة، إذْ كانَ لَهُمْ أتْباعٌ مؤمنون متّقون على اختلاف درجاتهم في التقوىٰ والعمل الصالح، ثم خَلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أضاعوا الصلاة، واتَّبعُوا الشهوات، ولم يَصُونُوا نُصُوصَ الكُتب الرَّبَّانيَّة المنزلَةِ على رُسُلهم، فجاءَتِ الدَّعْوةُ الإسلاميَّةُ المحمَّدِيَّةُ الخاتمة، حاملةً رسالةَ الله للناس أجْمَعين، انْطِلاقاً من بيئَةِ العرب الوثنيّين، ومن كان يُساكِنُهمْ في أرْضِهِمْ من اليَهُودِ والنصارىٰ، ومَنْ كان قد تَنصَّرَ أو تَهَوَّد من العَرَب.

وقد أخَذ عرضُ هذه القِصَصِ التَّمهيديَّة (٦٣ آية) من السورة، وجاءت بعدها الآية (٦٤) تُفَاجِئُ بانتقالٍ من عرض القِصَص، إلى حكاية بيان ذكَرَهُ جبريلُ عليه السلام للرسول ﷺ، أبان له فيه أنَّهُ وسائِرَ الرُّسُلِ من الملائكة لا يَتنزَّلُون من مواقعهم في السَّمَاءِ، إلّا بأمْرٍ من الرَّبّ جلّ جلالُه، وأنَّ لَهُ الأمْرَ كُلَّه فيما سَبَقَ وفي الحاضر، وفيما سيأتي.

فقال الله عزّ وجلّ في هذه الآية المفاجئة، حكايَةً لمقالَةِ جبريل للرَّسُول محمّد، الّتي أمَرَهُ الله بأن يقولَها له:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

بدأتْ هذه الآية بالعطف بحرف العطف «الواو» لكنّنا لا نَجِدُ في سوابقِ هذه الآيةِ ما يُلائم الْعَطْفَ عليه، بحَسَب الدواعي البلاغيّة.

والّذي يَظْهَرُ لي أنّ العطف هذا يُنْبِئُ عن معطوف عليه محذوف، جاء بيانُه فيما رَوىٰ البخاريّ والترمذيّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجبريل عليه السَّلامُ:

«مَا يَمْنَعُكَ أنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»؟

فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ...﴾ الآية.

أي: نعم، تأخَّرْتُ بأمْرِ رَبك، ونَحْنُ رُسُل رَبّك من الملائكة ما نَتَنزَّلُ على أحَدٍ من الناس، وما نَتَنزَّلُ لأمْرٍ من الأمور إلَّا بأمْرِ رَبّك.

فأنزل الله عزّ وجلّ في السورة بيان جواب جبريل الأخير، وبدأهُ بحرف العطف «الواو» إشعاراً بأنّه القِسْمُ الّذي تقتضي الحكمة إثباتَهُ قرآناً يُتْلَىٰ من الحوار.

وبعد هذه الآية الفاصِلَة تتابَعَتْ الآياتُ حول مَوْضوع السورة الأساس.

ولا يَخْفَىٰ علَيْنا أنَّ مَنْ أراد أن يتحدَّث حول موضوع توجيهيّ، أو جدلي، أو ترغيبيّ، أو ترهيبيّ، أو تَعْلِيميٍّ، فقد يَرىٰ أنَّ من الحكمة ومن البلاغةِ في الموقف الذي يريد معالجة المخاطبين فيه، حول الموضوع الذي يريد معالجتهم بشأنه، أنْ لا يَبْدَأَهُمْ بعَنَاصِرِ موضوعه الأساس، ولكِنْ قَدْ يَبْدَأُ بعَرْضِ حكاياتٍ وقِصَصٍ تاريخيَّةٍ، تَتَضَمَّن بَعْضَ ما يُريد معالجَتَهُ مع المقصودين بالخطاب، ثم يَشتَقُّ منْها مُناسبَةً للموضوع الَّذِي يريد طرحه، ومعالجَةَ عناصره، أو يَنْتَقِلُ بطريقةٍ ما إلَيْهِ، شاداً انْتِبَاهَ المتلَقِّينَ ولو بالمفاجأة.

وكذلك قد يَفْعَلُ المدَرِّس البارع، الذي يُريد اجْتِذَابَ أذْهَانِ تلاميذِهِ بما يُحِبُّونَ من مُقدّماتٍ وتمْهيداتٍ، حتَّىٰ إذا اجْتَذَبَ انْتباهَهُمْ إليه وانْفَتَحَتْ أذْهَانُهم لحديثِهِ، انْتَقَلَ إلى الحديث عن موضوعه الأساس اشْتِقاقاً من مُقدَّماتِهِ أو مفاجأةً إلى موضوع درسه وقضاياه.

وقد تكونُ المقدماتُ والتمهيداتُ طويلَةً جدّاً، وقَدْ يَكُونُ الموضوع المقْصُودُ الأوّل بالبيان والشَّرح قَصيراً.

وفي هذا يُعَلِّمنا الله عزّ وجلَّ أسلوباً من أساليب البيان البليغ، الذي يكون تأثيرُهُ في المقْصُودين بالخطاب أرْجَىٰ.

ويُمْكِن تقسيم سورة (مريم) إلى قسمَيْن:

القسم الأول: هو من الآية الأولى في السّورة، وحتى غاية الآية (٦٣) منها.

وبَعْدَه جاء الفاصل الاعتراضي الذي سبق بيانه، وهو الآية (٦٤) ويلْحَقُ به الآية (٦٥).

القسم الثاني: هو من الآية (٦٦) من السورة، وحتى غاية الآية (٩٨) آخر السورة.

وهذا القسم هو المقصود الأول في موضوع السّورة.

(٣)

دروس سورة (مريم)

تشتمل سورة (مريم) على (١٨) درساً:

الدرس الأول:

فيه بيانُ لقطاتٍ من قِصَّةِ زَكَرِيَّا وولَدِهِ يَحْيَىٰ عليهما السلام، وهو الآيات من أوّلها وحتى غاية الآية (١٥) منها.

الدرس الثاني:

فيه بيان لقطاتٍ من قصَّة مَرْيم وابنْها عيسى عليهما السلام، وهو من الآية (١٦) وحتى غاية الآية (٤٠) من السورة.

الدرس الثالث:

فيه بيان لقطات من قِصَّةِ إبراهيم عليه السلام، وهو من الآية (٤١) وحتى غاية الآية (٥٠) من السورة.

الدرس الرابع:

فيه بيان لقطة من قصة موسىٰ وهارون عليهما السلام، وهو من الآية (٥١) وحتى غاية الآية (٥٣) من السورة.

الدرس الخامس:

فيه بيان لقطةٍ من قصة إسماعيل عليه السلام، وهو من الآية (٥٤) وحتّىٰ غاية الآية (٥٥) من السورة.

الدرس السادس:

فيه بيان لقطة من قصة إدريس عليه السلام، وهو من الآية (٥٦) وحتى غاية الآية (٥٧) من السورة.

الدرس السابع:

فيه ثناء على النبيّين المذكورين في السورة، ويُلْحَقُ بهم غيرهم، وقد يُلْحَقُ بهم الّذين آمنوا بهم واتَّبَعوهم بإحسان.

وهو الآية (٥٨) من السورة.

الدّرس الثامن:

فيه بيان يتعلَّقُ بالْخَلْفِ الّذين جاءوا من بَعْدِ الرُّسُلِ وأتباعهم المؤمنين الصادقين المسلمين، وهم الذين أضاعوا الصّلاة واتَّبَعوا الشهوات، إلَّا من تاب وآمن وعمل صالحاً، وهم قلَّة.

وهو الآيات من (٥٩ ـ ٦٣).

الدرس التاسع:

هو الدرس الفاصل بين قِسْمَي السُّورة، القِسْم التمهيدي، والقسم الذي هو المقصود الأول، والموضوع الأساس في السورة.

وقد جاء هذا الفاصل معترضاً، لبيان حدثٍ جرى بين الرَّسولِ محمّد ﷺ وبين أمين الوحي جبريل عليه السلام، ويظهر أنَّه كان أثْنَاء تنزيل السورة، إذْ قال سيدنا محمد ﷺ لجبريل:

«مَا يَمْنَعُكَ أنْ تَزُورَنَا أكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنا»؟

فأجابه جبريل بأنَّنا ما نتنزَّل لأمْرٍ من الأمور إلَّا بأمْرِ الله.

فأنزل الله عزّ وجل هذا الدرس من دروس السورة، وهو الآيتان (٦٤) و(٦٥) من السورة.

الدرس العاشر:

فيه مُعَالجة منكري البعث بالحجَّة البرهانية، وبالإِنْذَار ببيان بعض أحداثِ يوم الدين.

وهو من الآية (٦٦) وحتى غاية الآية (٧٢) من السورة.

الدرس الحادي عشر:

فيه متابعة معالجة الذين كفروا بشأن بعض مواقفهم الكفريّة العناديّة، وأقوالهم الّتي يُزَيِّنُون بها مواقفهم، ومعتقداتِهم الباطلات.

وهو من الآية (٧٣) وحتى غاية الآية (٧٦) من السورة.

الدرس الثاني عشر:

فيه متابعة معالجة الذين كفروا بشأن مواقف كُفْرِيَّةٍ أخرىٰ، وأقوالٍ يتَّخذونها ذرائع لتَحْسِين مواقفهم في حضيض الكفر والعناد، ورفض الاستجابة لدعوة الحقِّ.

وهو من الآية (٧٧) وحتى غاية الآية (٨٠) من السورة.

الدرس الثالث عشر:

فيه متابعة معالجة المشركين الّذين اتَّخَذُوا آلهة من دون الله ليكونوا لهم عزّاً.

وهو الآيتان (٨١) و(٨٢) من السورة.

الدرس الرابع عشر:

يتضمن متابعة بيان أحوال الّذين كفَرُوا، مع توجيه العلاج الدعويَّ التربويُّ المناسب للمدعوّين.

وهو الآيتان (٨٣) و(٨٤) من السُّورة.

الدرس الخامس عشر:

درسٌ يشتمل على بشارة للمتقين، وإنذار للمجرمين، أخذاً بأسْلوب الموعظة الحسنة، القائمة على الترغيب والترهيب، بعد عرض طائفةٍ من مواقف الذين كفروا ومعالجتها بما تقتضيه الحكمة إبَّان نزول سورة (مريم).

وهو الآيات من (٨٥) وحتى غاية الآية (٨٧) من السورة.

الدرس السادس عشر:

درس يتناول الرّدّ على الَّذين قالوا: اتّخذَ الرَّحْمٰنُ ولَداً، ومعالجتهم بالإقناع، والترهيب من عذاب الله يوْمَ الدِّين.

وهو الآيات من (٨٨) وحتى غاية الآية (٩٥) من السورة.

الدرس السابع عشر:

درس يبشِّر الله به أصحاب الرَّسُول ﷺ، الواقعين تحت الاضطهاد والإذْلال وأنواع الأذى في العهد المكيّ، من تاريخ دعوة الرسول ﷺ، مع ما يُوَجِّهُه لهم كُبَرَاءُ المشركين وأتباعُهم من نَبْذٍ وكراهية وعداء، بأنّ أحوالهم ستتبدّل في المستقبل القريب إلى ضدّ ذلك، فيجعل الله لهم وُداً في القلوب، وهذا الودّ سيجرٌّ لهم عزّاً، وقوةً ومجداً، وخيراً كثيراً، بمقتضىٰ سُنَّةِ الله فِي عباده.

وهو الآية (٩٦) من السورة.

الدرس الثامن عشر:

دَرْسُ يخاطبُ الله فيه رسُوله محمّداً ﷺ، بشأن وظيفة من وظائف القرآن، وهي أن يُبشّر به المؤمنين المتقين، ويُنْذِرَ بما جاء فيه قوماً لُدّاً، أي ذوي خصام شديد، ومكابرة وعناد.

وهو الآيتان الأخيرتان من آيات السورة (٩٧) و(٩٨).

* * *

(٤)

التدبّر التحليليّ للدرس الأوّل من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٥)

قال الله عز وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا

فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا
﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾
قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ
عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ
لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً
وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ
يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾.

تمهيد:

بلغ الّذين عرفُوا باسْم زكريّا عنْدَ أهْل الكتاب اثنين وثلاثين رجلاً، وأجلُّهُمْ سِتَّةُ أشخاص، لكنَّ الّذي جاءَتْ قصّتُه في القرآن، هُو زَكَريَّا والِدُ يَحْيَىٰ عَلَيْهِما السَّلام، وكان زَكَريَّا هذا من كِبَارِ الرَّبَّانِيين الّذين لهم شَرِكَةٌ في خِدْمَةِ الْهَيْكل قُبَيْل ميلاد المسيح عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

وذُكِرَ في القرآن الكريم ضِمْنَ الرُّسل عليهم السلام، فَهُوَ وابْنُهُ يَحْيَىٰ رَسُولان.

أمَّا زَوْجَةُ زكريا «إيشَاع = ألِيصَابَات» فقد كانت عاقراً لا تلد مُنْذُ كانَتْ شابَّةً.

وكذلك كانت أخْتُها «حَنَّة» الّتي كانت زَوْجَة «عِمْرانَ» رئيسِ الرَّبَّانيين، وكاهِنِهِم الأكبر، وقد لبثَتْ «حَنَّة» ثلاثين سَنَةً لَا تَحْمل، فسألا رَبّهما الولَد، فاستجاب لهما فرزقهما بـ«مَرْيَم» عليها السّلام، ثم وَلَدَت «مَرْيَم» عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام بمعجزةٍ خارقةٍ للعادة.

فعيسَىٰ عليه السلام ابْنُ ابْنَةِ خالَةِ يَحْيَىٰ عليه السلام، ويحيَىٰ عليه

السلام ابْنُ خالَة «مَرْيَمَ» أُمّ عيسَىٰ عليهما السلام، فَهُما ابْنا خَالَةٍ بوجْهٍ عامّ.

وزَكَرِيَّا معاصرٌ لهذه الحقبة من الزمان، وقد نَشَأَ قَبْلَ أَكْثَرَ من نحو سبعين سنة من ميلاد عيسَىٰ عليهما السلام.

وهو غير زكَرِيَّا الّذي له سِفْرٌ من أسفار العهد القديم عنْدَ أهل الكتاب، فقد كانَ هذا قَبْلَ نَحْوَ خَمْسَةِ قُرون من ميلاد المسيح عيسَىٰ عليه السلام.

وقد جاء ذِكْر «زَكَرِيَّا» والِدِ يحيَىٰ في القرآن الكريم فيما يلي:

(١) في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول).

(٢) ثم في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

(٣) ثم في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

(٤) ثمّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

والدّراسة التدبّريَّة التكامليَّة للنصوص القرآنيّة حول موضوعٍ واحدٍ، تتطلَّبُ تدبُّرَ هٰذِهِ النصوص القرآنية الواردة في هذه السّور معاً، لاكتشاف ما اشتملت عليه من تكامل في المعاني والدلالات والأفكار والأساليب البيانية.

وسأجتهد في دراستها تباعاً وفْقَ ترتيب نزول سُورِها إنْ شاء الله تعالى وأعان وفتح.

التدبّر:

قول الله عزّ وجل:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ

بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾.

القراءات:

سبَقَ بيانُ القراءات في حاشية نَصّ السورة، وسبَقَ تخريج القراءات عربياً، وبَيَان أنّ قراءة جمهور القرّاء العشرة: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بِرَفْعِ الْفعْلين على أنّ الجملةَ وصْفٌ للفظ: ﴿وَلِيًّا﴾ هو إعرابٌ صالحٌ عنْدَ النحاة. وأنَّ قراءة أبي عَمْرٍو والكسائي: [يَرِثْنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ]﴾ بجزم الفِعْلَيْن على أنّ [يَرِثْنِي] مجزومٌ إذْ هو واقِعٌ في جواب فِعْل ﴿هَبْ﴾ الطَّلَبيّ، وهو إعرابٌ صالح عند النحاة أيضاً، وهو على تقدير: إنْ تَهَبْ لي وَلِياً يرِثْنِي وَيَرِثْ من آل يَعْقُوب.

لكِنَّ الّذي تحْسُنُ إضافَتُهُ هنا هو أنّ القراءتَيْنِ مُتَكاملَتَان في أداء المعنى المراد.

والمعنى: فَهَبْ لي منْ لَدُنْكَ وَلِياً وارثاً، فإنْ وهَبْتَه لي وَرِثَنِي وَوَرِث من آل يَعْقُوب.

مَعَ أنّ كُلَّ قراءة مِنْهُما تَدُلّ على معنى القراءة الأخرى عَنْ طريق اللُّزُوم الفكري، فتأتي القراءةُ الأُخرى مُصَرَّحَةً به.

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ سبق الكلام على الحروف المقطّعة لدى تدبّر أوّل سورة (القلم/ ٨٨ مصحف/ ٤ نزول).

ومع كلّ الآراء الواردة حوْلَها أقول: الله أعلم بمراده منها.

قول الله تعالى:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾.

هذه الآية هي بمثابة عنوان لِقِصَّةِ زَكَرِيَّا وَوَلَدِهِ يَحْيَىٰ عليهما السلام، والّتي جاء في هذا الدَّرْس لقطاتٌ منها مَقْصُوداتٌ بالبيان فيه.

كلمة: ﴿ذِكۡرُ﴾ هي خبَرُ مُبْتَدأ مَحْذُوف، تقديره: هٰذا ذكْر، وأضيفَتْ كلمة ﴿ذِكۡرُ﴾ إلى عبارة: ﴿رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ للإشعار ضِمْنَ العنوان بأنّ الرَّبَّ الرَّحْمٰنَ الرَّحِيمَ جَلَّ جلالُهُ، قَدْ رَحِمَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا فَحَقَّقَ لَهُ مَطْلَباً مُهِماً من مطالبِهِ المفيدة ذات الغرض الدِّينيّ.

الرَّحْمَة: صفة من صفات الله الجليلَة، وهي صفَةٌ نَفْسِيَّةٌ نُثْبِتُها لله عزَّ وجلَّ على ما يَليق بجلالِه، ومِنْ آثارِها العطاءُ، والتوفيق، والمعونة، واستجابةُ الدُّعاء، وإزالةُ البؤس، والإمداد بما يَسُرّ، ويُسَكّنُ النَّفْس، ويُورِثُ الْقَلْبَ الطُّمَأْنِينة، ويمْتِعُ ذا الحياة بما يَطِيبُ لديه، ويُبَيِّنُ لذَوي الإرادات الحرَّة ما فيه خيرُهم وسعادتُهم في عاجل حياتهم وآجِلِه.

وأعظم آثار هذه الرَّحْمَةِ، ما يكون للمؤمنين المتقين يوم الدِّين من نجاة من الجحيم، وظفر بجنَّاتِ النعيم وما فيها من أنواع سعادات.

ولمّا كانت رحمة الله لزكريَّا عليه السلام باستجابة دعائه أجلَّ ما في قصّته، كانت جديرةً بأنْ تكون فاتحة عنوانها.

﴿رَبِّكَ﴾: الخطابُ للرَّسُول أوّلاً، ثُمَّ لكُلّ صالح للخطاب، والغرضُ من الخطاب الإفرادي لكُلّ صالح للخطاب إشعارُهُ بأنّ الله عزّ وجلّ يُحَدِّثُه بصُورَةٍ إفرادية.

الرّبّ: هو الخالق المتصرّف دواماً في الكائنات كِلِّها، إنشاءً وإنْماءً وتغييراً، وتَجْديداً، وإمْدَاداً، وعَطَاءً، ومَنْعاً، وتَنْكِيساً، وإفناءً، وإعداماً، إلى سائر ما يجري في الكائنات.

﴿عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾: بهذه العبارة أعْطَىٰ الله عزّ وجلّ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا شَرَفَ العبوديَّةِ له، لأنَّه كان في إيمانه وعَمَلِه الْبَاطِنِ والظاهر متحقّقاً بها،

وهٰذه العبوديَّة الصادقة المصْحُوبة بتَشْريفٍ رَبَّانيٍّ، جَعَلَتْهُ مؤَهَّلاً لأن يَرْحَمَهُ رَبُّهُ بإجابَةِ دُعائه، وتَلْبِيَةِ طَلَبِهِ، وجَعْلِ امرأتِهِ العاقر تَلِدُ لَهُ ولَداً رَضِياً، ونبياً رَسُولاً.

قول الله تعالى:

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ③﴾:

أصْلُ النداء في اللُّغة الدُّعاءُ بأرْفَع صَوْتٍ، لكِنَّ الله عزّ وجلَّ سَمِيعٌ عَلِيمٌ قريب، لا يخْفَىٰ عليه صَوْتٌ مَهْمَا كَانَ ضَعِيفاً خَفِياً.

فَكَيْفَ نَفْهَمُ التعبير بالنّداء في دعاء زكريّا رَبَّه، وهو نبيٌّ رَسُولٌ، عَلِيمٌ بأدَبِ الدُّعاءِ لله عزّ وجلّ، وهو أن يكون خُفيَةً بصَوْتٍ ضعيف؟

أقول: إنّ قول الله عزّ وجَلّ: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ يُشْعِرُ بالمراد، وهو أنَّهُ كان مع جَعْلِهِ خَفِياً من جهة الصَّوْت، إلَّا أنه كانَ شَدِيدَ التَّوجُّهِ القلْبِيِّ والنَّفْسِيّ، فكأنَّهُ نِداءٌ برَفْع الصَّوْتِ، ومَعْلُومٌ أنّ شِدَّةَ التَّوجُّهِ والطَّلَبِ الداخِليّ في النَفْس والقلب، قد تُوجَدُ ولو كان الدُّعاءُ أو الذِّكْر بأخْفَتِ صَوْتٍ وأخْفاه.

ولهذا لم يأت في القرآن المجيد في دُعاءِ الرَّبّ استعمالُ أداةٍ مَا، مِنْ أدواتِ النداء، إلَّا في نَصَّيْن من أصل (٦٧) نصّاً، دَعَاهُما الرسول محمَّد ﷺ، في موضوع يَتَعَلَّقُ برِسَالَتِهِ في قومه، لا بشيءٍ هو من مطالبه الخاصَّة، وُوُجُود أداة النّداء «يا» فيهما مَحْمُولٌ على شدّة توجُّه قَلْب الرَّسُول لدُعاء رَبّه في شكْواه من قومه الّذِين اتَّخَذُوا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً، والَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مهما اتَّخَذَ مِنْ وسائل للتأثير عليهم رَجاءَ إيمانهم.

النص الأول: قول الله عز وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾﴾.

النص الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخرف/٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قد علَّمنا اللَّهُ عزّ وجلّ أَدبَ الدُّعَاءِ والذّكر، فَأَبَانَ لَنا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَا بتضَرُّعٍ وخفاء في النفس، وإخلاصٍ لله وَحْدَهُ، وأنْ يكونَ الدُّعاء بأسماء الله الحسنى.

التَّضَرُّع: هو التَّذلُّلِ والْخُضُوعُ، مَأْخُوذٌ من خُضوع ولَدِ البهيمة ليَمْتَصَّ حَلِيبَ أمّه من ضَرْعها. الضَّرْعُ: الثَّدْي، وهو مَدَرُّ اللَّبَن.

- فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿... وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ... ﴿٢٩﴾﴾.

فأمَرَ الله عزّ وجل بالإخلاص له في الدّعاء، لأنّ الدّعاء من الدّين، وهو مُخُّ العبادة الّتي هيَ لُبُّ الدّين، ولا يَقْبَلُ الله من ذلك إلَّا ما كان خالصاً له من الشّرْك والرّياء.

- وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ ... ﴿٥٥﴾﴾:

الْخُفْيَة: مصدَرٌ من مصادر خَفِي، يقال لغةً: خَفِيَ الشيْءُ يَخْفَىٰ خفاءً، وخُفْيَةً، وَخِفْيَةً، فهو خافٍ وَخَفِيّ، أي: اسْتَتَرَ ولَم يَظْهر، ويُقالُ: أخْفَىٰ الشيءَ، أي: أَسَرَّه ولم يُظْهِرْهُ.

- وقال الله عزّ وجلَّ في سورة (الأعراف) أيضاً بشأن ذكر الله:

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

﴿وَخِيفَةً﴾: أي: وخَوْفاً من عذاب اللَّهِ وعقابه.

- وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً بشأن دُعائه بأسمائه الحسْنَىٰ:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

وعلّمنا الرَّسُولُ محمّد ﷺ أَدَبَ الذّكر، بأن يكُونَ دُونَ الْجَهْرِ من القول.

روى البخاريّ عن أبي موسَىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ وهُو راجِعٌ بجَيْشِهِ من غَزْوَة خيبر، وقد أشرف الناسُ على وادٍ، فرفَعُوا أصْواتَهُمْ بالتكبير: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إلٰه إلا الله، فقال رسولُ الله ﷺ:

«ارْبَعُوا عَلَىٰ أنْفُسِكُمْ، إنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أصَمَّ وَلَا غَائِباً، إنَّكُم تَدْعُونَ سَمِيعاً قَرِيباً وهُوَ مَعَكُمْ».

ارْبَعُوا عَلَىٰ أنْفُسِكُمْ: أي: هَوِّنُوا على أنفسكم، وَتَرَفَّقُوا بها، ولا تُجْهِدُوا أصْوَاتكم.

وقد الْتَزَمَ أصحاب رسُولِ الله ﷺ والتابعُونَ لهم بإحْسَانٍ بأدَبِ الذّكْرِ والدُّعاء.

أخرَجَ ابْنُ المبارك، وابْنُ جَرير، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدُّعاء، وما يُسْمَعُ لهم صوتٌ، إنْ كانَ إلَّا هَمْساً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهم وذلك أنّ الله يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾.

من كلّ هذا نفهم أنَّ زكريّا عليه السّلام كان مُلْتَزِماً بأدَب الذِّكْرِ والدُّعاء، فنادى رَبَّهُ في دعائه نداءً خَفِيًّا.

وتُحْمَلُ عبارة النداء على شِدَّة التوجّهِ النفْسِيّ والقلبيّ، لا على رفْعِ الصَّوْت، وقد غفل عن هذا المعنى بعض المفسّرين.

﴿إِذْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ③﴾ ظرف زمانٍ، والعامل فيه محذوفٌ تقديره: «اذْكُرْ» أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها الصالح للخطاب، قصّة زكريّا، بَعْدَ أن تتلقّاها وتتفهّمَ مَا جاءَ فيها، ولا سيما رَحْمَةُ ربّك له باستجابته لدعائه.

وقد آثرتُ هذا الإعرابَ على أن يكون ﴿إِذْ﴾ معمولاً لـ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ ليَتَّسِقَ الكلامُ على ما جاء معطوفاً عليه في السورة، وهو مَا جاء في الآية (١٦):

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ⑯﴾.

وجاء في الآية (٤١):

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ㊶﴾.

وما جاء في الآية (٥١):

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (51)﴾.

ونظيرها في الآيتين (٥٤) و(٥٦).

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④﴾.

أي: قال زكريّا عليه السلام في ندائه لربّه نداءً خفيًّا: ﴿رَبِّ﴾ فلم يَسْتَعْمِلْ في دُعائه أداة النداء: «يا» ولَا غيرها، ليقينه الكامل بأنّ رَبَّه اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ قريب، وأنَّهُ أقرب إليه بعِلْمِهِ وشهوده من نِياط قلبه، وهو حَبْلُ الوريد، فدلّ هذا على أنَّ عبارة: ﴿نَادَىٰ﴾ قَدْ كانَتْ تعبيراً عن شِدَّة تَوَجُّهِهِ بقلبه وكلّ نفسه لربّه في دعائه، ولم يكُنْ بصوتٍ عالٍ، بَلْ كان سِرّاً وخفيّاً، كما هو أدبُ الدُّعاءِ والذّكر.

• ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾: جاءت هذه الجملة مؤكَّدةً بمُؤكّدين: «إنَّ ـ والجملة الاسمية» للدّلالة على اعترافه المؤكّد ببُلُوغه سِنَّ الشيخوخة، ومعلومٌ أنَّ مثل هذا الاعتراف يتهرّبُ مِنْهُ أكْثَرُ الشُّيُوخ عادةً، ولتأكيد استرحامه ربَّهُ بأنَّهُ انْتَظَرَ طويلاً أنْ يَرْزُقَهُ الله بولَدٍ صالحٍ حتَّىٰ شاخَ، وكاد اليأسُ يَدِبُّ إلى قلبه.

فالله عزّ وجلّ عليمٌ به أكثر من عِلْمِهِ بنَفْسِهِ، فهو لا يحتاجُ سبحانه لتأكيد الجمْلَةِ الخبريَّة الّتي ذكرها زكريًّا عليه السَّلام، ولا لِذِكْرِ كلِّ مقدّمات دعائه.

ولازم الإخبار هُنا هو الاسترحامُ والاستعطاف لإجابة الدُّعاء.

﴿وَهَنَ﴾: أي: ضَعُفَ، تقول لغة: وَهَنَ يَهِنُ وَهْناً، إذا ضَعُفَ.

وذكر زكريّا عليه السَّلام وهْنَ عظمه، لأنَّ الهَيكَلَ العظْمِيَّ عَمادُ بناء جِسْمِ الإنسان الأكبر. فإذا ضَعُفَ عظمه كانَ ذَلِكَ دليلاً على ضَعْفِ جسمه كُلّه لزوماً، فأغْنَىٰ هذا البيان عن التصريح بضَعْفِ سَائِرِ جِسْمه.

واختار أن يقول: ﴿ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ دون عبارة. «عظمي» مثلاً، لأن دلالة «أل» على استغراق كُلّ العظم أقوى من دلالة الإضافة إلى ياء المتكلّم، فالمعنى: وهَنَ كُلُّ العظم مِنِّي، أي: من جَسَدي.

• ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

يقول النحويُّون: إنَّ أصْلَ هٰذِهِ العبارة: واشْتَعَل شَيْبُ الرَّأس، ويَرَوْنَ أنّ كَلِمة ﴿شَيْبًا﴾ تمييزٌ مُحوَّلُ عَنْ فَاعِلِ فعل: ﴿وَٱشْتَعَلَ﴾ والتمييز يُؤْتَىٰ به لِرَفْعِ الإبهام عن ذاتٍ مُبْهَمةٍ، أو عن نِسْبَةٍ مُبْهَمة، ضمن شُروطٍ ذَكَرُوها.

ويرىٰ البيانيُّون أنّ في هٰذه العبارة استعارةً أصْلُها تشبيه انتشار الشَّيْب

في شَعَر الرأس باشتعال النار على الرأس، وقد اسْتُعير فعلُ: «اشْتَعَلَ» للدلالَة على معنَىٰ فعل «انْتَشَرَ» مع إضافة صُورَةٍ مُتخَيَّلَةٍ مَأْخُوذَةٍ مِنْ لِهَبِ النَّارِ.

ويُتَابعُ البيانيُّونَ النُّحاة بأنَّ كَلِمَةَ: ﴿شَيْبًا﴾ تمييزٌ مُحوَّلٌ عن فَاعِلِ فعل: ﴿وَٱشْتَعَلَ﴾ أي: اشْتَعَلَ شَيْبُ الرأس.

لكِنِّي أرى أنّ مثل هذا التحليل الّذي ذَكَرَهُ النُّحَاةُ، وتبعَهُمْ فيه البيانيُّونَ يُضْعِفُ من قيمَةِ الصُّورَةِ البيانيَّة البديعة، الَّتي تُقَدِّمُها عبارة: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ ونظيرها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾.

والأكثر مُلاءَمَةً فيما أرىٰ لتَحْلِيلِ هذا التعبير الْفَنّيّ البديع، أَنْ تَكُونَ استعارة فعل «اشْتَعَلَ» وفاعلُهُ «الرَّأسُ» تَصْوِيراً لصُورَةٍ يتخيَّلُهَا النَّاظِرُ إلى الرأسِ، الّذِي أخذَ الشَّيْبُ يَنْتَشِرُ فيه بسُرْعَةٍ، كما يَنْتَشِرُ لَهَبُ النَّار في الهشيم، حتَّىٰ اسْتَوْعَبَ كُلَّ أجزائه.

وكان من المنتظَر أنْ يُتِمَّ صَاحِبُ العبارة الصُّورَةَ المتخيَّلَة بقوله: «لَهَباً» فتكون العبارة: واشتعلَ الرأْسُ لهَباً.

عندئذٍ تكون كلمة «لَهَباً» منْصُوبَةً على أَنَّها نائبةٌ عن مفعولٍ مطلق، وأصْلُ العبارَة: اشتعالاً لَهَباً، والغرض بيانُ نوع الاشتعال.

لكن المتحدّث استَدْرَكَ فأشْعَر بأنّ الاشتعال لم يكن من نوع النار، بلْ كان من نوْع الشيْب، فقال: «شيباً» وتكون الكلمة نائبة عن مفْعُولٍ مُطْلق، أي: واشتعلَ الرأسُ اشتعالاً من نوع الشيب، وجاء فيها ذكر الشيب قرينَة تُلائم المستعار له، وهو انتشار الشَّيْب في الرأس، وبهذا تكون الاستعارةُ من قسم الاستعارة المجرَّدة.

وعلى مثل هذا نقول في عبارة: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾.

- ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾:

يُمْكن فَهْمُ هذه العبارة بأحَدِ وَجْهَيْنِ قَصْدَهُ زكريّا عليه السلام:

الأوّل: أن يكونَ مُرَادُه: ولَمْ أكنْ في ماضي حياتي حتَّىٰ بُلُوغي سِنَّ الشيخوخَةِ شقِياً، بسبب دعائي لك ـ والتجائي إليك ـ إذْ كانت حياتي كلُّها هَنِيَّةً رَضِيَّة فلَمْ أكن فيها شقيّاً.

وهذا الْوجْهُ هو الأجْدَرُ بأن يكون هو المراد، ويكون في العبارة توجيهٌ غَيْرُ مباشِر، لتأثير التزام الدُّعاء دواماً في الظَّفَر بحياةٍ رضيَّةٍ لَا شَقاء فيها.

الثاني: أن يُكونَ مُرادُه عليه السّلام: ولَمْ أكُنْ بدُعائِي لَكَ فيما سَلَفَ من عُمْرِي شَقياً بِعَدَم استجابتك لدُعائي، أي: شاعراً بالتَّعب النفسيّ، لأنَّكَ لَمْ تَسْتَجِبْ لدُعَائِي، وهذا نوعٌ من شقاء النفس، بَلْ كُنْتَ رَبِّ تَسْتَجِيبُ لي في كلّ ما أدْعُوكَ لتحقيقه.

وهذا المعنى الذي ذكرَهُ المفسّرون لا أراه يليق بمقام نبيٍّ رسول، لأنّ المفْرُوضَ في المؤمِنِ أنْ يَرْضَىٰ بما يرضَىٰ الله له به، سواء أجابَ اللَّهُ دُعاءَهُ أم لَمْ يُجِبْهُ، لا أن يكون شقياً إذا لم يسْتَجِبْ له.

إنّ المؤمن يَعْلَمُ أنَّهُ إذا دَعَا رَبَّهُ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ، وَلَمْ يُحَقِّق له مطلوبَه، فإنَّ الله سيُعْطِيه خيراً ممّا طلَبَهُ من رَبّه، أو يَدَّخرُ لَهُ أجْراً عظيماً وثواباً جزيلاً خيراً لَهُ من مطالِبِه الدّنيوية، وسَوْفَ يَمْنَحُهُ ذلِكَ يوم الدّين في جنَّاتِ النعيم.

﴿بِدُعَآئِكَ﴾: أي: بسَبَبِ دُعَائي إيَّاك، أو في دُعائي إيَّاك على الوجه الثاني. وهذه العبارة هي من نوع المصْدَر المضاف إلى ما هو مفعولٌ به في المعنى.

﴿رَبِّ﴾ دُعَاءٌ خَفِيٌّ جاء غيْرَ مقترنٍ بأداة من أدوَات النّداء، التزاماً بأَدَب الذّكْرِ والدُّعَاء لله عزّ وجلّ.

﴿شَقِيًّا﴾: مادّة «الشقاء» مادّةٌ عامَّةٌ تُطْلَقُ على كُلّ ما لا يَسُرُّ الإنسان من أمُور، وعلَى كلّ ما يخالِفُ رَغْبَتَهُ ومطْلوبَه في عاجِل أمْرِه، أوْ آجِله، من أدْنَىٰ ما يُحَمِّلُه عناءً ما، أو يُتْعِبُ جسَدَهُ أو نفسه، أوْ يسْتَثِيرُ كراهيتَهُ، حتَّىٰ أقْصَىٰ ما يُؤْلِمُهُ ويُنْزِلُ به المصائب الكِبَارَ، والآلامَ الجِسَام.

فيقالُ لمن يَكدُّ ويَتْعَبُ في عَمَلِهِ: قَدْ شَقِيَ بذلك. ويُقالُ لمن طَلَبَ مَرْغُوباً له فَلَمْ يُسْتَجَبْ لطَلَبِهِ: قد شَقِيَ بِرَفْضِ طَلَبِهِ فَهُوَ شَقِيٌّ.

ويُقَالُ لمن يُعَذَّبُ في نار جهنَّم: هو شقِيٌّ في الدّركات منها، ويقال لمن هو في الدَّرْك الأسفل من النار هُوَ في أقصىٰ دَرَكَات الشقاء.

قول الله تعالى حكاية لقول زكَرِيَّا:

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾: جمع «المولَىٰ» وهو القريبُ من العصَبَة.

﴿مِن وَرَآءِى﴾: أي: من بَعْدِ موتي، فالوراء الزَّمَنيُّ بالنسبة إلَىٰ العباد الَّذين يَجْهَلُونَ أحداثَ المسْتَقْبَلِ، هو المستقبل، لأنَّ جهْلَهُمْ بأحداثه يجعله بمثابة الشّيْء الّذي هو وراء ظُهُورِهِم لا يَرَوْنه.

وخوف زكريا عليه السّلام من مواليه، هو خوفُه من أنْ يَرِثُوا مراكز السُّلْطَةِ الدّينيَّة فَيُفْسِدُوا فيها، ويظْهَرُ أنَّهُ لم يَجِدْ فيهم رجلاً صالحاً، مؤهَّلاً لأن يكون وارثاً مُحافظاً عَلَىٰ شرائع الدّين وشعائره وتعليماته، فسَأَلَ رَبَّهُ أن يَهَبَهُ ولداً صالحاً تقيّاً نقِيّاً رَضِيّاً، مؤهّلاً لأنْ يكون وارثاً مُحْسِناً مستقيماً.

﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِى عَاقِرًا﴾: أي: وكانت امرأتي فيما مضىٰ من عمرها عاقراً لا تَلِد، وهذا التعبير يُشْعِرُ بأنَّ مُسْتَقْبَلَ أَمْرِها هُوَ بِيَدِ الله، فإنْ شاءَ أصلحها فحَمَلَتْ، كما حَمَلَتْ أخْتُها «حَنَّة» الّتي كانت عاقراً بمَرْيَم ابنةِ عمران.

العاقر: المرأة الّتي لا تَلِد، فهذا الوصف خاصٌّ بالنساء، ولهذا لم يحْتَجْ هذا اللّفظ إلى أداة التّأنيث.

﴿فَهَبۡ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾:

﴿فَهَبۡ لِى﴾: **الهِبَةُ**: العطيَّةُ الخاليةُ مِنَ الأعْوَاض والأغْراض.

يقال لغة: وهبَ له الشَّيءَ يَهَبُهُ وَهْباً، ووَهَباً، وهِبَةً.

فزكَرِيَّا عليه السَّلامُ طلَبَ من ربّه في دعَائه أن يهبَهُ وليّاً من ذُرّيَّتِه وارثاً.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾: **لَدُن**: ظرفٌ زمانيٌّ ومكانيٌّ غَيْرُ مُتمكّن، بمنزلة: «عِنْد» إلّا أنَّهُ أقْرَبُ من «عِنْد» وأخصُّ منه.

و«**لَدُن**» ملازمة للإضافة، فهِيَ تَجُرُّ مَا بَعْدَهَا بالإضافة.

﴿وَلِيًّا﴾: أي: وارِثاً من ذُرّيَّتي، يَرِث أُمور الدّين الّتي أتَولّاها، فيكون هو ولياً عَلَيْها من بَعْدي.

﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ برفع الفعلين، وفي القراءة الأخرى: [**يَرِثْنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**] بجَزْم الفعلين، وقد سبق بيان التكامل بينهما.

المرادُ مِيراثُ العِلْم الدّينيّ، والقيامُ بأُمورِ الدّين من بَعْدِهِ، فقد كان زكَرِيَّا عليه السّلام من كبار الرَّبَّانِيّين الّذين لهم شَرِكَةٌ في خِدْمَةِ الهيْكل، كما سبقَ بيانه.

﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ﴾: أي: وَيَرِثُ العِلْم الدِّينيَّ الباقِي من بَعْض آل يَعْقوب.

ذهَبَ أكْثر المفسّرين إلى أنّ المراد بيعقوب هُنا، يعْقُوبُ بْنُ إسْحاق بْنِ إبراهيم عليه السلام، ويَدْخل في آل يَعْقُوب أنبياءُ بني إسرائيل ورُسُلُهم، ومنهم يُوسُفُ، ومُوسىٰ، وهارونُ، وداوُد، وسُلَيْمانُ، وغيرهُمْ عليهم السَّلام.

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: رضيّ: على وزْن «فَعِيل» وهٰذه الصيغَةُ تأتي بمعنى «اسْم الفاعل» مع المبالغة، أي: كثير الرّضا عن الله فيما تجري به مقاديره، لا يتذَمَّر ولا يتسخَّط. وتأتي بمعنى «اسم المفعول» أي: مَرْضِياً عنه، من رَبِّه في إيمانِه، وأخْلاقِهِ وَأَعْمالِه، وسائر مُفْرَداتِ سُلُوكِه الإراديِّ.

ولا مانع من حَمْل اللّفظ على المعنيين معاً، إذْ لا تعارض بينهما.

فالمعنىٰ: واجْعَلْهُ رَبِّ إذا وهبتني إيَّاه بتوفيقك، ومعونَتِك، وعنايَتِك، ورِعَايَتِكَ، عبْداً راضياً كثير الرّضا عَنْكَ فيما تجري بِه مقادِيرُكَ، وَمَرْضِياً مِنْك، إذْ تَجْعَلُهُ مِنْ عِبَادِكَ الصالحين في صفاته، وفي أفعاله الإراديَّة الظاهرة والباطنة.

قول الله تعالى:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾.

من بدائع القرآن البيانيّة الّتي لم يكن يَعْرِفُها الْبُلَغاء من قَبْل القرآن، تقديم النصّ اقتطاعاً من الحَدَث الماضي، أو من الحدَثِ الذي سَيَحْدُثُ في المستقبل، لإحضار الصورة نَفْسِها، كأنَّ الحَدَث يَجْرِي مَعَ الخطاب البيانيّ.

وهذا شبيهٌ بتَقْدِيم صُورَةِ المشْهَدِ المصَوَّرَةِ بدِقَّةٍ تامَّةٍ، دُونَ حكايَةٍ لفظيَّةٍ لها.

فَخَاطب الله عزّ وجلّ زكريا عليه السَّلام بأداة النّداء «يا» لإثارَةِ انْتِبَاهِهِ إلى أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ نَظَرَ إلى دُعَائِهِ نظَرَ عناية، ولَمْ يُعْرِضْ عن سؤاله.

وبَعْدَ نِدَائِهِ باسْمِهِ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ بَشَّره باستجابة سُؤْلِه، فقال له: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾: فخاطبه بضمير المتكلّم العظيم الّذي يَفْعَل ما يشاء، لإشعاره بأنَّ الْعَطَاءَ عطاءُ تَفَضُّلٍ من الرَّبّ الجليل القدير الّذي يخْلُقُ بأمْرِ التكوين، وإذا شَاءَ خَرَقَ نظام الأسبابِ، فَمَنَحَ الشَّيْخَ الْهَرِمَ من امْرَأتِهِ العاقِرِ غُلاماً لم يَجْعَلْ له من قَبْلُ مثيلاً في سِمَاتِهِ وصِفَاتِه.

وأكَّدَ لَهُ خَبَرَ البِشَارَة بأداة التوكيد: «إنَّ» و«بالجملَةِ الاسميَّة» على ما يقول البلاغيّون، لأنَّ موضوع البشارة خبَرٌ مستغربٌ بحسَب العادة.

﴿نُبَشِّرُكَ﴾: أي: نُخْبِرُكَ بما يَسُرُّك، وهذا هو الأصل في البشارة، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ البشارة في الإخبار بما يَسُوءُ للتَّهَكُّمْ.

﴿بِغُلَٰمٍ﴾: **الْغُلام**: الصَّبِيُّ مِنْ حين يولَد إلى أنْ يَشبَّ.

﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾: سمَّاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ «يَحْيَىٰ» قَبْلَ وِلادَتِهِ.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾: أي: لم نَجْعَلْ من قَبْله نظيراً ولا مثيلاً لَهُ في صِفَاتِهِ وخصائصه في المخْلُوقات الإنسانية.

ولا يقتضي هذا أفضليَّتَهُ في التكوين علىٰ مَنْ سَبَقَهُ من الأنبياء والمرسَلِين، فالتمييزُ بِبَعْضِ الخصائص الذاتيّة لا يقتضي الأفضليَّة الكليّة.

ومن جُمْلَة الخصائص الّتي تميّزَ بها، أنَّهُ حَصُورٌ، يَعِفُّ عِفَّةً تامَّةً عن

النّساء، فلا يَشْتَهِيهِنَّ بإرادةٍ قويَّةٍ حازِمَةٍ منه، وقيل: هو حَصُورٌ بالتكوينِ الفِطْري، ولكنَّ هذا مسبوقٌ بالنظائر.

وقد يسأل سائلٌ قائلاً: هَلْ خَاطَبَ الله زكريَّا عليه السلام خطاباً مباشراً؟

أقول: إنَّ المعتاد أنَّ الله عزّ وجلَّ يُخَاطِبُ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ من البشر، عن طريق رُسُلِهِ من الملائكة، وأمينُ الوحْي في الغالب هو جبريل عليه السلام.

وجاء في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) بيان أنّ الملائكة هم الّذين نادَوهُ مَبَشِّرين لَهُ بِيَحْيَىٰ، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

قول الله عزّ وجل:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾.

[عِتِياً] و[عُتِيًا] كما في القراءة الأخرى، أي: كِبَراً صِرْتُ فيه هَرِماً تَمكَّنَ مِنّي فيه الضَّعْفُ، والمعنى: بلَغْتُ من كِبَرِ السِّنِّ مَبْلَغاً مُسْقِطاً للقوى.

يُقال لُغةً: عَتَا الشَّيْخ يَعْتُو عُتِياً وَعِتِياً، بضم العين وكَسْرِها، أي: كَبِرَ وَوَلَّىٰ، وتَمكَّنَ مِنْهُ الضعف، وعلى هذا تكون «عُتِيا» مفعولاً به لفعل: «بَلَغْتُ».

يُقال: كان عُمْرُ زَكَرِيَّا عليه السّلام، حين دَعَا دُعَاءَهُ بأن يَهَبَ الله له ولياً، قرابَةَ خمْسٍ وتسعين سنة.

نظر زكريّا عليه السّلامُ إلى سُنَن الله السَّبَبِيَّة، فرَأىٰ أَنَّ العادة جاريَةٌ على أنَّ العاقِرَ لَا تَلِد، ورأىٰ أنَّ شَيْخُوخَته بلَغَتْ من الضعف مَبْلغاً يعْجِز فيه عن إتيان النساء فقال مقالته:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟ أي: كَيفَ يكُونُ لي غلام؟. أو مِنْ أَيْنَ يَكُونُ لِي غُلَام؟. **أَنَّى**: تأتي بمعنى: «كَيْفَ» وتأتي بمعنى: «مِنْ أَيْنَ»؟

وأبان سَبَبَيْنِ يَمْنَعَانِ بحَسَبِ العادَة من إنْجاب الأولاد:

السّبب الأول: أنَّ امْرَأَته كانت عاقراً، في شبابها وفي السّنّ الّتي تُنْجِب فيه النساء عادة، فكَيْفَ بها وقد بَلَغَتْ سِنَّ اليَّأس؟!

السَّبَبُ الثاني: أنّ شيخوخته قد وصل فيها إلى طَوْرٍ يَعْجِزُ فيه عن معاشرة النساء معاشرةً زَوْجِيَّة.

فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

فخاطبه الرَّسول من الملائكة ولعلّه جبريلُ عليه السلام: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾: أي: أنت وزَوْجُك كما ذَكَرْتَ، هي كانت عاقراً لا تَلِدُ، وأنت قد بَلَغْتَ من الكِبَرِ عِتِياً، وجواباً على استِفْهَامِكَ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟ سواءٌ أكُنْتَ طالباً الْفَهم أم مُتعجِّباً، اسمع يا زكريَّا: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾: أي: لَيْسَ صَعْباً عليَّ أنْ أُصْلِحَ امْرَأتَك، فأجْعَلَها صَالِحَةً لأنْ تَحمِلَ، ولَيس صَعْباً عليَّ أنْ أمْنَحكَ الْقُوَّة، فتكون قادراً على مباشرة أمرأتك كما كُنْتَ أيَّام قُدْرتك، وأنْ تكُونَ مُخصباً: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: فانْظُرْ وقِسْ، أَلَيْسَ ما بَشَّرْتُكَ بِهِ أهْوَنَ مِنْ خَلْقِك، إذْ خَلَقْتُكَ ولم تَكُنْ قَبْلَ خَلْقِي لكَ شيئاً، فلا تَسْأَلْ وَلَا تَعْجِبْ، إنَّ رَبَّكَ على ما يشاءُ قدير.

وقراءة حمزة والكسائي: **[وقد خلقناك]** بضمير المتكلّم العظيم تُناسِبُ عظَمَةَ الْخَلْقِ على خِلَافِ الأَنْظِمَةِ السَّبَبِيَّة.

أمّا قراءة جمهور القراء العشرة: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ بضمير المتكلّم المفرد فهي تُناسِبُ أنَّه جلَّ جلالُهُ واحِدٌ في رُبوبيَّته.

فتكاملت القراءتان في الدلالة على المراد بيانه من المعاني.

قوله الله عزّ وجل:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةٗ وَعَشِيّٗا (١١) يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّٗا (١٢) وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا (١٣) وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا (١٤) وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّٗا (١٥)﴾.

لمّا عَلِمَ زَكريّا عليه السّلام أنَّ الْغُلامَ الّذي بَشَّره بِهِ ربُّهُ، سَيَهَبُهُ اللَّهُ له ولداً مِنْهُ ومن امْرَأتِهِ العاقر، بعد إصلاحهما وجَعْلِهما مُخْصِبَيْنِ مُنْتجَيْنِ للذُّرِّيَّة.

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ﴾:

أي: اجْعَلْ لي علامَةً أعْرِفُ بها أنّ الْبُشْرى قَدْ دَخلَتْ مَرْحَلَةَ التنفيذِ والتحقيقِ في الواقع.

- ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا (١٠)﴾:

أي: علامَتُكَ الّتي نَجْعَلُها دالّةً لَكَ علىٰ دُخولِ الْبُشْرَىٰ مَرحَلَةَ التنفيذِ والتَّحقِيقِ في الواقع، أنْ نَحْبِسَ لِسانَكَ عَنْ مُكالَمَةِ النَّاسِ حَبْساً مُؤَقَّتاً أَجَلُهُ ثَلَاثُ ليالٍ، حالة كوْنِكَ سَوِياً لَمْ تُصَبْ بِعاهَةٍ فِي نُطْقِكَ.

وأفَادَتْ كَلِمَةِ «سَوِيّاً» فيما أَرَىٰ أنّ لسانَهُ لَمْ يُحْبَسْ عن الكلام حبساً

كُلّياً، بلْ كان لسَانُه يُحبَسُ إذا أراد أن يُكَلّم الناسَ فقط، أمّا كَلامُهُ بَيْنَهُ وبَيْنَ نَفْسِهِ كالتلاوة والذكر والدُّعاء، وكلامُهُ في مُخَاطَبَةِ الملك إذا نَزَلَ عليه، فهو سَوِيٌّ فيه تماماً، ويَدُلُّ على هذا ما جاء في النّصّ الذي في سورة (آلِ عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) وهو قول الله عزّ وجل:

﴿... قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

ونُلاحظُ في نَصَّيْ «مريم» و«آل عمران» ما يلي:

١ ـ أَنَّ نَصَّ سورة (مريم) جاء فيه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾.

٢ ـ وأنّ نصَّ سورة (آل عمران) جاء فيه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾.

فدَلّ النَّصَّان على أنّ المرادَ ثَلاثَة أيامٍ بلياليها، وأنّ الْيَوْمَ هو من طُلوعِ الْفَجْرِ إلىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ.

وبهذا تكونُ الحُبْسَة قد بَدَأَتْ باللَّيْلِ، وانتَهت عند غُرُوبِ شَمْسِ اليوم الثالث، أو بدأت مع طلوع فجر اليوم الأوّل، وانْتَهَتْ في آخِرِ اللَّيْلَةِ الثالِثَة.

وتقديمُ إنزالِ ما جاء في سورة (مريم) يُشْعِرُ برُجْحَان الاحتمال الأول، وأن الْحُبْسَة بدأت باللَّيْل، والله أعلم.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾: وجمْعُهُ «المحاريب» هو صَدْرُ البيت، وأكْرَمُ موضع فيه، والْغُرْفَةُ، وأرْفَعُ بيْتٍ في الدار، وأرفع مكانٍ في المسجد، والقصر، وموقف الإمام في المسجد.

وكلمة «مِحْراب» عند بني إسرائيل تَعْنِي مؤخّر الهيكل، أو ما يُسَمُّونه: «قُدْسَ الْأَقْداس» في الهيكل، وقد أطلق اليهود اسمَ «هيكل» على مكانٍ واحدٍ كبير في الْقُدس، وهو الذي بناه «سليمان» عليه السلام لعبادة الرّب.

وكان «داود» عليه السلام هو صاحب فكرة بناء هيْكَلٍ ثابتٍ للرّب. بدَل خَيْمَةِ الشهادة المتنقلة.

و«قُدْسُ الأقداس» غُرْفَةٌ مظلمةٌ في مؤخّر الهيكل، وفيها تابوتُ العهد على صخرة.

وكلمة «هَيْكل» في معناها العام، مكان عبادة الله، كالكنيسة عند النصارى، والمسجد عند المسلمين، وقد جعل اليهود كلمة «هيكل» خاصَّةً بما بناه سليمان عليه السلام في القدس⁽¹⁾، وهو المعروف ببيت المقدس.

ويظهر أنّ زكريّا عليه السّلام خرج من «قُدْس الأقداس» هذا الَّذِي كان لا يَدْخُلُه إلَّا من كان رئيساً أو كان من كبار الرَّبَّانِيِّين، الذين لهم شركة في خدمة الهيكل.

- ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾:

أي: فأشار إليهم إشارات رَمْزِيَّةً تَدُلُّ على أنَّه يأمُرهم بأنْ يُسَبِّحُوا اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيّاً. **الوحي**: يُطْلَقُ على عدَّة معانٍ، منها الإشارة السَّريعة.

الْبُكْرَة: هي من أوّل النهار عند الفجر إلى طُلوع الشمس.

الْعَشِيّ: هو نصف النهار الثاني حتَّىٰ غروب الشمس.

وقد دلّت هذه العبارة أنّ الْحُبْسَةَ اللِّسَانِيَّةَ عن مُكالَمَةِ النَّاس قَدْ حلَّتْ

---

(١) أخذاً من «قاموس الكتاب المقدس».

به، علامةً على أنَّ البشارة قَدْ وُضِعَتْ مَوْضع التنفيذ، وتحقَّقَتِ العلامَةُ الَّتي طَلَبَها.

ولهذا صَارَ يخاطب قومه وتلاميذه بالإشارة، ولا يستطيع أنْ يُكَلِّمَهم، للحُبْسَة الّتي أصابَتْهُ بِلِسانِه عن مكالمة الناس.

وقد سمَّى اللَّهُ عزّ وجلَّ الوسيلةَ الّتي كان زكريّا عليه السلام يُبَلّغُ بها قومه ما يريد إعلامهم به «وَحْياً» وقد كانت إشاراتٍ حركيَّة باليدين وبغيرهما من أَعْضاء الجسم.

وسمّاها «رَمْزاً» في الآية (٤١) من سورة (آل عمران) وأمَرَهُ فيها بالذّكر والتسبيح بالعشيّ والإبكار، كما سبقَ بيانُهُ آنفاً.

ونَفْهَمُ من تعبيره عن طريق الوحْي، والرَّمْز لقومه بأنْ يَسَبْحوا بُكْرَةً وعشياً، أنَّهُ يُبَشّرُهم بأمْرٍ عظيم، يقتضي منهم أن يشكُرُوا الله عليه بالتسبيح، وذلك لأنّ منَّةَ الله علَيْه بوارثِ نُبُوَّةٍ وعِلْمٍ من ذُرّيَّتِهِ، هي مِنَّةٌ على أصْحَابهِ، ومَواليه، ومُنَاصِريه، وتلامِذَتِهِ، من قومه.

تَسْبِيحُ الله: هو تَنْزِيهُهُ عمّا لا يَلِيقُ بجلاله، وهذا يَسْتَلْزِمُ عقلاً تمجِيدَهُ بكمالاته.

وأفضل عبارات التَّسْبِيح المأثورة: سُبْحانَ الله وبِحَمْدِهِ.

فَدَلَّ القرآن على أنّ ذِكْرَ الله بالتَّسْبِيحِ قد كان معروفاً عند أهل الكتاب، من اليهود فالنصارى.

وتنتهي حُبْسَةُ زكريا عليه السلام اللّسانيّة، ويُعْلِمُ قومه بسبَبِها، وأنَّ اللَّه بَشَّره بغلامٍ اسْمُه «يَحْيَىٰ» يكونُ وارثَ النُّبُوَّةِ والْعِلْمِ.

وتَمرُّ الأيّامُ واللَّيالي، ويُولَدُ الّغُلامُ «يحيَىٰ» وتأتي المفاجأةُ القرآنيّة بنداء «يَحْيَىٰ» الّذي آتاه الله الْحُكْمَ صَبيّاً.

فقال الله تعالى:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات بيانٌ عن «يَحْيَىٰ» ووالِدِه «زَكَرِيّا» عليهما السّلام، وهو يشتمل على ثماني قضايا:

القضية الأولى: جاءت في: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾:

أقول في هذه المفَاجأة القرآنية نظير الذي سبَق أن ذكرته في نداءِ الله «زَكَرِيَّا» عليه السلام، وأنّها من بدائع القرآن البيانية، الّتي يَجْرِي فيها تقديم النّصّ اقتطاعاً من الحدث الماضي، أو من الحَدَثِ الذي سيَحْدُثُ في المستقبل، لإحضار الصُّورةِ نَفْسِها، كَأَنَّ الحَدَثَ يَجْرِي مع الخطاب البياني.

لقد انتقل البيان من موضوع بشارة الله «زَكريَّا» عليه السَّلام، بِغُلامٍ اسْمُهُ «يَحْيَى» وما رافق هذه البشارة من فقراتٍ ذَواتِ شأن جرَتْ في الحدث، إلى نداء اللّهِ «لِيَحْيَىٰ» بأنْ يأخُذَ الكتاب بقوَّة.

أي: وُلِدَ «يَحْيَىٰ» المبشَّرُ به، وصَارَ مؤهّلاً لأنْ يُنَادىٰ بأنْ يَأْخُذَ الكِتَابَ بقُوَّة، ولكن لَيْسَ في النصّ ما يَدُلُّ على الْعُمْر الذي خُوطِبَ فيهِ بهذا الخطاب.

إنّ الله عزَّ وجلَّ أَمَرَهُ بأنْ يأخُذَ كتاب التَّوْرَاةِ بقُوَّة، وقدْ يُلْحَقُ بالتوراة سائر الكُتُب المنزَّلَة من عند الله على رُسُلِ بَني إسرائيل من بَعْدِ موسَىٰ إلى زَمَنِ يَحْيَىٰ، عَلَيْهِمُ السَّلام.

وإنّ أخذَ الكتاب الرَّبَّانيّ بقُوّةٍ يتضمّنُ حُسْنَ حِفْظِهِ وضَبْطِهِ، وحُسْنَ

فَهْمِه، وتَدَبُّرِهِ، وحُسْنَ الْعَمَلِ بشرائِعه وأحكامه، وحُسْنَ تَعْلِيمِهِ وَنَشْرِهِ، ويتضمَّن الجهاد في توجِيهِ الْأَمْرِ الحكِيم بالعمل بما جاء فيه من أوامر، وفي توجيه النهْي الحكيم عن مَعْصِيَةِ ما جاء فيه من نواهي. ويَتَضَمَّنُ الجهادَ في تَبْلِيغِ ما جاءَ فيه من وصايا وإرْشَادَاتٍ وبياناتٍ بِحَسَبِ وَظَائِفِ الأنبياءِ والمرسَلين في أقوامهم.

وقد أعان الله عزّ وجلّ «يحيَىٰ» عليه السَّلام، فَأَخَذَ الكتابَ بِقُوَّةٍ حقاً، فكان يقول الحقّ ولا يخْشَىٰ لَومَةَ لائم، ولا سطوات الجبَابِرَةِ من ذوي الحكم والسّلطان، وانتهىٰ أَخْذُهُ الكتابَ بقوّةٍ إلى قَتْلِه، عَلَيْهِ السَّلام.

القضيّة الثانية: جاءت في ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾:

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا هنا بضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بعظمة رُبُوبيَّتِه القادرة على أنْ تَجْعَلَ الصَّبِيَّ الّذي ما زَالَ أَمْثَالُهُ دُونَ التمييز حكيماً راشداً.

والمرادُ بالْحُكْمِ سدَادُ الرأْي، وحُسْنُ فَهْم النُّصُوصِ الرَّبَّانِيَّة، والبصيرَةُ في الْأُمُور على اخْتلافِها وكَثْرَةِ المشتَبِهَات فيها، وحُسْنُ الْعَمَلِ الحكيم في الدَّعْوَةِ إلى دين الله الحقّ، والنُّصْحِ والإرْشادِ، والْأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنْكر، وحُسْنُ الْفَصْلِ بَيْنَ الأقْضِيَةِ والْخُصُومات، وحُسْنُ تَصْرِيفِ الأمور بِوَضْعِ الأشياء في مواضِعها الملائمة لها، وحُسْنُ الإدَارَة بِعَقْلٍ ورُشْد. أفادت كلّ هذه المعاني (ال) الاستغراقية في لفظ (الْحُكم).

القضيّة الثالثة: جاءت في ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾:

يَتَحَدَّثُ الرَّبُّ بضمير المتكلّم العظيم أيضاً فيبيّن أنه آتَىٰ «يحيىٰ» عليه السَّلام خُلُقَ الرَّحْمَةِ والشفقة ورِقَّةِ القلْبِ، وأنَّه أفاض بها عَلَيْهِ من لَدُنْهُ، أي: من أقْرَبِ الْقُرْبِ إلَيْهِ جَلَّ جلاله، الموصول برحْمَتِهِ.

وفي هذا دَلالَةٌ علىٰ تَخْصِيصِهِ بعِنَايَةٍ خاصَّةٍ في هٰذه العطيَّةِ العظمية الجليلة.

الحنَانُ: هو في اللُّغة، الرَّحْمَةُ، والشَّفَقَةُ، ورِقَّةُ الْقَلْبِ.

القضيَّة الرابعة: جاءت في ﴿وَزَكَوٰةً﴾:

أي: وآتيناه من لَدُنَّا «زكاةً» أي: طهارةً قلبيَّةً ونفسيَّةً، وسُلُوكيَّةً، وتنامِياً في المراتب الحميدة.

فهو بالطهارة الّتي آتاه الله إياها من لَدُنْه يجْتَنِبُ كُلَّ مَا يُدَنّس، من فِكْرَةٍ، وخاطِرَةٍ، وخُلُقٍ، وَحَرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ إرادِيَّةٍ، وَعَمَلٍ جَسَدِيٍّ.

وهو بما لَدَيه من قوة نماء، يَعْمَلُ دواماً على الارْتقاء والصُّعُود في درجات الفضائل والخيرات، دون انقطاع.

الزكاة: هي في اللّغة، الطّهارة، والنّماء.

القضية الخامسة: جاءت في: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾:

أي: وكان عليه السلام في كلّ حياته كثيرَ التقوىٰ، في سلوكه النَّفْسِيّ والْجَسَدِيّ، قائماً بكُلّ الواجبات، ومجتنباً كلَّ المحرّمات.

القضية السادسة: جاءتْ في: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾

أي: وكان عليه السَّلامُ في حياته برّاً بأُمّه وأبيه، طاعةً، وخِدْمةً، وإحساناً، وإكراماً، وتَذَلُّلاً، بِخَفْضِ جَناحِه لهما من الرَّحْمَة.

القضيَّة السابعة: جاءتْ في: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾:

أي: إنَّه عَلَيْهِ السَّلام لَمْ يكن جبّاراً، مع شِدَّةِ جُرْأَتِهِ وشجاعَتِهِ في الحقِّ ثِقَةً بالله وطلَباً لمراضيه.

الْجَبَّارُ: الْقَاهِرُ الْعَاتِي المتسلّط، الّذي لا يقبلُ الموعَظَة، ولَيْس في قلبه رَحمة.

وإنّه عليه السّلامُ لم يَكُنْ عَصِياً للأوامر، فيما لَيْسَ فيه مَعْصِيَةٌ لله عزّ

وجل، بل كانَ هيّناً ليّناً مُطِيعاً مُسَالماً، سَهْلَ الانقياد فيما لا مَعْصِيَةَ لله فيه، رُبَّما يَنْقَادُ لغُلامٍ أو جارِيَةٍ رفقاً بهما.

أمّا الْعَصِيُّ بطَبْعِهِ فإنَّه يَنْفِرُ من الانقياد لِغَيْرِهِ، ولو كَانَ في الأمر الذي يُقَادُ له خَيْرٌ عظيم له، أَوْ خيرٌ عامٌ يَأْجُرُ اللَّهُ عليه أجراً عظيماً.

ويُلاحظ في طبائع النّاسِ أنَّ كُلَّ جبارٍ هو عَصِيٌّ عنيد لا يُطاوع، وإذا قِيدَ ولو إلَىٰ فِعْلِ خَيْرٍ فَإنَّهُ لَا يَنْقَاد.

القضيَّةُ الثامنة: جاءت في: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ⑮﴾.

في هذه القضيّة يُوجّه الله عزّ وجل التحيَّة بالسَّلام، ليَحْيَىٰ عليه السّلام، وهو الأمْنُ والسَّلامَةُ.

وهٰذه التحيَّةُ الرَّبَّانيَّة، تَتَضَمَّنُ قضاءً من الله له بالأمن والسّلامة، وتوجيهاً للملائكة وللصالحين من عباد الله بأنْ يُحَيُّوهُ ويَدْعُوا له بالسّلام، يومَ ميلاده، ويَوْمَ مَوْته، ويَوْمَ بَعْثه.

والسّلام عليه في هذه المراحل يَسْتَمِرُّ مع كلّ مَرْحَلَةٍ مِنْها حتَّىٰ غايتها، أي: والسّلام عليه دواماً مُنْذُ نَشْأَتِهِ حتَّىٰ بُلُوغِهِ الْفِرْدَوسَ الأعلىٰ في جَنَّات النعيم.

* * *

استكمال تدبّر ما جاء في سائر سُوَر القرآن بشأن زكريا ويحيى عليهما السلام:

إنّ التدبُّر التكامليّ يَدْعونا إلى أن نَتَدَبَّرَ سَائِرَ النُّصُوصِ الّتي جاءت في مختَلِف سُورِ القرآن، بشَأْن زكريَّا وَوَلَدِهِ يَحْيَىٰ عليهما السلام.

القرآن في مختلف السُّور اشتمل على أربعة نصوصٍ، تَتَناوَل بيان قضايا من قِصَّتِي زَكَرِيا ووَلَدِه يَحْيَىٰ عليهما السلام.

النص الأول: جاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُه.

النص الثاني: جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

النصُّ الثالث: جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

النص الرابع: جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

وفيما يلي اسْتِكْمَالُ التدبُّر التّكامُلِيّ المنشود.

أولاً: ما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهُو قول الله عزّ وجلّ فيها ضمن نصٍّ ذكَرَ فيه (١٨) رسولاً مصرّحاً بأسمائهم:

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

فأثبت الله عزَّ وجل في هذا النَّصّ أنّ زَكَرِيّا ويَحْيَىٰ مِنَ الصالحين.

وجاء في سياق هذا النّص قول الله تعالى: ﴿... وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وجاء فيه أيضاً: ﴿... وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ وجاء فيه أيضاً وصْفاً لكلّ الرُّسُلِ المذكورين في الآيات بدءاً من الآية (٨٣) قول الله تَعالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ... ﴿٨٩﴾﴾ وجاء فيه أيضاً خطاباً للرَّسُول محمد ﷺ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

فعبارات الثناء الّتي جاءت في هذه الفقرات، تَعُمُّ كُلَّ الرُّسُلِ (١٨) المذكورين في هذا النصّ، ومنهم زَكَريّا ووَلَدُهُ يحْيَىٰ عليهما السلام.

* * *

ثانياً: ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأن زكريّا وولَدِهِ يحيَىٰ عليهما السلام، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها، عَطْفاً على ذكر طائفة من المرسلين:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾: سبق في تدبّر نصّ سورة (مريم) بيان المراد بالنداء، وأنَّهُ عبارةٌ عن شِدَّةِ التوجُّهِ الْقَلْبِيِّ إلى اللَّهِ في الدّعاء، وليْسَ المرادُ به رفْعَ الصَّوتِ به على خلاف أدب الدُّعاء.

وجاء في هذا النّصّ عطف ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ على: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ وقد كان المتبادر أن تَكُونَ العبارة: وأصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ ووَهَبْنا لَهُ يَحْيَىٰ، ويُجِيبُ النحاةُ على هذا بأنّ الواو العاطفة لا تقتضي تَرْتيباً وَلَا تَعْقيباً، بلْ هي لِمُطْلَقِ الْجَمْعِ.

أقول: هذا بيانٌ لجواز عَطْفِ المتقدِّم على المتأخِّرِ بالواو بحسب قواعد اللّسان العربي.

لكِنَّ الداعيَ البلاغيَّ هُنَا في هذا الإجراء هو أنَّ هبَةَ الْوَلَدِ هي المقصودُ بالدُّعاء، وإصلاحُ زوجَةِ زَكَرِيًّا إحدى وسائل تحقيق المطلوب، فكان ذكْر هِبَةِ يَحْيَىٰ له أولَىٰ بالتقديم في الذكر، من بيان إصْلاح الزَّوجة.

يضاف إلى هذا أنّ القضاءَ بِهِبَةِ الولَدِ يَحْيَىٰ لَهُ، قَدْ تَمَّ بَعْدَ استجابَةِ الدُّعاءِ، وَبَعْدَهُما جاءَ إصلاح زَوْجَتِه، وَسِيلَةً منْ وسائل تحقيقِ القضاء.

وجاء عبارة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دالَّةً على أنّ الاستجابة جاءت عَقِبَ الدُّعَاء، بدليل حرف العطف «الفاء» وهذه الاستجابة تتعلَّقُ بهبَتِهِ يَحْيَىٰ، لا بإصلاح زوجه، فالتعبير القرآني مُنْسَجِمٌ مع الترتيب الواقعيّ، ثم جاء التنفيذ بإصلاح الزَّوّجَةِ وعُلُوقِ الجنين الَّذِي كان قد تمَّ القضاء به.

وقد أضاف هذا النصّ من سورة (الأنبياء) أرْبَعَ قضايا:

القضية الأولى: أنَّ زَكَرِيَّا عليه السّلام قال في دُعائِهِ لربِّهِ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

أي: رَبِّ لا تَتْرُكْنِي فَرْداً مَقْطُوعاً من الذُّرِّيَّةِ الوارثَةِ لِي، الَّتي تَرِثُ النُّبُوَّةَ والْعِلْمَ الدّينيَّ، ومَرْكَزَ الرَّبَّانِيَّة الّذِي جَعَلْتَهُ لي في خِدْمَةِ الهَيْكل.

ولِيَدُلَّ على أنَّ رغْبَتَهُ هٰذه لا تَحْمِلُ معنى الاستدراك على حكْمَةِ الله، فيما لو شاء اللَّهُ أن يَحْرِمَهُ من الذّرِّيَّة، أثْنىٰ على رَبّه بقوله في دعائه له: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أي: وأنْتَ خَيْرُ باقٍ بَعْدَ كُلّ من يَمُوتُ، فإنّي لا أسْتَدْرِكُ على حكْمَتِكَ، ليقيني بأنّ حكمَتَكَ أَجَلُّ وأعْظَم، فإذا شئتَ اخْتَرْتَ مِنْ عبادِكَ مَنْ يقومُ بأمْرِ الدّين من بَعْدي، ولا يتوقَّفُ الأمْرُ على أنْ تَهبَني من لدُنْكَ وَلِياً يَرِثُني وَيَرِثُ من آلِ يعقوبَ، ويكونُ بقضائك وقَدرِكَ وتَوْفِيقَكَ رَضيّاً.

القضيَّةُ الثانية: وأضاف هذا النصّ أيضاً التَّصْريحَ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ استجابَ دُعاءَ زَكَريا فوهَبَ لَهُ يَحْيَىٰ وَلَداً ذكراً، فقال تعالى فِيه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾: وجاء التعبير هما مسْتَعمَلاً فيه ضمير المتكلّم العظيم، للدَّلَالَةِ على عظمة الرُّبُوبيَّة.

وهذا الذي جاء مُصَرَّحاً به في هذا النصّ، قَدْ فُهِمَ باللُّزُومِ العقليّ من النصّ الذي جاء في سورة (مريم).

إنّ فنّيَّةَ الأداء البيانيّ الْبَدِيعِ اقتضَتْ في سورة (مريم) طَيَّ فِكْرَة استجابة دُعائه، والاكتفاء في النصّ باقتطاع عبارة بشارَته مِنَ الحدَثِ الماضي، وتقديمَها كأنَّ مَشْهَدَ القِصَّةِ واقِعُ الآن، فقال تعالى فيها:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦﴾.

إنّ هٰذه البشارة يُفْهَمُ مِنْهَا باللُّزُوم الْعَقْلِيّ أنّ الله عزّ وجلّ قد استجاب دُعاءه، فلم يأت في نصّها التصريح باستجابة دعائه.

وبالتَّصريح بهذا المطوي هنا، فيما جاء في سورة (الأنبياء) يظْهَرُ عنْصُرٌ من عناصر التكامُلِ بَيْنَ النَّصَّيْنِ، ويتضمَّن أيضاً غَرَضَ تدريب المتدبّرين لِكِتَابِ الله على اسْتِخْراجِ اللَّوازِم الفِكْريَّة من النّصُوصِ القرآنيّة، واعتبارها ممّا دلّتْ عليه النُّصُوص، ولو لم يُصَرَّحْ بها في الألفاظ، فالنُّصُوص القرآنيَّةُ تَحْمِلُ معَاني كثيرةً تُفْهَمُ باللُّزوم الفكريّ، دون التَّصْريح بها في ألفاظ خاصَّةٍ تَدُلُّ عليها.

القضية الثالثة: وأضاف هذا النصُّ أيضاً التصريحَ بأنّ اللَّهَ عزَّ وجلّ قد أصلح لزكَرِيَّا عليه السّلام زوجه العاقر، فجعلها صالحةً لأنْ تَحْمِلَ وتَلِد، فقال تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

دلّت عبارة: ﴿وَأَصْلَحْنَا﴾ على أنّ الْعُقْمَ كان ناتِجاً عن خَلَلٍ ما في الجهاز الكُلِّيّ المخلوق في النساء للْحَمْلِ والولادة، فإذا أُصْلِحَ هذا الْخَلَلُ، صار الجهازُ صَالحاً للْحَمْلِ والْوِلادة، وفي هذا إشعارٌ للأطباء يدفعهم لمتابعة البحوث العلميّة، لمعرفة الخلَلِ المسبّب للعُقْم، وإصلاحه إذا كانَ إصلاحُهُ مُمْكناً.

﴿زَوْجَهُۥٓ﴾: أي: امْرَأته، يُطْلَقُ في اللُّغَةِ علىٰ كُلٍّ من الزَّوْجَيْنِ الذّكَرِ والْأُنْثَىٰ كلمة «زوج» والقرائن السابقة أو اللاحقة، تَدُلُّ علىٰ المراد.

وهذا الذي جاء التصريح به في سورة (الأنبياء) يُفْهَمُ أيضاً باللُّزُوم العقلِي من النصّ الذي جاء في سورة (مريم) إذ جاء فيها بيان قول زَكَرِيّا عليه السلام: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾.

فإذا جمَعْنَا هذا مع نداء الله له فيها: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فهِمْنا حَتْماً باللُّزوم العقْلِيّ أنّ الله قَدْ أصلح له زوجه.

القضية الرابعة: وأضاف هذا النصُّ أيضاً بيانَ حِكْمةِ الله في استجابتِه لدُعاء زَكريّا وزوجته، في أمْرٍ هو من الرَّغَبات الإنسانية، والحاجاتِ النفسية، وليس من الضَّرُوراتِ الحياتيَّة المشمولة بقول الله عزّ وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ . . . ﴿٦٢﴾﴾.

هذه الحكمة هي أنّ زَكَرِيّا عليْهِ السَّلام وزَوْجَهُ كَانُوا أهْلَ بَيْتٍ يُسَارِعُونَ فِي فِعْلِ الخيرات، علىٰ اختلاف أنواعِهَا، وكانوا يَدْعُونَ رَبّهم دَواماً، في أحْوَالِ الرَّغَبِ والرَّهب، وَكانُوا خاشعين، أي: خاضِعين لربّهم، مُتَذَلّلين له، ساكِنِينَ سُكُونَ طُمَأْنِينَةٍ ورِضاً عن الله فيما تجري به مقاديره، فاقتضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ العليّة أن يُكَافِئَهُمْ، ويَسْتَجِيبَ دُعَاءَهم، ويُرْضِيَهُمْ بتحقيقِ ما هم راغِبُونَ فيه، ولو اقتضىٰ ذلك خَرْقَ السُّنَّةِ المعتادة، بإصْلاح العاقر، ومَدِّ الشيخ العجوز الفاني بالقُدْرَةِ على إتْيانِ زوجته، بعد أنْ كانت هذه القُدْرَة ساقِطةً بالشيخوخَةِ المتقدّمة.

فقال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: أي: يُسَارِعُون السَّيْرَ في طَرِيق فِعْلِ الخيرات على اختلاف أنواعها، فِعْل «سَارَعَ يُسَارِعُ» مثل فعل «أسْرع يُسْرِع» مع زيادةٍ في معنى الاجتهاد في العمل، إذ الصّيغة صيغةُ مُشَارِكةٍ فيها معنى بَذْلِ جَهْدٍ أكثر لبلوغ السَّبْق، فإذا لم يُوجَدِ المشارك كانت دالَّة على المبالغة في بَذْلِ غايَةِ الْوُسْع.

﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: جمع «الخَيْرَة» وهي الفاضلة مِنْ كُلّ شيء.

﴿رَغَبًا﴾: مصْدَرُ «رَغِبَ» يقال لغة: رَغِبَ في الشيء يَرْغَبُ رَغَباً، وَرَغْبَةً، ورُغْبَةً، أي: طَمِعَ فيه وحَرِصَ عَلَيْه.

﴿وَرَهَبًا﴾: مصْدَرُ «رَهِبَ». يُقَالُ لغة: رَهِبَهُ، يَرْهَبُهُ رَهَباً، ورَهْبَةً، وَرُهْباً، أي: خافه.

أي: وَيَدْعُونَنا في كلِّ أحوال الرَّغَب الّتي يَرْغبونَ بها فيما يحبون، وفي كلّ أحوال الرَّهب الّتي يَرْهبون بها حُلُول ما يكرهون.

وبهذا التحليل ظهر لنا التكامل بين النصّ الذي جاء في سورة (مريم) والنصّ الذي جاء في سورة (الأنبياء) بشأن قصة زكريّا ووَلَدِه يحيَىٰ عليهما السّلام.

ولدى التدبّر الّذي تمت به مُقَارَنَةُ فِقَراتِ النَّصَّيْنِ، وجَدْنا أَنَّهُ لَا تُوجَدُ مُكرَّرات فيهما، بل توجد مَعْلُومَاتٌ مُضَافَاتٌ، أو تَصْرِيحٌ بمعانٍ تُفْهَمُ باللُّزُومِ الفكريّ من دَلالاتِ النّصّ الآخر، وهذا مِنْ عجائب القرآن المجيد.

مع تدبُّر سريع لفقرات نصّ سورة (الأنبياء):

قول الله تعالى:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾:

أي: وَضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المهتَّمُّ بما أنْزَلَ الله في كتابه، قِصَّةَ زَكَرِيّا حين نَادَىٰ رَبَّهُ، لتَسْتَفِيد منْها العِبْرَةَ والعظَةَ وحكمة اللَّهِ فِي تَلْبِيَةِ مطالِب عباده الصالحين.

قول الله تعالى حكاية لدعاء زكريّا عليه السلام:

- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾:

أي: رَبّ لَا تَتْرُكْنِي وحِيداً لا ذُرّيَّة لَهُ في شجرة نَسَبِي، كَفَرْعٍ انْتَهَىٰ الامْتِدَاد من جهته عنده، فصارَ وحيداً فريداً منقطعاً، بَيْنَما تَمتَدُّ الفروع الأخرى من شَجَرة النسَب بالذّراري من كُلّ جوانب الشجرة.

قول الله تعالى في مُتَابَعةِ حكاية دعاء زكريّا عليه السلام:

- ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

في هذه العبارة ثناءٌ على الله بأنَّه خَيْرُ مَنْ تَرْجِعُ كُلُّ الأشياء والأحياء إلى مَحْضِ مِلْكِهِ جلَّ جلاله.

من أسماء الله الحسنىٰ أنَّه «الْوارِثُ» أي: الَّذي يَرْجع إلى مَحْضِ مِلْكِهِ كلَّ شيءٍ جَعَلَ هو لبَعْضِ عِباده تملُّكاً صوريًّا له، والّذي تَعُودُ إِلَيْه الأشياء المملُوكَةُ هِيَ وَمَالِكُوهَا، مع أنّ الحقيقة أنّ مِلْكَ الله للأشياء كُلّها مُسْتَمِرٌ لَا يَنْقَطع.

وبما أنَّ الله عزّ وجلّ هو الأزَليُّ الأبَدِيّ الباقِيّ، فهو الّذي يَرْجِعُ إلى مَحْضِ مِلْكِهِ وَتَصَرُّفِهِ كُلُّ شيءٍ.

قول الله تعالى:

- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾:

أي: فاستجبنا له دُعَاءَهُ، وأجْرَيْنا المقادير الّتي تَحَقَّقُ بها أَنْ وَهَبْنَا لَهُ ولداً ذكراً سَمَّيْنَاهُ يَحْيَىٰ.

قول الله تعالى:

- ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾:

دلّت هذه العبارة على أنّه كان في زوجته مَانِع أو أكثر من الحَمْلِ والولادة: فأزال الله عزّ وجلّ بعظَمَةِ رُبُوبيته ذلك، وأصلح أجْهِزَةَ حَمْلِها وولادتها، فصارتْ صالحَةً لهما.

ولا يخفى علينا في هذه العبارة والّتي قبلها استعمالُ ضمير المتكلّم العظيم، لأنّ المضمون يقتضي الإشارة إلى عظمة رُبوبية الرَّبّ، جلّ جلالُه وعظم سلطانه.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

سَبَقَ بيانٌ كافٍ حول هذه العبارة، وأضيف هنا أنّ نَصْبَ رَغَباً وَرَهَباً هو على أنهما حال في أوْجَه الأقوال، أي: راغبين وراهبين.

﴿خَـٰشِعِينَ﴾: الخشوعُ، هو في اللّغة الخضوع، والذُّلُّ، والسُّكُونُ رضاً عن الله.

* * *

ثالثاً: مَا جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأْن زَكرِيَّا وولَدِه يَحْيىٰ عليهما السّلام: وهو قول الله عزّ وجل فيها عقب بيان لقطاتٍ من قِصَّةِ امرأةِ عمران، ونَذْرِها ما في بَطْنِها مُحَرَّراً للهيكل، وولادتها مريمَ عليها السَّلام، وكفالَةِ زَكَرِيَّا لها:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ﴾:

كان زَكَرِيَّا عليه السَّلام، هو الّذي وَقَعَتْ عليه كفالَةُ «مريم» عليها السلام في الهيْكل، وهو زوّج خالَتها «إيشاع = أَليصَابَات» وقد وُضِعَتْ في غُرْفَةِ «قُدْسِ الأقْدَاسِ» في الْهَيْكل الّذي يُطْلِقُ عليه اليهود اسْمَ «المِحْرَابِ» كما سَبَقَ بيانه.

وكان كُلّما دَخَلَ عليها المحرابَ وَجَدَ عنْدَها رِزْقاً، فقال لها:

﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: أي: في ذلِكَ المكان الذي جرَىٰ فيه هذا الحَدَثُ الخارق للعادة، والّذي يُكْرِم به مَرْيَمَ الّتي جاءت هِبَةً من الله على خلاف نظام الأسباب المعتادة، إذْ كانت أُمُّها «حَنَّة» عاقراً، وكان أَبُوها «عِمْران» رئيسُ الرَّبّانِيّين، وكاهِنُهُمُ الأكْبرُ شَيْخاً كبيراً مِثْلَه.

هنالك تَحرَّكَتْ في قَلْبِ زَكَرِيّا الرَّغْبَةُ الشَّديدة في أن يَهْبَهُ اللَّهُ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، كما وَهَبَ «عِمْران» ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً هي «مريم» الّتي يُكْرِمُهَا الله برِزْقٍ من عنده، على خلاف نظام الأسباب المعتادة. فَدَعا رَبَّهُ:

- ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿هَبۡ لِي﴾: **الْهِبَةُ**: هي العَطِيَّةُ الخالِيَةُ من الأعواض والأغراض، يقال لُغةً: وَهَبَ لَهُ الشيءَ يَهَبُه وَهْباً، وَوَهَباً، وهِبَةً، فهو واهب وَوَهَّاب.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾: **لَدُن**: ظَرْفٌ زَمانيٌ ومَكَانِيٌّ، بمنزلَةِ «عِنْد» إلّا أنّه أقْرَبُ من «عنْد» وأخَصُّ منه. وهي ملازمة للإضافة.

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ﴾: **الذُّرِّيَة**: النَّسْلُ من الذكور والإناث، فلم يُعَيّن عليه السّلام في دعائه أن يكون ذكراً. (وأصلها ذُرّيئَةً فسهلت الهمزة وأدغمت بالياء قبلها) وتجمع على «ذَراري».

﴿طَيِّبَةًۖ﴾: **الطيِّبُ** ضدُّ الخبيث، ويطلقُ على الطاهر، ومُرادُه أن يَهَبَ له الله ذرّية طاهرةً من أرجاس الكفر والشّرك والمعاصي والأخلاق الرديئةِ القذرة.

وأثنىٰ على رَبّه بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: أي: إنّك ربّ لا يخفى

عليك دعاءٌ ما، مهما كان خفياً، لأنّه عليه السّلام قد نادى ربَّهُ نداءً خفياً.

﴿إِلَّا رَمۡزٗا﴾: **الرَّمْزُ**: الإشارة بحَركة عُضْوٍ من الأعضاء، كحَرَكَةٍ بالشَّفَة، أو الْعَين، أو الحاجب، أو الأصابع، أو نحو ذلك.

﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: هو وقت الْبُكْرَة.

وقد سبق تدبّر سائرِ فَقَراتِ هٰذا النّص، أو تدبُّر نظائرها.

إضافات هذا النص على النصوص السابقة:

أضاف هذا النّص من سورة (آل عمران) إلى النصوص الثلاثة التي سبق تدبرها من سُور «مريم» و«الأنعام» و«الأنبياء» ستّ قضايا:

القضيّة الأولى: الإشارةُ إلى أنَّ الّذي حرَّكَ قَلْبَ زَكَرِيَّا عليه السَّلام، لطَلَب الذُّرّيّةِ مع شيخوخَتِه الفانية الّتي أنْزلَتْ به الضعف الشديد، ومع كَوْن زوجته عاقراً لَا تَلِد، ما شَاهَدَ من نجابَة مَرْيم عليها السّلام، وتَمَيُّزِها بالنَّقَاء والطهارة، وأعمال البرّ والإحسان عبادةً لله عزّ وجلّ، وما شاهد من إكرام الله لها بالأرْزَاق على خلاف مجْرَىٰ العادات.

وقد سبق آنفاً شرح العبارة الّتي دَلَّت على هذه القضيَّة.

القضية الثانية: بيان أنّ زَكَرِيَّا عليه السّلام لم يُحَدِّدْ علَىٰ رَبّه في بعض دُعائه أنْ يكون الوارث له ذكراً، بل سألَ الله ذُرِّيَّةً طَيِّبَة، وأثنى على ربّه بأنّهُ سَمِيعُ الدُّعاء.

وإذا جَمَعْنَا أدْعِيَتَهُ الّتِي جَاءت في النصوص بهذا الأمر، وجَدْنَاها متكاملة غيْر مكرّرة.

- ففي نص سورة (آل عمران):

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

- وفي نصّ سورة (الأنبياء) قال:

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

- وفي نص سورة (مريم: قال:

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾.

هٰذه الأدعية الثلاثة متكاملَةٌ فيما بَيْنَها، ولا تكرار فيها.

القضية الثالثة: بَيَانُ أنّ الملائكة هِيَ الَّتي بَشَّرَتْهُ بيَحْيَىٰ وهو قائم يُصَلّي في المحراب، فقال الله عزّ وجلّ في نصّ سورة (آل عمران):

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

فَدَلَّ هذا النصّ على أنّ البيان الذي جاء بقول الله عزّ وجل في سورة (مريم):

﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾.

قَدْ بَلَّغَتْهُ الملائكة، ولم يكن الخطاب مُباشراً من الله عزّ وجل لزكريّا عليه السلام.

وفي هٰذا دَلَالَةٌ عَلَىٰ أنَّ ما يَنْسُبُهُ الله إلىٰ نَفْسِهِ من خطاب خاطَبَ الله به رَسُولَه أو عبداً من عباده الصالحين، فالغالبُ أنَّه يكون عن طريق الْوَحْي، أو عند طريق ملائكته.

وفيه إضافة أنّ تبشير الملائكة له قد كان وهو قائم يُصَلِّي في المحراب.

وفيه إضافة بيان عدّة صفاتٍ لِيَحْيَى المبَشَّرِ به:

(١) **فهو مُصَدِّقٌ بِكَلِمَةٍ من الله**: أي: مُصَدِّقٌ بعيسَىٰ عليه السلام وبرسالته، فعيسىٰ عليه السّلام هو الموصوف في القرآن بأنَّهُ كلمةُ الله، لأنَّ الله تعالى خَلَقَهُ على خِلافِ نظام الأسباب المعتادة، إذْ خَلَقَهُ بِكَلِمَةِ التكوين.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿... إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ... ﴿١٧١﴾﴾.

(٢) **وهو أيضاً سَيِّد**: أي: ذو سيادة بِصِفَاتِهِ الكماليَّة النفسيَّةِ والسُّلوكيَّة.

(٣) **وهو حَصُور**: أي: لا يَمِيلُ إلى الشهواتِ من النساء ومُعَاشَرَتِهِنَّ تَرَفُّعاً عن الشهوات، وضَبْطاً لغرائِزِهِ بإرادةٍ حَازِمَةٍ، وهٰذه خصوصيَّة لا تقتضي الأفضليَّة على سائر النَّبيِّين كما سبق بيانه.

(٤) **وهو نَبِيٌّ من الصَّالِحِينَ**: أي: وهو مصطفى بالنُّبُوَّةِ، وهو من جُمْلَةِ الصالحين من عباد الله، والصالحون في البيانات القرآنية هم أهل الكمال، الخالون من أيّ خَلَلٍ وفَساد، وقد جاء لفظ الصالحين وصفاً للأنبياء والمرسَلِين، ومن كان على مثْلِ صِفاتهم من فضلاء عباد الله المؤمنين المسلمين.

القضية الرابعة: التنويع الأدبيّ في التعبير عن شيخوخته، إذْ نُلاحظ أنّ ما جاء في سورة (مريم): ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ... ﴿٤﴾﴾. وجاء فيها: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾.

أما ما جاء في سورة (آل عمران) فهو: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ... ﴿٤٠﴾﴾: أي: إنّ الكِبَرَ المُنْذِرَ لِي باقْتِراب أَجَلِ مَوْتي، الّذي يُلاحِقُني في سنواتِ عُمْرِي، قَدْ بَلَغَنِي وَوَصَلَ إليَّ وأدْرَكَني، ووضَعَ على كاهلي ثِقَلَ إنذارِه لي بالموت.

وفي هٰذه العبارة من الاستعطاف بأن يتداركَهُ رَبُّهُ باستجابَةِ دُعَائه أنفاسٌ حارَّةٌ مُتوَقِّدَة.

وقد يكون الفرق بين: ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌۖ﴾ وبَيْنَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ كما جاء في نصّ سورة «مريم» أنّه بَعْدَ أَنْ دَعا رَبَّهُ بعبارة ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌۖ﴾ مَرَّ في خاطِرِهِ أنَّ أُخْتَها «حَنَّة» زَوْجَةَ «عِمْران» قد كانت كذلك، وأنَّ الله أصْلَحَها فَحملت، وجاءت بالسّيدة «مريم» فعدَّلَ عبارته فقال: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ للإيماء بأنّ الله إذا شاءَ أصْلَحها، فصارت تَحْمِل وتلد.

وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ قد كرَّرَ دُعَاءَهُ مرَّاتٍ متعدّدات، اشتملت على صِيَغٍ مختلفات، وأنَّه قالها في أحوال نفسيَّةٍ مختلفة أيضاً.

القضيَّة الخامسة: التعبير الذي جاء في سورة (آل عمران) عن الآية التي جعلها الله لزكريا عليه السلام، دَالَّةً على تنفيذ ما بَشَّرَهُ الله عزَّ وجل به، هو ألَّا يُكلّم الناس ثلاثَة أيامٍ إلا رمْزاً.

أمّا التعبير الذي جاء في سورة (مريم) فهو ألّا يُكَلِّمَ النَّاس ثلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا.

والتكامل بين التعبيرين تكامل واضح، ويُمْكن أن نجمع من التعبيرَيْنِ معاً عبارةً نقول فيها: أَلَّا تَكَلِّمُ الناس ثلاثَة أيامٍ مع ثلاثِ ليالٍ إلّا رَمْزاً، وأنت سَوِيٌّ سليم، لم تُصَبْ بِعِلَّةٍ، وإنَّما يُحْبَسُ لسانُكَ عن مكالمة الناس حبساً مؤقّتاً.

القضية السادسة: جاء في النصّ الذي هو من سورة (آل عمران) إضَافَةُ أَمْرِ اللَّهِ لِزَكَرِيَّا بأَنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ كثيراً، ويُسَبِّح بالعشِيّ والإبْكار.

وهٰذه الإضافة قد انفرد بها كُلِّها هذا النصّ.

وبهذا التَّتَبُّع التحليلي مع المقارنة بيْنَ النصوص ظهر لنا التكامُل فيما بينها، وظهر لنا أنَّه ليْسَ فيها تكرارٌ تطابُقي، وهذا من عجائب القرآن المجيد، وهو من مناهج القرآن الّتي انفرد بها في عرض موضوعاته.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيات من (١٦ ـ ٤٠)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا (١٦) فَٱتَّخَذَتۡ
مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا (١٧) قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ
بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا
زَكِيّٗا (١٩) قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا (٢٠) قَالَ
كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا
مَّقۡضِيّٗا (٢١) ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا (٢٢) فَأَجَآءَهَا
ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا (٢٣)
فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا (٢٤) وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ
ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا (٢٥) فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ
أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا (٢٦) فَأَتَتۡ بِهِۦ
قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا (٢٧) يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ
أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا (٢٨) فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ
فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا (٣٠) وَجَعَلَنِي
مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا (٣١) وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي

وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ
حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ
أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى
وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۖ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
(٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾.

تمهيد:

اشتمل هذا الدّرْس الثاني من دُروسِ سُورة (مريم) على لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ (مريم) عليها السَّلام، وحَمْلِها بَعِيسَىٰ عليه السلام بخارِقٍ للعادة.

وجاءت لقطات أخرىٰ من هذه القصة في عدّة سُور، في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في الآية (٩١) وفي سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في الآية (٥٠) وفي سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في الآيات من (٣٣ ـ ٣٧) وفي الآيات من (٤٢ ـ ٦٠).

وفي سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٤ نزول) في الآية (١٥٦) وفي سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) في الآية (١٢).

وقبل تدبُّر هذه النصوص تدبُّراً تكاملياً أعْرِضُ قصّة (مريم) بإيجاز أخذاً ممّا عند المؤرخين الّذين نقلُوا بَعْضَ ما ذَكَرَ مُؤرّخو أهل الكتاب، مع الاعتماد على ما جاء في القرآن المجيد من لقطات.

قصة مَرْيم جمعاً ممّا عند المؤرخين وبعض الدّلالات القرآنية:

كان «عِمْرانُ» والدُ مريم إمَامَ الرَّبَّانِيّين الّذين لهم شَرِكة في خِدْمة (الْهَيْكَل = بَيْت المقدس) وكان رئيسَهُمْ، والكاهِنَ الأكْبَرَ فيهم، وكان

زكريّا عليه السّلام من كبار هؤلاء الرَّبَّانِيِّين، وهو زوج أختِ زَوْجَةِ «عِمران».

قالوا: ويتصل نسَبُ «عِمْرانَ» والِدِ «مريم» عليها السلام بداوُد عليه السّلام، فهو من سبط «يَهُوذا» والله أعلم.

قالوا: و«حَنَّةُ» زوجَةُ «عمران» كانت من العابدات، وكانت عاقراً لا تَحْمِلُ، وكذلك كانت أُخْتُها: «إيشاع» الّتي تسَمَّىٰ عند أَهْلِ الكتاب: «أليصابات» زَوْجَةُ زَكَرِيَّا عليه السلام.

فدعا «عِمْرانُ» وزَوْجَتُهُ «حَنَّة» رَبّهما أنَّ يَهَبَهُما ولداً، بَعْدَ أن لبِثَتْ ثلاثين سَنَةً مع زَوْجِها لَا يُولَدُ لها، فاستجاب الله دُعاءهما فَحَمَلتْ، فنذَرَتْ أَنْ تَهَبَ وَلَدَها لخدمَةِ «الْهَيْكَل = بَيْتِ المقدس» بمقتضىٰ أحكام النَّذْرِ المشروع في الدّيانةِ اليهودية، وكانت تَرْجُو أن يكون ولداً ذكراً.

فلمّا وَضَعَتْ حَمْلَها وَجَدَتْهُ أُنْثَىٰ، فقالت: رَبّ إنّي وضَعْتُها أنْثَىٰ، ولَيْسَ الذّكَر الذي رَجَوْتُه وَنَذَرْتُهُ لخدمة «بيت المقدس» كالأُنْثَىٰ الّتي وَهَبْتَها لي، بسَبَب نَقْصِ صلاحيَّتِها لِلْمُهمَّةِ الّتي نَذَرْتُ ما في بَطْني للقيام بها، وقالت: رَبِّ إنّي سَمّيْتُها مَرْيَم وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِن الشيطان الرَّجيم.

فتقَبَّلَهَا رَبُّها بقَبُولٍ حَسَنٍ، وأنْبَتَهَا نَباتاً حَسَناً، وحَمَلَتْ «حَنَّةُ» ابْنَتَهَا «مَرْيم» وقَدَّمَتْها إلى «بيت المقدس = الْهَيْكل» وفاءً بنَذْرِها، ودَفَعَتْهَا إلى الْعُبَّادِ والرَّبَّانِيِّين فيه.

فَتَنافَسُوا في كَفَالَتِها لأَنّها ابْنَةُ رَئِيسِهِمْ وَكَاهِنِهِمُ الأَكْبَر، ويظهر أن أباها «عِمْران» كان قَدْ تُوفّي في هٰذه الأثناء.

وأصَرَّ «زكريَّا» عليه السلام زوج خالتها «إيشاع = أليصابات» على أن يكون هو الذّي يكفُلُها.

واختصم الرَّبَّانيُّون أيُّهُمْ يَكْفُلُ «مريم» ثم لَجؤُوا إلى الْقُرْعة، فكانت كفالَتُها من حظّ «زكريًا» عليه السّلام بالْقُرْعة.

ونَشأت الفتاة «مريم» نشأة بِرٍّ وعِفَّةٍ نقيَّةً تقيَّةً عابدة، في الْحُجْرَةِ الواقعة في مؤخّرَةِ «الْهَيْكل = بيت المقدس» والتي يَخُصُّهَا اليهودُ باسم «المحراب» والتي يوجد فيها تابوت الْعهْد على صَخْرَةٍ، ويُسَمِي الْيَهُودُ هذه الْحُجْرَةِ «قُدْسَ الْأَقْدَاس».

وكان كافِلُها «زكَرِيًا» عَلَيْهِ السَّلام يتَعَهَّدُهَا آناً فآناً، فكان كُلَّما دَخَلَ عليها «المحراب» وجَدَ عِنْدَها رِزقاً، فسألَها: أنَّىٰ لَكِ هذا؟ أي: من أيْنَ لَكِ هذا؟ وكيْفَ يَأْتيك هذا الرِّزْق؟ قالت: هو من عِنْدِ الله، إنَّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب.

قَالُوا: وكان «زكريًا» عليه السَّلامُ يَجِدُ عِنْدَها رِزْقاً لا وُجود لنَوْعه أو صِنْفِه عند الناس يَوْمَئِذٍ فِي القدس، ومنها وُجودُ فاكهة الصّيف في الشتاء، ووجودُ ثمرات الشتاء في الصّيف.

وكانت الملائكةُ تأتي إلى «مَرْيَمَ» عليها السلام، وتُخْبِرُها بأنَّ الله اصطفاها وطهَّرَهَا مِنَ المَعَاصِي والآثام، واصطفاها وفضَّلها على نساء العالمين من أهْلِ زَمَانها.

وهكذا نَشَأَتْ «مريمُ» عليها السلام نشأة طُهْرٍ، وعفافٍ، وعبادة لله تعالى، مَحْرُوسَةً بعنَايَةِ اللَّهِ تعالَىٰ وحِفْظِهِ، حتَّىٰ بلَغَتْ مبلَغَ النّساء، طاهرةً نقيَّةً تَقِيَّةً بارَّةً، مُجْتَهَدَة في التَّرَقِّي على دَرَجَاتِ الإحسان، وتركت حُجْرة «المحراب» واختارت في الهيكل مكاناً منعزلاً شرقياً بعيداً عن دخول أحد عليها.

وَبَيْنَمَا هِيَ في خلوتها في المكان الذي اعتزلت فيه، تمثَّل لها الملَكُ جبريلُ عليه السَّلام بشراً سَوِياً، فَذُعِرَت منه، ووضَعَتْ في تَصوُّرِها احْتِمَالَ

أنْ يكون هٰذا البشر السّوِيُّ رَجلاً تقيًّا، لكنَّها خافَتْ من الفضيحة، وأن يُشَيِّعَ عنْها النّاس إشاعاتٍ تَمَسُّ طَهارَتَها وعَفَّتَها وشَرَفَها، فقالت مخاطبة له:

﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ⑱﴾.

أي: أمّا إنّ كُنْتَ فاجراً شَقِياً فإنّي أعُوذُ بالْجَبَّارِ الْقَهَّارِ المنتَقِمِ مِنْك، ليَقْصِمَ ظَهْرَكَ.

فقال لها جِبْرِيلُ عليه السّلام:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ⑲﴾.

أي: غلاماً طاهراً مُطَهَّراً، نامياً بالخيرات والصالحات.

عندئذٍ اطمأنَّتْ وَهَدَأَ رَوْعها وقالت:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ⑳﴾.

أي: لم يَمْسَسْنِي بَشَرٌ هُو زَوْجٌ لي، ولم أَكُ بَغِياً أَرْتَكِبُ فاحِشَةَ الزّنا، حتّىٰ أحْمِلَ جنيناً.

قال لها جبريل عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكِ﴾: أي: نَعَمْ، أَنْتِ كذلِكِ الطُّهرِ الّذي ذكَرْتِ عن نَفْسِك، لم يَمْسَسْكِ بشَرٌ هُوَ زَوْجٌ لَكِ بِمُعَاشَرَةٍ زَوْجِيَّة، ولا أَنْتِ بَغِيَّةٌ تَرْتَكِبِينَ الفواحِشَ، حتّىٰ تَحْمِلِي وَتَلِدِي كَما يَلِدُ النّساء في العادة.

وقال لها أيضاً: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ㉑﴾، أي: فَلا تَعْتَرِضي على أمْرِ اللّهِ وقضائه.

جاء البيان أوّلاً في حَدِيث اللّهِ عَنْ نَفْسِهِ بضَمِيرِ المتكلّم المفرد: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ وعَقِبَهُ جاء الحديث بضمير المتكلّم العظيم للدّلالة على عظمة الرُّبُوبيّة في بيانٍ يقتضي ذلك: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّآ﴾.

وقال لها أيضاً كما جاء في سورة (آل عمران/٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾.

وأحاط بها عَدَدٌ من الملائكة فقالوا لها كما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾.

وقالوا لها كما جاء في سورة (آل عمران) أيضاً:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٤٨﴾.

ونفخ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي جَيْبِ «مَرْيم» عَلَيْها السلام، فَحَمَلَتْ بأَمْرِ اللَّهِ بِعِيسىٰ عليه السّلام.

ثُمّ شَعَرَتْ بأنّها حامل: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ۝٢٢﴾ كما جاء في سورة (مريم) أي: اعتزلت الناحية التي كانت فيها، واختارت مكاناً قصِيّاً.

يقالُ لُغة: انْتبَذَ فُلانٌ، أي: اعْتزَلَ نَاحِيَةً، منصرفاً إلى نَاحِيَةٍ أخرى، ويُقَال: انْتَبذَ عَنِ القوم، أي: تَنَحّىٰ عَنْهُم، واختار مكاناً آخر غير مكانهم، وهُوَ مكان يَعْزِلُهُ عَنهم.

قالوا: وكَانَ حَمْلُ مَرْيَمَ بعيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، في الوقتِ الّذِي كانت فيه زَوْجَةُ «زَكَرِيَّا» عَلَيْهِ السَّلامُ حاملاً بيَحْيَىٰ، وَوُلِدَ عِيسَىٰ بَعْدَ ميلَادِ «يَحْيَىٰ» بثَلَاثَةِ أشْهُر، وقيل بِسِتَّةِ أشهر، كما يُفْهَمُ من الإنْجيل المنسُوب إلى «لُوقا».

قَالُوا: وأصْدَرَ «هِيرُودس» الّذِي كانَ مَلِكاً على اليهوديَّة بأمْرِ القَيْصر، أمْراً مُوجّهاً لحُكّام البلاد والعُمّالِ فيها، بأنْ يُسَجّلُوا جَمِيعَ أفرادِ الرَّعيَّة الدَّاخِلينَ في مَمْلَكَتِهِ.

فذهَبَ كُلُّ شَخْصٍ إلى وَطَنِهِ، وقَدَّمُوا أَنْفُسَهم بِحَسَبِ أَسْباطِهِم للاكْتِتَاب.

وَسَافَرَتْ «مَرْيم» عليها السَّلامُ وهي حُبْلَى من الناصِرَةِ إحدى مدن الجليل إلى بَيْتِ لَحم، لأنّها كانت مدينتها، لتكْتَتِبَ عملاً بأمْرِ القيصر.

وَلَمْ تَجِدْ في «بَيْتِ لَحم» مَأْوَى لها، فنزلَتْ مع من كان مَعَها خارج المدينة، في مكانٍ مُتَّخذٍ مأْوَى للرُّعاة.

وفي هٰذه الأثناء أتَمَّتْ حَمْلَها، فألْجَأَهَا المخاضُ إلى جذْعِ نَخْلَةٍ، وعظُمَ في نَفْسِهَا ما سَتُلاقيه من اتّهام، فقالت: كما جاء في سورة (مريم):

﴿... يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾:

عنْدئذٍ أدْرَكَها اللّهُ عزَّ وجلَّ بالتَّثْبِيتِ، وشَدِّ الْعَزِيمَةِ لِتَحمُّل مَا سَتلاقي من قومها، فانْطَقَ وَلِيدَها عيسَىٰ من تَحْتِها، أو أمَرَ جِبْرِيلَ الذي يَرْعَىٰ ولادَتِها مِنْ تَحتِهَا كما جاء في سورة (مريم):

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾.

﴿سَرِيّٗا﴾: أي: جَدْوَلَ ماءٍ تَشْرَبِينَ مِنْهُ وتَتَطَهَّرِينَ. وجاء في القراءة الأخرى: ﴿فَنادَاهَا مَنْ تَحْتِهَا﴾: أي الذي هو تحتها. وقال لها أيضاً:

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾.

وكانَ إجراءُ الْجَدْوَلِ الْمَائِيّ لها، وإسْقَاطُ الرُّطَبِ لها من جذْعِ النخلَةِ بِمُجَرّد أن تَهُزَّهُ، إكراماً لَهَا على خلاف مَجْرَىٰ العادات، إذْ لم

يكن لهذا الجدول المائيّ وجُودٌ في المكان، ولَمْ يَكُنْ للرُّطَب وجُودٌ في جذْعِ النخلَة، وكان كلُّ ذلِكَ تثبيتاً لها حتَّىٰ تُتَابعَ بِقُوَّةٍ وشجاعَةٍ وصَبْر ما كلَّفَها اللَّهُ أنْ تعْملَهُ بشَأْنِ الْوَلِيدِ المعجِزَةِ عِيسَىٰ عليه السلام.

قالُوا: وَوَضَعَتِ الطِّفْلَ «عِيسَىٰ» في مُعْتَلَفٍ لِلدَّوابِّ، وكانَ ذلِكَ مَهْدَ طُفُولَتِهِ بَعْدَ الوضع.

وحَمَلَتْ وَلِيدَهَا بشجاعةٍ وثباتٍ ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧)﴾:

أي: لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً عجيباً من أحْدَاثِ الدَّهر، أو جِئْتِ بِدْعاً مِنَ الإثْم، وأخَذَ بَعْضُ الْقَوْمِ يَقُولونَ عن مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظيماً.

يقال لغة: جاءَهُ، وجاء به، أي: أحضره وأتىٰ به.

وقالوا لها أيضاً كما جاء في سورة مريم:

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾.

فَلَاذَتْ بالصَّمْتِ، وأشْعَرَتْهُمْ بأنَّها قَدْ نَذَرَتْ صَوْماً عَنِ الكَلَامِ بِحَسَبِ شَرِيعَتِهِمْ، وأشَارَتْ إِلَيْهِ أَنْ يُكلِّمُوه، كما قال الله تعالىٰ:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)﴾؟!

وَيظْهَرُ أَنَّهُمْ وَجَّهُوا له الخطابَ بُغْيَةَ إحراجها، إذْ تصوَّرُوا أنَّه لَنْ يُجِيبَهُمْ بشيءٍ، فأنْطَقَ اللَّهُ الطِّفْل عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام:

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾.

قالُوا: وابتَعَدَتْ مَرْيم بوَلَدِها عَنْ قَوْمِها وَسَافَرَتْ، فآواهُما اللَّهُ إلى مكانِ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ آمِنٍ، وفيها ماءٌ مَعِينٌ طاهِرٌ صافٍ.

قالوا: ولمّا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ رَجَعَا إلى النَّاصِرَة، ولمّا بَلَغَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سنة، صَارَ يجادِلُ في الهيْكَلِ عُلَمَاءَ أهل الكتاب في الدِّين.

وتعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ عِلْمِهِ، ولمَّا بَلَغَ ثلاثين سنَةً مِنْ عُمْرِهِ، بدَأَ يُبَلِّغُ رِسالَةَ رَبّه، وأَجْرَىٰ اللَّهُ لَهُ المعجزاتِ الباهرات.

التدبّر التكامليّ للنصوص القرآنية بشأن مريم عليها السلام:

أولاً:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾.

القراءات:

(٣٥) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعفر: **[مِنِّيَ إِنَّكَ]** بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان: **[مِنِّي إِنَّكَ]**.

والقراءتان وجهان عَرَبيّان لنُطْقِ ياء المتكلم.

(٣٦) • قرأ ابْنُ عامر، وشُعْبَة، ويَعْقُوب: **[واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ]** بضم التاء، على أنّها ضمير المتكلمة، وأنّ الجملة من قول امرأة عمران قالَتْها في نفسها.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ]** بإسكان التاء، على أنّها تاء التأنيث، والفاعل ضمير مستتر تقديره: هي، وعَلىٰ أنّ الجملَة من كلام الله، وهي مُعْتَرِضَة، للإشعار بأنَّ قولَها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ لَيسَ الْغَرَضُ منْهُ الإخبارَ، إنّما الغرض منْهُ التحسُّرُ، إذْ ظَنَّتْ أنَّ نَذْرَهَا لا يَكُونُ محَلَّ قَبُولٍ باعتبار أنّ الْوَلَدَ قد جاء أُنْثَىٰ، ولَمْ يَأْتِ ذكراً قادِراً على أن يقوم بالوظيفة الدينيَّة الّتي نَذَرَتْ ما في بَطْنِها مُحَرّراً لبيت المقدس ليقومَ بها.

إنَّ مِثْلَها لَا يَشُكُّ بأنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بما وَضَعَتْ، فَهوَ الذي استجاب للدُّعاء، وهو الّذي خَلَقَ الجنين، وهو الّذي وَضَعَهُ بمقاديره، وأخرجَهُ من بَطْنِ أُمّه.

وفي هذه العبارة على قراءة جُمْهُور القراء العشرة وأنّها من كلامِ الله إشعارٌ ضِمْنِيٌّ بأنَّ ما وضَعَتْ سَيَكُونُ لَهَا شأنٌ عظيم.

فَبيْنَ القراءَتَيْن تكامُلٌ ظاهر.

(٣٦) • قرأ نافع، وأبو جَعْفر: **[وَإِنِّيَ أُعِيذُهَا]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكان.

(٣٧) • قرأ شُعبة: **[وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاءَ]** بإثبات الهمزة بعد الألف من «زَكَرِيَّاء» وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: **[وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا]** بِحَذْفِ هذه الهمزة.

(٣٧) • قرأ حفصٌ، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: **[زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ]** بِحَذْفِ الهمزة من «زَكَرِيا».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بإثبات هذه الهمزة: **[زَكَرِيَّاءُ الْمِحْرَابَ]**. إثبات الهمزة وحذفُها من اسْمِ «زكريا» وجْهان عَرَبيَّان.

تمهيد:

طوىٰ النصّ القرآنيُّ كَوْنَ «عمرانَ» وَزَوْجِه «حَنَّة» دَعَوَا رَبَّهما أن يَهَبَ لَهُما ولَداً، بَعْدَ أَنْ لبثَتْ «حَنَّةُ» ثلاثين سنةً لا تَحْمِلُ وَلَا يُولَدُ لهما ولَد، وأنَّ الله عزّ وجلّ قد استجابَ لَهُما فَحَمَلَتْ، وظَهَرَ بَعْدَ الوِلَادَةِ كَوْنُ المولود أنثىٰ، وهي مريم عليها السلام، وبَدأَ الحديث في النّص عن أنَّ امرأة «عِمران» قد نذَرَتْ ما فِي بَطْنِها لله عزَّ وجلّ، على أن يكون محرَّراً لخدمة «الهيكل = بيت المقدس» شكراً لِلَّه على أن وهبَ لَها الذُّرِّيَّة، بَعْدَ أن كادَتْ تيأسُ منها، وكانَ مِثْلُ هٰذا النَّذر مشروعاً في اليهوديّة.

وقام في ذِهْنِها أَنْ يكونَ ما تَحْمِلُه فِي بَطْنِهَا وَلَداً ذَكَراً مؤهّلاً لأنْ يكونَ من خُدَّامِ الْهَيْكل ومن العلماء الرَّبَّانِيِّين.

التدبّر:

قول الله تعالى في مَعْرِضِ ذِكْرِ أنّه اصطفىٰ آدَمَ ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾: أي: ضَعْ في ذاكرتِكَ أيّها التالي أو المسْتَمِعُ للقرآن قِصَّة هذا الحَدث، لأنّه ذو شأنٍ في المفهومات الدّينيَّة، لتَتَّخِذَ مِنْ تَذْكُّرِهِ عظَةً وعِبْرَةً في التعرُّف على بَعْضِ حِكَمِ الله في الحرمان من الذُّرِّيَة، وفي مَنْحِها، وفي استجابَةِ الدُّعاء بِطَلَبِها، إلى غَيْرِ ذلك من حِكَمٍ رَبّانيَّة.

- ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾:

كان مثل هذا النَّذْر عملاً مشروعاً مَبْرُوراً في شريعة بَنِي إسرائيل المعمول بها حينئذٍ.

- ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ عبارة عامّة، تَنْطَبِقُ على ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى، واحدٍ أو

أكثر، والوفاء بالنذر إنَّما يَتَحَقَّقُ بِتَنْفِيذِ المنْذُور، وهُو ما في بطنها من حَمْلٍ أيّا كان.

﴿مُحَرَّرًا﴾: أي: حالة كوْن من نذرْتُ لَكَ مُحَرَّراً من تكاليف الأعمال الدُّنيويَّة، وأعْبَاءِ الحياة، وخالصاً لَكَ رَبّ، رَجاءَ أن يتفرَّغ تَفرُّغاً تاماً لوظائفِ الإمامة الدّينيَّةِ في الهيكل، عِلْماً وعملاً، وقُدْوةً حَسَنةً، وأمراً بالمعْرُوف ونَهْياً عن المنكر، ونصحاً وَإرْشاداً، ودَعْوةً إلى دين الله.

قول الله تعالى:

• ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾: جاء الضمير مؤنثاً في عبارة: ﴿وَضَعَتْهَا﴾ مع أنّ الظاهر أن يقال: فلمَّا وضعَتْهُ، إذ الضمير عائد على لفظ «ما» في عبارة: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾.

وقد ذكر المفسّرون عِدَّة تَخْرِيجات متكلّفاتٍ، لكِنّي أرَى أنّ هذا الضمير لا إشكالَ في عوده على «ما» إذْ هذا اللّفظ اسم موصولٍ عامّ، قد يرادُ به المذكّر، وقَدْ يراد به المؤنث، وقد يراد به المفرد وقد يراد به أكثر من مفرد، وبِحَسَبِ واقعِ الحالِ يُعادُ الضمير عليه، ولمَّا كان مَا فِي بَطْنِها من حَمْلٍ أنْثَىٰ، كان المناسِبُ في التعبير أن يقال: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ ولا حاجة لانتحال التأويلات التخريجية.

وهذا نظير أن تقول: مَنْ في الدّار أعطيْتُ كلَّ واحدة مِنْهُنَّ قطعة قُمَاش، ومَنْ في غرفةِ الاستقبال أعطيْتُ كلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ دِيناراً.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾: لَيْسَ المراد بالخبر هُنَا أَنْ تُعْلِمَ رَبَّها بما وَضَعتْ، فالله أَعْلَمُ بما وضَعَتْ، ولكن يرادُ به هُنا التحسُّرُ، إو الإشْعارُ بالحزْن.

إنّ امرأة «عمران» قَدْ وَقع في تقديرها أَنّ الله استجاب دُعاءَهُما بحَمْلِ ذَكر، فنذَرت ما في بطْنِها مُحرّراً لبيْتِ المقدس، فلمّا وضَعَتْهَا أنْثىٰ حَزِنَتْ وتَحسَّرَتْ، وعبَّرتْ عن مشاعرها بقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ولعلَّ الأنْثىٰ لَا تُقْبَلُ في مثْلِ نَذْرِها، إلَّا بِشُرُوطٍ خاصَّةٍ تُشْعِرُ بأنَّ الله قَد تَقَبَّلَها.

• ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾: سبق بيان القراءتين في «وَضعَتْ» وسبَقَ بيان تَكَامُلِهِمَا.

• ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾: أي: ولـيْسَ الذكر الذي كُنْتُ أتوقَّعُهُ، كالأُنْثى الّتي وَهَبْتَهَا لي، وهي لَيْسَ من وظائِفها أنْ تكونَ إمَامةً مثل أبيها، من الأئمة الرَّبَّانِيِّين، ومن علماء الدّين في الهيكل.

• ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾: هذا الاسم معروف قديماً عند بني إسْرائيل، ومن المسمَّياتِ به في كُتُب أَهْلِ الكتابِ «مَرْيَمُ» أُخْتُ موسَىٰ وهارون عليهما السلام، وأبوهم «عمران» وهو عندَ أهل الكتاب «عَمْرَام» واسم امرأة أخرى من نَسْلِ «يَهُوذا» وغيرهما، وهُنَّ في كتُب أهل الكتاب ثمان.

• ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾:

أي: وإنّي أحصِّنُهَا وأَحْمِيها بِكَ رَبِّ، وأحصِّنُ ذُرّيَّتَها وأَحْمِيهِمْ بِكَ من الشيطان الرَّجيم.

أعاذَه: أي: حَصَّنَهُ وحَمَاه.

الشيطان: اسم جِنْسٍ يَقَعُ علىٰ كُلِّ مُغْوٍ، مُضِلٍّ، مُتَمَرِّدٍ، من الجنّ والإنس.

وإبليس لَعَنَهُ الله إمَام الشَّياطين ورَئيسهم.

الرجيم: أي المرجومُ المطرودُ مِنْ رَحْمَةِ الله، وأَصْلُ الرَّجْمِ الضَّرْبُ

بالحجارة حتَّىٰ الإهلاك، واستُعْمِلَ للدَّلالَة على الطَّرْدِ من رَحْمَةِ الله عزّ وجلَّ.

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾:

أي: فأجْرَىٰ رَبُّها الأسْبابَ المعروفَةَ عنْد بني إسرائيل لقَبُول غير الذكور في الْخِدْمَةِ الدِّينيَّة الّتي نُذِرَتْ لها، وتَمَّتْ هذه الإجراءت بصُورَةٍ حَسَنَةٍ أقْنَعَتِ الرَّبَّانِيِّينَ بَصلَاحِيَّتِها لِخِدْمَة الهيكل وقبول الله لها، وتقبَّلَها اللَّهُ عنْدَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ أيضاً.

- ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾:

أي: وأنْبَتَهَا رَبُّهَا إنْباتاً حَسَناً، فَنَبَتَتْ نَباتاً حَسَناً، جَاءَ التعبيرُ عن إنشائها إنْشاءً صَالحاً في جَسَدِها ونَفْسِها وقَلْبِها وكلّ أركانِها الدَّاخِلِيَّةِ والخارِجيَّةِ، المادّيَّةِ والمعنويَّةِ بالإنبات، الّذي يكونُ للأشجار والزّرُوعِ وسائر النَّباتاتِ، لأنَّ المعنىٰ العام لتَنْمِيَةِ الكائنات النباتيّة والحيوانيَّة معنىً مُشْرَكٌ بينها.

وجاء وصف النباتِ بالْحُسْنِ، للإشعار بأن «مريم» عَلَيْها السّلام لم تَتَعَرَّضْ في كلّ نَشْأتِها لشَيْءٍ يُخِلُّ بالْحُسْن، في المادّيَاتِ والمعنويَّاتِ، ولا سيما أخْلاَقُها وسُلُوكها، وأعمالُها في التَّقْوىٰ، والبرّ، والإحسان.

- ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾:

أي: وأجرى الله عزّ وجلَّ الأسْبابَ الّتي حَقَّقَ بِهَا أنْ يكونَ الكافل لَهَا، والمشرف على رِعَايَتِهَا وَحِمَايَتِهَا في «بيت المقدس = الهيكل» زكريَّا عليه السّلام.

وجاء في الآية (٤٤) من هذه السورة بيانُ أنَّ كهَنَة «بيت المقدس» والرَّبَّانيِّين فيه تَنافَسُوا بَيْنَهم علَىٰ كفَالَةِ «مريم» لأنَّها ابنَةُ كاهِنِهِمْ الأكبر

ورَئيسِهم «عِمْران» الّذي كان على ما يظهر قد توفّاه الله، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: يُلْقُونَ أقلامَهُمْ مُقْتَرِعين لتوجيه كفالة «مَريم» لمن تكون كَفالَتُها بالْقُرْعَةِ من نَصِيبِهِ. **الأقلام**: هُنا قداحُ الْقُرْعَة.

ودَلَّتْ عِبارَة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على التنافُس الشديد بينهم على كفالتها.

وتمَّ حَلُّ التُّنافس الّذي وصَلَ إلى الخِصَامِ بإجراء الْقُرْعَةِ فيما بيْنَهم، فقضىٰ الله جلَّ جلالُهُ بالْقُرْعَةِ أن تكون كَفالَتُها من نَصِيبِ «زَكَرِيّا» عليه السَّلام، زوج خالَتِها «إيشاع = أَلِيصَابَات».

- ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

سبَقَ بيانُ المرادِ بالمحراب، ودلَّ هٰذا البيانُ علىٰ أنَّ زَكَرِيّا عليه السّلام كانَ كُلَّما دَخَلَ عَلَيْهَا لِرِعَايَتِهَا وَتعَهُّدِ شُؤُونها، في تَرْبِيَتِها وَتَنْشِئَتِها، وجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً لم يأتها هو به، ورُبما كان من الثمرات الّتي لا وُجُود لَهَا في الْقُدْس حينئذ.

ويظهر أنّه كان لا يَسْأَلُها لِعِلْمِهِ بأنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ يُكرِمُهَا بهذا الرِّزْقِ تَفضُّلاً ومِنَّةً، وأراد في إحْدَىٰ المرَّاتِ أن يَخْتَبِرَها فَسَأَلَهَا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ أي: منْ أَيْنَ لَكِ هذا؟ أو كَيْفَ لَكِ هذا؟ فأجابَتْهُ بأنَّهُ من عِنْدِ الله، أي: لَيْسَ من عِنْدِ أَحَدٍ من البشر، وبأنَّ اللّهَ يَرْزقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب، أي: بِغَيْرِ مقدارٍ مَعْدُود، وهٰذِه العبارة كِنَايَةٌ عن الكَثْرَةِ كَماً وَكَيْفاً.

ثانياً:

ومّما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً بَعْدَ أَرْبَعَ آياتٍ تَتَعَلَّقُ بزكريا ويَحْيَىٰ عليهما السلام، بيانٌ قرآنيٌّ آخَرُ يَتَعَلَّقُ بمريم عليها السلام، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

يظهر أنّ عدداً من الملائكة كانوا يتوافدون عليها، ومنهم جبريل عليه السلام، فيبشرونها، ويُثبّتُونَها، ويُشرِفُون على تربيتها التربيّة اللائقة باصطفائها.

أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي لآيات كتاب ربّك، قصّة هذا الحدَثِ الَّذي أجراه الله جلَّ جلالُه لمريم عليها السلام، وهُوَ يُنَشِّئُها تَنْشِئَةً تَقيَّةً بارَّةً مُحْسنة في بيت المقدس، ويُحِيطُها بالعنايَةِ والرِّعَايَةِ والحِفْظِ والْعِصْمَةِ.

فاعْلَمْ أنّ رُسُلاً من عند رَبِّها من الملائِكَةِ، ورُبما كان جبريلُ عليه السَّلامُ من أوائِلِهِمْ، قالوا لها: إنّ اللَّهَ اصطفاكِ وطَهَّرَكِ، واصطفاكِ على نساءِ العالَمين، تثبيتاً لها، ودَفْعاً لكُلّ قُواها وَمَشَاعِرِها الوجدانيَّة، أنْ تَبْذُلَ غايَة جَهْدِها واجْتِهادِها في عبادتها لرَبِّها، وفي تحقيق المطلوب الرَّبَّانيِّ منها، حتَّى تَكُونَ مُؤَهَّلَةً للاصطفاء الَّذي اصْطَفَاهُ الله له، إذْ قَدَّرَ أنْ تَحمِلَ دُونَ مُعَاشَرَةِ زَوْجٍ، وإنَّما بِنَفْخَةٍ من الملكِ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلام، مصحوبَةٍ بكَلِمَةِ التكوين الرَّبَّانيَّة، نَبِيّاً رسولاً يُجْرِي اللَّهُ له معجزات باهراتٍ، منها إبراءُ الأكْمَهِ (=الأعمى) والأبْرَصِ، وإحياء الموتَىٰ بِإذْنِ الله، ومنها أنْ يَصْنَعَ مِن الطين جسداً كِهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ، فَيَكُونُ طَيراً حَيّاً يَطِيرُ كَسَائِرِ الطَّيْرِ بِإذْنِ الله.

﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾: أي: فَضَّلَكِ واخْتَارَكِ. **الاصطفاء**: التفضيلُ، والاختيارُ، والانتقاء، وجَعْلُ المصطفى من صفوة العباد الَّذِينَ صَفَوْا مِنَ الأكْدَار، ومِنْ كُلِّ مَا لاَ يَليقُ بالطَّاهِرِينَ من الأخيار، والمتقين الأبْرار، والمرادُ بهذا الاصطفاء اختيارُها لأنْ تَكُونَ أُمَّ عيسَىٰ عليه السَّلامُ بمُعْجِزَة.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾: أي: ولَزِمَ عن اصطفائه لكِ أن يُطَهِّرَكِ بحِمَايَتِهِ وحِفْظِه من كلّ رجْسٍ فكريٍّ في العقيدة، أو نَفْسِيٍّ في الأخلاق والطباع والإرادات، أو سُلُوكيّ في الأعمال الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ.

ودلّ هذا التَّطْهِيرُ على عِصْمَتِهَا من أرْجاسِ المعاصي والذنوب.

﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: وَفَضَّلَكِ باصطفائِهِ لَكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مِنْ أَهْلِ عَصْرِك.

ضُمِّنَ فعل «اصْطَفَىٰ» هُنَا معْنَىٰ فِعْلِ «فَضَّلَ» فعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرْف الجرّ «على».

جاء في بيان الرَّسُولِ ﷺ، ما أخرجَهُ الحاكم وصحَّحهُ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفْضَلُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ خديجةُ، وفَاطِمَةُ، وَمَرْيَمُ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْن».

وجاء عِنْدَ البخاريّ ومُسْلِمٍ وغَيْرِهما، عن عليٍّ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول:

«خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ، وخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».

وجاء عند البخاري ومسلم وغَيْرِهما من حديثِ أبي مُوسَىٰ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، ولَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْن، وفَضْلُ عَائِشَةَ على سَائِرِ النّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ».

فَمِنْ هٰذِهِ الأحاديث ومِنْ غَيْرِها من الأدِلَّة نفهم أنّ المرادَ بعبارة: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَفْضيلُها على نِسَاءِ العالَمِينَ في زمانها، أو تفضيلُها على كلّ نِسَاءِ العالمين ليكونَ بَطْنُها هو المختارَ لِيَحْمِلَ ويُمِدَّ بالغذاء نبيَّ الله ورَسُولَهُ عيسَىٰ عليه السلام بِنَفْخِ جبريلَ عليه السَّلام نفخةً وَاصِلَةً إلى انعقاد الجنينِ في بَطْنِهَا، ويُقَوّي هذا المعنَىٰ عطف جملة: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ فَدَلَّ العطفُ على التَّغَايُرِ بَيْنَ الاصْطِفاءَيْن.

- ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

هذا النداء من توابع قول الملائكة لها، والغرضُ مِنْهُ مُتَابَعَةُ تَرْبِيَتِها علىٰ القيام بأنواع العبادات لِرَبّها.

﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾: أي: أَطِيعِي رَبَّك واخْضَعِي له. **الْقُنُوتُ**: هُو في اللُّغة الطَّاعَةُ والخضوع ولوازمها، يقال لُغةً: قَنتَ اللَّهَ، وقَنتَ له، أي: أطَاعَهُ، وخَضَعَ، وذَلَّ له.

والمعنى: أقْنُتِي لِمَنْ يَتَعَهَّدُكِ دَواماً برُبُوبيَّتِه، ولهٰذا اختير هنا من أسماء الله اسْم الرّبّ، الدّالُّ على صفاتِ الرُّبُوبيَّة.

والقنوتُ يَشْمَلُ كلَّ الطاعاتِ والعباداتِ والقُرُباتِ وأعمالِ البرّ والإحسان.

ولمّا كانت الصَّلاة الشَّرعيَّة المشْتَمِلَةُ على الرُّكوعِ والسُّجودِ يَجِبُ أن تَحْظَىٰ من العابِدِ لِربّهِ بعنايةٍ خاصَّةٍ، قالَتِ الملائكَةُ لها.

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

قُدِّمَ في هٰذه العبارة السُّجود، لأنّ الْعَبْدَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنْ رَبِّهِ وهو ساجد.

ولمَّا كان الْعُبَّادُ في «الْهَيْكَل» المنقطعُون للعبادة والْعِلْم حتَّىٰ يكونُوا مِنَ الأئِمَّةِ في الدِّينِ للمتَّقِين، ومن الرَّبّانيّين، هم من الرّجال، ولم يَكُنْ من النِّساءِ فيهم إلَّا مَرْيَمُ عليها السلام، قالت الملائكة لها: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولو يقولوا: وارْكَعِي مَع الرَّاكعات.

وفي العبارة مَحْذُوفٌ دَلَّ عليه مَذْكُورٌ فيها: والتقدير: واسْجُدِي مع السَّاجِدِينَ وارْكَعِي مَع الرَّاكِعِينَ.

* * *

ثالثاً:

وممَّا جاء في سورة (مريم/١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) الذي سبق ذِكْره، في أوّل هذا الدَّرْس الثاني:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾:

القراءات:

(١٨) • قرأ نافع، وابْنُ كَثيرٍ، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: ﴿إِنِّىَ أَعُوذُ﴾ بفَتْحِ ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ﴾ بإسْكان ياء المتكلم. وهما وجهان عربيان لنطق ياء المتكّلم.

(١٩) • قرأ قَالُونَ في إحدى الطريقين عنه، وورْش، وأبو عَمْرو: **[لِيَهَبَ لَكِ]** أي: لِيَهَبَ لَكِ رَبُّكِ غلاماً زَكياً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ على أن الواهب جبريل عليه السلام، وهذه هي الطريق الثانية عن قالُون.

وبين القراءَتَيْن تكاملٌ في أداء المعنىٰ المراد، إذ الواهِبُ الحقيقيُّ بأمْرِ التكوين هو الله عزّ وجلّ، والواهبُ السَّبَبِيُّ بِوَسِيلَةِ النَّفْخ هُوَ جِبْرِيل عليه السّلام.

وعند هذا المقطع من سورة (مريم) المكيَّة، نجدُ لقطعة تَكْمِيليَّةً جاءتْ في سُورَةِ (التحريم/٦٦ مصحف/١٠٧ نزول) النازلة في الثُّلُث الأخير من المرحلة المدنيَّة من تاريخ سِيرَة الرَّسُول ﷺ بَعْدَ بِعْثَتِه، وهي قولُ الله عزّ وجلّ في آخِرِ آيةٍ منها:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

- قرأ حفْصٌ، وأبُو عَمْرو، وَيَعْقُوب: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بالْجَمْع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَكِتَابِهِ] بالإفراد.

والقراءَتان متكافئتان في المعنى، لأن المفردَ المضَافَ إلى الضمير يَعُمُّ كُلَّ ما يُنْسَبُ إلىٰ الضّمير من أفراد المضاف، وليكون دَليلاً على أنَّ مِثْلَ هٰذِهِ الإضافة ممّا يَدُلُّ على العموم إلاَّ بدليلٍ صارف عنه، كَقَرِينَةٍ لَفْظِيَّةٍ أو مَعْنَوية.

التّدبُّر:

قول الله تعالى:

- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾:

أي: واذْكُر خَبراً مُنزّلاً في الكتاب وهو القرآن، مَرْيَمَ إذا انْتَبَذَتْ، أي: قصَّةَ مَرْيَم إذ انْتَبَذَتْ إلى آخر القصّة الواردة في القرآن.

وجاءتْ عبارة: ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ للإعْلام بصِدْقِ الخبر، لأنّ كُلّ ما أنْزَلَهُ اللَّهُ في القرآن حقٌّ، ولِتَوْجيه المتلقِّين للعناية بمضمونه، لما فيه من بيانٍ يتعلَّقُ بخارقٍ من خَوارق الرَّبّ جلّ جلالُه، لسُنَنٍ في كونه، هو الذي وضَعَها، وهو وَحْدَهُ الذي يخرِقُها متى شاء لحكمةٍ مِنْ حِكَمِهِ الجليلَة، ولما فيه من بيانٍ يتعلَّقُ بطهارَة مَرْيَمَ عليْهَا السّلام، وقَدْ أشاع الْيَهُودُ عَنْها ما أشاعوا من فرية، إذ اتَّهَمُوها بالفاحشة، مع أنّها حمَلَتْ بعيسىٰ عليه السّلام بَنَفْخِ جبْريل في جيبها امتثالاً لأمْر الله، مصحوباً بأمْرِ الله التكويني.

والمقصود بفعل ﴿وَٱذْكُرْ﴾: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلقِّي هذه القصّة الصادقة، للاهتداء إلى الحقّ، بما تَدُلُّ عَلَيْهِ مِن قُدْرَة الله وعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

والخطابُ مُوَجَّهٌ لكُل مُتَلَقٍّ صَالِحٍ للخطاب.

﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: مُتَعَلِّقٌ بمحذوف هو مفعول به لفعل: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ أي: واذْكُرْ خبراً مُنَزَّلاً في الكتاب.

﴿مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾: **مريم**: بدَل من مَعْمُول «واذْكر» والمرادُ قِصَّةُ مَرْيم الّتي سيأتي في النصّ بيانُها.

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾: أي: حين اعْتَزَلَتْ. يُقَالُ لُغَةً: انْتَبذَ فُلانٌ، أي: اعْتَزَلَ نَاحِيَةً، مُنْصرِفاً إلى ناحِيَةٍ أُخرَىٰ، ويقال انْتَبَذَ عَنِ الْقَوْم: أي: تَنَحَّىٰ عَنْهُمْ إلى نَاحِيَةٍ بَعِيدَةٍ تَعْزِلُهُ عَنْهُمْ.

قول الله تعالى:

- ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾:

﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾: أي: من أمكنَةِ أَهْلِها.

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: أي: حالَةً مكاناً يَقَعُ إلى جِهَةِ الشَّرق، ضُمِّنَ فعل

«انْتَبَذَت» معنَى فِعْل «حَلَّتْ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتِهِ، فَنَصَبَ «مكاناً»، على أنَّهُ مفعولٌ به.

ودَلَّتِ العبارة على أنّ اعتزالَها لم يكن خارجاً عن حُدُودِ مساكن أهْلها، بل كانَ ضِمْنَ حُدُودها ومنها، ودلّت على أنّ المكان الذي اعْتَزَلَتْ فيه يَقَعُ إلى جهة مَشْرِقِ الشمس، بالنسبة إلى سائر أماكن أَهْلِها الّتي ابْتَعَدَتْ عَنْها في عُزْلَتها.

قول الله تعالى:

- ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾:

﴿فَٱتَّخَذَتۡ﴾: أي: فَجَعَلَتْ بِتَكَلُّف، وإجراءاتٍ عمرانيَّة.

﴿مِن دُونِهِمۡ﴾؛ أي: من أَمَامِ نَظَرِ أهْلِها، أوْ من جِهَتِهم حَيْثُ امتداد نظرهم.

﴿حِجَابٗا﴾: أي: ما يحجُبُ أنظارهم عن رُؤيَتِها، عِفَّةً وطهارةً في حال تَكشُّفِها، وبُعْداً عن الرّياء، وحِرْصاً على الإخلاص للَّهِ عزَّ وجلَّ في أحوال عباداتها.

قول الله تعالى:

- ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾:

أي: فأرْسَلْنا عَقِب اعتزالها واتّخاذها الحجاب إليها رُوحَنَا الَّذِي هو جبريل عليه السّلام، رَسُولاً لأداء رِسالَةٍ كلَّفْنَاهُ القيام بها.

وقد جاء وصْفُ جبريل عليه السّلامُ بأنَّهُ رُوحٌ في عِدَّةِ نُصُوصٍ قرآنية.

يتحدَّثُ الرَّبُّ جلَّ جَلَالُهُ في هٰذه العبارة بضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ الموضوع يتعلّقُ بعظمَةِ الرُّبُوبيَّة في الخَلق بخارقٍ للعادة مَقْرونٍ بحكْمَةٍ جليلة.

قول الله تعالى:

- ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾:

أي: فظهر لها الرُّوح جبْريلُ عليه السّلام مُتَشَكِّلاً بصُورةٍ بشَرٍ سَوِيّ، كاملِ الخِلْقة لا نقصَ فيه ولا عيْبَ.

هذا التشكُّل من الخصائص الّتي جعلَها الله للملائكة، وجعَلَ بَعْضَها للجِنّ، مع اختلاف في أصل التكوين.

التمثُّل: هو التَّشَكُّلُ بأشْكالٍ مُماثِلَةٍ لأشْكالِ كَائِنَاتٍ أُخْرَىٰ، مُخْتَلِفَةٍ في تكوينها وفي صِفَاتِها.

﴿بَشَرًا﴾: لفظ «بَشَر» مثل لفظ «إنْسان» كُلٌّ مِنْهُمَا اسم جِنْسٍ لآدم وذُرّيّتِهِ، ولفظ «بشر» يسْتَوي فيه «المفرد والمثنىٰ والجمع، والمذكر والمؤنث» وقد يثَنَّىٰ، وقد يجمع على «أبْشار».

﴿سَوِيًّا﴾: أي: مُسْتَوِياً مُعْتَدِلاً تامّ الخلْق، لا نَقْصَ فيه ولا شُذُوذَ، ولا مُخَالفة فيه للشَّكْلِ المعتاد في البشر.

كلُّ هذا بالنسْبَة إلى الشَّكْلِ الذي تَراهُ الأنْظار، أمّا في الحقيقة فهو المَلَكُ بصِفَاتِهِ الحقيقيَّة، دون أن يتَحوَّلَ بالتَّشَكُّلِ إلى صفاتٍ بشَرِيَّة بحالٍ من الأحوال.

قول الله تعالى:

- ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾:

لَقَدْ هَالَتْهَا المفاجَأةُ وَأَذْعَرَتْها، أنْ تَجِدَ مَعَهَا في خَلْوَتِهَا، وفي مكانِ عُزْلَتِها رَجلاً بشراً مُكْتَمِلَ الْخِلْقَةِ سَوِيّاً، فَلَمْ تَجِدْ إلّا أنْ تَسْتَعِيذَ بالرَّحْمٰنِ مِنْه.

وإذْ كان من عَادَتها عليها السّلام أنْ تحادِثَها الملائكةُ دُونَ أن تَظْهَرَ

لَهَا بصُوَرٍ بَشَرِيَّةٍ، كانَ من حُسْنِ الفراسة فيها أَنْ يَخْطُرَ لَها أنَّ هٰذا الَّذِي ظهر لَها في خَلْوَتِها لَا خَوْفَ مِنْهُ على شَرَفِها وطَهارَتِها وعِفَّتِها، فاستعاذَتْ باسْمِ الرَّحْمٰنِ منْهُ إنْ كانَ تَقِياً. ولولا هٰذهِ الفراسَةُ الحسنة لَقَالَتْ: إنّي أعُوذُ بالجبّار المنتقِم منك.

أمّا استعاذتُها بالرَّحْمٰنِ مِنْهُ إنْ كانَ تقِياً، فهي استعاذة من الفضيحة، ومن التُّهَمَة، ومن أنْ تُشَاع عنْها مقالة سوء إذا رآه أحَدٌ في حُجْرتِها.

قول الله تعالى:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾:

أي: ما أنا إلا رَسُولُ رَبّكِ، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، تَفُسَّرُ بـ«ما» و«إلّا».

وسبق بَيَانُ القراءتَيْن: ﴿لِأَهَبَ﴾ و[**وَلِيَهَبَ**] وبيان تكاملهما.

وقد كانَتْ وَظيفةُ «جبريل» أن يَعْمَل عملاً سَبَبِياً هو النفخ لإنْشَاءِ الْجَنِينِ عِيسَىٰ في بَطْنِ أُمّه «مَرْيم» عليهما السلام.

﴿لِأَهَبَ﴾: **الهبَةُ**: هي العطية الخاليةُ من الأغراض والأعواض.

﴿زَكِيًّا﴾: أي: طاهراً، نامِياً في الكمالات البشريّة.

قول الله تعالى:

- ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾: أي: من أيْنَ يَكونُ لي غُلامٌ؟ وكَيْفَ يَكُونُ لي غُلَامٌ؟ الاستِفْهَامُ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَى التعجُّب.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾: أي: ولم يَمْسَسْنِي زَوْجٌ بَشَرٌ يَحِلُّ لي شَرْعاً أنْ أُعَاشِرَه، وقد دَلَّ على هذا الْقَيْد العبارة التالية لها.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي: ولَمْ أكُنْ من الزَّواني اللّواتي يُعَاشِرْنَ الرّجالَ مُعَاشَرَةً مُحَرَّمَة، عن طريق البغاء، ولم أتعرَّض للزّنا.

البغيّ: هيَ الزانيةُ الفاجِرَةُ الّتي تَتَكَسَّبُ بفُجُورِها.

قول الله تعالى:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: أي: قال لها جِبْريل عليه السّلام: أنْتِ كذلِكِ الوصْفِ الّذِي وصَفْتِ به نفسك، لم يمْسَسْكِ بشَرٌ بزواجٍ مَشْرُوع، ولم تكُوني بَغِيَّةً زَانِيَةً.

- ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:

أي: وجواباً على استفهامك التعجُّبيّ، قال رَبُّكِ هو عليَّ هَيِّنٌ، أي: إنّ إنْشَاءَ غُلامٍ في بَطْنِكِ دُونَ مُعَاشَرَةِ رَجُلٍ هو عَلَيَّ خَلْقٌ هيِّنٌ، إذْ هو لا يحْتَاج بالنسْبَةِ إلى الرَّبّ جلَّ جلالُهُ إلّا إلى أمْرِ التكوين، إنَّما أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكون.

- ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾:

أي: وقال رَبُّكِ أيضاً: لِنَجْعَلَ هٰذا الْغُلامَ الَّذِي نَهَبُهُ لَكِ آيَةً للنَّاسِ، أي: علامَةً على عظمة رُبوبيَّتِنَا، وكمالِ قُدْرَتِنا على خَرْقِ السُّنَنِ السَّبَبِيَّة، الّتي وَضعناها نَحْنُ بِحِكْمَتِنَا.

ولنَجْعَلَهُ رَحْمَةً مِنَّا لِعبادنا، بما نُحَمِّلُه من رسالة، وإذْ يُبَيّن لهم ما اخْتَلَفُوا فيه من مسائل الّدين وقضاياه، فيهْتَدِي به المستعدّون لتَقَبُّلِ الهداية، فيَكُونُ ببياناته رَحْمَةً لهم.

وكُلُّ رَسُولٍ هو رَحْمَةٌ من الله لِمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَّبِعُهُ بِصِدْق. استعمل في العبارة ضمير المتكلم العظيم لأنَّ الموضوع يتعلَّقُ بسُلْطان الرّبُوبيَّة.

• ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾: أي: وَكان حَمْلُك بعِيسَىٰ واصطفاؤك لهٰذا الأمْر، أمْراً مقضِيّاً بقضاء مُبْرَم من الرَّبّ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه. فَلا تَتَذَمَّرِي من قضاء الله، ولَا تَسْأَلِي اللَّهَ أَنْ يُعْفِيكِ مِنْ هذا الأمْرِ المقضيّ المبْرَم، إذْ لا بُدَّ من تَنْفِيذِه.

* * *

عند هذا المفْصِل من سورة (مريم) الّتي نزلَتْ في أواسط العهد المكيّ من تاريخ دَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ بَعْدَ بِعْثَته، نجد لقطةً تكميليَّةً جاءت في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) النازلَة قُبَيْلَ أواخر الْعهْد المكّيّ: وهي قول الله عزّ وجل فيها بشأن مريم عليها السّلام:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (٩١)﴾:

ولَقْطَةٌ أُخرَى جاءت في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) النّازلة في الثُّلث الأخير من المرحلة المدنية، وهي قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ (١٢)﴾.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: أي: صانته وحَفِظَتْه من الفاحشة، ولم تَرْتَكِبْ به معْصِيَةً لِرَبّها.

ونلاحظ أنّ ما جاء في سورة (الأنبياء) جاء بعِبارَة: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (٩١)﴾ الضمير في هذه العبارة يعود على «مريم» عليها السلام، الّتي أحْصَنَتْ فرْجَها.

وأنّ ما جاء في سورة (التحريم) جاء بعبارَة: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ الضمير في هذه العبارة يَعُودُ على «فَرْجِها».

والتكامل بَيْنَ العبارَتَيْن يَدُلُّنا علىٰ أنَّ النَّفْخ في ذاتِ «مَرْيَم» عليها السلام، لم يَكُنْ عَنْ طَرِيق فَمِها، أوْ أنفِها، أو مَنْفَذٍ آخَرَ مِن جسمها، غَيْرِ فَرْجها، سواءٌ أكان النفخ في جيب درعها من جهة صَدْرها، أم من طرف ثوبها الأدنى، أم من كُمّها، فالنفخة قد أخذت طريقها فَدَخَلَتْ فِي فَرْجها.

وسبق تدبر ما جاء في سورة (مرْيم) بشأن إرسال الله عزّ وجلّ جبريل إليها، وأنَّهُ تمثَّلَ لها بشراً سَوِياً، وأنّه أخْبرَهَا بالتَّكْلِيفِ الرَّبَّانيِّ الذي جاء إليها من أجله، ولم يأت في نصّ سورة (مريم) ذكْرٌ للنَّفْخ الذي جاء في سورتي (الأنبياء) و(التحريم) فتكامَلتِ النُّصوص.

معترضة حول تَسْميةِ جبريل عليه السلام «الرُّوح» في القرآن:

(١) سمّىٰ الله عزّ وجلّ «جبريل» عليه السّلام الرُّوح فقال تعالى في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول) بشَأْن ليلَةِ القدْر:

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾.

(٢) وسمَّاه الرُّوح الأمين، فقال تعالى في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن القرآن المجيد، خطاباً لرسوله محمّد ﷺ وإعلاماً لسائر الناس:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

(٣) وسمَّاه رُوح الْقُدْس (أي: رُوحَ الطَّهارة من كُلّ رجْسٍ) فقال تعالى: في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لِرَسُوله بشأن القرآن أيضاً:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾.

(٤) وسمّاه الرُّوحَ في سورة (النحل) أيضاً:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾.

أي: يُنَزّل الملائكة مصحوبةً بالرُّوح الذي هو جبريل عليه السلام، من أَمْرِه على من يشاءُ من عِبَادِه، وهُمُ الّذِينَ اصطفاهم لِرِسَالَتِهِ، ومضمونُ الرّسَالة: أنْ أنْذِرُوا بعذاب الله الكافرين بأنَّهُ لا إله إلّا الله، أي: لا معبود بحقٍ إلا الله، فمَنْ عَبَدَ غير الله، أو أشرك بعبادته أحداً كان من الكافرين، المستحقين للخُلودِ في عذاب النَّار يوم الدين.

(٥) وسمّاه الرُّوح في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) فقال الله تعالى فيها:

﴿تَعْرُجُ الْمَلَٰئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾.

أي: تَعْرُجُ الملائكةُ وجبريل، وخُصَّ بالذِّكر تَعْظيماً لشأْنِه بين الملائكة المقرّبين.

(٦) وسمّاهُ الرُّوحَ أيضاً في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

فقال تعالى في الحديث عن يوم الدّين:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)﴾.

أي: يوم يقوم جبريلُ مُتميّزاً بارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ رَبّه، والملائِكَةُ مَعَهُ.

هذه النصوص تدلُّ على أنّ جِبْرِيلَ عليه السّلام، قد اختصَّهُ الله عزّ وجلّ باسم «الرُّوح» و«رُوح القدس» وأضافه إلى نَفْسِه تكريماً له بقوله في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)﴾.

رابعاً:

قول الله تعالىٰ في آية سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿... وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

أي: وجعلْناها في حَمْلِها مِنْ غَير أن تعَاشِرَ بشراً معاشرةً زوجيَّة، وجعلْنَا ابْنَها عيسَىٰ الّذي كلَّمَ الناسَ وهو صبيٌّ في المهد، وأَجْرَينا له معجزات باهرات، وخوارقَ عاداتٍ مُدْهشات، آيَةً، أي: علامَةً على وُجود ربّ خالق، يخرق العادات، ويَصْنَعُ المعجزات الكبريات، وهو على ما يشاء قدير، وآيةً على أنّ عيسىٰ عَبْد الله ورسولُه حقّاً.

وقول الله عزّ وجلّ في آية سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول): بشأن مريم عليها السلام:

﴿... وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾:

قد وصَفَ مَرْيم عليْها السَّلامُ بصِفَتَيْنِ عظيمتَيْن:

- صفة إيمانيَّة.
- وصفة سلوكية.

أمّا الصفة الإيمانية: فقد دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾: أي: وصَدَّقَتْ بكلمات رَبّها الّتي كانت الملائكة تُبَلِّغُها إيّاها، وفي مقدّمتها كلمات جبريل لها تبليغاً عن الله، وصَدَّقَتْ بكُتُبِ المنزَّلَةِ على رُسُله ممَّا وصَلَها الْعِلْمُ به.

وتَشْمَلُ كلماتُ الله شرائعه وأحكامَهُ ووصايَاهُ الّتي بَلَّغَها رُسُلُه، ولَوْ لَمْ تكُنْ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُ اللَّهِ المنزلة.

وأمّا الصِفَةُ السُلُوكِيَّة: فقد دَلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾:

القانت: هو المطيع الخاضع المتذَلِّلُ لِرَبِّه، القائِمُ بعباداتِه على مايُرْضِي اللَّهَ عزّ وجلّ.

وصفها الله عزّ وجلّ بأنَّها كانت من القانتين، ولم يَقُلْ: من القانتات، لأنَّها بلَغَتْ في قُنُوتِها مبْلَغَ الكاملين من الرّجال، ولم يشاركها في هذه المرتبةِ عابِدَةٌ من عابداتِ النساء في بني إسرائيل.

لَكِنْ كانَ يُوجَدُ في بني إسرائيلَ رِجالٌ قانِتُونَ من دَرَجةٍ رَفِيعَةٍ، في مرتَبَةٍ عالية، فكانت جَدِيرةً بأنْ تكونَ مَعَهُمْ في المرتبة والدرجة، طاعةً وخضوعاً لله، وعملاً بمراضيه، واجتهاداً في العبادات والقُربات، والأعمال الصالحات.

* * *

خامساً:

وممّا جاء في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) منْ بَيانٍ يتعلَّقُ بمريم وابْنِها عيسَىٰ عليهما السَّلام، وهذا البيان ينتَقِلُ إلىٰ ما بَعْدَ مَرْحَلَةِ بَدْءِ عُلُوقِ الْجنِينِ عيسَىٰ في بَطْنِ أمّه، هو قول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾.

القراءات:

(٤٥) • قرأ حمزة والكِسَائي: [يَبْشُرُكِ] من فِعْل: «بَشَرَه يَبْشُرُه» وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يُبَشِّرُكِ] من فعل: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُه» المضعّف، ومعلوم أنَّ زيادة المبنى في العربيّة تَدُلُّ غالباً على زيادة المعنى.

فالظاهر أنّ الملائكة قدَّمَتْ لها البشارة من غير تأكيد فيها، فلمَّا شَعَرُوا باستغرابها شدّدُوا في عبارة البشارة، وبهذا تتكامل القراءتان.

(٤٧) ● قرأ ابْن عامر: ﴿كُن فَيَكُونَ﴾ بنَصْب فعل «يَكُونَ» على أنه منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببيَّة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ برفع فعل «يَكُونُ» أي: فهو يكون بأمر التكوين.

والقراءتان مُتَكافئتان في الدلالة الغائيَّة، إلَّا أنَّ قراءة ابْن عامر أفادت أنّ كلمة «كُنْ» سَبَبٌ في تنفيذِ المقْضِيِّ به في الواقع. أما القراءة الأخرى فدَلّت على تحققه في الواقع.

(٤٨) ● قرأ نافع، وعاصم، وأبو جَعْفَر، ويَعْقُوب: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَٰبَ﴾ بالياء، وبالضمير المستتر الذي يعودُ على «الله».

وقرأ باقي القُرّاء العشرة: [**ونُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ**] بنُونِ المتكَلِّمِ العظيم.

فَدَلَّت قراءةُ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ على القول الصادر من الملائكة.

ودَلّت قراءة: [**ونُعَلِّمُهُ**] على القول الصادر عن الله عزّ وجل.

فبين القراءَتيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

التدبّر:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أي: يا أيُّها المتَلقّي للقرآن المجيد، ضَعْ في ذاكِرَتك من أحداث قصّة مريم وابنها عيسَىٰ، أحداثاً جرَت إذْ خصَّص الله للعناية بها طائفة من الملائكة، وفي مُقدّمتهم جبريلُ أخْذاً من دَلَالَاتِ نصوص أخرى، وأنّ هؤلاء الملائكة قالوا لها:

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾:

أي: يا مَرْيَمُ إنَّ الله يُبَشِّرُك بكَلِمَةٍ من كلماتِه التكوينيَّة، الّتي يتحقَّقُ بها ما سبَقَ به قَدَرُهُ وقضاؤه.

وهذه الْكَلِمَةُ الخاصَّةُ بِبشَارَتِكِ يتحقَّقُ بها إِيجادُ وَلِيدٍ لَكِ، اسْمُهُ المسيحُ عيسَىٰ ابْن مَرْيم.

والغرض من إعلان أنَّه ابْنُ مريم، الإشعارُ دواماً بأنّ الله خَلَقَهُ من أُمٍّ فقط.

المسيح: عبارة عن المسْحِ المعروف عند اليهود والنصارى، فَقَدْ كان الْمَسْحُ عِنْدَ الإسْرائِيليِّين من الطُّقُوسِ الدّينيَّة، ويُرادُ به صَبُّ الزّيْتِ أو الدُّهْنِ على الشيءِ، لتَكْرِيسِهِ لِخِدْمَةِ الرَّبّ، أي: لتخصيصه بأن يَحْمِل هذه المهمة، وهو اصطلاح عند القائمين بالوظائف الدينيَّة من اليهود والنصارىٰ.

والتكريسُ في العربيَّة يأتي بمعنىٰ التأسيس، يُقال لغة: كَرَّسَ البناء، أي: أسَّسَه.

وقد أوصَتِ الشريعةُ الموسَوِيَّة بمَسْحِ أَشْخاصٍ وأماكِنَ وآنِيَةٍ، وأمَرَتْ بأن يُرَكَّبَ لذَلِكَ دُهْنٌ مُقَدَّسٌ من أفْخَرِ الأَطياب.

ثُمَّ صَارُوا يَمْسَحُونَ بهٰذا الدُّهْنِ الكَهَنَةِ، والمُلُوكَ، والأنبياءَ، إشعاراً بتخصيصهم للقيام بمُهَمَّاتِهِم ووظائفهم مخْلِصِينَ لِخِدْمَةِ الله.

قالوا: وقد مَسَحَتْ مَرْيَمُ عليها السلام بالدُّهْنِ المقدّس المركَّبِ من أفخر الأَطياب قَدَمَي وَلَدِها عيسىٰ عليه السلام.

ثمّ صَار يُرَادُ بالْمَسْحِ من الله عزَّ وجلَّ تكْرِيسُ اللَّهِ نَفْسَ مَنْ يَصْطَفِيهِ لِخِدْمَتِهِ(١).

---

(١) أخذاً من «قاموس الكتاب المقدس».

- ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: حالة كونه وَجيهاً في الدُّنيا والآخرة، وهي حالٌ مُقَدَّرَة كما يقول النحويُّون.

الوجيه: سيّد قومه، وذو الوجاهَةِ فيهم، وهي المنزلَةُ الرفيعة، والْقُوَّة، والمنَعَة.

وقد أثبت الواقع سيادته بالنبوّة والرِّسالة والمعجزات الباهرات في الدنيا، أمَّا في الآخرة فلَهُ وَجَاهَةٌ عظيمة، إذْ هُو من أولي الْعَزْمِ من الرُّسل.

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: أي: وهو من زُمْرَةِ المقَرَّبِينَ إلى الله عزّ وجلّ: وهذه مَنْزِلَةٌ رَفِيعةٌ جداً عنْد اللَّهِ جلّ جلالُه، يَحْتَلُّهَا السَّابقون السَّابقون في فعل الخيراتِ، والطَّاعَاتِ، والْقُرُبَاتِ، وأعمال البرّ والإحسان.

قال الله عزَّ وجلَّ بشأن المقرّبين في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

الثُّلَّة: الجماعةُ من الناس.

لكنَّ المقرَّبينَ من الآخِرينَ قَلِيلُونَ، لا يبْلُغُونَ أنْ يكونُوا ثُلَّة.

- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: ويُكَلِّمُ الناس في الْمَهْدِ مُبَشِّراً بنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ القادمة، وفي كلامه وهو طفلٌ في الْمَهْدِ إعْجازٌ يُثْبتُ براءةَ أُمّه وطَهَارَتِها، وأنَّ اللَّهَ وَهَبَهُ لَهَا بِكَلِمَةِ التكوين: «كُنْ» دُونَ وِسَاطَةِ زَوْج.

الْمَهْدُ: السَّرير الّذي يُهَيّأ للطِّفْلِ الصغير، ويُوَطّأ لِيَنام.

ويُكَلِّمُ النَّاسَ كَهْلاً، فيقولُ لهم: إني رسولُ الله إِلَيْكُم، مُصدِّقاً لما بيْنَ يَدَيَّ من رُسُلٍ وكتُب، ومبشِّراً برسُولٍ يأتي من بَعْدِي اسمه أحمد، إلى أقوالٍ كثيرةٍ أخرىٰ اشتَمَلَتْ عليها رسالته.

الكَهْلُ: مَنْ جاوز الثلاثين، ويسْتَمِرُّ كَهْلاً إلى نحو الخمسين سنة من عُمُره.

وقد كانت بِعْثَةُ عيسَىٰ عليه السلام، حينما بلَغَ من الْعُمْرِ ثلاثين سنةً، في أوَّلِ كُهُولته، ورفعه الله إليه بعد ثلاث سنوات.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: **الصالح**: في اللُّغَة هو الْخَالِي من الفساد مَهْما قلّ وكذلك النافِعُ المفيد.

وجاء لفظُ الصالحين في القرآن الكريمِ وصفاً للأنبياء والمرسَلِين، والأخيار الممتازين من المحسنين.

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌۖ﴾؟!

هذه مقولَةٌ خاطبَتْ بها مَرْيَمُ عليها السّلام رَبّها، في أثناء ظُهُور الملائكة لها، وبشارَتِها بالوليد القادم، خطاباً مباشراً، لا عَنْ طريق أحَدٍ من الملائكة.

ويظهر أنَّها لم تَشْعُرْ بعْدُ بآثار الحمْلِ الذي تمّ تكوُّنُ عَلقَتِه، إذْ كانت في بدايات الحمْل.

- ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: أي: قال لها جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، إذْ عَلِمَ بخطابها لِرَبّها، أنت كَذَلِكِ، لم يَمْسَسْكِ بَشَرٌ لا بزواجٍ ولا بغيره.
- ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾.

أي: وقالَ لَهَا جِبْرِيلُ مُتابعاً حديثَهُ لها، اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ خَلْقَهُ ضِمْنَ نِظَام الأسباب الَّتي وضَعَها هو سُبْحَانَهُ، أو على غير نظام

الأسباب، فهو إذا قَضَىٰ أمراً، أيْ: أمْضَاهُ بإرادته، بَعْدَ أن حدَّدَ مقادِيرَهُ بتَقْدِيرِهِ، فإنَّما يُوجِدُهُ بأمْرِ التكوين، يقول لَهُ: «كُنْ» فَهُوَ يكُونُ مَوْجُوداً ضِمْنَ الموجودات، ولو كان الأمْرُ إيجاداً من الْعَدَمِ الكلّي.

هٰذه الآية (٤٧) جاءت اعتراضِيَّة ضِمْنَ كلام الملائكة لها، ثم يُتابعُ النَّصُّ بيان أقوال الملائكة لمريم.

- ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

هذا البيان معطوفٌ على الْجُمَل السَّابقَةِ الَّتي قالَتْهَا الملائكَةُ لمَرْيم، أي: حَالَةَ كوْنه وجيهاً، ومن المقربين، ويُكَلّم الناسَ في المهْدِ وكَهْلاً، ومن الصالحين، وحالَةَ كونِهِ يُعَلِّمُهُ رَبُّه الكِتَابَ والحكمةَ والتوراة والإنجيل، ويَبْعَثُهُ رَسُولاً إلى بني إسرائيل.

- ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: ويُعلّمه الكِتَابَة.

ذكر الإنجيليُّونَ أنَّهُ عليه السلام بدأ في حداثته المبَكِّرَةِ، وفي سِنٍّ صَغيرة يَدْرُسُ كُتُبَ الْعَهْدِ القدِيم دِرَاسَةً عميقةً واسعة.

جاء في إنْجيل «لوقا٢: ٥٢»:

«وأمَّا يَسوعُ فكَانَ يتقدَّمُ في الْحِكْمَةِ والْقَامَةِ والنِّعْمَةِ عِنْدَ اللَّهِ والنَّاس».

يَسُوع: هو عيسَىٰ عليه السَّلامُ عندهم.

- ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: وَيُعَلِّمُهُ العلوم الْحكميَّة الَّتي يَهْدِي إليها العقل الصحيح، وتهدي إليها التجربات النافعات في دَلَالَاتها. ويُعَلّمهُ ويُؤْتيه الحكمة في السُّلُوك.

الحكمة: وضع الأشياء في مواضِعِها سواءٌ أكانت في المعرفة الفكريَّة، أمْ في السُّلُوك الظاهِر والباطن.

- ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: أي: ويُعَلِّمُهُ التَّوراة الّتي أنزلها الله عزّ وجلَّ على موسَىٰ عليه السّلام، ويُنْزِلُ علَيْهِ ويُعَلّمُهُ الإنْجِيلَ.
- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: ويُرْسِلُهُ رَسُولاً إلىٰ بني إسْرَائِيلَ، بَعْدَ أَنْ يَجْعَلَهُ نَبِياً.

وإرسَالُهُ إلى بني إسرائيل لا يَقْتَضي عَدَمَ إرسَالِهِ إلى غَيْرِهِمْ من الأمم، إذْ لا حَصْرَ في العبارة.

وقد جاء في آخر إنْجيل «مَرْقُس» أنّ عيسَىٰ قال لحوارِيّيه: «اذْهَبُوا إلى الْعَالَم أَجْمَعَ واكْرِزُوا بالْإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا» ونجدُ نظير هذا في غيره من الأناجيل المعتمدةِ عند النصارىٰ.

والواقع الّذي نَفَّذَهُ تَلاميذُهُ يَشْهَدُ بأنّ رسالَتَهُ كانَتْ عامَّةً للناس، مؤقَّتَةً في الزّمان، إذْ تنتهي بظهور محمد بن عبد الله ﷺ، وعلى سائر الأنبياء والمرسَلين.

* * *

سادساً:

ويبرُزُ هُنَا من أحداث قِصَّةِ «مَرْيم» وابْنِهَا عيسَىٰ عليهما السلام، ما جاء في سورة (مَرْيم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) في الآيات مِن (٢٢ ـ ٤٠).

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٣) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وشُعْبَة، وأبُو جَعْفر، ويعقوب: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مُتُّ﴾ بِضَمّ الميم.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ﴾ بكسر الميم.

«مُتُّ» و«مِتُّ» وجهان عَرَبيّان لنُطْقِ الكلمة، وأَصْلُ القاعدة أن يُقَالَ: «مُتُّ» بضَمِّ الميم. لكن جاء في هذا الفِعْلِ قَوْلُهُم: مِتَّ تَمُوتُ، قال ابْنُ سِيدَه: ولا نَظِيرَ لها في المعْتل، قال سيبويه: اعْتَلَّتْ من فَعِلَ يَفعَل، ولَمْ تُحَوَّلْ كما يُحَوَّل، قال: ونظيرُها من الصحيح فَضِلَ يَفْضُل، ولم يَجِئْ على ما كَثُرَ واطَّرَدَ في «فَعِلَ». قال كُراع: مَاتَ يَمُوتُ، والأَصْلُ فيه مَوِتَ بالكَسْر يَمُوت، ونظيرُه: دُمْتَ تَدُومُ، إنّما هُو دَوِم[1].

(٢٣) • قرأ حفص، وحمزة: [نَسْياً] بفَتح النون.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [نِسْياً] بكَسْرِ النون.

والقراءتان وجْهان عَرَبيان «نَسْياً» و«نِسْيا» هو مَا نُسِي، وتُرِكَ، وأُبْعِدَ عن الذّاكرة، ومَا لا يُعْتَدُّ به ولا يُعْبأُ به.

(٢٤) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرُو، وابْنُ عَامرٍ، وشُعْبَة، ورُوَيْس:

﴿فَنَادَىٰهَا مَنۡ تَحۡتِهَآ﴾ على أنَّ «مَنْ» اسم موصول، أي: فناداها الذي هو تَحْتَها.

وقرأها باقي الْقُرَّاء العَشَرَة: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ على أن «مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ، أي: فناداها المشرفُ على وِلادَتِها من الملائكة مِنْ تَحْتِها.

وبين هاتَيْنِ القراءتَيْنِ تكامُلٌ مَع تفنُّنٍ بياني، فَمَنْ تَحْتَها الَّذِي أشْرَفَ

---

[1] انظر لسان العرب لابن منظور.

على تَوْلِيدِها من الملائِكَةِ نَاداها نِداءً صَادِراً من تَحْتِها، وهو يعالج تَوْليدها، ويَتَلَقَّى الوليد الخارجِ من بطنها، والظاهر أنَّهُ جبريل عليه السلام.

(٢٥) • قرأ حفص: [تُسَاقِط] وقرأ حَمْزَةُ: [تَسَاقَطْ] وقرأ يعقُوبُ: [يَسَّاقَطْ] وقرأ باقي القُرّاء العشرة: [تَسَّاقَطْ] وهو صُوَرٌ جائزةٌ عربياً، وفيها تَفَنُّنٌ بياني، ورسْم الكلمة لا يختلف، إلَّا بالنقاط والتشكيل.

التدبّر:

قول الله تعالى:

• ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: فلمَّا شَعَرَتْ مَرْيَمُ عَلَيْها السَّلام، بأنَّها قَدْ حملَتْ جَنِيناً في بطْنِها، ورُبَّما كان شعُورُها به بِسَبَبِ تَحَرُّكِهِ، بَدَا لَهَا أنْ تَبْتَعِدَ عَنْ مَسَاكِنِ قَوْمِها وكلّ البلْدَةِ إلى مكانٍ قَصِيّ تكونُ منفردةً فيه، حتَّىٰ لا تَتَعرَّض لنظرات الاتهام من قومها.

﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾: أي: فاعْتَزَلَتْ بجنينها الّذي حملَتْه.

يقال: لغة: انتَبَذَ فلان، أي: اعتزل ناحِية، منصرفاً إلى ناحيةٍ أخرى، ويقال: انتبذَ عن القوم، أي تنحَّىٰ عنهم، واختار مكاناً آخر غير مكانهم، وهذا المكان يعزِلُهُ عنهم.

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾: أي: حالَّةَ مكاناً بعيداً. **الْقَصِيّ**: هو في اللُّغةِ البعيد. يقالُ لغة: قَصَا عَنْهُ قَصْواً، أي: بَعُدَ فَهُوَ قاصٍ. ويقال: قَصِيَ عَنْهُ يَقْصَىٰ قصاً، أي: بَعُدَ فَهُوَ قَصِيٌّ.

وبُعْدُ هذا المكان الذي انتبذَتْ إلَيْهِ هو بُعْدٌ عن مَسَاكِنِ قومِها وبَلَدِهِمْ.

قال المؤرّخون: وسافرتْ مريَمُ وهي حُبْلَىٰ من الناصرة إحْدَىٰ مُدُنِ الجليل، إلى مدينَةِ «بَيْتِ لَحم»، فَلَمْ تجد في بيْتِ لحْم مأوىٰ، لكَثْرَةِ الغرباء فيها، فَنَزَلَتْ خارجَ المدينَةِ في مكانٍ مُتَّخَذٍ مأْوًى للرِّعَاة.

• ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾:

أي: فَألْجأها المخاضُ وهو وجع الطَّلْقِ إلىٰ ساقِ النَّخْلَةِ الموجودة في المكان الّذي أوَتْ إلَيْه.

يقال لغة: أجاءَ فلاناً إلى كذا، أي: ألْجَأَهُ إلَيْهِ.

الْجِذْع: ساقُ النخلَةِ ونَحْوِها، ويجمع على أجْذَاعٍ وجُذُوع.

• ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾﴾.

أحسَّتْ مريم عليها السلام بصُعُوبَة الموقف الّذي ستَتَعَرَّضُ له حينما تحْمِلُ وَلَدَها، وتُواجِهُ بِهِ قَوْمَها، فقالت هذا القول.

﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾: «يا» حرف نداء، والمنادىٰ محذوف، أي: يا رَبّ ليتني، وقال بعض المفسّرين: هو نداءٌ للكلام الدّالّ على التَّمَنّي، بتَنْزِيلِ الكلمة منزلة العاقل الذي يُطْلَبُ حضوره. وقيل: «يا» حرف تنبيه.

﴿مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾: أي: ليَتَني مِتُّ قبل هذا الحدَث الّذي أنا فيه، وسأواجِهُ بَعْدَهُ اتِّهامَ قومي لي بما أنا بَرِيئَةٌ منه.

[وكُنتُ نَسياً مَنسِياً] ـ [وَكُنتُ نِسياً مَنسِياً]: أي: ليتني كُنْتُ شَيْئاً حقيراً يُرْمَىٰ ويُهْمَلُ ولا يُعْبَأُ به، كمتاعٍ بالٍ متروكٍ لحقارته.

النَّسْيُ والنِّسْيُ: الشيء الحقير الذي يُرْمَىٰ ويُهْمَلُ ولا يُعْبَأُ به.

الْمَنسِيّ: المتروكُ المرميُّ لحقارَته وقِلَّةِ فائدتِه وقِيمتِهِ.

أي: يَا رَبّ لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا الحَدَثِ الذي أنا فيه، ويا ربّ ليتني كُنْتُ شيئاً غير ذي قيمة، كَمَتَاعٍ بَالٍ، حتَّى أُتْرَكَ ولا يَعْبَأ بي أَحَدٌ.

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾: الرَّاجِحُ من الاحتمالات أنَّهُ الملَكُ الذي يَرْعَىٰ وِلادتها، وأنَّهُ جبريلُ عليه السلام، لأنَّهُ هو الّذي نَفَخَ فيها عند بَدْءِ حملها.

وجاء التعبير بعبارة ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ مع أنّه قريبٌ منها، لأنَّ المرأة حينَ ولادَتِها تتوجَّع بآلام شديدة، وقد تئِنُّ وَتَصْرُخ، ونفسُها منصرفةٌ إلى ما هيَ فيه من آلام الوضع، فلا تَسْمَعُ أُذُناها في الغالب الكلامَ الَّذِي تُكَلَّمُ به ما لم يَكُنْ نداءً.

﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ وفي القراءة الأخرى: [مَنْ تَحْتَهَا]: إنَّ مَرْيم قالت مقالَتَها والمَلكُ الذي يَرْعَىٰ وِلَادتَهَا مَا زَالَ تَحتَهَا، إذْ هي مُرْتَفِعَةٌ ارتفاعاً ما، على شيء يَسْمَحُ بتَلَقِّي الولِيدِ مِنْ تَحْتِها، فهو الذي يَرْعَىٰ وِلادتَها تَحْتَها، وهو يُنادِيها من تْحْتِها.

وفي القراءتَيْن تفنُّنٌ في التعبير ظاهر.

﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾: «أَلَّا» أصْلُها «أنْ» التفسيرية و«لا» الناهية.

أي: قال لَهَا كلَاماً تفسيرُهُ: [لا تحزني] بسبب آلام الوضْع، وبسَبَبِ ما تتوقَّعين من اتِّهامِ قَوْمِكِ لَكِ بالفاحشة، وأنت تحْمِلينَ وَلَدَك إليهم، فَعِنَايَةُ الله مُصَاحِبَةٌ لَكِ في كُلّ أحوالِكِ.

﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾:

السَّرِيُّ: الْجَدْوَلُ الْجَارِي من الماء، والنَّهْرُ الصغير، فَقَد فَجَّرَ الله عزَّ وجلَّ مِنْ تَحْتِهَا عَيْنَ ماءٍ، تَجْرِي جَدْوَلاً صافِياً، وهذا الماء لم يَكُنْ في المكان قَبْلَ أَنْ يأْتِيهَا الطَّلْقُ، إنَّما أجْراه الله كَرامةً لِمَرْيم عليها السلام.

- ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾:

جِذْعُ النَّخلَةِ: ساقُها، والمعروف أنّ سَاقَ النخْلَةِ لا يَهْتَزُّ، لِأَنَّهُ صُلْبٌ

ثابِت، فَدَلَّ هٰذا القولُ على أنَّ النَّخْلَةَ ما زالَتْ صغيرة لَدْنَةً قابِلَةً لأَنْ تَهْتَزّ، ومِثْلُ هٰذه النخلَةِ الصغيرة لا يَكُونُ فيها ثَمرٌ عادةً.

فَدَلَّ هذا على أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أكْرَمَهَا، فَأَخْرَجَ لَهَا مِنْ هذه النخلَةِ الصغيرة ثمراً، فَهِيَ بالْهزّ تُسَاقِطُ رُطَباً جَنِياً.

الرُّطَبُ: نَضِيجُ الْبُسْر، قَبْلَ أن يَصِيرَ تمراً، وذلِكَ إذا لانَ وحَلا، أو هو ثَمرُ النَّخْلِ إذَا أدرَكَ وَنَضِجَ قَبْلَ أنْ يَصِيرَ تَمْراً.

الْجَنِيُّ: هو ما جُنِيَ لسَاعَتِهِ من كُلِّ ثَمرٍ، وهو أجْوَدُ ما يكونُ الثَّمرُ، إذْ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ الوقْتُ تَنَاقَصَتْ فيه عناصِرُ من منافِعه.

وقد حقَّقَ عُلماءُ الطّبّ والْغِذَاء أنَّ الرُّطَبَ الْجَنِيَّ أَحْسَنُ ما تتغذَّىٰ به الوالِدَةُ، بَعْدَ أنْ تَضعَ وَلَدَها، وتَفْقِدَ كَثِيراً من دَمِهَا.

وكان تفجير السَّرِيّ لها بخَارِقٍ للعادة، وإخْراجُ الرُّطب الجَنيّ لها مِنْ نَخلَةٍ لَمْ يَكُنْ بها ثَمرٌ، من إكرام الله لها، وعنايَتِهِ بها، ولِتَثْبِيتِها تُجاهَ مَا سَيَجْرِي لها بَعْدَ ذَلِكَ مع قَوْمِها.

- ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾:

إنَّ الوَلَدَ الجميلَ عيسَىٰ الذي تعلَّقَ قَلْبُ أُمِّهِ به، قَدْ كَانَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهَا، فقال لها المَلَكُ المُشْرِفُ على وِلَادَتِهَا: ﴿فَكُلِى﴾: أي: من الرُّطب ﴿وَٱشْرَبِى﴾: أي: من مَاءِ السَّرِيّ ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾: أي: بوَلِيدكِ العظيم، فكُوني سعيدةً به راضيةً مَسْرُورَة.

يُقال لُغَةً: قَرَّتْ عَيْنُ فُلان: أي: بَرَدَتْ، وقد اسْتعْمِلَ هٰذا التعبيرُ كِنَايَةً عن السُّرُور والرِّضا.

ونفهم من لوازم العبارة السَّابقة واللاحقة أنَّ المَلَكَ قال لها أيضاً: واحْمِلي وَلَدَكِ واذْهَبِي به إلى قومك.

• ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾:

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾: «إمَّا» شَرْطِيَّة، مؤلّفةٌ من «إنْ» الشرطية و«ما» الزائدة، لتأكيد لفظ الشرط. والنُّون في ﴿تَرَيِنَّ﴾ نُونُ التوكيد الثقيلة.

والمعنى: فإن شاهَدْتِ أحداً من الْبَشَرِ وسَألَكِ ما هٰذا الولَدُ الذي تَحْمِلينَ، فقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾

أي: إنّي نَذَرْتُ للرَّحْمٰنِ صَوماً عن الطَّعَامِ والشَّرابِ ومكالَمةِ الناس، فَلَنْ أكَلِّمَ الْيَوْمَ إنْسِياً.

ويظهر أنّ الصَّوْمَ عَنْ مُخَاطَبَةِ النَّاسِ مع الصَّوْمِ عن الطَّعَامِ والشراب، قَدْ كانَ من الأمور الّتي تَجِبُ بالنَّذْرِ في أحكام شريعَتِهم.

أقول: لماذا تتكَلَّمُ وتُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا وَبَراءتِها من الإِثم، فَلَنْ يُصَدّقها قومُها، لَكِنَّ طِفْلَها الرَّضِيعَ سَيُنْطِقُهُ الله، وسَيُعْلِنُ براءة أُمّه، وسيُبَيّن لهُم وظيفتَهُ المستقبليَّة في الناس.

* * *

قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم) أيضاً:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾:

القراءات:

(٣٠) • قرأ حمزة [**آتانِي الكِتَابِ**] بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالْفَتْح.

وسبق عدّة مرّات بيان أن إسكان ياء المتكلم وفتْحها وَجْهان عَربيّاً.

التدبّر:

• ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾:

إنَّ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلام لمَّا انْتَهتْ من وَضْعِهَا وَلَدَهَا الذي كان آيةً خارقة، وسَكَنَتْ واطْمَأَنَّتْ، وذَهَبَ عَنها الْحُزْن، ورأتْ آياتِ رَبّها، إكْراماً لها بِجَدْوَلِ الماء الجاري، وبتَسَاقُطِ الرُّطَبِ عليها بهَزِّ نَخْلَةٍ صَغِيرَةٍ لَمْ يَكُنْ بِهَا ثَمَر، وبخِطَاب الملَكِ لَهَا كَيْفَ تَفْعَلُ إذا خاطَبَها أحَدٌ من النّاس، وعَرَفَتْ أَنَّها مُكَلَّفَةٌ مِنْ رَبِّها أنْ تُشْهِرَ آياتَهُ بحملها بولَدِها من غير أن يعاشرها أَحَدٌ من الرّجال معاشرةَ الأزواج، وآيَتَهُ بولَدِهَا الّذي سَيُكَلِّمُ النَّاسَ وهُوَ في المهْدِ صبيّ، وسيَكُونُ نبيًّا ورَسُولاً.

إنَّها لمَّا اطْمَأَنَتْ هٰذهِ الطُّمَأْنينة، امْتَلأَت نَفْسُها حتى أعماقِ فُؤادِها جُرْأَةً وشجاعَةً، بأنْ تُواجِهَ المواقفَ الصعْبَة بثباتٍ ورَباطَةِ جَأْشٍ، وثِقَةٍ عظيمة بالله عزّ وجلَّ، فَحَمَلَتْ وَلَدَهَا عيسَىٰ عليهما السلام بشجاعةٍ وثباتٍ، وتَحَدٍّ لمخاوفِ اتّهامِهَا بالفاحِشَةِ، ثقةً مِنْهَا بِأَنَّ اللَّهَ سَيُبَرِّئُها، وسيَجْعَلُ لَهَا شأناً يُذكر، وأَتَتْ به قَوْمَها تَحْمِلُه، وقَوْمُها يَعْلَمُونَ أَنَّها غيْرَ ذَاتِ زوج.

• ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾:

أي: لمَّا وَصَلَتْ إلىٰ قَوْمِها تَحْمِلُ وَلَدَهَا الآيةَ الرَّبَّانيَّة، عَظُم عِنْدَهُمْ أَمْرُهَا حَامِلَةً ولَداً لَهَا، وهي غَيْرُ ذاتِ زَوْجٍ، فقالوا لها هذا القول:

﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾: أي: لقَدْ جئتِ شيئاً عجيباً غَيْر مُتَوَقَّع الْحُدُوث.

الْفَرِيُّ: هُوَ في اللُّغَة الأمْرُ العجيب المستَغْرَبُ. **جئْتِ شَيْئاً**: أي: عَمِلْتِ وفَعَلْتِ شَيْئاً.

وهذه العبارة تَصْلُح لمعنَيْين:

المعنىٰ الأول: استغرابُ الحدَثِ بذاتِه، معَ مُلَاحظَةِ بَراءَتِها وعَدَمِ اتِّهَامِها بالبغاء، وهٰذا يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الَّذِين لم يظُنُّوا بها إثْماً، فقالُوا: لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً عجيباً من أحداث الدهر.

المعنى الثاني: التَّعَجُّبُ مِنْ أَمْرِها كيف تَقَعُ في الإثم، وترتَكِبُ الفاحِشَة، وهذا المعنى يكونُ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ وَجَّهُوا لها الاتّهامَ بارْتِكابِ الإثْم، الَّذِي نشأ عَنْهُ انعقادُ الْوَلد، سواءٌ وَجَّهُوهُ لها بِصَرِيحِ أقْوالهم، أم بمعارِضِيهَا، أم تَحَدَّثُوا به في أنفسهم، فقالوا لها: لَقَدْ جِئْتِ شيئاً عجيباً، وأمْراً مستَنْكراً غرِيباً، وذلك لأمْرين:

الأمر الأول: أنّ مِثْلَ هذا العمل لا يُعْرَفُ في سلوك القانتين والقانتاتِ، المنقطعين والمنقطعات للتَّبتُّلِ والعبادة لله عزّ وجلّ، حتّىٰ صَارَ يُشَارُ إليك بالبنان، وتُذْكَرِينَ بأنَّكِ في قُنُوتِك وعباداتك لربِّكِ أُخْتُ (أي: مِثْلُ) هارُونَ المتعَبِّدِ القانِتِ المنقَطِعِ للعبادة، والرّجلِ التَّقِّيِ البارّ الوَرعِ الصالح. وقد كان هذا رجلاً مَعْرُوفاً في عَصْرِها بأنَّهُ تَقِيٌّ بَارٌّ مُحْسِن.

الأمر الثاني: أنّ مِثْلَ هٰذا الْعَمَل لا يُعْرَفُ من امرأةٍ أَبَوَاهَا عَفِيفَان شَرِيفَان.

ويظهر هٰذان الأمرانِ من قَوْلِهم التالي لها:

- ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾: امْرأ فِعْلٍ ما يقْبُحُ ويَشِينُ صاحِبه.

يقالُ لغة: رَجُلُ سَوْءٍ، أي: يفْعَلُ القَبائِحِ والمنْكَراتِ.

﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾: **البَغِيّ**: المرأة الفاجرةُ الَّتِي تتكَسَّبُ بفُجُورِها.

الذي يظهر لي أنَّ قَوْمَ مريمَ عليها السّلام كانُوا في شأنها فرِيقين:

- فرِيقاً يُبَرِّئُها، ويَتَعجَّبُ من الظاهرة بذاتها.
- وفريقاً يتَّهِمُهَا، ويَتَعَجَّبُ من ارْتكابها الفاحشَة.

فجاء في القرآن الكريم، اسْتِخْدَام العبارة: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ بمعْنَيَيْن، وهٰذا من روائع الإبداع في الإيجاز.

فماذا فَعَلَتْ مَرْيم عليها السّلام، تجاه هذا الموقف الصَّعب؟.

- ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾﴾؟

لمّا واجَهَها قومها بما واجهوها به من قول، أحالت الجواب على ولَدِها بأسلوب الإشارة.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾: أي: كلّمُوهُ فإنّه يُجيبُكُمْ، وتعلَمُونَ منْهُ الحقيقة.

﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾: أي: إنَّ طِفْلاً حَدِيث الولادة من غَيْرِ الممكن أنْ يفْهَمَ السُّؤَال إذا سَأَلْناهُ، ومن غير الممكن أنْ يجيب عليه.

لكِنَّ مَرْيم عَلَيْها السَّلام كانت مطمئنَّةً إلَىٰ أنَّ الله عزّ وجلّ سيَخْرِقُ العادَة في «عِيَسىٰ» ولَدِها، فيَجْعَلُه يَفْهَمُ سُؤَالَهُمْ ويجيبُهُمْ، ويكونُ بذٰلِكَ بُرْهَانٌ على براءة أُمّه، وأنّ حَمْلَ أُمِّهِ به قد كان آيةً من آيات الله جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه.

فوجَّهُوا الكلامَ للطِّفْلِ عيسَىٰ علَيْهِ السّلامُ سائِلِين، فأجابهم:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

دَلَّ هذا البيان على أن الطفْلَ الرَّضيعَ حديثَ الولادة عِيسَىٰ عليه السَّلام قد أجابَ الْقَوْمَ بثَمَانِي فِقَرَاتٍ، كُلُّ واحِدَةٍ منْها ذَاتُ دلالَةٍ خاصَّةٍ لا تَصْدُرُ إلَّا عن رَاشِدٍ نبيٍّ رسُول.

الفِقَرَةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عليها: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: بهٰذِه الجملة أكَّد لَهُمْ أنَّهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّه، وعَبْدٌ من عباده، وَجاء فيها التوكيد بمؤكَّدَيْن: «إنَّ ـ والجمْلَة الإسميّة».

والغرضُ من هذا البيان المؤكّد أن لا يَسْبِقَ إلىٰ تَوَهُّمَاتِ صِغَارِ العقُول منْهُم أنَّه ابْنُ اللَّه، كما حدَثَ فيما بَعْدُ، إذْ صارَ هٰذا التوهُّمُ عَقِيدَةً لدَىٰ كَثِيرٍ مِنَ المنْتَمِينَ إلَيْهِ، وتَقْلِيداً سَخِيفاً باطِلاً متَّبَعاً.

الفِقَرَةُ الثَّانية: دَلَّ علَيْها: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: قضَىٰ بأَنْ يُؤْتِيَنِي الكِتَابَ الَّذِي سَيُنْزِلُهُ عليّ، حِينَما يَبْعَثُنِي رَسُولاً، وظَهَرَ فيما بَعْدُ أَنَّهُ الإنْجِيل.

الفقرة الثالثة: دَلَّ عليها: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: أيْ: وقضَىٰ بأَنْ يَجْعَلَنِي نَبِيًّا منْ جُمْلَةِ الأنْبِيَاء، الَّذِين اخْتَصَّهُمُ اللَّهُ بالوحي إليهم.

النبيُّ: هو مَنْ أوحَىٰ اللَّهِ إلَيْهِ بوسيلَةٍ من وَسَائل الْوَحي الْعِلْمِيِّ والكلاميّ، ومنْه أن يُرْسل لَهُ رَسُولاً من الملائكة، فيبَلِّغَهُ عن الله ما أراد الله إعلامَه به، ولا يُشْتَرَطُ في النبيّ أَنْ يَبْعَثَهُ الله رَسُولاً لأُمَّةٍ ما، ولكِن اصطفاه الله للنُّبوّة.

الرَّسُول: هو نبيٌّ كلَّفَهُ اللّهُ أنْ يَحْمِلَ رِسالةً للنَّاسِ، ويُؤَدِّيَها إليهم كما أمَرَه الله.

الفِقَرَة الرابعة: دلَّ عليها: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾:

البركة: النَّماءُ والزِّيَادَةُ من كلِّ خَيْرٍ بمَدَدٍ غَيْبِيٍّ.

والمبارَكُ: هو الّذي جعَلَ اللّهُ فيه أو بِسَببِهِ النماءَ والزيادَةَ من الخيرات.

[أينما]: اسْمُ شَرْطٍ يجزمُ فِعْلَيْن، وهو ظَرْفُ مكان، والمعنى: في أيّ مكانٍ كُنْتُ أَكُنْ فِيه مُباركاً بقضاء الله وَقَدَرِه.

وقد كان عيسَىٰ عليه السَّلامُ في حياته مُبَارَكاً في كلّ مكانٍ يُوجَدُ فيه، مصحوباً بآيَاتِ الله ذواتِ الإنْمَاءِ بالخيراتِ الحِسَان.

فقد كان يَمْسَحُ على المرضَىٰ فيشْفِيهم الله، وكانَ يُبَارِكُ علَىٰ الطَّعام القليلِ فيأْكُلُ منه خَلْقٌ كثير ويَزِيدُ الباقي على أصْلِ الطَّعَام الّذي بَارَكَ عَلَيْهِ، ومن عَظِيم نَفْعِه وبَرَكَتِه، أنَّه اهتدى به إلى الله وصراطه المستقيم ضالُّونَ كثيرون.

الفِقَرَةُ الخامسة: دلَّ عَلَيْها: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَأَوْصَنِي﴾: أي: وأَمَرَني. يقال لُغَةً: أوْصَىٰ فُلانٌ فُلاناً بالشيء، أي: أَمَرَهُ به، وفَرَضَهُ عَلَيْه.

﴿بِالصَّلَوٰةِ﴾: أي: وأمَرَني بِعبادَةِ الصَّلاةِ المشتمِلَةِ على القيام، والرُّكوع، والسُّجودِ، والتلاوات، والأذكار، والدُّعاء.

وهٰذِهِ الصَّلاةُ مَعْرُوفَةٌ في الرِّسَالَات الرَّبَّانيَّةِ السَّابقات، ولا سيما رسالةُ إبراهيم عليه السّلام.

﴿وَالزَّكَوٰةِ﴾: وهي ما يَجِبُ على الإنْسَان المسْلِم لِربّه أنْ يَبْذُلَهُ من

ماله للفقراء، وذوي الحاجات والضّرورات، ولمصَالِحِ الدّين ودُنيا الناس.

﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾: أي: مُدَّة دَوامِي في الدُّنْيَا حَيًّا، «ما» مصْدَرِيَّة ظَرْفية، تُؤَوَّلُ مع ما بَعْدَهَا بِمَصْدَرٍ أُضِيفَ إِلَيْهِ الزّمان.

الفِقْرَة السَّادِسَة: دَلَّ عليها: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾: أي: وجَعَلَنِي بَرّاً بوالِدَتي، عَاملاً بما يُرْضيها ولو لَمْ تأمُرْني به.

وفي اقتصارِه علَىٰ عبارَة: «وَالِدَتي» إعْلَانٌ منْهُ بأنّ اللَّهَ خَلَقَهُ من أُمٍّ فقط، فَهُوَ لَا أَبَ له.

الفِقْرَة السَّابعة: دلَّ عليها: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾:

الْجَبّارُ: القاهر العاتي المتسَلِّط القاسي، الّذي لا يَعْرِف قلبُه الرحمة.

الشَّقِيّ: التَّعِسُ الضَّالُّ الّذي يَعْمَلُ الأعمال الّتي تَجْعَلُهُ يَوْمَ الدّين من المعذَّبينَ في الجحيمِ، الأشقياء بعذابهم.

الفقرة الثامنة: دلَّ عليها: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾:

السَّلامُ من الله: رَحْمَةٌ من آثارِها السَّلامَةُ والأمْنُ من كُلِّ مَكْرُوه، وتحيَّةٌ مِنْهُ لبَعْضِ عباده.

والسّلامُ من العباد، دُعَاءٌ بالسَّلامَةِ والأمْنِ، وتحيَّةٌ طيّبةٌ.

وقد أوصَىٰ اللَّهُ المؤمنين بأنْ يدْعُوا بالسَّلام لعيسَىٰ عليه السلام، وبأن يُحَيُّوهُ بالسَّلام عند ذِكره، وأوصَاهم بأن يُسَلّمُوا سَلَام دُعاءٍ وتحيَّة على سائر المرسلين.

ومعنى الفقرة: والسَّلامُ عليَّ مُوجَّهٌ من الله عزّ وجلّ، ومِن ملائكَتِه، ومن صالِحِي عبادِه، في أوائل وُجوداتي الثلاثة: يَوْمَ ميلادي، ويوم مَوْتي، ويوم بَعْثي.

وهذا السَّلَامُ في أوائل هذه المراحِلِ يومِئ باستمراره مع كلّ مَرْحلَةٍ مِنْها حتَّىٰ غايَتِها، أي: والسَّلامُ عَلَيَّ دواماً.

* * *

قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم) أيضاً:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾:

هاتان آيَتَان جاءَتَا قولاً مُوجَّهاً من الله عزّ وجلّ للنَّاس، تَعْلِيقاً على واقع حال عيسَىٰ علَيْه السَّلام، ومعترضَتَانِ ضِمْنَ الحديثِ عن اللَّقَطاتِ المختارات من قصة مَرْيم وابْنِها عيسَىٰ عليهما السلام.

القراءات:

(٣٤) قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، ويعقوب: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ بنَصْبِ لفظ ﴿قَوْلَ﴾ على أنّه حال فيما أرى، والتقدير: ذَلِكَ القَوْلُ الَّذِي نَطَقَ بِهِ عيسَىٰ الطِّفلُ، وهو ما جاءَ في الآيات من (٣٠ ـ ٣٣) هو وَصْفُ عيسَىٰ، حالة كَوْنِهِ قَوْلَ الحق.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**قَوْلُ الْحَقِّ**] برَفع لفظ [**قَوْلُ**] علىٰ أنَّهُ خَبرٌ ثانٍ لاسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾. والتقدير: ذلِكَ الوصْفُ الَّذِي نَطَقَ بِهِ عِيسَىٰ الطِّفْلُ هو وصْفُ عيسى ابن مريم، وهو قول الحق.

أو هو بَدَلٌ من: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الذي هو خبر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إذْ هو على تقدير: «ذَلِكَ وَصْفُ عيسَىٰ».

والمعنى: مَا جاء في نُطْقِ عيسَىٰ الطفل هو وصْفُ عيسَىٰ على وجْهِ الحقيقة، لا ما افتراه الذين جَعَلُوهُ ٱبْنَ الله، أو أحَدَ أقَانيم الله الثلاثة.

(٣٥) ● قرأ ابْنُ عَامر: [**فَيَكُونَ**] بالنَّصب على أنّ الفاء سَبَبِيَّة، وأنّ الفِعْلَ منصوبٌ بأن مضْمَرَةٍ بَعْدَها.

وقرأ باقي القرّاء العشرَة: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرَّفع، على أنَّ الفاء عاطفةٌ غيرُ سَببيَّة، أي: فَهُو يكونُ.

وبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعْنَىٰ المراد.

التدبّر:

- ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾:

المشَارُ إليه باسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ كلامُ عيسَىٰ الَّذِي أَنْطَقَهُ اللَّهُ به، وهو صَبِيٌّ طِفْلٌ في الْمَهْد.

وقد اشتمل هذا الكلام على بَيَانِ أَوْصَافِ عيسَىٰ، كما جاء في الفقراتِ الثمان التي سبَقَ تَدَبُّرُها.

أي: وكلام عيسَىٰ الذي نطقَ به عَنْ نفسه وهو طفل رضيع، هو قَوْلُ الْحَقّ، لَا قَولُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ ٱبْنُ الله، أو هو جزْءٌ مُنْفَصلٌ مِنْ ذَاتِ الله، أو هو إلَه مع الله، فَكُلُّ هٰذِهِ الأقوالِ بَاطِلَةٌ مفتراةٌ، وأكاذيب مخْتَلَقَات، تَتَبَّعَ فيها مَعْتَقِدُوها الأوهام الَّتي ليس لَهَا صِلَةٌ ما بالواقع، بلْ بَيْنَها وَبَيْنَ الحقيقَةِ تَبَايُنُ التناقض.

ويَلْزَمُ من كونه عَبْدَ الله، أنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَضَّلَهُ اللَّهُ بِبَعْضِ الصِّفَات، وجَعَلَ تَكوينَهُ ناشئاً من أُمٍّ فقط دُونَ أبٍ، ليَجْعَلَهُ ويَجْعَلَ أُمَّهُ آيَتَيْنِ من آياته.

- ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾: أي: الذي فيه يتجادَلُون مختَلِفين في حقيقَتِه، مع أنَّهُ في الحقيقة عبْدُ الله ورسُولُه، وكَلِمَتُهُ التكوينيَّةُ أَلْقَاها إلى مَرْيم.

- ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾:

جاءت هذه العبارة في الآيتَيْن المعترضَتَيْن، لبَيان بُطْلَانِ قول القائلين بشأنِ عيسَىٰ عليه السَّلام، هو ٱبْنُ الله.

وقد جاءت هذه العبارة بصِيغَةٍ كُلِّيَّةٍ عامّة، تَشْمَلُ عيسَىٰ وغيرَه، وبصِيغَةِ كَوْنٍ مَنْفِيٍّ، بَعْدَهُ لَامُ الْجُحُود، وأضيفت في العبارة «مِنْ» الزائدة لتأكيد عُمُومِ النفي، والتنْصِيص عليه.

وهذه الصّيغَة تُعْتَبَرُ في اللِّسَانِ العربيّ من أبْلَغ صِيغِ النَّفْي وأقْواها.

وَجاءَت عبارة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ﴾ بَعْدَ جملَةِ النّفي تُبَيّن وتُؤَكّد تنزيه الله عزّ وجلَّ عمَّا يفتريه المفترون، من أنَّ لله وَلَداً، انفَصَلَ عَنْ ذاته.

إنّه سبحانه الصَّمَد الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، ولم يكُنْ له كُفُواً أحد.

ومعنى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ﴾ تنزّهَ عن الْولد وعن كُلّ ما لا يَليقُ بجَلالِهِ وعظيم صفاته.

وتَدُلُّ هٰذه العبارة على أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ مُنَزَّهٌ عن أن يَتّخِذَ ولداً بالتَّبَنّي.

لمَاذَا يصْطَفِي اللّهُ لِنَفْسِه مِنْ عباده وَلَداً، وكُلُّ شيءٍ يُريدُه يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ بأمْرِ التكوين فقال تعالى:

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

* * *

قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم) أيضاً:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾:

القراءات:

- قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفر، ورُوَيس: **[وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ]** بفتح همزة «أنَّ» على أنّ الجملَةَ معطوفة في أحْسَنِ ما رأيْتُ من أقوال، على معمول قولِ عِيسَىٰ: ﴿وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: وأوصاني بأنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ بِكَسْرِ همزَةِ «إِنَّ» على أنَّ الجملة مُسْتَأْنَفَة.

فالوجهان صالحان، وبينهما تَنْويعٌ بيانيّ، مُتَمَشٍّ علىٰ ما هو جائزٌ في اللّسان العربي.

- وقَرَأ قُنْبُل: **[هذا سِرَاط]** بالسّين، وهو وجْهٌ عَرَبيٌّ لهذه الكلمة.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَة: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ بالصّاد، وهو وجْهٌ عَرَبيٌّ آخر لنطق الكلمة.

وأشَمَّ خَلَفٌ عَنْ حَمْزَة الصاد زاياً، وهو أيضاً وجه عربِيٌّ آخر لنُطْقِ هذه الكلمة.

التدبّر:

قال الطفل: «عيسَىٰ» عليه السّلام في أَوَّل كَلامِهِ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ويَلْزَمُ عقْلاً مِنْ كونه عبْدَ اللَّه أنْ يكُونَ اللَّهُ رَبَّهُ.

لٰكِنْ أرادَ في آخِرِ القول الَّذِي أنْطَقَهُ اللَّه به، أو قالَهُ بَعْدَ كِبَره وبِعْثَتِه إذْ جاء بَعْدَ الآيَتَيْنِ المعترِضَتَيْن، أنْ يُعْلِنَ صَراحةً في اللّفظ أنّ الله رَبُّهُ، وأنَّ رُبُوبيَّة اللَّهِ لَهُ يُشَارِكُهُ فيها تماماً الَّذِين يُخاطِبُهُمْ من النَّاس، فَهُوَ مِثْلُهُمْ، هو عَبْدٌ لِلَّه، وهُمْ عبيدٌ له.

وعبوديَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ تُوجبُ علَيْه أن يَعْبُدَهُ بالإيمان والدُّعاء والطَّاعة، ولهذا قالَ لهم: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ بَعْدَ أن قال لهم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾.

إنّ الرّبوبيّةَ سُلْطَانٌ مِنَ الله مُهَيْمِنٌ على العباد في كل لحظَةٍ وأقَلَّ مِنْها من وُجودهم، فبقاؤهم يَحْصُل بإمداداتِ رُبوبيته لهم، وحياتُهم وموتُهم، وأرْزاقُهُمْ، وصِحَّتُهُمْ ومَرَضهم، وما يُحبُّونَ وما يكرهون، وكلُّ ما يجري فيهم، لهم أو عليهم، أمورٌ محكومةٌ بسُلْطان رُبوبيته لهم، إذْ هم ملكٌ له، وهم عَبِيدُه، ومن حقِّهِ عليهم أن يعبُدوه، ولا يُشْرِكوا بعبادته شيئاً.

ولمّا كانت عبادة الله عزّ وجلّ بكلّ معانيها الاعتقاديّة والسلوكيَّة، بالأعمال الباطنة والظاهرة، الجسَديَّةِ والنفسيَّة، فكراً وقَلْباً ومشاعر إراديَّة، ونيَّات، وكلّ ما يَخْضَعُ لسلطان إرادة الْعَبْد، هي صراط الله المستقيم الذي لا عِوَج فيه عن الحقّ والخير والفضيلة، جاء في آخِر عبارة عيسَىٰ عليه السّلام:

- ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

وهكذا جدَّدَ عيسَىٰ بكلامه مُنْذُ طفُولَتِه عبوديَّتَهُ لله ربّه، ونُبوَّته، وما اختصه الله به من صفات، ومسؤوليته الشخصيَّة تجاه رَبّه، وحدَّد مضمون رسالَته بصيغَةٍ عامّة، هي الصيغة التي سيُبَلّغها للناسِ حين يَبْعَثُهُ الله رسولاً.

* * *

قول الله عزَّ وجَلّ في سورة (مريم) أيضاً:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

القراءات:

(٤٠) • قرأ يَعْقُوب: [**يَرْجِعُونَ**] بفَتْحِ الياء وكسْرِ الجيم على أن الفعل مبنيٌّ للمعلوم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بضمّ الياء وفتح الجيم علَىٰ أن الفِعْل مبنيٌّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه.

وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في الأداء البياني، إذِ المعْنَىٰ أنَّهم يُرْجَعُونَ

إلى اللَّهِ يوم الْبَعْثِ للحسَاب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء بخَلْقِ الله، فَهُمْ يَرْجِعُونَ إلى اللَّهِ بطاعَةٍ جَبْرِيَّةٍ نَاتِجَةٍ عن أَمْرِ التَّكْوينِ الرَّبَّاني، ليَتَلَقَّوْا حِسابَهُم، وفَصْلَ القضاء بَيْنَهُمْ، وجزاءهم.

التدبّر:

- ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾:

أي: فاختَلَفَ الأحْزَابُ من المنْتَمِينَ إلى الْإِيمَان بعيسَىٰ واتّباعه، الَّذِين قالوا: إنَّا نَصارَىٰ، بشَأْن عِيسَىٰ وأُمّه، وشأن الرَّبّ جلّ جلاله.

ويُعْجِبُنِي فِي بَيَانِ اختلافِ هؤلاء الأحزاب، ما رواه عبد الرَّزاق، وابْنُ أَبِي حاتم، عَنْ قتادة، قال:

«اجْتَمَع بَنُو إسْرَائيل[1]، وأَخرَجُوا منْهُمْ أَرْبَعَةَ نَفرٍ، من كُلّ قَوْمٍ عَالِمَهُمْ، فَامْتَرَوْا[2] في عِيسَى حينَ رُفِع.

- فقال أَحَدُهُمْ: هو الله، هبَطَ إلى الأَرض، وأحْيَا منْ أَحْيَا، وأَمَاتَ مَنْ أمات، ثم صَعِدَ إلى السَّماء. وهُمُ اليعقُوبيّة.

فقال الثلاثة: كذَبْتَ.

ثُمَّ قَالَ اثْنَانِ مِنْهُمْ للثالث: قُلْ فيه.

- فقال: هو ٱبْنُ الله، وهم النَّسْطُورِيَّة.

فقال اثْنَانِ منْهُم: كَذَبْتَ. ثُمَّ قَالَ أحَدُ الاثْنَيْنِ لِلْآخر: قُلْ فيه.

- فقال: هُو ثَالِثُ ثلاثَة، اللَّهُ إلَه، وعِيسَىٰ إلَه، وأُمُّهُ إلَه، وهُمُ الإسْرَائِيلِيَّة، وهُمْ مُلُوكُ النَّصارىٰ.

---

[1] (١) أي: الذين اتبعوا عيسىٰ من بني إسرائيل.

[2] (٢) **فامْتَرُوا**: أي: فتجادلوا.

• فقال الرابع: كذَبْتَ، هو عَبْدُ اللّهِ وَرَسُولُهُ، ورُوحُهُ مِنْ كَلِمَتِه، وهُمُ المسْلِمُونَ (أي: من النصارى).

فكان لكلّ رَجُلٍ منْهُمْ أتْبَاعٌ على ما قال، فَاقْتَتَلُوا، فظهروا علَىٰ الْمُسْلِمِينَ، فذَلِكَ قولُ الله سُبْحَانه:

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾⁽¹⁾.

قال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾.

قال: اخْتَلَفُوا فيه، فصاروا أحْزاباً، فَاخْتَصَمَ الْقَوْم.

• فقال المرْءُ المسْلِمُ: أنْشُدُكُمْ بالله، هَلْ تَعْلَمُونَ أنّ عِيسَىٰ كانَ يَطْعَمُ الطَّعَامَ، وأنَّ اللّهَ لَا يَطْعَمُ؟ قالوا: اللّهُمَّ نَعَمْ.

قال: فَهَلْ تَعْلَمُونَ أنَّ عيسَىٰ كانَ ينامُ، وأنَّ الله لا ينامُ؟. قالُوا: اللّهُمَّ نعم.

فخصَمَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَاقْتَتَلَ القوم.

قال قتادة: فَذُكِرَ لَنا أنَّ اليَعْقُوبيَّةَ ظَهَرتْ وأُصِيبَ المسلمون، فأنزل الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قول الله تعالى في النصّ:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

ويْلٌ: كلمةُ عَذَاب، وفيها معنى وَعِيدِ اللّهِ بحلُول عقابه فيهم.

ووردَ أنّ كلمة «ويْل» اسْمُ عَلَمٌ على وادٍ في جهنم.

أي: فعذابٌ شديدٌ مؤلِمٌ موجعٌ للّذِين كَفَرُوا جميعاً، ومنْهم الّذِين

---

(١) الآية (٢١) من سورة (آل عمران).

كفَروا مِنْ أهل الكتاب اليهود والنّصارىٰ. وهذا الْعَذَاب يَحْصُل لهم من شُهُودِ يَوْمٍ عظيم يشْهَدُونَهُ، وهو يوْمُ الدّين.

﴿مَّشۡهَدِ﴾: مصْدَر ميميّ بمعنىٰ الشُّهود، وهو الحضورُ في الدار الآخرة يوم الدّين.

وقد أُسْنِدَ حصُولُ العذاب لهم، إلى أَنَّهُ يكُون من حُضُورِ وَشُهُودِ يَوْمٍ عظيم، هو يوم الدين، لأنَّ شُهُودَهَم لِهَذا اليوم يَسْتَتْبِعُ مُحَاسَبَتَهُمُ الّتي تكُونُ فيه، وفَصْلَ القضاء بشأنهم، ويَسْتَتْبِعُ مجازَاتَهُمْ بالعذاب في دار العذاب، فهو من إطلاق الحدَثِ على ما يلْزَمُ عَنْهُ من أمُورِ وأحداثٍ أخرى.

فحضور الكافرين في هذا اليوم، يلْزَمُ عنه مُحَاسَبَتُهم، وفَصْل القضاء بشأنهم، ثم يكونُ إنزال عذاب الله فيهم على كُفْرِهم، إذْ جَعَلَ الله عزّ وجلّ يَوْمَ الدّين، هو الْيَوْمَ المخصَّصَ بحِكْمَتِه تعالىٰ، لتحقيق الجزاء الأوفىٰ.

- ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾:

أي: مَا أَشَدَّ سَمْعَ الْكَافِرِينَ وَما أَشَدَّ بَصَرَهُمْ، يَوْم يَأْتُونَنَا للحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

جاء التعبير بضَمِيرِ المتكَلّم العظيم الرَّب جلَّ جلالُهُ، لأنّ مَوْقف الحساب بين يَدِي الله يوم الدّين مَوْقِفٌ رَهِيبٌ، تَنْخَلِعُ مِنْهُ قُلُوبُ الجبارة، لأنّ الجبَّارَ الْقَهَّارَ بصِفَةِ جَبَرُوتِه، وصِفَةِ قَهْرِهِ يحاسِبُ الكَفَرَة المجرمين.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾: كُلٌّ من الْفِعْلَيْن من صِيَغِ التَّعَجُّبُ، أي: وأبْصِرْ بهم. قالوا: صِيَغَةُ «أفْعِلْ» من أفْعِلْ به، صيغَةُ أمْرٍ، ومعناها الْخَبَر. أي: سَمْعُهم يَوْمئذٍ شديد، وبَصَرُهم شديد.

وهَذا يكونُ في بعض مواقفهم يوم الدّين، وفي بعض أحوالهم فيه. بينما يكونُون في مواقف وأحوال أخرى عُمْياً وَخُرْساً، واختلاف النصوص القرآنية في هذا يَدُلُّ على اختلاف المواقف والأحوال.

- ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾:

لقد اسْتَدْعَىٰ ذكْرُ شِدَّةِ سَمْعِهِمْ، وشدّةِ بَصَرِهم حينَ يأتُونَ ربَّهم لموقف الحساب وفَصْلِ القضاء، وصْفَ حالهم المناقِضِ لذلِكَ في الحياة الدّنيا، فجاء بيَانُ هٰذا الوصْفِ على طريقَةٍ مشابهة للاستدراكِ باستعمال حرف «لَكِنْ» الذي هو حرف ابتداء لإفادة الاستدراك.

فَهُمُ اليوْمَ في الحياة الدُّنيا صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، إلَّا أنّ هذا المعنىٰ لَمْ يَأْتِ بتَعْبِيرٍ مُبَاشر، إنَّما جاء بتعبير غير مباشر، وهذا التَّعبير غير المباشر يُفْهَمُ منه باللُّزُوم العقْلِيّ أَنَهُمُ الْيوم في الحياة الدُّنيا صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، فَهُو من الكِنَاياتِ الجميلات في التعبير البياني.

إنَّهُم اليومَ في ضلالٍ مُبِينٍ، ولا يَكُونُ في ضَلَالٍ مُبينٍ، إلَّا مَنْ كانَ أصَمَّ أعْمَىٰ مِنْطَمِسَ الحواسّ، الَّتي تُقَدِّمُ للفِكْرِ أَجَلَّ المعارف.

أي: لَكِنِ الظالمون مُسْتَقِرُّون في ضلالٍ مُبينٍ الْيَوْمَ في الحياة الدُّنيا، إذْ هُمْ مِنْطَمِسُو الحواسّ، عن إدْراكِ الحقائق ذاتِ الصِّلَةِ بيومِ الدِّين، وإنْ شاهدوا وعَلِمُوا كثيراً من ظواهِرِ الحياة الدُّنيا.

وسبَبُ انطماس حواسّهم أَنَّهُمْ ظالمونَ، متجاوزون لحدُودِ الحقّ والخير بإراداتهم الحرَّة، لا أَنَّهُمْ مفْطُورُونَ على ذلك.

وضع الاسم الظاهر: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بَدَل الضّمير للإشعار بأنّ الكافرين يَدْخُلُونَ في عموم الظالمين.

- ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾:

أي: وأنذرْهُمْ أيُّها الرَّسُولُ، وأيُّها الداعي إلى الله من أمَّتِه عذابَ يَوْمِ الحسْرَةِ، حِينَ قُضِي بِعذاب الظالمين بسبب ظلمهم.

اسْتُعْمِلَ الفعلُ الماضي في عبارة ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ مع أنّه ممَّا سَوْفَ يَحْدُثُ في المستقبل، للدلالة على تحقُّق وقُوعِه، فكأنَّهُ قد وقَعَ فِعلاً.

وقد نُزّل ما سوف يكونُ من قضاء الله عزّ وجَلَّ بَيْنَ العباد يَوْمَ الدّين، منزلة الشيْءِ الَّذِي قُضِيَ فعلاً، ولهذا صَحَّ إبدالُ ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ من ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾.

الحسْرَة: التأسُّفُ والحزْن.

ويومُ الحسْرَة، من أسْمَاءِ يَوْم الدّين، لأنَّ النَّاس يتحسَّرُونَ فيه على ما فاتَهُمْ في الحياة الدُّنيا من عمل صالح لم يَعْمَلُوه، ويتحسَّرُونَ فيه على ما ارْتَكَبُوا مِنْ قبائِحَ وَسَيِّئَات.

- ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وأنْذِرْهُمْ وحَالُهُمْ الْيَوْم أنَّهُمْ في غَفْلَةٍ، قَدْ حُجِبتُ أسماعُهُمْ عن سَمَاع بيانات الْهُدَىٰ، وحُجِبَتْ أبْصَارُهم عَنْ رُؤيَةِ آيات الله، بغِشَاواتِ أهوائهم وشهواتهم.

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: وهُمْ لَا تُوجَدُ في قُلُوبهم الدَّوافع لأن يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، بسَبَب اسْتِغْرَاقهم في غفلاتهم.

- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

هذه الآية هي مِسْكُ ختام هذا الدَّرْس الثاني من دروس السورة، وهي آيَةٌ تتعَلقُ بركْنِ الإيمان بقانون الجزاء الأكْبر المؤجّل إلى يوم الدين.

وفي هذه الآية يتحدَّثُ الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ بضمير المتكلّم العظيم، في أرْبعة مواضع: ﴿إِنَّا﴾ و﴿نَحْنُ﴾ و﴿نَرِثُ﴾ و﴿إِلَيْنَا﴾ لأنَّ الموضوع جليلٌ

وعظيم، يتعلّقُ بإنْهاء ظروف الحياة الدنيا، وإيجاد ظروف الحياة الأخرىٰ، ويتجلَّىٰ فيه سُلْطَانُ الرُّبوبيَّةِ وحْدَه، وتَسْقط فيه المِلْكِيَّاتُ الصُّورِية، وَيَرِثُ اللَّهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

أي: لا يَبْقَىٰ لها مالِكٌ غَيْرُ الله المالكِ الحقيقيّ لها دواماً، وانْفِرَادُ الله عزّ وجلّ بِمِلْكِيَّتِها يَوْمئذٍ شُبِّهَ بالميراث.

إنَّهُ بَعْدَ مَوْت الخلائق، وانْتِهَاء مُدَّة البرْزَخِ الْفَاصِلِ بيْنَ الحياة الأولى، والحياة الأُخْرَىٰ، يُرْجَعُ النَّاسُ إلى بارئِهِمْ بالخلْقِ الجبْريّ، لمحاسبتهم على ما قدّموا وأخّرُوا في رِحلة الحياة الدُّنيا حياة الامتحان، وبَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ يَفْصِلُ اللَّهُ عزّ وجل القضاء بشَأْنِ كُلِّ مُكَلَّفٍ فيهم، وبَعْدَ ذَلِكَ يجازي اللَّهُ كُلًّا بحَسَبِه، بالْعَدْلِ أوْ بالْفَضْل.

* * *

سابعاً:

وبيْنَ مَرْحَلَةِ طُفُولَةِ عيسَىٰ عليه السَّلام، وبِعْثَته نبيًّا رسولاً، لَا نَجِدُ في القرآن إلَّا خَبَر أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ آواه وأمَّهُ إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ ومَعِين. فقال الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾.

القراءات:

- قرأ ابْنُ عامر، وعَاصِم: ﴿رَبْوَةٍ﴾ بفَتْحِ الرَّاء.

وقرأها باقي القراء العشرة [رُبْوَة] بضَمّ الرَّاء.

وهُما وجْهَانِ عَرَبيَّانِ لنُطْق هذه الكلمة، الدّالّة على كُلِّ ما ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ وَرَبَا.

التدّبر:

- ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾: أي: وجَعَلْنَاهُمَا بألْطَافِ مَقَادِيرِنا يَأْوِيَانِ إلى رَبْوَةٍ، أي: إلَىٰ مكانٍ مُرْتَفِعٍ نَقِيّ الرِّياح، حَسَنِ الإقامة.
- ﴿ذَاتِ قَرَارٖ﴾: أيْ ذَاتِ مَكَانٍ صَالِحٍ للسَّكَنِ والطَّمَأْنينَةِ والْإِقَامَة الطويلَةِ والاسْتِقرار.
- ﴿وَمَعِينٖ﴾ أي: وَذَاتِ مَاءٍ جارٍ مُتَجَدِّد. يُقَالُ لُغَةً: مَعَنَ الماءُ، أي: سَهُلَ وسَالَ وَجَرَىٰ، فَهُوَ مَعِينٌ.

وقَدْ جاء في بيان مَوْضِعِ هٰذِهِ الرُّبْوة عِدَّةُ أقوال:

(١) قيل: هو في دمشق.

(٢) وقيل: هو الرَّمْلَةُ من فلَسْطِين.

(٣) وقيل: هو في مصر، وهذا القولُ يوافِقُ مَا جاءَ في الإنْجيل المنسوب إلى «متّى» وفي الإنْجيلِ المنسوب إلى «بَرْنَابَا» في قصّةٍ أوردَاها وهي تتلخَّصُ بما يلي:

أمَرَ «هِيرُوس»[1] بقَتْلِ كُلّ طفلٍ ببيْت لَحْم، فَأُمِرَ يُوسُفُ النَّجَّارُ في منامه بأنْ يَذْهَبَ بالطّفْلِ وأُمّه إلى مصر، فذهَبَ بهما إليها، وأقاموا بِها إلى أنْ هلَكَ «هيرُودِس».

ولمَّا بلَغَ «عيسَىٰ» من العُمْر سبْع سنين، رَجَعَ مع أمّه إلىٰ الناصرة، ولمَّا بَلَغَ اثْنَتَيْ عشْرَةَ سنة من عمره، سافَرَ مَعَ أُمّهِ إلى بَيْتِ المقدس، ودخَلَ وَسَطَ العلماء، وصارَ يُحَاجُّهُمْ في النامُوس[2] (وهو الشريعة التي وضَعَها مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام بَوَحْيٍ من الله).

---

[1] هو «هيرودس» الكبير مَلِك فلسطين بموافقة رُوما، والذي وُلِدَ عيسَىٰ عليه السّلام في أواخر أيامه، وقد أمر بقتل جميع الأطفال في بيت لحم، حتَّىٰ لا ينجو ابن داود، ولا يملك على اليهود ويتربَّع على عرشه، «أخذاً من قاموس الكتاب المقدّس».

[2] كلمة ناموس: يونانيّة الأصل معناها «شريعة أو قانون».

ثامناً:

ولا نجدُ في القرآن الكريم ما يتحدَّثُ عن فُتُوَّةِ عيسَىٰ عليه السلام: ولَا عَنْ شبابه.

لكن نجد فيه ما يَدُلُّ على دَعْوَتِه بَعْدَ بِعثَتِه، وتَبْلِيغِه رِسالَةَ رَبه، وكان حينئذ كَهْلاً، قد بلغ الثلاثين من عمره.

فنجدُ في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) لقطاتٍ تتعلَّقُ بِبِعثَتِه، ودَعْوته في قومه، وهي في الآيات من (٤٩ ـ ٥١).

قالَ اللَّه عزّ وجلّ فيها:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾:

القراءات:

(٤٩) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أَخْلُقُ] بِكَسْرِ همزَةِ «إِنَّ» وفَتْح ياء المتكلّم.

وقرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرو: ﴿أَنِّيَ أَخْلُقُ﴾ بفتح همزة «أَنَّ» وفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَنِّيْ أَخْلُقُ] بفتح همزة «أَنَّ» وإسْكان ياء المتكلم.

وهٰذه القراءات وجُوهٌ عَرَبيَّة جائزةٌ، لا يختلف بها المعنى المراد.

(٤٩) ● قرأ أبو جعفر: [**كَهَيَّةِ الطَّائِرِ**] بقلب همزة «هيئة» ياءً، وإدْغامِهَا في الياء قبلها، فصارت ياءً مُشَدَّدة، وهي لهْجَة عَربيَّةٌ في نُطْق الكلمة. وبالمفرد في «الطائر».

وقَرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

الطَّائر: مفرد، ويجوز أنْ يَكُونَ اسْماً للْجَمع، كما قال الفارسي، فهو بهذا مُسَاوٍ للطَّيْر.

وَالطَّيْرُ: جمع، أي: كَهَيْئَةِ الطيور.

فالقراءتان مُتكافئتان في الدلالة على المعنى المراد، أي: كَهَيْئَةِ الطيور فتكونُ طيوراً.

(٤٩) ● قرأ نافع، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوبِ: [**فَيَكُونُ طَائِراً**].

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**فَيَكُونَ طَيْراً**].

والقراءتان وجهان عربيان جائزان، فالنصبُ على أن الفاء سببيَّة، والرفع على أنّها عاطفة.

(٤٩) ● قرأ ورْشٌ، وأبو عمْرو، وحفْصٌ، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بضَمّ الباء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [**في بِيُوتِكُمْ**] بِكَسْرِ الباء.

ضمّ الباء وكَسْرُها من «بيوت» لغتان عربيّتان.

(٥٠) ● قرأ يعقوب: [**وَأَطِيعُونِي**] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقْفاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ بحَذْف ياء المتكلم وتقديرها ذهناً وصلاً ووقفاً.

والقراءتان وجهان عربيان جائزان.

(٥١) في كلمة ﴿صِرَٰطَ﴾ وجوهٌ عندَ القُرَّاء، تنطَقُ بالصّاد، وبالسّين، وبالصّاد المشمومَةِ صَوْتَ زَاي.

تمهيد:

جاء في هذا النصّ بيانُ أنّ عيسَىٰ عليه السّلام، قَدْ بعَثَهُ اللَّهُ رسُولاً إلى بَنِي إسرائيل، أي: هُم المخاطَبُونَ الأَوَّلُونَ من الناس برسالته، إذْ كانت رسالتُه عامَّةً للنّاس، لكِنَّها تَنْتَهِي بِبِعْثَةِ محمّدٍ ﷺ، فخُصُوصِيَّتُها خُصُوصِيَّةٌ زَمَانيّة، لا خُصُوصيَّةٌ بقَوْمٍ دون قَوْمٍ.

واشتمَلَ هٰذا النّصّ على تلخيصٍ لرسالَتِه، وبُرْهَانِ صِدْقِه في أنَّه نبيُّ اللَّهِ ورسُوله.

التدبّر:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: هذه العبارة من تَوَابِع قول الملائكة لمريمَ عليها السّلام، حينَ بشَّرُوها بعيسَىٰ عليه السلام.

أي: ويَبْعَثُهُ رَسُولاً إلى بَنِي إسْرَائيلَ الضَّالّين، بَعْدَ أَنْ يجعلَهُ نبيًّا بالْوَحْيِ إليه.

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

الآية: هي العلامة، والعلامةُ على صدْق الرَّسُول لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ معجزةً خارقَةً للعادة.

﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: أي: لا مِنّي، وفي هذا البيان تبرُّؤٌ مِنْ كوْنِه هُوَ الّذِي يُجْرِي الآيَة. بل رَبُّهُمْ هو الذي يجريها له، دليلاً على أَنَّهُ صادقٌ فيما يُبَلّغ عنه.

وهٰذه الآية الإعجازية لَهَا خَمْسُ ظَواهِرَ دَلَّ عليها النصّ:

الظاهرة الأولى: دلَّ عليها: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾:

الخَلْقُ: يأتي في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ التقدير، وهو إعطاء أجزاء الشَّيْءِ مقاديرَها. وهذا هو المراد هنا في النصّ، فمعنى «أخْلُقُ» هنا: أُقَدِّرُ وأُصَوِّرُ وأصْنَعُ مِنَ الطّين.

ويأتي الْخَلْقُ بمعنى ابْتِداع الشْيءِ على غير مثال سبَق، وعلى إيجاده من العدَم، وهذا لا يكونُ إلَّا من الله جلَّ جلالُه.

فالمعنى: أنّي أُصَوّرُ لَكُمْ تَماثيلَ من الطين كهَيئة الطُّيُور، فتكُونُ طُيُوراً بإذْن الله.

الظّاهرة الثانية: دَلَّ عليها: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ وجاء في الآية بعْدَ ذِكْرِ ظَاهِرَتَيْنِ أُخرَيَيْنِ، تَقْيِيدُ هذا الإبراء بإذْن الله.

الأكْمَهُ: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ علىٰ الأعمَىٰ، وعلىٰ الأعْشَىٰ، وهو الذي لا يَرَىٰ رُؤيَةً سَلِيمةً في اللَّيْل.

ولم يَكُنْ إبْراؤه لِلأكْمَهِ بعلاجٍ دوائي، وإنَّما يكُونُ بِلَمْسٍ ودُعَاء.

الظَّاهرة الثالثَة: دَلَّ عليها: ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ عطفاً على «الأكْمَه» وهو أيضاً مُقَيَّدٌ بإذن الله، لمَا يأتي في النصّ.

البرَصُ: من الأمراض العسيرة الّتي ليْسَ لَهَا عِلاجٌ حاسم. وقَدْ كان عيسَىٰ علَيْه السّلام يُبْرِئه بإذْنِ الله باللَّمْسِ والدُّعاء.

الظاهِرَةُ الرابعة: دلّ علَيْها: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ هذا القَيْد: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ مُنْسَحِبٌ على إبراء الأكْمَهِ والأبْرَصِ.

وقد جاء في تاريخ دعْوَته بَعْدَ بِعْثَتِهِ أنَّه كان عليه السَّلام يحيي الموتى بإذن الله.

الظاهرة الخامسة: دلّ عليها: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ﴾.

وهٰذه الظاهرة هي نوعٌ من الاطّلاع على بعض المغَيَّبَاتِ عن الحواسّ، باطّلَاع الله له عليها.

وما يَدَّخِرُونَ في بيوتِهم يشْمَلُ المدَّخراتِ من الأطْعِمَةِ وغيرها من الأشياء التي تُدَّخر.

ادَّخَرَ يَدَّخِرُ: أصْلُها: اذَّخَر، وهذه أصْلَها «اذْتَخَرَ» دخلَتْ على الفعل تاء «افْتَعَل» للمبالَغَة في معنى الفعل، والاجتهاد في إحداثه. والماضي غير المزيد: «ذَخَرَ» يقال لغة: ذَخَرَ الشَّيْءَ يَذْخَرُه ذَخْراً وَذُخْراً(١)، أي: خبَّأَهُ لِوَقْتِ الحاجة إليه.

• ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

جاء هذا البيان تعْقيباً على ظواهر الآية الإعجازيّة الّتي آتاه اللّهُ إيَّاها، فالمشار إليه باسم الإشارَة في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ظواهر الآية الّتي آتاه الله إيّاها.

﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾: أي: لَعَلامَةً بُرْهَانِيَّةً لَكُمْ، تَشْهَدُونَها فَتُقْنِعُكُم بأنّي نبيٌّ ورسولٌ صادقٌ فيما أبَلِّغُكُمْ عَنْ رَبّي، أرسلني الله ربّ كلّ شيءٍ إليكم، وأنتم تَسْتَجِيبُون لدلالة ظواهر هذه الآية، إنْ كُنْتُم مُؤْمنين، أي: إنْ كنتم مسْتَعِدّين مُسْتَقبلاً لأنْ تُؤْمِنُوا بما جئتُكُمْ به من عند الله رَبّكم.

فاسم الفاعل هنا كالفعل المضارع يَدُلُّ على الاستقبال كما يَدُلُّ على الحال.

---

(١) القاعدة الصرفيّة في وزن «افْتَعَلَ» المزيد بالتاء، أنّه إذا كانت فاء الفعل دالّا، أو ذالًا، أو زاياً، أُبْدِلت تاؤه دالًا، وعندئذٍ لك في النطق أن تقول في مثل: «اذْتخر»: اذْدَخر، وادَّخر، واذَّخر.

- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾:

أبان عيسَىٰ عليه السَّلام لبني إسرائيل بهٰذا أنّ رِسَالَتَهُ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ التوراة، الّتِي تشتمل على أحكام الشريعة الّتِي يَعْمَلُونَ بها، تتلخَّصُ بأمْرَين:

الأمْرُ الأول: التَّصْدِيقُ بما جاء في التوراة الصحيحة غير المحرّفة.

الأمْرُ الثاني: التخفيف عنْكُمْ في بَعْضِ مَا كان مُحرَّماً عليكم، بسبب ظُلْمٍ منْكُمْ ومن أسلافكم، كتَحْرِيم الشُّحُوم، وكلّ ذي ظُفر، فَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ عزّ وجلّ عن هٰذه الأشياء حُكْمَ التّحْرِيم، وَجعَلَها مُبَاحَةً في رِسَالَتِي إلَيْكُمْ.

- ﴿... وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: وجئتكم بآيَةٍ بيانيّة مِنْ ربّكُمْ، هي كتابُهُ الإنجيل الذي آتاني إيّاه، لتَتَّبِعُوهُ مؤمنين به، ولتنتفعوا بما جاء فيه من حِكَمٍ ومواعِظَ ووَصايَا وبَيَانَاتٍ نافِعَاتٍ للدّنيا والآخرة.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: أي: فاتّقوا عِقَابَ الله، فآمِنُوا بي، ولا تكْفُرُوا بما جئتُكُمْ به، وأَطِيعُوني لتكونوا مِنَ الفائزين بالخلاص من عَذَابِ الجحيم، وبالخُلُود في جنّاتِ النعيم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾: أي: إنّ الله الذي أرسَلَنِي هو رَبّي، إذْ أنَا خَلْقٌ من خَلْقِهِ، وعبْدٌ من عباده، وَهو رَبُّكُمْ، إذْ أنتم خَلْقٌ من خَلْقِهِ، وعبادٌ من عباده، ونَحْنُ جميعاً مَفْتقِرُونَ إلى عطاءات رُبوبيته دواماً، في ذواتنا، وفي صفاتنا.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: أي: فحقِّقُوا بإراداتِكُمْ عُبُودِيَّتَكُمْ لِرَبِّكُمْ، بأنْ تُؤْمِنُوا به، وَبِكُلّ رُسُلِه وكُتبِه، وبكُلِّ ما بَلَّغَكُمْ رُسُلُهُ عنه، وأنا واحد مِنْهُمْ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تُؤْمِنُوا بي.

وحقِّقوا بإراداتِكُمْ عُبُودِيَّتَكُمْ لِرَبِّكُم بأنْ تُؤَدُّوا مَا يَأْمُرُكُمْ به، وتَجْتَنِبُوا مَا يَنْهَاكُمْ عَنْه، ممّا أُبَلِّغُكُمْ إيّاه عَمَّا أوحى به إليّ.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: أي: هذا الّذِي آمُرُكُمْ به من اتّقاءِ عذاب الله، وطاعَتِي، وعبادة رَبِّكُمْ بالإيمان والْعَمل هو صراطٌ مُسْتَقِيمٌ يوصِلُكُمْ إلى رِضوانِ الله وَالخلودِ في جِنّاتِ النعيم يوم الدّين، والخلاص من عذاب الجحيم.

* * *

تَاسعاً:

تكْمِيلٌ آخَرُ جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) وهو موصولٌ بما جاء قبْلَهُ:

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

القراءات:

(٥٢) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [مَن أَنصَارِيَ إِلَى الله] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكانها.

التدبّر:

- ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾:

أي: فلمَّا عَلِمَ عِيسَىٰ عليه السّلام، بَعْدَ دَعْوَتِهِ بني إسرائيلَ ولا سيما علماؤهم، ورَبَّانِيُّوهم، وأصحاب الخدمة الدّينيَّة منهم، وهم المخاطبون الأوَّلُون من أمَّةِ دَعْوَتِه العالميَّة، أنَّهُم مُصِرُّونَ على الكُفْرِ به، وبما جاء به عن ربّه، مَعَ وَفْرَةِ الآيات الدالَّات على صِدْقِه، وأنَّهُ نبيُّ الله ورَسُولُهُ حقًّا وصِدْقاً.

يقال لغة: «**أَحَسَّ الشيْءَ وأحَسَّ بِهِ**» أي: عَلِمَه، والمرادُ بالإحْسَاس بالشيْءِ إدْراكُهُ إدْراكاً قَوِيًّا مشابِهاً للإدْرَاكِ بالحواسّ الظاهرة، فَهُوَ يجري مَجْرَىٰ المشاهَدَة.

- ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟:

أي: قالَ عارضاً على أفراد الّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، ليأخُذَ الْعَهْدَ علَيْهِمْ بمتابعَةِ الجهاد في سبيل اللَّهِ لِنَشْرِ دينِهِ، وتَبْلِيغِه للنَّاس.

﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟: أي: مَنْ الَّذِينَ ينْصُرُونني، سَاعِينَ إلى بُلُوغ مَرْضَاةِ اللَّهِ عزّ وجلّ، بالجهاد الدَّعوِيّ في سبيله، مُبَلِّغِين دينَهُ مهمَا تَلَقَّوْا من الناس من أذًى واضطهاد؟.

ضُمِّنَ لفْظُ «أَنْصَارِي» معنىٰ لفظ «السَّاعِينَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرف الجرّ «إلى» أي: مَنْ أَنْصَارِي السَّاعين إلىٰ الله؟

ومعلومٌ أنَّ السَّعْيَ إلىٰ الله، هو السَّعْيُ إلى بُلوغ مرضاته، للظَّفَرِ بالمراتب الْعُلْيَا في جنَّتِه، ويكونُ ذَلك بالْعَمَل بمحَابِّهِ من عباده، وبما يُرْضيه منهم، والأمْرُ الذي يَدْعُوهُمْ إليه عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام هُوَ الجهادُ الدَّعوِيُّ في سبيلِ الله، وتبلِيغُ دِينِهِ للنّاس.

والقرائن السّابقَةُ واللّاحِقَةُ تَدُلُّ على المطويَّات في النّصّ.

أنصار: جَمْعُ «نَصِير» وهو القويُّ في نُصْرَته، الثابتُ الّذي لا يضْعفُ ولا يتوانَىٰ وَإِنْ لَاقَىٰ الصِّعَابَ والاضطهادَ من الخصُوم والأعداء، أخذاً من صيغة «فَعِيل» الّتي هي من صِيَغِ المبالغة.

• ﴿... قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾: جمْعُ «الحواريّ» وهو الصّاحبُ والناصر، وأصْلُ الحواريّ في اللُّغَة، مُبيِّضُ الثياب، وهو القصّار، وهو أيضاً الَّذِي اختِير وَنُقِّيَ لصَفائِه وخُلُوِّه من العيوب، وهذه المعان ملاحظة لدى انْتِقاء الأنْصارِ المخْلِصِينَ، الَّذِينَ يُطْلَقُ عليهم لفظ «الحواريينَ».

ويُعْرَف الحوارِيُّونَ عِنْدَ الإنْجِيليِّين بأَنَّهُمْ تلامِيذُ المعلّم «يَسُوع = عيسَىٰ» عليه السّلام، وكانوا اثْنَيْ عَشَرَ تلميذاً، وهم كما ذَكر الإصحاح العاشر من الإنْجيل المنسوب إلى «متّىٰ»:

١ ـ «سِمْعَانُ» الّذي يُقَالُ له: بُطرُس.

٢ ـ «أَنْدَرَاوُس» أَخُو «سِمْعان».

٣ ـ «يَعْقُوبُ بْنُ زَبْدِي».

٤ ـ «يوحَنَّا» أخو يعقوب بن زَبْدِي.

٥ ـ «فِيلُبُّس».

٦ ـ «بَرْثُولَمَاوُس».

٧ ـ «تُومَا».

٨ ـ «مَتَّىٰ الْعَشّار».

٩ ـ «يَعْقُوب بْنُ حَلْفَىٰ».

١٠ ـ «لَبَّاوُس» الملَقَّب: تَدَّاوُس.

١١ ـ «سِمْعَان القانوني».

١٢ـ «يَهُوذَا الإسْخَرْيُوطي» الّذي خان عيسَىٰ عليه السَّلام، ودَلَّ أعداءَه على مكانه، مقابل دُرَيهماتٍ مَعْدُودات. وهؤلاء أرسلهم دعاة لخراف بني إسرائيل الضالة.

أمّا التلاميذ الذين بعَثَهُمْ عيسى عليه السّلَام لِيُبَشِّرُوا بدِين الله في كُلّ مَدِينَةٍ ومَوْضع، من بلاد الدُّنيا، فَهُمْ سبعون كما جاء في الإصحاح العاشر من الإنجيل المنسوب إلى «لوقا».

وآخرون أيضاً كما جاء في الإصحاح التاسع منه.

ويعرف هؤلاء المبعوثون عند الإنجيليِّين بأنّهم رُسُل، أي: رسُلٌ أرسَلَهُمْ عيسَىٰ، ومنحهم بعض القوى الّتي آتاه الله إيّاها، كشفاء المرضى، وإخراج الشياطين من الأجساد الإنسيَّة الّتي يدخلون فيها.

وكلمة «الحواريّين» تعبير عربي، جاء في «الصحيح» عند البخاري وغيره، أنّ الرسول ﷺ قال:

«لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌ، وحَوَارِيِّ الزُّبَيْر».

وأدْرَكَ حَوارِيُّو عيسىٰ عليه السّلام، أنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ يُريد به، مَنْ يَنْصُرُونِي سَاعِياً إلى نَشْرِ دِينِ الله، فهو بذلك يَنْصُر الله، فقالُوا:

- ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: أي: أنصار الله بِصِدْقٍ وإخْلَاصٍ وتضحية، فهٰذِه هي النُّصْرَة الحقيقيَّةُ لله، وأَبَانُوا السَّبَبَ الدَّافِع لهم فقالوا:
- ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: أي: وأَسْلَمْنَا له، بدليل قولهم عَقِبَ هٰذا للرسول عيسىٰ عليه السّلام:

- ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: أي: واشْهَدْ بأنَّا قائمونَ بالأعمال الّتي تَجِبُ علينا في الإسلام، إذْ يدْفعُنَا إلى ذَلِكَ صِدْق الإيمان.

ويظهر من قولهم هذا أنَّهُمْ كانُوا يُدْرِكون الفرق بين الإيمان والإسلام، وأنَّ الإيمان عقيدة راسخَةٌ في القلْب، وأنّ الإسلامَ آثاره في السُّلوك، ومن آثاره في السُّلُوك ما يُمْكِنُ أنْ يُشْهَدَ بالحواسِّ الظَّاهِرَة، فتَصِحُّ الشهادةُ به، ولهذا طالبوا عيسَىٰ عليه السَّلام بأنْ يَشْهَدَ لهم عنْدَ رَبّهم أنَّهُمْ مُسْلِمُون، ولم يُطالِبُوهُ بأنْ يشْهَدَ لهُمْ بأنَّهم مُؤْمِنُون، إذِ الإيمان من أعمال القلوب، والله وملائكَتُهُ المكلَّفُون أنْ يُرَاقبوا أعْمالِ العِبَاد الظاهرة والباطنة يَعْلَمُونَ ما تُكنُّهُ الْقُلُوب، والناسُ مع الناسِ إنّما يَعْلَمُونَ الظواهر ويَشهَدُونَ بها.

وتوجّه الحواريّون لربّهم قائلين:

- ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾: أي: آمَنَّا بِكُلِّ الَّذي بَلَّغَنا إيّاه رسولُك عيسَىٰ عليه السلام.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾: أي: واتَّبَعْناهُ مُطيعِينَ له، ومُسْلِمِينَ كُلَّ شؤونِنَا لأَوَامِرِه ونواهيه وتَوْجيهاته. ومن طَاعَتِنَا لَهُ، وقيامِنَا بِمَا يُكلِّفُنَا إيَّاه، سعْيُنَا في نَشْرِ الدّين الّذي جاءنا به، وتَبْلِيغ تَعْلِيمَاتِه، تَعَهَّدْنَا به، إذْ قُلْنَا له: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: القائمون بالدَّعْوَةِ إلى دينِ اللَّهِ وصِرَاطِهِ المستقيم.

﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: أي: فَأَمِدَّنا بالْعَوْنِ والتوفيق للقيام بهٰذه الْوَظِيفَةِ التبليغيّة، وأمِدَّنا بالسَّدَادِ في مسيرتنا الدعوية، حتَّىٰ تكْتُبنا في ديوان مُبَلِّغِي دِينِكَ مع الشَّاهِدِين، الَّذِين يشْهَدُونَ على الناس يوم الدين، بأنَّهم بلَّغُوهم دينَكَ، والتّعليماتِ الّتي جاءَ بها رَسُولُك.

- ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

هٰذه الآية تتضمَّنُ بياناً مُجملاً لَا تَفْصِيل فيه، عمّا فَعَلَ أعداءُ عيسَىٰ عليه السلام، وأعداءُ الدِّين الذي جاء به، وأعداءُ من آمَنَ به واتَّبَعَه، من الْيَهُودِ والحكام الزمنيّين يومئذٍ، مِنْ مَكْرٍ للتخُّلصِ منْ كُلِّ ذَلِكَ.

المكر: هو في اللُّغَة تدبير أَمْرٍ في خفاء، ومعلومٌ بداهَةً أنَّ ما يُدَبَّر في الخَفَاء لا يقْتَضِي أنْ يكون شرًّا، بَلْ قَدْ يكونُ خيراً.

والمكْرُ في الخير لا يُنَافي الكمال، بَلْ هو من عناصره، إنَّ الحاكم العادِلَ الَّذي يَخَافُ الله يَمْكُرُ، ومَكْرُهُ لا يكون إلَّا في الْخَيْر، إنَّهُ قَدْ يَمْكُر بالمجْرِمينَ، الَّذين يتَوَارَوْنَ عن عُيون السلْطَة، لئلَّا تُطَبَّقَ عَلَيْهِمْ أحكام العدل، فيَمْكُرُ بهم حتَّىٰ يقْبضَ عليهم، ويَقْضِيَ في شَأْنهم بالْعَدْل، وهذا مكْر في الخيْر.

واللَّهُ جلَّ جَلَالُه يَمْكُرُ بأعداء دينِه، وأعداء رُسُله، وأعداءِ أوْليائه، وهو خَيْرُ الماكرين، الّذِين يُدَبِّرون أمُورَهم في خفاء.

- ﴿وَمَكَرُوا﴾: أي: ومَكَرَ الْيَهُودُ بعِيسَىٰ، فأشَاعُوا أَنَّهُ يَسْعَىٰ لِكَي يَكُونَ مَلِكاً على بني إسْرَائيل، ويَطْرُدَ الحكَّام الرُّوم، الحاكمين لبلاد الشَّام كلّها، ومنْها فلسطين وبيتُ المقدس حينئذ.

وكَثُرَتْ وشاياتهم وأقوالهم، فتوارَىٰ عيسَىٰ عليه السَّلامُ عن عُيُون النَّاس هو وحواريُّوه.

وشدَّدَ الْيَهُودُ مع رِجالِ الدَّوْلَةِ الرُّومانيَّة، في البحث عن المكان الذي يتوارَىٰ فيه عيسَىٰ الرَّسُولُ عليه السّلام.

وأوحَىٰ الله عزّ وجَلّ إلى عيسَىٰ بالأَمْر، وأعْلَمَهُ بالرَّجُلِ الَّذِي سيَدُلُّ عَلَيْهِ من حواريّيه، وهو يَهُوذا الإسخريوطي.

وأشعر عيسَى حَوَارِيّيه بأنَّ مُدَّةَ بقائه معهم قَدْ أوشكَتْ أنْ تنتهي، وأنَّهُ ذَاهِبٌ إلى رَبّه.

وقال عيسى لحواريّيه كما جاء في الإنْجِيل المنسوب إلى يُوحَنَّا، في الإصْحاح (١٣) منه:

«٢١.. الْحَقُّ والْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُني ٢٢ فَكَانَ التَّلَاميذُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ وهُمْ مُحْتَارُونَ فِيمَنْ قَالَ عَنْهُ ٢٣ وكانَ مُتَّكِئاً في حِضْنِ يَسُوع واحد من تلاميذِه كان يَسُوعُ يُحبُّهُ ٢٤ فأَوْمأ إِلَيْهِ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أنْ يَسْأَلَ من عَسَىٰ أنْ يكُونَ الّذِي قال عنه ٢٥ فاتَّكأ ذَاكَ على صَدْرِ يَسُوعَ وقَالَ لَهُ يَا سَيِّد مَنْ هُوَ ٢٦ أَجابَ يَسُوعُ هُوَ ذَاكَ الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللُّقْمَةَ وَأَعْطِيهِ. فَغَمَسَ اللُّقْمَةَ وَأَعْطَاهَا لِيَهُوذا سِمْعَان الإِسْخَرْيُوطي ٢٧».

«٣٠ فَذَاكَ لَمَّا أَخَذَ اللُّقْمَةَ خَرَجَ لِلْوَقْتِ. وَكَانَ لَيْلاً ٣١ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ يَسُوعُ: الآن تَمَجَّدَ ٱبْنُ الإنْسَانِ وَتَمجَّدَ اللَّهُ فيه ٣٢ إِنْ كان اللَّهُ قَدْ تمجَّدَ فِيه فإِنَّ اللَّهَ سَيُمَجِّدُهُ في ذَاتِه ويُمَجِّدُهُ سَرِيعاً ٣٣ يا أَوْلَادي أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدَهُ سَتَطْلُبُونَنِي، وكما قُلْتُ لليَهُودِ: حَيْثُ أَذْهَبُ أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا...».

وأبلغ «يَهوذَا الْإِسْخَرْيُوطِي» أعداءه بمكانِ وُجُودِه.

وأَوصَىٰ عيسَىٰ علَيْهِ السَّلام تلاميذه بأَنْ يحِبَّ بعضُهُمْ بَعْضاً، وأوصاهُمْ بأنْ يَتَّبِعُوا الرَّسُول الّذي يَجْعَلُهُ اللَّهُ خاتمَ النَّبِيِّين والمرسَلِين.

وجاء الجنود، ودَاهَمُوا المكان، ورَفَعَ اللَّهُ عيسَىٰ إلَيْه، وأَلْقَىٰ شبهَهُ على مَنْ دَلَّ عليه.

وظَنَّ أعداء عيسَىٰ عليه السَّلام من الْيَهُود، أَنَّ مكْرَهُمْ الَّذِي مكَرُوه قَدْ تحقَّقَ على ما رَسَمُوهُ، وأَنَّهُمْ أوصلوا عيسَىٰ إلى القَتْلِ والصَّلْب، بأمْرِ السُّلْطَةِ الرُّومانية.

وافْتَرَوا على أُمِّه فِرْية الفاحشَة، واعْتَبرُوهُ وَلَدَ خطيئة.

وقال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)﴾.

* * *

عاشراً:

تكميلٌ آخر جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) وهو موصولٌ بما جاء قَبْلَهُ أيضاً وهو الآيات من (٥٥ ـ ٦٠):

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٦٠)﴾:

القراءات:

(٥٧) • قرأ حفص: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بضمير الغائب وهو يعود على الله جل جلاله وبكسر هاء الضمير.

وقرأها رُوَيس: [فَيُوَفِّيهُمْ] بضمير الغائب أيضاً، ولكن بضمّ هَاءِ الضَّمير.

الضَّمُّ والكَسْرُ في هاء الضمير لغتان عربيَّتان.

وقَرأ رَوح: [فَنُوفِّيهُمْ] بضمير المتكلّم العظيم وضمّ هاء الضمير.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَنُوَفِّيهِمْ] بضمير المتكلّم العظيم، وكَسْر هاء الضمير.

وبَيْنَ ضمير المتكلّم العظيم، وضَمِير الغائب، تَفَنُّنٌ في التَّنْويع البياني، مع ما في ضمير المتكلّم العظيم من تَرْبِيَةِ الْمَهابة من جلال رُبوبيَّةِ الرَّبّ وعظيم جوده في هذا البيان، لتعلُّقِه بمكافأة الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات.

التّدبّر:

● ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ . . .﴾:

هذا البيان موصُولٌ بالّذِي قَبْلَهُ وَهُوَ قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ومَكَرَ اللَّهُ فَدَبَّرَ أَمْرَهُ في خفاء، حِينَ قَالَ اللَّهُ يَا عيسَىٰ. . . فدلَّ هذا البيان على أنّ مَكْرَ الله قد كان وقت قول الله يا عيسَىٰ. . . إلى آخره.

وقد جاء في الآيات (٥٥ و٥٦ و٥٧) من هذا النّصّ بيانُ ثمان قضايا بعْدَ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾.

القضيّة الأولىٰ: دلّ عَلَيْها: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ خطاباً لعيسَىٰ عليه السلام.

أي: إنّي فاصلٌ بين رُوحك الممدَّة لَكَ بالحياة الإراديّة، وبيْنَ نَفْسِكَ، ويظْهَرُ أنَّ هذا الْفَصْل قد كان من قبيل النوم العميقِ جدًّا، الّذي تَنْفَصِلُ فيه الرُّوح انفصالاً جزئيًّا تَنْعَدِمُ به الحركة الإرادية، وهو شبيه بالتَّخْدِير الشّامِلِ لإجراء العمليّات الجراحيّة.

فقد جَعَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ التَّوَفِّيَ تعبيراً قَدْ يَدُلُّ على الْفَصْل الكلِّي الَّذِي يَحْدُث به الموت، وقَدْ يَدُلُّ على الْفَصْلِ الجزئي الّذي يَحْدُثُ بِالنوم.

ويَدُلُّ على هذا قول الله تعالى في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ويَدُلُّ علىٰ أنَّ التَّوَفِّيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ الله عزّ وجلّ بعيسَىٰ عليه السَّلام، هو من نَوْعِ الْفَصْلِ الْجُزْئِيّ بَيْنَ رُوحِهِ ونفسه أمران:

الأمْرُ الأوَّل: قول الله له في النصّ: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إذ لا ميزة لرفع جسده إلى السماء مع الموت، لكنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ رَفَعَهُ إلى السماء تطهيراً وتكريماً دون أن يميته.

الأمْرُ الثاني: أنَّ الله سَيُنْزِلُهُ إلى الأرْضِ لِيُؤَدِّي وظائف عظيمةً في الناس، وسَيُؤْمِنُ به جُمْهُورٌ من أهل الكتاب كانوا به كافِرين، ويَكُونُ هٰذا قَبلَ مَوْته، وقد دلَّ على هذا قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

أي: إلّا لَيُؤمِنَّنَ بِهِ مُسْتَقْبلاً قَبْلَ مَوْتِهِ، فدلَّ هٰذا على أن التَّوَفِّيَ الّذِي حَصَلَ لَهُ قَبْلَ رَفْعِهِ إلى السَّماء لم يَكُنْ من نوع الموت، بلْ كان من نوع الْفَصْل الْجُزئِيِّ بَيْنَ رُوحِهِ ونَفْسِه علَيْهِ السَّلام.

وقد ثبَتَ عن النبيّ محمّد ﷺ بصُورَةٍ قَطْعِيَّةٍ نزول عيسَىٰ عليه السّلام، في آخِرِ الزّمان، وثَبَتَ أَنَّهُ يَكْسِرُ الصليب، ويقتلُ الخِنْزِير، ويَكُونُ هَلاكُ الدَّجَّالِ على يَدِه.

القضية الثانية: دَلَّ عليها: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ خطاباً لعيسى عليه السلام، أي: ورافِعُكَ من الأرض إلىٰ جِهَتِي، أي: إلى السَّماء، وأنْتَ مُتوفَّىٰ تَوَفِيّاً جُزْئِيًّا لَمْ تَمُتْ فيه مَوْتاً كُلّيًّا.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عليها: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خطاباً لعيسَىٰ عليه السلام، أي: وعَاصِمُكَ من أنْ يَقْتُلَكَ الّذين كَفرُوا، إذْ لوْ لَمْ يَعْصِمْهُ اللَّهُ عزّ وجلّ من ذَلك، لكان جَسَدُه محَلًّا يُفْعَلَ فيه رِجْسُ جُرْمِهِمُ العظيم.

وقد وصَفَ اللَّهُ الشِّركَ بأنَّهُ رِجس، ووصف المشركين بأنَّهم نَجَسٌ، ووصَفَ شُرْبَ الْخَمْرَ، والمقامَرَةَ بالميْسِر، بأنَّهُمَا رِجْسٌ في السُّلوك من دَرَكَةِ كَبَائر الإثم، وجَعَلَ النِّفَاقَ رِجساً من أَرْجاسِ السُّلُوكِ النَّفْسِي، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَتْلُ رَسُولٍ من رُسُل الله من الأَرْجاس الكُبْرىٰ.

فَحِمايَةُ عيسَىٰ عليه السّلام من أن يَقْتُلَهُ الّذينَ كَفرُوا، هو تَطْهيرٌ لَهُ من أنْ تَكُونَ حيَاتُهُ وَذَاته محلًّا يَرْتَكبون فيه رِجْسَهُمُ العظيم، فَعَصَمَهُ الله، ورفَعَهُ إلى السَّماء تطهيراً لِجَسَدِهِ من رِجْسِهم، مع أنَّه في ذَاتِه علَيه السّلام، في نَفْسِه وفي جَسَدِهِ طَاهِرٌ زَكِيٌّ لَا يَتَغَيَّرُ من جوْهَرِه شيء.

فالمرادُ بالتَّطْهير هنا عِصْمَتُهُ مِنْ أنْ يقْتُلَه الذين كَفرُوا أو يُعَذِّبوه.

وهٰذَا نظير أنْ نَرْفَعَ المصْحَفَ مِنْ أَيْدِي من أرادوا إلْقَاءَ النجاسات

عليه، فنقول: لقد أردنا تَطْهِيرَ المصْحَفِ من أَرْجَاس المجرمين، مع أن المصْحَفَ يشْتَمِلُ على كلام الله عزّ وجلّ، وهو في ذاته طاهر لا يَنْجُس، لكِنْ قَدْ يكونُ محلًّا لتنجيس يَفْعَلُهُ المجرمون، وقد خَفِيَ هذا المعنىٰ الدَّقيق علىٰ كثير من المفسّرين.

القضية الرابعة: دلَّ عليها: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ خطاباً لعيسَىٰ عليه السّلام:

أي: وجاعلُ الَّذينَ اتَّبَعُوكَ مُؤْمِنينَ بِكَ إيماناً صحيحاً، وعامِلِينَ بأحكام الشّرِيعَةِ الَّتِي أوصَيْتَ بالْعَمَلِ بها، فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ سَعَادَةً، ومَنْزِلَةً في الْقُلُوب، ومَعِيشَةً لا نَكَدَ فيها، وقَلْباً مطمَئنًّا، وذِكْراً حسناً، إلى يَوْمِ القِيَامَة.

ويَنْطَبِقُ هٰذا علىٰ الَّذِينَ كانُوا علىٰ الإيمان الصحيح والعمل الصَّالح، من الَّذين قالوا: إنَّا نَصارَىٰ، قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أمَّا بَعْدَ بِعْثَةِ مُحمّد بْن عبد الله، فَمُتَّبِعُو عيسَىٰ عليه السّلام في الحقيقة هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بمحمَّدٍ واتَّبَعُوه، واتَّبَعُوا ما أنْزَل اللَّهُ في القرآن المجيد، لأنَّ عيسَىٰ عليه السَّلامُ قَدْ بَشَّرَ بمحمَّد ﷺ، وأمَرَ أَتباعَهُ باتِّبَاعِهِ حينَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَسُولاً للنَّاس أجمعين، فَمَنْ لَمْ يتّبعْ محمّداً ومَا أنزل اللَّهُ عليه، لا يَكُونُ مُتبعاً لعيسَىٰ في الحقيقةِ، وإنّما يَكُونُ متّبعاً لِتحْرِيفاتِ الشَّيَاطِين الَّتِي نَسَبُوها إلى عيسَىٰ عليه السلام.

أمّا تَفَوُّقُ الدُّوَلِ الكافرةِ المنْتَمِيَةِ إلى عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام انْتِماءً باطلاً، مَاديًّا وعَسْكَرِيًّا، فَلَيْسَتْ هِيَ الْفَوْقِيَّةَ السَّعِيدة، على أنَّها في عَصْرِنَا ظاهِرَةٌ عابِرَةٌ، قَدْ يُنْهِيهَا اللَّهُ عزَّ وجلَّ إذا صَلَحَ حالُ المسلمين، ورَجَعُوا إلى الاسْتِمْسَاكِ بدينهم صَادِقين مخْلِصِين، وفَهِمُوا الإسْلَامَ فَهْماً سليماً لَا شوائِبَ تَشُوبُ مَفْهُومَاتهم في عقائده، وشرائِعه، وأحكامه.

ولا نَنْسَىٰ أنَّ أَتْبَاع عيسَىٰ الصَّادِقِين كانُوا مضطَّهدِين بَعْدَ رَفْعِ عيسى عليه السلام، واسْتَمَرُّوا في الاضطهاد أكثر من ثلاثَةِ قُرون، وبَعْدَ أن تَنَصَّرَ «قُسْطَنْطِين الأكبر» وجعل دَولته دولَةً نصرانية على عقيدة التَّثْليثِ الّتي هي كُفْرُ بالله وبعيسى، لَمْ يَكُنْ لأتباع عيسَىٰ الصَادِقِين سُلْطَانٌ مُتَفَوّقٌ في الدّولة الرُّومانية، بل كان التفوُّقُ الماديُّ والسُّلْطانِيّ للكفَرَةِ المنتمين إلى عيسَىٰ انتماءً بَاطلاً.

القضية الخامسة: دلَّ عليها: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾:

هٰذا القول مُوَجَّهٌ للناس جميعاً، إلَّا أنَّ المخاطَبِينَ الأوّلين به، هم المنْتَمُونَ إلى عيسَىٰ عليه السلام، بباطلٍ أو بحقٍّ، فهم الذين اختلفوا فيه، هل هُوَ الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثَة، والذين قالوا: هو عبْدُ اللَّهِ ورسولُهُ، وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيم وروحٌ منه، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سُلْطَانٌ ودَوْلَةٌ متفوّقَةٌ، إلّا أنَّهُمْ كَانُوا فوقَ الَّذِينَ كَفَرُوا بما أفَاضَ الله عزّ وجلّ عليهم من سعادات نفسيَّة وقلبيَّة، وطُمَأْنِينَةٍ، ورضاً عن الله، وآمالٍ متعلّقة بالنعيم الخالِدِ يوْمَ الدّين.

وحُكْمُ اللَّهِ يَوْمَ الدّين بيْنَ المختلفين، يكُونُ بالحكم لمَنْ كانَ علَىٰ الحقّ ومَا أنْزَلَ الله بصِدْق، بالهداية، والنجاة، والظفر بجنَّاتِ النعيم. وبالحكم علَى مَنْ كانَ علىٰ الباطل وعَلىٰ غير ما أنزل الله، بالضّلال واستحقاق العقاب في الجحيم.

القضية السادسة: دَلَّ عليها: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٥٦﴾:

أي: فأمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ ظُهور الْحَقّ لَهُمْ، ومعانَدَتِهم له، فَأُعَذّبُهم عذاباً شَدِيداً في الدُّنيا، بأنواعٍ من العذاب النفسيّ والجسَدِيّ، الّتِي تأتي

بصورة إفراديَّة، وبأنواع من العذاب التي تأتي بصورة عامَّةٍ، كالَّتي تأْتي بها الحروبُ المدمّرة، وكالكوارث العامَّةِ المهلكة والمدمّرة.

وأُعَذِّبُهُمْ عذاباً شديداً في الآخرة، لأنَّهُمْ يكونون خالدين في عذاب الجحيم، ومن أشدّ عذابها ما يُلاقُون فيها من حَرِيق.

وما يَجِدُون لأنفسهم من ناصرِين ينْصُرُونهم فَيَدْفَعُون عنهم عذاب اللَّهِ لهم، أو يَرْفَعُونَهُ عنهم، سواءٌ مَا كانَ مِنْهُ معجَّلاً في الدُّنيا، أمْ مُؤَجّلاً إلى يَوْمِ الدِّين.

لفظ «مِنْ» في: ﴿مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ حَرْف جرٍّ زِيد لإفَادة استغراق عمُوم النفي والتَّنصيص عليه.

القضية السّابعة: دلّ عليها: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾. وفي القراءة الأخرى: [فَنُوَفِيهِمْ أُجورَهُمْ] بضمير المتكلّم العظيم.

أي: فَيُوَفِّيهم رَبُّهُمْ، وفنُوَفِّيهم أُجورَهُمْ بِحَسَبِ أعْمَالهم، وقَدْ دَلَّت النُّصُوصُ علىٰ أنَّ الحسنةَ بِعَشْرِ أمثالها في أدْنَىٰ الحدُود، ثُمَّ إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ، إلىٰ أضْعَافٍ كثيرة من فَيْضِ عطاء الله.

القضيّة الثامِنَة: دلَّ عليها: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: واللَّهُ لا يُحبُّ الظالِمِينَ منَ الَّذِينَ آمَنُوا، والظَّالِمُونَ هُنَا هم العصاة من المؤمنين.

وقَدْ دَلَّتْ نُصُوصٌ أخرى على أنَّهم يكونُونَ عُرْضَةً للعقاب بحَسَبِ معاصيهم، فيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ، ومَشِيئَات الله عزّ وجلَّ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ بِحَالٍ من الأحوال.

* * *

قول الله عزّ وجل:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾:

- ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾:

الخطابُ في هٰذِهِ الآيَةِ مُوَجَّهٌ للرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ﴾: المشارُ إِلَيْهِ الآيات الّتي جاءت في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) من الآية (٣٣) إلى غاية الآية (٥٧).

﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾: أي: نُتَابِعُ إمْلَاءَهُ عليك، وجاء التعبير بالفِعْلِ المضارع، للدَّلَالَة على أنَّ بقاءَ النَّصّ يُتْلَىٰ بمَثَابَةِ تِلَاوَةِ اللَّهِ له دَواماً، وهٰذا المعنى يُلائمه الفِعْلُ المضارعُ لا الماضي.

﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾: أي: من الآيات المعجزات الدالَّاتِ علَىٰ أَنَّهَا تَنْزِيلٌ مِنْ عِنْدِ رَبّك، ومِنَ القُرآن المجيد، الذي هُوَ الذّكْرُ الحكيم، الَّذي يَجِبُ على المؤمنين أن يَضَعُوهُ في ذاكراتهم، وأنْ يَذْكُرُوا ما فيه من وصايا، وأوامر ونواهي، وأحكامٍ وتَشْرِيعَاتٍ ومَفْهُومَاتٍ، عنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ داعِيَةٍ إلى ذِكْرِ شَيْءٍ منه، فَهُوَ حَكِيمٌ في أَسَاليب بيانه، حكيمٌ في مبانِيه، حكيمٌ في معانيه.

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾:

أي: مَا كان يَصِحُّ عقلاً من الَّذِينَ اخْتَلَفُوا في عيسَىٰ، أن يَجُرَّهُمْ ميلادُهُ مِنْ غير أبٍ إلى الفتْنَةِ التي سقَطُوا فيها، إذْ زَعُموا أنّه هو الله، أو ابن الله، أو ثالِثُ أقانيم ثلاثة.

فآدَمُ قد خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ تُرَابٍ دُونَ أَبٍ ولَا أُمّ، ولم يكن ذلك سَبَباً لأَنْ يَدَّعِيَ أَحَدٌ إلَهِيَّتَهُ أو رُبُوبِيَّتَه، أَوْ أَنَّه ابْنُ الله، أو نَحْوَ ذَلِكَ مِنْ ضَلاَلاَت.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: أي: وبَعْدَ أن صَوَّرَهُ اللَّهُ مِنْ تراب، ومَرَّتْ عليه مُدَّةٌ مُتَراخية مَرَّ فيها بمراحِل الطين اليابس، فالصَّلْصَالِ المشابه للفخار، قال الله: كُنْ فَكَانَ كَمَا قَدَّرَه اللَّهُ وقضاه.

كان الظاهر أن تأتي العبارة: «كُنْ فكان» لا ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لكِنْ جاء النَّصّ على خلاف الظاهر، والحِكْمَةُ في هٰذا الإشعار بأنَّ آدم قد انْطَبَقَ عليه القانون الرَّبَّانيُّ العام في الخلْق، وهُو قانُون: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ والتقدير: ثمَّ قالَ لَهُ: كُنْ فكانَ، مُجْرِياً عليه القانون العامّ في خلْقِ اللّهِ لكلّ شيء: وهو قانون: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

- ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

أي: هذا الّذي نَتْلُوه علَيْكَ من القرآن، هو الحقُّ المَنزَّلُ مِنْ عِنْدِ ربّك، أيُّها المتلَقِّي لهذا القرآن أيّا كُنْتَ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين، أي: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشّاكّين، ولا تَكُونَنَّ فيه من المجادلين.

﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: أي: من الشّاكين، ومن المجادِلين. يقالُ لُغَةً: امْتَرَىٰ في الشَّيْء، أي: شَكَّ فيه، والتماري والمماراة، هي المجادلَةُ على مَذْهب الشَّكّ والرِّيبة، ويقال للمناظَرةِ مُماراة، لأنَّ كلَّ واحِدٍ من المتناظِرَيْن، يسْتَخْرِج ما عِنْدَ صَاحِبِهِ ويَمْتَرِيه، كما يَمْتَرِي الحالِبُ اللَّبَنَ من الضَّرْع.

وبهذا انْتَهَىٰ تدبُّر الدَّرس الثاني مع تَدَبُّر نُصُوصٍ مَتعدِّدَة مُوزَّعَةٍ في سور القرآن، تتَعَلَّقُ بما جاء فيه بشَأْن مريم وعيسَىٰ عليهما السّلام.

والحمد لله على معونته، وتوفيقه، وفتحه، إنّه الوهّاب الكريم.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُرُوس سورة (مريم) وهُوَ الآيات من (٤١ ـ ٥٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا (٤١) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا (٤٦) قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا (٤٧) وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا (٤٨) فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا (٤٩) وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا (٥٠)﴾.

القراءات:

(٤١) و(٤٦) ● قرأ هشام: [إِبْرَاهَامَ] ـ [يَا إِبْرَاهَامُ] وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ـ [يَا إِبْرَاهِيمُ].

إبراهيم وإبراهام وجْهان لنُطق هذا الاسم عند العرب.

وجاء اسمه عليه السّلام في سِفر التكوين بلفظين: «أَبْرَام» و«إِبراهيم».

(٤٢) و(٤٣) و(٤٤) و(٤٥) ● قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [يَا أَبَتَ] بفتح التّاء في المواضع الأربعة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسْر التاءِ في المواضع الأربعة.

القراءتان وجهان لنُطق هذه التاء في اللّسان العربي، وهٰذه التاء عوضٌ عن يَاء المتكلّم في النداء فَقط للفظَتي: «أب» و«أمّ» ويَرَىٰ النحاةُ أنَّها تاءُ التأنيث.

أقول: الظّاهر أنّ الغرض من الإتيان بهٰذه التاء بدَلَ ياء المتكلّم التحبُّبُ والتَّذَلُّلُ وخَفْضُ الجناح، برّاً بهما، ولترقيق قُلُوبهما.

(٤٥) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وَأَبُو جَعْفَر: **[إنيَ أخَافُ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكانها مع المدّ في الوصل.

وسبق ذكر أنّ القراءتين وجهان لنُطق ياء المتكلّم في اللّسان العربي مرَّاتٍ عَدِيدات.

(٤٧) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[ربِّيَ إِنَّهُ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿رَبِّيٓ إِنَّهُۥ﴾ بالإسكان مع المدّ في الوصل.

تمهيد:

كانَ من سياسة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلامُ في دَعْوَته، أَنَّهُ بَدَأَ بأقْرَب النَّاس إلَيه، وهذا تعليمٌ رَبَّانيٌّ في مجالِ الدَّعوةِ إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، فقد أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ به رسولَهُ محمّداً خاتم المرسلين عليهم الصلاة والسَّلام أَجْمَعِين.

واهتماماً بالقيام بهٰذه السّياسة الحكيمة الرَّشِيدَة، ألَحَّ إبراهيمُ عَلَيْهِ

السَّلامُ على أبيه في الدَّعْوة إلى دينِ الله الحقّ، وإلىٰ نَبْذِ اتّخَاذ الأوثان وعبادتِها، ونَوَّع له أساليبَ الإقناع، وقَدَّمَ له الحجج والبراهين، واسْتعطَفَهُ واسْتَلانه، وتخضَّعَ له، وتَرَفَّقَ به، وعاشَرَهُ بإحسان، ولم يُقابلْهُ بما يكْرَهُ.

وحينَ طلَبَ منه أبُوه أنْ يَهْجُرَهُ إلى حين، استجاب لطَلَبه، ووعَدَهُ بأن يَسْتَغْفِر لَهُ رَبّه، قبْلَ أنْ يَعْلَم أنَّهُ مُصِرٌّ علَىٰ أن يكونَ عَدُوّاً لله، فلمَّا عَلِمَ أنَّهُ عَدُوٌّ لله تبرَّأ مِنْه.

ونفهم من هٰذا النَّصّ الذي جاء في سُورة (مريم) أنَّ إبراهيم عليه السَّلامُ قَدْ أضْجَر أبَاه في دعوته له، مقْرُونَةً بالْحُجَج البُرْهَانيَّةِ المقنِعَة، رَجَاء أن يسْتَجِيبَ له، فيكونَ من المؤمنين الموحّدِينَ النَّاجين من عذاب الله الخالد في نار جهنّم، وأنّ الضّجَر قد أوصل الأب إلى أنْ يُهدِّدَ ٱبْنَه إبراهيم الناصح له، والملِحَّ عليه بالنصيحة، وبإقامَةِ البراهين المقنعة، فيتوعَّدَهُ بالرجم، فقال له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لأقتلَنَّك بوسيلة الرَّجم بالحجارة.

ويظهر أنَّ هٰذا التَّهْدِيدَ قَدْ صدَر من الأَب وهو في حالَةِ ضيقِ صَدْرٍ، إذْ لم يَسْتطع أنْ يَرُدَّ على حُجَج ابْنِه البرهانيّة بما يُزَيِّن تَقْلِيدَهُ الأعْمَىٰ في شركِيَّاته، ومعلومٌ أنّ ضيق الصَّدْرِ يُوَلّد غضباً، ومَعَ الْغَضَب تَصْدُرُ عبارات التهديد، الَّتي قدْ تَصِلُ إلى التَّهْدِيدِ بالْقَتْل.

ويظهر أنَّهُ لمَّا سَكَتَ غَضَبُه تراجَعَ عن التهديد بالرَّجْم، وطلب من ابْنِه إبراهيم عليه السَّلام أن يهْجُرَهُ مُدَّةً طويلَةً من الزّمن، فقَالَ له: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

الْمَلِيُّ: المدَّةُ الطويلة من الزّمن.

ويظهر أن إبراهيم عليه السّلام استشْعَرَ مِنْ قَوْلِ أبيه لَهُ: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ وعْداً ضِمنيًا بأن يُراجع نفسه، ويتفكّر في الأمر، ويتّخذ تدابير

يتخلَّصُ بها من ضَغْط بيئته الاجتماعيَّة، فوعَدَهُ بأنْ يسْتَغفِرَ لَهُ رَبَّه، وقالَ له: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾:

أي: إنَّ رَبّي كَانَ بِي لطيفاً مُكْرِماً ذَا عِنايَةٍ بي، فأرجو أن يستجيب لي إذا دَعَوْتُهُ طالباً منه أنْ يغفر لك.

التدبر:

قول الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾:

أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أيًا كنْتَ، خَبَراً مُنَزَّلاً في الكتاب (=القرآن الكريم) فاحفظْهُ، وتدَبَّرْه، واستذكره عند المناسبات الدّاعيات، لتَنْتَفِعَ به.

اذْكُرْ نبيَّ اللَّهِ وَرَسُولَهُ إبراهيمَ عليه السّلام، في صفاته الذَّاتيَّة، وفي أخْبارِ دَعْوَتِه، الّتي يجبُ أنْ يَتَأَسّىٰ بها الدُّعاةُ إلىٰ الله.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾:

صِدّيق: على وزْنِ «فِعّيل» وهو من صيَغ المبالغة والتكثير، وله في العربية نظَائر مسْمُوعَةٌ لَا يُقَاسُ عليها، منها: «خِرِّيت» وهو ذو الحذْقِ بالطُّرُقِ والْمَسَالِك، ومنها: «ضِلّيل» وهو كَثِيرُ الضَّلَالِ والتضليل.

الصّدّيق: هو عظيم الصّدْقِ في أقواله، وعظيم الصِّدْقِ في أفعاله، وأعماله، فلا يُنَافِقُ بها ولا يُرَائي.

الصّدْق في الأعْمَال الدّينيَّة أَنْ تكُونَ خالصَةً لله عزَّ وجلّ.

ويَأْتِي الصّدِّيقُ بمعْنَىٰ كثير التصْدِيقِ بما يأتي من بيانَاتِ عن الْوَحْي الصادق، فلا يَشُكُّ في شيءٍ منها، مهْمَا كانَ غريباً عجيباً، إذا كان من الممكنات العقليّة.

ولهذا وُصِفَ أبو بكر رضي الله عنه بأنَّه صِدّيق.

وإبراهيم عليه السّلام قد كان صِدِّيقاً بكلّ معاني الكلمة، فقَدْ كان عليه السّلام كثير الصّدْقِ في أقواله وأعماله، وَكان كَثِير التَّصْدِيق عن الله، حتَّىٰ مَا يَراه في المنام، ومنْهُ تَكليفهُ في الرُّؤيَا أن يَذْبَحَ وَلَدَهُ إسماعيل عليهما السلام، فصَدَّق وباشر التنفيذ، إلّا أنّ الله عزّ وجلّ فدَىٰ إسماعيل بذِبْحٍ عظيم.

﴿نَبِيًّا﴾: النبيُّ، عبْدٌ اصطفاه اللَّهُ بالوحي إليه.

النُّبُوَّة: هي في اللُّغَةِ مأخوذَةٌ من النَّبَأ، وهو الخبر، أو مِنَ «النَّبْوَة» وهي ما ارتفع من الأرض.

والنُّبُوَّة: هي في الاصطلاح الشرعي، اصطفاء الله عبداً من عباده بالْوَحْي إليه.

وبين هذا المعنىٰ الشرْعي، وبين المعنى اللُّغَويّ، مناسَبَةٌ ظاهرة، مع كُلٍّ من مَعْنيَي النُّبوة في اللُّغة: الخبر، والارْتفاع.

وصيغَةُ نبيّ «فَعِيل» تأتي بمعنى اسم الفاعل «مُنْبئ» أو «مُنَبِّئ» وتأْتي بمعنَىٰ اسم المفعول «مُنبَّأ» أي: هو مُنَبَّأٌ مِنْ قِبَلِ الْوَحْيِ.

- فعلَىٰ تقدير أنَّ هذه الصيغة هي بمعنى اسم الفاعل، فهي على معنىٰ، أنَّ النبيَّ مُخبرٌ بما يتَلَقَّاهُ مِنَ الوحي عن الله عزّ وجلّ، أو أنَّ النبيَّ مُرْتَفِعٌ عَنْ غَيْرِه، بسَبَبِ اصطفاء الله له بالوحي.

- وعلى تقدير أنَّ هذه الصيغة هي بمعنى اسم المفعول، فهي علىٰ معنىٰ: أنَّ النبيَّ مُنَبَّأٌ ببيَانَاتٍ وأخبارٍ ومُغَيَّبَات يُنَبِّئُهُ بها الوحي عن الله عزّ وجلّ، أو أنّ النبيَّ مَرْفوعٌ على غيره من غير الأنبياء، بسَبَبِ الاصطفاء بالوحي.

فإبراهيم عليه السَّلامُ قَدْ كانَ صِدِّيقاً، وقَدْ كانَ نبيّاً، وقد جاء إثباتُ رِسَالَتِه بلَفْظٍ صريح في نصٍّ آخر. أمّا في هذا النصّ من سورة (مريم) فتُفْهَمُ رِسَالَتُه باللُّزوم العقْلِيّ، إذْ دلّ عليها قيامُه بواجِب الدَّعْوَةِ إلى الله.

قول الله تعالى:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾: أي: واذْكُرْ في الكتاب قصّة إبراهيم حينَ قال لِأَبيه. . . .

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: لَقَدْ تَلَطَّفَ إبراهيم عليه السّلام مع أبيه، فخاطبَهُ بتَذَلُّلٍ وخُضوع وإشعارٍ بارْتفاع منزلة أبيه بالأبوة، فناداه بأداة النّداء الموضوعَةِ للْبَعِيد، ووضع بدَل يَاء المتكلّم تَاءَ التأنيث، الَّتي يَسْتَعْطِفُ بها رِقَّتَهُ الَّتِي يُشَارِكُ الأُمَّ بها، فَكَأَنَّهُ قال له: يَا أَبِي الَّذِي هُوَ مِثْلُ أُمِّي في الشفقَةِ عَلَيَّ والرَّحْمَةِ بي، إنَّ مِن البرِّ بِكَ، أنْ أنْصَحَكَ، وأدُلَّكَ على الحقِّ وصِرَاطِ الْهُدَىٰ، وأُحَذِّرَكَ مِنْ عذابِ الله.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾:

بدأ إبراهيم عليه السَّلام نُصْحَهُ لأبيه بِطَرْحِ سُؤَالٍ لَا بُدَّ أنْ يَطْرَحَهُ على نفْسِهِ كُلُّ مَنْ يمارِسُ عمَلاً من الأعمال، ولَا بُدَّ أنْ يطْرَحَهُ الدَّاعي الحكيم علىٰ من يمارِسُ عملاً بَاطلاً، أوْ فاسداً لَا يَرْضاه منْهُ، ويَجِدُهُ في عَمَلِه مُنْحَدِراً إلى تَهْلُكَتِهِ وشقائه وعذابه.

سُؤالٌ فيه معنى الاستفسار، وفيه معنى الاستنكار، وفيه معنى التعجُّب.

أي: يَا أَبَتِ، هَلْ لَكَ مَقْصِدٌ يَتَحَقَّقُ لَكَ، بعبادتِكَ أوثاناً جامدةً، لا تَسْمَعُ دُعاءك، ولا تُبصر ذاتك، ولا تَنْفَعُك بنافعة، ولَا تَصْرِفُ عنْكَ شيئاً ممَّا تكْرَه.

﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا﴾: أصل معنى «أغناه» كفاه. والكفايَةُ عند الحاجَةِ إلى ما يَدْفَعُ المكْرُوهَ، تتضمَّنُ معنى الكَفّ والصَّرْف، فمعنى: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا﴾: وَلَا يَكُفُّ عَنْكَ ولا يَصْرِف عنْكَ شيئاً ممَّا تكرَهُ. فَعُدّي فِعْلُ «يُغْنِي» تَعْدِية فعل: «يَكُفُّ أو يَصْرِفُ» وفْقَ قاعدة التضمين، الّتي هي إحدى أساليب التعبير القرآنيّة الإبداعيَّةِ الإيجازيَّة.

فالمعنى: لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَكْفِيكَ بشيءٍ، ولا يَصْرِفُ عنْكَ شَيْئاً تَكْرَهُه. أو لم تَعْبُد ما لَا يكْفِيكَ بشيءٍ صارفاً عنْكَ شيئاً ممّا تكْرَه.

وهذا السؤال لا يُمْكِنُ أن يجيب عليه عاقلٌ إجابة صحيحة إلَّا بأنْ يقول: وجَدْتُ قَوْمي وآباءهم يَعْبُدونَ هذه الآلِهَةَ مِنَ الأوثان فَعَبَدْتُهَا، وأسْتَبْعِدُ أنَّهم كانوا على ضلالَة.

ولم يأتِ في النصّ ما يَدُلُّ على أَنَّ أبَاهُ وجَدَ جواباً على هٰذا السؤال الاستفساريّ المتضمِّن معنى التعجُّب والاستنكار.

ولهذا انْتَقَلَ إبراهيم عليه السّلام إلى اتّخاذ وسيلَة إقناعِ أبيه بالحقّ الذي يَدْعُوه إلَيه، بَعْدَ أنْ أحْرَجَهُ بالسؤال السّابق الذي لم يسْتَطِع أنْ يجيبَ عليه، فقال له:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾:

كرَّرَ استعطافَهُ لأَبيه بقوله له: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾. وأكَّدَ لَهُ أَنَّه قَدْ جاءه من الْعِلْمِ الّذي يَسْعَىٰ إليه العقلاء الرَّاشِدُون، ما لَيْسَ عند أبيه منه.

وهُنَا لَا بُدَّ أَنْ تَجْرِي مُحادَثَةٌ بَيْنَهما، يُثْبِتُ فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام لأبيه الْعِلْمَ الَّذِي جاءه، بشأن الرُّبوبيَّةِ والإلَٰهيَّة، وحقِّ الله الرَّبّ على عباده، في أن يَعْبُدُوهُ ولَا يُشْرِكُوا بعبادته شيْئاً، وأنَّ مَنِ اتَّخَذَ آلِهَةً من دون الله، جَعَلَهُ الله عزّ وجلَّ من الخالدين يوم الدّين في عذاب النّار وبئس المصير.

ولا بُدَّ أن يكون إبراهيم عليه السَّلامُ قَدْ أبان لأبيه أركان الإيمان بالحجَّةِ والبرهان.

ومن الْواضِحِ أَنْ لَا يَجِدَ الأَبُ كلاماً يَصِحُّ في العقول، ينْقُضُ به أدِلَّة الابْنِ إبراهيم عليه السّلام، بشَأْن أركان العقيدة الإيمانية، وأُسُسِها الْعَقْلِيَّة، وجُذُورِها الوِجْدَانيَّة.

وبانقطاع الأب، وعَجْزِه عن متابَعَةِ المناظَرَةِ المنطقيَّةِ المقبولة في العقول السليمة، وجَدَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّ من المناسب عنْدَ هٰذا الموقف الْحَرِجِ على أبيه أن يفتح له مَخْرَجاً فقال له:

﴿... فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: إنّ القاعِدَة الإيمانيَّة مُلْزِمَةٌ لكُلّ ذي عقْلٍ سَوِيّ بالإيمان بها، وبناءً علىٰ القاعِدَةِ الإيمانيَّةِ يَأْتي السُّلُوكُ الظَّاهِرُ والباطن، فانْطِلَاقاً مِنَ الحقّ الّذِي تَأَلَّفَتْ مِنْهُ أَرْكَانُ الْقَاعِدَة الإيمانية، لا يكُونُ السُّلُوكُ الَّذِي توجِبُه هٰذهِ الأركان إلّا على صِراطٍ سويّ.

إنَّ مَنْ آمَنَ بأنَّ الرَّبَّ المهيْمَنِ على الكَوْن كُلِّه هو واحِدٌ لا شَرِيكَ لَه، وأنَّهُ خَلَقَ النَّاسَ لِيَمْتَحِنَهُم في ظُروفِ هٰذِهِ الحياة الدُّنْيا، ثُمَّ لِيُحاسِبَهم، ويَفْصِل القضاء بشأنهم في ظروف حياة أخرى، وأنَّ حقّ رُبُوبيّته لَهُم أنْ يعبُدوه، ولَا يُشْرِكوا بعبادتِه شيْئاً، وأنَّ عبادَتَهُ تكُونُ بطاعَتِهِ والْعَمَلِ بمراضيه، والتقرُّب إلَيْهِ بمَحَابِّه من عباده، فَلَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ هٰذا هو الصراط المستقيم السَّوِيّ.

الصّراطِ: هو الطريق الواضِحُ الميسَّرُ السَّهْل، الّذي لا توجَدُ فيه عقباتٌ وَلَا عَرَاقيل ولا موانع.

السَّوِيّ: هو المستوي المعتدل، الَّذِي لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف، ولَا مُرْتَفَعاتٍ وَلَا منخفضات.

وقد جاء في نُصوص القرآن والسُّنَّة، إطلاقُ لفظ «الصراط» علَى الشرائع والأحكام، والنصائح والوصايَا، وسائر البيانات والتعليمات الدّينيَّة، المتَعلّقة بسُلُوك العباد الظاهر والباطِن في الحياةِ الدُّنيا، عبادَةً لربِّهم، على سبيل الاستعارة القائمة على تشبيه البرنامج الاعتقاديّ والعمليّ الموصل إلى السَّعادة الَّتي هي أجَلُّ مقاصِد أولي الألباب، بالصراط الموصِل إلى الغاية المطلوبَةِ للسَّالِكين في أسفارهم، وانتقالاتهم، وارتحالَاتهم.

﴿أَهْدِكَ﴾: يُقَالُ لغة: هَدَاهُ الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ إليه، أي: بَيَّنَهُ وأوضَحَهُ لَه، وأرْشَدَهُ إليه، وأعْلَمَهُ به.

ولمَّا كانت الهِدَايةُ إلى الصراط السّويّ، لا تتحقَّقُ إلّا باجتِناب سُبُلِ الضَّلَال، ولمَّا كانَ السَّيْرُ في سبُلِ الضَّلالِ هو من طاعَةِ الشيطان الذي صمَّمَ وتَعَهَّد، أن يَبْذُلَ كُلَّ ما في وُسْعِهِ، حتَّىٰ يُبْعِدَ آدم وَذُرّياته عن الصراط المستقيم، ويَجْعَلَهُمْ يسْلكُونَ السُّبُلَ المضَلِّلَةَ الّتي تَنْتَهِي بهم إلى عذَابِ الجحيم، مُتَّبِعِينَ خطواته، وكانَتْ هٰذهِ الطَّاعَة للشيطان من العبادة المناقضَةِ لعِبَادة الله، قالَ إبراهيم عليه السَّلامُ لأبيه:

- ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾.

فأبان إبراهيم عليه السّلامُ لأبيه أنّ عبادة الأوثان، هي في الحقيقة عبادةٌ للشيطان الذي أوحى بها، وأمَرَ أوْلِيَاءَهُ مِنَ الإنْسِ بِتَزْيين عبادتها.

وأبان له أنّ الشيطان كَانَ شديد الْعِصْيان للرَّحْمٰن، والتمرُّدِ على أوامِره ونواهيه.

وذكَرَ له من أسماء الله الحسنى في دعوته إياه اسمَهُ الرَّحْمٰن، ليُحَرِّكَ وِجْدانَهُ وعاطفته الخيّرة نحو ربّه، الَّذِي يُمِدُّهُ بالحياة والرِّزْق والصِّحَّةِ، وسائر محابِّهِ من حياته برحْمَتِه، والَّذِي تُرْجَىٰ رَحْمَتُه دَواماً، والَّذِي يَغْفِرُ للتَّائِبِينَ ويَعْفُو عنهم بِرَحْمَته.

العَصِيُّ: هو الشَّدِيد العصيان. يقال لغة: عَصَاهُ مَعْصِيَةً وَعِصْيَاناً، أي: خَرَجَ مِنْ طاعته، وخالَفَ أمْرَه. لفظ «عَصِّي» من صِيَغِ المبالغة.

وقد بدأتْ مَعْصِيَةُ الشَّيْطان إبليس، بإبَائِه أن يَسْجُدَ لآدم طاعَةً لأمْرِ الله، وانْتَهَتْ بِجُحُودِهِ وُجوبَ طاعَةِ رَبِّه، وإنكارِه لإلَهيَّته.

وبَعْدَ هذا الأسْلُوب التنفِيرِيّ من عبادة الشيطان، الَّذي اتَّخَذَهُ إبراهيم عليه السَّلامُ مع أبيه، والشيطان مَخْلُوقٌ مَطْرُودٌ من رَحْمَةِ الله خالِقِه وبارِئه، رأىٰ إبراهيم عليه السَّلامُ أنْ يُحذِّرَ أَبَاهُ من عذابِ الرَّحْمٰن المعَجّل، بسَبب شِرْكه، مع احتفاظِه بالأسلوب الاستعطافيّ الرَّفيق، المشحون بالشفقة عليه، فقال له:

- ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾:

أي: يَا أَبَتِ إنّي أخَافُ من طُولِ إصْرَارِك على الشِّرْك، أنْ يَمَسَّكَ في حياتك الدُّنيا عذاب من الرَّحْمٰن، فَتَكُونَ بذلك من المحكوم عليهم بأنَّهُمْ من أولياء الشيطان وجماعَتِه وحزْبه، الَّذِينَ يمَسُّهم في الدُّنيا قَبْلَ الآخرة عذابٌ عقابيٌّ معجَّل، قَبْلَ العذابِ العقابيّ الأكْبَرِ يوم الدِّين.

ورُبما يجْعَلُه هذا العذاب المعجّل يَلْجَأُ إلى وسائل قومه الشركيّة، فَيَزْدادُ في اتِّباع الشيطان، حتَّىٰ يَكُونَ لَهُ وليًّا حَقًّا.

دلَّ على أنَّ مُرادَهُ العذابُ المعجلُ فِعْل ﴿أَخَافُ﴾ المشْعِرُ بالظّنّ، وفِعْل: ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ دُونَ: أنْ يُنْزِلَ بك، واستعمال اسم الله «الرَّحْمٰن» دون اسْمِه المنتقم الجبار.

ومعلوم أنّ من سُنَّة الله عزّ وجلّ احْتِمالَ تَعْجِيل بَعْضِ عذابه لِبَعْضِ عباده.

قول الله تعالى:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾:

دلَّ هذا الرَّدُّ المعبّر عن حالَةٍ غضبيَّةٍ خرج فيها الأبُ عن مزاجِهِ السَّوِيّ، لأنّ ٱبْنَه إبراهيم عليه السّلام، قد حاصَرَهُ من كلِّ جوانبه الفِكْرِيَّةِ، والْوِجْدانيّة، والعاطفيَّة، والأدبيّة، فوَجَدَ الأبُ نَفْسَهُ مَغْلُوباً، مَهْزُوماً فِكْرِيًّا ونفْسِيًّا.

ولَمَّا كَانَ الأبُ غيرَ مستَعِدٍّ لِنَبْذِ تقاليده الباطلة، لم يَجِدْ وسِيلَةً غَيْرَ التهديدِ بالرَّجم، مستخدماً سلطته الأبويَّة.

لكِنْ لمَّا بَرَدَتْ جَذْوةُ غضَبِه طَلَبَ من ٱبْنِهِ إبراهيم عليه السلام، أنْ يَهْجُرَهُ مُدَّةً طويلَةً، لئلَّا يكُونَ بينهما احتكاك مَا في مسائل الدّين وقضاياه.

- ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أتارِكٌ أَنْتَ آلِهَتِي ومخالفٌ لي في ديني وعبادَتِي؟.

يُقال لُغَةً: رَغِبَ عَنِ الشيءِ، أي: تَرَكَهُ زُهْداً فيه، أو إنكاراً له.

ويقال: رَغِبَ في الشيء، أي: أرادَهُ وحَرِصَ عليه، أو طمِعَ فيه.

كان يَكْفِي أن يقول: «أَرَاغِبٌ عن آلِهَتي يا إبراهيم» من غير أن يُضيفَ إلى العبارة ضمير الفصْل «أنت».

ونَسْتَطِيعُ أنْ نفهم أنَّ هذا الإطنابَ لَهُ غَرَضٌ بلاغيٌّ، وهُوَ إشعار الأب ابْنَهُ إبراهيم، بأنّه من المستغرب منه وهو البارُّ الحَرِيصُ على بِرِّ أبيه، أَنْ يَرْغَبَ عن عبادة آلِهَتِهِ، ويَسْلُكَ سَبيلاً غَيْرَ سبيله.

أي: مِثْلُكَ لَا يَفْعَلُ هذا.

وقال لَهُ: ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾ ولم يَقُلْ له: عن آلهة قَوْمي لِيُؤَكِّدَ لَهُ أنَّ مَنْ

كان مِثْلَهُ في بِرِّهِ لأبيه، لَا يَرْغَبُ عن طريقته، ولا يتَّخِذُ لِنَفْسِه طَرِيقاً آخر.

وكان غضبُ الأب قَدْ بَلَغَ الذِّرْوة، فقال لابْنِه إبراهيم عليه السلام:

- ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾:

اللّام في «لَئِنْ» واقعةٌ في جواب قَسَم محذوف، والتقدير: أُقْسِمُ لئن لم تنْته فتكُفَّ عمّا أنْتَ فيه من مُحَارَبَةٍ لعبادة الأوثان، والدَّعْوَةِ إلى الإيمان بالله وحده، وإلى عبادته وحْدَهُ لَا شريك له، لأرْجُمَنَّكَ.

الرَّجْمُ: هو الرَّمْيُ بالحجارة، يُقالُ: رَجَمَهُ يَرْجُمُهُ رَجماً، أي: رَمَاهُ بالحجارة، سواءٌ أقتلَهُ بها، أمْ لم يَقْتُلْه.

ويظْهَرُ أَنَّهُ بَعْدَ هذا التهديد بَرَدَ غَضَبُه، وأدْرَكَ أَنَّ ابْنَهُ إبراهيم لَنْ ينْتَهِيَ عمَّا نَهَاهُ عنه، فأتْبَعَ كلامه بقوله:

﴿... وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾:

أي: واهجُرْني مبتعِداً عَنِّي زمناً طويلاً.

الْمَلِيُّ: هو في اللُّغَة الزمان الطويل.

وشعر إبراهيم علَيْه السَّلامُ بتَنَازُلِ حِدَّةِ غضَب أَبِيه، وظنَّ أنّه إذا استجاب لطَلَبه فهَجَره مُدَّةً طويلَةً من الزمان، تراجَعَ عن إصراره وعناده، وصَار أطْوَعَ وأَلْيَنَ وأكْثَرَ تَقَبُّلاً للحقّ، فقال لأبيه مَا جاء في البيان القرآني التالي:

- ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾:

في هاتين الآيَتَيْنِ بيانُ أرْبَعِ قضايا وَجَدَها إبراهيم علَيْهِ السَّلامُ مُلائمةً وحكيمةً في هذا الموقف:

القضيَّةُ الأُولَىٰ: قول إبراهيم عليه السَّلام لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾:

في هٰذه العبارة تكريمٌ من الابْنِ النبيّ الرَّسُول لأبيه الكافر المشركِ الوثنيّ، بتَحيَّةِ وداعٍ فيها غاية الاحترام والتَّلَطُّف، وهٰذا من المصاحَبَةِ بالمعروف، ومن الحكمة في أساليب معامَلَة الدَّاعي للمدْعُوّ.

وَالأدنَىٰ من عبارة «سَلامٌ عَلَيْكَ» عبارة «سَلاماً» فالمفارقة بعبارة «سَلاماً» أسلوبٌ علّمه الله عزّ وجلّ لعباد الرَّحْمٰن حين يفارقون الَّذِين يخاطِبُونَهُمْ بجهالَة من الجَاهِلينَ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾:

ولعلماء البلاغة تَحْلِيلٌ دقيقٌ في بيان أنَّ عبارة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أحْسَنُ من عبارة «سَلاماً» وأرْقَىٰ دَرَجَةً. وهذا التحليل يَعْتَمِدُ على أنَّ الجملة الإسمية آكَدُ من الجملة الفعلية، لأن الجملة الفعلية فيها إسناد الفعل إلى الفاعل مَرَّة واحدةً، أمّا الجملة الإسمية ففيها إسناد الخبر إلى المبتدأ مَرَّتَيْن، **الأولى**: إسناده إلى المبتدأ الظاهر، **والثانية**: إسنادهُ إلى ضَمِير المبتدأ المطويّ في الخبر، لأنّ قولَنا مثلاً: قَامَ زَيْدٌ، لَيْسَ فيه إسناد القيام إلى زيد إلّا مَرَّةً واحدة، أما قولنا: زَيْدٌ قَائم، ففيه إسنادان: إسناد «قائم» إلىٰ زَيْد، وإسنادُه إلَىٰ ضمير زَيْدٍ المستتر في قائم، أي: زَيْدٌ قَائِمٌ هو.

القضيّة الثانية: قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾:

في هٰذه العبارة وَعْدٌ من إبراهيم علَيْهِ السَّلام لأَبِيهِ بأَنْ يَسْأَلَ الله رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ له.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾: أيْ: إنَّ رَبّي كان لطيفاً بي مكرماً لي، ذَا عِنَايَةٍ عظيمةٍ بتحقيقِ مطالبي، والإحْسَانِ إليّ.

الحفيُّ بِكَ: هو في اللُّغَة اللّطِيفُ بك، الّذِي يَبَرُّكَ ويُكْرِمُكَ ويُحْسِنُ إليك، ويَعْتَنِي بك.

وقَدْ وَفَّىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بوَعْدِهِ لأبيه، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، إذْ كان يَرْجو أن يَلِينَ قَلْبُهُ، ويَنْبذَ الشِّرْكَ، ويُؤْمِنَ بالدّينِ الحقّ.

فلمّا تبيَّنَ لَهُ أنَّ أَبَاهُ مُقيمٌ على كُفْرِهِ بإصْرَارٍ وعِنَادٍ، وأنَّهُ عَدُوٌّ للّهِ تبرّأ مِنْه، إذْ لا يَجُوزُ للنَّبِيّ ولا للمؤمنين بالله إيماناً صحيحاً أَنْ يَسْتَغْفِرُوا للمشرِكين ولو كانُوا أولي قربَىٰ، إذا تبيَّنُوا أنَّهم بِعَدْلِ الله من أصحاب الجحيم، لأنّهم يَسْأَلُون الله باستغفارهم لهم أمراً قَضَىٰ اللَّهُ فيه قضاءً مُبْرماً بأنْ لا يَسْتَجِيبَ لِمَنْ دَعَاهُ به.

وفي اسْتغفار إبراهيم عليه السّلام لأبيه، قال الله عزّ وجلّ في سورة التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

أوّاه: كثير الحزْن، كثير الدُّعاء، رَحِيمٌ، رقيقُ الْقَلْب، كثير التضرُّع إلى الله، مع يَقِينِهِ بأنَّ اللَّهَ لَا يُخَيِّبُه.

القضِيّة الثالثة: قول إبراهيم عليه السّلام لأبيه، وللذين مَعَهُ من أسْرَته الملازمين لشِرْكِهِمْ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

أي: ما دُمْتُمْ ملازِمينَ شِرْكَكُمْ بِعِنَادٍ وَإِصْرَارٍ على الباطل، ولَمْ تَعْبَؤُا بما أَنْذَرْتُكُمْ به من عذاب الله للكافرين، فإنّ المنْهجَ الدَّعوِيَّ يَقْتَضِي مِنّي أَنْ أعْتَزِلَكُمْ، وأعْتَزِلَ مُشَاهَدَةَ مَا تَدْعُونَ من دُون اللَّهِ منْ أَوْثَانٍ أنْتُمْ تَصْنَعُونها بأيْدِيكم.

أعْتَزِلكُم: أي: أَبْتَعِدُ عَنْكُمْ وَأَتَنَحَّىٰ، يُقالُ لغة: اعْتَزَلَ فلانٌ الشيْءَ، واعْتَزَلَ عنه، أي: ابْتَعَدَ عنه، وتنحّىٰ إلى ناحيَةٍ غَيْرِ نَاحِيَته.

﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾: أي: وَمَا تَعْبُدونَ من أَوْثَانٍ بالدُّعاء، وبتَقْدِيم القرابين والنُّذور، وبالتَّمَسُّحِ بها، والطَّوَافِ حَوْلها، والسُّجود والرُّكوعِ لها، ونحو ذلك.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من أشياءَ غَيْرِ الله، هي بطَبيعَتِها تقَعُ دُونَه، في مقابل اتّصَافه ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطَانه ـ بالفوقيَّةِ المطْلَقَةَ، والْعُلُوِّ الذي لا يُسَاوِيه ولا يُدَانِيه علوّ.

القضيَّةُ الرَّابعة: قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾:

أي: إنَّنِي حينَ أعْتَزِلُكُمْ سَأُتَابِعُ مَعَ غَيْرِكُمْ في أيّ موقعٍ أكونُ فيه عبادةَ رَبّي، بالدَّعْوَةِ إلى دينِه الحقّ، ومُقاومَةِ كُلِّ بَاطلٍ وكُفْرٍ وضَلَالٍ عن سبيل الهدىٰ والرَّشاد.

فعلُ «أدْعُو» أصْلُه النداء، أي: أُنادِي، ثُمَّ صار بمعنَىٰ سؤال الله، ولـمَّا كان دُعاءُ الله، من أعْظَم عناصر عبادته، صَار يُطْلَقُ الدُّعاء على العبادة، ولـمَّا كانت دَعْوَةُ الدّاعي إلى دِينِ اللَّهِ مِنْ أعظم عباداته لرَبّه، صارَ يُطْلَقُ الدُّعاء ويرادُ به الدَّعْوَة إلى دين الله وصراطه المستقيم.

ودلَّ على أنَّ هذا المعنى هو المراد بقوله: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ قَوْلُهُ بَعْدَهُ مُتَرَجّياً: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾: أَيْ: عَسَىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِي مستجيبُونَ من الَّذِينَ أدعُوهم، وعسَىٰ ألَّا أكُونَ خائِباً في دَعْوَتي، فلا يَسْتَجِيبَ لي أحَدٌ، فَأَحْمِلَ في نَفْسِي، آلامَ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ أَحدٍ لي، وَهٰذَا مِمَّا يُؤلِمُنِي، ويُشْقِينِي، وَيُعَذِّبُنِي في داخِلِ نَفْسِي.

﴿شَقِيًّا﴾: يُطْلَقُ الشَّقَاءُ لُغَةً على كُلّ مَا لَا يَسُرُّ الإنْسَانَ من أمور، وعلى كُلِّ مَا يُخَالِفُ رَغْبَتَهُ ومَطْلُوبَه، في عاجلِ أمْرِه أوْ آجله، من أدْنَىٰ المزْعِجَات، إلى أشدّ المؤلمات، حتَّىٰ العذاب الأبَدِيّ الْخَالِدِ في جهَنَّم.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

تمهيد:

ذكر المؤرّخُونَ أنّ إبراهيم عليه السّلام لمَّا اعْتَزَلَ عَشِيرتَهُ وقومه، انتقل إلى «أُور الكَلْدَانِيّين» وهي مدينَةٌ كانت قُرْبَ الشَّاطِئ الْغَرْبيّ للفرات، وكَان معَهُ في رِحْلَتِه زَوْجَتُهُ «سَارَة» وكانَتْ قد آمَنَتْ به، وابْن أخيه «لُوط بْنُ هَارَان بْنِ آزَر» وكانَ قد آمَنَ به واتَّبعه، وهاجَرَ مَعَهُ جماعَةٌ من قَوْمِه الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وهاجَرَ معه أيضاً أبُوهُ «آزَر» دُونَ أَنْ يُؤْمِنَ به.

وجاء في سفر «التكوين» من العهد القديم عند الإسرائيليين في الإصحاح «الحادي عشر» أنَّ «أُور الْكَلْدانِيّين» هي مَسْقَطُ رأس إبراهيم عليه السلام، فهِي المدينَةُ الَّتي وُلِدَ وَنَشَأَ فيها.

وجاء في «قاموس الكتاب المقدّس» أنَّ مكان «أُور الْيَوم خرائب، تُدْعَىٰ «المغَبَّر» وهي تقع في منتصف المسافة بَيْنَ بغداد والخليج العربي وعلى مسافة (١٠) أميال شَرْقي مجْرَىٰ نَهر الفرات في الزّمَن الحاضر.

قالوا: وقد احْتَلَّ المدينَةَ السُّومَرِيُّون، والْعِيلَامِيُّونَ، والْبَابِلِيُّونَ، والكَلْدَانيُّونَ على التوالي.

وذَكَرُوا أنَّ الكُشُوف الحديثَة قَدْ أثْبَتَتْ أنّ مَدِينة «أُور» كانت موجودَةً قبل عصْرِ إبراهيم عليه السَّلام بنَحْو ألْفِ عام، وأنَّها قد كَانَتْ في ذَلِكَ الزّمَنِ السَّحِيق مَرْكزاً لِمَدَنيَّةٍ رَاقية.

قال المؤرّخون: وقد أقام بعْدَ اعتزاله عشيرته وقَوْمَهُ في «أُور الكلْدَانيّين» حِقْبَةً من الزّمن، ثمّ رحل إلى «حَاران» أو «حَرَّان».

حاران: مَدِينة بيْنَ النَّهْرَيْنِ، على نَهْرِ «بَلِيخ» وهو فرعٌ للفرات، وتقع على مسافة (٢٨٠) ميلاً إلى الشمال الشرقيّ من «دِمَشق».

قالُوا: وكانت هٰذه المدينة مَرْكزاً تجاريّاً، لكَوْنِهَا على أحد الطُّرُق الرَّئيسة بين «بابل» و«الْبَحْر المتوسّط».. وهٰذه المدينة هي الآن قريةٌ صغيرةٌ تُعْرَفُ باسْم «حَرَّان».

قال المؤرّخون: ثم رَحَلَ إلى أَرْض الكَنْعَانِيّين (وهي أَرْضُ فِلِسْطِين) وأقام في «شَكِيم» وهي مَدِينة «نابلس» المعروفة اليوم.

قال المؤرّخون: ومن رِحْلاتِ إبراهيم عليه السلام، رِحْلَتُه إلى مصر، وكان ذَلِكَ في عَهْدِ مُلُوكِ الرُّعاة، وهُمُ الْعَماليق، ويُسمِّيهم الرُّومان «هِكْسُوس».

واسْم فرعون مصر أيام رحلة إبراهيم علَيْه السَّلام إليها «سِنَانُ بْنُ عُلْوان» وقيل: «طُوليس».

وكانت «سارة» امْرَأَة جَمِيلَةً حَسْناء، وكان من عادة الجبابرة الملُوك، أنَّهُمْ إذا رَأَوْا أَوْ عَلِمُوا بامْرَأة حَسْناء صادَرُوها، وقَتَلُوا زَوْجها إذا كانت ذاتَ زَوْجَ، واسْتَأْثَرُوا بها لأنفسهم.

فعزَمَ إبراهيم عليه السَّلام في نفسه أنَّه إذا حَدَث لزَوْجَتِهِ «سارَة» شيءٌ من ذَلِكَ أنْ يَقُولَ إذا سُئِلَ عَنْهَا هي أخْتِي، قاصِداً أنها أُخْتُه في الإسلام⁽¹⁾.

وأوصى إبراهيم عليه السلام زَوْجَتَه «سَارَة» بأن تقول عن إبراهيم هو

---

(١) جاء في «قاموس الكتاب المقدس» أنّ سارة كانت أخته أيضاً في الواقع، إذْ كان الزواجُ من الأخوات جائزاً بحَسب الشرائع القديمة ولو كان الأمرُ كما ذَكَرُوا لم يكُنْ قوله: «أختي» إحدى كذباته التي يَعُدُّها على نفسه.

أخي، قاصدَةً أنَّه أخُوها في الإسلام، إذا أرادهَا لنفسه أحَدُ الجبّارين، صيانَة لإبْراهيم من أن يَعْزِمِ الجبَّارُ على قَتْلِه، لِيَسْتَأْثِر بزوجته «سارة» كعادة جبابرة عَصْرِهِمْ.

رَوى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن أبي هريرة قال: قال رَسُول الله ﷺ:

لَمْ يَكْذِبْ إبْراهِيمُ إلّا ثَلَاثَ كَذْبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ في ذَاتِ اللَّهِ: قولُه: «إِنِّي سَقِيم» وقولُه: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذا».

وقال: (بَيْنَا وَهُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وسَارَة، إذْ أتَىٰ على جَبَّارٍ من الجبابرة، فقِيلَ له: إنَّ هٰهُنَا رَجُلاً مَعَهُ امرأَةٌ من أحْسَنِ الناس، فأرْسَلَ إلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عنهَا: مَنْ هٰذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فأتَىٰ «سَارَة» فقالَ لَهَا: إنَّ هٰذا الجبّار، إنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأتي يَغْلِبُنِي عَلَيْكِ، فإنْ سألَكِ فَأَخْبِرِيهِ أنَّكِ أختِي، فإنَّكِ أُخْتِي في الإسلام، لَيْسَ على وَجْهِ الْأَرْض مؤمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُك.

فأرْسَلَ إلَيْهَا، فأُتِي بها، وقَامَ إبْرَاهِيمُ يُصَلِّي، فلَمَّا دَخلَتْ عَلَيْهِ، ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِه، فَأُخِذَ حَتَّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِه، فقال: ادْعِي اللَّهَ لي ولا أضُرُّكِ، فَدَعَتِ الله فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تناوَلَها الثَّانِيَة، فَأُخِذَ مِثْلَها أَوْ أَشَدَّ، فقالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أضُرُّك، فَدَعَتِ اللَّهَ فَأُطْلِقَ. فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَالَ: إنَّكَ لم تَأْتِنِي بإنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بشَيْطَان، فَأَخدَمَها «هاجر». فأتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فأوْمأ بِيَدِهِ «مَهْيَمْ؟» (أَيْ: مَا حَالُكِ؟ مَا شَأْنُكِ؟» قالت: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ في نَحْرِه، وأَخْدَمَ «هَاجر»).

قال أبو هريرة: «تِلْكَ أُمُّكُمْ يا بَنِي مَاءِ السَّمَاء» أي: هي أُمُّ إسْماعيل بْنِ إبراهيم عليهما السّلام.

قال المؤرخون: وقد وهب فرعون «سارة» بَعْدَ أن عَصَمها اللَّهُ منه استجابَةً لدُعاء إبراهيم، جاريةً من جوارِيه اسْمُها «هاجر».

وكانت «سارَة» في سِنّ اليأسِ من الإنجاب، إذْ كانَ عَمْرُها يومَئِذٍ

(٧٥) سنة، على أنّها كانت في شبابها عاقراً، فوهَبَتْ خادمتها «هاجر» لزَوْجها إبراهيم، لعلَّ الله يَرْزُقُهُ منها بولَد.

فولَدَت «هاجَرُ» لإبراهيم إسماعيل عليهما السّلام، وكان عُمْرُ إبراهيم سِتًّا وثَمَانِينَ سنة.

وسافر إبراهيم بأمّ إسماعيل وَوَلَدِها منه إلى وادي مكَّة، وتَرَكَهُمَا عِنْدَ مكان بيت اللَّهِ الحرام، بأمْرٍ من الله، في قِصَّةٍ جاءت في الصحيح عن الرَّسُول ﷺ.

وعادَ إلى أَرْض الكَنْعَانِيِّين.

ولمّا بَلَغَتْ «سَارَةُ» من الْعُمْر (٨٩) سنة، وبلغ إبراهيم عليه السَّلام من عُمْره (١٠٠) سنَة، بَشَّرَهُما اللَّهُ عزّ وجلّ بولَدٍ منهما، هو «إسْحَاق» عليه السّلام، بخبَرٍ تَلَقَّيَاهُ من الرُّسلِ من الملائكة الّذِين زَارُوه قَبْلَ أَنْ يَذْهَبُوا إلَىٰ قَوْمِ «لُوطٍ» لإهْلاكِهِمْ، وقَلْبِ قُراهُمْ عَالِيهَا سَافِلَها.

فوهَبَهُ الله عزّ وجلّ من زَوْجَتِه «سَارَةَ» ولَداً سمَّاه إسحاق، وكبِرَ إسْحَاقُ، وتَزَوَّجَ وأَنْجَبَ وَلَدين: «عِيصو» و«يَعْقُوب».

التدبّر:

- ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

أي: فلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ، واعْتَزَلَ عن مُشَاهَدَةِ ما يَعْبُدُ قَوْمُهُ من أوثانٍ وَخُرَافاتٍ، في الْهِجْرَاتِ الّتي سبَقَ بيانُها في التمهيد.

- ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

إسْحَاق: هو ابْنُ إبراهيم عليه السّلام من زوجته «سَارَة» وهو الولَدُ الثاني لإبراهيم، إذ كان قد وهبه الله «إسماعيل» من «هاجَر» المصريّة، الّتي سبَقَ بيانُ قِصَّتِها في التمهيد، وكان ابْنُهُ «إسماعيل» غُلَاماً يافعاً يضربُ بالسّهام، حِينَ وُلِدَ إسْحَاق.

يعقوب: هو ٱبْنُ إسْحَاقَ بن إبراهيم عليهم السلام، فهو حفيد إبراهيم وزوجتِه «سارة».

﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء حرف عطف. «لمَّا» ظَرْفُ زمانٍ بمعنى الحِين، وهو يدخل على الفعل الماضي.

وهنا يَرِدُ سؤال: ما الحكْمَة من استعمال حرف العطف «الفاء» هنا الذي يَدُلُّ على التعقيب، مع وجود الفاصل الزمَنِيّ الطويل بَيْنَ هجْرَة إبراهيم عليه السَّلام إلى «أُور الكَلْدَانيّين» ثم إلى «حاران» ثم إلى «شَكيم = نابلس» حتّىٰ اسْتَقَرَّ بعد ذلك في المكان الذي توطَّنَهُ من فلسطين، وبَعْدَ ذلِكَ جاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ بهِبَةِ ولَدٍ له من زَوْجته «سارة».

وكان مقتضىٰ الظاهر أن يكونَ البيان: واعْتَزَلَهم، ثُمَّ وهبنا له إسْحَاقَ ويَعْقُوبَ.

ويظْهرُ لي في جواب هذا السؤال: أنَّهُ قَدْ جاء في النَّصّ: فلمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّه، أمَّا اعْتزالُه قَوْمَهُ فقد حَصَلَ مُنْذُ هاجَر إلى: «أُور الْكَلْدانِيِين» لكنّه بهٰذِهِ الهجرة لم يَعْتَزِل ما يَعْبُدون من دون الله إذْ كانَ أهْل «أُور» يَعْبُدُونَ أوثاناً كما يَعْبُد قومُه الذين اعْتَزلهم، فلمَّا لم تُؤثّر فيهم دَعْوَتُه، هاجَرَ إلى «حَارَان» فوَجَدَهم كذلِكَ عُبَّادَ أوثان، ولمّا لم يسْتَجيبوا لدعوته اعْتَزَلَهُمْ وَهاجَرَ إلى «شَكِيم = نابلس» من أرض الكنْعَانيّين في فلسطين، فوجدهم كذلك عبّاد أوثان، ولم يسْتطع في كُلّ هجراته أن يَعْتَزِلَ مُشَاهدةَ عِبَادَةِ الأوْثان، حتى إذا استقرَّ في أرضٍ من أرض فِلِسطِينَ، لا يُشَاهِدُ فيها عبادة الأوثان وَهبَه الله إسحاق، وقد كانت هذه الهِبَةِ عَقِبَ اعْتِزَالِهِ مَا يَعْبُدُ الناس في هذه البلاد من دُون الله.

فكان وُجُود «الفاء» في النصّ مناسباً للدّلاَلَةِ على اعْتزاله الأمْرَين معاً، قومَهُ، ومَا يَعْبُدونَ من دون الله.

- ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾: وكُلًّا من إسحاق ويعْقوبَ قد جَعَلْناه بالوحي إليه نَبيًّا، إذْ وَجَدْنَاهُ أَهْلاً لاصطفائه بالنبّوة.

ثم جَعَلَهُما الله رَسُولين، بدلالة نصوص أخرى.

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾: أي: وَوَهَبْنَا لإبراهيم وإسحاق ويعقوبَ من رَحْمَتِنَا خيراً كثيراً، ومجداً عظيماً، غير الاصطفاء بالنبوّة والرّسالة، وهذا يتناسب مع عظمة وجلال الرُّبوبيَّة اللَّذَيْن دَلَّ عليهما ضمير المتكلّم العظيم.

- ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ⑤⓪﴾:

أي: وجَعَلْنَا لَهُمْ أَيْضاً في أَلْسِنَةِ فُضَلَاءِ النّاس ثَناءً حَسَناً رَفيعاً فائِقَ الْعُلُوّ.

جاء في هٰذه الجملَةِ التعبيرُ عن الثَّناء الحسَنِ بأنَّه لِسَانُ صِدْق، أي: ثَنَاءٌ باللّسَان الناطق بالصِّدْق لا بالكذب.

وهذا الثناء عليٌّ رَفِيعٌ يُنَاسِبُ ارتفاعَ مَنْزِلَتِهِمْ في الفضائل بين الأنبياء والمرسلين.

وتحتمل العبارة معنى آخر، وهو أنّ الله جعل ألسنتهم تَجْهَرُ بالحقّ صادقين في الدعوة إلى الله.

قال المؤرخون؛ وقَدْ تزوّج إبراهيم عليه السلام بعْدَ وَفَاة «سَارَة» زَوْجَةً اسْمُها «قَطُورة» فولَدَتْ له سِتَّةَ أولاد، وكان عُمْرُه قُرابَةَ (١٤٠) سنة.

قالوا: وقد عاش عليه السّلام (١٧٥) سنة، والله أعلم.

وبهذا انتهى تدبّر الدرس الثالث من دروس سورة (مريم) والحمد لله على معونتهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٥١ ـ ٥٣)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾﴾:

القراءات:

(٥١) ● قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: ﴿مُخۡلَصٗا﴾ بفَتْح اللّام، أي: جعَلَه اللّهُ عزّ وجل خالصاً من الشوائب، ومصطفًى من الله بالنبوّة، ومصطفًى لحمْلِ رسالة عظيمة، ذاتِ وَظائفَ جسَامٍ، قد اختاره الله لحْمِلها.

وَقرأ باقي القرَّاءِ العشرة: [**مُخْلِصاً**] بِكَسْرِ اللّام، أي: إِنَّه كان مُخْلِصاً لله في أعمالِهِ الظَّاهِرَةِ والباطنة، الجسديَّةِ والنفسيّة، فَهُو يَبْتَغِي بكُلّ تَصَرُّفٍ من تَصَرُّفاته الإراديَّةِ مَرْضَاةَ الله جلَّ جلالُه، فلا يُنَافِقُ بها، ولا يُرائي.

يُقَالُ لغة: خَلَصَ الشَّيْءُ خُلوصاً، أي: صَفَا من الشوائبِ والأَكْدَار. ويُقال: أَخْلَصَ فُلانٌ الشَّيْءَ: أي: صَفَّاهُ ونَقَاهُ مِنْ شوائبه. ويُقَالُ: أَخْلَصَ الأَمِيرُ فُلاناً، أي: اخْتارَهُ واخْتَصَّهُ لِنَفْسِه.

ويُقالُ: أَخْلَصَ العبْدُ عَمَلَهُ لِرَبِّه، أي: جعَلَهُ خالياً من النّفاق، ومن الرّياء والسُّمْعَة.

فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد، إذْ كان موسَىٰ علَيْه السَّلامُ مُخْلِصاً لله في أعمالِهِ الإراديَّةِ كُلّها. وكَانَ مخْلَصاً مِنَ الله عزّ وجلّ ومختاراً للنبوة ولحمل رسالة عظيمة.

(٥١) و(٥٣) ● قرأ نافع: [نَبِيئاً] بإثبات الهمزة بعد الياء في الموضعين وقرأ باقي القراء العشرة ﴿نَبِيًّا﴾ بإبْدَال الهمزة ياءً وإدْغامها بالياء قبلها، في الموضعَيْن.

والقراءتان وجهان لنُطْقِ الكلمة في اللِّسَان العربي.

التدبر:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾:

أي: وضَعْ في ذاكِرَتك أيُّها المتَلِقّي أيًا كُنْتَ، خبراً مُنَزَّلاً في الكتاب (=القرآن) فاحفظه، وتَدَبَّرْهُ، واسْتذِكرْهُ عِنْدَ المناسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لتَنْتَفِعَ به.

اذْكُرْ نبيَّ اللَّهِ ورسُولَهُ مُوسَىٰ، واذكُرْ أَخَاه هارونَ الذي اصْطَفَيْناه نَبِيًّا، وجاء في نصوص أُخْرَىٰ أنَّهُ رسُولٌ أيضاً، ولعلَّ اختياره لمشاركة أخيه موسى عليهما السلام بالرّسالة قد كان متأخراً عَنِ اختيار مُوسَىٰ للرّسالة، فاكْتَفَىٰ هذا النَّصُّ بذكْره نُبُوَّتِه.

الخطاب في هذه الجملة القرآنيّة موجَّهٌ لكُلّ صالح للخطاب يتلقَّىٰ آيات الله من كتابه المجيد قراءةً، أو تلاوةً، أو سَمَاعاً.

وجاء بأُسْلُوب الخطاب الْإفرادي لتحميل كلِّ فَرْدٍ صَالِحٍ للخطاب مُسْؤوليَّتَهُ بشأن هذا التكليف.

الأمر بفِعْل: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يَسْتَدْعي باللُّزُوم الْفِكْريّ التَّلَقِّيَ، والْفَهْمَ بتَدَبُّر، ووَضْعَ الشيء المأمُورِ بذِكْرِهِ في الذّاكِرَة الواعية، آلة التذكُّر في الدّماغ.

والغرض من التَّذكُّر، الانتفاعُ مما استَدْعَتْهُ الذّاكرة لساحَةِ التَّصوُّرِ الحاضر، عند المناسبات الدّاعيات.

وهٰذِهِ العبارَةُ معطوفة على نظائرها في السُّورَة.

﴿مُوسَىٰٓ﴾ مفعولٌ به للفِعْل في: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ وظاهرٌ أنّ المرادَ ذِكْرُ الأخبار القرآنيَّة الواردة بشأنِه، لا مُجَرَّدُ ذِكْر لفظ: «موسَىٰ».

لفظ «موسى» اسم مِصْرِي قديم، معناه «وَلَد» ومعناه بالعِبْرِيَّة «مُنْتَشَل» سُمِّي بموسَىٰ لأنَّه انْتُشِلَ مِنَ الماء.

فقد كان من قصَّتِه أنَّ فِرْعُوْنَ مِصْرَ في السَّنَةِ الَّتِي وُلِدَ فيها مُوسَىٰ عليه السَّلام، قَدْ شَدَّدَ الأمْرَ بقَتْلِ صِبْيان العبرانيّين، وكان مُوسَىٰ أصْغَرَ أولاد أبيه، وثالِثَ ثلاثة: أخْتُهُ: «مَرْيم» الكُبْرى، وبَعْدَها: «هارون» وبَعْدَه: «مُوسَىٰ».

قَالُوا: وقَدْ أخْفَاهُ وَالِدَاهُ ثَلاَثَة أشْهر، لكِنَّ عُيُونَ فِرْعَوْنَ مِنْ جنوده قد كانُوا شَدِيدِي المراقبة والتجسُّسِ على أَوْلادِ الإسْرائيلِيّن.

فألْهَمَ اللَّهُ أُمَّه أنْ تَضَعَهُ في تابوت، وهو سَفَطٌ مَطْلِيٌّ بالْحُمَرِ(١) والزِّفْت، وأنْ تُلْقِيَهُ في النّيل، وقَضَتْ مقادير الله عزّ وجلّ أن يَجْرِي به ماء النهر إلى شاطئ قَصْرِ فِرْعَوْن، ونزلَت ابْنَةُ فِرْعون لتغتسل في النَّهر، فرأتِ الصَّبِيَّ في السَّفط، فَرَقَّ له قَلْبُها، وقالَتْ: هذا من أولاد العبرانيّين.

وقالت امرأةُ فِرْعَون له: هذا الولد قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ، لا تقتلوه، عسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا، أو نَتَّخِذَه ولداً.

فاستجاب فرعون لطلَب زوجته، ونشأ موسى عليه السَّلام في قَصْرِ فِرْعَوْنَ نَشْأَة أوْلادِ الملُوك.

ورفَضَ الطفْلُ أثداء المرضعات، وكانت أُخْتُه مريم تقترب من القصر الفرعوني، وتتردَّدُ إلى جِهَتِه، ورُبّما تَخْدِمُ فيه، فلمّا رَأتْ أنَّه رفض أثداء المرضعاتِ المصريات، قالت لمنتشليه من الماء في القصر الفرعوني: ﴿هَلۡ

---

(١) الْحُمَر: مادّة يُطْلَى بها للحفظ وسَدِّ الثُّغرات في الخشب.

أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ سورة (القصص/ ٢٨).

فقَبِلُوا عَرْضَهَا، فَرَدَّهُ الله عزّ وجلّ بألطافه الْخَفِيَّة إلى أُمِّه، فكانت حَاضِنته ومُرْضِعَتَهُ بالأجْرِ للقَصْرِ الفرعوني.

وتَتَابَعَتْ مقادير الله بشأنِه حتَّىٰ اصطفاه اللَّهُ نَبِيًّا ورسولاً، ذا معجزاتٍ بَاهراتٍ.

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾: سبق تدبُّر هذه العبارة لدى بيان القراءات.
- ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾: أي: وكان رَسُولاً مُرْسلاً مِنَ اللَّهِ لتَبْليغ رسَالَاتِ رَبّه، لبني إسرائيل، ولفرعون وقومه، ومن حَوْلَهُمْ من الَّذِين تبلُغُهم دعوته.

وكان نبيًّا قد اصطفاه الله عزّ وجلّ بالنُّبُوّة.

قد يُقال: إنَّ كونَهُ رَسولاً يسْتَلْزِمُ أَنْ يكونَ نبيّاً، فما الفائدة من ذكر كونه نبيًّا، بعد بيان أنّه كانَ رَسُولاً.

أقول: إنّ الاصطفاء بالنبوّة يأتي قَبْل التَّوجيه لأداء رسالة الله للناس، وقد تكون النُّبُوَّةُ لمن اصطفاه الله بها، دون أن يختاره الله لحمل رسالَةٍ يبلغها للناس.

ولدفع توهُّم احتمال أنْ يكُونَ الإنسان رَسُولاً ضمن المفهوم اللّغوي، دون أن يكون نبيًّا، أثْبَتَ الله الوصفين معاً.

وكان الظاهر يقتضي أن تكون العبارة، وكانَ نبيًّا رسُولاً، لكن جاءت العبارة على خلاف مقتضى هذا الظّاهر لمراعاة التناظر في رؤوس الآيات السّابقات واللاحقات.

- ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾:

الطّور: جَبَل يُسمَّىٰ عنْدَ التوراتيّين: «حُورِيب» ويُطْلَقَ عليه عندهم:

«جَبَل سِينا» وهو يَبْعُدُ عن مصر مسيرة ثلاثة أيَّام، قالوا: وتُحِيطُ بهذا الجبَلِ بَرِّيّة كافِيةٌ لأن يُعَسْكِرَ فيها العبرانيون لمدّة سنة.

وفي تحديد موقعه الآن رأيان:

الرّأي الأول: «جَبَلُ سِرْبَال» في «وادي فيران» ولكن لا توجَدُ عنْدَ هذا الجبل بريّة تكفي لأن يُعَسْكر فيها العبرانيُّون لمدَّة سنة.

الرأي الثاني: هو الجبل المعروف الآن باسم «جَبَلَ موسى» وهو جبل عظيم الارتفاع، وحادُّ الصخور، وشديد الانحدار، ولا يسْتطيع الإنسان أن يطيل النظر إليه دون أنْ تُؤلِمَهُ عيناه، لأنَّه شديد الضوء، (أو شديد عكس الضوء).

ويوجَد عند «جبل موسى» أديرة، وكنائس، اكتُشِفَتْ فيها بعض النُّسخ القديمة من أسفار ما يُسَمَّىٰ عند أهل الكتاب «الكتاب المقدس». باللّغات اليونانيَّة، والسّريانيّة، والجورجيَّة، والأثيوبيَّة، والسُّلافية، والعربية، وغيرها.

ويبدو أنّ هذا الرأي هو الرأي الراجح.

- ﴿وَنَدَيْنَهُ﴾: أي: ودَعَوْنَاهُ بصَوْتٍ مُرْتفع، وكانَ نداءُ الله عزّ وجلّ لموسىٰ من وراء حجاب..

العبارة اشتملت على ضمير المتكلّم العظيم، للدَّلالة على أنّ جَلالَ عظمة الرَّب وهيْبَتِه قد شَعَر بهما موسىٰ عليه السّلامُ في أعماق فؤاده، مع هذا النداء الرَّبَّاني.

وجاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بيان الكلام الّذي اشتمل عليه هذا النداء، وهو قول الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنْۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

- ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾:

في هذه العبارة تَحْدِيدٌ لِمَصْدَرِ الكلام الذي نادى اللَّهُ به مُوسى عليه السلام.

يَبْدُو أنّ موسىٰ عليه السّلام كانَ مُتوجّهاً بوجْهِه وصَدْرِه لِجِهَةِ الجبَل، فالجبَلُ بالنّسْبَةِ إليه يكونُ على ثلاثة أقسام؛ قسم يواجِهُهُ بِصَدْرِه، وقِسْم يَقَعُ إلىٰ جهة الْيَمِين بالنسبة إليه، وقسم يقَعُ إلى جهة الشِّمَال بالنسبة إليه.

أمّا مَصْدَرُ النّداء فقد كان من جانب الطُّورِ الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام، لا مِنْ وَسَطِه، ولا مِنْ جانبه الأيْسَر.

- ﴿... وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾:

أي: وبعْدَ أن ناديْناه، وقُلْنا لَهُ: ﴿أَنْۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ كما جاء في سورة (النمل) قَرَّبْنَاهُ إلَىٰ جهة النِّداء، وَجَعَلْنا مُكالَمَتَهُ مُناجَاةً، **الْمُنَاجَاة**: هي الإسرارُ في المحادثة.

النَّجِيّ: هو المناجي، أي: المحادث في السِّرّ بصَوْتٍ منخفض.

فمحادثة الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السّلام بَعْدَ تَقْرِيبه، كان على طريقة المناجاة، لا بالنداء ورفع الصوت.

ومع هذا التقريب والمناجاة بقي الكلامُ محاطاً بجلَالِ وهَيْبَةِ المتكلّم الرَّبّ العظيم.

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾:

أي: وجعَلْنا أخاه هارونَ نَبِيًّا، فأوحينا إليه، استجابَةً لطَلَبِه، ليكونَ مَعَهُ رَسُولاً إلى فرعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَإلى بَني سرائيل.

وقد دَلَّ على هذا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (طَهَ/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في مَعْرِضِ بيان تكليفِ الله موسَىٰ بالرِّسالة:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

وبهذا تم تدبّر الدّرس الرابع من دُروس سورة (مريم) والحمد لله على مَعُونَتِه وتوفيقه وفَتْحِه وفَضْلِه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليليّ للدرس الخامس من دُروس سورة (مريم) وهو الآيتان: (٥٤ و٥٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

القراءات:

(٥٤) • قرأ نافع: [نَبِيئاً] بإثْبَاتِ الهمزة بَعْدَ الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿نَبِيًّا﴾ بإبْدَالِ الهمزة ياءً، وإدْغامها بالياء قبلَهَا.

والقراءتان وجْهان عَرَبيَّانِ لنُطق هٰذِهِ الكَلِمة.

تمهيد:

إسماعيل عليه السلام عند أهل الكتاب(١).

إسماعيل بن إبراهيم من هاجر المصرية «أَمَة» زوجته «سَارَة» التي وهبتها لزوجها «إبراهيم» رجاء أن يُنْجِبَ منها نَسْلاً، إذ كانت «سَارَةُ» عَاقِراً لَا تُنْجِبُ، وقد شاخَتْ وَهِي علىٰ ذلك.

وَوَلَدَتْ هاجَرُ «إسماعيل» لمَّا كانَ عُمْرُ إبراهيم (٨٦) سنة، وبَعْدَ أنْ كان له في أرْض «كَنْعَان» عشْرُ سنين.

ويكْبُرُ «إسماعيل» أخاه من أَبِيه «إسْحَاقَ» بنحو (١٤) سنة.

واشْتَرَكَ «إسماعيل» معَ «إسْحَاقَ» في دَفْنِ أبيهما «إبراهيم بَعْدَ موته».

ومات «إسماعيل» بعد أن بلغ من العمر (١٣٧) سنة.

ولفظ «إسماعيل» اسم عِبْرِي معناه «يَسْمَعُ الله».

أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياة «إسماعيل» عليه السلام:

(١) لمَّا بلَغَ «إبراهيم» عليه السلام من العمر (٨٦) سنة، ولَدَتْ لَهُ أمَتُهُ المصْرِيَّةُ «هاجَر» ابْنَهُ «إسماعيل» وذَكَرُوا أنَّ معناه «مُطِيعُ الله» أو «يَسْمَعُ الله».

(٢) أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ نبيَّه ورسولَهُ «إبراهيم» عَلَيْهِ السلام، أن يُسْكِنَ طِفْلَهُ «إسْمَاعيل» مع أُمِّهِ «هَاجَر» في وادِي مكَّة، فسَافَرَ بهما إلى هذا الوادي، وأسْكَنَهُمَا فِيه طَاعَةً لِلَّهِ عزّ وجلّ وانْصَرَفَ عَنْهُمَا عَائِداً إلى مَهْجَرِهِ في الشَّام، في أَرْضِ الكنعانِيّين، واسْتَوْدَعَهُمَا عنْدَ اللَّهِ يَرْعَاهُمَا بِرعَايَتِه، وَيَكْلَؤُهُما بحفْظِهِ.

---

(١) أخذاً من «قاموس الكتاب المقدس» عند كلمة «إسماعيل».

(٣) لمَّا نَفَدَ الماء الّذي كان مع أُمّ إسماعيل، واشْتَدَّ الظَّمأُ بالصَّبِيّ، سَعَتْ أُمُّهُ بَيْنَ الصَّفَا والمرْوَةِ بَاحِثَةً عَنِ الماء، لعلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لهَا مِنَ الشَّدَّةِ فَرَجاً، فأَرْسَلَ اللَّهُ المَلَكَ فَبَحَثَ في مكان زَمْزَم، فَتَفَجَّرَ الماء، ولمَّا رَأتْ ذَلِكَ أقبَلَتْ وسَقَتْ وَلَدَها «إسماعيل» وقد امتلأ قَلْبُهَا سُرُوراً وَفَرَحاً.

(٤) أَحَسَّتْ قَبِيلَةُ جُرْهم ـ وهي من القَبَائل العربيّة ـ بأنّ الواديَ قَدْ صَار فيه ماءٌ، فوفَدَتْ إلَيْهِ، وضَرَبَتْ فيه خيامَهَا إلى جانب الماء، بَعْدَ أن استأذنَتْ من «هاجر» أم الصبيّ وأذِنَتْ لهم.

(٥) شبَّ «إسماعيل» وتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّة، وتَزَوَّج امرأة من «جُرْهم» ثمّ طلَّقَها بإشارة من أبيه الذي كان يتعهَّدُهُ آناً ثُمَّ آناً، لقد اختبرها «إبراهيم» عليه السلام، فوجدها شاكيةً متضجّرةً من شظَفِ العيْشِ وشِدَّته.

ثم تزوَّج «إسماعيل» عليه السلام بامرأةٍ أُخرى.

قالوا: وَقَدْ وُلِدَ لإسماعيل عليه السلام (١٢) ولداً ذكراً، وكانوا رُؤساء قبائل، ومن نَسْلِه تكاثر العرب الّذين يُعْرَفُونَ بالعرب المستَعْرِبَة، ومِنْهُم قُرَيش.

قالوا: وَوُلِدَتْ لَهُ أيضاً بنْتٌ زَوَّجها من ٱبْنِ أَخِيه «عيسُّو» بْن إسحاق.

(٦) ثم أمر الله عزّ وجل «إبراهيم» في المنام بأنْ يذْبَحَ ولَدَه «إسماعيل» ابتلاءً لهما، واسْتَسْلَما لأمْرِ الله، وعنْدَ مباشرة التنفيذ فداه الله عزّ وجل بذِبْحٍ عظيم، جاء به الملَكُ «جِبْرِيلُ» عليه السلام.

(٧) عَمِلَ «إسماعيل» مع أبيه «إبراهيم» عليهما السلام، في عمارة الكَعْبَةِ المشرَّفَةِ بَيْتِ الله الحرام، وقاماً بأداءِ مَنَاسِكِهما كما أَمَرَ اللَّهُ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانه.

(٨) عاش «إسماعيل» عليه السلام (١٣٧) سنة، ومات بمكَّة، ودُفِنَ في الحِجْر، المعروف بحجر إسماعيل إلى جانب الكعبَة، بجوار قَبْر أُمِّه «هاجر» وكانت وفاته بعد وفَاة أبيه «إبراهيم» عليهما السلام بـ(٤٨) عاماً.

واللَّهُ أعلم.

التدبّر:

جاء ذكْرُ «إسماعيل» عليه السلام في القرآن (١٢) مرَّة، في (٨) سُور، ويحْسُن بي أن أتَدَبَّرَ هذه النصوص تدبّراً تكامليًّا.

النص الأول:

ما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) في قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

فوصَفَهُ الله عزّ وجلّ في هذه الآية بأنَّهُ من زُمْرَةِ الأخيار من المرسلين.

وقد سبَقَ تَدَبُّر هذا النَّصّ، لدى تدبّر سورة (ص/٣٨).

* * *

النّص الثاني:

ما جاء في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) الّتي أجتهد مستعيناً بالله العليم الوَهَّاب في تدبُّرها، وهُوَ الآيتان: (٥٤ و٥٥) من السُّورة.

قول الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾:

الخطابُ موجَّهٌ لكُلِّ صالحٍ للخطاب، ويجب عليه أنْ يتَلَقَّىٰ آيات كتاب اللّهِ القرآن، قراءةً، أو تِلاوَةً، أو سَماعاً.

أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتَلقِّي أيًّا كنْتَ، خبراً مُنَزَّلاً في الكتاب (=القرآن) فاحفَظْهُ، وتَدَبَّرْهُ، واستذكِرْهُ عنْدَ المناسبات الدّاعيات لتنْتفع به، ولتفيد به غيرك.

إنّ الأمْرَ بالذّكْر يسْتَدْعي التَّلَقِّيَ والْفَهْمَ بتَدَبُّر، ووضْعَ الشيْءِ المأمور بتذكُّرِهِ في الذاكرة، لاستدعائه والانتفاع به عند المناسبَات الدّاعيات.

وهذه الجملة معْطُوفَةٌ على نَظِيراتِها في السُّورة.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾

أي: إنَّ «إسماعيل» عليه السلام كان من صفاته البارزات في حياته، صِدْقُ الْوَعْد، فكان عليه السّلام لا يَعْدِ وعداً ما وهو يُريدُ الإخْلافَ فيه، بل يَعِد وهو عازمٌ على الوفاء بوعده. وكان عليه السّلام إذا وَعَدَ وعْداً وَفَّىٰ به، مَهْمَا كَلَّفَهُ الأمر، باستثناء ما يكون فوق طاقته الوفاء به، فالوفاء بالوَعْد من لوازِم الصّدْقِ فيه.

ومن صِدْقه في وَعْدِه عليه السلام أنَّهُ لَمَّا أنْبَأَهُ أبوه «إبراهيم» علَيْهما السَّلام، قائلاً لَه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ أي: إنِّي مأمُورٌ من قِبَلِ رَبِّي بأنْ أذْبحَكَ، وقَدْ جاء هٰذا الأمْرُ حُلْماً في المنام، وأحْلَام الأنبياء والمرسَلِينَ صادقة، ويجب طاعَةُ الأمْرِ الرَّبَّانيّ الوارد فيها. فقال «إسماعيل» الابْنُ عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فوَعَدَ أباهُ بأن يَسْتَجِيبَ لأمر الله ويَسْتَسْلِمَ للذّبح، فوفَّىٰ بوعْدِه، وذهبَ مع أبِيه ليذْبَحَهُ طاعةً لِأَمرِ الله عزّ وجلّ، وأسْلَما أمْرَهُما إلى الله، فَتَلَّ إبراهيم ولَدَهُ إسماعيل لِلْجَبِين، وأخذ وسائله لذبحه، عندئذٍ

جاء النداءُ الرَّبَّانِيُّ عن طريق الوحي: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ وجاءه الأمْرُ بالتَّوَقُّف عن ذَبْحِ ولَدِه «إسماعيل» وفداه الله بذِبْحٍ عظيم، إذ أحضر له الملك كَبْشاً عظيماً قَدَّمه له، فذبحه بَدَل ذبْحِ وَلَدِهِ بأَمْرِ رَبّه.

قول الله تعالى:

﴿... وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾:

سبق لدَى تدبر الآية (٥١) تحليلُ نظير هذه العبارة، فلا حاجة إلى الإعادة.

فأثبتَتْ هذه العبارة أن «إسماعيل» عليه السلام قَدْ كَانَ نبيًّا يُوحَىٰ إليه، وكان رَسُولاً حاملاً لوظائف رسالة رَبَّانيَّةٍ ومؤدِّياً لها.

أمّا رسالَتُه فكانت لأهله أوّلاً، فلِقَبيلَتِه «جُرْهُم» الَّتِي ساكَنَتْهُ في مكَّة، ثُمَّ امتدَّتْ إلى سائر قبائل العرب.

وذكر المؤرخُون أنَّ الله أرسَله أيضاً إلى قبائِلِ الْيمن، وَإِلَىٰ الْعَمَالِيق، فَسُكَّانُ شبه الجزيرة العربيّة كانوا مجال امتداد رسالته.

قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾:

أي: وَكان مُلْتَزِماً بمَنْهَجِ دَعْوَةِ الأقربين، والعَمَلِ على إصْلَاحِهم، والاهتمام بأمْرِهِمْ بالمعروف ونهْيِهِمْ عن المنكر، قبْلَ أنْ يَنْتَقِلَ إلَىٰ غيرهم، وهذه السّياسة الحكيمة هي السّياسةُ الّتِي كان إبراهيم عليه السلام ملتزماً بها، وكذلك سائر النبيّين والمرسَلِين، وهي السّياسة الّتي أمَرَ اللَّهُ بها رسُولَهُ محمّداً ﷺ، إذْ كلّفَهُ أن يُنْذِرَ عَشِيرَتَه الأقْرَبين.

أمّا وصْفُ «إسماعيل» عليه السلام بأنّه كان يأمُرُ أهلَه بالصلاة والزّكاة، فلا يُفيد أنّه كان يقْتَصِر على الأمر بهما في توجيه أهله لفِعْل

الخيرات وترك المنكرات، إذْ ليْس في الجملة حصْرٌ، بل هو خَبَرٌ عادِيٌّ يَصِحُّ أَنْ يضاف إليه أخبارٌ أُخرى بلا حصر، ولكنَّه يُفِيدُ أنَّه كان عليه السّلام يُولِي الأمْرَ بالصلاة وبالزكاة عنايةً فائقة، لأنَّهما الرُّكْنَان الأوَّلان من أركان الإسلام، بعد إعلان الانتماء إلى الدّين، الّذي آمَنَ الْقَلْبُ بقاعدَتِه الإيمانيَّة وبأركانه، وكان يكرّر ذلك كلّما دعَتْ الحاجة إلى التكرير.

أمَّا الصلاة فكانت عند إبراهيم وسائر المرسلين عليهم السّلام تشتملُ على قيامٍ، وَرُكُوعٍ، وسُجودٍ، وتلاواتٍ، وأذْكَارٍ، وأدعية، دون أن نَجْزمَ بالتفصيلات القابلات للتَنَوُّع.

وأمَّا الزَّكاة فهي حقٌّ ماليٌّ مفروضٌ على الواجدين، يَبْذُلُونَهُ لذوي الحاجات، وفي سبيل نَشْر الدّين، ولا نستَطِيعُ أنْ نَجْزِمَ بالمقادير الّتي كانَتْ تَجِبُ على المؤمِنين في أموالهم، في الشرائعِ السابقة، إذْ ليْسَ لَدَيْنَا نُصُوصٌ ثابَتَةٌ تُبيّنُ ذلك.

قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾:

أي: وَكان عند رَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مَرْضِيًّا عَنْه، لأدائِه مَا هُو مفروضٌ عليه تُجاه رَبّه، ولِتَوَسُّعِهِ في أعمال البِرِّ الكثيرة، ولتحقُّقِهِ في عبادة رَبّه بمرتَبَةِ الإحسان، أعلَىٰ مَرَاتب المؤمنين.

مَرْضِيّ: اسم مفْعول بمعنى أنّ الله عزّ وجلَّ قَدْ رضي عنه.

النصّ الثالث:

ما جاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) وهو الآيات من (٨٣ ـ ٨٦) من السورة، وقد جاء فيه ذكر (١٨) نبيًّا رسولاً، وجاء في الآية (٨٦) منه قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾:
فجاء ذكْر «إسماعيل» في هذا النَّصّ بأنَّهُ من المرْسَلِينَ، وبأنَّه مِنَ الّذين فضَّلَهُمُ اللَّهُ على العالمين.

* * *

النصّ الرابع:

ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقَوْل إبراهيم عليه السّلام في ثنائه على ربّه:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾:

أبَانَ هٰذا النَّصُّ أَنَّ «إبْرَاهيم» عليه السّلام أثْنَىٰ علَىٰ رَبِّهِ حامداً، إذْ وهَبَ لَهُ على كِبَرِ سِنِّه إسْماعيل وإسحاقَ استجابة لدُعائه، الّذي دَلَّ عليه ثناؤه على رَبّه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

وقَدَّم «إبراهيم» ابْنَهُ «إسماعيلَ» في عبارته على ابْنِه «إسْحَاق» لأنَّ الله وهَبَهُ له أوّلاً من أمَتِه «هاجر» المصرية، ثُمَّ وَهَبَ لَهُ «إسْحَاقَ» من زَوْجَتِهِ «سَارَة» الَّتي كانت عاقراً، فأكْرَمَها اللَّهُ وهِيَ عَجُوزٌ عقيم، فأصلَحَها للحَمْل والولادة فأنْجبَتْ «إسْحَاق» والله على كُلِّ شيْءٍ قَدِير.

* * *

النصّ الخامس:

ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

جاء في هذه السورة ذِكْرُ «إسماعيل» عليه السلام ضمن ذِكْرِ عَدَدٍ من المرسَلين، وَجاء في هاتَيْنِ الآيَتَيْن بعد ذلك بيانُ أنّ إسماعيل وإدْريسَ وَذَا الكِفْلِ كَانُوا من الصَّابرين، وأنَّهُمْ كانوا من الصَّالحين، وأنَّ الله عزّ وجلّ بعظمة رُبوبيته أدْخلَهُمْ في رَحْمَتِه، وهذا يَشْمَلُ إدْخَالَهُمْ في الدّرجاتِ الرَّفيعات من جنَّتِه.

* * *

النصّ السادس، والسابع، والثامن، والتاسع، والعاشر:

ما جاء في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول) وقد جاءت هذه النصوص فيها ضِمْن نصّ طويل، وهو الآيات من (١٢٥ ـ ١٤٠) من السورة.

فالسادس: هو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿... وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾:

﴿وَعَهِدْنَآ﴾: يُطْلَقُ الْعَهْدُ على عدّة معانٍ، ومنها: الوصِيَّة، وكُلُّ ما أَمَرَ الله عزّ وجلَّ بِه أوْ نَهَىٰ عنه، وهٰذا هو المناسب لعهد الله عزّ وجل إذْ أوحىٰ إلى إبراهيم، فكلَّفَهُمَا أَنْ يُطَهِّرا بَيْتَه الحرام في مكَّة من الأرجاس المادّيَّة والمعنويّة، ومن الأرجاس المعنوية الأوثان، وسائر الشركيَّات، والمعاصي والمحرَّمات. وأمَرَهُما بأن يَجْعلاهُ طَاهراً لعبادته، بالطواف، والاعتكاف، والصَّلاة.

الْعَاكفون: هم الملازمون لعبادة الله بهذه الملازمة في فِناءِ بيت الله الحرام، انقطاعاً عن شواغل الدُّنيا، للذكر والتسبيح والتأمُّل والتفكّر في آيات الله وفي آلائه، وتلاوة آياته البيانيَّة المنزّلَات، إلى غير ذلك من أنواع عبادات تلائم الملازمة في الْبُيُوت المخصَّصَةِ لعبادة الله.

الرُّكَّع: جَمْعُ «الرَّاكع». **والرُّكوع**: هو في اللّغة الانحناء، وأقصاه أن تَمَسَّ الرُّكْبَتَان الأرض. والرُّكوع الشرعي في الإسلام، هو الانحناء بعد القيام، حتَّىٰ تُوضع الرَّاحتان على الرُّكبتَيْن.

السُّجُود: جمع «السَّاجد» يقال لغة: سَجَدَ يَسْجُدُ سُجُوداً، أي: خضع، وأحْنَىٰ ظَهْرَهُ وتَطامَن، ويقال: سَجَدَ، أي: وضعَ جَبْهَتَهُ على الأرض، فهو سَاجد، وجَمْعُهُ «سُجَّد» و«سُجُود» على صيغة المصدر.

والسجود الشرعي في الإسلام، يكون بوضع الجبهة على الأرض، معَ الكفَّيْنِ، والرُّكْبَتَيْن، ، والْقَدَمَيْن.

* * *

والسابع: هو قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾:

أبان هذا النصّ أنَّ «إسماعيل» عليه السلام قد اشْتَرَكَ مع أبيه «إبراهيم» عليه السّلام، في بنَاء الكعْبَةِ بيت الله الحرام، واشتَرَكَ مَعَهُ في الأدعية الّتي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا هٰذا النَّصّ، ويظهر أنّه كان يومئذٍ بالغاً راشداً، أو شابًّا جَلْداً.

﴿ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾: أي: من الكَعْبَة بيتِ الله الحرام، وقواعد البيت هي أساساته، ورَفْعُها يكُونُ ببناءِ الجدْرَانِ عليها.

والتعبير برفع القواعِدِ من البيْتِ يَدُلُّ على رفع جُدْرَانِهِ فَوْقَ الأساسات القديماتِ الّتي كَشَفَهَا الله لهما عن طريق الوحي، إذْ هو أوّلُ

بَيْتٍ في تاريخ البشريَّة وُضِعَ للنّاس بَيْتاً لعبادة اللَّهِ عزّ وجلّ فيه، وفي فِنائه.

ودُعاؤُهُما وهما يَرْفَعَانِ القواعد من البيت قد اشتمل على سِتّ فقرات:

الفقرة الأولى: دَلَّ عليها: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: تَقَبَّلْ مِنَّا هٰذا العَمَلَ الصالح الذي نقوم به طاعةً لأمْرِك، وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِك، فاجْعَلْهُ بِفَضْلِك مقبولاً عندك تأجُرُنا عَلَيْهِ يَوْمَ الدّين.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: إنَّكَ وحْدَكَ رَبَّنَا السَّمِيعُ لكُلِّ ما يُسْمَع، والْعَلِيم بِكُلّ مَا يُعْلَمُ، في الوجود كُلّه، ومنه سمَاعُكَ لدُعَائنا، وعِلْمُكَ بأعْمَالِنَا وَنِيَّاتِنَا، وفي هذا الثناء إشارةٌ ضِمْنِيَّةٌ إلى أنَّهُ جلّ جلاله سيستجيب لدُعائِهما بفضله ومَنِّهِ وجُودِه.

وفي العبارة حصر حقيقي دلَّ عليه تعريف طرفي الإسناد، مع توكيد المسند إليه بضمير الفصل «أنت».

الفقرة الثانية: دلَّ عليها: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: أي: واجعلنا مُسْتَسْلِمَيْن مُطِيعَيْنِ لأوامركَ ولنَواهِيكَ في سلوكنا الجسَدِيِّ والنفْسِيّ الظاهر والباطن.

هذا الدُّعاء دَلَّ على أنهما قد اختارا بكامل حُرِّيَّاتهما أن يكونا دواماً مُسْلِمَيْن لله في كُلّ أمورهما، لكنّهما يطلبان من الله عزّ وجل إيجاد الوازع في أنفسهما، والتوفيق، والمعونة للتطبيق بإحسان.

الفقرة الرابعة: دلّ عليها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾: أي: واجْعَلْ بعْضَ ذُرِّيَّتِنَا بِحِكْمَتِكَ وَتَوْفِيقك ومَعُونَتِكَ، أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، ومثل هذا الدُّعاء لا يَلْزَمُ منه الْجَبْر، لأنَّ الذُّرِّيَّة لا بُدَّ أن يوجد فيها من يختار بإرادتِه الحرَّة الإيمانَ، وأنْ تتجه إرادَتُه ليكون مسلماً، فهو بحاجة إلى

وَازِع وتوفيق ومعونة من الله حتى يتحقَّق بالصفات الّتي يكون فيها مُسْلِماً قولاً وعملاً، والأمَّةُ تَصْدُقُ بأقلِّ عَدَد.

الفقرة الرّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: أي: وأرِنا كيْفِيَّاتِ عبادَتِنَا لَكَ، والأماكنَ الخاصّة الّتي جعَلْتَها لعبادتِك، وطرائق عبادتك، ومنها مناسِكُ الحجّ، والذبائح التي تُذْبَحُ هدياً ابتغاء مرضاة الله، وأماكنُ ذبْحِها إنْ كانت ذات أماكِنَ خاصة، أو مَذَابح خاصة، إلى غير ذلك من عبادات.

المنْسَك: بفتح السّين وكسْرِها، هو في اللّغة الطريقةُ الّتي يُعْبَدُ بها المعبود، كالطواف، والسعي، والصلاة، والحجّ، وذَبْح ذبائِح الْهَدْي، إلى غير ذلك.

وقد طلَبَا رُؤيَةَ المناسِكِ بأعينهما ليقلّداها بالتَّطْبِيق على وفْقِ رُؤيتهما لها، وسبيلُ ذلك يكُونُ عن طريق الوحي، كأن يُرْسِلَ اللَّهُ إليهما جبرِيل فيُؤَدِّيَ المناسك أمامَهما، فيتعَلَّمَانِ منه بالتقلْيد والمتابعة.

ومعلوم أنّ التطبيق الْعَمَليّ أيْسَرُ وَسِيلَةٍ لاكتساب المعرفة العمليّة.

ولهذا قال الرسول محمد ﷺ لأصحابه: «صلُّوا كمَا رَأيْتُمُونِي أُصَلِّي» وكان المسلمون يقلّدون الرَّسول في أعمال الحج ومناسكه.

الفقرة الخامسة: دلَّ عليها: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

أي اقْبَلْ رَجْعَتَنَا إِلَيْكَ مِنْ خطايانا، فارْجع إلينا بغفرانك وعفوك وحُسْنِ عطائك، وفيضِ جودِك.

تاب: هي في اللّغة بمعنى «رَجع» يقال لغة: تابَ العَبْدُ إلى ربّه، أي: عزم على الرُّجوع إلى طاعته، بعد وقُوعه في الخطيئة. ويقال: تَابَ الله على عبْدِه، أي: قَبِلَ رَجْعَتَهُ، فَرَجع إليه بالغفران والعفو، وتجاوَزَ عن خطاياه.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: إنَّكَ وحْدَكَ يا رَبَّنَا الكثير التوبَة على عبادك المذْنِبين، وإنَّك وَحْدَك الكثيرُ والعظيمُ الرَّحْمَةِ بكُلِّ عبادك.

وفي هذا الثناء على الله معْنَىٰ اسْتجداء تَوْبَتِه ورَحْمَتِه وغُفْرانه وعفوه.

إنَّ إبراهيم كان في ذلك الوقت نبيًّا ورسولاً حتماً، وكان معصوماً عن المعاصي من مرتبة التقوىٰ، ورُبَّما كان إسماعيل كذلك في ذلك الوقت، فدُعاؤهما مَحْمُولٌ على أنَّهما كانَا يَشْعُرانِ بتقصيرهما في حقوق مَرْتَبَتَي البرِّ والإحسان، ويَعْتَبِران ذلِك من الذنوب الَّتِي يجب عليهما أنْ يَتُوبَا منها، عليهما السّلام.

التَّوَّابُ: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «تائب».

الرحيم: على وزن «فَعيل» وهذا الوزن من صيغ المبالغة أيضاً.

الفقرة السَّادِسة: دلَّ عليها: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

كان في تقدير «إبراهيم» عليه السلام أنّه يُؤَسِّسُ أُمَّةً كبيرة في بلَادِ العرب، عن طريق ابنه «إسماعيل» عليه السلام. ورُبَّما عَلِمَ ذلك عن طريق الوحي، أو عن طريق الإلهام، والتفرُّس في الحوادث الّتي جرت لَهُ ولِوَلَدِهِ «إسماعيل» وأُمّه هاجر، إذْ أَمَرَهُ اللَّهُ عزّ وجل بأن يأتي بهما إلى وادي مكة، ويَتْرُكَهُمَا فيه.

وأعلم «إبراهيم» ولَدَه «إسماعيلَ» عَلَيْهِما السَّلام بذلك، وأدْرَكا أنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ ستَنْسَىٰ تعليماتِ ومفهوماتِ الدّينِ الّتي يُعَلِّمُهُمْ إياها إسماعيل، وأنّها ستدخلُ إليهم شرْكيّات ومفهومات باطلات، فتوجَّهَا بالدّعاء لله رَبِّهما بأنْ يَبْعَثَ فيهم رسُولاً مِنْهُمْ، يتحلَّىٰ بالصفاتِ الَّتي ذَكَرَاهَا في دُعائهما.

ورُبَّما كانت صِيغَةُ هذا الدُّعاء قد جَاءَتْهُما بوَحْيٍ أو إلهامٍ من الله،

أَوْ أنَّهما كانّا يَعْلَمان أنّ الرَّسول يَنْبَغِي أن يتحلّىٰ بهذه الصفات، حتّى يؤدّيَ رسالة رَبّه في قومه على أحْسَنِ وجْهٍ وأكْمَلِه.

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: أي: رَسُولاً من هذه الأمَّة الناطقة باللّسَان الْعَربيّ، وقد اسْتجابَ الله دُعاءَهما، فَبَعَثَ في الأمَّة العربيَّة رَسُولاً منهم من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، هو النبيُّ الرَّسول العربي الأميّ محمد بن عبد الله ﷺ، وكان الرَّسولَ الخاتم للأنبياء والمرسلين.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾: أي: يتلو عليهم آيات كتابك الذي ستُنْزِلُهُ علَيْه. وفي عبارة «يَتْلُو» إشعارٌ باحتمال أن يكون أُمّيًا في أمَّةٍ أمّيَّة، لا تقرأ ولا تكتُب، كما كانت قبائل العرب حينئذٍ.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: ولا يقتصر على تلاوة آيات كتابك عليهم، بل يُعَلِّمُهم الكتابَ كُلَّه، حتَّىٰ يُتْقِنُوا تِلاوَتَهُ وقراءته، ويَجْتَهِدُوا في تَدبُّر معَانِيه، ويَنْقُلُوه إلى الأجيال من بَعْدِهم، حتَّىٰ يَنْتَشِرَ في الناس أجمعين.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: أي: ويُعَلِّمُهُمْ أيضاً الحكمة في الأمور كلّها ببيانات منه، مضافات إلى ما يشتملُ عليه كتابُكَ المنزَّلُ عليه.

الحكمة: هي وضع الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أو مَعْرِفَةً، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من أنواع السلوك الإرادي. وتكون الحكمة باختيار أفضل الأشياء وأتْقَنِهَا وأحْسَنِهَا، مِنْ كُلِّ البدائلِ لمَا تُخْتَارُ له.

وقد استجاب الله دُعاءَهُمَا في رَسُوله مُحَمَّد ﷺ، إذِ اشتملَتْ سُنَّتُهُ القَوْلِيّة، والعَمَلِيَّة، والإقراريَّة، على الحِكْمَةِ في كُلّ الأشياء الّتي تَعَرَّضَ لَهَا بعْدَ بِعْثَتِه ﷺ، وتعلَّمها صفَوَةُ أصحابه منه، ونقلَها الحفَّاظُ عنه.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي: ويُربّيهم بوسائله التربويّةِ الرَّفيعة على الطَّهارَةِ من

كلّ الأرجاس الماديّة والمعنويّة. ويُرَبِّيهم على تنميَةِ أنْفُسِهِمْ بالأعمال الصالحة الَّتِي تُرْضي الله عزّ وجل.

التزكيَةُ: تأتي في اللُّغَةِ بمعنىٰ التطهير، وتأتي بمعنَىٰ النماء، وهذانِ المعنيان يشْمَلان التَّخلُّص مِنْ الأرْجَاسِ الحسيَّة، والأرجاس الفكريَّةِ والنفسيّة والسُّلوكيّة، وإنْماء الذَّات بالفضائل على اختلاف أنواعها، الفكريّة والنفسيَّة والاعتقادية والسُّلوكية الظاهرة والباطنة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: في هذه العبارة ثَناءٌ عَلَىٰ الله مُشَابهٌ للثناء عليه في العبارات السَّابقات في فقرات الدُّعاء، واختير في هذا الثناء من أسماء الله الحسنىٰ «العزيز» و«الحكيم».

العزيز: أي: القوي الغالب، القدير على فعل ما يشاء، والصيغة صيغة مبالغة، إذْ هي على وزن «فعيل». أو صفة مشبَّهَةٌ فيها معنى الثباتِ والدوام.

الحكيم: أي: الذي يختار أفضل الأشياء وأحسنها، ويضَعُ كُلًّا مِنْها في أحْسَنِ المواضع الملائمة لها.

وذِكْر هٰذَين الاسمين من أسماء الله الحسْنَىٰ، يُلائم المدْعُوَّ به قبلَهُما، فَبَعْثُ الرَّسُول مُتحلّياً بالصفات التي سبَقَ شَرْحها، يَتَطلَّبُ قُوَّةً غالبة للتنفيذ، وحكمةً بالغةً في الاختيار.

* * *

والثامن: هو قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) أيضاً بعد قولِهِ تعالى بشأن إبراهيم عليه السّلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾:

فذكر أبناء يعقوب عليه السّلام من آبائه «إبراهيم» وهو جَدُّه، و«إسْمَاعيل» وهو عَمُّهُ الْأَكْبَرُ سِنًّا من أبيه، على اعتبار أنّ الْعَمَّ كالْأَب تقديراً واحتراماً ووُجُوبَ بِرّ، وذَكَرُوا أَبَاهُ «إِسْحَاقَ».

وذكَرُوا أَنَّ مَعْبُودَ «إبراهيم وإسماعيل وإسْحَاق» معبودٌ واحِدٌ لا شريكَ له، وهو اللَّهُ عزّ وجلّ، وأعْلَنُوا لِأَبيهم يعقوب أَنَّهم لهذا الإلَٰهِ الواحد مُسْلمون.

لكن كثيراً من ذَرارِيهم بعْدَ ذَلِكَ غيَّرُوا وَبَدَّلُوا وحرَّفوا في الدّين، وأدْخَلُوا الشّرْكيات والوثنيات، واتَّبَعُوا الشهواتِ، وارتكَبُوا كبائر الذُّنُوب، وكانوا مجرمين.

* * *

والتاسع: هو قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

الْهُود: اليهود.

أي: وقال اليهود للمؤمنين المسلمين: كُونُوا يَهُوداً تَهْتَدُوا.

وقال النصارى للمؤمنين المسلمين: كونوا نصارىٰ تَهْتَدُوا.

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: أي: قُلْ يَا أَيُّهَا المؤمِنُ الْمُسْلِمُ الَّذِي آمَنَ بمحمَّدٍ وبما أَنْزَل الله إليه: لا أتّبعُ ملّةَ اليهود، ولا مِلّةَ النَّصَارَىٰ المحَرَّفَتَيْن، بل أَتَّبِعُ مِلَّةَ إبراهيم اتّباعاً حَنِيفاً مائلاً عن كلِّ انْحِرَافٍ واعْوِجَاجٍ إلى الاستقامةِ علىٰ الحقّ المنزَّل مِنْ عِنْدِ رَبّي، ومَا كان إبراهيم من المشركين الَّذِين يَعْبُدُون من دُونِ الله إلٰهاً آخر، كما فعل النصارى بعيسى عليه السّلام، وكما فَعَلَ اليهود إذ اتَّخَذُوا آلِهَهُمْ هَوَاهُم، وعَبَدُوا من دون الله ما لم يُنَزّل به سلطاناً، وإذ اتخذ بعضُهُم عُزَيْراً ابناً لله سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

الملة: الدّين، والشريعة.

﴿حَنِيفًاۖ﴾: الحنيف هو المائل عن كلّ الأديان الباطلة، وهذا لا يكون إلّا بالاستقامة على دين الله الحقّ ذي الصراط المستقيم، لأنّ كُلَّ الأديان الباطلة مائلةٌ عنه إلى جهات مختلفات، مالئاتٍ الساحات اللّواتي ليست على الصراط المستقيم، فالميْلُ عنها جميعاً لا يكون إلا بالاستقامة على صراط الله المستقيم، إيماناً وعملاً وسُلُوكاً ظاهراً وباطناً.

وقد جاء في هذا النَّصّ بيانُ أنَّ إسماعيل عليه السلام من الرُّسل الَّذِين أنْزَلَ الله إليهم بيانَاتٍ دينيَّة، على شكل صحف، أو زُبر، أو كُتُب، لتكونَ نصوصاً هاديةً لأممهم.

الأسْبَاط: هم أولادُ وأحفادُ يعقوب عليه السلام، وأحفادُ أحفاده، فقد بعثَ الله منهم رُسلاً وأنْزَلَ إليهم تعليماتٍ، ووصايا في نصوصٍ دينيَّة، دون أنْ يأتي في القرآن ذكْرُ أسمائهم.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾: أي: لا نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وبين غيره في الإيمان، فلا نُؤمن ببعضهم ونكْفُر ببَعْضِهِمْ، بل نُؤمن بهم جميعاً، لأَنَّهُمْ جميعاً رُسُلُ الله، والإيمان بالله يوجب الإيمان بكلِّ رُسُلِه، أمّا

بالنّسبة إلى اتّباع الشرائع والأحكام اتّباعاً إسْلاميًا، فَنَحْنُ نَتّبِعُ مَا أَمَرَنَا اللّهُ باتّباعه، وهو ما أنزل إلى الرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد دَلَّ على هذا قول الله تعالى عقب هذه العبارة: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: أي: مُسْلِمُونَ قِيَادَنا له، في اتّباعِ أوامره واجتناب نواهيه، بحسب الصيغة الأخيرة الّتي يُوَجّهُهَا لنا.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾:

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أي وإنّ نَأَوْا مُدْبِرين فلَمْ يُؤْمِنُوا بمثل ما آمنتم به من الحق.

﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾: أي: فإنّما هم في خلافٍ وعداوة، وسمِّي هذا شقاقاً، لأنّ كلّ فريق مِنْ فريقَي الخلاف، قد اتَّخذ شِقًّا، أي: ناحية غير شِقّ صاحبه، وهذا يُولّد لدى الفريق المبْطِل حِرصاً على محاربة الفريق الآخر، حامل لواء الحقِّ والداعي إليه. ولهذا جاء في التعقيب قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿.. فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: فسيتولّى اللّهُ دَفع شرورهم عَنْكَ، إذا اتّبَعْتَ أوامر اللّهِ ونواهيَهُ فيما يَتَعلّقُ بشؤونهم، وسَيَمْنَحُكَ غَنَاءً بمَا يُعْطِيك من وسائلِ نصْرٍ عليهم، إذا كادُوا لَكَ كيداً ما.

وعَلَيْكَ أنْ تَلْجأَ إلى الله بالدُّعاء الصادق، والعمل الصالح، فهو السَّمِيع لدعائك، والْعَلِيم بأعمالك الظاهرة والباطنة، وهو سميع لكلِّ ما يُسْمَع، وعليم بكُلّ ما يُعْلم.

الخطاب في النصّ موجّهٌ للرّسُول أوّلاً، فَلِكُلِّ حاملٍ لِرَسَالَتِه من أمته، وقد جاء الخطاب بأسلُوبِ الخطاب الإفرادي، لإشعار كلِّ واحدٍ من المخاطبين، بأنَّ الله جلَّ جلالُه يَقْصِدُهُ في الخطاب، وهذا يولّد لَدَيْه دافعاً قويًا للإيمان والطاعة، والعمل بمراضي الله، والثقة التامّة بوعده الكريم.

* * *

والعاشر: هو قول الله عزّ وجلَّ في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾:

زعم اليهود أنّ هؤلاء الرُّسُل وَفيهم «إسماعيل» وأنّ الأنبياء والرسُلَ من الأسباط كانُوا يهوداً.

وزَعَمَ النَّصَارَىٰ أَنَّهُمْ كانوا نصارى.

وكتَمَ الفريقان ما لديهم من علم عن هؤلاء الرُّسل، وهذا الْعِلْمُ فيه شهادةٌ من الله تُثْبتُ أنَّهم كانُوا على الملّة الحقّ الّتي لا شركَ فيها ولا تحريف، وهو ما تغيرت فيه اليهوديَّة والنصرانيَّة عن دين الله الحقّ.

ولهذا أمَرَ الله عزّ وجلَّ رَسُولَهُ فكُلَّ دَاعٍ إلى الله من أمَّتِهِ أنْ يَقُول لهم: إِنكم تَكْتمُونَ عَلْمًا عنْدَكم جاءَكم من الله، وتَجْعَلُونَ أنْفُسَكُمْ أَعْلَمَ من الله، فتقولون أقوالاً على خلاف ما عندكم من عِلْم أتاكُمْ من الله رَبّكم.

وهذا الكتمانُ من أعظم الكبائر، وقد انْحَدَرْتُم به إلى دَرَكَةٍ سَحِيقَةٍ لَا تَجِدُونَ دُونَها أشَدَّ ظُلْماً منها، بل يشاركُكُمْ فيها أظْلَمُ الظالمين، وهذا ما دَلَّ عليه قول الله عزّ وجل في النصّ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾؟ استفهامٌ يُرادُ به بيَانُ أنه لَا يُوجَدُ أظْلَمُ مِنْهُ، ولكن يُوجَدُ مَنْ يُسَاويه في الظُّلم.

وبعد ذلك توعَّدَهم الله بالعذاب على ظلمهم، بأسلوب غير مباشر، فقال لهم: ﴿.. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

نلاحظ في هذه النصوص الخمسة من سورة (البقرة) ما يلي:

(١) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ عَهِدَ إلى إبراهيم وابْنِه إسماعيل بتطهير بيته الحرام في مكّة للطائفين والعاكِفِينَ والرُّكَّعِ السجود.

(٢) أنّ إسماعيل عليه السّلام قَدْ عَمِل مع أبيه إبراهيم عليه السلام، في رَفع القواعد من البيت الحرام.

(٣) وأنّه دَعا مع أبيه بالدَّعَوات الّتي دَعَا بها أبوه رَبَّه.

(٤) أنَّ أبناء يعقوب عليه السّلام قَدْ ذكَرُوا «إسماعيل» ضمْن آبائهم وقَدَّمُوه في الذكر على أبيهم إسحاق، باعتبار أَنَّ العمّ يُطْلَقُ عليه لفظ «أب» احتراماً وتوقيراً وطاعةً وبرّاً.

(٥) وأنّ الله عزّ وجلّ قدْ أنْزَل إلى إسماعيل تعاليم دينيَّة كما أنزل على أبيه إبراهيم عليهما السلام.

(٦) وقد ذكر «إسماعيل» قبل ذكر أخيه «إسحاق» إذْ كان أسبَقَ منه وجوداً.

(٧) وأن «إسماعيل» كان على الحنيفية الّتي كان عليها أبوه، فلَمْ يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، كما زعم اليهود والنَّصارىٰ.

* * *

النصّ الحادي عشر:

ما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجل فيها خطاباً لرَسُوله فلِكُلّ مؤمن به وبرسالته:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

في هذا النصّ يأمُرُ اللّهُ عزّ وجلَّ رَسُولَهُ فكُلَّ مُؤْمِنٍ به وبما أَنْزَل اللّهُ عَلَيْهِ في الرّسالة الخاتمة، أن يُعْلِنَ إيمانَه بما أَنْزَلَ اللّهُ على رُسُلِه السَّابقين، وأنْ يُعْلِنَ أَنَّهُ لَا يُفرّقُ بَيْنَ أحَدٍ من الرُّسل وبين غيره في الإيمان، أمَّا التطبيقات الإسْلَامِيَّةُ العمليّة فهو فيها وكذلك سائر المؤمنين مُسْلِمُونَ لله مُسْتَسْلِمُون، متّبِعُون فيها لأوامره ونواهيه، وفْقَ آخِرِ بيان يُنَزِّلُهُ للعمل به، دُونَ تَشَبُّثٍ بما كان أنْزَلَ من قبله من أحكام وتكاليف وأوامر ونواهي، وتَتَعَلَّقُ بأنواع السُّلُوك العمليِّ الجسَدِيِّ والنفسيّ.

وتَحْلِيلُ الآية (٨٤) في هذا النَّصِّ قَدْ سبق نظيره لدى تحليل الآية (١٣٦) من سورة (البقرة) تحت عنوان «النصّ التاسع» بفارق أن الآية (١٣٦) التي من سورة (البقرة) قد جاء فيها: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وكذلك بالنّسبة إلى سائر الرسل المذكورين فيها. أمّا الآية (٨٤) الْتي من سورة (آل عمران) فقد جاء فيها: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ وكذلك بالنسبة إلى سائر الرُّسل المذكورين فيها. والغرض من هذا التنويع الإشارة إلى أنّ بعْضَ ما أنْزَل الله من بيانات في رسالاته لعباده هي من قبيل التعليم النافع لهم دون أن يكون مقترناً بتكليفٍ في أمْرٍ أو نَهْي، وهذه يلائمها من التعبير عبارة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾. وأنّ بعضها الآخر قد اشْتَمل على تكاليف في أمْرٍ أو نَهْيٍ، وهذه يُلائمها مِنَ التعبير عبارة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ إذ في حرف «علَىٰ» معنى الاستعلاء الملائم للتكاليف الرَّبّانية.

على أنّ استعمال حرف «إلىٰ» في سائر النصوص القرآنيَّة المشابهة، تشملُ دَلَالَتُه النُّصوصَ البيانيَّة التعليميَّة الّتي ليس فيها تكاليف بأمر أو نهي، والنُّصوصَ البيانية التكليفيَّة الّتي فيها أَمْرٌ ونَهْي، ويُلاحظ حينئذٍ في معنى «إلى» أنَّ ما أُنْزِلَ إلىٰ العباد من رَبّهم ولو كان تكليفاً، هو لخَيْرهم وسَعَادَتِهم ومصالح حياتهم في الدّنيا، ولتحقيق سعادتهم يوم الدين، يوم الخلود والبقاء.

النصّ الثاني عشر:

ما جاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وهو قول الله عزّ وجلَّ فيها، خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾:

فجاء في هذه الآية ذكر «إسماعيل» عليه السَّلام ضِمْنَ أنبياء أوحَىٰ الله إليهم، واصطفاهم للنبّوة.

وبهذه الدراسة للنصوص التي جاء فيها ذكر «إسماعيل» عليه السلام، تبيّن لنا التكامل فيما بينها، وأنَّهُ ليس فيها مكرَّرات.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس الخامس من دروس السورة، والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٩)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دُروس سورة (مريم) وهو الآيَتان: (٥٦ و٥٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾:

هذا النَّصُّ قَدْ جاء فيه ذِكْرُ النَّبيّ الرَّسُولِ «إدْرِيسَ عليه السلام، وجاء ذِكْرُهُ في القرآن مرّةً أُخرَىٰ، وهو النَّصّ الّذي تَدَبَّرْنَاهُ في الدّرس الخامس السابق، وهو قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) معطوفاً على عدَدٍ من الرُّسُل عليهم السلام.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

جاء في هذين النَّصَّيْن وصف «إدْريس» عليه السلام بسِتّ صفات هي ما يلي:

الصّفَةُ الأولىٰ: أنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً، دَلَّ على هذا الوصف قول الله عزّ وجلَّ في سورة (مريم): ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾.

صديق: على وزن «فِعّيل» من صيغ المبالغة والتكثير، ويأتي بمعْنَيَيْن:

المعنىٰ الأول: أنَّه عظيم الصّدْق في أقواله، وفي أعماله.

- أمّا الصّدق في الأقوال بالنسبَةِ إلى المتكلّم، فهو أن يقول المتكلّم كلاماً مطابقاً لما يَعْتَقد.

- وأمّا الصَّدق في الأعمال، فَهُو أن تكُونَ إرادَةُ العامل بعملِه مطابقَةً لما يَدُلُّ عليه العَمَلُ الظاهر، فلا يكون منافقاً ولا مُرَائياً يُرِيدُ بعَمَله الظاهر غير ما يَدُلُّ عليه.

فالصلاة عمل ظاهر، يَدُلُّ على أنَّ المصلِّي يَعْبُد الله بها، فإذَا كان يُرِيد بصلاته هذه مراءَاةَ الناس، ليكْسِبَ منهم مغنماً، إذْ يتصوّرون أنَّه من أهل التقوى، كان كاذباً في عمله غير صادق.

وإعلانُ الشهادتَيْنِ اللّتَيْنِ تُدْخِلَان الكافر في الإسلام، عمل ظاهر يدلُّ على أنّ النَّاطق بالشهادتين مؤمِنٌ بأرْكانِ الإيمان، فإذا كان يُريد بالنُّطْق بِهما إيهامَ المسْلِمين بأنّه صار مُسْلِماً، وهو في قلبه غَيْرُ مؤمِنٍ حقًّا بأرْكان الإيمان، كان كاذباً في عمله هذا غَيْرَ صادق، وهو كافرٌ منافق صاحب غرض يقصِدُه من نفاقه، وكالشهادَتين سائر الأعمال الإسلاميَّة بالنسبَة إليه.

وقد صَحّ عن النبيّ ﷺ أنَّه قال:

«وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّاباً».

المعنى الثاني: أنَّه كثير التَّصْدِيقِ بمَا يَأْتِي مِنْ بَيَانَاتٍ عن الوحي الصَّادق، فلا يشُكُّ في شيءٍ منها، مهما كان من العجائب والغرائب وخوارقِ العادات.

الصفة الثانية: أنَّهُ كَانَ نِبِيًّا، أي: اصْطَفَاهُ الله للنُّبُوّة، فأوحَىٰ إليه ونبَّأه بما شاء أن يُنَبِّئَه به من أمور الدّين، ومن الحكمة، ومن الحقائق الغيبيّة، وغير ذلك.

دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى في سورة (مريم): ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

الصفة الثالثة: أنَّهُ كان عليه السّلام رَسُولًا، إذْ ذَكَرَهُ الله عزّ وجل ضمن طائفة من الرُّسُل في سورة (الأنبياء) فقال تعالى فيها عطفاً على عدد من الرسل:

﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

فهو بهذا البيان قد كان رَسُولاً لأمَّةٍ من الأمم السابقة، وسيأتي إن شاء الله ما ذكره المؤرخون بشأنه.

الصفة الرابعة: أنَّهُ عليه السلام قد كان من الصّابرين، وقد دَلَّ على هذه الصفة ما جاء في الآية الآنفة الذكر من سورة (الأنبياء).

أي: كان من الصابرين على مشقّات العبادات، وما كان منها من أفعال ينبغي له أن يفعلها، أو يَحْسُنُ به أن يفعلها. وما كان منها من تُرُوك يَنْبَغِي لَهُ أن يَتْرُكَها، أو يَحْسُنُ به أنْ يَتْرُكها.

وكان من الصابرين أيضاً على ما كان يَبْتَلِيه اللَّهُ به من المصَائِب والمؤلمات.

الصفة الخامسة: أنَّهُ كان عليه السَّلام من الصالحين، وقد دَلَّ على هذه الصفة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء) متحدّثاً عنه ضمن طائفة من المرْسلين: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

ومعنى كونه من الصالحين أَنَّهُ كان عليه السَّلامُ خالياً من الشوائب المفُسِدَة لما تكون فيه. وَكان من النافِعين المفيدين حيثُما حلَّ وارتَحَل.

يقالُ لغة: صَلَح الشيءُ، أي: زَال عنْهُ الفساد. وصار نافعاً مفيداً لَا فَسَاد فيه.

وقد جاء في القرآن لفظ «الصّالِحين» وصفاً للأنبياء والمرسَلين، ووصفاً للمؤمنين ذوي الدّرجات الرّفيعات في البرّ والإحسان.

الصفة السادسة: أنّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ رَفعَهُ مكاناً عَلِيًّا، أي: رفعَهُ الملَكُ الَّذِي أَمَرَهُ الله برفعه إلى السّماء الرابعة، لأنّ الله عزّ وجلَّ قضىٰ بأن تُقْبَض رُوحُه وهو في الموضع الذي وصل إليه من السّماء الرابعة، قال المؤرخون: وكان عمره حين رَفْعِه (٨٢) سنة.

وجاء في حديث معراج الرَّسُول ﷺ، الّذي رواه البخاريُّ ومسلم، قول الرَّسُول:

«ثُمَّ صَعَدَ بي (أي: جبريل) حتَّىٰ أَتَىٰ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قال: «جبريل». قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّد. قيلَ: وقَدْ أُرْسِلَ إلَيْه؟. قال: نعم. قِيلَ: مَرْحباً بِهِ، فَنِعْمَ المجيءُ جَاءَ. فَفُتِحَ. فلَمَّا خَلَصْتُ فإذا إدْرِيس، فقال: هذا إدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمْتُ علَيْه، فَرَدَّ. ثُمَّ قَالَ: مَرْحباً بالْأَخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ».

قول الله تعالى في نصّ سورة (مريم):

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾:

أي: وضَعْ في ذاكرَتِكَ أَيُّها المتلَقِّي أيًّا كنْتَ خبراً منزلاً في الكتاب (= القرآن) فاحفظه، وتَدَبَّرْهُ، واسْتَذْكِرْهُ عند المناسبات الداعيات لتنتفع به، ولتفيد به غيْرَكَ.

وقد سبق تدبُّر نظائر هذه العبارة، مع مزيد من البيان.

وهذه العبارة معطوفة على نظيراتها في السورة.

إدريس عليه السلام على ما ذكر المؤرّخون بشأنه:

ذكر المؤرخون عن الإسرائليّين، أنَّ «إدْرِيسَ عليه السَّلام» هو أَخْنُوخُ بْنُ يَارَدَ بْنِ مَهْلَلْئِيل بْنِ قَيْنَان بْنِ أَنُوش بن «شِيث عليه السّلام» بن آدم عليه السلام.

وذكر المؤرخون أنّ «شِيثاً» كان رَسُولاً، وأنّ الله قد أنزل عليه كتاباً يُسمَّىٰ «صُحُفَ شيث».

وجاء في الأثر عن النبي ﷺ فيما رواه أبو إدريس الْخَوْلَاني، عن أبي ذَرّ الغفاريّ:

«أنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَىٰ شِيثٍ خَمْسِينَ صَحِيفَةً، وعلىٰ إدْرِيسَ ثَلَاثِينَ صَحِيفةً».

وذكر المؤرخون أنّ أُمَّةَ السُّرْيَان أَقْدَمُ الأمم، وأنْ مِلّتَهُمْ هي مِلَّةُ الصَّابئين، نِسْبةً إلى «صَابِي» أَحَدِ أولاد «شيث» عليه السلام.

وذكر الصّابِئُون أنَّهم أَخذُوا دِينَهُمْ عَنْ شِيثٍ وإدْريسَ عليهما السلام، وأنَّ لهم كتاباً يَعْزُونَه إلى «شيث» ويُسَمُّونَه «صُحُفَ شِيثٍ».

ويتضمَّن هذا الكتابُ على ما ذَكَرُوا ما يلي:

(١) الأمرَ بمحاسِنِ الأخلاق، والنَّهْي عن الرَّذائل.

(٢) الأمْرَ بعبادة الخالق جلَّ جلالُه وحْدَهُ لَا شريك له.

(٣) تخْلِيصَ النُّفُوس من العذاب في الآخرة بالْعَمل الصالح.

(٤) الْحَضَّ علىٰ الزُّهْدِ في الدُّنيا.

(٥) العمل بالعدْل.

وذكر المؤرخون أنّ للصابئين عباداتٍ منها ما يلي:

(١) سبع صلوات في اليوم واللَّيْلَة: خمس صلوات منهنَّ توافق صلَوات المسلمين، والسّادسة صلاة الضُّحَى، والسابعة صلاةٌ يكون وقْتُها في السّاعة السّادِسة من اللَّيْل.

وصلاتهم تُشْبِه صلاةَ المسلمين، بالنيَّة، وبعدم خَلْطِها بشيءٍ من غيرها.

قالوا: ولَهُمْ صلاةٌ علىٰ الميّتِ بلا رُكوعٍ وَلَا سُجود.

قالوا: وعندهم صيامُ شهرٍ قَمَرِيٍّ من السَّنَة، ويَصُومُونَ من رُبْعِ اللّيل الأخير حتَّىٰ غُرُوب قُرْصِ الشمس.

ويُعظّمُونَ بيتاً للّهِ في مَكَّة.

قال ابن حزم: والدِّينُ الذي انْتَحلَهُ الصابئون أقْدَمُ الأدْيان على وجْهِ الدَّهر، وقد كان هو الغالبَ على الدُّنيا، إلى أن أحْدَثوا فيه الحوادث.

قال المؤرخون: «إدْريس» عليه السلام هو أوّلُ من خَطَّ بالْقَلَم، وأوّلُ مَنْ نَظَر في النجوم والْحِسَاب، وأوّلُ من خاط الثياب.

قالوا: وَكانت مُدَّةُ إقامة «إدْريس» عليه السلام في الأرض (٨٢) سنة، ثُمَّ رَفَعَهُ الله إليه.

وكان مَكْتُوباً على فَصِّ خاتمه: «الصَّبْرُ مَعَ الإيمَانِ بِاللَّهِ يُورِثُ الظَّفَر».

وكانت لَه مواعظ وآداب، ومنْ حكْمَتِه أنَّهُ كان يكْتُبُ على المِنْطَقَةِ الَّتِي يَلْبَسُها: «الأَعْيَادُ في حِفْظِ الْفُروضِ، والشَّرِيعَةُ مِنْ تَمَامِ الدِّينِ، وتَمَامُ الدِّينِ كَمَالُ الْمُرُوءَة».

وكان مكْتُوباً علىٰ المِنطَقةِ الّتي يَلْبَسُها وَقْتَ الصَّلاةِ علىٰ الميّت: «السَّعِيدُ مِنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ، وشَفَاعَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ أعْمَالُهُ الصَّالِحَة».

ومن كلامه: «لَنْ يَسْتَطِيعَ أحَدٌ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَىٰ نِعَمِهِ بِمِثْلِ إنْعَامِهِ علىٰ خَلْقِهِ».

ومن كلامه: «إِذَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَأَخْلِصُوا النِّيَّةَ، وكَذَا الصِّيَامَ والصَّلاة فَافْعَلُوا».

ومن كلامِهِ: «تَجَنَّبُوا المكَاسِبَ الدَّنِيئَة».

إلى غير ذلك من أقوال منسوبة إليه.

ويزعم جماعةٌ من أهل العلم أنَّ جميع العلُوم الَّتي ظَهَرَتْ قَبْلَ الطُّوفَان، إنَّما صَدَرَتْ عَنْه.

واللَّهُ أعلم بكلّ ذلك.

وبهذا انتهى تدبر الدّرْس السادس، والحمد لله على معونتِهِ وتوفيقه.

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس سورة (مريم) وهو الآية (٥٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩ ﴿٥٨﴾﴾.

القراءات:

- قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء في الموضعين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الهاء في الموضعين أيضاً.

- قرأ نَافع: [النَّبِيئِينَ]. وقرأها باقي القراء العشرة: [النَّبِيّينَ].
- قرأ أبو جَعْفَر: [إِسْرَايِيلَ] بالتسهيل مع المدْ.
- وقرأها باقي القراءة العشرة: [إِسْرَائِيلَ] بتحقيق الهمزة.
- قرأ حمزة، والكِسَائيُّ: [وَبِكِيًّا] بِكَسْرِ الباء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَبُكِيًّا] بضم الباء.

وهذه القراءات وجوهٌ عَرَبيَّةٌ في النطق.

تمهيد:

هذه الآية آية مدنيَّة التنزيل تأخّر إنزالُها لأنَّ فيها بياناً عن بعض الذين آمَنُوا من اليهود بعد الهجرة، فهداهم الله كعبد الله بن سلام، وضمت إلى سورة(مريم) المكية للمناسبة الفكرية.

جاءت هذه الآية عقب ذكر طائفة من النّبيّين، بَدْءاً من «زَكَرِيَّا» عليه السلام، الذي جاء الحديث عنه في أوّل السورة، وحتَّىٰ «إِدْرِيسَ» عليه السلام الذي جاء الحديث عنه في الآيتين (٥٦ و٥٧) منها، وجاءت الإشارة إليهم باسم الإشارة: [أُولئِكَ].

قد يقال: لم خصَّ اللَّهُ عزّ وجلّ هؤلاء النبيّين بأنَّهُ أَنْعَمَ عليهم، وجعل ذلك مقصوراً عليهم، أخذاً من تَعْريف طَرَفي الإسناد، في قول الله تعالى في الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مع أنّ كُلَّ النبيّين قَدْ أنْعَمَ الله عليهم بنعمة النبوّة، ومنهم من أنعم الله عليهم بنعمة الرّسالة.

أقول: إنَّ هؤلاء النبيّين المذكُورين في السُّورة، بدءاً من «زكريا» عليه السلام، وحتى «إدْريسَ» عليه السّلام قَدْ أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ في حيواتهم نِعماً خاصَّةً لم تُوجَدْ نظائرها في سائر النبيّين.

(١) فزكريا عليه السلام قد وهبَ لَهُ الله على كِبَرِ سِنِّه وكَوْنِ امرأتِه عاقراً النبيّ الرَّسُول «يَحْيَىٰ» عليه السلام.

(٢) و«يَحْيَىٰ» بن زكريّا عليهما السلام قَدْ آتاه اللَّهُ الْحُكْمَ صَبِياً، وقال الله عزّ وجلّ بشأنه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

(٣) و«عيسى» بن مَرْيَم عليه السَّلام قد خلقه الله من أُمّ بلا أَبٍ، ليكون آيَةً من آيات الله للناس، وأنْطَقَهُ وهو صَبيٌّ رضيع في المهد، إذْ ﴿قَالَ﴾ للناس من حول أُمّه الّتي تُرْضِعُه: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

(٤) و«إبْراهيم» عليه السلام قد أنْعَمَ اللَّهُ عليه بتسْلِيمه من النار الّتي قَذَفه فيها النمرود، إذْ قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

وأنعم عليه بأن وَهَبَ له من زوجته «سارَة» العاقر «إسحاق» نبياً رَسُولاً.

وأنعم عليه إذْ فدىٰ وَلَدَهُ «إسماعيل» من الذبح، بذِبْحٍ عظيم جاء به الملَكُ إليه، وأعْلَمَه أنّه قَدْ صَدَّقَ الرُّؤيا، وباشر التنفيذ، لكن الله أنعم عليه بالفداء، وإسقاط تكليفه بذبح ولَدِه.

(٥) و«موسى» عليه السّلام، قد أنعم اللَّهُ عليه بالنجاة من القتل وهو صبيّ، وأنعم عليه بأنْ رَبَّاه في القصر الفرعوني، الذّي أصدر الأمر بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل، في سنة ميلاده.

وأنعم عليه بأن كلَّمه تكليماً سمعته أُذُناه عند جبل الطور.

وأنعم عليه إذ استجاب لدُعائه فجعل له أخاه هارون نبيّاً رَسُولاً.

(٦) و«إسْمَاعيل» عليه السّلام أنعم الله عليه بالْفِدَاء من الذَّبحْ.

(٧) و«إدْرِيسُ» عليه السّلام أنعم اللَّهُ عليه بأن رَفعه وهو حيٌّ إلى السَّماء الرابعة، وفيها قُبِضَتْ رُوحه.

هذه نِعَمٌ خاصَّةٌ لَمْ تَجْرِ نظائرها لسائر النبيّين، فصحَّ استعمال العبارة الدالَّة على الحصر والقصر في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: نعماً خاصَّةً لم يكن لسائر النبيين نظائرها.

التدبّر:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

سبق في التمهيد بيان الغاية من القصر في هذه العبارة.

الإنْعَام: الإحْسَانُ والزّيادة من العطاء، والقرائن تَدُلُّ على المراد.

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: حرف «من» للتَّبعيض، أي: من بعض النبيّين.

- ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾: وينطبقُ هذا البيان على «إدريس» عليه السلام، لأنّه كان قبل «نوح» عليه السلام.

- ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾: أي: مَنْ بقي منهم، وهم ذُرّيَّته، لقول الله عزّ وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٢٦﴾.

- ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾: وينطبقُ هذا البيان على «إسماعيل» و«مُوسَىٰ» و«زكريا» و«يَحْيَىٰ» و«عيسَىٰ» عليهم السلام.

«**إِسْرَائيلُ**» هو يعقوبُ عليه السلام، ومعنى لفظ «إسرائيل» يُجَاهِدُ مع الله.

- ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾: أي: وممَّنْ حَكَمْنَا لَهُ بالهِدَايَة من عبادِنا إذْ وَجَدْنَاهُ مَهْدِياً، وممَّن اجْتَبْيناه فجعلْناه رَسُولاً أو من المقرّبين.

الاجتباء: الاصطفاء والاختيار، وإنّما يجتَبِي اللَّهُ الصالحين من عباده.

- ﴿... إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: إنّ المعنيين ممّن هَدَيْنَا واجْتَبَيْنا، من صفاتهم أَنَّهُمْ إذَا تُتْلَى عليهم آيَاتُ الرَّحْمٰن البيانيّة المنزلَة على رسُولٍ من رُسُلِنا، خرُّوا سُجَّداً وبُكيّاً جاء ذكر «الرحمٰن» هنا للإشعار بأن صفة رحمة الله هي الماثلةُ في تصوراتهم فهم يلتمسون فيوضها.

﴿خَرُّوا﴾: أي: هَوَوْا بِدُون توقف. يقال لغة: خَرَّ يَخِرُّ، ويَخُرُّ، خَرّاً، وخَرِيراً، وخُرُوراً، أي: سَقَطَ بلا تَوَقُّفٍ من عُلْوٍ إلىٰ سُفْلٍ بصَوْت، فيقال مثلاً، خرَّ الماء، وخرّ البناء.

ويقال: خَرَّ الْعَابِد راكِعاً أو ساجداً، أي: فَعَلَ كما يَفْعَلُ الماء ساقطاً، مع صَوْتِ الذِّكْرِ للّهِ عزّ وجلَّ.

﴿سُجَّدًا﴾: أي: حالة كونهم سُجَّداً لله عزَّ وجل عابِدِين خاضعين.

سُجَّد: جمع «ساجد» ويجمَعُ أيضاً على «سُجُود» جمعاً مشابهاً في اللَّفظ للمصدر.

يقال لغة: سَجَدَ، يَسْجُدُ، سُجُوداً ، أي: خضع، وأحْنَىٰ ظَهْرَه،

وتَطَامَنَ، وغاية السّجودِ تكونُ بوضع الجبْهَة على الأرض، فيُطْلَقُ على الركوع لغة لفظ السُّجود.

والسُّجود في الاصطلاح الشرعيّ في الإسلام، يكون بوضع الجبْهَةِ على الأرض، مع الكفّينِ من جهة باطنهما، ومع الرُّكبتَيْن، والقَدَميْن، لقول الرَّسُول ﷺ:

«أمِرْتُ أنْ أسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أعْظُم».

وأبان الرَّسُول ﷺ بالتطبيقِ العمليّ كيْفِيَّةَ السُّجود.

[وَبُكِيّاً] الأظهر في لفظ «بُكِيّ» أنّه جمع «بَاكٍ» على غير قياس.

جاء في «لسان العرب» لابْنِ منظور: **الْبَكِيُّ**: الكثير الْبُكاء، على «فَعِيل» ورَجُلٌ بَاكٍ، والجَمْعُ «بُكَاة» و«بُكِيّ». فمَنْ جَعَلَ «بُكِيّاً» مصدراً، وأوّلَهُ بمعنى الْبكائين، فقد تعَسَّفَ وتكَلَّف.

وكَسْرُ الْبَاءِ في القراءة الأخرى للإتْبَاع.

والبكاء من خشية الله مظهر من مظاهر انْفِعَالٍ نَفْسِيٍّ مُرَكَّبٍ من الحبّ، والإجْلالِ، والخوْف.

وهٰذه الصِّفة التي جاءت في هذه العبارة قد وصف اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها بعضُ العلماء من أهل الكتاب، فقال الله عزَّ وجلَّ في معرض الحديث عن القرآن في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿. . . إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

ذكر المفسّرون من هؤلاء الّذين أُوتُوا الْعِلْمَ منْ قَبْلِ القرآن، الذين جاء وصفهم في هذا النصّ:

(١) زَيْدَ بْنَ عَمْرو بْنِ نُفَيْل.

(٢) ورَقَة بْنَ نَوْفَل.

(٣) عبد الله بْنَ سَلَام.

وأرى أنّ التكرير الّذي جاء في هذا النّصّ مبيّناً لخرورهم، إنّما يَصِفُ حالتَيْن لهم، أو حالتَيْن لِقِسْمَيْن منهم:

الحالَةُ الأولى: أنَّهم يَخِرُّون لِلأذْقَانِ سُجّداً، ويقولون في سُجُودِهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. أي: إنَّ وَعْدَهُ الَّذِي جَاء في كُتُب أهْلِ الكتاب بِبَعْثِ مُحَمَّدٍ خاتَم الأنبياء والمرسَلِين، قَدْ تَمَّ، وصَارَ حقيقةً مَشْهُودَة.

الحالَةُ الثانية: أنَّهُمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ، فَيَمْنَعُهُمُ البكاء من التسبيح، ويَزِيدُهُمُ القرآن خُشوعاً، أي: وَيَزِيدُهُمْ التفكُّرُ في معانيه ودَلَالاته سُكوناً وطُمَأْنِينَةً، إيماناً بالحقّ الذي كانوا مؤمنين به خبراً، قبلَ وُقُوعه فِعْلاً بِبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وتَنَزُّلِ القرآن عليه.

وأبان الله عزّ وجلّ أيضاً أنّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيات اللَّهِ البيانيَّة المنَزَّلة إيماناً راسخاً، من مستوىٰ إيمان الأبْرَارِ والمحسنين، من صفاتهم أنَّهم إذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ اللَّهِ خَرّوا سُجّداً، وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبّهِمْ في سُجُودهم، وهم لا يَسْتَكْبِرُونَ، ومِنْ صِفَاتِهم أنَّهم تَتَجافَىٰ جُنُوبُهُمْ عن المضاجع، نُهُوضاً إلىٰ عبادة الله عزّ وجلّ، وأنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ في حالَةِ الخوفِ، لِيَحْمِيَهُمْ مِمَّا يَخافون، وفي حالة الطمع، لِيَهَبَ لهم مَا يَطْمَعُونَ فيهِ، وأنَّهُمْ يُنْفِقُونَ ممّا رَزَقَهُمُ الله.

فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (السَّجْدَةَ/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أمّا المؤمِنُونَ مِنْ عُلْيَا دَرَجَاتِ مَرْتبة المتقين، فَقَدْ جَاءَ وصْفُهُمْ في سُورَةِ (الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها على سبيل الحصر أيضاً:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

تتمّات تَحْلِيليّة لتدبّر الآية (٥٨) من سورة (مريم):

(١) تضمَّنَتْ هٰذِهِ الآية بيان أنَّ النبيِّن ذُرِّيَّةٌ بعضهم من بعضٍ إلى آدم عليه السلام، فالْمُوَرِّثَاتُ المؤهّلاتُ للاصطفاء بالنبُّوةِ، فالاصطفاء للرّسالة، مُنْحَصِراتٌ بِحِكْمَةِ الله في خُطَّةِ تكْوِين المجتمع البشريّ في أصلابِ النبيِّين، وَذَرَاريهم.

- فالنَّبِيُّونَ جَمِيعاً مِنْ ذُرِّيَّة النَّبِيّ آدم عليه السلام، دلَّ على هذا قول اللَّهِ عزّ وجلّ في الآية:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾.

- النَّبِيُّون الّذِينَ كَانُوا قبل نوح عليه السَّلام، وقَدْ ذُكِرَ مِنْهُمْ في السُّورة «إدْرِيس» عليه السلام هم مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم بداهة.

ونوح عليه السلام هو أيضاً من ذُرِّيَّة آدم بداهةً، وعند أهل الكتاب التَّوْرَاتِيِّين أنّه من ذُرِّيَّةِ «إدْريس» الّذي هو من ذُرِّيَّة «شِيثٍ» بن آدم، عليهم السّلام.

• والنَّبِيُّونَ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام هم من ذُرِّيَّة نوح، دَلَّ على هذا قول الله تعالى في الآية:

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾.

ولمّا كانت هٰذه العبارة تحتملُ أن يكون الأنبياء من بَعْدِ نوح من غيْر ذُرّيّته، لأنَّ نوحاً عليه السلام قد حمل معه في السَّفِينَةِ غير أولاده، كان من التكامل التقييدي في البيان الرَّبّاني في القرآن، قول الله عزَّ وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) في معرض الحديث عن نوحٍ عليه السلام:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

أي: فذُرّيّة نوح كانوا هم الباقين من البشر بعد الطوفان، أما الآخرون فلم تكُنْ لهم ذُرّيات.

وعند المؤرخين أنَّ السُّلالَات البشريّة تَرْجع إلى أولاد نوح الثلاثة: «سام» و«حام» و«يافث».

• فالنبيُّون من بعد نوح هم من ذُرّيّته حتماً، ومنهم «إبراهيم» و«لُوطٌ» عليهما السلام.

• أمّا النبيُّون الّذين جاءوا بَعْدَ «إبراهيم ولُوطٍ» عليهما السلام، فهم من ذُرِّيَّةِ إبراهيم، دَلَّ على هذا في الآية قول الله تعالى:

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بَعْدَ قَوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾.

وللإيضاح، ولئلا يقع الالتباس، قال الله عزّ وجل في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقال اللّٰهُ عزّ وجلَّ في سورة (الْعنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم علَيْه السلام:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ . . . ﴿٢٧﴾﴾.

ويَدْخُلُ في ذُرِّيَّته «إسماعيلُ عليه السلام» وخاتم الأنبياء والمرسَلِين «محمّد بن عبد الله» ﷺ، لأنَّهُ من ذُرِّيَّة «إسماعيل» بْن إبراهيم.

فكُلُّ النبيّين الذين جاءوا من بَعْدِ إبراهيم عليه السلام هم من ذُرِّيَّتِه، وكثيرٌ منهم وهم أنبياء بني إسرائيل، هم من ذُرِّيَّة «يَعْقُوب» الّذي هو «إسرائيل» عليه السلام.

وآخرون هم من ذُرِّيَّةِ «إبراهيم» دُون أن يكُونوا مِنْ ذُرّية «يعقوب = إسرائيل» فجاء في آية سورة (مريم):

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وجاء في الآيات من (٨٣ ـ ٨٧) من سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) تَفْصِيلٌ ذُكِرَ فيه عَدَدُ من النبيّين الّذين هم من ذُرِّيَّة إبراهيم عليهم السلام.

وقد أفادنا التدبُّر التكامُلِيُّ للنّصوص القرآنيّة الواردة بشأن هٰذا الموضوع، أنَّ النَّبِيِّين ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهُمْ من بعض إلى آدم عليه السّلام.

وبهذا تمّ تَدَبر الدّرس السابع بمعونة الله وتوفيقه وفتحه فالحمْدُ لَهُ على ما أوْلَىٰ من فَضْلِه.

* * *

(١١)

التدبُّر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٥٩ ـ ٦٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

القراءات:

(٦٠) ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وشُعْبةُ، وأبو جعفر، ويعقوب: **[يُدْخَلُونَ]** بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعله.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[يَدْخُلُونَ]** بالبناء للمعلوم الفاعل.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، أي: يُدْخَلُونَ الجنَّة بأمْرِ الله، فَيَدْخُلونَها حَامِدِين.

(٦٣) ● قرأ رُوَيس: **[نُوَرِّثُ]** من فعْل «وَرَّث» المضعف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة **[نُورِث]** من فعل «أَوْرَثَ» المهموز.

والقراءتان متكافئتان لأن المهموز أخو المضعف في المعنى، فهما من التيسير على الناطقين من العرب أيّام التنزيل.

إنّ التعدية بالتضعيف مثل التعدية بالهمزة.

تمهيد:

جاء هذا البيان في هذا الدَّرْس كاشفاً لأحوال بعض الّذِين خَلَفُوا الأنبياء من ذراريهم من بَعْدِهم، إذ كانوا خَلْفاً فاسِدِين، فلم يحافظوا على وصَايا أجدادِهم الأنبياء، ولم يتَّبِعوا أحكام دين الله، فأضاعوا أعظم رُكْنٍ عَمَلِيّ من أركان الإسلام لله عزّ وجلّ، وهو ركْنُ الصلاة، واتَّبَعُوا شهواتِ نفوسهم من زينات الحياة الدنيا.

وجاء هذا البيان كاشفاً لمصير هؤلاء الفاسدين عند رَبّهم يوم الدين،

ولو كانوا أولاد الْأنبياء أو أحفادهم، باستثناء الَّذِينَ يتوبون إلى الله، ويُؤْمِنُونَ إيماناً صحيحاً صادقاً، ويَعْمَلُون عملاً صالحاً، فإنّ الله يَتُوب عليهم، ويُدْخِلُهُمْ الجنَّةَ يوم الدين خالدين فيها أبداً.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾:

أي: فخلَفَ مِنْ بَعْدِ الأنبياء الّذين سبَقَ ذِكْرُهم في السّورة خَلْفٌ فاسِدُون من ذُرّيَّاتهم، تَركُوا ما كان عليه آباؤهم من الْتِزام للصراط المستقيم، وارْتَكَبُوا المحرّمات، وتركوا الواجبات الدّينيّة، حتَّىٰ أَضَاعوا الصلاة الّتي هي أوّل الأركان العمليَّة وأجلُّها بَعْد إعلان الإسلام لله بفعل ما أَمَرَ به، واجتناب ما نهى عنه، واتَّبَعُوا الشهوات، بدَلَ أَنْ يتَّبِعُوا ما أُنْزل إليهم من ربّهم.

- ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾: الْخَلْفُ بإسكان اللّام الفاسِدُ من الناس الذي لَا خير فيه، والعاصي الكثير الخِلَاف، والذُّرّيَّة الفاسدة، والولَدُ الفاسد.

على ضِدِّ «الْخَلَف» بفتح اللّام، إذْ هُم الْخَلَفُ الصّالح من الناس، والذُّرّيَّة الصالحة، والولَدُ الصالح.

ولمّا كَانَ الّذي هم في مكانٍ ما قَد يخْلُفُهُ فيه غيره مع وجوده حيًّا، كمن يخلف موظّفاً في وظيفته الّتي عُزِلَ عَنْهَا، وكَمَنْ يخلُفُ ساكناً في سُكْنَىٰ مَنْزِلٍ تركه أَوْ أُخْرِج منه.

ولمّا كان الفاسِدُونَ من ذُرّيَّة الأنبياء المذكورين في السورة قبل هذا

النصّ، قد جاءوا من بَعْدِ وَفَيَاتِهم، ولم يخْلُفُوهُمْ في حيواتهم في أماكنهم، ولا في أقوامهم.

كان قولُ الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ قيْداً لازماً، لبيان الواقع، ودَفعاً لاحتمال كونهم خلفوهم في حيواتهم.

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: جَعَلُوا الصَّلَاةَ مفقودَةً مِنْ حَيَواتهم غير موجودة، بسبب إهمالهم لها، وعدم اكتراثهم لأدائها، مع أنَّها أوَّل الواجبات العمليَّة اليوميَّة عليهم تُجاهَ رَبِّهم، بعْدَ إعلانِهم انتماءهم إلى دين الله الإسلام، الَّذِي هو الدين عند الله، مُنْذُ بَدْءِ الخليقة الموضوعة موضع الامتحان في ظروف الحياة الدُّنيا، وحتَّىٰ آخِرِ مكلَّف ممتَحِنٍ منهم.

يقال لغة: أضاع فلانٌ الشيْءَ، أو العملَ الواجب، أي: جعَلَهُ يُفْقَدُ بإهماله له، فلا يكون لَهُ وُجُودٌ يُشاهد، أو لا يكُونُ له وجُودٌ مطلقاً.

ويقال لغة: ضاعَ الشيْءُ يَضِيعُ ضياعاً، أي: فُقِدَ، أَوْ أُهْمِلَ فصار كالمفقود.

والمرادُ بالصلاة العبادة الخَّاصَّة المشتمِلَة على أقوالٍ وأعمال، فيها تلاواتٌ وأذكار ودَعوات، وفيها قيام وركُوعٌ وسُجُود، ولها شروط لأدائها، كالطهارة، وستر العورة، واستقبال القبلة، ودخول وقت وجوبها.

وهٰذا البيان يدُلُّ على أنَّ جميع النَّبِيِّين السَّابقين قد كانوا يُصَلُّون لرَبّهم صلواتٍ مَفْرُوضاتٍ، وكانوا يأمُرُون أتْبَاعهم من المؤمِنين بأدائها. ويَدُلّ علىٰ أنَّ أتْبَاعَهُمْ قد اسْتَمَرُّوا على أدائها من بَعْدِهم، حتَّىٰ جاء الْخَلْفُ الفاسِدُون الَّذِين أضاعوا الصلاة.

- ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾: أي: وَعَصَوُا الله في أوامِره ونواهيه، وأوغَلُوا في الابْتِعَاد عن صراطه المستقيم، بسبب اتّباعهم الشهوات المحرَّمات.

ودَلَّت صيغة الجمع في «الشَّهَوات» على اختلاف أنواعها.

فقد كانت الشهواتُ هي الآسرة لهم، والقائدة لمسيراتهم في حيواتهم.

الشَّهَوات: هي كُلُّ مَا تَرغب فيه النفوس من اللَّذَّاتِ الجَسَدِيَّةِ والنفسيَّة، الّتي جَعَلَها اللَّهُ من زينَاتِ الحياة الدنيا، للامتحان بها، سواءٌ أكانت من المباحات أمْ من المحرَّمات.

والّذي يُخْرِجُ عن صراط الله المستقيم هي الشهواتُ المحرَّمات، فَمَنْ اتَّبَعَهَا للاستمتاع بها وقع في المعاصي لا محالَة، وصغائر المعاصي تجرُّ إلى كبائرها، والكبائر تجرُّ إلى دركات الكفر بالله، وبالْيَوم الآخر، وتُزْلِق مُرْتَكِبِيها إلى طبقاتِ السَّعير، حيثُ الحريقُ في نار جهنَّم وبئْسَ المصير.

- ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾:

﴿فَسَوْفَ﴾: أي: في المستقبل البعيد الّذي يكون يوم الدّين، بَعْد البعثِ للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء الّذي وعَدَ الله به عباده.

﴿يَلْقَوْنَ﴾ أيْ: يَسْتَقْبِلُونَ ويُوَاجِهُونَ بكُلِّ حواسّهم وإدْراكاتهم. يقال لغة: لَقِيَ فُلانٌ الشيءَ، أي: استقبَلَهُ وَوَاجَهَهُ.

﴿غَيًّا﴾: الغيُّ يأتِي في اللُّغَة بمعنى الضَّلال، وبمعنىٰ الفساد، وبمعنىٰ الخيبة.

- فعلَىٰ معنىٰ الضلال ومعنى الفساد، يَكُونُ المراد: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عنْدَ رَبِّهم جزاءَ ضلالهم وفسادهم، نتيجة حُكْمِهِ عليهم بالْغَيّ، أي: بأنّهم كانوا في الحياة الدُّنيا ضَالّين فاسِدِين.

وهذا من إطلاق السَّبَب وإرادَة المسبَّب، وهو الجزاء.

- وعلى معنى الخيبة، يكون المراد: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عند رَبّهم يوم الدّين خيبةً عظيمة، يخْسَرُون بها أنفسهم، إذْ يَذُوقُونَ العذابَ الّذِي يَسْتَحِقُّونه، وَيَذُوقُونَ آلَام الحرمان من النجاة، والحرمان من النّعيم الذي أعَدَّهُ اللَّهُ للمتقين في الجنَّة.

- وورد أنّ الغيّ وادٍ في جهنّم.

- وورد أنّ الغيَّ نهرٌ في أسْفَل جهنَّم يَسِيلُ فيه صَدِيدُ أهل النار.

أخرج ابْنُ مُرْدَوَيْهِ عن ابْن عباس عن النبي ﷺ، قال: «الْغَيُّ وَادٍ في جَهنّم».

وكذلك رُوي عن البَرَاء بْنِ عازب.

ورُوي عن أبي أُمَامَة أنَّ النبي ﷺ فَسَّرَ كلمَتي: «غَيّ، وأثام» بقوله: «نَهْرَانِ في أسْفَلِ جَهَنَّمَ يَسِيلُ فِيهمَا صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ».

والله أعلم.

قول الله عزّ وجل:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

استَثْنَتْ هٰذه الآية من الْخَلْفِ الفاسِدِين، الَّذِينَ أَضَاعُوا الصَّلَاة، واتَّبَعُوا الشهوات، الّذِينَ تحقَّقَتْ فيهم ثلاث صفات:

الصفة الأولى: تَوْبَتُهُمْ ممّا كانُوا فيه من إضاعة الصلاة واتّباع الشهوات المحرَّمات عصاةً لله رَبّهم، الأمر الّذي جرَّهم إلى الكُفْر بوجه من وجوه الكفر، وأنزَلَهُمْ إلى شيءٍ من دركاته.

هٰذه التوبة الّتي تداركُوا بها أمْرَهم في الحياة الدُّنيا، قَدْ قِبَلَها اللَّهُ منهم، فغفر لهم ما سَلَفَ من معاصيهم الواقعة في دائرة حقوق الله عليهم.

هذه الصفة دَلَّ عليها قول الله تعالى في الآية: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾.

الصفة الثانية: إيمانُهُم الصَّادِقُ الصَّحِيح، الَّذي جَدَّدُوا به صَفْحَةَ حياتهم، وبَدَؤُوا به صِلَتَهُمْ بِرَبِّهم، وتعامُلَهُمْ معه على قاعِدةٍ اعتقاديَّة صحيحة ثابتة.

وهذا الإيمانُ يَشمل الإيمانَ بالله عزّ وجل، والإيمانَ بكلّ صفاته وأسْمائه الحسْنَىٰ، والإيمانَ بكلّ ما جاء عن الله على لسان رُسُلِهِ الصادقين، والْإِيمانَ بالجزاء وبِيَوْمِ الدّين، وبما فيه من حساب وفَصْل قضاء، وتحقيق جَزَاء في الجنَّة دار المتقين، أو في النار دار تعذيب العُصَاة والمجرمين.

دلَّ على هٰذه الصفة قول الله تعالى في الآية: ﴿وَءَامَنَ﴾ عطفاً على قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾.

الصفة الثالثة: العمل الصالح، الّذي يُعَبِّرُ به التائب الذي آمن عن صِدْق إسلامِهِ لرَبّه، وعن صِدْق إذْعانِهِ لأوامِره ونواهيه، وحَقِّه عَلَيْهِ في أَنْ يُطِيعَهُ ويَعْبُدَهُ وحْدَهُ، دون أن يُشْرِك بعبادته أحداً، فهذا هو العمل الصالح الّذي يَقْبَلَهُ اللَّهُ من عباده.

فَمَنْ حقَّقَ في ذَاتِهِ بإرادته الحرَّة هذه الصفات الثلاث من الْخَلْفِ الفاسِدِينَ، استَدْرَكَ نفسه، فأخْرَجَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالاستثناء من جَمْعِهِمُ المَرْكُوم، وعزَلَهُ عنهم، وجَعَلَهُ مع الذين يَدْخُلُونَ الجنَّة ولا يُظْلَمُونَ شيئاً، فلا يَنْقُصُ اللَّهُ من أجْرِهِ شيئاً بسبب ما كان منه من سيّئات وكبائِرَ وكُفْرٍ، قَبْلَ توبته، وإيمانه ومَا يُؤَدِّيهِ من عَمَلٍ صالحٍ يقبلُهُ اللَّهُ منه.

وقد دلَّ على هٰذه الصفة الثالثة قول الله تعالى في الآية: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

وأشار الله عزّ وجلّ إلى ارتفاع منزلة التائبين الذين آمنوا وعملوا

صالحاً من الْخَلْف الفاسدين، ارْتفاعاً عظيماً، عن الخليط الفاسِدِ الذي كانوا فيه، باستعمال اسم الإشارة «أُولَٰئِكَ» الموضوع للمشار إليه البعيد، والمرادُ بُعْدُ مَنْزِلَتِهِمْ في جهةِ العلوّ، فقال الله تعالى في الآية:

﴿... فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

الظلْمُ: تجاوز الحدّ، ووضْعُ الشيء في غَيْرِ مَوْضعه، وإعطاءُ ذي الحقّ أنْقَصَ من حقّه الثابت له، ولَوْ بالْوَعْدِ الكريم.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدل من لفظ «الجنَّة» في قول الله تعالى في الآية (٦٠) ﴿فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

الجنة: اسْمُ عَلَمٍ علىٰ كل دار النَّعيم الّتي أعَدَّها الله عزّ وجلّ للمؤمنين، على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، يدخُلُونَها خالِدين يوْمَ الدّين، يَوْمَ الجزاء الأكبر، يَدْخُلونَها بفَضْلِ الله، ولكن بسبَبِ إيمانِهم وإسلامهم وأعْمَالهم الصالحَةِ في الحياة الدُّنيا دار الابتلاء.

وقد وصف الله عزّ وجلّ هٰذه الجنَّة بأنّ عَرْضها كعَرْض السَّماء والأرض، فقال تبارك وتعالى في سورة (الحديد/٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

وهٰذه الجنَّةُ الكُبْرَىٰ العظمىٰ ذاتُ أقْسَام ومَرَاتِب ودَرَجَاتٍ متفاضِلَاتٍ، وكُلُّ قسْمٍ من أقْسامها هو بمفْرَدِهِ جنَّةٌ كَبيرةٌ جدّاً، مُتميِّزَةٌ بحُدُود وصِفَاتٍ خاصَّة، تتناسَبُ مع أَحْوَالِ مُسْتَحِقّيها من أهل الإيمان.

فهي باعتبار أقْسَامِهَا جَنَّاتٌ كثيراتٌ. وباعتبارها داراً عامَّةً لِنَعيم المؤمنين على اختلاف مراتبهم ودرَجَاتهم، جنَّةٌ كُبرىٰ عُظْمَى، متميّزَة عن سائر ما خَلَقَ الله من أكْوان، كتَمَيُّزِ دَارِ عذاب الكفرَة والعاصين.

﴿عَدْنٍ﴾: أي: ثَباتٍ واستقرار دائم.

يقال لغة: عَدَنَ بالمكان يَعْدِنُ وَيَعْدُنُ عَدْناً وَعُدُوناً، أي: استَقَرَّ فيه وثبت. وتقول: عَدَنْتُ البلَدَ، إذا جَعَلْته لَكَ وطناً للاستقرار والثبات فيه.

فَجَنَّاتُ عَدْنٍ، هي جنَّاتُ ثباتٍ واستقرار، وهي وسَطُ الجنَّاتِ ضِمْنَ الجنَّةِ العظمىٰ.

وقد جاء ذكْرُ جنَّاتِ عَدْنٍ في القرآن (١١) مرَّةً في (١١) سورة. ولدى تدبّر النّصُوص الّتي فيها لفظ «جنَّاتِ عَدْنٍ» لا بُدَّ أن يكتَشِفَ المتدبّر أنَّها درجاتٌ مُرْتَفِعَاتٌ من الجنَّاتِ هي فوق الدُّنيا، ودونَ الفردوس الأعلى.

- فقد جاء في بعضها أنَّ أهل جنَّاتِ عَدْنٍ يُحَلَّوْنَ فيها من أَسَاوِرَ مِنْ ذَهب، أمّا الذين هم فيما دُون جنَّاتِ عَدْن فيُحلَّوْن أَسَاوِر مِنْ فضَّة.

- وجاء في بعضها بيانُ أنّ الدَّرجات الْعُلْيا في الجنَّةِ هي جنَّاتُ عَدْنٍ.

- وجاء في بعْضِها وَصْفُ أهْلِ جَنَّاتِ عَدْنٍ من المسلمين بأنَّهم يُؤْمِنُونَ بالله ورسُوله، ويجاهدون في سبيل الله بأمْوَالِهِمْ، وأنفسهم، ومعلوم أنّ هذا الجهاد من أعمال السّابقين بالخيرات بإذْنِ الله، وليس من أعمالِ الظالمين لأنفسهم، ولا من أعمال المقتصدين.

- وجاء في بَعْضِها بيانُ أجرِ مَنْ أحْسَنَ عملاً، بأنَّ لهم جنَّات عَدْن، ومعلوم أنّ من أحْسَنُوا عملاً هُمْ فوق الظالمين لأنفسهم وفوق المقتصدين.

- وجاء في بعضها بيان أنّ الذين صَبَروا ابتغاء وجْهِ رَبِّهم، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا ممَّا رَزَقَهم الله سِرّاً وعلانية، ويَدْرَؤُون بالحَسَنةِ السَّيِّئة، لهم جنّات عَدْن، ومعلوم أنَّ هذه الصفات هي من صفاتِ السابقين بفعل الخيرات.

- وجاء في النصّ الذي نتدبَّره من سورة (مريم) بيانُ أنّ جنَّاتِ عَدْنٍ يُورِثُها اللَّهُ من عباده مَنْ كان تَقِياً، أي: بالغاً الدَّرَجَةَ العلْيا من دَرَجاتِ التقوى، لأنَّ لفظ «تَقِي» على وزن «فَعِيل» وهذا من صيغ المبالغة، أي: ليس مقتصراً على أن يكون متقياً بعض التقوى، بل هو تقيٌّ(١).

- ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾:

جاء في هٰذه العبارة وصْفُ جنَّاتِ عَدْنٍ بأنَّها الّتي وَعَدَ الرَّحمٰن بها عبادَهُ، فيما أنزلَ من كُتُبِه، وفيما أنْطَقَ به رُسُلَه.

والعائد في صلَة الموصول محذُوفٌ مُقَدَّر، أي: وعَدَها الرَّحْمٰنُ، أو وعَدَ بها الرَّحمٰن عباده.

وتوحي هذه العبارة بأنّ الموْعُودِينَ هم فئة عباد الرحمٰنِ المرشحين لأن يكونُوا أئمَّةً للمتقين، والذين جاء بيان صفاتهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) والّتي سبَق تَدَبُّرُها.

وهذا ينسجم مع ما سَبَق بيانُه من أنّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» دَرَجَاتٌ مُرْتفعاتٌ من الجنَّاتِ، وأنَّها تَقَعُ وَسَطاً بين الدَّرَجَات السُّفلَىٰ، وبين الفردوس الأعلى.

الْوَعْد: هو الإخبار بما تَمَّ العزْمُ علىٰ فِعْلِهِ في المستقبل، يكونُ في الخير، ويكُونُ في الشرّ.

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملحقي سورة (مريم): «جنَّات عَدْنٍ ومستحقوها».

يقال لغة: وعَدَهُ بنفع، ووعَدَهُ بضُرّ. ويقال أيضاً: وَعَدَهُ نفعاً، ووعَدَهُ ضُرّاً، ففعل: «وَعَدَهُ» يتعدّى للمفعول به الثاني بنفسه، أو بحرف الجرّ «الباء».

وهذا الوعْدُ مُوجَّهُ لِعُمُوم عِبادِ الله، ولكِنَّ المَوْعُودَ به لا يُنال إلَّا بشَرْطه، وشَرطُ الظَّفَر يوم الدّين بجنَّاتِ عَدْنٍ أنَّ يكون المؤمِنُ تَقِياً، أي: بالغاً دَرَجَةَ الكمال في التقوىٰ بصورة عامة، لقول الله عزّ وجل في الآية (٦٣) من هذا النصّ:

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: جارٌّ ومجْرُورٌ متعلّقانِ بحالٍ مَحْذُوفَة، صاحِبُها ضميرُ الجنّات، والباء ظرفيّة بمعنى «في» والتقدير: جنّات عَدْنٍ الّتي وَعَدَهَا الرَّحْمٰنُ حَالَةَ كَوْنِهَا مَوْجُودَةً في عَوالم الغيب عَنِ الموعُودِين بها.

الغيب: هو كُلُّ ما هُو محْجُوبٌ غائبٌ عَمَّنْ هو لا يُشَاهِدُه، إذْ بَيْنَه وَبَيْنَه حجابٌ ماديٌّ أو معنويٌّ مكانِيٌّ أو زَمَانِي، أو لَيْسَ لَدَيْهِ الأداة الصالِحَةُ لأن يُشَاهِدَهُ بها.

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾: أي: إنَّ الله مُحقِّقٌ وَعْدَهُ حتْماً، فإمَّا أنْ يَأْتِي إِلَيْهِ الموْعُودُ به، إذَا كَانَ ممّا يُؤْتَىٰ إليه كالجنَّة، وأمَّا أنْ يُؤْتَىٰ بالشيء الموعُود به إلى مَنْ كانَ هو المقْصُودَ بالوعْدِ، إذا كان هذا الشيْءُ ممَّا يُؤْتَىٰ به في العادة، كطعام أو كُسْوة أو مالٍ قابلٍ لأنْ يُنْقَلَ ويُؤْتَىٰ به.

فالمكانُ المسْتَقِرُّ مثلاً، يُؤْتَىٰ إلَيْه، وتحقيقُ الْوَعْدِ به يكونُ بإيصال الموعود إليه، أو تمكينه من الوصول إليه، وإحْلاَلِه فيه، تمليكاً أو انتفاعاً وارتفاقاً.

والأشياء الّتي من شَأْنِها أَنْ تُنْقَلَ، يُؤْتَى بها للموعُودِ، تحقيقاً للوعد.

والموعُودُ به في كلْتَا الحالَتَيْن مأْتِيٌّ إلَيْه، أو مأتِيٌّ به.

﴿مَأۡتِيّٗا﴾: «مَـأْتـي» اسـم مـفْـعُـولٍ من فِـعْـل «أتَـى يَـأْتـي فـهـو آتٍ» والمفعول: مأتِيٌّ إليه، أو مأتِيٌّ به، وحذفُ المفعول في مثْلِ هذا كثير.

﴿وَعۡدُهُۥ﴾: **الوَعْدُ**: مَصْدَرُ «وَعَدَ» وقد أريد به هُنَا الشيْءُ الموعُودُ به. وهذا من إطلاق السَّبَب وإرادة المسبّب، أوْ من إطلاق الملزوم وإرادة لازمه، فالوعْدُ يسْتلْزِمُ عقلاً موعوداً به.

واستعمالُ فعل «كان» في هذه العبارة يَدُلُّ على الكيْنُونَة الدائمة المستمرّة، الّتي تُصَاحِبُ كُلَّ الأزمِنَة، الماضِية، والحاضرة، والمستقبلة، لأنَّها تتعلَّقُ بصفةٍ من صفات الله جلَّ جلَاله وعظم سلطانه.

قول الله تعالى:

- ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾:

هذا وصفٌ يتعلّقُ بجنَّاتِ عَدْنٍ وأهلها وهم يُنَعَّمُونَ فيها.

﴿لَغۡوًا﴾: **اللَّغْوُ**: هو ما لا يُعْتَدُّ به من كلامٍ وغيره، إذْ لَا فائدة منه، ولا نَفْعَ فيه، وكذلك الكلامُ الّذي يَنْطَلِقُ من لسان ذي الإرادة، ولكن لا يُريد به معناه، كلَغْوِ الْيَمِين.

فأهل «جَنَّاتِ عَدْنٍ» هم في نعيم دائم، ومعلومٌ أنَّ اسْتِمْرَارِيَّةَ النَّعِيم لَا تَسْمَحُ بأَنْ يَضيعَ أقَلُّ وَقْتٍ مِنْهُمْ في اللَّغْوِ، حتَّىٰ اللَّغوِ في الكلام، لأنَّ اللَّغوَ يُعَكِّرُ صَفْوَ الاستغراق في النعيم.

ومن النَّعِيم ما يسْمَعُونَ مِمَّا يلَذُّ لهم من كلامٍ وأصْواتٍ بها يَطْرَبُون، وبها يَسْعُدُون.

ولو كانَ في الجنَّةِ لَغْوٌ يطْرُقُ أسماعَهُمْ لتعكَّر صفوهم.

﴿إِلَّا سَلَٰمٗا﴾: «إلَّا» هُنَا أداة استدراكٍ بمعنى «لَكِنْ».

أي: لكِنْ يسمَعُونَ سلاماً، وهذه تحيَّةٌ يُسَلِّمُ بها بعضُهُمْ عَلَىٰ بعض، ويُسَلِّم بها الملائكةُ عليهم، وظاهرٌ أنّ هذه التحيَّة ليْسَتْ من اللَّغو حتَّىٰ تُسْتَثْنَىٰ منه، بل هي تكريمٌ يزيدُ في النعيم.

ولا يُعْجِبُنِي في مِثْلِ هٰذه العبارة أن يقال: هذا استثناء منقطع، فالأولَىٰ منه أن يقال: «إلّا» أداةُ استدراك، مثل: «لكن» والمرادُ دفْعُ توَهُّم أنّ عبارات التحيّة الّتي يَسْمَعُونَها هي من اللّغو، بلْ هي إضافاتٌ جميلاتٌ على خمائل النَّعِيم، كنَثْرِ الأزهار الشّذِيَّة على بساط الذهب المطعم بنفائس الجواهر.

وجاء في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بيان أَنَّ المقرّبين، وهم أهل الدرجات الرّفيعات في الجنّة، لا يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً، أي: ولا تَلْوِيماً بإثْمٍ فَعَلُوهُ، لكِنْ يَسمَعُونَ قولاً محبَّباً إليهم: «سَلاماً سَلاماً» وهذا يَزِيدُ في نعيمهم وسعادتهم.

فقال الله عزّ وجلّ فيها، في معرض بيان نعيم المقرّبين في جنّاتِ النعيم:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

جاء في هذا النصّ تكرير التحيّة للإشعار بمزيد العناية بهم، لأنَّهم من المقرّبين، وهم أعلىٰ دَرَجَةً من أهل «جنَّاتِ عَدْنٍ».

قول الله تعالى:

- ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾:

الرّزق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ به ممَّا يُؤْكَلُ ويُلْبَس، وقَدْ يَخْتَصُّ بما يكونُ غذاءً وقُوتاً.

﴿بُكْرَةً﴾: **الْبُكْرَة**: أوَّل النهار إلى طُلُوع الشمس.

﴿وَعَشِيًّا﴾؛ **الْعَشِيُّ**: نصف النهار الثاني إلى غُرُوب الشمس.

لكِنَّ الجنَّة لَيْسَ فيها ليلٌ، ولا أشعَّةُ شَمْسٍ تَصِلُ إلَىٰ أهلها، بَلْ كُلُّ أوْقَاتها نُورٌ وظِلٌّ دائم، فالّذِي يَظْهَرُ لأهلِهَا فيها من الأوقات وقتان مُتَمَيّزان: وقْتٌ مُشَابِهٌ لأوّل النهار حتَّىٰ طُلوع الشمس، وقْتٌ آخَرُ مَنَاظِرٌ لَهُ يَكُونُ بَعْدَ مُرُور أكْثَر ساعات الْيَوْمَ، وهكذا تداوُلاً إلى الأبَد.

ويَظْهَرُ لي أنّ المرادَ بالرّزْقِ هنا ما يكونُ به الْغِذَاء والْقُوتُ الأسَاسِيَّانِ، فهُمَا يُحْضَران لهم بَكْرَةً وعَشيًّا، كما جاء في هذه الآية.

أمّا الفاكهةُ وأنواعُ الأشْرِبة فهي حاضرةٌ عِنْدَهُمْ في كُلّ الأوقات، بدليل قول الله عزّ وجلّ في سور (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) مبيناً بعْضَ نعيم أصحاب اليمين:

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله تعالى بشأن نعيم المتقين، في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾.

أخرج الترمذِيُّ في نوادر الأُصول، أنّ النبي ﷺ قال بشأن الجنَّة:

«لَيْسَ هُنَاكَ لَيْلٌ، وإنَّمَا هُوَ ضَوْءٌ وَنُورٌ، يَرِدُ الْغُدُوُّ عَلَىٰ الرَّواح، والرَّواحُ عَلَى الْغُدُوّ، تَأْتِيهِمْ طرَفُ الْهَدَايَا مِنَ اللَّهِ، لمواقيت الصَّلاة الّتي كانُوا يُصَلُّونَ فيها في الدُّنيا، وتُسَلِّمُ عليهم الملائكة».

قول اللَّهِ تعالَىٰ:

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾:

﴿نُورِثُ﴾: أي: نَهَبُ بفَضْلٍ مِنَّا، وأُطْلِقَ مَعْنَىٰ الإرْثِ علىٰ هِبَةِ مَا في الجنَّة، لأنَّ مُعْظَم أقْسَامِها كَانَ مُعَدّاً لِمَنْ قَضَىٰ الله أن يَدْخُلَ رحلة

الامتحان في الحياة الدُّنيا، إنْ آمَنَ واتَّقى، فلَمَّا كَفَرَ الْأَكْثَرُونَ، واستَحَقُّوا دُخُولَ النار، أخَذَ المتّقونَ حِصَصَهُمْ، فورثوا بذلك الحصَصَ الّتي كَانت مُعَدَّةً في الجنَّة لسائر العباد لو آمَنُوا وعَمِلُوا صالحاً، ويأخُذُ أهل الجنَّةِ من هذا الميراثِ العظيم كلٌّ منْهُمْ بحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ ودَرَجَتِهِ، والله أعلم.

﴿تَقِيًّا﴾: على وزن «فَعِيل» وهو من صِيَغ المبالغة، أي: بالِغاً الدرجات العاليات في مرتبة التقوى، وهؤلاء هم الذين يرثونَ دَرَجات جَنَّاتِ عَدْن.

أما المتقون من دون ذلك فلهم منازلُ دون درجات جنَّاتِ عدن.

وبهذا تمّ تدبّر الدرس الثامن، والحمْدُ للَّه على فتحه وتوفيقه وتيسيره.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليليّ للدّرس التاسع من دُرُوس سورة (مريم) وهو الآيتان (٦٤ و٦٥)

قال اللَّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

تمهيد:

هذا درسٌ اعتراضيّ بين مُقَدِّمَاتِ موضوع السُّورة، وبَيْنَ موضوعها الرئيس، الذي يُعَالجُ واقِعَ حَالِ المدْعُوّين إلى الإيمان والإسلام واتّباعِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ فيما جاء به عَنْ رَبّه، إبَّانَ نُزُولِ السّورة.

وكان من الحكْمَةِ الإجرائيَّةِ الْفَصْلُ بَيْنَ المقدِّمَاتِ التَّمْهِيديَّة، وبين موضوع السورة الرئيس، بدَرْسٍ اعتراضيٍّ يُعَالِجُ قضيَّةً طَرَحَهَا الرَّسُول محمّد ﷺ على جبريل أمين الوحي عليه السّلام، إبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، إذْ قال له: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنا أكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنا»؟!

فأنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ آيَتَيْ هذا الدَّرْس من دُرُوس السورة.

أخرج البخاريُّ وغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل:

«مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»؟!

فأنزل الله عزَّ وجلَّ قَوْلَهُ حكايَةً لمَا قَالَهُ جِبرِيلٌ للرَّسُول:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

التدبّر:

- ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾: أي: وَمَا نَنْزِلُ نحنُ الملائكة حِيناً فَحِيناً آخَرَ، أو ثُمَّ حيناً آخَرَ بتمَهُّلٍ وأناةٍ.

يقال لغة: **تَنَزَّلَ**: أي: نَزَلَ في مُهْلَةٍ دُونَ استعجالٍ.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ أوامر اللَّهِ عزَّ وجلَّ مقدَّرَةٌ بِأوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ، فلا يُوَجِّهُهَا لملائكتِهِ للقيام بما يُكَلِّفُهُمْ إيَّاهُ إلَّا في أوقاتِها المحدَّدَة، الَّتي لا يَحْتَاجُونَ مَعَهَا لأنْ يَسْتَعْجِلُوا، فَهُمْ يتنزَّلُونَ بتمَهُّلٍ على وَفْقِ أوامِرِ الرَّبِّ جلّ جلالُه، إذْ لا يخافون التأخير، نظراً إلى أنَّ مُدَّة التَّنَزُّلِ مَحْسُوبة، وأنّ الزَّمَنَ لِتَأْدِيَةِ الْوَظِيفَةِ مُحدَّدٌ ومعلومٌ، فكلُّ شيءٍ يَتِمُّ في وقْتِهِ المقدَّرِ له.

- ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾؛ أي: إلَّا بسبَب أَمْرِ ربِّكَ لَنا بالتَّنزُّلِ، ولمَّا كانَتْ أَوَامِرُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ حَكِيمَةً دَواماً، كانَ ممَّا يَنْبَغِي أنْ نفْهَمَه باللُّزوم الفِكْرِيّ، أَنَّ الله عزَّ وجلَّ يَأْمُرُهم بالتَّنَزُّلِ، للقيام بوظائفَ، أو تَبْليغاتٍ، أو أعمالٍ يَقُومُونَ بِها في الأرض.

واستكمالاً للْبَيَانِ الإيمانيّ الّذي لَهُ صِلَةٌ ما بتَنَزُّلِ الملائكة من مواقِعهم في السّماء إلى الأرض جاء في هذا الدَّرْس بَعْدَ تقرير القضيّة الأولىٰ بيانُ سِتِّ قضايا أُخرى:

فالقضيّة الأولى: هي القضية الّتي سَبَقَ تدبُّرُها، وقد دَلَّت عليها عبارة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

القضية الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾:

﴿لَهُ﴾ أي: لله جلَّ جلالُه، واللَّام هي لَامُ المِلْك بكَسْرِ الميم، الّذي لا يَنْفَكُّ عَنْهُ الْمُلْكُ بضَمّ الميم، بالنسبة إلى اللَّهِ عزّ وجلّ، فالمعنى: لِلَّهِ مِلْكُ وَمُلْكُ كُلِّ شيءٍ هو مَوْجُودٌ بَيْنَ أَيْدِنَا من أَمْكِنَةِ الكَوْنِ وأَزْمِنَتِه، أي: أَمَامَ تَوَجُّهِ وُجُوهِنَا، وكُلِّ شيءٍ هو موجودٌ خَلْفَنَا من أَمْكِنَةِ الكَوْنِ وأَزْمِنَتِهِ، أي: وَرَاءَ ظُهُورِنا، أو وَرَاء ما يُمْكِنُ أَنْ نَشْهَدَهُ من الكون، وكُلِّ شيءٍ هو مَوْجُودٌ بَيْنَ ذَلِكَ، أي: في الأماكِنِ والأزمِنَةِ الّتي لَيْسَتْ أَمَامَنَا وَلَا خَلْفَنَا، وهذا يَشْمَلُ كُلَّ مَوْقِعٍ يَكُونُ فيه موجودٌ ما لَيْسَ أمام الملائكة ولا خَلْفَهُمْ، فهو جُزْءٌ مِمَّا هُوَ داخِلٌ في مِلْكِ اللَّهِ وَمُلْكِه.

والمعنى: فلا نتحرَّكُ حَرَكَةً، ولا نَعْمَلُ عَمَلاً إلَّا بأمْرِهِ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُه.

ويُلاحظ أَنَّ هذه العبارة قَدْ جَاءَ فيها تفصيل إطنابيٌّ يُلائم حالَةَ تَنَزُّلِ الملائكة من مواقعهم في السماء، وصعودهم بعد ذَلِكَ إليها.

وكانت تُغْنِي عنها عبارة: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأرض» أو نحوها، لكِنَّ التعبير الملائم في هذا المقام هو ما جاء في النّصّ القرآنيّ هنا، للدلالة على أنّ الملائكة لا يملكونَ أن يتحرَّكُوا حرَكةً ما في الكَوْنِ كلِّه إلَّا بأمر الله.

وفي مُناسباتٍ أُخْرىٰ جاء التعبير في القرآن المجيد بعباراتٍ أخرى منها:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿١١٦﴾﴾ (التوبة/ ٩).
- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿١٨٩﴾﴾ (آل عمران/ ٣).
- ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ... ﴿١٢٠﴾﴾ (المائدة/ ٥).

ونحوها من عبارات، ومَنْ لَهُ مُلْكُ وَمِلْكُ كُلِّ شيءٍ لا بُدَّ أَنْ يكونَ عِلْمُهُ محيطاً بكُلّ شيءٍ، ولا بُدَّ أنْ يَكُون ذا سلطانٍ كامل على ما هُو مِلْكُهُ ومُلْكُهُ، إذْ لا شريك لَهُ ولا نِدَّ له، جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه.

القضيّة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾:

جاء في هذه العبارة نَفْيُ كوْنِ الله عزّ وجلّ يَنْسَىٰ شَيْئاً، أي: فلا يُؤَخِّرُ أَمْراً عنْ وقْتِهِ المقدّر له، الّذي قضاهُ في خُطَّةِ تكوينه.

أصْلُ النسيان في اللُّغَةِ التَّرْكُ. يقال لغة: نَسَا فُلانٌ الشَّيْءَ يَنْسُوهُ نَسْوةً، أي: تَركَهُ عامداً أو غيْرَ عامد، فهو ناسٍ ونَسِيّ.

ونفيُ التَّرْكِ يقْتَضِي نَفْيَ النِّسْيَانِ بمعنىٰ غيابِ المعلُومِ عن التذكُّر الحاضر.

نَسِيٌّ: على وزْنِ «فعيلٍ» من صِيغ المبَالغة، وقد يقال: كَانَ من المناسب لصفات الله عزَّ وجلّ أن يُقال: وما كان رَبك ناسِياً، أَوْ ذا نسيان، لأنّ نفي كثرة النسيان لا تُفيد نفيَ القليل منه.

وفي الإجابة على هذا أقول:

(١) إنّ عِلْمَ الله ومقاديره في خَلْقِهِ لا تُحصَىٰ، فلو نَسِيَ من كلّ مليار من الأشياء مثلاً شيئاً واحداً، لاجتمعت منسيَّاتٌ كثيراتٌ يصحُّ مَعَها أن يوصف بأنّه نَسِيّ.

(٢) ملائمةُ رُؤوس الآيات قبْلَها وبَعْدَها تَقتضي اختيار كلامة «نَسِيّ» لا «ناسٍ» ولا «ذا نِسْيَان» ولا عبارة «ينْسَى» إيثاراً للجمال الفنّي في العبارة.

(٣) جاء في كتُب اللُّغة أنّ لفظ «نَسِيّ» يقال للمذكر والمؤنث، ويظهر أنّ العرب اسْتَخْدَمُوا كلمة «نَسِيٌّ» مثل اسم الفاعل الّذي لا مبالغة فيه، مسقطين دَلَالة الصيغة على الكثرة.

وجاء في هٰذه الجملة اختيار عبارَة: ﴿رَبُّكَ﴾ دون سائر أَسْمَاء الله الحسنىٰ، للإشارَة إلى أنّ مَنْ لَهُ الرُّبُوبيَّةُ المتصرِّفَةُ بالمربُوبين في كُلّ أصْغَرِ وحْدَةٍ زمَنِيَّة، لا يمكن أن يترُكَ أمراً ما قضَتْ به حِكْمَتُه، وأمْضَاهُ بقضائِهِ وقَدَره، ولو كان اللَّهُ الرَّبُّ تاركاً شيئاً ما في كَوْنِهِ، لتعرَّضَتْ أشياءُ كثيرة من الكائنات، لِلْخَلَلِ والفساد، لكنَّ شيئاً من هذا لم يَحْدُث في شيءٍ من هذا الكون العظيم، على الرّغم من مُرُور مليارات القرون عليه.

القضيّة الرابعة: دَلَّت عليها عبارة: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾:

هذه العبارة بدل من عبارة ﴿رَبُّكَ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوفٍ تقديرُه «هو» أي: هو رَبُّ السَّمَاوَات والأرض وما بينهما.

عبارة: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تَدُلُّ علىٰ أنَّ ما نراهُ فراغاً بين السَّماواتِ من أعْلَىٰ سَماءٍ فيها وبَيْنَ الأرض ليْسَ فراغاً على الحقيقة، بل هو بمثابة وِعاءٍ لكائناتٍ غَيْرِ منظورة هي من خَلْقِ الله، وهي خاضِعَةٌ لرُبوبيَّتِه جلَّ جلالُه وعظُمَ سلطانه، وهو يُجْرِي فيها تصاريفَهُ الحكيمة على ما يشاء، كما

يُجْرِي تصاريفَهُ الحكيمة برُبوبيته في السَّماوات والأرض، وفي كُلِّ ما فيهما، وكُلّ مَنْ فيهما.

وجاءت السَّمَاواتُ في العبارة مجموعةً، لأنَّها متعدِّدَةٌ في واقِعِ حالها.

وجاءت الأرضُ مُفْرَدة، لأنّها واحدةٌ في الكَوْنِ كلّه، ولهذا لم تأتِ الأرضُ مجموعَةً في القرآن كُلّه.

وأمّا ما جاء في بَعْضِ الأحاديث النبويَّة من ذكر «سَبْعِ أرضِين» فالمراد بها طبقاتٌ تُرابيَّةٌ وصخريَّة ورَمْلِيَّة في الأرض نفسها، وبعْضُهَا فَوْقَ بعضٍ وملاصقٌ له.

القضيّة الخامسة: دلَّت عليها عبارة: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾:

الفاء هنا سببيَّة غير عاطفة، أي: فبما أنَّهُ رَبُّكَ وَرَبُّ السَّمَاوَات والأرض وما بينهما اعْبُدْهُ.

أي: اسْتَسْلِمْ لمقاديره ومجاري حِكْمَتِهِ، فلا تَقُلْ لِرَسُولِ الوحي إليك: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنا»؟!

إنّ العبادة الكاملة لله عزّ وجلّ تكونُ بكمال الإيمان، وكَمَالِ الإسلام، وكَمَال الاستِسْلَامِ لمقاديره وتصاريفه، والتَّسْلِيم التَّامّ بأنَّهَا حكيمةٌ، وكمالِ الطاعة لأوامره ونواهيه، مع التَّقَرُّب إليه بمحابّه مِنَ النَّوافل الّتي هي من أعْمال البرّ والإحْسَان، ومع المجاهدة في كلّ ذلِكَ، ببَذْلِ غايَةِ الجهد.

ومن كان سَيّد الأنبياء والمرسلين فلا بُدَّ أن يسْعَىٰ للتَّحقُّقِ بِكَمَالِ العبادة، في كلّ عناصِرِها المادّيّة والمعنويَّة.

القضيَّةُ السادسة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾:

﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾: أي: وكلّف نفسَكَ غايَة مَا تَسْتَطِيعُ من صَبْرٍ على مَا تتحمَّلُ به من مشقّاتٍ نفسيَّةٍ وَجسَدِيَّة، في عباداتِك الّتي تُؤَدّيها لرَبّك، ما كان منها ظاهراً أو باطناً، والَّتي تَنْشُدُ بها الكمال.

اصْطَبِرْ: أصْلُها: «اصْتَبِر» على وزن «افتعل» بزيادة تاء الافتعال على فعل «اصْبِر» للدَّلَالَة على معنىٰ التكلُّف وبَذْلِ غاية ما تستطيع من صبر.

﴿لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾: أي: لبُلُوغ عبادتِه عبادةً من دَرَجَةِ الكمال الّتي تَلِيقُ بك، بوصْفِكَ خاتمَ النبيِّينَ، وسَيِّدَ الأولين والآخِرِين.

والمعنى: واصْطَبر بالغاً لعبادَتِه عبادةً من دَرَجَةِ الكمال الّتي تليق بك.

فالنصّ كلُّه مُوجَّهٌ لتَرْبيَةِ الرَّسُول محمد ﷺ.

أي: ومن كمال تَسْلِيمِكَ للَّهِ في عبادتِكَ لَهُ أنْ لَا تقولَ لي: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنا»؟! وأنْتَ تَعْلَمُ أنِّي لَا أَفْعَلُ شيئاً إلَّا بأمْرِ اللَّهِ رَبي.

القضيَّة السَّابعة: دَلَّتْ علَيْهَا عبارة: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾؛

أي: هلْ تعلَمُ له شبيهاً أو مثيلاً أو نظيراً في صفاته وكمالاته، وأزَلِيَّتِه وأبديّته، ورُبوبيتِه المهيمنة على كلّ شيء في الوجود والمتصرّفة فيه؟

والجواب التِّلْقَائيُّ هو النَّفْيُ حتماً، إذْ لا شبيه له في صفاته. ولا شريك له في رُبُوبِيَّته.

إذَنْ: فهو وحْدَهُ المستحقُّ لِأنْ يُعْبَدَ في كلّ الأحوال عبادَةً من دَرَجَةِ الكمال، وعندئذٍ يَسْتَحِقُّ العابد أنْ ينال شرَف أنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ حقاً، وقد نال هذا الشّرف العظيم سيّدنا محمَّدٌ ﷺ، فقال الله عزّ وجلّ بشَأْنِهِ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ بشأنه في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول) خطاباً للناس:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدّرْس التاسع من دروس السورة، والحمْدُ لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٣)

التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٦٦ ـ ٧٢)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

القراءات:

(٦٦) • قرأ ابن ذكوان في إحدى روايَتَيْن عنه: [إذَا] بحذف همزة الاستفهام، والعبارة مع حذفها هي على معنى الاستفهام، لأنّ همزة الاستفهام يجوز حذفها، وتكون مقدّرة ذهناً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَءِذَا] بإثبات همزة الاستفهام، وهو هنا استفهام تعجُّبيٌّ يقولُه الإنسان المنكر للبعْث وليَوْم الدين.

(٦٦) • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: «مُتُّ» بضَمّ الميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [مِتُّ] بكسر الميم.

«مُتُّ» و«مِتُ» وجهان عربيان لنطق هذه الكلمة. وأصل القاعدة أن يقال: «مُتُّ» بضم الميم، (انظر بقية البيان لدىٰ ذكر القراءات في الآية (٢٣) من هذه السورة.

(٦٧) • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم: [أَوَلَا يَذْكُرَ] من فعل «ذَكَرَ يَذْكُر».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: «أَوَلاَ يَذَّكَّرُ» أصْلُها يَتَذَكَّرُ، أدْغمَت التاء في الذَّال فصارت ذالاً مُشَدَّدة، من فعل: «تَذَكَّرَ يَتَذَكَّرُ».

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني، فبَعْض النَّاسِ يكْفِيهِ أَنْ يُنَبَّهَ تَنْبِيهاً يَسِيراً ليَذْكُر. وبعض الناس يحتاج تنبيهاً شديداً بعُنْفٍ حَتَّى يَتَذَكَّر، وهذا تلائمه قراءة «أَوَلَا يَذَّكَّرُ».

(٦٨) و(٧٢) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي: [جِثِيا] بكسر الجيم في الموضعين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة «جُثِيّاً» في الموضعين أيضاً بضم الجيم. والقراءتان لغتان عربيّتان في نُطْقِ الْكَلِمَة.

(٦٩) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي: [عِتِيّاً] بِكَسْرِ العين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: «عُتِيّاً» بضمّ العين.

والقراءتان وَجْهان عربيان لنُطْق هذه الكلمة.

(٧٠) • وقرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي: **[صِلِيًّا]** بِكَسْرِ الصاد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: «صُلِيّاً» بضم الصاد.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق هذه الكلمة.

(٧٢) • قرأ الكسائي، ويعقوب: «**ثُمَّ نُنْجِي**» من فعل: «أَنْجَىٰ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[ثُمَّ نُنَجِّي]** من فعل: «نَجَّىٰ» المضعَّف.

والقراءتان متكافئتان، فالتعدية بالهمز أخْتُ التَّعْدِية بالتضعيف.

تمهيد:

إن معالجة منكري البعث إلى الحياة الأخرى للحساب وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، موضوعٌ قرآنيٌّ له خطٌّ متتابع الحلقات الموزّعات في عدد كثيرٍ من سُور القرآن المجيد.

- فمن هذه الحلقات ما يتضمّن خبراً.
- ومن هذه الحلقات ما يتضمّن وصفاً لبَعْض أحداث يوم الدين وما يجري فيه.
- ومن هذه الحلقات ما يتضَمَّن بيان الدليل العقليّ المستند إلى حكمة الله عزّ وجلّ، وأنَّهُ أحكم الحاكمين.
- ومنها ما يتضمَّن الرَّدَّ على أقوال المكذبين بالبعث وبيوم الدين.

وقد جاء هذا الدّرْس العاشر من الدروس الخاصة، بالموضوع الأساس لسورة (مريم) معطوفاً بحرف العطف «الواو» ولا نَجِدُ في السُّورة من أوّلها حتَّىٰ هذا الدّرْس، ما يَصْلُحُ لأن يكون هذا الدرس العاشر منها معطوفاً عليه.

لكِنَّنَا إذا اسْتَعْرَضْنَا السُّوَر القرْآنِيَّة، الَّتي نزلَتْ قبْلَ نزول سورة

(مَرْيم) وَجَدْنَا تِسْعَ معالجاتٍ صريحاتٍ لمنْكِري البعث، غَيْرَ البيانات الخبريَّة، والبيانات الوصْفِيَّة لبَعْضِ أحْدَاثِ يوم الدين وما يجري فيه.

وبناءً على هذا نستطيع أنْ نقول: إنَّ «الواو» في عبارة:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في مطلع هذا الدّرْس العاشر، تَعْطِفُ على محذوفٍ ملاحظٍ ذهْناً، وهذا المحذوف يُدْرِكُه من أحْسَن تَدَبُّر ما جاء في السُّوَر النَّازِلَة قبل سورة (مريم) حول موضوع هذا الدرس.

أوّلاً:

ما جاء في سورة (التّين/ ٩٥ مصحف/٢٨ نزول) قد تضمَّن إقامة الدَّليل العقليّ على أنّ البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، أمْرٌ تقتضيه حتماً حكْمَةُ الرَّبّ أحْكم الحاكمين، إذ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ خطاباً لمنكر الجزاء الرّباني:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ⑧﴾.

ثانياً:

ما جاء في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) قد أبان العِلَّةَ النفسيَّة للمكَذِّب بيَوْم الدّين تكذيباً قائماً على مجرَّد الاستبعاد والاستغراب.

هذه العلّةُ هي إرادتُه الجازمة بأنْ يَنْطَلِقَ فَاجِراً في مستقبل حياته، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ⑤ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ⑥﴾.

الفجور: هو الانبعاث القبيح الوقح الواسع في فِعْل الشرور والآثام والكبائر، وكلّ ما فيه ظلْمٌ وضُرٌّ وبغيٌ وعُدْوانٌ، دونَ وازعٍ ولا رادعٍ من داخل النفس.

ثالثاً:

ما جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) قد تضمَّن معالجةً تَعْتَمِدُ على تقديم مشْهَدٍ رَهيبٍ من مَشَاهِد تعذيبِ المكذبين بيوم الدّين وما يجري فيه، فقال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ فيها:

﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾.

رابعاً:

ما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) قد تضمَّن بيانَ أنَّ المكذِّب بيوم الدِّين لا حُجَّةَ له إلَّا التَّعجُّب من الإحياء بعد الموت، وجاء فيها معالجةٌ إقناعيَّة بوجوه من الإقناع تناسب شكُوكه.

فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾﴾.

وجاء بعد هذا في السورة معالجة المكذبين بدفع توهُّمَاتهم، وإثبات أنّ الله عزّ وجلّ عليم بكلّ شيءٍ، وقدير على ما يشاء.

خامساً:

ما جاء في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) قد تضمّن بيانَ أنَّ من خَلَقَ الإنسان من ماءٍ دافق، قادرٌ على إرجاعه إلى الحياة بَعْدَ موته وفناء جسَدِه.

فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾﴾.

سادساً:

ما جاء في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) قد تضمَّن حِكايةً لمقالَة الّذِين آمَنُوا من الجنِّ عن الإنس، بأنّ كُفْرَهم بالبَعْثِ لا مُسْتَنَدَ لهم فيه إلّا الظَّنُّ الضعيف، الَّذِي لا تقومُ بِهِ حُجَّة، إذْ قَالُوا لإخوانهم من الجنّ عن الإنْس:

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ⑦﴾.

سابعاً:

مَا جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قَدْ تضمَّن بيان أنّ المكذبين بيوم الدّين يجعلون تكذيبَهُم مستَنِداً إلى أنّ الوعد فيه لم يبيّن الله فيه الوقت.

فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (48)﴾.

وجاءت المعالجة على هذا القوْلِ بأسْلُوب الْإِنْذَارِ بقيام ساعَتِهِمْ، وتقديم صُورَة حَالِهم، وحَالِ مقالتهم عند البعث، وخُرُوجِهِم من الأجداث يَنْتَشِرُونَ.

وتضمَّن بيان مقالَةِ بعضِ المكذّبين بالبعث إذْ أخَذَ عظماً بالياً ففتَّهُ وذَرَّهُ، وقال: أيُحْيِي اللَّهُ هذا بَعْدَ ما رَمَّ وَبَلِي؟ فجاء الرَّدُّ الرَّبّاني بقياس الإعادة على البدء، لإثبات قُدْرَةِ الخالِق على الإحياء بعد الإماتة، وهو قياسٌ بُرْهاني.

فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ فيها:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)﴾.

وجاءَ بَعْدَ هذه النصوص ما تضمَّنَهُ الدَّرْسُ العاشِرُ من دُرُوس سورة (مريم). ومعالَجَةُ منكري البعث بَعْدَ الموت ليوم الدّين، تعتمد فيه على الإقناع الفكري، فالموعظة بالترهيب.

إنّ منكر البعث بعد الموت الّذي جاءَتْ به البيانات الرَّبَّانِيَّةُ الّتي بَلَّغها رُسُل اللَّهِ المؤيَّدُونَ بالمُعْجِزاتِ الباهرات، لا يُقَدِّمُ دليلاً ما تقبله العقول السليمة.

إنّما يُقَدِّم تَعَجُّباً واستبعاداً للأمر بأسلوب الاستفهام التَّعَجُّبِيّ الإنكاريّ، ويعتَبِرُ هذا كافياً لتَحْسِينِ مَوْقِفِه الجاحد.

التدبّر التحليل:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾.

سبق في التمهيد بيان أنّ حرف العطف «الواو» في مطلع هذه الآية يَعْطِفُ على مَحْذُوف، وهذا المحذوف يُدْرِكُه من أحْسَنَ تَدبُّر ما جاء في السُّور النَّازِلَة قبل سورة (مريم) حول موضوع هذا الدرس.

أي: تعجَّبَ الإنْسَانُ منكرُ البَعْثِ بعد الموت إلى يوم الدين، من هذا النبأ الرَّبَّاني، وقال: أئذا مَا مِتْنا وصِرْنا تراباً، نَرْجع إلى الحياة مرَّةً أخرى، ذلك رَجْعٌ بعيدٌ لا يقبلُه العقل، وتَعلَّل بعَدَم بيان وقْتِ قيام ساعة البعث، وضرَبَ لَنَا مثلاً ونَسِيَ خلقه، قالَ: مَنْ يُحْيِي العظام وهي رَميم؟ وبَعْدَ كُلّ الأدلّة البرهانية الّتي قُدِّمَتْ له، والترهيب الشديد بالبيانات الّتي تَخْلَعُ قلوب أولي الألباب، يقول الإنسان المكذّبُ بِيَوْم الدّين: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾؟:

جاء لفظُ «الإنسَان» تَعْبيراً عَنِ الكافر المكذّب بيَوْم الدّين، إذْ لَمْ

يَنْتَقِلُ بَعْدُ إلىٰ زُمْرَةِ الّذِين آمَنُوا بالحقِّ الرّبّاني، حتَّىٰ يظفر بشَرَفِ اسْم المؤمن، ودلَّتْ مقالَتُه هذه على كُفْرِهِ وتَكْذِيبِه بنَبأ يوم الدين، يوم الحساب، وفصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وقد ساقَ مقالَتَهُ بأسْلُوب الاستفهام التعجُّبِيُّ الإنْكَارِيّ، الذي لم يقترن بدليل عَقْلِي، ولم يتضمَّنْ حُجَّةً ما حتَّىٰ تُعَالج بالرَّدّ العلميّ المنطقيّ.

وما زال موقفه حتى وقت نزول سورة (مريم) موقف المتعجّب الّذي يُنْكِرُ الحقّ لمجرّد أنَّهُ يَراهُ مستغرباً مُسْتَبْعداً، غير واقِعٍ في دوائر المألوف بالحواسّ الظاهرة.

إنَّ أيّ جاحدٍ للحقِّ يَسْتَطِيعُ أن يُنْكره بدون دليل، ويَستطيعُ أنْ يُظْهِر تَعَجُبَهُ من أيّ حقٍّ لا يَرُوقَ له، لئلَّا يَلْتَزِمَ تَبِعَاتِ إيمانِهِ بهذا الحق، ولئَلَّا يُقَالُ: إنَّهُ يُؤمِنُ بشيءٍ وَلاَ يَعْمَلُ بمُقْتَضَىٰ إيمانِه به.

إنَّ الإنكارَ المجرَّدَ عن دليلٍ يَدْعَمُهُ، وإنَّ مجرَّدَ التعجُّبِ من أمْرٍ ما، دُونَ دَلِيلٍ يَنْفِي المتعجَّبَ مِنه الّذِي يُنْكِرُه، من الأمور السَّاقطة الّتي لَا تَرْتَضيها العقولُ المفطورة عَلَىٰ رفض الباطل، والإذْعان لِلْحَقِّ المؤيَّدِ بالْحُجَجِ والبراهين.

والحديث عن الإنسان بالإفراد يَشْمَلُ كُلَّ أنسان قالَ هذه المقالة، أو نظيرها، على التّناوب، فيُمْكن أنْ يُعادَ الضَّمِير عليه بالجمع.

والظرف في: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ متَعَلّقٌ بِفِعْلِ ﴿أُخْرَجُ﴾ فَهُوَ مَعْمولٌ له، ولا تمْنَعُ لَامُ الابتداء في عبارة: ﴿لَسَوْفَ﴾ مِنْ عَمَلِ مَا بَعْدَهَا فيما قَبْلَها عنْدَ المحقّقِين من النُّحاة.

﴿مَآ﴾ بعْدَ ﴿إِذَا﴾ زائدة لتزيين اللَّفظ، ولتأكيد تحقُّق الموت هنا في العبارة.

﴿لَسَوْفَ﴾: اللّامُ لامُ الابتداء، ويؤتَىٰ بها للتوكيد «سَوْفَ» حرف يستعمل للدّلالة على المستقبل البعيد غالباً، أمّا المستقبل غَيْرُ البعيد، فيُسْتَعْمل للدلالة عليه حرف «السين».

والبعث إلى الحياة بَعْدَ الموت بحسَب علم النَّاس وهم في الحياة الدُّنيا سوف يكون في المستقبل البعيد، لكنّه بالنسْبَةِ إلى إدْراكِهم بَعْدَ البَعْثِ هُوَ مُسْتَقْبَلٌ قريبٌ جدّاً، إذْ يُلْغَىٰ الحسّ بالزّمن من شُعور النَّفْسِ الإنسانيَّة في مُدَّةِ البرْزَخ بَيْنَ الموتِ والحياة بَعْده، إذْ يشْعُر الإنسانُ عند البعث بأنَّه لم يَلْبَثْ بيْنَ الموتِ والبعْث إلَّا عَشِيَّةً أوضُحاها.

ويتصوَّر المبْعُوثُونَ أنَّهُمْ كانُوا نَائِمينَ، فَبُعِثُوا مِنْ مَرْقَدِهِمْ الّذي كانوا نَائِمينَ فيه، لا مِنْ قبورهم ومدافنهم، ولا يَشْعُرُونَ بأنَّ أجْسَادَهُمْ كانَتْ فانيةً، فَخَلَقَهَا اللّٰهُ خَلْقاً جديداً، وأعَاد إلَيْهَا الحياة.

﴿أُخْرَجُ حَيًّا﴾: أي: أُخْرَجُ من رُفَاتي في الأرض حالَةَ كَوْني حيّاً حياةً أُخرىٰ غَيْرَ الحياة الأولى، والحال هذه مؤكّدةٌ للعامل، لأنّ المراد بإخْراجِهِ إحْيَاؤُه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

جاءَ في هذه الآية الرَّدُّ القُرْآنيُّ علىٰ التَّعَجُّبِ الإنكاريّ الذي صَدَرَ عن الإنْسَان الكافِر المكذّب بيَوْم الدّين.

الاستفهام في هذه الآية يُرادُ به انتزاع إقرار الإنسان المكذّب بيوم الدّين، بأنّ اللّهَ قد خَلَقَهُ من قبل أن يُوجَدَ في حياة مُدْركة واعيَةٍ، ولَمْ يَكُنْ قَبْلَ خَلْق الله له شيئاً مَا يُذْكر، أي: فَمَنْ خَلَقَهُ ولم يَكُنْ شيئاً، أَلَيْسَ بقادر على أن يَخْلُقَهُ مَرَّةً أُخرَىٰ بَعْدَ أنْ أماتَهُ وأفناهُ، وأنْ يكرِّرَ ذلك إلىٰ ما لا نهايةَ لو شاء ذلك؟!

وقد جاء الحديث عنه بأسلوب الحديث عن الغائب إعراضاً عنه، ومعاملةً له بمثل صنيعه، إذْ أعرض عن أدلَّة الحقّ، والغرضُ من الاستفهام التلويم.

«الواو» في ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ تعطِفُ على محذوفٍ مقدّرٍ ذهناً، يستَطِيعُ المتدبّر المتأنّي اللَّمَّاحُ أنْ يُدْركه، وتقديره: ألا يَعْلَمُ الإنسان أنّ الله الّذي خلَقَهُ قديرٌ على خَلْقِ ما يُرِيدُ خَلْقَه؟! أَوَلَا يَذْكُرُ أو يَتَذَكَّرُ أنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ من قَبْلُ ولم يَكُ شيئاً.

وجاء التعبير بضمير المتكلّم العظيم: ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ لأنّ الخلْقَ الإبداعيَّ من الْعدم لا يكونُ إلَّا من الرَّبّ العظيم.

إنّ قُدْرَةَ اللَّهِ الرَّبّ العظيم ظاهرةٌ آثارُها في كُلِّ شيءٍ من هذا الكون العظيم، إذْ إنَّ آيَاتِهِ فيه دالَّاتٌ عليها، وهذا أمْرٌ مَشْهُودٌ دَوَاماً لكلّ من آتاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ فكراً وقُدْرَةً على الفهم وحِسّاً.

وحِينَ يَعُودُ الإنْسَانُ إلى نَفْسِهِ يَتَذَكَّرُ أنَّهُ لم يَكُنْ ثُمَّ كان، ويُدْرِكُ بعقْلِهِ أنَّ خالقاً قَدْ خَلَقَهُ بَعْدَ أن لم يَكُنْ شيْئاً.

وهُنا يستَطيع أنْ يَقيس أحداثَ المستَقْبَل علىٰ أحداث الماضي، فالخالِقُ الَّذي خَلَقَهُ بَعْدَ أَنْ لم يكُنْ شيئاً، وأعطاهُ صفاتِه الَّتي تميَّزُ بها عَنْ سائر ما خَلَقَ الله، قادِرٌ على أن يَبْعَثَهُ إلى الحياة بَعْدَ أن يُميتَهُ ويُفْنِيَهُ.

جاء في إحدى القراءتَيْنِ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وهٰذِه تُناسِبُ من كانَ صاحبَ ذَاكِرَةٍ حسنَةٍ، تَسْتَدْعِي المعلوماتِ المخْزُونَاتِ في جهاز التخزين الْعِلْمِيّ لدَيْه دُونَ تكلُّف.

وجاء في القراءة الأخرى: «أَوَلَا يَذَّكَّرُ الإنْسَان» وهذه تناسِبُ من كان صاحب ذاكرة تَسْتدعي المعلوماتِ المخزوناتِ في جهاز التخزين العلميّ لدَيْه بِجَهْدٍ وتكَلُّف.

وكلٌّ من الفريقين سيتذَكَّر بالتَّنْبِيه وبالإثارة للتَّذَكُّر، فالقضيّة من الحقائق الّتي يَعْلَمُها من نَفْسِهِ كُلُّ إنسان.

﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾: أي: ولَـمْ يَكُنْ شيئاً، يجوز حذفُ نُونِ الفعل المضارع من فعل: «يَكُون» بشَرْطِ كوْنِه مجزوماً بالسّكون، غَيْرَ مُتَّصِلٍ بضمير نَصْبٍ ولا سَاكن.

والدَّاعي البلاغي لهذا الحذف هُنَا الإشْعَارُ بأَنَّ مَنْ كانَ مَعْدُوماً في الواقع، يَحْسُنُ أنْ يُوجَزَ الحديث عَنْهُ في اللَّفْظ، ومن هذا الإيجاز حذفُ ما يجوز في اللّسان العربيّ حَذْفُه في النُّطق.

والمرادُ أنَّهُ لم يكُنْ شيئاً يُقَالُ له: «إنسان» ولو كانت عناصِرُ جَسَدِهِ موجودةً تُراباً في الأرض.

وقبْل خَلْق الكون كُلِّه لم يَكُن شيئاً مُطْلقاً، إذْ كان عدماً محْضاً.

وممّا لا شَكَّ فيه أنّ دَلِيلَ قياس قُدْرَةِ الرَّبّ على الإعادَةِ إلى الحياة بَعْدَ الموت، على قُدْرَتِهِ علىٰ بَدْءِ خَلْقِ المَخْلُوقِ الحيّ ثُمَّ إمَاتَتِه وإفنائه، دليلٌ بُرْهَانيٌّ، إذ الرَّبُّ الخالِقُ أزلِيُّ الذّاتِ، وأَزلِيُّ الصِّفَاتِ، وهو على الدَّوام مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، وممَّا هو داخلٌ في عِلْمه ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ـ كُلُّ جُزْءٍ صَغُرَ أمْ كَبُرَ من ذوات مَخْلُوقاته وصفاتها، مهْما تَبَدَّلَتْ وتَحَوَّلَتْ في أطوار وجُوداتها، وبنائها وتناقُصِها حتَّىٰ فَنَائها.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

بَعْد إقامة الدّليل البرهاني، انتقل البيان القرآنيُّ إلى توجيه الموعظة بالترهيب في هذه الآيات الثلاث.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ الفاء فيها معنى التفريع على ما جاء في الآية (٦٧) والخطاب بالْقَسم الذي استُخْدِمتْ للدّلالة عليه واو القسم، موجّه لكلّ مؤمن برُبوبيَّة الله عزّ وجلّ، بأسلوب الخطاب الإفراديّ، تكريماً له، وحثاً ضمنيًا له على أَنْ يَجْتَهِد في إقناع من يراه من النّاس مكذّباً بالبعث وبيوم الدين.

وقد أقْسَمَ الله عزّ وجلَّ بوصْفِه أنَّهُ رَبٌّ، لأنَّ المقْسَمَ عَلَيْهِ من تصاريف رُبُوبيَّتِه لعباده، جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانُه.

وقد يستَفيدُ مِنْ هذا الْقَسَم بعض مُنْكِري البَعْثِ ويوم الدينِ على وَجْهِ التَّعْرِيض، لا على سبيل توجيه الخطاب لهم، إذْ لَا تأثير لمثْلِ هذا الْقَسَم في نفوسِهم، فكان من الحكْمَةِ تَرْبَويّاً عَدَمُ توجيه الخطاب لهم، وكان من المناسب لحالِهِم التَّعْرِيضُ مع الإعراض عنهم.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾: أي: لَنَجْمعنَّهم ولَنَسُوقَنَّهُمْ. **الْحَشْرُ**: هو في اللُّغَةِ الْجَمْعُ والسَّوْق.

«اللام» واقعة في جواب الْقَسم، والفعْلُ قَدْ أُكِّد بنُون التوكيد الثقيلة، وهذه اللّام ونون التوكيد في الفعل المضارع واجبتان في اللّسان العربي بَعْدَ القسم.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾: أي: ولَنَحْشُرَنَّ الشياطين الّذين أغْوَوْهُمْ من شياطين الإنْسِ والجن.

﴿جِثِيًّا﴾: بضم الجيم وكَسْرِها، وهما قراءتان ولغتان عربيتان، أي: جالِسِين على رُكَبِهم.

يقالُ لغة: «جَثَا فُلانٌ يجْثُو جَثْواً وَجُثُوًّا» أي: جلَسَ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، أو قام علىٰ أطْرَافِ أصابِعِه، فهو «جَاثٍ» والْجَمْعُ: «جِثِيّ» و«جُثِيّ».

﴿لَنَنزِعَنَّ﴾: أي: لنَجْذِبَنَّ بِشِدَّةٍ وعُنْف، وفي هذا إذْلَالٌ وإهَانَةٌ للمنْتَزَعِينَ، وهم قادة المجرمين وأئمتهم.

﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾: أي: من كلِّ فِرْقَةٍ وَجَماعَةٍ وحِزْبٍ من أحْزَاب الكافِرين.

الشِّيعَة: الفرقة، والجماعة، الّتي يُناصِرُ بَعْضُهُمْ بعضاً، وَيَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بعْضاً.

﴿عِتِيًّا﴾ و«عُتِياً» كما في القراءة الأخرى، أي: اسْتِكْباراً وتجاوزاً للحدّ الأقْصَىٰ.

يقالُ لغة: «عَتَا يَعْتُو عَتْوّاً وَعُتِيًّا وعِتِيًّا» أي: اسْتكْبَر وتجاوز الحدّ، فهو «عَاتٍ» أي: جبَّارٌ مُسْتَكْبِرٌ، وهم «عُتَاةٌ» و«عُتِيٌّ».

﴿أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾: أي: أولَىٰ بجهنَّم احتراقاً بنارِها، يقال لغة: «صَلِيَ النَّار، وصَلِيَ بها، يَصْلَىٰ صَلىً وَصِلِياً» أي: احترقَ بها، فكلِمَةُ «صِلِيّ» مَصْدَرُ فِعْل «صَلِيَ» بمعنى احْتَرَق.

وقد تضمَّنَتْ هذه الآيات الثلاث القَسَم على أربع لقطاتٍ تَصْوِيرِيَّة من مشاهد يوم القيامة، الّتي سوف تَحْدُثُ حَتْماً للكافرين المكذّبين بالْبَعْثِ، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

اللقطة الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾: أي: فترتيباً وتفريعاً على ما سبَقَ من بيان إصرار المكذّبين بيوم الدّين على موقفهم العناديّ الّذي ليس لهم عليه حجَّةٌ ما، غير الاستبعاد والاستغراب، نُقْسِمُ لك أيُّها المؤمِنُ بوصْفِ كونِنا رَبَّكَ: لنجمعَنَّهُمْ في يوم الحشر، ولنَسُوقَنَّهم والشياطين من شياطين الإنْس والجنّ، جمعاً منْفَصِلاً متميّزاً عن المؤمنين، مقدّمةً لإحضارهِمْ حَوْلَ أبْواب جهنَّم.

لفظ «رَبّ» هو من أسماء الله الحسنىٰ، وهو مشتقٌّ من معنىٰ التربية، ومعلومٌ أنَّ التربيةَ علاقةٌ دائمةٌ بين الخالِق والمخلوق.

والكاف في «رَبِّكَ» ضمير خطاب موجَّه لكل صالح للخطاب من غير المكذّبين بيوم الدّين، بأسلوب الخطاب الإفراديّ.

ولدى الاستقراء تبيَّن لي أنّه لم يسْتَعْمَل في القرآن لفظ «رَبّ» دالاً على الله عزّ وجلّ إلَّا مضافاً إلى بعض خَلْقِهِ.

اللقطة الثانية: دلّت عليها عبارة: ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾: هذه العبارة داخلَةٌ في جواب القسم: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾.

أي: وبَعْدَ زَمَنٍ متراخٍ دلَّ عليه حرف العطف «ثُمَّ» لَنَسُوقَنَّهُمْ قَهْراً، ولَنَجْعَلَنَّهُمْ قهراً، يحْضُرُونَ حَوْلَ أبواب جهنَّمَ دار عذابِ المجْرِمين، جاثِينَ علىٰ رُكَبِهِمْ ذَلِيلَينَ خاسِئين.

دلَّ على إحضارهم حولَ أبواب جَهنَّمَ الّتي يُكَبُّون إلى داخلها منها خالدين، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول) بشأن الكافرين وسوْقهم إلى جهنَّم زُمَراً:

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي؛ فَبِئْسَ مَكَانُ إقَامَةِ المتكَبِّرِين علىٰ رَبّهم، الّذي يَسْتَقِرُّون فيه خالِدين أبداً.

جهنَّم: اسْمُ عَلَمٌ من أسماء دار العذاب التي اعتدها الله عزّ وجلّ لتعذيب الكافرين والعصاة فيها يوم الدّين، وهو ممنوع من الصرف للعلميَّة والتأنيث.

اللقطة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾:

هذه العبارة داخلةٌ أيضاً في جواب الْقَسَم: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾.

أي: وبَعْدَ زَمَنٍ متراخٍ عن إحضارهم حوْل أبواب جهَنَّم حالَةَ كَوْنهم جاثين على رُكَبِهِمْ أذِلَّاءَ مُهَانِينَ، لَنَجْذِبَنَّ بشِدَّةٍ وعُنْفٍ وقَسْوَةٍ مِنْ كُلِّ جماعَةٍ وَفِرْقَةٍ وزُمْرَةٍ وحِزْب منْ أحزابهم، مَنْ كان منْهُمْ في الحياة الدُّنيا أشدَّ استِكْباراً وتجاوزاً للحَدِّ الأُقْصَىٰ، علىٰ الرَّحْمٰنِ رَبّ العباد. وهُمْ قَادَةُ أحزاب الكُفر، وأيادِيهمُ المنفِّذَةُ لجرائِمهم، والقائمون علىٰ إضلال الناس، وإغْواء من يسْتَجيبُ لهم منَ الأتباع.

ويظهَرُ أنَّ الْغرَضَ عَزْلُهُمْ وَجَعْلُهُمْ في مُقَدَّمة الذين يُكَبُّونَ في النار، إلى حيث يَذُوقُونَ فيها عذابَ الحريق.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾: جمهور المعربين من النُّحاة، وهو مذْهبُ سيبويْه، يَرَوْنَ أنَّ كَلِمَة «أيّ» هنا اسْمُ موصول مبنيٌّ على الضمّ، وهي بمعنى «الذي» وأنّ كلمة «أشَدُّ» خبر مبتدأ محذوف، وأنّ الجملة صلة الموصول، و«أيُّهُمْ» وصِلَتُهَا في محلّ نصْبٍ مفعول به لفعل: «نَنْزِعَنَّ». و«عَلَى الرَّحْمٰنِ» متعلّقٌ بـ«أَشَدُّ» و«عِتياً» تمييز.

وقد جاءت كلمةُ: «أيّ» موصولَةً مبنيَّةً على الضمّ في قول الشاعر:

إِذَا مَا أَتَيْتَ بَنِي مَالِكٍ فَسَلِّمْ عَلَىٰ أَيُّهُمْ أفْضَلُ

أي: فَسَلِّمْ على الّذي هو أفضلهم.

اللّقطة الرابعة: دلَّت عليها عبارة: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾؛

﴿صِلِيًّا﴾: أي: احتراقا بنار جهنم.

هذه العبارة داخلَةٌ أيضاً في جواب القسم: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾.

أي: وبَعْدَ زَمَنٍ متراخٍ يمضي على نَزْعِ أئمة الكُفْر وشياطينهم وأنصارهم الَّذِين كانوا أشدَّ على الرَّحْمٰن في الدنيا استكباراً وتجبراً، وبَعْد

عَزْلِهم عَزْل إذلالٍ وإهانةً، وبَعْدَ وضْعِهم في المقدّمة على مقْرُبَةٍ من أبْواب جهنَّم.

بعْدَ ذلك لتَقْذِفَنَّ هؤلاء إلى الدَّرْك الذي يَسْتَحِقُّونَ فيه عَذَابَ الحريق بالنارِ في جهنَّم، إذْ كُلَّما كانَ الدَّرْكَ أكثر تَسَفلاً في جهنَّمَ كان أشَدَّ حَرِيقاً، وأشدّ عذاباً.

هذا المعنى لم يأت التعبير عنه في العبارة القرآنيَّة بأسْلُوبٍ ذي دَلَالَةٍ مُبَاشَرة، إنَّما جاء بأسْلُوبِ الكناية، ذات اللَّوازِمِ الفكرية الموصِلَة إلى الإشعار بهذا المعنى.

فكَوْنُ الله عزَّ وجلَّ أعْلَمَ بالَّذِينَ هُمْ أوْلَى وأجْدَرُ بجهَنَّم احتراقاً بلهَب نيرانها، من سائر مستحقّي العذاب فيها، مع ملاحظة أنَّهُ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه ـ أحْكمُ الحاكمين، وأعْدَلُ العادلين، يستَلْزِمُ عقلاً أنْ يَبْدَأ اللَّهُ عزّ وجلَّ بقَذْفِهم إلى دَرَكَاتهم في جهنَّم دارِ عذاب المجرمين، قبل سائر المجرمين.

وجاء التعبير بضمير المتكلّم العظيم: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ﴾ لأن الحديث يتعلَّقُ بجَبَرُوت سُلْطَان الرّبّ وقَهْرِهِ، وتنفيذ أحكامه العادلة، فالمناسِبُ فِيه ضَمِيرُ المتكلِّم العظيم.

وكوْن اللَّهِ عزّ وجلَّ يَبْدَأُ بالّذين هُمْ أولَىٰ بجهنَّمَ احتراقاً وتَعذيباً، فيَأْمُر ملائكتَهُ المصاحبين حشْرَهم وسَوْقَهمْ، وإحضارَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جثياً، ونَزْع الَّذين كانوا منهم في الدنيا أشدّ على الرَّحْمٰنِ عِتِيًّا، بقَذْفهم إلى الدَّرَكاتِ الّتي يسْتَحِقُّونها فيها، يَدُلُّ علَىٰ أنَّ اللَّهَ عزّ وجَلَّ يُلْحِقُ بهم سائر الكافِرِينَ المكذّبين بيوم الدّين المحضَرِين حولَ أبواب جهنَّم جثياً، فيَأْمُرُ ذَوي الاختصاص من ملائكتِهِ بِقَذْفِهِمْ إلى الدّركات الّتي يسْتَحِقُّونها بحسَبِ جرائمهم، ويُنَفِّذُ الملائكةُ أمْرَ اللَّهِ بشَأْنِهم، فيُوزِّعُونَهُمْ في دراكاتِ جهنَّم

تَوْزِيعاً عادلاً بحسَبِ أحكام الله فيهم الّتي لا يَظْلِمُ اللَّهُ فيها أحَداً مثقالَ ذَرَّة، والّتي كان عَدْلُ الله فيها مناسِباً لأحوالهم الّتي كانُوا عليها في الدُّنيا.

قول الله عزّ وجل:

● ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾:

تَرَجَّحَ لدَيَّ أنّ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ تتحدَّثَانِ عن الْوُرُودِ على الصّراط، وهُوَ جِسْرٌ يُضْرَبُ على وَسَطِ أَعْلَىٰ جهنَّمَ من حافةٍ إلى الحافة المقابلَة لها، كما وَرَدَ في الأحاديث الصحيحة عنْد البخاريّ ومُسْلم والإمام أحمد، عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة.

إنّ المارَّ على الصّراط المضروب على وسَطِ أعْلَىٰ جهنَّم يقالُ بشأنِهِ: قد ورَد جهنّم، بمعنىٰ: مَرَّ مُشْرفاً عليها، كَمَا يقال لمَنْ دَخلَهَا ونَالَ شيئاً منْ عَذابها: قَدْ وَرَدَها.

فكلمة الورود مستَعْمَلَةٌ على المعنَيَيْن.

جاء في «لسان العرب»: قال ابْنُ مَسْعُودٍ، والحسَنُ، وقتادَة: إنَّ وُرُودَ جَهنَّمَ لَيْسَ دُخُولَها.

أي: لَيْسَ دُخُولُها أمْراً لازماً أخذاً من دلالة جُمْلَة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾.

وحُجَّتُهُم في ذَلِكَ قَوِيَّة، لأنَّ الْعَرَب تقول: وَرَدْنا ماءَ كذَا وَلَم يَدْخُلوه. ويُقَالُ لُغَةً لِمَنْ بَلَغَ إلىٰ الْبَلَدِ وَلَمْ يَدْخُلْهُ: وَرَدَ بَلَدَ كذا.

قال أبو إسحاق: وفي اللُّغَة: وَرَدَ بَلَدَ كَذَا، ومَاءَ كَذَا، إذَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ، دَخلَهُ أمْ لم يَدْخُله. وقال: فالْوُرُودُ بالإجماع لَيْسَ بدُخولٍ، أي: عنْدَ أهل اللّغَة.

فقول الله تعالى خطاباً لعموم الناس ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: وَمَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدٌ جَهَنَّمَ، دُخُولاً فيها، أو عُبُوراً على الصراط المشْرِفِ عليها، الّذي يُضْرَبُ على وسَطِ أعْلاها من حافَةٍ إلى حافَّة.

الواو عطفت الجملة علىٰ ما سبَقها من جُمَل. و«إنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بمعنى «ما» والجملة فيها قَصْرٌ بالنَّفْي والاستثناء. أي: وما أحَدٌ مِنْكُمْ أيُّها الناس إلَّا لَهُ صِفَةُ وُرُودِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدّين.

• ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾: أي: كان بقضاء الله وقَدَرِه هذا الورودُ عى جهنَّم، أمْراً أَوْجَبَ رَبُّكَ على نفسه أنْ يُنَفِّذَه، فَهُوَ أمْرٌ حَتْمُ التَّنْفِيذ، وهو سَوْف يكون مُنَجَّزاً مَقْضِياً لا محالة.

﴿حَتْمًا﴾: أيْ: واجباً قَضَاهُ اللَّهُ قضاءً مُبْرَماً. يقالُ لغة: حَتَمَ بكذا يَحْتِمُ حَتْماً، أي: قضىٰ وَحَكَم. ويقالُ: حَتَمَ الأمْرَ، أي: أحْكَمَهُ. ويقالُ: حَتَمَ علَيْهِ الأمْرَ، أي: أوْجَبَهُ، فالأمْرُ حَتْمٌ. ويُقَالُ: انْحَتَمَ الأَمْرُ، وَتَحَتَّمَ، أي: وَجَبَ وُجوباً لَا يُمْكِن إسقاطُه.

﴿مَّقْضِيًّا﴾: أي: سوف يكون منجَّزاً واقعاً بالأمْرِ التكوينيّ لا محالة، في الوقت المحدَّد لتنْفيذه.

ومَعْلُومٌ أنَّ لِلَّهِ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُه ـ أنْ يُوجب على نَفْسِهِ ما شَاءَ بقضائِه وقَدَرِه، وممَّا ألْزَمَ به نَفْسَه تبارك وتَعَالىٰ: أنَّهُ حَرَّمَ الظُّلْمَ علىٰ نفسه، وأنَّهُ لَا يُخْلِفُ الميعاد. وما أوجَبَهُ الله على نَفْسه، هو من قضائه وقَدَرِه، ومِنْ أحكامِه الَّتِي يُبْرِمُها.

والوُرُودُ على الصّراط الّذِي يُضْرَبُ على ظَهْرَانَيْ جهَنَّمَ لَهُ أَحْوالٌ تُلائِم أحوال الواردينَ عليه، فالمحسِنُونَ يَمُرُّونَ كَطَرْف الْعَيْن، وتتنازَلُ الدَّرجاتُ، فَمِنَ المؤمنين من يمُرُّ علىٰ الصّراط كالْبَرْق، ومِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كالرِّيح، ومِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كالطَّيْر، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ.

ويَتَساقَطُ في النّار الْعُصَاةُ المذْنِبُونَ الّذِينَ لَمْ يَشْمَلْهُمُ الْعَفْوُ والغفران، وبَعْدَ أنْ ينالَ كُلٌّ مِنْهُمْ مَا قُضِيَ عليه من عذاب، يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا واتَّقُوا ولَوْ من أدْنى درجات التقوى، الّتي تعادِلُ مثقال ذَرَّة، من بَقِيَّةِ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عذاب، فيأمُرُ بإخْراجهم من دار العذاب على مراحل متتابِعةٍ بحَسَب ذُنوبِهم ومعاصيهم الّتي ارْتكَبُوها في الدُّنيا.

أمّا الآخَرُون الظّالِمُونَ فيُبْقِيهم فيها جُثِيّاً.

- ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ متراخية من الزّمن، نُنَجّي مِنَ الاستمرار في دار العذاب، الَّذِين ورَدُوا جَهنَّمَ وُرُودَ دُخُول، ولم يَمُرُّوا على الصراط عابرين حَتَّى نهايته.

نُنَجّي: أي: نُخَلّص.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾: أي: الَّذِينَ كان لهم في الدُّنْيَا مقدارٌ مَا من وقايَةِ أنْفُسِهِم من بعض عذاب الله، ولو من أدْنىٰ دَرَجات الْوِقَايَةِ والحماية.

﴿وَّنَذَرُ﴾: أي: ونَتْرُكُ. يقالُ لغة: «وَذِرَهُ يَذَرُهُ» أي: تَرَكه يَتْرُكه، وفي الْأَمْر يُقَالُ: «ذَرْهُ». وقد أمات العربُ ماضِي هذا الفعل ومَصْدَرَهُ. فإذا أُريد الماضي قالُوا: تَرَكَهُ. ولا يُسْتَعْمَلُ منه اسم الفاعل، فلا يُقالُ: «واذِر».

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الَّذِينَ لم يُوجَدْ في صَحَائِفِ أعْمَالهم إلَّا الظُّلْمُ وتجاوز الحدّ، وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ لم يُوجَدْ في قلوبهم في حَياة الابتلاء مثقال ذَرَّةٍ من إيمان.

«أل» في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هُنا هي الدّالَّةُ على استجماعهم كلَّ عناصر الظُّلْم دُون خَلِيطٍ من الخير.

﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾: أي: في جهَنَّمَ جاثِينَ جالِسِينَ على رُكَبِهِمْ أذِلَّاءَ مُهَانين، يَنالُونَ عذابَهُمُ الخالد الّذي يَسْتَحِقُّونه.

وقَدْ جَاء ما دَلَّتْ عَلَيْه هٰذه الآيَةُ مُفَصَّلاً، فيما صَحَّ عن الرسُول ﷺ من بيانَاتٍ قَوْلية.

ممّا جاء في السُّنَّة بشَأْنِ الْوُرُودِ على جِسْرِ جَهَنَّم:

(١) روى البخاريّ ومُسْلِمٌ والإمام أحمد، من حديثٍ ذُكِرَتْ فيه أحداثٌ من أحداث يَوْم القيامة، عن أبي سَعِيدٍ الخدري رضي لله عنه، أنّ الرَّسُولَ ﷺ قال فيه:

«ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ، وتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، ويَقُولُون: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ».

قيل: يَا رَسُولَ الله، وما الْجِسْرُ؟. قال:

«دَحضٌ مَزَلَّة(١). فيهِ خَطاطِيفُ، وكلَاليبُ(٢)، وحَسَكَةٌ تَكُونُ بنَجْدٍ، فيها شُوَيْكَةٌ، يُقَالُ لها: السَّعْدَان، فَيَمُرُّ المؤمِنُونَ كطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكالْبَرْق، وكالرِّيح، وكالطَّيْرِ، وكأجاويدِ الْخَيْلِ والرِّكاب(٣)، فناجٍ مُسَلَّمٌ، ومَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ(٤)، ومَكْدُوسٌ في نَارِ جهَنَّمَ(٥)، حَتَّىٰ إذَا خَلَصَ المؤْمِنُونَ من النَّارِ، فَوالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ، مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ في اسْتِيفَاءِ الْحَقّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ لإخْوَانِهِمْ الَّذِينَ في النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا

---

(١) دَحْضٌ: أي: زَلِقَ. مَزَلَّة: أي: مَوْضِعُ الزَّلَلِ والانزلاق. تَنْزَلِقُ عنه الأقدام وتَزِلُّ.

(٢) خَطَاطِيف: جمع «خُطَّاف» وهو كُلُّ حَدِيدَةٍ مُعْوَجَّة. كَلاليب: جَمْعُ «كُلَّاب» وهو حديدة مُعْوجَّة الرأس يُنْتَشَلُ بها الشيءُ أو يُعلَّق.

(٣) الرِّكاب: الإبل المركوبة، ومَخْدُوشٌ مُرْسل: أي: ينالُهُ خَدْشٌ ويُتْرَكُ.

(٤) ومَكْدُوسٌ في نار جهنم: أي: ومَرْمِي فيها ومجموعٌ بتزاحم مع المعذّبين.

(٥) حُمَماً: أي: فَحْماً، وكُلَّ ما احْتَرَقَ مِنَ النَّارِ، واحِدَتُه «حُمَمَة».

يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ، وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَىٰ النَّار، فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثيراً، قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَىٰ نِصْفِ ساقِهِ، وَإِلَىٰ رُكْبَتِهِ.

فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ مِنْ أَحَدٍ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا به.

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ من خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ.

فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كثيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أحداً مِمَّنْ أَمَرْتَنا بِهِ.

ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوه.

فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها ممَّنْ أَمَرْتَنَا أحداً.

ثُمَّ يَقُولُ: ارْجَعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوه.

فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْراً.

فَيَقُولُ اللَّهُ: شَفَعَتِ الْمَلائِكَةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ المؤمْنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النّارَ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ، قَدْ عَادُوا حُمَماً، فَيُلْقِيهِم فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهرُ الحياة، فَيَخْرُجونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةِ في حَمِيلِ السَّيْلِ(١)، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَىٰ الْحَجَرِ أوالشَّجَرِ، مَا يَكُونُ منها إِلَىٰ الشَّمْسِ أُصَيْفِرَ

---

(١) **الحِبَّةُ**: بِكَسْرِ الحاء بُزُور الْعُشْبِ والْبُقُولِ الْبَرِّيَّةِ، وحَمِيلُ السَّيْلِ هو ما يَحْمِلُهُ مِنَ الْغُثَاءِ والطِّين.

وَأُخَيْضِرَ، وَمَا يَكُونِ مِنهَا إِلَىٰ الظِّلِّ يَكُونَ أَبْيَضَ، فَيَخْرُجونَ كاللُّؤْلُؤِ، في رِقَابِهِمْ الْخَواتِيمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّة، هٰؤُلاَءِ عُتَقَاءُ اللَّهِ مِنَ النَّار، الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوه، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوه.

ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ.

فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ.

فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هذا؟

فَيقولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هٰذَا؟

فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً».

(٢) وجَاءَ في رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عن أبي هريرة، وعن أبي سَعِيدٍ الخدْريّ، زِيَادَةُ وَصْفِ حَالِ آخِرِ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الجنَّة، وكَيْفَ يَتَدَرَّجُ في طَلَبَاتِهِ مِنْ رَبِّهِ مَرْحَلَةً فَمَرْحَلَةً، حَتَّىٰ يُدْخِلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، ويَقُولُ لَهُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّىٰ، حَتَّىٰ إِذَا انْقَطَعَتْ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ؛ زِدْ كَذَا وَكَذَا، أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتَّىٰ إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ عزّ وجلَّ، لكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ».

وفي رِوَايَةِ أبي سَعِيد: «وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ».

(٣) وَرَوَىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ، وأحمَدُ، والتِّرمِذِيُّ والنَّسَائِيُّ عَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: «لا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً».

كُلُّ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ عَلَىٰ مَرَاحِلَ، يَدْخُلُونَ في عُمُوم قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس العاشر من دُرُوس سورة (مريم) والحَمْد لله على معونته وتَوفيقه ومَدَدِه وفتحه.

* * *

(١٤)

التدبّر التحليليّ للدرس الحادي عشر من دُرُوس سورة (مريم) وهو الآيات من (٧٣ ـ ٧٦)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

القراءات:

(٧٣) • وقرأ حمزة ويعقوب: «عَلَيْهُمْ» بضمّ هاء الضمير، وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكسر هاء الضمير. والقراءتان وجهان عربيان في النُّطْقِ.

(٧٣) • وقرأ ابنُ كثير: «مُقاماً» بضَمّ الميم الأولىٰ، من فعل «أقام» المزيد وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿مَّقَامًا﴾ بفتح هذه الميم، من فعل «قَامَ» الثلاثي غير المزيد.

والقراءتان متكاملتان في الأداء البَياني، أي: يُهَيَّأُ لهم «مُقَام» فهم يتخذونه «مَقَاماً» بالجَبْر أو بالاختيار «مُقَام» و«مَقَام» كلٌّ منهما يَصْلُحُ لأنْ يكونُ اسم مكان، أو مصدراً ميمياً، ويُسَمَّى «اسْمَ مَصْدَر».

أي: خَيْرٌ مَكانَ إقامَةٍ، أو خَيْرٌ إقَامةً.

(٧٤) • قرأ قالون، وابْنُ ذَكْوَان، وأبو جَعْفر: **[وَرِيّاً]**.

الرِّيُّ: امتلاء الْبَدَنِ بما يُعْطِيه حُسْناً ونضارةً وجَمالاً من السّوائل والأشربة والغذاء الحسن.

• وقرأها باقي الْقُرَّاء الْعَشَرَة: ﴿وَرِءْيًا﴾.

الرِّئْيُ: حُسْنُ المنْظَر في البهاء والجمال، سواء أكان في الملابس، أمْ في الأبدان.

والقراءتان متقاربتان في الدَّلالة على المعنى المراد، وفيهما تفنُّنٌ مُسْتَعْذَبٌ، في استخدام لفظَتَيْن متقاربتَيْن في النُّطْق، ومتقاربتَيْن في المعنى.

تمهيد:

هذا الدرس من دروس السورة يُعَالج بالبَيانِ الحكيم ذَريعةً تَذَرَّعَ بها الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عُتَاةِ وأئِمَّةِ مشركي مَكَّة، في المرحلَةِ المكيَّةِ منْ سِيرَةِ الرَّسُول الدَّعَويّة، ويَتَذَرَّعُ بها الجبابرة وأهل الوجاهة والثراء في كُلّ عَصْرٍ وفي كلّ أمَّة، لتحْسِينِ مواقِفِهم الكُفْريَّة الْقَبِيحَةِ وتَزْيينِها.

لَقَدْ كَفَرَ كبراء مُشْركي مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ بما جاءَ في آياتِ اللَّهِ البيّنات المنزَّلَاتِ على رسول الله محمّد ﷺ، وقَدَّمُوا للّذينَ آمَنُوا ذَرِيعَتَهُمْ التالية.

وَهِيَ أَنَّهُمْ يتمتَّعُونَ بمكانةٍ اجتماعيَّة رفيعة، ولهم في بيئتهم أنْصارٌ وأعوانٌ مَؤَيِّدونَ لهم من عِلْيَةِ الْقَوْمِ، ولَهُمْ نادٍ يَتبادَلُونَ فيه الرأْيَ والمشورة، وطرائف الأحاديث والأخبار، ويَتَمَتَّعُونَ أيضاً بِوَفْرَةٍ من زِينَةِ الحياة الدُّنْيا ولَذَّاتِهَا وأموالها ومُمْتَلَكاتِها.

بينما كان المسلمون في العهْد المكيّ من تاريخ دَعْوَة الرّسُول ﷺ، مَحْرُومين من ذلِكَ الّذِي كَانَ الّذِينَ كَفرُوا يَتمتَّعُونَ به.

فَتَوَهَّمَ الّذِينَ كَفرُوا أنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ من اعتقادٍ وسُلُوكٍ خَيْرٌ ممَّا يَدْعُوهم إلَيْهِ الرّسُولُ والّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، إذْ كانَ هُو السَّبَبُ في تَفَوُّقِهم في مظاهر الحياة الدُّنيا وزِيناتها.

هٰذه النظرة القاصِرَةُ الضيِّقَةُ قَدْ يُفْتَنُ بها بَعْضُ المؤمنين المسلمين، ضعفاء الإيمان، أو الجهلة بحكْمَةِ الله في عباده.

لكنَّ الحقيقة مخالفة لها تماماً، فنحن نعلَمُ من قواطع النصوص، وبراهين العقل، أنّ دار الحياة الدنيا دار امتحان، ونَعْلم أنَّ الامتحان فيها يكون على مقدار ما فيها من متناقضات، ومتضادّات، ومُتخالفات، ومتماثلات.

فيكونُ الامتحان بالغنى وبالفقر، وبالعزّ وبالذّل، وبالصحَّةِ والمرض، وبارتفاع المكانَة الاجتماعيَّة وبانخفاضها، وبسائر ما في الحياة من أعراض وتصاريف، ويكون بامتحان الناس بعضِهم ببعض، ويجري امتحان العباد بها سواءٌ أكانوا مؤمنين أمْ كافرين، دون تفريقٍ بَيْنَ الزُّمَرِ المتباينَةِ في مفهوماتها ومعتقداتها.

أمّا امتحان كلّ إنسان فيكُونُ بحكْمَةِ اللَّهِ جلَّ جلالُه ملائماً لتكوين خريطَتِه النفسيَّة، الّتي لا يَعْلَمُها علماً شاملاً إلّا الله ـ جلَّ جلالُه وعَظُم سُلْطَانُه ـ الّذي وضَعَها موضِع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

ولولا أن يُفتَن المؤمنون فتنةً شديدةً لا يجدون في نفوسهم مُقَاوَمَةً لها، لجعل الله عزّ وجلّ للكافرين في الحياة الدنيا، كُلَّ ما يحبُّونَ من زينتها وزُخرُفها ورَفاهيتها، ولجعَل المؤمنين المسْلِمِينَ مَحْرُومِين من ذلك، يعيشون في الحياة الدُّنيا بلا زينَةٍ ولا زُخْرُفٍ ولَا رَفاهية.

لكنَّ حكْمَةَ اللَّهِ جلّ جلالُهُ لَمْ تَشأ ذلِكَ، لِئَلَّا يَكْفُرَ النَّاسُ جَمِيعاً، إذْ لَا يَكُونُ الْأَمْرُ قائماً على الامتحان الأمثل.

بلْ شاءتْ حِكْمَةُ اللَّهِ أنْ يَكُونَ النَّاس جميعاً، مؤمنُوهم وكافروهم خَاضِعِينَ لسُنَّةٍ عَامَّةٍ تَشْمَلُ الجميع، وأنْ يكون التوزيع الفرديُّ بحَسَبِ خصائص النُّفوس، وخَرَائِطها التَّكْوينيَّة التي لا يَعْلَمُها إلَّا هو ومَنْ يُعْلِمُه، فَهُوَ بِحكْمَتِهِ يُوسِّعُ الرزْق لِمَنْ يَشَاءُ، ويُضَيِّقُ الرِّزْقَ علىٰ من يَشَاء، ويُعزُّ من يشَاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاء، ويُوَزِّعُ المتناقضاتِ والمتضادَّات والمتخالفات والمتماثِلَاتِ بمقاديره الحكيمة علىٰ عباده، بِحَسَبِ عِلْمِهِ بهم، وبحَسَب حكمته في امتحان كلٍّ منهم، التي يُراعِي بها حالة الخريطة النفسيَّة الّتي فَطرَهُ عليها، ويُراعي بها أحْسَنَ صُور الامتحان الأمثل له.

وقد دلَّ على هذه المعاني نُصُوصٌ قرآنيَّةٌ كثيرة، منها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول): ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿نُّمِدُّ﴾: أي: نُعْطِي عطاءاً فيه سعةٌ وتطويل، وقد يكون بتَتَابُعٍ واتّصال.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: من كُلِّ الناسِ على اختلاف عقائدهم وألْوانهم ولغاتهم ومَواطِنِهم وأُصُولهم وأعْرَاقهم، مؤمِنيهِمْ وكُفَّارِهم.

والواقع البشري يُبيّن المراد بهذا النَّصّ.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخْرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ

سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَزُخْرُفًاۚ﴾: **الزُّخرُف**: الذَّهَبُ، والزِّينة، وكَمال حُسْنِ الشيء. يُقَال لغة: زَخْرَفَهُ، أي: زيَّنَهُ وكمَّلَ حُسْنَه وجَمالَه.

أي: ولولا أنْ يكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً كَافِرَةً، افْتِتَاناً بزينات الحياة الدُّنيا الّتي تُخَصَّصُ لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمٰنِ، لَجَعَلنَا الكافِرِينَ في الحياة الدنْيَا هُمْ أصْحَابَ الْغِنَىٰ والثراء والرَّفَاهِيَةِ من زيناتِ الحياة الدُّنيا.

لَقَدْ عَزَلَ الكافِرُون عَنْ مَفْهُومَاتِهم مَفْهُومَ أنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا حَيَاةُ امْتِحَانٍ بمقادير الله في المتناقضات، والمتَّضاداتِ، والمتَخالِفَاتِ، والمُتَمَاثِلَاتِ، والسّارّاتِ والمؤلمات، ضِمْنَ ظُروفِ الحياة الدنيا، وعَزَلُوا عَنْ مَفْهُومَاتهم تَصَوُّرَ الْيَوْم الآخِرِ ومَا فيه مِنْ حِسَابٍ وفَصْلِ قضاءٍ وتحقيقِ جزاء، فتوَهَّمُوا أنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا هِيَ كُلُّ الحياةِ الّتي يُمرُّ بها وُجودُهم. فإذا رأوا أَنَّهُمْ في الحياةِ الدُّنْيَا أَحْسَنُ مكانةً اجتماعيَّةً بَيْنَ قَوْمِهِمْ وأَوْفَرُ مَالاً، وأَكْثَرَ رَفاهيَةً، وغَضَارةً ونَضَارةً وقُوَّةً وبأساً، وأنْصاراً وأعواناً، من جماعَةِ المؤمنين المسلِمِينَ اتَّخَذُوا ذَلِكَ حُجَّةً علىٰ المؤمنينَ المسْلِمين، بِأَنَّ طَرِيقَتَهُمُ المعاديَة للدّين الحقِّ، هيَ الّتي جَلَبَتْ لَهُمْ هذا التفوُّقَ الدُّنْيَويّ، وأنَّ طَرِيقَةَ المؤمِنينَ المسْلِمين، هيَ التي جَلَبَتْ لَهُمْ مَا هُمْ فِيه مِن انْحِطَاطٍ وضَعْفٍ وفَقْرٍ وضَعَة، وهٰذا وهْمٌ باطِلٌ أبانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذا الدَّرْسِ بُطْلانَهُ وفساده.

التدبر:

قول الله عزَّ وجلّ:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: الضمير في: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يُرادُ به المدْعُوُّونَ إلى دِينِ اللَّهِ الحقّ، إذْ هُمُ المعنيُّون بِتَوْجِيهِ التَّلاوَة، أخْذاً من السِّبَاقِ والسِّيَاقِ والْقَرائن.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾: أي: آياتٌ من القرآنِ المجيدِ الذي هو تَنْزِيلُنا على عَبْدِنا محمَّدٍ، لِيُبَلِّغَهُ للنَّاس، باعْتِبارِهِ، أُنْزِلَ لتعليمهم وهدايتهم، ضِمْنَ تَعْليم وهدايَةِ النَّاسِ جَمِيعاً.

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: أي: حالَة كوْنِهَا وَاضِحَاتِ جَلِيَّاتِ الدَّلاَلاتِ، ومشْتَمِلَاتٍ على الهدايَة لِلَّتِي هِيَ أقْوم، وعلى الموعظة الحسنَةِ بالتَّرْغيب والترهيب، وعلى المجادَلَةِ بالّتي هِيَ أحْسَن، وهذه هي الكلّيَّاتُ الَّتي تَرْجِعُ إلَيْهَا تَفْصِيلَاتُ آيَاتِ القرآن المجيد، والمشتملات على هدايته للناس.

يقال لغة: «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَاناً، فهو بَائِنٌ وَبيّنٌ» أي: ظَهر وَوَضَحَ وَكَان جَلِياً.

ويُقال: «بيّنَ الشَّيْءُ» أي: ظَهَرَ واتَّضَحَ. ويقال: «أبانَ فُلاَنٌ الشيْءَ إبانَةً، وبيَّنَهُ تَبْييناً وَتِبْيَاناً» أي: أوضَحَهُ وأظْهَرَهُ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: أي: قال الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً نَاتِجاً عن إرادةٍ جازمة من المدْعُوِّينَ إلى دِينِ اللهالحقّ، بَعْدَ إدْرَاكِهِمْ دَلاَلاتِ الآياتِ البيّنات وَقيام الحجَّةِ عليهم بها.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: الّذين يَدْعُونَهُمْ إلى الإيمان والإسلام لإنقاذ أنفسهم من عذاب اللَّهِ يوم الدّين، وللظفر بالنَّعيم الخالِدِ في جنَّاتِ النّعيم.

﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾: أيْ: أيُّ فَرِيقَيْنا، يَا مَنْ تَتْلُونَ عَلَيْنا هٰذِهِ الآيات. الَّتي تَقُولُون: إنَّها آيَاتٌ مُنَزّلَاتٌ مِن عنْدِ اللَّهِ على محمّد.

﴿خَيۡرٌ مَّقَامًا﴾ أو «خَيرٌ مُقاماً» كما في القراءة الأخرى، أي: خَيْرٌ إقَامَةً، أو خَيْرٌ مَكَانَ إقَامَةٍ، كِلَا المَعْنَيَيْنِ مقبُولان، عند جمهور علماء الأصول، الّذِينَ يَرَوْن حمْلَ اللَّفْظِ على مَعْنَيَيْهِ فأكْثر إذا لم يكن بيْنَهما تناقُضٌ أو تضادّ، وقد سبق في شرح القراءات تحليل كلمة «مَقاماً» و«مُقاماً».

ومُرادُهُم بأفضليَّةِ الإقامة، وأفضليَّةِ مكانها، كُلُّ مَا يَسْتَمْتِع به المقيم من متاع الحياة الدنيا وزينتها، وأبْنِيَتِها وقُصُورِها، وَأَثَاثِها وَمَطَاعِمِهَا وَمَشَارِبها، ومَنَاكِحِها، وسَائر لذَّاتِها ومُتَعِهَا.

لَقَدْ تَهرَّبُوا من مُنَاظَرَةِ المؤمنين حوْل مَضْمُون آيات الله البيّنات، ولَجَؤُوا إلىٰ الاحْتِجاج بالتفوُّق فيما هم فيه من زينة الحياة الدُّنيا، وبأن أهل ناديهم أحسن حالاً من الذين آمنوا.

﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾: «النَّدِيُّ» مجْلِسُ الْقَوْمِ، ومُجْتَمَعُهُمُ الّذي يَتَباحَثُونَ فيه حَوْلَ أُمُور حيَاتهم، أفْرَادِهم وجَماعَاتهم، والّذي يتشاورون فيه، ويُدَبِّرون ويُخَطّطون فيه لأمور المستقبل.

ويَأتي؛ «النَّدِيُّ» بمعنى القوم الّذين يجتمعون للتباحُثِ، والتَّشَاوُرِ، والتدبير، والتخطيط لأمور المستقبل، وهؤلاء يكونون عادةً من عِلْيَةِ القوم.

فالذين كفَرُوا يحْتَجُّونَ بأنّ أهْلَ نَاديهم أحْسَنُ أجْسَاماً، وأحْسَنُ رَأْياً وإدْراكاً للأُمور من جماعَةِ المؤمنين.

لقد جعَلُوا ذريعَتَهُمْ لرفْضِ دعوة الداعين لهم إلى دين اللَّهِ الحقّ، بتِلَاوَةِ آيات اللَّهِ البيّناتِ عليهم، افْتِخارَهُمْ بتَفَوُّقهم على الدَّاعينَ لهم بأَنَّهُمْ خَيْرٌ مَقَاماً في الحياة، وبأَنَّهُمْ أحْسَنُ نَدِياً.

فالاستفهام في عبارتهم: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾؟ يُرِيدُونَ بِهِ إعلانَ تَفَوُّقهم في الحياة الدُّنيا علىٰ فَرِيق المؤمنين، ويُرِيدُون به

الافتخار بهذا التفوُّق، وهم يَعْتَبِرُونَ هذا بمثابَةِ دَلِيلٍ على صِحَّةِ طَرِيقَتِهِمْ، وعَدَمِ صِحَّةِ طَرِيقة المؤمنين.

لكن لم تمْضِ عدَّةُ سنواتٍ حتَّىٰ انقلبَتِ الأوضاع، وصار المؤمنون الضُّعفاء الأذِلَّاء هُمْ أصحاب السُّلْطَةِ والعِزَّةِ والقوّة، والغِنَىٰ والثراء، وصَارَ الكافرون هم الضعفاء والأذلاء والمهانين والمنكَسِرين.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ۝٧٤﴾.

في هذه الآية رَدٌّ علَىٰ شُبْهَةِ الّذِينَ كَفَرُوا التَّوهُّمِيَّة، الّتي جاء بيانُها في الآية السَّابقة (٧٣).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾: أي: وعَدَداً كثيراً أهلكْنا قَبْلَهُمْ إهلاك تَعْذِيبٍ وإبادةٍ جَماعِيَّةٍ.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾؛ **القَرْنُ مِنَ النَّاس**: هُمْ أهْلُ زمانٍ واحدٍ، والْجَمْعُ قُرُون.

﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾: أيْ: هم أحْسَنُ منْهُمْ أثَاثاً في أمتِعَتِهِم ووسائل رفاهيتهم، وأحْسَنُ مِنْهُمْ خُصُوبَةَ أبدانٍ ونُضْرَةً تَدُلُّ على مَا كَانُوا فيه من مَعِيشَةٍ ناعِمةٍ مرفَّهَة، وأحْسَنُ مكانَةً اجتماعيَّةً في أقوامهم.

«كَمْ» في هٰذِهِ الآية هي «كَمْ» الخبريَّة، وهِي كنايةٌ عن عَدَدٍ كثيرٍ مُبْهم، وهي في محلّ نصبٍ علىٰ أنَّها مَفْعُولٌ به لفِعْلِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثيراً من الْقُرُونِ أهلَكْنَا إهلاكَ تَعْذِيبٍ وإبادةٍ بسَبَبِ كُفْرِهم، فَلَمْ يُغْنِ عِنْهُمْ مَا كانوا فيه من تَفوُّقٍ في مَظَاهِر الحياةِ الدّنيا وزينَتِها شَيْئاً.

وعبارة: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تَمْييزٌ لـ«كَمْ» مُبيِّنٌ لها.

والواو في: ﴿وَكَم﴾ هِيَ فيما أرَىٰ تَعْطِفُ على محذوفٍ مُقَدَّرٍ، يُمْكِنُ للمتدبّر العميق التفكيرِ أنْ يُقَدِّرَهُ استخراجاً من لوازم الأفكار، وقياساً علىٰ

الأشباه والنظائر القرآنية، وتقديرُه: كم من قَرْنٍ قَبْلَهُم كانُوا أحْسَنَ منهم أثاثاً وَرِئْياً، وكانوا مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْقِلُونَ شيئاً، وكانوا لَا يهْتَدون إلى صراطِ نجاتِهم وسعادتهم، أو كانوا يتَّبِعُونَ الشّيْطان الّذي يَقُودُهُم أو يَسُوقهم إلىٰ عذاب السَّعير. وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أحْسَنُ أثاثاً وَرِئْياً، بسبب كفرهم وفجورهم.

﴿أَثَٰثًا﴾: **«الأثاث»**: جَمْعٌ مفرده «أثاثَة» وهو يُطْلَقُ علىٰ مَتَاعِ البيْت، الّذي يُفْرَشُ فيه، أو يُتَّخَذُ فيه للْجُلُوسِ والنَّوْمِ والزّينَة، ويُطْلَقُ أيضاً على أدواتِ المطاعم والمشارب وسائر حاجات المساكن.

ويُطْلَقُ الأثاثُ أيضاً على جميع الأموال، ما كان منها ثابتاً لَا يُنْقَلُ، وما كان مِنْها مُتَحَرِّكاً يُنْقَلُ.

وكلُّ هذه المعاني مرادة بكلمة ﴿أَثَٰثًا﴾.

﴿وَرِءْيًا﴾: **«الرِّئْي»** حُسْنُ المنظر في الأجساد والأبدانِ النَّضِرَة الممتَلِئَةِ خُصُوبَةً وبهاءً وَرَوْنَقاً، بسبب ما هي فيه من معيشَةٍ نَاعِمَةٍ مُرَفَّهَة.

وفي القراءة الثانية **[وَرِيّاً]**: أي: وامتلاء بَدَنٍ امتلاءً يُعْطِيه حُسْناً وَنَضَارَةً وَجمالاً، من وفْرَةِ وَسَائل الرَّفاهية.

القراءتان متقاربتان في المعنى.

وفي استِخْدَام كَلِمَة «الرِّئي» أو «الرِّيّ» هنا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الّذين كَفَرُوا إنَّما يَفْتَخِرُونَ بِحُسْنِ أجْسَامِ أهْلِ ناديهم، لا بَجَوْدَةِ عُقُولهم، وحُسْنِ آرائهم، وإنْ أوْهَمُوا في مقَالَتِهم بأنّ أهْلَ نَادِيهم، ومَجْلِسَ كُبَرائهم أحْسَنُ رَأْياً وإدْراكاً للأمور.

والرَّدُّ القرآنِيُّ الّذي جاءَ مُصَرَّحاً به، قدْ تَضَمَّنَ أنَّ كثيراً من كُفَّارِ

القرون السابقة، كقَوْم عادٍ، وقوم ثمود، وقوم فرعون، قد أهلَكَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ إهلاكاً شاملاً مقروناً بتعذيب، بسَبَبِ عِنَادهم وإصرارِهم على الكُفر، وإمعانِهِمْ في جرائمهم، مع أنَّهُمْ كانُوا أحْسَنَ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ في كُلِّ مَا يَفْتَخِرُونَ بِهِ على المؤمنين المسلمين، من أنَّهُمْ خَيْرٌ مقاماً وأحْسَنُ نَدِياً، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ شيئاً مَا كانُوا يَتَمَتَّعُونَ به من زينَةِ الحياة الدُّنيا، وما كانوا يَفْتَخِرُونَ بِه، من أجْسَامٍ حَسَنَةٍ مُعْجِبَةٍ، ذَوَاتِ بَهَاءٍ ورَوْنَقٍ وجَمال.

إنَّ الاغْتِرَارَ بمظاهر الحياة الدنيا سِمَةُ الَّذِينَ ليْسَتْ لَهُمْ عُقولٌ يَعْقِلُونَ بها أهواءهم وشَهَوَاتِهم، عن أن تَنْطَلِقَ بهم إلى مَهالِكِهم.

وهٰذا الرَّدُّ القرآنيُّ قَدْ تَضمَّنَ حُجَّةً صحيحةً تَقْبَلُها العقولُ السّليمة، إذ هي مستندةٌ إلىٰ واقع من التاريخ البشريّ، فوقائع التاريخ الّتي تُعْرَفُ أسْبَابُها تَتَضمَّنُ حُجَجاً صحيحة من الدرجَةِ الأولى، وقَدْ تَصِلُ إلى مستوى الْحُجَجِ البرهانيَّة.

قول الله عزّ وجلّ مخاطباً المؤمن الداعي إلى سبيل ربه:

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾:

تمهيد:

بعد تقديم الحجّة الدامغة في الآية السابقة (٧٤) أبان الله عزَّ وجلّ في هذه الآية (٧٥) سَبَب كَوْن الَّذِين كَفَرُوا يتمتَّعُونَ بزينَة الحياة الدنيا وأموالها وزُخْرُفِها، وهو أنّ الله بحِكْمَتِهِ ـ جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه ـ يُمِدُّهم بعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ، لِيُوَفِّيَهُمْ نَصِيبَهُمُ المقدَّرَ لَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، فِي ظُرُوفِ امْتِحَانِهم الامتحانَ الأمثلَ.

وعلى طريقَةِ التَّنْوِيعِ في الأساليبِ البيانيَّةِ كلَّفَ اللَّهُ الداعِيَ إلى

دينِ اللَّهِ الحقُّ، أنْ يَقولَ لهم مُبيِّناً سُنَّةَ الله في عباده، القائمةَ على سِيَاسَةِ الإمدادِ غَيْرِ المنْقطِع بمتاع الحياة الدنيا، لِمَنْ كَانَ مَغْمُوساً في الضَّلالَةِ بإرادَتِهِ الجازِمَةِ، وأنَّ هٰذَا الإمْدَادَ يَسْتَمِرُّ حَتَّىٰ يُلاقِي مَا وَعَدَ اللَّهُ به الضَّالِّينَ المجْرِمِين، وهو واحِدٌ مِنْ أمْرَيْن:

الأمْرُ الأوّل: الْعَذَابُ المعجَّلُ في الدنيا، نَظِيرُ الذي أنزلَهُ الله عزّ وجلّ بالمهْلَكِين من القرونِ السَّابِقة، معَ ما يلاقي من عذاب يوْم الدّين جزاءَ كُفْرِه، وإصرارِه على رفض الاستجابَةِ لدَعْوَةِ الحقّ الّتي يَدْعُوهُ رَبُّهُ إلَيْهَا.

الأمْرُ الثاني: إمْهَالُهُ حتَّى تَأْتِيَ سَاعَتُهُ الّتي يَهْلِكُ فيها، وبَعْدَها يَلْقَىٰ عذابَ رَبّه في مُدَّةِ الْبَرْزَخِ الفاصِلِ بَيْنَ الموت والبعث إلى الحياة الأخرى. ثُمَّ يلْقَىٰ العذابَ الأكبَرَ يَوْمَ الدّين، بَعْدَ أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ الّتي يَكُونُ بِها بَعْثُ الأمواتِ، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء.

ويَوْمَئِذٍ يَجِدُ نَفْسَهُ في شرّ مكان يقُومُ فِيهِ، ويَجِدُ نَفْسَهُ في غاية الضَّعف والذِّلَّةِ والمهانَة، مَحْرُوماً من نَصِيرٍ ما ينْصُره، ومُعِينٍ ما يُعِينُهُ، ومُنْقِذٍ ما يُنْقِذُهُ من عذاب رَبّه، علىٰ ما أسلف في رحلة امتحانه في الحياة الدُّنيا.

التدبّر:

﴿قُلْ﴾: فعْلُ أمْرٍ مُوجَّهٌ لكُلّ داعٍ إلى اللَّهِ علَىٰ سبيل الخِطَابِ الإفرادي، وأوّلُ الدُّعَاة رسُول الله ﷺ.

﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾: «مَنْ» اسْمُ شَرْطٍ يجزم فِعْلَيْنِ أوّلُهما فعْلُ الشَّرْط، والثاني جوابُهُ وجزاؤه.

﴿ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ كالضَّلال، مَصْدَرُ «ضَلَّ» أي: ابْتَعَدَ عَنِ طَرِيقِ الْهُدَىٰ والرّشاد.

ودَلَّ حرف الجرّ: ﴿فِي﴾ على انْغِمَاسِهِ في أَوْحَالِ وَقَذَارَات الضَّلال، بَعِيداً عن الْهُدَىٰ والرَّشاد.

أي: مَنْ كانَ مُنْغَمِساً انْغِماساً كُلّياً في الضَّلالَةِ.

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾: الفاء واقعة في جَوابِ الشَّرْط، واللَّامُ هي لَامُ الأمر، دَخَلَتْ على مضارعِ «مَدَّ».

وفعْلُ «مَدَّ» يأتي بمعنَىٰ «أمْهَلَ». يقالُ لُغَةً: مَدَّ الدائنُ للْمَدِينِ، أي: أمْهَلَه.

ويَأْتِي بمعنَىٰ «زَادَ» يُقال لغة: مَدَّ الشيءَ، أي: زَادَ فيه، ومِنْهُ يُقَالُ: مَدَّ خَلِيفَةُ المسلمين الجيْشَ، أي: أضافَ مَدَداً من الجنود.

وأرَىٰ أنَّهُ يُرادُ بهٰذِهِ العبارَةِ لازِمُ معناهَا، فإمْهَالُ الرَّحْمٰنِ لعَبْدِهِ، وإمْدَادُهُ بمزيدٍ من عَطَاءَات رَحْمَتِهِ، يُعْطِيهِ زَمَناً طَويلاً لمراجعة نَفْسِهِ بالتوبَة، فإذَا لم يَتُبْ كان إمهالُهُ قاطعاً لمعاذيره الّتي قَدْ يَتَذَرَّعُ بها مُعْتَذِراً يَوْمَ الدّين.

وتوالي مَزِيد العطاء يَجْعَلُ الْعَبْدَ الكافِرَ يَتَمادَىٰ وَيَزْدَادُ في كُفْرِهِ وَغَيِّهِ وإثْمِهِ، ويَسْتَفْرِغُ غايَةَ ما عنْدَهُ مِنْ شَرٍّ، لِيَكُونَ عِقَابُهُ وعذابُهُ الخالدُ مطابقاً لكمالِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيّ.

فصيغَةُ الطَّلَب في عبارة: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ لَا يُرادُ بها تَوجِيهُ الطَّلَبِ للّٰهِ عزَّ وجلّ، إنَّما يُرادُ بها التَّحْذِيرُ مِنْ إمْهَالِ اللّٰهِ له، والتَّخْوِيفُ من سُوءِ العاقِبة، أو نقول: يُرادُ بها لازم مضمونها، أي: فَلْيَسْتَمتع كما يشاء بإمهال الله ومزيد عطائه، فسوف يلقى مَصِيرَهُ الذي يكون فيه نادِماً خاسئاً ذليلاً معذّباً. ومثل هذه العبارة يمكن إدخالُها تحت عنوان «الكناية» أو تحت عنوان «المجاز المرسل». والطلب فيها خارج عن أصل معناه إلى معنى التحذير والوعيد بسوء المصير.

ويمكنُ أن يكون لازم المفهوم من العبارة على معنى «الإمهال» هو كما يلي: فَلْيَسْتَفِدِ المنْغَمِسُ في الضَّلَالَةَ مِنْ إمْهال اللّٰهِ له، بمراجعَة نَفْسِهِ وتَوْبَتِهِ، إنْ كان لَدَيْهِ اسْتِعْدادٌ لذلك. أو فَلْيَتَمادَ في غَيِّهِ وضَلَالِهِ مَا شَاءَ أَنْ يَتمادَىٰ، ولْيُتَابعْ مَسِيرَتَهُ الظَّالِمَة المجْرِمَة مُمْعِناً فيما هُو فيه، ومسْتَغْرِقاً في استمتاعاته، بما أَمَدَّهُ اللّٰهُ بِهِ مِنْ وَسَائِل مُتَعِهِ وَلَذَّاتِهِ، وتحقيق أهوائه وشهواتِهِ إِلَىٰ أقْصَىٰ حدّ يَسْتَطِيعُ اغْتِنَامَهُ في حياتِه الزَّائلة، فَسَوْف يُلاقي حتماً مَصِيرَهُ، خَيْبَةً وَحَسْرَةً وَنَدَامَة وعَذَاباً أليماً.

وهذا نظيرُ أنْ يُقَالَ لِذِي نَهَمٍ وشَرَهٍ يَزْدَرِدُ الطَّعَامَ ازْدِرَاداً: فَلْيُطْعِمْهُ المطعمونَ مِنْ كُلِّ المآكلِ الَّتي يَشْتَهِيهَا، حتَّىٰ يَنْفَجِرَ بَطْنُهُ ويَسْقُطَ صَرِيعاً.

أي: فَلْيَفْعَلْ بنَفْسِهِ مَا يَشَاءُ مُمْعِناً في غَيِّهِ، حتَّىٰ يَلْقَىٰ مَصِيرَهُ آلاماً وأَوْجَاعاً وهَلاكاً، ما دامَ مُعانداً لا يَسْتجيبُ لنُصْحٍ ولا لِمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ تَهْدِيهِ إلى رُشْدِهِ، وحُسْنِ عَاقِبَتِهِ.

ونظيرهُ أنْ يُقَالَ لمغامرٍ عَنِيدٍ يَعْبُرُ الصَّحراء الّتي سَتُفْضِي به إلى تَهْلُكَتِهِ: فَلْتُعْطِهِ الصَّحْراءُ كُلَّ أبْعادِها، فَسَيَكُونُ الْهَلاكُ مَصِيرَهُ لا مَحالَة.

وهٰذا لَوْنٌ من الأدَبِ في البيان مُسْتَعْمَلٌ بِكَثْرَةٍ في عبارات النّاس، دُونَ أنْ يُدْرِكُوا أنَّهُ تَعْبِيرٌ يُرَادُ بِهِ لازمُ معناه.

وَيَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ المراد: فَلَا تَعْتَرِضْ أَيُّهَا المتعجّبُ مِنْ إمْهَالِ اللّٰهِ للكافِرِينَ، ومِنْ إمْدَادِهِمْ بِعَطاءاتِ رَحْمَتِهِ، دُونَ مُعَاجَلَتِهِمْ بالْعِقَاب، فَحِكْمَةُ اللّٰهِ عزَّ وجلَّ قَضَتْ بذلك، وعَيْشُهُمْ في الحياة الدنيا قَصِير، وسَوْفَ يَلْقَوْنَ سُوءَ المصِير، إن عاجلاً في الدنيا، وإن آجلاً إلى ما بَعْدَ الموْتِ.

والْغَرَضُ مِنَ الإمْهَالِ بِالنِّسْبَةِ إلى الكافرين المعاندين المصرِّينَ على كُفْرِهم، بَعْدَ إدْرَاكِهِمْ لِلْحَقِّ الرَّبَّانِيّ، ورفْضِهِمْ الاستجابَةَ لدَعْوَته، قد جاء

بيانُهُ صريحاً وواضحاً، في قَوْلِ الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

أي: إنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَنْكَشِفَ كُلُّ ما في أنْفُسِهِمْ من شرٍّ بالواقِعِ الاختباريّ، ولِيَنَالُوا بَعْدَ ذلِكَ عِقَابَهُمْ بالْعَدْلِ، وَهُمْ مُبْلِسُونَ ساكتون يائسُون نادمون، دُون أن يَسْتَطِيعُوا التَّهرُّبَ، ودون أنْ يَجِدُوا لأنْفُسِهِمْ معاذِيرَ يَتَذَرَّعُونَ بِها كذِباً وزُوراً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾:

أي: حتَّىٰ إذا رَأَوْا مستَقْبلاً مَا يُوعَدُونَ مِنْ جزاءٍ بالْعَدْلِ معجَّلٍ أَوْ مُؤَجَّلٍ، وهذا الوعْدُ مسْتَمِرُّ التجدُّدِ، بدليل استعمالِ الفِعْلِ المضارع في: ﴿يُوعَدُونَ﴾. والموعودون به: عذابٌ مُعَجَّلٌ احتمالاً، وعذابٌ مؤجَّلٌ قطعاً إلى ما بَعْدَ الموت، وأوْفَىٰ عذابهم الأكبر يكونُ يوْمَ الدّين، بَعْدَ البعث للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء.

وجاء حرف التفصيل: ﴿إِمَّا﴾ لبيَانِ أنَّ جزاءهم على كُفْرِهم، الّذي ظَلَمُوا بِهِ حَقَّ رَبّهم عليهم، قَدْ يَأْتِي قِسْمٌ منْهُ مُعَجَّلاً، كَمَا حَصَلَ لِبَعْضِ كُفَّار الْقُرُون الأولى، وأمَّا القِسْمُ المقطوعُ به، فَهُوَ مُؤَجَّلٌ إلىٰ ما بَعْدَ الموت، وأوفاهُ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ البعْث.

ودَلَّ على العذاب المعجَّل الَّذي قد يقضي اللَّهُ عزّ وجلَّ به إذا كَانَتْ حكمَتُهُ تَقتضيه، قولُهُ تعَالَىٰ: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾: أي: إمّا العذابَ الَّذي قَدْ يُعَجِّلُهُ اللَّهُ لهم قَبْلَ الموت.

ودَلَّ على العذَابِ المؤجَّلِ المقْطُوعِ بِهِ، والمقرَّرَ في الْخُطَّةِ العامَّة، بدليل نُصُوصٍ أخرى كثيرة، قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾.

ولكلّ حَيٍّ ساعَتَانِ: ساعَةٌ خَاصَّةٌ به، وهِيَ سَاعَةُ إمَاتَتِه، وسَاعَةٌ عَامَّةٌ، وهيَ ساعَةُ البعْثِ، الّتي يكونُ عندْها بَعْثُ الخَلَائِقِ جميعاً إلَىٰ يَوْمِ الدِّين، وبَعْدَ الموْتِ تَلْقَىٰ نَفْسُ الكافِرِ عذابَ الْبَرْزَخِ المسمَّىٰ بعَذَابِ القبْر، وبَعْدَ الْبَعْثِ إلى الحياة الأخرى، يَلْقَىٰ الكافِرُ عذَابَ يوم الدين.

والمرادُ بِرُؤْيَتِهم ما يُوعدون، رؤيَتُهُمْ مقدِّمَاتِ العذابِ القادِمِ عليهم.

وبهذا البيان تكُونُ العبارَةُ على تقدير: حتَّىٰ إذا رَأَوْا مُقَدِّمَاتِ ما يُوعَدُونَه مِن جزاءٍ بصُورةٍ مُتَجَدِّدَةٍ، إمَّا العذابَ المعجَّلَ احتمالاً في الحياة الدنيا قبْلَ موتِهِمْ، وإمَّا العذابَ المؤجَّلَ المقطوعَ به إلى مَا بَعْدَ سَاعَةِ مَوْتهم، وإلى ما بَعْدَ ساعَةِ بَعْثِهِمْ.

- ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾:

جاء استعمال «سين» التسويف، مراعاة لحال بعض العذاب الذي قد يُعجَّلُ لهم في الدنيا، ومراعاة للعذاب الذي يُعذَّبُونه بَعْدَ الموت، وهو أمْرٌ قريب. على أنَّ عذاب يوم الدين هو بالنّسبَةِ إلى شعور الناس قريبٌ أيضاً، لأنّ مُدَّة البرزخ بالنسبة إلى شعورهم بعد البعث، هي بمثابَةِ ساعَةٍ من نهار، في رقْدَةٍ صَباحِيَّة، أوْ رَقْدَةٍ في العشيّ.

أي: فَعِنْدَئِذٍ يَجِدُونَ أنْفُسَهُمْ عاجِزِينَ عَنْ أيَّةِ مُقَاوَمَةٍ، وأنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مَا يَدْرَؤُون بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عذابَ الله.

ثُمَّ يَبْحَثُونَ عن أحوال الذين آمنوا، فَيَجِدُونَ أنَّهُمْ نَاجُونَ، وأنَّهُمْ سُعَدَاءُ بِمَا يَتقلَّبُونَ فيه من نعيمٍ مُقيم هُمْ فيه خالدون، ويَذْكُرُونَ أنَّهُمْ كَانُوا يَفْتَخِرُونَ عَلَيْهِمْ في الحياة الدُّنْيا بِأَنَّهم خَيْرٌ منْهُمْ مَقَاماً ومكانة، وأحْسَنُ مِنْهُمْ نَدِيًّا وأثاثاً وَرِئياً.

وعندئذٍ يَعْلَمُ الكافرون خَيْبَتَهُمْ، ومَهَانَتَهُمْ، وأنَّهم كانوا قَبْلَ رؤيَتِهم مصيرهم، في مكانٍ أَحَطَّ وأخَسَّ من مكان المؤمنين الذي كانوا فيه، وأنَّهم كانُوا أضعف جُنْداً، لأنَّ ما كانوا فيه قد جَرَّهُمْ إلى الْمَصِير الوخِيم، والعذاب الأليم، بخلاف المؤمنين فقَدْ كَان مَكَانُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وملائِكَتِهِ عظيماً، وكان جُنْدُهُمْ أشَدَّ قُوَّةً، إذْ هُمْ من جُندِ اللَّهِ المسَخَّرِينَ لنُصْرَتهم، إلَّا أنَّهُمْ لم يَكُونُوا من الّذين تراهُمْ عُيُون النَّاس، فَهُمْ غَيْرُ ظاهِرِينَ فلا رِئْيَ لهم.

قول الله عزّ وجل:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾:

في مقابِلِ إمْهَالِ اللَّهِ للكافرين، وإمْدَادِهم بوسائِلِ مُتْعَتِهم ورفاهيَّتهم من زينَةِ الحيَاةِ الدُّنيا، يَزِيدُ اللَّهُ الّذين اهْتَدَوْا بالإيمانِ والإسلام هُدىً، فيُعِينُهُم على ذِكْرِهِ وشُكْرِهِ وحُسْنِ عبادَتِه، ويَغْفُرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ وخطاياهم، ويَعْفُو عنهم، ويُضاعِفُ أجُورَهُمْ، ويُجْرِي أعمالَ الخيْر والْبِرّ والإحسان على أيْدِيهم، ليَرْفَعَ من مراتِبِهم ودَرَجَاتِهم في جنَّاتِ النَّعيم.

وإذا كانوا من أهل مرتبة عباد الرَّحمٰن بدَّلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ سَيِّئاتِهِمْ حَسَنات.

بكلّ ذلِكَ وأشباهه يَزيدهُمْ اللَّهُ عزّ وجلّ هُدَى مُضَافاً إلى ما كَسَبُوهُ بإرادتهم وجهادهم من هُدَىٰ، فهي زيادات تَوفيقٍ ومعونَةٍ، ووازِعٍ مِنْهُ لَهُمْ على فِعْل الخيرات.

ومن الْهُدَىٰ الَّذِي يزيدُهُمْ اللَّهُ مِنْهُ:

(١) الارتقاء في درجات الإيمان.

(٢) والارتقاء في درجات الإسلام والأعمَالِ الصالِحَةِ الباطِنَةِ والظاهرة، إذْ يَجْعَلهم يَشْعُرُون بلَذَّاتِ الأعمال الصالحة، وبالسَّعَادة القلبيَّة والنفسيَّة لدى ممارَسَتها.

وقيامهم بأعمال التقوى والبرّ والإحسان، الّتي انْدَفعُوا إلى ممارَسَتِها بالْهُدَىٰ الّذي زَادَهُمْ اللَّهُ عزّ وجلّ منه، جَعَلَ صحائفهم مشحونَةً بالخيرات، وهذه هي الباقياتُ الصالحاتُ من الدنْيا إلى يوم الدين.

وهذه الباقياتُ الصالحاتُ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ ما في الدّنيا عند الله ثواباً، وخَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مَرْجعاً أوْ رُجُوعاً من الموت إلى الحياة، لأنَّها سبَبُ الظَّفَرِ بثوابٍ عظِيم خالدٍ في جنَّاتِ النعيم، وسببُ الظَّفَرِ برُجُوعٍ أو مَرْجِعٍ كَرِيم عِنْدَ رَبّ العالمين.

دَلَّ على هٰذا قول الله تعالىٰ في الآية: ﴿. . . وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

أي: خَيْرٌ من كُلّ مَا في الحياة الدُّنيا مِنْ مُتَعٍ ولَذَّاتٍ، ولَوْ حيزَتْ كُلُّها لِحَيٍّ واحد.

﴿مَّرَدًّا﴾: «الْمَردُّ» اسْمُ مكانٍ، أو مَصْدرٌ ميمي، وهو كالْمَرْجِع.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس الحادي عشر من دروس سورة (مريم) والحمْد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٥)

التدبُّر التحليليّ للدرس الثاني عشر من دُروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٧٧ ـ ٨٠)

قال اللَّهُ عزَّ وجل:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

القراءات:

(٧٧) • في الهمزة الثانية من: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ عدّة قراءاتٍ عنْدَ القرَّاء العشرة، فمِنْها تحقيقُ هٰذِهِ الهمزة، ومنها تَسْهِيلها، ومِنْهَا إبدالُها ألفاً مع المدّ المشْبَعِ في الوصْل فقط، ومنها حَذْفها.

وهذِهِ وُجوهٌ عَرَبيَّةٌ من الأداء في النُّطق.

(٧٧) • قرأ حَمْزَة والكِسَائِيُّ: [وُلْداً] بضَمّ الواو وإسكان اللّام.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلَداً] بفتح الواو واللّام.

«الْوَلَدُ، والْوُلْدُ، والْوِلْدُ»: كُلُّ ما وُلِدَ، تُطْلَقُ على الذكر المفرد والأنثى، والمثَّنىٰ، والجمع، ويُجْمَعُ على «أوْلاد» و«وِلْدَة».

فالقراءتان متكافئتان، لأنَّهما لُغَتَانِ عربيتان، وقد وردتا أيضاً في الألفاظ الثلاثة الآتيَةِ في السُّورة.

ممّا ورد في سبب النزول:

(١) روىٰ البخاريّ ومُسْلِمٌ عَنْ خَبَّابٍ قال: كُنْتُ رَجُلاً قَيْناً (أيْ: حداداً) وكانَ لي علىٰ العاصِ بْنِ وائلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أتَقَاضَاهُ، فقال لي: لَا أقْضِيكَ حتَّىٰ تَكْفُرَ بمحمّد.

قال: قُلْتُ: لَنْ أكْفُرَ بِهِ حتَّىٰ تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ.

قال: وإنِّي لَمَبْعُوثٌ بَعدَ الْمَوْتِ؟! فَسَوْفَ أقْضِيكَ إذا رَجَعْتُ إلى مالٍ وَوَلَد.

قال فنزلت: [أَفَرَأَتَ الَّذِي كَفَرَ بآيَاتِنا...] الآيات من (٧٧ ـ ٨٠).

(٢) وفي رواية للبخاريّ ومُسْلِمٍ، أنَّ خباباً قال: «كُنْتُ قَيْناً فِي الْجَاهِلِيَّة».

(٣) وفي رواية للبخاري: «فَعَمِلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ سَيْفاً».

تمهيد:

هذا الدرس يعالِجُ ظاهرةَ قَوْلٍ تَهَكُّمِيّ من قِبَلِ بَعْض الذين كَفَرُوا بآياتِ الله، بأنَّهُ إنْ بُعِثَ إلى الحياة بَعْدَ الموت فَسَوْف يَكُونُ لَهُ مالٌ وَوَلَدٌ، أي: لَنْ يكُونَ الْبَعْثُ إلى الحياة الأُخْرىٰ، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، على خلاف رحلة الحياة الدنيا.

وقد جاء في هذا الدَّرْس معالجَةُ ظَاهِرِ قَوْلِهِ، دُونَ النَّظَرِ إلَىٰ غَرَضِهِ التهكُّمِيّ مِنْه.

التدبّر:

قول الله تعالى:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: الخطاب في هذه العبارة موجَّهٌ لكُلِّ صالح للخطاب بصورةٍ إفراديَّة، بغية تَحْمِيلِ المخاطب مسؤوليَّتَهُ الفرديَّة، تُجاهَ مَضْمُون ما خوطِبَ به، باعتبار أنَّ الله عزَّ وجلَّ يَقْصِدُهُ بالخطاب، والخطابُ يتكرَّرُ بعَدَدِ الأفراد المخاطبين به، مَهْمَا كَثُرُوا على تَوَالي العصور.

والجملة استفهامية مُصَدَّرَة بهمزَةِ الاستفهام، والمرادُ بهٰذا الاستفهام التعجيبُ من أمْرِ المكذّب بآياتِ الله، المستهزئ بأنْبَاء البعث بَعْدَ الموت، الّذي يُقَدِّمُ استهزاءه بصورة ادّعاء كاذبٍ يَدَّعيه بشَأْنِ المستقبلِ الْغَيْبِيّ الّذي لَا يَعْلَمُ منه شيئاً.

وقد دلَّتْنا قِصَّةُ سَبَبِ النُّزُولِ على استهزائه وافترائه، على أنَّ النَّصَّ لا يختصُّ بالعاصِ بْنِ وائل، بَل يَشْمَلُهُ وَيَشْمَلُ كُلَّ نظرائه الذين يُنْكِرون البعثَ للحساب، وفصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، ويسْتَهْزِئُونَ مثل اسْتِهْزَائه.

الفاء في ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ تَعْطِفُ على مَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ ذهناً، وتُسَمَّىٰ عند النحويين «الفاء الفصيحة» والتقديرُ: أَنَظَرْتَ فَرأَيْت(١).

والمعنى: أكان لدَيْكَ أيُّها العاقل الرَّشيد الصالح لهذا الخطاب اهْتِمامٌ بهذا الكافر المستهزئ المفْتَري، فنَظَرْت نظراً تَفكُّريًا، فرأَيْتَ رؤْيَةً علميَّةً؟

إذا لم يكن لدَيْكَ اهتمامٌ فيما سبَقَ، فانْظُرْ فإنَّكَ سَتَرَىٰ كُفْراً عَجَباً.

والنظر والرُّؤْيَةُ يُراد بهما التفكُّر والبحثُ العلميّ، الموصِلانِ إلى مَعْرِفَةٍ مُحقَّقَةٍ ظاهرةٍ، مُشَابِهَةٍ لما تراهُ الأبْصار.

- ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: الّذي كفَرَ كُفْراً إراديّاً جازِماً، بَعْدَ مَعْرِفَتِه أدِلَّة الحقِّ الرَّبَّانيّ الدامغةَ له.

المراد بآيات الله الجليل العظيم، الْعلاماتُ والْبَيَانَاتُ الدَّالَّات على صِدْقِ الرَّسُول محمَّد فيما يُبَلّغُ عَنْ رَبّه.

وجاء التعبير بضمير المتكلّم العظيم، لأنّ آياتِ الله دالَّاتٌ علىٰ عظمة رُبُوبيَّةِ الرّبّ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه.

وآيَاتُ الله تَشْمَلُ آيَاتِه الكونيَّة الدّائمة، وآيَاتِهِ الإعجازيَّة من الخوارق، وآياتِه الجزائيّة كالعقوبات الّتي أَنْزَلَها ويُنْزِلُهَا بالْمُجْرِمين، وآياتِه الْبيانيّاتِ المنزّلاتِ في كُتُبِهِ، ومِنْهَا آياتُ الْقُرْآنِ المجيد.

- ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾: أي: وقالَ مُسْتَهْزِئاً بِنَبَإِ البَعْثِ، ومُقْسِماً، لَئِنْ: بُعِثْتُ بَعْدَ الْمَوْتِ لَأُتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً، أيْ: كَمَا أُوتِيتُ فِي هٰذِهِ الحياةِ الّتِي أنَا فِيها الآنَ مالاً وَوَلَداً، إنَّهُ لَمْ يَضَعْ فِي تَصَوُّرِهِ إلّا بَعْثاً لحياةٍ مشابِهَةٍ لهٰذه الحياة الّتي هو فيها بكلِّ ظُروفها وأحوالها.

---

(١) لدى تتبُّعي لتدبّر آيات القرآن وجدت أن العطف على محذوف مقدَّر ذهناً، لا يقتصر على «الفاء الفصيحة» بل هو يشْمَلُ كُلَّ حروف العطف.

لَقَدْ قَاسَ الحياةَ الْأُخرىٰ حياةَ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَحْقِيق الجزاء، على الحياة الأولىٰ حياةِ الابتلاء، مع الْفَرْقِ الشَّاسِعِ جدّاً بَيْنَهُما.

هذا القياس الفاسد الباطل قَدْ تكرَّرَ علىٰ أَلْسِنَةِ عَدَدٍ مِنَ الكافِرِينَ بيَوْم الدّين، لَقَدْ تَذَرَّعُوا به جدلاً، وهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالحياة الأخرى، ولا بالجزاء يَوْم الدّين.

(١) فقد جاء بشأن الإنسان الكافر، قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

لقد استَبْعَدَ هذا الكافر عن تَصَوُّرِه أنّ الحَيَاة الدُّنيا حياة امتحان، وأنَّ الحياة الأخرى حياةُ حِسَابٍ وفَصْلِ قضاءٍ وجزاء.

وزعَمَ أنَّه لو تحقَّقَ هذا الاحتمال المشكُوكُ فيه، وعادَ إلَىٰ الحياة مَرَّةً أُخرى، فسوف يَمْنَحُهُ رَبُّهُ مِثْلَما مَنَحَهُ في الحياة الأولى، وسَوفَ يُعْطِيهِ العطايا الْحُسْنَى، لأنَّهُ يَسْتَحِقُّها بصفاته الذَّاتية، مستَبْعداً أَنْ يكونَ اللَّهُ عزّ وجلَّ يَمْتَحِنُهُ فيما يُعْطِيه.

(٢) وجاء في عرض قِصَّةِ المستَكْبِرِ المَغْرُور بجَنَّتَيْه الكافر باللَّهِ، والمنكر ليوم الدّين، الْمُحَاوِرِ لصَاحِبِهِ المؤمِنِ، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿... فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

لقد غَرَّهُ مَا هُوَ فيهِ مِنْ نِعْمَةٍ، فكان حالُهُ مِثْلَمَا وَصَفَ اللَّهُ حال الإنسان الكافِرِ الَّذِي جَاءَ بيانُهُ في النّصِّ السَّابِقِ من سُورَةِ (فُصِّلَت).

قول الله عزّ وجلّ في الرَّدّ على الَّذي كَفَر بآياتِ رَبِّهِ، وقال: لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلداً، إنْ بُعِثْتُ إلى الحياة مَرَّةً أُخرىٰ:

- ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾:

هٰذا الرَّدُّ القرآنيّ يَشْتَمِلُ على أمْرَين:

الأمر الأول: بيان افترائه على ربّه في مقالته.

الأمر الثاني: موعِظَتُه بالترهِيب بالعقوبَةِ الأَلِيمَةِ ذَاتِ الأَمَدِ الطويل، على كُفْرِهِ وافترائه.

- أمَّا بيانُ افترائه على رَبّه في مقالته، مجاراةً لظاهر قَوْلِه، وهو من المحسِّنَاتِ المعنويَّة عند علماء البديع من البلاغيّين، فقد جاء في قول الله تعالىٰ:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّآ﴾:

استفهامٌ مَطْرُوحٌ عَلَيْهِ بأسْلُوبِ الحديث عن الغائب حول احتمالَيْنِ لَا ثَالِثَ لهما: وكُلٌّ مِنْهُما باطل، وببُطلانِهما يَظْهَرُ افتراؤه حتماً.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾؟: أي: أعَلِمَ الغيبَ المستقْبَلِيَّ الّذي سوف يكونُ يوم الدّين، فأَبانَ له عِلْمُه أنَّهُ إنْ بُعِثَ بَعْدَ الموت، فَسَوْفَ يَكُونُ لَهُ مالٌ وَوَلَد؟

هذا استفهامٌ إنكاري، يَدُلُّ على أنَّهُ مَا اطَّلَع الغيبَ ولَا يَعْلَمُ عَنْهُ شيئاً.

يُقَالُ لغة: اطَّلَعَ الشَّيْءَ، واطَّلَعَ عَلَيْه، أي: عِلْمَهُ.

إنَّهُ لاَ يَعْلَم ما سَيُحْدِثُ غداً، فضلاً عن أن يَعْلَم ما سَيَحْدُث لَهُ بَعْدَ الموت، وما سَوْفَ يَحْدُثُ لَهُ بَعْدَ الْبَعْثِ للحياة الأخرى.

على أنّه هو مُنْكر للبعثِ أصْلاً، فادّعاؤه الافتراضيُّ افتراءٌ على الحقيقة ظاهر.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾: أي: بَلْ أجَعَلَ مع رَبّه الرَّحْمٰنِ عَهْداً بأنْ يكُونَ لَهُ مالٌ وَولَدٌ، إذا أحياهُ الحياة الأخرى؟

إنّ رَبَّهُ الرَّحْمٰنَ الّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوات والأرض، وبِيَدِهِ تصاريف الكَوْنِ في الماضي والحاضر والمسْتَقْبل، وهو الذي يُقَدِّرُ ويَقْضِي وَيَخْلُقُ كُلَّ شيء، لم يُعْطِهِ عهداً بذلك.

بَلْ أعطاهُ إنْذاراً وَوَعِيداً بعذابِ أليم خالدٍ في الجحيم، إذْ قَدَّمَ لرَبّه كُفْراً به، وتكْذيباً لِرَسُوله، وتكذيباً بِيَوْم الدّين.

«**الْعَهْدُ**»: هو الوَعْدُ الموثَّقُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ بالْأَيْمَانِ، أو بغير الأيمان من وسائل التوثيق.

﴿كَلَّا﴾: أداةُ رَدْعٍ وزَجْر، أي: فَلْيَرْتَدِعْ عن افتراءاته وتَكَهُّنَاته وأكاذيبه واستهزاءاته.

قالوا: ويجوزُ الوقوف عند «كلَّا» والابْتِداءُ بَعْدها.

- وأمَّا مَوْعِظَتُهُ بِالتَّرهِيب بالْعُقُوبَةِ الْأَلِيمَةِ على كُفْرِهِ وافْتِرَاءاتِهِ، فقد جاء في قول اللّهِ تَعالَى:

﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾﴾.

جاء في هذا الترهيب استخدام ضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ الترهيبَ يُلائِمُه بَيَانُ عظَمَةِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبّ وجَلالُها.

وقد اشتَمَلَ هذا الترهيبُ على أَرْبَعِ قَضَايَا سيكونُ وقوعُ بَعْضِها

مُحَقَّقاً في المستقبل القريب، إذا بَقِيَ مُصِرّاً علَىٰ كُفْرِهِ وافتراءاتِه، وسوف يكون وقوع بعضها الآخر بعد الموت، وبعد الْبَعْثِ، إذا ماتَ مُصِرّاً علَىٰ كُفْرِهِ وافتراءاته.

القضيَّةُ الأولى: دَلَّت علَيْها عبارة: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾: أي: سَبَقَ أنْ كَتَبْنَا ما قال، وسَنَكْتُبُ كلَّ ما يَقُولُ حالاً، ومستقْبَلاً، لنُحَاسِبَهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الدِّين، ولنَفْصِلَ القضاء بشأنِه، ولنُجَازِيَهُ علىٰ كُفْرِهِ، وافتراءاته، وسائِرِ جرائِمِه.

ومن المعلوم أنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَ لكلّ إنسان ملَكَيْن يَرْصُدان أقوالَهُ وأعمالَهُ الظَّاهِرَة والْبَاطِنَة، الجسَدِيَّة والنَّفْسِيَّة، ويَكْتُبَانِها، بأَمْرِ اللَّهِ عزَّ وجلّ، فكِتَابَتُهما بأمْرِهِ يُقَالُ بِشَأْنِها كِتابَتُه.

وممَّا قالَهُ سابقاً هذا الإنسان الكافر: لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلداً بَعْدَ البَعْثِ إلى الحياة مَرَّةً أُخرَىٰ، إنْ حَصَلَ بَعْثٌ كَمَا يَزْعَم محمَّدٌ والذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

إنّ قضيَّة كتَابَةِ أقوال العباد وأعمالهم الظَّاهرة والباطنَة، ومنْها نيَّاتُهُمْ ومقاصِدُهُمْ وسائر ما يَصْدُرُ عن إرادَاتِهِمْ الحرَّة، هِيَ من العقائد الَّتي اشتَمَلَتْ عليها تَفْصِيلَاتُ الإيمانِ بالْيَوْمِ الآخرِ، ودَلَّتْ عَلَيْها نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ القرآن المجيد، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول):

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدَبُّرُ هذه الآية في موضِعِها من سورة (يس).

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/٨٢ مصحف/٨٢ نزول) خطاباً للكافرين المكَذِّبين بالجزاء الرَّبَّاني:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ ،

فوصف الله عزّ وجلَّ الملائِكَةَ المرافقين للموضوعين في الحياة الدُّنْيَا موضع الامتحان بأنَّهُمْ حَافِظُونَ، وبأنَّهُم كِرَامٌ لا يَظْلِمُونَ أحداً. وبأنَّهُمْ كاتِبُونَ، وبأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ العبادُ بإراداتهم، حتَّىٰ نيَّاتهم.

القضيَّةُ الثانية: دلّت عليها عبارة: ﴿... وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾:

توجَدُ بَيْنَ كتابَةِ أقواله وأعماله في الدنيا، وبَيْنَ تَعْذِيبه في جهنَّمَ مراحلُ مُتَعَدِّدَة، منها إماتَتُه، ثُمَّ بَعْثُهُ، ثُمَّ حَشْرُهُ، ثُمَّ مُحَاسَبَتُه، وفَصْلُ القضاءِ بِشَأْنِهِ، ثم إدْخَالُهُ في جهنَّم.

هذه المراحلُ مطويَّةٌ لَمْ يُصَرَّحْ بها في النّص، ولكنَّها ملاحظَةٌ ذِهْناً، ويَسْهُلُ على المتدبِّر تَقْدِيرها.

أي: سَنَكْتُبُ مَا يَقُول، ونكتُبُ سائر تصرُّفاتِه الإراديَّة، ثم نُميتُهُ، ثُمَّ نَبْعَثُه، ثُمَّ نَحْشُرُهُ، ثُمَّ نُحَاسِبُهُ، وَنَفْصِلُ الْقَضَاءَ بشأنه، ثُمَّ نَكُبُّهُ في النَّارِ لِيَذُوقَ جزاء كُفْرِهِ، وتَكْذِيبِهِ بالجزاء الرَّبَّانيّ، وبِيَوْم الدِّين، وجزاءَ سائر جرائمه، وحينئذٍ نَمُدُّ لَهُ مِنَ العذابِ مداً.

والمعنى: ونَزِيدُهُ من العذابِ زياداتٍ تُعَادِلُ زِيَادَاتِه من الجرائم، على ما لَدَيْهِ من كُفْر.

ومن جرائمه استهزاؤه وسُخْرِيَتُهُ بأنْبَاءِ الْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّين، وافتراءاتُه على ربّه، وآثامٌ أخرَىٰ بحُقُوقِ عباد الله، كمَنْعِهِ أداء الحقوق لأصحابِها وأكْلِهِ أمْوَالَ النَّاسِ بالباطل، ومقاوَمَتِهِ الدُّعَاة إلى دين الله، واضطهاده لهم، وظلْمِهِ وعدوانه وفِسْقِهِ وفجوره.

القضية الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾:

أي: إنَّهُ كَانَ يقولُ وهو في الحياة الدُّنْيا: هٰذه أملاكي، هٰذه أموالي، هذه مَسَاكِني، هٰذه أنعامي، هٰذهِ كُنُوزي من الذهب والفِضَّة، وهذه، وهذه.

ولكِنْ بَعْدَ أنْ نُميتَهُ يَكُونُ في مِلْكِنا المحْضِ كُلُّ ما كان يقول في حياة امتحانه: إنَّهُ مِلْكُهُ، ونَحْنُ بَعْدَ ذَلِكَ نُعْطِيهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبادنَا، فنَجْعَلُهُم خلفاء فيما كان يقولُ: إنَّهُ مِلْكُهُ.

إنَّهُ بَعْدَ مَوْتِهِ لا يَسْتَطِيعُ أن يتصرَّفَ بشيءٍ ممَّا كان يَرَى أنَّهُ داخلٌ في مِلْكِهِ، أو تَحْتَ سُلْطانِ مُلْكِهِ، ولَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَنْسُبَ إلى نَفْسِهِ شيئاً منه.

ونتساءل: كيف يَرِثُ اللَّهُ عزّ وجلّ أموالَ عباده، وهُو الّذي لَهُ مُلْكُ وَمِلْكُ السَّمَاوَاتِ والأرض، وما فيهما ومَنْ فيهما؟؟!.

والجوابُ المناسب: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لمَّا قَضَتْ حِكْمَتُه أنْ يُمَلِّكَ عبادَه الَّذِينَ هُمْ وَمَا يَمْلِكُونَ مِلْكُهُ، تَمْلِيكَ تَصَرُّفٍ بما يُمْكِنُهُمْ أن يتصرَّفُوا فيه على سبيل الانتفاع المباشر، أو على سبيل العطاء للآخرين، بتبادُلٍ أو هِبَةٍ أو غَيْر ذلِكَ، لِيَمْتَحِنَهُمْ في قضايا الأموال ضِمْنَ ظُروف الحياة الدنيا، جعَلَ سبحانَهُ وَتَعَالَىٰ انْتِزَاعَهُ ممتلكاتهم مِنْهُمْ بمَوْتِهِمْ أو بغير ذلك، بمثابَةِ ميراثٍ يَرِثُهُ هو مِنْهُمْ، لأنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يُوَرِّثُهُ مَنْ يَشَاءُ أو ما يَشَاء من عباده، من بَعْدِهم، بأمْرِهِ وبقضائِه وقَدَرِهِ، وتدبيراته، أو يتصَرَّفُ فيه بوجْهٍ آخَرَ من الوجوه الكثيرة على مقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ، دُونَ أنْ يُنْسَبَ شيءٌ من هٰذه الممتلكاتِ إلى مالكيها السّابقين، الذين ماتوا.

وقد يَكُونُ انتزاع الممتلكاتِ من مالكيها بوسِيلَةٍ أُخرَىٰ غَيْرِ إماتَتِهِمْ، كانْتِزاعِها بالجوائح، وكالممتلكاتِ الَّتي يُخَلِّفُها المنهزمون المغلُوبُون في الحروب، إنَّها تَرْجِعُ ملكاً محضاً للَّهِ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه. وبمثابَةِ مِيراثٍ ورِثَهُ من عباده المغلوبين المهزومين، الّذين نَصَرَ أعداءَهُمْ عليهم،

مع أنَّ مِلْكِيَّتَهُ لَهَا لَمْ تَنْقَطِعْ طرفَةَ عَيْنٍ ولا أقلَّ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ هُوَ يُوَرِّثها بحِكْمَتِه مَنْ يشَاءُ من عباده، على صُورةِ غَنائِمَ يَغْنَمُونَها، أو على صُوَرٍ أخرىٰ.

ومن النُّصُوص القرآنيَّة المبيّنَةِ تَوْريثَ الغنائمِ المنقولَة، وتَوْرِيثَ أَرَاضي الأعداء ودِيارِهم، ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لأصحاب الرسول ﷺ بشأنِ بني قُرَيْظَة:

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن بني إسرائيل بَعْدَ خُرُوجهم من مصر، وميراثهم أراضِيَ الوثنيّين مالِكي الأراضي المقدَّسَةِ في فِلَسْطِين يومئذٍ، وبعد وفاة هارُونَ ومُوسَىٰ عليهما السلام:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

القضيَّة الرابعة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿... وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾: أي: ويأتينا يَوْمَ الدّينِ فَرْداً، لا أوْلَادَ لَهُ يَشُدُّونَ أزْرَه، ولَا أَنْصَارَ لَهُ يُعِينُونَه، على خِلَاف قولِه: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

إنّ كُلَّ إنْسَانٍ يَوْمَئذٍ يَكُونُ مشْغُولاً بنَفْسِهِ، يَحْمِلُ هَمَّ مَصِيرِه.

وقد أبَانَ اللّهُ عزّ وجلّ أنَّ كُلَّ عبادِه يَأْتُونَ رَبَّهُمْ يَوْم الدِّينِ فُرَادَىٰ.

- فقال الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) الّتي نتدبَّرُ دُرُوسَها وآياتها:

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾:

• وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ﴾: أي ما أعْطَيْنَاكُمْ متفضِّلين بِه عليْكُمْ، يُقَال لغة: خَوَّلَهُ الشيءَ، أيْ أعْطَاهُ إيَّاهُ متفضِّلاً.

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾: أي: الَّذِين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُركاءُ لله، حالَةَ كَوْنِهِمْ فيكُمْ ومَخْلُوقُونَ مِثْلَكُمْ، ولَيْسَ لَهُمْ من الرُّبُوبِيَّة شيء. وهؤلاء الشركاء بَشَرٌ من الْبَشَر، اتَّخَذَهُمُ المشركونَ شركاءَ لله وهم فيهم وعَاشُوا بَيْنهم.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: في قراءة نافع، وحفص، والكِسَائي، وأبي جَعْفر، أي: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ما كَانَ واصلاً بَيْنَكُمْ وبَيْنَ شُركَائِكُمْ، إذْ لَم تَجِدُوا له أثراً، وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنُكُمْ﴾ بضمّ النّون: يأتي الْبَيْنُ في اللُّغَة بمعنىٰ: الصِّلَة والمودة، فالمعنى على هذه القراءة: لقد تَقَطَّعَتْ المودَّةُ والصِّلَةُ الّتي كانت بيْنَكُمْ وبيْنَ شُركائِكُم، فلم يَبْقَ لها أثر.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدرس الثاني عشر من دُروس سورة (مريم).

والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٦)

التدبر التحليلي للدرس الثالث عشر من دُروس سورة (مريم) وهو الآيتان (٨١ و٨٢)

قال اللَّهُ عزَّ وجل:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾:

تمهيد:

في هذا الدَّرْس بَيَانُ غَرَضٍ من أغراض المشركين، في عبادتهم لآلِهَتِهِم، وهو أنّ يكونُوا لهم سبَبَ قُوَّةٍ وانتصارٍ على أعدائهم في حُروبهم، ومعالجتُهُم بتَيْئِيسِهِمْ من تحقيق هذا الغرض، فَسَيَجِدُونَ أنّ آلِهَتَهُمْ لَمْ تَنْفَعْهُمْ بنافِعة، ولم تُعْطِهِمْ عِزَّةً ولَا قُوَّةً ولَا شيئاً من النَّصر، فَيَكْفُرُونَ بآلِهَتِهم، ويَكُونُون عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

إنَّ معْظَمَ المشركين كانُوا يَعْبُدون آلِهَتَهُمْ من دُونِ الله، ويَجْعَلُون لَهَا تَمَاثِيلَ تَرْمُزُ إليها، ويَتَوَجَّهُونَ لِعِبادة هٰذِهِ التَّماثيلِ الرُّمُوز، وهُمْ يَقْصِدُونَ مَنْ تَرْمُزُ إليه، لتُحَقِّقَ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ بتقَرُّبهم إلَيْها بالدُّعاء، وبأشْكالٍ من العباداتِ، ومنها ذَبْحُ القرابين لَهَا، بَعْضَ مطالبِ حيَاتِهِمْ، ومنْ هٰذِهِ المطالِب أنْ تَنْصُرَهُمْ على أعْدَائهم، وأنْ تكونَ لهم عِزًّا، أي: قُوَّةً غالِبَةً لأعدائهم، اعتقاداً منهم بأنَّها قادرةٌ علَىٰ نَصْرِهم، وعلى مَنْحِهِمُ الْعِزَّةَ بمَعُونَاتٍ وَتصاريفَ غيبيَّة.

ومَعْلُومٌ أنَّ المعوناتِ والتصاريفَ الغيبيَّةَ هي من خصائصِ رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، فهي لا تكونُ لغيره، ولا يَكُونُ شيءٌ مِنْها لِغَيْرِه، ولا يُشارِكُهُ فيها أحَدٌ غَيْرُه.

فالمشركونَ إذَنْ يَعْتَقِدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ تَفْعَلُ لهم أشياءَ هِيَ من خصائص رُبوبيَّةِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه، وهذا من الإشراك في رُبُوبيَّةِ اللَّهِ بِبَعْضِ مَا هو من خصائصِ الرَّبِّ، غَيْرِ خَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ الذي كانَ المشركون في الجاهليّة العربيَّةِ يَعْتَقِدُونَ انفرادَ اللَّهِ به، وأنَّهُ لَا شَرِيكَ له فيه.

وقد سبَقَ في سورة (يَس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) بَيَانُ أنّ المشركين يَرْجُونَ مِنْ عبادَتِهِمْ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُون اللَّهِ، أَنْ تَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ أعدائهم، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: وهم مَسُوقُون لنُصْرَةِ آلِهَتِهِم بدافعِ اعتقاديٍّ توهُّمِيّ، وبتحريضٍ من سَدَنَةِ الأوْثانِ المنْتَفِعين.

وسبَق أيضاً في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بيان أنَّ معظم مشركي العَربِ في الجاهليّة كانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بأنَّ اللَّهَ هُوَ الّذِي يَرْحَمُهُمْ، بل كانوا يَعتِقدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ هي الَّتي تَرْحَمُهُمْ، فتَسْتَجِيبُ لمطالِبِهِمْ منْها في شؤون حياتهم، فهم يَتوجَّهُونَ لها بالعبادة مِنْ أجْلِ ذَلك.

وهذا يَدُلُّ علَىٰ أنَّ المشركِينَ يَجْعَلُون لآلِهَتِهِمْ بعْض مَا هو من خصائص رُبُوبيَّة الرَّبّ جلَّ جلالُه، فهي شريكَةٌ للَّهِ في بَعْضِ خَصَائصِ رُبُوبيَّتِهِ بِحسَب اعتقادِهِمُ الباطل.

فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن المشركين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

وقد سبَق في سورة الفرقان تَدَبُّرُ هذه الآيَة، وماجاء بعدها من إقناعٍ ربَّانِيٍّ بأنَّ اللَّهَ هُو الرَّحْمٰن.

فالمشْرِكُونَ كَانُوا يُنْكِرُونَ صِفَةَ الرَّحْمَةِ للَّهِ الرَّبّ الخالق ـ جل جلالُهُ وعَظُم سُلْطانُهُ ـ فلا يُطْلِقُونَ علَىٰ اللَّهِ اسْمَ «الرَّحْمٰن» من أسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، ويَعْتَقِدُونَ أنَّ الرَّحْمَةَ مِنْ صفاتِ آلِهَتِهم الَّتي اتَّخذُوهَا مِنْ دُونِ الله، فَهُمْ يَدْعُونَها، ويَعْبُدُونَها، ويَتَقرَّبُونَ لها بالْقَرابِين، لِترَحَمَهُمْ فَتَسْتجيبَ لهم، وتُحقِّقَ لَهُمْ مطالِبَهُمْ.

ومَعْلُومٌ بما لَا مجالَ فيه للشّكّ، أنّ إجابَةَ مطالب العباد بوسائل غيبيَّة، هي من خصائص رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ الخالقِ جلَّ جلالُه.

وهؤلاء لَا يَكْتَفُونَ بأنّ يَجْعَلُوا آلِهَتَهُمْ شُرَكاءَ للهِ في بَعْضِ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِه، بلْ يَجْعَلُونَ الاستجابة لمطالبهم في حياتهم مِنْ خَصَائِصِ آلِهَتِهِمْ، ولا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ منْها شيئاً.

فَظَهَر أنَّهُمْ يُخَصِّصُونَ اللّهَ عزّ وجل بخَلْق السَّمَاوات والأرض، ويَعْتَقِدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ مخْتَصَّةٌ بِتَلْبِيَةِ مطالِبِهم في شؤون حياتهم، فوزَّعُوا عَنَاصِرَ الرُّبوبيَّة، فجَعَلُوا قسماً لله، وجَعَلُوا قِسماً آخر لآلهتهم.

فهم لا شكَّ مشركونَ في بعض عناصر الرُّبوبيَّة لله عزَّ وجلَّ، معَ أنَّ كُلَّ عَنَاصِرِ الرُّبُوبيَّةِ هِيَ للَّهِ وحْدَه، وليْس شَيْءٌ مِنْها لغَيْرِ الله عزّ وجل.

لله الخلْقُ، ولَهُ الأمر، وهو الذي له الحكم التشريعي، ولَهُ الحكْمُ القضائي، وهو الرَّحْمٰن الرَّحيم، وهو وحْدَهُ الذي يُجيبُ دُعَاء مَنْ دَعَاه، وهو المتصرّف في شؤون عباده برُبُوبيّتِه الدائمة.

وروى لنا رُواةُ السِّيرة النَّبويَّة، أنَّ أبا سفيانَ قائِدَ جَيْشِ المشركين في غَزْوَةِ أُحد، بَعْدَ أنْ تَحوَّلَتْ رِياحُ النَّصْرِ عَنِ المؤمنين بسَبَب مَعْصِيَةِ بَعْضِ الرُّمَاة أوامرَ الرسُول ﷺ، ونادىٰ بأعْلَىٰ صَوْتِه لِيُسْمِعَ الرَّسُول ﷺ، ومَنْ حوْلَهُ مِنْ أصحابه: «أعْلُ هُبَلْ» اعتقاداً منه بأنَّ إلٰه المشركين «هُبَل» هو الذّي حقَّقَ لهم بعض النَّصْر في هذه المعركة.

فأمَرَ الرَّسُول ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب أَنْ يُنَادِي لِيُسْمِعَ أبا سُفْيَانَ والمشركين حولَه، فيَقُول: «اللّهُ أعْلَىٰ وأَجَلّ» ففعل عُمَر ذٰلِكَ.

وذَكَرُوا أنَّ العبَّاسَ عَمَّ الرَّسُول ﷺ يومَ فَتْح مَكَّةَ، قال لأبي سُفيان فيما معناه: كيْفَ رَأيْتَ آلِهَتَكَ، هَلْ تَصْنَعُ لَكُمْ شيئاً أمَامَ جَيْشِ المسْلِمين؟.

فقال أبو سفيان: مَا أَظُنُّ أَنَّها تَفْعَلُ شيئاً، ولو كان عندها شيءٌ لفَعَلَت.

التدبّر:

قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾:

أي: واتَّخذَ المشركونَ لأنفُسِهِمْ آلِهَةً هي بطبيعَتِها من دُونِ الله الرَّبِّ الخالق الرازق المحيي الْمُمِيتِ الرَّحْمٰن، فجعَلُوا يَعْبدونها ويَتَقرَّبُونَ لَهَا بالقرابين، ويَدْعُونَها لمطالب حياتهم، لِيُجَازُوهُمْ على عبادتهم لَهُم، بأنْ يَكُونُوا لَهُمْ بَتأْثيراتِهم الغيبيَّة قُوَّةً غالِبَةً تَنصُرُهم على أعْدَائهم.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾: أي: وجَعَلُوا بتكلُّفٍ على خلاف نظام الفِكْرِ السويّ.

«اتَّخَذَ» على وزن «افْتَعَل» من فِعْل «أَخَذ» وأصْلُ الأخذ تَنَاوُلُ الشَّيْءَ والْقَبْضُ علَيْهِ وَحيازَتُه، وصارَ بالتداوُل في الاستعمال يَحْمِلُ معنَىٰ الْجَعْل.

فالمعنى: وجَعَلُوا بصُنْعٍ متَكلَّفٍ منْهُمْ آلهةً لأنْفُسِهِمْ من خَلْقِ اللَّهِ الواسع، وهي لَيستْ بطبيعَتِها آلهةً، لأنَّهَا ليْسَتْ أرْبَاباً ولَا تَمْلِكُ من صفاتِ الرّبُوبيَّةِ وَخَصَائِصِها شيئاً.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من أشياء غير اللَّهِ هي بطبيعَتِها تَقَعُ دُونه، في مقابل اتِّصَافِهِ جلَّ جلالُهُ بالْفَوْقِيَّةِ المطلَقَة.

﴿ءَالِهَةً﴾: أي: مَعْبُودِينَ لَهُم بغَيْرِ حقٍّ.

﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾: أي: ليكونوا لَهُمْ قُوَّةً غالِبَةً تَنْصُرُهم على أعدائهم.

العِزُّ والعِزَّةُ: الْقُوَّةُ الغالبة، يُقَالُ لغة: عزَّ، يَعِزُّ، عِزّاً، وعِزَّةً. أي:

قَوِي واشْتَدَّ وصَارَ ذَا قُوَّةٍ غالبة. ويقول العرب: مَنْ عزَّ بَزّ، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ.

قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾:

﴿كَلَّاۚ﴾: أداةُ رَدْعٍ وزجْر، أي: لَنْ تكُونَ آلِهَتُهُمُ الَّتي اتَّخذُوها مِنْ دُون الله لَهُمْ عزّاً، بمْعنَىٰ لَنْ تَكُونَ لهم بذواتِها قُوَّةً غَالِبَةً، ولَنْ تَمْنَحَهُمْ بوسائل غيبيَّةٍ قُوَّةً غالِبة، إذ العزَّةُ لِلَّهِ ولرسُولِهِ وللمؤمنين.

- ﴿.. سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾:

أي: وحِينَ يَنْصُرُ اللَّهُ أوْلِيَاءَهُ المؤمنين به وبِرَسُوله، ويَمْنَحُهُمُ العزَّةَ، ويُذِلُّ أعداءَهم المشركين، ويَجْعَلُهُمْ هُمُ المغْلُوبِينَ المنْهَزِمِينَ في المعارِكِ القتاليَّة، سيَكْفُرُ المشركُونَ بعِبَادَةِ آلِهَتِهم، إذْ يَرَوْنَ أنَّهَا عَمَلٌ باطلٌ، واعتقادٌ فاسد، وسَيكُونُون عَلَيْهِم ضِدًّا، فيُحَطِّمُونَ الأوثانَ الَّتي كانُوا يَعْبُدُونها، وَيُشَارِكُونَ المؤمِنِين في معادَاتِها، وتكْسِيرها وَجَعْلِها جُذَاذاً.

وعندئذٍ يسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ، إلى توحِيدِ الرُّبُوبيَّةِ والإِلَهيَّةِ لله عزَّ وجَلَّ.

وقد دلَّ على أنَّ هذا سيكُونُ قرِيباً في الحياة الدنيا استعمال حرف «السّين» دون «سُوْف» في هذه العبارة.

وفِعلاً قَدْ حصَلَ هذا بعْدَ الانتصاراتِ الإسلاميَّةِ في الغزوات، ولا سِيمَا فَتْحُ مكَّة.

فهذِهِ العبارة قد كانَتْ مِنَ المبشّراتِ بانتصار الإسلام وامتداده، وأنَّها كانت تُخْبِر عن أمْرٍ سيَحْدُثُ قَرِيباً، وقَدْ حَدَثَ فعلاً.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الثالث عشر من دروس سورة (مريم) والحمد لله على معونته، ومَدَدِهِ، وتوفيقه، وفتحه.

(١٧)

التدبّر التحليليّ للدرس الرّابع عشر من دُروس سورة (مريم) وهو الآيتان (٨٣ ـ ٨٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾:

القراءات:

(٨٤) • قرأ حمزة، ويعقوب: «عَلَيْهُمْ» بِضَمّ هاء الضّمير.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكَسْرِ هاء الضّمير.

وهما لُغَتان عَرَبيّتان.

تمهيد:

يَكْشِفُ هذا الدَّرْسُ حالةَ حركاتِ الّذين كَفُروا الثائرةِ المهتاجَةِ في صُدُورِهم، ذَاتِ الآثار الظاهِرةِ في سلوكهم، ضدّ الرسول وضدّ الّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، في المرحلة الزَّمَنِيَّة الّتي نزلَتْ فيها سورة (مريم).

ويوجّهُ اللَّهُ عزّ وجلّ فيه رسُولَه للصَّبْر على حركاتِهِم، وهِيَاجَاتِهم، وارْتفاع أصواتهم الدَّالَّة على ما في نفوسِهِمْ منْ غَلَيَانِ غَضَبٍ وحَنَقٍ وإرادةِ انتقامٍ من المؤمنين.

ويطمئِنُه إلى أنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ يُدَبِّر الأمْرَ الحكِيم لنُصْرتِه ونُصْرَةِ المؤمنين عليهم، وأنَّهُ يَعُدُّ لَهُمُ الوحداتِ الزّمنيَّة الصغرىٰ لإمْهالهم، حتَّىٰ إذا حَانَ حِينُ انْفَاذِ قضائه وقَدَرِه فيهم، تَمَّ ذلِكَ دُونَ تَأْخير.

التدبّر:

• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ﴾: تكرَّرَ في القرآن المجيد استعمالُ أمْثَالِ هذه العبارة، وفيها اسْتِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ علَىٰ النفي.

ويظهر من تحليل هذِهِ العبارة وأمْثالِها أَنَّها اسْتِفْهَامٌ عَنْ عَدَم الرُّؤْيَةِ، بمْعنَىٰ العلم الواضِح الْجَلِيّ المشابه للرُّؤْيَةِ الْبَصرِيَّةِ.

وظاهر من هذا الاستفهام أَنَّهُ لَيْسَ لِطَلَبِ الإفهام، بَلْ هو هُنَا مُسْتَعْمَلٌ مجازاً للإعلام بالمستَفْهَم عنْهُ، وبيان حصوله.

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾:

أي: اعْلَمْ أيُّها المتلَقِّي الصّالِحُ لِمْثلِ هذا الخطاب، أنَّا أرْسَلْنَا ـ بِسُلْطانِ الرُّبوبيَّة العامّ، وبمُقْتَضَىٰ النظام العامّ للخلائق ـ الشّياطينَ على الكافرين، تُغْريهم، وتُهَيّجُهُمْ، وتُؤَجّجُ نَارَ أفْئِدَتهم، لمقاومَةِ دَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، واضطهاد أنصارِها والْعَامِلين على نَشْرِهَا.

إنّ من سُنَنِ اللَّهِ في النِّظام العامّ للأحياء، أنَّ مَنْ كفَرَ بالْحَقِّ الّذِي جَاءَ بِهِ رُسُلُ الله بَلاغاً عنه جلّ جلاله، بَعْدَ أنْ عَرَفَهُ ببَراهينِه وحُجَجِهِ، وكان كُفْرُهُ جحوداً واتّباعاً لِأَهْوَاء نَفْسِه وشهواتها، وَكِبْرِهَا وَفُجُورِها، تَسَلَّطَتِ الشَّياطين عليه من شياطين الجنّ وشياطين الإنْسِ، فأغْرَتْهُ، وحرَّكَتْهُ، وهيَّجَتْهُ، وأوقَدَت نار غَضَبِهِ وحنَقِهِ، فاستجابَ لَها.

وهذا مثل قولنا: مَنْ وَضعَ يَدَهُ في النار أحْرَقَها اللَّهُ لَه، ضِمْنَ نظامِه العامّ في الأسْباب والمسَبَّبات.

- ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: أي: أرْسَلْنَا الشَّياطينَ مُسَلَّطِينَ على الكافرين، لأنّ الكافرين قَدْ جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ جنُوداً للشياطين.

أمّا عبادُ اللَّهِ المؤمِنُونَ فَلا سُلْطانَ للشياطين عليهم، لأَنَّهُمْ مَحْمِيُّونَ بِحِمَايَةِ اللَّهِ جلَّ جَلالُه.

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الحِجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) حكايةً لِمَا قَالَهُ لإبليسَ أمام كلّ الشياطين:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النَّحْل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) خطاباً لكلّ مؤمن بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

فالمؤمنون المتّقون إذا استعاذوا بالله من نزغات الشياطين، كانوا في حماية الله لهم، عُقلاء راشدين، يحْسِنون التصرُّف في حياتهم، ويُدَبّرون الخُطط الملائمة الّتي تُبْعِدُهُمْ عن الحماقات، ولا تؤزّهم الشياطين.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أي: تُغْرِيهم، وتُهَيِّجُهم، وتُوَجّجُ نارَ أفْئدتهم، وتَجْعَلُ مَرَاجِلَ قُلوبِهِمْ تَشْتَدُّ غَلَيَاناً، حتَّى يكُونَ لها أزِيز، أي: صَوْتٌ مَسْمُوعٌ، بحَسَبِ حَالَتِهِمْ، وبحَسَبِ شِدَّةِ الأَزِّ.

يُقَالُ لغة: «أَزَّ، يَئِزُّ، أَزّاً، وأَزِيزاً، وأزَازاً، أيْ: تحرَّكَ، واضطربَ، وصَوَّت مِنْ شِدَّةِ الْغَلَيَان.

ويُقَالُ: أَزَّ الْقِدْرُ، وأَزَّ الرَّعْدُ، أي: تحرَّكَ واضطرب وصوَّت. ويُقال لغة: أَزَّ فُلانٌ فُلاناً، أي: أغراهُ وهَيَّجَه، إنّ إرْسَالَ الشياطين، وأزّها للكافرين، من الأمُور الخفيَّةِ غيْرِ المرئية، لكِنَّ لها آثاراً في سلوك الكافرين تَدُلُّ عليها.

ومِنْ آثارها في سُلوكهم، حركَاتُهُمُ الثائرات عن حَنَق، وعداءٍ، وغضبٍ، وضيق صدر، ونارٍ متّقِدَةٍ في صُدورهم، وإرادة كيد.

ومن آثارها ارْتفاعُ أصواتهم بالهزء، والسُّخرية، والشتائم، والتهديد، والوعيد للمؤمنين.

ومن آثارها متابَعَتُهُمْ لضُعفَاءِ المؤمنين بالاضطهاد، والتعذيب، والإكراه على الكُفر.

ومن آثارها هياجُهم غير المتّزن، وعَجِيجُهُم، وضجيجُهُمْ بالأصوات الإعلاميّة، الَّتي يُزَيِّفُونَ بِها الحقائق.

ومن آثارها أعمالُهم المختلفة في مقاومَةِ الدَّعْوَةِ إلى الإسلام.

فدلَّ هذا البيانُ على أنَّ الظواهِرَ السُّلُوكيَّة تَدُلُّ على البواطِنِ داخل النفوس، وما يجري فيها من حَرَكات، وما يَتَكَوَّنُ فيها من دوافع شيطانيّة.

ونفهم من قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾:

اعلَمْ أيها المتلقّي لهذا الخطاب، أنّ من الظواهر السلوكية المرئيَّة لدَىٰ الكافرين، مَا يَدُلُّ علىٰ أنَّ الشّياطين تُغْرِيهم، وتُهَيّجُهُمْ، وتُؤَجّجُ نَارَ أفئِدَتهم، وتَجْعَلُ مَراجلَ قُلُوبهم تَشْتَدُّ غَلَيَاناً، حتَّىٰ يكُونَ لَهَا أزِيزٌ بصَوْتٍ مَسْمُوع، من مستوى أزيزِ المِرْجَلِ، إلى مستوى أزيز الرَّعد، وهذا الخطاب موجَّهٌ أوّلاً للرّسول، فلكل مؤمن مسلم مُتّقٍ.

فعل: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ يَدُلُّ على أحداثٍ سبَقَتْ إنْزَال هذا النّصّ، من مكايد الكافرين.

إنّ الظواهر السُّلُوكيَّة قَدْ تَدُلُّ على البواطن الخفيَّة، دَلَالَةً قَطْعِيَّةً، تُشَابِهُ في قَطْعِيَّتِها الرُّؤيَةَ الْبَصرِيَّة، وهذا ما دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

ولمَّا كان من أعمالِ كُفَّار مكّةَ، في أواسِطِ المرْحلَةِ المكيَّةِ مِنْ دَعْوَة

الرَّسول ﷺ، مُقَاوَمَةُ الدَّعْوَةِ إلى الإسلام، واضطهادُ المسْلِمِين وأذاهُمْ، ومُشَاقَّةُ الرَّسُول، والإعدادُ لِحَرْبِهِ وحَرْب الْذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وهذه الأعمال هي من ظواهر أزِّ الشَّيَاطِين لهم، كَانَ مِنْ شَأْنِها أَنْ تُثِير في نَفْس الرسول ﷺ ونُفُوسِ كِبَارِ أَصْحَابِه أَنْ يأذَن الله لَهُ بالدُّعَاء عليهم، للإسراعِ في إهْلاكِهم، أَوْ يَأْذَنَ لَهُ بالْقِيَام بالتَّدْبِيراتِ اللّازِمات لمقاتَلَتِهِمْ، وقَمْعِ شُرُورهم.

لِكنْ مَا زَالَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَقْضِي بإمْهالِهم، وَتَطْوِيلِ أَجَلِ مُعَالَجَتِهِمْ بالحكمة، والموعظَةِ الحسَنَةِ، والجدَالِ بالَّتي هي أحْسَن، إذْ مازَال يَتَوافَدُ مِنْهُمْ إلى حَظِيرَة الإسلام مُسْلِمون، يَتْرُكُونَ دِينَ قَوْمِهم، ويَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ الحقّ.

فجاء في هذا الدَّرْس بيانٌ مُرَتَّبٌ ومُتَفَرِّعٌ على هٰذِهِ الخواطِر الَّتي كانت تَعْتَلِجُ في نَفْسِ الرَّسُولِ ونُفُوسِ بعض كبار أصْحَابِه. وهذا البيان هو بمثابَةِ جوابِ أسْئِلَةٍ مطويَّة غير مصرَّح بها، وهو ما جاء في الآية (٨٤) من الدرس، وهو:

قَولُ الله عزَّ وجل خطاباً لرَسُولِه، ثُمَّ لكل فردٍ من أصحابه: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

أي: فلا تَعْجَلْ داعياً عَلَيْهِمْ بالإهلاك السريع، ولا تَعْجَلْ بتَدْبير الخُطَط للتَّسَلُّطِ عليهم، بُغْيَة الخلاص من أذَاهُمْ وشَرِّهم، فَهُمُ الآنَ في مُدَّةِ الإمْهَال، ولهم أجلٌ مُحَدَّدٌ، مَعْدُودٌ بالْوَحدات الزّمنيَّة الصغرى جدّاً، ومتَىٰ بَلغُوا أجَلَهُمْ حلَّ بأفرادِهم وجماعاتهم ما يَسْتَحِقُّونَ من عقاب، على وفق مقتضىٰ الحكمة.

- ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: أي: مَا نُهْمِلُهُمْ، وما نَتْرُكُ مُتَابَعَتَهُمُ الدَّقيقة، في كُلّ أصْغَر وأقْصَرِ مُدَّة زمَنِيَّة.

إنَّمَا نَعُدُّ وَحَدَاتِ زَمَنِ إِمْهالهم عَدًّا دقيقاً، حتَّىٰ إِذَا انْتَهَىٰ وقْتُ الإمْهال، وحلَّ الأجَلُ، أنْزَلْنا بِهم العقابَ الَّذِي يسْتَحِقُّونه، وتقتضيه الحكمة.

«العدُّ» حسابُ الأشياء القابلَةِ للعدّ، وإحصاؤها. يُقالُ لغةً: عدَّ الدَّرَاهِمَ أَوْ غَيْرَها، يَعُدُّها، ويَعِدُّها، عدّاً، وتَعْدَاداً، أي: حَسَبَها وَأحْصَاها.

لقد جاء في النُّصوص النَّازِلَةِ قَبْلَ سورة (مريم) توصيَةُ الرَّسُولِ ﷺ، بأنّ يَدَعَ أذَىٰ الكافِرين، ولا يُقَابِلَهُمْ عَلَيْهِ بمِثْله، وبأنْ يُمْهِلَهُمْ، وبأنْ يَصْبِرَ علَىٰ أَذَاهُمْ وشُرُورِهِمْ، مَعَ مُراقَبَتِهِمْ مُرَاقَبَةً دَقِيقَةً ليكون على بصيرة بما يُدَبّرون وبما يكيدُونَ من كيْد.

أمَّا هذا النَّصُّ من سورة (مريم) فقد جاء مُتَضَمِّناً نَهْيَ الرَّسُول عن أن يَعْجَلَ عليهم كما جاء في التدبّرِ آنفاً، ويُلْحَقُ بالرَّسُول أصحابه رضوان الله عليهم.

ومتضمّناً بيَانَ أنّ كُفَّارَ ملَّة هُمُ الآنَ في مُدَّةِ إِمْهَالِهِمْ. وهٰذِه المدّةُ مُتَابَعَةٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبّ العظيم الجليل (أخذاً من استخدام ضمير المتكلّم العظيم) بالْعَدِّ الدَّقيق، لأصْغَرِ الوحداتِ الزَّمَنِيَّة الّتي يُمْكِنُ أنْ يُجَزَّأَ الزَّمَنُ على وَفْقِها، فما كان رَبُّكَ نَسِيًّا ولا مُهْمِلاً شيئاً.

إذا كان الضَّوْءُ يَقْطَعُ في الثانية الواحدة مقدار (٣٠٠) ألف ك. م. فإنَّ الْعَدَّ الرَّبَّانِيَّ يُتَابِعُ كُلَّ وَحْدَةٍ زَمَنِيَّة يَقْطَعُ فيها الضَّوْءُ مقدار واحدٍ في المئة من «السَّانتمتر» الواحد، وأقْصَر من ذلِكَ حتَّىٰ أقْصَرِ وحْدَةٍ زَمَنِيَّةٍ يُمْكِنُ تَجْزِئَةُ الزَّمَنِ لها.

فإذا انْتَهَتْ مُدَّة الإمْهَالِ الَّتي يَحُلُّ بَعْدَ آخِرِها أَجَلُ معاقَبَتِهِمْ بالعقاب الّذي يستحِقُّونَه، وتقتضيه الحكمة، أنزل الله عزَّ وجلّ البيانات الملائماتِ بشَأْنهم.

فلا تَعْجَلِ الآن علَيْهم، واطمَئِنَّ إلى حكمة الله، ومتابعَتِهِ لعباده، فالله لَا يُهمِلُ شيئاً، مهْمَا أمْهَلَ بِحِكْمَتِهِ.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرْس الرابع عشر من دُروس سورة (مريم) والحمدُ لله على معونَتِهِ وتوفيقه ومَدَدِهِ وفتحه.

* * *

(١٨)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس عشر من دُروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٨٥ ـ ٨٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾:

تمهيد:

بَعْدَ عَرْض طائفةٍ مِنْ مواقف الّذين كَفَرُوا في المرحلة التاريخيَّةِ الّتي نَزَلت فيها سورة (مريم) ومعالَجةِ هذه المواقف بما اقتضَتْهُ الحكمة الرَّبّانيَّة.

جاء هذا الدرس الخامس عشر من السُّورة مشتملاً على بشارَةٍ للمتّقين، وإنْذَارٍ للمجْرِمين، أخَذاً بأُسْلُوب الموعظةِ الحسنة القائمة على الترغيب والترهيب.

التدبّر:

قول الله عزَّ وجلّ:

- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾:

- ﴿يَوۡمَ﴾ ظَرْف منْصُوبٌ على الظرفية، والعاملُ فيه: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.
- ﴿نَحۡشُرُ﴾: الحشْرُ هُوَ الْجَمْعُ والسَّوقُ، يُقَال لغة: «حَشَرَ الأَمِيرُ جُنْدَهُ يَحْشُرُهُم وَيَحْشِرُهم حَشْراً» أي: جَمَعَهُمْ وساقَهُمْ.
- ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: هُمْ أهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ على اختلاف دَرَجاتِهِمْ وتفاضُلِها، وكذلِكَ أهْلُ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، وأهْلُ مَرْتَبَة الإحْسَانِ، لأنّ أهل هاتَيْنِ المرتَبَتَيْن المرتقِيَتَيْنِ يَصْدُقُ عليهم أنّهم مُتَّقُون، إذِ الزّيادَةُ على أعمالِ التَّقْوىٰ من أعْمَالِ الْبرّ وأعْمَال الإحسان، لا تُخْرِجُ صَاحِبَها مِنْ وصْفِ كَوْنِه من المتَّقِين، بَلْ تَزِيدُهُ فَيُوصَفُ بأنّهُ من الأبرار أيْضاً، وبأنّهُ من المحسنين.

فكُلُّ من كَانَ من المحسنين هو من الأبرار ومن المتقين، وكلُّ مَنْ كان من الأبرار هو مِنَ المتقين، بخلاف العكْس.

إنّ الارتقاء إلى المرتبَةِ الأعْلَىٰ لَا يُلْغِي التحقُّقَ بالمرتبَةِ أو المراتِبِ الّتِي هي دُونها.

وأدْنى دَرجاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوى، هي دَرَجَةُ اتِّقَاءِ الخُلُود في عذاب النار، بإيمان صحيح مقبولٍ عنْد الله للخلاص من الخلُودِ في عذاب النار.

ولا يَقْتَضِي النصّ أنَّ كلّ الّذين يَنْطَبِقُ عليهم أنَّهُمْ متَّقُون، ولو كانوا من أصحاب الدَّرَجاتِ الدُّنيا من مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ يُحْشَرُونَ مُكَرَّمين وَفْداً إلى الرَّحْمٰن، إذْ ثَبَتَ في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ أنَّ أهل الأعرافِ يَكُونون موقوفين، لأنَّهُمْ قدْ تساوت سيِّئَاتُهُمْ وحَسَناتهم.

- ﴿إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾: أي: نَجْمَعُهُمْ على شَكْلِ زُمَرٍ بحَسَبِ دَرَجاتهم ومَرَاتِبِهم مَسُوقِين مُكَرَّمِينَ مُعَزَّزِين إلى الْجِهَةِ الّتِي يَتَجَلَّىٰ فيها اسْمُ الله «الرَّحْمٰن» بِرَحْمَتِه، وهي الْجِهةُ الَّتِي تَكُونُ فيها جنَّتُهُ، دَارُ كرامَتِهِ لِعِبَادِهِ المتَّقِين.

- ﴿وَفۡدٗا﴾: «الوَفْدُ» جَمْعُ «الْوَافِد» مثل: «راكِب ورَكْب، وصاحِبٍ وصَحْب. وجَمْعُ «الْوَفْدِ»: «الْوُفُود».

والوفْدُ في استعمال العرب، هُمُ المعَزَّزُون المكَرَّمُونَ الّذين يَفِدُونَ إلى الْمُلُوكِ والعظماء والرُّؤساء، لِيَنالُوا التَّكْرِيمَ وَحُسْنَ الوِفادة.

يُقَالُ لغة: وَفَدَ يَفِدُ وَفْداً، أي: خَرَجَ إلى مَلِكٍ أو رَئيسٍ، أَوْ أَمْرٍ خَطِيرٍ ذِي شَأْن.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ۝٨٦﴾:

«السوق»: الحثُّ علىٰ السَّيرِ مِنْ خَلْفِ الْمَسُوق.

«الْمُجْرِمُون»: هُمْ مُرْتَكِبُوا كبائرِ الذُّنُوب الّتي حَرَّمَهَا اللّٰهُ تَحْرِيماً شديداً.

وقَد جاء هذا اللَّفْظ في الاصطلاح القرآنيّ عُنْواناً مُقَابلاً للْمُسْلِمين، ووصفاً للكافِرِينَ الّذينَ أَهْلَكَهُمْ اللّٰهُ في الدُّنيا، ووصفاً للمُعَذّبين في النار، فيظهر أَنَّ المراد بهذا اللَّفْظِ مُرْتَكِبُو الكبائر من دَرَكَةِ الكُفْر.

- ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: أي: إلى الجهة الَّتي تَكُونُ جَهَنَّمُ قريبَةً إليها.

«جَهَنَّم»: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أسماء دار العذاب الَّتي أعْتَدَها الله لِيُعَذِّبَ فيها الكافرين، والْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّين.

وسُمِّيَتْ «جَهَنَّمَ» لأَنَّها كالْوَادي السَّحِيق، وكالْبِئْرِ الْبَعِيدَة الْقَعْر. يقال لغة: بِئْرٌ جَهَنَّمُ، أي: بَعِيدَةُ الْقَعْر.

- ﴿وِرۡدٗا﴾ الْوِرْدُ في اللُّغَةِ، الْوُرَّادُ إلى الماء، وهم الجماعَةُ الّتي تَرِدُ الماءَ مِنْ قَوْمٍ عِطَاش، أو إبلٍ عِطَاش، أو طَيْرٍ أو غير ذٰلِكَ.

قال: الزَّجّاج: أي: مُشاةً عِطاشاً.

وظاهِرٌ مَا في هذا السَّوْق، كَسَوْقِ البهائم، مِنْ إهَانَةٍ وإذْلالٍ وَتعْذِيب.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾:

أي: لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ فَرِيقَي المتَّقِين والمُجْرِمِين أَنْ يَشْفَعَ لَهُ شَافِعٌ ما، مأْذُونٌ لَهُ بالشَّفَاعَةِ، إلّا مَنْ كان لَهُ عَهْدٌ عنْدَ الله، بأنْ يَأْذَنَ لِبَعْضِ عبادِهِ بالشفاعَةِ له.

والمرادُ بمِلْكِيَّةِ الشَّفَاعَةِ إمكانيَّةُ الاستفادة مِنْها، والانتفاعِ بها، إذِ الأصْلُ في مِلْكِيَّةِ الْعِبادِ للأشياء تَمكُّنُهُمْ من الانتفاعِ بها، والَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الانتفاع بالشيءِ ولا التَّصرُّفَ فيه لا يكُونُ مالكاً له، أو هو بمثابَةِ مَنْ لَا يَكُونُ مَالكاً له.

والْعَهْدُ الّذي يكُونُ عنْدَ الرَّحْمٰنِ هو الْوَعْدُ الكَرِيمُ، الّذِي وعَدَهُ عِبادَهُ المتّقين، بأنْ يأْذَنَ لِمَنْ منَحهُمُ الشَّفَاعَةَ بأَنْ يَشْفَعُوا لِلْمُذْنِبِينَ، ضِمْنَ الْحُدُود الّتي يأذَنُ لَهُم بها.

واتِّخَاذُ نَصِيبٍ من هذا الْعَهْدِ الْعَامّ يَكُونُ بالإيمان الصحيح المقبولِ عند الله، وبِتَقْدِيم أعْمالٍ صالحةٍ تَسْتَدْعي بحِكْمَةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ أَنْ يَأْذَنَ بالشَّفَاعَةِ لِلْمُذْنِبِ الَّذِي قَدَّمَها، ضِمْنَ حُدُود الإذْن الّذِي يَأْذَنُ بِهِ جَلَّ جَلَالُه.

أَمّا أنَّ الشّفاعَةَ لَا تَكُونُ يَوْمَ الدِّين إلّا بإذْنِ اللَّهِ رَبّ العالمين، ولو كانت من الأنبياء والمرسَلِين، فالنُّصُوصُ القرآنيَّة الدَّالَّةُ عَلَيْهَا كَثِيرَة.

وأمّا أنْ يكُونَ المشْفُوعُ لَهُ مِنَ المؤمِنينَ الّذِين شَهِدُوا بالْحَقّ الَّذِي

اشتَمَلَ علَيْه دِينُ الله لعِباده، فقد دَلَّ عليه قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الزُّخْرُف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: إلّا مَنْ شَهِدَ بالْحَقِّ الَّذِي أنْزَلَهُ الله على رسُولِه، شهادةً صادِرَةً عنْ إرادةٍ واعِيَةٍ، يَعْلَمُ صَاحِبُهَا مَا يَصْدُرُ عنه مِنْ تَصَرُّف.

جاء في هذا الدّرْس عبارتا: **[نَحْشُر]** و**[نَسُوقُ]** باستخدام ضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ الموضوع يُلائمهُ الإشعار بجلَال الرَّبّ العظيم، إذْ يَتَعَلَّقُ بِبَيَانِ إكْرَامِهِ وإنْعَامِهِ للمتَّقِينَ، وإهانَتِه وانْتِقَامِهِ مِنَ الْمُجْرِمينَ.

واشْتَملَ هذا الدَّرْسُ على مُعَالَجَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ بالْمَوْعظة الحسنة، القائمة على الترغيب والترهيب، وكان هذان بتَقْدِيم لقْطَتَيْنِ تَصْويريّتَيْن، من مَشَاهِدِ يَوْم الدّين، مُشِيرَتَيْن إلى ما فيه من جزاء بالثواب العظيم للمتقين، وجزاءٍ بالعذاب الجسيم للمُجْرمين.

اللقطة الأولى: كشفَت طَرَفاً من مَشْهَدِ جَمْعِ المتّقينَ وُفوداً زُمَراً، أعزّاءَ بِعزَّةِ الله، مُكرَّمِين بأمْره، يُسَاقُونَ سَوقَ تَكْرِيمٍ إلَىٰ جِهَةِ الجنَة دَار كرامَةِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم للمّتقين، حيث تَظْهَرُ فيها وفيما حولها آثار رحمة الله العظمىٰ، كَمَا تُسَاقُ الْوُفود المكرمة مِنْ عِلْيَةِ الأقوام إلى قُصُور الملُوكِ والعُظماء، مع فارق المقدار بَيْنَ قصور الملوك الفانية، وجنَّةِ الرَّبّ العلي الأعلى ذي الْعَرش الكبير المتعالي، ودَارِ كرامَتِه الخالدة.

اللّقطَةُ التّصْويريّة الثانية: كشفت طرفاً مِن مَشْهَدِ سَوْقِ المجرمين زُمراً، سَوْق إهانَةٍ وإذْلَالٍ، كما تُسَاقُ الأنْعَامُ والدَّوابّ.

وسَوْقُ هؤلَاءِ يكونُ إلىٰ جِهَةِ جهَنَّمَ دَارِ عذابِهِم، مُشَاةً عِطَاشاً أشْقياء، بحَسَبِ أنواع جرائمهم.

ولَا يَمْلِكُ أحدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أنْ يَشْفَعَ لَهُ شَافِعٌ، ولَوْ كَانَ الشَّافِعُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أو النبيّين أو المرسَلِين، إلّا مَنْ كَانَ في الحياة الدُّنيا ممَّن مَاتَ على إيمانٍ صحيح مقبُولٍ عنْدَ الله جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، فاتَّخَذَ بما كَسَبَ في حياته الدنيا من عَمَلٍ صالح عَهْداً عند رَبّه، بأنْ يكونَ ممَّنْ يأْذَنُ اللَّهُ للشُّفعاءِ يَوْمَ الدّينِ بِأَنْ يَشْفَعُوا لَهُ بشَأْنِ ذُنوبه في حدود مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، أو بَشأْنِ تَقْصِيراتِهِ بالنِّسْبَةِ إلى حُقُوق ما فَوْقَها من مَرْتَبَةِ الْبِرّ، أو مَرْتَبَة الإحسان، حتَّىٰ يَرْتَقِي في دَرَاجات جنَّاتِ النَّعِيم إلى درجات مَرْتَبَةِ الأبرار، أو إلى دَرَجَاتِ مَرْتَبَة المحْسِنِينَ الْعُلْيَا.

وقد جاء في القرآن المجيد تَكْمِيلٌ لهٰذَيْن المشْهَدَيْن التَّصْويريَّيْن، ومِنْ هذا التَّكْمِيلِ بَيانُ أَنَّ كُلّا مِنَ الَّذين كَفَرُوا، ومِنَ الَّذِين اتَّقَوْا يُسَاقُونَ زُمراً، بَحَسبِ أحْوالِ كُلِّ زُمْرَةٍ منْهُمْ في الحياة الدُّنيا.

وهذا التكْمِيلُ قَدْ جاءَ في قول اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

دلَّ هذا النصّ والنَّصّ الذي من سورة (مريم) علىٰ أنَّ كُلّا من الَّذِين اتَّقَوْا، والَّذِين كَفرُوا، يُساقُون، ولٰكِنَّ الَّذِين اتَّقَوْا يُسَاقُونَ سَوْقَ تَكْرِيم، كما تُسَاقُ الْوُفُودُ المكرَّمَةُ إلى الملوك، أمّا الَّذِين كَفرُوا فإنَّهُمْ يَساقُونَ

سَوْقَ إهانةٍ وإذْلَال، كَما تُسَاقُ الأنْعَامَ والبهائم إلى الْوُرُودِ مُشَاةً عِطاشاً.

وأَخْطَأَ مَنْ فَسَّرَ «وِرْداً» بقَوْله: «أفْراداً» إذْ لَمْ يَتَنَبَّهْ إلى ما جاء في سورة (الزُّمر) من أنَّ الكافِرين يُسَاقُونَ إلى جهَنَّم زُمَراً.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرْس الخامس عشر من دروس سورة (مريم) والحمْدُ لله على معونته وتوفيقه ومَدَدِه وفَتْحه.

* * *

(١٩)

التدبر التحليلي للدّرس السادس عشر من دُرُوس سورة (مريم) وهو الآيات من (٨٨ ـ ٩٥)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَنفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾.

القراءات:

(٨٨) و(٩١) و(٩٢) ● قرأ حمْزَة، والكِسَائيُّ: **«وُلْداً»** في المواضع الثلاثة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَدًا﴾.

«الْوَلَدُ» و«الْوُلْدُ» و«الْوِلْدُ» كُلُّ مَا وُلِدَ، يُطْلَقُ على الذكر والأنثى، المفرد، والمثنّىٰ، والجمع.

فالقراءتان مُتَكافئتان، إذْ هُما لغتان عَرَبيتان لمعنًى واحد.

(٩٠) ● قرأ نافع، والكسائي: ﴿يَكَادُ﴾ بالياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تكاد] بالتّاء.

والقراءتان وجْهَان عَرَبيان جَائزان، لأنّ الفاعل مجازيّ التأنيث.

(٩٠) ● قرأ نافع، وابْنُ كَثير، وحفْصٌ، والكسائي، وأَبُو جعفر: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: «يَنْفَطِرْنَ».

القراءتان وجْهَان عرَبيان جائزان ومتكافئان. يقالُ لغة: «تَفَطَّرَ، يَتَفَطَّرُ» و«انْفَطَرَ يَنْفَطرُ» وكلاهما بمعنى تَشَقَّقَ، أو انْشَقَّ. وقد يَدُلُّ فعل «يَتفطَّر» على شِدَّة الانشقاق، وهذا يكون بالنسْبَةِ إلى الأجسام القاسيَّة الصُّلْبَة، فبين القراءتين على هذا تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

تمهيد:

هذا الدّرْسُ يُعالجُ الكبيرَة الكُفْريَّةِ الّتي زَعَمَ أصْحَابُها فيها أَنَّ الرَّحْمٰنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اتَّخذَ وَلَداً، ومنْهُمُ النصارىٰ الَّذِينَ قالُوا: عيسَىٰ ابن الله.

وهذا الدَّرْس لَهُ صِلَةٌ بالدّرْسِ الثاني من دُرُوس السُّورَة، الّذِي جاء فيه عَرْضُ لقَطَاتٍ من قِصَّة مَرْيَم وابْنَها عِيسىٰ عليه السّلام، ولا سيما ما جاء في الآيتين (٣٤ و٣٥) منه، وهُمَا قولُ اللّهِ عزّ وجلّ.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

التدبّر:

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾:

أصْحابُ هذا القول هُمُ النصارىٰ الّذِين قالوا: «الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ]. وبَعْضُ الْيَهُودِ الَّذِين قالوا: «الْعُزَيْرُ ابْنُ الله» وبَعْضُ الْعَرَبِ في الجاهليّة الَّذِين قالوا: «الملائكة بَنَاتُ الله» لأنّ الإناثَ يَدْخُلْنَ في عُمُوم لفظ الولد، كما سبَقَ بيانه.

وقد كان في مكَّةَ في المرحلة المكيَّةِ من دَعْوَةِ الرسول ﷺ بعض النصارى، وكانَ يأتي إليها بعض يَهود المدينة، ومَعْلُومٌ أنّ الدَّعْوَةَ الشَّامِلَةَ للنَّاس جميعاً، تقتضي مُراعاة ومعالَجَةَ جَمِيعِ أحْوالِ المخالِفينَ لها، وَتَوجِيهَ وَسائِلِ وأدِلَّةِ الإقناع الفكريّ لهم، وَتوجيه الْموعظَةِ الحسَنَةِ بالتَّرْغِيب التَّرْهيب، رَغْبَةً في إنْقَاذِهِمْ ممَّا هُمْ فيه من كُفْرٍ.

ومعنى: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾: جعَلَ لِنفْسِهِ وَلَداً مُشْتَقاً مِنْ ذَاتِهِ، إذْ هَوَ في أوّلِ نَشْأَتِه جُزْءٌ مِنْه. أو جَعَلَهُ لِنفْسِهِ وَلَداً بالتَّبَنِّي، وهو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِه.

قول الله عزّ وجل:

﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

بَعْدَ أنْ تَحَدَّث اللّهُ عزّ وجلَّ عَنْهُمْ بأُسْلُوب الحديثِ عن الغائبين في الآيَة (٨٨) واجَهَهُمْ بالخطاب في هاتين الآيتين (٨٩ و٩٠).

إنَّ هذا التحُّولَ مِنَ الغيبة إلى المواجهة بالخطاب يَدْخُلُ فيما يُسَمَّى عنْدَ البلاغيِّين «الالتفات» وهو أحَدُ فُنُون الحركة البديعةِ في أساليب البيانِ

القائمةِ على المفاجأةِ في الحديث، دُونَ مقدّمات تُشعِرُ بالتحُّول، ومن تأثيرات هذا الأسْلُوب شدُّ الانْتِباه بِقُوَّة، والإيقاظ من الغفلة.

• ﴿إِدًّا﴾: «الْإِدُّ» الشَّيْءُ المنكَرُ الشَّنِيعُ الكبير، الَّذِي لَا تتحَّمَّلُ شِدَّة وَقْعِه النُّفُوسُ الَّتي تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ والباطل.

إنّ هَذا الافتراء الشَّنِيعَ على الله الواحد الأحَدِ، الْفَرْدِ الصَّمَدِ، الَّذِي لم يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحَد، من شأنِه أَنْ يَجْلُبَ لهم نِقْمَةَ الله، بإطْبَاقِ قِطَعٍ صُلْبَةٍ من السَّمَاءِ والأرض والجبال عليهم، ودفْنِهِمْ تَحْتَ الأنْقَاضِ عُقُوبَةً لهم.

ولَوْلَا أنّ الله رَحْمَانٌ رَحِيمٌ حَلِيمٌ، لا يُسْرِع بالانتقام مِنَ الظَّالِمين المجرمين، المفتَرين على صِفاتِ ذاتِه الْأَزَلِيَّةِ الْأَبدِيَّةِ، بَلْ يُمْهِلُهُمْ وَيُمْلِي لهم، لكان مِنْ آثار غَضبه عليْهم، أَنْ يُفَطِّرَ السَّمَاءَ فَيُسْقِطَهَا عَلَيْهِمْ كِسَفاً، وأنْ يُشَقِّقَ الأرض من تَحْتِهِمْ فَيَغُوصُوا في أعْمَاقها، وَأنْ يُكَسِّرَ الْجِبالَ فَيَجْعلَها تَخِرُّ علَيْهِمْ هَدّاً.

لكِنَّهُ سُبْحانَهُ يُمْسِكُ برَحْمتِه غضَبه، فلا يَدَعُهُ يَصِلُ إلى هذا المستوىٰ الانتقاميّ، بَلْ يُوقِفُهُ عِنْدَ مَرْحَلَةٍ تَكَادُ فيها السَّمَاوات تتفطَّر، وتكادُ فيها الأرض تَتشَقَّقُ، وتَكادُ فيها الجبالُ تَتكَسَّرُ فَتَخِرُّ هدّاً، لأَنَّهُ هُوَ سُبْحَانَهُ يُمْسِكُها بِقُدْرَتِهِ في الوجودِ معَ توالي الأزمان، ولو رفَعَ إمساكَهُ لَهَا لعادتْ إلَىٰ أصْلِها وَهُوَ الْعَدَمُ المحض.

• ﴿تَكَادُ﴾: من أفعال المقاربة، فمعنَىٰ: «كادَ يفْعَلُ كذا» قاربَ أَنْ يفْعَله.

واسْتِعْمَالُ فِعْل: «يَكَادُ» في هذا الموضوع يُشْعِرُ بأنَّ غَضبَ اللَّهِ على الَّذِين قالُوا: «اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً» يكادُ يكونُ من آثارِهِ تَفَطُّرُ السَّمَاوات، وتَشَقُّقُ الأرْض، وتَكَسُّرُ الجبال وخُرُورُها عَلَيْهِمْ، لإهْلاكهم وَدَفْنِهِمْ في الرُّكَام.

﴿يَنفَطَّرْنَ﴾: أيْ: يَتَشَقَّقْنَ.

جاء في النصّ بالنّسْبَةِ إلى السّماوات استعمالُ فعل: ﴿يَنفَطَّرْنَ﴾ وبالنسْبَةِ إلى الأرض استعمالُ فعل: [تنشق] مع أنْ معْنَىٰ الفِعْلَيْنِ واحد، استبعاداً للتكرار في اللّفْظ غَيْرِ المستحبّ في الأسْمَاع، وتفنُّناً بديعاً في التعبير.

- ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾: أي: وتَسْقُطُ الجبال منْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ دون تَوَقُّفٍ، بَعْدَ أنْ تتكسَّرَ صُخُورُها من غَضَب الله عزّ وجل.

﴿هَدًّا﴾: أي: سقوطاً مَعَ إحداثِ أصْوَاتٍ عِنْدَ خُرُورِها.

ولفظ «هَدّاً» هُنَا مَفْعولٌ مُطْلَقٌ لفعل [تَخِرُّ] من معْناهُ لَا مِنْ حُروف لفظه. فكُلٌّ مِنَ الْخُرُورِ والْهَدِّ يتضمَّن معْنَىٰ إحداثِ أصواتٍ عنْدَ السُّقُوطِ السَّرِيع المتتابع للأجزاء..

يُقال لغة: «هَدَّ الجدَارُ يَهِدُّ هَدّاً وهَدِيداً» أي: سَقَط وأحْدث أصواتاً عنْدَ سُقُوطه.

ويقال: «هَدَّ فُلَانٌ البناءَ يَهُدُّهُ هَدّاً وَهُدُوداً» أي: هَدَمَهُ، فأحْدَث صَوْتاً شَدِيداً.

وهُنَا قَدْ تَتَسَاءَلُ نُفُوسٌ لَا تُدْرِكُ مبْلَغَ شناعَةِ قَوْلِ القائلين: «اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً» فتقول: مَاذَا في نِسْبَةِ الْولَدِ إلى الله عزّ وجلّ، من أمْرٍ فظيعٍ شَنِيعٍ، يقْتَضِي أَنْ يُفَطِّرَ اللَّهُ علَىٰ قائليه السَّمَاوات، ويُشَقِّقَ الأرض، ويُكَسِّرَ الجبالَ وَيَهُدَّها؟.

وقد جاء الجواب على هذا التَّسَاؤل الّذي يُشْعِرُ بِضَآلَةِ فِكْرِ طَارِحِيه، في قوله تعالى في الآيات من (٩١ ـ ٩٥) من هذا الدرس.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

أي: تكاد السَّماواتُ يَتفطَّرْنَ مِنْه، وتكادُ تَنشَقُّ الْأَرْضُ، وتكادُ تَخِرُّ الجبالُ هَدّاً، لأجْلِ الشنِيعَةِ الكُبْرَىٰ في ذَاتِ الله وصفاته، الّتِي دَعَوْا فيها للرَّحْمٰنِ وَلَداً، كَذِباً وافتراءً عليه، زاعِمِين أنَّ الْخَالِقَ الْأَزلِيَّ الْأَبَدِيَّ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيْءٌ، مِثْلُ خَلْقِهِ، يَتَّخِذُ زَوْجَةً ويُنْجِبُ مِنْهَا وَلَداً، وهو مُنَزَّهٌ عن ذَلِك. ولَزِمَهُمْ أَنْ يَتَصَوَّرُوا أنَّ هٰذا الْوَلَدَ جُزْءٌ مُنْفَصِلٌ عَنْ أبيه الخالِقِ الأزليّ، فَلَهُ مُشَارَكَةٌ لِلَّهِ سُبْحانَهُ في خَصَائِصِ ذاتِه وصِفَاته، فَهُوَ رَبٌّ مِثْلُهُ، ويَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، إِلَىٰ غَيْرِ هٰذِه من ضَلَالَاتِ كُبْرَيَاتِ شَنِيعاتٍ.

لَقَدْ دَعَوْا أنَّ للرَّحْمٰنِ وَلَداً كَذِباً وَزُوراً وافْتِراءً علىٰ الله [وَ] حَالُ كمالِ ذَاتِ اللَّهَ وصِفَاتِه وتَنَزُّهِهِ عَنْ مُشَابَهةِ الحوادث ﴿مَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ وهو خالقُ كُلِّ مَوْجُود سِوَاه، ومُفِيضُ عطاءاتِ رُبُوبيَّتِه على عِبَادِه جميعاً بِرَحْمَتِه.

[ما ينبغي]: أي: ما يَلِيقُ ومَا يَصْلُحُ بذَاتِ الرَّحْمٰنِ وصفاتِه أن يكُونَ لَهُ ولَدٌ مُشْتقٌّ مِنه، أو مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بالتَّبَنِّي.

إنّ اتِّخاذَهُ الولَدَ مِن المستحيلاتِ العقليَّة المناقِضَةِ بِشدَّةٍ للحقيقَةِ والْوَاقع، بَسَبب أنَّ كُلَّ مَنْ فِي السماوات والأرض خَلْقٌ من خَلْقِه وعَبِيدُه، ومُمْلُوكُونَ لَه، فَكَيْف يكون واحِدٌ مِنْهُمْ ولداً نَسَبِيًّا له؟!. هذا تناقضٌ ظاهر، الْوَلَدُ النَّسَبِيُّ لَا يكُونُ مَخْلُوقاً لأبيه، والْعَبْدُ المملوكُ الْمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ ابْناً لخالقه مُشْتَقاً مِنْ ذَاته، لأنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ للَّهِ عزّ وجلَّ يَتِمُّ خَلْقُهُ وإيجادُه بأمْرِ التَّكْوين الرَّبانِيِّ: «كُنْ» فالْمَخْلُوقُ «يَكُون» دُونَ أَنْ يَنْفَصِل شيءٌ مِنْ ذَاتِ خالِقِهِ، فيَكُونَ فيه.

وأمّا الابْنُ بالتَّبنِيّ فهو يَدُلُّ علَىٰ حَاجَةِ المتبَنِّي عاطفيًّا لِلْوَلَدِ، والرَّبُّ الخالِقُ مُنَزَّهُ عَنْ ذلِكَ، ولو كانت لَدَيْه حاجَةٌ عاطفيَّةٌ إلَىٰ الْوَلد، لَخَلَق مَخْلُوقاً منَ الأَزَلِ ذَا صِفَاتٍ عظيمَةٍ وَتَبنَّاهُ، ولَأَعْلَمَنَا به، ولكِنْ تَعالَىٰ اللَّهُ عن ذلِكَ عُلُوًّا كَبيراً.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾: «إنْ» حَرْفُ نفي بمعنَىٰ «ما». أي: مَا كُلُّ مَنْ في السَّمَاواتِ مِنْ ملائِكَة، ومَنْ في الأرْضِ مِنْ ملائِكَةٍ وَجِنٍّ وَإِنْسٍ، وكائناتٍ ذَواتِ عِلْم، إلَّا سَوْفَ يأتي الرَّحْمٰنَ يَوْمَ الدِّين خَلْقاً مِن خَلْقِهِ، وعَبْداً مِنْ عِبادِه الْمَمْلُوكِينَ له، وهو يأتي الرَّحْمٰنَ مُعْتَرِفاً بِعُبُودِيَّتِهِ لَهُ، خاضعاً لجَلالِهِ وعَظِيمِ سُلْطانِه خُضُوعاً تامًّا.

قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل:

- ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾:

﴿لَقَدْ﴾ عبارة جاءت لتأكيد مضمون ما جاء بَعْدها.

﴿أَحۡصَىٰهُمۡ﴾: أي: عَلِمَ مقدارَهُمْ عدَداً. يُقالُ لغة: أحصى فُلَانٌ ما لَدَيْهِ مِن أنْعام، أي: عَلِم مقدارها، ولو على سبيل الجملة.

﴿وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾: أي: ولم يكُنْ إحْصَاؤُه لَهُمْ مُجَرَّدَ جَمْعٍ جُمْلِيٍّ لهم، ولَكِنْ عَدَّهُمْ عَدّاً تفصِيليًّا حسابيًّا شاملاً كُلَّ فَرْدٍ من أفرادِهم على التَّعْيين.

﴿عَدّٗا﴾: مَفْعُول مطلق لتأكيد معنَىٰ الفعل.

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾:

أي: وكُلٌّ واحدٍ مِن عباده سَوْف يأتي رَبَّهُ الرَّحْمٰنَ يَوْم القيامَةِ فرداً، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَنْصِرَ بأحَد، ولَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكَوِّنَ عُصْبَةً مع أحد.

ثمَّ يُفْرَزُون عبيداً لله، فيُحْشَرُونَ زُمَراً:

- أمَّا المتَّقُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى جِهَةِ الْجَنَّةِ زمراً، بِحَسَبِ أنبيائهم، أَوْ أئمّتِهم، أو ما يَتَميَّزُون به من صالح أعمالهم.

- وأمَّا الْمُجْرِمُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلَىٰ جِهةِ جهَنَّمَ زُمراً، بِحَسَبِ أئِمَّتِهِمْ في الضَّلَال، أو بِحَسَبِ كُفْرِيَّاتهم، أو بِحَسَبِ جرائمهم.

وبهذا انتهى تدبُّر الدَّرْس السادس عشر من دُرُوس سورة (مريم) والحمد لله على معونته، وتوفيقه، ومَدَدِه، وفَتحه.

* * *

(٢٠)

التدبّر التحليلي للدرس السابع عشر من دُرُوس سورة (مريم) وهو الآية (٩٦)

قال اللّٰهُ عزَّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

تمهيد:

آيَةُ هذا الدرس قَدْ بَشَّرَ اللّٰهُ عزَّ وجلّ بها أصحاب الرَّسُول محمّد ﷺ، الذين كانوا وَاقِعينَ تحْتَ الاضطهاد والإذْلَال وأنواع الأذىٰ في الْعَهْدِ المكّيّ من تاريخ دَعْوَةِ الرَّسولِ، مع ما يُوجِّهُهُ لَهُمْ كُبَراءُ المشركينَ وأتْبَاعُهُمْ من نَبْذٍ وكراهِيَةٍ وعِدَاء، بأنَّ هذهِ الأحوال سَتَتَبَدَّلُ في الْمستَقْبَل القريب، إلى ضِدِّ ذَلِك، فسَيَجْعَلُ اللّٰهُ لَهُمْ وُدًّا في الْقُلُوب،

وهذا الْوُدُّ سَيَجُرُّ لَهُمْ عزًّا وقُوَّةً ومَجْداً وخيراً كثيراً، بمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ الله عزّ وجلَّ في عِباده، فَمَنْ كَانَ لَهُمْ وُدٌّ فِي قُلُوب النَّاسِ كان لهم تأييدٌ وقوةٌ وعزّةٌ ونَصْرٌ، ثُمَّ كانَ لهم مَجْدٌ عظيم وخَيْرٌ كثير.

التدبّر:

- ﴿وُدًّا﴾: «الْوُدُّ»: نوْعٌ مِنَ الْحُبِّ الهادئ الثابتِ، الّذي يكُونُ بَيْنَ الْأَصْحَاب والإخوان، وذَوِي الصّدَاقاتِ الْقَويّات.

يقالُ لغة: «وَدَّهُ، يَوَدُّهُ، وُدّاً، ووِدًّا، ووَدّاً وَ وُدَاداً، وَوِدَادَةً، وَمَوَدَّة».

- ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾: هذه العبارة تضمَّنَتْ بِشَارَةً مِنَ الله لأصحاب الرّسُول إبَّانَ التّنْزيل بأنَّ الله سيَجْعَلُ لَهُمْ في قُلُوبِ عبادِهِ وُدًّا، وما يَنْجُمُ عن هذا الْوُدِّ ويَكُونُ أثراً له.

ودلَّ على أنَّ هذه البشارة ستَتَحقّقُ لَهُمْ قَرِيباً فِي الدُّنيا، استعمالُ حرف «السين» الذي يُسْتَعْمَلُ غالباً للدّلالة على المستَقْبَل الْقَريب.

وهذه البِشَارَةُ بصِيغَتِها الْعَامَّة تَشْمَلُ كُلَّ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات بصِدْقٍ وثباتٍ وصَبْرٍ، في كلِّ عَصْر من الْعُصُور اللّاحِقَةِ لِعَصْرِ الرَّسولِ ﷺ، فَلَهَا صِفَةُ السُّنَّةِ الثابتَةِ مِنْ سُنَنِ اللّهِ في عباده.

إلّا أنَّ إنْزَالَها في أواسِط الْعَهْدِ المكيّ من تاريخ دعْوَةِ الرّسُول ﷺ، يَجْعَلُ أصحابَ الرّسُولِ بالنَّظَرِ إلى أحوالهم الّتِي كانوا عليها حينَئِذٍ، أَوَائِلَ المُبَشَّرِينَ بها.

لقد كانت أحوالُهُمْ في تِلْكَ المَرْحَلَةِ من تاريخ دَعْوَة الرَّسول في ظُرُوف اضطهادٍ، وإِذْلَالٍ، وَنَبْذٍ، وَكَراهِيَةٍ، مِنْ قِبَلِ الكَثْرَةِ الكاثِرَةِ في مكّة، الْخَاضِعِين لسُلْطَانِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْر فيها، وقَدْ تَفَاقَمَ الأَمْرُ عَلَيْهِم

قُبَيْلَ نُزُول سورة (مريم) وضَاقَتْ بذلك صُدُورُ كثيرٍ منهم، وعظُمَ هَمُّهُمْ، وصَارُوا يَسْأَلُونَ اللَّهَ الْفَرَج وَيَتَرَقَّبُونه.

فكان مِن الحكْمَةِ التَّرْبوِيةِ مُعَالَجتُهُمْ بِبشَارَة رَبَّانِيَّةٍ، تَنْزِلُ في قرآن يُتْلَىٰ، وهٰذهِ البشَارَة تُنْبِئُهُمْ بأنّ حَالَتَهُمْ سَتَتَبَدَّلُ قَرِيباً، فَسَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ وُدًّا، ومن طبيعَةِ هذا الوُدّ أن يَجُرَّ لَهُمْ قُوَّةً، ومَنَعَةً، وعِزًّا، ومَجْداً، وأمْناً، ورزْقاً حسناً، ثُمَّ انتصاراتٍ على أعْدائِهم، وخيراً كثيراً، ودُنْيَا وَاسِعةً، ومُفْتَاحُ هٰذِهِ الْأُمور كلِّها الودّ الذي سَيَجْعَلُهُ اللَّهُ لَهُمْ في قُلُوب بعْضِ عباده.

وقَدْ تحقَّقَتْ هذه البشارَةُ لأصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ زَمَنٍ غَيْرِ طَويل.

وكانَتْ بدايَةُ تَحْقِيق هٰذهِ البِشَارَةِ في مَوْسِم حجٍّ، الْتَقَىٰ فيه الرَّسولُ ﷺ عنْدَ العقَبَةِ نَفراً مِنْ أهْلِ يَثْرِبَ مِنَ الْخَزَرجِ، سِتَّةً أَوْ ثمانية.

فقال لهم الرَّسول ﷺ: «مَنْ أَنْتُمْ؟».

قالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَج.

قال: «أَمِنْ مَوَالِي الْيَهُودِ؟» أي: أَمِنْ حُلَفَائِهم؟.

قالوا: نَعَمْ.

قال: «أفَلَا تَجْلِسُونَ إلَيَّ أُكَلِّمكُمْ»؟.

قالوا: بلَىٰ. فجَلَسُوا إِلَيْهِ، فَدَعَاهُمْ إلى اللَّهِ، وعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإسْلَامَ، وتَلَا عَلَيْهِمُ القرآن.

فأسْرَعُوا إلى قَبُولِ الإسلام، لأنَّ اليهود كانُوا يقولون لعَرَب يَثْرِب: «إِنَّ نَبِيًّا مَبْعُوثاً الْآنَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُه، ونَقْتُلُكُمْ، مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَم».

فتهامَسُوا فيما بَيْنَهُمْ: «تَعْلَمُونَ ـ واللَّهِ ـ أَنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا يَسْبِقُنَّكُمْ إِلَيْه».

فلَمَّا عَادُوا مِنَ الْمَوْسِمِ إلى قَوْمِهم، ذَكَرُوا لَهُمْ مَا كانَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الرَّسُول ﷺ، ودَعَوْهُمْ إلى دِينِ الله، وفَشَا فيهم الإسلام.

وفي العام القابل قَدِمَ على النبي ﷺ اثْنَا عشَرَ رَجلًا من الأوس والخزْرَج، وبايَعَهُمْ على السَّمْع والطاعة، في الْعُسْرِ والْيُسْرِ، والمنْشَطِ والْمَكْرَه، وعلَىٰ الأمْرِ بالمعروف والنَّهْيِ عَنِ المنكَر، وعَلَىٰ أَنْ يَقُولُوا الحقَّ، وأنْ لَا يَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائم، وعلَىٰ أَنْ يَنْصُرُوهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ يَثْرِبَ، فيَمْنَعُوهُ ممّا يَمْنَعُون أنْفُسَهُمْ، وأَزْواجَهُمْ، وأبْناءَهُمْ منه، على أَنَّ لَهُمُ الجنَّة.

ولمَّا وَصَلُوا إلىٰ يَثْرِبَ كَتَبُوا إلى رسُول اللَّهِ ﷺ، أنِ ابْعَثْ إِلَيْنَا مَنْ يُقْرِئُنَا الْقُرْآنَ، فأرسَلَ إليهم «مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْر» رضي الله عنه، ونَزَلَ علَىٰ «أَسْعَدِ بْنِ زُرَارَة» سَيِّد الْخَزْرَج، ونَقِيبِ بَنِي النَّجَّار، وسابِقِ الأنْصَارِ إلى الإسلام.

ثُمَّ أَسْلَمَ «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْر» و«سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» سَيِّدا قَوْمِهِمَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَل، اسْتِجابَةً لِدَعْوَةِ «مُصْعَب بْنِ عُمَيْر».

وانْتَشَرَ الإسلامُ بإسْلَامِهِمَا في يَثْرِبَ، حتَّىٰ لَمْ تَبْقَ دَارٌ منْ دُور أَهْلِ يَثْرِبَ إلَّا وفيها رجَالٌ مُسْلِمُونَ، ونِسَاءٌ مُسْلِماتٌ.

ثُمَّ كانَتْ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الثَّانية، وفيها اجْتَمعَ على الرَّسولِ ﷺ مِنْ أَهْلِ يَثْرِب (٧٣) رَجلاً، وامْرَأتان، فبايَعُوهُ علىٰ أن يَمْنَعُوهُ ممَّا يَمْنَعُونَ منْهُ نِسَاءَهُمْ وأبْناءَهم علىٰ أنَّ لَهُمْ الجنَّة.

وألْقَىٰ اللَّهُ عزّ وجلَّ في قُلُوبِ مُسْلِمِي يَثْرِب وَمُسْلِمَاتِها وُدَّ إخْوَانِهِمُ المضطهدين في مكَّة، حتَّىٰ صاروا أنْصَاراً حَقِيقيّين، يُؤْثِرُونَهم على أنْفُسِهِمْ، وَلَوْ كانَ بِهِم خَصَاصَة.

وأخَذَ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ مُسْلِمِي مَكَّةَ يَتَوافَدُونَ أفْراداً وجماعاتٍ،

ويَسْتَقْبِلُهُمْ إخوانُهم المسلِمُون في يَثْرِب، الَّتي سَمَّاها الرَّسُول ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ «المدينَة» بوُدٍّ عجيبٍ وإخاءٍ لَا نظير له، ويُنْزِلُونَهُمْ في منازلهم ضُيُوفاً آمِنِينَ مَرْزُوقين.

وحَمَىٰ الأنْصَارُ في المدينَةِ إخوانَهُمُ المهاجِرينَ إلَيْهم، ممَّا يَحْمُونَ مِنْهُ أنْفُسَهُمْ وَنِسَاءَهم وَأَوْلَادَهم. وكانَ هذا ثَمرَةَ وُدٍّ وإخاءٍ إيمانِيٍّ صَادِقِين، جَلَبَهُمَا الإيمانُ الصَّحِيح القوِيُّ الصادق.

وظَهَرَتْ مِنَ الْأَنْصَارِ لإِخْوَانِهِمْ الْمُهَاجِرين إيثَارَاتٌ عجيبات، لَا نظائر لها في تاريخ البشريَّة، أو نظائِرُها قَلِيلَةٌ جدًّا.

ومنه ما رواه البخاريّ في صحيحه، عنْ عَبْدِ الرَّحْمٰن بْنِ عوفٍ، أنَّ رسُول الله ﷺ، آخَىٰ بَيْنَهُ وَبيْنَ «سَعْدِ بْنِ الرَّبيع» الأنصاريّ، فجاء سَعْدٌ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَاسِمَهُ مَالَهُ، وقالَ لَهُ: انْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ أَحبُّ إِلَيْكَ أَتنازل لَكَ عَنْها، حتَّىٰ إذا ما انْتَهتْ عِدَّتُها تَزَوَّجْتَهَا، فَأَبَىٰ «عَبْدُ الرَّحْمٰن» وَقَالَ لَهُ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ في أَهْلِكَ وَمَالِكَ، ولَكِنْ دُلَّنِي علىٰ السُّوق، فدَلَّهُ علَىٰ السُّوقِ، فبَاعَ وابْتَاع، حتَّىٰ صَارَ لهُ مالٌ، وتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصار، بوزْنِ نواةٍ من ذَهَب، فقال لَهُ النبيُّ ﷺ: «أَوْلِمْ ولَوْ بِشَاةٍ».

وأقْبَلَتِ الانتصارات للمسلِمين، وكانَ مِفْتَاحُها الْمَوَدَّةَ الَّتي ألْقَاهَا اللَّهُ عزّ وجلّ في قُلُوب مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ المدينة.

وشواهدُ التاريخ كثِيرَةٌ بشأنِ الودّ الّذي يُلْقِيه اللَّهُ عزَّ وجلَّ في قُلُوب بَعْضِ عبادِه، للّذِين آمَنُوا وعملوا الصالحاتِ صادقين مُخْلِصِينَ صابرين، ولا سيما الذين اضطهِدُوا من أجلِ دينهم، وجهادِهم في سبيل ربّهم.

وثَبَتَ في الصحيح أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ إذَا أَحبَّ عبْداً حَبَّبَ به عبادَهُ، وهذا يَدْخُلُ في الوُدّ الذي وعَدَ اللَّهُ أَنْ يجْعَلَهُ للّذِين آمنوا وعَمِلوا الصالحات، ومنه ما يلي:

(١) روى البخاري ومُسْلِمٌ عَنْ أَبي هُرَيْرَة، أنّ النبي ﷺ قال:

«إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْداً نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ في أَهْلِ السَّماء، إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ».

(٢) ورویٰ الترمذيُّ عَنْ أبي هُرَيْرَة بإسنادٍ صَحِيحٍ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«إِذَا أحَبَّ اللَّهُ عَبْداً نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنّي قَدْ أَحْبَبْتُ فُلاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُنَادي في السَّمَاء، ثُمَّ تُنَزَّلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي الْأَرْض، فذلِكَ قولُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

وَإِذَا أَبْغَضَ اللَّهُ عَبْداً نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنِّي أَبْغَضْتُ فُلاناً، فَيُنَادَىٰ في السَّمَاءِ، ثُمَّ تُنَزَّلُ لَهُ الْبَغْضَاءُ في الْأَرْضِ».

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرْس السابع عشر من دُروس سورة (مريم) والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

(٢١)

التدبّر التحليليّ للدرس الثامن عشر الدّرسِ الأخير من سورة (مريم) وهو الآيتان (٩٧ ـ ٩٨)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً للرسُول محمّد ﷺ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

القراءات:

(٩٧) ● قرأ حمزة: «لِتَبْشُرَ» مِنْ فِعْلِ «بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ».

وقرأها باقي القرَّاء العشرة: [لِتَبَشِّرَ] من فعل «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ».

يقال لغة: بَشَرَ فَلَانٌ فلاناً يَبْشُرُهُ، وبَشَّرَهُ يُبَشِّرُه، أي: أَخْبَرَهُ بخَبَرٍ يُفْرِحُهُ ويَسُرُّه.

والقراءتان متكامِلَتان في الأداء البياني، فبعضُ المتقين تكفِيه البشارة دون تأكيد وتَشْدِيد، وبَعْضُ المتقين يحتاج إلى تأكيد وتَشْدِيدٍ في بشارته، بحَسَب حالته النفسيَّة، وغفلاته.

تمهيد:

يخاطبُ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس الرَّسُول ﷺ، بشَأْنِ وَظيفة من وظائف القرآن، وهي تَبْشِيرُ المتقين بما جاء فيه من مُبَشِّرات، وإِنْذَارُ الْمُكَابِرين المعاندين المخَاصِمين المجادلين بالباطل، بما جاء فيه من إِنْذَارَاتٍ بعقاب اللَّهِ عزّ وجل للكافرين.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بما جاء في السُّورَةِ مِنْ حَدِيثٍ عن القرآن في عِدَّةِ مواضع، منها:

(١) قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ... ١٦﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ ... ٤١﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ ... ٥١﴾.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ ... ٥٤﴾.

(٥) وقول الله عزّ وجل: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ ... ٥٦﴾.

فكان من المناسب في خاتِمَةَ السُّورَةِ بَيَانُ وَظيفَةٍ كُبْرىٰ من وظائف

هذا القرآن، الَّذِي أنْزَلَهُ اللَّهُ عَرَبيًّا بِلِسَانِ خاتَم المرسَلِينَ، ومُيَسَّراً للحِفْظِ والتِّلَاوَةِ، وهي أنْ يُبَشِّرَ به الرَّسُولُ ﷺ المتقين، وينْذِرَ بِه قوماً شديدي الخِصَام، والجدالِ بالباطل وبزُخْرفِ من الْقَول، وشدِيدي المكابرة والعناد، الَّذِين لا تَلِينُ قُلوبُهم للأدلَّةِ الكافِيَة لإقْنَاعِ أولي الألباب، ولَا تَجْذِبُ نُفوسَهُمُ الْأَخْبَارُ المبشّرة المفرحَةُ السَّارَّة، الَّتي تُوَجَّهُ للمتَّقِين وَعْداً من الله، فلا وسيلَةَ مَعَهُمْ إلَّا الإنْذَارُ بالعذاب الأليم يَوْم الدّين، والتهديدُ بالإهلاكِ الشَّامِلِ في الدُّنيا، إذا وَصَلُوا إلى حالَةٍ يَسْتَحِقُّونَ مَعَها أنْ يُهْلِكهُمُ اللَّهُ، كما أَهْلَكَ كُفَّار الْقُرُونِ السَّابقة.

ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ ﷺ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فهم أيضاً يُبَشِّرُون وَيُنْذِرُون بما جاء في القرآن من مُبَشِّرَاتٍ ومُنْذِرات.

التدبّر:

قول الله عزّ وجل خطاباً لِرسوله محمّد ﷺ:

- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّـرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾:

الفاء في: ﴿فَإِنَّمَا﴾ تَعْطِفُ هُنَا على مَحذوف، وهي الّتي تُسَمَّىٰ عِنْدَ النُّحاة الْفَاء الْفَصِيحَة، وهٰذَا المحذوفُ يَدُلُّ عَلَيْهِ بَعْضُ ما جاء بَعْدَها في الآية.

والتقدير: فَبَشِّر المتقين بما جاء في القرآن من وعْدٍ بمُبَشّرات، وأَنْذِرْ قَوْماً لُدّاً بما جاء في القرآن من وَعِيدٍ بِمُنْذِراتٍ يوم الدّين، ورُبّما مُعَجَّلاتٍ أيضاً في الدُّنيا، فَإنَّما يَسَّرْناهُ بِلَسَانِكَ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينَ، لِتَقُومَ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِكَ ومِنْهَا التبشِيرُ والإنْذَار.

ويُلْحَقُ بالرَّسُول في هٰذا حَمَلَةُ رِسالَتِهِ ومُبَلّغوها مِنْ أُمّتِه.

- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾: أي: فإنّما يَسَّرْنَاهُ باللّسَانِ العربيّ

الْمُبِين، الذي هو لُغَتُكَ الّتي تَنْطِقُ بها يا مُحمَّد، وتُعَبِّرُ عمَّا في نَفْسِكَ بحُرُوفها وكَلِمَاتها وجُمَلِها وأساليب بيانها.

وقَدْ اختار اللّٰهُ اللُّغَة الْعَرَبِيَّة، والرَّسُولَ الْعَرَبِيَّ الَّذِي هُوَ خَاتَمُ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ، لإنْزَالِ كِتَابِهِ الْمُبِينِ الخاتِمِ لِلْكُتُبِ الَّتي أَنْزَلَها على رُسُلِهِ السَّابقينَ بألْسِنَتِهِمْ، والْمُعْجِزِ في مَبَانِيهِ وَفي مَعَانِيه، فاللِّسَانُ العربيُّ قَابِلٌ لِتَفَاضُلِ أَسَالِيبِ الْبَيَانِ فِيهِ إلىٰ حَدِّ الإعْجاز، مع تَيْسِيرِه للناطِقِينَ باللّسَانِ الْعَربيّ.

«إِنَّمَا» أداة حَصْرٍ وقَصْر.

﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾: أي: يَسَّرْنَا الكِتَابَ الَّذِي هو القرآن، والذي جاء ذِكْرٌ لَهُ في السُّورةِ في عِدَّةِ مواضع، سبَقَ ذِكْرُها آنفاً.

والمرادُ بِتَيْسِيرِ القرآن عدّة أمور:

(١) تلْيِينُهُ للناطِقِ العربي، وتَسْهِيلُهُ للحفظ والذِّكْر، وهٰذِه ظَاهِرَةٌ مَشْهُودَةٌ في الْمُسْلِمِين، إذْ يَحْفَظُهُ الملايين من المسْلِمين ذُكُوراً وإناثاً، في كُلّ بقَاعِ الأرض، بخلاف سائر الكتب السابقة، فلا حُفَّاظ لها، أو حُفَاظُها نادِرُونَ جدّاً، إذْ لاَ نَجِدُ مَنْ يَتْلُوها مِنْ حفظه وذاكِرَتِه من المنْتَمِينَ إليها دِينيًا، وهم أَئِمَةٌ في أَديانِهم.

(٢) وتَسْهِيلُهُ لِلْفَهْمِ بِمُسْتَوَيَاتٍ تُلَائم قُدراتِ الْفَهْم عِنْدَ النّاس، إذْ كُلٌّ مِنَ النَّاطِقينَ بالْعَرَبِيَّةِ الفصيحَةِ يَفْهَمُ مِنْهُ على قَدْرِهِ إدْراكاً واسْتِيعَاباً، وهٰذا الْقَدْرُ يَنْفَعُهُ في معرفَةِ أُصولِ دِينِهِ، وكُبْرَيَاتِ الأحْكَام التَّكْلِيفِيَّة فيه، وما فيه من حَثٍّ على مكارِمِ الأَخْلاق ومَحَاسِنِ الشِّيَم، إذا كان من الَّذِينَ يَتعَهَّدُونَ الْقُرْآنَ بالتِّلاوَة.

وقد أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قولَه:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾:

وقد جاءَتِ هذه الآيَةُ مُكَرَّرَةً في سورة (القمر) أَرْبَعَ مَرَّات، على شَكْلِ فواصِلَ بَيْنَ مَقَاطِعَ مِنها.

وتَيْسِيرُ القرآن للذِّكْرِ يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً تَيْسِيرَهُ للحفْظِ، وَتَيْسِيرَهُ لِفَهْمِ مَا يَحْتَاجُ الإِنْسَانُ العادِيُّ أَنْ يَفْهَمَ مِنْهُ لأمُورِ دِينِهِ الْأَسَاسِيَّة.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ قَوْلَهُ في سورة (الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) خطاباً لِرَسُولِه محمّد ﷺ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: يَسَّرْنا القرآن بلسَانِكَ العربيّ المبينِ يَا مُحمّد، رَغْبَةً في أَنْ يَتَلَقَّاهُ العربُ الناطِقُون بِلِسَانِكَ، فيتفَهَّمُوا مَعَاني آياتِه، ويَحْفَظُوها، وَيَتَذَكَّرُوها عند المناسبات الدَّاعيات، فإذا تَذَكَّرُوها وهُمْ مُؤْمِنُونَ عَمِلُوا بها، وكانوا دُعاةً لها في النَّاس أجْمَعِينَ، معَ مَنْ يُؤْمِنُ ويُسْلِمُ مِن الشعوب الأخرى غير أهل اللّسَان العربي.

- ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي: لِتُخْبِرَ بمَا جاء فيه مِنْ وَعْدٍ كريم من اللَّهِ عزّ وجلّ يُفْرِحُ وَيَسُرّ.

يُقَالُ لغة: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ» أي: أَخْبَرَهُ بمَا يَسُرُّهُ، وَيُفْرِحه، وهذا التبشيرُ خاصٌّ بالمتقين.

«**المتقُون**»: عنوانٌ يَشْمَلُ كلَّ مَنْ لَدَيْهِمْ مِقدارٌ ما مِنَ التقوى، من أدْنَىٰ دَرجاتِ التَّقوى، وهي الَّتي يكونُ بِهَا النَّجاةُ من الْخُلُودِ في العذاب في الدَّارِ المعدّة لتعذيب الكافرين والْعُصَاةِ من دُون الكفر. إلى أعْلَىٰ دَرَجاتِ التقوى، وهي الّتي يَكُونُ بها الخلاصُ من استحقاقِ العقاب على تَرْكِ مَا أوجَبَ الله، وفِعْلِ مَا حَرَّمَ الله، فَقِمَّةُ التَّقْوىٰ تكُونُ بِفِعْلِ الواجباتِ وتَرْكِ المحرَّمَات.

ويَدْخُلُ في عُمُومِ المتَّقِينَ أَهْلُ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، الَّذِين يتَوَسَّعُونَ في فِعْلِ الخيراتِ من النَّوافل، وفي تَرْكِ المكرُوهاتِ وغَيْرِ المستحبَّات، الَّتي يَرْغَبُ الباري في تَرْكها دُون أن يُحَرِّمها.

وَيَدْخُلُ في عموم المتقين أيضاً أهل مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، أعْلَىٰ مراتب المؤمنين، وهم الَّذِين يَعْبُدُونَ اللَّهِ بإحْسَانٍ كاملٍ كأنَّهُمْ يَرَوْنه.

لأنَّ الأبرارَ مُتَّقُونَ وَزِيَادَة، ولأنّ المحسنين مُتَّقُونَ وأبْرَارٌ وَزِيَادة. وكُلُّ ما هُو رُكْنٌ أو شَرْطٌ للمرتَبَةِ الأدْنَىٰ، هُو رُكْنٌ أو شَرْطٌ لِلْمَرْتَبَةِ الْأَعلى.

• ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾: أي: ولتُنْذِرَ بما جاء في القرآنِ من وَعيدٍ أنْذَرَ به المجْرِمينَ الكافِرين المكَذّبين لَكَ والمكذبين بِما جئت به عن ربّك.

«**الإنْذار**»: هو الإعْلَامُ والإخبارُ بعَواقِبَ غَيْرِ سَارَّةَ، كَشَرٍّ قَادِمٍ، أَوْ عُقُوبَةٍ علَىٰ مُكْتَسَبٍ إرادي، من اعتقاد أو قولٍ أو عَمَل.

والتَّحْذِيرُ مِنْ أَمْرٍ مَخُوفٍ منه، مَادِّيٍّ أو مَعْنَوِيٍّ.

يقالُ لغة: «أَنْذَرَهُ يُنْذِرُه» أي: أعْلَمَهُ بأمْرٍ مُتَوَقَّعِ الحدُوثِ، وفيه مَكْرُوهٌ له، لِيُخَوّفَهُ منه، فيَحْذَرَ الوقوعَ فيه.

• ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: «**الْقَوْمُ**»: هم الجماعَةُ من النّاسِ الّذِين تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ يَقُومونَ لها، ذُكوراً وإنَاثاً.

وقد يُسْتَعْمَلَ لفظ «القوم» للدَّلَالَةِ على جماعة الذكور فقط، ومنه قول الشاعر العربي زُهَيْر:

وَمَا أَدْري وسَوْفَ ـ إخَالُ ـ أَدْرِي   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

إخَالُ: جُمْلة مُعْتَرِضَة بَيْنَ «سَوْف» و«أَدْرِي».

• ﴿لُدًّا﴾: جَمْعُ «أَلَدّ» وهُوَ ذُو الْخِصَام الشَّدِيد، المكابِرُ المعاند، الّذِي لَا يَلِينُ قَلْبُهُ لِلْأَدِلَّةِ الكافِيَةِ للإقْنَاع، وَلَا تُجْدِي معَهُ وَسَائِلُ التَّرْغِيبِ فيما تَرْغَبُ فيه النُّفُوسُ مِنْ وُعُودٍ آجِلَة، وآخِرُ وَسِيلَةٍ يُمْكِنُ اسْتِخْدَامُهَا معه الإنْذَارُ بالْمُرْهِبَاتِ الآجِلَاتِ إلىٰ يَوْم الدّين، وبالمرْهبات العاجلاتِ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بها، كما قَضَىٰ فَأَهْلَكَ المجرمين الظالِمينَ الْفَجَرَة من كُفّار القرون السَّالفَة.

فالْقَوْمُ اللُّدُّ: هُمُ الكَفَرَةُ المعانِدُونَ المكابِرُون بالباطل، المجادِلُون المخاصِمُونَ بشِدَّةٍ وعُنْفٍ وفجور، ومن أمثلَتِهم في الجاهليّة، أَبُو جَهْل، والْوَلِيدُ بْنُ المغيرة، وأَبُو لَهَبٍ وامْرَأَتُهُ حمَّالَةُ الحطَب.

إنَّ آخِرَ وَسيلَةٍ لِمُعَالَجَةِ الْقَوْم اللُّدّ، قَبْلَ إِنْزَالِ العقابِ بهم، هي وسِيلَةُ الإِنْذَارِ بالعذاب الَّذي سَيَنْزِلُ بهم، إذا أَصَرُّوا على مواقف الجحود والكُفْرِ والعناد والمكابرة بالباطل.

قول الله عزّ وجل:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

بهٰذه الآية خَتَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ السُّورة، وهي تتضَمَّنُ احْتِمالَ إِهْلَاكِ الكافِرين اللُّدِّ من مُشْركي مَكَّة إهلاكاً عقابيًّا جماعيًّا مُعَجَّلاً في الحياة الدُّنيا، قَبْلَ يَوْم القيامة، مع ما سَوْفَ ينالُونَهُ من العذابِ الْأَكْبَر يوم الدّين.

وإهلاكُهُمُ المعجَّلُ هو نظير إهلاك الله لكثيرٍ من مُجْرمي القرون السالفة، بسَبَب كُفْرِهم، وإصْرَارِهِمْ على جُحُودِ الحقّ الرَّبَّانيّ، وجدالهم بالباطل، لِيُدْحِضُوا به الحقَّ، وبِسَبب مَعْصِيَتِهِمْ رُسُلَ رَبّهم، وفَسَادهم وإفسادِهم في الأَرْض، وبَغْيِهِمْ وطُغْيَانهم.

ولَمْ يُواجِهْهُم اللَّهُ بالخطاب في هذه الآية، إنَّما تَحَدَّثَ عَنْهُمْ

بأسْلُوب الْحَدِيث عن الغائب، لأنَّهُمْ مُدْبِرُونَ عَنِ الحقّ، وعَنْ دُعَاةِ الحقِّ من الدَّرَكَةِ الْقُصْوَىٰ.

«الْقَرْنُ»: هو من الناس أهل زمانٍ واحدٍ، والجمع «قُرون».

«كَمْ» هذه هي «كَمْ» الخبَرِيَّة، وهي كنايَةٌ عن عَدَدٍ كثيرٍ مُبْهم، وهي في محلّ نَصْبٍ على أنها مَفْعُولٌ به لفِعْل ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: كَثِيراً مِنَ الْقُرُونِ أهْلَكْنَا.

وعبارة: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تَمْييزٌ لإبْهام «كَمْ» مُبَيِّنٌ لها.

والواو في: ﴿وَكَمْ﴾ عَاطِفَةٌ علىٰ الجملَةِ السابقة لها، أو هِيَ واو الحال.

• ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾: أي: هَلْ تُحِسُّ بِبَصَرِكَ أو بِلَمْسِكَ أحداً من القرون السّابقة، الّذِين أهلَكَهُمُ اللَّهُ إهلاكاً شاملاً بسبب كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِم وإفسادهم في الأرض؟

والجواب: لَا أُحِسُّ منْهُمْ من أحد.

فهو استفهامٌ تَقْرِيريٌّ لانتزاع الإقرار بأنَّهُ لا وُجود لأحَدٍ منهم، مع وجود بعض آثارهم، فقد أهْلَكَهُمُ اللَّهُ وأفناهم، ولم يُبْقِ لهم أثراً.

• ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: أو تَسْمَعُ لهم صوتاً خافتاً خفيًّا.

«الرِّكْزُ»: هو في اللُّغَةِ الصَّوْتُ الخفيُّ.

والمعنَىٰ: أنَّ إهلاكَهُمْ قَدْ كانَ إماتَةً، وإفناءً، فلا تُحِسُّ يا مَنْ له إحْسَاسٌ دَرَّاكٌ أحداً مِنْهُمْ، ولا تَسْمَع يا مَنْ لَهُ سَمْعٌ مُرْهَفٌ، أيَّ صَوْتٍ خفي لأحَدٍ منهم.

هذا الاستفهام التقريري مُوجَّهٌ لكلّ صالحٍ لمثلِ هذا الخطاب.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر هذا الدرسِ الأخير من دُرُوس السورة، وانتهىٰ تَدَبُّر سورة (مريم).

والحمد لله على معونته، ومَدَدِهِ، وتَوْفيقه، وفَتْحه.

* * *

ملاحق لتدبُّر سورة (مريم)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثاني: جنَّاتُ عَدْنٍ ومستحقُّوها في الدلالات القرآنية.

* * *

(٢٢)

الملحق الأول

مُستَخرَجات بلاغيّة مِنْ سُورَة (مريم)

تشتمل سورة (مريم) على نفائس بلاغيّة متَعدّدة، أقَدِّمُ منها في هذا الملحق المستخرجات التاليات:

أوّلاً:

في هذه السورة أمثلة متعدّدة من الإيجاز، وهو في اصطلاح البلاغيين: التعبير عن المراد بكلامٍ قَصِيرٍ ناقص عن الألفاظ الَّتي يُؤَدَّىٰ بها عادةً في متعارف الناس، مع وفائه بالدّلالة على المقصود، وهو قسمان: إيجازُ القِصَر، وإيجاز الحذف.

- ومن أمثلة إيجاز الحذف في سورة (مريم) ما يلي:

(١) في قول الله عزّ وجلّ:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾.

في هذه الآية من الإيجاز حَذْف المبتدأ في: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ لسهولة استخراجه بأدنَىٰ تأمل، والتقدير: هٰذا ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبّكَ عَبْدَهُ زَكريّا.

(٢) في قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾.

«إذْ» ظرف زمان والعامل فيه محذوف، والتقدير: أذْكُرْ إذْ نادىٰ زَكَرِيّا رَبَّهُ نداءً خَفِيًّا، بمعنى: ضع في ذاكرتِكَ أيّها المتلَقِّي الصالح للخطاب قصَّة زكريّا....

ونظائر هذا الحذف كثيرٌ في القرآن المجيد.

(٣) في قول الله عزّ وجلّ بشأن الكافرين:

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ... ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وأبْصِرْ بهم، حذفت عبارة «بِهِمْ» لدلالة ما قبلها عليها، ومثل هذا الحذف سهْلُ الإدراك.

وهذا النوع من الحذف يسمّىٰ «الاكتفاء».

(٤) ومن الإيجاز بالحذف حذْفُ حرف من الكلمة يجوز في العربيَّة حذفها، ومنه في هذه السّورة لداعٍ بلاغي:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

جاء في هٰذه الآية حذْف النون من «يَكُنْ». والداعي البلاغيّ الإشعار بأنّ مَنْ كان مَعْدُوماً في الواقع يحْسُنُ أنْ يُوجِزَ الحديث عنه في اللّفظ، إذا كان الحَذْف جائزاً لغةً.

وهذا النوع من الحذف يسمَّىٰ «الاقتطاع».

(٥) ومن الإيجاز بالحذف على طريقة «التضمين» وهو تضمين كلمةٍ

معنىٰ كلمة أخرى، وجَعْلُ الكلام بَعْدَها مبنيًّا على الكلمة غيْر المذكورة.

قول الله عزّ وجلّ بشأن مريم عليها السلام وحملها بعيسىٰ عليه السلام:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾.

«انْتَبَذَتْ»: أي: اعْتَزَلَتْ نَاحيَةً وانصرفت إلى ناحية أخرى، وهذا الفعل لا ينصب مفعولاً به، لكنْ ضُمِّنَ معنى فعل: «اختارت» أو «حَلَّتْ» فَعُدِّي تعديته.

والتقدير: فانتبَذَت بِه مختارةً أو حالَّةً مكاناً قَصِيًّا.

وهذا التضمين الإيجازي من نفائس القرآن المجيد.

(٦) ومن الإيجاز بالحذف على طريقة «التضمين» أيضاً:

ما جاء في العبارة المحكيَّةِ عن إبراهيم عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

كلمة: «أغنى يغني» هي بمعنى: «كفىٰ يكْفِيٰ» يُقَال: أغناه: أي: كفاه، ومعلومٌ أنّ الكفاية عند الحاجة إلى ما يَدْفعُ المكروه تتضمَّن معنىٰ الصَّرْف والكفّ، فَضُمِّنَ فعلُ ﴿يُغْنِى﴾ معنى فعل «يَكُفّ» أو «يَصْرف» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، وفق قاعدة «التضمين» فصار المعنى:

لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَكْفيكَ ولا يَصْرِف عَنْكَ شيئاً تكْرَهُه.

(٧) ومن الإيجاز البديع إيجازُ القِصَر، ومن إيجاز القِصَر اسْتِخدامُ العبارة بمعْنَيَيْن أو أكثر، إذا لم يكن بين المعاني تعارض، ومنْهُ التعبير القرآني في السورة عن قولِ قومِ مَرْيم لها حين جاءت بوليدها عيسَىٰ تَحْمِلُه:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَرِيًّا﴾: أي: أمراً عجيباً مُسْتَغْرَباً.

والذي يظهر أنّ قوم «مريم» عليها السلام كانوا فريقين:

الفريق الأول: يُبرِّئُها من الفاحشة، ويتعجَّبُ من الظاهرة نفسها.

الفريق الثاني: يتَّهِمُها، ويتعجَّبُ من سقوطها في الفاحشة، وهي القانتة الناسكة المتعبّدة.

فجاء في القرآن استخدام عبارة ﴿جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ صالحة للدّلالة على المعنَيَيْنِ معاً، أي: قال الفريق الأول: لقد جئتِ شيئاً عجيباً مستَغْرباً، ونَحْنُ نعلم عفافَك وطهارَتَكِ. وقال الفريق الآخر: لقد جئت شيئاً عَجِيباً مستغرباً، أَنْ يقع مثْلُكِ في فاحشة الزنى، ومَعْلُومٌ أنَّكِ غير ذات زَوْج.

جواز استخدام اللّفظ بمعْنَيَيْن أو أكثر، إذا لم يكن بينها تعارض، هو ما ذهب إليه معظم علماء الأصول: «المالكية والشافعية والحنابلة».

أقول: وهو الذي تشْهَدُ له نصوصٌ قرآنية متعدّدة.

ثانياً:

الإطناب، وهو في اصطلاح البلاغيين، كوْنُ الكلام زائداً عمَّا يُمْكِنُ أنْ يُؤَدّىٰ به من المعاني في مُعْتاد الفصحاء، لفائدة تُقْصد، وهو ينْقِسم إلى قسمين: إطناب بالْبَسْط، وإطناب بالزّيادة.

وللإطناب بالزيادة (١٥) طريقة.

(١) ومنها طريقة: «التوكيد» بمؤكداتٍ لفظيّة، ومنها في السورة، ما حكاه الله عزّ وجلّ عن قول زكريا عليه السلام في ندائه لربّه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ... ﴿٤﴾﴾.

جاء في هذا الدُّعاء توكيد الخبر فيه بمؤكّدين: «إنَّ ـ والجملة الإسمية» مع أنّ الله عزّ وجلّ أعْلَم به من نفسه، فكيف يؤكد الخبر في دعائه لربّه.

أقول: لمّا كان الغرض من الخبر الذي اشتمل عليه الدعاء استعطافَ رَبّه واسْتِرْحامه، صحَّ أن يُؤَكّد زكريّا عليه السّلام شدّة اسْتِرْحَامه واسْتِعْطافِه رَبّه، فَهُو يُؤَكِّدُ الدُّعَاءَ المرادَ بعَرْض الخبر.

والاسترحام والاستعطاف هنا هو لازم الإخبار بأنّ عظْمَهُ قد وَهَن، وأنّ رأْسَهُ اشتعل شيباً، وفي الدُّعاء يحْسُن التوكيد، لأنّه بمثابة الإلحاح فيه.

(٢) ومن طرائق الإطناب: «وضع الاسم الظاهر موضع الضمير» لداعٍ أوْ أكثر من الدواعي البلاغية، ومن هذه الطريقة في السّورة، قول اللّهِ عزّ وجلّ بشأن النصارى الذين اختلفوا في حقيقة عيسَىٰ عليه السلام:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

كان الظاهر أن يُقَال: «لكنّهُمُ اليومَ في ضَلَالٍ مُبِين» لكنّ النَّصّ جاء على خلاف هذا، إذْ وُضِعَ الاسْمُ الظاهر: ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ بدَلَ الضمير. والداعي البلاغيّ الإعْلَامُ بأنّ الكافرين يَدْخلون في عموم الظالمين.

(٣) ومن طرائق الإطناب التوكيد بضمير الْفَصْل، ومنها في السُّورة، ما حكاه اللّهُ عزّ وجلّ عن قول أبي إبراهيم عليه السلام له:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ ... ﴿٤٦﴾﴾.

هذا تعبير قرآنيٌّ عمَّا قَالَهُ الأَبُ الوَثنيّ الكافر، لابْنِهِ النبيّ الرسول إبراهيم عليه السّلام.

لَقَدْ كان يَكْفِي أن يَقُول: «أراغبٌ عن آلِهَتِي يَا إبراهيم» من غير إضافة ضمير الفصل: «أَنْتَ».

ونَسْتَطيع أن نفهم أنّ هذا الإطناب الذي جاء في التعبير القرآني، له غَرضٌ بلاغي، وهو أنَّ الأبَ كان يُريد إشعارَ ابْنِه إبراهيم، بأنّ من المسْتَغرب منه وهو البارُّ الحريصُ علَىٰ برّ أبيه، أنْ يَرْغَبَ عن عبادةِ آلِهَتِه، ويَسْلُكَ سبيلاً أخر، أي: مثْلُكَ لَا يَفْعَلُ هذا.

(٤) ومن الإطناب بالْبَسْط، ما جاء في التعبير القرآنيّ حكايَةً لِقَول جبريلَ عليه السّلام للرَّسُول ﷺ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

كان يُغْنِي عن عبارة: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ عبارَةٌ أقْصَرُ مِنْهَا، لَيْسَ فيها هذا الْبَسْطُ الإطنابيّ، كأنْ يَقُول: «لَهُ ما في السَّمَاوات ومَا في الْأَرْض» أو عبارة نَحْوَها أَوْ أقْصَر منها.

لكِنَّ الداعِيَ الْبَلَاغِيَّ لهذا الإطناب، أنَّ هذا التفصيل في العبارة يُلائِمُ حَرَكَةَ التَّنَزُّل والصُّعُودِ وَسَائِرَ تَحَرُّكات الملائكة، وأَنَّ أوامِرَ اللَّه عزّ وجلَّ لَهُمْ تَشْمَلُ كلَّ حركةٍ يَقُومون بها، إذْ لَهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ كلُّ ما أمامهم، وكلُّ ما خَلْفَهُمْ، وكُلُّ مَا بَيْنَ ذَلِك، وهم لا يَمْلِكُونَ أنْ يتحَرَّكُوا حَرَكَةً في كُلِّ هٰذه المواقع إلّا بأمْرِه أو إِذْنِه.

ثالثاً:

ومما جاء في السورة من البلاغيات الْقَصْر لدواعٍ بلاغية أو فكريَّة، وهو تخصيصُ شيءٍ بشَيْءٍ بعبارةٍ كلاميَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْه.

ومن أمثلة القصْر في هذه السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لمقالة جبريل عليه السّلام للرسول محمّد ﷺ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ ... ﴿٦٤﴾﴾.

أي: وَمَا نَتَنزَّلُ نحن الملائكة حيناً فحيناً آخر، أو ثُمَّ حيناً آخر، بتَمَهُّلٍ وأَناة إلَّا بأمْرِ رَبّك.

في هٰذه العبارة قصْرٌ لِتَنَزُّلِ الملائكة من مواقعها في السَّماوات إلى الأرض علىٰ أحوال تَوجيه الأمْر بالتَّنزُّلِ، فَهُمْ بسَبَبِه يَتَنَزَّلُون.

وهذا قَصْرٌ حقيقيّ، لأنّ الملائكة لا يَعْصُون الله ما أَمَرَهم، وهم يفْعَلُونَ ما يأمُرُهم به.

وهو من قَصْرِ مَوْصُوف وهو «تَنزُّلُهُمْ» على صفةٍ، وهِيَ الأمْرُ الرَّبَّانِيُّ لهم.

وأداة القَصْر هنا: «النفي» و«الاستثناء».

(٢) قول الله عزّ وجلّ خِطاباً للنَّاسِ بشَأْنِ جَهنَّمَ:

﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾﴾.

أي: وما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ يا أيُّها النّاس إلّا واردٌ جهنَّمَ وُرُودَ دُخُولٍ، أو وُرُودَ إشرافٍ بمُرُوره على الصراط المضروب على مَتْنِها.

وهو قَصْرٌ إضَافي، أي: وما أَحَدٌ منكُمْ أيّها الناس إلّا لَهُ صفة الورود علىٰ جهنَّمَ يوم الدّين.

وهو من قَصْرِ موصوفٍ على صفة هي صفة الورود على جَهَنَّم، بالإضافَة إلى صفةِ عدم الورود عليها، لا بملاحظة كلّ ما يمكن أنْ يُتَصَوَّرَ مِنْ صفات للناس.

وأداة القصر هنا النفيُ بـ«إنْ» والاستثناء بـ«إلّا».

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾.

في هذه العبارة قَصْرُ كلِّ مَنْ في السَّماوات والأرض، على أنّه سَوْف يأتي يوم القيامة الرَّحْمٰنَ عبداً معترفاً بِعُبُودِيّتِهِ له.

وهو قَصْرٌ إضافي، أيْ: بالإضافة إلى ما يخالف العبوديَّة لله، وهو من قصر موصوف على صفة.

وأداة الْقَصر هنا النفيُ بـ«إنْ» والاستثناء بـ«إلّا».

(٤) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله بشأن القرآن؛

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾﴾.

في عبارة: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ قَصْرُ تَيْسِير القرآن على كونه بلسان محمّد ﷺ، وهي العربيَّة الفصيحة.

وهو قصرٌ إضافيّ، أي: بالإضافة إلى الألْسِنَة الأخرى غير العربية، وهو من قَصْرِ موصُوفٍ على صفة.

وأداة القصر هنا: «إنَّما» الّتي تنحَلُّ في معناها إلى نفي واستثناء.

رابعاً:

وممّا جاء في السورة من بلاغيّات، خرُوجُ الاستفهام عن أصْل دلالته، الّتي هي طلبُ الإفْهَام والإعلام إلى معانٍ أخرى، ما يلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾﴾.

الاستفهام في: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ لَيْسَ لطَلَبِ الإفْهام، بل هو هنا مستَعْمَلٌ مجازاً للإعْلَام بالمستَفْهَمِ عنه.

أي: اعلَمْ أيُّها المتَلقِّي الصالح لمثْلِ هذا الخطاب أنَّا أَرْسَلْنا بسُلْطَانِ الرُّبُوبيَّة العامِّ، وبمقتضىٰ النظام العامّ للخلائق، الشياطين على الكافرين تَؤُزُّهم أزّاً، أي: تُغْرِيهم وتُهَيِّجُهم، وتُؤَجّجُ نيرانَ غضبهم، لمقاومة دعوة الحقّ الرَّبّانيَّة، واضطهاد أنْصَارِها، والعاملين على نَشْرِها (انظر تدبُّر الآية في موضعها من السورة).

خامساً:

وممّا جاء في السورة من بلاغيات: **«الاستعارة»** وهي في اصطلاح البلاغيين: استعمال لفظ ما في غيْرِ ما وُضِعَ له في اصطلاح بِهِ التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب.

ومن أمثلة الاستعارة في سورة (مريم) حكاية اللَّهِ عزّ وجلَّ لقول زَكَرِيَّا عليه السلام، إذ جاء فيها:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ... ﴿٤﴾﴾.

في عبارة: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارةٌ أصلُها تشبيهُ انتشار الشيْبِ في شَعْر الرَّأس، باشتعال النار في الهشيم، وقد اسْتُعِيرَ فعل: «اشْتَعَلَ» للدّلالة على معنى فعل «انْتَشَرَ» مع إضافة صورة متخيَّلَة مأخُوذَة من لَهَب النار.

(ينظر باقي الكلام في تدبر الآية عند موضعها من السورة).

سادساً:

وممَّا جاء في السورة من بلاغيّات: **«الالتفات»** وهو من أنواع «الخروج عن مقتضىٰ الظاهر» عند علماء المعاني.

وهو في اصطلاح البلاغيّين: التحويلُ في التعبير الكلاميّ من اتّجاه إلى آخر من جهات أو طرُق الكلام الثلاث «التكلّم - والخطاب - والغيبة»

مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفْقَ الطريقة المختارة أوّلاً، دون التحوُّل عنها.

أقول: وهو أحَدُ فُنُون الحركة البديعة في أساليب البيان القائمة على المفاجأة في الحديث، دون مُقَدّمات تُشعِر بالتحوّل. ومن تأثيراتِه شدّ انتباه المتلَقّي بقُوَّة، وإيقاظُهُ من الغفلة.

ومن أمثلَتِهِ ما في قول الله عزّ وجلّ في هذه السورة:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾.

مقتضىٰ الظاهر أن يُقَال: «لقَدْ جاءُوا شَيْئاً إدّاً» فَعُدِلَ عن الغيبة إلى الخطاب بحركة مفاجئة، لتثريب أصحاب مقالة: «اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً» وقَرْعِهِم بمقْرَعَةِ التوبيخ.

﴿إِدًّا﴾: أي: شيئاً مُنْكراً شديدَ النَّكَارَةِ والشناعة ومصادمة الحقّ، فمن شِدَّةِ شناعَتِه لا تتحمَّل النفوس السّويَّة شدّة وقعه.

سابعاً:

ومن الفنون البلاغيّة الرائعة: تقديمُ النّصّ اقتطاعاً من الحدَث الماضي، أو من الحدَثِ المستَقْبَلِيّ الّذي سيَحْدث، أو سوف يحدُث، لإحضار الصُّورة نَفْسِها مُفَاجأةً، كأنّ الحدَث يجْري مع الخطاب البيانيّ عنه.

وهذا الْفَنّ هو من بدائع القرآن البيانيّة، الّتي لم يَعْرِفْهَا الْبُلَغَاء من قَبْل القرآن المجيد.

ومنه في السورة، قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾.

وقول الله عزّ وجل:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ... ⑫﴾.

ثامناً:

ومن الفنون البلاغيّة: «الكنايَة». وهي في اصطلاح البلاغيين: اللّفظ المستعملُ فيما وُضِعَ له في اصْطلاح التخاطب، للدَّلالَة بِه على معنىً آخر لازم له، أو مصاحبٍ له، أو يُشَارُ به عادة إليه، لما بيْنَهما من الملابَسَةِ بِوَجْهٍ من الْوُجُوه.

وممّا جاء في السّورة من هذا الفنّ البلاغي ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل بشأن الكافرين، حينما يأتون لحساب ربّهم يوم الدين:

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ㊳﴾.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾: أي: ما أشَدَّ سَمْعَهم وما أشدَّ بَصَرَهُمْ يومئذٍ.

وفي مقابل كوْنِهم شديدي الأسْمَاع والأبصار في موقف حسابهم يوم الدّين، جاء في الآية التعبيرُ عن كونهم صُمًّا وعُمْياً في الحيَاة الدُّنيا عن الحق والخير والهُدَىٰ، بعبارة: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فدلَّت هذه العبارةُ بأسْلُوب الكناية وعن طَريق لوازمها الفكريَّة، على كونهم صُمًّا وعُمْياً، فَمَنْ كان في ضلالٍ مبين لا بُدَّ أَنْ يكُونَ أصَمَّ أعْمَىٰ عن صراط هدايته ونجاته وتخلُّصِه من ضلاله المبين.

والمرادُ: الصَّمَمُ عمَّا يَهْدِيهم إلى الحقّ والصّراط المستقيم، والْعَمَىٰ عن رُؤيَةِ الحقّ والصراط المستقيم ببصائرهم، فهُمَا صَمَمٌ وعَمًى قَلْبِيَّان.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن جهنّم:

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ㊰﴾.

﴿صِلِيًّا﴾: أي: احتراقاً بلَهَبِها.

أي: لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالّذِينَ هم أولَىٰ بجهَنَّم احتراقاً بنارها. وقد دلّت هذه العبارة عن طريق الكنايَةِ بمُلَاحظة اللّوازم الفكرية، على أنّ اللَّهَ العزيز القهّار سوف يكُبُّ هؤلَاءِ في جَهنَّم، ويُوصِلُهم إلى الدَّركَاتِ الّتي يسْتَحِقُّون فيها عذاب الْحَريق، لأنّ عِلْمَ الله بالّذِينَ هم أوْلَىٰ بها صِلِيًّا ضمْنَ مجاري عَدْلِهِ الحكيم يوْمَ الدّين، يَسْتَلْزِمُ أنْ يَكُبَّهُمْ فِي جَهَنَّمَ ليحترقوا بلَهَب نيرانها.

تاسعاً:

ومن الفنون البلاغيّة النفيسة، ما يُسَمَّىٰ عند البلاغيّين: «**المجاز المرسل**»: وهو المجاز الذي تكون العلاقة فيه بيْنَ المعنىٰ الحقيقيّ والمعنى المجازيّ الّذي استُعْمِل اللّفظ للدّلالة به عليه أمراً غير المشابهة، أو قائماً على التوسُّع على اللُّغَة دون ضابط معيّن.

وقد جاء في السورة من هذا الفنّ النفيس ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن الّذِينَ كَفَرُوا:

﴿... فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾.

أي: فَعذَابٌ للّذِينَ كَفرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عظيم، هو يَوْم الدّين. أُطْلِقَ في هذه العبارة «مَشْهَدُ يومٍ عظيم» أي: حضورُه، وأريد بِهِ مَا يَحْصُل في ذَلِكَ اليوم من أنواع عذابٍ للكافرين، وأُطْلِقَ لفظ: «يوم» وهو ظرف زمان علَىٰ المكان الذي يجري فيه ذلك الزمان. والعلاقة في الإطلاق الأوّل: «الحاليّة والمحلّيّة». والعلاقة في الإطلاق الثاني: «الاقتران».

والعبارة كلُّها بوجْهٍ عامّ من الكنايات، إذ جاء فيها إطلاقُ الحدَثِ، وهو «الشهود» على ما يلْزَمُ عنه من أمورٍ وأحداثٍ أخرىٰ، أو عمّا يقترنُ به.

(٢) قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن الذين جاءوا بعد الأنبياء والرُّسل السَّابقين، من ذراريهم، ومن ذراري أتباعهم:

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾.

«**الغَيّ**»: يَأتي في اللُّغة بمعنى: الضلال، وبمعنَىٰ الفساد، وبمعنىٰ الخيْبة، وعلى هذا المعنى الأخير ليس في العبارة مجاز.

لكن على مَعْنَيَيْ: الضلال، والفساد، نُلاحظ أنّه أطْلِقَ الغيُّ وأُرِيدَ بِهِ جزاءُ الغَيّ، وهذا من المجاز المرسل، وعلاقته: «السّببيَّة والمسَبَّبِيَّة».

فالغيُّ سببٌ، والعذابُ مُسَبَّبٌ عنه.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ﴿٦١﴾﴾.

أطْلِقَ الْوَعْدُ في هٰذه الآيَةِ وأُرِيد به الموعُودُ به، وهذا من إطلاق السبب وإرادة المسبّب، فهو من المجاز المرسل.

(٤) قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ ... ﴿٧٥﴾﴾.

أُطْلقَتْ في هٰذه الآيَةِ عبارةُ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ طلباً من الله، والمراد بها التهديدُ والتحذير، والوعيد بسُوء المصير لمن كان في الضلالة، وهذا الإِخراج للفظ عن أَصْل دلالته من المجاز المرسل.

(راجع تدبّر النصّ في موضعه من السورة).

عاشراً:

ومن الفنون البلاغيّة التي جاءت في السُّورة مَا يُسَمَّىٰ عند البلاغيّين: «المجاز العقلي» وهو إسناد المتكلم الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاده، لملابَسَةٍ بَيْنهما، مع قرينَةٍ صارفة.

إذْ قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

جاء في الآية (٩٠) من هذا النّصّ إسناد أفعال: «تَكَادُ - يَتَفَطَّرْنَ - تَنْشَقّ - تَخِرُّ» إلى غير الفاعل الحقيقي، على طريقة المجاز العقلي.

والذي نَفْهَمُه من النَّصّ ما يلي:

تكادُ إرادة الله عزّ وجلّ تُفَطِّرُ السَّمَاواتِ فيَتَفَطّرنَ، وتُشَقِّقُ الأرضَ فَتَنْشَقُّ، وتُكسِّرُ الجبالَ فتَخِرُّ هَدّاً، غَضَباً علَىٰ مَنْ زعمَ أنَّ الله سبحانَهُ اتَّخذ ولَداً.

وعلاقة المجاز العقلّي هنا أنّ هذه الأشياء محَلٌّ تنفيذ إرادة الله بالتفطير والتشقيق، والخرور، لو شاء ذلك.

لكنّ الله عزّ وجلّ لم يشأ ذلك، بلْ كادَتْ مشيئته تتحقق، لولا أنّ رَحْمَتَه سبقَتْ غضبه، وأنّ حِكْمَتَهُ السَّنيَّة قَدْ قَضَتْ بإمْهالِ أصْحاب هٰذه الفِرْيَةِ عَلَيْهِ من عباده.

حادي عشر:

ومن الفنون البلاغية المستعذبة، اختيار البدائل من الألفاظ مُراعاةً لمَا هو أكثر وقعاً في الأسماع، وتأثيراً في النفوس، ومن هذا الفنّ في السورة، ما في قول الله عزّ وجلّ:

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

جاء في هذه الآية استعمالُ فعل: «يَتَفَطَّرْنَ» بالنسبةِ إلَىٰ السماوات، واستعمال فعل: «تَنْشَقُّ» بالنسبة إلى الأرض، معَ أنّ معْنَىٰ الفِعْلَيْن واحد، والغرض من هذا الاختيار استبعادُ التكرار في اللّفظ، إذ التكرار غير

مستحبٌّ في الأسماع، مع ما في هذا الاختيار من تفنُّنٍ بديعٍ في التعبير.

وأكتفي بهذا القدر مشيراً إلى أنّ كتاب الله لا تَنْتَهي عجائبُهُ مهما اجتَهَدَ المنَقِّبُون في استخراجها من بَحْرِه العظيم.

* * *

(٢٣)

الملحق الثاني
جنَاتُ عَدْنٍ ومستَحِقُّوها في دَلالَاتِ النُّصُوص القرآنية

المقدمة:

جاء في القرآن المجيد (١١) نصًّا، فيها ذِكْرُ جنَّاتِ عَدْنٍ، مع بعض وصْف لنعيم أهلها فيها، ودَلَالَاتٍ على مسْتَحِقِّيها من المؤمنين، ومعنى «جَنَّاتِ عَدْنٍ» جنَّاتُ ثَباتٍ واستقرارٍ دائم.

ولاكتشاف مُسْتَحِقّيها أخذاً مِنْ دَلَالَاتِ النُّصُوص القرآنيّة، يقْتَضِي الْبَحثُ الْعِلْمِيُّ منّا دِرَاسَةَ هٰذِهِ النُّصُوصِ بإمعان، لِنَعْرفَ هل هذا الوصف «جَنَّاتُ عَدْنٍ» وصْفٌ عامٌّ لكُلِّ دَرجَاتِ الجنَّةِ، من أدْناها حتَّىٰ أعْلاها في الفِرْدَوس الأعلى، أمْ هي في دَرَجَاتٍ مُتَوسطاتٍ فَوْقَ الدَّرَجَاتِ الدُّنيا، ودُونَ الدَّرَجَاتِ العليا، وأهْلُ جِنَّاتِ عَدْنٍ هم من المتفوِّقين في دَرجَاتِ مَرَاتِبِ المؤمنين، أم غَيْرُ ذلك.

فإلى دِراسَةِ النُّصُوص القرآنيَّة الوارِدَةِ حَوْلَ هذا الموضوع، وفْقَ ترتيب نُزُولِ سُوَرِها:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (صٓ/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ (٥١) ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (٥٤)﴾.

سبَقَ تَدَبُّر هذا النّصّ في موضعه من سورة (ص) وكنْتُ رأيْتُ هُنَاك أنَّ عُنوان «جَنَّاتِ عَدْنٍ» عنوانٌ صالح التطبيق على كلّ دَرجات المتقين، من أدناها إلىٰ أعْلَاها، أخْذاً مِنْ عُموم دَلَالَةِ عبارَة: [وَإِنَّ للمتَّقِين لَحُسْنَ مَآبٍ] في هذا النصّ، لكن بهذه الدراسة الشاملة اختلف رأيي.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٞ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٞ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤْلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٞ (٣٣)﴾.

وقَدْ سبَقَ تَدَبُّر هٰذا النصّ في موضعه من سورة (فاطر) وكُنْتُ رأيْتُ هُنَاكَ أنَّ عُنْوَانَ: «جنات عَدْن» عُنوانٌ خاصٌّ بمنازِلَ رفيعة من عُمُوم الجنَّة، وهو للسَّابقينَ بفِعْل الخيرات، بدَليل أنَّ أهْلَ جنَّاتِ عَدْنٍ يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أساور من ذهب.

أمّا غير السَّابقين بفِعْلِ الخيراتِ فقد جاء في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بيان أنَّهُمْ يُحَلَّوْنَ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ، فقال اللّٰهُ عزّ وجلّ فيا بشأنِهِمْ:

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٞ وَإِسْتَبْرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابٗا طَهُورًا (٢١)﴾.

وجاء توكيدُ أنَّ السَّابِقِينَ بالْخَيْرَاتِ يُحَلَّوْنَ في الجنَّة من أساوِرَ من ذهب فيما يلي:

(١) في الآية (٣١) من سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول).

(٢) وفي الآية (٢٣) من سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول).

ومعلومٌ أنّ أساور الذَّهبِ أرْفَعُ قيمةً مِن أساور الفضّة، ولمّا كانت أساور الذَّهب موصُوفَةً بأنَّها لأهْلِ جنَّاتِ عَدْنٍ، وكانَ آخرون في الجنَّة يُحَلَّوْنَ بأساوِرَ مِنْ فِضَّة، كانَ هذا التفريق دَالًّا علَىٰ أَنَّ **«جنَّاتِ عَدْنٍ»** ذَوَاتُ دَرَجَاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ، ودُونَها في عُمُوم الْجَنَّةِ دَرجاتٌ أُخْرَىٰ لِغَيْرِ السَّابِقين بفِعْلِ الخيرات.

النصّ الثالث:

قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدَبُّر هٰذا النَّصّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَةِ (فاطر) وكُنْتُ رَأيْتُ هُنَاكَ أنَّ جنَّاتِ عَدْنٍ يُورِثُها اللّهُ من عبادِه مَنْ كان بَالغاً الدَّرجاتِ الْعاليَاتِ في مَرْتَبةِ التَّقْوىٰ، أخْذاً من عِبارَةِ: ﴿مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ لأنّ لفظ «تَقِيّ» على وزْنِ «فَعِيل» هو من صِيَغِ المبالغة، وهذا اللفظ لَا يَنْطَبِقُ على المؤمنين العاديّينَ، الَّذِينَ لم يَرْتَقُوا في الدَّرجاتِ الْعَاليَاتِ مِنْ مَرْتَبَةِ التَّقْوى، بلْ هُو خاصٌّ بفِئَةٍ خاصَّةٍ من المتقين، ذَوِي الدّرَجاتِ الرَّفيعات.

النصّ الرابع:

قول اللّهِ عزّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: ومَنْ يأتِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْصُوفاً عِنْدَ رَبِّه بأنَّهُ كَانَ مؤمِناً صادق الإيمانِ في الحياة الدنيا، قد عَمِلَ الصَّالحاتِ، أي: على اختلاف أنواعها وأشكالها، الظاهرة والباطنة، وهذا يَنْطَبقُ على مَنْ كان «تَقِيّاً» أي: بَالغاً الدَّرَجاتِ الرَّفيعات من دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ التقوى.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾: أي: الدَّرجات الْعُلَا فِي دَرَجاتِ الجنَّةِ دَارِ نَعِيم المؤمنين.

وجاء تَفْسِيرُ هذه الدَّرَجاتِ الْعُلَا بِقَوْلِهِ تَعَالى:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: فدَلَّ هٰذا البيانُ على أنَّ جنَّاتِ عَدْنٍ، تَقَعُ في دَرَجاتِ عُلَا من عُمُومِ الجنَّةِ، وهي خاصَّةٌ بالسَّابقين في فِعْلِ الخيرات.

ويُؤَكِّدُ هذا قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في آخر النصّ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾: أيْ: جزاءُ مَنْ تَطَهَّرَ مِنْ أَرْجَاسِ المعاصِي والآثام، بوَسِيلَةٍ من وسَائِلِ التَّطْهِير، كالتَّوبة والاستغفار، وكالحجّ الْمَبْرُور، وكالاسْتِشْهَادِ في سَبيلِ الله.

النّص الخامس:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩)﴾.

فدَلَّ هذا النصّ على أن الملائكة حَمَلَة العرش، والملائكِةَ من حوله

يدعُونَ رَبَّهُمْ أن يَغْفِر لِلّذِين تَابُوا من ذنوبِهم ومعاصيهم، واتَّبَعُوا سَبِيل رَبّهم بَعْدَ تَوْبتهم، أَنْ يقيَهُمْ عذابَ الْجَحِيم الّذِي استحقُّوهُ قَبْلَ أن يتوبُوا، وأنْ يَرْفَعَ دَرجَاتِهِمْ في الجنَّةِ فَيُدْخِلَهُمْ «جنَّاتِ عَدْنٍ» ويُدْخِلَ مَعَهُمْ إكراماً لَهُمْ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم، أي: ولَوْ لَمْ يكونوا بأعمالِهِم الخاصَّةِ من مُسْتَحِقي «جَنَّاتِ عَدْنٍ». وجاء في هذا النَّصّ دُعَاءُ الملائكة لهم بأنْ يَقِيَهُم اللَّهُ العِقابَ على السَّيِّئَاتِ الَّتي ارْتَكَبوها.

فما جاء في هذا النَّصّ يُؤَكِّدُ أنَّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» هي في دَرَجَاتٍ عالياتٍ مِنْ عُمُومِ الجنَّة، وأنَّ مُسْتحقّيها هُمْ كُلُّ «تقِيٍّ» ارْتَفَعَتْ مَنْزِلَتُهُ بما قَدَّمَ مِنْ كَسْبٍ صالحٍ في دَرَجَاتِ التَّقْوىٰ الكامِلَةِ، وهذا يكون في الغالب من السَّابقين - ولو بِبَعْضِ الخيرات - في بَعْضِ درجات البرّ، أو بعض درجات الإحسان.

النصّ السّادس:

قول الله عزّ وجل في سورة (الكَهْف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿مِّن سُندُسٍ﴾: أي: من نوعٍ من الثياب الرَّقيقة الناعمة المنْسُوجة من الحرير، وهي من أصناف الدِّيباج.

﴿ثِيَابًا﴾: أي: ومن نوع من الثياب الغليظة المنسوجة من الحرير أيضاً، وهي من أصناف الدّيباج أيضاً.

فدَلّ هذا النصّ على أنّ أهْلَ «جنَّاتِ عَدْنٍ» يُحَلَّوْنَ فيها من أساوِرَ

من ذَهب، بخلاف أهل درجاتٍ أدْنَىٰ في الجنَّة، فقد جاء أنَّهُمْ يُحَلَّوْن أَسَاوِر من فضَّة، وجاء في هذا النَّصّ بَيَانُ أنّ مستَحِقّيها بفضل الله هم الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات المتعدّداتِ، وكانوا مِمَّنْ أَحْسَنُوا عَمَلاً، أي: مِمَّنْ لَهُمْ بَعْضُ أعْمالٍ هي من دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ المحسنين، فارْتَقوا بها، حتَّىٰ صَارُوا مِنْ مُسْتَحِقّي «جَنَّاتِ عِدْنٍ».

وهذا النصّ يُؤَكّدُ أنَّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» هي في دَرَجَات عالِيَاتٍ من عُموم الجنّة، وأنَّ مُسْتَحِقِيهَا هُمْ كُلُّ «تَقِيٍّ» أو كانَ لَهُ تَعوِيضَاتٌ عن تَقْصِيراته في مَرْتَبةِ التقوى، وهذه التعويضات هي أعمال صالحة من دَرَجات مَرْتَبَةِ الإحسان، أو من درجات مرتبة البرّ.

النصّ السابع:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾:

أي: ويقالُ للّذِينَ اتَّقوا بَعْدَ أنْ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكَةُ طَيّبينَ: مَاذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ من بياناتِ دِينهِ لعباده على مُحمَّدٍ رسُول اللَّهِ إليكم؟. قالُوا: أنْزل خيراً وآمَنَّا به واتَّبعناه.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: دَلَّتْ هٰذِهِ العبارة علَىٰ أنَّ هؤلاء كانوا في الحياة الدُّنيا، من الذين لهم أعمال صالحات من دَرَجاتِ مَرْتَبةِ الإحسان، فَلَهُمْ في الدُّنيا من اللَّهِ حسَنَةٌ تَسُرُّهم وتُسْعِدُهم.

﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾: أي: خَيْرٌ مِنْ كلّ ما في الدّنيا من حسناتٍ مُسْعِدات.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: أي: ومَدْحٌ عظيم فائق لِدَارِ المؤمنين المتقين، كاملي التقوىٰ، بفِعْل كلّ الواجبات وتَرْكِ كُلّ المحرمات، أو مُكْتَسِبي حُقُوقِها، بالتعويضات عن التقصيرات والمخالفات، بأَعْمَالٍ هي من حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، أو حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان، أو بالتوبَةِ والاستِغْفَارِ، والأعمال التي هي مُكفرّاتٌ وَمَاحياتٌ للسّيئات.

ودَارُ كاملي التقوىٰ هي: «جَنَّاتُ عَدْنٍ».

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي: ومِثْلُ جزاء المتقين من أُمَّةِ مُحمَّدٍ يَجْزِي اللَّهُ كامِلِي التَّقْوىٰ، مِنْ كُلّ أُمَّةٍ رَبَّانِيَّة من أتباع الرُّسلِ قَبْلَ بِعْثَةِ محمَّدٍ، وَوُصُولِ بَلَاغاتِ رِسالَتِهِ الْخَاتِمة للموضعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

هذا النصُّ يتفِقُ في إيحاءات دَلَالَاته مع النُّصُوصِ المبيِّنَة أن **«جنّاتِ عَدْنٍ»** تَقَعُ في دَرَجاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ في عُمُوم الجنَّة.

النصّ الثامن:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الرَّعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

نجد في هذا النصّ أنّ من صفاتِ الموعُودينَ بِدُخول «**جَنَّاتِ عَدْنٍ**» مَا هُوَ مِنْ حُقُوق «مَرْتَبَةِ التَّقْوى» كالْوَفاء بعَهْدِ الله، وعَدَم نَقْضِ الميثاق، وَوَصْل ما أمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصل، وإقامَةِ الصَّلاةِ المفروضة، وخَوْفِهِمْ من سُوءِ الحساب.

ونجد فيه من صفاتِهِمْ مَا هو من حقوق «مَرْتَبَةِ الْبِرّ» أو حقوق «مَرْتَبَةِ الإحْسَان» وهي أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ إجلالاً وتعظيماً وحُبًّا وخوفاً. وأنَّهُمْ صَبَرُوا ابْتِغاء وَجْهِ رَبّهم، وأَنَّهُمْ أَنْفقُوا ممَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ سِرًّا وعَلانية، وأَنَّهُمْ يَدْرَؤونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئَة، ومَعْلُومٌ أنَّ حُقُوق مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ لَا تَمْنَعُ مِنْ مَقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بمِثْلِهَا ضِمْنَ قواعِدِ الْعَدْل.

إنّ هٰذه الصِّفاتِ الرَّفيَعاتِ الدَّرَجاتِ، قَدْ كُوفِئَتْ بِدُخولِ «جَنَّاتِ عَدْن» فَدَلَّ هذا أنَّ «جنّاتِ عَدْن» يسْتَحِقُّها المرْتَقُون في دَرَجاتِ الأعمال الصالحات، والسَّابِقُون بالخيراتِ بإذن الله.

وهذا يُؤَكِّدُ ما دَلَتْ عليه معظم النصوص السابقة دلالات واضحات.

النصّ التاسع:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (البيّنة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾:

إنَّ وَصْفَ هؤلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بأَنَّهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّة، مع الإشارة إلَيْهِم بارْتفاع مَنْزِلَتِهم بعبارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وَوَصْفِهم بأَنَّهُمْ رضي اللَّهُ عَنْهُمْ ورضُوا عَنْه، يَدُلُّ علَىٰ أَنَّهُمْ آمَنُوا إيماناً صحيحاً كاملاً صادِقاً، وأَنَّهُمْ عَمِلُوا كُلَّ الصَّالِحات المطْلُوبَةِ مِنْهم إلزاماً، ونفهم أنَّ عَمَلِهِمْ كُلَّ

الصَّالحات يَلْزَمُ عَنْهُ عقلاً تَرْكُهُمْ لِكُلّ المحرَّمات، لأنّ التَّرْكَ الإراديّ هو أيضاً من الأعمال الصالحة، فهم إذنْ من أهل كمال التقوىٰ.

ولهذا استَحقُّوا أن يَكُونُوا مِنْ أهل جَنَّاتِ عَدْن، وهذا يَنْسَجِمُ مع دلَالات النُّصُوص المبيّنَةِ أن «جَنَّاتِ عَدْنٍ» تَقَعُ في درجاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ مِنْ دَرَجَاتِ الجنّة.

النصّ العاشر:

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الصَّفّ/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (١٠) تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١١) يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٢) وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٣)﴾.

إنَّ الجهاد في سبيل الله بالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ لَيْسَ مِنْ حُقُوقِ «مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ» إلَّا أنْ يأمُرَ بِهِ الرَّسُول أو قائد المسلمين أمْراً إلْزاميًّا، بَلْ هو من حُقوق «مَرْتَبَةِ الْبِرّ» أو «مَرْتَبَةِ الإحْسَان».

وقد جاء الوعْدُ في هذا النصّ للمجاهدينَ في سبيل اللَّهِ بأموالهم وأنفُسِهم، بأنْ يُدْخِلَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ مَساكِنَ طيّبَةً في «جَنَّاتِ عَدْنٍ» فَدَلَّ هَذا على أنّ دَرَجات «جَنَاتِ عَدْنٍ» دَرَجاتٌ مُرْتِقّيات في عموم الجنّة.

وهٰذا يَنْسَجِمُ مَعَ دَلَالَات النُّصُوص السابقة الّتي دَلَّت علىٰ أنّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» تَقَعُ فِي دَرَجات مُرْتَفِعَاتٍ مِنْ دَرَجَاتِ الجنَّة.

النص الحادي عشر:

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٧١) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٧٢)﴾.

في هذا النّصّ بيانُ أنَّ المذكُورين من المؤمنين والمؤمِناتِ المسْتحِقّين مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي «جَنَّاتِ عَدْن» من صِفَاتِهم ما يلي:

(١) بَعْضَهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ، أي: مُتَعَاوِنُونَ مُتَنَاصِرُونَ مُتَوادُّون، وهذه الوِلَايَةُ في مسْتَوَاهَا الأعْلَىٰ، بَعْضُها مِنْ عُلْيا دَرجات «مَرْتَبَةِ المتقين» وَبَعْضُهَا مِن دَرجات: «مَرْتَبَةِ الْأَبْرَار» وبَعْضُها من دَرجات «مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين».

(٢) أنهم يَأْمُرُونَ بالْمعْرُوف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر، أي: يُكَرِّرُونَ هذه الوظيفَةَ الاجتماعية، داخِلَ المجتمع المسلم، وهي من وظائفِ كامِلي التقوىٰ، ومن وظائف الأبرار والمحسنين.

(٣) أَنَّهُمْ يُقيمُونَ الصَّلاة المفروضَة، وهذه من أعمالِ كامِلِي التقوى.

(٤) أنّهم يُؤْتُونَ الزَّكاة المفروضَةَ عليهم، وهذه من أعمال كامِلي التقوى.

(٥) أَنَّهُمْ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وهذه الطاعَةُ المتكَرِّرَةُ، مع كُلِّ مأمُورٍ به ومنهيٍّ عنْهُ، من أعمال كاملي التقوى.

هذه الصفات تُمَثِّلُ دَرَجاتٍ عالِيَاتٍ من صالحات الأعمال، ويُلائِمُها دَرَجاتٌ عُلْيا مِنْ دَرَجاتِ الجنَّة.

فجاء في الْوَعْدِ أنَّ اللَّهَ سَوْف يُسْكِنُهُمْ مَساكِنَ طَيِّبَةً في «جَنَّاتِ عَدْن».

وقد دَلَّ هذا على أنّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» تَقَعُ في دَرَجاتٍ عُلَا من دَرَجاتِ الجنَّةِ، ودُونَها دَرجاتٌ لِمَنْ هُمْ دُونَهُمْ فيما كَسَبُوا مِنْ أعْمَالٍ صَالحاتٍ في الحياة الدُّنيا.

يُضَاف إلى صفاتهم، أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَ أشارَ إلى ارتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ فيما قَدَّمُوا من أعمالٍ صَالحاتٍ باسْمِ الإشارة الموضوع للمشارِ إلَيْهم الْبَعِيدِين، فقال تعالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾.

خاتمة:

من هذا الاستقراء للنُّصُوص القرآنيّة الّتي جَاء فيها ذِكْرُ **«جَنَّاتِ عَدْن»** مع التأمُّلِ الدَّقيق في مَعَانيها، ظَهَرَ لي أنَّ عُنْوَانَ **«جَنَّاتِ عَدْنٍ»** عُنوانٌ خَاصٌّ بِدَجَاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ عُلَا في عُمُومِ الجنَّة.

وظَهَرَ لِي أَنّ مُسْتَحِقِّيها هُمْ مَنْ بَلَغُوا سَقْفَ مَرْتَبَةِ المتَّقِين، أَوْ قَرِيباً مِنْهُ، أو ارْتَقَوْا فوقَ سَقْفِ مَرتَبَةِ المتقين، وعَمِلُوا أعْمَالاً صالحاتٍ هِيَ مِنْ دَرَجَاتِ **«مَرْتَبَةِ الأَبْرَار»** أو مِنْ دَرجات **«مَرْتَبَةِ المحسنين»** أعْلَىٰ المراتب واسْمَاها.

وبناء على هذا فيَنْبَغِي تَعْدِيلُ مَا جاء في تَدَبُّر النّصّ الأوَّلِ الذي من سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول): إذْ كُنْتُ رَأَيْتُ فِيهِ أَنَّ عُنْوَانَ **«جَنَّاتِ عَدْنٍ»** عُنْوانٌ صَالِحُ التطبيق على كلّ دَرَجاتِ المتقين مِنْ أدْنَاها إلىٰ أعْلَاها، أخذاً مِنْ عُموم دَلَالَةِ عبارَةِ ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ وهذا من التعجُلِ في فَهْمِ النَّصِّ على ظاهره، وكانَ عَلَيَّ أَنْ اسْتَقْرِئَ النُّصُوص، كما فَعَلْتُ في هذا المَلْحَق، لِأَصِلَ إلى الْفَهْمِ الصواب، مُنْذُ دِراسَةِ أوّلِ نصّ جاء فيه عنوانُ «جَنَّاتِ عَدْن».

هذا اسْتِدْرَاكٌ أُسَجِّلُهُ على نَفْسِي، لِيَكُونَ المتدبِّرُون لكتَابِ الله على حَذَرٍ مِنَ التَّعَجُّل، وتَقْدِيم المفهومات غَيْرِ الْمُطَابَقَةِ للمراد من النصّ القرآني، الّذي يَدُلُّ عَلَيْه جَمْعُ النُّصُوص وتَدَبُّرها مُجْتَمِعَةً حَوْل مَوْضوعٍ واحد.

وبهذا انتهىٰ هذا الملحق، والحمْدُ للَّهِ على ما تفضَّل بِهِ عليّ.

* * *

خاتمة المجلد السابع

بمعونة من رَبّي الجليلِ الوهّاب، وبمدَدٍ وتوفيق منه ـ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه ووسِعَتْ رحمته كلَّ شيء ـ أتمَّ ربّي لي بأسبابه وألطافه الخفيّة تحبير هذا المجلّد السابع، وأنا على سرير المرض، أُعَانِي من آثار عمليّة جراحيَّةٍ كبيرة وخطيرة ومُوجِعَة، مع شيخوختي، وكبر سِنّي، وضعف جسْمِي.

لقد كنت ألتقط الساعات الّتي أستطيع أن أعمل فيها التقاطاً، من الزّمن الذي أكون فيه طريحاً على فراشي أو على البساط، في توجّع أو سبات.

وكنت ألجأ إلى الله بالدُّعاء أن يُعِينني ويُمدّني بمدده، فأجِدُ نَفْسِي معاناً إعانَةً عجيبة، أعمل في الساعة ما يَعْمَلُ الصحيح السليم في السَّاعَاتِ ذوات العدد.

رَبِّ زدْني من مَدَدِك وفيض عطائك، واحفظني وأسرتي وكلّ من أحبّ وسائر المسلمين المؤمنين.

رَبِّ وأوزعني أن أشكر فضلَكَ عليّ وعلى أسْرَتي، بالمجاهدة المتواصلة حتى آخر نفسٍ من أنفاسي في الحياة الدنيا، في خدمة كتابك، وخدمة رسالة نبيّك المجتبىٰ محمّد ﷺ.

وكان الانتهاء من تحبير هذا المجلد السابع في يوم الثلاثاء غرّة جمادى الأولى ١٤٢١هجرية الموافق لغرّة الشهر الثامن من عام ٢٠٠٠ ميلادية.

والحمدُ لله والسلام على عباده الذين اصطفىٰ.

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

(٤٣)
سورة (فاطر)
٣٥ مصحف ٤٣ نزول

(١) نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٧

(٢) موضوع سورة «فاطر» ١٣

(٣) دُروس سورة «فاطر» ١٦

(٤) التدّبر التحليلي للدرس الأول، الآية (١) ٢١

- تمهيد ٢١

- ﴿الحمد لله﴾ ٢٢
- ﴿فاطر السَّماوات والأرض. . .﴾ ٢٣
- ﴿جاعل الملائكة رسلا . . .﴾ ٢٧
- ﴿أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء﴾ ٢٩
- ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ٣١

(٥) التدبّر التحليلي للدرس الثاني، الآيتان (٢ و٣) ٣١

- القراءات ٣١

- تمهيد ٣٢

- ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم (٢)﴾ ٣٤
- ﴿يا أيّها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلّا هو فأنّىٰ تُؤفكون (٣)﴾ ٣٧

الموضوع الصفحة

(٦) التدبر التحليلي للدرس الثالث: الآية (٤) ٤١
- ﴿وإن يُكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله تُرجع الأمور (٤)﴾ ٤١
ـ القراءات ٤٢
ـ تمهيد ٤٢
التدبر ٤٢
(٧) التدبّر التحليلي للدرس الرابع: الآيات من (٥ ـ ٨) ٤٥
ـ القراءات ٤٦
ـ تمهيد ٤٦
ـ التدبير ٤٧
- ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق. . . (٥)﴾ ٤٧
- ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٥)﴾ ٤٩
- ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً. . . (٦)﴾ ٥٢
- ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (٦)﴾ ٥٣
- ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجرٌ كبير (٧)﴾ ٥٤
- ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً. . . (٨)﴾ ٥٦
- ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. . . (٨)﴾ ٥٧
- ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون (٨)﴾ ٥٨
(٨) التدبر التحليليّ للدرس الخامس: الآية (٩) ٦٢
ـ القراءات ٦٣
ـ تمهيد ٦٣
ـ التدبر ٦٤
- ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور (٩)﴾ ٦٤
(٩) التدبر التحليلي للدرس السادس: الآية (١٠) ٦٨
ـ تمهيد ٦٨

الموضوع الصفحة

- التدبّر ٧٠
- ﴿من كان يريد العزّة فللّه العزة جميعاً. . . (١٠)﴾ ٧٠
- ﴿إليه يصعد الكلم الطيب. . . (١٠)﴾ ٧٢
- ﴿والعمل الصالح يرفعه. . . (١٠)﴾ ٧٣
- ﴿والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور (١٠)﴾ ٧٤

(١٠) التدبّر التحليلي للدرس السابع: الآيات من (١١ ـ ١٤) ٧٦

ـ القراءات ٧٧

ـ تمهيد ٧٧

ـ التدبر ٧٨

ـ في هذا الدرس قضايا ٧٨
- ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً. . . (١١)﴾ ٧٨
- ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه. . . (١١)﴾ ٨٠
- ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب. . . (١١)﴾ ٨١
- ﴿إن ذلك على الله يسير (١١)﴾ ٨٢
- ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابُه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٢)﴾ ٨٣
- ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شاربه وهذا ملح أجاج. . . (١٢)﴾ ... ٨٣
- ﴿ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً. . . (١٢)﴾ ٨٥
- ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها. . . (١٢)﴾ ٨٥
- ﴿وترى الفلك فيه مواخر. . . (١٢)﴾ ٨٦
- ﴿لتبتغوا من فضله. . . (١٢)﴾ ٨٧
- ﴿ولعلكم تشكرون (١٢)﴾ ٨٨

ـ نظرة عامة حول عبارة: «البحرين» في نصوص القرآن ٨٨
- ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في اللّيل. . . (١٣)﴾ ٩٦
- ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمّى. . (١٣)﴾ ١٠٠

الموضوع — الصفحة

- ﴿ذلكم الله ربُكم له الملك. . . (١٣)﴾ ١٠٤
- ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) إنْ تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككُم ولا ينبئك مثل خبير (١٤)﴾ ١٠٥

ـ نظرة عامّة إلى آلهة المشركين ١٠٦

- ﴿ولا ينبئك مثل خبير (١٤)﴾ ١١٠

(١١) التدبر التحليلي للدرس الثامن: الآيات من (١٥ ـ ٢٦) ١١٢

ـ القراءات ١١٢

ـ تمهيد ١١٣

التدبر ١١٧

- ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد (١٥) إن يشأ يُذهبكم ويأت بخلق جديد (١٦) وما ذلك على الله بعزيز (١٧)﴾ ١١٧
- ﴿أنتم الفقراء إلى الله. . . (١٥)﴾ ١١٨
- ﴿والله هو الغني الحميد (١٥)﴾ ١٢٠
- ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٦) وما ذلك على الله بعزيز (١٧)﴾ ١٢١
- ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى. . . (١٨)﴾ ١٢٢
- ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى. . . (١٨)﴾ ١٢٣
- ﴿إنما تُنذر الذين يخشون ربّهم بالغيب وأقاموا الصلاة. . . (١٨)﴾ ١٢٥
- ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه. . . (١٨)﴾ ١٢٦
- ﴿وإلى الله المصير (١٨)﴾ ١٢٦

ـ الترابط الفكري بين فقرات الآية (١٨) ١٢٧

- الآيات من (١٩ ـ ٢٦) ١٢٨

ـ تمهيد ١٢٨

ـ التدبّر ١٣١

- ﴿وما يستوى الأعمى والبصير (١٩)﴾ ١٣١
- ﴿ولا الظلمات ولا النور (٢٠)﴾ ١٣١

الموضوع **الصفحة**

• ﴿ولا الظل والحرور (٢١)﴾ ١٣١
• ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات. . . (٢٢)﴾ ١٣٢
• ﴿إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور (٢٢)﴾ ١٣٣
• ﴿إن أنت إلا نذير (٢٣)﴾ ١٣٥
• ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيراً﴾ ١٣٦
• ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (٢٣)﴾ ١٣٧
• ﴿وإن يكذبون فقد كذب الذين من قبلهم جاءتْهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير (٢٥) ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكيرِ (٢٦)﴾ ١٣٧
ـ تمهيد ١٣٨
ـ التدبّر ١٣٩
• ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم. . . (٢٥)﴾ ١٣٩
• ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير (٢٥)﴾ ١٤٠
• ﴿ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكيرِ (٢٦)﴾ ١٤٢
(١٢) **التدبّر التحليلي للدرس التاسع: الآيتان: (٢٧ و٢٨)** ١٤٤
ـ تمهيد ١٤٤
ـ التدبُّر ١٤٨
• ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها. . . (٢٧)﴾ ١٤٩
• ﴿ومن الجبال جددٌ بيض وحمر مختلف ألوانُها وغرابيب سود (٢٧)﴾ ١٥٢
• ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. . . (٢٨)﴾ ١٥٣
• ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ. . . (٢٨)﴾ ١٥٥
• ﴿إن الله عزيز غفور (٢٨)﴾ ١٥٦
ـ نظرة تكاملية حول ما جاء في سائر القرآن بشأن الألوان ١٥٧
(١٣) **التدبر التحليلي للدرس العاشر: الآيات من (٢٩ ـ ٣٨)** ١٦١
ـ القراءات ١٦٢
ـ تمهيد ١٦٣
ـ التدبر ١٦٥

الموضوع **الصفحة**

ـ الآيتان (٢٩) و(٣٠) ومقدّمة ١٦٥
- ﴿إن الذين يتلون كتاب الله... (٢٩)﴾ ١٦٦
- ﴿وأقاموا الصلاة... (٢٩)﴾ ١٦٧
- ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية... (٢٩)﴾ ١٦٨
- ﴿يرجون تجارة لن تبور (٢٩)﴾ ١٦٩
- ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور (٣٠)﴾ ١٧٠
ـ الآيتان (٣١) و(٣٢) ١٧٢
ـ **تمهيد** ١٧٢
ـ **التدبّر** ١٧٣
- ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق... (٣١)﴾ ١٧٣
- ﴿مصدقاً لما بين يديه... (٣١)﴾ ١٧٣
- ﴿إن الله بعباده لخبير بصير... (٣١)﴾ ١٧٤
ـ الآية (٣٢) ١٧٦
ـ **تمهيد** ١٧٦
ـ **التدبر** ١٧٨
- ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا... (٣٢)﴾ ١٧٨
- ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله... (٣٢)﴾ .. ١٨١
- ﴿ذلك هو الفضل الكبير (٣٢)﴾ والآيات من (٣٣ ـ ٣٥) ١٨٧
ـ **تمهيد** ١٨٧
ـ **التدبر** ١٨٨
- ﴿ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها﴾ ١٨٨
- ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسُهُم فيها حرير (٣٣)﴾ ١٩٠
- ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور (٣٤) الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب (٣٥)﴾ ١٩١
ـ الآيتان (٣٦) و(٣٧) ١٩٥
ـ **تمهيد** ١٩٥

الموضوع **الصفحة**

ـ **التدبر** ١٩٥
ـ في هاتين الآيتين ثمان قضايا ١٩٥
• ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم. . . (٣٦)﴾ ١٩٥
• ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ ١٩٦
• ﴿ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ ١٩٧
• ﴿كذلك نجزي كل كفور (٣٦)﴾ ١٩٧
• ﴿وهم يصطَرِخون فيها ربَّنا أخرِجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل. . . (٣٧)﴾ ١٩٨
• ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ ١٩٨
• ﴿وجاءكم النذير﴾ ٢٠٠
• ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير (٣٧)﴾ ٢٠١
• ﴿إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور (٣٨)﴾ ٢٠١
ـ **تمهيد** ٢٠١
• ﴿إن الله عالم غيب السماوات والأرض﴾ ٢٠٤
• ﴿إنه عليم بذات الصدور. . . (٣٨)﴾ ٢٠٥
(١٤) التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر: الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) ٢٠٦
ـ **القراءات** ٢٠٧
ـ **تمهيد** ٢٠٧
ـ **التدبر** ٢٠٨
• ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرُهم عند ربّهم إلّا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلّا خساراً (٣٩)﴾ ٢٠٨
ـ **تمهيد** ٢٠٨
• ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ ٢٠٩
• ﴿فمن كفر فعَلَيْه كفره﴾ ٢١٢
• ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾ ٢١٢
• ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً (٣٩)﴾ ٢١٣
ـ التحليل النفسي مع سنن الله في كونه ٢١٤

الموضوع — الصفحة

- الآية (٤٠) ٢١٥
- **تمهيد** ٢١٥
- **التدبر** ٢١٧
  - ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرُوني ماذا خلقوا من الأرض. . . ﴿٤٠﴾﴾ ٢١٧
  - ﴿أم لهم شرك في السماوات﴾ ٢١٩
  - ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه﴾ ٢٢٠
  - ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴿٤٠﴾﴾ ٢٢١
- الآية (٤١) ٢٢٢
- **تمهيد** ٢٢٢
- **التدبّر** ٢٢٣
  - ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾ ٢٢٣
  - ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ ٢٢٥
  - ﴿إنه كان حليماً غفوراً ﴿٤١﴾﴾ ٢٢٦
- الآيتان (٤٢) و(٤٣) ٢٢٦
- **تمهيد** ٢٢٧
- **التدبر** ٢٢٨
  - ﴿وأقسموا بالله جهد إيمانهم. . . ﴿٤٢﴾﴾ ٢٢٨
  - ﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ ٢٢٩
  - ﴿فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴿٤٢﴾﴾ ٢٣٠
  - ﴿استكباراً في الأرض ومكر السيء. . . ﴿٤٣﴾﴾ ٢٣٤
  - ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ٢٣٥
  - ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴿٤٣﴾﴾ ٢٣٦
  - ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنَّه كان عليماً قديراً ﴿٤٤﴾﴾ ٢٣٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمًّى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً (٤٥)﴾ . ٢٤١

ـ ملاحق لتدبر سورة فاطر ٢٤٧

(١٥) **الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة** ٢٤٨

(١٦) **الملحق الثاني: الدعوة في القرآن إلى السير في الأرض والنظر في الآثار للاعتبار** ٢٦٥

(١٧) **الملحق الثالث: توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية في الدلالات القرآنية** ٢٩١

(٤٤)

سورة مريم

١٩ مصحف ٤٤ نزول

(١) نص السورة وما فيها من فرش القراءات ٣٥٧

(٢) موضوع سورة (مريم) ٣٦٧

(٣) دروس سورة (مريم) ٣٧٠

(٤) **التدبر التحليلي للدرس الأول: الآيات من (١ ـ ١٥)** ٣٧٣

ـ تمهيد ٣٧٤

ـ التدبر ٣٧٥

ـ الآيات من (١ ـ ٦) ٣٧٥

ـ القراءات ٣٧٦

- ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا (٢)﴾ ٣٧٦
- ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً (٣)﴾ ٣٧٨
- ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً (٤)﴾ ٣٨١
- ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ ٣٨٢
- ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ ٣٨٤
- ﴿وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً (٥) يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً (٦)﴾ ٣٨٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً (٧)﴾ ٣٨٧
- ﴿قال رب أنّى يكون لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً (٨)﴾ ٣٨٩
- ﴿قال كذلك قال ربُّك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً (٩)﴾ ٣٨٩

ـ الآيات من (١٠ ـ ١٥) ٣٩١

- ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ ٣٩١
- ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً (١٠)﴾ ٣٩١
- ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحىٰ إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً (١١)﴾ ٣٩٢
- ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبياً (١٢) وحناناً من لدُنا وزكاة وكان تقياً (١٣) وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصياً (١٤) وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً (١٥)﴾ ٣٩٥

ـ اشتملت هذه الآيات على ثماني قضايا ٣٩٥

- ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ ٣٩٥
- ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ ٣٩٦
- ﴿وحناناً من لدنا﴾ ٣٩٦
- ﴿وزكاة﴾ ٣٩٧
- ﴿وكان تقياً﴾ ٣٩٧
- ﴿وبراً بوالديه﴾ ٣٩٧
- ﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ ٣٩٧
- ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ ٣٩٨

ـ استكمال تدبر ما جاء في سائر القرآن بشأن زكريّا ويحيىٰ عليهما السلام ٣٩٨

(٥) التدبّر التحليلي للدرس الثاني: الآيات من (١٦ ـ ٤٠) ٤١٢

ـ تمهيد ٤١٣

ـ قصة «مريم» جمعاً ممّا عند المؤرخين وبعض الدلالات القرآنية ٤١٣

ـ التدبرّ التكامليّ للنّصوص القرآنية بشأن مريم عليها السلام ٤٢٠

الموضوع الصفحة

- **أولاً: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)** الآيات من (٣٣ ـ ٣٧) ٤٢٠
- **القراءات** ٤٢٠
- **تمهيد** ٤٢٢
- **التدبر** ٤٢٢

ثانياً: ومما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) الآيتان (٤٢ و٤٣) ٤٢٧

ثالثاً: من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) الآيات من (١٦ ـ ٢١) ٤٣٠
- **القراءات** ٤٣٠
- **التدبر** ٤٣١

• ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت. . . (١٦)﴾ ٤٣١

• ﴿إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقياً﴾ ٤٣٢

• ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً. . . (١٧)﴾ ٤٣٣

• ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ ٤٣٣

• ﴿قالت إني أعوذ بالرَّحمن منك إن كنت تقياً (١٨)﴾ ٤٣٤

• ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً (١٩)﴾ ٤٣٥

• ﴿قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً (٢٠) قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً (٢١)﴾ ٤٣٥

- معترضة حول تسمية جبريل عليه السلام (الرُّوح) في القرآن ٤٣٨
- **رابعاً: من سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول)** بشأن مريم عليها السلام ٤٤٠

• ﴿. . . وجعلناها وابنها آية للعالمين (٩١)﴾ ٤٤٠

- **ومن سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول)** ٤٤٠

• ﴿. . . وصدّقت بكلمات رَبّها وكتُبه وكانت من القانتين (١٢)﴾ ٤٤٠

- **خامساً: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً** الآيات من (٤٥ إلى بعض الآية (٤٩)) ٤٤١
- **القراءات** ٤٤١
- **التدبر** ٤٤٢

الموضوع **الصفحة**

- ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم. . . ﴿٤٥﴾﴾ ٤٤٢
- ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴿٤٥﴾﴾ ٤٤٤
- ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴿٤٦﴾﴾ ٤٤٤
- ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ ٤٤٥
- ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿٤٧﴾﴾ ٤٤٥
- ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴿٤٨﴾ ورسولاً إلى بني إسرائيل. . . ﴿٤٩﴾﴾ ٤٤٦

سادساً: من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) الآيات من (٢٢ ـ ٤٠) ٤٤٧

الآيات من (٢٢ ـ ٢٦) ٤٤٧

ـ **القراءات** ٤٤٨

التدبر ٤٤٩

- ﴿فحملَتْه فانتبذت به مكاناً قصياً ﴿٢٢﴾﴾ ٤٤٩
- ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴿٢٣﴾﴾ ٤٥٠
- ﴿فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربُّك تحتك سرياً ﴿٢٤﴾﴾ ٤٥١
- ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ ٤٥١
- ﴿فكلي واشربي وقري عيناً﴾ ٤٥٢
- ﴿فإمَّا ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴿٢٦﴾﴾ ٤٥٣

ـ **الآيات من (٢٧ ـ ٣٣) من سورة مريم أيضاً** ٤٥٣

ـ **القراءات** ٤٥٤

ـ **التدبّر** ٤٥٤

- ﴿فأتت به قومها تحمله. . . ﴿٢٧﴾﴾ ٤٥٤
- ﴿قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ ٤٥٤
- ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك أمرأ سوءٍ وما كانت أمك بغياً ﴿٢٨﴾﴾ ٤٥٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان من المهد صبياً (٢٩)﴾ ٤٥٦
- ﴿قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً (٣٠) وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً (٣١) وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً (٣٢) والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً (٣٣)﴾ ٤٥٧

ـ الآيتان (٣٤ و٣٥) ومن سورة مريم أيضاً ٤٦٠

ـ القراءات ٤٦٠

ـ التدبر ٤٦١

- ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون (٣٤)﴾ ٤٦١
- ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ ٤٦١
- ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون (٣٥)﴾ ٤٦٢

ـ الآية (٣٦) من سورة مريم أيضاً ٤٦٢

- ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٣٦)﴾ ٤٦٢

ـ القراءات ٤٦٢

ـ التدبّر ٤٦٣

ـ الآيات من (٣٧ ـ ٤٠) من سورة مريم أيضاً ٤٦٤

ـ القراءات ٤٦٤

ـ التدبّر ٤٦٥

- ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم. . . (٣٧)﴾ ٤٦٥
- ﴿فويل للّذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ ٤٦٦
- ﴿اسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ ٤٦٧
- ﴿لكن الظالمون اليوم في ضلالٍ مبين (٣٨)﴾ ٤٦٨
- ﴿وأنذرْهم يوم الحَسرة إذ قضي الأمر. . . (٣٩)﴾ ٤٦٨
- ﴿وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ ٤٦٩
- ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون (٤٠)﴾ ٤٦٩

سابعاً: من سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) الآية (٥٠) ٤٧٠

الموضوع **الصفحة**

ـ **القراءات** ٤٧٠
ـ **التدبر** ٤٧١
ثامناً: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ٤٧٢
الآيات من (٤٩ ـ ٥١) ٤٧٢
ـ **القراءات** ٤٧٢
ـ **تمهيد** ٤٧٤
ـ **التدبر** ٤٧٤
- ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل. . . (٤٩)﴾ ٤٧٤
- ﴿إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحْيِ الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إنَّ في ذلك لآية لكم إنْ كنتم مؤمنين (٤٩)﴾ ٤٧٤
- ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحلّ لكم بعضَ الذي حُرِّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون (٥٠) إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٥١)﴾ ٤٧٧
تاسعاً: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً ٤٧٨
الآيات من (٥٢ ـ ٥٤) ٤٧٨
ـ **القراءات** ٤٧٨
ـ **التدبّر** ٤٧٩
- ﴿فلمّا أحس عيسىٰ منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله. . . (٥٢)﴾ ٤٧٩
- ﴿قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنّا مسلمون (٥٢) ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين (٥٣)﴾ ٤٨٠
- ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين (٥٤)﴾ ٤٨٢
عاشراً: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً ٤٨٥
الآيات من (٥٥ ـ ٦٠) ٤٨٥
ـ **القراءات** ٤٨٥

الموضوع **الصفحة**

- **التدبّر** ٤٨٦
- ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرُك من الّذين كفروا وجاعل الّذين اتّبَعُوكَ فوق الّذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فاحكُمُ بينكم فيما كنتم فيه تختلفون (٥٥) فأمّا الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين (٥٦) وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين (٥٧)﴾ ٤٨٦
- ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم (٥٨) إنّ مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩) الحق من ربك فلا تكونن من الممترين (٦٠)﴾ ٤٩٢

(٦) التدبر التحليليّ للدرس الثالث: الآيات (من ٤١ ـ ٥٠) ٤٩٤

- **القراءات** ٤٩٤
- **تمهيد** ٤٩٥
- **التدبّر** ٤٩٧
- ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنَّهُ كان صِدِّيقاً نبياً (٤١)﴾ ٤٩٧
- ﴿إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً (٤٢)﴾ .. ٤٩٩
- ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً (٤٣)﴾ ٥٠٠
- ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصياً (٤٤)﴾ ٥٠٢
- ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسَّك عذابٌ من الرَّحمٰن فتكون للشيطان ولياً (٤٥)﴾ ٥٠٣
- ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لَئِن لم تنته لأرْجُمنَّك واهجُرْني ملياً (٤٦)﴾ ٥٠٤
- ﴿قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربّي إنه كان بي حفيّاً (٤٧) واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي عسىٰ ألا أكون بدعاء ربي شقياً (٤٨)﴾ ٥٠٥
- ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون اللَّهِ وهبنا له إسحاق ويعقوب وكُلّاً جَعَلْنا نبياً (٤٩) ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدْقٍ علياً (٥٠)﴾ ٥٠٩
- **تمهيد** ٥٠٩
- **التدبّر** ٥١٢

(٧) التدبّر التحليليّ للدرس الرابع: الآيات من (٥١ ـ ٥٣) ٥١٥

الموضوع **الصفحة**

- **القراءات** ٥١٥
- **التدبّر** ٥١٦
- ● ﴿واذكر في الكتاب موسى. . . ﴿٥١﴾﴾ ٥١٦
- ● ﴿إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾ ٥١٨
- ● ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيّاً ﴿٥٢﴾﴾ ٥١٨
- ● ﴿ووهبنا له من رحمتنا آخاه هارون نبيّاً ﴿٥٣﴾﴾ ٥٢٠

(٨) التدبّر التحليلي للدرس الخامس: الآيتان: (٥٤ و٥٥) ٥٢١
- **القراءات** ٥٢١
- **تمهيد (حول إسماعيل عليه السلام عند أهل الكتاب)** ٥٢٢
- أبرز ما تعرَّض له المؤرخون من حياة «إسماعيل» عليه السلام ٥٢٢
- التدبُّر التكاملي للنصوص القرآنية التي ذُكر فيها إسماعيل عليه السلام ٥٢٤

أولاً: ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) الآية (٤٨) ٥٢٤
ثانياً: ما جاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) الآيتان: (٥٤ و٥٥) ٥٢٤
ثالثاً: ما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) الآية (٨٦) ٥٢٧
رابعاً: ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) الآية (٣٩) ٥٢٨
خامساً: ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) الآيتان: (٨٥ و٨٦) . ٥٢٨
سادساً: ما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) ٥٢٩
- ● في الآية (١٢٥) ٥٢٩
- ● وفي الآيات من (١٢٧ ـ ١٢٩) ٥٣٠
- ● وفي الآيتين: (١٣٢ ـ ١٣٣) ٥٣٥
- ● وفي الآيات من (١٣٥ ـ ١٣٧) ٥٣٦
- ● وفي الآية (١٤٠) ٥٣٩

سابعاً: ما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) الآيتان: (٨٤ و٨٥) ٥٤٠
ثامناً: ما جاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) الآية (١٦٣) ٥٤٢

(٩) **التدبر التحليلي للدرس السادس: الآيتان (٥٦ ـ ٥٧)** ٥٤٢
- ● ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً ﴿٥٧﴾﴾ . ٥٤٢

الموضوع **الصفحة**

- إدريس عليه السلام على ما ذكر المؤرخون بشأنه ٥٤٦

(١٠) **التدبر التحليلي للدرس السابع: الآية (٥٨)** ٥٤٨

- **القراءات** ٥٤٩

- **تمهيد** ٥٤٩

- **التدبر** ٥٥١

- ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّين من ذُرّيّة آدم وممّن حملنا مع نوح ومن ذُرّيّة إبراهيم وإسرائيل وممّن هدينا واجْتَبَيْنا إذا تُتلىٰ عليهم آيات الرحمٰن خَروا سُجّداً وبكياً ﴿٥٨﴾﴾ ٥٥١

- تتمات تحليلية لتدبّر الآية (٥٨) ٥٥٥

(١١) **التدبر التحليلي للدرس الثامن: الآيات من (٥٩ ـ ٦٣)** ٥٥٧

- **القراءات** ٥٥٨

- **التمهيد** ٥٥٨

- **التدبر** ٥٥٩

- ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات فسَوْف يلْقَوْن غيّاً ﴿٥٩﴾﴾ ٥٥٩

- ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴿٦٠﴾﴾ ٥٦٢

- ﴿جنّات عدن الّتي وعَدَ الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً ﴿٦١﴾﴾ ٥٦٤

- ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴿٦٢﴾﴾ ٥٦٨

- ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا﴾ ٥٧٠

(١٢) **التدبر التحليليّ للدرس التاسع: الآيتان: (٦٤ و٦٥)** ٥٧١

- **تمهيد** ٥٧١

- **التدبّر** ٥٧٢

- ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴿٦٤﴾﴾ ٥٧٢

- ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴿٦٥﴾﴾ ٥٧٥

(١٣) **التدبّر التحليلي للدرس العاشر: الآيات من (٦٦ ـ ٧٢)** ٥٧٨

الموضوع الصفحة

- القراءات ٥٧٨
- تمهيد ٥٨٠
- التدبر ٥٨٤
- ﴿ويقول الإنسان أءِذا ما متُّ لسوف أخرج حياً ﴿٦٦﴾﴾ ٥٨٤
- ﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴿٦٧﴾﴾ ٥٨٦
- ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً * ثم لننزعن من كل شيعة أيُّهم أشد على الرحمن عتياً * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴿٧٠﴾﴾ ٥٨٨
- ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربّك حتماً مقضياً * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيه جثياً ﴿٧٢﴾﴾ ٥٩٤
- مما جاء في السنة بشأن الورود على جسر جهنم ٥٩٧
(١٤) التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر: الآيات من (٧٣ ـ ٧٦) ٦٠٠
- القراءات ٦٠٠
- تمهيد ٦٠١
- التدبر ٦٠٤
- ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴿٧٣﴾﴾ ٦٠٤
- ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴿٧٤﴾﴾ ٦٠٧
- ﴿قل من كان في الضلالة فليمْدُد له الرَّحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعَدُون إمّا العذاب وإمّا السَّاعة فسيعلَمُونَ من هو شرٌ مكاناً وأضعف جنداً ﴿٧٥﴾﴾ . ٦٠٩
- تمهيد ٦٠٩
- التدبر ٦١٠
- ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدىً والباقيات الصالحات خيرٌ عند رَبِّكَ ثواباً وخير مردّاً ﴿٧٦﴾﴾ ٦١٥
(١٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني عشر: الآيات من (٧٧ ـ ٨٠) ٦١٦
- القراءات ٦١٧
- مما ورد في سبب النزول ٦١٧

الموضوع **الصفحة**

- **تمهيد** ٦١٨
- **التدبر** ٦١٨
- • ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولداً * اطَّلَعَ الغيب أم اتخذ عند الرحمٰن عهداً (٧٨) كلا﴾ ٦١٨
• ﴿سنكتب ما يقول ونمدُّ له من العذاب مدّاً * ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً (٨٠)﴾ .. ٦٢٢

(١٦) التدبر التحليلي للدرس الثالث عشر: الآيتان: (٨١ و٨٢) ٦٢٧
- **تمهيد** ٦٢٨
- **التدبّر** ٦٣١
• ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً (٨١)﴾ ٦٣١
• ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً (٨٢)﴾ ٦٣٢

(١٧) التدبر التحليلي للدرس الرابع عشر: الآيتان: (٨٣ ـ ٨٤) ٦٣٣
- **القراءات** ٦٣٣
- **تمهيد** ٦٣٣
- **التدبّر** ٦٣٣
• ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤُزُّهم أزّاً (٨٣)﴾ ٦٣٤
• ﴿فلا تعجلْ عليهم إنّما نعُدُّ لهم عدّاً (٨٤)﴾ ٦٣٧

(١٨) التدبر التحليلي للدرس الخامس عشر: الآيات من (٨٥ ـ ٨٧) ٦٣٩
- **تمهيد** ٦٣٩
- **التدبّر** ٦٣٩
• ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرَّحمٰن وفْداً (٨٥)﴾ ٦٣٩
• ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً (٨٦)﴾ ٦٤١
• ﴿لا يملكون الشفاعة إلّا من اتخذ عند الرحمٰن عهداً (٨٧)﴾ ٦٤٢

(١٩) التدبّر التحليلي للدرس السادس عشر: الآيات من (٨٨ ـ ٩٥) ٦٤٥
- **القراءات** ٦٤٥
- **تمهيد** ٦٤٦

الموضوع **الصفحة**

- **التدبّر** ٦٤٧
- ﴿وقالوا اتخذ الرحمٰن ولداً (٨٨)﴾ ٦٤٧
- ﴿ولقد جئتم شيئاً إدّاً * تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً (٩٠)﴾ ٦٤٧
- ﴿أن دعوا للرحمٰن ولداً * وما ينبغي للرحمٰن أنْ يتخذ ولداً * إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمٰن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدأ * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً (٩٥)﴾ ٦٥٠

(٢٠) التدبر التحليلي للدرس السابع عشر: الآية (٩٦) ٦٥٢
- ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرَّحمن وُداً (٩٦)﴾ ٦٥٢
- **تمهيد** ٦٥٢
- **التدبر** ٦٥٣

(٢١) التدبر التحليلي للدرس الثامن عشر: الآيتان: (٩٧ ـ ٩٨) ٦٥٧
- **القراءات** ٦٥٨
- **تمهيد** ٦٥٨
- **التدبر** ٦٥٩
- ﴿فإنما يسّرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدّاً (٩٧)﴾ ٦٥٩
- ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً (٩٨)﴾ ٦٦٣
- ملاحق لتدبر سورة (مريم) ٦٦٥

(٢٢) المحلق الأول: مستخرجات بلاغية من سورة (مريم) ٦٦٥

(٢٣) الملحق الثاني: جنّات عدْن ومستحقوها في دلالات النصوص القرآنية ٦٧٩
- خاتمة هذا المجلّد السابع ٦٩١

الفهرس ٦٩٢

* * *

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقرآنِ الكريمِ بحسب ترتيبِ النُّزول
وِفْقَ منهج كتابِ «قواعدِ التدبُّرِ الأمْثلِ لكتابِ اللهِ عزّ وجلّ»

المجلَّدُ الثَّامِنُ

تفسِيرُ سُوَر
طه/ ٤٥ ـ الواقِعة/ ٤٦ ـ الشُّعراء/ ٤٧

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

الطّبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشّاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دار البشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سورة طه

٢٠ مصحف - ٤٥ نزول

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

طه (١) مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ (٢) إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن
يَخۡشَىٰ (٣) تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى (٤) ٱلرَّحۡمَٰنُ
عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ (٥) لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا
بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ
وَأَخۡفَى (٧) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ (٨)
وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (٩) إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ
إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى
(١٠) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ

---

١ ـ • سكت أبو جعفر سكتةً لطيفةً بدون تنفُّسٍ على «طا» و«ها». ولم يَسْكُتْ هذه السكتة بَاقي القرّاء العشرة.

١٠ ـ • قرأ حمزة: [**لأَهْلِهُ امْكُثُوا**] بضم هاء الضمير. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لأَهْلِهِ امْكُثُوا**] بكَسْرِ هاء الضمير، وهما لغتان عربيتان جائزتان.

١٠ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**إنّيَ آنَسْتُ**] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكان ياء المتكلم.

١٠ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبُو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: ﴿لَّعَلِّيَ ءَاتِيكُم﴾ بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسْكان ياء المتكلّم.

١٢ ـ • قرأ نافع: [**إنّيَ أنا رَبُّكَ**] بفتح يَاء المتكلم وكَسْر همزة «إنَّ» وقرأها ابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**أنّيَ أنا رَبُّكَ**] بفَتْحِ ياء المتكلّم، وفتح همزة «أنَّ» من: «أنّي».

وقرأها باقي القراء العشرة: [**إنّي أنا رَبُّكَ**] بإسكان ياء المتكلم وكَسْرِ همزة «إنّ» من [**إنّي**].

=

إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ
﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ
لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ
نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ
عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ

= وسبق أن عرفنا أنّ فتح ياء المتكلم وإسكانها وجهان عربيان لنُطقِها. كَسْرُ همزة «إنّ» على معنى أن الجملة ابتدائية، وفتحها هو على تقدير حرف جرّ محذوف، أي: نودي أن يا موسى بأني أنا رَبُّك، وهما وجهان نحويان جائزان.

١٢ ـ • قرأ يعقوب: [**بالْوَادي**] فأثبت الياء في الوقف فقط.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**بالوَادِ**] بحذف الباء في الوقف والوصل.

١٢ ـ • قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحمزةُ، والكسائي، وخلف: [**طُوىً**] بالتنوين، على أنّ اللفظ مَصْرُوف، بتقدير أنه نكرة وهو اسم وادٍ أو مكان ما.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**طُوىٰ**] بدون تنوين، على أنّ اللفظ ممنوع من الصرف، بتقدير أنه معرفة، إذْ هو اسم بقعة معروفة.

١٣ ـ • قرأ حمزة: [**وأنّا اخترْنَاكَ**] بضمير المتكلّم العظيم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَأَنَا اخترْتُكَ**] بضمير المتكلم المفرد.
والقراءتان تدلّان على أن الله عزّ وجلّ خاطب موسى أوّلاً بضمير المتكلّم العظيم، لتربية المهابة في قلبه، ولإشعاره بأنّ الخالق قد اصطفاه بعظمة رُبوبيته. وبعد ذلك عاد إلى مخاطبته بضمير المفرد، لإيناسه.

١٤ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**إنّيَ أنا اللّهُ**] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

١٤ ـ ١٥• قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**لِذِكْرِيَ إنّ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٨ ـ • قرأ ورش، وحفص: [**وَلِيَ فيها**] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ
تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ
﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً
أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ
طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي
﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي
وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾
وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ
﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ

---

٢٦ ـ ● قرأ نافع، وأبو عَمرو، وأبو جعفر: [وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي] بفتح ياء المتكلّم من [لِيَ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٣٠ ـ ٣١● قرأ ابنُ عامر: [أَخِيَ أَشْدُدْ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٣٢ ـ ● قرأ ابنُ عامر: [وَأُشْرِكْهُ فِي أَمْرِي] بضم همزة [أُشرِكه] على معنى أنّ موسى يجعل أخاه شريكاً له في رسالته.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَأَشْرِكْهُ] بفتح الهمزة، على معنى أن موسى سألَ رَبَّه أن يجعل أخاه هارون شريكاً له في أمره.

والقراءتان تدُلّان على أنّ موسى قال أولاً: [وَأُشْرِكْهُ] ثم رأى أنّ هذه العبارة لا تليق في مقام متلقي الرسالة عن ربّه فعدَل عنها، وقال سائلاً ربَّهُ: [وَأَشْرِكْهُ في أمْرِي].

يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ
عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ
فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا
فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ
جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ
أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾
قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا
تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا
رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ

---

٣٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [وَلْتُصْنَعْ] بلام الأمر وجزم الفعل. وهي تدلُّ على أمْرِ التكوين الصادر عن الله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلِتُصْنَعَ] بكسر اللام على أنها لام التعليل، ونَصْب الفعل بأن مضمرة. وهي تدلُّ على الغرض من جعله يُنْشأ في القصر الفرعوني.

٣٩ ـ ٤٠• قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عَيْنِيَ إِذْ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٤٠ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [جِيتَ] بإبدال الهمزة ياء. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [جِئْتَ] على الأصل دون إبدال.

٤١ ـ ٤٢• قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [لِنَفْسِيَ اذْهَبْ] بفتح ياء المتكلم وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٤٢ ـ ٤٣• قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [فِي ذِكْرِيَ اذْهَبَا] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ
إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ
﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي
كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ
مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ
أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا
نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ
﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾
فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ
نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن

---

٥٣ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [مَهْداً] مَصْدر «مَهَدَ». وقرأها باقي القراء العشرة: [مِهاداً] أي: فراشاً.

أي: مَهَدَها فجعلها كالفِراش.

٥٧ ـ • قرأ السوسي وأبو جعفر: [أَجِيتَنَا] بإبدال الهمزة ياءً. وقرأها باقي القراء العشرة: [أَجِئْتَنَا] على الأصل دون إبدال.

٥٨ ـ • قرأ أبو جعفر: [لاَ نُخْلِفْهُ] بالجزم على أنه جواب الطلب. وقرأها باقي القراء العشرة: [لاَ نُخْلِفُهُ] بالرَّفع، على أنه ليس جواب فاجْعَلْ. والإعرابان وجهان عربيان جائزان.

٥٨ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [سِوًى] بكسر السّين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [سُوًى] بضم السين. كسر السين وضمها لغتان عربيتان.

يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ
﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم
بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن
يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾
فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ
﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾
قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا
تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا

---

٦١ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، ورُويس، وخلف: [فَيُسْحِتَكُمْ] من فعل: «أَسْحَتَ الشيءَ» أي: استأصَلَهُ فلم يُبْقِ له أثراً.

وقرأها باقي القرّاء العشر: [فَيَسْحَتَكُمْ] من فعل: «سَحَتَ الشيءَ» أي: استأصَلَهُ فلم يُبْقِ له أثراً. فالقراءتان متكافئتان لغة.

٦٣ ـ • قرأ ابن كثير: [إنْ هَذَانّ] مع المدّ المشبع. وقرأها أبو عَمْرو: [إنَّ هَٰذَيْنِ]، وقرأها حفص: [إنْ هَٰذَانِ]. وقرأها باقي القراء العشرة: [إنَّ هَٰذانِ].

٦٤ ـ • قرأ أبو عمرو: [فاجْمَعُوا] من فعل: «جَمَعَ يَجْمَعُ» يقال: جَمَعَ المتفرّق.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَأَجْمِعُوا] من فعل «أَجْمَعَ يُجْمِعُ» يقال لغة: أَجْمَعَ الأمْرَ، أي: أحكمه وجمع متفرّقه.

ومؤدّى القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

٦٦ ـ • قرأ ابن ذكوان ورَوْح: [تُخَيَّلُ] بالتاء. وقرأ باقي القراء العشرة [يُخَيَّلُ] بالياء. القراءتان وجهان جائزان في العربية.

٦٩ ـ • قرأ البزّي في الوصل: [تَّلَقَفُ] بتشديد التاء. وقرأ ابن ذكوان: [تَلَقَّفُ]=

صَنَعُوٓاْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ
ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ
قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ
أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا
عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا
فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ

= بفتح اللام وتشديد القاف، ورفع الفاء. دون ملاحظة أنه جواب الطلب، وهو جائز نحوياً. وقرأ حفص: [تَلْقَفْ] بإسكان اللام، وتخفيف القاف، وجزم الفاء. وقرأ باقي القراء العشرة: [تَلَقَّفْ] بفتح اللام وتشديد القاف، وجزم الفاء. الجزم على أنه جواب: [وَأَلْقِ].

٦٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [كَيْدُ سِحْرٍ]. وقرأ باقي القراء العشرة: [كَيْدُ ساحِرٍ] مؤدّى القراءتين واحد، وهما من قبيل التفنُّن في التعبير.

٧١ ـ • قرأ حفص ورُويس: بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الثانية من: [ءَامَنْتُمْ] وقرأ قنبل في الوصل بإبدال الهمزة الأولى واواً وتسهيل الثانية.

وقرأ شعبة، ورَوْح، وحمزة، والكسائي، وخلف: بتحقيق الهمزتين.

وقرأ باقي القراء العشرة بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية من غير إدخال، وهو وجه قنبل حالة الوقف.

٧٢ ـ • قرأ وَرْش، والسوسي، وأبو جعفر: [نُوثِرَكَ] بإبدال الهمزة واواً. وكذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: [نُؤْثِرَكَ] بالهمزة الساكنة.

٧٥ ـ • قرأ السّوسي: [ومَنْ يَأْتِهْ] بإسكان الهاء. =

عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾
وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي
ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا
هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ
ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ وَمَن

= وقرأ رُويس، وقالُون بخُلْفٍ عنه: **[وَمَنْ يَأْتِهِ]** بكسر الهاء من غير صلة.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَمَنْ يَأْتِهِ]** بكسر الهاء مع الصلة، وهو الوجه الثاني لقالون.

وهذه القراءات وجوهٌ عربيّة في الأداء، نزل القرآن بها.

٧٧ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: **[أَنِ اسْرِ]** بوصل همزة «اسْرِ» ويبدؤون بهمزة مكسورة. وقرأها باقي القراء العشرة: **[أَنْ أَسْرِ]** بقطع الهمزة مفتوحة وصلاً ووقفاً، ويبدؤون بهمزة مفتوحة.

٧٧ ـ • قرأ حمزة: **[لاَ تَخَفْ]**. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لاَ تَخَافُ]** أي: حالة كونكَ لَا تخاف. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.

٨٠ ـ ٨١• قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: **[أَنْجَيْتُكُمْ ـ وَوَعَدْتُكُمْ ـ مَا رَزَقْتُكُمْ]** بضمير المتكلم المفرد. وقرأها أبو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: **[أَنْجَيْنَاكُمْ ـ وَوَعَدْنَاكُمْ ـ وَمَا رَزَقْنَاكُمْ]** بضمير المتكلم العظيم.

وفي القراءتين تنويع في الخطاب، فالإفراد للمؤانَسة، وضمير المتكلم العظيم لتربية المهابة، والإشعار بعظمة الربوبيّة.

وقرأها الباقون: **[أَنْجَيْنَاكُمْ ـ وَوَاعَدْنَاكُمْ ـ وَمَا رَزَقْنَاكُمْ]**.

٨١ ـ • قرأ الكسائي: **[فَيَحُلَّ ـ وَمَنْ يَحْلُلْ]** من: «حَلَّ يَحُلّ». وقرأها باقي القراء=

يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ
وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ
لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ
يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ
أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي
﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن
زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ
عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ

= العشرة: [فَيَحِلَّ ـ وَمَنْ يَحْلِلْ] من فعل: «حَلَّ يَحِلُّ» وهما وجهان عربيان.

٨٤ ـ • قرأ رُويس: [عَلَى إِثْرِي] بكسر الهمزة وإسكان الثاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَلَى أَثَرِي] بفتح الهمزة والثاء.
ومعنى القراءتين واحد: إذْ يقال: جاءَ في إثْره، وجاء في أَثَرِه، أي: عَقِبَه.

٨٧ ـ • قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر: [بِمَلْكِنَا] بفتح الميم.
وقرأها حمزة، والكسائي، وخَلَف: [بِمُلْكِنَا] بضم الميم.
وقرأها باقي القراء العشرة: [بِمِلْكِنَا] بكسر الميم.
وهي لغات متكافئات.

٨٧ ـ • قرأ أبو عمرو، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [حَمَلْنَا] بفتح الحاء والميم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [حُمِّلْنَا] بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة.
يظهر أن بعض بني إسرائيل حَمَل باختياره، وبعضَهُمْ حُمِّلَها بتأثير غيره كزوجته مثلاً.

﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا
نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم
بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن
نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا
مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۙ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾
قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا
خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ

---

٨٩ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضم الهاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إِلَيْهِمْ] بكَسْر الهاء.

والقراءتان وجهان عربيان.

٩٣ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو: [تَتَّبِعَنِي] بإثبات الياء في الوصل، وحذفها في الوقف. وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات هذه الياء في الوصل والوقف.

وقرأ أبو جعفر بإثباتها مفتوحة في الوصل ساكنة في الوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة بحذفها وصلاً ووقفاً.

٩٤ ـ • قرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [يَاابْنَؤُمِّ] بكسر الميم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يَاابْنَؤُمَّ] بفتح الميم.

٩٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [بِرَأْسِيَ إِنِّي] بفتح ياء المتكلم، وقرأ باقي القراءة العشرة بإسكانها.

وأبدل الهمزة مطلقاً أبو جعفر والسوسي، وأبدلها حمزة في الوقف فقط.

٩٦ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [تَبْصُروا به] بتاء المخاطبين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَبْصُرُوا به] بياء الغائبين.

والقراءتان تعبّران عن بيانين قالهما السَّامِرِي أحَدُهما واجه به موسَىٰ وحاضري مجلسه. والآخر تحدَّث به عن الغائبين من بني إسرائيل.

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ
لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ
لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى
ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا
﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ
شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ
ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾
يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ

---

٩٧ - • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ويعقوب: [لَنْ تُخْلِفَهُ] أي: تَعِدُنَا بعَدَمِ إخلافه. وقرأها باقي القراء العشرة: [لَنْ تُخْلَفَهُ] أي: نَعِدُكَ بعَدم إخلافه. القراءتان تُعبّران عن بيانين.

٩٧ - • قرأ ابن وَرْدان: [لَنَحْرُقَنَّهُ] من فعل: «حَرَقه يَحْرُقُه».
وقرأ ابنُ جَمّاز: [لَنُحرِقَنَّهُ] من فعل: «أحْرَقَ يُحْرِق».
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [لَنُحَرِّقَنَّهُ].
هذه القراءات وجوهٌ عربية جائزة. وقراءة الجمهور تدلُّ على أن موسى عليه السلام شدّد في عبارته في بعض أحوال غضبه من اتخاذ العجل.

١٠٢ - • قرأ أبو عمرو: [نَنْفُخُ] بنون المتكلّم العظيم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يُنْفَخُ].
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، أي: نأمُرُ بالنفخ في الصُّور، فيُنْفَخُ فيه من قِبَل الملك المكلّف بالنفخ فيه.

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ
فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا
تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ
لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ
لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾
۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا
﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ
ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ
ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ

---

١١٠ ـ • قرأ يعقوب: **[أَيْدِيهُمْ]** بضم هاء الضمير. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَيْدِيهِمْ]** بكَسْرِ هاء الضمير وهما وجهان عربيّان في النُّطق.

١١٢ ـ • قرأ ابن كثير: **[فَلَا يَخَفْ]**، وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[فَلَا يَخَافُ]**. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، فقراءة: **[فَلَا يَخَفْ]** عبارة طَمْأَنةٍ منذ الحياة الدنيا.

وقراءة: **[فَلَا يَخَافُ]** تعبّر عن حال المؤمن الذي عَمِلَ من الصّالحات بأنّه سوف يكونُ غَيْرَ خائف يوم الدين.

١١٤ ـ • قرأ يعقوب: **[مِن قَبْلِ أَن نَقْضِيَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ]** بضمير المتكلّم العظيم باعتبار أنّه الآمِرَ بالوَحْيِ إليه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ]** أي على لسان جبريل عليه السلام المأمور بأن يوحِيَ إليك القرآن.

وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ
وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ
فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ
وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ
﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ
شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا
سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ
رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي
هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ
عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

---

١١٦ ـ ● قرأ أبو جعفر: [**لِلْمَلاَئِكَةُ اسْجُدُوا**] بضم تاء الملائكة مراعاة لضم جيم اسْجُدُوا.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا**] بكسر تاء الملائكة على الأصل.

١١٩ ـ ● قرأ نافع، وشعبة: [**وَإِنَّكَ لاَ تَظْمَأُ**] بكسر همزة «إن» على أن الجملة ابتدائية.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ**] بفتح همزة «أن» على اعتبار أن الجملة معطوفة على [**أَنْ لاَ تَجُوعَ**].

أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا
﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ
أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ
يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾
وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾
فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ
وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ
تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ
زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾
وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ
نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن

---

١٢٥ - ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو جعفر: [حَشَرۡتَنِيَ أَعۡمَىٰ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكان ياء المتكلّم.

١٣٠ - ● قرأ شعبة، والكسائي: [تُرۡضَىٰ] أي: راجياً أن يُرضيك الله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَرۡضَىٰ] أي: إذا أرضاك ربُّكَ فإنَّكَ تَرضَى.
فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.

١٣١ - ● قرأ يعقوب: [زَهَرَةَ] بفتح الهاء. وقرأها باقي القراء العشرة: [زَهۡرَةَ] بإسكان الهاء، وهما وجهان عربيان لنطق كلمة «زَهْرَة».

١٣٢ - ● قرأ ورشٌ، والسُّوسي: [وَامُرۡ] بإبدال الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في الوقف، وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَأۡمُرۡ] دون إبدال.

رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ
أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ
كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ
وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

---

١٣٣ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وابن جمّاز، ورَوْح: [**أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ**] بتاء التأنيث.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ**] بياء التذكير.

ولِوَرْش، والسّوسي، وابن جمّاز إبدال الهمزة ألفاً.

وضمّ رُوَيْس هاء الضمير في الوصل والوقف، وكسرها باقي القراء العشرة.

١٣٥ـ ● قرأ قُنْبل، ورُوَيْس: [**السِّرَاط**] بالسّين.

وَأشَمَّ خلف عن حمزة: الصاد زاياً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**الصِّراطِ**] بالصاد.

(٢)

مما ورد في السيرة النبويّة بشأن سورة (طه)

جاء في سيرة ابن هشام ما يلي:

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عُمَرَ فيما بَلَغني أنّ أُخْتَه فاطِمة بنت الخطّاب، وكانت عند سَعِيد بنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، وكانَتْ قَدْ أَسْلَمَتْ وأَسْلَمَ بَعْلُها سَعِيدُ بْنُ زَيْد، وهما مُسْتَخْفِيات بإسْلامِهِما مِنْ عُمَر، وكانَ نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّحّام، رجلٌ من قومه، من بني عَدِيّ بْنِ كَعْبٍ قد أَسْلَم، وكان أيضاً يَسْتَخْفِي بإسْلامِهِ فَرَقاً مِنْ قَوْمِه، وكانَ خَبَّابُ بْنُ

الأَرَتّ(١) يَخْتَلِفُ إلى فاطِمَة يُقْرِئُها القُرْآن.

فخرج عُمَر بْنُ الخطَّاب يوماً مُتَوشّحاً سَيْفه، يُريدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَهْطاً من أصحابه، قد ذُكِرُوا لَهُ أَنَّهُم قد اجْتَمَعُوا في بَيْتٍ عند الصَّفَا، وهم قَرِيبٌ من أَرْبَعين، ما بَيْنَ رجالٍ ونساء، ومع رَسُول اللَّهِ ﷺ عَمُّهُ حَمْزَةُ بْنُ عبد المطَّلب، وأبو بَكْر بْنُ أبي قُحَافَة الصِّدّيقُ، وعليُّ بنُ أبي طالب في رجالٍ من المسلمين رضي الله عنهم، ممَّنْ كان أقام مع رسول الله ﷺ، ولَمْ يَخْرُجْ فيمن خَرَجَ إلى أرْض الحبَشة، فلقِيَهُ «نُعَيْمُ بنْ عبد الله» فقال له: أيْنَ تُريدُ يا عُمَر؟ فقال: أُريد محمّداً هذا الصابئ، الَّذِي فرَّقَ أمْرَ قُرَيْشٍ، وسَفَّهَ أحلامَها، وعابَ دينَها، وسَبَّ آلِهَتَها، فأقْتُله.

فقال له نُعيْم: واللَّهِ لَقَدْ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ مِنْ نَفْسِكَ يا عُمَر، أتَرَىٰ بني عَبْدِ مَنافٍ تاركِيكَ تَمْشِي على الأرض وقَدْ قَتَلْتَ محمّداً؟! أفَلَا تَرْجِعُ إلى أهْلِ بيتِك فتُقيم أمْرَهم؟

قال: وأيُّ أهل بيتي؟

قال: خَتَنُكَ(٢)، وابْنُ عَمِّكَ سعيد بنُ زيد بن عَمْرو، وأُخْتُكَ فاطِمَةُ بِنْتُ الخطّاب، فقد ـ واللَّهِ ـ أسْلَمَا، وتابعا محمّداً على دينِه، فعلَيْكَ بهما.

فرَجَعَ عُمَرُ عامداً إلى أُخْتِهِ وختَنِهِ، وعندهُما «خَبَّابُ بْن الأرتّ» معَهُ

---

(١) ذُكِرَ أن عُمَرَ بنَ الخطَّاب، وهو أمير المؤمنين، سأل «خبَّاب بْنَ الأرَت» عمّا لقي في ذاتِ الله، فكَشَفَ ظَهْرَهُ، فقال عُمَر: ما رأيْتُ كاليوم! فقال: يا أمير المؤمنين، لَقَدْ أُوقدَتْ لي نارٌ، فما أطفأها إلا شَحْمِي.

(٢) **خَتَنُكَ** أي: زوج أختك فاطمة، **الخَتَنُ**: زوج البِنْت، وزوج الأخت، وكلّ من كان من قِبَل المرأة، كأبيها، وأخيها.

صحيفة، فيها «طه» يُقْرِئُهما إيَّاها، فلمَّا سَمِعُوا حِسَّ عُمَر تَغَيَّبَ «خبَّابٌ» في مَخْدَعٍ لهم، أو في بَعْضِ البَيْتِ، وأخَذَتْ فاطِمَةُ بِنْتُ الخطَّابِ الصحيفة فَجَعَلَتْهَا تَحْتَ فَخِذها، وقد سَمِعَ عُمَرُ حينَ دَنا إلى البَيْتِ قراءة «خبَّابٍ» عَلَيْهِما، فلمَّا دَخَلَ قال: ما هٰذِهِ الهَيْنَمَة[1] الَّتي سَمِعْتُ؟

قالَا له: ما سَمِعْتَ شَيْئاً.

قال: بلى واللَّه لَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّكُمَا تَابَعْتُمَا مُحَمّداً على دينه، وبَطَشَ بخَتَنِهِ «سَعِيد بْنِ زَيْد» فقامَتْ إليه أُخْتَهُ فاطمةُ بِنْتُ الخطَّابِ، لتَكُفَّهُ عَنْ زَوْجِهَا، فضَرَبَها فَشَجَّهَا.

فلمَّا فَعَلَ ذلكَ قالَتْ لَهُ أُخْتُهُ وخَتَنَهُ: نَعَمْ قَدْ أَسْلَمْنَا وآمَنَّا باللَّهِ ورسوله فاصْنَعْ ما بَدا لكَ.

فلمَّا رأىٰ عُمَرُ ما بأُخْتِهِ من الدَّم نَدِمَ على ما صَنَعَ، فارْعَوَىٰ، وقال لأُخْتِهِ: أَعْطِيني هٰذِهِ الصحيفة الّتي سَمِعْتُكُمْ تَقْرَؤُونَ آنفاً أَنْظُرْ ما هذا الّذي جاءَ به محمّد، وكان عُمَرُ كاتباً، فلمّا قال ذلك، قالَتْ له أُخْتَهُ: إنَّا نَخْشَاكَ عليها.

قال: لا تخافي، وحَلَفَ لها بآلهتِهِ لَيَرُدَّنَّها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طَمِعَتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنَّك نَجِسٌ على شِرْكِكَ، وإنَّه لَا يَمَسُّهَا إلّا المُطَهَّرُون.

فقامَ عُمَرُ فاغْتَسَل، فأَعْطَتْهُ الصحيفة، وفيها «طه» فقرأها، فلمَّا قرأ مِنْهَا صَدْراً قال: ما أَحْسَنَ هذا الكلام وأكْرَمَه!

فلمّا سمع ذلك «خبَّابٌ» خرَجَ إليه، فقال له: يا عُمَر، واللَّهِ إنّي لأَرْجُو أن يكون اللَّهُ قَدْ خَصَّكَ بدَعْوَةِ نَبِيِّه، فإنّي سَمِعْتُه أمْس وهو يقول:

---

[1] **الهَيْنَمَة**: صوت كلام غَيْرَ ظاهر.

اللَّهُمَّ أيِّد الإسلام بأبي الحَكَمِ بْنِ هشام، أو بِعُمَرَ بن الخطاب، فاللَّه اللَّهَ يا عُمَر.

فقال له عند ذلكَ عُمر: فدُلَّني يا خَبَّابُ على محمّد حتَّى آتِيَهُ فأُسْلِمَ.

فقال له خبَّاب: هو في بيتٍ عند الصَّفا، معَه فيه نَفرٌ مِنْ أصحابِهِ، فأخذ عُمَرُ سَيْفَهُ فتَوَشَّحَهُ، ثُمَّ عَمَدَ إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرَبَ عليهم الباب، فلمَّا سَمِعُوا صَوْته، قامَ رجُلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خَلَل الباب، فرآهُ مُتوشِّحاً السَّيْفَ، فرَجَعَ إلى رسول الله ﷺ وهو فَزِع، فقال: يا رَسُول الله، هذا عُمَرُ بْنُ الخطَّاب مُتوشِّحاً السَّيف، فقال حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِب: فَأْذَنْ له، فإنْ جاءَ يُرِيد خَيْراً بذَلْنَاهُ له، وإنْ كانَ جاءَ يُرِيدُ شرّاً قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ.

فقال رسول الله ﷺ: ائْذَنْ له، فأذِنَ له الرَّجُل، ونَهَضَ إليه رسُولُ الله ﷺ حتَّىٰ لَقِيَهُ في الحُجْرَةِ، فأخَذَ حُجْزَتَه(١)، أو بمَجْمَعِ رِدائه، ثم جَبَذَهُ به جَبْذَةً شَدِيدَةً، وقال: مَا جاءَ بكَ يا ابنَ الخطَّاب، فواللَّهِ ما أرَى أنْ تَنْتَهِي حتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ بكَ قَارِعَةً(٢).

قال عمر: يا رسُول الله، جِئْتُكَ لأُومِنَ باللَّهِ وبرسوله، وبما جاء من عند الله.

فكبَّرَ رسولُ الله ﷺ تكبيرَةً عَرَفَ أهْلُ البَيْتِ من أصحاب رسولِ الله ﷺ أنَّ عُمَرُ قَدْ أسْلَم.

فتفرَّقَ أصْحَابُ رسُولِ اللَّهِ ﷺ من مكانهم، وقَدْ عَزُّوا في أنْفُسِهِمْ

---

(١) **الحُجزَة**: مَوْضع شدّ الإزار.

(٢) **القارعة**: المصيبة الشديدة.

حينَ أسْلَمَ عُمَرُ مع إسْلامِ حمزة، وعَرَفُوا أنَّهما سَيَمْنَعَانِ رسُولَ الله ﷺ، ويَنْتَصِفُونَ بهما من عَدُوِّهم.

(٣)

موضوع سورة (طٰه)

يدور موضوع سورة (طٰه) حول الرسول والقرآن وبعض وظائفهما في النّاس، وتحذيرِ من يُعْرِضُ عن القرآن من النّاس، من سوء المصير يوم الدين، مع بيان بعض ما يجري في يوم القيامَةِ من تغييراتٍ وأحداث كونيَّة، ومع بيانات تتعلَّق بآدم عليه السلام، وبَعْضِ ما أنْزَلَ الله عليهِ لهدايَةِ الجيلِ البشريّ الأوّل، فمَنْ بَعْدَهم حتَّى احتاج الناس إلى رسُولٍ بعد آدم، وأنّ الله حذّر الجيلَ الأوّل من الإعراضِ عمّا يأتيهم مِنْ هدىً، كما حذّر النّاس في الدين الخاتم من الإعراضِ عن القرآن، الذي أنزلَهُ الله عزّ وجلّ للناس أجمعين، واسْتَتْبَعَ هذا التحذير الإنذارَ بعقابٍ مُشابِهٍ لأنواع العقاب الّتي عاقب الله بها كفّار القرونِ السابقة.

وقد تضمَّن هذا الموضوع توصيةً من الله لرسوله وحَمَلَةِ رسالَته من أُمَّتِهِ ببَعْضِ الوصايا التي تتطَلَّبُها وظيفة حامل الرسالة الرَّبانيَّة للنّاس.

وجاء في آخر السورة معالجة الكافرين حول بعض أقوالهم الّتي ظهرت قبل نزول سورة (طٰه)، وفي هذه المعالجة إقناعٌ وإنذارٌ بالعقاب.

وقد اقتضىٰ هذا الموضوع عرض لقطاتٍ من قصّة موسى عليه السلام، وتتضمَّنُ هذه اللّقطات جوانب تربوية ينتفِعُ بها الرسولُ ﷺ، والّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وتتضمَّن تلويحات بعصَا الإنذار لمَنْ كَفَرَ وعصىٰ، قياساً على ما جرىٰ لفرعون وقومه.

وتتضمَّن آيضاً بيان بعض ما جرى لبني إسرائيل من اضطهادٍ في مصر، وما كان منهم من أحداثٍ بَعْدَ خروجهم منها، وفي هذا البيان ما

يفيد بشأن موضوع السّورة الأسَاسي، لمن أحْسَنَ التدبُّر واسْتَبْصَر وعَقَلَ، فقِصَصُ الرُّسلِ وأُمَمِهِم مُتَشابِهَة، ويُسْتَفاد من قِصَص السابقين لِلّاحقين الشيءُ الكثير.

(٤)

دروس سورة (طه)

تشتمل هذه السورة على تسعة دروس:

الدرس الأول:

يتضمَّنُ ما يلي:

(١) بيان وظيفة الرَّسُول التبليغية.

(٢) بيان وظيفة القرآن التعليميَّة والتذكيريَّة.

(٣) بيان أنّ القرآن كلام الله وتنزيلٌ من لَدُنه، مع التذكير بأنَّ مُنَزّل القرآن هو خالِقُ الأرض والسماوات العُلَا، وهُوَ العظيم الرَّحْمٰنُ الذي على العرش استوى، وله ما في السماواتِ وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وأنّه يَعْلَم السِّرّ وأخفى، وأنَّهُ الله الذي لا إلٰه إلّا هو لَهُ الأسماء الحسنى.

وهو الآيات من (١ ـ ٨).

الدرس الثاني:

يتضمن بيان لقطات من قصة موسى بدءاً من وصوله إلى قرب جبل الطور، في رِحْلَةِ رَجْعَتِهِ إلى مصر من مَدْيَن، هو وأهله، ومكالَمةِ الله له، وتكليفهِ وظائفَ رسالَتِهِ، وأحداثِ قيامِهِ برسالَةِ ربِّه في مصر، حتَّىٰ خروجه ببَنِي إسرائيل من مصر، وعُبُورِهِمُ البَحْر، وغَرَقِ فِرْعَوْنَ وجنوده، مع ذكر بعض الأحداث التي جرت في سيناء بعد العبور.

وفي عرض هذه القصة غطاتٌ تربويَّة عظيمة للرسول وللذين آمنُوا به واتّبَعُوه، وإنذاراتٌ للّذين كفروا به ولم يَسْتَجِيبوا لدعوته.

وهو الآيات من (٩ وحتى بعض الآية ٩٩).

الدرس الثالث:

يتضمَّن تحذير من يُعْرِضُ عن القرآن الّذي آتاه اللّهُ نبيَّه ذِكْراً للعالمين، من سوء المصير يَوْمَ الدّين.

مع عرض لَقْطَةٍ من لقطات أحوال المجرمين يومئذٍ.

وهو الآيات من (بعض الآية ٩٩ ـ ١٠٤).

الدرس الرابع:

يتضمَّن لقطاتٍ من وصف يوم القيامة، وما يكون فيه من تغييراتٍ كونيّة، وأحداثٍ كبيرة.

وهو الآيات من (١٠٥ ـ ١١٢).

الدرس الخامس:

يتضمَّن بياناً عن القرآن، وتربيةً شِبْهَ مُعْتَرِضَة موجّهة للرّسول ﷺ تُوصِيهِ بعَدَمِ تعجّلِهِ بتَرْدِيدِ آيات القرآن حين تَنْزِيلِهِ عَلَيْهِ، من قَبْلِ أنْ يُقْضَى إليه وَحْيُه.

وهو الآيتان: (١١٣ و١١٤).

الدرس السادس:

يتضمّن لقطات من قصّة آدم عليه السلام، وبيانات تتعلَّقُ بما أنزل الله عزّ وجلّ على الجيلِ البشريّ الأوّل من هُدىً، وأنّ الله حذَّرَهم من الإعراضِ عَنْه، وهذا التَّحْذِيرُ يَنْسَحِبُ على كُلِّ الناس حتّى آخر إنسانٍ مُكلّفٍ في الحياة الدُّنيا، أنْ لا يُعْرِضَ عمَّا أنْزَلَ اللَّهُ للنَّاس على توالي

الأجيال، ومعلومٌ أنّ المَطْلُوبَ العَمَلُ وِفْقَ آخِرِ تنزيلٍ أنزلَهُ الله لعباده.

وهو الآيات من (١١٥ ـ ١١٧).

الدرس السابع:

يتضمّن تحذير مُكذّبي الرسول محمد ﷺ والكافرين بما أنزل الله عليه من عقابٍ إهْلَاكِيٍّ شامل، مشابهٍ للعقاب الذي أنزله بكفَّار القُرون الأولىٰ.

وهو الآيتان: (١٢٨ و١٢٩).

الدرس الثامن:

يتضمَّن توصية الله لرسوله، ولكلّ حامل رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ، بالصَّبْرِ والتَّسْبِيحِ، وأنْ لا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إلى ما مَتَّعَ اللَّهُ به أصنافاً من البشر، بزينَةِ الحياة الدنيا لامْتِحَانِهِم فيه.

ويتضمن تَوْجيه اللَّهِ لرَسُولِهِ ولكل حاملِ رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ، لملاحظة ما هو خير وأبقى، وهو ما أعدَّهُ الله من نعيم باذخ ومُلْكٍ عظيم يوم الدّين لأوليائه. والتوصية بأنْ يَأْمُرَ أهله بالصلاة وأن يصطَبِرَ عليها.

وهو الآيات من (١٣٠ ـ ١٣٢).

الدرس التاسع:

يتضمَّن معالجة بعض أقوال الكافرين الاقتراحيَّة، بالإقناع وبالإنذار بالعذاب والإهلاك.

وهو الآيات من (١٣٣ ـ ١٣٥) آخر السورة.

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (طٰه) وهو الآيات من (١ ـ ٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿طه ① مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ④ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ⑤ لَهُۥ مَا

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ (٨)﴾.

- سكت أبو جعفر سَكْتَةً لطيفة بدُونِ تنفُّسٍ على «طَا» و«ها»، ولم يَسْكُتْ هذه السكتَةَ باقي القرّاء العشرة.

التدبّر التحليلي:

- [طه] حرفان من الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعضِ سُور القرآن، وقد ذكَرْتُ ما يَكْفِي بشأنها لدَى تدبّر أوّل سورة (القلم).

وذكروا أنّ كلمة (طه) هي بمعنى: يا رجل، في لغة «عك» وفي لغة «عكل» وفي لغة «طي»، وقيل: هي كذلك في اللُّغة النبطيّة، وفي اللُّغة الحبشيّة، وفي اللُّغَةِ السّريانية.

ولفظ «طه» اسْمٌ لهذه السورة.

ولم يصحّ أنها اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، أو اسم من أسماء الرسول محمّد ﷺ.

قول الله عزّ وجلّ:

[مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)]:

الخطابُ في هذه الآية موجّه للرَّسُول محمّد ﷺ، وهو ينسحبُ من بعده، فيشْمُلُ كُلَّ حَمَلَةِ رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ.

[لِتَشْقَىٰ]: **الشقاء**: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على كلّ ما لا يسُرُّ الإنسان من أُمُورٍ، وعلى كُلّ ما يُخالفُ رغبةً له ومطلوباً من مطالبه، في عاجلِ أمْرِهِ أو آجله، من أدنى المزعجات والمكدّرات، إلى أشد المؤلمات.

أي: ما أنزلْنَا القرآنَ علَيْكَ يا مُحمَّد لتَكْلِفِيكَ أعمالاً تشقىٰ بها،

أي: تُتْعِبُ نَفْسَكَ وقَلْبَكَ بها، كتَحْمِيلِكَ واجِبَ حَمْل الناس على الإيمانِ به، وبما جاء فيه، وواجِبَ حَمْلِ النَّاسِ على تطبيقِ شرائعه، وأحكامه، وما جاء فيه من أوامِرَ ونواهي.

وقد جاء في القرآن معالجةُ نَفْسِ الرَّسول ﷺ، بشأن حُدودِ مسؤوليّته تجاه رسالته، في نصوص متعدّدة، وفي مراحل متتابعة من تاريخ رسالته صلوات الله عليه، وبأساليب بيانية مختلفة، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) خطاباً له:

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

- **[إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝٣]:**

قام في أذهاب المفسّرين أنّ «إلّا» في هذه الآية أداةُ استثناء، أو الاستثناء بها استثناء منقطع، فأخذوا يُؤَوّلون تأويلات لا لزوم لها.

والأَوْلَى أنْ نَعْتَبِر «إلّا» هنا وفي مواضع أخرى مشابهة، أداة استدراكٍ بمعنى: «لَكِنْ» وعندئذٍ فلا حاجة في العبارة إلى تأويل.

وعلى هذا يكون المعنى: ما أنزلْنا علَيْكَ القُرْآنَ لتكليفِكَ أعمالاً

تَشْقَىٰ بها، لكِنْ أنْزَلْنَاهُ لتَقُومَ بتَبْلِيغِهِ، وبيانِ ما جاء فيه، ومتابَعَةِ تذكيرِ مَنْ يَخْشَى، وليكون نَصُّهُ دواماً أداة تَذْكيرٍ لِمَنْ يَخْشَوْنَ عقاب رَبِّهم، بما هو مَطْلُوبٌ منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا.

[تَذْكِرَةً]: **التَّذْكِرة**: تأتي بمعنيَيْن:

المعنى الأول: التذكِرَة: اسْمٌ لمَا يُسْتَذْكَرُ بِهِ الشيءُ المطلوب تَذَكُّرُه، كالرَّتيمة، وكالبطاقة الّتي تُذَكّرُ بموعد اللّقاء والاجتماع.

المعنى الثاني: التَّذْكِرَة: مَصْدَرٌ لِفِعْلِ «ذَكَّر» يقال لُغَةً: ذَكَّرَهُ تَذْكيراً وتَذْكِرَة.

قال الصَّرْفيون: ونَدَرَ مجيء مَصْدَرِ «فَعَّل» على «تَفْعِلَة» ومن هذا النادر: «ذكَّرَ تَذْكِرَةً» و«جَرَّبَ تَجْرِبَةً» و«بَصَّرَ تَبْصِرَةً».

ويمكن حمل لفظ «تَذْكِرَة» في الآية على المعنيَيْن:

- فنقول على الأول: لكِنْ ليكون القرآنُ نصاً ثابتاً مكتوباً، يَسْتَذْكِرُ به من يَخْشَوْنَ ربَّهُمْ، ما هُو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا.

- ونَقُول على الثاني: لكِنْ تذكيراً مِنْكَ ومِنْ حَمَلَةِ رِسَالَتِكَ من أُمّتِكَ، لمن يَخْشَى.

أي: أن تُتَابعَ بالتَّذْكِير بالقرآن مَنْ تَجِدُ لدَيْه استعداداً لأنْ يَخْشَى اللّهَ وعقابَه.

[لِمَنْ يَخشَى]: أصْلُ معنى الخشية، الخوف من شيءٍ مَخُوفٍ منه.

والخشية من اللّهِ عزّ وجلّ في مُسْتَواها الأعلىٰ، خوفٌ مصحوبٌ بتعظيمٍ، وإجلالٍ، ومَهَابَةٍ، وقد يَقْتَرِنُ بها الحبُّ.

قول الله عزّ وجلّ:

- [تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَاوَاتِ العُلَىٰ ﴿٤﴾]:

[تَنْزِيلاً]: مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وهو بمعنى «الإِنْزَال» مَصْدَرِ «أنزل» لأنّ الفعل المضعف أخو الفعل المهموز.

وقد يُخْتَارُ لفْظُ «التَّنْزِيلِ» للدَّلَالَةِ على الأناة والتَّمَهُّل.

وهو مفعول مطلَقٌ من الفعل في [أَنزَلْنَا] في الآية (٢) بشيءٍ من التأويل، أو هو مفعولٌ مُطْلَقٌ من فِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: نُزِّل تنزيلاً بأناةٍ وتَمَهُّلٍ مِمَّنْ خلقَ الأرض والسَّمَاوَّتِ العُلَى.

وقد سبَقَ أنّ ظَهرَ لنا بالتدبُّر، أنَّ كُلَّ عطاءاتِ الله وما يأتي منه لمخلوقاته، هو إنزالٌ وتَنْزِيل، لأَنَّهُ جلَّ جلالُهُ العلِيُّ الأعْلَى، ولَوْ كان ما يَخْلُقُهُ اللَّهُ عزّ وجلّ صُنْعاً مِنْ صُنْعِهِ في الأرض، لَمْ يُنْزِلْهُ مِنَ السَّماء، كقوله تعالىٰ في سورة (الزُّمَر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿... وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ... ﴿٦﴾﴾.

في معظم النُّصوص القرآنيَّة الّتي اجْتَمَعَ فيها ذِكْرُ السَّماواتِ والأَرْضِ، نجد أن لفظ «السَّماوات» أو «السَّماء» قد جاء مُقَدَّماً على الأرض، وهذا هو ما تقتضيه حِكْمَةُ البَدْء بذِكْر الأكْبَر، وبَعْدَهُ يأتي ذِكْرُ ما هو أصْغر.

لكن جاء في هذه الآية البَدْء بذكر الأرض، لمراعاةِ فَنِّيَّة التناظُرِ بين رؤوس الآيات، الّذي من أجْلِهِ وُصِفَت السَّماوات بكلِمَةِ [العُلَىٰ].

[الأَرْضَ] هي هذا الكوكَبُ الذي نَعِيشُ عليه، بكلّ ما فيه مِنْ منافع وعجائبِ خَلْقٍ رَبَّانيّ.

[والسَّمَاوَاتِ]: هي السَّماوات السَّبْعُ، ويُلْحَقُ بها الكُرْسِيُّ والعَرْش، لأنَّها تَقَعُ في جِهَةِ العُلُوّ بالنِّسْبَةِ إلى الأَرض وسُكَّانها، فالسَّماءُ في اللُّغَةِ كُلُّ ما عَلَا وارْتَفَعَ عن رأسِ مُشاهِدِهِ، وهو غَيْرُ مُنَكَّس القامَةِ.

[العُلَىٰ]: على وَزْنِ «الفُعَل» جَمْعُ «العُلْيَا» على وزن «الفُعْلَى» مثل «الكُبْرَى» تُجْمَعُ على «كُبَر» والصُّغْرَى تُجمَعُ على «صُغَر» وهو جَمْعٌ قياسي.

العُلَا: أي: المرتفعة، وارْتفاعُهَا العظيم مشهودٌ لكُلِّ ذي نظر.

أمَّا ما في السَّماواتِ من عجائب خَلْقِ الله ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه ـ فَشَيْءٌ لا تَسْتَطِيعُ كُلُّ الخلائق حَصْره.

أي: إنَّ الذي خَلَق الأرض والسَّماوات العُلَا، هُوَ الذي أنزل القرآنَ على رسوله محمّد ﷺ، فلا بُدَّ أنْ تَكُونَ عظمَةُ القرآن متناسِبَةً مع عظَمَةِ مُنْزِله، خالِقِ الأرض والسَّماوات العُلَا.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ٥﴾:

أي: خَالِقُ الأرض والسَّماواتِ العُلا هو الرَّحمٰن، وهو على العرش استوى.

[الرَّحْمٰنُ]: اسم من أسماء الله الحسْنَى، وهو يَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ متَّصِفٌ بالرَّحْمَةِ العظمىٰ.

الرَّحْمة: صفة من صفات الله الجليلة، وهي صفة نَفْسيَّة نثبِتُها لله عزَّ وجلَّ على ما يليق بجلاله.

ومن آثار صفة الرَّحمة لله عزّ وجلّ، العَطاءُ، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ البُؤْسِ، والإمدادُ بما يَسُرّ، ويُسَكّنُ النَّفْسَ، ويطمئِنُ القلب، ويُمْتِعُ ذا الحياة بما يطيب لديه، ويَهبُه ما يُلَبِّي حاجاته، ويَكُفُّ عَنْهُ الشَّرِّ والضُّرَّ والسُّوء، ويَهْدِيه إلى ما فيه خيرُهُ وسعادته في عاجل أمْرِهِ وآجله، ويُبَيِّن له ما فيه شرٌّ وضُرٌّ وأذىٰ، إلى غير ذلك من أمور كثيرة جداً.

[عَلَىٰ العَرْشِ]: **العَرْش**: كائِنٌ عظيم، فوق السَّماوات السَّبْعِ وفوق الكُرْسي، وهو أعْظَمُ مِنْها. وليس لدينا بيانٌ صحيحٌ عن الرسول ﷺ يُبيِّنُ وَصْفَهُ، أو يُبَيِّنُ وَصْفَ الكرسي، والذي التقت على بيانه الآثار أنَّ السماوات السَّبْع بالنسبة إلى الكرسي كحلْقَةٍ مُلْقاةٍ في أرضٍ فلاة، وأنّ الكرسيّ بالنسبة إلى العرش كحلقةٍ ملقاةٍ في أرض فلاة.

[اسْتَوَىٰ]: **الاستواء**: في اللُّغَة الاستقامةُ والاعْتدال، يُقالُ لغة: استوى فلانٌ على كذا، أي: اعتدَلَ واستقام فوقه.

ويقال: استوى إلى فِعْلِ كذا، أي: اعْتَدَل واستقامَ متوجّهاً لفِعْله، قاصداً إليه، لا يَلْوِي على شيءٍ آخر.

ويقال: استوى فلانٌ على سَرِير المُلْكِ، أي: تولّىٰ تَصْرِيف شُؤُون مَمْلَكَتِهِ.

وأحْسَنُ بيان حول الاستواء الذي وصَفَ الرَّحْمٰنُ به نفسه، ما قاله الإمام مالِكٌ إمامُ دار الهجرة:

«الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُول، والاستواءُ غَيْرُ مجهولٍ، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عَنْه بِدْعَة».

قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ⑥﴾:

- **[لَهُ]**: أي: مِلْكُ اللَّهِ جميعُ ما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحتَ الثَّرَىٰ، ولفظ «ما» هي في الأصل لغير العاقل من الأحياء، ومن الأشياء، ولكن قد تُسْتَعْمَلُ من باب التَّغْليب على ذوي العقل والعلم، كما في هذه الآية.

وقد جاء استعمال لفظ «مَنْ» الخاصة بذوي العقل والعلم، في قول

الله عزّ وجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) دالّاً على أنّهم مِلْكه:

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦﴾.

ونظيره في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩﴾.

[كُلٌّ لَهُ قانِتُون]: أي: كُلٌّ لَهُ طائعونَ خاضِعُون، والمرادُ بالطاعَةِ والخضوعِ هُنا ما كانَ مِنْهُمَا جَبْرِياً لا اختيارِيّاً، نظراً إلى أنّ مَنْ في الأرض يوجَدُ فيهم عاصُونَ ومُسْتَكْبِرُون، وغير طائعين ولا خاضعين باختيارهم الحرّ.

[لاَ يَسْتَحْسِرُون]: أي: لا يتعَبُون ولا يَمَلُّون، وهم الملائكة.

- **[وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ]**: **الثّرى**: التُّرَابُ النَّدِيُّ، ويُطْلَقُ أيضاً على النَّدَى.

أي: لِلَّهِ الرَّحمٰن مِلْكُ كُلِّ ما في السَّماوات من أشياء وأحياء، وكُلُّ ما في الأرض من أشياء وأحياء، وكُلُّ ما في داخل الأرض مِنْ كُنُوزٍ إنْباتِيَّة، بسبَبِ النَّدَى والماء الذي يَبُلُّ التراب فيكُونُ صالحاً لظُهُورِ النَّبَاتِ ونمُوّه، وكلُّ ما في داخل الأرض من كُنُوزٍ أخرى، كالمعادن على اختلافها، والمياه والنفط، والفَحْم الحجريّ، والحرارة، وغير ذلك مما أودعَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ في باطن الأرض.

واخْتِير لفظ «الثّرىٰ» هنا لحكمَتَيْن:

الحكمة الأولَى: مراعاةُ فَنِّيَّة التَّناظُرِ بَيْنَ رُؤوس الآيات.

الحكمة الثانية: أنَّ سَطْحَ الأرض وما تكشِفُهُ المحاريثُ والحفريَّاتُ منها داخِلٌ في عُمُومِ عبارة: **[وَمَا فِي الأَرْضِ]** لأنَّ أكثر النَّاس يَفْهَمُونَ من الأرض ما هو مَرْئِيٌّ منها، ولا يفهَمُون من لفظ «الأَرْض» ما هو داخِلٌ في أعماقِهَا حتَّىٰ مَرْكَزِ كُرَتِهَا.

فاقتضَىٰ البيانُ التَّنْبِيهَ على هذا الباطن، بعبارة: **[وَمَا تَحْتَ الثَّرَى]**، أي: وما تحت الترابِ النَّدِيّ المَبْلُولِ، الَّذِي يُهِمُّكُمْ لزراعَتِهِ واستنباتِ ما تحتاجُونه لأنْفُسِكم وأنعامكم ودوابِّكم.

وإذا كان كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرض وما بَيْنَهُمَا وما في باطِنِ الأرض، داخلاً في مِلْكِ الله عزَّ وجلَّ، فلا بُدَّ أنْ يكُونَ خاضِعاً لسُلْطانِ مُلْكِهِ في كلِّ التصاريف والتدبيرات.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ⑦﴾:

- **[وإنْ تَجْهَرْ بالقَوْل]**: الجَهْرُ بالقول هو إعلانُه برفع الصوت عند النُّطْقِ به.

وفي استعمال «إنْ» الدَّالَّة على النُّدْرَة، إشارةٌ إلى أنَّ الرَّسُول ﷺ رُبَّما جَهَرَ بِبَعْضِ دُعَائِهِ، من شِدَّةِ ما أصابَ نفْسَهُ من ضِيقٍ، بسبب عدم استجابةِ كبراء قومه لدعوته.

- **[فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفَى]**: **السِّرّ**: هو ما حدَّث به المحدّث غيرَهُ بمقدار ما يُسْمِعُه، واستكْتَمَهُ إيَّاهُ، حتَّى لا يصلَ العلم به إلى غيره.

والآراء الأُخرى الّتي ذكرها بَعْضُ المفسّرين في تعريف السرّ يُبْطِلها ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧):

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا . . . ③﴾.

فقد عبَّر الله عزّ وجلّ عن حديث النبيّ لبَعْضِ أزواجه بأنَّه أسَرَّهُ لها، فهو سِرٌّ، وهذا الحديث لا بُدَّ أن يكون بكلامٍ مَسْمُوع.

والأَخْفَى مِنَ السِّرِّ: هو ما حدَّث به الإنسانُ نَفْسَه في داخِلِ نفسه، دون أن يَنْطِقَ به، كالخواطر، والأحاديث الكثيرة الّتي تجري داخل النفس، دون أن يَنْطَلِقَ منها على اللّسان شَيْءٌ.

إنّ الأفكار الّتي يُعَبَّر عَنْها بالكلام لها ثلاثَةُ أحوال:

(١) إمَّا أن يَجْهر النّاطق بها، إذْ يَرْفَعُ بها صَوْته، دون أن يحاول إخفاءَها عن أحَد.

(٢) وإمَّا أنْ يُحدّثَ بها مَنْ يَسْتَأْمِنُهُ على سرّه، وهو حريصٌ على إخفائه عن غَيْرِ مَنِ اسْتَأْمَنَه.

(٣) وإمَّا أن يُحَدِّث بها نَفْسَهُ في داخل نَفْسِهِ، دون أن يَنْطِقَ به.

ولعلّ الرَّسُول ﷺ أعْلَنَ بعْضَ دُعائه لرَبّه، فيما يتعلَّقُ بإعراض قومه عن القرآن وهجرهم له، وعدم استجابَتِهِمْ لدَعْوَته، كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بقولِ الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾﴾.

فأعلن الرسول ﷺ بدعائه هذا، وجَهَرَ به، فأعْلَمَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بأنّه لا حاجة إلى جَهْرِكَ بمِثْلِ هذا الدُّعاء، فإنَّ ربَّكَ يَعْلَمُ مناجاتك لَهُ سِرّاً، ويَعْلَمُ أحاديثَ نفسك وخواطِرَك.

وقد سبقَ لدى تدبّر الآية (٣) من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) بيانُ أدبِ الدُّعاء والذّكر لله عزّ وجلّ، وكذلك لدى تدبّر الآية (٢٠٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

والتوجيه للرَّسُول ﷺ في هذا يَعُمُّ كلَّ فَرْدٍ من أفراد أُمَّتِهِ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ⑧﴾:

هذه الآية بمثابة قرينة مُشْعِرَة بالمراد بالآية (٧) السابقة لها، وهو أنّ الرَّسُول ﷺ قد جَهَرَ بالقول في بَعْضِ دعائِهِ لربِّهِ، وكان أدَبُ الدُّعاء أن يناجي رَبَّه به مناجاةً، أو يَكْتَفِي بالدُّعاء النَّفسي.

فذِكْرُ الأسماء الحُسْنَى، الّتي يَدْعُو المؤمِنُ بها رَبَّه، وهو ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ⑱⓪﴾.

يُشْعِرُ بأنّ الأمرَ الذي وجَّهَهُ الله عزّ وجلّ لرسُوله، يتعَلّقُ بدعاءٍ جَهَرَ به، وكان الأَوْلَى أن يلتزم أدب الدُّعاء، فيناجي ربَّه، أو يَدْعُوَهُ في نَفْسِهِ.

ويُؤكّدُ هذا قول الله لرسوله في الآية الثانية من هذا الدرس: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ②﴾.

- **[اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ]**: أي: الله لا مَعْبُودَ بحقٍّ عبادةً تَنْفَعُ العابِدَ إلّا هو جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

وقد جاءت هذه العبارة تمهيداً لعبارة **[لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى]**، أي: الّتي لا عبادةَ للّهِ بالدُّعاء إلّا بها.

وأسْمَاءُ اللّهِ الحُسْنَىٰ تَشْمَلُ كُلَّ أسمائه وصفاته، ومِنْها ما جاء في الحديث الصحيح:

«إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسماً مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّة».

[الحُسْنَى]: مؤنَّثُ «الأحْسَن» فهي أفضل الأسماء بالإطلاق العامّ الشامل.

ولعلَّ في ذكر «الحُسْنَى» إشارَةً إلى أنّه يَحْسُنُ أن يَسْتَخْدِمَ الداعي في دعائه من أسماء الله ما يُلائِمُ المدعُوَّ به.

فإذا كان المطلوب يتعلَّقُ برحْمَةِ الله، سأل ربَّه باسمَيْ الرحمٰنِ الرحيم.

وإذا كان المطلوب يتعلَّقُ بغُفْران الذنوب، سأل الداعي ربَّهُ باسْمَي العَفُوّ الغفار.

وإذا كان المطلوبُ الانتقام من الظّالم المكابر، سأل الداعي ربَّه بأسمائه المنتقم القهّار الجبار.

وهكذا . . .

وبهذا انتهى تدبّر الدَّرْس الأوّل من دُرُوس سورة (طه)، والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه)
وهو الآيات من (٩ وحتى بعض الآية ٩٩)

وهذا الدرس يتضمن لقطات من قصة موسى عليه السلام
ولطوله يَحْسُنُ تجزئته إلى فقرات

الفقرة الأولى
الآيات من (٩ ـ ٣٦)

قال اللّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ⑨ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ
ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ⑩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ
يَٰمُوسَىٰٓ ⑪ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ⑫ وَأَنَا

ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ
لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾
فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ
أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا
وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ
غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ
﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي
﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ
أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ
كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾.

القراءات:

١٠ • قرأ حَمْزَة: **[لِأَهْلِهُ امْكُثُوا]** بضمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القُرّاء العشرة: **[لِأَهْلِهِ امْكُثُوا]** بكَسْر هاء الضمير، وهُما لغتان عَرَبيانِ جائزتان.

١٠ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر: **[إِنّيَ آنَسْتُ]** بفتح ياء المتكلّم، وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٠ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبُو جَعْفر: **[لَعَلّيَ آتِيكُمْ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَعَلّي آتِيكُمْ]** بإسكان ياء المتكلّم.

١٢ • قرأ نافع: **[إِنّيَ أَنَا رَبُّكَ]** بفتح ياء المتكلّم وكسر همزة «إِنَّ».

وقرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: **[أَنّيَ أَنَا رَبُّكَ]** بفتح ياء المتكلّم، وفتح همزة «أنّ» من «أنّي».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إِنِّي أَنَا رَبُّكَ] بإسكان ياء المتكلّم، وكَسْرِ همزة «إنّ».

كَسْرُ همزة «إنَّ» هو على أنَّ الجملة ابتدائية، وفتحها هو على تقدير حرف جرّ مَحْذوف، أي: نوديَ يا مُوسَىٰ بأنّي أنا رَبُّكَ.

وهما وجهان جائزان، وفيهما تفنُّنٌ في التعبير.

١٢ • قرأ يعقوب: [بِالْوَادِي] فأثبت الياء في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بِالْوَادِ] بحذف الياء في الوقف والوصل.

١٢ • قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: [طُوىً] بالتنوين، على أن اللفظ مصروف، بتقدير أنه نكرة وهو اسْمُ وادٍ، أو مكان ما.

وقرأها باقي القراء العشرة: [طُوىٰ] بدون تنوين على أنَّ اللفظ ممنوعٌ من الصَّرْف، بتقدير أنه معرفة إذ هو اسم بقْعَةٍ مَعْرُوفة.

١٣ • قرأ حمزة: [وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ] بضمير المتكلّم العظيم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَنَا اخْتَرْتُكَ] بضمير المتكلّم المفرد.

والقراءتان تَدُلَّان على أنَّ الله عزّ وجلّ خاطب موسى بضمير المتكلّم العظيم أوّلاً، لتربيَةِ المَهَابَةِ في قَلْبِهِ، ولإشعاره بأنّ الخالق قد اصطفاه بعظمة رُبوبيَّتِهِ، وبَعْدَ ذلك عاد إلى مخاطبَتِهِ بضمير المفرد لإيناسهِ، فالسِّبَاقُ والسِّيَاق اشتملا على خطاب الله له بضمير المفرد.

١٤ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِنَّنِيَ أَنَا اللَّهُ] بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ] بإسكان ياء المتكلّم.

١٤ ـ ١٥ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**لِذِكْرِيَ إِنَّ**] بفَتْحِ ياء المتكلّم، وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكان.

١٨ • قرأ وَرْش، وحفص: [**وَلِيَ فِيهَا**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَلِيَ فِيهَا**] بإسكان ياء المتكلّم.

٢٦ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي**] بفتح ياء المتكلم من [**لِيَ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي**] بإسكان ياء المتكلم من [**لِي**].

٣٠ ـ ٣١ • قرأ ابْنُ عامر: [**أَخِيَ اشْدُدْ**] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَخِي اشْدُدْ**] بإسكان ياء المتكلّم.

٣٢ • قرأ ابْنُ عامر: [**وَأُشْرِكْهُ**] بضمّ الهمزة على أن موسَىٰ يجعلُ أخاهُ شَرِيكاً له في أمْرِ رِسالته.

وقرأ باقي القراء العشرة: [**وَأَشْرِكْهُ**] بفتح الهمزة، على أنْ موسَىٰ عليه السَّلام سَأَلَ ربَّهُ أنْ يَجْعَلَ أخاه هارون شريكاً لَهُ في أَمْرِهِ.

والقراءتان تَدُلّانِ على أنَّ موسىٰ عليه السَّلامُ قال أوّلاً: [**وَأُشْرِكُهُ فِي أَمْرِي**] ثمّ رَأى أنَّ هٰذِهِ العبارة لا تَلِيقُ في مقام متلقّي الرسالة عن رَبّه، فعَدَلَ عَنْها، وقال سائلاً ربَّهُ: [**وَأَشْرِكْهُ**].

تمهيد:

هذه فقرة تَصِفُ حَدَثاً جرىٰ لموسى عليه السلام، وهو راجعٌ بأهْلِهِ من أرْضِ مَدْين إلى مصر، حيث قومُه وأهْلُهُ الإسرائيليون، بعْدَ أنْ خرج منها خائفاً يترقَّبُ، حذراً من أن تَقْتُلَهُ السُّلطةُ الفرعونيّة، إذْ شاع في المصريين خَبَرُ قَتْلِهِ المصرِيَّ انتصاراً للإسرائيليّ المظلوم الذي اسْتَنْجَدَ به، إذْ وَكَزَهُ وَكْزَةً فقضَىٰ عليه.

والحدث العظيم الّذي تَصِفُ هذه الفقرة لقطاتٍ منه، هُو نداء الله لموسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن، ومكالمته له، ومَنْحُه آيَتَيْ العَصَا واليد، وتكليفُهُ حَمْلَ رسالةٍ عظمىٰ لفرعون والمصريّين، ولبَنِي إسرائيل، ولكلِّ مَنْ تَبْلُغُهُمْ دَعْوَته.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾:

العطف في مطلع هذا الدرس الثاني يدُلُّ على ربطه بالدرس الأول، وهذا الرَّبْطُ يُشْعِرُ الرَّسولَ المخاطب به بأن ينظر متفكراً فيما لاقىٰ موسى من متاعب ومشقّات في حَمْلِهِ رسالةَ ربه، وأنه لم يكن مكلّفاً أن يحوّل فرعون وقومه إلى الإيمان والإسلام، من الكفر والعصيان، بل كان مكلّفاً أن يُبَلِّغ رسالة ربّه بالبيان وبالحجة والبرهان، فإذا نظر إلى قصّة موسى بإمعان هان عليه ما هُوَ فيه. ثم على حَمَلة رسالة محمّد من أمّته أن ينظُروا هذا النظر ويَنْتَفِعُوا به.

[هَلْ]: حرف استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن النّسبة الحكميّة في حالةِ الإيجاب، لا في حالة السَّلْب، والنِّسْبَةُ الحكميّة ما يُعْرَفُ عند المناطقة بالتصديق.

والاستفهام في هذه الجملة خارجٌ عن أصْلِ دلالته، وهي طلَبُ الإفهام والإعلام، إلى معنى آخر من المعاني الكثيرة الّتي يخرج فيها الاستفهام عن أصل دَلَالته.

ونفهم هُنا أنّ المرادَ التَّنْبِيهُ على أمْرٍ يُرادُ الإعلام به، ممَّا يتعلَّقُ بالنبيّ الرَّسُولِ مُوسَى عليه السلام.

[أَتَاكَ]: فعل «أتىٰ» هو في الأصل بمعنىٰ المجيء لذاتٍ من الملموسات، واستُعْمِلَ بمعنى العِلْم بالخبر، أو وُصولِ الكلام المتضمِّن للخبر، وهذا من التوسُّع اللّغويّ الذي صارَ بمثابة الحقيقة.

[حَدِيثُ موسَىٰ]: **الحديثُ**: كُلُّ ما يَنْطِقُ به اللّسان من كلامٍ ذي معنى.

و«مُوسَى» هو النبيُّ الرَّسُول، مُوسَىٰ بْنُ عمران، بن قاهث، بْن عازر، بن لاوي، بن يعقوب، بن إسْحاق، بن إبراهيم عليهم السلام.

لفظ «موسىٰ»: اسم مصري معناه «ولد»، ومعناه بالعبري «مُنْتَشَل»، أي: مُنْتَشَلٌ من الماء.

عمران: هو عند أهل الكتاب ينطق «عمرام» و«قاهث» هو عندهم «قهات».

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾:

[إِذْ]: ظرفٌ للزَّمَنِ الماضي، وهو هنا زَمَنُ بعض الأحداث الماضية التي جرَتْ لموسَىٰ عليه السّلام، بَعْدَ أنْ رأىٰ ناراً وهو في رحلة عَوْدَتِهِ إلى مصر، مع أهله من أرض مَدْيَنَ، الّتي تَزَوَّجَ فيها ابْنَةَ الشيخ الصالح، وأقام فيها نحو (١١) عاماً، خَدَمَ عَشْراً منها صِهْرَهُ أبا زوجته، والحادية عشرة هي الّتي جعل له صِهْرُهُ فيها مقابل خدمته له ما ولدتْ غنمُهُ من «قالِب ألوان»، أي: من غير ألوان أمَّهَاتها، بَعْد أن أدَّى في خدمته «أَوْفَىٰ الأجلين وأكْمَلهُمَا» وهو عشر سنين، وكان قال له صِهْرُه: أُنْكِحُكَ إحْدَىٰ ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ على أنْ تَأْجُرَني ثماني حِجَجٍ فإنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ(١).

---

(١) سورة القصص/٢٨، الآية (٢٧).

قال أهل الكتاب: واسْمُها «صَفُّورَة».

• **[إِذْ رَأَىٰ ناراً]**: قال المفسّرون والمؤرّخون: قد حصل ذلكَ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وباردَة، وأنّ موسىٰ وأهْلَهُ تاهُوا، فلم يَهْتَدُوا إلى السُّلوكِ في الدَّرْبِ المألوف إلى مِصْر، وأنَّهُ جعَلَ يُورِي زِنادَهُ فلا يُعْطِي شرَراً لِيُوقِدَ ناراً، وقد اشتَدَّ الظلامُ والبَرد.

• **[فقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا]**: أي: فقال لزوجته ووَلَدَيْهِ ورُبَّما كان معهم خادم: امْكُثُوا، دلَّ على هذا مخاطَبَتُه لهم بضمير الجماعة: امْكُثُوا.

لفظ «الأهل» يطلَقُ على الأقارب، والعشيرة، والأصحاب، والزوجة، وأهْلُ الدَّار هم سُكَّانها.

ولهذا قال الله عزّ وجلَّ بشأنِ لوطٍ عليه السّلام في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وكان أهْلُهُ عليه السلام ابْنَتَيْهِ وزَوْجته.

[امْكُثُوا]: **المَكْثُ**: التوقُّفُ والانتظار والتمهُّل، يقالُ لغة: «مَكَثَ بالمكان يَمْكُثُ مُكْثاً ومَكْثاً ومُكُوثاً» أي: توقَّف، وانتظَرَ، وتَمَهَّل.

• **[إنّي آنسْتُ ناراً]**: أي: إنّي أبْصَرْتُ ناراً، يُقالُ لغة: «آنَسَ الشيءَ»، أي: أحَسَّ به. وآنَسَهُ، أي: أبْصَرَه. وآنَسَ الصَّوْتَ: أي: سَمِعَه. وآنَسَ الأمْرَ، أي: عَلِمَه.

• ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾:

[لَعَلّي]: ذكَرَ هذه العبارة التي تدلّ على الترجّي، لأنه لم يكن جازماً بتحقّق كلا الأمرين وكان يُرَجّح تحقُّقَ أحدهما، والترديد بحرْفِ «أو» يجعل القضية مانعة خُلُوٍّ، لا مانعة جمع.

[**بقبسٍ**]: **القبَسُ**: لفظٌ يُطْلَقُ على النار، ويُطْلَقُ على شُعْلَةٍ منها.

وقد دلَّتْ عبارة: [**لَعَلّي آتيكم مِنهَا بقبَسٍ**] على أنّ موسى عليه السّلام وأهْلَهُ كانوا بحاجةٍ إلى نارٍ يوقدونها، وأنّ الزناد الذي كان معَهُ لم يُورِ فلَمْ يستطعْ إيقادَ النار الّتي يحتاجون إليها.

ودلَّتْ عبارةُ: [**أوْ أجِدُ على النّار هُدىً**] على أنَّهُمْ كانوا تائِهين عن الطريق الموصل إلى مصر، فهم بحاجة إلى من يَهْدِيهم، ويدُلُّهم على الطريق. ودلَّ حرفُ [**علَى**] دون «عند» على أنّ موسى عليه السلام قصد المشرفين على إيقاد النار، لأنّهم يكونون أصحابَ معرفة بالطريق غالباً.

نظرة إلى ما جاء في النُّصوص القرآنيَّة الأخرى بشأن هذا الحدث:

(١) جاء بيان هذا الحدث في سورة (النَّمْل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

[**بِشِهابٍ**]: **الشهاب**: الشُّعْلة المُلْتَهِبَة من النار.

[**تَصْطَلُونَ**]: أي: تَسْتَدْفِئُون. وهٰذه العبارة تدلُّ على أنَّهُمْ كانوا يُعانُونَ من شِدَّةِ البَرْد.

ولٰكِنْ جاء في هذه الآية قول موسىٰ لأهله على سبيل الجزم: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾.

بينما جاء التعبير في آية سورة (طه) على سبيل الترجّي لا على سبيل الجزم، إذْ قال فيها: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾، فكَيْفَ نُوَفِّقُ بيْنَ العبارتَيْن؟

أقول: يظهر أنّ موسى عليه السّلام لمّا رأى ناراً فرح برُؤيتها، فقال

دُونَ تَرَيُّثٍ عبارَتَهُ على سبيل الجزم، كما جاء في آية (النمل). ولمَّا هدأتْ فَرْحَتُهُ، عدَّلَ عبارتَه فجاء بها على سبيل الترجّي، كما جاء في آية (طٰه) إذْ رأى أنّ الجزمَ في مِثْلِ هذا لا يليق بحكيم عاقلٍ رشيد، وربّما قالت له زوجته: هلْ أنْتَ واثق ممّا تقولُ على سبيل الجزم، فتراجَع عن جَزْمِهِ، وعدَّل عبارته، فجعلها بصيغة الترجّي.

(٢) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

الجذْوة: مثلّثة الجيم في اللغة، وهي الجَمْرَة الملتهبة.

أضافت هذه الآية من سورة (القصص) أن رِحْلَة عودته إلى مصر كانت بعد أن قضىٰ أجَلَ خدمَتِه لصِهْرِهِ أبي زوجته، وكانت أوْفَى الأجلين وأكملهما، وهما (٨) أو (١٠) سنوات.

وأضافت بيان أنّ النّارَ التي آنَسَها قد رآها من جانبِ جَبَل الطور، ويُسمَّى عند الإسرائيليين: «جَبَل اللّهِ حُوريب».

وجاء التعبير في آيَتَي (النمل) و(القصص) بعبارة: [بِخَبَرٍ] أي: بخبر عن الطريق الموصل إلى مصر. أمّا التعبير في آية (طٰه) فقد جاء بعبارة: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، والمرادُ خَبَرٌ يَهْدِيه الطريق الموصل إلى مصر، فهو من التفنُّن في التعبير، قالوا: ولم تكن ناراً ذات لهب يُحْرِق، وإنّما هو نور على شكل نار.

فالآيات الثلاث متكاملات، وفي بعضها بيانٌ عن التعديل الذي جاء في عبارة موسىٰ عليه السلام، من الجزم إلى الترجّي، مع ما في تغيير بعض العبارات من تفنّنٍ بياني.

وهكذا نجد فيما يَبْدو في النُّصوص القرآنية من مكرّرات أنَّها متكاملات، لكنَّ تدبُّرها يحتاج إلى أناةٍ وتأمّلٍ وتفكيرٍ بعُمق.

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى (١٢) وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣)﴾:

وفي قراءة حمزة: [**وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ**] بضمير المتكلّم العظيم.

[**فلمَّا أَتاهَا**]: أي: فحِينَ وُصولِهِ إلى قُرْب مَوْقع النار مُباشرَةً.

[**نُودِيَ يَا مُوسَىٰ**]: أي: نَادَاه اللَّهُ عزّ وجلّ: يا مُوسَى.

- نظرة إلى ما جاء في النّصوص الأُخْرى بشَأْنِ هذا الحدث أيضاً:

(١) جاء بيان هذا الحدث في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨) يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٩)﴾.

(٢) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٠)﴾.

وجاء فيها أيضاً خطاباً للرّسولِ محمّد ﷺ، فلكلّ صالحٍ للخطاب:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤)﴾.

(٣) وجاء بيانٌ عنه في سورة (مريم/١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾:

شرح المفردات والجمل:

- **[إنّي أنا رَبُّكَ]**: عبارة جاء فيها التوكيد بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الإسمية ـ وضمير الفصل «أنا»» لأنّ الخطاب من وراء المنظور، لإنسان لم يَسْبِقْ له أن تلقَّىٰ وحي رَبِّه، لا بمخاطبة الله له، ولا عن طريق وسيطٍ من الملائكة، فَهُوَ يحتاج أن يؤكّد له الخبر.

أي: إنّني أنا الّذي أُكَلِّمُكَ من وَرَاءِ حجابٍ خالِقُك، ومُمِدُّكَ بعطاءات رُبوبيّته دواماً، والمدبِّر لكُلّ مقاديرِكَ على توالِي الأزمان.

- **[فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ]**: أي: فاخلَعَ ما تَلْبَسُ بقَدَمَيْك. وهذا أمْرٌ له بأن يقف بين يدَيْ ربّه موقفَ الخُضُوع والتواضع والأدب الجمّ، وكان هذا من أدب الوقوف بين يدَيِ الله في تعليماتِ الدّين، وأُلْغِيَ في الإسلام.

وجاء عند الإسرائيليين، في الإصحاح الثالث من سفر الخروج، أنّ الله قال له:

«اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجلَيْكَ، لأَنَّ المَوْضِعَ الَّذِي أنْتَ واقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ».

- **[إنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً]**: بالوادي المقدّسِ، أي: بالوادي المطَهَّرِ من الأرجاس المعنويّة بتطهيرِ الله له، فمِنَ المناسب أن تُلْصِقَ قدَمَيْكَ حافِيَتَيْنِ بتُرَابِهِ ورِمَالِهِ.

الوادي المقدّس: هو الوادي المتَّصِلُ بجبَلِ الطُّور، فأسْفَلُ جَبَل الطور شَاطئه.

المقدَّس: أي: المطهّر. **القُدْسُ**: الطهارة. ويقال لغة: قَدُسَ الشيءُ: أي: طَهُرَ. ويُقالُ: تَقَدَّسَ: أي: تَطَهَّر.

طُوىً: مَصْرُوفَةً وغير مصروفة، اسْمُ هذا الوادي الذي يَتّصِلُ جانبٌ منه بجبل الطور.

[وَأَنَا اخْتَرْتُكَ]: أي: وَأَنَا اصْطَفَيْتُكَ انتقاءً من الأخيار، وفي القراءة الأخرى: **[وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ]** بضمير المتكلم العظيم، وقد سبقَ بيان النظرة التكاملية بين هاتَيْنِ القراءتَيْن، لدى ذكر القراءات.

[فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ]: أي: فاسْمَعْ بإصغاءٍ كاملٍ ووعْيٍ تامٍّ، للكلام الّذي نُوحِي بِهِ إليكَ، على قراءة **[وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ]** أو أُوحِيَ به إليك على قراءة: **[وَأَنَا اخْتَرْتُكَ]**.

● **[فلمَّا أَتَاهَا نُودِيَ]**. **[فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ]** عبارتان متماثلتان مَعْنىً، ومُتَشَابِهَتَانِ لفظاً مَعَ تغييرِ ترادُفيٍّ بين: «أتاها» و«جاءَها».

ونُداؤُهُ كان من الله عزّ وجلّ له، وبنداءٍ عالٍ يَسْمَعُهُ، وقد حَصَلَ هذا النداء قبل أن يُقرِّبَهُ اللَّهُ نجيّاً فَيُنَاجِيَهُ دون رفع صَوْت.

﴿مِن شَـٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾: شاطئ الوادي الأيْمَن، هو جانِبُ الطُّور الأيْمَن، فشاطئ النهر، أو شاطئ الوادي، هو جانبه.

ونفهم بداهةً أنّ شاطئ الوَادِي الواقع إلى جانب الجبل، هو أسْفَلُ الجبَلِ الملاصِقُ للوادي.

ووُصِفَ كُلٌّ مِنْهُما بالأَيْمَنِ لأنَّ موسىٰ عليه السلام كان متوجّهاً بوجْهِهِ لِمِنْطقَةٍ وُسْطَىٰ مِنَ الجبل، فالطَّرَفُ الأَيْمَنُ من الجبل ومن الوادي يَنْطَبِقُ عليه ما جاء في النَّصَّيْن مِنَ الوَصْفِ، إلَّا أنَّ أحَدَهُمَا رَاعَىٰ جانبَ الوادي، والآخر راعىٰ جانبَ جبل الطور.

وجاءت الآية (٤٤) من سورة (القصص) فأبانت أنّ هذا الجانب هو الجانب الغربيُّ الواقِعُ إلى جهة الغرب.

﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

البُقْعَة: هي القطعة من الأرض المتميّزَةُ مِمّا حَوْلَها.

المُبارَكَة: أي: الّتي جعل الله عزّ وجلّ فيها البَرَكَة، وهي الزيادةُ والنّماءُ من الخَيْر.

مِنَ الشَّجَرة: أي: من حُدودِ الشجرةِ وامْتِدَاداتِ جُذُورِهَا وفروعها، إذ جعلها اللَّهُ مباركة. وهي التي رأى موسى عليه السَّلام النَّارَ ساطِعَةً منها، ولم تَكُنْ ناراً لاهِبَةً، وإنما كانت نوراً على صُورَةِ نار.

وسمَّاها الإسرائيليُّون في الإصحاح الثالث من سفر الخروج «عُلَّيْقَة»، وظنَّ بَعْضُ باحثي أهل الكتاب أنّها من شَجَر «السَّنْط».

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ (النمل).
- ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ (القصص).
- ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ (مريم).
- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ (طه).

يظهر لمتدبّر هٰذه النصوص تدبُّراً تكامُلِياً ما يلي:

(١) أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ نَادَاهُ أوّلاً بما جاء في نصّ سورة (النمل):

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

[وَسُبْحَانَ اللَّهِ]: أي: وتنزيهاً للَّهِ عمَّا لا يليقُ بجلالهِ وعظيم سلطانه.

[رَبِّ العالمين]: أي: خالِقِ كُلِّ الكائناتِ، والمتصرف فيها بِحِكْمَتِهِ دواماً وبِسُلْطانِ رُبُوبِيَّتِهِ.

[إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ]: أي: إنَّ الشَّأْنَ العظيم الَّذِي يجب أن تَعْرِفَهُ الآنَ يا مُوسَى، هو «أَنَا اللَّهُ» الَّذِي تُؤْمِنُ به، ويُؤْمِنُ بِهِ آبائُكَ وأجْدادُكَ حتَّىٰ إبْرَاهِيمَ.

[العَزِيز]: أي: القَوِيُّ الغَالِبُ.

[الحَكِيمُ]: أي: الَّذِي يُقَدِّرُ مقاديرَه، ويقضي أقضيتَهُ، ويُنَفِّذُهَا بِحِكْمَةٍ بالغة.

(٢) وأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ نَادَاهُ بعد ذلك بِمَا جاءَ في سُورة (القصص):

﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

[أنْ]: حرف تَفْسِير للمقولِ في النّداء.

[إنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِين]: أي: إنِّي أنا اللَّهُ الَّذي تُؤْمِنُ به، أنْتَ وآباؤك المؤمنون الموحّدُون، وأنا رَبُّ العالمِينَ جميعاً، أي: خالِقُ الكائناتِ كلّها، والمتصرّف فيها بحكمته دواماً، وبسلطانِ رُبوبيّتِهِ الشاملة لكلّ ما في الكون من حوادث وتصاريف.

وبما جاء في سورة (طه): ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

(٣) وبعدَ ذٰلِكَ قَرَّبَهُ اللَّهُ نَجِيّاً، أي: قرَّبَهُ بعْدَ النِّداء، فجَعَلَهُ مُنَاجَىٰ، **المناجاة**: هي الإسرار بالحديث، إذ قد انتهى حدث النداء، وهو ما جاء في سورة (مريم): ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾.

(٤) وبَعْدَ أنْ قَرَّبَهُ نَجِيّاً سَارَّه بقوله الذي جاء في سورة (طَه):

﴿وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝١٣﴾، وبَعْدَهُ تلطَّفَ به مؤانِساً، فقال له: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ كما في قراءة جمهور القرّاء العشرة.

* * *

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه):

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾.

في هذا التكليم الرَّبَّاني من وراء حجابٍ لموسى عليه السَّلام، بَيَانُ سِتّ قضايا:

القضيَّة الأُولى: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾:

أي: اعْلَمْ بتَأْكيدٍ شديدٍ يا موسى، أنَّنِي أنا الأزليّ الأبديُّ خالِقُ الأكوان، والمتصرّف فيها دواماً بحِكْمَته، والمُهَيْمِنُ عليها دواماً بعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وخَلْقه، والخالِقُ لأحداثِها دواماً برُبُوبيَّتِهِ، واسْمِي العَلَمُ الجامِعُ لكُلِّ أسْمائي وصِفَاتي الحُسْنَىٰ: «اللَّهُ» وهو الدّالُّ على أنّني الخالقُ والمتصرِّفُ والمُهَيْمِنُ على كلِّ الأكوان، والدّالُّ على أنَّكَ عَبْدٌ مِنْ عبادي، وعلى أنني أنا إلٰهُ آبائك الموحّدين، المؤمنين بي رَبّاً لا إله إلّا هو. كلُّ هذه المعاني من لوازم دلالات اسم العلم «اللّه».

القضية الثانية: جاءتْ في قول الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السلام: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾:

أي: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ في الوجودِ كُلِّهِ إِلَّا أَنَا الَّذي ذَكَرْتُ لَكَ اسْمِي العلم «الله»، ومن يعبدني يَجِدْ أثَرَ عبادته لي في عاجل أمْرِهِ في الحياة الدنيا، وآجل أمْرِهِ يومَ الدِّين.

لفظ «إلٰه» معناه مَعْبُود. ولمَّا كانت المعبودات الأُخْرَى من خَلْقِ الله، والمتَّخذَةُ «آلِهَةً» عِنْدَ مُؤَلِّهِيهَا، باطِلَةً، لا تَسْتَحِقُّ أن يكُونَ لها من الإلٰهِيَّة شيءٌ، ولا تَجْلُبُ عبادتُها نفعاً لعابديها، ولا تَدْفَعُ عنهم ضرّاً، بل تَجْلُبُ لهم عذابَ الله الأبدي، لأنّ عبادتها عُدْوَانٌ على صاحِبِ حقِّ العبادة، إذْ هو وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الرُّبُوبِيَّة التَّامَّةُ الكاملةُ لخَلْقِهِ، وحَقُّه على مَرْبُوبيه الّذين يَغْمُرُهم بأيادي نِعَمِهِ وفَضْلِهِ دواماً أنْ يَعْبُدوه، لِيَجْزِيَهُمْ بالسعادة الأبديَّة الخالدة في جنّات النعيم، ولِيَدْفَعَ عنهم عذابَ الحريق المقرَّرَ في خُطَّتِهِ لمن جَحَدَ رَبَّه في رُبُوبيَّته، أو جَحَدَ إلٰهِيَّتَهُ، أوْ أَشْرَكَ بهما أو بأحَدِهما غَيْرَهُ.

القضيَّة الثالثة: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام: ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾:

أي: إذا عَرَفْتَ يا مُوسَىٰ أنَّه لا مَعْبُودَ بحقٍّ غَيْرِي، لأنَّنِي أنا الله الرَّبّ، فاعْبُدْنِي.

العبادة: تَشْمَلُ الطَّاعَة بفِعْل ما أمر الله به، وتَرْكِ ما نَهَىٰ الله عنه، وإفراده بالدُّعاء لأمور العاجلة، وأمُور الآجلة، والتقرُّبَ إليه بفعل ما يُحِبُّ من عباده أنْ يَفعلوه، وترك ما يُحِبُّ من عباده أنْ يَتْرُكُوهُ، ابْتِغاءَ مَرْضاته.

القضية الرابعة: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

الصَّلاة: عبادةٌ معروفة في كلّ الأديانِ الرَّبَّانيَّة، وهي المعبّرةُ عنِ الصِّلَة المتكرِّرة من العَبْدِ بِربِّه، في مواقيت معلومة.

وهي داخلةٌ في عبادة العباد لله عزّ وجلّ، ولكن جعلها الله بِحِكْمَتِهِ بمثَابَةِ وِعَاءٍ لأداءِ عبادة ذِكْرِهِ، ووظيفةً واجبةً تكرَّرُ في كلِّ يومٍ عدّة مرَّاتٍ، في أوقات مُوسَّعات، وفيها مع الأذكار والتلاوات حركاتٌ جَسَدِيَّة، تَشْتَمِلُ على القيام، والرُّكُوع، والسُّجود والجلوس، ومن حقوق الصلاة لله عزّ وجلّ استيفاءُ الواجبات والشروط الّتي لا تكونُ تامَّةً إلَّا بها، والمبيَّنَةُ في تعليماتِ الدِّين.

وتحقيق ذلك يتطلَّبُ عنايةً خاصَّةً، لإقامتها على الوَجْهِ المطلوب فيها شرعاً.

وإقامَةُ الصلاة: تكُونُ بالمواظبة على أدائها في أوقاتها، كما فَرَض الله، وبأدائها مُسْتَوْفاة الحقوق من واجباتٍ وشروطٍ.

عبارةُ [لِذِكْرِي]: تُبَيِّنُ الغرضَ الدِّينيَّ من عبادة الصلاة، وهُو تكرارُ ذكرِ الله والحضُورُ معه، بما في الصلاة من تلاواتٍ وأذكار.

وقد جعل الله عزّ وجلّ التلاواتِ والأذكار المذكِّرَة بالله وبصفاته الجليلة، وبِحِكْمَتِهِ العظيمة، في أوعِيَةٍ من التَّحَرُّك، والمُكْثِ، لأنَّ هذا التنقُّلَ بين التحرُّك والمُكْث، أكثر ملاءمةً لواقع حال الإنسان، إذْ يقضي مطالب حياته كلَّها ما بين تحرُّكٍ ومُكْثٍ، ولا يَقْضِيها وهو ساكن دواماً، أو مُتَحَرِّكٌ دواماً.

وفي أعمال الصلاة الّتي تشترط لها الطهارة، وفيها الوقوف والركوع والسجود والجلوس، حِكَمٌ عظيمة، تُعَبِّرُ عَنْ خضوع العبد لربِّه، حتى غايَةِ الخضوع بالسُّجود، وتُعبِّرُ عن طاعَتِهِ ومراقبته لربِّه، ملاحظاً أنّ الله ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانَهُ ـ مُطَّلِعٌ عليه دواماً، يَعْلَمُ أعْمَقَ خواطِرِهِ، لا تخفىٰ عليه خافية.

القضية الخامسة: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السلام:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾:

أي: إنّ ساعةَ البَعْث للحياة الأُخرىٰ يوم الدّين، آتيَةٌ لَا مَحَالة، لأنّهَا إحدَىٰ بُنُودِ خُطَّةِ الخَلْقِ الرَّبَّاني للمَخْلُوقين في الحياة الدُّنيا للابتلاء.

وبما أنَّ الخَلْقَ في الحياة الدُّنيا للامتحان قد تحقَّق، وهو القِسْمُ الأَوّلُ من حِكْمَةِ الخَلْق، فلا بُدَّ أنْ يتحقَّقَ القِسْمُ الآخر من حكمةِ الخَلْقِ، وهو الحياة الأُخرىٰ، لتحقيق الحساب، وفَصْلِ القضاء والجزاء.

[**أَكَادُ أُخْفِيهَا**]: اشتغل المفسّرون في فهم المراد بهذه العبارة، وذَهَبُوا في هذا مذاهبَ متعدّدةً من التأويلات، وأرى أنّها لا تحتاج إلى كلِّ ذلكَ إذا فَهِمْنَا مِنْهَا: أنَّ الله عزَّ وجلَّ كادَ يخْفِي الإخبار عن السَّاعَةِ كُلِّها، لا عَنْ وَقْتِ حُدُوثِهَا فقط، مُكْتَفِياً بالدّليل العقليّ الذي يدُلُّ عليها، وهو الدليل المستند إلى حكمة الله عزّ وجلّ، لكنَّه جلَّ جلالُهُ لم يَفْعَلْ، بل أخبر عن قيام الساعَة، نظراً إلى أنّ الناس قَلَّما يَهْتَدُونَ إلى الدليل العقليّ الذي يدُلُّ عليها، ما لم يُنَبَّهُوا عليها تنبيهاً مقترناً بالإخبار عن حُدُوثِهَا، وعمّا يكون بَعْدَها، فكان من الحكمة الإخبارُ عن السّاعة بصريح العبارة، مع التّنبيه على الدليل العقلي الذي يدُلُّ عليها، كقول الله عزّ وجلّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

[**لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَىٰ**]: أي: لتُجْزَى يَوْمَ الدِّين كلُّ نَفْسٍ مَوْضُوعَةٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، بما تَسْعَى علىٰ تَتَابُعِ الزَّمَنِ في هٰذهِ الحياة الدنيا.

الجزاء: مقابلةُ العَمَلِ بما يُلائِمُه من خيرٍ أو شرّ، فيكون بمقابلَةِ الحسنَةِ بمِثْلِهَا فما فَوْقَ تَفَضُّلاً، وبمقابَلَةِ السَّيِّئة بمِثْلِهَا فما دُون تجاوزاً وصفحاً.

القضية السادسة: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾:

[فَلَا يَصُدَّنَّك عَنها]: أي: فلا يَصْرِفَنَّكَ ولَا يَمْنَعَنَّكَ عن السَّعْيِ للظفر بأعظم الجزاء في جنَّاتِ النعيم يوم الدّين بَعْدَ قيامِ السّاعة.

[مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بها]: أي: مَنْ لَا يُؤْمِنُ بقيامِ ساعة البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدّين، لأنه غير مؤمن بقضيَّة الجزَاءِ الرَّبَّانيّ.

[واتَّبَعَ هَوَاهُ]: أي: واتَّبَعَ وهو كافر بالساعة هواه المتعلّق بزينة الحياة الدنيا، وزُخْرُفِهَا، ومتاعِها الزائل الفاني.

وربّما كان اتّباعَهُ هَواهُ هو الذي طمَسَ بصيرته، فكفرَ بساعة القيامة والبعث ليوم الجزاء.

الهَوَى: ميل النفس لما تحبُّ ولو كان فيه ضرٌّ وشرٌّ، وإثْمٌ وعصيان، وفي الهوىٰ معنى السقوط في مَهْوَاة، كالسقوط من شاهقٍ إلى وادٍ سحيق، وكالسقوطِ في بئرٍ عميقة.

[فترْدَىٰ]: أي: فتَسْقُطَ في أودية الآثام والجرائم، وبذلك تنالُ سَخَطَ الله وعذابَه.

وفي خطاب الله عزّ وجلّ النبيّ الرَّسُول المختارَ المفضَّل بمكالمته لَه، بمِثْل هذا الخطاب الشّديد التحذير، دليل على أنّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلام مكلَّفُونَ القيامَ بأحكام الدّين، وأنّهم غير مَعْفِيّين من الواجبات، بل هم أوّلُ المأمُورين بها، وأوّلُ المسلمين، بل ربّما كانت التكاليف الموجَّهَةُ لهم أشَدّ، كوجوب قيام اللَّيْل بالنسبة إلى الرسول محمّد ﷺ، دون سائر المسلمين.

ولكن رُبّما يجعل الله لهم بعض أحكام خاصَّة، تقتضيها وظائف رسالاتهم، كإباحة تعدُّد الزوجات للرَّسُولِ محمّد ﷺ فوق الأربعة.

يقالُ لغة: «رَدِيَ في الهُوَّةِ يَرْدَى رَدىً» أي: سقط فيها. ويقال: «رَدِيَ» أي: هَلَكَ، وهذا المعنى من لازم السُّقُوط في الهُوَّةِ غالباً.

* * *

(١) قول الله عزّ وجلّ في مكالمته لموسى عليه السلام، في سورة (طَه):

﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ (١٨) قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ (٢١) وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى (٢٣) ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤)﴾.

(٢) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١١) وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (١٢)﴾.

(٣) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ (٣١) ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ

غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

هذه النصوص الثلاثة من سور (طه) و(النمل) و(القصص) متكاملات الدَّلاَلاَت حَوْلَ حدَثٍ كلِّيٍّ واحدٍ، جرى لموسى عليه السلام عند مناجاة ربّه له عندَ جَبَل الطّور، وبيان تكامُلِهَا يَحْتاج تدَبُّراً يراعَىٰ فيه ترتيبُ جُزْئِيَّاتِ الحدثِ الكلّي على وِفْقِ الترتيب الطبيعيّ الحكيم الذي يَهْدِي إِلَيْهِ الفكرُ السليم.

أولاً: يأتي في أولىٰ جُزْئِيَّاتِ هذا الحدث بَعْضُ ما جاء في سورة (طه) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

دلَّ هذا البيان على أنَّ الله عزّ وجلّ بدأ مناجاتَهُ لموسى عليه السلام، بدايَةً إيناسيَّة، مع ما فيها من تَوْطِئَةٍ لمنحة آيَةِ العصا الّتي تنقلب بقُدْرَةِ الله وأمْرِهِ التّكْوِينيّ ثُعْباناً مُخِيفاً مُرْعباً لِلأَقْوِياء الأشدّاء.

- **[وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسَى]:**

هذه الجُمْلَةُ الاستفهاميَّة معطوفة بالوَاو على مَا جاءَ قبلها من خطاب الله لَهُ في السورة.

[ما]: اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن غير ذي العقل والعلم،

[تِلْكَ]: اسْمُ إشارةٍ موضوعٌ للبعيد، واختير أن يكون للمؤنث، لأنّ لفظ العصا مؤنثٌ مجازيّ التأنيث.

واختير هنا اسْمُ الإشارة الموضوع للبعيد، ليتناسب مع نداء الله عزّ وجلّ لموسىٰ، بأداة النداء «يا» الموضوعة لنداء البعيد، الذي يدُلُّ هُنَا

على بُعْدِ المنزلَةِ بَيْنَ العَبْدِ والرَّبّ، وإنْ كان الله عزّ وجلّ قد قَرَّبَ مُوسَىٰ إلَيْهِ نَجِيّاً، كما سَبَقَ بيانُ هذا، الوارد في سورة (مريم).

[بِيَمِينِكَ]: أي: بِيَدِكَ اليُمْنى، فدَلَّ هذا البيانُ على أنَّ موسىٰ عليه السلام كان أيْمَنَ ولم يَكُنْ أعْسَر، إذْ كان يَسْتَعْمِلُ عصاه بِيَدِهِ اليُمْنى.

[يا مُوسَىٰ]: نداءٌ فيه إيناسٌ وتَلَطُّفٌ وتحبُّب.

- ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

لمَّا شعرَ موسىٰ عليه السَّلام بإيناس ربِّهِ لَهُ إيناساً يُشْعِرُ بالتحبُّب، بَعْدَ أنْ كانَ قالَ لهُ: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾، رَغِبَ أن يُطِيلَ الإجابةَ على السؤال، بذِكْرِ بعض ما يَسْتَفِيدُهُ من عَصَاه الَّتي يَسْأَلُهُ ربُّهُ عَنْها. ورُبَّما ظنَّ أنَّ ربَّه سَيَسْأَلُهُ عن هدَفِهِ من اتّخاذه العصا، فبسَطَ الجواب، شُعُوراً مِنه بأنّ سؤال ربِّه عن العَصا المَشْهُودَة في يَدِهِ، سَيَسْتَتْبِعُ سؤالَهُ عن هَدَفِهِ من اتّخاذِهَا، وكانَ يَكْفِيهِ أن يقول: هي عصايَ.

[أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا]: أي: أعْتَمِدُ عَلَيْهَا، فأجْعَلُ بَعْضَ ثِقَلِ جِسْمِي مَحْمُولاً عَلَيْهَا في المَشْي، أو في غيره.

[وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي]: أي: أخْبِطُ بها الشَّجَرَ، لِيَسْقَطَ الوَرَقَ، فَتأْكُلَ مِنْهُ غنَمِي.

يقال لغة: «هَشَّ الراعي يَهُشُّ هشّاً» أي: ضرَبَ الشجرَةَ بالعَصَا، لِيَتَسَاقَطَ الورَقُ منها علىٰ مَسْرَحِ غَنَمِهِ فتأكُلَ مِنْهُ.

﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾: «**مَآرِب**» جَمْعُ «مَأْرَب» و«مَأْرُبَة» وهُمَا و«الإرْبُ» و«الأَرَبُ»: الحاجةُ. البُغْيَةُ الّتي يُرادُ الحصُولُ عليها.

أي: ولي فيها حاجاتٌ أخرى، كقِتالِ عَدُوّ، وسَوْقِ غنم، ودَفْعِ ذئب، أو كَلْبٍ عقُورٍ، أو غير ذلك.

وأعجبني ما نقل الشوكاني عند تفسيره لهذه العبارة، ما جاء في قول بعض العرب بِشَأْنِ منافع العصا:

«عَصَايَ أَرْكُزُهَا لِصَلَاتِي، وأُعِدُّهَا لِعُدَاتِي، وَأَسُوقُ بها دَابَّتِي، وَأَقْوَى بِهَا عَلَى سَفَرِي، وأَعْتَمِدُ بِهَا فِي مَشْيَتِي، لِيَتَّسِعَ خَطْوِي، وَأَثِبُ بِهَا النَّهْرَ، وتُؤَمِّنُنِي العَثْرَ، وَأُلْقِي عَلَيْهَا كِسَائِي فَتَقِينِي الحرَّ، وتُدْفِئُنِي مِنَ القَرِّ، وتُدْنِي إِلَيَّ مَا بَعُدَ مِنِّي، وهِيَ تَحْمِلُ سُفْرَتي، وعِلَاقَةُ إِدَاوَتِي، أَعْصِي⁽¹⁾ بِهَا عِنْدَ الضِّرَاب، وَأَقْرَعُ بِهَا الأَبْوَابَ، وَأَقِي بِهَا عُقُورَ الكِلَاب، وتَنُوبُ عَنِ الرُّمْحِ في الطِّعَانِ، وعَنِ السَّيْفِ عِنْدَ مُنَازَلَةِ الأَقْرَانِ، وَرِثْتُهَا عَنْ أَبِي، وَأُوَرِّثُهَا بَعْدِي بَنِيَّ».

❁ ❁ ❁

وبَعْدَ هذا الحوار الإيناسِيّ والتمهيدي:

- جاء في سورة (طه) ما في قول الله عزّ وجلّ خطاباً لموسَىٰ عليه السلام:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩﴾: أي: قال الله لموسَىٰ: أَلْقِهَا، الضمير يَعُودُ على العصا.

- وجاء في سورة (النمل) بعبارة: [**وَأَلْقِ عَصَاكَ**].
- وجاء في سورة (القصص) بعبارة: [**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ**].

عباراتٌ عَن الأمْرِ بإلْقَاءِ العَصَا، جاءت مُمَهِّدَةً لما بَعْدَهَا، في كُلِّ نَصٍّ منها، بحسب السّوابق واللّواحِق في السُّوَر التي هي منها.

وبَعْدَ هذا الأَمْرِ بإلْقَاءِ العَصَا يَأْتِي مَضْمُونُ قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

---

(١) أي: أضْرِبُ بها.

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⑳﴾:

أي: فلمَّا أَلقَى مُوسَىٰ عَصَاهُ على الأَرْض تحوَّلَتْ بصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ، فصارَتْ حيَّةً حَقِيقِيَّة تَسْعَىٰ، أي: تَمْشِي بِسُرْعَةٍ ونَشَاطٍ مخيفٍ مَشْيَ الثَّعابين ذَوَاتِ الحَرَكة السَّرِيعَة.

وجاء لهذه العبارة تَكْمِيلٌ في سُورَةِ (النمل) الآية (١٠) وفي سورة (القصص) الآية (٣١).

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

[**تَهْتَزُّ**]: أي: تَتَحَرَّكُ تَحَرُّكاً سَرِيعاً.

[**كَأَنَّهَا جَانٌّ**]: **جانٌّ**: نوع من الحيَّاتِ أَكْحَلُ العينَيْنِ، يَضْرِبُ إلى الصُّفْرَة، كثيرُ الحركةِ وسَرِيعُها، يُجْمَعُ على «جِنَّانٍ» و«جَوَانٍ»، أي: كأَنُّها جانٌّ في السُّرْعَة والحرَكة المخيفة، لا في سائر الصفات، لأنّ هذا الصِّنف من الحيات غَيْرُ مُؤْذٍ.

[**وَلَّى مُدْبِراً**]: أي: انْهَزَمَ مُبْتَعِداً، معطياً ظَهْرَهُ إلى جهة العصا الّتي انْقَلَبَتْ حيَّةً مخيفة تَسْعَى.

وَلَّى: أي: ابْتَعَد.

مُدْبِراً: **الإدبار**: هو إعطاء الدُّبُر للشيء، فجمَعَ مُوسَىٰ عليه السلام بين الابتعاد وإعطاءِ الدُّبُر.

[**ولَمْ يُعَقِّبْ**]: أي: ولَمْ يَكِرَّ ولَمْ يَرْجِعْ من شدَّةِ خَوْفِهِ على نفسه، بحَسَبِ طبيعَتِهِ البشريَّة ذاتِ الحِدَّةِ والسُّرْعَةِ في التَّنْفِيذ.

* * *

وبعد هذا الحدَثِ الذي جَرَى من مُوسَىٰ عليه السلام، يَأْتِي في متابعة البَيَان مضمونُ قولِ الله عزّ وجلّ لموسَى في سورة (القصص):

﴿... يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ومضمون قول الله له التكميليّ الذي جاء في سورة (النمل):

﴿... يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

هاذانِ النَّصّان متاكمِلان في الدَّلاَلَة على المعنى المراد.

أي: أقْبِلْ كارّاً إلى المكان الذي فررَتَ مِنْهُ خَوْفاً من الحيّة، ولَا تخف أنْ تُؤْذِيكَ، إنَّكَ من الآمِنِينَ بتأمِينِ رَبِّكَ لك، إنّي لَا يَخافُ لديّ المُرْسَلُون المختارُونَ مِنّي لِحَمْلِ رِسالةِ ذاتِ شأْنٍ. لٰكِنْ يَخافُ مَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ مِنْ عِقابي، بِمَعْصِيَةِ أوَامِرِي، ومَعْصِيَةُ الأنبياءُ والرُّسُل تكون في حُدُودِ التكاليفِ الزَّائِدَةِ الّتي تُوَجَّهُ لهم خاصَّةً من حقوقِ مرتبَةِ الإحسان، أعْلَىٰ مراتب المؤمنين المسلمين، ورُبَّمَا من حدود مَرْتَبة البِرِّ.

أمّا حُدُود مَرْتَبَةِ المتَّقِين فهم معصومون عن معصية الله في حقٍّ مِنْ حُقُوقها، لأنَّ الله عزّ وجلّ أمَرَ الناس بأن يَتَأَسَّوْا بهم فِي حُدُودِها، فلَوْلَا العِصْمَةُ لكان اللَّهُ يأمُرُ بالتأسّي بهم في معاصيهم.

ثمّ لَا يَخافُ مَنْ عَصى مِنْهُمْ، مَنْ بَدَّلَ حُسْناً بتوبةٍ وعَمَلٍ صالح، بَعْدَ سُوءٍ ارْتَكَبَهُ، فإنّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ فيُؤَمِّنُهُ، لأنَّهُ غَفُورٌ رَحيم.

أي: وأنت يا مُوسَىٰ لَسْتَ مِنَ الظَّالمين، فَلَا تَخَفْ.

* * *

وبَعْدَ هذا الّذي تكامَلَتْ بشَأْنِهِ النصوصُ الثلاثة، قال الله عزَّ وجلَّ خِطاباً لموسىٰ عَلَيْهِ السّلام مَا جاء بيانُه في سورة (طه):

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾:

[**خُذْهَا وَلاَ تخفْ**]: أي: خُذِ الحَيَّة كَمَا لَوْ كَانَتْ عَصَا.

[**سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى**]: أي: سَنُرْجِعَها بَعْدَ أنْ تُمْسِكَ بها وهي حيَّةٌ تَسْعَىٰ، إلى ما كانت عليه عصا، لَا حياة فيها وَلَا حَرَكَة.

[**سِيرَتَها الأُولَى**]: **السِّيرَة**: الطريقة ـ الحالة الّتي يكُونُ عليها الشيء.

[**الأُولَىٰ**]: أي: السَّابقة التي كانت عليها.

جاءَت كلمة «سِيرَة» من عبارة [سِيرَتَها] منصوبةً، مع أنّ فعل «نُعِيدُ» لا يَنْصِبُ مباشرة، بل يتعدَّى إلى معموله بحرف الجرّ «إلى».

قال الأخفش والزَّجّاج: سَنُعيدُها إلى سِيرَتِها الأولى، أي: إن لفظ «سيرَة» نُصِبَ بنَزْعِ الخافض، فصار بمثابةِ المفعول به.

أقول: من الجائز أنْ نُقَدِّرَ في الكلام محذوفاً على طريقة القرآن في المحاذيف، وأصل العبارة قبل الحذف كما يلي:

سَنُعِيدُهَا، فَتعُودُ سيرَتَها الأُولى. يُقالُ لغة: عادَ الأمرُ كَذَا، أي: صارَ إيَّاه.

وكان هذا تَدْريباً عَمَلِيّاً من الله عزَّ وجلَّ لموسَىٰ عليه السلام، حتى يكونَ على ثقة مُسْتَقبلاً بما يُجْرِيهِ اللَّهُ لَهُ في العصا من آيَةٍ باهِرَةٍ، أمام فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ، ثمّ أَمَامَ جَماهِيرِ قومه.

وطَوَت النصوص الثلاثة ما كان من موسىٰ عليه السلام، أي: فَكَرَّ موسىٰ راجعاً، وأخذ الحيَّةَ، فأعادَهَا الله إلى ما كانت عليه سابقاً عصاً كَسَائِرِ العِصِيِّ.

* * *

وبَعْدَ بيان آيَةِ العَصَا، يأتي بيانُ الآيَة الثانية الَّتي آتاها الله لموسى عليه السلام، وهي آيَةُ اليَد.

وهنا يأتي قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه) خطاباً لموسىٰ عليه السلام:

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل) خطاباً له أيضاً:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص) خطاباً له أيضاً:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

هذه النصوص الثلاثة متكاملاتُ الدَّلَالت على المعنى المراد بيانه، مع تفنُّنٍ في بعض العبارات بتغيير بعض الكلمات.

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه) خطاباً لموسى عليه السلام:

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ... ﴿٢٢﴾﴾.

ضَمُّ الشَّيْءِ إلى الشَّيْءِ يكُون بجمعهما معاً.

الجَنَاح: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على ما يَطِيرُ به الطائر، ويُطْلَقُ توسُّعاً لُغَوِيّاً على العَضُدِ، وعلى الإبط، وعلى الجانبِ من الإنسان.

﴿... تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ... ﴿٢٢﴾﴾: أي: وأخْرِجْها تَخْرُجُ

بَيْضَاءَ حَسْنَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تكونَ عَلِيلَةً مَرِيضةً بمَرَضِ البَرص، وقد كانَ موسىٰ عليه السلام أسْمَر. عبارة: **[مِنْ غَيْرِ سُوءٍ]** احْتِرَاسٌ مِنْ أنْ يَسْبِقَ إلى الذِّهْنِ أنَّها تخرج بَرْصَاء.

قالوا: فإذا هي تَبْرُقُ كالبَرْقِ.

﴿... ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾: أي: حالةَ كون هذه التحويلة في اليَدِ آيَةً أخرىٰ، غَيْرَ آيَةِ العصا وتحويلها إلى حيَّةٍ تَسْعَىٰ.

الآية: العلامَة الدَّالَّة، والعلامة على إثبات صِدْق الرسول، في كونِهِ رَسُولاً من رَبِّه، لَا بُدَّ أن تكُونَ من الخوارق المعجزة الَّتي لا يَسْتَطِيعُ البشر معارضتها بمِثْلِهَا.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾: أي: لِنُرِيَكَ في هٰذا اللِّقاء بَعْضَ آياتِنَا الكُبْرَى الَّتي سَنُجْرِيها لك مُسْتَقْبلاً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل) خطاباً لموسى أيضاً:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: وَأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ لتَضُمَّها إلى جَنَاحك، فتكامل نَصّا «طه» و«النمل».

جَيْبُ القميص أو الثَّوْب: ما يَدْخُلُ مِنْهُ الرَّأسُ عِنْدَ لُبْسِهِ، يجمع على: «جُيُوب» و«أجْيَاب».

وإدْخال اليَدِ في الجيب يكون بإدْخالها في المكان المنفتح من القميص مِنْ تَحْت الرَّقَبَة، لإيصَالها إلى الإبِط، أو الجنب.

وأضاف هذا النص عبارة:

﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: هاتان الآيتان كائِنَتان في حِساب تِسْعِ آياتٍ قرَّرْنا أنْ نُؤْتِيكَ آيّاها، وقَدْ أَرَيْنَاكَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، وسَنُرِيكَ الآيات السَّبْعَ فيما بَعْدَ حينَ تُؤَدِّي وظائفَ رِسالتِك.

وجاءت عبارة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ لبيان الغرض من الإرسال لفرعَوْن وقومه. وهي في موقع جواب سؤالٍ مطويٍّ، مضمونُه: مَا الغرض مِن الرّسالة ومِنْ هٰذه الآيات؟

الجواب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وما زالوا مُتَمادِينَ في فِسْقِهِم.

الفِسْق: هو العصيان والخروج عن الحقّ والواجب، وأوامر الله ونواهيه. تقول العرب: «فَسَقَ يَفْسِقُ ويَفْسُقُ فِسقاً وفُسُوقاً، إذا عَصَىٰ وخرج عن الحقّ والواجب».

ويُقالُ: فَسُقَ، أي: فَجَر.

وهو مصطلح إسلاميّ مأخوذٌ مِنْ قول العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبة، إذا خَرَجَتْ من قِشْرَتِهَا، ومعلومٌ أنّها إذا خرَجت من قِشْرَتها تعرَّضت بسُرْعَةٍ إلى الفساد.

وسُمِّيَتِ المؤذياتِ من الحيوانات فواسِق، والفأرة فُوَيْسِقَة، لأنها بخروجها من جُحْرِهَا تُفْسِد.

(٣) وقَوْلُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (القصص) خطاباً لموسى أيضاً:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

جاء في هذا النَّصِّ كَلِمَةُ [**أُسْلُكْ**] بدلَ: [**أَدْخِلْ**] في نصِّ سورة (النّمل) وكلِمَةُ «اسْلُكْ» هي بمعنى كلمة «أَدْخِلْ» فهما من التفنُّنِ في اختيار الكلمات.

وجاء في هذا النصّ إضافةُ عبارةٍ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾: أي: مِنَ الرُّعْب.

يظهر أنّ مُوسَىٰ عليه السّلام على الرُّغم من إقبالِه وعودتِهِ إلى المكان الذي فرَّ مِنْهُ، طاعةً لأمْرِ ربِّه، وعلى الرُّغم من أخْذِهِ الحيَّة التي عادَتْ بأخْذِهِ لها سِيرَتَها الأُولَىٰ، عصاً كسائرِ العصيّ، ما زالَ قَلْبُهُ يَرْجُفُ رَجفاناً مكيانيكيّاً، من تأْثيرِ الخوفِ السابق، فقال اللَّهُ لَهُ هٰذا القول.

﴿جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾: أي: واضمم يَدَكَ اليُسْرَى إلى جانِبِ جِسْمِكَ الأَيْسَر، حيْثُ قَلْبُكَ، لِيَسْكُنَ مِنْ أثَرِ الرَّهَب الذي كان قد أصابه.

واخْتَرْتُ في الفهم اليَدَ اليُسْرَى لأنَّها الأقرب إلى تَسْكِين رَجفانِ الجانب الّذي فيه القَلْب.

أمّا اليُمْنَىٰ فقد تناوَلَ بها الحيَّة التي عادَتْ كما كانت عصاً، وصار يَتَوَكَّأُ عليها كسابق عَهْدِهِ بها.

إذا كان انقلابُ العصا حيَّةً مُرْعبةً، قد أخافت مُوسىٰ وهو بَيْنَ يَدَيْ ربِّه يُنَاجيه، ففرَّ منها ولم يُعقِّبْ حتىٰ أمَرَهُ اللَّهُ بالرُّجوعِ، فكيف يكونُ حال فرعون وملَئِهِ، حين إجراء هذه الآية الرَّبانيَّة أمامَهم؟!

﴿فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾:

«ذانِ» اسم إشارة للمثنَّى المذكر، والكاف لخطاب المفرد. والمشارُ إليه آيتا العصا واليَد.

﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ مثنى «بُرْهَان» وهو الحجَّةُ البيِّنَةُ الفاصلَة، وجمعه «بَراهين».

أي: فذانِكَ الخارقان: خارِقُ العصا التي تنقلب حيَّة حقيقيَّةً مُخِيفةً جداً، وخارِقُ اليَدِ السّمراء الّتي تنقلب إلى بَيْضاء تبرُقُ كالبَرْقِ، هُمَا

بُرْهَانَانِ من ربِّك. أي: حُجَّتان بَيِّنتان فاصِلَتان، تُثْبتان أَنَّكَ رسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّك.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾: في هٰذه العبارة بيانُ أنَّ المُرْسَلَ إليهم أوّلاً، فِرْعَوْنُ وملَؤُه.

الملأُ: أشراف القَوْم وسَراتُهم، الّذين يَمْلَؤُون عُيُونَ العامة، ومَلَأُ فرعون هم وُزَرَاؤه، وحاشيةُ قَصْرِه، وكُبَرَاءُ المصريِّين المسانِدُون والموالُون لِفِرْعون.

ولمَّا كان سائر المصريين يومئذٍ تبعاً لفرعَوْن وملَئِهِ، كانت رِسالة موسىٰ وهارون موجَّهةً لهم جميعاً.

وقد سبقَ في النصِّ الذي هو من سورة (النمل) بيان أنّ الرسالَة شاملةٌ فرعَوْنَ وكُلَّ قَوْمِهِ، أشرافهم وعلِيَتَهُم وعامَّتَهم، إذ جَاءَ فيه قول الله عزّ وجلّ: ﴿... إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ... ⑫﴾.

الآيات التسع:

بالنظر في النصوص التي تتحدَّثُ عن آيات الله لموسىٰ عليه السلام، والمبيّن في النصّ الذي من سورة (النّمل)، أنّ عَدَدها تِسْعُ آياتٍ، نَسْتطيع أنّ نبيّنَها فيما يلي:

(١) آيَةُ العَصَا التي تَنْقَلِبُ ثُعْباناً مُرْهِباً.

(٢) آيَةُ اليد التي تَنْقَلِبُ بيضاء لامعةً كالبرق.

وقد سبق آنفاً بيان الدليل عليهما من القرآن.

(٣) آية الطوفان، وجاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج (٩) بيان أن الله أمطر عليهم بَرَداً لم يكن مثله، فأهلك النباتات، وبعض الحيوانات والناس.

(٤) آيةُ الجراد، وجاء عند الإسرائيليّين في سفر الخروج (١٠) أنّ موسى أنذر فرعون بجراد يغطي وجه الأرض، ويأكلُ جميع الشجر النابت في الحقول، وحصل ذلك.

(٥) آيةُ القُمَّل، وجاء في سفر الخروج (٨) أنّ هارون ضرب بالعصا تراب الأرض فصار البعوض على الناس والبهائم، وأن موسى أنذر فرعون بالذّبان، فخربت الأرض من الذبّان، وهو الذباب المؤذي.

(٦) آيَةُ الضفادع، وجاء في سفر الخروج (٨) أن موسى أنذر فرعون بالضفادع التي تَصْعَدُ وتدخلُ في البيوت وتكون في كل مخدع وعلى كلّ سرير، وتسقط في الأطعمة، وحصل ذلك.

(٧) آيَةُ الدَّم، وجاء في سفر الخروج (٧) أن موسى وهارون ضرب بعصاه النهر فتحوّل كلّ الماء الذي في النهر دماً.

دَلَّ على هذه الآيات الخمس، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

وقد سبقَ تدبُّر هذا النصّ في موضعه من تدبُّر سورة (الأعراف).

(٨) آيَةُ الرِّجْزِ، وهو عذاب من الله أنْزله بفرعون وملَئِهِ وقومه، كأمْراضٍ وأوجاعٍ لا عَهْدَ لهم بمِثْلِها.

دلَّ على هذه الآية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

وقد سبق تدبُّرُ هذا النصّ في موضعه من سورة (الأعراف).

(٩) آية السّنين المجْدِباتِ والنقصِ في الثمرات والطَّمْسِ على أموالهم والضغط على قلوبهم: **الطَّمْسُ على الشَّيْءِ**: يأتي بمعنى التَّشْوِيهِ، ويأتي بمعنى الإزالةِ والمَحْوِ. يقال لغة: طمَسَتِ الريح الأثَرَ، أي: أزالَتْهُ ومَحَتْهُ، ويقال: طَمَسَ على عَيْنِهِ، أي: أعْمَاهَا. وقد دلَّ على هذه الآية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

ودلَّ عليها أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) حكايَةً لما دَعَا به موسىٰ عليه السلام رَبَّه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾.

عرفنا الطمس على الأموال، أمّا الشَّدُّ على قُلُوبهم فالّذِي أراهُ أنّه نوع من عَصْرِ قلوبهم بالمكاره والمؤلِمَاتِ في حياتهم، لأنّ قول موسى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ يُشْعِرُ بأنّ الشَّدَّ على قُلُوبهم هو من العذابِ الأليم الّذي دَعَا رَبَّهُ أن يُنْزِلَهُ بهم.

وأمَّا ما ذهب إليه المفسّرون من أنّ المراد اجْعَلْ قُلوبَهُمْ قاسِيَةً لَا تَقْبَلُ الحَقَّ ولَا تَنْشَرِحُ للإيمان، فهو يَتَنَافَى مع قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾؛ إذْ تُشْعِرُ هٰذه العبارة بأنَّ موسىٰ حَرِيصٌ على إيمانهم، لكنَّهُ رَأَىٰ عَدَمَ جدوىٰ الآيات الّتي لم يَذُوقُوا فيها العذابَ الأليم، فَسَأَلَ رَبَّه أن يَطْمِسَ على أموالِهم التي تُغْرِيهم بالاسْتِمْرَارِ في الكُفْر، وأنْ يَشُدَّ على قُلُوبهم بالمؤلمات الموجعات رجاء أن تَلِينَ نُفُوسُهم وقُلُوبُهُمْ فَيُؤْمِنُوا.

الشَّدُّ على القُلُوب بالعذاب يكون بالمؤلمات الموجعات لإلَانَتِهَا للحق.

والرَّبْطُ على القُلُوبِ للتَّثْبِيتِ والمعونَة يَكُون بالمُطْمْئِنَاتِ من عناصر القاعدة الإيمانية، وبالصِّلَةِ بالله عن طريق عبادته وحُسْنِ مراقبته، والاعتصام بالأذكارِ والتلاوات، وبنفحاتٍ يُلْقِيها الله على قلوب المؤمنين.

وأمَّا آيَةُ فَلْق البحر، فَمَعَ أنَّها أكبر الآياتِ وأعْظَمَها، إلَّا أنَّها لم تَكُنْ آيَةً لفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهِ، إذْ كانتْ سبباً لإنقاذ بني إسرائيل وعُبورِهِم البحر، وسبباً لإهلاكِ فرعون وملَئِهِ وجنوده. وإدْراكُ فِرْعَوْنَ لَهَا وهُوَ يَغْرَقْ لم يَنْفَعْهُ بشيء، وقد كان مُسْتَيْقِناً هو ومَلَؤُه بصِحَّةِ بَراهِينِ الآياتِ التِّسْعِ السابقات، إلَّا أنهم كانوا مُعَانِدِين مُسْتَكْبِرين مُكَابِرين.

وممَّا لا شَكَّ فيه أنّ آيَة فَلْقِ البَحْر قد كانت آيَةً لِبَني إسرائيل، وآيَةً لمَنْ بَقِيَ في مِصْرَ مِنْ قَوْمِ فرعون، فَلَمْ يَهْلكُوا معَ الهَالكِينَ.

* * *

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى (٢٧) يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى (٢٨) وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَٰرُونَ أَخِى (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى (٣٢) كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦)﴾:

القراءات:

٢٦ ● قرأ نافع، وأبو عَمرو، وأبو جَعْفر: **[وَيَسِّرْ لِيَ]** بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكان هذه الياء.

٣٠ ـ ٣١ ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: **[أخِيَ آشْدُدْ]** بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسْكان هٰذه الياء.

٣٢ ● قرأ ابْنُ عامر: **[وَأُشْرِكْهُ في أَمْرِي]** بضم همزة «أُشْرِكْهُ» على أن المُشْرِكَ لَهُ في أمْرِهِ هو موسىٰ عليه السلام.

وقرأ باقي القرّاء العَشْرة: [**وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**] بفتح همزة «أَشْرِكْهُ» على أن موسىٰ يَدْعُو رَبَّهُ بأن يَجْعَلَ أَخَاهُ هارون شَرِيكاً له في أمر رسالته.

فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد، فإمَّا أنْ يكون موسىٰ عليه السلام دعا أوّلاً بأن يجعل الله أخاه شريكاً لَهُ في أمْرِه، وبَعْد ذلك قال: «وَأُشْرِكْهُ في أمْرِي» أي: فإذا جعلْتَهُ شريكاً في أمْرِي فأنا أُشْرِكُهُ فيه.

وإمَّا أنْ يكونَ قالَ أولاً: «وَأَنَا أُشْرِكُهُ في أمْرِي» وبعد ذلك رأىٰ أن مثل هذا القول لا يليق به أن يقوله لربِّهِ، فتراجعَ وسَأَلَ رَبَّهُ قائلاً: [**وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي**].

وجاء بشأن هذا الطَّلَبِ الذي طَلَبَهُ موسى عليه السلام من ربِّه تَكْمِلَتَانِ للمُرَادِ بَيَانُهُ في القرآن المجيد.

(١) فقال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٦ نزول) بعد بيان أنّ الله عزّ وجلّ أمَرَهُ أنْ يَذْهَبَ برسالته إلى فرعون وملَئِهِ حكايَةً لِقَوْلِ مُوسَىٰ عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

- قرأ نافع وابْنُ كثير، وأبُو عَمرو، وأبو جَعْفر: [**إِنِّيَ أَخَافُ**] بفتح ياء المتكلّم، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإِسْكَان.

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سُورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

القراءات:

١٢ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[إنِّيَ أخَافُ]** بفتح ياءِ المتكلّم. وقرأها باقي القُرَّاء العشرة بالإسْكان.

١٢ ـ ١٤• قرأ يَعْقُوب: **[يَكَذِّبُوني ـ يَقْتُلُوني]** بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف. وقرأهما باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم: **[يُكذِّبُونِ ـ يَقْتُلُونِ]**.

والقراءتان وجهان عربيَّان جائزان، وحذف الياء إيجاز في النطق وتخفيف.

١٣ • قرأ يَعْقُوبُ: **[ويَضِيقَ صَدْرِي ولاَ يَنطَلِقَ لِسَاني]** بنَصْبِ فعلَي «يضيق» و«يَنْطَلِق» عطفاً على: **[أَنْ يُكَذِّبُونِ]** أي: أخاف أنْ يُكَذِّبُوني، وأخافُ أنْ يَضِيقَ صَدْرِي ولا يَنْطَلِقَ لساني.

وقرأهما باقي القُرّاء العشرة بالرَّفْع: **[ويَضِيقُ صَدْرِي ولاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي]**: أي: وَأَنَا يَضِيقُ صَدْرِي ولَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فيما أعْهَدُ مِنْ أَمْرِي، عطفاً على: **[أَخَاف]**، أو على الاستئناف.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المرادِ بيانُه، وهما تَدُلَّان على أنَّ مُوسَىٰ عليه السّلام عَبَّر بالعبارتَيْن، إحداهما أبان فيها ما يَعْلَمُ من نفسه بحَسَبِ العادة، والأُخْرَى أبَانَ فيها تَخَوُّفَهُ من أنْ تُسَيْطِرَ عَلَيْهِ صِفَتُهُ المعتادة.

• تدبُّر هذه النصوص الثلاثة من سورة (طه) و(القصص) و(الشعراء) تَدَبُّراً تكامُلِيّاً:

أدْرَكَ مُوسَىٰ عليه السّلام عِظَمَ المسؤوليّة، وثِقَلَ الرّسالَةِ الكبيرة الّتي كلَّفَهُ رَبُّهُ جلَّ جلالُهُ أن يقومَ بوظائفها، فجالَتْ في خواطِرِهِ ثلاثة تخوُّفاتٍ تعترضُه في سبيله للقيام بما أمَرَهُ الله عزّ وجلّ به، فعَبَّرَ عَنْهَا في مُنَاجَاتِهِ لربِّهِ وهو يُكَلِّمُهُ بجانب الطور في اللّقاء الأوّل، وفي الختام سألَ ربَّهُ مسائل تتعلَّقُ بمخاوفه، فقال الله له: لَقَدْ أُوتيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَىٰ.

التخوُّف الأوّل: أن تَقْتُلَهُ السُّلْطَةُ الفِرْعَوْنيّة، لأنَّه كان قبلَ خروجه من مصر قد قتل من القِبْطِ رَجُلاً، انتصاراً لإسرائيليٍّ وجَدَهُ مَظْلُوماً مُعْتَدىً عليه من قِبَلِ القبطيّ، إذْ وَكَزَهُ وَكْزَةً بِجُمْعِ يَدِهِ على ذَقَنِهِ فقضىٰ عليهِ، وكان المكان خالياً إلّا مِنَ الإسرائيليّ، فدَفَنَهُ على ما ذكر الإسرائيليون.

وظنَّ أن الخبر سيبقَىٰ خفيّاً لَنْ يَنْتَشِرَ بين المصريّين ولَنْ يَصِلَ إلى القَصْرِ الفرعَوْني، لكنَّ الخبرَ فَشىٰ بينَ الإسرائيليّين، ثم وصل إلى الأقباط بسُرْعَةٍ، فإلى رجال القصر، فرأى رجال القصر أن يقتلوه، فأقْبَلَ إليه ناصحٌ لَهُ صلة بالقصر، وأخبره أنّ القوم يَأْتَمِرُونَ به ليقتُلُوه، ونصَحَهُ بأنْ يخرجَ من مصر، فاسْتَجَابَ لنَصِيحَتِهِ، ففرَّ من مصر خائفاً يَتَرَقَّبُ من يَعْرِفُهُ فيقْبِضُ عليه، لكِنَّ الله أعْمَىٰ عنه العيون، فخرج حتَّىٰ وصَلَ إلى أرْضِ مَدْين الّتي لم يكن للمصريين سلطَةٌ عليها حينئذٍ، وقضىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ له بأن يَأْمَنَ، ويُرْزَقَ رِزْقاً حسناً، ويتزوَّجَ ابْنَةَ الرَّجُلَ الصالح من المؤمنين بشعيبٍ عليه السّلام، وربَّما كان رئيساً دينيّاً في قومه، كما يَذْكُرُ الإسرائيليُّون.

وقد عبَّر عَنْ تَخَوُّفِهِ هذا بقوله لربِّه كما جاء في النصِّ الذي من سورة (القصص) وهو قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

وبقوله لربِّه كما جاء في سورة (الشعراء):

﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

فأضافَتْ هٰذه العبارة بيانَ أنَّ تخوُّفَهُ من قَتْلِهِمْ لَهُ، سببُه أنّ لهم عليه ذَنباً، وهُوَ قَتْلُه قبل أكْثَر من عشر سنين للقِبْطيّ.

فأجابَهُ الله عزّ وجلّ على هذا التخوُّف بقولِهِ لَهُ: [. . . كَلَّا] في الآية (١٥) من سورة (الشعراء) بهذه الأداة التي فيها معنَىٰ الزَّجْر، أي: لا يليق برسولٍ اختارَهُ الله لحَمْلِ رسالتِهِ أنْ يَخافَ مِنَ القَتْلِ، أو أنْ يَشُكَّ في حمايَةِ رَبِّهِ له.

وطَمْأَنَهُ على نفسه وعلى نَفْسِ أَخِيهِ هارون بأنّه سَيَحْمِيهمَا مِنْ كُلِّ المخاوف، وسيَجْعَلُ لهما سُلْطاناً من قُوَّةٍ غيبيَّةٍ قاهرة، تَجْعَلُ بتدبيراته فرعَوْنَ ومَلأَهُ وجُنُودَهم، لا يُفكِّرُونَ بقتلِهِمَا أو إيذائهما، مخافة عاقبة ذلك، لأنّ قُلُوبَهُمْ سَتَكُونُ على يَقِينٍ مِنْ صِدْقِهِمَا.

وأبان الله له أنّ حمايته لهما ستَكُونُ بآياته الخوارق ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ ممَّا هو ظاهِرٌ وممّا هو خَفِيٌّ غيبيٌّ.

فقال تبارَكَ وتعالىٰ لَهُ كما جاء في سورة (القصص):

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

[سُلْطاناً]: أي: قُوَّةً قاهرةً غيبيَّةَ الأدوات أو مشهودَتها.

التخوُّفُ الثاني: حَالُ عُقْدَةِ لسانِهِ الّتي كان سَبَبُها أنَّهُ في طفولَتِهِ وضَعَ جَمْرَةً في فَمِهِ بَدَلَ تَمْرَةٍ، فاحْتَرَقَ طَرَفُ لِسانِهِ فصارَتْ فيه عُقْدَة، وكان إذْ ذاك في حِجْرِ فرعونَ كما ذكروا، واللّٰهُ أعلم بسبب عقدة لسانه.

فتخوَّف عليه السّلام أن تكُون هذه العقدة مانِعَةً لَهُ مِنْ أن يُحْسِنَ بيانَ رِسالَتِهِ لفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ.

وقد عبَّرَ عَن تخوُّفِهِ هذا بقوله لرَبِّه كما جاء في سورة (القصص):

﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِىَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِىٓۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

[رِدْءاً]: أي: مُعِيناً وناصراً. **الرِّدْءُ في اللُّغَة**: المعين والناصر. والقُوَّةُ والعِمَاد. يقالُ لغة: رَدأ البَنَّاءُ الجدار مثلاً، أي: دَعَمَهُ وقَوَّاه.

[يُصَدِّقني]: أي: يَكُونُ سَبَباً في تَصْدِيقِ القوم لي إذْ نكُونُ قُوَّتَيْن.

وقال موسىٰ عليه السَّلام أيضاً ما جاء بيانُه في نصّ سُورَةِ (الشعراء):

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾: أي: ولا يَنْدَفِعُ لساني بقُوَّةٍ وسُرْعَةٍ بالبيان، للعُقْدَةِ الَّتي فيه، فأَرسِلْ إلى هارونَ لأنَّهُ أَفْصَحُ منِّي لساناً، وأقْدَرُ علىٰ أن يَنْطَلِق لِسَانُهُ منّي.

الانطلاق: السُّرْعَةُ في التحرُّك، ومِنْهُ انطلاق الخَيْل في السّباق.

وقد أجابَهُ الله عزّ وجلّ في النصّ الذي جاء في سورة (القصص) بقوله:

﴿...سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ... ﴿٣٥﴾﴾.

العَضُدُ: هو من اليَدِ ما بَيْنَ المِرْفَقِ إلى الكَتِف، وجمعه: «أعْضاد» وشدُّ العَضُدِ كنايَةٌ عَنْ تَقْوِيتِهِ بأخيه.

وبقوله له كما جاء في نَصّ (الشعراء) بأسلوب غَيْرِ مُباشر:

﴿...قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: قَدْ أَرْسَلْنَا إلى أخيك هارون، وتحقَّقَ طَلَبُكَ، فاذْهَبَا مَصْحُوبَيْن بآياتنا الخوارق، وآياتنا البيانيَّة، إنّا معكُمْ مُسْتَمِعُون لما تَقُولَان، ولما يُقالُ لَكُما، ومؤيّدون وناصرون وحَافظون.

وقد جاء التعبير هنا بضمير المتكلّم العظيم، لإشعار موسى عليه السلام بعَظَمَةِ الرُّبُوبيَّة القادرة على تأييدِهِمَا وحمايتهما ونُصْرَتهما.

* * *

التخوُّفُ الثالث: أنّ موسى عليه السّلام يَعْلَمُ من نفسه أنَّه مَفْطُورٌ على طبيعة التعجُّلِ والحدَّةِ وسُرْعَةِ الغضب، الّتي يَضيقُ مَعْها صَدْرَهُ تُجاه ما يَرَاهُ مخالفاً للحقِّ أو الخير، أو لمزاجِهِ وإحساسات نَفْسِهِ، أو مصادماً لما يُرِيدُهُ ويَرْغَبُ فيه، من خير.

فهو يتخوَّفُ من أن تجْعَلَهُ طبيعَتُهُ هٰذه يتصرَّفُ تَصَرُّفاتٍ لَا تَحْسُنُ من رَسُولٍ داعٍ إلى اللَّهِ حكيم، وقائدٍ رشيد، لأنَّها تُحَطِّمُ حاجز الحِلْمِ والصَّبْرِ الحَمِيدَيْن.

وقد عَبَّرَ موسىٰ عليه السلام عن هذا التخوُّف، بقوله لربِّه كما جاء في نصِّ سورةِ (الشُّعراء):

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى . . . ﴿١٣﴾﴾.

ضِيقُ الصَّدْرِ يكُونُ بعَدَمِ قُدْرَةِ صاحِبِهِ على تحمُّلِ المزعِجَاتِ والمؤلمات للنَّفْسِ، بصَبْرٍ حميد، وحِلْمٍ رَشِيد، ولا سيما لدَىٰ تَعَامُلِهِ مع النَّاسِ ذوي الأخلاق والطباع المختلفة.

* * *

وبعد أنْ أبانَ موسىٰ عليه السَّلام لربِّه تخوُّفاتِهِ الثلاث التي سَبَقَ شَرْحُها، سأل ربَّهُ بشأنِهَا جميعاً، مع غيرها من مطالب، قائلاً في دُعائِهِ مَا جاءَ بيانُهُ في نَصِّ سورة (طه):

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى
(٢٧) يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى (٢٨) وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَٰرُونَ أَخِى (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ
أَزْرِى (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى (٣٢) كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ
كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾:

تدبُّر هذا النصّ:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥)﴾:

[**اشْرَحْ**]: دُعاءٌ بصيغة الطلَب. **الشَّرْحُ**: البَسْطُ والتَّوْسِعَة. وشَرْحُ الصَّدْرِ يكون بجَعْلِهِ واسعاً قادراً على تَحَمُّلِ المُزْعِجَاتِ والمكارِه، بصَبْرٍ حَميد، وحِلْمٍ رَشيد، دُون انْدِفاعٍ بغَضَبٍ سَريع.

الصَّدْر: معروف، فيه القلب والكبد والرِّئة ونحوها. ولكنَّ الصَّدْر في تَحْليلِ النفس هُو الوعاء الذي يَحوِي في الإنسان خصائص نفسه، من سَطْحِ هذه الخصائِصِ إلى عُمْقِها، وتأتي في سَحْطِها الأهواء والشهواتُ. ويأْتِي في عُمقِهَا مَرْكَزُ استقرار المعارف الكبرى، والإيمانِ، والإراداتِ الشدِيدَاتِ من مُسْتَوَى العزم.

- ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى (٢٦)﴾:

أي: وسَهِّلْ لِي كُلَّ أُمُورِي، ولا تَجْعَلْ فيها عسيراً ولَا صَعْباً. استفيد العموم من إضافة «أَمْر» إلى ياء المتكلّم.

التَّيسير: التسهيلُ، وجَعْلُ الشيء مطاوعاً هيّناً ليِّناً منقاداً، لا تَقِفُ دُون تحقيقه أو دُونَ تحقيقِ الغاية منه، عَقَباتٌ ولَا مَوَانِعَ ولا سُدود.

واليُسْر: هو ضِدُّ العُسْر.

- ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى (٢٧) يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى (٢٨)﴾:

حَلُّ العُقْدَة: فَكُّها. العُقْدَة في المنظور: عُقْدَةُ الخَيطِ أو الحَبْلِ حين يُدارُ بَعْضُه على بَعْضٍ ويُشَدّ. ونظيرها يكون في المعنويّات غَيْرِ المنظورة.

عُقْدَةُ اللّسان: عَيْبٌ في نُطْقِ اللّسان خِلْقِيٌّ أو طارِئٌ، يجعل اللّسان غيرَ قادِرٍ على النُّطْقِ بانطلاقٍ ويُسْرٍ وسَلَاسَة، وإفهام سريع للمراد بيانُه بالكلام.

[يَفْقَهُوا قَوْلِي]: أي: يَفْهَمُوا قَوْلِي بإمعان. **الفقه**: هو في اللُّغة الفهم، والعِلْم. ويُسْتَعْمَلُ الفقه للدّلالة على العِلْمِ ببواطِنِ الأُمُورِ ودَقَائِقِهَا وخَفَايَاها، وعلى البحث عنها للتوصُّلِ إلى مَعْرِفتها، فهُوَ أَخَصُّ من مُطْلَقِ العِلْم.

أي: واحْلُلْ يا رَبّ عُقْدَةً من لِساني، وهي العقدة الَّتي تَحْبسُ نُطْقِي بَعْضَ الشيء، فإذا حَلَلْتَها بقُدْرَتِكَ وحِكْمَتِكَ صِرْتُ قادراً على إفْهَامِ الَّذين أُبَلِّغُهُمْ رِسَالَاتِكَ دقائِقَ المعاني الّتي أُقِيمُ بها عَلَيْهِمُ البراهِينَ الدّامغة، والحجج السَّاطعة القاطِعَة، الكاشفة لباطل المجادِلِينَ بالباطِلِ، الّذين يُرِيدُونَ أنْ يُدْحِضُوا الحقّ بزُخْرُفٍ من القول.

- ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠)﴾:

الوزير: المُوَازِرُ المعين المساعد المسانِد.

أيْ: واجْعَلْ لي مُوازِراً مُعِيناً مُسَاعِداً يَحْمِلُ مَعِي أثْقَالَ وَظَائِف رِسالَتي.

الوَزْرُ، والوِزْرُ، والوِزْرَةُ: حَمْلُ ما هُو ثقيلٌ على الظَّهْر. هو في المادّيات ظاهر، وفي المعنويات هو من قِبَلِ التوسُّعِ اللُّغوي.

﴿...مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠)﴾: سأل مُوسىٰ عليه السَّلام رَبَّه أن يَجْعَلَ الوزير الّذي يختارُهُ لَهُ مساعِداً مُسَانِداً مِنْ أهله، وعَيَّنَ أخاه هارونَ على وَجْهِ الخصوص لعِلْمِهِ بأخيه، وبأنَّهُ أهْلٌ لهٰذِهِ الوِزارة الدِّينِيَّة، دِيناً وخُلُقاً وبَياناً وحِكْمَةً وحِلْماً.

- ﴿اَشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾: أي: قَوِّ بِهِ قُوَّتي. **الأَزْرُ**: القوّة. يُقال لغة: شَدَّ أَزْرَهُ، أيْ: قوّاه.

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ الشَّدِّ في القرآن بمعنى التَّقْوِيَة، وبمعنى الشَّدِّ الضَّاغِطِ المؤلم، كشَدِّ وَثَاقِ الأسير، والشَّدِّ على القُلوب بالكُروب، وبالمؤلِمَات المحزنات.

- ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾

أي: واجْعَلْهُ شَرِيكاً لي في أمْرِ رِسالَتِي الّتِي كلَّفْتَنِي إيَّاها، وحَمَّلْتَنِي وَظَائِفَها. وفي قراءة ابن عامر: **[وَأُشْرِكْهُ في أَمْرِي]** بضمِّ همزة «أُشْرِكُه» أي: فإنْ جَعَلْتَهُ وزيراً شريكاً لي في أَمْرِ رِسالَتِي، أَجْعَلْهُ شَرِيكاً في ذلك.

- ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

أي: مِنْ أجْلِ أن نَتساعَد ونَتَسانَد على تَنْزِيهِكَ عمّا لَا يَليقُ بجَالِكَ وعظيم صفاتِكَ، تنزيهاً كثيراً في مَفْهوماتِ التنزيه، وكثيراً في تِكْرارِهِ طوال أزْمَانِنَا، بَيْنَنَا وبَيْنَ أَنْفُسِنَا، وفي دَعْوَتِنا الّتي نَقُومُ بها إذْ نَدْعُو النّاسَ إلى دِينِكَ وصراطِكَ المستقيم.

التَّسْبِيحُ لله: تَنْزِيهُهُ وتَقْدِيسُهُ عن كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ به جلَّ جلالُه وعَظُمَ سلطانه. وهو تمجيد لِلّه بصِفاتِهِ السَّلْبِيَّةِ التي هو مُنَزَّهٌ عنها. وهو عَكْسُ **التَّوْقِير**: الذي هو تمجيد لِلّه بصفاته الوجوديَّة الّتي هي لله عزّ وجلّ على ما يليقُ به.

- ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾:

أي: ونَذْكُرُكَ بمحامِدِكَ الجَلِيلَةِ، وصِفاتِك العظيمة، وأسمائِكَ الحُسْنَى، في أَنْفُسِنا، وفي دَعْوَتِنَا للناس الّتي نقوم بها، ذِكْراً كثيراً، بِبَيان كمالِ ذاتِكَ، وكمال صفاتِكَ وأسمائك، وبتكرارِ ذلك تكراراً كثيراً طَوال أَزْمان حيواتنا.

- ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾:

أي: إنَّكَ كُنْتَ ومَا زِلْتَ ولَنْ تَزال بِنا بَصيراً ما دُمْنَا في الوجود. وهٰذا يَجْعَلُنا نَطْمَعُ بثوابك العظيم الذي تَتَفَضَّلُ به علينا، مقابل قيامِنَا بتَسْبِيحِكَ كثيراً، وذِكْرِكَ كثيراً.

إنّ صِفاتِ الأزلِيّ الأَبدِيّ ذاتُ كَيْنُونَةٍ دائمة، فما كان منها هو كائن دواماً.

البصير: في إطْلَاقِهِ على الله عزّ وجلّ يَدُلُّ على أنَّ اللَّه بالِغٌ الغايَةَ العُظْمَىٰ في صِفةِ الرُّؤْيَة، وهي الّتي يَرَى فيها كُلَّ مَا يُمْكِنُ عَقْلاً رُؤْيَتُهُ، مَهْمَا صَغُرَ أَوْ كَبُر، ومَهْمَا بَعُدَ أو قَرُبَ.

هٰذه الأَدْعِيَة الّتي دَعَا بها مُوسَىٰ رَبَّهُ في أُولَىٰ مكالمة الله لَهُ بِجَانِبِ جبل الطّور، قد أجابه الله بشأنها:

إذْ كان الجواب الأخير من الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام، ما جاء بيانُهُ في النَّصِّ الذي من سورة (طه) وهو قول اللَّهِ تبارك وتعالىٰ فيه:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ: قَدْ أَعْطَيْنَاكَ كُلَّ ما سَأَلْتَنَا إيَّاه يا مُوسَىٰ، جاء فِعْل: [**أُوتِيتَ**] بصيغَة المَبْنِي لما لم يُسَمَّ فاعله، ومن المعلوم البَدَهِيّ الظاهِرِ أنَّ اللَّهَ رَبَّهُ هو الذي آتاه سُؤْله.

ودَلَالة العموم الّتي شملَتْ كلَّ مطالبه أفادَتْها إضافة السُّؤْلِ إلى ضمير المخاطب، وهو موسىٰ عليه السّلام.

السُّؤْل: هو في اللّغة الشَّيْءُ الذي يُطْلَبُ بالسؤال.

وقَدْ جاء في النَّصَّيْن الآخَرَيْن كما سَبَق بيانُه، ما يَدُلُّ على أنّ الله عزّ وجلّ قد أتاه سُؤْلَهُ بشَأْنِ أخِيهِ هارون، وبشأن ما كان يتخوَّفُ منه، فجاء في نصّ سورة (القصص) قولُ الله سبحانه

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥)﴾.

وجاء في نصّ سورة (الشعراء) قول الله عزّ وجلّ:

﴿...فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥)﴾.

أي: أَرْسَلْنا مَعَكَ أخَاكَ فاذْهَبَا، وهذا المطويُّ في اللّفظ يُفْهَمُ باللُّزومِ الفكريّ.

* * *

وهكذا ظهر لنا تكامل النصوص الثلاثة في دلالاتها، دُونَ تكرار، إلّا ما يَقْتَضِيه التعريف بأصْل الموضوع، ولا يُفْهَمُ المراد بالنّص من دونه، وما يقتضيه ترابُط فقرات النصّ.

وهذا من عناصر إعجاز القرآن المجيد.

* * *

تابع التدبر التحليلي للدرس الثاني من دُروس سورة (طه) المشتمل على لقطاتٍ من قصة موسى عليه السلام

الفقرة الثانية

الآيات من (٣٧ ـ ٦٠)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لموسىٰ عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ

ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا
نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ
بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ
عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ
شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى
كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟
أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ
وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ
أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ
وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾.

القِراءات:

٣٩ ● قرأ أبو جعفر: **[وَلْتُصْنَعْ عَلَى عَيْنِي]** بلام الأمر، الّتي هي هُنا لَامُ أمْرِ التكوين، وبجزْمِ الفِعْلِ بلام الأمر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَلِتُصْنَعَ]** بكَسْرِ اللّام، على أنّها لَامُ التَّعْليل، وبنَصْبِ الفِعْل بأنْ مُضْمَرَةٍ بعد لامِ التعليل، وهٰذِهِ القراءَة تدلُّ على الغرض مِنْ جَعْلِهِ يُنَشَّأ في القَصْرِ الفرعونيّ تَنْشِئَةَ القادَةِ، وعليماً بما يجري في القصر من أمور.

٣٩ ـ ٤٠ ● قرأ نافع، وأبُو عَمْرو، وأبُو جَعْفر: **[عَيْنِيَ إذْ]** بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرةِ بالإسْكَان.

٤٠ ● قرأ السُّوسي، وأبُو جَعْفَر: **[جِيتَ]** بإبْدال الهمزة ياءً.

وقرأها باقي القرّاء العَشَرةِ: **[جِئْتَ]** على الأصل دون إبدال.

٤١ ـ ٤٢ ● قرأ نافِعٌ، وابْنُ كَثِيرٍ، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[لِنَفْسِيَ أذْهَبْ]** بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرةِ بالإسكان.

٤٢ ـ ٤٣ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر: **[في ذِكْرِيَ اَذْهَبَا]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٥٣ ● قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[مَهْداً]** وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مِهَاداً]**.

٥٨ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبُو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: **[سِوَىٰ]** بكسر السِّين، والباقون بضمّها، وهما لغتان عربيتان للكلمة.

تمهيد:

ممّا ذكر ابن كثير مُتَفرِّقاً في كتابه «قصص الأنبياء» أجمع مع بعض اختصار وتصرّفٍ في التعبير، ما يلي مما يتعلّق بمنة الله على موسى إذْ أنْجاه وهو طفل صغير من الذَّبْحِ، بمقتضى أمر فرعون مصر بقتل الذكور من مواليد الإسرائيليّين.

(١) أنَّ فرعون مصر الّذي وُلِدَ في عهده موسىٰ عليه السَّلام، قد استَعْبَدَ بني إسرائيل، وأذلَّهم، وجَعَلَ يستخدمهم في أخسِّ الصنائع والحِرَف، ويُسَخِّرُهم في الأعمال الشاقَّة، وقد أمَرَ بذبح مواليدهم من الذّكور، واستبقاء مواليدهم من الإناث.

(٢) وكان الحاملُ لَهُ على هذا الظُّلْم الشنيع أنّ بني إسرائيل كانوا يتدارسُونَ فيما بينَهُمْ، عن إبراهيم عليه السّلام، أنّه سيخرج من ذُرِّيَّتِهِ، بَنِي إسْحَاق ويَعْقُوبَ غلامٌ يكونُ هَلَاك مَلِك مِصْرَ على يَدَيْهِ، فتحدَّث بها القِبْطُ فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فأمَرَ عِنْدَئِذٍ بقَتْل أبناء بني إسرائيل، حَذَراً من وجود هذا الغلام.

(٣) ورُوي عن ابن مَسْعُودٍ وعن أناسٍ من الصحابة أنَّ فِرْعَوْن رأىٰ في منامه، كأنّ ناراً قد أقبلَتْ من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضرّ بني إسرائيل، فلمّا استيقظ هاله ذلك، فسأل من له عِلْمٌ بتعبير الأحلام، فقالوا له: هذا غلامٌ يولَدُ من هؤلاء يكون سَبَبُ هلاك أهل مصر على يَدَيْهِ، فلهذا أمَرَ بقتل الذكور من مواليد بني إسرائيل، واستحياء المولودات من الإناث منهم.

(٤) وذكر عَدَد من المفسّرين، أنّ القِبْط شَكَوْا إلى فرعون قلّةَ بني إسرائيل، بسبب قتل وِلْدَانهم من الذكور، وأنّهم خافوا أن يتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الّذين يقومون بما كانَ بنو إسرائيل يقومون به من أعمال شاقّة، أو أعمال دنيئة حَقِيرَة، فأمَرَ فرعَوْن بأن تقتل أبناؤهم عاماً، وأن يُتْرَكُوا عاماً.

وذكروا أنّ هارون وُلِدَ في عام المُسَامَحَةِ عن قَتْلِ الأبناء، وأنّ موسىٰ وُلِدَ في عام قَتْلِهِم، وأنَّ أُمَّه لما حملت به ضاقت بحملها ذَرْعاً، وأخذت تحترز من أوّلِ ما حَمَلتْ به، ولم تَكُنْ تُظْهِرُ عليها مَخَايِل أنَّها حُبْلَى، خَوْفاً من أنْ يأتيها وَلَدٌ ذكر، فيقتلَه جُنُودُ فرعون.

فلمَّا وَضَعَتْهُ ألْهَمَهَا الله عزّ وجلّ أنْ تَتَّخِذَ لَهُ تابوتاً (صندوقاً) وربطت حبلاً بهذا الصندوق، وكانت دارُها مُتاخِمَةً للنّيل، فكانت تُرْضِعُه، فإذا خَشِيَتْ من أحدٍ وضعَتْهُ في ذلك التّابوت، فأرْسَلَتْه في ماء النيل،

وأمْسَكَتْ طرف الحَبْلِ عندها، فإذا ذَهَبَ الرُّقباء من القِبْطِ اسْتَرْجَعَتْه إليها.

فأَرْسَلْتَه ذاتَ يوم، وذَهِلَتْ أن تَربط طرف الحَبْلِ عندها، فذهَبَ مَعَ النّيل وجَرَيَانِهِ، فمَرَّ على ساحل قَصْرِ فرعون، فالْتَقَطَهُ آل فرعون.

(٤) وذكروا أنّ جواريَ القصر الفرعونيّ التَقَطْنَهُ من النّيل في تابوتٍ مُغْلق عليه، فلم يتجاسَرْنَ على فَتْحِهِ، حتَّى وَضَعْنَهُ بين يَدَيْ امرأة فرعون، فلمَّا فتَحَتْ غطاءه، وكَشَفَتِ الحجابَ، ورَأَتْهُ أحَبَّتْهُ حُبّاً شديداً جداً.

فلمَّا جاء فرعَوْنَ قال: ما هذا؟ وأمَرَ بذَبْحِهِ، فاسْتَوْهَبَتْهُ منه، ودَفَعَتْ عنه، وقالت: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ؟

قال فرعونُ: أمَّا لَكِ فَنَعَم، وأمَّا لِي فَلَا».

(٥) ولمّا استقرَّ الصَّبِيُّ «موسىٰ» بقصر فرعون، أرادُوا أن يُرْضِعُوه، فلَمْ يَقبل ثَدْياً، ولا أَخَذَ طعاماً، فحاروا في أمْرِهِ، فأَرْسَلُوهُ مع القوابل والنساء إلى السُّوقِ، لعلّهم يَجِدُون مُرْضعةً يَرْضَىٰ أنْ يَرْضَعَ من ثَدْيها.

فبينما هم وُقوفٌ به، والناسُ عاكِفُون عليه، إذْ بَصُرَتْ به أخْتُه، فلَمْ تُظْهِرْ أنَّها تَعْرِفُهُ، بل قالت: «هَلْ أَدُلُّكُمْ علىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ، وهُمْ لَهُ ناصحون؟».

قالوا لها: ومَا يُدْرِيك بنُصْحِهِمْ وشَفقتهم عليه؟

قالت: رغْبَةً في سُرُور المَلِكِ، ورَجاء مَنْفَعَتِهِ.

فذهبوا معها إلى مَنْزِل أبيها وأُمِّها، فأَخَذَتْهُ أُمُّهُ، فلمَّا وضَعَتْ حُلْمَةَ ثَدْيها في فَمِهِ الْتَقَمَها، وأخَذَ يَمْتَصُّ حليب أُمِّهِ ويَرْتَضِعه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً.

وذهب البشير إلى «آسية» امرأة فرعون، فأعلمها بما جرىٰ، فاسْتَدْعَتْ هذه المرضعة (الّتي هي أُمُّه في الحقيقة) إلى قصرها، وعرضَتْ

عليها أنْ تكونَ عندها، وأنْ تُحْسِنَ إليها، فأبَتْ، وقالَتْ: إنّ لي بَعْلاً وأَوْلَاداً، ولَسْتُ أقْدِرُ على هذا إلّا أنْ تُرْسِليهِ معي، فأَرْسَلَتْهُ مَعَها، ورَتَّبَتْ لها رَوَاتِبَ، وأجْرَتْ عليها النفقات والكساوي والهِبَات.

ورَدَّ الله ابْنَها إليها تُرْضِعُه، وتَحْضُنُه، مأجورةً مُعَزَّزَةً مُكرَّمة.

ما جاء عند الإسرائيليين بشأن هذه القصة:

جاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج ما يلي معناه:

قام في مصر مَلِكٌ بَعْدَ الملِك الذي كان في عهد يوسف عليه السّلام، ولم يَكُنْ يَعْرِفُ يوسُف. فرأىٰ أنّ العبرانيّين يتكاثرون، وتعظُمُ قوّتُهُمْ في مصر. وتصوّر أنّه إذا قامَتْ حَرْبٌ بَيْنَهُ وبين أعدائه أن ينضمّ العبرانيون إلى الأعداء، فأمَرَ الشَّعْبَ المصريّ بتَسْخِيرِ الإسرائيليّين، وإذْلَالِهِم، واسْتِعْبَادِهِم استعباداً قاسِياً، ثُمَّ أمَرَ بِقَتْلِ مواليدِهِم من الذُّكور.

وفي السَّنة القاسية الّتي كان القبط يقتلون فيها مواليد العبرانيين الذكور، وُلِدَ موسىٰ، من بيت لاوي، أباً وأمّاً.

فخَبَّأَتْهُ أُمُّه ثلاثَةَ أشهر، لكنّها لمّا لَمْ يُمْكِنُها أنْ تخبّئه أكثر من ذلك، أخَذَتْ له سَفَطاً من البَرْدِي ذا غطاء (**السَّفطُ**: صندوق يُصْنَعُ مِنْ قُضْبانِ الشَّجر) وطَلَتْهُ بالحُمَرِ[1] والزّفت، ووضَعَتْ ابنها فيه، ووضَعَتْهُ بَيْنَ الحلفاء (الحلفاء: نباتٌ قليل الارتفاع ينمو في المستنقعات، وعلى بعض شواطئ النيل ويُفْتَلُ إلى حِبَال) على حافَّة النَّهر، ووقفت أُخْتُهُ من بعيد لتَعْرِف ماذا يُفْعَلُ به.

---

[1] **الحُمَر**: نوع من القار المعدني، شبيه بالقطران الشديد، ويتحوّلُ إلى زفت إذا جُمّد تماماً، وكان يُستعمل ولا زال في طلاء المراكب البحرية، ويوجَدُ في البحر الميّت وبالقُرْب منه. وكان يستخدم في بابل عوضاً من الإسمنت. (عن كتاب قاموس الكتاب المقدّس).

فنزلت ابنَةُ فرعَوْنَ إلى النَّهرِ لتغتسل، وكانت جواريها ماشياتٍ على جانب النهر، فرأتِ السَّفَط بين الحَلْفاء، فأَرْسَلَتْ أَمَتَهَا وأَخَذَتْهُ، ولمَّا فَتَحَتْهُ رأتِ الوَلَد، وإذا هُوَ صَبِيٌّ يَبْكي، فرَقَّتْ له، وقالَتْ: هذا من أَوْلادِ العبرانيّين.

وقالت أُخْتُهُ لابْنَةِ فرعونَ: هَلْ أَذْهَبُ وأدْعُو لكِ امْرَأَةً مُرْضِعة من العبرانيات لِتُرْضِعَ لَكِ الوَلَد.

فقالت لها ابْنَةُ فِرعون: اذهبي بهذا الولَدِ وأرْضِعِيهِ لي، وأنا أُعْطِيكِ أُجْرَتَكِ.

فأخذت أمُّ الصبيّ ولدَها وأَرْضَعَتْهُ، ولمَّا كَبِر جاءَتْ إلى ابْنَةِ فرْعَوْن وأعْطَتْهَا الصَّبِيّ، فتَبَنَّتْهُ ولداً لها، وسمَّتِ اسْمَه «موسىٰ» وقالت: إنّي انْتَشَلْتُهُ من الماء.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لموسى في سورة (طه) الّتي أتابع تدبُّر دروسها:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ (٤٠)﴾.

- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ (٣٧)﴾:

يُؤَكِّدُ اللّهُ عزَّ وجلَّ لموسىٰ بعبارة [لَقَدْ] ويعطف الجملة على الجمل السابقة لها في السورة.

[مَنَنَّا]: أي: أحْسَنَّا وتَفَضَّلْنَا وأنْعَمْنَا، باسْتِعْمَال ضمير المتكلّم العظيم، إذ كان في هذه المِنَّة أَلْطافٌ رَبَّانِيَّةٌ عَجِيبَة.

المنّ: هو في اللُّغَةِ الإحسان والتفضُّلُ والإنعام. يُقالُ لغة: «مَنَّ فُلانٌ على صَدِيقِهِ يَمُنُّ مَنّاً»، أي: أَنْعَمَ عليهِ بِنِعْمَةٍ طيّبة.

[مَرَّةً أُخرَى]: أي: غَيْرَ مِنَّةِ مُكَالمَتِكَ، ومَنْحِكَ النُّبُوَّة والرِّسالة، وآيَتِي العصا واليد، مع ما سَنُعْطِيكَ من آياتٍ لَمْ نَكْشِفْ لكَ مفرداتها في هذا اللّقاء.

وهذه المنَّةُ الأخرىٰ الّتي سَيَأْتي بيانُها هي مِنَّةُ حِمايَتِهِ من الذَّبْحِ، بأيْدِي جُنودِ فِرْعَوْنَ صاحبِ الأمْر بذَبْحِ المواليدِ الذكور مِنْ بني إسرائيل.

- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: ضَعْ في ذاكرتِكَ يا موسىٰ أننا أوحَيْنَا إلى أُمِّكَ إلهاماً منّا أنْ تَعْمَلَ أعْمالاً كانت سبباً صوريّاً في نجاتك من الذَّبْحِ وتنشئتك في القَصْر الفرعَوْني تَنْشِئَةَ أبْناءِ المُلُوك.

أو مَنَنَّا عليكَ وقْتَ أنْ أَوْحَيْنا إلى أُمِّك ما يوحى.

[ما يُوحَىٰ]: أي: ما يُوحَىٰ نظيرُه لغير الأنبياء والمرسلين، إذْ يأتيهم إلْهاماً على شَكْلِ خواطر قويّة دافِعَةٍ بقوة إلى العمل بمقتضاها، أو بواسِطة حُلْمٍ جَلِيٍّ يُرَىٰ في المنام، أو بواسطة مَلَكٍ يأتي بصورة إنسان ناصحٍ غير معروف أنّه ملك. وقد جاء في بيانات الرسول ﷺ أنَّ الله أرسل ملائكة لبَعْضِ عباده، فبلَّغُوهم وأخبروهم أخباراً صادقة دون أن يكون المرسَلُ إلَيْهم أنبياء، كما جاء في حديثِ الأقرع والأبرص والأعمىٰ، عند البخاري ومسلم، وكما جاء في الصحيح من أنَّ الملائكة سلَّمَتْ على عِمْران بن الحصين، وهو ليس بنبيّ، وكما جاء في حديث الذي ذهب ليزور أخاً له في الله ساكنٍ في بلدٍ غير بلَدِهِ فظهر له الملَكُ وسألَهُ عن قَصْدِهِ وحادثه، فليس مثل هذا مقتضياً للنُّبُوّة.

وقد اتّفق جمهور أهل العلم أنّ النبوّة لَا تكونُ للنِّسَاء، فلَمْ تكُنْ أمُّ موسى نبيَّةً يُوحَىٰ إليها كما يُوحَىٰ إلى الأنبياء.

- ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾:

[أَنْ] تفسيرية جاءت بعد ما فيه معنى القول دون حروفه، فالعبارة جاءت تفسيراً للفِعْلِ في: [أَوْحَيْنا].

وأصْلُ معنىٰ القَذْفِ رَمْيُ الشيء بقوة، وليس هذا هو المراد بالعبارة هنا. ولكِنْ جاء استعمال فعل [اقْذُفِيهِ] للدّلَالَةِ على أنّها حينما تَضَعُهُ في التابوت، فإنَّها تَقْتَلِعُهُ بعُنْف من قَلْبها المُتَعَلِّق بوَلَدِها، والمطلوبُ منها أن تَضَعَهُ بسُرْعَةٍ في التّابوت، ودُونَ تردُّد، لأنَّ العمليَّة تحتاجُ سُرْعَةً وجُرْأَة بلا تَرَدُّد، إخفاءً للأَمْرِ عن عُيُونِ السُّلطَةِ الفرعَوْنِيَّة وسائِرِ المصريّين، وكثير من الإسرائيليين، كَيْلَا يَشِيعَ وُجودُ صَبِيٍّ ولِيدِ سَنَتِهِ في بيتٍ من بيوت بني إسرائيل.

﴿فِي ٱلتَّابُوتِ﴾: أي: في الصُّنْدوقِ الَّذي تُعِدِّينَهُ إعداداً حسناً، ليطْفُوَ على الماءِ دون أن يتعرَّضَ للغرق، حين تُلْقِينَهُ في النيل.

﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾: أي: وبفَوْرِيَّة وسُرْعَةٍ تُشْبِهُ سُرْعَةَ قَذْفِ الحَجَرِ، ضَعِيهِ في اليَمِّ، حتَّىٰ لَا يَشْعُرَ أحدٌ بما فَعَلْتِ.

هذان أمران تكليفيّان جاءا إلى أمّ موسىٰ، تضمَّنَهُمَا ما أُوحي إليها به، على ما سبق به البيان بشأن المراد بالوَحْيِ إليها.

«اليَمُّ»: البَحْر، وهو الماء الواسع الكثير، وأُطْلِقَ لفظُ «اليَمّ» على نَهْرِ النيل لأنَّه عظيم، وماؤه واسِعٌ وكثير.

- ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾:

هذا أَمْرٌ تكوينيٌّ صادرٌ عن الرَّبِّ الخالِقِ، فلا بُدَّ من تحقُّقِهِ في وقته

المحدّد له. وقد تحقَّق فعلاً على ما تمَّتْ به إرادَةُ اللَّهِ وقضاؤه.

[السَّاحل]: هو شَطُّ البَحْر، وسُمّي ساحلاً لأنّ الماء سحَلَ أرضَهُ، أي: قَشَرَ عنها سَطْحَها بأمواجه، ومَدِّه وجَزْرِهِ.

والمراد بالساحِلِ في هذه العبارة جانِبُ الساحل من النَّهر، لا السَّاحِلُ نفسه، أو طرَفُ السَّاحل الذي تتوقف عنده الأشياء التي يحملها الماء.

- ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾:

أي: وسيَحْدُثُ بوصوله إلى جانب الساحل حَدَثُ أخْذِهِ من قِبَلِ آلِ فرعون الكافر، الّذي هو عدُوٌّ للَّهِ بسبب كفره، وعَدُوٌّ لموسى، لأنّه من أبناء بني إسرائيل الّذين أمَرَ فرعون بقَتْلِهِمْ عقب ولاداتهم، إذِ اعْتَقَدَ أنَّ هلاكه وهلاكَ أنصاره وجنوده سيكونُ على يدَيْهِ.

جاء فعلُ: **[يَأْخُذْهُ]** مجزوماً على أنَّهُ جوابٌ للطلَب في: **[فَلْيُلْقِهِ]** لأنَّ إرادة الله عزّ وجلّ قدَّرَتْ أنْ يَترَتَّبَ أخْذُ آل فِرْعَوْنَ له، بَعْدَ وُصُوله إلى جانب ساحل قَصْرِهِ. وبَعْدَ انْتشاله بأيْدي الجواري، أو بِيَدِ بِنْتِ فرعون، أو بِيَدِ زوجته، فمصيرُهُ إلى فرعون نفسه، لأنّه هو سَيِّد القَصْر والآمِرُ الناهي فيه، ويكون في الحقيقة هو الذي يَأْخُذُهُ إذْ يُوافق على تَبَنِّيهِ أو تَرْبِيتِهِ في قَصْرِهِ كأحدِ أولاده.

- ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾:

أي: وأنْزَلْتُ بإلْقَاءِ سريعٍ على ذاتِك شيئاً خاصّاً من لَدُنّي وبأمْرِي، يَجْعَلُ مَنْ يُشاهِدُك يَميلُ قَلْبُه إلَيْكَ حُبّاً، فيتعلَّقُ بك.

وهكذا كان حينما شاهَدَهُ أهْلُ قَصْرِ فرعون، بنظراته وقَسَماتِهِ الأخَّاذَة الجذَّابَة، إذ تَعَلَّقَتْ قُلوبُهم به.

- ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾:

يُقالُ لُغة: صَنَعَ الرَّجُلُ فَرَسَهُ، أي: تعهَّدَهُ وأحْسَنَ القيامَ على تربِيَتِهِ وتَدْرِيبِهِ.

ويقال: صَنَعَهُ على عَيْنِهِ، أي: تولَّىٰ توجيهَهُ وتَنْشِئَهُ وتَرْبِيَتَهُ على الكمالات، في مختلفِ أطوارِ إعْدَادِهِ وتَرْبيته.

ويقال: صَنَعَ عَمَلَهُ بِعَيْنِ فُلان، أي: قام بعَمَلِهِ مشمولاً برعايته.

أي: وقدَّرْتُ وقَضَيْتُ إيصالَكَ إلى آلِ فرعون، وإلقاءِ محبَّتِكَ في قلوبهم، لتُنَشَّأ في القَصْرِ الفرعونيّ إنشاءً خاصّاً، تُصْنَعُ فيه صُنْعاً راقياً بعنايتي بك، وحمايَتِي ورعايَتي لك.

﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: أي: على المكان المُحَاط بعنايَتِي بك، وحمايتي، ورعايتي لك.

أُطلقَ لفظ العَيْن، وأُرِيدَ به بالغُ العِناية؛ لأنْ العَيْن بها تكُونُ الرُّؤية والمراقبة، فيكونُ مُوسَىٰ على المواضع الّتي تَشْمَلها وتحيطُ بها عناية الله الدائمةُ لَهُ، كدوام رؤيَةِ الله لكلّ ما يُمْكِنُ عقلاً رؤيَتُهُ في الوجود كلّه.

- ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾:

أي: وضع في ذاكرتك الأحداث الّتي كانت حين مشي أُخْتِكَ متابعةً لك عَنْ بُعْد، تُراقب ماذا سيَحْدُثُ بالتابوت، وإلى أيْنَ يَصِل.

ولمّا علمت أنّه وَصَل إلى القصر الفرعوني، وأنَّه قَدِ التَقَطَهُ آلُ فرعون، جعَلَتْ تقتربُ إلى الطُّرُق المُؤَدِّيَة إلى القصر.

ولعلَّها كانت تنادي: من يُرِيد مُرْضِعَةً مُرَبِّيَةً حاضِنَةً، لِطِفْلٍ ذَكَرٍ أوْ أُنثى.

يُشْعِرُ بهذا عبارَةُ [فَتَقُولُ] بصيغة الفعل المضارع الدالّ على تكرار

القول، ومثل هذا إنَّما يكُونَ مِنَ الباعَةِ المتجوِّلين، أو عارضي وعَارِضَاتِ الخَدَماتِ المتجوِّلين والمتجوِّلَات.

ولمّا عَلِمَتْ بأنّ آل فرعون طَلَبُوا له مُرْضِعَةً مُرَبِّيَةً حَاضِنَةً، يَقْبَلُ الطُّفْلُ الرَّضاع منها، إذ لَمْ يَقْبَلْ الطُّفلُ ثَدْيَ مُرْضِعَةٍ مَا في القَصْرِ أوْ مِنْ حَوْلِهِ، أقْبَلَتْ أُخْتهُ فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾؟: أي: يتعَهَّد بإرضاعِهِ، وتَرْبِيَتِهِ، وخِدْمَتِهِ، وحَضانَتِهِ لَكُمْ.

قالُوا لها: ومَنْ يَكْفُلُه؟

قالَتْ: أُمّي.

قالوا لها: هَلْ لَهَا لَبَنٌ؟

قالَتْ: نعم، لبَنُ أَخِي هارون، وكان هارون أكْبَرَ من مُوسَىٰ، ولكنه ما زال في السِّنِّ الّتي يُحِبُّ فيها الرَّضاع، قالوا: هارون أكبر من موسى بثلاث سنين.

قالوا: أحْضِري أُمَّكِ لنَرَىٰ هل يَقْبَلُ الصَّبِيُّ ثَدْيَها أمْ يَرْفُضُهُ، كما رَفَضَ أثْداءَ المُرْضِعَاتِ الأُخْريات.

فجاءت أُمُّها، وألْقَمَتْهُ ثَدْيَها فقبِلَهُ، وأخَذَ يَرْضَعُ منه اللَّبَنَ.

وكانَ كُلُّ هذا من ألطاف الله الخفيَّة، ليَرُدَّ الطِّفْلَ إلى أُمِّهِ، ولتَسْعَدَ بإرْضاعه، وحضانته، وإقامَتِهِ عندها.

- ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾:

فعل «رَجَعَ» يُسْتَعْمَلُ لازماً ومتعدّياً، ففي اللّازم تقولُ مثلاً: «رَجَعْتُ إلى داري». وفي المتعدّي تقول مثلاً: «رَجَعْتُ الصَّبِيَّ إلى أُمّه».

«رَجَعَ يَرْجِعُ رَجْعاً، ورُجوعاً، ورُجْعَىٰ، ورُجْعاناً ومَرْجِعاً»، وفي لغة هُذَيْل يقال: «أَرْجَعَهُ إرْجاعاً» في المتعدِّي.

﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: اسْتُعْمِلَ التعبيرُ بقُرَّة العَيْن، كنايَةً عَنِ السُّرُورِ والرّضا.

أي: من أجل أنْ تكونَ راضِيَةً مَسْرورةً بمشاهَدَتِك وإرضاعِكَ، وتَرْبِيتها وحضانتها لك.

أصل معنى «تَقَرَّ» تَبْرُد، ضدّ تَسْخُن. يقال لغة: قَرَّتْ عين فلان، أي: بَرَدَت، وفي هذا التعبير كنايَةٌ عن سروره، ورضاه؛ لأنَّ بَرْدَ العين المضادَّ لسخُونَتِهَا يكون في حالة السُّرُور والرّضا.

﴿وَلَا تَحْزَنَۚ﴾: أي: فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمّك، وقَدَّرْنَا أنْ تكونَ أنْتَ سالِماً من الآفات والأمراض والعاهات والعوارض المؤلمة بَعْدَ ذَلِكَ، كي تَقَرَّ عَيْنُ أُمِّكَ برَجْعَتِكَ إليها، ولكَيْلا تَحْزَنَ من أجلك إنْ أصابك مكروهٌ بَعْدَ ذلك، وفي هذا حَذْفٌ من الأوائل لدلالة الأواخر.

ولولا هذا التقدير لكانت عبارة: **[وَلاَ تَحْزَنَ]** مساويَةً في المعنى لعبارة **[تَقَرَّ عَينُها]** بأسْلُوب التعبير بنقيض الكلام، وهذا إطنابٌ لَا داعي له.

الحزنُ: مشاعر ألم في النفس بسبب فَوات محبُوب أو مَرْغوبٍ فيه، أو بسَبَبِ مَكْرُوهٍ نازلٍ أو مُتَوَقَّع النزول، كالحُزْنِ من أجل محكوم عليه بالقتل، ويَنْتَظِرُ تنفيذ الحكم فيه.

وطوىٰ النصُّ بيان موافقةِ آل فرعون على إرضاعه عند هذه المرأة المرضعة من بني إسرائيل، فالفاء في **[فَرَجَعْنَاكَ]** تعطف على محذوف مقدّر ذهناً، وتسمّىٰ عند النحاة الفصيحة.

* * *

وقد جاء بيان هذا الحدَث من قصة موسى في طُفُولَتِهِ الأولى في

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) مشتملاً على إضافاتٍ مكمّلاتٍ لبعض جوانب الحدث:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٧) فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ (٨) وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٩) وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠) وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١١) ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (١٣)﴾:

القراءات:

٨ ● قرأ حمزة والكسائي وخَلَفٌ: **[وَحُزْناً]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَحَزَناً]**.

حُزناً وَحَزَناً: لغتان عربيتان، والمعنى واحد.

٨ ● قرأ أبو جَعْفَر: **[خَاطِينَ]** بحذف الهمزة في الوقف والوصل. وكذلك قرأها حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[خَاطِئِينَ]** على الأصل دون حذف.

التدبّر:

هذا النصّ متكامل الدّلالات مع النصّ الذي سبَقَ تدبُّره آنفاً من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

(١) فهذا النصّ من سورة (القصص) قد جاء عَرْضاً لكلّ مُتَلَقٍّ للخبر، بأسْلُوبِ قصَّةٍ تُرْوىٰ.

أما النَّصّ السابق الذي من سورة (طه) فهو حكايةُ ما خَاطَبَ الله به موسىٰ، بذكْرِ مِنَّتِهِ عليه.

(٢) وجاء في نصّ سورة (القصص) إضافَةُ ما في البيان التالي من المعاني، حكايةً لما خاطب الله به أمّ موسىٰ وحياً، على ما سبق في بيان المراد بالوحي إليها:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾:

أي: اسْتَمِرِّي على إرْضاعِهِ في الخفاء، عن أعْيُنِ الرُّقَباءِ، أو مُشَيِّعِي الأنباء، فإذا خِفْتُ عليه أن يُعْلَمَ أمْرُه فضعيه في صندوقٍ يَحْمِلُهُ الماء كما يَحْمِلُ الفلْكَ، وألْقِيهِ في اليَمّ.

هذا البيان يَدُلُّ على أنَّ وَضْعَهُ في التابوت، وإلقاءه في اليمِّ، لم يكن عَقِب ولادته مباشرة، بَلْ كان بَعْدَ مُدَّة أَرْضَعَتْهُ فيها سرّاً، وهي تُخْفِي أن يكونَ لها ولَدٌ تُرْضعه، وقد تكونُ هذه المدَّة ثلاثَةَ أشْهُرٍ كما ذكر الإسرائيليّون في سفر الخروج.

وظاهر هذا النصّ يُشْعِرُ بأنَّهُ قد كانَ وحياً صريحاً ببيانٍ قولي، إذْ جاء فيه: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بضمير المتكلّم العظيم، لكِنَّ هذا غَيْرُ قَطْعِيِّ الدلالة.

فقد يكون رُؤيا مناميّة ذاتَ وضوح، كأنْ تَرَىٰ في المنامِ أنَّها جَعَلَتْهُ في صُنْدُوقٍ مُحْكَم صالحٍ لأنّ يَطْفُو على الماء ولا يَغْرَق، وهذا الصندوق على قَدْرِ راحَةِ جِسْمِهِ، وأنَّها أَلْقَتْهُ في النيل، وأنّ قائلاً قال لها في المنام: لَا تخافي عليه هلاكاً، ولا تَحْزَني لفراقِهِ، وأنَّ اللَّهَ جلّ جلالُهُ

وعَظُمَ سلطانَهُ ـ رادُّه إليك. وأنّها رأتْ أنَّهُ عاد إلى حِضْنِها فتربَّى بعِنَايَتِهَا، ورأتْ أنَّه صارَ رَجُلاً كبيراً يَدْعُو إلى الله في الناس، ومعه بعض الآيات الخوارق.

فَمِثْلُ هذه الرُّؤْيا تُعَبَّر بما جاء بيانُه في النصّ، لأنَّها واضِحَةُ الدّلالة.

هذا إذا لم يَكُنْ الذي أخْبَرها ملَكاً من الملائكة، جاءها على صورة إنسان، دون أن تكون نَبِيَّةً.

(٣) وجاء في نصّ سورة (القصص) إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ⑧﴾:

- فجاء في هذه الآية بيان أنّ مَن الْتَقَطَهُ من النِّيل إلى جانب شَطّ قَصْرِ آلِ فِرْعَوْن، هم آلُ فِرْعَوْن، وهذا يَصْدُق بأن تكون اللّاقطة الأولى له امرأةَ فِرْعون، أو ابْنَتَهُ، أوْ جواري القَصْر الفرعونيّ، لأنَّه وصلَ بَعْدَ ذلكَ إلى آلِ فِرْعَوْن جميعاً وعَلِمُوا به، وهم أصحاب الكَلِمَةِ المجابَةِ عند فِرْعَوْن نفسِهِ، سَيِّدِ القَصْر.

كلمة «آل» مثل كلمة «أهل»، إلَّا أنَّها لَا تُسْتَعملُ غالباً إلَّا في أشْراف الأهل، وذوي المكانة المُطَاعَةِ فيهم، فآلُ فرعون هم من كانت لهم مكانَةٌ في قَصْرِهِ من أهله، وكَلِمَتُهُم مُجابَة عند سيّد القصر.

- وجاء في هذه الآية بيان الغاية من تقدير الله وقضائِهِ بالتقاط آل فِرْعَوْن لَهُ من النّهر، وتَنْشِئَتِهِ مَحمِيّاً فيه، وتَرْبِيَتِهِ كتَرْبِيَةِ أولاد المُلُوك، هي أن يكون في المستقبل عَدُوّاً، وليكون سبباً في إنزال الحزْنِ فيمَنْ سيبقى منهم بَعْدَ إهلاك الله فرعون ومن كان معه غَرَقاً في البحر، وهم يتابعون بني إسرائيل الخارجين من مِصْر، في اتّجاه سيناء.

الحُزْن والحَزَن: ضِدُّ الفَرَح والسُّرُور. يقال لغة: «حَزَنَهُ الأمْرُ يَحْزُنُه حُزْناً» و«أحْزَنَهُ الأمْرُ إحْزاناً».

قال الجوهري: «حَزَنَهُ» لُغَةُ قُرَيْش، و«أحْزَنَهُ» لغة تميم.

ويقالُ: «حَزِنَ الرَّجلُ يَحْزَنُ حَزَناً» فهو «مَحْزُونٌ، ومُحْزَنٌ، وحَزِينٌ، وحَزِنٌ» من قومٍ «حِزَانٍ، وحُزَنَاء».

الحزْنُ: مشاعر ألم في النفس، بسبَبِ فواتِ محبوب أو مَرْغوب فيه، أو بسبب حُدُوثِ مكْرُوه، أو تَوَقُّعِ حدوثه، كالحزن على محكوم عليه بالقَتْل وهو يترقَّبُ التنفيذ.

قالوا: واللام في [**لِيَكونَ**] من عبارة ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ هي لام العاقبة، وليست للغاية.

أي: الْتَقَطوهُ ليكون عاقبة أمْرِهِ أنْ يَصِيرَ عَدُوّاً لمريدي قتله والتخلُّصِ منه فيهم، وليكون حَزَناً، أي: سبباً مُحْزِناً لسائر من يبقَىٰ منهم، بَعْدَ هلاكِ فرعون ومن معه من آله، كالنِّسَاءِ الكوافر، وكالذين لم يخرجوا من كفَّارِ آل فِرْعَوْن، مع فرعون وجنودِهِ لقتال بني إسرائيل الخارجين من مِصْرَ بقيادة موسىٰ عليه السّلام.

- وجاء في هذه الآية إضافة البيان التالي:

﴿... إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾.

هذه الجملة فيها معنىٰ التعليل لقضاء الله بأن يكون لهم في المستقبل عَدُوّاً وحَزَناً.

هامان: هو الوزير الأول لفرعون، والمعين الأكْبَرُ له على ارتكاب العدوان والظُّلْم والجرائم المختلفة وارْتكاب الخطايا، مع الإصرار على الكُفرِ عناداً واستِكْباراً.

[كانُوا خاطِئِينَ]: أي كانُوا مُذْنِبِين عن عَمْدٍ وإصرار، اتّباعاً للأهواء والشهوات، وتحقيقاً لمصالحهم من الحكم والسلطان، بفرض جبرُوتِهِم وكِبْرِيائِهِم في الأَرْض.

يُقالُ لُغَةً: «خَطِئَ يَخْطَأُ خَطأً وخطْأً» أي: أذْنَبَ عن عَمْدٍ، وكذٰلِكَ: «أَخْطَأَ».

وتُسْتَعْمَلُ المادة أيضاً بمعنى الغَلط عن غَيْرِ عَمْدٍ.

(٤) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾:

أي: وقالت امرأةُ فِرْعون له: هذا الصبيُّ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ، وقالَتْ له: لا تَقْتُلُوه، أي: لا تأمُرْ جُنُودَكَ بأنْ يقتلوه. وقالت لهُ: عَسَىٰ أنْ يَنْفَعَنَا إذا كَبِر ونَما في قَصْرِنا فيكُون لنا قوَّةً على الإسرائيليين وغَيْرِهِم، أو عسىٰ أنْ نَتبَنَّاهُ ونَتَّخِذَهُ ولداً لنا.

عَسَىٰ: فعلٌ غَيْرُ متصرّف، ومعناه المقاربة على سبيل الترجّي، وهي هنا في النصّ تامّة لا تحتاج إلى خبرٍ مَنْصُوب.

وصَرَفَ اللّهُ عن أذْهَانَ فرعون وآله، احْتِمَالَ أنْ يكونَ هو الوَلَدُ المَحْذُورَ منه من بني إسرائيل، والّذي صدَرَ الأمْرُ الفرعونيّ بقَتْل المواليد الذكور لبني إسرائيل مِنْ أجْلِهِ، وهذه من ألطاف الله الخفيّة، وقد دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في آخر الآية: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: ولم يَحْصُل لهم أقلُّ تَصَوّر احتماليّ بأن يكون هو الوَلَد المحذور منه.

وعبارة **[قُرَّةُ عَيْنٍ]** سبَقَ تفسير نظيرها قريباً لدى تدبّر النصّ الذي من سورة (طه).

(٥) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ⑩﴾:

الفُؤاد: هُوَ عُمْقُ القَلْبِ في كيان الإنسان النفسيّ.

أي: وإنَّ فُؤادَ أمّ مُوسَىٰ بعدَ إلْقَائِهِ في تابوته في النّيل نَحْوَ آخر اللّيل وِفْقَ الوحي الرَّبّاني الذي جاءَها، أصْبَحَ فارغاً، أي: خَفِيفاً طائِشاً، غَيْرَ ذِي وزنٍ ثَقِيل يُثَبِّتُه، وبخفته وطَيْشِهِ صارَ مُؤهَّلاً لأنْ يتأثّر بآلام نَفْسِهَا على ولَدِهَا، فيُعْطِيَ بطيشه وخِفَّتِهِ توجيهَهُ لإرادَتِهَا، فتُصْدِرَ أوامرها لِلَسانها بأن يَبُوحَ بما فعلَتْ سرّاً، وعندئذٍ يفتضِحُ أمْرُها ويتعرّض الصبيُّ للقتل بعد استخراجِهِ من النهر.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ⑩﴾:

«إنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، واسمُها ضمير الشأن الذي يُحْذَفُ دواماً في اللّسان العربي.

أي: إنَّ الشَّأْنَ الخطير أنَّ أمَّ موسىٰ كادت لَتُبْدِي أمْرَ ما فعلَتْ بولَدِها، إذْ وَضَعَتْهُ في صندوق، وألْقَتْهُ في النّيل، وعندئذٍ يفتضحُ أمْرُها، ويشيع خَبَرُها.

لكنّ الله عزّ وجلّ رَبَطَ على قَلْبِها بِرِبَاطٍ معنويٍّ من التجلُّدِ، والصَّبْرِ، والثّقَةِ بالله، والتوكُّلِ عليه، فهو الذّي أوحىٰ إليها وحياً على ما سبق بيانه، بأن تَضَعَهُ في صندوقٍ، وتلقيَهُ في اليَمّ.

وبهذا الرَّبْط الرَّبّاني ارْتَقَتْ مَنْزِلَتُها مِنْ فِئَةِ المؤمنات إلى فئة المؤمنين من الرّجال، إذ المؤمنون الصابِرُون الثابتون المتوكّلُونَ على الله من الرّجال يَضْبِطُونَ بإراداتِهِم الحازماتِ تصرُّفاتهم علىٰ مقتضىٰ الحكمة، بخلاف

النساء فإنَّ طبائعَهُنَّ تغلِبُهُنَّ فتدفَعُهنَّ الخِفَّة إلى تصرُّفاتٍ لا تُحْمَدُ عُقْباها، إلَّا من يَعْتَنِي اللَّهُ بها مِنْهُنَّ، فيَرْبطُ على قَلْبِها، فيَجْعَلُها في خصائصِها النفسيَّةِ كفُضَلَاءِ الرّجال المؤمنين.

وهذا نظير وصف الله عزّ وجلّ مريمَ علَيْها السَّلام بأنَّها كانَتْ من القَانِتِين، ولم يَقُلْ من القَانِتَاتِ.

الرَّبْطُ على القلوب في دلالات النُّصوص القرآنية يُفيدُ معنىٰ التَّثْبِيت والتقويةِ ومَنْعِها من الاندفاع بخفّةٍ وطَيْش، وعواملُ هذا الرَّبْطِ التثبيتيّ هي عوامل إيمانيّة، من الثقة بالله وبحكمتِهِ، والتوكّلِ عليه، وتسليم الأمْرِ إليه، والرّضا بقضائِهِ وقدره، وسائر مُمِدَّاتِ النَّفْسِ بالصَّبْرِ والحِلْم والقُدْرَة على تَحمُّلِ المُؤْلِمَات.

بخلاف الشَّدِّ على القُلوب، فهو يُفِيدُ معنى الضغط عليها بالمؤلمات والمكارِهِ والكُرُوب والمخاوفِ والأحزان.

(٦) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾:

[**لِأُخْتِهِ**]: قالوا: اسْمُها مَرْيم، وقد كانت حينئذٍ فتاةً راشِدة.

[**قُصِّيهِ**]: أي: تَتَبَعِي تنَقُّلاتِ أخيك في الصندوق الذي هو فيه، وتتَبَعِي حَرَكَته، وإلىٰ أيْنَ يَصِل.

تقولُ لغة: «قَصَصْتُ الشَّيْءَ أَقُصُّهُ قَصّاً وقَصَصاً» أي: تَتَبَّعْتُ أثَرَهُ شيئاً فَشَيْئاً.

[**فَبَصُرَتْ بِهِ**]: أي: فعَلِمَتْ به، يُقالُ لُغة: «بَصُرَ بالشَّيْءِ، يَبْصُرُ بَصَراً وبَصَارَة» أي: عَلِمَ به علماً صحيحاً مؤكّداً، فهو به بَصِير.

[**عَن جُنُبٍ**]: أي: حالة كونها متجاوزة مكاناً يَفْصِلُ بَيْنَها وبين النّيل بمقدارٍ هو في نظر الناس بعيد، لا يُعْتَبَرُ الموجود فيه مراقباً لما يَحْدُث في النّهر.

الجنُبُ: البعيد، ويُطْلَقُ أيضاً على القريب، فهو من الألفاظ الّتي تُطْلَقُ على المتضادَّيْن، إلّا أنَّ المراد هنا المعنى الأوّل والله أعلم.

[**وَهُمَ لاَ يَشْعُرُونَ**]: أي قُصِّيهِ في حالة أنّ الّذين يعنيهم قتل مواليد بني إسرائيل من الذكور، أو يَعْنِيهم إشاعة الأخبار عنهم، لَا يَشْعُرُونَ بوجود مراقب متابعٍ لشيءٍ ما في النَّهْرِ.

الشُّعُور بالشيء: هو العلم به، ولو من أدنى درجات الإحساس به، أخذاً من مسِّ الشعر الذي يحصُلُ به إحساسٌ خفيف.

(٧) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً، إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٍ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾:

﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾:

أي: ومَنَعْنَاهُ بأمْرِ التَّكْوين من قَبُولِ ثَدْيِ مُرْضِعَةٍ مَا تُرْضِعُهُ غَيْرَ ثَدْيِ أُمّه.

التحريم في اللُّغَة: المَنْع، وهو يكون بأمْرٍ تكوينيّ، ويكون بأمْرٍ تكليفي، ويُسَمَّى حينئذٍ: نَهْياً.

المراضع: جمع «مُرْضِعٍ» و«مُرْضِعَة» وهي الّتي تُرْضِعُ من ثَدْيِها لَبَناً.

﴿مِن قَبۡلُ﴾: أي: من قَبْلِ وصُولِ أُخْتِهِ إلى مكان طلَبِ مُرْضعٍ للصَّبيّ المُلْتَقَط والمُنْتَشَلِ من النَّهْر.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾:

عبارة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ فيها تكريرٌ لمضمون ما جاء في نصّ سورة (طه) مع بعض تغيير في التعبير، هو من باب التفنُّن في القول، مع إيضاحٍ في المعنىٰ.

أي: فقالت أُخْتُه لمَّا عَلِمَتْ أنَّه لم يَقْبَلْ أثْدَاء المُرْضعات اللّواتي عُرِضْنَ عليه: هلْ أدُلُّكُم على أهْلِ بَيْتٍ يَقُومُونَ بإرْضَاعِهِ، وتَرْبِيَتِهِ، وحَضَانَتِهِ، وخِدْمَتِهِ، لكُمُ بالأجْرِ، في كفَالةٍ حسنة، وهم أَهْلُ نُصْحٍ لِمَنْ يَكْفُلُونَهُ.

عبارة: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، مضافة في نَصّ سورة (القصص) إلى ما جاء في نصِّ سورة (طه) فبينَهُما تكامل.

﴿نَٰصِحُونَ﴾: أي: مُخْلِصُونَ، لَيْسَ في كَفَالَتِهِمْ لَهُ غِشٌّ، ولَاخيانَةٌ لِلْأَمَانَةِ.

وأرادت بعبارة: «أهل بَيْتٍ» أمَّها، وأبَاهَا، ونَفْسها، وسائرَ من في بَيْتِ أبيها، إلَّا أنّ الّتي تُرْضِعُه هي أُمُّها.

وهنا طوىٰ النصّ ما جَرَىٰ من تفاوُضٍ بَيْنَ طالبي المرضع للصبيّ، وبين أخته الّتي لم تكشفْ أنْ لها علاقةً ما به، فجاء ما بَعْدُ في النّصّ معطوفاً على هذا المطويّ، لإمكان العِلْمِ به استنتاجاً فِكْرِيّاً.

(٨) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

في هذه الآية تكريرٌ لبَعْضِ ما جاء في نصّ سورة (طه) مع تغيير لفظ [فَرَجَعْنَاهُ] إلى لفظ [فَرَدَدْنَاهُ] والمعنى فيهما واحد. ومع اختلافٍ في كون

ما في سورة (طه) قد جاء خطاباً لمُوسىٰ، وما في سورة (القصص) قد جاء جزءاً من حكاية لقطاتٍ من قصّة موسىٰ المُوَجَّهَةِ لكُلّ مُتَلَقٍّ لها.

وجاء في هذه الآية إضافة: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

فأبانت هذه العبارة أنّ من مقاصِدِ رَدِّهِ إلىٰ أُمِّهِ أنْ تَعْلَمَ أنّ وَعْدَ الله حقٌّ، إذْ أوحىٰ إلَيْهَا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ إذْ كان من الممكن أن يحفَظَهُ الله ويرعاه دون أن يَرُدَّهُ إليها. وجاء التعليق علىٰ حقيقةِ: ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بقوله جلّ جلاله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: جاهلون لَا يَعْلَمُونَ هٰذه الحقيقة، ولا سيَّما وَعْدُه بالبعث، والحياة الأُخرى، وما فيها من جزاءٍ في الجنَّةِ دار المؤمنين المُسْلِمِين، أو في النَّارِ دارِ العُصَاةِ والمجرمين.

* * *

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه) خطاباً لموسىٰ في اللّقاء الأول بجانب الطُّور:

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾:

تمهيد:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ من سورة (طه) يُتابع الله عزّ وجلّ في تكليمه لموسىٰ عليه السلام بجانب الطُّور بيان مِنَنِهِ علَيْهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه ـ مُذَكّراً له بها، ومُبَيّناً له ما خَفِي عليه منها، ومطمئناً لَهُ بأنَّه سيَكُونُ مُعْتَنًى به مِنْ رَبّه طَوال حياته.

فذكر له في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ ثلاث مِنَنٍ غير المِنَّتَيْنِ اللّتين سبق بيانهما، فتصير المِنَنُ خمساً.

المِنّة الأُولى: حمايتُهُ من القتل، وهو وليد محكومٌ عليه بالقتل، من قِبَلِ فرعون مصر، إذْ هو في الحقيقة المقصود بقتل كلِّ المواليد الذكور من بني إسرائيل.

المنّة الثانية: اختيارُهُ للنُّبُوَّة والرّسالة ذاتِ المهمّات العظمىٰ.

المنّة الثالثة: تنجِيَتُهُ من عقوبةِ القتل، لأنَّه قتل قبطيّاً كان يتقاتل مع إسرائيليّ، فاستغاث به الإسرائيليّ، ورأىٰ أنّ القِبْطِيَّ هو المعتَدِي الظالم، فوَكَزَهُ وَكْزَةً كانَتْ هيَ القاضِيَة عليه، ولم يكن يَقْصِدُ قَتْلَه، وإنّما كان يَقْصِدُ دفعه وكفَّهُ عن الإسرائيلي، في قصّة جاء بعض تفصيل لها في سورة (القصص).

المنّة الرابعة: إقامَتُه الآمنة المطمئنَّةُ أكثر من عشر سنين، في أهل مَدْين آمناً، مرزوقاً، ذا زوجَة حسنة صالحة، هي بنت رَجل الدّين الأوّل في مَدْين.

المنَّة الخامسة: اصطناع الله له لنَفْسِهِ، اصْطِناعاً مصحوباً ببالغ العناية والرّعاية والإتقان، ليُحَمِّلَه مُهِمَّاتِ الرّسالة العظمىٰ، الّتي حَمَّلَهُ إياها.

التَّدَبُّر:

حكاية قول الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السّلام:

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ . . . ﴿٤٠﴾﴾:

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ﴾: أي: فخَلَّصْنَاكَ من القتل، الذي ائْتَمَرَ به مَلأُ[1] فرعون ليَقْتلوك، عقوبة لك على قَتْلِكَ القبطِيَّ انتصاراً للإسرائيليّ.

---

[1] **ملأ فرعون**: هم وزراؤه وأهل مشورته. **الملأ**: هم أشراف القوم وسراتهم، سُمُّوا ملأ لأنَّهم يَمْلَؤُون عُيُون العامّة.

النجاة: الخلاصُ من المكروه، يقال لغة: «نَجا مِنْهُ يَنْجُو، نَجاءً، ونَجاةً» أي: خَلَصَ من أذاه. ويُقال: «نَجَّىٰ فُلَانٌ فلاناً تَنْجِيَةً» أي: خَلَّصَهُ من مَكْرُوهٍ متوقّع الحدوث.

﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾: أي: من الكَرْب الّذي نزلَ بك بسبب خَوْفِكَ من عقوبة القتل، سُمِّيَ غمّاً، لأنّه يُحِيطُ بالقلْبِ من كلّ جوانبِهِ، ويغلّفُهُ تغليفاً تامّاً بالمؤلمات الموجعات، من الخوف والحزن ونحوهما.

فدَلَّ هذا على أنَّ الله عزّ وجلّ هو الذي دَفَعَ بألطافِهِ الخفيَّة، الرَّجل ذا الخبرة بما يجري في القصر الفرعوني حتَّىٰ جاء إلى مُوسىٰ وقال له كما جاء في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وأنَّ الله عزّ وجلّ هو الذي سَتَرَهُ بألطافه الخفيَّة عن عُيُونِ القوم، إذْ خَرَجَ من مِصْرَ خائفاً يترَقَّبُ، وحَذِراً من أن يَعْرِفَهُ أحَدٌ، أو يَدُلَّ عليه أحد، كما جاء بيانه في سورة (القصص) أيضاً:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

وأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي هداه بألطافِهِ الخفيَّة سَواءَ السَّبِيل حين توجَّه تِلْقَاءَ مَدْين فارّاً من مِصْر، وهو ما جاء بيانه في سورة (القصص) أيضاً:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

سواء السبيل: أي: وسط الطريقِ الموصل إلى مَدْين، وسَطُ الطريق هو أعْدَلُه وأعلاه.

والبُعْدُ عن سواءِ السبيل يقاسُ بالبُعْدِ عن وسطه من ذات اليمين، أو من ذات الشمال.

وسواءُ السبيل: الطريق المستوية السَّهْلَة، والسَّواءُ من الأرض هي التي يكون تُرابُها كالرَّمْل، لَيْس فيه حجارة مؤذية، والتي تكون مستوية سَهْلة.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾: أي: وامْتَحَنَّاكَ امتحاناً شديداً صعباً، فيما مضى من عُمْرك، بالمكاره، وبالشهوات، فنَجَحْتَ في امتحانِكَ، إذْ كُنْتَ صَبُوراً، محافظاً على حدودِ الله تقيّاً، ولا يخفىٰ ما في القصور الملكيّة من مغريات مزلقات فيها امتحانٌ عظيم للإراداتِ، ولا سيما تجاه فِتَنِ الشَّهوات.

الفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار، يقال لغة: «فَتَنَ المُخْتَبِر فُلاناً يَفْتِنُهُ، فَتْناً، وفُتُوناً» أي: ابْتلاه، واختبره، وامتحنه.

أصْلُ الفَتْن: الصَّهْرُ بالنار للمعادن ونحوها، يقال لغة: «فَتَنَ الصَّائِغ الذَّهَب» أي: أذابه بالنّار، ليختبر ما فيه من خليط لَيْسَ ذهباً، أو ما فيه من شوائب.

﴿فُتُونًاۚ﴾: مَفْعُولٌ مُطْلَق، ويُفْهَمُ من التنكير هنا على ما يَرىٰ البلاغيُّون مع القرينة، أنَّهُ كان فُتُوناً شَدِيداً وصعباً على النفوس، فالمعنى: وفتَنَّاكَ فُتُوناً شديداً صَعْباً، وبهذا عَلِمْنا مدىٰ صلاحيَّتِكَ لتَحَمُّلِ أعْبَاءِ رِسَالَةٍ نكلّفكَ فيها أمُوراً ثَقِيلَةً جِدّاً، تتطلَّبُ رجلاً قويّاً من أُولِي العَزْمِ، ذا صَبْرٍ وتجَلُّدٍ وعَقْلٍ راجحٍ وحِكْمَةٍ في تَصْرِيفِ الأمور، مع إيمانه العظيم بربّه، وقُنُوته له، وخضوعِهِ لأوامره ونواهيه، ورضاه بمقاديره.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾:

[فَلَبِثْتَ]: اللُّبْثُ بالمكان الإقامة فيه، يقال لغة: «لَبِثَ بالمكان يَلْبَثُ، لَبْثاً، ولُبْثاً، فهو لَابِثٌ، ولَبِثٌ» أي: أقام فيه.

والمعنى: فأوصَلْنَاكَ يا مُوسَىٰ بألطافنا الخفيَّة إلى مَدْين، وهيَّأْنَا لَكَ فيها، رِزْقاً وزوجةً صالحةً حَسَنَةً، وإقامَةً آمِنَةً مُسْتَقِرَّة، لا خوف فيها ولا قلق، ورزقناكَ فيها ذُرِّيَّةً، ومالاً من غنم.

وفي بيان هذا إشارة خفيّة إلى مِنَنِ اللَّهِ عليه في مَدْين.

والأعوام الّتي لَبِثَ فيها في مدين أقلُّ تقدير لها أحد عشر عاماً، عشْرَةٌ منها كانت خدمةً لأبي زوجته مقابل تزويجه ابْنته، على عاداتِ أهل ذلك الزمان، فموسىٰ عليه السّلام قد أدّىٰ أوفي الأجَلَيْنِ وهو عشر سنين، ولم يقتصر على أدناهما وهو ثماني سنين، لما سبَق بيانه.

وفوق العشر تأتي سنة خدمة مقابل أجر، وهو ما تَلِدُ غنمه من قوالب ألوان.

ولا ندري هل أقام في مدين أكثر من ذلك أم لا؟ الله أعلم؛ إذ لا نملك دليلاً بإثبات أو نفي.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ إقامَتِكَ السّنين الّتي لَبِثْتَهَا في مَدْين، جِئْتَ للقائنا إلى جانب الطور ومكالَمَتِنا، ولمنحك النبوّة والرّسالة العظيمة، ووصَلْتَ إلى المكان المحدّد لك، وفي الزمان المحدّد لك، وقد كانت تحرُّكاتُكَ كلُّها مُعْتَمِدةً ومبنيَّة من حَيْثُ لا تشعُر، على قَدَرٍ حَدَّدْنَا فيه كلَّ حَرَكة تتحرَّكها مع الأزمان، ومنها حَرَكَةُ وصولِكَ إلى لِقائِنَا جانب الطور، كلُّ ذلك قد سبَقَ أن قدَّرْناه وأمْضَيْنَا به قضاءَنا، بمقتضى سابق علمنا بكل صغيرة وكبيرة من أُمُورِكَ، ومنها حركة وُصُولِكَ في الزمان والمكان المقدَّرَيْن.

أصل مادّة كلمة «القَدَر» بفتح الدال وإسكانها، يَدُورُ حَوْلَ مقادير

الأشياء وحُدُودِ كَمِّيَّاتِ وحَدَاتها الصغرى، من كُلِّ ما يمكن عقلاً تجزئته وتَقْدِيرُ كَمِّيَّةٍ له.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِى ﴿٤١﴾﴾:

اصطنع: أصلها «اصْتَنَع» على وزن «افْتَعَلَ» من فعل «صَنع» بإضافة تاء الافتعال إليه، للدّلالة على كَثْرَةِ العناية والدّقَّة والإتقان في الصُّنع، وقلبت التاء طاء على وفق القاعدة الصرفية في مثل هذا.

ومع أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أَتْقَنَ كلَّ شيءٍ صُنْعاً، ومع أنّ الصُّنْعَ فيه معنى العناية بالتعهُّدِ والتَّنْشِئَةِ والتربية، إلَّا أَنَّ فِعْل «اصْطَنَعَ» يَدُلُّ على مزيد من العناية والدِّقَّة والإتقان في الصُّنْع.

﴿لِنَفۡسِى﴾: أي: للدّين الذي يَشْتَمِلُ على الإيمَانِ برُبُوبيّتي، وإلٰهِيَّتي اللَّتَيْنِ لا يشارِكُنِي فيهما أحَد، وتَشْتَمِلُ على تكليف الموضوعين موضوع الامتحان بعبادتي وَحْدِي، وابتغاء مَرْضاتي، والطمع في ثوابي، والخوف من عقابي وعذابي، وهذه كلُّها لنفسي.

وأنت يا موسىٰ رَسُولي إذ اجْتَبَيْتُكَ واخْتَرْتُكَ لأداء رسالتي المتعلّقة بالدّين الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ لعبادي.

وهذا الاصطناع لموسىٰ مِنَّةٌ من مِنَنِ الله عليه.

وينبغي أن نَعْلَمَ أنّ الله عزّ وجلّ لَيْسَ لِنَفْسِهِ مصلحة ما من عناصر الدّين المتعلِّقَةِ بنفسه ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه ـ إذْ لا تَنْفَعُهُ عبادةُ عابديه، ولا يَضُرُّه جحودُ جاحديه، ومَعْصِيَةُ عاصيه، وإنما يقيم الله بعباده عَدْلَه، ويَمْنَحُهُمْ فَضْلَه، فالأَمْرُ كلُّهُ راجِعٌ إليهم كما جاء في الحديث القدسي، الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«قالَ اللَّهُ تَعالَىٰ: يَا عِبادِي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وجَعَلْتُهُ مُحَرَّماً بَيْنَكُمْ فَلا تَظالَمُوا، يَا عِبادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُوني أَهْدِكُمْ، يَا عِبادِي: كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْتَهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبادِي، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبادِي، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، ولَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبادِي، إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ»(١).

* * *

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لموسىٰ عليه السّلام، مِمَّا جاء بيانه في سورة (طه):

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى (٤٢) ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن

---

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير وزيادته» رقم الحديث (٤٣٤٥).

كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

تمهيد:

في هذه الآيات بيان تكليف الله عزّ وجلّ مُوسىٰ وأخاه هارون بأنْ يَحْمِلَا رِسَالَتَه إلى فِرْعون، وهي تَشْتَمِلُ على أَمْرَيْن:

الأمر الأوّل: دَعْوَتُهُ إلى الإيمان باللَّهِ وبِرَسُولَيْهِ، وبرسالَتِهِ الموجَّهَةِ لَهُ ولسائر الناس، وإلى الإسلام للَّهِ بطاعَتِهِ والعَمَلِ بأوامره ونواهيه، مع توصية الله لموسى وهارون بأن تكون دعوتهما لفرعَوْن بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذه تكونُ بالترغيب والترهيب.

أمّا الترغيب فجاء بعبارة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، ومعلوم أنَّ الجنَّة هي دار السّلام يَوْمَ الدّين.

وأمّا الترهيب فجاء بعبارة: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾: وجَهَنَّمُ هي دارُ العذَاب يَوْمَ الدِّين.

الأمر الثاني: مطالَبَتَهُ بأنْ يَأْذَنَ لِبَنِي إسْرَائيلَ بالخروج من مِصْرَ إلى الأرض الّتي قَدِمَ أجدادُهم منها في عهد يوسف عليه السّلام، مَعَهُمَا وبقيادتهما لهم. ومُطالَبَتَهُ بأنْ لَا يُعَذِّبَهم، أي: بأنْ يَرْفَعَ العذاب الذي فرضَهُ عليهم، وهو عذاب التسخير والإذلال والاستعباد.

وفي هذه الآيات بيانٌ مُخْتَزَلٌ للموضوعين الّذين جَرَى الحوار حولهما بين مُوسَىٰ وهارون من جهة، وفرعون من الجهة المقابلة.

والموضوعان هما:

(١) موضوعُ رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ الخالق جلَّ جلاله.

(٢) موضوع الجزاء يوم الدّين بالثواب، أو بالعقاب.

التدبُّر:

قول الله عزّ وجلّ في حكاية خطابه لموسىٰ عليه السلام في لقاء المناجاة الأولى:

- ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾:

عبارة: [**وَأَخُوكَ**] معطوفة على فاعل فعل [**أَذْهَبْ**] وهو ضمير مُسْتَتِرٌ، لوجود ضمير الفصل المؤكّد له: [**أَنتَ**].

أي: أذهب أنت يا موسىٰ، وأخوك هارون معكَ، فخاطبَ الله عزّ وجلّ موسىٰ حضوريّاً، وبالمواجهة غير المنظورة لموسىٰ، وكلّف هارونَ بالذهاب وهو غائب.

ويظهر أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ أرْسَلَ جبريلَ في ذلكَ الوقت، إلى هارونَ، فنَبَّأَهُ، وحَمَّلَهُ رِسالة ربّه مع أخيه موسىٰ عليهما السّلام، وقال له: اذهَبْ أنْتَ وزيراً مع أخيك موسىٰ بآيات رَبّكما، ولا تَنِيَا فِي ذِكْرِه.

- ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾: أي: مَصْحُوبَيْنِ بآياتي الخوارقِ الّتي كَشَفْتُ لَكَ في هذا اللّقاء آيَتَيْنِ منها، هُما آيَةُ العَصَا، وآيَةُ اليَد.

- ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾: أي: ولَا تَضْعُفَا، ولا تَفْتُرا، ولا تكِلّا، ولا تَعْيَيَا، في الدُّعوة إلى الإيمان بِي، وبصِفَاتِي، وبرسالَتِي لعبادي، والدّعوة إلى الإسلامِ والاسْتِسْلَامِ لأوَامري ونواهِيَّ، والقيامِ بعبادَتِي وَحْدِي لا شريكَ لي، بكلّ وجوه العبادات.

ولَا تَنِيَا أيضاً في ذِكْرِي في أَنْفُسِكُمَا، وفي عبادتكما لي، لتكونا على صِلَةٍ دائمةٍ بي.

فهذه كُلّها من عناصر ذكر الله عزّ وجلّ.

يقال لغة: «وَنَىٰ في الأمْرِ يَنِي، وَنْياً، وَوُنِيّاً، ووَنَاءً، ووَنَىً» أي: فَتَر، وضَعُفَ، وكَلَّ، وأَعْيا.

ويُقالُ: «ونَّىٰ رَبُّ العَمَلِ العامل عِنْدَه» أي: أتْعَبَهُ، وفَتَّرَهُ وأضعفه.

وجُوهُ ذِكْرِ اللَّهِ عزّ وجلّ:

إنَّ ذِكْرِ الله عزّ وجلّ يكون بثلاثة وجوه:

الوَجْهُ الأوّل:

يكون بذكرِ اللَّهِ في النفس، وهذا يكونُ باستحضار المَعْلُومات المتعلّقات بالله عزّ وجلّ، بأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وبياناتِهِ في دينِهِ الذي اصطفاهُ لعباده، وبِنِعَمِهِ الّتي لا يَسْتَطِيعُ إحصاءَها عِبَادُه.

وهذا الاستحضار يكُونُ في الذاكرة الحاضرة في الذّهن، أو في جهاز التصوُّر الحاضر في الدّماغ، باستخراجها من مخازن المعرفة في عُمْقِ النّفس.

ومن هذا الذكر ما جاء بيانه في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

الوجه الثاني:

يكونُ بذِكْرِ اللَّهِ باللّسَان، لأنَّهُ من الوسائل المساعِدَة على ذِكْرِ الله في النَّفْس.

ومن ذكر الله باللّسان ما سبَقَ بيانُهُ في الوجه الأوّل، ومنه تلاوة آياته في كتابه.

وهذا الذِّكْرُ باللّسَان قد يكون بالجَهْرِ والإعْلان، وقد يكونُ بما هو

دون الجَهْر من القول، وهو الأفضل، إلّا في مجالات التعليم والتوجيه.

وأضعف أحوال الذِّكر اللّسانيّ ما يصير عادةً غير مصحوبَةٍ باستحضار فكري.

الوجه الثالث:

يكونُ بدَعْوَةِ الناس إلى الله بالحكمة والموعِظَةِ الحسنة، وبشرح أسماء الله الحسنىٰ وصفاته لهم، وبيانِ أنّه الخالق الرّبّ الذي لا رَبَّ غَيْرُه، ولَا إلٰه إلّا هُوَ، وبيانِ نِعَمِهِ الكثيرة على عباده، وبيان ابتلائه لهم في ظروف الحياة الدنيا، إعداداً لمجازاتهم يوم الدّين، على ما قَدَّمُوا وأَخَّرُوا من عمل صالحٍ أو فاسد، وبيان حكمته في تصاريفه في كونه، وإتقانه صُنْعَ كلّ شيء.

ويكون بتلاوة آيات كتابه المجيد عليهم، وشَرْحها لهم، لإقناعهم بالحقّ والخير والفضائل والكمالات، وتنفيرهم من الباطل والشرّ والرَّذَائل والنقائص، وترغيبهم فيما أعَدَّ اللَّهُ للمؤمنين المسلمين من ثوابٍ عظيم فضلاً منه، وترهيبهم ممَّا اعْتَدَّ للعصاة وللكافرين المجرمين من عذاب، على مقادير أعمالهم السّيِّئَةِ بالعدل.

ومن هذا الوجه قول يوسف للّذي ظنَّ أنّه ناجٍ من رفيقَيْه في السِّجن، وهو الذي رأى أنّه يَعْصِرُ لفِرْعَوْنَ خَمْراً: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: تحدَّثْ بِمَا شاهَدْتَهُ من أمْرِي، عند سَيِّدِكَ فرعون، لعَلَّهُ يُعيد النَّظَرَ في أمْرِ سجني، ويَكْتَشِفُ الحقّ، فذِكْرُهُ يوسُفَ عليه السلام عند سيِّدِهِ لَيْسَ المُراد به ذِكْر اسمه فقط، بل المراد ما يَشْمَلُ كُلُّ ما يتعلَّقُ به مِنْ أمْرِ عَلِمَهُ، وهُوَ مَعَهُ في السِّجْنِ، ومنه دَعْوَة يوسُفَ صاحِبَيْهِ في السِّجْنِ إلىٰ دِينِ الله الحقّ.

وهذه الوجوه الثلاثة مُرادةٌ بعبارة: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾.

فتضمَّنَتْ هذه الآية (٤٢) بيانَ أنَّ اللَّهَ كلّف موسى وهارون حَمْلَ رسالة الدَّعْوَةِ إلى دين الله، في شعب بني إسرائيل، وفي الشعب المصريّ كلِّه، وفي مقدّمتهم فِرْعَوْنُ وآلُهُ ومَلَؤُه.

قول الله عزّ وجلّ في حكاية ما قاله لموسى:

- ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تخصيصُ فرعون، ويُلْحقُ به ملَؤُه وهم وزراؤه، ومُسْتَشَارُوه، ومَنْ لَهُمْ كلِماتٌ مستجاباتٌ في قَصْرِهِ، وتأثيرٌ في أوامر القَصْرِ ونواهيه وأنظِمَتِهِ وقرَارَاتِهِ.

ولمّا كان فرعونُ موسىٰ مَلِكاً مستبدّاً، ومتّخذاً نَفْسَهُ إلٰهاً في قومه، وكان قومُهُ لا يَرَوْنَ إلَّا مَا يَرَىٰ، ولا يتّبِعُونَ إلّا ما يأْمُرُ به أو يأْذَنُ به، كان إقناعُهُ حتَّىٰ يُؤْمِنَ ويُسْلِمَ وسيلَةً لإيمان وإسلام كلّ الشعب المصريّ، الخاضع الخانع لسلطانه الاستبدادي، ومن أجل هذا خاطب الله عزّ وجلّ موسىٰ عليه السّلام بقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ والمعنىٰ تبلّغ أنْتَ، وأبْلِغْ أخاكَ بتكليفي هذا.

ومع هذا فقد وصل مثل هذا التكليف إلى هارون عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾: في هذه العبارة بيان حكمة تخصيص فِرْعوْنَ بالذهاب إليه، وهي أَنَّهُ طَغَىٰ، أي: وكان طغيانُه سَبباً في فَسَادِ شعْبِهِ في زمانه، وسبباً في طغيان آلِهِ ومَلَئِهِ وأنصارهم وأعوانهم وجنودهم.

طَغَىٰ: أي: تجاوزَ كلَّ حُدود الحقّ والعدل والخير، إلى الظلم الفاحش، والعدوان الشَّنيع، والفساد العريض.

يقال لغة: «طغَىٰ الشيءُ، يَطْغَى، طَغْياً، وطغياناً» أي: جاوز الحدّ الذي يمكن بالصبر والحلْم احتماله، وصار ضارّاً ضَرَراً كبيراً، أو صار مُفْسِداً إفساداً عَرِيضاً، أو ظالماً ظُلْماً فاحشاً.

قول الله عزّ وجلّ في حكاية ما قاله لموسى:

- ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾:

أي: فأبلغاه رسالتي بقولٍ ليِّن، فيه رِفْقٌ ومداراةٌ وتلطُّف.

اللَّينُ: السَّهل المطاوع المستساغ القابلُ للدَّفْعِ كالعجين الرخو، والقابل للانقياد، الذي لا شِدَّةَ فيه ولا صلابة.

وضدّ اللَّيِّن: القاسي الصُّلْب الشديد، والخَشِنُ الجارح المُؤْذي.

فاللّيِّنُ من القول هو المقبول منه، المستساغ في النفس، والمرغوبُ في استماعه، والّذي لا تشتمئزُّ منه الأسماع، ولا تَنْفِرُ مِنْه الطّباع.

والقول اللّيِّن من عناصر الحكمة في الدَّعوة إلى الله، وإلى صراطه المستقيم.

وضدّ القول اللّيِّن، القولُ القاسي الصُّلْبُ العنيف، والخشن الذي فيه فظاظةٌ وغلظَة، والمكروه الّذي تَشْمَئِزُّ منه الأسماع، وتَنْفِرُ منه الطباع، وتوجيه مثل هذا القول القاسي، أو الخشن في الدّعوة إلى الله، أو في النُّصْحِ والإرشاد، منافٍ مُنَافَاةً تامَّةً للحكمة المطلوبة من حَمَلَة رسالة الرَّسول في الناس.

وقد عَلَّمَ الله عزّ وجلّ موسىٰ عليه السّلام أسلوب القول اللَّيِّن، بتقديم نموذج منه، في قوله له الذي جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

نلاحظ في عبارة التعليم هٰذهِ أنّها اشتملت على عدَّة كلماتٍ هي من التَّلطُّف التكريمي قبل عرض المقصود بالذات.

- [هَلْ]: أداة استفهام، فيها معنى العرض التخييريّ، لا التكليف الإلزامي.

- [لَكَ]: كلمتان: الأولى حرف جرّ، والثانية كاف الخطاب، وقد كان من المُمْكِن الاستغناء عنهما، لكنَّ التلطُّفَ بتطويل مقدمات العرض التكريمي اسْتَدْعاهما.

- [إِلَىٰ أَنْ]: كلمتان: الأولى حرف جر، والثانية حرف ناصب للفعل المضارع، ويؤوّل مع الفعل المضارع بمصدر، وقد كان من الممكن الاستغناء عنهما، لكنَّ التلطُّفَ بتطويل مقدمات العرض التكريمي استدعاهما.

- [تَزَكَّىٰ]: هنا بدأ عَرْضُ المقصود بالذّات، ومع ذلك قد حصل فيه اختصارٌ وتقليلٌ في اللّفظ، إذ أصْلُ الفعل «تَتَزَكَّىٰ» فحذفت إحدى التّاءَيْنِ اختصاراً، وتخفيفاً على أُذن فرعون المدعُوّ.

قول الله عزّ وجلّ في حكاية ما قاله لموسىٰ:

﴿... لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: فَقُولَا لَهُ قولاً ليّناً حالَة كَوْنِكُمَا راجيَيْنِ نَفْسِيّاً أن يتأثّر بدَعْوَتِكُما، وطامِعَيْن في أن يستجيب استجابة أراديَّةً لما تقدّمان لَهُ من حقائق يقتنع بها، مقرونَةً بالبُرْهَانَيْنِ من آياتِنَا الإعْجَازِيَّة، أوْ أن يستجيب خشية من عذابنا الأليم الّذِي تخوّفَانِهِ منه، وهو جزاء يوم الدّين، في جهنم دار المجرمين والظالمين، مع تخويفه من عذاب وإهلاك معجلين، كما حصل لكفار القرون السابقة.

إن طمعَ موسىٰ وهارون عليهما السلام باستجابة فرعون لدعوتهما، يجعلهما مُتَفَائلين، والتفاؤل بتحقيق المُرَاد يزيد من هِمَّةِ الساعي إلى تحقيق ما يريد، فيجعلُه يضاعف جهده واجتهاده، مع التزام كمالَ الحكمة والقول اللّيِّن الرشيد، وحُسْنِ الملاطفة والمداراة، والبُعْدِ عن كلِّ خُشُونَةٍ وقَسَاوَةٍ وفَظاظَةٍ وغِلْظَة، خَشْيَةَ التنفير.

فعل «يتذكّر» وتصاريفه ومصدره، استعمل في القرآن المجيد، للدَّلَالة على الأثر النفسيّ والقلبيّ والسُّلوكي، لحضور المعلومة ذات التأثير فيهما عند استِعْدَادِهِما للتأثُّر، في السّاحة الحاضرة للتَّذَكُّر، استدعاءً لها مِنْ مخازن المعرفة، أو وروداً حديثاً لها من الخارج، عن طريقِ بيانٍ واردٍ، أو تأمُّلٍ فكريّ ذاتِيّ، أو بتأثيرِ حَدَثٍ، أو ظاهرةٍ كونيّة، أو غير ذلك.

فصار هذا المراد بهذه المادّة اللّغويّة، بمثابَةِ مُصْطَلحٍ قرآنيّ، كمصْطَلح الصَّلَاةِ، ومصطلح الزكاة، في الدَّلَالَةِ على مَعَانِيهِمَا في النّصوص الدينيَّة.

وهذا الأثر النفسيّ والقلبيّ والسُّلوكيّ، هو المطلوبُ الدينيُّ الغائيُّ من الذِّكْرِ، والتَّذَكُّرِ، واكتساب المعارف الدينية، وهو الدافع للسُّلُوكِ الدِّيني الملائم له، والمطلوب فيه.

فمثلاً: إنّ أثر معرفة أنَّ اللَّهَ قد خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْنِ، وأتْقَنَ كُلَّ شيءٍ فيه صُنْعاً، هو الإيمانُ بكمال قدرته وشمولِ عِلْمِهِ كلَّ شَيْءٍ، والإيمانُ بكمال حكمته في مقاديره.

وأثر هذا الإيمان في السُّلوك يكون بالرّضا بقضاء الله وقدره، وبالخضوع له، وعبادته وحده لا شريك له.

وهكذا إلى أمثلة كثيرة يَصْعُبُ استيعابها.

﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾: أي: أو يخاف من عقاب الله وعذابه، في حالة عدم استجابته لدعوة الرَّسُولين بمَنْطِق الحقّ، وبُرهان المعجزة.

التَّرْديدُ بحرف «أو» في هذه العبارة، لا يمنع من عدم تحقُّق المرجوّين، أو أحدهما، ولا يمنع من اجتماعهما، فالقضيّة ليسَتْ مانعة جَمْعٍ ولا مانعة خلُوّ بحسب مصطلح عُلَمَاءِ المنطق.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾:

[قَالاَ]: هذه العبارة تَدُلُّ على أنّ هارون عليه السلام، قال لأمين الوحي جبريل عليه السّلام، في مصر، مثلما قال موسَىٰ عليه السّلام في مناجاته لربّه بجانب الطّور، فمع كونهما متباعِدَيْنِ قد تخوَّفا تخوُّفاً واحداً، فأفكارُهما قد تواردت متّفقةً حوْلَ هذا التخوّف، دون سابق محادثةٍ أو مشاورة بينهما.

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾:

أي: أنْ يُسْرِعَ ويَعْجَلَ بطَرْدِنا وعدم الاسْتِمَاعِ إلينا، أو يَعْجَلَ بعقوبَتِنَا، ولا يَنْتَظِرَ حَتَّى يَسْمَعَ دَعْوَتَنا، ومَطَالِبَنا.

يقال لغة: «فَرَطَ، يَفْرُطُ، فُرُوطاً، وفَرْطاً» أي: عَجِلَ وأسْرَعَ، ويقال: «فَرَطَ مِنْهُ خَيْرٌ أو شَرٌّ» أي: سبَقَ دُونَ أَنَاةٍ وروِيَّةٍ.

﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾:

أي: أو أنْ يتجبَّرَ ويُسْرِفَ في الظُّلْمِ حتَّىٰ القَتْل.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لموسىٰ مخاطباً، وقال لهَارُون ببلاغ أمين الوحي جبريل عليه السلام: لَا تخافَا، مطمئناً لهُمَا أنَّهما لن يُصِيبَهما من قِبَل فرعون مكروهٌ من تَسَرّعٍ أو طغيان، ونفهم من هذا أنَّ اللّه عزّ وجلّ

سيوقع في قلبه الخوف ممَّا مَعَهُمَا مِنْ خَوارِق وآياتٍ معجزات مخيفات.

وعبارة: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فيها مزيد تثبيتٍ على الطُّمَأْنِينَة بأسْلُوب الكناية، فكون رَبّهما مصاحباً لهما، ويَسْمَعُ ويَرَىٰ كُلَّ ما يحدُث منهما أو عليهما عند فرعون، من لوازمه الذِّهْنِيَّةِ أنَّه سيَحْمِيهما ويَحْفَظُهُما ويَنْصُرُهما بعزَّتِهِ، إنْ أراد فرعونُ بِهِما سُوءاً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾:

في هذا التعليم الرَّبَّاني الّذي اشتملَتْ عليه هاتانِ الآيتان، الموجَّهتان لموسىٰ وهارون عليهما السلام، عُنْوانات سِتٌّ قضايا:

القضيَّة الأُولى: بيانُ أنَّهما رسُولَان مُرْسَلَان من ربِّه، ويَحْمِلَانِ إلَيْهِ رِسالةَ مِنْهُ، دلَّتْ عليها عبارة: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

وجاء في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿...فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: إنَّا رَسُولَان، ولكنَّنا بمثَابَةِ رَسُولٍ واحد، لأنَّنا مُتَعَاضِدان متكاملان، فَما يَقُولُه أحَدُنا يُعَبّر عن قولِنا جميعاً، لا يَنْفَرِدُ أحَدُنَا عن الآخر بشيءٍ.

وهذا نظير قول وَفْدٍ من جمهورٍ كبيرٍ للوافدين عليه: نَحْنُ شَخْصٌ واحد، أو رَجُلٌ واحد، أي: متكاتِفُونَ مُتَعَاضِدُون، لا ينفرد أحَدُنا برأي على خلاف آراء الآخرين.

وبين هٰذيْن التَّعليمَيْن تكامُلُ، أي: فقولَا لَهُ مَرَّةً: إنَّا رَسُولا رَبِّكَ،

فأسْمِعَاهُ أنَّه خاضِعٌ لرُبُوبيَّةِ اللَّهِ المهيمِنَة عليه في كلّ صغيرة وكبيرَةٍ من أمورِ حياته ومَوْته، وقولا لَهُ مرَّةً أُخْرَى: إنَّا رَسُولُ رَبِّ العالَمِين، أي: فنَحْنُ رَسُولان بمثابة رسولٍ واحد، ورَبُّكَ هُوَ رَبُّ العالَمِينَ جميعاً من أحياء وغير أحياء في السَّماوات والأرض.

القضيةُ الثانية: مُطالَبَتُهُما بأنْ يَأْذَنَ لبَنِي إسْرائِيل جميعاً بالخروج من مِصْر بقيادتهما، وعَوْدَتِهما إلى الأرض الَّتي قَدِمَ أجدادُهم مِنْها أيَّام يُوسُف عليه السلام، دلَّتْ على هذه القضيَّة عبارة: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وكان بنو إسرائيل على ما يَزْعَمُون قَدْ وَصَلَ عَدَدُهم إلى قُرابَةِ ستمائة ألْف نسمة، ورفض ٱبْنُ خَلْدُون أن يكون هذا العدد صحيحاً، نظراً إلى المُدَّةِ الزمنية بين دخولهم مصر في عهد يوسف عليه السلام، وخروجهم منها بقيادة موسىٰ وهارون عليهما السلام.

القضيَّة الثالثة: مطالَبَتُهما بأنْ لَا يُعَذِّبَ بني إسرائيل، أي: بأنْ يَرْفَعَ عنهم عذابَ التسخيرِ والإذلالِ والاسْتِعْبَادِ الذي فَرَضَهُ عَلَيْهم، إذْ سَخَّرَهُمْ هُوَ في أعمال البناء، وفَسَحَ المجال للمصريّين بأنْ يُذِلُّوهُم ويَسْتَعْبِدُوهُم، دلَّتْ علىٰ هذه القضيَّة عبارة: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾.

من الحكمة في هذا التعليم تقديم ما يتعلَّقُ بقَوْمهما بَنِي إسرائيل، كأنَّهما مَنْدُوبَان من قِبَلِ شَعْبِهِمَا بعَرْضِ مطالبهم على فرعون.

أي: إنَّ بني إسرائيل كانوا يُعَانُون إذْلالاً واستعباداً مِنْ قِبَلِ فرعون وآله، ومن قِبَلِ سائر المصريّين، وبما أنَّهُمْ مقيمون غُرَباء في نظر المصريّين، ولَيْسُوا مُشاركين في وطَنٍ لهم فيه كُلُّ حُقُوقِ المواطنين، فإنَّهُمْ يُفَضِّلُون أن يخرجوا من مصر، ويَعُودُوا إلى الأرض الّتي قَدِمَ منها أجدادهم.

لكن فِرْعَوْن وملَأَهُ كانوا يَخْشَوْنَ أن يَخْرُجُوا من مِصْر، ويُعِدُّوا جَيْشاً

قويّاً محارباً، ويَعُودُوا إلى مصر فاتحين، ويَسْلُبُوهُمْ مُلْكَهُمْ وأموالهم، فلَمْ يَكُنْ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ أنْ يَأْذَنُوا لهم بالخروج.

القضية الرابعة: بيان أنَّهما جاءَا بعَلاَمَةٍ مُعْجِزة من ربِّه، تُثْبِتُ أنَّهما رسولان مَبْعُوثان مِنْهُ، ولَيْسَا مُدَّعِيَيْنِ أنَّهما رَسُولان مِنْ رَبِّه دون آيَةٍ بيِّنَةٍ، دلَّتْ على هذه القضيَّة عِبارة: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

الآية في اللّغة: العلامة، والآيَةُ الرَّبَّانيَّةُ معجزةٌ خارقة باهرة، وهما يَقْصِدان آيَة العصا، وآية اليد.

القضيَّة الخامسة: دَعْوَتَهُما لَهُ إلى الإيمان بالله وبصفاته وبسائِرِ أركان الإيمان، وإلى الإسلام للَّهِ وطاعَتِهِ في أوامره ونواهيهِ، إلى سائر مضامين الدّين الّذي اصطفاه الله لعباده، مع إطماعه بالسَّلامة الدنيويَّة والأُخْرَوِيَّة. دلَّت على هٰذه القضيَّة عبارة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، أي: والأَمْنُ والسَّلاَمَةُ على من اتَّبَعَ الهُدَىٰ الّذِي أَرْسَلَنَا اللَّهُ به، إذْ يُسَلِّمُهُ اللَّهُ في الدنيا من عذابه، ويُسَلِّمه في الآخرة بدخولِهِ جنَّتِهِ دارِ السَّلام والأَمْنِ الكاملين: الأَمْنِ الغذائي، والأَمْنِ الصحيّ من كلِّ الآلام والعوارض والآفات، والأمن النفسيّ بتحقيق أمانيها ومطالبها وكلّ ما تَشْتَهِي وتَهْوَىٰ.

القضيَّة السادسة: تَحْذِيره من عذاب اللَّهِ الأليم في الدّنيا والآخرة، إذا كذَّبَ بأنَّهُمَا رَسُولَا رَبِّه، وكذَّبَ برسالَتِهِ الّتي حَمَّلَهُمَا واجِبَ تَبْلِيغِها، ومن أن يتولَّى مُدْبِراً، ومُبْتَعِداً عن اتّباع الهدى. دلَّتْ على هذه القضيَّة عبارة: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

[العَذَابَ]: أي: عذابَ اللَّهِ يوم الدين، مع ما قَدْ يُنْزِلُ من عذابٍ مُعَجَّلٍ في الدّنيا.

[علىٰ مَنْ كَذَّبَ]: أي: مُنْصَبٌّ على مَنْ كَذَّبَ رُسُلَ رَبِّه، وكذَّبَ بما جاؤُوا به عنه.

[وتَوَلَّىٰ]: أي: أدارَ ظَهْرَهُ ونَأَىٰ، ولَمْ يَتَّبعْ هُدَىٰ اللَّه.

وطَوَىٰ النصّ أنَّهما جاءا إلى قَصْرِ فِرْعون، واسْتَأْذَنا بالدُّخُولِ عليه، فأذِنَ لهما بالدُّخول، باعتبارهما مُمَثّلَيْن ونائِبَيْن عن الإسرائيليين في مصر، وأنَّهما قالَا لَهُ كما جاء في التعليم الرَّبَّاني.

ويظهر أنّ موسىٰ عليه السلام قد كان صاحب اللّسان الأوّل، وأنَّ هارون عليه السَّلام كان مُساعداً له وَوَزيراً.

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

سؤالٌ من فِرْعَوْن عن ذاتِ الرَّبِّ، مُوهِماً أنَّ هذا الرَّبَّ إنْسَانٌ مِثْلُهُ مِنْ مُلُوكِ الأرض، وتغاضَىٰ عَنْ قولِ مُوسَىٰ له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وعَنْ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

وأضاف إلى هذا ما جاء في التعليم الذي جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهو:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: قال موسىٰ عليه السّلام: إنَّه لَيْسَ رَبَّنَا فقط، بل هو ربّ العالمين جميعاً، وهو الذي أعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدىٰ.

أي: وضعَ بعطاء منه في كلّ شيءٍ مُخَطَّط صفاته الذّاتيّة، من مادّيّات، ومعنويّات، ونفسيَّات، فهي كامِنَةٌ مُسْتَقِرَّةٌ في أعْماقه، فإذا أخذ في النّماء أوّ في التَّحَرُّكِ الإرادي، أو غير الإرادي، جرىٰ نماؤه وتحرُّكه وَفْقَ هذا المخطَّط المستقرّ في أعماقه.

هذه الإجابَةُ إجابَةٌ عِلْمِيَّةٌ دَقيقَة لها سَطْحٌ وعُمْق، ويَفْهَمُ مِنْها كُلُّ ذي فكر بِحَسَبِ قُدْرَته على التفكّر، وكُلُّ ذِي عِلْمٍ بحسب مَبْلَغِهِ مِنَ العِلْمِ.

وقد كان النّاس في النظرات السَّطحيَّات يُدْرِكُونَ أنْ لكلّ حيوانٍ من العجماواتِ، وأنَّ لِكُلِّ إنْسَانٍ طباعاً نفسيَّةً يتصرَّفُ بمقتضاها.

ثُمَّ كشَفَتِ العُلومُ الحديثَةُ في القرن العشرين الميلادي عُمْقَ ما دلَّتْ عليه هذه الإجابة، باكتشافِ «الكُرُومُوزُومات» المترجمة بالصِّبْغِيَّات، الموجودة في عُمْقِ الخَلَايَا النباتيّة والحيوانية، والمورثات الجينيَّة فيها، وأنَّ نماء النباتاتِ والحيواناتِ وتحرُّكاتها الإراديَّة وغَيْرَ الإراديَّة تكُونُ على وَفْقِ الخَصَائِصِ الموجودة في هذه الصبغيَّات وهٰذه الجيناتِ الصُّغْرَى جدّاً في عُمْقِ الخلايا.

وهٰذه الموجِّهَاتُ الداخلاتُ في عُمْقِ الذَّرَّاتِ، تَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ في الوجود من مَخْلُوقاتِ اللَّهِ، من ذواتِ الحياة المدرَكَةِ حيَواتُها، ومن غَيْرِ ذَواتِ الحياة.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾: وبَعْدَ أنْ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ بقضائِهِ وقَدَرِهِ، وأَجْرَى تَنْفِيذَهُ بِخَلْقِهِ، هدىٰ كلَّ عُنْصُرٍ صَغِيرٍ أو كبيرٍ للنَّمَاءِ أو للتحرُّكِ على وَفْقِ ما رَسَم اللَّهُ لَهُ في خَصَائِصِهِ، ومَسِيراتِهِ، فالمَجبُورُ مِنْها يَنْمُو ويتَحَرَّكُ بنظام جَبْرِيّ، والمختارُ منها يتحرَّكُ وَفْقَ نظامٍ تخييريّ، لمحاسبَتِهِ ومجازاتِهِ على ما اخْتَارَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ.

* * *

وقد جاء تكميلٌ لهذا الحوار في سُورَةِ (الشُّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلّ فيها حكايةً لبعض ما جرَىٰ من حوار:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ

مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ
أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ
رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

وهنا يأتي مَا جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

وهنا يأتي ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهو قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ
وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ
﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾
قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ
هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟
بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ

تَعلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ في نصّ سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: قال فِرْعَوْنُ لموسىٰ عليه السَّلام ما دَلَّ عَلَيْهِ هذا البيان، وهو يَشْتَمِلُ على مقالةٍ فيها أَرْبَعُ قضايا، الثلاث الأُول مِنْهَا مُصَدَّرَةٌ باستفهام تَقْرِيريٍّ من فِرْعَوْن لموسىٰ عليه السّلام، لانْتِزَاعِ إقرارِهِ بها، والرابِعَةُ يتَّهِمُ فِرْعَوْنُ بها مُوسَىٰ بأَنَّهُ من الكافرين، أي: من الجاحدين لِلْمِنَنِ الّتي أَنْعَمَ بها القَصْرُ الفرعوني عليه.

الكفر: يأتي في اللُّغة بمعنىٰ جُحودِ النِّعْمَةِ للتَّنَصُّلِ من أداء واجب الشكر عَلَيْهَا.

القضيّة الأُولى: استفهام تقريريٌّ، يمْتَنُّ به فِرْعَوْنُ على مُوسَىٰ عليه السّلام بأنّ القَصْرَ الفِرْعَوْنِيَّ رَبَّاهُ مُنْذُ كانَ وَليداً حديث الولادة، حتَّىٰ بلغَ واكْتَمَلَ، ولَمْ يَقْتُلْهُ كَشَأْنِ سائر مواليد سنته من الإسرائيليين، إذِ الْتَقَطَهُ بعضُ آلِهِ من النّيلِ وأحبُّوهُ وكَرَّمُوهُ، مَعَ عِلْمِهِمْ بأَنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ الإِسْرَائِيليين.

دلَّتْ على هذه القضيَّة من نصّ (الشعراء) عبارة: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾.

التربية: تجمع في معناها كلَّ ما يتطلَّبه إنْشَاءُ المُرَبَّى، ورعايَتُهُ وحفظه، وتنميتُهُ، جَسَدِيّاً، ونفسيّاً، وفكرِيّاً، وسلوكيّاً.

والمراد: ألَمْ نُرَبِّكَ في ضِمْنِ أسْرَتِنَا الملكيَّة كأحَدِ أولادنا، منذ كنْتَ حديث الولادة، حتَّىٰ صِرْتَ رَجُلاً مُكْتَمِلاً ذا قوّة تَسْتَنِدُ فيها إلى أنَّك واحدٌ من أفراد القَصْرِ المَلَكِيّ في مصر.

القضيَّة الثانية: استفهامٌ تَقْرِيريٌّ، يَمْتَنُّ به فِرْعَوْنُ علىٰ مُوسَىٰ بأنَّهُ لَبِث في رِعَايَةِ القَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ، وحمايته، ومَنْحِهِ فُرَصَ الارتقاء والنجاح في أُمُورِهِ كُلّها كأحَدِ أفراد القَصْرِ، طَوَالَ سِنين مِنْ عُمْرِهِ.

قيل: لَبِثَ في القصر الفرعونيّ (١٨) سنة من عمره، وقيل: (٣٠) سنة، وقيل: أكثر من ذلك، والله أعلم.

دلَّت على هذه القضيّة عبارةُ: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أي: أوَلَمْ تُقِمْ في كَنَفِنَا كأحد أفراد القصر من آلِنَا، سِنِينَ من عُمْرك، ونَحْنُ نَرْعَاكَ، ونَمْنَحُكَ ما تَطْلُبُ من مطالب، ونُمِدُّكَ بقُوَّةٍ من سلطاننا، حتَّىٰ صِرْتَ رَجُلاً مُكْتَمِلَ الرُّجولة.

الاستفهام التقريريُّ الوارد في القضيَّة الأولى، مُنْسَحِبٌ على هذه القضيَّة الثانية.

[**وَلَبِثْتَ**]، أي: وأَقَمْتَ في قَصْرِنَا كواحدٍ منَّا إقامَةً طويلةً امْتَدَّتْ طوالَ سنين من عُمْرِكَ. **اللُّبْثُ**: الإقامة في المكان زَمَناً لَيْسَ بالقَصِير.

القضيَّة الثالثة: اسْتِفْهَامٌ تقريريٌّ يُقرّرُ به فِرْعَوْنُ موسىٰ عليه السلام، بأنَّهُ قتَلَ نفساً من المصريّين، انتصاراً لإسرائيليٍّ هو من شيعته وقومه، وهذه الجريمةُ تستحِقُّ عقُوبةَ القتل، ويظهر أنّ هذه العقوبة قَدْ سقطَتْ بمُرُورِ الزّمَن، بمقتضىٰ قانونهم حينئذ.

دَلَّتْ على هذه القضية عبارة: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾، أي: أوَ لَمْ تَرْتَكِبْ جريمة قَتْلِ المصريّ، انتصاراً لرَجُلٍ من قومِكَ الإسرائيليّين.

الاستفهام التقريريُّ مُنْسَحِبٌ على هذه القضيّة أيضاً.

ومراد فرعون من تقرير مُوسَىٰ عليه السّلام بهٰذه القضايا الثلاث، إشْعَارُهُ بأنّ ما جاءَ الآن به، لا يَتَلَاءَمُ مع سابقِ عَهْدِهِ، في القَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ وآله، ولا سيما مطالبَتُه بالإذْنِ لبَنِي إسرائيل بأنْ يَخْرُجُوا من مصر، مع الاحتمال القويّ بأنّه يُرِيدُ أن يَخْرُجَ بهم، ليُعِدَّ مِنْهُمْ جَيْشاً مُقَاتِلاً، ويَرْجِعَ بجيشه لتقويض مُلْكِ أَوْلِياءِ نِعْمَتِهِ، وانْتِزَاعِهِ مِنْهُمْ بالقوّة، والاستيلاءِ على أموالهم وممتلكاتهم، وهم خبراء بأرض مصر، وبرجالها، وبمراكز قُوىٰ سلطان القَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ فيها، إنّ هذا العَمَل مُنَافٍ لفضيلة الوفاء.

أي: فكيف يتلأم هذا مع ما يَدْعُو إليه من حقٍّ وخَيْرٍ ورُشْدٍ وفضائِلَ، في الدّين الجديد الذي يَدْعُو إليه.

القضية الرَّابعة: إدانَةُ فِرْعَوْنَ لمُوسَىٰ عليه السّلام بأنَّهُ مِنَ الكافرين الجاحدين، لِمَا قَدَّمَهُ له القَصْرُ الفرعَوْنِيُّ مِنْ نِعَمٍ ومِنَنٍ، وقد كان يجب عليه أن يكون من الشاكرين لهذه النِّعَمِ والمِنَنِ، فيكُونَ مِنَ المؤيّدِينَ المناصرين، ومن ذوي الولاء الصادق، لا من الكافرين الجاحدين، الذين يُقابِلُون الإحْسَانَ بالإساءَةِ، والخَيْرَ بالشَّرِّ، والجميلَ بالقبيح.

دلَّت على هذه القضيَّة عبارَةُ: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: من الجاحدين للنّعم والمِنَنِ التي تَلَقَّوْهَا من أولياء الإحْسَانِ إليهم.

رَدُّ مُوسَىٰ على فرعون:

فردَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام على فرعون بما جاء بيانُه في نصٍّ سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) بقول الله عزّ وجلّ تعبيراً عمَّا جاء في مقالته له:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى

حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)﴾:

بدأ موسىٰ عليه السَّلام بالإجابَةِ على قَتْلِهِ المِصْريَّ انْتِصاراً لأحَدِ أفراد قومِهِ الإسرائيليّين، فأبَانَ أنَّه قتلَه في الزَّمن الَّذي كانَ فيه من الضَّالّين الجَاهِلين، الّذين يَنْدَفِعُونَ مع أهوائهم وعصبيَّاتِهِم وَوَلَاءَاتِهِمُ القَوْمِيّة، وفي الزَّمَنِ الَّذِي كانَ فيهِ خاضعاً لمؤثراتِ مَدْرَسَةِ القَصْرِ الفِرْعَوْنِيِّ النَّفْسِيَّةِ والاجتماعيَّةِ والتَّسَلُّطِيَّةِ، وأبانَ أنَّه لَمَّا عَلِمَ بأنّ مَلأَ القَصْر يَأْتَمِرُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، فَرَّ مِنْهُمْ، وخَرَجَ من مصر هارباً، وأقام في مكانٍ لَا سُلْطَانَ لحُكَّام مِصْرَ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ، وأبَانَ له أنَّ اللَّهَ رَبَّهُ وَهَبَ لَهُ حُكْماً عَقِب فراره مِنْ مِصْر، وأنّ اللَّه رَبَّهُ جَعَلَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ من المُرْسَلِينَ.

دلَّت على هٰذه الإجابَة عبارة:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١)﴾.

- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠)﴾:

[إذاً]: قَالُوا: هِيَ هُنَا حَرْفُ جوابٍ، أيْ: نَعَمْ، قَدْ فَعَلْتُهَا في حالِ أنّي كُنْتُ من الجاهلين، الذين لا يعرفون الكثير من الأمور الّتي فيها تفريقٌ بينَ الحَقِّ والباطل، والخير والشّرّ، والصالح والفاسد.

الضَّلال: يأتي في اللُّغة بمعنى الجَهْلِ بالشَّيْء، لخُلُوّ الذِّهْنِ من معرفَتِهِ، ومنه قول الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ في سورة (الضُّحى): ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧)﴾، وهذا المعنى هو المعنىٰ المناسب هنا.

ولست أدري لِمَاذا لم يُورِد النحويّون احْتِمالَ أن تكونَ [إذاً] هُنَا دالَّةً على الظَّرْفِيَّة، وأن يكون التنوينُ عوضاً عن مضافٍ إليه محذوف، كما قالوا في نحو: «حينئذٍ» و«يَوْمَئِذٍ»، فهذا المعنى هو الأقرب خُطوراً في الذهن بحسَب سوابق العبارة ولواحقها، أي: فعلْتُها حينئذٍ وأنا مِنَ الضَّالّين.

- ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾:

أي: فَعَقِبَ وَقْتِ خَوْفي مِنْكم أنْ تَقْتُلوني، هَرَبْتُ منكُمْ إلى حَيْثُ لَا يُمْسِكُ بي جُنُودُكم، لِيَسُوقُوني إلَيْكُم.

[لَمَّا]: ظرفٌ للزمان الماضي هُنَا، أي: حين خِفْتُكُمْ فيما مضَىٰ عَقِب قَتْلِي المَصْرِيّ.

- ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾:

الهِبَة: العَطِيَّة الخالِيَةُ من الأعواض والأغراض. يقالُ لغة: «وَهَبَ لَهُ الشَّيْءَ، يَهَبُهُ، وَهْباً، وَوَهباً، وهِبَةً، فَهُوَ: وَاهِبٌ، وَوَهَّابٌ، ووَهُوبٌ، ووهَّابةٌ».

[حُكْماً]: **الحُكْمُ**: فقْهُ الأمور، ومَعْرِفَةُ الحقّ والباطل وحُدودهما. والخَيْرُ والشّرّ وحُدودهما، والحسَنِ والسَّيّء وحُدُودها، وبناءً علىٰ الفقه، يُصْدِرُ مَنْ أُوتي الحُكْمُ أحكامَهُ العِلْمِيَّةَ، وأحكامَهُ القضائيَّة.

أي: فَأَعْطاني رَبّي بِفَضْلٍ مِنْهُ فِقْهاً في الأُمور، بَعْدَ أنْ كُنْتُ جاهلاً.

- ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

أي: وَجعَلَني نبيّاً من الأنبياء، ورَسُولاً مِنَ المُرْسَلِين، الَّذِينَ أرْسَلَهُمْ قَبْلِي لتبليغ أُمَمِهِمْ رسالَات رَبّهم إليهم.

وقد دَلَّ الواقع التاريخيُّ على أنّ اللّه قد جعلَه نبيّاً ورَسُولاً في زمنٍ متأخّرٍ عَنْ زَمَنِ فراره من مصر، عَقِب قَتْلِهِ المصري. لكنَّ عبارة: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ تَدُلُّ على أنَّ هذه الهِبَة قَدْ كانت عَقِب فراره من جنود فرعون في مصر، فالعطف بالواو لعبارة: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لا يَدُلُّ على الاقْتِرانِ في الزّمن بَيْنِ هِبَتِهِ الحُكْمَ وبَيْنَ جَعْلِهِ من المرسلين، إذْ بَيْنَ الزَّمَنَيْنِ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ سنين.

وبَعْدَ أن أجابَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ فِرْعَونَ على ما قَرَّرَهُ به بشَأْنِ قَتْلِهِ للمصرِيِّ انتصاراً للإسرائيليّ، وجَّهَ مُوسَىٰ لَهُ الجوابَ على المِنَنِ الَّتي امْتَنَّ فِرْعَوْنُ بِهَا عَلَيْهِ، وعلى إدانَتِهِ له بأنَّه مِنَ الجاحِدِينَ الذين لا يُقابلون الإحسانَ بالشّكر، بما دَلَّتْ عليه العبارة التالية من نصّ سورة (الشعراء):

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؟!:

[تَمُنُّهَا]: أي: تتحدَّثُ بأنَّكَ تفضَّلْتَ بها عليَّ، وتعتَبِرُها مِنْ مَحَامِدِك وإحْسَاناتِك.

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: أنْ جَعَلْتَ بني إسرائيلَ عبيداً لكَ ولقوْمِكَ، بالقَهْرِ، والغَلَبَةِ، وقُوَّةِ سُلْطانك.

والمعنىٰ: أتِلْكَ الّتي ذَكَرْتَها من تَرْبِيَتِي وليداً فِيكُمْ، وإقامَتِي فيكُمْ، كأحَدِ أفراد قَصْرِكُمْ، تَصْلُحُ لأنْ تكونَ نِعْمَةً على أحدٍ مِنْ بني إسرائيل الَّذين جَعَلْتَهُمْ عَبِيداً لَكَ ولِقَوْمِكَ، بالقَهْرِ والغَلَبَةِ وقُوَّةِ السلطان؟

أشار عليه السَّلام إلى المِنَنِ الّتي امْتَنَّ بها عليه فرعون باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البَعيد، للدَّلالة على احتقارها بجانب الاستعباد المسَلّط على بني إسرائيل، من قِبَلِ فِرْعَوْن ومَلَئِهِ وسَائر المصريّين.

وطوى موسَىٰ عليه السّلام في نفسه بيان أنّ المِنَّة لربّي الَّذِي أنْقَذَنِي من القَتْلِ الذي فَرَضْتُمُوهُ على مواليد الإسرائيليين، وأنا واحِدٌ منهم، إذْ وَضَعَتْنِي أُمّي في التَّابوت، فأوْصَلَهُ رَبِّي إلى قُرْبِ شاطئ قَصْرِكُمْ، والْتَقَطَنِي من طرف النَّهرِ بعضُ آلِكَ، وألْقَىٰ محبّتي في قُلوبكم، وصرَفَ نفوسَكُمْ عن قَتْلِي مع مَنْ قَتَلْتُمْ مِنْ أبناء قَوْمي، إذْ تَصَوَّرْتُم أنّني سأَنْفَعُكُمْ، أو أنْ تَتَّخِذُوني وَلَداً مِنْ أولادِكم بالتَّبَنِّي.

تلك في الحقيقة لَيْسَتْ مِنناً مَنَنْتُمْ بها عليّ على سبيل الإحسان، وإنَّما نَظَرْتُمْ فيها إلى مصالِحكُمْ، مع مُراعاة عَواطف بعض آلِكُمْ، الَّذِين أَلْقَى رَبِّي محبّتي في قُلُوبهم.

عندئذٍ انتقَلَ فِرْعَوْنُ إلى حوارٍ آخر مع مُوسَىٰ عليه السّلام، وهذا الحوار يتعلَّق بربِّ العالمين الّذي ذَكَرَهُ مُوسَىٰ، ويَدْعُو إلى الإيمان به، فقال لموسَىٰ كما جاء في النصِّ الذي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

التدبّر:

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

[مَا]: اسم استفهامٍ يُسْتَفْهَمُ به عَنْ غَيْرِ ذي العلم، ويُسْتَفْهَمُ به عَنْ صِفاتِ ذي العلم، ومن صفاتِهِ حقيقةُ ذاته.

وقد سَأَلَ فِرْعَوْنُ مُوسَىٰ عليه السَّلام بمقتضىٰ دَلَالَةِ هذه العبارة، عن حقيقةِ ذاتِ رَبّ العالَمِين.

فأعرض موسَىٰ عليه السّلام عَن إجابَةِ فِرْعَوْنَ عَنْ حَقِيقَةِ ذاتِهِ ـ جلَّ جَلَالُهُ وسَمَتْ عَنْ الإدْرَاكِ ذاتُه ـ لأنَّ حقيقةَ ذاتِهِ لا يستطيع مخلوقٌ إدْرَاكَها، ولأنّ نور ذاته أو نوراً من ذاتِهِ لا يستطيع البَشَرُ إدْرَاكَهُ بأجِهزَةِ الإدْراك الّتي وَهَبَهُمْ رَبُّهُمْ إيَّاها.

ولكن أجابَه بعباراتٍ فيها تَفْصِيلُ آثارِ صِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ في كونه، الجامعة لكثيرٍ من صفاته الجليلات العظيمات، كالعِلْم المحيط بكلِّ شيء، وكالإرادة الحكيمة، والقدرة على خَلْقِ ما يشاء، والتدبير الدائم الكامل لتصاريف الكون، والرَّحْمَةِ بعباده.

فذكر عليه السَّلام بعضَ مظاهر صفاتِ رُبُوبيَّتِهِ:

- ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

خاطبَ موسَىٰ عليه السَّلامُ بما دَلَّ عليه هذا البيان فرعونَ ومَلأَهُ مِنْ حَوْلِهِ.

أي: رَبُّ العالَمِين هُوَ مَنْ لَهُ الصِّفاتُ الجليلات العظيمات الّتي مِنْ آثارِهَا خَلْقُ السَّماواتِ والأَرْضِ، وخَلْقُ مَا بَيْنَهُمَا، والهَيْمَنَةُ على تَصارِيفِ كلِّ ذٰلِكَ، وبقاءُ كلِّ ذلك في الوُجُودِ، بصفاتِ رُبُوبِيَّتِهِ على وَفْق حِكْمَتِهِ وشُمُولِ عِلْمِهِ كلَّ شَيْءٍ، وقُدْرَتِهِ على ما يَشاءُ.

- ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّين لأنْ تُفَكِّرُوا بالحقائق الّتي أعْرِضُهَا عليكم، فتَصِلُوا إلى إدْراكِ الحقّ، فتوقِنُوا بربّ العالَمِين الَّذِي أَدْعُوكُمْ إلىٰ الإيمان به، عن طريق البراهينِ والأدِلَّةِ العقليَّة، بالنظر في لوازم خَلْقِهِ للعالَمين، ومن العالمين السَّماواتُ والأرضُ وما بَيْنَهُمَا.

اليَقِين: هو العِلْمُ الّذي لَا شَكَّ فيه، وأدْنَىٰ مَرَاتِبِهِ ودَرَجاتِهِ ما اعْتَمَدَ على أدِلَّةٍ نظريَّةٍ عقْلِيَّة، أوْ خَبَرِيَّةٍ صادِقَةٍ لا يَعْتَرِيهَا شكٌّ.

والمعنى: فإذا كُنْتُمْ غَيْرَ مُسْتَعِدِّينَ لأَنْ تُفَكِّرُوا فتوقنوا مستقبلاً بالحقِّ الّذي أدعُوكُمْ إلى الإيمانِ به، مَهْمَا قَدَّمْتُ لَكُمْ من الأدِلَّةِ، فإنّ بَيَاني هذا لَنْ يُغَيِّرَ مِنْ جُحُودِكُمْ لربِّكُمْ شيئاً.

عندئذٍ استغلَّ فِرْعَوْنُ عَدَمَ إجابَةِ مُوسَىٰ له عن حقيقة ذات رَبِّ العالمين، فنظر إلى من حَوْلَهُ من مَلأ قومه، فقال لهم ما دَلَّ عَلَيْهِ قول اللّٰه عزَّ وجلّ:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾؟:

أيْ: أَلَا تَسْمَعُونَ إجابَتَهُ غَيْرَ المطابقة للسؤال، إنّي أسْأَلُهُ عَنْ ذاتِ رَبِّ العالمينَ الّذي يَدْعُونَا إلى الإيمانِ به، فلا يجيبني ببيانِ حقيقة ذاتِهِ،

وإنَّما يَأْتِي بذكر بَعْضِ عناصِرِ كَوْنِهِ رَبَّ العالمين، فيَذْكُرُ أنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ في عَقْلِهِ خَلَلاً.

فَتَابَعَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ بيانَهُ الّذي دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾

أي: رَبُّ العالَمِينَ هُوَ أيضاً رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمْ الأوّلين السَّابقين، الّذين ماتُوا عند انتهاء آجالهم في الحياة الدُّنيا.

* * *

وهُنا يَأْتِي مَا جاء بَيَانَهُ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف ٤٥/ نزول) تَكْمِيلاً لما طُوِيَ في نصّ سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول الله عزّ وجلّ في سورة (طه) حكايةً لما دَلَّ عليه قولُ فِرْعَون لموسَىٰ عليه السّلام:

- ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾:

استغلّ فرعونُ حديثَ مُوسىٰ عليه السَّلام عن آبائهم الأوّلين، فطرَحَ عَلَيْهِ هذا السّؤال.

[فَمَا بَالُ]: أي: فما شَأْنُ وَمَا حَالُ الأُمَمِ السَّابِقة، الّتي مَاتَتْ وتَفَتَّتَتْ ذَرَّاتُ أجْسَادِهَا في تُرَابِ الأَرْضِ، ولم تَبْقَ لهم حياةٌ ولَا حركةٌ ولَا أجْهِزَةٌ يُحِسُّونَ بها، هل صاروا عَدَماً، أم سوف يحاسبون ويجازَوْن كما تزعم، وقد ضَلُّوا في الأَرْضِ ولم يَبْقَ لهم أثر؟!.

البَالُ: الشأنُ والحال.

القُرُون: جمع «القَرْن» وهم أهل زمانٍ واحدٍ كانُوا يعيشون فيه.

فأجابَ موسَىٰ عليه السّلام بما جاء بيانُ معناه في سورة (طه) أيضاً:

- ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾:

أي: إنَّ خَلْقَهُمْ أَوَّلاً بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئاً مَذْكُوراً، قد كان مسبوقاً بقَدَرٍ وقضاءٍ فيه تفصيلُ كلّ جزئيَّةٍ من ذواتهم وصفاتهم طوال رحلة حياتهم، وهذا قد كانَ مَشْمُولاً بعلم الله الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

وبَعْدَ أنْ مَرُّوا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِم في الحياة الأولى، كان العلم الرَّبَّانيُّ مُحِيطاً بكلّ ما كَسَبُوا أو اكْتَسَبُوا من أعمالٍ ظاهرةٍ أو باطنة، جَسَدِيَّةٍ أو نفسيَّة.

فإعادَتهم إلى الحياة الأُخرى للحسابِ، وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذِ الجَزَاءِ هيِّنٌ عَلَيْهِ، إذْ يُعِيدُ خَلْقَهُمْ ويَبْعَثُهُمْ إلى الحياة الأُخْرَى، كما بَدَأَ خَلْقَهُمْ.

وإجابَةُ موسَىٰ عليه السلام قد تناولَتْ من هذا الدليل جانب العِلْمِ الرَّبَّانيّ، ليفهم فرعَوْنُ، وأذكياءُ مَلَئِهِ لَوَازِمَ هذا العِلْمِ من القدرة على الإعادة، كما كانت القدرة على البَدْءِ، وأمّا الحساب والجزاء فمن لوازم كَوْنِ الرَّبّ حكيماً، لا يجعل المُسْلِمَ كالمُجْرِمَ، ولَا المُحْسِنَ كالمُسيءِ.

وهٰذه الإجابة اشتملَتْ على قضيَّتَيْن، ويلزم من بيانهما عَقْلاً قضيَّةٌ ثالثة:

القضيّة الأُولىٰ: أنّ عِلْمَ القُرُونِ الأُولَىٰ من البشر، ما يَتَعَلَّقُ بإنشائها الأوّل، وما يتعلَّقُ بذَوَاتِهَا وصفاتها، وما قدَّمَتْ مِنْ أعمالٍ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، مُسَجَّلٌ مُدَوَّنٌ في كِتَابٍ لَمْ يُغَادِرْ صَغِيرَةً ولَا كَبِيرَةً إلّا أَحْصَاهَا، دلَّتْ على هٰذه القضيَّة عبارة: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ﴾.

وقد قرَّبَتْ لَنَا مكتشفات القرن العشرين، عن طريق أدوات تَسْجِيلِ

الصَّوْتِ والصُّورة، عظمة الكتاب الربَّاني الذي يُسَجِّلُ كلَّ شَيْءٍ، حتَّىٰ أحاديثَ النفوس وخواطِرَ الأفكار، ودقائقَ مَا في الخَلَايَا والذَّرَّات.

القضيَّة الثانية: أنّ رَبّي يُحيطُ عِلْمُهُ الّذي هو صفةٌ مِنْ صِفاتِ ذاته، بكلّ ذلك، إذْ يَسْتَحِيلُ عقلاً أن يَتَعَرَّضَ عِلْمه وهو خالِقُها ومُتَابِعُها بقَاءً وتصاريفَ حكيمةً، بصفات ربُوبِيَّتِهِ، للضَّلال عَنِ الواقع والبُعْدِ عنه، ويَسْتَحيل عقلاً أن يتعرَّض لِنِسْيَانِ شَيْءٍ منه، وهو محيطٌ بكلّ شيءٍ علماً، ما مضىٰ، وما هو كائنٌ، وما سيكون أو سوف يكون.

دلَّت على هذه القضيَّة عبارة: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾:

[لاَ يَضِلُّ]: أي لا يضيع عن العِلْمِ الحقِّ. **الضَّلَال**: يَأْتي في اللّغة بمعنى الضَّيَاع في المتاهات، بعيداً في مسائل العلم عَنِ الحقِّ والواقع.

[ولاَ يَنسَىٰ]: أي: ولا يتعرَّضُ لنسيان المعلومات كما تَتَعَرَّضُ الخلائق لذلك، إنّه سبحانه وتعالىٰ مُنَزَّهُ عن نسيان شَيْءٍ ممَّا لَدَيْهِ مِنْ عِلْم.

القضيَّة الثالثة: هي بعضُ لوازم كَوْنِ عِلْمِ القرون الأُولىٰ عِنْدَ الله ربِّ العالمين، في كتابٍ مُدَوَّنٍ فيه كلُّ مَا يُمْكِنُ العِلْمُ به، وفي واسع عِلْمِهِ الشَّامِلِ لكلّ شيء، والذي لا يتعرَّضُ لضلالٍ ولَا نِسْيَان.

وهي أَنَّهُ سَوْفَ يبعَثُهُمْ إلى الحياة مرَّةً أُخرَى، ليحاسِبَهُمْ ويجازيَهُمْ، في زمان يُقالُ له: يوم الدّين.

وهذا اللّازمُ مطويٌّ غير مصرَّحٍ به في النصّ، لكن سبقَ أنْ أَعْلَمَ موسَىٰ عليه السّلام به فرعَوْنَ ومَلأَه.

* * *

وهنا يأتي مَا جاءَ بيانُهُ في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول)

حكايةً لقول فرعَوْنَ، مستغلّاً جَهْلَ معظم مَلَئِهِ بدقائقِ ما تفيدُه أجْوِبَةُ مُوسَىٰ عليه السّلام، ومستغلًّا ما فَرَضَهُ من إلٰهِيَّتِهِ الّتي جعل فيها نفسه معبوداً لقومه، ومستغلًّا خضوعَهُمْ وخُنُوعَهُمْ واسْتِسْلَامَهم لكلّ ما يقول لهم من رأي:

- ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾﴾

قال هٰذا تَهَكُّماً، وإنكاراً لأنْ يكونَ رَسُولاً، أو صالحاً لأنْ يَحْمِلَ رسالَةً من رَبِّ العالمين على ما يَدَّعي.

أي: أنا أسْأَلُهُ عن أشياءَ معيَّنَةٍ، وهو يجيبُ بأجْوِبَةٍ بَعِيدَةٍ عمَّا أسْأَلُه عنه، وهذه من صفات المجانين، وأكَّدَ لَهُمْ جُنُونَهُ بالمؤكدات التاليات: «إنّ ـ والجملة الإسميَّة ـ واللّامِ المزحلقة» أي: بما يَدُلُّ في لغته على مثل هذه المؤكّدات.

ولم يَلْتَفِتْ مُوسَىٰ عليه السَّلام لاتِّهامِ فرعون له بالجنونِ في مخاطبَتِهِ لمَلَئِهِ، بل تابعَ بيانه بقوله الذي دلَّ على معناه قول الله عزّ وجلّ في النصّ الذي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: رَبُّ العالمين هو المدَبّر والمتصرّف بصفات رُبُوبِيَّتِهِ لمكان شروق الشمس وزمانه، ولشُرُوقها، وحَرَكَتِهَا، ومَسِيرها، والمدَبّر والمتصرّف بصفاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لمكان غروب الشمس وزمانه، ولغروبها، وظهور اللّيل والكواكب فيه.

وهو رَبُّ كلّ ما بَيْنَ المشرِق والمغرب من أشياء، وناميات، ورياحٍ وسُحُبٍ وقُوىٰ ظاهرةٍ أو خفيَّة، وظلمةٍ وضياء، وأحياء وبَشرٍ، وغير ذلك.

* * *

وهُنَا يأتي البيان الذي في الآيات من (٥٣ ـ ٥٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

القراءات:

- قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**مَهْداً**] مصدر «مَهَدَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**مِهَاداً**]، أي: فِراشاً.

وفي الجمع بين القراءتين جمعاً تكامليّاً أقول: مَهَدَهَا فَجَعَلَها فِرَاشاً.

يُقالُ لغة: مَهَدَ الفراشَ يَمْهَدُهُ مَهْداً، أي: بَسَطَهُ وَوَطَّأَهُ، وجعله مُرِيحاً للجلوس أو الاضطجاع عليه، واسْتِعْمال لفظ «مَهْدٍ» الذي هو مصدر «مَهَدَ» هو من إطلاق المصدر على اسم المفعول، مثل إطلاق الخرق على المخروق، والنقب على المنقوب، مع احتمال أن يكون لفظ «مَهْد» يراد به سرير الطفل الممهّد، فيكون على التشبيه كالمهاد، والتكامل مع هذا هو على معنى أن بعض الأرض كالمهد، وبعضها كالمهاد.

تمهيد:

هذه الآيات الأربع جاءت بياناً مُباشراً من الله عزّ وجلّ لا على سبيل حكايَةِ مقالات موسَىٰ عليه السلام لفرعون وملَئِهِ، مع أنَّها تابعة في أفكارها لمقالاته، وقد جاءت بمثابة تَكْميلٍ للبيان الذي قَدَّمَهُ موسَىٰ عليه السّلام لفرعون وملئه، وهذا البيان التكميليّ جاء ضِمْنَ البيان الذي يحكي بدلالاته مقالات موسىٰ عليه السَّلامُ لِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ.

ويظهر لي أنّ الغَرَضَ الدَّلالَةُ على أنَّ ما قاله موسَىٰ حقٌّ وصِدْق، وأنَّه تعبيرٌ عمّا أمَرَهُ الله ببيانه للقوم، بدَلِيل أنّ الله عزّ وجلّ أكْمَلَهُ ببيان مضافٍ من عنده، كشأن التلميذ حينما يقولُ قولاً في مسائل علميّة بحضور أستاذه، فيبادر الأستاذُ فيضيف كلاماً تكميليّاً من عنده، قاطعاً حديثَ تلميذه قَطْعاً مؤقّتاً، ليُشْعِرَ مُسْتَمِعي حديثِهِ بأنّه مُوافِقٌ كُلَّ الموافقة على أقوال تلميذه في المسائل الّتي أبانَها وشرَحَها، وليشعِرَهم بأنَّها بمثابة أقوال صادرة عنه شخصيّاً، وهذا فَنٌّ قُرْآنيٌّ تكرَّر في عِدَّةِ سُور من القرآن المجيد.

وليس مستبعداً أيضاً أن يكون المراد بإيرادها بياناً مباشراً من الله عزّ وجلّ، الإشعارَ بأنّ مُوسَىٰ عليه السَّلام قد قال نظيرها بلسانه لفرعون وملئه، فقال في عبارة لهم نحو ما يلي: الذي جَعَلَ لكم الأرض مَهْداً ومِهَاداً وسَلَكَ لَكُمْ فيها سُبُلاً، وأنزل من السماء ماءً فأخْرَجَ به أزواجاً من نباتٍ شَتَّىٰ، وأباح لكم أن تأكلوا منها ما يفيدكم وينفعكم ولا يضرُّكم ولا يؤذيكم، وأنْ تَرْعَوْا أنْعامَكُمْ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لأُولي العقول الحصيفة النظيفة المستنيرة، من الأرض خلقكم، وإلى الأرض يُعيدُكم فتكونون فيها أجزاءً من تُرابها، ومن الأرض يخرجُكم في حين آخرَ مرَّةً أُخْرَى.

وعلَّق اللَّهُ عزّ وجلّ عليها بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: وكان من أمْرِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ ذلكَ أنّنا أَرَيْنَاهُ آياتِنَا التِّسْعَ كلَّها في سنين عَدِيدَة، قَبْلَ أنْ نَأْمُرَ مُوسَىٰ بالخروج ببني إسرائيل من مصر، وقبل أن يُتابعهم فرعَوْنُ وآله وجنوده لقتالهم، وقَبْلَ أن يتمّ في هذا الحدَث فَلْقُ البحر لموسَىٰ وبني إسرائيل، وعبور بني إسرائيل بقيادة موسى وهارون من مكان الفلْق، ومتابعة الجيش الفرعوني لهم بقيادة فرعون من مكان الفلق

نَفْسِهِ، وضمِّ مياه البَحْرِ عليهم، وإغراقهم جميعاً، بَعْدَ نجاةِ بني إسرائيل.

وكانت هٰذه الآية بمثابة فاصِلَةٍ أنْهَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها بيانَهُ المباشر.

وفي هذا الأُسْلُوب البيانيّ أيضاً، إشعارٌ بأنّ مقالات موسَىٰ عليه السَّلام لفرعون ومَلَئِهِ، هي مقالات منزَّلَاتٌ عَلَيْهِ من رَبِّهِ، فكأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ هو الذي يخاطِبُهُمْ بها على لِسانِ نبيّه ورسُوله موسَىٰ عليه السَّلام، مع جعل صيغة الكلام بأسلوب حديثٍ من موسى لهم، لا بأسلوب: يقول رَبُّكُمْ كذا وكذا.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ـ وفي القراءة الأخرى [مِهَاداً] هذا خطاب من الله عزّ وجلّ مُوَجَّهٌ للناس جميعاً.

أي: ورَبُّكُمْ هُو الذي جَعَلَ لكم الأرض بمثابَةِ الفراش الممهَّدِ الصالح لراحة الجالِسِ أو المضطجع عليه.

وفي هذا تشبيهٌ لمعظم سَطْحِ الأرض بالفراش الممهَّدِ المَبْسوط، نظراً إلى مَا في معظم سطحها من انبساطٍ، في السُّهول، والوديان، وفي مواضع من الجبال، ونظراً إلى جَعْلِها صالحة للتسوية والتمهيد، بأعمال التعرية، والتكسير، والحفر، والتجريف، والنقل.

ولولا هذا الجَعْلُ الرَّبَّانيُّ الحكيم في تكوين الأرض، لكانَ من الممكن أن تكونَ صُلْبَةً شديدَةَ القساوة، وأنْ تكونَ على شَكْلِ مُرْتَفعاتٍ ومنخفضاتٍ كأشواك ظهر القنفذ، لا تَصْلُحُ لإقامَةِ الناس عليها، ولا تصلُح للانتفاع بها بأعمالٍ يستطيع الناس القيام بها، منها أعمالُ البناء والتعمير، وأعمال التمهيد والتسوية، ومنها أعمال الحرث والزَّرْع، وأعمال

شقّ الطُّرُق، وتمهيد السُّبُل، وتكسير الصُّخُور ونحتها، وحَفْرِ الأنفاق، وحفر الآبار، إلى غَيْر ذلك من أمور كثيرة، جالبة منافع ومصالح للناس، ولو بمشقَّة وأعمال صعبة.

وكُلُّ ذلك بسبَبِ أنَّ الله قد جعلَها للناس مهداً، وجَعْلَها مِهَاداً، كالفراش الصالح للبَسْطِ والتمهيد، والتسويَةِ، والجلُوسِ والاضطجاعِ عليه، براحةٍ تُلائم أجسادهم ومصالِحَهُمْ.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾:

[وَسَلَكَ لَكُمْ]: أي: وأدْخلَ وأنفذ لكم. يُقالُ لغة: «سلَكَ، يَسْلُكُ، سَلْكاً، وسُلُوكاً»، أي: دَخَلَ ونفَذَ، ويقال: «سلَكَ الشَّيْءَ، في الشَّيْءِ، وسَلَكَهُ به»، أي: أدخله فيه.

فالمعنى: وأدْخلَ وأنفذ لَكُمْ في الأرض سُبُلاً تَسْلُكُونَ فيها، لتَصِلُوا إلى ما تريدون الوصول إلَيْهِ من أماكن ومواضع في الأرض.

السُّبُل: جمع «السبيل» يُذكّر ويُؤَنَّث، وهو الطريق، وما وضَحَ مِنْه.

هذه العبارة: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ صالحةٌ للدَّلَالَة على ما جعل الله عزَّ وجلَّ في الأرض من سُبُلٍ صالِحَةٍ للسُّلُوكِ فيها، قَبْلَ خَلْقِ الناس، وصالحة للدَّلَالَة على ما منح اللَّهُ الناس من قُدْرات يشُقُّون بها الطُّرُق، ويُمَهّدون بِهَا السُّبُل.

فما منحَ اللَّهُ النَّاسَ القُدْرَةَ على عَمَلِهِ وصُنْعِهِ، وما جَعَلَ في الأشياء من مطاوعة لأعمال العاملين، وصُنْعِ الصَّانِعين، كلُّهُ من خلق الله ومن جَعْلِهِ في كَوْنِهِ ـ جلَّ جلالُهُ وسَمَتْ حكمتُه ـ فنتائج أعمالِ عبادِهِ هي من جَعْلِهِ عزّ وجلّ، لأنّها من آثار ما مَنَحَهُمْ وهَيَّأَ لهم، ولولا ذلك ما استطاعوا أنْ يَعْمَلُوا شَيْئاً، وما اسْتَطَاعُوا أنْ يَصْنَعُوا شيئاً.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾:

[**مِنَ السَّماءِ**]: أي: من السَّحَابِ الواقع في جهة العُلُوّ بالنسبَةِ إلى سُكَّانِ الأرض.

السماء: هي في اللُّغة كُلُّ ما عَلَا فَأَظَلَّ، وسَمَاءُ كلّ شَيْءٍ أعلاه. وأصْلُ لفظ «سَماء» مَصْدَرُ: «سَمَا، يَسْمُو، سُمُوّاً، وسَماءً» أي: علا، وارتفع، وتطاول، ثُمّ أُطْلِقَ على كُلِّ ما هو في جهةِ العُلُوِّ بالنِّسْبَةِ إلى المكانِ الذي يُوجَدُ فوقه مَا هو سامٍ عَلَيْهِ، وفي جهة العلوّ بالنسبة إليه.

فالسّقْفُ سماءٌ بالنسبة إلى ما تحته، والمظلّة سماء بالنسبة إلى المستظلّين بها، والسَّحابُ سماء بالنسبة إلى سُكّان الأرض، والغلاف الغازيّ سماء بالنسبة إليهم أيضاً.

أي: وربُّكُمْ هو الذي أنزل من السّماء ماءً.

وجاء وصف هذا الماء الذي يَنْزِل من السَّحاب في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بأنّه طَهُورٌ، أي: طاهرٌ بنفسه مُطَهِّرٌ لغيره، فقال الله عزّ وجلّ فيها: ﴿...وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾.

وجاء وَصْفُهُ في سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بأنَّه مبارَك، أي: كثير الخير وكثير النفع، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا... ﴿٩﴾﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿...فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾:

في هذه العبارة التفاتٌ من الحديث عن الغائب، إلى التكَلُّم، وهٰذا الالتفات من محاسن الفنون البلاغية، لما فيه من إثارةٍ للانْتِبَاهِ.

وجاء في هذه العبارة استخدام ضمير المتكلّم العظيم، لأنّ الموضوع الذي جاء بيانُه فيها يتعلَّقُ بخَلْقٍ إبداعيّ عظيم، من الرّبّ الجليل العظيم.

أي: فأخْرَجْنَا بالماءِ الذي أنْزَلْنَاهُ من السَّحاب، وجَعَلْنَاهُ سبباً من أسْبابنا، أصْنافاً كثيرةً من نَباتٍ مُتفرّقٍ في بِقاعِ الأرض.

[أَزْواجاً]: أي: أجْناساً وأنواعاً وأصنافاً، جمع «زَوْج» بمعنى: جِنْسٍ، أو نَوْعٍ، أو صنف.

[شَتَّى]: أي: مُتَفَرِّقَةً، جمع «شَتِيت» أي: متفرّق.

وهذه ظاهرة من ظواهر إنْعام الله على عباده في الأرض، إذْ أخْرَجَ منها بالماء المبارك نباتاتٍ ذوات أجناس، وأنواع، وأصناف كثيرة، فمِنْهَا ما هو لغذاء الناس ولذّاتهم واستمتاعاتهم، ومنها ما هو لغذاء سائر الأحياء في الأرض، ومِنْها ما هو للدّواء وأنواع العلاجات، ومنها ما هو للانتفاع به في اللّباسِ والعِمْران كالأقطان والأخشاب، ومنها ما هو للانتفاع به في إعداد المطاعم والمشارب ونحو ذلك، ومنها ما هو للانتفاع به في الصناعات المختلفات، كالقُطْنِ والمطّاط، إلى غير ذلك من منافع لا يَسْتطيع الناس إحْصاءَ مفرداتها.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿كُلُوا۟ وَٱرۡعَوۡا۟ أَنۡعَـٰمَكُمۡۚ﴾:

في هٰذه العبارة التفاتٌ من التكلّم إلى خطاب النّاس، أي: كُلُوا يا أيُّها الناسُ ممّا أخْرَجْنَا لَكُمْ من الأرض، مما هُو صالحٌ لأنْ يُؤْكَلُ دُون أن يُحْدِثَ ضَرراً أو أذىً، ممّا فيه غذاؤكم، ولذاتُ مطاعِمِكُمْ كالفواكِهِ والتّوابل. وارْعَوْا أنْعَامَكُمْ الّتي خلقناها لكم، لطعامكم وشرابكم، وكثير من مَصَالِحِكُمْ ومَنَافِعُكم كحملكُمْ وحَمْلِ أثقالكم، وجَرِّ عَرَباتكم، وحَرْثكم، وكاستخدامكم لأصوافها وأشعارِهَا وأوبارها، لصناعة ملابِسِكُمْ، وفُرُشِكُمْ، وغير ذلك من منافع كثيرة.

صيغة فعل الأمر في «كُلُوا» وفي «وَارْعَوْا» هي للإذن والإباحَة، بشرطِ اجْتِنَابِ ما حرَّم الله منها، ممّا فيه ضَررٌ أوْ أذىً، كالنَّباتاتِ السامَّاتِ، والنباتات المخدّرات، الّتي خلَقها الله للاستعمالات الدوائيّة، بمقادير محدَّدة تستعَمْل عند الضرورة العِلَاجِيَّة، وهذه القيودُ قد دَلَّتْ عليها نصوصٌ أخرى، وفق المنهج التكامليّ في دلالات النّصوص.

[**وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ**]: أي: واجْعَلُوها ترعَىٰ من نباتات الأرض، بإرْسالها في المراعي، أو وَضْعِهَا فيها، أو جَلْبِ ما تَرْعَاهُ إليها.

يقال لغة: رعَىٰ الراعي ماشيته، أي: جَعَلَهَا تَرْعَىٰ.

ويقال: رعَىٰ الحيوانُ النبات، أي: أكَلَه.

الأنعام: هي الأمْوالُ الراعيَة، وهي الإبلُ والبقر والغنم، ولفظ «الأنعام» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

الآيات: هي العلامَاتُ الدَّالّاتُ على معنىً ما، وتُسْتَعْمَلُ الآية الكونيَّة، فيما فيه دلالَةٌ قوِيَّةٌ إعجازيَّة، على صفة أو أكثر من صفات الرَّبّ الجليل، ومعلومٌ أنَّ إثبات الصفة يستلْزِمُ عقلاً إثباتَ الموصوف بها.

﴿لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾، أي: لأصحاب العقول الواعية الدَّرَّاكَة لآياتِ الله في كونه.

النُّهَىٰ: هي العقول، ومُفْرَدُها «النُّهْيَةُ».

والمعنى: أنّ أصحاب العقول الحصيفة النُّظيفة الدَّرَّاكة، يَفْهَمُون أنَّ جَعْلَ الله الأرض مهداً ومهاداً، وسَلْكَ سُبُلٍ فيها، وإنزالَ ماءٍ من السَّماءِ كان به إخراج أصْنَافٍ كثيرةٍ من نباتٍ شَتَّىٰ، يُقَدِّم آياتٍ جَلِيلاتٍ تدلُّ على

طائفة عظيمة من صفاتِ الرّبّ الخالق، الدَّالّاتِ على وُجُودِهِ، وعلى رُبُوبِيَّتِهِ الدائمة لكونه، إيجاداً، وإمداداً، وبقاءً، وتصاريف، وإحياءَ، وإمَاتَةً، وإفناءً، وإعداماً، وإعادة متى شاء، وعلى ما يشاء.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾:

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: عودةً إلى الحياة أُخرىٰ، يقال لغة: «تَاوَرَهُ الأَمْرُ» أي: عاوَدَهُ تارةً بَعْدَ تَارَة. **التَّارَةُ**: المدَّةُ والحين.

والمعنى: من الأَرْض، أي: من ترابها ومائها خَلَقْنَا أجْسَادَكم، وإليها نُعِيدُكُمْ فنجعَلُكُمْ فيها، ضِمْنَ تُرابها، وأجزاءً منها، ومنها نخرجكُمْ في حينٍ آخر، فنُعِيدُكُمْ إلى الحياةِ مرَّةً أُخْرَى، للحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتحقيق الجزاء.

ضمّن فعل: [**نُعِيدُكم**] معنى فعل: نجعلكم، أو نُدْخلكم، فعُدّي تَعْدِيَته.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: ونُؤَكِّدُ أنَّا أَرَيْنَا فِرْعَوْنَ آياتِنا التِّسْعَ كلَّها، التي آتَيْنَاهَا موسَىٰ، فلَمْ يَعْمَلْ بما فَرَضَتْهُ عليه دلَالاتُهَا، بلْ كَذَّبَ بها، وكذَّبَ رَسُولَيْنَا مُوسَىٰ وهارون، وأبَىٰ أن يُؤْمِنَ بالحقِّ، استجابَةً لدَعْوَتِهِمَا، وخُضوعاً لدلالات آياتنا الباهرات المعجزات.

في هٰذه الآيَةِ نقلَةٌ إلى آخر تاريخ دَعْوَةِ موسىٰ وهارون في مِصْر، قُبَيْلَ أنْ يَأْمُرَ اللَّهُ مُوسَىٰ بأنْ يخرجَ ببني إسرائيل متّجِهاً شطر سِيناء.

وهذه النَّقْلَةُ الّتي لا تُتَابِعُ سَوَابِقَها، ولا تَتَلاءَمُ مع ما جاء بَعْدَها من

بيانٍ في السّورة، قَدْ جعَلَهَا اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ فاصِلَةً خاتِمَةً لكلامه المباشر، الذي جاء معترضاً بَيْنَ فقرات قِصَّةِ مُوسَىٰ مع فرعون وملئه.

* * *

وهنا يأتي بيانٌ جاء في النَّصّ الذي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

لقد ضاق صَدْرُ فِرْعَوْنَ من رُدُودِ موسَىٰ عليه السّلام، الدَّقيقة والمحكمة، فلَمْ يَجِدْ لدَيْهِ إلّا وسيلَةَ التهديدِ الأوّليّ بالسّجْنِ.

أي: قال فرعوْن لموسَىٰ عليه السّلام: لَئِنْ اتَّخَذْتَ مَعبوداً تطيعُه وتَعْبُدُهُ غَيْري، لأَجْعَلَنَّكَ في السّجْنِ مع المسجونين من العصاة والمجرمين.

وهنا جاء دَوْرُ ما آتاه الله من آيَتَيْنِ باهِرَتَيْنِ لإخافَتِهِ، ورَدْعِهِ عن أن يَتَصَرَّفَ تصرُّفاً فيه إيذاءٌ له ولِأَخِيهِ هارون، فقال له ما جاء بيانُه في الآية التالية:

- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: أتَأْمُرُ بسَجْنِي ولو جِئْتُكَ بشَيْءٍ عظيم، يبيّن لك أنّي رسُولُ رَبّ العالَمِين حقّاً وصِدْقاً؟

- ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾:

أي: قال فرعونُ لموسى عليه السّلام: فَأْتِ الآنَ بهذا الشَّيْءُ المُبِينِ الّذِي ذكَرْتَهُ، إنْ كُنْتَ من الصادقين في أنَّكَ نبيٌّ ورسُولٌ من رَبّ العالمين.

- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: فألقى موسىٰ عليه السَّلامُ عَصَاهُ، ففَاجَأَتْ فرعَوْنَ ومَلأَهُ بتَحَوُّلِهَا ثُعْباناً واضحاً جَلِيّاً مُرْعِباً مخيفاً.

وأدْخَلَ يَدَهُ في جَيْبِهِ⁽¹⁾ إلى إبطِهِ، وأخرجها فَفَاجَأَتْ القَوْمَ بتَحَوُّلها بَيْضاء مُتَلأْلِئَةً كالبَرْقِ اللَّامِع.

وأدْهَشَ بهاتَيْن الآيَتَيْنِ فرعَوْنَ وملأَهُ في مَجْلِسِهِ، وأدْرَكَ فرعون قُوَّة تأثيرهما على من حَوْلَهُ من قومه، وأراد أن يتدارَكَ الموقف الصَّعْبَ:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

فرَدَّدَ مَلَؤُهُ مقالته، وهو ما جاء بيانه في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ . . .﴾.

عندئذ قال لهم فِرْعَوْنُ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كما جاء في سورة (الأعراف) في الآية (١١٠)، وفي سورة (الشعراء) في الآية (٣٥).

أي: فما الشيء الذي تشيرون به عليّ. يُقال لغةً: «أمَرَ فلاناً بشيء» أي: أشار به عليه.

- ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الشعراء).

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ (الأعراف)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: [سَحَّارٍ] كنصّ (الشعراء).

---

(١) **الجيب**: فُتْحَةُ الثوب عند الصدر.

[أَرْجِهْ]: أي) «أَرْجِئْهُ»، وهي قراءةٌ جاءت في النصّ الذي من سورة (الأعراف)، والمعنى: أخِّرْهُ وأجِّلْهُ، يُقالُ لغة: أَرْجَأَهُ، أي: أَجَّلَهُ، أوْ جَعَلَ لَهُ أجلاً.

أي: اجْعَلْ لَهُ وَلِأَخِيهِ أجلاً مُحَدَّداً، لإجراء مباراة سحريَّة بَيْنَهُ وبَيْنَ سَحَرَةِ مصر، وأرْسِلْ مَبْعُوثين من قِبَلِك، لِلْبَحْثِ في المدائن المصريَّة عن كلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ ولو لم يكن ماهراً، وعن كُلِّ سحَّارٍ عليم ماهر، وحاشِرِين إليكَ من يَجِدُونَ من السَّحَرَة في مصر، إعداداً للمباراة الّتي تُقِيمُها بَيْنَهُ وبينهم.

* * *

وهنا يأتي بيانٌ جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

- ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾:

اتّهَمَ فرعَوْنُ موسَىٰ عليه السّلام بأنّ هَدَفَه انتزاعُ حُكْم مِصْرَ من فرعون وآله وأنصارهم، فوصَفَ أنَّ الآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ جاء بهما هُما من أعمال السّحر، وأنّه اتّخذهما ليأْذَنَ له بإخراج بني إسرائيل من مصر، وليُعِدّ مِنْهُمْ جيشاً، ثمّ يعود بهذا الجيش فاتحاً مصر، ومُنْتَزِعاً مُلْكَها بالقوّة، ومخرجاً من مصر أوْلياء أمْرِهَا وكلَّ أنصارهم، أي: ليَجِدُوا أنْ لَا نَجاةَ لهم من قوّة جَيْشِهِ المقاتل إلّا الفِرار، والخروج من مصر هاربين حَذَرَ القَتْل.

وإذْ وضَعَ فِرْعَوْنَ هذا التَّصوُّرَ في ذِهْنِهِ، قال لموسى عليه السَّلام: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾، وكان السِّحْرُ حينئذٍ هو القوَّة المعنويَّة الْمُرْهِبَة لعامَّةِ الشَّعْبِ المصري، وكان أمراً شائعاً في المدائن المصريّة.

وقال له: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى﴾: و[سِوىً] في قراءة نافع، وابْن كثير، وأبي عَمْرو والكسائي، وأبي جعفر.

[**مَوْعِداً**]: **الموعد**: يُطْلَقُ على الوَعْدِ، وعلى مكانه، وعلى زَمَانِهِ. أي: حَدِّدْ بوَعْدٍ مِنْكَ مَكانَ المباراة الّتي سَنُجْرِيها بَيْنَك، وبَيْنَ سَحَرَتِنا، وحَدِّدِ زَمَانَها، واخْتَرْ أنْ يكونَ المكان بَيْنَكَ وبَيْنَ سَحَرَتِنا مكاناً سُوىً، أي: مكاناً مُتَساوي المواقع بالعَدْل.

المكانُ السُوى: هو المكان المعتدل الذي يكون فيه فَرِيقا المباراة متعادِلَيْن في كُلِّ شيء.

وأعْطى فِرْعَوْنُ مِنْه وعداً بأنْ لا يُخْلِفَ إحضارَ سَحَرَتِهِ المباراة، في الزمان والمكان الّذي يُحَدِّدُهُ مُوسَىٰ عليه السلام، وطَلَبَ مِنْهُ أنْ لَا يُخْلِفَ حُضُورَهُ هٰذه المباراة.

فوافق موسَىٰ عليه السلام، وقال لفِرْعَوْنَ ما جاء بيانه في الآيَةِ التالية:

﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾﴾:

كان للمصريّين حينئذٍ عِيدٌ يَخْرُجونَ فيه من مساكنهم مُتَزَيِّنِينَ، ويَلْتقُون في مكانٍ واسعٍ جامع، يَأْكُلُونَ ويَشْرَبُون ويَمْرَحُونَ ويَلْعَبُونَ فيه، كشأنِ معظم الأمَمِ في أعيادها.

فاختار موسى عليه السَّلام ذٰلِكَ اليَوْمَ لإجراءِ المباراة، ليكُونَ أجْمَعَ للنّاس، واختارَ المكانَ الّذِي يَلْتَقِي النّاس فيه يومَ عيدهم، لأنَّهُ مكانٌ واسع، وفيه مَوْضِعٌ سُوىٰ لإجراء المباراة.

[**مَوْعِدُكُمْ**]: أي: زَمَانُ إجراء المباراة ومكانه، وهو مبتدأ.

[يومُ الزِّينة]: هو الخبر، واقْتَصَرَ على ذِكْرِ اليوم دون ذكر المكان، لأنّ يومَ الزينة له مكانٌ معروف محدَّدٌ عِنْدَهُمْ، يَلْتَقُون فيه يَوْمَ عيدهم، فتَعْيينُ هذا اليوم يتضمَّن تَعْيينَ المكان.

وطلَبَ مُوسَىٰ عليه السّلام من فرعون بأنْ يُحْشَرَ الناسُ في ذلكَ المكان وقْتَ الضُّحَىٰ، لإجراء المباراة في ذلك الوقت المناسب تماماً للحضور والاجتماع، ومشاهَدَةِ المباراة، وفي طلَبِهِ حَشْرِ الناس تحَدٍّ ظاهر.

الحَشْرُ: الجَمْعُ والسَّوْق، يُقال لغة: «حَشَرَ الأمِيرُ جُنْدَهُ يَحْشُرُهُمْ ويَحْشِرُهم» أي: جَمَعَهُمْ وساقهم.

الضُّحى: هو الوقت الذي يكُونُ ما بَيْنَ ارتفاع الشمس أوّل النهار حتى الزوال.

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾: أي: فانْصَرَفَ عن مجلِس هٰذه المواعدة بَيْنَه وبَيْنَ مُوسَىٰ عليه السَّلام.

التَّوَلّي: الإدْبار، والنأي، ومن أدْبَر ونَأىٰ فقد انْصرَف عن المكان الذي كان فيه.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾: أي: فجمع سَحَرةَ المدائن المصرية الَّتي يُرِيدُ أن يكيدَ بهم، ضِدَّ آيَتَيْ موسَىٰ عليه السّلام.

الكَيْد: التدبير الخفيّ والظاهر بحقٍّ أو بباطل، فيه مكرُوه لمَنْ دُبِّر ضدَّه. ويُطْلَقُ الكَيْدُ على الحَرْبِ وإعداد وسائلها. ويُطْلَقُ على الحيلَة، وعلى كلّ تدبيرٍ يَرْجُو صاحِبُهُ به النَّصْرَ، أو النجاة.

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إعدادٍ في زَمَنٍ متراخٍ لكَيْدِهِ، أتَىٰ لحضور المباراة في الزمان والمكان اللَّذَيْنِ تَمَّ التواعُدُ لإجراء المباراة فيهما.

* * *

وهُنا يأتي مَوْقع بيانٍ جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

وبيان آخر جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

وبيانٍ ثالثٍ جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾:

وقرأ حمزة، والكسائيُّ، وخلَفٌ: **[بِكُلِّ سَحَّارٍ]**: أي: عليمٍ ماهرٍ في السّحر. وجمعاً بَيْنَ القراءتَيْنِ نَفْهَمُ أنَّهُ طلبَ إحضارَ كُلِّ ساحِرٍ عليم ولو لم يكن ماهراً بارعاً في سِحْرِهِ، وإحضارَ كلّ سَحَّارٍ عليم ماهرٍ بارعٍ في سِحْرِهِ.

هذه النصوص الثلاثَةُ متكاملاتُ الدّلالاتِ فيما بَيْنَهَا.

- فالنّصّ الذي من سورة (يونس) أبَانَ أنّ فِرْعَوْنَ أمَرَ مَنْ تَحتَ سُلْطَانِهِ بأنْ يَأْتُوهُ بكلِّ ساحرٍ عليم، وبكلِّ سحَّارٍ عليم.
- والنصّ الذي من سورة (الشعراء) أبان أنَّ السَّحَرَةَ قَدْ جَمَعُهُمْ

جُنُودُ فرعون لإجراء المباراة في ميقاتِ يومٍ معلوم، وهو الميقات الّذي عيَّنَهُ موسَىٰ عليه السلام، وهو يومُ الزينة.

- والنصّ الذي من سورة (الأعراف) أبانَ أنَّ السَّحَرَةَ جاؤُوا إلى فِرْعَوْنَ وقالوا له: أئِنَّ لَنَا لأَجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِين، فقال لهم فِرْعَوْنُ: نَعَمْ، وإنَّكُمْ سَتَكُونُونَ عندي من المقرَّبين الّذين أُنْعِمُ عليهم، وأُلَبِّي مَطَالِبَهُمْ.

وجاءَ تأكيد ما جاء في هذا النصّ مع تغييرٍ يسيرٍ في بعض العبارة يتضمَّنُ إضافة بيانية، في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ عبارة [فَلَمَّا]، أي: فَحِين جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا له... فدَلَّ هذا البيان على أنَّ السَّحَرَةَ طالَبُوا فرعون بالأجْرِ مُنْذُ وَقْتِ وصولهم إليه، وإخباره إيَّاهم بالمهمّة الّتي يُكَلِّفُهُمْ إيّاها.

وأضاف أيضاً كَلِمَةَ «إذاً»، أي: وإنكم حينئذٍ سَتَكُونُونَ مِنَ المقرّبين إليّ، الّذين يحظَوْنَ بإنْعَامَاتي.

تدبّر بعض الفقرات:

- ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ (الشعراء):

أي: فَجَمَعَ جُنودُ فرعَوْنَ السَّحَرَةَ، لإجراء المباراة في الموعِد المحدَّد زماناً ومكاناً، فصارَ مَعْلُوماً لكلِّ من بَلَغَهُ خَبَرُ المباراة.

[لِمِيقاتِ]: اللّام للتعليل، وفي العبارة محذوف، تقديره: لحضور المباراة في ميقاتِ يوم معلوم.

الميقات: الوقت المُعَيّنُ لفِعْلٍ ما. والموعِدُ الذي جُعِلَ لَهُ وَقْت، والمَوْضِعُ الّذِي جُعِلَ لشيءٍ يُفْعَلُ عِنْدَه.

- ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الشعراء): أي: وقال مُذِيعُو نبأ المباراة على سبيل العرض لا الإلْزام: هَلْ أَنْتُمْ مجتمعون؟ وفي هذا العرض تَرْغيب في الحضور، فالاستفهام في العبارة استفهامٌ يُرادُ به العَرْضُ الترغيبيّ.

- ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: رَاجِينَ أنْ نَتَّبعَ السَّحَرَةَ، فنَتَعَلَّمُ مِنْهُمُ السِّحْرَ، ونَعْمَلَ مِثْلَ أعمالِهِمْ، إنْ كانُوا هُمُ الغالبينَ في المباراة بينهم وبين موسَىٰ الَّذي يقُولُ: إنَّ ما جاء به هو مِنْ آياتِ رَبِّ العالمين، الَّذي يَدْعُو إلى الإيمان به، والإسلام له، هو وأخوه هارون.

* * *

تابع التدبّر التحليليّ للدّرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطات من قصة موسى عليه السلام

الفقرة الثالثة

الآيات من (٦١ ـ ٧٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ

مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ
ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾
قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا
تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ
ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾
جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾».

القراءات:

٦١ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، ورويس، وخلف: [**فَيُسْحِتَكُمْ**] من فعل «أَسْحَتَ الشَّيْءَ» أي: اسْتَأْصَلَهُ فَلَمْ يُبْقِ لَهُ أثراً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**فَيَسْحَتَكُمْ**] من فعل: «سَحَتَ الشَّيْءَ» أي: اسْتَأْصَلَهُ فَلَمْ يُبْقِ لَهُ أثراً.

فالقراءتان متكافئتان لغة.

٦٣ • قرأ ابْنُ كثير: [**إِنْ هَذانِّ**] بتشديد النون المكسورة مع المدّ المشبع. وقرأها أبو عَمْرٍو: [**إِنَّ هَٰذَيْنِ**]. وقرأها حفص: [**إِنْ هَذانِ**]. وقرأها باقي القرّاء العشرة [**إِنَّ هَٰذَانِ**].

«إِنْ» في قراءتي: ابْن كثير، وحفص، هي المخفّفة من الثقيلة، وهذه يجوز إعمالُها، ويجوز إهمالُها، والأرْجَحُ في اللّغة إهمالُها، كما في هاتَيْنِ القراءتين.

و«إنّ» في قراءة أبي عمرو جاءتْ ثقيلةً عاملةً بحسب الأصل.

وأمّا قراءة باقي القرّاء العشرة: **[إِنَّ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ]** فأحْسَنُ توجيه لها أنّها جاءت على لغة من يجعلون المثنىٰ كالمقصور، يُرْفَعُ ويُنْصَبُ ويُجَرُّ بالألف، وهي لغة عَدَدٍ من قبائل العرب، فحرَكات الإعراب تكونُ مُقَدَّرَة غَيْرَ ظاهرة.

وأمّا تشديدُ النون في قراءة ابن كثير فقد ذكر النحويّون لها عدَّة توجيهات متكلَّفات، وأرىٰ أنّ النون الثانية أضيفت للتأكيد، فصارت النون المشدَّدَة شبيهةً في تأكيدها لنُون التوكيد الثقيلة في نحو: «لَتُنْصَرَانٍّ ـ لَتَسْعَيَانٍّ ـ لَتَرْمِيانٍّ» ومعلومٌ أنّ الزيادات التوكيديَّة في اللّسانِ العربيّ كثيرة. والشَّبَهُ هنا واضح بيْنَ: «إنَّ هٰذَانٍّ» وبَيْنَ «لَتُنْصَرَانٍّ» في إرادة التوكيد.

وهذه القراءات من التفنُّن في التعبير، ومن مراعاةِ بعضِ اللّغاتِ العربيّة.

٦٤ ● قرأ أبو عمرو: **[فَأَجْمَعُوا]** من فعل: «جَمَعَ يَجْمَعُ» يقال لغة: جَمَعَ المتفرّق، أي: ضمّ بعضه إلى بعض.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَأَجْمِعُوا]** من فِعْل: «أَجْمَعَ يُجْمِعُ» يقال لغة: أجمع الأمْرَ، أي: أحْكَمَهُ وجمع متفرّقه.

ومؤدَّى القراءتين واحد، وهما من التفنّن في التعبير.

٦٦ ● قرأ ابن ذَكْوَانَ ورَوْح: **[تُخَيَّلُ]** بالتاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يُخَيَّل]** بالياء.

القراءتان وجهان جائزان متكافئتان في اللّسان العربي.

٦٩ ● قرأ البَزّي في الوَصْلِ **[تَّلَقَّفْ]** بتَشْديد التاء، وفتح الام وتشديد القاف المفتوحة، وبالجزم.

ـ وقرأ ابن ذَكْوان: [**تَلَقَّفُ**] بفتح التاء واللام وتشديد القاف المفتوحة ورفع الفعل، دون ملاحظة أنّه جواب الطّلب، وهو جائز عند النحاة.

ـ وقرأ حفص: [**تَلْقَفْ**] بإسكان اللام، وتخفيف القاف، وبجزم الفعل.

ـ وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**تَلَقَّفْ**] بفتح اللام، وتشديد القاف المفتوحة، وبجزم الفعل.

والجزمُ هو على أنّه جواب: [**وَأَلْقِ**].

وفي هذه القراءات تفنُّن في التعبير، وبين تخفيف القافِ وتشديدها تكاملٌ في الأداء البياني، يدُلُّ على أنّ الحيَّة بدأتْ أوّلاً تتلقَّفُ بشِدَّة، حتى إذا لم يَبْقَ إلَّا القليل من الحبال والعصي خَفَّفَتْ من شدّتها، فأخَذَتْ تَلْقَف.

٦٩ ● قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلف: [**كَيْدُ سِحْرٍ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**كَيْدُ ساحِرٍ**].

ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحدٌ، وهما من قبيل التفنُّنِ في التعبير.

٧٢ ● قرأ ورش، والسّوسيّ، وأبو جعفر: [**نُوثِرُكَ**] بإبْدال الهمزة واواً.

وكذلك حمزة في الوقف، وقرأها باقي القرّاء العشرة [**نُؤْثِرُك**] بالهمزة السّاكنة المحقّقة.

وهي وجوه من الأداء في ألسنة بعض القبائل العربية، أنْزِلَ بها القرآن المجيد.

٧٥ ● قرأ السوسيّ: [**وَمَنْ يَأْتِهْ**] بإسكان الهاء.

وقرأها رُوَيْسٌ، وقالون بخُلْفٍ عنه: [**وَمَنْ يَأْتِهِ**] بكَسْرِ هاء الضمير من غير صلة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَمَنْ يَأْتِهِ**] بكسر الهاء مع الصِّلة.

وهي وجوهٌ عربيَّةٌ في الأداء، نزل القرآن بها.

تمهيد:

هذه الفقرة من الدرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطاتٍ من قصة موسىٰ عليه السلام، تَحْكِي لقطات من فصل المباراة الّتي جرت بينه وبين سَحَرَةِ فرعون، وانتصارِ آيته على سِحْرِهِم، في حَشْدٍ جامع عظيم من الشعب المصريّ، ومن مَلِكه فرعون ومَلَئِهِ وجُنْدِهِ، في يوم الزّينة، وفي المكان الذي يقيمون فيه عِيدَهُمْ عادةً، كما عيَّنَ لَهُمْ موسىٰ عليه السلام، بطلَبٍ من فرعون، كما سبقَ بيانه قريباً.

وفيها بيان أنّ انتصار موسَىٰ بآيته قد جَعَلَ السَّحَرة يَخِرُّون ساجدين، ويُعْلِنُونَ إيمانهم بربّ العالمين، رَبِّ موسَىٰ وهارون، الأمر الّذي أغْضَبَ فِرْعَوْنَ أشدّ الغضب، فهدّدهم بأنَّهُ سوفَ يُقَطِّعُ أيْدِيَهُمْ وَأرْجُلَهُمْ من خلاف، وبأنْ يُصَلِّبَهُمْ في جذوع النخل إذا أصَرُّوا على موقفهم ولم يتراجعوا.

فلَمْ يَعْبَأ السَّحَرة بتهديداته، بَلْ أصَرُّوا على موقفهم بإيمانٍ صحيح صادق، وأعْلَنُوا إيمانهم بشجاعَةٍ نادرة، وقالوا له: ٱقض ما أنْتَ قاضٍ، إنَّما تَقْضِي هذه الحياة الدُّنيا.

وتحوّل السَّحَرَة من أدواتِ قُوَّةٍ لِفرْعَوْنَ ومَذْهَبِهِ الدّيني، إلى دعاة إلى دين الله الحقّ، إذْ رَأَوْا من البيِّنات الرَّبَّانيَّة ما أدْهَشَهُمْ، وجعلهم على يقين كاملٍ بأنّ ما جاء به موسَىٰ وهارون حقٌّ لا رَيْبَ فيه.

وقد كانت تفصيلات دعوة موسى وهارون الإيمانيَّة قد بَلَغَتْهُم مِنْ قَبْل، إذْ كانا يَنْشُرانِها بين الإسرائيليّين وبَيْنَ المصريّين، وكان المصريّون يَتَناقَلُونها عنهما، دون أن يؤمنوا بها، وكانت هذه التفصيلات الإيمانيّة مستقرة في مخازن ذاكرات السَّحرة، فلمَّا رأوا البُرْهانَ العظيم، بابتلاع عصا موسى الّتي انقلبت حيَّةً حقيقيّةً كلَّ حبالهم وعِصيّهم السّحرية، ولم يبق لها أثر، ورَأوا أنّ مُوسَىٰ عليه السّلام أقبل إلى الحيّة العظيمة، فتَنَاوَلَها بيَدِهِ فعادت عصاً كما كانت، ولَيْسَ في ساحة المبارات مِنْ أدواتِ سِحْرِم شيء، تيقّظَتْ فيهم فِطَرُهُمُ الإيمانيَّة، وخافوا من عذاب الله المعجّل والمؤجّل إلى يوم الدّين، تحوّلُوا إلى دُعاةٍ إلى دين اللّهِ الحقّ.

وربّما تقدّم كبيرهم أو بعض كُبَرائهم يَدْعُونَ فِرْعَوْنَ بالنيابة عن السَّحرة جميعاً، إلى الإيمان بما جاء به هارون وموسى، وأنذروه بعذاب الله يَوْمَ الدّين، في جهنّم دار عذاب المجرمين بالحَريق، وأطْمَعُوه بالدّرجات العُلَا في جنَّاتِ عَدْن إنْ آمَنَ وعَمِل صالحاً، لأنّ هذا الثواب العظيم هو ثوابُ كُلِّ مَنْ يَأْتِي رَبَّهُ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ صالحاً، وثوابُ كلّ من تَزَكَّى، فطهّر نفسه من أرجاس الكُفْر والعصيان، ونمَّاها بفعل الخيرات والصالحات.

التدبّر التحليلي:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

مقدمة:

ما جاء في هذه الآيات الأرْبع قد كان قَبْلَ بَدْءِ المباراة، وفي اليَوْمِ الّذي جَرَتْ فيه.

ويَظْهَرُ أنَّهُ قَدْ كان داخلَ المدينة في صباح اليوم، قُبَيْل الخروج إلى مكان عيدهم القوميّ المعيّن لإجراء المباراة فيه، وفي يوم هذا العيد، بدليل أنّه بَعْدَ انتهاءِ المباراة، وانتصار آيَة موسىٰ عليه السلام على سِحْرِ سَحَرَة فِرْعَوْن، وإيمان السَّحَرَة بربِّ موسىٰ وهارون، وسُجُودِهِمْ أمامَ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ والحَشْدِ المصريِّ الكثير، وإعلانِهِمْ إيمانَهُمْ، قال فرعون لهم كما جاء في نصّ سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

ومثل هذا لَا يقولُه فِرْعون إلَّا إذا وَصَل إلَيْهِ عِلْمٌ بذهابِ موسَىٰ عليه السَّلام إلى المكانِ الذي أُعِدَّ في المدينة نُزُلاً للسَّحَرَةِ المَجْلُوبِينَ من المدائن المصرية، صَباحَ يومِ المباراةِ، وأنَّه اجْتَمَعَ بالسَّحَرَةِ وحادَثَهُمْ.

فدَلَّ هذا على أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام قال لهم في هذا اللّقاء كلاماً دلَّ على مَعْنَاهُ قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَيْلَكُمْ﴾: أي: عذاباً شديداً شاقّاً لَكُمْ بِسَبَبِ ما تُعِدُّونَ أنْفُسَكُمْ له، مِمَّا تَفْتَرُونَ به على الله.

أُجْرِيَتْ كلمة «وَيْل» هُنَا مجرَىٰ المصادر المفردة، بسبب إضافتها، فالنَّصْبُ فيها هو على تقدير: يُعَذّبكم الله عذاباً شديداً.

«وَيْل»: كلمة عذاب، تأتي في التحذير من عذاب شديد، وتأتي في الدُّعَاءِ بالعذاب الشديد. وتأتي أيضاً بمعنى الحُزْن، ومنه قولُ المتفجِّعِ على نَفْسِهِ، أو علىٰ مَحْبُوبٍ له: «وَيْلِي ـ وَيْلَكَ ـ وَيْلَهُ».

﴿لَا تَفۡتَرُواْ﴾: **الافتراء**: اختلاقُ الكَذِب عَنْ عَمْد، ولمَّا كان السِّحْرُ عمَلاً تَضْلِيليّاً باطِلاً، قَدْ يَتَّخِذُهُ السَّحَرَةَ وَسِيلَةً لجَعْلِ الباطل حقاً، وجَعْلِ الحقِّ باطلاً، في تَصوّر الناس المَخْدُوعِينَ به، وقد يتّخذونه وسيلةً للإقناع بمذهبٍ من مذاهب الكُفْرِ بالله، والإقناع بأنّ دين الله الحقَّ باطل، كان من قبيل الافتراء على الله بأكاذيب عَمَلِيَّة، إذْ هي في هذه الأحوال تكون مقترنةً بادّعاءاتٍ باطلاتٍ، مُصَرَّحٍ بها في اللّفظ، أو غَيْرُ مُصَرّحٍ بها.

﴿كَذِبًا﴾: نائب مفعول مُطْلَق، إذْ جاء من معنى الفعل في عبارة: **[لاَ تَفْتَرُوا]**، فالمعنى: لا تَكْذِبُوا على اللَّهِ كذباً مختلقاً.

﴿فَيُسۡحِتَكُم﴾: وفي القراءة الأخرى: **[فَيَسْحَتْكُمْ]**، أي: فَيَسْتَأْصِلَكُمْ بالعذاب، فلا يُبْقِي منكم أثراً ما.

- **﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾**: أي: وقد خَسِرَ، وحُرِمَ، وذهبَتْ أعْمَالُهُ الّتي عَمِلَها لتحقيق مُرَادِهِ سُدىً، كُلُّ مَنِ افْتَرَىٰ على الله.

فعل «خاب» يأتي في اللّغة بمعنى: «خَسِرَ ـ حُرِمَ ـ لم يَنَلْ ما طلب ـ ذهَبَتْ أعمالُه الّتي عملها سُدىً ضائعة».

فالمعنى: قال موسىٰ عليه السّلام للسَّحَرَة، في لقائه لهم قُبَيْل المباراة: إنّي أُحَذِّرُكُمْ من عذابٍ شديدٍ إذا افْتَرَيْتُم على الله، فلا تَفْتَرُوا على الله كذِباً، فَيَسْتَأْصِلَكُمْ بعذابٍ يُعَاقِبُكُمْ به على افترائِكُمْ عليه. وقال لهم: اعْلَمُوا أنّ مِنْ سُنَنِ الله السابقة والدائمة في المجتمع البشريّ، أنَّ مَنِ افْتَرَىٰ على الله كانت عاقِبَتُهُ الخيبَةَ، بالحرمان. والخسران، وبذهاب

أعماله الّتي عملها سُدىً ضائعةٌ، مَهْمَا كانت شاقّةً ومضنيةً، وذاتَ نفقاتٍ كثيراتٍ.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾، أي: فتجاذبُوا بطريقة الانتزاع بتكلّفٍ وعُنْفِ مجادلة، الكلام المتعلّق بالسِّحر، لموسَىٰ وما لدَيْهِ من سِحْرٍ، أوْ آيَةٍ ربَّانِيَّة.

وفي هذا التجاذب التنازعيّ معنى مخالفة بعضهم لبَعْضٍ في الرأي، مَعَ شيءٍ من المخاصَمة:

- فقال بعضُهم: إنّ ما جاء به موسَىٰ لَيْسَ من نوع السّحر، وسيغْلِبُكُمْ، وتفتضحُون، وتَسْقُطُونَ من أعين الناس صاغرين، فجمهورُ المشاهدين كثيرون جدّاً.

- وقال الفريق الآخر: بل ما جاءَ به مُوسَىٰ هو من نوع السّحر، وإنَّنا بكَثْرَتِنَا سنغلِبُهُ مَهْمَا كان عَمَلُهُ السِّحْرِيّ قويّاً.

وبَعْدَ التّنازع في الرَّأي تغلَّبَ الرأي الثاني على أصحاب الرأي الأوّل، واعتمدتْ إقناعاتُهُمْ على الإطماع بالأجْرِ الكبير الّذي سينالونَهُ من فرعون، إذا كانوا هم الغالبين، وعلى الإقناع بترديد مقالة فرعَوْن، الّتي رَدَّدَها ملَؤُه مِنْ بَعْدِهِ، ثم شاعَتْ بأسلُوبٍ دعائيّ بين جمهور المصريّين، بأنّ موسَىٰ وهارون يريدان بسِحْرِهِما الاستيلاء على الحكم، وطَرْد كلّ أنصار الملك من مصر، بعدَ قَتْلِه أو إلجائه إلى الفرار، والاستيلاء على ممتلكاتهم.

- ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾: «**النَّجْوَى**»: الإسرار في المحادثة، وجاء فعل: «أسَرُّوا» للدَّلالة على شدّة إخفاء تناجيهم.

أي: فتنازع السَّحرة الكلامَ بَيْنَهُمْ بشأن ما أعَدُّوهُ للقيام بمهمّة مباراة موسَىٰ عليه السّلام، بسِرِّيَّةٍ بالغة، عَنْ مُوسَىٰ وهارون، وعن غَيْرِهِما، لئلا يَصِلَ أَمْرُ اختلافهم إلى فِرْعَوْن، فيتدارَكَ الأَمْرَ، باستبعاد الذين يَرَوْنَ أنّ ما جاء به موسَىٰ لَيْسَ من نوع السّحر، بلْ هو آية رَبَّانِيَّة، أو بجعلهم هدفاً لِعِقابه.

وهذا الإسرار بالنجوى يؤكّد أنَّهُمْ ما زالُوا في المدينة، لم يخرجوا إلى مكان المباراة بعد، وأنَّهم دَخَلُوا حجرَةً خاصّةً، وأغْلَقُوا بابَها، ومنَعُوا أي إنسانٍ من الدُّخول عليهم وهم فيها، بحُجَّةِ أَنَّهُمْ يتشاوَرُونَ حولَ الأعْمَالِ والحِيَلَ السِّحْرِيَّةِ الّتي سيقُومُونَ بها.

● ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾:

دلَّ هذا البيان الرَّبَّانيّ على أنّ أصحاب الرأي الثاني قد انتصروا في نهاية التنازُع بينَهُمْ، على الّذين كانوا يَرَوْنَ أنّ ما جاء به موسَىٰ آيَةٌ حقيقيَّةٌ من رَبِّهِ، وليس من قبيل السِّحْر، فاتَّفقوا جميعاً في آخرِ الأمر على أنّ مُوسىٰ وهارونَ ساحران، وأنَّهما يُرِيدان بسِحْرِهِمَا الاستيلاء على مُلْكِ مِصْرَ بجيش يُعِدُّونه من الإسرائيليّين.

﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾: «إنْ» في هٰذه العبارة، هي المخفَّفَةُ من الثقيلة «إنَّ»، وهي هنا مُهْمَلَةٌ غيرُ عاملة، وما بَعْدَهَا مُبْتدأ وخبر، و«اللّام» في عبارة: [لَساحِرانِ] هي اللّامُ المزحْلَقَةُ إلى الخبر، بسبب «إنْ» وهي لام التأكيد التي تدخُلُ على المبتدأ، فالعبارة مؤكَّدَة بالمؤكدات: «إنْ ـ الجُمْلَة الإسميّة ـ اللّام المزحلقة».

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾:

هذه هي العبارة الّتي قالَها فِرْعَوْنُ لِمَلَئِهِ في قصره، بَعْدَ أنْ شاهَدَ آيَتَي العَصَا واليَدِ اللَّتَيْنِ أجراهُمَا الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام.

فردَّدَها مَلَؤُهُ من بَعْدِهِ، وطارَ الإعلامُ بها حتَّىٰ وَصَلَ إلى السَّحَرَةِ الّذين يَعْتَبِرُون أنْفُسَهُمْ القوّة المعنويَّة لفرعَوْن وحُكْمِهِ، ولمذْهَبِهِ الاعتقاديّ الدينيّ، القائم على الشّرك، وتَرْبِيبِ وتَأْلِيهِ غير الله عزّ وجلّ، فهم من أنْصار الملكِ بصورة طبيعيّة، فيلحَقُهُم ما يَلْحَقُ كُلَّ أنصار الملك، إذا انتزع الإسرائيليون من فِرْعَوْن وجنوده مُلْكَ مصر.

- ﴿. . . وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾:

«الطَّرِيقَة»: يُرادُ بها هنا المذهب الدينيّ، والنّظامُ الإداريّ الفرعَوْنيَّان السّائدان في مصر حينئذٍ.

وهي في اللّغة تطلق على: «السّيرَة ـ المذهب ـ الحال ـ الفرقة».

﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾: أي: «الفُضْلَى» مؤنّث «أمْثَل» بمعنى «أفضل» أي: فطريقتكم هي المفضّلة على سائر الطُّرُق دينياً، ونظاماً إداريّاً.

والباء في عبارة: [**بِطَرِيقَتِكُمْ**] هي للتعدّيَة، كالتعدية بالهمزة، أي: لِيُذْهِبَا من واقع حالكم وواقع حال الشَّعْبِ المصريّ المذهب الاعتقاديَّ الدينيّ، والنظام الإداريّ الفرعونيّان، فيُلْغِيَانِهِمَا من الوجود، ويُحلّان محلّهما مَذْهَبَهُما الدينيّ، ونظاماً إداريّاً مُنْبَثقاً عنه.

والتعدية هنا نظير التعدية في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ في الآية (١٧) من سورة (البقرة)، وقوله فيها أيضاً: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ. . .﴾.

- ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّاۚ﴾:

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾، أي: فأحْكِمُوا أمْرَكُمْ، وأعِدُّوا وسائلكم، واجْمَعُوا المتفرّقَ من ذلك في نظامٍ عامٍّ واحد، ونظيرها قراءة: [**فَاْجْمَعُوا كَيدَكُمْ**].

«**الكَيْد**»: التدبير الخفيّ أو الظاهر، بحقٍّ أو بباطل، وفيه مَكْرُوه لِمَنْ دُبّر ضدّه، ويُطْلَقُ الكيد أيضاً في اللّغة على: «الحرب وإعداد وسائلها ـ الحيلة ـ كلّ تدبير يحقّق لمدَبّره النَّصْرَ أو النجاة».

﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾، أي: ثمّ بَعْدَ تَمَهُّلٍ، وأنَاة، وإتقان وإحكامٍ في الإعداد، ودون تعجُّلٍ جالبٍ للأخطاء، ائتُوا لمباراة موسَىٰ حالَة كونكم صفّاً واحداً غَيْرَ مُتَفَرِّقين.

والمراد تنظيم العمل على خطٍّ مستقيم واحد بلا تفرُّقٍ ولا اختلاف، وعلىٰ خُطَّة عَمَلٍ لَا يُعَارِضُ فيها بَعْضُهُمْ بعضاً، ولا ينقصُ فيها بعضُهم عَمَلَ بعض.

«**الصَّفّ**»: هو في اللّغة القوم المصطفُّون المنتظمون كالسَّطر المستقيم، ويُقالُ لُغَةً: «صَفَّ القَوْمُ، يَصُفُّونَ، صَفّاً» أي: انتظمُوا في صَفٍّ واحدٍ.

- ﴿. . . وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾:

«**قَدْ**»: هنا من أدوات التحقيق والتوكيد، وهو حرف يختصُّ بالأفْعال.

«**أَفْلَحَ**»: أي: ظفر، وفازَ بما يريد.

﴿مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾: أي: من كان هو الغالب القاهر. يقال لغة: «اسْتَعْلَى فلانٌ على فلان»، أي: قهره وغلبه.

فالمعنى: ونُحَقِّقُ ونؤكِّد أنْ من كان هو الغالب اليَوْمَ في المباراة، ظفر وفاز بما يريد.

وانقضّ مجلسهم الذي أسَرُّوا فيه النَّجْوَىٰ على هذا القرار الأخير، وأخذوا أدواتهم السِّحْرِيَّة، وذهَبُوا إلى حيث يكون الاجتماع الحاشِدُ

الجامع، الذي كان يومَ الزينة، ودخلوا السَّاحَة المخصّصة للمباراة بينهم وبين موسىٰ وأخيه هارونَ عليهما السلام

* * *

قال الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ
فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً
مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ
إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ
ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ
أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ
مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا
وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣)﴾:

وجاء حول هذا البيان الذي جاء في هذه الآيات من سورة (طه) نصّانِ آخران، أحدُهما في سورة (الأعراف)، والآخر في سورة (الشعراء).

- فالّذي من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) هو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا۟ۖ
فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ
ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ
سَـٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ
ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)
قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا
رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾.

- والذي من سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) هو قول اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ
فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)
فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨)
قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾.

تمهيد:

هذه نصوص ثلاثة متكاملاتُ الدَّلالات فيما بينها، وهي تتعلّقُ بفصل إجراء المباراة بين آية موسىٰ عليه السلام الرَّبَّانيَّة، وبين سِحْرِ سَحَرَةِ فرعون.

والتدبُّر التكامُلِيُّ يتطلَّبُ من المتدبِّر أنْ يَدْرُسَها معاً دراسةً تكامُلِيَّة، لِيَجْمَعَ منها البيان الذي أراد اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنْ يُبَيِّنَهُ بِشَأْنِ هٰذِهِ المباراة، وما جَرَىٰ فيهَا من أحداث، بِدْءاً ووسَطاً، وخِتاماً.

وأستعين بالله الرَّبِّ العزيز الحكيم الرحيم الوهَّاب، لاكتشاف التكامل فيما بَيْنَها، وفهم فقراتها فهماً سَدِيداً، وتدوين ذلك، لِيَعْلَمَ القارئ الدَّرَّاكُ جانباً من جوانب إعْجَازِ القرآن المجيد.

التدبّر:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

- ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾:

(٢) وجاءت العبارة عَنْ هذه الفكرة في سورة (الأعراف) بقول الله تعالىٰ:

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾:

[أَنْ تُلْقِيَ]: أي: أَنْ تَطْرَحَ في ساحَةِ المُباراة ما عِنْدَكَ.

فلَمْ يَأْتِ في عبارة الأعْراف ذِكْرُ الأوّلِيَّةِ في الإلْقَاءِ، لكِنَّهَا تُفْهَمُ ذِهْناً مِنَ السِّبَاق والسِّياق، ومن كونها مباراةً بين فَرِيقَيْنِ حول شيءٍ يُقَدِّمُهُ كُلٌّ منهما.

ومع هذا فقد جاء التَّصْرِيح بذِكْرِ الأوّلِيَّةِ في سورة (طه) لئلّا تكونَ العبارة مُكرَّرَةً تَكْريراً تَطابُقِيّاً، ولإِشْعَارِ أهْلِ التَّدبُّرِ بأنَّ مَا يُمْكِنُ أنْ يُفْهَم بالقرائن، أو باللّوازم الذهنيّة، من المُسْتَحْسَنُ حَذْفَهُ في الكَلَام البَلِيغ المبنيّ على الإيجاز، وأنَّه لَا يَصِحُّ لدَىٰ تدبُّر النُّصوص الرَّفيعة التوقُّفُ عِنْدَ حُدُودِ دَلَالَاتِ الألْفاظ المَنْطُوقَة، ولهذا كان من الحكمة حَذْفُهُ في نصّ سورة (الأعراف) التي نزلَتْ أوّلاً، وكان من الحكمة أيضاً التنبيه عليه في نصّ سورة (طه) الّتي نزلت بَعْدَها بخَمْسِ سُور.

فالمعنى بحسب عبارة سورة (طه): قالَ السَّحَرَة بلِسَانِ كبيرهم المتحدِّث عنهم لموسَىٰ عليه السَّلام: يَا مُوسَىٰ، اخْتَرْ أحَدَ الأمْرين:

- إمَّا أنْ تُلْقِيَ مَا عِنْدَكَ مِنْ عَمَلٍ لِلْمُبَارَاة أوّلاً.
- وإمَّا أنْ نكونَ نَحْنُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى مَا عِنْدَهُ من عَمَل.

وهذا تخييرٌ عادلٌ منهم، تقتضيه مباراة قائمةٌ على العَدْلِ بَيْنَ فريقَيْن.

والمعنى بحسب عبارة سورة (الأعراف) إذا صَرَّحْنَا بالمطويَّاتِ فيها يكُونُ مُشَابهاً للمعنى الذي فهمناه من نصّ سورة (طه).

* * *

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧)﴾:

(٢) وجاءت العبارة في سُورَة (الأعراف) بقول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾:

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الشعراء) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾:

النظرات التكاملية:

هذه العبارات الثّلاث متكاملات الدّالّات:

- ففي عبارة سورة (الأعراف): ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾.
- وفي عبارة سورة (طه): ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾.
- وفي عبارة سورة (الشعراء): ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣)﴾.

أمّا عبارة سُورَة (الأعراف) فقد جاءت مُوجَزَة جداً، ويفهم الذهن الدَّرَّاكُ منها ما جاء في العبارتين الأخريَيْن.

وأمّا العبارة الّتي من سورة (طه) فقد جاء فيها التصريح بكلمة «بَلْ» مع الإيجاز في العبارة أيضاً.

وأمّا العبارة التي من سورة (الشعراء) فقد جاء فيها التصريح بما أفصِلُهُ بأقواسٍ كما يلي: قالَ «لَهُمْ مُوسَىٰ» أَلْقُوا «مَا أَنْتُمْ مُلْقُون».

هذه العبارة تَصْلُحُ مِثالاً للمساواة، إذ هي مُسَاوِيَةٌ للمعاني المراد

التعبير عنها، لكنّ العبارتين الأُولَيَيْن قَدْ جاءَتا مُوجَزَتَيْنِ، وإحداهما أكْثَرُ إيجازاً من الأخرى، وما جاء في سُورَة (الشعراء) يُمْكِنُ فَهْمُهُ بالتأمُّل الدَّقيق فيهما.

فعبارة [**أَلْقُوا**] يفهم منها بالتدبّر الدقيق: بل ألقوا وأنا مستهين بما أنتم مُلْقُون. وكذلك عبارة [**بَلْ أَلْقُوا**].

[**أَلْقُوا**]: أي: اطْرَحُوا في ساحة المباراة ما عِنْدَكم من كَيْدٍ سِحْرِيٍّ أَعَدَدْتُمُوهُ لها، فأنا متحدّيكم، وقابلٌ تَحَدّيكم.

وقد طلب منهم أنْ يُلْقُوا أوّلاً، ليَتَسَنَّى له إبطال كيدهم كُلِّه بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَة، واستغلَّ لهذا تخييرهم له.

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧)﴾:

جاءَت كلمة «مُوسَىٰ» إطْناباً مُفِيداً، لمراعَاة رُؤوس الآيات، ولتكميل الميزان اللَّفْظِيِّ لِلْآيَة.

وفي العبارة محذوف، تقديره: فَأَلْقَوْا حبالَهُمْ وعِصِيِّهم فإذا..

(٢) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾.

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الشعراء) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤)﴾.

نظرات تكامليَّة:

التكامل في هذه العبارات الثلاث واضح، ويَدُلُّ التَّأمُّل على أنَّ

عبارة سُورَة (الشعراء) ذاتُ مَوْقعٍ أوّل في الترتيب، ويأتي بعدها موقع عبارة سورة (الأعراف)، ويأتي بَعْدَهُمَا مَوْقِع عبارة سورة (طَه).

وجمعاً من هذه النصوص يكون المعنى كما يلي:

(من سورة الشعراء):

فطرح السَّحَرَة في ساحة المباراة أدواتهم السّحرية، حبَالَهُمْ وعِصِيِّهم، وأقْسَمُوا بقوة فرعون الإلٰهيَّة الغَالِبَة لسائر القوىٰ، قائلين بَعْدَ القسم جواباً له: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وفي هذه العبارة تأكيدٌ بالمؤكّدات: «إنّ ـ الجملة الإسميّة ـ اللام المزحلقة ـ ضمير الفصل».

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: بقوّة فرعون الغالبة المادّية والمعنوية؛ إذْ جعل فرعون نفسه إلٰهاً على شعْبه. **العزّة**: هي القوة الغالبة.

(من سورة الأعراف)

فلمَّا ألْقَوْا ما لَدَيْهِمْ من أدواتٍ سِحْرِيَّة وأجْرَوْا أعْمَالَهُمْ، سَحَرُوا أعْيُنَ الناسِ واسْتَرْهَبُوهُم بما أَرَوْهُمْ في خداعٍ بَصَرِيّ، من ثَعَابِين تَتَحَرَّكُ وتَسْعَىٰ في ساحَةِ المباراة، بِسِحْرٍ عظيم جاءُوا به.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أي: أرْهَبُوهُمْ إرْهاباً قَوِيّاً، فالقُوَّة أحَدُ معاني صيغة «اسْتَفْعَلَ»، والمعنى: أوقَعُوا الرَّهْبَةَ بقوة في نفوس المشاهدين

الرّهبة: الخوف من مكروهٍ متوقّع.

(من سورة طَه):

فلمَّا ألْقَوْا ما أعَدُّوهُ للمباراة، إذَا حِبَالُهُمْ وعِصِيُّهُمْ قَدْ أثَّرتْ على عَيْنَي موسىٰ الرسول حامل الآية الرَّبَّانيَّة، بمقتضىٰ بشريّته، فصارَ يُخَيَّلُ إلَيْهِ من سِحْرِهِمْ أنَّها ثعابين تَسْعَى.

فأحَسَّ مُوسَىٰ بخوفٍ ما في نَفْسِهِ أنْ يَتَأَثَّر جمهور المشاهدين بهم،

فَلَا يَلْتَفِتُوا إلى ما سيقدّمه من آيَةٍ رَبَّانِيَّةٍ عظيمة، للتشابه في النظر، ولَمْ يكن قد خطر في باله أنّ عصاه الّتي ستتحوّلُ حيَّةً، سَتَبْتَلِعُ ابتلاعاً حقيقياً كُلَّ أدَواتِ سِحْرِ السَّحَرَة، وأنَّها قادرة بخَلْقِ الله على ابتلاع السَّحَرَة، وابتلاع فرعون وملَئِهِ وجنوده، وكلِّ أنصاره، لو شاء الله ذلك.

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾: أي: يُصْنَعُ في خيالِهِ صُوَرٌ تخيُّليَّة، وطُيُوفٌ لَيْسَ لها حقيقة في الواقع، بل هي قائمة على تَزْييفاتِ السَّحَرةِ بخداعٍ بصريّ، والشيء الذي صنَعَهُ التَّخْيِيل هو الإيهام بأنّ حبالهم وعصيّهم ثَعَابين، وأنَّها تَسْعَىٰ، مع أنَّها في الحقيقة ما زالَتْ حبالاً وعِصِيّاً، لم يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ من حقيقتها.

«التخييل»: هو في اللُّغة التَّلْبِيس، والتشبيه، والتأثير على المخيّلَة في الدماغ، بوسائل خداعيَّةٍ، لا تُغَيِّرُ من الواقع الحقّ شيئاً، وتقتصر على إحداث صُورٍ وطيوف كواذب، ليس لها حقيقة في الواقع، وإنَّما هي تأثيرات سِحْرِيَّة على الأعْيُنِ فيما تُشَاهد.

[تَسْعَىٰ]: أي: تَمْشِي بسُرْعَةٍ كسُرْعَةِ من يَعْدُو. **السَّعي**: هو في اللّغة السُّرعة الزائدة في المشي بهمَّة ونَشَاطٍ وقوَّة، فهو بين العَدْو، وبَيْن المَشْي الهادئ المتَّزِن من غير إسراع.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾: أي: فأَحَسَّ موسَىٰ عليه السّلام بشيءٍ من الخوف في نفسه، من أنْ تتساوىٰ في نظر الجماهير المحتشدة آيَته وسِحْرُ سَحَرَة فرعون، أحسّ بهذا الخوف بسبب المفاجأة الّتي أثَّرَتْ على بَصَرِهِ، وكان عارضاً بمقتضىٰ طبيعَتِهِ البشريَّة الانفعالية الّتي تتأثّر بالعوارض قَبْلَ المحَاكَمَةِ العقليّة.

﴿خِيفَةً﴾: الخيفَةُ كالخَوْف، وهي مصدرٌ لفعل «خاف، يخافُ، خَوْفاً، ومخافَةً، وخِيفَةً».

الخوف: شعورٌ نَفْسِيٌّ مُؤْلِمٌ مُزْعِجٌ، ويكون من تَوَقُّعِ حُلول مكروه، أو فوات محبوبٍ، أو مَرْغوبٍ فيه.

﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾: وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ سِحْرَ سَحَرَة فِرْعَوْنَ بأنَّهُ سِحْرٌ عظيمٌ، لدقَّةِ وسائِلِهِمْ فيه وخفائها، لكنَّ سِحْرَهُمْ لم يتجاوز حدود خداع الأبصار، ولَمْ يَقْلِب حقائق الأشياء التي اتَّخَذُوها أدواتٍ لسِحْرِهِم، وإنَّما أثَّر على النفوس، وعلى إدْرَاكَاتِ الحواسّ الظاهرة والباطنة.

* * *

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾:

(٢) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

(٣) وجاءَتِ العبارة في سورة (الشعراء) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

- ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

نظرات تكاملية:

هذه نصوص ثلاثة متكامِلَاتُ الدَّلَالَاتِ فيما بينها، مع تكرار بعض العبارات الّتي لا بُدَّ من تَكْرارها، لإحكام الرَّبْط التكامُلِيّ بَيْنَ الفقرات، بشأن الموضوع الوارد الحديث عنه في كلّ سورة من السّور الثلاث.

ويدُلُّ التَّأَمُّلُ مع إمْعَانِ النَّظر في تكامُلِهَا على ما يلي:

(من سورة طَه):

- ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾: أي: قُلْنَا له بوساطَة رسُول الوَحْي: لَا تَخَفْ من مُسَاواة أعمالهم السِّحْرِيَّة في المظهر، لآيَتِنَا البُرْهَانِيَّة، فآيَتُنَا كُبْرَى ستُبْطِلِ كُلَّ ما صَنَعُوا، لأنّ مَا صَنَعُوه لَا حقيقة له، إذْ هُوَ إيهامٌ وخداعٌ للأعْيُن.

من سورة (الأعراف):

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ... ﴿١١٧﴾﴾: أي: وأوحَيْنَا إلى موسى أن اطْرَحْ عصاكَ في ساحة المباراة، ودلَّتْ عبارة [**أَوْحَيْنَا**] هنا على أنّ ما جاء في سورة (طَه): ﴿قُلْنَا﴾ أنَّ هذا القول قد كان عن طريق الوحي.

من سورة (طَه):

- ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

جاءَتْ فكرةُ الإلْقَاءِ هُنا تكراراً لِمَا جاء في سورة (الأعراف) لئلَّا يكُونَ في نَصِّ سورة (طَه) فجوةٌ فِكْرِيَّة، ولئلَّا يكونَ تكراراً تطابُقِيّاً اقتضتِ الحكمة البيانيَّة التَّغْييرَ في التعبير، مع تكْمِيلٍ في البيان.

من سورة (الشعراء):

- ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: فانْقَلَبَتْ عَصَاهُ حَيَّةً عظيمة، وفَاجَأَتِ المُشاهدين بأنّها شرعَتْ تَبْتَلِعُ ابْتِلَاعاً حَقِيقياً ثُعَابِينَ السَّحَرَةِ الّتي هِيَ في الحقيقة مَا زَالَتْ حِبَالاً وعِصِيّاً.

واجْتَهَدَ السَّحَرَةُ اجْتِهَاداً بَالِغاً للمُحَافَظَةِ عليها مَوْجُودَةً في سَاحَةِ المباراة، ومنع حيَّةِ مُوسَىٰ مِن ابْتِلَاعِهَا فَلَمْ يُفْلِحُوا، وقد كان هذا

الاجتهاد مرافقاً لابْتِلَاعِ حَيَّةِ مُوسَىٰ الَّتي كانت عصاً حِبَالَهُمْ وعِصِيِّهِمْ، بدلَالَةِ الفِعْلِ المضارع في عبارة: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، أي: وهم ما زَالُوا يُجَدِّدُونَ أعْمَالَهُمْ السِّحْرِيَّة الكواذب، الَّتي تَعْتَمِدُ على كذِبٍ خداعيٍّ للأَعْيُنِ، وليس لَهُ حقيقةٌ في الواقع.

من سورة (الأعراف):

● ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

جاءت عبارة: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ هنا تكريراً لما جاء في سورة (الشعراء) لتكميلها بما جاء في الأعراف بَعْدَها، ولولا هذا التكرير لكان في نص سورة (الأعراف) فَجْوَةٌ من الصَّعْبِ مَلْؤُهَا بهذه العبارة، ولا سيما أن سورة (الأعراف) قد نزلت قبل سورة (الشعراء) بسَبْعِ سُوَر.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾: أي: فَغُلِبُوا في ذلِكَ المكان الذي جرَتْ فيه المباراة.

﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ﴾: أي: وانْقَلَبُوا انْقِلَاباً مَعْنَوِيّاً من مكانهم العالي الّذي كانوا مُسْتَكْبِرِينَ فيه، حالة كونهم أذلّاء، يَشْعُرُونَ بصِغَرِ مكانتهم، وضَآلَةِ قِيمَة نفوسهم، وبُطْلَانِ طَرِيقتهم، أمام عظمة الحقّ الرَّباني الّذِي أجراه الله لموسَىٰ عليه السلام.

وهذا لا يقتصر على السَّحَرَة، بل يمتدُّ إلى فرعَوْنَ، ومَلَئِهِ، وجنودِهِ، وأنصاره في الشعب المصري.

الصَّاغر: هو في اللّغة الراضي بالذُّلّ والضَّعَةِ، يُقالُ لغة: «صَغُرَ، يَصْغُرُ، صَغَاراً، فَهُوَ صَاغِرٌ» أي: رَضِيَ بالذُّلِّ والضَّعَةِ.

والصَّاغِر: الوضيع الذليل الحقير، ذو القيمة الضئيلة، أو الّذِي لَا قيمة له.

من سورة (طه):

- ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾:

قُدِّمَ هارون هنا، مع أفضليَّة موسى عليه، لمراعاة الفواصل، في سوابق هذه الآيَةِ ولواحِقها.

﴿فَأُلْقِيَ﴾: عبارة فيها عطفٌ على محذوف، تقديره: فأَلْقَى مُوسَىٰ عَصَاهُ، فانْقَلَبَتْ حيَّةً حقيقيَّةً عظيمةً تَسْعَىٰ بِسُرْعَةٍ مُخِيفَةٍ في ساحة المباراة، وأخذت تَبْتَلِعُ بسُرْعَةٍ ما صنَعَ السَّحَرَة، فأُلْقِيَ السَّحَرَة سُجّداً.

قدَّمْتُ في الترتيب هنا ما جاء في سورة (طه) مراعاةً لحَرْف العطف «الفاء» في أوّلِ الآية، إذِ الفاء تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب.

من سورة (الشعراء):

- ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ على نصّ سورة (طه) عبارة: **[آمَنَّا بربِّ العالمين]**.

من سورة (الأعراف):

- ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

ترجّح لديّ تأخيرُ هذا النصّ في الترتيب، عن النَّصَّيْنِ السَّابِقَيْنِ، لأنَّه معطوف بالواو، الّتي تَدُلُّ على مُطْلَقِ الجَمْعِ، لا بالْفَاءِ الّتي تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب.

جاء في هذه النصوص الثلاثة تكريرُ ما كان من السَّحَرَةِ بَعْدَ انتصار موسَىٰ بآيَتِهِ الرَّبَّانيَّة العجيبَة المُذْهِلَة، مع بَعْضِ إضافاتٍ في بَعْضِ العبارات، ومع تغيير طفيفٍ فيها، لتتلاءم مع سوابقها في سُورِها.

والغَرَضُ من هذا التكرير توكيد انتصار الإيمان على الكُفْر، بألْسِنَةِ وأعمالِ القوَّةِ المعنويَّة لأهل الكفر في مصر، وهم سَحَرَةُ فِرْعَوْن، إذْ أقنعَتْهُمْ بالحقيقة آيَةُ الله البرهانيّة العظيمة، وأدْرَكُوا أنَّها معجزة حقيقيَّةٌ، وليسَتْ خداعاً للأعين، بخلاف سِحْرِ السَّحَرَة، فقد كانَ مجرَّدَ تخييلٍ وخداعٍ للأعين.

ومعلومٌ أنّ السَّحَرَة هم أعْلَمُ الناس بهذه الحقيقة.

تدبُّر مفردات وجُمَل هذه النصوص:

- **[قُلْنَا لاَ تَخَفْ]**: هذا وحْيٌ جاء به أمين الوحي لموسىٰ عليه السّلام، وهو في موقف المباراة، تثبيتاً له وطَمْأَنَةً عن النتيجة الظافرة الغالبة لسِحْرِ كلِّ سَحَرَة فرعون.

وجاء بنون المتكلّم العظيم، إشعاراً له بأنّ اللَّهَ يُطَمْئِنُهُ بعظمة ربوبيته.

[لاَ تخف]: تكليف له بأن يَنْتَبِهَ، فيكُفَّ نفسه عن الخوف، ويصرف عن نفسه دواعيَهُ، بالثقة التامّة بربّه الذي أعطاه آية العصا.

[إنَّكَ أنتَ الأعْلَىٰ]: هذه الجملة تُعَبِّر عن قضاء الله وقدَرِهِ في هٰذه القضيّة، خاطبَ الله عزّ وجلّ بها موسى عليه السّلام.

أي: إنَّكَ يا مُوسَىٰ ستكونُ أنت الأكثر عُلُوّاً في نفوس الجمهور الكبير، الذي حضر لمشاهدة المباراة، وفي نفوس السَّحَرة الذين سيكونون صاغرين مَغْلُوبين، وفي نفس فرعون المعتزّ بملكه، والمدَّعي أنَّه إلٰهٌ لشَعْبه، وجاء توكيد الجملة بـ (إنّ ـ والجملة الاسمية ـ وضمير الفصل) مراعاة لحالة مُوسى النفسية عليه السلام.

[وأَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ]: جاء في هذه العبارة التصريح بأنَّ عَصَاهُ كانت في يمينه، فأمَرَهُ الله بطرحها في ساحة المباراة، ليجريَ اللَّهُ بها ما أجراه

بعد ذلك، بينما جاء الاكتفاء في النصّ الّذي من سُورَةِ (الأعراف) بأمْرِهِ بأنْ يُلْقِي عصاه.

[تَلْقَفْ ما صَنَعُوا]: أي: تتحوَّلْ فوراً حيَّةً عظيمة، وتَبْلَعْ كلَّ ما صَنَعُوا مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيٍّ بحبالهم وعِصِيِّهم.

فأدْرَكَ مُوسَىٰ عليه السّلام التدبير الرَّبّاني، وزال عَنْهُ كلُّ أثَرٍ للخوف.

[مَا صَنَعُوا]: أي: كُلَّ الأشياء المادّيَّة الّتي صنعوها، وهي حبالُهُم وعصيِّهم، وما طَلَوْها به من موادّ وعناصِرَ تجعلُها توهم بأنَّها ثعابين تَسْعَىٰ.

[إنَّما صَنَعُوا كَيدُ ساحر]: وفي القراءة الأخرى: **[كَيْدُ سِحْرٍ]**: «إنَّما» أداة حصر وقَصْر، أي: ما صَنَعُوا بأعمالهم قلباً لحقائق الحبال والعصيِّ بجعلها ثعابينَ حقيقيَّة، ما صَنَعُوا فيها إلّا كَيْداً سِحْرِيّاً تخييليّاً ضمن حُدُود إراءَةِ الأعين، بإيهامِها كذباً وافتراءً على الحقيقة أنَّها ثعابين حقيقيَّة، وهذا الكيد هو الّذي كانَ يَصْنَعُهُ السَّحَرَة في الأشياء.

والقصر هُنا قصر إضافي، وهو من قَصْر الموصوف على الصفة، أي: ما صَنَعُوا بالإضافة إلى أعمال مباراتهم إلّا عَمَلَ ساحِرٍ، وعملاً من نوع كَيْدِ السِّحر.

﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾

الفَلَاح: هو الظفر والنجاح والفوز بالمراد.

السَّاحِر: «ال» هنا للجنس، وتفيد التعميم على كلّ أفراد الجنس، أي: ولا يُفْلِحُ كُلُّ ساحر.

حيث: هنا ظرف مكان، وهو مبنيٌّ على الضمّ في محل نصب على أنّه ظرف.

أي: ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ في مكانٍ ما يأتيه، ويَعْمَلُ فيه أعمالَهُ السِّحْرِيَّة، إذ يجعله الله عزّ وجلّ في النتيجة خائباً خاسراً مُبْتَلَىً بالمصائب والنّكبات.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾: جاءَ فِعْلُ «أُلْقِيَ» مَبْنِيّاً لما لم يُسَمَّ فاعله، للدّلالة على أنَّ سلطان آيَةِ الله بابْتِلاعِ كلّ ما صنعَ السَّحرة، جعَلَتْهُمْ بتِلْقائيَّةٍ مَقْسُورِين على أن يخرّوا سُجّداً لله ربّ العالمين، مُجْرِي هذه الآيَة العظيمة لموسَىٰ عليه السلام.

والفاء في عبارة: [فَأُلْقِيَ] دليلٌ على أَنَّهُمْ خَرُّوا ساجدين، عَقِبَ ابتلاع عصا موسى الّتي انْقَلَبَتْ حيَّةً كلَّ ما صَنَعُوا، فلم يكن مِنْهُمْ تَلَكُّؤٌ ولا تَرَيُّث، انْدِهَاشاً بالحَدَثِ، ومُعْتَرِفِين بالخيبة، وأَنَّهُمْ مَغْلُوبون حقاً.

﴿سُجَّدًا﴾: جمع «ساجِدٍ» ويجمع هذا على «ساجدين» قياساً مطّرِداً، وهو ما جاء في نصَّيْ (الأعراف) و(الشعراء).

السُّجُود: هو في اللُّغَةِ يكون بإحْنَاءِ الظهر وتطامُنِهِ، وأقصاه يكون بوضع الجبهة على الأرض.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾: يحكي الله عزّ وجلّ بهذه العبارة إعلانهم إيمانهم برَبِّ موسَىٰ وهارون، وهو رَبّ العالمين، لأنّ مُوسَىٰ وهارونَ قد أبانا لفرعون ولِمَلَئِهِ، ولكلّ من دَعَوْهم من المصريين أنَّ رَبَّهُما هو رَبُّ كلّ العالمين، أي: رَبُّ كلّ ما في الكون سوى الله عزّ وجلّ.

وجاء في نصَّيْ: (الأعراف) و(الشعراء) التصريح بأنّ السَّحَرَة أعْلَنُوا إيمانهم برَبّ العالمين، رَبّ موسىٰ وهارون.

وسبقَ بيان الحكمة في تقديم هارون على موسىٰ في نصّ سورة (طه)، وأنه قد كان مراعاة للفاصلة، حتَّىٰ تتلاءَم مع فواصل الآيات قبلها وبعدها في السورة.

* * *

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣)﴾:

(٢) وجاءَت العبارة في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾.

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾:

* * *

هذه النُّصوص الثلاثة مُتكامِلَاتُ الدَّلالَاتِ فيما بَيْنَها، فَلْنَتَدَبَّرْها لنكتشف التَّكامُل الذي تشتملُ عليه.

إنّ التأمُّلَ في هذه النصوص الثلاثة يَكْشِفُ أنَّها تُعبِّرُ عَنْ مواقف ثلاثة، وقفها السَّحَرَة أمام فِرْعَوْن، محاسباً ومُؤنّباً لهم على مَا كانَ منهم من إيمانٍ بما جاء به موسى وهارون، ثُمّ إسلام واسْتِسْلامٍ لأوامر ونواهي

رَبِّهما الّتي يُبَلِّغانها عنه، مع خُرُوجِهِم عن طاعته ومِلَّتِهِ والخضوع والخنوع لِنِظَامِ دولَتِه الإداري، الّذِي يُحَرِّم عليهم اتّخاذَ دِينٍ غيرِ دِينِ الملكِ من كلّ قبطيّ.

ويَدُلُّ التأمُّلُ في هذه النصوص الثلاثة على ما يلي:

(أ) أنّ نصَّ سورة (الأعراف) قد جاء مُعَبّراً عن موقفهم الأوّل أمام فِرْعَوْن، محاسباً ومُؤَنّباً، ومتوعداً بشرّ.

(ب) وأنّ نصَّ سورة (الشعراء) قَدْ جاءَ مُعبّراً عن مَوْقفهم الثاني أمام فرعون، بَعْدَ أنْ أنْظَرَهُمْ، رَجَاءَ أن يَتُوبُوا، فيحتفظَ بهم قوّةً معنويّةً لدِينه، ولنظام دولته الإداري.

(جـ) وأنّ نصَّ سورة (طه) قد جاء مُعَبّراً عن موقفهم الثالث الأخير أمام فرعون، بعد أن أنظرهم إنظاراً ثانياً، رَغْبَةً في أن يتوبوا، ويَرْجِعُوا إلى الخضوع والخنوع له ولنظام دولته.

التدبّر التحليلي لهذه النصوص:

النص الذي من سورة (الأعراف):

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾:

أي: قد فعلْتُم كبيرَةً عظيمةً في حقِّ مَلكِكُمْ ودَوْلَتِكُمْ وشَعْبِكُمْ القِبطيّ عَلَيْكُمْ، إذْ آمَنْتُم بمُوسَىٰ وبما جاء به عن رَبِّه، قَبْلَ أن أمْنَحكُمْ إذْناً بذلك، إنَّها من كُبْرَيَاتِ الجرائم في نظام دولَتِنا لشَعْبِنَا القِبْطِيّ، وهذه خيانةٌ عُظْمَىٰ للمَلِكِ، وللدُّسْتُورِ، وللنظام العامِّ في البلاد، وهي تَسْتَحِقُّ أشدَّ العقوبات الّتي تنتهي بالموت.

الإيمان: هو الاعتقاد الجازم في القَلْب، بقضيَّةٍ من القضايا القابلة للتصديق وللتكذيب.

الإذن: هو الإعلام بإِبَاحَةِ العَمَلِ، والرُّخْصَة فيه.

وقد كان هذا قَبْلَ أنْ يَثْبُتَ لدىٰ فِرْعَوْن أنّ سَحَرَتَهُ أسْلَمُوا لأوامر ونواهي رَبّ موسى وهارون التي يُبَلِّغانها عنه، فاقتصر على تأنيبهم ومحاسبتهم على إيمانهم الّذي أعْلَنُوهُ.

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤﴾:

لقد بلَغَ فِرْعَوْنَ أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ قد مَرَّ على السَّحَرَةِ في دار إقامَتِهِمْ الّتي أقامَهُمْ فيها، إذْ جَلَبَهُمْ من المدائنِ المصريَّةِ، وجَمَعَهُمْ في دارٍ للتشاور والتَّعاون، استعداداً لإجراء المباراة بينهم وبَيْنَ مُوسَىٰ عليه السَّلام، إذْ قام في ذِهْنِهِ أنَّ ما جاء به مُوسىٰ هو نوعٌ من أنواع السِّحر.

وبَلَغَ فِرْعَوْنَ أنَّهُمْ ﴿أَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بَعْدَ مُرُورِ مُوسَىٰ عليه السَّلام عليهم ومحادثتهم صَباح يوم المباراة.

فتَوَهَّمَ أنَّ مُوسَىٰ أقْنَعَهُمْ بأنَّهُمْ إذا انْحَازُوا إلَيْهِ في المباراة، فسَيَجْعَلُهُمْ شُرَكَاءَهُ في مُلْكِ مصر، وُزَرَاءه، وأعوانه، وآمِرين ناهِينَ بسُلْطانٍ نافذ، فقال لهم:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ﴾.

وهذه هي الفكرة الّتي أعْلَنَهَا؛ إذْ قال لِلْمَلإِ حَوْلَهُ يومَ مجيء موسىٰ الأوّل إليه، كما جاء في سورة (الشعراء):

﴿. . . إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ . . . ۝٣٥﴾.

المكر: هو في اللّغة تَدْبير أمْرٍ ما في خفاء، يَكُونُ في الشرّ، ويكُونُ في الخير، واللَّهُ خَيْرُ الماكرين.

ولا بُدَّ أنْ يكونَ السَّحَرَةُ قد نَفَوْا عَنْ أنفُسِهِمْ هٰذهِ التُّهْمَة، وأنَّهُمْ أسَرُّوا النجوىٰ لإعدادِ خُطَطِهِم سِرّاً، حتَّىٰ لا يَبْلُغَ مُوسَىٰ شيءٌ من تَرْتيباتهم، فيُعِدَّ أعْمَالاً سِحْرِيَّةً مضادَّة لَها.

وكان فرعَوْنُ حَرِيصاً على أنْ يَسْتَبْقِي السَّحَرَة قُوَّة مَعْنَوِيَّة لنظام حكمه، وقوّة مَعْنَوِيَّةً لِمِلَّتِهِ، ولملَّةِ القِبْط السائدة في مصر حينئذٍ، إذِ اتَّخَذَ نَفْسَهُ فيها إلٰهاً مُطَاعاً في كُلِّ شيءٍ، فأَبْعَدَ أجَلَ مَا تَوَعَّدَهُمْ بكلام دلَّتْ عليه عبارة: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وبعد إمهالكم مُدَّةً يكُونُ عقابي فوريًّا إذا لم تتوبوا أو لم ترجعوا إلى ملّتِي وطاعَتِي.

كلمة «سوف» تُسْتَعْمَلُ غالباً للتَّأجيل الطويل، أو لما هو في حُكْمه، بخلاف «السين» فإنَّها تُسْتَعْمَلُ غالباً للتأجيل القصير، أوْ لِمَا هُوَ في حُكْمِهِ⁽¹⁾.

وغَرَضَهُ من هذا التأجيل الذي فيه فُسْحَةٌ مُطَوَّلَةٌ، أنْ يَتَرَاجَعُوا ويُعْلِنُوا تَوْبَتَهُمْ، وعَوْدَتَهُمْ إلى ما كانوا عليه، أنصاراً وقُوَّةً معنويَّةً لفِرْعَوْنَ، ولدينه، ولنظام حُكمه الإداري.

وجاء تَوَعُّدُه بعبارة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، أي: إنْ لم تَتُوبُوا وتَرْجعوا إلى حظيرتي.

تقطيعُ الأيدي والأرْجل من خلافٍ يكونُ بقطع اليَدِ اليُمْنَىٰ والرِّجلِ اليُسْرَى، أو بقَطْعِ اليَدِ اليُسْرَى والرِّجْلِ اليمنى، وهذا النوع من التشويه العقابيّ في الأعضاء أخَفُّ ضرراً من قَطْعِ اليُمْنَى من كلٍّ منهما، أو اليُسْرَى مِنْ كُلٍّ مِنهما، لأنّ السّالمة تُعِينُ المقطوعَة من جِهَتِها.

وزاد فرعون في تَوَعُّدِهِ وتَهْدِيده، فأعْلَنَ لسَحَرَتِهِ أنَّه سَيَتْرُكُهم مُقَطّعي الأيْدِي والأَرْجُل من خلاف زمناً يُعَذَّبُونَ فيه، ثم لَيُصَلِّبَنَّهُمْ أجْمَعِين،

---

(١) هذا ما توصَّلْتُ إلَيْه عَنْ طريق استقراء النصوص القرآنية.

تَصْلِيباً عَنِيفاً شديداً يكونُ به تَعْذِيبُهُمْ، وموتُهُمْ صَبْراً بَعْدَ ذلك، ويكون به التشهير بهم، أمام الغادِينَ والرَّائِحين من الشَّعْبِ المصريّ وغيره، ليكونوا عِبْرَةً لكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بمخالفة دين الملِكِ، ونظام حكمه.

الصَّلْبُ: شَدُّ أطراف الجِسْم، وتَعْلِيقُهُ على خشبةٍ معروفَةٍ بالصّليب، وتكون على شكل سطر قائم عموديّ، وسطرٍ أُفُقِيٍّ يوضَعُ وسَطُهُ على السَّطر القائم، دون رأسه بنحو الرُّبع، فيكون مثل رأس الإنسان وذراعَيْهِ في حالة كونهما مَبْسُوطتين في امتدادٍ أفقيّ، وكون جسمه متدلّياً إلى الأسْفل.

وقد يكون هذا الصَّلْبُ على سُوقِ شَجَرٍ ذواتِ سُوقٍ مرتفعةٍ عالية، كالنَّخْلِ والسَّرْوِ، ونحوهما.

وشدُّ أطراف جِسْمِ المَصْلُوب قد يكونُ بالحبال، مشدودة على الشيء المصلوب عليه، وقد يكون بضَرْبِ مَسامِيرَ في أطرافِ المَصْلُوب إمْعَاناً في تَعْذِيبِهِ، وإدْخَالِهَا في الشَّيْءِ المصلوب عليه، وعلى هذا المعنى يُمْكِنُ حَمْلُ عبارة: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وهو ما جاء في النصّ الذي من سورة (طه) أي: مُثَبَّتِينَ بمَسَامِيرَ داخِلَةٍ في جذوع النخل، أي: في سوقها.

وجاء فِعْلُ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ وفِعْل: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ مُشَدَّدَيْنِ، للدّلالة على العنف في التعذيب. والفِعْلان جوابان لِقَسَمٍ مَنْوِيٍّ، واللَّام واقعة في جواب القسم.

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾: أي: إنّا إلى ربّنا راجِعُون.

يُقالُ لغة: «انْقلَبَ»، أي: رجَعَ وانْصَرف.

وفي عبارتهم هذه كناية عن أنَّ الله سيَشْمَلُهم برحْمَتِهِ غفراناً وإسعاداً، إذْ يَغْفِرُ لَهُمْ ما سَلَفَ من خطاياهم، ويُدْخِلُهُمْ في جنَّتِهِ، فيَمْنَحُهُمْ فيها سعادةً أبَدِيَّةً خالِدَة.

- ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ﴾:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾: أي: وما تُنْكِرُ عَلَيْنَا وَمَا تَكْرَهُ مِنَّا. يقال لغة: «نَقَمَ الشَّيْءَ يَنْقِمُهُ، ونَقِمَهُ يَنْقَمُه»، أي: أنْكَرَهُ وكَرِهَه.

والمعنى: أنت تَعْلَمُ يا فرعون أنّنا لم يَكُنْ مِنَّا مَكْرٌ في المدينَةِ مع موسىٰ، وإنَّما أنْكَرْتَ وكَرِهْتَ منَّا أنّنا آمَنَّا بآيَاتِ رَبِّنَا لمَّا جاءَتْنَا، وخَشَيْتَ أنْ يَكُونَ إيمانُنا سبباً في إيمان شعب مصر بالله رَبّ العالمين، وإسلامهم له، وخروجهم عن الإيمان بِمِلَّتِك، وعَنْ نظام حُكْمِك.

وبَعْدَ هٰذا أعْلَنَ السَّحَرَةُ الْتِجَاءَهُمْ إلى رَبِّهم داعين:

- ﴿... رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

أشعر السَّحَرَةُ فِرْعَوْن في هذا الدُّعاء بأنَّهُمْ مُصَمِّمُونَ على موقفهم، وأنَّهُمْ لَنْ يَتَرَاجَعُوا، وأنَّهُمْ مُسْتَعِدّون لتَحَمُّلِ ما تَوَعَّدَهُمْ به حَتَّىٰ الموت، فهم يَسْأَلُونَ اللَّهَ رَبَّهُمْ أنْ يُصَبِّرَهم، وأنْ يُثَبِّتَهُمْ على الإسلام، حتَّىٰ إذا جاءَتْ مَنَاياهم توفَّاهم في آجالِهُمْ مُسْلِمِينَ.

والمعنى: رَبَّنَا نَسْأَلُكَ أنْ تُفرِغَ عَلَيْنَا إنَاءً واسعاً كبيراً مَمْلُوءاً بالصَّبْرِ، حتَّى يُجَلِّلَنَا، فَنَصْبِرَ على عذاب فِرْعَوْن.

ورَبَّنَا نَسْأَلُكَ أنْ تَتَوَفَّانا حَالَةَ كَوْنِنَا مُسْلِمِينَ لكَ، مُسْتَسْلِمِينَ لأوامرك ونواهِيك، ومُطِيعِينَ لكَ فيها.

جاء في هذه العبارة استعارةُ «أفْرِغْ عَلَيْنا» للدَّلالة على معنىٰ: أنْزِلْ علينا. تشبيهاً للصَّبْرِ بماءٍ بارِدٍ يُطْفِئُ حرارة التَّعْذِيب، فلا يكونُ معَهُ شُعُورٌ زائِدٌ بالألم، وهذا الماء البارد موضوع في إناء واسِعٍ كبير مالِئٍ له، ويكونُ إنزالُهُ إفراغاً بسُرْعَةٍ تَدْفَعُ حرارة التعذيب بسُرْعَة، ولا يكون على طريقة إلْقَاءِ قطراتٍ فقطرات، أو حفناتٍ فحفنات.

الإسلام: هو الاسْتِسْلامُ للَّه في أوامِرِهِ ونواهيه، وطاعته فيها.

النصُّ الذي من سُورَة (الشُّعراء):

• ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾:

هذا النصّ يُعَبِّر عنِ الموقف الثاني الّذي وقفه السَّحرةُ أمامَ فِرْعَوْنَ بَعْدَ إيمانهم وإسلامهم.

وأدْرَكَ فِرْعَوْنُ من كلامِهِمْ في اللِّقاءِ الأوّل، أنَّهُمْ لم يَكْتَفُوا بالإيمان، بل أسْلَمُوا لمَا يُبَلِّغُهُمْ مُوسَىٰ مِنْ أوامرِ ونواهي ربّ العالمين، وإسلامُهم لها يَسْتَلْزِمُ عَمَلَهُمْ بها، وتَرْكَهُمْ للعمل بمقتضى دين فرعون، وبمقتضىٰ نظام حُكْمه، فوضع في دماغِهِ أنهم مُؤْمِنُونَ بموسَىٰ ومُسْلِمُونَ له.

وقد جاءتْ في هذا النصّ إضافة الأفكار التالية:

الفكرة الأولى: محاسبة وتأنيب فرعون للسَّحَرَةِ على إسلامهم لموسىٰ بعد أن آمَنُوا به وبما جاء به عن رَبّه.

دلَّ على هذه الفكرة استخدام عبارة [**لَهُ**] بدَلَ [**بِهِ**] الّتي جاءت في نصّ سورة (الأعراف) في عبارة: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، بينما جاءت في (الشّعراء): ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾.

وتحليل هذا أنَّ فعل «آمَنَ» يتعدَّىٰ بحرف الجرّ «الباء» فيقال لغة: «آمَنَ به» أي: اعتقده اعتقاداً قَلْبيّاً جازماً به.

أمّا ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ فهي على تضمين فعل: «آمن» معنى فعل: «أسْلَمَ»

فعُدِّيَ تَعْدِيته، أي: آمَنْتُمْ به وأسْلَمْتُمْ له، والتقدير مع الإيجاز في التعبير يكون كما يَلِي: فآمَنْتُمْ بِهِ مُسْلِمِينَ له، فأغْنَتْ الجملة الواحدة بهذه التعدِيَة عن جملَتَيْن، وهذا من روائع الإيجاز القرآني.

الفكرة الثانية: قول فرعون للسَّحَرَةِ عن موسىٰ عليه السلام، ما دَلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، أي: إنَّ مُوسَىٰ هو كبير السَّحَرَة، وهو الذي علّم جميع سَحَرَةِ مِصْرَ أصُولَ السِّحْرِ وأعماله، ليُعِدَّ نَفْسَهُ مُسْتَعِيناً بهم للاستيلاء على مُلْكِ مصر، ويجعل السَّحرة شركاءَه في الحكم.

هذه مقالَةٌ افترائيَّة قالَها فرعون للسَّحرةِ على سبيل الاتِّهام الباطل، والتَّزْيِيف للواقِعِ والحقيقة.

إنّ فرعون هو الذي أمَرَ بجلب كلّ السَّحَرَة من المدائنِ المصريَّة، ولم يَسْبِقْ لهم أنِ الْتَقَوْا موسىٰ عليه السَّلام، وفرعونُ يَعْلَمُ عِلْماً يَقِينيّاً بأنّ مُوسَىٰ كان فارّاً من الحكم المصريّ، خوف أنْ يُقْتَلَ جزاءَ قَتْلِهِ القِبْطيَّ خطأً، انتصاراً للإسرائيليّ، وخطؤُه كان بسبَبِ أنّ قُوَّةَ وَكْزَتِهِ أعظم من احتمال الإنسان العاديّ لها، وأنَّه كان أيَّامَ فراره خارج حُدُود مصر كلّها، وفي أرض لا سلطان للحكم المصريّ عليها حينئذٍ، ويَعْلَمُ فرعون أيضاً أنْ مُوسَىٰ عقب عودته إلى مصر مباشرةً، اسْتأْذَنَ هو وأخوه هارون بأن يَدْخُلَا قصره لمقابلته، فأذن لَهُمَا، وجرى ما جرى، ومنذ ذلك الحين صار هو وأخوه محلَّ مراقبة عيون فرعون. وقد كان السَّحرة مُنْتَشِرينَ في المدائن المصريّة قَبْلَ عَوْدَةِ مُوسَىٰ إليها، وكانُوا هم القوّة المعنويّة لدِين فِرْعَوْن ونظام حُكْمِهِ الإداريّ.

فعَلَىٰ أيَّةِ شُبْهَةٍ بنىٰ فرعونُ اتّهام موسىٰ واتّهام سَحَرَتِهِ بأنَّه كبيرهم الّذي علَّمَهُمُ السِّحر؟!.

هذا هو حالُ الحكّام والمُلُوكِ الجبابرَة الظَّلمة، يَقْذِفُون الاتِّهامات ضدّ خصومهم، أو مخالفي إراداتهم وأنظمتهم، وهم منها بُرءاءُ بَراءَةً واضحة جليّة، ليُزَيِّنُوا لشُعوبهم أسبابَ التخلُّص منهم، وليُعَذِّبُوهم بناءً على تحقُّقِ اتِّهامهم بها كذباً وتزويراً.

ومن المعتاد أنَّ جماهير عامَّة الشعب يُصَدِّقُونَ مقالات جبابرة الحكّام بغباء، ويُرَدِّدُونَها تَرْدِيداً بَبَّغائِيّاً، ويُسانِدُ جَبابِرَةَ الحكّام في العادة مُنْتَفِعُونَ من قِبَلِهِمْ، ويكون لهؤلاءِ دعاياتٌ وأقوالٌ مَقْبُولة لدىٰ الجماهير الّتي لا عِلْمَ لها بألاعيب السياسة وأكاذيب السَّاسَة الجائرين الظالمين الجبّارين.

الفكرة الثالثة: توكيد عَزْمِهِ على تقطيع أيدي السَّحرة وأرْجُلهم من خلاف، وعلى تَصْلِيبهم أجمعين، بعبارة تفيد التوكيد في لغته.

وقد دلَّت عليه لام الابتداء المؤكّدَة في عبارة: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، بينما جاءت في نصّ الأعراف: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الفكرة الرابعة: قول السَّحَرة لفرعون بَعْدَ أنْ هدَّدهم وتَوَعَّدَهُمْ إذا لم يَعُودُوا إلى حظيرته كما كانوا، ما دَلَّتْ عليه العبارة القرآنيَّة: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، أي: لا نَعْتَبِرُ ما سَتُنْزِلُهُ بنا بمقتضى تهديدِك ضارّاً لنا، بل هو يزيدُنا عِنْدَ رَبّنا سعادة وأجراً عظيماً، وما نلقاه من جنودِكَ وَزَبَانِيتك لا يزيد في اعتبارنا على كَوْنِهِ أذىً. ومن هذا المعنى قول الله عزّ وجلّ للمؤمنين عن الكافرين: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ (آل عمران الآية ١١١).

يقال لغة: «ضَارَهُ أمْرُ كذا يَضِيرُهُ، وضارَهُ يَضُورُه»، أي: أضَرَّ به.

إنَّ السَّحَرَةَ بَعْدَ إيمانهم وإسلامهم، قد صارت لديهم بصيرة إيمانيَّةٌ نَفّاذَة، وتعلُّقٌ كاملٌ بالآخرة، واسْتِهَانَةٌ بالدُّنيا وما فيها، فقالُوا لفرعون: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، وقَالُوا لَهُ كَمَا جاء في سورة (طه) في اللِّقاء الثالث:

﴿... فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾.

الفكرة الخامسة: قول السَّحَرَةِ لفرعون ما دلَّتْ عليه العبارة القرآنيّة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

لم يكُنْ هذا المعنى قائماً في أذهانهم في اللّقاء الأول، فلَمْ يُورِدُوه، لكنَّهُمْ أدْرَكُوا بَعْدَ ذٰلِكَ أنَّ لهم خطايا كثيرة، سبَقَ أنِ ارْتَكَبُوهَا، فهم إذا صَبَرُوا على العذاب الذي يتوعَّدُهُمْ فرعَوْن به، فإنَّهُمْ يَطْمَعُونَ أنْ يَغْفِرَ لهم به رَبُّهم خطاياهم، بسَبَب أن كانوا أوَّلَ مَنْ آمَنَ من القبط بما جاء به موسىٰ وهارون عن الله الرَّبّ جلّ جلاله.

[أَنْ كُنّا] أي: بأنْ كُنّا، والباء المقدّرة سببيّة.

فالمعنى: لقد سبقَ أنْ كانَ مِنَّا خطايا كثيرة في جَنْبِ الله، ونَطْمَعُ الآن أنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خطايانا، بسبَبِ أنْ كُنَّا أوّل المؤمنين من القبط.

ذكرتُ قَيْدَ: من القبط، إذْ سبقَ إلى الإيمان بموسىٰ وهارون وبما جاءا به عن الله، رجالٌ كثيرون، ونساءٌ كثيرات من بني إسرائيل.

فالرأي الّذي زعمَ أنَّ السَّحرةَ قد كانوا من بني إسرائيل، وأنَّ فِرْعَوْنَ أخذهم وأكْرَهَهُمْ على تعلُّم السِّحْرِ ليكونوا قوَّةً لدِينه، ولنظام حُكْمه الإداريّ، لَيْسَ له دليلٌ من الكتاب ولا من السُّنَّة، بل تَدُلُّ النصوص القرآنيّة على خلافه، كما أوضحَتُ لدىٰ تدبُّر نصوص سابقة، ولدى تدبُّر هذا النصّ.

«خطَايَا» جمع «خَطِيئَة» وهي الذَّنْبُ والمعصية.

النصّ الذي من سورة (طَه):

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا

وَأَبْقَىٰٓ (٧١) قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣)﴿:

هذا النَّصُّ يُعَبِّرُ عن الموقف الثالث، وهُوَ الموقف الأخِيرُ الذي وَقَفَهُ السَّحَرَة بَعْدَ إيمانِهِمْ وإسلامهم، أمَامَ فِرْعَوْنَ ومُحَاسَبَتِهِ وتَوَعُّدِهِ وتَهْدِيدِهِ لَهُمْ، بأنْ يُقَطِّعَ أيْدِيَهُمْ وأَرْجُلَهُمْ من خلاف، وبأن يُصَلِّبَهُمْ في جُذُوعِ النَّخْلِ حتَّى يَلْفِظُوا أنفاسَهُمُ الأخيرة.

وقد جاءت فيه إضافَةُ الأفكار التالية على ما جاء في نَصَّيِ سورتي (الأعراف) و(الشعراء)، وفيما يلي بيان هذا:

(١) **الفكرة الأولى**: قرارُ البَتِّ بإنجاز ما كان قد تَوَعَّدَهُمْ وهَدَّدَهُمْ به، بَعْدَ أنْ رَأى أنَّ تأجيلَهُمْ وتأخيرهم وإطْماعَهُمْ لَمْ يُغَيِّر من موقفهم شيئاً، بل ازدَادُوا في إصرارهم على إيمانهم وإسلامهم للّهِ ربّ العالمين.

فبينما قال فرعون لهم في الموقف الأوّل: ﴾فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿ وهو ما جاء في نصّ سورة (الأعراف) بعبارَة تَسْويفِيَّة لا تأكيد فيها، وفيها إطماع لهم بأن يُراجِعُوا أنْفُسَهُمْ، ويَرْجِعُوا إلى الخضوع والخنوع لأوامر فرعون، ونَصْرِ مِلَّتِهِ ونظامه الإداري.

وكذلِكَ في الموقف الثاني مع مزيدِ تأكيدٍ بالوعِيدِ ومُحافظةٍ على التَّسْويف: ﴾فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿ وهو مَا جاءَ في نصّ سورة (الشعراء)، ففي هذه العبارة مَزيد تأكيد بلام الابتداء الداخلة على «سَوْف».

إذا بفرعَوْن في الموقف الثالث يُعْلِنُ قرارَهُ دونَ أنْ يَقْرِنَهُ بتَأْجِيلٍ أو تأخير أو تَسْويف، فيَقُولُ لَهُمْ: ﴾فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴿، فهذا التعبيرُ يَدُلُّ على الفورية، لأنّ لام الابتداء من خصائصها تخليص المضارع للحال، واستبعادُ معنى الاستقبال من صيغته.

(٢) **الفِكْرة الثانية**: بيانُ أنَّ تَصْلِيبَهُمْ سيكُونُ في جذوعِ النخل، إذْ يَأْمُرُ بتَسْمِيرِ أطرافهم في هذه الجُذُوع، ليكون هذا أشدّ تَعْذِيباً، وأكثر تشهيراً.

ويظهر أنَّهُ قد كان في طُرُق مَدينتهم حينئذٍ نَخْلٌ متقارب، تَصْلُحُ لِتَثْبِيتِ أطرافهم في جذوعه، بمَسامِير حديديَّة تَدْخُلُ في هذه الجذوع.

دلَّتْ على هذه الفكرة عبارة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾: أي: ولَأُصَلِّبَنَّكُمْ ولَأُثَبِّتَنَّ أطْرَاف أجْسَادِكُمْ في جذوعِ النخل، بمسامير حديديَّة تدخُلُ نَافِذَةً مِنْهَا في جُذُوعِ النخل، فتثبُتُونَ عليها فتموتون تَعْذِيباً وصَبْراً، وتكونُ مواقعُ تَصْلِيبكُمْ أَمَاكِنَ تكونون فيها عُرْضَةً لمُشاهَدَةِ الغادِينَ والرّائحين، تَشْهيراً بكم، وعبرةً لمن تحدّثُهُ نَفْسُه بأن يَسْلُكَ طريقتكم من القبط.

(٣) **الفكرة الثالثة**: دلَّ على معناها التعبير القرآنيُّ عمَّا قالَه فرعَوْن للسَّحرة: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾:

اللّام في عبارة: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ هي لام الابتداء الّتي تخلص الفِعْل المضارع للحال، وتُؤَكّدُ مضمون الجملة.

أي: ولَتَعْلَمُنَّ في العاجِلِ الحاضر أيُّنا أشَدُّ عذاباً في إيلامه، وأبْقَىٰ في دوامه، عذابي، أمْ ما خَوَّفَكُمْ مِنْهُ مُوسَىٰ وأخوه هارون.

ويظهر أنَّهُ بعد انتهاء هذا الموقف، أمَرَ فرعونُ بتنفيذ قراره التَّنْجِيزيّ بشأنِ السَّحَرَة، وأنَّهُمْ أُخِذُوا وقُطِّعُوا وصُلِّبُوا في جُذُوعِ النَّخل، وكانوا في الصَّفّ الأوّلِ من الشهداء عند رَبّ العالمين.

(٤) **أفكارٌ خمس**: دلَّ على معناها التعبير القرآنيُّ عمَّا ردَّ به السَّحَرَةُ على فرعَوْن، بشأنِ تَوَعُّدِهِ المشدَّد، والقريب التنفيذ:

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾:

(أ) ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ﴾:

أي: لَنْ نُؤْثِرَ حُجَجَكَ الواهِيَة الضعيفَة للإقناع بدينِك ونظام حُكْمِك الظالم الغاشم المستبدّ، على ما جاءنا من البَيِّناتِ الحقّ من رَبِّنا.

ولَنْ نُؤْثِرَكَ على الّذي فطَرَنا وخَلَقَنا، وجعل الحياة الدُّنيا مَرحلة ابتلاء واختبار وجعلَ الآخرة غاية حساب وفصل قضاء وجزاء، وهي الحياة الباقية الخالدة.

لَنْ نُؤْثِرَكَ: أي: نُؤَكِّدُ لك أنّنا لَنْ نختارك ولَنْ نُفَضِّلَكَ يا فِرْعَوْنُ مَهْمَا هَدَّدْتَنَا، ومَهْمَا أطْمَعْتَنَا بما عِنْدَكَ من خير.

(ب) ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ﴾: أي: فاقْطَعْ رَجاءَكَ ونَفِّذْ وَعِيدَكَ الذي تَوَعَّدْتَنا به إذا شِئْتَ.

هذه العبارة تَدُلُّ على أمْرَيْن:

الأمْرُ الأوّل: يتعلّق بمَعْرِفَتِهِمُ الجليّة، ويقينهم الكامل، بما جاءهم من البيِّنات.

وهذه البيّنات تَشْمَلُ البراهِينَ العقليَّة، والآيات الإعجازيّة، وفي مقدّمتها عصا موسىٰ، الّتي انْقَلَبَتْ بأمْرِ الله التكوينيّ فصارَتْ حيَّةً عظيمة، وابتلعَتْ ابتلاعاً حقيقيّاً لَا صُوريّاً، كلّ أدواتهم السّحرية، الّتي كانوا قَدْ أعَدُّوها للمباراة، فلَمْ تُبْقِ منها شيئاً، ثمّ عادت بأمْرِ الله التكوينيّ عصاً كما كانت، بمُجَرَّدِ أنْ قَبَضَ عَلَيْهَا مُوسَىٰ عليه السّلام.

الأمْرُ الثاني: يتعلّق بإيمانِهِم الكامل الصّحيح الصّادِق باللّهِ الذي

خَلَقَهُمْ وأبْدَعَ إيجادهم على نظام الفطر، من العمق الباطن الذي يحتوي خريطة وجودهم وصِفَاتهم، إلى الظاهر المطابق تماماً لما في الخريطة المستقرَّة في العمق، فهو جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانُهُ الذي خَلَقَهُمْ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُونُوا شيئاً مذكوراً، وجعل الحياة الدُّنيا مَرْحَلةً قصيرَةً جدّاً للامتحان، وجعل الآخرةَ الحياة الخالدة، التي يكونُ فيها الحسابُ وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء.

(ج) ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾:

أي: فأمْضِ بأمْرِكَ مَا أنْتَ قاضيهِ عَلَيْنا، فإنَّهُ لَا يَزِيدُ على إنْهَاءِ هٰذه الحياة الدُّنيا، بأنْ تَأْمُرَ بتَعْذِيبَنا حتَّىٰ مَوْتِنَا.

[**فَاقْضِ**]: أي: فأمْضِ، **القضاء**: هو في اللُّغة إمضاءُ الشَّيْء وإنهاؤه وإتمامُهُ، إرادةً، أو قَوْلاً، أو فِعْلاً، أو غَيْرَ ذلك.

(د) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ﴾:

أي: واعْلَمْ يا فرعونُ أنَّنا آمَنَّا بربِّنا فاطرنا، ليغفر لنا بإيمانِنا ما سلَفَ من خطايانا، ويظهر أنَّ هذه الحقيقة الدينيَّة قَدْ تَعَلَّمُوها من موسىٰ وهارون عليهما السَّلام، بَعْدَ الموقفين السابقين أمام فرعون.

فأَعْلَمُوا فرعونَ بأنّ الإيمان بَعْدَ كُفرٍ يَجُبُّ الآثَامَ السابقة الّتي كانت في جنب الله، فهم مُطْمَئِنُّون بأنّ الله عزّ وجلّ سيغفر لهم خطاياهم السَّابقة الّتي ارتكبوها. ومن هذه الخطايا ما أكْرَهَهُمْ علَيْهِ من السِّحْرِ، إذْ جَلَبَهُمْ بالقَسْرِ من مختلف المدائن المصرية، وفرض عليهم أنْ يُعِدُّوا وَسَائِلَهُمْ السِّحْرِيَّة لمباراة آيَةِ مُوسَىٰ المعجزة، وفرض عليهم أنْ يمارِسُوا كفريّاتٍ وشِرْكِيَّاتٍ لاستخدام كفرة الجنّ ومَرَدَتِهِم، لمساعَدَتِهِمْ في أعمالهم السِّحْرِيَّة.

(هـ) ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾: أي: وإذا كُنْتَ تُطْمِعُنَا بخَيْرَاتِكَ إذا عُدْنَا

إلى حظيرة دينك ونظام مُلْكِكَ الإداري، وتَتَوَعَّدُنَا بعذابِكَ الشَّدِيد الباقي، إذا أصْرَرْنَا على مَوْقِفِنَا، فعَطَاءُ الله خَيْرٌ مِنْ عطائك وأبْقَى، وعذابُ الله أشَدُّ من عذابِكَ وأبقى.

وإنّنا قد اخْتَرْنَا ما هُوَ خَيْرٌ وأبْقىٰ، واخترنا الخلاصَ ممَّا هُوَ أشدُّ مِنْ عذابِكَ وأبْقَى، بالإيمان بربّنا والإسلام له.

وإذْ عَلِمَ السَّحَرَة أنَّهُمْ مَقْتُولُونَ على أيدي زبانية فرعون لا محالة، بَعْدَ التهديد بإنجاز ما كان قد جعلَهُ وَعِيداً مؤجّلاً، تَحَوَّلُوا إلى دُعاةٍ إلى دينِ الله، وما جاء فيه من الحقِّ، فوجَّهُوا لفِرْعَوْنَ بياناً مصحوباً بالنُّصْحِ، والموعظة بالترهيب والترغيب بجُرْأَةٍ عظيمة نادرة، وإقبالٍ على الآخرة، وما دَلَّ على هذا البيان لم يأتِ في نصَّي سورتين (الأعراف) و(الشعراء)، بل جاء في سورة (طه)، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

- ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾:

لا بُدَّ أن يكون هذا البيان ممّا تعلّمه هؤلاء الرّجالُ المؤمنون، الّذين. كانوا سَحَرَةً، من دَعْوَةِ موسىٰ وهارون، بَعْدَ إيمانهم، إذْ لَمْ يَضَعْهُمْ فرعون في سِجْنٍ مُغْلَق، ولم يَحْجُرْ عليهم أن يلتقوا موسىٰ وهارون، طمعاً في عودتهم إلى حظيرة دينه ونظام حُكْمه الاستبدادي، الذي لا يسمح لشعبه من القبط أن يَرَوْا غَيْرَ ما يَرَىٰ هُو، ويزعمُ أنَّهُ لا يَهْدِيهم فيما يَرىٰ إلّا سبيل الرشاد.

- ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤﴾:

أي: إنَّ الشَّأْنَ العظيم المرهب المخيف هو ما يَلي: مَنْ يأتِ ربّه كافراً غير مؤمِنٍ ولا مسلم، فإنَّ لَهُ بالاستحقاق المؤكّد الذي لا مَفَرَّ لَهُ

مِنْهُ، نارَ جَهَنَّم، وهو فيها دائم البقاء، لا يموتُ فيَسْتَرِيحَ بالمَوْتِ من العذاب، ولا يَحْيَا حياةً مُرِيحَةً خالِيَةً مِنَ العذاب، بل يَكُونُ في عذابٍ دائم متجدِّد مهما امتدَّ الزمان، لأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لو أبقاه في الحياة الدنيا خالِداً مخلّداً، لَبَقِيَ كافراً بِرَبِّهِ جاحداً له مُجْرِماً عاصياً بلا نهاية، فكان عقاب كُفْرِهِ الأبَدِيّ فيما لو أبقاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الحياة الدنيا أبداً بلا نهاية، أن يَخْلُدَ في عذاب جهنَّمَ خُلُوداً أبَدِيّاً بلا نهاية.

[مُجْرِماً]: أي: كافراً، غَيْرَ مُسْلِمٍ ولَا مُؤْمِنٍ.

جاء في القرآن لفظ «المجرمينَ» عنواناً مُقَابِلاً للمسلمين الصادقين، أي: المسلمين المؤمنين. وجاء وصفاً للكافرين الّذين أهلكهم اللَّهُ عزّ وجلّ في الدنيا إهلاكاً عامّاً مستأْصِلاً، كقوم نوحٍ عليه السلام، وقوم هود عليه السّلام، وقوم صالح عليه السّلام. وجاء وصفاً للّذينَ يُعَذَّبُونَ بعذاب الحريق في نار جهنّم. وجاء لفظ «المجرم» مقابلاً للفظ «المسلم»، ولا يكون المكلّف مسلماً صادقاً، ما لم يَكُنْ مؤمناً حقّاً وصِدْقاً. فدلَّت هذه الاستعمالات القرآنيّة على أنَّ المُجْرِمَ في المصطلح القرآنيّ هو الكافر الذي يَسْتَحِقُّ الخلود في عذاب النار، إذ لَا هو مُسْلِمٌ ولَا هُوَ مُؤْمِنٌ.

فجاء في العبارة لفظ **[مُجْرِماً]** إجمالاً لعبارة: غير مُسْلِمٍ ولَا مُؤْمِنٍ، وهذا من الإيجاز في التعبير.

«مَنْ» في عبارة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ اسْمُ شَرْطٍ جازم، وجواب هذا الشرط: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾.

والضمير في **[إِنَّهُ]** هُوَ ضَميرُ الشَّأْن.

- ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: ومَنْ يَأْتِ ربَّهُ بَعْدَ مَوْتِه ويَوْمَ الدِّينِ مُسَجَّلاً في صحيفة أعماله،

أنَّهُ قَدْ كانَ في الحياة الدُّنيا مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحات، أي: مُؤْمِناً مُسْلِماً عَمِلَ في إسلامِهِ أعمالاً صالحاتٍ مُرْضِيَاتٍ لِلَّهِ رَبِّهِ، فأُولٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَات العُلَا.

جاءت عبارة ﴿مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مفصّلَةً لصفاتِ المُسْلِمِ الصادقِ في إسْلَامِهِ مع مَزيدٍ من العمل الصالح، في مقابل «المجرم»، فجاء التقابُلُ بَيْنَ مُجْمَلٍ في العبارة ومُفَصَّل.

وجاء لفظ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مراعاةً للمَعْنَىٰ الجمعيّ في لفظ «مَنْ» الشرطيّة، وجاء بصِيغَةِ اسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدّلالة على ارتفاع مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِم.

وجاءَ تفسير الدرجات العُلَا، بأَنَّها جنَّاتُ عَدْنٍ، أي: جنَّاتُ إقامَةٍ دائمة، وثباتٍ واستقرار دائِمَين.

جنَّاتُ عَدْن: هي في المصطلح القرآني، تَقَعُ في مَنْزِلَةٍ وُسْطَىٰ بَيْنَ الفردوس الأعلى، وبَيْنَ المنازل الدُّنيا فيها(١).

ومن أوصاف جنّات عدْنٍ أنّها تجري من تحتها الأنهار، أي: من تحت أشجارها وقصورها.

وجاء في وصف أهلها أَنَّهُمْ خالدون فيها.

- ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾: أي: وذلكَ الجزاء المقرّر لمن يأتِ ربَّهُ مؤمناً قد عَمِلَ الصَّالحات، يكونُ أيضاً لِمَنْ تَزَكَّىٰ، أي: لِمَنْ تَطَهَّرَ بالتَّوْبَةِ والإيمان بَعْدَ أنْ كان يَحْمِلُ أرْجَاسَ الكُفْرِ وارتكاب قبائحِ الذنوب، لأنّ الإيمان الصحيح الصادق يجبُّ ما قبله.

هذه الحقائق الدينيَّة الّتي تعلَّمها السَّحَرَةُ من مُوسَىٰ وهارون،

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبّر سورة (مريم).

وأعْلَمُوهَا لِفِرْعَوْنَ في دَعْوَتِهِمْ لَهُ إلى الإيمان والإسلام، هيَ من الحقائق الّتي تنزَّلَ بها القرآن، وجاءت في كلّ رسالاتِ الرُّسُلِ من عَهْدِ آدمَ عليه السّلام، حتى رِسالة محمّد بن عبد الله ﷺ.

وهي من عناصِرِ الدِّين الذي اصطفاه الله للناس جميعاً، لأنّ الدِّين عِنْدَ الله الإسلام.

* * *

تابع التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطات من قصة موسى عليه السّلام

الفقرة الرابعة

الآيات من (٧٧ ـ ٧٩)

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾:

القراءات:

(٧٧) ● قرأ نَافع، وابن كثير، وأَبُو جَعْفر: **[أَنِ اسْرِ]** بِكَسْرِ النون وهمزة وصْلٍ بَعْدها. ويَبْدؤونَ بهمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ إذا بَدَءُوا بَعْدَ وَقْف بفعل **[اسْرِ]** وهي من فعل «سَرَى».

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ بإسكان النون، وهمزة قَطْعٍ بَعْدها، من فِعْل: «أَسْرَىٰ».

وهما وَجهان عَرَبيَّان متكافئان.

(٧٧) ● قرأ حمزة: **[لاَ تَخَفْ]** علَىٰ أن «لا» حرف نهي يجزم الفعل

المضارع. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَّا تَخَافُ﴾ على أنّ «لا» نافية، والفعل بعدها مرفوعٌ لخلُوّه من الناصب والجازم.

والقراءتان متكاملتان في أَدَاء المعنى المراد بيانُه، ففي «لا» الناهية كلَّفَه الله موسَىٰ أَنْ لا يَخاف، وفي «لاَ» النافية أبان له أَنَّه لا يَجِدُ في عبوره مَا يخاف منه على نفسه، ولا على مَنْ معه من بني إسرائيل، وما مَعَهُمْ من أحمالهم، وأثقالهم ودوابّهم.

تمهيد:

طوىٰ النّصُّ هنا الذي من سورة (طه) بيان أحداثٍ كثيرةٍ جَرَتْ بَيْنَ مُوسَى عليه السَّلام من جهة، وبَيْن فرعون وملئه وقومه من جهة أُخْرى، وقَدْ جاء في متفرّقاتٍ من النُّصوصِ في عدّة سُور بياناتٌ مُوجزاتٌ لهذه الأَحْدَاثِ، ومنها أَنَّ الله عزَّ وجلَّ أجرىٰ لموسَىٰ الآيات التّسْعَ كلَّها الّتي كذَّبَ بها فِرْعَوْنُ ومَلؤُهُ وأنصارُهم جحوداً، واعتبروها من أنواع السّحر، مع أنَّ نفوسَهُم قَد استَيْقَنتها، لَكِنْ جَحَدُوها ظُلْماً وعُلُوّاً.

ويظهر أنّ إجراءَ هذه المعجزات قد كان خلال عدَّة سنين، جرَتْ فيها مفاوضاتٌ مُتَعَدِّدَات بين موسىٰ عليه السَّلام، وبَيْن فرعون، وكَانَ فرعون يطلب من موسَىٰ عليه السَّلام رفْعَ المصائب الّتي تأتي بها آيات الله، بدُعاء منه لربّهِ، ويَعدُه بأنه إذا تحقَّق رفْعُ البلاء أذِنَ لَهُ بأَنْ يَخرجَ بِبَنِي إسرائيل من مصر، لكنَّهُ كان يَنْكُثُ كلَّما رَفَعَ اللهُ عَنْهُمْ بَلَاءَ الآيَةِ ومصائبها.

وكان فرعونُ وملؤه يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْلِمِينَ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِهِمْ، وقومُهُمْ لَهُمْ عَابِدون، يعْنُونَ مُوسَىٰ وهارون عليْهُمَا السَّلام.

وانْتَقَلَ النَّصُّ مُفَاجَأَةً إلى بَيانِ فَصْل خروج بني إسرائيل بقيادة موسَىٰ وهارُون مِنْ مصر، دون إذْنٍ مِنْ فِرْعَونَ، وبيان فَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ بآيَةِ عَصَا

مُوسىٰ، وبيان خروج جميع بني إسرائيل وما معهم ناجين، وبيان اتّباع فرعون وجنوده لهم من مكان الغرق نفسه، إلَّا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضَمَّ مياه الْبَحْر عليهم فأغْرَقَهُمْ جميعاً.

وقد جاء حول هذا الْفَصْل من قِصَّةِ مُوسَىٰ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ مِمَّا كَانَ تمهيداً له عدَّةُ نصوص قرآنية هي متكامِلَةُ الدَّلَالاتِ فيما بَيْنَها، ويُسْتَفادُ مِنْ جَمْعِها إدْراكٌ كامِلٌ لما تَّحْسُنُ بحَسَبِ حكمة الله مَعْرِفَتُهُ من أحْداثِ هذا الفصل.

وأُقَدِّمُ تَدَبُّراً لَها وفْقَ الترتيب الذي يفتح الله عليّ به، عن طَرِيقِ التأمُّل فيها، ومَا تقتضيه طبيعة الأحداث.

نظرات تدبرية تكامليّة:

أقدم فيما يلي نظرات تدبريّة لمخْتَلِف النصوص المتَعَلِّقة بفَصْلِ رحْلَةِ الخروج، وبعض ما يتّصل بها من مقدماتٍ كانت قُبَيْلَها.

والنصوص الّتي استخرجتها للدراسة التدبريَّة التكامليّة هي كما يلي:

(١) مِنْ سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) الآيات من (٣٦ ـ ٤٠).

(٢) من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) الآيتان: (١٣ و١٤).

(٣) من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) الآيات من (٢٣ ـ ٤٥).

(٤) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) الآيات من (١٠١ ـ ١٠٣).

(٥) من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) الآيات من (٥٢ ـ ٦٨).

ومن سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) الآيات من (٧٧ ـ ٧٩).

(٦) من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) الآيات من (٩٠ ـ ٩٢).

(٧) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) الآية (١٣٦).

(٨) من سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) الآيات من (١٥ ـ ٢٦).

أولاً

نَصُّ سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول)

الآيات من (٣٦ ـ ٤٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٣٨) وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠)﴾:

القراءات:

(٣٧) ● قرأ ابن كثير: [قَالَ مُوسَىٰ] بحذف حرف العطف.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بإثبات حَرْف العطف الواو. وفي القراءَتَيْن إشارةٌ إلَىٰ أَنَّهُ يَحْسُنُ الوصل بحرف العطف «الواو» باعتبار، ويحْسُنُ الْفَصْل بترك حرف العطف باعتبار آخر.

فباعتبار أنّ الموضوع يتحدّث عن الآيات البينات التي جاء بها موسى عليه السَّلام، في جملة: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ﴾ وجملة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ كان الوصْلُ مُسْتَحْسَناً.

وباعتبار أنَّ موسَىٰ عليه السَّلام كان يتحَدَّث في أحوال مختلفة قائلاً: [رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاء بالْهَدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ] دون أنْ يكون جواباً لمقالتهم، كان الفصل مستحسناً.

(٣٧) • قرأ حَمزَةُ، والكِسَائي، وخَلَف: **[وَمَنْ يَكُونُ]** بالياء.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[وَمَنْ تَكُونُ]** بالتاء.

وهما وجْهان عربيان جَائِزان ومتكافئان، لأنّ عاقبة الدّار مجازيّة التأنيث.

(٣٧) • قرأ نَافع، وٱبْنُ كثير، وأبو جعفر، وأبو عَمْرو: **[رَبِّيَ أَعْلَمُ]** بفتح ياءِ المتكلّم. وقرأ باقي القراء الْعَشَرَةِ **[رَبِّي أَعْلَمُ]** بإسكان ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان عربيان متكافئان.

(٣٨) • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عَامِر، وأبو جعفر: **[لَعَلِّيَ أَطَّلِعُ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[لَعَلِّي أَطَّلِعُ]** بإسكان ياء المتكلم.

(٣٩) • قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[لاَ يَرْجِعُونَ]** ببناء الفعل للمعلوم.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرة: **[لاَ يُرْجَعُونَ]** ببناء الفعل لما لَمْ يُسَمَّ فَاعله.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد بيانُه، أي: لاَ يُرْجَعُون بإرجاع الله لهم، فهم لا يَرْجِعُون، هذا ظَنُّهم، لكنَّهُمْ يُرْجَعُونَ فَيَرْجِعُونَ مطاوعين قهراً.

تمهيد:

ما جاء في هذا النصّ دلَّ على أحداثٍ من المراحل الأخيرة، للنَّشاط الدَّعَوِيّ الّذي قام به موسى وهارون عَلَيْهُمَا السَّلام، في سِيرَتِهما

مع فرعون وملئه وعموم القبط طَوَال سنين، وهذه المراحل الأخيرة مسْبُوقةٌ بإجراء الله عزَّ وجلَّ الآيات التِّسْعَ كُلَّها الَّتي آتاها الله عزَّ وجلَّ لموسَىٰ عليه السَّلام خلال هذه المدّة من سيرته معهم، لإقناع فرعون فمن دونه بأنَّهُ هو وأخوه رسولان حقًّا وصِدْقاً، من عِنْدِ الله رَبّ الْعَالَمِين، وإقناعهم بأنّ الدين الذي جاءا به وبلّغاهُمْ إيَّاهُ هو من عند الله رَبّ العالمين حقًّا وصِدْقاً.

ولا بُدَّ أن تكون دعْوَتُهُمَا قد اقترنَتْ بالإقناعات الفكريّة بأنَّ لهذا الكون رَبًّا يتصرّف بالعالمين وحْدَه، بصفات ربوبيَّته العظيمة، وأنَّهُ هو الإلَٰه الّذِي يجبُ أن يُعْبَدَ وحْدَه لا شريك له.

فما كانَ من الجمهور الأعظم من القبط، بدءاً من فرعون ونزولاً إلى سائر الشعب المصريّ إلّا التولّي والإدبار، وعدَمُ الاستجابةِ لدعوة موسَىٰ وهارون، واعتبار أنَّ الآيات البيّنَاتِ الإعجازيَّةِ التّسع التي جاءَا بها، هي من أنواع السِّحْر العظيم، خلافاً لما يَدَّعيان افتراءاً، من أنّها آياتٌ حقيقيَّةٌ يُجْرِيهَا اللهُ رَبّ العالمين لهما، تصديقاً لهما بأنّهما رسولان من قِبَلِ رَبّ العالمين حقًّا وصِدْقا، وأنَّهما يُبَلِّغان عنه قضايا الدين حقًّا وصدقاً.

وفي هذا النصّ عرض أبْرَز مواقف فرعون في هذه المراحل الأخيرة.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ في معرض الحديث عن مُوسَىٰ عليه السَّلام وسيرته في مصر:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى. . . ٣٦﴾:

أي: فلما جاءَ موسَىٰ فرعَوْنَ وملأه فَمَنْ دونَهم من سائر القبط،

باستثناء من كان يكْتُمُ إيمانه، بآياتنا التِّسْعِ البيّنات وهي: «آيَة العصا ـ وآيَةُ اليد ـ وآيَةُ السنين، وهي الَّتي حصل فيها جَدْبٌ ونقصٌ من الثمرات في كلّ مصر ـ وآيَةُ الطوفان ـ وآيَةُ الجراد، وآيَةُ الْقُمَّل ـ وآيَةُ الضَّفادع، وآيَةُ الدَّم، وآيَةُ الرِّجْز وهو نوع من العذاب أنزلَهُ الله عليهم»[1] قالوا: ما هذا إلَّا سِحْر، أي: أعمال سحْرِيَّةٌ كُبْرىٰ. أمّا ادِّعاءُ أنَّها آياتٌ من آيات الله رَبّ العالمين فهو ادّعاءٌ مفترىً على الله.

قول الله تعالى تَتِمَّةً لِحِكايَةِ مَقالتهم:

- ﴿... مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: ما سمعنا بهذا الذي جاء به موسى وأخُوهُ هارون، من توحيدِ الرُّبوبيَّة وتوحيد الإلَهيّة لموجود أزلِيٍّ أبَدِيٍّ واحد، في أخبار آبائنا الأوّلين السّابقين، الذينَ كانوا علىٰ مِثْلِ دينِنا، فموسَىٰ وهارون قد جاءَا بدينٍ لم يَسْبِقْ لنا به عِلْمٌ، أو خبر مُتَوارَثٌ عن آبائنا، فهما مفْتَرِيان عَلَىٰ الحقيقة، ولَيْسَا على هُدىً، ولم يَأْتيا كما يَزْعُمَانِ بالْهُدَىٰ من عِنْدِ خالق الكون، وادّعاءاتُهما عن البعث، والحياة الأخرى، وعن الجنَّة دار المؤمنين المتقين، وعن النار دار الكافرين المجرمين، ادّعاءات باطلات مفتريات على الحقيقة، وما نَحْنُ عليه وما وَرِثْناه عن آبائِنَا هو الْهُدَىٰ.

قول الله عزّ وجل:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

هذا رَدُّ مُوسَىٰ عليه السَّلام، وبيانُهُ الّذي كَانَ يُكرّرُه، وهو يشْتَمِلُ على ثلاث قضايا:

---

(١) وانظر لواحق تدبّر الآية (٢١) من سورة (طه) عند تدبر الآية (٣٢) من سورة (القصص).

القضية الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾: أي: وبما أنَّه كذلِكَ، وهو الذي يجازي من أطاع ومَنْ عَصَىٰ، ومن الْتزَمَ هُداه، ومن افترى عَلَيْه، فَلْيَرْتقِبْ كلُّ فريقٍ منَّا عَاقِبَةَ أَمْرِهِ في الدنيا، وفي الآخرَةِ يَوْمَ الدّين.

القضية الثانية: دلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾.

عاقبة الدار، وعُقْبَىٰ الدار: قد جاءا في القرآن للدلالة على دار النعيم يَوم الدين، وقد جاء في سورة (الرَّعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول) تفسير عُقْبَىٰ الدّار بأنّها جَنَّات عَدْن، فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾:

العاقبة والْعُقبَىٰ: مترادفان في المعنى، وهما بمعنىٰ: آخر كلّ شيء وخاتمته، وبمعنى: جزاء الأمر.

و(ال) في: ﴿ٱلدَّارِ﴾ هي للْكمال، ومعلوم أنّ الدار الكاملة في العاقبة الحسْنَىٰ هي جنَّاتُ عَدْنٍ فما فَوْقَها مِنْ دَرَجات، وأنّ الدار الكاملة في العاقبة السوأى هِي دركات عذاب الحريق، في جهنم دار عذاب المجرمين.

والإضافة في عبارة: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ وعبارة: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ هي على معنى «في» أي: عاقبةٌ حسَنَةٌ جدًّا في الدار العظيمة الكاملة في صفاتها، والتي هي جنَّاتٌ عَدْن، ذَواتُ الدَّرجات الرفيعات في عُموم الجنَّة.

القضيَّة الثالثة: دَلَّت عليها عبارة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: إنَّ الشَّأْن العظيم الّذي هو مِنْ سُنَنِ الله في عباده، أنَّ الظالِمينَ بالافتراء على الله، أو بجُحُودِ رُبوبيّتِهِ وإلَهيّتِه والتمرُّدِ على طاعَتِه، لاَ يكون لهم فلاحٌ في الدنيا، ولا في الآخرة.

الفلاح: هو في اللُّغة الفوز، والنجاة، والظفر، والبقاء في السلطان.

قول الله عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

هَامَان: يظهر أنَّه الوزير الأول، والْيَدُ الْيُمْنَىٰ لفرعون، وذو السلطان النافذ في مملكته.

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾: أي: فاتَّخذ وسائِلَك ليوقد الْعُمَّالُ النار على اللَّبِن من الطين لِيَصِير آجرًّا.

﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾: أي: فأمُرْ الْبَنَّائِينَ بِبِنَاءِ صَرْحٍ شاهقٍ لي، واتَّخذ كلّ ما يلزم لذلك.

الصَّرْح: هو في اللّغة القصر العالي، والبناء الشاهق الذاهب في السّماء.

﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ﴾: أي: لِأَطّلِع، «لَعَلَّ» هنا بمعنى لام التعليل.

أَطّلِع: أي: أنظر وأشاهد، يقال لغة: «اطّلَعَ إِلَىٰ الشيء» أي: تَطَلَّعَ وَنظر ليَعْرفه.

كان الإلّه في تَصَوُّرِهِمْ هو الإنسان الذي يجب على النّاس طاعة أوامره ونواهيه، والذي يجب على الشعب أنْ يخضعوا له خضوعاً تامًّا، ويكْتَسِبُ هذا الإنسانُ إلهيّتَهُ بقوَّةٍ وراثيَّةٍ من آبائه وأجدادَهِ الآلِهَةِ، وتكون هذه القوة المعنويّة في ذاتِ الملِك، وتمنَحُهُ هذا الحقَّ متىٰ ملَكَ، إذْ تَحُلُّ فيه روح الإلّهيَّة الّتي كانت في آبائه وأجداده.

وبما أنَّ فرْعَون قد كان هو مَلِكُ مصرَ غَيْر مُنَازع، فإنَّه لا يَعْلَمُ أن

لِلْملأ وهم أعْيَان مملكته مِنْ إلَه غيره، تجب طاعتُه، ويجب الخضوع له، وبما أنَّه هو إلَه الأعيان فلا بُدَّ أن يكون إلَهاً لكلّ من دونهم من شعب مملكته.

وبهذا أعْلَنَ أنَّهُ إلَه كلِّ شَعْبِه من القبط.

وإذْ يَدَّعي مُوسَىٰ أنّ إلَهَهُ في السَّماءِ، فأبن لي يا وزيري الأول، ويا ساعدي الأيمن، يا هامان، صَرْحاً مِنْ آجُرّ، لأرقَىٰ في طبقَاتِ هذا الصَّرْحِ لعلّي أشاهد في الأجواء العليا إلَه موسىٰ، فإذا لم أَجِدْ له وُجوداً فموسَىٰ كاذبٌ في ادّعاء أنَّ إلَهَهُ في السماء.

إنّ فرعون يخدع شعْبَه، إذْ يَزْعُمُ أَنَّه إذا بنىٰ بناءً عالياً شاهقاً. وصَعَدَ إلى أعْلاَه فلا بُدَّ أن يُحيطَ نظره بكلّ شيء، فإذا لم يَجِدْ إلَهَ مُوسَىٰ، فإنّ هذا الإلَه لا وجودلَه، ومُوسَىٰ كاذبٌ في ادّعائه.

ويظهر أن جمهور شعبه كان يومئذٍ ساذج التفكير، أمّا الأذكياء فقد أغرقهم بالمنافع، فَهُمْ يُؤَيّدون أقوالَهُ، وهم يَعْلَمُونَ أنَّها باطلة ساقطة، لا قيمةَ لها، فَهُمْ يشاركونه في خِداع جمهور الشعب السَّاذج.

وأحْكَمَ خَدِيعَتَهُ التي أراد ترويجها في شعبه، إذْ قال قَبْلَ بناء الصَّرح عن موسى عليه السَّلام: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ فأظهر بهذه العبارة اهتمامَهُ بالتَّعَرُّفِ على إله موسى، فلم يَقُلْ: وإنَّه من الكاذبين، بل جعل ذلك احتمالاً ظنيًّا، وأنّ مراقبة السماء من أعلَىٰ الصرح تكشف صحَّةَ هذا الظنّ أو عدم صحته.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾.

﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾: أي: وامتَنع عن قبول الحقّ معاندةً وَتَكَبُّراً. وتَكَبَّرَ تكَبُّراً شدِيداً.

الاستكبار: يأتي في اللّغة بمعنىٰ الامتناع عن قَبُول الحق معاندة وتكبُّراً. ويأتي بمعنى التَكبُّرِ بشِدَّةٍ، أخذاً من دلالة صيغة «استَفْعَل».

أي: وتكبَّر فرعون هو وجنودُه تكبُّراً شديداً، وامتنعوا عن قبول الحقّ الربّاني، بغير دليلٍ يُعْطِيهم شيئاً قَلِيلاً من العذر.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩﴾ ـ وفي القراءة الأخرى: [**لاَ يَرْجِعُونَ**]:

أي: ولم يقْبَلُوا الإيمان بنبَأ البعث والجزاء في حياة أخرى، بعد هذه الحياة الدنيا، للحساب، وفصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، من قِبَل رَبّ العالمين، مع أنّ هذا النبأ مقرونٌ بحججٍ عقليّة بيّنَة، وآيات إعجازيَّةٍ بَاهرة، آتاها الله موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلام.

وكان ظَنُّهُمْ الّذي اعْتَمَدُوا عَلَيه لإنكار يوم الدين، ظَنًّا تَوَهُّمِيًّا باطلاً، يتَخيَّلُ أنَّ الحياة قاصرةٌ عَلىٰ هذه الحياة الدّنيا.

● ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ... ٤٠﴾: أي: فجعلنا في نفسه غيظاً يَدفَعُه لاتّباع موسىٰ وقومه بجيشٍ قوي لمقاتلتهم، وقتْلِ كُبَرائهم، وإعادة سائر شعب بني إسرائيل عبيداً، وجعلنا في نفسه الخوف من عودة موسى بعد هذا الخروج بِجَيْشٍ مقاتل، وزيَّنَا لَهُ تكوين جيش لملاحقتهم وقتالهم، واسْتَدْرَجْنَاهم حتَّىٰ دَخلوا ملاحقين الإسرائيليين من مكان الفلق.

فلمَّا اكْتَمَلَ دُخولُهُمْ جميعاً في الطريق الذي عَبَر منه موسَىٰ وقومُهُ وما معهم، وبَعْدَ أنْ تَمّ عُبُورُ آخِرِ عابر من بني إسرائيل وما معهم وخروجهم من اليمّ، ضمَمْنَا على فرعون وجنوده فِلْقَتَي البحر فأغْرَقناهم أَجْمعين.

﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾: أيْ: فَطرحْنَاهم وأبْعَدْنَاهم من الحياة، كما يُطْرَحُ الشيء المحْتَقَرُ المكروه، ومنْهُ نَبْذُ النَّواة.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: فتفكّر أيُّها الصَّالِحُ للنظر التَّفَكُّرِيّ أيًّا كُنْتَ في مجاري قضاء الله وقدره وجزاءاتِهِ المعادلات، كيف كان عاقبة فرعونَ وجنوده، الظالِمين ظلماً من دركة الكفرِ عناداً ومكابرة وإصراراً على الباطل، اغتراراً بزينات الحياة الدُّنيا.

* * *

ثانياً

نصّ سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول)

الآيتان (١٣ ـ ١٤)

قال الله عزَّ وجلَّ في معرض الحديث عن فرعون وقومه:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿ءَايَٰتُنَا﴾: أي: آياتُنا التّسْعُ كلُّها، والفاء في عبارة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ تَعْطِفُ عطف ترتيب مع تعقيبٍ على آخر الآيات، لا على آيتي العصا واليد فقط.

﴿مُبْصِرَةً﴾: أي: واضحة مُضِيئة بَيّنة، يقال لغة: «أَبْصَرَ الطّرِيقُ فهو مُبْصِرٌ» أي: استبان ووضح.

قال أبو إسْحَاق: معنى «مُبْصِرَة» تُبَصِّرُهُمْ، أي: تُبَيّنُ لهم، وقَالَ الأخْفَش: إنَّها تُبَصِّرهم، أيْ: تجْعَلُهم بُصَراء⁽¹⁾.

---

(١) انظر لسان العرب، مادة (بصر).

وعلى هذا ففِعْلُ: «أَبْصَرَهُ» مثل فعل: «بَصَّرَهُ» أي: جَعَله يُبْصر.

فالمعنى على هذا: فلمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنَا مُبَصِّرَةً لهم بأنّ مُوسَىٰ وهارون رسولان من ربّهما صادقان، وبأنَّ مَا جاءَا به من قضايا الدين حقٌّ وصِدْقٌ يُبلّغانه عن الله ربّ العالمين.

﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾، أي: ما جاء به موسىٰ وأخوه هارون نوع من أنواع السِّحْرِ الكبرى، الّتي لم يتوصَّلْ إلى معرفتها سَحَرَةُ مصر كلُّهم.

﴿مُّبِينٌ﴾: أي: واضح جلِيّ، من فعل: «أَبَانَ الشَّيْءُ إبَانَةً فَهُو مُبِينٌ» أي: ظهر ووضحَ وكانَ جلياً.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾: أي: أنْكَرُوها، مع علمهم علماً يقينيًّا بأنَّها حقٌّ، أي: أنكرُوا كَوْنَها آيات من عند الله رب العالمين.

الجحود: هو إنكار كون الشيء حقًّا، مع الْعِلْم بأنَّه حقٌّ.

يُقَال لغة: «جَحَدَ، يَجْحَدُ، جَحْداً، وجُحوداً» أي: أنكر الحقّ مع العلم بأنَّه حقٌّ، ويقال: «جَحَدَهُ حَقَّه، وجَحَدَهُ بحَقّهِ» فالباء في [**وَجَحَدُوا بِها**] استعمالٌ عربيّ، ولا حاجة إلى البحث عن الغرض من ذكر الباء في العبارة، فهي للتعدية.

﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾: أي: وعَلِمَتْ أَنْفُسُهم عِلْماً يقينيًّا لاَ شكَّ فيه أَنَّها آياتٌ من آيات الله رَبّ العالمين حقًّا.

«**اليقين**»: هو العلْمُ الذي لا شكّ فيه، وأدْنَىٰ دَرَجاتِه ما اعتمد على أدلّة نظريَّةٍ فكرية. أو خبريَّةٍ صادقة لا يعتريها شكٌّ.

وجاء استعمال لفظ «أنْفُسُهم» وهو من جموع القلّة، إشارة إلى أن أصحاب هذا الاستيقان هم فرعَوْن وآله وأعوانهم المخلصون لهم، مثل: هامان، وقارون، وهؤلاء قليلون يناسبهم جمع القلة، وهم الذين جَحَدوا آيات الله البيّنات ظلماً وعلوًّا.

﴿ظُلْمًا﴾: أي: تجاوزاً للحدود القصوىٰ، الّتي لا يُحْتَمَلُ من العصاة تجاوُزُها، أي: حالَة كونهم ظالمين، استعمل المصدر على معنى اسم الفاعل. أو مفعول لأجله، أي: وجَحَدُوا بها بسَبَبِ إصرارِهم في نفوسهم على الظلم الّذي لهم فيه سلطانٌ عظيمٌ ومنافع ومصالح.

﴿وَعُلُوًّا﴾: أي: وحالَة كوْنهم مستكبرين، أو بسبب إصرارهم في نفوسهم على العلُوّ في الأرض، وعدم قبولهم اتّباع رسولي ربّهم، وعَدَم قبولهم الدِّين الذي جاءا به.

فقد كانوا يرَون أنَّ إيمانهم يَجْعَلُهم يخْسَرونَ شيئاً من سلطانهم في الأرض على شعبهم، وعبيدهم بني إسرائيل.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: أي: فانْظُر أيُّها الناظر المتفكّر، كيف كَانَ جزاء المفسدين في الأرض، إذْ أغْرَقناهم وجنودهم أجمعين.

عاقبة عمل العامل: الجزاء الذي يكون بعده مباشرةً، أو بَعْد فاصلٍ زمنيّ، والأصل فيه ما يأتي عقبه.

المفسدون: هم الذين ينشرون الفساد في الأرض، يقال لغة: «أفْسَد فُلانٌ الشَّيْءَ» أي: حولَهُ عن صلاحه، أو أتْلَفَه، وتحويل الشيء عن صلاحه يجعلُه غير صالح ولا نافع، وربَّما يجْعَلُه ضارّاً كرِيهاً مفْسداً لِغَيْره.

إضافات هذا النصّ علىٰ نصّ سورة (القصص):

بالمقارنة تبيّن لي أنّ هذا النصّ من سورة (النمل) قد أضاف إلى النصّ الذي سبق تدبُّرُه من سورة (القصص) فكرتين:

الفكرة الأولَى: أنّ فرعَوْنَ وملأه، ومن ورائهم شعب مصر، جَحَدوا

كون الآيات التّسْع آيات أجراها الله عزَّ وجلَّ لموسى وهارون، لإثبات صِدْقِهما في ادّعاء أنَّهما رسُولا رَبّهما، وإثبات صِدْقِ ما جاءا به من الدّين عن رَبّهما، وادَّعَوْا كذباً وافتراءً على الحقيقة أنّ هذه الآيات العظيمات نوعٌ عظيمٌ من أنواع السّحر، مع أنّ أنْفُسَ فرْعَوْن ورهط ملئه معه كانت على يقينٍ كامل بأنّها آيات من عند الله ربّ العالمين، وليست من السِّحْر الذي زعَمُوه.

الفكرة الثانية: أنَّهُمْ كانوا قوماً مُفْسِدينَ في الأرض، بينما جاء في نصّ سورة (القصص) أنهم كانوا ظالمين.

فتكامل النّصّان في حدود البيانات التي اشتملا عليها.

وقد أجمل نصّ سورة (النمل) كلّ سيرة موسى الدعوية المصحوبة بالآيات الإعجازية التي أجراها الله له في مصر، بعبارة غاية في الإيجاز والطيّ بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑬﴾ فطوَىٰ النصّ هُنَا كُلّ الأحداث الّتي جاء بعض تفصيلٍ لها في النصوص الّتي تحدَّثَتْ عن سيرة موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا السَّلام في مصر، وذكَرَ النَّصُّ هنا الفِقَرَة الأخيرة، وهي قولهم عن كلّ الآيات الرَّبَّانيّة الّتي أجراها الله لموسى ويُلْحَقُ به وزيرُهُ هارون عليهما السلام: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كُلُّ هذا الذي جرىٰ على يَدِ مُوسَىٰ وأخيه هارون طَوال سنين سِحْرٌ واضِحٌ جَليٌّ، يعتمد على أعمال سِحْرِيَّةٍ، تَصِلُ إلى حَدِّ تغييرِ حقائق الأشياء والتصرُّفِ في الظواهر الطبيعيَّة.

ومعنى النصّ بعد هذا التحليل: فعقب أنْ جاءتهم كُلُّ آياتنا الواضحات المضيئات بقوّة بيانها في أزمان متفرّقة، حتَّىٰ الآية الأخيرة منها وهي آية الرِّجْزِ.

جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج، في الحديث عن

آخر الآيات الرّبانية قبل خروج بني إسرائيل من مصر مباشرة، ما يلي:

«٢٩ فَحَدَثَ في نصف اللّيلِ أنَّ الرَّبَّ ضَرَبَ كُلَّ بِكْرٍ في أرْضِ مِصْرَ مِنْ بكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ إلَىٰ بِكْرِ الأَسِيرِ الَّذِي فِي السِّجْنِ وكُلَّ بِكْرِ بَهِيمَةٍ ٢٠ فقامَ فِرْعَوْنُ لَيْلاً وكُلُّ عَبِيدِهِ وجميع المصريّين. وكَانَ صُرَاخٌ عظيمٌ فِي مِصْرَ. لأَنَّهُ لم يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مَيّتٌ. ٢١ فدَعَا مُوسَىٰ وهَارُونَ لَيْلاً وقالَ: قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أنْتُمَا وَبَنُوا إسرائيل جَمِيعاً. . ».

فقد يكون هذا هو الرّجْر، وقد تكون هذه الآية آخر الآيات الرَّبانية الّتي آتاها الله لموسى عليه السَّلام، ولكن كيف يأمُر فرعون بني إسرائيل بالخروج من مصر ثم يلاحقهم ليقاتلهم لأنهم خرجوا.

وعلى الرُّغم من شدّة وقْعِها، وما فيها من مصائب، جحَدَها فرعَوْنُ وكُبَراء دولته، حالة كونهم ظالمين بهذا الجحود، وظالمين في مخْتَلِفِ تَصَرُّفَاتِهِم، وحالة كونهم مُسْتَمْسِكِين بعُلُوّهم علىٰ شعب مصر القبطي، ومن يَرَوْنهم في مصر عبيداً لهم وهم بنو إسرائيل.

أو جحدوها بسَبَبِ حِرْصِهِمْ على أن يسْتَمِرُّوا ظالمين، وذَوِي عُلُوّ في أرض مصر، مُسْتَمْتِعين بمشاعر العظمة، ونفوذ أوامِرِهم ونواهيهم دون معارضة ولا معصية، وما يَحْصُلُونَ عليه بذَلِكَ من منافع ولذّاتٍ وتحقيق مصالح خاصّة.

فأخَذْنَاهم واسْتَدْرَجْنَاهم، وزيَّنّا لهم العبور في طريق الْبَحْر بين فِلْقَتَيْه الجامِدَتَيْنِ كالجبلَيْنِ العظيمين، حتى أغْرَقناهم جميعاً.

فانظر أيُّها المتفكّرُ أيًّا كنْتَ، في حكْمَتِنَا وعَدْلِنَا وعقوباتنا العادلاَتِ القاهرات، وانْظُرْ كيف كانت عاقبة هؤلاء المفسدين في أرض مصر، فرعون ومَلَئِه وجنودهم.

* * *

ثالثاً

نصّ سورة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول)

الآيات من (٢٣ ـ ٤٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ
وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟
أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى
ضَلَـٰلٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى
وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن
رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى
يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ
ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا
مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ
مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ
جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ
مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ
(٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ (٣٦) أَسْبَـٰبَ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ

عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ
ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا
مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ
وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ
وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى
ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ
﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾:

تمهيد:

هذا نصٌّ طويلٌ من سورة (غافر) يتضمَّن الحديث عن المراحل الأخيرة، من سيرة موسىٰ ومعه أخوه هارون عليهما السلام، في مسيرتهما الدّعَويّة، لفرعون وَسَاعِدَيْه الأيْمَنِ والأيْسَرِ: هامان من القبط، وقارون من بني إسرائيل، ويُلْحَقُ بهم ملأ فِرْعَونَ الّذين لهم نفوذ في قَصْرِه وهم أعْيَانُ دَوْلته، ثُمَّ سَائرُ شَعْبِ مصر.

وفي هذا النصّ تفصيل أحداثٍ لم يأتِ بيانٌ عنها في النصوص الأخرى، وبيانُها بالتفصيل مع تَدَبُّر النصّ يطُول كثيراً.

ويَحْسُن هنا أَنْ أَقْتَصِر على المِقْدَار الموفي ببيانٍ غير ذي طولٍ، وإذا يسَّر الله عزّ وجلّ، وأمدَّ بالْعُمْر وقضى، فَسَأَسْتَوفي التدبّر بالتفصيل الْمُسْهَب على مقدار مشيئته، لدى تدبّر سورة (غافر).

وجدير بالمتدبّر الحصيف، أن يقَعَ في تقديره باستمرار أنّ بيْنَ هذا النصّ وبيْنَ سَائِر النُّصُوص الواردة في القرآن المجيد بشأن الحديث عن هذه المراحل الأخيرة من سيرة دعوة موسى ومعه أخوه هارون في مِصْرَ قَبْل الخروج ببني إسرائيل منها، تكاملاً في الدلاَلاَت على المعاني المراد بيانها، ضِمْن منهج القرآن الكريم في توزيع عناصر الموضوع الواحد، على النُّصوص المتفرّقَةِ الواردة في سُورٍ متعددة منه.

نظرات حول تَدَبُّر تحليليّ للفِقرات:

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾:

لم يُذكَرْ في هٰذِهِ الآيَةِ هارونُ عليه السَّلام، لأنَّهُ وزيرُ أخيه موسى، والمساعد له، فهو مُلْحَقٌ به حُكْماً.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: بآيَاتِنا التِّسعِ الخارقَاتِ الّتي أجراها عزّ وجلّ لموسىٰ وهارون، وقد سبَق من قريبٍ بيانُها بالتفصيل.

﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾: أي: وبرهان عقْلِيّ واضح الدَّلالة، مُلْزِمٍ بالتَّسْلِيم، لِمَنْ كان ذا فِكْرٍ سليم، مستَعِدٍّ للتَّنازُلِ عن أهوائه، ونزَعَاتِهِ، ونزغاتِ شيطانه، ومُسْتَعِدٍّ للإيمان بالحقّ.

السُّلطان: يأتي في اللّغة بمعنىٰ: «الْحُجّة والبرهان» وبمعنىٰ: «الْقُوَّة والْقَهْر» وبمَعْنَىٰ «الْمُلك والْوِلاَيَةِ على الناس» والمناسب هنا المعنى الأوّل.

- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾:

خُصَّ هؤلاء الثلاثَةُ بالذكر في هذا النصّ، للدَّلالة على أنَّ فِرْعَوْنَ هو المَلِكُ الّذِي جعلَ نَفْسَهُ إلَهاً لشَعْبه، وأنَّ هامان وَزِيرُه الأوّل، وساعِدُه الأيْمَنُ المنفّذ لرَغباته، والمَشارِكُ لَهُ في السُّلطان على شعب مصر، ولأنّ

قارونَ وزيرُه الثاني، وساعدُه الأيْسَر في التَّسَلُّطِ على شعْب بني إسرائيل، إذْ هو إسرائيليٌّ مُنْتِفعٌ من القصر الفرعوني، ليُحقِّقَ مَطَالِبَ فرعون في بني إسرائيل، في البغي عليهم.

ذُكِرَ قارُونُ هنا في هذا النصّ إضافة على ما جاء في النَّصَّيْنِ السابقين.

- ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فقال هؤلاء الثلاثة عن موسى عليه السَّلام: هذا ساحِرٌ كذّابٌ في ادّعاء أنَّه رسُولُ رَبّ العالَمِين، وكذلك قالوا عن هارون، لأنَّه وزيرُ مُوسىٰ وساعِدُه الأيمن، فما يكونُ حَديثاً عن موسَىٰ ينْسَحبُ على هارون.

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾:

هذا بيانٌ صادرٌ عن الله عزّ وجلّ، أي: فلمَّا جاءهم موسى باعتباره الرَّسُول الأوّل بالحقّ، من الآيات البيّناتِ الخوارق، والحجج البرهانيّة الدامغة.

- ﴿قَالُوا ٱقْتُلُوٓا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ﴾:

أي: اقْتُلُوا من أولاد الّذين آمَنوا مع مُوسَىٰ بربّ العالمين، وبما جاء به من عند ربّه على ما يَزْعُم، الْمَوالِيدَ الذُّكور، واستبقُوا المولودات الإنَاثِ أحياءً، لِيَبْلُغُوا مَبْلَغَ النّساء، فنَنْتَفِعَ مِنْهُنَّ بالاستعباد والتَّسْخِير.

عبارة: ﴿ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ ذَاتُ لاَزِمٍ فِكْرِيّ يُفْهَمُ بالتَّلْقَائِيَّة، أي: آمَنُوا بِمُوسَىٰ وهارُونَ رَسُولين، وآمَنُوا بالله رَبّ العالمين، وآمَنُوا بما جاءا به من عند الله، وكانوا مع موسَىٰ بهذا الإيمان مُصَاحِبين له.

ومعْنىٰ: ﴿وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ﴾: احرصوا على استبقاء مواليدهم من الإناث، لأنَّ مصيرهُنَّ أنْ يَكُنَّ نساءً، وعندئذٍ نَسْتَعْبِدُهُنَّ، ونُسَخِّرُهُنَّ، ولا يَسْتَطِعْنَ أنْ يُكَوِّنَّ جيشاً لِقِتَالِنا.

- ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾:

الكيد: التدبير، سواءٌ أكان خفيًّا أم ظاهراً بحَقٍّ أمْ بباطل، وفيه مَكْروه لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه.

وكيْدُ الكافرين إنّما يَكُونُ بالباطل، ضدّ الحقّ وأصحابه، وهو لاَ يكُونُ إلّا في ضلالٍ، أي: لا يكون إلَّا منْغَمساً في ضلالٍ، أي: في ضياع، فلا يُحقّقُ في آخر الأمر لهم إلّا خيْبَةً وخَسَاراً، لأنهم يريدون بكيْدِهِمْ إدْحَاضَ الحقّ الرَّبَّاني.

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾:

أي: وقال فِرْعونُ لهامانَ وقارونَ وَسَائِرِ مَلَئِهِ من آلِهِ وأَهْلِ مشورته: دَعُوني أقْتُلْ مُوسَىٰ، ولاَ تُشِيرُوا عَلَيَّ بِعَدَم قَتْلِهِ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ بَعْدَ أَنْ أُنَفِّذَ فيه الْقَتْلَ بِسُرْعَةٍ وسِرّيّةٍ، دُونَ أن يَصِلَ إلَيْهِ عِلْمٌ بِعَزمنا عَلَىٰ قَتْلِهِ، أَوْ بإصْدَار قرارِنا بقَتْلِهِ.

- ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾:

- **[أو أنْ يُظهِرَ]** في قراءة حفص ويعقوب، من فِعْل «أَظْهَرَ يُظْهِرُ» وبالعطف بحرف العطف «أو».

- **[أَوْ أَنْ يَظْهَرَ]** في قراءة شُعْبَة، وحمزة والكسائي وخلَف من فِعْل: «ظَهَر يَظْهَرُ» وبالعطف بحرف العطف «أو».

- **[وَأَنْ يُظْهِرَ]** في قراءة نافع، وأبي عمرو، وأبي جعفر، من فعل: «أظْهَرَ يُظْهِرُ» وبالعطف بحرف العطف «الواو».

- **[وَأَنْ يَظْهَرَ]** في قراءة ابْنِ كثير، وآبْنِ عامر، من فعل «ظَهَرَ يَظْهَرُ» وبحرف العطف «الواو».

مؤدىٰ قراءتي [يُظْهِرَ] و[يَظْهَرَ] متقارب، وفي «يُظْهِر» معنىٰ: ويَعْمَلَ

مُوسَىٰ على إظهار الفساد. وفي [**يَظْهَرَ**] معْنَىٰ: وتكون جُرْأَتُه علَيْنا في دعوته، وإجرائه الخوارقَ سَبباً في جُرْأة بني إسرائيل علَيْنا، وربّما في جرأة القِبْط أيضاً.

وفي قراءتي: «أو» و«الواو» دلالة على أنّ فرعون قال مرّة: ما يدُلُّ على تخوُّفه من حدوث أحد الأمرين: تبديل الدّين، أو ظهور الفساد في الأرض، ومرادهُ بظهور الفساد، خروج الشعب عن طاعته، والخضوع لأوامره ونواهيه. وأنه قال مرّة أخرى بعد ذلك ما يدلُّ على تخوُّفه من حُدوث الأمرين كليهما.

وتبديل الدين يكون بأن ينتشر الدين الذي جاء به موسىٰ في الشعب القِبْطي، بتأثير دعوته، وتأثير خوارقه الّتي يأتي بها.

وإظهار الفساد يكونُ بأن يتمرَّدَ الشعبُ المصريّ على أوامر القصْرِ الفرعوني ونواهيه، والثَّوْرَة على التقاليد السُّلْطانيّة المتبعَة.

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وبلَغَ موسىٰ عليه السَّلام، ما عرَضَهُ فرعَوْن على أهل مشورته، إذْ قال لهم: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ ولعَلَّ الذي أبْلَغ موسىٰ ذلك سرّاً مؤمِن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، وهو من أهل مشورة فرعون، إذْ كان يتّصِلُ بموسى عليه السلام سِرّاً، ويأخذ عنه القضايا الدينيّة وأدلّتَها.

فاستعاذ موسَىٰ عليه السَّلام قائلاً: لِكُلّ مَنْ يَسْمَعُهُ مِنْ بَنِي إسرائيل، ومن القبط: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ولا بُدَّ أنْ تكون هذه المقالة العلنيَّةُ قد بَلَغَتْ فِرْعَوْنَ وملأهُ، فخافوا من دُعائه، قبل أنْ يُصْدِرُوا قراراً بالْأَمْرِ بقَتْلِهِ، وربّما عَدَلُوا عن ذلك بسبب دُعائه.

﴿عُذْتُ﴾: أي: لُذْتُ، واعْتَصَمْتُ، والْتَجأْتُ، إلى ربّي وربّكُمْ، ليحْمِيَنِي مِنْ كيْد فرعَوْنَ وملَئِه، ومِنْ كَيْدِ كُلِّ مُتكبّرٍ بقُوَّتِهِ وسلطانه، جبّارٍ مُتَسلِّطٍ يُكْرِهُ النَّاسَ بالْقُوَّةِ والعنف علىٰ ما يريد، ولا يُؤْمِنُ بالجزاء الرّبّانِيّ يَوْمَ الْحِسَاب.

- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ . . . ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وقال مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ يَكْتُمُ إيمانَهُ وإسْلامَهُ عن فِرْعَوْنَ وملَئِه، وعَنْ كُلِّ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يُوصِلَ الْعِلْمَ إلى الْقَصْر الفرعوني، بأنّه آمن بموسَىٰ واتّبَعَ دِينَهُ الَّذي يَدْعُو إلَيْه.

ولا بُدَّ أن يكونَ هذا الرَّجُلُ من أهْلِ مشُورَةِ فِرْعَوْنَ في قصرِهِ، ومن الذين يَحْضُرُون المجالسَ الّتي تُعْرَضُ فيها قضايا الدولة، وما ينْبَغِي أنْ يُتَّخَذَ مِنْ قراراتٍ وأوامر حيالَها.

- ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ . . . ﴿٢٨﴾﴾؟!:

أي: إنَّ هذا الرَّجُلَ مُوسَىٰ لم يَعْمَلْ عَملاً يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْقَتْلَ بمقتضى أنظمةِ وأعْرَاف الْقَصْرِ الفرعوني، فَمَا هي ذَرِيعَتُكُمْ لِقَتْلِهِ بمُقْتَضَىٰ أَنْظِمَتِكُمُ الْمَرْعيَّة.

ألأجْلِ أنّهُ يَقُولُ: ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ وليْسَ فرعون مصر ربّي، تَقْتلونَهُ وقد جاءَكُم بالْبَيّناتِ مِنْ الآياتِ الخوارق، وهي الآيات التّسع، وجاءَكُمْ بالْبَيّنَاتِ والحجج والبراهين العقليّة من ربّكُمْ؟!.

ويظهر أنّ هذا الرَّجُلَ المؤمِنَ من آل فرعون قَدْ قَالَ قولَهُ، هذا وما بَعْدَهُ في إحدى الجلَسَات الرسميَّة، لمجالس المداولات الاستشاريَّة في القصر الفرعوني، إذْ هو أحَدُ أعضائه.

- ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ... ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وإنْ يَكُنْ (حُذِفَتْ النُّونُ تخفيفاً وإيجازاً في اللَّفظ) كاذباً على رَبّه فيما ادّعاه، فإنَّ كَذِبَهُ سَيَجْنِي عَلَيْهِ، فيُنْزِلُ الرَّبُّ علَيْهِ عذابَه، لأنَّهُ يَفْتَرِي عليه، والرّبُّ لا يَتْرُكُ أحداً يَفْتَرِي علَيْهِ دُونَ أَنْ يُنْزِلَ به عقابه.

- ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ... ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وإنْ يكُن صادقاً في أنّه رسولُ رَبّ العالمين، وصادقاً فيما يُبَلّغُ عنه، فلا بُدَّ أنْ يُصِيبكُمْ نازالاً بكُمْ بعْضُ الذي يُنْذِرُكم إيَّاهُ من عذاب الله، في أخف الاحتمالات، إنْ لم يُصِبْكُمْ كلُّ ما أنذركم به.

﴿يَعِدُكُمۡ﴾: أي: يَعِدُكم به، **الوعد**: يكون في الخير، ويكون في الشرّ، يُقال لغة: وَعَدَهُ بنفع، ووَعَدَهُ بضُرّ.

لقد خَفَّف هذا المؤمِنُ مِنْ أسْلُوبه الإنذاريّ، ليكُون كلامُهُ أوقَعَ في نفوس كُبَراءَ الدَّولة الفرعونيّة، ذوي الكِبْر والبَأْسِ والكلمة السلطانيّة النافِذَةِ في ظلّ تَمْكِينِ فرعَوْنَ لهم.

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: إنّ الله رَبّ العالمين، لا يَترُكُ أحداً يَسِير مَهْدِيًّا ناجحاً في حالة كونِه مُسْرِفاً في ادّعائه على ربّه، متجاوزاً حُدُودَ الحقّ، كذَّاباً في ادّعاءاته عليه.

لكنَّ الّذي رأيْنَاهُ، هو أن الله قَدْ أمَدَّهُ بالآيات التي أجراها لَهُ، فكان فيها مَهْدِيًّا على صراط الله المستقيم.

- ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ... ﴿٢٩﴾﴾:

في هذا الخطاب تودُّدٌ من مُؤْمِنِ آل فرعَوْنَ، لأعضاء المجلِسِ الفرعونيّ، بعبارة: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أي: أنَا مِنكُمْ وأنْتُمْ مِنّي، لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ،

حَالة كونِكُمْ ظاهِرِينَ في الأرض المصريّة، بتمليك الله لَكُمْ هذا المُلْكَ، وتَمْكينِكُمْ مِنَ الظُّهورِ والتَّفوُّقِ السُّلْطانِيّ، ومِنْ واجِبكُمْ أنْ تَشْكُرُوا الله على ما حَباكُمْ من هذا المُلْك، لا أن تُقاوِمُوا دَعْوَةَ رسُوله، وتُحارِبُوها.

- ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ... ﴿٢٩﴾﴾؟!.

أي: فَمَنْ يَنْصُرُنا، فيحْمِينَا من بأسِ الله إنْ جاءنا؟!. ضُمِنَ فعل «يَنْصُر» معنى فعل: «يَحْمي، أو يقي» فَعُدِّيَ تَعْدِيَته.

البأس: هو العذابُ الشديد.

وتلطَّفَ في عبارته فلَمْ يَقُلْ: إذا جَاءَنَا، مبيّناً رُجْحانَ تَحقُّقِ الوقوع، وإنما قال: ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾ مبيّناً احْتِمالَ تحقُّق الوقوع ولوْ بالظّنّ الضعيف، وهذا من حكمته في الدّعْوَة إلى الله.

- ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾:

دلَّ هذا القول الذي صدر عن فرعون، على أنَّهُ قَدْ ضَاقَ صَدْرُه من أقوال هٰذا الرجُل من آلِه، وأراد أنْ يَقْطَعَ عليه الحديث، خَشْيَة أن يُؤَثّر على غَيْرِه من كُبَراء دوْلَتِه في مجْلِسِه الاستشاري، فقال لهم: ما أُرِيكم فيما أقدّمُ لَكُمْ من رأْي، إلّا ما أراهُ أَنَا لِنَفْسِي، وما أهديكُمْ فيما أقُولُ لَكُمْ إلّا سَبيلَ الرَّشاد.

الرَّشاد، والرُّشْد، والرَّشَد: السُّلُوك الفكريُّ، والنفسيُّ، والخُلقيُّ، والعمليُّ، الموافق للحقّ والصواب، أوْ لِمَا هو الأفضل والأحْسَنُ، والأكثر نَفْعاً، والأبْعَدُ عَن الضرر.

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

أي: لكِنَّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ لَمْ يَنْقَطِعْ عن متابعة كلامه، في مجلس

فرعون الاستشاريّ، وأغْفَلَ إشارة فرعَوْن له بأنْ يكُفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ حديثه، إذْ قَدَّم فرعَوْن كلمتَه القاطعة، بل تابع كلامه، وربّما تابع كلامَهُ في جَلْسَةٍ أُخْرَىٰ لاحِقَة.

فأبانَ خوفَهُ عليهم بعْدَ أنْ تلَطَّف بهم بقوله لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ من أنْ يُنْزِلَ الله بهم عذاباً وإهلاكاً شاملاً، مثل ما أنْزَلَ مِنْ عذابٍ وإهلاكٍ في يَوْمِ الْأَحْزَاب، أي: في الأيَّام الّتي أنزل فيها عذابَهُ وإهلاكه، وفي عبارة: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ هذه الأيّام هي بمثابَةِ يوم واحِدٍ، لتَشابُهِ نتائجها في التعذيب والإهلاك، ولأنَّها خاضِعَة لسُنَّةٍ ربّانِيَّةٍ جزائيَّةٍ واحدة.

والمرادُ بالأحْزَاب أحزَابُ الكفْرِ والعناد الّتي سلَفَتْ في التاريخ البشري. وقد جاء تفسير ذلك بعبارة: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾:

الدَّأْبُ: العادة، والسُّنَّةُ الثابتَةُ الّتي تَتَكَرَّرُ في أحداث الدهر. أي: مثل سُنَّةِ الله الجزائيّة الّتي تكرَّرَتْ في قوم نوح، وقوم عادٍ، وقوم ثمود، والّذين من بَعْدِهم من أقوام أهلكهم الله عزّ وجلّ بسبب كُفْرهم، وعنادهم، وتمرُّدِهم على رُسُلِ ربّهم.

- ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

أي: وتعذيب الله لهؤلاء الأقوام وإهلاكُهم إهلاكاً جماعيًّا ماحِقاً، قد كان بمقتضىٰ حِكْمَةِ الله رَبِّ العالَمِينَ وعَدْله، ولم يَكُنْ ظُلْماً منْهُ لَهُمْ، لأنَّ الله لاَ يُرِيدُ بحالٍ من الأحْوالِ ظلْماً ما لعباده، فيما يجريه عليهم من تَعْذِيب وإهلاك جماعيٍّ شامل.

- ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿ٱلتَّنَادِ﴾: هو التنادِي، حُذِفَت الياء إيجازاً في نُطْق اللفظ، وتخفيفاً، ونظيرُه في القرآن كثير، وهو من أساليب العرَبِ في النطق.

يقال لغة: تَنَادَىٰ القوم، أي: صار ينادِي بعضهم بعضاً.

وأطلقت عبارة: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ على «يوم الدّين» لما يحْصُل فيه من تنادٍ، إذْ يُنَادِي فيه أهل الإيمان أهْلَ الكفر نداءً عَنْ بُعْدٍ بين الفريقين، وينادي فيه أهل الكفر أهل الإيمان.

ومن التنادي يوم الدين، ما يلي:

(١) قول المنافقين للمؤمنين في المحشر عند السَّوْق، كما جاء في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا . . . ﴿١٣﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف) أيضاً:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف) أيضاً:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

- ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ . . . ﴿٣٣﴾﴾:

أي: يَوْمَ تُحاوِلُونَ أنْ تَنْأَوْا وَتَبْتَعِدُوا عَنْ مكان دَارِ الْعَذَابِ، مُدْبرينَ عنها، تَجْعَلُونها وراء ظهوركم رَغْبَةً في أنْ تَفِرُّوا منها.

- ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ . . . (٣٣)﴾:

«مِنْ» معناه هنا «الْبَدَل». أيْ: ما لَكُم بَدَلَ الله من عاصِمٍ يَعْصِمُكُمْ مِنْ عذابه، الّذي قضىٰ به عليكم بسَبب كُفْرِكُمْ وإجرامكم.

- ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ. . . (٣٣)﴾.

أي: ومَنْ يَحْكُم الله يَوْمَئِذٍ عليه بالضَّلاَلِ، بناءً على إدانَتِهِ بأنَّه كَانَ في الحياة الدُّنْيا ضَالّاً كافراً مُجْرِماً باختياره الحرِّ، فَمَا لَهُ منْ هَادٍ يحْكُم لَهُ بالهداية، إن الحكْمُ يومئذٍ إلّا لله.

ولا بُدَّ أن تكون هذه الحقائق الدينيَّة قَدْ تَعلَّمَها مُؤمنَ آل فرعون من موسى في لقاءاته السّرّية له، بعْدَ إيمانه بصِدْق الآيات الخوارق الّتي آتاه الله إيَّاها، أو من هارون عليه السَّلام، فكلاهما كانَا رَسُولَيْن يَدْعُوان في مصر إلَىٰ دِينِ الله الحقّ.

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ. . . (٣٤)﴾:

أي: وأُأَكّد وأُحِقّقُ أنّه قد جاءكم يوسف من قبلِ موسَىٰ وهارون، بالحجج والبراهين الواضحات، حولَ الإيمان بالرَّبّ الواحد الذي هو الإله في الوجود، لا إله إلّا هو، وحول وُجُوبِ اتّباع ما أنزل الله لعباده من شرائع الدِّين وأحكامه.

- ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ. . . (٣٤)﴾:

﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ **الزوال**: التحوُّل والانتقال. يقالُ لغة: «زَالَ من مكانه، وزال عن مكانه، يَزُولُ، زوالاً، وزَوَلاَناً» أي: تَحوَّلَ عنْهُ، وانْتَقَلَ إلَىٰ غَيْره.

أي: فما تحوّلْتُم عَنْ مكانِ انغماسِكُمْ في شَكٍّ ممَّا جَاءكم بِهِ عَنْ ربّكم.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ . . . ﴿٣٤﴾﴾:

﴿هَلَكَ﴾: أي: ماتَ بعْدَ أن توفَّاهُ الله أجلَه في الحياة الدنيا.

أي: حتَّىٰ إذا مات اعْتَرَفْتُم بأنَّهُ كان رسولاً من رَبّكم، وزعمْتُم أنّ الله لَنْ يَبْعَثَ من بَعْدِه رَسُولاً، يُبَلِّغُكُمْ عنْ رَبّكم ما يجب عليكُمْ أن تُقْلِعُوا عنه، من كُفْرِيَّاتٍ وجرائم. فصرتُمْ بعْد موتِه منطلقين في رُكُوب الآثام التي لكم بها لَذَّاتٌ وشهواتٌ وتحقيق أهواء بإسراف، ولَيْسَ بينكُمْ ذو سلطانٍ يرْدَعُكُمْ عنها، ويخوِّفُكم من عَذَابِ ربكم.

- ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: فضَلَلْتُمْ في أقوالِكُمْ وسُلُوككم، فحكَمَ اللَّهُ عَليكُمْ بالضلال، وكذلكَ الّذي كان منكم، وحُكِمَ بِه عليكُمْ بالضلال، إذِ ارْتَبْتُمْ شاكّين في الحقّ الرَّبّاني، وإذْ أَسْرَفْتُمْ في رُكُوب الآثام، يُضِلُّ اللَّهُ بِعَدْلِهِ وحكْمَته، كُلَّ مَنْ هو مُسْرِفٌ في آثامه، مُرْتَابٌ شَاكٌّ فيما جاء عن رَبّ العالمين، مقروناً بالبراهين اليَقِينِيَّة، فَسُنَّةُ اللَّهِ في عباده واحدة.

- ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ . . . ﴿٣٥﴾﴾:

أي: الّذِين يجادِلُونَ في صِحَّةِ آيَاتِ الله البرهانية من الخوارق، وفي صحة آياته البيانيَّة المؤيَّدَة بالبراهين العقليّة، ليَتَّخِذُوا المجادلَةَ وسيلةً لإنكار الحقّ الرَّبّاني، وليْسَ لَدَيْهم حجَّةٌ صَحِيحةٌ جَاءَتْهُمْ من رَبّهم، من براهين عقليَّة، أو كتابٍ صحيحٍ مُنَزَّلٍ من عند الله، يَكُونونَ مَمْقُوتين من الله ومن الّذين آمَنُوا باللَّهِ مقْتاً كبيراً.

- ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ . . . ﴿٣٥﴾﴾:

أي: كَبُرَ مَقْتُ عَمَلِهم، عند الله، وعند الذين آمنوا بالله وبما أَنْزَل الله لعباده.

المقْتُ: أشَدُّ الكراهيَة.

- ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾:

الطَّبْعُ على القلب: جَعْلُهُ محجوباً عن إدْراكِ شيءٍ مَا يتعلَّقُ بما هو محجوبٌ عنه.

الطَّبْعُ في المادّيَّاتِ الْمُحَسَّةِ كالختم، وقد كان من عادة الملوك وغيرهم، إذا أَرْسلُوا رَسَائِلَ وَأَرَادُوا المحافظة على سِرِّيَّة ما فيها، أقْفَلُوها بإحكام، ووضَعوا عند مكانِ إقفالها طِيناً خاصّاً يطبعونَ علَيْه خاتَمَهم الخاصَّ بهم، فيجفُّ الطينُ ومِثَالُ الخاتم مطبوعٌ عليه، فلا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ مَا في داخِلِ الرّسالة إلّا بِكَسْرِ خاتم الطين.

وعلى سبيل التشبيه والتوسُّع في التعبير جاء في القرآن التعبير بالطبْعِ والختم على القلوب، للدّلالة على أنَّها صارَتْ محجوبةً عن إدْراكِ شيءٍ مَا يتعَلَّقُ بما هي محجوبةٌ عَنْه.

وطبْعُ اللَّهِ عزّ وجلّ على قَلْبِ الْعَبْد، يكونُ نتيجةً لما يكْسِبُهُ الْعَبْدُ بإرادته الحرَّةِ، من أعْمَالٍ ظاهرة وباطنة، يتولَّدُ عَنْها بمقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللَّهِ في قوانين الأسْبَاب والمسَبَّبَاتِ الثابتاتِ نتيجةُ الطَّبْع، وهذه القوانين إنَّما تتحقَّقُ نتائجها بخلق الله عزّ وجلّ، كإماتةِ الله مَنْ يقْتُلُ نفسه بِحَديدة، أو يَحْتَسي شراباً فيه سُمٌّ قاتل.

فالمعنى: مثل ذلك الطبع الّذي طبعَهُ الله عَلَىٰ كُلِّ قُلُوبكم، فَحَجبَكُمْ عن إدْراكِ الحقّ الرَّبَّانِي، بسبب كِبْرِكُمْ، وحِرصِكُمُ الشديد علىٰ الْعُلُوِّ في الأرض، وبسَبَبِ جبروتِكُمْ وقَهْرِكُم الظالم لعباد الله، يطبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ جوانب قَلْبِ مُتَكبِّرٍ جَبَّارٍ، فلا يَكونُ في جانِبٍ منها مقدارٌ غيْر محجوبٍ تَدْخلُ مِنْهُ أنْوار الهداية الرَّبَّانِيَّةِ إليه، وهذا من سُنَنِ الله في عباده المتكبّرين الجبَّارِين.

إنّ هذه الحقائقَ الدينيَّةَ ما كان لمؤمن آل فرعون أنْ يَعْلَمَها وينطقَ بها في دعْوَتِه، لكُبَراء رجال الْقَصْر الفرعوني، ما لم يكُنْ قد تَلَقَّاها من موسَىٰ أو من هارون عليهما السلام، وتلَقَّىٰ مَعَها وُجوب الدَّعوة إلى دين اللَّهِ بجُرْأةٍ حكيمة.

● ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾:

ما جاء في هذا البيان دلَّ على حركة مُراوَغَةٍ اتّخذَهَا فِرْعَوْنُ، بَعْدَ البيان المنطقيّ الحكيم المؤثّر، الّذي قدّمه المؤمن من آلِه وأَهْل مشورته، بمُوسَىٰ عليه السَّلام وبما جاء به عن ربّه، ووقوفِه في مَجْلِس مستشاريه موقف الدَّاعي إلى الإيمان بالحقّ الرَّبَّاني.

وغرض فرعَوْن أنْ يُشْعِر المؤمن من آله، ومَنْ يكون قَدْ تأَثّر بِبْعض أقواله، بأنَّه سيَبْحثُ في قضيَّةِ صِدْق مُوسَىٰ بحثاً جادّاً، عن طريقِ بناء صَرْحٍ رَفيع البنيان، يحتاج إتمامه زمناً طويلاً، رَغْبَةً في أن يَصْعَدَ إلى أعلاه، فيَصِلَ إلى أسْبَاب السَّمَاوات، فيتخذها مُرْتقياً إليها، ليُشَاهِدَ فيها إلَه موسَىٰ.

لم يكن فرعونُ من الغباء الّذي يتصوَّر معه أنَّهُ قادر بوسائله أن يرتقي إلى السماوات، لكنَّهُ أرادَ أنْ يخادع بأنَّهُ سَيَتَّخِذُ وسائِلَ يَصِلُ بها إلى إلَه مُوسَىٰ في السماء، فإنْ شاهده آمن به، وإنْ لم يشاهده ظهر له أنَّ مُوسَىٰ كاذبٌ من الكاذبين.

وقدّم فرعون عبارة غير مقطوع بها في قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ليُخَفِّفَ بها شِدَّة انْدِفاع المؤمن بموسى من آله في الدعوة إلى الإيمان بموسىٰ وبما جاء به، وليُؤَجّل بحث الموضوع، ويَتَّخِذَ في السّرّ وسائلَ يتخلَّصُ بها من هذا المؤمن من آله، فيمكُرَ به، ويُدَبّر أمْرَ قتله دون أن يَشْعُرَ به أحد.

ألاَّ أَنَّ مَكْرَ الله كان أسْرع من مكْرِه، وكَيْدَ الله كان أشَدَّ مِنْ كيده، فأحْبَط تَدْبيراته، واستدرجَهُ إلى مُتَابعَةِ بني إسرائيل الّذين خرَجوا من مصر دون أن يأذن لهم بالخروج، وأغْرَقَهُ الله وأغْرَق جيشه في البحر.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ . . ﴿٣٧﴾﴾:

هذا بيانٌ رَبَّانيٌّ جاء تعليقاً على مُراوَغَة فرعون.

أي: ومثل ذلك التزيين الّذي زيَّنَهُ الشيطان لفرعون في مراوغته بأَمرِه لهامان ببناء الصَّرْحِ للاطلاع إلى إله موسَىٰ، بغية قَطْعِ دَعْوَة المؤمن مِنْ آلِه، في مَجْلِس وزرائه وأهل مشورته، زُيِّن له أيضاً سُوءُ عَمَلِه الّذي يَعْمَلَهُ دواماً، لتحقيق أهوائه وشهواته، وفرض سلطانه الاستبداديّ علىٰ شَعْبه، وسُلْطَانِه الاستعْبَاديّ لشعب بني إسْرائيل، وسُوء عَمَلِه الّذي دبَّره ضِدّ المؤمن من آله. ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾: أي: وصُرِف بضواغط نزعاته وأهوائِهِ، وبوساوس الشيطان وتسويلاته عن السَّبيل، الذي هو صراطُ الله المستقيم، عقيدةً، وقولاً، وعَملاً، وخُلُقاً، ظاهراً وَباطناً.

- ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

الكَيْد: التدبير لتحقيق أمْرٍ مَا، بحقٍّ أو بباطل، بخَيْر أو بشَرّ.

التبَابُ: الانقطاع، وقد يعقُبُ الانقطاعَ الخسْرَانُ والهلاكُ. والمرادُ هُنا الانقطاع عن تحقيقِ ما يَرْجُو فرعونُ من الكَيْد الذي كادَهُ ويَكيدُهُ، لأنَّ كَيْدَهُ قد كان بباطل وشرّ، إذْ سَيُخَيِّبُ الله أُمورَهُ ومَسَاعِيَه الظّالمة الآثمة، فلا يتحقَّقُ له في النتيجة ما كان يَرُوم.

وقد دلَّتْ هذه الْعِبارَةُ باللّوازِم الذهنيَّة، ودَلائِلِ اقتران البيان بالبيان، على أنَّ فِرْعَوْن كادَ المؤمِنَ من آلِهِ، لِيَتخَلَّصَ مِنه بالقتل، دون أنْ يُثِير سائر آله عليه، لكِنَّ كيْدَهُ انقطعَ فَلَمْ يتحقَّقْ له مَا أراد.

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾:

دَلَّ هٰذا البيانُ عَلَىٰ أنَّ مؤمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ كَشَفَ هُوِيَّتَهُ لجميع آله، للْقِبْط من حَوْله، وصار داعِيَةً حكيماً رَشيداً إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بما جاء عن الله، ببلاغاتِ مُوسَىٰ وهارون، واتّباع ما أنْزَلَ اللَّهُ لِعِباده مِنْ شَرَائِعَ وأحكام.

• ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: يَا قومِ إنّي بدافع حِرْصي على نجاتِكُم وسعادتكم، أقول لكم: اتَّبِعوني فيما أَدْعُوكُمْ إلَىٰ الإيمان به، أُبَيِّن لَكُمْ سَبِيلَ السُّلُوكِ الفكريّ، والنَّفْسِيّ، والخُلُقِيّ، والْعَمَلِيّ، الموافق للحقِّ والصواب، والموافق لما هو الأفضل والْأَحْسَنُ، والْأَكْثَرُ نَفْعاً، والْأَبْعَدُ عن الضرر، والذي يحقّقُ لكُمْ خيْرَ الدُّنيا، والنجاة من عذاب اللَّهِ يوْمَ الدّين في الجحيم، والسَّعادة الخالدة في جنَّاتِ النعيم.

• ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾:

أي: يَا قَوْمِي الَّذِينَ هم أهْلِي وعَشِيرَتي وأبناءُ بلَدِي، أُخْبِرُكُم بحقيقةٍ أنْتُمْ غَافِلُون عنها، ما هذه الحياة الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ سريع الزوال، فَعُمْرُ الإنْسَانِ فيها عُمْرٌ قَصِيرٌ مَشْحُونٌ بالْأَكْدَارِ، بَيْنها استمتاعات مُحَبَّباتٌ، إلَّا أنّها كالرَّذَاذِ ضِمْنَ أكْدَارٍ ذَوَاتِ حَرٍّ شَدِيد، أَوْ غبارٍ غَيْرِ حَمِيد.

المتاع: هو في اللّغة ما يُنْتفع به مقداراً مَا مِنَ الزَّمَن، لَكِنَّ مَصِيرَهُ إلى الزَّوال والفناء، ولا يَبْقَىٰ منْه إلّا كما يَبْقَىٰ من الأحلام بَعْدَ اليقظة.

• ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وإنَّ الدّار الآخِرَةَ في الحياة الأخرى بعد البعث، هي دار الإقامة الدائمة، والسُّكُون والاطمئنان، والاستقرار.

يقال لغة: قَرَّ في المكان، أي: أقام متمكّناً ساكناً مُطْمَئِنًّا مستقرّاً.

ودار القرار: هي دار الاستقرار، والإقامة الدائمة، بسكون واطمئنان، وهذا المعنى اصطلاح قرآني، مأخوذٌ من الوضع اللُّغوي، بإضافة معنى الدوام إلَيْه، أي: الخلود بلا نهاية، والمرادُ بدار القرار الجنّة.

- ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا... ﴿٤٠﴾﴾:

أي: من عَمِل سَيئةً فإنَّهُ سوف يُجْزى جزاءً مثلَ سَيّئته يَسُوؤه، ولا يُجْزىٰ جزاءً يَسُرُّه، وهذا الجزاء يكون مساوياً لسَيّئَتِهِ، ولا يُظْلم بمجازاتهِ أكثرَ من سيئته، وتقديرُ المساواة يكون بميزان العدْلَ الرَّبّاني الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرَّة.

- ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: ومَنْ عَمِل صَالحاً كما شَرَعَ اللهُ لعباده مِنْ صالِحات، سواءٌ أَكان ذكراً أَمْ أُنْثىٰ، حَالَةَ كَوْنِهِ مُؤْمِناً باللهِ وَبِكُلِّ ما أَمَرَ الله بالإيمان به، فَأُلَئِكَ يَدْخُلونَ يوم الدّين الجنَّةَ، حالَةَ كونِهِمْ يُرْزَقُون فيها أَرْزاقاً لاَ تَنْقَطع، وهم يَنَالُونَ مِنْ فيْضِها بغيْرِ تَقْدِيرٍ ولا حساب مَعْدُودٍ عليهم، بل ينالون منها على ما يحبُّون، ويشتهون، ويَلَذُّ لهم.

هذهِ البيانات الّتي جعَلَها مؤمنُ آل فرعَوْن جزءاً من عناصِرِ دعْوَته لقَوْمِهِ، أخذاً من موسَىٰ وهارون عليهما السلام، مطابقَةٌ لما جاء في القرآن المجيد بياناً للنّاس أجمعين، وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ وحْدَةِ القاعدة الإيمانة في الرّسالَتَيْنِ الموسويّة والمحمّديّة، إلّا أنَّ الذين دَوَّنُوا دين موسَىٰ حَذَفُوا وَأَضَافُوا وبَدَّلُوا مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِم جهلاً، أوِ افتراءً على دينِ الله الحقّ، وهو الإسلام، أو أَنَّهم نَسُوا حظًّا مما ذُكِرُوا به.

- ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾

تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾:

دَلَّ هذا البيان على أنَّ جدالاً حادّاً قَامَ بَيْنَ هٰذا المؤمِنِ من آل فرْعَوْن، وبيْنَ عِلْيَةٍ مِنْ آلِهِ ورجال الْقَصْر الفرعَوْني.

ويظهر أنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يكُنْ حاضراً مجلس المجادلة، لكنَّه كانَ عَلَىٰ عِلْمٍ بما يجري فيه من دون أن يكونَ حاضراً فيه، ويَسْهلُ الْأَمْرُ بالتَّسمُّعِ من وراء حجابٍ لا يحجُبُ الأصوات.

﴿مَا لِيَ﴾؟!: في هٰذه العبارة محذوف، أي: مَالِي وَما لَكُم؟! وفي هذه العبارة استفهام تعجُّبِيٌّ مِنْ أمْرِهِ مع أمْرِهم، ومن الفارق الشاسع جدًّا بين دَعْوَتِه لهم، ودَعْوَتهم له، ومن التناقض بينهما.

أي: أيُّ شيءٍ هو لي تُنْكِرُونَه علي، من نقصٍ في الفكر، أو كراهيَةٍ لأسْرَتي وآلي، أوْ ولاءٍ لغيرِ أهلي وعشيرتي وقومي، حتَّىٰ تَنْظُروا إليّ نَظَراتِ ارْتيابٍ وشَكٍّ، وحتَّىٰ تُعرِضوا عن الإصغاء لما أدعوكم إليه.

وأيُّ شيءٍ هو لَكُمْ تَتَميَّزُونَ بِهِ عَنِّي، وأنا مِنْكم وأنْتُمْ مِنّي، وأيُّ شيءٍ هو لكُمْ بَجْعَلُكُمْ تُلْغُونَ عُقُولكم، وتسْتَخْدِمونَ ذكاءَكُمْ، في غير ما يجب أن تسْتَعْمِلُوهُ فيه، من إدراك الحقّ، واستبصاره، والعمل بمقتضاه.

أنا أدْعُوكم بالبراهين القواطع إلَىٰ النجاة من عذاب الله في الدُّنيا، وفي النار يوْمَ الدّين، وأدْعوكم إلى تحقيق سعادتكم بالإيمان بربّكُمْ والإسلام له.

وأنتم تَدْعُونني إلى الكُفرِ بالله وبما أُنْزِلَ مِنْ عنده، وإلى سُلُوك سُبُلٍ تُؤَدِّي في نتائجها بيقين إلى عذاب النار عذاباً أَبَدِيًّا خالداً.

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ . . . ﴿٤٢﴾﴾:

أي: تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بالله رَبِّي وربِّ العالَمِينَ جميعاً، الّذي قامَتْ ودَلَّتْ على ربُوبيَّتِهِ البراهينُ القواطع، الّتي تفيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينيَّ الّذي لاَ شكَّ فيه، وتَدْعُونَنِي لِأُشْرِكَ بِرُبوبِيَّتِه أوَ بإلَهيَّتِهِ كائناتٍ هي من خَلْقِه، دُونَ أَنْ يكُونَ لِي بِرُبُوبيَّتها وإلَهيَّتِها عِلْمٌ مُكْتَسَبٌ بدليلٍ تَقْبَلُهُ العقول، أو خَبَرٍ صادقٍ عن الله رَبِّ العالِمين، الّذي قامَت براهين العقل على أنَّهُ واحد في رَبُوبيّته وفي إلَهيّته.

يَا عجباً مِنْ أمْرِي معَ أَمْرِكم، ومن دَعْوَتي مَعَ دَعْوَتكُمْ، ما هُوَ الشيء الذي تَرَوْنه لي، من نقْصِ عقْل، أو كراهيَةٍ لكُمْ، أَوْ عَدَم حِرْصٍ على مصالحكُمْ، وابْتِغَاء الخيرِ والنَّفْع لَكُمْ؟!.

إنَّه داعيةٌ إلى الله العزيز الرحيم، من مستوىٰ القمة في دَعْوَتِه، وهو ما جعل الله عزّ وجلّ يُنْزِلُ بياناً، مشعراً بأنّها حقٌّ، وبأنّها بمثابَةِ بيانٍ مُنَزَّلٍ من لَدُنْه، ومضمونُها هو في الحقيقةِ مأخوذٌ من بيانٍ مُنَزَّلٍ من لَدُنْهُ على مُوسىٰ وهارون عليهما السلام.

وقد جاء في هذا البيان تفصيل موجز لقوله لهم: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾:

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: وأنا أدْعُوكُمْ إلى الإيمان بالْعَزِيز الْغَفَّار، وإلى الإسلام والاستسلام لأوامِره ونواهيه.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: أي: القويّ الغالِب لكلّ القوىٰ، إنَّها مخلُوقَاتٌ لَهُ، ومُسَيَّراتٌ بِسُلْطَانِهِ، وفي ذكر هذا الاسم تخويف لهم.

﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾: أي: كَثِير السّتر لذنوبُ عباده وآثامِهِمْ، ومعاصيهم له، لأنّه رحيم بهم، وهذا السَّتْرُ يَسْتَلْزِم مع ملاحظَةِ الرَّحْمَةِ العظيمة، عَدَم

العقاب، وفي ذكر هذا الاسم منْ أسماءِ الله الحُسْنَىٰ إطماع لهم بأن يستغفروه، بعد أن يؤمنوابه ويُسْلِموا له، ليغفر لهم، ولا يعاقبهم على ما سلَفَ من كُفْرِهِمْ وجرائمهم.

- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْأَخِرَةِ . . . ﴿٤٣﴾﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارةٌ تُسْتَعْمَلُ لتَوْكيد الكلام وتوثيقه، وقَدْ تَحْمِلُ أحياناً معنىٰ القسم، فهيَ مثل: «حَقًّا ـ لا بُدَّ ـ لاَ شك ـ لاَ مَحالة».

وأصْلُ معنىٰ الجرْم الْقَطْعُ، وكأنَّ أصْلَ العبارة قبل اختصارها والاكتفاء ببَعْضِ كلماتَها: لاَ جَرَمَ جارِمٌ ممَّا أَقُولُ شيئاً، أي: لا قطعَ قاطعٌ مِنْ كلامي شيئاً، وبكَثْرَة التداوُلِ حصل الاكتفاء بعبارة: «لاَ جَرم».

فالمعنى: لاَ شَكَّ وَلاَ رَيْبَ في أنَّ مَا تَدْعونني إليه، لَيْسَ لَهُ في الحقيقة والواقع دَعْوَةٌ ما، لاَ في الدنيا، ولا في الآخرة، وإنّ الّذي تدعونني إليه لا يَزيدُ على كونِهِ أقوالاً وهْمِيَّةً أَنْتُم تقولُونَها بأفواهِكُمْ، وليْسَ لها في الواقع حقيقة.

- ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ . . . ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ولا جرَمَ أنَّ مَرْجِعَنَا بَعْدَ الموتِ والْبَعْث، إلى حساب الله لنَا، وفَصْلِ قضائه، وتَحْقِيقِ جزائه، فالْيَوْمُ الآخِرُ، والحياةُ الأُخْرى مِنَ الحقائق الثابتَةِ بيقِين.

المَرَدُّ: المرْجِعُ، وهو يُطْلَقُ على مكان الرُّجوع وزمانه، ومصْدَرٌ ميميٌّ من فعل رَدَّ.

يقالُ لغة: «رَدَّهُ، يَرُدُّهُ، رَدّاً، وتَرْدَاداً، ورِدَّةً» أي: أرْجَعَه، ويأتي بمعنى: منَعَهُ وصَرَفه.

- ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ولا جَرَمَ أنَّ المتجاوزين لحُدود الحقّ والواجب، الْغَالِين في التجاوز، بالكفر، والشِّرْكِ بالله، وارتِكَاب الجرائم الكبرىٰ، هُمُ الملازمُون لعذاب النار.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أي: المصاحِبُون لها بملازمَةٍ مسْتَمِرَّة.

- ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ ... ﴿٤٤﴾﴾:

أي: فَسَتَذْكِرُونَ مستقبلاً حينما يَنْزِلُ بِكُمْ عذابُ الله، مَا أقولُهُ الآنَ لَكُمْ بصراحةٍ وجرأةٍ، حرصاً مِنّي على نجاتكم وسعادتكُمْ، ودُونَ خَوْفٍ ممَّا سَتُدَبِّرُونَهُ ضدِّي، للتخلُّصِ منّي ومن دَعْوَتي.

- ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: فإذا دَبَّرْتم مَكِيدَةً ضدُّي، مِنْ قَتْلٍ فما دُونه مِنْ عذاب، فإنّي أُفَوِّضُ أَمْري إلَىٰ الله، مُتَوَكّلاً عَلَيْه، ليحْمِيَني من كَيْدِكم، وَإنّي أعْلَمُ أَنَّ الله بَصِيرٌ بِكُلّ عباده، وأنَا وأنتم عباد من عباده الذين لا تخفَىٰ عليه من أمورهم خَافيَةٌ ما.

التَّفويض: جَعْلُ التَّصَرُّفِ كُلِّه تَحْتَ إرادة مَنْ حَصَلَ التفويض إليه. يقال لغة: «فَوَّضَ أَمْرَهُ إلَىٰ فُلاَنٍ» أي: جعلَ لَهُ التصرُّف فيه.

- ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ... ﴿٤٥﴾﴾:

دلَّ هذا البيانُ الربَّانيُّ، على أنَّ القومَ، فرعونَ ورِجالَ دولَتِهِ، قَدْ مَكَرُوا في الخفاء، ضِدَّ هٰذا الرَّجُلِ المؤمن مِنْ آلِ فرعون مَكْراً بِسَيِّئَاتٍ يُسْكِتُونَ بها لِسَانَه، عن الدَّعْوةِ إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر، وإلى ما جاء به مُوسَىٰ عَنْ رَبِّه.

وعبارة: ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ تُشْعِرُ بأنّ ما مَكَرُوه لم يَصِلْ إلَىٰ قرار الحكم بقَتْلِهِ، لئلا يغْضَبَ أَوْلياؤُه من آلِ فرعون.

- ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وأحَاط بآل فِرْعَوْنَ الَّذِين سَاءَتْهُمْ دَعْوَةُ هذا المؤمِنِ منهم، سُوءُ العذاب.

سُوءُ الْعَذَاب: أي: العذابُ السُّوءُ، وهُوَ شَدِيدُهُ، وشَاقُّهُ، ومؤلمُه، فقد أغْرَقَهُمُ اللهُ بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَنِ غَيْرِ طويلة.

وجاء تفسير العذاب السُّوءِ، بقول اللهِ عزّ وجلّ في الآية التالية:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: إنَّهُمْ بَعْدَ إهلاكهم بالإغراق، كَانَ من أمْرِهم في البرزَخ الفاصل بيْنَ الموت والبعث، استمرار عَرْضِ نفوسهم على النّارِ، غُدُوّاً وَعَشِيًّا تَعْذِيباً لها، ثم بعد بعثهم يوم تقوم ساعة الإحياء للحياة الأخرىٰ، ويَخْرُجُونَ من الأجداث سراعاً، ويُحَاسَبُونَ ويفْصِلُ بشَأْنِهِمْ قضاء الله، يقولُ الله لملائكَتِهِ المختصين بسَوْق الْمُجْرِمِينَ إلَىٰ جَهَنَّمَ: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ الكافِرِينَ المجرمين إلَىٰ جهَنَّم، واجْعَلُوهُمْ في داخِلِها ضِمْنَ مُحِيطٍ بهم، يَذُوقون فيه أشَدَّ العذاب.

فماذا يَذْكُرُونَ حينئذٍ مِنْ متاع الحياة الدُّنيا الذي كانوا فيه، وَمَاذا يَذْكُرُونَ من زُخْرفِهَا الّذي كانُوا يتَعَاظَمُونَ بِهِ ويَسْتَكْبِرُونَ؟!.

* * *

رابعاً

نَصُّ سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥١ نزول)

الآيات من (١٠١ ـ ١٠٣)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾:

القراءات:

(١٠١) ● قرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: [فَسَلْ] من فعل «سَال» بتخفيف الهمزة، وجَعْلها ألفاً. وكذلك قرأها حمزة في الوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فاسأَلْ] من فعل «سَأَل» بتحقيق الهمزة.

وهما وجهان عربيان في النُّطْق.

يقال لغة: «سَأَلَهُ عَنْ كذا، وسَأَلَهُ بِكذا، يَسْأَلُه سُؤالاً، وتَسْآلاً، ومَسْأَلَةً» أي: طَلَبَ منه أن يُعْلِمَهُ بالشّيء الذي سألَهُ عنه، ذاتاً، أوصفة، أو أن يُعْطِيَه إياه.

(١٠٢) ● قرأ الكِسَائِيُّ: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [لَقَدْ عَلِمْتَ] بضمير المخاطب.

والقراءتَان متكامِلَتَان في تأدِيَةِ المعنىٰ الذي خاطبَ به موسَىٰ عليه السَّلام فرْعَون: أي: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَا، وعَلِمْتَ أنت يَا فِرْعون.

تمهيد:

من الظاهر في هذا النص من سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥١ نزول) أنَّه يُعَبِّرُ عن بعض مواقف قد كانت في المراحل المتأخرة من سيرة موسَىٰ الدَّعَوِيَّةِ في مصر لفرعَوْنَ وَمَلَئه وسائر قومه.

إذْ جاء فيه أنّ موسىٰ عليه السَّلام قَدْ واجَهَ فرعون بقوله له بشجاعة وثباتٍ وثِقةٍ بالله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾: أي: مُعَاقباً مِنْ رَبّك بالإهلاك، قال له هذا القول وهو مُتَمكّنٌ من موقفه، على ثِقَةٍ كاملة بأنّ الله

حامِيهِ وناصِرُه ومُهْلِكٌ عَدُوِّه، ولوْ لَمْ يكُنْ يَعْرفُ كيْفَ يكونُ هذا الإهلاك، ولَمْ يَكُنْ عنْدَهُ خَبَرٌ رَبَّانيٌّ بِهِ، لذلِكَ وجَّهَ عبارَتَهُ بأسلوب الظنِّ، لا بأسلوب اليقين.

التدبّر:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ... ﴿١٠١﴾﴾:

يُؤكِّدُ ويُحقِّقُ رَبُّنا بعبارَةِ «لَقَدْ» أنَّهُ جلَّ جلاله، قد آتَىٰ بعظَمَةِ رُبوبيَّتِهِ مُوسَىٰ عليه السَّلام الآياتِ التِّسْعَ كلَّها، وأجْرَاها لَهُ فعلاً، وقد سبق بيان هذه الآيات التِّسْع في أكثر من موضع⁽¹⁾.

- ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ... ﴿١٠١﴾﴾:

تدُلُّ هذه الجملة علىٰ أنّ الآيات التِّسْعَ مسجَّلَةٌ ومُدَوَّنَةٌ عنْدَ بني إسرائيل، وليْسَتْ من تاريخ موسى الْمَنْسِيّ عندهم، أو الْمُهْمل، أو دخل في أصْلِ فكرة الآيات تحريف، وربّما دخل التحريفُ والتغييرُ في بعض التفاصيل الجزئيّة، أو في بعض التفسيرات.

وليْسَ المرادُ توجيهَ الرّسُول ﷺ لأن يتوثّقَ من خبر الله هذا من عُلَمَاء بني إسرائيل بَلِ المراد إعْلاَمُ غَيْرِه مِن ذوي الشّك، بأسلوب مخاطبته.

ورُبَمَا يكون الخطاب في النصّ مُوَجَّهاً لكلّ صالحٍ للخطاب من الناس، وفيهم غَيْرُ مُؤمنٍ بالله وبما أُنزل في كتابه على رسُوله محمّد ﷺ، فقال الله له: فاسْأَلْ بَنِي إسرائيل عن آياتِنا التّسعِ الكبرى، الّتي أجْرَ يناها لموسَىٰ في مصر، فهي بالنظر إلى فِكْرَتِها العامةَ، لا إلَىٰ تفصيلاتها، مُدَوَّنَةٌ فِي كُتُبِهم.

---

(١) انظر لواحق تدبر الآية (٢٣) من سورة (طه) لدى تدبّر الآية (٣٢) من سورة (القصص).

ولدَىٰ مُراجعتي لأسفارهم وَجدْتُ الحديث عنْها مُدَوَّناً في سِفْرِ الخروج، في الإصحاحات: «السّابع ـ والثامن ـ والتاسع ـ والعاشر».

﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾: أي: إذْ جاءهم موسىٰ عليه السَّلام بكلّ الآيات التّسع، وليْسَ المراد إذْ جاءهم أوّلَ قُدُومِه من مَدْين، بَعْدَ مكالمة الله له عند جبل الطور حاملاً رسالة رَبّه، بدليل قول الله عزّ وجلّ في النّصّ: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ إذْ جاء هذا القولُ معطوفاً بالفاء الّتي تَدُلُّ علَىٰ الترتيب مع التعقيب، وهذا التعقيبُ لم يكُنْ إلّا بَعْدَ إجراء الآيات التِّسْعَ كلِّها في مصر، طَوال عدّة سنين.

أي: إنَّ جُرْأَتَكَ يَا مُوسَىٰ علَيْنا بوصْفِكَ رَجلاً من رِعيّتِنا، إذْ تقابلُنا بنِدّيّة، لا تكونُ إلّا من إنسانٍ فاقِدٍ لوعْيِهِ، غَيْرِ مُدْرِكٍ لِقُدْرتِنا علَىٰ قتْلِه في أيّة لحظة، وفقدُ الْوعْي هذا بَعْدَ أنْ ثبتَ لنا أنَّكَ غَيْرَ مَجْنُونٍ طَوال قيامِكَ بدعوَتِكَ في مِصْر، وإجرائِكَ السّحْريّاتِ الكبرىٰ الّتي تُسَمِّيها آياتٍ بَيِّنَاتٍ من رَبّ العالمين، وهي التِّسْعُ الّتِي أجْرَيْتَها، فَهَٰذِهِ الجرْأَةُ النِّدِّيَّة لاَ تَكُونُ إلا مِنْ إنْسَانٍ مَسْحُورٍ، فاقِدٍ لِوَعْيِه الْإِرادِيّ، بتَأْثير السّحر، غَيْرِ مُقَدِّرٍ للعواقب الوخيمة التي يُعَرِّضُ نَفْسه لهَا، إذْ يُواجِهُ مَلِكاً قادراً على الانتقام منه بجُرْأةٍ مستَنْكَرَة جدًّا.

أقول: إنَّ فرعَوْنَ لَوْ لاَ خَوْفُهُ على نَفْسِهِ من آياتِ مُوسَىٰ الخوارق، ولولا يقينُهُ بأنَّ ما جاء به حقٌّ من ربِّه وليْسَ سِحْراً، لمَا تَرَدَّدَ في قَتْلِ موسَىٰ، ولَمَا تأخَّرَ لحظَةً واحدةً عَنْ تَنْفيذ ذلك.

- ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ . . . ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: ليْسَ صَبْرُكَ عليَّ مبنيًّا على اعتقادِكَ بأنّي مسحور، بل لأنَّكَ موقِنٌ في قَرارَةِ نَفْسِك بأنَّهُ مَا أنزلَ هٰذه الآيات التِّسْعَ إلّا رَبُّ السَّماوات والأرض، الّذي بِيَدِه ملكوتُ كلّ شيءٍ، وهو القدير على ما يشاء بأمْرِ

التكوين، وهٰذه الآياتُ قَدْ أنْزَلَهَا حالَةَ كونها بَصائر، فأنْتَ تخافُ من نِقْمَتِه إذا عَزَمْتَ عَلَىٰ أنْ تَمَسَّنِي بِسُوء، وأنا أدْعُوكَ وَأَدْعُو قومَكَ إلى الإيمان بِه، والإسلام له، هٰذِهِ هِيَ حقيقَةُ ما يَمْنَعُكَ عَنِ الفتْكِ بي.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: «ها» للتَّنْبيه، «أولاءِ» اسم إشارة يُسْتَعْمَلُ غالباً للمشار إليهم من ذوي العلم. ويُسْتَعْمَلُ لغةً أيضاً بِقِلَّةٍ للإشارة إلى جَمْعِ غير ذوي العلم كما هُنا، والْغَرَضُ البلاغيُّ تَنْزِيلُ الآياتِ مَنْزِلَةَ مُعَلِّمِين يقَدِّمونَ بَراهِين تَدُلُّ على طائفة من صفات الله العظمى، وتَدُلُّ عَلَىٰ صِدْق الرَّسُول الذي أجراها الله له، فهي بصائر.

﴿بَصَآئِرَ﴾: جَمْعُ «بَصِيرَة» وتأتي هذه الكلمة في اللّغة للدلالَةِ على عِدَّة معانٍ، منها معنى: «الحجّةِ والْبُرْهَان» وهذا المعنى هو المناسب هنا. ونَصْبُ [بَصائِرَ] على أنها حال، أي: حالَةَ كَوْنِها بَصَائر.

• ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: وإِنِّي لأظُنُّكَ يا فِرْعون مُهْلكاً من قِبَل رَبّك رَبّ السَّمَاوات والأرض، بسَبَب إصرارِكَ على الكُفْرِ به، وإصرارِكَ على اعْتِبار آيَاتِه نَوْعاً من أنواع السِّحْر، وإِصْرَارِكَ على تَكْذِيب رَسُولَيْ رَبّك، والتكذيب بما جاءَا بِه عنه. إنَّ أعمالَكَ هذه تُقَدِّمُ ظنّاً راجحاً بأن الله جلَّ جلاله وعظم سلطانه ـ سَيُهْلِكُكَ، جَرْياً علىٰ سنته في عِبَادِه الكافِرِينَ المجرمين.

هذا الخِطَابُ الْعَنيفُ من موسىٰ عليه السَّلام لفرعَوْنَ، جاءَ بَعْدَ عدَّة سنين كَانَ يَتَلَطَّفُ معه فيها، ويُخَاطِبُه بخطابٍ لَيّنٍ رفيقٍ، لا عُنْفَ فيه ولاَ شِدَّة، وكان يكْتَفِي بالكنايات، وبالإشَارَاتِ المغلّفَات بأدب الخطاب.

﴿مَثْبُورًا﴾: أي: مُهْلَكاً مِنْ قِبَلِ رَبّك. **الثُّبور**: الْهَلاَك. يقالُ لغة: «ثَبَرَ فُلاَنٌ، يَثْبُرُ، ثَبْراً، وثُبُوراً» أي: هَلَكَ وانْصَرَفَ من عالم الأحياء. ويقالُ أيضاً: «ثَبَرَهُ الله يَثْبُرُه» أي: أهلكه.

- ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ... ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: فأراد فِرْعَوْنُ أن يَسْتَفِزَّ بني إسرائيل من الأرض.

يقال لغة: «اسْتَفَزَّهُ يَسْتَفِزُّه» أي: اسْتَخْرَجَه، وخَتَلَهُ حتَّىٰ ألْقَاهُ في مَهْلَكَة. وهذا المعنىٰ هو المناسبُ هنا.

ويأتي فِعْل «اسْتَفَزَّهُ» بمعنَىٰ استَخَفَّهُ بالْمُخِيفَاتِ والمفْزِعَات.

فما الذي أراده فرعون؟

نظرْتُ في جُمْلَة النصوص فوَجَدْتُ أنّ فِرعونَ وملأَه وسائر القبط، قد كانوا شدِيدي الحرص على إبقاءِ بني إسرائيل في مصر، لتسخيرهم في أخَسِّ المِهَنِ والأعمال وأحْقَرِها، وفي أكثرها مشَقَّةً وإعْناتاً.

ووجَدْتُ أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام، قد ألَحَّ عِدَّة مَرَّات في مطالَبَتِهِ لفرعون بأنْ يَسْمَح لبني إسرائيل ويَأْذَنَ لَهُمْ بالخروج خروجَ هجرة جماعِيَّةٍ من مصر، وعَوْدتهم إلىٰ الأرض الّتي قَدِم منها أجدادهم أيَّامَ يُوسُف عليه السَّلام قبل أكثر من أربعة قرون، كما ذكر الإسرائيليون(١).

فلا يتلاءم مع هذا تفسير استِفْزَازِ فرعونَ لبني إسرائيل من الأرض بإخراجهم منْ كلّ أرْض مصر، لأنَّ هذا هو أحد مطالب موسى عليه السَّلام بشأنِ بني إسرائيل، وهو ما يَرْفُضه فرعون ومَلَؤُهُ وسائر القِبْط بشدّة، فبنو إسرائيل قد كانوا مستَعْبَدِينَ حينئذٍ في مصر لهم، فكيف يسْمَحُونَ لعَبِيدهم بالخروج منها خروجاً نهائيًا.

وهنا أرى أنّه ليْسَ من المقبول عقلاً أن تكون إرادةُ فِرْعَوْنَ مُوجَّهَةً لاستفزازهم، بمعنى إخراجهم وطرْدِهم من كلِّ أَرْض مصر.

---

(١) جاء في الإصحاح (١٢) من سفر الخروج عند الإسرائيليين، أنَّ مُدَّة إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر، قد كانت (٤٣٠) سنة.

فما المرادُ إذَنْ من استفزازهم من الأرض؟

أقول: كان بنو إسرائيل يحْتَلُّونَ في مصر أفضل أراضيها، وهي أرْضُ «جَاسَان» الّتي هي جزْءٌ من أرض «رَعْمَسِيس» الّتي مَنَحَها يوسف عليه السَّلام منذ أيامه لأبيه، وسائر أهل أبيه وذُرِّيَّاتهم، الذين قَدِمُوا مِنْ أرْض «كنْعان» وكانت أرض «جَاسَان» خصيبَةً في مصر، وهي واقعة في شرق الدَّلْتا، كثيرة المرعىٰ للقطعان والمواشي، وكان بنو إسرائيل رُعاةً للقطعان والمواشي.

جاء في الإصحاح (٤٧) من سفر التكوين: «١١ وأسْكَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ وإخْوَتَهُ مُلْكاً في أَرْضِ مِصْرَ في أفْضَلِ الأرض، أرْضِ رَعْمَسِيسَ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْن».

أقول: فالّذِي يظهر أن فرعون موسى أراد أن يسْتَفِزَّ بني إسرائيل من هٰذه الأرض المتوارثة من أجدادهم، مُنْذُ عَهْدِ يُوسُفَ عليه السَّلام، وأراد أنْ يُوَزِّعَهُمْ في شَتَّىٰ أرض مصر، حتَّىٰ لا يكونَ لَهُم تجَمُّعٌ في مكانٍ واحِدٍ، وليكُونوا مُشَتَّتِين في مختَلِفِ بُلدان مِصْرَ ومَدَائِنها وقراها الصغيرة والكبيرة.

هذا مَا ظهر لي والله أعلم.

لكِنَّ إرادة فرعون هذه لم تَتَحَقَّقْ، إذْ جاء الأمر الرَّبَّاني لموسَىٰ عليه السَّلام، بأنْ يخرجَ ببني إسرائيل من مصر، متّجِهاً شَطْرَ سيناء.

وعلم فرعون بخروجهم بعد أن تَجَاوزوا حدود المدينة، فجمع جيشاً كبيراً من جنوده في مختلف مدائن مصر وقُرَاها، وأتْبَعُوا مُوسَىٰ عليه السَّلام وبَني إسْرَائيل، لمقاتَلَتِهِمْ وقَتْلِ قادَتِهِمْ، ورَدِّ عامّتِهم إلى مصر، وتم بهذا الإتْباع إغراق فرعون وكلّ مَنْ معه وما معه، في البحر الأحمر، وكان يُسَمَّىٰ بَحْرَ «سُوف» كما جاء عند الإسرائيليّين.

دَلَّ على إغراقهم قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

- ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا (١٠٣)﴾:

أي: فأغْرَقْنَا بعَظَمَةِ رُبُوبيَّتِنا وبحِكْمَتِنَا وعَدْلِنا، فرعونَ ومَنْ معه من آله وجُنْدِهِ جَمِيعاً، ويَلْزَمُ من هذا إغراق وإتلاف كُلِّ ما معه من خيل، ومَرْكبات، وأسْلِحَةٍ، وعَتَادٍ، وتَمْوين.

وانفلق عمود الصُّبْح، وفرعَوْنُ ومن مَعَهُ غارقون، وقَذَفَ الْبَحْرُ الكثيرين مِنْهُمْ على الشّطّ الآخِرِ المقابِلِ لشَطِّ الْعُبور وشاهَدَهُمْ بَنُو إسرائيل هَلْكىٰ، وأبَانَ الله عزّ وجلّ أنّه أنْجىٰ بَدَنَ فِرْعونَ الهالِكِ فرمَاه على الشاطِىء، ليَرَاهُ قومُه، وليَكُونَ عِبْرَةً لكُلِّ جَبَّارٍ عَنيدٍ.

* * *

خامساً

نصّ سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول)

الآيات من (٥٢ ـ ٦٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى
ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَٰذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ
وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ
ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
ٱلْءَاخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨)﴾:

القراءات:

(٥٢) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جَعْفر: **[أَنِ اَسْرِ]** بوصل الهمزة، وكَسْرِ النون في الوصل، من فعل: «سَرَىٰ» يقالُ لغة: «سَرَىٰ بِفُلاَنٍ لَيْلاً» أي: جعَلَهُ يَسِيرُ فيه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[أَنْ أَسْرِ]** بإسكان النون، وقطع همزة «أَسْرِ» من فعل «أَسْرَىٰ» يقال لغة: «أَسْرَىٰ اللَّيْلَ وَبِهِ يُسْرِي» أي: سَرَى. ويقال: «أَسْرَىٰ فُلاناً، وأَسْرَىٰ بِهِ» أي: سَرَىٰ به.

فالقراءتان لغتان عَرَبيَّتان متكافئتان.

(٥٢) ● قرأ نافع، وأبو جعفر: **[بِعِبَادِيَ إِنَّكُمْ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[بِعِبَادِي إِنَّكُمْ]**: بإسْكان يَاء المتكلم. وهما نُطْقَانِ عَرَبيَّانِ متكافئان.

(٥٦) ● قرأ نافع، وأبْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وهشام، وأَبُو جعفر، ويعقوب: **[حَذِرُونَ]** جَمْعُ «حَذِر» مبالغة اسم الفاعل «حَاذِر».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[حَاذِرُونَ]** جمع «حَاذِر» اسم فاعِل مِنْ «حَذِرَ يَحْذَرُ حَذَراً فَهُوَ حَاذِر» وحَذِر في المبالغة.

يقال لغة: «حَذِرَ الشَّيْءَ وَحَذِرَ مِنْه» أي: خاف من شرّه واحْتَرَزَ منه، فهو حاذِرٌ وَحَذِر.

(٥٧) ● قرأ ابن كثير، وابنُ ذكْوان، وشُعْبة، وحمزة، والكسائي: **[وَعِيُونِ]** بكَسْر العين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَعُيُونِ]** بضمّ العين.

كَسْرُ الْعَيْن وضَمُّها لُغَتَان في هذه الكلمة، فالقراءتان متكافئتَان.

(٦٢) ● قرأ حفص: [مَعِيَ رَبِّي] بفتح ياء المتكلم من «مَعِيَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسْكان هذه الياء.

(٦٢) ● قرأ يعْقُوب: [سَيَهْدِينِي] بإثبات ياءِ المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [سَيَهْدِينِ] بحَذْف ياء المتكلم تخفيفاً، وهي مُقَدَّرَةٌ ذهْناً.

(٦٤) ● وقف رُوَيسٌ فقط بهاءِ السَّكْتِ في [ثَمَّ] فإذا وقف قَالَ: [ثَمَّهْ] وهذا من لغة العَرَب في النُّطْق.

وهُنا يأتي أيْضاً نصُّ سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ مع إيجاز واختزال وبعض إضافات:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾:

وقد سبق بيان القراءات فيه، والتمهيد المتعلق به، وبقي تدبُّر فقراته، ويجده القارىء ضمن تدبّر النصّ الآتي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

تمهيد:

من الواضح في هذا النصّ الذي من سورة (الشعراء) أنَّهُ يُعَبِّرُ عن المراحل الأخيرة، لوجود مُوسَىٰ عليه السَّلام وبني إسرائيل في مصر، وخروجهم منها ليلاً بتدبيرٍ وأمْر من الله عزّ وجلّ، أَوْحَىٰ به الله لموسَىٰ عليه السَّلام، وأنّ فرعَوْنَ وجُنودَه الّذِين جمَّعَهُمْ مِنْ كلِّ مَدَائن مِصْرَ وأرْضِها، أتْبَعُوا بني إسرائيل على الطريق الذي خَرَجُوا منه مُشْرِقين، أي:

عند شروق الشمس في اليوم الذي اسْتَكْمَل فيه فرعون حَشْرَ جيْشِه وسَوْقَ فيالِقه، من مختلف المَدَائِنِ المصريّة مُراعِياً السُّرْعَة الْقُصْوىٰ، لِلّحاقِ بهم وإدراكهم، وقِتَالِهم، وإكراه عامّتِهم على الرُّجُوع إلى الذُّلّ والاسْتِعْبادِ في مصر.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾.

أي: وأبلَغْنَا مُوسَىٰ عن طريق الوحْي أمْرنا بأن يخرج ليلاً مع بني إسرائيل من مصر، فخرج بهم في اتّجاه سِيناء.

﴿أَنْ أَسْرِ﴾: «أنْ» تفسيريَّة بمعنىٰ: «أي» وما بَعْدَهَا يُفَسِّرُ مَا هُو مُبْهم في عبارة [**وأوحينا**]. ويجوز أن تكون «أن» مخففة من الثقيلة، واسْمُها ضمير الشأن محذوف وجوباً كما يقول النحويّون، وتقديرُه: أنَّ الشأن العظيم الخطير هو أمْرُنا لك بأن تَسْرِيَ لَيْلاً بعبادي بني إسرائيل.

﴿بِعِبَادِي﴾: الباء الجارة هُنَا للتَّعْدِية، لأنَّه يقال لغة: «أسْرىٰ فُلاَناً وأسْرَىٰ بِه» أي: جعله يَسِيرُ ليلاً.

ووصف الله جمهور بني إسرائيل الخارجين مع موسىٰ عليه السَّلام بأنَّهم عبادُه على معنيين:

الأول: العبودية الاختياريَّة والجبريَّة معاً بالنِّسْبَةِ إلى مَنْ كان منهم قَدْ آمَنَ فعلاً بموسَىٰ وبما جاء به عن ربّه.

الثاني: الْعُبُوديّة الْجَبْرِيَّة بالنِّسْبَةِ إلى الَّذِين لم يُؤْمِنْ بَعْدُ به وبما جاء به منهم، ولم يُسْلِمْ لَهُ، وهو خارج مَعَه خروجاً قَوْمِيًّا، لا انتماءً دِينيًّا.

دلَّ على هذا المعنى الثاني قول الله عزّ وجلّ في سورة (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: أن يُعَذِّبهمْ إذا آمَنُوا بموسَىٰ وأسْلَمُوا له.

وكانَ اتّباع هؤلاء لموسَىٰ عنْدَ الخروج بهم من مصر اتّبَاعاً قَوْمِيًّا قَبَلِيًّا.

ويَدُلُّ على هذا الفهم الاستئناسُ بما جاء في الإصحاح (١٤) من سِفْرِ الخروج، وهو قولُ الإسرائيليين في حكايتهم لحادثَةِ الخروج والنجاة من فرعون وقومه، ومَا صنعه الرَّبُ بهم من إغراق، وإهلاك:

«٣١ ورَأَى إسرائيلُ الْفِعْلَ العظيم الّذي صَنَعَهُ الرَّبُّ بالمصريّين. فخاف الشَّعْبُ وآمَنُوا بالرَّب وبِعَبْدِهِ مُوسَىٰ».

هذا يَدُلُّ على أنَّهُمْ لم يكونوا قَدْ آمَنُوا من قَبْل، وأنَّ خُرُوجَ كثير منهم مع موسَىٰ قَدْ كان خروجاً قَوْمِيًّا قَبَلِيًّا، ولم يَكُنْ طاعَةً للهِ ورسوله.

فتصَوُّرُ أَنَّ كُلَّ بني إسرائيل الّذين خرَجوا مع موسى من مصر قد كانوا مؤمنين مُسْلِمين، تَصَوُّرٌ لاَ يُؤَيِّدُهُ نصٌّ قرآنيّ، ولا خَبَرٌ تاريخيّ.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: أَعْلَمَ اللهُ عزّ وجلّ بهذا الوحْي أنَّ فِرْعَوْنَ وجيشاً معه سَيَتّبِعُونَهُمْ، لقتالهم، ورَدّ جمهورهم إلى الْعُبُوديَّةِ والتسخير والإذْلال.

ولهذا الإعْلاَم لوازم فِكريَّة، أي: ولكِنِّي سَأَتَوَلَّىٰ إنْقاذَكُمْ وَتنجيَتَكُمْ من عَدُوِّكُمْ بما أشاء من وسَائِلي، فَلا تَخف من اتّباع جَيْش فِرْعَوْن لَكُمْ، وكُنْ أنْت وقومُكَ مطمئنين لتدبيري، وقضائي وقَدَرِيَ.

وجاء نظير هذا البيان في الموجز المختزل الذي جاء في النصّ الذي من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى. . . ﴿٧٧﴾﴾:

فجاء في هذا البيان إضافة عبارة التأكيد والتحقيق: ﴿وَلَقَدْ﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾:

أي: فلمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بخروج بني إسرائيل دون إذْنٍ منْه، أرْسَلَ قُوّاداً من قِبَلِه حَاشِرِينَ جُنُودَ قِتَالٍ في المدائن المِصْرِيَّةِ، من كُلِّ أرْض مِصْر، لِتَكْوين جَيْشٍ كبير، يُتَابِعُ بَني إسْرَائِيل الفارِّين، بقيادة مُوسى عليه السَّلام.

والمرادُ رَدُّ جماهيرهم إلى الذُّلّ والعبوديَّةِ، بَعْدَ قَتْلِ زُعَمائِهِم الَّذِين قَادُوا أشباطَهُمْ في الخروج، ومَنْعُهُمْ من تكْوِين جَيْشٍ خارج مصر، ومِنْ عَوْدَتِهم مُقَاتِلين للاستيلاء على حُكْمِ مصر، بقيادة موسَىٰ وَأخيه هارون.

قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول فرعون:

- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: المشارُ إلَيْهِمْ هم بَنُو إسرائيل.

﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: أي: لَجَمَاعَةٌ ضَعِيفَةٌ من الناس قَلِيلُونَ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَىٰ الْقِتال، فالسَّيْطَرَةُ عليهم سَهْلَةٌ ومَيْسُورَة.

وتُجْمَعُ «شِرْذِمَة» عَلَىٰ «شَرَاذِم». ويُطْلَقُ لفظ «الشِّرْذِمَة» في اللُّغَةِ على القِطْعَةِ من الشيء، ويقال لغة: «ثِيَابٌ شَرَاذِم» أي: ثياب مُمَزَّقَةٌ بالِيَةٌ خَلَقَة.

وقد جاء تأكيد هذه العبارة بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة».

قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول فرعون لقومه:

- ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

الغيظ: الغضبُ الشديد. يقال لغة: «غاظَهُ، يغِيظُهُ، غَيْظاً» أي أغْضَبَهُ أشدّ الغضب. ويُقَالُ أيضاً: «أَغَاظَهُ»

أي: وإنَّ هؤلاء الإسْرَائيلِيين قَدْ أَغْضَبُونا أشدّ الغضب، بتصرّفاتهم، وبخروجهم من مصر دون إذْنٍ مِنَّا، فلا بُدَّ من الانتقَامِ منْ زُعَمَائِهِمْ وَتَأْدِيب جماهيرهم.

يخاطبُ فرعون قومَهُ بضمير المتكلّم العظيم، إذِ ادَّعَىٰ لنَفْسِه الإلَٰهيَّة والرُّبوبيَّة. وجاء تأكيد العبارة بـ «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة» لتَدُلَّ على عبارته التوكيديَّة في لغته.

قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول فرعون لقومه:

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [حَذِرُون]: أي: خائفونَ على مُلْكِ مصر وعلىٰ الشَّعْب المصريّ من خروجهم، إذْ قَدْ يُكَوِّنُون خارِجَ مصر جيشاً قويًا، ثم يَرْجِعُونَ مقاتِلِينَ، لانتزاع الحُكْم، واستعباد الإسرائيلين للشَّعْبِ المصري كُلِّه بِقُوّة السُّلْطانِ، انتقاماً من استِعباد الشَّعب المصريّ لهم بسُلْطَانِنا الفرعوني.

هذا ما دَلّت عَلَيْهِ عبارة: ﴿لَجَمِيعٌ﴾: أي: الْمَلِكُ ورجال دولَتِه وسائِر القبط في مصر.

وجاء توكيد العبارة بـ: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة» لتدُلَّ على عبارته التوكيديَّة في لغته.

وكان هذا البيان في الآيات من (٥٤ ـ ٥٦) من فرعون عن بني إسرائيل، لإغراء القادرين على القتال من الشعب المصري بالالتحاق بهذا السَّوْق الجبريّ للجنود النظاميّين، وليَتَطَوّعَ غيرهم فيلْتَحقوا بالجيش

النظامي، طمعاً في المنافع والمغانم الّتي سيَنالُونَها بخروجهم الظافر، على الشرذمَةِ القلِيلينَ من الإسرائيليِّين.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾:

تحدَّث الله عزّ وجلّ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ عن حِكْمَتِه في تَدْبيراتِهِ للانتقام من فرعون وجنوده.

أي: وكان في إغرائهم وتَهْيِيجِهم منَّا لنفوسهم وقلوبِهم، وإحداثِ الغضب الشديد فيها، والرَّغبةِ في متابعَةِ بَنِي إسرائيل الضعفاء، أنْ أخْرَجْنَا فِرْعَوْنَ وآلَهُ، وعِلْيَةَ قوْمِهِ، ممّا يَمْلِكُون من كنوز ذهبيَّةٍ وغيرها، جَمَعُوهَا بقُوَّةِ سُلْطَانِهم في مصر، وأخرجْنَاهم من مقامٍ كريم، كانوا فيه مُكَرَّمِينَ، مُفَضَّلِين، أعِزّاء، ذوي عُلُوٍّ في أرض مصر، وهو مقامُ سُلْطَتِهِمُ الَّتِي هي لَهُمْ في عُمُومِ مصر.

﴿جَنَّٰتٍ﴾: جَمْع «جَنَّة» وهي الحديقة المكتظَّةُ بالأشجار، فهي سَاتِرَةٌ لما تحتها من أرضٍ وأشياء وأحياء.

﴿وَمَقَامٍ﴾: **الْمَقَامُ**: يُرادُ به المكان المعنويُّ الرفيع، الّذي كَانُوا فيه أهْلَ وِلاَيَةٍ وحُكْمٍ وسُلْطان.

﴿كَرِيمٍ﴾: أي: مُفَضَّلٍ عَلَى ما سِواه من الْأَمْكِنَةِ المعنويَّة.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾:

تبادر لأذهان كثيرٍ من المفسّرين، أنَّ الله عزّ وجلّ مَلَّكَ بَنِي إسرائيل، مَا كان لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ وعِلْيَةِ قَوْمِهِ في مصر، ففهموا هذه الآيَة على وفق هذا الذي تبادر لهم.

مع أنّ الثابت تَاريخيًّا أنَّ بَنِي إسْرائيل لم يَعُودوا إلى مِصْرَ بَعْد أنْ خَرَجُوا منها، بلْ أبقاهم اللهُ عزّ وجلّ تائهين في صحراء سينا وما حَوْلَها مما يتّصِلُ بها بَرّاً أربعين سنة، لأنَّ معظمهم قَدْ رَفَضُوا أنْ يَدْخلوا أرض الكَنْعَانيين مُقَاتِلين، وقالوا لموسَىٰ عليه السَّلام: إنَّ فيها قَوْماً جبَّارِينَ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها ما داموا فيها، وقالوا له: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فقاتِلا إنَّا هـٰهنا قاعِدُون.

وبعد أنْ تُوفِّي هاونُ ثمّ مُوسىٰ عليهما السلام، ومضت أربعون سنة تائِهين في الأرض، غير مستقرِّين في مُدُنٍ ولا قُرىٰ، وبَعْدَ أنْ نشأ جيل جديد قادر على القتال، هيّأ اللهُ عزّ وجلّ مَنْ يقودهم، فَدَخَلُوا أَرْض الكَنْعَانِيّين بقتال، وهي أرض فلسطين، ونصَرَهُمُ الله ومَلَّكهم مَا كَانَ لِمُلوك هٰذِهِ الأرض الجبابرَة الوثنيِّين الكفرة، من جنَّاتٍ وعُيونٍ وكُنُوزٍ وَمقامٍ كريم.

وبالتأمُّل والتفكير الدقيق، ظهر لي أنَّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يُرَادُ به أنَّهُ قَدْ حصَلَ لِقَوْمٍ آخَرين غَيْرِ المصريّين، نظير ما حَصَلَ للمصْرِيّين مع بني إسرائيل، فنَصَر اللهُ عزّ وجلّ بني إسرائيل عَليْهِم، وَمَلَّكَهُمْ مَا كان لملوكهم وأثريائهم مِنْ جنَّاتٍ وعُيُونٍ وكُنُوزٍ ومَقَامٍ كرِيم، وهنا يأتي مَوْقع قول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: وجعَلْنَا بني إسرائيل هُمْ المالِكينَ لَهَا، بَعْدَ مالكيها السابقين، عن طريقِ القتالِ والحرْب.

وبهذا ينْحَلُّ الإشكال، ويَتِمُّ التوفيق بَيْنَ النصّ القرآنيّ وبَيْنَ الواقع التاريخيّ.

ونلاحظ أنّ هذه الآية (٥٩) قد قَفزَت بعبارَةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أكثر من خمْسِينَ سَنَةً إلى جهة الأَحْداث الّتي حَدَثَتْ في المستقبل، بعيداً عن حَدَث عُبور بني إسرائيل البحر، وغَرَقِ فرعَوْنَ وكُلِّ جنوده الّذِين تابَعُوا بني إسرائيل معه.

وقد جاءت هذه الآية كالمعترضة، ضِمْنَ الكلام عن تَسَلْسُلِ الأحداث بتتابُع، للإشْعَارِ بأنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ منَحَ بني إسرائيل مَا كانَ وَعَدَ به أجدادهم المرسلين، وكان تأخير تحقيق وعده بسبب من بني إسرائيل أنفسهم، إذْ رَفَضُوا أن يَدْخُلُوا أرض الكَنْعانيين مقاتلين بقيادة موسىٰ عليه السَّلام، ليظفروا بالأرض المقدسة (= الْقُدْس ومَا حوْله) وهي الأرض التي بارك الله فيها.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠)﴾:

﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾: أي: فسَارَ جَيْشُ فِرْعَوْنَ بقيادته في أثَرِ جمهور بني إسرائيل، على الطريق الذي ساروا فيه.

يقال لغة: «تَبِعَهُ، يَتْبَعُهُ، تَبَعاً، وتُبُوعاً، وتَباعاً، وتَباعَةً» أي: سارَ في أثره. وكذلكَ يُقَال: «أَتْبَعَهُ، واتَّبَعَهُ» بمعنى: سار في أَثَرِه يَطْلُبُه.

﴿مُّشْرِقِينَ﴾: أي: حالَة كونهم داخِلِين في وقْتِ شُروق الشمس. يقال لغة: «أَشْرَق الْقَوْم» أي: دخَلُوا في وقْتِ شروق الشمس، عند طُلُوعها، ومَدِّ ضيائها على الأرض.

لم يُحَدِّدِ النصّ اليوم الذي أَتْبَعُوهم فيه، فلا بُدَّ أَنْ نُقَدِّر زمَناً ما، يُسْتَطاعُ فيه جمع الجيش وحشْرُه وسوقُهُ من المدائنِ المصريّة، وإعدادُه بأقْصَىٰ سُرْعَةٍ لملاحَقَةِ بني إسرائيلَ على الطريق الذي سَلكُوه.

وجاء في النصّ الموجز الذي من سورة (طه): ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ... (٧٨)﴾: أي: فأتبعهم فِرْعَوْنُ مصحوباً بجنوده، الباء في: ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ للمصاحَبَة.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾:

أي: فلَمَّا وَصَلَ جَيْشُ فِرْعَوْنَ بقيادته، إلى مكانٍ يُمْكِنُ أنْ يرَىٰ فيه كُلُّ جَمْعٍ من الْجَمْعَيْنِ الآخر.

يُقَالُ لغة: «تراءَىٰ الفريقان، أو الجمعان، أو الشخصان المتباعدان» أي: رأىٰ كُلٌّ منهما الآخر، أوْ وصَلاَ إلَىٰ مكان يُمْكِنُ فيه أن يرىٰ كلٌّ منهما الآخر.

﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: أي: قَالَ أصحابُهُ المؤمنون به والمسلمون له، والملازِمُون مرافقته، والمحيطون به كالْهَالة، وهُمُ الّذينَ اختارَهم موسَى عليه السَّلام واستَخْلَصَهُمْ من قومه، لصُحْبَتِهِ في حِلِّه وَتَرْحَالِه.

﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾: **مُدْرَكون**: اسْمُ مفْعُولٍ من فِعْلِ: «أَدْرَكَ». يقال لغة: «أَدْرَكَ فُلاَنٌ الشَّيْءَ» أي: لَحِقَهُ وبلَغَهُ وَنَالَهُ.

والمعنى: قال أصحاب موسى المقرّبون له: إنَّ جَيْشَ فِرْعَوْنَ سَيُدْرِكُنَا، وسينالُنَا بأسْلِحَتِهِ مقاتِلين لنا، فقد وصَلَ هٰذا الجيش إلى مكانٍ يَرَوْنَنَا فِيه ونراهم، وأمَامَنَا الْبَحْرُ، فماذا نَفْعل للنَّجَاة من هذا الجيش الّذِي لا قِبَلَ لنا بمقاتَلَتِه؟.

قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لِرَدِّ مُوسَىٰ على أصحابه:

- ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: أجابَ مُوسَىٰ عليه السَّلام أصحابه الذين هم صَفْوَةُ قومه، بعبارة زَاجِرَةٍ، هِيَ: ﴿كَلَّآۖ﴾.

وعَلَّلَ عليه السَّلام هذا الزجر بقوله لهم: إنَّ مَعِيَ رَبِّي الَّذِي أَمَرَنِي بأنْ أَسْرِيَ بِبَنِي إسرائيل، وأَعْلَمَنِي بأَنَّنَا مُتبَعُونَ، فَهُو حَتْماً سَيَهْدِينِي إلى وسِيلَةِ النجاة مِنْ هذا الجَيْشِ الّذي لاَ قُدْرَة لقَوْمِي بني إسرائيل على مقاتلته.

وكانوا قَدْ وَصَلُوا إلى بَحْرِ «سُوف» وهو «الْبَحْرُ الأحمر».

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾:

وجاء في النصّ الموجز المختزل الذي جاء في سورة (طه):

- ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾:

﴿يَبَسًا﴾: أي: يَابِساً. يقال لغة: «أَرْضٌ يَبَسٌ» أي: صُلْبَةٌ شديدة، ويُقَال: «مكانٌ يَبَسٌ» أي: مكانٌ كان فيه ماءٌ، فذهب ماؤهُ وجَفَّ ويَبِسَ.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾: دركاً: أي: لا تخاف إدْراكَ جَيْشِ فِرْعَوْن لَكُمْ. ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي: ولا تَخْشَىٰ غَرَقاً. حُذِفت كلمة «غرقاً» على سبيل الاكتفاء، للعلم بها من القرينة، لأنّ المطلوب سلوك طريق بَيْنَ مَاءَيْنِ مُرْتَفِعَيْن جَامِدَيْنِ، كلُّ واحدٍ منهما كالْجَبَلِ العظيم.

فالمعنى المسْتَفادُ من النصَّيْن مع مُلاحظة التَّكامل فيما بينهما:

فعَقِبَ إعلان أصحاب موسَىٰ تَخَوُّفَهُمْ مِنْ إدْراك جيش فرعونَ لهم، وتخوُّفهم من البَحْرِ إذَا فَرُّوا مِنْ مواجَهَةِ الجيش الفرعوني، وبَعْدَ إجابة موسَىٰ عليه السَّلام بقوله لهم: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أوْحَىٰ اللهُ عزّ وجلّ إلى موسَىٰ مُبَاشَرَةً بأنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بعَصَاهُ لينْشَقَّ ويَكُونَ لهم في قَاعِ الْبَحْرِ طريقٌ يَابسٌ جَافّ، فإذا عَبَرَ هو وقومه فيه فإنَّهم لا يخافُون أنْ يُدْرِكهم عَدُوُّهم، ولا يَخْشَون فيه غرقاً فضرَبَ موسىٰ عليه السَّلام مُباشرةً بعَصَاهُ الْبَحْرَ، تنفيذاً للأمْرِ الرّبانيّ، فانفلقَّ الْبَحر.

﴿فَٱنفَلَقَ﴾: أي: فانْشَقَّ.

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾:

الْفِرْق: الْفِلْقُ من الشَّيء إِذَا انْشَقَّ.

الطَّوْدُ: الْجَبَلُ العظيم الذَّاهِبُ صُعُداً فِي الجوّ.

جاء في نصّ سورة (طه) ذِكْرُ لفظ «طريق» مُفْرداً غير مجموع، ولا نجد في القرآن أَنَّهُ كان مُقَسّماً إلى عِدَّةِ طُرُقٍ.

ورُويَ عن ابن عبّاس أنَّ الْبَحْرَ قد انفلق فيه اثنا عَشَر طريقاً، لِكُلِّ سِبْطٍ من أسْباط بني إسرائيل طريقٌ، والله أعلم.

والمعنى: فكان كلُّ قِسْمِ انْفَرَقَ من الماء مُنْحازاً لإحداثِ طريق يَعْبُر منه بنو إسرائيل إلى الشاطىء الآخر، كالجبل العظيم قائماً ثابتاً، لا يَسِيلُ مِنْ مَائِهِ شَيْءٌ إِلَىٰ الطريق الْيَبَس الّذِي جَعَلَهُ اللهُ في قَاعِ الْبَحْرِ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: أي: وقَرَّبْنا. يقالُ لغة: «أزْلَفَ الشَّيْءَ، وَزَلَفَهُ» أي: قَرَّبه، وجَعَلَهُ يَدْنو من الجِهَةِ الّتي قَرَّبَهُ إليها.

﴿ثَمَّ﴾: اسم يُشارُ به إلى المكان البعيد، وهو ظَرْفٌ لا يتصرَّف، وقد تلحقه التاء، فيقال: ثَمَّةَ، ويُوقَفُ عليها بالهاء.

في هذه الآية يتحدَّثُ رَبُّنا بِعَظَمَةِ الرُّبُوبية، إذْ يُجرِيْ في كونه ما يشاء، ويْخلُقُ فيه ما يَشَاء، ويَتَصَرَّفَ فِيه على ما يشاء من كلّ أَمْرِ حكيم.

والمعنى: وقَرَّبْنَا هنالِكَ منْ وراء بني إسرائيل الذين عَبَرُوا في الطريق الَّذي شقَقْنَاهُ لهم في الْبَحر فِرْعَوْنَ وَكلَّ جيشِهِ، وطَمَسْنَا على بصائرهم، فدَخَلُوا في الطريق الْيَبَسِ متابعين بني إسرائيل، دُون أنْ يُدْرِكُوا أَنَّ الله قَدْ فَلَقَ الْبَحْرَ لهم لِيُنْجِيَهم، وثورةُ الْغَضَبِ المجنونَة مَعَ الطَّمَعِ بالظفر بِبَنِي إِسْرَائيل طَمَستْ بصَائِرَهُمْ جَمِيعاً، فأعماها عن إدْرَاكِ المصِيرِ الَّذِي هم إلَيْهِ صَائرون.

وجاء في هذه الآية التعبير عن فرعون وجَيْشِه بعبارة: ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ استهانة بهم وتحقيراً لهم.

وجاء تَصْرِيحٌ بأنَّ مِيَاهَ الْبَحْرِ قَدْ غَشِيَتْهُمْ في الموجز المختزل الّذي جاء في سورة (طـه) الّتي هي قاعدة التدبُّر هنا، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

- ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾:

أي: فَعَلاَهُمْ وَجَلَّلَهُمْ وَأَحَاطَ بأجْسَادِهم غطاءٌ مائيٌّ عظيم، مَا غَشِيَهُمْ من الْيَمِّ، الَّذِي أطبقَتْ عَلَيْهِمْ فيه مياه البحر التي عادت سائلة، كما كانت قبلَ فَلْقِ الْبَحْر لِبَنِي إسرائيل.

قول الله عزّ وجلّ في النصّ الذي من سورة (الشعراء):

- ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٦٦﴾:

أي: وأخْرَجْنَا مُوسَىٰ وَجميع من معه من بَنِي إسرائيل، ويُلْحَقُ بهم ما كان معهم من مواشيهم، وأشيائِهِمْ من أرْزاقٍ وغيرها، من الطريق الْيَبَسِ في البحر، إلىٰ الشَّاطىء المقابل لشاطِىء العبور.

وتَرَكَ اللهُ عزّ وجلّ الْبَحْرَ على حاله المفروق مُدَّة من الزَّمن، حتَّىٰ يكونَ المصريون في وسط الطريق الْيَبَسِ في البحر، دلَّ على هذا حرف الْعَطْفِ: «ثُمَّ».

ولمَّا وصل الجيش المصريُّ بقيادة فرعَوْن إلى نحو الثلث الأخير من الطريق الْيَبَسِ داخل البحر، أمر الله الْبَحْر بأن ينضَمَّ ماؤه عليهم، فسالت الجبال المائيَّةُ عليهم مُتَدَفِّقَةً بِشِدَّة وعُنْفٍ، فَعَذَّبَتْهُم وأَغْرَقَتْهُمْ أجمعين.

وجاء تكميل في الموجز الذي من سورة (طـه) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

- ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾:

أي: وأضلّ فرعون قومه إذْ قال لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾: أي: فاتْبَعُوهم، تغلِبُوهُمْ، وتَسْتَعْبِدُوهم. وأضَلَّهُمْ بقوله لِمَلَئِهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وجاءت عبارة: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ توكيداً بنفي النقيض، وهي من الإطناب ذي الفائدة التوكيديَّة، مَعَ الفائدة اللّفظيّة، لاستكمال نظم الآية بتعادُلٍ مع سَوابقها ولواحقها في سورة (طـه).

قول الله عزّ وجلّ في النصّ الذي من سورة (الشعراء):

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: إنّ في ذلك الذي أجراه الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام ولقومِه من بني إسرائيل من نجاةٍ بخارِقَةٍ عجيبة، ولِفِرْعَوْن وجَيْشِه من تعذيب وإغراقٍ بهذه الخارقة العجيبة، لآيَةً عظيمةً من آيات الله، دالَّةً على عظيم سلطانه في كونه، وعلى سامي حكْمته وعَدْله وفَضْلِه، في تصاريفه في عباده، وعلى سنّته الثابتة.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ هذه الآية تَطْبِيقٌ مِنْ تَطْبيقَات سُنَّتِهِ في عبادِه، وعلى الرُّغم من تذكير كُبَراء مشركي مَكَّةَ بها فإنَّ أكْثَرَهُمْ قَدْ وَصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوسٍ مَعَها من أن يؤمنُوا عن طريق إرادتهم الحرَّة.

لفظ «مُؤْمِنِينَ» قائم هُنَا مقامَ الفعل المضارع الدّالّ على الاستقبال.

وهذا المعنى الذي ذكرْتُهُ هو المعنى الذي تَرَجّح لدَيّ، نظراً إلى دلالَةِ الآية التالية:

- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾:

جاءت القضيّة في هذه الآية مؤكّدَةً بـ: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة ـ وضمير الفصل».

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: القويّ الغالبُ لكلّ القوىٰ، وهذا الاسم يُلائم الذين مَرَدُوا على الكُفْر، وصار إيمانُهُمْ ميْئُوساً منه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: ذو الرَّحْمَة العظيمة، وهذا الاسم يلائم أحوال القِلَّة الذين يُرْجَىٰ مستقبلاً إيمانهم.

مما جاء عند الإسرائيلين بشأن العبور خروجاً من مصر:

جاء في الإصحاح (١٤) من سفر الخروج:

«٢١» ومَدَّ مُوسَى يَدَهُ علىٰ الْبَحْر. فَأَجْرَىٰ الرَّبُّ الْبَحْرَ بِرِيحٍ شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ اللَّيل، وجَعَلَ الْبَحْرَ يَابِسَةً. وانْشَقَّ الماء ٢٢ فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَىٰ الْيَابِسَةِ والماءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وعَنْ يَسَارهم ٢٣ وتَبِعَهُمُ المِصْرِيُّونَ ودَخَلُوا وَرَاءَهم. جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ ومَرْكَبَاتُهُ وَفُرْسَانُهُ إلى وسط البحر ٢٤ وَكَانَ في هَزِيع الصُّبْحِ أَنَّ الرَّبَّ أَشْرَفَ على عَسْكَرِ الْمِصْرِيّينَ في عَمُودِ النَّار والسَّحَابِ، وأَزْعَجَ عَسْكَرَ الْمِصْرِيّين ٢٥ وخَلَعَ بَكَرَ مَرْكَبَاتِهِمْ حَتَّىٰ سَاقُوهَا بِثَقْلَةٍ. فقال الْمِصْرِيُّون نَهْرُبُ مِنْ إسْرائِيلَ لِأَنَّ الرَّبَّ يُقَاتِلُ الْمِصْرِيّينَ عَنْهُمْ.

٢٦ فقال الرَّبُّ لمُوسَىٰ: مُدَّ يَدَكَ عَلَىٰ الْبَحرِ لِيَرْجِعَ الْمَاءُ على الْمِصْرِيّينَ عَلَىٰ مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ. ٢٧ فمَدَّ مُوسَىٰ يَدَهُ عَلَىٰ الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْبَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصُّبْحِ إِلَىٰ حَالِهِ الدَّائِمَةِ والْمِصْرِيُّونَ، هَارِبُونَ إِلَىٰ لِقَائِهِ. ودفع الرَّبُّ الْمِصْرِيّينَ فِي وسَطِ الْبَحْرِ ٢٨ فَرَجَعَ الْمَاءُ وغَطَّىٰ مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَان جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَونَ الّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ في الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِد ٢٩ وأَمَّا بَنُو إسرائيل فَمَشَوْا عَلَىٰ الْيَابِسَةِ فِي وَسَطَ الْبَحْرِ وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهم.

٣٠ فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْم إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ. ونَظَرَ إِسْرَائِيلُ الْمِصْرِيّين أَمْوَاتاً عَلَىٰ شَاطِىءِ الْبَحْر ٣١ وَرَأَىٰ إِسْرَائِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بالْمِصْرِيّين. فَخَافَ الشَّعْبُ وَآمَنُوا بِالرَّبّ وبِعَبْدِهِ مُوسَىٰ».

سادساً

نصُّ سورة (يُونُس/١٠ مصحف/٥١ نزول)

الآيات من (٩٠ ـ ٩٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

القراءات:

(٩٠) ● قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلَف: **[آمَنْتُ إنَّهُ]** بكسر همزة «إنَّ» على أنّ الجملة مُسْتَأنفة، والجملة السابقة «آمَنْتُ» انْتَهَتْ، إذ أعلن بها إيمانه.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[آمَنْتُ أنَّه]** أي: آمنت بأنه لا إلَه إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

هاتان القراءتان دَلَّتا على أنَّ فِرْعَوْنَ قال أوّلاً: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وبَعْدَ ذَلِكَ قالَ وهُوَ يُغَرْغِرُ مع طُلُوع رُوحِه: ﴿ءَامَنتُ﴾ ـ **[إنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل]**.

(٩٢) ● قَرَأ يَعْقُوبُ، **[نُنْجِيكَ]** مِنْ فِعْلِ: «أَنْجَىٰ، يُنْجِي». وقرأ باقي القراء العشرة: **[نُنَجِّيكَ]** مِنْ فِعْلِ: «نَجَّىٰ يُنَجي».

«أَنْجَىٰ» و«نَجَّىٰ» متكافئان، لأنّ الفعل المهموز أخو المضَعَّف بتكافُؤٍ في المعنى، وهما لغتان عربِيّتان.

تمهيد:

من الواضح في هذا النصّ أنَّهُ دَلَّ عَلَىٰ خَمْسِ قَضَايا لم تَدُلَّ عَلَيْها النُّصُوص الأخرى، فالتكامل بَيْنَهَا جَلِيّ:

القضيَّة الأولى: أنَّ دُخول فِرْعَوْنَ وجُنُودِه المصريين طريق الإسرائيليِّنَ دَاخلَ الْبَحْر، قَدْ كانَ بَعْدَ مُجاوزة بَنِي إسْرَائيل الْبحر، وخُرُوجِهِم من مكان الْبَحْر خروجاً كُلِّيًّا مِنْ جِهَةِ الشاطىء الآخر.

وأنّ الْفَلْقَ في الْبَحْرِ اسْتَمَرَّ مُدَّة سَاعَاتٍ من اللّيل، بَعْدَ خروج آخر خارجٍ من بني إسرائيل مع مواشيهم وما معهم من أشياء.

وهذا هو الّذي أغْرَىٰ فِرْعَونَ وَقَوْمَه بأنّ الْفَلْقَ قد كان حادثَةً طبيعيَّة جَرَتْ على سَبِيلِ المصادفة، فعَبَر على اليابسَةِ في أرْضِ الْبَحْر بَنُو إسرائيل، وأنَّ جُمودَ جَبَلَي الجليد على جانِبَي الطّريق الْبَحْريّ لاَ يَذُوبُ بِسُرْعَةٍ، وأنَّهُمْ سَيَعْبُرُونَ كما عَبَر بَنُو إسرائيل دُونَ أن يُصِيبَهُمْ أذىً.

وسُكُونُ الْبَحْرِ هَكَذَا مَفْلُوقاً عِدَّة سَاعاتٍ يُفَسِّر ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) بَيَاناً لما قاله لموسَىٰ عليه السَّلام إبَّانَ الْحَدَث:

﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٌ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: واتْرُك يا مُوسَىٰ الْبَحْرَ سَاكِناً مَفلُوقاً عِدَّة سَاعاتٍ، فلا تَضْرِبْهُ بِعَصَاكَ لِيَرْجِعَ إلىٰ ما كان عَلَيْهِ فِي حَالَتِهِ المسْتَمِرةِ قَبْلَ فَلْقِه، ليكُونَ بقَاؤهُ سَاكِناً مَفْلُوقاً مُغْرِياً لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِه بِعُبُورِه، من الطَّرِيق الّذي عَبَرْتَهُ أنْتَ وَقَوْمُك، تَوَهُّماً مِنْهُمْ أنّ الْفَلْقَ ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّة. فإذا تَوَسَّطُوا الْبَحْرَ، وقارَبُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الشاطِىءِ الآخر، فاضْرِب الْبَحْرَ بِعَصَاكَ، وأمُرْهُ أَنْ يَنْضَمَّ مَاؤُه بَعْضُهُ إلىٰ بعض، لِيَكُونَ بِهِ إغراقهم جَمِيعاً.

﴿رَهۡوًاۖ﴾: أيْ: سَاكِناً، مَفْلُوقاً، يُقَالُ لغة: «رَهَا، يَرْهُو، رَهْواً» أيْ: سَكَنَ. ويُقال: «رَهَا الرَّجُلُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ» أي: فَتَحَهُما. ويُقَالُ: «رَهَا الطَّائِرُ جَنَاحَيْهِ» أي نَشَرَهُما.

ومن هٰذه المعاني اللُّغَويَّة نَأْخُذُ مَعْنَى السُّكون، ومعنَىٰ الانفتاح،

ومعنى امتدادِ جَبَلَي الماء إلىٰ الأعلى مع مَيْلِ أعْلاَهُمَا ذَاتَ الْيمين وَذَاتَ الشِّمَال كَجَناحَي الطائر، وكلُّ هذا ظَاهِرٌ لِمَنْ يَشْهَدُ انفلاقَ الْبَحر.

القضية الثانية: أنّ فِرْعَونَ لمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقِ، أَعْلَنَ بَيْنَهُ بَيْنَ رَبِّهِ إيمانه وإسْلامه، قائلاً: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

القضية الثالثة: أنّ اللهَ عزّ وجلّ قَال لِفِرْعَون عن طَرِيق الملائكة الّذِين حضروا لانتزاعِ رُوحه، أو عنْدَ انْتِزَاعِ رُوحه:

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾:

أي: وإنَّ هذا الإيمانَ بَعْدَ أن نَزَلَتْ بِكَ مُصِيبةُ الموتِ غَرَقاً عُقُوبَةً لَكَ، لاَ يَنْفَعُكَ، لأنَّهُ إيمانٌ بَعْدَ شُهُودِكَ مَا شَهِدْتَ منْ عالم الآخرة، الّذي كان غَيْباً عَنْكَ وأنْتَ في ظروف الحياة الدنيا. فالإيمانُ النافع في حياة الابْتِلاء هُوَ مَا كانَ إيماناً بالغيب.

القضية الرابعة: هي قول الله عزّ وجلّ له عن طريق الملائكة: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً . . . ﴿٩٢﴾﴾.

القضية الخامسة: بَيَانُ أَنَّ كثيراً من النَّاس عَنْ آيات الله الكثيرة في تصاريفه وتَدْبيراته لكونه لغَافِلُونَ.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا . . . ﴿٩٠﴾﴾:

هذا البيان يتحدَّثُ عمَّا كان بَعْدَ أَنْ تَرَاءَى الْجَمْعان، وكان بَنُو إسرائيل على شاطِىء الْبَحر، وَكَانَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُه بَعِيدينَ عنهم مَسَافَةً صالِحَة لمشاهَدَةِ كُلّ جَمْعٍ لِتَحَرُّكَاتِ الْجَمْعِ الآخَر، وَمُحَاصِرِينَ لِبَني

إسْرائيل محاصَرَةً تامَّة، إذْ لاَ خَلاَصَ لهم من الوقوع في أيدي المصْريين إلّا عُبُورُ الْبحر. وهذا مَا قَدَّرَهُ اللهُ عزّ وجلّ وقضاه.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾:

أي: وَجَعَلْنَا بَنِي إسْرَائِيلَ بقيادة مُوسَىٰ مُجَاوِزين الْبَحَرْ، وخارجين إلى الْبرّ مِنْ جِهَةِ الشَّط المقابل لشَطّ الْعُبُور.

يقال لغة: «جَاوَزَ المكان يُجَاوِزُه» أي: تخطَّاهُ، وخَلَّفَهُ وَرَاءَهُ.

والباء في: ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ للتَّعْدِية، أو للمصاحبة، أي: جعلناهم يجاوزون البحر بمصاحبتنا لهم بالعناية والرّعاية والحماية.

﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ... ﴿٩٠﴾﴾:

أي: فسار في أَثَرِهِمْ وعلَىٰ طَرِيق عُبُورِهِم فِرْعَوْنُ وَجُنُودُه.

يقال لُغةً: «أَتْبَعَهُ، وتَبِعَهُ» أي: سارَ على أثره، فالمعنى فيهما واحد، كما سَبَقَ بيانُه في نصٍّ آخر.

﴿بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾:

البغي: الظلم، وتجاوز حُدُود الحق والعدل، بإسْراف كريهٍ شنيع.

الْعَدْوُ: مصْدَر «عَدَا عليه، يَعْدُو، عَدْواً، وعُدُوّاً، وَعَدَاءً، وَعُدْواناً» أي: ظلَمهُ بإسراف، وتجاوز لحدود الظُّلْم الّذِي يَصْبِرُ علَيْه المضطّهَدُون، ولا يَصِلُونَ معه إلى الضَّجر وَتَفجُّرِ الْغضب.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

أي: واسْتَمرَّ فِرْعَوْنُ في كُفْرِه وَبَغْيِهِ وَظُلْمِهِ الفاحِشِ، حتّىٰ أَدْركه

الْغرَقُ، وَوَجَدَ نَفْسَه هالكاً لا محالة، حِينئذٍ أعلَنَ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّه إيمانَه وإسلامه.

إلَّا أنّ إيمانَهُ وإسلامَهُ وهو يُعَالج الموتَ وانْتِزَاعَ الرُّوح من جَسَدِه، لا يَنْفَعُهُ شيئاً، لانتهاء مُدَّةِ الامتحان، الّذي أُمْهِلَ فيه إمْهَالاً كثيراً، وقد رأىٰ خلال مُدَّةِ امتحانه من الآيات الرَّبَّانِية مَا جَعَلَهُ يَسْتَيْقِنُ بأنَّها من عند الله رَبّ الْعَالِمِين.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: أبْلَغَهُ الملَكُ أو الملائكة المكلّفُون أنْ يَنْزِعوا رُوحه، أو يَحْضُرُوا نَزْعَ رُوحِه، مع تَعْذِيبه، عَنْ رَبِّه قوله له: ٱلْآنَ آمَنْتَ وَأَسْلَمْتَ، إذْ لا يَنْفَعُكَ إيمانُكَ وإسلامُكَ، والحالُ أنَّكَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، على الرُّغْم من استيقانِكَ مِنْ آيَاتِ رَبّك، وكنْتَ مِنَ المفْسِدِينَ في الأرْضِ، بغْياً وعَدْواً.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾: أي: فالْيَوْم نجْعَلُ أمْواجَ الْبَحْرِ تَحمِلُكَ، وَتَقْذِفُكَ، وتُلْقِيكَ عَلَىٰ نَجْوَةٍ من الأرْض، ليراكَ النَّاس هالكاً، بمياه الْبَحْر الذي غَرِقْتَ فيه، ولِيُصَدِّقُوا أنَّكَ قَدْ غَرِقْتَ مَعَ الغارقين، فلم يَنْفَعْكَ ادِّعَاءُ إلَهيَّتِكَ، ثُمَّ رُبُوبيَّتِك.

النَّجْوَة: المكانُ المرتفع من الأرض.

ببدَنِكَ: أي مَصْحُوباً بكاملِ بَدَنِك، لَمْ تأكُلِ الحيتانُ مِنْكَ يَداً ولا رِجلاً، ولاَ شيئاً آخر من جَسَدِك.

ويُطْلَقُ الْبَدَنُ في اللُّغَةِ علىٰ الدِّرْع، والمعنى على هذا فالْيَوْمَ نُلْقِيكَ على نَجْوَةٍ من الأرض، مصحوباً بدِرْعِكَ الّذي لَبِسْتَهُ، لِحِمايَةِ نَفْسِكَ مِنْ ضَرَبَاتِ مَنْ يأتي لمقاتَلَتِك.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾: أي: لتكونَ لمَنْ خَلْفَكَ مِنَ الكَفَرَة الطغاة الجبابرَة الباغين العادين، ولسائر الكفَرَةِ المجرمين، عَلامَةً جَلِيَّةً تَدُلُّ عَلَى عَدْلِ رَبِّك في عباده، ولَتَدُلَّ عَلَىٰ عظيم نقمَتِه، مَتَىٰ اقتضَتْ حِكْمَتُه إنزال نِقْمَتِهِ بالطاغين منهم، بَعْدَ إمْهَالٍ طويلٍ، رَغْبَةً في أنْ يُؤْمِنوا، ويُسْلِموا، وقَطْعاً لأعذارِهم الّتي يُمْكِنُ أنْ يَعْتَذِرُوا بها.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

في هذه العبارة بيان من الله عزّ وجلّ يكْشفُ فيه حَالَ كثير منَ النّاس، تجاه الآيَات الكثيرات الّتي يُجْرِيها الله في عباده، وفي تصاريفه لكونه.

فحَالُ كَثِيرٍ من النَّاسِ أنَّهُمْ يَكُونُونَ غافِلينَ عَنْها.

الغفلة: انْصِرَافُ الذّهْنِ عَنْ مُلاحظة الشَّيْء وَمُرَاقَبَتِهِ، عَلَىٰ الرُّغْم من وجُوده بذَاتِهِ، أوْ وُجُودِ أدِلَّتِهِ، وإمكان إدْراكه لَوْلاَ وجُودُ الصَّارف، أو السَّهْو، الّذي هو بمثابَة إطْبَاقِ الجفنَيْنِ.

يُقالُ لغة: «غَفَلَ عَنِ الشَّيْءِ، يَغْفُلُ، غُفُولاً، وغَفْلَةً».

أقول: والصّارفُ الْمُحدِثُ للغَفْلَةِ هو انْشِغَالُ النفْسِ وَكِلِّ حواسِّهَا بلذّات الحياة الدنيا، وزينَاتها، وأهواء النَّفْسِ منها، وَتَأَثُّرُ الْفِكْرِ بوسَاوسِ الشياطين، وَتَسْويلاتهم، وإطماعاتهم بالباطل.

* * *

سَابعاً

نصّ سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول)

الآية (١٣٦)

قال الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن فرعون ومَلَئه ويلحق بهم جنودهم:

- ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

فأوجز اللهُ عزّ وجلّ المرحلة الأخيرة لقصّة فِرْعَون ومَلَئِه وجنودهم، مع مُوسَىٰ عليه السَّلام وبَني إسرائيل، في سورة (الأعراف) بهذه الآية، ومع هذا الإيجاز البالغ فيها، فَقَدْ جاء فيها إضافة ما يلي:

(١) التعبير بالانتقام منهم. **الانتقام**: المعاقبة على الذنب.

(٢) بيان أنّ الانتقام منهم كان بسبب تكذيبهم بآيات ربّهم من الخوارق، وبآياته الكلامية البيانيَّة الّتي بلغهم إيّاها موسى عليه السَّلام، وبِسَبَبِ أنَّهم أَعْرَضوا عنها بإراداتهم الحرَّة، فكانوا عن دَلالاتها غافلين، فلم يستفيدوا منها، ولم يَعْمَلُوا بمقتضىٰ دَلالاتها.

وقد سبق بيان معنىٰ الغفلة في أواخر تَدَبّر النّص السابق.

* * *

ثامناً

نصُّ سورة (النازعات/٧٩ مصحف/٨١ نزول)

الآيات من (١٥ ـ ٢٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ (٢٥) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ (٢٦)﴾:

القراءات:

(١٦) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأَبُو عَمْرو، وأَبُو جَعْفَر، ويعقوب: (طُوىٰ) بغير تنوين، على أنّ اللّفظ ممنوع من الصرف بتقدير أنه معرفة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: (طُوىً) بالتنوين مع كسْرِه في حالَة الوصل، وإبْداله ألفاً في حالة الوقف، والتنوين على أنَّ اللَّفظ مصروف بتقدير أنّه نكرة.

(١٨) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، ويعقوب: **[إِلَىٰ أَن تَزَّكَّىٰ]** . بتشديد الزّاي، أصل الكلمة: «تَتَزَكَّىٰ» أدغمت التاء بالزاي، فصارت «تزَّكَّىٰ».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ]** بدون تشديد الزاي، وبحذف التاء الثانية من «تَتَزَكّىٰ» الكلمة التي هي الأصل.

والقراءتان وجهان جائزان، وفي «تَزَكَّىٰ» تخفيف وإيجاز، ويظهر أن التعليم الرَّبّانيّ وجَّهَ مُوسى لتخفيف العبارة أوّلاً، فإذا أحْجَمَ فِرْعَوْن كرّر موسى عليه العبارة مع شيءٍ من التشديد، دلَّ عليه التعبير بعبارة: «تَزَّكَّىٰ».

تمهيد:

هذا النّص قد اشتمل على موجَز مُخْتَزَلٍ جدًّا، لكلّ قِصَّةِ مُوسَىٰ مع فرعون، منذ وقت تكليف الله موسىٰ أنْ يَذْهَبَ إليه، حتَّىٰ التنكيل به، وتَعْذِيبه، وإغراقه.

وفي هذا الموجز الْتِقَاط النِّقَاطِ البارزة العنوانيّة من قصَّة موسى مع فرعون.

والغرض من هذا النصّ توجيهُ الرسول ﷺ، وكُلِّ داعٍ إلى الله من أمّته، للصَّبْر الطويل مع الثقة بالله، في المسيرة الدّعويّة إلىٰ الله، كما صَبَرَ أولُو الْعَزْم من الرُّسل في دعواتهم، ومنهم موسَىٰ عليه السَّلام، الذي جاء في هذا النصّ اختزالُ قِصَّتِه.

وقد سبقَ هذا النصّ في تَرتيب النُّزُولِ نصُوصٌ مُتَعَدِّداتٌ تَدَبَّرنا طائِفَةً

مِنْها فيما سبق مِنْ تَدبّر، وقد جاء في النصوص تفصيل قصَّة موسى بوجوه مختلفة ومتكامِلَةٍ فِيما بَيْنَها.

وجاء هذا النَّصُّ لِلَفْت النظر إليها، رغْبَةً في استخراجها من ذاكرات الموجَّه لهم الخطاب، لسَاحَات التَّصوُّرِ الحاضر، لتكُونَ حافزاً على التأسِّي بالصَّبْر الذي صَبَرهُ موسَىٰ على فِرْعَون وقومه، وعِنادِهم، وإفسادهم، واضطهادهم لبني إسرائيل، وبالمتابَعَةِ الدائِبَة الَّتي تابَعَ فيها تأديةَ رسالة رَبّه، إذْ كان ذلك طَوال سِنين في مصر، قد تَصِل إلى رُبْعِ قَرْنٍ أو أكثر، ورأىٰ بعضُهُمْ أنها بلغت أرْبَعين سنة.

وسيرَةُ محمّد ﷺ في مكّة إبّانَ نزول سورة (النازعات) لَمْ يَمْض عليها إلّا أقلّ من عشر سنوات، فحال الرَّسُول والذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، مع عُتَاةِ مُشْركي مَكَّة وجبابِرَتها، أخَفُّ وأهون مِنْ حال موسَىٰ وهارون ومن آمَنَ معهما مع جَبابرة مصر، فرعون وملَئِه وآله وجنودهم.

فالتوجيهُ للتأسِّي بموسَىٰ عليه السَّلام وصَبْرِه، وصَبْرِ مَنْ آمَنَ مَعَه، واضحٌ في النصّ وُضُوحاً تامّاً.

وظاهر أنّ الغرض التوجيهي في سورة (النازعات) بالنظر إلى السّباق والسّياق، لا يَسْتَدْعي أكثر من اختزال قصة موسَىٰ عليه السَّلام، مع فرعَوْن جبّارِ مصر في زمانه، في فِقَرات غَيْرِ طِوال.

التدبّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلّ لرسُوله، ويُلْحَقُ به كلُّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته:

- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾:

الاستفهام في هذه الآية ليْسَ المراد به طلَبَ الإفهام، إذْ مَنَ الْجَلِيّ أنَّهُ غَيْرُ مُسْتَعْمَل فيما وُضِع له، لِسَبْق الإخبار بقصة موسى عليه السَّلام مع

فرعون، في نصوص متعدِّداتٍ مطوَّلاَتٍ، ومتوسطاتِ الطول، ومُوجَزاتٍ، بحَسَب ما اقْتضَتْهُ المناسبات التي جاءت في سُوَرِها، والأغراض الحكيمة من الإتيان بالمقدار الذي جاء فيها، وبالملْتَقَطاتِ من الْقِصَّةِ الّتِي اخْتِيرت للبيانِ فيها.

والمراد بهذا الاستفهام على ما يظهر هنا، الإشعارُ بما يلي:

لقَدْ سبَقَ أن أخبَرْنَاك بِحَدِيثِ موسَىٰ، في سُوَرٍ مُنَزَّلاَتٍ قبل هذه السُّورة، فَهَلْ أنْتَ ذَاكِرٌ ما أتَاكَ من حَدِيث عنه، وكيْفَ جاهَدَ جهاداً شَاقًّا بِعَزِيمَةٍ ثَابِتَةٍ، وَصَبْرٍ جميلٍ، في زمَنٍ طويل.

أي: فلَكَ بِه أُسْوَةٌ، فاصْبِرْ كما صَبَر، ولا يَضِقْ صَدْرُكَ، وَتَضْجَرْ ولاَ تَشْكُ مِنْ إعراضِ عِلْيَةِ قَوْمِك عنْ دعْوَتِكَ، أو من إدْبارهم.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧)﴾:

لَقَد عَلِمْنَا ممَّا سَبَقَ تَدبُّرهُ في السورة، أنَّ الله عزّ وجلّ نَاداهُ أوَّلاً، ثُمَّ قَرَّبَهُ نَجِيًّا، فَسَارَّهُ، والاختزال هنا اقْتَصرَ على ما كان أوّلاً، وما جاء بَعْدَهُ تابعٌ لَهُ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ بأسْلُوب النّداء.

وسبَقَ بيان الوادي المقدّس «طُوىً» في النصّ الذي من سورة (طـه)، وسبَقَ فيه أيضاً أنَّ الله عزّ وجلّ قال لموسَىٰ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤)﴾ وقد جاء هناك التدبُّر التحليليُّ الكافي.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)﴾:

ما جاء في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ مُضَافٌ إلى ما جَاءَ في النُّصوص الأخرى إضافَةً تَكْمِيليّة، فيها تَعْلِيمٌ من الله كيْفَ يكون الْقَوْلُ اللَّيِّن في مخاطبَةِ مثل

فِرْعَونَ الْجَبَّار، الّذِي اعْتَادَ على تقديم مُقَدِّمَاتٍ رَفِيقَاتٍ طويلاتٍ قَبْلَ عَرْض المَطْلوب منه.

ويُدْرِكُ المتدبّر المتأنّي، أنَّ عبارة: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ التعليميّة الموجّهة من الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السّلام، تُرْشِدُ إلى أنَّ من الحكمة بحَسَب معتاد ذلك الزمان، مخاطَبة فرعون بالأُسلُوب الذي كان يخاطِبُه به قومه، حِينَ طَلَبِ شَيْءٍ ما مِنْه، أَوْ عَرْضِ شَيْءٍ مَا عَلَيْه.

إنَّه أسْلُوبُ إطالَةِ مُقَدّمات الْعَرْض التكريميّ التلطُّفِيّ قبْلَ بيان المطلوب.

ففي هذه العبارة ذكر خَمْس كَلِمَات تمهيديَّةٍ تلَطُّفِيَّةٍ، قَبْلَ ذِكْر الكَلِمَة التي تضمَّنَتْ عَرْض المطلوب، ولدى إبراز ما هو مطويٌّ مقدّرُ ذهْناً تصير سبع كلمات، وهيَ كما يلي:

«(١) ﴿هَل﴾ وتتضمّن عرضاً على طريقة الاستفهام بتلُّطف (٢) اللّام من: ﴿لَّكَ﴾. (٣) كاف الخطاب. (٤) و(٥) وهنا كلمتان مطويّتان هما: «رَغْبَةٌ فِي». (٦) ﴿إِلَىٰٓ﴾ (٧) ﴿أَن﴾ . . .».

وبَعْدَها تأتي الكلمة الّتي تضمَّنَتْ عَرْض المطلوب، وهي ﴿تَزَكَّىٰ﴾ وما جاء بَعْدَهَا في الآية (١٩).

وكان من الممكن حذْف كلّ هذه المقدّمات المطوّلَة، والاكتفاء بعَرْضِ المطلوب بجفاءٍ وخُشُونَة، أو مع بعض المقدّمات دون إطالَةٍ فيها.

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تتَطهَّرُ من العقائد الكُفْرِيَّة، والأعمال السّيّئَةِ الْمُفْسِدَة. وتَنْمُو وتَسْمُو بالإيمان بالله رَبِّ العالَمِين، وبالإسلام له، وبالأعمال الصالحة الّتي تُرْضيه.

الزكاة: في اللّغة تدور حول معنيَيْن: الطهارة، والنماء.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي: وَأَدُلَّكَ ببيَاناتي، وبما أُبَلِّغَكَ مِنْ كلماتِ عن رَبِّي، وأُرْشِدُكَ إِلَىٰ صِرَاطِ هدَايتك، صراطِ الله العزيز الحميد، صراطِ الحقّ والخيرِ والرَّشاد، والأعمال الصالحة.

وأَهْدِيَكَ أيضاً إلى معرفةِ أنّ الحياة الدنْيَا دار امْتِحَانٍ، وأنَّ بَعْدَ هذه الحياة مَرْحَلَةً ثانيَةً يَكُونُ فيها البَعْثُ إلىٰ حياة أخرى، وفي تلك الحياة الأخرى دَارَانِ: دارٌ لِنَعِيم المؤمِنينَ المتّقِين، وهي الجنَّة، وفيها كلُّ ما يشتهي ويتمنَّىٰ أصْحابُها. ودارٌ لعذاب الكافِرِين المجرمين، وهو عذابٌ شديد، وأشدُّهُ عذابُ الحريق بالنَّار، وهي أيضاً دار عذاب العصاة المسْرِفين على أنفسهم، دون كفر.

﴿فَتَخْشَىٰ﴾: أي: فتَخْشَىٰ عَذَابَ الله وعقابه، وتَرجُو رحْمَتَهُ وثوابه العظيم في جنّاتِ النعيم، معظّماً ومُجلًّا لِرَبّك، وطامعاً بعظيم فضْلِه عليك.

فما صدّق فرعون موسَىٰ عليه السَّلام في دعوته، وطلَبَ مِنْهُ أنْ يأتيَ ببُرْهَانٍ على صِدْقِه في أنّه رسُولُ رَبّ العالمين.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾: وهي آيَةُ الْعَصَا الّتي تتحوَّلُ ثعباناً مُخِيفاً مُرْهِباً، وأَتْبَعَها بآيَةِ الْيَد.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾: أي فكذَّبَ فِرْعَوْنُ بأَنَّ ما جاء به موسَىٰ من آيَةٍ مُعْجِزَةٍ، هِيَ آيَةٌ مِنْ عِنْدَ الله. وعصَىٰ أَوَامِرَ رَبّه الّتي بلّغَهُ إِيَّاها في آياتِ مُنَزَّلَاتٍ من كلامه جلّ جلاله.

- ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾: أي: وبَعْدَ أنْ أَلَحَّ موسى عليه السَّلام عَلَى

فرعون في دعْوَتِهِ إلى دين الله خلال مُدَّة طويلة من السنين، أمهله الله فيها إمْهَالاً قَطَعَ فيه كُلَّ أعذاره، أدْبَرَ عن الاستجابة لدعْوَة رسُولِ رَبّه، فأعْطَىٰ بإدْبارِه غايَةَ الرَّفض لها، ولم يكْتَفِ بالإعراض الذي هو وسَطٌ بَيْنَ الإقبالِ والإدْبار.

ثُمّ لم يكْتَفِ بمُجَرّدِ الإدْبار، بَلْ أَدْبَرَ حَالَةَ كونِه يَسْعَىٰ في تَدْبِير معارضَةِ آيَةِ مُوسَىٰ الكُبْرىٰ، بمفترياتِ سِحْرِيَّةٍ يأتي بها سَحَرَة مصر.

وأعْلَنَ بوقاحَةٍ بالغة أنَّهُ هو إلَه شَعْبِ مِصْرَ، وإلَه الإسْرَائِيلين أيضاً.

ولمّا خابَ سَعْيُه في معارضة معجزة موسىٰ بسِحْرِ سَحَرَة مِصْر، صَارَ يَسْعَىٰ في اضّطهاد مَنْ آمَنَ بموسَىٰ، ولو كان من بني إسرائيل.

ثم عَرَض على مجْلِسِ وزرائه ومستشاريه في قَصْرِه أنْ يقْتُلَ مُوسى بسِرّيَّة ومفاجأة تَمْنَعُ مُوسَىٰ من أنْ يَدْعُوَ رَبَّه، إذْ كان فرْعَوْنُ مُسْتَيْقِناً في نفسه، من أنَّ مُوسَىٰ رَسُولُ رَبّ العالمين الذي يسْتَجيبُ دُعَاءَهُ إذا دَعَاه.

ثُمَّ نَفَخَ في رأسِهِ جُنونُ العظمة وحُبّ العلُوّ في الأرض، فادّعَىٰ أنَّهُ هو الرَّبُّ الأعْلَىٰ في مصر، دَلَّ على هذا:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فجَمع الجموعَ من المصريين والإسرائيليّين، وساقهم وأعَدَّ احْتِفَالاً عظيماً حَاشداً، جَرَت فيه المراسيم الملكيّة الفرعونيّة، وقامَ في الْجَمْع ملقياً خطابَ الْعَرْش، فنادَىٰ بأعلَىٰ صَوْتِه بَعْدَ المقدّمات الّتي أَبَانَ فيها إنعاماته على شَعْبِه قائلاً: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الّذِي يُقدِّمُ لَكُمُ الْأَرْزاق، ويُيَسِّرُ لَكُمْ مصالح حيواتِكُمْ، ويَفْعَلُ وَيفلُ مُعَدِّداً مَآثره، ولا رَبَّ لكم غيري، فجَعَلَ نَفْسَهُ نِدّاً لله في رُبُوبيَّتِهِ.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: فَدَبَّر الله له تدبيراً مُحْكماً، فأخَذَهُ بِه أخْذَ عِقَابٍ بَعَذَابٍ وإغراق له ولجنُودِهِ أجْمَعين.

النّكال: العقابُ الشديد الرَّادِع.

أصل معنى الأخذ: الْقَبْضُ على الشيء، وبالتوسُّعِ في المعنى صار يُطْلَقُ علَىٰ ما يُؤْخَذُ له. فإذا كان الأخْذُ للعذاب والعقاب، كان المراد به العذابَ والعقاب، وإذا كانَ الأخْذُ لِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ المرادُ به ما أُخِذَ لَه، فأخْذُ المأكول لِيُؤكَل، وأخْذُ المشروب لِيُشْرَبَ، وأخْذُ القادر على العمل لِيُسَخَّر، وأخْذُ القادرين على القتالِ من قِبَلِ قائد الجيش ليقاتِلُوا. وهكذا.

﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: أي: عاقَبَهُ الله بالتعذيب والإغراق في البحر، بَعْضَ عقاب كلمَتِهِ الآخِرَة الّتي ادَّعَىٰ فيها الرُّبوبية، وكَلِمَتِهِ الأولى التي ادَّعَىٰ فيها الإلَهيَّة.

تَرَجّح عِنْدي هذا الرأي من أقوال المفسّرين، بعْدَ النظرة الشاملة في قصَّةِ موسَىٰ مَعَ فِرْعَوْنَ وقومه، إلىٰ مختَلِفِ النصوص التي تحدَّثَتْ عنها، والتأمُّلِ فيها بتفكير عميق.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: إنَّ في ذلِكَ الّذِي جرىٰ لِفِرْعَوْن ولِمَنْ شَدَّ أزْرَهُ من آلِه وقومه، لَعِبْرَةً يَعْتَبِرُ بِها مَنْ يَخْشَىٰ على نَفْسِه من نكالٍ مماثلٍ لما عاقب الله به فرْعَوْن وكلَّ من آزره، وجنَّدَ نَفْسَه لِدَعْمِ سلطانِه الظّالم الغاشم.

الْعِبْرَةُ: الاعْتِبَارُ والاتّعَاظُ بما مضىٰ، وأصْلُ معنى العِبْرَة من العبور،

وهو الانتقالُ من حادثةٍ جرَت إلى حادثةٍ لَمْ تَجْرِ، بقياسِهَا عليها، والحكْم عليها بأنَّها سَيَحْدُثُ فيها مِثْلَ مَا حَدَث في الماضِيَة، إذا تَمَاثَلَتِ الحادثتان في الصفاتِ وفي الأسباب.

* * *

تابع التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طـه) المشتمل على لقطات من قصّة موسى عليه السّلام

الفقرة الخامسة

الآيات من (٨٠ ـ ٨٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾:

القراءات:

(٨٠ و٨١) • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: [**أَنْجَيْتُكُمْ ـ وَوَاعَدْتُكم ـ رَزَقْتُكُمْ**] بضمير المتكلم المفرد، وبفعل «واعَدَ» المزيد.

وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أَنْجَيْنَاكم ـ وَوَعَدْنَاكم ـ رَزَقْنَاكم**] بضمير المتكلّم العظيم، وبفِعْلِ «وَعَدَ» غير المزيد على وزن: «فَعَل».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**أَنْجَيْنَاكم ـ وَوَاعَدْنَاكم ـ رَزَقْنَاكُمْ**] بضمير المتلكّم العظيم، وبفعل «وَاعَدَ» المزيد الدالّ على المشاركة، أو المبالغة بتأُكيد الوعد.

(٨١) ● قرأ الكِسَائي: [**فَيَحُلَّ ـ وَمَنْ يَحْلُلْ**] مِنْ فعل: «**حَلَّ، يَحُلُّ**».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**فَيَحِلَّ ـ ومَنْ يَحْلِلْ**] من فعل «حَلَّ، يَحِلُّ».

«حَلَّ يَحِلُّ، وحَلَّ يَحُلُّ» لُغتان عَرَبيتان متكافئتان.

تمهيد:

جاء في هذه الفقرة خطابٌ لبني إسرائيل عُمُوماً المعاصرين لرسالة محمّد ﷺ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ، بِمنَّةِ الله على أجدادهم الّذين كانوا مع موسَىٰ عليه السَّلام في سيناء، وهذه المنَّة تنْسَحِبُ على ذراريهم إلى أن تقومَ السَّاعَة، لأنَّ نوياتهم الصغرىٰ كانَتْ في ظُهورِ أجدادهم، ولأنّهم بَعْدَ خروجهم من بطون أمَّهَاتِهم إلَىٰ الحياة الدُّنْيا حَافَظُوا على انتمائهم إلى أجدادهم واعتزازهم بهم، عَلَىٰ ما كانَ مِنْهُمْ من شُرُورٍ، وجرائم، ومعصيَةٍ لله عزّ وجلّ، وتَمَرُّدِهم على رُسُلِ رَبّهم.

وفي هذا النصّ يَمْتَنُّ اللهُ علىٰ بني إسرائيل بثلاث مِنَنٍ:

المنَّةُ الأُولى: أنَّ الله ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ـ أنجاهُمْ مِنْ عَدُوِّهم فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ، بآيَةٍ خَارِقَةٍ، هِيَ فَلْقُ الْبَحْرِ لهم، حتَّىٰ عَبَرُوا إلى الشاطىء الْآخر، وخرجوا منْه سالِمِينَ، وأَغْرَقَ فرعونَ وجنودَه أجمعينَ في الْبَحْر وراءهم، وقَذَف بأجْسَادِ كثيرٍ منهم إلىٰ الشاطىء الآخر، لأَنَّهُمْ كانُوا عَلىٰ قُرْبِ الوصول إلَيْه.

المنّة الثانية: أَنَّهُ واعَدَ رَسُولَهُ موسىٰ عليه السَّلام، وواعَدَهُمْ معه، أَنْ يُكلِّمَهُ فِي جانب الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وأنْ يَشْهَدُوا الحدَثَ التكريميَّ العظيم، إلّا أنَّهُمْ لَم يُتابِعُوا مُوسَىٰ إلى جانب الطور، بلْ تخلَّفُوا في محلتهم الّتي هم نازِلُونَ فيها.

ولما تأخَّرَ مُوسَى عن الثلاثين لَيْلَةً الّتي كانت في الوعْدِ الأوّل، قَبْلَ زيادَتِه عشر ليالٍ أخرى، لامتحان إيمان بني إسرائيل، صنَعَ لهم السّامِريُّ عجْلاً ذهبيًّا مِنَ الْحُلِيِّ الّتي استعارها الإسْرَائِيليُّونَ من المصْرِيّين قُبَيْل خُرُوجهم من مصر، وقَذف في جوفه القبضَةَ الّتي أخذها من أثر الرّسُول جبريل عليه السَّلام، فصار العجل يخور مثْلَ خُوارِ الْعُجول، فَعَبَدُوه إلَهاً من دُون الله جلّ جلاله، في قصَّةٍ سبَقَ بيانُها في تدّبر سورة (الأعراف).

المنّة الثالثة: أنّ بني إسرائيل في سيناء، لمَّا تضجَّرُوا إذْ لم يَجِدُوا في صحرائها ما يَصْنَعُونَ مِنْهُ خُبْزاً يأْكُلُونه، إذْ كان أكثر طعامهم ألْبَانَ البقر والغنم، وَبَعْضاً من لحومها، وخافوا علىٰ مواشيهم من الانقراض بذبْحها والأَكْل مِنْ لُحُومِها، دَعا موسىٰ عليه السَّلام رَبَّه، فنَزَّلَ عليهم المَنَّ بَدَلَ الخُبْزِ، وأطْيَبَ منه، وأرْسَلَ إلى مَحَلَّتِهِمْ وَمَا حَوْلَهَا طُيورَ السَّلْوىٰ، ينالُونها بأيْدِيهم، فيذْبَحُونَها، ويأْكُلونَ مِنْ لُحُومِها.

ولاختبارهم كلّفَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ تكليفاً دِينيًّا شَرْعِيًّا تَعَبُّدِيًّا، أنْ يَجْمَعُوا من المنّ الذي يُنْزِلُهُ عَلَيْهِم حَاجَةَ يَوْمٍ كلّ واحدٍ منهم ليأكلَه، وحرَّمَ علَيْهم أنْ يدَّخِرُوا إلى اليوم الثاني مِنْهُ شيئاً باستثناء اليوم السَّادِس الذي هو قبل يوم السَّبْتِ، فيجْمَعُونَ من المنّ حاجَةَ يومَيْن، لأنّ السَّبْتَ يومُ انقطاعٍ عن كلّ عَمَلٍ دُنْيويّ، وقَدْ قَطَعَ اللهُ عزّ وجلّ إنزال المنّ عليهم يومَ السَّبْت⁽¹⁾.

وحذّر الله عزّ وجلّ بني إسرائيل من مخالفة هذا التكليف التعبُّدِيّ، ومن تجاوز حُدُود الله فيه، فمن خالف حلَّ علَيْه غَضَبُ الله.

لكنَّ فريقاً منهم قد عصَىٰ الله فيما أمَرَ به وفيما نهىٰ عنه، متجاوزاً بطغيانِ حُدُودَ الله، فَسَقَط في مَهْواةِ الآثمين الظالمين لأنفسهم.

---

(١) انظر الإصحاح (١٦) من سفر الخروج.

إلّا أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ فتح أبواب غُفْرانه، لِمَنْ تَابَ منْهم، وآمَنَ وعَمِلَ صَالحاً، ثمّ اهْتَدَىٰ إلى الاستقامة، والالتزام بطاعة الرّبّ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

التّدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ...﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: **[قَدْ أَنْجَيْتُكُم]**:

والغرض من القراءتَيْن مُخَاطَبَتُهُمْ بايناسٍ مَرَّةً بأسلوب المتكلّم المفرد، ومخاطَبَتَهُمْ بَعْدَ ذلِكَ مَرَّةً أُخرَىٰ، وهُوَ يتجلَّىٰ بعظَمَةِ الرُّبُوبيَّةِ، إذْ يَسْتَعْمِلُ ضمير المتكلّم العظيم.

بهذه العبارة ينادي الله عزّ وجلّ بني إسرائيل المعاصرين لرسالة محمّد ﷺ فَمَنْ بَعْدَهُمْ، ممتنًّا علَيْهم بمَا فَعل مع أجدادِهم أيّامَ موسَىٰ عليه السَّلام من مِنَنٍ عظيمة، رَغبَةً في أنْ يحْفِزَهُم ذلِكَ إلى القيام بما يجب عليهم من الشُّكْرِ له، والإيمان برسوله محمّد ﷺ، وبما جاءهم به عَنْ رَبّه، فَرُسُلُ الله جَمِيعاً مَبْعُوثُون مِنْ مُرْسِلٍ واحدٍ، هو رَبّ العالمين جَميعاً، فعلَىٰ عباد الله جَمِيعاً أنْ يُؤْمِنُوا بهم جميعاً أَنَّهم أنبياءُ الله ورُسله، أمّا السُّلُوكُ الدينيُّ فعَلَيْهِمْ أنْ يَتَّبِعُوا التاليَ فَالتَّالِيَ من التّنزيل الرَّبّانيّ الذي يأْمرُهُمُ الله فيه باتّباعِه، سواءٌ أكان ذلِكَ في الرِّسَالَةِ الواحِدَة، أمْ في الرِّسَالاَتِ المتتالِيَاتِ، حتّىٰ آخِرِها تَنْزيلاً.

فأتباع الرُّسُل لا يَعْبُدونَ الرُّسُل، وإنّما يَعْبُدونَ من أرسلهم، وعَلَيْهم أَنْ يَتّبِعُوا أوامِرَ ونواهِيَ الْمُرسِلِ لاَحقاً فلاحقاً، دون تشبث بالسَّابِقِ وتَعَصُّبٍ له.

وكلُّ مُؤمِنٍ بالله رَبِّ العالمين يَعْلَمُ أنَّ الله عزّ وجلّ عليم حكيم، فما ينْسَخُ مِنْ حُكْمٍ تكْلِيفيّ إلّا بِحُكْمٍ تكْلِيفيّ مِثْلِه، أو أحْسَنَ منه.

- ﴿مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾: أي: من فِرْعَوْنَ وجنُودِه، إذْ أخْرَجَكُمْ من العبودِيَّةِ والإذْلال، وشقّ لكم البحر، فخلَّصَكُمْ من متابَعَةِ فرعون وجنوده لكم.

- ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ... ﴿٨٠﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: [وَوَعَدْنَاكُمْ]﴾: أي: وَوَعَدْناكُم وعْداً مُؤَكّداً يصحُّ أن يُقَال فيه: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾ إذْ صيغة «فَاعَلَ» تُحْمَلُ على المبالغة والتحقيق وشدّة الاهتمام والعناية، إذا لم تَدُلَّ على المشاركة.

أي: وعَدْناكم وعْداً مؤكّداً أنْ نُكلّم رَسُولنا موسَىٰ وأنتم حضورٌ في الجهة اليمنىٰ من الوادي الواقع بجانب جَبَلِ الطّور، وقدْ سبَقَ بيانٌ كافٍ عنه، لدىٰ الحديث عن مكالمة الرّبّ عزّ وجلّ موسَىٰ بجانب الطور، وهو راجِعٌ إلىٰ مِصْرَ مِنْ مَدْيَنَ معَ أَهْلِه.

- ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾: أي: وأعْطَيْناكم ووَهَبْنا لكُم وأنْعَمْنا ومَنَنَّا عليكم، وبمَا أنّ الله عزّ وجلّ هو العليُّ الأعلىٰ، كانت كلُّ عطاءاته وإنعاماته على عباده تنزيلاً، ولو كانت موادُّها وعناصرها موْجُودةً فِي الأرض، على وَجْهِها أو في باطِنَها، فالمعْطِي والواهب عليٌّ أعْلىٰ، وعطاءاتُه تنزيلٌ من لَدُنه، بأمره وقضائه وقَدَره.

الْمَنّ: طعامٌ أنْزَلَه اللهُ عزّ وجلّ على بَنِي إسرائيل أربعين سنةً مُدَّةَ إقامتهم في صحراء سيناء وامتداداً إلى بَرّيّة فَاران، في اتّجاه الحجاز، وقد قام هذا الطَّعامُ الّذي كَانَ يَنْزِلُ كالنَّدَىٰ على وجه الأرض مقام الخبز.

جاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج، الإصحاح (١٦): أنَّهُ كان يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءَ كالندىٰ كلَّ صَبَاح، فيكُون علَىٰ الأرض مثْلَ قُشور،

كالْجَلِيد علَىٰ الأرض، وأنّ موسى عليه السَّلام قال لبني إسرائيل حينئذٍ: هو الخبزُ الّذي أعطاكم الرَّبُّ لتأكُلوا، الْتَقِطوا مِنْهُ، كلٌّ واحِدٍ منكُمْ على مقدار ما يكْفيه ليَوْمِهِ، ونهاهم بشِدَّةٍ عن أنْ يأخذوا زائداً عن كفايتهم اليوميّة، وعن أَنْ يَدَّخِرُوا منه شيئاً، وكان هذا تكليفاً تعبُّدِيًّا.

وكان هذا الطعام يَنْزِلُ على مَحَلَّتِهم وعلَىٰ مَا حَوْلَها، ليجمعوه كلَّ يوم في الصباح إلّا يوم السبت، فهو يومٌ حرَّم الله عليهم العَمَل فيه لأمور دنياهم، وحاجَتُهم من المنّ في يوم السبت كانوا يجْمَعُونَها في اليوم الذي قبله، وهو اليوم السادس من أيّام الأسبوع، وكان الله يحفظه لهم، فلا يُنْتِن ولاَ يَظْهَرُ فيه الدُّود، بخلاف الأيام الأخرى.

لكن مَنْ أخذ في سائر أيام الأسبوع أكثر من حاجته اليوميَّة، وأبقَىٰ مِنْهُ شيئاً لصَباح اليوم التالي، أَنْتَنَ وظَهَرَ فيهِ الدود الكثير، وعصَىٰ رَبَّه، وخالَفَ شَرِيعَتَه.

وأبقىٰ بَعْضُ بني إسرائيل شيئاً من الْمَنِّ إلى صباح اليوم التالي، فأنْتَنَ وتَولَّدَ فيه الدُّود، وسَخِطَ عليهم موسى عليه السَّلام، لمخالفتهم أمْرَ الرّب جلّ جلاله.

وقدَّر لهم موسىٰ عليه السَّلام حاجة الشخص اليوميّة من المنّ بمكْيالٍ مَعْرُوف عندهم، يتّسع لنحو لِتْرَيْنِ وثلاثَة أعشار اللّتر (كما ذكر كاتِبُو قاموس الكتاب المقدّس).

ودعا بيت إسرائيل هذا الطعام «مَنًّا».

ووصف الإسرائيليون المنّ بأنّه كَبِزْر الكزْبرَة أبيض، وبأنّ طعْمَهُ كرِقاق بعسل.

وجاء في سفر «العدد» أنهم كانوا يطحنونَهُ أو يَدُقُّونه، ويخبزونه.

وذكروا أنّ ما يبقىٰ من المنّ على وجْهِ الأرض كان يَذُوب، ويختَلِطُ بتراب الأرض إذا اشتدّت حرارة الشمس.

وثبت في صحيح البخاري وصحيح مسلم من حديث أبي سَعِيد بن زيد، أنّ النبيَّ ﷺ قال:

«الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الّذِي أَنْزَلَهُ الله عَلَىٰ مُوسَىٰ».

ونظيره عن أبي هريرة عند أحمد والترمذي، وكذلك عند النسائي عن جابر، وأبي سعيد، وابْنِ عبّاس.

وهذا يدُلُّ على أنّ المنَّ أنواع، منه ما ذكره الإسرائيليون، ومنْهُ الكمأة، والله أعْلَم.

السَّلْوىٰ: طيور ترْحَلُ في أسرابٍ كثيفة تُغَطّي كالسّحاب، وكانت تَسْقُط على الأرض من تَعبِها، فيَسْهُل إمْسَاكُها بالأيدي.

وفي حال تَعَبِها كانت تطير عند الحاجة على ارْتفاع نَحْوِ ذِرَاعَيْن فوق وجْه الأرض.

فكان الإسرائيليّون يجْمَعُونَ من طيور السَّلْوىٰ في المسَاءِ، ويَذْبَحونَها، ويَأْكُلونَ منْها لحماً شَهِيًّا طَيّباً، وكان هذا من فضل الله عليهم في سيناء.

(انظر سفر العدد/ ١١/ ٣١).

- ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾:

أي: قَالَ اللهُ لهم، وفْقَ بلاغ مُوسى عليه السَّلام لهم هذا القول.

والمعنى: أنّ المنَّ والسَّلْوىٰ قد كانَا مِن الطيِّبات، وقد أباح الله لهم بهذا الأمْرِ أَنْ يأكُلوا منها، ضِمْنَ تَشْرِيعٍ تعبُّدِيٍّ في المنّ سبَقَ بيانُه آنفاً.

- ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾: أي: ولا تتجاوزوا فيما رزقْنَاكم حُدُودَنَا الّتي

بيَّنَّاها لَكُمْ، فلا تَدَّخِرُوا مِنَ المنِّ إلى صَبَاحِ اليوم التالي شيئاً، باسْتثناء اليوم السادس الذي يعْقُبُه السَّبت وهو يوم لا عمل فيه، فإنكم تجمَعُون فيه ما يكْفي حَاجَتَكُم ليومَيْنِ فقط، وسأحفظه لكم من الفساد. فقد جعلنا رزْقكم من المنّ على مقدار حاجَةِ كلّ فردٍ منكم، يوماً فيَوْماً، فَمن ادّخَرَ مِنْهُ شيئاً على خلاف أمْرِي فقد عصاني، وطغىٰ، أي: وتجاوز الحدّ الذي حَدَّدْتُه.

- ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ﴾: أي: ومَنْ طغىٰ بتجاوُز الْحَدِّ الذي حَدَدْتُه فادَّخَر من المنِّ ما لم آذَنْ بادّخاره حلَّ عليه غضَبي، أيْ: نَزَل عَلَيْه حالًّا به غَضَبِي، لأنّه عصاني فيما أوليْتُه من نِعْمة.

والمرادُ بحُلُولِ الْغَضَب حُلُولُ آثاره من الانتقام العقابي، ومنه العقابُ النفسيّ الذي يُحْدثُ في النَّفْس القلَقَ والاكتِئَاب والكَدَر ونحو ذلك.

- ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾: أي: فقد سَقَطَ مَهْوَاةٍ سُقوطاً مُخِيفاً جِدًّا، كالسقوطِ إلى وادٍ سحيقٍ، أو في بئْرٍ شديدة العمق.

- ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾:

هٰذا بيانٌ خاطَبَ الله عزّ وجلّ به بني إسرائيل إبَّانَ إنعامِه عليهم بتنزيل المنّ والسَّلْوىٰ لإطعامهم، وإبَّانَ تَكْليفِهم تكليفاً تعَبّدِيًّا أن لا يَدَّخِرُوا من المنّ شيئاً على ما سبَق بيانه آنفاً.

ويظهر لي من هذا البيان، أنَّ الْغُفْرَانَ عن المعْصِيَةِ في الشريعة المنزلَة على بَني إسرائيل حينئذٍ، قد كان من شُروطه ما يلي:

(١) التوبة من الذّنْبِ الّذِي ارْتَكَبَهُ الإسرائيليّ.

(٢) تجديد الإيمان بما يجبُ الإيمان به من عقائد وشرائع ثابِتَةٍ

التنزيل عن الله، فموسَىٰ قد كان معَهم يُبَلِّغهم ما يُنَزِّل اللهُ علَيْه من أحكامٍ وتَشْرِيعات آنا فآناً، فهِي يقينيَّةٌ حتماً في عَصْرِه.

(٣) مُتَابَعةُ الإيمان بالْعَمَلِ الصالِحِ مُدَّةً من الزَّمَنِ يتحقَّقُ فيها أنَّه صار من أهل الاستقامة والطاعة.

(٤) ثُمّ اهْتَدَىٰ في مَسِيرته في حياته إلى السَّيْرِ في صراط الله المستقيم، طائعاً لِربّه باختياره الحرّ، دون انحرافٍ وخروجٍ عنه من ذَاتِ الْيَمين، أو من ذات الشمال.

هذه الشروط الثقيلَة على بَنِي إسرائيل، ليغْفِرَ الله عزّ وجلّ للعاصي منهم، المتجاوز حُدُودَ ربّه، هي من الإصْرِ الّذِي كان على بني إسرائيل.

الإصر: الْعَهْدُ الثقيل. والتكليف الشديد الثقيل.

أمّا في الإسلام الذي حمل رسالَتَه سيدُنا محمَّد بنُ عبد الله ﷺ، فإنّ المعاصي مع وجود الإيمان المستقر تكْفِي فيها للظفر بغفران الله، التوبَةُ والاستغفار، والإقْلاع عن الذنب، والعَزْمُ على عَدَمِ الْعَوْدَة للذَّنب. ولا يُشْتَرَطُ فيها مُرورُ زمَنٍ مُمْتَدٍ يَعْمَلُ فيه التائبُ عملاً صالحاً، ولا الاستقامة على صراط الهداية، إلّا بالنِّسْبَةِ إلىٰ عباد الرحْمٰن المرشحِّين لأنْ يكونوا أئمَّةً للمتقين، إذا ارتَكَبَ أَحَدُهم من كبائر الذنوب كبيرة الإشراك بالله، أو قَتْلِ النَّفْسِ الّتي حَرَّمَ الله إلّا بالحق، أو الزنا، فَمِنْ شروط تَوْبَةِ أحَدِهم من هذه الكبائر، أنْ يُجَدِّد إيمانَهُ ويَعْمَلَ صالحاً، كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

لقد وضع الله عزّ وجلّ في الرّسالة الخاتمة للرّسالات الرَّبّانيَّة عَنْ عِبادِه، ذلِكَ التكليف الشَّدِيد الثقيل الذي كان على بَنِي إسرائيل، وكانت لَهُ ظروفُه الزَّمنيَّةُ المؤقَتَة.

هذا ما فَهِمْتُهُ من ارْتِبَاطِ الآية (٨٢) بما جاء قَبْلَها، بدءاً مِنْ

خِطَابِ الله عزّ وجلّ لِبني إسرائيل، مَعَ مقارنَتِه بالنصوص الكثيرة في القرآنِ والسُّنَّة بِشَأنِ مَغْفِرَةِ الذُّنوب.

ما جاء في القرآن من بيانٍ عن المنّ والسَّلْوىٰ غير الذي جاء في سورة (طـه):

(١) أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ أوّلاً بياناً خَبَرِيّاً عَنْ مِنَّتَي المنِّ السَّلْوىٰ اللَّتَيْن امْتَنَّ اللهُ بهما على بَني إسْرائيلَ، وهم في سيناء، بَعْدَ خروجهم من مصر، فقال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في العهد المكيّ:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

(٢) ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ في الْعَهدْ المكّيّ أيضاً، النَّصَّ الذي تَدَبَّرْنَاهُ آنفاً من سورة (طـه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) يخاطب الله فيه بني إسرائيل، قبل أنْ يَجْرِي بينهم وبين الرَّسُول وأصحابه، احتكاكٌ دَعوِيٌّ، أو صِراعٌ جَدَلِيٌّ أو عِدائيّ.

(٣) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في أوائل الْعَهْدِ الْمَدَنيّ، إذْ بَدَأ الاحْتِكَاكُ الدَّعوِيُّ من الرَّسُولِ وأصْحَابه لَهُمْ، قوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوَّلِ سُورَةٍ من التنزيل المدنيّ خطاباً لبَنِي إسرائيل، إذْ كَانَ لَهُمْ ثلاثُ قبائل في المدينة:

﴿... وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: وقُلْنَا لأجدادكُمْ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وقُلْنَا لَهُمْ أيضاً ما جاء بيانُه في سورة (طـه): ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾.

وأضاف البيانان اللّذان من سورة (الأعراف) والذي من سورة (البقرة) أنّ فَرِيقاً من بني إسرائيل لم يُطِيعُوا الله عزّ وجلّ، في الحكم التَّعَبُّدِيِّ الذي كلّفَهُمْ أن يَرْعَوْهُ بشأن عَدَم الادّخار من المنّ، فَطَغَوْا متجاوزِينَ حُدُودَ أَمْرِ الله ونَهْيه، فعَرَّضوا أنفُسَهُمْ لِحُلُول غَضَب الله عليهم، وأبان الله عزّ وجلّ أنّهم بمعصِيَتِهم لم يَظْلِمُوا الله شيئاً، وإنّما ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

* * *

تابع التدبّر التحليليّ للدّرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطاتٍ من قصّة موسى عليه السّلام

الفقرة السادسة

الآيات من (٨٣ ـ ٩٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي
وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ
﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا
حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم
مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ
فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ
إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ
ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾
قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا
لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى
نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ
فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ
عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ...﴾:

القراءات:

(٨٤) ● قرأ رُويس: [عَلَىٰ إِثْرِي] بِكَسْرِ الهمزة وإسكان الثاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [عَلَى أَثَرِي] بفَتْحِ الهمزة والثاء.

«إِثْرِي» و«أَثَرِي» لُغتان عربيّتان متكافئتان. يقال لغة: «جاءَ في إِثْرِه» و«جَاءَ في أَثَرِه» أي: جاء عَقِبَه.

(٨٧) ● قرأ نافع، وعاصِمٌ، وأبُو جَعْفر: [بِمَلْكِنَا] بفَتْح الميم.

وقرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [بِمُلْكِنَا] بضَمّ الميم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [بِمِلْكِنَا] بكسْرِ الميم.

فتح الميم، وضمُّها، وكَسْرُها، لُغَات. يقال لغة: «مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مَلكاً، ومُلْكاً، ومِلْكاً» أي: حازه وانفرد بالتّصرُّف فيه.

(٨٧) ● قرأ أبو عَمْرو، وشُعْبَةٌ، وحَمْزَةُ، والكِسَائي، ورَوْح، وخَلَف: [حَمَلْنَا] من فعل: «حَمَل» المبني للمعلوم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [حُمِّلْنَا] مِنْ فعل: [حُمِّلَ] المبني لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، مشدّدَ الميم للتعدية.

وبين القراءتَين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، لأنّ الظّاهر أنّ بعض

بني إسرائيل حَمَل من حُلِيّ المصريين بإرادَته واختياره، وأن بعضُهم الآخر حُمِّلَ وهو كارِهٌ لمَا حُمِّلَ، لما في حَمْلِ الْحُلِيّ من المصريين على سبيل الاستعارة، وهمْ خارجون من مصْرَ خروجاً كليًّا دون رغبةٍ في العودة، مِنْ خيانةٍ، وتغريرٍ وسلبٍ بغيْر حقّ.

(٨٩) • قرأ حمزة، ويعقوب: [**إِلَيْهُمْ**] بضمّ هاء الضمير. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر هاء الضمير. وهما لُغتان عربيتان.

(٩٣) • قرأ نافع، وأبو عمرو، [**تَتَّبِعَنِي**] بإثبات ياء المتكلم في الوصل. وكذلك قرأها ابْن كثير، ويعقوب في الوصل والوقف، وكذلك قرأها أبو جعفر، ولكن بفتح ياء المتكلّم وصلاً وإسكانها وقفاً. وقرأها باقي القراء العشرة بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً، مع تقديرها ذهْناً:

(٩٤) • قرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [**يَبْنَؤُمِّ**] بكسر الميم، وقرأها الباقون بفتح الميم، والقراءتان وجهان عربيان متكافئان.

(٩٤) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**بِرَأْسِيَ إِنِّي**] بفتح ياء المتكلم، مع إبدال الهمزة لأبي جعفر، وللسُّوسي، وقرأها الباقون بإسكان هذه الياء.

(٩٦) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [**بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ**] بتاء المُخَاطَبِينَ. وقرأها باقي القرّاء العشرة بياء الغائبين. وبين القراءتين تكامُلٌ بيانيّ.

(٩٧) • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [**لَنْ تُخْلِفَهُ**] بكسر لام «تُخْلِفَهُ». وقرأ باقي القرّاء العشرة بفتح هذه اللام. والقراءتان متكامِلَتَان في أداء المعنى المراد بيانُه.

(٩٧) • قرأَ ابْنُ وردان: [**لَنَحْرُقَنَّهُ**] بفتح النُّون الأولى وكَسْر الراء. وقرأها ابْنِ جمَّاز: [**لَنُحْرِقَنَّهُ**] بضمّ النُّون الأولى وكَسْرِ الرَّاءِ. وقرأها باقي

القرّاء العشرة: [لَنُحَرِّقَنَّهُ] بضمّ النُّون وفتح الحاء وكَسْرِ الرّاءِ المُشَدَّدَةِ. وهي وجوه عربيّة صحيحة متكافئة، وفي قراءة تشديد الراء دلالةٌ على أن موسى عليه السّلام شدّدَ في بعض عباراته إشعاراً بأنَّهُ سَيُبَالِغُ في تَحْرِيقه بنار عظيمة.

تمهيد:

في هٰذه الآيات من (٨٣ ـ ٩٨) بيانُ بعض أحداث مكالَمةِ الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام في الوادي المقدَّس بجانب الطور، بَعْدَ الخروج من مصْرَ مع بَنِي إسْرائيل، وعبور البحر.

وكان هذا مَبْنِيًّا على وعْدٍ من الله له بأنْ يحْضُر إلى المكان الذي كلَّمَه فيه، وهو في طريقِ عَوْدَته بأَهْلِهِ منْ مَدْيَن إلَىٰ مصر.

وتضمَّن هذا الوعد أنْ يحضر مع قومه بني إسرائيل إلى الوادي المقدّس، وقد كانَتْ مُدَّة الميعاد ثلاثين ليلَةً، وبَعْدَ ذلِكَ أتَمَّها اللهُ بِعَشْرِ لَيَالٍ، فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبّه أرْبَعِين لَيْلَةً.

وتحرَّك قَلْبُ موسَىٰ عليه السَّلام بدافع الرَّغْبَةِ في الحضور بسُرْعَةٍ ابتغاء مَرْضَاة رَبّه، ورأىٰ أنْ يَعْجَلَ ويأمُرَ قَوْمَهُ أَنْ يلْحَقُوا بِهِ متَّبِعِين أَثَرَهُ إلىٰ الوادي المقدّسِ بجانب الطور.

ووَلَّىٰ أخاه هارونَ على قيادة قومه، وقال لَهُ كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿... ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

لَكِنّ جُمْهور بَنِي إسرائيل لَمْ يُطِيعُوا هارونَ عليه السَّلام في اللّحَاق بموسى عليه السَّلام، ذاهباً لمناجاة ربّه، وكانَ يُقَدّرُ في ذهْنِه أنَّ جميع بني إسرائيل سائرون على أثَرِه بقيادة أخيه هارون، كَما وَجَّهَ لَهُم الأمر بذلك.

وخشِي هارون عليه السَّلام أنْ يتْبَعَ أخاهُ مصْطَحِباً الَّذينَ أطَاعُوا دون سائر بني إسرائيل، أن يُحاسِبَهُ مُوسَىٰ عليه السَّلام ويقول له: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسرائيل، إذْ جِئْتَ بِبَعْضِهم، وتَرَكْتَ سَائِرَهم لا راعِي يرعاهم، ولا قائد يسُوسُ أمْرهم.

فاجْتَهَد، فرَجّح البقاء في بَني إسرائيل، لئلا يُحْدِث الْفُرْقَة بينهم.

وزاد الله عزّ وجلّ بحكْمَتِه ميعادَ مُوسَىٰ عشْرَ ليالٍ، ليَمْتحِن بَني إسرائيل، فصارت اللّيالي أرْبعين ليلةً.

أي: ليَمْتَحِن إيمانَ بني إسرائيل، هل فَهِمُوا معنى الإيمان الصحيح، أمْ ما زالَتْ أفكارهُمْ مُتَشَبّثَةً بإلَه وثَنِيٍّ مَشْهُودٍ يَعْبُدُونه، كحال المصريّين، وكحال الذين مَرُّوا عليهم بَعْدَ عُبور الْبَحْر، فوجَدُوهم يعكُفونَ عَلَىٰ أصْنامٍ لَهُمْ، فقالُوا لموسَىٰ عليه السَّلام: اجْعَلْ لَنا إلَهاً كَما لَهُمْ آلِهَة، فقال لهم كما جاء في سورة (الأعْراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ولَمْ يَعْلَمْ بنو إسرائيل بزيادة اللّيالي الْعَشْر لموسَىٰ في ميعاده، فلَعِبَتْ بِهم وساوس الشيطان، وتوَهّمُوا أنَّ موسَىٰ عليه السَّلامُ لَمْ يَهْتَدِ لإلَهِهِ الّذِي ذهَبَ لمناجاته.

وظهر أنَّ أذهَانَهُمْ ونُفوسَهُم ما زالَتْ متَشبّثَةً بإلَه وثَنِيّ، ولَمْ تَصِلْ إلى مَرْحَلَةِ تجريد الرَّبّ جلّ جلاله من الْجَسَدِيَّاتِ الوثنيَّة.

ولَعِبَتْ بهم وساوس الشيطان مُزَيّنَةً لهم فِكْرَة التخلُّص مِنَ الحلُيّ الذَّهَبِيّ الّذي اسْتَعارُوه من المصْرِيّين، قُبَيْلَ الخروج من مصر، إذْ لا حقّ

لهم فيه، وربّما كان لهَارونَ عليه السَّلام دورٌ في بَيَانِ أنَّهُمْ عُصَاةٌ لله في مخادَعَةِ المصريّين، وأخذ حُلِيَهِمْ على سَبيل الاستعارة، والخروج بها مَعَهُمْ ظُلْماً وسَلْباً بغَيْرِ حقّ.

وكان بينهم رجلٌ يقال له: السّامِريّ من قوم يقال لهم: السّامِريُّون، وثنيّون يعبدون العجل، دخل في دين موسى منافقاً، وفي قَلْبِه عبادة العجل، وقد بَصُر هذا السَّامِريّ بأنّ الرَّسُولَ جبريل عليه السَّلام، كان إذا وقَع حافر فَرَسِه على ترابٍ ظهرت فيه آثارٌ عجيبَةٌ من ظواهِرِ الحياة، على ما جاء عند المفسّرين روايةً عن الحسَن، فقَبَضَ قبْضَةً من ترابِ الأمْكِنَةِ الّتي وقع عليها حافِرُ فَرَسِ الرَّسُول، أو الَّتي وقَعَتْ عليها قَدَمَ الرَّسُول، فاحتفظ بها عنْدَه.

وأشارَ علَىٰ جُمْهُورِ بَنِي إسرائيل أنْ يأتُوا بالحليّ الّذي استعاروه من المصرّيين، وكان فيهم أصحاب مهنة صياغةِ الذَّهَب، فَطَلَبَ مِنْهم أنْ يصْنَعُوا مِنْ هذه الْحُلِيّ عجلاً جسداً، نظير العجول الَّتي يصْنَعُها المصْرِيُّون آلِهَةً لهم.

وكانت صورة العجْلِ من البقر صورة شائِعَةً في أصنام الوثنّيين، ومنهم المصريُّون، والشامِيُّونَ الوثنِيُّون، وعِجْلُ المصريّين الّذي كانوا يَعْبُدونَه أيامَ الفراعِنَة، يُدْعَىٰ: «إيبيس».

فلمَّا صَنَعُوهُ أدْخَلَهُ في خباء، وقَذَفَ في جَوْفِه الْقَبْضَةَ الَّتِي كان قَد احتفظ بها، فصار هذا العجْلُ الذَّهَبيُّ يَصْدُرُ عنْهُ بقَدَرِ الله وقضائِه وخَلْقِهِ خُوارٌ كخُوارِ الْعُجُول، وأخْرَجَهُ من الخِبَاء ولَهُ خوارٌ.

وعَجِبَ جُمْهورُ بَنِي إسْرَائيل من هذه الظاهرة، وأوحىٰ إليهم السّامريُّ أنَّ هذا هو إلَهكُمْ وإلَهُ موسَىٰ، حلَّ في العجل، وأنَّ موسَىٰ لمَّا ذهبَ لمناجاته نَسِيَ مكانه، فهو تائِهٌ عنه.

وانطلقت بين جمهور الغوغائيّين من بني إسرائيل شائِعَة راجت عند معظمهم قائلين: هذا هو إلَٰهُكُمْ وإلَٰهُ مُوسَىٰ حلَّ في الْعِجل، وَإِنَّ موسَىٰ لمّا ذهب لمناجاته نَسِيَ مكانه.

لقد سوّلَت للسامِرِيّ نَفْسُه وأطمَعَتْه بأن يَسْتِفيد رِياسةً دينيَّةً ومالاً، من كونه سادِنَ هذا الإلَٰهِ العجْل، بدليل قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿...وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾: أي: أغراهم، فأغواهم، فأوقعهم في الضلال، ضائعين عن الحق.

وجرىٰ في هذا اللّقاء ما جاء بيانه في الآيات من (١٤٣ ـ ١٤٧).

وفي هذه الآيات بيانُ أنّ مُوسَىٰ سأل ربَّهُ أنْ يَنْظُرَ إليه، فقال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِي... ﴿١٤٣﴾﴾ الآية.

وفيها أنَّ الله عزّ وجلّ كتب له في الألواح وصايا الدّين وتعليماته، وأَمَرَهُ بأنْ يأخُذَها بقوّة، إلى آخر ما جاء في الآيات حتى الآية (١٤٧).

واجتمع جُمُهورُ بني إسرائيل يَعْكُفُونَ على الْعِجل، ويَعْبدُونه ويَذْبحُونَ له ويَسْجُدونَ، ويَرْقُصُونَ حَوْلَه رقْصَ عبادةٍ وفَرَحٍ بإلَٰه يَرْونَهُ وَيَشْهَدُونَ جسداً له.

فنهاهم هارونُ عليه السَّلام، وقال لهم: يَا قَوْمِ إنّما فُتِنْتُمْ به، أي: إنَّما امْتُحِنْتُمْ بخواره، لكشْفِ صِدْق إيمانِكُمْ بالله رَبِّكم، وهَلْ توصَّلْتُمْ إلَىٰ فَهْمِ معنىٰ رَبُوبيَّتِهِ للعالَمِين، أم ما زلْتُمْ جاهلين.

وقال لهم: يَا قَوْم، إنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَٰنُ الذي يُوليكم برحمته النِّعَمَ الوافرة، الظَّاهرة والْبَاطِنَة. فاتَّبِعُوني، وأطِيعُوا أمْري.

فقالُوا له: لَنْ نَبْرَحَ عليه عاكِفِينَ حتَّىٰ يَرْجِع إلينا مُوسى.

فشَدَّد هارونُ عليهم، فلَمْ يَسْتَجِيبُوا له، ودَفَعُوهُ عنهم بالْقُوَّة، فأراد

أن يمنعهم من عبادة العجل بالْقُوَّة، فكادُوا يقْتُلونه، إذْ كَانَ هارون عليه السَّلام في نظَرِهم ليّناً ضَعيفاً، بخلاف موسى عليه السَّلام، فقد كانوا يَرْهَبُونَ سطْوَتَه رهْبَةً شَدِيدةً، إذْ رأوا من العجائب التي أجراها الله له فَلْقَ البحر، ونجاتَهم، وإغْرَاقَ فِرْعَوْنَ وجُنُودِه معه.

وكذَبَ الإسرائيليُّون في اتّهامهم هارون بأنَّهُ هو الذي صَنَعَ لَهُمْ الْعِجْل الذّهبي، وهو ما جاء في الإصحاح (٣٢) من سفر الخروج.

وأخْبَرَ الله عزّ وجلّ نبيَّهُ ورسولَهُ مُوسَىٰ عليه السَّلام، بما صَنَعَ قومُهُ من بَعْدِه مِن اتخاذ العِجْل وعبادته.

فرَجَعَ إليهم بعْدَ نهايَةِ الأرْبعين لَيْلَةً غضْبَانَ أسِفاً، وحينَ رأىٰ بعينيه العِجْلَ الذَّهَبِيَّ وعبادة جمهور قومه له، اسْتَشَاط غَضَباً وحُزْناً، وألْقَىٰ الألواح من يَدَيْه. وقال لهم: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ أمِنْ أَجلِ عشْرِ ليَالٍ زادَتْ في ميقاتِ رَبّي، لَعِبَتْ بِكُمُ الأوهام، وانْقَلَبْتُمْ على أعقابكم خاسِرِين، واتَّخذْتُمْ وَثَنا إلَهاً؟!.

وأخذ مُوسَىٰ عليه السَّلام يحاسبُ أخاه هارونَ عليه السَّلام بعُنْفٍ، إذْ لَمْ يكُنْ قَوِيًّا حازماً معهم، فاعْتَذَرَ هارون عليه السَّلام بأعذار صحيحَةٍ أبانَ فيها أنَّه لم يسْتَطِعْ أنْ يَرُدَّهُمْ عمَّا فَعَلُوا وَأَنَّهُمْ كادُوا يقْتُلُونه.

فقَبِلَ مُوسَىٰ عُذْرَ أخيه ، دون أن يكون على قناعَةٍ تامة، ودعَا رَبَّه أن يغفر له ولأخيه، وأن يدخلهما في رحمته وأثنى على ربه بأنَّه أَرْحَمُ الرَّاحمين: انظر الآيتين «١٥٠» و«١٥١» من سورة (الأعراف).

ولـمَّا هدَأَ غَضَبُ مُوسَىٰ عليه السَّلام أخذ الألْواح بَعْدِ أن كان ألْقاهُمَا علىٰ الأرض من شدّة غَضَبِه، وقام بتَحْريق الْعِجْل الذهَبِيّ، وأمَرَ بِبَرْدِه بالمبارد كا جاء عند الإسرائيليين، حتَّىٰ تَصِيرَ أجزاؤه ناعِمَةً كالدَّقيق، ثُمَّ أمَرَ بنسْفِ دقيقهِ في اليمّ.

وطَرَدَ مُوسَىٰ عليه السَّلام، السَّامِرِيَّ مِنْ بَيْنِ قَوْمه، ودعَا عليه بمَرَضٍ جلْدِيٍّ لا يستَطِيعُ معَهُ أنْ يمسَّهُ أَحَدٌ، وأنْ يقول مَعَهُ لِمَنْ يُصَادِفُهُ من النَّاس مَا بَقِيَ من حياته: لاَ مِسَاس. لا مِسَاس.

وبدأ مُوسَىٰ بعْدَ ذَلِكَ يُدَبّر رِحْلَةَ الاعتذار والتوبة، مع سَبْعِينَ رَجلاً اخْتَارَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ، وأنْ يَذْهَبُوا معه إلَىٰ المكان الذي ناجَىٰ فيه رَبَّهُ في اللّقاءَيْنِ السَّابِقَيْن.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾.

هذا البيان معطوف على كلام مطويٍّ بعْدَ البيان السابقِ بدْءاً من قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي. . . ﴿٧٧﴾﴾:

وجاء بأسْلوب الاقتطاع من الحدَث الماضي الذي قال الله فيه لموسىٰ: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؟.

ودَلَّ هٰذا البيان علىٰ أنَّ هٰذا الميعادَ قَدْ كانَ مِيعاداً لموسَىٰ ولقَوْمه أن يحْضُروا جميعاً إلى جانب الطُّور.

وَدَلَّ على أنَّ موسَىٰ عليه السَّلام قَدْ أمَرَ قَوْمَه أنْ يَسِيروا علَىٰ أثَره بقيادة أخيه هارون.

ودَلَّ عدم حضور بني إسرائيل متّبعين أثر مُوسَى عليه السَّلام، علَىٰ أنَّ جمهورهم رفَضُوا أنْ يَلْحَقُوا به، وعَصَوْا هارون فَلَمْ يَسْتجيبوا له في السَّيْر على أثر مُوسَىٰ إلى الوادي المقدّسِ بجانب الطّور، وآثَرُوا البقاء في محلّتهم، وانْتِظَارَ مُوسَىٰ حتَّىٰ يَعُودَ مِنْ مُنَاجاة رَبّه، ويُؤَكّدُ هٰذا قَوْلُ هارونَ لأخيه موسىٰ في النصّ: ﴿. . . إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾﴾.

وبالتأمُّل نُدْرِكُ أنَّ مَوْقِعَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ في تَرْتِيب الأحداث، يأتِي بَعْدَ قَوْل الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

وكذلك الآيات (١٤٤ و١٤٥ و١٤٦ و١٤٧).

وقد سبَقَ تدبّر هٰذه الآيَاتِ خلال تدبّر سورة (الأعراف).

وهذا الأسلوب هو منهج القرآن في توزيع أفكار الموضوع الواحد، على نصوص متعدّدات موزَّعَاتٍ في عَدَدٍ من السُّوَر، مع تكامُلِها فيما بينها، دُونَ اختلافٍ، وهذا من عناصر إعجاز القرآن المجيد، ولو كان من عند غير الله لوجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً.

وبعد هٰذه الآيات يأتي في تَسَلْسُلِ الأحداثِ قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؟:

أي: مَا هُو السَّبَبُ الَّذِي جَعَلك تَعْجَلُ لحضُورِكَ إِلَىٰ ميقاتِنَا، منْفَصِلاً عَنْ قَوْمِكَ؟.

يقالُ لغة: «أَعْجَلَهُ فَعَجِلَ». **الْعَجَلَةُ، والْعَجَل**: السُّرْعَةُ الّتي هيَ ضِدُّ الْبُطْءِ.

ضُمِّنَ الفعل في: ﴿أَعْجَلَكَ﴾ معنىٰ الفعل في «فَصَلَكَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فجاءت العبارة: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾: أي: وَمَا الّذِي جَعَلَكَ تَعْجَلُ مُنْفَصِلاً عنْ قَوْمِكَ، وسَابقاً لهم.

- ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾: أي: إنّي أمرتُهم بأنْ يَلْحقوا بي، لشُهُودِ مَا يجري في هذا الميعاد، ولم أقَصِّرْ في واجبِ تبليغهم، وقَدْ وَلَّيتُ عَلَيْهِمْ أخي هارون، فَهُمْ في تَقْدِيري سائرون عَلَىٰ أثَرِي.

يقال لغة: «سارَ عَلَىٰ أثَرِه» أي: سارَ متّبعاً لَهُ يَسِيرُ على مواطئه. ويقال لغة: «سارَ في أثَرِه» أي: سار في الطريق الذي تظْهَرُ فيه آثار سَيْرِه.

- ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾: أي: وأسْرَعْتُ مُقْبلاً إلى مكان مُنَاجاتِكَ رَبِّ لأظْفَرَ برِضَاك، اجتهاداً مِنِّي بأنَّ هٰذا الاستعجالَ يُرْضِيكَ عنِّي، ولم تكُنْ لي رغْبةٌ فِي الانفراد بمناجاتِكَ، دُونَ حضور قومي هٰذا التكريم العظيم الّذي كرَّمْتَنِي به، ورَغِبْتُ أنْ يكُونَ لقومي مشاركةٌ فِي هٰذَا الحدث التكريميّ، تفضُّلاً مِنْكَ عليهم.

- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام، فإنَّا قد امْتَحَنَّا قَوْمَكَ منْ بَعْدِ مفارقَتِكَ لَهُمْ، وغيابِكَ عَنْهم، ويظهر أنَّ هذا القولَ قد كان أثناء المدّة المضافة إلى اللّيالي الثلاثين، والتي دَخَلَتْ فيها الظُّنون التشكُّلِيَّة على جمهور بني إسرائيل الغوغائيّين، والّتي صَنُعوا فيها العجل الذَّهَبِيَّ وصَارُوا يَعْبُدُونه، والّتي أضَلَّهُمْ فيها السَّامِرِيُّ.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾: أي: وأغراهم، فأغواهم، فأوقَعَهُمْ السَّامِرِيّ في الضَّلال.

الإضلال: يأتي في اللُّغَة للدّلالة على عدّة معانٍ، منها الإغواء بمختلف وسائل الإغواء القوليّة الزُّخرفيّة، والعمليّة التي تُسْتَرْضَىٰ بها الأهواءُ والشهوات، ونوازع النفوس ونوازغُها ودوافِعُها، لمجافاة الحقّ، والتزام الباطل، ومجافاة الصراط المستقيم، والانطلاق في متاهات الظُّلْم والبغي والعدوان، والفجور في الأرض، للاستمتاع بزينات الحياة الدنيا.

وبعضُ هذه المعاني ينْطَبق على إضلال السامِري لجمهور بني إسرائيل الغوغائيّين في التِّيه.

السَّامِريّ: قالُوا: كانَ السَّامِرِيُّ من قَوْمٍ يَعْبُدونَ الْبَقر، فَدَخلَ في دين بني إسرائيل نفاقاً، وفي قَلْبِه ما فيه من عباده البقر، وكان من قبيلة تُعْرَف بالسَّامِرَة.

وقيل: غَيْرُ ذلك، والله أعلم.

وهُنَا يأتي بحَسَب تسَلْسُل الأحداث قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

يُرادُ بقومِ مُوسَىٰ جُمْهُورُهُمْ لاَ كُلُّهُمْ، إذْ بقي فيهم مؤمنون مُسْلِمُون لم يُشْرِكُوا.

وقد سبَقَ تدبُّر هذه الآيَة لدَىٰ تَدَبُّر سورة (الأعراف).

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طـه):

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾:

- ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾: أي: فلمّا انتهت مُدّة الميعاد، وهي أربعون ليلة، رجعَ مُوسَىٰ عليه السَّلام إلى قومه حالة كونِه غَضْبانَ ممّا فَعلَ جمهور قومِهِ في غَيْبَتِه، وأسِفاً حَزيناً.

﴿غَضْبَٰنَ﴾: صِفَةٌ مشبهة باسم الفاعل، مؤنّثُهُ غَضْبَى.

الغضب: انفعال نَفْسِيٌّ مِنَ الكراهية والسّخط، مصْحُوبٌ بإرادة الانتقام.

يقال لغة: «غَضِبَ علَيْهِ يغْضَبُ غَضَباً فَهُو غَضِبٌ، وغَضْبان» أي: سَخِطَ عليه، وأرادَ الانتقام منه.

﴿أَسِفًا﴾: صفة مشبهةٌ باسم الفاعل، أي: حزيناً. يُقَالُ لغة: «أسف عَلَيْه، يَأْسَفُ، أسَفاً، فهو آسِفٌ، وأسِفٌ، وأسِيف» أي: حَزِن، يحْزَنَ فهو حزين.

وهنا يأتي بحسَب تَسَلْسُل الأحداث، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

أي: ولمّا رأىٰ جمهور بني إسرائيل الّذين اتخذوا العجل الذهبيّ وعَبَدُوه مُوسَىٰ عليه السَّلام قادماً إلَيْهم سُقِطَ في أيْدِيهم من الخوف، وقالوا فيما بينهم: . . ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ولَمْ يَكُنْ حِينَ سُقِطَ في أيْدِيهم من الخوف قَدْ وصَلَ مُوسَىٰ إلى محلّتِهم، بل رأوْهُ مِنْ بَعِيدٍ يَحْمِلُ اللَّوْحَيْنِ الحجريَّيْنِ. وكان من أمْرِ مُوسى عليه السَّلام مَا جاء بيانه في الآيَتَيْن: «١٥٠ و١٥١».

وقد سبَقَ تدبُّر هذه الآيَاتِ باستفاضة، خلال تدبُّر سورة (الأعراف).

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طـه):

- ﴿... قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ... ﴿٨٦﴾﴾؟! استفهامٌ فيه معنىٰ الْإنكار عليهم، إذْ لم يَسْتَجِيبُوا لما أَمَرَهُمْ بِهِ مِن اتّباعِهِ سائرين على أَثَرِه بقيادة أخيه هارون.

أي: أَلَمْ يَعِدْكُم رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً لَكُمْ بأَنْ تَشْهَدُوا مَعِي مكالَمَتَهُ لي بجانب الطُّور؟!. فلَمْ تَحْضُرُوا، وعَصَيتُمْ أَمْرِي لكم، بأَنْ تَسِيرُوا على أثري، وعصَيْتُم أمْرَ أخي هارون، وتمرَّدْتُمْ علَيْه.

- ﴿... أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾؟!. أي: أَنتَظَرْتُمْ زَمناً طويلاً عَوْدَتي، فطالَ علَيكُمُ الزَّمن؟!. إنَّهَا عشْرُ ليَالٍ فقط، مَدَّها رَبِّي لامْتِحان صِدْقِ إيمانكم، ووضُوحِ معرفتكم لرَبّكم، الّذي هو الإلَهٰ الذي يجب أنْ تَعْبُدُوه وَحْدَه، ولاَ تُشْرِكوا بعبادته شيئاً.

إنّ زيادة عشْرِ ليالٍ في الميعاد ليْسَ منْ شأنها أن تُفْسِدَ عقيدة صحيحةً راسخةً، لو كانت موجودة فعلاً في قُلُوبكم، وواضِحَةً في أذْهانكم.

الْعَهْد: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على الزمن، وهذا المعنى هو المناسِبُ هنا بحسب السِّبَاق والسِّيَاق، والله أعلم.

- ﴿... أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾؟!. أي: بَلْ أأرَدْتُم أَنْ تَعْصُوارَبَّكم، بدافع من أهوائكم ورغَبَاتِكُمْ، وهُوَ الأمْرُ الذي يكون سبَباً في أنْ يَحِلَّ علَيْكُمُ انتقامُ الله منْكُمْ بِسَبَبِ غَضَبِهِ عليكم.

- ﴿... فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾: أي: فلَمْ تلْحقُوا بي، ولَمْ تَسِيروا علىٰ أثَرِي إلى الوادي المقدَّسِ بجانِب الطُّور، بقيادة أخي هارون، وتَمَرَّدْتُمْ علَيْه، ولم تُطِيعُوا أَمْرَهُ لَكُمْ باتّباعي.

- ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا...﴾ وفي القراءتَيْن الأخريَيْن بضم الميم وبكسرها، وهي لغات والمعنى فيها واحد.

إخلاف الموعد: عدمُ الوفاء به.

﴿مَوْعِدَكَ﴾ : مِنْ إضافَةِ المصْدَرِ إلى المفعول به، أي: موعدَنا إيَّاك.

أي: ما أَخْلَفْنَا مَوْعِدَنا إيَّاكَ الّذِي وَعدنَاكَ فيه أَنْ نَسِيرَ في أَثَرِك إلى جانب الطور، بقيادة أخيك هارون، ونَحْنُ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفسِنَا الجرْأَةَ علَىٰ تَنْفيذ الوعْدِ الّذي كانَ مِنَّا، وهو أنْ نَسِيرَ على أَثَرِكَ.

- ﴿... وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ...﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: ﴿حَمَلْنَا﴾. أي: مَا كنَّا نملِكُ جُرْأَةً للحضُور مَعَك وربُّك يُكلّمك، إذْ كُنَّا خائفين من أن ينْتَقِمَ منَّا رَبُّنا، لأنَّنا كُنَّا مُرْتَكِبين لذَنْبٍ كَبيرٍ، حَمَلْنَا وَحُمِّلْنَا به أوزاراً من الإثم، إذْ كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا من المصْريين حُلِيًّا على سَبِيل الاستعارة، ونَحْنُ نَقْصِدُ سَلْبَهُمْ إيَّاهَا، لأنَّنا خارِجُونَ من مصر خُروجاً نِهائيًّا، والمصريّون لا يَعْلَمون ذلك، فإذا كانت هٰذه الحلِيُّ معنا كانت شاهدة علَيْنا بإثمنا الكبير، فاجتمع رأْيُنا علَىٰ أنْ نتخلَّصَ منها، وحَرَّضَنا السَّامِرِيُّ على وجوب التخلُّصِ منْها، وتقديمها للإلٰه فجمَعْنَاها لهذا الأمر.

أقول: هذا من مزالق إبليس وشياطينه من الجنّ، والإنْس، كالذي يوسوس له الشيطان أن لا يُصَلّي، ولا يَحْضُرَ مجالس الذكر والعلم الديني، لأنَّهُ مُرْتكِبٌ لبعض كبائر الإثم، فهو يخجلُ مِنْ رَبّه فَيَبْتَعِد.

- ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾: أي: فتَخَلَّصْنَا منها بأسْلُوب القَذْف، وهو الرَّمْيُ بقُوة.

- ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ...﴾: هذا بيان من الله عزّ وجلّ، أيْ: وَزَيَّنَ لهم السَّامِريُّ أنْ يَصْنَعُوا منها عِجْلاً، شبيهاً بِعِجْلِ المصريّين الذي يَعْبُدُونَهُ: «إبيس» إذْ رأىٰ في نفوسهم

الرَّغْبَةَ الشديدة في أنْ يكون لهم إلَه وَثَنٌ، يتوجَّهُون له في العبادة، ويُقَرِّبون له القرابين، ويعكُفونَ عليه، واستعانَ بِصُنَّاعِ الْحُلِيّ منهم، فصَنَعُوا العجل، وفق الصورة الّتي كانوا يألَفُونها في مصر لمعبود المصريين «إبيس» فأخذه السامريُّ إلىٰ خباء، فقَذَف فيه القبضة الّتي كانت معه من أثر الرسول، فجعل الله من أثرها أنّ هذا العجل صار له خوارٌ كخوار العجول، لكنَّهُ جَسَدٌ لاَ حياةَ له، لامتحان جمهور بني إسرائيل، هلْ تخلّصوا من الوثنيَّة، أم ما زالَتْ أفكارُهُم ونفوسُهم مُتَشبِّثَةً بها، فخرج السامريُّ من الخباء فَأَخْرَجَ لهم عجلاً جسداً لَهُ خُوار، وأوحَىٰ إلَيْهم أنَّ هذا هو إلَههم، وانْطَلَتْ حيلَتُه الخبيثَةُ علىٰ الرَّعاع من بني إسرائيل.

- ﴿... فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾: أي: فعجِبَ جُمْهورُ بني إسرائيل من خُواره، وانْطَلَقَتْ مقولة السامريّ فيهم، فقالُوا: هٰذا إلَهُكُمْ وَإلَهُ مُوسى حلَّ في جَسَدِ العجل، ذهب مُوسَىٰ للقائه ومكالمته فنَسِي المكان الّذي كان قَدْ لقيه فيهِ وهو راجع من مدْيَنَ إلىٰ مِصْر، لِبُعْدِ الْعَهْد. وسجدوا له، وقَرَّبوا له القرابين، وصاروا يَعْكفُونَ عليه.

- ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

هذا بيان من الله عزّ وجلّ، بشأن الَّذين عَبَدُوا هذا العِجْلَ الذهبيَّ الْجَسَدَ، من بني إسرائيل.

أي: أفَقَدُوا عُقُولَهُمْ، وفَقَدُوا حواسَّهم، فهم لا يَرَوْنَ أنَّهُ جماد، لا يَرُدُّ جواباً على خطاب، ولا يسْتطيعُ أنْ يَدْفَعَ عَنْهم ضَرّاً أو يجلُبَ لهم نفعاً.

أَدَهِشُوا مِنْ خُوَاره على خلاف معتاد الأجْساد الّتي لا حياة لها، فصَدَّقوا السامريَّ في دعوىٰ إلهيَّتِهِ، أفلا يَرَوْنَ بعد انْدِهاشِهِمْ من خُوارِه، وهو مُجرَّدُ صَوْتٍ قد يحْدُث نَظيرُه بسَبَ ماديّ، كَبُوقٍ مصنوع بطريقةٍ

خاصَّةٍ، إذا دخَلَتْ فيه ريحٌ بشيء من القوّة أعطى صَوْتاً. أَلَمْ يَرَوْا مُتَفَكّرين أنَّ الشَّأْنَ الأعظم الدّالَّ على أنَّه جامِدٌ كسائر الجمادات، أنَّهُمْ إذَا كَلموهُ لَمْ يُجِبْهُمْ بشيء، فَهُو لاَ يَرْجِع إليهم قولاً، جواباً لهم على ما يُخَاطِبُونَه به، وأنَّهُ لاَ يَمْلكُ لهم أنْ يَدْفَعَ عنهم ضرًّا، أو يَجْلِبَ لَهُمْ نفعاً.

والمعنى: هل انطمَسَتْ بصائِرُهم، فهم لا يَرَوْنَ هذه الحقائقَ عَنْ عِجْلِهِم الذَّهَبِيّ، فالمراد الرُّؤيَةُ العلميّة الفكريّة، ذات الأدلَّةِ من الحسِّيَّات.

﴿أَلَّا﴾: أصْلُها: «أَنْ» و«لاَ» أدْغِمَا فصارت العبارة: ﴿أَلَّا﴾ «أَنْ» هذه هِيَ المخفَّفةُ من الثقيلَة، وهي عاملة، واسْمُها ضَمِيرُ الشأن واجب الحذف عند النحاة. وجُمْلَةُ: [**لا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً**] هي الخبر. أيْ: لاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْعِجْلُ قولاً ما، جواباً على ما يسألُونه، أو يخاطبونه أو يخاطبونه به.

يقال لغة: «رَجَعَهُ» مُتَعَدّياً، مثل: «أرجَعَهُ» ولفظ «أرْجَعه» لغة هُذَيل.

- ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾﴾: هذه الجملة معطوفةٌ على الجملَةِ السابقة لها، الّتي هي خَبَرُ «أَنْ» المخففة من الثقيلة.

- ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾﴾:

جاء تأكِيدُ الكلام وتَحْقِيقُهُ بعبارة: ﴿لَقَدۡ﴾ للدّلاَلَة علىٰ أنَّ ما قالَهُ الإسرائيليُّون في سفر الخروج، من أنَّ هارُون عليه السَّلام، هُو الّذي صَنَعَ لَهُمُ الْعِجلَ بالإزميل، كَذِبٌ وافتراءٌ عليه.

وذلك لأنّ هارون لمّا رآهم قَدْ صَنَعُوا الْعِجلَ، وصَارَ لَهُ خُوارٌ كَخُوارِ الْعُجُولِ، قال لهم: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ أي: أأكِّدُ لَكُم بأنَّهُ لَيْسَ في خُوار العِجل إلّا امْتِحَانُكُم، لكَشْفِ صِحَّةِ إيمانكُمْ بِرَبِّكُمْ، وسَلامَةِ فَهْمِكُمْ لمعنَىٰ رُبُوبِيَّة الرَّب جلّ جلالُهُ، وأنَّ الرّبوبيَّة لا تكونُ فِي شيءٍ، لِمُجَرَّدِ

ظُهُورِ شيءٍ غريب أو عجيب فيه، ولَوْ كان الأمْرُ كذلك لكانت عصَا موسَىٰ أحرىٰ بهذا الوصف.

«إنّما» أداة حَصْرٍ وقَصْرٍ، والمراد قَصْرُ الْعِجل على صفة أنه للفِتْنَة وهي الامتحان، وهٰذا مِنْ قَصْرِ الموصُوفِ علَىٰ صِفة، وهو من قبيل الْقَصْرِ الإضافي، أي: بالإضافة إلى زَعْمِ إلَهيَّتِه فليْسَ هُو إلَّا فِتْنَة.

﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ۝٩٠﴾: أي: فاتَّبِعُوني فِي عبادتي لله وحْدَه، الّذي لا يَكُونُ لَهُ مِثَالٌ مِنْ شيءٍ في السَّمَاوات ولا في الأرض، واتَّبِعُوني مُتَأَسِّينَ بي فأنَا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُم، فَلا يَخْدَعَنَّكُمْ في دِينِكُمْ أحَدٌ، ولا يَصْرِفَنَّكُمْ عَنْ رَسُولِ رَبِّكُمْ أَحَد.

وإنّي آمُرُكُمْ بأنْ لا تَعْبُدُوا الْعِجْلَ الذي صنَعْتُم، فإنَّ عبادتَهُ شركٌ بالله الرَّحْمٰن رَبّ العالمين، وإنّي أُلْزِمُكُمْ. بما أَنّي وليٌّ أمْرِكُمْ بأَمْرٍ صَادِرٍ عَنْ أخي موسَىٰ بأنْ تُطِيعُوا أَمْرِي.

- ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾: أي: لَنْ نَزُول، ولَنْ نَنْصَرِفَ عَنِ العْجلِ، حالَةَ كوْننا عليه لا على غيره عَاكِفِينَ، حتَّىٰ يَرْجِعَ إلَيْنا مُوسَىٰ.

﴿عَلَيۡهِ﴾ معمول لـ ﴿عَٰكِفِينَ﴾ لإفادة التَّخْصِيص. وعبارة ﴿عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ حال.

يقال لغة: «عَكَفَ عَلَىٰ الشيء، يَعْكُفُ عَكْفاً وَعُكُوفاً» أي: أَقْبَلَ عليه ملازماً له، لا يَصْرِفُ وجْهَهُ عنه، كأَنَّه حابِسٌ نَفْسَهُ عليه.

وهَـٰذا العكوف بسكُونٍ وملازمة وصَمْت، وتَوَجُّهٍ قَلْبِيّ ونَفْسِيّ وحِسّي، هُوَ لَوْنٌ من ألوان عبادَةِ الْعَاكِفِ لِلْمعكُوفِ عليه.

فالمعنى: لَنْ نَسْتَجِيبَ لكَ يا هارون، ولَنْ نُطِيع أمْرَكَ في تَرْكِ

العكوف على الْعِجل، حتَّىٰ يَرْجع إلينا موسى، الّذي تَاهَ عن إلَهِهِ، ولا نَدْرِي ماذا حَدَث لَهُ، ولا ماذا أصابه.

وهنا يأتي موقع قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدبُّر هذه الآيات في مَوْضِعها من سورة (الأعراف).

قال الله عزّ وجلّ في سورة (طـه):

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾:

لقد ذَهَبَت انْدِفَاعَةُ الْغَضَب الأولَىٰ الَّتي جعَلَتْ موسَىٰ عليه السَّلام، يأخُذُ برأسِ أخِيهِ يَجُرُّهُ إلَيْه، وبدأ دَوْرُ المحاسبة الّتي فيها هُدوءٌ ما.

ولعل هذا قد كان وهُمْ جُلُوسٌ، وهارونُ عليه السَّلام عن يمين موسَىٰ، وموسَىٰ يقْبضُ علىٰ لحيَةِ أخيه يُسَائله، وقَدْ يَأْخُذ برأسه يَهُزُّهُ أحياناً.

- ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾:

أي: مَا مَنَعَكَ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُم وتَتَّبِعَنِي، إذْ رَأَيْتَ جَماهِيرَهُمْ ضَلُّوا ومَعَكَ أَهْلُ الثَّباتِ على الحقّ؟!. ومَا حَمَلَكَ علَىٰ أَنْ لاَ تَتَّبِعَنِي في هذه الحالة؟!.

لقَدَ سَأَلَ مُوسَىٰ أخاه هارونَ ، عن المانِع لَهُ من اتّبَاعِهِ إِلَىٰ جَانب الطّور، إذا كانَ في الواقع أمْرٌ مانع. وسأَلَهُ أيضاً عن الحامل له علىٰ عَدَمِ اتّباعِهِ، إذا كان يوجَدُ في الواقع أمْرٌ حامل.

واختصاراً في التعبير ضُمِّنَ فِعْلُ: «منَعَ» معنى فعل: «حَمَل» فَعُدّيَ تَعْدِيته، فَأغْنَتِ الجملة الواحدةُ عن جملتين، والتقدير: مَا مَنَعَك عن اتباعِي، ومَا حَمَلَكَ على عَدَم اتّباعي.

﴿تَتَّبِعَنِۖ﴾: أصلها: «تَتَّبَعَنِي» حُذِفَتْ يَاءُ المتكلّم إيجازاً في اللّفظ، وهي ملاحظة ذهناً، ونظير هٰذا الحذف كثيرٌ في اللّسان العربي، وفي القرآن منه كثير.

﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِى﴾؟: أي: أاسْتَهنْتَ بِي فعصَيْتَ أمري الّذي أمَرْتُك بِهِ إذِ اسْتَخْلَفْتُكَ على بَنِي إسرائيل.

الفاء عطَفتْ على محذوف، والمناسبُ هذا: «استَهنْتَ بي» أو نحو هذه العبارة.

- ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾﴾:

﴿يَبۡنَؤُمَّ﴾: أي: يا ابْنَ أُمِّي، وهٰذا أَحَدُ وُجوه جائزة في نِداءِ «ٱبْنَ أُمّ» إذ يجوز إثبات ياء المتكلّم، ويجوز حَذْفُها والاجتزاء بالكسْرة، ويجوز فَتْحُ الميم على أن لفظ «أمّ» مركَّبُ مع «ٱبن» تَرْكيباً مَزْجيًّا. ولا يكادون يثبتون ياء المتكلم في هذه العبارة، ولا الألف بعد الميم عوضاً عن الياء، إلّا في الشعر.

أضافَ هارونُ عليه السَّلام أداة النداء «يَا» في هذه الإجابَة عَلَىٰ الإجابَة الأولى، التي جاء بيانُها في نَصّ سورة (الأعراف) للتَّشْدِيدِ علىٰ اسْتِعْطاف أخيه، وتَنبيهه على أَنّهما ٱبْنَا أُمٍّ واحِدَة.

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ دَلَّتْ هذه العبارة، علىٰ أنَّ موسَى عليه السَّلام فِي مَجْلِسِ الْمُسَاءَلَةِ اللّاحق، كان يَقْبِضُ علَىٰ لِحْيَةِ أخِيه هارون، وقَدْ يأخُذُ برأسِه فَيَهُزُّه، وهٰذا من حِدَّةِ موسَىٰ في مُسَاءَلَتِه.

- ﴿. . . إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾:

اقْتَصرَ هارونُ عليه السَّلام في هذه الإجابَةِ على القضيَّةِ الّتي سَأَلَهُ عنها في هذه المساءلَة الثانية، ولم يُشِرْ إلى ما سَبَقَ أن اعْتَذَر به في مُسَاءَلته الأولى.

أي: إنّي خَشيتُ إذَا اتَّبَعْتُكَ معَ الّذين استجابُوا لي من بني إسرائيل، أنْ تقول لي: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وخشيتُ أنْ تُحاسبَني وتُؤاخذِني على هذا التفريق، فتعارض لديّ أمران، وقد اجتهدْتُ فترَجّح لَدَيَّ أن أبْقَىٰ فيهم، منْتَظراً عَوْدَتَك، ولا أتْرك الظالمين وحْدَهم. وكُنْتُ لاَ أرى أنّ غَيبَتَكَ ستطولُ، وخشيتُ أيضاً أن تَقُولَ لي: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي: لم تَجْعَل قولي تَحْتَ مُرَاقَبَتِكَ الدائمة، لتحافظ على طاعته، ولتراعِيَ الالتزام به.

وهو قولَهُ لَهُ حينَ استَخْلَفَه، وهُو ما جاء بيانُه في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

فقد اجتهَدْتُ أنْ أُصْلِحَ بِقَدْرِ استطاعَتي، ولم أَتَّبعْ سَبِيل المفسدين.

فقدم هارُون عليه السَّلام بما أبانَهُ عُذْرَهُ كاملاً، وأوضَحَ لأخيه أنّه لم يأْلُ جهداً واجتهاداً في رعايَةِ الأَصْلَح الّذي رآه.

مُحَاسَبَةُ مُوسَىٰ عليه السَّلام للسَّامِرِي.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾:

تمهيد:

تضمّنتْ هٰذه الآياتُ بيانَ مُحاكَمةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام للسَّامِرِيّ، صاحِب فِتْنَةِ العِجْلِ الذَّهَبِيّ الَّذِي لَهُ خوار، والحُكْمَ عليْه بالطَّرْدِ مِنْ جمهور أَتْبَاعِه بني إسرائيل، والدُّعَاءَ علَيْه بداءٍ لا يَسْتَطِيعُ معه أن يَمَسَّه أحَدٌ، وقد استجاب الله دُعاءه، فصار السّامِريُّ من بَعْدُ كذلِكَ، وتضَمَّنَتْ إعْلامَهُ بما سَيَلْقَاهُ مِنْ جزاءِ يوْمَ الدِّين، وهو الموعد الحقُّ الّذِي لَنْ يُخْلَفَهُ، وإخباره بما سَيفْعَلُ بالْعِجل مِنْ تَحْرِيق، وتَجْزِئةٍ بالْمَبارِدِ حَتَّى يكُونَ ذَرَّاتٍ صُغْرى كالدّقيق، ونَسْفِ لَهُ ناعماً في الْيَمِّ، حَتَّىٰ لاَ يَبْقَىٰ لَهُ أثَرٌ في مُتَنَاوَلِ أحَدٍ.

وأتْبَعَ مُوسَىٰ عليه السَّلام قرَارَتِه الّتي أصدرها، بِبَيَانٍ إيمانِيّ حوْلَ أَنَّهُ لاَ إلَه إلّا الله الّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً، وليس مجرَّدَ كائنٍ ذي ظاهرة عَجِيبَةٍ من الظواهر في الكون.

التدبّر التحليلي:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾؟: أي: قال موسىٰ عليه السَّلام للسّامِرِيّ: مَا شأْنكَ وما حَالُكَ يَا سَامِرِيُّ؟.

والمعنى: ما الّذِي حَمَلَكَ علَىٰ أنْ تَقُومَ بهٰذِه الفِتْنَةِ الّتي أَفْسَدْتَ بِها جُمْهُور بني إسرائيل، حتّىٰ جعلْتَهُمْ يَعْبُدونَ وَثَناً ذهبيًّا، علىٰ صورة عِجْلٍ مشابه للْعُجُولِ الّتِي يَعْبُدُهَا الوثَنِيُّونَ؟.

وما الّذي جعَلَكَ تَفْتَرِي هٰذِه الفِرْيَةَ العظيمة علىٰ الله؟

الْخَطْبُ: هو في اللّغة الأمْر، والشَّأْنُ، والحال، الذي تقع فيه المخاطبة.

وجاء العطف بالفاء لبيان ترتيب محاكمة السامِرِيّ، عقب محاكمة موسى لهارون عليه السَّلام.

- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ... ﴿٩٦﴾﴾ وفي قراءة أخرىٰ لحمزة، والكسائي، وخلف: **[بِمَا لم تَبْصُرُوا به]** بتاء المخاطبين.

والمعنى: أَدْرَكْتُ أمْراً عَجَباً إدْراكاً جَلِيًّا صار عندي علماً ثابتاً، وهٰذَا الأمْرُ الَّذي علمتُه لم تَعْلَمُوا به، ولم يَعْلَمْ به سَائر بني إسرائيل.

يقال لغة: بصُرَ بالشيء، أي: صار ذا بَصِيرَةٍ فيه. **البصيرة**: قوَّةُ الإدراك والفطنة، والعلم والخِبْرَة.

ذكر المفسّرونَ أنّه رأىٰ جبريلُ عليه السَّلام على فرس الحياة، فوقَعَ في نَفْسه أن الأثَرَ الّذِي يَبْقَىٰ في الأرض من حافِرِ فرسِ جبريل، لاَ يُلْقَىٰ على شيء غَيْرِ ذِي حَيَاة إلَّا صار حيًّا.

أقول: ولعلّ السَّامِرِيَّ أجْرَىٰ تَجْرِبَةً مُصَغَّرَةً بيْنَه وبَيْن نفسه، قبْلَ أَنْ يَدْعُو بني إسرائيل لصُنْع العجل من الذهب.

- ﴿... فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ... ﴿٩٦﴾﴾: ظاهر هذه العبارة يَدُلُّ على أنَّه قبضَ قبضَةَ ترابٍ مِنْ مَوْطِىءِ قَدَمِ جِبْرِيلَ رَسُول الوحي إلى موسَىٰ ، لكن المفسّرين ذكرُوا أنَّها قبضة من أثر حافر فرسه.

الْقَبْضَة: ما أَخَذْتَ بِجُمْعِ كفِّكَ كُلِّه.

وعلى ما ذكر المفسّرون تحتاج العبارة إلى تقدير مُضافٍ محذوف، أي: منْ أثر فرسِ الرسول، أو من أثر حافِرِ فَرَسِ الرَّسُول. والله أعلم.

• ﴿... فَنَبَذْتُهَا...﴾: أي: فَطَرَحْتُ هٰذِهِ القبضة كَما تُنْبَذُ النواة، بسُرْعَةٍ وخِفَّة، في جوف الذّهب المسبوك على صورة عجل، فصَارَ لَهُ خوار كخُوَار الْعُجُول من البقر.

• ﴿... وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾: أي: وكذلك الذي فَعَلْتُه كانت نَفْسِي قَدْ زَيَّنَتْ لِي، وحَسَّنَتْ لي صُنْعَه.

التَّسْويل: هو في اللُّغَةِ التَّحْسِينُ، والتزيين، والتحبيبُ بالشيء.

يقال لغة: «سَوَّلَ لَهُ، يُسَوِّلُ، تَسْويلاً» أي: حسَّنَ لَهُ وزَيَّنَ، وحبَّبَ إلَيْهِ الْأَمْرَ الّذِي دعَاهُ إليه، وأغراهُ به، وسَهَّلَهُ له.

فالمعنى: وكان ذلك الذي فعَلْتُه في جَسَدِ الْعِجْل، مماثلاً للّذِي سَوَّلَتْهُ لي نفس.

فاعْتَرَفَ السَّامِرِيُّ على نَفْسِه بِجَرِيمَتِهِ، ورُبَّما سوّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أنْ يكُونَ مُقَدَّماً في بني إسرائيل، ذا مكانةٍ ورياسة دِينِّية، باعتباره صاحب فكرة الْعِجْل، والّذي عمل عملاً جَعَلَهُ يخُور خُوار العجول، فَهُوَ سيكونُ سَادِنَهُ، والمنتفع من عبادة القوم له.

• ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ... ﴿٩٧﴾﴾:

تضمَّنت هذه العبارة حُكْمَ مُوسَىٰ عليه السَّلام، على السَّامِرِيّ بالطَّرْدِ من مجتمع بني إسرائيل، وإعْلاَمَهُ بنَوْعِ عَذَابٍ يُعَذِّبُه الله به، لاَ يَسْتَطِيعُ معَه أن يمسَّ أحداً أو يمسَّه أحد، وهو عقابٌ بعُزْلَةٍ جَبْرِيَّةٍ عَنْ كلّ الناس، فإذا اقْتَرَبَ منْهُ أحَدٌ من النّاس اشتدَّت به أوجاع وآلام لاَ يُطِيقها.

• ﴿... وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ... ﴿٩٧﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [**تُخْلِفَه**]: إنَّه موعِدُ يَوْمِ الدّين «أي: الحَدَثَ، وزَمَانَهُ، ومكانَه» للحساب،

وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، لفظ مَوْعِد يدلُّ على المصدر، وعلى زمانه، وعلى مكانه.

وبعد إصدار موسَىٰ عليه السَّلام، حُكْمَهُ علىٰ السّامِرِي، وبيانَ عقوبتِهِ في الدنيا، أراد أن يُرِيَ السَّامِرِيَّ، ويُرِيَ الَّذِين عَبَدُوا العجل من قومه بني إسرائيل، وسائِرَ قومه، مَهانَةَ إلَهِهِمُ العِجْلِ، وضَعْفَهُ، وأنَّهُ جماد مثل سائر الجمادات فقال للسَّامِرِيّ:

- ﴿... وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾:

أي: وانْظُرْ إلَىٰ عِجلِكَ الذهَبِيِّ الّذي اتَّخَذْتَهُ إلَهاً، وأقَمْتَ عِنْدَهُ ملازماً عِبادته، ودعَوت بني إسرائيل إلى عبادته، انْظُر بعينَيْكَ ماذا سَنَفْعَلُ به.

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾: أي: بَقِيتَ ملازماً لعبادتِه كلَّ نَهارٍ مضىٰ علَيْكَ من يَوْمِ صُنْعِه، أنْتَ ومَنْ عَبَدَهُ مَعَك من بَنِي إسرائيل.

وجاء التعبير بعبارة: ﴿ظَلْتَ﴾ لأنَّهم كانُوا يفارقونه ليلاً إلى خيامِهِم.

يقال لغة: «ظَلَّ نَهارَهُ يَفْعَلُ كذا، وظَلِلْتُ، وظَلْتُ، وظِلْتُ» لا يقال ذلك إلّا في حال الملازمة في النهار.

﴿عَاكِفًا﴾: أي: مُقِيماً مُلازماً مُلازمَةَ عبادَةٍ له.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: أي: لَنُوقِدَنّ عليه النارَ حتَّىٰ ينْصَهِر، ويَرَىٰ بَنُو إسرائيل أنّ هذا الإلَه الّذي عَبَدَه مَنْ عَبَدَهُ منهم، لم يَسْتَطِعْ أن يَدْفع عن نَفْسه التَّحْرِيق والصَّهر، وأنّه جماد كَأيّ جمادٍ آخر.

- ﴿... ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْد أَنْ نُجَزِّئَهُ

إِلَىٰ أجزاء صُغْرَىٰ كَذَراتِ الرَّمل، لنَنْسِفَنَّهُ مُتَفرِّقَ الذّراتِ في البحر.

يقال لغة: «نَسفَ فُلاَنٌ الشَّيْء» أيْ: فَرَّقَهُ وأَذْرَاه. ويُقالُ: «نَسفَتِ الرِّيحُ التُّرابَ» أي: حَمَلَتْ أجزاءه الصُّغرى، وفَرَّقَتْهُ حيْث اتَّجَهَتْ.

ويظْهَر أنّ موسَىٰ عليه السَّلام، أمَرَ بإيقَادِ نارٍ شديدة، أَمَام السَّامِرِيّ، وأمَام جماهِيرِ بَنِي إسرائيل، حَوْلَ هٰذا الإلٰهِ المصنوع المفْتَرى به على الله، فلَمَّا حَرَّقَهُ وانْطَفَأَتِ النَّارُ حوله، وبَرَدَ ما انْصَهَرَ مِنْه، أَمَرَ بِتَفْتِيتِهِ إِلَىٰ أجزاءٍ صُغْرَىٰ دقيقة، كحبّاتِ الرَّمْلِ الصُّغرى، ليقيم برهاناً عمليًا على أنَّ زعْمَ إلَهيّتِهِ قضيَّةٌ مَكْذُوبَةٌ مُفْتَراةٌ على الله الرَّبّ، الذي له وحْدَهُ الإلَهيَّةُ التي لا يُشَاركُه فيها شيءٌ في الوجود، بالغاً ما بلغ، إذْ كلُّ ما عداه في الوجود كُلِّه خَلْقٌ من خَلْقِهِ، وإبداعٌ من إبداعه.

جاء في الإصحاح (٣٢) من سفر الخروج ما يلي:

«٢٠ ثُمَّ أَخَذَ الْعِجلَ الّذِي صَنَعُوهُ وأَحْرَقَهُ بالنّار وطَحَنَهُ حتَّى صَارَ نَاعِماً وذَرَّاهُ على وجْهِ الماء وسَقَىٰ بَنِي إسْرَائيل».

لكنَّ القرآن أبان أنَّ موسَىٰ عليه السَّلام تَوعَّدَ عُبَّاد الْعِجْلِ بِأَنْ يَنْسِفَهُ في الْيَمِّ نَسْفاً، أي: في الْبَحْرِ، وذِكْرُ الْيَمّ يُبْعِدُ أنْ يَكُونَ ذَرَّاه على وجْهِ الماء، وسَقَاهُ مَعَ الماء بني إسْرَائيل.

ولعلَّ كتَّابَ سِفْر الخروج وجَدُوا في الأصْل، أنّ بَنِي إسْرائيل قَدْ أُشْرِبُوا في قلُوبِهِمْ حُبَّ الْعِجْل، كما جاء في القرآن المجيد، فَفَسَّرُوا ذلِكَ مِنْ عِنْدِهم أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام سَقَىٰ بني إسْرَائِيل ذَرَّاتِ الْعِجْلِ مع الماء.

- ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾:

بَعْدَ أَنْ أبان مُوسَىٰ عليه السَّلام بالتطبيق العمليّ، أنّ العِجلَ الَّذِي

أَحَبُّوهُ وعَبَدُوه، ليْسَ لَهُ من الإِلٰهِيَّةِ شيء، وأَنَّهُ صُورَة مصنوعَةٌ من مادّةٍ مِنْ مَوادّ الأرضِ خَلَقَها الله، وأنَّ خُوارَهُ لَمْ يَكُنْ أكْثَر مِن ظاهرة من ظواهر تَأْثِيراتِ الْأَشياء في الأشياء، كتَأْثير مُرُور الرِّيح في بُوقٍ، إذْ يُحْدِثُ صَوْتاً مَا، نَاعِماً رَقِيقاً، أو غَلِيظاً خَشِناً.

بَعْدَ ذَلِك أبانَ لَهُمْ أنَّه لا إلَه بحقٍّ في الوجود إلّا الله الرَّبُّ، الّذِي وَسِعَ كلَّ شيْءٍ عِلْماً، وهٰذِهِ إحدىٰ صفاتِه الجليلة، الّتي لاَ وجُودَ لنظيرِها عند كائنٍ مَا في الوجود كُلّه، واللّوحُ المحفوظ هو ما كتَبَ الله فيه عِلْمَهُ، وهو بذاته ليْسَ بِعَليم، وإنّما هو آلَةُ تَسْجِيلٍ عُظْمَىٰ خلقَها الله.

- ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، تَدُلُّ على ما يَدُلُّ عليه النَّفْيُ والاستثناء.
- ﴿... إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾: أي: لَيْسَ لَكُمْ مَنْ يُعْبَدُ بِحَقٍّ في الوجود كلّه، إلّا الله الّذِي لاَ يُوجَدُ معبودٌ بِحَقٍّ إلَّا هو.
- ﴿... وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾: أي: لا بُدَّ أنْ يَكُونَ مِنْ صفاتِ الْإله المعبود أنْ يكُونَ رَبًّا، ومن صفاتِ الرَّبِّ المتصرِّف في الكونِ كلّه، أنَّهُ قَدْ وَسِعَ كلَّ شيءٍ عِلْماً.

وفي هذا البيان عن علم الله عزّ وجلّ إلْماحٌ لَهُمْ إلَىٰ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ على ما في قلوبهم من إيمان أو شرْك، ومعرفةٍ بالرَّبِّ مستحقِّ الإلهيَّةِ وحْدَهُ، أو جهلهم بهذه القاعدة من قواعد الإيمان، وإذْ هو جلّ جلالُهُ عَلِيمٌ بأعمالهم مَا ظَهَرَ منها وما بطن، وعليم بِنِيّاتِهم وخواطِر نفوسهم، فهو الذي سوف يجازيهم بِحِكْمتِه وعَدْلِه وفضله.

وبهذا قَطَعَ مُوسَىٰ عليه السَّلام دابِرَ التَّطَلُّعِ لاتِّخَاذِ إله وَثَنٍ من نفوسِ بني إسْرَائيل في تلك المرحلة من تاريخهم.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ:

- ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ. . . (٩٩)﴾:

أي: مثلَ ذَلِكَ الْقَصَص الَّذي قَصَصْنَاهُ بِشأْن موسَىٰ وهارون وفِرْعَونَ وقَوْمِه، وبني إسرائيلَ، نَقُصُّ عَلَيْك بعْضَ أنباءِ ما قَدْ سَبَقَ من أحْدَاثٍ في التَّاريخِ الإنساني.

الخطابُ مُوجَّهٌ للرَّسُول مُحَمَّدٍ ﷺ أوّلاً، فَلِكُل مُتلَقٍّ للخطاب، على سَبِيلِ الْخِطَاب الإفرادي.

ومعلوم أنّ الْهَدَفَ من ذِكْر قِصَصِ الأوّلين الاتعاظُ والاعتبارُ، وقياسُ الأشْبَاهِ والنَّظَائِرِ بعْضِها علَىٰ بَعْضٍ، نظراً إلىٰ أنَّ سُنَّة الله في عِبادِهِ واحِدَةٌ لا تَبْدِيلَ لها.

وبهذا انْتَهَىٰ بعون الله وتوفيقه ومدده تدبُّر الدرس الثاني من دروس سورة (طـه) والحمد لله علىٰ ما فتح به وأولى.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (طـه)
وهو الآيات من (بعض الآية ٩٩ ـ ١٠٤)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿. . . وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾:

القراءات:

(١٠٢) • قَرأ أبو عَمْرو: [يَوْمَ نَنْفُخُ] بضمير المتكلّم العظيم، أي: نَأْمُرُ به وقرأ باقي القراء العشرة [يَوْمَ يُنْفَخُ] بالفعل الذي لم يُسَمَّ فاعله،

أي: يحْصُل نفخ من قِبَل الملَكِ المأمُور بنفخ الصور، وهو إسرافيل عليه السَّلام.

تمهيد:

هذا الدرس الثالث من دروس السّورة موصولٌ بالدَّرْس الأوّل، ففي الدرس الأول بيانٌ عَنِ القرآن المجيد، ووظيفته التعليميَّةِ والتَّذْكِيرية، وبيانٌ عن وظيفة الرسول محمّد ﷺ الْمُتَعَلِّقَةِ بالقرآن، ويُلْحَقُ بِه كُلُّ داعٍ إلى الله من أمَّتِه، وكُلُّ ناصِحٍ ومُرْشِدٍ وآمر بالمعروف نَاهٍ عن المنكر.

وجاء في هذا الدرس تحذيرٌ شَدِيدٌ من سُوء المصير يَوْم الدِّين، لِمَنْ يُعْرِضُ عَنْ آياتِ القرآن الحكيم، الّذي أنزلَهُ الله علىٰ رسُوله مُحمّد ﷺ ليكون ذِكْراً للعالَمين جميعاً، فمن أعرض عنه كان من المجرمين.

وجاء فيه عَرْضُ لقْطَةٍ من لَقَطاتِ أحوال المجرمين يوْمَ الدّين، وهُمُ الكافِرُونَ أهْلُ العذابِ الأبدِيّ الخالد في الحريق بنار جهنّم.

ومعلومٌ أنّ الإعراض عن كتاب الله المجيد، وما فيه بيانات للناس، وموعظة حسَنَة بالترغيب والترهيب، من جَزَاءَاتِ الله العاجلات والآجلات، استهانَة بِهِ وعدَمَ مُبَالاَةِ بما جاء فيه، يكونُ سَبَباً في استِدْراج الشياطين لِلْمُعْرِض عنه إلىٰ مزالقِ الكُفْرِ، الموصِلَةِ إلى دركاتِ المجرمين، مسْتَحِقِّي الخلود في عذاب الجحيم.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿... وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾: هذا الخطاب موجّهٌ للرسول ﷺ، مع غرض إسْماعِ كلّ مؤهّل لاسْتِمَاعِ هذا البيان، مضمونَ ما جاء فيه، ومضمُونَ ما جاء في الآيات بَعْدَه، لأنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل

القرآن الكريم ذكراً للعالَمِين جميعاً، فهو تَذْكِرَةٌ نَافعة لِمَنْ يَخْشَىٰ عقاب الله وعذابه، كما جاء في الآية (٣) من صَدْرِ السورة.

﴿وَقَدْ﴾: جاء التحقيق بحرْف «قَدْ» مراعَاةً لِأَحْوَال الشاكّين من الناس بأنَّه ذِكْرٌ للعالمين، والمعرضين عن بياناته ووصاياه وتعليماته وترغيباته وتَرْهيباته.

إنَّه ذِكْرٌ للعالمين جَمِيعاً، لكِنَّ الْمنتَفِعِين به هم الذين يخْشَوْن عذابَ ربّهم وعقابه.

﴿ءَاتَيْنَـٰكَ﴾: أي: أعْطَيْنَاك يا مُحَمَّد، وفي التعبير بالإيتاء لما أنْزَلَ الله علَيْه في هذا القرآن المجيد، دلالةٌ على أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ مَنَحَهُ شرفاً عظيماً، وتكريماً جسيماً، إذِ اصطفاه بأنْ أنزلَ عليه الكتابَ الخاتِم لكُتبِهِ لعباده، والمعجز الجامِعَ لميزاتِ كلّ كُتُبِه وصُحُفِه السابقة له، والمنزّلَةِ على رُسُلِه السَّابقين، في التاريخ البشريّ.

﴿مِن لَّدُنَّآ﴾: **لَدُنْ**: ظَرْفٌ زَمَانِيٌّ ومكانِيٌّ، بمنْزِلة «عنْد» إلَّا أنَّهُ أقْرَبُ من «عِنْد» وأخصُّ منه. وكَلِمةُ «لَدُنْ» ملازمةٌ للإضافة، فهي تجرُّ ما بَعْدَهَا بالإضافة، والمضاف إليه هنا ضمير المتكلّم العظيم: «نَا» وظاهرٌ أنَّ نُونَ: «لَدُنْ» مُدْغَمَةٌ بنون الضمير «نا» فصارتا نوناً مُشَدَّدة.

﴿ذِكْرًا﴾: أي: كتاباً رَبَّانِيًا، يَطْلُبُ عزّ وجلّ مِن المكلّفِين مِنْ عِباده جَمَيعاً، أن يتَبَلَّغُوه بوعي، وأنْ يتَفَهَّمُوا معانيَه ودَلاَلاَت كلماته وجُمَلَه وآياته، وأنْ يَضَعُوهَا في مُسْتَوْدَعَاتِ جِهاز العِلْمِ والمعْرِفةِ فيهم، وأنْ يَتَذَكّرُوا منها ما تَتَطلَّبُه المناسباتُ الداعيات، باستخراجه مِنْ مستودعاتِ الحفظ، إلى ساحَةِ التصَوُّرِ الحاضر، ليكون ما تذكّروه دافعاً للعمل بمقتضاه، أو الانتفاع بهديه، وبما فيه من عِلْمٍ رَبَّانِيٍّ حقّ.

وقَدْ أُطْلِقَ على القرآن الكريم أنّه «ذِكْر» نظراً إلى المطلوب الختامِيّ

بشأنه، في آخِرِ حَلْقَةٍ من حلقات سِلْسِلَةِ التَّبَلُّغ، فالتَّفَهُّم بوعْي، فالحفظ في خزائنِ المعرفة داخل النفس، فتَرْديدِهِ في الذاكِرَة آناً فآناً، لتثبيت حفظه، ثُمَّ اسْتِدْعَاءِ مَا يتعَلَّقُ مِنْهُ بالحَدَثِ الدَّاعِي، أو المناسَبَةِ الداعية، إلَىٰ سَاحَةِ الذِّكْرِ، والتَّصَوُّر الحاضر، ليكُونَ حافزاً إلى الانتفاع به في عِلْمٍ أوْ عَمَل.

هذا الْفَهْمُ لكلمة «ذِكْر» هو من تَدَبُّر كلماتِ القرآن، الدَّاعِي إلىٰ النظَرِ في لوازم الكلمة ومقتضياتها، من أوائل السِّلْسِلَة الفكريّةِ فيها، حتَّىٰ دُبُرِها وآخِرِها، وهذا عَمَلٌ فكريٌّ يقتضيه قول الله عزّ وجلّ في سورة (محمّد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: مَنْ أعْرَضَ عَنْ هذا الكتاب الّذِي هو ذِكْرٌ للعالمين، فلَمْ يُوجِّهْ سمعه لِتَبَلُّغِه، أو لم يوجِّهْ ذهْنَه لتفهُّمِه، غيْرَ عابىءٍ بأنّه كتَابُ رَبّ العالمين، لِيكُونَ هدْياً لهم، فإنّهُ يأتي يوْمَ القيامة حاملاً وزراً ثقيلاً على ظَهْره.

الإعراض: هو وسَطٌ بين الإقبالِ والإدبار، وجاء الاكتفاء بذِكْرِ الإعراضِ عن ذكْر الإدْبار والتوَلّي، لأنَّ الأخفَّ يَدُلُّ على الْأَشَدِّ مِنْ بَابِ «أولَىٰ».

الْوِزْر: هُو في اللُّغَةِ الْحِمْلُ الثَّقِيل، ولمَّا كان ارتكابُ الذَّنب وفِعْلُ الإثم ممَّا يتحمَّلُ به الإنْسَانُ ما يُشْبِهُ الحِمْلَ الثقيلَ، أُطْلِقَ لفْظُ «الْوِزْرِ» على الذَّنْبِ الكبير الذي يرتَكِبُهُ المكلَّفُ المختارُ المسؤولُ عن أعْمَاله الإراديّة.

«وِزْر» جَمعُهُ «أَوْزَار» مثل «حِمْلٍ وأَحْمال». يقالُ لغة: «وَزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، وَوَزْراً، وزِرَةً» أي: حمَلَ حِمْلاً ثقيلاً، أو ارتَكَبَ ذنْباً كبيراً، فَهُو «وازِرٌ» وهي «وَازِرَة».

وحَمْلُ الوِزْرِ يَوْمَ الدّين، يقْتَضي المحاسَبَةَ علَيْه، فَفَصْلَ القضاء، فتَحْقِيقَ الجزاء، بالْعَدْل، أَوْ بالْفَضْل.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾: أي: حالَةَ كوْنهم خالِدِينَ في الْوِزْرِ، الذي هو جريمَةُ الكُفْر.

والْخُلودُ في الوِزْر كِنَايَةٌ عَنِ الخلُودِ في العذابِ الذي قضىٰ الله به على الكافِرين المجرمين، ينْزِلُ بهم يوم الدين، في جهَنَّمَ وساءَتْ مصيراً.

﴿...وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾: أي: وسَاءَ الوِزْرُ الّذِي يَحْمِلُهُ من يُعْرِضُ عن كتاب الله القرآنِ غَيْرَ عابىءٍ به، حِمْلاً يَوْم القيامَة، إذْ هو حِمْلٌ يَنْتَهِي بِهِ إلى عذاب جهَنَّم.

«سَاءَ» فعْلٌ يقالُ في إنْشَاءِ الذّمّ على سبيلِ المبالغة، مثل: «بِئْسَ» وفاعله هنا ضمِيرٌ مُسْتَتِرٌ وجوباً، مُمَيَّزٌ بكَلِمَةِ: «حِمْلاً».

والمخصوص بالذّمّ محذوف إذْ دَلَّ عَلَيْهِ الكلامُ السابق عن المعْرِض عن القرآن الكريم.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: «**يَوْمَ**» ظرف زمانٍ منْصُوبٌ على الظرفية، والعامل فيه فِعْل: «سَاءَ». «**القيامَة**» مضاف إليه مجرور بالحركة الظاهرة على التاء.

يَوْمُ القيامَة: هُوَ يَوْمُ قِيامِ الأمْوَاتِ من الأجداث إلى ربّهم ينْسِلُونَ، للحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، فِي الجنَّة، أو في النار، بحسب حَالِ الشخْصِ والحكْمِ علَيْه مِنْ قِبَلِ رَبّ العالمين.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾:

«**الصُّورُ**» مخْلُوقٌ عظيم مِنْ مخْلُوقات الله، وهو على هيئَةِ الْقَرْن، إحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّةٌ ضَيِّقَة، تُقَابِلُها فُتْحَةٌ واسِعَة، وباطِنُهُ فراغ، يُنْفَخُ فيه فَيُصْدِرُ صَوْتاً بحَسَبِ قُوَّةِ النَّفْخ.

والنفخ في الصُّور يكُونُ أوّلاً لإماتَةِ الأحْيَاءِ، ويَكُونُ يَوْمَ القيامة لِبَعْثِ الأحْيَاءِ الّتي قضَىٰ الله أَنْ يَبْعَثَهَا إِلَىٰ يَوْمِ الدّينِ، يَوْمِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء، بالْعَدْلِ أو بالْفَضْلِ الرَّبَّانيَّيْن.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: **الحشرُ**: في اللّغة هو الْجَمْعُ والسَّوْق، يقال لغةً: «حَشَرَ يَحْشُرُ، وَيَحْشِرُ، حَشْراً» أي: جَمَعَ مَنْ حَشَرَهُمْ وسَاقَهُمْ.

الْمَحْشَرُ، والمَحْشِرُ: المجْمَعُ الّذي يُحْشَرُ فيه القوم.

المُجْرِمُونَ: هُمُ المستحقّون لِلْخُلُودِ في دار العذاب يوم الدين.

جاء لفظ «المجْرمين» في القرآن عُنْواناً مُقَابلاً للمسْلِمين، وجاء وصْفاً للكافرينَ الذين أهْلَكُهم الله في الدُّنْيا إهْلاَكاً جماعِيًّا، كعادٍ وثمودَ وفرعون وجنوده. وَجاء وصْفاً للمعذّبين في نار جهنم، ولم يأْتِ وَصْفاً للمسْرِفين على نفوسِهِمْ في المعاصي والآثام من أهْلِ الإيمان. فدَلَّ هذا على أنَّ المجرمين في المصطلح القرآني هُمْ مرتَكِبُو الآثام من دَرَكَةِ الكفر، فهم من أهل الخلود في عذاب النار.

﴿زُرْقًا﴾: أي: حالَةَ كَوْنِهِمْ زُرْقاً، يتَمَيَّزُون عن المؤمنين باللَّوْنِ الأزْرق.

إنّ اللَّوْنَ الأزْرَق في أجساد الناس، يكونُ في العادَة من الضربات الّتي تَقَعُ عليها، فيَحْتَقِنُ الدَّمُ تَحْتَ الجِلْدِ، فيَتَحَوَّلُ لَوْنُ الْجِلْدِ إلى الزُّرْقة.

فإذا كان هذا هو المراد، فالعبارة كِنَايَةٌ عمَّا أصابَهُمْ مِنْ قِبَلِ الملائكة، من ضَرْبٍ علَىٰ وُجُوههِمْ وَأَدْبارِهم، فازْرَقَّتْ به مواضِعُ الضَّرْبِ، فكانَ علامةً على أنَّهُمْ مُجْرِمُونَ.

وقد جاء بيان ضَرْب الملائكة لهم في نَصَّيْن:

(١) في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/٨ مصحف/٨٩ نزول) بِشأْنِ الكافرين:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

(٢) وفي قول الله عزّ وجلّ في سورة (مُحمّد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول) بشَأْن المنافقين المرتَدّين عن الإسلام بَعْدَ دُخولهم فيه:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

وجاء عند المفسّرين أنّ المجرمينَ يُحْشَرُونَ زُرْقَ الْعُيُون، والْعَرَبُ تتشَاءَمُ بزُرْقَةِ العين، وقيل: غيْرُ ذلك، ولم أجِدْ لأقوال المفسّرين هٰذه مُسْتَنداً منَ الكتاب أو من السُّنة، فهي من قَبِيلِ الآراء المطروحة.

وما ظهر لي أخْذاً مِنْ نَصّي سورتي (الأنفال) و(مُحمّد) هو الأحَقُّ بالتدبّر، والله أعلم.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾:

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: يتسارُّون بيْنَهُمْ، ويتكَلَّفُونَ خفضَ أصْوَاتِهم وإخْفَاءَها.

يُقالُ لغة: «خَفَتَ صَوْتُهُ، يَخْفُتُ، ويَخْفِتُ، خَفْتاً، وخُفُوتاً، وخُفَاةً». أي: انخفض.

ويقال لغة: «خَفت بِصَوْتِه» و«خَافَتَ بِصَوْتِه» أي: خَفَّضَهُ، وأسَرَّه، وأخفاه. ويقال: «تَخَافَتَا» أي: تَسَارَّا.

﴿...إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾: أي: مَا لبثْتُمْ فِي رَقْدَتِكُمْ الَّتِي رَقَدْتُموها إلَّا عشراً مِنَ اللّيالي.

ذكَرْتُ الرُّقادَ هُنَا، لأنَّهُ جاء في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) أنَّهُمْ يقولُونَ عِنْدَ البعث، ما أبانه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ... ﴿٥٢﴾﴾.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾: أي: مَا أَقَمْتُمْ فِي قُبُورِكُمْ، يُقالُ لُغَة: «لَبِثَ بالْمَكَان، يَلْبَثُ، لَبْثاً، وَلُبْثاً، فَهُو لاَبِثٌ، ولَبِثٌ» أي: أقام فيه.

«إنْ» حَرْف نفي بمعنى «ما».

دلّت النصوص القرآنية على أنّ الميّتَ يُلْغَىٰ مِنْ نَفْسِه الحِسُّ بمرور الزمن، فالسَّاعة ومِلْيَارَاتُ السِّنينَ بالنسْبَةِ إلى إحساسه سواء، وحين البعْثِ لا يكونُ لدَىٰ الموتَىٰ إدراكٌ ما لمقدار الزَّمَنِ الّذي مَرَّ عليهم، وهُمْ في قبورهم، وعنْدَ البَعْثَ يشعُرُون أنَّهُمْ كانُوا في حالَةٍ تُشْبِه النَّوْم، فهم فيها في رُقاد.

وعندئذٍ ليْسَ لديهم وسِيلَةٌ لِمَعْرِفة الزَّمَنِ الّذِي لبِثُوهُ في مدّة البرْزَخ الفاصل بَيْنَ الحياتَيْن، إلَّا الرَّجْمُ بالظَّنِّ التوهمِّيْ، إذْ إحْسَاسُ نفوسهم بمُرُور الزَّمَنِ قد كان مُنْعَدِماً.

فيقول بعْضُهُم لبَعْضٍ سِرًّا، مَا لَبِثْتُمْ إلَّا عَشْرَ لَيَالٍ رجماً بالغيب، وقد يقولُونَ أقوالاً أخرىٰ غير ذلك، دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ... ﴿١٠٤﴾﴾: هذا كلام صادرٌ عن الله عزّ وجلّ، جاء باستخدام ضمير المتكلّم العظيم. أي: نحن أعْلَم بما سَوْفَ يتداولُونَه من أقوالٍ فيما بينهم، بشَأْنِ المدّة الزَّمَنِيَّة الّتي لبِثُوها في قبورهم، لأَنَّنا أَعْلَمُ بمافي نفوسهم وتَنْطِقُ بِهِ ألسنتُهمْ منهم.

عنْدَئذٍ يظْهَرُ فيهم مَنْ يعتَبِرُونَهُ ذَكِيًّا في تقدير الأزمان بفكْرِه على سبيل الحدْسِ والتخْمِين، لاَ بأدواتِ الحسِّ لَدَيْه، وهو في تصوُّرهم أَمْثَلُهُمْ طَرِيقة في فهم مثل هذه الأمور الغامضة، كما كانوا يَعْلَمُون ذَلِكَ من تصرُّفَاتِه في الحيَاةِ الدنيا، فيقول لهم ما جاء بيانه في قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾: أي: هُوَ يَنْظُرُ إِلَىٰ شُعورِهِ الذَّاتي، فيَرَىٰ أَنَّ شُعُورَهُ لاَ يَزِيدُ في تقديرِ الزَّمَنِ، علىٰ أَنَّهُ لَبِثَ نَوْمَةً فِي العشيّ، أَوْ نَوْمَةً في الضحىٰ، كما قَالَ الله عزّ وجلّ في سُورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

فهو يزيدُ بإعْمَال فِكْرِه حَدْساً وتَخْميناً وخَرْصاً، فيقول: ﴿... إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

وهكذا يكُونُ حال الذينَ ماتُوا في أوّلِ التاريخ البشريّ على الأرض، أو في قُرُون عادٍ، وثمودَ، وقَوْم لُوط، وقوم شعيب، ومن بَعْدَهم، حتَّىٰ آخرِ هالِكٍ على وجْهِ الأرض، فالإحساس بمُرور الزمَنِ بالنسبة إليهم جَميعاً سواء، ولو كانُوا في مُدَّةِ البرزَخ من أهل النعيم، أو من أهل العذاب، إذا النَّائمُ قد يَرىٰ أحْلاَماً لا تتحقَّقُ في واقع الحياة إلَّا بزَمَنٍ طويل، بينما يكون قد رآها في حُلْمِه بثَانِيَةٍ أَوْ بأقلَّ أو بأكثر قليلاً.

فلا سبيل أمام الذي كان أَمْثَلَهُمْ طَرِيقَةً في الحياة إلَّا أن يَحْكُم بالاسْتِنَاد إلى الحدْسِ، والتخمِين، والخرْصِ.

﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أي: أفْضَلُهُمْ طَرِيقَةَ فَهْمٍ واسْتِنْبَاطٍ وحَدْسٍ، عَلَىٰ مَا عَرَفُوا مِنْ أمْرِهِ في الحياة الدنيا.

إنّ الأمثل طريقةً وغَيْرَهُ بالنّسْبَةِ إلَىٰ تقديرِ مُدَّةِ البرزخ بين الحياتين سواء، كلٌّ منهم لا يَعْتَمِدُ في تقدير الزّمن إلّا على الرَّجْمِ بالغيب دون دليلٍ ما، أَوْ أَمَارَةٍ ما، أَوْ غير ذلك.

بخلاف أهل الإيمان بالله عزّ وجلّ، فإنَّهم يقولون: إنَّ عِلْمَ لُبْثِنَا مَوْتَىٰ في مُدَّةِ البرزَخِ عنْدَ رَبِّنَا جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه ـ ولا أَحَدَ يَعْلَمُ ذَلِكَ غَيْرُه، حتَّىٰ الملائِكَةُ المقرَّبُونَ، لأنَّهُمْ يموتُونَ أيضاً فلا يَعْلَمُونَ المدَّة بَيْنَ مَوْتِهِمْ وبَيْنَ حَيَاتِهِمْ الثانية.

وبهذا تَمَّ تدبر الدرس الثالث من دروس سورة (طـه)
والحمد لله على فتحه ومَدَدِه ومعونته وتوفيقه

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (طـه) وهو الآيات من (١٠٥ ـ ١١٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

القراءات:

(١١٠) ● قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ] بضم هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَيْدِيهِمْ] بكسر هاء الضمير. وهُمَا وَجْهَان عَرَبيان، جاءت بهما القراءتان.

(١١٢) ● قرأ ابْن كثير: [فَلاَ يَخَفْ] على أنّ «لا» ناهية، والفعل بعدها مجزومٌ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَلاَ يَخَافُ] على أنّ «لا» نافية، فالفعل بَعْدَها مرفوع.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أَدَاء المعنىٰ المراد بيانُه، أي: فَلاَ يَخَفْ، وهو في الواقع يوم الدين لاَ يَخَافُ.

تمهيد:

آيات هذا الدرس موصولَةٌ في مضمونها البياني بما جاء في الدّرس الثالث السابق، فموضوع الدَّرْسين يَدُور حَوْلَ يوم القيامةِ ويَكَادَانِ يكونان درساً واحداً، إلَّا أنّي آثَرْتُ أَنْ أفْصِلَهُمَا لأنَّ هذا الدرس الرابع قَدْ جاء مَبْنِيًّا على سُؤال كُبَرَاءِ كفَّارِ مَكَّةَ عن الجبال، وكيف يكونُ حَالُها يَوْمَ القيامة، وهي عظيمات ثابتَاتٌ رَاسِخَات؟.

وفي هذه الآيَاتِ بيانُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ قِيام السَّاعة، مَبْنِيٌّ علىٰ سؤالٍ مُوجَّهٍ مِنْ كُبَراء مُشْرِكي قُرَيشٍ، للرَّسُول ﷺ: مَاذا يَفْعَلُ الله عزّ وجلّ بالجِبَالِ يَوْمَ القيامة

وقد جاء في الآيتين: (١٠٥ و١٠٦) منها بَيَانُ أنَّ الله عزّ وجلّ يُفَتِّتُها إلى ذَرّاتِ رمْل، ويَنْسِفُهَا مِنْ مَواقِعِهَا، ويَجْعَلُ الأرض بَعْدَ نَسْفِ الجبال المرتَفِعَةِ علىٰ ظَهْرِها، أرضاً مَلْسَاءَ مُسْتَوِيَةَ السَّطْحِ، لا يَحْتَاجُ مَنْ

يَسِيرُ علَىٰ سَطْحِهَا إلى تَصَوُّر احتمالاَتِ عِوَجٍ إلى وادٍ، أو ارْتفاعٍ إلىٰ هضبات، أو انخفاضٍ منها إلى منخَفِضات.

وفي هذا المشهَدِ بيانُ أنَّ المبْعُوثين يَجدُونَ أنْفُسَهُمْ مُلْجَئِين إلىٰ اتِّباعِ الداعي لهم مِنَ الملائكة، والسَّيرِ إلى جِهَتِه، ليَحْشُرَهم سَوْقاً وجمعاً إلىٰ موقفِ حسابِ رَبّهم لَهُم.

وجاء في بيانٍ آخَرَ من القرآنِ المجيد، أنَّ الكافِرِينَ يُحْشَرُونَ إلَىٰ الجهة الَّتي تُقَرَّبُ النَّارُ إليها، وأنّ المؤمنينَ يُحْشَرُونَ إلى الْجِهَةِ الّتي تُزْلَفُ الْجَنَّةُ إليها. وأنّ كلَّ فريقٍ منهما يُعْرَفُ بَعَلاَمَاتٍ فَارِقات، فالكافِرُونَ يَكُونُون سُودَ الوجُوه، إذْ تَشْتَدُّ الزُّرْقَةُ فيها، حتى تكونَ سواداً. والمؤمِنون يكونُونَ بِيضَ الوجوه، ولو كانوا فِي الحياة الدنيا من ذوي الجلُودِ السَّوْداء.

وجاء في هَـٰذَا المشهد، بيانُ أنَّ الداعِيَ من الملائكة يَسُوقُ مَنْ يَحْشُرُهم سَوْقاً مُسْتَقِيماً، لا عِوَج لَهُ في سَوْقِهِ، لأنَّه يَسُوقُ بالحقّ والعدْل، ويَسِيرُ على أرضٍ مستوية مَلْسَاءَ في كلّ جهاتها.

ومِنْ لقطاتِ هذا المشْهَدِ الرَّهِيب، أنَّ كُلَّ الأصْواتِ تكونُ سَاكِنَةً سُكُوناً تامًّا، إلَّا ما يَهْمِسُ به الْمَسُوقونَ إلى مَحْشَرِهم في أحاديث سِرّيَّةٍ يخفضون فيها أصواتَهُمْ إلى دَرَكَةِ الهمْسِ الّذي يكاد لا يُفْهَمُ مِنْهُ كلاَم.

ومن لقطات هذا المشهَدِ يومَئذٍ، بيانُ أنَّ الشَّفاعَةَ مِنْ أحَدٍ مهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ عنْدَ رَبّه، لأحَدٍ من الْعَاصِين، لا تَنْفَعُ المشْفُوعَ له، إلَّا شفاعَةَ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ بأنْ يكونَ مِنَ الشُّفَعَاء، ورَضِيَ لَهُ في شفاعَتِه قَوْلا يَقُولُهُ بشَأْنِها، والقول في الشفاعَةِ يَتَنَاوَل المشفوعَ لَهُ، والمشْفُوعَ فيه، فَمَنْ يأذَنُ اللهُ له بأن يكُونَ من الشُّفعاء، لا يَقْبَلُ منه قولاً بأن يَغْفِرَ لمَنْ مَاتَ كافراً.

وجاء في آيات هذا الدرس بيانُ أنَّ الله يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِي كُلِّ أَهْلِ المحشر، وهو ما سبَقَ أَنْ قَدَّمُوه من اعتقادات ونياتٍ وأعمالٍ في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا، ويَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ خَلْفَهُمْ، وهو ما سَيَصِيرُ إليه كلُّ واحدٍ منهم، قبْلَ أَنْ يُحَاسِبَهُ، ويَفْصِل القضاءَ بشأنه، ويأْمُرَ بتَنْفِيذِ جزائِه.

أمّا العباد فَلا يُحِيطُونَ بذاتِ الله وَلاَ بصِفَاتِهِ عِلْماً، ولو رآه مَنْ يَرَاهُ مِنْ أَهْلِ الإيمان والعمل الصالح، إِذْ رُؤْيَتُهُمْ لَهُ يَوْمَئِذٍ تكونُ مِثْلَ مُشَاهَدَتِنا في الحياة الدُّنْيَا لِلْقَمَر، لا تَقْتَرِنُ بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ ذَاتِه، ولا بِمَعْرِفَةِ عَظِيمِ صِفَاته.

ومن لقَطاتِ هَٰذَا المشْهَدِ يَوْمَئِذٍ، أنَّ وُجوهَ الْعِبَادِ تكونُ خاضِعَةً ذَلِيلَةً مُنْخَفِضَة، لِلْحَيِّ القيُّومِ، القائم بأمُور كُلِّ شيءٍ في كوْنِه قِيَاماً عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ، وأَتْقَنِهِ، وأَحْكَمِه.

ومن لقطات هذا المشهد يومئذٍ، ظُهور خَيْبَةِ مَنْ حَمَلَ مِنَ الأوزارِ ظُلْماً هو من دَرَكة الكُفر، إذْ يَخْسَرُ نَفْسَه فلا يَغْفِرُ اللهُ له، بَلْ يَجْعَلُهُ الله خالداً في العذاب.

وأَيَّةُ خَيْبَةٍ أَخَسُّ من هَٰذِهِ الخيبَة.

ومن لقطات هذا المشهد يومئذٍ، ظُهُورُ فَلاَحِ مَنْ آمَنَ إيماناً صحيحاً صادقاً، وعَمِلَ شيئاً ما من الصالحاتِ، بدافع إيمانيّ، إذْ يَجِدُ أنَّ الله عزّ وجلّ قد حقَّقَ لَهُ بإيمانه وعَمَلِه فَوْقَ مَا كان يَرْجُوهُ ويَطْمَعُ فيه، وهو يَوْمئذٍ لاَ يَخَافُ ظُلْماً بعِقَابٍ على عمَلٍ سَيِّىءٍ لم يَعْمَلْه، ولاَ هضْماً بنَقْصٍ من ثوابٍ مضاعَفٍ على عَمَلٍ صالحٍ عَمِلَهُ، كما وعَدَ الله عزّ وجلّ في الحياة الدنيا في كتابه، أو في بلاغاتِ نَبِيِّه محمّد ﷺ.

التدبّر التحليلي:

بناءً على سؤال كُبَراء مُشْرِكي قُرَيش رسُولَ الله ﷺ عَنِ الجبال، كَيْفَ يكُونُ حَالُهَا يَوْمَ القيامة، جاء في هذا الدَّرْس بَيَانُ المسؤول عنْهُ في قَضِيَّة، وأُتْبِعَتْ هذه الْقَضِيَّة، بِبَيَانِ ثماني قضايا تَتَعَلَّقُ بِيَوْمِ القيامَةِ، ومَا يَجْري فِيه مِنْ حَشْرِ النّاسِ جَمْعاً وسَوْقاً، ومَا يكونُ فيه مِنْ حَقَائِقَ ومَشَاهِدَ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ... ﴿١٠٥﴾﴾: الواو في مَطْلَع هَـٰذا الدَّرْسِ تَعْطِفُ مَا جاء فِيه على مَا جَاءَ في الدرس السابق، إذْ مَوْضوعُ الدَّرْسَيْن يَدُور حَوْلَ يَوْم القيامة، ويَكادَانِ يَكُونَانِ دَرْساً واحداً.

وقَدْ اسْتَدْعَىٰ الجوابُ عَن هذا السؤال بَيَان تِسْعِ قضايا، أُولاَها قَضِيَّةٌ تتعلَّقُ بما سَوْف يَكونُ علَيْه حَالُ الجبال، وما بَعْدَهَا من قضَايا يتعلَّقُ بِيَوْم القيامَة نَفْسِه، وكانَ سُؤَالُهُمْ مناسَبَةً ملائمةً لبيانها، وهـٰذا مِنَ الأمُور الحكيمة في الاستفادة مِنَ المناسَبَاتِ لِعَرْضِ القضايا الّتي لها علاقَةٌ ما بها.

وفيما يلي بيان القضايا التّسْع الّتي اشتمل عليها هذا الدرس.

القضيَّةُ الأولى: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس:

﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾:

﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾: أي: يقْتَلِعُها مِنْ أُصولِها، ويَسْحقُها، ويُذْرِيها.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾: أي: فَيَتْرُكُ مواقِعَها بَعْدَ نَسْفِها: ﴿قَاعًا﴾: أي أَرْضاً مُسْتَوِيَةً. **القاع**: في اللّغة: الأرض المستوية. ﴿صَفْصَفًا﴾: أي: أَرْضاً مُسْتَوِيَةً لا نَبَاتَ فيها.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾: **العِوَج**: هو في اللُّغة الانحناء والالْتِواءُ وعَدَم الاسْتِواء في المعنويَّات، كَسُوءِ الْخُلُق، والانحراف عن الدّينِ الحقّ. ويقال: «قَوْلٌ بِهِ عِوَجٌ» أي: مُنْحَرِفٌ عَنِ الْقَصْد.

والعَوَجُ: بفَتْحِ العين، يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَىٰ الميْلِ والانحراف في المادّيَات، كالطريق الأعْوج، والرُّمْحِ الأعوج.

وَظاهر الْعِبارَةِ الْقُرآنيَّةِ هُنَا اسْتِعْمالُ ﴿عِوَجًا﴾ بِكسْرِ العين للدَّلاَلَةِ على عَدَمِ وُجودِ مَيْلٍ أو انحرافٍ في الأرض، وهِيَ من المادّيَّات، علَىٰ خلاف أصل الاستعمال اللُّغَوِيّ، فالْعَوَجُ في المادّيّات، والْعِوَجُ في المعنويات.

أقول: الذي أَرَاهُ أَنَّ اسْتِخْدام ﴿عِوَجًا﴾ هُنَا بِكَسْرِ الْعَيْنِ، بَدَلَ «عَوَجاً» بفتح الْعَيْن، يُرَادُ بِهِ الدّلاَلَةُ عَلىٰ أَنَّ أَرْضَ المحشَر، كما تَكُونُ مُسْتَوِيَةً بِمُقْتَضىٰ صَيْرُورَتِها قَاعاً صَفْصَفاً، في كُلِّ جِهاتها، فإنَّك يَا أَيُّها المتَلَقِّي لهَذا البيان إذا كُنْتَ في أَرْضِ المحشَر، فإنّكَ لاَ تَرَىٰ فيها أيضاً من سُلُوك الْمَلائكة أَوْ مِنْ أَحْدَاثِ ذَلِكَ الْيَوْم ما فِيهِ عِوَجٌ مَعْنِويّ، ولا مُرْتَفِعَاتٌ وَمُنْخَفِضَاتٌ مَعْنَوِيَّة، مُخَالِفَاتٌ للاسْتِوَاءِ الْمَطْلُوب بمُقْتَضىٰ حِكْمَةِ الله وعَدْلِه.

﴿وَلَآ أَمْتًا﴾: أي: ولا تَرَىٰ فيها انخفاضَاتٍ ولا ارْتفاعاتٍ معنويّةً أيضاً. **الأَمْتُ**: هو في اللّغة: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً، وَرِقَّةً وصَلابَة.

إنّ نَسْفَ الجبال وتَذْرِيَتَها مُتَنَاثِرَة الأجزاء كالرّمال، ودقيق التراب، حَدَثٌ من أحَدَ عَشَر حَدَثاً يَجْري في الجبال، قُبَيْلَ الساعة وعِنْدَ قيامها.

وقد جاء تفصيل هذه الأحداث مع ما يَدُلُّ عليها من القرآن لدَىٰ تَدَبُّر الآية (٣) مِنْ سُورَة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول)⁽¹⁾.

---

(١) انظر الصفحة (٤٠٤) وما بعدها من المجلّد الأوّل.

وهذه الأحداث تأتي على مراحل، وهي بإيجاز.

(١) مرحلة الدَّك، للتكسير.

(٢) مرحلة جَعْلِ الجبال ليّنَةً كالْعِهْنِ، أي: كالصوف المصبوغ ألواناً.

(٣) مرحلة جَعْلِ الجبال كالْعِهْنِ المنفوش، أي كالصُّوفِ المنْدُوفِ الّذي انتفخ بالفراغات الكثيرات الّتي تخلَّلَتْهُ.

(٤) مَرْحَلَةُ بَسِّ الْجِبَال، وهو ما يكونُ بِهِ تَفْتِيتُهَا إلى أجزاء صغيرة، كناعم التراب، أو ناعم الرَّمل.

(٥) مَرْحَلَةُ جَعْلِ الجبال بالْبَسِّ كالكَثِيب الْمَهِيلِ، أي: كالرَّمْلِ الّذي يَتَسَاقَطُ بِتَدَافُعٍ من الأعلَىٰ إلى الأَسْفَلِ بأدْنَىٰ حَرَكَة.

(٦) مرحَلَةُ سَيْرِ الجبال سَيْراً غَيْرَ شدِيد.

(٧) مَرْحَلَةُ مُرور الجبال كَمَرِّ السَّحاب.

(٨) مَرْحَلَةُ تَسْيِيرِ الجبالِ بِقُوَّةٍ وشِدَّة.

(٩) مَرْحَلَةُ نَسْفِ الْجِبَالِ وَتَذْرِيتها مُتَنَاثِرَة.

(١٠) مَرْحَلَةُ تَسْيِيرِ الجبالِ تَسْيِيراً كُلِّيًّا، حتَّىٰ لاَ يُرَىٰ من آثارها إلَّا مثلُ السَّرَاب، أي: كبَقَايا غُبَارٍ.

(١١) المرحَلَةُ الأخيرة مَرْحَلَةٌ لاَ يَبْقَىٰ فيها مِنَ الجبالِ أثَرٌ ما، ولاَ مثل السّراب.

هذه المراحل قد جاءت بِبَيَانِها نُصوصٌ قُرْآنِيَّة، إلَّا أَنَّ تَرْتِيبَها كما ذَكَرْتُ اجتهادٌ مِنّي، قد يوافق الواقع الذي سوف يكون، وقَدْ يكُونُ الواقع مخالفاً لها مُخَالَفَةً ما. والعِلْم الحقُّ عند الله جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه، وأحاط عِلْمُهُ بكُلِّ شَيْءٍ، ما كانَ وما هو كائن، وما سَيَكُون.

القضيّة الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدّرس: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ... ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: يكُونُ بَعْدَ البَعْثِ وانْطِلاَق النّاسِ يَنْسِلُونَ مُسْرِعِينَ في اتّجاهاتٍ مختلفاتٍ، أَنْ يَدْعُوَهُمُ الدَّاعِي مِنَ الملائكة، إِذْ يَصِيحُ فيهِمْ لاتّباعِه، بُغْيَةَ المثُولِ في محكمة الْعَدْل الرَّبَّانِيَّةِ يومَئِذٍ.

فالمؤمِنُونَ يَتّبِعُونَ الداعِيَ إلى مَوْقِفِ محاكَمَتِهِمْ قريباً من الْجِهَةِ الّتي تُزْلَفُ إِلَيْهَا الجنَّة.

والكافرون يَتّبِعُونَ الداعِيَ إلى مَوْقف محاكَمَتِهِمْ قَرِيباً من الْجِهَةِ الّتي تُقَرَّبُ إِلَيْها النار.

الدَّاعي: اسْمُ «فاعل» و«أَلْ» للجنس، فهو يَصْلُحُ لأَنْ يُرَادَ بِهِ واحِدٌ شَائع، أو أكثر على التوزيع.

ونُصُوصُ جَمْعِ الكافرين وسَوْقِهِم زُمَراً إلى الْجِهَة الَّتِي تُقَرَّبُ إليها النار، وجمع المؤمنين وسَوْقِهِم زُمراً إلى الْجِهَةِ الّتي تُزْلَفُ إِلَيْها الجنة، تَدُلُّ على أنَّ الدّاعِين مُتَعَدِّدُونَ، وأنَّ لكلّ فريق أو زُمْرَةٍ داعياً من الملائكة.

وقد سبَقَ في نُجُوم التنزيل قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾﴾.

﴿نُّكُرٍ﴾: أي: شَدِيدٍ صَعْبٍ.

﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾: أي: يَرْمُونَ بأَبْصارهم نحو الأرض مُنْكَسِرَة.

﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾: أي: إذا سَمِعُوا صَوْتَ الدَّاعِي تَوجَّهوا لَهُ

مُسْرِعِينَ إلى جِهَتِه، بِذُلٍّ وخضوع، يَمُدُّونَ أعْنَاقَهُمْ ويَخْفِضُونَ رُؤوسهم، ويَنْظُرُونَ بِذُلٍّ وانْكِسَارٍ نَحْو الأرض، ويَغُضُّون من أجفانهم.

ودَلَّ قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (طـه): ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ... ﴿١٠٨﴾﴾ على أنَّ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ في تَصرُّفاتِه، وعلى أنّ اتِّبَاعَهُمْ لَهُ لاَ عِوَجَ له، أي: فهم لاَ يَزِيغُونَ عن خطّ اتّباعِهِم للدَّاعي كما يأمُرُهم، فتكامَلَ النَّصَّانِ في بيان الصُّورَةِ المرادِ بيَانها، والمعاني المراد الدلالة عليها.

القَضِيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس: ﴿... وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾:

الْخُشُوع: يأتي في اللّغَة بمعنى: «الخُضُوعِ» وبمعنى: «الخوف» وبمعنى: «السُّكُون».

وعدم ظُهُورِ أصْواتِ النّاسِ لاَزِمٌ من لَوَازِم خُشُوعِ قُلوبِ أصحابها، فالخاضِع، الخائف، السّاكن، يَكون صامِتاً بطَبْعِه، وإذا أراد أنْ يتكلّم مع جارٍ له في موقفِه، فإنّه يُكَلِّمُهُ هَمْساً، أي: بكلامٍ خَفِيٍّ وصَوْتٍ خافِتٍ لاَ يَكادُ يُسْمَعُ، أوْ لاَ يكادُ يُفْهم المرادُ به.

الْهَمْسُ في الكلام: النُّطْقُ به بصَوْتٍ خَفِيّ لاَ يَكَادُ يُفْهم. ويُقَال: هَمَسَ الشيْطان، أي: وسْوَس.

فالهمْسُ يَكُونُ بأخفى صَوْتٍ يُمْكن أنْ يُدْرِكَ به المهْمُوسُ إلَيْهِ السّميع مُرادَ المتحدّث بكلامه.

فدَلّ هذا البيانُ على أنّ النَّاسَ إذا دعَاهُمُ الداعِي إلى مَوْقف حسابِهِم، يَسِيرونَ صَامِتِين، وإذا اشْتَدَ عند أحَدِهم الدافع إلى مُحادَثَةِ جارِهِ، فإنَّهُ يُكلِّمه هَمْساً في أذنه.

القضية الرابعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾:

أي: إنّ شفاعَة الشُّفَعاءِ الّذِين جعَلَ الله لَهُمْ شفاعَةً عِنْدَهُ بوَجْهٍ عامّ، لاَ تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُم لَهُ إلّا بشرطَيْن:

الشرط الأول: أنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لهم بأنْ يَشْفَعُوا لِمَنْ أَرادُوا أَنْ يَشْفَعُوا له، فرداً أو جماعةً، وهذا يَسْتَلْزِمُ الاستئذانَ بالشَّفَاعَةِ للمشفُوعِ له، والمشفُوع به.

الشَّرْطُ الثاني: أن يَرْضَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ قولَ الشَّافع، صيغَةً وأسْلُوباً، ومَا تَضَمَّنَتْهُ شفاعَتُه.

فَصِيغَةُ طَلَبِ الشَّفَاعَةِ يجب أن تكون دُعَاءً مصحوباً بتعظيم الله وإجلاله، واستعطاف رَحْمَته، وأسْلُوبُها يُطْلَبُ فيه أن يكون بذلٍّ وخُضوعٍ وتَضَرُّع. ومَضْمُونُها يَجِبُ أنْ يكونَ ممَّا لَمْ يَمْنَعِ اللَّهُ الشفاعَةَ فيه، كالشفاعَةِ في أنْ يَغْفِرَ الله لمشركٍ فَمَنْ هُو أشَدُّ مِنْهُ كُفْراً، كَجَاحِدِ وجود الله عزّ وجلّ، وكمنافِقٍ مَعْلُوم النفاق، يُظْهِرُ الإيمانَ ويُبْطِنُ الكُفر.

وهٰذَانِ الشرطان يَدُلاَّن على أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّها في الحقيقَةِ هِيَ لِلَّهِ عزّ وجلّ وحْدَه، كما قال جلّ جلالُهُ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

القضية الخامسة: دَلَّ عليها قَوْلُ الله عزّ وجلّ في هذا الدرس:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ... ﴿١١٠﴾﴾: أي: يَعْلَمُ كُلَّ ما قَدَّم عِبَادُه في حياة امْتحانِهِمْ من اعتقاداتٍ، ونيّاتٍ، وأَعْمَالٍ ظاهرة أو باطنة، فهذا هو الذي يقع أمام إحْسَاساتهم، إذْ عَاشُوهُ، واخْتُزِنَ في ذاكرتهم.

ويعْلَمُ أيضاً سُبْحَانَهُ كلَّ مَا سَيأتي في مسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ يَوْم الدّين، فَهُو الذي يكونُ خَلْفَهُمْ، لأنَّهُمْ يَجْهَلُونه، ولا يَعْلَمُونَ مِنْهُ إلّا ما يُخْبِرُهُمْ رَبُّهُمْ به.

القضِيَّة السَّادِسة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرس: ﴿...وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾: أي: ولا يُحيطُونَ عِلْماً بذاتِهِ وَلاَ بِكَمَالِ صفاته، ولو كانُوا مِنَ المؤمنين الّذِين يَرَوْن رَبَّهُمْ يَوْمَ الدّين.

لأنَّ رُؤيَتَهُمْ لربِّهم لا تُعْطِيهم أكْثَرَ مِنْ رُؤيَتِنَا للقَمَرِ ونَحْنُ في الأرض، فلا نُحيطُ عِلْماً بذاتِ الْقَمَر وجَوْهَرِه، ولا بكثيرٍ من صفاته، إذِ الرُّؤيَةُ من بُعْدٍ لاَ تَسْمَحُ بأكْثَرَ مِنْ إدْراكِ بعْضِ الظواهِرِ الّتي تَشْهَدُها الأبْصار، وما تَدُلُّ علَيْه هذه الظواهرُ مِنْ صفات.

القضيَّة السابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس:

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ... ﴿١١١﴾﴾:

أي: وخضَعَتِ الْوُجوهُ وذَلَّت لِلّهِ عزّ وجلّ الحيِّ القيُّوم.

«**الْحَيّ**»: اسْمٌ من أسْماء الله الحسْنَىٰ الأزليّةِ الأبَدِيّة، أي: الَّذِي لَهُ الحياةُ بلا أوّل، وبلا آخر، إذْ حياتُهُ جلّ جلالُهُ منفصلةٌ عن الزَّمان والمكان.

«**الْقَيُّوم**»: اسْمُ من أسماء الله الْحُسْنَىٰ، وهو القائم بكلّ شيء، والحافظ لكلّ شيءٍ، والمدَبِّر لِكُلّ شيءٍ، والمتَصَرِّفُ بكلّ شيء.

وأرىٰ أنّ لفظ «القيُّوم» من صِيَغِ المبالَغَةِ السماعيّة لاسم الفاعلِ «قائم» أي: البالِغُ بقيامِهِ بتدبير كونه، وتصريف أحداثِه بحكمتِه الْغَايَةَ الْقُصْوىٰ.

القضية الثامنة: دَلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس:

﴿. . . وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾: أي: وقد خَسِرَ كُلَّ شيء مَنْ جاء يوم الدّين حاملاً أوزار ظُلْمٍ من دَرَكَةِ الكُفر. إذْ يكُونُ قَدْ خَسِرَ نَفْسَه، وتَسَبَّبَ لها بالعذاب الأبَدِيّ بسبَبِ كُفْرِه.

وأيُّ خُسْرانٍ أشَدُّ من أَنْ يَخْسَرَ الإنسانُ نفسه؟!.

الخيبة: هي في اللُّغَة الْخُسْران، وعَدَمَ تَحْقِيقِ السَّاعي مطْلُوبَ نَفْسِه مِنْ سَعْيه.

أمّا ظُلْمُ الإنسان نَفْسَهُ من دُون الكُفْر، فَلا يَنْطَبِقُ علَيْه أَنَّه قد خاب خيبَةً كامِلَةً أبَدِيَّة، بلْ يكُونُ قَدْ عَرَّضَ نَفْسَه لعَذابٍ على مِقْدارِ مَعَاصِيه، ولِخَسارَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ الجنَّةِ الّتِي استَحقَّها مَنْ هُمْ أكْثَرُ مِنْهُ ارْتِقَاءً فِي دَرَجَاتِ مرتبَةِ التَّقْوىٰ، أو دَرجاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، أو دَرجاتِ مَرْتَبَةِ الإحسان.

القضية التاسعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾:

أي: ومَنْ يَكُنْ مُؤْمِنا صَحِيحَ الإيمانِ وصَادِقَهُ، ويَعْمَلْ بعضَ الصَّالِحَاتِ، والحالُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فإنَّهُ يَوْمَ الدِّين لاَ يَخاف ظُلْماً ولاَ هضماً.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾: أي: لاَ يَخافُ أَنْ يُحْكَمَ عَلَيْهِ بذَنْبٍ لم يَرْتَكِبْهُ، ولاَ يخافُ أَنْ يُعَذَّبَ علَىٰ ذَنْبٍ لَمْ يَرْتَكِبْه، لأنَّ الله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلْطانه ـ لاَ يظْلِمُ أحداً مثقال ذرَّةٍ ولا أصْغَرَ منها.

﴿وَلَا هَضْمًا﴾: أي: ولا يَخافُ أنْ يُقَلِّلَ الله عزّ وجلّ من ثوابه الّذِي وعَدَ بِه السَّاعين الّذين يَعْمَلُونَ الصالحات ابتغاء مرضاته، والقاضي بأنْ تكونَ الحسنة بعشر أمثالها، وقَدْ يَصِلُ الثواب إلى سبعين ضعْفاً، وإلى سبعمائة ضعف، فإلىٰ أضعافٍ كثيرة.

يقال لغة: «هضَمَ فلانٌ حَقّ فلاَنٍ» أي: نقصه حقَّهُ.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس الرابع من دُروس السورة، والحمد لله على منحه ومعونته وتوفيقه، سائلاً من فضله المزيد من فيض عطائه.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (طه) وهو الآيتان (١١٣ و١١٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾:

القراءات:

(١١٤) • قرأ يَعْقُوب: [**مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقْضِيَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ**] بضمير المتكلّم العظيم. باعتبار أنّهُ هو الآمِرُ جلّ جلالُهُ بالْوَحْي إليْه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ**] بالفعل الذي لم يُسَمَّ فَاعله. أي: على لسان جبريل عليه السَّلام المأمُور بأنْ يُوحِيَ إِلَيْكَ بالقرآن.

تمهيد:

لدى التفكر في ارْتباط هذا الدرس بموضوع السورة نلاحظ ما يلي:

(١) بدأت السورة في الدرس الأول منها بالحديث عن القرآن في قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾.

(٢) واشْتَمَل الدَّرْسُ الثاني علىٰ مختاراتٍ من قصَّةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، وفيها أحاديثُ عن الآيَات الكلاميّة البيانيَّة الَّتِي أنزلَها الله عليه، ممّا اشتمَلَ علَيْهِ كِتَابُ الله التوراة.

(٣) وجاء في بداية الدرس الثالث من دُرُوس السُّورة الحديث عن القرآن بوصفه ذِكْراً، أي: لكلّ العالمين، في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾.

وسبَق أن عرفنا أنّ الدّرْسَ الرابع يكاد يكون مع الدرس الثالث دَرْساً واحداً.

(٤) وجاء في هذا الدرس الخامس الحديث عن القرآن بوصفه عَرَبيًّا، مشتملاً على أنواعٍ مِنْ بيانات الوعيد، رغْبةً في أنْ يتَّقِيَ الْعَربُ عذابَ ربّهم العادل، العاجِلَ منْهُ والآجل، أو يُحْدِثَ لهُمْ ذكراً ما، ولو لم يَصِلُوا فِيه إلى درجات التقوىٰ المطلوبَةِ منهم.

وجاء فيه تعليم الرّسُول محمّد ﷺ بأنْ لاَ يَعْجَلَ بتَرْدِيدِ ما يَنْزِلُ علَيْه مِنَ القرآن أثناء الوحْي، قبْلَ أنْ ينْتَهِيَ جبريل عليه السَّلام من تلاوة كامل النَّجْم القرآنِيّ الَّذِي يوحِي بِهِ إليه.

(٥) وجاء في الدرس السَّادِسِ الآتي بعْدَ هـٰذا الدَّرْس بيانُ أنَّ الله عزّ وجلّ حذَّرَ ذُرّيَّة آدم مُنْذُ بدْء التاريخ الأوّل للنَّاسِ في الأرض، من الإعْرَاضِ عن ذكره، أي: عمَّا يُنْزِلُ من آياتٍ بيّناتٍ ليَهْتَدُوا بها، ويَعْمَلُوا بما جاء فيها من أوامِرِه ونواهيه.

(٦) وجاء في الدرس الأخير من دروس السورة الحديثُ عن آيَات الله البيَانِيّة المنزلة، في مَعْرِض معالجة المشركين، بشَأْن ما طرحوه من مطالب.

فخطُّ الحديث عن القرآن كتابِ الله الخاتم، وما أنزله الله من آياتٍ بيانيَّة عَلَىٰ رُسُلِهِ قَبْلَ القرآن، لتكون ذكراً للنّاسِ مُنْذُ عَهْدِ آدم، خطٌّ مُتَّصِلٌ من ابْتداء السورة، فمُروراً بِدُرُوسها، وحتَّىٰ الدرس الأخير منها.

وهذا يكْشِفُ للمتدبّر عُنْصُراً مِن عناصِرِ وحْدَةِ مَوْضُوع السّورة.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾:

في هذه الآية بيان ثلاث قضايا:

القضيَّةُ الأولى: دلّ عَليْها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ هذه الجملة معطوفة على قول الله عزّ وجلّ في الآية (٩٩): ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ... ﴿٩٩﴾﴾.

أي: ومِثْل ذَلِكَ الّذي قَصَصْناهُ عَلَيْكَ في القرآنِ من أنباء ما قَدْ سَبَقَ فِي التاريخ الإنساني، وهيَ قِصَّةُ مُوسَىٰ التي جاءت في السورة، أنْزَلْنَا القرآنَ علَيْكَ يَا مُحَمَّد قُرْآناً عَربيًّا معجزاً، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين، ولَمْ نُنْزِلْهُ بِلِسَانٍ أعجميّ.

ولما في القرآن من حقٍّ وهدايةٍ وإعجاز، جاء التعبيرُ في الْجُمْلَةِ بضَمِير المتكلّم العظيم، ذي البيان العظيم.

القضيَّة الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾:

التصريف: يأتي في اللّغَةِ بمعنَىٰ التَّنْويع والتَّغيير، واتّخاذِ مُخْتَلِفِ الوجوه المتاحَة، للوصُول إلى الغاية.

﴿فِيهِ﴾: أي: في آيات القرآن المجيد وبياناته.

﴿مِن﴾ بيانيّة، أي: وصَرَّفنا في القرآن تَصْرِيفاً مِنْ نَوْعِ الوعيد.

﴿ٱلْوَعِيدِ﴾: هو الإنْذار بالعاقبة السيّئةِ المؤلمة، جزاءً علَىٰ فعل الْعَمَلِ السَّيء الذي نهى الله عنه، أو علىٰ تَرْكِ العمل الصالح الذي أمَرَ الله عزّ وجلّ به أمْرَ إيجاب.

وجاءت العبارة بضمير المتكلّم العظيم لتربية المهابَة من وعيدِه جلّ جلالُهُ.

أي: ونوَّعْنَا في القرآن عباراتِ الوعيد، وأسَاليبَ الإنْذَارِ بالعذاب الأليم، العاجل والآجل، على الكُفْر بالله وبما جاء مِنْ عند الله، وعلىٰ معْصِيَةِ الله فيما أمَرَ به، أو نهىٰ عنه.

هذا التصريف في الوعيد الموجود في القرآن الكريم، يُدْرِكُهُ من يتْلُو أو يقرأ آياته وسُورَه، مع قليلٍ من التدبّر، إذْ معظم سُوَر القرآن مشتملة على صُورَةٍ أو أكْثَرَ مِنْ صُوَر الوعيدِ المخيف بعذابٍ أليم.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عليها قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾: أي: لعَلَّ العَرَبَ يَتَّقُونَ عذاب الله الذي جاء به الوعيد، بالْإيمان والْعَمَل الصالح، إذْ أَنْزَلَ الله القرآن بلِسَانهم، فهو واضِحُ الدَّلاَلَةِ بالنّسَبَةِ إليهم، وواضِحُ الإعجاز لإقناعهم بأنَّهُ مُنَزَّلٌ من عِنْدِ الله رَبّ العالمين، مَعَ ما فيه من تَشْرِيفٍ وَذِكْرٍ حَسَنٍ لهم إذْ أنْزَلَهُ بلسانهم.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾: كلمة «لَعَلَّ» حَرْفٌ يَعْمَلُ عمَل: «إِنَّ» وَمعناها التَّوَقُّعُ بوجه عامّ.

فإذا كان المتوقَّعُ أَمْراً مَرْغوباً فيه، أو مَرْضِيًّا عنه، كانت للتَّرَجّي.

وإذا كان المتوقَّعُ أمراً غير مَرْغوبٍ فيه، أو غَيْر مَرْضيّ عنْهُ، كانت للإشفاق.

وقد تأتي كلمة «لَعَلَّ» للتعليل كما يقولُ النحاة، فتكونُ مثل «لاَمِ» التعليل، نَحْو: آتنا غداءنا لعلّنا نُسْكتُ به جُوعَنَا ونُقَوّي بِهِ قُدْرَتَنا علىٰ السَّفر.

أقول: وحينَما تكون «لَعَلَّ» للتَّوقُّع، وَجاءَ هذا التوقُّع مَنْسوباً إلى الله عزّ وجلّ في النّصّ، فإنّ المرادَ بِه لازمِهُ، أي:

- فإذا كان المتوقَّع مَرْغوباً فيه أو مَرْضِيًّا عنه، فإنّ المراد الدَّلاَلَةُ على أنّ الله عزّ وجلّ يَرْغَبُ في تحقُّق الأمْر، أو يرضى عنه، لكنَّهُ سبْحَانَه لاَ يُجْبِر، بمعنى أنّه لاَ يَسْلُبُ المخيّرين لامتحانهم اختيارَهُمُ الحرّ، الّذي هو شرطٌ عقليٌّ لوضعهم في الحياة الدنيا مُمْتَحَنين مُبْتَلَيْن.
- وإذا كان المتوقَّعُ أمْراً غَيْرَ مَرْغوبٍ فيه، أو غير مَرْضيّ عَنْهُ، فإنّ المرادَ أنَّ الله عزّ وجلّ يُشْفِقُ على من اكْتَسَبَه، لكنَّهُ سبحانه لاَ يُجْبِرُ أيضاً.

وهذا من إطلاق الملزوم وإرادة لازمِه، وهو كثير في الاستعمالات العربيّة، والاستعمالات القرآنيّة، وهو من المجاز المرسل.

وبهذا ينْحَلُّ الإشكال الّذي شَغَلَ المفسِّرين في تأويل معنى «لَعَلَّ» الّتي هي للتوقّع، أو للتَّرَجي كما يقولون، إذ لَيْسَ من شأن الله سبحانَهُ أنْ يتَوَقَّعَ أو يترَجَّىٰ، وهو العليم بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون في المستقبل القريب، أو المستقبل البعيد.

فالمعنى الذي تَدُلُّ عليه العبارة القرآنية ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مع سابقتها: وصَرَّفنا في القرآن من الوعيد، راغِبينَ أو راضِين لهم أَنْ يتَّقُوا ليَحْمُوا أَنْفُسَهُمْ مِن عذابنا الذي تقتضيه صفة الْعَدْل.

ومعلومٌ من النُّصوص القرآنيَّة أنّ الله عزّ وجلّ يَرْضَىٰ لعبادِه أنْ يُؤْمِنُوا وَيَعْمَلُوا صالحاً، ولا يَرْضَىٰ لهم أَنْ يَكْفُرُوا وَيَعْمَلُوا أعْمالاً تُسْخِطُه، فيُجَازِيَهُمْ بِعَدْله.

﴿...أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾: أي: فإذا لَمْ يَتَّقُوا مُبَاشَرَةً تَأَثُّراً بما صَرَّفنا في القرآن من الوعيد، فإنَّهُ يُرْضِينَا أَنْ يُحْدِث لَهُمْ ذكْراً، بتلاوتِهِ عليهم، أو بإسْمَاعِهِم آياته.

والمعنى: أَوْ يُحْدِثُ لهم معْرِفَةً تَتَسَرَّبُ إلى أجْهِزَةِ تَخْزين المعارف داخل نفوسهم، ثم قَدْ تُسْتَدْعىٰ هٰذه المعرفَةُ عند مناسَبَةٍ داعِيَةٍ، أو مُثير ما، من خِزانَتِها إلى سَاحَةِ الذِّكْرِ لَهَا، في جهاز التَّذَكُّر الحاضر، فيكُونُ لهذا الذِّكْرِ أثرٌ حَسنٌ في نفوسِهِمْ، إذَا خَلَتْ نفوسُهُمْ من الرَّفض الّذي كان عند أوّل تَلَقّي المعرفة، ومن مُعَارِضٍ قويّ يمنع من العمل بمقتضاها، كَهوىً غالب، وكِبْرٍ حاجب، وشَهوةٍ عارمة، وتقْليدٍ أَعْمَىٰ، وعَصَبِيَّةٍ ضارِبَةٍ جذُورَها في أعماقِ النفس.

فذكْر هُدَى الدَّيان، عند خُلُوّ النفس من الْمُعَارض أو ضَعْفِه، يَدْفَعُ الإرادة إِلَىٰ الإيمان، ثم إلى الْعَمَلَ بما يُرْضي الرَّحْمٰن.

هذا أثر البيان الذي قَدْ يُحْدِثُ ذِكراً في نَفْسِ المتلقّي، فلْيَنتَفِعْ مِنْ هٰذِه الوسيلَةِ عُلَماءُ النفس.

أطْلِقَ في العبارة لفظ «ذِكْراً» وطُوِي في داخله حلَقَاتُ السِّلْسِلَة السببيَّة التي تكونُ قبْلَه، وقَدْ تُؤدِّي إِلَيْه، ما لم يُوجَدْ لَها صَارفٌ أو مُعَارض.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ... ﴿١١٤﴾﴾:

الداعي لهذا البيان عن الله عزّ وجلّ مَا في سوابقه من بيانات عَنْ عظيم قُدْرَته وسُلْطانه في كونه، وجَليل حكمته في تراتيب جزَاءاته، ولهَذا جاء في صَدْر هذا البيان العطف بالفاء الدالة على الترتيبَ التفريعيّ.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾: أي: فَتَسَامَىٰ الله في اتجاه الْعلوّ عَنْ كلّ الأكوان، تسامياً لاَ حُدود له، ولا نهايَة له، فَهُو مُتَرَفِّعٌ عَنْ كلّ الصفاتِ الّتي لا تَلِيقُ بِجَلاَلِهِ وَعظيم سُلْطانه، ومُنَزَّهٌ عن الحاجة إلى شيءٍ ما، لذاته أو لصِفَاته.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾: اسْمٌ من أسْمَاءِ الله الحسْنَىٰ، معْنَاهُ المالِكُ لكلِّ شيءٍ في الوجود، والمتَصَرِّفُ في عباده بالأمْرِ والنهي، والْخَلْق، والابتلاء والجزاء، وكُلِّ شَيْء.

﴿ٱلْحَقُّ﴾: اسْمٌ من أسماء الله الْحُسْنَىٰ، أي: ذُو الْوُجُودِ الثابت الحْقّ، أزلاً بلا بدايَة، وأبداً بلا نهايَة.

الْحَقُّ في اللّغة: هو الأمْرُ الثابت الواجِبُ الَّذِي لا شكَّ فيه، وهو ضدُّ الباطل.

ومعنى كَوْنِ الله عزّ وجلّ هو الحقّ، أنَّه هو المتحقِّق الثابتُ وجُودُهُ أزلاً بلا بدايَة، وأبداً بلا نهايَة، الذي لا يَتغيّر، ولا يَتَناقص، ولاَ يَعْرِضُ لذاتِه شيء، وكلُّ مَا عَدَاه مِنْ مَوْجوداتٍ فهي قَدْ وُجدَتْ بإيجادِه لها، وهي في الأصل عدمٌ وباطل، لَيْسَ لها في الواقع وجُودٌ، لولا أنْ قَدَّرَ الله وقضَىٰ إيجادَها، وأوْجَدَها خَلْقاً بأوامرِ التكوين.

وذكْرُ أسماء الله وصفاته في الْمَواقع الّتي ذُكِرَتْ فيها، هو مِنْ رَبْطِ الفروع بالْأُصول، والجزئيَّاتِ الكونيّة بعناصِرِ القاعدة الإيمانيّة، إذْ هي أثَرٌ من آثارها، ومظاهر كونيَّةٌ لصفات الله المؤثّرَةِ في إيجادها، وفي التصاريف التي تجري فيها.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾:

هذه الآية مُلْحَقَةٌ بهذا الدّرس، وقد استدعىٰ إلحاقَها به أمْران:

الأَمْرُ الأول: الحديث عن القرآن في الآية السابقة (١١٣).

الأَمْرُ الثاني: أنَّ الرَّسُول ﷺ عند تنزيل النجم الذي كانَ يُوحي به إلَيْه جبريلُ عليه السَّلام، وهو سوابق هذه الآيَة، صَارَ يَعْجَلُ بتِلاَوَةِ مَا تَلَقَّاهُ مِنَ الآيات ليَحْفَظَها، قَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ جِبْرِيلُ النجْمَ الذي كانَ يُوحي به إليه. فاقتضىٰ الحال أن يُعَلّم الله رَسُولَه أدَبَ التَّلَقّي والاسْتِماعِ من الْوَحْي، وهُو أن يَنْتَظِرَ فراغَ جبرِيلَ من إملاء ما جاء به من عند رَبّه لِيُمْلِيَهُ عليه، فإذا انْتهىٰ مِنْ إمْلاء النَّجْم كانَ للرسُول أنْ يَشْرَعَ بتلاوة ما تلَقَّاه من الوحي.

وقد سبَق أنْ نَزَل عَلَيْهِ التعليمَ بأنْ لاَ يُحَرِّكَ بالقرآنِ لسانَهُ ليَعْجَلَ به، في الآيات من (١٦ ـ ١٩) من سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فقال الله عزّ وجلّ لَهُ فيها:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

فالتزم الرسول ﷺ بهذا التعليم امتثالاً لما جاء فيه، إلّا أنَّه لمَّا صارَتْ نجومُ التنزيل القرآنيّ تَنْزِلُ عَلَيْهِ أطْوَلَ ممَّا كانت تَنْزِلُ على ما يظهر، انْدَفَعَتْ نَفْسُه بحَرَكَةٍ تِلْقَائِيَّةٍ دُونَ ملاحظةٍ للتعليم السّابق، فصار يَتَعجَّلُ بتِلاَوَة مَا يُوحي إليه به جبريل عليه السَّلام، وربَّما ظنَّ أَنَّ النجم قَدْ تَمّ إملاؤُه عليه، فأنْزَلَ الله عزّ وجلّ عليه عَقِبَ التَّعَجُّل قوله:

﴿...وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

فعلّم الله رسُولَه في هذا البيان أنْ يَنْتظِرَ حتَّىٰ يَعْلَم أَنَّ جبريلَ قد أَنْهىٰ كامِلَ النَّجم الَّذِي يُوحِي به إلَيْه، وأنَّهُ فَرَغ من تَلْقِينهِ إيَّاه تماماً.

وفي إثبات هذا في القرآن دَلِيلٌ على أنَّ القرآنَ ليْسَ من كلام محمّد، بل هو تنزيل من عند الله، فلو كان من عنْدِه لمَا وجَّهَ لنفسه النَّهْيَ عَنِ التعجُّلِ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْهِ وحْيُه.

﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾: أي: ولاَ تُسْرِعْ بتلاوة الآيات الَّتي تَتلَقَّاهَا مِنْ جِبْرِيل، وهو يوحِي إلَيْك بالنَّجْم القرآني الَّذِي أمَرْنَاهُ بِأَنْ يُبَلّغَكَ إيَّاه.

يقال لغةً: «عَجِلَ، يَعْجَلُ، عَجلاً، وعَجَلَةً» أي: أَسْرَع، وفَعَلَ الشيء قَبْلَ الوقْتِ الملائم لِفِعْلِه.

﴿بِٱلْقُرْءَانِ﴾: أي: بتلاوة آيات الْقُرْآن الّتِي يُوحِي بها إلَيْكَ رسُولُ ربّك جبريل.

لفظ «القرآن» هو في الأصل مصْدَرٌ لِفِعْل «قَرَأ». يقالُ لغة: «قَرَأَ الكتابَ، يَقْرَؤُه، قِراءةً، وقُرْآناً» أي: تتبَّعَ كلماته نظراً، ونَطَقَ بها.

وأطْلِقَ في الاصطلاح الدينيّ على الكلام المنزَّلِ من عند الله عزّ وجلّ، على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

وبعد الانتهاء من تنزيله، وجَمْعِه في عهد أبي بكر ، وكتابته في المصاحف في عَهْد عثمان ، وتوزيعها على الأقاليم الإسلاميّة الكبرىٰ حينئذٍ، صار يُطْلَقُ لفظ القرآن على الآيات والسُّور المكتوبة في هذه المصاحف، وعلى ما كان مطابقاً لها مَكْتُوباً أو مَتْلُوّاً، بالإضافةِ إلى التواتر في النَّقْل عن الْحُفَّاظ.

﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْهَىٰ إلَيْكَ وَحْيُ النجم على لِسَان أمينِ الوحي جبريلَ عليه السَّلام.

يقال لغة: «قَضَىٰ إِلَيْهِ أمْرَهُ» أي: أَنْهَاه إليه.

الْوَحْي: يَدُلُّ في اللّغة على «الإشارة السّريعة ـ والإلهام ـ والكلام السَّرِيع الخفيّ ـ وإلْقَاءِ المعنىٰ في القلْب ـ والكتاب».

والـوحْيُ لـلأنـبيـاء والـرَّسُـل: ظـاهـرةٌ مَـعْـرُوفَـةٌ فـي تَـاريـخ الـنُّبُـوَّاتِ والرِّسَالاَت، وهو الإعلام السَّريعُ الخفيُّ، الّذي يقومُ به رسُولُ الوحْيِ من الملائكة بلاغاً عن ربِّ العالمين.

وقد سبَقَ أنْ طَمْأَنَ الله عزّ وجلّ رَسُولَهُ بأنَّهُ سَيُقْرِئه، ويَجْعَلُهُ بقضائه وقَدَرِه لاَ يَنسَىٰ، فقال لَهُ في سورة (الأعلى/٨٧ مصحف/٨ نزول):

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧)﴾.

ومن شأن هذا البيان أن يَسْتَسْلِمَ الرَّسُولُ ﷺ لرَبِّهِ اسْتِسْلاماً كاملاً، إلَّا أنَّ بَشَرِيَّتَهُ قَدْ تَنْزِعُ في داخِلِه أَنْ يكُونَ حَرِيصاً عَلَىٰ تَلَقِّي الْعِلْمِ الرَّبَّانِي، فيَعْجَل بتلاوة مَا يُوحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ، حِرْصاً على اكْتِسَاب الْعِلْم.

فَنهَاهُ الله عن التعجُّل، وأمَرَهُ بأنْ يَطْلُبَ مِنْ رَبِّه أَنْ يَزِيدَهُ عِلماً، لئلّا يَتَوَهَّمَ مِنْ نَهْيِهِ عَنِ التعجُّلِ، أنَّ المرادَ كَفُّهُ عن الانْدِفاعِ بحِرْصٍ للاسْتِزَادة من الْعِلْم، ولمَّا كانت الاستزادة من الْعِلم فضيلَةً عظمىٰ، كان من الواجب عليه أنْ يسْأَل رَبَّهُ دواماً، أن يَزِيدَه علماً فجاء في ختام الآية قولُ الله عزّ وجلّ لَهُ:

﴿... وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الخامس على ما فتح الله به، والحمد لله على منّتِهِ، ومعونته، وفضله.

* * *

(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (طـه) وهو الآيات من (١١٥ ـ ١٢٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ

لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ
(١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا
سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ
ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ
عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ
لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ
تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ (١٢٧)﴾.

القراءات:

(١١٦) • قرأ أبو جَعْفَر: [**لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا**] بضمّ التّاء مراعاة لضمّ جيم «اسْجُدُوا».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا**] بكَسْرِ التاء على الأصل.

(١١٩) • قرأ نافع، وشعبة: [**وَإِنَّكَ لاَ تَظْمأ**] بِكَسْر همزة «إنّ» عطفاً على: [**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ**].

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**وَأَنَّكَ لاَ تَظْمأُ**] عطفاً على «أنْ» من [**أَلاَّ تَجُوعَ**] **أَلاَّ**: هي «أنْ لاَ» أُدْغِمَتِ النون بالّام فصارَتْ لاَماً مُشَدَّدَة، ورُسِمَتْ في الكتابة «أَلّا» مراعاةً للنطق.

(١٢٥) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو جَعْفر: [**حَشَرْتَنِيَ أَعْمَىٰ**] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ**] بإسْكان الياء مع مَدّ الياء مدّاً منْفَصلاً في الوصل.

تمهيد:

سبَق في الملْحق الرابع لتَدَبُّر سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) تدبُّر النّصوص القرآنيّة الّتي جاء فيها لقطاتٌ مُتَفَرّقَاتٌ مِنْ قِصَّةِ خَلْقِ آدم وما رافقه من أحداث، ضِمْن تَدَبُّرٍ تكامليٍّ. وظهرَ لَنَا أنَّ النصوص المتفرّقة تتداخَلُ فيما بَيْنَها تَدَاخُلاً تكامليًّا، كتشبيك أصابع عَدَدٍ من الأيْدِي بمقدار عَدَدِ النُّصوص، تَشابكاً تكامُلِيًّا، وبتَشَابُكِهَا جَمِيعاً تَكْتَمِلُ الْقِصَّةُ المرادُ بيانُها في القرآن المجيد.

وهذا النصّ الوارد في هذا الدرس من دُروس سورة (طه) واحدٌ من هذه النصوص، ولهذا فإنّي أَقْتَصِرُ هُنَا على تَدَبُّر فقراتِ هذا الدرس، دُونَ بَسْطِ النظرة التكامُلِيَّةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ النُّصُوصِ الأخرىٰ الواردة حَوْل ما جاء فيه، وأَقْتَصِرُ على ما تَدْعو الحَاجَةُ إلى ذِكْره.

وصِلَةُ هذا الدرس بما سبَقَهُ من دُروس السورة، مَا جاء فيها مِنْ بيان وجوب طاعَةِ الله عزّ وجلّ فيما يُنْزِلُ على عباده من ذكْر، ليَعْمَلُوا بأوامره ونواهيه، كما سبَقَ بيانُه، والتحذير من الإعراضِ عنه إذْ يَحْمِلُ بسَبَب إعراضِه عنه يوم القيامة وزراً، مع بيان أمْثِلَةٍ تاريخيَّة تتضمَّن أن الذين أعْرَضوا عن ذكْرِ الله لهم، عوقبوا عقاباً شديداً في الدُّنيا، ولعذابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقَىٰ.

ومن الأمثلة التي سبَقَ بيانُها في السورة، ما نزَلَ بفِرْعَوْن وملئِهِ وجنودهم، بسَبَب إعراضِهم عن الذِّكْر الّذي بلَّغَهُمْ إيَّاه موسىٰ وهارُونُ عليهما السَّلام، ومَا نزل بجمهور بني إسرائيل في التيه، إذْ أَعْرَضُوا عن ذكر الله لهم، باتّخَاذِهم العجل، وما نزل بالسّامِرِيّ، من عقابٍ رَبَّانيّ.

وفي هذا الدّرس السادس إلماحٌ إلى عقاب الله عزّ وجلّ لإبليس إذْ أدْبَر وتولّىٰ عن ذكْرِ الله المتضمّن أَمْرَهُ لَهُ بأن يسْجُد لآدم، وإلْمَاحٌ إلى

إخراج الله آدم وزوجه من الجنَّة وإهباطهما إلى الأرض، إذْ أعْرَضَا عن ذكْرِ الله لَهُمَا، المتضمّنِ نهْيَهُما عن أنْ يأكُلاَ من الشجرة المعيَّنَةِ لامتحانهما في الجنة. وتَصْرِيحٌ بِشِدَّةٍ سَبَقَ أَنْ وُجِّهَ لذُرِّيَّةِ آدَمَ، وفيه تحذيرٌ شَدِيدٌ لهم من الإعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ الله.

فَخطٌّ وُجُوب المحافَظَةِ على ما يُنْزِلُ اللّهُ لعبادِه من ذِكْرٍ، ولَوْ كَانَ آيَةً واحِدَةً قَصِيرَةً، وعَدَمِ الإعْرَاضِ عنْهُ، خَطٌّ مُمْتَدٌّ مِنْ أوّلِ السُّورَةِ، ومَارٌّ عَبْر دُرُوسِها حتّىٰ الدّرْسِ الأخير منها.

التدبُّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾:

هذه الآية من قصّة آدم عليه السَّلام في هذا الدرس معطوفةٌ علَىٰ اللَّقَطات المختاراتِ في الدَّرْسِ الثاني من دُرُوسِ السُّورة، من قِصَّةِ مُوسَى عليه السَّلام ومَنْ أُرْسِلَ إليهم.

وفي هذا العطف أيضاً معنى اشتراك بعْضِ ما تضمَّنَتْهُ قِصَّةُ آدم هنا، وبعْضِ ما تضمّنَتْهُ الدُّرُوس السابقة في السورة، من النَّهْيِ عن الإعراض عن ذكْر الله والتَّحْذِير منه.

وجاء في آخر هذه اللّقطات المختاراتِ من قصّة آدم بيان جزاء مَنْ أعْرَضَ عَنْ ذكْر الله الَّذِي أنزل لذُرِّيَّة آدم الأوّلين.

فاكْتَمَلَتْ وَشائِجُ الرَّبْطِ بَيْنَ دُرُوسِ السورة.

وجاء التوكيد هنا بحرْف التحقيق «قَدْ» وباللّام الّتي يُعْرِبُها بَعْضُ المعْرِبين بأنّها مُوطّئَةٌ للقَسَم، كاللّام في «لَئِنْ» والغرض من هذا التوكيد مراعاة أحْوَالِ المرادِ تَحْذِيرُهم من الإعراض عن ذِكْرِ الله لعباده، إذْ أحوال

معظم هؤلاء تحتاجُ إلى مؤكّدات، فَهُمْ مُعْرِضونَ فِعْلاً، وغَيْر مُسَلِّمين بأنّ عقابَ الله سينزل بهم إذا اسْتَمَرُّوا على إعراضهم، فَهُمْ يَحْتَاجُونَ إلىٰ أَمْثِلَةٍ تاريخيَّةٍ مُؤَكِّدَة، تَتَضَمَّنُ عِقَابَ الله الشَّدِيدَ للمعرضين عن ذكر رَبّهم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾:

الْعَهْدُ: «الوصِيَّة، ورِعايَةُ الْحُرْمَة، وكلُّ ما أمر الله به أو نهىٰ عَنْه».

والْعَهْدُ بَيْنَ الله عزّ وجلّ وبَيْنَ عباده المكلّفين الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، هو أن يَعْبُدُوهُ ولاَ يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شيئاً، وأَنْ يجازِيَهُمْ بالفضل إذا آمنوا وعَمِلُوا الصالحات خالدين في جنَّات النعيم، وأنْ يجازيهم بالْعَدْل إذا أعْرضوا عن الذكرِ الَّذي جاءهم من ربّهم، فالكافرونَ يُعَذَّبُونَ في النار يوم الدِّين خالِدِين فيها أبداً، والعُصَاةُ مَعَ إيمانٍ صَحيحٍ يَسْتَحِقُّونَ مِنَ العذاب على مقادير مَعَاصِيهم، ثمّ يكون مَصِيرُهُمْ إلىٰ الجنَّة بإيمانِهم خالِدِينَ فيها أبداً.

﴿مِن قَبْلُ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ كُلِّ مَنْ عَهِدَ الله إلَيْهِ مِنَ الْبَشر.

ولَدَى التفكُّر في الْعَهْدِ الَّذِي أبْلَغَهُ الله إلىٰ آدمَ عَقِبَ خَلْقِهِ لا نَجِدُ غير مجَالَيْن:

المجال الأوّل: مجال الْعِلْم، والْعَهْدُ في هذا المجال يكونُ بتكْلِيفِه أنْ يُحَافِظَ علىٰ ما عَلَّمَهُ الله إيّاه، إذْ عَلَّمَهُ أسْمَاءَ مَا عَرَضَهُمْ عَلَىٰ الملائكة، أي: عَلَّمَهُ صفاتهم والألْفَاظ الكلاميّة التي تدلُّ على كلٍّ منهم.

ولمَّا ظَهَرَ فَضْلُه عليهم في مباراة المعْرِفَة، أمَرَهم بالسُّجود لَهُ سُجُودَ احترامٍ وتَكْرِيم، تنفيذاً لِمَا كان قَدْ أمرهم به بقوله لهم، كما جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ومحافظتُه على ما عَلَّمه رَبُّه تكُونُ باستذكارِه آناً فآناً حتَّىٰ لا يُمْسَحَ مِنْ ذاكِرَتِه، لَكِنَّ آدمَ تَرَكَ استِذْكارَ مَا علَّمَهُ الله إيَّاه، فكانَ مِنْ نتائِج هذا التَّرْكِ بُمقْتَضىٰ سُنَّةِ الله في النَّاسِ أَنْ يُمْسحَ مِنْ ذَاكِرَتِهِ كثيرٌ منه.

أصل معنى «النِّسْيَان» التَّرْك، ويتولَّدُ عَنْه في سُنَّةِ الله «النِّسْيَانُ» بمعنَىٰ الْمَسح مِنَ الذَّاكِرَة.

هذا الأمْرُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قول الله عزّ وجلّ في الآيَةِ ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: فترَكَ المحافَظَةَ علَىٰ مَا عَلَّمَهُ الله إيَّاهُ، فَمُسِحَ مِنْ ذَاكِرَتِهِ قِسْمٌ كبيرٌ منه، وبهذا نُدْرِكُ أنّ عَبارَة «فَنَسِيَ» اسْتُعْمِلَتْ بمعنى التَّرْكِ وبمعنى الْمَسْحِ مِنَ الذَّاكِرَة، للْعِلْم الذي علَّمه الله إيَّاه.

المجالُ الثاني: مجالُ السُّلُوك، وعَهْدُ الله لآدم في هذا المجال قَدْ كَانَ بتَكْلِيفِه أنْ لاَ يأكُلَ من الشَّجَرَةِ الّتي ابتَلاهُ الله بالنَّهْي عن الأكْلِ مِنْها، إذْ أدْخَلَهُ الله الجنَّةَ وأدْخَلَ زَوْجَهُ إدْخَالَ امتحانٍ لا إدْخَال جزاء.

لكنَّ آدَمَ سقط في الامتحان، إذِ استجابَ لوساوس إبليس الشيطان، وانْخَدَعَ بإغراءاتِه وتَسْويلاتِه.

ودَلّت النصوص القرآنيّة علىٰ أنّ إبلِيسَ لَعَنَه الله، قد اتَّخَذَ مخْتَلِفَ الوسائل الإغرائيَّة، حتَّىٰ دَلَّاهُ وزَوْجَهُ في بئر المعْصِيَةِ شيئاً فشيئاً، إلىٰ أن أوْصَلَهُما إلى التَّجَرُّؤِ علىٰ الأكْلِ من الشجرة الّتي حَرَّمَ الله عَلَيْهِمَا في امتحانِهما أن يَأْكُلاَ منها، فلمَّا ذَاقَاهَا بَدَتْ لَهُما سَوْءَاتُهما الْجَسَدِيَّة، وانْكَشَفَتْ سَوْءاتُهما النَّفْسِيَّة، فَغوى آدم وغَوتْ زَوْجُه، بالمعْصِيَةِ لله عزّ وجلّ كما قال الله عزّ وجلّ في الآية (١٢١) من هذا النصّ، الذي نتدَبَّرُه: ﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.

ودَلَّت معْصِيَةُ آدم بالأَكْلِ من الشجرة المحرَّمَةِ تأثُّراً بوساوس إبليسَ الشيطانِ وتَسْويلاته، علَىٰ أنَّهُ لم يَكُنْ ذا عَزْم.

العزم: الإرادةُ الْقَوِيَّةُ الّتِي لاَ تَسْتَجِيبُ لمؤثّراتِ أَشَدِّ المغريات، ولاَ تَضْعُفُ مع المصائب الكُبْرَىٰ، الّتي تحتاجُ إلى صَبْرٍ عظيم.

ولم يكن آدم حين معصيَتِه نبيًّا معْصُوماً، لكنَّهُ هو وزوجُهُ اعْتَرفا بِمَعْصِيتهما، واستغفرا من ذَنْبِهِمَا، وتَابَا إلى بارئهما.

وبَعْدَ حينٍ اجتبَىٰ اللهُ آدم فجعَلَهُ نبيًّا ورسُولاً إلى ذُرِّيَّتِهِ.

والتكليف في هذا المجال هو ما دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ في الآيَةِ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي: لم نَجِدْ له إرادة قويَّة لا تَستجيبُ للمغْرِيَات، ولا تَضْعُفُ أمام المصائب الشديدة.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي لِبيانِنَا هٰذا الحدَثَ الذي جرىٰ في وقت قَوْلِنَا للملائكة اسْجُدُوا لآدم.

وقد عَلِمْنَا من جَمْعِ النصوص، ومن النظر إلىٰ التكامُلِ فيما بَيْنَها أنّ هذا الحدث جرَىٰ بَعْدَ المبَارَاة بالعلم، الّتي أجراها الله عزّ وجلّ بيْنَ الملائكة وبَيْنَ آدم، وتفوَّقَ فيها آدَمُ إذْ سَبَقَ أن علَّمَهُ الله الأسماء كلَّها، أي: الصفات، والألفاظَ الدالَّة على المعروضات علىٰ الملائكة.

﴿ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾: **السُّجود**: هو في اللُّغَةِ إحْنَاءُ الظَّهْر، والتَّطامُن، وغايَتُه تكونُ بوضْعِ الْجَبْهَةِ عَلَىٰ الأرض. وهو في الاصطلاح الشرعي، يكونُ بوضع الجبْهَةِ على الأرض مع الكَفَّيْن والرُّكبَتَيْن والقدَمَيْن.

وهذا السُّجودُ الذي أمِرَتْ به الملائكة، وأُمِرَ به إبْلِيسُ المنْدَسُّ فيهم نفاقاً، هُوَ سُجُودُ احترامٍ وتكْرِيمٍ، لا سُجُودُ عبادة.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾: أي: فَسَجَدَ الملائكَةُ كلُّهم أجْمَعُون ما

جاء في نصّ سورة (ص). أمّا إبْلِيسُ فلم يكُنْ من الملائكة، لَكِنَّ الأمْرَ بالسُّجُودِ لآدم قد كانَ مُوجّهاً له أيضاً، إذْ كان مُنْدَسًّا فِيهم كواحِدٍ منْهم، وشاءَتْ حِكْمَةُ الله أَنْ يَكْشِفَ نفاقَهُ، فلَمْ يَسْجُدْ مع الملائِكَةِ كما سَجَدوا، بل أبَىٰ أنْ يَسْجُدَ بعنادٍ وإصْرَارٍ واسْتكبار.

«أَبَىٰ»: أي: «رَفَض، وكَرِهَ، ولَمْ يَرْضَ، واستَعْصَىٰ». يقال لغة: «أَبَىٰ عَلَيَّ، يأبَىٰ، إبَاءً، وإبَاءَةً». وكلُّ معاني «أَبَىٰ» مُنْطَبِقَةٌ علىٰ إبْلِيسَ، ودَلَّتْ محاكَمَةُ اللهِ له على إصراره، وعناده، وشِدَّةِ رَفْضِه، وكُفْرِهِ بإلَهِيَّةِ الله مع إيمانِه بِرُبُوبيَّته.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾:

دَلَّت الفاء الّتي هي في اللُّغة للتَّرْتيبِ مع التعقيب، عَلىٰ أن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ قد كان عَقِبَ إبَاءِ إبليسَ وإصْرارِه بعنادٍ شديد، أَنْ يُطِيعَ الله في السُّجود لآدم، أو يَسْتَغْفِرَ مِنْ مَعْصِيَتِه.

ولا بُدَّ أنْ نَفْهَمَ أنَّ هذا الإباءَ يُرَادُ بِهِ الإباءُ الذي استَقَرَّ عَلَيْه إبْلِيسُ، بَعْدَ آخِرِ جَلْسَةٍ مِنْ جَلَسات مُحَاكَمَةِ الله له، والذي اسْتَقَرَّ بناءً عَلَيْه حُكْمُ الله عليه بالإخْرَاج والإهْبَاطِ والطّردِ، والحكْمُ علَيْه باللَّعْنَةِ الدائمة، والحكمُ عليه وعلَىٰ مَنِ اتَّبَعَهُ بأنَّ جَهَنَّمَ جزاؤهم جزاءً موفوراً، على مقْدَارِ وَفْرَةِ كُفْرِهِمْ وجَرَائِمِهم وأنواع طغيانهم.

لَقَدْ حذَّر الله عزّ وجلّ آدم وزوجَهُ الّتي اشتَقَّها من ضِلَعٍ مِنْ أضْلاَعِه، من مكايد إبليس، وأبان لآدَمَ أنَّهُ عَدُوٌّ له ولزوجِهِ، لأنّها في تكوينها جزءٌ مستخرجٌ منه، فَعَداوة إبليس له تَسْرِي إلَىٰ زَوْجِه، وفي بعض النصوص الأُخْرَىٰ، أَبَانَ الله عزّ وجلّ عداوة إبْلِيسَ لآدم ولكلّ ذُرِّيّته.

وظاهِرٌ أنَّ الْعَدُوَّ الَّذِي كانَتْ عداوتُه بسَبَبِ أُمُورٍ أَفْضَتْ بِهِ إلى

الْعَذَاب الخالِدِ في الجحيم، لا يُرِيدُ بِعَدُوِّه إلَّا السُّوءَ والشَّرَّ، والمصير الأبَدِيَّ في العذاب، لينَالَ مثْلَ عذابِهِ، أَوْ أَشدَّ مِنْ عذابه.

﴿... فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾:

يَدُلُّ هذا البيان على وجود مطويٍّ مَحْذُوف، وهو أنَّ الله عزّ وجلّ وعَدَ آدم أنْ يُدْخِلَهُ وزَوْجَهُ الجنَّةَ دُخُولَ ابْتِلاَءٍ، لا دخول جزاءٍ وبقاء، ويُمكِنُ تَقْدِير المحذوف بنَحْو ما يلي:

وقُلْنَا: يا آدَمُ سَنُدْخِلُك وزوجَكَ الجنّةَ دُخول امتحانٍ وابتلاء، فإذا دَخلْتُمَا فيها فَلاَ تُمَكّنَا إبْلِيسَ مِنْ إغوائِكُما، وإيقاعِكُما في معصية ربّكُما، فَيَتَسَبَّبَ فِي إخراجِكُما من الجنَّةِ عُقُوبةً لكما، وعندَئذٍ تتعَرَّضُ يا آدم لتَحَمُّلِ الشقاء ومَتَاعِبِهِ في الحياة عَلَىٰ الأرض، أي: وتَتَحَمَّلُ زَوْجُك وذُرِّيَّاتُكُمَا فيه مِثْلَ ذَلِك.

وفي هذا إعلامٌ ضِمْنِيٌّ: بأنّ معصيَتَهُما لأوامر الله ونواهِيه وهما في الجنة مُمْتَحنان، عقابُهُ الإخراجُ مِنْها إلى الأرض.

الشقاء: يُطْلَقُ عَلَىٰ كلّ مَا لاَ يَسُرُّ الإنسانَ من أمور، وعلىٰ ما يُخَالِفُ رغْبَته ومطلوبهُ، من أدنَىٰ المكارِه إلىٰ أشدّ المؤلمَات.

والمرادُ بالشقاء في الحياة الدنيا على ظهر الأرض، ما فيها من متاعِبِ الكَدِّ والكَدْحِ في العمَل لاكتِسَاب الرزْق، وما فيها من متاعب الأوجاع والأسْقَامِ، وتحَمُّلِ مكاره القلَق والخوفِ والهمّ والحزْن ونحو ذلك.

ولمَّا كانَ الرَّجُلُ هو المسؤول الأوّل عَنْ كَسْبِ رزْقِهِ ورزْق أسْرَتِه على ظهر الأرض، قال الله عزّ وجلّ خطاباً لآدم: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ ولم يَقُلْ لَهُ فتَشقَيَا، أي: فسَتُضطر لأنْ تكونَ الأكْثَرَ تحمُّلاً لعناءِ الكَدّ والكَدْحِ في الْعَمَل، لاكْتِسَابِ رِزْقِكَ، وَرِزْقِ أُسْرَتِكَ.

وأبان الله عزّ وجلّ لآدم ميزة بقائِه في الجنَّةِ إذا حافَظَ على طاعة الله فيها، وتُلْحَقُ بِهِ زَوْجَتُهُ، فَلَمْ يَعْصِيا رَبَّهما بالأكْلِ من الشجرة المحرَّمة، فقال له ما جاء بيانه في الآيتَيْنِ التالِيَيْن:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾:

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾: أي: وَلاَ يمَسُّكَ فيها حرُّ الشّمس. يقال لغة: «ضَحِيَ، يَضْحَىٰ، ضَحْواً، وضُحُوًّا، وضُحِيًّا، وَضَحاً» أي: أصابَهُ حَرُّ الشمس.

إنَّهُ بَعْدَ أَنْ يَسْكُنَ الجنَّةَ الخالِيَةَ مِنْ عوامِلِ الأوْجاع والأسْقام، مع زوجَتِه الّتي يَسْكُنُ إليها، ويَأْنَسُ بها وتأنَسُ به، لا يكونُ لَهُ من مطالِبِ العيشِ السَّعيد الرغيد، إلّا المطالبُ الأساسيّة الأربعة، الّتي ذكرها الله له:

المطلب الأول: أنْ لاَ يجوع، وهذا متحقّق في الجنَّة، فالطعامُ فيها وفيرٌ لاَ يَنْفد، مع ما فيها من فاكهةٍ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعة.

المطلب الثاني: لا يَعْرَىٰ، ولاَ يَتَعَرَّض لمكْرُوه الْعُرْي وأذاه، وهذا متحقّقٌ في الجنَّة، فاللّباسُ الفاخِرُ الفارِهُ في الجنَّة كثير، من سُنْدُسٍ وإستبْرَق.

المطلب الثالث: أنْ لاَ يظمأ، وهذا المطلب متحقّقٌ في الجنّة، فالماء وأنواع الشراب اللّذِيذ الأخرىٰ أنْهرُ عظيمة جاريَةٌ لا تَنْقَطع، ولاَ تَنْفد.

المطلَبُ الرابع: أنْ لا يضحَىٰ، فَلا تَمَسَّهُ فيها حرارة أشِعَّةِ الشمس، إذ الجنَّةُ ظِلٌّ ظَلِيلٌ دائم.

ونَفْيُ التأذّي بحرارة الشَّمْس يَدُلُّ على نَفْي التأذّي بالْبَرْدِ عَنْ طريق

اللُّزوم الذهْنِي، وقَدْ جاء في القرآن التَّصْريح بأنه ليْسَ في الجنَّة زمْهَرِير، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشَأْن أصْحَاب الجنَّةِ:

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: لا يَرَوْنَ فيها شمْساً ولا يَجِدُونَ فيها زمْهَرِيراً.

الأرائِك: المقاعدُ المنجَّدَةُ الوثيرة، مفردها: «أَرِيكَة».

هذه المطالب الأربعة هي قُصْوىٰ مطالب الجسَدِ الأساسيَّةِ مع الزوجة في حياة الامتحان، وقَدْ سبَق أن عَلِمْنَا أنّ دُخول آدم وحوّاء الجنَّةَ، قَدْ كان دخول ابْتِلاَء لاَ دُخُولَ جزاء وبقاء.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾:

﴿فَوَسْوَسَ﴾: **الوسْوَسة**: هي في اللُّغَة الصَّوْت الخفيُّ. **والوسْوَسَة والوِسْوَاس**: حديث النّفْس.

ووساوسُ الشيطان الذي يجري من ابن آدم مَجْرَىٰ الدَّم، تأتي على صورة خواطر تُزيّنُ فِعْلَ الشَّرِّ والإثم، لحَمْلِ الإرادة علىٰ التَّنْفِيذ.

ولا نَدْري كيْفَ وَسْوَسَ الشَّيْطَانُ إلىٰ آدم، وقد يكون قَدْ ظَهَرَ لَهُ بِصُورَةِ مَلَكٍ من الملائكة، أو بصُورَةِ جِنّيٍّ من الصالحين، أوْ غَيَّرَ مِنْ شكله تنكُّراً.

ويظهر أنَّ مَا تضمَّنَهُ هذا النصّ هو بدايَةُ الْحَرَكَةِ الكيْدِيَّةِ الإغرائيَّة، من إبْلِيسَ الشَّيْطَانِ بالوسْوسَة، الّتي اتَّخذَتْ أسْلُوباً غيْرَ مُباشِرٍ، حتَّىٰ تَصِلَ

إلى مراكز التأثير في نَفْسِ آدم، بدليل استخدام حرف الجرّ: «إِلَىٰ» في قول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. حرْف الجر: «إِلَىٰ» يَدُلُّ على بُعْدِ مَا بَيْنَ بَدْءِ الحركَةِ والْوُصُول.

لكنَّ إبليسَ لمّا رَأى أنَّه اقترب من نفس آدم وزَوْجه، بَدَأَ يُوسْوس لهما، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

فدَلَّت هذه الآيةُ على أنَّ إبليس لَعَنَهُ الله صار يوسوس لآدم وزوجه بأسْلُوبِ مباشر، إذ جاء فيها استعمال حرف اللّام في: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ وجاء فيها أنَّهُ صَار يُوَسْوِسُ لَهُ وَلِزَوْجِهِ معاً.

وأطْلَقَ الله عزّ وجلّ على إبْلِيس وَصْفَهُ الجديد «الشيطان» المأخوذَ مِنْ فِعْلِ «شَطَنَ» بمعنى: «بَعُد» والمأخوذ مِنَ الشدّ بالشَّطَن، وهُوَ الحبْلُ الّذي يُدَلَّىٰ بِهِ الدَّلْوُ إلى أسْفَلِ البئر. وقد استحقَّ إبْليس هذا الاسْمَ الوصْفِيَّ الجديد، إذْ قَدْ هيَّأَ نَفْسَه للإغراء والإغواء، والإضْلاَلِ عن صراط الله المستقيم، وممَّا لاَ شَكَّ فيه أنّ إبْلِيسَ قد صار بذلِكَ بَعِيداً بُعْداً سحيقاً عن الحقّ والخير والهُدَىٰ، مطْرُوداً من دائرة رحْمَةِ الرَّحْمٰنِ الواسعة، وصَارَ مُبعِداً عباد الله عن الصراط المستقيم، بوساوسه وتسويلاته، وهو يتَّخِذُ حبائل كثيرةً يُدَلِّي بها عباد الله إلى جحيم المعاصي والآثام، حتَّىٰ حَضِيضِ الكُفْرِ بالله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه.

وحين تكونُ الدَّعْوَة إلى الإثم والعصيان وسْوَسَةً في الصَّدْرِ من مُحَدِّثٍ غَيْرَ مَرْئيّ، فإنَّ الإنْسَانَ يَشْعُرُ بأنّها مِنْ قبيل حديث نَفْسِه لذاته، وهذا أَدْعَىٰ إلى الاستجابَةِ والانْدِفاع إلى ما تَدْعو إليه الوسْوَسة.

• ﴿... قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾:

دلّت هذه الآية على أنّ إبليسَ الشيطان بدأ يتّخِذ أسْلُوب الاستدراج بخُبْث، فتجاهَل أنَّه يعْلَمُ أنّ الله عزّ وجلّ نَهَىٰ آدم وزوجَهُ عن أن يأكُلاَ مِنَ شجرة خاصَّةٍ عَرَفَها إبليس لامتحان طاعتهما، فقدَّمَ إغراءه لآدم بأسلوب العرض عن طريق الاستفهام: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾؟ وأوْهَمَهُ أنَّه لاَ يَعْلَمُ شيئاً عن قضيّة الشجرة المحرَّمة عليه وعلى زوجه، وأنَّه خالي الذّهْنِ تماماً، وأنَّه حريصٌ على نُصْحِه، فَهُوَ أسْبَقُ مِنْه وجوداً، وأعْلَمُ بحقائِق كثير من الأمور، وبصِفَاتِ بعض الأشياء وخصائصها، وأغراه بالْخُلْدِ في الجنَّة، بحياةٍ أبَدِيَّةٍ دائمة لا تنقطع، مع نعيم عظيم ومُلْكٍ لاَ يبْلَىٰ وَلاَ يفنىٰ.

أمّا الخلْدُ فبتأثير عُنْصُر أو مجموعَةِ عناصر تشتمل عليها شجرة الْخُلْد، وسَمَّاها إبليسُ شَجَرَةَ الْخُلْدِ قَبْلَ أنْ يَدُلَّ آدمَ عليها، لإشعاره بأنَّ هذا الاسم الوصفيَّ هو اسْمُها المعروفُ عِنْدَ أَهْلِ الملأ الأعْلَىٰ، وهي شجرةٌ من أشجار الجنّة.

ومعلومٌ أنَّ النَّفْس الإنسانيَّةَ متَىٰ تعلَّقَتْ بمجْهُولٍ فيه مطْلَبٌ عظيمٌ من مطالب النفس، أخَذَتْ تَغْلِي مراجِلُها للتعرُّف عليه، والوصول إليه، واستعمالِه لتحقيق مطْلُوبها العظيم.

وهذا هو أسْلُوبُ التشويقِ للرَّبْطِ والإزْلاَق.

وأمّا الْمُلْكُ الّذِي لا يَبْلَىٰ، أي: لا يَفْنَىٰ ولاَ يَهْتَرِىءُ كَمَا تَبْلَىٰ الثيابُ، فهو فيما يظْهَرُ إغراؤُه بِسُلْطَانٍ دائِم على ذُرّيَّاته الّذين يَتَناسَلُونَ مِنْهُ فيها، بَعْدَ أنْ يأكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْخُلْدِ فيكُونَ مِنَ الخالدين، وإغراؤه بسُلْطانٍ دائمِ علَىٰ أهل الجنَّة وسُكَّانها من غيرِ ذُرّيَّاته.

بعْدَ هذا التشويقِ والتعليقِ للرَّبْط والإزْلاَقِ، لا بُدَّ أنْ يكون آدَمُ قد

قال لإبليس: نَعَمْ، دُلَّنِي عَلَيْها. ولٰكنَّ النصّ سكَتَ عن هذا إيجازاً.

وهنا جاء دَوْرُ إبْليسَ في إلْهَاب أشْوَاقِ آدَم للتعرُّفِ علىٰ شَجَرَةِ الخلْد، ومع لهيب الشَّوْق يحْصُلُ في البصيرة غشاوةٌ وسُلْطان هوىٰ، لَكِنَّ هٰذِه الأطوار قَدْ طواها القرآن، لإمكان التَّوَصُّلِ إليها بالتَّدَبُّرِ والتفكير العميق.

ونُدْرِكُ أنَّ إبليس اللّعين، لمَّا وجَدَ الحالة النفْسِيَّةَ لَدَىٰ آدَمَ مُلائِمَةً لتَعْرِيفِه بالشجرة الّتي سَمَّاها لَهُ «شجَرَةَ الْخُلْد» مع أنَّها في الحقيقة شَجَرَةُ الطَّرْدِ والإخراجِ من الجنَّة.

ولمَّا عَرَّفَهُ بِهَا وَهِيَ قَرِيبةٌ مِنْه، قالَ آدم لإبليسَ: لَقَدْ نَهَانَا رَبُّنَا عَنْ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها، فإذا أكَلْنَا مِنْها كُنَّا مِنَ الظَّالِمِين لأنْفسِهِمْ بمعصيتِهِ، وتعرَّضْنَا للإخراج من الجنَّة.

عندئذٍ اسْتَغَلَّ إبْلِيسُ حَالَةَ التوتُّر النَّفْسِيِّ لدَى آدم وزوْجِهِ، وحالَةَ الْقَلَقِ النَّاتج عَنْ حِرْصِهِما على الخلود، وعلىٰ المُلْكِ الّذي لا يَبْلَىٰ، وخَوْفِهما من المعْصِيَةِ والإخراج من الجنَّة، على احْتِمال أنْ يكُونَ هٰذا الناصِحُ الْمُوسْوِسُ لهما كاذِباً علَيْهما، في ادّعائه أنَّها شجرَةُ الْخُلْد، فاسْتَطاعَ إبْلِيسُ أنْ يخْتَصِرَ الطّريق على نَفْسِه، فيَصِلَ إلى الوسوسة لهما معاً وبصُورَةٍ مباشرة، حتَّىٰ أزْلَقَهُما، وجَعَلَهُما يأكُلانِ من الشجرة.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾:

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾: أي: فما زالَ إبْلِيسُ الشَّيْطانُ يَسْتَدْرِجُهُما ويَسْتَنْزِلُّهُمَا في بئْرِ الرَّغْبَةِ في الأكْلِ مِنَ الشجرة، حتَّىٰ أوقعَهُما بإرادتَيْهما في الْمَعْصِيَةِ، فأَكَلاَ من الشجرة المحرَّم عَلَيْهما أنْ يأكُلا منها.

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾: أيْ: فَانْكَشَفَتْ لَهُمَا سَوْآتُهما اللّاتي كانت مَسْتُورَة عَنْهُمَا بِشَعَرٍ أو نَحْوِه، عَقِبَ أنْ ذَاقا من الشجَرَة مباشرةً، كَما جاء في النصّ الّذي في سورة (الأعراف) في الآية (٢٢).

السَّوْأَة: هيَ الْعَوْرَة: «الْقُبلُ والدُّبر». **والسّوْأة:** كلُّ عَمَلٍ وأمْرٍ قَبيحٍ شَائن، والْخَلَّةُ القبيحة.

﴿وَطَفِقَا﴾: وشَرَعَا عِنْدَ بُدُوّ سوآتِهما يحاولانِ أنْ يجدا وسِيلَةً لسَتْرِها بشيءٍ ما حَوْلَهُما، فَلَمْ يَجِدا غَيْرَ وَرقِ أشجار الجنَّة.

- ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: يُلْصِقَانِ على سَوْآتِهما لِسَتْرِها، من ورق أشجار الجنَّة، وقد كانت قَبْلَ أنْ يَذُوقَا الشجَرَةَ مكْسُوَّة بِخَلْقِ الله بما يَسْتُرُها.

ودَلَّ ما جاء في سُورَة (الأعراف) في الآية (٢٢) أنَّهما ابْتَعَدَا عَنْ مَسْرَحِ المعصِيَة فارَّيْنِ إلىٰ أمَاكِنَ أُخرىٰ في الجنَّة، لَيْسَ فيها صنف الشجرة المحرَّمة، إذْ جاءَ فيها حكاية قَوْلِ الله لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ بَعْدَ أنْ كَانَ الحديث عن الشجرة باسْمِ الإشارة الذي يُشَارُ بِهِ إلى المشار إليه القريب في الآية (١٩) من سورة (الأعراف) أيضاً: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

- ﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾: أي: وخالفَ آدم نَهْيَ رَبِّهِ لَهُ عَن الأكْل من الشجرة، يقال لغة: «عَصَاهُ، يَعْصِيهِ، مَعْصِيةً، وعِصْيَاناً» أي: خرَجَ مِنْ طاعَتِهِ، وَخَالَفَ أمْرَهُ أو نَهْيَه، فَهُو «عَاصٍ، وعَصَّاءٌ، وَعَصِيّ».

﴿فَغَوَىٰ﴾: أي: ضلَّ، وخابَ، وتَرَكَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عَنْ قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ، اتّباعاً لما تعلَّقَتْ بِهِ نَفْسُه ممَّا ظَنَّهُ خيراً له.

الغيّ: الضّلال، والخيبة، والفساد، يقال لغة: «غَوَىٰ، يَغْوِي، غَيًّا» ويقالُ أيضاً: «غَوِيَ، يَغْوَىٰ، غَوَايَةً» أي: ضلَّ، وخاب، وفَسَد، وتَرَكَ سَبِيلَ الرَّشَدِ عامداً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ من الزمن تَلَقَّىٰ فيها آدم كلماتٍ من ربّه كما جاء في الآية (٣٧) من سورة (البقرة) فأتَمَّها، فتاب عَلَيْه، واصطفاه للنبوّة والرِّسالةِ وهَدَاه.

﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾: أي: اصطفاه واختاره، جاء فِعْل «اجْتَبَىٰ» في القرآن مستعملاً بمعنى الاصطفاء للنبوَّة والرسالة، إذا كان اجْتِبَاءً للأفراد.

وجاء مرَّةً واحدة، بمعنى اصطفاء أُمَّةِ محمّد بمجموعها لحمْل رسالته من بَعْده، والمراد أنَّهم مسؤولون عنْد الله عَنْ تبليغ رسالتِه للناس، وأنّهم بهذا الاجتباء معْصُومون عن أنْ يَجْتَمِعُو على ضلالَة.

ونَسْتَدِلُّ من مَعْنَىٰ الاجتباء الوارد في القرآن، على أنّ آدم علَيْهِ السلام قد اجْتَباه الله نبيًّا ورسولاً، لأوّلِ مجتمَعٍ بَشَرِيٍّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾: أي: قال الله عزّ وجلّ لآدم وزوْجِه: اهْبِطَا من الجنَّةِ إلَىٰ الأرض.

﴿ٱهْبِطَا﴾: أي: انْزِلاَ من مكان الجنَّة العالي، إلى الأرض. **الْهُبُوط**: ضِدُّ الصُّعود، يقال لغة: «هَبَطَ، يَهْبِطُ، هُبُوطاً» أي: نزل من مكان مرتفِعٍ إلى مكانٍ منْخَفِض. يُسْتَعْمَلُ الْهُبُوط في المادّيات وفي المعنويّات.

ولُوحظ في آدم وزوجه ذُرّيَّاتُهما بعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ويَزيدُ هذا المعنى وضوحاً ما جاء في الآية (٣٨) من سورة (البقرة) وهو قول الله

عزّ وجلّ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ بضمير المتكلّم العظيم، والفاعل في ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ ضَمِيرُ جَماعَةِ المخاطَبِين، وهم آدم وزوجه، وذُرِّيَّاتُهما في ظهر آدم.

أمّا عداوةُ ذُرِّيَّاتِ آدم بَعْضِهم لبَعْضٍ فالواقع التاريخي للأجيال البشريّةِ يَشْهَدُ بذلك، علَىٰ مستوىٰ الأفراد، والأُسَرِ، والقبائِل، والشعوب، وأشدّ مظاهر العداوة بيْن ذُرِّيَّاتِ آدم وزَوْجِه الحرُوبُ العظمى.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾: أي: فإمَّا يَأْتِينَّكُمْ مِنِّي تَعْلِيمَاتٌ مُنَزَّلَاتٌ تُبَيِّنُ لَكُمْ دِينِي الّذي اصْطَفَيْتُهُ لكم، وفيها هدايتُكم فاتَّبِعُوها، واعْمَلُوا بما تَشْتَمِلُ عليه من أوامِرَ ونواهِيَ وإرشاداتٍ ونصائح.

﴿... فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾:

فِعْلُ «اتَّبَعَ» بِوَزْن «افْتَعل»، يَدلُّ على الالتزام بقوة وعناية، لأنّ هذا الوزن يدُلُّ علَىٰ التكلُّفِ وبَذْلِ قوّةٍ زائدَةٍ على المعتاد، للارتقاء في درجات البِرّ والإحسان.

﴿فَلَا يَضِلُّ﴾: أي: فلا يَضِيعُ في شَتَّىٰ المَسالِكِ والمتاهات، بعيداً عَمَّا هُو سَبَبُ سعادته.

﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾: أي: ولا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ للمتاعِب والمشَقَّاتِ المشقيات، لأنّ الله جلَّتْ قُدرتُه وعظُمت حكمَتُه يُهَوِّنُ عليه، ويُدَافع عنه، ويمنَحُ قَلْبَهُ وَنَفْسَهُ الطُّمَأْنِينة والسعادة في حياته، ولو تعرَّض للمكاره.

ويلزم من عدم ضلاله أن يكون من الفائزين الناجين يوْمَ الدِّين، من عذاب جهنّم وما فيها من شقاء أبديٍّ أوْ مؤقت، ومِنْ أهل السَّعادة الخالدة في جنَّات النعيم.

والمعنى: فَمَن كلَّفَ نَفْسَه أنْ يَتَّبِعَ هُداي، فإنَّهُ يَحْمِي نَفْسَهُ من

الضلال في الحياة الدنيا، ومِنَ الضَّيَاع في متاهات العقائد والأعمال الفاسِدَة الباطلة، ومِنَ الشقاء في الحياة الدنيا والآخرة.

وجاء في الآية (٣٨) من سُورَة (البقرة) قولُ الله تعالى حول الموضوع نفسه:

﴿... فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: فَمَن تَبعَ هُدَايَ بُدونِ تكلُّفٍ وزيادَةِ جَهْدٍ واجْتِهاد، للارتقاء في درجات البرّ والإحسان، فهؤلاء لا خوفٌ عليهم من عذاب يَوْم الدين، ولا يحْزَنُونَ على شيءٍ فاتَهُمْ أو يَفُوتُهم في الدنيا والآخرة، لأنَّ الجزاء بالثواب العظيم الذي يمْنَحُهُمُ الله إيَّاهُ، والحمايَةَ مِنْ دُخولِ النار، سوف يجدُونَ فيهما تعويضاً كريماً عَنْ كلِّ ما فاتهم في الحياة الدنيا، ممّا كانوا يتمَنَّونَ الحصولَ عليه.

فتكامل النصَّان في تَأْدية المعنىٰ المراد بيانُه[1]:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾:

هذا البيان من توابع مَا أَبانَه الله عزّ وجلّ لآدَمَ، بَعْد إهباطه مع زوجته مِنَ الجنَّةِ إلى الأرض.

وهو يتعلَّقُ بمؤمنٍ أعْرَضَ عن الذِّكْرِ الرَّبَّانيّ المنزّل، وترَكَ الْعَمَلَ بِمَا جاء في هُداهُ، فكانَ سُلُوكُهُ مُشَابهاً سُلُوكَ الكافِرِينَ، وقَدْ جَعَلَ الله لَهُ

---

(١) وفي الملحق الرابع من ملاحق تدبّر سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) تتِمّاتٌ تَدَبُّرية يمكن الرجوع إليها.

عِقَابَيْنِ مُرَتَّبَيْنِ على إعراضِهِ عن الذكر بَعْدَ أن آمَنَ به عالماً بما جاء فيه من هُدًى.

العقاب الأول: أنْ يَجْعَلَ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً في الحياة الدنيا.

الضَّنْكُ: الضيقُ فِي كلِّ شَيْء (يَسْتَوي فيه المذكّر والمؤنّث) تقول لغة: «عَيْشٌ ضَنْكٌ، ومَعِشَةٌ ضَنْكٌ» أي: ضَيِّقَةٌ لاَسَعَةَ فيها، وقَدْ يَكُونُ ضِيقاً نَفْسِيًّا، ولَوْ كَانَ المضَيَّقُ عَلَيْه ذا سعة من المال.

وقَدْ يأْتِي هٰذا الضَّنْكُ من أَهْلِه وأُسْرَتِه وأولاَده، أو مِنْ وسائِلِ كَسْبِ رِزْقِه، أو من أمراضٍ وأَوْجَاعٍ تتراكبُ عليه، أو من غير ذلك.

العقاب الثاني: أنْ يحشُرَهُ الله يَوْمَ القيامة بَعْدَ البعث أعْمَىٰ، نظير حشْرِ الكافِرينَ عُمْياً، لمشابَهَتِهِ لهم في أعمالهم، دلّ على هٰذا قول الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ مع أنَّه لم يَكُنْ في الدُّنيا أعْمَىٰ، أيْ: كافراً.

وهُنَا في مَوْقِفِ الحشْرِ، يسأَلُ رَبَّه:

- ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾؟.

جاء في هذه العبارة اسْتِعْمَالُ الفِعْل الماضي ﴿قَالَ﴾ للدَّلاَلَةِ علىٰ تَحقُّقِ الوقُوعِ يَوْمَ الدِّين.

أي: يَقُولُ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ كَالكافِرين، وقَدْ كُنْتُ بَصِيراً، أيْ: مُؤْمِناً غَيْرَ كافِرٍ.

- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾:

أي: فَعَلْنَا بِكَ مِثْلَ ذَلِكَ الّذِي كانَ منْكَ في الحياة الدنيا، إذْ إنَّكَ مَعَ كَوْنِكَ مُؤْمِناً بي، ومُؤْمِناً بالْهُدَىٰ الّذِي أنْزَلْتُه، لَمْ تَتْبَعْ هُدَايَ الَّذي أَمَرْتُكَ بِأَنْ تَتْبعَهُ، ولَمْ تَعْمَلْ بما أمَرْتُكَ أنْ تَعْمَلَه، ولم تَنْتَهِ عَمَّا نَهَيْتُكَ عَنْ

عَمَلِه، وتَرَكْتَ الْعَمَلَ بآياتي المُنزَّلاَت، فَصِرْتَ فِي حَياتِكَ مِثْلَ الكافِرِينَ في السُّلُوك.

﴿فَنَسِيتَهَا﴾: أي: فتَرَكْتَها، وتَرَكْتَ الْعَمَلَ بها، أصْل معنَىٰ النِّسْيَانِ في اللُّغَة: التَّرْكُ، ومعلُومٌ أنَّ تَرْكَ الشيءِ زمَناً طويلاً، يَجْعَلُه مَمْحُوّاً مِنَ الذَّاكِرَة، فَلاَ يَخْطُرُ عَلَىٰ البال.

- ﴿... وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾: أي: ومِثْلَ تَرْكِكَ في الدُّنْيا الْعَمَلَ بآياتِنَا المنَزَّلاَتِ المشْتَمِلاَتِ عَلَىٰ هُدَانَا، تُتْرَكُ الْيَوْمَ فِي مَوْقِفِ الحشْرِ فَلا يُعْتَنَىٰ بِكَ، وتُعَامَلُ معاملَةَ الكافِرِينَ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عُمْياً.

لَقَدْ أغْمَضْتَ عَيْنَيْكَ عَمَّا قَدَّمْنَا من بياناتِ هِدايَةٍ لعبادنا، فجزاؤكَ الْيَوْم يَكُونُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِك.

ولاَ يُفيدُ تَرْكَ العناية بِهِ في موقف الحشر، أنَّه يكُونُ من الخالِدِينَ في النار كالكافِرِين، بَلْ سَيُخْرَجُ من النار ويُدْخَلُ الجنَّة بَعْدَ تطهيرِه من معاصِيهِ، بسَبَبِ صِحَّةِ إيمانه.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾:

أي: ومثل ذلك الجزاء الذي نُعاقِب به مَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِنَا، من أنَّنا نَجْعَلُ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً، ونَحْشُرهُ يَوْم القيامَةِ أعْمَىٰ، نَجْزِي أيضا الَّذي أسْرَفَ إسرافاً بالغاً، فَلَمْ يُؤْمِنْ بآياتِنَا.

ولَكِنَّ هذا الذي أسْرف ولم يُؤمِنْ بآياتِنَا، نُعَذِّبُهُ في الآخِرَةِ علَىٰ كُفْرِه في نار جَهَنَّم، عذاباً أشَدَّ وأبْقَىٰ منْ عَذَابِ الضَّنْكِ في الحياة الدُّنيا، ومِنْ عَذاب الْعَمَىٰ في المحْشَر، إنَّهُ عَذَابٌ بالحريق في نارِ جهنَّم خالداً فيها مُخلَّداً، وقَدْ دَلَّتْ على هـٰذا نُصُوصٌ قُرآنِيَّةٌ كَثِيرَة.

وبِهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدرس السادس من دروس سورة (طـه) والحْمدُ لله على مَدَدِه وفيوض عطاءاته، وفَتْحِه وتوفيقه.

* * *

(١١)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (طـه) وهو الآيتان (١٢٨ و١٢٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾:

تمهيد:

هاتان الآيتَانِ يتعَلَّقُ الْبيانُ فيهما بالكافِرين بِبِعْثَةِ محمَّدٍ وبالْقرآن المجيد، إبَّان التَّنْزيل، وهو يَنْسَحِبُ على كلِّ الكافِرينَ من بَعْدِهم إلَىٰ آخِرِ كافرٍ مُكَذِّبٍ للرسول، ومكَذِّبٍ بالقرآن، في الأَحْقاب الآتية من تاريخ الناس، والسِّياقُ في الآيَتَيْنِ يَدُلُّ على أن ضمائر الغائبين يرادُ بها هؤلاء، ولو لم يَسْبِق لهم ذِكْرٌ قريب في دروس السُّورة، لكنَّ أوائلَ السُّورة تدُلُّ على أنهم هم المعْنِيُّون.

التدبُّر التحليلي:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: استفهامٌ تَعْجِيبيٌّ من أمْرِ المشركين وسائر الكافِرين إبانَ التنزيل، وفيه معنى الإنكار عليهم والتوبيخ لهم بالحديث عن الغائبين.

والمعنى: أمَا زَالُوا على جَهْلِهِمْ، وبُعْدِهِمْ عَنِ الْعِلْم بأحْوالِ الأُمَمِ السابقة، وما جَرَىٰ لكُفَّارِهِمْ مِنْ إهْلاَكٍ جماعِيّ بسَبَبِ كُفْرِهم وتَكْذِيبهم

رُسُلَ الله رَبّهم، وتَكْذِيبهمْ بالذِّكْرِ الّذي أنزلَهُ عَلى رسُلِهِ لهدايتهم، فَلَمْ يَهْدِ لهم تاريخ الأُمَمِ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ القرون الّتي كذَّبَتْ وكفَرَت.

ضُمِّنَ فِعْل «يَهْدِي» معنَىٰ فعْل «يُبيِّن» فَعُدِي تَعْدِيتَهُ، فأغْنَتِ الجملَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن. والتَّقْدِيرُ: أوَ مَا هَدَىٰ تاريخُ الأُمَمِ السالفة مبيّناً لهم سُنَّةَ الله في الانتقام من الكفرة المكَذِّبين بالإهلاك العامّ الشامل، إذَا وصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوسٍ منها، واقتضت الْحِكْمَةُ إهلاكهم إهلاكاً جماعيّاً. أو أَوَ مَا هدى الله مبيّناً لهم سنَّته في الانتقام، والفاعل الله دلَّتْ عليه القرائن.

إنّ تكرار إجراء هذه السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ في الأمَم السّالفة، مع التذكير بها فيما جاء به المرسَلُون، ثُمَّ فيما نزل في القرآنِ المجيد، ومَعَ التَّنْبِيهِ عَلَيْها بصَرِيح العبارةِ في مناسباتٍ كثيرات، من شأنِه أنْ تَحْصُلَ بِهِ قناعَةٌ تامَّةٌ بثَبَاتِ هٰذِهِ السُّنَّةِ لَدىٰ الأُمَمِ الْحَاضِرَةِ إبَّانَ تَنْزِيل القرآن، والأُمَم الّتي ستأتي بَعْدَها، قياساً علَيْهِمْ.

- ﴿... كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ... ﴿١٢٨﴾﴾.

«كَمْ» اسْمٌ يقَعُ عَلَىٰ الْعَدَدِ بمعنىٰ «كثير» وتسمَّىٰ: «كم الخبرية». ولإبهامها ودَلالَتِهَا على مجهول الجنْسِ والمقدار، كانت مفتقرةً إلى التمييز، والمميّزُ هُنَا: ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾. و«كَمْ» في موضِعِ نَصْبٍ بفعِل ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: أهْلَكْنَا كثيراً من القرون.

﴿ٱلْقُرُونَ﴾: جمع «الْقَرْن» والْقَرْنُ من النَّاسِ أهْلُ زمانٍ واحد.

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾: أي: يَمْشِي هؤلاء الْمعنِيُّونِ بالْبَيَانِ في مَساكِنِ المهْلَكِينَ السَّابقين، والجملَةُ حاليَّة.

- ﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾: أي: إنَّ في ذَلِكَ الإهلاك الشامل لمكذّبي الْقُرون السَّابقَةِ، لَعَلَامَاتٍ ذَوَاتِ دَلالَاتٍ واعِظَاتٍ لأصحاب العقول الواعية المستنير الدَّرَّاكة لدَلالَاتِ آيات الله.

﴿ٱلنُّهَىٰ﴾: أي: العقول الواعيَةِ الدَّرَّاكَة للآياتِ ذوات الدّلالات، مفردها «نُهْيَة».

- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾:

أي: وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ (يُرَادُ بها كلامٌ تَمَّ بِهِ قضاءٌ وقَدَرٌ) سَبَقَتْ في خُطَّة التكوين، وجَعْلِ الناس في الحياة مخَيَّرِينَ مُمْتَحنِين، وجَعْلِ الجزاء الأوفَىٰ مؤجّلاً إلى يَوْم الدّين، بَعْدَ الموت والْبَعْثِ، ولَوْلاَ أجلٌ مُسَمَّىٰ مُعَيَّنٌ عند الله لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، يوم الدّين، لكان تَعْجِيلُ تَنْفِيذِ مجازاتِهِم الجزاءَ الأوفى أمراً ملازماً لهم، لأنَّهُمْ قد استَحقُّوهُ بتكذيبهم بالحقّ من ربّهم، وبكُفْرهم، وظُلْمِهِم الشنيع، وجرائمهم الكثيرة.

﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾: أي: لكانُ إنْزَالُ الْجَزاءِ الْأَوْفَىٰ بِهِمْ أمْراً ملازماً لهم، لأنَّهم قَدْ صَارُوا مسْتَحِقِّين لَهُ حَتْماً، ولا مُقْتَضِي للتأجيل إلَّا الكلمة الّتي سبقت من ربك. في خطة التكوين، وقد استُعْمِلَ المصدَرُ في موقع اسم الفاعل، وهو كثيرٌ، والمصدر هنا مؤوّل باسم الفاعل.

اللّزَام: مصْدَرٌ كالملازمة، تقول لغة: «لازمَهُ، يُلازِمُه، مُلاَزَمَةً، وَلِزَاماً» أي: تعلَّقَ بِه، وصار مُحِيطاً بِعُنُقِه، كما يَتَعَلَّقُ الْغَريمُ بغَرِيمه، وكما يُعَانِقُ العاشِقُ حَبِيبَه.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: أي: ولَوْلاَ أَجَلٌ مُسمَّىٰ مُعَيَّن عند رَب العالمين، سابِقٌ في خُطَّة التكوين، قَبْلَ خلْق الناس، ووضْعِهم موضِعَ الامتحان.

لفظ «أجَل» معطوفٌ بالواو على لفظ «كَلِمَة» والأصل في العبارة: ولَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبّكَ وَأجلٌ مُسَمًّىٰ لكان لِزَاماً، إلَّا أنَّ التناظُرَ في رؤوسِ الآياتِ يَخْتَلُّ، فاقْتَضَتْ مُراعاةُ الجمال اللّفْظِيّ في النظم تأخِيرَ عبارة: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

وجعل الكلمة في عبارة: **[ولا كلمة سبقت من ربك]** خاصّةً

ومُنْحصرةً بأمَّةِ مُحمّد ﷺ غيرُ صحيح، إذْ جاء في القرآن نظيرها بالنِّسْبَةِ إلى كُفَّارِ القرون السَّابقة، في أربَعَةِ نصوصٍ غير هذا النصّ الذي جاء في سورة (طـه).

(١) فجاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: وما كان الناس إلّا أمَّةً واحِدَةً على الإسلام في القرون مِنْ عَهْدِ آدم عليه السَّلام، حتَّىٰ دَخل فيهم الشرْكُ، فاختلَفُوا، ولَوْلاَ كلمة الله بتأجيل الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، إلى يوم الدين، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ عَقِبَ التحقُّقِ من إيمان فريقٍ منهم، وكُفْرِ الفريق الآخر.

(٢) وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾:

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ﴾: أي: فآمَنَ فَرِيقٌ بالكِتاب الَّذِي آتاه الله عزّ وجلّ موسَىٰ، وكَفَر به فريقٌ آخر، ولَوْلاَ كلمة الله عزّ وجلّ بتأجيل الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، إلى يوم الدّين لَقُضِيَ بيْنَهُمْ عَقِبَ التحقُّقِ مِنْ إيمان مَنْ آمن، وكُفْر مَنْ كفر.

(٣) ولفظ هذه الآية جاء في سورة (فُصِّلَتْ) في الآية (٤٥) منها، بمُنَاسَبَةٍ أخرىٰ، غير المناسبَةِ الّتي جاءت في معرضها في سورة (هود).

(٤) وجاء في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾:

فجاء في هذا النَّصّ بيانٌ عَامٌّ يَشْمَلُ الاختلاف فيما وصَّىٰ الله به نوحاً وإبراهيم ومُوسَىٰ وعيسَىٰ، وأنّه لولا كلمة سبَقَتْ من الله بِتَأْجيل الحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذ الجزاء، إلَىٰ يَوْمِ الدِّين، لَقُضِيَ بَيْنَ كُلِّ المختَلِفِينَ السَّابِقِين، عَقِبَ التحقُّقِ من إيمان من آمَنَ مِنْهم، وكُفْرِ مَنْ كَفَر.

والّذِين أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهم هُمْ أُمّة دَعْوَةِ محمَّد ﷺ.

فتخصيص العبارة الّتِي جاءتْ في سورة (طـه) بأمّةِ محمَّدٍ، مُعَارَضٌ بهٰذِه النُّصُوص القرآنِيَّةِ الأربعة.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ السابع من دُروس سورة (طـه) والحمد لله على فَتْحِه ومَدَدِه وَتَوْفِيقه.

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (طـه)
الآيات من (١٣٠ ـ ١٣٥) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا

مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

القراءات:

(١٣٠) • قرأ شُعْبَةُ، والكِسَائي: **[لَعَلَّكَ تُرْضَىٰ]** ببناء فعل «تُرْضَىٰ» لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه، أي: لِيُرْضِيَكَ رَبُّكَ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ]** ببناء فعل «تَرْضَىٰ» للمعلوم.

وبين القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في الأداء البياني، أي: يُرْضِيكَ رَبُّكَ بِفُيُوض عطاءاته وإنعاماته، فأنت تَرْضَىٰ.

(١٣١) • قرَأ يَعقُوبُ: **[زَهَرَةَ]** بفتح الهاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[زَهْرَةَ]** بإسْكان الهاء.

والقراءتان وجْهانِ عَرَبيّانِ لنُطْقِ الكَلِمة.

(١٣٢) • قرأ وَرْش، والسُّوسي: **[وَامُرْ]** بقَلْبِ الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في حالة الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَأْمُرْ]** بتحقيق الهمزة ساكنة. والقراءتان وجْهانِ عَربيّان لنُطْقِ الكلمة.

(١٣٣) • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وحفص، وابْنُ جَمّاز، وروح: **[أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ]** بِكَسْرِ هاء الضمير، وبتاءِ المضارعة.

وقرأ رُوَيْس: [**أَوَ لَمْ تَأْتِهُمْ**] بضم هاء الضمير، وبتاء المضارعة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [**أَو لَمْ يَأْتِهِمْ**] بكَسْرِ هاء الضمير، وبياء المضارعة. والقراءات هذه وجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ جائزة متكافئة.

(١٣٥) ● قرأ قُنْبُل، ورُويس: [**السِّرَاطِ**] بالسّين.

وقرأها خَلَفٌ عن حمزة، بإشْمَام الصّاد زاياً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**الصِّرَاطِ**] بالصاد.

وهذه القراءات وجوه عربية في نطق الكلمة.

تمهيد:

جاء هذا الدرس الثامِنُ وهو الأخير من دروس السّورة، مُرْتَبطاً بالدَّرْس الأوّلِ من دُروسها، وهو بمَثَابَةِ آخر العقد المناظر لأوّلِه، وطَرَفَاهُما يُشْبَكَانِ بقُفْلِهِمَا، ليَسْتَكْمِلَ عِقْدُ السُّورَةِ دائرتَهُ الجميلة المنضَّدَة.

فصَدْرُ السّورَةِ في درسها الأوّل جاء فيه الحديث عن الرَّسُول، وعَنِ القرآن، وعن المدْعُوّين المكذّين.

وآخر السّورة في درسها الثامن جاء فيه الحديث عن الرَّسُول، وعَنِ القرآن، وعَنِ المدْعُوّين المكذبين.

● وفي أثناء هذا الدرس الأخير جاء بيان أمر الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، ويُلْحَقُ به حمَلَةُ رِسَالَتِه من أمَّتِه، بما يلي:

(١) أنْ يَصْبِرَ عَلىٰ ما يقول أعداءُ دعوته من قومه، بشأنه، أو بشأن الرسالَة الرَّبَّانِية التي جاء بها.

(٢) أن يُسَبِّح رَبَّهُ تَسْبِيحاً ملْتَبِساً ومُقْتَرِناً بحَمْدِه، كعبارة: «سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِه» في الأوقات التاليات:

(أ) قَبْلَ طُلُوعِ الشمس.

(ب) قبْلَ غُروب الشمس.

(ج) آناء اللّيل، أي: في ساعاتٍ وأوقات من اللَّيل.

(د) أطراف النهار، وهي فيما أرى: عند طُلوع الْفَجْر طَرَف، وقُبَيلَ الغروب طرف، وحين تكون الشمس في كَبِد السماء قُبَيْل الزَّوالِ طَرَف.

(٣) أن لاَ يَمُدَّ عيْنَيْهِ إِلَىٰ زَهْرَةِ الحيَاةِ الدُّنيا، الّتي مَتَّعَ اللهُ بِهَا أصْنَافاً من الكافرين، وهم الأثرياء المترفون الممتَّعُونَ بزيناتِ الحياة الدُّنيا منهم، وأنْ يقنَع بما آتاهُ الله من الدنيا، إيثاراً لمَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ الله وأبقَىٰ.

(٤) أنْ يَأْمُرَ أَهْلَهُ بالصّلاة (الأهل: الأقارب، والعشيرة، والزوجة، والأصحاب، وأهل الدّار وسُكّانُها) أي: بالصلاة الواجِبَةِ، وبالاستِكثار من النوافل، ومن أشْرَفها الصَّلاة في جوف اللّيل.

(٥) أن يَصْطَبِرَ على الاستكْثار من الصلاة كمًّا وكيْفاً، وقد كَانَ يَجْتَهِد الرَّسُول ﷺ اجتهاداً مُتْعِباً، فقد كان يقومُ من اللَّيْلِ يُصَلِّي حتَّىٰ تتورَّم قَدَماه.

• وجاءَ في هذا الدّرْسِ إعفاء الرَّسُول ﷺ من المشي في مناكب الأرض لكسْبِ رِزْقه، ليُؤَدّي رِسالَةَ رَبِّهِ بكُلِّ ما لَدَيْهِ من قُوَّةٍ وهمَّةٍ ونَشَاط، مستثمراً ما يُمْكن أنْ يَسْتَثْمِرَهُ من وقته، ووَعَدَه الله عزّ وجلّ بأن يَرْزُقَهُ من حيْثُ لا يَحْتَسِب.

وأبان له أَنَّ العاقبةَ الحسَنَة ذَاتَ المجْدِ والرفعة في الحياة الدنيا، هي للتقوى، أي: للمتقين، مع ما ادَّخر الله لَهُمْ من أجْرٍ عظيم، ونعيمٍ باذخٍ، ومُلْكٍ فوْقَ مَا يتمَنَّوْن يوْم الدين.

• وجاء في هذا الدَّرْس معالَجَةٌ لبَعْضِ أقوال المشركين، الّذِين

طَلَبُوا من الرسول محمّد ﷺ آياتٍ ذوات مظاهِرَ ماديَّةٍ مشهودة بالأبْصار مثل عَصَا مُوسَىٰ، وناقةِ صالح، وإحياءِ الموتى لعيسَىٰ، عليهم السلام.

ورَدّ الله عزّ وجلّ علَيْهم بأنَّ آيَة الْقُرْآنِ المعجزَة أعْظَمُ من الآيات اللّواتي طلَبُوا أمثَالها، باعتباره معجزةً باقيَةً مع كلّ العصور، غَيْرَ زمَنِيَّةٍ تَنْتَهِي في أوْقاتِ إجْرائِها، وباعتباره معجزةً عقليَّةً وعلميَّة، وفيها مضْمُونُ الرِّسالة الّتي جاء بها محمَّدٌ ﷺ بلاغاً عن رَبّه، وإعجازُها الْعِلْمِيُّ يظْهَرُ بتَجَدُّدٍ في تتابع العصور حتَّىٰ قيام الساعَةِ، إذِ اشْتَمَلَ علَىٰ أنباء مسْتَقبليَّةٍ، لا يمكنُ أن يَعْلَمَها إلَّا اللهُ عزّ وجلّ، واضع خُطَّةِ التكوني لأحداث كَوْنِه قَبْلَ أنْ يخْلُقه.

ولوَّح الله عزّ وجلّ لَهُمْ بعصَا الإهلاكِ الّتي أهْلَكَ بها الكافرين مكذّبي الرُّسُل السَّابقين، مشيراً إلى أنَّهُ يُمْهِلُهُمْ حتَّىٰ يَسْتَقِرَّ فِي قلوبهم الاستيقانُ بأنّ محمّداً رَسُولٌ من رَبّهم حَقًّا وصِدْقاً، وحَتَّىٰ يَصِلُوا في غالبيَّتِهم العظمىٰ إلى حالة ميؤوسٍ من إصلاحهم معها على طريقِ إراداتهم الحرَّة، وذلِكَ ليَقْطَعَ أعذارَهم، ولئَلَّا يقولُوا إذا نَزَلَ بهِمُ الإهلاك الجماعيُّ الشَّامل، وأَدْرَكُوا أنَّهُمْ هالِكُونَ لا محالة: يَا رَبَّنَا هلَّا أرْسَلْتَ إلَيْنا رَسُولاً فنَتَّبع آيَاتِك.

● وَجاءت في هذا الدّرسِ إجابَةٌ علَىٰ قَوْلٍ مطويٍّ قالُوهُ إبّانَ نزول سورة (طـه) هَمْساً وَلم يُشَيِّعُوه، كَنَحْوِ قولهم الذي جاء التصريح به في سورة (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿نَتَرَبَّصُ﴾: أي: ننتظر، يقال لغة: «تَرَبَّصَ فُلاَنٌ بفُلاَنٍ تَرَبُّصاً» أي: انتظر خيراً أو شراً. ويُقَال أيْضاً: «رَبَصَ بفُلاَنٍ، يَرْبُصُ، رَبْصاً» بمعنى: انتظره.

﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: يرادُ بهٰذه العبارة حوادثُ الدَّهر الْمُمِيتة.

فالمعنى: ننتظر أن تأتِيَهُ حادثَةٌ من حوادث الدَّهْر، يموتُ بها، فنتخلَّصُ مِنْهُ ومن دَعْوَته.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: قل لَهُمْ يا مُحَمَّدُ انْتَظِرُوا مَوْتي، فإنّي معَكُمْ في الانتظار، إلّا أني أَنْتَظِرُ نَصْرَ الله لي، وخذلَكُمْ، وإذْلاَلَكُمْ. وخَيْبَتَكُمْ فِي مَسَاعِيكُمْ.

في هذا التعليم الرَّبانيّ لرسُوله تلويحٌ بالْوَعِيد، وبالْعَاقِبة السّيئةِ الّتي سَتَأْتيهم، وبالعاقبة الحسنة الّتي ستكُون في الدنيا للرسُول ﷺ، وللذِين آمنوا به واتَّبَعُوه، وقَدْ تحقَّقَ الأمران بَعْدَ نَحْو سَنَةٍ أو سَنَتَيْن من نزول سورة (الطور) فترتيب نزول هذه السُّورة يُشْعِر بأَنَّها نَزَلَتْ في أواخِر العهد المكيّ، قُبَيْلَ هِجْرَة الرسول ﷺ إلى المدينة.

أما ترتيب نزول سورة (طـه) فَيُشْعِرُ بأنَّها نَزَلَتْ في أواسِطِ الْعَهْدِ المكي، وقَدْ جَاءَ فيها قَوْلُ الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾:

أي: فَسَتَعْلَمُونَ في بِضْعِ سِنِينَ أَنَّنا أصحابُ الصّراط السّوي المستقيم، وأنَّنا نَحْنُ المهتَدِين، وفي المقابل ستَعْلَمُون أَنَّكُمْ بَعِيدُونَ جدّاً عن الصراط السّوِيّ، وأنّكُمْ كُنْتُمْ في ضَلاَلٍ بَعِيد.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ:

- ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾:

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: دلَّتْ هـٰذه العبارة خطاباً للرَّسول ﷺ، أنَّ كُبَراء مُشْرِكي مكّة صاروا يَقْذِفُونَ أقوالاً دعائية إعلاميَّة، ضِدَّ الرَّسول ﷺ، وضِدَّ رِسَالته، وضدَّ القرآن الذي يُبَلّغُهُ عن رَبّه، وضِدَّ الّذين آمَنُوا بِه واتَّبعُوه، وأنَّ هـٰذِه الأقْوالَ كانت تُحْزِنُ الرسول، ويَضِيقُ بها صَدْرُه، وتتحرَّكُ نَفْسُه بِرَغَبات التَّشَفّي من مطلقي هذه الأقوال المؤذية، فأمَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنْ يَصْبِرَ علَيْها، ولاَ يَشْغَلَ نَفْسَه وقَلْبَهُ وفِكْرَه باتّخاذ وسائلَ مضادَّةٍ لهَا، وما عَلَيْهِ إلّا أن يُتَابعَ مَسِيرَتَهُ في تَأْدِيَةِ رِسالَةِ رَبِّه، غَيْرَ مُبالٍ ولا مُكترِثٍ ولاَ عابِىءٍ بها.

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾:

تَسْبِيحُ الله عزّ وجلّ، يتضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عمَّا لاَ يَليقُ بِذَاتِه وصِفَاتِه وجلالِهِ وعظيم سلطانه.

وحَمْدُ الله عزّ وجلّ، يَتَضَمَّنُ الثناء عَلَيْه بكُلِّ ما هُوَ لَهُ مِنْ صِفَاتٍ جليلاتٍ عظيماتٍ، لَيْسَ لكمالِها نِهَايَات ولا غايات.

والمطْلُوبُ أَنْ يكونَ التسبيح مقترناً ومُلْتصِقاً ومُشْتبكاً بالحمْدِ، لأنَّ من التنزيه أنْ لا تَنْقُصَ مَحامِدُه عمّا هي لَهُ شيئاً، ومِنَ الْحَمْدِ نَفْيُ كُلِّ ما هو مُنَزَّهٌ عنه، ممّا لاَ يَلِيقُ به، فجاء التعْبير: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: وسَبِّحْ رَبَّكَ تَسْبيحاً مقترناً ومُلْتَبِساً ومُشْتَبكاً بِحَمْده، والعبارة المختارة في البياناتِ النَّبَوِيَةِ للتسبيح بحَمْدِ الله: «سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ» و«سُبْحَانَ الله العظيم وبِحَمْدِه» و«سُبْحَانَ الله والْحَمْدُ لله».

والأوْقَاتُ المبيَّنَةُ في هـٰذِهِ الآيَةِ للتَّسْبِيح بحَمْدِ الله ستَّةُ أوقات، وهي:

الأول: قبل طُلُوع الشمس، وهو ما بين طلوع الفجر حتَّىٰ طُلوع الشمس.

الثاني: قَبْلَ غروب الشمس، وهو ما بين دخول وقت صلاة العصر حتى غروب الشمس.

الثالث: من آناء اللّيل، أي: من ساعات اللَّيل وأوقاته، من أوله، أو وسَطِه، أو آخره.

الرابع: عنْدَ طُلُوعِ الفجر فهذا طَرَفٌ أوَّلُ للّنهار، ولتخصيص هذا الوقتِ مزيَّة.

الخامس: قُبَيْلَ غروب الشمس، فهذا طَرَفٌ أخِيرٌ للنَّهار، ولتخصيص هذا الوقت مزَّية.

السادس: قُبَيْلَ زَوالِ الشَّمس، أي: حينما تكونُ الشمس في كَبِدِ السَّمَاءِ تماماً، فهذا طرف وسَطٌ للنهار، ولتخصيص هذا الوقت مزية، فالغرض أنْ لاَ يخلوا هذا الوقت من ذكر الله، إذْ تَحْرُم فيه الصلاة، كَحُرْمَةِ الصلاة عند غروب الشمس، وقُبَيلَه.

ودرج أكْثَر المفسرين علىٰ أنّ هذه الأوقات المبيَّنَة في هذه الآية تشِيرُ إلى أوقات الصَّلَواتِ الْخَمْسِ، مع أنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الّتي فُرِضَتْ ليْلَةَ إسْراءِ الرَّسُولِ ومِعْراجِه، لم تكُنْ قَدْ فُرِضَتْ إبَّانَ نزول سورة (طه).

ودليلُهم ما جاء في الصَّحِيحيْنِ عنْ جرير بْنِ عبد الله البَجَلِي قال: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، فنَظَرَ إلىٰ الْقَمَرِ ليْلَة الْبَدْرِ فقال:

«إنّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَـٰذَا الْقَمَرَ لاَ تُضامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُرُوبِهَا فافْعَلُوا» ثم قرأ هـٰذِه الآيَة: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

لكنّ هذا الحديث لا يَدُلُّ على أكْثَرَ مِنْ فَضْلِ هـٰذَينِ الوقْتَيْن، اللَّذَيْنِ تكُونُ فيهما صَلاة الفجر، وصلاة العصر.

والآيَة وارِدَةٌ لمعالجة حالة الرَّسُول النفسيَّة، بدواءٍ من ذكْرِ الله في الأوقات السّتَة التي سَبَقَ بيانُها، لتفريغ شِحْنَاتِ انزعاجِهِ من أقوال كُبَرَاءَ مشركي قومه المؤذيَةِ له، والّتي كانوا يقولُونها بأَساليب دِعائية إعلاميَّة، قُبيلَ نزول سورة (طـه) ضدَّه، وضدّ رسالته وضدَّ القرآن المجيد، وضِدَّ الذين آمنوا به واتَّبعُوه، والتَّسْبِيحُ المتكرِّرُ في الأوقات المبيَّنَةِ في الآية، دواءٌ ناجِعٌ لصَرْف كلِّ ما في النفس من مُؤْلِمَاتٍ، ومُزْعِجاتٍ، ومُقْلِقاتٍ، ومُحْزِنات، تضيق بها الصُّدُور، وتتكَدَّرُ بها المشاعر.

والتَّسْبِيح بحَمْدِ الله يُذَكِّر المسبِّحَ الحامدَ لله، بأنّ الله عزّ وجلّ الْقَدِيرَ على أن يفْعَلَ مَا يُرِيدُ في عباده، وفي الكَوْن كُلِّه، يَصْبِرُ بِحِلْمِهِ العظيم علىٰ عِبَادِهِ الجاحِدينَ إلّهيّته، والجاحِدِينَ رُبُوبيَّتَهُ، والجاحِدِينَ آيَاتِه، والمكذّبين بكتابِه المعجز، فيُمْهِلُهُمْ، ولا يَعْجَل بمُعَاقَبَتِهِمْ والانتقام مِنْهِم، ليَتْرُكَ لَهُمْ زمَناً واسعاً يُراجِعُونَ فِيه أَنْفُسَهُمْ، رِضاً مِنْهُ في أَنْ يَتُوبوا إليه، ويَسْتَغْفِرُوهُ، ويكونوا من الناجين من عذابه، والفائزين بجنَّتِهِ.

فعلىٰ الرَّسُولِ، وعلى حَمَلَةِ رِسالَتِهِ مِنْ أمته، أنْ يتخلَّقُوا بأخْلاقِ الله، ويُعامِلُوا عِبَادَهُ بما يُعَامِلُهُمْ هُوَ به، فيَصْبِرُوا عَلَيْهِم، ويُعامِلُوهم بالإغضاءِ والصَّفْحِ الجميلِ، عَسَى أنْ يكون هـٰذا الْخُلُقِ سَبَباً في إيمانهم، وإِسْلامِهم، لإنقاذِهم مِنْ عذاب الله ونِقْمَتِهِ، وسبباً لإدْخالهم يَوْمَ الدِّين في جنَّاتِ النعيم.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾: أي: لِتَرْضَىٰ، على أنَّ «لَعَلَّ» تَعْلِيلِيَّة، أَوْ رَاجِياً ومُتَرَقِّباً أنْ يأتِيَ زَمَنٌ قَرِيبٌ تكُونُ فِيهِ رَاضِياً عَنْ صَبْرِك الّذِي صَبَرْتَهُ علىٰ أقوالِ كُبَراء كُفَّارِ قَوْمِك، وراضياً باسْتِعْمَالِكَ دواء التَّسبيح بحَمْدِ رَبِّك، إذْ تَنْزَاحُ عَنْ نَفْسِكَ مشاعر الكدْرِ والضّيق والألم والقلَق والانزعاج الّتي سبَّبَتْهَا أقوال كبراءِ كفارِ قومِكَ الَّتي أشاعوها وآذَوْكَ بها ظُلْماً وعُدْواناً وبغياً مِنْ عند أنفسهم.

الرِّضا: الشُّعُور بالارتياح، والاكتفاء، والقَبُول، وتحقيقِ المطلوب. يقال لغة: «رَضِي به، ورَضِيَه، ورَضِيَ عَنْهُ، ورَضِيَ عليه، يَرْضَىٰ، رِضاً، ورِضاءً، ورِضْوَاناً، ومَرْضَاةً» أي: قَبِلَهُ، واختاره، وارتاحَتْ إلَيْه نَفْسُه، واكْتَفَىٰ به.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، ويُلْحَقُ به حَمَلَةُ رِسالتِه مِنْ أمته:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾:

لقد اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ أنْ يَجْعَل النَّاسَ كفَّارَهم ومؤمِنِيهم، على مُدَرَّجٍ ذي مستوياتٍ مُرْتقِياتٍ ومُتَنازِلاَتٍ في وسائل استمتاعاتِهم في الحياة الدنيا، فمنهم الأغنياء على مستوياتٍ متفاضِلاَتٍ ارتقاءً، ومنهم الفقراء على مُسْتَوياتٍ مُتَنازِلاَتٍ انحطاطاً، ومنْهم الأقوياء وذوو السُّلْطانِ على مستويات متفاضلاتٍ ارْتقاءً، ومنهم دون ذلِكَ على مستوياتٍ لِيَبْلُوهم فيما آتاهُمْ، وليتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بعضاً سُخْرِيًّا.

وقد تَخْفَىٰ على بَعْضِ الناسِ ومنْهُمُ المؤمِنُونَ، حكْمَةُ الله عزّ وجلّ في هذا التفاضُلِ والتنازُلِ في متاعات الحياة الدنيا وزيناتها.

ورُبَّما تتطَلَّعُ نفوسُ بعْضِ المؤمنين باسْتِغْرابٍ أو بِتَشَهٍّ، إلى ما مَتَّعَ الله عزّ وجلّ به أصنافاً مِنَ الناس، ولا سيَّما الكافِرُون والْعُصَاة، من زيناتِ الحياة الدنيا وزُخْرُفِها، أموالاً، وقُصوراً فخْمَةً، ومزارِعَ، ومطاعِمَ، ومشارِبَ، ومناكِحَ نفيسَة، بينما يكُونُ المؤمنونَ مَحْرُومين منها، وقَدْ تتحَدَّثُ نفوسُ بعْضِهم قائلَةً: لماذا لا يكونُ لنا مِثْلُ هذا الذي متَّعَ الله به الكافِرين، أو العصَاة الظالِمين لأنفسهم، ونَحْنُ مؤمِنونَ، ولَهُ عابِدُونَ ومُطِيعُون.

وقد جاء في القرآن والسُّنَّة علاج هذا الّذي يمكن أن تتحدَّث به

نفوسُ بَعْضِ المؤمنين، بأنواعٍ من البيانات العلاجيّة الكاشفات لجوانب من حكمة الله عزّ وجلّ في تدبيراته لابتلاء عباده.

منها أنّ ظروف الحياة الدنيا ظُرُوف امتحان، والامتحان الأمثل للناسِ على اختلاف خصائص نفوسهم لا بُدَّ أن يكون فيه هذا التفاضل.

ومنْها أنّ المستمتِعِينَ مِنَ الكافِرين بمستويات رَفِيعاتٍ من متاعات الحياة الدُّنيا، قَدْ عَجَّلَ الله لهم فيها طيّبَاتِهِمْ ومَا تَهْوَىٰ نفوسُهم، وابتلاهُمْ بما آتاهم، ولَمْ يُسْعِدْهُمْ سَعَادَةً حَقِيقِيَّةً بالْوَفْرَة الّتِي أغْدَقَ بها عليهم.

ومنها أنّ زمن الحياة الدنيا زمَنٌ قليلٌ ضئيلٌ معْدُودٌ محْدُودٌ بسنينَ، يعقُبُه عذابٌ أليم خالدٌ في الجحيم على كفْرِهِمْ وجحودهم آياتِ رَبّهم، بجانب زمَنٍ لا حُدودله، ولا نهاية لَه، ينالُ فيه المؤمنون خلوداً أبديًّا في جنَّاتِ النعيم يوم الدين.

واقتضىٰ علاج المؤمنين، ولا سيما حَمَلَةُ رسالَةِ الرَّسُول من أمَّتِه، أن يوصِيَهُمُ الله بأسْلُوب خطاب رسوله، أن لا يَتطَلَّعُوا إلَىٰ ما مَتَّعَ الله عزّ وجلّ به أصنافاً من النَّاسِ مِنْ زينَاتِ الحياة الدُّنيا، وأن يَقْنَعُوا بما آتاهم من فَضْله.

أمّا الرَّسول محمَّدٌ ﷺ فلا يُظَنُّ فيه أنْ تَتطَلَّعَ نَفْسُهُ إلى شيءٍ مِنْ ذلك، وقَدْ عُرِضَتْ عليه من قِبَلِ رَبّه جبالُ الذهَبِ، على أنْ يَتعَرَّض لابتلاءِ شبيهٍ بما تَعَرَّضَ له دَاوُدُ وسلَيْمانُ وأيُّوبُ عليهم السَّلاَم، فأَبَاها، وارتضىٰ لنفسه من الدُّنْيا أنْ يَكُونَ عبْداً مِسْكِيناً من عباد الله المساكين، دُونَ فَقْرٍ يُحْوجُه إلى ضَرُورِيَّاتِ حيَاتِه وحَاجَاتِها الملحَّاتِ.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ. . .﴾:

أي: وَلاَ تَنْظُرَنَّ نَظَرَ تَشَهٍّ إلىٰ مَا أمْدَدْنا به مِنْ مَتَاعِ الحياة الدنْيا،

أصْنَافاً من المشْرِكينَ وسَائِرِ الكافِرين، وأصْنافاً من عُصَاة المؤمنين، لامتحانهم واختبارهم بما أمْدَدْناهم به.

جاء التعبير بمدّ الْعَيْن بَدَلَ النَّظَر، للدّلالَةِ علَىٰ أنَّ نَظَرَ التَّشَهِّي والطَّلَبِ يخْتَلِفُ عن النَّظَرِ الْعَادِيِّ العابر. فنَظَرُ التَّشَهِّي يقْتَرِن بدوَافع تَمْتَدُّ آثَارُها من داخِلِ النفس، سائرةً على خُطُوط أشِعَّةِ النظر، لتَتَناوَلَ المشْتَهَىٰ وتَمْتَلِكَهُ، حتَّىٰ كأنَّ الْعَيْنَيْن يدَانِ مُمْتَدَّتانِ تَبْغِيَان ما اشْتَهَتْهُ النَّفْسُ، لِتَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ وتَمْتَلِكه.

وفي هذا معْنَىٰ الاعْتِراض عَلَىٰ حِكْمَةِ الله في عطائِه ومَنْعِهِ، وفي التوسِعَةِ علَىٰ بَعْضِ عباده، والتَّضْيِيق على آخرين منهم، لِيَبْلُوَ كُلًّا منْهُمْ بما يُلائِمُ فِطْرَة نَفْسه الّتي فَطرَهُ عَلَيْها.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾: أي: إلىٰ ما ملّكْنَاهم مِنْ متَاعٍ لِيَسْتَمتِعُوا به في الحياة الدّنيا. **المتاع**: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، ويُتَبَلَّغُ به، والفناء يأتي علَيْهِ في الدُّنيا.

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أي: أصْنَافاً من النَّاسِ ولَوْ كَانُوا كافِرين، يُطْلَقُ لفْظُ: «الزَّوْج» في اللُّغَةِ عَلَىٰ الصِّنْفِ مِنْ كُلِّ شيْء.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: شَبَّهَ الله عزّ وجلّ كُلَّ ما في الحياة الدنيا مِمَّا تَتَعلَّقُ بِهِ نفوسُ النّاس، منْ مَتَاعِها وَزِيناتها، وما تَهْوَىٰ النفوسُ منها، بالزَّهْرَةِ، ذَاتِ المنظر الجميل الأخَّاذ بألوانها، وقَدْ تكُونُ ذَاتَ رائحَةٍ عِطْرِيَّةٍ زَكِيَّة، وعَبِيرٍ جَمِيلٍ تَسْتَمْتِعُ به حَاسَّةُ الشَّمّ، وَقَدْ تَكُونُ ذات طَعْم لَذِيذٍ طيّبٍ، تَسْتَمْتِعُ بِه حَاسَّةُ الذَّوْق، إلّا أنَّها سَرِيعَةُ الذُّبول، سَرِيعَةُ الْمَوْت، سَرِيعَةُ الْمَصِيرِ إلىٰ الفناء.

وقد اسْتُعِير في الآية لفظ «زهرة» للدَّلاَلَةِ على لَذَّاتِ الحياة الدُّنيا، وزيناتِها، ومَا تَهْوَىٰ النفوسُ منها، للتَّشَابُهِ بيْنَهُما في سُرْعَةِ الزّوال والفناء،

مع ما فيهما مِنْ مَتَاعٍ مَرْغُوب فيه، وأضيف لفظ «زَهْرَة» إلى الحياة الدُّنيا، لتكونَ هٰذه الإضافة قرينَةً صارفةً عن إرادة الزهْرَة الّتي تَنْبُتُ في الْأَشْجار، أو في غيرها من نباتَات الأرض، ويَسْتَمْتِعُ بها الناسُ استمتاعاً مُؤَقَّتاً بزَمَنٍ قَصِير، إذْ عُمْرُ الزَّهر قصير بالنسبَةِ إلى سائر ما يَنْبُتُ في الأرض.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾: أي: لنَبْتَلِيَهُمْ، ونَمْتَحِنَهُمْ، ونختَبِرَ إرادَاتِهِمْ وسلوكهم فيه، خلال ظروف الحياة الدنيا.

أصْل الفتنة، الصهر بالنار للمعدن، كالذهب والفضّة، لتمييز الرَّدِيء من الجيّد، ولاختباره، ثمّ أطْلِقَ بالتَّوَسُّعِ اللّغَوِيّ على كُلّ ابتلاء وامتحانٍ واختبار.

﴿. . .وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾: أي: ورِزْقُ رَبِّكَ الّذي يَهَبُهُ لَكَ في الحياة الدُّنْيَا، وسَوْف يُفيضُهُ عَلَيْكَ يَوْمَ الدِّين في جَنَّات النعيم، أعْظَمُ خَيْرِيَّة، وأكْثَرُ بَقاءً.

أمّا في الحياة الدّنيا فالرّزْقُ القليل الكافي، الْمَقْرُونُ بِطُمْأْنِيَةِ نفس المؤمن، واستمتاعِهِ، بما آتاهُ الله إيَّاهُ، خالياً من الأكدار والمنغصّات، أوْ راضياً طامِعاً بما ادَّخرَ الله له، وجعَلَهُ مؤجّلاً إلى يوم الدِّين، أكْثَرُ وأفْضَلُ هَنَاءَةً ولَذَّةً واسْتطابَةً من الرّزْقِ الوفير الفائضِ عن الحاجات، المقرونِ بالقلَقِ، والأكْدَارِ، والمنَغِّصَاتِ، والمزعجات، والآلام، والمتاعِب المضنيات للنفس.

وأمّا في الدّار الآخرة يَوْمَ الدّين، فلا وَجْهَ للمقارنَةِ بِوَجْهٍ من الوجوه، فالسعادة كُلُّها للمؤمنين في جنَّاتِ النعيم، والشقَاء والعذابُ وكلُّ ما يُؤلِم ويَسُوءُ للكَفَرَةِ والمجرمين، وعذابٌ دُونَ ذلك للمؤمنين الّذي أسرَفُوا على أنْفُسِهم بالمعاصِي والمخالفات لرَبّ العالمين.

وقد كان رسول الله ﷺ أزْهَدَ النّاسِ في الدُّنيا، مع قُدْرَتِهِ على أنْ

يكون ذا مالٍ وفير، وذا رفاهيّة عظيمة، وقد عُرِضَتْ عليه جبال الذهب فأباها.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾:

في هذه الآية بيانُ أربَعِ قَضَايَا مُوَجَّهَةٍ للرَّسُولِ فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسالَتِهِ من أُمَّتِهِ، بأسْلُوب الخطاب الإفرادي:

القضيَّةُ الأولىٰ: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾:

الأهل: «الأقارب، والعشيرة، والزَّوْجَةُ، والأصحاب، وأَهْلُ الدّار وسُكَّانها».

الواجب على حامل رسالَةِ رَبِّهِ، أَنْ يَبْدَأَ بأَهْلِهِ وعَشِيرَتِه الأقربين، فيَدْعُوهم إلى دين الله الحق، ويُبَشِّرَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ، فإذا آمَنُوا وأسْلَمُوا، فالواجب علَيْه أنْ يأمُرَهُمْ بالصَّلاة، لأنَّها ثاني أرْكان الإسلام، إذ الرُّكْنُ الأولُ من الإسلام، يكون بإعْلاَنِ الشهادتَيْن، وبَعْدَهُ رُكْنُ الصلاة، وهي عبادَةٌ واجب تكريرها يَوْميًّا طَوالَ عُمْرِ المسلم، وعلَىٰ حامِلِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بَدْأً مِن الرَّسُولِ، فكُلُّ حامل رِسالَتِه من أمَّتِه، أنْ يأمُرَ أَهْلَهُ وَهُمْ الأقربونَ مِنْ عَشِيرَتِهِ بالمحافَظَةِ عَلَيْها، فهِيَ الْعَمَلُ اليوميُّ للظاهر من أَعْمَال الْمُسْلِم الدَّالَّةِ علَىٰ التزامِهِ بإسلامه، وأمْرُهُ أهلَهُ أوّلاً يَدُلُ على صدْقِهِ في تأدية الرِّسَالة.

ويَشْمَلُ الأمْرُ بالصلاة الأمْرَ بالصلاة الواجبة، والأمْرَ بالنوافل غير الواجبة، وأهمُّها الصلاة في جوف الليل، ولكِنْ يأمُرُ بالنوافل على سَبِيلِ النَّدْبِ والحثّ، لا علىٰ سبيل الإيجاب والإلزام.

ولا يخفىٰ ما في الاهتمام بالصَّلاة مِنْ مكانةٍ عظيمة للصلاة في الدين، إذْ هِيَ الصِّلَةُ المتكرِّرَةُ بالله في أعْمَالِ الْيَوْم واللَّيلَةِ من الأعمال الإسلامية.

القضيَّة الثانية: دلّ عليها قَوْل الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ أي: واصْبِرْ صَبْراً كثيراً على الاستكثارِ من الصلوات النوافل، ولا سيما الصلاة في جَوف اللَّيْلِ، وهي المعروفة بقيام اللّيل، فهي الّتي تحتاج إلى اصطبار.

[اصطبر] أمْرٌ مِنْ فعل «اصْطَبَر» أصْلُه: «اصْتَبَر» قُلِبَتْ التاء طاء على وفق القاعدة العربية، وصِيغَةُ «افْتَعَلَ» تَدُلُّ علَىٰ التكلُّفِ وبذْلِ طاقَةٍ إضافيّةٍ، وتحمُّل مشقَّةٍ زائدةٍ على المعتاد. وهذا إنَّما يكون بالإكثار من النوافل، ولا سيما في جوْفِ اللَّيل.

هٰذه الصَّلاةُ تُساعِدُ حامِلَ الرّسالَةِ علىٰ المجاهدة في تبليغ رِسالَةِ رَبّه، إذ هي تُشْعِرُهُ بأنَّهُ موصولٌ بِسِلْكِ طاقةٍ يُمِدُّهُ الله عن طريقِه بالْعَوْن والقوّة والْقُدْرَة على تحمُّلِ المشقَّاتِ، والصَّبْرِ على الأذيّان اللّاتي يلْقَاها من الذين يَدْعُوهم، إذا كانوا من المعرضين عن دعوته، أو من المدبرين والمتولّين، أو من المجاهرين بعداوتهم، ومقَاومَتِهم بوَسَائل القوَّةِ الماديّة المختلفة.

القضية الثالثة: دلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ أي: لا نَطْلُبُ مِنْكَ أنْ تَمْشِي في اكْتِسَابِ رزْقِكَ وَرِزْقِ مَنْ تَعولُهُمْ، فَنَحْنُ نُهَيِّىء لَكَ رِزْقَكَ الّذي يَكْفِيكَ ويكْفِي أسْرَتَك، لتَتَفَرَّغَ للقيام بوظائف رِسالةِ ربّك.

هذا خطابٌ للرَّسُول ﷺ، وهو يَدُلُّ على أَنَّ الْأُمَّة الإسلاميَّة مَسْؤُولَةٌ عَنْ أرْزاقِ من يَحْمِلُونَ رِسالةَ الرسُولِ من أُمَّتِه، لِيَتَفَرَّغُوا لأدَاءِ وظائِفِ

رِسالَتِهِمْ بعِفَّةٍ ومجاهدَةٍ صَادِقَةٍ، وإخْلاَصٍ لله عزّ وجلّ، ولهؤلاء حظٌّ في صنف «في سبيل الله» من أصناف مُسْتَحِقّي الزَّكاة، إذِ المطلوبُ إعفاؤهُمْ من الْعَمَل لاكتساب أرْزاقهم، ليُجَاهِدوا في تأديَةِ وظائِفِ الرّسالة التي اضطلعوا بأعبائها، دَعْوَةً إلى الله، أو نُصْحاً وَإرْشاداً، أو أمراً بالمعروف ونَهْياً عن المنكَر، أو تَعْليماً وتَفْقيهاً بدِينِ الله.

القضية الرَّابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾: أي: والعاقبَةُ الحسنَةُ تأييداً من الله ونصراً، وتَوْفيقاً، وثواباً عَظِيماً، للمتَّصِفين بالتَّقْوىٰ، من أجْلِ تَقْواهم لربّهم.

أطْلِقَ لفظ التقوىٰ وأُرِيدُ المتَّصِفُونَ بها، لأنَّها هي السَّبَبُ في إكرام الله لهم بأنْ يَجْعَلَ العاقبَةَ الحسَنَةَ مِنْ نَصِيبِهم، ثواباً لَهُمْ على تَقْواهم، وهذا من إطلاق السَّببِ وإرَادةِ المسَبَّبِ إيجازاً في العبارة، وأصْلُ العبارة: والعاقبة الحسنة للمتقين بسَبَب تَقْواهم.

ويُفْهَمُ بالمقابل أنَّ العاقبة السيّئَةَ للعُصَاة وللمجرمين.

التَّقْوَىٰ: اسْمٌ للاتقاء، وهو أنْ يجعل الإنسان بيْنَه وبَيْنَ مَا فِيه ضُرٌّ أو أذىً له ما يَحْفَظُهُ ويَقِيه.

وتقوىٰ الله، تتحقَّقُ بفِعْلِ مَا أَمَرَ الله بِه أمْرَ إيجاب، وتَرْكِ ما نَهىٰ الله عنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم.

وفوق مَرْتَبَةِ التقوى مَرْتَبَةُ البرّ، وفوقهما مَرْتَبَةُ الإحسان.

والعاقبة الحسنة للمتقين في الدُّنيا تكون بالنصر والتأييد من الله، أو باكتساب الشهادة، أو بالثواب العظيم. وفي الآخرة تكون بالمنازِل الرَّفِيعة في جناتِ النعِيم، التي ينالون فيها ما لا عيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر على قَلْبِ بشَر.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾:

﴿لَوْلَا﴾: هنا حَرْف تحضيض مثل: «هَلَّا».

﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾: أي: هلَّا يأتينا محمّد بآيةٍ خارقةٍ مَشْهُودَةِ الآثَارِ مِنْ رَبِّهِ القدير، كعَصَا مُوسى، وكناقة صالح، وكإحياء عيسىٰ الموتى بإذن الله.

والمعنَىٰ: فإذَا جَاءَ محمَّد بمِثْلِ هٰذِه الآيَاتِ آمَنَّا به.

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾: جاء تفسير البيّنة في سورة (البيّنةِ/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول) بأنَّها: رَسُولٌ مِنَ الله يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً فيها كُتُبٌ قَيِّمَة. **والبيّنَةُ** في اللُّغَة: هي الواضحة الظاهرة الّتي لا شَكَّ فيها، ولا غَبَشَ عليها: يقال لغة: «بَأنَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَاناً، فَهُو بَيِّنٌ وَهي بَيِّنَة» أي: اتَّضَحَ وظهر بجلاء. وتُطْلق البَيِّنَةُ على الحجَّةِ الواضحة.

ولفظ «بَيِّنَة» أو «الْبَيِّنَة» كثيراً ما يأتي صفة لموصوف محذوف، ويُقَدَّرُ في كلِّ نَصٍّ بما يُنَاسبه.

وقد نظَرْتُ في لفظ «البيّنَةِ» في القرآن فوجَدْتُ أنَّها أطْلقَتْ على الرسالةِ الرَّبّانيّة الواضحة، وعلىٰ الرسول، وعلى الصحف والكتب المنزَّلَة من عند الله. وعلى الآيات الخوارق المعجزات الواضحات الجليَّات، وعلى البراهين الواضِحَةِ القاطعة.

والقرائن في هذا النّص الذي نَتدبَّره من سورة (طـه) تُشِيرُ إلَىٰ معجزة القرآن المجيد، وتُشِير أيضاً إلى الرَّسُول محمّد الّذِي جاءت البشارات بِهِ في الصحف الأولى.

فالقرآنُ اشْتَمَلَ عَلَىٰ زُبْدَةِ مَا فِي الصُّحُفِ الأولَىٰ، وزِيَاداتٍ عظيماتٍ لم تأتِ فيها، وهو آيَةٌ عقْلِيَّةٌ مُعْجِزَةٌ، وعناصِرُ إعجازه: بيانيَّةٌ بَلاَغِيَّة، ومُطَابَقَةُ ما جاء فيه للحقائِق العقليَّة الّتي تَشْهَدُ بها العقول السَّلِيمَةُ، وتُثْبِتُها التجْرِبَاتُ المتكرِّرَات، وللحقائق الكونيّة الَّتي شَهِدَتِ الْعُلومُ الصَّحِيحةُ بعْدَ دِراسَاتٍ مستفيضات مُضْنِيَاتٍ من قِبَلِ عُلَمَاء الكونيات بأنَّها حقٌّ وصِدْق، ومطابقَةُ أنبائِه المستقبليَّة لما تحقَّقَ مِنْها في الواقع، وظاهرٌ أنَّ تَحقُّقَ الْبَعْضِ يَدُلُّ علىٰ أنَّ مَا لَمْ يأتِ وقْتُ تَحقُّقِه، سيَتَحقَّقُ في ظُرُوف الْحَيَاةِ الدُّنيا، أو سَوْف يَتَحقَّقُ في يَوْمِ الحياة الأخرى.

ومحمَّدٌ ﷺ بمَثَابَةِ بيِّنَةٍ جَليَّةٍ، في صفاتِهِ الممتازة، وخُلُقِهِ العظيم، وبما جاءَ بشَأْنِهِ مِنْ بَشَائِرَ في الصُّحُفِ الأولى.

فلَوْ أنْصفَ كُبَراء مُشْرِكي قُرَيشٍ، إبَّانَ التنزيل، ولَمْ يَسْتَكْبِرُوا، ولم يَتبعُوا أهواءهم، وتَقْلِيدَهُمُ الأعْمَىٰ لِمَا كَانَ عَلَيْه آبَاؤُهم، لَعَلِمُوا أنَّ القرآنَ وَحْدَهُ بيِّنَةٌ كافيَةٌ لِمَنْ يُرِيدُ الاقتناعَ بالحقّ، ولَعَلِموا أنَّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ يَكْفِي أنْ يَكُونَ هو وحْدَهُ بيِّنَةً واضحةً، بصِفَاتِه الممتازة، وخُلُقِه العظيم، وبمَا جاء في صُحُف الأوّلِينَ بشأْنِهِ من بَشَائِر، وَبِتلاَوَتِهِ آيَاتِ الله البيّناتِ المعجزاتِ، ببَلاَغتِها، وبما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ حقٍّ وصِدْقٍ وهِدَايَةٍ إلى كلّ ما هو خير وفضيلَةٌ ورُشْدٌ.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ أرْسَلْنَا إلَيْهم البيّنَةَ، الَّتي هِيَ رَسُولُ مِنَ الله يَتْلُو صحفاً مُطَهَّرَةً، فِيها كُتُبٌ قَيّمَةٌ، هِيَ زُبْدَةُ مَا فِي صُحُفِ الرُّسُلِ السَّابقين وكتُبِهِمْ، وبِهٰذا الإرْسَال قَطَعْنَا أعذارَهم الّتي كانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أنْ يَعْتَذِرُوا بها.

ولَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بسبَبِ كُفْرِهم وجَرَائِمِهم بعذابٍ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَهُمْ

بالْبَيّنَةِ، لقالوا: يا رَبّنَا هَلّا أرْسَلْتَ إلَيْنا رَسُولاً، يَتْلُو عَلَيْنا آياتِكَ فَنَتَّبِعَها مِنْ قَبْلِ أنْ نَذِلَّ بإنْزَالِكَ العذابَ علَيْنَا، ومِنْ قَبْلِ أنْ نَخزَىٰ به.

أي: لقالوا هذا القول عند مشاهدتهم وسائل التعذيب الّتي تَنْزل عليهم، أو يَوْم الدِّين حِينَ إحضارهِمْ لمحكَمَة الحساب وفَصْلِ القضاء، إلّا أن إرسال الرسول الذي تَلا عليهم كِتَابَ رَبِّهم قَطَعَ أعْذَارهم، فجَعَلَهم لا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَقُولوا هذا القَوْلَ أو نظيرَه.

﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ﴾: أي: من قبلِ أنْ نَضْعُفَ ويَنْزِلَ بِنَا الْهَوَان، يقال لغة: «ذَلَّ، يَذِلُّ، ذُلًّا، وذِلَّةً، ومَذَلَّةً» أي: ضَعُفَ وهَانَ، والمرادُ هنا الهوان، لأنَّ ضعف الإنسان ملازمٌ له.

﴿وَنَخۡزَىٰ﴾: أي: وأنْ نَقَعَ في الشَّرِّ والعذاب الأليم، وأنْ نَفْتَضِحَ بالقَبائِحِ والسَّيئاتِ المورِثَاتِ للخَجَلِ الشَّدِيد منها، وأنْ نَسْتَحْيِيَ ممَّا نَزَلَ بنا من ذُلٍّ وهوانٍ. **الخزيُ**: يَدُلُّ عَلَىٰ كُلّ هٰذِهِ المعاني.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ۝١٣٥﴾:

﴿كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ﴾: أي: كُلٌّ مِنَّا ومِنْكُمْ مُنْتَظِرٌ، فانْتَظِرُوا فَنَحْنُ مُنْتَظِرُونَ.

﴿ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: أي: الطريق الواسِعُ المعتَدِلُ، الذي لا اعْوِجاجَ فيه ولا انْحِراف، ولا ارْتِفَاعَ فيه ولا انخفاضَ.

﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾: أي: ومَنِ اهْتَدَىٰ في مَسِيرَتِهِ في حياتِهِ لسُلُوك الصراط السَّوِيّ.

دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ كُبَرَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ، قَدْ بَدَؤوا يتهامَسُونَ فيما

بينَهُمْ، دون إعْلاَنٍ بمجهور القول، ودُون إشاعَةٍ إعلاميَّةٍ فِي جماهيرهم، إبَّانَ نزول سورة (طـه) قَائِلين: نَترَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنُونِ وحوادث الدَّهْر الَّتي يموت فيها، وعندئذٍ نتخلَّصُ مِنْهُ ومِنْ دَعْوَتِهِ، ونضطهِدُ الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، ونُمَزِّقُهُمْ كُلَّ مُمزَّقٍ.

ففضَحَ الله عزّ وجلّ بهذِهِ الآيَةِ مَا كانَ فيما بينهم من تَهامُس، وعلَّمَ رَسُوله أن يَقُولَ لهم بعبارَةٍ مُجْمَلَةٍ عامَّة، يفهم دلالالتها أذْكِيَاؤُهُمْ وفُطَنَاؤهم: كُلٌّ مِنَّا ومِنْكُمْ مُتَرَبِّصٌ، أنْتُمْ مُتَرَبِّصُون، ونَحْنُ مُتَربِّصُون. والذكِيُّ الفِطِنُ يُدْرِكُ الغرضَ مِنْ هـٰذا الْقَوْلِ المجْمَلِ الّذي يوجِّهُهُ الرَّسُول ﷺ لهم.

والمعنى: أنتم تنتظرُونَ مَوْتي بحادثٍ من حوادث الدَّهر، ونَحْنُ نَنْتَظِرُ أنْ يُعِزَّنَا رَبُّنَا ويُؤَيِّدَنا ويَنْصُرَنَا عليكم، وأَنْ يُذِلَّكُمْ وَيُخْزِيَكم.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾:

أي: فسَتَعْلَمُونَ بَعْدَ زَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ، مَنْ هُمْ أصحابُ الصّراطِ السَّوِي، الَّذِينَ اهْتَدَوْا في مَسِيرَتِهِمْ فِي حيَاتِهم لِسُلُوكه، والظفرِ بالنجاح والنتائج الحسنَةِ الّتي يَرْضَوْنها.

وستَعْلَمُونَ حيئنذٍ من هُمُ الَّذِينَ تَنَكَّبُوا الصّراط السَّوِيّ، وسارُوا في سُبُلِ الضَّلاَلَةِ ومَتَاهَاتها، ولم يَهْتَدُوا إلى ما يُسْعِدُهُمْ أو يُرْضِيهم، بل تخبَّطُوا في الظُّلُمَاتِ والضلالات على غير هُدَىٰ، فخابُوا وخَسِرُوا.

والمعنى: فستَعْلَمُونَ أَنَّا نَحْنُ النَّاجِحُونَ، وأَنْتُم الْخَائِبُونَ.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر سُورة (طـه) على ما فتح الله به عليّ
والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفضْلِه العظيم

ملاحق تدبّر سورة (طـه)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيّة وفنيَّة من السورة.

الملحق الثاني: حَوْلَ الشَّفَاعَة يوم الدين وأنواعها.

(١٣)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغية وفَنّيّة من سورة (طـه)

في سورة (طـه) بلاغيَّاتٌ وفنّيَّاتٌ كثيرات، استخرجْتُ منها بتوفيق الله ما يلي:

أوّلاً: الإيجاز

في هذه السُّورة أمثلةٌ كثيرةٌ من الإيجاز، منها ما يلي:

- الإيجاز بالحذف اكتفاءً بدلاَلَةِ القرائِنِ الفكرية، ونجد هذا في:

(١) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾:

أي: مَا أنْزَلْنا عَلَيْكَ القرآنَ وحمَّلْناكَ مسؤولِيَّةَ تَبْليغِهِ لِتَشقَىٰ، بأنْ تُضْنِيَ نَفْسَك حُزْناً على الّذِين لم يَسْتَجِيبُوا لَكَ مِن كُبَرَاءِ قَوْمِكَ، الّذِين تَحْرِصُ علىٰ إيمانهم ونجاتهم من عذاب الحريق يوم الدين.

وما أنْزَلْنَاهُ عَلَيْك لتشقَىٰ بتحمُّلِ آلاَم أَنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعْ أن تُحَوِّلَهُمْ من الكُفْر إلى الإيمان، كأنَّكَ مَسْؤُولٌ عن تحويلهم، مع أنَّكَ لَسْتَ مسؤولاً إلّا عَنْ تَبْلِيغِهم رِسَالَةَ رَبّك، وتَذْكِيرِهم بها، إذا وجَدْت أنَّ تَذْكِيرَكَ قَدْ يَنْفَعُهُمْ.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في بيان خطابه لموسَىٰ عليه السَّلام:

﴿...فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾:

أي: لاَ تخاف دَرَكاً من فِرْعَوْنَ وجُنُودِه، ولا تَخْشَىٰ غَرَقاً بمِيَاهِ الْبَحْر.

(٣) قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لِقَوْل فِرْعَوْن للسَّحَرَةِ بَعْد أنْ أعلنوا إيمانَهم وإسلامهم:

﴿... وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ... ﴿٧١﴾﴾:

أي: وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ مُثَبِّتاً إيَّاكُمْ فِي جُذُوع النخل. والإيجاز هُنا يَدْخُلُ فيما يُسَمَّىٰ بالتضمين.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في حكايَةِ خطابِهِ لِمُوسَىٰ بجانب الطور:

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾.

أي ومَا أعْجَلَك مُنْفَصِلاً عَنْ قَوْمِكَ. ضُمِّنَ فعل «أَعْجَلَ» معنى فِعْل «فَصَل» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَه، فأغْنَتِ الجملَةُ عَنْ جملَتَيْن إيجازاً.

ثانياً: تأخير ما حَقُّهُ التقديم مراعاة لداعٍ فَنِّيّ

قُدِّمَت الأرضَ على السَّمَاوات الْعُلَا في قول الله عزّ وجلّ:

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾.

والدّاعي الفنّي هنا هو الجمالُ التناظريّ بيْنَ رُؤوس الآيات، مَعَ مُسَايَرَةِ سَلاَسَةِ نَظْمِ كَلِمَاتِ الآيَة.

ثالثاً: الاختيارُ الحكيم بين البدائل البيانيّة

ومن الاختيار الحكيم بيْنَ البدائل البيانيّة في السّورة ما يلي:

(١) اختيار مكالمة الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام بضمير المتكلّم المفرد، إذْ كانت المكالمة تقتضي الإيناس، ومنه ما يلي:

- ﴿... يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى (١٢) وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣) إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ (١٤)﴾.
- ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾.
- ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ (٨٢)﴾.
- ﴿... فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ (١٢٣)﴾.

(٢) اختيار الحديث بضمير المتكلّم العظيم في البيان المتعلّق بعظَمَةِ رُبُوبيَّة الرَّب جلّ جلالُهُ وعظم سُلْطانه، أو حينَ تقتضي الحكمةُ تَرْبيَةَ المهابَةِ، وهذا كثيرٌ في السورة. ومنه ما يلي:

- ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ (٢١) وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى (٢٣)﴾.
- ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ (٣٧) إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨)﴾.
- ﴿... فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا... (٤٠)﴾.
- ﴿... فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ (٥٣)﴾.
- ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ... (١٠٤)﴾.
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ... (١١٣)﴾.
- ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا (١١٥)﴾.
- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ... (١١٦)﴾ وحتى الآية ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ (١١٧)﴾.
- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ... (١٢٧)﴾.
- وانظر الآيات: «١٣١ ـ ١٣٢ ـ ١٣٤».

رابعاً: فنِّيَّة مُراعاةُ رؤوسِ الآيات وطريقةُ بنائها

من فنّيَّةِ مُراعاة رؤُوس آيات السورة، اختيار كلمات لها ذاتِ وقْعِ على السّمع خفيف متناظر، لا ثِقَلَ فيه، ولا نَشَاز ولاَ خُشُونَة، وأكثر هذه الكلمات تنتَهِي بألف مقصورة، أو بياءِ مَدِّيَّة، أو بألِفِ تَنْوينِ حَرْفٍ منصوبٍ يوقف عليه بالمدّ، أو نحو ذلك.

ومنه ما سبَق في: ثَانياً: تأخير ما حَقُّهُ التقديم».

واختير لمعظم آيَاتِ السُّورة أن تكُون قصاراً سَهْلَةً في النُّطْق، تَجْرِي على السَّمْع جرَيَانَ النَّسَماتِ الحانياتِ على ناعِمِ الشَّجَر.

خامساً: الاستفادة من المناسبة لبيان ما يُشَابِهُها

ومن أمْثِلَة هذا الفنّ من فنون الدُّخول في كلام ما، ما جاء في قول الله عزّ وجلّ وهو يكَلّمُ مُوسَى عليه السَّلام:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ... ﴿٣٩﴾﴾.

لقَدْ كانَ إتيانُ مُوسَىٰ سؤْلَهُ مِنَّةً مِنْ رَبِّهِ ٱمْتَنَّ بها عليه، وكانَ بيَانُ هـٰذا مُنَاسَبَةً لبيَانِ مَا امْتَنَّ الله به عليه، إذْ كانَ طِفْلاً مَحْكُوماً علَيْهِ وعَلَىٰ كُلِّ مواليد بَنِي إسْرائيل الذكور حينَئِذٍ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ بالقتل، لَكِنَّ الله أَنْجاهُ بِأَلْطَافِهِ الخفيَّة.

وتَبِعَ هـٰذَا امتنانُهُ عليه بالرِّسالَةِ. وظَاهِرٌ أَنَّ بَدْءَ الْحَدَثِ قَدْ كَانَ امتِنَاناً من الله عزّ وجلّ عليه بالمكالَمة.

سادساً: الإطنابُ المفيد النافع

جاء الإطناب المفيد النافع، في إجابَةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام رَبَّهُ عن عَصاه، وكانَ يَكفِيهِ أن يَقُول: هِيَ عصايَ.

لكِنَّهُ أطالَ في الإجابَةِ، ليُطِيلَ أُنْسَهُ بمكالمة ربّه، وليُظْهِرَ شَجَاعَتَهُ في محادثَتِه، فَتَحَدَّثَ عَنْ بَعْضِ أغْرَاضِهِ من اتّخاذِه العصا. فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ⑰ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ⑱﴾.

إنّ الزيادة على: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ في مَقَام مكالَمةِ الرَّبِّ من الإطنَابِ الجميل النافع المفيد، بشرط أن تكونَ لها صلة بالموضوع.

سابعاً: إلحاق الكلام الصادر عن الله بالكلام المحكيّ عن غيره لتصديقه

من الإبداعات القرآنية إلْحَاقُ الكلام الصادر عن الله عزّ وجلّ، بالكلام المحْكيّ عَنْ غَيْرِه، وعَطْفُهُ عَلَيْهِ لِلْإشْعَارِ بأنّ الكَلام المحكِيَّ عَنْ غَيْرِه حَقٌّ وصِدْقٌ، وهُوَ بَمَثَابَةِ كلامِ صَادِرٍ عَنِ الله عزّ وجلّ.

ومن أمْثِلَتِه في السُّورَةِ مَا جَاءَ فيها من بيان حوار بَيْنَ فِرْعَوْنَ ومُوسَىٰ عليه السَّلام:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ⑤① قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ⑤② ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ⑤③﴾ وهكذا حتى آخر الآية (٥٥).

لَقَدْ أُلْحِقَ الْكَلامُ الصَّادِرُ عَنِ الله عزّ وجلّ، بدءاً من قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ وحتى آخر الآية (٥٥) بالكلام الّذي كان يجيب به موسَىٰ عليه السَّلام عَدُوَّ الله فرعون، وعُطِف عليه للدّلالة على أنّ مَا أجاب به موسَىٰ حقٌّ وصِدْقٌ، ويُضَافُ إلَيْهِ الكلامُ الصادر عن الله عزّ وجلّ.

ثامناً: استخدام اسم الإشارة في غيْرِ مَا وُضِعَ له لداعٍ بَلاغي

ومن هٰذا الفنّ استخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ الْبَعِيدِ، للدَّلاَلَةِ على بُعْدِ مَكَانَتِهِ ارْتِقَاءً، أو انْحِطَاطِهَا البعيد تَسَفُّلاً. ومنه:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

تاسعاً: الاستعارة البديعة

ونجد هذه الاستعارة البديعة في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

اسْتُعِيرَ في هذه الآيَةِ المدُّ الّذِي يَكُونُ للأيْدِي عادةً، لِتَعلُّق هَوَىٰ النَّفْسِ بالمحبُوبِ من الدُّنيا، الذي تُشَاهِدُهُ العيون، وأُطْلِقَ عَلَىٰ نَظَرِ العينَيْنِ لَهُ بِتَشَهٍّ وطَلَبٍ من النفس.

وشُبِّهَتْ لذَّاتُ الحيَاة الدُّنيا وزيناتُها بالزَّهْرَةِ الجميلة المنظر والحسنة الرائحة، السَّريعَة الزّوال والْفَنَاء، بجامع كَوْنِ كلٍّ منهما متاعاً قَليلاً، وحُذِفَ المشبَّهُ، واسْتُعِيرَ لفظ المشبَّهِ به وهو لفظ «زَهْرَة» للدّلالة بِهِ عَلَىٰ المشبَّهِ، حتَّىٰ كأنَّ الحياة الدُّنيا كُلَّها زَهْرَةٌ سَرِيعةُ الزّوال والفناء بجانب الآخرة الخالدة.

عاشراً: الحصْرُ والْقَصْر لداعٍ فكريٍّ تقتضيه البلاغة

ونجد هذا الحصْرَ والقصر في نصوص من السورة، منها ما يلي:

(!) قول الله عزّ وجلّ في الآية (٦٩) خطاباً لموسى عليه السَّلام:

﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾.

أي: مَا صَنَعُوا بأعْمَالهم الّتِي رَأَيْتَ آثارَهَا، إلَّا كيْدَ سَاحِرٍ يُخَيِّلُ للْعُيُونِ مَا لَيْسَ لَهُ حقيقة، إذْ لَمْ يغَيّر من واقع أدواتِهِمْ شيئاً.

أداة القصر هُنا «إنَّما». وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ إذا أُضِيفَتِ الْقُيودُ المطْلُوبَة الَّتِي أوضَحْتُها.

(٢) قولُ الله عزّ وجلّ حكايَةً لقول هارون عليه السَّلام للَّذِين اتَّخذوا العجلَ من بني إسرائيل:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾.

أداة القصر هنا «إنَّما» أي ما حَالُكُمْ مَعَ الْعِجْلِ إلَّا حَالُ مَنْ فُتِنَ بِشَيْءٍ افْتِنَاناً خِدَاعِيًّا مُزَيّفاً فتعلَّقَ به، وهذا أَحَدُ معاني الفتنة، إذْ لَيْسَ لِلْعِجْلِ الذي لَهُ خوارٌ مِنَ الإلَٰهِيَّةِ شيء.

والمعنى: أأكّدُ لَكُمْ أنكُمْ مَفْتُونُونَ به ومَخْدُوعُونَ بِهِ، وهو زَيْفٌ، فما في الْعِجْلِ إلَّا الزَّيفُ والْبَاطِلُ بالإضافَة إلى صفة الإلَٰهِيَّة.

والقصر هنا قصر إضافي، وهو من قصر الموصوف على صفة.

حادي عشر: خروج الاستفهام عن أصل دلالته إلى أغراض أخرى

من خروج الاستفهام عن أصل دلالَتِه إلى أغراض أخرىٰ قد تكونُ من لوازم الاستفهام، ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾؟.

الغرض من الاستفهام هُنَا استثارةُ المتَلَقّي لمعْرِفَةِ المسْتَفْهَمِ عنه، كي يُوجِّه عنايتَهُ وَكامِلَ انْتِبَاهِهِ للتَّلَقِّي.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾؟.

والغرض من الاستفهام هنا إيناسُ موسَى عليه السَّلام، ومنْحُهُ الجُرْأَةَ على أَنْ يُحَادِثَ رَبَّهُ.

واختار الله عزّ وجلّ سُؤالَ مُوسَىٰ عَنْ عَصَاهُ لأنَّ في سؤالِهِ عنْهَا تَوْطِئَةً لِجعَلِهَا آيَةً مِنْ آيَاتِ رَبِّه له.

(٣) قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لقَوْلِ مُوسَىٰ لجُمْهور بني إسرائيل الذين اتَّخَذُوا العِجْل:

﴿... قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾؟.

الغرضُ من الاستفهامَاتِ الوارداتِ في هٰذا البيان، توبيخ مُوسَىٰ عليه السَّلام لقَوْمِهِ بني إسْرائيل.

فالاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهامٌ توبيخيٌّ.

(٤) قول الله عزّ وجلّ بشأن الْعِجْل الذي اتَّخذَهُ جُمْهُورُ بني إسرائيل:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾؟.

الغرض من الاستفهام الوارد في هٰذه الآيَةِ توبيخ مُتَّخِذِي الْعِجْلِ من بني إسرائيل، وبيَانُ سَفَاهَةِ عُقُولهم، وضعْفِ مداركِهِمُ الفِكْرِيّة، إذْ افْتَتَنُوا وانْخَدَعُوا بظاهِرَةٍ لاَ قيمة لَهَا عِنْدَ ذوي العقل السّديد، والرأْي الرَّشيد.

(٥) قول الله عزّ وجلّ بشأنِ المشْرِكين إبّان تنزيل سورة (طـه) فَمَنْ بَعْدَهم من الكافرين:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ ... (١٢٨)﴾؟.

الغرض من الاستفهام هُنَا التوبيخ، إذْ لَمْ يَنْتفع الكافرون من هدايَةٍ وبيان.

(٦) قول الله عزّ وجلّ بشأنهم أيضاً:

﴿... أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٣٣)﴾.

الغرض من الاستفهام هُنَا التوبيخ أيضاً، إذْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لمَا تحقَّقَ فِي الرَّسُولِ وفي القرآنِ مِنْ بَيّنَةٍ كافِيَةٍ لمن أرادَ أَنْ يَقْتَنِعَ بالحقّ.

ثاني عشر: التوكيد لوجود دواعٍ بلاغيَّةٍ تَسْتَدْعِيه

ونجد هذا التوكيد في نُصوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ السُّورَةِ، واقْتَصِر في هذا المُلْحَقِ على ذِكْر طائفَةٍ مِنها مع الإشارَة إلى مواطن التوكيد بخطٍّ تحت الجملة المؤكدة، راجياً أن يسْتَفِيد القارىء ممّا شَرَحْتُهُ في المستخرجات البلاغيَّة من السُّوَرِ السَّابقَة.

(١) ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾.

(٢) ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾.

(٣) ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ... (٤٧)﴾.

(٤) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾.

(٥) ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨)﴾.

(٦) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا... (٧٣)﴾.

(٧) ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤)﴾.

(٨) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى... (٧٧)﴾.

(٩) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم... (٨٠)﴾.

(١٠) ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ (٨٢)﴾.

(١١) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ . . . ﴿٨٥﴾﴾.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

(١٣) ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

(١٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

(١٥) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾.

وأقتصر على هذه المستخرجات مع يقيني بأنّ في السورة بلاغياتٍ وفنّيَات أخرى، أتْرُكُ استخراجها لأهْلِ التدبّر من بعدي، والحمد لله على فتحه ومعونتِه ومَدَدِه.

* * *

(١٤)

الملحق الثاني

حول الشفاعَةِ يَوم الدِّين وأنواعِهَا

أوّلاً: الشفاعةُ أَثَرٌ مِنْ آثار رَحْمَةِ الله بعباده المؤمنين المذنِبين

بالتفكير السَّليم المتأنّي يُدرِكُ المتدبّر، أنّ شفاعَةَ الشّافعين، عند الله رَبّ العالمين، الرَّحمٰنِ الرحيم، لعباده المؤمنين العاصين المذنبين، هي أَثَر مِنْ آثارِ رَحْمَةِ الله العظْمَىٰ، الّتِي وَسِعَتْ كُلَّ داخل تَحْتَ سمائها، ومستظلٍّ بظلِّها، ومُتَعرِّضٍ لمَا تُفِيضُ من غَيْثٍ عميم.

فهو ـ جلّ جلالُهُ، وعَظُم سُلْطانه، وَشَمِلَتْ رَحْمَتُه ـ الَّذِي يمنَحُ بَعْضَ عباده من الملائكة والْمُرْسَلِينَ، والأنبياء والصالحين، تَكْرِيماً يُمَيِّزُهُمْ به، في أَنْ يَشْفَعُوا لبَعْضِ عباده المؤمنين العاصين، المسْرِفين على أَنْفُسِهِم بِكَثْرَةِ الذُّنُوب، وهو الّذي يأْذَنُ لَهُمْ بِأَنْ يَشْفَعُوا لِمَنْ رَغِبُوا في استخدام شفاعَتِهم الّتي مَنَحَهُمُ الله إيّاها، فرداً كَانَ أوْ أكثر، وهو الذي يَشْمَلُ بِرَحْمَتِهِ المؤمنين العاصين، فيأْذَنُ للشَّافِعِين مِنْ عباده المكْرَمِين والصَّالِحِين، بأنْ يَشْفَعُوا لَهُم، وهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ شَفَاعَتَهُمْ إذا اقتضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَرْحَمَهُمْ بواسِعِ رَحْمَتِه، فيُخَفِّفَ عنْهُمْ ممَّا استحقُّوا مِنْ عَذَابٍ بالعْدل، أَوْ يَغْفِرُ لَهُم، أو يَعْفُو عنْهُمْ، أوْ يَرْفَعُ مِنْ دَرَجَاتِهِم في جنّاتِ النعيم.

إذَنْ: فالشَّفَاعَةُ كلُّهَا لَهُ، جلّ جلالُهُ، وعظُمَتْ حِكْمَتُه، وشَمَلَتْ رَحْمَتُه.

وقَدْ دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) بشَأْنِ المشركين واتخاذِهم مِنْ دُون الله آلِهَةً شُفَعاء:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: بَلْ اتَّخذَ المشْرِكُونَ مِنْ دُون الله آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ ليكُونُوا لَهُمْ شُفَعَاءَ عِنْدَ الله؟!.

قل لهم يا محمَّدُ، ويا كُلَّ داعٍ إلىٰ الله مِن أُمَّتِهِ: أَتَعْبُدونَ شركاءَكُم، وتطْمَعُونَ في أنْ يَشْفَعُوا لَكُمْ عنْدَ رَبّكم، ولَوْ كانُوا لاَ يَمْلِكُون مِنْ أَمْرِ الكَوْنِ وَلاَ مِنْ أمْرِ أَنْفُسِهِمْ شيئاً؟!.

أَتَعْبُدونَهُمْ وَتَطْمَعُونَ في أن يشْفَعُوا لكُمْ عِنْدَ ربكُمْ، ولَوْ كانوا لاَ يَمْلِكُونَ عقُولاً يَفْهَمُونَ بِها شيئاً؟!.

وقُلْ لهم: لِلَّهِ الشفاعَةُ جَمِيعاً، إذْ هو الذي يمْنَحُ الشُّفَعَاءَ التكْرِيمَ بأنْ يشفَعُوا ضِمْنَ حُدُودٍ لاَ يَتَعَدَّوْنها، فلَيْسَ لَهُمْ أنْ يَشْفَعُوا للمشركين، فَمَن هُمْ أَخَسُّ من المشركين كُفْراً وَجرائم، وهُمْ لاَ يَشْفَعُون ضِمْن الحدُود الّتِي أبانَها الله لهم، ما لَمْ يأذَنْ لهم بأن يشفَعُوا لمَنْ رَغِبُوا في أَنْ يَشْفَعُوا له، وبشَرْط أَنْ يَرْضَىٰ القول الذي يُقَدِّمُونَهُ في الشفاعة.

ثانياً: المعالجة المباشرة من الله عزّ وجلّ للمشركين بشَأْن معتقدهم الباطل في الشفاعة

وقَدْ جاءت معالَجَةُ الله عزّ وجلّ المباشرة للمشركين بشأنِ معتَقَدِهِم الباطل، في أنّ آلِهَتَهُمُ الّذِين يَعْبُدونَهُمْ من دُونِ الله يشفَعُونَ لهم عنْدَ رَبّهم في البيانات التاليات:

(١) لقَدْ أَبانَ الله عزّ وجلّ أنّ الشّرْكَ فَمَا هُو أَشَدُّ مِنْهُ وأخسُّ في الدركات، لاَ يَقْبَلُ الله فيه شَفَاعَة أحد، مهْمَا كانَ ذا قُرْبٍ من الله جلّ جلالُه، كملَك مقرَّب، أو نَبِيٍّ أو رسُول، أو أحَدٍ من عباد الله الصالحين، مهْمَا كَانَ رَبُّه بِه حَفِيًّا.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (المدَّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) بشَأْنِ المكذّبين بيَوْمِ الدّين، الّذين ماتُوا وهم كافِرُونَ مُكَذِّبُونَ:

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شفاعَةُ الشَّافِعِينَ لَوْ وُجِدَ لهم شافعونَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ، لكِنْ لاَ يُوجَدُ أَحَدٌ يَشْفعُ لهم يَوْمَ الدّينِ، وأمّا الّذِين يَدْعُونَ لهم مِنْ مُحِبّيهِمْ في الدنيا، فإنَّ الله لاَ يَقْبَلُ وَلاَ يَسْتَجِيبُ دُعاءَهم، إذْ سَبَقَتْ كَلِمَةُ الله بأَنَّهُ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِه، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء.

(٢) وَأَبَانَ الله عزّ وجلّ للمشركين أنَّهُ يُوَبِّخُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ،

وَيُحَسِّرُهُمْ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ أنَّ شُركاءَهم الَّذِين كانوا يَزْعُمُونَ أنَّهُمْ شُرَكَاءُ لله، وَأَنَّهُمْ شُفَعَاءُ لَهُمْ عِنْدَه، لا وُجُودَ لَهُمْ مناصِرِين لهم، ولا مُدَافِعين عنهم، ولاَ شَافِعِينَ لَهُمْ عِنْدَ رَبّهم، فقال تبارك وَتَعَالَىٰ في سُورَةِ (الأنْعَام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) مبّيناً لهم ما سَوْفَ يُخَاطِبُهُم بِهِ يَوْمَ القيامة:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾: أي: مَا أعْطيناكُمْ مُتَفَضّلِين بِهِ عليكم مِنْ مَتاع الحياة الدنيا. يقال لغة: «خَوَّلَهُ الشّيْءَ» أي: أعطاه إيَّاهُ متفضّلاً بِهِ علَيْه.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: أي: تَقَطَّعَ مَا كَانَ يَصِلُ بينَكُمْ وبَيْنَ شُرَكَائِكُم ومُضَلِّلِيكُمْ، من عَلاقات مُزَيَّفَاتٍ خَادِعَاتٍ كانَتِ السَّبَب في إضلالكم وغَوَايَتِكُمْ.

والعبارة هنا مِنْ أمْثِلَةِ حَذْف الفاعل للعلْم به من القرائن.

وهذه قراءة نافع، وحفص، والكسائي، وأبي جعفر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لَقَدْ تَقطَّعَ بينُكُمْ**] برَفع [**بَيْنُكُمْ**] على أنَّه هو الفاعل، **والْبَيْنُ** على هذه القراءة هو بمعنى: الصِّلَةِ والمودَّة.

كلمة «بَيْن» تأتي ظرفاً مبهماً، لا يتبيَّنُ معناه إلّا بإضافَتِهِ إلى اثنين فصاعداً، كقول الرسول ﷺ: «ما بَيْنَ بَيْتِي ومنبري روضة من رِياض الجنة».

وتأتي بمعنى: ما بين الفريقين أو القوم من صِلَةٍ ومودَّة، أَوْ قرابَة، وبمعنى: ما بَيْنَهُمْ من عداوةٍ وبغضاء.

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: أي: وضاعَ عَنْكُم ففقَدْتُم مَا كنْتُمْ

تَزعُمونَ من مزاعم بشأن آلِهَتكم، إذْ لم يكن لَكُمْ بُرْهَانٌ على أنَّها حقٌّ، ولا حُجَّةٌ ذَاتُ إقناع، بل كانَتْ أوهاماً في أدمغتكم، وأكاذيبَ مِنْ سَدَنَتِها مع وساوس الشياطين، لا حقيقة لها. وقَدْ زيَّنَهَا في نفوسِكم تحقيقُها لأهوائِكُمْ وَشهواتِكُمْ، ومسايَرَتها لتقالِيدُكم العمياء.

والْعِلاَجُ هنا يَعْتَمِدُ على تقديم مَشْهَدٍ مِنْ مَشاهد يوم الدِّين، وهو يدُلُّ عن طريق اللّزوم الذّهنيّ على مخاطبتهم في الحياة الدنيا بمضمونه، أي: إنّ الآلهة الشركاء، الّذين تَزْعُمونَ أنَّهُمْ شفعاء لكم عند رَبّكُمْ، سوْفَ لا تَجِدُونَ لهم أثراً عند حاجَتِكُمْ إلى شفاعتهم، والسّبب في ذلك أنّكُم اعتقدتم فيهم عقائِد باطلة، لا دليل عليها من عقْلٍ سليم، أو خبر صحيح صادق عن الله ربّكُمْ.

(٣) وَخاطب الله عزّ وجلّ المشركين وسائر الكافرين، مُبَيّناً لهم أنَّه لَيْسَ لهم مِنْ دُون الله وليٌّ يَنْصُرُهُمْ، ولاَ شفيعٌ يَشْفَعُ لهم عِنْدَه، فقال تَبَارَكَ وَتَعالىٰ في سورة (السَّجْدَة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾: أي: لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُون الله الّذي خَلَقَ السَّمَاوَات والأرْض ومَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أحْقَاب زَمَنِيَّة، سمَّىٰ الله كُلَّ حقْبَةٍ منها يوماً، وهو العليم بمقدار كلّ حقبة منها.

﴿مِن وَلِىٍّ﴾: أيْ: ما لكُمْ مِنْ دُونه مِنْ نَصِير، ينْصُرُكُمْ ويَحْمِيكُمْ مِنَ العذاب الذي تسْتَحِقُّونَهُ بالْعَدْلِ على كُفْرِكُم، واتخاذكم شركاء مِنْ دونه تَعْبُدونهم. مِن: حرف جرٍّ زِيدَ لتأكيد عموم النفي والتنصيص عليه.

﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾: أي: ومَا لَكُمْ مِنْ دُونه مِنْ شَفِيعٍ يشْفَعُ لكُم عِنْدَهُ.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: ألاَ تَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقيقة، فَتَضَعُونها في خَزائن

المعرفَةِ عندكم، وَتتذكَّرُونها عند المناسبات الدّاعِيَات، لتصحيح مَسِيرَتِكُمْ في الحياة عَلَىٰ مقتضاها.

(٤) وخاطب الله عزّ وجلّ بني إسرائيل المعاندين، المصرّين على الكفر برسالة محمّد ﷺ، وبما أنزل عليه من رَبّهِ، بقوله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: واذْكُرُوا أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ في عُصُور أنبيائكُمْ ورُسُلِكم الصالحين على الناسِ حينئذٍ، قَبْلَ أَنْ تَفْسُدوا في أنفُسِكُمْ، وقَبْلَ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأرض.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾: أي: واتَّقُوا عذابَ الله في يوم عظيم شديد الهَوْل، وهو يوم القيامة، يَوْمُ الدّين.

﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾: أي: لاَ تَقْضِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شيئاً مِنَ الْجَزاء الْعِقَابيِّ الّذِي استحقَّتْهُ.

والمعنى: فلا تطْمَعُوا بأنْ يَقْضِيَ عنكُمْ أُصُولُكُم الصَّالحون من الحقّ الرَّبَّانيّ الَّذِي يَثْبُتُ عليكم شيئاً، بمَنْحِكُمْ بَعْضَ أعْمالهم الصالحات.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: أي: وَلاَ يُقْبَلُ مِنْها فِدْيَةٌ، لَوْ كانَتْ تَمْلِكُ مَا تَفْتَدِي به مِنْ عَذَاب الله، لكنَّها في الواقع لا تَمْلِكُ شيئاً حتَّىٰ تَفْتَدِيَ به.

الْعَدْلُ: بفتح الْعَيْن مِنْ معانِيهِ الفِدَاء، وهو المراد هنا.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: أي: وَلاَ يُوجَدُ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَنْصُرُ أصْحابَ النفوس الكافِرَة، فيَدْفَع عنها عذاب الله الّذِي يقضي به بِعَدْلِه.

(٥) وَأكَّدَ الله عزّ وجلّ خطابَهُ لكُفَّارِ بني إسرائيل برسالة محمّد، لأنّهم أهْلُ كتاب رَبَّانِيّ فِيهِ تَفْصِيلُ كلّ شيءٍ من أُصُول الدين، ولأنَّهُمْ أجْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ بمَعْرِفَةِ هٰذه الحقائق، والخوفِ من عذاب الله يوم الدين، والإيمانِ برسول الله الخاتم وبما جاء به عَنْ رَبّه.

فقال الله عزّ وجلّ لهم في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾:

تَحْليلُ هٰذه الآيَة مُنَاظِرٌ لِسَابِقَتِهَا، فلا حاجَة إلى الإعادة.

(٦) وخاطَبَ الله عزّ وجلّ الذين آمنوا برسالة محمّد ﷺ، حَاثّاً لَهُمْ على الإنفاق في سبيله، ومبيّناً لهم أنَّ تَقْصِيراتهم ومعاصِيَهُمْ مَحْسُوبَةٌ عليهم يوم القيامة، إذْ لا يكونُ لَهُمْ يَوْمئِذٍ أموالٌ يُنْفِقُونَ مِنْها، وَلاَ تَنْفَعُهُمْ خُلَّةٌ ولا شفاعَةٌ في أنْ يُكْتَبَ لَهُمْ أجْرُ إنفاقٍ بَخِلُوا به في الحياة الدُّنيا، في رحلة امتحانهم، وقَدْ تَنْفَعُهُمْ شفاعَةٌ فِي غَيْرِ ذلِكَ.

فقال لهم في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾: أي: من قَبْلِ أَنْ يَأْتِي يوم القيامة، الّذي لاَ تَسْتَطِيعُونَ أن تكسبوا فيه مالا تُنْفِقُونَ مِنْهُ في سبيل الله، ولا أن تجدوا فيهِ مجالاً للإنفاق يومئذٍ، فتظلُّونَ فيه مَحْرُومين من أجْرِ الإنفاق المندوب إلَيْه، ومستحقين لعقوبَةِ إمْسَاك الإنفاقِ الواجب عليكم.

﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾: أي: وَلاَ يُوجَدُ يَوْمَئِذٍ خُلَّةٌ تَنْفَعُ عِنْدَ الله، وَلَوْ كان أَحَدُ الْخَلِيلَيْنِ صِدِّيقاً.

الْخُلَّة: خالِصُ المودَّةِ التي تَخَلَّلَتِ الْقَلْبَ. وتُطْلَقُ على الصَّدِيق، يُقَالُ: خُلَّةُ الإنْسَانِ، أي: أهْلُ مَوَدَّتِه. ويطْلَقُ لفظ «الْخُلَّة» على الزَّوْجة في اللّغة.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أي: والكافرون بالله وَبِيَوْمِ الدِّينِ هُمُ الظالِمُونَ البالِغُونَ في ظُلْمِهم دَرَكَاتِ الظُّلْمِ العظيم الشنيع.

وَكأني بهذه العبارة تَعْطِفُ على محذوف، تقْديرُه: والْمُمْسِكُونَ مَحْرُومُونَ من الأجر العظيم والثواب الجزيل، والكافرونَ هُمُ الظالمون من دَركاتِ شدِيدات الانحطاط والتسفُّل.

ثالثاً: المعالجة بتقديم مشاهد من أحوال المشركين يوم القيامة

إنّ المعالجة بتقديم مشاهد بيانيّة عمّا سيَحْدث مستقبلاً من قِبَلِ عَلِيمٍ خَبِيرٍ، هو واضع خُطَّة الْوُجود الحادث كُلِّه، ما كان وما هو كائن وما سَيَكُونُ أو سَوْف يكون، تُشْبِهُ المعالَجةَ بِتَقْدِيم مشاهِدَ بيَانِيّة عما سبَقَ أنْ حَدَثَ في الماضِي، فَفِي كلَيْهِما تأثِيرٌ بالِغٌ في نَفْسِ الإنْسَانِ الّذي يتلَقَّىٰ النَّبَأَ، رَغَباً أو رَهَباً، إذَا حَصَل لدَيْهِ يَقِينٌ أو ظَنٌّ قَوِيٌّ بِصِدْقِ النَّبأ.

ولهذا كَثُر العِلاَجُ بِهٰذَين الأمْرَيْن في القرآن المجيد.

وفي المعالَجة بِتَقْدِيم المشاهِدِ المسْتَقبَلِيَّةِ يوْمَ الدّين، الَّتي تكْشِفُ أن المشركين وسائرَ الكافِرين، لا شفيع لهم يومئذٍ، نَجِدُ عدّة نصوص قرآنيَّة، أستعرضها بشيءٍ من التدبّر فيما يلي:

(١) جاء في وَصْفِ حَالِ المشركين بَعْدَ أنْ يُكَبْكَبُوا فِي الجحيم، قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٦ نزول):

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ

أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾: أي: وأُظْهِرَتْ دارُ الْعَذَابِ للضَّالين الفاسِدِين الخائِبينَ، بَعْدَ خَفاءٍ.

يقالُ لغة: «بَرَزَ يَبْرُزُ بُرُوزاً» أي: ظهر بعد خفاء.

الجحيم: اسْمٌ من أسماء النار دار العذاب يوم الدين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مهواةٍ فهي جحيم.

الْغَاوُون: أي: الضَّالُونَ، الفاسِدُون، الخائبون، التاركون سَبِيلَ الرُّشد.

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾؟: أي: هَلْ يَدْفعُونَ عَنْكُمْ عَذابَ رَبِّكُمْ، أو يَدْفَعُونَ عَنْ أنفسهم عذابَه، إذا كانوا ذوي اختيارٍ ورَاضِين بِتَأْلِيهِكُمْ لَهم.

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾: أي: فَأُلْقُوا فِي الجحيم على وُجُوهِهِمْ ورُؤوسِهِمْ مُنْقَلِبِينَ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَة.

يقال لغة: «كَبْكَبَ الشَّيْءَ» أي: قَلَبَ بَعْضَهُ على بعضٍ وَرَمَاهُ فِي مَهْوَاةٍ.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾: أي: بَحَثْنا فَمَا وَجَدْنَا مِنْ شَافِعِينَ يَشْفَعُونَ لَنا عِنْدَ رَبّنا. «مِن» حرف جرّ زيد لتأكيد العموم والتنصيص عليه.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: «لَوْ» هنا للتمني. أي: فنَتَمَنَّىٰ أنْ تكُونَ لنا رَجْعَةٌ إلَىٰ حياة الامتحان، فنَكُونَ مِن المؤمنين بالله وبما جاء من عنده، ومؤمنين بيوم الدّين.

(٢) وفي وصف حال الكافرين، الّذِينَ اتَّخذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً،

وَغرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنْيا، وهُمْ يُعَذَّبُونَ في دار العذاب يَوْم الدين، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

المعنىٰ: ولقَدْ جِئْنا الكافِرِين بِكتابٍ مُنَزَّلٍ مِنْ عِنْدِنا، فصَّلْنا فيه الحقائقَ الدّينيَّة، علىٰ علم منّا بالواقع والحقيقة، هُدىً ورَحْمةً لِقَوْمٍ لديهم الاستِعْداد لأنْ يُؤْمِنُوا.

هَلْ يَنْتَظِرُونَ إلّا المصِيرَ الّذي تَؤُولُ إلَيْهِ نُذُرُ العذاب الخبريَّة، وحينئذٍ لاَ يَنْفَعُهُمْ إيمانٌ وَلاَ عمل؟!.

يَوْمَ يأتِي تحقُّقُ نُذُرِ العذابِ يوْمَ الدِّين في الواقع المستْقَبليّ، وَيَحلُّ بِهم ما كانُوا قَدْ كذَّبوا بِهِ من قبْلُ، يَقُولُ الكافرونَ الذين ترَكُوا الإيمان بِمَا جاءَ في كتاب رَبّهم لهم، وَترَكُوا الْعَمَلَ بأحكامه ووصاياه، ولم يَتّبِعُوا مَا أنْزِلَ إلَيْهِم مِنْ رَبِّهِمْ جحوداً أو إهمالاً: قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبّنَا بالحق.

ويقولون أيضاً متمنِّينَ: هل يوجَدُ لنا شُفَعَاء يشفَعُونَ لَنَا عند رَبّنا، فَيُخْرِجَنَا من النار، أو يخفّفَ عنَّا شيئاً من عذابها؟. أو هَلْ نُرَدُّ إلى حَياةِ الابتلاء مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَنَعْمَلَ عَملاً صَالحاً نُرْضِي به رَبَّنَا، غيْرَ الْعَمَلِ السَّيِّء الذي كُنَّا عَمِلْنَاهُ في رِحْلَةِ الامتحان الأولى؟؟.

لكنَّها أمانيٌّ ضائِعاتٌ لاَ يُسْتَجابُ لها.

(٣) وَأبانَ الله عزّ وجلّ أنَّ المجْرِمينَ يكونُونَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ساكِتين، يَائِسِينَ، نَادِمين، وأنَّهُمْ يومئذٍ لا يَكُون شُرَكاؤُهم شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لهم عند رَبهم، وأنّهم يومئذٍ يكونونَ كافِرين بشُرَكَائهم، إذْ ضَلُّوا عَنْهُمْ، ولم يَجدُوا لَدَيْهم ولا مِنْهُم دفْعَ ضرّ ولا جلْبَ نفع.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أي: يكُونُون ساكِتِينَ يائِسِينَ، نادمين. يُقالُ لغة: «أبْلَسَ يُبْلِسُ» أي: قُطِعَ بِه وَسَكَتَ. ويقال: «أَبْلَسَ مِنْ رَحْمَةِ الله» أي: يَئِس. ويقال: «أَبْلَسَ» أي: نَدِم.

رابعاً: أدرك هذه الحقيقة مؤمن أصحاب القرية الذين جاءهم المرسَلُون الثلاثة

لقد أدْرك مؤمن أصحاب القرية الّتي جاءَها المرسَلُون الثلاثةَ أنَّ الآلِهَةَ التي يتَّخِذُها المشركُونَ من دون الله، لا تُغْنِي شفاعَتُهم عن عابديها شيئاً.

إنَّ أَصْحَابَ القرية كذَّبوا رُسُلَ ربّهم الثلاثة، وهَدَّدُوهُمْ بالرَّجْم أو بعذاب أليم، فجاء هذا المؤمن من أقْصَىٰ المدِينَةِ يَسْعَىٰ، وانْتَصَرَ للرسُل الثلاثة مواجِهاً مَلأَ قَوْمِهِ وجُمْهورَهم الأعظم، وقال لَهُمْ دفاعاً عن إيمانه، ما أبَانَ الله عزّ وجلّ مَعْناهُ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بقوله جلّ جلالُهُ حكايةً عنْهُ:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

خامساً: البيانات التعليميّة للرّسُول ﷺ كيف يُعالج المشركين بشأن عقيدتهم في شفاعَةِ آلِهَتِهِمْ لَهُمْ عند ربهم

جاء في القرآن عدّة نصوص تَعْليميَّة، يُعَلّم الله عزّ وجلّ بها رسُوله وكُلَّ داعٍ إلىٰ الله من أمّته، كيف يُعالج الّذين يَزْعُمونَ أنَّ شركاءَهُمْ

يَشْفَعُون لهم عند رَبّهم، فيكفِّرُ الله عنهم بشفاعتهم خطاياهم، وفيما يلي استعراضها مع بعْضِ تَدَبُّرٍ لها:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١٨﴾:

أي: يا أيها المشْرِكون، أخبِرُونا كيْفَ دَخَلَتْ إلى قلوبكُم عَقِيدَةُ أنَّ آلِهَتَكُمْ الّتي تَعْبُدُونها من دُونِ الله تَشْفَعُ لَكُمْ عنْدَ الله، وَهُوَ أمْرٌ لا يُمْكِنُ أنْ يُعْلَمَ إلّا بإعْلامٍ من الله عزّ وجلّ.

لكِنَّ الله عزّ وجلّ قد أبَانَ لَكُمْ فيما أنْزَلَ على رسُولِه أنّ هؤلاَء الشُّركاء لاَ يَضُرُّونكُمْ ولا يَنْفَعُونكُمْ بشيء.

أفتُنبِّئُونَ الله بنَبَإٍ لاَ يُمْكِنُ أنْ يُعْلَمَ إلّا بإعْلاَمٍ منْه، وهذا أمْرٌ لاَ يَعْلَمُ اللهُ لَهُ وُجوداً في السَّماوات، ولا يَعْلَمُ لَهُ وُجوداً فِي الأرْض.

أي: لا وُجودَ لَهُ قَطْعاً، إذْ لو كان لَهُ وجُودٌ لَعَلِمَهُ تَبارَك وتَعالى، لأنَّه محيط بكلّ شيءٍ علماً، فَنَفْيُ عِلْمِ الله بوُجُودِ شيء ما، هو نَفْيٌ لوُجُودِه بصُورَة قطعيَّةٍ لاَ شَكَّ فيها.

وقد أكْمَلَ الله عزّ وجلّ الآية بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: أي: تَنَزَّهَ الله وتَعالىٰ عُلُوّاً كبيراً عَنْ أن يكونَ لَهُ شُركاء فِي إلَهِيَّتِهِ، ولو كانَ ذَلِكَ فِي حُدُود أنْ يَشْفَعُوا لعَابِديهم عند رَبّهم.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، فلِكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أمّتِه بخطابٍ إفرادي:

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾:

أي: وأنْذِرْ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ آيَاتِ القرآن، الذين تَظُنُّ بأنَّ لديهم اسْتِعْدَاداً لأنْ يَخافُوا أَنْ يُحْشَرُوا إلى رَبهم، وأنْ يُحَاسِبَهم، ويَفْصِلَ القضاء بِشَأْنِهم، ويجازِيَهم على مَا يكْسِبُون في رِحْلَةِ امتحانهم بِعَدْله، حالَةَ كَوْنهم ليس لَهُمْ من دُونه وَلِيٌّ يَنْصُرُهم، ويَدْفَعُ عَنْهُمْ عذابَه، ولا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْده، لِأَنَّهُمْ كَفَرَةٌ لاَ تُقْبَلُ شَفَاعَةُ أَحَد فيهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أي: ونَحْنُ نَرْضَىٰ لهم أَنْ يَتَّقُوا فَيُؤْمِنُوا وَيَنْبِذُوا الشرك، وكُنْ أنت أيُّها الدَّاعي رَاجِياً أن يَتَّقُوا لتُضاعف وسائِلك الحكيمةَ في دعَوتهم، متى وجَدْتَ لدَىٰ من تَدْعُوهم من المشركين الاستعداد لأنْ يَخْشَوْا أنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِم، ولَوْ على سبيلِ الظنّ.

(٣) قول الله عزّ وجلّ أيضاً في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً للرسول ﷺ، ولكُلّ داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾:

أي: وَدَعْ هؤلاء فَلا تُتَابِعْ مُجاهَدَتَك لَهُمْ، فَقَدْ دَلَّتْ أحوالُهُمْ وأوْضَاعُهم على أنَّهُمْ ميؤوسٌ مِنْ إصْلاحِهِمْ عن طَرِيق إراداتِهم الحرَّة، إذ اتَّخَذُوا دينَهُمْ لعِباً ولَهْواً، فلَمْ تكُنْ نظرتُهُمْ إلَىٰ الدِّينِ إلَّا كما يَنْظُرُونَ إلى ألْعَاب يَلْعَبُونَها، وأشْيَاءَ يَتَلَهَّوْنَ بِها لاَ جِدَّ فيها، وغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنْيَا بما فيها من شهواتٍ ومُرْضِياتِ أهواء ومُسْكِتَاتِ غرائز.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾: أي: وَذَكِّرْ بالقرآن مَنْ كُنْتَ أبلَغْتُهُمْ إيَّاه، إنْ شَعَرْت بأنّ الذكْرىٰ تَنْفعُهُم، ولم يَصِلُوا إلَىٰ حالَةٍ ميؤوسٍ منها.

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: مُحَذّراً أَنْ تُرْتَهَنَ نَفْسٌ وتُحْتَبَس تَوطِئَةً لِتَنْفِيذِ مُعَاقَبَتِهَا بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ مِنْ كُفْرٍ وإثْمٍ عظيم، في رِحْلَةِ امتحانها في الحياة الدنيا.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: أي: حالَةَ كوْنِها لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ الله وَلِيٌّ نَصِيرٌ يَنْصُرُهَا أوْ يَدْفَعُ عَنْها عَذَابَ رَبّها، ولَيْسَ لها شفيعٌ يَشْفَعُ لَهَا عِنْدَهُ، لِيَرْفَعَ العذابَ عَنْها.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾: أي: وإنْ تَبْذُل النَّفْسُ المرْتَهَنَةُ للعَذْابِ كُلَّ فِدْيَةٍ لاَ يُؤْخَذْ منها.

علىٰ أنَّ أيّ نَفْسٍ كافِرَةٍ لاَ تَمْلِكُ يَوْم الدّينِ شَيْئاً تَبْذُلُه فِدْيَةً تُسْقِطُ عنْهَا عَذَابَ الله الّذي تَسْتَحِقُّهُ بالْعَدْل.

ويظهر أنّ طرْحَ هٰذا الاحْتمالِ هو من قَبيلِ استِقْصَاءِ الاحتمالاتِ لإسْقَاطِها، وَلاَ يَدُلُّ على أنَّ أحَداً من الكافرين يَمْلِكُ شيْئاً في موقف الحساب يَفْتَدِي به.

أمّا المؤمِنُون فيُقْتَصُّ ما عليهم من حُقُوقٍ للنَّاسِ من حسناتهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾: أي: أولئِك البعداءُ الَّذينَ انْحَطُّوا في اتِّجاهِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ، هُمُ الَّذِينَ ارْتُهِنُوا وحُبِسُوا بما كَسَبُوا مِنْ كُفر.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾: أي: أُعِدَّ لَهُمْ شَرَابٌ في الجحيم يضطرُّونَ أنْ يَشْرَبُوه، هو من ماءٍ حارٍّ شَدِيدِ الحرارة، فيه تَعْذِيبٌ لهم.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾: أي: وأُعِدَّ لَهُمْ في الجحيم أيضاً عَذَابٌ شديدُ الإيلام.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ بالله ورسُوله وبما جاء عن الله من الحقّ.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، فلكُلِّ داعٍ إلى الله مِنْ أُمّتِه:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾:

أي: وأنْذِرْهم عذابَ الله يَوْم القيامة، مخبراً ومحذّراً لهم منه.

سمَّىٰ الله عزّ وجلّ يَوْمَ القيامَة: «يَوْمَ الآزِفَة» إشعاراً بِقُرْبها بالنِّسْبَة إلَىٰ عُمْرِ النَّاسِ في الأرض.

﴿ٱلْآزِفَةِ﴾: أي: القريبة، يقالُ لغة: «أَزِفَ الْوَقْت، يأْزَفُ، أَزَفاً، وأُزُوفاً» أي: دَنَا وَقَرُب. ومنه قولهم: أزِفَ التَّرَحُّلُ، أي: دَنا وقْتُهُ وقَرُب.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾: أي: إذِ الْقُلُوبُ خائفَةٌ مُنْشَمِرَةٌ، يَشْعُرُ أصْحَابُها مِنْ شدَّةِ الخوف بأنَّها وصَلَتْ إلىٰ حناجِرِهم من انْشِمَارِها، خوفاً وَهلعاً، ويَدْخُلُ مِثْلُ هذا التّعبير المبالَغ فيه فيما يُسَمَّى عند الأدباء المعاصرين: «الصدق الفنيّ».

﴿كَٰظِمِينَ﴾: أي: حالَةَ كونِهِمْ ضَاغِطِينَ علَىٰ نُفُوسهم الَّتي امتلأَتْ خَوْفاً.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾: أي: مَا للظالمين ظلماً هو من دَرَكَةِ الكُفْر، من صَدِيق حَمِيمٍ يَرْحَمُهُمْ وَيَشْفَقُ عَلَيْهِم، وَلاَ شَفِيعٍ يُطاعُ، على احْتِمَال أَنْ يَشْفَعَ لهم.

سَادساً: الشفاعة لعُصَاةِ المؤمنين

لقَدْ أَغْلَقَ الله عزّ وجلّ أبواب الشفاعَةِ إغْلاَقاً تامًّا في وجْهِ الكافِرين المشركين، فَمَنْ هم أخَسُّ منهم في الكُفْر وارْتكاب الجرائم العظمى.

وأحَطُّ منهم في الدَّركاتِ، في أنْ يشفع لهم شافعٌ مَا لنجاتهم، وقد تنفع الشفاعة بالتخفيف من عذابهم.

لكنَّهُ جلَّتْ حكمَتُه وَعَظُمَتْ رَحْمَتُه، قَدْ فتحَ بعضَها بالنسبَةِ إلى عصاة المؤمنين، مُرْتكبِي كبَائر الذُّنوب، فمَنْ دُونَهُم في الْإثم.

وَجعل جلّ جلالُهُ لهذه الشفاعة شَرْطين:

الشرط الأوّل: أنْ يأذَنَ الله عزّ وجلّ للشَافِع بأنْ يَشْفَعَ للمشفوع له.

الشرط الثاني: أنْ يَرْضَى الله عزّ وجلّ قَوْلَ الشَّافِعِ في المشفوع له.

وفيما يلي استعراض النصوص مع بعض التدبّر لها:

(١) قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾:

أي: لا تَنْفعُ الشفاعَةُ إلَّا شفاعَةَ شَافِعٍ أذِنَ لَهُ الرَّحْمٰن بأنْ يَشفع، ورَضِيَ قَوْلَهُ فِي شفاعَتِهِ لِمَنْ يشْفَعُ لَهُ فَرْداً أمْ أكثر.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (مَرْيم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾:

﴿وِرْدًا﴾: أي: مُشَاةً عِطَاشاً، **الوِرْدُ**: الْوُرّاد، وهُمُ الَّذِين يَرِدُونَ الماء. **المجْرمُونَ**: هُمُ المحكوم عليهم بالخلود في دار العذاب.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾: أي: لَمْ يمْنَحْهم الله عزّ وجلّ ولَمْ يُمَلِّكْهُمْ أن يَشْفَعَ لهم أحد، ملَكٌ أو نبيٌّ أوْ رَسُولٌ أوْ شَافِعٌ مِن الصالحين.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: أي: لكِنْ من اتَّخذَ عنْدَ الرَّحْمٰن عَهْداً بإعلانه إيمانَه وإسلامَه ومُبَايَعَتِه علىٰ ذلِكَ، فإنّ الله جلّ جلالُهُ يمْنَحُهُ

أنْ يَشْفَعَ له شافِعُون، لتخفيف العذاب عنه، أو إنقاذه منه، أو تَرْقيَةِ دَرَجاتِه في جنَّاتِ النّعيم.

(٣) قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) خطاباً للكافرين منكري رسالة محمّد ﷺ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾:

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي: في ستّ أحقابٍ زمنيَّةٍ لاَ نعْلَمُ مقدار كلٍّ منها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: الاستواءُ في اللُّغَةِ: الاعتدال والاستقامة، واسْتَوىٰ علَىٰ كذا: أي: اعتدلَ واستقامَ عليه.

واستواءُ الله على العرش، نقول فيه ما قال الإمام مَالكٌ: الاستواء غير مَجْهول، والكيْفُ غَيْرُ معقول، والإيمانُ بِه واجب، والسؤالُ عنه بدعة.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: أي: يتصرَّف بكُلِّ شيْءٍ في الكَوْنِ مِن بدايَتِهِ حتى آخِرِه ونهايَتِهِ، بحكْمَتِه البالِغَةِ أسْمَىٰ مُسْتَوَيَاتِها.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾: أي: مَا يُوجَدُ شفِيعٌ مَا في السَّمَاوَاتِ أو في الأَرْضِ إلّا مِنْ بَعْدِ أنْ يأذَنَ الله له بأنْ يشْفَع.

وقد عَلِمْنَا مِنَ النُّصُوصِ الّتي سبَقَ تَدَبُّرُها في الشفاعة أنَّ الله عزّ وجلّ لاَ يَأْذَنُ لشافِعٍ مَا، بأنْ يشفَعَ لمشْرِكٍ فَمَنْ هو أخَسَّ مِنْهُ في دركات الكُفر، فالإذْنُ بالشفاعة خاصٌّ في أنْ يكون المشفوعُ له من المؤمنين العصاة، أو المقصرّين في نوافل العبادات.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: أي: ذلِكُم الْعَظِيمُ الْعَلِيُّ الأعْلَىٰ هُو رَبُّكُمْ وحْدَهُ، لاَ شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّتِهِ، فَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي إلَٰهيَّتِهِ.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: أي: فَاعْبُدوهُ وَحْدَهُ، ولا تَعْبُدُوا مِنْ دُونِه أحداً.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾؟: اسْتِفْهامٌ يرادُ به الحضُّ والحَثُّ علىٰ الْعِلْم بهٰذه الحقائق الّتي جاءت في هذا النص، ووَضْعِها في خزائِنِ المعْرِفَة، وتَذَكُّرها عِنْدَ المناسبات الدّاعيات، لتصحيح الْمَسِيرة في الحياة عَلَىٰ وفْقِها.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾: أي: إلّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ بأَنْ يَشْفَع، ولِمَنْ أذِنَ بأنْ يُشْفَعَ لَهُ، وقَدْ عَلِمْنَا أنَّ المشفُوعَ له لا بُدَّ أَنْ يكُونَ مِنْ أَهْلِ الإيمان الصحيح.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي: حَتَّى إذا أُزِيلَ الفزعُ عَنْ قُلُوبِ بعضِ عُصَاةِ المؤمنين، الَّذِينَ تَسْتَدْعِي معَاصِيهم أَنْ يُجازَوا بالْعَدْلِ، لَكِنْ شمِلَتْهُمْ رَحْمَةُ الله، فأذِنَ للشُّفعاءِ بأَنْ يَشْفَعُوا لهم.

﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾: أي: قال الْعُصاةُ الذين يَرْجُونَ أنْ يشْفَعَ لَهُمُ الشَّافِعُونَ للملائِكَةِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكم؟ هَلْ أَذِنَ لَكُمْ بِأَنْ تَشْفَعُوا لنا؟

﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾: أي: قَالَ الملائكةُ المطْلُوبُ مِنهم أنْ يشْفَعُوا: قَالَ رَبُّنَا الْحَقَّ الثابت الّذِي قَضَىٰ بِهِ أن يأْذَنَ لَنا بأَنْ نَشْفَعَ لَكُمْ، لِعِلْمِه بما في قُلُوبكُمْ مِنْ خَيْر.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: وَأَثْنَوْا على الله جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه - بِصِفَتَيْن من صفاتِه.

الْعَلِيّ: اسْمُ من أسماء الله الحسنَىٰ، أي: الْعَالِي فَوْقَ كُلِّ شيءٍ، فلا يُدَانيه وَلاَ يَعْلُو عَلَيْه شيء، فَهُوْ مِنْ مَقَام عُلُوّه يمْنَحُ مَنْ يشاء، ويحجُبُ عمَّنْ يشاء ما يشاء، وكلُّ مقاديره حكيمة.

الكبير: اسم من أسماء الله الحسْنَىٰ، أي: الكامِلُ في كِبَرِه، الذي لا شيء في الوجود له مثلُ وصفه بالكِبَر.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

أي: وَلاَ يَمْلِكُ المشركون الَّذِين يَدْعُونَ مِنْ دُون الله آلِهَةً، أنْ يَشْفعَ لَهُمْ شَافِعٌ ما في الوجود كُلِّه، ولَوْ كانَ مأذوناً له بأَنْ يَشْفَعَ.

لكِنْ مَنْ اسْتَدْرَكَ أَمْرَهُ قَبْلَ مَوْته، فَشَهِدَ بالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِه المرْسَلُونَ بلاَغاً عن الله رَبّ العالمين، وكانَتْ شَهادتُهُ صادرةً عَنْ عِلْم وَإيمانٍ بما شَهِدَ به، ولَمْ تكُنْ قولاً قلَّدَ بِه غَيْرَهُ تَقْلِيداً، وهُوَ غَيْرُ مُدْرِكٍ لدَلاَلاَتِه ولا مُؤْمِنٍ بها، ولم يَكُنْ قولاً صادراً عَنْ خَوْفٍ أو نفاق، فإنَّ الله يمْنَحُهُ مِنْ فَضْلِه الإذْنَ بأنْ يَشْفَعَ له الشافِعُونَ المأذُونُ لهم بأَنْ يَشْفَعُوا لَهُ عِنْدَ رَبّهم.

(٦) قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في فِقْرَة من فِقْرَاتِ آيَةِ الكُرْسِي:

﴿. . . مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ. . . ﴿٢٥٥﴾﴾؟:

استفهام يُرادُ به النفي، أي: لا أَحَدَ يَوْم الدِّين يَشْفَعُ لِأَحَدٍ إلّا بإذْنِ الله جلّ جلالُهُ وَعَظُمَ سلطانُه ـ ولو كان نبيًّا رسولاً، أو مَلَكاً مُقَرَّباً.

سابعاً: شفاعَةُ الملائكة لعُصاةِ المؤمنين

جاء في القرآن المجيد بشأن شفاعَةِ الملائكة لعصاة المؤمنين نَصّان:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وملائكةٌ كثيرُونَ جدّاً في السَّمَاوات، لاَ تكْفِي شفاعَتُهُمْ أحداً شيئاً من أُمورِهِ التي يرجُوها من شفاعتهم، إلَّا ضِمْنَ شَرْطين:

الشرط الأول: أنْ يَأْذَنَ الله عزّ وجلّ للشافِعِ بأَنْ يَشْفَعَ لمن يشفع له، فَرْداً أمْ أكثر.

وسبَقَ أن عِلْمَنَا أنّ الله لاَ يأْذَنُ للشَّافِعِين بأن يَشْفَعُوا للمشركين فمن هم أخَسُّ منهم كُفْراً، وأحطُّ منهم في الدرَكات، فقد سبَق أَنْ قضى الله عزّ وجلّ قضاءً مُبْرَماً بأنْ لاَ يَغْفِرَ لِمَنْ يُشْرِك بِه، ولا لمن كان أكْفَرَ مِنْهُ وأكثر جُرْماً من باب أولَىٰ.

الشرط الثاني: أنْ يَرْضَىٰ الله عزّ وجلّ القولَ الذي يقولُه الشَافِعُ فِي شفاعَتِه للمشْفُوعِ له، ولو كان الشافِعُ مَلَكاً مُقَرَّباً، أو نبيًّا رسُولاً.

وقولُ الشافع يَشْمَل مضمونَ مَا يشْفَعُ فيه، وأسلوب تعبيرهِ في الشفاعة.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأن الملائكة المكْرَمين، واعتقاد بعض المشركين أنَّهم بنات الله:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾: أي: بل الملائكةُ عبادٌ مِنْ عباد الله مُنَزَّهُونَ بما فَطَرَهُمُ الله عليه عَنِ المعاصي وعَنْ مخالفة أوامر الله ونواهِيه في شيء. ولَهُمْ مَرَاتب ومنازِلُ رَفيعةٌ عنْد الله فهم بها معظمون.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾: أي: لاَ يَقُولُونَ قَوْلاً ما في تَبْلِيغَاتِهم عن الله، أو في عباداتهم إلّا بأمْرٍ من الله أن يقولوه، وهذا يَدُلُّ على أنهم لا يملكون صفة الاجتهاد الجزئيّ ضِمْنَ الكليّاتِ العامَّةِ الّتي لهم علم بها.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾: أي: وهم لا يَعْمَلُونَ عملاً ما إلّا بأمْرِه.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي: يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ سَبَقَ أن عَمِلُوه، وهو الذي بين أيديهم، ويَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ سَيَعْمَلُونَهُ، وهو الذي خلْفَهُمْ لاَ يَعْلَمُونه، وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّهُمْ كالإنْسِ لا يَعْلَمُونَ المستقبل إذْ هو غيبٌ عنهم ما لم يُخْبِرْهُمُ الله بشَيْءٍ منه.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾: أي: ولاَ يَشْفَعُونَ إلّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ الله أنْ يَشْفَعُوا له، فشفاعتهم له مُرْتبطَةٌ بإذنه.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾: أي: وهم مِنْ شِدَّةِ شُعُورِهِمْ بعظمَتِهِ، وجَلالَتِه، وقُدْرَتِهِ، وقُوَّتِهِ، وشُمُولِ سُلْطَانِهِ كُلَّ شَيْءٍ، يَخْشَونَهُ خَشْيَةَ الْمُجِلّ المعظّم الْمحبّ الخاضِع الذَّليلِ، وهم مُشْفِقُونَ من سَطْوَتِهِ وبَطْشِه، فَلاَ يَحِيدُون عَنْ طَاعَتِهِ مقدارَ شَعْرَة.

هذا ما جاء في القرآن المجيد بشأن الشفاعَةِ يوم الدِّين، وتأتي بَعْدَهُ خُلاَصَةُ مَا جَاءَ في السُّنَّةِ بشأن هذه الشفاعة، وبالله الاستعانة وعليه وحده أتوكّل، فهو الله العزيز الرحيم، الحيُّ الذي لا يموت، وسُبْحَانَ الله وبحَمْدِه، هو حسْبِي ونِعْمَ الوكيل.

* * *

خلاصة ما جَاء في السُّنَّةِ المطهرة بشأن الشفاعة يوم الدّين:

قسَّم علماء أهل السُّنَّة والجماعة أخذاً من الأحاديث الصحيحة، وما يُقْبَلُ للاستشهاد به مِنْها، الشفاعة يوم الدّين الّتي يَشْفَعُ بها الشافعون من الملائكة، والنبيين، والمؤمنين، الَّذِين يأذَنُ الله لهم بأنْ يَشْفَعُوا إلى تِسْعَةِ أنواع:

النوع الأول:

الشفاعة في أنْ يقْضِيَ الله عزّ وجلّ بيْنَ الخلائق، بَعْدَ انْتِظَارٍ طويل جدّاً، تنْقَطِعُ فيه دُمُوعُهُمْ من كَثْرَةِ البكاء.

هذا النوع من الشفاعة جاء في حديثٍ طويل أورَدَهُ الطبراني في المطوَّلاَتِ عَنْ أبي هريرة، وهو يَقَعُ في نَحْو عشر صفحات من صفحاتِ كتابي هذا، وذكروا أنَّهُ حَدِيثٌ غريبٌ ضعيف، تفرَّد به إسماعيلَ بْنُ رَافع، قَاصُّ أَهْلِ المدينة، إلَّا أنَّ الفِقْرَةَ المتعلّقة بالشفاعة في أن يقضي الله عزّ وجلّ بَيْنَ الخلائق، تقتضيها عقلاً أحاديث صحيحة.

وقد أورد ابن كثير هذا الحديث بطوله عند تفسير الآية (٧٣) من سورة (الأنعام) وجاء فيه خطاباً لمن سمعه من الرسول ﷺ من أصحابه، والمراد جميع المؤمنين:

«وتَقُولُون: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إلَىٰ رَبِّنَا فَيَقْضِيَ بَيْنَنَا، فَتَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أبيكُمْ آدم، خَلَقَهُ الله بِيَدِه، ونَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحه، وكلَّمَهُ قُبُلاً، فيأتُونَ آدَمَ، فيَطْلُبُونَ ذلِكَ إليه، فَيَأْبَىٰ، وَيَقُول: ما أَنَا بصاحِبِ ذلِكَ، فَيَسْتَقْرِئُونَ الأنْبيَاء نَبِيًّا نَبِيًّا، كلَّما جاءُوا نَبِيًّا أَبَىٰ عَلَيْهِمْ».

قال رسول الله ﷺ: «حَتَّىٰ يَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ إِلَىٰ الْفَحْصِ، فَأَخِرُّ سَاجداً».

قَال أبو هريرة: يا رَسُول الله، مَا الْفَحْصُ؟.

قال: «قُدَّامَ الْعَرْش، حتَّىٰ يَبْعَثَ الله إلَيَّ مَلَكاً، فيأُخُذُ بِعَضدي، وَيَرْفَعُنِي، فيقولُ لي: يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: نعم، يَا رَبّ، فيقولُ الله عزّ وجلّ: مَا شَأْنُكَ ـ وهُوَ أَعْلَمُ ـ فَأَقُولُ: وَعْدَتِنِي الشَّفَاعَة، فَشَفِّعْنِي في خَلْقِكَ فَاقْضِ بَيْنَهُمْ، قَالَ الله: قَدْ شَفَّعْتُكَ، أَنَا آتِيكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَكُمْ».

قال رسولُ الله ﷺ: «فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ مَعَ النّاس».

وجاء بَعْدَ هذا في الحديث وصْفُ نُزُولِ ملائكة السَّماوات، فَوْجاً بَعْدَ فوج، ثُمَّ يَنْزِلُ الله عزّ وجلّ، ثُمَّ يَهْتِفُ الله بصوته فيقول:

«يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإنسِ، إِنِّي قَدْ أَنْصتُّ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُم إلَىٰ يَوْمِكُمْ هٰذا، أَسْمَعُ قوْلكم، وأُبْصِرُ أَعْمَالَكُمْ، فَأَنْصِتُوا إليَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خيراً فَلْيَحْمِدَ الله، ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَه» اقرأ الحديث عند ابن كثير.

النوع الثاني:

شفاعَة الرَّسُول محمّد ﷺ لأمَّتِه بأَنْ يُدْخِلَهُمُ الله الجنّة، وقد طالَ عليهم الانتظار.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قَال: أُتِيَ رسُولُ الله ﷺ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّراعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَس مَنْهَا نَهْسَة(١) ثمّ قال:

«أَنَا سَيّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِك؟ يَجْمَعُ الله الناسَ الأوّلينَ والآخِرينَ في صَعِيدٍ واحد، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، ويَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وتَدْنُو الشَّمس، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ والْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ الناسُ:

أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إلَىٰ رَبّكُمْ؟.

---

(١) **فَنَهَسَ مِنها نَهسَةً**: أي: أخذ منها قطعةً بأطراف أسنانه.

فيقُولُ بعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بآدَمَ، فَيأْتُون آدَمَ عليه السَّلام، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، ونفخ فِيكَ من رُوحه، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟. أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغْنَا؟. فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُه، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ.

فَيأْتُونَ نُوحاً، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ⁽¹⁾، وَقَدْ سَمَّاكَ الله عَبْداً شَكُوراً، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عزّ وجلّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ.

فَيأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ الله وخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْض، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يغضبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ.

فَيأْتُونَ مُوسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ الله، فَضَّلَكَ الله بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلامِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟. فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ.

فَيأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُون: يَا عِيسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ الله، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا

---

(١) أي: أوّل الرُّسُلِ مِنْ أَهْلِ الْعَزم، جمعاً بَيْنَ هذا البيانِ وبَيْنَ مَا جاء في القرآن مِنْ قول الله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: رسُولٌ بلّغها وبَشّرها وأنذرها، والقرونُ التي كانت قبلَ نوح أُمَمٌ، ولها رُسُلٌ، لم يَبْلُغُو أن يكونوا من أولي العزم.

إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، ٱشْفَعْ لَنَا، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟. فَيَقُولُ عِيسَىٰ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَه مِثْلَهُ ـ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْباً ـ نَفْسِي نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّداً، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّد، أَنْتَ رَسُولُ الله، وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ ما نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبّي عزّ وجلّ، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدهِ وحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ٱرْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَٱشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنَ الأَبْوابِ. ثُمَّ قَالَ: والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ⁽¹⁾ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وحِمْيَرَ، أَو كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَىٰ».

والذي عنْدَ مُسْلِمٍ: «كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ».

النَّوْعُ الثالث:

شفاعَةُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَقْوامٍ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُم في أَنْ يَدْخُلُوا الجنَّة.

واسْتَشْهَدَ ٱبْنُ كثير في النهاية لهذا النوع بما أخرجه الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا، في كتاب الأهوال عن عبد الله بن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُنْصَبُ لِلأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرُ مِنْ ذَهَب، فَيَجْلِسُونَ عَلَيْها، ويَبْقَىٰ مِنْبَرِي لاَ أَجلِسُ عَلَيْهِ قَائِماً بَيْنَ يَدَي الله عزّ وجلّ مُنْتَصِباً لِأُمَّتِي، مَخَافَةَ أَنْ يُبْعَثَ بِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَتَبْقَىٰ أُمَّتِي بَعْدِي.

---

(١) **المصراع**: أحَدُ جُزْأَي الباب، وهما مِصْرَاعان أحدُهما إلى اليمين، والآخر إلى اليَسَار.

فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي، فَيُدْعَىٰ بِهِمْ فَيُحَاسَبُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِرَحْمَةِ الله، ومِنْهُمْ مَنْ يَدْخَلُ الْجَنَّةَ بشفاعَتِي، وَمَا أَزَالُ أَشْفَعُ حَتَّىٰ أُعْطَىٰ صِكَاكاً بِرِجالٍ قَدْ بُعِثَ بِهِمْ إِلَىٰ النَّار، حَتَّىٰ إِنَّ مَالِكاً خَازِنَ جَهَنَّمَ لَيَقُولُ: يَا مُحَمَّد مَا تَرَكْتَ لِغَضَبِ رَبِّكَ لِأُمَّتِكَ من نِقْمَةٍ.

النوع الرابع:

شفاعة الرَّسُول ﷺ لِأَقْوَامٍ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إلى النار في أن لا يَدْخُلُوها.

واستشهد ٱبن كثير في النهاية لهذا النوع من الشَّفَاعة بِحَدِيثٍ رواه بِسَنَدِه عَنْ المِنْهَالِ، قالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ الحارثِ، أَنَّ النبيّ ﷺ قال:

«أَمُرُّ بِقَوْمٍ مِنْ أُمَّتِي قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَىٰ النار، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، نَنْشُدُكَ الشفاعة، قَالَ: فآمُرُ المَلائِكَةَ أَنْ يَقِفُوا، قال: فَأَنْطَلِقُ، وَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ الرَّبّ عزّ وجلّ، فَيَأْذَنُ لي، فَأَسْجُدُ وأَقُولُ: يَا رَبِّ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي قَدْ أَمَرْتَ بِهِمْ إِلَىٰ النَّار. فيقُولُ لِي: انْطَلِقْ، فَأَخْرِجْ منهم، فَأَنْطَلِقَ فَأُخْرِجُ مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ الله أَنْ أُخْرِجَ.

ثُمَّ يُنَادِي الْبَاقُونَ: يَا مُحَمَّدُ نَنْشُدُكَ الشَّفَاعَةَ، فَأَرْجعُ إِلَىٰ الرَّبِّ فَأَسْتَأْذِنُ، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَسْجُدُ، فَيُقَالُ لي: ٱرْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأُثنِي عَلَىٰ الله بِثَنَاءٍ لَم يُثْنِ عَلَيْهِ بِهِ أَحَدٌ، أَقُولُ: ثُمَّ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَىٰ النَّارِ، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْهُمْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُخْرِجُ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلّا الله، وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِن إِيمَان، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ لَيْسَتْ تِلْكَ لَكَ، تِلْكَ لي. فَأَنْطَلِقُ فَأُخْرِجُ مَنْ شَاءَ الله أَنْ أُخْرِجَ، وَيَبْقَىٰ قَوْمٌ فَيَدْخُلُونَ النَّارِ فَيُعَيِّرُهُمْ أَهْلُ النَّارِ. فَيَقُولُونَ: أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ الله، وَلاَ تُشْرِكُونَ بِهِ أَدْخَلَكُمْ النَّار، فَيَحْزَنُونَ لِذَلِكَ، فَيَبْعَثُ الله مَلَكاً بِكَفٍّ مِنْ مَاءٍ، فَيَنْضَحُ بِهَا في النَّارِ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ، فَيُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا فَتَضَيَّفُوا النَّاسَ، فَلَوْ أَنَّهُمْ جَمِيعَهُمْ نَزَلُوا بِرَجُلٍ وَاحِدٍ، كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُ سَعَةٌ، وَيُسَمَّوْنَ الْمُحَرَّرِينَ».

النَّوْعُ الخامس:

شفاعة الرَّسُول ﷺ لبَعْضِ مستحقّي دُخُول الجنَّةِ في رَفْعِ دَرَجاتِهِم فيها.

واسْتُدِلَّ لهٰذا النوع بما ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وغَيْرِهما، من رواية أبي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِي، أنَّهُ لمَّا أُصِيبَ عَمُّهُ أبُو عَامِرٍ فِي غَزْوَة أَوْطاس، أَخْبَرَ أَبُو مُوسَىٰ رَسُولَ الله ﷺ بذَلك، فَتَوَضَّأَ ﷺ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَال:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ، واجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ».

وجاء في صحيح مسلم، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَعَا لِأَبي سَلَمَة بَعْدَ وَفاته فَقَال:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، واخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، واغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِين، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ».

النوع السادس:

شفاعة الرَّسُولِ ﷺ لأقوام فِي أَنْ يَدْخُلوا الجنَّة بِغَيْرِ حساب

واسْتُدِلَّ لِهَذَا النوع بِحَدِيثِ عُكَّاشَةَ بْنُ مِحْصَنٍ، وهو في الصَّحِيحَيْن.

وجاء فيهما التصريح بأَنَّ عُكَّاشَةَ قالَ للرسول ﷺ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، أي: من السَّبْعينَ ألْفاً الَّذِينَ يَدْخُلونَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حِساب، فقال له الرسول ﷺ: «أَنْتَ مِنْهم» فقامَ رَجُلٌ فقال: يا نَبِيَّ الله، ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَة»(١). رواه مسلم عن عِمْران.

وجاء عند البخاريّ أنَّ أبا هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول:

«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هِيَ سَبْعُونَ أَلْفاً، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيّ يَرْفع نَمِرَةً(٢) عَلَيْهِ، قَالَ: ادْعُ الله لِي يَا رَسُولَ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فقالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ. ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ

---

(١) انظر الجامع بين الصحيحين، جمع وترتيب «صالح أحمد الشامي» رقم الحديث (٢٣٦) مكرر.

(٢) نمِرَة: أي: شَمْلَةٌ فِيهَا خُطوطٌ مُلَوَّنَةٌ كجِلْدِ النَّمر.

مِنَ الأَنْصَارِ فقالَ: يَا رَسُول الله، ٱدْعُ الله لي أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَة»(١).

النوع السابع:

شفاعَةُ الرَّسُول في تخفيف العذاب عمَّنْ يسْتَحِقُّ الخلُودَ في النّار.

واسْتُشْهِدَ لِهَذا بِالْحَدِيثِ الذي رواه البخاريُّ عَنْ أبي سَعِيدِ الْخُدْرِيّ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبِ، فَقَالَ: لَعَلَّها تَنْفَعُهُ شفاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَة، فَيُجْعَلَ فِي ضَحضَاحٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ».

ورَواهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيث يَزِيد بْنِ حَبِيب.

في ضَحضَاحٍ: أي: في مكانٍ حَرَارَتُهُ قَلِيلَةٌ، يقال لغة: ماءٌ ضَحضَاح، أي: قَلِيلٌ لاَ عُمْقَ فيه. وهذه الحرارة القَلِيلَة بالنّسْبَةِ إلَىٰ ما في الجحيم من حرارةٍ عظيمة، كافيةٌ لأنْ يَغْلِيَ مِنْهَا دِمَاغُ المعذَّبِ بها من أهْلِ الكفر.

النوع الثامن:

شفاعَةُ الرسول في أَنْ يُؤْذَنَ لجميع المؤمنين بِدُخول الجنَّة.

واسْتُشْهِدَ لهذا النوع بما جاء في صحيح مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال:

«أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ في الجنَّة».

وجاء في بَعْضِ روايَات حَدِيث الصور، ما يلي كما أورد ابْنُ كثير في النهاية، قول الرسول ﷺ:

«فَأَنْطَلِقُ فَآتِي الْجَنَّةَ فَآخذُ بِحلْقَةِ الْبَابِ، ثُمَّ أَسْتَفْتِحُ، فَيُفْتَحُ لِي، فَأُحَيَّىٰ وَيُرَحَّبُ بِي، فَإِذَا دَخَلْتُ وَنَظَرْتُ إِلَىٰ رَبِّي عزّ وجلّ خَرَرْتُ لَهُ ساجداً، فَيَأْذَنُ الله مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِه بِشَيْءٍ مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لِي: ٱرْفَعْ يَا مُحَمَّد، وٱشْفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي،

---

(١) انظر فتح الباري، الحديث رقم (٥٨١١) الجزء العاشر.

قَالَ الله ـ وَهُوَ أَعْلَمُ ـ: مَا شَأْنُكَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشفاعَةَ، فَشَفِّعْنِي فِي أَهل الْجَنَّةِ يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ الله عزّ وجلّ: قَدْ شَفَّعْتُكَ، وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخولِ الْجَنَّة.

فَكانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: والَّذِي بَعَثَنِي بالْحَقِّ، مَا أَنْتُمْ في الدُّنْيَا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ وَمَساكِنِكُمْ، من أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَزْوَاجِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ.

فَيَدْخُلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَة، مِمَّا يُنْشِيءُ الله عزّ وجلّ، وثِنْتَيْنِ مِنْ بَنَاتِ آدم، لَهُمَا فَضْلٌ عَلَىٰ مَنْ أَنْشَأَ الله بِعِبَادَتِهِمَا الله في الدُّنيا».

النوع الْعَاشر:

شفاعة الرَّسُول في أهل الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ الّذين دَخَلُوا النار لإخراجهم منها.

وقَدْ تواتَرَتِ الْأَحاديث المثبتَةُ لِهَذَا النَّوْعِ مِنْ أنواع الشفاعَة، ومِنْها حَدِيث أنَسِ بن مالِكٍ رضي الله عنه قَال: قال رَسُولُ الله ﷺ:

«شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي».

وجاء تفصيل هٰذه الشَّفَاعَةِ في عِدَّةِ روايَاتٍ في الصحيحين البخاري ومسلم، مِنْهَا رِوايَةٌ عَنْ أنَسِ بْنِ مالِكٍ رضي الله عنه، قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ مِنْ بَعْدَ وصْفِ السُّجُودِ لِلَّهِ وسؤاله أن يَقْبَلَ شفاعَتَهُ، فِي حَدِيث طويل:

«فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّة، حَتَّىٰ مَا يَبْقَىٰ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآن» أي: وَجَبَ عَلَيْهِ الخلُودُ فيها.

قَالَ: ثُمَّ تَلاَ هٰذِهِ الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

أقول: هو المقام المحمود الذي جاء ذكْرُه في الآية (٧٩) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).

وبهذا تَمَّ هٰذا الملحق والحمْدُ لله على معونَتِه ومَدَدِه وتوفيقه

سُورة الواقعة

٥٦ مصحف - ٤٦ نزول

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ إلا الآيتين (٨١ و ٨٢) فَهُمَا مَدَنِيَّتَانِ
وآيتها (٩٦) آية

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ
(٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥)
فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ
ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى
جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ
(١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦)
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
(١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ

---

٩ ـ ● قرأ حمزة في الوقف: [الْمَشَمَةِ] في الموضعين بنقل حركة الهمزة إلى السّين وحذف الهمزة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [المشأمَة].

١٦ ـ ● قرأ أبو جَعْفر: [مُتَّكِينَ] بحذف الهمزة، وقفاً ووصلاً. وقرأها كذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بتسهيل الهمزة أيضاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مُتَّكِئِينَ] .

١٨ ـ ● قرأ السّوسي، وأبو جعفر: [وَكَاسٍ] بإبدال الهمزة ألفاً.

وقرأها حمزة كذلك أيضاً في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَكَأْسٍ].

١٩ ـ ● قرأ عاصم، وحَمْزَة، والكسائي، وخلف: [وَلاَ يُنْزِفُونَ] من فعل: «أَنْزَفَ» اللازم، بمعنى «سَكِرَ، أو ذَهَبَ عقلُه».
=

﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ
ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا
لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ
مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ
﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ
﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ
أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾
لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يُنزِفُون]** من فعل «نَزَفَهُ» المتعدّي، أي: أذهب عقْلَه، أو من فعل «نُزِفَ» أي: ذَهَبَ عقلُه بسُكرٍ أو نحوه.

٢٢ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وأبو جعفر: **[وَحُورٍ عِينٍ]** بالجرّ عطفاً على **[وَلَحْمِ طَيْرٍ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَحُورٌ عِينٌ]** بالرفع، على الاستئناف والابتداء، والخبر محذوفٌ تقديره «لَهُمْ» ويُحَسِّنُ هذا الاستئناف، أنّ الحور العين لَسْنَ من صنف ما يُؤكل ويُشرَبُ حتى يُجْمَعْنَ مع المشروبات والمأكولاَت بالعطف.

٢٣ ـ ● قرأ السّوسي، وشعبة، وأبو جعفر: **[اللُولُؤِ]** بإبدال الهمزة الأولى واواً. وكذلك قرأ حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[اللُؤْلُؤِ]**.

أمّا الهمزة الثانية فيقرؤها بإبدالها واواً في الوقف هشام وحمزة فقط، ولَهُما أيضاً تَسْهِيلُها مع الرَّوْم، وإبدالها واواً خالصة مع السكون والإشمام والرَّوم.

٣٧ ـ ● قرأ شعبة، وحمزة، وخلَف: **[عُرْباً]** بإسكان الرّاء.

وقرَأها بَاقي القرّاء العشرة: **[عُرُباً]** بضَمّ الرّاء.

عُرْب، وعُرُب، لغتان في جمع «عَرُوب» وهي المتَحبّبةُ العاشقة لزوجها.

وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ
﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ
﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ
ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ
﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾
هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

---

٤٧ ـ • قرأ نافع، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب: [إِنَّا] بحذف همزة الاستفهام، وتقديرها ذهناً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَءِنَّا] بإثبات همزة الاستفهام.

٤٧ ـ • قَرَأَ نافع، وحفص، والكسائي، وخلَف: [مِتْنَا] بكسر الميم.

وقرأها باقي القراء العشرة بضم الميم: [مُتْنَا] .

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٤٨ ـ • قرأ قالون، وابنُ عامر، وأبو جَعْفَر: [أَوْ آبَاؤُنَا] بإسكان الواو من «أو» على أن «أو» حرف عطف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَوَ آبَاؤُنَا] بفتْح الواو من «أو» علَىٰ أنّ الهمزة للاستفهام، والواو حَرْف عطف.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد بيانُه، أي: يَقُول المشركون: أَنُبْعَثُ إلى الحياة مرّةً أخرى، ويُبْعَثُ أيضاً آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ، ويَقُولُونَ أيضاً: أَنُبْعَثُ نَحْنُ، أوْ يُبْعَثُ آباؤُنَا الأَوَّلُونَ أيضاً، ولم يأتِهِمْ رسُولٌ من ربّهم (هذا بحَسَبِ زَعْمِهم) إذ أُرْسِل إليهم إسماعيل عليه السلام، وعلموا برسالات أهل الكتاب.

٥٥ ـ • قَرَأ نافع، وعاصِم، وحمزة، وأبو جعفر: [شُرْبَ] بضم الشين، وقرأها باقي القراء بفتح الشين، وهما وجهان عَرَبيان للكلمة.

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾
نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ
أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ
ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ
تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ
تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ
ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ
﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ

---

٦٠ ـ • قرأ ابن كثير: **[قَدَرْنا]** بفتح الدال دون تشديد، وقرأ باقي القراء: **[قَدَّرْنَا]** بتشديد الدال.

«قَدَرَ، وقَدَّرَ»: لغتان والمعْنَىٰ واحد.

٦٢ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: **[النَّشَآءَة]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[النَّشْأَةَ]** **«النشأَ والنشاءَةُ»** لغتان عربيتان، بمعنى: الحدوث المصحوب بالتكامل المتدرج غالباً.

٦٢ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلَف: **[تَذَكَّرُون]** .

وقَرَأها باقي القرّاء العشرة: **[تَذَّكَّرُونَ]** بتشديد الذال المفتوحة، أصْلُها «تَتَذَكَّرُونَ» أدْغِمَتِ التاء بالذال فصَارَتْ «تَذَّكَّرُون».

أمّا قراءة «تَذَكَّرُون» فقد حُذِفَت منها إحْدَىٰ التاءين تخفيفاً.

فالقراءتان متكافئتان.

٦٦ ـ • قَرأ شعبة: **[أَئِنَّا لَمُغْرَمُونَ]** بإثبات هَمْزة الاستفهام.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[إِنَّا لَمُغْرَمُونَ]** دون همزة استفهام.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداءِ المعنى المراد.

٧٢ ـ • قرأ ٱبْن وردان بخُلْفٍ عنه: **[الْمُنْشُونَ]** .

وقرأ باقي القراء العشرة: **[المنشِئُونَ]** . وهما وجهان في النطق.

(٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ
رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥)
وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى
كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ
رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ
حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ
(٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ (٨٧) فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ
وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۙ (٩٠) فَسَلَٰمٌ
لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ
ٱلضَّآلِّينَ ۙ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ
هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦) .

---

٧٥ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [بِمَوْقِعِ] بالإفراد.
وقرأها باقي القراء العشرة: [بِمَوَاقِعِ] بالجمع.
ومؤدّىٰ القراءتين واحد.

٧٧ ـ • قرأ ابن كثير: [لَقُرَانٌ]. وقرأها الباقون: [لَقُرْآنٌ] وهما وجهان عربيان نطقاً.

٨٩ ـ • قرأ رُوَيس: [فَرُوحٌ]. وقرأها الباقون: [فَرَوْحٌ] بفتح الراء. **الرَّوح**: الراحةُ والفرح، والرَّحْمَة، وطيب الرائحة. **والرُّوح**: هو فيما أرى الإمداد بما يؤنسه ويُسْعِدُه بعد الموت.

٩٥ ـ • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهْوَ] بإسكان هاء الضمير.
وقرأ باقي القراء العشرة: [لَهُوَ] بضم هاء الضمير. والقراءتان لغتان عربيتان.

(٢)

ممّا جاء في السُّنَّة بشأن سورة (الواقعة)

ورَدَ بشأن سورة (الواقعة) عدّة أحاديث، منها ما يلي:

(١) روى الترمذيّ عن ابن عباس، قال: قال أبو بَكْرٍ: يا رَسُولَ الله ﷺ قَدْ شِبْتَ، قال:

«شَيَّبَتْني هُود، والواقعة، والمرسَلات، وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» حديث حَسَنٌ غريب.

(٢) روى البيهقيُّ في شُعَب الإيمان، وغيره عن ابْنِ مسعود رضي اللهُ عنه قال: سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول:

«مَنْ قَرأ سورة الواقعةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبداً».

(٣) وأخرج ابن عساكر عن ابْنِ عباسٍ عن الرسول ﷺ قال: «سُورَة الْوَاقِعَةِ سُورَةُ الْغِنَىٰ، فَاقْرَؤوهَا وَعَلِّمُوهَا أَوْلاَدَكُمْ».

(٤) وَأَخْرَج الدَّيْلمِي عَنْ أَنَسٍ قال: قال رسُول الله ﷺ: «عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ فَإِنَّهَا سُورَةُ الْغِنَىٰ».

(٥) ورَوىٰ الإمامُ أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَة، قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ كَنَحْوِ مِنْ صَلاتِكُمُ الّتِي تُصَلُّونَ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخَفِّفُ، كَانَتْ صَلاَتُهُ أَخَفَّ مِنْ صَلاَتِكُمْ، وَكَانَ يَقْرأُ فِي الْفَجْرِ الْوَاقِعَة وَنَحْوَها مِنَ السُّوَرِ».

(٦) ورَوىٰ ٱبْنُ عَسَاكر، في تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُود، قالَ: مَرِضَ عبد الله مَرَضَهُ الّذِي تُوُفّي فِيه، فَعَادَهُ عُثْمانُ بْنُ عَفَّان، فقال: مَا تَشْتِكي؟. قال: ذُنُوبي. قال: فَمَا تَشْتَهِي؟. قال: رَحْمَةَ رَبّي. قَالَ: أَلاَ آمُرُ لَكَ بِطَبِيبٍ. قال: الطَّبِيبُ أَمْرَضَنِي. قَالَ: أَلاَ آمُرُ لَكَ بِعَطَاءٍ؟. قَال: لاَ حَاجَةَ

لِي فيه. قال: يَكُونُ لِبَنَاتِكَ مِنْ بَعْدِكَ. قَالَ: أَتَخْشَىٰ عَلَىٰ بَنَاتِي الْفَقْرَ؟ إِنِّي أَمَرْتُ بَنَاتِي يَقْرأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يَقُول:

«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَداً».

الفاقة: الفقر والحاجة.

(٣)

موضوع سُورة (الواقعة)

يدور موضوع سورة (الواقعة) حوْلَ تقسيم الناس يَوْمَ القيامَةِ، لمجازاة العباد الموضُوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، إلى ثلاثة أصناف: مع عَرْضِ لقطاتٍ مِنْ جزاء كلّ صِنْفٍ منهم:

الصنف الأول: المؤمنون المسلمون أصحاب اليمين، وهم أهل الجنَّة بوَجْهٍ عامّ، على دَرَجاتهم المنخفضة والمتوسطة.

الصنف الثاني: الكافرون المجرمون أصحاب الشمال، وهم أهل النّار بوَجْهٍ عامّ، على دَرَكاتهم الأولى، فالمتوسطة.

الصنف الثالث: السَّابِقُونَ المقَرَّبون من المحسنين والأبرار، وهم أصحاب الدرجات الرّفيعاتِ السَّامِيَاتِ في جنَّاتِ النّعيم.

ويفهم من التقابل والتناظُر «صِنْفٌ رَابعٌ» وهم الموغِلُونَ في الكُفْرِ وارْتكاب الجرائم الكبرىٰ، ونَشْرِ شُرورهم في الأرض، ودَعْوَتِهم إلى الكفر.

وهم أصْحَابُ الدركات السُّفْلَىٰ السَّحِيقَةِ من النار، ومنهم المنافقون الّذِين هُمْ في الدرك الأسْفَلِ من النار.

واسْتَدْعَى هذا الموضوع تقديم بيانات إقناعِيَّةٍ، وأدِلَّةٍ بُرْهانِيَّةٍ،

للمكَذِّبينَ بالْبَعْثِ وبِيَوْمِ الدّين، على صدْق الأخبار القرآنيّة المتعلّقَةِ بيوم الدين، وتوجيه العقول الحصيفة الدّراكة لاستبصار الْمَجْدِ الكبير الذي يَتحلَّىٰ بِهِ الْقُرْآنُ، المشْتَمِلُ علىٰ أخْبَارِ يوم الدِّين ومَا فيه من جزاء بالثواب، أو بالعقاب، على حَسَب أحوال أصناف الناس، مع مُتَابَعَةِ مُعَالَجَةِ المكذِّبينَ بالْبَعْثِ وبالجزاء يَوْمَ الدّين، بالإقْنَاعَاتِ الفكريّة، ثُمّ بالترغيب والترهيب، بتقديم بَعْضِ بيانَاتٍ عَمَّا في يَوْمِ الدّين من ثوابٍ وعقابٍ، وهٰذِهِ الإقْنَاعَاتُ والترغيباتُ تُثْبِتُ لأولي الألْبَاب أنَّ أنْبَاءَ الْبَعْثِ ويْومِ الدّين الواردةَ في القرآنِ المجيد، هي حقُّ اليقين.

ويختم اللهُ السورة بأمْرِ كُلِّ مُتَلَقٍّ لَدَيْهِ الاستِعْدَادُ لأنْ يُؤْمِنَ ويُسْلِمَ، لما في قَلْبِهِ مِنْ خَيْرٍ، بأن يُسَبِّحَ باسْم رَبِّه العظيم المهَيْمِن عَلَيْهِ دواماً بصِفَاتِ رُبُوبيَّتِه.

* * *

(٤)

دروسُ سورة (الواقعة)

بالتأمُّل ظَهَر لي تقسيم سورة (الواقعة) إلى أربعة دُرُوس:

الدرس الأول:

يتضمَّنُ التذكير بِيَوْم القيامة، مقروناً بِذِكْرِ بَعْضِ مَا يَجْرِي قُبَيْلَه وعِنْدَ حُدُوثه، وبُعَيْدَه، ويتضمّن بيان تَقْسِيم الناس يَوْمَئذٍ إلى الأصْنافِ التي سبَقَ بيانها ضِمْنَ بيان موضوع هذه السورة، ويتضمَّنُ بَيَانَ لقطاتٍ مِنْ جزاءِ كلِّ صنف منهم.

وهو الآيات من (١ ـ ٥٦).

الدرس الثاني:

يتضمَّنُ معالجة المكذّبين بِيَوْم الدّين بِبَعْضِ الإقناعات والحجج البرهانية، من الظّاهرات الكونيّة.

وهو الآيات من (٥٧ ـ ٧٤).

الدرس الثالث:

يتضمَّن بيانَ مَجْدِ القرآن الذي يَشْهَدُ ما فيه من إعجازٍ على صِدْقِ ما اشتمل عليه من أخبارٍ عَنِ البْعَث ويَوْمِ الدّين وما يجري فيه.

ويتضمَّن معالَجةَ المكذِّبين بيَوْم الدّين بِبَيَانَاتٍ وحُجَجٍ فيها إقناعٌ كافٍ، لطالبي الحقّ، مع الترغيب والترهيب، بعَرْض بعْضِ ما يجري فيه من جزاءٍ بالثواب، أو جزاءٍ بالعقاب.

وهو الآيات من (٧٥ ـ ٩٤).

الدرس الرابع:

يوجِّهُ اللهُ عزّ وجلَّ فِيه الخطابَ لِمنْ يتَلَقّى القرآن وهو مؤمن به، أو مُسْتَعِدٌ لأنْ يُؤْمِنَ به وبكلّ ما جاء فيه، وهذا الخطاب يتضمَّنُ بيان أنَّ مَا جاء في أنباء القرآن لَهُوَ حَقُّ اليقين، ويتضمَّنُ تَوْجيهَهُ لأنْ يُسَبِّحَ باسم رَبِّهِ العظيم، المهيْمِنِ عليه دواماً بصِفَاتِ رُبُوبيّته.

وهو الآيتان: (٩٥) و(٩٦).

* * *

(٥)

السّور التي سبق الحديث فيها عن الجزاء والبعث ويوم الدّين وبعض ما يجري فيه

إذا استثنينا سُور «الشّرح ـ والكوثر ـ والكافرون ـ والفلق ـ والناس ـ والإخلاص ـ وقُريش) وجَدْنَا سائر السُّوَر التي سَبَقَ تدبُّرها بحسب ترتيب النزول، وهي (٣٨) سورة قد جاء فيها بيانٌ ما مُوَسَّعٌ أو مُتَوسِّطٌ، أو مقْتَضَبٌ، أو إلماحيٌّ في السُّور الصّغيرة، وفي بَعْضِها تفصيلات، عن الجزاء يوْمَ الدّين، وما فيه من حساب وجزاء وإدانَةٍ للعباد بحَسَبِ أعمالهم، وفيها لقَطَات بيانيَّة من مشاهِدِ يوم الدّين، ومشاهِد مِمَّا يجري

في الجنَّة مِنْ ثواب للمؤمنين المتقين، بحسب دَرجاتهم، ومشاهدَ ممَّا يجري في دار العذاب من عقاب للكافرين، بحسب دَرَكاتهم.

وهذا يَدُلُّ على القيمةِ الْعُظمىٰ للإيمان بِيَوْم الدين، في دفع الإنْسَانِ للالتزام بشرائع الإسْلام وأحكامِه عقِيدَةً وعملاً، وأنّ الإيمان بالجزاء الرَّبَّاني في الحياة الأخرى، يَقَعُ في المْرتَبَةِ الثانية بَعْدَ الإيمانِ باللهِ وبصفاتِه وأسمائه الحسنى، في أُسُسِ العقيدة الإسلاميَّة، لأنَّهُ هُو الركْنُ العظيم الّذي يُحَرِّكُ في النفوس مِحْوَرَي الْخَوفِ والطَّمَع، الموجِّهَيْنِ لسُلُوكِ الإنسان، متىٰ استقرَّ في القلب الإيمانُ به، استقراراً راسخاً.

وهذه القيمة العظيمة، هي الّتي جَعَلَتْ من الحكمة الرَّبَّانيَّة تنْويعَ البيان عن هٰذَا الركن، في مُعْظَم السُّوَرِ القرآنية، لتَعْمِيق جذُوره في القلوب الّتي تُؤْمِنُ به، وللتَّذْكِيرِ بِهِ في كُلِّ المناسَبات الَّتي فِيهَا أمْرٌ بفِعْل خَيْرٍ وطَاعَةٍ للهِ عزّ وجل، أَوْ نَهْيٌ عَنْ فِعْلِ شَرٍّ ومعْصِيَةٍ لله عزّ وجل، ولتَحْذِير الكافرين والمكذّبين بِه، من عَاقِبَةِ مَا اختارُوهُ لأنفسهم بإراداتِهم الحرَّة في رِحْلَةِ امتحانِهم، ولقَطْع كُلِّ أعْذَارِهم التي يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بها، إذا وقفوا يوم الدِّين في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَةِ، لمحاسَبَتِهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والأمْرِ بَسَوْقِهِمْ إلى دار العذاب، لِيُلاَقوا جزاءَهم بالْعَدْل، على ما قَدَّمُوه أو أخَّرُوه في الحياة الدنيا، يَوْمَ كانوا موضوعين فيها ممتحنين ذوي إراداتٍ حُرَّة، ومُمَكَّنِينَ مِنْ تحقيق كثيرٍ مما يخْتارُونه مِنْ فِعْلٍ أوْ ترك.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الواقعة) وهو الآيات من (١ ـ ٥٦)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾:

تمهيد:

تتحدَّث هٰذه الآيات عن الحادثة العظمَىٰ المنتظرة، وهِيَ قِيامُ ساعَةِ الْبَعْث، بقيام الأمواتِ من الأجداثِ لملاقاة وَعْدِ رَبّهم، يومَ الدّين الّذِي يكُونُ فِيه الحسَابُ، وفَصْلُ الْقَضاء، وتَنْفِيذُ الجزاء، وتجري قُبَيْلَهُ ومَعَهُ تغييراتٌ كونيَّة عظيمة ومَهُولَة، ويُحْشَرُ فيه الخلائق ويُفْرزُونَ، لِيَقِفُوا في محكمة الْعَدْلِ والفضل الرَّبَّانِيَّة خاضِعِين خاشِعين أذِلَاءَ، لاَ حَوْل لهم ولا قُوَّة.

ومن الأحداث الْمُمَهِّدَةِ لذلِكَ الْيَوم، رَجّ الأرض بِعُنْفٍ شديد، وتَفْرِيقُ الجبال وتَجْزِئتَهُها حتَّىٰ تَكُونَ ذَرَّاتُها هَبائيَّةً مُتطايرةً فِي مُخْتَلِفِ الاتِّجَاهَات، ومُنْبَثَّةً مَعَ الرّيح لَيْسَ لها استقرارٌ ولا ثبَات.

والخطابُ في هذا الدّرس مُوجَّهٌ لكلّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان من الإنس والجنّ.

التدبُّر التحليلي:

قولُ اللهِ عزّ وجل:

- ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾: أي: إذا حَدَثَتِ الحادِثَةُ، وسَقَطَتِ السَّاقِطَةُ الْعُظْمَىٰ، المعلّقةُ بالقضاء الرّبّاني على الزَّمَنِ المقرَّرِ أن تَحْدُثَ فيه، فهي تترقَّبُ أن يأتي هذا الزّمَنُ المعلومُ المسَمَّىٰ عنْدَ رَبِّ الْعَالَمِين، حتَّىٰ إذا حانَ ذَلِكَ الزَّمَنُ وسقَطَ عَنْ مَجْراهُ الْغَيْبِيّ، سَقَطَتْ معَهُ واقِعَةً بإسْقَاطِ الله عزّ وجل لها، إذْ تَقَعُ بأهوالها العظام على مواقِع سُقُوطِ أحداثها في الكَوْنِ، فتكونُ مَوْجُودَةً في الواقع، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَضَاءً رَبَّانيًّا مُعَلَّقاً على زمن وقوعِها في حَيِّزِ الوجود.

يقال لغة: «وَقَعَ الشيءُ» أي: سَقَطَ، وَحَدَثَ.

والمرادُ بالواقِعَةِ أَحْدَاثُ يوم القيامة، وقَد دَلَّ علىٰ هذا المراد مَا في الآيات التاليات لهذه الآية من قرائن، ودلَّ التعريف بـ (ال) على عظمتها.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾: أي: لا يُوجَدُ بَعْدَ وَقْعَةِ أحداث الواقِعَةِ العظمىٰ نَفْسٌ كاذِبة، فلَفْظ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صِفَةٌ لموصوفٍ محذُوف تقديرُه: «نفس» وهذا نظيره قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . . . ۝١٨﴾.

إنَّ النفوس تكونُ يوم القيامة في حياة الحقّ الرَّهيبةِ مسلوبَةَ الاختيار، إِذِ انْتَهىٰ زَمَنُ ابْتِلائها، فَلاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ فيها أن تَكْذِبَ أو تَحْتَالَ أو تَقُولَ عَنْ شيءٍ مَا إِلّا الحقَّ والصِّدْقَ وما هو واقِعٌ، المؤمنونَ، والكافرون، والمنافِقُونَ الذين كانوا كذَّابِين في الحياة الدنيا، لا يَمْلِكُ أحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ يَوْمئِذٍ إلّا الحقّ، وقَدْ يُعْطَىٰ الكافر عند محاسَبَتِهِ فقط حُرِّيَّةَ الدّفاع عَنْ نفسه، فَيَجْحَدُ فَتَشْهَدُ عليه جَوارِحُهُ فيُخَاصِمُها قائلاً لها: عَنْكُنَّ كنْتُ أدافع.

وبناءً على هذا الفهم الذي ترجَّحَ لديَّ فَاللّامُ في عبارة ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾ هي بمَعْنَىٰ: «بَعْد» مثل اللّام في قَوْلِ الله عزّ وجلّ: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾: أي: بَعْدَ زَوالِ الشَّمْسِ عن كَبِد السماء، وهذا تحديدٌ لأوّل وقت صلاة الظهر، ويمتد إلى وقت صلاة العصر حتى آخر وقتها، وبَعْدَ غروب الشمس، ويمتد إلى طلوع الفجر.

وممّا لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكْذِبَ فيهِ نَفْسٌ مَا يَوْمَئِذٍ، كُلُّ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدّين، لأنَّها تكونُ أحداثاً مَشْهُودَةً لجميع الخلائق، وواقعاً يُدْرِكُهُ الحسّ، فَمَا كانَ خَبَراً في الحياة الدنيا، قابلاً لأنْ يُكَذِّبَ به الكافِرُ، بدافع من أهواء نَفْسِه وشهواتِها وكِبْرِهَا ورَغَبَاتها في الفجُور يَصِيرُ أمْراً واقعاً

مشهوداً، ولأن كل نفس ظالمة تكُونُ يومئذٍ في حالة ذُعْرٍ شَدِيدٍ مِنَ العذاب الذي تُسَاقُ إِلَيْه بأمْرِ الْمَلِكِ الجبارِ العليم الّذِي لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْه شيء، فهِيَ لاَ تَمْلِكُ جُرْأَةً لأنْ تَكْذِبَ في شيءٍ خوفاً من زيادة عذابها، علىٰ احتمال أنَّها تَمْلِكُ حُرِّيَّةَ أَنْ تَكْذِبَ.

إِنَّ الْمُلْكَ يوْمَئِذٍ كلُّهُ للهِ الواحد العزيز الْعَلِيم الْقَهَّار.

وجملة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ يَتَرَجَّحُ لَدَيّ أَنَّهَا اعْتراضِيَّة، بَيْنَ الشَّرْطِ وجوابِهِ المحْذُوفِ الْمُقَدَّرِ ذِهْناً، فهي لا مَحَلَّ مِنَ الإعراب كسَائر الْجُمل الاعْتِراضِيَّة.

وتقدير جَوابِ الشرط في: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ أقولُ فيه مَعَ بَسْطٍ وإطْنابٍ شارحَيْن ما يَلي: إذَا وَقَعَتِ الواقِعَةُ جَرَتْ أَحْدَاثٌ عظامٌ مَهُولَةٌ في الكَوْنِ كُلِّهِ، وأحداثٌ عظامٌ مُرْهِبَةٌ للعِباد الّذِينَ بُعِثُوا مِنْ أَجْدَاثِهِم للحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفيذ الجزاء، وهم لا يَمْلِكُونَ إيماناً وَعملاً صالحاً يَمْنَحُهُم العزيزُ الجبّارُ به أمْناً مِنْ عذابه، بَلْ يَلْقَوْنَ يَوْماً عَسِيراً جِدّاً غَيْرَ يَسِيرٍ عَلَىٰ الْكَافِرِين.

ويصلُحُ بوضوحٍ أنْ يكون جوابُ الشرط قولَ اللهِ تَعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾... وحتىٰ آخر البيان الذي يتَعَلَّقُ بتقسيم أهْلِ الْموقِفِ يومَ الدّين إلى ثلاثة أصنافٍ مصرَّحٍ بهم، وصَنف رابعٍ مطويٍّ.

فمِمَّا يَجْرِي يَوْمئذٍ للعباد الّذين كانوا في الحياة الدُّنيا مَوْضُوعِينَ مَوضعَ الامتحان مِنْ جِنٍّ وإنْسٍ، أنّ هٰذه الواقِعَة بحوادِثها تكونُ خافِضَةً لفريقٍ منهم في الدَّرَكاتِ المنْحطّاتِ النازلاَتِ في اتّجاه أسْفَلِ الجحيم، بحَسَبِ كُفْرِ كُلٍّ مِنْهم، وجرائمِه وكُثْرَةِ معَاصِيه. وتكونُ رَافِعَةً لفَرِيقٍ آخر مِنهُمْ في الدَّرجات الصَّاعِدَاتِ في اتّجاه الْفِرْدَوْس الأعْلَىٰ مِنْ جَنَّاتِ النعيم، بحَسَب إيمانِ كلٍّ منْهُمْ وكَثْرَة ما قَدَّم من أعْمالِ دَرجاتٍ مَرْتَبَةٍ

«التقوى» ودَرَجات مَرْتَبةِ «الْبِرِّ» ودَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ «الإحْسَانِ» فقال الله عزّ وجلَّ:

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾: أي: هي خافِضَةٌ رافِعَةٌ، وفي القراءة الأخرىٰ ﴿خَافِضَةً رَّافِعَةً ۝٣﴾ بالنَّصبِ على الحاليّة، أي: حالة كوْنها خافضة رَافِعَةً.

﴿خَافِضَةٌ﴾: اسم فاعل من فعل: «خَفَضَهُ» بمعْنَىٰ أنْزَل مكانَهُ المادّيُّ، أو مكانَتَهُ المعنويَّة في الدرجات أو في الدَّرَكاتِ، وحَطَّ مِنْها في اتّجاه الأسْفَل.

يقال لغة: «خَفَضَ الْخَافِضُ الشَّيْءَ» أي: حطَّهُ مِنْ عُلْوٍ، وأَنْزَلَ دَرَجَتَهُ أوْ دَرَكَتَهُ نَحْو الأسْفَل.

﴿رَّافِعَةٌ﴾: اسم فاعل من فِعْل: «رَفَعَهُ» بمَعْنَىٰ أعْلاَهُ في الدَّرَجَاتِ صُعُوداً.

جاءَتْ نِسْبَةُ الْخَفْض والرَّفْع في هذه الآية، لأَحْداثِ يَوْمِ الدِّينِ، الواقعة مُسْتَقْبلاً لاَ مَحالَة، نَظَراً إلى أنّها أدواتٌ وأَسْبَابُ الْخَفْضِ والرَّفْعِ بحَسَبِ الظَّاهر، مَعَ الْعِلْمِ بأَنَّ الْفَاعِلَ الْحقَيقيَّ هُوَ اللهُ عزّ وجلَّ، لِأَنَّهُ هُو القاضِي بالجزاء، وهو الآمِرُ بِتْنفيذِه، وهو الخالِقُ للأدواتِ والأسْبَابِ والمسَبَّباتِ.

وهُنَا يَقَعُ في الأذْهانِ تَساؤلٌ مفادُه: هلْ لَنَا أَنْ نَتَلَقَّىٰ بياناً عَنْ بَعْضِ الظَّواهِرِ الكَوْنِيَّة العظْمَىٰ الَّتِي تَحْدُثُ في هٰذِهِ الواقعة؟.

فجاء الجوابُ الرَّبَّاني في قول الله عزّ وجلَّ:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

أي: تَكُون هٰذِهِ الواقعَةُ، ذاتُ الأحداثِ العظْمَىٰ، إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ

رَجًا عَنِيفاً، وبُسَّتَ الجبال بسًّا شديداً، فكانَتْ بالْبَسِّ الشديد ناعمةَ الذَّرَّاتِ كالْهَبَاءِ الذي يتطايَرُ في الجوّ، إذْ لاَ وَزْنَ لَهُ يَنْحَطُّ به إلى الأرض.

﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: هُزَّتْ، وحُرِّكَتْ بِشِدَّة، يُقَالُ لغةً: «رَجَّ الْحَدَثُ الشَّيْءَ يَرُجُّهُ رَجًا» أي: هزَّهُ، وحَرَّكَهُ بِشِدَّةٍ، فارْتَجَ، أيّ: فاهْتَزَّ وَتَحرَّكَ واضْطَرَب.

﴿رَجًّا﴾ مَفْعُول مُطْلَق، يَدُلُّ على شدّة الرَّجِّ وعُنْفه.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ﴾: أيْ: وفُتِّتَتِ الجبالُ إلىٰ أجزاءٍ صغيرةٍ جدًّا، يقال لغة: «بَسَّ فُلاَنٌ الشَّيْءَ بَسًّا، وَبَسَّتِ الرَّحا الْحَبَّ بَسًّا» أي: فَتَّتْهُ، وَفَرَّقَتْهُ، فالْبَسُّ التفتيتُ إلىٰ أجْزَاءٍ صَغِيرَةٍ والتَّفْرِيق.

﴿بَسًّا﴾: مفعولٌ مطلق، يَدُلُّ على شدَّةِ التجزئة والتفريق.

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾: أي: فكانَتِ الجبالُ بالْبَسِّ الّذِي حَدَثَ فيها هَبَاءً مُتَفَرّقاً في الجوّ، لاَ وَزْنَ لَهُ يَجْعَلُهُ يَهْبِطُ إلى الأرض.

الْهَبَاءُ: الترابُ النّاعِمُ الدقيق أو نحوه، من كلّ مَا يَطِيرُ مع الهواء، وقَدْ يَعْلَقُ بالأشياء، أو لا يَعْلَقُ، فَيَنْبَثُّ في الجوّ مُتَفَرّقاً، فلا يَبْدُو مِنْهُ إلّا ذَرَّاتٌ تتحرَّكُ فِي الجوّ تُرَىٰ في ضَوْءِ الشَّمْسِ الداخِلِ من كَوَّةٍ ما إلى مَكانٍ مظْلِم.

﴿مُّنۢبَثًّا﴾ أي: متفَرّقاً مُنْتَشِراً يَتَطَايَرُ في الجوّ، يقال لغة: «بَثَّهُ، يَبُثُّهُ، بَثًّا» أي: فَرَّقَهُ، ونَشَرَهُ، في مُخْتَلِفِ الجهات. ويقال: «بَثَّتِ الرِّيحُ التُّرَابَ وَنحْوَه» أي: أثارتْهُ، وهَيَّجَتْهُ، وفَرَّقَتْهُ في الجهات.

فالمعنى: تكونُ الواقِعَةُ الكُبْرَىٰ المنتَظَرَةُ، إذَا هُزَّتِ الأَرْضُ وحُرِّكَتْ تَحْرِيكاً شَدِيداً عَنِيفاً، وفُتِّتَتِ الْجِبَالُ إلى أجزاءٍ صغرىٰ جدًّا، حتَّىٰ صارت

مِثْلَ الهَبَاء الّذي يَنْبَثُّ ويَنْتَشِرُ في الفضاء متطايراً لِخِفَّتِه، أي: فلا يَبْقَىٰ من الجبالِ في مَواضِعِها التي كانت فيها، إلَّا مِثْلُ الذَّرَّات الصَّغيراتِ المتطايراتِ في الجوّ لِخِفَّتِها، ولا تُرَى بالأبْصارِ إلَّا في ضَوْءِ الشَّمس الداخِلِ مِنَ الكَوَّةِ إلى مكانٍ مظلم.

وهذه الظاهرةُ التي سَوفَ تَحدُثُ، هي إحْدَىٰ الظواهر التي جَعَلَ اللهُ عزّ وجلَّ أزْمانَ حُدُوثها قُبَيْلَ الواقِعة الكبرى، أو مَعْها، وَعِنْدَ قيام السَّاعة(١).

قول الله عزّ وجلَّ خطاباً لِكُلّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء من الإنس والجنّ:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦)﴾.

تمهيد:

في هٰذِهِ الآيات من الدرس الأوّل مِنْ دُرُوس السُّورَةِ، بَيَانُ تَقْسِيم الناس يَوْمَ الدِّين إلَىٰ أصْنافٍ ثَلاثَة، ويُفْهَمُ الصّنْفُ الرابع من التقابُلِ والتناظُرِ بَيْنَ الأَصْنَاف كما سَبَقَ بيانه تحت عنوان «موضوع السورة».

---

(١) انظر استعراض ما جاء في القرآن بشأن الأطوار الَّتي تتعرَّضُ لها الجبال في المستقبل، فيما سبَق بيانه لدى تدبّر الآية (٣) من سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

وفيها بيَانُ لَقَطاتٍ تَفْصِيلِيَّةٍ مِنْ جَزاءِ السَّابِقِينَ في الخيرات بإِذْنِ الله في جنَّات النَّعِيم، وقَدْ جَاءَ الحديثُ عنهم صِنْفاً ثالثاً، لاسْتِكْمَالِ بيَانِ لَقَطاتٍ مِنْ ثوابِهِمْ في جنَّاتِ النعيم أوّلاً، عَقِبَ ذِكْرِ كَوْنِهِم صنْفاً ثالثاً مُمْتَازاً، دلَّ علَىٰ تميُّزهم تَكْرِيرُ وصْفِهِم بأنّهم السَّابِقُونَ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ وقَد استفاد الشاعر أبو النجم من هٰذا الأسْلُوبِ البياني، فقال في الثناء على شِعْرِه المتَمَيِّز: أَنَا أَبُو النَّجْمِ وشِعْرِي شِعْرِي.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾: أي: وصِرْتُمْ بالكيْنونَةِ المستَقْبَلِيَّةِ بَعْدَ فَرْزِكُمْ في مَوْقف الحشْرِ يَوْمَ الدِّين، أصْنَافاً ثلاثَة.

﴿أَزْوَٰجًا﴾: أي: أصْنَافاً: «يُطْلَقُ الزَّوْجُ في اللُّغَةِ على الصِّنْفِ مِنْ كُلّ شَيْءٍ» وجَمْعُه «أزْواج» وهذا المعنى هو المراد هنا.

ويُطْلَقُ الزَّوج في اللّغَة ويرادُ به خلاف المفرد. وكلُّ شيئَيْن مُقْتَرِنين هُما زَوْجان، ولَوْ كانَا مختلِفَيْنِ غَيْر مُتَشاكِلَيْن. والتَّزْويج في اللُّغَةِ: قَرْنُ شيءٍ بشيء، ومِنْهُ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ أي: قُرِنَتْ بها الأرواح التي كانت منْفَصِلَةً عَنْهَا بالموت.

قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾؟ في هذه الآية بَيَانٌ للصنْفِ الأوَّل، وهُمْ أصْحَابُ الْيَمِينِ مِنْ جُمْهُورِ المؤمنين، والفاء جاءت تفريعاً على عبارة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ وتَصْلُحُ أنْ تكون واقِعة في جواب شرط: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ أي: فالمحشُورون للجزاء: أصحابُ الْمَيْمَنَةِ، وأصحابُ المشأمة، والسابقون.

«الْمَيمَنَة»: تأتي في اللُّغَةِ بمعنىٰ الْيُمْنِ الذي هو ضِدُّ الشُّؤم، وتأتي بمعنى جِهَةِ الْيَمِين.

«أصْحَاب»: جمع «صَحب» وهذا جمع «صَاحب» وتجمع لفظة «أصْحَاب» على «أصاحيب» من صيَغ مُنْتَهىٰ الجموع، فالمراد بأصحاب الميْمَنَةِ أصحاب اليمين، كما جاء في الآية (٢٧) الآتية لدَى التفصيل في بيان لمحَاتٍ من الجزاء المعدِّ لَهُم.

والصَّاحِبُ في اللّغة: هو المعاشر المخالط المرافق، وقد حصل تَوَسُّعٌ في استعمال كَلِمَةِ «صاحب» وكلمة «أصْحاب» فتُسْتَعْمَلاَنِ للدلالة عَلَىٰ مُطْلَق الملازَمَةِ أو الاقتران، أو الحلُول في المكان، أو الانتماء إليه، أو الانتماء إلَىٰ أيِّ شيءٍ، أو لتملُّكِ الشيء، أو لحيازته، وتُطْلَقان علىٰ كلِّ علاقَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْن.

وجاء عند المفسرين في تفسير «أصْحاب الميمَنَةِ» أنَّهُمُ الَّذِينَ يَأخُذُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانهم، أو الَّذِينَ يُؤْخَذُ بهم ذاتَ الْيَمِينِ إلى جهة الجنَّة، أو الذين يُوضَعُونَ عَنْ يَمِينِ الْعَرْش.

أقول: كلُّ هـٰذِهِ المعاني صالِحَةٌ لتفسير أصحاب الميمنَة، فَهُمْ يَأْخُذُونَ كُتُبَهُم بأيمانهم، ويُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ إلى جِهَةِ الجنَّة، ويُوضَعُون عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ، فالأَوْلَىٰ حَمْلُ الْعِبارَة عَلَىٰ هـٰذِهِ المعانِي كُلِّها، دونَ تَرْدِيدٍ بَيْنَها.

وعبارة: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾؟ استفهام تَعْجِيبيٌّ من الخيْرِ العظيم، والثَّوابِ الدّائم في جنَّاتِ النعيم، والنّعيم المقيم، الّذي يمنَحُهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحيمُ لهم يَوْمَ الدِّين، مع الثناء على منزلتهم الرفيعة عند ربّهم.

أي: أعْظِمْ مُتَعَجّباً أيُّها المتلَقِّي، بِمَا سَوْفَ يَلْقَىٰ أصْحَابُ الميمَنَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ يوْمَ الدين من أجْرٍ عظيمٍ لاَ تَسْتَطِيعُ تَصَوُّرَهُ ولاَ التكَهُّنَ بِهِ، ففي

أنواع نعِيمهم وإكْرام اللهِ جلَّ جَلاَلُهُ لَهُمْ، مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، ولاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

وهذا أسْلُوبٌ تعجيبي من أساليب القرآن الّتي جاءتْ في نُصُوصٍ عَدِيدَة منه مثل: «القارعَةُ مَا القارعَة؟ ـ الحاقَّةُ مَا الْحَاقَة ومَا أدْراكَ ما الْحَاقَة؟ ـ ومَا أدْرَاكَ مَا سَقر؟ ـ ومَا أدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْل؟ ـ ومَا أَدْرَاكَ مَاهِيَة» ونحوها.

وهو من الأساليب التعجيبيَّة الّتي لم تكُنْ معْرُوفَةً عنْدَ البلَغاء فيما أعلم.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩﴾: في هذه الآية بيانٌ للصنف الثاني مِنْ عباد الله يَوْمَ الدين، وهُمْ أصْحَابُ الشمال.

والجملة معطوفة على الجملة السَّابقة لها، فهي مُفَرَّعَة على عبارة ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧﴾.

«المَشْأَمَةُ»: تَأْتي في اللُّغَةِ بمعنَيْين: بمعنَىٰ الشُّؤم الذي هُو ضِدُّ الْيُمْن، وبمَعْنَىٰ جِهَة الشمال.

وقد جاءَ عنْد المفسّرين في تفسير «أصْحاب الْمَشْأَمَةِ» أنَّهم الّذِين يأُخذون صُحف أعْمالهم بشمائلهم، أو الَّذين يُؤْخَذُ بهم ذاتَ الشمال إلى جهة النار، أو الّذين يُوضَعُون عَنْ يَسارِ الْعَرْش.

أقول: كلُّ هٰذِهِ المعاني صالحةٌ لتفسير أصحاب المشأمة، فهُمْ يأخُذُون كُتُبَهُمْ بِشَمَائِلهم، ويُؤْخَذُ بِهِمْ ذَات الشمال إلى جِهَةِ النار، ويُوضَعُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ، فالأولى حَمْلُ العبارة علىٰ هذه المعاني كُلّها، دون تَرْدِيدٍ بيْنَهَا.

وتدبُّر بقية الآيَةِ يُقَاسُ علىٰ نظيرتِها السَّابقَةِ لها.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾: في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانٌ للصّنْفِ الثالث مِنْ عباد الله يوم الدّين، وهم السَّابِقُونَ المتقدّمُون المتَفوِّقُون من أصْحَاب الْيَمِين، يفْرِزُهم اللهُ عزّ وجلَّ مِنْهُمْ، ويُمَيِّزُهم ويَجْعَلُهُمْ سَابقينَ في الصفوف الأولَىٰ من المؤمنين المسلمينَ المتقين، وسَبْقُهُمْ يكُونُ باسْتِكْثَارِهم مِنْ فِعْلِ الخيراتِ والصالحاتِ والْقُرُبَاتِ مِنْ أعمال مَرْتَبَة «الْبِرّ» وأعْمَال مَرْتَبَةِ «الإحسان» ابتغاء مَرْضاة اللهِ عزّ وجلَّ، والْتَقَرُّبِ إلَيْهِ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه، وهذه الأعمال الظاهرة أو الباطِنَةُ لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ الواجبات وتَرْكِ المحرَّمات، بَلْ هي مَنْ نوافِلِ العبادات والْقُرُبات، بفِعْلِ المنْدُوبِ إلى فِعْلِه دُون إلزام، وتَرْكِ المَنْدُوبِ إلى تَرْكِه دُونَ إلْزَام.

يقال لُغة: «سبَقَ الفارسُ القافِلَةَ» أي: تَقَدَّمَها فصار قَبْلَها في المسير. «وسبَقَ الْفَرَسُ» أي: جاء قَبْلَ الأفراس في الحلْبَة. ويُقال: «سبَقَ فُلاَنٌ علَىٰ قَوْمِهِ بالْعِلْمِ أو بالْجُودِ والكَرَم» أي: تَفَوَّقَ عليهم بذلك.

فالسَّابِقُونَ: هُمُ المتَفَوِّقُونَ المتَقَدّمون على سائر المؤمنين المتقين.

وجاء تكرير وصْفِهِمْ بالسَّابِقين فقال الله عزّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ للإشعار بالثّناء عليهم بالتَّفَوُّقِ والتَّقَدُّم إلى الصُّفوف الأولىٰ.

وبما أنّ أَعْمَالَهُم التَسابُقِيَّة كانت في اتّجاه التَّقَرُّب إلى الله بفِعْلِ الصالحات الّتي تُرْضيه جلّ جلالُهُ، كانَ من مُكَافَأتِهم عند ربّهم أن يُثْنِيَ عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: أولئِكَ رَفِيعُو المنازِلِ هم الْمُقَرَّبُون عنْد رَبّهم، ثواباً لهم على سبقهم بصالحاتِ أعمالهم.

وقد جاء في الحديث الْقُدْسِيّ الصحيح:

«إذا تَقرَّبُ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعاً، وَإِذَا تَقرَّبَ إِلَيَّ ذِراعاً تَقرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً، وإذَا أتاني يَمْشِي أَتَيْتُه هَرْوَلَة».

رواه البخاري عن أنس بن مالك (انظر الحديث (٧٥٣٦) في «فتح الباري».

والمرادُ التقرُّبُ إلَىٰ اللهِ بمَا يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ من الأعمال الصالحة، من الفرائض فالنوافل، ومن ترك المحرّمات فالمكرُوهات. ولا يزال العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إلى الله بالنوافلِ حتَّىٰ يُحِبَّه، وحينئذٍ يتقرَّبُ اللهُ مِنْهُ بفيُوضِ رَحَمَاتِهِ وعَطاءَاته.

ويقابلُ هذا الصِّنف السّابقَ الْمُتَفَوِّقَ، صِنْفٌ رابعٌ طَواه النصُّ القرآني لإمكان استخراجه بالتَّدَبُّر، وهم صِنْفُ غُلاَة الكافرين المجْرِمين المتَجَبِّرين، الدُّعَاةِ إلى الكُفْر والفِسْقِ والفجور، وهم في الدَّرْك الأسْفَل من النار، في مقابل السَّابِقين الّذِين هم من أهل الفردوس الأعلى ذِي الدَّرجات المتفاضلات.

والسَّابقون هُمُ المرسَلُونَ والأنبياءُ، والصِّدِّيقونَ، والشهداءُ والصالحون من المؤمنين المسْلِمين ذوي المرتَبَةِ السَّامِيَةِ، والدَّرَجَاتِ المتَفَاضِلاَتِ فيها.

رسْمٌ بياني
لميزانِ التقابل بين الأصناف

- **الذين ترفعهم الواقعة.**
- **والذين تَخْفِضُهُم الْوَاقِعَة.**

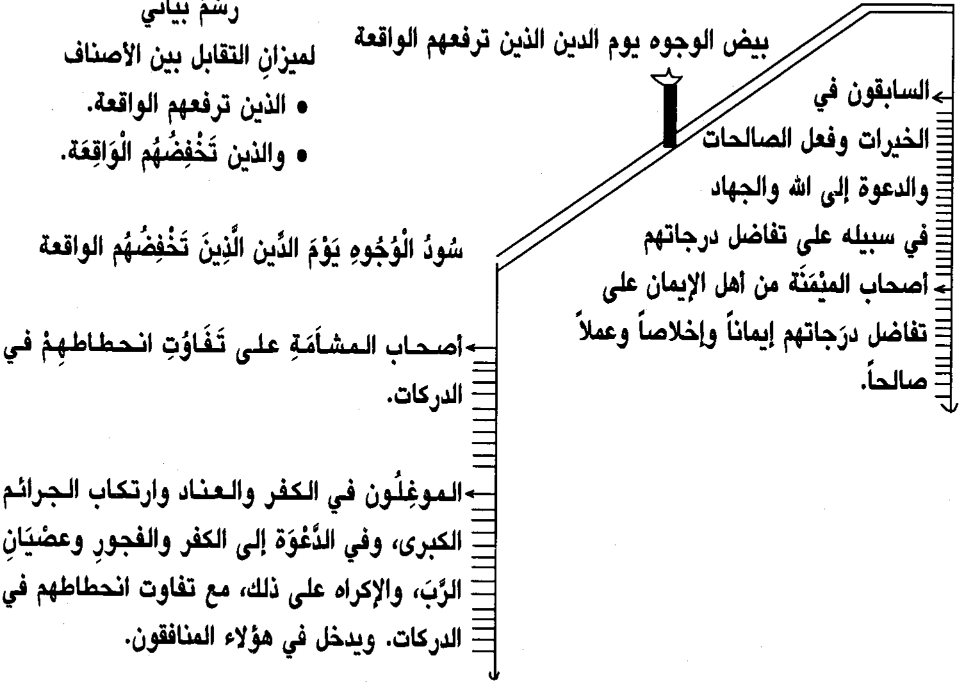

بيض الوجوه يوم الدين الذين ترفعهم الواقعة

السابقون في الخيرات وفعل الصالحات والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله على تفاضل درجاتهم

أصحاب الميْمَنَة من أهل الإيمان على تفاضل درَجاتهم إيماناً وإخلاصاً وعملاً صالحاً.

سُودُ الْوُجُوهِ يَوْمَ الدِّين الَّذِينَ تَخْفِضُهُم الواقعة

أصحاب المشأمَةِ على تَفَاوُتِ انحطاطهِمْ في الدركات.

الموغِلُون في الكفر والعناد وارتكاب الجرائم الكبرى، وفي الدَّعْوَة إلى الكفر والفجورِ وعصْيَانِ الرَّبّ، والإكراه على ذلك، مع تفاوت انحطاطهم في الدركات. ويدخل في هؤلاء المنافقون.

قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾.

في هذه الآيات بيانٌ عَنْ حَالِ «السَّابِقِينَ السَّابِقِينَ» المتميّزين بالسَّبْقِ والتَّفوُّق، والْقُرْبِ من اللهِ رَبّ الْعَالَمِينَ يَوْمَ الدّين، وبَعْدَهَا يأتي عَرْضَ لقطاتٍ من نعيمهم الّذِي يكافِئُهُمْ رَبُّهُمْ به.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: **جنّات**: جَمْعُ «جَنَّةَ» وهي في اللُّغة مَا يَحْتَوِي على أشجارٍ وثمارٍ وزُرُوع وأنهارٍ وقُصُورٍ، وعلى كلّ ما يَلَذُّ ويَطِيبُ للنفوس والحواسّ. ودارُ النَّعيم يَوْمَ الدِّينِ فيها جنَّاتٌ كَثِيرَاتٌ باعتبار أَقْسَامِها، ويَجْمَعُها جميعاً اسْمُ «جَنَّة» باعتبار أَنَّها كلَّهَا دارٌ للنعيم، كشَأن دَار الحياة الدُّنيا بكُلّ ما فِيها مِنْ أَرْضٍ وسماوات وما بينهما.

النّعيم: مَصْدَرُ: «نَعِمَ الرَّجُلُ، يَنْعَمُ، نَعماً، ونَعْمَةً، ونَعِيماً» أي: طَابَ، وَرَفُهُ، وهَدأَ بالُهُ، واطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ، واسْتَرَاحَ، وتأْتِي مادّة «نَعِمَ» بمعْنَىٰ: «نَضُرَ» وبمعنى: «لاَنَ مَلْمَسُهُ، وكلُّ هذه المعاني يَصِحُّ وَصْفُ نَعِيم الجنَّة بها.

وللتفريق بَيْنَ لذَّاتِ الحياة الدُّنيا ومَا فِيها من رَفَاهِيَةٍ وطيّبات، وبَيْنَ مَا فِي الجنَّةِ يَوْمَ الدِّين من ذَلِك، وصَفَ اللهُ ما في الحياة الدنيا من ذلك بأَنَّهُ «مَتَاع» لسُرْعَةِ زَوَالِهِ، وقِلَّةِ قِيمَتِهِ، ووصَفَ ما في الجنَّة من ذَلِكَ بأَنَّهُ «نَعِيم» لتخصيص هذا اللّفظ بما هو باقٍ خالِدٌ مُتجدِّد، وبما هُوَ عظيم الْقِيمَة لذَّةً وسَعَادَةً ورَفاهِيَةً.

- ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾:

«**الثُّلَّة**»: في اللُّغَةِ الْجَمَاعَةُ من النَّاس، ويُرَادُ بها هنا الجماعة الّتي لَيْسَتْ بالْقَلِيلَةِ، لمقابَلَةِ «الثُّلَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ» في النَّصّ بقَوْل الله عزّ وجلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾.

الأَوَّلُون: هم الأنبياء والمرسلون من عَهْدِ آدم، والسَّابقون المتفوِّقُونَ من الَّذِينَ آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهُمْ بإحْسَان، وكان هؤلاء ثُلَّةً بالنِّسْبَةِ إلى أعْدادِ البشر الأولين.

الآخِرُونَ: هُمْ الرَّسُولُ محمَّدٌ ﷺ، وأصحابُه الَّذِينَ رضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عِنْهُ، والتَّابِعُونَ لَهُمْ بإحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّين، وهٰؤلاَءِ قَلِيلون، نَظَراً إلَىٰ كَثْرَةِ أَعْدَادِ النَّاسِ في الآخِرِين.

لكِنَّ أَهْلَ الجنَّةِ من الآخِرِين دُونَ أنْ يَكُونُوا من السَّابقين، قد يَصِلُونَ إلى مقدار نِصْفِ أهْلِ الجنَّةِ جَمِيعاً، كما صَحَّ عَنِ النبيّ الرسول محمّد ﷺ.

روى البخاريّ ومسلم عن أبي سعيد الخدري (مِنْ حَدِيثٍ ذِي طُولٍ) أن رسُولَ الله ﷺ قَالَ:

«... والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّة». فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ:

«أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فقال: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنا.

قول الله عزّ وجلَّ:

• ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾:

في هٰذِهِ الآياتِ وَصْفٌ لِبَعْضِ نَعِيمِ السّابِقِينَ المتَمَيِّزين بِسَبْقِهِمْ، في

جنّات النعيم يوْمَ الدِّين، إذ كانوا في حياة امتحانهم في الدُّنْيا، سابِقِين في الخيرات بإذْنِ الله، مما فيه رضوان الله عزّ وجلَّ، والتقرُّب إلَيْه بالنوافل من مَحَابِّه.

• ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوۡضُونَةٍ ۝١٥﴾: الجملَة هـٰذِهِ حاليَّة: أي: حالة كونهم على سُرُرٍ موضُونَةٍ سُعَداءَ في جنَّاتِ النعيم. «**السُّرُر**»: جَمْعُ «السَّرِير» هُوَ الْمُضْجَعُ ذُو القوائم الأربعَة الّتِي تَرْفَعُهُ عَنِ الأرض، وما يُشْبِهُهُ، ويُبْسَطُ الفِراشُ اللَّين علىٰ قَدْرِ المسَطَّحِ مِنْهُ، ويُجْمَعُ أيضاً على: «أَسِرَّة».

«**الْمَوْضُونَة**»: أي: المنْسُوجَة، **الْوَضْنُ**: النَّسْجُ المضاعَفُ، ويقالُ: «وَضَنَ السَّرِيرَ وأشباهَهُ بالْجَوْهر» فهو «واضِنٌ» وهي «واضِنَة» والمفْعُول: «مَوْضُونٌ».

أي: مُسَطَّحَاتُ هـٰذِهِ السُّرُرِ مَنْسُوجَةٌ نَسْجاً مُضاعفاً، ومُطَعَّمَةٌ بالجواهر النَّفِيسة، وخُيُوطِ الذّهب وأسْلاَكِهِ.

وجاء في القرآن وصْفُ هـٰذِهِ السُّرُر بأَنَّهَا مَصْفُوفَة، وبأَنَّها مَرْفوعة:

• فقال الله عزّ وجلَّ في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول) في وصْفِ الجنَّة:

﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣﴾.

• وقال الله عزّ وجلَّ في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) في وصف نَعِيم المتقين في جنَّاتِ النعيم:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٢٠﴾.

قول الله تعالى:

• ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾: «**الْمُتَّكِىءُ**»: مَنْ يَسْتَوِي قاعداً عَلَىٰ وِطَاءٍ مُتَمَكّناً. و«**الاتّكاءُ**»: هو الْجُلوسُ بِتَمكُّنٍ عَلَىٰ مَجْلسٍ وَثِير، ويُصَاحِبُهُ

غالباً وضعُ الْيَدِ أو الْيَدَين علىٰ مَا يَحْمِلُهما للرَّاحة، أي: فهم يتكِئُونَ علىٰ السُّرُرِ.

﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾: أي: يُقَابِلُ هؤلاء السَّابِقُون من أهل جناتِ النّعيم بَعْضُهُمْ بَعْضاً بُوجُوههم، فَيُشاهِدُ بَعْضُهُمْ بعْضاً، ويُحَادِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مُحَادَثَاتِ إيناسٍ وتَنَعُّم بنَفِيسِ الأحَادِيث، لأنّ هـٰذِهِ من لوازم التقابل في مجالِسِ الأُنْس بَيْن المتحَابِّين المتصَافِين، الّذِين لا يُضْمِرُ بعضهم لبَعْضٍ غِلًّا، مِنْ حِقْدٍ أو حَسَدٍ أو تَنَافُس، ولو تفاضَلَتْ دَرَجَاتُهُمْ.

وهـٰذِهِ الجملة حالية أيضاً، فالعبارات من الجملة الحاليّة المتَتابعة، كالْجُمَل الوصْفيَّة.

قول الله تعالى:

- ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾:

وهذه جُمْلَة حَالِيَّةٌ أيضاً، مناظرة لسابِقتَيْها.

﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: يَدُورُ عليهم، ولا يَلْزَمُ أَنْ يكُونَ الطواف على شكل دائرة مُتساوية الأبعاد عن المحور، أو متقاربة الأبعاد، بَلْ كُلُّ عَوْدٍ على بَدْءٍ في الحركة يُسَمَّىٰ طوافاً، ومِنْهُ الطوافُ بَيْنَ الصَّفَا والمرْوة.

يُقَالُ لغة: «طَافَ حَوْلَهُ، وَبِهِ، وعَلَيْهِ، وفيه، يَطُوفُ طَوْفاً، وطَوَافاً» أي: دَارَ، وحَامَ، وعاد في حَرَكَتِه إلى المكانِ الذين بدأ منه، أَوْ مَرَّ عليه أَوْ به.

﴿وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾: «**الْوِلْدانُ**»: جَمْعُ «الْوليد» والمرادُ به هنا الْغُلامُ الخادم.

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: أي: يَجْعَلُهُمُ اللهُ بَاقِينَ أَبداً في خِدْمِتِهم، وهم يتَنَعَّمونَ بهذه الْخدمةِ، والمرجَّحُ أن يكونوا مخلوقين في الجنة لخدمة أصْحابها، كالْحُورِ العِين.

وَجَاءَ في سُورَةِ (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) وصْفُهُمْ بأنّهُمْ غِلْمَانٌ، كأنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ جمالاً وَحُسْناً وَأَنَاقَةً، **«اللُّؤْلُؤُ المكْنُونُ»**: هُو المحفوظ المسْتُورُ، الّذِي لاَ تَعْبَثُ بِهِ الأيْدِي، حِمَايَةً لَهُ مِنْ إفْسَاده، ولَمْ يَتَعَرَّض لِمَا يغيّر صَفاءَه ونقاءَه، ودَرَجَةَ جَمالِه من عوارض مختَلِفةٍ، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤ ﴾.

﴿غِلۡمَانٞ﴾: جمع «غُلاَم» وَهُوَ الخَادِمُ الّذِي طَرَّ شَارِبُهُ، وبَدَأَ الدُّخُولَ في مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ.

وَجاء في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) قول الله عزّ وجلَّ في وصْفِ نعيم الأبرار في الجنة:

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩ ﴾:

فَدَلَّ مَا جاء في هذه الآيَةِ مع مَا جاء في آيَة سُورَة (الطور) علىٰ أنَّ جَمَالَهُمْ كَجمالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُون الذي لم تَعْبَثْ بِه أيْدي العابثين، وأنَّ انْتِشَارَهم في مجالِس المنعَّمِينَ في الجنَّةِ كاللُّؤْلُؤِ المنْثُورِ نَثْراً بَدِيعاً.

قولُهُ تَعالى: ﴿بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨﴾:

أي: يطوف عليهم الوِلْدَانُ المخَلَّدُون بهٰذِهِ الأدوات النّفيسةِ، وذكر هٰذِهِ الأدوات يُشْعِرُ عَنْ طَرِيقِ الكِنَايَةِ بما فيها مِنْ أنواعِ أشْرِبة نفيسَةٍ لَذَّةٍ للشاربين.

﴿بِأَكۡوَابٖ﴾: **«الأكْواب»**: جَمْعُ «الكُوب» وهو الْقَدَحُ مِنَ الزُّجاج ونحوه، المستدير الرأس، الّذِي لا آذانَ لَهُ، ولاَ عُرْوة، وهو من آنية الشّراب، ويُجْمَعُ أيضاً علىٰ أكْوُب.

﴿وَأَبَارِيقَ﴾: **«الأبارِيق»** جمع «الإبْرِيق» وهو إناءٌ ذُو أُذُنٍ وخُرْطُومٍ

يَنْصَبُّ مِنْهُ السَّائل. وسُمِّيَ إبْرِيقاً لِأَنَّ مَعْدِنَهُ يَبْرُقُ من صَفائِهِ ونفاسَتِه.

﴿وَكَأْسٍ﴾: «**الكَأْسُ**» الْقَدَحُ ما دَامَ فِيه الخَمْرُ، ويُجْمَعُ عَلىٰ «أَكْؤُسٍ» و«كُؤُوس» فإذا لم يكُنْ فيه خَمْرٌ فَهُو كُوبٌ.

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: أي: من نَهْرِ خَمْرٍ يَجْرِي في الجنَّة ظَاهِراً يَسْهُلُ التَّناوُلُ مِنْه.

وإذ جاء في القرآن بيان أنَّ الجنَّة فيها أنهارٌ مِنْ ماءٍ غير آسِنٍ، وأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وأَنهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبين، وأنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مصَفًّىٰ، ولمَّا كانَتِ الكأْسُ هِيَ الْقَدَحَ المملُوءَ بالْخَمْر في اللُّغَةِ، فالَّذِي أَرَاهُ أَنْ تكُونَ عِبارَة: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ وَصْفاً عامًّا لِلْأَكواب، والأبَارِقِ، والكَأْسِ، باعْتِبارِ مَا فِيها، أي: مَمْلُوءَةٍ مِنْ أنْهُرٍ تَجْرِي في الجنّة، من ماءٍ غير آسِنٍ: ولَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وخَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّاربين، وعَسَلٍ مصَفًّىٰ، وإذْ كانت الْكَأْسُ الْقَدَحَ المملُوءَ خَمْراً، فالأقْدَاحُ والأباريق تَبْقَىٰ لِلْماء، وَاللَّبَنِ، والْعَسَلِ المصَفَّىٰ.

وفي بيان هٰذِهِ الأنهار قال الله عزّ وجلَّ في سورة (مُحمَّد/٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ... ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: وَصْفُ الجنَّة.

﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: أي: لاَ يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ بالمنتنات.

﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾: أي: لم يَتَأَثَّرْ بالمنْتِنَاتِ علَىٰ طُولِ الْمَدَىٰ، فكُلَّما شَرِبَ مِنْهُ المنَعَّمُونَ في الجنَّةِ وَجَدُوهُ كَأَنَّهُ قَدْ خُلِقَ لِسَاعَتِه.

﴿مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: مَعَ سَلْبِ صِفَةِ الإسْكَارِ مِنْهَا، إذْ لاَ غَوْلَ فيها، كما جاء في نصوص أخرى.

قول الله تعالى:

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [وَلاَ يُنْزَفُونَ].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾: أي: لاَ تُصَابُ رُؤُسُهُمْ بالصُّدَاعِ بِسَبَبِ شُرْبِهِمْ خَمْرَ الجنَّةِ الّتي هِيَ لَذَّةٌ للشَّارِبين، بخلاف خُمُور الدُّنيا.

حَرْف «عَنْ» يأتي بمعنَىٰ التجاوز، ويَأْتي بمعنىٰ التعليل، ومن هٰذيْنِ المعنيين نستَطِيعُ أنْ نفهم أنَّهم لاَ يُصابُون بالصُّدَاعِ بَعْدَ شُرْبها بسَبَب شُرْبهم لها.

الصُّدَاع: أَلَمٌ في الرأس مَعْرُوف، وهو عَرَضٌ فيه تُسبِّبُهُ وتُحْدِثُهُ مؤثراتٌ كثيرة، منها ارتفاع ضغط الدّم، ومنها ما تُؤَثِّرُهُ الْخَمْرُ في بَعْضِ أجْهِزَةِ الْجِسْم.

وجُمْلَةُ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب.

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾: [وَلاَ يُنْزَفُونَ] في القراءة الأُخرى، وقَدْ سبَق في القراءات توجيههُما اللُّغَوِيّ.

والمعنى: لاَ تَذْهَبُ عُقُولُهُم بالسُّكْرِ الّذي تُحْدِثُهُ خَمْرُ الدنيا، **السُّكْرُ**: غَيْبُوبَةُ الْعَقْلِ واختلاطُهُ من الشّراب المسْكِر.

إنّ الله عزّ وجلَّ لم يَجْعَلْ خَمْرَ الجنَّةِ مُسْكِرَةً لشَارِبيها المنَعَّمِينِ بلَذَّة شُرْبِها، بخلاف خَمْرِ الدُّنيا الّتي جَعَلَها الله في الإسلام من المحرَّمات، لصِفَة الإسْكارِ الّتي فيها، والأضرار الجسميّة الّتي تنشَأُ عنها، أو تتوَلَّدُ منْ تأثيراتها.

قول الله تعالى:

- ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾: أي: وَيَطُوفُ عليهم الْوِلْدَانُ المخَلَّدُونَ بِفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ من ثَمراتِ أشْجَارِ الجنَّة.

الْفَاكِهَة: الثِّمَارُ اللَّذِيذَة، وتُطْلَقُ أيضاً على الْحَلْوَاء. وتجمع على «فَوَاكه».

﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾: أي: مِمَّا يُفَضِّلُونَ لِنَعِيمهم. **تخير** الشَّيْءَ مِنْ أشياء، أي: انْتَقَاهُ وفَضَّلَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وكذلك «اخْتَارَهُ».

وتَخَيُّرُهم مِنْ أصْنَافِ الفاكِهَةِ وأنْواعِها يَدُلُّ عَلَىٰ كَثْرَةِ الأنواع والأصْناف الّتي تُقَدَّمُ لَهُمْ، فَهُمْ يَخْتَارُونَ مِنْهَا مَا يَحْسُنُ في نظرهم، وتَمِيلُ نُفُوسُهُمْ إليه، وَيرَوْنَ أنَّهُ يُحقِّقُ لهم الأَوْفَرَ لَذة وَالأَكْثَرَ تَنعمَّاً.

قولُ الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١﴾: إنَّ اللُّحومَ المشْويَّةَ مِنَ المثيرات الْقَويَّةِ لشَهْوَةِ الْأَكْلِ مِنْها، ولَحْمُ الطَّيْر مِنْ أكْثر اللُّحومِ إثَارَةً لِشَهْوَةِ الْأَكْلِ مِنها.

فالمنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّة، يُقَدِّمُ لَهُمُ الوِلْدَانُ الْمُخَلَّدُونَ فيها لَحْمَ طَيْرٍ ممَّا يَشْتَهُونَ مِنْ أنْواعِها وأصْنَافِها، بَعد أَنْ يَطُوفُوا عليهم بفاكِهَةٍ كَثِيرَة فَيَتَخَيَّرُونَ مِنْها مَا يَرَوْنَهُ الأحْسَنَ والأفضل والأكثر لَذَّة.

وتَقْدِيمُ الفاكِهَةِ على لَحم الطَّيْر في تَرْتيب الْجُمَل، يُشْعِرُ بأَنَّ تقديم أكْلِ الفاكِهَةِ على أكْلِ اللُّحُوم هُوَ الأحْسَنُ والأفْضَلُ للصّحة ولِلْهَضْم.

قول الله تعالى:

- ﴿وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝٢٣﴾: وفي القراءة الأخرى: [وَحُورٍ عِينٍ] بالجرّ.

قراءة الرفع هي على تقدير: ولَهُمْ حُورٌ عِينٌ في جنَّاتِ النعيم. وَلاَ داعيَ لإيراد الوجوه الإعرابيَّة الأخرى، فهي من الصِّناعة النحويَّة.

وقراءة الجرّ، هي على أنَّ كلمةَ «حُورٍ» معطوفة علىٰ: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١﴾ على تقدير: ويَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ مصحوبينَ بخادمات، حُورٍ عين، هُنَّ غير الحور العين الزوجات الخاصَّاتِ للأسِرَّةِ والمعاشَرَةِ، أو معطوفة على: ﴿... جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ والمعنى يَكُونُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الدِّين سُعَداءَ فِي جنَّاتِ النّعيم، وفي خِدْمَة وِلْدَانٍ مُخَلَّدِينَ، وفِي حُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المكْنُون.

وهذا أَحَدُ توجيهات الزَّمخشريّ، وهو توجيه أَرَاهُ حَسَناً ومقبولاً، ولو طَالَ الْفَصْل، إذْ للقرآن أسْلُوبُهُ الخاصُّ في الرَّبْطِ وفي العطف. وتَشْنِيعُ صاحِبِ الْبَحْرِ علىٰ الزَّمَخْشَرِيّ في هـٰذَا التَّوْجِيهِ واعتبارُهُ فَهْماً أعْجَمِيًّا، سَبَبُهُ التَّسَرُّعُ وعَدَمُ الأَنَاةِ في تَدَبُّر النُّصُوص الْقُرْآنيّة، فَكَمْ نُلاحظ في القرآن رَبْطاً بَيْنَ دُرُوسِ السُّورَة الْقُرْآنيّة، مع طُولِ الْفَصْل بَيْنها، ورَبْطاً بيْن آخرِ السُّورَةِ والدَّرْسِ الأَوَّلِ من دُرُوسها. إنَّ تَحْكِيمَ الصِّناعةِ النَّحْوِيَّةِ قَدْ يُوقِعُ المفَسِّرَ في أَخْطاءٍ فِكْرِيَّة، لاَ يَقْبَلُ بها المتدبّر الْحَصِيفُ لِكتاب اللهِ المجيد.

«**حُورٌ**»: جمع «حَوْراء» وهي من النساء الْبَيْضَاء. **والْحَوَرُ**: في الْعَيْنِ شِدَّةُ بَيَاضِ بيَاضها، مع شِدَّة سَوادِ سَوادِها، وهذا المعنى غيرُ مُرَادٍ هُنَا والله أعْلم.

«عِينٌ»: جمع «عيْنَاء» وهي ذَاتُ الْعَيْن الحسَنَةِ الواسعة.

وقد جاء في القرآن بشأن الْحُورِ العين.

(١) قول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) في وصْفِ نعيم المتَّقِين يَوْمَ الدّينِ في الجنَّة:

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾.

(٢) وقولُ الله عزَّ وجلَّ فِي سُورَةِ (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) في وصف نعيم المتقين أيْضاً.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) في وصْفِ نعيمِ المتقين غير السَّابقين في جَنَّتَيْن هُما دُونَ الجنَّتَيْن اللَّتَيْن للمحسِنين، خطاباً للإنس والجنّ:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤﴾.

﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾: جاء عند البخاري ومُسْلم وصف خيمة المؤمن في الجنة بأنها خيمة من لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَة، طولُها سِتُّون مِيلاً.

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾: أي: هُنَّ في دَاخِل خِيامِهِنَّ مُلازماتٌ، لا يَخْرجْنَ مِنْها، فَلا يَتَطَلَّعْنَ لِغَيْرِ أزْواجِهنّ، عِفَّةً، وعِشْقاً لهم، وتعلقًّاً بهم.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: أيْ: لم يَمَسَّهُنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أزْواجِهِنَّ من المؤمنين، لا إِنْسٌ ولا جنٌّ.

قول الله تعالى:

- ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾: أي: وَصْفُ بَشَرَاتِ الْحُورِ الْعِين في جمال الألوان يَشْبِهُ أوْصَافَ ألْوانِ اللُّؤْلؤ المكْنُون بياضاً ولمعاناً وحُسْناً.

«أمْثَال» جَمْعُ «مَثَل» ويأتي المثَلُ في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ «الوصْف» فالتشبيهُ بالكاف مُوَجَّهُ لِأوْصَافِ اللُّؤْلُؤِ المكنون، واللُّؤْلُؤُ لَهُ أوْصافٌ جمالية مختلفة الألوان.

«المكْنُون»: أي: المحْفُوظُ المستور، الّذي لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أَيْدي العابثين، ولم يَتَعَرَّضْ لِمَا يُغَيِّرُ صَفاءَهُ ونقاءَه، ودَرَجَة جَماله، من عوارض مختلفة.

قول الله تعالى:

- ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: **«الجزاء»** المكافَأَةُ عَلَىٰ الْعَمَل، ويُطْلَقُ أيْضاً عَلَىٰ الثوابِ والعقاب، والمراد هُنَا في الآيَةِ «الثوابُ» على الإيمان والصالِحات مِنَ الْأعمال.
- ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كانوا في الحياة الدنيا، حَياةِ الابتلاءِ يَعْمَلُونَ، مِنْ أَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ كالإيمان، والنيَّاتِ، والإراداتِ الصالحات، وأعْمالٍ ظاهرة، كأداءِ أرْكان الإسلام، وفِعْلِ الخير، والخلُقِ الحسَنِ.

والجزاء الرَّبَّانيُّ للعباد المؤمِنينَ هو فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَلَيْهم، استَحَقُّوه بِوَعْدِهِ الكريم، إذ كُلُّ أَعْمَالِهِمُ الصَّالحة لاَ تُكافِىءُ مَا أنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِم في الدُّنيا من نِعَمٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَة.

قول الله تعالى:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾:

«اللّغو»: كُلُّ مَا لاَ يُعْتَدُّ بِه مِن كلامٍ وغَيْرِه، إذْ لاَ فَائِدَة مِنْهُ. وكُلُّ كلامٍ لاَ يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ.

إنّ أهل الجنَّةِ يكونُونَ فيها جَادِّينَ، غير هازلين، وكذلك الملائكة فيها، والوِلْدانُ المخلَّدُون، والْحُورُ العين، فلا أحَدَ مِنْهم يتَكَلَّمُ بكلامٍ لَغْوٍ، ولاَ يَعْمَلُ عَملاً لاَ فَائدة مِنْهِ.

فأهْلُ الجنَّة في الْجَنَّةِ لاَ يَسمَعُونَ لَغْواً ما.

﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾: التأثِيمُ الاتِّهَامُ بارْتِكَابِ الإثم، إذْ لاَ أَحَدَ يَرْتَكِبُ في الجنَّةِ إثْماً حَتَّىٰ يُتهَمَ أَحَدٌ بِه، مِنْ قِبَلِ أَحَدٍ مَا في الْجَنَّةِ، لا من قِبَلِ المؤمنين والمؤمنَاتِ، ولاَ من قِبَلِ الْحُورِ العِينِ، ولا مِنْ قِبَلِ الملائكة، ولا من قِبَلِ الوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِين.

وبما أنَّ الله يَنْزِعُ ما في صُدُور أَهْلِ الجنَّةِ مِنْ غِلٍّ قَبْلَ إدْخَالِهِم إلَيْها، فإنَّهُ لاَ يكُونُ بَيْنَهُمْ تَشَاتُم، بَلْ هُمْ جَمِيعاً إخْوَانٌ مُتَوَادُّون مُتَصَافُونَ، يَحْتَرِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ولاَ يَحْسُدُ بَعْضُهُمْ بعضاً، والشّتائمُ تَدْخُلُ في عُمُوم التَّأْثِيم.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾: «الْقِيلُ»: الْقَوْل، أي: لكِنْ يَسْمَعُون فيها تَحِيَّةً يُقَالُ لَهُم مِنَ الملائكة وَغَيْرِهِمْ، وعِبَارَةُ «سَلاَم» هِي تَحِيَّةُ أهْلِ الجنَّة في الجنة.

قال الله عزّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: أي: دُعَاؤُهم الّذي يَدْعُونَ رَبَّهم به: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: نُسَبِّحُكَ مُنَزِّهِينَ تَنْزِيهكَ لنفسك.

قَوْل الله عزّ وجلَّ بشَأْن عُمُوم أصحاب اليمين الّذين هم دُون السابقين:

- ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الآيات بيانُ عِظَم منازل أصحاب اليمين، في جنَّاتِ رَبِّ العالمين، بأسْلُوب الاستِفْهَام التَّعْجِيبي مِنْ أنواع سَعادَاتهم فيها، بعبارة: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾: أي: وأعظم بأنواع السعادات الّتي يكونُ فيها أصْحَابُ الْيَمِينِ يوم الدّين، إذْ يكونون في سعاداتٍ عظيماتٍ، لاَ تَسْتَطِيعُ الخَلائق وَصْفَها، أوْ تَخَيُّلَها، وحينَ يشاهِدُونها يقفون في سَاحاتها متعجّبين مَذْهولين، ويقولون بأسلوب الاستفهام: مَا هٰذَا الشيءُ العظيمُ الَّذِي يَفُوقُ قُدْرَاتِ التخيُّلِ والتَّوَهُّمِ الَّتِي أُوتِينَاهَا في الحياة الدنيا.

وجاء في هذه الآيات بيانُ لِقَطاتٍ من نعيم أصحاب اليمين يوم الدّين، مِن أشْبَاهِ ما يَعْرِف النّاسُ من متاعِ الحياةِ الدُّنيا، مَعَ التَّفَاوُتِ العظيم بين مَا يَعْرِفُونَ في الحياة الدُّنيا، وبين مَا فِي جنَّاتِ النعيم، فَهِيَ تَشْتَرِكُ مَعَها في الجِنْسِ فقط، وتختلف مَعَها في الأنواع، نظير اشتراك الْبَعُوضَةِ مع إنْسَانٍ كامل في الجنس، الذي هو الحيوان، فالْبَعُوضَةُ كائنٌ حيٌّ، والإنْسَانُ الكامل كائن حيٌّ، هذا هو الاشتراكُ في الجنْسِ الذي هو وصْفٌ كُلِّيٌّ، لَكِنَّ الفرق بَيْنَ نوع الْبَعُوضَة ونوع الإنسان، كالفرق بَيْنَ الأرضِ والسَّماء السابعة.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾؟ هذه العبارة معطوفةٌ بالواو على عبارة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: وَصِنْفُ أصْحَاب اليمين يكون من ثوابهم في جنَّاتِ النّعيم ما يلي بيانه.

ودَلَّتْ هٰذه العبارة علىٰ أَنَّ أصحابَ الْيَمِينِ هم الذين عبَّرت عنهم الآية (٨) بِقَوْل الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾﴾.

وسبَقَ أن عَرَفنا المرادَ بالاستفهام في نحو عبارتَي: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾؟! ـ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾؟! مِنْ أنَّهُ اسْتِفهامٌ تعجيبيٌّ ممَّا سَوْف يكونُون فيه يوْمَ الدّين من أمْر عظيم يفُوقُ التَّصوُّرَ والتخيُّلَ والتَّوَهُّمَ، حتَّىٰ يَذْهَلَ مَنْ يُشَاهِدُهُ دُونَ أنْ يَسْتَطِيعَ وصْفَهُ، فيقولُ مُتَعَجّباً مذهولاً: مَا هَـٰذا الّذِي أُشَاهِدُه؟!!.

وسبق أن عرَفنا أنَّ هَـٰذَا الأسْلُوبَ التعجيبيَّ، هو من الأسَالِيبِ التي جاءت في نُصوصٍ عَدِيدَةٍ من القرآن المجيد.

قول الله تعالى:

- ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨﴾: أي: يكون أصْحابُ اليمين، في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْم الدّين، في مُحِيطٍ بِهِمْ من أشجار السِّدْرِ المخْضُودِ.

السِّدْر: صنفٌ من أصْناف الشجر المعروفة عنْدَ العَرَب، والّتي تَنْبُتُ في بلادهم، وهو شَجَرُ النَّبِق. وَوَاحِدَة أشجار السِّدْر «سِدْرَة» ولَهُ ثَمرٌ يَخْرُج في قُرُون ضمْنَهَا حُبُوبٌ اسفنجيَّة ليّنَةٌ ذَاتُ حَلاوَةٍ، وذَاتُ نَوَىٰ، وفي أغْصَانها شَوْكٌ، ولهذه الشجرة عند العرب خصائص علاجية، وعَسَلُ النَّحْلِ الّتي تَرْعَىٰ شَجَرَ السِّدْر ذُو قيمة عالية عندهم بالنسبة إلى سائر أنواع العَسل، وهو من الأشجار المعمّرة الّتي تمتد أعمارها إلى مائة عام.

ويُذْكَرَ من خصائِصِ هذا الشجر العلاجيَّة العلاجُ به من مسّ الجنّ، وأوراقُه بالماء تقْلَعُ الأوساخ، وتُنَقّي البَشَرَة وتَجْعَلُها ناعِمَة.

ولا بدّ أن نلاحظ الفرق العظيم بين أشجار الجنة وأشجار الدنيا، كما جاء بيانُه في التمهيد.

مَخْضُود: أي: منزوع الشَّوْكِ مِنْ أغْصَانه، يقال لغة: «خَضَدَ الْغُصْنَ يَخْضِدُه» أي: نزع الشَّوْك عَنْه.

ويقال على التشبيه: «خضَدَ فلانٌ شَوْكَةَ نِدِّه» أي: كَسَر حِدَّتَه، وأبْعَدَ عنْهُ مَا كان يَحْتَمِي به من قُوَّة، فالشَّوْكَة تُستَعملُ بمعنى القوة.

ويفهم من القرائن أنَّ شجر جَنّاتِ أصحابِ اليمين، دُونَ شَجَرِ جنَّاتِ السَّابقين، ذاتِ الميزة الأرفع، والقيمة الأعظم.

ولم يأتِ في هذه السّورة بيانٌ عن أصناف أشجار جنّاتِ السَّابقين.

قول الله تعالى:

• ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾: أي: ويكونُ أصْحاب اليمين في جنَّاتِ النعيم يوْمَ الدّين، في مُحِيطٍ بِهم من أشجار الطَّلْح ذي الثَّمَرِ الذي انضم بعْضُه إلَىٰ بعضٍ باتّساقٍ بَدِيع، وتراصُفٍ مُنْتظم.

الطَّلْح: الْمَوْز، ونوعٌ من الأشجار العظيمة أيضاً كما قيل.

وُصِفَ الموز عند القدماء بأنه «طعامُ الفلاسِفَة» وبأنه «فاكِهَةُ الْحُكَماء».

وفي الطبّ الحديث: وُصِفَ الموز بأنَّهُ ذو خصائص غذائيَّةٍ نفيسَةٍ جدًّا، قَلَّما تجتمِع في غيره من الثمرات.

مَنْضُود: أي: مجموع بعْضُه إلى بعضٍ باتِّسَاقٍ بَدِيع، وَتراصُفٍ منتظم.

وما في الدنيا من أشجار الموْزِ مثالٌ مصغَّرٌ كثيراً من أشجار الطَّلْحِ في جنَّاتِ النّعيم يوم الدّين.

قول الله تعالى:

• ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: ويكونُ أصحاب اليمين في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين في مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ ظِلٍّ مَمْدُود، لاَ تُعْرَف لَهُ حُدُودٌ، ودائم لا انقطاع فيه ولا انْتِهاءَ له.

الظلّ: مَا يَبْقَىٰ مِنِ انْكشَافٍ في المرئي، بَعْدَ سَتْرِ أَشِعَّةِ مَنْبَعِ الضَّوْءِ عَنْهُ بسَاترٍ ما، والظّلُّ يختلف بحسَب اختِلاف كثافَةِ السَّاتر، ومقدارِ سَمَاحِهِ للنُّور بأن يمُرَّ منْهُ.

ويكونُ الظلُّ في الصَّباح بالنسبَةِ إلى الشمس في جهة الغرب، فإذا تَحَوَّلَ في المساء إلى جهَةِ الشرق سُمّي «فَيْئاً» من فِعْل: «فاءَ» بمعنَىٰ: «رَجع».

وجاء في عدّة نصوص من القرآن المجيد بيان أنَّ أهل الجنَّة يَوْم الدّين، يكونون في ظلالٍ، وأنَّهم هم وأزواجُهُمْ في ظلال، أي: لاَ تَمَسُّهم أشعة شمْسٍ بحرارتها، وأنّ الله عزّ وجلَّ يُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً، ووصف الله عزّ وجلَّ الجنّة بأنَّها ذات ظلٍّ دائم، وَبأنَّها ذات أُكُلٍ دائم.

مَمْدُود: أي: دائم وشاملٍ لكلِّ مَوْقِعٍ في الجنَّة.

قول الله تعالى:

- ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾: أي: ويكونُ أصْحابُ اليَمينِ في جنَّات النّعيم يومَ الدّين في مَشْهَدٍ بَدِيعٍ من ماءٍ مصْبُوبٍ يُشاهِدُون انصبابَهُ، كأَبْدَع وأجْمَلِ شَلَّالاَتٍ تَنْصَبُّ مِن المرتفعاتِ إلى مجاريها المنخفضات الّتِي تجري من تَحْتِ قُصور أهل الجنَّةِ أَنْهاراً.

يقال لغة: «سَكَبَ الماء ونَحْوَهُ يَسْكُبُهُ سَكْباً وتَسْكَاباً، فَهُوَ مَسْكُوب» أي: صَبَّهُ فَهوىٰ مُتَتَابعاً سَرِيعَ الْهُوِيّ.

قول الله تعالى:

- ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾: أي: ويكونُ أصْحَابُ الْيمِينِ في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين، في تَنَعُّمٍ دائمٍ بفاكِهَةٍ نفيسَةٍ ذاتِ أنْوَاعٍ تَفوقُ الحصْرَ بالنِّسْبَةِ إلى عِلْم الخلائق، وقد استفيد هذا من

تنكير لفظ فاكهة، مع القرائن. وتأتيهم هـٰذه الفاكهةُ المتنوعَةُ كثِيرَةً جدًّا، فَلاَ هِيَ مَقْطُوعَةٌ في وقْتٍ مَا من الأَوْقاتِ بحَسَبِ الفصول، وَلاَ هي مَمْنُوعَةٌ عَنْ راغبيها للتنعُّم بِها في وقْتٍ مَا من الأوقات. بَلْ هي مَبْذُولَةٌ لهم دواماً، وفي مُتَنَاوَلِ أَيْدِيهم، وعلى ما يَرْغَبُون فيه، من تَقْدِيمها في أطباق، أو قَطْفِهَا مِنْ أغْصَانِ شَجَرِها، أو تناوُلِها بأفْواههم، من أغْصَانِها، أو مِنْ أيْدِي الوِلْدَانِ المخلَّدِينَ، أو مِنْ أيْدِي الْحُورِ العِينِ.

واختير في عبارة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ أسْلُوبُ نَفْيِ النَّقِيضِ، لتَعْلِيمِنَا أنَّ نَفْيَ أَحَدِ النَّقِيضَيْنِ يَسْتَلْزِمُ عقلاً إِثْبَاتَ النَّقِيضِ الآخَرِ. وهذا منْسَجِمٌ مع الأَدِلَّة الّتِي يُقَدِّمُها القرآنُ لإثبات أصُولِ الدّين الرّبّاني، وإبْطَالِ كُلِّ ما يُنَاقِضُه، إذ هي تَعْتَمِدُ علىٰ البراهين العقليّة، والحقائِقِ الّتي تَشْهَدُ العقولُ السَّلِيمة بأنّها حقّ، ثم على المدْرَكَات الحسيَّة، وما تُقَدِّمُهُ من لَوَازم عقْلِيَّة.

وأمّا الخَبَرِيّاتُ فَبُرْهَان صِدْقها يَعْتَمِدُ عَلى البرهان العقِليّ الدّالّ علىٰ صِدْقِ المخْبِرِ بها، كَكَوْنِ المخْبِرِ بها رَسُولاً مُؤَيَّداً مِنَ اللهِ عزّ وجلَّ بالمعجِزَة، وبُرْهَانُ العقْلِ يقضي بأنّ الله عزّ وجلَّ لاَ يُؤيِّدُ بِالْمُعْجِزة مَنْ يَكْذِبُ في الإخبار عنه.

قول الله تعالى:

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨)﴾:

«فُرُش»: جمع «فِرَاش» وهو ما يُفْرَش (أي: يُبْسَطُ) مِنْ متاع الْبَيْت، والظاهِرُ أنّ الْمُرَاد بالْفُرُشِ هُنَا الحشَايَا، الّتِي تُبْسَط علَىٰ الأسِرَّة، فهي لَيِّنَةٌ مُهَيَّأَةٌ للضّجُوع عَلَيْها كأحْسَنِ وأكْمَلِ مَا يُمْكِنُ أنْ تكُون عليه الحشايَا.

«مَرْفُوعَة» أي: مَرفوعَة علىٰ مَوَاضِعِها مِن الأسِرَّةِ النَّفِيسة.

وذكْر الفُرُشِ المرفُوعَةِ علىٰ الأسِرَّة، يَسْتَدْعِي في أذْهَانِ الموعُودِينَ بالنعيم، أصْحَاب الْيَمين، تَصوُّرَ مَنْ يَكُنَّ علَيْها من الْحُورِ العين، الْمُخَصَّاتِ لهم في مَنَازِلِهِمْ في الجنَّةِ، بحَسَب دَرجَةِ كلٍّ مِنْهُمْ.

وبناءً على حُدُوثِ هٰذَا التصَوُّرِ في أذهَانِهِمْ، جَاءَ وصْفَهُنَّ هُنَا في النّصّ دُونَ سَابقِ ذِكْرٍ لَهُنَّ إلّا برمْزِ عبارةِ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ وهٰذَا مِنَ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ جدًّا، فقال اللهُ عزّ وجلّ بضمير المتكلّم العظيم إعظاماً لشأْنِهِنَّ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾.

الإنْشاء: هو الإيجادُ المُتَدَرّجُ للشَّيْءِ وفق نظام التربيَّة المتنامِيَة.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾: أُعِيدَ الضّمِيرُ «هُنَّ» علىٰ مُتَصَوَّرَاتٍ ذهْنَا غَيْرِ مَذْكورات لفظاً، بإبْداعٍ أدَبيّ رَفيع.

﴿إِنشَآءً﴾ مفعُول مطلق، يَدُلُّ عدَمُ وصْفِهِ بإبقائِهِ مُنكّراً على:

(١) عظمة الخَلْق الْإبداعيّ الْإنْشائيّ.

(٢) وكمَالِ الْمُنْشَأِ للْوَظِيفة الّتِي خُلِقَ مِنْ أجْلِها.

وليتأكّدَ المنعَّمُونَ بِهِنَّ مِنْ أَنَّهُنَّ خُلِقْنَ لَهُمْ ولم يَسْبِقْ لَهُنَّ مُعَاشَرَةٌ زوجيَّة، جَعَلَهُنَّ الله ـ جلّ جلالُهُ ـ أبْكاراً، فقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦﴾.

«أبْكاراً»: جَمْعُ «بِكْر» وهِيَ العَذْرَاء الّتي لم تُفْتَضَّ بَكارَتُها، وهي غشاءٌ جلْدِيٌّ يُمَزَّقُ عِنْدَ مُجَامَعَة الأنثىٰ البِكْرِ مِنَ النّساء، ووجُودُ هذا الغشاء دليلٌ على أنّها لَمْ يَسْبِقْ أنْ جَامَعَها ذكَرٌ.

ووَصَفَهُنَّ الله عزّ وجلّ بِقَوْله:

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ وفي القراء الأخرَىٰ: [عُرْباً] بإسْكانِ الرّاء، والْقِرَاءتان لغتان عَرَبيّتَان مُتكافئتان.

«عُرُب، وعُرْب» جَمْعُ «عَرُوب» وهِيَ المُتَحَبِّبَةُ لزَوْجِها العاشقة له،

الحريصَةُ علىٰ إسْعاده، فَهُنَّ بهذا الوصف من أنْعَمِ مَا في الجنَّةِ من لذّاتِ نَعِيمها.

﴿أَتۡرَابٗا﴾: جَمْع «تِرْب» وهو المماثل في السِّنّ، وأكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَل في المؤنث، وقد تَدُلُّ عبارة «أتراباً» مع التماثل في السِّنّ على التوادّ بيْنَهُنّ وعَدَمِ التحاسُد.

فالْحُورُ الْعِين لِأصحاب اليمين في جنَّاتِ النعيم ذواتُ أعمارٍ مُتَماثلَةٍ، إذْ يَكُنَّ فتياتٍ فِي رَيْعَانِ شَبَابِهِنّ، ونُضْج أنوثَتِهِنَّ دَوَاماً، ولاَ تَتغَيَّرُ أحْوَالُهُنَّ عَنْ هذا الوصْفِ، إذْ هو خالِدٌ مَعَ خُلُودِهِنَّ، وكذلِكَ يكون المنعَّمُون في الجنَّة، هُمْ شُبَّانٌ دَواماً، لاَ يَتَعَرَّضون لكُهُولة تزيد على (٣٣) سنة، ولاَ لشَيْخوخَةٍ فَمَا فَوْقَها، بخِلافِ أَحْوالِ الْأَحياء في ظُروفِ الحياة الدّنيا.

وأبَانَ الله عزّ وجلَّ أنَّهُنَّ قَدْ أُنْشِئْنَ خِصِّيصَىٰ لِأَصْحَابِ الْيَمِين، فقال تباركَ مَجْدُهُ، وَتعالىٰ جَدُّهُ، وعَظُمَ جُوده:

﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨﴾: أي: أنْشَأْنَاهُنَّ، وأعْدَدْنَاهُنَّ، وهيأناهُنَّ، لأصْحَاب الْيَمِين، إكراماً مِنَّا لَهُمْ، وإنْعَاماً مِنَّا عَلَيْهِم.

وأبان اللهُ عزّ وجلَّ نِسْبَةَ أصْحَاب الْيَمِين التقريبيّة لَنَا، والمبنيَّةَ عَلَىٰ عِلْمه المُحِيط بما كانَ وبما يكُونُ عليه عبادُهُ الموضوعون في الحياة الدّنيا موضع الامتحان، فقال تَعالَىٰ:

- ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾:

«الثُلَّةُ»: هي في اللُّغة الجماعَةُ مِنَ الناس. ويُشْعِرُ ذكْرُ «ثُلَّة» بمعنى جماعَة، أنَّ أصْحَابَ الْيَمين مِنَ مجْموع الموضوعين موضع الامتحانِ في الحياة الدنيا، لاَ يَبْلُغونَ أَنْ يكونوا النِّصْفَ ولا قَرِيباً من النِّصْف، فَهُمْ لاَ يُوصَفُونَ بأكْثَر مِنْ كونِهِمْ جَمَاعَةً.

الأَوَّلُون: هم من آدمَ إلَىٰ عَهْدِ التكليف بالإيمان بمُحمّد ﷺ واتّباع رِسالَته.

الآخِرُون: هم مَنْ كُلِّفُوا بالإيمان بمحمَّد ﷺ واتّباعِ رسالَتِهِ، من بَعْدِ بِعْثَتِه، وحتى تقوم السَّاعة، وهُمْ كُلُّ الموضوعين موضع الامتحان من إنْسٍ وجنٍّ، اعتباراً من تبَلُّغِهم هٰذَا التَّكْلِيف.

وسبق بيان أنّ الآيات من (١٠ ـ ١٤) قد دَلَّت على أنَّ السَّابِقين ثُلَّةٌ من الأَوّلين، أي: هُم جماعَةٌ بالنِّسْبَةِ إلى الأولين وأعدادهم، وقَلِيلٌ من الآخِرينَ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِمْ وإلى أعدادهم الكثيرة، الّتِي ليْسَ لملْيَاراتِها الكافرة حظٌّ في جنَّاتِ النعيم.

قول اللهِ عزّ وجلَّ بشَأْنِ عُمُومِ أصْحَابِ الشّمال (= المشْأمة):

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦)﴾.

تمهيد:

في هذه الآيات بَيانُ لقَطاتٍ من جَزَّاءِ عُمُوم أصحابِ الشمالِ في دار العذاب يوم الدين، مع بيان السَّبَب الذي استَحقُّوا بِهِ الخلود في دار العذاب، إذ كانوا في حياة امتحانهم في الدنيا يُصِرُّونَ على الكفر بالله، واتِّخاذ شُرَكاءَ مِنْ دونه، وكانوا يُكذِّبُون رُسُلَ رَبّهم، وبِمَا جاء في كُتُبِهِ المنزلَةِ عَلَيْهِمْ، مِنْ أنْباءِ يَوْم الدّين، ، والجزاءِ في دار النّعيم، أو في دار

العذاب، بحَسَبِ ما يَكْسِبُ العباد في مَرْحَلة امتحانهم في الحياة الدّنيا.

وفيها أيضاً بيانُ جانِبٍ من معالجتهم بشأن تكْذِيبهم بِيَوْم الدِّين، وهم في الحياة، بأسْلُوبِ تَعْلِيمِ الرَّسُولِ ﷺ، فكُلُّ داعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أمَّتِهِ، مَا يَقُولُهُ لهم مؤكّداً أنَّهُمْ مع الأوّلِينَ والآخِرِينَ لَمَجمُوعُون ولَمسُوقُونَ إلى مُحَاسَبَتِهِم، وفَصْل القضاء بَيْنَهم، وتَنفِيذِ مُجازاتِهم، في ميقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، مُحَدَّدِ الزَّمَنِ مِنْ قِبَلِ رَبّ العالمين، في خُطَّةِ الْخَلْقِ الّتِي قَدَّرَها وقضاهَا، وَحَدَّدَ أزْمَانَ كلِّ الأحْدَاثِ الَّتِي تَجرِي لَدَىٰ تَنْفِيذِ ما سَبَقَ أنْ حَدَّدَ مَقادِيرَهُ وقَضاهُ بحكْمَته. ومَا يَقُولُهُ لَهُمْ بعُنْفٍ وجَفَاءٍ إبَّانَ تَنْزِيل سُورَةِ (الواقعة) إذْ جاءت مُعَالجاتُهُمْ في نحو أربَعِينَ سُورَة نزلَتْ قَبْلَهَا، بمُخْتَلِفِ وسائل الإقناع الفكريّ الهادىء الحكيم، ووسائل التّرغيب والتّرهيب فأصَرُّوا علَىٰ باطِلهم، وعلَىٰ تكذيبهم بقانون الجزاء الربّانِيّ، فالمناسِبُ بَعْدَ هَـٰذا الصَّبْر الطَّويل عَلَيْهِم، أنْ يُقالَ لَهُمْ بإصرارٍ علىٰ الحقّ، مُنَاسِبٍ لإصرارهم على الباطِلِ والتكذيب بالحقّ الرَّبَّانيّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

لَقَدِ انْتَهَىٰ بالنِّسْبَةِ إلىٰ هٰؤلاءِ وَقْتُ الملايَنَةِ والْمُلاطَفَةِ والرِّفْقِ، وجَاءَ دَوْرُ المخاشَنَةِ في الْقَوْلِ، وهزّ نفوسِهم بشيءٍ من العنف.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾؟!! هذه العبارة معطُوفَةٌ بالواو علـى عبـارة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾؟!!. أي: وَصِنْفُ أصْحَابِ الشِّمال (= المشأمَة) نُبيّنُ شيئاً من الحديث عَنْهُمْ فيما يلي، وسبَق أن عرفنا المراد بالاستفهام في نحو عبارة: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؟!! مِنْ

أنَّه اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ ممَّا سَوْف يكونُونَ فيه يوم الدّين من أمْرٍ فَظيع، وهو بالنسبَةِ إلى أصحاب الشمال تَعْذِيبٌ أَبَدِيٌّ، وخِزْيٌ وإِذْلاَلٌ وإهانَة وصَغار، حتَّىٰ يَذْهَلَ مَنْ يُشاهِدُهُ دُونَ أنْ يسْتَطِيع وصْفَه، فيَقُول مُتَعجِّباً مَذْهولاً: مَا هَـٰذَا الّذي أُشَاهِدُهُ؟!!.

قول الله تعالى:

- ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾: أي: يكونُ أصْحَابُ الشِّمَالِ فِي جَهَنَّمَ دارِ عذَابِهم يَوْم الدّين، في مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ سَمُومٍ وحَمِيمٍ.

السَّمُوم: الرِّيح الحارَّةُ الَّتِي تَنْفُذُ فِي مَسَامّ الأجْسام.

الْحَمِيم: الماءُ الحارُّ الشّدِيدُ الحَرارَة.

فَهُمْ بصُورَةٍ دائمةٍ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ وسائرَ أَبْدانِهم رَيحٌ سَمُومٌ شديدة الحرارة، ويَشْتَدُّ ظَمَؤُهُمْ فلا يَجِدُون إلَّا ماءً حاراً شَدِيدَ الحرارة يَشْرَبُونَ منه.

قول الله تعالى:

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾: أي: ويكونُ أصْحابُ الشِّمَالِ يوم الدِّينِ في دارِ عذابهم، في أمْكِنَةٍ ظِلٌّ مِنْ دُخانٍ أسْود، يَبُثُّ حَرارةً، ويَذُرُّ عَلَيْهِمْ قَتاماً، فيَزْدَادُونَ بِهِ قُبْحاً.

الْيَحْمُوم: هُوَ الدُّخَانُ الأَسْوَد، وهو المرادُ هنا، ويُطْلَقُ هذا اللَّفظ على الأسود من كلّ شيءٍ.

﴿لَّا بَارِدٍ﴾: أي: إنّ هذا الظّلَّ مِنَ الدُّخانِ الأسْودِ الّذي يَسْتُرُ سَمَاء إقامَتِهِمْ في جهَنَّم، يَكُونُ ظِلًّا حَارّاً لاَ بَارِداً، لِيَزِيدَ مِنْ عذابِهِمْ.

جاءَ هذا البيان بأسْلُوب نَفْيِ أَحَدِ النَّقِيضَيْن، لإثْباتِ نقيضه.

﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾: أي: ولَيْسَ لهَـٰذا الظّلِّ صِفَةٌ مَا تُذْكُر في ثَنَاءٍ مَا عَلَيْهِ، بَلْ كُلُّ صفاتِهِ ذَمِيمَةٌ.

وجاء هذا البيان أيضاً بأسْلُوب نَفْي أحَدِ النقيضَيْن، لإثبات نقيضِه.

الكريم: هو المحمود بصفات حسنَةٍ فيه. فالذي ليْسَ كريماً لا تكونُ له صفاتٌ حَسَنَةٌ يُثْنَىٰ عليه بها.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾؟!:

جاءت هٰذِهِ الآيَاتُ لبَيَان سَبَ تَعْذِيبهم في جهَنَّم يَوْمَ الدِّين، وهو يَرْجع إلى ثلاثة أمور:

(١) أنَّهم لَمْ يَشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ في الحياة الدُّنيا بأدْنَىٰ شُكْرٍ، إذْ جَعَلَهُمُ الله فيها مُتْرَفين، فَلَمْ يشكُرُوهُ بالإيمان به رَبًّا واحداً، وإلَهاً لاَ شَريك لَهُ في إلَهيّته.

(٢) أنَّهم كانُوا يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العظيم، أي: الإثم العظيم، وهو الكُفْر الذي يُعْتَبَرُ الشِّرْكُ أخفَّ دَرَكَاته، وأشدُّ مِنْهُ جُحود الرَّبِّ الخالق جلّ جلالُه، وأخَسُّ مِنَ الْجُحُودِ حَمْلُ الناسِ عليه بالإكراه، مَع ارْتِكَاب الظلْم والْعُدْوانِ والفجور، أو مع النفاقِ وابتغاءِ الشرِّ بالمؤمنين المسلمين من داخل صفوفهم.

(٣) أنّهم كانُوا يُكَذِّبُونَ بِيَوْم الدّين، معانِدِينَ كلَّ الحجج البرهانية والبيانات الإقناعيَّة الّتِي كانت تُقَدَّم لَهُمْ، دُونَ أنْ تكون لهم حُجَّةٌ يُقَدِّمُونَها إلَّا مُجَرَّدَ الاستغراب، والاستِبْعَادِ، وعِبَاراتِ التعجب.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: إنَّهُمْ كانُوا في مَرْحَلةِ ابتلائهم في الحياة الدُّنيا مُتْرَفين، يَسْتَمْتِعُونَ بِكَثِيرٍ من مَتَاعات الحياة الدُّنيا الّتِي أنْعَمَ اللهُ عزّ وجلَّ عَلَيْهِمْ بها، فَلَمْ يَشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِم بأدْنَىٰ دَرَجَاتِ الشُّكر، وهي دَرَجَةُ الإيمان الصحيح برُبوبيَّة اللهِ وإلَهيَّتِهِ.

﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾: أي: قَبْلَ ذَلِكَ الْعَذاب الّذِي يُعَذّبُونَهُ في جهنم يوم الدين، والمراد ما كانوا فيه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

المتْرَفُ: أي: الكَثِيرُ الاستمتاع بما أنعم الله به عليه من متاع الحياة الدنيا، ويأتي لفظ «المتْرَفِ» في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ: الْبَطِر المسْتَكْبر، يقال: «أترفت النعمة فُلاناً» أي: أبْطَرَته.

فالمعنى: كانوا كثيري الاستمتاعِ بِنِعَمِ اللهِ عليهم، مع بَطَرِهم واسْتِكْبَارِهِمْ في الأرض، وكُفْرِهِمْ بَرَبّهم الذي وَسَّعَ عليهم في أرْزاقهم، وفيما آتاهم من متاع الحياة الدُّنيا.

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾: أي: وكانوا في مرحلة امتحانهم في الحياة الدنيا يُصِرُّون بعِنَادٍ على ارْتِكابِ الإثْمِ العظيم الذي يَعْصُونَ به رَبّهم.

﴿يُصِرُّونَ﴾: أي: يلازمون بمكابَرَةٍ وعِنَادٍ على ارتكاب الإثم العظيم.

﴿ٱلْحِنثِ﴾: هو في كلام الْعَرَب الْعِدْلُ الثقيل، وسُمّي به الذّنْبُ والإثْمُ لِثِقَلِهما، باعتبار ما يترَتَّبُ عَلَيْهما من عقابٍ شديد، وعذاب أليم.

والحِنْثُ العظيم: هو الإثْمُ الذي لا يَغْفِر الله لمَنْ مَات علَيْهِ يَوْمَ الدّين، ويتحقّقُ بالشِّرْكِ الّذي هو أخَفُّ دركات الكفر، فبما هو أشَدُّ مِنْهُ انحطاطاً في دركات الكفر، وارتكاب الجرائم، حتَّىٰ الدَّرْكِ الأسْفَلِ منها، الذي يَسْتَحِقُّ المنحطُّ إليه الدَّرْكَ الأسْفَل من النّار.

وتفسير «الحِنْثِ الْعَظِيم» بالشِّرْك تَفْسِيرٌ لَهُ بأوَّلِ دَرَكاته، إذْ تأتي بَعْدَهُ دَرَكَاتٌ هِي أَشَدُّ انْحِطاطاً وخِسَّةً من دَركةِ الشّرْك بالله في إلَهيَّتِهِ، أوْ في رُبُوبيته.

قول الله تعالى:

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وَقُرِىء: [**إنّا لَمبعُوثُونَ**] وقُرِىء: [**أَوْ آباؤُنا**] وقرىء [**مُتْنَا**].

دَلَّ هذا البيانُ علىٰ أنّهم كانُوا يُنْكِرُونَ الجزاءَ الرَّبَّانيّ، ويُنْكِرُونَ الْبَعثَ إلى الحياة الأخرى، ويُنْكِرُونَ كُلَّ مَا جاء مِنْ أنْباءٍ عَنْ يَوْمِ الدّين. دُونَ أنْ يُقَدِّمُوا حُجَّةً مَا على إنكارِهِمْ غير الاستبعادِ والاستغراب، بأسْلُوب الاسْتِفْهَامِ التعجُّبي.

فيَوْمَ الدّين يُلاقُونَ، مَا كانوا لَهُ مُنْكِرِين، ومَا كانوا بِهِ يُكَذِّبُون.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي: وصِرْنا بَعْدَ الموْتِ تُراباً مُتَفرِّقاً في تراب الأرض ﴿وَعِظَٰمًا﴾: أي: وصِرْنا بَعْدَ الموت عظاماً باليةً نَخِرَةً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أو [**إنا لَمبعُوثُونَ**]: عباراتُ تعجُّبٍ بأسْلُوبِ الاستفهام التعجبيّ الذي لا يقترن به دليل ما. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ـ ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾: يُبْعَثُونَ، ويحاسَبُونَ، ويُجازَوْنَ، وقَدْ كانُوا يَعْبُدُونَ الأوثان، وقد عاشُوا قبل محمد، وقبل الكتاب الذي يدّعي أنّ الله أوحَىٰ به إليه. «أو» بإسكان الواو أو فتحها على القراءتين هي فيما أرى بمعنىٰ الواو. تأتي واو «أو» مفتوحة عند النحاة إذا كانت للاستفهام، أو الإنكار، أو الرَّد. وتأتي ساكنةً إذا كانت للشك، أو التقسيم، أو التفصيل، أو الإبهام، أو التسوية، أو التخيير، أو بمعنى بل، أو إلى أو إلّا أو بمعنى الواو.

وجاءت العبارة هنا ملحقةً باستِفْهامٍ تَعَجّبِيٍّ لَمْ يَقترِن به دَليلٌ ما، ولم يقترن به نَقْضٌ لأَدلَّة إثباتِ يَومِ الدّين البرهَانية التي سبق في نجوم التنزيل بيانها.

وليس لعبارات التعجُّب قيمةٌ مَا فيه ميادِينِ المناظرات والمجادلاَتِ الفكريَّة، الّتي تُطْلَبُ فيها البراهين، أو الحجج المنْطِقيَّة المقبولة في العقول السليمة، فَهِيَ لاَ تَسْتَدْعِي رَدّاً عَقْلِيًّا، بل تَسْتَدْعي تأكيداً إخبارِيًّا، وعُنْفاً بيانيًّا، وضَغْطاً على مِحْوَرِ الخوف في النفس.

فقال الله عزّ وجلَّ لرسُوله فَلِكُلّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾:

قُرِىء: «شُرب، وشَرْبِ» بضمّ الشين وفتحها، وهما وجهان عربيّان لنطق الكلمة.

أي: قلْ لهؤلاء المكَابِرين المعانِدين، الذين لا يُقَدِّمُون لتَكْذِيبِهِمْ بيوْم الدِّين، نقضاً لأدلَّة الإثبات، ولا حُجَّةً تَسْنُد تكذِيبهم، ولَيْسَ لَدَيْهم قولٌ غَيْرُ الاستفهام التعجُّبيّ، مَا يلي أخذاً من هذا النّصّ، ومن نَصَّي سورة الصَّافَاتِ، الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) وسُورَةِ الدُّخان، الآيات من (٤٣ ـ ٤٩):

إنَّ الأوّلِينَ مِنْ عَهْدِ آدم حتىٰ عَصْرِنَا الحاضر، والآخِرِينَ من عَصْرِنا الحاضر حتى آخِرِ إنْسَانٍ على وجْهِ الأرض يُوجدُ مُسْتَقبلاً، لَمبْعُوثون للحياة الأخرىٰ بَعْدَ مَوْتِهم، وفَنَاء أجْسَادِهم، ولمجموعون في الْمَحْشِرِ مُسوقين إلي ميقاتِ حِسَابهم وفَصْلِ القضاءِ بينهم، مُقَدّمَةً لتنفيذ الجزاء الذي يستحقّونه بعَدْلِ اللهِ عزّ وجلَّ أو بفضله، في يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قَدْ حدَّدَ اللهُ عزّ وجلَّ زَمَانَهُ وَكُلَّ ما يجري فيه، في خُطَّة التكوين العامَّة، الّتي تُعْتَبَرُ الحياةُ الدنيا مَرْحَلَةً مِنْ مَرَاحِلها.

ثم إنّكُمْ أيُّها الضَّالُون التَّائِهُونَ في ظُلمَاتِ الْغَوَاية، المكذِّبُونَ بيَوْمِ الدِّينِ، لَسَوْف تَدْخُلون جهَنَّم دَارَ عَذَابِ الْمُجْرِمين، عقاباً لكم على كُفْرِكُمْ وَتَكذِيبِكُمْ برَسُولِ رَبِّكُمْ وكتَابه، بَعْدَ بَعْثِكُمْ وحِسَابِكُمْ والحكْم عليكم بالْخُلُودِ في النّار، ولَتُلجؤُونَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوع إلَى أنْ تَأْكُلوا مِنْ شَجَرٍ في دارِ عَذَابِكُم، مُرٍّ كَرِيهِ المنظرِ كَرِيهِ الطَّعْم، نَكِدِ المأْكَل، يُسَمَّىٰ «الزَّقُومَ» هو في جَهَنَّمَ طَعامُ الأثيم، لَهُ ثَمَرٌ قَبِيحُ المنْظَر، كأنَّهُ رُؤُوسُ الشياطين،

ومَهْمَا أَكَلْتُم مِنْهُ لاَ يَسُدُّ جُوعَكُمْ، فَتَجدونَ أنْفُسَكُمْ مضطّرينَ أنْ تَمْلؤوا ممَّا تأكُلُون من ثَمَرِ هـٰذَا الشّجَرِ بُطُونَكُم، لَكِنَّهُ يكُونُ فِي بُطُونِكُمْ كالْمُهْلِ، يغْلِي فيها كَمَا يَغْلِي الماء الحارُّ ذو الحرارة الشديدة، فَيشْتَدُّ ظَمَؤُكم، فتُضطَّرُون أنْ تَشْرَبُوا عَلَىٰ مَا أكَلْتُم مِنْه من الْحَمِيم أي: من الماء الذي يَغْلِي مِنْ شِدَّةِ حَرَارَته، فَتَشْرَبُونَ حِينئذٍ شُرْبَ الإبِلِ المصَابَةِ بِدَاءِ الْهُيَامِ، الّتي تَهِيمُ في الأرض ظامِئَةً لاَ يُرْويهَا مَاءٌ مَهْمَا شَرِبَت.

قول الله تعالى:

- ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾:

﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ﴾: **الميقاتُ**: يأتي للدّلالَة على معانٍ ثلاثة:

١ ـ الوقت المعيَّن لِفِعْلٍ ما.

٢ ـ الموْعِد الّذي جُعِلَ لَهُ وقْتٌ مُحَدَّد.

٣ ـ المكان الّذي جُعِلَ لشيءٍ ما يُفْعَلُ عِنْدَه.

وهذه المعاني الثلاثة صالحة كلُّها هنا، فمَحْكَمَةُ الحساب، وفَصْلِ القضاءِ يوم الدّين، ذاتُ وَقْتٍ معيّنٍ مُحَدَّدٍ عند الله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه. وهي مَوْعِدٌ جُعِلَ لَهُ في خُطَّةِ التكوين الرَّبانيَّةِ وقْتٌ معلومٌ مُحَدّد. ولَهَا مكان مُعَيَّنٌ مُحَدَّدٌ يوْمَ الدّين، يُجْرِي اللهُ فيه الحسابَ وفَصْلَ القضاء.

وضُمِّن اسْمُ المفعول في عبارة: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ معْنَىٰ «مَسُوقِين» فَعُدّيَ تَعْدِيته بحَرْف «إلىٰ» وحُذِفَ المضَافُ وهو «شهود» قَبْل: ﴿مِيقَٰتُ﴾ لسُهُولَةِ إدْراكه. والْيَوْمُ الْمَعْلُومُ هو يَوْمُ الدّين، وميقاتُه هو مَوْعِدُ وزمانُ ومكانُ الحساب وفَصْلِ القضاء، مُقدِّمةً لتنفيذ الجزاء.

فيكون معنى الآية كما يلي:

لَمَجْمُوعُونَ مَسُوقِينَ إلىٰ شُهُودِ مِيقَاتِ الحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، تمهيداً لِتَنْفِيذ الجزاء.

قول الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾:

دَلَّ حَرْفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾ علَىٰ فاصِلٍ زَمَنِيّ بَعْدَ شُهُودِ ميقات اليومِ المعلوم، يكُونُ فيه انْتِظَارُ تَنْفِيذِ الجزاءِ بإدْخالهم جَهَنَّمَ، وانتظارُ تهَيُّجِ بُطُونهم مِنَ الجوعِ فيها، وحَاجَتِهِمْ الشّدِيدَة الّتي لا يَسْتطيعونَ دفْعَها، لأكْلِ شيءٍ ما فيها، فيَرْحَلُونَ بَاحِثِينَ عَمَّا يأكُلُونه لسَدِّ جُوعهم.

وجاء في هـٰذَا التعْلِيمِ التوجيهُ لمخَاطَبَتهمْ بِعُنْفٍ وَجفاءٍ ومُخَاشَنَة، إذْ وصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤوسٍ مِنْ إصْلاحِهم مَعَها عَنْ طَرِيق إرَادَاتِهِم الحرَّة، فقد سَبَقَ في نُجُوم التّنْزِيل في نحو أربعين سورة قَبْلَ نُزُول سورة الواقِعَةِ مخاطَبَتُهم والتَّوْجِيهُ لمُخَاطبتهم بمخْتَلِفِ أسَاليب الإقناع الفكري الحكيمَةِ الرَّفيقة، ومختلِفِ أساليب الترغيب والترهيب، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إلّا العنادُ، والإصرارُ علَىٰ بَاطلهم، اتّباعاً لأهوائهم، وشهواتهم، ورَغباتهم من الحياة الدُّنيا، وتَمَسُّكاً بتقاليدِهم العمياء، فأمْسَىٰ مِنَ الحكمة في مخاطَبَتِهم اتّخاذُ أُسْلُوبِ العنف والجفاء والمخاشنة.

﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: أي: المجافُون لِلصِّراطِ المستقيم، والمبتَعِدُونَ عَنْهُ، معانَدَةً للحَقِّ والخيرِ والْهُدَىٰ، بَعْدَ بيان كلّ ذلك لكم.

وهذا أحد معنى الضلال، وهو المناسب هنا.

﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾: أي: المكذّبُونَ رَسُولَ رَبكُم، والمكذبون بكتابه، والمكذبُون بأنباء يَوْم الدّين.

قول الله تعالى:

- ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾:

اسم الفاعل: «آكِلُون» يُرادُ بِهِ هُنَا المستقبلُ البعيد، وذلِكَ إذْ يكونون في جهَنَّم يَوْم الدّين، فهو في الدلالَة على الزمن بمنزلة الفعل المضارع.

وحرف الجرّ «مِنْ» في عبارة: ﴿مِن شَجَرٍ﴾ للتبعيض، لأنَّهُم يأكُلُونَ في جَهَنَّمَ بَعْضَ ثَمَرِ هذا الشّجر الكَرِيه، وأرى أنّ هذا الْوَجْهَ أوْلَىٰ الوجوه بالاعتبار.

وحَرْف الجرّ «مِنْ» في عبارة: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ للبيان، أي: من نَوْعِ شَجَرٍ في جهنَّمَ يقالُ لَهُ: «زَقُّوم».

وجاء في وَصْفِ شَجَرَة الزَّقُوم ما يلي:

(١) لَهَا ثَمرٌ كريهُ المنظر كأنَّهُ رُؤُوسُ الشياطينِ، وفي هذا إحالَةٌ عَلَىٰ مُتَخَيَّلٍ في أذْهَانِ المخاطَبِينَ لِرُؤوس الشياطين، إذْ يتخيَّلُونَها بأقْبَحِ صُورَةٍ لشيءٍ مَا في الْخَيَالِ التوهمي، وبأشْنَعِ منظر.

وقال الزّجاج والفّراء: الشياطين حيّاتٌ لها رُؤوس وأعراف، وهي من أقْبَح الحيَّاتِ وأخْبَثِها وأخفِّها جِسْماً.

وقيل غير ذلك:

(٢) شجرةٌ لها ثَمرٌ مُرٌّ كَرِيهُ الرائحة، يُلْجأُ أهْل النار إلى الأكْلِ منه، للجوع الشديدِ الذي يَنْزِلُ بهم، فلا يأكُلونَهُ مضْغاً، وإنَّما يَتَزَقَّمُونَهُ تَزَقُّماً، لأنَّه مكْرُوهُ نَتِنٌ، أي: يَبْتلعونَه ابتلاعاً بَجهْدٍ ومشقة.

التَّزَقُّمُ: الْبَلْعُ عَنْ جَهْدٍ، لشِدَّةِ الضَّرُورَة الدَّاعيَةِ إلى سَدِّ الجوع الذي هو أشدُّ إيلاماً من بَلْع المرِّ الكَريهِ النَّتِنِ بجَهْدٍ ومشقّة.

(٣) تَنْبُتُ هـٰذِهِ الشجرة في أصْلِ الجحيم، أي: في القاع من وِدْيَانها.

(٤) ثَمرُهَا كالْمُهْل (أي: كالْقِطْرَانِ، أو كُدُرْدِيّ الزيت وهو عكرُه).

(٥) ثَمرُها يَغْلِي في بُطونِ آكلِيهِ مِن شدّة حرارَتِه، كَغَلْيِ الحميم (أي: كغَلْيِ المَاءِ الشديد الحرارة).

قول الله تعالى:

- ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣﴾: أي: فمالِئُونَ مِنَ الأَكْلِ مِنْ ثَمَرِهَا بُطُونهم. جاءت (الْ) في لفظ ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ عِوَضاً عَنِ الضمير الذي يَعُودُ على المخاطبين: أي: فمالِئُونَ مِن الأكلِ مِنْ ثَمَرِهَا بُطُونَكُمْ، لأنَّ الأكْلَ منه لا يَسُدُّ جُوعَكُمْ مَهْمَا أَكَلْتُمْ، فَلا تَقِفُونَ عن الأكْلِ منه إلَّا إذا امتلأَتْ بطُونكُم، وصِرْتُمْ غير قادِرينَ على أَنْ تُضِيفُوا شيئاً إلى بُطُونكُم بَعْدَ امتلائها بالزَّقُّوم، إلَّا شَراباً يتَسَرَّبُ تَسَرُّباً.

واسم الفاعل في هذه الآية كاسْم الفاعل في الآية الّتي قَبْلها.

قول الله تعالى:

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥﴾:

أي: فَسوْف يُلْجِئكم الظَّمَأُ الشّديد بعد الأكل من ثَمَرِ شجرة الزّقّوم الّتي تَمْلَؤُونَ مِنها الْبُطون، إلَىٰ شُرْب ماء كثير، لكِنَّكُمْ لاَ تَجِدُون في الجحيم دَارِ عذابكُمْ إلَّا ماءً حارّاً شديد الحرارَة، فَتشْرَبُونَ مِنه مِثْلَ شُرْبِ الْهِيم فَلا يُرْوِي ظَمَأكم، فتهِيمُون.

الحميم: الماء الحارُّ ذو الحرارة الشديدة. و(ال) تُشير إلى ما جاء في الآية (٤٢): ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢﴾.

الهيم: الإبل المُصابَة بِدَاءِ الْهُيَام، فهي تَشْرَبُ فَلا تَرْوىٰ، فتَنْطَلِقُ هائِمةً لا رَاحَةَ لَهَا ولاَ اسْتِقْرار. يقال: بعير أهيم، وناقةٌ هَيْماء.

الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يَعُودُ علَىٰ المأكُولِ المفهوم ذهناً من عبارة: ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾.

وجاء تكرير ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ في الآية (٥٥) للدّلاَلَة على تكريرِ شُرْبهم مَرَّةً فَمَرَّةً لِيُطْفِئوا ظمأهم، لكنَّه لا يَنْطَفِىء، وفيه مع هٰذا إيجادُ تَوَازُنٍ بَيْنَ هذه الآية وبَيْنَ التي قبْلَها (٥٤).

وفي ختام هذه الفقرة الّتي علّمَ الله عزّ وجلَّ فيها رسولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى الله من أمَّتِه، كيْفَ يُخاطِبُ المعانِدين المكابرين، الكافرين، المكذّبين بيومِ الدّين، والّذِين وصَلُوا إلى دركَةٍ إجرامِيَّة، مَيْؤوسٍ مَعَهَا من أَنْ يَسْتجِيبوا لدَعْوَةِ الحقّ، عَنْ طَرِيق إرادَاتِهم الحرّة، قال الله عزّ وجلَّ مُخاطِباً كُلَّ مُتلَقٍّ لهذا البيان القُرْآني:

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾: أي: هذا الطعام من شَجَرٍ هو مِنْ صنف شجر الزَّقّوم، هو الطعام الّذي يُقَدَّمُ لَهُمْ إذْ يُسْتَضَافُونَ في جَهَنَّم دارِ عَذَابهم.

«النُّزُل ـ والنُّزْل» بضمّ الزاي وإسْكانها، هو في اللُّغَةِ ما يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لضَيْفِهِ من طَعَامٍ ونحوِه إذا نَزَل به.

يُقالُ لغةً: «فُلاَنٌ حَسَنُ النُّزُلِ» أي: حَسَنُ الضيافة.

وأنْزَالُ الْقَوْمِ: أَرْزَاقُهُمْ.

وعَنِ الزّجَّاج: أنَّهُ يُطْلَقُ «النُّزُلُ» علَىٰ الْمنزل، فالنُّزُلُ على هذا يشْمَلُ المكان والضَيافة فيه.

وذُكِرُ النُّزُلُ» هُنَا، الَّذِي هو مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لضَيْفِه النّازِلِ بِه، على سبيل التَّهكُّمِ بالْمُجرمين المعانِدِين، مقابل استهزائهم بالمؤمنين في الدنيا.

أي: إذا أدْخَلْنَاهُمْ في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابهم، فإنَّنا لاَ نَتْرُكُهُمْ يَجُوعُونَ دُون أنْ نُقَدِّمَ لَهُمْ طعاماً، بَلْ نَقدِّمُ لهم ثَمَرَ شَجَرِ الزَّقّوم، الذي يَغْلِي في بُطُونهم كغَلْيِ الحميم.

وأمّا الصِّنْفُ الرّابعُ من الناس يوم الدين، الذي لم يأتِ في سورة (الواقعة) بيانٌ صَرِيحٌ عنْهُ، وقَدْ دَلَّ عليه التقابل والتناظُرُ بَيْنَ الْأَقْسَام، كما سَبَقَ في الرَّسْم البياني، وهُو صِنْفُ غُلاةُ الكَفرَةِ المجرمين، والأئمة الدُّعَاةُ

إِلَىٰ الكُفْرِ والْفُسُوقِ والْعِصْيَانِ والْفُجُور في الأرض، فقد جاء بيانٌ مَا، عَنْ بَعْضِ أحْوالِ أَفْرَادِه مُوزَّعاً في سُوَر القرآن المجيد، فَمِنَ النُّصُوصِ الّتِي تَعَرَّضَتْ لِحَدِيثٍ مَا عنهم، النُّصوص التالية:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) بشأن الوليد بن المغيرةِ أحَدِ أئمة الشرك والعناد والكفر في مكّة إبّان التنزيل:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾:

أي: سَأُحَمِّله عَذَاباً شاقًا في جهَنَّم فَوْق طاقته، إذْ أجْعَلُهُ صَاعداً فيها على عقبة كَؤُودٍ.

الصَّعُود: العقَبَةُ الشّاقة، والمشَقَّة، والطَّرِيقِ الصاعِدَة، ورُوي عن النبيّ ﷺ: «أَنَّ الصَّعُودَ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يُصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفاً، ثُمَّ يَهْوِي كَذَلِكَ مِنْهُ أَبَداً».

وظاهرٌ أنَّ مِثْلَ هٰذَا الْعَذَابِ، خاصٌ يَوْمَ الدِّينِ بِأئمَةِ الكُفْرِ، الداعين إليه، والمحرّضِين عليه، ولَيْسَ كُلُّ الْكَافِرِينِ يُعَذَّبُونَ بِمِثْلِ هذا العذاب.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ۝٥٩ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٦٠ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ۝٦١﴾.

سَبَقَ تَدَبُّر هذا النصّ لدى تَدَبُّر سورة (ص) فَلْيُرْجع إليه. والشاهِدُ هُنَا هو ما في هذا النَّصّ من دَلاَلَةٍ علَىٰ أنّ عذابَ أئِمة الكُفْر مِنْ أهل الصنف الرابع أخْبَثِ صِنْفَي الكافرين المجرمين أشدُّ من عذاب الكافرين،

إذْ كانُوا الْفَوْجَ السَّابقَ في إدْخالهم جهنَّمَ دَارِ عَذَابهم، وجاء في مقالِ أَتْباعهم الْفَوْج الّذي أُقْحِمَ جهنَّمَ بَعْدَهم، قولُهُمْ لهم: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ فدَلَّ هذا عَلَىٰ أنّ الْأَئِمَةَ الّذِين كانُوا دُعاةً إلى الكُفرِ في الحياة الدُّنيا، هُمْ فِي القرار من جَهنَّمَ، وهو القاع منها، وجاء في دُعائهم رَبَّهُمْ قولُهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ وعَدَمُ الرَّدّ على دُعائِهم يَدُلُّ على أنَّهُمْ في الواقع يُعَذَّبُونَ عذاباً أشدَّ، معادلاً لوصْفِهم إذ كانوا كافِرِينَ في أنْفُسِهم، وداعين إلى الكُفر وحامِلِينَ الناسَ عليه.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول): بشأن المكَذّبين بآيات الله ومَا يُقالُ لهم يَوْمَ الدِّين عند إدخالِهِمْ جهنّم:

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾: أي: حتَّىٰ إذا انْتهَىٰ تلاحُقُهُمْ وَتَتَابُعُهُم واسْتَقرُّوا فِي مَواضِعِهم مِن النّار جَميعاً.
- ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾؛ أي: قَالَ: لكُلٍّ مِنْكُمْ مِثْلُ عَمَلِه مِقْداراً وصِفَةً، فأئمة الكفر الدُّعاة إلَيْهِ أكْثَرُ إجْراماً فجزاؤُهُم مِنَ العذاب يُعَادِلُ ما اكْتَسَبُوا من الآثام والجرائم.

وقد سبق تدبّر هذا النَّصّ لدى تدبّر سورة (الأعراف) فَلْيُرْجَعْ إليه.

والشاهِدُ هُنَا هو مَا في هذا النَّصّ من بيان أنّ عَذَابَ الْغُلاَةِ في الكفر والضلال، الدَّاعِين إلى الكُفْر والفساد في الأرض، أشدّ من عَذَاب الضّالّين بأنْفُسهِم الّذِين لا يَدْعُون إلى الضلال، ولا يَحْمِلُونَ الناسَ عَلَىٰ الكفر والفساد والإفساد في الأرض.

ومن هذا نَفْهَم بعض وَاقع حال الصنف الرابع من أصناف الناس يوم الدين.

(٤) وقول الله عزّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) بشأنِ فِرْعَوْنَ وَآلِه:

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: أَمْرٌ يُوَجَّهُ مِنَ الله عزّ وجلَّ للمكلَّفِين مِنَ الملائكة بَسَوْقِ آل فِرْعَوْن إلى جَهَنَّم، بِأَنْ يُدْخلُوهُم أَشَدَّ الْعَذَاب، وظاهِرٌ أنَّ أشَدَّ العذابِ في جَهَنَّمَ إنَّما يَكُونُ لِأئمة الكُفْرِ وغُلاَةِ الْمُجْرِمِين، الَّذِين كانوا في الحياة الدُّنيا طَاغِينَ، ويَحْمِلُونَ الناسَ عَلَىٰ الكُفْرِ والطُّغيان، وهم أهْلُ الصِّنْفِ الرابع من الناس يوم الدِّين.

(٥) ولمَّا جَمَع المنافِقون بَيْنَ الكُفْرِ بَاطِناً، وإعْلانِ الإِسْلاَمِ في الظاهر، ليخادعُوا به الله والّذين آمَنُوا، كانَ جُرْمُهُمْ مِنْ دَرَكَةِ أَخَسِّ المجْرِمين، فكان عقابُهُمْ عِنْدَ رَبّهم يوْمَ الدّين فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ من النّار، إذْ يُجْمَعُونَ مَعَ أَهْلِ الصنف الرابع من أصناف الناس يوم الدين.

فقال الله عزّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الأوّل من دُروسِ سُورَةِ (الواقعة) والحمد للَّهِ على مَعُونَتِهِ، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدّرسِ الثاني من دروس سورة (الواقعة) وهو الآيات من (٥٧ ـ ٧٤)

قال الله عزّ وجلَّ:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ

أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ
(٦٢) أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ
لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ
نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ
شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ
بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤)﴾.

تمهيد:

اشتمل هذا الدرس الثاني من دروس سورة (الواقعة) علىٰ عرض طائفة من الظواهر الكونيّة الدَّالَّة على طائفة جَليلة مِنْ صفاتِ رُبُوبيَّة اللهِ لكَوْنِهِ، مِنْها عظيم قُدْرَتِه وإتقانِه لصُنْع كُلِّ شيءٍ خَلَقه، وحِكْمَتِه السَّامِيَة، وأنَّهُ لَمْ يَخْلُق عِبادَه في هذه الحَياةِ الدنيا عَبَثاً، دُونَ أَنْ يُتابِعَ حَياة امْتِحانهم بحياة أخرىٰ، يُجْرِي فِيها حسابَهُ لهم، وفَصْلَ قضائه بَيْنَهُمْ، ومُجَازاتَهُمْ على مَا أَسْلفُوا في رِحْلَةِ امْتِحانِهم، من عَقائِدَ ونِيَّاتٍ وأعْمالٍ بَاطِنَةٍ وظاهرة.

والظَّواهِرُ الكونيَّةُ الَّتي عَرَضَها وَنَبَّهَ عَلَيْها هذا الدَّرس، والتي تَدُلُّ علىٰ أنّ اللهَ هو الذي خلق الناسَ، هي سِتُّ ظواهر:

الظاهرة الأولىٰ: النُّطفة المنويَّة.

الظاهرة الثانية: الموْتُ الَّذِي لاَ مَفرَّ لحَيٍّ منه.

الظاهرة الثالثة: نَشْأَةُ الحيَاةِ الأولَىٰ.

الظاهرة الرابعة: النباتُ في الأرض، وإبْداعُ الرَّبِّ في تَنْشِئَتِه.

الظاهرة الخامسة: الماءُ وإنْزَالُهُ نَقِيًّا طَهُوراً سائغاً شرابُهُ مِن الْمُزْنِ.

الظاهرة السَّادِسة: النّار، وتَخْزينُها في الأشجار للانتفاع بها عند الحاجة.

ودَلَّ هذا الدَّرْسُ، على أنَّ إدْرَاكَ هٰـذِهِ الظواهر، يَدْفَعُ مَنْ كانَ مِن أُولي الألْبَابِ المنْصِفِينَ الذين يَخْشَوْن رَبَّهم، إلى أن يُسَبِّح باسْمِ رَبّه العظيم.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

أواخرُ الدَّرسِ الأوَّلِ من دُروسِ السُّورة، تتعلَّقُ بأصْحَاب الشّمالِ (= أصْحَابِ المشْأَمَة) وعَرْضِ لَقَطاتٍ من عذابِهِمْ في الجحيم يوْمَ الدّين، لأنَّهُمْ كَانُوا يُصِرُّونَ في حَياةِ امْتِحانِهم علىٰ الإثْمِ العظيم، ويُكَذِّبُون بالْبَعْثِ وبِيَوْمِ الدّين.

فهم المخاطَبُون الأَولونَ بما جاء في الدّرس الثاني من دُروسِ السُّورَة، وسِيلةً لإقناع من يَسْتجيبُ منهم أو من غيرهم لدعْوَةَ الحقّ الرَّبَّانيّة، في هٰـذا الدّين الخاتم، وبتنويع الأدِلّةِ وتَصْرِيفها لا يبقىٰ عُذْرٌ لمعْتذرٍ حينما يقف بيْنَ يَدَي رَبّه للحساب، وفصْلِ القضاء.

على أنَّ الخطاب يتناوَلُ كُلّ موضوعٍ في الحياة مَوْضع الامتحان من الإنْس والجنّ.

جاء البيان في هٰـذه الآية بضمير المتكلِّم العظيم، لأنَّ الكلام يَتَعَلَّقُ بِخَلْقِهِ العظيم لعِبادِه، فقال تعالى للمخاطبين من الإنْسِ والجنّ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: وحْدَنا، وقَبْلَ خَلْقِنَا لكُمْ لَمْ تكونوا شيئاً مَذْكُوراً. فإنْ كُنْتُم تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أنتُمُ الّذِين خَلَقْتُمْ أنفُسَكُمْ، فأثْبِتُوا دَعْوَاكُمْ بِحُجَّةٍ مَا، أَوْ

امْنَعُوا عَنْ أنْفُسِكُمُ الموْتَ الَّذِي قَدَّرْناه بَيْنكم، وإِنْ كنتم تَزعمونَ أنَّ خالقاً غَيْرَنَا هُو الَّذِي خَلَقَكُمْ فَاذْكُرُوه، وأثْبِتُوا بحجَّةٍ مقْبُولَةٍ ماذا خَلَقَ مِنَ الْأَرْضِ أو مِنَ السَّماءِ، أو اسْألُوه أَنْ يَمْنَعَ عَنْكُمُ الموْتَ إِذَا نَزَلَ بِكُمْ لِيُثْبِتَ أَنَّه هُو الخالِقُ لَكُمْ.

لَكِنَّ أحداً ما في الوجود غَيْرَ الله لاَ يَسْتَطِيع أنْ يَدَّعِيَ أَنَّه هو الخالق.

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾: «لَوْلاَ» هُنَا بِمَعْنَىٰ «هَلَّا» الّتي فيها معنى الْحَضِّ والحثّ، أيْ: فَهلاَّ تُصدِّقُونَ بِأَنْبَائِنَا عن الحياة الأخرىٰ، وما فيها من حسابٍ، وفَصْلِ قضاءٍ، وتنفيذِ جزاء، في جنَّاتِ النَّعيم، أوْ في دَارِ العذاب الأليم.

وفي هذا الحضّ معنى تلْويمِ المكذبين، وبيانِ سُوءِ اختيارِهم، ونقصانِ عُقُولِهِمْ، إذْ يُنْكِرُونَ الحقَّ المؤيَّدَ بالبراهين العقليّة، والحجج الدامغة.

والظاهر أنّ عبارة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ مِوجّهةٌ للدهريينَ وكلِّ الذين لا يؤمنون بالرَّب الخالق، كالملاحدة والوجوديين، أو يجْعَلُون له شريكاً في خَلْقِهِ للناس، كالذين يؤمنون بخالقين أو أكثر.

بعد هذا جاء عَرْضُ الظواهر الكونيَّةِ المختارة لِلْعَرْضِ في هذا الدَّرْس، من ظواهر خَلْقِ اللهِ في كونه الدَّالّة على طائفة مِنْ صِفاتِه الجليلة:

الظاهِرَة الأولَىٰ: النُّطْفَةُ المنويّة، وقد جاء التنبيه عليها في قول الله عزّ وجلَّ في هذا الدرس:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾؟!.

استفهامٌ يُرادُ بِهِ لَفْتُ أنظار المخاطبين إلى هٰذِهِ الظاهرة العجيبة من ظواهر الخلْق الربانِيِّ، التي فيها جُرْثُومَةُ الأحياء البشريّة، وفي الخليّةِ بعْدَ انعقادها كلُّ صفات الكائنِ التي تظهر جليّة حينما يكْبر، وتَبْرُزُ صِفاته.

﴿مَّا تُمْنُونَ﴾: أي: النطفة المنويَّةُ الّتي تُخْرِجُونَها من العضو التناسلِيِّ. وتُسمَّىٰ: «الْمَنِيّ» وهو سائلٌ أبْيَضُ غليظ تَسْبَحُ فيه الحيوانات المنويَّة، يَخْرُج من القَضِيب إثْر جِمَاعٍ أو نَحوِه، ومَنْشَؤهُ إفرازات الخصيتَيْن، ويخْتَلِطُ بِه إفرازُ الْحُوَيصلَتَيْن المنويّتَيْنِ، والبروسْتَاتة، وغُدَدُ الْمَبَال (مجرىٰ البول).

المنيُ عندَ الأطباء

يطْلَقُ على الإفرازاتِ التناسليّة للرَّجل، تُفْرِزُها الْخُصْيَة، والبروستاتا، والْحُوَيْصِلَة المنويّة، وهو مكوّن من عنصرين:

(١) الحيوانات المنويّة، الّتي تتكوّن من القنوات المنويَّة في الخُصْيَة.

(٢) السّائل الذي يحمل الحيوانات المنويّة، ويُغذِّيها، وهي تَسْبَحُ فيه حتَّىٰ تَصِلَ إلى الرَّحِم، ويحميها من الإفراز الحامضيّ القاتل لها في المِهْبَل.

والدَّفقَةُ الواحِدَةُ من المنيِّ تحمل مائَتَيْ مَلْيُون حيوان منويّ فأكثر، والَّذِي يُلَقِّح البُوَيْضَةَ حيوانٌ منويٌّ واحد للجنين الواحد بَسب العادة.

وفي الرّحلة الطويلَة الّتي تَسْعَىٰ الحيوانات المنويَّة لاجتيازِ مَسافَتِها، من المهْبَلِ، فعُنُقِ الرّحم، فالرَّحِمِ، فقناةِ الرَّحم لتَلْتَقِيَ بالبُيَيْضَة، تَهلِكُ الأعداد الكثيرة منها، ولا تَصِلُ منها إلى قُرْبِ جدار الْبُيَيْضَةِ إلّا مئاتٌ مِنها، وبالمشِيئَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يُخْتَارُ بحَسَبِ العادة واحدٌ منها، لاختراق جِدَارِ البُيَيْضَةِ، وتُحْجَزُ البقيَّةُ عن الاختراق فتَهْلِك.

والذكورةُ والأنوثةُ في الْجَنِين تَأتيان من الحيوان المنويِّ الملَقِّح، الآتي من الزّوج الذكر، فإذا كان ذكراً تكوَّن الجنينُ ذكراً، وإذا كان أنثىٰ تكوَّنَ الجنينُ أُنْثىٰ بقضاء الله وقَدَرِه، ومحْضِ مشيئَتِه واختيارِه.

وقد اكتشَفَ مُتابِعُو البحْثِ من عُلَماءِ الأجنَّةِ، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وفي القرن العشرين، عَجائِبَ مُذْهِلَةً في مَنِيِّ الرَّجُلِ، وبُيُوضِ المرأة، وفي التراتيب والتَّدابِيرِ الرَّبَّانِيَّة، الّتي يَتَحقَّقُ بها إنْشَاءُ الجنِين، حتَّىٰ وِلادَته طِفْلاً، وتَنامِيه إلى أن يكون إنساناً كاملاً، ما يَدُلُّ دَلاَلَةً قَطْعِيَّةً علىٰ أنَّ مُنْزِلَ القرآنِ هُوَ خالقُ الأكوان، وهو العليم بِمَا خَلَقَ وبَرَأَ وأنْشَأ.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟!.

هل يَدَّعِي مَنْ لَدَيْهِ ذَرَّةٌ مِنْ عَقْلٍ أَنَّهُ يَخْلُقُ مَنِيَّهُ؟!.

هلْ يدّعي الأطبَّاءُ وخبراء المخابرِ والمعامل الكيميائيّة، أنّهم قادرون علىٰ تَصْنيع نُطْفَةٍ مَنَوِيَّة، أو حَيَوانٍ منويٍّ واحدٍ؟!.

إنّ الإنس والجنَّ جميعاً عاجزون عَنْ ذلك، ولا يمكن لهم أنْ يَدَّعوه إلا كاذبين مفترين على الله.

إنَّ الله وحْدَهُ لاَ شريكَ له هو خالق النُّطَفِ المنويَّةِ كلّها بُقْدَرتِهِ العظيمة، وحِكمتِهِ السَّامِيَة، فَهُوَ وَحْدَهُ مُبْدعكُمْ أيُّها الناس، فَهَلَّا تُصَدِّقونَ نبأَهُ العظيم، بأنه سَيُعِيدُكم إلىٰ الحياة مَرَّةً أخرىٰ، بَعْدَ مَوْتِكُمْ، لِيُحَاسبكم، ويَفْصِلَ القضاء بينكُمْ، ويُثِيبَكُم أو يُعاقبَكُمْ على ما سَلَفَ مِنْكُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ في الحياة الدنيا!!.

الظاهرة الثانية: ظاهرةُ مَوْتِ الأحياء، الّذي لا مفرَّ لحيٍّ منْه، وقَدْ جاء التنبيه عَلَيْها في قول الله عزّ وجلَّ في هـٰذا الدَّرس، مع تنويعٍ في الأسْلُوب البياني، من الاستفهام إلى الخبر، ومع استعمال ضميرِ المتكلّم العظيم، لأنَّ الموضوعَ يتطَلَّبُ إظهارَ عظمَةِ رُبوبيَّة الرَّبّ جلّ جلالُهُ:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾:

- ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ وفي القراءة الأخرى: **[قَدَرْنا]** والمعنىٰ فيهما واحدٌ، يقال لغة: «قَدَّرَ الشَّيْءَ، وَقَدَرَه» أي: حَدَّدَ مقادير كلِّ وصْفٍ فيه لَهُ وحَدَات صُغْرَى، تُقَدَّرُ جُمْلتُه بمقدار أعدادها، كأَعْداد ذرَّاته، وأعداد نقاط طُولِه وعرضه، وأعداد وحدات طاقته.

فالمعنى: نَحْنُ جَعَلْنَا مَوْتَ كلِّ واحِدٍ مِنْكُمْ مُقَدّراً بالزمانِ، والمكانِ، والأسبابِ، فَلا يتأخَّرُ مَوْتُ كُلِّ حَيٍّ منْكُمْ زَمَاناً مَا، مَهْمَا قَلَّ، ولا يَتَقَدَّمُ مَوْتُهُ زَماناً مَا، مَهْما قَلَّ، والمكانُ الذي حَدّدْنَاهُ أن يموت فيه لا بُدَّ أنْ يموت فيه، وكذلك السَّبَب.

فمعنى: «قَدَّرْنا» و«قَدَرْنا» في هذا النّصّ، حَدّدْنا الوَحَدَات الزمنيّة، الَّتي تَسْتَمِرُّ فيها حياة كُلٍّ منكم، والْوَحْدَة الزّمَنِيَّة الصُّغْرى الّتي يموتُ فيها بانفصال الرُّوح عن نَفْسِهِ الّتي تَذُوقُ بِهِ الموت، والمكانَ الذي يكون موتُه فيه، والسَّبَبَ الذي اخترْنَاهُ لِأَنْ يكونَ مَوْتُه به.

والموتُ يَكُونُ بنَزْعِ رُوحِ الحيِّ مِنْ نَفْسِه المشتملَة على برنامج وجُودِه وحياته، وفي نواة كُلِّ خَلِيَّةٍ من خلايا جَسَدِه «برنامجه الوراثي» أي: الخُطَّةِ الأساسيّة الشّاملة لكلّ صفاته الْجَسَدِيَّة والنفسية، وعلى وفقها تَظْهَرُ صِفَاتُهُ، فَما هو مِنْها جَبْرِيٌّ، لاَ يَخْضَعُ لاختيارات إرَادَتِه، كصِفَاته الْجَسَدِية، ومَا هو منها علىٰ غيْر نِظَامِ الجبْرِ، يكُونُ لَدَيْه اسْتِعْدادٌ للاستجابَة لمطالب إرادَتِه الحرَّة، كَحَرَكَةِ يَدَيْهِ ورِجْلَيْه، وأجْفانِ عَيْنَيْه، ولِسَانِهِ وشفتَيْه.

ودلَّنَا علىٰ أنَّ النّفْسَ هي التي تَذُوقُ الْمَوْتَ بمُفَارَقَةِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

الرُّوح: مَا بِهِ تَكُونُ الحياة، وهي سِرٌّ من أسْرَار اللهِ في كوْنِه، وهي من أَمْرِهِ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

والنَّفْس: شَيْءٌ فِي داخلِ الْجَسَدِ يشْتَمِلُ على بَرْنَامج وُجود الحيِّ وحَياته، فإذا نُفِخَتِ الرُّوحُ فيها، صَارَ الْجَسَدُ حيًّا، وإذا نُزِعَتِ الرُّوحُ مِنْها ذَاقَتِ النَّفْسُ الموتَ، وفَقَدَ الْجَسَدُ الحياة، فصار ميْتاً.

وكلُّ الناس يَعْرِفُونَ ظاهرة الموت، وكلُّ النَّاس يجهلون حقيقته.

- ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾: جاء السَّبقُ في القرآن للدَّلالة على السَّبْقِ الزّماني، وللدّلالَةِ عَلَىٰ السَّبْقِ المكانِي، وللدَّلاَلَة على السَّبْقِ المعنويّ بالصّفات ومنها المكتسباتُ الإراديَّةُ، وللدَّلاَلَة عَلَىٰ التَّفَوُّقِ فِي الْقُوَّةِ والْقُدْرَةِ على الغَلَبة، وهذا المعنَىٰ الأخير هو المناسِبُ هنا.

أي: وما تُوجَدُ فِي الوجُودِ قُدْرَةٌ مَا، تُغَيِّرُ مَا قَدَّرْنَاه وقضَينَاهُ في قضيّةِ الموْتِ، زماناً، ومكاناً، وسَبَباً، سابِقَةً لقَدَرِنا وقضائِنا وخَلْقِنا فِي شيءٍ من ذلِكَ، ولاَ في غَيْرِ قضيَّةِ الموتِ من عظائِمِ المقاديرِ وصَغائِرِها،

وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ فِي شيءٍ مَا نُرِيدُهُ، بلْ نَحْنُ السَّابِقُونَ النَّافِذَةُ مَشِيئَتُنَا فِي كُلِّ شيءٍ جَبْراً أو تخييراً.

ولاَ يَخْفَىٰ ما فِي اسْتِعمالِ ضَمِيرِ المتكلّم العظيم، من دَلاَلَةٍ عَلَىٰ عظَمَةِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ، وقَهْرِهِ وجَبَرُوته وسُلْطَانِه.

● ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾: دَلَّتْ عبارة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ على عبارةٍ مطْوِيَّةٍ غَيْرِ مَذْكُورَةٍ في أَلْفَاظ النصّ، وهي: «بَلْ نَحْنُ قادِرُونَ» وجاءَتْ عبارةُ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ مَبْنِيَّةً عليها، أي: بَلْ نَحْنُ قادِرُون على أنْ نُبَدِّلَ بِكُمْ أمْثَالَكُمْ، فنَخْلُقَ بَشَراً آخَرِينَ أمْثَالَكُمْ، ونَجْعَلَهُمْ أبْدَالاً لَكُمْ، فَمَا أنْتُمْ إلّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِنَا، نُحْييكم بحَسَبِ مَشِيئتِنَا، ونميتُكُمْ بِحَسَبِ مَشِيئَتِنَا، ونأْتي بأمْثالكم أبْدالاً عَنْكُمْ بحَسَب مَشيئَتنا الّتِي نُنَفِّذُها إذا اقتضَتْ ذلِكَ حكْمَتُنا.

● ﴿... وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾: أيْ: ونَحْنُ قَادِرُونَ على أنْ نُنشِئَكُمُ النَّشَأة الأُخرىٰ، التي يَكونُ بِهَا بَعْثُكُمْ للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفيذِ الجزاء. وتَكُونُ هٰذِهِ النشأَةُ الأخرىٰ في ظُرُوف وأَسْبَابٍ وأزْمَانٍ وأحْدَاثٍ لاَ تَعلَمُونها، كما كُنتُمْ عند النشأَةِ الأولىٰ الَّتِي كُنَّا نُنْشِئُكُمْ إِيَّاها لا تَعْلَمُونَ عَنها شيئاً، وأنْتم في أصلاب آبائِكم، ثم في أرْحَام أمَّهاتكم، ثم في طفولتكم الأولى، وبعْد أن عَقَلْتُمْ وعَلِمْتُمْ نَشَأَةَ أشباهكم، صِرْتُمْ تقِيسُونَ نَشْأَتَكُمْ عليها، فَعَلِمْتُموها عن طَرِيق قياسِ الأشباهِ والنظائر بَعضِها على بعض.

الظاهرة الثالثة: ظاهِرَة نشأة الحياة الأولى، وقد جاء التنْبيه عليها في قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: عَنْ طَرِيق مُلاَحَظَةِ نَشْأَةِ أَشْبَاهِكم ونظائرِكم، وأنَّها كانَتْ سُلاَلَةً فِي أطْوَارٍ بَدأَتْ من الطين، إذِ

اسْتُلَّتْ مِنَ الطِّينِ الأغذية، واسْتُلَّتْ من الأغْذِيَةِ عناصِرُ بناء الأجْسَادِ، واسْتُلَّتْ من الْجَسَدِ عناصِرُ النّطْفَةِ المنويَّة في الذُّكُور، وبناء البيْضَاتِ في الإناث، ثم انْعَقَدَ الجنِينَ ونَما وتخلَّقَ، ونُفِخَتْ فيه رُوحُ الحياة، ثم لمَّا حَانَ وَقْتُ خُروجِهِ أخرجَهُ اللهُ من بطنِ أُمِّهِ ولِيداً.

أفَلَيْسَ لَديكُمْ مَنْطِقٌ قياسِيٌّ، تَقِيسُونَ بِهِ أحْدَاثَ النَّشْأَةِ الأُخرَىٰ، الَّتِي أخْبَرَكُمْ بِهَا خالِقُ النَّشْأةِ الأُولى؟؟!.

وقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأولىٰ عَنْ طَرِيقِ هـٰذَا القياس نَفْسِه، وظاهِرٌ أنَّهُ لاَ يُشْتَرَطُ في صحة القياس تَطَابُقُ الأحداثِ بتفْصيلاتها، بل يَكْفِي لصحّتِهِ مَا يُثبتُ الْقُدْرَةَ علىٰ إعادَةِ النَّشْأة، المماثِلَةِ في النَّتيجة للنشأة الأولى.

«النَّشْأَة»: وَ **«النَّشَاءَة»** قراءتان، والمعنى فيهما التكوين المتدرّج ضِمْنَ نِظام التَّرْبِيَةِ، حَتَّىٰ إبلاَغِ الشيءِ دَرَجَة كماله.

وهما لغتان عَرَبِيَّتان، كالرأفَةِ والرَّآفة، بالقَصْر والمدّ.

● ﴿... فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: فَهلَّا تَضَعُونَ النَّشْأَةَ الْأُولى الّتي عَلِمْتُموها في سَاحَةِ تَذَكُّرِكم الحاضِر، لتقيسُوا النَّشْأة الأخرىٰ عليها، بالمقَايِيس المنْطِقيَّةِ الّتي تُقَاسُ بها الأشْباه والنظائر، بَعْضُها عَلَىٰ بَعْضٍ من الماضِي والمستقْبَلِ والحاضر، فإذا وَضَعْتَمُوهَا في ساحَةِ تَصَوّرِكُمْ الآنِيِّ، فرُبَّما دَفَعَتْكُمْ إذا كنْتُمْ ناشدِينَ الحقَّ، قادِرِينَ على التجرُّدِ من أهوائِكُمْ وتقالِيدِكم الْعَمْياء، إلىٰ الإيمان باليوم الآخر، وبما أعَدَّ الله فيه من حساب، وفَصْلِ قضاءٍ، وتنفيذِ جزاء، وهذا الإيمان يَدْفَعُكم إلى اخْتيار السّير على صراط الله المستقيم، والتحرُّرِ من آسِرَاتِ الأهواء والشهوات والتقاليد العمياء، وزينات الحياة الدنيا.

﴿تذَكَّرُونَ﴾: أصْلُها «تَتَذَكّرُون» حُذِفَت إحدى التاءين تخفيفاً في النطق.

الظاهرة الرابعة: النَّبَاتُ في الأرض، وإبْدَاعُ الرَّبِّ في تَنْشِئَته، وقد جاء التنبيه عليها في قول الله عزّ وجلَّ في هذا الدَّرْس:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾: أي: تُنْبِتُونَهُ، وتُنَمُّونَهُ، حتَّىٰ يَبْلُغَ غايته.

﴿حُطَٰمًا﴾: أي: أشياءَ مُحَطَّمةً مُكَسَّرَةً، أصْلُ الْحَطْم في اللُّغَةِ الكَسْرُ على أيِّ وجْهٍ، دون عِنَايةٍ بالمكْسور، ولا اكْتِرَاثٍ به، ولا بأيِّ شأن من شُؤونه، أو مع قَصْدِ التخلُّصِ مِنْ هيئَتِه وصُورتِه، وإتلافِ كلِّ نَفْع فيه.

يقال لغة: «حَطَمَ الشيءَ يَحْطِمُهُ حَطْماً» أي: كَسَرَهُ على أيِّ وجه.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾: أي: فَدُمْتُمْ تَتَنَدَّمُون. «**فَظَلْتُمْ**» أصْلُها «فَظَلِلْتُمْ» حُذِفَت اللّام الأُولَىٰ تخفيفاً في النُّطْقِ، والماضي «**ظَلَّ**» من باب «حَسِبَ يَحْسَبُ» وأصْلُ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ «ظَلَّ» الاستمرارُ بالأمْرِ نهاراً، ومن التوسُّع دلالتها على الدوام أكثر من ذلك.

«**تَفَكَّهُون**» يأتي فِعْلُ «تَفَكَّهَ» بمعنى:

(١) أكَلَ الفاكِهةَ، وتمتَّعَ بالشيء مُتَلَذِّذاً به.

(٢) تعجَّبَ.

(٣) اغْتَاب.

(٤) تَنَدَّمَ، وهذا المعنَىٰ هو المناسِبُ هنا.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: إنَّا لخَاسِرُونَ، يقال لغة: «غَرِمَ في تجارته» أي: خَسِرَ، فهو «غَارِم». ويقال: «أَغْرَمَهُ» أي: جَعَلَهُ غارماً خاسِراً.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾: **المَحْرُوم**: الشَّقِيُّ الذي لا يُصِيبُ خيراً من وجْهٍ يتوجَّهُ له، ويُطْلقَ على الفقير. وفي هذه العبارة إضرابٌ عن الخسارة وإثباتٌ للحرمان.

فالمعنى: أَفَرَأَيْتُمْ أيُّها المعْنِيُّونَ بالخطاب، مَا تَحْرُثُونُ (أي: مَا تَشُقُّونَهُ فِي تُرَاب الأَرْضِ بالمحاريث) وَتَبْذُرُونَ فيه البزور رَجاءَ نباتها، وتَسْقُونَه ماءً، أو تنتظِرُونَ نُزُولَ غيثِ السَّماءِ عليه. أخْبِرُوني أأنْتُمْ تُنْبِتُونَهُ، أمْ رَبٌّ عظيمٌ هو الّذي يُنْبِتُهُ ويُنَمِّيه، مع أزْمَانِ اللَّيلِ والنَّهارِ، قَدْراً فَقَدْراً حتَّىٰ يَبْلُغَ دَرَجَةَ كمالِه، فيكُونَ لَكُمْ رِزْقاً حَسَناً، وأنْتُم نائِمُونَ، أَوْ غَافِلُونَ، أَوْ لاَهُونَ لاَعبُون.

إنّ مَلاَيين الأعمال الإنشائيَّةِ تَجْري في النبَّاتِ ليلاً نهاراً، وأَنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ عَنْهَا شيئاً، وتكْشِفُ بَعْضَهَا كَمِرَاتُ التصويرِ التتابُعِيِّ في وَحَداتٍ زمنية صُغْرىٰ.

إنَّنَا نَحْنُ ذَلِكَ الرَّبُّ العظيم الَّذِي يُنْبتُ لَكُم وينَمِي لَكُمْ زُرُوعَكُمْ وثِمارَكُمْ، الَّتي هِيَ موادُّ غِذائكُمْ وغِذَاءِ أنْعَامكم في حياتكم.

وكَما نَحْنُ نُنْبتُ زُرُوعَكُمْ رَحْمَةً وعِنَايَةً بِكُمْ، نَحْنُ الْقَادِرُونَ علىٰ جَعْلِهِ حُطاماً في لحظَاتٍ، كأنْ نُرْسِلَ عَلَيْهِ رِيَاحاً بارِدَاتٍ، أو رياحاً سَمُوماً، فتُهْلِكَهُ وَتَجْعَلَهُ مُحطَّماً.

وحِينَئِذٍ لاَ تَسْتطِيعونَ أَنْ تَفْعَلُوا شيئاً إلّا مُواصَلَةَ النّدَم قائلين: إنَّا لَخَاسِرُونَ، بَلْ نَحْنُ أَشْقِياءُ مَحْرُومُونَ مِن الْخَيْرِ، أيْنما تَوَجَّهْنَا، ومَهْمَا اجْتَهَدْنا.

إتقان صنع النبات وقيمته في الحياة:

دَرَسَ علماءُ النبات الكونيّون في القرْنَيْن التاسع عشر والعشرين من

التاريخ الميلادي، ظاهرةَ النباتَاتِ في الأرض، فاكتشفوا حقائق مذْهِلَةً عجيبةً، مِنْ إتقان صُنْعِ اللهِ في كَوْنِه، ودَوَّنُوها عِلْماً واسِعاً يَغُوصُ في بُحُوثِه المتخصّصون.

وفيما يلي فِقَراتٌ موجَزاتٌ جدّاً من مَقَرَّراتِهِم في عِلْم النَّبَات.

(١) إنّ الناس لا يَسْتطيعون الحياة في الأرض بِدُون النبات، فالأكسجين الذي نَتَنَفَّسُه يَنْتُج عن النباتات. وهي مصدر الغذاء للإنسان ولسائر الحيوانات، وغذاء الإنسان من الحيوان يرجِعُ في الحقيقة إلى الغذاء من النبات.

(٢) النباتات مَصْدَرُ الكِسَاءِ وسائرِ ما يُنْسَجُ مِن خُيُوط، وسائر ما يُفْتَلُ حِبالاً، فمِنَ النَّبَاتَاتِ الأقْطَانُ، والكتَّانُ، والْحِيَةُ كثير من النباتات، ومنها الأصواف، والأشعار، والأوبار، لأنَّها تَنْبُتُ بالغذاء النباتي.

(٣) الأخشابُ التي تُنْتِجُها النَّبَاتَات إحدى الموادّ الأساسيَّةِ الّتي اعْتَمَدَتْ عَلَيْها الحضارَةُ الإنْسَانيّة.

(٤) أحصى علماء النبات ما يزيد على (٣٥٠) ألف من أنواع النباتاتِ في الأرض، ولم يسْتطِيعُوا أنْ يُحْصُوا كلَّ أنواعها.

(٥) من أنواع النباتات مَا هو صغير دون الملّيمتر، ومنْها ما هو عملاقٌ يصل ارتفاعه إلى خَمْسِينَ مِتراً، ومَنها ما هو بيْنَ ذلك.

(٦) النباتات مَصْدَرُ معظم النّيران الّتي يسْتَخْدِمُهَا الناس، فالفحم الحجَرِي من أشجار نباتاتٍ قديمة، والنِّفْط يَتَكَوَّنُ من تراكُم نباتاتٍ وأجْسَادِ أحْيَاءٍ قديمة، غَطَّاهَا الطّينُ والرَّمْلُ، وطالَ عليها الزّمَنُ مع عوامل ضُغوطٍ وحَرارَة، فتحوَّلَتْ نِفطاً بِتَقْدِير الله وقضائه.

(٧) معظم الأدويَةِ ذاتُ مَصْدَرٍ نَباتيّ، أو مُصَنَّعَةٌ تقليداً لَمَا في النباتات من خصائص دوائية.

(٨) تَرْتَبِطُ النباتاتُ بجميع الكائنَاتِ الحيَّةِ والنامِيَةِ في الأرض.

(٩) تُسَاعِدُ النباتاتُ في الحفاظ على التُّرْبَة، حتَّىٰ لا تَذْرُوَها الرّياح، ولا تجرِفَها المياه.

(١٠) الورقة الخضراءُ في النباتات معْمَلٌ كيميائيٌّ مُعَقَّدٌ مُدْهِشٌ، لصناعة غذاء الإنسان، والكائنات الحيَّةِ الّتي تتغذّى على النباتات، على الرُّغْم مِنْ صِغَرِ حَجْمِها، وعَدَم مُلاَحظة التعقيد في مظهرها، واسْتِهَانَةِ الناظر العاديّ بِشَأْنِها. وبقيمتها.

إنّ ورقة النَّبات نوع من الآلات الدقيقة الصُّنْع، الّتي تَعْمل وهِيَ مَكْشُوفَةٌ في العراء، وفي مخْتَلِف الأحوال الطبيعيَّة في الجوّ.

إنَّها العضْوُ النباتي الّذي يؤدّي وظيفَتينِ حَيَوِيَّتَيْن للنَّبَاتِ، هُمَا: التَّنَفُّسُ، وصِنَاعَةُ الغذاء.

وقَدْ أُعِدَّتْ إعداداً مُلائماً لاستقبالِ أشِعَّةِ الشَّمْس السَّاطِعَةِ الحارَّة طَوالَ سَاعات النهار، وتَحَمُّلِ وابلِ المطَرِ الّذي قَدْ يَتَسَاقَطُ عَلَيْها أيَّاماً عَدِيدَة، وَبِهـٰذَا الإعْدادِ العجيبِ اسْتَطاعَتْ أنْ تتكَيّف للظروف المختَلِفَةِ بالكيفيّاتِ الملائمات، فلا تَسْمَح بالتَّبَخُّرِ الزَّائِدِ علىٰ المطلوبِ حِينمَا تَشْتَدُّ عليها وطْأَةُ الشمس، ولا تسْمَح للأمطار الزّائدة بأنْ تَنْفُذَ إلى داخِلِها، فَتُفْسِدَ مصْنُوعاتِها السُّكَّرِيَّة.

ومع أنّ الورقة الخضراء في النباتاتِ بالغةُ الرِّقَّة والتَّفَلْطح، إلَّا أنَّها في واقع حالها تَرْكيبٌ مُعَقَّدٌ من الخلايَا والأنْسِجَة، يُغلِّفُهُ جِلْدٌ عُلْوِيٌّ، وجِلْدٌ آخَرُ سُفْلِيٌّ، وفي هـٰذَيْنِ السَّطْحَيْنِ ولا سيما السُّفْلِيُّ منهما تُوجَدُ ثُغُورٌ كثيرَة صغيرة، تقُومُ بِعَمَلٍ آلِيّ عجيب، إذْ تَنفتِحُ وَتَنْغَلِقُ تبَعاً للحاجَةِ، فإذا زَادَتْ نِسْبَةُ الماء في الورقَةِ انْفَتَحَتِ الثُّغُورُ لِتَطْرَحَ الزَّائد، ولِتَسْمَحَ لَهُ بأنْ يتبخَّرَ، وإذا نَقَصَتْ نِسْبَةُ الماء فيها انغلَقَتْ هـٰذِهِ الثُّغُور.

وفي الورقَة الخضراء خُطَّةٌ هَنْدَسِيَّةٌ رائعة، قائِمَةٌ على شرايينَ وعُرُوقٍ وألْيافٍ، ومادَّةٍ خَضراءَ تُؤَدِّي وظيفَةً أَسَاسِيَّةً في صِنَاعَة الغذاء النباتي.

وعُنُقُ الورقَةِ الخضراء هو السَّاقُ الّذي يَصِلُها بأصْلِها، وعَنْ طريقه تَتَبادَلُ الأخْذَ والعطاء، فتأْخُذُ الماء ومَحَالِيلَ الأمْلاح من أَصْلِها الّذي يَصِلُها بالْجُذور الْمَاصَّةِ، وتُعْطِي مُنْتَجاتها السُّكّرِيَّة لأصْلِها الّذي يُوَزّعُهُ على سائر جَسَدِهِ، وعلى منتجاته مِنَ الثمر، بِحَسَب حَاجَةِ كلِّ جُزْءٍ من ذلك.

وحين نَضَع هٰذه الورقة الخضراء النباتيَّة تَحْتَ المِجْهر الضخم، نلاحظ خُطُوط هذا المعمل الدقيق العجيب، القائم بوظائفه الحياتيَّة بإتقانٍ تامّ.

والنشاط الصناعي الّذي تقومُ بِه الورقَةُ الخضراءُ النباتِيَّةُ، يَبْرُزُ في المادّة الخضراء نَفْسِها، فعِنْدَها مفتاحُ سِرّ هٰذا النَشاطِ الصِّنَاعِيّ الكيميائيّ العجيب.

إنَّ الواحِدَةَ من ملايين الخلاَيَا الّتِي تتكَوَّنُ منها الورقة النباتيَّةُ الْخَضْراء، تُشْبِهُ ـ لَوْ كَبَّرْنَاها للنَّظَر ـ غُرْفَةً مُتْقَنَةً مُحَاطَةً بِجِدَارٍ مِن السّلْيُولوز، وفي داخلها مادّةٌ على شكل حُبَيْبَات تُسَمَّىٰ «سيتُو پلازم» وفي هذه المادّة عَدَدٌ من حُبَيبات مستديرة، ذاتُ لَوْنٍ أَخْضَرَ بَرَّاق، وهذا اللّون المسمَّىٰ «كُلُورُ وفيل» هو نوع من الأصْباغ، فهو مادّة كيميائيّة مُلَوِّنَة، كالأصْباغ الّتِي تُعْطِي الشَّعرَ، والرّيشَ، والجِلْدَ، والْعَيْنَ أَلْوانَها، وكالصِّبْغ الأحْمَرِ الذي يُعْطِي الدّمَ لَوْنه، وهو الذي يَدْعُونَه «هِيمُو جْلُوبين».

إلى غير ذلك من إتقانٍ رَبَّانِيٍّ عجيب(١).

---

(١) انظر «الفصل الرابع»: «آياتٌ في النَّبات» من كتاب: «براهين وأدلة إيمانيَّة» للمؤلف.

الظاهرة الخامسة: الماءُ وإنزالُه من المزْنِ نقيًّا طَهُوراً سائغاً شرابُه للشاربين.

وقد جاء التَّنْبِيه علىٰ هـٰذه الظَّاهِرَة في قول اللهِ عزّ وجلَّ في هذا الدَّرس:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾:

﴿ٱلْمُزْنِ﴾: جمع «المزْنَة» وهي السَّحَابَةُ الحاملة للماء.

﴿أُجَاجًا﴾: **«الأُجَاجُ»** ما يَلْذَعُ الْفَمَ بمَرَارَتِهِ ومُلُوحَتِهِ، فهو الْمِلْحُ المرُّ.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾: أي: لَوْ شئنا جَعَلْنَاه مُرّاً مالحاً. لَمْ تأْت هُنَا اللّامُ في جواب «لَوْ» وسَبَقَ أَنْ جاءت في جواب: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾.

قال النحاة: مجيء اللّام في جواب «لَوْ» وعَدَمُ مجيئها إذا كانَ الجواب ماضياً مُثْبَتاً جَائِزان، إلّا أنَّ اقترانَ الجوابِ بِاللّام أكثر في الاستعمال، فجاء النصّ هنا بالجائزَيْنِ، وقُدِّم الأكثر استِعْمالاً في لسَان العرب.

فالمعنى: أفرأيْتُم أيُّها المعنيّون بالخطابِ الماءَ الذي تَشْرَبُونَهُ حُلْواً سَائِغاً للشّاربين، لاَ مُلُوحَة فيه ولا مرَارة، بسبب نظام التَّصْعيد والتقطير الذي جَعَلْنَاهُ رحمة لكم، وعِنَايَةً بِكُمْ.

أَخْبِرُوني، أأَنْتُمْ دَبَّرْتُم نظامَ تَصْعِيده من المحيطات المرَّةِ المالحة، مُجَرَّداً مِنَ الموادّ الْمُرَّةِ والمالحة، وتكوينِه سُحُباً في الأجواء، وإنْزَالِهِ طَهُوراً نَقِيًّا سائِغاً للشاربين، أمْ نَحْنُ الّذين دَبَّرْنَا ذَلِكَ، ونُجْرِيه بقُدْرَتِنا، وإتْقَانِ صُنْعِنا عنايةً بكم ورَحْمةً لكم؟!.

مَنْ مِنْكُمْ يَدَّعي أنَّهُ هو مُدَبِّر هذا التَّدبير، ومُقَدِّرُ هـٰذا التَّقْدِير؟!.

وإذا لم يكُنْ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَفْعَلُ هـٰذا فَهَلْ يَفْعَلُهُ أحدٌ في الْوجُود غَيْرُنا؟!.

أمَا كَانَ من الممكِن عَقْلاً أن نجْعَلَ الموادَّ المختلِطَةَ بِه تَتَبَخَّرُ مَعُهُ فَيرْجع من السَّحاب أُجَاجاً كَما صَعَدَ، فَلا تجدون في الأرض ماءً حلْواً نقيًّا تَشْرَبُونه؟؟.

أفلا تَدْفَعُكُم عِنَايَتُنا بكم إلَى أَنْ تُؤَدُّوا واجب شُكْرِنَا بالإيمان السّليم الكامل، وبالْعَمل بما أنْزَلنا إليكم من تكاليفَ على مقادير استطاعاتكمْ؟؟.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾: أي: فَهَلَّا تَشْكُرُونَ «لَوْلاَ» هنا تخصيصيّة بمعنى «هلّا» وتختصُّ بالجملة الفعليّة.

«الشكر»: مقابلَةُ إنْعَامِ المنْعِمِ بِما يُرْضِيه من عَمَلٍ أو تَرْك، أو أيّ شيءٍ ماديّ يَسُرّه، وقَدْ يَشْمَلُ الْقَوْلَ الّذي فيه ما يُرْضي المنعم، إلّا أنّ بعض القول يختصُّ بعبارَتي الحمد والثناء.

آيات الله وآلاؤه في الماء:

في الماء آيات جَليلاتٌ دالّاتٌ على الخالق القدير، الحكيم الرحيم الْعَلِيمِ الخبير، المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة.

ولعظم مَا في الماء بخصوصه من أياتٍ وآلاَء، امْتَنَّ اللهُ عَلَىٰ عباده به، مشيراً إلى طَائِفَةٍ مِنْ ظَواهِرِ تَهْيئَتِه وإعدادِه للنَّاسِ في الأرض.

وقد جعل الله الخالق العظيم الحكيم الماء مادَّةَ حياة كلّ ذي حياة، ولولاه ما نبت نباتٌ، ولا نَمَا شجر، ولا تَهَيَّأَ غِذاءٌ لحيوانٍ أو بَشَر.

وقد أَمَدَّ الله به الأرض إمداداً كبيراً، فَجَعلَ البحار مستودعاتٍ عظيمات جدّاً، تُمِدُّ سُكّانَ الأرض بما يَحتَاجُونَ إلَيْه من ماء، ولوْ أنَّ البحارَ كانت حُلْوةً لأَسْرَعَ إليها الفساد، فأنْتَنَ ماؤُها وصار آسناً.

ولكِنَّ حكمة الخالقِ بديع السماوات والأرض، حمَتْ مياه الْبَحْرِ مِنَ الفَسَادِ بالمعقّم المخالط لها.

وبالعنايَة الفائقَةِ وإتقان الصنعة، جعَل الله عزّ وجلَّ نظام التبخُّرِ لاَ يُصْعِّدُ إلّا الماء الخالص من العناصر المخالطة له في البحار.

ويتجمّع بخار الماء الذي يتصاعَدُ من المحيطاتِ العظيمات ومن غيرها علىٰ شكل سُحُب تَسْبَحُ في الفضَاء، ويتراكَمُ بَعْضُهَا علىٰ بَعْض، وتَسُوقُها الرِّياح، وتَرْكُمُ بَعْضَها على بَعْضٍ بأمْرِ الله، وتُزْجيها إلى أرضٍ قَضىٰ الله أَنْ يَسْقِيَها ويُرْويها ويُرْويَ الأحياء فيها، ويُنبتَ زَرْعَها.

ويُرْسلُ الله عزّ وجلَّ رَياحاً باردة ذوات لقاحِ، فتَتَكثَفُ الأبْخِرَةُ، وتتَجَمَّعُ علىٰ نَويات اللّقاح ماءً، فَتَتَسَاقط قطرات، تكبُرُ وتَصْغُرُ بقوانِين قَدَرِيَّة، وتَكُونُ مطراً يَنْزِلُ من السَّماءِ عِنْدَ أمْكِنَةِ تَجَمُّعِ السَّحاب، إلى الأرض الّتي قَضى الله أنْ يسْقِيَها أو أذِنَ به، فيُحْيِي بِهِ اللهُ الأرضَ بَعْدَ مَوْتها، ويَسْقِي الظماءَ من النباتِ والحيوان والناس.

ويتجمَّع الماء، فَيَجْرِي في الوديان والشعاب، وتمْتَلِىءُ منه الأحواض والمستودعات، ويَسْلُكُ سُبُلَهُ إلى الْعُيونِ والآبار، لتكونَ مَوارِد للواردين، ومشارِبَ للظَّامِئين.

ويخالطُ الماء الترابَ الطيّب، فتَتَفتَّحُ البزُور بإذْنِ رَبّها، وتنفَلِقُ، وتَمْتَدُّ الجُذُور، ويشُقُّ النباتُ الأرض، ويتصاعَدُ الزَّرْعُ ويَتَفَرَّعُ شَطْؤُه، ويَقْوىٰ جِذْعُه، وتتنامَىٰ فروعه، ويُزْهِرُ زَهْرُه، ويثْمِرُ ثَمَرُهُ.

فإذا البزرة الّتي كانت صغيرة كالخردلة أو العدسة أو الحمصة أو النواة، قد صارت شجرةً عظيمةً وارِفَةَ الظِّلال، ثقيلَةَ الأحْمَالِ، عظيمَةَ النَّفْع، تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذْن رَبّها، فَيَفِدُ إلَيْهَا الآكِلُونَ، ويَغْتَذُونَ ممّا فيها من غذاءٍ لهم، وينْتَفِعُون من ورَقِهَا وخَشَبِهَا وَكُلِّ شيءٍ فيها.

إنَّها لأَنْظمةٌ عجيبَة، وسَلاسِلُ مُتَرَابِطَةٌ غَرِيبة، وهي جَمِيعُها تخدم غايةً مَرْسُومة مَعْلومة، قد أُحْكِمَتْ مِنْ أجْلِها حَلْقَاتُ السَّلاسِلِ أيَّما إحكام، ورُتِّبَتْ بعِنايَةٍ فَائِقَةٍ مَا فوقَها لدَىٰ النظرة الكليَّةِ الشاملَةِ مِنْ مَزِيد، ضِمْنَ مقادير الغايَةِ من هـٰذِه الحياة الدُّنيا.

فَهَلْ وُجدَتْ هـٰذِهِ السَّلاسِلُ المحكمَةُ الْبَدِيعَةُ الهادفة لغايَةٍ مقْصُودَةٍ على سبيل المصادفةِ مِنْ طبيعةٍ عَمْيَاءَ، لاَ عَقْلَ لَهَا وَلاَ إرادة؟!!.

الظاهرة السادسة: ظاهرة النار، وتخزينها في الأشجار ومَا تتحوَّلُ إليه الأشجار، للانتفاع بها عِنْد الحاجةُ.

وقد جاء التنبيه على هـٰذه الظاهرة في قول اللهِ عزّ وجلَّ في هـٰذا الدرس:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿تُورُونَ﴾: أيْ: تُوقِدُونَ، يُقَالُ لغةً: «أَوْرَىٰ فُلاَنٌ النَّارَ» أي: أَوْقَدَها.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ﴾: أي: أأنتم خلَقْتُمْ وأَوْجَدْتُمْ ضِمْن نظام الإحداثِ المصْحُوبِ بالتكامل المتدرّج غالباً، وهـٰذا هو معنى «الإنشاء».

﴿شَجَرَتَهَآ﴾: هي واحدة «الشَّجَر» وهو كلُّ نَبَاتٍ يَقُومُ على سَاقٍ صُلْبَةٍ، وقَدْ يُطْلَقُ علَىٰ كُلِّ نَبَاتٍ ولَوْ لَمْ يَكُنْ قَائماً على ساقٍ.

ويقالُ: «اشْتَجَرَ الشَّيْءُ» أي: تَدَاخَلَ بعْضُه في بعض، ولعلَّ الشجر سُمِّيَتْ مِنْ معنَىٰ تَداخُلِ بَعْضِ النَّبَاتِ في بَعْضٍ، وبهذا المعنَىٰ يَشْمَلُ كُلَّ نبات.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً﴾: «**التَّذْكِرَة**» مَا يُسْتَذْكَرُ بِهِ الشيءُ المطلوبُ

تَذَكُّرُهُ، كالرّتيمة، والبطاقة الّتي تُذَكِّرُ بموعِدِ اللّقاء، أو الاجتماع، أو نحو ذلك.

وفي جَعْلِ النَّارِ تَذْكِرَة معْنَىٰ التَّذْكِير بعَظَمَةِ خالِقِها، وَخَازِنِهَا فيما خَلَقَ مِنْ أشْجار، وفيما تَتَحَوَّلُ إليه الأشجار، وفي حِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ إذْ لم يَجْعَلْها مُتَدَفِّقَةً كالأنهار والينابيع، ومعنَىٰ التَّذْكير بنار جَهَنَّمَ الَّتي أعْتَدَهَا الله عزّ وجلَّ للْمُجْرِمين الكافرين، يُعَذِّبُهُم بها وفي دَارِهَا يوْمَ الدّين.

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: «المتاعُ»: ما يُنْتَفَعُ بِهِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ والفناءُ يأتي عَلَيْه في الدُّنيا.

«الْمُقْوُونَ»: هم المسافرون ونحوهم النازِلُونَ في «الْقَوَاء» أي: في الْقَفْرِ من الأرض، إذْ تكُونُ النار الّتي يُورُونَها مِنْ أشْجَارِه متاعاً لهم، لِدِفئِهِم، وطَهْوِ طعامهم.

يقال لغة: «أَقْوَىٰ الرَّجُلُ» أي: حَلَّ في الأرْضِ الْقَواء، مثل «أصحر» أي: دخل في الصحراء.

وهي أيضاً متاع لغير النازلين بالقَواء (= بالقفر) وجاء ذكر «الْمُقْوِيين» لبيان العنايَةِ بهم في حكمة الله عزّ وجلَّ، إذْ تَشْتَدُّ حَاجَتُهُمْ وهم مُسَافِرُون للحصول على حَطَبٍ أو شيءٍ منْ يَابِسِ نباتِ الأرض يُوقِدُونَهُ ناراً، أمَّا الْمُقِيمون في القُرَىٰ فإنَّهُمْ يكونون في العادَةِ مُعِدِّين ما يَلْزَمُهُمْ وَقُوداً للنَّارِ الّتي يَحْتاجُونَها لدِفئهم، وطَهْوِهم، وسائِرِ منافعهم، فذكْرُ العنايَةِ بذَوِي الحاجَاتِ الطَّارِئَةِ، يَدُلُّ على العنايَةِ بذَوِي الحاجاتِ المتكرّرَات دواماً من بابِ أولَىٰ، وهذا من روائِع الْإِيجاز في البيان.

النار في العلوم الطبيعيّة:

تقول مقرَّراتُ العلوم الكونية: إنّ النَّار تَحْدُثُ من الاتّحاد السّريع

للأكسجين مع الموادّ الأخرى، وتختلف أنواع النار باختلاف أنواعِ الموادّ الّتي تتّحدُ مع الأكسجين.

ولتولّد النار ثلاثة شروط:

الشرط الأول: وجود المادّة الّتي يُرادُ إشعالها.

الشرط الثاني: تَسْخِينُ الوقود إلى درجَةِ الحرارة التي يشتعل بها نوعه.

الشرط الثالث: توافر الأكسجين بقدرٍ كافٍ لاشتعال المادة المراد إيقادُها.

والنار مع خطرها العظيم، ذاتُ نفع عظيم، فلا بُدَّ من التعامل معها بغايَةِ الدّقَّةِ والْحَذَر من مخاطِرِها.

ومن فوائد النار صهْرُها للمعادن، وتعقيمُها، وقد تصهر الحجارة، إذا ارتفعَتْ دَرَجَةُ حَرارَتِها، وهي الشرط اللازم لمعظم الصناعات الثقيلة الكبرَىٰ.

وبالنار يتحجَّرُ الطين فيصير آجُراً، ويَصِيرُ خزفاً، وتصير الحجارة اسمنتاً، إلى منافع كثيرة يَصْعُبُ حصْرُها⁽¹⁾.

وبَعْدَ التنبيه على الظواهر الكونية السّت، الّتي هي إِحْدَىٰ آيات الله في كونه، والتي سبَقَ بعْضُ شرحٍ تفصيليّ عنها، خاطب اللهُ عزّ وجلَّ المتلَقّيَ الذي آمَن بربّه، وخَضَع له مُذْعِناً، بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾: أي: فإذا عَرَفْتَ أيُّها المتَلَقّي أيّا كُنْتَ عظمَةَ ربِّك، مِن تأمُّلِك في آياتِهِ في كونه، والّتي منها الظواهر السّتُّ التي نَبَّهْنَاكَ عليها، فَسَبِّحْ باسْمِه قائلاً: سُبْحَانَ رَبِّيَ العظيم.

---

(١) اقرأ قصيدة (النار) في ديوان «آمَنْتُ بالله» للمؤلف.

التسبيح باسم الرَّبّ: تنزيهُ وتقديسُ كلّ اسْم من أسمائه عن كلّ ما لا يليق به، مما يتنافى مع أزليَّتِه، وأبدِيَّتِه، ووَحْدَانِيَّتِه، وكمالِ صِفَاتِه الوجوديّة، والمعنى: سبِّح قارناً تسبيحَك باسْمٍ من أسْماء ربّك العظيم، لتجمع بين التنزيه والحمد.

وجاء ذِكْرُ «اسْمِهِ» الشامِلِ لكلّ أسمائه وصفاته الحسْنَىٰ، لأنّ عِلْمَ الْخلائِقِ لاَ يَصِلُ إلى إدْراكِ شيءٍ من ذاتِ الرَّبّ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه، أمَّا أسْمَاؤُه وصِفَاتُهُ فيُدْرِكُونَ مِنْهَا على مقادير استعداداتِ الإدْراكِ عِنْدهمْ، وَيُطْلِقُون مَدَاها الكماليَّ الَّذِي لا نهايَةَ له، فيؤمِنُونَ بِه، ولَوْ عَجَزُوا عن مُسَايَرَتِهِ في الإدْراك.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الثاني من دروس سورة الواقعة، والحمد لله على منَّتِه، ومعونته، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة (الواقعة) وهو الآيات من (٧٥ ـ ٩٤)

قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ
(٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ (٧٧) فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ
(٧٩) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ (٨١) وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ
أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ (٨٣) وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحۡنُ
أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ (٨٥) فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرۡجِعُونَهَآ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٨٧) فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ
(٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ

إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

تَمْهيد:

(١) اشتمل هـٰذا الدرس على قَسَم بمواقِع النُّجُومِ فِي الكَوْنِ الْفَسِيح الذي لا يُدْرَكُ مِنْهُ إلّا النَّزْر الْيَسِير، مع المجاهر المكبّرَةِ والمقرِّبة.

والْمُقْسَمُ علَيْه كَوْنُ الْقُرْآنِ كريماً، أي: مسْتَجْمِعاً فضائلَ الحقّ والخير والشَّرف، والبراءَة من كلّ النقائص، ومستجمعاً لكلِّ صفات الكمال القولي، ذي الدَّلالاتِ على الحقّ، وعلى الخير، وعلى الهداية إلَىٰ الّتي هي أقْوَمُ في كلّ ما يتَعَلَّق بالأخْلاقِ أو بالسُّلُوكِ، وعلىٰ كونه مُدَوَّناً في كِتَابٍ مَكْنُونٍ هو اللَّوْح المحفوظ، وهذا الكتاب لا يمسُّهُ إلّا المطَهَّرُونَ، وهم من الملائكة الذين لا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهم ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرون، وعلَىٰ كونه تنزيلاً من رَبّ العالمين.

(٢) واشتمل على خطاب المعْنِيّين الأوَّلِينَ بالخطاب في السورة، وهُمُ المكذِّبُونَ بنَبَأ الْبَعْثِ ويَوْمِ الدّين، وبما سَوْفَ يجري فيه ممَّا أنْبَأَ الله عزّ وجلَّ، خالِقُ النُّجومِ وواضِعُها في مواقِعها السَّحِيقة في أبْعَادِ الكَوْن، ومُنْزِلُ القرآنِ المجيد الكريم، فيَضَعُهُمْ في المناظَرَةَ أَمَامَ أربع قضايا:

القضيَّة الأولى: تتضمَّنُ تَوجيهَ التَّثْرِيبِ لهم، بِسَبَب عَدَم اعْترافِهم بأَنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ جلّ جلالُهُ. وَإذْ لَمْ يَسْتطيعوا أَنْ يُنكِرُوا عظَمةَ بيانِه البليغ، ولم تُطَاوِعْهم نفوسُهم وأهواؤهُم أَنْ يُؤْمِنُوا بأَنَّهُ كتابٌ مُنَزَّلٌ من عِنْدِ اللهِ رَبّ العالمِين، فَقَدْ لَجؤُوا إلى الإدْهَانِ، بأَنْ قالُوا عن القرآن: «سِحْر» وقالُوا: «شِعْر» وقالُوا: «مُكْتَتَبٌ مِنْ كُتُبِ الأوَّلِين» وفي هـٰذِهِ العبارات اعترافٌ بتمجيد القرآن مَعَ الإدْهانِ والمصَانَعَةِ، والملايَنَةِ في القول المقرونَةِ بِصَرْفه عن كوْنِه مُنَزّلاً من عند الله على رسُولِهِ محمّد ﷺ.

القضيَّةُ الثانية: تتضمَّن تَقْرِيعَهُمْ وتلويمَهُمْ، بِسَبَبِ تكذيبِهِمْ بما جاء

في القرآن كلام اللهِ من أنباءٍ عن الْبَعْث ويَوْمِ الدِّين، في مقابل إنْعام اللهِ عليهم بالرِّزْق الَّذي يَحْتاجُونَ إلَيْهِ دَواماً، ولاَ رازِقَ في الوجود غيرُهُ، مع أنَّ وَاجبَ شُكْرِ اللهِ يَفْرِضُ عليهم أن يُصَدِّقُوا بما جاء في كتابِهِ المعْجِز من أنباء البعث، ويَوْم الدّين، وما يجري فيه من أحداث.

القضيّة الثالثة: تتضمَّن وَضعهم أمام ثلاثَة احتمالات، اثنان منها احتمالاَنِ مقبولان عقلاً، والاحتمال الثالث مَرْفوضٌ عقلاً:

الاحتمال الأوَّلُ (المقبول عقلاً):

أَنْ تكون الحياة غير مستَتْبِعَةٍ إدَانَةً ولاَ جزاءً، وهذه الحياة تَسْتَدْعي من حِكْمَةِ الرَّبّ الحكيمِ أنْ لاَ يمْنَح من يُحْيِيهِ إرادةً حُرَّةً، وإدْراكاً واعياً للخير والشرّ ومجالاَتهما، وتَمْكِيناً من فِعْلِ الخير والشرّ وهو يَعْلَم، لكن الواقع خلاف ذلك.

الاحتمال الثاني (المقبول عقلاً):

أنْ يهَبَ لمَنْ يمنَحُهُ الحياة إرادةً حُرَّة، وإدْراكاً واعِياً للخير وللشرّ، وتَمْكِيناً من فِعْلِ الخير والشرّ، وهذا النوع من الحياة يَسْتَدْعِي من حكْمَةِ الرَّبّ الحكيم، ليكون خَلْقُه بَرِيئاً من العبث والظلم، أن يَجْعَلَها حياةَ امتحانٍ واختبار، وأَنْ يُتْبِعَها بالحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء.

ومن تمام الحكمة في منْحِ هذا النَّوْع من الحياة، أنْ يجعل الخالِقُ فاصلاً زَمَنِيًّا بَيْنَ زَمَنِها وبَيْنَ زَمَنِ الحساب والجزاء، وأفضل فاصِلٍ بيْنَهُما هو الموت، لِيَجْمَعَ الخَالِقُ بَعْدَهُ كُلَّ الذين وُضِعُوا موضع الامتحان، في صعيد واحد، ويُحَاسِبهم، ثم يجازِيَهم، وهذا يَسْتَدْعي إحياءَهُمْ مَرَّةً أخرى، وهذا هو الذي تمّ اختياره للإنس والجنّ.

الاحتمال الثالث (احتمالٌ غير مقبول عقلاً):

وهذا الاحتمال هو مَا يَرُومُه جاحِدُو يوْمِ الدّين، وهو أَنْ تكون لهم

حياة فيها إرادةٌ حُرَّةٌ، وإدْراكٌ واعٍ للخير والشرّ، وتمكينٌ لهم من فِعْلِ الخير والشرّ، ويتمنَّوْن مع ذلِكَ دَوامَها، وعَدَم انقطاعها بالموت الفاصل بَيْنَ الحياة الأولى والحياة الأخرى.

والرّاغبون في تحقّق هذا الاحتمال المرفوض عقلاً هم الّذِين يَقُول الله عزّ وجلَّ لهم:

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: فَهَلَّا إنْ كُنْتُمْ ـ كما تَزْعُمونَ ـ سَوْفَ لاَ تُحَاسَبُونَ وَلاَ تُجازَوْن على أعْمالِكُمْ لأن وجودكم ظاهرة طبيعية، تَرْجِعُونَ بكلّ وسائِلكُمُ الحياة إلى أجْسادِكم مستفيدين من الظواهر الطبيعيَّة السببيَّة، وذلك عند مفارقتها لها، أو عقب مفارقتها لها، في حالة أنّه لم يخْتَلَّ في أجسادكم شيء، بل انتهَتْ بقضائِنَا رِحْلَةُ امتحانِكُمْ، وجاء وقت نَزْع رُوح الحياة منها، بانتظار إعادة الحياة إليكم للحِسَابِ، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

ولكن لَنْ تَسْتطِيعوا، وبهذا يَثْبُتُ ما أنبأْناكُمْ بِهِ، من أَنَّكُمْ مَدِينُون حتماً.

القضية الرابعة: تتضمَّنُ تَأكيد قضيَّةِ الجزاء يوم الدّين، ببيانٍ فيه إضافة بعض تفصيل، لثواب المقرّبين، وثواب أصحاب اليمين، وعقاب المكذّبين الضّالينَ.

التدبّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

سبق لدىٰ تدبر أول سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان ما ظهر لي من المراد بالقسم المنفيّ في القرآن المجيد، بعد أَنْ ذكرتُ آراء المفسرين بشأنه، فقيل: «لا» زائدة. وقيل: «لاَ» تنفي كلاماً مطويًا. وقيل غير ذلك.

وأقول:

«إنَّ عبارة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ ونظائرها أسلوبٌ بيانيٌّ قرآنِيٌّ مُبْتَكَرٌ، للدَّلالَةِ علىٰ أنّ الموضوع مع حال المخاطب يقْتَضِي اقتضاءَيْنِ متعارضَيْن:

(١) أحَدُهُما يسْتَدعي الْبَيانُ فيهِ الْقَسَمَ المؤكِّدَ للْخَبَر الذي يُؤْتَىٰ بالقسَم لتأكيده.

(٢) والآخَرُ يَسْتَدْعِي الْبيانُ فِيه عَدَمَ الْقَسَم.

فكان الحلُّ المبتكَرُ في أساليب البيان القرآنيَّة اختيار أُسْلُوب ذِكْرِ لفظ الْقَسَم والمقْسَمِ به تنبيهاً علَيْه، مع سَبْقه بأداة النفي «لاَ».

فالجانبُ الذي اقْتضَىٰ الْقَسَمَ رُوعِيَ حالُهُ بِذِكْر الْقَسَمِ والمقْسَم به، تنْبيهاً علىٰ ما في الْمقْسَم بِهِ مِنْ تَأْكيدٍ أو حُجَّةٍ هاديَةٍ إلىٰ أَنَّ الموضوع الَّذي يُرَادُ تَأْكيدُهُ حَقٌّ وصِدْق.

والجانبُ الّذِي اقْتضىٰ عدمَ حُصُولِ الفائدة المرجُوَّةِ من الْقَسَم، رُوعِيَ حَالُهُ بِنَفْي الْقَسَمِ بأداة النَّفي «لاَ».

فـقـولُ الله عـزّ وجـلَّ: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ⑺⑸﴾ مع مُلاحظة أنّ الموضُوع المرادَ تأْكِيدُهُ كَوْنُ القرآنِ كريماً ومُنَزَّلاً من رَبِّ الْعَالَمِين، يكشفان الاقتضاءَيْنِ المتعارِضَيْن:

فالمخاطَبُونَ يَجْحَدُونَ كوْنَ القرآن مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّ العالمين، خالِقِ السَّمَاوَاتِ والأرض، وما فيهما ومَنْ فيهما.

ومواقِعُ النُّجُومِ فِي السَّمَاواتِ من آيات اللهِ العظيمات، وهيَ أهْلٌ لِأَنْ يُقْسِمَ اللهُ بها.

لكِنَّ المعنيِّينَ الأولينَ بالخطاب لم تَصِلْ بَعْدُ مَدارِكهُمُ الْعِلْمِيَّةُ إلى مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ مَواقِعِ النجوم، حتَّىٰ يكونَ الْقَسَمُ بها يُفِيد بالنسبَةِ إلَيْهِم تَوْكيداً.

بَيْد أَنَّهُ سَيأْتِي في الْقُرُونِ اللّاحِقَةِ لِزَمَنِ التَّنْزِيلِ، باحِثُونَ عِلْميُّون يكتَشِفُونَ عظَمَةَ مَواقِعِ النجوم من آيات اللهِ في كَوْنِه، وهؤلاء يُلاَئِم حالَهُمْ أنْ يُقْسِمَ اللهُ لَهُمْ بمواقِعِ النجوم، علَىٰ أنّ القرآن تَنزِيلٌ من لَدُنْه، وأنَّ كلَّ ما جاء فيه من أنباءِ حقٍّ وصِدْق، ولا سيما أنباء الجزاء، ويَوْمِ الدين، وما سَوْف يَجْرِي فيه من أحداث.

وإذِ اجْتَمَعَ الاقتضاءَان المتعارضان، كان الحلُّ المناسِبُ مع الحرص على الإيجاز في التعبير، ذِكْرَ الْقَسَمِ والْمُقْسَمِ بِهِ، والْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، مَعَ سَبْقِ كلِّ ذَلِكَ بأداة النفي «لاَ».

فالَّذِينَ لاَ يُؤَثِّرُ فيهم الْقَسَمُ، وَلاَ يَقَعُ في نفوسهم مَوْقِعَ المؤكِّدِ يُخَاطَبُونَ بالنفي.

والَّذِينَ يُؤَثِّرُ فيهم هَـٰذَا النوعُ مِنَ الْقَسم يَجِدُونَ في ذِكْرِهِ مَنْفِيًا تَنْبِيهاً لَهُمْ علىٰ عظَمَةِ الْمُقْسَم به، ويُدْرِكُونَ أَنَّ الْمَقْصُودِين بِنَفْي الْقَسَمِ الجاهِلُون بعَظَمَةِ مَوَاقِعِ النجوم، الَّذِينَ لاَ يتأَثَّرُونَ بالتَّوْكِيد به.

وهذا الحلُّ الموجزُ الْبَدِيعُ، قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْقَسَمِ لمَنْ يُؤَثِّرُ فيه، وعَدَمِ الْقَسَمِ بالنِّسْبَةِ إلى مَنْ لاَ يُؤَثّر فيه.

ونمثّل لهذا الأسلوب ـ وللهِ الْمَثَلُ الأعْلَىٰ ـ بقول المحبّ لمحْبُوبِهِ الْهاجِر له: أنا لاَ أَحْلِفُ لَكَ بأنّنِي أُحِبُّك كثيراً، ومُشْتَاقٌ إلىٰ لُقْياكَ، وأسْهَرُ اللّيالِيَ الطّوالَ أنْظِمُ فِي التعبير عن حُبِّي وشَوْقي روائعَ القصائد، لِأَنّكَ غَيْرُ عَابِىءٍ بكُلِّ ما أَجِدُ نَحْوَكَ.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾: جاءت الفاء تفريعاً على ما جَاءَ في الدَّرْسين: (الأول والثاني) من دُروس السُّورَة، ومَا تضمَّنَاهُ من بيانٍ قُرْآنِيٍّ عن الجزاءِ الرَّبَّانِيّ، وعَنْ يَوْم الدِّين، ضِمْنَ خُطَّةِ التكوين الّتي قَدَّرَهَا اللهُ عزّ وجلَّ وقَضَاها، وأبَانَ لَنا مِنْها في القرآنِ الكرِيم لَقَطَاتٍ ذَواتَ شأنٍ.

والْقَسْم أسْلُوبٌ عَرَبيٌّ مِن أسَالِيبِ تَوكيد الخبر، ويكُونُ المقْسَمُ بِهِ عَادَةً شيئاً عظيماً، ومن سُنَّة الله عزّ وجلَّ في كتابِهِ أن يُقْسِمَ برُبُوبيَّتِهِ، أو بغيرها من أسمائه وصفاته، أو بِبَعْضِ آياته العظيمات في كونه.

وفي القراءة الأخرى: [**بِمَوْقِعِ النُّجُومِ**] على إفراد «مَوْقِع» ومؤدّى القراءتين واحد، لأنّ إضافة المفرد إلى الجمع يجعل المفرد بقوة الجمع.

النجوم: هي الأجرام المضيئة في السماوات، وشَمْسُنا نَجْمٌ لَيْسَ كبيراً بالنِّسْبَةِ إلىٰ عمالقة النجوم.

مَوَاقِعُ النجوم: **مواقِع**: جمع: «مَوْقِع» وهو مكان وقوعِ شيءٍ ما، ومَواقِعُ القَطْر: مَسَاقِطُه.

ولا نَعْرِف بِصُورَةٍ تقريبيَّةٍ مواقع النجوم، حتَّىٰ نُدْرِك عَجْزَنا عَنْ تَصَوُّرِ الأبعاد السَّحِيقَةِ في السّماوات التي فيها نجومٌ هي من خَلْقِ اللهِ عزّ وجلَّ، وخاضِعَةٌ لَهُ جلَّ جلالُهُ، ومُسَيَّرَةٌ ومُسخَّرَةٌ بأمْرِه، وحتَّىٰ نُدْرِكَ أَنَّ الكَوْنَ فِي اتِّسَاعٍ مُسْتَمِرّ.

يقول علماء الفلك(١):

(١) إنَّه يُوجَدُ ما يزيد على (٢٠٠) بليون بليون من النجوم.

(٢) الشمس ليسَتْ إلَّا نجماً مُتوسِّط الحجم، وقُطْرُها أكْبَرُ من قُطْر الأرض بمقدار «١٠٩» مرَّة.

(٣) بعْضُ النجوم العملاقة قُطْرُهُ أكبَرُ من قُطْرِ الشمس بمقدار ألف مَرَّة، وهي لبُعْدها السّحِيق في أبْعادِ الكون تَظْهَرْ لأعيننا في الأرض مثل نقطة من ضوءٍ بمقدار الْعَدَسَة.

---

(١) اقتباساً من «الموسوعة العربيّة العالمية».

(٤) أقرب نجم إلينا غير الشمس يَبْعُدُ عن الأرض بمقدار أربعين مليون مليون كيلومتر.

(٥) النجوم الّتي نراها في اللّيْل خليط من نجومٍ قريبةٍ مُعْتِمَةٍ، ونجومٍ بَعِيدَةٍ مضيئةٍ جدًّا.

(٦) النجوم في السماوات لها حركات في مداراتٍ لها.

(٧) النجومُ في السماوات تَتَجمَّعُ في وحداتٍ، وكُلُّ تجمُّعٍ مِنْهَا خاضع لنظامٍ واحد، يُدْعَىٰ «مَجَرَّة».

وفي السَّمَاوات ما يَزِيدُ على «بَلْيُون» مجرَّة.

وفي مجرّتنا الّتي فيها أَرْضُنَا وشمسُنَا والكواكب التسعة التابعة لها، والّتي تُدْعَىٰ «دَرْب اللَّبَّانَة» ما يزيد على مئة بليون نجم. وقُطْرُ مجرّتنا هذه يُقَدَّرُ بمئة أَلْفِ سَنَة ضَوْئِيّة، علماً بأَنَّ الضوء يقطع في الثانية الواحدة (٣٠٠) ألف كيلومتر.

إلى غير ذلك من عجائب لم يَصِلْ علماء الكونيّات حتَّىٰ عصرنا الحاضر، إلَّا إلى معرفة القَلِيلِ الْيَسِيرِ منْها، بالنسبة إلى سائرها.

من هذه الفِقَراتِ التي الْتَقَطْتها من بحوث مستفيضة عن النجوم نُدْرِكُ أنَّ المراد بمواقع النجوم أمْران:

الأمر الأول: مواقع بُعْدِها السَّحِيق في السماوات، وإدْراكُ هذا يفوقُ قُدْرات التصوّر البشري.

الأمر الثاني: المواقع الّتي يَسْقُط فيها كلُّ نجْمٍ ضِمَنَ حَرَكته المنتظمة في مداره من مجرَّتِه التي هو فيها، والّتي لا يَخْرِمُ فيها كُلُّ نجم مَوْقِعَهُ المحدَّدَ لَهُ، على ما قَدَّر الله له وقضىٰ. فبالنظر، إلىٰ سُرْعَةِ حركة النجوم يعتبر كلُّ موقع يَصِلُ إليه مَسْقطاً من مساقطه.

إنَّهُ من المذْهِشِ والمذْهِلِ حقًّا، مَواقعُ النجوم بالنسبة إلى مَنْ يُتَابعُ قِسماً منها بالمجاهر والمكبِّراتِ.

ولهذا قال الله عزّ وجلَّ في الآية التالية:

- ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾: أي: وإنَّ الْقَسَمَ بمواقِعِ النجومِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ جدًّا، دالٌّ على عظمة الخالق الرَّب جلّ جلالُهُ، الَّذِي أعْظَمَ وأتْقَنَ كلَّ شيءٍ صُنْعاً كبيراً أم صغيراً.

ولو أنَّكُمْ تَعْلَمُون أيَّها المعنيّونَ بالخطاب عظَمَةَ مواقع النجوم، لأدْرَكْتُمْ عظمةَ القَسَم بها، وعظَمةَ صِفَاتِ خالِقِها، وهذا يهديكم إلى الإيمان به وبكتابه القرآن الكريم، وبما جاء فيه من أنباء، ولا سيما منها أنباءُ يوم الدّين وما يجري فيه.

وهذه الجملة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ جملة معترضَةٌ بَيْنَ المقْسَمِ بِهِ والمقْسَمِ عليه. وعبارة ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ معترضةٌ أيضاً بَيْنَ جُزْأي الجملة المعترضة، فهو اعتراضٌ في مُعترِضة.

والضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعودُ على القَسَمِ الَّذِي يَدُلُّ عليه: «أُقْسِمُ».

قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

- ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾: الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ لاَ يحتاج عائداً يعُودُ عليه، لِأَنَّهُ مبيَّنٌ بالجزءِ الثاني من الجملة، وهو ﴿لَقُرْءَانٌ﴾ فهو هنا كضمير الشأن في عدم حاجته إلى عائدٍ سابق يعودُ إليه.

واللَّام في «لَقُرآنٌ» هي لام الابتداء المزحلقة إلى الخبر، ويُجاء بها للتوكيد. ولفظ «القرآن» هو في الأصل مصْدَرٌ لِفِعْلِ «قرأ» يقالُ لُغَةً: «قَرَأَ

الكِتَابَ، يَقْرَؤُه، قِرَاءَةً، وَقُرْآناً» أي: تتبّع كلماتِهِ نظراً، ونَطَقَ بها. وأُطْلِقَ في الاصطلاح الدينيّ على الكتاب المنزّل مِنْ لَدُنْ رَبِّ العالمين، على محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعون.

﴿كَرِيمٌ﴾: أي: بالِغُ غايَةَ الشَّرَف، وجامع كلَّ صِفات المجد والكمال البياني، ومُبَرّأً من كلّ النقائص، إذْ فيه بَيَانُ الحقِّ والخيْر ومكارم الأخلاق ومحاسِنَ السُّلُوك، وهو يهدي للَّتِي هي أقوم.

- ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾: أي: مكتُوبٌ أَصْلُهُ في كتابٍ مَسْتُورٍ مَصُونٍ، وهو اللّوح المحفوظ(١)، والله هو العليم بالكتابة التي تكونُ في اللّوح المحفوظ.

«المكنون»: هو المستور المخفيُّ المبْعَدُ عن الوصُول إليه. **«الكِنّ»**: هو المكان المحفوظ المحجوب ببناء أو بغيره، ولهذا وصَفَ الله عزّ وجلَّ اللّوح المحفوظَ بأنَّهُ مَكنون، وبأنَّه لا يَمَسُّهُ إلَّا المطَهَّرُون، وهم من الملائكة.

- ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾: **«المسُّ»**: اللَّمْسُ بالْيَد، ويُطْلَقُ على وُصُول سَطْحِ الشيءِ إلى سَطْح الشيْء الآخر، دون الدُّخول إلَىٰ شيءٍ موجودٍ تَحْتَ السطح. يقال لغة: «مَسَّ الشيءَ يَمَسُّهُ مَسًّا» أي: لَمسه.

«المطهَّرُونَ»: هم من المخلوقات الحيَّةِ ذواتِ الْعِلْم الملائِكَةُ، لأنَّ الله عزّ وجلّ بالتكْوِينِ الذي فطَرَهُمْ عليه قَدْ جَعَلَهُمْ مُطَهَّرِينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ فِكْرِيّ، واعتقاديّ، ونَفْسِيّ، وسُلُوكي، فهم لاَ يَعْصُونَ اللهَ عزّ وجلَّ في جهاز المعرفة لديهم، ولا في اعتقادَاتِهم القلبيّة، ولا في حرَكات نفوسهم، ولا في شيءٍ من سلوكهم الظاهر والباطن، وهُمْ مطيعون بالفطرة، يفْعَلُونَ مَا يأمُرُهم الله به.

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول)، «اللّوحُ المحفوظ في القرآن وبعض السُّنَّة».

فالملائكة أو قِسْمٌ منهم هم المأذونون بأن يَصِلُوا إلىٰ اللَّوْحِ المحفُوظ ويمَسُّوه، ويَقْرؤوا مِنْهُ ما أَذِنَ الله لهم بأن يَقْرَؤوه فيه، أو يَسْتَنْسِخُوه منه.

ولم يَمَسَّ ولَنْ يَمَسَّ اللَّوْحَ المحْفُوظَ غَيْرُ الْمُطَهَّرِين، أما الجنّ فلا يمسُّونه، لأنَّهُمْ مُعَرَّضُونَ للمعَاصِي والمخَالَفَاتِ حتَّىٰ دَرَكَةِ الكُفْرِ، وهذه أرْجاسٌ تَجْعَلُهُمْ مَمْنُوعِينَ بالْقَهْرِ الرَّبَّانِيّ من الوصُولِ إلى اللَّوْح المحفوظ، وكذلك الإنس مهما اتخذوا مِنْ وسَائلَ.

- ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾: أي: إنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، تَنْزِيلٌ من رَبّ الْعَالَمِين، فلَفْظ «تنزيلٌ» صفَةٌ أخرى للفظ «قرآن» ويجوز نحويًّا أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هو تَنْزيل.

«**التنزيلُ والإنزالُ**»: يرادُ بهما في الاستعمالات القرآنيَّةِ إيصالُ الأشياء من مَقَام رُبُوبيَّةِ الرَّبّ إلى خَلْقِهِ، لأنَّ الله عزّ وجلَّ هو الْعَلِيُّ الأعْلَىٰ، وكلّ الكائنات دونَهُ مَنْزِلَةً ومكانَةً، ولو كان هو جل جلاله أقْرَبَ إلى عباده من حِبَالِ أوْرِدَتهم، ولا يلْزَمُ من التعبيرِ بالإنْزَالِ أو بالتنزيلِ إهباطُ الشيءِ من مَكانٍ عَالٍ إلى مكانٍ منخفض، بل كثيراً ما يكون المرادُ الدَّلاَلَة على علُوِّ المقام الرَّفيع للمنَزِّلِ الخالق، أو الواهب، أو المتفضل بعطاءاته.

﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: من المتصرّف بصفات رُبوبِيَّته بكلّ العالمين، والمرادُ بالْعَالمين هُنَا كُلُّ مَا سِوَىٰ الله عزّ وجلَّ في الأكْوان، إذ هو جلّ جلالُهُ رَبُّ كلّ شيء.

قول الله عزّ وجلَّ خِطَاباً للكافرين بالرَّسُول وبالقرآن وبيوم الدين، وفي الصَّفّ الأول منهم مُشْرِكو مكَّة وما حولها إبَّانَ التنزيل وهم المعنيّون الأوّلون في السورة:

- ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾؟.

هَاتان آيتان مَدَنيَّتَان اقتضت الحكمة الحركيّة تأخيرَ إنزالهما إلى ما بَعْدَ هِجْرَة الرَّسُول ﷺ إلى المدينة، لئلا يكونَ في بَيَان مُداهنة أئمَّة المشركين بذكر القرآن بما يشعرُ بإعظامِهِم لبلاغته الساحرة الاسرة، ما يَدْفَعُهُمْ إلى توجِيه الشتائم له ولأساليبه البيانية ظلماً وعُدْواناً.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾:

هذا الحديث: هو القُرآن الكريم، والاستفهام في العبارة هنا يراد به التَّثْريبُ، والتلويم، إلى حدّ التوبيخ، والْفَاءُ حرف عطف على جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ وفيها معنىٰ التفْريع، أي: أَفَصَحَّ في أَذْهانِكُمْ أَنْ تُدْهِنُوا بالقرآن الكريم، ذي المجْد العظيم، والذي هو تَنْزِيلٌ من رَبّ العالمين، فتُعْطُوهُ من ألسنتكم إدْهاناً دون أن تُؤْمِنُوا بأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبّكم؟!.

«بِهـٰذَا الْحَدِيثِ» معمولٌ لاسم الفاعل ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ قُدّم عَلَيْهِ لغرض التخصيص، أي: أتخصُّون هذا القرآن الكريم بإدْهانكُمْ مع عَدَم تَصْدِيقكم بأنَّه مُنَزَّلٌ من عنْدِ ربّكم؟! إنَّ هذا مِنْكم لجحُودٌ عظيم.

﴿مُّدْهِنُونَ﴾: اسم فاعل من «أدْهَنَ يُدْهِنُ»: أيْ: لاَيَن في الْقَوْل، مخادَعَةً، ومُراءاةً، بُغْيَةَ التهَرُّبِ من الاعتراف بالحقّ.

والمعنى: تُعْطُون القرآن أوْصافاً فيها اعترافٌ بعظمته وتَفوُّقِه، على سبيل المداهنة، ولكن فيها صَرْفٌ عن الاعتراف بِكوْنِه منزَّلاً من عند الله رَب العالمين، وعن كونه معجزاً يقتضي إعجازُه الإيمانَ بكونه مُنَزَّلاً من عند الله العزيز الحكيم الحميد.

ومن إدْهَانهم قولهم عن القرآن: «إنَّهُ سِحْر» أي: إنَّ تَفوُّقَهُ بسبب كونه سحراً. وقولهم عنه «هُو شِعْرٌ» أي: هو لَوْنٌ من ألوان الشعر غير المألوف، الذي يُمْكِن أنْ يأتي بنظيره فحولُ الشعراء. وقولهم عنه: «هُوَ مُكْتَتَبٌ مِنْ كُتُبِ أهْلِ الكتاب» أي: إنّ تَفوُّقَهُ بسَبَب كونه مَنْقُولاً عن كُتُبِ الرُّسُلِ السابقين.

وهذا من أئمة مشركي مكّة إبَّان التنزيل اعترافٌ منهم بعظمة القرآن وتَفَوُّقِه الْبَيانيّ، إلّا أنّه إدْهانٌ منهم ومصانعةٌ ومخادَعَة، إذْ لم يَسْتَطِيعُوا أن يقولوا بشأنِهِ كلاماً فيه طَعْنٌ أو تجريحٌ أو نَقْدٌ بعَيْبٍ، نظراً إلى أنَّ جماهيرهم لا تقْبَلُ ذَلِكَ منهم.

وغرضهم من الأوصاف الّتي أطْلَقُوها، صَرْفُ جماهيرهم التابعين لهم، عن الإيمان بكون القرآن تَنْزِيلاً مِنْ رَبِّ العالمين، فمن لوازم هذه الإيمان الإيمنُ بأنّ محمّد بن عبد الله نبيُّهُ ورسُولُه، واتّباعُ الدّين الذي جاء به.

• ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾: أي: وتَجْعَلُونَ مُقَابِلَ إنْعَام اللهِ عليكم بالرِّزْقِ الّذي به استمرارُ حَيَواتِكم أنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بكِتابِ رَبِّكم المعجز، وبما جاء فيه مِنْ أنباء يوم الدين، وتكذِّبُونَ رَسُولَ رَبِّكُمْ الّذي يُبَلِّغُكُمْ عَنْه مَا يُوحي به إليه، وقَدْ كان الواجبُ عليكم أنْ تَشْكُرُوا رَبَّكُمُ الرازقَ لَكُمْ بالتَّصْدِيقِ والإيمان والاتّباعِ، والطَّاعَةِ بالعملِ بما يأمُرُكم به، وباجتناب مَا يَنْهاكُمْ عنه.

ففي هٰذه الآيَةِ محذوفاتٌ يمكن استخراجها بالتأمُّل: أي: وتَجْعَلُونَ مُقَابِلَ رِزْق اللهِ لكم أنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بكتابه ورسوله، بدَلَ أن تَشْكُرُوه بالإيمان وبالعمل بما يُرْضيه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

﴿فَلَوْلَآ﴾ في الموضِعَيْنِ بمعنى: «فَهَلَّا» للحضّ.

﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾: أي: إذا بَلَغَتِ الرُّوحُ الحلْقُوم عِنْدَ نَزْعها من

الحيّ لإماتَتِه. حُذفَت «الرُّوحُ» هنا وهي فاعلٌ لسُهُولَةِ إدْراكه محذوفاً، من القرائن. والعامل في «إذا» الظرفية هنا فعل: [**تَرْجِعُونَها**].

الْحُلْقُوم: تجويفٌ خلف تجْويف الفم، وفيه ستُّ فتحات، فُتْحة الفم الخلفيّة، وفتحتا المنخزين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحَنْجَرَة، وهي مجْرَىٰ الطعام والشراب والنفس، ويجمع على حَلاقِم وحَلاقِيم.

﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: «**مَدِينِينَ**» جمْعُ «مَدِينٍ» اسم فاعل من فعل: «دَانَه، يَدِينُهُ» أي: حاسَبَهُ وجَازاه، وهذا المعنى أكثر معاني هذا الفعل ملاءمَةً لهذا النّصّ، لأنَّ المعنّيين بالبيان هم الّذِين جَحَدُوا يوْمَ الدِّين، وهو يوم الحساب والجزاء بَعْدَ البعث إلى الحياة الأخرى.

فالسورة بدأتْ بالحديث عن يوم القيامة، وتابَعَتِ الحديث عن أحداثٍ تجري يوْمَ الدّين للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وعرضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ آياتِ رُبُوبيَّة اللهِ في كَوْنه، لبيان قُدْرتِهِ على بَعْثِ الأموات إلىٰ الحياة مَرَّةً أُخْرَىٰ، لمحاسبتهم، وفَصْل القضاء بينهم، ومجازاتهم على ما قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امتحانهم، وأنَّهُ هو الّذِي قَدَّرَ بَيْنَ الأَحْيَاءِ الموْتَ، فَمَا أَحَدٌ بقادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَمْنَعَ نُزُولَ الموْتِ بالحيِّ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ، وعَرَضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ القرآن كلامُ اللهِ، أَنْزَلَهُ علىٰ رسُوله مُحَمَّدٍ، أي: فَمَا جَاءَ فيه من بيانات عن يوم الحساب والجزاءِ حَقٌّ لاَ شَكَّ فيه، وعَلىٰ كلّ مَنْ تَلَقَّاهُ من الموضعين في الحياة الدُّنيا موضِعَ الامتحان أنْ يُؤمن به.

فإصْرارُ الكافِرين علىٰ إنْكار نَبإِ يَوْمِ الدّين مُكَابَرَةٌ وعِنَادٌ بالْبَاطل، فالحكمة تَقْتَضِي تَحدِّيَهُمْ بِأَنْ يَمْنَعُوا نُزُولَ الموْتِ بأحَبِّ الناسِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ احْتِضَارِهِ، وبُلُوغ رُوحِهِ إِلَىٰ حُلْقُومِه، والَّذِي قَدَّرَهُ الرَّبُّ بيْنَ عباده، ليكون فاصلاً بيْنَ حياةِ الابْتِلاَءِ وحَيَاةِ الجزاء.

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ من فعل: «رَجَعَهُ، يَرْجِعُهُ، رَجْعاً، ومَرْجِعاً، وَمَرْجِعَةً، ورَجُوعاً، ورُجعاناً» بمعنى أَرْجَعَهُ إِلَىٰ مَا كان عليه، وهـٰذِهِ «أَرْجَعُهُ» لغة هُذَيْل من قبائل العرب.

والمعنى: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين في زعْمِكُمْ أَنْ الرَّبَّ لَمْ يُقَدِّر بَيْنَكُمُ الموْتَ في هـٰذِهِ الحياة، لِيَبْعَثَكُمْ إِلَىٰ الْحَيَاة مَرَّةً أُخرَىٰ للحساب، وفَصْل القضاء وتَنْفِيذِ الجزاء، وقُلْتُمْ: مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْر، فاتَّخِذُوا كُلَّ مَا تَسْتَطِيعون من وسائلَ لإرجاعِ الرُّوحِ إلى الجسَدِ عنْد نَزْعِها وبُلُوغِها الحلْقُومَ، ومَيِّتُكُمُ الّذي تحِبُّونَهُ سَلِيمُ كُلِّ الأعْضاءِ الظاهرةِ والباطِنَة، ولَيْس فِيهِ من عِلَّة تَقْتَضِي الموْتَ، غيْرَ انْتِهاءِ أجَلِ حياتِه الّتي قَدَّرْنَاهَا لَهُ، ولْيَجْتَمِعِ كُلُّ أطِبَّاءِ الدُّنيا لِيَرُدُّوا لَهُ حياتَهُ، ولَنْ يَسْتَطِيعوا، فمَا قضاه اللهُ لاَ رَادَّ له.

هذه الآيات من (٨٣ ـ ٨٧) مُتَمِّمات لما جاء في الآيات من (٦٠ ـ ٦٢): ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

الموتُ والحياةُ ظاهرتان من ظواهر الخلْق الرَّبّاني:

لدىٰ التأمُّل التفكريّ العميق نكْتَشِفُ أَنَّ الحياة والموتَ ظاهرتانِ متَمَاثِلَتَانِ في عَمَلِيَّاتِ الخلْق الرَّبَّانيّ.

(١) فالحياة تكون بنَفْخِ الرُّوحِ الّذي يُخْلَقُ بأمْرِ الله التكوينيّ، وهو سِرٌّ من أسْرَار اللهِ في الوجود، وبإدْخَالِهِ في الْجَسد الذي لم تَكُنْ فيه حياة، فَيَصيرُ حيًّا.

وقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ الَّربّ جلّ جلالُهُ، على أَنْ يجْعَلَ للأجْسَادِ الّتي قضَىٰ بأنْ تكونَ ذواتَ حيَاةٍ، نِظاماً تَركيبيًّا ذا بناء من خلايا وأعضاء ومؤهَّلاً لأن تظهر فيه حركاتٌ تَدُلُّ على حَياته، وهذا النِّظَامُ التركيبيُّ

العجيب في غاية الإتقان والترابط، لِيكون دالاً علىٰ طائفة جليلة من صِفاتِ خالقِهِ ومُتْقِنِ صُنْعِه.

على أنّ هذا البناء التركيبيّ، لَيْسَ بِشَرْطٍ عَقْلِيٍّ لظهور الحياة في جسَدٍ مَا، إذا نفخ اللهُ عزّ وجلّ فيه رُوح الحياة، فلَوْ نَفَخَ اللهُ رُوحَ الحياة في حَجَرٍ صَلْدٍ مُتَماثِلِ الذّرّاتِ، لَظَهَرَتْ فيه الحياة، علَىٰ مُراد اللهِ الخالق الرَّبِّ فيه.

(٢) والمْوتُ يكونُ بنَزْعِ الرُّوحِ من الْجَسَدِ الحيّ، وبِنَزْعِهَا يكُونُ الجسَدُ مَيِّتاً لاَ حَيَاةَ فيه.

فإدْخالُ الرُّوح في الجسَدِ، وإخراجُها من الْجَسَدِ أمْرانِ مُتماثِلاَنِ، وكِلاَهُمَا مِنْ خَلْقِ اللهِ وأفعالِه في كَوْنِهِ، فالإحْياءُ بمثابَةِ إدْخالِ بَطّاريَّةٍ كهربائيّة في مَوْضِعِ تَوْصِيلِ طَاقَتِها، من آلَةٍ تَعْمَلُ بالطاقَةِ الكَهْرُبائية المحفوظة بالبطّارِيَّة، وهيَ سَلِيمة الأجهزة في بنائها التركيبيّ. والإماتةُ بمثابَةِ نَزْعِ هـٰذِهِ الْبَطّاريّة من الآلَة.

فما الدَّاعي لإنْكارِ كَوْنِ اللهِ عزّ وجلّ قدّرَ بيْنَ عباده الموتَ، تقديراً مبنيًّا عَلَىٰ أَنْ يُنْشِئَهُمُ النَّشْأَةَ الأخْرَىٰ في أَحْوالٍ وأسْبَابٍ لا يَعْلَمُونها.

فَمَنْ زعَمَ خِلافَ هـٰذَا، فَلْيَرُدَّ الرُّوحَ إلى جِسْمٍ سَلِيمٍ كُلُّ الْأَجْهِزَةِ فيه، إذا قَضَىٰ اللهُ مَوْتَهُ، وبَلَغَتْ رُوحُهُ إلَىٰ حُلْقُومِهِ.

نفهم هذا من قَوْلِ اللهِ عزّ وجلّ ومن لوازمه:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

جاء في هذا النصّ تكرير عبارة: ﴿فَلَوْلَآ﴾ بمعنَىٰ «فهَلّا» الدَّالّةَ على

التحْضِيض، لإفادَةِ أنَّ التَّحدِّيَ بإرْجَاعِ الرُّوح إلى الجسَدِ، بَعْدَ بُلُوغِها في الاحتضار إلى حُلْقُومِهِ، مُوَجَّهٌ ضدَّ زَعْمَيْن من مزاعِم الكافِرين بوجْهٍ عامٍّ، وهم فريقان: فريق لا يُؤْمنونَ بالله الرَّب خالقاً، وهُم الذين وجَّهَ اللهُ عزّ وجلَّ لَهُمْ قَوْلَه في السورة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وهؤلاء هم الدَّهْرِيُّونَ. وفريقٌ يُؤْمِنُونَ باللهِ الرَّبِّ خالقاً لهم، ولَكِنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بالْبَعْث وبالْحياة الأخرىٰ وبيَوْم الدين، وهم الذين وجَّهَ الله عزّ وجلَّ لهم قوله في السّـــورَة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وَقَدْ تَحَدَّىٰ اللهُ عزّ وجلَّ الفريقَيْنِ كِلَيْهِما بأنْ يُرْجِعُوا الرُّوح إلَىٰ جسدِ مَنْ يُحِبُّونَ، إذا بَلَغَتْ عند احْتِضَارِهِ حُلْقُومَهُ، وهُمْ يَنْظُرُونَ حَشْرَجَتَهُ، ويَتَرَقَّبُونَ أنْ يلْفِظَ نَفَسَهُ الأخير، ولاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْعَلُوا لَهُ شيئاً لاسترجاعِ رُوحِهِ، أو استِبْقَاءِ حياته، مع كون كلِّ أجْهِزَتِهِ سَلِيمَةً لَمْ يَتَعَرَّضْ شيءٌ منها لِخَلَلٍ لا تبقىٰ الحياة معه بحَسَبِ العَادَة.

وقولُهُ تَعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ دلَّ على قضيَّتَيْن:

القضية الأولىٰ: أنَّ الله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُهُ، أقْرَبُ إلى المحتَضَرِ المقضيِّ عليه بالْمَوْتِ، مِنْ كُلّ مَنْ حَوْلَهُ الَّذِينَ يَحْرِصُونَ على بقاء حياته، بِعِلْمِهِ، وقُدْرَتِهِ، وهيْمَنَتِه بصِفَاتِ رُبُوبيَّتِه، كما قال اللهُ عزّ وجلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

«حَبْلُ الْوَرِيد»: يُطْلِقُه الْعَربُ عَلى الْوَتِين» وهو الشِّرْيَان الرئيس الذي يُغَذِّي الْجِسْمَ بالدَّم النقيّ الخارج من القلْب.

القضية الثانية: أنَّ المكلَّفَ بقَبْضِ رُوحِه ونَزْعِهَا من جَسَدِه مِنَ

الملائكة، أو المكلَّفين منهم بحضور نزع رُوحِهِ، يكونون أقْرَبَ إلَيْهِ من كلِّ مَنْ حَوْلَهُ الذين يحْرِصُون على بقاء حياته، فأجْسَادهم النورانية تكون أقْرَبَ إلى جَسَدِه وأجْهِزَتِهِ الدَّاخليَّةِ من مُحِبِّيه وأطبّائِهِ من الناس.

وعبارة: [**نَحْنُ أَقْرَب**] اسْتُعْمِل فيها ضميرُ المتكلّم العظيم، لأنَّ الموضوع يتعلَّقُ بِقَهْرِ اللهِ لعباده بالموتِ، وبكلِّ أمْرٍ جَبْرِيّ لَمْ يَجْعَلْ لهم فيه اختياراً، وهي على تقدير: نَحْنُ والمكَلَّفُونَ مِنْ ملائكِتَنا بأمُورِ نزع رُوحِه من جَسَدِه، أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْكُمْ، ولَكِنْ لا تُبْصِرُونَ ما يُبْصَرُ، ولاَ تُدْرِكُونَ مَا لاَ يُبْصَر.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾:

رَبْطاً بحَدَثِ الموْتِ الفاصل بين حياة الابتلاء وحياة الجزاء، وبكونِ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء مَدِينين (= مُحَاسَبِينَ ومُجازَيْن) في الآخرة، وهو ما جاء في الآيات من (٨٣ ـ ٨٧).

ورَبطاً بما جاء في أوائل السورة من تقسيم الناس إلى أزْواجٍ (= أصْنَاف) ثلاثة: أصْحاب الميْمَنة (= اليمين) وأصحاب المشأمَة (= الشمال) والسَّابقين، وهم المقرَّبون من رَبّ العالمين.

جاء هذا التفصيلُ في خواتيم السُّورة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء عاطفة. و«أمَّا» حرْفٌ فيه معنَىٰ الشرط والتوكيد دائماً، والتفصيل غالباً، ويَدُلُّ على شَرْطيَّتِها لزوم الفاء الرابطة.

﴿... إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: أي: فأمَّا إنْ كان الميّتُ من صِنْفِ السَّابِقين المقرَّبين، وهو الصِنف الأعْلَىٰ.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ وقرأ رُوَيس: ﴿فَرُوحٌ﴾: أي: فمِنْ ثوابِهِ عِنْدَ رَبِّه اسْتِقْبَالُهُ بِرَوْحٍ وَرُوحٍ ورَيْحَانٍ مَوْصُولات بِجَنَّةِ نَعِيمِ يَوْم الدّين. لفظ «رَوْحٌ» مُبْتدأ خبره محذوف، والتقدير فَلَهُ رَوْحٌ.

وجواب الشرط هذا هو جوابُ «أمَّا» الشرطية، والفاء وما بَعْدَهَا سدَّا مَسَدَّ جواب الشرط «إِنْ».

«الرَّوحُ»: الراحَةُ، والْفَرَحُ، والرَّحْمَةُ، وطِيبُ الرّائحة، وهٰذِهِ يَجِدُها في البرزخ عَقِبَ الموت، وتَسْتَمِرُّ حتَّىٰ يَدْخل الجنَّةَ يوم الدّين.

الرُّوحُ: هو فيما أرى إمدادُه بما يؤنِسُهُ ويُسْعِدُهُ بعْدَ الموْت، وهو في البرزخ بَيْنَ الحياة الأُولى والحياة الأخرى، ثم بَعْدَ الْبَعْثِ حتى يَدْخُلَ الجنة.

فبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

وَرَيْحَانٌ: جاء في اللّغة أنّ «الرَّيْحَانَ كلُّ نَبْتٍ طيّب الرَّائحة ـ والرَّحْمَةُ ـ والرِّزْق» وجاء عند المفسِّرين أنه الرزق.

وقَدْ ثبت أنَّ الشهداء الذين يُقْتَلُونَ في سبيل اللهِ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يرزقُون وأنَّ أرْواحَهُمْ تَدْخُلُ في حواصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ تُرْزَقُ مِنَ الجنَّة، وتأوي إلى قنادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بالْعَرْش، حتَّىٰ بعْثِهِمْ ودُخولِهم الجنَّة.

فقد يكونُ المقرَّبُون من الَّذين يُرْزَقُون بوسيلةٍ ما بَعْدَ مَوْتهم وقَبْلَ بَعْثِهِمْ، أو أنَّهُمْ يُعَامَلُون معاملة الشهداء لكثرة ما قَدَّمُوا من أعمالٍ صالحة، والله أعلم.

وَجَنَّةُ نَعِيم: هي الجنَّةُ الّتِي يَدْخُلونَها يَوْم الدّين، والّتي أَعَدَّهَا الله للمتقين، ويَدْخُلُ فيهم الأبرارُ والْمُحْسِنُون، لأنَّهم مُتَّقُونَ وزيادةٌ من دَرَجات مَرْتَبَةِ البرّ، أو مِنْ دَرَجَاتِها مع دَرَجاتٍ من مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ

«النعيم»: كلمة اختيرَتْ في القرآن للدَّلاَلَةِ على كلّ ما في الجنَّة يوم الدين من أنواع سعاداتٍ ولذّاتٍ وطيب حياة وعيشٍ رَغَدٍ.

- ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴿٩١﴾﴾: أي: وأمّا إنْ كانَ الميّت من أصحاب اليمين، ولم يَرْتقِ بصالحات أعماله إلى أنْ يكونَ من السَّابقين، فَمِنْ ثوابِه عَقِبَ مَوْتِهِ، استقبالُهُ بتحيَّةٍ طيّبة تُحيِّيهِ بها مَلائِكَة الرَّحْمَة.

والمعنى الذي أَرَاهُ: فيُقَالُ لَهُ: سَلاَمٌ لَكَ، أيْ: أمْنٌ وطُمَأْنِينَةٌ وتَحِيَّةٌ طيّبة، مُوَجَّهَةٌ لكَ، حالَةَ كَوْنِكَ مِنْ صِنْفِ أصْحَابِ الْيَمِين. والمخاطِبُونَ لَهُ بهذا هُمْ مَلائكة الرَّحْمَة.

وقد تَسْتقْبِلُهُ أَرْواحُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ بالتحيَّةِ بالسَّلام، والدُّعاءِ لَهُ بالسَّلام.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) بشأن سلام الملائكة على المؤمنين حين يَتَوَفَّوْنَهُمْ:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

- ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴿٩٤﴾﴾: أي: وَأَمَّا إِنْ كَانَ الميّتُ من المكَذِّبينَ للرَّسُولِ والمُكَذِّبِينَ بالقرآنِ وبِيَوْمِ الدّين، وهم صِنفُ أَصْحَابِ الشّمالِ، فَلَيْسَ لَهُ من ملائكة الرَّحْمَةِ عند نَزْعِ رُوحِهِ مِنْ جَسَدِه تحيَّةٌ طَيّبَة، بل جاء في القرآن بَيَانُ أَنَّ مَلائكة الْعَذَابِ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأَدْبَارَهُمْ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: ذُوقُوا عذابَ الْحَرِيق.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

والْمُرَاد بـ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هُنَا المبْتَعِدُونَ عَنِ الحقّ وصِرَاطِ الْهُدَىٰ، بِكَسْبٍ مِنْهُمْ، يَحْمِلُون به وِزْرَ ضَيَاعِهِمْ في متاهَاتِ الباطِلِ والشّرّ.

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾: أي: فَضِيَافَتُهُمْ في جهنَّمَ دَارِ عذابِهِمْ، ماءٌ حارٌّ يُقَدَّم لهم ليَشْرَبُوا، وهم شَدِيدُو الظَّمأ، ويجدون أنْفُسَهُمْ مضطرِين أنْ يشْرَبوا منه على الرُّغم من شدّة حرارته.

«النُّزُل»: هو في اللُّغَةِ مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لضيْفِهِ من طعام وشرابٍ ونحوها إذَا نَزَل به.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾: يقال لغة: «صَلاهُ تَصْلِيَةً بالنار» أي: أدْخَلَهُ فيها ليَحْتَرِق بِلَهَبها.

والإضافة في هذه العبارة بمعْنَىٰ «في» أي: وَتَصْلِيَةٌ فِي جحيمٍ، أي: واحْتراقٌ بِنَارِ جحيم.

جَحِيم: لفظ يُطلَقُ عَلَىٰ كُلّ نَارٍ عظيمةٍ في مَهْوَاةٍ. و «**الجحيم**» اسْمٌ من أسماء دار العذاب النّارِ يَوْم الدّين.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الواقعة) والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع الأخير من دُروس سورة (الواقعة) وهو الآيتان (٩٥ و٩٦) آخر السورة

قال الله عزّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾:

جاء هذا البيان ختاماً مُنَاسباً لكلّ مَا جاء في السُّورَةِ من بيانات، ولا سيما ما يتعلّقُ منها بأنباء عن البعث ويوم الدّين.

فالمشار إليه بعبارة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما جاء في السورة من بيانات بدءاً من قول الله عزّ وجلّ في صَدْرِها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ وحتَّىٰ غاية الآية (٩٤) منها.

﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: أي: لَهُو المستوى من اليقين الذي يُوصَفُ بأنَّهُ حقٌّ.

«**الحقّ**»: هو الأمر الثابت الذي لاَ شَكَّ فيه.

«**اليقين**»: هو العِلْمُ الذي لاَ شَكَّ فيه، وأدنَىٰ مراتِبهِ ما اعْتَمد على أدلّة فكريّة صحيحة أوْ خَبرِيّةٍ صادقة. يقال لغة: «اسْتَيْقَنَ فُلانٌ الشيءَ» أي: عَلِمَهُ عِلْماً مؤكّداً لاَ شَكَّ فيه.

وجاءت جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ مؤكَّدَة بالمؤكدات: «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللام المزحْلَقَة - وضمير الفصل».

مراتب اليقين:

دلّت النصوص القرآنيَّة على أنّ اليَقين لَهُ ثلاث مراتب:

المرتبة الدُنيا: «عِلْمُ الْيَقِين» أي: المسْتَوى من اليقين الذي يُوصَفُ بأنَّهُ علْم لاَ شكَّ فيه، إذْ تكون أدلّته فِكْرِيَّة صحيحة، أو خبَرِيّةٌ صادقة. وقد يطلق على هذه المرتبة لفظ «اليقين» فقط، دون إضافة لفظ «علم» إليه.

المرتبة الوسطى: «عَيْنُ الْيَقِينِ» أي: المستوى من اليقين القائم على المشاهدة بالْعَيْن مشاهدةً صحيحة ليس فيها أدنى شك.

المرتبة العلْيا: «حَقُّ اليقين» أي: المستوى من اليقين القائم على

إدْراك المعلوم بمخْتَلِفِ الحواس، كمُشَاهَدَةِ الْمَعْلُومِ ولَمْسِه، وذَوَقَان آلاَمِه أو لَذَّاته.

مثل يَقِينِ مَنْ دخل النارَ وذاقَ عذابها، ويَقينِ من دخل الجنَّة وذاقَ نعيمها.

رَسْمٌ بيانيٌ لمراتب اليقين

- **المرتبة العليا**

اليقين القائم على الإدْراكِ بمخْتَلِف الحواسّ، كيقين من ذاق عذاب النار، ويقين من ذاق نعيم الجنة. ← **مرتبة حَقِّ اليقين**

- **المرتبة الوسطىٰ**

اليقين القائم على المعاينة والمشاهدة البصريّة بالعين دون ملامسة. ← **مرتَبةُ عَيْنِ الْيَقِين.**

- **المرتبة الدنيا**

اليقين المعتمد على أدلّة فكريّة صحيحة، أو خبريّة صادقة ← **مرتبةُ علم اليقين أو «اليقين».**

الأدلة

- فمن أدلَّة «عِلْمِ اليقين» قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾: فالمرادُ بالْيَقِين في هٰذِهِ الآية الموتُ، وهو قَبْلَ أن تَذُوقَهُ نَفْسُ المدْرِكِ عِلْمٌ لاَ شَكَّ فيه، مُعْتَمِدٌ على أدلَّة فكريَّةٍ قطعيّة، قائمةٍ علَىٰ قياس الْمُدْرِكِ نفسه على مَنْ سَبَقَهُ من الأحياء، وعلى الخبر الصحيح: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وقول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (التكاثر/ ١٠٥ مصحف/ ١٦ نزول):

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ فَعِلْمُ اليقين أدْنَىٰ مراتب اليقين.

- ومِنْ أدلَّة «عَيْنِ الْيَقِين» قول الله عزّ وجلَّ في سُورة (التكاثر) أيضاً:

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ⑦﴾: أي: ثُمَّ لَتَرَوْنَّ الْجَحِيمَ أيُّها المكَذِّبُونَ بِيَوْم الدّين وبالأحْدَاث الَّتِي تَجْرِي فيه، وهذا يكون حينما يَرَوْنَ الْجَحِيمَ بأعْيُنِهم، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوها ويَذُوقوا الْعَذَابَ فيها.

- ومن أدِلَّة «حَقِّ الْيَقين» الآية التي نتابع تدبُّرَها من سُورَة (الواقعة) ووَصَفَ اللهُ أنْبَاءَ القيامَة والأحداثِ التي تجري فيها بأنَّهَا حَقُّ اليقين، نظراً إلى أنَّ عِلْمَ اللهِ بكلّ شيءٍ هُوَ من مستوىٰ «حَقِّ اليقين» ونظراً إلى أنَّ العباد بَعْدَ أنْ تجريَ أحْدَاثُ يَوْمِ الدِّين عليهم، ويَذُوقوا آلامَها أو لَذَّاتها، تَكُونُ حينَئذٍ بالنِّسْبَةِ إليهم «حَقَّ اليقين».

ونظير ما جاء في هذه الآية، قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (51)﴾:

وفي تَدَبُّرِ سُورَة (التكاثر) مَزِيدُ تفصيلٍ في الشواهد والأدلَّة القرآنية.

وخَتَمَ الله سورة (الواقعة) بِقَوْلِهِ خِطَاباً للمتَلَقِّي المؤمِن:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (96)﴾ وبمثل هذه الآيَةِ خَتَمَ اللهُ عزّ وجلَّ سورة (الحاقّة).

وهذه الآية قد جاءت أيضاً في آخر الدّرس الثاني من دُروس سورة (الواقِعة) الّتي فتح اللهُ في تَدَبُّرِها ما فتح، وهي الآيَة (٧٤) وقد سبَقَ تَدَبُّرها، فلا حَاجَةَ للتكرار.

وبهذا انتهى تَدَبُّر سورة (الواقعة) والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه، وأسْألُه المزيدَ من فُيُوض مِنَحِهِ.

* * *

ملاحق تدبر سورة (الواقعة)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثاني: شجرة الزَّقّوم في القرآن المجيد.

(١٠)

مستخرجات بلاغيّة من سورة (الواقعة)

تشتمل سورة (الواقعة) على اختيارات بلاغية بديعة، وقد فتَح الله عزّ وجلَّ عليّ باستخراج طائفة منها، دون استقراءٍ شامل.

أولاً:

ممّا جاء في هذه السورة من بلاغيّات نفيسات اختيار نظام الآيات القصيرات المتقارِبَات التعادُلِ في بنائها، مع التنويع في النظام التعادُلي، وعَدَم التزام تَعَادُلٍ مُعَيَّن، ابْتِعاداً عَنِ النَّمِطِيَّة الرَّتيبَةِ الَّتي تُوَلِّدُ السأَمَ لمَا فيها من السَّرْدِ الْمُمِلّ.

ومُتَابعُ تَدبُّر بَلاغَة القرآن يُدْرِكُ ما فيه من تنويعٍ مُدْهِشٍ، في بنائِه اللفظّي، وفي أسَاليبه البيانية، وفي صُوَرِه البديعة، وفي أدِلّتِه وحُجَجه، وفي تَرْغيبه وتَرْهيبه، وهذا هو معْنَىٰ التَّصْرِيف الّذي دَلّتْ عليه نُصُوصٌ قرآنيّةٌ مُتَعدّدة، منْها قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلَّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

* * *

ثانياً: ممّا في السورة من إيجاز ومُسَاواة

(١) كثير جدًّا من آيات سُورة (الواقعة) يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ عنوان «المساواة» وهي المطابقة التامَّة بَيْنَ الكلام المنطوقِ به وبين المعاني المرادة.

فمن الأمثلة الواضحة فيها:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾.
- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

(٢) وفي السورة من «إيجاز الحذف» ما يلي:

- ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: وتجْعَلُونَ بَدَلَ شُكْرِكُمْ رَبَّكم على رِزقهِ إيَّاكم أنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ، وتُكَذِّبونَ بِكتابِهِ وبمَا جاء فيه من حقٍّ وهداية.

- ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: فَهَلَّا إِذَا بلَغَتِ الرُّوحُ الْحُلْقومَ.

* * *

ثالثاً: في السّورة التوكيد لدواعٍ بلاغيَّة ببَعْضِ المؤكدات التالية

«القسم - إنّ - الجملة الاسميّة - اللّام المزحلقة - ضَمِير الفصل - لقد».

ومن الأمثلة فيها ما يلي:

- ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾.
- ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾.

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.
- ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.
- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

* * *

رابعاً: في السورة من البلاغيات خروج الاستفهام عن أصل وضْعِه لدواع بلاغيّة

ومنه ما يلي:

(١) الاستفهام المراد به التعجيب من ارْتفاع المنزلَةِ أو انخفاضِها، في:

- ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾؟!.
- ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾؟!.

(٢) الاستفهام المرادُ به الإنكار، في:

- ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾؟!.

(٣) الاستفهام المراد به التقرير، في:

- ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾؟!.

ولهذا المثال في السورة نظائر.

(٤) الاستفهام المراد به التّلْويم والتوبيخ، في:

- ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

* * *

خامساً: الدَّلاَلَة على ارتفاع المنزلَةِ بذكر وصْفِ أصْحابها مُكَرَّراً، في:

- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ⑩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ⑪﴾.

* * *

سادساً: المدْحُ بأسْلُوب التشبيه، في:

- ﴿وَحُورٌ عِينٌ ㉒ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ㉓﴾.

هذا التشبيه ذُكِرَ فيه المشبَّهُ والمشَّبَهُ بِهِ وأداة التشبيه، ولم يُذْكَرْ فيه وجْهُ الشَّبَه، فهو من التشبيه المرسَل، لذِكْرِ أداةِ التشبيه فيه، ومن التشبيه المجْمَلِ لِعَدَمِ ذِكْرِ وجْهِ الشَّبَه، فهو تشبيه مُرْسَلٌ مجمل.

* * *

(١١)

الملحق الثاني

شجرة الزّقوم في القرآن المجيد

جاء بشأن شجرة الزّقوم في القرآن ثلاثة نصوص يحْسُنُ تَدَبُّرها تَدبُّراً تكامُلِيًا، وهي:

(١) الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

(٢) الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

(٣) الآيات من (٤٣ ـ ٥٠) من سورة (الدّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول).

النصّ الأول:

الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

قال الله عزّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦)﴾:

سبق تَدَبُّر هذا النّص في موضع تدبّره من السّورة، وأُوجِزُ هُنا ما سَبَقَ تفْصِيلُه وبَسْطُه لإعطاء النظرة التكامليّة بين النُّصُوص حَقَّها من التصوّر.

جاء هذا النصّ تعليماً من الله عزّ وجلَّ لرسوله فلكلّ داعٍ إلى الله مِنْ أمَّته، كَيْفَ يجيب المكابرين المعاندين، الْمُصرّين على تكذيبهم الرّسول، وتكَذيبهم بالقرآن وبأنباء يوم الدين، دون أن يُقَدِّموا لِتكْذيبهم نقضاً لأدلَة الإثبات، الّتي جاء بها القرآن، ولا حُجَّةً يتخذونها ذَريعَةً لتَكْذِيبهم، ولم يكن مِنْهُمْ في هذا الأمْرِ إلّا إطلاقُ الاستفهامات التّعَجُّبِيَّةِ، مع أنَّ عبارَات التعجُّب غيرُ ذاتِ قيمة مَا، في ميادين الْمُنَاظراتِ والمجادلات الفكريَّة، الّتي تُطْلَبُ فيها البراهين، أو الْحُجَجُ المنطقيَّة المقبولَةُ في العقول السليمة.

فلا جواب لَهُمْ إلّا الإصْرَار على تأكيد وقوع ما بِهِ يُكذّبون، وهذا ما جاء في هذا التعليم الرّبّاني.

- ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩)﴾: أي: قُلْ لهؤلاء المكابرين المعاندين الّذين وصَلُوا إلى دَرَكَةٍ ميْئُوسٍ من استجابَتِهِمْ معها لِدَعْوة الحق، بإراداتهم الحرَّة: إن الأوَّلين من عَهْدِ آدم حتَّىٰ عَصْرِنا الحاضر، والآخِرين من عَصْرِنا الحاضِرِ حتَّىٰ آخر إنسانٍ سَيُوجَدُ على وجه الأرض.

- ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾: أي: لَمَبْعُوثون للحياة الأخرى بَعْدَ مَوتهم، وفناء أجْسَادِهم، ولَمَجْمُوعُونَ مَسُوقِينَ إلى ميقاتِ حسَابِهم، وفَصْلِ القضاء الرَّبَّانِيّ بينهم، تمهيداً لتنفيذ الجزاء الذي

يسْتَحِقُّونه، بِعَدْلِ الله عزّ وجلّ، أو بفضله، في يوم معلوم عند الله عزّ وجلّ، إذْ حَدَّدَ زمَانَهُ، ومكانَه، وكُلَّ مَا يَجْرِي فيه، في خُطَّةِ التكوين العامَّة، الّتي قضاها وقدَّرَها، والّتي تُعْتَبَرُ الحياةُ الدُّنيا مَرْحلَةً مِنْ مَرَاحِلِها.

جاء تأكيد هذا البيان بـ «إنّ ـ والْجُمْلَة الاسمية ـ واللّام المزحلقة).

• ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مُحَاسَبتِكم، وفصْل القضاء بينكم، مِنْ قِبَل الله رَبِّكُم، وانتظارِكم تَنفِيذَ الجزاءِ، بإدْخالِكُمْ جهنَّمَ دَارِ تَعْذِيبكم، وبَعْدَ تَهَيُّجِ بُطُونكم من آلاَمِ الجوع، أيُّها الضَّالُونَ المجافُون لصراط الله المستقيم، والمبتَعِدُونَ عَنْهُ معانَدَةً للحقّ والخير والْهُدَىٰ، والمكَذِّبونَ بالحقّ الذي جاءكم مِنْ عنْد رَبّكم.

• ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾: أي: لَمُلْجَؤُون من شدة جُوعِكُمْ وآلاَمِه، إلَىٰ أنْ تَأْكُلُوا من ثَمرِ شجَرٍ في جَهَنَّمَ، يُسَمَّى «شجَرَ زَقُّوم» أو «شَجَرَ الزَّقُوم».

ويوحي البيان هنا بأنّ في أكلهم من شجر الزّقوم تَعْذِيباً لهم، ولكنَّهُمْ مُلْجَؤُون إلى الأكل منها.

• ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: فَمالِئُونَ من الأكْلِ مِنْ ثَمرِها بُطُونكُمْ، لأنكم مَهْمَا أكَلْتُمْ منها لاَ تَهْدأ آلاَمُ جُوعِكُمْ، ولَكِنَّ امتلاء بطُونِكُمْ مِنْها لاَ يُمَكّنُكُمْ مِنْ أَنْ تُضِيفُوا شيئاً، إلّا مَاءً يَتَسَرَّبُ تَسَرُّباً، في فراغات الطّعامِ غير السّائل.

• ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾: أي: فَشَارِبُونَ عَلَىٰ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ شَجَرِ الزَّقُوم، مِنَ الماء الحارّ الشديد الحرارة، الذي لا تجدون أهْوَنَ مِنْهُ في دار عذابكم.

• ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: أي: فسَوْفَ تجدون أنفسكم مضطرين إلى تكرير الشُّرب مِنْهُ، مَرَّةً فمَرَّةً، لأنّهُ لاَ يُرْوِي ظَمأكم الشديدَ،

فَتَشْرَبُونَ، وتَشْرَبُون، وتَشْرَبُونَ، مثلَ شُرْبِ الإبِلِ الْهِيمِ الْمُصَابَةِ بدَاءِ الْهُيام، إذ تَسْتَمِرُّ بِه ظامِئَةً شَدِيدَة الظمأ مهما شَرِبَتْ، فَتَسِيرُ في الأرض هائمةً كئيبةً تُعَاني من أوْجَاعِها.

وفي ختام هذا التعليم قال الله عزّ وجلَّ بشأُنهم في النصّ:

- ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾: أي: هـٰذَا الطعام الكريه النَّكِدُ المؤلم، هو الضيافة التي تُقَدَّم لهم في دار عذابهم يوم الدين.

النُّزُل: هو ما يُعِدُّه الرَّجُلُ لضيفه إذا نزل به.

وقد جاء هذا التعبير على سبيل الاستهزاء بهم، في مقابل استهزاء أبي جَهْلٍ بالوعيد بالزُّقومِ لمَّا سمع به، فيما رُوي عن ابن عباس. من أن أبا جهل جَمَع أصحابَهُ، فأخْرَجَ إلَيْهم زُبْداً وتَمْراً، فقال لهم: تَزَقَّمُوا من هَـٰذا، فواللهِ ما يتَوَعَّدُكم محمَّدٌ إلَّا بِهَـٰذَا.

وجمهور المفسرين على أنّ الشجرة الملعونة في القرآن، المذكورة في الآية (٦٠) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) يُرادُ با شجرَةُ الزَّقوم.

النصّ الثاني:

الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

قال الله عزّ وجلَّ بَعْدَ الحديثِ عَنْ لقَطاتٍ مِنْ نعيم أهل الجنَّةِ ورزقهم فيها، وما يكونُ لهم في ضِيَافَةِ الرَّحْمٰن:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾:

في هذه الآيات مع سَوَابقها المتضمنة بيانَ بعضِ نعيم أهل الجنّة في الجنّة، عَرْضُ مُقَارَنَةٍ واضِحَةِ الْفَرْقِ العظيم، بَيْنِ ضِيَافَةِ الرحْمٰنِ الرحيم، لأهْلِ كَرَامَتِه فِي جنَّاتِ النعيم، وضيافَة الْعَزيز الجبَّارِ المنتقم ذي العقاب الأليم، للكَفَرَةِ المجْرِمينَ فِي دَرَكات الجحيم.

- ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾؟!: المشَارُ إلَيْهِ بعبارة:

﴿أَذَٰلِكَ﴾؟ مَّا جاء في الآيات من (٤٠ ـ ٤٩) من سورة (الصافَّات) وهِيَ قول الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾:

- قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرٍو، وابْنُ عَامرٍ، ويعقوب: **[المخلِصِينَ]** بكَسْر اللام (اسم فاعل) وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[الْمُخْلَصِينَ]** بفتح اللّام (اسم مَفْعُول). وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ هم مُخْلِصُونَ بأعمالهم، ومُخْلَصُونَ من قِبَلِ الله جلّ جلالُهُ.

- وقرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: **[يُنْزِفُونَ]** من فعل «أَنْزَفَ» اللّازم، بمعنى «سَكِرَ، أو ذهَبَ عَقْلُه».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[يُنْزَفُونَ]** من فعل «نَزَفَهُ» المتعدي، أي: أذْهَبَ عَقْلَه، أو من فِعْلِ «نُزِفَ» أي: ذَهَبَ عَقْلُهُ بِسُكْرٍ أو نحوه.

ومؤدّى القراءتين في المعنىٰ واحد.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾: أي: أولَـئِكَ رَفيعُو الدَّرَجاتِ المشَرَّفُون بعُبُودِيتهم لله عزّ وجلَّ، لَهُمْ من فَيْضِ عطاءِ اللهِ الرحمن الرحيم

في جنَّاتِ النعيم، رِزْقٌ معلومٌ عِنْدَهُ جلّ جلالُهُ، على سَعَتِهِ الّتي لا يَعْرِف الْعِبَادُ لها حُدُوداً ولاَ مَقَادِيرَ.

• ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾: أي: ومِنْ فِيض الرِّزْق الرَّبَّانِيّ الَّذِي يُقَدَّمُ لهم فَواكِهُ كثيرةُ الأنواع، وافرة المقادير، وهُمْ مع مَا يَتَنَعَّمُونَ بِهِ من رِزْقٍ وَفَوَاكِهَ مُكْرَمُون، تُكَرِّمُهُم الملائكةُ، ويُكَرِّمُهُمُ الْوِلْدَانُ المخلَّدُون، والْحُورُ العين، وكُلُّ ذلِكَ بتَدْبِيرٍ من اللهِ العزيز الْحَمِيد الرحيم.

• ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: يكونُون في جنَّاتِ النّعيم مُتْكِئينَ عَلَىٰ سُرُرٍ رَفِيعةِ المسْتَوىٰ، عَظِيمَةِ الإبْدَاعِ والإتْقَانِ والنَّفَاسَة، مُتَقابِلين بوُجُوهِهم، يُؤَانِسُ بعْضُهُمْ بعضاً.

• ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾: أي: يَطُوفُ عليهم الوِلْدان المخَلَّدُون بخَمْرٍ في كَأْسٍ مأخُوذَةٍ مِنْ أنْهارِ الْخَمْرِ الّتي تجري في جنّاتِ النعيم.

الكَأْس: القدحُ ما دام فيه الخمر، ويُجْمَع على «أَكْؤُسٍ» و«كُؤُوس» فإذا لم يكن فيه خَمْرٌ فهو «كُوبٌ».

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: أي: من نَهْرِ خَمْرٍ يجري في الجنة، فيكون ظاهراً يَسْهُلُ التناول منه.

• ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿بَيْضَآءَ﴾: وصَفَ اللهُ عزّ وجلَّ خَمْرَ الجنَّةِ بِأَنّها بيضاء. قال الحسَن: خمر الجنّةِ أشَدُّ بياضاً مِنَ اللَّبن.

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: كلُّ عُنْصرٍ من عناصِرِها، وكُلّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِها تَمْنَحُ شارِبَها لَذّة، فَمِنْ حَقّها أنْ تُوصَفَ بأنّها عَيْنُ اللّذّةِ على سبيل المبالغة.

- ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: أي: لَيْسَ فيها عُنْصُرٌ مُسْكِرٌ يُذْهِبُ العقول، ويُسَبّبُ صُدَاعاً في الرُّؤوس، وقُدِّم ﴿فِيهَا﴾ لإفادة تخصيص خمر الجنة بنزع عنْصُرِ الإسكار منها.

- ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾: أي: ولا شاربوها يَسْكَرُون بسَبَب شُرْبهم لها، إذْ لَيْسَ فيها غَوْل، وجاءت هذه العبارة بمثابَةِ التأكِيد على أَنّ خَمْر الجنَّةِ لاَ غَوْلَ فيها، أي: ليس فيها مادَّةُ إسْكار، على الرُّغْمِ من وجُودِ لذَّةِ الخمر فيها.

- ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾: أي: وعِنْدَهُمْ حُورٌ مُهَيّآتٌ لِنَعِيم أهْلِ الجنَّةِ، قَاصِرَاتُ الطَّرْف علىٰ أزْواجِهِنَّ، فَلا يَنْظُرْن إلى غيرهم، ولاَ يُرِدْنَ غَيْرَهم، لأنّ قُلُوبَهُنَّ ونُفُوسَهُنَّ مَمْلُوءَةٌ بحُبِّ أزواجِهِنَّ في الجنة.

﴿عِينٌ﴾: جَمْعُ «عَيْنَاء» وهي ذَاتُ الْعَيْنِ الحسَنَةِ الواسعة.

- ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾: أي: كأنّ ألوانَ جُلُودِهِنَّ بَيْضُ النَّعَام، إذْ تُكِنُّهَا النعامة بالرّيش من الرّيح والغبار، فلَوْنُهُ أبْيَضُ في صُفْرَةٍ، وهو أحْسَنُ أَلْوانِ النّساء. وقيل: كبَياضِ الْبَيْض قَبْلَ أنْ يُقْشَرَ وتَمَسَّهُ الأيْدي.

والمرادُ أنّ أَلْوَانَ أجسادِهِنّ أجْمَلُ أَلْوَانٍ تَكُونُ عليها جُلُود النساء، وأنّ نضارَتَها وبهاءَهَا أبْدَعُ مَا يُمْكِنُ أنْ يَتَصَوَّر المنعَّمُون.

بَعْدَ هذا الوصْفِ لضِيافَةِ أهْلِ الجنَّةِ في الجنَّة، جاء في مقابِلة وصْفُ الضيافةِ التَّهكُّمِيَّةِ للظّالمين في دار العذاب النار.

فقال الله عزّ وجلَّ:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾؟! أي: أذَلِكَ الّذي ذكَرْناه آنفاً مِنْ ضِيَافَةِ أصْحَاب الجنَّةِ في الجنَّةِ، بما يَلَذُّ لَهُمْ ويُسْعِدُهم ويَطيبُ لهم،

خَيْرٌ أمْ مَا يَنَالُهُ الظالِمُون مِنْ أنواعِ عذابٍ في الجحيم، ومِنْهُ الطَّعَامُ الّذِي يُعَدُّ لهم، وهو ثمَرُ صِنْفِ شَجَرٍ يُسَمَّىٰ الزَّقُّوم».

في هـٰذِهِ الآية اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ به اسْتثَارَةُ مِحْورَي الطَّمَع والخوفِ معاً، وتَهْيِيجُهُمَا في نُفُوسِ الكَفرَةِ المكَذِّبين، إنْ كانَتْ لدَيْهم ألْبَابٌ قابِلَةٌ لِأَنْ تَسْتَجِيبَ، ولَوِ استجابَةً من الدَّرجات الدنيا، فإنْ لَمْ يَسْتجيبوا لأنَّهُمْ مَرَدُوا على الكُفْر، وتحجَّرَتْ قُلوبُهم ونُفُوسُهم فصارت كالحجارَةِ أو أشَدَّ قَسْوَةً، فإنّ في الناسِ آخرين لم يُؤْمِنُوا بَعْدُ، ولكِنَّ لدْيهم استعداداً لِأَنْ يَسْتجيبوا استجابةً إراديَّةً لدَعْوَةِ الحقّ، عن طريق استِثَارَة مِحْوَرَي الطَّمَعِ والْخَوْفِ في نفوسِهم، بما جاء في هذا البيان ونحوه.

﴿نُزُلًا﴾: **النُّزل**: بضم الزاي وإسكانها ما يُعِدُّ الرَّجُلُ لضيفه من طعام وغيره، إذا نزل به، ويشمل المكانَ وأنواعَ الإكرامات الأخرى غير الرزق.

- ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣﴾:

أصْلُ معنَى «الفِتنة» الصهر بالنار للمعْدِن، كالّذهب والفضّة، لتمييز رَديئه من جَيِّده، وشاعَ استعمالُ اللفظ بمعنى الاختبار والامتحان، ويُطْلَقُ ويرادُ به التعذيبُ بالنار، أو بما يُشْبِهُ التعذيبَ بالنار. وهذا المعنى الأخير، هُوَ المعنى الأكْثَرُ مُلاءمَةً لِلآيَة هُنَا، لأنّ شجرة الزَّقُّوم في جهَنَّم شَجَرَةٌ يُعَذَّبُ بالأكْلِ مِنْ ثَمَرِهَا الظَّالِمُونَ، وهُمْ يُلْجَؤون إلى الأكْل مِنْها، لشدّة الجوع الذي يُحِسُّون بآلاَمِه في بُطونهم، ولا يَجِدُونَ غَيْرَ ثَمرِهَا يأكلونَ منه فِي الدَّركاتِ الّتي هم فيها من جهنم.

﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾: المرادُ بالظالمين هنا، الظّالِمُونَ من دَرَكَاتِ الكُفْرِ، لا الظالِمُونَ لأنْفُسِهم بكَثْرَةِ المعاصِي من المؤمنين.

- ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٤﴾: أي: تنبُتُ في قَعْرِ الجحيم، دارِ عذاب المجرمين الكفرة المكذبين بيوم الدّينِ، عذاباً دائماً.

ولا عجب أنْ يُنْبت اللهُ عزّ وجلَّ شَجَرَةً في دار العذاب يَوْمَ الدين، فهو يخلق ما يشاء، ويجعل لما يَخْلُقُ الأسْبَابَ الملائمة للظروف الَّتي تُحِيطُ بالمخلُوق الّذِي يخلُقه.

على أنّ الجحيم دَارَ عَذَابِ المجرمين ليْسَتْ كُلُّها لَهَباً في كُلّ مواضِعها، إنَّما تُحيطُ بها النار من كلّ جوانبها، ففيها مواضِعُ حارَّةٌ شَدِيدَةُ الحرارة ولٰكِنْ لَيْسَ فيها نارٌ مُلْتَهبَة، وتخْتَلِفُ أمَاكِنُهَا ودَرَكَاتُها بحَسَبِ مَقَادِيرِ وَنِسَبِ معاصي المعَذَّبين فيها، وعُصَاةُ المؤمنين مَحْمِيُّونَ فيها مِنَ الْحَرِيق، وعذابُهُمْ فيها على مَعَاصِيهم يكُونُ بما دُونَ الْحَرِيق، لقول الله عزّ وجلَّ في سورة (اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول):

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾: أي: لاَ يَحْترِقُ بِنَارِها إلّا الأَشْقَىٰ الْكافِرُ الَّذِي كَذَّبَ وتولّىٰ.

- ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾: طَلْعُ الشَّجَرِ مَا يَطْلُعُ فيه مما يُؤْكَلُ مِنْ ثَمَراته. وقَدْ وصَفَ الله عزّ وجلَّ طَلْعَ شَجَرَةِ الزَّقُّوم بأنَّهُ يُشْبِهُ رُؤُوسَ الشَّياطين، وفي هٰـذا إحالَةٌ علَىٰ مُتخيَّلٍ في أذْهان المخاطَبِينَ لرؤوسِ الشَّياطين، إذْ يتخيَّلُونَها بأقْبَحِ صُورَةٍ، وأشنع منظر.

- ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: إنَّ الظالمين سَوْفَ يَجِدُونَ أنفُسَهُمْ مُلْجَئِينَ إلى الأكْلِ مِنْ طَلْعِ صِنْفِ شجرة الزَّقوم، لشِدَّةِ الجوع الّذِي تشتَدُّ آلامُهُ في بُطونهم، ولاَ يجدون في الجحيم شيئاً آخر يأكُلونه أخف منْهُ أذىً وإيلاماً.

وبما أنه لا يُغْنِي من جُوع، فإنّهم يمْلَؤُون منْهُ بُطُونَهم، عسَىٰ أنْ يكونَ ملْؤُها سبباً في إسْكاتِ جُوعِ بطونِهم.

- ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ امتلاءِ

بُطونهم من طَلْعِ شجر الزّقوم، يَشْتَدُّ ظَمَؤُهم شدّةً عظيمة، فلا يجدونَ ماءً بارداً ولا شراباً حَسَناً يُرْوُون به ظَمَأَهم، بل يَجِدُونَ حَميماً، أيْ: ماءً شديد الحرارَةِ، قَدْ أُعِدَّ لَهُمْ لِيَشْرَبُوا مِنْه، فَيَشْرَبُونَ منه مُلْجَئين، لتخفيف لهيب ظمئهم، فيَدخل هذا الماء الحميم إلى بُطونِهِمْ، فَيَخْتَلِطُ بما أَكَلُوا مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: **الشَّوْبُ** في اللُّغَة ما اخْتَلَطَ بغيره، ودَلَّ نَصُّ سورة (الواقعة) إلى أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ على ما أَكَلُوا مِنَ الزّقوم، من الحميم، وهو الماء الشديد الحرارة، فجاء هذا النصّ من سورة (الصّافات) مبيّناً أنَّ الحميم يَدْخُلُ إلى بُطُونِهِم إذا شَرِبُوه فيكونَ مع ما أكلوا من الزَّقُّوم شَوْباً، أي: مختَلِطاً بَعْضُه ببعض.

هذا الْحَمِيمُ مع الزَّقُّوم الذي يَغْلي في البطون، لا يَدْفَعُ عنهم شيئاً من الظَّمأ وحَرَارَتِه.

- ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾: دَلَّت هذه الآية على أنَّ جُوعَهُمُ الشديدَ يجعلُهم يَرْحَلُونَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ في الجحيم، إلى قاعِها حيث مَنَابتُ شجر الزّقُّوم، لِيَأْكُلُوا مِنْه، وعلى أنّ ظَمَأَهم الشديد يجعلُهُمْ يَرْحَلُونَ إِلَىٰ حَيْثُ يُوجَدُ الماء، فَلا يَجِدُونَ إلَّا مَاءً حَميماً، فَيَشْرَبُونَ مِنْهُ شُرْبَ الْهِيم، فيخْتَلِطُ في بُطونهم بما أكَلُوا من شجر الزّقُّوم، لكِنَّهُمْ يَجِدُونَ مَوَاقِعَ شجر الزّقّوم، ومواقع الماء الحميم أشَدّ مِنْ مَنازِلِهِمْ في الدَّرَكَات التي هُمْ فِيها من الجحيم، فَيَرْجِعُونَ إلى دركاتهم فيها، حتَّىٰ تُلْجِئَهُمُ الضَّرُورة إلى رِحْلَةٍ أخرى لْلأكْلِ مِنْ شَجَرِ الزُّقُّوم، وللشُّرْب من الحميم.

فأَضَاف هذا النصّ من سورة (الصّافات) إضافات لَمْ تَأْتِ في النّصّ الأول الذي من سورَة (الواقعة).

وبهذا تَظْهَرُ لَنا صُورةٌ من صُورِ التكامل في النصوص القرآنية الوارِدَةِ في مختِلِف السُّوَر حَوْلَ مَوْضُوعِ واحد.

النصّ الثالث:

الآيات من (٤٣ ـ ٥٠) من سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول).

قال الله عزّ وجلَّ:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

(٤٥) • قرأ ابْنُ كثير، وحَفْص، ورُوَيْس: **[يَغْلِي]** على أنّ الضمير يعود إلىٰ الطعام.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[تَغْلِي]** على أنّ الضمير يَعُود إلى شجرة الزَّقوم.

ومُؤَدَّىٰ القراءتين واحد، وهما من التفنُّن في التعبير.

(٤٧) • قرأ نافع، وابن كثير، وابْنُ عامر، ويعقُوب: **[فَاعْتُلُوهُ]** بضم التاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[فاعْتِلُوهُ]** بِكَسْر التاء.

القراءتان وجهان عَرَبيان لنُطْق الكلمة، يقال لغةً: «عَتَلَهُ» يَعْتِلُهُ، ويَعْتُلُه».

(٤٩) • قرأ الكِسَائي: **[ذُقْ أَنَّكَ]**. أي: ذُقْ لِأَنَّكَ كنْتَ تَزْعُمُ في الدنيا أنَّكَ العزيز الكَرِيم.

وقرأ باقِي القراء العشرة: **[ذُقْ إِنَّكَ]** على الابتداء، تهكُّماً به، إذْ كَانَ مستكْبراً عن اتّباع الرَّسُول، زاعماً أَنَّهُ عَزِيزٌ كريم في قومه، فلا يليق به اتّباع رَسُولِ بشَرٍ مثله.

تمهيد:

جاء في هـٰذَا النصّ ما لم يأتِ في النصَّين السَّابقين، فالتكامُلُ بَيْنَهُ وبينهما واضح، وفيه بيان أنّ شجرة الزّقوم طعام الأَثيم المسرفِ في آثامِه، إذْ تكون طعامَهُ في الجحيم دَارِ عذابه، وأنّ المأكُولَ من شجرَةِ الزّقوم يكونُ كالْمُهْلِ يغْلِي في البطون، وأنّ هذا الأثيم المنحطَّ بآثامه إلى دَرَكاتِ الكَافِرين المجرمين، يأمُرُ الله الملائكةَ المكلَّفِين المأمورين بتَعْذِيبهِ أنْ يَحْمِلُوه مُهَاناً إلى وَسَطِ الجحيم، وأنْ يَصُبُّوا فَوْقَ رَأسِهِ من الماء الحارّ الشّدِيد الحرارة تعذِيباً له، وأن يَقُولُوا لَهُ: ذُقْ هذا العذاب، جزاء ما كُنْت تَزْعُمُهُ لِنَفْسِك من أنَّكَ أنت العزيز الكريم لا غَيْرُك، مُسْتكبراً عن الإيمان الذي أمَرَكَ به رَبُّك، وعَنِ الْعَمَل بمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ من شرائع وأحْكَامِ وَوَصَايا في الدّين الذي اصْطَفاهُ لهم.

التدبّر:

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾: أي: سَوْف يكُونُ طَعامُ الْأثِيمِ في الجحيم يَوْمَ الدِّين، مِمَّا يُؤْكل مِنْ صِنْفِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم، الّتي سبَقَ بيانٌ تَعْرِيفِيٌّ بها.

﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: هو المسْرِفُ الغالي في ارتِكَاب الذنُوب والآثام مِنْ دَرَكَةِ الكفر، فهو يختصّ بالكافر الفاجر الذي كان في حياة الامتحان يُكذّبُ بيَوْم الدّين، وبكلّ الأحداث الّتي تجري فيه.

قول الله تعالى:

﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾: في هاتَيْن الآيتَيْن إضافةُ وصْفٍ للمأكُول مِنْ صِنْفِ شجرة الزَّقُّوم، من أنَّهُ كالْمُهْل،

وأنَّه إذَا دَخَلَ بُطونَ آكليه في الْجَحيم صَارُوا يَشْعُرُونَ بأنَّه يَغْلِي فيها كَغَلْيِ الماء الحارّ.

﴿كَالْمُهْلِ﴾: **الْمُهلُ**: يطلَقُ في اللّغة على الْقَطران السَّائل - والمعْدِن الذّائب - ودُرْدِيّ الزَّيت (أي: عَكَرِ الزيت).

﴿يَغْلِي﴾: أي: يَفُورُ من شِدَّة الحرارة، يقال لغة: «غَلَتِ الْقِدْرُ، تَغْلِي، غَلْياً، وغَلَيَاناً» أي: فارَتْ وطفَحَتْ بقوة الحرارة.

قول الله تعالى:

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه الآياتُ مقتطَعَة من حَدَثٍ مستقبليٍّ يجري يوم الدين، يَتَعَلَّقُ بالْأَثِيم، الّذي جعَلَ اللهُ عزّ وجلَّ طعامَهُ في الجحيم، مِمّا يُؤكَلُ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقوم.

يقال يومئذٍ للملائكة المكلَّفِين أنْ يُوصِلُوهُ إلى دَرَكَةِ عذابِه في الجحيم:

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾: أي: خُذُوهُ من المكان الّذي ينتظر فيه تنفيذ قضاء الله بشأنِه، وهو تَعْذِيبُه في دَرَكَةِ عذابِه في الجحيم، فجرُّوه جرّاً عَنِيفاً مَسْحُوباً على ما يُلاقي جِسْمُهُ مِنْ أرْضِ المحشر، فاحْمِلُوه.

يقال لغة: «عَتَلَهُ، يَعْتِلُه، عَتْلاً» أي: جرَّهُ جرّاً عَنِيفاً، وجَذَبَهُ فَحَمَلَه، كما تُجَرُّ وتُحْمَلُ الأشياء المهينَة.

ولا بُدَّ أن يُدْرِكَ المتدبّر مَا فِي هـٰذَا الْعَتْلِ مِنْ إهانَةٍ وإذْلاَلٍ وتَعذيب.

﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: فأوْصِلُوهُ إلى وسط الجحيم واطرُحوه. قال الزَّجاج: سواءُ كُلِّ شيءٍ وَسَطُه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾: دَلَّ حرف العطف (ثُمَّ) علَىٰ وُجُودِ فَاصِلٍ بَعِيد بَيْنَ مَكَانِ انتظارِه في المحشر، ومكَانِ تعذيبه في وَسَط الجحيم.

وصَبُّ الْمَاء ونحوه، سَكْبُهُ حَتَّىٰ يَدْفَعَ بَعْضُه بَعْضاً، وفي كُلِّ جديدٍ فيه إضافة عذاب إذا كان المرادُ به التعذيب.

﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾: أيْ: من الماء الحارِّ الذي يَغْلِي، وفيه تَعْذِيبٌ لَهُ. ولمّا كانَ الغرضُ من صَبِّ الحميم فوْقَ رَأْسِهِ إيْصَالَ العذابِ إلَيْه، كان التَّعْبيرُ بالصَّبِّ من عذاب الحميم، أوْلَىٰ من التَّعْبيرِ بالصّبّ من الحميمِ الذي فيه عذاب له. والإضافة في ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ هي على تقدير حَرْف «مِنْ» أيْ: من عذاب مِن الحميم.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾: أي: يقالُ لَهُ مَعَ صَبِّ الْحَمِيم فَوْقَ رَأْسِهِ الّذِي يَعُمُّ بَدَنَهُ وهُوَ قائم، ذُقْ هذا العذابَ الذي سبَّبَهُ لَكَ كُفْرَكَ بِمَا جَاءَكَ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، إذْ كنْتَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ في الحياة الدُّنيا، وكُفْرُكَ وجُحُودُكَ الحقَّ سبَّبَهُ لَكَ تَوَهُّمُكَ أَنَّكَ أنْتَ وحْدَكَ الْعَزِيزُ الكريم، فَلا يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَتَّبِعَ رَسُولاً مِنْ عِنْدِ رَبِّك، وأَنْ تَعْمَلَ بِكِتَابٍ أنزلَهُ لِيَعْمَلَ عبادُهُ المكّلفُونَ بما جاءَ فِيه من بياناتٍ لهم، ولِيَسِيرُوا على صِرَاطِه المستقيم.

جاء في سبب النزول مَا أَخرَجَ ٱبن مَرْدَوَيْهِ عن ابْنِ عباس قال:

مَرَّ أبو جَهْلٍ بِرَسُولِ الله ﷺ وهو جالس، فلمَّا بَعُدَ، قال رسُولُ الله ﷺ:

«أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ».

فلمَّا سَمِعَ أبو جَهْلٍ قَال: مَنْ تُوعِدُ يَا مُحَمَّد؟.

قال: «إيَّاكَ».

قال: بِمَ تُوعِدُني؟.

قال: «أُوعِدُكَ بالْعَزِيزِ الْكَرِيم».

فقال أبو جهل: أَلَيْسَ أَنَا الْعَزِيزُ الْكَرِيم؟.

فأنزل الله عزّ وجلَّ الآيات من (٤٣ ـ ٤٩) من سورة (الدخان).

جاء في العبارة القرآنية، وفي عبارة أبي جهل بحَسَب هذه الرّوايةِ، ما يَدُلُّ على أنّ المعذَّبَ بصَبِّ الحميم فَوْقَ رأسِهِ، قد حَصَرَ وصْفَي: «العزيز الكريم» بنَفْسِه، والدَّالُّ علىٰ الْحَصْرِ تَعْرِيفُ طَرَفَي الْإسناد.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾: هـٰذِهِ عبارَة مقتطَعَةٌ مِمَا سَوْفَ يُقَالُ لِلْمُعَذَّبين الخالِدِينَ في الجحيم، وهم يَذُوقونَ العذابَ فيها.

﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾: أي: مَا كُنْتُمْ به تُجَادِلُونَ على مَذْهب الشّكِّ والرِّيبة، لإبطال الحقّ الَّذِي جاءكم به رُسُلُ رَبّكم، مع أَنَّهُ لا مِرْية فيه، أي: لاَ شك فيه.

الْمِرْية: الجدلُ ـ والشَّكّ. ويقال: «مَارَاهُ مُمَارَاةً وَمِراءً» أي: جادله وناظره. و«تَمارَىٰ الْقَوْم» أي: تجادَلُوا.

و«التَّمارِي، والْمُمَاراة» المجادلَةُ على مذهب الشّك والرّيبة.

يقال للمناظَرَة: «مُمَارَاة» لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ من المتَنَاظِرَيْن يَسْتَخْرِجُ ما عِنْدَ صَاحِبِهِ وَيَمْتَرِيه، كما يمْتَرِي الْحَالِبُ اللَّبَنَ مِنَ الضّرْعِ.

وأصل المادّة تَدُورُ حولَ اسْتخراجِ الشيء بالملاينَةِ والإيناس، ومِنْهُ المسْحُ علَىٰ ضَرْعِ الناقةِ لتَأْنَسَ فيَدُرَّ لَبَنُها.

مادّة «زَقَمَ» في اللُّغة:

جاء في «لسان العرب» لابن منظور ما يلي:

(١) «زَقَمَ الشّيءَ يَزْقُمُهُ زَقْماً» أي: ابْتَلَعَه.

(٢) «الزَّقْمُ» اللَّقْم، هما بمعنَى واحد. يقال لغة: «لَقِمَهُ يَلْقَمُهُ».

(٣) «التَّزَقُّمُ» التَّلَقُّم. والاسمُ: «الزَّقْم» كاللَّقْم.

(٤) «زَقَمَ اللَّحْمَ» أي: بَلَعَه، بفتح اللّام وكَسْرِها.

(٥) «أَزْقَمْتُه الشَّيْءَ» أي: أبْلَعْتُهُ إيَّاهُ.

(٦) عَنْ ثَعْلب: «الزَّقُّومُ» كلُّ طعام يقْتُل، **والزَّقْمَةُ**: الطَّاعُون أيضاً.

(٧) «الزَّقُّوم» من «الزَّقْم» وهو اللَّقْمُ الشديد، والشربُ المفرط.

(٨) «الزَّقُّوم»: الْحُلْقُوم.

وبهذا انتهى الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (الواقعة) والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

سورة الشعراء

٢٦ مصحف - ٤٧ نزول

وَهِيَ مَكّيّةٌ وَقِيلَ: إلَّا:

(١) الآية ١٩٧ فَهِيَ مَدَنِيّة

(٢) والآيات مِن (٢٢٤) وَحَتَّىٰ غَايَةِ الآيَةِ (٢٢٧) آخر السُّورَة

(١)

نصّ السّورة وما فيها من فرش القراءات

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ
أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ
أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ
إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ
بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ
زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ

---

١ ـ • قرأ أبو جعفر: [طَا، سين، ميم] بالسكت على الأحرف الثلاثة بدون تنفّس.

٤ ـ • قرأ أبو جعفر: [إِنْ نَشَا] بالألف بدل الهمزة من «نَشَأْ» في الوصل والوقف. وكذلك هشام، وحمزة في الوقف فقط.

٤ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [نُنْزِلْ] من فِعْلِ: «أنْزَل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [نُنَزِّلْ] من فعل: «نَزَّلَ».
«أنزَلَ» و«نَزَّل» مُتكافِئَان.

٤ ـ • أبْدَلَ الهمزة الثانية ياء: [السَّمَاءِ ءَايَةً] نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورُوَيس.
وقرأها باقي القراء العشرة همزة محققة.

٥ ـ ٦ • ضم يعقوب هاء الضمير من [يَأْتِيهُمْ] و[فَسَيَأْتِيهُمْ] وكسرها الباقون.

١٠ ـ • أبْدَلَ الهمزة من [ائْتِ] في الوصل: ورشٌ، والسوسي، وأبو جعفر. وحقّقها باقي القرّاء العشرة.
وأمّا في الوقف فكلّ القرّاء يبتدئون بهمزة وصل مكسورة، مع إبدال الهمزة الساكنة ياءً مدّيّة.

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى
فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ
﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ
سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ
﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا
خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ
نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ
﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

---

١٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ أَخَافُ**] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

١٢ ـ ١٤• قرأ يعقوب: [**يُكَذِّبُونِي ـ يَقْتُلُونِي**] بإثبات ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.
وقرأهما باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم: [**يُكَذِّبُونِ ـ يقتُلونِ**].

١٣ ـ • قرأ يعقوب: [**وَيَضِيقَ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقَ لِسَانِي**] بنصب الفعلين، عطفاً على [**أَنْ يُكَذِّبُونِ**] المنصوب.
وقرأهما باقي القراء العشرة بالرَّفع، على الاسْتِئْناف.

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ (٢٩) قَالَ
أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ (٣٠) قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٞ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا
تَأۡمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦)
يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ
يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ
لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ

---

٣٠ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر، [جِيتُكَ] بإبدال الهمزة ياء، في الوصل والوقف، وكذلك قرأها حمزةُ في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [جِئْتُكَ] بالهمزة.

٣٦ ـ • قرأ قالون، وابن وردان: [أرجِهِ] باختلاس كسرة الهاء.
وقرأها ورْش، والكسائي، وابن جَمَّاز، وخلف في اختياره: [أَرْجِهِ] بكسر الهاء مع صلتها.
وقرأها ابنُ كثير، وهشام: [أرجِئْهُ] بإثبات الهمزة، وضمّ الهاء، مع إشباع الضمّ.
وقرأها أبو عمرو ويعقوب: [أرجِئْهُ] أيضاً ولكن باختلاس الضم.
وقرأها ابن ذكوان: [أَرْجِئْهِ] بإثبات الهمزة، وكسر الهاءِ مع الاختلاس.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَرْجِهْ] بترك الهمزة، وإسْكان الهاء. وهي وُجُوهٌ عربيّةٌ من الأداء.

٣٩ ـ • قرأ هشام، والكسائي، ورُوَيس: [قِيلَ] بإشمام كسْرَة القاف. وقرأها باقي القُرّاء العشرة بالكَسْرَة الخالصة.

٤٢ ـ • قرأ الكسائي: [نَعِمْ] .

=

إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾
فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ
﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ
ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ
ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ
خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نعَمْ]**. فَتْحُ العين وكَسْرُها وجهان عربيان لنطق كلمة «نعم».

٤٥ ـ • قَرَأ حَفصٌ: **[هِيَ تَلْقَفُ]**. وقرأها البَزّي: **[هِيَ تَّلَقَّفُ]** بتشديد التاء والقاف في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[هِيَ تَلَقَّفُ]** بتشديد القافِ فقط.

وبين التشديد وعَدمهِ تكامل في أداء المعنى المراد.

٥٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وجعفر، **[أَنِ ٱسْرِ]** بوصل همزة «أَسْرِ» من فعل «سَرَىٰ» ويلزم منه كسْرُ نون «أن» في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[أَنْ أَسْرِ]** بقطع الهمزة وإسكان النّون.

٥٢ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[بِعِبَادِيَ إِنَّكُم]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكانها: **[بِعِبَادِي إِنَّكُمْ]**.

٥٦ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وهشَام، وأَبو جَعْفَر، ويعقوب: **[حَذِرُونَ]** جَمْعُ «حَذِر» مبالغة «حاذر».

=

فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا
تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ
مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ
ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ
﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا

= وقرأها باقي القراء العشرة: [حَاذِرُونَ] جمع «حَاذِر». وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٥٧ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وابن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونَ] وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَعُيُونِ] بضم العين. وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٦٢ ـ • قرأ حفص: [مَعِيَ رَبِّي] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٦٢ ـ • قرأ يعقوب: [سَيَهْدِينِي] بإثبات ياء المتكلم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بِحَذْفها، وهو من الإيجاز في النطق.

٦٤ ـ • وقف رُويس بهاء السّكت في [ثَمَّ].

٦٨ ـ • قرأ قالُون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهْو] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [لَهُوَ] بضمها.
وهما وجهان عَرَبيّان لنطق الكلمة.

٦٩ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.
وهما وجهان عربيّان.

فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ
يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ
﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ
ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى
خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا
مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ
لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ
فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ
لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ
لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾
وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ
أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ
﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾

---

٧٧ - ● قرأ نافع وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عَدُوٌّ لِيَ إِلاَّ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بإسكانها.

٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١● قرأ يعقوب: [يَهْدِينِي - ويَسْقِينِي - ويَشْفِينِي - ثُمّ يُحْيِينِي] بإثبات ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذْفِ ياء المتكلّم، وهو من الإيجاز في النُّطق.

٨٦ - ● قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعفر: [لِأَبِيَ إِنَّهُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان.

قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
(٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ
(٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا
كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١)
قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى
لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ
مُّبِينٌ (١١٥) قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦)
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى

---

١٠٨ و١١٠● قرأ يعقوب [وأطيعُوني] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحَذْفها.

١١١ ـ ● قرأ يعقُوب: [وَأَتْبَاعُكَ] جمْعُ «تَابع».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [واتَّبَعَكَ] فعلاً ماضياً.
ومؤدّي القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

١١٥ ـ ● قرأ قالون [إنْ أنا إلاَّ] بإثبات ألف «أنا» وصلاً، في إحدىٰ روايتَيْن له.
وقرأها باقي القراء العشرة بحذفِ الألف، وهو الوجْه الثاني لقالون.

١١٧ ـ ● قرأ يعقوب: [كَذَّبوني] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القرَّاء العشرة: [كَذَّبونِ] بحذف ياء المتكلم.

وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ
ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ
(١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ
(١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧)
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ
وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

---

١١٨ ـ ● قرأ ورْشٌ، وحفصٌ: [**وَمَنْ مَعِيَ مِنْ**] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٢٢ ـ ● قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [**لَهْوَ**] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بضمّ الهاء.
وهذا حكم هذا اللفظ حيث ورد، مع وقف يعقوب له بهاء السكت.

١٢٦ ـ ● قرأ يعقوب: [**وَأَطِيعُونِي**] بإثبات ياء المتكلّم وصْلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذفها، وهو من الإيجاز في النطق.

١٢٧ ـ ● قرأ نافع، وأبو عَمرو، وابْن عامر، وحفْص، وأبو جعفر: [**إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ**] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان، وكذلك في الآية (١٠٩).

١٣٤ ـ ● قرأ ابن كثير، وابن ذكْوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [**وَعِيُونٍ**] بكسر العين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وعُيُونٍ**] بضمّ العين.

١٣٥ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمْرو: [**إِنّيَ أَخافُ**] بفتح ياء المتكلم.

=

عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ
﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ
ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا
هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟

= وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان: [إنِّي أخافُ].

١٣٧ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وخلف: [خُلُقُ] بضمّ الخاء واللّام.
وقرأها باقي القرّاء العشرة [خَلْقُ] بفتح الخاء وإسكان اللّام.

١٤٤ ـ ● قرأ يعقوب: [وَأَطِيعُونِي] بإثبات ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَأَطِيعُونِ] بحذفها، وهو من الإيجاز في النطق.

١٤٥ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

١٤٧ ـ ● قرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونٍ] بكسر العين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَعُيُونٍ] بضمّ العَيْن.

١٤٩ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [فَرِهِينَ] جمع «فَرِهٍ» من فعل: «فَرِهَ، يَفْرَهُ، فَرَهاً، فهو فَرِه» بمعنى: بَطِرَ وأَشِر.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَارِهِينَ] جمع «فَارِهٍ» من فعل: «فَرُه، يَفْرُهُ، فراهةً، وفُرُوهة، فهو فاره»: أي: خفَّ ونَشِط، وحَذِقَ ومَهَر.
وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد، إذْ كانوا نشيطينَ أهل حِذق ومَهارة، وكانوا بَطِرينَ مُسْتَكْبِرين.

ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾
مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا
فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا
كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾
وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ
رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ
يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ
﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۙ
﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا
عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ

---

١٥٩ ـ ● قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بضمها: [لَهُوَ].

١٧٣ ـ ● قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.

=

أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ
أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾
۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟
إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن
نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ

= وهما وجهان عَرَبيان.

١٧٦ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: **[أَصْحَابُ لَيْكَةِ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَصْحَابُ الأَيْكَةِ]**.

١٨٢ ـ ● قرأ حفصٌ، وحمزَة، والكِسائِيّ، وخلَف: **[بالْقِسْطَاسِ]** بكَسْرِ القاف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بالْقُسْطَاسِ]** بضمّ القاف.
والقراءتان وجْهان عربيّان لنُطْقِ الكلمة.

١٨٧ ـ ● قرأ حفصٌ: **[كِسَفاً]** بفتح السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[كِسْفاً]** بإسْكَان السّين. «كِسَفاً»، و«كِسْفاً» جمع «كِسْفَة» وهي القطعة من الشيء.
فالقراءتان متكافئتان.

١٨٨ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: **[رَبِّيَ أَعْلَمُ]** بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها الباقون بإسكان ياء المتكلّم.
وهما كما عرفنا وجهان عربيان.

عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾
وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ
بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾
ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ
يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾

---

١٩٣ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وحفص، وأبو جعفر: [**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأمِينَ**] أي: نَزَّلَ الله عزّ وجلّ بالقرآن الرُّوحَ الأمينَ جبريل.

وبيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

١٩٧ ـ ● قرأ ابن عامِر: [**أوَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ**] برفْع «آيَةٌ» على أنّها فاعِل أو اسم «تكُنْ» التامة، والمصدر المؤوّل من: [**أنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إسْرَائيل**] بدل من الفاعل، أو خبر «تكُنْ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أوَ لَمْ يكُنْ لَهُمْ آيَةً**] بنَصْب «آيَةً» على أنها خبرُ «تكُنْ» واسمها المصدر المؤوّل من [**أنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إسرائيل**].

ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾
وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ
لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي
بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾
ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ
﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ
كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا
يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ
كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَيَّ
مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ .

---

٢١٧ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [فَتَوَكَّلْ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَتَوَكَّلْ].

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فالعطف بالفاء للإرشاد إلى ترتيب التوكّلِ على معصيتهم له.

والعطف بالواو للإرشاد إلى التوكّل على الله دواماً.

(٢)

ممّا وَرَد في السُّنّة بشأن سورة (الشعراء)

جَاء عِنْدَ القرطبيُّ في تفسيره عن الْبَرَاءِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ أعْطَانِي السَّبْعَ الطِوالَ مَكَانَ التَّوْرَاةِ، وأعْطَانِي المِئِينَ مَكَانَ الْإنْجِيلِ، وأعْطَانِي الطّواسِينَ مَكَانَ الزَّبُور، وفَضَّلَنِي بالْحَوَامِيمَ والمفَصّلِ مَا قَرَأَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي».

الطواسين: وهي: ١ ـ «الشعراء» المبدوءة بـ (طَسِمّ). ٢ ـ و«النَّمْلُ» المبدوءة بِ (طَس) ٣ ـ و«القصص» المبدوءة بـ (طَسِمّ).

الحواميم: هي المبدوءة بـ (حَم) وهي ست سور: ١ ـ «غافر» ٢ ـ «فُصِّلَتْ» ٣ ـ «الشّورى» ٤ ـ «الدُّخَان» ٥ ـ «الْجَاثِية» ٦ ـ «الأحْقَاف».

* * *

(٣)

موضوع السّورة

(١) تُتَابعُ سورةُ (الشعراء) مُعَالجَةَ كفَّارِ مكَّة وما حَوْلَها، بحَسَب الطَّوْرِ الّذي كانوا فيه إبَّانَ تَنْزِيلِ هـٰذِهِ السورة، إذْ أَصَرُّوا علَىٰ تكْذِيب الرَّسُول محمّد ﷺ في نُبوّتِهِ ورِسالَتِهِ، وإذْ أَصرُّوا على التكْذِيب بالقرآنِ، وعلَىٰ عَدَمِ الإيمَانِ بِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالمين، وَوَصَفُوهُ بأنّه لَوْنٌ مِنْ أَلْوانِ الشِّعْرِ وأنَّ الجنَّ تُوحِي بِهِ إلَيْهِ، وإذِ اسْتَهْزَؤُوا بما اشتمَلْت عَلَيْه آيَاتُهُ مِنْ نُذُرِ الْعَذَاب والإهْلاَكِ المعجَّل، وبِنُذُرِ العذابِ الأليم الخالِدِ في دَارِ العذاب يَوْمَ الدِّين، بَعْدَ الْبَعْثِ والْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء بَيْنَ العباد.

وعلاج الكافِرِينَ حَوْلَ قَضِيَّتِي الإيمان بالرَّسُول محمّد ﷺ، والإيمان بالقرآن مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّ العالمين، ولَيْسَ بِشِعْر، ولا بكلامٍ تُوحي به الجنُّ للرَّسُولِ، قَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التنزيل، في عِدَّةِ سُوَرٍ وبأَسالِيبَ مُتَنَوِّعَة،

فَمِنْهَا مَا يتعَلَّقُ بِبَيَانِ كمالِ القرآن ومَجْدِهِ وإعجازِه وأَنَّهُ تَنْزِيل مِنْ رَبّ الْعَالَمِينَ، وأنَّ صِفَاتِ القرآنِ الإعجازيَّة تَتضَمَّنُ بُرْهَاناً قَطْعِيًّا عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوَّةِ الرسول وصِدْقِ رِسَالَتِه، ومِنْهَا مَا يَنْفِي عنه أَنَّهُ سِحْرٌ أو شِعْرٌ.

فجاءَ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) معالَجَةُ اتِّهَامِهِمْ للرَّسُول ﷺ بأَنَّهُ سَاحِر، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

وجاء في سُورَةِ (يَس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) نَفْيُ صِفَةِ الشّاعر عن الرَّسُول ﷺ، ونَفْيُ صِفَةِ الشِّعْرِ عن القرآن، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

وعرضَت السورة أمثلة من الأمم السابقة، وفي كلٍّ منها آيَةٌ واعظةٌ لمعاصِرِي التنزيل مِنَ الكافرين المعاندين وغيرهم.

(٢) وتتابعُ سُورَة (الشعراء) تَرْبِيَةَ اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ شِدَّةِ حِرْصِهِ على إيمانِ قومِهِ بما جاءهم بِهِ عن رَبِّهِ، ولا سِيمَا عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُون منهم، وبشأن اشتغال نَفْسِهِ حتى عُمْقِ فُؤادِه بالْهَمِّ والْغَمِّ والحزْنِ إذْ لَمْ يُؤْمِنُوا، والإحْسَاسِ بِمَشَاعِرِ الْأَلَمِ الشديد من أَجْلِهِمْ، خَوْفاً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُعَرِّضُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وعِنَادِهِم واسْتِكْبَارِهم لِعَذَابٍ وهَلَاكٍ مُعَجَّلَيْنِ إذْ يُجْرِي اللهُ عَلَيْهِمْ سُنَّتَهُ الّتي أجْرَاهَا في كُفَّارِ مُكَذِّبي رُسُلِ رَبِّهم من قَبْلِهِم، ولعذابٍ أَلِيمٍ دَائِمٍ خالِدٍ يَوْمَ الدِّين، في الجحيم دَار عذَابِ المجرمين.

وهَـٰذَا الإحساسُ النَّفْسِيُّ حتَّىٰ عُمْقِ فُؤَادِه جَعَلَهُ يَرْغَبُ في أَنْ يُرِيَهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ آيَةً مِنَ الخوارقِ تَجعَلُ قُلُوبَهُمْ تَخْضَعُ لها، وتَجعَلُ أَعْنَاقَهُمْ تُطَأْطِئُ لها ذُلّاً للهِ وانْكِسَاراً، وبذلِكَ تَلِينُ قُلُوبُهُمْ، ويُؤْمِنُون بما جاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ، وَيُسْلِمُونَ لَهُ طَائِعِينَ.

ومعالجَةُ نَفْسِ الرَّسُول ﷺ بَشأنِ هَمِّه وغمِّهِ الشديدَيْن من أجْلِ قومِه، وَلاَ سِيمَا عَشِيرَتُهُ الأقْرَبُونَ، قَدْ سبقَتْ في نجوم التنزيلِ في عِدَّةِ سُوَر بأسَالِيبَ مُتنَوّعة، فمِنْها مَا كان لِبَيَانِ وَظِيفَتِهِ في رِسَالَتِهِ، وأنَّها لاَ تتجَاوَزُ حُدُود التَّبْلِيغ والبيانِ والتذكير، ومَا يُرْشِدُه إلى تَفْوِيض الْأَمْرِ إلى رَبّه، الَّذِي يَهْدِيه سَواءَ سَبِيلِ دَعْوَتِه لِرَبّه، وإلى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ في أَمْرِهِ كُلِّه، مُراقباً دَواماً أَنَّ رَبَّهُ خَبِيرٌ بِذُنُوبِ عِبادِهِ، عَلِيمٌ بِمَا هُوَ الأحْكَمُ مِنَ احْتِمَالاَتِ مُعَامَلَتِهِ لعباده في رِحْلَةِ امْتِهَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

- فمِنْها قَوْلُ الله لَهُ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

* * *

(٤)

دروس سورة (الشعراء)

تشتمل هذه السُّورَةُ عَلَىٰ ثَلاَثَةِ دُرُوسٍ مُتَعَانِقَةٍ حَوْلَ مَوْضُوعٍ واحِدٍ. ضِمْنَ نظام شَجَرِيّ.

الدرس الأول (هو الآيات من ١ ـ ٩):

وقد تضمن ما يلي:

(١) مُتَابَعَة الحديث عَنِ الْقُرْآن الَّذِي جاء في نجوم التَّنْزِيلِ قبل سورة (الشعراء) وعَنْ أقوالِ المكَذّبين بأنَّه تنزيلٌ من ربّ العالمين، وإعراضِهم عَنْ كُلِّ تنزيلٍ مُحْدَثٍ مِنْ آياته وسُورِهِ، واسْتِهْزَائِهِمْ بما جاء فيه مِنْ وَعِيدٍ معجَّلٍ في الدنْيَا، أو مُؤَجَّلٍ إلَىٰ يَوْم الدّين، وإنذارِهم بأنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ في زمانٍ غَيْرِ بَعِيدٍ في الدنيا، تَحْقِيقُ أَنْبَاءِ مَا كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ، مِنَ انْتِصَارِ

الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوابه واتَّبَعُوهُ عَلَيْهِم، وهَزِيمَتِهِم مُنْكَسِرينَ أذِلَّاءَ، وهَلاَكِ مَنْ يَهْلِكُ مِنْهُمْ مُعَذَّبينَ.

مَعَ عَرْض دَلِيلٍ مِنْ أَدِلَّةِ إقناعِهم بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ، لِكَوْنِهِ المنْعِم عليهم بالرِّزق، إذْ يُنبتُ لهم في الأرْضِ مِنْ كلِّ صِنْفٍ كريم من أصناف نباتات الأرض، وهٰذَا يَدُلُّ علَىٰ قُدْرَتِهِ علَىٰ حِرْمانِهِمْ وإهلاكِهِمْ، عقاباً لهم على كُفْرِهم وتَكْذِيبهم رسُولَ رَبِّهِمْ، وتكذيبِهِمْ بِكِتَابِهِ القرآن الْمُبين.

(٢) مُتَابَعَة تَرْبِية الله عزّ وجلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، بشَأْنِ هَمِّه، وحُزْنِهِ الشَّدِيدِ، إذْ لَمْ يُؤْمِنْ قَوْمُهَ ولا سيما عَشِيرَتُهُ الأقْرَبُونَ بما جاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّه، خَوْفاً عليهم من عَذَابِ اللهِ المعجَّلِ في الدنيا، والمؤَجَّلِ إلَىٰ يَوْمِ الدِّين.

وفي هٰذِهِ المتابَعَةِ التَرْبَوِيَّةِ تَيْئِيسٌ لَهُ مِنْ أنْ يُؤْمِنَ أكْثَرُهُمْ مُسْتَقبلاً عَنْ طَرِيق إرادَاتِهِمُ الْحُرَّة، أي: فَلْيَكُفَّ عن شَغْلِ نَفْسِهِ وقَلْبِهِ بالْهَمِّ، والحزْنِ الشَّدِيدِ والغمِّ مِنْ أجْلِهم، فَقَدْ وَصَلُوا إلىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ منها، وعَلَيْهِ أَنْ يُوَجِّهَ طَاقَاتِ دَعْوَتِهِ إلى آخَرِين، لَدَيْهِم أمَارَاتُ الرَّجاء باسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوته.

* * *

الدّرس الثاني (هو الآيات من ١٠ ـ ١٩١):

وهو يشتمل علَىٰ لقطاتٍ من قِصَصِ سَبْعَةِ رُسُلٍ، سابقين وأقوامهم، وفي نهاية كلٍّ مِنْها تَكْرِيرٌ لما جاء في نِهايَة الدَّرْس الأوّل، تَعْقيباً على بيان حال كُبَراء كفّار مكّة وما حَوْلَها، المكذبين بإصرار ومعاندةٍ ومكابرة، من وصول أكثرهم إلَىٰ دَرَكَةٍ ميؤوس مَعَها من إيمانهم عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة، وهو قول الله عزّ وجلَّ خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾.

وتيسيراً في التَّصْنِيفِ قَسَّمْتُ هذا الدّرسَ إلى سبعةِ فُصُول:

الفصل الأول: مِمَّا يتَعَلَّقُ بمُوسَىٰ عَلَيْه السّلام وقومِه مِنَ الْمِصرِيّين.

الفصل الثاني: مِمَّا يتعلَّقُ بإبْراهيمَ عَلَيْهِ السلام وقوْمِه في العراق.

الفصل الثالث: مِمَّا يتعلّق بنوح عليه السَّلامُ وقَوْمِه.

الفصل الرابع: مِمَّا يَتَعلَّقُ بهُودٍ عليه السلام وقومه «عاد».

الفصل الخامس: ممَّا يتعلَّقُ بصَالحٍ عليه السّلام وقومه «ثمود».

الفصل السادس: مِمَّا يتعلَّقُ بلُوطٍ عليه السّلام وقومه «أهْلِ أرْضِ سَدُوم».

الفصل السابع: مِمَّا يتعلَّقُ بِشُعَيْب عَلَيْهِ السلام وقومه «أهْلِ مَدْين». و«أصْحَابِ الْأَيكة».

* * *

الدرس الثالث: (هو الآيات من ١٩٢ ـ ٢٢٧ آخر السورة)

هذا الدرس مُرْتبطٌ بالدَّرْسِ الأوّل من دُروس السورة، وفيه مُتَابَعَةٌ لِمَا جاء فيه.

- فجاء فيه الحديث عن القرآن الكريم.
- وجاء فيه توجيه تربَويٌّ للرَّسُولِ ﷺ.
- وجاء فيه متابَعَةُ مُعَالَجَةٍ للمقْصُودِين بالمعاجلة من مشركي مكَّةَ وما حولها، ورَدٌّ علىٰ بعض مزاعمهم الافترائيّة بشأن القرآن الكريم، وهي الّتي كانت تَتَرَدَّدُ على ألْسِنَةِ كُبَرائهم إبَّانَ تَنْزِيل السورة وَقَبْلَه.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الشعراء) وهو الآيات من (١ ـ ٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ تَرْبِيَةٌ من الله عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ، بشَأْن شِدَّةِ هَمِّهِ وغَمِّهِ وَحُزْنِهِ، خوفاً على قَومِهِ في مكَّةَ وما حولَها، ولا سيما عشيرتُهُ الأقْرَبُونَ، من أن لا يَكُونوا مستقبلاً مِنَ الّذين يُؤْمِنُونَ، ويتَّبِعُونَ هُدَىٰ اللهِ الذي أنْزَلَ لعباده، فيُعَرِّضُوا أنْفُسَهُمْ لعذَابِ أليم خالدٍ يوْمَ الدّين، في نار الجحيم دار عذَاب الْمُجْرِمين، مع ما قَدْ يَنْزِلُ بهم من عذابٍ وإهلاكٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدُّنيا، عقاباً لهم علَىٰ كُفرِهِمْ وعنادِهِمْ وإصْرارِهِمْ على بَاطِلِهِمْ، وتكْذِيبِهِمْ بالحقِّ المنزَّلِ مِنْ عِنْدِ الله رَبّ العالمين.

وفيه إشارةٌ إلى تَطَلُّع الرسول ﷺ ورغْبتِهِ في أنْ يُنْزِلَ الله عزّ وجلَّ على قَوْمِه آيَةً خَارِقَةً، تَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ خاضِعِينَ لسُلْطانها، وتَكونُ سبباً لإنقاذهم من عذاب النار يوم الدّين، إلَّا أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ لَمْ تقْتَضِ حكْمَتُه أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ خَارِقَةً لِعِلْمِهِ جلّ جلالُهُ، بأنّ المعْنيّين بِهَمِّ الرَّسُول وغَمِّه وحُزْنِهِ، قَدْ عَرَفُوا الحقَّ وجَحَدُوه، فَهُمْ لا يحتاجُونَ دَليلاً يُثْبتُ لهُم أنَّ القرآنَ حقٌّ مُنَزَّلٌ من عِنْدِ الله، وأنَّ محمّداً نبيٌّ ورسُولٌ صادِقٌ، وأنَّ كُلَّ ما

جاءَ به حقٌّ وصِدْقٌ، وإذْ عَلِمَ اللهُ عزّ وجلَّ أَنَّ الحكْمَةَ لاَ تَسْتَدْعي إنْزَالَ آيَةٍ مِمَّا تَطَلَّعَ الرَّسُولُ ﷺ إلى إنْزالِهِ، دُونَ تَصْرِيحٍ مِنْهُ بذلك، فإنَّ اللهَ لم يَشأْ إنْزَالَ شَيْءٍ ممَّا تطلَّعَ إلَيْهِ ورَغب فيه، فَعَدَمَ مشيئَتِهِ ذلِكَ دَليلٌ علَىٰ أنّ الحكمة تَسْتَدْعِي عَدَمَ تَحْقِيق هـٰذِهِ الرَّغْبَة.

وفي هذا الدَّرْسِ بيانُ أنَّ المعنيّينَ بِهَمِّ الرَّسُولِ وغَمِّهِ وحُزْنِهِ، قَدْ كَذَّبُوا جاحِدِين، مُصِرِّين علَىٰ بَاطِلِهم، واسْتَهْزَؤوا بالْأَنْبَاءِ الَّتِي فِيهَا وَعِيدٌ بانْتِصَارِ الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه عليهم، فقال الله عزّ وجلَّ لرَسُولِهِ مُطَمْئِناً لَهُ ولِلْمُؤْمِنِينَ، ومُنْذِراً للجاحدين المعنيّين بالمعالجة:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾.

وفي هَـٰذا الدَّرْس تذكِيرٌ للمعْنِيِّينَ بخطابِ غَيْرِ مُوجَّهٍ لهم، إعراضاً عَنْهُمْ فِي مقابلِ إدْبارِهِمْ وَتَوَلّيهم عن الحقّ الرَّبَّانِيِّ، بآيَةٍ من آياتِ رُبُوبيَّةِ اللهِ ورَحْمَتِهِ المشْهُودَةِ بتكْرار، وهي آيَةُ إنْبَاتِ اللهِ في الأرض مِنْ كُلِّ صِنْفٍ كَرِيمٍ مُسْتَجْمِعٍ صفات الْحُسْنِ والنَّفْعِ.

وختم الله عزّ وجلَّ هذا الدّرس ببيان أنّ المعْنِيين قد مَرَدُوا على بَاطِلهم، فَأَكْثَرُهم لَنْ يكُونُوا مُسْتَقْبلاً من المؤمنين، وجاءَتْ بَعْدَ هـٰذا البيان دلالَةٌ ضِمْنِيَّةٌ بأنّ هؤلاء الأكْثَرين سيجازيهِمُ اللهُ بِعِزّته الغالبَةِ القاهرة، وأمَّا الأقَلُّون الّذين يُرْجَىٰ إيمانُهُمْ مُسْتَقْبلاً فَسيُعَامِلُهُمُ الله عزّ وجلَّ بِرَحْمَتِهِ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾:

﴿طسٓمٓ ۝١﴾: هذه ثلاثَةُ حُروفٍ من الْحُروف الْمُقَطَّعَةِ الوارِدَةِ فِي

أوائل بَعْضِ سُورِ القرآن الكريم، وقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا لَدَىٰ تَدَبُّرِ أَوَّلِ سُورَةِ (القلم/ ٨٨ مصحف/ ٤ نزول).

قرأ أبو جعفر: «طَا، سِينْ، مِيمْ» بالسَّكْتِ على الأحرف الثلاثة بدون تَنَفُّس، أمّا باقي القرّاء العشرة فَلَمْ يَسْكُتُوا هـٰذا السَّكْتُ.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾: جاءت الإشارةُ إلى آياتِ القرآن المجيد باسم الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ الْبَعِيد ﴿تِلْكَ﴾ للدَّلاَلَةِ على عُلُوّ مَنْزِلَةِ الْقُرْآن عُلُوّاً لاَ يُدَانِيهِ أيُّ كَلام صادِرٍ عَنْ غَيْرِ اللهِ عزّ وجلَّ، فلا تَسْتَطِيعُ الخلائق أنْ تَأْتِي بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً. وأرَىٰ أنّه لا داعي لجعْلِ المشار إليه آيات هذه السُّورة، إذ هي داخلةٌ في عموم آياتِ القرآن كُلّه ما نزل مِنْهُ ومَا لَمْ يَنزِلْ مِنْهُ بَعْدُ.

﴿ءَايَٰتُ﴾: جَمْعُ «آيَة» وهي في اللُّغَةِ الْعَلامَة، والأمارة الدَّالَّةُ على شيءٍ ما.

وكَلِمَةُ «آيَة» وجَمْعُها آيَاتِ أُطْلِقَتْ في القرآن على أرْبعة أنواع:

النّوع الأول: الآيَاتُ الكونيَّةِ الدَّالّاتُ علَىٰ طائفة من صفات الخالق الرَّبّ وأسمائه الحسنىٰ، ومنها أنّه عليم حكيم قدير رحيم اتقن كُلّ شيءٍ صنعاً.

النوع الثاني: الآيات الإعجازيَّة الخوارقُ، كعَصَا موسى عليه السلام، وكإحياء الموتَىٰ لعيسَىٰ عليه السلام، وكانشقاق القمر لمحمّد بن عبد الله ﷺ.

النوع الثالث: الآياتُ الجزائيَّة، كإغراق قوم نوح، ونجاة نوح والذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه في السّفينة، وكإغراق فِرْعَوْن وكلّ جُنْدِهِ الّذين خَرَجُوا معَهُ لِقِتَالِ بَنِي إسْرائيل حينَ خَرجوا من مِصْرَ بقيادة موسى وهارون عليه السلام، ونجاة بني إسرائيل بآيَةِ فَلْقِ الْبَحْرِ لموسَىٰ.

النوع الرابع: الآيَاتُ الْبَيَانِيَّةُ الْمُنَزَّلَة، وهي الْكَلاَمُ الَّذِي يَنْتَهِي بفواصِل داخِلَ السُّورَة القرآنيّة، والآيَةُ مِنْهَا ما يَنْتَهِي بفاصِلَة ولَوْ كان كَلِمة، مثل ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ أو بعض الحروف المقطّعة، مثل ﴿طسٓمٓ ۝١﴾.

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ : أي: الْقُرْآن المنَزَّل على الرسول ﷺ، سُمّي كتاباً للدّلاَلَة على أنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الرَّسُول ومن سَائر المؤمنين أن يَكْتُبُوهُ ويَجْعَلُوا سُورَهُ مجموعةً في كتابٍ واحِدٍ ذي دُفَّتَيْن، مُمَيَّزاً عَنْ غَيْرِهِ من الكُتُب.

و«الْ» في لفظ «الكِتَاب» هُنَا لِلْكَمَالِ، نَظَراً إلَىٰ أَنَّهُ بَالِغٌ دَرَجَةَ الكمَالِ فِي كلِّ شيءٍ من مَبَانِيه ومَعَانِيه.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾: اسم فاعل من فعل «أبَانَ» وهـٰذَا الفعلُ يأتي لازماً ومتعدّياً.

فَمعناهُ عَلَىٰ اللازم: الظّاهِرُ الواضِح الذي لا غُمُوض فيه لمن تَدَبَّرَ جُمْلَةَ نُصوصِه حَوْلَ مَوضوع واحد.

ومعناه عَلَىٰ المتَعَدِّي: الْمُظْهِرُ الْمُوضِحُ للمعَاني المرادِ بيانُها للناس، إذَا أَحْسَنَ المتدبِّرُ جَمْعَ النّصوصِ وَتَدَبَّرَها تَدَبُّراً تكامُلِيّاً.

وكلا هـٰذين المعْنَيْنِ مُرَادَانِ والله أعلم، فَالقرآن المجيد ظاهِرٌ في نَفْسِه، وهو كاشِفٌ مُظْهِرٌ للمعاني المرَادِ بيانُها للناس بآيَاتِه، وقد يَقتضِي هذا الكشف جَمْعَ عِدَّة نُصوص وتَدبُّرَهَا تَدبُّراً تكامُلِيًّا.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾.

﴿لَعَلَّكَ﴾: كَلِمَةُ «لَعَلَّ» تَدُلُّ على أمْرٍ مُتوقَّع الحصُول بِحَسَبِ نِظَام الأَسْبَابِ والمسَبَّبَات، فإنْ كانَ المتوقَّع حُصُولُهُ مَرْغُوباً فيه كانَ التوقُّعُ تَرَجِّيًا، وإنْ كان المتوقَّعُ حُصُولُهُ مَكْرُوهاً كانَ التَّوَقُّعُ إشفاقاً.

و«لَعَلَّ» هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ في الإشفاق.

﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: أي: قَاتِلٌ نَفْسَكَ يَا مُحمَّدُ مِنَ الْهَمِّ والْغَمّ والْحُزْنِ. وأصْلُ الْبَخْع في اللُّغَة أنْ يَذْبَحَ الذّابِحُ ذَبيحتَهُ، حتَّىٰ تَبْلُغَ سِكّينُهُ قَرِيباً من فَصْلِ الرأسِ كُلِّهِ عن سَائِر جَسَدِها.

﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾: أيْ: حَذَرَ أنْ لاَ يَكُونَ قَوْمُكَ وعشيرَتُكَ الأقْرَبُونَ، الّذِينَ اجْتَهَدْتَ في مُعَالَجَتِهِمْ مِنْذُ بَدْءِ رِسالَتِكَ، مُؤْمِنِينَ قَبْلَ انتهاء آجالِهِمْ في الحياة الدُّنيا، فَيُعَرِّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَذَاب الله الخالِدِ في دارِ العذاب يَوْمَ الدّين، مع ما قَدْ يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذابٍ وهَلاَكٍ فِي الحياة الدُّنيا عِقاباً لهم على إصرارهم على الْجُحُود.

استعمل اسم الفاعل وهو لفظ «مُؤمنين» هُنَا للدَّلاَلَةُ على الاستقبال فهو هنا بمَنْزِلَة الفعل المضارع ونظائره في القرآن كثير.

وفي عبارة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ رائحة الاستفهام العتابي، مع التّوجِيهِ المشدّد أَنْ لاَ يحزَن مِنْ أجل خوفه ألّا يكُونُوا مؤمنين.

فالمعنىٰ: أشْفِقْ علىٰ نَفْسِكَ يا مُحمَّدُ من أنْ تُعرِّضَهَا للقَتْلِ بِسَبَبِ الْهَمِّ والْغَمِّ والْحُزْنِ، مِنْ أجْل قَوْم لَمْ يُشْفِقُوا على أنْفُسِهِمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمُ الّذِي أوعَدَهم به، مع اسْتِيقَانِ قُلُوبِهِمْ من صِدْق نبُوَّتِكَ ورِسالَتِكَ، وأنَّ الْقُرْآنَ الّذِي تَتْلُوه عليهم مُنَزَّلٌ مِنْ رَبّ العالمين.

لكِنَّ قُلوبَهُمْ كالْحِجارَة بَلْ هِيَ أشَدّ قَسْوَةً، بِسَبَبِ كِبْرِهم ورَغَباتِ الْفُجُورِ الّتِي في نُفُوسِهم، ومَا لَدَيْهم من عِنَادٍ وتَمَسُّكٍ بمواريثهم الباطلَةُ، فَهُمْ لَيْسوا صَالِحين لأن تُشْفِقَ عليهم، وتَهْتَمَّ وتحْزَنَ مِنْ أجْلهم.

وقد دلَّ هـٰذا الْبَيان عَلَىٰ أنَّ مِنْ نِظَام الأسْبَاب والمسَبَّبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي النَّاسِ، أَنَّ شِدَّة الْهَمِّ والْغَمِّ والْحُزْنِ، قَاتِلَةٌ للنُّفوسِ قَتْلاً بَاخِعاً، فاصلاً لِلأَرْوَاحِ عَنْها فَصْلاً سَرِيعاً، لاَ علَىٰ سبيلِ الموْتِ البطيء كالْعِشْق، بل هُوَ كالذَّبْحِ إلى أقْصَىٰ الرَّقَبَةِ.

وقد سبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ أنْ خاطَبَ اللهُ عزّ وجلَّ رسُولَهُ ﷺ بقوله له في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿. . . فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾.

وفي القراءة الأخرى:

[. . . **فَلاَ تُذْهِبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**] .

﴿حَسَرَٰتٍ﴾: جمع «حَسْرَة» وهي شدّة التَّلَهُّفِ والحزْن.

أي: فلاَ تَحزَنْ مِنْ أجْلِ الذين كَفرُوا مِنْ قَوْمِكَ، خوفاً عَلَيْهِم مِنْ عذاب رَبِّهم، فهم في حياة ابتلاء وامْتِحَانٍ، وإنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ لحظَةً فَلَحْظَة، والحزْنُ مِنْ أجْلِهم يُخَالِفُ مقتَضيَاتِ حِكْمَةِ الله، إذْ قَضَىٰ وقَدَّرَ أن يَمْتَحِنَ عباده، فَيَكْشِفَ بالامْتِحانِ أحوال نفوسهم، وما تختار باختيارها الحرِّ من خير أو شرّ، ومِنَ اخْتَار بإرادته الحرَّةِ الباطلَ والشّرَّ، فَعَلَيْهِ أن يتحمَّلَ هُو وحْدَهُ نتيجةَ اختياره.

وسبق لدىٰ تدبّر هذه الآيَةِ في أثناء تدَبُّر سورة (فاطر) شرحٌ مُنَاسِبٌ وبَيانٌ مُسْتَفِيضٌ حوْلَها، فَلْيُرْجَعْ إليه.

ولمَّا كانت عاطِفَةُ الرَّسُول نَحْوَ قَوْمِهِ شدِيدَةً في الْخَوْفِ عَلَيْهِمْ من عَذَاب النَّار يَوْم الدِّين، ورأىٰ أنَّ التوجيه الذي جاء في سورة (فاطر) توجيهٌ إرْشادّيٌّ، فقد بقي يَشْعُرُ بالْحُزْنِ الشَّدِيدِ من أجلهم.

فاقتضت الحكمة التربويَّةُ أنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِ حَوْلَ هذا الموضوع ما تَدَبَّرْنَاهُ آنِفاً مِنْ سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

ثمّ لمّا لَمْ يَستَطِعْ أن يَصْرِفَ مَشاعِرَ حُزْنِهِ عَلَىٰ قوْمِهِ، ورأى أنَّ التَّوجيهَ الرّبّانِيَّ إرْشَادٌ لاَ تكليف، كانَ من الحكْمَةِ التَّرْبويَّة الرَّبَّانِيّة أن يُنْزِلَ اللهُ علَيْهِ قولَهُ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾: أي: وأنت سائر على آثارِهِمْ تَحْرِصُ على هدايتهم وتحْزَنُ مِنْ أجْلِهِمْ، وهم مُوغِلُونَ في الابْتِعَادِ عن صراط الحقّ والْهُدَىٰ الذي تَدْعُوهم إلَيْهِ، فلا ترى إلَّا آثارهم، إذْ أدْبَرُوا وَتَوَلَّوْا تَائِهِينَ في أودية الضلال والفسق والفجور.

﴿أَسَفًا﴾: أي: حُزناً. والمراد ﴿بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ آيات القرآن.

- ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾.

دلَّتْ هـٰذِهِ الآية على أنَّ نفسَ الرَّسُولِ ﷺ تَطَلَّعَتْ، راغِبَةً في أنْ يُنَزِّلَ اللهُ عزّ وجلَّ مِنَ الآياتِ المادّيَّةِ، مَا يَجْعَلُ مَنْ هُوَ حَزِينٌ مِنْ أجْلِهِمْ يُؤْمِنُونَ، حِرْصاً على نجاتِهِمْ مِنْ عذاب الله، وسَعَادتهم الأبَدِيَّةِ في جنَّاتِ النَّعِيم، دُونَ أنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ ذَلِكَ بدُعَاءٍ ظاهِرٍ أوْ خَفِيّ.

لَكِنَّ حِكْمَةَ اللهِ الْعَلِيم بخفايَا نُفوسِهِمْ وقُلوبِهِمْ اقتضَتْ عَدَم تَلْبِيَةِ هـٰذِهِ الرَّغْبَةِ النَّبَوِيَّة، فَلَمْ يَشأْ أنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ من السَّمَاءِ آيَةً تُلْجِئُهُمْ إلَىٰ الْإيمانِ إلْجاءً، إذِ الحكْمَةُ فِي امْتِحَانِهِمْ في ظروف الحياة الدُّنيا، تَقْتَضِي أنْ تَدْفَعَهُمْ عُقُولُهُمْ وضَمَائِرُهم وإرادَاتُهم الحرَّة إلَىٰ الإيمان بربّهم وبما جاءهم عنه، وإسْلامِهِمْ لأوامِرِه ونواهيه طائِعِينَ مختارِينَ، لاَ مُكْرَهِينَ، ولاَ مُلْجَئِينَ إلْجاءً بمخاوِفَ مادّيَّةٍ، كما فَعَلَ الله عزّ وجلَّ بِبَنِي إسرائيل، إذْ رَفَعَ فَوْقَهُمْ الطُّورَ وَتَوَعَّدَهُمْ بإلْقَائِهِ عليهم، وقالَ لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٦٣﴾. البقرة.

﴿إِن نَّشَأۡ﴾: كلُّ مَا جاءَ في القرآن من مِثْل هـٰذِهِ العبارَة، فهو يَدُلُّ

عَنْ طَرِيق اللُّزُوم الْفِكْرِيّ على أنّ حِكْمَتَهُ جلَّ وعَلاَ اقْتَضَتْ أنْ لاَ يَشَاءَ فَلَمْ يَشَأْ، لكنَّهُ قادر على أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاء، وأنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاء، لَوِ اقْتَضَتْ حكْمَتُهُ أنْ يَشَاءَ.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾: أي: إنْ نَشَأْ أَنْ نُنْزِلَ عَلَيْهِمْ آيَةً مِنَ السَّماءِ تُلْجِئُهُمْ إلْجَاءً إلىٰ الإيمان والإسلام نُنْزِلْهَا عَلَيْهِمْ، فالأمْرُ يَسِيرٌ علَيْنَا لاَ يَحْتاجَ أكثر من أن نقول: «كُنْ» فَهُو يكون. لكِنَّ حِكْمَتَنا لَمْ تقتض أنْ نَشَاءَ إنْزَالَ آيَةٍ مُلْجِئَة. ونَحْنُ نختار الأحْكَمَ والأحْسَنَ والأَفْضَل دَواماً.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾: أي: فدامَتْ أعْناقُهُمْ مُطَأْطِئَةً مُنْحَنِيَةً لَها بسَبَبِ خَوْفِهم من انتقامِ ربِّهم منهم، حالَة كونهم فِي نفوسهم وقلوبهم خاضعين لربّهم، خَوْفاً من عذابه وجَبَرُوتِ سُلْطانه.

للمفسِّرين عدّةُ تَخْريجات لهذه العبارة، إذْ أشكل عليهم استعمال لفظ ﴿خَٰضِعِينَ﴾ الّذي هو جَمْعُ مُذَكَّرٍ سالم، والظاهر أن يُقال: فظَلَّتْ أعْنَاقُهُمْ لها خاضِعَةً.

والّذي أراه أن في الْجُمْلَة مَحْذُوفاً دَلَّ عليه لفظ ﴿خَٰضِعِينَ﴾ فالمراد فيما أرىٰ الدّلاَلَة على أمْرين:

الأوّل: خضوع الظاهر بِطَأْطَأةِ الرِّقَابِ وانكِسَارِها وانْحنائها.

الثاني: خضوع النُّفُوسِ والْقُلوبِ من أعماقِهَا خَوْفاً من جبرُوتِ سُلْطانِ اللهِ العظيم.

ومُقْتَضىٰ الدَّلاَلَةِ على هـٰذَيْنِ الأمْرينِ أنْ يُقال: فظَلَّتْ أعْناقُهُم مُنْحَنِيَةً خَاضِعةً في السُّلُوك الظَّاهر، وظَلُّوا في نفوسِهِمْ وقُلُوبِهم خائفِين خاضِعِينَ من هَوْلِ مَا يُشاهِدونَ من عَظَمَةِ الآية.

وإيجازاً في التَّعْبير حُذِفَ مِنَ اللَّفْظِ مَا يَدُل على انحناء الأعناقِ وانْكِسَارِها، اكتفاء بذِكْرِ ﴿أَعۡنَٰقُهُمۡ﴾ وحذف من اللفظ مَا يَدُلُّ على حالة نفوسِهِمْ وقُلُوبِهم، الّتِي هي في الحقِيقَةِ ذواتُهم، اكْتِفَاءً بذِكْرِ: ﴿خَٰضِعِينَ﴾ ونظائِرُ هذا الحذف في القرآن المجيد كثيرة.

﴿فَظَلَّتۡ﴾: فعْلُ: «ظَلَّ، يَظَلُّ، ظَلًّا، وظُلُولاً» يأتي للدّلالة على معْنَيَيْن:

المعنىٰ الأوّل: يقال فيه: «ظَلَّ فُلاَنٌ يَعْمَلُ كَذَا» أي: اسْتَمَرَّ يَعْمَلُ كذا نهاراً.

المعنى الثاني: يقال فيه: «ظَلَّ فُلانٌ مُطِيعاً مُنْقَاداً». أي: دَامَ على الطاعَةِ والانقياد.

وهذا المعنى الثاني هو الملائم للنّصّ هُنَا.

وجاء استعمال الفعل الماضي: ﴿فَظَلَّتۡ﴾ بمعنى الفعل المضارع لمجيئه في جواب «إنْ» الشرطية(١).

﴿أَعۡنَٰقُهُمۡ﴾: «أعْنَاق» جمع «عُنُق» وهو وُصْلَةٌ بيْنَ الرأسِ والْجَسَد، «يُذَكّر، وقد يُؤنث» ويُطْلَقُ عليه «الرَّقَبَة».

ويُطْلَقُ لفظ «الأعْنَاقِ» علىٰ رُؤَسَاءِ الْقَوْمِ وسادَتِهم وأعْيَانِهم، وعلى هذا المعنى يقالُ في فهم الآية: فظلَّتْ ساداتُهُمْ لها خاضِعِين.

﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾: «لَهَا» معْمُول لـ «خاضِعِينَ» مُقَدَّمٌ عليه، للتَّخْصِيصِ، وللتلاؤُمِ مَع رؤوسِ الآيات.

---

(١) يقال لغة: إنْ شَاءَ فَعَل، أي: إنْ يَشأْ يَفعَلْ، وكلُّ أدوات الشرط يكونُ فعل الشّرْط وفعل جوَابه فيها مضارعاً أو مَاضياً، والماضي ينقلب بها معناه إلى المضارع. كما يَنْقلِبُ المضارع إلى معنى الماضي إذا دخَلَتْ عليه «لَمْ» الجازمة.

الخضُوعُ: هُوَ في اللُّغَةِ الْمَيْلِ والانْحِنَاء، والذُّلُّ والانقياد، يقال لغة: خَضَعَ، يَخْضَعُ، خَضْعاً، وخُضُوعاً، وخُضْعَاناً» أي: مَالَ وانْحَنَىٰ ـ وذَلَّ وانْقَادَ.

ومن الخضوع اللِّينُ في الْقَوْلِ، تَذَلُّلا واسْتِعْطَافاً، أو اسْتِمَالةً وتَلطُّفاً.

قول الله تعالى:

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾:

في هذه الآية مُتابعةُ بيانٍ عَنِ المعنِيِّينَ بِهَمِّ الرَّسُول وغَمِّه وحُزْنِهِ مِنْ أَجْلِهِمْ. وهذه الجملة حاليَّةٌ فيما أرىٰ، أي: أنت شديدُ الحزن القاتِل من أجْلِهم حالةَ كونهم ما يأتيهمْ من ذكر من الرحمن مُحْدَثٍ إلَّا كانوا عنه معرضين.

﴿مِّن ذِكْرٍ﴾: أي: من نَجم قُرآنِيٍّ مُنزَّلٍ ليَكُونَ ذِكْراً يُسْتَذْكَرُ عِنْدَ المناسبات الدَّاعِيات إلى تذكُّرِ شيءٍ مِنْهُ، وحرف «مِنْ» مَزِيدٌ لتوكيد العموم.

﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: اختير هنا اسْمُ الله الرّحمن» للدّلالة على أنَّ كُلَّ مَا يُنْزِلُهُ الله عزّ وجلَّ لعباده في كتابِهِ، من وَصَايَا وشَرَائِعَ وأحكام هو من عطاءاتِ رحمته لعباده، إذْ فيها نجاتُهُمْ وسَعادَتُهُمْ الأبَدِيَّةُ الخالدة، إذا اهْتَدَوْا بهُدَاهَا، وعَمِلُوا بما اشتملَتْ عليه من أوامِرَ، واجتنبُوا ما اشتَمَلَتْ عليه من نواهِي.

﴿مُّحْدَثٍ﴾: أي: مُحْدَثِ التنزيل.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: أي: إلَّا كَانُوا مُحوِّلِينَ وُجُوهَهُمْ عَنْه.

الإعْرَاضُ: مَنْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بيْنَ الإقبالِ والإدْبَار، وأصْلُ الإعراضِ

إعطاء الجانب، عُرْضُ الشيء في اللُّغَةِ جانِبَه، وعارِضَا الإِنْسَانِ صَفْحَتَا خَدَّيْه.

وجاء وصْفَهُم بالإعراضِ هُنَا مَعَ أَنَّهُمْ مُدْبِرُونَ عن الدّينِ كُلّه، وعَنْ كُلّ دَعْوَةٍ تَتَّصِلُ به، للدّلاَلَةِ علىٰ أَنَّهُمْ إذَا تُلِيَتْ عليهم آياتٌ مُنَزَّلاَتٌ تنزيلاً مُحْدَثاً سَمِعُوهَا، وهُمْ مُعْرِضُون عن مُقَابَلَةِ الرَّسُول ﷺ بوجوههم، إشعاراً بأَنَّهُمْ غَيْرُ عَابِئِينَ بها، ولا يَعْنِيهِمْ أَنْ يَسْمَعُوها.

فأَبَانَ اللهُ لِرَسُوله بِهـٰذِهِ الآيَةِ، أنّ الّذِينَ يَحْزَنُ من أَجْلِهِمْ حُزْناً شَدِيداً من شَأنه في نظام الأسبابِ والمسبَّبَاتِ أنْ يكون قاتِلاً، قَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ ميؤوسٍ معها من إيمانِهِمْ وإسلامهم عن طريقِ إراداتهم الحرَّة، فَهُمْ غَيْرُ جَدِيرين بِهَمِّهِ وغَمِّهِ وحُزْنِهِ من أَجْلِ نجاتهم من عذاب النار، وسعادتهم في جنَّاتِ النعيم.

والمعنَىٰ: راقِبْهُمْ وأنت تتْلُو عَلَيْهم ذِكْراً مُحْدَثاً تَجِدْ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَهُ وهُمْ عَنْكَ مُعْرِضُونَ، إشعاراً بأَنَّهُمْ غَيْرُ عَابِئِين ولاَ مُكْتَرِثين.

وزاد حَالُهُمْ سُوءاً إبَّانَ نُزُول سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) إذ جاء فيها قول الله عزّ وجلَّ بشأنِهم:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ① مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: يتظاهرون بأنهم مشغولونَ عنه باللّعِبِ مع أنّهم يَسْتَمِعُونه، لكِنَّهُمْ يَجْحَدُونه، ويَجْحَدُونَ مَا جَاءَ فيه، ويجْحَدُونَ نُبوةَ الرَّسُولِ وَرِسَالَتَه، فقُلُوبُهُمْ لاَهيةٌ عنه.

قول الله تعالى:

- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑥﴾:

أي: فَقَدْ كَذَّبُوا الرَّسُول، وكَذَّبوا بالقرآن، وبأنْبَاءِ الوعِيد الّتِي جاءتْ فِيه، ومنها الوعيد بانتصار الرسُولِ والّذين آمَنُوابِهِ واتَّبعُوهُ عَلَيْهِم، في زَمَنِ غَيْرِ بعيدٍ، واسْتَهْزَؤُوا بِهٰذِهِ الأنباء، إذ يَرَوْنَ الرَّسُولَ والمؤمنين بِهِ ضفعاءَ مُضطَّهدين، لا قوّة لَهُمْ على مُواجهة قُوىٰ كُبَراءِ مَكَّة ذوي السُّلطَانِ والغِنَى والْأتْبَاعِ والأنصارِ الكثيرينَ بالنِّسْبَةِ إلى جماعاتِ المؤمنين المسلمين.

وتدبُّر هذه الآية بعُمْقٍ يَكْشِفُ أنَّ فيها حذفاً من الأوائل تَدُلّ عَلَيْه الأواخر، وحَذْفاً مِنَ الأواخِرِ تَدُلُّ عليه الأوائل، وهو ممَّا يُسَمَّىٰ عِنْدَ البلاغِيّين «الاحتباك» والتقدير:

فَقَدْ كَذَّبوا واسْتَهْزَؤُوا بأنْبَاء الْوَعِيد الّتي جاءت في القرآن، ومنها انتصار المؤمنين عليهم في زمَنٍ قَريب، فَسَيَأْتِيهِمْ قَرِيباً (بدليل اسْتِخدام حرف «السّين») تَحْقِيقُ أنْبَاءِ ما كانوا بِهِ يُكَذِّبُونَ ويَسْتَهْزِئُون بتكرار متجدّدٍ حيناً فحِيناً.

﴿أَنۢبَٰٓؤُا﴾: أي: أخبار، مُفْرَدُهَا «نَبأ» وهو الْخَبَرُ البارِزُ الظَّاهر ذو الشَّأْنِ الْمُهِمّ الرَّفيع.

الإِنْبَاء: الإخبارُ والإعْلامُ، يُقَالُ لُغَةً «أَنْبَأَهُ، وَنَبَّأَهُ الْخَبَرَ وبالْخَبَر» أي: أعْلَمَهُ به، ويُسْتَعْمَلُ النَّبَأُ كثيراً في الْخَبرِ ذِي الْخَطَرِ والشأْنِ المثِيرِ للعِنَايةِ به، لأنَّ أصْلَ مادَّةِ الكلمة يَدُورُ حول الارتفاع والظُّهُور.

وكلُّ خَبَرٍ لَهُ دَلالَةٌ في الإدْرَاكِ الذِّهْنِيّ، ولَهُ تعلُّقٌ بواقعٍ يُطابقُهُ إنْ كانَ صَادِقاً، ولاَ يُطابقهُ إنْ كان كاذِباً.

وإتيانُ النّبأِ أو الْخَبرِ الصَّادِقِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ تَعَلُّقِهِ بالواقع المستَقْبَليّ، يَكُون بتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ على وفق الصُّورَةِ الّتِي قَدَّمَهَا للإدْرَاك الذهْنِيّ.

وعبارة: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يُرادُ بِها الواقع المطابقُ للصُّورَةِ الّتي قَدَّمَهَا للإدْراك الذِّهْني، هذا في التحليل الْفَلْسَفِي.

أمّا بالنسبة إلى الشَّرْحِ اللُّغَوِيِّ فالْعِبَارَةُ على تقدير: فَسَيَأْتِيهِمْ واقِعُ أَنْبَاءِ مَا كانوا بِهِ يُكَذِّبون ويَسْتَهْزِئون من وعيدٍ.

ودلَّ قول الله لِرَسُولِهِ بشأنِ مَنْ يَحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ حُزْناً شَدِيداً، قاتلاً بِحَسَبِ نِظَام الأسْبابِ والمسَبَّبَاتِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: واسْتَهْزَؤُوا، علَىٰ أَنَّهُمْ غَيْرُ جَدِيرِين مُطْلَقاً بأن يَحْزَن مِنْ أجْلِهِمْ حُزْناً مَا، أَوْ أَنْ يَشْفَقَ عَلَيْهِم، إِذِ الْمُرادُ أَنَّهُمْ كذَّبُوا جاحِدِين، لاَ شَاكِّين، ولاَ باحِثِينَ عَنِ الحقِّ بأَنَاةٍ وتفكُّر، بَلْ قَدْ دَمَغَتْهُمُ الحجَّةُ، واستيقَنَتْ أنفُسُهُمْ أَنَّ مُحمَّداً صَادِقٌ فيما يُبَلّغُ عَنْ رَبّه، فَهُمْ كافِرُون كُفْراً إرادِيًّا يَسْتُرونَ بِهِ الحقَّ الَّذِي اسْتَيْقَنُوه، ويُجَادِلُون بالباطل ويَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُبْطِلُونَ، ويَسْتَخْدِمُونَ وَسِيلَةَ الاسْتِهْزاءِ لِتَضْلِيل جماهِيرِهم، والتَّغْشِيَةِ علَىٰ بصَائِرِهم.

قول الله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦﴾:

الواو العاطفة هُنَا بَعْدَ همزة الاستفهام عَطَفَتْ على محذوف يمكن إدراكه واستخراجُه بالتفكّر المتأنّي، أي: أَلَمْ يَشْهَدُوا آيات الله الكثيرةَ في كَوْنه، ونِعَمَهُ الّتي لا يستطيعون إحصاء مفرداتها، ولَمْ يَرَوْا بأفكارهم وقلوبهم ناظرين بأعينهم إلى الأرض كم أنبَتْنا فيها من كلّ زَوْجٍ كريم، إنعاماً مِنَّا عليهم ورحمةً منّا بهم.

والاستفهام فيه معاني التلويم والتثْريب والتوبيخ، وقد عَنَىٰ اللهُ بالخطاب هنا المكذِّبين المستهزئين، الذين يدور الحديث في هٰذا الدرس حولهم، مع الإعراض عنهم، في مقابلِ إدْبارهم وتوليهم، وجحودِهم الذي يُعانِدُون به الحقَّ مع اسْتِيقَانِ أنفسهم وقلوبهم به.

وقد ذكَرْتُ أنَّ الواو عاطفةٌ على محذوفٍ مطويّ في مَثَاني دلالات الآية، إذْ دلَّتْنِي الاسْتِعمَالاَتُ القرآنِيَّةُ عَلَىٰ أنَّ كُلَّ حُروفِ العطف يمكن أن

يُعْطَفَ بها على محذوفٍ مَطْوِيٍّ في مَثَاني دلالات النَّصّ، مثل «الفاء» الّتي سَمَّاها النحْوِيُّونَ الْفَاءَ الفصيحة، أَخْذاً من العطف بها في القرآن على محذوفٍ يُمْكن اسْتِخْرَاجُهُ ذِهْناً.

والْفِعْلُ في ﴿يَرَوْا﴾ ضُمِّنَ معنى الفعل في «يَنْظُرُوا» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحَرْفِ الجرّ «إلى»، والتقدير: أَوَ لَمْ يَرَوْا نَاظِرين بأعْيُنِهم إلى الأرض، والْغَرَضُ الدَّلاَلَةُ علَىٰ الرُّؤْيَةِ الفكرية العِلْمِيَّة، وعلى النَّظَرِ بأَعْيُنِهِمْ إلَىٰ ظاهِرَةِ إنْبَاتِ الله النباتاتِ في الأرض، ذواتِ الثمرَاتِ منْ كلِّ جِنْسٍ ونَوْعٍ وصنف.

﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾:

كلمة «كَمْ» هُنَا خبريَّة، تدُلُّ علىٰ عَدَدٍ كثيرٍ مُبْهَم المقدار والجنس أو النوع، أو الصّنْفِ. وهي اسْمٌ ثُنائِيٌّ مَبْنِيٌّ على السُّكُونِ، ويكونُ تَمْييزُها مَجْرُوراً مفرداً أو جمعاً. وتمييزها هنا «الإنبات» المفهوم من ﴿أَنۢبَتْنَا﴾ وهو مُبَيَّنٌ هنا بحرف «مِنْ» البيانية، في عبارة: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ واختير ضمير المتكلم العظيم في ﴿أَنۢبَتْنَا﴾ لما في هذا الإنبات من دلالة على رُبوبيّة الله لعباده، ورحمته العظيمة بهم.

﴿زَوْجٍ﴾: يُرَادُ بالزَّوْج هنا ما يَشْمَلُ الجِنْسَ، والنوعَ، والصّنْف. وإطلاق لفظ «الزوج» على الجنس، أو النوع، أو الصنف، إطْلاقٌ لُغَوي.

﴿كَرِيمٍ﴾: أي: جَامِعٍ للصفات الحسَنَةِ النافعة للناس ولسائِرِ الأحياء في الأرض.

وجاء هنا تخصيصُ آيَاتِ الله في النَّبَاتِ بالذكرِ الصَّرِيح في اللّفظ، مع العطف على محذوفٍ مطويٍّ يَشْمَلُ سَائر آياتَ الله التي سَبَقَ في نجوم التنزيلِ التَّنْبِيهُ عليها، لِمَا في النباتاتِ من آثارِ رَحْمَةِ الله بعباده، ونِعَمِهِ الكثيرة عليهم، ممَّا يَشْهَدُونَه في مُعْظَمِ أَوْقَاتِهِمْ نهاراً وليلاً، ويَسْتَمْتِعُون بِهِ

في أقواتهم وفَاكِهَاتِهِم، وأقوات ومنافع أنعامهم ودوابّهم دَواماً. وهٰذه النِّعَمُ العظيمة والوفيرةُ تَسْتَدْعي من الناسِ المستَمْتِعِينَ بها في الأرض أنْ يُقَابِلُوهَا بالشكر، والطَّاعَةِ، والإسْلام، والإيمان، لاَ أَنْ يقابلوها بالكُفْرِ والْجُحُودِ والفِسْقِ والْفُجُورِ والْعِصْيَانِ، كما يَفْعَلُ الَّذين يُكَذِّبُونَ ويَسْتَهْزِئونَ مِنْ كُبَرَاءِ كُفَّارِ مَكَةَ وَمَا حَوْلها، وهُمُ الّذِينَ يحْزَنُ الرَّسُول محمَّدٌ ﷺ مِنْ أَجْلِهِمْ، حُزْناً شَدِيداً قَاتِلاً بحَسَبِ نظَامِ الأسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ في الناس.

قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

أي: إنَّ في ذَلِكَ المقدار العظيم الذي أنْعَمْنَا بِهِ على الناس، بما أنْبَتْنَا في الأرض من كُلِّ زَوْجٍ كريم، لآيَةً عظيمةً كافِيَةً للدَّلاَلَةِ علَىٰ ربوبيَّةِ الله الخالق لعباده، وإنْعَامِهِ عليهم، ورحْمَتِه بِهِمْ، ونَحْنُ نَرْضَىٰ لَهُمْ أنْ يُؤْمِنُوا وَيَشْكُرُوا، ونَجْزيهِمْ عَلَيْهِما جزَاءً عَظِيماً في جَنَّاتِ النعيم، ونَنْقِمُ مِنْهُمْ أَنْ يَجْحَدُوا ويَكْفُرُوا، مع استمتاعهم بأنواعِ وأصنافِ نِعَمِنَا عَلَيْهِم، ونَجْزِيهم بعقابٍ عادلٍ على ما قَدَّمُوا مِنْ سَيِّئاتٍ، وعلى كفرهم بالحقِّ الذي استيقَنَتْهُ أنفُسُهُمْ، لكِنْ جَحَدُوهُ ظُلْماً وعُلُوّاً.

لَكِنْ مَا وَجَدْنَا أَكْثَرَ هٰؤلاء الّذِين يُكَذِّبُونَ ويسْتَهْزِئُون ويَحْزَنُ الرسُولُ مِنْ أجْلِهِمْ حُزناً شَدِيداً، مَا وَجدْناهم ذَوِي قابليَّةٍ ـ بحَسَبِ الحالَةِ الّتي وصَلُوا إليها ـ لأنْ يُؤْمِنُوا مسْتَقْبَلاً، إذْ وَصَلَتْ نفوسُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلى حَالة من العناد والتَّحَجُّرِ والْهُبُوطِ في الدركات مَيْؤُوسٍ مَعَها من إيمانهم وإسلامهم عَنْ طَرِيق إراداتِهِمُ الحرَّة، وفْقَ نظام الأسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ في طبائع الناس.

لفظ «كان» في عبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ معنى

الصَّيْرُورَةِ ذاتِ الاستمرار، ونظائر هـٰذِهِ الدَّلاَلَةِ لِفِعْلِ «كان» كثيرةٌ في القرآنِ المجيد. أي: وصَارَ أَكْثَرُهُمْ مَرْضَىٰ القلُوبِ مُتَحجّرين غير ذوي قَابليَّةٍ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً، فَهُمْ ذُوو حالاَتٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها من أَنْ يُؤْمِنُوا مستَقْبلاً عن طَرِيقِ إراداتِهِمُ الحرَّة.

ولأمْرَاضِ قُلوبِ النّاسِ أَمَارَاتٌ تَدُلُّ عَلَيْها في ظواهِرِ سُلُوكِهِمْ، فَكَيْفَ بالخالِقِ الْعَلِيم المطَّلِع علىٰ كُلّ الظَّواهر، وعلى ما في الْقُلُوب والنفوسِ والضَّمَائِرِ من سَرَائر.

فعبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مستقبلاً، تُفَسَّرُ تفسيراً تَدَبُّرِيًّا بِأَنْ نقول: وَصَارَ أَكْثَرُهُمْ غَيْرَ ذَوِي قابِلِيَّةٍ لِأَنْ يُؤْمِنُوا.

استعمل اسم الفاعل ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ في مكان الفِعْلِ المضارع «يُؤْمِنُون» الدّال على الحالِ والاستقبال.

أمّا الّذين لَدَيْهِمْ مِنْهُمْ قابِلِيَّةٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مستَقْبلاً فَهُمْ أَقَلُّهُمْ. ومِنْ هؤلاءِ الأقَلِّ الَّذِين آمَنُوا مِنْ كُبراء مُشْرِكي مَكَّةَ بَعْدَ نُزُول سُورَةِ (الشعراء) والّذين آمَنُوا مِنْهُمْ بَعْدَ هِجْرَةِ الرسُول ﷺ إلى المدينة، والذين آمنوا مِنْهُمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَبَعْدَه، كأبي سُفْيان بْنِ حَرْب.

وأوْعَدَ اللهُ الكافرين المكذّبين المعانِين المصرّين علىٰ الباطِلِ، بعقابٍ يُجْرِيه بِعِزَّتِهِ الْغَالِبَةِ، وأشَارَ إلَىٰ هَـٰذَا الوعيد بِذِكْر اسْمِهِ «العزيز».

وأَطْمَعَ الَّذِين لَدَيْهِمْ قَابِلِيَّةٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا ويَتَّبِعُوا الْحَقَّ الّذي جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهم، بمغفرة وبثوابٍ يُجْرِيه لَهُمْ بِرَحْمَتِهِ، وأَشَار إلى وَعْدِهِ الكريم بِذِكْرِ اسْمِهِ «الرَّحِيم».

فقال الله عزّ وجلّ خطاباً للرَّسُولِ ولِكُلِّ مُتَلَقٍّ للخِطَابِ من بَعْدِه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: الْقَوِيُّ الغالِبُ.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: الْعَظِيمُ الرَّحْمَةِ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شيء.

جاء توكيد هذه الجملة بالمؤكِّدَات: «إنّ ـ الجملة الاسميَّة ـ اللَّام الْمُزَحْلَقَة ـ ضمير الفصل».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس الأوَّل، مِنْ دُرُوسِ سورة (الشعراء) والحمد لله على معونته، وتوفيقه، وفَتْحِهِ، وفيض عطائِه.

* * *

(٦)

التدبّر التّحليلي للدّرسِ الثاني من دُرُوس سورة (الشعراء) وهو الآيات من (١٠ ـ ١٩١)

وفيه سَبْعة فصول

الفصل الأول

لقطات تتعلَّقُ بقصَّةِ موسَىٰ عَلَيْه السَّلام وَقومِهِ مِن المصْرِيّين

وهي الآيات من (١٠ ـ ٦٨).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ
(١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ
إِلَىٰ هَـٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ
إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١)
وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٢٣)

قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا
تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ
لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ
ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾
قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ
أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي
ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ
يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ
ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ
حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ
ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ
لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ
فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾
وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ
أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا
ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

تمهيد:

سبق تدبّر هذا النصّ تدبُّراً تكامليًّا مع النصوص القرآنيّة الأخرى المتعلّقة بموضوعات فقراته، لدىٰ تدبُّر ما يَتَعَلَّقُ بقصّة موسَىٰ وهارون عليهما السّلام في سورة (طـٰه).

ولِذَا أَقْتَصِرُ هُنَا على تحْلِيلِ فقراتِ هـٰذا النصّ من سورة (الشعراء) دُون إعادة الدّراسة التكامليّة بَيْنَهُ وبَيْنَ سَائِرِ النصوص القرآنية، المتعلّقة بقصة موسىٰ وهارون عليهما السلام.

ولما كان مُشركو مكة قد أَلَحُّوا بطَلَبِ الآياتِ الماديّة، كآيات موسى عليه السلام قَدَّمَ الله هنا قصَّته للدلاَلَةِ على أنّ الآيات الماديَّة لم يَكُنْ لها تأثير عى قوم معاندين مكابرين، بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مُعَانِدِي كُبَرَاءِ قُرَيشٍ شبَهٌ كبير في الصّفات النّفسية المسْتَكْبِرَةِ المعَانِدَة، فلا جَدْوَىٰ من إجراء الآيات الماديَّة لهم.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١)﴾:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾: أي: واذْكُر الأحْدَاثَ الّتي جَرَتْ وَقْتَ نِدَاءِ رَبّكَ مُوسَىٰ، واذْكُرْ عِظَاتِها، بمعنى: ضَعْها في ذاكِرَتِكَ لِتَعْلَمَ سُنَّةَ رَبِّكَ فِي عبادِه ومِنْهُمْ أنبياؤهُ ورُسُلُه، ثُمَّ مَنْ هم دُونَهُمْ مُؤْمِنِيهِمْ على مراتِبِهِمْ ودَرَجَاتهم، وكافِرِيهم علَىٰ مَهَابِطِهِمْ وَدَرَكاتِهِم.

﴿وَإِذْ﴾ العطف بالواو هنا يَدُلُّ على مطويٍّ في اللّفظ مُقَدَّرٍ في الذِّهْنِ، أي: ضَعْ في ذاكِرتِكَ يَا مُحَمَّدُ ما أرْشَدْناك إليه في الدَّرْسِ الأوّل من دُروس السورة، مِنَ الكَفِّ عن الْحُزْنِ الشّدِيد من أجْلِ كُفَّارِ قومِكَ

وعشيرَتِكَ الأقربين، إذْ وَضَعُوا أنفسهم باختيارهم الحرّ في مَهَاوِي عذابِ رَبِّهِم الخالِدِ يوم الدّين، وضَعْ في ذاكِرَتِكَ الأحداثَ الّتي جَرَتْ وَقْتَ نداءِ رَبّكَ مُوسَىٰ وَعِظَاتِها.

والخطابُ مُوَجَّهٌ أيضاً بَعْدَ الرَّسُولِ محمّد ﷺ لكلّ مُتَلَقٍّ يَنْتَفِعُ بما تضمَّنَهُ من دَلاَلاَتٍ وعِظات.

[إِذْ]: ظرفٌ للزّمان الماضي، وهو هنا زمَنُ بعضِ الأحداث التي جرَت لموسىٰ عليه السلام وقْتَ نداءِ اللهِ عزّ وجلّ مُوسَىٰ، ومَا بَعْدَه حتَّىٰ آخرِ الأحداث المبيَّنَةِ فِي النصّ من قِصَّتِه.

﴿نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾: أي: دعاهُ بِصَوْتٍ عَالٍ، أَصْلُ النداء في اللُّغَةِ: الدُّعاء بأرْفَع صَوْتٍ يَسْتَطِيعه المنَادِي من الناس.

وكان هـٰذا النداء من الرَّبّ جلّ جلالُهُ لموسَىٰ قَبْلَ أَنْ يُقَرِّبَهُ ويُنَاجِيَهُ مُنَاجَاةً، كما أوضَحْتُ هذا في النظرات التكامليّة لدىٰ تَدَبُّرِ سورة (طـٰه).

المناجَاةُ: هي الإسرارُ بالحديث.

واختيرتْ هُنَا عبارَةُ ﴿رَبُّكَ﴾ للدّلاَلَةِ علَىٰ صفاتِ رُبيَّتِه المشتَمِلَةِ على شُمُولِ عِلْمِهِ، وسَامِي حِكْمَتِهِ في اختياراتِهِ لمقادِيره في عباده، فَلاَ يَنْبَغِي لعبادِه المصْطَفَيْنَ الأخْيار أَنْ تكونَ لَهُمْ رَغباتٌ مخالفاتٌ لمَا قَدَّرَهُ وقَضَاهُ بِحِكْمَتِه في عباده.

﴿مُوسَىٰٓ﴾: سبَقَ في سورة (طـٰه) مَا يَتعلَّقُ بهذا الاسم الذي سُمِّيَ بِهِ نبيُّ اللهِ ورَسُولُه الّذي أنزلَ عليه التوراة.

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: «أنْ» تفسيريَّة ومَا بَعْدَها تفسيرٌ لِبَعْضِ ما خاطَبَ اللهِ به موسَىٰ عليه السلام، دَلَّ عَلَىٰ الْبَعْضِيَّةِ مَا جاء في النّصوص الأخرىٰ من بيانٍ لما خاطب الله بِهِ مُوسَىٰ بجانب الطور.

﴿ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ﴾: أي: جيء الْقَوْمَ. يقالُ لغة: «أَتَىٰ المكانَ أَوِ الرَّجُلَ يأتِيه، أَتْياً، وإِتْيَاناً، وإِتِيًّا، ومَأْتَى، ومَأْتَاةً» أي: جاءَهُ.

وجاء في سورة (النازِعَات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) أنّ الله عزّ وجلّ قال لموسَىٰ:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ⑰﴾:

وبالنظرة التكامليَّة بَيْنَ الأمْرِ بالذَّهَابِ والأمْرِ بالإتيان يَبْدُو لِي أنَّ التَّكْلِيفَ أذِنَ لَهُ بأنْ يَصِلَ إلى أهْلِهِ أوَّلاً، وبَعْدَ ذلِكَ يأتِي إلَىٰ فِرْعَوْن، وَلَكِنَّ عَلَيْهِ أنْ لاَ يَتَأَخَّرَ عَنْ مُقَابَلَةِ فِرْعَوْنَ، وبِعَدَم تأخُّرِهِ يَكُونُ بمَثَابَةَ مَنْ ذَهَبَ مُبَاشَرةً من مُنَاجَاتِهِ رَبَّهُ إلى مُقَابِلَةِ فِرْعَوْنَ، لِيُبَلِّغَ رسالَةَ رَبِّهِ إلَيْه.

ووَصَفَ اللهُ عزّ وجلَّ فِرْعَوْن وَقَوْمَهُ بوَصْفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ في حقِّ اللهِ عليهم، وظُلْمِهِمْ لعبادِ اللهِ بسُلْطانِهِمُ الآثم الغاشم، وظُلْمِهِمْ أنْفُسَهُمْ بمُمَارَسَةِ ما يَضُرُّهم وَلاَ يَنْفعهم، ويُفْهَمُ هذا التَّعْمِيمُ مِنْ واقِعِ حَالِ فِرْعَوْنَ، وَمَلَئِهِ، وجنُودِهِ، وسائر قَوْمه الذي جاء بيانُه في القرآن المجيد في مختَلفِ النّصُوص.

ويُومِىءُ وصْفُهُمْ بالظَّالِمِينَ إلى الحكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ إرْسالِ رَسُولٍ إليهم، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ مطْلُوبَ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امتحانِهِمْ في الحياة الدنيا، تحقيقاً لِسُنَّتِهِ في إرْسَالِ رَسُولٍ إلَىٰ كلِّ أمَّةٍ يَتَطَلَّبُ واقِعُها إرْسَالَ رَسُولٍ إلَيْها، لِيُبَلّغَها الدِّينَ الّذِي اصطفاهُ لِعِبادِهِ في حياة الابتلاء.

وأبان اللهُ عزّ وجلَّ المُرَادَ بالْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فقال تَعالَىٰ: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ﴾ ويَدْخُلُ فِرْعَوْنُ فيهم، لأنّه أكْثَرُهُمْ طُغْياناً وكُفْراً وإمَامُهُمْ في كُلّ شرّ.

وهو بَدَلٌ أو عطفُ بيان من: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقولُ اللهِ تَعالَىٰ لموسى بشأن قوم فِرْعَوْن: ﴿... أَلَا يَتَّقُونَ ⑪﴾؟

يَتَضَمَّنُ تعليماً لَهُ بأنْ يَسْتَعْمِلَ فِي دَعْوَتِهِ لَهُمْ ألْيَنَ الْقَوْل في بداية الأمْر، ويكُونُ هَـٰذَا بأسْلُوب الْعَرض الاستفهامِيِّ الرَّفيق.

والمعنى: فَقُلْ لَهُمْ: «ألاَ تَتَّقُونَ»؟.

وهذه العبارة الرفيقةُ اللّيّنَةُ قَدْ قالَها كما أبان اللهُ عزّ وجلَّ في مواضع من سورة (الشعراء) نوحٌ، وهودٌ، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ عليهم السَّلاَمُ لأقوامهم، في بدايَةِ دَعْوَتِهِمْ إلى دِينِ اللهِ رَبّهم، الّذي اصطفاه لعباده.

وقالها أيضا إلْياس عليه السلام لقومه، كما أبان الله عزّ وجلَّ في الآية (١٢٤) من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

وعلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ أن يَقُولَها في جَدَلِيَّاته للمشركين، كما جاء في الآية (٣١) من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول). وفي الآية (٨٧) من سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول).

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، ويُرَادُبِهِ هنا الْعَرْضِ اللَّيِّنُ الرفيق بأسْلُوب الاستفهام. و«لاَ» حَرْفُ نَفْيٍ، و«تَتَّقُونَ» فِعْلٌ مُضَارِعٌ مَنفيٌّ بـ «لاَ» المسبوقَةِ بِهَمْزَةِ الاستفهام.

والمعنى: ألاَ تُرِيدُونَ أَنْ تَقُوا أنفُسكُمْ مِنْ عَاقبة ما أَنْتُمْ فيهِ من كُفْرِ بِرَبّكُم، وظُلْمِ لحقِّهِ عليكُمْ، وظُلْم لعباد اللهِ، وظُلْم لأنْفُسِكُمْ بِمُمَارَسَة مَا يَجْلُبُ لَكُم الضُّرَّ والأذىٰ، وشُرُوراً لاَ تَسْتَطيعونَ كفَّ وَيْلاتِهَا عَنْكُمْ.

يقال لغة: «اتَّقَىٰ يتّقِي اتِّقَاءً، وتَوَقَّىٰ، يَتَوَقَّىٰ تَوَقِّياً، وتُقىً، وتَقِيَّةً، وَتِقَاءً» أيْ: جعَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَا يَضُرُّهُ أوْ يُؤْذِيهِ أو يؤلمه ما يَقِيهِ ويحْفَظُهُ مِنَ الضُّرِّ والأذىٰ والألم. والاسْمُ «التَّقْوىٰ».

و«الوِقَاءُ، والْوَاقِيةُ» كلُّ مَا وَقَيْتَ وَحَفِظْتَ بِهِ شيئاً ما، من مادّيٍّ أو معنويّ.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

القراءات:

(١٢) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْروٍ، وأَبُو جَعْفَرٍ: **[إِنِّيَ أَخَافُ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشَرَةِ بالإسْكان: **[إِنِّي أَخَافُ]**.

(١٢ ـ و١٤) ● قرأ يَعْقُوب: **[يُكَذِّبُونِي ـ يقْتُلُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم وصْلاً وَوَقفاً.

وقرأهُما باقي القرّاء العشَرَةِ بِحَذْفِ ياء المتكلم: **[يُكَذِّبُونِ] ـ [يَقْتُلونِ]**. حذف ياء المتكلّم في النُّطق مألُوف في اللِّسان العربي، وهو من الإيجاز في النطق.

(١٣) ● قرأ يعقوب: **[وَيَضِيقَ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقَ لِسَانِي]** بنَصْبِ الفِعْلَيْنِ عَطْفاً على **[أَنْ يُكَذِّبُونِ]** المنصوب.

وقرأهُمَا باقِي الْقُرَّاءِ العشرة بالرفع على الاستئناف: **[وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي]**.

والقراءتان متكامِلَتَانِ في أداء المعنَىٰ المراد، فقراءة يعقوب على معنى: وأخافُ أنْ يَضِيقَ صَدْرِي ولاَ يَنْطَلِقَ لِسَانِي.

وقراءة الجمهور هي على معنىٰ: وأنَا يضيقُ صَدْرِي ولا يَنْطَلِقُ لِسَانِي بِحَسَبِ مَا أعْرِفُ مِنْ نَفْسِي في المواقف الْحَرِجة.

وإيرادُ الْقِرَاءَتَيْنِ يدُلُّ على أنَّ مُوسىٰ عليه السلام عبَّر بالعبارتين، إحْدَاهما أبَانَ فيها ما يَعْلَمُ من نفسه بِحَسَبِ العادة، والأُخْرَىٰ أبانَ فيها تَخَوُّفَهُ من أَنْ تَتَحكَّمَ بِهِ صِفَتُه المعتادة.

التدبّر التحليلي:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾: أي: قال موسى عليه السلام: رَبِّ إنِّي أخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي في أنّي رسُولُ رَبِّ العالمين، أي: وإذَا كذَّبُوا بِرِسالَتِي وبما جِئْتُهُمْ بِه، فإنَّهم قَدْ يُنَكّلُونَ بي، إذْ إنّي أعْلَمُ أنَّهُمْ جَبابِرَةٌ، ذَوُو سُلْطانٍ استِبْدَادِيٍّ جائرٍ ظالمٍ.

- ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾: أي: وأَنا أعْرِفُ مِنْ طَبْعِي أَنَّ صَدْرِي يَضِيقُ[1]، فَلاَ أتحَمَّلُ المناظرات والْمَجادلات، فأخْشَىٰ أنْ أَتَصرَفَ تَصرُّفَاتٍ قَوْلِيَّةً أو عَمَلِيَّةً تُعرِّضُنِي للهلاك. وأعْرِفُ أنَّ في لِسَانِي حُبْسَةً تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَنْطَلِق مُنْدفعاً بقوةٍ وسُرْعَةٍ في البيان، فيتَّخِذَ القومُ هٰذِهِ الْحُبْسَةَ مُتّكَأً للتَّهكُّمِ بي والسُّخْرِيَةِ مِني، وقد استغلَّها فِرْعَوْنُ في بَعْضِ خُطَبِهِ لِقَوْمِهِ إذْ قال كما ذَكَر الله عزّ وجلَّ في سورة (الزُّخْرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) بقوله:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

وسَأَلَ مُوسىٰ عليه السَّلامُ رَبَّهُ أَنْ يُرْسِلَ إلَىٰ أخِيهِ هَارُونَ وَزِيراً لَهُ، وَشَرِيكاً له في رِسَالَتِهِ، ويَشُدُّ بِهِ أَزْرَه، فقال كما جاء في هذا النَّصّ الذي

---

[1] ضيق الصَّدْر: كناية عن سُرْعة الانفِعَال بالمثيرات، كمثيرات الغضب، ومثيرات الحزن، ونحو ذلك.

نتدبَّره: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي: فاجْعَلْهُ نبيًّا ورسُولاً مَعِي. وجاء في النصوص الأخرى التصريحُ بما طُوِيَ في هذا النصّ، وقَدْ سَبَقَ إيضاحُ هذا في النظرات التكامليَّاتِ إلى النصوص لدى تدَبُّر سُورَةِ (طـه).

وقال مُوسَى عليه السَّلام لِرَبّه مُبْدِياً تَخوُّفَهُ من أنْ يَقْتُلَهُ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُه، عقوبَةً لَهُ على الْقَتيل الذي كان قَدْ وَكَزَهُ انتصاراً للإِسْرائيلِيّ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ، ولم يَكُنْ يَقْصِدُ قتْلَهُ، فقال لربه:

- ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ⑭﴾:

فدلّتْ هـٰذِهِ الآيَةُ علَىٰ تخوُّفه من أن تَقْتُلَهُ السُّلْطَةُ الفرعونيَّة، بسبب الذَّنْبِ الّذي كان قد ارتكَبَهُ قبْلَ خُرُوجه من مصر إلى مدين فارّاً، إذْ عَلِمَ أنَّ الْقَوْمَ يأْتَمِرُونَ بِه ليقتلُوهُ، وبقتله لا يتمكّنُ مِنْ تأدِيَة وظائف رسالته.

وسبَق في تدبّر سورة (طـه) بَيَانُ هـٰذِهِ القصة.

فأجابَهُ الله عزّ وجلّ بقوله له ﴿كَلَّا﴾ وفي هذا الجواب شدَّةٌ فيها معنى الزّجْرِ، إذْ لَمْ يَسْتَدْعِ ذِهْنُه بِسُرْعَةٍ، أنّ مُرسِلَهُ رَبَّ العالمين والّذِي بِيَدِهِ تَصَارِيف كلِّ شيءٍ في الوجود، سَيَحْمِيهِ ويُدَبّرُ لَهُ مِنَ الأمُور مَا يَقِيه، ويَصْرِفُ عنه كَيْدَ مَنْ يُرِيدُه بشَرٍّ وبكُلِّ مَا يَكْرَهُ من سوء، فقال الله عزّ وجلَّ في النصّ:

- ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ⑮﴾:

فدَلَّتْ هـٰذِهِ الآيةُ علىٰ أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ بَعْدَ أنْ وَجَّهَ لَهُ الكلمة الزاجِرَة، أَعْلَمَهُ بأنَّهُ قد أجابَ طَلَبَهُ، فَجَعَلَ أَخَاهُ رَسُولاً مَعَهُ وزيراً ومُسَاعِداً، فَهُوَ يُوَجِّهُ لَهُما معاً الأمْرَ بالذَّهَابِ إلى فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ ويُلْحِقُ بهما سَائِرُ قَوْمِه، مصحوبَيْنِ بآيَتِي الْعَصَا والْيَدِ، وسائر الآيات التِّسْعِ التي أعْطَاه اللهُ إياها، وسبَقَ بيانُها مُفَصَّلَةً في تدبُّرِ سورة (طـه) وفي مواضِعَ أُخْرَىٰ مِنْ هذا الكتاب، ومصحوبَيْن بآياتِنا البيانية.

وَطَمْأَنَهُ اللهُ عزّ وجلَّ بقولِهِ له: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي: حِينَما تَصِلاَنِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، نَكُونُ مَعَكُمْ مُسْتَمِعِينَ مَا تَقُولاَنِ لِلْقَوْمِ، ومَا يَقُولُ لَكُمَا فِرْعَوْنُ، ومَا يَقُولُ ملَؤُهُ في مجْلِسِه الملَكِيِّ الْمَهِيب، فَنَحْنُ بالمْرْصَادِ لِحمَايَتِكُمَا وَتأْمِينِكُمَا ودفْعِ كلِّ شرٍّ وسُوءٍ عَنْكُما.

وجاء في هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ المطْمْئِنَةِ اسْتِعْمَالُ ضَمِير المتكلّم العظيم، للدَّلاَلَة على كَمَالِ قُدْرَتِه جلّ جلالُهُ على حمايتهما.

وجاءت مؤكّدة بـ «إنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسميَّة» لزيادة طَمْأَنتهما.

وبَعْدَ هـٰذَا وجَّهَ اللهُ عزّ وجلَّ لموسَىٰ ولِأَخِيهِ الْغَائِبِ عن مقام الخطَابِ، تَعْلِيماً مُجْمَلاً عَنْ مَضْمُونِ الْعَرْضِ الّذي يَعْرِضانِهِ على فِرْعَوْنَ عِنْدَ لِقَائِهِمَا له، ويُلْحَقُ بِهِ التَّفْصِيلُ الذي جاء بيانُه في النُّصوص القرآنية الأخرىٰ، مع لَوَازِمِهَا الفكريَّةِ، وما تَسْتَدْعيه من شرح وتفصيل، فقال الله عزّ وجلَّ:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾:

وجاء في سورة (طـه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجلَّ:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴿٤٧﴾﴾...

فما الحكمة من الإفراد في نصّ سورة (الشعراء)؟.

أقول: أوْرَدَ المفسرون والنحاةُ عِدَّة تخريجات عَرَبيَّةٍ، والَّذِي أَرَاهُ هو ما سبَقَ أنْ ذَكَرْتُهُ لدى تدبّر سورة (طـه). والمعنى: أَنَّنَا رَسُولاَنِ ولَكِنَّنا بمَثَابَةِ رَسُولٍ واحد، لأَنَّنَا مُتَعَاضِدَانِ مُتكاملان، فمَا يَقُولُهُ أَحَدُنَا يُعَبِّرُ عَنْ قَوْلنا مُجْتَمِعَيْن، لاَ يَنْفَرِدُ أَحَدُنَا عن الآخر بشيء.

وهـٰذَا نظير قَوْلِ وَفْدٍ من جُمْهورٍ كبيرٍ للوافِدِين عليه، نَحْنُ شَخْصٌ واحد، أو رَجُلٌ واحد، أي: متكاتِفُون مُتَعَاضِدُونَ، لاَ يَنْفَرِدُ أَحَدُنَا بِرَأْيٍ علىٰ خِلاَفِ آرَاءِ الآخرين.

وبين التعليمَيْن تكامل، أي: قولاً له مرَّةً: «إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ» وقُولا له أخرى: «إِنا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أي: إنّا رَسُولاَن بمثابَةِ رسُولٍ واحد، وإِنَّ رَبَّكَ هُو رَبّ الْعَالَمِين جميعاً، من أَحياء وغير أحياء في السماوات والأرض.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾: «أَنْ» تفسِيريَّة، تُفَسِّرُ بَعْضِ مضْمُونِ رِسَالَتِهِمَا إليه، إذْ رِسَالَتُهما إليه تتضَمَّنُ قَضِيَّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ:

القضية الأُولىٰ: دَعْوَة فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إلى دِينِ اللهِ الذي اصطفاه لعباده في حياة امتحانهم، وهي الحياة الدّنيا.

القضية الثانية: مطالبةُ فرعَوْنَ بأنْ يأذَنَ لِبني إسرائيل بالْخُروج مِن مِصْر بقيادتهما، وعَوْدَتهما إلى الأرض الّتي قَدِمَ أجدادُهم منْها أيّام يوسف عليه السّلام.

وطوى النصّ هنا أحداثاً كثيرة جاء بعضُها في نصوص أخرى، وقفز إلى قول فرعون لموسى ما جاء في البيان التالي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾:

أي: قال فِرْعَوْنُ لموسَىٰ عليه السلام بحَسَب دَلاَلة هذا البيان المشتمل على أربع قضايا: مِنْهنّ ثلاثُ قَضَايا مُصَدَّرَاتٌ باستفهام تَقْرِيريّ من فرعون لموسى عليه السلام، لانتزاع إقراره بها، والقضية الرَّابعةُ يتَّهِمُ فرعَوْنُ بها موسَىٰ بأنّه من الكافرين، أي: من الجاحِدِينَ لِلْمِنَنِ الّتي أنْعَمَ علَيْه بها الْقَصْرُ الفرعوني.

فالكُفرُ: يأتي في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ جُحُودِ النِّعْمَةِ للتَّنَصُّلِ من أداءِ واجب الشكر عليها.

القضيّة الأولى: استفهامٌ تَقْرِيريٌّ، يَمْتَنُّ بِهِ فِرْعَوْنُ علَىٰ مُوسَىٰ عليه السّلام، بأنَّ الْقَصْرَ الْفِرْعَوْنِيَّ رَبَّاهُ مُنْذُ كَانَ وَليداً حَدِيثَ الوِلاَدة، حتَّىٰ بلَغَ واكْتَمَلَ، ولَمْ يَقْتُلْهُ كَشَأْنِ سائر مواليدِ سَنَتِهِ مِنَ الإسْرائِيلِيّين، إذِ الْتَقَطَهُ بَعْضُ آلِهِ مِنَ النِّيلِ وأَحَبُّوهُ وَكَرَّمُوهُ، مع عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ الإسْرَائيليِّينَ، فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾؟ اسْتِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ على الْمَنْفِيّ بِحرْف «لم» لِيقولَ بلَىٰ فَعَلْتُمْ ذلِكَ.

التربية: تَجمَعُ في مَعْنَاهَا كُلَّ مَا يَتَطَلَّبُهُ إنْشَاءَ الْمُرَبَّىٰ ورعايَتُهُ وَحِفْظُهُ، وَتَنْمِيَتُهُ جَسَدِيًّا ونَفْسِيًا وفِكْرِيًّا وسُلُوكِيًّا.

والمرادُ: أَلَمْ نُرَبِّكَ في ضِمْنِ أُسْرَتِنَا الملكيَّةِ كأَحَدِ أَوْلاَدِنا، مُنْذُ كُنْتَ حَدِيث الوِلاَدَةِ، حتَّىٰ صِرْتَ رَجُلاً مُكْتَمِلاً ذا قُوَّةٍ تَسْتَنِدُ فيها إلىٰ أَنَّكَ واحِدٌ مِنْ أفراد الْقَصْر الملكيّ الفرعوني في مصر.

القضيّةُ الثانية: اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيريٌّ يَمْتَنُّ به فرعونُ على موسى عليه السلام بأنَّهُ لَبِثَ في رِعاية القصر الفرعونيّ وحمايَتِهِ، وَمَنْحِهِ فُرَصَ الارْتقاء والنجاح في أُمُوره كُلِّها كأَحَد أفرادِ الْقَصْرِ، طَوَال سِنِينَ من عُمْرِه، فقال فرعون له: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

قيل: لبِثَ في الْقَصْرِ الفرعونيّ (١٨) سنةً من عُمْرِهِ، وقيل: (٣٠) سنة، وقيل: أكثر من ذلك، والله أعلم.

أي: أَوَ لَمْ تُقِمْ فِي كَنَفِنَا كَأَحَدِ أفراد الْقَصْرِ مِنْ آلِنَا، سِنِينَ مِنْ عُمُرِك، ونَحْنُ نَرْعَاكَ، ونَمْنَحُكَ مَا تَطْلُبُ مِنْ مَطَالِبَ، ونُمِدُّكَ بِقُوَّةٍ مِنْ سُلْطَانِنَا، حَتَّىٰ صِرْتَ رَجُلاً مُكْتَمِلَ الرُّجُولَة.

فالاستفهام التقريريّ الوارد في القضيَّة الأولى، مُنْسَحِبٌ عَلَىٰ هٰذِهِ القضيَّةِ الثانية.

اللُّبثُ: الإقامَةُ في المكان زَمَناً لَيْسَ بالْقَصِير.

القضيَّةُ الثالِثَة: اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيريٌّ ثَالِثٌ، يُقَرِّرُ بِهِ فِرْعَوْنُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السّلام، بأَنَّهُ قَتَلَ نفساً مِنَ المصْرِيين، انتصاراً لإسْرائيليٍّ هُو مِنْ شيعَتِهِ وقَوْمه، وهـٰذِهِ الجريمَةُ تَسْتَحِقُّ عقوبَةَ الْقَتْل، ويظْهَرُ أَنَّ هـٰذِهِ العقُوبَةَ قَدْ سَقَطَتْ بمُرورِ الزَّمَن، بمقْتَضَىٰ قانُونِهِمْ حينئذٍ، فقال فرعون له:

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾:

أي: أوَ لَمْ تَرْتَكِبْ جَرِيمَةَ قَتْلِ المصْرِيّ، انتصاراً لرَجُلٍ من قَوْمِكَ الإسْرَائيليّين.

والاستفهام التقريريُّ مُنْسحِبٌ على هـٰذِهِ القضيَّةِ أيضاً ومُرادُ فِرْعَوْن من تقرير موسى عليه السّلام بهـٰذِهِ القضايا الثلاث، إشعارُه بأنَّ مَا جاء بِهِ الآنَ لاَ يتلاءم مع سابقِ عَهْدِهِ في الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيِّ وآله، ولا سيما مطالَبَتُه بالإذْنِ لبَنِي إسْرائيل بأَنْ يَخْرُجُوا من مصر، مع الاحتمال القويّ بأنَّه يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ بِهِم، لِيُعِدَّ مِنْهُمْ جَيْشاً مُقَاتلاً، ويَرْجِعَ بِجَيْشِهِ لِتَقْوِيضِ مُلْكِ أَوْلياء نِعْمَتِهِ، وانْتِزَاعِهِ مِنْهُم بالْقُوَّةِ الْعَسْكرِيّة، والاسْتيلاء علىٰ أموالهم وممتلكاتهم، وهم خُبَراءُ بأرْضِ مِصْرَ، وبرجالِها، وبمراكز قُوىٰ سُلْطانِ الْقَصْرِ الفرعونيّ فيها، إنّ هذا عَمَلٌ مُنَافٍ لفضيلَةِ الْوَفاء.

والمعنى: فكَيْفَ يَتَلاءَمُ هـٰذَا مع ما يَدْعُو إلَيْهِ من حقٍّ وخَيْرٍ ورُشْدٍ وفضائل، في الدّينِ الجديدِ الّذي يَدْعُو إليه.

القضية الرابعة: إدَانَةُ فِرْعَوْنَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ بأَنَّهُ من الكافرين الجاحِدِين، لِمَا قَدَّمَهُ لَهُ الْقَصْرُ الْفِرْعَوْنِيُّ مِنْ نِعَمٍ ومِنَنٍ، وقَدْ كَانَ يَجِبُ عليه أنْ يَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ لهـٰذِهِ النِّعَم والْمِنَن، فيَكُونَ من المؤيّدِين المناصِرِينَ، ومِنْ ذوي الولاء الصادق، لاَ مِنَ الكافِرِينَ الجاحِدين، الّذِين يقابلون الإحْسَانَ بالإسَاءَة، والخيْرَ بالشّر، والجمِيلَ بالقبيح، فقالَ فرعونُ لَهُ:

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: وأنْتَ مِنَ الجاحِدِينَ للنِّعَمِ والْمِنَنِ الّتِي تَلَقَّوْهَا مِنْ أوْلياء الإحْسَانِ إِلَيْهِم.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾:

تمهيد:

دلَّت هـٰذِهِ الآيَاتُ الثلاثُ على ما أجابَ بِه موسى عليه السلام علىٰ القضايا التي وَجَّهَهَا لَهُ فِرْعَون.

وقد بدأ موسىٰ عليه السلام بالإجابَةِ على قَتْلِهِ المصْرِيَّ انتصاراً لأحدَ أفراد قومِهِ الإسْرائيليّين، فأبان أنَّهُ قَتَلَهُ في الزَّمَنِ الَّذِي كان فيه من الضَّالّين الجاهِلِينَ، الّذِين يَنْدَفِعُونَ معَ أهوائِهِمْ وعصبيَّاتهم، ووَلاءاتِهم الْقَوْمِيّة، وفي الزَّمَنِ الّذي كانَ فِيه خاضِعاً لمؤثّراتِ مَدْرَسَةِ الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ، النفسيَّةِ، والاجتماعيَّة، والتَّسلُّطِيَّة، وأبَانَ لَهُ أنَّهُ لمَّا عَلِم بأنَّ مَلأَ الْقَصْر يأْتمِرُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، فَرَّ مِنْهم، وخَرَجَ مِنْ مِصْرَ هارباً، وأقَامَ في مَكانٍ لاَ سُلْطَانَ لِحُكَّامِ مِصْرَ عَلَيْهِ حينئذٍ. وأبّان لَهُ أَنَّ اللهَ رَبَّهُ وَهَبَ لَهُ حُكْماً عَقِبَ فِراره من مِصْرَ، وأنَّ اللهَ رَبَّهُ جَعَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

التدبر التحليلي:

- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِذًا﴾ قالُوا: هِيَ هُنَا حَرْفُ جواب، أي: نَعَمْ، قَدْ فَعَلْتُهَا في حَالِ أنّي كُنْتُ من الضَّالّين (أي: الْجَاهِلِين) الَّذِينَ لا يَعْرِفُونَ الكثير من الأمور الَّتِي فيها تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْحَقِّ والباطل، والخير والشرّ، والصَّالِحِ والفاسد.

الضّلال: يأتي في اللُّغَة بمعنَىٰ الْجَهْلِ بالشيْءِ، لِخُلُوّ الذِّهْنِ من مَعْرِفَتِه، وهذا المعنى هو المعنىٰ المناسِبُ هنا.

ولسْتُ أدْري لمَاذا لم يُوردِ النَّحْويُّونَ احتمالَ أن تكونَ ﴿إِذًا﴾ هنا دَالَّةً علىٰ الظَّرْفِيَّة، وأنْ يكون التنوينُ عِوَضاً عَنْ مُضَافٍ إلَيْهِ مَحْذُوفٍ، كما قَالُوا في نحو «حِينَئذٍ» و«يَوْمئذٍ». فهذا المعنَىٰ هو الأقربُ خُطُوراً في الذِّهْنِ بحَسَبِ سوابق العبارة ولواحقها، أي: فَعَلْتُها حينَئذٍ وأنَا مِنَ الضَّالّين.

- ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾:

أي: فَعقِبَ وقْتِ خوفي مِنْكُمْ أنْ تقْتُلُوني، هَرَبْتُ مِنْكُمْ إلَىٰ حَيْثُ لاَ يُمْسِكُ بِي جنُودُكُمْ، لِيَسُوقُونِي إليكم.

﴿لَمَّا﴾ ظَرْفٌ للزَّمَانِ الماضِي هُنَا، أي: حينَ خِفْتُكُمْ فيما مضَىٰ عَقِبَ قَتْلِي المصْرِيَّ.

- ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾:

الْهِبَة: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الأعْوَاضِ والأغراض. يُقالُ لغة: «وَهَبَ لَهُ الشَّيْءَ، يَهَبُهُ، وَهْباً، ووَهَباً، وهِبَةً، فهو واهِبٌ، وَوَهَّابٌ، وَوَهُوبٌ، وَوَهَّابَة».

﴿رَبِّي﴾: أي: خالِقِي، والَّذي تَتَعَلَّقُ بِي دَواماً صِفَاتُ رُبُوبيَّتِهِ، ويُمِدُّنِي دَواماً بعَطَاءَاتها، ويُهَيْمِنَ عَلَيَّ دَواماً بِسُلْطَانها ورَحْمَتها.

﴿حُكْمًا﴾: **الْحُكْم**: فِقْهُ الأمُور، ومَعْرِفَةُ الْحَقِّ والْبَاطِلِ وحُدُودِهما، ومَعْرِفَةُ الخيْرِ والشَّرِّ وحُدُودِهما، والْحَسَنِ والسَّيِّىء وحُدُودِهما، والْجَمِيلِ والْقَبِيح وحُدُودِها.

وبناءً على فِقْهِ الأمُور يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أحكامَهُ العلميَّة، وأحْكَامَهُ القضائيَّة مطابقة للحقّ والخير والفضيلة.

والمعنى: فأعطاني رَبّي بفَضْلٍ مِنْهُ فِقْهاً في الأمور، بَعْدَ أنْ كُنْتُ جاهلاً.

- ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾:

أي: وجَعَلَنِي نَبيًّا مِنَ الأنبياء ورَسُولاً مِنَ الْمُرْسَلِينَ، الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ قَبْلِي لتبليغِ أُمَمِهِمْ رِسَالاَت رَبّهم إليهم.

وقد دَلَّ الواقع التاريخيُّ علىٰ أنَّ الله قَدْ جعَلَهُ نَبيًّا وَرَسُولاً في زَمَنٍ مُتأَخِّرٍ عَنْ زَمَنِ فِرَارِهِ من مِصْرَ عَقِبَ قَتْلِهِ المصْرِيّ، لكِنَّ عبارة: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ تَدُلُّ على أنَّ هـٰذِهِ الْهِبَةَ قَدْ كانت عَقِبَ فراره من جُنودِ فِرْعَوْنَ في مصر، فالعطف بالواو لعبارة: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لاَ يَدُلُّ على الاقتران في الزّمن بَيْنَ هِبَتِهِ الحكْمَ وبَيْنَ جعْلِهِ من المرسَلِين، إذْ بَيْنَ الزَمَنَيْنِ أكثر من عشْرِ سنين.

وبَعْدَ أنْ أجابَ مُوسَى عليه السَّلامُ فِرْعَوْنَ علىٰ ما قَرَّرَهُ بِهِ بشأن قَتْلِهِ للمصريّ انتصاراً للإسْرَائيليّ، وجَّهَ مُوسَىٰ لَهُ الجوابَ على المِنَنِ الّتِي امْتَنَّ بها فِرْعَوْنُ علَيْهِ، وعلَىٰ إدانَتِهِ لَهُ بأنَّهُ مِن الْجَاحِدِينَ الَّذِينَ لاَ يُقابِلُونَ الإحْسَانَ بالشُّكْرِ، بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَةُ التالية:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؟!.

في هذه العبارة استفهامٌ تعجُّبِيٌّ مَحْذُوفٌ لفظاً، مُقَدَّرٌ ذِهناً.

﴿تَمُنُّهَا﴾: أي: تتحدَّثُ بأنَّكَ تفضَّلْتَ بِها عليَّ، وتعْتَبِرَها مِنْ مَحامِدِكَ وإحْسَانَاتك. والمشار إليه بعبارة ﴿تِلْكَ﴾ ما ذكَرَ فرعون من ترْبيته لموسى في القصر الفرعوني، وإقامَتِه فيه كَأَحَدِ أفراد الْقَصْر الناشئينَ فيه، واستعمل اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للدّلالة على احتقارِها بجانب الاستعباد الذي فرضه على بين إسرائيل وهو واحدٌ منهم.

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: أنْ جعلت بني إسرائيلَ عَبيداً لَكَ ولِقَوْمِكَ، بالقَهْرِ والْغَلَبَةِ وقُوَّةِ سلطانِك.

والْمَعْنَىٰ: أَتِلْكَ النِّعْمَةُ الَّتِي ذَكَرْتَها تَصْلُحُ لِأَنْ تمْتَنَّ بِهَا عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ بني إسرائيل الّذين جَعَلْتَهُمْ عبيداً لَكَ ولِقَوْمِكَ.

وطَوَىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ في نفسه بيَانَ أنّ المنَّةَ لِرَبِّي الَّذِي أنْقَذني من الْقَتْلِ الّذي فَرَضْتُموهُ علىٰ مواليِدِ الإسرائيليّين وأنا واحِدٌ مِنْهم، إذْ وضَعَتْنِي أُمِّي في التابُوت، فأوْصَلَه رَبِّي إلىٰ قُرْب شَاطِىءِ قَصْرِكم، والْتَقَطَنِي من طرَفِ النَّهْرِ بَعْضُ آلِكَ، وألْقَىٰ مَحَبَّتِي في قُلُوبِكُمْ، وصَرَفَ نُفُوسَكُمْ عَنْ قَتْلِي مع مَنْ قَتَلْتُمْ مِنْ أبْنَاءِ قَوْمِي، إذْ تَصَوَّرْتُمْ أنَّنِي سَأَنْفَعُكُمْ، أَوْ أن تتخِذُوني ولَداً مِنْ أولادكُمْ بالتَّبَنِّي.

تِلْك في الحقيقة ليْسَتْ مِنَناً مَنَنْتُمْ بِهَا عَلَيَّ علىٰ سبيلِ الإحسان، إنَّما نظَرْتُمْ فيها إلىٰ مصالِحِكُمْ، مع مُراعاة عواطِفِ بعض آلِكُمْ، إذْ أَلْقَىٰ رَبِّي محبَّتِي في قُلُوبهم.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

في هٰذِهِ الآياتِ بَيَانُ حِوَارٍ فِكْرِيّ، انْتَقَلَ إلَيْهِ فِرْعَوْنَ اشْتِقاقاً مِنْ قَوْلِ مُوسَىٰ وهَارُون لَهُ: ﴿. . . إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعَرَضَا عليه وعلى مَلَئِه وقَوْمِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا به، ويَتّبِعُوا الدِّينَ الَّذِي حَمَّلَهُمَا رِسالَتَه رَبُّ الْعَالَمِين.

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾؟:

[مَا] اسم استفهام يسْتَفْهَمُ بِه عَنْ غَيْر ذي العلم، ويُسْتَفْهَمُ بِه عَنْ صِفَاتِ ذي الْعِلْم، ومِن صِفَاتِه حقيقةُ ذاته.

وقد سأل فِرْعَوْنَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ بمقتضى دلالَةِ هـٰذِهِ العبارة، عَنْ حَقِيقَةِ رَبِّ العالَمِين.

فأعرضَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ عَنْ إجابَةِ فِرْعَوْنَ عَنْ حقيقة ذاتِهِ جلّ جلالُهُ وسَمَتْ عن الإدْراكِ ذاتُه، لأنَّ حقيقَةَ ذاتِهِ لاَ يَسْتَطِيعُ مَخْلُوقٌ إدْرَاكَهَا، ولأنَّ نُورَ ذَاتِه، أَوْ نُوراً مِن ذاتِهِ لاَ يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ إدْرَاكَهُ بأجْهِزَةِ الإدْراكِ الَّتِي وَهَبَهُمْ رَبُّهم إياها.

ولـكِنْ أجابَهُ بِعِبَارَاتٍ فيها تَفْصِيلُ آثارِ صِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ في كوْنِه، الجامِعَةِ لكثيرٍ مِنْ صِفَاتِه الجليلات العظيمات، كالْعِلْم المحيط بكلّ شيءٍ، وكالإرادة الحكيمة، والْقُدْرَةِ علَىٰ خَلْقِ ما يشاء، والتدبير الدائم الكاملِ لتَصارِيفِ الكَوْنِ، والرَّحْمَةِ بعِبادِه إلى غير ذلِكَ من صفات رُبُوبيَّتِهِ.

فذكَرَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ بَعْضَ مظَاهِرِ صِفَاتِ رُبُوبيّتِهِ:

- ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

خاطَبَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ مِنْ حَوْلِهِ بِمَا دَلَّ علَيْهِ هـٰذَا البيان.

والمعنى: رَبُّ العالَمِينَ هُوَ مَنْ لَهُ الصِّفَاتُ الْجَلِيلاَتُ العظيماتُ الَّتِي مِنْ آثارِها خَلْقُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْض وما بَيْنَهُما، ولَهُ الهيْمَنَةُ علَىٰ تَصارِيفِ كُلِّ ذَلِكَ، وبخَلْقِهِ يتحقَّقُ بقاءُ كُلّ ذلِكَ في الوجود وبصِفات رُبُوبيّتِهِ يُجْرِي مَقَادِيرَهُ على وفْقِ حكْمَتِه، وشُمُولِ عِلْمِهِ، وعظيم قُدْرَتِهِ علىٰ مَا يشاء.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: أي: تُؤْمِنُون به ولَوْ لَمْ تَعْلَمُوا حقيقة ذاتِه، من إدْراكِكُمْ لآثار صِفَاتِهِ في هـٰذَا الكون الكبير، إنْ كُنْتُمْ مَسْتعِدّين لأنْ تُفَكِّرُوا بالحقائقِ الَّتي أعْرِضُها عليكُمْ، فَتَصِلُوا إلى إدْراكِ الحقّ، فَتُوقِنُوا بِربّ العالَمِين الذي أدْعُوكُمْ إلىٰ الإيمان به، عن طريق البراهين والأدِلّةِ العقليّة، بالنظر في لوازِم خَلْقِهِ للْعالَمِين، ومن العالَمِين السَّمَاواتُ والأرض وما بينهما.

بدأ مُوسَىٰ عليه السلام في إجابته بإعْطَاءِ النَّظْرَةِ الكلّيّةِ الشّامِلَةِ للعالَمين، ليَدُلَّ عَلَىٰ أنّ لِهَـٰذَا الكَوْنِ كلّه خَالِقاً رَبًّا مُدبّراً مُتصَرِّفاً بكُلِّ حركاته وسَكَنَاتِهِ، ومَا يَجْرِي فِيه من تغيُّرات، وهو مُقَدِّرُ مقادِيرِ كُلِّ شيءٍ فيه.

اليقين: هو العلم الّذي لا شَكَّ فيه، وأدنَىٰ مراتِبِهِ ودَرَجاتِهِ ما اعْتَمَدَ عَلىٰ أدِلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ عقْلِيَّة، أَوْ خَبَرِيَّةٍ صادقة لاَ يعْتَرِيها شَكّ.

وتَلْزَمُ منْ هذا البيَانِ مقالَةٌ أُخْرىٰ تُفْهَمُ باللُّزُوم الذهني، وهي: فإذَا كُنْتُمْ غيْرَ مسْتَعِدِّين لأنْ تُفكّروا فتُوقِنُوا مستقبلاً بالحقّ الّذي أدْعُوكُم إلىٰ الْإيمانِ به، مهْمَا قَدَّمْتُ لكُمْ من الأدلّة، فإنَّ بياني هذا لَنْ يُغَيّرَ مِنْ جُحُودِكُمْ لِرَبّكُمْ شيئاً.

عندئذٍ استغلَّ فِرْعَوْنُ عَدَمَ إجابَةِ مُوسَىٰ لَهُ عَنْ حقيقَةِ ذاتِ رَبّ العالَمِين، فنظر إلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ ملأِ قَوْمِهِ، فقال لهم مَا دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥﴾؟!.

أي: ألاَ تَسْتَمِعُونَ إجابتَه غيْرَ المطابِقَةِ للسؤال، إنّي أسْأَلُهُ عَنْ ذاتِ رَبّ العالمين، الذي يَدْعُونا إلى الإيمان به، فلا يجيبُني ببيَانِ حقيقَةِ ذاته، وإنّما يأتي ببعضِ عناصِرِ كونِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فيَذْكُرُ أنَّهُ رَبُّ السّماواتِ والأرض وما بينهما.

وهـٰذا يَدُلُّ علىٰ أنَّ في عَقْلِه خَلَلاً.

فتابَعَ مُوسَىٰ عليه السّلام بيانه الذي دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾:

أي: رَبُّ العالَمِينَ هُوَ أيضاً رَبُّكم الّذِي يُمِدُّكم بِعَطَاءَاتِ رُبُوبيّتِهِ

دواماً، ورَبُّ آبائِكُم الأوّلينَ السَّابقين، الَّذِينَ ماتُوا عِنْدَ انتهاء آجالهم في الحياة الدّنيا.

وهُنَا اسْتَغَلَّ فِرْعَوْنُ جَهْلَ معظم مَلَئِهِ بدقائق مَا أفادتْهُ أجْوِبَةُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، ومُسْتَغِلًّا مَا فَرَضَهُ مِنْ إلَهِيَّتِهِ الَّتِي جَعَلَ نَفْسَهُ فيها معبُوداً لقومه، ومستَغِلًّا خُضُوعَهُمْ وخُنُوعَهُمْ واسْتِسْلاَمَهُمْ لكلّ ما يَقُولُ لَهُمْ مِنْ رأْي، فقال لمَلَئِهِ ما دَلَّ عليه قول اللهِ عزّ وجلَّ:

- ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾:

قال فرعون هذا الكلامَ تهكُّماً، وإنْكاراً لأنْ يَكُونَ رَسُولاً، أو صَالحاً لأنْ يَحْملَ رِسالةً من رَبِّ العالَمِينَ على مَا يَدَّعي.

أي: أنا أسْأَلُهُ عن أشياء مُعَيَّنَةٍ، وهو يجيب بأجْوِبَةٍ بَعِيدَةٍ عمّا أسْأَلُهُ عَنْهُ، وهـٰذِهِ مِنْ صِفَاتِ المجَانين وأكَّدَ لَهُمْ جُنُونَهُ بثلاث مؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة» أي: بما يَدُلُّ في لُغَتِهِ علىٰ مِثْلِ هـٰذِهِ المؤكّدات.

ولم يَلْتَفِتْ مُوسَى عليه السّلام إلى اتّهام فِرْعَوْنَ لَهُ بالجنُونِ في مُخَاطَبَتِهِ لِمَلَئِهِ، بلْ صَبَر عليهِ وأعْرَضَ عَنْهُ، وتابَعَ بيانَهُ بقوله الّذي دلَّ علىٰ معْنَاهُ قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

كَلِمَتَا «الْمَشْرِقِ» و«الْمَغْرِبِ» تَصْلُحَانِ للدَّلاَلَةِ على الزمان والمكان، وتَصْلُحان للدّلاَلَة على الحدَثِ كَمَصْدَرٍ ميمي، إذْ خَرَجَا عن قاعِدَة «مَفْعَل» بفتح العين في اسْمي الزّمان والمكان.

والمعنىٰ: أنّ رَبَّ العالَمِينَ هُوَ المدبّر والمتصرِّفُ بصِفَاتِ رُبُوبيته لمكان شروق الشّمْسِ ولزمانه، ولشُرُوقها، وحَرَكتها، ومَسِيرَتها، وهو

المدَبّر والمتصرّف بصفات رُبُوبيّتِهِ لمكان غروب الشمس ولزمانه، ولغروبها، ولظهور اللّيْلِ والكواكب فيه. وهو رَبُّ كُلّ ما بَيْنَ المشرق والمغْرِب من أشياءَ، وناميات، ورياحٍ وسُحُبٍ، وقُوىً ظاهِرَةٍ أَوْ خِفيَّةٍ، وظُلْمَةٍ وضياء، وأحياءٍ وَبَشَرٍ، وغَيْرِ ذلِكَ.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي: تُدْرِكونَ حَقِيقَةَ رُبُوبيَّتِهِ للمشرق والْمَغْرِب ومَا بَيْنَهما، إنْ كُنْتُم تُعْمِلُونَ أذْهَانَكُمْ في التَّفَكُّرِ في هٰذِهِ الظواهِرِ الكَوْنِية، وكُلّمَا تَوَصَّلْتُمْ إلى حَقِيقَةٍ عَقَلْتُمُوهَا بعقالٍ في جهاز المعرفَةِ لدَيكُمْ، وهي تنقُلُكُمْ إلىٰ حقيقةٍ بَعْدَهَا في سَلاَسِلَ مُتَمَاسِكَةٍ مُترابِطَةٍ مُتَعَاقِدَةٍ، حتَّىٰ تُدْرِكُوا أَنَّ اللهَ الخالِقَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ والمتَصَرِّفُ فيهِ بتَدْبِيرَاتِهِ الحَكِيمة، وهُوَ الْمُحَرِّكُ دَواماً لكلّ مُتَحَرِّكٍ فيه، والْمُسَكِّنُ لكلِّ سَاكِنٍ فيه، وهُوَ الْقَدِيرُ على إيجاد ما يَشَاءُ، وإعْدَامِ مَا يَشاء، وحَسْبُكُمْ أَنْ تَدُلَّكُم الظواهِرُ علىٰ صِفَاتِهِ، ومَا لَكُمْ وللْبَحْثِ عَنْ ذَاتِه الَّتِي لَسْتُمْ مؤهَّلِينَ بِالْأَجْهِزَةِ الّتِي خَلَقَهَا لَكُمْ لإدْرَاكِها؟. وهل تَسْتَطِيعُونَ إدْرَاكَ كُلِّ شيءٍ في الكون؟ ألاَ تُوجَدُ أشياءُ تُؤْمِنونَ بوجُودِها كأرْواحِكُمْ وَقُدْرَاتِ المعرفة فيكُم وأنْتُمْ لاَ تَعْرِفُونَ حقيقَةَ ذاتها؟.

كلُّ هٰذِهِ المعاني هي من لوازِمِ عبارة: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وهنا أَدْرَكَ فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يُنَاظِرُ رَجُلاً ذَا عَقْلٍ كبيرٍ وحُجَجٍ دامِغَة، وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَ مَلَؤهُ عُمْقَ حُجَجِهِ وبراهِينِهِ الدّقيقة والمحكَمة، فضاقَ صَدْرُه، ولَمْ يَجِدْ لَدَيْهِ إلَّا وَسِيلَةَ التهديد الأَوّلِيّ بالسّجن فقال له مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ في الآية التالية:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: قَالَ فِرْعَوْنُ لموسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام: لَئِنِ اتَّخَذْتَ مَعْبُوداً تُطِيعُهُ وتَعْبُدُهِ غَيْرِي، لأَجْعَلَنَّكَ في السِّجنِ مع المسْجُونين من العصاة

والمجْرِمين. اللام في ﴿لَئِنِ﴾ مُوطئة للقسم، أي: أقسم لَئِنِ اتَّخَذْتَ معبوداً غيري لأسْجُنَنَّك.

وهُنَا جاءَ دَوْرُ ما آتَىٰ اللهُ عزّ وجلَّ موسَىٰ عليه السَّلامُ من خوارقَ أُولَىٰ، وهُما آيَتا الْعَصا والْيَد، لإخافَتِه ورَدْعِهِ عن أنْ يَتَصَرَّفَ تَصَرُّفاً فِيهِ إذاءٌ لَهُ وَلأَخِيهِ هارُونَ، فقال لَهُ ما جاء بيانُهُ في الآية التالية:

- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾؟.

الواو بَعْدَ همْزَةِ الاسْتِفْهام تَعْطِفُ علىٰ مطْوِي محذوفٍ من اللّفْظِ، ومُدْرَكٍ في الذهن، أي: أَتَأمُرُ بِسِجْنِي ولَوْ جِئْتُكَ بشَيءٍ عظيم، يُبَيّنُ لَكَ أَنّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حقًّا وصِدْقاً؟.

فأجابَ فِرْعَوْنُ بما دلَّتْ عَلَيْهِ الآيَةُ التالية:

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٣١﴾:

أي: فأْت الآنَ بهـٰذا الشيء الْمُبِين الَّذِي ذَكَرْتَهُ، إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادقينَ في أنّكَ نبيٌّ ورَسُولٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ.

فأجْرَىٰ مُوسَىٰ علَيْه السَّلام ما أعطاه رَبُّهُ وأذِنَ لَهُ بإجرائه، وهما آيَتا العصا والْيَدِ، دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجلَّ في الآيَتَيْنِ التالِيَتَيْنِ:

- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ۝٣٣﴾:

أي: فألْقَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَصاهُ، فَقَلَبَها اللهُ عزّ وجلَّ بأَمْرِ التَّكْوِين فَجَعَلَهَا ثُعْباناً مُخِيفاً، فَفَاجَأَتْ فِرْعَوْنَ ومَلأَهُ بتَحَوُّلِها ثُعْبَاناً واضحاً جَلِيًّا مُرْعِباً مخيفاً.

وأدْخَلَ يَدَهُ السَّمْراءَ في جَيْبِهِ (أي: في فُتْحَةِ ثَوبِهِ عِنْد صَدْره) إلَىٰ إبطِهِ، فجَعَلَهَا اللهُ عزّ وجلَّ بأمْرِ التكوين بيضَاءَ، وأخْرَجَها ففاجَأَتِ الْقَوْمَ بتَحَوُّلِها بيْضاءَ مُتَلأْلِئَةً كالْبَرْقِ اللاّمع.

وأدْهَشَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السّلامُ بهاتَيْنِ الآيتَيْنِ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ في مَجْلِسِه، وأدْرَكَ فِرْعَوْنُ قُوَّة تأْثيرهِمَا علَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وأرادَ أَنْ يتدارَكَ الموقِفَ الصَّعْبَ، فقالَ للملأ حولَهُ مَا جَاءَ بَيَانُ مَعْنَاهُ في الآيتَيْنِ التالِيَتَيْن:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: إنَّ هَـٰذا الّذي أجراهُ هُو مِنْ قبيلِ السِّحْرِ، وليْستَا آيَتَيْنِ أجْرَاهُما ـ كما يَزْعُمُ ـ رَبُّ العالَمِينَ، لإثباتِ صِحَّةِ دَعْوَاهُ بأنَّهُ نبيُّهُ ورَسُولُه، بدَلِيل أنّه يُطَالِبُ بأنَ نَأْذَنَ لشَعْبِ بني إسرائيلَ بالخروج من مِصر بقيادَتِهِ وقيادَةِ أَخِيهِ هارون، هذا يجْعَلُنَا نُدرِكُ أنَّهُ يُرِيدُ تَكْوينَ جَيْشٍ مِنْ بَنِي إسرائيل خارجَ مِصْرَ، لِيَرْجِعُوا ويُقاتِلُونا ويُخْرِجونَا مِنْ أرْضِنا ومُلْكِنا وَأمْوالِنَا، ويكونوا هُمْ ذَوي الْمُلْكِ والسُّلْطانِ في مِصْر، وعِنْدَئذٍ يُنكِّلُونَ بِنَا قَتْلاً واستعباداً، انْتِقاماً مِنّا لاسْتِعْبَادِنا لَهُمْ، وَوَسِيلَتُهُ الآنَ في إخافتنا هي السِّحْرُ الذي جاءَنا بِه.

وعَقِبَ هذا اسْتَشَارَ فِرْعَوْنَ مَلأَهُ قائِلاً لَهُمْ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أيْ: فَمَا الشَّيْءُ الّذِي تُشِيرُونَ بِهِ عَلَيَّ، يقال لغة: «أَمَرَ فُلاناً بشَيْءٍ» أي: أشَار بِهِ عَلَيْه.

فأشَارُوا عليه بما جاءَ بَيانُهُ في الآيَتَيْنِ التاليتين:

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿أَرْجِهْ﴾: أي: «أَرْجِئْهُ» والمعنَىٰ: أَخِّرْهُ وأجِّلْهُ، يُقَالُ لُغَةً: «أَرْجَأَهُ، يُرْجِئُهُ» أي: أجَّلَه، أوْ جَعَلَ له أجلاً.

أي: اجْعَلْ لَهُ وَلِأَخِيهِ أَجَلاً مُحَدَّداً، لِإجراء مباراةٍ سِحْرِيَّةٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ سَحَرَةِ مِصْر، وأرْسِلْ مَبْعُوثِين مِنْ قِبَلِكَ، لِلْبَحْثِ في المدائِنِ المصْرِيَّةِ عَنْ

كلِّ سَحَّارٍ عَلِيم مَاهِرٍ في السَّحْرِ، وحاشِرِينَ إلَيْكَ مَنْ يَجِدُونَ مِنْهُمْ في مِصْر، وأْمُرْهُمْ أَنْ يَأْتُوكَ بِهِمْ، إعْداداً للمبَارَةِ الّتي تُقِيمُها بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

وسبق بَيَان وجوه القراءات في ﴿أَرۡجِهۡ﴾ لدَى نَصّ السورة.

﴿سَحَّارٍ﴾: صيغة مُبَالَغَةٍ لصيغة «سَاحِر» وهي إحدى قراءتَيْنِ في النصّ الذي في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

أي: احْشُر كُلَّ سَاحِرٍ عَلِيم، وكُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.

الحشْرُ: هو في اللّغَةِ الجمْعُ والسَّوْق.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

- ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾﴾: أي: فَجمَعَ جُنُودُ فِرْعونَ السَّحَرَةَ، لإجراء المبَاراة في الموعِدِ المحدَّد زماناً ومَكاناً، فصار مَعْلُوماً لكُلّ مَنْ بَلَغَهُ خَبَرُ المباراة.

﴿لِمِيقَٰتِ﴾: اللّام للتعليل، وفي العبارة مَحْذُوفٌ، تقديرُه: لحضور المباراة في ميقات يوْمٍ معلوم.

الميقات: الوقتُ المعيَّنُ لفِعْلٍ ما، والْمَوْعِدُ الّذِي جُعِلَ لَهُ وقْتٌ مَا، والْمَوْضِعُ الّذِي جُعِلَ لشيْءٍ يُفْعَلُ عِنْدَه.

- ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾؟.

أي: وقَالَ مُذِيعُو نَبَأِ المبَارَاةِ علىٰ سَبيلِ الْعَرضِ لا الإلْزَامِ لجماهِيرِ المصْرِيّين: هَلْ أنْتُم مجتَمِعُونَ؟.

وفي هذا العرْض بأسْلوب الاستفهام تَرْغيبٌ في الحضُور.

واقترن بإذاعَةِ النّبأ توجِيهُ عِبارة الرّجاءِ باتّباع السَّحَرَةِ لتَعلُّم السِّحْرِ مِنْهُمْ، إنْ كانُوا هم الغالِبِينَ في المباراة بينهم وبيْنَ موسَىٰ الّذي يقول: إنَّ مَا جاء بِه هو من آياتِ رَبّ العالمين؛ الذي يَدْعُو إلىٰ الإيمان بِهِ، والإسْلاَمِ لَهُ، واتباع دينه، هو وأخوه هارون.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

دلّتْ هاتان الآيتان على أنّ فِرْعَوْن دَعا مَنْ جَمعَ وسَاقَ من المدائنِ المصْريّةِ إلَىٰ مجْلِسِهِ، أو حَضَرَ إلَىٰ المكَانِ الّذي جمعهم فيه في عاصمته، وعَرَضَ علَيهم الغرضَ الّذي جَمعُهُمْ مِنْ أجْلِهِ، وهو إجراء مباراة بَيْنَهم وبيْنَ الإسْرَائيليّ موسَىٰ، الَّذِي يَسْحَرُ عَصَاه فتَصِيرُ ثعباناً مخيفاً.

ولمّا كان السَّحَرَةُ لا يُجرُونَ أعْمالَهُمُ السّحْريَّةَ إلَّا بأجْرٍ، قالوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؟.

أي: أتُعْطِينَا أجراً يُكافِىء المالَ والْجَهْدِ الّذِي نَبْذُلُهُ لإجراء أعْمَالِنَا السِّحْرِيَّة، إنْ كُنَا نَحْنُ الْغَالِبين بِسِحْرِنا مَا يأتي به موسىٰ؟.

فأجابَهُمْ فِرْعَوْنُ فوراً قائلاً لهم: ﴿نَعَمْ﴾ وقرىء [نَعِمْ] وزَادَهُمْ إطماعاً قائلاً لهم: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: وأَجْعلُكُمْ حينئذٍ من المقرَّبين عِنْدي، من حاشِيَةِ قَصْرِي أمْنَحُكُمْ مِنْ مِنَحِي، وأُجِيبُ طَلِبَاتِكُمْ، وأُحقّقُ رَغبَاتِكُمْ.

وطوىٰ النصُّ هنا أحداثاً، مُنْتَقِلاً إلَىٰ أَحْدَاثِ إجْرَاءِ المباراة في الميقاتِ الّذِي تَمّ تَحْدِيدُه، والْتَقَطَ مِنْهَا لقطاتٍ لبيانها هنا في السورة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

قول موسىٰ لهم: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ جاء جواباً لعَرضِهِمْ الذي جاء بيانه في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وفي سورة (طـٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وطُوِي هُنَا في (الشعراء).

أي: اطْرَحُوا في سَاحَةِ المباراة ما عِنْدَكُمْ مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيٍّ أَعْدَدْتُمُوه لها، فأنَا مُتَحَدِّيكُمْ، وَقَابِلٌ تَحَدِّيكُمْ.

لقد طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُلْقُوا أَوّلاً لِيَتَسَنَّىٰ لَهُ إبْطالُ كَيْدِهم كُلِّهِ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ، واسْتَغَلَّ لهٰذا تخييرَهُمْ له.

فَطَرَحَ السَّحَرَةُ في سَاحَةِ المباراة أدواتِهِمُ السِّحْرِيّة، حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ، وأقْسَمُوا بِقُوَّةِ فِرْعَوْنَ الإلَـٰهِيَّة الغالِبَةِ لِكُلِّ الْقُوىٰ، قائلين بَعْدَ الْقَسَمِ جواباً له: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فأكَّدُوا عبارتَهم هـٰذِهِ بأرْبَعِ مؤكدَات: «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة ـ ضمير الفصل».

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: بقوة فِرْعَوْنَ الغالِبَة، المادّية والمعنويَّة، إذ جَعَلَ فِرْعَوْن نفسه إلَـٰهاً لشعْبِهِ.

الْعِزَّة: الْقُوَّةُ الْغَالِبَة.

وبعد أن ألْقَىٰ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ حِبَالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ وأَجْرَوْا أعمالَهُمُ السِّحْرِيَّة، وَسَحَرُوا أعْيُنَ النَّاسِ واسْتَرْهَبُوهُمْ، كما جاء في غير هذه السّورة، ألْقَىٰ مُوسَىٰ عليه السَّلام عصاه كما قال الله تعالى في هذه السورة:

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: فانقلَبَتْ بِأَمْرِ الله التكوينيِّ عصا موسى عليه السَّلام حَيَّةً

عظيمةً، وفاجأت المشاهِدِينَ بأنّها شَرَعَتْ تَبْتَلِعُ ابْتِلاعاً حقيقيًّا ثُعابين السَّحَرَةِ الَّتي هِيَ في الحقيقة ما زَالَتْ حِبالاً وعِصيًّا.

﴿تَلْقَفُ﴾: أي: تتناول بسُرْعة في فَمِها فتَبْتَلِعُه. يقال لغة: «لَقِفَ الشيءَ، يَلْقَفُهُ، لَقْفاً، ولَقَفاناً، أي: تناولَهُ بِسُرْعَةٍ، وأخذه بفَمِهِ فابتلعه. وقرىء [وتلقَّفَ] يَلْقَفُهُ، لَقْفاً، ولقَفاناً، أي: تناولَهُ بِسُرْعَةٍ، وأخذه بفَمه فابتلعه. وقرئ [تَلَقَّفُ] أي: تَبْتَلِعُ بشِدَّةٍ وسُرْعة.

واجْتَهَدَ السَّحَرَة اجتهاداً بالغاً للمحافظة عليها مَوْجُودة في ساحَةِ المباراة، ومنْعِ حيَّةِ موسَىٰ من ابْتِلاعها فخَابُوا ولَمْ يُفْلِحُوا، وقد كان هٰذَا الاجتهادُ مُرافقاً لابتلاعِهَا حبَالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ بدَلاَلَةِ الْفِعْل المضارِع في عبارة: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: أي: وهُمْ مَا زَالُوا يُجَدِّدُونَ أعْمَالَهُمُ السِّحْرِيَّةَ الكواذب، الّتي تعْتَمِدُ على كذِبٍ خداعِيٍّ للأعْيُن، وليس لَهُ حقيقةٌ في الواقع.

«الإفك»: الكذِبُ قولاً أو عَملاً، يقال لغة: «أَفَكَ، يَأْفِكُ، أفْكاً، وإِفْكاً، وأُفُوكاً ـ وَأَفِكَ يَأْفَكُ أَفْكاً» أي: كذَبَ.

وعَجزَ السَّحَرَةُ عن اتّخاذِ أيِّ شيءٍ حِيالَ الْعَصا المنقَلِبَةِ حيَّةً حقيقيَّة، وابْتِلاَعِها كُلَّ أدَواتِهِمُ السِّحْرِيَّة، وأدْرَكُوا أنّها آيَةٌ مِنْ آياتِ خالِقِ الكَوْنِ، رَبّ العالمين، فخَرُّوا سَاجِدِينَ مُعْلنِينَ إيمانَهُمْ بربّ العالَمِين، رَبِّ موسَىٰ وَهارون.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

جاءَ الفِعلُ في: ﴿فَأُلْقِيَ﴾ مبنيًّا لِمَا لَمْ يَسُمَّ فاعِلُهُ، للدَّلاَلَة عَلَىٰ أنّ سُلْطانَ آيَةِ اللهِ بابْتِلاَعِ كُلّ ما صَنَعَ السَّحَرَةُ، جَعلَتْهُمْ بِتِلْقَائِيَّةٍ مَقْسُورين عَلَىٰ أنْ يَخِرُّوا سَاجِدِين لله رَبِّ الْعالِمين، مُجري هٰذِهِ الآيَةِ العظيمة لموسَىٰ عليه السَّلام.

والفاء في العبارة دَلَّتْ على أنّهم خَرُّوا سَاجِدِينَ عقب ابتلاع العصا المنْقَلِبَةِ حيَّةً كُلَّ مَا صَنعُوا، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ تَلَكُّؤٌ وَلاَ تَرَيُّث، انْدِهَاشاً بالْحَدَثِ، ومُعْتَرِفِينَ بالخيبَةِ، وَأَنَّهُمْ مَغْلُوبُونَ حقًّا.

﴿سَٰجِدِينَ﴾: أي: حالَةَ كَوْنِهِمْ سَاجِدِين حينَ أُلْقُوا.

السُّجود: يكونُ لغةً بإحْنَاءِ الظَّهْرِ وَتَطَامُنِه، وأقصاه يكونُ بوضع الجبْهَةِ علىٰ الأرض.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

يَحْكي اللهُ عزّ وجلَّ بهٰذِهِ المقالَةِ إعْلانَهُمْ إيمَانَهُمْ باللهِ رَبّ الْعَالَمِين، الرَّبِّ الذي يَدْعُو إلى الإيمان بِهِ مُوسَىٰ وَهارون.

والمرادُ هُنَا مِنْ كونِهِ رَبَّ الْعَالَمِين، كَوْنُه رَبَّ كُلّ مَا فِي الْوُجُودِ سِوَىٰ اللهِ عزّ وجلّ.

فأثَارَ سُجُودُهُمْ وإعْلاَنُهم الإيمانَ برَبّ العالَمِينَ رَبّ مُوسَىٰ وهارون، غَضَبَ فِرْعَوْنَ وسَخَطَهُ الشّديد، فقال لَهُمْ مَا أبانَتْهُ الآيَة التالِيَة:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

اشْتَمَلَتْ هذ الآية على بيان ثلاث قضايا وجَّهها فِرْعَوْن لسَحَرتِهِ الّذين آمَنُوا بِرَبِّ العالمين، وآمَنُوا بمُوسَىٰ وأسْلَمُوا:

القضيَّةُ الأولى: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلَّ حكاية لما قاله فرعون للسَّحَرَةِ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾:

فعل «آمَنَ» يَتَعَدَّى بحرْف الجرّ «الباء» فيُقال لغة: «آمَنَ بِهِ» أي: اعتقَدَهُ اعْتِقَاداً قَلْبِيًّا جازماً به، فلماذا عُدِّيَ هنا باللّام؟.

أقول: ضُمِّنَ فعل «آمَنَ» معنَىٰ فعل «أَسْلَمَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، فصار

المعنىٰ: آمَنْتُمْ بِهِ وَأسْلَمْتُمْ له، وبهذا التضمين مع التَّعْدِيَة الّتِي تُلائم الْفِعلَ المضمَّنَ غَيْر المذكور في اللّفظ، أغْنَتِ الْجُملَةُ الواحِدَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن، وهذا مِنْ روائع الإيجاز القرآنيّ.

ويُقالُ في التقدير: آمَنْتُمْ بِه مُسْلِمينَ له.

ودلَّتْ عبارَةُ ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ على أنَّ من نِظَام الحكْمِ الْفِرْعَوْنِيّ، أَنَّهُ لَيْسَ لأحَدٍ مِنْ رَعِيَّةِ فِرْعَوْنَ، أَنْ يُؤْمِنَ بشَيْءٍ علَىٰ خِلاَفِ دِينِ فِرْعَوْنَ إلَّا بإذْنِهِ، فإنْ فَعَلَ شيئاً من ذَلِكَ، اسْتَحَقَّ العقابَ الَّذِي يَقْضِي بِه فِرْعَوْنُ، ومنْهُ الصَّلْبُ بَعْدَ تَقْطِيع الأيْدِي والأرْجُلِ من خلاف.

فالدّينُ في نِظامِه تُجْبَرُ عَلَيْهِ رَعِيَّتُهُ بسُلْطَانِ الْقُوَّة.

«الإذن» يأتي في اللُّغَةِ بمعنى «العِلْم». ويَأْتي بمعنىٰ «الْإباحَة» وهذا المعنَىٰ الثاني هو الملائمُ هنا.

القضية الثانية: دلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ حكاية لمعنى مَا قالَهُ فرعون للسَّحَرَة: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾:

في هذا الْقَول حُكْمٌ عَلَيْهِمْ بإدَانَةٍ افترائيّة، قرَّرَ فيها فرعَوْنُ أنّ ما جَرَىٰ قَدْ كانَ مؤامَرَةً مُدبَّرَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُوسَىٰ، وأَنَّهُم كانُوا مُتَفِقِينَ مَعَهُ على أنْ يُظْهِرُوا عَجزَهُمْ، وأَنْ يَغْلِبَ سِحْرُهُ سِحْرَهم، وأنْ يَخِرُّوا سَاجِدِينَ مُعْلنين إيمانهم وإسلامهم. إذْ هُو كَبِيرُهُمُ الَّذِي عَلَّمَهُمُ السّحر، واتَّفَقُوا مَعَهُ على أنْ يكُونُوا شُركاءَهُ فِي حُكْمِ مِصْرَ، بَعْدَ إسْقَاطِ حُكْمِ فِرْعَوْنَ.

ويظهر أنَّ فرْعَوْنَ أعْلَنَ هذا لإقناع جماهير المصْرِيّين بأنَّ ما جرىٰ مؤامَرَةٌ مُدَبَّرَة، حتَّىٰ لاَ يَنْسَاقُوا وراءَ السَّحَرَة فيُؤْمِنُوا بموسَىٰ نبيًّا ورسُولاً لِرَبِّ الْعَالَمِين، ويُسْلِمُوا له، وبذلك يَفْلَتُ زمام الأمْر مِنْ يَدِهِ جَماهِيريًّا، مع أنَّ ما أعْلَنَهُ لَيْسَ لَهُ أمارة تَدُلُّ عليه، فقد كانَ موسَىٰ خارج مصْرَ فارًّا من القتل كما سَبَقَ بيانه.

القضية الثالثة: دلَّ عليها قوْلُ اللهِ عزّ وجلّ حكايَةً لمعنَىٰ مَا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنُ السَّحَرَةَ من عقاب: ﴿فَلَسَوْفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

في هٰذا بيانُ أنَّ فِرْعَوْنَ أكَّدَ عَزْمَهُ على مُعَاقَبَتِهِمْ بما جاء في هذا القول، ولكِنَّهُ جعَلَ بَيْنَ الْوَعِيدِ وبَيْنَ التَّنْفِيذِ فُسْحَةً دَلّتْ عليها أداة التَّسْويفِ الطويلِ «سَوْفَ» رَجَاءَ أَنْ يَتُوبُوا، ويَعُودُوا إلى حَظِيرَتِهِ، سَنَداً لِمُلْكِهِ القاهِر لجماهير القبط، والمسْتَعْبِدِ للإسْرَائِيلِيّين.

فالعبارة على تقدير: إنْ لَمْ تَتُوبُوا وَتَرْجِعُوا إلَىٰ حظيرَتي.

وجاء الوعيد مؤكّداً باللّام الواقِعَةِ في جواب قَسَم منْوِي، ومؤكّداً بنون التوكيد الثقيلَةِ في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ و﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ﴾ وبلفظ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾.

تَقْطِيعُ الأيْدِي والْأَرْجُلِ مِنْ خِلاَفٍ يكُونُ بِقَطْعِ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ. والرِّجْلِ الْيُسْرَىٰ، أَوْ بِقَطْعِ الْيَدِ الْيُسْرَىٰ والرِّجْلِ الْيُمْنَىٰ، وهذا النوعُ من التشويه العقابيّ في الأعضاء، أخفُّ ضرراً من قَطْع اليُمْنَىٰ منْ كُلٍّ منْهما، أو الْيُسْرَىٰ مِنْ كُلٍّ منْهما، لأنّ السَّالمةَ تُعِينُ المقْطُوعَةَ مِنْ جِهَتِها.

وزادَ فِرْعَوْنُ في تَوَعُّدِهِ وتَهْدِيدِه، فأعْلَنَ لِسَحَرَتِهِ أَنَّهُ سيَتْرُكُهُمْ مُقَطَّعِي الْأَيْدِي والْأَرْجُلِ مِنْ خِلاَفٍ زَمَناً يُعَذَّبُونَ فِيه، ثُمَّ لَيُصَلِّبَنَّهُمْ أجْمَعِين، تَصْلِيباً عنيفاً شَدِيداً يكُونُ به تَعْذِيبُهُمْ ومَوْتُهُمْ صَبْراً بَعْدَ ذٰلِكَ، ويكُونُ به التَّشْهِيرُ بِهِمْ أَمَامَ الْغَادِينَ والرَّائِحِين من الشَّعْب المصْرِيّ وغَيْرِهم، لِيَكُونُوا عِبْرَةً لكلّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسه بمُخَالَفَةِ دِينِ الملِكِ وَنِظَامِ حُكْمِه.

الصَّلْبُ: شَدُّ أطْراف الْجِسْمِ، وتَعْليقُهُ علىٰ خَشَبَةٍ مَعْرُوفَة بالصَّليب، وتكُونُ على شَكْلِ سَطْرٍ قائم عَمُودِيّ، وسَطْرٍ آخَرَ يُوضَعُ وَسَطُهُ على السَّطْرِ القائم دُونَ رَأْسِهِ بنَحْوِ الرُّبْعِ.

وقد يكونُ هذا الصَّلْبُ على سُوقِ شَجَرٍ ذَواتِ سُوقٍ مُرْتَفِعَةٍ عالية، كالنَّخْلِ، والسَّرْوِ، ونَحْوِهما.

قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمعنىٰ ما أجاب به السَّحَرَةِ فِرْعَوْنَ علىٰ تَوَعُّدِهِ لهم:

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾:

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ﴾ أي: لا نعتبِرُ مَا سَتُنْزِلُهُ بِنَا بمقْتَضَىٰ تَهْدِيدكَ ضارًّا لنَا، بَلْ هُو سَيزيدُنَا عِنْدَ رَبِّنَا سَعادَةً وَأَجْراً عظيماً، وَمَا نَلْقَاهُ مِنْ جُنُودِكَ وزَبَانِيَتِكَ لاَ يَزِيدُ في اعتبارِنَا على كوْنِهِ أذًى.

يقالُ لغة: «ضَارَهُ يَضِيرُهُ أَمْرُ كَذا» و«ضَارَهُ يَضُورُهُ» أي: أَضَرَّ به.

إنَّ السَّحَرَةَ مُنْذُ أَعْلَنُوا إيمانَهُمْ وإسْلاَمَهُمْ، قَدْ صَارَت لَدَيْهِم بَصِيرَةٌ إيمانِيَّةٌ نَفَّاذَةٌ، وتَعَلُّقٌ كامِلٌ بالآخِرَة، واسْتِهَانَةٌ بالدُّنيا وبكلّ ما فيها من مَسَرَّاتٍ وَمَكارِه، فقالوا لِفِرْعَوْن: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ﴾ وَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: إنَّا إلَىٰ رَبِّنَا رَاجِعُونَ.

يُقَالُ لغة: «انْقَلَبَ» أي: رَجَعَ، وانْصَرَفَ.

وفي عبارتهم هذه كنايَةٌ عَنْ أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ بِرَحْمَتِهِ وجُودِهِ وَكَرَمِه سَوْفَ يَشْمَلُهُمْ بالغفران والإسعاد، ويُفيضُ عَلَيْهِمْ من هباته وعطاياه خيراً عظيماً، ويُدْخِلُهُمْ فِي جنَّتِهِ، فَيَمْنَحُهُمْ فيها سعادةً أَبَدِيَّةً خالِدَة.

وقالوا لفِرْعَوْن: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾.

لَقَدْ أَدْرَكَ السَّحَرَةُ أَنَّ لَهُمْ خطَايَا كثيرَةً سَبَقَ أَنْ ارتَكَبُوهَا، ولاَ سيما أعْمالُ السِّحْرِ وَوَسَائِلُه الّتي كانُوا يُمارِسُونها، فهم إذا صَبَرُوا علىٰ العذاب الّذي يتَوَعَّدُهُمْ فِرْعَوْنُ بِهِ، فإِنَّهُم يَطْمَعونَ في أَنْ يَغْفِرَ لهم رَبُّهم خطَاياهُمْ

بسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا أوّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْقِبْطِ بما جاء به مُوسَىٰ وهارونُ عن الله رَبّ العالمين، بِحَسَبِ مَا ظَهَر لَهُمْ من واقِعِ الشَّعْبِ المصْرِي، أَمَّا مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَعْلَنَ إيمانه.

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: بأَنْ كُنَّا أَوّلَ المؤمنين من الشعب المصري. والباء المقدّرة قبل «أنِ» سببيّة.

والمعنىٰ: لقَدْ سبَقَ أنْ كَانَ مِنَّا خَطَايا كثيرةٌ في جنْبِ اللهِ، ونَطْمَعُ الآنَ في أن يغفرَ لنا رَبُّنا خطايَانا، بسَبَب أنْ كُنَّا أوّل المؤمنين من القبط.

ولَزِمَ ذكْرُ قَيْدِ القبط، لأنَّ السَّحَرَة يَعْلَمُونَ أنَّ كثيراً من رجال بني إسرائيل ونسائِهم سبَقَ أَنْ آمَنُوا بموسَىٰ وهارُون نَبِيَّيْن ورَسُولَيْنِ من رَبّ العالِمين، وآمَنُوا بالدّين الذي جاءَا بِهِ عنه.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَوّل المؤمنين والسَّابقينَ إلى الإيمان، أعْظَمُ أجرا عِنْدَ الله من الّذين يُؤْمِنُون بَعْدَهم.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾:

قَفَزَ النّصُ هُنَا في (الشعراء) إلَىٰ بيان رِحْلَةِ خرُوج بَنِي إسرائيل بقيادة موسى وهارون مِنْ مِصْر، وطُوِيَتْ أحداثٌ كثيرةٌ بَيْنَ حَدَثِ المباراة مع السَّحَرَةِ، وحَدَثِ الخروج، وقد جاء بيانُ أحداثٍ منها في نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ أُخْرَىٰ من سُور غير (الشعراء) سبق بيانها في تدبر سورة (طـه).

- قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو جعفر: [أَنِ اسْرِ] بوصْلِ الهمزة، وكَسْرِ النون في الوصل، من فعل «سَرَىٰ يَسْرِي» يقال لغة: «سَرَىٰ بفُلاَنٍ ليلاً» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ فيه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَنْ أَسْرِ] بإسْكان النون، وقَطْعِ همزة

«أَسْرِ» من فعل: «أَسْرَىٰ يُسْرِي». يقال لغة: «أَسْرَىٰ اللَّيْلَ وَبِهِ يُسْرِي» أي: سَرَىٰ. ويُقال أيضاً: «أسْرَىٰ فُلاَناً، وأسْرَىٰ به» أي: سَرَىٰ به.

فالقراءتان لغتان متكافِئَتان.

أيْ: سِرْبِهِمْ لَيْلاً. **السُّرَىٰ**: المشْيُ في اللّيل.

فالمعْنَىٰ: وأبْلَغْنَا مُوسَىٰ عَنْ طَرِيقِ الوحْيِ أَمْرَنَا بأَنْ يَخْرُجَ لَيْلاً مع بني إسْرَائيل من مِصْرَ، فخرج بهم باتِّجاه سيناء.

[أَنْ أَسْرِ]: «أَنْ» تفسيريّة بمعْنَىٰ «أي» وما بَعْدَهَا يُفَسِّرُ ما هُوَ مُبْهَمٌ في عبارة **[وَأَوْحَيْنَا]** ويجوزُ أي تكون «أَنْ» مخفَّفَةً من الثقيلة، واسْمُها ضَمِيرُ الشّأن محذوفٌ وجوباً كما يَقُول النحويّون، وتقديرهُ، أنّ الشأْنَ العظيم الخطير هُوَ أمْرُنا لَكَ بِأَنْ تَسْرِيَ ليلاً بعبادي بني إسرائيل.

﴿بِعِبَادِيٓ﴾: الباء الجارّة هُنَا للتعدية، لأَنَّهُ يقال لغةً: «أَسْرَىٰ فُلاَناً وأَسْرَىٰ به، أي: جعلَهُ يَسِيرُ ليلاً.

ووصف الله عزّ وجلَّ جُمْهُور بني إسْرَائيل الخارجين مع موسَىٰ عليه السَّلام بأَنَّهُمْ عباده على معنيَيْن:

المعنى الأول: الْعُبُودِيّة الاختياريّة والجبريَّة معاً، وهذه تلائم مَنْ كان قد آمَنَ فِعْلاً من بني إسرائيل بموسَىٰ عليه السَّلام، وبما جاء به عَنْ رَبّه.

المعنى الثاني: العبوديّة الجبريَّة فقط، وهذه تلائم الّذين لم يُؤْمِنُوا به بَعْدُ من بني إسرائيل، ولم يُسْلِمُوا، وقَدْ خَرَجوا مَعَهُ خُروجاً قَوْميًّا، لا انتماءً دينيًّا.

بدليل ما جاء في الآية (٨٣) من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) من أنّه لم يُؤْمِنْ لموسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ على خَوْفٍ مِن فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِمْ.

وأعْلَمَ اللهُ عزّ وجلَّ موسى بقوله له: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أنَّ فِرْعَوْنَ وَجَيْشاً مَعَهُ سَيَتَّبِعُونَهُمْ لِقِتَالِهِم، ورَدِّ جُمْهورِهِمْ إلى العبوديَّةِ والتَّسْخِير والإذْلال.

ولهذا الإعلام لوازمُ فِكْرِيَّةٌ، أي: ولكِنِّي سَأَتَوَلَّىٰ إنْقاذَكُمْ وَتنجِيَتَكُمْ مِنْ عَدُوِّكم بما أشاءَ من وَسَائلي فَلا تَخَفْ من اتّباعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ لَكُمْ، وَكُنْ أنْتَ وَقَوْمُكَ مطمَئِنِّينَ لِتَدْبيري، وقضَائِي وقَدَري.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾:

أي: فلَمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بِخُروج بني إسرائيل دون إذْنٍ منه، أَرْسَلَ قُوّاداً مِنْ قِبَلِهِ حَاشِرِينَ جُنُودَ قتالٍ في المدائنِ المصْرِيَّة، من كلّ أرْضِ مِصر، لِتَكْوِينِ جيْشٍ كبيرٍ، يُتَابعُ بني إسرائيل الفارِّين بقيادة موسَىٰ عليه السَّلام.

والمرادُ رَدُّ جماهِيرهم إلَىٰ الذُّلّ والْعُبُودِيّة، بَعْدَ قَتْلِ زُعَمائِهم الّذِين قادُوا أسْباطَهُمْ في الخروج، ومَنْعُهم مِنْ تكْوِينِ جَيْشٍ خارج مصر، ومن عَوْدتِهم مقاتِلين للاستيلاء على حُكْم مصر، بقيادة موسَىٰ وأخيه هارون.

قول الله عزّ وجلَّ حكايةً لمعنَىٰ ما قالَهُ فِرْعَوْن، ويظهر أنَّه خطب في الجيش الذي جمَعَهُ وساقَهُ مُحَرّضاً على الْمَسِير لقتال بني إسرائيل: أو خطَبَ موجهاً كلامه لعموم الشعب.

- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: المشارُ إلَيْهم هُمْ بَنُو إسرائيل الّذين فرّوا من الاستعباد والإذْلاَلِ الفرعَوْنِيّ والقِبْطيّ.

﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: أي: لجماعَةٌ ضعيفَةٌ مِنَ الناسِ، وقَلِيلُونَ غَيْرُ قَادِرِينَ علَىٰ القتال، فالسَّيْطَرَةُ عَلَيْهِمْ سَهْلَةٌ مَيْسُورَة.

وتُجْمَعُ «شِرْذِمة» على «شَرَاذِم». ويُطْلَقُ لفظ الشرذمَةِ في اللُّغَةِ على الْقِطْعَةِ مِنَ الشيء. ويقال لغة: «ثِيابٌ شَراذِم» أي: ثيابٌ مُمَزَّقَةٌ بالِيَةٌ خَلَقَة.

وقد جاء تأكيد العبارة بالمؤكدات: «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللّام المزَحْلَقة» وهٰذِهِ تَرْجَمَةٌ لما يُسَاوِيها في لغة فرْعَون.

قول الله عزّ وجلَّ متابعاً حكايَةَ معنى ما قالَهُ فرعَوْن لجيشِهِ في خُطْبَتِه:

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

«الغيظ»: الغضَبُ الشديد، يُقَالُ لغة: «غَاظَهُ، يَغِيظُهُ، غَيْظاً» أي: أغضَبَه أشَدَّ الغضب. ويقال أيضاً: «أغاظَهُ يُغِيظُهُ».

والمعنى: إنّ هؤلاء الإسرائيليينَ قَدْ أغْضَبُونا أشَدَّ الْغَضَبِ بتَصَرُّفاتهم، وبخُرُوجِهِم مِنْ مِصْر دون إذْنٍ مِنّا، فَلا بُدَّ من الانتقام مِنْ زُعَمائِهم وتأديبِ جماهيرهم.

خَاطَبَ فرعَوْنُ قَوْمَهُ بضَمِيرِ المتكلّم العظيم، إِذِ ادَّعىٰ لِنَفْسِهِ الإلَهِيَّةَ والرُّبُوبيَّة.

وجاء تأكيد عبارته بالمؤكدات: «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة» لتدلَّ على عبارته التوكيديّة في لغته.

قول الله عزّ وجلَّ متابعاً حكاية معنى ما قالَهُ فرعَوْنُ لجيشِهِ في خُطْبَتِه:

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [حَذِرُونَ] جَمْعُ حَذِر، مُبَالغاً في بَيَانِ شدّة حَذَرِه في عبارة لاَحِقَةٍ للأولى.

أي: خائفونَ علىٰ مُلْكِ مصْرَ، وعلىٰ الشعب القِبْطِيّ من خُرُوجهم،

إذْ قَدْ يُكَوِّنُونَ خارجَ مصْرَ جيشاً قَوِيًّا، ثُمَّ يَرْجِعُون مُقَاتِلِين، لانتزاع الحكْم بِالْقُوَّةِ، واستِعْبَادِ الشَّعْبِ القِبْطِيّ بِقُوَّةِ السلطان، انْتقاماً من استِعْبَادِه لَهُمْ بِسُلْطَانِنَا الْفِرعَوْني.

هذا مَا دَلَّتْ عليه عبارة: ﴿لَجَمِيعٌ﴾: أي: الْمَلِكُ، ورِجالُ دولَتِه، وسائر القِبْطِ في مِصْر.

والعبارة مؤكَّدَةَ كسَابِقَتِها.

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾:

وفي قراءة أخرى: **[وَعِيُونٍ]** بِكَسْرِ الْعَيْن.

تحدَّث الله عزّ وجلَّ في هاتين الآيتينِ عَنْ حِكْمته في تَدْبيراتِه. للانتقامِ من فرعون وجنوده.

أيْ وكان في إغرائهم وتَهْييجِهمْ منَّا لنفوسهم وقلوبهم، وإحداثِ الغضب الشديد فيها، والرَّغبة في مُتابعَةِ بَنِي إسرائيل الضعفاء، أنْ أخْرجْنَا فِرْعونَ وآله، وعِلْيَة قَوْمِه، ممّا يمْلِكُون من جنَّاتٍ وعُيونِ ماء جاريات، وممَّا يملكُون من كنوز ذهبيّة وغَيْرِهَا، جَمَعُوها بقوَّةِ سلطانهم في مِصْرَ، وأخْرجْناهُمْ مِنْ مقامٍ كريمٍ، كانوا فيه مكرَّمين مفضَّلينَ أعزّاء، ذوي عُلُوٍّ في أرْضِ مِصْر، وهو مقامُ سُلْطَتِهِمْ الّتي هي لَهُمْ في عُمُومِ مصر.

﴿جَنَّاتٍ﴾: جمع «جنَّة» وهي الحديقَةُ المكْتظَّةُ بالأشجار، فهي ساترةٌ لما تَحْتَها من أَرْضٍ وأشياءَ وأحياء.

﴿وَمَقَامٍ﴾: **المقام**: يُرادُ به المكان المعنويُّ الرَّفيع، الَّذِي كانُوا فِيهِ أهْلَ وِلاَيَةٍ وحُكْمٍ وسُلْطَانٍ.

﴿كَرِيمٍ﴾: أي: مُفَضَّلٍ على ما سِوَاهُ من الأمْكِنَةِ المعنوية.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾:

تَبادَرَ لِأَذْهانِ كثيرٍ من المفسِّرين، أنَّ الله عزّ وجلّ مَلَّكَ بَنِي إِسْرَائيل، ما كانَ لِفِرْعَوْنَ وآلِهِ وعِلْيَةِ قَوْمِهِ في مصر، فَفَهِمُوا هٰذِهِ الآيَةَ علىٰ وفْقِ هذا الّذي تبادَرَ لَهُم.

مع أنّ الثّابِتَ تَاريخيًّا أنَّ بَنِي إسرائيلَ لَمْ يَعُودُوا إلى مِصْرَ بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنها، بَلْ أبْقَاهُمُ اللهُ عزّ وجلّ تائِهِينَ في صحراء سينا وما حَوْلها، ممّا يتَّصِلُ بها برّاً أَرْبَعِينَ سنة، لأنَّ معظمَهم قَدْ رَفَضُوا أَنْ يَدْخُلُوا أَرْضَ الكَنْعَانِيّين مقاتِلين، وقالُوا لموسَىٰ عليه السَّلام: إنَّ فيها قَوْماً جبَّارِين، وإنَّا لَنْ نَدْخُلَها مَا دَامُوا فيها. وقالوا له: ٱذهَبْ أنْتَ وربُّكَ فقاتِلاَ إنَّا هٰهنَا قاعِدُون.

وبَعْدَ أَنْ تُوُفِّي هَارُونُ ثُمَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام، ومضَتْ أرْبَعُون سنةً تائِهِينَ في الأرض، غَيْرَ مستَقِرِّينَ في مُدُنٍ ولاَ قُرَىٰ، وبَعْدَ أنْ نشأ جيلٌ جَدِيدٌ قادرٌ على القتال، هيأَ اللهُ عزّ وجلّ مَنْ يَقُودُهم، فَدَخَلُوا أَرْضَ الكنْعَانِيّين بقتالٍ، وهي أرض فِلِسْطِينَ، ونَصَرَهم اللهُ عزّ وجلّ ومَلَّكَهُمْ مَا كانَ لمُلوكِ هٰذِهِ الأرضِ الجبابِرَةِ الْوَثَنِيّينَ الكَفَرَة، مِنْ جَنَّاتٍ وعُيُونٍ وكُنُوزٍ ومَقَامٍ كريم.

وبالتأمُّلِ والتفكير الدقيق، ظهر لي أنَّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لِقَوْمٍ آخرينَ غَيْرِ أهل مِصْر نظير ما حَصَلَ لأهل مِصْرَ مع بني إسْرَائيل، فنَصَرَ اللهُ بَنِي إسْرَائيلَ عَلَيْهِمْ، ومَلَّكَهُمْ مَا كَانَ لملُوكهم وأثْريائِهِمْ مِنْ جنَّاتٍ وعُيُونٍ وكُنُوزٍ ومقَامٍ كريم، وهُنَا يأتي مَوْقِعُ قول الله عزّ وجلّ: ﴿. . . وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾: أي: وجعَلْنَا بني إسرائيلَ هُمُ المالِكِينَ لَهَا، بَعْدَ مَالِكيها السَّابقين، عن طريق القِتَالِ والحرْب والمعونَةِ الرَّبَّانِيَّة.

وبهذا ينْحَلُّ الإشْكال، ويَتِمُّ التوفيقُ بَيْنَ النَّصّ القرآنِيّ والواقِعِ التَّاريخيّ.

ونلاحظ أنّ هـٰذِهِ الآية قد قَفَزَتْ بعبارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أكْثَرَ من خَمْسِينَ سنةً إلىٰ جهَةِ الأَحْدَاثِ الّتي حَدَثَتْ في المستقْبَلِ بَعِيداً عَنْ حَدَث عبُور بني إسرائيلَ الْبَحْرَ، وغَرَقِ فرعَوْنَ وكلّ جُنُودِهِ الّذين تابَعُوا بَنِي إسْرَائيل معه.

وقد جاءت هذه الآية كالمعترضَةِ ضِمْنَ الكلام عن تَسَلْسُلِ الأحداثِ بتَتابُعٍ، للإشعار بأنّ الله عزّ وجلَّ قَدْ مَنَحَ بني إسرائيلَ ما كان وَعدَ بِهِ أجدادهم المرسَلِينَ، وكان تأخير تحقيق وعْدِهِ بسَبَبٍ من بني إسرائيل أنفسهم، إذْ رَفَضُوا أنْ يَدْخُلوا أرضَ الكنْعَانِيّين مُقَاتِلِينَ بقيادة موسَىٰ عليه السَّلام، لِيَظْفَرُوا بالأرْضِ المقدّسة (= القدس وما حوله) وهي الأرض التي بارك الله فيها.

قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾:

﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾: أي: فَسَارَ جيْشُ فِرْعَوْنَ بقيادته، في أَثَرِ جُمْهُورِ بَنِي إسْرَائيل، عَلَىٰ الطريق الذي ساروا فيه.

يقال لغة: «تَبِعَهُ، يَتْبَعُهُ، تَبعاً، وتُبُوعاً، وتَبَاعاً، وَتَبَاعَةً» أي: سَارَ في أَثَره. وكذلِكَ يُقَال: «أَتْبَعَهُ، واتَّبَعَهُ» أي: سَارَ في أَثَرِهِ يَطْلُبُه.

﴿مُّشْرِقِينَ﴾: أي: حَالَةَ كوْنِهِمْ داخِلِينَ في وقْتِ شُرُوقِ الشَّمْس. يُقَالُ لغة: «أشْرَقَ الْقَوْمُ» أي: دخَلُوا في وقْتِ شُرُوق الشَّمْسِ، عنْدَ طُلُوعها، ومَدِّ ضِيَائها علىٰ الأرض.

لَمْ يُحَدِّدِ النَّصُّ الْيَوْمَ الّذي أتْبَعُوهُمْ فيه، فلا بُدَّ أنْ نُقَدِّرَ زَمَناً ما

يُسْتَطَاعُ فيه جَمْعُ الجيْش وحشْرُهُ وسوقُه من المدائن المصرّية، وإعدادُهُ بأقْصَىٰ سُرْعَةٍ، لملاحقَةِ بني إسرائيلَ على الطريق الذي سَلَكُوهُ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: فَلَمَا وَصَلَ جيْشُ فِرْعَوْن بقيادته، إلى مكانٍ يُمْكِنُ أنْ يَرَىٰ فيه كُلُّ جَمْعٍ من الْجَمْعَيْنِ الآخر، قال أصْحَابُ موسَىٰ المؤمِنُونَ به، والْمُسْلِمُونَ لَهُ، والملازِمُونَ مُرافقَتَهُ، والمحيطُونَ بِهِ كالْهَالة، الذين استخلصهم لصُحْبَتِهِ في حِلّهِ وترحالِه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ من قِبَلِ فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ.

يُقَالُ لغة: «تَراءَىٰ الْفَرِيقانِ، أو الْجُمْعَان، أو الشخصان المتباعِدان» أي: رأىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخر، أوْ وَصَلاَ إلى مكانٍ يُمْكِنُ فِيه أنْ يَرَىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخر.

[**مُدْرَكُون**]: اسم مفْعول من فِعْل «أَدْرَكَ» يُقَال لغة: «أَدْرَكَ فُلانٌ الشَّيْءَ» أي: لَحِقَهُ وبلَغَهُ وَنَالَه.

والمعنى: قال أصحاب موسَىٰ المقَرَّبُونَ له: إنَّ جيْش فرعَوْنَ سَيُدْرِكُنَا، وسيَنَالُنَا بأسْلِحَتِهِ مُقَاتِلِينَ لنَا، فَقَدْ وصَلَ هذا الجيشُ إلَىٰ مكانٍ يَرَوْنَنَا فِيه وَنَرَاهُمْ، وأَمَامَنا الْبَحْرُ، فماذا نَفْعَلُ للنجاةِ من هذا الجيشِ الّذي لا قِبَلَ لنا بمقاتَلَتِهِ؟.

فقال لهم موسى عليه السّلام زاجراً ومُعَلّلاً زَجْرَهُ: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: لا تَخْشَوْا علَىٰ أنفسكم، ولا على جُمْهورِ بَني إسْرَائيل، فإنَّ

مَعِيَ رَبِّي الَّذِي أَمَرَنِي بِأَنْ أَسْرِيَ بِبَنِي إسرائيلَ، وأَعْلَمَنِي بأنَّنا مُتَّبَعُون، فهو حتماً سَيَهْدِيني إلىٰ وسِيلَةِ النجاة من هـٰذا الْجَيْش الّذي لاَ قُدْرَةَ لِقَوْمِي بَنِي إسْرَائيل على مُقَاتَلَتِهِ.

وكانوا قَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ بَحْرِ «سُوف» وهو «الْبَحْرُ الأحْمَر».

قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: فعَقِبَ إعلان أصْحاب موسَىٰ تخوُّفَهُمْ مِنْ إدْرَاكِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ لهم، وتخوُّفِهِمْ من الْبَحرِ إذا فَرُّوا مِنْ مُواجَهَةِ الجيْشِ الفرعَوْنِي، وعَقِبَ إجابَةِ مُوسىٰ عليه السَّلام لهم بقوله: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ أَوْحَىٰ اللهُ عزّ وجلَّ إلىٰ موسَىٰ عَلَيْهِ السّلام بِأَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرِ بِعَصَاهُ لِيَنْشَقَّ، ولِيكُونَ لهم في قاع الْبَحْرِ طَرِيقٌ يَابِسٌ جَافٌّ، فإذا عَبَر هو وقومه فيه فإنَّهُمْ لاَ يَخْشَوْنَ أَنْ يُدْرِكَهُمْ عَدُوُّهم، ولاَ يَخْشَوْنَ فِيه غَرَقاً.

فضَرَبَ مُوسَى عليه السَّلام الْبَحْرَ مُبَاشَرَةً بعصاهُ الْبَحْر، تَنفيذاً لِلأَمْرِ الرَّبَّانِي، فانْفَلَقَ الْبَحْرُ بِأَمْرِ الله التكوينيّ، فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم.

الفِرْق: الْفِلْقُ مِنَ الشيء إذا انْشَقَّ.

الطَّوْد: الْجَبَلُ العظيمُ الذَّاهِبُ صُعُداً في الجوّ.

والمعنى: فكانَ كُلُّ قِسْمٍ انْفرَقَ مِنَ الماءِ مُنْحازاً لإحْداثِ طَرِيقٍ يَعْبُر مِنْهُ بَنُو إسْرَائيلَ إلىٰ الشَّاطِيءِ الآخر، كالْجَبلِ العظيم قائماً ثابتاً لا يَسِيلُ مِنْ مَائِهِ شيءٌ إلىٰ الطريق الْيَبَسِ، الذي جَعَلَهُ اللهُ عزّ وجلَّ في قاع الْبَحْر.

﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾: أي: وقَرَّبْنَا هُنَاك الآخَرِين، وهُمْ جَيْشُ

فِرْعَوْنَ بقيادته، وجَعَلْنَاهم يقتربُونَ مِنْ مَكَانِ الْفَرْق، فَرَأَوْا طَرِيقاً واسِعاً مُنْفَتِحاً في وسَطِ الْبَحْرِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ عظيمَيْنِ من ماء مُتَجمِّد، أَحَدُهُما على يَمِينِ الْعُبُورِ، والآخَرُ على يَسَارِه. ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: أي: وقرَّبْنا. «أَزْلَفَه وزَلَفَهُ» قَرَّبه.

﴿ثَمَّ﴾: اسْمٌ يُشارُ به إلى المكان البعيد، وهو ظرفٌ لا يتصرَّف، وقَدْ تَلْحَقُهُ التاء، فيُقَال: ثَمَّةَ، ويُوقَفُ عَلَيْها بالهاء.

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا جلّ جلالُهُ بعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، إذْ يُجْرِي في كوْنِهِ ما يَشَاءُ، ويَخْلُقُ فيه ما يشاء، ويَتَصَرَّف فيه على ما يشاءُ من كلّ أَمْرٍ حكيم.

وطَمَسَ الله على بَصِيرَةِ فرعَوْن وقادَةِ جيْشِهِ، وسَائِر جُنوده، فَدَخَلُوا في الطريق اليَبَسِ مُتابِعِينَ بَنِي إسْرائيل، ومُتَوَهِّمين أنَّ انفلاَقَ الْبَحْرِ ظاهِرَةٌ طبيعيَّة من الظواهِرِ الّتي قَدْ تُحْدِثُها الرِّياح الباردة، ولَمْ يُدْرِكوا أَنَّ الله رَبّ العالمين قَدْ فلَقَ البَحْرَ لِبَني إسْرائيل لِيُنْجِيَهُمْ ثُمَّ لِيُغْرِق فيه عَدُوَّهم.

وكان لثورَةِ الغضَب المجنُونَة، معَ الطَّمَع بالظَّفَر ببَني إسرائيل، أثَرٌ في طَمْسِ بصائرهم جميعاً، إذْ أعْمَاها عن إدْراك الْمَصِير الّذي هُمْ إلَيْه صائرون.

وجاء التعبير عن فرعون وَجَيْشِه بعبارة ﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾ اسْتِهَانَةً بِهِمْ، وتحْقِيراً لهُمْ.

ودَخلَ فِرْعَوْنُ وآلُهُ وسائِرُ جَيْشِهِ مِنْ مَكَانِ الْفَرْقِ مُتَابِعِينَ جُمْهُور بَنِي إسْرَائيل، وخَرَجَ بَنُو إسْرائيل إلى البرّ من جِهَةِ الشَّاطِىء المقابل، مع كلّ دوابّهِمْ وأحْمَالِهِم.

وتَرَكَ اللهُ الْبَحْرَ على حالِه المفروقِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، حَتَّىٰ يكونَ

فِرْعَوْنُ وَجَيْشُهُ كُلُّهم في وَسَطِ الطريق الْيَبَس في الْبَحر، بدلالة حرف العطف «ثم» في قول الله عزّ وجلَّ:

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ولمَّا وَصَلَ فِرْعَوْنُ وَجَيْشُهُ إلَىٰ نحو الثُّلْثِ الْأَخِيرِ من الطريق الْيَبَس داخل الْبَحْر، أَمَرَ اللهُ الْبَحْر بأنْ ينْضَمَّ مَاؤُه عليهم، فسالَتِ الجبال المائيّة علَيْهِمْ مُتَدَفِّقَةً بشِدَّةٍ وعُنْفٍ، فَعَذَّبَتْهُمْ وأعْرَقَتْهُمْ أجْمَعِين.

وختم اللهُ عزّ وجلَّ هذا الفصل بالفاصلَة الّتي جاءتْ مُكرَّرَةً ثماني مرّات في السورة، وهي قول الله عزّ وجلَّ:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: إنّ مَا جَرَىٰ لموسَىٰ وبَنِي إسرائيل، ومَا جَرَىٰ لِفِرْعَوْنَ وجُنودِهِ لآيَةً من آيات الله على سُنَّتِهِ في عبادِهِ، ومع هذه الآية فَإنَّ المعْنِيّين الَّذِين جاء الحديث عنهم في الدرس الأول من دروس السّورة، وهم كُبَرَاءُ مُشْرِكي مكة وما حَوْلها، الّذين وصَلَ أَكْثَرُهُمْ إلَىٰ حالةٍ ميؤوس من إيمانِهِمْ معَها عن طريق إراداتهم الحرَّة، والَّذين كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يحْزَنُ مِنْ أَجْلِهم حُزْناً قاتِلاً، بِحَسَب نِظَام الأسْبَاب والمسَّبَباتِ في الناس، أكْثَرُهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً مَهْمَا عُولِجُوا وأمْهِلُوا، وصَارَ إنْزَالُ العقاب عليهم وتَطْبِيقُ سُنَّةِ اللهِ فيهم بنَصْرِ الرسول والمؤمنين معه عليهم هو الأمْرَ الحكيم.

وقَدْ سَبَقَ تحليلُ بقيّة ما جاء في هاتَيْنِ الآيتين، في آخر الدَّرْس الأول من دُرُوسِ السورة.

* * *

الفصل الثاني

لقطات تتعلّق بقصّة إبراهيم عليه السّلام وقومه

وهي الآيات من (٦٩ ـ ١٠٤)

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ (٦٩) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ (٧٠) قَالُواْ
نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ (٧٢) أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ
أَوۡ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ
تَعۡبُدُونَ (٧٥) أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٧٧)
ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ
يَشۡفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ (٨١) وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي
يَوۡمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ
صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (٨٤) وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ (٨٧) يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنۡ
أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ (٨٩) وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ (٩١)
وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ (٩٣)
فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ (٩٥) قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ
(٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٩٧) إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ
أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ (١٠١) فَلَوۡ أَنَّ لَنَا
كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤)﴾.

تمهيد:

هذه لقطات من قصّة إبراهيم عليه السّلام وقومه، فيها آيةٌ ذاتُ عِظَاتٍ لِمَنْ شاء أنْ يَتَّعِظَ بها مِنْ أهْلِ الإيمان والدَّعْوَة إلىٰ الله، وفيها عِظَاتٌ للكافِرين المعاندين المشركين، الذين يَعْبُدُون من دُون الله أصناماً، فيَعْكُفُون عَلَيْها، وهي لا تَنْفَعُهم ولا تَكْشِفُ عنهم ضرّاً، ولا تَدْفَعُ عَنْهُمْ

أذىً، إنْ عَقَلُوا مُتَفكِرِينَ. وهجروا تقالِيدَهُمُ العَمْياء، وأدْركوا ما في بيان اللَّهِ من أنباء، عن مَصِير المشركين السَّابِقين، وما يَنَالُونَهُ عِنْدَ رَبِّهِم من عَذَابٍ أليم.

وقُدِّمَت قِصَّةُ إبراهيم في هٰذه السورة على قِصَّةِ نوح عليهما السّلام، للتشابه بَيْنَ كُفَّار قوم إبراهيم عليه السّلام في الوثنيَّة وفي التقليد الأعْمَىٰ للآباء والأجداد وفي العناد والمكابرة، وبَيْنَ كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْش، واعتماد كلٍّ من دَعْوَةِ إبراهيم عليه السّلام ودَعْوَةِ محمّد ﷺ، عَلَىٰ مَنْطِقِ العَقْلِ والحُجَجِ البُرْهانيّة، والمجادَلَةِ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، وإبراهيم مُعَظَّمٌ عندهم لأنّه أبو جدّهم إسماعيل عليهما السلام.

ونُدْرِكُ أنّ عَرْضَ حجج إبراهيمَ عليه السّلام على قومِهِ ضمن ذِكْرِ قِصَّتِهِ هُو بمثابَة عَرْضٍ لهذه الحُجَج نَفْسِهَا على مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، بأُسْلُوبٍ غَيْرِ مُباشر.

التدبُّر التحليلي:

قول اللَّه عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ (٦٩) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ (٧٠) قَالُواْ
نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ (٧٢) أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ
أَوۡ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ
تَعۡبُدُونَ (٧٥) أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٧٧)
ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ
يَشۡفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ (٨١) وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي
يَوۡمَ ٱلدِّينِ (٨٢)﴾:

- ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ (٦٩)﴾: أي: وبَعْدَ إبْلاغِكَ يا مُحَمَّدُ الّذين تَحْزَنُ مِنْ أجْلِهِمْ حُزْناً قاتِلاً قَتْلاً باخِعاً بحَسَبِ نظام الأسباب

والمُسَبِّبَاتِ في الناس، قِصَّةَ موسَىٰ، والآياتِ الّتي أجْرَيْنَاهَا له، فلَمْ يَكُنْ لَهَا أَثَرٌ في فرعون ومَلَئِهِ وشَعْبِهِ المعاندين المكابرين المصرّين على باطِلِهِمْ، أشْبَاهِهِمْ، اُتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ إبْرَاهِيمَ في دعوَتِهِ لِقَوْمِهِ الوثنيّين، الَّذِين تُشَابِهُ حَالُهُمْ حَالَهُمْ، فإبراهيمُ والِدُ جَدِّهِمْ إسْماعيل، وهو الَّذِي أعْلَمَهُ اللَّهُ بمكانِ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ أوّلِ بَيْتٍ وُضِعَ للنّاس، الَّتي يَرْتَبِطُ بها مَجْدُهُمْ بَيْنَ العرب، وهو الذي بناها مع وَلَدِهِ إسْماعيل، وبَيَّنْ لَهُمْ أَنَّهُ قد كانَ عَدُوّاً للأَوْثَانِ الّتي كان قومُهُ يَعْبُدونها، وهاجَرَ مُفَارِقاً لَهُمْ، وقَدِمَ إلى وَادِي مكَّةَ وتَرَكَ فيه ولَدَهُ إسماعيل مع أُمِّهِ هاجر، لِيُؤَسِّسَ أُمَّةً مُؤْمِنَةً بتَوْحِيدِ الرَّبِّ، وبوحدانيّتِهِ في إلٰهِيَّتِهِ، ثُمَّ أقام بناء الكَعْبَةِ للتَّوْحِيدِ ومحارَبَةِ الوثنيَّةِ بكُلِّ أشْكالِهَا وصُوَرِها.

تِلَاوَةُ القرآن: النُّطْقُ به مَعَ تَتَبُّعِ حُرُوفِهِ وكلماته كما أنزلَهُ الله، فإذا كان تَتَبّعاً للمَكْتُوب فهي قراءة.

- **﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠﴾**:

[إِذْ] ظَرْفٌ لحدَثٍ مَضَىٰ مبنيٌّ على السُّكون، والعاملُ فيه هنا **[أَتْلُ]** أي: أتْلُ عَلَيْهِمْ كلامَ إبراهيم حِينَ قالَ لِأَبِيهِ وقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ؟ ومُنَاظَرَتَهُ لَهُمْ بَعْدَ هٰذَا السُّؤَال.

بدأ إبْرَاهِيمُ عليه السّلام دَعْوَتَهُ لِأَبِيهِ فَقَوْمِهِ بسُؤَالهم عمّا يَعْبُدُونَ، لِيَسْتَفْهِمَ عَنْ حقيقةِ الأصنام الّتي يَعْبُدُونَها، ولِيَعْرِفَ مَا يَعْتَقِدُونَ من صفاتٍ لها تَسْتَحِقُّ عِنْدَهُمْ أنْ تُعْبَدَ بِحَسَبِ مَفْهُومَاتِهِمْ، أوْ لِيَكْشِفَ جَهْلَهُمْ وحماقَتَهُمْ في عبادتها.

وبَدْؤُه بأبيهِ الْتِزَامٌ بِمَنْهَجِ الحِكْمَةِ في الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ، إذْ تَقْتَضِي البَدْءَ بالأَقْرَبِين، فَمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ في القُرْبِ، حتَّىٰ قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ من الأقوام الأقرب فالأقرب.

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؟؟ أي: ما حقيقة ما تعبُدون؟ «مَا» الاستفهاميّة يُسْتَفْهَمُ بها عَنْ غَيْرِ ذي العلم، ويُسْتَفْهَمُ بها عن صفاتِ ذي العلم، ومِنْ صِفاتِهِ حقيقة ذاته.

فسَألَهُمْ إبراهيم عليه السَّلام عن حَقِيقَةِ ذاتِ ما يَعْبُدُون، وعَنْ صِفَاتِهِ الّتي تُؤَهِّلُهُ لأنْ يُعْبَدَ.

- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾: فذَكَرُوا لَهُ ذَواتِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وأبَانُوا أنَّها أصْنَامٌ مِنْ حجارة أو من أخشابٍ أو مَعْدنٍ أو نحو ذٰلِكَ مِن جَامِدَاتٍ مُصَوَّراتٍ بِصُوَرِ أحياء من الناس، أوْ من سائرِ الحيوانات، كالْبَقَرِ. لم يَفْهَمْ أبُوه وقومه أنّه يسألهم عن حقيقتها والصّفات التي تؤهّلها لأنّ تُعبد، فأجابوه عن ذواتها، وعن نوع عبادتهم لها.

الصَّنَم: تمثالٌ من حَجَر، أو خَشَبٍ، أو مَعْدنٍ، يَزْعُمُ عَابِدُوهُ أنَّ عبادَتَهُمْ لَهُ تُقَرِّبُهُمْ إلى الله، أو إلٰهٍ غَيْرِهِ يَجْلُبُ لهم نفعاً، أوْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

وعبادة الأصنام تكون بتَقْرِيبِ القَرَابِين لها، أو السُّجود لها، أو الطواف حَوْلَها، أو العُكُوفِ عليها، أو التَّمَسُّحِ بها، أو سُؤَالِهَا بالدُّعاءِ لجَلْبِ نَفْعٍ أوْ دَفْعِ ضُرّ.

﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾: [**عَاكِفِينَ**]: أي: ملازمين ملازمَةَ المُقِيم الَّذِي أعْطى كُلَّ نَفْسِهِ وحَوَاسِّهِ لِمَا هُو عاكِفٌ عَلَيْهِ، يُقالُ لُغة: «عَكَفَ عَلَى الشَّيْءِ يَعْكُفُ، ويَعْكِفُ، عَكْفاً، وعُكُوفاً» أي: أقْبَلَ عَلَيْهِ مُلازماً لَهُ، لا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عنه، كأنَّهُ حابِسٌ نَفْسَهُ عليه. وهذا لَوْنٌ مِنْ ألْوَانِ عبادة العاكف لِلْمَعْكُوفِ عليه.

ضُمِّنَ اسم الفاعل [**عَاكِفِينَ**] معنى اسم الفاعل «عَابِدِينَ» فعُدِّيَ تَعْدِيته بلام التقوية، وقُدِّم المعمول [**لَهَا**] على عَامِلِهِ.

والتقدير: فنَظَلُّ عاكِفِينَ عَلَيْهَا عابِدِينَ لَها.

[فَنَظَلُّ]: أي: فَنُداوِم على عِبَادَتِها بالعُكُوف. يقال: «ظَلَّ نَهارَهُ يَفْعَلُ كذا». وقَدْ يَأْتِي هذا الفعلُ بمعنى الدوام ولَوْ في غَيْرِ النهار.

وإذا كانوا هُمْ من عُبَّادِ الكواكب فإنَّهُم يَعْبُدُون رُمُوزَهَا الّتي هي الأصنامُ في النهار، ويتوجَّهُون لِعِبَادَتِهَا في اللّيلِ عِنْدَ ظُهُورِهَا في السَّمَاءِ.

• ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾:

كان إبراهيم عليه السّلام يَعْلَمُ من حالِ قَوْمِهِ أنَّهُم يَعْبُدُونَ أَصْنَامَهُمْ بالدُّعاء، ويُؤْمِنُونَ بأنَّ عبادَتَهُمْ لها تجلُبُ لهم نفعاً أو تَدْفَعُ عنهم ضرّاً، دلّ على هذا سُؤالان لقومه جاء بيانُهما في هاتَيْنِ الآيتَيْن.

طَرَحَ إبراهيم عليه السّلام على أبيه أوّلاً فَقَوْمِهِ بَعْدَ ذٰلِكَ سؤالَيْن:

السُّؤَال الأوّل: هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ حِينَ تَدْعُونَهُم لمطالب حياتِكم مِنْ رِزْقٍ، ونَصْرٍ، وذُرِّيَّةٍ، وأمْنٍ، ونَحْو ذلكَ من مطالب الحياة.

نزَّلَ أَصْنَامَهُمْ مَنْزِلَةَ العُقَلَاءِ أهْلِ العِلْمِ، مُجَارَاةً لَهُمْ في معتقدهم، ورُبّما كانَتْ صُوَرُ أصْنامِهِم على صُوَرِ بَشَرٍ ماتُوا، فذكرهم بصِيغَةِ جَمْع العقلاء.

السُّؤَال الثاني: هل يَنْفَعُونَكُمْ فتَعْبُدُونَهُمْ لِيُحَقِّقُوا لَكُمْ نَفْعاً؟ هَلْ يَضُرُّونَكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِاسْتِرْضَائِهِمْ حتَّىٰ لَا يَضُرُّوكُمْ؟ أو هَلْ يَضُرُّون أعداءَكم فتَعْبُدونَهُمْ لِإِنْزَالِ الضَّرَرِ بِهِمْ؟

أَسْئِلَةٌ تَابَعَ بها إبراهِيمُ عليه السَّلَامُ مُنَاظَرَتَهُ لِقَوْمِهِ، الّتي بدأها بالسُّؤال الأول: مَا تَعْبُدُون؟

هذا مَنْهَجٌ جَدَلِيٌّ حكيمٌ يُبَاشِرُ الموضُوعَ من أقْرَب السُّبُل.

ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ عَجزُوا عَنْ إثبات أنَّ أَصْنامَهُمْ تَسْمَعُ دُعاءَهُمْ، وعَجزُوا عن إثبات أنَّها تَجْلُبُ نَفْعاً أو ضرّاً كما سبَقَ بيانه.

فأجابوا بما جاءَ بَيانُهُ في الآية التَّالية:

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

[بَلْ] هُنَا تَعطِفُ على مَحذُوفٍ فيما يظهر، أي: لا نَستَطِيعُ إثباتَ أنَّهم يَسْمَعُونَ دُعَاءَنا، ولَا نَستَطِيعُ إثباتَ أنَّها تَنفَعُ أو تَضرُّ، بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذٰلِكَ الفِعْلِ الّذي نَفْعَلُهُ نَحْنُ مِنْ عباداتٍ لها بالعُكُوفِ، والدُّعاءِ وغيرهما، فنَحْنُ على آثارِ آبائنا سائِرُونَ، ولَهُمْ مُقَلِّدُونَ.

وبهذا كشف إبراهيم عليه السّلام لَهُم أنَّهُمْ على باطلٍ واضح البُطْلان، نظراً إلى أنَّ تَقْلِيدَ ما كان عَلَيْه آباؤهم لا يَصْلُحُ لأنْ يكُونَ دليلاً بحالٍ من الأحوال، لاحتمال أنَّهُمْ كانُوا جاهلين، أو كانُوا على ضلالَة يَتَّبِعُون فيها الأَهْوَاء، أو كانوا متأثِّرين بوَسَاوِسِ الشَّيَاطِين وتَسْوِيلَاتهم.

وعِنْدَئذٍ رَأَىٰ مِنَ الحِكْمَةِ في المُناظَرَةِ أنْ يُعْلِنَ لَهُمْ أنَّ كلَّ مَعْبُوداتِهِم ومَعْبُودَاتِ آبائِهِمْ من دُونِ اللَّهِ رَبِّ العالَمِين، أعْدَاءٌ لَهُ، إذْ لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ من الصِّفاتِ الّتي تُؤَهِّلُها لأنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وعبادتُها عُدْوَانٌ على حَقِّ رَبِّ العالمين في أنْ لَا يُعْبَدَ شَيْءٌ ولا كائِنٌ مَا من دونَه، إذْ لا إلٰه بحقٍّ إلّا هُوَ، فَهُوَ وَحْدَهُ رَبُّ العالَمِين.

فقال لَهُمْ في المُناظَرَةِ الّتي دَلَّ عَلَيْهَا هٰذا النَّصّ، ما أبانه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

الفاء في: [أَفَرَأَيْتُمْ] فصيحَةٌ تَعْطِفُ على محذوف، والتقدير: أتَفَكَّرْتُمْ تفكُّراً سليماً سَدِيداً، فرأَيْتُمْ بعُقُولكُمْ وقُلُوبكم بُطْلَانَ ما كُنْتُمْ أَنْتُمْ وآباؤكم الأقْدَمُون، تَعْبدونَهُمْ مِنْ دونِ اللَّهِ رَبِّ العالَمِينَ، وما زِلْتُمْ أَنْتُمْ تَعْبُدُونَهُم، تَقْلِيداً لآبائِكُمْ، فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لي، لأنَّهُمْ بَاطِلٌ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الإلٰهِيَّةِ وَصْفٌ

ما، وأنَا أعْتَبِرُ كلَّ باطلٍ عَدُوّاً لي، أكْفُرُ بِهِ، وأُعَادِيهِ، وأُقَاتِلُهُ، ومن اللّازم الفكريّ لمعاداة الباطل مُعَادَاةُ أنْصَارِهِ المؤمنين به، والدَّاعِينَ إلَيْه.

وجاء في النّصّ إيثارُ عبارةِ **[مَا كُنتُمْ]** على غيرها لتَشْمَلَ آباءهم الأقْدَمين، وَهِيَ تَنْسَحِبُ إلى مَا قَبْلَ لحظَةِ التكلُّم، على أنّ فعل «كان» لَهُ في الاستعمال صِفَةُ الدَّوَامِ أو الاستمرار في كثير من العبارات، وله صِفَةُ الصَّيْرُورَة الّتي يُلازِمُها غالباً الاستمرار.

ووصَفَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ آباءَهُمْ بالأَقْدَمِينَ، للدَّلَالَةِ على أنَّ الأقْدَمِيَّة لَا تُعْطِي الباطِلَ مَشْرُوعِيَّةَ البقاء، ولا تُكْسِبُهُ شَيْئاً من صفاتِ الحقّ، فالباطلُ أزَلاً باطِلٌ أبَداً، والباطلُ لِذاتِهِ فيما مضىٰ، باطِلٌ دَواماً في الماضي والحاضِرِ والمُسْتَقْبَل.

يُطْلَقُ لفظ «عَدُوّ» بالإفراد على المفرد والمثنّى والجمع والمذكّر والمؤنّث، ويُسْتَعْمَلُ أيضاً على الأصْلِ في المطابقة.

وكِلَا طَرَفَي العِدَاء عَدُوٌّ للآخر، ومَنْ اتَّخَذَ حيّاً أو جماداً أو غير ذلك عَدُوّاً، فإنَّهُ يُرِيدُ النكاية به، وإنزال المكرُوه فيه بكلّ الوسائلِ المُتاحَةِ له، ولهذا كَسَّرَ إبراهيم عليه السَّلام أصْنامَهُمْ في مَرْحَلَةٍ من مراحلِ دَعْوَتِهِ لقومه، إذِ اتَّخَذَهَا عَدُوّاً له.

ولمَّا كان قَوْمُهُ مُشْرِكين، يَعْبُدُونَ أصْنامَهُمْ ويَعْبُدُونَ أيضاً مع عِبَادَتِهِمْ لها رَبَّ العالَمِين، كانَ مِنَ الواجِبِ أنْ يَسْتَثْنِيَ فيقول: **[إلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ]**، أي: إلَّا المَعْبُودَ المتَّصِفَ بأنَّهُ رَبُّ العالَمِين، أي: خَالِقُ العالمين، والمُتَصَرِّفُ دَواماً بكلّ الكائناتِ سِواه بصِفاتِ رُبُوبيَّتِهِ الشَّامِلَة لمُعْظَمِ أسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ، وصِفَاتِهِ العُلْيَا.

وإذِ اسْتَثْنَىٰ إبراهيمُ عليه السّلام رَبَّ العالَمِين، أبانَ من صفاتِ رُبُوبيَّتِهِ الّتي تَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ أن يَعْبُده، فقال:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾:

فذكر إبراهيمُ عليه السّلام من صفاتِ رُبُوبيَّة رَبّ العالَمين التي له بها ارْتباطٌ شديدٌ في حَيَاتِهِ تِسْعَةَ ظَوَاهِر

الظَّاهرة الأُولَى: أنَّهُ خَلَقَهُ، إذْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ شَيْئاً مَذْكُوراً، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾، أي: الذي حدَّدَ مقادير كلّ شيءٍ فيّ، وابْتَدَعَنِي من العَدَم، بَعْدَ أنْ لَمْ أكُنْ شَيْئاً مَذْكوراً.

الخَلْقُ: يَأْتِي في اللُّغة بمعنَيَيْن:

المعنى الأول: التقدير، وهو إعطاء أجْزَاءِ الشَّيْءِ مقاديرَها بإتقان.

المعنى الثاني: ابْتِدَاعُ الشَّيْءِ على غيرِ مثالٍ سَبَق، وإيجاده من العدم.

وكلا هٰذَيْن المعنَيَيْنِ مُرادانِ هنا، فالله الخالقُ عزّ وجلّ أبْدَعَهُ مِنَ العَدَم على غير مثالٍ سبَق، وأعْطَىٰ أجزاءَهُ مقادِيرَها بعَظِيم حِكْمَتِهِ، المُقْتَرِنَةِ بعِلْمِهِ المُحِيطِ بكلّ شَيْء، وأتقنَ صُنْعَه.

الظاهرة الثانية: أنَّهُ يَهْدِيه لتَنْفِيذِ الأعمال المحقِّقَة للأَغْراضِ مِنْهَا، وهٰذه الهِدَايَةُ تَشْمَلُ كُلّ تَصَرُّفَاتِهِ الإراديّة، الجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، فقال: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، أي: فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذي يَهْدِينِي، ومِنْ أمْثِلَةِ هٰذِهِ الهداية الرَّبانيّة ما يلي:

١ ـ هدايَةُ الطِّفْلِ الصّغير إلى كيفيَّةِ ارْتضاع الثَّدي، بَعْدَ أنْ أعْطَىٰ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ فَمِهِ المقدارَ الحكيمَ المُلَائِمَ للرّضاع.

٢ ـ هِدَايَةُ أصابعِ اليَدَيْنِ لِلْقِيام بوَظَائِفِها العَمَلِيَّة الحركيَّة، بَعْدَ أنْ

أعْطىٰ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا المِقْدَارَ الحكيمَ الملائِمَ لمُخْتَلِفِ الأعْمَالِ الّتي تَقُومُ بها رَاحَةُ اليَدِ والأصَابعُ فيها.

٣ ـ هداية الفكر لمعرفة كثير من حقائق الأشياء بما جعل اللّه فيه من مَوَازِين.

٤ ـ هدايَةُ الرِّجْلَيْنِ للقيام بالمشي وسائِرِ أعمالِهِما، بعد أنْ أعطىٰ كُلَّ جُزْءٍ من أجزاء رِجْلَيْهِ المقدار الحكيم الملائم لمختَلِفِ الأعْمَالِ الّتي تَقُومُ بها الرِّجْلَان.

وهكذا إلى كلِّ شَيْءٍ، في مُخْتَلِفِ الكائنات الحيَّة، وخصَّ إبراهيم عليه السَّلام نَفْسَه، لِيَكْشِفَ لِقَوْمِهِ سبَبَ عبادَتِهِ لربِّه وحْدَه، ولِيَقِيسُوا أنْفُسَهُمْ عليه.

الظاهرة الثالثة: أنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذي يُطْعِمُهُ، فقال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾، أي: والّذي هو وَحْدَهُ يُطْعِمُني لَا غيره، اسْتُفيد القَصْرُ من ضَمِير الفَصْل، وقد جاء بين اسْم الموصول وصلته.

فالله عزّ وجلّ هو الذي يَخْلُقُ أرْزَاقَ العباد، ويَخْلُقُ وَسَائِلَهَا في كونه، وإبراهيم واحِدٌ منهم، ولولا خَلْقُ اللّه وقضاؤه وقدَرُه لم يَنْبُتْ نبات، ولم تَحْيَ أحْيَاءُ، ولَوْلَا تَهْيِئَةُ وسائِلِ الطَّعَام لم يَطْعَمْ طاعِمٌ في الأرض، ولَوْلَا أنْ جَعَلَ اللّهُ لِلأحْيَاء أفواهاً تأكل، ومجاريَ إلى بطونِهِم تَبْلَع، وعناصِرَ هَضْم تَهْضِمُ، وأدواتِ وعناصِرَ تُوَزِّعُهُ إلى مواضِعِ الحاجَةِ إلَيْهِ من الأجساد، وتَصْرِفُ عنها أذىٰ فضَلَاتِهِ، لَمْ يَطْعَمْ طاعِم.

ولو اخْتَلَّ شيءٌ من ذلكَ عَنْ سَوَائِهِ لما وصَلَ الطَّعام إلى مواضِعِ الحاجَةِ إليه، ولمَا وصَلَتِ الأقْواتُ إلى مُقْتَاتِيهَا.

الظاهرة الرابعة: أنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الذي يَسْقِيه مَاءً وأنواع شراباتٍ أخرى، فقال: ﴿وَيَسْقِينِ﴾، أي: والّذي هو وَحْدَهُ يَسْقيني لَا غيره، هذه الجملة معطوفة على ﴿يُطْعِمُنِى﴾، فلَهَا حُكْمُها مِنَ القصر.

إنّ الله جلّ جلَالَهُ رَبَّ العالَمِين هو الذي خَلَقَ الماء وسائر الأشْرِبَةِ الّتي يُعْتَبَرُ الماءُ العُنْصَرَ الأكْثَرَ والأعْظَمَ فيها، وهو الذي يُصْعِدُ مياه البحار ويَجْعَلُها سَحَاباً، ثُمَّ يُنْزِلُها ماءً طَهُوراً سائِغاً للشّاربين، وهو الذي خَلَقَ في أجْسَادِ الشَّارِبِينَ الأدواتِ الصالحاتِ لإيصال الماء إلى مواضع الحاجَةِ إليه من الأجساد، وجعَلَ لما يَحْمِلُ من فضلاتِ مُؤْذِياتٍ أدواتِ تَصْرِيفٍ لها.

ولو اخْتَلَّ شَيْءٌ من ذلِكَ عَنْ سَوَائِهِ لتعَطَّلَتْ حَيَاةُ الأَحْيَاءِ، واشْتَدَّتْ آلَامُها.

الظاهرة الخامِسة: ظاهرة الأمْرَاض الّتي هي من عناصِرِ ابتلاء اللَّهِ لعباده في الحياة الدُّنيا، ليُذَكِّرَ عبادَهُ به، فيَعُودُوا إلَيْهِ بالدُّعاءِ والخضوع والتَّذَلُّلِ، سَائِلِينَ أنْ يشفيهم.

وقد تأدَّبَ إبْراهيمُ عليه السلامُ مع رَبِّه، فلَمْ يَنْسُبْ إلَيْهِ القضاء بالمَرَض الذي هو من قضائه وقَدَرِهِ، بَلْ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾.

الظاهرة السّادسة: ظاهرةُ الشِّفاء من المرض، الذي لا يتحقَّق إلَّا بتَقْديرٍ من اللَّهِ عزّ وجلّ وقَضاء، فقال عليه السّلام: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، جواباً لقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾.

إنّ الشفاء من عوارض الأمراض، لا يكُونُ إلَّا بقَدَرٍ من اللَّهِ وقضاء، فإذا قَضَى اللَّهُ بالشِّفاء أَلْهَمَ الطبيبَ الدَّوَاء الذي جعَلَهُ هو سَبَباً للشفاء، فشَفَىٰ بِهِ المَرِيض، الدَّواءُ سَبَبٌ من الأسباب الّتي خَلَقَهَا هو في كَوْنِهِ، والشِّفَاءُ لا يَتَحَقَّقُ إلَّا بتقديره وخَلْقِهِ، فتعالىٰ الخَلَّاقُ الفَعَّالُ ما يشاءُ على ما يشاء.

الظاهرة السَّابعة: ظاهِرَةُ إمَاتَةِ الأحياء، إنّهَا هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، إذْ يَتَحَقَّقُ المَوْتُ بفَصْلِ الرُّوحِ الَّذِي هو السِّرُّ الرَّبّانيُّ الذي تَكُونُ بِهِ النفوسُ حيَّةً، فإذا فُصِلَ عَنْهَا صارَتْ مَيّتةً.

وكلٌّ مِنَ الوَصْلِ والفَصْلِ إنَّما يكونُ بخَلْقِ اللَّهِ وفِعْلِهِ.

فقال إبراهيمُ عليه السَّلام: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾، ومعلومٌ أنَّ الموتَ يقينٌ لَا يَجْحَدُهُ أشَدُّ النَّاسِ كُفْراً وعِناداً.

الظَّاهِرة الثَّامِنَة: ظاهرة إعادة الحياة للموتىٰ يوم الْبَعْث، وقَدْ أراد إبراهيم أنْ يُعْلِنَ إيمانَهُ بِيَوْمِ الدِّين، الّذي يُبْعَثُ فيه النَّاسُ إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، علىٰ ما قَدَّمَ العَبْدُ في حياة الامتحان في الدُّنيا من إيمانٍ وكفر، وخَيْرٍ وشرّ، فقال في دَعْوَتِهِ لِأَبِيهِ وقَوْمِهِ: ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾، أي: ويُحْيِيكُمْ لِيُحَاسِبَكُمْ، ويفْصِلَ قَضَاءَه بينكُمْ، وليجازيكُمْ بحَسَب مَا كَسَبْتُمْ في رحلةِ امتحانكم في الحياة الدنيا.

الظاهِرَة التاسعة: ظاهرةُ غُفرانِ اللَّهِ لِمَنَ آمَنَ مِنْ عِبَادِهِ وأسْلَمَ له، وسألَهُ أنْ يَغْفِرَ لَهُ، وهذه الظاهرة تكُونُ يَوْمَ الدّين، ويَطْمَعُ بها المؤمنون المسلمون، فقال إبراهيم عليه السَّلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾:

وقَد اعتبر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام هذه الظاهِرَةَ الَّتِي يُؤْمِنُ بها، مَعَ الظَّاهِرَة الثامِنَة الَّتِي أعْلَنَ إيمانَهُ أيْضاً بها، مُمَاثِلَتَيْنِ للظواهِرِ السَّابِقَة لهما في بيانِهِ الدَّعَوِيّ، نظراً إلى أنَّ الإيمان بالله وباليَوْمِ الآخِرِ وما فيهِ من حسابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتَحْقِيقِ جَزَاء، هُمَا الرُّكْنَانِ الأعْظَمانِ في أُسُسِ العقائِدِ الإيمانيّة في الدّين الذي اصطفاه الله لعباده، في كلّ ما بَعَثَ به أنبياءَهُ ورُسُلَه.

ومن حكمة إبراهيم عليه السّلام الدَّعَوِيَّة أنَّهُ عَرَضَ عَقِيدَتَهُ الإيمانيّة لأبيهِ ولِقَوْمِهِ، لِيَتْرُكَ لَهُمْ فُرْصَةَ مُنَاظَرَتِهِ بِشَأْنِهَا، وعِنْدَئِذٍ يُقَدِّمُ حُجَجَهُ البُرْهَانِيَّة حَوْلَ مَا يُبْدُونَ مِنْ شُكُوكِهِمْ بِشَأْنِهِ.

وظاهر في دعوةِ إبراهيم لِأَبِيهِ وقومِهِ بِشَأْنِ الإيمان باللَّه وباليوم

الآخر، أنَّها تَعْتَمِدُ على الأُسْلُوبِ غَيْرِ المُبَاشر، إذ بَيَّنَ لهم إيمانَهُ بالقضايا الّتي عرَضَها، ولم يَقُلْ بصَرِيحِ العبارة أدْعُوكُمْ إلى الإيمان بها، لٰكِنْ يُفْهَمُ هٰذا باللُّزُومِ الذِّهْنِي.

وأتْبَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بيانَه لما يُؤْمِنُ به بشأن القضايا الّتي عَرَضَها، بدعاءٍ دَعَا به رَبَّهُ الّذي أبان أنَّهُ رَبُّ جميع العالمين، فقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

عناصِرُ هذا الدُّعَاءِ تؤكّد إيمانَهُ بيَوْمِ الدِّين إيماناً لَا شَكَّ يُخَالِطُهُ، ودعاؤه رَبَّهُ بها أَمَامَ أبيه وقومِهِ، هُوَ في الحقيقةِ دَعْوَةٌ غَيْرُ مُباشَرَةٍ، إلى الإيمان بمِثْلِ ما يُؤْمِنُ هو به، والمَطَالِبُ الّتي سألَها رَبَّهُ في دعائِهِ، تَسْتَثِيرُ دَوافعَ ذوي العقول الرَّشِيدَةِ إلىٰ طَلَبِهَا والتعلُّق بها.

وهي خَمْسُ مَطالِبَ لنَفْسِهِ، ومَطْلَبٌ لأبيه دفَعَتْهُ إلَيْهِ عاطِفَتُهُ نحوه، إلَّا أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أبانَ لَهُ أنَّهُ لَا يَجُوزُ الدُّعاءُ بالمغفرة لكافر، لأنّ مِثْلَ هٰذا الدُّعاء يتنافى مَعَ قضاء اللَّهِ بشأنه، لكِنْ أبان الله عُذْرَ إبراهيم عليه السّلام بأنّ دعاءَهُ لأبيه قَدْ كانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ بأنْ يُؤْمِنَ، فلمّا تبَيَّنَ لَهُ أنّه عَدُوٌّ لله تبرَّأَ مِنْهُ.

وفيما يلي شرحُ عناصر الدُّعاء الخمسة، الّتي دَعَاهَا إبراهيمُ عليه السَّلَامُ رَبَّهُ لِنَفْسِهِ:

العُنْصُر الأول: قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾:

الحُكْمُ: فقه الأمور، ومَعْرِفَةُ الحقِّ والباطل وحُدُودِهما، ومعرفةُ الخير والشرّ وحدودهما، ومعرفة الحسَنِ والسَّيِّئِ وحُدُودها، والجميل والقبيح وحدودهما.

وبناءً على فقه الأمور يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الحُكْمَ أحكامه العِلْمِيَّة وأحكامه القضائيّة مطابقةً للحقّ والخير والفضيلة.

ويَدْخُلُ في إيتائِهِ الحُكْمَ إيتاؤُهُ القُدْرَة على تقديم الحجج الدامغة، والبراهينِ القاطِعَةِ لجَدَلِيّاتِ المُبْطِلِينَ والمراوغين، ومُحَاصَرَتِهِم مِنْ كلّ مَهْرَبٍ فِكْرِيّ.

وقَدْ أَتَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إبْرَاهِيمَ حُجَّتَهُ الدامغَة لقَوْمِهِ، أهلِ الباطلِ والشِّرْكِ، وظهر هذا في مجادَلَاتِهِ ومُنَاظَرَاتِهِ لِقَوْمِهِ ولِمَلِكِهِمْ نُمْرود، وذَكَرَ اللَّه عزّ وجلّ بَعْضَها في مواضعَ من القرآن المجيد.

ولم أُفَسِّرَ الحُكْمَ هُنا بالنُّبُوَّةِ، لأنَّ سوابق هذا الدُّعاء تُشْعِرُ بأنَّه يَدْعُو قَوْمَهُ إلى دينِ اللَّهِ الحقّ، من مَوْقِعِ كَوْنِهِ نَبِيّاً ورَسُولاً، على أنّ النُّبُوَّة تَأْتِي اصْطِفاءً من اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ولا تأْتِي بِطَلَبِ العَبْدِ لها.

الهِبَة: العطيَّة الخاليةُ من الأعواضِ والأغراض، يقال لغة: «وهَبَ لَهُ الشَّيْءَ، يَهَبُهُ: وَهْباً، وَوَهَباً، وهِبة، فهو واهِبٌ، ووَهَّابٌ، ووَهُوبٌ، ووَهَّابَة».

العنصر الثاني: قولُهُ: ﴿... وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: واجْعَلْنِي أَلْحَقُ الصَّالِحِينَ السَّابِقِين في فِعْلِ الخَيْراتِ قَبْلي، من أُولي العَزْمِ مِنَ الأنبياء والمُرْسَلِين، أي: فإذا لحقْتُهم سِرْتُ مَعَهُمْ سابقاً في الخيرات الّتي تُرْضِيكَ عَنّي.

و«ال» في: ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للكمال، أي: واجْعَلْنِي مِنْ ذَوي الكمال في صَلَاحِهِمْ، الخالِينَ من كلِّ فسادٍ مَهْمَا قَلَّ.

الصَّلاح: ضِدُّ الفساد، يقالُ لغة: «صلَحَ يَصْلُحُ صَلَاحاً، وصُلُوحاً، وصَلُحَ، فهو صالح»، أي: خلا مِنَ الفساد. والمَعَاصِي في السُّلُوكِ الدِّينيّ من الفساد.

وجاء في القرآن لفظ «الصَّالِحِينَ» وصفاً للأنبياء والمرسلين، وطائفة من المؤمنين، الذين يَأْمُرُون بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَر ويُسَارِعُونَ في الخيرات بإِذْنه الله.

العنصر الثالث: قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: وَاجْعَلْنِي دواماً حتَّى آخِرِ نَفَسٍ مِنْ أنفاسي في الحياة الدّنيا من كاملي الصَّلاح، حتَّىٰ يكون لي ثناء حَسَنٌ صادِقٌ مُطابِقٌ لواقع حالي في الآخِرين من الناس، بمقتضىٰ سُنَّتِكَ في عبادِك الصالحين.

﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: أي: ثناءً صادِقاً لَا مُبالغَةَ فيه ولا زيادةً عن واقِع الحال الذي تَجْعَلُنِي فيه، «أُطْلِقَ اللِّسَانُ وأُريد به الثناء الحسَنَ الّذي يَنْطِقُ اللِّسانُ به، وإضافَةُ اللِّسان إلى الصِّدْقِ مِنْ إضافة الموصُوفِ إلى صِفَتِهِ، أي: لِساناً صِدْقاً، وهٰذا من الوَصْفِ بالمَصْدَر للدّلالَةِ على المطابقةِ التامَّةِ بَيْنَ الثَّناءِ والصِّدْقِ فيه.

وهذا الاستعمالُ هو من استعمالاتِ العرب في أقوالهم، ونظيره قولهم: «رَجُلُ صِدْقٍ» أي: رَجُلٌ نِعْمَ هو رَجلاً. و«امْرَأَةُ صِدْقٍ»: أي: وامْرَأَةٌ نِعْمَتْ هي امرأة، فَهُوَ تعبيرٌ من تَعْبيرات الثناء والمدح.

ومن نظائره في القرآن: «قَدَمُ صِدْقٍ ـ مَقْعَدُ صِدْقٍ ـ مُبَوَّأُ صِدْقٍ ـ مَدْخَلُ صِدْقٍ ـ مَخرَجُ صِدْقٍ ـ لِسَانُ صِدْقٍ»، أي:

- قَدَمٌ نِعْمَ هُوَ قَدَماً ـ مَقْعَدٌ نِعْمَ هو مَقْعَداً ـ مُبَوَّأُ نِعْم هُوَ مُبوّأً ـ مَدْخَلٌ نِعْمَ هو مَدْخَلاً ـ مَخْرَجٌ نِعْم هُوَ مَخْرَجاً ـ لِسَانٌ نِعْمَ هُوَ لِساناً».

والوَصْفُ بالمَصْدَرِ مثل: «رَجُلٌ عَدْلٌ» يَدُلُّ على كمال المطابَقَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ الصُّورَة المُثْلَىٰ لِنَوْعِهِ، فالرَّجل الكامل في نَوْعِهِ يكُونُ متَّصِفاً بأكمل صُوَرِ العَدالة. والمَقْعَدُ الكامِلُ في صِفاتِ حُسْنِهِ، هُوَ ذُو الصُّورَةِ المُثْلَىٰ لِنَوْعِهِ، فإِطْلَاقُ المَقْعَدِ الكامل عَلَيْهِ إِطْلَاقٌ فيهِ كمال الصِّدْقِ، وهكذا إلى سائِر الأمْثِلة.

وسؤال إبراهيم عليه السَّلام الثَّنَاءَ الحسَنَ الصَّادِقَ في الآخِرِينَ، هُوَ في الحقيقة دُعاءٌ بكمالِ المدَاوَمَة على أن يكون من كامِلي الصالحين، طَوالَ أزْمَانِ حياتِهِ في الدُّنْيا، حتَّىٰ آخرِ زمَنٍ مِنْ أزْمَانِ حياتِهِ فيها، وهو عليه السَّلَامُ يَعْلَمُ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ في عبادِهِ، أنَّ مَنْ كانَ كذٰلِكَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ ثناءً حَسَناً صِدْقاً في الآخِرِينَ بَعْدَ مَوْتِهِ إلى أن يَرِثَ اللَّهُ الأرض ومَنْ عليها، ويَسْتَمِرُّ كذٰلِكَ في الآخِرَة يَوْمَ الدِّين.

وأجْرَى اللَّهُ عزّ وجلّ سنّته، فجعلَ لإبراهيم عليه السَّلام لسانَ ثناءٍ غايةٍ في الصدق في الآخرين، إذْ كان طوال حياتِهِ من كامِلِي الصَّلَاح.

العنصر الرابع: قوله: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿مِن وَرَثَةِ﴾ «وَرَثَة»: جمع «وارِثٍ» وهو مَنْ يَصِيرُ إلَيْهِ مَا كانَ لِغَيْرِهِ من مالٍ، أو مَجْدٍ، أو غَيْرِهِما، دون عِوَض.

وقد عَلِمَ إبْراهيم عليه السَّلامُ، أنَّ دُخُولَهُ جَنَّةَ نَعِيم يوْمَ الدّين إنَّما يكُونُ بفضل اللَّهِ لا بأعْمَالِه مهما كانت صالحة، فطَلَب من رَبِّهِ أنْ يَتَفَضَّلَ عليْهِ فيَجْعَلَهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ نَعِيم، بفَيْضِ عطائِهِ، ورُبَّما لَاحَظَ مع هذا أنّ الجنَّةَ مُعَدَّةٌ إعداداً صالحاً لنعيم كلِّ الإنْسِ والجِنّ فيها إذا آمَنُوا وأسْلَمُوا، لكنَّ أكثرهُمْ سَيكُونون بالامتحان من أهْلِ النار لا مِنْ أهلِ الجنَّة، فيَرِثُ أهْلُ الجنَّةِ ما كانَ مُهَيّاً للَّذِينَ استحقّوا دُخُول النارِ بالامتحان، فَيَمْلِكُونَهَا ميراثاً بلا عوضٍ.

وبهذا يكون ميراثُ الجنَّة بمعنىٰ الهِبَة بلا عِوَضٍ، وبمعنى امتلاكِ ما كان مُهَيّاً لآخرين، لكنَّهُمْ حُجِبُوا عَنْهُ بكُفْرِهِمْ، وأُدْخِلُوا دار العذاب النار.

العنصر الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾: يأتي في اللّغة الخزيُ للدّلالة على عِدَّةِ معانٍ:

المعنى الأول: الوقوع في الشرّ والعذاب والمصائب والبلايا.

المعنى الثاني: الافتضاح بالقبائح والسيّئات والآثام المكتومة، المُورِثَةِ للخجل الشديد منها.

المعنى الثالث: الاستحياء ممّا يَنْزِلُ مِنْ ذُلٍّ وهَوَان.

وهذه المعاني كلُّها صالحةٌ لأنْ تكونَ مُرادةً هنا، على معنىٰ احْفَظْنِي رَبِّ واعْصِمْنِي مما يكون سبباً في إنْزَالِ العذاب بي، وسبباً في افتضاحي بالقبائح والسّيّئات، وسبباً فيما يُخْجِلُني من ذُلٍّ وهوانٍ، يَوْمَ يُبْعَثُ الإنْسُ والجنُّ للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وهذه العِصْمَةُ تكون بإعانَتِهِ وتَوْفِيقِهِ حتىٰ يُداوِم على الاسْتِقَامَةِ على صراط الله اعتقاداً، وقولاً، وعَملاً، ونِيَّةً.

فدعا بأن يكون معصوماً في الدُّنيا من المعاصي، ليكون مَحْمِيّاً مِنَ الخزي يوم الدين.

وقد أَعْلَنَ إبراهيمُ عليه السّلام بدعائه هذا أمامَ أبيهِ وقَوْمِهِ، أنّ إيمانَهُ وإسلامَهُ لرَبِّهِ نابعٌ مِنْ خَوْفِهِ مِنْ عذابِ يوم الدّين، ومن افتضاحه بالقبائح، ومِمّا يُخْجِلُه مِنْ ذُلٍّ وهَوَانٍ بسَبَبِ تَنَكُّبِهِ صراط الله المستقيم، فهو يَسْأَلُ لِنَفْسِهِ الحِفْظَ والعِصْمَة والاستقامَة على طاعة رَبِّهِ حتَّى آخِرِ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ في الحياة الدُّنيا.

والعاقل الرَّشِيدُ مِنْ قَوْمِهِ لَا بُدَّ أنْ يَتَأَسَّى به، شُعوراً مِنْهُ بأنَّهُ صادقٌ حقّاً في دعائه، خائِفٌ حَقّاً مِنْ خِزْيِ يوم الدّين، وهذا الأسْلُوب من أشدِّ الأسَاليبِ غَيْرِ المُبَاشِرَةِ تأثيراً في الآخرين.

وأتَمَّ إبراهيم عليه السَّلامُ اسْتِعْطَافَهُ لِرَبِّهِ في دُعائِهِ بوَصْفِهِ ليومِ البَعْثِ بِمَا يَعْلَم من العقائد الإيمانيّة بِشَأْنِهِ، فقال:

- ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

لفظ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ...﴾ بدَلٌ من: [يَوْمَ يُبْعَثُون].

والمعنىٰ: يوم لا يَنْفَعُ مالٌ أحداً كان قد جمعه في الدنيا، وأنْفَقَهُ أو تَرَكَهُ ميراثاً، بالغاً ما بلغ، ولا يَنْفَعُ أحداً أبناؤه الّذِين كان في الدنيا يعتزُّ بهم، وكانوا يَنْصُرُونَه، والبنُون هم ألْصَقُ الناسِ بالرَّجُلِ لنُصْرَتِهِ.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾: أي: إلَّا مَنْ أتَىٰ الله بَعْدَ مَوْتِهِ بقَلْبٍ سليمٍ خالٍ من الأمراض الصارفة لَهُ عن الإيمان، وعَنْ طاعَةِ الله في أوامِرِهِ ونواهيه، كمرَضِ الكفر، وكمرَضِ كبائر الذنوب والآثام.

وذو القلب الّذي كان في الحياة الدُّنيا سليماً من مَرَضِ الكُفْر، وأمراضِ كبائِرِ الذُّنُوب والآثام، وأتى رَبَّهُ يوم الدِّين وهو سليم القلب، قَدْ ينتَفِع بثواب أمواله التي كان قَدْ جَمَعَهَا ممَّا أَذِنَ الله به، وأنْفَقَها فيما أذن الله به، وأدّىٰ الحقوق الّتي فرَضَها الله فيها.

وذو القَلْب الذي كان في الحياة الدُّنيا سَلِيماً من مَرَض الكفر، وأمراض كبائر الذُّنُوب والآثام، وأتىٰ رَبَّهُ يوم الدّين وهو سليم القلب، قَدْ يَنْتَفِعُ ببَنِيهِ، إذْ يجد في صحيفته ثواب تربيته لهم تَرْبيةً إيمانيَّةً إسلاميَّة، وقَدْ يَنْتَفِعُ بأدْعِيَةٍ كانوا قَدْ دَعَوْا بها في حياتِهِم لأبيهم، فاستجابَةُ اللَّهِ دُعَاءَهم هُوَ من آثار أعمالهم الصالحة، وهٰذه تَظْهَرُ يَوْمَ الدّينِ، وبهٰذا يكُونُ الأبْنَاء نافِعِينَ لِآبَائِهم.

ويُلْحَقُ بالمالِ كلُّ ما يَمْلِكُ الإنْسَانُ في الحياة الدنيا أنْ يَتَصرَّف فيه، ويُلْحَقُ بالبَنِين كلُّ مَنْ للإنسان به صِلَةٌ ما نتجَ عَنْهَا دعاءٌ صالح مقبولٌ عند الله، أو عَمَلٌ مَا ممّا فيه رضوانٌ لله عزّ وجلّ، وكان لهذه الصِّلَةِ تأثيرٌ في كَسْبِ عَمَلٍ مَبْرُورٍ مأجورٍ عند الله.

فالاستثناءُ الوارِدُ في العبارة على وفق هذا الفهم استثناءٌ متَّصِل

بوضوح، وقد اتَّجهْتُ لهذا الفَهْم، لأنَّه لا مال لأحَدٍ يومَ الدّين، حتَّىٰ يُتصَوَّرَ أنَّهُ يَنْفَعُه، إلّا إذا اعْتَبَرْنَا أنَّ العبارة على تقدير أنَّه لا أحَدَ يَمْلِكُ يومَ البَعْثِ مالاً حتَّىٰ يُتَصَوَّر أنَّهُ تنْفَعُه، ولا أحَدَ يجتَمعُ حَوْلَهُ بَنُوه، حتىٰ يُتَصَوَّرَ أنَّهم قد ينصرونه، إذْ يَفِرُّ المَرْءُ يومئذٍ من أخِيهِ، وأُمِّهِ وأبِيهِ، وصاحِبَتِهِ وبَنِيه، فلِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.

واتِّباعاً لِبَيانِ إبْراهِيمَ عليه السَّلام في دعوتِهِ لأبيهِ وقومه، وإذْ وَصَلَ إلى غَايَةِ مَا أَرَادَ إسْمَاعَهُ بأسْلوبٍ غير مباشر، كان من الحكمة في البَيانِ القرآني، أنْ يُقَدِّمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَقَطاتٍ عَنِ الجنَّةِ والجَحِيم، مِنْ أحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين، لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ إبراهيم عليه السَّلامُ، لكِنِ اسْتَدْعَتْهَا المُنَاسَبَة، وفي ذِكْرِهَا عَقِبَ كلامِهِ، إشعارٌ بِأَنَّ كَلَامَهُ فيما يَتَعَلَّقُ بِقَضَايا الدّينِ ويوم يُبْعَثُونَ حَقٌّ وصِدْق، فهو بمثابَةِ كلامٍ صادرٍ عن الله جلّ جلاله.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾:

في هذه الآياتِ مَشْهَدٌ من مشاهد يوم القِيامَةِ، يومِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء، وفيها لقطاتٌ مِنْ أحداث يومِ الدّين، هي بالتفصيل خَمْسُ لقطات:

اللَّقْطَةُ الأُولَىٰ: تَقْرِيبُ الجنَّةِ إلى حَيْثُ يَراهَا المتَّقُونَ في مَكَانِ تَجْمِيعِهِمْ الخاصِّ بأصْحَابِ اليَمِينِ، الواقِع إلى جِهَةِ يَمِينِ العَرْشِ، من أرضِ المحشر. دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠)﴾.

الإزْلَاف: التقريب، يقال لغة: «أزْلَفَ الشَّيْءَ»، أي: قَرَّبَه.

للمتّقين: أي: لكلّ زُمَرِ المتّقين، الّذِينَ اتَّقَوْا بإيمانِهِمْ الخلودَ في النار، ولو كانوا مِنْ مُرْتَكِبِي كبائِرِ الإثم، وصار معلوماً أنّ المتَّقين على مراتب ودرجاتٍ في كلّ مَرْتبة، فالدُّنيا مرتبة التقوىٰ ذات الدَّرجات المتفاضلات الكثيرات، والوسْطَىٰ مَرْتَبَةُ البرِّ، ذات الدَّرجات المتفاضلات الكثيرات، والعُلْيَا مَرْتَبَةُ الإحْسَان، ذات الدّرجات المتفاضلات الكثيرات.

اللَّقْطَة الثانية: تَبْرِيزُ الجَحِيم لِلْغَاوِين، دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾: **[وَبُرِّزَتْ]**: أي: وَأُظْهِرَتْ بَعْدَ خَفاء. يقال لغة: «بَرَزَ، يَبْرُزُ، بُرُوزاً» أيْ: ظَهَرَ بَعْدَ خَفَاء.

[الجَحِيم]: اسم من أسماء النّار، دار العذاب يوم الدّين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ في اللُّغَة.

﴿لِلْغَاوِينَ﴾ **الغاوُون**: هم الضَّالُّونَ المجافُون لسبيل الحقِّ والهُدَى، اتّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، والفاسِدُون الخائِبُون.

يقال لغة: «غَوى، يَغْوِي، غَيّاً» و«غَوِيَ، يَغْوَىٰ، غَوَايَة» أي: ضَلّ، وفَسَد، وخاب، تاركاً سبيل الرُّشد عن قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ اتّباعاً لأهوائه وشهواته، ولوساوس الشياطين وتسويلاتهم وإطماعاتهم بالباطل.

ويراد بالغَاوِين الذين تُبَرَّزُ الجحيم لَهُمْ، وهم في مكان تجميعهم في المحشر الخاصّ بأصحاب الشمال، الواقعِ إلى جِهَةِ شمال العرش، الكافِرُون، الذين يُقْضَىٰ عليهم بالخُلُودِ في عذاب النار.

اللَّقْطَةُ الثالثة: مقالَةٌ تَحْسِيرِيَّةٌ يَقُولُها الملائكَةُ المُكَلَّفُونَ بحَشْرِهِمْ وبِسَوْقِهِمْ إلى مَصَائِرِهِمْ في الجحيم، دَلَّ عليها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾: أي: في أيّ مكانٍ يُوجَدُ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ في الدُّنيا، هل تَجِدُونَ لَدَيْهِمْ ما يَنْفَعُكُمْ، أوْ يَدْفَعُ عذابَ اللَّه عنكم.

فإنْ كانُوا مِنَ الَّذِينَ دَعَوْكم إلى عِبَادَتِهِم، أَوْ مِنَ الّذين رَضُوا بذلِكَ، فهَلْ يَسْتَطِيعُونَ أن يَنْتَصِرُوا لأنْفُسِهِمْ، فَيَدْفَعُوا عن أنفسهم عذابَ رَبِّهِمْ، فضلاً عن أن يَنْصُرُوكم، فيَدْفَعُوا عنكم عذاب الله.

وإنْ كانَتْ أوثاناً حجارَةً أو أخشاباً أو معادنٍ أو نحو ذلكَ، فلا وجود لِهَيَاكِلِهَا مطلقاً، لأنَّها صارت حطاماً مفتَّتةً ضِمْنَ ذرَّاتِ الأرض، كَسَائِرِ ما في الأرض من أشياء، والمرمُوزُ بها إليهم يتبَرَّؤُونَ مِنْ عابِدِيها.

الاستفهام في ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾؟ فيه معنىٰ تَحْسِيرِهِمْ على أنفسهم، إذْ ظَهَرَتْ خيبَةُ مَسَاعِيهِمْ في حياة امْتِحَانِهِم، بعِبَادَتِهِمْ لِآلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وتَعْرِيضِهِمْ أنْفُسَهُمْ لعذابٍ خالدٍ في الجحيم، دار عذاب الكافرين المجرمين.

اللقطةُ الرابعة: فيها بيانُ كَبْكَبَةِ المشركين، وسائر الغَاوِين، وجُنُودِ إبْلِيسَ أجْمَعِين، في الجَحِيم، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾: أي: أُلْقُوا على وُجُوهِهم وعلى رُؤوسِهم مُنْقَلِبِينَ في الجحيم جَمَاعَةً فجماعةً، وزُمْرَةً فزُمْرَةً، وكذلك سائر الغَاوِين.

الضمير في [هُمْ] يَعُودُ على المشركين، الّذِين كانوا في الحياة الدنيا يَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ، وهم من الغَاوِين، وهذا يَدُلُّ المتدبّر على أنّ **[والغاوُون]** يُرادُ بهم وسائِرُ الغاوِين، سواءٌ أكانوا مُشْرِكِين، أمْ شرّاً منهم كالجاحدين وجُودَ الرَّبّ جلّ جلاله، وكالذين يَجْمَعُونَ بَيْنَ الكُفْرِ والنّفاق.

سبق آنفاً شرحُ معنى: «الغاوِين».

يقال لُغَةً: «كَبْكَبَ الشَّيْءَ»: أي: قَلَبَ بَعْضَهُ على بَعْضٍ، ورَمَاهُ في مَهْواة.

الكَبْكَبَة: الكَبُّ الذي يَتْبَعُهُ كَبٌّ. «فَكُبْكِبُوا» مُضَاعَفُ «كُبُّوا» بتَكْرِيرِ اللّفظ الذي قد يدلُّ على تكرير المعنى، مثل: «كَفْكَفَ دَمْعَهُ» و«لَمْلَمَ مَتَاعَهُ» و«جَرْجَرَ الشَّرابَ».

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾: أي: والمُغْوُون الدَّاعُون إلى الغَوَايَة، الّذينَ هُمْ جُنُودُ إبليس، سواءٌ أكانوا مِنَ الجِنِّ أمْ مِنَ الإنْسِ، ونظراً إلى أنَّه لا يُوجَدُ لأحَدٍ مِنَ المُغْوِين الّذين هُم جُنودُ إبْلِيسَ عُذْرٌ مَا، جَاءَ تأكيدُ كَبْكَبَتِهِم في الجحيم بعبارة ﴿أَجْمَعُونَ﴾، أي: لَا يُسْتَثْنَىٰ مِنْهُمْ أحَدٌ بجَهْلٍ أو غَيْرِهِ ممَّا قَدْ يُعْذَرُ بِهِ بُلَهَاءُ الغَاوِين، فجنُودُ إبليس فُطَنَاءُ أشرار.

اللقطة الخامسة: لَقْطَةُ تخاصُم بينَ الغَاوِينَ وبيْنَ الَّذِين كانوا سبباً في غَوَايتهم، وهم في الجحيم يُعَذَّبُونَ، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢﴾:

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦﴾: أي: قالَ الّذينَ كانوا يَعْبُدون من دون اللَّه شركاء، أصْناماً أو غير ذلك، وهم في الجحيم يُعَذَّبُون، لِمَنْ كانوا يَعْبُدُونَهُمْ من إنْسٍ أو جنٍّ وكانوا بعِبَادَتِهِم لهم راضين، أو اتَّخَذُوا أنْفُسَهُمْ آلِهَةً أوْ أرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفِرْعَوْنِ مُوسَىٰ، وأمَرُوا النَّاسَ بعبادتهم، يُخَاصِمُونَهُمْ ويُنَازِعُونَهُمْ.

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: يَتَخَاصَمُونَ ويَتَنَازَعُونَ مع الّذين كانوا مَعْبُودِيهِم في الحياة الدُّنيا، يقال لُغَةً: «اخْتَصَمَ القَوْمُ» أي: خَاصَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، في جدالٍ ومُنَازعة.

جملة: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ حَالِيَّةٌ مُقَدَّمَةٌ على مَقُولِ القَوْل.

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾:

﴿تَٱللَّهِ﴾: التاء من حروف القسم، قال سيبويْه: إنَّ العَرَب لا يُدْخِلُونَ تاء القَسَم في غَيْرِ لفظ «الله». فلا يقولون مثلاً «تَربّي» كما يقولون: «وربّي» وجواب القسم: ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «إنْ» هُنَا هي المخفّفة من الثقيلة، وهي مهملةٌ من العمل، واللام في [لَفِي] هي الفارقة بين «إنْ» المخفّفة من الثقيلة، و«إنْ» النافية، وهي مؤكّدَة لخبر [كُنَّا].

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي: لَفِي ضياع عن صراط الحقّ، وهذا الضَّيَاعُ مُبين، من فِعْل «أبَانَ» اللازم بمعنى: «ظَهَرَ ووضح» أي: لفي ضلال عن صراط الحقّ ظاهرٍ وواضحٍ.

﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾: [إذْ] ظَرْفية فيها معنى التَّعليل، أي: كنّا لَفِي ضلالٍ مُبينٍ حينَ كُنَّا نُسَوِّيكُمْ برَبّ العالَمِين، في إلٰهِيَّتِهِ أَوْ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فنَعْبُدُكُمْ كعِبادة العابدين له.

يقال لغة: «سَوَّىٰ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ» أي: جعلَه مساوياً لَهُ مُمَاثِلاً مُعَادِلاً.

[رَبُّ العالَمين] هو الخالق لما سواه، والمتصرّف في العالمين دواماً بِصفاتِ ربوبيته، التي سبق بَيَانُهَا مِراراً.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾: أي: ومَا كانَ سبَبَ ضَلَالِنا عن صِراط الحقِّ والهُدَىٰ غَيْرُ المُجْرِمِينَ، الّذين كانُوا دُعاةً للشِّرْكِ بِرَبِّنا رَبِّ العالمين، إذْ جَعَلُوا نُفوسَهُمْ جُنُوداً لإبْلِيس في الإغواء والإضلالِ عن الحقِّ والهُدَى وفِعْلِ الخَيْر، وعن صراط النّجاةِ مِنْ عذابِ الله، والسعادة الأبَدِيَّة في جنَّاتِ النعيم.

المُجْرمُون: هم مرتكبُوا الجرائم الكبُرىٰ، والآثام العظمىٰ، ومن أشْنَعِهَا الإغواء، ودَفْعُ مَنْ يَسْتَجيب لهم إلى الغوايَة، وأُطْلِقَ هذا اللّفظ في القرآنِ على مُسْتَحِقّي الخلُودِ في عذَابِ النَّارِ على تَنازُلِ دَركاتِهِم فيها، حتى الدَّرْكِ الأسْفَلِ منها.

وبعد هذا قالوا مُتَحَسِّرين:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾:

[مِنْ] زِيدَتْ لتأكيد استغراق عُمُومِ النفي والتنصيص عليه، أي: فَلَيْسَ لَنَا شَافِعُونَ بالاستغراق الشَّامِلِ يشفعون لنا، فواحَسْرَتنا على ما فرَّطْنا في جَنْبِ الله، ولَيْسَ لنا صَدِيقٌ مَا حَمِيمٌ يَنْصُرُنا أو يُواسِينا في عَذَابِنا فواحَسْرَتَنَا على ما فرَّطْنا في جَنْبِ الله!!

الصَّدِيقُ الحميم: هو الّذي يَوَدُّكَ ويُدَافِعُ عَنْكَ، وتَوَدُّهُ وتُدَافِعُ عَنْهُ. كلُّ خُلَّة وصَدَاقَةٍ في الدُّنْيا بَيْنَ غَيْرِ المُتَّقِين، تَنْقَلِبُ إلى عَدَاوَةٍ شَدِيدة يَوْمَ الدِّين، كما قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

أمّا المتَّقُون فيَحْفَظُ اللَّهُ لَهُمْ خُلَّاتِهِمْ ومَوَدَّاتِهِم، لأنَّها مِنْ عناصِرِ سَعَادَاتِهِمْ في جنَّاتِ النَّعِيم.

وأخيراً يُعْلِنُ هؤلاء الغاوُونَ الذين كانوا في الحياة الدنيا يَعْبُدُونَ مَعْبُودِينَ من دون الله تَمَنِّيَهُمْ، أنْ تَكُونَ لَهُمْ عوْدَةٌ إلى حياة الامتحان حتَّىٰ يَكُونُوا مؤمنين، لا يُخَالِطُ إيمانَهُمْ شِرْكٌ ما، فيَقُولُون:

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: الفاء عاطفة [لَوْ] هُنَا للتَّمَنِّي، إذْ عَلِمُوا أنَّ طَلَبَهُمْ الرَّجْعَةَ إلى حياةِ الامتحان، فيَكِرُّوا مِنْهَا مُؤْمِنِينَ إلى حَيَاةِ الجزاءِ، طَلَبٌ مَرْفُوض، فلا يَمْلِكُونَ إلَّا التَّمَنِّي.

الكَرَّة: واحِدَة «الكَرّ» وهو الرُّجوع إلى الوراء لاستئناف الإقبالِ إلى الأمام.

[مِنَ المُؤْمِنِينَ]: أي: من فِئَةِ المؤمنين الصادقين في إيمانهم، الَّذِينَ لا يخالِطُ إيمانَهُمْ شِرْكٌ في رُبُوبيَّةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ولا في إلٰهيَّته.

وفي ختام هذا الفَصْلِ المتعلّقِ بإبراهيم عليه السَّلام ودعوته لأبيه وقومه، جاءَتْ في السُّورة الآيتان اللّتان جعَلَهُمَا الله بمثابَةِ فاصِلٍ يُكَرَّرُ في نِهَايَةِ كلّ مجموعة من اللّقطات المختاراتِ في السُّورَةِ من قِصَصِ رسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامِهِمْ، وهما:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾:

وقد سبَقَ تَدبُّرُهما، فلا حاجة إلى التكرار، ولا شكَّ أنَّ قصة إبراهيم عليه السّلام وقومه، وما سَيُلاقونه يوم الدّين تشتمل على آيَةٍ عظيمة ذات عِبَر وعِظات جَلِيلَات، ومع تلك العِبَر والعظات فإنّ أكثر المعنيّين بالمعالجة في السّورة قد وصَلوا إلى حالةٍ مَيؤُوسٍ منها.

* * *

الفصل الثالث

لقطات تتعلَّقُ بقصة نوح عليه السَّلامُ وقومه

وهي الآيات من (١٠٥ ـ ١٢٢)

قال اللّهُ عزَّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)﴾.

تمهيد:

جاء بِشَأْنِ نوحٍ عليه السَّلامُ وقومِهِ في القرآن الكريم (٢٨) نصّاً من (٢٨) سورة، وهذا هو النَّصُّ الثامن بحَسَبِ ترتيب النزول، وقَدْ كنت تدبَّرْت هٰذه النُّصوص في كتاب خاصٍّ بها، عنوانُه «نوح عَلَيْهِ السَّلام وقومُه في القرآن المجيد»، واكتشفت عن طريق وضع جداول للأفكار الّتي اشْتَمَلَتْ عليها هٰذه النصوص، فوجَدْتها متكامِلَةً فيما بينها، والمكرّراتُ فيها هي المدخل إلى ذِكْرُ اللّقطاتِ المختارات في النّصّ من السّورة، والموعظةُ التي تشتمل عليها النصوص، وهي بمثابة تكريرِ العلاج الدوائي، ثم ما كان مُكَرَّراً في واقعِ القصَّة، فجاء التكرير تَنْبيهاً عليه.

وإذْ أُحِيلُ على ذٰلِكَ التدبّر الَّذي أفْرَدْتُ لَهُ كتاباً خاصّاً، فإنّي أقتصر هُنا على تدبّر آيات هذا الفصل، دون توجيه العناية لإبْراز التكامل بين هذا النّصّ وبين سائر النصوص، الثمانية والعشرين، وقد سبَقَ في هذا الكتاب التدبّريّ تدبُّر سبعة نصوصٍ في مواضعها من سورها.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾:

كلمة «قوم» اسمُ جَمْعٍ لآدميّ، فيجوزُ في العَرَبِيَّةِ تَذْكيره وتَأْنيثه، وهنا جاء تأنيثه. وجاء تذكيره في: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ الأنعام آية (٦٦).

واسم الجَمْعِ لغير الآدميّ يجبُ في العربيَّة تأنيثُه دواماً.

القوم: هم الجماعة من الناس الذين تجمعُهم جامعة يقومون لها، ذكوراً وإناثاً.

وقد يُخَصَّصُ اللَّفْظ بالذُّكُورِ دُونَ الإنَاثِ، كقول زُهير:

وَمَا أَدْرِي وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

ونوحٌ عليه السَّلامُ قد سبق التعريف به في هذا الكتاب، وهو من أُولي العزم من الرُّسل.

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: جاء هنا لفظ المرسلين مجموعاً، وجاء في القرآن نظيره بالنسبة إلى «عاد» و«ثمود» و«قَوْم لُوط» و«أصحاب الأيْكَة».

أورد المفسّرون عدّة احْتِمالات للمراد بالجَمْع، ومنها اعتبار مَنْ كذَّبَ رسولاً واحداً بمثابَةِ مَنْ كذَّبَ كلَّ الرُّسل.

والذي ترجَّحَ لَدَيَّ أنَّهُ قَدْ جاء لقَوْم نوحٍ عِدَّةُ رُسُلٍ، وأنَّ نُوحاً عليه السَّلام كانَ آخِرَهُم إرسالاً إليهم، أو بقاءً فيهم⁽¹⁾، وهذا لا يتعارض مَعَ ما جاء في حديث الشفاعة يومَ الدّين، إذْ يَأْتِي النَّاسُ إلَيْهِ بعد أن يَعْتَذِرَ آدم من الشفاعة لهم، فيقولُون له: أنت أوّل الرُّسُلِ، إذْ يُرادُ بهٰذِهِ العبارة أنَّهُ أوّلُ الرُّسُلِ مِنْ أُولِي العزم، لا أوّلُ الرُّسُلِ على الإطلاق، فقد جاء قبله من الرُّسل آدم، وشيث، وإدْريس عليهم السّلام، إلّا أنَّهُمْ لم يكونوا من أُولي العزم، ولم يأتِ في الحديث أنّ أهل الموقف يطوفون على كلِّ الرُّسُلِ بَلْ يَنْتَقُون بَعْدَ نوحٍ أُولي العزم منهم، وهم إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السَّلام، ثُمَّ يأتونَ أخيراً إلى محمّد ﷺ فيشفع لهم.

وكذلك جاء للأقوام «عاد» و«ثمود» و«قوم لوط» و«أصحاب الأيكة» عدَّةُ رُسُلٍ قبل: «هود» و«صالح» و«لوط» و«شعيب» عليهم السَّلام، ولا داعِيَ لِمُخَالَفَةِ ظاهِرِ اللفظ الذي جاء مَجْموعاً بالنسبة إلى هؤلاء الأقوام.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾؟:

---

(١) انظر في الصفحة (٣٦١) من المجلد الأول: «هل كان نوح عليه السّلام أوّلُ رُسُل اللّه للناس»؟

أُخُوَّةُ نُوحٍ عليه السَّلامُ لِقَوْمِهِ قد كانَتْ أُخُوَّةَ نَسَبٍ، فهو منهم، ولا يَلْزم هذا في كلّ الرُّسل، فقد جاءَ مثلُ هذا التعبير بشأن لوطٍ عليه السّلام وقومه، مع أنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ نَسَباً، بل كانَ وافداً إليهم، ولا يرجع نَسَبُهُ إلى جدِّهِمْ، فأُخُوَّتُهُ لهم قد كانَتْ أُخُوَّةَ مُواطَنَةٍ ولِسَان، وأُخُوَّةً تَرْجِعُ إلى آدَمَ عليه السَّلام وزوجه.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: عَرضٌ رَفِيقٌ بأداة العَرْضِ «أَلَا» وأرجّح أنَّها كلمةٌ واحِدَة، تَسْتعمل للعرض، وللتحضيض، وللاستفتاح والتَّنْبيهِ، ولَيْسَتْ مؤلَّفَةً مِنْ هَمْزَةِ الاستفهام وحرف النفي «لا» ولو كان أَصْلُها كذلِكَ، إذْ أقول: إنَّ ذلِكَ الأَصْل قَدْ تُنُوسِي، وصارَتْ «أَلَا» بالاستعمال كلمةً واحدة.

والذي عرضه نوح عليه السلام على قَوْمِهِ أنْ يَتَّقُوا عقابَ اللَّهِ وعذابَهُ المؤجَّلَ إلى يوم الدّين، مع ما قَدْ يُنْزِلُه بهم من عقابٍ مُعَجّل، وقد تحقّق بإغراقِهِم إغراقاً جماعِيّاً.

﴿تَتَّقُونَ﴾: مضارع فعل «اتَّقَىٰ» أي: جعَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ما يَحْذَرُ وِقايَةً تَحْمِيه، من ضُرّ أو أذىً أو عُقُوبة، والوقاية من عقوبة الله تكون بفِعْلِ ما أمَرَ به، وتَرْكِ ما نَهَىٰ عنه، والإيمانُ الصحيحُ الصادق أوّلُ مأمُورٍ به في الدِّين الذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، والكُفْرُ وأدناه الشِّرْكُ أوَّلُ منهيٍّ عنه في الدين الذي اصطفاه الله لعباده، في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدنيا.

تقولُ لغة: «اتَّقَيْتُ اتّقاءً» و«تَوَقَّيْتُ، تَوَقّياً، وتُقىً، وتَقِيَّةً، وتِقَاءً» أي: جَعَلْتَ بَيْنَك وبَيْنَ ما يَضُرُّك أو يُؤْذِيكَ أو يُؤْلِمُكَ، أو يُحْزِنُكَ، ما يقيك، والاسم «التقوى».

قول اللَّه عزّ وجلّ في حكاية معنى ما قاله نوحٌ عليه السَّلامُ لقومه:

- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾:

﴿رَسُولٌ﴾: أي: نبيٌّ ورَسُولٌ، لأنّ النُّبُوَّةَ سابِقَةٌ للرّسَالَةِ، ومُرَافِقَةٌ لَهَا دواماً بَعْدَ تكليفِ النَّبِيِّ مَسْؤولياتها.

﴿أَمِينٌ﴾: أي: مُتَّصِفٌ بخُلُقِ الأمَانَةِ بوَجْهٍ عامّ، وأمينٌ على رسالاتِ رَبّي، أُبَلِّغُهَا لكُمْ كما أَتَلقَّاهَا بالوَحْيِ عَنْهُ، لا أَزِيدُ فيها شيئاً من عندي، ولا أَنْقُصُ منها.

عبارة [لَكُمْ] معمول للفظ [رَسُولٌ] قُدِّمَ على عامله لإفادة التخصيص، أي: رسالَتِي خاصَّةٌ بِكُمْ، فأنا مَبْعُوثٌ من عِنْدِ اللَّهِ لكم، لأُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاته.

والمعنى: إنّي لَكُمْ على وَجْهِ التَّخْصِيص نَبِيٌّ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ من عِنْدِ الله رَبّي ورَبّكُمْ، وأَمِينٌ على رِسالاته، أبلّغُكُمْ إيَّاها كما أتلقَّاها بالوحي عنه، دون زيادَةٍ فيها ولا نقصان.

وبما أنَّهُ يترتَّبُ على كونه نبيّاً رَسُولاً، يُبَلّغ عن رَبّه وربّهم رسالَاته، أنَّهُمْ مأمُورون من قِبَلِ اللَّهِ ربّهم بطاعتِهِ، قال لهم:

- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾: أي: فاتَّقُوا عذابَ اللَّهِ، وأطِيعُوني فيما أدْعُوكُمْ إلَيْهِ، لأنَّكُمْ إذا لَمْ تُطِيعُونِي فيما أدْعُوكُمْ إلَيْهِ، وأنَا رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عن اللَّهِ رَبِّكُمْ، كُنْتُمْ مُسْتَحِقّينَ لعقابه وعذابه، فَلَيْسَتِ القضيَّةُ قَضِيّتي الخاصَّة بي، وإنَّما هي قَضِيَّةُ اللَّهِ رَبّي ورَبّكُم، ولَهَا علاقَةٌ بي وبكُمْ معاً.

وقال لهم ما دَلَّ عليه قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾:

إنّ أوّل ما يتبادر إلى أذْهان الأقوام المَدْعُوّينَ مِنْ قِبَلِ أيّ داعٍ من الدُّعاة إلى مَبْدإٍ أو فِكْرَةٍ، أو عَمَلٍ، أوْ جَمَاعَةٍ، أن يَتَّهِمُوهُ بأنَّ له مَصْلَحَةً شَخْصِيَّةً مِنْهُمْ، يَحْصُلُ عليها من جرَّاءِ اتِّباعِهِمْ له فيما يَدْعُوهم إلَيْه، كان من الحِكْمَةِ في الدَّعْوَةِ أنْ يُعْلِنَ الرَّسُولُ تَجرُّدَهُ من أيَّةِ مَصْلَحَةٍ شخصيَّةٍ يَحْصُلُ عليها من قومه الّذين يدعوهم إلى دين الله ربِّهِ وربّهم، ومعلومٌ أنَّ أدْنَىٰ المصالحِ وأخفَّها، مطالَبَتُهُمْ بأجْرٍ على ما يُقَدِّمُ لهم من تَعْلِيمٍ ونُصْحٍ

وإرْشاد، ومُجاهَدَةٍ في ابْتغاءِ الخَيْرِ لهم، وتَدْرِيبٍ وتَرْبِيَةٍ على الإيمانِ ومشاعِرِهِ، وآثارِهِ في السُّلوك، وعلى مُمَارَسَةِ الفضائِلِ الخُلُقِيَّةِ والسُّلوكِيَّةِ، وعبادةِ اللَّهِ عزّ وجلّ وَفْقَ أحكام شرائعه.

وظاهر أنّ التجرُّدَ والتَبرُّؤَ مِنْ أدْنَىٰ المصالح الشخصيّة وأخَفِّها، يَسْتَلْزِمُ بداهةً التجرُّدَ ممَّا هُوَ أصْعَبُ على نفوس القوم وأشدّ.

ولكن لَيْسَ معنىٰ ذلك أنَّهُ لا يَطْلُبُ أجْراً ما مُطلقاً، فهٰذِهِ مِثالِيَّةٌ خياليَّةٌ بالنِّسْبة إلى البَشر، ولو كانوا من أُولي العزم من الرُّسُل، وهو لا يَدَّعيها عليه السَّلام، بل هُوَ واثقٌ مِنْ أجْرٍ عظيم يظفر به عند رَبّ العَالَمِين، فقد تكفّلَ الله عزّ وجلّ عن المَدْعُوِّين بأجْرِ الدُّعاةِ إلى دينِهِ وإلى عبادته. ولئلا يفهم مِنْه هذا الفهم قال نوحٌ عليه السّلام:

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: ما أجرِيَ الّذي أستحقُّهُ إلَّا على كَفالَةِ رَبّ العالَمِين، فهو وَحْدَهُ الضامِنُ له، وهو وَحْدَهُ الذي تحمَّلَهُ وتَكفَّلَ بِهِ، وهو وحْدَهُ الّذي أثِقُ بأنْ يَمْنَحنِي إيَّاهُ يومَ الدّين.

وبناءً على هذا فإنّني أُعِيدُ عليكم مقالتي لكُمْ، وأنَا متّصِفٌ بكامِلِ التجرُّدِ من أيَّةِ مصلحةٍ شخصيَّةٍ أطْلُبُها لنَفْسِي مِنْكُمْ:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ١١١﴾؟:

﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾: أي: أنُؤْمِنُ بِكَ وبما جِئْتَ به، مُسْلِمِينَ ومنقادِينَ لَكَ. ضُمِّنَ فِعْل «نُؤْمِنُ» معنى فعل «نُسْلِمُ» فعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغْنَتِ الجملة عن جُمْلَتَيْن.

﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾: أي: والحالُ أنَّهُ اتَّبعَكَ الأرْذَلُونَ.

الأرْذَلُون: هُمُ الأخَسُّون من الناس، أصْحَابُ المِهَنِ الحقيرَة، والأعمال الّتي يترفّع عنها أهْلُ الكرامة والشّرف، ويترَفَّع عَنْها أيضاً الّذين هم من وسَطِ النّاس، وقَدْ عَرَّفُوهُم بأداة التعريف «ال» للدّلالة على أنَّهم مُشْتَهِرُون بالأرْذَلِيَّة، فهم يذكَرُون بها.

والأرْذَلُونَ أيضاً: هم أهْلُ الطَّبقَةِ الدُّنيا في المجتمع، والذين لَهُمْ أعمالٌ رَدِيئة، أو هم متَّهَمُون بالقبائِحِ وفِعْلِ الرَّذَائِل.

ويظهر أنّ الذين قالوا هذه المقالَةَ هُمْ كبراء قومِ نوحٍ وملؤهم، وربَّما قالَها مَنْ هم من وسَطِ الناس، لأنَّ الله عزّ وجلّ لم يَخُصَّ الملأ في هذا النصّ بالذكر.

لقد استكْبَر قومُ نوحٍ عليه السَّلام عن اتّباعه، وتَعَلَّلُوا بأنَّه قد اتَّبَعَهُ الأرْذَلُون فيمَنِ اتَّبَعه، فَهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لدَعْوَةٍ يَكْثُرُ في أَتْبَاعِهَا الأرْذَلُون.

ويُدْرِكُ المتدبّر أنَّهم تعَلَّلُوا بهذه العلّة في مرحلة متقدّمة من مراحِلِ دعوته لقومه، ولهذا اقتصر النصّ هنا على بيان هذا التَّعَلُّلِ من تعلّلاتهم، ثم جاء في نصوص أخرىٰ إضافة تعلّلاتٍ لم تذكَرْ في هذا النّصّ، للإشارة إلى أنَّها كانت في مراحِلَ لَاحقة من مراحِلِ دعوته لقومه.

ولمّا كانت كلمة الأرْذَلين قد تَعْنِي فريقَيْن من الناس:

١ ـ فريق المتّهَمين بفِعْلِ القبائح والرَّذَائِل.

٢ ـ فريق أهل الطبقة الاجتماعيّة الدُّنيا والمِهَنِ الحقيرَة.

كان جوابُ نوح عليه السّلام يتضمَّنُ الرَّدّ على الأمْرَين معاً، فقال لهم ما أبانه الله عزّ وجلّ بقوله:

- ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾:

قولُه: ﴿وَمَا عِلۡمِى بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دَلَّ على أَنَّهُمْ قالُوا له: أنُؤمِنُ ونُسْلِمُ مُنْقادين لك، والحالُ أنّه اتَّبَعَكَ الأرْذَلُون، وأنْتَ تَعْلَمُ أنَّهُمْ أرْذَلُون، لَيْسُوا أخفياء عَلَيْك، فأجابهم بهذا الجواب.

أي: ومَا تأثير عِلْمِي بِمَا كانُوا يَعْمَلُون، في دَعْوَةٍ رَبَّانِيَّةٍ أمَرَني رَبُّ العالَمِين بأنْ أُبَلِّغَها لجميع قومي دُون استثاء.

ألَيْسَ هؤلاء بشراً مُطالَبِين بالإيمان والعَمَل الصالح، مهما كانت طبقَتُهُمُ الاجتماعِيَّةُ في نظركم طبقَةً خَسِيسَة.

ألَا يستحقُّونَ مثل غَيْرِهِمْ ثوابَ اللَّهِ والجنَّة، إذَا آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات؟!

ألَا يستحقُّون مثلَ غَيْرِهِم عقابَ الله والنار، إذا كَفَرُوا وعَمِلُوا السّيّئات؟!

ألَيْسُوا بشراً قابِلِينَ للتّوبة والإصلاح مَهْمَا كانت أعمالُهُمْ رَذيلةً سَيّئةً قبل الإيمان واتّباع الرَّسُول؟!.

إنّ الإيمان والإسلامَ يَجُبَّانِ ما كان قَبْلَهُمَا مِن مَعَاصِي وآثام.

وإذَا كنْتُ أعْلَمُ بما كانوا يَعْمَلُون من سَيّئات، فَهَلْ مِنْ وظيفتي أنْ أُحَاسِبَهُمْ عليها بَعْدَ إيمانِهِم وإسْلامهم؟!

إنّما أنا رَسُولٌ مُبَلِّغٌ رِسَالَاتِ رَبّي، أمَّا حِسَابُهُمْ على أعمالهم فعلىٰ رَبّي، وهو الذي سوف يحاسِبُهُمْ عليها يوم الدّين، وهو الحكيم فيما يجازي عليه، وفيما يكَفِّرُهُ مِنْ خطايا، ولا سيما جبُّ الخطايا التي كانت قبل الإيمان والإسلام.

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّىۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

فعِلْمِي بما كانوا يَعْمَلُون لَا يَجْعَلُنِي أتْرُكُ دَعْوَتَهُمْ، وهم بشَرٌ مِنْ

عباد اللَّهِ، مَسْؤُولونَ كسَائِرِ البشر عَنِ الإيمان والعَمَلِ الصَّالِحِ، وهم في الحياة الدُّنيا مُمْتَحَنُونَ كغَيْرِهِمْ، وسَوْف يُحَاسَبُون يَوْمَ الدّين، ويجازَوْن على أعمالهم كغَيْرِهم، وأنا رَسُولُ اللَّهِ رَبّ العالَمِين في دائرة امتحان النّاس في الحياة الدّنيا.

ويدلُّ حرف العَطْفِ في أوّل قول نوحٍ عليه السّلام لِقَوْمِهِ عَنْ الأرْذَلين:

﴿وَمَا عِلۡمِى بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ على أنَّه قد قال كلاماً قَبْلَه، وعطف عليه هذا القول، والمعطوف عليه مَطْويٌّ في النصّ القرآني، ونَسْتَطِيعُ بالتأمُّلِ أن نَكْتَشِفَ شيئاً مِنْ ذلك.

إنّ نوحاً عليه السّلام لا بُدَّ أن يكون قَدْ قَدَّم لقومه بياناً دلَّهم فيه على أنّ هؤلاء الذين يَرَوْنَهُمُ الأرْذَلِين هُمْ بَشَرٌ مِثْلُهم، ومسؤولُون تُجاهَ رَبِّهِمْ عن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالح، وأنَّهُ مُرْسَلٌ من رَبّه رَبّ العالَمِين، لدَعْوَتِهِم ودَعْوَةِ غيرهم من قومه، ولَيْسَ مَبْعُوثاً لطَبَقَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ خاصَّةٍ دون طبقَةٍ أو طبقاتٍ أخرى، فقال لهم بعد هذا البيان:

- ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِى بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

وأعلن تمنّيَهُ أنْ يَشْعُروا بالحقائق الّتي أبانَها قائلاً لهم: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾، فلفظ «لَوْ» هنا حرف تَمَنٍّ، أي: أتمنَّى لكم أنْ تَشْعُرُوا بهٰذِهِ الحقائق.

الشُّعُورُ بالشيءِ أوّلُ مراحِلِ إدْرَاكِهِ، ولعلّه مأخوذٌ في اللُّغَةِ من الشَّيْءِ يُلامِسُ الشّعَر، فيُحِسُّ به الإنسانُ إحساساً خفيفاً، ثُمَّ انْتَقَلَ تَوَسُّعاً إلى الإدْرَاكاتِ الفِكْرِيَّةِ الأُولَى الخفيفة.

ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ الشُّعورِ إدْرَاكَاتٌ أقْوَىٰ قَدْ توصِل إلى العِلْم، فإلى اليقين.

ومع هذا التَّمَنّي يُلْمِحُ نوحٌ عليه السّلام إلى أنَّهم ما زَالُوا في جهالَةٍ مُطْبِقَة، إذْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى مَرْحَلَةِ الشُّعُورِ بأولى الحقائق الّتي يَدْعُوهُم إلى الإيمان بها.

وطالَبَهُ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ ومَعَهُمْ أوْسَاطُهُمْ، بأن يَطْرُدَ هؤلاء الَّذِين اتَّبَعُوهُ مؤمنين به، وبما جاء به عن الله رَبِّ العالَمِين، وهم الذين وصَفُوهم بأنَّهم الأرْذَلُون، واعتبروا طَرْدَهُ لَهُمْ شرطاً لقبول اتّباعه والإسلام له، دلَّ على هٰذا المَطْلَبِ مِنْ مطالبهم قَوْلُه الذي حكىٰ الله معناه بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤﴾: زيدت «الباء» في ﴿بِطَارِدِ﴾ للتوكيد.

طارِد: اسم فاعل من فعل «طَرَدَهُ، يَطْرُدُهُ، طَرْداً» أي: نَحَّاهُ وأبْعَدَهُ ومنَعَهُ من الاقتراب، استخفافاً به، أو عقاباً له.

لم يَقُلْ نوحٌ عليه السّلام: وما أنا بطاردهم، وإنما قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤﴾ لأمْرَيْن:

الأمر الأول: إرادة التعميم.

الأمر الثاني: بيان الدّاعي الذي يوجب عليه أن يمتنع عن طَرْدِهِم، وهُوَ وَصْفُ الإيمان.

أي: وما أنا بطارد أيّ فَرْدٍ أو جماعَةٍ دَخَلُوا في سِلْكِ جماعة المؤمنين، إذ الإيمان يَجْعَلُهُمْ مِنَ الأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّة، مَهْمَا كان وَضْعُهُمْ الاجتماعي قبل ذلك، ومَهْمَا كان سُلُوكهم من قَبْلُ، فالإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه.

وأخيراً أبان نوح عليه السّلام لقومه وظيفَتَهُ الّتي أمَرَهُ اللّه أنْ يَقُومَ بها تُجاه المكذّبين الجاحِدِين، فقال لهم ما حكاه الله عنه بقوله تعالىٰ:

- ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١١٥﴾: «إنْ» حرف نفي بمعنى «ما». أي:

ما أنا بالنِّسْبَةِ إلى غَيْرِ المُسْتَجِيبين لدَعْوَتي، الرافِضِين لها بَعْدَ البيان الكافي الوافي، بإصرارٍ ومُعَانَدَةٍ، واسْتِكْبَارٍ عن اتّباع الحقِّ، وإيثارٍ لمتاع الحياة الدّنيا، إلّا نذيرٌ مُبين.

فهو عليه السّلام يُنْذِرُهُمْ بعَذَابِ اللَّهِ إذا أَصَرُّوا على كفرهم وعنادِهِمْ وكِبْرِهِم، وهو عَلَيْهِ السَّلامُ واضِحٌ في رسالَتهِ كلَّ الوُضوح، يَدْعُو كلَّ طَبقاتِ المجتمع، وكلّ أفراده المؤهّلِين لإدْراكِ الدَّعْوَةِ، أنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا.

ولَيْسَ صاحبَ تنظيم سِرِّيّ يُخْفِي فيه بَعْضَ مبادئه وغاياته، ويَجْمَعُ على ما يُخْفِي فيه أصحابَ المصالح والمنافع منه، ويُبْعِدُ الآخرين.

إنَّه عليه السَّلام مُبِينٌ، واضِحٌ كلَّ الوضوح، من فعل «أَبَانَ» اللازم، بمعنى ظَهَرَ واتَّضَحَ فهو «مُبِين» أي: ظاهر واضح، وهو أيضاً مُبِين لكلِّ عناصِرِ دَعْوَتِهِ، لَا يُخْفِي منها شيئاً، مِنْ فعل «أبانَ» المُتَعَدِّي، أي: أبان الشَّيْءَ إذا أَظْهَرَهُ وَوَضَّحَهُ.

وهكذا كلُّ المُرْسَلِين المَبْعُوثِين مِنْ رَبِّ العالمين، وهكذا كلّ رِسالاتِ الله للناس، إنَّها ذواتُ بياناتٍ واضحاتٍ مَعْرُوضاتٍ للجميع على السّواء.

وجاء تخصيص وصف «نذير» بالذكر هنا لأنّ المخاطبينَ من قومه لم يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَتِهِ، ولم يُؤْمِنُوا به، ولا بما جاء به عن رَبّ العالَمِين، فهو لهم «نذير» ما داموا على هذا الوَصْف.

فالقَصْرُ الذي دلَّ عليه النفيُ الاستثناء هنا هو من قبيل القصر الإضافي، لا الحقيقي، أي: ما أنا بالنّسبة إليكم في موضوعِ رسالَتي، بَعْدَ أن أبْلَغْتُكُمْ ما أمَرَنِي ربّي بتبليغه إلّا منذرٌ لكُمْ بعذابِ رَبّي، ويَشْمُلُ هذا الإنذارُ مؤجّلَ العقاب ومعجّله.

ولو أنّهم آمنوا لكان لهم «بشيراً» بثواب اللّهِ العظيم في جنّاتِ النعيم.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾:

لقد انتهت المراجعات الجدليَّة الكلامِيَّة بَيْنَ نوحٍ وقَوْمِهِ في آخر مراحلِ دعوتِهِ لَهُمْ، عِنْدَ الموقِفِ الحازِمِ الذي أعلَن فيه قوله لهم: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾، وأعْلَنُوا فيهِ إصرارَهُمْ على الكفر، وتمسُّكَهُمْ بباطِلِهِمْ، ومُعَادَاتِهِم للحقِّ الرَّبَّاني وللدَّاعي إليه.

وإذْ لَمْ يَبْقَ في جَعْبَةِ نوحٍ عليه السلامُ إلَّا أنْ يُنْذِرَ كُفَّارَ قَوْمه بعقابِ اللَّهِ لَهُمْ، وإذْ بَلَغَ كفَّارُ قَوْمِهِ إلى حَالَةٍ ميؤوسٍ مَعَهَا مِنْ أنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طريقِ إراداتهم الحرَّة، كان من تلقائية الردّ أن يُهَدِّدوه بالرِّجْمِ إنْ لم يَنْتَهِ عَنْ مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، بمنهج الإقناع وبالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، وبالمجادَلَةِ الحكيمةِ بالَّتي هي أحْسَن.

- ﴿...لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾:

اللّام في [لَئِن] موطئة للقسم، فهي واقعة في جواب قسم منويّ، أي: نقسم لئن لم تَنْتَهِ يا نوح عن متابعة الدَّعْوَةِ إلى دينِكَ، والمُحَاجَّة والمجادَلَةِ للإقناع به، لنَحْكُمَنَّ علَيْكَ وعلى مَنْ آمَنَ معَكَ بالقَتْلِ رَجْماً بالحجارة، ولَنُنَفِّذَنَّ ذلك عمليّاً، ولتكونَنَّ واحداً مِنَ المَرْجُومِينَ الّذين سَنَرْجُمُهُم ونتخلَّصُ مِنْهم.

وبهذا قَطَعُوا عَلَيْهِ طريقَ مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ لِمَنْ يَسْتَمِعُ إليه مِنْ قَوْمِهِ، ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ أصْدَرُوا قَرَارَهُمْ بِرَجْمِهِ ورَجْمِ الَّذِين يَدْعُونَ إلى دِينِهِ من الَّذِينَ آمَنُوا به، فتوجَّه نوح عليه السّلام لربّه داعياً.

قال اللّه عزّ وجلّ قاصّاً ما دَعا به نوحٌ عليه السَّلام رَبَّه:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

فأبان نوح عليه السَّلام في دُعائه لربِّه أنَّه يَئِسَ من إيمان قَوْمِهِ عن طريق إراداتهم الحرَّةِ يأساً نهائيّاً، إذْ قال في دُعَائِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ وفي قراءة يعقوب: [**كَذَّبُوني**] بإثبات ياء المتكلّم، أي: إنَّ كلَّ قومي كذّبوني باسْتِثْنَاءِ القِلَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني، ومَنَعُوني مِنْ متابعة دعوتي في عامَّتهم، فلَمْ يَبْقَ لي مَطْمَعٌ في هِدَايَةِ أحَدٍ منهُمْ غيرِ الَّذِينَ آمَنُوا بي، وقد بَلَغُوا دَرَكَةَ التَّكْذِيب الجازم لي، بَعْدَ كُلِّ بياناتي ومجادلاتي لهم.

وطوىٰ عليه السَّلام في دعائه لِرَبِّه، ذِكْرَ تَهْدِيدِ كُبَراء قومه له ولِمَنْ آمَنَ به واتَّبَعَهُ، بالقتل رَجْماً بالحجارة، إذَا تَابَعُوا الدَّعْوَة في عامَّتِهِم إلى الإيمان بالله وبالدِّين الّذي اصطفاه لعباده، واكْتَفَىٰ في دُعَائِهِ بقوله:

﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

الفتح: يُطْلَقُ في اللّغة على النّصر، ويُطْلَقُ على الحكم والقضاء.

ويَظْهَرُ أنّ المراد بقول نوح عليه السّلام في دعائه لربّه: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ فاقضِ ربِّ واحْكُمْ بَيْنِي وبَيْنَ قَوْمِي، مُنْتَصِراً لأوليائك على أعدائِكَ بما تَشاءُ من فتح، فقد وَصَلَ قَوْمِي إلى دَرَكَةٍ لا مطمع بَعْدَها في استجابتهم عن طريق إرادَاتهم الحُرَّة لدَعْوَةِ الحق، ولم يَبْقَ إلّا أنْ تَفْصِل الحُكْمَ والقضاء المعجّل في الحياة الدُّنيا بحِكْمَتِكَ بَيْنِي وبَيْنَهم.

ولم يَذْكُرْ نوحٌ عليه السَّلام في دعائِهِ لرَبِّهِ نَوْعاً مِنْ أنْواعِ الفتح الّذي سألَهُ ربَّه، بل قال: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، أي: فتحاً ما بحِكْمَتِكَ وعلى مُرادِكَ. وربّما يكون مُرادُه فتحاً عظيماً شاملاً يُناسِبُ غُلُوَّهُم في العِناد والكُفْرِ والتّكذيب، ويُناسِبُ تَوَعُّدَهُمْ له بالقتل رجماً بالحجارة.

﴿... وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: ونَجِّنا مِمَّا تَوَعَّدُونا به، فالموقفُ بيننا قد صار مَوْقِفَ قوَّةٍ ماديّة، لَا نَسْتَطِيعُ مُوَاجَهَتَها بقُوَّتِنا دُونَ أن تَنْصُرَنا أنْتَ بِنَصْرِكَ رَبَّنَا.

لقد كانت قوَّةُ نوحٍ ومَنْ معهُ من المؤمنين لَا تُكَافِئ بمقتضىٰ نظام الكون السَّبَبِيِّ قُوَىٰ قَوْمِهِ الّذين تَوَعَّدُوهم بالرّجم بالحجارة.

ونَسْتَطِيعُ أنْ نَفْهَمَ أنَّ نُوحاً عليه السَّلام، قد تَوَقَّفَ مُنْذُ ذٰلِكَ الحين، عن القيام بدَعْوَةِ كُفَّارِ قَوْمِهِ إلى دينِ اللَّهِ، واقتصر على الّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، خشية أنْ يتعرَّضَ هو ومَنْ آمَنَ معه للقتل، بدليلِ أنَّ النُّصوصَ القرآنيّة المتعلّقةَ بقصَّةِ نوحٍ لَمْ تَذْكُرْ شيئاً عن أعمال قام بها كُفَّارُ قَوْمِهِ لتَنْفِيذِ مَا تَوَعَّدُوهُمْ به.

ونَسْتَطِيعُ أن نفهم أيضاً أنَّ دُعَاءَ نوحٍ عليه السلام بقوله: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قدْ كانَ بَعْدَ أن ضاقَ صَدْرُهُ بالتزام الصَّمْتِ عَنِ الدَّعْوَةِ إلى سَبِيلِ رَبِّه، وهو ذو البيان والحجج الجَدَلِيَّةِ الدَّامِغَة، خَوْفاً على نَفْسِهِ وعلى من آمَنَ به واتَّبَعهُ، من أن يُنَفِّذَ فيهم قومُهم قَرَارَهُمْ الظالم الآثم الطاغي، فيَرْجُمُوهُمْ بالحجارة حتَّىٰ القتل.

وطوىٰ النصُّ هُنا أحداثاً جرَتْ بين هٰذه المرحلةِ، وبينَ نجاة نُوحٍ في الفُلْكِ، وما تَبِعَهُ مِنْ إغْرَاقِ كُفَّارِ قَوْمِهِ.

واعْتُبِرَ الفاصِلُ الزَّمَنِيُّ بَيْنَهُمَا مَهْمَا كانت مُدَّتُهُ بمثابَةِ الصَّفَحاتِ المَنْزُوعَاتِ مِنْ مُجْرَياتِ القِصَّة، فقال الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

الفاء في [فأَنْجَيْنَاهُ] فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ على منَحْذُوف، يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ ذِهْناً، والتقدير:

فاسْتَجَبْنَا دُعاءه مباشرةً، فحَكَمْنَا بإغراقِ الأرضِ بالماء، وبنجاة نوحٍ ومَنْ آمَنَ مَعَهُ في الفُلْكِ المَشْحُونِ، وأمَرْنَاهُ بصُنْعِهِ، وقامَ بأعْمَالِ الصَّنْعِ حتَّىٰ كَملَتْ، وجاء المَوْعِدُ المُقَرَّرُ، وأمَرنا نوحاً بركُوبِ السَّفِينَة، وبأَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ فيها من كلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، وأهْلَهُ إلَّا من سَبَقَ القولُ بإغْرَاقِهِ لكُفْرِهِ، وبأن يَحْمِلَ معَهُ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِهِ، ورَكبوا، وأمْطَرَتِ السَّمَاءُ ماءً، وفاضَتِ الأرْضُ ينابيع، وارْتَفَعَتِ السَّفِينَةُ مع ارتفاع الماء، وجرَتْ بهم، وأنْجَيْنَاهُ ومَنْ مَعَهُ مِمَّا تَوَعَّدَهُ بِهِ قَوْمَهُ.

[**الفُلْك**]: مركَبُ البَحْر، يُطْلَقُ بالإفراد على الواحد والاثنين والجمع، ويذكّر ويؤنّث، وقد جاءَ هُنا مُذَكّراً.

[**المَشْحُون**]: أي: المَمْلُوء، فالشَّحْنُ هو مَلْءُ السفينَة، وإتْمامُ جهازِها كُلِّه.

[**ثُمَّ أغرَقْنَا الباقِينَ**]: دلَّ العطف بحرف العطف «ثُمَّ» الدالّ على الترتيب مع التراخي، على أنَّ إغراق كفّارِ قَوْمِهِ قد تحقَّقَ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ. والذِّهْنُ يستطيع أنْ يُدْرِكَ أنَّ القَوْمَ أخَذُوا يَتَسَارَعُونَ إلى الجبال، وإلى كلّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الأرض، فِراراً مِنْ تكاثُرِ المياه المنصَبَّة من السماء، والمتفجّرة من الأرض، فكان أكْثَرُهُمْ قُوَّةً على صُعُودِ الجبالِ حتَّىٰ أعَالِيهَا بغيَةَ أنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنَ الغرَقِ، أكْثَرَهُمْ في تَأْخِيرِ ساعَةِ الغَرَقِ عَنْ نَفْسِهِ، لكنْ الماء كان يُلاحِقُهُ صُعُوداً شيئاً فشيئاً، ومرَّتْ أيَّامٌ وأسابيع، وأكثر، حتَّىٰ أغْرَقَتِ المياهُ أعالِيَ رؤوسِ الجبال الشّامخة.

عِنْدَئِذٍ تمَّ إغراقُ جميع الباقِين في الأرض من قومِ نوح، وهُمُ الَّذِينَ لم يَرْكَبُوا مَعَهُ في الفلك.

كلمة [**الباقِينَ**] تَدُلُّ على أنَّ الغَرَقَ عَمَّ كُلَّ قَوْمِ نوح، باستثناء الَّذِينَ حَمَلَهُمُ الفُلْكُ، ولَيْسَ صَرِيحاً بأنَّهم الباقُونَ في عموم الأرض.

وفي ختام هذا الفصل المتعلّق بنوحٍ عليه السَّلام وبقومه، جاءت في السُّورة الآيتان اللَّتانِ جَعلَهُمَا الله عزّ وجلّ بمثابَةِ فاصِلٍ يُكرَّرُ في نهاية كُلِّ مَجْمُوعَةٍ من اللَّقَطاتِ المختارات في السّورة، من قِصَصِ رُسُلٍ سبعة وأقوامهم، وهما

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢)﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّرُهُمَا، فلا حَاجَةَ إلى التّكرار، ولا شكّ أن قصَّةَ نوح عليه السّلام وقومه، قد اشتملَتْ على آيَةٍ عظيمة ذاتِ عِبَرٍ وعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، ومع تِلْكَ العِبَر والعِظاتِ فإنّ أكثرَ المعنيّين بالمعالجة في السُّورَةِ وهم كبار كفّار قُريش، قد وصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ منها، فهم غَيْرُ مُنْتَظرٍ منهم أنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً مَهْمَا أُمْهِلُوا وعُولِجُوا.

* * *

الفصل الرابع
لقطات تتعلّق بِقِصَّةِ هُودٍ عليه السّلام وقومه عاد
وهي الآيات من (١٢٣ ـ ١٤٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ

فَأَهْلَكْنَٰهُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾:

تمهيد:

سبق تدبُّر ما جاء بشأن هود عليه السّلام، وقومه عاد، في السّور التالية، بحسب ترتيب نزول سُوَرِها:

١ ـ سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول)، الآيات من (٦ ـ ٩).

٢ ـ سورة (النجم/ ٥٣ مصحف ٢٣نزول)، الآية (٥٠).

٣ ـ سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول)، الآيات من (١٢ ـ ١٤).

٤ ـ سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول)، الآيات من (١٨ ـ ٢١).

٥ ـ سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)، الآيات من (١٢ ـ ١٤).

٦ ـ سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)، الآيات من (٦٥ ـ ٧٢).

٧ ـ سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول)، الآية (٣٨).

٨ ـ وهذه الآيات من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) الآيات من (١٢٣ ـ ١٤٠) تَدْعُو إلى تدبُّرها مع آيات هذه السورة.

وبقي بعد هذه الآيات تدبّر ما في السّور التالية:

٩ ـ سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) الآيات من (٥٠ ـ ٦٠) و(٨٩).

١٠ ـ سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول)، الآية (٣١).

١١ ـ سورة (فصّلَت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول)، الآيات من (١٣ ـ ١٦).

١٢ ـ سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول)، الآيات من (٢١ ـ ٢٦).

١٣ ـ سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول)، الآيتان (٤١ و٤٢).

١٤ ـ سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول)، الآية (٩).

١٥ ـ سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول)، الآيات من (٤ ـ ٨).

١٦ ـ سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول)، الآية (٣٨).

١٧ ـ سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول)، الآية (٤٢).

١٨ ـ سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول)، الآية (٧٠).

وأسأل اللّه أنْ يتفضّل علَيَّ بتَدبُّرِ جميع هذه النصوص، تدبُّراً تكامليّاً، في ملحق من ملاحق هذه السّور التي لم أتَدَبَّرْهَا بَعْدُ، إنّه هو المُعِين والفتاح الوهّاب.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾:

﴿عَادٌ﴾: أُمَّةٌ من العرب البائدة، مُسَمَّاةٌ باسْم جَدّهَا «عاد» وهو من سُلالة سامٍ بن نوح عليه السّلام، وكانوا يَسْكنون الأحقاف، وهي أرْضٌ من جنوب شِبْهِ الجزيرة العربيّة، تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الرّبع الخالي، وفي شرقها عُمان، وموضع بلادهم اليوم رمالٌ قاحلة، وهي مُطِلَّةٌ على البَحْرِ يقال لها: «الشّحْر» واسْمُ واديهم «مغيث».

وباقي تدبّر هذه الآية مشابه لتدبّر الآية السابقة (١٠٥) بشأن قوم نوح فلا حاجة للتكرار هنا.

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾:

وقرأ يعقوب: **[وأطِيعُوني]** بإثبات ياء المتكلم.

هذا البيان عن قول هودٍ عليه السّلام لقومه عادٍ في دعوته مطابقٌ تماماً للبيان الذي سَبَق عن قول نوحٍ لقومه في دعوته لهم، فالتدبُّر الذي سَبَق للآيات من (١٠٥ ـ ١٠٩) المتعلّقة بقصة نوح وقومه يُلاحَظ كلُّهُ هُنا، إلّا اسم الرَّسُول، فهُنَاك «نوح» عليه السّلام، وهنا «هود» عليه السّلام.

وهذا مِنْ شواهِدِ وَحْدَةِ رسالَاتِ اللّهِ لعِبَادِهِ، ولو تَعَدَّدَ المُرْسَلُون في الأمم.

﴿هُودٌ﴾: نبيٌّ من أنبياء الله ورسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ، بعَثَهُ إلى عاد، القوم الذين سبق التعريفُ بهم آنفاً، وهو منهم نسباً، يَصُلُ نَسَبُه إلى سام بنِ نوح عليه السَّلام، وهو منهم موطناً ولغة.

وجاء في تفصيل نَسَبه ثلاثَةُ أقوال، لم أرَ داعياً إلى ذكرها هُنا.

قول الله عزّ وجلّ في حكايَةِ بَعْضِ ما قالَهُ لقومه:

● ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾:

﴿أَتَبْنُونَ﴾؟!: استِفْهَامٌ فيه معنَى الإنكار عليهم، لاتِّهَامِهِ إيَّاهُمْ بالعَبَث في قوله لهم: ﴿تَعْبَثُونَ﴾.

﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾: أي: بكلّ طريق. **الرِّيعُ**: السبيل، سُلِكَ أم لم يُسْلَك ـ الطَّريق المنفرج بَيْنَ الجبَل ـ الطريق عامّة. والظاهر أنّ لفظ «كلّ» لإفادة الكثرة لا الاستغراق.

﴿آيَةً تَعْبَثُونَ﴾: أي: أتبْنُونَ علامَةً مُرْتَفِعَةً بكُلِّ طريقٍ لَا مَصْلَحَةَ لكم

فيها، ولا نفعَ فيها، والاشتغالُ ببنائها وإنفاقُ الأموال فيها عَبَثٌ لا فائدة فيه، وهذا يدلُّ على أنهم كانوا أهل بناءٍ حضاري، وكانوا يتفاخرون ببناء الآياتِ المُرْتَفِعَات، كالتماثيل الّتي يَصْنَعُها بَعْضُ الملوك والرؤساء لأنفُسِهم، ويَنْصِبُونها في مواضِع بارزة من الطُّرُق والميادين، لِيَشْهَدَها الغادون والرائحون، وكالمِسَلَّاتِ الّتي كان قُدَماء المصريّين يَنْصِبُونَها، للتفاخُرِ بِسُلْطانهم، وعظَمَةِ مُلْكِهم.

إنّها لو كانت أبْنِيةً حَضارِيَّةً نافِعَةً، لمَا لَامَهُمْ رَسُولُهم هودٌ عليه السَّلامُ عليها، بل هي أبْنِيَةٌ يَبْنُونَها لمجرَّدِ التفاخُرِ والتعاظم، فهي عَبَثٌ لَا نَفْعَ فيه.

العَبَث: هو العَمَلُ فيما ليس لَهُ فائِدَةٌ تُرْجَىٰ مِنْه، فتضِيعُ الطَّاقَةُ المبذولَة فيه دون تَحْقيقِ مَصْلَحَةٍ تُقْصَدُ مِنْ قِبَلِ أهْلِ العقل والرُّشد.

- ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾: أرى أنّ الكلام هُنا مستأنف، أو هو معطوف على كلّ الجملة السَّابقة، وليس الاستفهام التلويمي مُسَلَّطاً على ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، لأنّ اتّخاذ المصانع الّتي اتّخذوها لَيْسَ مِنْ قبيل العبث، بل فيها مصالح للحياة الدّنيا.

أي: وأنْتُمْ تَتَّخِذُونَ مصانِعَ، ألَعَلَّكُمْ تَخْلُدُون.

المصانع: جمع مفردُهُ «المَصْنَعَة» و«المَصْنَع» وهي كلُّ ما يُصْنَعُ من أبنيَةٍ، وقُصُورٍ، وحُصُونٍ، وأحواضِ مياه، ونحوها.

قال الأصْمَعِيّ: العَرَبُ تُسَمّي القُرَى (أي: كُلُّ مُجَمَّعٍ سَكَني) مصانِعَ، واحِدَتُهَا مَصْنَعَةٌ.

فالمعنى: وأنْتُمْ قدْ أنْعَمَ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ عليكم نِعَماً وَفِيرَةً، من مظاهِرِها أنَّكُمْ تَبْنُونَ مُدُناً وقُرًى وقُصُوراً وحُصُوناً وأحواضَ مياهٍ، وهٰذه أنْسَتْكُمْ المَوْتَ والدارَ الآخِرَةَ بَعْدَ البَعْثِ، فتَرَكْتُمُ العَمَلَ فيما يَقِيكُمْ عذاب

اللَّهِ يومَ الدِّين، من إيمانٍ صحيح، وطاعةٍ للَّهِ فيما يأمُرُكم بِهِ وفيما يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، وقد كانَ الواجِبُ عليكم أنْ تَشْكُرُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالإيمان الصحيح الصادق، وبالإسلام له والعمل بمراضيه، لَا أن تَسْتَخْدِمُوا نِعَمَ اللَّهِ عليكم في معصِيَته.

وعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أكَّدَتْ فِكْرَةَ زيادَةِ نِعَم اللَّهِ عليهم الّتي جَعَلَتْهُمْ يُبَالِغُونَ في إنشاء المُنْشَآتِ الحضاريّة الّتي تَفوَّقُوا فيها على الأقوام من حولهم، حتَّىٰ صاروا يَبْنُونَ المبانِيَ العَبَثِيَّةِ للتَّفَاخُرِ، غُلُوّاً في الدَّلَالَةِ على أَنَّهُمْ أغْنِياءُ مُتْرَفُون، وتَدُلُّ مظاهِرُهُم على أَنَّهُمْ نَسُوا الموتَ، وتَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ خَالِدون، فجاءت عبارة هودٍ عليه السَّلام لهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ بمثابَةِ قوله: أَلَعَلَّكُمْ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّكُم تَخْلُدُونَ في هذه الحياة الدُّنيا، الّتي تُبَالِغُونَ في اتِّخاذ مَا يُتْرِفُكُمْ فيها ناسِينَ المَوْتَ، والبَعْثَ، ويَوْمَ الدِّين.

كلمة «لَعَلَّ» تَدُلُّ على معنىٰ التوقُّع، وسِيقَتْ هُنا مَسَاقَ الشيءِ المُسْتَفْهَمِ عنه، أي: أتَتَوَقَّعُونَ أَنَّكُمْ تَخْلُدُونَ، مَعَ أنَّ الموت يَقِينٌ لَا يَنْزِلُ عن مستوىٰ اليَقِين، وهذا التوقّع أنْسَاكُمُ العَمَلَ للآخرة.

- ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾: هٰذِهِ العبارة من هود عليه السَّلام سَاقَهَا مَسَاقَ عِبارَتِهِ قَبْلَها.

أي: وقَدْ أنْعَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عليكم بالقُوَّة المُتَفَوِّقَةِ على قُوَىٰ كلِّ الأقوامِ مِنْ حَوْلِكُمْ، حتَّىٰ صِرْتُم بِامْتِلَاكِكُمْ لِلْقُوَىٰ الّتي سَبَقْتُمْ بها مَنْ حَوْلَكُمْ جَبَّارِينَ في الأرض، فإذَا بَطَشْتُمْ بأعْدَائِكُمْ أوْ بِخُصُومِكُمْ بَطَشْتُمْ حَالَةَ كَوْنِكُمْ جَبَّارين ظالِمين طُغاةً بُغَاةً بغير حقٍّ.

﴿بَطَشْتُم﴾: **البَطْش**: «التناولُ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَة ـ الأخْذُ الشَّدِيدُ في كلّ شيءٍ ـ الأخْذُ القَوِيُّ الشَّدِيد ـ السَّطْوُ في سُرْعَةٍ». تَقُولُ لُغَةً: «بَطَشَ، يَبْطُشُ، ويَبْطِشُ، بَطْشاً».

﴿جَبَّارِينَ﴾: جمع مفرده «جَبَّار»، ويُطْلَقُ على: «مَنْ يُكْرِهُ النَّاسَ بالقُوَّةِ والعُنْفِ على ما يُريدُ بغَيْرِ حقٍّ ـ وعلى المُكْرِه المُجْبِرِ بِسُلْطانِهِ ـ وعلى المتكبر، والعَاتِي، والمُتَسَلِّطِ بالقُوَّة».

المعنى: وقَدْ كان الواجب عليكم إذْ أنْعَمَ اللَّهُ عليكُمْ بالقُوَّة السَّابِقَةِ المتفوّقه، أن تقيموا الحقّ والعَدْلَ، لا أنْ تكونوا مُسْتَكْبِرِينَ عُتَاةً تَتَسَلَّطُونَ على الناس بالقُوَّة، وتُكْرِهُونَ الناسَ على ما تُرِيدُونَ بغَيْرِ حقٍّ، وتَبْطِشُونَ جبَّارِين.

• ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾: أي: فاتَّقُوا عقابَ اللَّهِ رَبّي وربّكُمْ وربِّ العالَمِين جميعاً، بعَدَمِ استخدام ما أنْعَمَ به عَلَيْكُمْ ممَّا أُتْرِفْتُمْ فيه، ومِنْ قُوىً مُتَفَوِّقَةٍ سابِقَةٍ لِقُوَى مَنْ حَوْلكُمْ مِنَ الأُمَمِ، في معصِيَتِهِ وفي ظلم عِبَادِ اللَّه، والعتوّ والطغيان في الأرض، وأطيعُوني فيما أُوصِيكُمْ به، وفيما أنْهَاكُمْ عَنْهُ، بَلاغاً عن رَبّكُمْ، فإنَّ في اتِّخاذِكُمْ ما تَقُونَ به عذابَ رَبّكُمْ، وفي طاعَتِي الّتي يأمُرُكُمْ بها رَبّكُمْ، سعادةً لكُمْ، ونجاةً مِنْ عذابِهِ، وفَوْزاً عظيماً.

وقد جاءت هذه العبارةُ ملائمةً ملأَمَةً تامَّة لِلْفِهْمِ الذي فتح اللَّهُ به للآيَتَيْنِ السَّابقَتَيْنِ (١٢٩ ـ ١٣٠).

وقالَ لَهُمْ أيضاً كما حكىٰ اللَّهُ عزّ وجلَّ عنه بقوله:

• ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾:

[وعِيُونٍ] في القراءة الأخرى.

أي: إذَا كُنتُم تَتَوَهَّمُونَ أنَّ ما اتَّخذْتُمُوهُ مِنْ مُدُنٍ، وقُرَى، وقُصُورٍ، وحُصُونٍ، وأحْوَاضِ مياهٍ، وغَيْرِ ذلكِ ممَّا تفتخرون بأنَّه من صُنْعِكُمْ، ومِنْهُ تَفَوُّقُكُمْ بالقُوىٰ الحربيَّةِ على مَنْ حَوْلَكُمْ، وتَجْهَلُونَ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ هُو

الّذِي أمَدَّكُمْ بكلِّ ذٰلِكَ، لِيَبْلُوكُمْ ويَمْتَحِنَكُمْ فيما آتاكم، فٱنْظُرُوا إلَىٰ مَا أَمَدَّكُمْ به ممَّا تَعْلَمُونَ يَقِيناً أنَّهُ مِنْ عَطَاءِ رَبّكُمْ لَكُمْ، فَقَدْ أمَدَّكُم بأنْعَامٍ، وأنْتُمْ تَعْلَمُون وتُؤْمِنُونَ بأنّه من عطاء الله لكم، وأمَدَّكُم بِبَنِين، وأنتم تَعْلَمُون أيضاً وتُؤْمِنُونَ موقنين بأنه من عطاء الله لكم، وأمَدَّكُمْ بجنَّاتٍ وعُيُونٍ، وأنْتُمْ تُؤْمِنُونَ موقِنِينَ بأنَّه من عطاء الله لكم، فلا تقابلوا نِعَمَ اللَّه عليكم الّتي أمَدَّكُمْ بها، وجَعَلَهَا وافِرَةً كثيرةً عِنْدَكم، بالكُفْرِ والجحود والعِصْيان.

- ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وأنْتُم قَوْمِي وعَشِيرَتي، مُقامُنَا واحد، وجدُّنا واحد، ولُغَتُنَا واحِدة ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو يَوْم الدّين، يومُ الجزاء الأكْبَر، الذي تُبْعَثُ فيه الخلائِقُ للحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاءِ، مع ما قَدْ يُعَجّلُ اللَّهُ لهم من عقابٍ، إذا كان هذا البيان صادراً بَعْدَ أن أنذرهم هودٌ عَلَيْه السّلام بالعقاب المعجَّل المصحوب بإهلاكٍ شاملٍ، باستثناء الّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

قول اللَّه عزّ وجلّ يَحْكِي رَدَّ كُفَّارِ قَوْمِهِ على مَوْعِظَتِهِ لهم

- ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾

﴿سَوَآءٌ﴾: هٰذه بمعنىٰ التّسْوِيَة، وتأتي بَعْدَها هَمْزَةُ التّسْوِية، الّتي يُؤَوَّل مَا بَعْدَها بمَصْدَر، والتقديرُ هنا، وَعْظُكَ وعَدَمُهُ سَواءٌ عَلَيْنَا. وبَعْدَ هَمْزَةِ التَّسوية تأتي «أمْ» كما في الآية.

﴿أَوَعَظۡتَ﴾: **الوَعْظ**: النُّصحُ بالفِعْلِ أو بالتَّرْكِ، المقرونُ بما يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أو الرَّهْبَةَ في النفس، للانتفاع بالنّصْحِ، واتّباع ما هدىٰ إليه فِعْلاً أوْ تَرْكاً.

قال ابْنُ سِيدَه: الوعظ تَذْكِيرُكَ للإنسان بما يُلَيّن قَلْبَهُ من ثواب وعقاب.

والموعظة: ما يكُونُ به الوَعْظ مِنْ قَوْلٍ أو فِعْلٍ.

والمعنى: لَنْ تُؤَثِّرَ عَلَيْنا يا هُودُ بوَعْظِكَ، فكُفَّ عنه، ويَدُلُّ هذا على أنَّه عليه السَّلام قَدْ أكْثَرَ مِنْ وَعْظِهِ لَهُمْ، وتَخْويفهم مِنْ عذابِ ربِّهم، إذا اسْتَمَرُّوا على ما هم فيه من كُفْرٍ وعنادٍ وإصرارٍ على الْتِزَامِ الباطل، واتّباعِهِمْ أهْوَاءَهُمْ وشهواتِهِم في مَعْصِية اللَّه عزّ وجلّ.

قول اللَّه عزّ وجلّ:

- ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وفي القراءة الأخرى [**خَلْقُ**] بفَتْحِ الخَاءِ وإسْكَانِ اللّام ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾:

بين القراءتَيْنِ: [**خُلُقُ**] و[**خَلْقُ**] تكَامُلٌ في أداء المعنى المراد، الظاهر أنّ قَوْمَ هود عليه السَّلام قالُوا لَهُ مقالتين:

المقالة الأولى: قالوا لَهُ فيها: إنَّ ما نَحْنُ فيه هو عادَةُ الأوَّلِينَ من آبائِنَا وأجدادنا، ونَحْنُ على آثارِهِمْ مُقْتَدُون، ولَمْ يُهْلِكِ اللَّهُ آباءَنا، ولَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ ما تُنْذِرُنا بِهِ.

اسْتُعْمِلَ لفظ «الخُلُق» بمعنىٰ العادَةِ المُتَمَكِّنَة، إذ العادة المتأصِّلَةُ بمثابَةِ الخُلقِ الفِطْرِيّ، يكونُ لَهَا سُلْطَانٌ على سُلُوكِ الإنْسَان.

المقالَة الثانية: اتَّهَمُوهُ فيها بأنَّهُ يَفْتَرِي على اللَّهِ بما يُبَلِّغُ مِنْ دِينٍ، وبما يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ عذابِ رَبِّ العالَمِين، وهذه المقالة دَلَّتْ عليها كَلِمَةُ [**خَلْق**] بمعنىٰ افتراءِ الكذِبِ واخْتِلَاقِهِ، أي: ما هذا الذي تُحَدِّثُنَا به إلَّا افتراءٌ وكَذِبٌ من نوع افتراءِ مَنْ سَبَقَكَ من الأوّلِين الّذِين زَعَمُوا أنَّهُمْ مُرْسَلُونَ مِنْ قِبَلِ رَبِّ العالَمِين، وهذا الفَهْمُ يَزِيدُ في تَرْجيح أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ أَرْسَلَ لعادٍ رُسُلاً قَبْلَ أنْ يُرْسِلَ إليهم هوداً عليه السّلام، وبه يكُونُ قَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ مَحْمُولاً على ظاهِرِهِ بلا تأويل.

ويؤكِّدُ هَاتَيْنِ المقالَتَيْنِ قولُ قومِ هُودٍ عليه السَّلَامُ له: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾، أي: لَمْ يُعَذَّبْ آباؤنا مِنْ قَبْلِنَا حتَّىٰ نُعَذَّبَ نَحْنُ، وهذا مَحْمُولٌ على العذاب المعجَّلِ في الحياةِ الدُّنيا، وإذْ نَرَى أنَّ ما تَقُولُهُ لَنَا اخْتِلَاقٌ وكَذِبٌ، فما نَحْنُ بمُعَذَّبِينَ بالعَذَابِ الَّذِي تُنْذِرُنَا به معجَّلاً كان أم مؤجّلاً.

قول اللّه عزّ وجلّ:

- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾: أي: فكانَ آخِرُ أمرِهم أنْ كذَّبُوهُ بلا احتمال رَجْعَةٍ عن قرارهم فأهلكناهُمْ(١).

وفي ختام هذا الفصل المتعلّق بهُودٍ عليه السَّلامُ وقَوْمِهِ، جاءت في السُّورَةِ الآيَتَان اللَّتَانِ جَعَلَهُمَا اللّه عزّ وجلّ بمثابَةِ فاصِلٍ يُكَرَّرُ في نهايَةِ كلّ مَجْمُوعَةٍ من اللَّقَطَاتِ المختارات في السورة، من قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامِهِمْ، وجاءت الآيَةُ الأولىٰ مِنْهُمَا هنا بَعْضَ آية، فقال الله عزّ وجلّ:

- ﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

وقد سبَقَ تدبُّرُ هذا البيان، فلا حاجَةَ إلى التكرار، ولا شكَّ أن قِصَّةَ هُودٍ عليه السّلام وقومه قد اشتملت على آيَةٍ عظيمةٍ ذاتِ عِبَرٍ وعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، ومع تلك العِبَر والعِظات فإنَّ أكثر المعنيّين بالمعالجة في السورة وهُمْ كُبَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيْش، قد وصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوس منها، فهم غير منتظرٍ منهم أنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً عن طريق إراداتهم الحرَّة، مَهْما أُمْهِلُوا وعُولِجُوا.

* * *

---

(١) وقد جاء تفصيل إهلاكهم في نصوص أخرىٰ، يأتي إن شاء اللّه تدبُّرُها في دراسة تكامليّة.

الفَصْل الخامس

لقطات تتعلَّقُ بقصة صالِحِ عليه السّلام وقومه ثمود

وهي الآيات منَ (١٤١ ـ ١٥٩)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ
(١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩)
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ
(١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ
(١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩)﴾:

تمهيد:

جاء في القرآن المجيد (٢١) نصّاً عرضَتْ لقطات من قصة ثمود قوم الرسول صالح عليه السّلام، موزعات في (٢١) سورة، وقد سبق أن تدبّرنا منها ما جاء في (٩) سور، هي (الفجر ـ النجم ـ الشمس ـ البروج ـ قَ ـ القمر ـ صَ ـ الأعراف ـ الفرقان)، وجاء الحديث عنهم موسّعاً في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

وأسأل اللَّهُ عزّ وجلّ أن يُمِدَّني بمعُونَتِهِ وفَتْحِهِ، حتى أتدبّر كلّ النصوص المتعلقة بهم تدبّراً تكامليّاً، في ملحق من ملحقات السور التي فيها الحديث عَنْهُم، ممّا لَمْ أتَدَبَّرْهُ بَعْدُ.

التدبّر التحليلي:

قول اللّه عزّ وجلّ:

- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

جاء في عرض اللّقطات من قِصَّة نوحٍ عليه السّلام وقومه في الآيات (١٠٥ ـ ١٠٩) وفي عَرْض اللّقطات من قِصَّة هود عليه السلام وقومه في الآيات من (١٢٣ ـ ١٢٧)، نظير هذه الآيات الواردات في اللّقطات المختارات لسورة (الشعراء) من قصّة صالح عليه السّلام وقومه، وبما أنّها متطابقة تَطابُقاً تامّاً، دالاًّ على وَحْدَةِ الرِّسَالاَتِ الرَّبَّانِيَّةِ في أصولها للناس، فإنّي أكْتَفِي بما سَبَقَ تَدَبُّره للآيات المُتَعَلِّقاتِ بقصّة نوح عليه السَّلام وقَوْمِهِ، فالآياتُ هُنَا مطابقَةٌ للآياتِ هُنَاك، وتَدَبُّرها مُطابقٌ لما سبَقَ بيانُهُ، ولا حَاجَةَ للإعَادةِ، لأنَّها ذاتُ سِباقٍ وسِيَاقٍ واحِدٍ، والمُحَالُ عَلَيْهِ قَرِيب.

قول اللّه عزّ وجلّ في حكايَةِ قَوْلٍ من أقْوَالِ صالحٍ عليه السّلام، في دَعْوَتِهِ لقومه إلى دِينِ اللّهِ الحقّ الّذي جاءَهُمْ به:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

الظاهر من هذه المقالات أنّها من أوَاسِطِ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ، ولَيْسَتْ مِنْ أوائلها.

القراءات:

جاء في هذه الآيات قراءتان في [عُيُونٍ] وفي [فَارِهِينَ] إحداهما كما جاء في المصحف، والأخرى كما يلي:

- فقرأ ابن كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشعبة، وحَمْزَة، والكسائي: [وَعِيُونِ] بكسر العين، والقراءتان لغتان عربيّتان.

- وقرأ نافع، وابْنُ كثيرٍ، وأبُو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر، ويَعْقُوب [فَرِهِينَ] جمع «فَرِه».

فَارِهِينَ: جمع «فَارِه» اسم فاعل من فعل «فَرُهَ، يَفْرُهُ، فَراهَةً، وفُرُوهَةً»، أي: جَمُل وحَسُنَ، وخَفَّ ونَشِطَ، وحَذِقَ ومَهَر.

فَرِهِينَ: جَمْعُ «فَرِهٍ» صفة مشبّهة باسم الفاعل من فعل «فَرِهَ، يَفْرَهُ، فَرَهاً، فهو فَرِه»، أي: بَطِرَ وأشِرَ واسْتَكْبَرَ بما يَمْتَلِكُ من وسائل رفاهية.

فبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد بيانه، إذ كانوا ذوي خفَّةٍ ونَشَاطٍ، وحِذْقٍ ومَهَارَة، ونَضَارة وحُسْنٍ، بَسَبَبِ ما يَسْتَمْتِعُونَ به من نِعَم وافِرة، وأرْزَاقٍ فاخِرَة، وكانوا مُسْتَكْبِرِينَ بَطِرِينَ أشِرِينَ، يَجْحَدُون الحقّ ويَتَّبِعُونَ الهوى، ويَسْتَكْبِرُونَ على عباد الله.

التدبّر التحليلي:

جاء في هذه الآيات بيَانُ خَمْسِ مقالَاتٍ وجَّهَها صالح عليه السَّلام لقومه ثمود.

المقالة الأولى: دلَّ عليها قَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾:

بدأت هذه المقالة باستفهامٍ تَحْذِيريّ مِنْ مَغَبَّةِ إصرارهم علىٰ الكفر، وما هم فيه من سيّئاتٍ، مشيراً به إلى أنّ اللَّه العزيز الجبَّار لَنْ يَتْرُكهم آمِنِينَ يَسْتَمْتِعُونَ بما أنْعَمَ عليهم من جنَّاتٍ وعُيونٍ وزُرُوعٍ ونَخْلٍ هي من خَيْرِ أشجارِهِمْ، ذاتِ طَلْعٍ فاخرٍ.

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾؟: اسْتِفَامٌ تَحْذِيريٌّ، يُثِيرُ به في نفوسهم وقلوبهم الخوف

من عقاب اللَّه المعجَّل لهم على كُفْرِهِمْ وقبائح أعْمَالِهِمْ، ومعاصيهم لبارئهم، وهٰذه أمورٌ تَسْتَدْعِي بحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، أنْ يَسْلُبَهُمْ اللَّهُ ما هم فيه من نِعَمٍ وافِرَة، باطِنَةٍ وظاهرةٍ.

فمن النِّعَم الّتي كانوا يَسْتَمْتِعُونَ بها نِعْمَةُ «الأَمْن» دَلَّ عليها قولُهُ لهم: ﴿ءَامِنِينَ﴾، أي: أيَتْرُكُ لكُمْ ربّكُمْ نِعْمَةَ الأمْنِ، وأنْتُمْ تَكْفُرُونَ به، وتَعْبُدُونَ من دُونِهِ شركاء، وتَعْصُونَهُ بالظُّلْم والعُدْوَانِ، والبَغْيِ والفُجُورِ في الأرْض. ومن سُنَّتِهِ في عباده أنْ يُنْزِلَ عُقُوبَتَهُ ويَسْلُبَ نِعَمَهُ عَنِ الّذِينَ تَصِلُ خطايَاهم إلى مِثْلِ الحال الّتي وصَلْتُمْ إلَيْهَا.

ومِنَ النِّعَم الّتي كانوا يَسْتَمْتِعُونَ بها نِعْمَةُ الجنَّاتِ، وهي الحدائق المكتظَّة بالأشجار، ذواتِ الظلِّ والثمار.

ومِنَ النِّعَم الّتي كانوا يَسْتَمْتِعُونَ بها نِعْمَةُ العُيُونِ الّتي كان اللَّه عزّ وجلّ يُفَجِّرُها لهم، فَيَشْرَبُونَ منها ماءً حسناً، ويَسْقُون منها أنْعَامَهُمْ وزُرُوعَهُمْ.

ومن النّعم التي كانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بها نِعْمَةُ الزُّرُوعِ المُخْتَلِفَةِ لَهُمْ ولأنْعَامِهِمْ ودَوَابِّهِم، إذْ يُنْبِتُهَا لهم، ويَحْمِيها لهم من الآفاتِ والجوائح، ولَوْلَا حفْظُ اللَّهِ العليمِ الحكيمِ الرَّحيم لها، لتَعَرَّضَتْ للآفاتِ والجوائح المتلفة والمُدَمِّرَة لها.

وخصَّ عليه السَّلام بالذكر نِعْمَةَ أشجار النَّخْلِ ذواتِ الطَّلْعِ الهَضِيم، لأنَّ أشجار النَّخِيلِ أكْرَمُ الأشجار وأنْفَسُهَا عِنْدَ سكان شبه الجزيرة العربيَّة منذُ ما بَعْدَ عَصْرِ نوحٍ عليه السَّلام.

﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: أي: ثَمرُهَا نَاعِمٌ لَطِيفٌ لَيِّنٌ مَرِيء. **أقول**: وهو أيضاً سَهْلُ الهَضْم في الجوف، لأنّ «هَضِيماً» بمعنىٰ مَهْضُوم، والطّعام المهضوم هو الّذي يَسْهُلُ في المَعِدَةِ تَفْتِيتُهُ، ويَسْهُلُ في الأمعاء امْتِصاصُ عناصره النافعة، وانْحِدَارُ فضَلَاتِهِ.

والأصْلُ في لفظة (الطَّلْع) أنّها غلاف يشبه الكوز، ينفتح عَنْ حبٍّ منضود، فيه مادّة إخصاب النخلَة. ثم أُطْلِقَ على كلّ ما يَطْلُعُ في الشجر من ثمرٍ توسُّعاً.

والتوسُّعُ في دلالَاتِ الكلماتِ العربيّة له نظائر كثيرَة في اللّسَان العربي.

المقالة الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، وفي القراءة الأخرى: [فَرِهِينَ].

وقد سبَقَ قريباً تحليلُ معنى [فَارِهِين] و[فَرِهِينَ] وأنَّهُمَا قراءتان متكامِلَتان في الدَّلَالَةِ على المعنىٰ، فدلّت قراءة «فَارِهِين» علىٰ أنَّهم حاذقون ومَهَرَة، وعلى أنَّهُمْ مُسْتَمْتِعُونَ بنِعَمٍ وافِرَة فَهُمْ بها نَضِرُون تَظْهَرُ عليهم آثار الرفاهية، ودلَّتْ قراءة «فَرِهِين» على أنَّهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ أشِرُون بَطِرُون طاغُون.

وكانت لهم في مدائنهم في الحجْر أعْمالُ عُمْرَانِيّة ما زالَتْ بَعْضَ آثارِهَا ظاهِرَةً في جبال واديهم، فكانوا يَقْطَعُونَ الصَّخر، ويَنْحِتُونَهُ، ويَبْنُونَ به مساكِنَ لَهُمْ تَصْمُدُ طَوِيلاً تُجاه عوارِضِ الأيام، بَيْنَمَا كانت مَسَاكِنُ أهل القُرَىٰ مِنْ حَوْلِهِمْ من اللَّبِنِ والطّين، وهِيَ لا تَصْمُد للأحداث كما تَصْمُدُ الصُّخُور، وكانُوا يَنْقُبُونَ الجبال فيَتَّخِذُونَ لهم داخِلَها بيوتاً، ومدافِنَ لعظمائهم.

وكانت مهاراتهم العمرانيَّةُ ذات هدفين:

الهدف الأول: الترف، بما يَصْنَعُونَ لأنفسهم من مُتْرِفات.

الهدف الثاني: الاستكبارُ وحُبُّ العلُوّ في الأرض.

فقال لهُمْ صالح عليه السَّلام نبيُّهم ورسُولُهُمُ الّذي هو منهم نَسَباً،

ولغة، ومَوْطناً، مُحَذّراً لَهُمْ مِنْ عقاب اللّهِ، ومحذّراً لهم مِنْ بأس اللّهِ ونِقْمَتِهِ، أتَتْرُكُونَ أيضاً فيما هٰهُنَا تَنْحِتُونَ من الجبال بيوتاً فارهين؟!.

أي: احْذَرُوا فإنّ رَبّكم سيُنْزِلُ بكُمْ نِقْمَتَهُ وبأسَه ويَسْلُبُكُمْ نِعَمَهُ، إذا لم تُؤْمِنُوا إيماناً صحيحاً صادقاً وتُسْلِمُوا له وتُطِيعُوا.

المقالة الثالثة: دلَّ عليها قولُ اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: فاتّقُوا عِقَابَ اللّهِ وعذابَهُ، واتّقوا أن يَسْلُبَكُمْ رَبّكُم ما يُنْعِمُ به عَلَيْكُمْ.

جاء الأمر بتقوى اللّه في هذه المقالة الثانية، مرتّباً ومُتَفرّعاً على الاستفهام التحذيري من عقاب الله ونقمته الّذي جاء في المقالَةِ الأولى، فالفاء للترتيب مع التفريع.

وقد سبَقَ عدَّة مرَّاتٍ شَرْحُ معنىٰ «التقوىٰ» وخُلاصَتُه أنْ يَجْعَلَ المتَّقِي بَيْنَهُ وبَيْنَ ما يُؤْذِيهِ، أو يَضُرُّهُ، أو يُؤْلِمُهُ، أو يُحْزِنُهُ، وِقَايَةً تَحْفَظُهُ وتَحْمِيه، وتَقْوَىٰ اللّه تكون بصِدْقِ الإيمانِ به، والإسلامِ له، والعَمَلِ بمراضِيه فيما أمَرَ به أو نَهَىٰ عنه.

المقالة الرابعة: دلَّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، أي: وأطيعُوني فيما أوصيكُمْ به، وفيما أنْهَاكُمْ عنهُ بَلاغاً عن اللّه ربّي وربّكم وربِّ العالمين، فطاعَتُكُمْ لي هي من طاعتكم للّهِ ربّكُمْ، لأنّ اللّه عزّ وجلّ يأمُرُكُمْ بطاعَةِ رسُولِهِ المؤيّدِ مِنْ قِبَلِهِ بما يُثْبِتُ صحَّةَ نُبُوَّتِهِ، وصِدْقَهُ في أنَّه رَسُولُ رَبّكُمْ إليكم.

المقالة الخامسة: دلَّ عليها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾:

المُسْرِف: هو مَنْ يَتَجَاوَزُ حَدَّ الحِكْمَةِ والحقّ في تَصَرُّفاتِهِ، ويتجاوز ما يقتضيه العقلُ الرّاجِحُ. يقال لغة: «أسْرَفَ، يُسْرِفُ، إسْرافاً»، أي: جاوز حَدَّ الحقّ والحِكْمَةِ وما يَقْتَضِيه العَقْلُ الرّاجح. وجَهِلَ، وغَفَلَ.

ومِنْ شَأْنِ المُسْرِفِ أنْ يَفْعَلَ الشُّرُور، ويرتكِبَ الحماقات، ويَقْتُلَ بغَيْرِ حقٍّ، ويَلْتَزِمَ الباطل، ويكُونَ كَفُوراً جَحُوداً، ولا سيما إذا كانَتْ له مكانَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ ذاتُ وَزْنٍ، أوْ لَهُ قُوَّةٌ مَرْهوبَةٌ، أو كانَ ذا ثَرَاءٍ ماليٍّ واسِعٍ، أو كان ذا حُظْوَةٍ عِنْدَ ذَوي السُّلْطان.

وكان الكبراءُ المُسْرِفُونَ في ثَمُودٍ مَعْرُوفِينَ بتَصَرُّفاتِهِم الآثِمَة الظَّالِمَةِ الطَّاغِيَةِ الباغِيَةِ، وكانُوا يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ لتَقْوِيَةِ سُلْطانِهِم، وتَحْقِيقِ مصالحهم الخاصَّة، وزيادَة ما يَمْتَلِكُونَ من ثَرواتٍ، ويَضَعُونَ الشعاراتِ والأنظمة الّتي يوهمون بها أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ، وهُمْ في الحقيقة يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ولَا يُصْلِحُونَ.

وهٰذا هُو شأن المُسْرِفين الطُّغاةِ في كلِّ أُمَّةٍ، وفي كُلِّ عَصْرٍ، يُنَافِقُونَ الشُّعُوبَ بظَواهِر إصْلاحيَّةٍ خادِعَةٍ، وهم في الحَقِيقَة يُفْسِدُون، مُطَبِّقِين مبادئَ شيطانيَّة، وسَالِكِينَ مسالِكَ إبْلِيسيَّة، ويَجْعَلُونَ أَنْفُسَهُمْ آلِهَةً تُعْبَدُ مِن دُونِ اللَّه، فيَضَعُونَ القوانينَ المُفْسِدَة الضَّارَّة، الّتي تخدُم مصالحهم، وتُمَكِّنُ سُلْطَانَهم في الأرض، وتحقِّقُ لَهُمْ أهْوَاءَهُمْ وشهواتهم، وتُرْضِي إمامَهُمُ الأكْبَرَ إبليس عليه اللَّعْنَةُ إلى يوم الدِّين، حتَّى يكون هو وجنوده في قاع الجحيم.

الفَسَادُ: ضِدُّ الصَّلاح. **والإفْسَادُ**: تحويلُ الصَّالِحِ مِنْ كَوْنِهِ نافعاً مفيداً، إلى كَوْنِهِ ضارّاً أو مُؤْذِياً، ويأتي بمعنىٰ إتلاف الصَّالح، كإحراق الأشجار النَّافِعَة، وهَدْمِ المباني المفيدة، وقَتْلِ العُلَماء، وإثارة الرَّعاعِ الجَهلَةِ الحَمْقَىٰ على الحُكَماءِ، وسَجْنِ وَتَعْذِيبِ الأبْرِياء.

وبهٰذه المقالَة نهىٰ صالحٌ عليه السَّلام عامَّةَ ثَمُودٍ، عَنْ طاعَةِ كُبَرَائِهِمْ ذوي السُّلْطانِ فيهم، المُسْرِفينَ الذين يُفْسِدُونَ في الأرضِ، ويُوهِمُونَ بشِعَارَاتِهِمْ الكاذِبَاتِ المزيَّنَاتِ بزُخْرُفِ القول، أنَّهُمْ يُصْلِحُونَ.

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ يَحْكِي بَعْضَ أقْوَالِ كُبَرَاءِ ثَمُودَ في رَدِّهِمْ دَعْوَةَ رَسُولهم صالحٍ عليه السَّلام إلى دِينِ اللَّهِ الحقّ:

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: عبارةٌ فيها قَصْرٌ بأداة «إنَّما» أي: ما أنت إلّا مِنَ المُسَحَّرين، وهو قصر إضافي، أي: ليس لك من الصّفات بالنسبة إلى ادّعائك الرسالة إلّا أنك مُسَحَّر.

«المُسَحّرُ»: الَّذي سُحِرَ مَرَّةً فمرَّة حتَّىٰ فَسَدَ عَقْلُهُ ومَسَّهُ الخبَلُ. يُقالُ لُغَةً: «سَحَّرَ السَّاحِرُ فلاناً»، أي: سَحَرَهُ مَرَّةً فَمَرَّةً حتَّى تَخَبَّلَ عقْلُهُ، وضاعَ رُشْدُه.

فاتَّهَم كُبراءُ ثمودٍ رَسُولهم صالحاً عليهم السلام بأنّه مُسَحَّرٌ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ مَسْحُور، أي: إنّ السِّحْرَ الّذي سُلِّط عَلَيْهِ جعَلَهُ مُخْتَلَّ العقل مخبَّلاً، لا يُقَدِّرُ خُطُورَةَ ما يَقُولُ بِشَأْنِ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ، وواجَهُوهُ بهذا الاتّهام، ولم يَقُولُوهُ في غَيْبَتِهِ.

وتَعَلَّلُوا لرَفْضِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ بأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، مُوهِمِينَ بأنّ كَوْنَهُ بَشراً يُنَافِي كَوْنَهُ نَبيّاً ورَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ قِبَلِ ربِّ العالَمِين، فقالوا له: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، أي: لَيْسَ لكَ مِنَ الصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الخارجَةِ عن نِظَامِ البَشَرِ، كعَدَم حاجَتِكَ إلى الطعام والشّراب، وعَدَم حاجَتِكَ إلى أنْ تَتزَوَّجَ، مَا يُؤَهِّلُكَ لأَنْ تكُونَ نَبيّاً تَتَلَقَّىٰ الوَحْيَ عن اللَّهِ رَبِّ العالَمِين، ولِأَنْ تَكُونَ رَسُولاً تَحْمِلُ رِسالَةً مِنْهُ وتُبَلِّغَنَا إيَّاهَا.

وتعلُّلُ كُفَّارِ الأُمَمِ بِبَشَرِيَّةِ أَنْبيائهم ورُسِلِهِمْ ظاهرةٌ مألُوفَةٌ، على الرُّغْمِ مِنْ فَسَادِ مَا تَعَلَّلُوا به بمقاييس العَقْلِ السَّوِيِّ، والحُجَجِ المنطقية البرهانية.

وقد سَبَقَ أنْ أوْضَحْتُ هذا في الملحق الثالث من ملاحقِ تدبّر سورة

(يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بعنوان: «بيان اعتراض الأُمَمِ على بَشَرِيَّةِ الرُّسُلِ في القرآن»(١).

وبَعْدَ أن رَفَضُوا نُبُوَّتَهُ ورِسالَتَه تَعَلُّلاً بِبَشَرِيَّتِهِ، قالُوا لَهُ على سَبِيلِ التَّحَدِّي:

- ﴿... فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾: أي: فَأْتِ بعلامَةٍ مِنَ العجائبِ الخوارِقِ المُعْجِزَة، إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في أنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ رَبِّ العالمين.

جاء في العبارة الدَّالَّة على مقالتهم استعمال كَلِمَة «إنْ» المُشْعِرَة بأنَّهُمْ يَشُكُّونَ بَلْ يَعْتَقِدُونَ بأنَّه عاجِزٌ عنْ أنْ يَأْتِي بآيَةٍ خارِقَةٍ مُعْجِزَة.

فاسْتَجَابَ رَسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام بإذْنٍ مِنْ رَبّهِ لِطَلَبِهِمُ المُعْجِزَةَ الحِسِّيَّة على ما يُحَدِّدُون.

وأشارت الدلائل الضمنيَّةُ للنُّصُوص إلى أنَّه عَرَضَ عَلَيْهِمْ ما يَخْتَارُونَ من آيَةٍ معجزة، وكانُوا مُعْجَبِين بالإبل.

فطَلَبُوا أنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ عيَّنُوهَا ناقَةً ذاتَ أوْصَافٍ عيَّنُوهَا، فقال لهم عليه السّلام: نعم. فدَعَا رَبَّه، فأخرج اللَّه لهم النّاقة من الصخرة كما طَلَبُوا، فآمَنَ بَعْضُهُمْ، وأصَرَّ أكْثَرُهُمْ على الكفر.

وأبان لهم صالحُ عليه السَّلام مسؤولياتهم وواجباتهم نحوها، وقال لهم: يكونُ لهذه الناقة يَوْمٌ تَشْرَبُ فيه الماء الذي تَشْرَبُونَ منه، والْيَوْمُ الثاني يكونُ لكم، فالماءُ قِسْمَةٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا على التَّنَاوُب.

وقال لهم: يَجِبُ عَليكم أنْ تَذَرُوهَا تأكُلُ من أرضِ اللَّه ما تشاء، وأنْ لَا تَمَسُّوهَا بسُوء، وأنْ لَا تَمَسُّوا الماء المخصَّصَ لها في يومِهَا بسُوءٍ، وإلَّا نزل بكم عذابُ يَوْمٍ عظيم.

---

(١) انظر المجلد السادس ص(٢٦٣) وما بعدها حتى الصفحة (١٨١).

وشدّدَ صالحٌ عليه السّلام في تَحْذِيرِهِمْ، وقال لهم: احْذَرُوا ناقَةَ اللَّهِ وسُقْيَاهَا، أنْ تَمَسُّوا شيئاً من ذلك بسُوءٍ، فقَدْ أخْرَجَها اللَّهُ لكُمْ كَمَا طَلَبْتُمْ، وعلى الأوصافِ الّتي حدَّدْتُمْ، ومن الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيَّنْتُمْ، فمَعْصِيَتُكُمْ بَعْدَ كلِّ هذا مَعْصِيَةُ عِنادٍ ومُكابَرَة، دُون أنْ يكونَ لكُمْ فيها شبهة عُذْرٍ ما.

والتزمَتْ ثمُودُ بالواجبات الّتي كانت صعبة عليهم، خوفاً من أنْ يُنْزِلَ اللَّه بهم عذاب يَوْمٍ عظيم.

ثُمَّ تأثَّرَتْ مصالِحُ كثيرةٌ لهم بهذا الالتزام، فعزَموا على أن يتخلَّصُوا مِنَ النَّاقَةِ بعَقْرِهَا وذَبْحِهَا، واسْتَهَانُوا بإنْذَارَاتِ رَسُولهم، فحرَّضُوا أشقاهم على قتلها، فأخَذَ سِلَاحَهُ، وتَطاوَلَ مُسْتَكْبِراً، وعقَرَ النَّاقَة.

وقد سبق في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) ذكر بقيَّةِ التفصيلات.

وجاء هنا في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) بيان موجَزٌ جدّاً عن آيَةِ النّاقَةِ، وعَقْرِ ثمودٍ لها، في قول اللَّه عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ. . .﴾:

﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾: **الشِّرْبُ**: الحظُّ من الماء. وقيل: وقْتُ الشِّرْبِ، ونَوْبَةُ الاستقاء.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾: أي: فيقْبِض عَلَيْكُمْ عذابٌ شَدِيدٌ قَبْضاً مُؤْلِماً لكُم بعُنْفٍ وشِدَّةٍ، في يَوْمٍ عَظِيمِ الأهوال، عظيم وسائِلِ التعذيب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: **العَقْرُ**: هو قَطْعُ إحْدَى قوائم البعير لِيَسْقُطَ على الأرض،

حتَّى يتمكَّنَ العاقِرُ مِنْ نَحْرِهِ. ويأتي العَقْر بمعنى ذَبْحِ الحيوان، والظاهر أنَّهُمْ عَقرُوهَا فَذَبَحُوهَا أو نَحرُوهَا.

﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾: تَدُلُّ هٰذِهِ العبارة على أنَّ عَقْرَهُمْ للناقَة قد كان قُبَيْلَ الغُرُوب، أو بَعْدَهُ. وأنَّ أمارات نزول عذاب اللَّهِ فيهم بَدَأَتْ مع صَباحِ اليوم التالي فنَدِمُوا.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾: دلَّتْ الفاء هُنا على أنَّ أخْذَ العَذَاب لَهُمْ قد كانَ عَقِبَ نَدَمِهِمْ، فلَمْ يَطُلْ الزَّمَنُ الفاصِلُ بَيْن نَدَمِهِم وأخذ العذاب لهم.

وقد جاء في نصوصٍ أخرى أنّ اللَّه قَدْ أهْلَكَهُمْ بصَيْحَةٍ مَصْحُوبَةٍ بصاعِقَةٍ طاغيَةٍ لا تُبْقِي ولَا تَذَر.

وبقيت قصَّتُهُمْ تُرْوَىٰ، ومَسَاكِنُهُمْ تَدُلُّ عَلَيْهم.

وفي خِتام هذا الفَصْلِ المتعلّق بصالح عليهِ السَّلام وقَوْمِهِ، جاءت في السُّورَةِ الآيتان اللَّتَانِ جعَلَهُمَا اللَّهُ عزَّ وجلَّ بمثابَةِ فاصِلٍ يُكَرَّرُ في نهايَةِ كلّ مَجموعَةٍ من اللّقطاتِ المختاراتِ في السُّورَةِ من قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامهم، وجاءت الآيَةُ الأُولى منهما هنا بَعْضَ آية، فقال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

وقد سبق تدبّر هذا البيان فلَا حَاجَةَ إلى التّكرار، ولا شكَّ أنَّ قصَّةَ صالح عليه السّلام وقومه، قد اشتملَتْ على آيَةٍ عظيمة، ذات عِبَرٍ وعظاتٍ جليلات، ومع تِلْكَ العِبَرِ والعظاتِ فإنَّ أكْثَرَ المعنيّينَ بالمعالجة في السُّورَة، وهم كُبَراء كُفَّارِ قُرَيْش، قد وَصَلُوا إلى حالةٍ مَيْؤُوسٍ منها، فهم غير مُنْتَظَرٍ مِنْهُمْ أنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة، مهما أُمْهِلُوا وعُولجوا.

❊ ❊ ❊

الفصل السادس

لقطاتٌ تتعلّق بقصَّةِ لُوطٍ عليه السّلام وقومه

وهي الآيات من (١٦٠ - ١٧٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ
رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)
فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٧٥)﴾:

تمهيد:

جاء ذكر «لوط» عليه السّلام وقومه في (١٥) نصّاً في القرآن المجيد، من (١٥) سورة، وجاء في معظمها ذكر لقطاتٍ من قِصَّتِهِ مع قومِهِ، متكاملات فيما بينها، وقد سبقَ تَدَبُّر هٰذه النصوص تدبُّراً تَكامُلِيّاً في الملحق الخامس من ملاحق تدبّر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)⁽¹⁾. وإذْ أُحِيلُ على هذا المُلْحَقِ في التدبّر التكاملي للنصوص بشأن لُوطٍ عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، فإنّي أقتصر هُنَا على تَدَبّر فقرات هذا النصّ الوارد في سورة (الشعراء) إذْ قد سبق تدبُّره مع سائر النصوص بصورة تكاملية.

اجتبىٰ اللَّه عزّ وجلّ «لُوطاً» ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، فجعَلَهُ نَبِيّاً، ثم بَعَثَهُ رَسُولاً إلى أهل «سَدُوم» وكانت لهم خَمْسُ قُرىٰ في مكان

---

(١) انظر الصفحات من (٢٧٩ - ٣٥١) من المجلد الخامس.

البَحْر الميّتِ في فِلسطِين، وكانوا قوماً كفرَةً مُشْرِكين، وكان من رذائلهم تواطُؤهم على فعل الخبائث، ومنها إتيانُهم الذُّكرانَ شَهْوَةً من دون النساء، فرَفَضُوا دَعْوَةَ رَسُولهم، فأهْلَكَهُمْ اللَّهُ وأمْطَر عليهم حجارَةً حارَّةً قاتِلة، وقَلَبَ ديارهُمْ فجعلَ عالِيهَا سَافِلَها، وخَسَفَ بهم الأرض.

التدبُّر التحليلي:

قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾:

هذا البيان عن لوط عليه السّلام مطابقٌ تماماً للبيان الذي سبق عن نوح، وهود، وصالح، عليهم السَّلام، وجاء فيه أنَّهُ أخوهم مع أنّه ليس منهم نسباً، إنَّما كان مُواطِناً، وكانت زوجته منهم.

فالتدبُّر الذي سبَقَ للآيات من (١٠٥ ـ ١٠٩) المتعلّقة بقصّة نوح وقومه، يلاحظ كُلُّهُ هنا إلّا اسم الرسول.

وهذا من شواهد وَحْدَةِ رسالَاتِ اللَّهِ لعباده، ولو تَعَدَّدَ المُرْسَلُون في الأُمم.

قول اللَّه عزّ وجلّ حكايةً لبَعْضِ ما قال «لُوطٌ» عليه السَّلام لقومه:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾:

كلمة «الذّكران» أخف من كلمة «الرجال» الّتي جاءت في نص سورة (الأعراف) لِأنَّها قد تُحْمَلُ على الغِلْمَان، وفيها دلالَة على أنّ هذا التأنيب قد كان في المرحلة الأُولَى من تلويمهِ لهم، على هٰذه الشنيعة من أفعالهم الشائعة في مجتَمعهم بوقاحة.

والاستفهام الذي في عبارة ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾؟! استفهامٌ خارجٌ عَنْ أصلِ دَلالَتِهِ الّتي هي طلَبُ الإفهام، إلى مَعْنَىٰ الإنكار عليهم، وتلويمهم وتأنيبهم على ممارسة هٰذه الفاحِشَةِ بوقاحَة.

والمعنى: أتأتُونَ الذُّكرانَ من الناس في أدْبارهم حَيْثُ القَذَارَاتُ، وتَذَرُونَ مَكان الطهارة والنقاء الّذي خلقه لكُمْ ربُّكُمْ في فُرُوجِ أزواجِكُمْ من النساء.

وتدلُّ عبارة: ﴿... بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ على أنّ قومه رَدُّوا عَلَيْهِ قائلين: لَسْنَا الوحِيدين بَيْنَ النَّاس في ممارَسة هٰذه العادة لتحقيق لذَّاتِ الفُرُوج، فَفِي كُلّ الأُمم أناسٌ يُمَارِسُونَها، فقال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾: أي: بَلْ أنْتُمْ انْفَردتم في ممارسة هٰذهِ القبيحة الشَّاذَّة بجُرْأَةٍ ووقَاحَةٍ، إذْ تجاوزْتم الحُدُودَ النِّسْبِيَّة الَّتي توجَدُ عِنْدَ غيركم من أهْل الفجور من الأمم كمّاً وكَيْفاً.

يقال لغة: «عَدَا، يَعْدُو، عَدْواً، فَهُوَ عادٍ»، والجمع «عَادُون» أي: تجاوز الحدَّ المحتَمل عادةً في التجاوز الَّذي يفعله العصاة. والمعنى تجاوزتُمْ في انحرافِكُمْ وشُذُوذِكم ما عَلَيْهِ غَيْرُكُمْ، بِنِسْبَةِ عَدَدِ الأفراد المنحرفين الشّاذّين في كلّ أُمَّة، وفي كيفيَّةِ مُمَارَسَةِ هذا الشُّذُوذِ مُجاهَرَةً ووقاحَةً وعُدْواناً على غَيْرِ المنحرفين الّذين يَسُوؤُهم أنْ تُمَارَسَ مَعَهُمْ هٰذِهِ الفاحِشة.

أي: بل أنتم قومٌ ظالِمُونَ مُتَجاوِزُونَ حُدُودَ الفواحِشِ الّتي يَعْصِي بها عُصَاةُ النَّاس لِرَبِّهم.

وفي مرحلة متأخِّرَةٍ مِنْ دَعْوَةِ «لُوطٍ» عليه السَّلام قومه إلى دين اللّه الحقّ، قالوا له ما جاء بيانُه في الآيَةِ التالية:

- ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾:

اللّام في ﴿لَئِن﴾ مُوطّئة للقسم، أي: نُقْسِمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ عَنْ دَعْوَتِنَا إلى دِينِك، وتَأنِيبِنا والتَّشْنِيعِ علينا لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أرْضِنَا أنْتَ ومَنْ هُوَ على دينِكَ وطَرِيقَتِكَ.

ولم يجد «لوط» عليه السّلام وهو مُهَدَّدٌ بالإخراج القَسْرِي من كلّ أرْض «سَدُوم» إلّا أنْ يُعْلِنَ سَخَطَهُ وعَدَمَ رِضاهُ عَنْ أعمالهم المنكرة القبيحة الشَّنِيعَة، ويقول لهم ما جاء بيانه في الآية التالية:

- ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨﴾:

أي: إنّي لِعَمَلِكُمْ الّذي أنْكَرْتُهُ عليكم، مُبَلّغاً رِسالَاتِ رَبّي من الكارهين المُبْغِضِينَ، المستنكرين الهاجرين.

يقال لغة: «قَلَىٰ الشَّيْءَ، وقَلَىٰ فُلَاناً، يَقْلِيهِ قِلىً» أي: أبْغَضَهُ وهجره.

ودعا «لوطٌ» عليه السَّلامُ ربَّهُ أنْ يُنَجّيَهُ وأنْ يُنَجِّيَ أهْلَهُ مِنْ مَغَبَّةِ ما يَعْمَلُ قَوْمُه، مُدْرِكاً أنَّهُمْ مُهْلَكُونَ لَا مَحالَة، فقال مَا جاء بيانه في الآية التالية:

- ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩﴾:

أي: نَجِّنِي وأَهْلِي مِنَ العقابِ والعَذَابِ الّذي سَيَنْزِلُ بِقَوْمِي، جزاءَ ما يَعْمَلُونَ من شِرْكِيَّاتٍ، وقَبائح ومُنْكَراتٍ.

ويظهر أنّه أدْخَلَ زَوْجَتَهُ في عُمُومِ دُعَائِهِ، لأنَّها لَمْ تَكُنْ تَعْمَلُ الخبائث والمنكراتِ، على الرُّغم من كفرها، وكَوْن هواها مَعَ قَوْمِهَا، إلّا أنَّ قضاء اللّهِ عزَّ وجلَّ شَمَلَها بأنْ تكونَ مع الهالكين من أجْلِ كُفْرِهَا، وخيانتها لزَوْجِهَا بإبْلَاغِ قَوْمِهَا ببَعْضِ ما يَجْرِي في داره، وببَعْضِ تَصَرُّفاته.

وأبان اللّهُ عزَّ وجلَّ أنّهُ نَجّاهُ وأهْلَهُ أجْمَعِينَ، إلّا امْرَأتَهُ العجوز فَقَدْ

جَعَلَهَا في الغابرين الهَالكين، وأنَّهُ دَمَّرَ الآخَرِينَ، وأمْطَرَ عليهم من سماء أرْضِهِمْ حِجَارَةً مُهْلِكَة، فقال تعالىٰ:

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾:

أي: فاسْتَجبْنَا له دُعاءَهُ، فنَجَّيْنَاهُ وأهْلَهُ أجْمَعِينَ، إلَّا عَجُوزاً مِنْ أَهْلِهِ هي امرأتُهُ كائِنَةً في الغَابِرِين، الهالكين، والباقين في أرْضِهِمْ لم يُنْجِهِم اللَّه.

الغابِرُ: يأتي في اللّغة بمعنَيَيْن:

المعنى الأول: الماكث الّذِي لَا يَتحَوَّل.

المعنى الثاني: الذاهبُ الماضِي الذي لم يَبْقَ لَهُ وُجُود.

وكِلَا المعنيَيْنِ يَنْطَبِقان على امرأة لوط، فقَدْ أثبتها اللَّهُ عزّ وجلّ في أرْضِ قَوْمِهَا، ولَمْ يُنَجِّهَا مَعَ من أنْجى مِنْ أَهْلِهِ، وجَعَلَها تَمْضِي هالِكَةً مع قَوْمِهَا فَلَمْ يَبْقَ لهَا وجُودٌ ضِمْن الأحْياء، لأنَّها كانت كافِرَةً ومع هوىٰ قَوْمِهَا، فَهِيَ لا تَسْتَحِقُّ أنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ دُعَاءَ «لوط» عليه السّلام ضِمْن عموم أهله، إذْ كانَتْ على غَيْرِ دِينِهِ وعلى غَيْرِ طريقَتِهِ.

وبعدَ أنْ أخْرجَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لُوطاً وأهْلَهُ، وهما ابْنَتَاهُ، مِنْ أرْضِ «سَدُوم» وأوْصَلَهُمْ إلى مَكانٍ لَا تَصِلُ إلَيْهِ وسائل إهْلَاكِ قومِهِ أهْلَكَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ قَوْمَهُ، فقال تعالىٰ في النصّ:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ حَرْفُ عَطْفٍ دَلَّ على التَّراخي بَيْنَ خُرُوجِ «لوط» عليه السَّلامُ وأهْلِهِ من أرْضِ «سَدُوم» لإبْعَادِهِمْ عَنْ دائِرَةِ نُزُولِ العَذَاب، فلمَّا اسْتَقَرُّوا في مَكَانٍ آمِنٍ بَعِيد، أنْزَلَ اللَّهُ وسائِلَ تَدْمِير قَوْمِهِ، وهُمْ كُلُّ الآخَرِينَ بَعْدَ «لُوطٍ» والنّاجين من أهله.

التَّدْمِيرُ: هو الإهلاك باستئصالٍ، ومَحْوُ المباني وآثارها، حتَّىٰ لا يُرَىٰ مِنْها شيء.

وأصْلُ معنىٰ التَّدْمِير: تَحْطِيمُ الشيءِ المُدَمّر، على وَجْهٍ لَا يُرْجَى بَعْدَهُ إصْلاَحُه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ جاءَ هُنَا المَطرُ مُنَكَّراً مَقْرُوناً بِعِبَارَةٍ ذَمٍّ له، وجاء في نصٍّ آخر بيان أنّ المطرَ الذي أنْزَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ على قوم «لوط» قد كان «حجارةً من سجِّيل»، أي: حجارة أصلُها طِينٌ تحجَّرَ، ورُبَّما كانَ للنار مع موادَّ كالكبريت أثَرٌ في جَعْلِهِ مُتحجّراً مُحْرقاً.

وجاء في نصٍّ آخر بَيانُ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَلَبَ عليهم أرْضهم، فجَعَلَ عالِيَها سافِلَها.

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: الفاء للتفريع الدّال على سوء عاقبة المفسدين، «سَاءَ» فعل لإنشاء الذّمّ على سبيل المبالَغَة، ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فاعل «سَاء»، والمخصوص بالذَّمّ محذوف، والتقدير: مَطَرُهُمْ، دلَّتْ عليه عبارة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾.

ودلَّتْ عبارة: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ على أنْ «لُوطاً» عليه السَّلَامُ، كان قد أنْذَرَهُمْ بعَذَابٍ يُنْزِلُهُ اللَّهُ بهِمْ، فيُهْلِكُهُمْ به إذا لم يُؤْمِنُوا ولم يُقْلِعُوا عن قبائحهم وفواحِشِم.

وفي ختام هذا الفصل المتعلّق بلُوطٍ علَيْهِ السّلام وقومه، جاءَت في السُّورَة الآيَتَانِ اللّتان جَعَلَهُمَا اللَّهُ عزّ وجلّ بمثابَةِ فاصلٍ يُكَرَّرُ في نهايَةِ كُلّ مجموعة من اللّقطاتِ المختارات في السُّورَةِ، من قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامهم، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾:

وقد سبقَ تَدَبُّر هذا البيان في المرَّة الأولى مِنْ إيراده في السورة، فلا حاجَة إلى التّكرار.

ولا شَكَّ أنَّ قِصَّةَ لُوطٍ عليه السَّلام وقَوْمِهِ، قد اشتملَتْ على آيَةٍ عظيمة، ذاتِ عِبَرٍ وعظاتٍ جَلِيلاتٍ، ومع تِلْكَ العِبَرِ والعظاتِ فإنَّ أكْثَرَ المعنيّين بالمعالجة في السّورة، وهم كُبَراءُ كفّار قُرَيْش، الّذين قال اللّه لرَسُولِهِ بشأنهم: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ قد وَصَلُوا إلى حالَةٍ مَيْؤُوسٍ من إيمانهم مَعَها عن طَرِيقِ إراداتهم الحرَّة، فَهُمْ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ مِنْهُمْ بحَسَبِ واقِع حالهم النفسيّ أنْ يُؤْمِنُوا، مَهْمَا أُمْهِلُوا وعُولِجُوا.

* * *

الفصل السّابع
لقطات تتعلّق بشُعَيْبٍ عليه السلام وقومه أصحاب الأيكة
الآيات من (١٧٦ ـ ١٩١)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٠) ۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٩١)﴾:

تمهيد:

جاء في القرآن المجيد ذكر شعيب عليه السّلام وذكر قومه في تِسْعَةِ نصوص من تسع سُور، ففي أرْبَعَةٍ مِنْها جاء التصريح باسم شعيب عليه السّلام، وفي ثلاثة منها جاء ذكر قومه بعنوان: «مَدْين» وفي اثْنَيْنِ منها جاء ذكرهم بعنوان: «أصحاب مَدْين» وفي أربعة منها جاء ذكرهُم بعنوان «أصْحَاب الأيْكَة»؛ إذْ كانت لهم أيْكَة (أي: غيضة) نفيسة تُقْصَدُ فيها نَاعِمُ الشجر.

وقد اشتمل كلّ نصٍّ من هٰذه النُّصوص على لقطات موجزات من مُجْمَلِ قصّة شعَيْبٍ عليه السّلام وقومه.

وقد سبق تدبُّر هذه النُّصوص تدَبُّراً تكامليّاً في المُلْحَق السادس من ملاحِقِ تدبّر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)(١).

وإذْ أُحِيلَ على هذا الملحَقِ في التدبُّر التكامليِّ للنُّصُوص بشَأْنِ شُعَيْبٍ عليه السّلام وقومه في القرآن المجيد، فإنّي أقتصر هنا على تَدَبُّرِ فقراتِ هذا النّصّ الوارد في سورة (الشعراء)، إذْ قد سبَقَ تَدَبُّرُهُ مَعَ سائر النُّصوص بصُورَةٍ تكامُليَّة.

التدبّر التحليلي:

قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾:

هذا البيان عن شعيب عليه السَّلام، مطابقٌ تماماً للبيان الذي سبقَ عَنْ نوح، وعَنْ هُود، وعَنْ صالح، وعن لُوطٍ، عليهم السّلام.

---

(١) انظر الصفحات من (٣٥١ ـ ٤٢٩) من المجلّد الخامس.

فالتدبّر الذي سبقَ للآيَات من (١٠٥ ـ ١٠٩) المتعلّقة بقصَّةِ نوح عليه السَّلام وقومِهِ يُلاحظُ هُنا إلَّا اسْمَ الرَّسُول، وإلَّا أنَّ شُعَيْباً لَمْ يُذْكَرْ هُنا بأنَّهُ أخُو أصْحَاب الأيْكَةِ، مع ذِكْرِهِ بأنَّهُ أخُو أصْحَابِ مَدْيَن في نصّ سورة (الأعراف)، وفي نصّ سورة (هُود)، وفي نصّ سورة (العنكبوت)، فهل عَدَمُ ذِكْرِ أنَّهُ أخُو أصْحَابِ الأيْكَةِ يَدُلُّ على أنَّ أصْحَابَ الأيْكَةِ كانُوا مُجاورين لأصْحَابِ مَدْيَن ولَمْ يَكُنْ جَدُّهُمْ مَدْيَن، وقَدْ أُرْسِلَ شُعَيْبٌ عَلَيه السّلام إلى أصْحابِ مَدْيَن الَّذِينَ كانَ أخَاهُمْ نَسَباً ومُواطَنَة، وأُرْسِلَ أيضاً في الوقتِ نَفْسِهِ إلى أصْحَابِ الأيْكَةِ المجاورين لَهُمْ، ولم يَكُنْ شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أخَاهُمْ نَسَباً ولَا مُواطَنَةً، فَلَمْ يُذْكَرْ في نصّ من النّصوص أنَّهُ أخُوهم.

أقول: هذا فَهْمٌ يُرَجّحُ أنَّ أصحاب مَدْيَن غَيْرُ أصْحَابِ الأيْكَةِ، مع أنَّهُمَا جميعاً قومُ النبيِّ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عليه السّلام واخْتَلَطَا بمقتضىٰ التجاور، فهُمَا أُمَّةٌ واحدةٌ باعتبار أنَّ شُعَيْباً عليه السَّلام، قدْ كانَ رَسُولاً لهما معاً وفي وَقْتٍ واحد، وهما قَوْمَانِ باعتبار أنَّ أهْلَ مَدْين يَنْتَسِبُونَ إلى جدِّهِمْ مَدْين بن إبراهيم عليه السَّلام، وأمَّا أصحابُ الأيْكَة فَلَا يَتَّصِلُ نَسَبُهُمْ بهِ، وكانت الغيضة غيضَتَهُمْ (الأيْكَة) ولَيْسَتْ غيضَةَ أصحاب مَدْين، واللَّهُ أعْلم.

وهذا تَعْدِيلٌ لما كُنْتُ ذكَرْتُ في المُلْحَقِ السَّادِس من ملاحِقِ تَدَبُّرِ سورة (الأعراف) من أنَّ أصحاب مَدْين هم أصحابُ الأيْكَة فيما تَرَجّح لديّ هُناكَ.

قول اللَّه عزّ وجلّ يَحْكِي بَعْضَ مقَالَاتِ شُعَيْبٍ علَيْهِ السَّلَامُ لأصْحَاب الأيْكَة:

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ

ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾:

في هذه الآياتِ الأربع، بيانُ سِتِّ قضايا وجَّهَهَا شعيبٌ عليه السلام لأصحاب الأيْكَة، آمراً، وناهياً، ومُحَذِّراً.

القضيّةُ الأولى: دلَّ عليها ما حكاه اللَّهُ عزّ وجلّ عنهُ بقوله: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ...﴾، أي: اجْعَلُوا الكَيْلَ تامّاً كاملاً وافياً غَيْرَ مَنْقُوصٍ.

الكَيْلُ: مَصْدَرُ «كَالَ» يقال لغة: «كالَ الحبَّ أو نَحْوَهُ من جامدٍ أو سائلٍ، كَيْلاً، ومَكَالاً»، أي: قدَّرَ كميَّتَهُ بالمِكْيَالِ، وهو وعاءٌ تَعارَفَ الناسُ على مقدار ما يَسْتَوْعِب، فتُكَالُ بِهِ الأشياء لمعرفَةِ مقدار حَجْمها.

وقَدْ كان هؤلاء القومُ يَتَلَاعَبُونَ بالكَيْلِ وبالمكاييل، فيَنْقُصُونَ النّاسَ حقّهم إذا كالُوا لهم، أمّا إذا كالُوا لِأَنْفُسِهِمْ من النّاس فإنَّهُمْ يُوفُونَ، أوْ يَزِيدُونَ على الوفاء بالاحْتِيالِ، فيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النّاسِ بالباطل.

القضيّة الثانية: دلَّ عَلَيْهَا ما حكاه اللَّهُ عزّ وجلّ عَنْهُ بقَوْلِهِ: ﴿...وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾، أي: ولَا تَكُونوا مِنَ الَّذِينَ يَنْقُصُونَ النّاسَ حُقُوقَهُمْ.

يقال لغة: «أخْسَرَ فُلَانٌ الشَّيْءَ»، أي: نقصه.

أمَرَهُمْ شُعَيْبٌ عليْهِ السَّلام بالوفاء، ونهاهُمْ عَنْ ضِدِّهِ الَّذِي هو الإخْسَار، وهو النقص، مع العِلْم به من الأمْرِ بالوفاء، لأنَّ الأمْرَ بالشَّيْءِ نَهْيٌ عن ضِدِّهِ بَداهَةً، إلّا أنَّ النَّصَّ تضمَّنَ الدَّلَالَةَ على أنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ قد كانَ خَطِيباً بارعاً، ومِنْ براعَتِهِ في خطابته أنَّهُ كانَ يَأْمُرُ بالشَّيْءِ ويَنْهَىٰ عَنْ ضِدِّهِ، لإيضاح مقولاته إيضاحاً لَا يَحْتَمِلُ التأويل.

القضية الثالثة: دلَّ عليها ما حَكاه اللَّهُ عزّ وجلّ عَنْهُ بقوله:

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾. **«القِسْطاس»** فيها قراءتان بضمِّ القافِ

وكَسْرِهَا، وهما لغتان عربيَّتَانِ لهٰذه الكلمة، وهو أضبط الموازين وأقْوَمُها وأعْدَلُها، أي: وزِنُوا بأضْبَطِ الموازينِ وأقْوَمِهَا وأعْدَلِهَا.

المستقيم: أي: المعتدل المستوي، الذي تُوزَنُ به الأشياءُ فَلَا يَزِيدُ على مقاديرها الحقيقيَّة، ولَا يَنْقُصُ منها. والمراد بإضافة هذا الوصف التَّنْبِيهُ على وجوب عدم التلاعُبِ بما يُسَمَّىٰ في أعرافِهِم قُسْطاساً.

وقد كان هؤلاء القوم يتلاعبون بالوَزْنِ وبالموازين، ليَأْكُلُوا بِتَلَاعُبِهِمْ أمْوَالَ النَّاسِ بالباطل، فأمَرَهُمْ رَسُولُهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلام بأنْ يَزِنُوا بالقُسْطَاسِ المستقيم، وفي هذا نَهْيٌ لهم عَنِ التحايُلِ بالوَزْنِ وبالموازين ليَأْكُلُوا أمْوَالَ النَّاسِ بالباطل.

القضيّة الرابعة: دلَّ عليها ما حكاه اللَّهُ عزّ وجلّ عَنْهُ بقوله:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ... ﴿١٨٣﴾﴾، أي: ولا تنقصوا النَّاسَ أشياءَهم، سواءٌ أكان ذلِكَ عَنْ طريقِ الكَيْل أم المكيال، أم عن طريقِ الوَزْنِ أم الميزان، أمْ عَنْ طريقٍ آخر، ففي هٰذه العبارة تَعْمِيمٌ بَعْدَ تخصيص.

البَخْسُ: هو النَّقْصُ، وفعل «بَخَسَ» مثل فِعْلِ «نَقَص» يتعدَّى إلى مَفْعُولَيْن. يُقالُ لغة: «بَخَس فُلانٌ فُلاناً حَقَّهُ» أي: نَقَصَهُ حَقَّهُ.

والنَّقْصُ عَنِ الحقِّ مع العِلْمِ لَا يَكُونُ إلَّا بِظُلْمٍ، وقَدْ تُسْتَخْدَمُ فيه وسائل الاحْتيالِ والكَذِبِ والمخادَعة.

دَلَّتْ هذه القضايا الأرْبَع على أنّ شعيباً عليه السّلام، قد كانَ يَلْجَأُ في خطاباتهِ ومواعِظِهِ لقومه إلى أُسْلُوب الإطْنَاب، لأنَّ أحوالَهُمْ كانت تَقْتَضِي ذلِكَ، وأنَّهُمْ كانُوا يَفْعَلُون بالتفصيل كلَّ هٰذِهِ الرذائِلِ والعدوانات على عباد اللَّهِ مِنْ قَوْمِهِمْ ومن غَيْرِ قَوْمِهم.

وقد كان من فَصَاحَتِهِ عليْهِ السَّلامُ، أنَّهُ كان يُنَوِّعُ في الكلماتِ وفي

الأساليبِ، ويأتي للدّلالة على المعنىٰ الواحِدِ من وُجُوهٍ مُخْتَلِفَة، فَمَرَّةً مِنْ جِهَةِ الإيجاب، ومَرَّةً مِنْ جِهَةِ السَّلْبِ، ومرَّة بتَعْيين القضيَّةِ، وأخْرَى بإِدْخَالِهَا ضِمْنَ قَضِيَّةٍ عامَّة، وهكذا تكونُ براعَةُ الخطَباء.

القضيَّةُ الخامِسَة: دلَّ عليها ما حَكَاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْهُ بقَوْلِهِ:
﴿. . . وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾:

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: **العُثُوُّ**: أشَدُّ الفَسَاد. يقالُ لغة: «عَثِيَ، يَعْثَىٰ، عُثُوّاً» أي: أفْسَدَ إفْساداً شَدِيداً جدّاً.

وقد دلَّ هذا النَّهْيُ على أنَّ قومَ شُعَيْبٍ عليه السَّلام، كانُوا مِنَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ في الأرْضِ أشَدَّ الفَسَادِ، بأعْمَالِهِمُ الإجْرَامِيَّة الظَّالِمَةِ الجَائِرَة، ولهذا رأى شُعيبٌ عليه السّلام من الحكمة أنْ يَخُصَّ إفسادَهُمْ في الأرض بنَهْيٍ يُشَدِّدُ فيه.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالٌ مؤكّدَةٌ لِعَامِلِهَا.

الفساد: هو في اللّغة التَّلَفُ والعَطَبُ، وتحَوُّلُ الشيءِ من كَوْنِهِ صالحاً نافعاً إلى كونه غَيْرَ صالح ولا نافع، بل رُبَّما يصيرُ ضارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلْأَشْيَاءِ الصَّالحة.

الإفساد: الإتْلَافُ، وتحويلُ الشيءِ عن صَلاحه، وقد يَصِلُ إلى جَعْلِ الشَّيْءِ ضارّاً كَرِيهاً مُفْسداً للأشياء الصالحة.

ويَشْمَلُ النَّهْيُ عَنِ الإفْساد في الأرْضِ بعُمُومِهِ، النَّهْيَ عَنْ كُلِّ الممارساتِ الظالماتِ الجائراتِ، ذواتِ العُدْوانِ على عباد اللَّه، الّتي كان قَوْمُ شُعَيْبٍ عليه السَّلام يمارسُونها بانتشار عامّ، ومِنْهَا نَشْرُ الكفريّات والشركيّات وأنواعِ الفِسْقِ والفُجُورِ، وكلِّ فسادٍ خُلُقِيٍّ وسُلُوكيٍّ فَرْدِيٍّ واجْتِماعيّ.

القضيَّة السَّادِسة: دلَّ عَلَيْهَا مَا حكاهُ اللَّهُ عزّ وجلّ عَنْهُ بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾:

الجِبِلَّةُ: الأُمَّةُ من الخَلْقِ، والجماعَةُ من الناس.

أي: واتَّقُوا عِقَابَ رَبِّكُم الَّذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ، بأن تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وبَيْنَ عِقَابِهِ لَكُمْ وِقايَةً تَحْمِيكم، وهذه الوقايَةُ الّتي تَحْمِيكُمْ هي الإيمانُ الصَّحِيحُ الصَّادِق بِهِ وبصفاته، والإسْلامُ لَهُ، وطاعَتُهُ في أوامِرِهِ ونواهِيهِ.

فمَنْ كان لَدَيْهِ عَقْلٌ وبَصِيرَة، وعَلِمَ بأحوالِ الأُمَم السَّالِفَة، وما أنْزَلَ اللَّهُ رَبُّ العالَمِينَ بالكافِرِينَ من عَذَابٍ، وإهلاك شامل، اقْتَنَعَ واتَّعَظَ، فلَمْ يُعَرِّضْ نَفْسَهُ لسخَطِ اللَّهِ عليه بمعَصْيَتِهِ مِنَ الكَبَائر، حتَّىٰ لَا يَكُونَ عُرْضَةً لعقابه العادل، الذي لا مَحِيصَ عنه إلَّا بالاستغفار والتوبَة الصحيحة الصادقة، فاللَّهُ جلَّ جلالُهُ غَفُورٌ عَفُوٌّ رَحِيمٌ بعباده.

قول اللَّه عزّ وجلَّ يَحْكِي رَدَّ أصْحَابِ الأيْكَةِ على شعيبٍ عليه السَّلام فيما وجَّهَه لهم من دعوة إلى دين اللَّه، وفيما أمَرَهُمْ به ونَهاهُمْ عنه:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾:

تضَمَّنَ قولهم هذا أرْبَعَ قضايا رَدُّوا بها على جُمْلَةِ مَقُولَاتِهِ لهم:

القضيَّةُ الأولى: دلَّ عليها ما حكاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْهُمْ بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾:

هذا الاتِّهام نظير الاتِّهام الذي وجَّهَتْهُ ثَمُودُ لِرَسُولِهِم صالح عليْهِ السَّلام، والذي سبق تدبُّره قَرِيباً.

«المُسَحَّرُ» هُو الذي سُحِرَ مرَّة فمَرَّة حتَّىٰ صارَ مخبَّلاً وفَسَدَ عقله.

وفي العبارة قصر بأداة «إنَّما» أي: ما أنتَ إلَّا من المسحَّرين، وهو من قِسْم القصر الإضافي، أي: لَيْسَ لكَ مِنَ الصِّفات بالإضافة إلى ادّعائك الرّسالة، وبياناتِكَ في دَعْوَتِكَ، إلَّا أنَّك مُسَحَّرٌ مِنَ المسحَّرِين.

فاتَّهَمَ كُبَرَاء أصْحَاب الأيْكَةِ رَسُولَهُمْ شعيباً عليه السَّلام بأنَّه مُسَحَّر، ولَيْسَ مُجَرَّد مَسْحُور، أي: إنَّ السِّحْرَ الّذي سُلِّط مُتَتابِعاً عليكَ قد جَعَلَكَ مُخْتَلَّ العَقْل مُخَبَّلاً، وبِسَبَبِ ذلك تُواجِهُ كُبَرَاءَ قَوْمِكَ بما يَسُوؤُهم، دُونَ أنْ تُقَدِّرَ خُطُورَةَ ما تُوَاجِهُهم بِهِ مِنْ أقْوَالِكَ.

القضيَّة الثانية: دلَّ عليها ما حكاهُ اللَّه عزّ وجلّ عنهم بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا... ﴿١٨٦﴾﴾:

وهذه أيضاً نظيرُ الّتي اعْتَرَضَتْ بها ثَمُودُ على رسُولهم صالح عليه السّلام، والّتي سبقَ تدبُّرُها قَرِيباً.

أي: ليس لَكَ مِنَ الصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الخارجة عن نظام البَشَرِ في طعامهم وشرابهم ونِكاحهم، ما يُؤَهِّلُكَ لأنْ تَكُونَ نبيّاً تتلقَّى الوَحْيَ عن اللَّهِ رَبِّ العالَمِين، ولأنْ تكونَ رَسُولاً تَحْمِلُ رسالَةً مِنْهُ وتُبَلِّغُنا إيَّاها.

وعلى مِثْلِ هذا تعلَّلَ كُفَّارُ الأُمَم السَّابِقَة لشُعَيْبٍ عليه السَّلام، ومن كانوا بَعْدَهُ، إذْ زَعَمُوا أنَّ البَشَرِيَّةَ لَا تَصْلُحُ للنبوّة، ولَا لِتَلَقِّي رِسالَةٍ رَبَّانِيَّة، وهذا مِنْ جَهْلِهِمْ وعَدَمِ تَقْدِيرِهِمْ رَبَّهُمْ حقَّ قَدْرِهِ، إذْ هو القادر على أن يَخُصَّ بَعْضَ عِبَادِهِ بما يَشَاءُ على ما يشاء.

وقد سبقَ تدبُّر النُّصوص القرآنيّة المتعلّقة بموضوع «بيان اعتراض الأمم على بَشَرِيَّة الرُّسُلِ في القرآن» في الملحق الثالث من ملاحق تدبُّر سورة (يٓس/٣٦ مصحف/ ٤١ نزول)(١).

---

(١) انظر المجلّد السادس، الصفحات من (٢٦٣ ـ ٢٨١).

القضيَّة الثالثة: دلَّ عليها ما حكاه اللَّه عزّ وجلّ عنهم بقوله: ﴿...وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾:

أي: ونُؤَكِّدُ لَكَ أنَّنا نَظُنُّكَ كاذِباً مِنَ الكاذبين، الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على ربِّهم بادِّعاء النُّبُوَّة والرِّسالَة.

[إِنْ] هي المخفَّفة مِنَ الثقيلَة، ويُؤَازِرُها في التوكيد اللَّام في عِبَارَة [لَمِنَ]، وتُسَمَّى اللَّامَ الفارقَةَ بين «إنْ» المخفَّفة من الثقيلة وبين «إنْ» النَّافِية.

ونظراً إلى أنَّهُ قَدْ كانَ عليه السّلام مَعْرُوفاً لدَىٰ عامَّة قَوْمِهِ وخاصَّتِهِمْ بأنَّهُ صادِقٌ لَا يَقُولُ إلَّا حقّاً، ما اسْتَطاعُوا أنْ يَقُولُوا له عبارةً يَجْزِمُونَ فيها بأنَّهُ كاذبٌ في دَعْوَاهُ النُّبُوَّة والرِّسالة، أو بأنَّه واحِدٌ مِنَ المُتَنَبِّئِينَ الكاذبين، بل اكْتَفَوْا ببيان أنَّ ما يتصوَّرُونَهُ فيه هو مِنْ قبيل الظَّنّ، لَا مِنْ قَبيلِ اليَقِينِ المستَنِدِ إلى عِلْمٍ وخِبْرَةٍ بأحوالِهِ وأفْعَالِهِ وأقواله.

وصَبَرَ شعيب عليه السَّلام على شتائِم الكبراء من كُفَّار قَوْمِهِ له، كما صَبَرَ سائِرُ رُسُلِ اللَّهِ على شتائم أقوامهم لهم، فلَمْ يقابِلُوا شتائِمَ أقوامِهِمْ لهم بأمْثالها.

القضيَّة الرابعة: دلَّ عليها ما حكاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْهُمْ بقوله: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾:

[كِسَفاً] فيها قراءتان بفتح السّين، وهي قراءة حفص، وبإسْكانها وهي قراءة بَاقي القُرَّاءِ العَشَرَة. **الكِسْفُ والكِسَفُ**: القِطَعُ مِنْ أيِّ شيء، واللفظُ جمعٌ واحِدَتُه «كِسْفَةٌ» وهي القِطْعَةُ من شيءٍ ما.

والمعنى: فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا مَا تَسْتَطِيعُ إسْقَاطَهُ من قِطَعٍ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ تُعَذِّبُنا وتُهْلِكُنَا بها، إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في أنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ أرْسَلَكَ اللَّه رَبُّنا إلَيْنا.

جاء في العبارة استعمال حرف الشَّرْط «إنْ» للدَّلاَلَة على أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِنُبُوَّتِهِ ولا برِسَالَتِهِ، فَهُمْ يَطْلُبُونَ مِنْهُ هٰذا الطَّلَبَ على سَبِيلِ التَّعْجِيز، وهم يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ غَيْرُ قادِرٍ على التنفيذ.

لقد غرَّهُمْ طُولُ إمْهَالِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لهم، مَعَ وُجُودِ رَسُولِهِ بَيْنَهُمْ، يُعَالِجُهُمْ بكُلِّ وسائِلِ الحكمةِ والموعظةِ الحسنَةِ والجدال بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ، ويَرَوْنَ أَنَّهُمْ مُمَكَّنُونَ في أَرْضِهِم.

فأجابَهم شُعَيْبٌ عليه السَّلام بجوابٍ دلَّ عَلَيْهِ ما حَكَاهُ اللَّه عزَّ وجلَّ عنه بقوله:

- ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨﴾:

أي: لَسْتُ أنَا الَّذِي أُسْقِطُ الكِسَفَ من السَّماء، إنما الَّذي يَفْعَلُ ذلِكَ هُوَ رَبِّي، ورَبِّي إنَّما يَفْعَلُه أو يَفْعَلُ شَيْئاً آخَرَ يُهْلِكُكُمْ به، إذا عَلِمَ مِنْ أعْمَالِكُمْ الظَّاهِرَة والباطِنَة، الجَسَدِيَّة والنَّفْسِيَّة، أَنَّكُمْ صِرْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ إنْزَالَ العِقَابِ الشَّامِلِ فيكُمْ، واقْتَضَتْ حِكْمَتَهُ ذلِكَ، إنَّهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعظم سُلْطانه ـ أعْلَمُ بما تَعْمَلُونَ.

فتعذيبكم وإهلاكُكُمْ إنّما يتم بتقدير رَبِّي وقضائه على وَفْق حكمتِهِ المقرونَة بعِلْمِهِ المُحِيط بكلّ شيء.

وحين وصل قوم شُعَيْبٍ عليه السَّلام إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ أنْ يُؤْمِنُوا به وبما جاء به عَنْ رَبِّه عن طَرِيقِ إراداتهم الحرَّةِ، بحَسَبِ طبائع النُّفُوسِ في الواقِع البَشَرِيّ، وعنوان هٰذه الدَّرَكَة تَكْذِيبُهُمْ إيَّاهُ تَكْذِيباً لَا عِلَاجَ له، بإقناعٍ، أو تَرغيب، أو ترهيب، أوْ جدالٍ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ وسائِلَ تَعْذِيبهم وإهلاكهم إهلاكاً شاملاً مُسْتَأْصِلاً.

دلّ على هذا قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾:

[فكذَّبُوهُ]: هذا عنوانُ الدركَةِ السُّفْلَى الَّتي وصَلَ قَوْمُ شُعَيْبٍ عليه السَّلام إليها، بَعْدَ الرِّحْلَةِ الدَّعوِيَّة الطَّوِيلَةِ، الَّتي عَالَجَهُمْ فيها رسُولُهُمْ بكلّ الوسائل الحكيمة، فلَمْ يُؤْمِنُوا، وأصَرُّوا بعِنادٍ نهائيٍّ على تَكْذِيبِهِ.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾: أي: فَقَبَضَ علىٰ جميع كُفَّارِ قَوْمه قَبْضاً شديداً قاهراً عَذَابُ يَوْم الظُّلَّةِ.

أُسْنِدَ الأَخْذُ إلى العَذَاب، لأنَّهُ هو المَقْصُودُ مِنْ أخْذِ وسائِلِهِ لهم، إذِ المرادُ تَعْذِيبُهُمْ بالوسائل.

الظُّلَّة: هِيَ في اللُّغَةِ كُلُّ شَيْءٍ أَظَلَّ وسَتَرَ وأطْبَقَ مِنْ فَوْق.

والإضافة في **[يَوْمِ الظُّلَّةِ]** هي بمعنى اللّام، أي: يَوْمِهِم الخاصِّ بالظُّلَّةِ الّتي عمَّتْ أرْضهم ومساكِنَهُم.

وكانت الظُّلَّة غَمَامَةً حارَّةً ذاتَ سَمُوم يَنْدَفِعُ مِنْهَا إلى أَرْضِهِمْ ومَسَاكِنِهِمْ، فيُعَذِّبُ مَنْ قَضَىٰ اللَّهُ علَيْهِ بالعَذَابِ بحرِّهَا وسَمُومِها، وبما تُحْدِثُهُ من اخْتِنَاقَاتٍ، واسْتَمَرَّتْ هٰذِهِ الغَمَامَةُ العذابيَّةُ، طَوَالَ يَوْمِ تعْذِيبهم مُطْبِقَةً على أَرْضِهِمْ ومَسَاكِنِهِم.

ووصف اللَّه عزّ وجلّ عذابَ يوم الظُّلَّة بأنَّهُ كان عذابَ يوم عظيم، وظاهر أنّ عذاب اليوم العظيم لا بُدَّ أنْ يكونَ عذاباً عظيماً مصاحِباً كُلَّ أجْزَاءِ ذلِكَ اليَوْم العظيم.

وفي ختام هذا الفصل المتعلّق بشُعَيْب عليه السّلام وقومه، جاءت في السُّورَة الآيتان اللَّتَانِ جعَلَهُمَا اللَّهُ عزَّ وجلَّ بمَثَابَةِ فاصِلٍ يُكَرَّرُ في نِهَايَةِ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اللَّقَطاتِ المختاراتِ في السُّورة، من قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامهم، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

وقد سبق تدبُّرُ هذا البيان في المرَّةِ الأُولى من إيراده في السورة في الآيتين (٨ و٩) فلا داعي إلى التكرار.

ولا شَكَّ أنَّ قِصَّةَ شُعَيْبٍ عليه السَّلام وقومه، قد اشْتَمَلَتْ على آيَةٍ عظيمة، ذاتِ عِبَرٍ وعِظاتٍ جليلاتٍ، ومَعَ تِلْكَ العِبَرِ والعظات فإنَّ أكْثَرَ المعنيّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ، وهُمْ كُبَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيْش، الَّذِينَ قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِهِمْ:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

قَدْ وَصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ إيمانِهِمْ مَعَهَا عن طَرِيقِ إراداتهمُ الحُرَّة، بحَسَبِ طبائعِ النُّفُوسُ، وما تُصَابُ بِهِ القُلُوبُ مِنْ أمْرَاضٍ مَعْنَوِيَّةٍ جَلَبَهَا أصْحَابُها إلَيْهَا باختيارهم الحرّ.

وقد أمْسَى هٰؤُلَاءِ غَيْرَ مُنْتَظَرٍ مِنْهُمْ بحَسَبِ واقع حالهم النَّفْسِيّ والقَلْبِيّ، أنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أُمْهِلُوا وعُولِجُوا، وقارَبُوا أنْ تَجْرِيَ عَلَيْهم سُنَّةُ اللَّهِ، في إهْلَاكِ مَنْ وَصَلُوا إلى حالةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا من إصْلاحهم عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة، وعمَّ هذا الحالُ معظم أفرادهم.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الشعراء) وهو الآيات من (١٩٢ - ٢٢٧ آخر السورة)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ

ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ
عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ
﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ
أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾
فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾
تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ
يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا
لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ
بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

تمهيد:

عناصر هذا الدرس الثالث من دُروس السورة موصولة بعناصر الدرس الأول منها، في نَسِيجٍ تكامُلِيّ حكيم.

أمّا الدرس الثاني بفُصُولِهِ السَّبْعَةِ فقد جاء بأمْثِلَةٍ تاريخيَّةٍ سَبْعَةٍ من رُسُلِ اللَّهِ وأقوامهم، فيها آيات تَرْبَوِيَّة للرسول ﷺ وللدُّعاةِ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، إذ الرُّسُلُ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ يُقْتَدَىٰ بهم في حِكْمَتِهِمُ الدَّعوِيَّة، وفي صَبْرِهِم على أقوامهم، وفيها آيات ذواتُ عِبَرٍ وعِظاتٍ لمعالَجَةِ المعنيِّين بالمعالجة في الدَّرْس الأوّل، وهم كُبَراءُ مُشْرِكِي قريش، الَّذِينَ قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ بشأنهم في أوائل السورة:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

وتتّضح صلة عناصر الدَّرْس الثالث الأخير من دُرُوس السُّورة، بعَناصر الدَّرس الأوّل منها، بالبيان التالي:

(١) لقد جاء في الدرس الأوّل الحديث عن الكتاب المبين (القرآن الكريم).

(٢) وجاء فيه بيانُ حُزْنِ الرَّسُولِ ﷺ على قومه إذْ لم يُؤْمِنُوا مع هَمِّهِ الشَّدِيدِ من أجْلِهِمْ تَخَوُّفاً عَلَيْهِمْ ألّا يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلاً، فيكونوا من المعذّبين بنار الجحيم عذاباً أبَدِيّاً.

(٣) وجاءت فيه الإشارة إلى تطَلُّع الرَّسُول ﷺ أنْ يُنْزِلَ اللَّه لَهُمْ آيَةً حِسِيَّةً على وفق طَلَبهم، رجاء أنْ يُؤْمِنُوا بِهَا، فيُنْقِذُوا بالإيمان أنْفُسَهُمْ من الخُلودِ في عذاب الجحيم.

(٤) وجاء فيه بيانُ إعراضِ المعنيّينَ بالمعالجة وهم كبراء مُشْرِكِي قريش، عَنْ كُلِّ نَجْمٍ قُرْآنِيّ مُحْدَثِ التَّنْزِيلِ، يَتْلُوهُ الرَّسُولُ ﷺ عليهم.

وأضِيفَ إلى هذا ما أبانَتْهُ نُصُوصٌ قرآنِيَّةٌ سابِقَةٌ مِنْ زَعْمِهِمْ أنَّ القرآن لَوْنٌ من ألْوَانِ الشِّعْرِ، تَهَرُّباً من تَدَبُّرِهِ على أنَّه تنزيلٌ من رَبِّ العالَمِين، وما جاء فيها مِنْ بيان أنَّهُمْ غَيْرَ عابئينَ به.

وأضيف إلى هذا أيضاً ما أبانَتْهُ نُصُوصٌ قرآنِيَّة سابِقَة، من جَدَلياتٍ قَدَّمُوهَا في مَزَاعمهم، إذْ طَرَحُوا احْتِمَالَ أنْ يَكُونَ رَئِيٌّ مِنَ الجِنِّ هُوَ الَّذي يُوحِي للرَّسُولِ بالنُّجُومِ القرآنية.

هذه العناصر مجتمعة تَسْتَدْعِي بَسْطَ البيان حول أنّ القرآن تنزيلٌ من عند اللَّهِ رَبِّ العالَمِين.

وتَسْتَدْعي بيانَ أنَّ الجِنَّ مَعْزُولُونَ عَنِ السَّمْعِ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَسْتَرِقُّوا اسْتِمَاعَ القرآنِ مِنْ ملائكةِ السَّماءِ، لِيُوحُوا بِهِ إلى أحَدٍ مِنَ الإنْسِ.

وبيانَ أنَّ القرآنَ لَيسَ مِنْ قَبيلِ الشِّعْرِ على ما زَعَمُوا للتَّبايُنِ بَيْنَ أغْراضِ الشعراء على يَعْلَمُ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي قُرَيْش، إذ الشعراءُ في كُلّ وادٍ يَهِيمُون، ويَتَّبِعُهُم الغَاوُون، وبَيْنَ القرآنِ الذي يَشْتَمِلُ على الإيمان والإسلام، وحقائق الوجود، وكمالِ الحكمة، وفضائل الأخلاق، وكمالَات السُّلُوكِ الإنساني.

وهذه العناصِرُ تَسْتَدْعِي مَزِيدَ تَرْبِيَةٍ من اللَّهِ لِرَسُولِهِ وللدُّعاةِ إلى اللَّه مِنْ أُمَّتِهِ، فجاءت الآيات من (٢١٣ ـ ٢٢٠) فيها توجيهٌ تَرْبَوِيٌّ مُلائم للمرحلة الدَّعَوِيَّة، الَّتِي يَمُرُّ بها الرسول ﷺ إبَّانَ نُزُول سورة (الشعراء).

وبهذا نُلاحظ النّسيج المتشابِكَ في عناصر السّورة الّتي اشتملَتْ عليها دروس السورة الثلاثة.

التدبّر التحليلي:

قول اللَّه عزّ وجلّ بادئاً بالحديث عن القرآن ومخاطباً رسولَه:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

تمهيد:

إنَّ حالَ المَعْنِيّينَ بالمعالَجة وهم كبراء مشركي قُرَيْش، الّذينَ جَحَدُوا كوْنَ القرآن تَنْزِيلاً مِنْ رَبِّ العالَمِين، وحاولوا إقْناعَ جَماهيرِهم بأنَّهُ نَوْعٌ من أنواع الشِّعْرِ المعْجِب، الذي تُوحِي به الشياطين من الجنِّ إلى قُرنائهم من الإنْس، على ما كانوا يَعْتَقِدونَ في الشعراء، قد اقتضىٰ مَزِيدَ بيانٍ لتأكيدِ أنَّ القرآن تنزيلٌ من رَبّ العالَمِين، واقْتَضىٰ دفْعَ شُبْهَةِ الشِّعْرِ عن القرآن، ودَفْعَ فِرْيَةِ أنَّه مما تُوحي به الجنّ.

ولإدراك أنَّ هذا الدرس الثالث مُرْتَبِطٌ ارْتباطاً فِكْرِيّاً بما جاء في

الدَّرْسِ الأوّل من دُرُوسِ السورة، جاء مُصَدَّراً بِحَرْفِ العطف «الواو» في: **[وإِنَّهُ]** أي: وإنَّ الكتاب المبين الذي جاء الحديث عنه في الآية (٢) من السورة، وفي الآية (٥) منها لَتنزيلُ رَبّ العالَمِين، فأُولُوا الألْبَابِ الّذينَ يَتَدَبَّرُونَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ بهٰذه الحقيقَة، ما لَمْ تَصُدَّهُمْ حَواجِزُ كبرٍ، وهَوىً، واتّباعٍ للشهواتِ، واتّباعٍ لتقاليدَ عَمْيَاء، أوْ ما لَمْ تَطْمِسْ بصائِرَهُمْ نوازِعُ النفوسِ ونوازِعُ الشياطين.

التدبّر:

- ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾: أي: فَهُوَ في سُمُوِّه وعَظَمَةِ معانِيهِ ومَبانيهِ على قَدْرِ المنْزِلِ، يُدْرِكُ هٰذا من أَحْسَنَ تَدَبُّر آياتِهِ وسُورِهِ.

تَنْزِيلٌ: مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وُصِفَ القرآنُ هُنَا بالمَصْدَرِ، في مكان الوَصْفِ باسْمِ المَفْعُول «مُنَزَّل» للدَّلَالَةِ على أنَّ كُلَّ حَرْفٍ من مبانيهِ، وكلَّ دَلَالَةٍ من دَلَالاتِهِ، وكلَّ مَعْنَىً من مَعَانِيهِ، مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين، فاستحَقَّ أنْ يَكُونَ بمَثَابَةِ الحَدَثِ المَصْدَرِيّ، الذي هو «التنزيلُ» من رَبّ العالَمِين لاستجماعه كلَّ صِفَاتِ حَدَثِ هٰذا التَّنْزِيلِ.

ودلَّتِ النُّصُوصُ القُرْآنِيَّة على أنَّ كُلَّ ما يَصْدُرُ عن اللّهِ لعِبَادِهِ هو تنزيلٌ، ولَوْ كانَ من خَلْقِهِ في الأرض، كَخَلْقِهِ الأنعام، لأنَّهُ جلَّ جلَالُهُ هُوَ العَلِيُّ الأعْلَى، وكلُّ ما سواهُ هو مِنْ دُونهِ، فكُلُّ عطاءاتِهِ، وخَلْقِهِ، وتَصَارِيفِهِ، تَنْزِيلٌ.

وجاءت هذه الجملة في الآية مؤكّدَةً بالمؤكدات: «إنَّ ـ الجُمْلَة الاسميّة ـ اللّام المزحلقة».

وعبارة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَدُلُّ على عَظَمَةِ القرآن، لما هُوَ مَعْلُومٌ من أنَّ ما يَصْدُرُ عن عظيم لَا بُدَّ أنْ يَكُونَ عَظيماً، أي: فَتَدَبَّرُوهُ بإتقانٍ ووَعْيٍ، واسْتِيعَابٍ فإنَّكُمْ سَتَجِدُونَهُ عظيماً على قَدْرِ مُنْزِلِهِ رَبِّ العالَمِين.

قول اللَّه تعالىٰ

• ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾: **الرُّوحُ**: هو هُنا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، ووَصَفَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالأَمِين، للدّلَالَةِ على أَنَّهُ لَا يَزِيدُ فيما يُبَلّغُ عَنْ رَبِّهِ شيئاً، ولا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئاً، كما هُوَ أَمِينٌ في كلِّ شيءٍ، فَهُوَ رَسُولٌ كامِلُ الأمانَةِ فيما يَحْمِلُ عَنْ رَبِّهِ من رِسالَاتٍ، وفيما يؤدّيها.

جاء في القرآن الكريم ذكر جبريل عليه السّلام بعنوان «الرُّوح» أو «الرّوح الأمين» أو «روح القدس» تِسْعَ مرَّات.

وجاء في القراءة الأخرى: **[نزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأمِينَ]**، أي: نَزَّلَ اللَّهُ رَبُّ العالَمِينَ بِهِ جِبْرِيلَ الرُّوح الأمين، وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

قول اللَّه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

أعرض الله عزّ وجلّ عن مخاطبة المَقْصُودِينَ بالمعالَجة بسبب إعراضِهِمْ عن تلقّي القرآن، إذْ جاء في أوائل السورة قول الله عزّ وجلّ بشأنهم: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾.

وخاطبَ اللَّهُ رَسُولَهُ بهذا البيان، ليَسْمَعَ المقصُودُونَ بالمعالَجَةِ بطريقةٍ غَيْرِ مُباشِرةٍ.

أي: نَزَلَ بالقرآنِ الكريم جِبْرِيلُ نُزُولاً نافذاً مِنْ حاسَّةِ سَمْعِكَ ومَنْصَبّاً على قَلْبِكَ يا محمّد.

يرادُ بالقَلْب هُنا جِهَازُ الإدْراكِ الواعِي للمعارِف والعُلُوم والأقوالِ في عُمْقِ الإنْسَان، ودلَّ ذِكْرُ القَلْبِ على تحقُّقِ الرَّسُول ﷺ واسْتِيعابِهِ لكُلِّ ما يَنْزِلُ بِهِ الوَحْيُ عَلَيْهِ، وأنّ الوَحْيَ لَمْ يَكُنْ يَقْتَصِرُ على إبْلاغِ السَّمْعِ، إذْ قَدْ

تَسْمَعُ الأُذُنُ ولَا يَعِي القَلْبُ مَا سَمِعَتْهُ، بَلْ كانَ يَنْفُذُ مِنَ السَّمْعِ وأجْهِزَتِهِ المُوصِلَةِ حتَّىٰ يكُونَ المُوحَىٰ به مُسْتَقَرّاً في عُمْقِ القَلْبِ، أي: في عُمْقِ جهازِ الإِدْراكِ الواعي للمَعَارِف والعُلُوم والأقْوالِ في عُمْقِ الإنْسَان.

وجاء ذِكْرُ عبارةِ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ للدَّلَالَةِ بها عن طَرِيقِ اللّوازِمِ الذِّهنِيَّةِ على كُلِّ وظَائِفِ الرَّسُولِ الدَّعَوِيَّةِ الَّتي يأتي الإنْذارُ في آخِرِها. وأوَّلُها التبليغ، ثم البَيانُ والتَّوضيح، ثم اتّخاذ وسائِلِ الإقناع بالحجج والبراهين، ثمّ الترغيب والترهيب، ثم الجدال بالّتي هِيَ أحْسَنُ، ثُمَّ مُتَابَعَةُ التذكير بما سَبَق، فإذا وصَلَ المَدْعُوُّون إلى حالَةٍ مَيؤوسٍ من إصلاحِهِمْ مَعَها عن طَريق إراداتهم الحرَّة، كانَ الإنْذارُ هُوَ الخِتَامَ الذي تَنْقَطِعُ عِنْدَهُ وَسَائِلُ العِلاجِ البيانيّ.

الإنْذَار: هو الإعْلامُ بما هو مخوف منه. وبالعواقب غَيْرِ الحميدة، للأعمالِ السَّيِّئة أو المنهيّ عنها، ومن العواقب غير الحميدة العذابُ الأليم من قِبَلِ رَبِّ العالَمِين على مَعْصِيَةِ عباده لَهُ بالكفر فيما دونَهُ.

قول اللَّه تعالىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾:

يُطْلقُ «اللِّسَان» ويُرادُ به لغةُ القوم، وهذا إطلاقٌ لغويٌّ، وهُوَ من التوسُّع في الدَّلالَة، إذْ أصْلُ مَعْنَىٰ اللِّسَان الأداةُ اللَّحْمِيَّةُ التي تكونُ في الفَم، ويكُونُ بها تذوُّق الطعام، وهي إحْدَى جهاز النُّطْقِ عند الإنسانِ، فيطلَقُ على اللُّغَة لأنَّه الأداة الناطقة بها، وهو في الأصل مجاز مرسل.

والمعنى أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أنْزَل عَلَيْكَ يا محمَّدُ القرآنَ بواسِطَةِ أمِينِ الوحي جبريل، بلغَةِ العرَب، ذاتِ النُّطْقِ الفَصِيحِ المُبِينِ، والكَلِمَاتِ الدَّالَّاتِ على المَعَانِي المُرادَة بها دَلَالَاتٍ واضِحَاتٍ، لَا غُمُوضَ فيها، لِمَا تَشْتَمِلُ عليهِ من تَحْدِيدٍ للمعاني، عن طريقِ الحقائقِ الوضعيَّةِ، والمجازاتِ الجَلِيَّاتِ، والكِنَايَاتِ البَدِيعات.

وفي هذا ثَنَاءٌ على اللُّغَةِ العربيَّةِ مُحَرِّضٌ للعرب على أنْ يَفْتَخِرُوا بالقرآن الّذي أُنْزِلَ بلسانِهِمْ مُعْجِزاً من لَدُنْ رَبّ العالَمِين، وهذا يدعوهم إلى الإيمان به، لا إلى جُحودِهِ والكُفْرِ بِهِ، مع وُضوحِ دلائل الإعجاز فيه.

﴿مُّبِينٍ﴾: مِنْ فعل «أبانَ» وهذا الفعل يأتي لازماً، ويأتي مُتَعَدّياً، فعلَىٰ اللُّزوم يكون المعْنَىٰ: «هو واضِحٌ وظاهرٌ» وعلى التَّعْدِيَةِ يكون المَعْنَىٰ «هو مُوضِحٌ ومُظْهِرٌ»، أي: للمعاني الّتي يراد بيانُها به، في كلماتٍ وجُملٍ وأساليبَ وحَقِيقَةٍ ومَجَاز وكناياتٍ وتَشبيهات.

وكلا المَعْنَيَيْن صالحانِ هُنَا، فهما مُرادانِ، واللَّه أعلم.

قول اللَّه تعالىٰ

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

زُبُر: جمع «زَبُور» وهو الكتابُ المزْبُور، أي: المكتوب، يقال لغة: «زَبَرَ الكتابَ يَزْبُرُهُ» أي: كتَبه، أو أتْقَنَ كتابتَهُ، فهو مَزْبُورٌ وزُبورٌ.

﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: لَفِي الكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي أنْزَلَهَا اللَّه على الرُّسُلِ السَّابِقين، لهدايَةِ الأُمَمِ الأوَّلِين.

أي: وإنَّ مَا جاءَ في القرآن من حقائق إيمانية، ومبادئَ أخلاقية، وشرائِعَ إسلاميَّة، هي موجودةٌ بوَجْهٍ عامّ في الكُتُبِ السَّابقَةِ المُنَزَّلَة على الرُّسُلِ السَّابِقين، لِهِدَايَةِ الأقْوَام والأُمَمِ الأُوَّلين، وهذه هي الّتي يَجْحَدُها المشركونَ.

وهذا البيانُ لا يُنَافي ما اختصَّ اللَّهُ به القرآن من عُلُوم وإقناعَاتٍ وجدَلِيَّاتٍ، لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَيْهَا زُبُر الأوّلين، لأنَّ جُحُودَ الكافِرِينَ وإنكاراتهم مُنْصَبَّةٌ على أُسُسِ العَقائِدِ والأخلاقِ وشرائع المعاملات، وأحكام الحلال والحرام، فهي جَوْهَرُ الدِّين، وهي موجودة حتماً في زُبُرِ الأوَّلِين، ولو على سبيل التوزيع بَيْنها، بحَسَبِ أحوال الأُمَمِ الّتي أُنْزِلَتْ لِهَدايَتِها.

قول اللّٰه عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾:

وفي قراءة ابْن عامر: [**أَوَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ**]، برفع [**آية**] وقَدْ سبقَ توجيه القراءتين عند ذكر القراءات.

جاء عند علماء علوم القرآن أن هذه الآية مدنية ضمَّتْ إلى سورة مكيَّة، واللّٰه أعلم.

أقول: دلَّتْ هٰذه الآية على أنَّ المَعْنَيِّين بالمعالجَة في السّورة، وهم كُبَرَاء مشركي قريش، قد سَأَلُوا سِرّاً عُلَماءَ بَنِي إسرائيل في رحلاتهم إلى يَثْرِب وكانت لهم بهم صِلَاتٌ تجاريَّةٌ، عن القضايا الدّينيَّة الّتي أبانَتْهَا السُّوَر القرآنيَّةُ، الّتي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (الشُّعراء)، فأبانُوا لهم أنَّها ممَّا يَعْلَمُونَهُ من قَضَايَا الدّين الرّبانيّ الَّذي أنْزَلَهُ اللّٰه على مُوسَىٰ وهارونَ عليهما السَّلام، وأنَّها حقٌّ، وربّما سألُوهُمْ عَنِ النبيِّ المنتظر، فأبانُوا لَهُمْ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِفَاتِهِ، وكَتَمَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ هٰذا الأَمْرَ عَنْ جَمَاهِيرِهِمْ، فأعْلَمَهُمُ اللّٰهُ عزّ وجلّ بهٰذِه الآية بما جَرَىٰ، فقال لَهُمْ كاتماً خَبَرَ سُؤالِهِمْ عُلَمَاءَ بني إسرائيل، وطاوِياً لَهُ في مَثَانِي النّصّ، وعاطفاً عليه بالواو قائلاً عَنْهُمْ: ألَمْ يَسْألُوا عُلَمَاءَ بَنِي إسْرَائِيلَ، ولم يكُنْ لَهُمْ آيَة (أي: علامَةً دالَّةً) أنْ يَعْلَمَ صِدْقَ ما نزلَ في القرآن من قضايا الدِّين عُلَمَاءُ بَنِي إسرائيل الذّينَ سَألُوهم.

ولم يَأْتِ في الآيَةِ التّصْرِيحُ بِسُؤَالِهِمْ عُلَمَاءَ بَنِي إسْرائيل وبجَوَابِ هؤلَاءِ العُلَمَاءِ لهم، لِئَلّا يَتَجَرَّؤُوا على إنْكَارِ الحادِثَةِ، إذْ كانَتْ سِرّاً، وباسْتِطَاعَتِهِمْ أنْ يَجْحَدُوهَا، إذْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ شُهُودٌ من النَّاسِ عليها. وهٰذِهِ من رَوَائِعِ وبدائع الطَّيِّ القرآنيِّ في المثاني، الّذي يَفْتَحُ اللّٰهُ علىٰ بَعْضِ عِبَادِهِ باستنباطه وفَهْمِهِ.

قول اللّٰه عزّ وجلّ بشَأْنِ المعنيِّينَ بالمعالَجة تُجاه القرآن:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾: قال أبو الفتح بنُ جِنّي: أصْلُ «الأعْجَمين» الأعْجَمِيِّين، ثُمَّ حُذِفَتْ ياءُ النَّسَب، وجُعِلَ جَمْعُهُ بالياءِ والنُّونِ دَلِيلاً عَلَيْها.

يُشيرُ هذا البيانُ ضِمْناً إلى العُنْجُهِيَّةِ العَرَبِيَّةِ والكِبْرِ القوميّ، الّذي يتّصِفُ به هؤلاء المعنِيُّون بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ.

فلَوْ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ جَمَعَ إلىٰ إعْجَازِهِ في مبانيهِ ومَعَانِيهِ، وإنْزالِهِ على أُمّيٍّ، بُرْهَاناً آخَرَ، فأنْزَلَهُ كتاباً مَكْتُوباً على بَعْضِ الأَعْجَمِيِّينَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ، الَّذِينَ لَا يُحْسِنُونَ فِي نَشْأَتِهِمُ النُّطْقَ باللِّسَانِ العَرَبيّ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الصُّحُفِ المُنَزَّلَةِ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ، ولَاسْتَكْبَرُوا بِعُنْجُهِيَّتِهِمْ العَرَبِيَّةِ عَن اتِّباعِ أعْجَمِيٍّ، مَعَ رَفْضِهِمْ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ الّتي تُخَالِفُ أهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وتَقَالِيدَهُمْ العَمْيَاءَ.

وفي هٰذا تَيْئِيسٌ للرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ مِنْ إيمَانِهِمْ، إذْ وَصَلَتْ حالَتُهُمُ النَّفْسِيَّةُ مِنَ القَسْوَةِ والعِنادِ والاِسْتِكْبَارِ إلى دَرَكَةٍ لَا يُجْدِي مَعَها أنْ يَأْتِيَهُمْ رَبُّهُمْ بِآيَةٍ حِسِّيَّةٍ عَلَى مَا يَطْلُبُونَ، كَعَصَا مُوسَىٰ، وإحياءِ الموتىٰ لِعِيسَىٰ.

وفي هذا البيانِ تَرْبِيَةٌ للرَّسُول محمّد ﷺ أنْ يَقْطَعَ رَجاءَهُ عَنْ إيمان أَكْثَرِهِمْ، وأنَّ مِنَ الخَيْرِ أنْ لَا يَحْزَنَ مِنْ أجْلِهِمْ، وأنْ لَا يَحْمِلَ هَمَّ إيمَانِهِم، إذْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ بِحُزْنِهِ عَلَيْهِمْ وهَمِّهِ مِنْ أجْلِهِمْ إلى التَّهْلُكَة، كما قال له في أوائل السُّورَة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

وفي هذا البيان أيضاً دَمْغٌ لَهُمْ بأنَّهُمْ مُسْتَكْبِرُون جُفاةٌ مُعانِدُونَ، لَا يَسْتَحِقُّونَ حِرْصَ الرَّسُولِ ﷺ على إيمَانِهِمْ، وحُزْنَهُ وهَمَّهُ مِنْ أجْلِهِمْ، فَهُمْ سَيَلْقَوْنَ مَصيرَهُمْ خِزْياً في الدُّنيا، وسَوْف يَلْقَوْنَ مَصِيرَهُمْ عَذاباً أبديّاً في جهَنَّمَ يومَ الدِّين.

قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بِشأْنِ كُلِّ المُجْرِمِينَ تُجاهَ القُرْآنِ في كُلِّ أُمَّةٍ وفي كُلِّ عَصْرٍ، وأنَّ حَالَ قُلُوبِهم كحالِ قُلُوبِ أكْثَرِ كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيش:

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)﴾:

﴿سَلَكْنَٰهُ﴾: أي: أدْخَلْناه، يُقالُ: «سَلَكَ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ»، أي: أدْخَلَهُ فِيه، وجَعَلَهُ يَعْبُرُه.

يَدْخُلُ المَحْبُوبُ في القُلُوبِ دُخُولَ مَسَرَّةٍ وإينَاسٍ وإسْعَادٍ، وقَدْ يكونُ مَعْشُوقاً لها.

وتَدْخُلُ الحقائِقُ الإيمَانية في القُلُوبِ الّتي تُحِبُّ الحقّ، فَتُؤْمِنُ بها، وتَعْشَقُها.

وتَدْخُلُ الفضائل الأَخْلَاقِيَّة في القُلُوبِ الّتي تُحِبُّ الفضائل، وتُحِبُّ الخَيْرَ، فتَتَعَلَّقُ القُلُوبُ بها وتَعْشَقُها، وتَرْغَبُ في مُمَارَسَتِها.

وهٰذا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في القُلُوبِ، وهِيَ نَتَائِجُ لِاخْتِيارٍ حُرٍّ في داخِلِ الإنْسَان.

ويَدْخُلُ المَكْرُوهُ في القُلُوبِ دُخُولاً مُشْقِياً لَهَا ومُعَذِّباً، فَتَحْمِلُ به حَزْناً، أو هَمّاً وغمّاً، وما دامَ سالكاً فيها فَهُوَ مُعَذِّبٌ لها، ومن أمْثِلَتِهِ الحِقْدُ والْحَسَدُ، والبغضاء، والعَدَاوَة المعذّبَةُ لِلْقُلوب.

ويَدْخُلُ تَصَوُّرُ الحقِّ المَجْحُودِ في القُلُوبِ الّتي لَا تُحِبُّ الحقَّ، فَتَكْفُرُ بِهِ، وتَتَأَلَّمُ مِن انْتِشَارِهِ، ومن قُوَّةِ سُلْطَانِهِ في الأَرْضِ، وكُلُّ خاطِرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْها مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ تَمَسُّهَا بعذاب.

وتَدْخُلُ تَصَوُّراتُ الفَضَائِلِ والمتحلِّينَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، في قُلُوبِ مُرْتَكِبِي الرَّذَائِلِ الغَارِقِينَ في أَوْحَالِهَا، فتمَسُّها هٰذه التصوّراتُ بالمكاره،

وتحاوِلُ القُلُوبُ الكارِهَةُ لِمُمَارَسَةِ الفضائل جُحُودَها، واتِّهامَ المتحلِّينَ بها بالنِّفاق، وابتغاء المصالح الدُّنْيَوِيَّةِ من التظاهر بها.

ومن هذا التَّحْلِيلِ يَتَبَيَّنُ أنَّ مَا يَسْلُكُ في القُلوبِ قِسْمَان:

القِسْمُ الأوّل: هو القِسْمُ الّذي تَرْغَبُ فِيهِ القُلُوبُ السَّوِيَّةُ، وتَأْنَسُ بِهِ وتحبُّه، وإذَا كانَ مِمَّا يَجِبُ الإيمان به آمَنَتْ به، وإذا كان مِمَّا يُعْشَقُ عَشِقَتْهُ.

القِسْمُ الثاني: هو القِسْمُ الذي تَنْفِرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ المَرِيضَة، وتتأذَىٰ به، وإذا كانَ ممَّا يَجِبُ الإيمانُ به كَفَرَتْ به وجَحَدَتْهُ، وإذا كانَ ممَّا يَحْسُنُ حُبُّهُ، كَرِهَتْهُ وَشَقِيَتْ بِكَرَاهِيَتِهِ له.

وكلُّ ذلكَ خَاضِعٌ لِسُنَنِ اللَّهِ في عباده، الّتي هي من نتائج اختياراتِهِمُ الحرَّة، للحقّ أو للباطل، للخير أو للشرّ، للفضائل أوْ للرّذائل.

وعلى هذا فالقرآنُ وحقائِقُهُ يَدْخُلُ في قُلوبِ المُجْرِمِينَ دُخُولَ مَكْرُوهٍ مَجْحُودٍ مَكْفُورٍ بِهِ، وهٰذا هُوَ سُلُوكُهُ في قُلُوبِ المُجْرِمِينَ الذين اختاروا بإراداتِهِمُ الحرَّة سُبُلَ الضّلالِ والإثم والجريمة.

ويدخلُ القرآن وحَقَائِقُهُ في قلوب مُحبِّي الحقّ والخير، دُخُولَ مَحْبُوبٍ مُعْتَرَفٍ بِهِ مُحَاطٍ بالإيمان به والإذعانِ له، وهذا هو سلوكُهُ في القلوبِ السَّلِيمَةِ الزكيَّة الطاهرة من أرْجَاسِ حبّ الإثم والشَّرِّ وارتكابِ الجرائم.

فالمعنىٰ: ومثل سُلُوك القرآنِ في قُلوبِ كُفَّارِ كُبَراء قُرَيْشٍ المُجْرِمِينَ، سُلُوكَ كُفْرٍ بِهِ، ونُفُورٍ مِنْهُ، وعَدَاوَةٍ له، نَسْلُكُهُ في قُلُوبِ سَائِرِ المُجْرِمِينَ، من غَيْرِ المَعْنِيّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَة، في كلِّ عَصْرٍ، وفي كُلِّ أرْضٍ وقَرْيَة ومِصْر، لأنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الحق والخَيْرَ والفَضِيلَةَ، مُتَّبِعِين أهواءهم وشهواتِهِمْ وتقاليدهم العَمْياء، ووساوس شياطين الإنْسِ والجنّ وتَسْوِيلاتهم.

وهذا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في عباده الناتجة عن اخْتِيَارَاتهم الحرَّة، بلا جَبْرٍ ولَا إلْزَامٍ قَهْرِيّ، وهو كإحْرَاقِ اللَّه يَدَ مَنْ يَضَعُ يَدَهُ في النّار باختياره الحرّ.

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ المُجْرِمينَ الّذينَ يَصِلُونَ إلى جُحُودِ الحقِّ عناداً ومكابَرَةً، ويَكْفُرُونَ بالقرآن مع فَهْمِهِمْ لقضاياه الدينيّة الّتي أبانَها في آياتِهِ وسُوره:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

فدلَّ هذا البيان على أنّ التجربة في معالجة المدعُوّين، متىٰ قدّمَ المُعَالِجُ فيها كُلَّ وَسَائِلِ الإقناعِ الفكريِّ بحُجَجِهِ وبَرَاهِينِهِ، وكلَّ وَسَائِلِ الترغيب والترهيب، بما فيها ما يتيسَّرُ مِنْ تَأْلِيفِ القُلُوبِ بعَطَاءٍ مادّيٍّ، وكُلَّ ما يَلْزَمُ مِنْ مُجَادَلَةٍ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ حتَّىٰ الإفْحام، ثُمَّ تابع المعالج التذكير بما سَبَقَ عِدَّة مرَّات دُون جَدْوىٰ، صارَ تَغْيِيرُ حَالِهِم إلى الِاسْتِجَابَةِ أمْراً مَيْؤُوساً مِنْهُ، بكلِّ حَدِيثٍ بيانيّ، ولَمْ يَبْقَ إلَّا تَخْوِيفُهُمْ بقَوابِلِ العَذَابِ الَّذِي كانوا قَدْ أُنْذِرُوا بِهِ ومُقَدِّمَاتِهِ وعَلَامَاتِهِ، فَإِذَا رَأَوا هٰذِهِ المقدّماتِ والقَوَابِلَ قادِمَةً إلى أرْضِهِمْ ومسَاكِنِهِمْ أَوْ مَوَاطِنِ تَجَمُّعِهِم، وأدْرَكُوا أنَّ عَذَابَ اللَّهِ الأليمُ مُحِيطٌ بهم، ونازِلٌ عَلَيْهِمْ لَا مَحالة، فإنَّهُمْ عِنْدَئِذٍ يُؤْمِنُونَ، لَكِنَّ إيمانَهُمْ سَاعَتَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ ولَا يَرْفَعُ العَذَابَ عَنْهُمْ، لأَنَّهُ إيمانٌ نَاتِجٌ عَنْ خَوْفٍ مِنْ عذابٍ مَشْهُودِ المقدِّمات، فَهُوَ كالإيمانِ عند طلوع الرُّوح من الجَسَدِ، وشُهُودِ شَيْءٍ من مُقَدِّمات عذابِ الآخِرة وأهوالِها، والمطلوبُ في امتحانِ العباد أن يكونَ إيمانُهُمْ إيماناً بالغيب عن طريق البَرَاهِين الفكريّة، لا إيماناً عن طريقِ الشُّهُود بالحواسِّ الظاهرة.

فدَلّت عبارةُ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ علىٰ أنّ

إيمانَهُمْ في ظروف حياةِ الامْتِحَانِ غَيْرُ مَطْمُوعٍ فيه مُطْلقاً، فَلَا جَدْوَىٰ من مُتَابعَةِ مُعَالَجَتِهِمْ.

وإذا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ إنْزَالَ العَذَابِ عَلَيْهِمْ وإهْلَاكَهُمْ إهْلاكاً جماعيّاً، فإنَّ عذابَ اللَّهِ يَأْتِيهم مُباغِتاً مُفَاجِئاً وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ أوْ هُوَ قادِمٌ عَلَيْهِمْ، ورُبَّما تَوَهَّمُوا أنَّ سَحَابَةَ العذابِ القادمة سَحَابَةُ مَطرٍ نَافِعٍ، حتَّىٰ إذا فَرِحُوا بها تَسَاقَطَ عَلَيْهِمْ ما يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِهِ عذاباً أَلِيماً، ويَسْتَأْصِلُهُمْ بِالْمُهْلِكَاتِ الماحقات.

وحِينَ يَنْزِلُ بِهِمُ العذابُ الأَلِيمُ يَقُولُونَ وهُمْ يَذُوقُونَ الآلَامَ الشَّدِيدَة: هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ قَلِيلاً حَتَّىٰ نُؤْمِنَ تائِبِينَ إلى رَبِّنا؟!

ولَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أنْ يُنْظَرُوا، فَقَدِ انْتَهَىٰ وَقْتُ الِابْتِلَاء، وجَاءَ زَمَنُ الجزاء.

- ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾:

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجْأَةً دُونَ إشعارٍ سابق، يقالُ لغة: «بَغتَهُ، يَبْغتُهُ، بَغْتاً، وبَغْتَةً» أي: فَجأَهُ وبَهتَهُ، ويقال: «باغَتَهُ، مُباغَتَةً، وبِغَاتاً» أي: فاجَأَهُ.

أُطْلِقَ المَصْدَرُ «بَغْتَةً» في مَوْقِعِ اسم الفاعل «باغِت» أو «مُباغِت»، أوْ هو صِفَة لمفعُول مطلق محذوف تقديره: فَيَأْتِيهِمُ العذابُ إتْياناً بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ بِمُقَدِّمَاتِ إتيانِهِ. **الشُّعُور**: أدْنَىٰ درجاتِ العِلْمِ بالشَّيْءِ، كَمَنْ يُحِسُّ بأنَّ شَيْئاً قَدْ مَسَّ أطراف شَعْره.

- ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

أي: فَيقُولُوا عَقِبَ أنْ يَذُوقوا أوائِلَ عذابِ اللَّهِ لَهُمْ: هَلْ نَحْنُ مُمْهَلُون مُؤَخَّرُونَ قَلِيلاً، حتَّى نَتُوبَ إلى بارِئِنا ونُؤْمِنَ؟!

﴿مُنظَرُونَ﴾: اسْمَ مَفْعُولٍ، مِنْ فعل «أَنْظَرَهُ» بمعنىٰ أَمْهَلَهُ وأَخَّرَهُ، أي: هَلْ نَحْنُ نُمْهَلُ ويُؤَخَّرُ تَعْذِيبُنَا حتَّىٰ نُؤْمِنَ تائِبِينَ إلى بارئنا؟!

لا يَسْتَطِيعُونَ أن يَطْلُبُوا إمْهَالَهُمْ بصريحِ العبارة فقد أُمْهِلُوا كثيراً، فَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ بِأُسْلُوبِ الاستفهام، فالاستفهام هنا يُرَادُ به التعبيرُ عن تَمَنِّيهِمْ، وهُمْ على يَقِينٍ بأنّ أُمْنِيَّتَهُمْ لَنْ تَتَحقَّقَ، فَقَدْ عُولِجُوا طَوِيلاً وجَحَدُوا، وكَذَّبُوا بالحقّ الّذي جَاءَهُمْ من عِنْدِ رَبِّهِمْ، ولَا عُذْرَ لَهُمْ فيما كانوا بِهِ مِنْ تَكْذِيبٍ.

قول اللَّه عزّ وجلّ يَصِفُ اسْتِعْجَالَ الكَفرَةِ المُعَانِدِينَ عذابَ اللَّهِ، إذْ يَقُولُونَ للرَّسُولِ: ائْتِنَا بالعذابِ الّذي تُنْذِرُنا به، ومنهم المَعْنِيُّونَ بالمعالجة في السُّورة، وهم كُبَرَاءُ مُشْرِكِي قُرَيْش:

- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾:

دلَّ هذا البيانُ على أنّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ، كانَ قَبْلَ نُزُولِ سورة (الشُّعراء) يُنْذِرُ كُبَرَاءَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ المُكابِرينَ المُعانِدِينَ المكذّبين له، والمكذّبين بما جاءهم عن رَبّ العَالَمِين، بعذابٍ يُهْلِكُهُمْ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِهِ، عُقُوبَةً لَهُمْ، شَأْنُهُ في هٰذا كَشَأْنِ رُسُلِ اللَّهِ السَّابِقِينَ مَعَ كُفَّارِ أَقْوامِهِمْ المُعَانِدِينَ المُكَابِرِينَ الجَاحِدِينَ.

ويَدُلُّ على أنَّ الرَّسُولَ لَمَّا تَابَعَ عَلَيْهِمْ إنْذَارَاتِهِ لَهُمْ، وأَطْمَعَهُمْ إمْهَالُ اللَّهِ وتَأْخِيرُهُ إنْزَالَ عَذَابِهِ عليهم، صارُوا يَقُولُونَ للرَّسُولِ ﷺ: أَيْنَ العذابُ الّذي تَتَوعَّدُنا بِهِ؟ هَيَّ أَنْزِلْهُ إنْ كُنْتَ صَادِقاً في أَنَّكَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وربّما أَلَحُّوا عَلَيْهِ بهذا الاسْتِعْجَالِ لإشْعَار جَمَاهِيرِهِمْ بأنَّهُ غَيْرُ صادِقٍ فيما يُخْبِرُ بِهِ مِنْ وَعِيد.

وحِكْمَةُ اللَّهِ المُقْتَرِنَةُ بِعِلْمِهِ المُحِيط بأحْوَالِ نُفُوسِهِمْ، قَدْ قَضَتْ بإمْهَالِهِمْ جميعاً، لأنَّ فِيهِمْ أفراداً لَدَيْهِمُ الاستعدادُ لأنْ يُؤْمِنُوا إذا أُمْهِلُوا.

فَاسْتَغَلَّ الجَاحِدُونَ المُعَانِدُونَ المُكَابِرُونَ هذا لِتَوْجِيه عبارَاتِ الاسْتِعْجَالِ، بُغْيَةَ تَضْلِيل أتباعِهِمْ بأنّ محمّداً لَيْسَ رَسُولاً صادقاً، وهم في الحقيقة لَا يُرِيدُونَ نُزُولَ العَذَاب عليهم.

وقد تَحدَّثَ اللّه عزَّ وجلَّ عنهم بحَسَبِ ظاهر أقوالهم، فقال بشأنهم:

- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾؟! اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبيٌّ مِنْ أمْرِ استعجالهم العذابَ الذي لا يَفْعَلُهُ من لَدَيْهِ ذَرَّةٌ من فَهَم.

يقالُ لُغة: «اسْتَعْجَلَ الأَمْرَ» أيْ: طَلَبَ تَعْجِيلَ تَحْقِيقِهِ قَبْلَ أوانِهِ الذي تقتضي الحكمَةُ تحقيقَهُ فيه.

والباء في [**بعَذَابنَا**] تُلَائِمُ الفِعْلَ المضَمَّنَ في فعل «اسْتَعْجَلَ» ويمكن تقديرُهُ بأن نَقُولَ: أَيَسْتَعْجِلُونَ عَذَابَنَا اسْتِهَانَةً بِهِ، وهُوَ عَذَابٌ لَا يَسْتَهِينُ بِهِ مَنْ لَدَيْهِ ذَرَّةٌ مِنْ عَقْلٍ أوْ فَهْمٍ أوْ عِلْم، وحِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ يَتَمَنَّوْنَ لَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ الدُّنْيَا كلَّها لَقَدَّمُوهَا فِداءً.

فالاستفهام في العبارة استفهامٌ تعجيبيٌّ مِنْ أَمْرِ اسْتِعْجَالِهِمْ عذابَ رَبِّهِمْ، حَمْلاً لاستعجالهم على ظواهر عباراتهم، لَا على مُرَادَاتِهِمْ منها، الرَّامِيَةِ إلى إقناعِ أتْبَاعِهِمْ بِكَذِبِ الرَّسُول، مُغْتَرِّينَ بإمْهَالِ اللَّهِ لَهُمْ.

* * *

وجاءَ في الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ بَعْدَ التَّعْجِيبِ مِن اسْتِعْجَالِهِمْ، إقْنَاعُهُمْ بأسْلُوبِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ لَهُمْ بالخِطَابِ، بَلْ عَنْ طَرِيق مُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ بِشَأْنِهِمْ، ومُخَاطَبَةِ كُلِّ مُتَلَقٍّ لِخطابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾:

الفاء في [أَفَرَأَيْتَ] فَصِيحَةٌ تَعْطفُ على مَحْذُوفٍ يُدْرَكُ بالتأمُّل، ويُمْكِنُ تَقْدِيره بما يلي: أفكَّرْتَ في حَالِ هٰؤُلَاءِ المُعَانِدِينَ المكذّبين، فرَأَيْتَ بفِكْرِكَ وعَلِمْتَ، أنَّنا إنْ مَتَّعْنَاهُمْ عِدَّةَ سِنِينَ بأنواعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَعْدَ هٰذِهِ السِّنِينَ مَا كانُوا يُوعَدُونَ مِنْ عَذَابٍ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِمْ بَلَاغاً عَنَّا، فَسَيَجِدُونَ أنْ كُلَّ مَتَاعٍ تَمَتَّعُوهُ مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيا ولَذَّاتِهَا وشَهَوَاتِهَا مَا صَرَفَ عَنْهُمْ شَيْئاً من العذَابِ الأَلِيمِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ تَحْقِيقاً لِلْوَعْدِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَهُ.

إنَّ الإِمْهَالَ والإنظارَ مع واقعِ حالِ قُلُوبِهِمْ المَرِيضَة يُطِيلُ مُدَّة استمتاعِهِم بمتاعاتِ الحياة الدنيا الزائِلَةِ الفانيَة، فماذا يَفْعَلُونَ بَعْدَهَا بالْعَذَابِ الخالِدِ الأَبَدِيِّ في الجحيم.

هَلْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ذِكْرياتُ المَتاعِ الّذي مَتَّعْنَاهُمْ إيَّاهُ في الحياة الدُّنْيا شيئاً من عذابِ يومِ الدِّين، أو تُخَفِّفُ عَنْهُم شَيْئاً مِنْ مَقَادِيرِ أَنْوَاعِ العَذابِ؟!

لَقَدْ كانَ بِاسْتِطَاعَتِهِمْ أنْ يَدْفَعُوا عَنْهُمُ الخلود في عذابِ النَّارِ بالتَّنازُلِ عَن كبرهم وعنجهيّاتهم وحمَاقَاتِهِمْ، وإعلانِهِمُ الإيمان والإسلام، ولَنْ يَخْسَرُوا مِنْ مَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنيا إلَّا شَيْئاً قَلِيلاً هو ما حَرَّمَهُ اللَّهُ على عباده، إذا استقاموا، ويَحْمُونَ أنفسهم من الخلود في عذابِ النار إذا لم يَسْتَقِيمُوا.

* * *

قول اللَّه عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾:

هذا البَيَانُ مَوْصُولٌ بما جاء في السُّورَة بشَأْنِ الأُمَمِ الَّتي جاءَ بيان إهلاكها، وهم فرعون وجنوده، وقَوْمُ نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط،

وأصحابُ الأيكة، ودلَّتْ أحْدَاثُ إهْلَاكِ هؤُلَاءِ المُهْلكين على أنَّ اللَّهَ قدْ أَرْسَل إلَيْهِمْ رُسُلاً أبْلَغُوهم رِسالَاتِ رَبِّهِمْ، وقامُوا بوَظَائِفِهِمْ الدَّعَوِيَّة أحْسَنَ قيام، وكانَ آخِرُ أمْرِ كلٍّ مِنْهُمْ أنْ أنْذرَ الَّذِينَ أصَرُّوا مِنْ قَوْمِهِ على الكُفْرِ والتَّكْذِيب عِناداً ومُكابَرَةً على الباطِلِ، بعذابٍ يُهْلِكُهُمُ اللَّهُ بِهِ إهلاكاً مُسْتَأْصِلاً، وقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الواقِعِ ما كانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ.

واقتضىٰ هٰذا التفصيلُ الجُزْئِيُّ إصْدَارَ قاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ تَكْشِفُ سُنَّةَ اللَّهِ في كُلِّ عِبَادِهِ، وهِيَ أنَّ كُلَّ أهْلِ قَرْيَةٍ قَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّه فإنَّهُ لَمْ يُهْلِكْهُمْ إلَّا بَعْدَ أنْ أرْسَلَ لَهُمْ مَنْ أبْلَغَهُمْ دِينَهُ، وبيَّنَهُ لَهُمْ، ووعظهم وذكَّرَهُمْ وقام بكلِّ وظائِفِهِ الدَّعَوِيَّةِ فيهم، فلَمَّا أصَرُّوا على الكُفْرِ والتَّكْذِيبِ والجحودِ عناداً واسْتِكْبَاراً، أنْذَرَهُمْ بأنّ اللَّهَ سَيُنْزِلُ بهم عذاباً مُهْلكاً، وتمَّ في الواقع تحقيقُ ما كان أنْذَرَهُمْ به.

ويَدْخُلُ ضِمْنَ هٰذِهِ القاعِدَة الكلِّيَّة وُصُولُ الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ مع كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ المعنيّين بالمُعالَجة في السّورة، إلى مَرْحَلةِ الإنْذارِ الأخيرِ بعذابٍ مُهْلِكٍ لَهُمْ، وقَدْ أَلْمَحَتْ إلىٰ هٰذِهِ المَرْحَلَةِ الأخيرة الآية (١٩٤) في قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في السّورة بشأن القرآن، وخطاباً لرسوله:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

أي: لِتَكُونَ مُنْذِراً بالعذابِ المُهْلِكِ مِن المُنْذِرِينَ الَّذِينَ أنْذَرُوا أقْوامَهُم بعذابٍ مُسْتَأْصِلٍ، مَعَ إنْذَارِهِمْ لَهُمْ بِعَذَابٍ أَبَدِيٍّ يَوْمَ الدِّينِ في الجحيم.

المعنى: فكونُوا يا كُبَرَاءَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ في حالَةِ توقُّع تحقيقِ ما أنذرَكُمْ بِهِ رَسُولُنا مُحَمّد.

وتَحْلِيلُ الآيَة كما يلي: ومَا أَهْلَكْنَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ في تاريخ الناس، في حالٍ من الأحوال، إلَّا في حَالِ أَنَّهُ قَدْ كانَ لَهُمْ مُنْذِرُونَ قد أَنْذَرُوهُمْ عَذَابَ رَبِّهِمْ المُهْلِكَ، فتمرَّدُوا وعَانَدُوا واسْتَكْبَرُوا فَعُذِّبُوا وأُهْلِكُوا، إذ استحقّوا ذلك بمقتضىٰ الحِكْمة.

«مِنْ» في ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ زِيدَتْ لتأْكِيدِ العُمُومِ والتَّنْصِيصِ عليه.

﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: استثناء من عُمُومِ الأحوال.

﴿ذِكْرَىٰ﴾: تأتي هذه الكلمة للدّلالة على ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: الذِّكْرَىٰ: اسْمٌ للتَّذْكِيرِ. أي: يأتي في القُرْآنِ تَكْرِيرُ بيانِ إهلاك الكَفرةِ المُجْرمين السَّابقين، بَعْدَ إنذار رُسُلِهِمْ لهم بالإهلاك، إذا أصَرُّوا على كفرهم وعِنادهم وجحودهم، تَذْكِيراً بهٰذِه السُّنَّةِ من سُنَنِ اللَّهِ في عباده.

المعنى الثاني: الذِّكْرَى: اسْمٌ للتَّذْكِرَة. أي: نَضَعُ أَمَامَ النَّاس أمْثِلَةَ إهْلاكِنَا المُجْرِمِينَ السَّابِقِينَ، لتكونَ بمثابَةِ بِطَاقَةٍ مُذَكِّرَة، أو أيَّةِ وسيلَةٍ مُذَكِّرَةٍ كالرَّتِيمَة، تُذَكِّرُ بِسُنَّتِنَا في عبادِنا المجرمين.

المعنىٰ الثالث: الذِّكْرَىٰ: اسْمٌ لتَذَكُّرِ. وهذا المعنى مُسْتَبْعَدٌ هُنا فيما أرى.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: أي: وما كُنَّا بِإهْلاكِنَا المُجْرِمِينَ مِنْ أهلِ القُرىٰ السَّابِقِينَ ظَالِمِينَ، بَلْ كُنَّا عَادِلِينَ نَتَصَرَّفُ بِكَمَالِ الحِكْمَةِ.

وفي هٰذا إلْمَاحٌ إلى أنَّ إهْلاكَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لأمْثَالِ الأوَّلِينَ، مِنَ المُجْرِمِينَ الآخِرِينَ تحقيقاً لسُنَّتِهِ في عباده، لَنْ يَكُونَ فِيهِ ظالماً، بل يكونُ فيه عادِلاً يَتَصَرَّفُ في عبادِهِ بكمال حِكْمَتِهِ.

فَلْيَتَوَقَّعِ المُجْرِمُونَ مِنَ الآخِرِينَ تَحقِيقَ سُنَّتِنَا فيهم، مَهْمَا عَلَوْا في الأَرْضِ، وكانُوا فيها ذَوِي قُوىً قاهِرَةٍ، ومَهْمَا كانوا فيها جَبَّارِين.

* * *

قول اللَّه عزّ وجلّ بِشَأْنِ القرآنِ، رَدّاً على افْتِرَاءِ كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، بأنَّ الْقُرْآنَ يُوحِي بِهِ إلى مُحَمَّدٍ رَئِيٌّ مِنْ شَيَاطِينِ الجِنِّ، كما يوحي القرينُ مِنْهُمْ للشَّاعِرِ أجْمَلَ شِعْرِه:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾:

في هٰذهِ الآياتِ الثّلاثِ بيانُ أرْبَعَ قَضَايَا لِدَفْعِ مَزَاعِم أئِمَّةِ التّضليل من كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، المَعْنِيِّينَ بالمعالجة في السّورة:

القضيّة الأُولىٰ: دلّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾: أي: وما تَنَزَّلَتْ بالقُرْآنِ الشَّيَاطِينُ على مُحَمَّد، إذ دَلالَاتُ آيَاتِ القُرآنِ الدّينيَّة المُشْتَمِلَةُ على الحقِّ والخَيْرِ وفضائِلِ السُّلُوكِ الفَرْدِيّ والاجتماعي، والمُشْتَمِلُ على الجَزاءِ الثوابيِّ بفَضْلِ اللَّهِ للمُؤْمِنِينَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحات، والجَزاءِ العِقَابِيّ بعَدْلِ اللَّهِ لِلْكَفَرَةِ والجَاحِدِينَ والآثِمِينَ بفِعْلِ السَّيِّئَاتِ، تتَنَافىٰ تَنَافِياً كُلِّيّاً مَعَ أهْدَافِ الشّياطِينِ القائِمَةِ على الإغْوَاءِ والتّضليلِ عن الحقِّ وصِرَاطِ اللَّهِ المُسْتَقِيم.

فبَيْنَ أهْدَافِ الشّياطين ومسَالِكِهِمْ، وما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآن، تَبَايُنُ التضادّ والتناقُضِ، فالقرآنُ لَا تَتَنَزَّلُ بِهِ الشّياطين.

إنَّ الشياطينَ إذا أوحَتْ شيئاً إلى قُرنائِهِمْ مِنَ البَشَر، فإنَّها تُوحِي بالكُفْرِ باللَّهِ، وبجُحُودِ الحقِّ، وبإنْكَارِ الجزَاءِ، وبالتّكْذِيبِ بيَوْمِ الدِّين، وبنَشْرِ كلّ رَذِيلَةٍ، وبِمُحَارَبَةِ كلّ فَضِيلَة، وتُزَيِّنُ كلَّ ذٰلِكَ بزُخْرُفٍ مِنَ القَوْلِ، لِلإيهَامِ بصِحّةِ ما تُوحِي بِهِ وتَدْعُو إلَيْهِ.

وأمّا غَيْرُ الشَّيَاطِين مِنَ الجِنِّ، فَإذَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ، فَإنَّهُمْ يَخَافُونَ عذابَ اللَّهِ فَلَا يَفْتَرُونَ عَلَيْهِ، وَإذَا كانُوا أصْحَابَ أدْيَانٍ ومَذَاهِبَ مُنَافِيَةٍ لِلإسْلَام، فَإذَا شَاءَ بَعْضُهُمْ أنْ يُوحِيَ إلى بَشَرٍ بِشَيْءٍ فَإنَّهُ يُوحِي بِمَا يُؤَيِّدُ دِينَهُ أوْ مَذْهَبَهُ، ولَا يُوحِي بما يُضَادُّه أوْ يُنَاقِضُه.

وبِهٰذا تَسْقُطُ فِرْيَةُ أنَّ الْقُرْآنَ أمْلاهُ على مُحَمَّدٍ قَرِينٌ لَهُ أوْ قُرَنَاءُ مِنَ الجِنِّ، شَيَاطِينَ كَفَرَةً أوْ غَيْرَ شَيَاطِينَ.

القضيَّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾: أيْ: وَمَا يَصْلُحُ للشَّيَاطِينِ، وَمَا يَتَسَهَّلُ لَهُمْ أنْ يُوحُوا بالقرآنِ لأحَدٍ.

فمبادئُ القُرْآنِ، وَتَعْلِيماتُه، وَوَصَايَاهُ، مُنَافِيَةٌ لِمَبَادِئِ الشَّيَاطِينِ، وتَعْلِيماتِهِمْ، وَمَا يَحْرِصُونَ على إغْرَاءِ النَّاسِ به. وإعْجَازُ القرآنِ في مبانيه، وفي معانِيهِ، مِمَّا تَعْجَزُ الشَّيَاطِينُ عَنْهُ، ويَعْجَزُ عَنْهُ سَائِرُ الجِنِّ والإنْسِ، فَلا يَنْبَغِي لَهُمْ ولَا لِغَيْرِهِمْ أنْ يُوحُوا به.

القضيَّة الثالِثَة: دلَّ علَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: أي: وَمَا يَسْتَطِيعُ الشَّياطِينُ أنْ يُؤَلِّفُوا القرآنَ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ، لأنَّهُمْ عَاجِزُونَ هُمْ وكُلُّ الجِنِّ مَعَ الإنْسِ عَنْ أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وَمَا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَسْتَرِقُوا اسْتِمَاعَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ، إذْ عُزِلُوا بالقَهْرِ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ، كما سَبَقَ بَيَانُهُ لدَىٰ تَدَبُّر سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

حُذِفَ المفعول به وهو مُلاحَظٌ تقديراً، ويَسْهل إدْرَاكُهُ ذِهْناً.

القضيَّة الرابعة: دلَّ علَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾، أي: لَمُبْعَدُونَ مَطْرُودُونَ.

يُقالُ لغة: «عَزَلَهُ يَعْزِلُهُ عَزْلاً» أي: أَبْعَدَهُ ونَحَّاهُ.

وسبق لدَى تدبُّر الآيات من (٨ ـ ١٠) من سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) شَرْحُ وتَفْصِيلُ عَزْلِ الجنّ عن اسْتِراقِ السَّمْعِ مِنَ المَلَائِكَةِ في السماء، وهي قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايةً لِأقْوَالِ النَّفَرِ مِنَ الجنّ الّذين اسْتَمَعُوا القُرآنَ من الرَّسُولِ ﷺ وآمَنُوا بِهِ:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)﴾.

* * *

قول اللَّه عزَّ وجلَّ خِطاباً للرَّسُولِ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ في توجيه تَرْبَوِيّ، موصول بالآيتين (٣ و٤) في أوَائِلِ السُّورة، وبالآياتِ من (١٩٢ ـ ١٩٦) من أوّل هذا الدرس الثالث.

- ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾:

وفي القراءة الأخْرَى [فَتَوَكَّلْ] بالْفاءِ بَدَلَ الواو، والقراءتان متكاملتان في الدَّلالةِ على المَعْنَىٰ المُراد، أي: فإنْ عَصَوْكَ عِصْياناً شَدِيدَ الإيلَام لقلبِكَ ونَفْسِكَ، فبَاشِرْ دون إبطاء بالتَّوَكُّلِ على رَبِّكَ العزيز الرَّحِيم. وإنْ عَصَوْكَ عِصْياناً عادِيّاً مُتَحَمّلاً بالصَّبر، فأنْتَ في فُسْحَةٍ مِنْ أَمْرِكَ أنْ تُبْطِئَ قَلِيلاً بِإعْلَانِ توكُّلِكَ على العزيز الرَّحيم، لأن «الواو» لَا تقتضي ترتيباً ولا تَعْقِيباً.

هذا التوجيه التربَوِيُّ يَشْتَمِلُ على أرْبَعِ قضايا:

القضيَّة الأولى: دلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣)﴾:

أي: فتفريعاً على كَوْنِ القرآن تنزيلَ رَبِّ العالَمِين، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ على قَلْبِكَ يا مُحَمَّدُ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ، لَا تَدْعُ لَدَىٰ قِيامِكَ بوَظَائِفِ رِسَالَتِكَ مَعَ اللَّهِ مَعْبُوداً آخرَ غَيْرَ اللَّهِ، فتكُونَ إنْ دَعَوْتَ إلٰهاً آخرَ

مَعَ دُعَائِكَ اللَّهَ مُعَذَّباً مِنَ المُعَذَّبِينَ المُشْرِكِينَ، لأنَّكَ بِدُعَائِكَ إلٰهاً آخَرَ تَكُونُ مُشْرِكاً مِنَ المُشْرِكِينَ، أي: بعبادتِكَ إلٰهاً آخر.

خاطَبَ اللَّهُ رَسُولَهُ بهٰذا الخِطَاب، مَعَ أَنَّهُ ﷺ ما كانَ، ولَا هُوَ كَائِنٌ عِنْدَ الخطاب، ولَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبلاً مِنَ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ويَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إلٰهاً آخَرَ، إذْ هُوَ مَعْصُومٌ عَنْ كُلِّ مَعَاصِي مَرْتَبَةِ المُتَّقِينَ بِعِصْمَةِ اللَّهِ لَهُ، لِيَعْلَمَ الكَافِرُونَ، ولِيَعْلَمَ المُؤْمِنُونَ ولا سِيما الدُّعاة إلى اللَّهِ مِنْهُمْ، أنَّ الرَّسُولَ مُخَاطَبٌ بعَقَائِدِ الإيمانِ وبِشَرَائِعِ الإسْلَامِ وأحْكَامِهِ بِوَصْفِهِ أَوَّلَ مُخاطَبٍ بها، فَلَا إعْفَاءَ لَهُ بِاعْتِبَارِهِ رَسُولاً مَفَضَّلاً مُخْتَاراً، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ أَوّلَ المُؤْمِنِينَ، وأَوَّلَ المُسْلِمِينَ، والأُسْوَةَ الحَسَنَةَ لِكُلِّ المُكَلَّفِين.

وإذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ وحَبِيبُهُ المُصْطَفَىٰ غَيْرَ مَعْفِيٍّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُعَذَّباً مِنَ المُعَذَّبِينَ، لَوْ أَنَّهُ أَشْرَكَ فَدَعَا مَعَ اللَّهِ إلٰهاً آخَرَ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ دُونَهُ مِنَ المَنْهِيِّينَ عَنْ أَنْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً، أَوْ يَدْعُو مَعَ اللَّهِ إلٰهاً مَعْبُوداً آخر.

﴿فَلَا تَدۡعُ﴾ : أَصْلُ معنى الدُّعَاء، النّداءُ، والطَّلَبُ، والدُّعاء للَّهِ مِنْ أَجَلِّ أنواعِ عبادَتِهِ، وحَمَلَ الدُّعَاء مَعْنَىٰ العبادَةِ بوجهٍ عامّ في الاستعمال.

فالمعنى: فَلَا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ إلٰهاً آخر.

القضيَّة الثَّانِيَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾: وهذا يَنْسَحِبُ على كلّ داعٍ إلى اللَّهِ من أُمَّتِهِ.

هذه الآيَةُ تَكْشِفُ أنَّ الَّذِينَ حَزِنَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ أَجْلِهِمْ وحَمَلَ هَمَّ الخَوْفِ عَلَيْهِمْ أنْ لَا يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، فيكونوا مِنَ الخالِدِينَ في عذابِ النَّار يوم الدّين، والّذِين قال اللَّهُ له بشأْنهم في أوَائِل هذه السُّورَة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، قَدْ كانَتْ عَشِيرَتُهُ الأَقْرَبُونَ من أكثر الّذِينَ كانَ يُعَانِي الحزْنَ والهَمَّ مِنْ أَجْلِهِمْ، خَوْفَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وإذْ قَدْ

وَصَلَ هٰؤُلَاءِ إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا أنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيق إراداتهِمُ الحرَّة، وأنَّ حَالَتَهُمْ يُنَاسِبُهَا تَوْجِيه الإنْذارِ الختامِيّ لَهُمْ، فَقَدْ عَالَجَهُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ بكُلِّ مَرَاحِلِ العِلَاجِ البياني، مع شَيْءٍ من عِلاجِهِمْ بالبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ، وِفْقَ سُنَّةِ اللَّهِ في الأُمَمِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ.

والمَعْنَىٰ: فَوَجِّهْ إنْذَارَكَ الخِتَامِيَّ لِلْمَعْنِيِّينَ بالمُعالَجَةِ في هٰذِهِ السُّورَة، وابْدَأْ بإنْذَارِ عَشِيرَتِكَ الأَقْرَبينَ مِنْهُمْ، لأنَّ البَدْءَ بِهِمْ يَدُلُّ الآخرين على أنَّكَ مُتَجَرِّدٌ في دَعْوَتِكَ مِنْ عَوَاطِفِكَ نَحْوَ الأقْرَبِينَ مِنْ عَشِيرَتِكَ، إذْ إنَّكَ تَبْدَأُ بِهِمْ في تَوْجِيهِ الإنْذَارِ الختامِيّ لَهُمْ، بأنَّهُمْ قَدْ عَرَّضُوا أنْفُسَهُمْ لانْتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ بإنْزَالِ العَذَابِ المُهْلِكِ لَهُمْ، وتَفْعَلُ هٰذا طاعَةً لِرَبِّكَ، وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

هذا الفهم هو الّذي يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّبَاقُ والسِّيَاقُ في السُّورَة.

ولٰكِنْ يُشْكِلُ مَعهُ مَا جَاءَ في صَحِيحِ البخاريّ عن ابْنِ عباس أنّ آيَة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وتطبيقَ الرَّسُولِ ﷺ لَها بإنْذارِ عَشيرَتِهِ الأَقْرَبِينَ، قَدْ نَتَجَ عَنْهُ قولُ أبي لَهَبٍ للرَّسُولِ: تَبّاً لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، ألِهٰذا جَمعْتَنَا؟! فنزلَتْ سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾، وهِيَ فيما ذكَرُوا السُّورَة السَّادِسَةُ مِنَ التَّنْزِيلِ المكّي، وتَرْتِيبُ سورة (الشّعراء) عِنْدَ عُلَماءِ عُلُومِ القرآن (٤٧) ولَيْسَ في هذه السُّورَةِ ما يُشْعِرُ بأنَّها مِنْ أوَائِلِ التّنزيل المكيّ.

والحلّ أنّ آيَةَ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قَدْ نَزَلَتْ على الرَّسُولِ تَكْليفاً قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ (المَسَد) فأدّىٰ الرَّسُول ﷺ ما جاء فيها تبليغاً وإنْذاراً أوَّلِيّاً، ثُمَّ نَزَلَتْ في سُورَةِ (الشعراء) لِيُقَدِّمَ لِعَشِيرَتِهِ الإنْذارَ الأخِيرَ، بَعْدَ وُصُولِهِم إلى دَرَكَةٍ مَيْؤوسٍ معها مِنْ إيمانِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرادَاتِهِمُ الحرَّة(١).

---

(١) فتح اللَّهُ عليّ بهذا الفهم، مستفيداً ممّا ذكره الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية في سورة (الشعراء) مع مخالفةٍ له في بعض الرأي.

﴿عَشِيرَتَكَ﴾: عَشِيرَةُ الرَّجُلِ بَنُو أَبِيهِ الأَقْرَبُونَ، وقبيلتُه.

ممَّا وَرَد في السُّنَّة بِشَأْنِ آيَة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾:

(١) روى البخاري ومُسْلِمٌ عن عائِشة، وابنِ عباسٍ، وأبي هريرة:

«لمَّا نزلَتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، قامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ على الصَّفَا، فدَعَا قُرَيْشاً فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْر، يا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجعَلَ الرَّجُلُ إذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فقالَ:

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فعَمَّ وخَصَّ، يا بني كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أنقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِم، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، اشْتَرُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.

غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا».

أي: سَأَرُشُّ عَلَيْهَا مَاءً مِنْ عِنْدِي في الحياةِ الدُّنْيا، وفي هذه العِبارة كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُ سَيَصِلُهُمْ في الدُّنْيَا بِصِلاتٍ تَقْتَضِيهَا الرَّحِم، ولكنَّه لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِنَافِعَةٍ إذَا لَمْ يُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا.

(٢) ورَوىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ وغَيْرُهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال:

«لَمَّا نَزَلَتْ هٰذِهِ الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشاً وعَمَّ وخَصّ، فقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ

النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤيّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي قُصَيّ، أَنقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمّد، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكِ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، إِلَّا أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّها بِبِلَالِها».

(٣) وروىٰ البخاريّ عن ابنِ عبّاسٍ قال:

«لمَّا نزلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ صَعَدَ النَّبِيُّ علىٰ الصَّفَا، فجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْر، يا بَنِي عَدِيّ، لِبُطُونِ قُرَيْش، حَتَّىٰ اجْتَمَعُوا فجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً، لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ، فقال:

«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخبرْتُكُمْ أنّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُم أَكُنْتُم مُصَدِّقِيَّ؟»

قالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقاً.

قال: «فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

فقال أبو لَهَب: تَبّاً لَكَ سَائِرَ الْيَوْم، إِلِهٰذا جَمَعْتَنَا؟!

فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾.

وتوجَدُ رِوايات أخرى، منها الصحيح ومنها الضعيف، أوْرد عدداً منها ابنُ كثيرٍ في تفسيره.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عليها قول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ

ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾: وهٰذا التَّوْجِيهُ يَنْسَحِبُ أيضاً على الدُّعاة إلى اللَّه مِنْ أُمَّةِ محمّد ﷺ، وعلى أئِمَّةِ المُتّقِينَ الَّذِينَ يَهْتَدِي بِهِمُ المُؤْمِنُونَ عِلْماً وعَمَلاً.

والمراد بخفض الجَناح للمؤمنينَ، التَّواضُعَ لَهُمْ، والرَّحْمَةُ المُلْتَصِقَةُ بهم، والحُنُوُّ عَلَيْهِمْ، وضَمُّ أفرادِهِمْ كأنَّهُمْ أُسْرَةٌ واحِدَةٌ، والهيمَنَةُ عليهم.

هكذا يخفضُ الطائر الحَانِي جَناحَهُ على فِراخِهِ تواضعاً، وحنوّاً، ورَحْمَةً، وضَمّاً، وهَيْمَنَةً. وقَيْدُ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُشْعِرُ بأَنَّ مَنْ يَتَّبِعُكَ مِنَ المنافقين لَا يَسْتَحِقُّون أن تخفض جناحك لهم.

هذه العبارة: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ هي من التشبيه المكْنِيّ (وهو تَشبيهٌ مُضْمَرٌ لم يُذْكَرْ فيه لفظُ المُشَبَّهِ بِهِ، وإنَّما ذُكِرَ فيه بَعْضُ صِفاتِهِ، أو بعضُ خصائصِهِ، أو بعضُ لوازمه) وأصْلُهُ تَشْبيه بَلِيغٌ⁽¹⁾.

ففي هذه العبارة تَشْبِيهُ التواضُعِ والرَّحْمَةِ وضمِّ الأفرادِ والهَيْمَنَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ الإمام لِمَنِ اتَّبَعَهُ، بخَفْضِ الطَّائِرِ جناحَهُ مُنْكَسِراً لِفراخِهِ، ولكِنْ أُضْمِرَ التَّشْبيه، فَلَمْ يُذْكَرْ لَفْظُ المُشَبَّهِ به، وإنَّما كُنِّيَ عَنْهُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفاتِهِ وهُوَ الجناح.

فالمعنىٰ: لتَكُنْ في تواضُعِكَ ورَحْمَتِكَ وحُنُوِّكَ وهَيْمَنَتِكَ كطَائِرٍ يَخْفض جَنَاحَهُ لفراخِهِ، فحُذِفَتْ أوّلاً أداةُ التشبيهِ، فصارَ تَشْبيهاً بَلِيغاً، ثُمَّ حُذِفَ لفظ المشبَّهِ به، ورُمِزَ إلَيْهِ بشيءٍ من صفاتِهِ، وهو الجناح، الّذي يخفضُهُ الطائرُ لفراخِهِ تَذَلُّلاً ورَحْمَةً وحُنُوّاً.

---

(١) اعتبار هذا المثال ونظيره من التشبيه المكني، هو ما ترجّح لديّ في كتابي: «البلاغة العربيّة»، ويجعلُه كثير من الباحثين والكاتبين من الاستعارة التخييليّة المكنيّة، بسَبَبِ عدم فرز قسم التشبيه المكنيّ عن التشبيه البليغ. انظر: «التشبيه المكني» في الصفحات من (٢٠٤ ـ ٢٠٨) منه.

الخفض في اللُّغة: التواضُعُ ولين الجانب، والمَيْلُ إلى المنخفض مِنَ الأرض، وهو ضدّ الرفع.

القضيَّة الرابعة: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾: وهذا التوجيه يَنْسَحِبُ أيضاً على الدُّعاةِ إلى اللَّهِ.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾: أي: فإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَتِكَ، ولَمْ يُؤْمِنُوا، ولَوْ كانُوا عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِين.

﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أي: فَقُلْ لَهُمْ بِصَرَاحَةٍ لَا مُدَارَاةَ فيها ولَا مُصَانَعَة: إنّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُون. أي: إنّي مفارقٌ ومُبْتَعِدٌ ومُتَخَلٍّ عَمَّا تَصْنَعُونَ، ولَنْ أدْفَعَ عَنْكُمْ شَيْئاً من عقاب اللَّهِ، وقرابتي لن تَنْفَعَكُمْ بشيءٍ.

ولَمَّا كانَ الكُفْرُ بالحقِّ مِنْ أَعْمَالِ القُلُوبِ الإراديَّة، كانَ إعْلَانُ تبرّئِهِ مِمَّا يَعْمَلُونَ تَبَرُّأً مِنْ كُلِّ كُفرِياتِهِمْ، وآثامِهِمْ الظاهِرَة والباطِنَة.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: **[فتوكل]** وسبَق بَيَانُ التَّكامُلِ بَيْنَ القراءَتَيْن.

وفي الأمْرِ بالتَّوَكُّلِ إشعارٌ ضِمْنِيٌّ بأنَّهُ رُبَّما يُلَاقِي من الّذِينَ يُعْلِنُ لهم براءَتَهُ ممَّا يَعْمَلُونَ، إرادةَ شَرٍّ أو ضُرٍّ أو أذىً، وعَلَيْهِ تُجاهَ ما يَتَوَقَّعُ مِنْهُمْ ضِدَّهُ أو ضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، أنْ يَتَوَكَّلَ على رَبِّهِ العزيزِ الرّحيم.

﴿وَتَوَكَّلْ﴾: أي: وَوَجِّهْ قَلْبَكَ للتَّوَكُّلِ على اللَّهِ رَبّك، وحَرِّكْ فِكْرَكَ ولِسانَكَ بعِبَارَة: تَوَكَّلْتُ على العَزِيزِ الرَّحِيم.

التَّوَكُّلُ على اللَّه: الاسْتِسْلامُ إلَيْهِ، وتَفْويض تَدْبيرُ الأُمُورِ وتَحْقِيقِ المَرْجُوِّ إِلَيْهِ، مَعَ القِيَامِ بالأسْبَابِ المُسْتطاعَةِ، المادِّيَّة والمَعْنَوِيَّة طاعَةٍ لأمْرِ اللَّهِ ونَهْيِهِ.

يقال: «تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلُ تَوَكُّلاً»، أي: اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ اعتماداً صادِقاً، مُسْتَسْلِماً لما يختارُهُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ، مع قيامه بالأسْباب الكَوْنِيَّة، الّتي لَمْ يُحَرِّمِ اللَّهُ اتِّخاذَها، دُونَ تَفْرِيطٍ بِشَيْءٍ منها.

واخْتِيرَ هُنا بعِنَايَةٍ اسْمُ اللَّه «العزيز» واسْمُ اللَّهِ «الرَّحِيم» إذْ يَقْصِمُ بعِزَّتِهِ مَنْ أَرَادَ المتوكِّلَ عَلَى رَبِّهِ بِسُوء. ويَشْمَلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ، فيَحْمِيهِ ويَحْفَظُهُ ويُعِينُهُ.

العزيز: القَوِيُّ الغَالِب، من قولهم: مَنْ عَزَّ بَزّ، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ.

الرَّحِيم: أي: العظيمُ الرَّحْمَةِ كمّاً وكَيْفاً.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾:

أي: إنَّ تَوَكُّلَكَ على رَبِّكَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ مَعْلُومٌ لَهُ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ من أُمُورِكَ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ صَغِيرَةٌ ولَا كَبِيرَة.

وأعْلَمَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنَّهُ يَرَاهُ حِينَ يَقُومُ عابداً رَبَّهُ بالقيام ليلاً، وحِينَ يَتَقَلَّبُ رَاكِعاً وسَاجِداً لِرَبِّهِ ضِمْنَ السَّاجِدِينَ، وحِينَ يَذْكُرُ اللَّهَ في صَلَوَاتِهِ، وحِينَ يَدْعُوهُ مُتَضَرِّعاً له.

السُّجُود: يَشْمَلُ الرُّكُوعَ لُغَةً، إذْ هُوَ الانْحِناءُ والتَّطامُن، وغايَتُهُ وَضْعُ الجَبْهَةِ على الأرض.

ودَلَّ على أنَّهُ في صَلَواتِهِ يَتْلُو القرآن، ويُرَدِّدُ الأذكار، ويَدْعُو رَبَّهُ، ما جاء في الآيَةِ التالية:

- ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾: أي: إنَّ العَزِيزَ الرَّحِيمَ هو وَحْدَهُ في الوجود السَّمِيعُ لكلّ شَيْءٍ والعَلِيمُ بكُلِّ شَيْءٍ، فبِعِزَّتِهِ وبِرَحْمَتِهِ يَنْصُرُهُ على مَنْ يُرِيدُهُ بِسُوءٍ أو ضرٍّ أو شرّ.

فالسَّمِيعُ العليم البصير العَزيزُ الرَّحِيم، لَنْ يتخلّى عن نُصْرَة من يَتَوَكَّلُ عليه من عباده، فكَيْفَ به إذا كان رَسُولاً من رُسُلِهِ المصطفَيْن الأخيار، ثم كَيْفَ به إذا كانَ سَيِّدَ المُرْسَلِينَ.

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾:

في هذه الآيات عَوْدٌ لِلْحَدِيثِ عن الشياطين الوارد قَبْلَ ثَمَانِي آيات، على طَرِيقَةِ القرآنِ في المُرَاوَحَةِ، ونَقْلِ الطَّاعِمِ مِنْ مَائِدَتِهِ عَنْ لَوْنٍ من ألوانِهَا إلى غَيْرِهِ، والعَوْدَةِ بِهِ إلَيْهِ، لما في هٰذا مِنْ تَجْدِيدِ نَشَاطِ الذِّهْنِ لتناوُلِ المعارف والبيانات الّتي اشْتَمَلَ عليها.

سبقَ أن جاء في الآيات من (٢١٠ ـ ٢١٢) قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ القرآن:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

أمّا الآيات من (٢٢١ ـ ٢٢٣) فالحديثُ فيها يتَعَلَّقُ بالكُهَّانِ الَّذين تَتَنَزَّلُ عليهم الشياطين، لِبَيانِ الفارِقِ العَظِيم بَيْنَ مَنْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، وبَيْنَ رُسُلِ اللّهِ الَّذِينَ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الوَحْيُ من لَدُن رَبِّ العَالَمِينَ، ومِنْهُمْ رَسُولُهُ العظيم مُحَمَّدُ بن عَبْد اللّهِ ﷺ.

إنَّ الفارقَ بَيْنَهُمَا كالفارِقِ ما بَيْنَ العَرْشِ وبَيْنَ مَسَاكِنِ الشياطِين في الأرض.

فالرَّسُولُ الَّذي يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ بآياتٍ من عِنْدِ اللّهِ، طاهِرُ القَلْبِ، طاهِرُ النَّفْس، ذو خُلُقٍ عظيم، واسْتِقَامَةٍ بحَزْمٍ وعَزْمٍ على فضائل السُّلُوكِ،

وعلى مُخْتَلِفِ أنواع الكمالات، ومنها الصِّدْق والأَمَانَة والعِفّة.

أمّا مَنْ تتنزّلُ عَلَيْهِمُ الشّياطينُ كالكُهّانِ، فَمِنْ صفاتهم الواضِحَاتِ فيهم أنَّهُمْ أفّاكُون، كذّابُونَ يَصْرِفُونَ عن الحقِّ والخيرِ والهُدَىٰ، وَيَدْعُونَ آلهةً شُركاءَ للّهِ مِنْ دُونِهِ، فَهُمْ فاسِدُونَ كالشياطِين الّتي تَتنزّلُ عليهم.

- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾:

استفهامٌ يُرادُ به استثارةُ حوافِزِ النَّفْسِ، لمعرفةِ الفِئَةِ من النَّاسِ الذين تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِين، فَتُوحِي إِلَيْهِمْ بالضَّلاَلاَتِ، وزُخْرُفِ الأقوال، ويُرادُ به الإخبارُ بأمْرٍ حقٍّ، أيْ: إنّي أُنَبِّئُكُمْ بصفاتِ الفِئَةِ من الناس الَّذِينَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، فاسْمَعُوا وعُوا، وقارِنُوا بَيْنَ صِفَاتِ الرُّسُلِ وصِفاتِ الكُهّان.

- ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ جوابُ مَنْ يقول: نعم على الاستفهام بحرف الاستفهام [هَلْ].

﴿أَفَّاكٍ﴾: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل من فِعْلِ: «أفَكَ، يَأْفِكُ، أَفْكاً، وإِفْكاً، وأُفوكاً» و«أَفِكَ، يَأْفَكُ، إفْكاً»، وهذا الفعل وتصاريفه يأتي بمعنَىٰ «كَذَبَ عامداً مُفْتَرِياً»، وبمعنى «صَرَفَ الشَّيْءَ عَنْ وَجْهِهِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْه».

فمعنى «أفّاك» كذّابٌ مُفْتَرٍ. كثيرُ صَرْفِ الأشياء عن وُجُوهها الّتي يَنْبَغِي أنْ تكونَ عليها. وهذان الوصفان من أوصاف الشياطينِ مِنَ الإِنْسِ والجنّ، أي: فشياطينُ الجِنِّ تَتَنَزَّلُ على أوليائهم من شياطين الإنس.

﴿أَثِيمٍ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل، «آثِم» أي: كثير ارْتِكابِ الإثم مِنْ كبائر الذنوب.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾: أي: يُبَالِغُونَ في شِدَّةِ الإصغاء لشياطين الجنّ، لالتقاط الأخبار عَنْهُمْ، حتَّىٰ كأنّ أسماعَهُمْ مُلْقَاةٌ مِنْ مواضِعِها على ما يُخْبِرُهُمْ بِهِ شياطين الجنّ، لأخذه باسْتيعابٍ كامل، كمَنْ يُلْقِي كُلَّ كَفِّهِ على ما يَقْبِضُ من طعامٍ أو غيره مما يُحِبُّ أن يأخذ مِنْهُ أكْبَرَ قَدْرٍ يَسْتَطِيعُ أخْذَه.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾: أي: وأكْثَرُ هؤلاء الكَهَنَةِ وسائر الَّذِينَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، كاذِبُونَ فيما يُخْبِرُونَ عَنْ أوليائهم من شياطين الجنّ.

وجاء بيان هذا في عدّة رواياتٍ عن النبيّ ﷺ.

مما جاء في السُّنَّة عن تَلَقِّي الكُهَّانِ والسَّحَرَةِ مِنْ شياطينِ الجنّ:

(١) روى البخاري عن عائشة أمّ المؤمنين رضي اللّه عنها قالت: سَأَلَ ناسٌ النبيّ ﷺ عَنِ الكُهّان؟ فقال:

«إنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ».

قالوا: يا رَسُولَ اللّهِ فإنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بالشَّيْءِ يَكُونُ حَقّاً.

فقال النبيّ ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُها الجِنّي، فَيُقَرْقِرُهَا في أُذُنِ وَلِيِّهِ، كَقَرْقَرَةِ الدّجاج، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ كَذْبَةٍ».

(٢) وروى البخاري عن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إذا قَضَىٰ اللّهُ الأمْرَ في السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوان، فَإذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قالوا: مَاذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالُوا لِلَّذِي قالَ الحقّ وهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، ومُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْض».

وصفه سُفْيانُ أحَدُ رُواةِ الحديث بِيَدِهِ فحرفَها وبَدّدَ بَيْنَ أصابِعِهِ:

«فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إلى مَنْ

تَحْتَهُ، حتَّىٰ يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَا، ورُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وكَذَا، كَذَا وكَذَا، فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

(٣) وروىٰ البخاريّ عن عُرْوَة عن عائشة، عن النبيّ ﷺ أَنَّهُ قالَ:

«إنَّ الْمَلَائِكَةَ تُحَدِّثُ في الْعَنَانِ (والعَنَانُ: الغَمَامُ) بالأَمْرِ في الأرض، فتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الكَلِمَةَ، فَتُقِرُّهَا في أُذُنِ الكَاهِنِ كَمَا تُقِرُّ القَارُورَة، فيَزِيدُونَ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَة».

وتوجَدُ روايات أُخْرَى وبَعْضُها عِنْدَ مسلم في صحيحه.

قول اللَّه عزّ وجلّ يصف الشعراء بأنّهم غَيْرُ مُؤَهَّلِينَ لِتَلَقِّي الوَحْيِ الرَّبَّاني، لِدَفْعِ اتِّهامِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ بأنَّهُ شَاعِرٌ، وأنَّ مَا يَتْلُوهُ من القرآن لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الشِّعْر:

﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾:

تمهيد:

سبق أن عرفنا أن أبرز مَقَالَاتِ المَعْنِيّينَ بالمُعَالَجَةِ في السّورة، إبَّانَ نزول سورة (الشّعراء) كانت تَدُورُ حول زَعْمَيْن ساقِطَيْن:

الزّعم الأوّل: أنّ القرآن نوعٌ من أنواع أقوال الكُهَّانِ والسَّحرة، وأنَّ هؤلاء يَتَلَقَّوْنَ عن أَوْلِيَائِهِم من الجِنّ، وعلى هذا فمحمّدٌ كاهِنٌ، أو ساحر.

وقد سبَقَ في الآيات بيانُ الفَرْقِ الشاسع بَيْنَ آيَاتِ القرآن، وبَيْنَ

أقوال الكَهَنَةِ وأقوال السَّحَرَة، وبيان الفَرْقِ بَيْنَ الرَّسُولِ الذي يتلقَّىٰ الوَحْيَ عن رَبِّهِ، في كمالاتِهِ الفكريَّة والنفسيَّةِ والسُّلُوكِيَّة القائمة على الطهارة والنقاء والفضائل، وبين مَنْ يَتَلَقَّوْنَ عن الجنّ الذين هم في الحقيقةِ شياطين، سواءٌ أكانوا كهنَةً أمْ سَحَرة، إذْ هم أخباثٌ أفَّاكُونَ أثِيمُون، يُلقُون السَّمْعَ إلى شياطينهم، فيتلَقَّوْنَ عنهُمْ، ويضيفون مِنْ عِنْد أنْفُسِهِمْ، أكاذيب إلى ما سَمِعُوهُ مِنْ شَياطِينِهِمْ، ويُحَدِّثُونَ بها النّاس.

الزَّعْمُ الثاني: أن القرآنَ نَوْعٌ من أنواع الشِّعْر، وقَدْ كانَ قائماً في أذْهَانِ العَرَبِ قَبْلَ الإسْلَام، أنّ لِكُلِّ شاعِرٍ شيطاناً يُوحِي إليه بالشِّعْر، واسْتَغَلَّ أئمّة الكُفْرِ هذا لإطْلَاقِ فِرْيَة أنَّ محمّداً شاعِرٌ، ولَيْسَ رَسُولاً مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ.

وقَدْ سبقَ في آياتِ السورة بيانُ الفرق بين القرآن وبين معظم فنون الشِّعر، المعروفة في الجاهليّة، في الأساليب، وفي الأغراض، وفي المجالات الفكريّةِ والنفسيّة التي ينْظِمُ فيها الشّعراء شِعْرَهم، إنَّهُ كالفَرْقِ الشّاسِعِ بَيْنَ العَرْشِ وبين الأرض حَيْثُ يَنْظِمُ الشّعراء قصائدهم، ويَرْسُمُونَ فيها أخْيِلَتَهُمْ، ويَتَّبِعُونَ فيها أهواءهم، ويُطْلِقُونَ مِنْ خِلَالِهَا أكاذِيبهم.

وفي هذه الآيات من (٢٢٤ ـ ٢٢٧) بيانُ الفرق الشّاسِع بَيْنَ صِفاتِ الرَّسُولِ وبين الصِّفَاتِ التي يتَّصِفُ بها الشُّعَراء غالباً، باستثناء المؤمنين الَّذِينَ يَمْنَعُهُمْ إيمانُهُمْ وإسْلامُهُمْ مِن اتِّبَاعِ أهْوَائِهِمْ وشَهَواتِهِمْ ومصالحهم التَّكَسُّبِيَّة، ومِنِ افْتِراءِ الأكاذيب.

التدبُّر التحليليّ:

قول اللَّه عزّ وجلّ:

- ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾:

سَبَقَ في الآية (٢١٥) توصِيَةُ اللّه عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ بأنْ يَخْفِضَ جناحَه لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ المُؤمِنِينَ، وفي هٰذا إشارة ضِمْنِيَّةٌ إلى أنَّ أتْبَاعَ الرَّسُولِ الصَّادِقِينَ، هم الَّذِين يُؤْمِنُونَ بالحقّ، ويَهْتَدُونَ بهُدَىٰ اللّهِ الّذي أنْزَلَهُ على رَسُولِهِ، واتَّبَعُوا الرَّسُولَ لِمَا رَأَوْا عِنْدَهُ من الحقّ والخَيْر والهُدَى والفضائل والكمالات.

وهذا يَسْتَدْعي المُقارَنَةَ بيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ الشَّاعِر، من خِلَالِ التَّفَكُّرِ بَيْنَ أتْبَاعِ الرَّسُولِ، وبين أتباع الشُّعراء.

وإذا كان المؤمنون الصادقون هم أتباعَ الرَّسُول، وكان أتْبَاعُ الشُّعراء هُمُ الغَاوِينَ، وكان الغاوُون لَا يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ صادقين، كان هٰذا دَلِيلاً من واقِعِ حال الأتْباع أنَّ الرَّسُولَ محمّداً ليس بِشاعِرٍ، وأنّ القُرْآنَ لَيْسَ بِشِعْر.

فلَوْ كانَ الرَّسُولُ محمَّدٌ شَاعِراً لاتَّبَعَهُ الغَاوُون، ولَمْ يَتَّبِعْهُ المُؤْمِنُونَ طالِبُو الهِدَايَة، ومُحِبُّو الاسْتِقَامَة على صراطِ اللّهِ، الحريصُون على سُلُوك سَبيلِ الرُّشْدِ.

﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: هُمُ الضَّالُّونَ الفاسِدُون، الَّذِينَ يَتْرُكُونَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عَنْ قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ اتّباعاً للهوىٰ.

وإذا كانَ الغَاوُونَ هُمْ أتْبَاعَ الشُّعَراء، فكَيْفَ تَكُونُ أحْوَالُ المَتْبُوعِين، إنّ مَزَالِقَ الشِّعْرِ كَثِيرَةٌ تُزْلِقُ الشَّاعِرَ إلى أَوْدِيَةِ الفِسْقِ والفُجُورِ والكَذِب، وهِجَاءِ الفُضَلَاءِ ظُلْماً وعُدْوَاناً، ومَدْحِ الأَرْذَلِينَ وَالأَخَسِّينَ استجداءً، وللنِّكايَة بأعْدَائِهِمْ زُوراً وبُهْتاناً، وقَلَّما يَتَّجِهُ شِعْرُهم إلى ذُرُواتِ الفَضَائِلِ والكمالَاتِ، بَلْ يَنْحَدِرُ غالباً إلى أوْدِيَةٍ سَحِيقَةٍ من أوْدِيَةِ الغَوَايَة، باستثناء الشُّعراء المؤمِنينَ الّذين يَخْشَوْنَ اللّهَ رَبَّهُمْ، ويُوَظِّفُونَ شِعْرَهُمْ في تَأْيِيدِ الحقِّ والخَيْرِ والفَضائِل.

قول اللّه عزّ وجلّ عَنِ الشُّعراء:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾: أي: اسْتَقْرِئْ أَيُّها المتفكِّرُ البَاحِثُ إذا كُنْتَ لَا تَعْلَمُ، أَحْوَالَ مُعْظَم الشُّعَراء، فإنَّكَ سَتَجِدُهُمْ في الأَوْدِيَةِ يَهِيمُونَ، وقَلَّمَا يَصْعَدُونَ في اتِّجَاهِ الذُّرُوَاتِ.

﴿يَهِيمُونَ﴾: أي: يَسِيرُونَ في حَيَاتِهِمْ على غَيْرِ خُطَّةٍ سابِقَةٍ، وعلى غَيْرِ هُدًى واضِحِ المعالِم، بَيِّنِ المَسَالِكِ، بَلْ تُسَيِّرُهُمْ أهْوَاؤُهُم وشَهَوَاتُهُمْ ورغباتُهُمْ آناً فآناً، دُونَ أنْ يَعْلَمُوا غايَةً يَسْعَوْنَ لِتَحْقِيقِهَا.

يقال لغة: «هَامَ فُلَانٌ يَهِيمُ هَيْماً، وهَيَمَاناً»، أي: خَرَجَ على وَجْهِهِ في الأَرْضِ لَا يَدْرِي أيْنَ يَتَوَجَّهُ، فَهُوَ يَذْهَبُ كلَّ مَذْهَبٍ، مُتَحَيِّراً مضطرباً لا خُطَّةَ لَهُ في اتِّجاهِهِ.

الوادي: كلُّ مُنْفَرِجٍ بَيْنَ الجِبالِ والتّلالِ والآكامِ.

والمرادُ هَيَمانُ الأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ والأفكار والأعمال، والمرادُ بالوِدْيَانِ مجالَاتُ أَنْشِطَتِهِمُ العَمَلِيَّةِ والحَرَكِيَّة في الحياةِ، إذْ هُمْ لَا يَخْتَارُونَ مَعَالِي الكَمَالَاتِ والفَضَائِلِ، مثل كمالات المعرفة، والأعمال الّتي فيها نَفْعٌ وخَيْرٌ عَام، ومِثْل الدَّعْوَةِ إلى سَبيلِ اللَّهِ بالحِكْمَةِ والموعظة الحسنة، والمُشارَكَة في الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ، ومثل تَرْبِيَةِ الأجْيالِ على الفضائِلِ، بل يَتَعَلَّقُونَ بالتُّرَّهَاتِ، وسَفَاسِفِ الأُمورِ، فَيُضَيِّعُونَ أعْمَارَهُم بالمَدِيحِ لاسْتِجْداءِ العَطَايَا، أو بهجاء الَّذِينَ لَمْ يُغْدِقُوا عَلَيْهِمْ عَطَايَاهُم، أو بالتفاخُرِ الكَاذِب، أو بالذَّمِ الظَّالِم، أو بِالتَّغَزُّلِ بالعَفِيفَاتِ الشَّريفات، أو بوَصْفِ العِشْقِ اللَّاهِبِ، والبُكَاءِ الصَّاخِب، أو بالتَّزَلُّفِ الكاذِب، إلى غَيْرِ هذه الأمور ممَّا لَيْسَ فيه ذِرْوَةُ جَبَلٍ، أو تَلَّةٍ، أو أكَمَة، بَلْ كُلُّها حَضِيضٌ مُنْحَطٌّ في الوِدْيَانِ، أو قَرِيبٌ مِنْه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام عن نَفْيِ العِلْم، للتَّقْرِيرِ بالعِلْمِ، أو للإعلام بالحقيقة. والمخاطَبُ كُلُّ مُتَلَقٍّ صالِحٍ لِلْخِطَابِ.

- فإذا كانَ عالماً قال: بلىٰ، فأقرَّ بعِلْمِهِ، وتحقَّقَ المطلوب، فالرَّسُولُ ليس شاعراً.

- وإذا لَمْ يَكُنْ عالماً، فالْبَيَانُ القُرْآنِيُّ يقول له: فاعْلَمْ إذاً، واعْلَمْ أنَّ الرَّسُولَ محمّداً مُنَبَّأٌ مِنْ رَبِّهِ وَلَيْسَ شاعِراً.

قول اللّهِ عزّ وجلّ عن الشُّعَراءِ أيضاً:

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾:

ظاهر استعمال الفِعْلِ المضارع الذي يَدُلُّ على الحال والاستقبال في: [**يقولونَ**] وفي [**يفعلونَ**] أنَّهُمْ إذَا قالوا: نَحْنُ نَفْعَلُ الآنَ كذَا فَإِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ في هٰذا القَوْلِ، كَأَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ لِمَمْدُوحِهِ: أنَا أُحِبُّكَ الآنَ وأُمَجِّدُكَ وأعْتَقِدُ أنَّكَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ وأعْظَمِهِم حِكْمَةً وذَكَاءً، وسَمَاحَةً وسَخَاءً، وأنا عَظِيمُ السُّرُورِ والغِبْطَةِ والفَرَحِ بِلِقَائِكَ، مَعَ أَنَّهُ في كُلِّ هٰذا الّذي ذَكَرَهُ كَاذِبٌ لَا يَفْعَلُ في نَفْسِهِ شَيْئاً مِنْهُ.

وكَأَنْ يَقُولَ قائلهم: عِنْدِي أيتامٌ أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ، وأسْعَىٰ في كَسْبِ الرِّزْقِ لِإِطْعَامِهِمْ، وكُسْوَتِهِمْ، وإيوائهم، وتَهْيِئَةِ سائِرِ مطالِب حياتِهِمْ، وأنَا فَقِيرٌ لا مَالَ عِنْدِي، مَعَ أَنَّهُ في كُلِّ هذا الَّذِي ذَكَرَهُ كاذِبٌ، لَا يَفْعَلُ في واقع حاله شيئاً ممّا ادَّعَىٰ.

وأنَّهُمْ إذَا قالُوا: سَنَفْعَلُ في المُسْتَقْبَلِ كذا وَكَذَا، فإنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِيمَا يَعِدُونَ أَنَّهُمْ سَيَفْعَلُونَهُ في المُسْتَقْبَلِ، إذْ لَيْسَ في إرَادَاتِهِمْ الرَّغْبَةُ في أنْ يَفْعَلُوا مَا ذَكَرُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ وَعْدٍ، وإنَّمَا أَرَادُوا به المُخَادَعَة، لِتَحْقِيقِ غَرَضٍ آنِيٍّ لِأَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ كَاذِبُونَ ابتداءً في مَوَاعِيدِهِمْ، لِأَنَّ عَادَتَهُمُ الكَذِبُ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِم ومَنَافِعِهِم مِنَ الدُّنْيا ولَذَّاتِها.

وقياساً على أنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فيما يَقُولُونَ، وهٰذا الكَذِبُ عادَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ لَدَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ باللُّزُومِ الذِّهْنِيِّ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَاضِيهِمْ مِثْلَ

حَاضِرِهِمْ ومُسْتَقْبَلِهِمْ، إذْ لَمْ يَكْتَسِبُوا عَادَةَ الكَذِبِ الَّتِي صارُوا بِهَا كَذَّابِينَ، مَا لَمْ يُمَارِسُوا الكَذِبَ زَمَناً طَوِيلاً قَبْلَ ذٰلِكَ حتَّى اكْتَسَبُوا عادَةَ الكَذِبِ، كما جاء في الصَّحِيحِ من كلام الرَّسُولِ ﷺ:

«وَلَا يَزَالُ الرَّجلُ يَكْذُبُ ويَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّاباً».

فدَلَّتِ الآيَةُ بِمَنْطُوقِهَا وَبِلَازِمِهَا الذِّهْنِيِّ، عَلَىٰ أَنَّ مُعْظَمَ الشُّعراءِ، باسْتِثناء الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً، كَذَّابُونَ.

أي: فالرَّسُولُ محمَّدٌ ﷺ لَيْسَ مِنْ فِئَةِ الشُّعَراءِ الَّذِين زَعَمَ كبراءُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَنَّهُ شاعِرٌ مِثْلُهُمْ، وأنَّ آيات القُرْآنِ الَّتِي يَتْلُوهَا عَلَيْهِمْ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الشِّعْرِ.

فَلَيْسَ القرآنُ مَذْهَباً مِنْ مذاهِب الشِّعْر، ولَيْسَ مُحَمَّدٌ شاعراً من الشُّعراء.

وسبقَ في سورة (يٓس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قول اللَّه عزّ وجلّ بشأنه:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ . . . ﴿٦٩﴾﴾.

قول اللَّه عزّ وجلّ في آخِرِ آيَةٍ مِنْ آياتِ سُورَةِ (الشُّعراء) يَسْتَثْنِي من عموم الشُّعراء الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

اسْتَثْنَى اللَّهُ عزَّ وجلَّ مِنْ عُمُوم الشُّعراء الذين يَكْثُرُ فيهم الغاوُون، الَّذِينَ هُمْ في كلِّ وادٍ يَهِيمُونَ، ويَكْثُرُ فيهمُ الكذَّابُونَ، فِئَةَ الشُّعراء المؤمنين، الَّذِينَ يَتَحلَّوْنَ بثَلاثِ صِفَاتٍ:

الصِّفَةُ الأُولَى: صِفَةُ الإيمان الصادقِ، دَلَّ عَلَيْها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

الصِّفَةُ الثَّانِيَة: مُمَارَسَةُ الأَعْمَالِ الصَّالحة، دلَّ عليها: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

الصفة الثالثة: مُمَارَسَةُ ذِكْرِ اللَّهِ كَثِيراً، دَلَّ عليها: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وَأَذِنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لِهٰؤُلَاءِ بأنْ يَنْتَصِروا لِأَنْفُسِهِمْ بالعَدْلِ، فيما يَقُولُونَ مِنْ شِعْرٍ، إذَا ظُلِمُوا بهِجاءٍ أوْ بِغَيْرِهِ، دُونَ أنْ يَتَجاوَزُوا حُدُود العَدْلِ، وهُوَ مُقابَلَةُ الظُّلْمِ بمِثْلِهِ المأذونِ بِهِ شَرْعاً، كما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

ومِنَ الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ مُقابَلَةُ هِجاءِ المُشْرِكِينَ للرَّسُولِ ولِلْمُؤْمِنِينَ وللقرآن، بهجاءٍ شِعْرِيٍّ مِنْ قِبَلِ الشُّعَراءِ المؤمنين، وقَدْ كانَ هٰذا الإعْلامُ الشِّعْرِيُّ مِنْ أقْوَى وَسَائِلِ الحَرْبِ الإعْلَامِيَّة، في الجاهليّة وفي صَدْرِ الإسْلامِ، واسْتَمَرَّ وَسِيلَةً فعَّالَةً في عِدَّةِ عُصُور.

وفي آخِرِ آيَةِ اسْتِثْناءِ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصالحات من عُمُوم الشُّعراء أنْذَرَ اللَّه عزّ وجلَّ الظَّالِمِينَ الّذِينَ ظَلَمُوا بالطَّعْنِ في دِينِ اللَّهِ، أو بالطَّعْنِ في الرَّسُولِ أو المؤمِنين، بأنَّهُمْ سَيَنْقَلِبُونَ على رُؤوسِهِمْ أذِلَّاءَ خَاسِئِينَ، عقوبةً لَهُمْ على ظُلْمِهِمْ، وسَيَنْصُرُ الرَّسُولَ والمؤمنين عَلَيْهِمْ نصراً عظيماً، وقد تَحَقَّقَ هٰذا بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إلى المَدِينة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿... وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

﴿وَسَيَعۡلَمُ﴾: استعمال «السِّين» هُنَا يُشْعِرُ بأنّ حُصُولَ هذا العِلْمِ يكُونُ في الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الدِّين، لأنّ الغالِبَ في استعمال المؤجَّلِ إلىٰ يوم الدِّينِ في القرآن أن يكونَ بحَرْفِ «سَوْفَ» أمّا «السّين» فالغالِبُ أن يكون لما هو في الدنيا من ثواب أو عقاب.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: أي: الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أهْلِ الكُفْرِ والشِّرْكِ بوجهٍ عامٍّ، ويَدْخُلُ فيهم الَّذِينَ كانُوا يَسْتَخْدِمُونَ الشِّعْرَ وَسِيلَةً لمحاربةِ الإسلام، وشتيمة الرَّسُولِ وهجائه، وشتيمة المؤمنين المُسْلِمِينَ وهجائهم، ولم يَتُوبوا، بَلْ أصَرُّوا على كُفْرِهِمْ وماتُوا عليه، ولم يُتْبِعُوا سَيِّئَاتِهِمْ بالحسنَات.

﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾:

«**يَنْقَلِبُ**» مُطاوِعُ فِعْلِ «قَلَبَهُ يَقْلِبُهُ قَلْباً فَانقَلَبَ»، أي: جَعَلَ أعْلاهُ أسْفَلَهُ، أو بَاطِنَهُ ظَاهِرَهُ، أو يَمِينَه شمالَهُ، ويأتي الفِعْلُ بمعنىٰ صَرَفَهُ.

ويأتي فعل: «انْقَلَبَ» بمَعْنَى رَجَعَ، وبمَعْنَىٰ انْصَرَفَ.

والمعنىٰ الملائِمُ هُنَا انْقِلَابُ حَالِهِمْ مِنَ القُوَّةِ والسُّلْطَانِ والأَمْنِ والعَافِيَة، إلى الضِّعْفِ، والذِّلَّةِ، والخَوْفِ، والعَذَابِ.

[**أيَّ**]: اسْمُ اسْتِفْهام، وهي هُنَا مَفْعُولٌ مُطْلَق لفِعْلِ [**يَنْقَلِبُونَ**]، والتقدير: يَنْقَلِبُونَ ٱنْقِلَاباً أيَّ انْقلاب.

أمّا انْقِلابُهُمْ بمَعْنَىٰ رُجُوعِهِمْ إلى بَارِئِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُلاقُوا عَذَابَهُمْ في الجحيم، إذا أصَرُّوا على كُفْرِهِمْ ومَاتُوا عَلَيْهِ، فَقَدْ دَلَّتْ عليه نُصُوصٌ كثيرَةٌ، والسِّبَاقُ في الآياتِ يُشْعِرُ بأنَّ المُرادَ بالَّذِينَ ظَلَمُوا أئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مكَّة إبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورة، وهُمُ الَّذِينَ كانُوا يُحَرِّضُونَ شعراءَهُمْ على هجاء الرَّسُولِ ﷺ، ومُحَارَبَةِ الإسْلَامِ والمُسْلِمِين، وهجائهم وإيذائِهِمْ، بأشعارهم وقصائدهم، وهُمُ الَّذِين أذِنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ للشعراء المؤمنين بهجائهم انتصاراً لأنفسهم، وللرَّسُولِ وللإسلام.

وبهذا تمّ تدبّر سورة (الشُّعراء) والحمد للّه على معونته ومَدَدِهِ، وتوفيقه.

* * *

ملاحق تدبّر سورة (الشعراء)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة

الملحق الثاني: حول الشعر والشعراء في القرآن والسُّنَّة.

(٨)

مستخرجات بلاغية من سورة (الشعراء)

توجد في سورة (الشعراء) بلاغيات وفنيَّات بيانيَّة عَدِيدة، وقد اسْتخرجت منها بتوفيق اللّه ومعونته ما يلي دون استيعاب:

أولاً:

من الإيجاز بالحذف الأمثلة التالية:

المثال الأول: في قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤)﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ حَذْفٌ يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ بالتَّدَبُّر، والتقدير: فَظَلَّتْ أعْنَاقُهُمْ مُنْكَسِرَةً في ظَاهِرِ سُلُوكِهِمْ، وظَلُّوا مِنْ أعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ خَاضِعِينَ لَهَا.

المثال الثاني: في قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٦)﴾:

في هٰذِهِ الآيَة حذفٌ مِنَ الأوائل لدَلَالَةِ الأواخِر، وبالعكس، وهو ما يُسمّىٰ عند البَلاغِيّين «الاحتباك» والتقدير:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ واسْتَهْزَؤُوا ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ تَحْقِيقُ ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ﴾ يُكَذِّبُونَ و﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وبهذا التقدير يظهر للمتدبّر حذف مُضافٍ قبل: ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾ أيضاً.

المثال الثالث: في قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦﴾.

الواو في [**أَوَلَمْ**] تَعْطِف على محذوف يمكن بالتدبّر تقديره على الوَجْهِ التالي: أَلَمْ يَشْهَدُوا آيات اللّهِ الكثيرة في كونه، ونِعَمَهُ الكثيرة الّتي لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَهَا، ولَمْ يَرَوْا بأفكارِهِمْ وقلوبهم ناظِرِينَ بأَعْيُنِهِمْ إلى الأرض، كَمْ أَنْبَتْنَا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيم، إنعاماً منَّا عليهم، ورحمةً مِنَّا بهم.

المثال الرابع: في قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ⑩﴾:

أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ يا مُحَمَّد مَا أَرْشَدْنَاكَ إليه سابقاً في السُّورة، وضَعْ في ذاكِرَتِكَ الأحداث الآتي بيانُها عن موسَىٰ للانتفاع بها، والقياس عليها والاعتبار بها.

المثال الخامس: في قول اللّه عزّ وجلّ حكاية لقول موسىٰ عليه السَّلام لفِرْعَوْنَ بعد أن هدَّدَه بالسِّجن:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ㉚﴾:

أي: أَتَأْمُرُ بسجْنِي ولو جِئْتُكَ بشيءٍ مُبينٍ يُبَيِّنُ لَكَ أنّي رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ حقّاً وصِدْقاً.

فالواو في [**أَوَلَوْ**] عَطَفَتْ على محذوفٍ من السَّهْلِ استخراجُهُ ذِهْناً بالتدبّر.

المثال السادس: في قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨)﴾:

أي: فجُمِعَ السَّحَرَة لإجراءِ المباراة بينهم وبين موسى في ميقات يَوْمٍ مُحَدَّدٍ معلوم.

المثال السابع: في قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾:

أي: قالوا لا نعلم أنّ أصْنَامَنَا يَسْمَعُونَنَا، أو ينفعونَنَا، أو يَضُرُّونَنا، بَلْ وَجَدْنَا آباءَنَا يعبدونها فعَبَدْناها.

المثال الثامن: في قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧)﴾:

الفاء في: [**أفرأيتم**] فَصِيحَة، أيْ: أتفكَّرْتُم تفكُّراً سَلِيماً سَدِيداً، فرأيْتُم بعقولكم وقلوبكم ما كُنْتُمْ أنْتُمْ وآباؤكُمْ الأقْدَمُونَ تعبُدُونَ مِنْ دون اللّهِ رَبِّ العالَمِين، فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلّا رَبَّ العالَمِين، لأنَّها آلهةٌ باطلة.

المثال التاسع: في قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾:

الفاء في [**أفرأيتَ**] فصيحة، تعْطِفُ على مَحْذُوف، والتقدير: أفكَّرْتَ في هؤلاء المعاندين المكذّبين، فرأيتَ بفِكْرِكَ أنَّنا إنْ أمْهَلْنَاهُمْ ومَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثمَّ بَعْدَهَا جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ من تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ، فَهَلْ يُغْنِي عَنْهُمْ ما زِدْنَاهُمْ من مَتَاعٍ في الحياة الدُّنيا؟

إنهم بَعْدَ إنْزال العذاب والإهلاك بهم، يَجِدُونَ أنَّهُ ما أغْنَىٰ عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ شيئاً.

* * *

ثانياً:

من القصر الأمثلة التالية:

المثال الأول: في قول اللَّه عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قاله إبراهيم عليه السّلام:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾:

في هذه الآيات قَصْرُ الهدايَةِ والإطعامِ والسَّقْي والشفاء باللَّهِ الخالِقِ عزّ وجلّ. استفيد القصر من تعريف طرفَي الإسناد، أو من ضَمِير الفصل. وهو من قصر الصفة على الموصوف، وهو قصرٌ حقيقي.

المثال الثاني: في قول اللَّه عزّ وجلّ في حكاية قول الضّالّين الأتباع وهم يُعَذَّبُونَ في الجحيم:

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

دلَّ على القصر في هذه الآية النفي والاستثناء، وهو من قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ بحسب ادّعائِهِمْ.

المثال الثالث: في قَوْلِ اللَّهِ عزّ وجلّ حكايَةً لما قالَهُ نوحٌ عليه السّلام لقومه:

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾:

دلَّ على القصر النفي بـ«إنْ» والاستثناء بـ«إلّا» وهو من قَصْرِ موصوف على صفة. وهو قصر إضافيّ، أي: ما أنا بالنِّسْبَةِ إليكم يا قَوْمِي

الَّذِينَ كذَّبْتُموني، وفي حُدُودِ وظَائِفِ رِسالتي إليكم، بَعْدَ أن وَصَلْتُمْ إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ إصْلَاحِكُمْ معها عن طريقِ إراداتكم الحُرَّة، إلَّا نَذِيرٌ لكم بعذابِ رَبّكم، فقد أدَّيْتُ كُلَّ وظائفِ رِسالَتِي، ولم يَبْقَ عِنْدِي إلَّا أنْ أُنْذِرَكُمْ.

المثال الرابع: في قول اللَّه عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قالَهُ هودٌ عليه السلام لقومه:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾:

أي: ما أجْرِي إلَّا على ربّ العالمين، وهو من قصر الصفة على الموصوف، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

المثال الخامس: في قولِ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾:

دلّ على القصر النّفي والاستثناء، وهو من قصر صفة على موصوف، وهو قَصْرٌ إضافي.

المثال السادس: في قول اللَّه عزّ وجلّ في حكاية معنى قول ثمود لرسولهم صالح عليه السّلام:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾:

دلّ على القصر أداة «إنّما» في الآية (١٥٣) و«ما» و«إلَّا» في التي بعدها.

أي: ما أنت إلَّا من المخبّلين الّذين سُحِرُوا مرّةً بعد مَرَّة، وهو من قصر موصوف على صفة، وهو قصرٌ إضافي، أي: بالإضافة إلى ادّعاءاتك.

ومَا أنت إلَّا بَشَرٌ، لَا تَصْلُحُ بِبَشَرِيَّتِكَ لأَنْ تَكُونَ رَسُولَ رَبِّ

العالمين، وهو قَصْرٌ إضافي، من قَصْرِ الموصُوفِ على صفة في ادّعائهم الباطل.

المثال السابع: في قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾:

دلَّ على القصر النفي والاستثناء، وفيه قَصْرُ إهلاك اللَّهِ أهْلَ القُرَىٰ السَّابِقِينَ إهلاكاً جماعيّاً مقروناً بتَعْذيب، على من أُرْسِلَ إلَيْهم رُسُل قاموا بوظائِفِ رِسالَةِ رَبِّهِمْ إلَيْهِمْ، فلمَّا كذَّبُوهُمْ تَكْذِيباً لَا أَمَلَ مَعَهُ بصلاحِهِم إذا أُمْهِلُوا، أَهْلَكَهُمُ اللَّه.

* * *

ثالثاً:

التوكيد للجمل الخبريّة لوجود الدواعي إليه من أحوال المقصودين بالخطاب، وفي السورة أمثلة كثيرة، منه:

المثال الأول: في قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾:

المؤكّدات في هٰذه العبارة: «إنَّ - الجملة الاسميّة - اللّامُ المزحلَقة - ضمير الفصل».

رُوعي في هذا التأكيد حالُ المكذِّبين، وحالُ الشَّاكّينَ على دَرَكاتهم.

المثال الثاني: في قول اللَّه عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السّلام:

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

التوكيد هنا بـ«إنَّ - والجملة الاسميّة»، والهدف زيادة طَمْأَنَةِ موسىٰ وهارون، عند مقابَلَتِهِما فرعونَ وملأَهُ.

المثال الثالث: في قول اللَّه عزّ وجلّ حكايةً لمعنى ما قاله فرعَوْن لملَئِهِ عن موسىٰ عليه السّلام:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾:

المؤكّدات في هذا القول: «إنّ - الجملة الاسمية - اللام المزحلَقة»، يؤكّد فرعون لملئِهِ جنون موسىٰ، لِيَصْرِفهم عن التفكير بِبَيَانَاتِهِ القويّة.

المثال الرابع: في قول اللّه عزّ وجلّ حكايَةً لمعنى قول فرعونَ لموسىٰ عليه السّلام:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

المؤكّدات في هذه العبارة: «القسم الذي دَلّت عليه اللام الموطّئة للقسم في [لَئِنْ] ونون التوكيد الثقيلة اللازمة بعد هذا القسم».

المثال الخامس: في قول اللّه عزّ وجلّ حكايةً لمعنى ما قالَهُ السَّحَرة حينَ ألقوا أدوات سِحْرهم:

﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

المؤكّدات في عبارتهم: «القسم (بعزّة فرعون) - إنّ - الجملة الاسميّة - اللّامُ المزحْلَقة - ضمير الفصل (نحن)».

المثال السادس: في قول اللّهِ عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قالَهُ فرعون لسَحَرَتِهِ بَعْدَ أنْ خَرُّوا ساجِدِينَ وأعْلَنُوا إيمانهم برَبّ العالَمين، رَبّ موسىٰ وهَارون:

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

المؤكّدات هنا: «لام الابتداء - والقسم المنويّ الذي دلَّتْ عَلَيْهِ اللام في [**لَأُقَطِّعَنَّ**]، وفي [**لَأُصَلِّبَنَّكُمْ**]، ونون التوكيد الثقيلة فيهما».

المثال السابع: في قول اللّه عزّ وجلّ حكايَةً لمعنى ما قالَهُ فِرْعَوْن لجنودِهِ الذين جمعهم وساقَهم لقتال بني إسرائيل الفارّين من مصر:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (٥٦)﴾:

في كلٍّ من هٰذه الآيات الثلاث التوكيد بالمؤكّدات: «إنّ - والجملة الاسميّة - واللّام المزحلَقة».

المثال الثامن: في قول اللّٰه عزّ وجلّ حكاية لما قال أصحاب موسىٰ له ولما أجابَهُمْ به حين اقترب منهم جيش فرعون:

﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ (٦٢)﴾:

المؤكّدات: «إنّ - الجملة الاسميّة - اللّام المزحلَقة»، في عبارة أصحاب موسىٰ عليه السّلام.

أمّا في عبارة موسىٰ عليه السّلام فالمؤكّدات: «إنّ - الجملة الاسميّة» مع ما في [كَلَّا] مِنْ زَجْر يتضمَّنُ معنى التوكيد.

المثال التاسع: في قول اللّٰه عزّ وجلّ يحكي ما سَوْف يقوله الأتباع الذين يُعَذَّبُونَ في الجحيم للآلهة الّذين كانوا يَعْبُدونهم من دون اللّٰه:

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٩٧) إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٩٨)﴾:

المؤكّدات: «القسم - إنْ المخفّفة من الثقيلة - الجملة الاسميّة - اللّامُ المزَحْلَقَة».

والغرض تأكيدُ ما يَشْعُرُونَ به مِنْ تَحَسُّرٍ ونَدَم على ما كانُوا فيه في الدُّنيا من ضَلَال وسُوءِ اعتقاد وفسادٍ في الرَّأْيِ واتّباعٍ للباطل.

المثال العاشر: في قول اللّٰهِ عزّ وجلّ يحكي ما سَوْفَ يقولُه هؤلاء أيضاً:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ (١٠١)﴾:

زيدت «مِنْ» لتوكيد استغراق العموم والتّنصيص عليه.

المثال الحادي عشر: قول اللّه عزّ وجلّ يَحْكِي بعضَ مقالات نوح عليه السّلام لقومه:

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

زيدت «الباء» للتوكيد.

المثال الثاني عشر: في قول اللّه عزّ وجلّ يحكي بعض مقالَاتِ كبراء قوم نوحٍ عليه السّلام له:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾:

أكّدوا تَهْديدَهم لنُوحٍ بالمؤكّدات: «القسم المنوي ـ اللام الواقعة في جوابه ـ نونُ التوكيد الثقيلة».

المثال الثالث عشر: في قول اللّهِ عزّ وجلّ يحكي مقالةً قالها هُودٌ عليه السَّلام لقومه:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾:

- زيد «مِنْ» لتأكيد عموم النفي والتنصيص عليه.
- وفيها القصر كما سبق بيانه.

ومقالته لهم

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾:

أكّدها بـ «إنّ ـ الجملة الاسميّة».

المثال الرابع عشر: في قول اللّه عزّ وجلّ يحكي مقالةً قَالها قوم لوطٍ عليه السّلام له:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾:

جاء تأكيدها بـ «القسم المنويّ ـ اللام في جوابه ـ نون التوكيد الثقيلة».

المثال الخامس عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ يحكي رَدَّ لُوطٍ على قومِهِ:

﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

فجاء في هذا الرَّدّ التوكيد بـ «إنَّ ـ الجملَة الاسميّة».

المثال السادس عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ يحكي مقالةً قالها قوم شُعَيْبٍ له:

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾:

فجاء فيها التوكيد بـ «إنْ المخفَّفة من الثقيلة ـ الجملة الاسميّة ـ اللّام المزحلقة».

المثال السابع عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ بشأن القرآن المجيد:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ و﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

جاء في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ التوكيد بـ «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللّام المزحلقة».

المثال الثامن عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ بشأن إهلاكه للقرى الظالمة:

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾

زيدت «من» لتوكيد عموم النفي والتنصيصِ عليه.

* * *

رابعاً:

الإشارة إلى القريب باسم الإشارة الموضوع للبَعِيد لداعٍ بلاغي:

وهو الدلالة على بُعْدِ مَنْزِلَتِهِ ارتقاءً في اتجاه الأعلَىٰ، أو تَسَفُّلاً في اتّجاه الحضيض.

المثال الأول: قول اللّٰه عزّ وجلّ بياناً لارتفاع منزلةِ آيات القرآن المجيد:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾:

فدلّ اسم الإشارة «تِلْك» على ارتفاعِ منزلَةِ هذه الآيات الّتي تُتْلَىٰ من القرآن.

المثال الثاني: قولُ اللّٰهِ عزّ وجلّ يَحْكِي مقالةً قالَها موسَىٰ علَيْهِ السَّلام لفِرْعَون، إذ امْتَنَّ عليه بنعمةِ تَرْبِيته في القصر الفرعونيّ وإقامَتِهِ فيه، حتى صارَ رَجُلاً ذا قيمة اجْتِماعِيَّة:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾:

فدلّ باسم الإشارة «تِلْكَ» الموضوع للمشار إليه البعيد، على احْتِقَارِهِ، وإبْعَادِهِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ القَصْرُ الفرعونيّ إلى الدّركاتِ السُّفْلَى، بجانب أنَّهُ اسْتَعْبَدَ بني إسرائيل، وأصْدَرَ قراراً بِتَذْبِيحِ مواليدهم من الذّكور، الأمْر الّذي ألْجأ أُمَّهُ إلى وَضْعِهِ في تابوت (صُنْدُوق محكم) وإلقائِهِ في اليَمّ، فأوصَلَهُ اللّٰهُ بِحِكْمَتِهِ وألْطَافِهِ الخفيَّة إلى ساحلِ القصر الفرعونيّ، فالتقطه آل فرعون.

* * *

خامساً:

اختيار ضمير المتكلّم العظيم (وهو ضمير الجماعة) بدلَ ضمير المتكلّم المفرد، للدّلالة على عظمة رُبوبيَّة الرَّبِّ، وصفاته الجليلات:

ومن الأمثلة قول اللّٰه عزّ وجلّ:

١ ـ ﴿أَنۢبَتْنَا﴾ في الآية (٧) من السورة.

٢ ـ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ في الآية (١٥) من السّورة.

٣ ـ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ في الآية (٢٠٨) من السّورة.

* * *

سادساً:

فَنِّيّة الإعراض عن المعنيّين بالخطاب، والحديث عنهم بأُسْلوب الحديث عن الغائب، وتوجيه الكلام لغيرهم، معاملةً لَهُمْ بالمثلِ إذْ أعْرَضُوا عن تَلَقِّي ما يَنْزِلُ من قرآنٍ بإقْبالٍ، وحوّلُوا وجُوههم عن المقابَلَة:

ومن الأمثلة ما يلي:

المثال الأول: قول اللَّه عزّ وجلّ بشأن المكَذِّبين المعرضين عن تلقي نجوم التنزيل، دون مواجهتهم بالخطاب:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾.

المثال الثاني: قول اللَّه عزّ وجلّ في معرض الحديث عن القرآن، مُعْرِضاً عنهم أيْضاً، وموجِّهاً خطابَهُ لرَسُول اللَّه ﷺ، مع أنَّهم هُمُ المَعْنِيُّونَ بالخِطَاب، في مقابل إعراضهم وإدْبارهم عن تَلَقّي القرآنِ بإقبال ومواجهة:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾.

* * *

سابعاً:

استخدام أسْلُوب الكناية، بإطلاقِ العبارَةِ وإرادَةِ لوازِمِها الفكريّة:

ومن أمثلتها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ لِمَا قالَهُ شعيبٌ لقَوْمِهِ إذْ تحَدَّوْهُ بأنْ يُنَزّل عَلَيْهِم كِسَفاً من السَّماء:

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨﴾:

فكنّىٰ بهٰذِهِ العبارة عن أنّ مُنَزِّلَ الكِسَفَ من السَّماءِ هو اللَّه عزّ وجلّ، وهو أعلم بما تَعْمَلُونَ، وحين تقتضي حِكْمَتُه إهلاكَكُمْ فَهُوَ الَّذِي يُهْلِكُكم، ولَسْتُ أنا الذي أُهلِكُكُمْ.

ثامناً:

التشبيه المكنيّ، وهو تشبيه مُضْمَرٌ لم يُذْكَرْ فيه لفظ المشبَّهِ به، وإنما ذُكِرَ فيه بعضُ صفاته، أو بعضُ خَصائِصه، أو بَعْضُ لوازمه، ومنه قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ لرسوله في السّورة:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَة تشبيهُ التواضُعِ، والرَّحْمَةِ، وضَمّ الأفراد، والهَيْمَنَةِ عليهم، بخَفْضِ الطَّائر جَنَاحَهُ مُنْكَسِراً لفراخه.

ولكن أُضْمِرَ التشبيهُ فَلَمْ يُذْكَرْ لَفْظُ المشبَّه بهِ، وإنَّما كُنِّيَ عَنْهُ بشيءٍ من صِفاتِهِ وهُوَ الجَنَاح.

هذا ما ترجَّحَ عندي في كتابي «البلاغة العربية» لا أنه من قبيل الاستعارة المكنية.

تاسعاً:

خروج الاستفهام عن أصل وَضْعِهِ اللّغويّ وهو طلَبُ الإفْهام، للدّلالة على معانٍ أُخْرَى تَدُلُّ عليها القرائن، أو الاقتضاءات الفكريّة:

ومن أمثلته في السّورة ما يلي:

المثال الأول: قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾؟:

يُرادُ بالاستفهام هنا التَّلويمُ والتثريبُ والتوبيخ.

المثال الثاني: قول اللَّه عزّ وجلّ حكايةً لمقالةٍ قالَها فِرْعَوْن لموسَىٰ عليه السَّلام:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾؟:

الاستفهام في هذه العبارة استفهام تقريريّ.

المثال الثالث: قول اللَّهِ عزّ وجلّ حكاية لما رَدَّ به موسىٰ عليه السّلام على فِرْعَوْن:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؟:

الاستفهام الملاحظُ ذهناً في هذه العبارة استفهامٌ تعجُّبيٌّ إنكاريّ.

المثال الرابع: قول اللّه عزّ وجلّ حكايَةً لدَعْوَةِ جمهور المصريّين لحضور المباراة بين موسىٰ عليه السّلام وسَحَرَةِ فِرْعَوْن:

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾؟:

يراد بالاستفهام هُنَا العَرْضُ المُتَضَمِّنُ مَعْنَىٰ الحَثِّ على حضور المباراة.

المثال الخامس: قَوْلُ اللّهِ عزَّ وجلَّ حكايَةً لمقالةٍ قالَها إبراهيمُ عليه السَّلام لقومه:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾؟:

يراد بالاستفهام في هذا القَوْلِ الإِخْبارُ والإعلام، أي: انظروا متفكّرين فيما تعبدون من دون اللّه فإنّهم عَدُوٌّ لي.

المثال السادس: قول اللّه عزّ وجلّ بشأن ما يُقالُ للمشركين الذين تُبَرَّزُ الجحيمُ لَهُمْ يومَ الدّين:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾؟:

الاستفهام في هذا القول يرادُ به التَّحْسِير على ما فرَّطوا في جنب اللّه، وكانوا من الغَاوِين، فجلَبُوا لأنْفُسهم الخلودَ في عذابِ الجحيم.

المثال السابع: قول اللّه عزّ وجلّ حِكايَةً لمقالَةٍ قالَها قومُ نوحٍ عليه السّلام له:

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾؟:

يُرِيدُون بتوجيه الاستفهام النَّفْيَ والاسْتِنْكار، أي: لا نُؤْمِنُ بك مُسْلِمِينَ لكَ، ونَسْتَنْكِرُ اتّباعَكَ وقد اتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون.

المثال الثامن: قول اللَّه عزّ وجلّ حِكايَةً لمقالَةٍ قالَها هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾؟:

يُراد بالاستفهام في هذه العبارة الاسْتِنْكَارُ والتَّلْوِيمُ علىٰ العَبَثِ، وبَذْلِ الطّاقاتِ والأموالِ فيما لا نَفْعَ فيه.

المثال التاسع: قول اللَّه عزّ وجلّ حكايةً لمقالَة قالَها صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام لقومِهِ ثَمُود:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾؟:

يرادُ بهذا الاستفهام النَّفْيُ والتحذير، أي: لَا تُتْرَكُونَ آمِنِينَ، وأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ، وَتَعْصُونَ اللَّهَ رَبَّكُمْ، ولَا تُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِ ولا بما جاءكم به عن رَبِّكُمْ.

المثال العاشر: قول اللَّه عزّ وجلّ حكايَةً لمقالَةٍ قالَها لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلام لقَوْمِهِ:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾؟:

الاستفهام في هذه العبارة يُراد به الاستنكار، والتَّلْوِيم، والتوبيخ.

المثال الحادي عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ حكايَةً لما يَقُولُهُ مَنْ أَقْبَلَتْ عَليهم مقدّمات العذاب والإهلاك الشامل لكفرهم وطغيانهم:

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾؟:

الاستفهام في مقالتهم يرادُ به التَّمَنّي.

المثال الثاني عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ بشأنِ هؤلاء:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾؟:

الاستفهام في هذا البيان استفهامٌ تَعْجِيبيٌّ من أَمْرِهِمْ.

وفي السّورة بلاغيّات أُخرىٰ أتْرُكَ اسْتِخْراجَها للمختصّين بعلوم البَلَاغَةِ والفُنُونِ الجماليَّة البَيانيَّة.

* * *

(٩)

الملحق الثاني

حول الشعر والشعراء في القرآن والسُّنّة

مَا جاءَ في القرآن حول الشعر والشعراء ومزاعم المشركين بشأنِ القُرآنِ والرسول

لم يجد كبراءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ الّذِين أصَرُّوا على الكُفْرِ والعِنَادِ والمكابَرَة بالباطل، ورَفْضِ الإيمان بأنَّ القُرْآنَ تنزيلٌ من رَبِّ العَالَمِين، وأنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ نبيٌّ يَتَلَقَّىٰ الوَحْيَ منه، ورَسُولٌ يُبَلِّغُ رِسالَاتِهِ للناسِ، مَا يَزْعُمُونَهُ ضِدّ القرآنِ وضِدّ الرَّسُولِ ﷺ، إلَّا أَنَّهُ كاهِنٌ أو شاعِرٌ، وأنَّ القُرْآنَ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ كَهانَةٌ من نَوْعِ أقْوَالِ الكُهَّانِ، أو شِعْرٌ اتَّخَذَ فِيهِ مُحَمَّدٌ مَذْهباً جَدِيداً في الشِّعْرِ غَيْرَ مَعْرُوفٍ لدَىٰ الشُّعراء.

وكان ما زَعَمه المُشْرِكُونَ بِشَأْنِ القرآنِ والرَّسُولِ ﷺ في بِدَايَةِ الأمْرِ هَمْساً، ثم صَارَ حَدِيثاً مُعْلَناً، ثُمَّ صارَ إشاعَةً تُكَرِّرُها أفْوَاهُ أتْبَاعِهِمْ، ثُمَّ صارَ مقالَةً إعْلَامِيَّةً دائِرَةً يُرادُ بِهَا صَدُّ الّذين تَتَّجهُ قُلُوبُهم للدُّخُولِ في الإسْلام، تأثّراً بالقُرْآنِ المجيدِ، وبالكمالات الفكريّة والخُلُقِيّةِ والسُّلُوكِيَّةِ الّتي يَتَّصِفُ بها رَسُولُ اللَّهِ محمَّدٌ ﷺ.

ولم يَتْرُكِ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مَا زَعَمَهُ كُبَرَاء المُشْرِكِينَ، وأطْلَقُوهُ مِنْ مَزَاعِمَ في جَمَاهِيرِهِم، دُونَ أن يُتَابِعَ إسْقَاطَهُ مَعَ الأطْوَارِ الَّتِي يَتَطَوَّرُ فيها ضعفاً وشِدَّةً، حتَّى بدأ الإسلامُ يَنْتَشِرُ ويَقْوَىٰ، وتَسْقُطُ مع انْتِشَارِهِ مَزَاعِمُ كُبَرَاء المُشْرِكِينَ شيئاً فَشَيْئاً، حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لَهَا صَوْتٌ يَرْتَفِعُ، ولَا مَقُولَةٌ مَسْمُوعَةٌ، وكانَ هٰذا قُبَيْلَ أوَاخِرِ العَهْدِ المكِّيّ مِنْ مَسِيرَةِ الرَّسُولِ الدَّعَوِيَّة.

ونَجِدُ في الْقُرآنِ المجيد سِتَّةَ نُصُوصٍ مَكِّيَّة التَّنْزِيل، ذوات مراحِلَ، تابَعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِهَا الأطْوارَ الّتي كانَتْ تَتَطَوَّرُ إلَيْهَا هذه المزاعم بشأن القرآن المجيد، وشأْنِ الرَّسُولِ ذي الخُلُقِ العظيم، والعَمَلِ السَّدِيد، والمَنْهَجِ الرَّشِيد.

ومِنَ المُفِيدِ للمُتَدبِّر عَرْضُ هٰذِهِ النُّصُوصِ السِّتَّةِ، مَعَ بيان تَرْتِيب نُزُولِ سُوَرِهَا، والنَّظَرِ فيها بِشَيْءٍ مِنَ التَّدَبُّر:

النّصّ الأوّل:

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ في سورة (يٓس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأْنِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ والقرآن المجيد:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

وقد سبَقَ تَدَبُّرُ هذا النَّصّ لدىٰ تدبُّر سُورَةِ (يٓس).

وأُوجِزُ هنا ما سَبَقَ بيانُهُ لتَتَكَامَلَ صُورَةُ مُتَابَعَةِ المراحلِ في ذِهْنِ المتدبّر، واللَّهُ يتحدَّثُ بضمير المتكلّم العظيم.

أي: وما عَلَّمْنَا رَسُولَنَا محمّداً شعراً أَوْحَيْنا بِهِ إلَيْهِ، وما جَعَلْنَا في طَبِيعَةِ نَفْسِهِ اسْتِعْداداً لِقَرْضِ الشِّعْر، ذِي الموازين الخاصَّةِ بِهِ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يكون شاعراً، بمعْنَىٰ أنَّهُ لا يَصْلُحُ لَهُ وَلِدَعْوَتِهِ أنْ يَكُونَ شاعراً

بِحَسَبِ تَصَوُّرِ قَوْمِهِ العَرَب للشُّعَراء، وما يَسْهُلُ لَدَيْهِ أنْ يَنْظِمَ الشِّعْرَ ويَقْرِضَهُ، لأنَّنا لَمْ نَجْعَلْ مِنْ صِفاتِ نَفْسِهَ القُدْرَةَ على نَظْمِ الشِّعْرِ.

ويُمْكِنُ أنْ نُدْرِكَ أنَّ الحِكْمَةَ مِنْ عَدَمِ هِبَةِ نَفْسِهِ القُدْرَةَ على نَظْم الشِّعْرِ، سَدُّ ذَرِيعَةِ الّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِدَعْوَتِهِ، إذْ لو كَانَ شَاعِراً بِفِطْرَتِهِ لوَجَدُوا رَوَاجاً لاتِّهَامِهِمْ إيَّاهُ بأنَّ النَّزْعَةَ الشِّعْرِيَّةَ في نَفْسِهِ، هِيَ الّتي جَعَلَتْهُ يَتَخَيَّلُ تَخَيُّلَاتِ النُّبُوَّة، وجَعَلَتْهُ يَتَطَلَّعُ إلى صِنَاعَةِ البَيَان الرَّفِيع، وأنَّ القرآنَ مِنْ صُنْعِهِ وإبْدَاعَاتِهِ.

يُضافُ إلى هذا ما في نفوسِ مُعْظَمِ الشُّعَراء الفُحُولِ، واسِعِي الخَيَال، من اسْتِعْدَادٍ للدُّخُولِ هائِمِينَ في كلِّ وادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الكلام، مَهْمَا كانَ وادِياً سَحِيقاً هابطاً إلى أَوْحَالٍ غَيْرِ أخْلَاقِية، فيها الكذب، والرِّياء، والنِّفاق، والهجاءُ الفاحِشُ، والثَّناءُ بغير حقّ، والاسْتِجْدَاءُ، والتغزُّلُ بالعفيفات الشريفات، المُشْعِرُ بِرِضَاهُنّ، وبأنَّهُنَّ يُشارِكْنَ الشاعر الهَوَىٰ، ولَهُنَّ مَعَهُ لِقاءاتٌ غَيْرُ مَحْمُودَة.

أمّا القرآن فما هو إلّا كِتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ، لِيَتَبَلَّغَهُ النَّاسُ، ويَتَفَهَّمُوهُ، ويَعُوهُ، ويَحْفَظُوهُ، ثُمَّ لِيَتَذَكَّرُوا مِنْهُ مَا يُلَائِمُ الحالَةَ الّتي يَكُونُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْهَا، ولِيُنْذِرَ بِهِ الرَّسُولُ وكُلُّ داعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ مَنْ كانَ ذَا حَياةٍ قَلْبِيَّةٍ، تُؤَثِّرُ فِيهِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ مِنْ إنْذاراتٍ، أمّا مَوْتَىٰ الْقُلُوبِ بالأهواءِ والشَّهواتِ وزيناتِ الحياة الدُّنيا، والكُفْرِ بالحقِّ الرَّبَّانِيّ، فَيَحِقُّ عَلَيهِمْ قَوْلُ اللَّهِ بِأَنَّهُمْ مِنَ المُعَذَّبينَ الخالِدِينَ في الجحيم يومَ الدِّين.

فأبان هذا النصّ أنّ الرَّسُولَ ليسَ شاعراً، ولَا يَمْلِكُ مَوْهِبَةَ الشِّعْرِ، وأنَّ الشِّعْرَ لَا يَنْبَغِي لَهُ، وأبانَ أنَّ القرآنَ لَيْسَ شِعْراً ولا مَذْهباً مِنْ مذاهبِ الشِّعْرِ، وإنَّما هُوَ كتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ، لِيَكُونَ ذِكْراً لِمَنْ يَتَلَقَّاهُ مُؤْمِناً به.

النّصّ الثاني:

قولَ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (الشّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشَأْنِ الشُّعَراء، والفرق بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أنبياء اللَّهِ ورُسُلِهِ:

﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

وقد سبقَ تَدَبُّرُ هٰذِهِ الآياتِ قَرِيباً، وهي آخِرُ آيات سورة (الشعراء) ولا حاجَة إلى الإعادة بِبَسْطٍ ولا إيجاز.

النصّ الثالث:

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الصافّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) بشَأْنِ حال المشركين وهُمْ يُعَذَّبُونَ في الجحيم يَوْمَ الدِّين:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

دلَّ هٰذا النصُّ على أنَّ كُبَرَاءَ الكَفرَةِ المُشْرِكِينَ في مَكَّةَ إبَّان تَنْزِيلِ سُورَةِ (الصَّافات) كانوا بِسَبَبِ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ كِبْرٍ يَتَّهِمُونَ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بِصِفَتَيْنِ تَجْعَلانِهِمْ يَأْنَفُونَ مِنَ الإيمانِ بِهِ واتّبَاعِهِ:

الصِّفَةُ الأُولىٰ: أنَّهُ شاعر وهم لَا يَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ أنْ يَتَّبِعُوا شاعراً، لأنَّ الشُّعراء في تصوّرهم مُتَسَوِّلُونَ على أبوابِ المُلُوكِ والعظماء والأُمَراءِ والرُّؤسَاءِ، وفي نفوسهم خِسَّةُ الذُّلِّ بالاسْتِجاء، ولكلّ واحِدٍ مِنْهُمْ شَيْطانٌ يُوحِي إلَيْهِ بِشِعْرِهِ.

الصِّفَةُ الثانية: الجنون، إذْ جاءَ قَوْمَهُ بِدِينٍ جديدٍ، فَرَّقَ بِهِ جَمْعَهُمْ، وسَفَّهَ بِهِ أَحْلَامَ كُبَرَاءِ عَشِيرَتِهِ وقَوْمِهِ، ومثلُ هذا لَا يَفْعَلُهُ إلّا مجنون.

- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: إنَّهُمْ كانُوا في الحَياةِ الدُّنيا إذا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا بالرَّسُولِ وقُولُوا لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ الإيمانِ بِهِ، وعَنِ اتِّباعِهِ، فَهُمْ لَا يَقُولُونَ لا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ، اسْتِكْبَاراً مِنْهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ.

دلَّ على هذا ما جاءَ في الآيةِ التالية:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾: استفهام يدُلُّ على اسْتِنْكارِهِمْ اسْتِنْكاراً شَدِيداً، أنْ يَتْرُكُوا آلِهَتَهُمْ الَّتِي كانَ يَعْبُدُهَا آباؤهم وأجدادُهُمْ، ووَرِثُوا عَنْهُمْ عِبادَتَهَا، استجابَةً لِدَعْوَةِ شَاعِرٍ مَجْنون، والشَّاعِرُ لَيْسَ مُؤَهَّلاً لِأَنْ يُحْتَرَمَ رَأْيُهُ ويُسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ، فَكَيْفَ بِهِ وهو يتّصِفُ بالجُنونِ، مع اتِّصافِهِ بكَوْنِهِ شاعراً؟!!

والمعنى: إنَّنا نُؤَكِّدُ بِشِدَّةٍ أَنَّنا لَنْ نَتَّبِعَ هذا الّذي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ، لأَنَّهُ شاعِرٌ بِبيَانِهِ، مَجْنُونٌ في تَصَرُّفَاتِهُ في دَعْوَةِ قَوْمِهِ إلى نَبْذِ دِينِ آبائِهِمْ، واتّباعِ الدِّينِ الجديدِ الّذي أتاهُمْ به.

فردَّ اللَّه عزّ وجلّ هٰذه المَقُولَةَ الشَّيْطانِيَّة اللَّئِيمَة الخَسِيسَة بقوله في الآيَة التالية:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: لَيْسَ شاعراً ولَا مَجْنُوناً، بَلْ رَسُولاً يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ جاء بالحقّ، فَلَيْسَ في شَيْءٍ مِمَّا جاءَ بِهِ بَاطِلٌ، وصَدَّقَ فِيمَا جاءَ بِهِ المُرْسَلِينَ الّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ، ومِنْ تَصْدِيقِهِ لِلْمُرْسَلِينَ أنَّ مَضْمُونَ أُسُسِ الدِّينِ الذي جاء به، مطابقٌ لمَضْمُونِ مَا جاءَ به المُرْسَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ، ومِنْهَا أنْباءُ يومِ الدِّين، يوم البَعْثِ والحِساب وفَصْلِ القضاء وتَحْقيق الجزاء.

وهٰذه حقَائِقُ لَا يَأْتي بها شاعِرٌ ولَا مَجْنُون، بَلْ يَأْتِي بِهَا الإنْسانُ الكامِلُ المُصْطَفَىٰ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ بالنُّبُوَّةِ، ولِحَمْلِ رِسالاتِهِ لِعِبادِهِ.

وبما أنَّهُمْ بِحَسَبِ المَشْهَدِ المَعْرُوضِ هُمْ في يوم الدِّين يُعَذَّبُونَ، فَمِنَ المُنَاسِبِ أنْ يُخَاطَبُوا وهُمْ في العذابِ يَتَقَلَّبُونَ، بِمَا جاءَ في قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ التالي:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: إنَّكُم مُسْتَمِرُّونَ في أنْ تَذُوقُوا العذابَ الألِيم في الجَحِيم، وإنَّكُمْ تُجزَوْنَ بالعَدْلِ، لا تُظْلَمُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ، وأنْتُم مَا تُجْزَوْنَ إلّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بإراداتِكُم الحُرَّة.

النصّ الرابع:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في بيان حال كبراء مُشْرِكِي مكَّة إبَّان نزول هذه السُّورة:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾:

- قرأ حَفْصٌ، وحمزة، والكسائي، وخلف: [قَالَ رَبِّي] بالفِعْلِ الماضي «قالَ»، وقرأ باقي القرّاء العشرة: [قُلْ رَبِّي] بفعل الأمْر.

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، أي: قال الله عزّ وجلّ لرسوله [قُلْ] فقال الرَّسول ﷺ: ﴿رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قول اللّٰه عزّ وجلّ:

- ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ①﴾:

الاقْتِرابُ: مَعْلُومٌ، وهُوَ الدُّنُوّ. يقال لغة: «اقْتَرَبَ الشَّيْءُ للشّيء»، أي: دنا منه.

﴿لِلنَّاسِ﴾: المراد بالنّاس في المدَّةِ الّتي نزَلَتْ فيها سُورَة (الأنبياء) كُبَراءُ مُشْرِكِي مكَّةَ المُعَانِدُونَ المُصِرُّونَ على الكُفْرِ جُحوداً، مع اسْتِيقانِ نفوسهم بصِدْق الرَّسُول، وبأنّ القرآنَ تنزيل من رَبّ العالَمِين، بدَليل ما جَاء في الآية (٢) عَقِبَ هٰذِهِ الآية كما سيَأْتِي بيانُه.

﴿حِسَابُهُمۡ﴾: أي: حِسَابُهُمُ المعجَّلُ، والقضاءُ بِشَأْنِهِمْ، وإنْزَالُ العقابِ بِهِمْ، وهُوَ ما حَدَثَ في غَزْوَةِ بَدْرٍ وما بَعْدَها.

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾: **الغَفْلة عَنِ الشَّيء**: انصرافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَتِهِ ومراقَبَتِهِ مع وجودِهِ في مجالِ الإدراكِ، أو وُجودِ أدِلَّتِهِ، وإمكانِ إدْراكِهِ، لَوْلَا وُجُودُ الصارفِ أو السَّهْو، يقال لغة: «غَفَلَ فُلَانٌ عَنِ الشَّيْءِ يَغْفُلُ غُفُولاً وغَفْلَةً».

﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: **الإعْراضُ**: وسَطٌ بَيْنَ الإقبالِ والإدْبارِ، وأصْلُ الإعراضِ إعْطاءُ الجانب. عُرْضُ الشَّيْء في اللُّغَة جانبه، وعارِضَا الإنسانِ صَفْحَتَا خَدَّيْهِ.

والإعْراضُ عن الشيء يَدُلُّ على عَدَمِ العنايَةِ بالشّيء، وعَدَمِ الاكْتِراثِ له أو المُبالَاةِ به.

قول اللّٰه عزّ وجلّ:

- ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ②﴾:

أي: ما يأْتِيهِمْ مِنْ نَجْمٍ قُرْآنِيٍّ مُحْدَثِ التَّنْزِيلِ، إلَّا اسْتَمَعُوهُ مُدْرِكِينَ

الدَّلالَاتِ العامَّةَ لِآيَاتِهِ، إلَّا أنَّهُمْ يُظْهِرُونَ انْصِرَافَ أذْهَانِهِم عَنْهُ باللَّعِبِ الَّذِي يَلْعَبُونَهُ سَاعَتَئِذٍ، وهذا اللَّعِبُ قَدْ يَكُونُ بِشُؤُونِ دُنْيَاهُمْ، أوْ بِأَلْعَابٍ كانُوا يُمَارِسُونَها لِرِيَاضَةِ الفِكْر، أو رِيَاضَةِ أعْضَاءِ الجَسَدِ، كَدَحْوِ الحجارة، ورَمْي السِّهَامِ، ونحو ذلك.

وسَبَقَ أنْ نزَلَ بِشَأْنِهِمْ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قون اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾.

والفرق بَيْنَ آيَة (الشُّعراء) وآيَةِ (الأنبياء) أنّ اللّهَ عزّ وجلّ أطْمَعَهُمْ بِرَحْمَتِهِ في آيَةِ الشُّعراء، إذْ جاء فيها قولُهُ تعالىٰ: ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وأنَّهُمْ كانوا حِينَئِذٍ في حُدُودِ «مُعْرِضِين».

أمّا آيَةُ (الأنبياء) فَقَدْ خَوَّفَهُمُ اللّهُ فِيهَا بِسُلْطانِ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ؛ إذْ جاءَ فيها قولُهُ جلَّ جلالُهُ: ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾، وأنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إلى طَوْرِ أنْ يَسْتَمِعُوهُ وهُمْ يَلْعَبُونَ.

وظاهِرٌ أنّ الإعْراضَ السَّاكِنَ أخَفُّ من الاسْتِماعِ الخفيِّ مع إظْهارِ اللَّعِبِ والاشتغال به.

قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ:

- ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾:

أي: إلَّا اسْتَمَعُوهُ، وهُمْ يَلْعَبُونَ في حركاتِ أجْسادِهِمْ حالَةَ كَوْنِ قُلوبِهِمْ لَاهِيَةً عَنِ التَّأَثُّرِ بِمَا جاءَ فيه، إذْ تَسْتَمِيلُهَا الأهواء والشَّهَواتُ ورَغَباتُهُمْ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنْيا.

اللَّهْو: الِاشْتِغالُ عمَّا يَجِبُ توجيه الجَهْدِ والعَمَلِ له، بكلِّ أمْرٍ غَيْرِ

ذي قِيمَةٍ حقيقيَّةٍ تُعادِلُ قِيمَةَ المَتْرُوكِ، أو تُقَارِبُهَا، وربما كانَ المعتنَىٰ به من سَفَاسِفِ الأُمُورِ أو مَتَاع الحياة الدُّنيا السَّريع الزَّوال.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: اشتغَلَ النحويُّون بتوجيه وُجُودِ الفاعل ضميراً مُتَّصلاً في ﴿وَأَسَرُّواْ﴾، ووُجُودِهِ اسماً ظاهراً في ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وأوردوا وجوهاً إعرابيّة متعدِّدة، وعِنْد ابْنِ هشام أنَّ هذا على لُغَةِ من يقول من العرب: «أكَلُوني البَراغيث»، وهي لُغَةٌ عِنْدَ «هُذَيْل». وقد وصَفَهُمُ اللَّه بالظُّلْم لكُفْرِهِمْ بالحقّ، ولإرادتهم الصَّدَّ عَنْ دينِ اللَّهِ الحق.

﴿ٱلنَّجْوَى﴾: الإسْرارُ بالحَدِيث. وهنا يُقال: إذا كانت النجوى الإسرار بالحديث، فلماذا قال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾؟

أقول: في هذه العبارة دَلاَلَةٌ على أنَّهُمْ بالَغُوا في إخْفَاءِ تَنَاجِيهِمْ، حتَّىٰ عَنْ جَمَاهِيرِهِمْ، لِئَلَّا تَعْلَمَ جَمَاهِيرُهُمْ مَا تَشَاوَرُوا فيه، لإشَاعَةِ ما يَرْجُونَ التأثير به على العامَّةِ من مقالَاتٍ، لصَدِّ النَّاسِ عن الاِسْتِجَابَةِ لدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

وقد تَوَصَّلُوا بَعْدَ تَنَاجِيهم الذي أسَرُّوه عَنْ عامَّتِهِمْ إلى إشاعَةِ مَقَالَتَيْنِ، تَبِعَتْهُمَا أربَعُ مَقَالَات:

فالمقالَتان جاء بَيَانُهُمَا في هٰذه الآيَةِ الثَّالِثَة، والمقالَاتُ الأرْبَعُ الأُخْرَى جاءت في الآية (٥) الآتية.

المقالَةُ الأولى: دلَّ علَيْها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ﴾؟ أي: هَلْ هٰذا الَّذي يَدَّعِي أنَّهُ رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ؟ فكَيْفَ يكونُ لَهُ قُدْرَةٌ على الاتِّصالِ بعالَمِ الغَيْبِ وتَلَقِّي الوَحْيِ من رَبِّ العَالَمِين.

لَقَدْ أعْجَبَتْهُمْ هٰذِهِ الفِكْرَةُ، ورَأَوْا أنَّهَا صَالِحَةٌ لِصَدِّ النَّاسِ عن الإيمانِ بِهِ واتِّبَاعِهِ، بَعْدَ التَّنَاجِي السِّرِّيِّ فيما بَيْنَهُمْ، وسَبَقَ أنْ قَالُوهَا كَمَا جاءَ في

سُورَةِ (الفُرْقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) ولكِنْ لا بعنوان لفظ «بَشَر»، بل بذِكْرِ بَعْضِ صِفاتِ البَشَر، من أنَّه يَأْكُلُ الطَّعامَ أو يَمْشِي في الأسْواق يَكْتَسِبُ رِزْقه:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ⑧﴾.

وقد سبَقَ تدبُّر هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ لدى تدبُّر سورة (الفرقان).

وهي مَقُولَةٌ اتَّكَأَ عَلَيْهَا كُلُّ مُكَذِّبِي الرُّسُل السابقين، وقد جاء تفصيلُ هذا في المُلْحَقِ الثالث مِنْ ملاحق تدبُّر سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

وفي إشارتِهِمْ إلى الرَّسُولِ ﷺ باسْمِ الإشارةِ [هٰذا] في عِبارَتِهِمْ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، إرادَةُ ازْدِرائِهِ لَدَىٰ تَرْوِيج عِبارَاتِ الصَّدِّ عن الِاسْتِجَابَةِ لدَعْوَتِهِ.

المقالة الثانية: دَلَّ عليها قول اللّٰهِ عزَّ وجلَّ حكايةً لها: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: أي: أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ مَجْذُوبِينَ إِلَيْهِ بِسِحْرِهِ الكَلَامِيِّ الَّذِي يُسْمِعُكُمْ إِيَّاهُ، وأنْتُم تُبصِرُونَ أنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يَأْكُلُ مِثْلَمَا تَأْكُلُونَ ويَشْرَبُ مِثْلَمَا تَشْرَبُونَ، وَيَنْكِحُ النِّساء كَما تَنْكِحُونَ.

هٰذه هي الفكرة الدِّعائِيَّة الثّانِيةُ، الّتي اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الصَّدِّ عَنْ دِينِ اللّٰهِ على تَرْوِيجها، لإبْعادِ الجماهيرِ عن الِاسْتِمَاعِ لما يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنْ آياتِ القُرْآنِ المَجِيد وسُوَرِهِ، زاعِمِينَ أنَّ تَأَثُّرَهُمْ بالقُرْآنِ هُوَ مِنْ قَبيلِ التَّأْثِيرِ السِّحْرِيّ.

وبَلَغَتِ الرَّسُولَ ﷺ المقالَتانِ الدِّعائِيَّتانِ اللَّتَانِ شَرَعُوا في تَرْوِيجِهِمَا، فقالَ مُلَوِّحاً بأنَّ اللّٰهَ عزَّ وجلَّ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، لإرادَتِهِمُ الصَّدَّ عَنْ دِينِهِ بالأباطيلِ، ما أَبانَهُ اللّٰه تعالىٰ في الآية التالية:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾:

أي: سواءٌ أسْرَرْتُم نَجْواكُمْ لصُنْعِ المَكِيدَةِ الدِّعائِيَّة بُغْيَةَ الصَّدِّ عن دينِ اللَّهِ الحقِّ، أمْ أعْلَنْتُمْ أقْوالَكُمُ الكَيْدِيَّة، فإنّ رَبّي الذي أرْسَلَنِي رَسُولاً، ويُنَزِّلُ عَلَيَّ نُجومَ القُرْآنِ المَجِيدِ، يَعْلَمُ كُلَّ قَوْلٍ في السَّمَاءِ والأرْضِ، وَهُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ، العَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فاسْتِخْفاؤُكُمْ بِإسْرَارِ النَّجْوَى الكَيْدِيَّةِ لا يَحْجُبُكُمْ عَنْ سَمْعِ رَبّي وبَصَرِهِ وعِلْمِهِ المُحيطِ بكُلِّ شَيْءٍ.

وتابَعَ أئِمَّةُ الكُفْرِ والصَّدِّ عن دِينِ اللَّهِ، مُشَاوَرَاتِهِم الكَيْدِيَّة الَّتِي يُبَالِغُونَ في كِتْمَانِ التَّنَاجِي بِهَا عن جَماهِيرِهِم، فَنَجَمَ عَنْ تَناجِيهِم التَّشَاوُرِي العَزْمُ على تَرْوِيج إشَاعَاتِ مُخْتَلِفاتٍ مُخْتَلِطاتٍ لِتَضْلِيلِ الرَّأْيِ العامّ، دلَّ على هذا قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في الآية التالية:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾:

دلَّت هٰذِهِ الآيَة على أنَّ مُشَاوراتِهِم الكَيْدِيَّةَ السِّرِّيَّة اللَّاحِقَة، نتج عَنْهَا قرارٌ بتَرْوِيجِ أرْبَعِ مَقَالَاتٍ دعائياتٍ صادَّاتٍ عَنْ دِينِ اللَّهِ الحقّ، وعَنْ رَسُولِهِ الصّادق الأمين، إضافَةً إلى المقالَتَيْن السابقتين:

المقالَةُ الأُولَىٰ: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلّ: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾:

﴿بَلْ﴾ هُنَا للإضراب الانتقاليّ لَا لإبطال ما سَبَقَ أنْ قَرَّرُوا تَرْويجَه.

أي: قرَّرُوا أنْ يُرَوِّجُوا فِكْرَةَ أنَّ القُرْآنَ كلامٌ لَا ترابُط بَيْنَ جُمَلِهِ ومَعَانِيهِ، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ تَنْزِيلاً مِنْ رَبِّ العَالَمِين.

هٰذه الفكرة قد تَرُوجُ عِنْد الأغبياء مِن الدَّهْمَاءِ، الَّذِينَ لَا يُدْرِكُون

خُطوطَ الترابُطِ الذِّهْنِيِّ العَجِيب، بَيْنَ فقراتِ الآيَةِ، مَعَ وَحْدَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة، ولَا بَيْنَ المَعانِي الذي تَكْشِفُهُ اللَّوازِمَ الفكرِيَّة، والمحاذيف في النصّ.

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾: أي: كالأضْغاثِ مِنَ الأحْلَام، على طَرِيقَةِ التَّشْبيهِ البَلِيغ. أي: القُرْآن أفْكَارٌ مُخْتَلِطَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، لَا نِظَامَ لَهَا، ولَا تَرَابُطَ بَيْنَهَا، كالْأَحْلَامِ المُخْتَلِطَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ مَنْ يَرَاهَا اسْتِبَانَةَ فِقَراتها، ولَا إِدْرَاكَ الترابُطِ بَيْنَها.

أَصْلُ معنىٰ «الضِّغْث» ما جُمِعَ مُخْتَلِطاً بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وقُبِضَ عَلَيْهِ بِجُمْعِ الكَفِّ ونَحْوِهِ، كقَبْضَةٍ مِنْ حَشِيشٍ مُخْتَلِفِ الأَنْوَاعِ والأَصْنَافِ اخْتلاطاً عَشْوائياً، وجَمْعُهُ «أَضْغاث».

وأَضْغَاثُ الأَحْلَام مَا كانَ مِنْهَا مُلْتَبِساً مُضْطَرِباً مُخْتَلِطاً بَعْضُهُ بِبَعْض.

المقالة الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايةً عَنْهُمْ: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي: بَلْ صَنَعَهُ مُحَمَّد، وادَّعىٰ كَذِباً أنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ وَحْياً.

هٰذِهِ المقالَةُ تَسْنُدُ المقالَةَ الأُولَىٰ الّتي زَعَمُوا فيها أنّ القُرآنَ أضْغَاثُ أحْلام في مُخَطَّطِهِم الكيدي.

أي: وبما أنّ القرآنَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يكونَ تَنْزِيلاً من عِنْدِ رَبِّ العالَمِين، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِي يَقُولُهُ مِنْ عِنْدِهِ، ويَدَّعِي أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِين.

الافْتِرَاءُ: اخْتِلَاقُ الكَذِب بإِرَادَةٍ جَازِمَةٍ.

المقالة الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايَةً عنهم: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي: بَلْ صَنَعَ مُحَمَّدٌ القرآنَ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ قُدْرَةٍ على قَرْضِ الشِّعْرِ، وبهذا تُوجَدُ في الأقْوالِ الّتي يَقُولُهَا على أنَّها قُرآن تَحليقَاتٌ شِعْرِيَّة

ساحِرَةٌ، تَجْذِبُ هُوَاةُ البَيَانِ الشِّعْرِيّ البَدِيع، وقَدْ ابْتَكَرَ مُحَمَّدٌ طَرِيقَةَ بَيانِهِ فيه على مَذْهَبٍ شِعْرِيٍّ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لَدَى الشُّعَراء مِنْ قَبْلِهِ.

وقَدْ سَبَقَ بيانُ أنَّ مَضامِينَ القرآنِ لَا تَلْتَقِي مَعَ أغْرَاضِ الشُّعَراءِ، لَا في نَزَعَاتِهِمْ، ولَا في نَزَغاتهم، ولَا في الوِدْيانِ الرِّجْسِيَّةِ الَّتي يَهْبطُون إلَيْها، أو المَلِيئَة بالوَحْلِ والمنْتِنَات.

المقالَة الرابعة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ حكايَةً عَنْهُمْ: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾:

هٰذه المَقالَةُ الدِّعَائِيَّة الَّتِي تَصَوَّرُوا أنَّهَا مَقالَةٌ صادَّةٌ عَنِ الإيمَانِ بالرَّسُولِ واتِّبَاعِهِ، تُوجّه جماهِيرَهُمْ لمطالَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ بأنْ يأْتِيَهُمْ بآيَةٍ مَادِّيَّةٍ يَشْهَدُ اللَّهُ له بِهَا أنَّهُ رَسُولُه حقّاً وصِدْقاً، مثل عَصَا مُوسَىٰ، وإحْيَاءِ المَوْتَىٰ لِعِيسَىٰ عليهما السّلام.

وقَدْ أجابَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سُورَة (الأنبياء) علىٰ هذه المقالاتِ الدِّعائِيَّة، الَّتي قَرَّرَ كُبَراءُ مُشْرِكِي مكَّةَ تَرْوِيجها بَيْنَ جماهِيرِهم، إبَّان نُزُول سُورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

النصّ الخامس:

قول اللَّه عزَّ وجلَّ في سُورة (الطُّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) خِطَاباً لِرَسُولِهِ مُكَلِّفاً ومَثَبِّتاً:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

تابع المشركون بتوجيهِ من أئمّة الضلال والتضليل، وهم كُبَرَاءُ كُفَّار

قُرَيْشٍ المُعاندون، تَرْوِيجَ اتِّهام الرَّسُول محمّد ﷺ بأَنَّهُ شاعر، واتّهامِهِ بأنَّهُ مَجْنُون، لِيُثْنُوهُ عَنْ مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ، ولِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الإصغاءِ إليه، وعنِ اتِّبَاعِهِ والإيمان بأنَّهُ نبيّ اللَّهِ ورسُولُهُ، والإيمان بما يُبَلِّغُهُمْ عَنْ رَبِّهم.

فأمر اللَّهُ رَسُولَهُ بأنْ يُتَابِعَ تَذْكِيرَ الَّذِين لَمْ يَصِلُوا إلى دَرَكَةٍ من الجحود العناديّ، مَيْؤُوسٍ معها من إيمانهم عَنْ طَرِيق إراداتِهم الحرَّة، فقالَ لَهُ في هذا النصّ من سورة (الطور):

- ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَتَابِعْ تَذْكِيرَكَ لِمَنْ تَطْمَعُ باسْتِجَابَتِهِم، فَمَا أَنْتَ بنِعْمَةِ رَبِّكَ عَلَيْكَ بالقُرْآنِ، وبَالِاصْطِفَاءِ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، بِكَاهِنٍ مِنَ الكُهَّانِ، ولَا مَجْنُونٍ، كما زعم المُعانِدُون المكذِّبُون.

الكاهِن: الَّذِي يتلقَّى عَنْ قَرِينِهِ مِنَ الجِنّ عُلُوماً غيبيَّةً، أو يدّعي علوماً غيبيَّةً، والكاهِنُ غالباً ذو ذكاءٍ مفرطٍ مع خبثٍ في داخله. والمجنون: فاسِدُ العقل، فكيف صدَرَ عنهم هذا التناقض.

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ هٰذه هي المنقطعة، وهي بمعنى «بل» الّتي هي للإضراب الانتقالي، أي: بَلْ أيَقُولُونَ مُحمَّدٌ شاعِرٌ يأتي بأقوال هي مِنْ نوع الشِّعر المؤثّر الّذي ابتكر فيه مذهَباً جَدِيداً في الشعر، ونَحْنُ نَنْتَظِرُ مَوْتَه لِنَسْتَرِيحَ مِنْهُ ومِنْ دَعْوَتِهِ.

﴿نَّتَرَبَّصُ﴾: أي: نَنْتَظِرُ. **التَّرَبُّص**: الانْتِظَار.

﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: أي: حَوَادِثَ الدَّهْرِ المُمِيتَة. **المَنُون**: المَوْت. يقال: هي المَنُون، وقَدْ يُذَكّر، فيقال: هو المنون.

فعَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ ما يَرُدُّ به عليهم فقال لَهُ:

- ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: انْتَظِروا مَوْتي، فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِينَ أنْ يَنْصُرَني اللَّهُ عَلَيْكُمْ ويُعْلِي كَلِمَته.

- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

الأحلام: العقول. **الطَّاغون**: أي المتجاوزن الحُدود المقبولَةَ المُحْتَمَلة في التجاوُز بحَسَبِ معاصِي النّاسِ إلى البَغْيِ والعُدْوانِ والفَساد ونَشْرِ الفساد في الأرْض، ومُحَارَبَةِ الحقّ والخير والفضيلة ودين اللّه الحَقِّ.

والمعنى: بَل أتَأْمُرُهُمْ عُقولُهُمْ بأنْ يَكُونُوا في أقوالهم مُتَناقضين؟! إنَّ هٰذا لأمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ لَدَىٰ كُلّ أصْحَابِ العُقُولِ المُلْتَزِمِينَ بالاختيار المعقول المقبول، وهو يَدُلُّ على أنهم لا عُقولَ لهم.

بل هم قَوْمٌ طاغُونَ طغياناً فاحِشاً جدّاً، لا يكون إلّا من غُلَاة الفاسِدين الضَّالّين المضِلّين، وهذا الطغيان هو الذي يسقطهم في التناقض.

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾: أي: اخْتَلَقَ القرآنَ اخْتِلَاقاً مِنْ عِنْدِهِ، ولَمْ يُوحَ إلَيْهِ به مِنْ عِنْدِ رَبِّ العَالَمِين، **التَّقَوُّل**: تَكَلُّفُ القَوْل، ولا يُسْتَعْمَلُ غالباً إلّا في صُنْعِ القَوْلِ المَكْذُوبِ المُفْتَرَى بِنِسْبَتِهِ إلى غَيْرِ قائِلِهِ.

أي: بل أيَقُولُونَ إنَّ مُحَمَّداً تَقَوَّلَ القرآن ونَسَبَهُ إلى رَبِّ العالَمِين.

بَلْ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ مُسْتَقْبلاً بالحقِّ الَّذي جاءَهم من رَبِّهِم، لأَنَّهُمْ حَجَبُوا قُلُوبَهُمْ بحُجُبٍ كثيفَةٍ من الكِبْرِ، والأَهْوَاءِ، والشَّهواتِ ورغباتِهِمْ من الحياة الدُّنْيا، ووَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ من جحودِ الحقّ، والعناد الإجراميّ، ميؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ أنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِم الحُرَّة.

وإذْ تضمَّنَ ادِّعاؤُهُمْ تَقَوُّلَ الرَّسُولِ لِلْقُرْآنِ أنَّ البَشَرَ قادِرُونَ على أنْ يَأْتُوا بمِثْلِهِ، كانَ مِنَ الأَمْرِ الحكيم أنْ يَتَحَدَّاهُمْ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بأنْ يَأْتُوا بمِثْلِ القُرْآن، إذا كانوا صادقين بأنّ البَشَرَ قادرون على أنْ يأتُوا بمِثْلِهِ، فَهُمْ بَشَرٌ مِنَ البَشَرِ، فَلْيَجْتَمِعْ بُلَغاؤُهُمْ وفُصَحاؤُهم ومُفَكِّرُوهُم وأذْكِياؤُهُمْ، ولْيَصْنَعُوا قُرْآناً مِثْلَ هٰذا القُرْآنِ.

إنّ الجِنّ والإنْسَ لَنْ يَسْتَطِيعُونَ ذٰلِكَ، ولو كان بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

النصّ السادس:

قول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) خطاباً لِغَيْرِ المؤمنين:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧)﴾.

قُرِئ: [**يُؤْمِنُونَ**] و[**تُؤْمِنُونَ**] و[**يَذَّكَّرُونَ**] و[**تَذَّكَّرُونَ**] و[**تَذَكَّرُون**] على التوزيع ضِمْنَ القرّاء العشرة، وبَيْن هٰذِهِ القراءات تكامُلٌ في الأداء البيانيّ في الخطاب والغَيْبَة، وبحذْف التاء الثانية في: [**تَذَكَّرُون**] تخفيفاً، وبإدْغامِهَا بالذّال في: [**يَذَّكَّرُونَ**] و[**تَذَّكَّرُون**].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾: نَفْيُ القَسَم جاء هُنَا على طَرِيقَةِ القرآنِ مِنْ مُراعَاةِ اقْتِضاءَيْن: أحَدُهُمَا يُلَائِمُهُ القَسَمُ المؤكّد للخبر، والآخر يلائمه عدم القَسَمِ لِعَدَم حُصُول الفائدة مِنْه، فكان الحلُّ البيانِيُّ المُبْتَكر اختيار ذكر لفظ القَسَمِ والمُقْسَمِ به تنبيهاً عليه، مع سبقه بأداة النفي «لا».

والجانب الّذي اقتضىٰ القَسَم رُوعِي حالُهُ بذِكْرِ القَسَمِ والمُقْسَم به، والجانب الّذي اقتضىٰ عدم حُصُولِ الفائدة المرجُوّة مِنَ القَسَمِ رُوعِيَ حالُهُ بنَفْيِ القَسَمِ بأداة النَّفْي «لا».

إنّ الموجودات الكونيَّة الّتي لَا يُبْصِرُهَا النَّاسُ، لَا يَعْرِفُ المخاطَبُون إبَّانَ التنزيل قِيمتَهَا وعَظَمَتَهَا، وعظمةَ خَلْقِ اللَّهِ لَهَا، فَلَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ من القَسَمِ بها، لتأكيد أنَّ القُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِين، لٰكِنْ سَيَأْتِي زَمَنٌ يَكْتَشِفُ الباحِثُونَ العِلْمِيُّونَ فيه عَظَمةَ الموجُوداتِ الكونيَّة، الّتي لَا يُبْصِرُونها بأعْيُنِهِمْ، فالقَسَمُ بها يُؤكِّدُ لَدَيْهِم خبرَ أنَّ القرآنَ تنزيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِين.

ومُرَاعاةً لهٰؤلَاءِ وهٰؤُلَاءِ معاً ذكر اللَّه القسم، ونفاه بأداة النفي «لَا».

﴿... بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: بما تَرَوْنَ أيُّها النَّاسُ المَعْنِيُّونَ بالخِطاب بأبْصارِكُمْ مِمَّا خَلَقْتُ في كَوْنِي، ومَا لَا تَرَوْنَهُ بِأَبْصَارِكُمْ مِمَّا خَلَقْتُ في كوني.

وقدْ أثْبتَتِ البُحُوثُ العِلْمِيَّةُ أنَّ الكائِنَات غَيْرَ المرئيَّة بأبْصارِ النَّاسِ أعْظَمُ وأكْثَرُ جداً مِنَ المَرْئِيّ بالأبْصار، وقَدْ تكُونُ نِسبَةُ المَرْئِيّ إلى غير المَرْئِي بالأبْصار، كنِسْبَةِ الذَّرَّة إلى حَجْم الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ أو أقَلَّ.

- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾: إنّ القُرْآنَ لَقَوْلٌ نَزَلَ به رَسُولٌ كَريمٌ مِنْ لَدُنَّا هُوَ أمِينُ الوَحْي جِبْرِيلُ، وأَوْحَىٰ بِهِ إلى رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ قَوْلاً مَلْفُوظاً، فَتَلَقَّاهُ مُحَمَّدٌ كَمَا أوحَىٰ إلَيْهِ بِهِ رَسُولُنَا جِبْرِيلُ، حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمَةً فَكَلِمَةً، وآيَةً فَآيَة.

- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: لَيس القرآن بقَوْلٍ يُمْكِنُ أنْ يَصْدُرَ عَنْ شاعِرٍ، وقد سَبَقَ أنْ بَيَّنَا لَكم في سورة (يٰس) وفي سورة (الشُّعراء) وفي سورة (الصافّات) أنّ الشعراء لا يُمْكِنُ أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ

هٰذا القرآن، للتَّبايُنِ بَيْنَ ما تَضَمَّنَهُ القرآن، وما تضَمَّنَهُ شِعْرُ كُلِّ الشعراء، وللتبايُن بَيْنَ الصِّفَاتِ النفسيَّة والسُّلُوكِيَّة للشاعر، وبَيْنَ الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّة والسُّلُوكِيَّة للنَّبِيِّ الرَّسُول، وقَدَّمْنَا لكُمُ الإقْنَاعَ الكافِي، ولٰكِنَّكُمْ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ، إنَّكُمْ قَدْ يَحْصُل في نفوسِكُمْ اسْتِيقانٌ بالحَقّ، ولٰكِنَّهُ إذا خالف هواكم ومَا تُحِبُّونَ من متاع الحياة الدنيا، فإنَّكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِهِ إيماناً إرادِيّاً دافِعاً لكُمْ إلى العَمَلِ بما يَدْعُوكُمْ إلَيْهِ ويَقْتَضِيهِ، أمّا إذا وافَقَ هواكم فإنَّكُم تُؤْمِنُونَ به.

ولمّا كان الحقُّ الّذي يُوافِقُ هَوَاكُمْ قَلِيلاً، وكانَ الحقُّ الَّذِي يخالفُ هواكم كثيراً، فإنَّهُ يَصْدُقُ عليكم أنَّكُمْ ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، أي: إيماناً قليلاً جدّاً بالحقائقِ تُؤْمِنُون.

لفظ «قليلاً» صفة لمفعول مطلق محذوف مُقدَّم على فعله، ولفظ «ما» لَفْظٌ مُبْهم جيء به لتأكيد القلّة.

- ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: ولَيْسَ القرآن بقَوْلٍ يُمْكِنُ أن يَصْدُرَ عَنْ كاهِنٍ، وقد سَبَقَ أنْ بَيَّنَّا لَكُمْ أنّ القُرْآنَ لا يُمْكِنُ أنْ تَتَنَزَّلَ به الشياطين في أواخِرِ سورة (الشعراء)، ولكنَّكُمْ قَلِيلاً ما تذَكَّرُون.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أصْلُها: «تَتَذَكَّرُون» حُذِفَتِ التاء الثانية تخفيفاً في النُّطْقِ.

لَقَدْ كان من الواجب عليكم أنْ تَتَذَكَّرُوا ما سَبَقَ أنْ بَيَّنَاهُ لكم تذَكُّراً دافِعاً إلى الإيمان بالحقّ، لٰكِنَّكُمْ تُهمِلُونَ ما لا يوافِقُ هواكم فتُبْعِدُونَهُ عَنْ ذاكِرَاتِكُمْ، فلَا تَسْتَحْضِرُونَهُ عِنْدَ وجُودِ الدَّاعِي إلى استحضاره، وتَسْتَمِرُّون على تكْرِير ما يُوافِقُ أهواءَكم مِنْ باطل.

- ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: إنَّ القرآن الَّذي تَزْعُمُون مَرَّةً أنَّهُ قَوْلُ شاعِرٍ، وتَزْعُمُونَ أخرَىٰ أنَّهُ قَوْلُ كاهِنٍ، وأنَّ محمّداً يَتَقَوَّلُهُ على رَبّه كَذِباً وافْتِراء، هُوَ تَنْزِيلُ مِنْ رَبّ العَالَمِين، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ جِبْرِيل، فأوحَىٰ به إلى مُحَمَّد.

وللرَّدِّ على زَعْمِهِمْ أنَّ مُحَمَّداً تَقَوَّلَهُ على رَبِّه، أبَانَ اللَّهُ لَهُمْ أنَّ محمَّداً لَوْ تَقَوَّلَ شيئاً قَلِيلاً عَلَيْنا لقَتَلْنَاهُ بقَطْعِ وَتِينه، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

سبَقَ قَرِيباً بيانُ مَعْنَىٰ التَّقَوُّل، والمُرادُ هُنا أنَّهُ يَقُولُ كلَاماً من عنده ويَزْعُمُ أنَّهُ قَدْ أوحَىٰ اللَّهُ بِهِ إلَيْهِ.

﴿ٱلْوَتِينَ﴾: هو الشريانُ الرَّئيس الّذي يُغَذّي جِسْمَ الإنْسَان بالدَّمِ النقيّ الخارج من القَلْب.

المعنى: ألَمْ تُفكِّرُوا بَعْدَ أنْ أيَّدْنَاهُ بآياتِنَا لِنَشْهَدَ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَّا، قَدْ بَعَثْنَاهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِنَا، أنَّهُ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بعض الأقاويلِ، فإنَّنَا لَنْ نَتْرُكَهُ يَكْذِبُ عَلَيْنَا ونَحْنُ نَشْهَدُ بِصِدْقِهِ في نُبُوَّتِهِ ورِسالَتِهِ وفي تَبْلِيغَاتِهِ عَنَّا.

إنَّهُ لَوْ فَعَلَ شيئاً مِنْ ذٰلِكَ لَأَخَذْنَا مِنْهُ باليَمِين، ولَعَذَّبْنَاهُ، ثُمَّ بَعْدَ أنْ يَنَالَ نَصِيبَهُ مِنَ العذابِ لَقَطَعْنَا مِنْهُ وَتِينَهُ فَهَلَكَ، ولمنعناهُ بذٰلِكَ مِنْ أنْ يَكْذِبَ عَلَيْنَا.

وعندئذٍ فَلَا يَسْتَطِيعُ أحَدٌ مِنْكُمْ أنْ يَحْجُزَنَا عَنْ تَعْذِيبِهِ وإهْلاكه، مهما جَمَعَ مَعَهُ مِنْ جُمُوعٍ وكانوا مَعَهُ حَاجِزِين.

نُزِّل الواحِدُ مَنْزِلَةَ الجَمْعِ الَّذي يَجْمَعُهُمْ معه، فجاء الخَبَر عنه بلفظ **[حَاجِزين]**.

* * *

ما جاء في السُّنَّة بِشَأْنِ الشعر والشعراء:

جاء في السُّنَّة الثناء على الشعر الذي يشتمل على حقٍّ وحكمةٍ ودَعْوَةٍ إلى الخير ومكافحةٍ للباطل والمبطلين، ودفاعٍ عن الدّين الحقّ، وعن

الرَّسول وصالحي المؤمنين، وحثَّ على الجهادِ في سبيل اللَّه، ويلزم من هذا الثناء على شعراء هذا النوع من الشعر.

وجاء فيها ذمّ الشِّعْرِ الَّذِي يدعو إلى باطل أو رذيلة، أو يَنْصُرُ المبطلين والمجرمين، أو يَشْتَمِلُ على شَتِيمَةٍ أو هِجَاءٍ بغَيْرِ حقٍّ، أو فَضْحِ للمؤمنين، أو إشاعَةٍ للفاحِشَةِ والفِسْقِ والفجور، أو تَعْرِيَةٍ للعَوْراتِ أو إساءَةٍ أو تجريحِ أو غِيبَةٍ أو نَمِيمَةٍ للمستورين، أو يَشْتَمِلُ على أيّ شيءٍ لم يُأْذَنْ به الدِّين في أيّ كلام، سواءٌ أكان نثراً أم شعراً.

ويلزم من ذمِّ هذا النَّوْع من الشِّعر ذمُّ شُعَرائِهِ، مهما كانوا من فحول الشُّعَراء، ومَهْما كانَتْ مَوْهِبَتُهم عاليةً في الإبْداعِ والتَّحْلِيقِ الشِّعْرِيّ.

ما جاء في السُّنَّة مِنْ ثَناءٍ على الشِّعْرِ المأذون به في الدِّين:

(١) روى الإمام أحمد، وأبو داود، عن عبد اللَّهِ بْنِ عباس رضي اللَّه عَنْهما، أنَّ الرَّسُولَ ﷺ قالَ:

«إنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْراً، وإنَّ مِنَ الشِّعْر حِكَماً»(١).

(٢) وجاء في صحيح مُسْلِم أنَّ حسَّان بنَ ثابتٍ قال لِأَبِي هُرَيْرَة: أنْشُدُكَ باللَّهِ، هل سَمِعْتَ النبيّ ﷺ يقول:

«يا حسَّانُ أجِبْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ أيِّدْهُ برُوحِ القُدْس»؟

فقال أبو هريرة: «نعم». ورُوحُ القُدُس: هو جبريلُ عليه السّلام.

(٣) وروى مُسْلِمٌ أيضاً عن البراء بْنِ عازبٍ، قال: سَمِعْتُ رسُول اللَّهِ ﷺ يقول لحسَّان بن ثابت:

«اهْجُهُمْ، أوْ هَاجِهِمْ وجِبْرِيلُ مَعَكَ».

---

(١) انظر الحديث (٢٢١٥) من صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني.

(٤) وروى مسلم أيضاً عن عائِشَةَ رضي اللّه عنها، قالت: سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ لحسَّان:

«إنَّ رُوحَ القُدْسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ ما نَافَحْتَ عَنِ اللّهِ ورَسُولِهِ».

(٥) وروى الإمام أحمد بسَنده عن عبد الرحمٰن بْنِ كَعْبِ بنِ مالكٍ عن أبيه، أنَّه قالَ للنَّبيِّ ﷺ، إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أنْزَلَ في الشُّعَراءِ ما أنْزَلَ!! فقال رَسُولُ اللّهِ ﷺ:

«إنَّ المؤمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ ولِسَانِهِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ».

أي: مَا تَرْمُونَ به أئِمَّةَ الكافِرِينَ وأتْباعَهم مِنْ شِعْر، يُشْبهُ نَضْحَهُمْ بالسِّهام.

النَّضْحُ بالنَّبْل: الرَّمْيُ بالسِّهام، يُقالُ لغة: «نَضَحَ القَومَ بالنَّبْلِ» أي: رماهم بالنَّبْلِ، فَفَرَّقَهُم.

(٦) وروى الترمذيُّ عن أنسٍ رضي اللّه عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل مكَّةَ في عُمْرَةِ القضاء، وعَبْدُ اللّه بنُ رَوَاحَة يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ اليَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ويُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، فِي حَرَمِ اللّهِ وبَيْنِ يَدَيْ رَسُولِ اللّهِ تَقُولُ الشِّعْرَ؟!

فقال لَهُ النبيُّ ﷺ:

«خَلِّ عَنْهُ يا عُمَرُ، فإنَّهُ أسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْل».

(٧) وروى أبو بكر بن العربيّ في أحكام القرآن بِسَنَدِهِ إلى خُرَيْم بْنِ أوْسِ بْنِ حارِثَةَ أنَّهُ قالَ: هاجَرْتُ إلى رسُولِ اللّهِ ﷺ بالمَدِينَةِ، مُنْصَرَفَهُ مِنْ

تَبُوك، فَسَمِعْتُ العَبَّاسَ قال: يَا رَسُولَ اللَّه، إنّي أُرِيدُ أنْ أمْتَدِحَكَ، فقال: «قُلْ لَا يَفْضُضِ اللَّهُ فاكَ».

فقال العباسُ أبياتاً سبعة، مِنْهَا قوله:

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ في الظِّلَالِ وفي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ

فقال له النبيّ ﷺ: «لَا يَفْضُضِ اللَّهُ فاكَ»(١).

(٧) وثبت أنَّ الرَّسُولَ ﷺ أجاز «كَعْبَ بْنَ زُهَيْر» فخَلَعَ عليه بُرْدَتَهُ، إذْ جاء مؤمناً، وأنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ المشهورة، الّتي يَقُولُ في مَطْلَعِها على عادَةِ الشُّعَراءِ الجاهِلِيِّين، إذْ يَبْدَؤُونَ قَصَائِدَهُمْ بالنَّسِيب:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ(٢)

وانتقل إلى الاعْتِذار والتوبَة ومَدْحِ الرَّسُول ﷺ.

(٩) وقال أبو هريرة: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ على المنبر: «أصْدَقُ كَلِمَةٍ قالَتْهَا العَرَبُ، كَلِمَةُ لَبِيد: ألَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ».

(١٠) وكانَ الرَّسُولُ ﷺ يَسْتَنْشِدُ شِعْرَ أُمَيَّةَ بْنِ أبي الصَّلْتِ، لِمَا فيهِ من الحِكْمة، وقال بشَأْنِهِ: كادَ أُمَيَّةُ أنْ يُسْلِمَ.

ما جاء في السُّنَّةِ من ذَمٍّ للشعر غير المأذون به:

(١) روى الإمام أحْمَدُ بِسَنَدِهِ عن أبي سعيد قال: بَيْنَما نَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بالعَرْج، إذْ عَرَضَ شاعِرٌ يُنْشِدُ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) أخذاً من الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره لآخر سُورة (الشعراء).

(٢) **بانَتْ**: ابتعدَتْ. **مَتْبُولُ**: أسقمه الشوق. **مُتَيَّم**: ذليل مستعبد. **لم يُفْدَ**: لم يَخلُص من الأسر. **مَكْبُول**: مقيّد.

«خُذُوا الشَّيْطانَ، أو أمْسِكُوا الشَّيْطانَ، لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أحَدِكُمْ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً».

وهذا محمولٌ على أنّ الشَّاعِرَ كانَ يُنْشِدُ شِعْراً فيه ضلالٌ وإثم، وفسادٌ وشرٌّ، فوصَفَهُ الرَّسُول بأنَّهُ شيطان، وقال: لأنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أحَدِكُمْ قَيْحاً خيرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً، أي: من هٰذا الشِّعْرِ القَذِر.

(١) وروَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أبي هُرَيْرة، قال: قال رَسُولُ اللَّه ﷺ:

«لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أحدِكُمْ قَيْحاً يَرِيهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً».

«يَرِيه»: أي: يأكُلهُ ويُفْسِدُه، يُقالُ لغة: «ورَىٰ القَيْحُ جوفَ المَرِيضِ يَرِيهِ»، أي: أكَلَهُ وأفْسَدَه.

وهٰذا مَحْمُولٌ على الشِّعْرِ المتضمِّنِ ضَلالاً وإضْلالاً، وفساداً وإفْساداً، نظير الحديث السَّابق.

مما ورد بأنّ الشِّعر كسائر الكلام:

(١) قال القرطبي: روىٰ إسماعيلُ بْنُ عبّاسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْن، عَنْ مُحَمّد بْنِ سيرين عَنْ أبي هُرَيْرَة قال: قال رسُول اللَّهِ ﷺ:

«حَسَنُ الشِّعْرِ كَحَسَنِ الكَلَامِ   وقَبِيحُ الشِّعْرِ كَقَبِيحِ الكَلَامِ»

قال القرطُبيّ: رواه إسْمَاعيل عن عبد اللَّه بْنِ عَوْنٍ الشّامي، وحديثُهُ عَنْ أهْلِ الشام صَحِيح فيما قال يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ وغيره.

(٢) قال: ورَوَى عبد اللَّه بْنُ عَمْرِو بن العاصِ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ:

«الشِّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الكَلَّامِ حَسَنُهُ كَحَسَنِ الكَلَّامِ، وقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الكَلَّامِ».

الرَّسُول يَطْلُبُ اسْتِمَاعَ شِعْرِ أُمَيَّة بْنِ أبي الصَّلْت:

روى مُسْلِمٌ من حَدِيث عَمْرو بْنِ الشَّرِيد عَنْ أبِيهِ، قال: رَدِفْتُ

رَسُول اللَّهِ ﷺ فقال: «هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ؟»

قُلْتُ: نَعَم. قال: «هِيهِ»، فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتاً. فقال: «هِيهِ»، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتاً، فقالَ: «هِيهِ»، حتَّىٰ أَنْشَدْتُهُ مِئَةَ بَيْتٍ.

عُمَرُ بنُ الخطَّاب وعامِلُهُ النُّعمانُ بْنُ عَدِيّ:

ذكر مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقٍ، ومحمَّد بْنُ سَعْدٍ في الطَّبَقاتِ، والزُّبَيْرُ بْنُ بكَّارٍ في كِتابِ الفُكَاهَةِ، أنَّ أمِيرَ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ رضي اللَّهُ عنه، اسْتَعْمَلَ النُّعْمَانَ بن عَدِيّ بن نضلة، على مِيسَان من أرْضِ البَصْرَة، وكانَ يَقُولُ الشِّعْر، فقالَ:

أَلَا هَلْ أَتَىٰ الحَسْنَاءَ أنَّ خَلِيلَهَا بِمَيْسَانَ يُسْقَى في زُجَاجٍ وحَنْتَمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ورَقَّاصَةٌ تَحْدُو عَلَىٰ كُلِّ مِبْسَمِ
فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَبِالأَكْبَرِ اسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بالأَصْغَرِ المُتَثَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ تَنَادُمُنَا بالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

نَدْمَانِي: أي نَدِيمِي. **النَّدِيم**: المصاحِبُ على الشراب المسامر.

فلمَّا بَلَغَ ذٰلِكَ أميرَ المُؤمنين عُمَرَ بْنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ قال: إِي واللَّه، إنَّهُ لَيَسُوؤُني ذٰلِكَ، ومَنْ لَقِيَهُ فَلْيُخْبِرْهُ أنّي قَدْ عَزَلْتُه.

وكتبَ إِلَيْهِ عُمَر: «بسم اللَّه الرَّحمٰن الرحيم. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾. أمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغَنِي قَوْلُكَ:

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ تَنَادُمُنَا بالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

وَايْمُ اللَّهِ، إنَّهُ لَيَسُوؤُنِي، وقَدْ عَزَلْتُكَ.

فلمَّا قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بكَّتَهُ بهٰذا الشِّعر، فقال: واللَّهِ يا أميرَ المؤمنين ما شَرِبْتُها قَطّ، وما ذاكَ الشّعر إلّا شَيْءٌ طَفَحَ على لساني.

فقال عُمَر: أظُنُّ ذٰلِكَ، ولٰكِنْ واللَّهِ لَا تَعْمَلْ لِي عَمَلاً أبَداً، وقَدْ قُلْتَ ما قُلْتَ.

شعراء المشركين كانوا يهجون الرَّسُول ﷺ:

كانَ نَفَرٌ مِنَ الشُّعَراء بمَكَّة يَهْجُونَ الرَّسُولَ ﷺ، وكانَتْ جماعاتٌ مِنَ المُشْرِكِينَ يَجْتَمِعُونَ إليهم، ويَسْمَعُونَ أشعارهم، وهجاءَهُمْ للرسول.

ومِنْهُمْ:

(١) النّضرُ بن الحارث.

(٢) هُبَيْرَةُ بْنُ أبِي وَهْب.

(٣) مُسَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَاف.

(٤) أبُو عَزَّة الجُمَحِيّ.

(٥) ابْنُ الزِّبَعْرَىٰ.

(٦) أُمَيَّةُ بْنُ أبِي الصَّلْت.

(٧) أبو سُفْيان بنُ الحارث.

(٨) أُمُّ جَمِيل، العَوْراءُ بِنْتُ حَرْب، زَوْج أبي لَهَب.

ومِنْ هؤلاء مَنْ تابَ وأناب، وأسْلَمَ واختارَ الحقَّ والصَّواب، وتحوّل إلى مَدْحِ الرَّسُولِ وتمجيد الإسلام، ومنهم:

(١) عبد اللَّه بن الزِّبَعْرَىٰ، ومن شعره بعد أسلامه:

يا رَسُولَ المَلِيكِ، إنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ
إذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الغَيِّ ومَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

(٢) أبو سُفْيانَ بنُ الحارث بنِ عَبْدِ المطلب، فقد كان مِنْ أشَدِّ

النَّاسِ عداوةً للرَّسُول ﷺ قَبْلَ أنْ يُسْلِمَ، ومن أكْثَرِهِمْ هِجاءً له، فلمَّا أسْلَمَ لم يَكُنْ أحَدٌ أحَبَّ إلَيْهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وصارَ يَمْدَحُهُ في شِعْرِهِ، ويَتَوَلَّاهُ.

من الذين أسْلَمُوا من الشعراء ومِنْهُمْ من جاهَدَ بِشِعْرِهِ:

(١) من شعراء الأنْصَار الذين أسْلَمُوا وجاهدوا بشعرهم: «عبد اللَّه بْنُ رَوَاحَة، وحسَّانُ بْنُ ثابت».

(٢) ومن الشعراء الذين أسْلَمُوا من غير الأنصار: «لَبِيد» و«كَعْبُ بْنُ زُهَيْر» و«سُحَيْمٌ عَبْدُ بَنِي الحَسْحَاس».

* * *

خاتمة المجلد الثامن

بفضلٍ من اللَّه الجليل الرَّحيم الرؤوف الوهَّاب، كتبتُ هذا المجلّد الثامن المشتمل على تدبّر السُّوَر الثلاث (طٰه - والواقعة - والشعراء) وملاحق هذا التدبّر، وأنا مُنْبَطِحٌ على السَّرِير أرتقي سُلّم العافية درجةً فدرجةً، بعناية ربّي وألْطافِهِ الخفيّة، ولساني وقلبي يسألانه تمام العافية وتمام الشفاء، وأن يَمُدَّنِي بالمَعُونَةِ، ويَهَبَنِي القُوَّة والبَصِيرَة النَّفَّاذة، والفَهْمَ السَّدِيدَ على مُرادِهِ من آياتِ كتابه، حتَّى يُنْهِيَ لِي بفَيْضِ عطائِهِ، تدَبُّرَ سائِرِ سُوَرِهِ، ويَجْعَلَهُ مُبيناً لحقائِقِهِ، ودَقَائِقِهِ، ونافِعاً لراغِبِي فَهْم كِتَابِهِ في العالمين، وخالصاً لوَجْهِهِ الكريم، إنَّه عَلِيمٌ سَمِيعٌ مجيب.

والحمد للَّه على ما فتح به، وعلَّمَ، وألْهَمَ، ووفَّقَ، وأعانَ، وأسأله أن يَجْعَلَنِي عَبْداً شَكُوراً.

وكان الفراغُ من كتابة هذا المجلد، صباح يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك من سنة (١٤٢١) هجرية، الموافق لـ(١٨) من شهر كانون الأول لسنة (٢٠٠٠م)، في دار إقامَتي بمكّة المكرمة، وفي غرفة أرى من نافذتها غارَ حراء، فيذكّرني بالصلاة والسّلام على سيّدنا محمّد بن عبد اللَّه، الَّذِي أنْزَلَ اللَّهُ عليه أوَّل سُورَة (العَلَق)، وهو يَعْبُدُهُ في الغار الكائنِ في ذروته، إذْ كانَ ذلك مَعَ بَدْءِ نُبُوَّتِهِ ﷺ.

ربِّ لا تقطَعْ عني مدَدَك وفَتْحَكَ ومعونَتَكَ وتوفيقك وعافيتَك، إنَّك جواد كريم، رؤوف رحيم وهّاب.

٢٢ رمضان المبارك، ١٤٢١هجرية، عبد الرحمٰن حسن حبنّكه الميداني
١٨/ ١٢/ ٢٠٠٠ ميلادية

الفهرس

الموضوع الصفحة

سورة طٰه

٢٠ مصحف/٤٥ نزول

(١) نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٧
(٢) مما ورد في السيرة النبوية بشأن سورة (طٰه) ٢١
(٣) موضوع سورة (طٰه) ٢٥
(٤) دروس سورة (طٰه) ٢٦
(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٨) ٢٨
- ﴿طٰه (١)﴾ ٢٩
- ﴿مَا أنزلنا عليكَ القرآن لتشقى (٢)﴾ ٢٩
- ﴿إلّا تذكرةً لِمَنْ يخشَىٰ (٣)﴾ ٣٠
- ﴿تنزيلاً ممَّنْ خلق الأرض والسَّماواتِ الْعُلَىٰ (٤)﴾ ٣٢
- ﴿الرَّحْمٰن على العرش استوىٰ (٥)﴾ ٣٣
- ﴿له ما في السّماوات وما في الأرض وما بَيْنهما ومَا تحت الثرىٰ (٦)﴾ ٣٤
- ﴿وإنْ تجهرْ بالقول فإنّه يعلَمُ السّرَّ وأخفىٰ (٧)﴾ ٣٦
- ﴿الله الّذي لَا إلَه إلّا هُوَ لَهُ الأسماء الحسنى (٨)﴾ ٣٨
(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طٰه)، الآيات من (٩ ـ ٩٩) ... ٣٩
الفقرة الأولى : الآيات من (٩ ـ ٣٦) ٣٩
القراءات ٤٠
تمهيد ٤٢
- ﴿وهَلْ أتاك حديث موسَىٰ (٩)﴾ ٤٣

الموضوع **الصفحة**

- ﴿إذْ رأىٰ ناراً فقال لأهْلِهِ امْكُثُوا إنّي آنَسْتُ ناراً لعلِّي آتيكم منها بقبَسٍ أو أجدُ على النار هدىٰ (١٠)﴾ ٤٤

نظرة إلى ما جاء في النصوص الأخرىٰ في القرآن بشأن هذا الحدث في (النمل) و(القصص) و(مريم) ٤٦

- ﴿فلمّا أتاهَا نودي يا مُوسَىٰ * إنّي أنا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيكَ إنَّكَ بالوادِ المقدّسِ طُوىٰ * وأنا اخترتك فاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣)﴾ ٤٨

شرح المفردات والجمل ٤٩

ما يظهر لمتدبّر هذه النصوص تدبُّراً تكامليّاً ٥١

- ﴿إنّني أنا اللّهُ لَا إلَهَ إلّا أنَا فَاعْبُدْني وأَقِمِ الصلاة لِذكري * إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أكادُ أُخفيها لتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَىٰ * فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بها واتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦)﴾ ٥٣

في هذا التكليم بيان ستّ قضايا

القضية الأولى: ﴿إنّني أنَا اللّه﴾ ٥٣

القضية الثانية: ﴿لَا إلَه إلَّا أنَا﴾ ٥٣

القضية الثالثة: ﴿فاعْبُدْني﴾ ٥٤

القضية الرابعة: ﴿وأقم الصلاة لذكري (١٤)﴾ ٥٤

القضية الخامسة: ﴿إنَّ السَّاعَةَ آتيةٌ أكادُ أخفيها لتُجْزَىٰ كُلُّ نفسٍ بما تَسْعَىٰ (١٥)﴾ ٥٥

القضية السادسة: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لَا يُؤْمِنُ بها واتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦)﴾ .. ٥٧

(**الآيات من** (١٧ ـ ٢٤) **من سورة** (طَه) وما جاء في (النمل) و(القصص) .. ٥٨

- ﴿وَمَا تلك بيمينك يا موسَىٰ * قال هي عصايَ أتوكَّأُ عليها وأهُشُّ بها على غنمي ولي فيها مآرِبُ أخرى (١٨)﴾ ٥٩
- ﴿قَالَ ألْقِهَا يا موسَىٰ (١٩)﴾ ٦١
- ﴿فألْقَاها فإذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)﴾ وما جاء في سورتي (النمل) و(القصص): .. ٦٢
- ﴿قالَ خُذْهَا وَلَا تخف سَنُعِيدُها سِيرَتها الأولَىٰ (٢١)﴾ ٦٤
- ﴿واضْمُمْ يَدَكَ إلَىٰ جَنَاحِكَ تخرجْ بيضاء من غير سُوءٍ آيَةً أخرى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَىٰ (٢٣)﴾ وما جاء في سورتي (النمل) و(القصص) ٦٥

الآيات التسع التي آتاها الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السّلام ٦٩

الموضوع **الصفحة**

الآيات من (٢٥ ـ ٣٦) من سورة (طه) ٧٢

القراءات وما جاء في سورتي (القصص) و(الشعراء) ٧٢

تدبّر هذه النصوص الثلاثة تَدَبُّراً تكامليّاً ٧٩

- ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْري (٢٥)﴾ ٧٩
- ﴿وَيَسِّر لِي أَمْرِي (٢٦)﴾ ٧٩
- ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَاني * يَفْقَهُوا قولي (٢٨)﴾ ٧٩
- ﴿وَاجْعَلْ لي وَزيراً مِنْ أَهْلي * هارونَ أخي (٣٠)﴾ ٨٠
- ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١)﴾ ٨١
- ﴿وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي (٣٢)﴾ ٨١
- ﴿كي نُسَبِّحَكَ كثيراً * وَنَذْكُرَكَ كثيراً (٣٤)﴾ ٨١
- ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥)﴾ ٨٢
- ﴿قَالَ قَدْ أوتيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسىٰ (٣٦)﴾ ٨٢

الفقرة الثانية: الآيات من (٣٧ ـ ٦٠) ٨٣

القراءات ٨٤

تمهيد بشأن مِنَّةِ الله على موسى عليه السلام وهو طفل رضيع ٨٥

ما جاء عند الإسرائيليين بشأن طفولة موسى ٨٨

- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرىٰ (٣٧)﴾ ٨٩
- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨)﴾ ٩٠
- ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ في التابوتِ فاقْذِفيه في اليمّ﴾ ٩١
- ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ في السَّاحِلِ﴾ ٩١
- ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ له﴾ ٩٢
- ﴿وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحبَّةً مِنّي﴾ ٩٢
- ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلى عيني (٣٩)﴾ ٩٣
- ﴿إذ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾ ٩٣
- ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَنْ يكفلُه﴾ ٩٤
- ﴿فَرَجَعْنَاكَ إلىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ ٩٤

الموضوع **الصفحة**

ما جاء في سورة (القصص) الآيات من (٧ ـ ١٣) ٩٦
- ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ ١٠٦

ما جاء في سورة (القصص) الآيات من (٢٠ ـ ٢٢) ١٠٧
- ﴿وفتناكَ فُتُوناً﴾ ١٠٨
- ﴿فلَبِثْتَ سِنِينَ في أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ ١٠٨
- ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ١٠٩
- ﴿واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ ١١٠

الآيات من (٤٢ ـ ٥٢) ١١٢

تمهيد ١١٢
- ﴿اذهبْ أنت وأخوكَ بآياتي ولَا تنِيا في ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾ ١١٣

وجوه ذكر الله عزّ وجلّ ١١٤
- ﴿اذْهَبَا إلى فرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فقولا له قولاً ليّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ . ١١٦

ما جاء في سورة (النازعات) ١١٧
- ﴿.. لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أو يخشى ﴿٤٤﴾﴾ ١١٨
- ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنا نخافُ أَنْ يَفْرُطَ علَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ ١٢٠
- ﴿قالَ لَا تخافَا إِنّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ ١٢٠

الآيتان (٤٧ و٤٨) وفيهما سِتُّ قضايا ١٢١

القضية الأولى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ﴾ ١٢١

القضية الثانية: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إسرائيل﴾ ١٢٢

القضيّة الثالثة: وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ ١٢٢

القضيّة الرابعة: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ ١٢٣

القضيّة الخامسة: ﴿والسَّلَامُ عَلَىٰ من اتّبع الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ ١٢٣

القضيّة السادسة: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العذابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ ... ١٢٣
- ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ ١٢٤
- ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾ ١٢٤

تتمّة مما جاء في سورة (الشعراء) الآيات من (١٨ ـ ٢٦) ١٢٦

الموضوع **الصفحة**

• ﴿قال فما بال القرون الأولى * قَال عِلْمُها عند رَبّي في كتابٍ لَا يَضِلُّ رَبي ولَا يَنْسَىٰ (٥٢)﴾ ١٢٦
تتمة ممّا في (الشعراء) الآيات من (٢٧ ـ ٥١) ١٢٧
تدبر النصوص تدبّراً تكاملياً ١٢٧
• ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وسَلَكَ لكم فيها سُبلاً وأنزل من السماء ماءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أزواجاً مِنْ نباتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وارْعَوْا أنعامكم إنّ في ذَلِكَ لَآياتٍ لِأُولي النُّهَىٰ * مِنْها خَلَقْنَاكُمْ وفيها نُعِيدُكُم وَمِنْهَا نُخْرِجكم تَارَةً أخرىٰ * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آياتِنا كلَّها فَكَذَّبَ وأَبَىٰ (٥٦)﴾ ١٣٩
القراءات ١٣٩
تمهيد ١٣٩
• ﴿الّذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ ١٤١
• ﴿وسَلَكَ لَكُمْ فيها سُبُلاً﴾ ١٤٢
• ﴿وَأَنْزَل من السّماء ماءً﴾ ١٤٣
• ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً من نباتٍ شَتَّىٰ (٥٣)﴾ ١٤٣
• ﴿كُلُوا وارْعَوْا أَنْعامكم﴾ ١٤٤
• ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيات لِأُولي النُّهَىٰ (٥٤)﴾ ١٤٥
• ﴿مِنْهَا خلقناكم وفيها نعيدكم ومِنْهَا نخرجكم تارة أخرىٰ (٥٥)﴾ ١٤٦
• ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آياتنا كُلَّها فكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦)﴾ ١٤٦
تكملةٌ من سورة (الشعراء) وسورة (الأعراف) ١٤٧
• ﴿قَالَ أجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعداً لَنْ نخلِفَهُ نَحنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوىً * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَة وأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فجمعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠)﴾ ١٤٩
الفقرة الثالثة: الآيات من (٦١ ـ ٧٦) ١٥٤
القراءات ١٥٥
تمهيد ١٥٨
التدبر ١٥٩

الموضوع **الصفحة**

- ﴿قال لهم مُوسَىٰ وَيْلَكُم لَا تَفْتَرُوا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بعذاب وقد خاب مَنِ افترىٰ (٦١)﴾ حتى غاية الآية (٦٤) ١٥٩

مقدمة ١٦٠

تدبر الآية (٦١) ١٦٠

- ﴿فتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بيْنهم وأسَرُّوا النجوى (٦٢)﴾ ١٦٢
- ﴿قَالُوا إِنْ هٰذانِ لَسَاحِرانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكم من أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَيَذْهَبَا بِطَرِيقتكُمُ المثْلَىٰ (٦٣)﴾ ١٦٣
- ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾ ١٦٤

الآيات من (٦٥ ـ ٧٣) وتكملات من سورتي (الأعراف) و(الشعراء) ١٦٦

تمهيد ١٦٧

التدبر ١٦٧

- ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وإِمَّا أَنْ نكون أَوّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥)﴾ ١٦٨
- ﴿قَال بَلْ أَلْقُوا فإذا حبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعَىٰ * فأوجَسَ في نَفْسِه خيفَةً مُوسَىٰ (٦٧)﴾ ١٦٩

نظرات تكاملية بين نصوص (طه) و(الأعراف) و(الشعراء) ١٦٩

- ﴿قُلْنَا لَا تخف إِنَّكَ أَنْتَ الأعْلَىٰ * وأَلْقِ ما فِي يمينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ولَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حيْثُ أَتىٰ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ ١٧٣
- ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لكبيركم الّذي علّمكُمُ السِّحر فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ولتعلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عذاباً وأبْقَىٰ * قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ علَىٰ مَا جَاءَنا من البَيِّنات والَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّما تَقْضِي هٰذِهِ الحياة الدّنيا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ واللَّهُ خَيْرٌ وأَبْقَىٰ (٧٣)﴾ ١٨٠

التدبر التحليلي للنصوص الثلاثة ١٨١

- ﴿إِنَّهُ مَنْ يأتي رَبَّهُ مُجْرِماً فإنَّ لَهُ جهنَّم لَا يَمُوتُ فيها وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤)﴾ .. ١٩٤
- ﴿وَمَنْ يأتِهِ مؤمناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرجات الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ خالِدِين فيها وَذٰلِكَ جزاء مَنْ تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾ ١٩٥

الموضوع **الصفحة**

الفقرة الرابعة: الآيات من (٧٧ ـ ٧٩) ١٩٧
القراءات ١٩٧
تمهيد ١٩٨
نظرات تدبّرية تكاملية لنصوص من السّور التالية ١٩٩
١ ـ من سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) الآيات (٣٦ ـ ٤٠) ٢٠٠
٢ ـ من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) الآيتان (١٣ و١٤) ٢٠٨
٣ ـ من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) الآيات من (٢٣ ـ ٤٦) ٢١٣
٤ ـ من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) الآيات من (١٠١ ـ ١٠٣) . ٢٣٥
٥ ـ من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) الآيات من (٥٢ ـ ٦٨) ... ٢٤٢
ومن سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) الآيات من (٧٧ ـ ٧٩) ٢٤٤
مما جاء عند الإسرائيليين بشأن العبور خروجاً من مصر ٢٥٧
٦ ـ ومن سورة (يونس/ ٢٠ مصحف/ ٥١ نزول) الآيات من (٩٠ ـ ٩٢) ... ٢٥٨
٧ ـ ومن سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) الآية (١٣٦) ٢٦٣
٨ ـ ومن سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) الآيات من (١٥ ـ ٢٦) . ٢٦٤
الفقرة الخامسة: الآيات من (٨٠ ـ ٨٢) ٢٧٢
القراءات ٢٧٢
تمهيد ٢٧٣
- ﴿يَا بَنِي إسرائيل قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوّكم. . (٨٠)﴾ ٢٧٥
- ﴿وَواعَدْنَاكُمْ جانب الطور الأيْمن﴾ ٢٧٦
- ﴿وَنَزَّلْنَا عَليكم المنَّ والسَّلْوىٰ (٨٠)﴾ ٢٧٦
- ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقناكم ولا تطغَوْا فيه فيحلَّ عليكم غَضَبِي ومَنْ يَحْلِلْ عليه غَضَبِي فقد هوىٰ (٨١)﴾ ٢٧٨
- ﴿وَإِنِّي لغفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالحاً ثُمَّ اهتدىٰ (٨٢)﴾ ٢٧٩
ما جاء في القرآن من بيانٍ عن المنّ والسَّلْوىٰ ٢٨١
الفقرة السادسة: الآيات من (٨٣ ـ ٩٩) ٢٨٢
القراءات ٢٨٣

الموضوع **الصفحة**

تمهيد ٢٨٥

التدبّر التحليلي ٢٩٠

- ﴿وَمَا أعْجلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ علَىٰ أثَرِي وعَجِلْتُ إلَيْكَ رَبِّ لترضَىٰ (٨٤)﴾ ٢٩٠
- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فتنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)﴾ ٢٩٢
- ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إلى قومِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً.. (٨٦)﴾ ٢٩٣
- ﴿.. قال يا قوم ألَم يَعِدْكم رَبُّكُمْ وَعْداً حسناً.. (٨٦)﴾ ٢٩٥
- ﴿.. أفطال عليكم الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يحِلَّ عليكم غَضَبٌ من رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦)﴾ ٢٩٥
- ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ولكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ القوم فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَىٰ السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقَالُوا هذا إلَهكُمْ وإلَهُ موسى فنسي (٨٨)﴾ ٢٩٥
- ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَولاً ولَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً (٨٩)﴾ .. ٢٩٧
- ﴿وَلَقَدْ قال لهم هَارُونُ من قبلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنتُم بِهِ وإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠)﴾ ٢٩٨
- ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إلينا موسىٰ (٩١)﴾ ٢٩٩

تكميل من سورة (الأعراف) ٣٠٠

- ﴿قال يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتبِعَنِ أفعصيْتَ أَمْرِي * قال يا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بلحْيتي وَلَا بِرأسي إنّي خَشِيتُ أَنْ تقولَ فَرَّقْتَ بينَ بني إِسْرَائيل ولَمْ تَرْقُبْ قولي (٩٤)﴾ ٣٠٠

محاسبة موسَىٰ عليه السلام للسَّامريّ: (الآيات من ٩٥ ـ ٩٨) ٣٠٢

تمهيد ٣٠٣

التدبر التحليلي ٣٠٣

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥)﴾ ٣٠٣
- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَر الرَّسُولِ فنبذْتُها وكذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)﴾ ٣٠٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿قَالَ فاذْهَبْ فإنَّ لَكَ في الحيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وإنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وانْظر إلى إلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ علَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمّ لَنَنْسِفَنَّهُ في الْيَمّ نَسْفاً (٩٧)﴾ ٣٠٥
- ﴿إنَّمَا إلَٰهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (٩٨)﴾ ٣٠٧
- ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباء ما قَدْ سَبَقَ... (٩٩)﴾ ٣٠٩

(٧) التدبر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة (طٰه): الآيات (من بعض الآية ٩٩ ـ ١٠٤) ٣٠٩

القراءات ٣٠٩

تمهيد ٣١٠

- ﴿... وقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكراً (٩٩)﴾ ٣١٠
- ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فإنَّهُ يَحْمِلُ يوم القيامَةِ وِزراً (١٠٠)﴾ ٣١٢
- ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾ ٣١٣
- ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ونَحْشُرُ المجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢)﴾ ٣١٤
- ﴿يتخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إنْ لَبِثْتُمْ إلَّا عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إنْ لَبِثْتُمْ إلَّا يَوْماً (١٠٤)﴾ ٣١٥

(٨) التدبر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (طٰه): الآيات من (١٠٥ ـ ١١٢) ٣١٨

القراءات ٣١٩

تمهيد ٣١٩

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ قل يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُها قَاعاً صَفْصَفاً * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً ولَا أَمْتاً (١٠٧)﴾ ٣٢٢
- ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ ٣٢٥
- ﴿.. وخشَعَتِ الأَصْوَاتُ للرحمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إلَّا هَمْساً (١٠٨)﴾ ٣٢٦
- ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشفاعَةُ إلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ ورَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ ٣٢٧
- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ٣٢٧
- ﴿.. ولَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠)﴾ ٣٢٨
- ﴿وَعَنِتِ الوجوهُ للحَيّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١)﴾ ٣٢٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً (١١٢)﴾ ٣٢٩

(٩) التدبّر التحليليّ للدرس الخامس من دُروس سورة (طه): الآيتان (١١٣ و١١٤) ٣٣٠

القراءات ٣٣٠

تمهيد ٣٣٠

التدبّر التحليلي ٣٣٢

- وَكَذَلِكَ أنزلْنَاه قرآناً عَرَبِيّاً وصَرَّفْنَا فِيه من الوعيد لعلَّهُمْ يتَّقُونَ أو يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣)﴾ ٣٣٢
- ﴿فَتَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ ٣٣٥
- ﴿... وَلَا تَعْجَلْ بالقرآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤)﴾ ٣٣٦

(١٠) التدبّر التحليلي للدرس السَّادِسِ مِنْ دروس سورة (طه): الآيات من (١١٥ ـ ١٢٧) ٣٣٩

القراءات ٣٤٠

تمهيد ٣٤١

- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدم مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥)﴾ ٣٤٢
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦)﴾ ٣٤٥
- ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هٰذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ ٣٤٦
- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا ولَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)﴾ .. ٣٤٨
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ ومُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾ ٣٤٩
- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهما وَطَفِقَا يخصِفَانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الجنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ ٣٥٢
- ﴿ثُمَّ اجتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ ٣٥٤
- ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بعضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾ ٣٥٤
- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ (١٢٦)﴾ ٣٥٦

الموضوع الصفحة

- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾ ٣٥٨

(١١) التَّدَبُّر التَّحْلِيلِيُّ للدرس السابع من دُروس سورة (طَه): الآيتان (١٢٨ - ١٢٩) ٣٥٩

تمهيد ٣٥٩

- ﴿أفلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كم أهْلَكْنَا قبلَهُمْ مِنَ القرون يَمْشُونَ في مَسَاكِنِهِمْ﴾ ٣٥٩
- ﴿.. إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِأُولي النُّهىٰ (١٢٨)﴾ ٣٦٠
- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩)﴾ ٣٦١

(٢) التدبر التحليليُّ للدَّرسِ الثامِن من دُروس سورة (طَه): الآيات من (١٣٠ - ١٣٥ آخر السورة) ٣٦٣

القراءات ٣٦٤

تمهيد ٣٦٥

التدبر التحليلي ٣٦٨

- ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُرُوبِها ومن آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهار لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)﴾ ٣٦٨
- ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدُّنْيا لنفتِنَهُمْ فِيهِ ورِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبقَىٰ (١٣١)﴾ ٣٧٢
- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلَاةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ والْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢)﴾ ٣٧٦
- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينا بآيَةٍ من رَبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ ونَخْزَىٰ (١٣٤)﴾ ٣٧٩
- ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾ ٣٨١

ملاحق تدبّر سورة (طَه)

(١٣) الملحق الأول: مستخرجات بلاغية وفنيّة من سورة (طَه) ٣٨٣

(١٤) الملحق الثاني: حول الشفاعة يوم الدّين وأنواعها ٣٩٢

الموضوع **الصفحة**

سورة الواقعة

٥٦ مصحف/٤٦ نزول

(١) نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٤٢٣
(٢) مِمَّا جاء في السنة بشأن سورة (الواقعة) ٤٢٨
(٣) موضوع سورة (الواقعة) ٤٢٩
(٤) دروس سورة (الواقعة) ٤٣٠
(٥) السّور التي سبق الحديث فيها عن الجزاء والبعث ويوم الدين ٤٣١
(٦) التدبّر التحليليّ للدَّرس الأوّل من دروس سورة (الواقعة): الآيات من (١ ـ ٥٦) ٤٣٢
الآيات من (١ ـ ٦) ٤٣٢
تمهيد ٤٣٣
التدبر التحليلي ٤٣٣
• إِذَا وقَعَتِ الواقعة (١)﴾ ٤٣٣
• ﴿لَيْسَ لوقْعَتِها كاذِبَةٌ (٢)﴾ ٤٣٤
• ﴿خافضة رافعة (٣)﴾ ٤٣٦
• ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضِ رَجّاً * وبُسَّتِ الجبال بسّاً * فكانت هَبَاءً مُنْبَثّاً (٦)﴾ ٤٣٦
الآيات من (٧ ـ ٢٦) ٤٣٨
تمهيد ٤٣٨
التدبر التحليلي ٤٣٩
• ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً (٧)﴾ ٤٣٩
• ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الميمَنَةِ (٨)﴾ ٤٣٩
• ﴿وَأَصْحَابُ المشأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المشأَمَةِ (٩)﴾ ٤٤١
• ﴿والسَّابقونَ السَّابِقُونَ * أولَئكَ المقرَّبُونَ (١١)﴾ ٤٤٢
رَسْمٌ بيانيّ لميزان التقابل بين الأصناف الذين تَرْفعهم الواقعة، والذين تخفضهم الواقعة ٤٤٣
• ﴿في جنَّاتِ النعيم * ثُلّة من الأوّلين * وقليل من الآخِرِين (١٤)﴾ ٤٤٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿على سُرُرٍ مَوْضُونَة (١٥)﴾ ٤٤٦
- ﴿مُتَّكِئِين علَيْها مُتقَابِلين (١٦)﴾ ٤٤٦
- ﴿يطوفُ عليهم ولْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بأَكْوَابٍ وأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨)﴾ ٤٤٧
- ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩)﴾ ٤٥٠
- ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يتَخَيَّرُونَ (٢٠)﴾ ٤٥١
- ﴿ولَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)﴾ ٤٥١
- ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَال اللُّؤْلُؤِ المكنُون (٢٣)﴾ ٤٥١
- ﴿جزاءً بما كانوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ ٤٥٤
- ﴿لَا يَسْمَعُونَ فيها لغواً ولَا تأثيماً * إلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً (٢٦)﴾ ٤٥٤

الآيات من (٢٧ ـ ٤٠) ٤٥٥

تمهيد ٤٥٦

التدبر التحليلي ٤٥٦

- ﴿وَأَصحابُ الْيَمِين مَا أَصْحَابُ اليمين (٢٧)﴾ ٤٥٦
- ﴿في سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨)﴾ ٤٥٧
- ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩)﴾ ٤٥٨
- ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠)﴾ ٤٥٨
- ﴿وَمَاءٍ مسْكُوبٍ (٣١)﴾ ٤٥٩
- ﴿وَفاكِهَةٍ كَثِيرة * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ ٤٥٩
- ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصحاب الْيَمِينِ (٣٨)﴾ ٤٦٠
- ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِين * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ (٤٠)﴾ ٤٦٢

الآيات من (٤١ ـ ٥٦) ٤٦٣

تمهيد ٤٦٣

التدبر التحليلي ٤٦٤

- ﴿وَأَصْحَاب الشمال ما أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١)﴾ ٤٦٤
- ﴿في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢)﴾ ٤٦٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بارِدٍ ولا كريم (٤٤)﴾ ٤٦٥
- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ على الحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يقُولُون أئِذا مِتْنَا وكُنَّا تُراباً وَعِظَاماً أئِنَّا لمبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨)﴾ ٤٦٦

الآيات من (٤٩ ـ ٥٥) ٤٦٩

- ﴿قُلْ إِنَّ الأوّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩)﴾ ٤٦٩
- ﴿لمجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يوم معلُوم (٥٠)﴾ ٤٧٠
- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّها الضَّالُّونَ المكَذِّبُونَ (٥١)﴾ ٤٧١
- ﴿لَآكِلُونَ من شَجَرٍ مِنْ زَقُّوم (٥٢)﴾ ٤٧١
- ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)﴾ ٤٧٣
- ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ من الْحَمِيم * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥)﴾ ٤٧٣
- ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)﴾ ٤٧٤

(٧) التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دروس سورة (الواقعة): الآيات من (٥٧ ـ ٧٤) ٤٧٧

تمهيد ٤٧٨

التدبر التحليلي ٤٧٩

- ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)﴾ ٤٧٩
- ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالِقُون (٥٩)﴾ ٤٨٠

المنيُّ عند الأطباء ٤٨١

- ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِين * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُم ونُنْشِئَكُمْ فيما لا تَعْلَمُونَ (٦١)﴾ ٤٨٣
- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ ٤٨٥
- ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أم نَحْنُ الزارِعُونَ * لو نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بل نَحْنُ مَحْرُومُون (٦٧)﴾ ... ٤٨٧

إتقان صُنْع النبات وقيمَتُهُ في الحياة ٤٨٨

- ﴿أفرأيتم الماءَ الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ المزْنِ أَمْ نَحْنُ المنْزِلُونَ * لو نَشَاء جَعَلْنَاهُ أجاجاً فَلَولَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾ ٤٩٢

آياتُ اللهِ وآلَاؤُه في الماء ٤٩٣

الموضوع **الصفحة**

• ﴿أفرأيتم النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أأنْتُم أنْشَأْتُمْ شجرتَها أَمْ نَحْنُ المنشِئون * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَة ومَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ (٧٣)﴾ ٤٩٥

النَّار في الْعُلُومِ الطبيعيَّة ٤٩٦

• ﴿فَسَبِّحْ باسْمِ رَبّكَ الْعَظِيم (٧٤)﴾ ٤٩٧

(٨) التدبُّر التحليلي للدَّرسِ الثالث من دروس سورة (الواقعة): الآيات من (٧٥ ـ ٩٤) ٤٩٨

تمهيد ٤٩٩

• ﴿فَلَا أُقْسِمُ بمواقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُون عَظِيمٌ (٧٦)﴾ ٥٠١

ما يقوله علماء الفلك بشأن النجوم ٥٠٤

• ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * في كتابٍ مَكْنُونٍ * لَا يمسُّهُ إِلَّا المطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾ ٥٠٦

• ﴿أفبِهَذَا الحديثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١)﴾ ٥٠٩

• ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ ٥١٠

• ﴿فَلَوْلَا إِذَا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ولكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلولَا إِنْ كنتم غير مَدِينِين * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كنتم صادقين (٨٧)﴾ ٥١٠

الموت والحيَاة ظاهِرتَانِ مِنْ ظواهِرِ الخلْق الربَّاني ٥١٢

• ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ المقرّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيحَانٌ وجَنَّةُ نَعِيم * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كان من المكذِّبين الضَّالّين * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)﴾ ٥١٥

(٩) التدبّر التحليليّ للدرس الرابع الأخير من دُروس سورة (الواقعة): الآيتان (٩٥ و٩٦) آخر السورة ٥١٨

• ﴿إِنَّ هٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ ٥١٨

مراتب اليقين ٥١٩

رسم بياني لمراتب اليقين ٥٢٠

ملاحق تدبّر سورة (الواقعة) ٥٢٢

(١٠) **المُلْحَقُ الأول**: مستخرجات بلاغية من سورة (الواقعة) ٥٢٢

الموضوع **الصفحة**

(١١) **الملحقُ الثاني**: شجرة الزَّقُّومِ في القرآن ٥٢٥

سورة الشعراء

٢٦ مصحف/٤٧ نزول

(١) نَصُّ السُّورَة وَما فيها من فرش القراءات ٥٤٣
(٢) ممّا وردَ في السُّنَّةِ بِشأنِ سُورَةِ (الشعراء) ٥٥٦
(٣) موضوع سورة (الشعراء) ٥٥٦
(٤) دروس سورة (الشعراء) ٥٥٨
(٥) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الشعراء): الآيات من (١ ـ ٩) . ٥٦١
تمهيد ٥٦١
التدبّر التحليلي ٥٦٢
- ﴿طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾ ٥٦٢
- ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلّا يكونوا مؤمنين * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خاضِعِينَ (٤)﴾ ٥٦٤
- ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥)﴾ .. ٥٧٠
- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦)﴾ ٥٧١
- ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيها مِنْ كُلّ زَوْج كريم (٧)﴾ ٥٧٣
- ﴿إِنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِين * وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾ ٥٧٥
(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني مِنْ دُروس سورة (الشعراء): الآيات من (١٠ ـ ١٩١) وفيه سبعة فصول ٥٧٧
الفصل الأول: لقطاتٌ تتعلَّقُ بقصَّة موسى وقومه من المصريين: الآيات من (١٠ ـ ٦٨) ٥٧٧
تمهيد ٥٧٩
التدبّر التحليلي ٥٧٩
- ﴿وإذ نادى ربّك موسى أن ٱئتِ القومَ الظالمِين (١٠) قَوْم فرعون... (١١)﴾ .. ٥٧٩
الآيات من (١٢ ـ ١٧) ٥٨٣

الموضوع **الصفحة**

القراءات ٥٨٣
التدبّر التحليلي ٥٨٤
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنّي أخاف أَنْ يكذِّبونِ (١٢)﴾ ٥٨٤
- ﴿وَيضيق صَدْرِي ولَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فأرسل إلى هارون (١٣)﴾ ٥٨٤
- ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يقْتُلُونِ (١٤)﴾ ٥٨٥
- ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥)﴾ ٥٨٥
- ﴿فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)﴾ ٥٨٦
- ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكافِرِينَ (١٩)﴾ ٥٨٧

الآيات من (٢٠ ـ ٢٢) ٥٩٠
تمهيد ٥٩٠
التدبّر التحليلي ٥٩٠
- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ منكم لمَّا خِفْتكُمْ﴾ ٥٩٠
- ﴿فَوَهَبَ لِي رَبّي حُكْماً وَجَعَلَني مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١)﴾ ٥٩١
- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إسرائيلَ (٢٢)﴾ ٥٩٢

الآيات من (٢٣ ـ ٢٨) ٥٩٣
- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣)﴾ ٥٩٣
- ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ (٢٤)﴾ ٥٩٤
- ﴿قَال لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥)﴾ ٥٩٥
- ﴿قَالَ رَبُّكُم وربُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ (٢٦)﴾ ٥٩٥
- ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لمجنونٌ (٢٧)﴾ ٥٩٦
- ﴿قَالَ رَبُّ المشرِقِ والْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ ٥٩٦
- ﴿قَال لَئِن اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسْجُونين (٢٩)﴾ ٥٩٧
- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بشَيْءٍ مبين * قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فأَلْقَى عَصَاهُ فإذا هي ثُعْبانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإذَا هي بيضاءُ للنَّاظِرِينَ (٣٣)﴾ ٥٩٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿قَال للملأ حوْلَهُ إنَّ هٰذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)﴾ ٥٩٩
- ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وابْعَثْ في المدائِنِ حاشرين * يأتوكَ بكلِّ سَحَّارٍ عَلِيم (٣٧)﴾ ٥٩٩
- ﴿فجُمِعَ السَّحَرةُ لِميقَاتِ يَوْم مَعْلُوم * وقِيلَ للناسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لعلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحرة إنْ كانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)﴾ ٦٠٠
- ﴿فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لفرْعَوْنَ أئِنَّ لَنَا لأجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وإنَّكُمْ إذاً لَمِنَ المقَرَّبِينَ (٤٢)﴾ ٦٠١
- ﴿قَالَ لهم مُوسىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وعصِيَّهُمْ وَقَالُوا بعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾ ٦٠٢
- ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فإذا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأفكون (٤٥)﴾ ٦٠٢
- ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا برَبِّ العالمين * رَبِّ موسَىٰ وهارون (٤٨)﴾ ٦٠٣
- ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لكُمْ إِنَّهُ لكبيرُكُمُ الَّذِي علمكم السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيكُمْ وأَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين (٤٩)﴾ ٦٠٤
- ﴿قالوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ المؤمنين (٥١)﴾ ٦٠٧
- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بعِبَادِي إِنَّكُمْ متَّبعُونَ (٥٢)﴾ ٦٠٨
- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ في المَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣)﴾ ٦١٠
- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥)﴾ ٦١٠
- ﴿وَإِنَّا لجميعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)﴾ ٦١١
- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيم (٥٨)﴾ ٦١٢
- ﴿كذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائيل (٥٩)﴾ ٦١٣
- ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠)﴾ ٦١٤
- ﴿فَلَمَّا تَرَاءَىٰ الْجَمْعَان قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين (٦٢)﴾ ٦١٥
- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اَضْرب بعَصَاك الْبَحْرَ فانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثم أغْرَقْنا الآخرين (٦٦)﴾ ٦١٦

الموضوع **الصفحة**

- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾ ٦١٨

الفصل الثاني: لقطات تتعلَّقُ بقصّةِ إبراهيم عليه السلام وقومه: الآيات من (٦٩ ـ ١٠٤) ٦١٩

تمهيد ٦١٩

- ﴿واتْلُ عليهم نَبأَ إبراهيم * إذْ قالَ لأبيه وقومِه ما تَعْبُدونَ (٧٠)﴾ ٦٢٠
- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)﴾ ٦٢٢
- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أو يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾ ٦٢٣
- ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾ ٦٢٤
- ﴿قَالَ أفرأيْتُم مَا كُنْتُم تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وآبَاؤُكُم الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ العالمين (٧٧)﴾ ٦٢٤
- ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والَّذي هو يُطْعِمُني ويسْقِينِ * وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والَّذِي يميتُنِي ثم يُحْيِينِ * والذي أطمع أنْ يغفر لي خَطِيئتي يوْمَ الدّين (٨٢)﴾ ٦٢٦
- ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ * واجْعَلْ لي لِسَان صِدْقٍ في الآخِرِينَ * واجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جنَّة النعيم * واغْفِرْ لأبِي إِنَّهُ كَانَ من الضَّالِّين * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ ٦٣٠

الآيات من (٩٠ ـ ١٠٢) ٦٣٦

وفيها مشْهَدٌ من مَشَاهِدِ يوم القيامة، وفي هذا المشهد لقطاتٌ من أحداثِ يوم الدين ٦٣٦

اللقطة الأولى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الجنَّةُ للمتَّقِين (٩٠)﴾ ٦٣٦

اللقطة الثانية: ﴿وَبُرِّزَتِ الجحيم للغاوين (٩١)﴾ ٦٣٧

اللقطة الثالثة: ﴿وقِيل لَهُمْ أيْنَ ما كُنْتُم تَعْبُدونَ * من دون اللَّهِ هل ينْصُرُونَكُم أوْ يَنْتَصِرُون (٩٣)﴾ ٦٣٧

اللقطة الرابعة: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغَاوُونَ * وجُنُودُ إبليس أجمعونَ (٩٥)﴾ ٦٣٨

اللقطة الخامسة: ﴿قَالُوا وهم فيها يختَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكم بِرَبِّ الْعَالَمِين * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا المجرمون * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِين * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيم * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فنكونَ مِنَ المؤمنين (١٠٢)﴾ .. ٦٣٩

الموضوع **الصفحة**

- ﴿إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً وَمَا كانَ أكثرهُمْ مُؤْمِنين * وَإِنّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيز الرحيم (١٠٤)﴾ . ٦٤٢

الفصل الثالث: لقطات تتعلّقُ بقصّةِ نوح عليه السلام وقومه: الآيات من (١٠٥ ـ ١٢٢) ٦٤٢

تمهيد ٦٤٣

التدبر التحليلي ٦٤٣

- ﴿كذّبت قوم نوحٍ المرسَلِينَ (١٠٥)﴾ ٦٤٣
- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)﴾ ٦٤٤
- ﴿إِنِّي لكم رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾ ٦٤٥
- ﴿فاتّقُوا الله وأطيعُونِ (١٠٨)﴾ ٦٤٦
- ﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إنْ أجري إلّا على ربّ العالمين (١٠٩)﴾ ٦٤٦
- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾ ٦٤٧
- ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون (١١١)﴾ ٦٤٧
- ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ المؤمنين * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)﴾ ٦٤٨
- ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)﴾ ٦٥٣
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المؤمنينَ (١١٨)﴾ ٦٥٤
- ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ المشْحُونَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠)﴾ . ٦٥٥
- ﴿إِنّ في ذلك لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِين * وإِنّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)﴾ ٦٥٧

الفصل الرابع: لقطات تتعلّقُ بقصة هُود عليه السلام وقومه عاد: الآيات من (١٢٣ ـ ١٤٠) ٦٥٧

تمهيد ٦٥٨

التدبّر التحليلي ٦٥٩

- ﴿كَذَّبت عَادٌ الْمُرْسَلِين (١٢٣)﴾ ٦٥٩
- ﴿إِذْ قال لَهُمْ أخوهم هودٌ ألا تتقُونَ * إنّي لكم رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وأطيعونِ * ومَا أسألكم عليه من أجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلّا على ربّ العالمين (١٢٧)﴾ ٦٦٠

الموضوع **الصفحة**

- ﴿أَتَبْنُونَ بكلّ ريع آية تعبثُونَ * وتتخذونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِين * فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)﴾ ٦٦٠
- ﴿واتّقوا الذي أَمَدّكم بما تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بأنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُون * إِنّي أخافُ عليكُمْ عذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾ ٦٦٣
- ﴿قَالُوا سَواءٌ عَلَيْنَا أَوعَظْتَ أم لَمْ تَكُنْ مِنَ الواعظين (١٣٦)﴾ ٦٦٤
- ﴿إِنْ هٰذَا إِلَّا خُلُقُ الأوّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِين (١٣٨)﴾ ٦٦٥
- ﴿فَكَذَّبُوهُ فأهلكْناهم إِنَّ في ذلك لآيَةً وَمَا كان أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو العزيز الرَّحيم (١٤٠)﴾ ٦٦٦

الفصل الخامس: لقطات تتعلّق بقصة صالح عليه السلام وقومه ثمود: الآيات من (١٤١ ـ ١٥٩) ٦٦٧

تمهيد ٦٦٧

التدبّر التحليلي ٦٦٨

- ﴿كذّبت ثَمودُ المرسلين * إِذْ قَالَ لهم أخوهم صالحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنّي لكُمْ رسولٌ أمين * فاتقوا اللّهَ وأطيعونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه من أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العالمين (١٤٥)﴾ ٦٦٨
- ﴿أَتُتْرَكُونَ في ما هٰهنا آمنِينَ * في جنَّاتٍ وعيون * وزُرُوعٍ ونَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيم * وتَنْحِتُونَ من الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ * فاتَّقُوا اللّهَ وأطيعونِ * ولَا تُطِيعُوا أَمْرَ المسْرِفِين * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ولَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾ ٦٦٨

القراءات ٦٦٨

التدبر التحليلي: في هذه الآيات بيان خمس مقالات وجّهها صالح لقومه .. ٦٦٩

المقالة الأولى: ﴿أَتُتْرَكُونَ في ماهٰهنا آمنِينَ * في جنّاتٍ وعيونٍ * وزروعٍ ونَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨)﴾ ٦٦٩

المقالة الثانية: ﴿وتَنْحِتُونَ مِنَ الجبالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (١٤٩)﴾ ٦٧١

المقالة الثالثة: ﴿فَاتَّقُوا اللّه..﴾ ٦٧٢

المقالة الرابعة: ﴿... وَأَطِيعُونِ (١٥٠)﴾ ٦٧٢

المقالة الخامسة: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾ ٦٧٢

الموضوع **الصفحة**

- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)﴾ ٦٧٤
- ﴿قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْم معلوم * وَلَا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فيأخُذَكُمْ عذابُ يوم عظيم * فعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَاب إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِين * وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرَّحِيم (١٥٩)﴾ ٦٧٦

الفصل السادس: لقطات تتعلّق بقصة لوط عليه السلام وقومه: الآيات من (١٦٠ ـ ١٧٥) ٦٧٨

تمهيد ٦٧٨

التدبر التحليلي ٦٧٩

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)﴾ ٦٧٩
- ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكرانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُم رَبُّكُم مِنْ أزواجكُم بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ عادون (١٦٧)﴾ ٦٧٩
- ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لتكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧)﴾ ٦٨٠
- ﴿قَال إِنِّي لعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨)﴾ ٦٨١
- ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي ممَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)﴾ ٦٨١
- ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزاً في الْغَابِرِينَ (١٧١)﴾ ٦٨٢
- ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣)﴾ ٦٨٢
- ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤمنين * وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرَّحِيم (١٧٥)﴾ ٦٨٣

الفصل السابع: لقطات تتعلّق بشعيب عليه السلام وقومه: الآيات من (١٧٦ ـ ١٩١) ٦٨٤

تمهيد ٦٨٥

التدبر التحليلي ٦٨٥

- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شعيب ألا تتَّقون * إِنّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتَّقُوا اللَّه وأطِيعُونِ * وما أسألُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِين (١٨٠)﴾ ٦٨٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ وَلَا تكونوا مِنَ المخْسِرِينَ * وَزِنُوا بالقِسْطَاسِ المستقيم * وَلَا تَبْخَسُوا الناسَ أشياءهم وَلَا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفْسِدِين * واتَّقُوا الّذي خَلَقَكُمْ والجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤)﴾ ٦٨٦
- ﴿قالُوا إنَّما أنتَ من المسَحَّرين * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبين * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً من السَّمَاء إِنْ كُنْتَ من الصادقين (١٨٧)﴾ ٦٩٠
- ﴿قَالَ رَبِّي أعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨)﴾ ٦٩٣
- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عذابُ يوم الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عذابَ يَوْمٍ عظيم (١٨٩)﴾ ٦٩٤
- ﴿إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً وَمَا كانَ أَكْثَرُهُمْ مؤمِنِينَ * وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحيم (١٩١)﴾ ٦٩٥

(٧) التدبّر التحليليّ للدرس الثالث من دروس سورة (الشعراء): الآيات من (١٩٢ ـ ٢٢٧ آخر السورة) ٦٩٥

تمهيد ٦٩٦

- ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِين * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمين * عَلَىٰ قَلْبِكَ لتكونَ من المنْذِرِينَ * بلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وإنَّهُ لفي زُبُر الأوّلين (١٩٦)﴾ ٦٩٨
- ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إسرائيل (١٩٧)﴾ ٧٠٣
- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾ ... ٧٠٤
- ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ في قُلُوبِ المجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ به حتَّىٰ يَرَوُا العذابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهِم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فيقولُوا هَلْ نَحْنُ منظرون (٢٠٣)﴾ ٧٠٥
- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤)﴾ ٧٠٩
- ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهم سِنِينَ * ثُمَّ جاءَهُمْ مَا كانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾ ٧١٠
- ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظالِمِينَ (٢٠٩)﴾ .. ٧١١
- ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وما يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾ ٧١٤

الآيات من (٢١٣ ـ ٢٢٠): وفيها أربع قضايا موجهة للرسول ٧١٦

القضية الأولى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فتكُونَ من المعذَّبين (٢١٣)﴾ ٧١٦

القضية الثانية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين (٢١٤)﴾ ٧١٧

الموضوع **الصفحة**

القضية الثالثة: ﴿واخفض جناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمنين (٢١٥)﴾ ٧٢٠

القضية الرابعة: ﴿فَإنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إنّي بريءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلى العزيز الرحيم * الذي يراك حينَ تَقُومُ * وتَقَلُّبَكَ في السّاجِدِين * إنَّهُ هو السَّمِيعُ الْعَلِيم (٢٢٠)﴾ ٧٢٢

- ﴿هَلْ أُنبِّئُكُمْ علَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ على كُلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وأكثَرُهُمْ كاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ ٧٢٤
- ﴿وَالشعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ * ألَمْ تَرَ أنَّهُمْ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وأنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إلّا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كثيراً وانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ ٧٢٧

تمهيد ٧٣٧

التدبر التحليلي ٧٢٨

مَلاحق تدبر سورة الشعراء

(٨) **الملحق الأول:** مستخرجات بلاغية من سورة (الشعراء) ٧٣٥

(٩) **الملحق الثاني:** حول الشعر والشعراء في القرآن والسُّنَّة ٧٥٠

خاتمة المجلد الثامن ٧٧٦

الفهرس ٧٧٧

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ

وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرٌ تَدَبُّرِيٌّ لِلقُرآنِ الكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرتِيبِ النُّزُولِ

وِفْقَ مَنهَجِ كِتَابِ «قَوَاعِدِ التَّدَبُّرِ الأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»

المُجَلَّدُ التَّاسِعُ

تَفْسِيرُ السُّوَرِ التَّالِيَةِ:

النّمل/ ٤٨ وَالقَصَص/ ٤٩ وَالإسْرَاء/ ٥٠

عبدالرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

الطّبْعَة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

حُقوقُ الطبع محفوظة للمؤلّف

تُطلبُ جميع كتبُنا من :
دَارُ القلمِ - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشّاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورة النَّمل

٢٧ مصحف ٤٨ نُزُول

وَهِيَ مَكِيَّةٌ كُلُّهَا

(١)

نصُّ السّورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ
حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم
مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ

---

١ ـ • سكت أبو جعفر على «طا» و«سين» سكتةً لطيفة من غير تنفس.

وقرأها باقي القراء العشرة بالوصل.

• وقرأ ابن كثير: [القُرانِ] دون همزة، وكذلكَ حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿القُرْآنِ﴾ بالهمزة وألف بَعْدها.

٧ ـ • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جَعْفر: [إِنِّيَ آنسْتُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

• وقرأ هؤلاء ومعهم ابنُ عامر: [بِشِهَابِ قَبَسٍ] على الإضافة.

وقرأها باقي القراء العشرة بِتَنْوِينِ اللَّفْظَين.

إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا
بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ
وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا
مِن كُلِّ شَيْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ
جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ
عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا
يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا
مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

---

١٠ ـ • وقف يعقوب بهاء السّكت على لفظ ﴿لَدَيَّ﴾ فتكون «لَدَيَّهْ».

١٨ ـ • وقف الكِسَائي، ويعقوب: بإثبات الياء في: [عَلَىٰ وَادِي]، ولم يثبتها باقي القرّاء العشرة، فقالوا: ﴿عَلَىٰ وَادِ﴾.

• وقرأ رُويس: [لاَ يَحْطِمَنْكُمْ] بنُون التوكيد الخفيفة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بنون التوكيد الثقيلة.

وهما وجهان عربيان متكافئتان. ولعلّ الغرض من الخفيفة تسْهِيلُ النطق على بعض العرب.

١٩ ـ • قرأ ورش، والبزّي: ﴿أَوْزِعْنِيَ أَنْ﴾ بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان. ووقف يعقوب بها السكت في [عَلَيَّ] فتكون «عَلَيَّهْ».

وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى
ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا
شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ
غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ
بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ
شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ
لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ

---

٢٠ ـ • قرأ ابن كثير، وهشام، وعاصم، والكسائي: ﴿مَالِيَ لَآ﴾ بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٢١ ـ • قرأ ابن كثير: [أَوْلَيَأْتِيَنَّنِي] بإثبات نون الوقاية بعد نون التوكيد الثقيلة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَوْلَيَأْتِيَنِّي﴾ بحذف إحدى النونات الثلاث، وهما وجهان عربيان جائزان.

٢٢ ـ • قرأ عاصم، ورَوْح: ﴿فَمَكَثَ﴾ بفتح الكاف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَمَكُثَ] بضم الكاف.
وهما وَجهان عربيان في نُطْق الكلمة.
• وقرأ أبو عمْرو، والبزّي: [مِنْ سَبَأَ] بالهمزة مع الفتح دون تنوين للمنع من الصرف.
وقرأها قُنبل بإسكان الهمزة [مِنْ سَبَأْ].
وقرأها هشام وحمزة في الوقف: [مِنْ سَبَا] بألف مَدّية، ولهما التسهيل بالرَّوْم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مِنْ سَبإٍ] بالهمزة والجرِّ بالكسرة والتنوين. وهي وجوه عرَبية جائزة.

٢٥ ـ • قرأ الكسائي، وأبو جعفر، ورُوَيْس: [أَلَا يَسْجُدوا] دون تشديد اللام. =

ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ
سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي
هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ
﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا
حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ
إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً

= وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا﴾** بتشديد اللّام.

• ووقف هشام، وحمزة، على الباء السّاكنة في **[الْخَبْ]** بحذف الهمزة.

• وقرأ حَفْصٌ، والكِسَائي بتاء المضارعة في **﴿مَا تُخْفُونَ ومَا تُعْلِنُونَ﴾**.

وقرأها باقي القراء العشرة بياء المضارعة: **[مَا يُخْفُونَ ومَا يُعْلِنُونَ]**.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

٢٨ ـ • في هاء الضمير من: **[فَأَلْقِهِ]** وجوه من القراءات.

فقرأ بكسر الهاء دون صلة: قالون، ويعقوب، وهشام في أحدِ الوجهين له.

وقرأها بالإسكان: أبو عمرو، وعاصِم وحمزة، وأبو جعفر **﴿فَأَلْقِهْ﴾**.

وقرأها باقي القراء العشرة بكسر الهاء مع الصّلة، وهو الوجْهُ الآخر لهشام.

٢٨ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: **[إِلَيْهُمْ]** بضم الهاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الهاء، وهما وَجهان عرَبيان في النطق.

٢٩ ـ • قرأ نَافع، وأبو جعفر: **[إِنِّيَ أُلْقِيَ]** بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٣٢ ـ • قرأ يعقوب: **[تَشْهَدُونِي]** بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة **﴿تَشْهَدُونِ﴾** بحذف ياء المتكلم.

أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي
مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ
أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ
لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ
أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ
ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ
﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن
يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي

---

٣٥ ـ • وقف يعقوب بهاء السكت على ﴿بِمَ﴾ فتكونُ «بِمَهْ».
وللبزّي وجهان. وباقي القراء العشرة لا يقفون بهاء السكت، وهي وجوه جائزة في اللّسان العربي.

٣٦ ـ • قرأ ابْنُ كثير: [أَتُمِدُّونَنِي] وقرأها كذلك في الوصل فقط نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.
وقرأها حمزة، ويعقُوب [أَتُمِدُّونِّي].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾، وهي وجوه عربيَّة جائزة.
• أثبت ياء المتكلّم في [آتانِيَ اللَّهُ] مفتوحة عند الوصل، نافع، وأبو عَمْرو، وحفص وأبو جعفر، ورويس.
أمّا عند الوقف، فلقالون، وأبي عمرو، وحَفْص وجهان: إثباتها ساكنة، وحَذْفها.
ولورش، وأبي جعفر: حَذْفُها. ولرُوَيس: إثباتها.
وقرأ رَوْح بحذفها وصلاً، وإثباتها وقفاً.

٣٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [أنآ ءاتيك] بإثبات ألف «أنا» في الوصل فقط.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف هذه الألف في الحالين.

لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ
أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً
وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ
رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ
أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ

---

٤٠ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [لِيَبْلُوَنِيَ ءَأَشْكُرُ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٤٤ ـ • قرأ قُنْبُل: [سَأْقَيْهَا] بهمزة ساكِنَةٍ بعد السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿سَاقَيْهَا﴾ بألفٍ مَدِّيَّة. وهما لغتان عربيّتان.

٤٥ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم وحمزة، ويعقوب: ﴿أَنِ اعْبُدُوا﴾ بكسر النون في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة بضم النون في الوصل، مراعاة لضمّ الباء في «اعْبُدُوا».

فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ
وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا
دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا
ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ
لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ
لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ

---

٤٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [لَتُبَيِّتُنَّهُ ـ لَتَقُولُنَّ] بتاء المضارعة في الفعلين وضمير المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: بنون المضارعة في الفعلين: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ ـ لَنَقُولَنَّ﴾ وضمير المتكلمين.

وبَيْنَ القراءتين تكامُلٌ في بيان الواقع الذي جرى.

• وقرأ شعبة: [مَهْلَكَ].

وقرأ حفص: ﴿مَهْلِكَ﴾.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مُهْلَكَ] وهي وجوه عربية جائزة.

٥١ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وابن عامر، وأبو جعفر [إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ] بكسر همزة «إنَّ». وقرأها باقي القرّاء العشرة بالفتح.

وهما وجهان عربيان جائزان هنا باعتباريْن.

٥٢ ـ • قرأ ورش، وأبو عمْرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ بضم الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة [بِيُوتُهُمْ] بكسر الباء. وهما لغتان عربيتان.

﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ
أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾
وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ
وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ
﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن
تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن
جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ
وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا
يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ

---

٥٧ ـ • قرأ شعبة: [قَدَرْنَاهَا] دون تشديد الدال.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ بتشديد الدال.
وهما لغتان عربيتان متكافئتان، يقال لغة: قَدَرَ الأمرَ وقَدَّرَهُ، أي: حدّد مقاديره ودبّره قبل إيجاده.

٥٨ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الهاء، وهما لغتان عربيتان.

٥٩ ـ • للقرّاء العشرة في [آللَّهُ] وجهان: إبدالُ همزة الوصل ألفاً مع المدّ المشبع. وتَسْهيلُها.

٥٩ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [تُشْرِكُونَ] بالتاء.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ
﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا
يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا
ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ
بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا

---

٦٢ ـ • قرأ أبو عمرو، وهشام، ورَوْح: [يَذَّكَّرُون].
وقرأها حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾.
وقرأها الباقون: [تَذَّكَّرُونَ].

٦٣ ـ • قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: [الرِّيحَ] بالإفراد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمع.

٦٣ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُشُراً].
وقرأ ابن عامر: [نُشْراً]. وقرأ عاصِمٌ: ﴿بُشْراً﴾. وقرأ الباقون: [نَشْراً].
وقد سبق توجيه هذه القراءات في نظيراتها في الآية (٤٨) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

٦٦ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [بَلْ أَدْرَكَ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾.

٦٧ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِذَا كُنَّا تُرَاباً] ـ [أَئِنَّا] بحذف همزة الاستفهام قبل «إذا».
وقرأها ابنُ عامر، الكسائي: [أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً] ـ [إِنَّنَا].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾ ـ ﴿أَئِنَّا﴾.
والمعنى على الاستفهام في كلّ هذه القراءات.

هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾
وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا
تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى
وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ
﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ

---

٧٠ ـ • قرأ ابن كثير: [ضِيقٍ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿ضَيْقٍ﴾.
الضِّيقُ، كالضَّيْق: بمعنى الكرب أو الألم النفسي الضاغط على النفس، وبمعنى الفقر والشدّة.

٧٦ ـ • قرأ ابنُ كثير [**القُرَانَ**]. وكذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**القُرْآنَ**﴾.

٨٠ ـ • قرأ ابن كثير: [**وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ**].
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿**وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ**﴾.
ومؤدّى القراءتين واحد، وبينهما تفنُّنٌ في التعبير عن المراد.

﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن
يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ
عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ
كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا
مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ
أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟
أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ
صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

---

٨١ ـ • قرأ حمزة: [تَهْدِي الْعُمْيَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿بِهادِي الْعُمْيِ﴾.
ومؤدىٰ القراءتين واحد، وبينهما تَفَنُّنٌ في التعبير عن المراد.

٨٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: [إِنَّ النَّاس] بكسر همزة «إنَّ» على معنى: قائلةً إِنَّ الناس.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح همزة «أنّ» على معنى: تعلّمهم مبينةً أَنَّ الناس.

٨٧ ـ • قرأ حفص، وحمزة، وخلف: [أَتَوْهُ] على أنه فعل ماض.
وقرأها باقي القراء العشرة: [آتُوهُ] على أنه جمع: «آتٍ».

٨٨ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [تَحْسَبُهَا] بفتح السين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَحْسِبُهَا] بكسر السين.
والقراءتان لغتان عربيتان.

=

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ
﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ
تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ
رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ
أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ
فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ
﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

= • قرأ ٱبن كثير، وهشام، وأبو عمرو، ويعقوب: [يَفْعَلُونَ] بالياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء.
وبيْنَ القراءتَيْن تكاملٌ في الأداء البياني.

٨٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ] بفتح ميم يوم على البناء.
وقرأها ٱبن كثير، وأبو عمرو، وٱبن عامر، ويعقوب: [مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ] بجرّ ميم يوْم بالكسرة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بتنوين «فزع» وبنصب «يوم على الظرفية».
وهذه القراءات وجوه عربيّة جائزة، ومؤدّاها واحد.

٩٣ ـ • قرأ نافع، وٱبْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَعْمَلُون].
وبين القراءتَيْنِ تكاملٌ في الأداء البَيَاني.

(٢)

موضوع سورة (النمل)

موضوع هذه السورة يسير على ثلاثة خطوط كُبْرىٰ، تتفرَّعُ عنها فروع مُشْتَقَّة من عناصرها:

الخطّ الأول: متابَعَةُ معالَجَةِ كُبَراء مُشْرِكي مكَّةَ وما حوْلَها، ويُلْحَقُ بهم أتباعهم، وفْقَ الطَّوْر الذي كانوا فيه إبَّان نُزُول سورة (النمل) كُفْراً وتصرُّفاتٍ جَدَلِيَّةً وكَيْدِيَّة.

مع إضافاتِ بياناتٍ دينيَّة تَرْهيبيَّة، وإقناعاتٍ جدَليَّةٍ بشأن توحِيدِ الرُّبُوبيَّة والإلَهيَّة للَّهِ عزّ وجلّ، وإقْنَاعَاتٍ تَتَعَلَّقُ بالإيمانِ بالآخرة، أعْظَمِ أركان الإيمان بَعْد الإيمان بالله وبصفاته.

ومن عناصر المتابعة تأكيدُ أنَّ القرآن تَنْزِيلٌ من حكيم عليم، أي: فما في القرآن من حكمة وعِلْمٍ حقٍّ شاهِدٌ علَىٰ أنَّهُ تنزيلٌ من عنْدِ الله جلّ جلالُهُ وسمَتْ حِكْمَتُه، وأحاطَ عِلْمُهُ بكلِّ شيءٍ.

الخطّ الثاني: متابعةُ تَرْبيةِ الرسول محمّد ﷺ بِحسَبِ الحال الَّتِي كان علَيْها إِبَّانَ نُزُولِ السورة.

ومنها أنْ يَصْرِف عَنْ نَفْسِهِ بقايا حُزْنِه من أجْلِ الّذين يَحْرصُ على إيمانهم من قومِهِ، ولا سِيمَا عشيرَتُهُ الأقْرَبون لإنقاذهم من عذاب الله، وهم الذين قال الله له بشأنهم في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) النازلة قبل نزول سورة (النمل):

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾.

واقترنَتْ بهٰذِهِ المتابعات التربويّة تكليفاتٌ لَهُ تَتَعَلَّقُ بمَسِيرَتِهِ الدَّعوِيّة.

الخطّ الثالث: تَثْبيت المؤمنين على إيمانهم والانتفاع بالْقُرآنِ الذي

هو هُدىً وبُشْرىٰ وَرَحمةٌ لَهُم، وعلى الالتزام بإقامة الصَّلاةِ وإيتاء الزكاة، ضِمْنَ حُدُود التكاليف المرحليَّة، الّتي أبانها الرَّسُولُ لهم، حتَّىٰ نُزُول السُّورَة.

واقتضت الحكمة التربويّة للرسول، والحكمة العلاجيَّة للكافِرين، عَرْضَ لقطاتٍ من قِصَّةِ موسىٰ عليه السلام وفرعون وقومه، ولقطاتٍ من قصَّةِ سليمان عَلَيْهِ السَّلام و«بِلْقِيسَ» ملكة «سبأ» في عَهْدِه، ولقَطَاتٍ من قِصَّةِ صالح عليه السلام وقَومه ثمود، ولقَطَاتٍ منْ قصَّةِ لوط عليه السلام وقومِهِ، رُوعِيَ فيها حالُ الرسُول ﷺ، إبَّان نُزُولِ السُّورة، وحالُ الكافِرِينَ به من قَوْمِهِ، وبين هذه اللَّقَطَاتِ وَبَيْنَ مَا جاء في سَائِرِ القرآن بشأنِ هؤلَاءِ الرُّسُل وأقوامهم تكاملٌ يُدْرِكُهُ المتَدبّر لدَىٰ جمعها، وتدبُّرها تَدَبُّراً تكامُلِيًّا.

واقتضَتْ معالجةُ كبراءِ مشركي مكة، تَعْلِيمَ الرَّسول ﷺ مُنَاظَرَةً جَدَلِيَّةً حَوْلَ قَضِيَّتَيْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبيَّة، وتوحِيدِ الإلَٰهِيَّةِ للَّهِ عزّ وجلّ. وتعلِيمَهُ مَا يَرُدُّ به على أسْئِلَتِهِم، الّتي يطلبون فيها تَحْدِيدَ الْوَقْت الّذِي يكُونُ فيه تَحْقِيقُ مَا أنْذَرَهم به مِن نُزُولِ عذاب رَبّهم بهم.

واقتضت تَرْبِيَةُ الله عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ، إعلامَهُ بأنَّه لَا فائِدَة مِنْ مجاهَدَتِهِ لإِسْمَاع الموتَىٰ، أَوْ إسماع الصُّمِّ إذا وَلَّوْا مُدْبِرين، أَوْ هِدَايَةِ العُمْي عَنْ ضَلَالَتِهِم، لأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُون ولا يَهْتَدون، وتَضِيعُ جُهُودُهُ فيهم سُدىً، والمراد: لا فائدةَ من مجاهَدَتِكَ لِتَحْوِيلِ الكَفَرَةِ الّذِين تَحْزَنُ من أَجْلِهِم، عَنْ كُفْرِهم إلى الإيمان، بعد أن وصَلُوا إلى حالَةٍ ميؤُوسٍ معها من إصلاحهم عن طريق إراداتهم الحرَّة.

واقتضت معالجة المشركين عَرْضَ بيانَاتٍ تَتَعَلَّقُ بأحْدَاثٍ مستقبليَّة، تَحْدُثُ قَبْلَ يَوْمِ القيامَة، وأحْدَاثٍ أُخْرَىٰ تَحْدُثُ عند القيامة وبَعْدَها، ممتَزِجَةٍ بالتَّنْبِيه عَلَىٰ ظواهِرَ كونيَّةٍ دالَّةٍ عَلَىٰ رُبوبيَّةِ اللَّهِ الواحد الأحَدِ،

الّذي أتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صنعاً، ويلزم عقلاً عَنْ أَحَدِيّتِه في الرُّبوبيّة أحَدِيَّتُهُ في الإلَهِيَّة.

ومن المستقبليات الآتيات ما يلي:

١ ـ إخراج الدَّابَةِ الَّتي تكلّم الناس، وهذا من أشراطِ السَّاعَة، كَطُلُوعِ الشَّمْسِ من مَشْرِقِها.

٢ ـ النفخ في الصّور نَفْخاً مُفْزِعاً لمنْ في السماوات والأرض.

٣ ـ أنَّ مَنْ جاءَ يَوْمَ الدِّينِ بالحسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ منها. وأنَّ من جاء بالسَّيِّئَةِ الكُبْرَىٰ من دَرَكَةِ الكفر فلَهُ عذابٌ أليمٌ في النار.

وأُنْهِيَتِ السُّورَةُ بتَوْصِيَةٍ مُوَجَّهَةٍ من الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، وهذه الوصية تتضمَّنُ ما يَقُولُهُ لمن لَمْ تُؤَثّرْ فيهم المعالَجَاتُ السَّابِقَاتُ، عَنْ نَفْسِهِ، وعَنْ وَظِيفَتِه الدَّعَوِية، وعن أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ سَيُرِيهِم آياتِهِ فَيَعْرِفُونَها، وخُتِمَتْ هذه الوصية بإنْذَارٍ رَبَّانِيٍّ للمَعالَجِينَ المعانِدِين، عن طَرِيق الكِنَايَةِ، بِذكر أَنَّ اللَّهَ الرَّبّ لَيْسَ بغافلٍ عمَّا يَعْمَلُون، أي: ولكِنْ يُمْهِلُهُمْ حتّىٰ آخرِ قَطْرَةٍ مِنْ قَطَرَاتِ معالَجَاتِهِم، وحينَمَا تَقْتَضِي حكْمَةُ اللهِ تَعْذِيبَهُم وإهلاكَهُمْ، يُنْزِلُ بِهِمْ ما يَسْتَحِقُّونَ بِالْعَدْل.

* * *

(٣)

دروس سورة (النمل)

ظهر لي بَعْدَ تأمُّلٍ وعِدَّةِ مُرَاجعات أنّ هذه السُّورة يَحْسُنُ تَفْصِيلُهَا إلى سَبْعة دُرُوس.

الدَّرس الأوّل: (الآيات من ١ ـ ٦).

ويتضمَّنُ هذا الدرس بَيَاناً عَنِ القرآن، وأنَّهُ هُدىً وبُشْرَىٰ للمؤمِنينَ،

الّذين مِنْ صفاتهم أنَّهُمْ يُقيمُونَ الصلاةَ بمواظبة، ويُؤْتُون زكَواتِ أموالهم بمُتَابَعَةٍ لما هو مطلوبٌ منهم، ويُجَدّدُونَ يَقِينَهُمْ بالآخِرَةِ مع كلّ صَلاةٍ أو ذكْرٍ للَّهِ عزّ وجلّ، أو عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ رَغْبَةً في ثَوابِ الله، وكذلك مع كُلّ أمْرٍ أو عَمَلٍ يَتْرُكونَهُ خوفاً من عقاب الله.

أمّا الّذين لا يُؤْمِنُون بالآخرة، فَهُمْ يمارسُونَ أعْمَالَهُمُ المزينَةَ لهم علىٰ عَمَهٍ في بصائرهم، ولهم سُوءُ العذاب، وهم في الآخرة هم الأخْسَرُونَ.

وختم اللَّهُ عزّ وجلّ هذا الدرس بخطابٍ موجّهٍ لرسُوله بأنَّهُ يُلَقَّىٰ القرآنَ مِنْ لَدُنْ حكيم عليم، أي: فَهُو مشتملٌ على كمالِ الحكمة، في توجيهاته للسُّلُوك الأمثل، وهو مشتمل على الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفهِ، لأنَّهُ مُنَزَّل من لَدُن عليم حكيم.

فاستبصروا أيُّها الممتَحَنُون.

الدرس الثاني: (الآيات من ٧ ـ ١٤).

وهو يتضمَّن لقطاتٍ من قصة موسىٰ عليه السلام وفرعون وقومه، لم تأتِ في جُمْلَتِها في سَائِر النصوص، وهذه اللَّقَطاتُ تُلَائِمُ الأغراض التربَويَّة، والأغراض العلاجيَّة، الّتي تتّصل بموضوع السورة.

الدرس الثالث: (الآيات من ١٥ ـ ٤٤).

وهو يتضمّن لقطاتٍ من قصّة سليمان عليه السلام، وبِلْقِيسَ مَلِكَةِ سبأ، وقصَّتِه مع وادي النمل والْهُدْهد.

وهذه اللّفظات لم تأتِ في سائرِ النصوص، وهي تلائم الأغراض التربويّة، والأغراض العلاجيَّة، الَّتي تَتّصل بموضوع السورة.

الدرس الرابع: (الآيات من ٤٥ ـ ٥٣).

وهو يتضمّن لقطات من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، مكمِّلَاتٍ لما جاء في النصوص القرآنية الأخرى.

وهذه اللّقَطَاتُ تلائم الأغراض التربويَّة، والأغراضَ العلاجيَّةَ الّتي تتّصِلُ بمَوْضُوعِ السورة.

الدرس الخامس: (الآيات من ٥٤ ـ ٥٨).

وهو يتضمن لقطات من قصة لوط عليه السّلام وقومه، مُكَمِّلَاتٍ لِمَا جاء في النصوص القرآنية الأخرى.

وهذه اللقطاتُ تلائم الأغراض التربوية والأغراض العلاجيّة، التي تتصل بموضوع السورة.

وقد سبق في الملحق الخامس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) دراسة تكاملية للنصوص القرآنية بشأن لوط عليه السلام وقومه.

وكان من الممكن أن أجعل الدروس من (٢ ـ ٥) درساً واحداً، وأقسمها إلى فصول كما فعلت في (الشعراء) وفي غيرها.

الدرس السادس: (الآيات من ٥٩ ـ ٧٥).

درس يعلّم الله عزّ وجلّ فيه رسولَه وكل داع إلى الله من أمَّتِه، مناظرَةً جدَلِيَّةً للمشركين حول شِركهم بربوبيَّة الله وإلَهِيَّتِهِ، وشكِّهِم في قدرة الخالق على إعَادة الخلْقِ وهو الّذي بدأه، وإقْنَاعهم بأنّ الآخِرَةَ حَقّ، وأنّ الجزاء حقّ.

ويوجّه الله عزّ وجلّ فيه رسوله لأنْ لا يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، وَلِأنْ لَا يضيقَ صَدْرُهُ ممَّا يَمْكُرُون، وأنْ يجيب على أسْئِلَتِهم العِنَادِيَّةِ بإنْذَارٍ مُغَلَّفٍ برَصَانَةِ الواثقِ باقترابِ ما كان يُبَلِّغُهُمْ عن رَبِّه، من إبعاد بعذابٍ وإهلاك.

الدرس السّابع: (الآيات من ٧٦ ـ ٩٣ آخر السورة).

وفي هذا الدرس متابعة بشأن القرآن، ومتابعة ترَبَوِيَّة للرسول ﷺ في مجالَات مسيرته الدعوية، مقترنة ببيان كليَّات كبرىٰ من المفهومات الدّينيَّة، ومُمْتَزِجَةٌ بإقناع الكافرين بأساليب غير مباشرة لَهُمْ في الخطاب.

وفيه إعلام عامٌّ وإِنْذَارٌ للمَعْنِيِّين بالمعالجة بأحْدَاثٍ قادِمَةٍ، هي من أشراط السَّاعة وعَلامَاتِها التي هي مقدمات لها، وبأحداثٍ تكون مع قيام السَّاعَة وبَعْدَها، مصحوبَةً بَعرْضِ بَعْضِ آياتِ اللَّهِ في كونِه الدّالَّات على أَنَّه قَدْ أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صُنْعاً.

وفيه تكليف من الله عزّ وجلّ لرسُوله مَا يَقُولُهُ لقومه، الّذِينَ وصَلُوا إلَىٰ حَالة مَيْؤُوس مَعَها مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا عن طَرِيقِ إراداتهم الحرَّة.

* * *

(٤)

التدبّر التحليليّ للدرس الأوّل من دروس سورة (النّمل) الآيات من (١ ـ ٦)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

القراءات:

(١) • سكت أبو جعفر على «طا» و«سين» سكتَةً لطيفة من غير تَنَفُّس.

أما باقي القرّاء العشرة فقرؤوا «طسٓ» بالوصْل.

• وقرأ ابن كثير: [ٱلْقُرَانِ] دون همزة، وكذلك حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [ٱلْقُرْءَانِ].

والقراءتان وجهان من الأداء.

تمهيد:

سبق في سورة (الشعراء) النازلة قبل سورة (النمل) عنايةٌ خاصَّةٌ بالحديث عن القرآن لبيان التبايُنِ بينه وبَيْنَ أقوال الكهَّانِ الذين يتَلقَّوْنَ عن شياطين الجنّ، وشعْرِ الشعراء الّذِين يَهِيمُونَ في كلِّ وَادٍ، وأقوالِ الإنْسِ أو الجنّ، التي لا تَرْقىٰ إلى مستوىٰ القرآن في مبانيه وفي معانيه، إذْ هو معجز لهم فيهما. وهذا التباين يؤكّد بصورة قطعيَّةٌ أنّه تنزيلٌ من رَبّ العالمين، وأنّه منْ غير الممكن أنْ يكون مفترىً على اللّهِ عزَّ وجلّ.

وبهذا التبايُنِ تَسْقُط مزاعم الذين كفروا، إذْ أشَاعُوا بَيْنَ جماهيرهم أنّه إيحاءٌ من شياطين الجنّ، أو هو نوع من الشعر تدفقت به شاعريّة محمد، أو هو كلام اختَلَقَهُ من عند نَفْسِه وتقوَّلَهُ على ربّ العالمين.

وقد جاء في هذا الدرس الأوّل من دروس سورة (النَّمل) مُتَابعة الحديث عن القرآن لبيان أَنَّهُ هُدىً وبشرى للمؤمنين، ثم جاء في الآية (٧٧) من السورة بيانُ أَنَّهُ هُدىً ورَحْمةً للمؤمنين.

ويُدْركُ المتدبّر أن كون القرآنِ هدُىً ورَحْمةً وبُشْرَىٰ للمؤمنين، يضيف أدلَّةً عقليَّةً على إِبْعَاد كلّ صفات الكهانة، والشعر، والوضع البشريّ له.

وهذه متابعة علاجيَّةٌ واضحة للّذِينَ كفَرُوا، دون أن يملكوا ولو دليلاً ضعيفاً على ما زعموا.

مع تثبيت المؤمنين الّذين يقيمون الصلاة ويؤتُون الزكاة، ضِمْن الحدود الّتي كانت مطلوبة إبَّان نزول سورة (النمل) ويُجَدِّدُون يقينَهُمْ بالآخرة كلمَّا غفَلُوا، ولم تكن قد نزلت حينئذٍ فريضتا الصَّوْمِ والحج، ولا كثير من أحكام الحلال والحرام والواجبات.

ويتضمّن هذا التثبيتُ الحثَّ على مُتابَعةِ تدبُّر ما ينزل من القرآن، والإيمان بحقائقه، والْعَمَل بما يَهْدِيهم إليه.

ويتضمَّن أيضاً طمأنَةَ قُلوبهم، واستثارةَ نفوسهم حتَّىٰ تَشْرَئِبَّ إلى ما يُبَشِّرهُمْ به من نجاةٍ وفوز عظيمَيْن، عند ربّ العالمين، في الآخرة يوْمَ الدين.

وجاء في هذا الدَّرْسِ تلويحُ بعصا الإنْذارِ للّذِين لا يُؤْمِنُون بالآخرَة، وإعلامٌ لَهُمْ بأسلوب غير مباشر بأنّ محمّداً يَتَلَقَّىٰ القرآن من لَدُنْ حكيم عليم، إذ جاء الخطاب القرآني مُوجّهاً للرسول ﷺ، ومعرضاً عن مخاطبَة الكافِرين المكذبين.

فمن كان من أولي الألباب اسْتَفادَ من هذا البيان، ولو لَمْ يكن الخطاب موجهاً له، ولا للفئة الّتي هو منها.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجل:

- ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.

﴿طسٓۚ﴾ حرفان من الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض سُوَر القرآن الكريم، وقد ذَكَرْتُ ما يكْفِي بِشأْنِها لدى تدبّر أول سورة (القلم/ ٤ نزول).

- ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾: جاءت الإشارة إلى آيات القرآن باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد ﴿تِلۡكَ﴾ للدّلالة على علوّ منزلة القرآن علوًّا لا يُدانِيه كلامٌ ما صادر عن غير الله عزّ وجلّ فلا تَسْتطيع الخلائق أن تأتي بمثله، ولو كان بعْضُهم لبَعْضٍ ظهيراً.

﴿ءَايَٰتُ﴾ جمع «آية» وهي في اللّغة العلامة، والأمارة الدالّة على شيءٍ ما.

وأطلقت في القرآن على الآيات الكونية، والآيات الإعجازية، والآيات الجزائية، والآيات البيانيّة.

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ هو الكتاب المبين، ولكن قُصِد الإلماح إلى المعنى الوصفيّ من كونه بياناً رَبَّانيًّا مطلوباً من المؤمنين أن يقرؤوه من صحف يكتُبُونَها تلقّياً من الرَّسُول ﷺ، وأن يُدَوِّنُوه في كتابٍ خاصٍّ به، فجاء لفظ ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بالْعَطْفِ على ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ للتَّغَايُرِ الوصفيّ.

وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

- ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.

بعطْفِ: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ للإلماح إلى المعنى الوصفي أيضاً، مَعَ عَكْسِ التّرتيب، للدّلالة على تكافؤ العبارتين في الدّلالة على أنّ المطلوبَ من المؤمنين أنْ يُدَوّنوه في كتابٍ خاصٍّ به، وأنْ يقرؤوه منه، وأنْ يكون حفظهم الذهنيُّ له مستَنِداً إلى المدَوَّنِ في الكتاب المقروء منه، حتى يكون مَرْجعاً للمحفوظ في الذاكرة، ولهذا جاء العطف في النَّصّيْنِ بالواو، التي هي لمطلَقِ الجمع، فلا تقتضي بوضعها اللُّغَوي ترتيباً ولَا تعْقِيباً.

وقد طبّق الرَّسولُ ﷺ بوحيٍ من رَبّه هذا التوجيه، فكان يأمُرُ بكتابَةِ مَا ينزل علَيْهِ من نُجُومِ القرآن، وكان له كُتَّابُ وحْيٍ يَكْتُبُونَ له ما يَنْزِلُ عليه منها.

وكانَ الكاتبون من أصحاب رسول الله ﷺ يكتُبُون في صُحُفٍ خاصَّةٍ ما كان يَنْزِلُ بحَسَب أحوال كلٍّ منهم، فيحْفَظُونَ ما في هذه الصحف، ويَرْجِعُونَ إلَيْهَا لتثْبِيتِ محفوظاتهم والاطمئنان على صحتها.

ثُمَّ جُمِعَ القرآنُ كُلُّهُ في كتابٍ واحدٍ في عهد خلافة أبي بكر الصدّيق رضِيَ اللَّهُ عنه، ثُمَّ نُسِخَتْ مِنْهُ نُسَخٌ ووزِّعَت على أمْصَار العالم الإسلامي، في عهد خلافة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه.

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾: هو في الأصل مصْدَرُ فعل «قَرَأَ». يقال لغة: «قَرَأَ

الكِتَابَ يَقْرَؤُهُ، قِرَاءَةً، وقُرْآناً» أي: تَتَبَّعَ كلماتِه المكتوبة نظراً، ونَطَقَ بها.

ثم صار في الاصطلاح الديني عَلماً علىٰ البيان الرَّبَّانيّ المنزّل لفظاً ومعنىً على رسول الله محمّد بْنِ عبْدِ الله ﷺ.

ولفظ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بالتعريف ولفظ [**كِتَاب مبين**] صارا علماً بالغَلَبة على ما يُطْلَقُ عليه لفظ [**القرآن**]. وهما في الأصل وصفان، فلفظ «كِتَاب» هو بمعنىٰ «مكْتُوب» ولفظ «مُبِين» هو بمعنىٰ «واضح ظاهر» وبمعنى «مُوضح مُظْهِر» وهما باعتبار المعنى الوصفيّ متغايران، وإلْماحاً للمعنى الوصفي يُعْطَفُ أَحَدُهُمَا علىٰ الآخر.

﴿هُدًى﴾: **الْهُدَىٰ**: مصْدَرُ «هَدَاهُ، يَهْدِيهِ، هُدىً، وهَدْياً، وهِدَايَةً، وهِدْيَة» أي: بَيَّنَ لَهُ، وأرْشَدَه.

ويطلق لفظ «الْهُدَىٰ» على الصِّراط، وهو الطريق الواضح، وهو طَرِيقُ الحقّ.

ويُطْلَقُ لفظ «الْهُدَىٰ» على إخراج شيء إلى شيءٍ آخر، ومن عموم هذا الإخراج نفهم الإخراجَ مِن الظلمات إلى النور، ومن الكُفْر إلى الإيمان، ومن الباطل إلى الحق، ومن الشّرّ إلى الخير، ونحو ذلك.

﴿وَبُشْرَىٰ﴾: **البُشرىٰ**: اسْمٌ يُطْلَقُ على الشيء السّارّ المفرح، الذي يأتي به الخبر أو العِلْم.

فالنجاة من الْعَذَابِ ومِنْ دُخول النّار يُطْلَقُ عليها «بُشْرَىٰ» والفوز بالجنَّةِ والسَّعادَة الأَبَدِيَّة فيها، يُطْلَقُ عليه لفظ «بُشْرَىٰ».

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: للمتحقِّقين بالإيمان الصحيح الصادق بعناصر القاعدة الإيمانيّة في الإسلام.

ويفهم من كون القرآن هُدىً وبُشْرَىٰ ورحمة للمؤمنين، أنَّ الإيمان هو

الجذْرُ المتَغَلْغِلُ في عُمْقِ النَّفْسِ والقلْبِ الّذي تتفرَّعُ عنه فروع السُّلُوك في حياة الإنسان، ذي المظْهَر الْجَسَدِي، وغَيْرِ ذي المظهر الْجَسَدِيّ كالنيَّات.

فَمَنْ آمَنَ بعناصر القاعِدَةِ الإيمانيّة كَانَ القرآنُ لَهُ هُدىً يَهْدِيه إلى صراط اللَّهِ المستقيم في الحياة، وكانَ الْتِزَامُهُ بسُلُوكِهِ رَحْمَةً لَهُ إذ يَجْلُبُ له الخيراتِ والسَّعَاداتِ الحقيقيَّة، وكانت آياته المتضمِّنات بشاراتِ مُعَجَّلاتٍ في الدُّنيا، ومؤجلات إلى يوم الدين، دَالَّاتٍ على الْبُشْرَىٰ الّتي ينالُها بفضْلِ اللَّهِ ومَنِّهِ وكَرَمِهِ، مِنْ كلّ ما يَسُرُّهُ ويُفْرِحُه.

المؤمِنُ: هو المصَدِّقُ تَصْدِيقاً إراديًّا بعَنَاصِرِ القاعِدَة الإيمانيَّةِ، الّتي جاء بها الدّين الّذي اصطفاه الله لعباده، مع طُمَأْنينةٍ وأَمْنٍ تامٍّ بأنّ الواقع لا يكُونُ على خلاف ما آمَنَ به، واطمأنَّ قَلْبُهُ إليه.

ومعنى الإيمان في الإسلام قمةٌ لا يَصِلُ إلى سَفْحِ جَبلِها اعتقادٌ مَا، لأنّه قائم على التصديق الآمِنِ المطمئِنِّ بالحقّ، والعقائد الأُخرى أوهام أو مقرونة بريبَة.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾:

سورة (النمل) نزلت قَبل سورة (الإسراء) بسورة هي سورة (القصص) وإذا كانت سورَةُ (الإسراء) قد نزلَتْ عَقِبَ حادِثَتَي الإسراء والمعراج، ومن المعْلُوم أنَّ الصَّلَواتِ الخمْس قَدْ فُرِضَتْ في ليلة المعراج، فإنّ إقامَةَ الصَّلاةِ الّتي جاء بيانُها في هذِه الآية من سورة (النمل) يُقْصَدُ بها صَلواتٌ كان الرَّسُول ﷺ يقوم بها، وكذلك الذينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فيها قيام وركوع وسُجُود على الموروث من دِينِ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، ولكن لا نَمْلِكَ يقيناً في تحديد أوقاتها، وعَدَدِ رَكعاتِ كلٍّ منها. وكذلك فرضيَّةُ الزكاةِ ذاتِ المقادير المحدّدة.

لكن من صفات المؤمنين أنّهم كانوا يقيمون الصلاة ويؤتُونَ الزكاة، على وفْقِ التعليم الذي كانوا يتلَقَّوْنَهُ من الرسول ﷺ، والصلاة هذه غيرُ صَلَاةِ قيام اللّيلِ الَّذِي جاءَ بَيانُه في سورة (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول).

فقول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هو وصفٌ للمؤمنين الذين يكون القرآنُ هُدىً وبُشْرَىٰ لهم.

فالمعنى: إنّ القرآن الكتابَ المبين هو هُدىً وبُشْرَىٰ للمؤمنين الّذين يكونُ من ثمرات إيمانهم الصادق في قلوبهم، أَنَّهُمْ يُطَبّقُونَ التكاليف الإسْلَامية، ومن كُبْرِيَاتِها إقامَةُ الصلاةِ لربّهم، بأجْسَادِهِمْ ونفوسهم، وإيتاءُ زَكواتِ أموالهم.

إقامَة الصلاة: أي: جعلُها مُسْتَقِيمَة، ويُراد بإقامة الصَّلاةِ المداومَةُ والمواظبةُ على أدائها يَوْميًّا حسب التعليم الّذي كان إبَّانَ نزول سورة (النمل) وأداؤها على الوجه الشرعيّ المطلوب فيها.

استفيدت المواظبة من دلالة الفعل المضارع في ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الدّال على التجدّد. وكذلك الزكاة من: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

يُقَال لغة: «أقَامَ الرجلُ الْعَمَل» أي: أدامَهُ وواظَبَ عليه، وأدّاهُ مُوَفِّياً حَقَّهُ.

إيتاءُ الزكاة: أي إعطاؤها وَتأديتُها على الوجْهِ المطلوب شرعاً.

الزّكاة في اللُّغة: الطّهارةُ والنَّماء. وهي شرعاً: مَا يجب بذْلُهُ من المال للفقراء والمساكين وذوي الحاجات.

وسُمِّي هذا الواجبُ زكاةً لأنَّهُ مُطَهِّرٌ للمالِ، ولأنَّهُ سببٌ في تَنْمِيَتِهِ بفَضْلِ اللَّهِ وتيسيراتِهِ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

- ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

إن الإيمان بالحياة الآخرة الّتي تكونُ بَعْدَ البعْثِ للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، هو من عناصر القاعدة الإيمانية.

وجاء التصريحُ هُنَا بهذا العنْصُر، مع دخوله تحت معنىٰ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الشامل لكلِّ عَنَاصِرِ القاعدة الإيمانيّة لحكمَتَيْن:

- **الحكمة الأولى**: التأكيد على أنَّ الإيمان بالآخِرَة، حَيَاةً وداراً، وما يكونُ فيها من جزاء بالنعيم العظيم الخالد في جنّاتِ النّعيم، أو بالعذاب في الجحيم، من أقوى العناصر الدافعة إلى الالتزام بالسُّلوك الإسلامي، والاستقامة على صراط الله الّذي رَسَمَه لعباده وحَدَّدَ حُدُودَه، ونَصَبَ معالمه.

لأنّ السُّلُوك الإنسانيّ في حياة الغالبيَّة العظمىٰ من الناس، يدفَعُهُ دافِعَانِ قويان خَطِيران:

الدافع الأول: الخوف من المؤلمات الموجعات.

الدافع الثاني: الطمع في المسْعِدَاتِ السارّاتِ المفرحات.

والحق الذي لا يَقْتَرِنُ به خوف أو طمع، تكُونُ دوافع النفس إلى الالتزام بمَطْلُوباتِه دوافعَ ضعيفَة عند معظم الناس، ولا عبْرَةَ بالقلَّة النادرة جدًّا الّتي تُؤَدّي مطلوبَ الحقّ لمجرّد أنّه حقٌّ.

- **الحكمة الثانية**: التوطئة للحديث عن الذين لا يؤمِنُونَ بالآخرة، الذين جاء الحديث عنهم في الآية التالية (٤).

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعْلَمُونَ علْماً لا يخالطه ولا يعتريه شك.

اليقينُ: هو في اللُّغةِ العلم الذي لا شَكَّ فيه، وأدنى مراتبه ما اعْتَمَد على أدِلَّةٍ فِكْرِيَّة، أو خبرية صادقة، لا يَعْتَرِيها شكٌّ.

وجاء التأكيد بضمير الفصل: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للدّلَالَةِ على اليقين الإرَادِيّ، لا اليقين الجبْرِيّ الذي قَدْ تَجْحَدُهُ الإرادة، وللدّلَالَةِ على أنّ مَنْ يَضْعُفُ يقينُهُ بالآخِرَة، تضعُفُ دوافِعُهُ للسُّلُوكِ الأمثل، بمقدار ضعف يقينه، أي: هم يوقنُونَ يقيناً دافعاً للسُّلُوك طمعاً بثواب اللّهِ وخوفاً من عقابه.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾:

﴿زَيَّنَّا﴾: أي: جَمَّلْنَا وَحَسَّنّا.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتَحيَّرُونَ ويَترَدَّدُونَ، وهُمْ مُنْطمسُو البصائر. **العَمَهُ**: هو في البصيرَةِ كالْعَمَىٰ في الأبْصار.

أي: إنّ الّذين لا يُؤْمِنُونَ بالحياةِ الآخرة بَعْدَ البعث، ولا بما فيها من جزاء بالثواب وبالعقاب، تتعَلَّقُ مطالِبُ أهوائِهِمْ وشهواتِهِمْ وسَائِرِ رَغباتِ نفوسهم بالحياة الدُّنيا، تَعَلُّقَ المحِبِّ الذي يؤثِرُ محبُوبَه ويُفَضِّلُهُ عَلَىٰ ما سواه.

وقد جعل الله عزّ وجلّ في الحياة الدُّنيا أنواعاً من المتاعِ مُزَيَّنَةً للنَّاسِ، لأنَّها تحقِّقُ لهم لذَّاتٍ وشهواتٍ وَرَغباتٍ ومَحابَّ يُحِبُّونها ويتعَلَّقُونَ بها.

ومنها الشهوات من النّساء، ومنها الْبَنُونَ، والقناطِيرُ المقنْطَرَةُ من الذهَبِ والفضة، والخيل المسَوَّمَة، والأنعام والحرث، ومِنْها التفاخُرُ والتكاثُر والعظمة والسلطان، وامتلاكُ الأشياء المفيدة.

فهم يَبْذُلُون طاقاتهم وقُدْراتهم الجَسدِيّة والفكريّة والنفسيَّة، بغية الوصول إليها والحصول عليها.

ومن أحبَّ شيئاً أحبّ العمل الموصل إليه، ولو كان شاقًّا ومُضنياً، ويكُونُ هذا العملُ في نفسه مُزَيَّناً وجميلاً. وهذا من الْفِطَرِ التي فَطَر الله النفوسَ وَجبَلَها عليها، وجَعَلَها من طباعها.

وإشارَةً إلى هذه الحقيقة قال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ إنَّ هذا التزيينَ ليْسَ إغواءً ولا إغْراءً، وإنَّما هو نتيجَةٌ قَدَرِيَّةٌ تَجْلُبُها إرَادَةُ الإنْسَانِ الاختياريّة، فمَن أدْخَلَ يَدَهُ في النار، أحْرَقَها اللَّهُ لَهُ ضِمْنَ سُنَنِهِ التكوينيَّة الْقَدَرِيّة العامّة، وكذَلِكَ من اتبع أهواءه وشهواتِه زيّنَها الله له ضمن سننه التكوينية القدرية العامة.

التزيين: التجميلُ والتحْسِينُ بالزّينَاتِ المحبّبَاتِ الّتي تَجْذِبُ إلى المزَيَّنِ النُّفُوسَ، وقد يَصِلُ جَذْبُها إلى عُمْقِ الْقُلوب، وهو أحَدُ موادّ الامْتِحانِ في ظروف الحياة الدنيا.

فإذا كان المزَيَّنُ ممّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ صَرَفَتْ عنه البصيرة الإيمانيّةُ الهادِيَةُ إلَىٰ الرُّشْدِ.

أمّا مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بَصِيرَةٌ إيمانيّة، فإنَّهُ يتعلَّقُ بزُخْرُفِ الحيَاةِ الدُّنيا الموَزَّعِ في أشْتَاتِها، فَيَكِدُّ ويَكْدَحُ للحصول عليها، عابراً كلّ مَسْلَكٍ صَعْبٍ، ونفقٍ، وغَوْرٍ سَحِيقٍ، وفاقداً رُشْدَهُ، يتخبَّط فِي ظُلُمَاتِها على عَمَهٍ.

يقال لغة: «عَمِهَ، يَعْمَهُ، عَمَهاً، وعَمَهاناً، وعُمُوهاً» أي: تحَيَّر وترَدَّدَ على غَيْرِ هُدى، ويَسْتَمِرُّ في شقائِه وتعاسَتِه لَا يَنالُ السَّعادةَ الّتِي يَنْشُدُها بِسَبَب انْطِمَاسِ بَصِيرَته.

هذا هو حال الّذِين لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، مَهْمَا جمعوا من أموال، ومهما أصَابوا مِنْ لَذَّات، لأنَّهُمْ يكونُونَ في أعماقِ قُلُوبهم ونفوسهم غيرَ سُعداء.

أمَّا في الآخرة فَلَهُمْ سُوءُ العذاب، ويكونُونَ هُمُ الأخسَرِين.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾: أي: أولئِكَ الْبُعَدَاءُ إلَى جِهَةِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ، لهم بالاسْتِحْقَاقِ الذي تَفْرِضُهُ عليهم أحْكَامُ العدْلِ الرَّبَّانِيّة، سُوءُ الْعَذَاب.

سُوءُ الْعَذَاب: أي: شَدِيدُهُ، وشَاقُّهُ، ومُؤْلِمُهُ، وأَصْلُ الكلام العذابُ السُّوءُ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف.

لفظ «سُوء» اسْمٌ جامِعٌ لِمخْتَلِفِ الآفَاتِ، ولكُلِّ ما يَقْبُح، ولكُلِّ مَا يَغُمُّ الإنْسَانَ من مكاره.

- ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾: أي: وهم في الحياة الآخِرَةِ بَعْدَ الْبَعْثِ هُمُ الأكْثَرُون خَسارَةً مِنْ كُلِّ خاسِرٍ، إذْ يكُونُونَ مِنَ الخالِدِينَ فِي عَذَابِ النّار، فيَخْسَرُونَ ذواتهُمْ كُلَّها، ولَا يَبْقَىٰ شَيْءٌ مِنْهَا إلَّا مُعَذَّباً عَذاباً أبَدِيًّا.

وجاءت صيغة «أفْعل» الّتي للتَّفْضِيل، في عبارة ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ للدّلالَةِ على أنّ عُصَاة المؤمنين، ولو كانُوا من الخاسِرِينَ خَسَاراتٍ ما، لكنَّهُمْ لَا يكونُونَ الأخْسَرِينَ يوْمَ الدّين، لأنّ لَهُمْ نَجاةً من الْعَذابِ بَعْدَ أنْ يَنَالُوا مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْه، بخِلَافِ الْكَافِرِينَ فإنهم يكونون هُمُ الأَخْسَرِينَ مِنْ كُلِّ الخاسِرين.

ودَلَّ تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنَادِ في عبارة: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ على قَصْرِ صِفَةِ الأخْسَرِيَّةِ عليهم، وينْطَبِقُ علَىٰ جميع الكافِرِينَ أنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، لأنَّ من آمن بالآخرة إيماناً صَحِيحاً، لَا يَقَعُ في أمْرٍ ما يكونُ بِهِ مِنَ الكافرينَ الخالِدِين في عَذَابِ الجحيم.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

- ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾:

﴿لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: أي: لَتَتَلَقَّىٰ الْقُرْآنَ إذْ يُلَقَّىٰ إليكَ بالْوَحْيِ من

رَبِّكَ. والمعْنَىٰ أنَّهُ لا كَسْبَ لَكَ فِيه إلّا التَّلَقِّي مِنَ الوحْيِ الذي يُلَقِّيهِ إلَيْك بِعِنَايَةٍ تامَّة، حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمَةً فكَلِمَةً، وآيَةً فآيَة.

وجاء الفعل المضَعَّفُ للدّلَالَةِ على العنايَةِ البالغة في الإلْقَاءِ والتَّلَقِي.

يقال لغة: «تَلَقَّىٰ الْعِلْمَ عَنْ فُلَان» أي: أَخَذَهُ منْه. و«تَلَقَّىٰ الشَّيْءَ» أيْ: لَقِيَهُ.

﴿مِن لَّدُنْ﴾: **لَدُنْ**: ظَرْفٌ زَمَانِيٌّ ومَكَانيٌّ بِمَنْزِلَةِ «عِنْد» إلَّا أَنَّهُ أقْرَبُ من «عِنْد» وأخصُّ منه. وكلمة «لَدُن» ملازمَةٌ للإضافةِ فهِيَ تَجُرُّ مَا بَعْدَها بالإضافة.

﴿حَكِيمٍ﴾: أي: عظيمِ الحكْمَةِ في كُلِّ ما يَشَاءُ ويختار. والحكيم في اللُّغَةِ هو الذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويختارُ أفْضَلَ الأشياءِ وأتْقَنها وأَحْسَنَها في الأمُور المختلفة لما يُعْطِي أَحْسَنَ النتائج.

والحكيم: اسْمُ من أسماء اللَّهِ الحسْنَىٰ.

﴿عَلِيمٍ﴾: أي: واسِعِ العلم الذي يُحيطُ بكلّ شيءٍ عِلْماً، إذ هو هنا صفة من صفات الله عزّ وجل.

والعليم: اسْم من أسماء اللَّهِ الحسْنَىٰ.

والمراد: أنَّ القرآنَ الّذي تَتَلَقَّاهُ يا مُحَمَّدُ مِنْ لَدُنْ رَبِّك الحكيم العليم، كُلُّ ما فيه حقٌّ وهُدىً وخَيْر، وأحكامُهُ هي أفْضَلُ الأحْكَامِ وأَحْسَنُها، وصِيَاغَتُهُ هي أتْقَنُ الصِّيَاغاتِ وأحْكَمُها وأسْمَاها.

وهذه الصفات فيه شاهداتٌ على أنَّه تَنْزِيلٌ رَبَّاني، وليْسَ وَضْعاً من كائِنٍ ما غَيْرِ اللَّهِ عزّ وجل، ومُتَدَبِّرُ القرآن بأناة وعُمْقٍ يَجِدُ هذا جَلِيًّا واضحاً.

والغرضُ من خِطَابِ الرَّسُول محمّد ﷺ بهذا البيانِ مَعَ عِلْمِهِ به،

إعْلَامُ الْكَافِرِينَ المكَذِّبين، بإسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، لأنَّهُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ اسْتِماعِ القرآنِ بإقبالٍ ومُواجهة، فاقتضت الحكمة الإعراضَ عنْهُمْ بالخِطَاب، مع إسماعهم هذا البيان عن القرآنِ وهُمْ مُعْرِضون.

* * *

(٥)

التّدبّر التحليلي للدّرسِ الثاني من دروس سورة (النّمل) وهو الآيات من (٧ ـ ١٤)

وفيه لقطات من قصة موسى عليه السلام وفرعون وقومه

قال الله عزّ وجل:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾.

تمهيد:

لمّا كان المعنيُّون بالمعالجة من كبراء كفّار قريش إبَّان نزول سورة «النّمل» قد وصلَتْ حالُهم إلى قريب من حال فرعون وملئِه، إذْ كانوا مسْتَيقنين في أنفسهم بصحَّةِ وصِدْق الآيات التي جاء بها موسَىٰ عليه السلام، لكنَّهُمْ جَحَدوا بها ظُلْماً وعُلُوًّا في الأرض، كان اختيار هذه اللّقطات من قِصَّتِه، وتقديمُها في سورة «النَّمل» أمراً حكيماً يَدُلُّ اللَّهُ عزّ وجلَّ به كبراءَ

كفار قريش المعاندين الجاحدين، على أنّهم قد اقتربوا من الوقت الذي تقتضي حكمةُ الرَّبّ جلَّ جلالُه، أن يُنْزِلَ فيه عقابَهُ بهم، كما أنزله بفرعَونَ ومَلَئِهِ وجُنْدِه، حينما وصَلُوا إلَىٰ حالة الاستيقانِ النَّفْسِيِّ مع الجحود.

وهذه اللّقطات لقطاتٌ موجزاتٌ جدًّا من قصة موسى وقومه، إلّا أنّ العلاج التحذيريّ الحكيم اقتضىٰ إيرادها، لتحْذِير المعنيّين بالعلاج من كبراء كفّار مكة وما حولها، وهذا الغرض التحذيريُّ قد جاء في الآيتين (١٣ و١٤) من هذا الدرس.

التدبّر التحليلي:

سبق تدبُّر هذا النصّ تدبّراً تكامليًّا، مع النصوص الأخرى التي جاءت في القرآن حول ما جاء فيه، وأقْتَصِرُ هُنا على التدبّر التحليليّ له.

قول الله عزّ وجل:

- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾:

بدأت هذه اللّقَطات عن مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، من مَرْحَلَةٍ من مراحل رَجْعَتِه من مَدْينَ إلى مِصْر، ومَعَهُ أهْلُه، وقَطِيعُ أغنامه، على ما سَبَقَ بيانُه مُفَصَّلاً لدَىٰ تدبّر النُّصُوص السابقة نزولاً لهذا النصّ.

- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾: أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي لهذا البيان هذا الحَدَثَ الذي نَقُصُّهُ علَيْك، بَدْأً من الوقْتِ الذي قال فيه موسَىٰ عليه السّلام لأهْلِه ما جاء بيانُه في الآية.

﴿إِذْ﴾: ظرفٌ للزّمان الماضي، وهو هُنَا زَمَنُ بعضِ الأحداث الماضيَةِ التي جرت لموسَىٰ عليه السّلام، بعد أنْ رأى ناراً، وهو عائِدٌ إلى مِصْرَ من أرْض مَدْيَن بأهْلِه.

﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾:

قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكانها.

آنسْتُ: أي: أبْصَرْتُ، يقال لغة: آنَسَ الشيءَ: أي: أحَسَّ بِهِ ـ أَبْصَرَه ـ عَلِمه.

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾: أي: امْكُثُوا مَكَانَكُمْ، إنّي ذاهِبٌ إلَىٰ المكان الذي آنَسْتُ فيه النّارَ، رَاجياً أنْ أجِدَ عنْدَ أصْحَاب النَّار خَبَراً عَنِ الطَّرِيقِ الّذِي يُوصِلُنَا إلَىٰ مِصْرَ، فآتيكم به، عائداً إليكم.

﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾:

قرأ نافع، وٱبْنُ كثِير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عَامِر، وأبو جَعْفر: [**بِشِهَابِ قَبَسٍ**] على إضافة «شِهَابِ» إلى «قَبَسٍ».

الشهاب: يأتي في اللّغة بمعنى: الشعلة الساطعة من النار، وهذا المعنى هو الملائم هُنا.

الْقَبَسُ: النار، أو شَعْلَةٌ من النار، وفي اللّفظ معنى الاقتباس، وهو الاستفادة بالطّلَب.

فإضافة «شَهاب» إلى «قَبَس» تَدُلُّ على معنى: شعلة نار ساطِعَةٍ أسْتَفيدُها اقتباساً من أصحاب النار.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ على تنوين لفظ: «شهابٍ» فيكون لفظ «قَبس» بَدلاً من لفظ «شهاب» أو صفة له، إذْ يَحْمِلُ معنَىٰ الإستفادة بالطلَب وهو معنى «الاقتباس».

وعلى كلا القراءتين لا تكون كلمة «قَبَس» إطناباً، بل فيها الدّلالة على معنَىٰ الاقتباس، وكلمة «قَبَس» لا تغني عن كلمة «شهاب» لأنّ لفظ

شهاب يدُلُّ على أنَّ الشعلة ذات نار ساطعة، فاجتمع اللّفظان للدَّلالَة على كامل المعنى المراد بيانه.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: أي: راجياً أن تُوقِدُوا حَطَباً بالشهاب الّذي آتيكم به، تَسْتَدْفِئونَ بها.

تصْطَلُونَ: أي: تَسْتَدْفِئون.

قول الله عزّ وجل:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾: أي: فلَمَا جَاءَ المكَانَ الّذي رأىٰ النَّارَ تَشْتَعِلُ فيه. يقال لغة: جاءَ المكانَ، وجاءَ إلى المكان.

﴿نُودِىَ﴾: أي: نُودِي مُوسَىٰ عليه السلام، وهو بجانب الطّور، بخطابٍ مُرْتفع الصّوْت، يقال لغة: نادَىٰ فلانٌ فُلاناً، أي: دَعَاهُ بصَوْتٍ مُرْتَفعٍ على قَدْرِ وُسْعِه.

وكَانَ نداؤه من وراء حجابٍ من قبل الرَّبّ جلَّ وعَلَا.

وقد اشتمل الخطاب الّذِي دلَّت عَليْهِ هاتان الآيتان على ثلاث قضايا:

القضية الأولى: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

﴿أَنۢ﴾ تفسيريَّة، أيْ: تضمَّنَ النداء بَيَانَ أنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ مَنْ في النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا مُبارَكِين.

البَرَكَةُ: هي الكَثْرَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وهي تكون في المعنويَّات، وفي المادّيَّات.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: دلَّت هذِهِ العبارة على وجُودِ أَهْلِ عِلْم يُطْلَقُ عَلَيْهم لفظ «مَنْ» ويتَبادَرُ إلَىٰ الذِّهْنِ أَنَّهُمْ جَميعاً مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ ومَلائِكَةٌ مُقَرَّبُون، وفي مقدّمة الملائكة رَسُولُ الوحْي جِبْرِيلُ عليه السّلام، ولم أَجِدْ في النّصوص عن الرَّسول ﷺ ما يَدُلُّ على تعْيين الملائكة، لكنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام قَدْ جعَلَهُ الله عزّ وجلّ بهذا البيان مُبارَكاً، وكذلِكَ من اصطفاهم من الملائكة لحضور هذا اللِّقاء الكريم، سواءٌ قُلْنَا: إنَّ مُوسَىٰ قَدْ أحاطَتْ بِهِ النّار الّتي كانت في الحقيقة نوراً بارداً، أَمْ كان مِمَّنْ كانَ حَوْلَهَا من الملائكة.

القضيّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجل: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

دلّ هذا البيان على تنزيه الله جَلَّ جَلالُه مِنْ كلِّ ما لا يليق به، وعَلَى وَصْفِهِ بأَنَّهُ رَبُّ العالمين.

- أمَّا التنزيهُ عَنْ كلِّ نَقْصٍ عَنْ أَسْمَىٰ دَرَجات الكمال، فقد جاء بعبارة «سُبْحَان».

قال النحاة: كلمة «سُبْحان» اسْمُ عَلَمٌ لمعنَىٰ البراءة والتنزيه، وليس لَهَا فعل من لفظها، وهي ممنوعة من الصَّرْف إلَّا إذا أضيفت، وتأتي منْصُوبَةً في مَوْضع المصْدَرِ المنْصُوب بفعل محذوف.

- وأمّا ذِكْرُ الموْجُودِ الأزليّ الأبَدي فَقَدْ جاء باسْمِه العلم «الله».

- وأمَّا وَصْفُهُ بأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين، فهو الوصْفُ الجامع لكلّ أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلات ذوات العلاقَةِ من الله بكلّ العالَمِين. ولفظ «العالَمِينَ» هُنَا شَامِلٌ لكلّ مَوْجُودٍ سوى الله عزّ وجلّ.

القضيّة الثالثة: دلَّ عَليْها قول الله عزّ وجل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾:

ناداه اللَّهُ عزّ وجلّ بأداة النداء «يا» للإشارة إلى بُعْدِ مَنْزِلَةِ الرَّبّ عَنْ منَازِلِ عباده.

وأبَانَ له بَعْد النداء أنَّ الشَّأْنَ العظيمَ الْجَلِيلَ الَّذِي أُطالِبُكَ بأنْ تُدْرِكَهُ وتُؤْمِنَ بِهِ، بَعْدَ تنزيهِ الله وتقديسه والعلم بأنّه رَبّ العالمين والإيمان بكلّ ذلك، أنْ تُؤْمِنَ بأنّي أنَا هو اللَّهُ، وأنَا الْعَزِيز الحكيم.

أي: أنا المتصرف بالكون بصفات رُبُوبيتي، ضِمْنَ صِفَتَي عزّتي وحكمتي، فأنا العزيز الحكيم:

العزيز: أي: القوي الغالب القدير على خلْق ما يشاءُ ويختار.

الحكيم: أي: ذو الإرادة الحكيمة النافذة، فلا تفارِقُ مشيئتي المطلقة حِكْمَتِي في تَصَارِيفي بالعالَمِينَ، فأقَدِّرُ مَقاديري، وأقضي أقضيتي وأُنَفِّذُها بحكمة بالغة.

قول الله عزّ وجلّ مبيناً بعض ما كَلَّم به مُوسَىٰ عليه السلام بعد القضايا الثلاث السّابقة:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

- ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾: أي: ادْفَع عَصَاكَ إلى الأرض دفعة واحدة.

الإلقاء: هو في اللّغة بمعنى دفْعِ الشيء مَرّةً واحدةً على طريقة القذف أو الرّمي، لا بأسلوب الوضْعِ برفق.

- ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: أي: فَقَلَبَها الله عزّ وجلّ حيَّةً تَسْعَىٰ بأمْرِ التكوين، فَلَمّا رآها مُوسَىٰ عليه السَّلام حيَّةً تَهْتَزُّ كأنْها جَانٌّ ولَّىٰ مُدْبراً ولَمْ يُعقِّبْ.

تَهْتَزُّ: أي: تتحرَّك بنَشاط وشدّة.

كَأَنَّهَا جَانٌّ: الْجَانُّ: نوع من الحيّات أكحل العيْنَيْن يَضْرِبُ إلى الصفرة، سَرِيع الحركة شديد الاهتزاز، وجَمْعُه «جِنَّان» و«جَوَانّ».

وهذا النوع من الحيَّاتِ خفيف صغير الجسم.

وجاء تشبيه الحيَّةِ الّتي تحوَّلَتْ إلَيْها عصا موسى عليه السلام بالجانّ هُنا، لبيان اهتزازها وسُرْعَةِ حَرَكتها.

وجاء بيانُ عِظَمِ جسْمِها في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

وفي سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾.

الثعبان: ذَكَرُ الحيّات.

فتكاملت النّصوص في الدّلالَة على عظم جسْمها وشدّة حَرَكتها المخيفة:

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: أي: ابْتَعَدَ فَارًّا، مُعْطِياً دُبُرَه. جاء الجمع بيْنَ التولّي والإدْبار في هذه العبارة، لأنَّ التولّي قد يكون ابتعاداً دون إدْبار، ولأنّ الإدّبار قَدْ يكون بإعطاء الظّهر للشيء دُونَ ابتعاد، لكنّ واقع حال موسَىٰ عليه السّلام أنَّهُ ابتَعَدَ وأدْبر.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: أي: ولـم يَرْجِعْ. يقال لغة: عَقَّبَ الفارُّ، أي: كرَّ وَرَجَعَ.

- **﴿. . يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾**:

هذه العبارة مُقْتَطَعَةٌ من الحدَثِ الّذي جرَىٰ، إذْ نَادَىٰ اللَّهُ عزّ وجلَّ

مُوسَىٰ، بَعْد أنْ وَلَّىٰ مُدْبراً وَلَمْ يَعْقِبْ، خَوْفاً من الحيَّةِ العظيمة ذاتِ الحركة السّريعة والاهتزاز المخيف، فقال له:

﴿لَا تَخَفْ﴾ أي: كُنْ آمِناً فَلَنْ يُصِيبَكَ مَكْرُوهٌ من هذا الثُّعْبَانِ الذي يسْعَىٰ ويهتَزُّ بقوّةٍ ونَشَاطٍ وسُرْعَةِ حَرَكَة ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فَدَلَّت هذِهِ العبارَةُ على أنَّ رَبَّهُ قَدِ اصْطَفاهُ بالنبوَّة، واصْطَفاه ليَحْمِلَ رِسالةً منه، وقد جاء هذان بأسْلُوبٍ ذي دَلَالَة غَيْرِ مُبَاشِرة.

لَدَيَّ: بمنزلة عندي، ظرف زماني ومكاني، إلَّا أنه يدلُّ على القرب أكثر من عندي فهو أخص منه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾: أي: باستثناء مَنْ ظَلَمَ بمخالَفَةٍ لأمْرِي أو نَهْيِي، فإنَّهُ يخافُ عقابي. لكنَّ مَنْ يختاره اللَّهُ ليكون رَسُولاً، لَا بُدَّ أنْ يَتُوبَ ويُبَدِّلَ عَمَلَه السَّيِّء، فيَجْعَلَ عملاً حسناً مكانَه، فإنَّ الله يغفر لَهُ ويَرْحَمُه، دلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿. . ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومعْصيةُ الّذي يُصْطَفىٰ للرّسالَةِ، قد تكون مُخَالفة من دَرَجَة من درجات مَرْتبةِ الإحسان، أو دَرَجَةٍ من درجات مَرْتبة البرّ، ولا تكُونُ مخالفة من دَرَجَةٍ من دَرَجات مَرْتَبَةِ التقوىٰ، فَالله عزّ وجلّ قَدْ يُوجب على الأنبياء والمرسلينَ تكاليف زائدة على ما أوْجَبَ على غيرهم، وهذه التكاليف تقع في درجاتٍ من مَرْتبة البرّ أو مَرْتبة الإحْسَانِ بالنِّسْبَةِ إلى غيرهم، كما فرض الله على رسوله محمَّد ﷺ أنْ يَقُومَ من اللَّيل يَعْبُدُ رَبَّه، بينما جعل هذا مَنْدُوباً إلَيْه بالنسبة إلى سائر المؤمنين، ومعاصي الرُّسُل هي من درجات مرتبتي الإحْسَانِ أو البرّ، ولهذا آخذ اللَّهُ عزّ وجلّ يونُسَ عليه السَّلام، إذْ تَرَكَ قَوْمَهُ مُغَاضباً، ظانًّا أنّ الله لَنْ يُضَيِّق عليه، لكنَّ رَسُولاً بارًّا مُحْسِناً مِثْلَه، ما كان ينبغي له أن يَعْتَمِدَ على اجتهادٍ ظنِّيّ، بَلْ كان يجب عَلَيْهِ أن ينتظر ما يتلاقاه عن رَبِّه وحْياً.

ومثل هذا الظنّ كافٍ بالنسبة إلى مَنْ هم من أهل مرتبة التقوى، لَا مَنِ اصطفاهم الله لرسالته من أهل مَرْتبة الأبرار، أو أهل مرتبة المحسنين.

حُسْناً: مَصْدَرُ «حَسُن» أي: جَمُلَ فلا قبح فيه، والمرادُ المجيء بعَملٍ فيه حُسْنٌ، وتتفاضل دَرَجات الحسْنِ.

من بَعْدِ سُوءٍ: أي: من بَعْدِ عَمَلٍ فيه سُوءٌ، **السُّوءُ**: كُلُّ مَا هو قبيح. وتتفاوت دركات القبح.

- ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: في هذه القضيَّةِ دَلَالَةٌ بأسُلُوب الكنايَةِ علىٰ أنَّ الله جلّ جلالُه يغْفِر له، إذا بَدَّلَ حُسْناً من بَعْدِ سُوءٍ.

غَفُورٌ: أي: كثير الغفران وهو السّتر، ولفظ «الغفور» من أسماء الله الحسنى.

رَحِيم: أي: كثير الرحْمَة لعباده، فهو يَشْملُهُم بعطاءات رحْمَتِه، دواماً، ولفظ «الرحيم» من أسماء الله الحسنىٰ.

قول الله عزّ وجلّ في بيان خطابه لموسَىٰ عليه السلام:

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ⑫﴾:

أي: وأدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِ ثَوْبِكَ، وهو الشقُّ الذي يَدْخل مِنْهُ الرَّأسُ عِنْدَ لُبْسِه، وأَوْصِلْهَا إلى إبطِكَ، أخذاً من دَلَالَةِ نصٍّ آخر، وأخْرِجْهَا أخْذاً من دلالَةِ اللُّزوم الْفِكْرِي، تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مُتلأْلِئَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْترِيها سُوءٌ، وقد جاء هذا القيدُ احْتِراساً من أن يكونَ بياضُها من الْبَرَص.

- أعطاه الله عزّ وجلّ آيَة العصا التي تَنْقَلِب ثُعْبَاناً مخيفاً، وفيها إشارة وعيد.

- وأعطاه آيَة الْيَدِ الّتي يُدْخِلُها في جيبه إلى جناحه فتخرج بيضاء من غير سُوء تتلألأُ نوراً، وفيها إشارة هداية بنورها.

وقال له: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾: أي: هاتان الآيات داخِلَتَان في عِدَاد تِسْعِ آيات، قَدَّرْتُ منْحَكَ إيَّاها، دليلاً على أنَّكَ رسُولي، وأنَّكَ صادقٌ فيما تُبَلِّغُ عَنِّي.

والآيات التسع قد سَبق بيانها وهي:

«العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والْقُمَّل، والضفادع، والدَّم، وسنوات الجدب والقحط، ونقص الثمرات (أو الطمس على أموالهم)».

- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: خُذْ هاتين الآيتين ضِمْنَ تِسع آياتِ قَدَّرتُ مَنْحَكَ إيَّاها، مُرْسَلاً إلى فِرْعَوْنَ وقومه.

وجاءت جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ للدَّلاَلَة على الحِكْمَةِ من إرْسَالِهِ إلى فِرْعَوْن وقومه، فهي بمنزلة التعليل للإرْسَال.

﴿فَٰسِقِينَ﴾: جمع «فاسِق» وهو الخارج عن الحق والواجب والطاعة إلى أضدادها.

الفِسْقُ: هو العصيان، والخروج عن الحق والواجب وطاعة أوامر الله ونواهيه، وهو مصطلح إسْلامي، مأخوذ من قول العرب: فَسَقَت الرُّطبة، إذَا خَرَجت من قشرتها، ومعلوم أنّ الرُّطبة متى خرجت من قِشْرَتها تعرَّضَتْ للفساد.

قول الله عزّ وجلّ عن فرعون وقومه:

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾:

أبانت هاتان الآيتان أحداث المرحَلَةِ الأخيرة من مراحل فرعون وملَئِه، تُجاهَ دَعْوَةِ مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام، وتُجاه الآيات التِّسْع

الّتي أجْرَاها اللهُ عزّ وجلّ لَهُمْ، تَصْدِيقاً لرسُولَيْهِ، وجُحودِهم بها مع علمهم بأنَّها حَقٌّ من رَبّ العالَمين، واسْتيقانِ أنفسهم لها، فكانت عاقبتهم أن أهلكهم اللَّهُ وأَهْلَكَ جنودَهم بالإغراق، وكان هذا عاقبتهم، بسبب كُفْرِهم وأنَّهُمْ كانُوا مُفْسِدِينَ في أرْضِ مصر.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾: أي: آياتُنا الخوارقُ التّسْعُ كلُّها، والفاء في: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ﴾ تعطفُ عَطْفَ تَرتيبٍ مع تعقيب على آخر الآيات، لَا على آيَتَي العصا والْيَدِ فقط.

﴿مُبۡصِرَةً﴾: أي: واضحةً مضيئةً بَيّنَة، يقال لغة: «أبْصَرَ الطَّرِيقُ فَهُو مُبْصِرٌ» أي: استبان ووضح.

قال أبو إسْحاق: مَعْنَى «مُبْصِرَة» تُبَصِّرُهم، أي: تُبَيّنُ لهم، وقال الأخْفَش: إنَّهَا تُبَصِّرُهم، أي: تجعلهم بُصَراء[1].

فالمعنى على هذا: فلمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبَصِّرَةً لهم بأنّ مُوسَىٰ وهارون رَسُولان من رَبّ العالمين صادقان، وأنَّ ما جاءَا به منْ قضايَا الدّين حقٌّ وصِدْقٌ، يبلّغانه عن الله جلّ جلاله وعَظُمَ سلطانه.

﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾: أي: قالوا: ما جاء به موسَىٰ وأخوه هارونُ نوْعٌ من أنواع السّحْرِ الكُبْرَى، الّتي لم يتوصَّلْ إلى مَعْرِفتها ومعرفة أسبابها سَحَرَةُ مِصْرَ كلُّهم.

- ﴿مُّبِينٞ﴾: أي: واضِحٌ جَليّ، منْ فعل: «أبَانَ الشّيْءُ إبَانَةً فَهُو مُبِينٌ» أي: ظهر ووضَحَ وكان جليًّا.
- ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾: أي: أنْكَرُوها مع علمهم علْماً يقينيًّا بأنّها حَقٌّ وليست من قبيل السّحر، والمعنى أنَّهم أنْكَرُوا كونها آياتٍ من عنْدِ الله رَبّ العالمين.

---

[1] انظر لسان العرب، مادة «بصر».

الْجُحود: هو إنكار كون الشيءِ حقاً، مع العلم بأنه حقٌّ. يقال لُغةً: «جَحَدَ، يَجْحَدُ، جَحْداً، وجُحُوداً» أي: أنْكر الحقّ مع الْعِلْم بأَنَّهُ حقٌّ. ويقال: «جَحَدَهُ حَقَّه، وجَحَدَهُ بحقِّهِ» فالباء في ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ استعمالٌ عَرَبيّ، ولا حاجةَ إلى البحث عن الغرض من ذكْرِ الباء في العبارة.

- ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾: أي: وعَلِمَتْ أنْفُسُهُمْ عِلْماً يقينيًّا لا شَكَّ فيه أنَّها آياتٌ من آيَات اللهِ رَبّ العالمين حقًّا.

اليقين: هو العلْم الذي لا شكَّ فيه، وأدْنَىٰ دَرَجَاتِه ما اعْتَمَدَ على أدِلَّةٍ نظريَّةٍ فِكريّة، أو خَبَرِيَّةٍ صادقةٍ لا يَعْتَرِيها شَكٌّ.

وجاء استعمال لفظ «أنفسهم» وهو من جُموع القلّة، إشارَةً إلىٰ أَنّ أصْحَابَ هذا الاسْتِيقان هم فِرعَوْن وآلُهُ وملَؤُهُ وأعْوَانُهُ المخْلِصُون لَه، مثل: هامان وقارون، وهؤلاء قليلون يناسِبُهُمْ جَمْعُ القِلّة، وهُمُ الّذِين جحَدُوا آيات الله البينات الخوارق ظُلماً وعلوًّا.

- ﴿ظُلْمًا﴾: أي: تجاوزاً للحدود القصوىٰ، الّتي لا يُحْتَمل من العُصَاة تجاوزُها. أي: حالَة كونهم ظالمين، استُعْمِل المصْدَر على معنى اسم الفاعل.

أو هو مفعولٌ لأجْله، أي: وجَحَدُوا بها بِسَبَب إصرارهم في أنْفُسهم على الظُّلْم الَّذِي لهُمْ فيه سلطانٌ عظيم ومنافِع ومصالح.

- ﴿وَعُلُوًّا﴾: أي: وحالَةَ كَوْنهم مسْتكْبِرين مستَعْلِين. أو بسبب إصرارهم في أنْفُسِهم على العلُوّ في الأرض، وعدَم قبولِهم اتّباع رسُولَيْ رَبّهم، وعدَم قبولهم الدّين الّذي جاءَا به.

فقد كانُوا يَرَوْن أنَّ إيمانَهُمْ يَجْعَلُهُمْ يَخسَرُونَ شيئاً من سُلْطانِهِمْ في الأرض على شَعْبِهِم، وعَبِيدِهم بني إسرائيل.

• ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: أي: فانْظُرْ أيُّها الناظِرُ المتفكّر نَظَرَ تَفَكُّرٍ هادٍ إلى الحقّ، كَيْفَ كانَ جَزَاءُ المفْسِدِين في الأرض، إذْ أغْرَقْنَاهم وجُنُودَهم أجْمَعِين.

عاقِبَةُ عَمَلِ الْعَامِلِ: الجزاءُ الّذي يكُونُ بَعْدَهُ مباشرةً، أو بَعْدَ فاصلٍ زمَنِيّ، والأَصْلُ فيه ما يأتي عَقِبَه مُباشرة، أخذاً من الْعَقِب، إلّا أنّه جَرَىٰ فيه تَوَسُّعٌ في الاستعمال.

الْمُفسِدُون: هم الذين يَنْشُرُون الفساد في الأرض، يقال لغة: «أفْسَدَ فُلَانٌ الشيْءَ» أي: حوّلَهُ عن صلاحه، أو أتْلَفَه، وتحويلُ الشيء عن صلاحِه يجْعَلُه غير صالح ولا نافع، وربّما يجْعَلُه ضارًّا كريهاً مُفْسداً لِغَيْره.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة (النّمل)

الآيات من (١٥ ـ ٤٤)

وفيه لقطات من قصّة سليمان

مع مقدّمة عنه وعن أبيه عليهما السلام

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ

وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ
فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا
لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ
مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا
يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
(٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ
أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ
وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ
وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم
بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ
ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ
يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن
تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ
ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ (٤٠)
قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت
تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ

حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(١٨) • وقف الكسائي، ويعقوب بالياء في [عَلَىٰ وَادِي].

ووقف باقي القرّاء العشرة على الدال دون ياء ﴿عَلَىٰ وَادِ﴾.

(١٨) • قرأ رُويس [لاَ يَحْطِمَنْكُمْ] بنُون التوكيد الخفيفة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بنون التوكيد الثقيلة: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.

ويظهر أنّ النملَةَ القائدة حذَّرتْ أوّلاً جماعات النمل تحذيراً مؤكّداً دُونَ تَشْدِيد، فلمَّا رَأتْ توافُدَ جيش سُلَيْمان عليه السلام علىٰ الوادي بقوَّة وَجَّهَتْ تحذيراً مؤكّداً بِشدَّة.

(١٩) • فتح ورشٌ، والبزّي ياء المتكلم من [أَوْزِعْنِيَ أَنْ].

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ﴾. وهما وجهان عربيّان.

(١٩) • وقف يعقوب فقط بهاء السّكْت في: ﴿عَلَيَّ﴾.

(٢٠) • فتح ٱبْنُ كثير، وهشام، وعاصم، والكسائي ياء المتكلّم في: ﴿مَالِيَ لَآ﴾.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان.

(٢١) • قرأ ٱبن كثير: [أَوْلَيَأْتِيَنَّنِي] بإثبات نون الوقاية.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ بحذف نون الوقاية تخفيفاً لتوالي الأمثال.

وهما وجهان عربيّان جائزان.

(٢٢) • قرأ عَاصم، ورَوْح: ﴿فَمَكَثَ﴾ بفتح الكاف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَمَكُثَ] بضمّ الكاف.

وهما لُغَتَان لهذا الفعل في العربية.

(٢٢) • همزة «سَبَأ» فتحها أبو عَمْرو، والبزّي على أن الكلمة ممنوعة من الصّرف، وأسكَنَها قُنْبُل، حكايةً لما يَقُولُهُ أهْلُ هذه البلدة. وقرأها هشام، وحمزة بألفٍ مدّيّة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرةِ: [مِنْ سَبَإٍ] مجرورة مصروفة.

وكُلُّها وجوهٌ جائزة في اللّسان العربيّ.

(٢٥) • قرأ الكسائي، وأبو جعفر، ورُوَيْس: [أَلاَ يَسْجُدُوا] وسيأتي توجيه هذه القراءة في التدبّر إن شاء الله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾.

(٢٥) • قرأ حَفْصٌ والكِسَائي: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مَا يُخْفُونَ ومَا يُعْلِنُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني.

(٢٨) • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بكَسْر الهاء.

وهما وَجهان عَربيان في النُّطق.

(٢٩) • قرأ نَافع، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أُلْقِيَ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ﴾ بإسكان ياء المتكلّم.

(٣٢) • أثبتَ يعقوب ياء المتكلم في: [تَشْهَدُوني] وقفاً ووصلاً.

وحَذَفَهَا بَاقي القرّاء العشرة، وهو جائز في اللّغة العربيّة.

(٣٦) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [أَتُمِدُّونَنِي] بإثبات الياء وصلاً.

وقرأها ابن كثير بالإثبات وصْلاً ووقفاً.

وقرأها حمزة، ويعقُوبُ: [أَتُمِدُّونِّي] بالنون المشدّدة مع إثبات الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ بحذف ياء المتكلّم ونونين منفكّتين. وكُلُّها وجُوهٌ عَرَبيَّةٌ جائزة.

(٣٦) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جَعْفر، ورُوَيس [آتانِيَ اللَّهُ] بإثبات ياء المتكلم وفتحها وصلاً.

ولقالون، وأبي عمرو، وحَفْص، إثباتُها سَاكنَةً، وحَذْفُها وقفاً.

ولورش وأبي جعفر حَذْفُها في الوقف.

وقرأ رَوْح بحَذْفِها وَصْلاً، وإثباتها وقفاً.

وهي وُجُوهٌ جائزةٌ في العربية.

(٣٩) و(٤٠) • قرأ نافع، وأبو جعفر وصلاً: [أناَ ءَاتيك] بإثبات ألف «أنا» ومدّها.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بحَذْف ألف «أنا» وصلاً ووقفاً.

(٤٠) • فتح ياء المتكلم في: [لِيَبْلُوَنِيَ ءَأَشْكُرُ] نافع وأبو جعفر.

وأسكنها باقي القرّاء العشرة: [لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ].

(٤٤) • قرأ قُنْبُل: [سَأْقَيْهَا] بهمزة ساكِنَةٍ بَعْدَ السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿سَاقَيْهَا﴾ بألفٍ مَدِّيَّة.

وقراءة قنبل هي على لغة مَنْ يقلبُ الألف همْزَةً ساكنة.

تمهيد:

يشتمل هذا الدرس على حديثٍ يتعلّق بداوُد وولده سليمان عليهما السلام، وما آتاهما الله عزّ وجلّ من فضْلِه ممّا امْتَنّ به عليهما، توطئة لبيان بعض ما اختصّ الله به سليمان عليه السلام، ولبيان أحداثٍ ذات شأنٍ من تاريخه، لم تأتِ في النُّصوص الأخرى التي عرضَتْ جوانب من قصة حياته.

وفي عرض هذه الأحداث تربية للرّسُول محمد ﷺ، وتربية لأصحابه الذين آمنوا به واتّبَعُوه، وبيان لوجود قُوىً كونيّة خفِيّة قَدْ يُسَخّرها الله عزّ وجلّ بحكمَتهِ لمن يشاء من عباده.

وفي عرض بعضها تهديدٌ ضمْنِيٌّ لكبراء مُشْرِكي مكّة وما حولها، بأنّ الله جلّ جلالُه قَدْ تقتضي حكمَتُه أنْ يُسخِّرَ لِرَسُوله محمَّدٍ ﷺ قُوىً خَفِيَّةً يكونُ بها إهلاكُهُم، وفيها ضَرْبٌ على نزعَةِ الاستكبار في نفوسِهِم، رغبةً في إقناعهم بأنّ مَلكةَ سبأ ورجَالَ مُلْكِها الأشدّاء لم يمْنَعْهُم استكْبارُهم بمُلْكِهم وقوّتِهم من أنْ يعْتَرِفوا بالحقّ، ويُؤْمِنُوا به، ويَحْمُوا بلادَهُمْ من قُوَّةِ سُلَيمانَ القادِرَةِ على إذْلَالِهِم واستعْبادِهِم وامْتِلَاكِ كُلِّ ما لَهُمْ من مُلْكٍ وسُلْطان، فجاءوا إلى سليمان خاضعين مُسْتسلمين.

وكبراءُ مشركي مكّة يَعْلَمُونَ أنّه لم يكن لهم من المجْدِ والسُّلطان في مكّةَ، مثْلُ ما كَانَ لملكَةِ سَبأ ورجالِ مملكتها من قُوّة ومجْدٍ ومالٍ كثيرٍ وسُلْطان، فلا داعي للاستكبارِ الفارغ الصّادِّ لهم عن الحق، وعن الإيمان به، واتّباع النّبيِّ الرّسُولِ محمّد ﷺ، فيما جاءهم به عن ربّه، فأوْهَامُهُم الاستكبارِيَّة قد لا يحقّقُون بها شيئاً لأنفسهم، بل ستُسَبِّب لهم الذُّلَّ والخزيَ في الدّنيا، والعذابَ الأليم الخالد مع الذّلّ والخزْي يوم الدّين.

إلى غير ذلك من فوائد يشتمل عليها هذا الدرس.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

سبقت دراسَةُ ما جاء في القرآن كلِّه بشأن دَاوُد عليه السلام، دراسة تكامليّة في سورة (صَ) وفي الملْحقِّ الثالث من ملاحقِ تدبّرها.

وأسألُ اللَّهَ الْمُعِينَ الفتَّاحَ الْوَهَابَ أن يقْضي لي بكتابة مُلْحَقٍ أدْرُسُ فِيهِ ما يتَعلَّقُ بسُلَيْمانَ عليه السلام، ممّا جاء في القرآن كلّه، دراسَةً تكامُلِيَّة وفْقَ المنهج الذي فتح به عليّ في دراسة النُّصُوص القرآنيّة حَوْلَ مَوْضوع واحد.

قول الله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾:

جاء البيان هُنَا مُصَدَّراً بالتَّوكيد بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ فاللّام مؤكّدة، ويَرَىٰ كثيرٌ من النحويّين أنَّها واقعةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ، و«قَدْ» للتحقيق وفيه قَصْدُ التوكيد أيضاً.

وهذا التوكيد ينسَحِبُ على كلِّ ما جاء في هذا الدَّرْس، وقَدْ جِيءَ به مُراعاةً لحال المنْكِرِين أو الشّاكين من الّذِين جاء الدرس لمعالجتهم وإقناعهم أو تَرْبيتهم، كما سَبَق في التمهيد، أمّا الرّسول والمؤمنُون الصادقون، فليسوا بحاجَةٍ إلى توكيد، لكنّهم دَاخِلُون ضِمْنَ الّذين يُوجَّه لهم ما جَاء في هذا الدّرس، فَرُوعِي حالُ الّذين يُنَاسِبُهُم التوكيد.

﴿ءَاتَيْنَا﴾: أي: أَعْطَيْنا. استعمل الإيتاء ومشتقاتُه في القرآن بمعنى «الإعطاء» دُون فَرْقٍ، فلَا داعيَ لاعتباره أخصّ.

نسب داود وسليمان عند المؤرخين:

سليمان بْنُ دَاود بْنِ إيشا بْن عويد بن عابر بن سلمون بْنِ نَحْشُونَ بْن عمينا أداب بن إرَم بن حصْرون بن فارص بن يهوذا بْن يعْقُوب بْن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

﴿عِلْمًا﴾: جاء التنكير في هَذا اللَّفظ لإفادَةِ تعظيمِ الْعِلْم الّذِي آتاه اللَّهُ داوُدَ وسُلَيْمانَ عَلَيْهما السّلام.

● ﴿..وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾:

أبانَ الله عزَّ وجلَّ بهَذَا ثَنَاءَ داودَ وسليمانَ على الله الجوادِ الوهّاب، الّذِي فَضَّلَهُما بهِبَاتِه ومِنَحِهِ عَلَىٰ كثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المؤمنين، وهذا التفضيل يشْتَمِلُ المادّيّاتِ والمعنويَّاتِ.

إنَّهُمَا حَمِدَا اللَّهَ رَبَّهُما مُلاحِظَيْنِ في هذا الْحَمْد مَا فَضَّلَهُما بِهِ من هباته وعطاياه.

والتعبير بعبارة [قالاَ] يصْدُقُ بأن يقولَا مجتمعَيْن، كما فعل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إذْ دَعَوا الله رَبّهما وهما يَرْفَعَان القواعد من البيت الحرام في مكّة المكرّمة. ويَصْدُق بأنْ يَقُولا مُتَفَرِّقَيْن، والله أعلم بالذي كان منهما فعلاً.

التفضيل: هو الإعطاء الزائِدُ على النظراء أو أشباههم، مما يُحْمَدُ من مادّياتٍ ومَعْنَويَّات.

وقالَا: ﴿مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةً إلَىٰ أنهما لَا يَنْظُرَان إلَىٰ غير المؤمنين، مَهْما آتاهم اللَّهُ من عطايا دُنْيَوِيَّة، كالفراعنة والأكاسرة، ونحوهم من مُلوكِ الدنيا، فما هما فيه من إيمان ونبوّة أجلُّ وأعظم من كلّ ما لدَىٰ مُلوكِ أهل الدنيا من أموال وسلطان في الأرض، ولا يَليقُ

بالمؤمن أن يفاضل بين إيمانه ومَا آتاه الله من خير يجْعَلُه سَعِيداً في آخِرَته، وبَيْنَ كلٍّ ما في الدنيا ممّا جَعَلَهُ اللَّهُ زِينَةً لها ولو اجتمعَتْ لشخص واحد.

• ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾: **الميراث**: ما يملِكُه خَلَفٌ عن سَلَفٍ دُونَ عِوضٍ، وهو يَشْمَلُ المادّيّاتِ والمعنويّات، فيقال لغة: «وَرِثَ المالَ والمَجْدَ عن أبيهِ. وَوَرِثَهُ منْه. ويقالُ وَرِثَ فُلانٌ أباهُ».

والّذي ورثَهُ سُلَيْمان عن أَبِيه دَاود عَلَيْهِما السلام دون سائر إخْوَتِه، هو المُلْك، والْعِلْم، والحكمة الإداريّة والسّياسِيَّة، ومن علوم النُّبُوَّة ما كان لِدَاوُد منها ولم يُوحَ إلى سُلَيْمانَ نَظِيرُه.

أمّا المالُ الخاصُّ بدَاوُد، فالرأيُ الراجح عند المفسرين وأهل الحديث أنَّه لم يكن له منْهُ ميراث، أخذاً ممّا صَحَّ عن الرسول ﷺ من أنَّ أمْوالَ الأنْبياء لَا تُورثُ مِنْ قِبَلِ الوَارثين بالنّسَبِ أو بالزَّواج، وأنَّ ما تَرَكُوهُ يكُونُ صَدَقَةً.

فقد روى البخاري في صحيحه أنّ أبَا بكْرٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النبيّ ﷺ يقول:

«لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ، إنَّما يَأْكُلُ آلُ محمَّدٍ في هَذا الْمَالِ».

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

«لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ».

ونظيرهما في سُنَن أبي داود، وسنن الترمذي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح ابن حِبَّان، والسّنن الكبرى للبيهقي، ومسند أبي يعلَىٰ.

وروى النسائي في السُّنَن الكبرى في أوائل الفرائض، أنّ النبي ﷺ قال:

«إنّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»(١).

- ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: أي: وقال سُلَيمان: يا أيها الناس، والظاهر أنّ هذا القول جاء في خُطْبَةٍ ملكيَّة خَطَبَها، جاء فيها بيان ثلاث قضايا:

القضيّة الأولى: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ حكاية عنه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

مَنْطِق: مَصْدَرُ «نَطَق» يقال لغة: «نَطَقَ يَنْطِق نُطْقاً، وَنَطْقاً، ومَنْطِقاً» أي: تكلَّم، بإحْدَاثِ أصْواتٍ لِيَدُلَّ بها علىٰ ما في نَفْسِه من أحاسيس أو معانٍ. **والْمَنطِقُ**: الكَلامُ الّذي يكونُ بالنُّطْقِ، ويُعبِّر عمّا في النفس ضمن أصوات فطرية، أو كلمات لُغويّة متعارف على دلالاتها.

الطَّير: جَمْعُ «طَائِر» ويُجْمَعُ أيضاً عَلَىٰ «أطيار» و«طُيُور» والطائر من الحيوان كلّ ما يطير في الهواء بجناحَيْن فأكثر.

وقد دلَّ هذا الْبَيَانُ على أنَّ للطُّيُور مَنْطِقاً تُعبِّرُ بِهِ عمّا في أنْفُسِها من أحَاسِيس ومشاعِرَ ورَغَباتٍ في حُدود إدْرَاكاتِها لِلْمَعَاني.

وقَدْ أعْطَىٰ الله عزّ وجَلَّ سُلَيمانَ عِلْمَ مَنْطِقِ الطّير، فكَانَ عليه السَّلام يَفْهَمُ من تقاطِيع أصواتها ما تُعبّر بِهِ عمّا في نفوسِهَا، وكَانَ يُخَاطِبُها بِمِثْلِ أصْوَاتِهَا فتَفْهَمُ عَنْه حديثه لها.

وقولُه عَلَيْهِ السلام: ﴿عُلِّمْنَا﴾ بنون الجمع يحتَمِلُ احتمالَيْنِ فيما أرَىٰ:

---

(١) عن تلخيص الحبير ج٣ ص١٠٠ وفيه: «وإسناده على شرط مسلم».

الاحتمال الأول: أَنَّهُ يَتَحدَّثُ عن نَفْسِه وعَنْ أبيه داود عليهما السّلام، إلّا أنّ أبَاه لم يُعْلِنْ أَنَّهُ كَان يَسْتَخْدم هذا العلم، لدَعْمِ مُلْكِه، وقد يدلُّ على هذا قول الله عزّ وجلّ بشأنه في سورة (ص/٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

فربّما كان يَسْتَدْعِيها بصَوْتِهِ بِحَسَبِ مَنْطِقِها، فتجتمع لَهُ رَاجِعَةً إِلَيْهِ بَعْدَ انصرافِها عَنْهُ لأرْزَاقها.

الاحتمال الثاني: أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ بنُونِ الجمْعِ، لِيَدُلَّ على عظَمَةِ الْمُلْكِ الّذي آتاه اللَّهُ إيّاه، إذْ كان فيه بمثابَةِ مُلُوكٍ، مَلِكٍ على قوْمِهِ من الإنْسِ، ومَلِك عَلَىٰ قَوْمِهِ من الجنّ والشياطين، ومَلِكٍ على الطَّيْرِ، وهو لا يقْصِدُ التعاظم والاستكبار، وإنّما يَقْصِد التحدُّث بما أنْعَم اللَّهُ بِهِ عليه، فقَدْ كان عليه السّلام حَرِيصاً على أن يكون من الشاكرين لرَبّه، كما جاء في قوله الذي جاء بَيانُه في الآية (١٩) من هذا الدرس من دروس السورة.

القضيّة الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ حكاية عنه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾:

أي: وآتَانَا اللَّهُ عزّ وجلّ مِنْ فَضْلِهِ مِنْ كلِّ شَيْءٍ تُؤتَاهُ مُلُوكُ الأرض، من مالٍ وسُلْطان وجُنْدٍ وسائِرِ قُوىٰ تَثْبيتِ الْمُلْك، مع غير ذلك من متاع الحياة الدنيا.

ويَدْخلُ أبُوه داود عليهما السّلام في هذه المنّة الرَّبَّانيَّة لأنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قال بشأنه في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

فعبارة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يُرادُ بها الْعُمومُ الشَّامِلُ لكلّ ما يُطْلَقُ عليه أَنَّهُ شيء، بل يُرادُ به من كلّ شيءٍ يؤْتَاه النَّاسُ في ظروف الحياة الدّنيا، ولا سيما الملُوك، من نِعَمٍ هي من فضل الله عزَّ وجلَّ عليهم. إنَّهُ عُمُومٌ تقيّدُه قرائن الأحوال، وهو محمولٌ على المبالغة الداعية إلى مَزِيدِ شُكْرِ الله على نِعَمِهِ.

وقد يكون المراد: من كُلِّ شيءٍ طَلَبْنَاهُ وَرَغِبْنَا فِيه لأنْفُسِنَا ولِمُلْكِنَا وسُلْطَانِنَا مِنْ أشياءِ الحياةِ الدُّنيا ومتاعِها.

القضيَّة الثالثة: دَلَّ عليْها قَوْلُ الله عزّ وجلّ حكاية عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

الْفَضْل: الإحْسَانُ بالعطاءِ دُونَ سَبَبٍ سَابقٍ يَقْتَضيه إلّا إرادَة صاحب العطاء المتَفَضِّل، ودُونَ تَرَقُّب مكافأةٍ أو شكر.

الْمبِينُ: أي: الواضح الجلِيّ، من فِعْل: «أَبَانَ يُبِينُ» بمعَنَىٰ وضَحَ وانْجَلَىٰ.

وقَدْ كان ما فُضِّلَ بِهِ سُلَيْمَانُ وأَبُوهُ مِنْ قَبْلِه واضِحاً وَجلِيًّا ظاهراً للنَّاسِ الذين شَهِدُوه، أو عَلِمُوا به.

فأَعْلَنَ سليمانُ عليه السلام بهذا البيان فَضْلَ الله عَلْيهِ وعلى أبيه، وأشْعَرَ ضِمْناً بأنّ من الواجب عليه تُجاه رَبّه أن يَشكُرَ هذا الفضْلَ المُبين، ومِنْ شُكْرِهِ لربّه أن يُقِيم الْعَدْلَ، ويُجاهِدَ في سبيلِ الله حقَّ جِهَاده، ويُكثِر مِنْ عبادَتِهِ له بما يُرْضيه.

ولهذا قال في الآية (١٩) التالية:

﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

تمهيد:

تَتَحدَّث هٰذِهِ الآياتُ الثَّلاثُ عَنْ قصَّةِ مَوْكِبٍ عَسْكريّ، دَعَا سليْمَانُ عليه السّلام إلَيْه جُنْدَه، ليَسِيرَ بِهِ في رِحْلَةٍ تَدْريبيَّةٍ، أو استطلاعيَّةٍ، أو إرْهابيَّةٍ، أو قِتَاليَّةٍ جهادِيَّة.

فمرَّ في رحْلَتِه سالكاً مُنْبَسِطاً من الأرض، وصاعداً وهابطاً، ومارّاً في وِدْيَانٍ، بجنْدِهِ من الجنّ، والإنْسِ، والطَّيْر، واسْتَمَرَّ يجْتَازُ مراحلَ مِنَ الأرْضِ حتَّىٰ أتَىٰ عَلَى وَادٍ كَثير النَّمْل، يَخْضَعُ لنظام مَمْلَكَةٍ نَمْلِيَّةٍ واحِدَة، ولِهٰذِهِ الْمَمْلَكَةِ نَمْلَةٌ مَلِكَةٌ عَلَيْهم وظيفتها وضع الْبَيْضِ الملقّح من الذكور، نَظِيرَ مَمَالِكِ النَّحْل، والعاملات يجْلُبْن لها طعامها.

وعَلِمَتْ نَمْلَةٌ قائِدَةٌ مِنْ جُنْد المملَكَةِ أَنَّ جَيْشاً عَرَمْرَماً بَدأت طلائِعُهُ تَدْخُلُ وَادِيَ أُمَّتِها مِن النَّمْل، فخافَتْ على أفرادِهَا أن يَتَحَطَّمُوا بأرْجُلِ الجيْشِ المارّ في واديهم، وفيهم الرّاجِلُون والراكبون، وقَدْ تكونُ مَعَهُمْ عَرَبَاتٌ تجرُّها الدَّواب.

فقالَتِ النَّملَةُ لِأُمَّةِ مملَكَتِها بِلُغَتِها النَّملِيَّة ما معناه، يا أَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكم في بَاطِنِ الأرض لتَحْمُوا أنْفُسَكُمْ، من أن يَحْطِمَكُمْ هٰذَا الجيشُ العظيمُ المارُّ في واديكُمْ، وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بكم، وَلَا بما يَجْرِي لَكُمْ.

وربّما يكونُ قَدْ أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْها بأنّ قائِدَ هٰذا الجيْش هو الرّسُولُ سلَيْمانُ عليه السّلام.

وسَمِعَ سُلَيْمانُ بما آتاه اللَّهُ من خُصُوصيَّةٍ قَوْلَها، أو أبْلَغَهُ الوحْيُ بذلك، فتبسَّمَ مِنْ قَوْلِها، وهو رَدُّ فِعْلٍ مَطْبُوعٍ في فِطَرِ النُّفوس، عنْدَ شُعُورها بِمُعْجِبٍ لَهَا من مَجْدٍ، أو فِعْلٍ أو قَوْل.

ونظر إلى ما أنْعَمَ اللَّهُ به عليه من سلطانٍ وقُوَّةٍ وعِلْمٍ ومُلْكٍ على جِنٍّ وإِنْسٍ وطَيْرٍ ممَّا اخْتَصَّهُ اللَّهُ بِهِ، فدعَا رَبَّه بالدُّعاء الّذِي جاء في الآية (١٩) من هذه الآيات.

التدبير التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

الحشرُ: هو الجمع والسَّوق، يقالُ لغة: «حَشَرَ الأميرُ جُنْدَهُ يَحْشُرُهم ويَحْشِرُهم حَشْراً» أي: جَمَعُهم وساقهم.

جُنُودُه: الجنُود، والأجْنَاد، جَمْعُ «الْجُنْد» وهم الْعُسْكر. ولمّا كان جنود سليمان عليه السلام من أنواع مختلفة جنٍّ، وإنْسٍ، وطَيْر، نَاسَبَ أن يكون لفظ «الْجُنْد» مجموعاً على «جنود».

﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾: أي: من نَوْعِ الجِنْ، وهُمْ خَلْقٌ من خَلْقِ الله، مخلوقُونَ من نار، مكلّفون في الحياة الدّنيا كالإنس، وسبَقَ التعريف بهم في سورة الجنّ بتفصيل.

وقد آتىٰ الله عزّ وجلّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السّلامُ قُدْرَةً على تَسْخِير مَنْ يَشاء من الجِنّ، وعلى تجنيد جيشٍ منهم، بطاقَاتٍ خاصَّةٍ وهبَهُ الله إيَاها، خارِجَةٍ عن حُدُود طاقاتِ البشر المعروفة لسائر الناس، فاتَّخَذَ مِنْهُمْ جُنُوداً

مُقَاتِلِينَ، وبنّائِين، وغوّاصِين، وصَانِعِي أدواتٍ مَعْدَنِيَّةٍ، ونَحَّاتِين.

ولعَلَّ تقديمهم في الآية على الإنْسِ للدَّلَالة على أَنَّ أعداد جُنْدِهِ مِنْهُم أكثر من أعداد جُنْدِهِ من الإنْسِ، أو للدلالَة على أنّ قدراتهم القتاليَّة كانَتْ أعظم من قُدْراتِ جنْدِه من الإنس.

الطير: جمع طائر، وهو من الحيوان مَا يطير بجناحَيْن فأكثر، والمراد هُنا أصناف الطيور التي تَطِير بجناحَيْنِ كالنّسور والصّقور، والغِرْبان، والْهَدَاهِدِ، والعصافير.

وقد آتى الله عزّ وجل سليمان عليه السلام قُدْرة خاصَّة على تَسْخِير الطيور ومحادثتها بحَسَب منْطِقِ كلّ نوع منها.

ولجنوده من الطير وظائف مُتعدِّدَة، منها تظليل الجيْش من حرّ الشمس، ومنها الصيد، وقد يكون مِنْها القتال.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ يُجْمَعُونَ فِي مكانٍ جامع، ويُرَتَّبُونَ صُفُوفا، ويُسَوَّوْنَ للقيام منتظِمِينَ بما يكلَّفُونَهُ من أعمال.

أصْلُ الْوَزْع الكَفُّ والحبْس، والمراد كفُّهم بترتيبهم وصَفِّهم، ومَنْعِهِمْ من التفرُّق والانتشار.

فَدَلَّتْ هٰذِه الآيَةُ علَىٰ أنّ سلَيْمَانَ علَيْهِ السَّلام أمَرَ قادَتَه من الجنِّ والإنْسِ والْطَيْر، أَنْ يَحْشُرُوا لَهُ جُنْدَهُ مِنْهُمْ ويَسُوقُوهُم ويُرتّبوهم في صُفُوف مُسْتَوِيَةٍ مُنْتظِمة، ويَكُفُّوهم فيها عن التَّفرُّقِ، التزاماً بما يُوجِبُه النظام العسكريّ، ليسير بهم في مُهمَّةٍ مِنَ المهمّات العسكريَّة، وقَدْ تَمَّ له ذٰلِكَ وتحقَّقَ ما أمَرَ به.

الوازعون في الحرب هم الموكّلُون بالصفوف يَزَعُونها كفًّا وجَمْعاً وتنظيماً وحثًّا على ما يقتضيه العَمَل.

قول الله تعالى:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾: أي: فسار سليمانُ عَلَيْهِ السلام بجُنْدِهِ يجتاز أرْضاً فَأرْضاً، سالكين أو صَاعِدِينَ أو هَابِطين بحَسَبِ طبيعة الأرض التي يَعْبرُونها، حتىٰ أتوْا مُشْرِفين على وَادِي النَّمْلِ، ومُتَوَجّهين للْهُبُوطِ إليه وعبورِه.

ووصَفَهُ الله عزّ وجلّ بأنَّهُ وادِي النَّمْل لِكَثْرَةِ أعْدَادِ النَّمْلِ المنْتَشِرَة فيه، وهم بمثابَة مَمْلكَةٍ، لَها مَلِكَةٌ نَمْلَةٌ مِنهُم، كما هو الشأن بالنّسْبة إلى خلايا النَّحل، وهذه النَّمْلَةُ المَلِكَةُ تَسُوسُهُمْ وتَقُودُهم في حُدُود فِطْرَتِهم الّتي فَطَرَهم اللَّهُ عليها، ومداركهم الّتي آتاهم اللَّهُ إيَّاها.

قول الله تعالى:

- ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ⑱﴾.

﴿نَمۡلَةٌ﴾ التاء هي تاء الوحدة، لا تاء التأنيث، فلَفْظُ «نَمْل» اسم جنْسٍ جَمْعِيّ، يُفَرَّق بينه وبين واحدة بالتاء، مثل: تَمْر وتَمْرَة، وشجر وشجرة، ونَحْل ونَحْلة.

تعيش أُمَّةُ النَّمل في جماعات ذَاتِ نِظَامٍ فَطَرَها الله عزّ وجلّ عليه، فهي من الحشرات الاجتماعيَّة كمَمَالِكِ النحل.

وقَدْ تَحْتَوِي مُسْتَعْمَرَةُ النَّمْلِ الملايين من أفرادها، وتخضع لنظام مَلكي، ففي كلِّ مُسْتَعْرةٍ مَلِكَةٌ أو عدَّةُ ملِكَاتٍ، وأجلُّ أعْمالِ الملكةِ وضْعُ الْبَيْض، ومعظم أَفْرادِ مُسْتعمرة النَّمْل عَامِلَات إناث كالملكة، وهي تبني المساكن، وتجلُب الغذاء، وترعىٰ الصغار، وتحاربُ الأعداء.

وعمل الذكور تلقيح الملكات، وتموت بعْدَ ذلك مباشرة، فوجودها في مساكن النمل يكون في أوقات معيَّنَةٍ وقصيرة تُؤدّي فيها مهمتها.

ويوجد من النمل أكثر من عشرة آلاف نوع، وأكبر النمل حَجْماً لا يزيد طُولُه على (٢,٥سم) وأمّةُ النمل تبني مساكنها في باطن الأرض أو في تلالٍ بناء محكماً تصِلُ فيه التهوية إلى أعمق حجراتها وأصغرها.

وأبَانَ الله عزّ وجلّ أنَّ للنَّمْلِ لغةً تتخاطب بها، عَلَىٰ مقدار ما وهَبَها من قُدْرَاتِ إدْراكٍ وتعْبِير فيما بَيْنها.

ومن العاملات في مملكة النَّمْل جُنْدِيّاتُ دفاعٍ وقتال وإنْذارٍ وتحْذِير، على ما ذكر علماء الحيوان.

ويظهر أنّ جُنْدِيَّةً قائِدةً مِن النّمل، هيَ الّتي وجَّهَتِ التحذير للنَّمْلِ المنْتَشر في الوادي خارجَ المساكن لجلْب الأرْزاق، وقد دَلَّ على معناه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

لقد شاهدت هٰذه الجنديَّةُ القائدة طلائع جَيْشٍ قادمٍ يُريد أَنْ يَعْبُرَ الوادي، فأدْرَكَتْ أنّ عُبُورَه فيه سيَجْعَلُ أَرْجُلَ بَشَرِه، وبهائمه، وعجلات عَرَباتِهِ، تَدُوسُ أفراد أُمَّتِها من غير قَصْدٍ لقتلهم، فيَتَحطَّمْن قتيلَاتٍ، إذْ هُنَّ منتشرات كادّاتٌ لجلْبِ الأرْزاق، فأبلَغَتْهُم بلُغَتها قائِلَةً: ادْخُلُوا مَسَاكِنكُم حمايةً لكم من تَحْطِيمِ أفْرادِ الجيشِ لكم دون قَصْدٍ منهم لِقَتْلِكم.

معاني الخوف من القتل ممّا تُدْرِكه الحيوانات كُلُّها كبارُها وصغَارُها، لذلك فهي تحمي نفسها منه، وأُمَم الحيوانات ذاتِ النظام الاجتماعي قد آتاها الله عزَّ وجلَّ ما تُدْرِكُ به من العلاقات الاجتماعية ما يتّصِلُ برزقها، وأمْنِها، وتزاوجها، والعناية بصغارها، ونظام جماعتها، وضروريات حياتها، ومَا تتفاهم به فيما بَيْنها.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾: أي: نَادَتْ جماعاتِ النَّمْل بأقْصَىٰ ما استطاعت من نداء.

- ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾: معنَىٰ الدُّخول والخروج والانتقال من مكان إلى مكان ممَّا تُدْرِكُهُ الحيوانات، فهي تُعبِّر عنه بحَسَب لغتها مع أفراد أمَّتِها.

- ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾: ومعنى المساكن والبيوتِ ممَّا تُدْرِكهُ بفِطْرَتِها، لذلِكَ فهي تتخِذُ لنَفْسِهَا مسَاكِنَ تأوِي إليها، وتتفاهم فيما بَينها عليها.

- ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾: أصْلُ الحطْم الكَسْرُ على أيِّ وجْهٍ، دون عناية بالمكسور ولا اكتراث له، ولا التفاتٍ إلى أيّ شأْنٍ من شُؤونه.

معنى تكسير الشيء، وقتل الحيّ، وتمزيقِ أوصاله، ممّا تُدْركه الحيوانات، وتتفاهَمُ فيما بيْنَها عليْه، ويَدُلُّ على هذا سُلُوكُها مع أعدائها من الحيوانات، إذْ هي تتخَلَّصُ منْهُمْ بإماتتِهم وتمزيق أوصالهم، وجاءت العبارة مؤكّدَة للدّلالة على معنى التأكيد في قولها بمنطقِ النَّمْل.

- ﴿سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾: إنْ كانت النَّملَةُ قَدْ سمَّتْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السلام فهذا قدْ يكُونُ بوَحْيٍ من اللَّهِ إلَيْها. ويَحْتَمِلُ أَنْ تكون العبارة شَرْحاً رَبَّانيًّا لِمَنْ دَلَّ عَلَيْهم قولُها، إذْ يكونُ معنَىٰ قولِها: لا يَحْطِمنَّكم جيشٌ قادم سيَعْبُرُ وادِيَكم وأبان الله أنّ الجيش يتكوَّن من سليمان وجُنُوده، إذ هو واقع الحال.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: إنْ كانَ هَٰذا مِنْ قَوْلِ النَّمْلَة على مَا هُوَ ظاهر البيان، فَهُو تابعٌ لما أَوْحَىٰ اللَّهُ به إليها على احتمال كوْن ذِكْرِ سُليمان وجُنْدِه من قولها.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يكُونَ بياناً تَابعاً للشَّرْحِ الرَّبَّاني السَّابقِ، وفيه بَيَانُ عُذْرِ سليمان وجُنْدِه إذا مَرُّوا وحَطَّمُوا النَّمْلَ المنْتَشِر في الوادي.

الشُّعُورُ بالشيء: العلم به، ولوْ من أدْنَىٰ دَرَجَاتِ الإحْسَاس به، وهو أوّل مراحل إدْراكه. وقد يكون في اللّغةِ مأخُوذاً من الشيء يلامسُ الشَّعَر، فَيُحِسُّ به الإنسانُ إحساناً خفيفاً، ثمّ انْتَقَلَ إلى الإدْراكاتِ الفكريَّة الأولَىٰ الخفيفة.

قول الله تعالى:

- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

لم يَقُلْ سُلَيمانُ عليه السلام في خطبته الّتي سبَقَ شَرْح قضاياها: أُوتِينَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وغَيْرِها من الحيواناتِ، بل اقتصر على «مَنْطِق الطَّيْر».

واتجهَتْ آراء المفُسِّرين إلى أَنَّهُ سَمِع قولَ النَّمْلَةِ وفَهِمَ مَنْطِقَها، ولكنّ النَّصَّ ليس بصريح في هذا، بلْ يُمْكِنْ حَمْلُه على أنَّ الوحِيَ أَبْلَغَهُ قَوْلَها، فَتَبَسَّمَ ضاحكاً مِنه، فالعبارة على تقدير: فعلم عن طريق الوحي قولها فتبَسَّمَ.

الضَّحِكُ: هُوَ في اللُّغَةِ انْفِرَاجُ الشَّفَتَيْنِ عمَّا في داخِلِ الْفَم، ولَهُ درجاتٌ بَعْضُها أشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، وَقَدْ يكُونُ مصحوباً بصوت خَفِيفٍ أو شديد، ويثير الضَّحك سرورٌ أو إعجاب، أو اسْتهزاء وسخرية أو غير ذلك.

التَّبَسُّم: من دَرَجَاتِ الضَّحِكِ الخفِيفَةِ، الّذي لا يكون مصحوباً بصَوْت، وهُوَ من آدابِ الكُبَراء الْعُقَلاءِ الرّازِنين، الّذين لا تَسْتَخِفُّهُمْ السّارّات والمعجبات، بل يعبّرون عن سُرورهم وإعجابهم بالتّبسُّم.

ولهذا ثبت في شمائل الرسُولِ محمد ﷺ أنَّ ضَحِكَهُ قد كانَ تَبَسُّماً، فهو لَا يكون مصحوباً بصَوْتِ قهقهةٍ ولو كان خفيفاً.

وأبان هذا النّص أنَّ سليمان عليه السلام ضَحِكَ من دَرَجَةِ التَّبَسُّم، فلم يكن ضَحِكُهُ مصحوباً بِصَوْتِ قَهْقَهة.

ولمّا كان انفراج الشَّفتين عما في دَاخِلِ الْفَمِ قَدْ لا يكون تَبَسُّماً من ضَحِكِ مسَرَّةٍ أو إعجاب، جاءت كَلِمةُ «ضَاحِكاً» قيداً لازماً، فَهِيَ «حالٌ» كاشفَةٌ للمراد بالتبسُّم، أي: هو تَبَسُّمٌ من الضَّحِك.

﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ أي: ممَّا دَلَّ عَلَيْه قَوْلُها، فقد دَلَّ على إدْراكها لما

يمكن أن يفعلَه جيشه، وعَلَىٰ حِرْصِها على أُمَّتِها، وتَحذِيرِها أفرادَها، ودلَّ على قُدْرَةِ اللَّهِ إِذْ منَح حَشَرَةَ النَّمْلِ إدْراكاً وبَيَاناً ومشاعر جماعيَّة، واهْتَماماً بأَدَاءِ الواجب الاجتماعي لأُمَّتها.

وذَكَّرَهُ هذا الحدَثُ بما أنعم الله به عليه وعلىٰ والِدَيْه، فَدعَا رَبَّه، بَعْدَ أنْ أثنىٰ عليه حامداً بما هو له أهلٌ من المحامد، دَلَّ على الحمْدِ المطويّ في النصِّ، أنّ من أدب الدُّعاء البدء بالثناء على الله وحمده، فالواو تعطف على محذوف في:

﴿وَقَالَ﴾: أي فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَىٰ نِعَمِهِ، وقَالَ دَاعِياً:

﴿.. رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾:

اشتمل هذا الدُّعاء عَلىٰ ثلاثةِ مطالِبَ، بَعْد أنْ نَادَىٰ رَبَّهُ من دون أداةِ نداءٍ مَذْكُورة، إشعاراً بأنَّ رَبَّهُ أقْرَبُ إلى قَلْبِهِ من حَبْلِ الوريد، قائلاً ﴿رَبِّ﴾: أي: يَا مَنْ تتصَرَّفُ بِي بصِفاتِ رُبُوبِيَّتِكَ، وفي العبارَةِ حذْفُ ياء المتكلم أيضاً للإيجاز، ولعلم المؤمن بقرب ربّه منه.

فَالمطلَبُ الأول: دلّ علَيْهِ قول الله عزّ وجل حكاية عنه: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾:

أي: أَلْهِمْنِي، وأغْرِنِي، وحرِّكْ دوافعي واجْمَع نَفْسِي وقَلْبِي وإرَادَاتي لأنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ التي أنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيّ.

دلَّ هٰذا علَىٰ أنّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ علَىٰ الْعَبْدِ مَا أنعَمَ به على والِدَيْه، لِأَنَّ هذِه النِّعَمَ تَجْرِي آثارُهَا إِلَىٰ الوَلَد، فَمِنَ التَّقْوَىٰ أو مِنَ البرِّ وَالإحْسَانِ أنْ يَشكُرَ الوَلَدُ لِربِّهِ عليْهَا. ودَلَّ أيضاً عَلَىٰ أنّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذي يَقُومُ به الْوَلَدُ عِنْ وَالِدَيْهِ يَنْفَعُهما عِنْدَ اللَّهِ إذا كانا مؤمنين، ويُسَجَّلُ لَهُما فِي صَحَائِفِهما، لأنَّه من كَسْبِهِمَا.

وقد جاءَ في النُّصُوصِ الإسلاميَّةِ الصَّحيحة ما يَدُلُّ على هَذَا، فَهُو من فَضْلِ الله علىٰ عِبَادِه في الدِّينِ الّذي اصطفاه لهم.

الشُّكر مقابلَة إنْعام المنْعِم بمَا يُرْضِيهِ من فِعْلٍ أو تَرْك، أو أيّ شيءٍ ماديّ يسُرُّه، وقَدْ يشْمَلُ القولَ الذي فيه مَا يُرْضي المنعم، إلّا أنَّ بَعْض القولِ يختصُّ بعنوان الحْمدِ والثناء.

﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾ يقال: أوْزَعَهُ إيَّاه، أي: ألهمه إيّاه، وأغْراه به، وأولَعه به، أمّا «وَزَعَهُ» فمعْنَاه كَفَّهُ ومنعَهُ وحَبَسَه، ومنه «الْوَزَعَةُ» جمع «وازع» الذي يكفُّ ويمنع الجند عن الخروج عن الصّف و«الْوَزَعة» الولاة المانعون من محارم الله تعالى.

﴿نِعْمَتَكَ﴾: أي: عَطَاياك النَّافِعَة والسّارَة الّتي أنْعَمْتَ بِها مُتَفَضّلاً عليَّ وعلَىٰ وَالِدَيّ.

﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾: أي: وعلَىٰ أبي «داود»، وعلى أُمّي، وهِيَ «بَثْشبع» بنت «ألِيقام» الّتي كانت زَوْجَةَ «أورِيَا» الحِثِّي، أحَدِ قوّادِ دَاوُد علَيْه السلام.

ونِعَمُ الله عزّ وجَلّ على دَاوُد كثيرَةٌ جاء بيان بعْضِها في قصَّتِه، التي سبَق ذكْرُها لدى تدبّر سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

والمطلبُ الثاني: دلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

أي: وَألْهِمْنِي أنْ أعْمَلَ عَمَلاً صَالحاً تَرْضَاهُ مِنِّي، وتَرْضَىٰ بِهِ عَنّي. وأغْرِني بِهِ، واجْعَلْنِي مُولَعاً بالْقِيَام به، وبأدائِه.

الْعَمَلُ الصَّالِحُ: هُوَ كُلُّ عَمْلٍ نَافِعٍ مُفِيدٍ خالٍ من الفَسَاد، يَجْلُبُ خيْراً عاجلاً أو آجلاً، دُنيويّاً أو أخْرَوِيّا، وأفضل الْعَمَلِ الصالح طَاعَةُ الله عزّ وجلّ فيما أمَر به أوْ نَهىٰ عنه.

وقيَّدَ سُلَيْمَانُ عليه السَّلام الْعَمَلَ الصَّالِحَ بقَيْدِ ﴿تَرۡضَىٰهُ﴾ في دُعائِهِ رَبَّه، احْتِرَاساً من الْوُقُوعِ فِي تَصوُّرَاتٍ خاطِئَاتٍ يَرىٰ بِهَا أنَّ الْعَمَلَ الّذِي يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، لكِنَّهُ في حَقِيقَةِ الأمْرِ عَمَلٌ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ، لمَا فِيه من فَسَادٍ يَخْفَىٰ على الْعِبَادِ وَلَوْ كَانُوا أنبياء.

يقال لغة: «رَضِيَ الشيْءَ، ورَضِيَ بِهِ، وَرَضِيَ عَنْهُ، ورَضِي عَلَيْهِ، يَرْضَى، رِضاً، ورِضاءً، ورِضْواناً، ومَرْضَاةً» أي: قَبِلَهُ، ووَافَقَ مُرادَهُ، أوْ جَعَلَ لَهُ عِنْدَهُ مَكَانَةً وحُظْوَةً حتَّى رَضِيَ عَنْه..

واسْمُ الفاعِلِ «رَاضٍ» واسْمُ المفْعُولِ «مَرْضِيٌّ».

لفظ ﴿صَٰلِحٗا﴾ وصْفٌ لموصوفٍ محذوفٍ تقديُره: «عَملاً» وهو حذْفٌ مألوفٌ وحَسَنٌ للإيجاز.

والمطلَبُ الثالث: دلّ عليه قول الله عزَّ وجلَّ حكايةً عن سليمانَ علَيْهِ السَّلام: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

أي: واجْعَلْنِي بقَدَرِكَ وقَضائِكَ النَّاتِجَيْنِ عَنْ رَحْمَتِكَ داخِلاً في سِجِلِّ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، ومعلومٌ أَنَّ مَنْ دَخَلَ اسْمُهُ فِي سجِلِّ عبادِكَ الصَّالِحِين، دخَلَتْ ذاتُه يَوْمَ الدِّين في زُمْرَةِ عِبادةِ الله الصَّالِحين، في الحشْرِ وفي الدَّرَجاتِ الْعَالِيات في جنَّاتِ النعيم.

جاء لفظ «الصَّالِحين» في القرآن وصْفاً للمرسَلِينَ وللأنبياء، وللمؤمنين الذي يأمُرُونَ بالمعروف ويَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ويُسَارِعُونَ في الخيرات. وأَدْخَلَ الله عزّ وجلّ في الصَّالِحِينَ الأوَّابِينَ الّذِينَ إذا فَعَلُوا بْعضَ المعاصِي والْمُخَالَفَاتِ رَجَعُوا إلى رَبّهم بالتوبَةِ والاستغفار على وجْهِ السُّرْعَة، ولو تكرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُم.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في متابعة الحديث عن سُلَيمان عليه السلام:

• ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾:

تمهيد:

في هذه الآيات السّبع بيان لقَطاتٍ مِنْ فَصْلٍ ذي شأنٍ مِنْ فُصُول تاريخ سليمان عليه السلام، في إدارته لمُلْكِه الشَّامِلِ للْجِنّ والإنْسِ والطّيْر، وهو فَصْلٌ يَدُلُّ على عناية سُلَيْمان الشديدة بنَشْر دينِ اللَّهِ الحقّ في النّاس، ما وجَدَ إلى ذَلِكَ سبيلاً.

هٰذِهِ اللَّقَطات تَتعلَّقُ بتفقُّدِهِ لجُنْدِهِ من الطَّيْر، فلَمْ يَجِدْ بَيْنَ جُنْدِهِ منها «الْهُدْهُد» ويظْهَر أنّ المراد قائِدُ الطُيورِ مِنْ نوع الطائِر الذي يُسَمَّىٰ «هُدْهُداً» ورُبَّما كان مَعَهُ جماعة من الهداهد الّتي قد ترافقه في حِلّهِ وتَرْحالِه.

وهذا الطائر كان يجب عَلَيْهِ أَنْ يكون حاضراً حينَ تفقَّدَ سُلَيْمَانُ عَلَيْه السّلام جُنْدَه، ومنهم جنودُه من الطَّير.

فلَمَّا رأى الْهُدْهُدَ غائباً عن الحضور الواجب عليه، قَال مخاطباً قَادَة جُنْدِهِ: مَالِي لَا أرىٰ الْهُدْهد، هَلْ هو حاضِرٌ إلَّا أنّني لم أرَهُ، أَمْ كَانَ غائباً من الغائبين عن الحضُور الواجب، فإنْ كانَ غائباً فلَأُعَاقِبنَّهُ على مَعْصِيَتِهِ بعذاب شديدٍ، أو بذَبْحِه، إلَّا أَنْ يُقَدِّمَ حُجَّةً واضِحَةً علَىٰ عُذْرِهِ في الغياب عن الحضور الواجب.

ولمّا عَلِمَ الْهُدْهُدُ غَضَبَ سُلَيْمانَ منه، إذْ غَابَ مِنْ غَيْر أنْ يُعْطيه إذْناً، أَسْرَعَ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ الْمَلِك، فنظر إليه سُلَيْمانُ نظر الْغَاضِب، فَقَالَ: أحَطْتُ علماً بأمْرٍ عظيم لَمْ تُحِطْ بِهِ أنْتَ، وقَصَّ عليه قصَّةَ «بِلْقِيس» مَلِكَة سَبأ، وعبادَتِها مع قَوْمِها للشّمسِ من دُون الله.

الْهُدْهُد: ذكر علماءُ الحيوانِ أنّ الهُدْهُد طائرٌ أصفر ورديّ اللَّوْن، لَهُ تاجٌ رائعٌ من الرّيش على رأسه، وله خُطوط سوداءُ وبيضاء على جناحَيْه وذيْلِه، وهو يعيش في الأقاليم الأكْثَر دفئاً في أوروبًا وآسيا وأفريقية.

وطيورُ الْهُدْهد تبني أعشاشها في جحور الأشجار والجذْران والصخور، وتضع الأنثى ما بين (٥ ـ ٧) بيضات، ويُطْعم الذكرُ الأنْثىٰ عندما تحضن بيضَها، وهي تأكُلُ الحشرات، وتقضي أوقَاتاً كثيرة على الأرضِ باحثَةً عن غِذائها.

وذكر المفسّرون أن الله عزّ وجلّ فَطَر طُيور الْهُدْهد على مَعْرِفَةِ مواقع وجود الماء في باطِنِ الأرْضِ، فإذا رَفْرَفَ على موضعِ عُلِمَ أنّ به ماءً، ولعَلَّ هذا من أسْبَابِ اتّخاذِ سلَيْمان لطيُور الْهُدْهُد ضمْن جنُودِه من الطير.

التدبّر التحليلي:

- ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾: أي: وطَافَ سليمانُ في إحدىٰ مُهِمَّاتِه في جُنْدِه يَتَفَقَّدُ فَصَائلَ الطيور الّتي جَنّدَها لجيْشِه.

تفقّدَ: أي: مشَىٰ يَنْظُرُ ليَعْلَمَ المفْقُودَ الغائبَ عَنِ الحضور الواجب ضِمْنَ جُنْدِه من الطَّيْر.

- ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: فَلَم يَرَ قائِدَ طُيورِ الْهُدْهد، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ قرأ ابْن كثير، وهِشام، وعاصم، والكسائي بفتح ياء المتكلم، وقرأ باقي القرّاء العشرة

بإسكانها، والمعنىٰ: ما الأمْر الذي حصَلَ لي حالَةَ كَوْني لا أرَىٰ الْهُدْهُد، هَلْ هو حاضِرٌ إلَّا أنَّنِي لَمْ أرَه بيْنَ الطّيُور ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ الّذِينَ غَابُوا عن الحضُور الواجِبِ، ففِي العِبَارَةِ مَطْويٌ يَسْهُل استخراجُه ممّا يقتضيه التَّرْدِيدُ بَحَرْف الْعَطف «أمْ» بَيْنَ احتمالَين، وقد ذكرْتُ ما يَدُلُّ عليه.

- ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾: وقرأ ابْن كثير ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنَّنِي﴾ بإثبات نون الوقاية، إثباتُها وحَذْفُها وجْهَانِ جائِزانِ في العربيّة.

دلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أنّ سُلَيْمَان عليه السَّلام تَوَعَّد الْهُدْهُدَ بإحْدىٰ عُقُوبتَيْن، عُقُوبَةِ العذاب الشديد المؤلم، أَوِ الذَّبْح، ويُعْفِيهِ منهما أنْ يُقَدِّم حُجَّةً وَاضِحَةً تُبَيِّنُ عُذْرَه في غيابه.

أي: فَلما عَلِمَ سُليمانُ عَلَيْهِ السَّلامُ أنَّ الْهُدْهُدَ غائب أعْلَنَ تَوَعُّدَه الّذي لا يُعْفِيه مِنْهُ إلَّا عُذْرٌ مَقْبُول.

العَذَاب: الْعِقَابُ المؤلم.

السُّلْطانُ الْمبِين: الحجَّةُ الواضِحة، وهذا أَحَدُ مَعَاني السُّلْطان.

اللّام في الْأَفْعَالِ الثّلاثَةِ واقِعَةٌ في جوابِ قَسَمٍ مَنْوِيّ، فَدَلَّ على أنّ سليمان عليه السّلام قَدْ غَضِبَ من غياب الْهُدْهُدِ فأقْسَمَ مُتَوَعِّداً. وهذه اللام الواقعة في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ يَجِبُ في العربيَّةِ تأكيد الْفِعْلِ المضارع بَعْدَها بِنُونِ التوكيد.

وقد جَعَلَ العقوبَةَ على الغِيابِ الّذِي لَا عُذْرَ لِلْهُدْهُدِ فِيه عَلَىٰ فَرْضِ تحقُّقِهِ، مُتَرَدِّداً بَيْنَ الْعَذَاب الشَّدِيد والذَّبْح، ثم هُو يخْتَار عنْدَ التنفيذ مَا يَراهُ الأفْضَل والأحْكَمَ ليَكُونَ مَوْعِظَةً لسائِرِ الجنْد، وتأديباً وتَرْبِيَةً لهم.

- ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ مكث: فيها قراءتان بفتح الكاف وضمها من باب نَصر، وباب كَرُم.

أي: فبَلَغَ الْهُدْهُدَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عليه السَّلام تفَقَّدَ الطَّيْرَ فَلَمْ يَجِدْهُ، فأعْلَنَ تَوَعُّدَهُ لَهُ بالتعْذِيب أو الذّبح، مَا لَمْ يأت بسُلْطَانٍ مُبين يُقَدِّمُ فيه عُذره الواضح المقبول، فأسْرَع قادماً فحطّ فمكث مكاناً غير بَعيدٍ عن مكان سُلَيْمان.

مَكَث: أي: لَزِم مكانَه مُتمهِّلاً مُنْتَظراً. **غَيْرَ بَعِيدٍ**: أي: وغَيْرَ قَرِيب فهو وسَطٌ بَيْنَهما.

وبعد أَنْ عَلِم سليمان بحضورِه سَألَهُ عَنْ سَبَبِ تَغَيُّبه بِحَسَبِ مَنْطِقِهِ الْهُدْهُدِيِّ، فَقَالَ الْهُدْهُدْ كلاماً دَلَّ على مَعْنَاهُ قول الله تعالى:

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾:

أي: عَلِمْتُ بأمرٍ على وَجْهِ الْإِحَاطَةِ بهِ لَمْ تُحِطْ أَنْتَ بِهِ، وجئْتُكَ من أرْضِ سَبَأٍ في الْيمنَ بِنبَأٍ يقِينٍ.

أصْلُ الإحَاطَةِ بالشّيء الْقُدْرَةُ عَلَىٰ الْقَبْضِ علَيْهِ مِنْ كلّ جِهَاتِه، يقالُ: أَحَاطَ الجَيْشُ بالْبَلَدِ، أي: صَارَ مِثْلَ السّوَارِ حَوْلَ كُلِّ بُنْيَانِها، واسْتُعمِلت الإحَاطَةُ بمَعْنَىٰ الْعِلْم بالشيءِ عِلْماً شامِلاً كُلَّ نواحِيهِ وجوانبه. يُقَالُ: أَحَاطَ بالشيءِ أَوْ بالأمْرِ عِلْماً، أي: أدْرَكَهُ على وجْهِ الإحاطة.

سَبَأ: أَرضٌ بالْيَمَن، حَاضِرَتُها مَدِينَةُ «مَأْرِب» وكانت تَمْلِكُ السَّبَئِيِّين في عَهْدِ «سليمان» عليه السلام «بِلْقِيس» بيت شرحبيل، وكانُوا يعبُدونَ الشَّمْسَ من دُون الله.

﴿بِنَبَإٍ﴾: أي: بخَبَرٍ بارِزٍ يُثِيرُ الاهتمام. **النَّبأَ**: الخبر ذو الشأن الخطير.

﴿يَقِينٍ﴾: أي: حقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، يَسْتَنِدُ إلى إدْرَاكٍ حِسِّي.

ولا يَخْفىٰ ما في عبارة: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ منْ جِناسٍ ناقِصٍ مع تطابُقِ الحركات بين «سَبأ» و«نَبأ» ووقع النُّطق على السَّمع وقعاً مُسْتحبًّا.

وبَدَتْ على وَجْهِ سُلَيمانَ فيما يظهر علامَةُ الاستفهام عن النبأ، فقال الْهُدْهد:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

لم يَصِلْ عِلْمُ الْبَشَرِ حتّىٰ عَصْرِنا إلى أنّ الطيّور أو نوعاً مِنْها لَدَيْهَا الْقُدْرةُ على إدْراكِ مثْلِ هٰذِهِ الْقَضايا الّتي عبَّر عَنْها الْهُدْهُدُ بمَنْطِقِهِ الْهُدْهُدِيّ، فإذَا لَمْ يكُنْ مِنْ فِطْرَةِ طَيْرِ الْهُدْهُد إدْراكُ مِثْلِ هٰذِهِ القضايَا، فَإنَّ هُدْهُدَ سليمان عليه السلام قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَدَيْهِ هٰذِهِ الْقُدْرَة، وخَلَقَها فيه، إكراماً لِعَبْدِهِ ورَسُولِهِ سليمان، واللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِير، فقَدْ وَهَبَ اللَّهُ سُلَيْمَان الْقُدْرَةَ الخاصَّة علَىٰ إخْضَاع الجِنِّ والطَّيْرِ لسُلْطَانِهِ بِقُوىً خَفِيَّةٍ غَيْرِ مُدْرَكَةٍ للنَّاس، إنَّما تُعْرَفُ بآثارِها.

وقَد اشْتَملَ بَيَانُ الْهُدْهُدِ هٰذا علىٰ ذِكْرِ أرْبع قَضَايا:

القضية الأولىٰ: دلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً عن الْهُدْهُد:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾: أي: إنِّي وجَدْتُ أَهْلَ سَبأُ يخْضعُونَ لسُلْطَانِ امرأةٍ مَلِكَةٍ عَلَيْهِم.

القضيّةُ الثانية: دلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً عنه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: وآتَاهَا اللَّهُ عزّ وجلَّ هِبَاتٍ من كلِّ شَيْءٍ تُؤْتَاهُ الْمُلُوكُ

عَادَةً، مِنْ مَالٍ وقُصُورٍ وخَدَمٍ وَعَبِيدٍ وجُنُودٍ وأثاثٍ وقُوىً وَغَيْرِ ذلك.

القضيّة الثالثة: دلَّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ حكاية عنه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: أي: ولَها سَرِيرُ مُلْكٍ أوْ كُرْسِيُّ مُلْكٍ عَظيم، وصَفَهُ بالعظمة لنَفاسَتِه، وضَخَامَةِ هَيْكَلِهِ، وترصِيعِهِ بنَفَائِسِ الجواهر الكريمة.

عَرْش الْمَلِك: سَرِيرُه، أو كُرْسِيَّهُ.

القضية الرابعة: دلّ عليها قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايةً عَنْه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: مُشْرِكين يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ، فَيَسْجُدُونَ لَها، مُتَّخِذِينَ إيَّاها إلَهاً من دُونِ اللَّهِ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿.. وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾﴾:

وقرأ الكسائي، وأبو جَعْفر، ورُويس: **[ألاَ يَسْجُدوا]** بفتح اللّام دون تشديد.

وقرأ غير الكسائي، وحَفْص: **[ما يخفون وما يعلنون]** بياء الغائبين.

تمهيد:

هٰذه الآيات بيانٌ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ، جَاءَ مَوصُولاً بحكايَةِ قَوْل الْهُدْهُد، للإشعار بصِدْقِ مَا قَالَهُ الْهُدْهُدُ لسليمان عليه السلام.

وهذا الأسلوبُ قَدْ تكرَّرَ في القرآن المجيد، وفيه الاستغْنَاءُ بعَطْفِ نَصِّ الْبَيان الصَّادِرِ عَنِ اللَّهِ، على الْقَوْلِ المحكيِّ عَنْ غَيْرِه، للدّلَالَةِ على تَصْدِيقِه، حتَّىٰ كأنّ الْقَوْلَ المحْكِيَّ هو بيانٌ صَادِرٌ عن اللَّهِ عزّ وجلَّ أيْضاً.

وهٰذهِ الآياتُ قَدْ تَضمَّنَتْ بَيانَ سَبَبِ ضَلَالِ عُبّادِ الشَّمْس من أَهْلِ سَبَأ في ذلِكَ الزَّمان، وهٰذا ينْسَحِبُ علَىٰ كلّ من يَعْبُدون شيئاً من دُون الله، وبَياناً لما يَجِبُ علَىٰ كلّ مَنْ وضَعهمُ الله جلّ جلالُه في الحياة الأُولَىٰ مَوْضِعَ الامتحان من عبادة اللَّهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وإشارةً بالتحذير من عقابِه إذْ هو يَعْلَمُ عَزَّ سُلْطانُه وأحَاطَ عِلْمه بكلّ شيء ـ مَا يُخْفِي عبادُه وما يُعْلِنُون.

التدبّر التحليلي:

- ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: أي: وزَيَّنَ الشَّيْطانُ لأَهْلِ سَبأ أيَّامَ «بِلْقيس» أعمالَهُمْ بَدْأً من الشِّرْك بعبادة الشَّمْس، وانْطِلَاقاً إلى كُلِّ لَوَازِم الشِّرْك من أعْمالٍ كُفْرِيَّة، وأعْمالٍ سيّئَةٍ فيها فِسْقٌ وفُجُور، وظُلْمٌ وعُدْوان، وبَغْيٌ وطُغْيان.

التزيين: التَّحْسِينُ والتجميل، ويكونُ بِجَعْل الشيءَ ملائماً لما تَسْتَحْسِنُه النفوس، أو تَشْتَهِيه أو تُحِبه. ويكون بالإغراءِ بحُسْنِ الشيء، والتحبيب به، وإثارَةِ النفس للتعلّق به، بالوساوس والتَّسْويلات القائمات على الإطماع بالباطل، وهذا من فعل شياطين الإنس والجن.

- ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: فَصَرفَهم ومنَعَهُمُ الشيطان بما زيّن لهم عن سلوك سبيل الله الحقّ المسْتَقِيم، وبانصرافهم عنه تاهوا في السُّبل.

الصَّدّ: يأتي لَازِماً ومُتَعَدِّياً، فاللّازِمُ يأتي بمعْنَى الإعراض عن الشَّيْء والانْصَرافِ عنه. والمتَعدِّي يأتي بمعْنَىٰ الصَّرْفِ والمنْعِ، وهٰذا المعنى هو الملائم هُنَا.

لفظ «السَّبيل» مُفْرَداً معَرَّفاً يُرادُ بِه في القرآنِ صراطُ اللهِ المستقيم[1].

- ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾: أي: وبما أَنَّهُم صُرِفوا وأُبْعِدُوا عِنِ السَّبيلِ،

---

[1] انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبر سورة (الفاتحة).

وتاهُوا في متفرقاتِ السُّبُلِ الّتي تُفْضِي بِهم إلى المهالِك، فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ بأنفسهم إلى السّبِيل الحقّ الّذي يُؤدّي بسالكيه إلى خَيْرِ دُنياهم، وسعادة آخِرَتِهم.

• ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾: أي: فصَدَّهُمُ الشيطانُ عنِ السبيل لئلَّا يَسْجَدُوا لله طاعةً له وَإِفْراداً له بالعبادة، وليكونُوا مثْلَ إبْليس الّذي أبَىٰ أن يَسْجُدَ لآدمَ طاعَةً لأمْرِ الله لَهُ بالسُّجود.

والمعنى على قراءة: [**أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ**] بتخفيف اللّام هو على أنَّ «أَلَا» أداةُ تَنْبِيهٍ واسْتِفْتَاح، والْيَاءُ أدَاةُ نداء حُذِفَت منها الألف وَوُصِلَت في الكتابَةِ بسِين «اسْجُدوا» والمنادَىٰ محذوفٌ تَقْدِيره كلمة «هٰؤلَاءِ» أو نحوها، وله نظائر في كلام العرب، ومنه قول ذي الرّمة:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَمَيَّ عَلَىٰ الْبِلَىٰ وَلَا زَالَ مُنْهَلًّا بِجَرْعَاتِكِ الْقَطْرُ

أي: ألَا يَا هٰذِه اسْلَمِي، كَمَا ذكر النُّحاة.

وعلى هذا تكونُ العبارَةُ خطاباً للناس، وتكليفاً لهم بأن يَسْجُدوا لله، ويَكُونُ بيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في تأْديَةِ المعْنَيَيْنِ المرادَين.

• ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

الْخَبْءُ: السَّتْر، مَصْدَرُ «خَبَأَ الشيْءَ يَخْبَؤُهُ خَبْأً» أي: سَتَرَه.

والْخَبْءُ: مَا خُبِّئَ، أي: سُتِرَ، سُمِّيَ بالمصْدَرِ، وهذا المعنَىٰ هو الملائِمُ هُنَا.

ومن إخراج ما خُبِّئَ في السَّمَاوَاتِ إنْزَالُ المطَرِ، وتمكِينُ النَّاسِ من اكتشاف ما في الكواكب والنجوم.

ومِنْ إخَراجِ ما خُبِّئَ في الأرْضِ إنْبَاتُ النَّبَاتِ، وإخْرَاجُ النِّفط والمعَادِنِ والحجارَةِ الكريمة من بَاطِنِها، وإخراجُ ما في أعْمَاقِها بالبراكين،

وتَمْكِينُ الناسِ مِنْ حَفْرِ طَبَقَاتِ الأرضِ، لاسْتِخراجِ ما في باطِنِها مما لهم بِهِ منافع ومصالح وزينات.

فدَلَّت هذه العبارة عَلَىٰ المخبَّآتِ في السَّمَاوَاتِ والأرْضِ الّتي هي مِنْ آياتِ اللَّهِ في كَوْنه.

- ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ خَطاباً للنّاسِ الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

وفي القراءة الأُخرىٰ: **[وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ ومَا يُعْلِنون]** حَدِيثاً عن الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِع الامتحان.

وبيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، ليَشْمَلَ البيانُ مَنْ يَتَلَقَّاهُ ومَنْ يُعْرِضُ عنه.

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾﴾: أي: الله خالِقُ كلِّ شيءٍ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ.

وبمناسِبَةِ ذِكْرِ عَرْشِ بِلْقِيس، وَوَصْفِ الْهُدْهُدِ لَهُ بأنَّه عَرْشٌ عظيم، وجَّهَ النّصُّ هُنَا لِأَنَّ اللهَ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُو، هُو رَبّ العرش العظيم، الّذي هو أكْبَرُ من السَّمَاواتِ والأرض، والَّذِي يُلائِم تكوينُهُ عظَمَةَ الرَّبّ العظيم، الذي هو أكْبَرُ مِنْ كَلِّ كبير.

عَرْش الرحمن: هو الْفَلَكُ الأعْظم المحيط بالْعَوَالِمِ الْعُلْيا.

قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ

تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

تمهيد:

في هٰذه الآيات بَيانُ فَصْلٍ منْ فُصُول قَصَّةِ سليمان علَيْه السَّلام مع بِلْقِيسَ مَلِكَةِ سَبأ، إذْ حَملَ الْهُدْهُدُ كِتَابَ سُلَيْمَان إليها. فطار به وألْقَاهُ في مجْلِسِ الملِكَة ومَلَؤُها حَوْلَها، فأخَذتْهُ وقَرأتْهُ علَيْهم، وطَلَبَتْ مِنْهُمْ أَنْ يُشِيروا عَلَيْها، فأبَانُوا لَها قُدْرَتَهُمْ علَىٰ الحَرْب، وفَوَّضُوا الأَمْرَ إليها.

وكانت بِلْقِيسُ امْرأَةً ذَاتَ عَقْلٍ وحِكْمَة، فلَمْ تَخْتَرْ أَنْ تُعالِجَ بالحربِ طَلَبَ «سُلَيْمَانَ» الْخُضوعَ لَهُ والمجيءَ إليه هي وأرْكانُ مملَكتِها مستسلمين، لقد خافت من ويْلاتِ الحربِ عَلَىٰ بِلَادِها، وكانت أخْبارُ عَظَمَةِ سُلطانِ سليمان قَدْ بَلَغَتْها، واختارَتْ أنْ تُصَانِعَ سُلَيْمان بِهَدِيَّةٍ نَفِيسَةٍ جدًّا، تَتَفَادَى بها مُقارَعَةَ جَيْشِهِ بمَا لَا مُكَافِئَ لَهُ عِنْدها، ولَوْ قَالَ لَها ملَؤُها وقادَتُها: نَحْنُ أولوا قوَّةٍ وأولُوا بأسٍ شديد.

التدبّر التحليلي:

• ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: قال سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلامُ لِلْهُدْهُدِ: سَنَنْظُر باخْتِبارِ الْوَاقِع فيما ذَكَرْتَ عَنْ أَهْلِ سَبأٍ ومَلِكَتِهِمْ، مُسْتَخْدِماً مَا لَدَيَّ مِنْ جُنْدٍ، فيهمْ جنٌّ يَسْتَقْصُونَ الأخبار بسُرْعَةٍ عظيمةٍ، لنَعْلَم أنا ومَلَئي بمَا يقْطَعُ الشَّكَّ فِي قولِكَ، أصَدَقْتَ فيما ذَكَرْتَ أَمْ كُنْتَ فيه من الكاذِبينَ، تَخْتَلِقُ عُذْراً لا يُطَابقُ الواقع.

﴿أَمۡ﴾ هُنا هي المتّصلَة، والمعنى: لا يَخْلو أمْرُكَ من أحَدِ احتمالَيْن،

إمّا أنْ تكُونَ صادقاً، وإمّا أنْ تكونَ كاذِباً، وبحْثُنا يكْشفُ واقِع حَالِكَ في خَبَرِكَ.

ورأىٰ سُلَيْمَانُ علَيْهِ السَّلام أنْ يَبْعَثَ مَعَ الْهُدْهُد بكتَابٍ إلى بِلْقِيس، ورِجالِ مملكَتِها وقادَةِ جيْشِهَا، مُطَالِباً إيَّاهم بالخضُوع لَهُ ولمُلْكِهِ، وَبالحضور إلَيْه طَائِعِينَ مُسْتَسْلِمين، فكتَبَ الكتابَ وختَمَهُ وَقَال لِلْهُدْهُد:

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: احْمِلْ كِتابي هٰذا، واذْهَبْ بِهِ إلَىٰ سَبَأُ حَيْثُ وَجَدْتَ الْقَوْمَ، وتَرَقَّبِ اجْتماع مَلِكَتِهِمْ بِمَلَئِهَا وَقَادَتِها، فَألْقِهِ إلَيْهِمْ وهم مجْتَمِعُونَ، وٱرْقب اسْتِلامَ الْمَلِكَة لَهُ، وقراءَتَه على رِجَالِ مَجْلِسها، واسْتَوْثِق من الأمْر، ثُمَّ ابْتَعِدْ عَنهم، وَرَاقِبْ عَنْ بُعْدٍ ما يكونُ منهم مِنْ أمْرٍ يَرْجعُونَهُ عَلَىٰ كِتَابِي إليهم، بحَيْثُ تكُونُ في مَكانٍ لَا يُحسُّونَ بوُجُودِكَ فيه، فإذَا عَلِمْتَ مَا هُو رَدُّ جَوابِهِمْ فَارْجِعْ إليّ وأنبِئني به.

وكان الحَمَامُ الزاجِلُ وسِيلَةَ نَقْل الرَّسَائل إلى المسافات البعيدة، ولا سيما بَيْنَ الملُوكِ، وفي الحروب، لكِنْ لم يَكُنْ معروفاً أنّ الْهُدْهُدَ يُسْتَخْدَم لهذا الغرض، غَيْرَ أنّ لسُلَيْمان خُصُوصِيّاتٍ لم تَكُن لغيره عليه السلام.

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾: فارْمِهِ مِنْ عُلُوٍ إلى مَكانِ جُلُوسِ الْمَلِكَةِ مع أَعْيَانِ مَمْلكتها، مُشْعِراً بأنَّ الكِتَابَ مُرْسَلٌ إلىٰ الْمَلِكَةِ، وأصْحَاب الْحَلِّ والْعَقْدِ في مملكتها، ويكُونُ هٰذا بإلقائِه على عَرْشِها أو قَرِيباً منه. دلَّت عَلىٰ هٰذَا عِبَارة ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ولو كان الْمُرادُ خُصُوصَ الملِكَة لكانت العبارة: فألْقِهِ إلَيْها. في [إلَيْهم] قراءتان كسر الهاء وضَمُّها.

وَدَلَّ حَرْفُ الْعطف في: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ علَىٰ تكليفه أنْ يَنْتَظِر مُتَرَقّباً حتَّىٰ يَرَىٰ أنَّ الملِكَةَ قَدِ اسْتَلَمَتِ الكتابَ وقرأتْهُ على أهل مَجْلِسِها، من الوزراء والقادة. ﴿تَوَلَّ﴾: أي: ابْتَعِدْ.

فالمعنى: وَبَعْدَ أنْ تَعْلَمَ أَنَّ المَلِكَةَ تَسَلَّمَتِ الكِتَابَ وقرأته، تَوَلَّ مُبْتَعِداً عن الْمَجْلِس ابْتِعَاداً يُخْفِيكَ عن جُلَسائه، عَلَىٰ أنْ تبقَىٰ مُراقِباً مُنْتَظِراً، حَتَّىٰ تَعْلَمَ مَاذَا يَرْجِعُونَ، بدَليل:

﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾: أي: فاعْلَمْ مَا الَّذِي يَرْجِعُونَهُ مِنْ رَأي أَوْ تَدْبِيرٍ علىٰ مَا جَاءَ في كتابِي إليهم؟.

يُقَالُ لُغَةً: «رَجَعَ فُلَانٌ فُلَاناً، ورَجَعَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: رَدَّه، وأعَادَهُ، والمرادُ هنا إصْدَارُ الْقَرَار الّذِي يَرُدُّونَ به كتابَهُ إليهم، إذْ هو بمثابَةِ رجْعِ الكِتَابِ مَقْرُوناً بالجواب، كالصَّدَىٰ الذي هو رجْعُ الصَّوْتِ. فَلِكُلِّ فِعْلٍ رَدٌّ فِعْلٍ هُو رَجْعٌ لَه.

والمرادُ بالنَّظَر اسْتِعْمالُ ما يُؤَدّي إلى الْعِلْم من أَدواتِ حِسٍّ وفَهْمٍ.

- ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾.

ـ ياء المتكلم مِنْ: [إِنّي] فيها قراءتان الإسكان والفتح.

ـ وقرأ يعقوب: [تشهدوني] بإثبات ياء المتكلّم.

- ﴿قَالَتْ﴾: أي: المَلِكَةُ «بِلْقِيس».

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾:

دلَّت عبارة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ على أنّها رفعَتْ صوْتَها منادِيَةً باهْتِمَامٍ بالغ، كأنّها تخْطُب.

﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: أشْرَافُ الْقَوْم وسَرَاتُهُمْ الّذين يَمْلؤُونَ عُيُونَ العامة، ولعلّهم أَرْكَانُ مَمْلَكَتِها ومَجْلِسُ الشُّورىٰ الّذين تَسْتَشِيرُهم في المهمّات.

- ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾: دلَّتْهُمْ بِهذا علىٰ أنَّ طائِراً من الطُّيُورِ

الناقِلَةِ للرَّسَائل أَلْقَىٰ إِلَيْها كِتَاباً من مَلِكٍ عظيم، إِذْ وصفت الكتابَ بأَنَّهُ كَرِيم، أي: رفيعٌ بَيْنَ الكُتُب، باعْتِبار أنّ مُرْسِلَهُ عظيم مِنْ عُظماء الملُوك، ورُبَّما كانت رُقْعَتُهُ وخَتْمُه وخَطُّه مِنْ نَفيس ما يُرْسِلُهُ الملوكُ عَادَةً.

وقرأتْ عليهم ما جاءَ في الكتاب، بَعْدَ أَنْ أَكّدَتْ لَهُمْ قائِلَةً: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ وكانَ قَدْ بَلَغَهُمْ مُلْكُ سُلَيمانَ العظيم في بلادِ الشّام، واكَّدَتْ لَهُمْ قَائِلَةً: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: وإنَّ نَصَّ مَا جاء فيه:

﴿. . بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

هذا الكتابُ العظيم من سليمان إلى ملكةِ «سبأ» وإلىٰ أرْكان مَمْلَكَتِها من ملأ الْقَوم، يشتمل علىٰ مُقَدِّمَةٍ وَقَضيّتَين:

المقدّمة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هٰذه البداية تُبيّن أَنَّ دَوْلَةَ سُلَيْمانَ دَوْلَةٌ دِينِيَّة، وأَنَّ مُلْكَهُ استخلاف ربَّانِيٌّ مُعَانٌ بقُوىً رَبَّانِيَّةٍ غيبيَّة، فهو يَسْتَعِينُ في سُلْطانِه بصِفاتِ وأَسْماءِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم.

وقد سبَقَ في أوائل المجلّد الأول شرحُ هٰذِهِ العبارة الّتي يُسْتَفْتَحُ بها في الإسلام كلُّ أمْرٍ ذي بَال.

ودَلَّ كتابُ سُلَيمانَ على أنّ هٰذِهِ العبارة كانت كذٰلِكَ عنْدَه، ولعلَّها كانَتْ متّبَعةً عِنْدَ غيْرِه من بني إسرائيل قبلَهُ أو بَعْدَه.

والقضية الأولى: دَلتْ عَلَيْها عبارة ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾: «أَلَّا» أصْلُها «أَنْ لَا» أُدْغِمَتِ النُّونُ باللّام فصَارَت لَاماً مَشْدَّدة، وكُتِبتْ في المصحف كما تُنْطَق ﴿أَلَّا﴾.

والمعنى: اعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْءَ الْعَظِيمَ الّذِي أُوَجِّهُهُ لَكُمْ يا أَصْحَابَ المِلْكِ والسُّلْطانِ في «سَبأ» هو «لَا تَعْلُوا عَلَيَّ» أي: لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنِ الخضوع لسُلْطاني.

طُوِيَتْ فِي الكَلامِ عبارَةُ «اعْلَمُوا» وعلى هٰذا تكُونُ «أنْ» هِيَ المُخَفَّفَة من الثَّقيلَة، واسْمُها ضَمِيرُ الشَّأنِ مَحْذُوف.

هذا ما تَرَجَّح لدَيَّ بَعْدَ النَّظَرِ فيما ذَكَرَهُ المفَسِّرُونَ والنحاةُ من وجوه.

والقَضِيَّةُ الثانية: دلَّتْ علَيْها عبارةُ: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: أي: وأْتُوني مُسْتَسْلِمِينَ خَاضِعِين، ولا تَسْتَكْبِرُوا عَنِ الْخُضُوعِ لمُلْكِي وسُلْطَاني.

وغَرَضُ سلَيْمَانَ من إخْضَاعِهِمْ أنْ يكونَ وسيلة إلى نَشْرِ دين اللَّهِ في مملكَةِ سَبَأ. وهٰذا هو غرضُ الأنبياء والمرسَلِينَ من بَسْط سُلْطانِ دَولَتِهم، وليْسَ غَرَضُهُمْ الْعُلُوّ في الأرض، وليس دافِعُهم حُبَّ العلُوّ في الأرض، فهذا لَيْسَ من شأن الذين يُرِيدونَ مَجْدَ الآخرة.

- ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾:

قالت: جاءَ تكرير فعل **[قالت]** إشارة إلى أنَّها تَرَيَّثَتْ وقتاً مَا، لتترك لهم فُرْصَة التفكير، وبَعدَه.

- ﴿أَفْتُونِى﴾: أي: أبينوا لي مَا تَرَوْنَ مِنْ رَأيِ سَديدٍ بشأْنِ هذا الأمْرِ الخطير، الَّذي فرَضَهُ عَلَيْنا الملكُ العظيم سليمانُ في الكتابِ الّذِي أُلْقِي عليّ وقرأتُ عليكم مضْمُونَ مَا جاء فيه.

يقال لغة: «أفتى المفتي أو المْستَشَار في المسألةِ المشْكِلَة» أي: أَبَانَ حُكْمَهُ أو رَأْيَهُ فيها. **والفتوى**: الجوابُ عمّا يُشْكِلُ من المسائل.

- ﴿فِىٓ أَمْرِى﴾: أي: في أمْرِي الّذِي عَرَضْتُهُ عَلَيْكُم بشَأْن مُشْكِلَتِنا مع الملِكِ سليمان.

- ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ وفي القراءة الأخرى: **[تَشْهَدُوني]** بإثباتِ ياء المتكلّم، الّتي حذفت في قراءة جمهور القرّاء

العشرة تخفيفاً، وهو من أساليب العرب. **تَشْهَدُوني**: على تقدير مضاف محذوف، أي: حتَّى تَشْهَدُوا مَجْلِسي.

﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾: أي: حتَّى تَكُونُوا حَاضِرِي مَجْلِسِي، وتُقَدِّمُوا مَا لَدَيْكُمْ من آراء، بشأْن الأَمْرِ الَّذِي أُمْضِي فيه قراراً يتَعَلَّقُ بِشُؤُونِ الدَّوْلَة.

فَمِنْ عَادَتي أنّني ما كُنْتُ فيما مَضَىٰ وَلَسْتُ فيما يأتي قَاطِعةً أمْراً مُهِمًّا من أُمُورِ الدَّوْلَة، حتَّىٰ تكونُوا حاضِرِينَ مَجْلِسِي، وحتَّىٰ تُقَدِّمُوا مَا عنْدَكم مِنْ مَشُورَةٍ حوْلَ الرّأي الصواب الذي تَرون، وبَعْد ذلك أُصْدِرُ ما أراه مَن قرارٍ فيه خيرُ الدَّولة ومصلحةُ الشَّعب.

يقال لغة: شهِدَ الْمجلِسَ، أي: حضَرَه، وشَهِدَ الحادِثَ أوِ الشَّيْءَ، أي: عاينَهُ.

فعبارتُها هي على مْعنَىٰ أشيروا عليَّ، كما هو شأني معكم في كلّ الأمور المهمَّة من أمُور الدّولة.

﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾: أي: مُصْدِرَةً أمْراً واجِبَ التنفيذ.

- ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

تضمَّنَتْ هذه الآية خُلاصَةَ مَا أَجابَ بِه أَهْلُ مَشُورَة مَلِكَةِ سبأ بِلْقِيس حول ما جاء في كتاب الملِكِ «سليمان» العظيم.

وهذا البيان الذي دلَّ على خلاصَةِ ما أجابوها به، يشْتَمِلُ علىٰ أربع قضايا.

القضيَّة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾: أي: نَحنُ أصْحَابُ قُوَّةٍ قادرةٍ علىٰ الدِّفاع، رجالاً وسلاحاً وعتاداً.

القضيَّة الثانية: دلَّتْ عليها عبارة: **[وَأُلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ]**: أي: ونَحْنُ أُلُو قِتَالٍ شَدِيد.

البأس: الشِّدَّةُ في الحرْب.

القضيَّةُ الثالِثَةُ: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾: أي: وأَمْرُ قَرارِ الحرْبِ أو قرارٍ آخَرَ مُفَوَّضٌ ومَتْرُوكٌ إلَيْكِ.

فإن قَرَّرْتِ الحربَ فقد ذكَرْنَا لَكِ استعدَادَ مَمْلكتنَا لها قُوَّةً وبَأْساً.

القضيَّة الرابعة: دلَّتْ عليْها عبارة: ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾: أي: فانْظُري بِفكرِكِ الثّاقِب، وتَدَبّري بحكْمَتِك، وقَرِّري الشيءَ الَّذي تَأْمُرِينَ بِه، وأصْدِرِي قَرارَكِ للتَّنْفِيذ، ونَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لِطَاعَةِ أمْرِكِ الَّذي تَأْمُرِينَ به.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

دلّ كلامُ «بِلْقيس» هذا على أَنَّهَا رأَتْ إيثارَ السِّلْمِ والمصانَعَةِ على الحرب، بَعْدَ أَنْ فَوَّضَ مَلأُ قَوْمِها إِلَيْها أنْ تُقرِّرَ ما تَراهُ، وتأمُرَ بِه.

وأبانَتِ الأمْرَ الّذي دَعَاهَا أَنْ تُقَرّرَ هذا القرار، فقالت: إنَّ من عادَةِ الْمُلُوكِ أَنَّهُمْ إذَا دَخلُوا فاتِحِين مُحارِبين قَرْيَةً من الْقُرَىٰ، أَفْسَدُوهَا، بتخريب مبانيها ومُنْشآتِها، وتَحطِيمِ أشْجارِها ومَزارِعِها، والاستيلاءِ على خَيْرَاتِها ونَفَائِسها، وتغيير أنظمتها لمصالحهم، وجعَلُوا أعزَّة أهلها أذِلَّةً.

الأعِزَّة: الأقوياء ذَوُو الْغَلَبَةِ فيها، جَمْع «الْعَزِيز».

الأذِلَّةِ: الضّعَفاء المهانون المغلوبون على أمرهم، جمع «الذليل».

والمرادُ بالقرية في القرآن كلّ مُجمَّعٍ سكَنِي صغيراً أو كبيراً، ولو كان مدينةً عظيمة، وهو كذلك في الّلغة.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾: أي: وكذلِكَ يَفْعَلُونَ دواماً بَعْدَ أَنْ يَسْتَوْلُوا عليها بالْقُوَّة.

وجاء كلامُها مؤكّداً بِحَرْف التَّوْكيد «إنَّ». ودَلَّ استعمال ﴿إِذَآ﴾ على

أنَّها أشْعَرَت مَلأَ قَوْمِهَا بأنَّ ما لَدَيها من قُوَّةٍ ورجالٍ ذَوي بأسٍ في الحرب، أضْعَفُ ممّا شاعَ في الأَقْطَار عن سليمانَ وسُلْطَانه، وما لَدَيهِ من قُوىً قِتاليَّةٍ وجُنْد، فَمِن الخير لدولَتِها ولشَعْبِهَا وَلَهَا ولِلْمَلأ أَنْ تُصَانِعَ وتتقرَّبَ بالْهدايا النفيسة إلى سليمان.

- ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾:

أي: وإنّي مُرسلَةٌ إلى «سُلَيْمانَ» ويُلْحَقُ بِهِ رِجالُ دَوْلَتِهِ بِهَدِيَّةٍ نَفِيسَةٍ على سَبِيلِ المصَانَعَةِ والمدارَاةِ والتودُّد.

الْهَدِية: ما يُقَدَّمُ عَطِيَّةً على سَبِيلِ التقرُّبِ والتودُّدِ والمصانعة، وتُجْمَعُ على «هَدَايا».

﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾: أي: فمُتَرَقِّبَةٌ ومُنْتَظِرَةٌ.

﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟. أي: بأيّ شيءٍ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ الّذين أرْسِلُهُمْ إلى سُلَيْمانَ بالهديّة، بقبولِ الهدية أَمْ بِرَفْضِها.

﴿بِمَ﴾؟ معمول لِفِعْلِ: ﴿يَرْجِعُ﴾ قُدِّمَ لأنّ الاستفهام له الصدارة في العربية.

وقف يعقوب بهاء السكت على «بِمَ» وهو وجْهٌ للبزّي.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٣٧﴾:

ـ أثبت ياء المتكلم في: **[أَتُمِدُّونَنِي]** ابن كثير في الوصل والوقف، وأثبتها كذلِكَ في الوصل فقط نافع، وأبو عمرو، وأبو جَعْفر.

وقرأها حمزة ويعقوب: **[أَتُمِدُّنِّي]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَتُمِدُّنَنِ] بِحذف ياء المتكلّم.

ـ وفي ياء المتكلم من [آتانِي اللّهُ] قراءات، الإثباتُ والحذْفُ، والفتح والإسكان.

التدبر التحليلي:

دلَّ هذا البيان على مَطْوِيٍّ في اللَّفظ، وهو أنّ «بِلْقيسَ» مَلِكَةَ سَبأ قد أرْسَلَتْ وَفْداً من عِلْية قومِها إلى سُلَيمانَ، يَحْمِلُونَ هَدِيَّتَها إلَيْهِ، مُصانَعةً وتَقَرُّباً وَتَوَدُّداً.

﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ أي: وَفْدُ بِلْقِيسَ ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ عَلَيْهِ السَّلامُ ﴿قَالَ﴾ سُلَيْمانُ لِلْوَفْدِ ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ﴾ من مَالٍ وسُلْطَانٍ وقُوَّةٍ وَبَأْسٍ ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ في مَمْلَكَتِكُمْ، فلا طمع لي بمالٍ عندكم.

الإمداد: الزيادة من الخير. **أتُمِدُّونَنِي**: أي: أتريدون إعطائي زيادة على ما عندي.

وأَضْرَبَ سُلَيمانُ عليه السّلام إضراباً انتقاليًّا فقال للوفْد: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ أَيْ: الّتي تَرَوْنَهَا نَفِيسَةً جِدًّا ﴿تَفْرَحُونَ﴾ فَرَحَ سُرُورٍ، ظَانِينَ أَنَّها تُرْضِيني، فَتَكُفُّنِي عَن الْقُدُوم بِجُنْدِي إلَىٰ بلادِكُمْ، وفَتحِها بالْحَرْبِ، والسَّيْطَرَةِ علَيْها، وضَمِّها إلى مُلْكِي، وإخْرَاجِ مَالِكيهَا مِنْها أَذِلَّة صَاغِرِين، جهاداً في سَبِيلِ الله لنشر دينه.

وهو يَقْصِدُ بهذا الخطاب الذي خاطبَ به الوفْد بِلْقِيسَ ورِجَالَ دَوْلَتِها.

وتوجَّه سُلَيْمَانُ علَيْه السّلام لرَئِيس وفْدِ بِلْقيس، وقالَ له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ارْجع إلى بِلْقِيسَ ورجالِ دَوْلَتها بِهَدِيَّتِهِمْ إلَيَّ. ورفَضَ أَنْ يَقْبَلَ رِشْوَةً تَكُفُّهُ عَنْ نَشْرِ دينِ الله جِهاداً في سبيله. وقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أقْسَمَ سُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلامُ، بِدَليل لام القسم الواقعة في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ ونُونِ التوكيد الثقيلة التي جاءتْ في فِعْلَي: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم ـ وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ عَلَىٰ غَزْوِ «سَبأ» بجيْشٍ لَا قِبَلَ للمدافِعِين عن مملكتها به.

﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: أي: لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِدَفْعِ جُنودِنا ولا مُقَاومَتها، ولا الصُّمُودِ في وَجْهِهَا، **القِبَلُ**: الطَّاقَةُ لغة.

جاء عودُ الضميرِ في ﴿بِهَا﴾ على الْجُنُودِ مَرَاعَاةً لمعْنَىٰ الجماعَة.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾: أي: ولَنُخْرِجَنَّهُمْ من مدينتهم «مأرب».

﴿أَذِلَّةً﴾: جَمْعُ ذَلِيلٍ، وهُوَ الضعيف الْمُهَان.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾: أي: وهُمْ وَضِيعُون حَقِيرون لا قِيمَة لهم.

الصَّاغِرُ: هُو الْوَضِيعُ الْحَقير الّذي ليْسَ له قِيمَةٌ تُحْتَرم.

وهَكَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ أُخرج مِنْ مَكانِ سُلْطَانِهِ أسِيراً مَغْلُولاً مُهَاناً.

ورَجَع وَفْدُ بِلْقِيسَ إليها بالْهَدِيَّة الَّتي حَمَلُوها إلى سليمانَ عليه السلام، ووصفوا لها ما شهدوه.

وقرَّرَتْ «بِلقِيس» أنْ تُطِيعَ أَمْرَ سُلَيْمان عليه السلام، وتأتِي إلَىٰ عَاصِمَةِ مُلْكِه في الْقُدسِ، هي ومَن اختارَتْهُمْ من رجالِ مَمْلَكتِها، لِيُقَدِّمُوا إلى سُلَيْمانَ الخضُوعَ والطاعَة.

وعَلِم سليمانُ علَيْه السلام بما عَزَمَتْ أنْ تَفْعله «بِلقِيس» من طاعَتِه، والْقُدُومِ إليه هي ومن تختارهُمْ مِنْ رِجال مَمْلَكَتِها طائِعين مسْتَسْلِمين.

وبَيْنما كانَ رَكْبُ «بِلْقِيس» ومَنْ مَعَها فِي طَرِيقهم إليه، أرَادَ أَنْ يأتي بِعَرْشِها إلَىٰ قَصْرِه، قَبْلَ أنْ يَصِلَ الرَّكْبُ خَاضِعاً لسُلْطَانِه.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾:

- قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ﴾ بإثْباتِ أَلِفِ «أَنَا» بعد النون وصلاً في الموضعين. وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف هذه الألف.

- قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء المتكلّم من: ﴿لِيَبْلُوَنِيَ﴾ وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

تمهيد:

في هٰذه الآياتِ بيانُ أمْرٍ من أمُور سليمان عليه السلام يَدُلُّ على ما وَهَبَهُ اللَّهُ عزَّ وَجلَّ، عن طَرِيق بعض الخاصَّة مِنْ رجال دَوْلَتِهِ من إنْسٍ وجِنّ، من قوىً لم يُؤْتَها غَيْرُهُ من المَلُوك، وكَانَ هُوَ أَهْلاً لها وكَانَ شاكراً لربّه.

وهذا الأمْر يتعلّق بالملكة بِلْقيس وعَرْشها وَإحضارِه من سَبأ قبل وصُولِها إليه.

التدبر التحليلي:

قوله الله تعالى:

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

وجّه سليمانُ عليه السّلام بأسْلُوب النِّدَاءِ رَافعاً صَوْته، لِيَسْمَع قَوْلَهُ مَنْ هُمْ في طَرَفِ الْمجلِسِ بعيدين عن كرسيِّهِ من أهل مَجْلِسهِ؛ وزرائِه،

وحَاشِيَتِه، ومُسْتَشاريه، وهُمْ مَلأُ القَوْمِ الّذين يَمْلَؤُونَ عُيون العامّة، قائلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ وفيهم إنْسٌ وجنٌّ.

- ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾: أي: أيُّكُم يَأْتِيني بِعَرْشِ بلْقِيسَ من سَبأ، إلى قَصْرِي في أورشليم (القدس).

- ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾: أي: قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيَّ مُعْلِنين اسْتِسْلَامهم وخضوعَهُمْ لطَاعَتِي.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾:

الْعِفْرِيت: الْقَوِيُّ الماكِر. وكَانَ هذا الْعِفْرِيتُ من الجنِّ أَحَدَ خاصَّةِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السلام ومَجْلِسِ وُزَرَائِهِ ومُسْتَشاريه.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ﴾: أي: أنا أُحْضِرُهُ لَكَ مَا بَيْنَ قَوْلي هٰذا وقيامِكَ مِنْ هَذا الْمَجْلِس، على وفْق عادَتِك، وقد يكون وَقْتُ انتهاء مَجْلسِهِ المعتاد مع الزوال أو عقبه قليلاً.

المقام: يُطلق في اللغة على المجلس.

﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾: أي: وإنّي على حَمْلِهِ ونَقْلِه من قَصْرِها في سَبأٍ لَقَوِيٌّ، وإنّي عَلَىٰ جواهِرِهِ ونَفَائِسِه لأَمِينٌ.

وشَدَّدَ العِفْريتُ التَّأكيد على الأمْرَيْن بدلَالَةِ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ والّلام المزحلقة».

- ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾:

أي: قالَ الّذي عنده عِلْمٌ خاصٌّ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللهِ مِمَّا سَخَّر فِيهِ لبَعْضِ عِبادِه من كَلِمَاتٍ، إذَا قَالَهَا حَقَّقَ اللَّهُ لَهُ مُرادَهُ بأمْرِ التَّكْوين، بشرط أن يَكُونَ نُطْقُهُ بِهَا لتَحْقِيق مُرادِه مأذُوناً له به مِنْ رَبّه جلَّ جلالَهُ

وعَظُمَ سلطانُه، ولَا يكونُ هذا إلّا بِوَحْيٍ منه سُبْحانَه.

قال المفَسِّرون: واسْمُ هٰذا الذي عنْدَه عِلْمٌ من الكتاب، وهو من أَهْلِ مَجْلِسِ سليمان عليه السلام ومستشاريه؛ «آصَف بْن بَرْخِيا» والله أعلم.

ويَغْلِبُ على ظني أَنَّهُ نَبِيٌّ، جعَلَهُ اللهُ عزّ وجلَّ من خاصَّةِ سُلَيْمَان النبيّ الرَّسُول، ويكُونُ هذا الْعِلْمُ ممّا اختصّ الله به هذا النبيَّ ولم يمْنَحه لسُلَيمان، ولكنَّ وُجُودَ هذا النَّبيِّ تَابِعاً من أتباع سليمان عليهما السلام، هو مِنْ إكرَامِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لرسوله سليمان.

قال الّذي عنده عِلْمٌ من الكتاب لسليمان أنَا آتِيكَ بِعَرْش بِلْقِيسَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ.

الطَّرْف: تَحْرِيكُ الجفْن، يُطْلَقُ علىٰ الواحد وغيره، وقَدْ يُثَنَّىٰ ويُجْمع.

ومَعْلُومٌ أَنَّ تَحْرِيكَ الطَّرْفِ إبْعَاداً يكُونُ بانْفِرَاجِ الجفْنَيْن الْأَعْلَى والأسفل عن الْعَينِ، وهذا بمثابَةِ إبعادِهِما عَنْ صاحِبهما، فيَكُونُ رَدُّ الطَّرْفِ إلَيْهِ بِضَمّ الْجَفْنَيْن على الْعَيْن، وهذا نظير قولك لباسط يَدِه: رُدَّ إلَيْكَ يَدَكَ.

فالمعنى: أنا أُحْضِرُهُ لَك خِلَالَ زَمَنٍ يُعَادِلُ رَدَّ جفْنَيْكَ إلَىٰ الإطْبَاق بَعْدَ انْفِراجِهِما.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: فَلَمَّا رَأني سليمانُ عليه السّلام عَرْشَ «بِلْقِيسَ» حاضراً عِنْدَهُ، ومُسْتَقِرّاً عَلَىٰ قَوائِمِهِ، ومُهَيَّأً لِلْجُلُوسِ عليه، قال مُبَيِّناً فضل الله عليه، غَيرَ

مُسْتكْبِرٍ كعَادَةِ الملُوكِ غيْرِ الرَّبَّانيّين، الَّذِين يَتَفاخرون مُسْتكْبرين، بما حَصَل لهم من نَصْرٍ أو غَيْرِه، ممَّا تميَّزُوا به على مَنْ سِواهم، وَمُبيّناً أنَّهُ مُمْتَحَنٌ بما آتاه اللَّهُ مِنْ فَضْلٍ عَظيم، أَيَشْكُرُ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ أمْ يَكْفُر، ومُبَيِّناً قَاعِدَةً مِنْ قواعِدِ الامتحان الرَّبَّانيِّ للعباد، وهيَ أَنَّ مَنْ يَشْكُرُ رَبَّهُ فَهُو المستفيدُ مِنْ شُكْره له أجراً عنده، وأنَّ مَنْ يَكْفُرُ نِعْمَةَ رَبِّه فإنَّهُ لَنْ يضُرَّ اللَّهَ شيئاً لأنَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ عِنْ كلّ شَيْءٍ، وقَدْ يُمِدُّ اللَّهُ الكَرِيمُ أَجَلَ امْتِحانه ولا يُعجّلُ عِقَابهِ بَلْ يَتْرُكُ لَهُ أَمَداً لِيُرَاجِعَ بِهِ نَفْسه فيَتُوبَ ويَكُونَ من الشَّاكِرِين.

المسْتَقِرّ: المتمكّنُ في مَوْضِعِه الثّابتُ عليه.

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾: أي: إحْضَارُ عَرْشِ بِلْقِيسَ لِي، واستقرارُهُ عِنْدِي كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ، هُوَ فَضْلٌ مِنْ مِنَحِ رَبِّي عَلَيَّ.

﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؟. أي: لِيَخْتَبِرَنِي، أأكونُ شاكراً لفضل اللّهِ علَيَّ أمْ أكونُ كافراً.

الشكر: هو مقابلة إنعام المنْعِم بما يُرْضِهِ من فِعْلٍ أو تَرْك. ويَدْخل فيه الاعتراف والثناء، وضِدُّهُ الكفر، وأخَسُّهُ الجحود ونُكْران الجميل.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾:

هذه قاعدةٌ من قواعد امتحان اللّهِ لعباده بالنِّعَم في الحياة الدنيا، وهي ذاتُ أرْبَعِ موادّ، دلَّ اللفظ على بعضها صَراحة، ودلَّ على بعضها لزوماً ومن دلالات نصوص أخرى.

المادّة الأولى: مَنْ يَشْكُر رَبَّهُ علَىٰ ما أَنْعَم بِهِ عَلَيْه، بَدْأً من إيجادِهِ، وإمْدَاداً له بالحياةِ والرّزق والسَّلامة وسائر النِّعَم الَّتي لَا يُحْصِيها، فإنَّه لَا يَنْفَعُ بِشُكْرِه رَبَّه إلّا نَفْسه، لأنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ يكافِئُه على شُكْرِهِ بمزيدٍ من نَعِمِهِ في الحياة الدُّنيا، وبأجْرٍ عظيم خالدٍ يَوْمَ الدّين في جَنَّاتِ النعيم على مقدار شُكْرِه.

وأوّلُ شُكْرِ الْعَبْدِ لربِّهِ على نِعَمِهِ أنْ يُؤْمِنَ بِهِ وبصفاته الجليلة وأسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وبكلّ أركان الإيمان الّتي أوجب علَىٰ عباده أنْ يُؤْمِنُوا بها، ثم أَنْ يُعْلِنَ إسْلَامَهُ له وخُضُوعَهُ لِأَوامِرِه ونواهيه وأحْكَامِ الدِّينِ الّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُوله، ثُمَّ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ ويُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا هُو لَهُ أهْل، وأَنْ يُطِيعَهُ فَيَفْعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ، ويجتَنِبَ مَا نَهَىٰ عَنْهُ عبادَه، على مقدار اسْتِطَاعَتِهِ.

المادّة الثانية: مَنْ كَفَرَ جَاحِداً نِعَمَ رَبِّهِ عليه، أوْ أَبَىٰ أَنْ يُسْلِمَ لَهُ، أَو جَعَلَ لَهُ شريكاً فِي رُبوبيّتِهِ أو إلَهِيَّتِهِ، أو عَصَىٰ أوامره ونواهِيَهُ كُلَّها أو بَعْضَها، فإِنَّهُ لَا يَضُرُّ اللَّهَ شيئاً، بَلْ يَضُرُّ نَفْسَه عَلَىٰ مِقْدار كُفْرِهِ بِه.

فعاصِي الأوامر والنواهي العمليّة يَحْرِمُ نَفْسَهُ من أجُورها، ويُعَرِّضُ نَفْسَهُ للجزاء بالعقاب على مقدار معاصِيه.

ومن كفَرَ من دَرَكة الشِّرْكِ باللَّهِ جَلَبَ لنفسه الخلود في دار العذاب يوم الدّين، على مقدار دركة شركه.

ومن كَفر من دَركةِ جُحُود اللَّهِ جَلَبَ لِنَفْسِهِ الْخُلُودَ في دار العذاب يَوْمَ الدِّين انْحِطَاطاً فِي دَرَكات العذابِ فيها على مِقْدار جُحُوده وظُلْمه ودَرَكاتِ الجرائِمِ الَّتي ارتكَبَها في حياته.

المادة الثالثة: إنَّ الله عزّ وجلّ غَنِيٌّ عَنْ عباده، لَا يَنْفَعُه إِيمَانُهم به ولا طاعتهم له، ولَا يَضُرُّهُ شيئاً كُفْرُهم به، ومعصيتُهم له.

المادة الرّابعة: إنَّ اللَّهَ جَوادٌ كَرِيم، يُمْهِلُ عباده الكافرين والعاصِينَ من دُون الكفر إمْهَالاً كثيراً رغْبَةً في أَنْ يَتُوبوا ويُصْلِحُوا، فَلَا يُعَجّلُ لهم عقوباته.

- ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾:

﴿قَالَ﴾: أي: سُلَيمانُ عليه السّلام.

﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾: أي: غَيِّرُوا فيه تَغْيِيراً يَجْعَلُهَا تُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ هُو عَرْشَها، مع المحافظةِ علَىٰ سَائِرِ صِفَاتِهِ.

وغرضه عليه السّلام أَنْ يَشْتَبِهَ علَيْها أمْرُه، هَلْ هُوَ عَرْشُهَا فِعلاً، أَمْ هُو نَظِيرُهُ دُونَ تَطَابُق تامٍّ.

والمأمُورُونَ بالتَّنْكِير هُمُ الصُّنَاعُ الماهِرُونَ القادِرُون على التغيير التَّنْكِيري دُونَ إفساد، وقد كَانَ أمْرُهُ مُوجّهاً لِبَعْضِ وزرائِهِ أو وُكلائه الَّذينَ يكَلَّفُونَ عَادَةً أنْ يَتولَّوا مِثْل هٰذه الأمور، لإحْضَارِ الصُّنَّاعِ الماهِرِينَ بصِنَاعَةِ عُرُوش الملوك وكراسيهم.

﴿نَنظُرْ﴾ مجزومٌ على أنَّه جواب الطَّلَبِ في ﴿نَكِّرُواْ﴾ أي: إنْ نَكَّرْتُمْ عَرْشَها نَنْظُرْ إِذَا حَضَرَتْ وأَرَيْنَاهَا إِيَّاهُ وسَأَلْنَهَا عَنْهُ.

﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟

أراد سُلَيْمَانُ أَخْتِبارَ ذَكَائِها وَمَا تُجِيبُ بِهِ إِذَا سُئِلَتْ: أَهٰكَذَا عَرْشُكِ؟.

﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾؟: أي: أتَهْتَدِي أَنَّهُ عَرْشُهَا مَعَ تغييرٍ فيه، أَوْ هُوَ نظيرُ عَرْشِها.

﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟ أي: أمْ تَكُونُ غَيْرَ حَادَّة الذَّكاء، فَتقُولُ كلَاماً يَدُلُّ على مُسْتَوىٰ ذَكائِها الَّذِي لَا يتلاَءُمُ مع مَا هِيَ فِيهِ من مُلْكٍ ذي شأْن.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ـ قرأ قُنْبُل: **[سَأْقَيْهَا]** بهمزة ساكنة بعد السّين، عِوَضاً عن الألف، على لغة من يهمز حرف المدّ إذا وقَعَ وسَطَ الكلمة.

تمهيد:

دلّت هٰذه الآيات على أنّ سُلَيْمان عليه السّلام خَصَصَ لتكْرِيم مَلِكَةِ سَبَأَ القادمَةِ إلَيه طائعةً مُسْتَسْلِمَةً، مَنْ يَسْتَقْبِلُها ويَسِيرُ مَعَها، ويَدُلُّها على الطَّرِيقِ، ويَعْرِضُ علَيْها مَا يُدْهِشُهَا بِهِ من عَظَمَةِ مُنْشآتِ سُلَيْمان، ورُبّما كانَ مِنْ ذَلِكَ حَرَسُهُ الْخَاصّ.

وتُوحي بأنّ سَليمان عليه السلام، أمرَ بأَنْ يُوضَع عَرْشُها في مَكَانٍ ما خارِجَ الْقَصْر الّذي تُدْعَىٰ إلى دُخُولِه، كأَنَّهُ مَجْلِسُ استراحَةٍ للْمَلِكِ في الحديقَةِ المحِيطَةِ به، ولَيْسَ هو عَرْشَهُ الذي يَجْلِسُ عليه للحُكْم.

ودعَاها مُرَافِقُو التكْرِيمِ للْمَسِير، فَمَرُّوا بِهَا إلى جانب عَرْشِها المنكَّر، فقالَ لَهَا رَئِيسُ مُرافِقي تكْرِيمها من خاصَّةِ سُليمانَ إذْ كان أوصَاهُ بذلك: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾؟ اختباراً لذكائها، بشَأْنِ عَرْشها المنكر تنكيراً يُشْعِرُ بالتَّشابُهِ الكبير بَيْنَهما دون تطابق، ولمقدار حكمتها فيما تجيب به، وإشعاراً لها بأنّ عَرْشَها الّذي تفتخر بِهِ لَا يَسْتَحِقُّ في مُلْكِ سُليمانَ أكثر من أَنْ يَكُونَ مَجْلِسَ اسْتراحَةٍ في حَدِيقَةِ قَصْرِه.

وأدْرَكَتْ «بِلْقِيسُ» الْغَرَضَ من السُّؤال، ومِنْ وَضْعِ الْعَرْشِ في حَدِيقَةِ الْقَصر، فأَجَابَتْ عَلَىٰ السُّؤال إجابَةً ذَكِيَّةً حَكِيمَة. فقالَتْ: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ أي: بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَرْشِي تَشابُهٌ كَبِيرٌ إلّا أَنَّهُ غَيْرُ مطابقٍ له، فَدَلَّ هذا الجواب عَلَىٰ دِقَّةِ مُلَاحَظَتِهَا لِلْفَرْقِ الَّذِي أَحْدَثَهُ التَّنْكِيرُ. وأَجابَتْ عَلى الْغَرَضِ مِنْ وَضعِ هٰذا الْعَرْشِ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ كَأَنَّهُ مَجلِسُ استراحَةٍ للملك سليمان فقالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ أيْ: وأُوتِينا الْعِلْمَ بعَظَمَةِ مُلْكِ مَلِكِكُمْ وَقُوَّةِ غَلَبَتِهِ، وَسُلْطَانِهِ، وَجُنْدِهِ، مِنْ قَبْلِ هٰذِهِ المشاهَدَةِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا

بأعْيُنِنا، وَكُنَّا طَائِعِينَ مُسْتَسْلِمِينَ قَبْلَهَا، وَهٰذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَنا نَأْتِي إليكم.

واجتازُوا الحديقَة وَوَصَلُوا إلى مَدْخَلِ الْقَصْرِ العظيم، واسْتَقْبَلَهَا سليمانُ عليه السلام عِنْدَ بَابِ قَصْرِهِ، وَكَانَ قَدْ جَعَلَ بَلَاطَ أَرض السَّاحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ من زُجَاجٍ، وَجَعَلَهُ مُتَمَوِّجاً، وَرُبَّمَا كَانَ قَدْ أَجْرَىٰ تَحْتَهُ مَاءً، زيادَةً في الإِيْهَامِ بأَنَّهُ مَاءٌ يَتَمَوَّجُ.

وَدَعَاهَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلامُ إلى الدُّخول، فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَىٰ أَرْضِ السَّاحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَكَانَتْ قَدْ أَصَابَهَا الدَّهَشُ قَبْلَ الدُّخول، حَسِبَتِ السَّاحَةَ بِرْكَةً يَتَمَوَّجُ فِيها الْمَاء، فَكَشَفَتْ ثَوْبَهَا عَنْ سَاقَيْهَا لِئَلَّا يُصِيبَهُ بَلَلُ الماء الَّذِي تَمْشِي فِيهِ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يكون عَمِيقاً، ويَدْعُوهَا الملِكُ إلى الدُّخُولِ فيه.

فقال سليمان لها: هٰذا لَيْسَ بماء، إنَّهُ مَفْرُوشٌ بزُجاجٍ أمْلَس على شَكْل تَمَوُّجِ الْمَاءِ، أي: فَلا تَخَافِي عَلَى ثَوْبِكِ مِن الْبَلَلِ.

عندئذٍ بَلَغَ مِنْهَا الدَّهَشُ مَبْلَغاً دَعَاهَا إلى إعْلَانِ إيمانِها باللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وإسْلَامِهَا لَهُ مع سليمان، وقَدْ كَان لها عِلْمٌ بهٰذِهِ الْحقائق الدِّينيَّة، مُنْذُ كانَتْ في بَلَدِها وَعلى عَرْشِ مُلْكِهَا، ورُبَّما دَعَاهَا رَئِيسُ مُرَافِقِي تَكْرِيمِهَا إلى الإيمان باللَّهِ والإسْلام له، وهوَ يَسِيرُ مَعَهَا، ولٰكِنْ صَدَّهَا عَنِ الاسْتِجَابَةِ لَهُ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَبْلَ ذٰلِكَ، إذْ كَانت تَسْجُدُ للشَّمْسِ على عَادَتِهَا تَقْلِيداً لِقَوْمِهَا.

فقالت ما دلَّ عليه قول الله عزَّ وجل: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

التدبّر التحليلي:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ أي: فلمَّا جاءَتْ بَلْقِيسُ مع وَفْدِهَا

إلى أورشليم «= الْقُدْس»، واستقبلها مَنْ خَصَّصُهم «سليمان» عليه السَّلام لاستقبالِهَا واستقبالِ وفْدِها مُكرِّمين، وأَنْزَلُوهم مَنَازِلَهُمُ التَّكْرِيميَّة، وَجَاءَ مَوْعِدُ دُخُولِهِمْ إلَىٰ سُلَيْمَانَ فِي قَصْرِهِ، وأدْخَلُوهُم من باب سُور حَدِيقَةِ الْقَصْر، ومَرُّوا بِهِمْ إلى جانِبِ عَرْشِهَا الَّذِي وُضِعَ في حَدِيقَةِ الْقَصْرِ للإيهام بأنَّهُ مَجْلِس اسْتِراحَةِ الملِكِ في حَدِيقَةِ قَصْرِهِ.

وجاءت عبارة ﴿قِيلَ لَهَا﴾ بالْبِنَاء للمجهول للدّلالة على أنَّ القائل لَيْسَ سليمان عليه السّلام، والفكْرُ يَسْتَنْبِطُ أنّ القائِلَ رَئِيسُ لجنَةِ المرافقين التكريمية.

فلمَّا وَصَلَتْ إلى قَرِيبٍ جدًّا مِنْ عَرْشِها، قالَ لَهَا رَئِيس مُكَرِّمِيها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾: الهمزة للاستفهام، ولفظ «ها» للتنبيه، يَدْخُلُ على اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب. والكاف للتشبيه وهو حرف جرٍّ دَخَلَ على اسْم الإشارة «ذا». ﴿عَرْشُكِ﴾ أي: سَرِيرُ أَوْ كُرْسِيُّ مُلْكِكِ.

- ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾: أي: يُشْبِهُهُ شَبَهاً كثيراً، حتَّىٰ كَأَنَّهُ هُوَ فِي نَظَرِ مَنْ لَا يُدْرِكُ الْفُروق.

- ﴿... وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: من الظّاهِرِ أنَّها أَدْرَكَتْ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ جَعْلِها تَمُرُّ بجانِبِ هذا الْعَرْشِ الْمَوْضُوع في حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، الدَّلَالَةُ عَلَىٰ عَظَمَةِ مُلْكِ سليمان، وأنَّ شَبِيهَ عَرْشِهَا مَوْضُوعٌ في الْحَدِيقَةِ لاستراحَتِهِ، فقالت كلاماً دلَّ عَلَيْهِ هٰذا البيانُ الرَّبَّانِيّ.

أي: وَسَبَقَ أَنْ أُوتينا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ المشاهَدَةِ الْبَصَريَّة، بِعَظَمَةِ مُلْكِ سُليمان، وَمَا له من مَجْدٍ وسُلْطانٍ وجُنْدٍ وَمَالٍ وقُوَّة، وكنَّا مِنْ قَبْلِ حُضُورِنَا إلى مَمْلَكَتِهِ، وَمُشَاهَدَاتِنَا، مُسْلِمين، أي: مُسْتَسْلِمِينَ مُنْقَادِينَ خَاضِعِين.

ومع أنَّها دَهِشَتْ هي وَوَفْدُها مِنَ الواقع الذي شَهِدُوه، إلَّا أنَّها ما

زالَتْ حتَّىٰ الوقْت مُحافظةً عَلىٰ ما كانت عَلَيْهِ من شِرْكٍ، مَشْدُودَةً نَفْسِياً إلى تقالِيدِهَا الْمَوْرُوثَةِ.

- ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾.

دلَّت هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ رَئِيسَ لَجْنَةِ استقبالها وتكريمها مع وفْدِها، دَعَاها إلَىٰ الإسلام لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ والدُّخُولِ فِي دِينِ سُلَيْمان، فَلَمْ تَسْتَجِبْ سَاعَتَئِذٍ، وَرُبَّما قال لها: إنَّ سُلَيْمَانَ النَّبِيَّ الرَّسُولَ المَلِكَ يَدْعُوكِ ويَدْعُو قَوْمَكِ إلىٰ هٰذا.

﴿وَصَدَّهَا﴾: أي: وَمَنَعَها وَصَرَفَهَا عَنِ الاستجابة سَاعَتَئِذٍ للدَّعْوَةِ إلى الإيمان باللَّهِ، رَبِّ الْعَالَمِينَ والإسلامِ لَهُ، واتِّباعِ سليمان اتِّباعاً دِينياً.

﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾: إذْ كانَتْ عَلَىٰ مَذْهَبِ الصابِئَةِ، فَقَدْ كَانَتْ هِيَ وَقَوْمُها يَسْجُدُونَ للشَّمْس.

﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾: في هٰذِهِ الْعِبارة إشارَةٌ إلىٰ أَنَّهَا امْرَأَةٌ حَكِيمَةٌ عَاقِلَة، لَدَيْهَا رُشْدٌ يَدْفَعُها إلى الإيمان باللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إيماناً صَحِيحاً كَامِلاً، والإسْلَامِ له، إلَّا أنَّها كَانَتْ مَشْدُودَةً إلىٰ قَوْمِهَا بالْعَصَبِيَّةِ، وَنَاشِئَةً عَلَىٰ الاعْتِزَازِ بِهِمْ والانْتِصَارِ لَهُمْ وَلَوْ كَانُوا عَلَىٰ باطلٍ أو خطإٍ ظاهر.

فقد سَبَقَ فِي قِصَّتِها بيانُ أَنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ للشَّمْس حكايَةً عَنِ الْهُدْهُدِ، مع الإشعار بأنَّ ما ذَكَرَهُ حَقٌّ، والسُّجُودُ للشَّمْسِ كُفْرٌ ظَاهِرٌ، لَا حَاجَةَ لإثباتِهِ بعبارَةٍ خاصَّة، فَدَلَّ هذا عَلَىٰ أَنَّ الْغَرَضَ من العبارة، الإشارة إلى ما في الْعَصَبِيَّات الْقَوْمِيَّةِ وَمُؤَثِّراتها من تأثيرٍ على نفوسِ أهْلِ الحكْمَةِ والْعَقْلِ والرُّشْدِ.

وهٰذه الآيَةُ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ جَاءَ دالًّا بالْفَحْوَىٰ على أَنَّها دُعِيَتْ إلى الإسْلام الدِّينيّ، فَلَمْ تَسْتَجِبْ في أَوّل الأمر، وفيها بَيَانُ سَبَبِ عَدَمِ اسْتِجَابَتِها.

- ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

دلَّ لفظ ﴿قِيلَ﴾ في أوّل هٰذِهِ الآيَة، ولفظ [قَالَ] في أثنائِها، عَلَى أنَّ الَّذِي قال لها: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ رَئِيسَ لَجْنَةِ التَّكْرِيم المرافِقَة لها ولِمَنْ معها، وعلى أنَّ الَّذِي قال لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ هُو سُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلام.

وَهَذا التّرتِيبُ في البيانِ يُشْعِرُ بأنَّ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ اسْتَقْبَلَهَا وَمَنْ مَعَهَا بحفَاوَةٍ عِنْدَ مَدْخَل الصَّرْحِ، أمّا قَبلَهُ فَقَدْ كانَ مُرَافِقُو تَكْرِيمِها هُمُ الّذِينَ يمْشُونَ مَعَها مُكَرِّمِينَ ومُحادِثِين، على مقاديرهم.

- ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾: الصَّرْحُ الْقَصْرُ العظيم العالي الذَّاهِبُ ارْتفاعاً في السّماء.

- ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾: أي: فَلَمَّا رَأَتْ أَرْضَ ساحَتِهِ الدَّاخِلِيَّة.

- ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: توهَّمَتْ أَنَّهُ مَاءٌ كَثِيرٌ ذُو مَوْج، كأنَّها شاهدتْ مَكَانَ عُمْقٍ في الْبَحْرِ، لَقَدْ صنعَ هٰذا في نفسها الانْدِهَاشُ المتتابع.

اللُّجَّةُ في اللُّغة: معْظَمُ الْبَحْر وَتَرَدُّدُ أَمْوَاجه، ولَعَلَّهَا تَرَيَّثَتْ، ثُمَّ أَدْرَكَتْ أَنَّ الْمَلِكَ سُلَيْمانُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْعُوَهَا إلى السِّباحَةِ في ماءٍ عَمِيقٍ، وأنَّ هذَا الذي شَهِدَتْهُ مَاءٌ لَيْسَ بالْعَمِيق، ويكْفِي فيهِ التَّشْمِير عَنِ السَّاقَيْن.

- ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾: أي: وَكشفَتْ ثَوْبها السّاتِر إلى قَدَمَيْها عَنْ سَاقَيْها، لئلّا يبتَلَّ بالماء أسْفَلُ ثَوْبها.

- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾: أي: إنَّـهُ صَـرْحٌ مُـمَـرَّدُ الأرض مِنْ قَوارِير.

مُمَرَّدٌ: مصْقُولٌ مُمَلَّسٌ، والمرادُ بَلَاطُ أرْضِه.

• ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ قوارير: جَمْعُ قارورة، وهي وعَاءٌ مِنْ زُجاجٍ تحْفَظُ فيه السّوائِل.

ورُبّما كَانَ بَلَاطُ أرْضِ الصَّرْحِ قَوَارِيرَ عَلَىٰ شَكْلِ قِطَعِ اللَّبِنِ، وسَطْحُها الظَّاهِرُ مُتَمَوِّج، وتُمْلَأُ كُلُّ قَارُورَةٍ مِنْها من فُتْحَةٍ فيها بماء، وتُسَدُّ الْفُتْحةُ سَدًّا مُحْكماً، وصُفّت هذه القوارير صَفًّا محكماً على الأرْضِ بلاصِقٍ شفَّافٍ بَيْنَها، فصارت تُرَىٰ على شَكْلِ مَاءٍ مَالِيءٍ للسَّاحَةِ الداخِلِيَّةِ من الْقَصْر.

وكان الدَّهَشُ قد بَلَغَ من «بِلْقِيسَ» مَبْلَغَهُ الأَقْصىٰ، وَسَيْطَرَتْ عَلَىٰ مَشاعِرِها شخصِيَّةُ سُلَيْمَانَ العظيمة، وتفجّرَ مِنْ أعماقِهَا الرُّشْدُ وكمالُ الْعَقْل، وحَرَّكَتْهَا دَوافِعُ الإيمان باللهِ رَبّ العالمين، ساعَتِئذٍ.

• ﴿قَالَتْ﴾ مُعْلِنَةً تَوْبَتَهَا مِن كُفْرِهَا الَّذي كانت فِيهِ وهي متوجّهَةٌ لله بِالدُّعاء، ومُعْلِنَةً إسلامَها له: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

• ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾: أيْ: كُنْتُ ظَالِمَةً لِنَفْسِي فيما سَبَقَ مِنْ عُمْرِي، بالشِّركِ الذي كُنْتُ فيه، اتّباعاً لِقَوْمِي وتَقْلِيداً أعْمىٰ لآبائي وأجْدادي.

• ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾: أي: وأسْلَمْتُ مُنْذُ الآن إسْلاماً مبنيّاً على إيمانٍ صادقٍ.

• ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ﴾: أي: مُصَاحِبَةً لَهُ فِي إسْلَامِهِ التطبيقيّ الْعَمَلِيّ، على وَفْقِ دِينِ اللَّهِ لعباده.

• ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أسْلَمْتُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين جميعاً. والمراد بالعالَمينَ هُنَا كُلُّ مَا سِوىٰ اللَّه عزّ وجلّ.

وبهذا تم تدبّر الدرس الثالث من دروس السورة والحمدُ للّه على توفيقه وفتحه ومَدَده.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دروس سورة (النّمل) الآيات من (٤٥ ـ ٥٣)

وفيه لقطات من قصة صالحٍ عليه السلام وقومه ثمود.

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (٤٦) قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ (٤٨) قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٥٠) فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٥١) فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٥٣)﴾.

القراءات:

(٤٥) • قرأ أبو عمْرو وعاصم، وحَمْزة، ويعقوب: [أَنِ أعْبُدُوا] بكسر النّون في الوصل، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالضمّ مراعاةً لضمّ الباء. أمّا الكسر فهو على القاعدة في التخلّص من الساكنين.

(٤٩)• قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [لَتُبَيِّتُنَّهُ ـ لَتَقُولُنَّ] بتاء المخاطبين، وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ ـ لَنَقُولَنَّ﴾ بنُونِ المتكلّمين. والقراءتان وجهان يَدُلّان على ما نطق به الرَّهْط المفسِدُون، إذْ تَواصَوْا أوّلاً فأقسموا ثانياً.

(٤٩) • قرأ شعبة: [مَهْلَكَ] بفتح الميم واللّام. وقرأها حفص عن

عاصم: ﴿مَهۡلِكَ﴾ بفتح الميم وكسر اللّام. وقرأها باقي القراء العشرة: [مُهْلَكَ] بضمّ الميم وفَتْح اللام.

«مُهْلَكَ» مصدر ميمي من «أَهْلَكَهُ إهْلاكاً ومُهْلَكاً» فهو يَدُلُّ على الإهلال، وعلى مكانه وزمانه.

«مَهْلِك» مصدر ميمي من «هَلَكَ يَهْلِكُ» والقياس منه «مَهْلَك» بفتح اللّام، وسُمِعَ «مَهْلِكِ» واسما الزّمان والمكان من «يَهْلِكُ» مَهْلِك.

وجاء: «هَلِكَ يَهْلَك».

فالقراءات الثلاث وجُوهُ عَرَبيَّةٌ متكافِئَة، والمعنى: ما شَهِدْنا هَلَاكَ أهْلِه، ولَا زمانَ هَلَاكِهِم، ولا مكانه.

(٥١) • قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عامر، وأبو جعفر، [إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ] بِكَسْرِ همزه «إِنَّ» على الابتداء استئنافاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ بفتح همزة «أنَّ» على أنّ المصدر المؤوَّل من «أنَّ» وما بعْدَها بدَلٌ من ﴿عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾.

والقراءتان من التفنُّنِ في البيان والمؤدَّىٰ واحد.

(٥١) • قرأ ورْش، وأبو عَمْرو، وحفْصٌ عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [بُيُوتُهُم] بضمّ الباء، وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْر الباء. وهما لغتان عَرَبيتان.

تمهيد:

سبق تدبّر عشرة نصوص تتعلّق بقبيلة ثمود إحدىٰ قبائل العرب البائدة الّتي أهلكها الله عزّ وجلّ بسبب كفرها وطغيانها، ومعلومٌ أنّ رسُولَهُمْ صالحُ علَيْهِ السلام، وهي النصوص التي أذكُر سُورَها وأرقامَها فيما يلي:

١ ـ من سورة (الفجر/ ١٠ نزول) ـ الآية (٩).

٢ ـ من سورة (النجم/ ٢٣ نزول) ـ الآية (٥١).

٣ ـ من سورة (الشمس/ ٢٦ نزول) ـ الآيات من (١١ ـ ١٥).

٤ ـ من سورة (البروج/ ٢٧ نزول) ـ الآيتان (١٧) و(١٨).

٥ ـ من سورة (ق/ ٣٤ نزول) ـ الآية (١٢).

٦ ـ من سورة (القمر/ ٣٧ نزول) ـ الآيات من (٢٣ ـ ٣١).

٧ ـ من سورة (صٓ/ ٣٨ نزول) ـ الآية (١٣).

٨ ـ من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) ـ الآيات من (٧٣ ـ ٧٩).

٩ ـ من سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) ـ الآية (٣٨).

١٠ ـ من سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) ـ الآيات من (١٤١ ـ ١٥٩).

ومجموع النصوص الواردة حول هذا الموضوع (٢١) نصًّا، والنَّصّ الموضوع للتدبر من سورة (النمل/ ٤٨ نزول) هو النص (١١).

والتدبّر التكامليّ للنُّصُوص كلِّها حوْلَ هذا الموضوع، لا بُدَّ أنْ يُفْرَزَ له ملحقٌ خاصٌّ به، وأسْأَل الله أن يُعِينَني عليه، إنّه المِدُّ الْمُعِينُ الوهّاب(١).

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر هذه السورة: «دراسة تكاملية للنصوص بشأن صالح عليه السلام وقومه ثمود في القرآن المجيد».

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو عطفت هذا البيان عن ثمودَ ورَسُولِهِمْ صالحٍ عليه السَّلام، على البيان الكلّي الذي سبَقَ بالنسبة إلى أهل سبأُ أيام سليمانَ عليه السلام، إذْ كانَ أهْلُ سَبأَ صابئِينَ مُشْرِكين يَسْجُدونَ للشمس، كما سَبَقَ في التحليل والتفصيل.

وجاء هذا البيان مؤكّداً بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ إذ اللّام واقعة في جواب قسم منويٍّ كما يقول النحويّون، ولفظ «قد» للتحقيق، وهذا التوكيد مُوجَّهٌ لكبراء مُشْرِكي مكّة ومَنْ حَوْلَها، ومَنْ هُمْ أمثالُهم عبر التاريخ.

﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾: أي: وَجَّهْنَا «صَالحاً» لأداء مُهِمَّةِ تَبْلِيغِ رِسالَةٍ عنَّا إلى قَوْمِهِ ثَمُود. وقَدْ كَانَ مِنْهُمْ نسباً ولُغَةً وإقامَةً.

ثَمُود: قَوْمٌ من العرب، تكاثَرُوا بَعْدَ إهلاك اللَّهِ عزّ وجلَّ «عاداً» قوم النبيّ الرَّسُول «هُودٍ» عليه السلام.

ولفظ «ثمود» جاء في القرآن مصْرُوفاً مُنَوَّناً مُراعَاةً لاسم الجدّ، وجاء ممنوعاً من الصَّرْف مراعاةً لكونه اسماً للقبيلة المؤنثة.

كانت مساكن «ثمود» في أرض «الحِجْر» ولهذا سمّاهم الله في القرآن أصحابَ الحِجْر.

الحِجْر: أرْضٌ بين الشّام والحجاز، إلى وادي القرى، وتقع في الطريق البرّيّ للمسافر من الشّام إلى الحجاز، وآثار مدائنِ هَؤُلَاء القوم ظاهِرةٌ حتَّىٰ الآن، وتُسَمَّى «مدائن صالح» وتُعْرَف دِيَارُهم أيضاً باسم «فَجِّ الناقة».

وثمود قبيلة من القبائل العربية الّتي أَهْلَكَ اللَّهُ عزّ وجلَّ معظمها، ولم يَبْقَ منها بَعْدَ إهلاكهم إلّا الّذِينَ آمَنُوا برسُولهم صالح عليه السلام.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: «أَنْ» تَفْسِيريَّة. و﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تَفْسِيرٌ لمضمون الرِّسالَةِ الّتي أَرْسَلَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ بها رسُولَهُ صالحاً إلَيْهم.

والمراد: اعْبُدوا اللَّهَ وحْدَهُ ولَا تُشْرِكُوا بعِبَادَتِهِ شيئاً، أخْذاً مِنْ دلَالَات النُّصُوص السَّابِقَةِ بشَأْنِ قِصَّةِ صالحٍ وقومِه ثمود.

﴿..فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: فَترتَّبَ علَىٰ إرْسَالِنَا صالحاً إِلَيْهم، أنْ آمَنَ بِهِ فَرِيقٌ منهم، وكذَّبَهُ وكفَرَ بما جاء به عن ربِّه فَرِيقٌ آخر، ونَتيجَةً للتناقض الفكْرِيِّ والاعْتِقَادِيّ بَيْنَ الْفَرِيقين المؤمِنِ والكافِرِ، صَارَ الفريقانِ يَخْتَصِمُونَ، فالمؤمنُون مع رسُولهم ولَوْ كانوا قِلَّةً مستضْعَفِين كانُوا يُقدِّمُونَ الحجَجَ والبراهين على وجُوب تَوْحيد الله وإفراده بالعبادة، وطاعَتِهِ فيما بَلَّغَهُمْ رَسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام عن رَبِّه، والَّذِينَ كذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهم وَكَفَرُوا بما جَاءَهُمْ بِهِ عنه، كانُوا يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ، ويُعَانِدُون، ويُصِرُّون على تَقَالِيدِهم العمياء، وقَدْ يتخذونَ ضدَّ المؤمنين وسائل اضطهادِيَّةً، انتصاراً لشرِكيَّاتهم، وعَادَاتِهم السُّلُوكيَّة، الَّتي فيها ظُلْمٌ وعُدْوان، وفجورٌ وطغيان.

الفاءُ الدالَّةُ على التّرتيب مع التعقيب في ﴿فَإِذَا﴾ هي علَىٰ معْنَىٰ فأدَّىٰ صالحٌ عليه السّلام رسالَةَ رَبِّه، وبلَّغَ الأمَانَةَ على وفْق ما هو مطلوبٌ منْه، ونَصَحَ قَوْمَه، وبَيَّنَ لَهُمُ الحقَّ الرَّبَّانِيّ بياناً حَسَناً، فكانَتِ المفاجأَةُ الَّتي دلَّتْ علَيْها «إذا» الْفُجَائيَّة أنْ آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ فَرِيقٌ منهم، وكذَّبَهُ وكَفَرَ بما جاءَ به عن رَبِّه فَرِيقٌ، وشَرَعَ الفريقان يختَصِمُونَ، فيُخَاصِمُ أفْرادُ هذا الْفَرِيق المؤمِنِ، أفرادَ ذَلِكَ الفريق المكذِّب الكافرِ.

دلَّ على هذا التخاصُم الإفرادي بَيْنَ الفريقَيْن، واوُ الجماعةِ في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، إذْ لَوْ كَانَ التخاصُمُ جماعيًا بَيْنَ الْفَرِيقين، عَلَىٰ طَرِيقَةِ مُمَثِّلٍ لهؤلاء يُخَاصِمُ مُمَثِّلاً لأولئك، في مُجَالِسِ مُنَاظَرَة، لكان الملائم أن يقال: فإذا هُمْ فَرِيقانِ يخْتَصِمَان، لكِنَّ التخاصُمَ كان مُوَزَّعاً بيْنَ أفراد الفريقَيْن.

يقال لغة: «اخْتَصَمَ الْقَوْمُ، وتخاصَمَ القوْمُ» أي: خاصَمَ بعضُهُمْ بعضاً. يقال: «خَاصَمَهُ، يُخَاصِمُهُ، مُخَاصَمَةٌ، وخِصَاماً» أي: جادَلَهُ، ونازَعَهُ، فَهُوَ مخاصِمٌ، وخَصِيمٌ، ويُجْمَعُ «خَصِيم» على «خُصَماء» وعلى «خُصْمَان».

والخصْمُ: المخاصم، يقال للواحد والواحِدَةِ والمثنى والجمع منهما، ويُثَنَّى فيقال: «خَصْمان» ويُجْمَعُ على خُصُوم، وخُصَماء، ويَطَّرِدُ فِيه «خِصَام» مثل: «صَعْبِ وصِعَاب، وكلْبِ وكلاب».

قال الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

دلَّتْ هٰذِه الآيةُ على أواخرِ مواقِفِ مُكَذِّبي ثَمُود لرسُولهم صالح عَلَيْهِ السلام، فَهِيَ مُعَبِّرَة عَنْ هٰذِهِ المواقف، بَعْدَ مَسِيرَةٍ دَعَوِيَّةٍ طَوِيلَةٍ اشتَمَلَتْ عليها سِيرَتُهُ عَلَيْهِ السلام معهم، فهي منتزعة منها اختزالاً.

ودَلَّتْ علىٰ أنَّهُ قَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِعِقَابٍ من اللَّهِ مُهْلِكٍ لَهُمْ إهْلَاكاً جماعيًّا فيه إبادَةٌ لكُفَّارِهم، وأَنَّ إنْذَارَاتِهِ كانَتْ تَتَوالَىٰ عليهم.

ودَلَّتْ على أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ كَانَ يُمْهِلُهُمْ، رَغْبَةً في تَوْبَتِهِمْ وإيمَانِهِم، إلَّا أنَّ الإمْهَالَ الطويلَ أغراهُمْ بتَصْدِيقِ تَوَهُّمِهِمْ بأنَّ صَالحاً لا يَمْلِكُ مِن رَبِّهِ تحْقِيقَ مَا يُنْذِرُهم بِهِ، معَ أنَّ إنْذارَه لَهُمْ لَمْ يَكُنْ إلَّا مُبَلِّغاً إيَّاهُ عن رَبِّه، ومن سُنَّةِ اللَّهِ أنْ يُمْهلَ عبادَهُ في الحياةِ الدُّنْيا إمْهَالاً طَوِيلاً، حتَّىٰ يَقْطَعَ كُلَّ أَعْذَارِهم.

وتَدُلُّ هذه الآية بفَحْواها أخْذاً من تَراكُمِ أنْوَاعِ علاج كبراء مَكَّةِ، الَّتي اشْتَمَلَتْ عليها السُّوَرُ التِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَة (النمل) على أنَّ هَؤلاءِ الكبراء قَدْ بَدَؤُوا يَسْتَعْجِلُونَ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بإنْزَالِ ما كان يُنْذِرُهم به

من مُهلِكَاتٍ، تَوَهُّماً مِنْهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ في إِنْذَارَاتِهِ لهم، فَضَرَبَ اللَّهُ لهم مَثَلَ ثَمُود الّذِين استَعْجَلُوا بتحقيق مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُم، فَحَقَّقَ الله عزّ وجلّ بهم، ما كانوا يَسْتَعْجِلُونَ به، فأهْلَكَهُمْ إِهْلاكاً شامِلاً مَقْرُوناً بِتَعْذِيبِ ذِي آلَامٍ شَدِيدَة.

الاستِعْجال: طَلَبُ تَعْجِيلِ الأمْرِ الموعُود بِهِ قَبْلَ أَوانِه، أو طَلَبُ تَحْقِيق الشيء قبْلَ الوقْتِ الذي قَضَتْ سُنَّةُ الله الحكيمةُ بتحقيقِه فيه. جَاءَ فِعْل «اسْتَعْجَلَ» بمعْنَىٰ «عَجِلَ» أي: أَسْرَعَ، فهو لازم يتعدّى بالحروف.

أي قال رسولُ اللَّهِ صَالحٌ عليه السَّلام لكُفَّارِ قومِه: يا قَوْم لِمَ تَعْجَلُونَ بِطَلَب ما أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ من عذابِ رَبّكم وإهلاكِكُمْ إِهْلَاكاً مُدَمِّراً؟!

ومَوْقِعُ هذِه الآيَةِ يأتي بَعْدَ قَوْلِهِمْ لصَالِحِ عليه السلام، الّذي جاء بيانُه في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) بقول الله تعالى:

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

السَّيِّئَة: تُطْلَقُ علَىٰ كُلِّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهَة. وعلَىٰ كلّ فَعْلَةٍ قبيحة. والمعنىٰ الأولُ هو الملائم هنا.

الحَسَنة: تُطلَقُ علَىٰ الحُظُوظِ الْحَسَنَةِ السارّة، وعلى النِّعَمِ الْتي يستَمْتِع بها الّذِينَ نالُوها مَتاعاً مَحْبُوباً إلى نفوسهم.

وتُطْلَقُ على كلّ فعلة جميلة يُمْدَحُ فاعِلُها. والمعنى الأوّل هو الملائم هنا.

فالمعنى الذي أَفْهَمُهُ من عبارة صالحٍ عليه السلام لكُفّار قومِهِ كما جاء في هذه الآية ما يلي:

يَا قَوْمِ، لِمَ تَعْجلُونَ بطَلَبِ إِنْزَالِ السَّيِّئَةِ الّتي تكْرَهُونَ إِنْزَالَهَا بِكُمْ إذَا

نَزَلَتْ، قَبْلَ أنْ تَسْتَوْفُوا حُظُوظَكُمْ الْحَسَنَةَ الَّتِي قَضَىٰ اللَّهُ أنْ تَسْتَمْتِعُوا بِها في الحياة الدّنْيَا. إنَّ رَبَّكُمْ يُمْهلكُمْ رَغْبَةً في تَوْبتكم واستغفاركم ما دَامَتْ حكْمَتُهُ تَقْضِي بإطالة مُدَّةِ امتحانِكُمْ في هذِهِ الحياة.

وهَلَّا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ رَاجِينَ أنْ يَشْمَلكُمْ برَحْمَتِهِ، وتُؤمِنُونَ وتَعْمَلُون صالحاً، ليَغْفِرَ لَكُمْ كُفْرَكُمْ وجرائمكُم الّتي ارتكَبْتموها.

﴿يَٰقَوۡمِ﴾: أصْلُها: «يَا قَوْمي» حُذِفَتْ ياء المتكلم واكتفيَ بالكَسْرَة دليلاً عليها. وهذا الحذف أجْودُ اللّغاتِ السِّتّ في هذه العبارة وأشباهها.

﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾؟ استفهامُ مُتَعَجِّبٍ من أمْرِهم ونَاصِحٍ لهم.

﴿لَوۡلَا﴾: تحضيضيَّةٌ بمعنى «هلّا».

﴿تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾: أي: هلَّا تَسْألُونَ اللَّهَ أنْ يَغْفِرَ لَكُمْ فيتجاوز عن كُفْرِكم وجَرَائمكم فلا يعاقبكم عليها رَحْمَةً مِنْه بكم.

الاستغفار: طلَبُ الغفران، وهو سَتْرُ الذّنوب والمَعاصِي، وهذا يقتضي بفضل الله التجاوزَ عن الْمُعَاقَبَةِ عَلَيْها، ويَنْبَغي أنْ يكون الاستغفارُ مُسْتَتْبعاً بالتوبةِ من الذّنوب، فَكَيْفَ يُقْبَلُ طَلَبُ سَترِ الذّنْبِ الماضِي مع الإصرار على فِعْلِ مِثلِه في الحال أو الاسْتِقْبَال؟!.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾: **لَعَلَّ**: للتَّرَجِّي، والتَّرَجِّي يُلائم حَالَ الْعِبَاد، ولا يُلائِمُ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ، وهو علَىٰ ما يشاءُ قَدِير. فالمعنىٰ: هلَّا تَسْتغْفِرونَ اللَّهَ عزّ وجلَّ رَاجِين أنْ يَرْحمَكُمْ فَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبكم، ويَرْفَعَ عَنْكُمْ مَا أنتم تَسْتَحِقُونَ من عِقَابٍ على ما سبَقَ مِنْكُم من كُفْرٍ وَجرائِمَ سلوكيّة.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

﴿اطَّيَّرْنَا﴾ أَصْلُها «تَطَيَّرْنا» قُلِبَتِ التاء طاءً لِقُرْبِ مَخْرَجِهما، وسُكِّنَتْ، وأدْغِمَتْ بالطاء، وجيء بهَمْزَةِ الْوَصْلِ إذْ صَارَتِ الكلمةِ مُبْتَدأةً بساكن، والغرض تخفيف النطق.

التَّطَيّر: التَّشَاؤُم بالأشياء، أو بالأشخاص، أو بِمَسْمُوعٍ أو مَرْئِيّ، أو نحو ذلك.

وأصْلُ التطيُّرِ من زَجْرِ الْعَرَب للطَّيْر، فإذا طار إلى جهةِ الْيمينِ تفاءَلُوا، وإذا طار إلى جِهَةِ الشِّمال تَشَاءَمُوا.

وقد دلَّت هٰذِهِ الآية على أن اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أَنْزَلَ بِثَمُود عَلى عادَتِهِ مَقَادِيرَ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ رغبةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيتضرّعُوا سائلين اللَّهَ عزَّ وَجلَّ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ، بَعْدَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِمْ صَالِحِ عليهِ السَّلام، وبما جَاءَهُمْ به عن رَبِّهم.

هٰذِهِ السُّنَّة قَدْ أَبانَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ (الأَعْرَافِ ٧/ مصحف ٣٩/ نزول).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

البَأْسَاءُ: الجوع، والمشقة، والفقر، وضَنْكُ العيش، والحرب.

الضَّرَّاءُ: الشِّدَّة، وكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ فِي الأموال والأنفس، والغرض تَذْكيرهم بِرَبّهم، لِيَتُوبُوا إِلَيْهِ، ويَسْتَغْفِرُوهُ، ويَدْعُوهُ سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ، لَكِنَّ الْكَافِرِينَ يَنْسُبُونَ ظَاهرات البأْسَاءِ والضَّرَّاءِ إِلَىٰ شُؤْم رُسُلِهِمْ وَشُؤْمِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّطَيُّرِ الْوَهْمِيِّ، الَّذِي لَا يَكونُ الْمُتَطَيَّرُ بِهِ سَبَباً لحدُوثِ مَصَائِب البأْسَاءِ والضَّرَّاءِ بحالٍ من الأحوال.

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَعَقَّلُونَ بالأوهام الْبَاطِلَةِ، وَيُكَذِّبُونَ الرُّسُلَ الصَّادِقِينَ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي يُبَلِّغُونَهُ عَنْ رَبِّهِم.

كذلك فَعَلَتْ ثَمُودُ، قَوْمُ الرَّسُولِ صالح عليه السلام، لَمَّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بالبأساءِ والضَّرَّاءِ لِيَتُوبُوا، وَيَسْتَغْفِرُوا، وَيَتَضَرَّعُوا إلى بَارئهم، لم يكن منهم إلَّا أَنْ يَتَشَاءَمُوا برسولهم صالحٍ عليه السلام وبِمَنْ معهُ من المؤمنين.

فقال لهم صالح عليه السلام ما أبانه الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿... قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ﴾: أي: عَمَلُكُمْ انْطَلَقَ طَائِراً فَصَارَ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عِلْماً وتَسْجِيلاً وَحِسَاباً، وهُوَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بكم من البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ مَا تَكْرَهُونَ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَتُوبُوا إليه، وتَسْتَغْفِرُوهُ، وَتَتَضَرَّعُوا سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْكُمْ مَا أَنْزَلَ بِكُم مِنْ مَصَائِب.

لٰكِنَّكُمْ صَرَفْتُمْ هٰذِهِ الْحقِيقَةَ عَنْ أَذْهَانِكُمْ وَتَمَسَّكْتُمْ بِأَوْهَامِ التَّطَيُّر الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ ذَرِيعَةٌ تَتَهَرَّبُونَ بِهَا مِنَ الحقّ.

واختير لفظ الطائر كناية عن العمل لِيَتَلَاءَمَ في اللَّفْظِ مَع الطِّيَرَةِ المشْتَقَّة من الطائر، وهي كناية قرآنية.

والمعنى: لَا شُؤْمَ مِنِّي ولا مِنَ الذين آمَنُوا بي واتَّبَعُوني، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ، فَتَسْتَجِيبُونَ لوساوس الشيطان وإغراءاتِهِ وَتَسْويلاتِهِ بالباطِل، مُنْخَدِعِينَ بِهَا، إذْ يُزَيِّنُ لَكُمْ شَهَوَاتِكُمْ مِن الحياةِ الدُّنيا، وَيُزَيِّنُ لَكُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وَتَتَأثَّرُونَ بِهَا ضَالِّينَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ صِرَاط الحقّ، صراط الله المستقيم.

الفِتْنَة: تَأْتِي للدَّلَالَةِ عَلَى مَعَانِي عَدِيدَة، منها الابتلاء، ومنها الإغْرَاءُ والخِدَاعُ بِالْبَاطِلِ للإضْلَالِ وَالصَّرْفِ عَن الحقّ، وهٰذا المعنىٰ هو الملائم هنا.

﴿تُفْتَنُونَ﴾: أي: يُتَابعُ شياطين الإنس والجنّ عَلَيْكُمْ وسَائِلُ الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ لِإِضْلَالِكُمْ، فَتستجيبون لهم فتضِلُّون عن إدْرَاكِ الحقّ والاسْتِمْسَاكِ بِهِ، والْعَمَلِ بما يقتضيه مِنْكُمْ مِنْ سُلُوكٍ. دلَّ على هذه المتابَعة الفعل المضارع.

وقُدِّم المسند إليه في عبارة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ لتَعْيِين افتِتَانِهِمْ وضلالهم، في مقابل انتفاء الشُّؤم الَّذِي ادَّعَوه بقولهم لرسولهم صالح عليه السلام: [**إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكَ وبِمَنْ مَعَكَ**] دلّ على هذا «بل» إذ العبارة بقوة: إنَّما أنتم تُفْتَنُونَ، لا شُؤمَ يأتي من قِبَلِنَا حَتَّىٰ تَطَّيَّرُوا بنا.

قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

الرَّهْط: الْجَمَاعَة من الرّجال دون العشرة.

تِسْعَةُ رَهْطٍ: لمّا كانت كَلِمةُ «رهط» بمعنىٰ «رجال» صَحَّ تمييز لفظ «تِسْعَة» بمضاف إليه مجرور، كقَوْلِنَا: «تِسْعَةُ رِجَالٍ».

﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: يُفْسِدُونَ فِي أَرْضِ مَدِينَةِ ثَمُودٍ وَرُبَّمَا فِي غَيْرِها أيضاً.

الإفْسَادُ: تَحْوِيلُ الشَّيْءِ من كونِه صالحاً نَافِعاً، إلى كونه غير صالِحٍ ولا نافع، بلْ رُبّما يصِيرُ ضاراً كَرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾: إثبات أَنَّهُمْ يُفْسِدُون، لا يَنْفِي أنَّهم قَدْ يُصْلِحُونَ أحْياناً، فجاءت عبارةُ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دالَّةً على أَنَّهُمْ لا يكون منهم صلاح ولا إصْلَاحٌ ما في كُلّ أعمالهم وتَصَرُّفاتهم⁽¹⁾.

---

(١) انظر قصة ثمود وهؤلاء الرَّهط التسعة منهم، في المجلد الرابع الصفحات من (٣٥٦ ـ ٣٦٨) أخذاً ممّا جاء في القرآن، ثم من حكايات تاريخيَّةٍ ذكرَها المؤرخون.

فعل «أَصْلَحَ» يأتي بمَعْنَيَيْنِ:

المعنى الأول: يقال فيه: «أصْلَحَ الرَّجُلُ» أي: أتىٰ بما هو صالحٌ نافع، فهو لازم هٰذا المعنى.

المعنى الثاني: يُقَالُ فِيهِ: «أَصْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أزال فساده، فهو متَعَدٍّ على هذا المعنى.

وكلا المعنَيَيْنِ ينطبقان على هؤلاء الرَّهط التسعة.

فدلَّ قول الله عزّ وجلّ في وَصْفِهِمْ: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على أنّهم لَا يكون منْهُمْ إلَّا الْفَسَادُ والإفساد، ولا يكون منهم صَلَاحٌ وَلَا إِصْلاح.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: فِعْلُ أَمْرٍ، أي: قَالَ بَعضُهُم لِبَعْضٍ: لِيُقْسِمْ كُلٌّ مِنّا باللَّهِ. ويُلائِمُ هٰذا قِرَاءَةُ [**لَتُبَيِّتُنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَتَقُولُنَّ**] بالتاء.

وأمّا قراءة [**لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ**] بالنون، فالفعل في عبارة: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ هو فعْل أمْرٍ أيضاً فيما أرىٰ، وتكون عبارة: [**لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ**] مَقُولَ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ هو حالٌ، وتقديرُ الكلام كُلِّهِ علىٰ الوجه التالي: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فَأَقْسَموا قَائِلِينَ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ وَلَا مَهْلِكَهُ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾. ومِثْلُ هٰذا الحذفِ كثير في القرآن المجيد، ويُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ بشيءٍ من التَّأمُّلِ، ولا حاجَةَ إِلَىٰ تَخْرِيجَاتٍ مُتكلّفَاتٍ، الْتِزَاماً بقواعِدِ النُّحاةِ ذاتِ النِّظَامِ الصِّنَاعِيِّ الشَّكْلِيِّ.

التَّبْيِيتُ: عَمَلُ الشَّيْءِ، أو تَدْبِيرُهُ، أو الاتِّفَاقُ عَلَيْهِ، أو نِيَّةُ فِعْلِهِ لَيْلاً، ومن نيَّةِ الْعَمَلِ لَيْلاً تَبْيِيتُ الصِّيام، بِالْعَزْمِ على أَدَائِهِ من طلوع الْفَجْرِ حَتَّىٰ غُروبِ الشَّمسِ، وَمِنْ عَمَلِ الشَّيْءِ ليلاً مُباغَتَةُ الْعَدُوِّ لَيْلاً لِقَتْلِهِ أَوْ سَلْبِهِ أو إِنْزَالِ مَا يَكْرَهُ بِهِ.

والَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ الأشقياءُ التِّسْعَةُ مِنْ قَوْمِ ثَمُودَ، أَنْ يَقْتُلُوا صالحاً عليه السَّلام ليلاً على سبيل المباغَتَةِ، وَيَقْتُلُوا مَعَهُ أَهْلَهُ في دارِهِ، فِي وَقْتٍ لا يَراهُمْ فيه أَحَدٌ، لِيَتَسَنَّى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا لأوليائه من أقربائه: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَهُ وَلَا مَهْلِك أَهْلِهِ، وإنَّا لصادقون.

﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾: أي: لأقربائه الَّذِينَ يُطَالِبُونَ بالثَّأْر.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَهُ وَلَا مَهْلِكَ أهْلِه، فَلَمْ نَكُنْ حَاضِرِينَ عِنْدَ هلاكهم، حَدَثاً ولَا زماناً ولا مَكاناً.

نَفْيُ الشُّهُودِ أَبْلَغُ مِنْ نَفْي الْفِعْلِ، لأنَّ نَفْيَ الْفِعْلِ قَدْ يَكونُ مَع الْحُضُورِ والشُّهُودِ، لكنّ نَفْيَ الشُّهُودِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْعِلْمَ بِهَلَاكِهِمْ قدْ كَانَ تَلَقِّياً مِنْ أَخْبَارِ النَّاس.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: أي: ونُؤَكِّدُ لَوَلِيِّهِ صِدْقَنا في أَنَّنا مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَهُمْ، ففِي هذه العبارة التوكيد بـ«إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللَّامُ المزَحْلَقَةُ لِلْخَبَرِ».

قول اللهِ عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾.

الْمَكْرُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ تَدْبِيرُ أَمْرٍ مَا فِي خفاء. ومَعْلُومٌ بداهَةً أَنَّ مَا يُدَبَّر في خَفَاءٍ لَا يَلْزَمُ عقلاً وواقعاً أَنْ يَكُونَ شَرّاً ، بَلْ قَدْ يَكُونُ خيراً. وَمَا يكونُ مِنهُ خيراً لَا يُنافِي الكمالَ، بَلْ هُوَ مِنْ صُوَرِهِ وَأَمْثِلَته.

إنَّ الحاكم الْعَادِلَ يَمْكُر، وَمَكْرُهُ لَا يَكُونُ إلَّا خيراً، إنَّهُ قَدْ يمكُرُ بالمجرِمينَ حتَّىٰ يَقْبِضَ عَليْهم لإقامَةِ الْعَدْل. والْمُسْلِمُ الْمُلْتَزِمُ بأحكام وشرائع الدِّين يمكر، ومَكْرُهُ يكونُ خيراً يبتغي به رضوانَ اللَّهِ والْجَنَّةِ.

واللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ يَمْكُر، وَمَكْرُهُ هُوَ خَيْرٌ دواماً، وهُوَ خَيْرُ الْماكِرِينَ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: وهم لا يَعْلَمُونَ أقَلَّ عِلْمٍ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

دَلَّ هٰذا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ أشقياء ثَمُودَ دَبَّرُوا في الخفاء قَتْلَ صالح عليه السلام وأهْلِهِ مَعَهُ لَيْلاً، واتَّفَقُوا على هٰذا مع كُبَراءِ كُفَّار قَوْمِهِمْ، وكَتَمُوا الأمْرَ، وَعَيَّنُوا لَيْلَةً لِتَنْفِيذِ ما مَكَرُوهُ.

إلَّا أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ مَكَرَ مَكْراً آخَرَ بِهِمْ فِي الخفاءِ، دُونَ أَيِّ شُعُورٍ مِنْهُمْ، إذْ قَضَىٰ بإهْلَالِ الْأَشْقِيَاءِ وإهْلَالِ جَمِيعِ كُفَّارِ ثَمُودَ قَبْلَ الْمَوْعِدِ الَّذِي قَرَّرَ الأشقياءُ قَتْلَ صَالِحٍ وَأَهْلِهِ فِيه، غِيلَةً وَبَيَاتاً.

وأنفذ اللَّهُ عزَّ وجلَّ تدبيرَه، وأنْزَلَ بالأشقياءِ وبسائِرِ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ، وَسَائلَ تَعْذِيبِهِمْ وإهْلاكِهِمْ، وَتَدْمِيرِ مَسَاكِنِهِمْ عَلَيْهِمْ.

وَوَجَّهَ الْعِظَةَ لِكُلِّ مَنْ يَتَلَقَّىٰ هٰذا الْبَيَانَ بِخِطَابٍ إفرادِي، قائلاً له:

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: أي: فانْظُر أيُّهَا الْمَتَلَقِّي المستَعِدُّ للاتِّعَاظِ مُتفكِّراً، الحالَةَ الَّتي وُجِدَتْ عَلَيْهَا عاقِبَةُ كُفَّارِ ثَمُودَ عِقَاباً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ مَكْرٍ.

﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: الْمَصْدَرُ المؤوَّل من «أنَّ»، وما بَعْدَهَا بَدَلٌ من ﴿عَاقِبَةُ﴾: أي: فانْظُرْ كَيْفَ كَانَ تَدْمِيرنا الأشقياء التِّسْعَةَ وَكُفَّارَ قَوْمِهِمْ أَجْمَعِينَ.

العاقِبَة: الْجَزاءُ الَّذِي يكُونُ بَعْدَ عَمَلِ العامل.

التَدْمِير: هو الإهلالُ مع إِبَادَةِ الْمُهْلَك، وهذا يكُونُ مصحوباً غالباً بتَعْذِيبِ شَدِيد. يقال لغة: «دَمَّرَ اللهُ الْقَوْمَ تَدْمِيراً، وَدَمَّرَ عليهم» أي: أَهْلَكَهُمْ. ويقال: «دَمَّرَ اللَّهُ الْقَرْيَةَ وَدمَّرَ عَلَيْهَا» أي: أبادَهَا وَجَعَلَهَا دَارِسةً.

وعلى قراءَةِ [**إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ**] بِكَسْرِ هَمْزَةِ «إِنَّ» تكونُ الجملةُ مُسْتَأْنَفَةً، جواباً لِسُؤالٍ مَطْوِيٍّ تقديرُهُ: كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهم؟ فجاءَ الجواب: إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ.

والقراءتَانِ مِنَ التَّفَنُّنِ فِي التَّعْبِيرِ، والمؤَدَّىٰ وَاحِد.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ الباقِيَةُ مِنْ آثَارِهِمْ فِي مَدَايِنِ صَالِحٍ حَالَةَ كَوْنِها خَالِيَةً مِنْهُمْ وَمِنْ أي سَاكِنٍ من الناس. بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ.

﴿خَاوِيَةً﴾: أي: خاليةً من السَّاكِنينَ، يقالُ لغة: «خَوَىٰ المكانُ ونَحْوُه يَخْوِي، خَيّاً، وخَوَاءً، وَخَوىً، وَخُوِيّاً» أيْ: خَلا، والكلمة مَنْصُوبَةٌ علىٰ أَنَّهَا حالٌ، والعامل فيه ما في اسْم الإشارة من معنى «أُشِيرُ».

وإنَّ آثارَهم تَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَهْلَكَهُمْ إِهْلاكاً جَمَاعِيًّا، دَمَّرَهُمْ فِيهِ تَدْمِيراً.

وَأَكَّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ فِي هٰذَا الإِهْلَاكِ التَّدميريّ ذي الآثَارِ الباقِيَةِ فِي أَرْضِهِمْ، لَعَلَامَةً جَلِيَّةً وَاضِحَةً عَلَىٰ أَنَّ اللهَ قَدْ يُعَاقِبُ فِي الُدنيا الكافرين الطَّاغِينَ المجرمين، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ، لِتَطْهِيرِ الأرْضِ مِنْهُم، ولِيَكُونُوا عِبْرَةً للْمُعْتَبِرين، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أي: إنَّ فِي ذٰلِكَ لعلامَةً واضِحَةً عَلَىٰ عَدْلِ اللَّهِ وجزائه، مُوَجَّهَةً لِقَوْمٍ هُمْ مُسْتَعِدُّون أَنْ يَعْلَمُوا مَجَارِيَ سُنَنِ اللَّهِ في عِبَاده، وحِكْمَتِهِ فِي تَصَارِيفِهِ، فَإِذَا عَلِمُوا مِنْهَا شَيئاً كَانَ عِلْمُهُمْ دافعاً لهم إلىٰ الالْتِزَام بطاعَتِهِ، فِي أداء ما فَرَضَ عَلَيْهِمْ، واجتنابِ ما نهاهُمْ عنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم.

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾: أي: وَخَلَّصْنا مِنَ الإهلاكِ التَّدْمِيريّ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلام، والَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ لإيمانِهِم تأثيرٌ في سُلُوكِهِمْ، إِذْ كَانُوا يَتَّقُونَ عقاب اللَّهِ على الْمَعاصِي، بِفِعْلِ مَا يأمُرُهم بِهِ أَمْرَ إيجابٍ وإلزامٍ، وبِتَرْكِ مَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ وَحظر.

النجاة: الخلاصُ من المكروه، يقال لغة: «نَجا، يَنْجُو، نَجاءً، وَنَجاةً مِن الشيء» أي: خَلَصَ مِنْ مَكْرُوه مُرْتَقَبِ الْحُدُوثِ مِنْ قَبْلِهِ. ويُقال: «أَنْجىٰ اللَّهُ فُلاناً وَنَجَّاهُ» أي: خَلَّصَهُ مِنْ مَكْرُوه مُتَوَقَّع الحُدُوث.

﴿يَتَّقُونَ﴾: أي: يَجْعَلُونَ بينهم وبَيْنَ ما يَضُرُّهم ويَسُوؤهُمْ وِقَايَة، والوقايةُ من عقابِ اللهِ وعذابِهِ، تكونُ بِصِدْقِ الإيمانِ به وبما أَوْجَبَ الإيمان به، وبطَاعَتِهِ مع الإخلاصِ لَهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

ما طُوي بيانُه في هٰذا النَّصّ مِمَّا أراد اللَّهُ بيانَهُ من قصَّةِ ثَمود ورَسُولهم صالح عليه، قَدْ جاء بيانُهُ في النصوص الأخرىٰ الموزعَةِ في سُوَرِ الْقُرآنِ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الرابع من دُروس سورة (النمل) والْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَدَدِهِ ومعونته وفَتْحِه، إنَّهُ العظيم الجليلُ الوهَّاب.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرس الخامِسِ مِنْ دُروسِ سورة (النمل)

الآيات من (٥٤ ـ ٥٨)

وفيه لقطات من قِصّة لُوطٍ وقومه

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

القراءات:

(٥٧) ● قرأ شعبة: [قَدَرْنَاهَا] بفتح الدال دون تشديد من فعل «قَدَر» وقرأها باقي القراء العشرة ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ بفتح الدَّال مَعَ تشديد من فعل «قَدَّرَ».

قَدَرَ وقَدَّرَ: لغتان لمعنى واحد، يقال لغة: «قَدَّرَ الأَمْرَ وقَدَرَهُ» أي: دَبَّرَه قبل إيجادِه مُحَدِّداً مَقَاديره.

فالقراءتان متكافئتان، وفي «قَدَّر» معنىٰ التشديد على تنفيذ الأمر.

(٥٨) ● وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.

والقراءتانِ لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ لنُطْقِ هَاءِ الضمير.

تَمْهِيد:

سَبَقَ تَدَبُّرُ هذا النّصّ تَدَبُّراً تكامُلِيًّا مَع سَائر النصوص القرآنية المتعلقة

بلوطٍ عليه السلام وقومه أهل سَدُوم، في الملحق الخامس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

ولِذَا أقْتَصِرُ هُنَا على تَحْلِيلِ هذا النَّصّ، دُونَ أَنْ أَدْرُسَهُ دِرَاسَةً تكامُلِيَّةً مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النُّصُوصِ الّتِي تَتَعَلَّقُ بفقراتِهِ⁽¹⁾.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: أي: واذْكُرْ أيُّها المتَلَقِّي رَسُولَنَا لُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَهْلِ سَدُوم، وقدْ كَانُوا سُكَّانَ خَمْسِ قُرى فِي مَكَانِ الْبَحْرِ الميِّتِ قَبْلَ إهلاكِهِم، وقَلْبِ بلادِهم عاليها سَافِلَها.

﴿... أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ استفهامٌ إنكاريٌّ تَنْدِيديٌّ بفاحِشَتِهم الَّتي يَسْتَعْلِنُونَ بِها، وَيُبْصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لَدَىٰ مُمَارَسَتِهَا، اسْتِمْتَاعاً بما يُشَاهِدُونَ.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾؟ استفهام إنكاريّ تَنْدِيديٌّ آخَرُ وَجَّهَهُ لُوطٌ عليه السّلامُ لقومِه.

وفي كلا الاستفهامَيْنِ مَعْنَىٰ تَوْبِيخِهِم، وَأَنَّ المسْتَفْهَمَ عَنْهُ مِنَ الْأُمُورِ المستغربة، الَّتِي لَا يتصَوَّرُ العقلاء الأسْوِياء أَنْ تكُونَ ظاهِرَةً مِنْ ظَوَاهِرِ سُلُوكِ مُجْتَمعٍ بَشَرِيّ.

الْفَاحِشَةُ: كُلُّ قَبِيحٍ تَجاوَزَ حَدَّ مَا يُحْتَمَلُ مِنْ مُمَارَسَاتٍ شَنِيعَة فِي

---

(١) انظر المجلد الخامس الصفحات من (٢٧٩ ـ ٣٥١).

مَعَاصِي النّاس، وتجمع على فواحِش، وجاء في القرآن تخصيص هذه المادّة اللّغوية بكَبَائِرِ الذُّنُوب المتعلّقة بِشهواتِ الفروج، في معظم النُّصوص صراحةً.

والمرادُ هُنَا بالفاحِشَة في هٰذا النَّصِّ إتيانُ الذكور شهوةً من دون النِّساءِ في أدْبَارِهم.

﴿... بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ دَلَّتْ هٰذِهِ العبارَةُ على مَطْوِيٍّ يَكْشِفُهُ حُسْنُ التَّدَبّر.

إنَّ لُوطاً عليه السلام، لَمَّا شَدَّدَ النَّكِيرَ علَى قَوْمِه، ولا سيما إنكارُهُ قَبيحَةَ حُضُورِهِمْ وَمُشَاهَدَتِهِمْ بِأَبْصارِهِمْ مُمَارَسَاتِ بَعْضِهِمْ إِتْيَانَ الرِّجَالِ مِنْهُم، رَدُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ مثلاً: لَسْنَا شَاذِّينَ فِي أَعْمَالِنَا هٰذِهِ عَنْ سَائِرِ الأَقْوَام، فَكُلُّ الأقْوَام يَفْعَلُونَ مِثْلَمَا نَفْعَل فَقَال لهم لوطٌ عليه السّلام: ﴿.. بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾.

أصْلُ الجَهْلِ مأخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: جَهِلَتِ الْقِدْرُ تَجْهَلُ جهلاً، أي: اشْتَدَّ غلَيَانُهَا، وهُو ضِدُّ تَحَلَّمَتْ.

ويقال لغة: جَهِلَ فُلَانٌ عَلَىٰ غَيْرِهِ، أَيْ: جَفَا وَتَسَافَه.

ويُطْلَقُ الْجَهْلُ بِمَعْنَىٰ عَدَمِ الْعِلْمِ بالشيء.

فَدَلَّ الْفِعْلُ المضارع في: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ الَّذِي يُفِيدُ مَعْنَى التكْرَارِ والتَّجدُّدِ، على أَنَّهُمْ يُضِيفُونَ إلى مُمَارَسَاتِهم قَبِيحَتَهُمُ الشَّاذَّة، غَلَيَاناً غضَبِياً ضِدَّ مَنْ يُنْكِرُ عَليهم، ويُضيفُونَ أيضاً جفاءً وتَسَافُهَا وشَتَائِمَ يُوَجِّهُونَهَا له، أَوْ يُوَجِّهُونَهَا لِمَنْ يُحِبُّونَ أَنْ يُمَارِسُوا بِهِ فَاحِشَتَهُمْ، وَهُوَ يأْبَىٰ لأَنَّهُ لم يَعْتَدْهَا ولَيْسَ مِنْ أَهْلِها، فَيَغْتَصِبُونَهُ اغْتِصَاباً جَمَاعِياً، فَهُمْ بهذا يَجْهَلُونَ بِتِكْرَارِ آناً فآناً، وتتفاقَمُ الجهالَاتُ الصادراتُ عَنْهُمْ شِدَّةً وَعُنْفاً.

وعلى هذا المعنى قال الشاعِرُ العربيّ:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هٰذِهِ الآية تَتَعَلَّقُ بِبَيَانِ أَوَاخِرِ مَسِيرَةِ لُوطٍ عليه السلام الدَّعَوِيَّةِ في قَوْمِهِ، فَهِيَ مُقْتَطَعَةٌ مِنْهَا اقْتِطاعاً اخْتِزالِياً.

وَدَلَّتْ «الفاء»، في ﴿فَمَا﴾ الدَّالَّةُ على الترتيب مع التعقيب، عَلىٰ أنَّ مَا جَاء فِي هٰذِهِ الآيَةِ، كَانَ أوَّل مراحِلِ التفكير بتَقْدِيم اقتراحٍ من قِبَلِ كُبَرَاء قَوْمِه، بإخْرَاجِ لُوطٍ وآلِهِ من أرْضِهِمْ.

أي: قال بَعْضُ كُبَرَائِهِم فِي نَادِيهِمْ هٰذا الْقَوْلَ عَلى سَبِيلِ إِبْدَاءِ الرأي، وسَكَتَ الباقُونَ، وفي هٰذِهِ المرحلة لم يتَّخِذُوا قراراً بإخراجهم.

﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾: أي: من مُجَمَّعِكُمُ السَّكَنِيّ، وهو يَشْمَلُ المركَزَ الرَّئِيسَ وَتوابعه.

القرية: تُطْلَقُ في اللُّغَةَ عَلَىٰ كُلّ أَرْضٍ فِيها بُيُوتٌ وَمَساكِنُ مُجْتَمِعة قَلَّتْ أم كَثُرَتْ، ولَوْ بَلَغَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً جدّاً.

وقال أهل اللُّغَة: القريَةُ الْمِصْرُ الجامع.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي: إنَّـهُـمْ أُنَـاسٌ يَـتَـنَـزَّهُـونَ دواماً عـن الفواحِشِ، ويَنْتَقِدُونَهَا، وَيُشَدِّدُونَ في التَّلْوِيم عَلَيْهَا، فَطرِيقَتُهُمْ مُخَالِفَةٌ لِطَرِيقَتِكُمْ، وَوُجُودُهُمْ بَيْنَكُمْ يُنَغِّصُ عليكم أَمْرَكم في ممارسَة مَا تَرْغَبُونَ فِيهِ، وَمَا تَشْتَهُونَهُ مِمَّا هو من عادَاتِكم.

ومَقْصِدُهُمْ من «آل لوط» لوطٌ عليه السَّلامُ وابْنَتَاهُ، أو بناتُهُ الثلاث، وزَوْجَتُه إذا كانت حَرِيصَةً على مُلَازمة زَوْجِهَا وبناتِها، فَقَدْ كَانَتْ كَافِرَةً

وَعَلَىٰ هَوىٰ قَوْمِهَا، وخَائِنَةً لِزَوْجِهَا، بِتَبْلِيغِ قَوْمِهَا الأخْبَار الَّتِي تُهِمُّهُمْ مِمَّا يَجْرِي مَعَ لُوطٍ زَوْجِهَا.

قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ:

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

هاتان الآيتان تُعبِّرانِ باخْتِزَالٍ شَدِيدٍ عَنِ الْفَصْلِ الأخير من فُصُولِ قِصَّةِ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلامِ، مَع قَوْمِهِ أَهْل سَدُوم.

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ يَتَحدَّثُ رَبُّنا جَلَّ جلالُهُ بضَمِيرِ المتكلّم العظيم، مُبَيِّناً أَنَّهُ في أَوَاخِرِ اللَّحَظَاتِ الشديدات من حياةِ لوطٍ عليه السّلام مع قَوْمِهِ، أَنْجاهُ مِنْهُمْ ومن كَيْدِهِمْ، وأَنْجاهُ من العذابِ، والْهَلاكِ الَّذِينَ قَضَىٰ بِإنْزَالِهما عَلَيْهِمْ، وأنْجىٰ أَهْلَهُ مَعَهُ، باسْتِثْنَاءِ امرأتِهِ الّتي كَانَتْ كَافِرَةً، فَقَدْ نَزَلَ بِهَا العذابُ والإهلاك مع قَوْمِها، دَلَّ على هذا قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

﴿قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾: أي: جَعَلْنَاهَا لَدَى تَحْدِيدِ المقادير المتعلّقَةِ بلُوطٍ وأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ مِنَ الْمَاضِينَ مِنْ قَوْمِهِ بالتَّعْذِيبِ والإهلاك.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

هذه العبارة تَكْرِيرٌ لِمَا جَاء فِي سُورَةِ (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) في الآية (١٧٣) ومُقْتَضَى التكرير كوْنُها بمثابَةِ العلاجِ الدوائي، الَّذي تحتاجُ طبائع النفوس إلى تكْرِيرِهِ.

وهذا المطر الذي أمْطَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ قد كان أشدّ الأمطار سوءاً، ولهذا ذَمَّهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

فعل «سَاءَ» مثْلُ فِعْل «بِئْسَ» في أحكامه، فهو لإنشاء الذّمّ على سبيل المبالغة، وفاعله ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. دلَّتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ عَلَىٰ أنَّ لُوطاً عليه السَّلام قَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِعَذَابٍ وإِهْلَاكٍ يُنْزِلُهُ اللَّهُ عَزَّ وجلّ بهم، إذا لم يُقْلِعُوا عنْ كُفْرِهِمْ وَقبائِحِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ.

أمّا الْمَطَرُ السَّيّئ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عليهم، فقد كانَ حجارَةً مِنْ سِجِّيل، كمَا أَبَانَ اللَّهُ عَزّ وجلَّ في الآيتين (٨٢) و(٨٣) من سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول)، وهي حجارةٌ أصْلُها طِينٌ تَحَجَّرَ، ورُبَّما كَانَ للنَّارِ تأثِيرٌ في جَعْلِهِ مُتَحجّراً.

ومُحِيَ مِنْ سجِلِّ المجْتَمَعَاتِ البشريّة الباقية أهْلُ سَدُوم، قَوْمُ النبيّ الرَّسُولِ لُوطٍ عليه السلام.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدّرْس الخامس من دُرُوس سورة (النمل) والحَمْدُ لله على توفيقه ومَدَدِهِ وفَتْحه.

* * *

(٩)

التدبر التحليلي للدرس السادِس من دُرُوس سورة (النّمل) الآيات من (٥٩ ـ ٧٥)

وفيه تعليمُ مُناظَرَةٍ جَدَلِيَّةٍ حَوْلَ توحيد الرُّبوبيَّةِ والإلٰهِيَّةِ لله عزَّ وجل، وتعليمٌ بِشَأْنِ بعضِ طَرائِقَ إقْنَاعِيَّةٍ لإثباتِ الآخِرَةِ تُلائم الطَّوْرَ الذي وَصَلَ إِلَيْهِ كُبَرَاءُ كُفَّارِ مَكَّةَ إِبَّانَ نزول هذه السورة.

وفيه تَرْبِيَةٌ لِلرَّسُولِ مُحمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، تُوصِيه بأن لا يَحْزَنَ عَلَىٰ كُفَّارِ قَوْمِهِ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْأَقْرَبِينَ، وَأَنْ لَا يَضِيْقَ صَدْرُهُ مِمَّا يَمْكُرُونَ ضِدَّهُ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

قال اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥)﴾.

القراءات:

(٥٩) ● قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، ويَعْقُوب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بياء الغائبين.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: [تُشْرِكُونَ] بياء المخاطَبين.

وبَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ تكامُلٌ في التوْجِيهِ البيانِي.

(٦٢) • قرأ أَبُو عَمْرو، وهشام، ورَوْح: **[يَذَّكَّرُونَ]** أَصْلُهَا «يَتَذَكَّرُونَ» أُدْغِمَتِ التّاء بالذَّال، وجاء الفعل بياء الغائبين.

وقرأهَا حفْصٌ عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَذَكَّرُونَ]** بحذف تاء الفعل، وجاء الفِعْلُ بتاء المخاطبين.

وقرأها بَاقِي القراء العشرة: **[تَذَّكَّرونَ]** بتاء المخاطبين، مع إدْغَامُ تاء الفِعْل بالذّال.

الإدْغامُ وَعَدَم الإدْغام والحذْفُ وجوه عَرَبيّة جائزة.

والخطاب والغيبة من التكامُلِ في التوجيه البياني.

(٦٣) • قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وَخَلَف: **[الرِّيحَ]** بالإفراد.

وقرأها باقِي القراء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع.

لفظ الريح بالإفراد رُوعي فيه أَنَّهُ اسم جنْسٍ فهو يعمُّ كلّ الأنواع، ولفظ الرّياح بالجمع رُوعي فيه التنبيه على أنها أنواع.

(٦٣) • قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، وَيَعْقُوب:

[نُشُراً] وقرأها ابْنُ عامر: **[نُشْراً]** وَقَرَأَهَا عاسِم: **[بُشْراً]** وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَشْراً]**.

وقد سَبَقَ بيان هٰذه القراءات وتوجيهها، عند الآيَةِ (٤٨) من سُورَةِ (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٦٦) • قَرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عمْرو، وأَبُو جعْفر، ويَعْقُوب: **[بَلْ أَدْرَكَ]** وقرأها باقِي القرَّاء العَشْرَةَ: **[بَلِ ادَّارَكَ]**.

وبَيْنَ القراءتين تكامل سيأتي في التّدبُّر بيانُه إن شاء الله.

(٦٧) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [**إِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا**] بحذف همزة الاستفهام قبل «إذا» وإثباتها قبل: «إِنَّا».

وقرأها ابْنُ عَامِرٍ، والكِسَائِي: [**أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وآبَاؤُنَا إِنَّنَا**] بإثبات همزة الاستفهام قبل إذا وَحَذْفِهَا قَبْلَ [**إِنَّنَا**].

وقرأهَا باقي القراء العشرة: [**أئِذا كُنَّا تُراباً وآباؤنا أئِنّا**].

وفي [**أَئِنَّا**] بإثبات هَمْزَة الاستفهام جاء حذف إحدى النونات الثلاث لِتوالي الأمثال.

والمؤدَّىٰ في هٰذِهِ القراءات واحدٌ، فكلّها على الاستفهام التعجُّبي الإنكارِيّ من الكافرين، واختلافها من التَّفَنُّن في البيان.

(٧١) • قرأ ابن كثير: [**ضِيقٍ**]. وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**ضَيْقٍ**].

الضَّيقُ: كالضِّيق كلاهما بمعنى الكرْب، والألم الضاغط على النَّفْس، فَهُمَا لغتان متكافِئتان.

تمهيد:

هذا الدرس موصول بالآيَتَيْنِ الرابعة والخامسة من الدرس الأوَّل من دُروس السورة، إذْ تَحَدَّثَتا عن الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ، وبأنَّ لَهُمْ سُوءَ العذاب، وبأنَّهُمْ في الآخرة هُمُ الأخْسَرُون.

إلَّا أنَّ الإقناعَ بالآخِرَةِ يأتي بَعْدَ الإيمان بتوحيد الرُّبوبيَّة وتَوحِيد الإلٰهِيَّةِ للَّهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ الناس في الحياة الدنيا مطالَبُون من ربّهم بأنْ يَعْبُدوه ولا يُشْرِكُوا بعبادَتِهِ أحداً، ليظفروا بالنجاة وبالنعيم الخالد في جناتِ النعيم. أمّا مَنْ كَفَرُوا وَعَصَوْا فإنَّهُمْ يكونُونَ خالِدِينَ يوْمَ الدِّينِ في عذاب النار أبداً.

ففي الآيات من (٥٩ ـ ٦٤) من هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمُ مُنَاظَرَةٍ جَدَلِيَّةٍ للرَّسُولِ محمَّد ﷺ فلكُلّ دَاعٍ إلى الله من أُمَّتِهِ، كَيْفَ يُنَاظِرُ الْمُشْرِكِينَ حَوْلَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ والإلٰهِيَّةِ لِلَّهِ عزّ وجلّ، وَكَيْفَ يُقْنِعُهُمْ أَوْ يُفْحِمُهُمْ بأَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ واحِدٌ في رُبُوبِيَّتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي إِلٰهِيَتِهِ لَا شَرِيكَ لَه.

وهذه المناظرة التعلميَّة قد اشتملَتْ علىٰ مُقَدِّمَةٍ وَخَمْسِ مراحِل، كلُّ مَرْحَلَةٍ مِنْهَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ الظوَاهِرِ الكونيَّةِ الدالَّةِ علىٰ وحْدَانيَّةِ الخالِقِ الرَّبّ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُهُ، وبإثباتِ وحْدَانِيَّتِه في رُبُوبِيَّتِهِ تَثْبُتُ باللُّزُومِ العقليّ وَحْدَانِيَّتُهُ فِي إِلٰهِيَّتِهِ تِلْقَائِياً، لأنَّ مَنْ كَانَ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبّ في الكون كلّه فلا بُدَّ أَنْ تكون العبادة له وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وهٰذا هُوَ مَعْنَىٰ أَنَّهُ الإلٰهَ الواحد الأحَدُ الَّذِي لا إلٰهَ يُعْبَدُ بِحَقٍّ سواه.

وفي الآيات من (٦٥ ـ ٧٥) من هٰذا الدَّرْس تعليمُ أسلوبٍ إقناعيّ مضَافٍ إلى الأسَاليب الإقناعِيَّة الموزَّعَةِ في سُورِ القرآنِ المجيد، لمنكرِي الآخِرَة.

وجاء في أثناء هٰذِهِ الآيات تَرْبِيَةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسولِه محمَّدٍ ﷺ، بأن لا يحزَنَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، إذْ عَرَّضُوا نفوسِهم بكُفْرِهم وعنادهم للخلود في عذابِ النار يوم الدِّين، مَعَ ما قَدْ يُنْزِلُ اللَّهُ عزَّ وَجلَّ بِهِمْ من عذابٍ مُعَجَّلٍ في الدنيا، فَهُمْ لَيْسُوا أَهْلاً لأَنْ يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ نَسَباً. وَتَرْبِيَةٌ له بأَنْ لَا يَكُونَ فِي كَرْبٍ وألم ضاغِطٍ على نفسه، ممّا يقومُ به كُبَرَاءُ مُشْرِكِي قَوْمِهِ من مَكْرٍ بتدبيرات خفيَّاتٍ، لإيقاف مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ، واضطهادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، ومن تدبيراتٍ خفياتٍ لمقاومتِهِ بالْقُوَّةِ القتاليَّة، والوقوف في شِقّ الْعَدُوّ المحارب المقاتل. وقدْ دَلَّ هذا التوجيه التربويُّ في هٰذِهِ السُّورَةِ على أنَّ الرَّسُول صلواتِ اللهِ وسلامُهُ عليه قد كان إبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (النمل) مُنْشَغِلَ الْقَلْبِ

حَزِيناً عَلى كُفَّارِ عَشيرته الأقربين، وكان في كرْبٍ وضِيقٍ نَفْسِيّ مِمَّا يَبْلُغُهُ من مَكْرِ كُبَرَاءِ كُفَّارِ قَوْمِهِ لمقاوَمَةِ دَعْوَتِهِ ومحارَبتها، واضْطِهَادِ المؤمنين المستَضْعَفِينَ.

قراءة: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ تُلَائِمُ التعليم الرَّبَّاني. وقراءة: [تُشْرِكُونَ] تُلَائم حال من يُجري معهم المناظرة لدى مُخاطبته من يناظرهم من المشركين.

التدبّر التحليلي للآيات من (٥٩ ـ ٦٤)
وفيها تعليم مناظرة جدلية للمشركين

مقدِّمَةُ تعليم المناظَرَة الجدليّة للمشركين

قال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾:

اشتملت هذه الآية على بيان كيفيَّة افْتِتاح المناظرة، وأنَّ من آداب الدَّاعي إلى اللَّهِ المؤمِنِ الْمُسْلِم أَنْ يفتَتِحهَا بخُطْبَةٍ فيها ثلاثُ فِقَرات:

الفِقْرةُ الأُولَىٰ: الْبَدْءُ بِحَمْدِ الله، دَلَّ عليه قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: أي: ابْدَأْ مُنَاظَرَتَكَ بأَنْ تَحْمَدَ الله.

الفقرة الثانية: أَنْ يُسَلِّمَ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ على أنْبِيَائِهِ ورُسُلِهِ، دَلَّ عَلَيه قولُ اللَّهِ عزّ وجل في التعليم: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ أي: وقُلْ: سَلَامٌ على عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ، وَمَعْلُومٌ مِنْ نُصُوص القرآن أَنَّ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ وَأَوْصَىٰ بالسَّلام عَلَيْهِم هم رُسُلُهُ، ويَدْخُلُ فِي عُمُوم الاصْطِفَاء الأنبياءُ وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا رُسُلاً، وقَدْ يُلْحَقُ بِهِمْ حَمَلَةُ رِسَالَاتِ الْمُرْسَلِينَ مِنْ أُمَمِهِمْ.

سَلَامٌ: أي: أَمْنٌ وسلامةٌ وتحيّة، وهو مبتدأ، وخَبَرُه ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ

ٱلَّذِينَ ...﴾ وجاز الابتداء به مع أنه نَكِرَة، لأنَّهُ دُعاءٌ وتحيَّة، ومثل هذا يجوز الابتداء فيه بالنكرة.

الفقرة الثالثة: أنْ يُبيّنَ الموضُوع الذي تَدُورُ حَوْلَهُ فيما بَعْدَ المناظَرَةُ الدِّينِيَّةُ، دَلَّ على هذا قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ في التعليم: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: سَتَدُورُ المنَاظَرَة التاليَة حَوْل أيّ الاحْتِمَالَيْنِ المتضادَّيْنِ التالِيَيْنِ هُو الحقُّ وَالْخَيْرُ؟

الأوَّل: احْتِمَالُ تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبيَّتِهِ وإلٰهِيَّتِهِ.

الثاني: احْتِمالُ اتِّخَاذِ شُرَكَاء للَّهِ في رُبُوبيَّتِهِ أوْ إلٰهِيَّتِهِ.

أيُّهُمَا خَيْرٌ مطابقٌ لِلْحَقِّ، وذُو نتائِجَ تُحَقِّقُ السَّعَادَةَ، وأيُّهُما بَاطِلٌ وَذُو نتائِجَ تَجْلُبُ الشقاء والتّعَاسَة؟ هَلِ التَّوْحِيدِ، أم الشِّرْكِ؟

عِبَارَةُ: ﴿أَمَّا﴾ أَصْلُهَا «أَمْ» و«مَا» أُدْغِمَتِ الميمُ بالْمِيمِ فكُتِبَتْ «أَمَّا». و«أَمْ» هٰذِهِ هِيَ المتّصِلة.

وجاء عرض الموضوع بأسْلُوب الاستفهام لأنَّ المناظرات تَعْتَمِدُ على طرح القضايا بهذا الأسلوب الذي ينبغي فيه عَدَمُ التحيُّز، كما أبانَ الله عزّ وجلّ بقوله في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) مُعَلِّماً الداعي إلى اللَّهِ أنْ يُعْلِنَ تَجَرُّدَهُ من الانحيازِ التَّعَصُّبِيِّ لمُعْتَقَدِهِ لَدَى المناظَرَةِ فَيَقُولُ لِمَنْ يُنَاظِرُهم: ﴿... وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: بِمَا أَنَّنا بِحَسَبِ مُعْتَقَدَيْنا على طَرَفَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ، فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ هٰذَيْنِ المَعْتَقَدَيْنِ حَقًّا، وأَنْ يَكُونَ الآخَرُ باطلاً، ولَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْ فَرِيقَيْنا عُرْضَةً لِأَنْ يَكُونَ عَلى هُدَى، مُتَمَكِّناً مِنْهُ بِالْبُرْهَانِ، أَوْ مُتَوَغِّلاً في ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَىٰ مُبين، لَا حُجَّةَ لَهُ تَعْذُرُهُ فِي ضَلالِهِ.

وهٰذا غايةٌ فِي التَّجَرُّدِ بَحْثاً عَنِ الْحَقِّ بِأُسْلُوبِ المنَاظَرةِ.

قراءة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ تلائم التعليم الرّبّاني. وقراءة [تُشْرِكُونَ] تُلائم حَالَ من يجري المناظرة لدَىٰ مخاطبَتِهِ مِنْ يُنَاظِرُهُمْ من المشركين.

المرحلة الأولىٰ من مراحل المناظرة

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

في هٰذِهِ الآيَةِ تَقْدِيمُ بُرْهَانٍ رَبَّانِيّ، يُعَلّمُ اللَّهُ بِهِ الدَّاعِيَ إِلَيْهِ، أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ مَا يُقِيمُ بِهِ الحجَّةَ علَىٰ الْمُنَاظِرِينَ المشركين.

﴿أَمَّنْ﴾: أَصْلُهَا «أم» و«مَنْ» أدْغِمَتِ الميم بالميم في النطق، وكُتِبَتْ ميماً مُشَدَّدَة. «أم» هي المنقطعة، وهي بمعنى «بَلْ» للإضراب الانتقالي، و«مَنْ» اسْمُ استفهام، وهو مبتدأ، وخبره جُمْلَةُ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما عُطِفَ عليها.

والمعنى: يا أيُّها المناظر الداعي إلى الله، وجّه لمَنْ تُنَاظِرُهُ من المشركين سُؤالَكَ الاستفهاميَّ التالي:

مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرض وأنْزَلَ للناسِ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأنْبت بعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، وهٰذِهِ الْحَدَائِقُ مَا كَانَ بِاسْتِطَاعَةِ النَّاسِ جَمِيعاً أَنْ يُنْبِتُوا شَجَرَهَا؟؟

ذَاتَ بَهْجَةٍ: أي: ذَاتَ حُسْنٍ ونضارةٍ وَجَمَال. يقال لغة: «بَهَجَ الشَّيْءُ يَبْهُجُ، بَهْجَةً، وَبَهَاجَةً وَبَهَجَاناً، فَهُوَ بَهِيج» أي: صَارَ ذَا حُسْنٍ وَنَضَارَةٍ وجمال.

هٰذا السُّؤَالُ يَجُرُّ بُحُوثاً عِلْمِيَّةً مُسْتَفِيضَةً عَنْ خَلْقِ السَّماوَاتِ والأرض، بدءاً، واستمراراً، وإتْقَاناً، ونِظَاماً بَدِيعاً حَكيماً.

ويَجُرُّ بُحُوثاً عِلْمِيَّةً مُسْتَفِيضَةً عَنِ الْمَاءِ وَتَبَخُّرِهِ، وتَجَمُّعِهِ سُحُباً، ونُزُوله مطراً، بِنِظَامٍ بَدِيعٍ، وإتقانِ صُنْعٍ تَعْجِزُ عَنْهُ الخلائق كُلُّها.

ويجُرُّ بُحُوثاً عِلْمِيَّةً مُسْتَفِيضَةً، عَنِ النَّبَاتَاتِ وَانْشِقَاقِ بُزُورِها وجُذُورِها في تُرَابِ الأرْضِ المُبَلَّلِ بالماء، وتَنامِيهَا دَاخِلَ تُرَابِ الأرْضِ وخارجَهَا، صَاعِداً فِي الغلاف الغازيّ حول الأرض، وعَنِ استِمْدَادِ أَقْوَاتِهَا مِنَ الْمَاءِ وَمِنْ عَنَاصِرِ الأرْضِ، وَمِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَمِنْ الْهَوَاءِ، إلىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ ممَّا تَوَصَّلَ إلى مَعْرِفَتِهِ عُلَمَاءُ النَّبَاتِ.

وَيَجُرُّ بُحُوثاً مُسْتَفِيضَةً، عَنِ الْجَمَالِ الَّذِي تَتَّصِفُ بِهِ الْأَشْجَارُ وَأَزْهَارُهَا، وَوُرُودُهَا، وأَوْرَاقُهَا، وَثَمَرَاتُهَا، وأَلْوَانُهَا، وأشكالُها المختَلِفَة، من كلِّ شيءٍ حَسَنٍ بَهِيجٍ.

والمناظر المنْصِفُ من المشركين لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ بأنَّ الخالِقَ المُتْقِنَ لِكُلِّ ذَلِكَ رَبٌّ وَاحِدٌ أَحَدٌ، لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الكمال، وهُو مُنَزَّهٌ عَنْ كلّ صِفَاتِ النُّقْصَان.

فإذا اعْتَرَفَ بهٰذِهِ الحقيقة، وأَعْلَنَ أَنَّ الخَالِقَ الرَّبَّ لِكُلِّ ذٰلِكَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ يُقَالُ لَهُ:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ أي: بِمَا أَنَّ الرَّبَّ الخَالِقَ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَا ثبتَ لدينَا بالبراهين، فَهُوَ وَحْدَهُ المستحقُّ لأنْ يَكُونَ إلٰهاً، أيْ معبوداً، ولَا يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي إِلٰهِيَّتِهِ، أي: في كَوْنِهِ مَعْبُوداً مِنْ خَلْقِهِ، لأَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي الوجود من يُشارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وهذا الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ جَلَّ جلالُهُ وَعظم سلطانه.

عندئذٍ يَتَسَنَّى للمُناظِر المُؤمِنِ الدَّاعي إلى اللَّهِ أنْ يَقُولَ بأسْلُوب المستَفْهِمِ اسْتِفْهاماً تعَجُّبِياً إنْكارِياً: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!!

وفي نهايَةِ هذا التعليم أبان اللَّهُ عزّ وجلَّ للدّاعي المؤمِنِ أنّ المشركين يَعْدِلُونَ عَنِ الحقّ إلىٰ الْبَاطِلِ، ويَجْعَلُونَ لِلَّهِ مِمَّا خَلَقَ مُعَادِلاً مكافئاً، في الرُّبوبيَّةِ أَوْ فِي العبادة، فقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

يقال لغة: «عَدَلَ يَعْدِلُ عَنِ الصراط» أي: حَادَ عَنْهُ وَخَرجَ عَنْ حُدُودِهِ. ويقال لغة: «عَدَلَ الشيءَ بالشَّيْءِ» أي: سَوَّاهُ بهِ، وَجَعَلَهُ مِثْلَهُ، وَهٰذا قَدْ يكُونُ ادِّعاءً كاذِباً، أو اعتقاداً باطلاً.

فالمعنى: لَيسَ المشرِكُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ من الحقِّ، بَلْ هُمْ يَعْدِلُونَ عن الحقّ إلى الباطِل، ويفتَرُونَ عَلَىٰ الله فيتَّخِذُونَ له شَرِيكاً معادِلاً لَهُ في صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ أو بَعْضِها، فمُعَادِلاً لَهُ فِي إِلٰهِيَّتِهِ.

المرحلة الثانية من مراحل المناظَرة

قال اللَّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾،

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ طَرحُ السُّؤال في هذا التَّعْلِيم نَظِيرُ طَرحِ السُّؤالِ فِي التَّعْليم السَّابق. أي: «أَمْ» المنقطعة وهي بمعنى «بَلْ» للإضراب. و«مَنْ» اسم استفهام وهو مبتدأ، وما بَعْدَهُ خبر وهو جُملَةِ: جعَلَ الأرضَ قراراً.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾: أي: بَلْ مَنْ هٰذا العظيمُ المتقنُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ، الَّذي جَعَلَ الْأَرْضَ بَعْدَ أَنْ فَصَلَها مِمّا كَانَتْ عَلَيْهِ رَتْقاً مَعَ غَيْرِهَا من أجرامِ السَّماء، كَوْكَباً قَراراً مُطْمَئِناً لَا اضْطِرابَ فيه وَلَا

اهتزاز ولَا تَموُّج، إلَّا مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ عند الزَّلازِلِ التَّعْدِيليَّةِ التكوينيَّةِ لأوضاع الأرض، أو الزلازل العِقَابِيَّة أو الإنْذَارِية للمجْرِمِينَ من الْبَشَرِ عليها؟؟

قراراً: مَصْدَرُ «قَرَّ يَقِرُّ قَراراً» يُقَال: «قَرَّ فِي المكان» أي: أقامَ إقَامَةً طَوِيلَةً سَاكِناً مِطْمَئِناً مُسْتقِرّاً فيه.

أي: مَنْ هٰذَا الَّذِي جَعَلَ الأرض ذَاتَ قَرَارٍ عَلَيْهَا، وَكَانَ مِنَ الممكِنِ أَنْ تَكُونَ مَائِجَةً رَجْرَاجَةً غَيْرَ صَالِحَةٍ للاسْتِقْرَار عَلَيْهَا بِسُكُونٍ وَطُمَأْنِينَة.

أَلَا يَدُلُّ هٰذَا عَلَىٰ إتْقَانِ مُتْقِنٍ عَظِيمٍ، ذي حِكْمَةٍ جَلِيلَة، وعِنَايَةٍ بِمَنْ خَلَقَ، وَبِمَا خَلَقَ مِنْ أَحْيَاءٍ عليها؟؟

وهٰذا السؤالُ يَجُرُّ إِلَىٰ بُحُوثٍ مُسْتَفِيضَةٍ جِدًّ حَوْلَ تكوين الأرض، تُكْتَبُ فِي مُجَلَّدَات.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾: أي: وَمَنْ هٰذَا الْعَظِيمُ الْمُتْقِن الحكيم القدير الْمُعْتَنِي بالنَّاسِ وسائِرِ الأحياءِ علىٰ الأرْضِ، الذي جَعَلَ بتَدْبِيرِهِ التَّكْوِينِيِّ خِلَالَ الأرض أَنْهَاراً يَجْرِي فِيها الْمَاءُ الحُلْوُ الطَّهُورُ السَّائِغُ للشَّارِبين، والصَّالِحُ لِسُقْيَا النَّبَاتَاتِ الَّتِي لا تَنْبُتُ وَلا تَنْمو إلَّا بِالْمَاءِ؟؟

الْخِلَال: هو المنفرج بَيْنَ شيئَيْنِ، وظاهر أنَّ الأنْهارَ تَجْرِي فِي مُنْفَرجَاتٍ عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْضِ، وَأنَّ المياه حِينَ تجري متدفِّقَةً تَشُقُّ فِي الأرْضِ أَخَادِيدَ على مَقَادِيرِها فتُحدِّدُ سَيْرَها بين حوافها.

﴿خِلَٰلَهَا﴾: مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الظَّرْفِيّة، أي: بل مَنْ جَعَلَ أنهاراً في خِلَالِ الأرْض؟ قَدّم لفظ ﴿خِلَٰلَهَا﴾ لأنّ فيه ضميراً يَعُودُ عَلَىٰ الأرض الّتي هي مَوْضُوعُ طَرْحِ السُّؤالِ.

والسُّؤالُ عَن الأنهار الّتي تجري خِلالَ الأرض يجرُّ إلى بُحُوثٍ عِلْمِيَّةٍ مُسْتَفِيضَةٍ، حَوْلَ تَكْوِينِ المياه الحُلْوَةِ السَّائِغَةِ للشاربين، وَحَوْلَ تجميعها وإِجْرَائِها فِي أَنْهار كُبْرَىٰ أو صُغْرَىٰ، وحول إتقانِ صُنْعِ الخالِقِ لها، وعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ فِي إِيجادِها.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾: أي: وَمَنْ هٰذا العظيم، المتقِنُ الحكِيم، المدبِّرُ القدير، الّذي جعَلَ للأَرْضِ جِبالاً رَواسِيَ تُثَبِّتُ قِشْرَتَها حَتَّى لَا تَتَمَوَّجَ وَتَرْتَجَّ، أَوْ يَحْصُلَ فِي بعض طبقاتها انقلابٌ، أو مَيدان؟

وجاءت عبارة ﴿لَهَا﴾ للدَّلَالَةِ على أنَّ الجبَالَ جُزْءٌ مِنَ الأرض.

﴿رَوَاسِيَ﴾ جمع «رَاسِيَة». **الرَّاسي**: هو الثابت الراسخ، والمراد بالرَّواسِي الجبالُ في الأرض، فمِنْ صِفَاتِهَا أَنَّها ثابِتَة راسِخَةٌ ذَاتُ عُمْقٍ فِي الْأَرضِ يجْعَلُها راسِيّة، وفي إيراد الجمع إشارةٌ إلى تنوّع الجبال في تكوينها، وفي صفاتها.

ويَذْكر عُلماءُ الأرض «الجيولوجيون» ما للجبالِ مِنْ آثارٍ نافِعَةٍ للأرْضِ وسُكَّانِها، ومنها ما يلي:

(١) كوْنُها المتحَكِّمة في مُناخٍ وتَدَفُّق مِيَاهِ الأماكن المجاوِرة لها.

(٢) مَا يَعِيشُ عَلَيْهَا من نباتاتٍ وحيوانات، إذْ تُسَاعِدُهَا في أرزاقها وإقامتها.

(٣) كَوْنُها مَصْدراً لِلْمَعَادِنِ، فمعظم المصادر المعدنية في العالم هي من أقاليم جبليّة.

(٤) تأْثيرها على نشاطات الإنسانِ وأُسْلُوبِ معيشته، فَهِيَ تُحَدِّدُ أَنْماطَ تَنَقُّلِهِ وَمُوَاصَلَاتِهِ وَأَمَاكِنَ إِقَامَتِهِ والتَّرويحِ عَنْ نفسه.

(٥) وهي تَحْمِي الْيَابِسَةَ مِنَ الانقلاب الَّذِي يُمْكِنْ أَنْ يَحْدُثَ بِسَبَبِ

هياج الأمواج في المياه الَّتي تَتَجَاوَزَ مَسَاحَتُهَا فِي البحار (٧٠٪) من مَسَاحَةِ الْيَابِسَة، أو بِسَبَبِ تَقَلُّبَاتٍ كَوْنِيَّة أخرىٰ.

(٦) للجبال تأثيرٌ في تجميع وتَدَفّق المياه ليصلَ إلىٰ أماكن شاسِعَةٍ جدّاً من الأرض.

(٧) وفي كثير من الجبال خزَّاناتٌ مائيَّةٌ تُغَذّي الجداول والأنهار بالمياه، ويظهر نفْعُهَا الإِمْدَادِي في أوقات القحط والجفاف.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾: أي: ومَنْ هذا العظيم، المتْقِنُ الحكيم، والمدبّر القدير، الّذِي جَعَلَ بَينَ البَحْرِ الْحُلْو والْبَحْرِ المالح حَاجزاً، يَمْنَعُ من امْتزاج أَحَدِهِمَا بالآخر؟؟

سَمَّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ مَا في الأرض من مياهٍ حُلوةٍ بَحْراً، فِهي باعتبار كَثْرتِهَا كَالْبَحْرِ المِلْحِ، ولو كَانَتْ مَتفَرِّقَةً في الأرضِ.

فالماءُ الْعَذْبُ الْحُلْوُ والماء المِلْحُ الأجاجُ بَحْرَان عظيمان خَلَقَهُما اللَّهُ عزّ وجلّ لمنافع الحياة والناس، وكلٌّ منْهما يَنْبَغي لتحقيق المنفعة منه بحَسَب النظام العامّ للكَوْن، أنْ يظَلَّ علىٰ وَصْفِهِ فِي النِّسْبَةِ المزيجيَّةِ الَّتِي جَعَلَهُ اللَّهُ عليها.

ومن العناية الرَّبَّانِيّة الَّتِي حَفَّتْ هٰذيْنِ الْبحْرَيْنِ، أَنْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزاً، إِذْ جَعَلَ تكوين الأرْض في أوضَاعِهَا صالحةً لاحْتِوَاء الماء الْعَذْبِ الْفُرَاتِ في تجاويفها ومَسَارِبها، ولإجرائِهِ في السُّهُولِ والوِدْيَان، وإخراجه من الْعُيون، وبذٰلِكَ أقام الْحَوَاجِزَ والفواصِلَ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ، حَتَّى لا يَنْتَهِيَ أَمْرُهُمَا إلى الامْتِزاج والاختلاط ببعضهما، وتَذْهَبَ الخصائصُ المطلوبَةُ من كُلٍّ منْهما.

والحاجزُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ هو من الصَّخور والأتربَةِ والرِّمال، وهو مَمْنُوعٌ من الذَّوبان والاخْتلاط بالماء، ومانِعٌ من وُصُولِ أَحدِهما إِلَىٰ الآخر.

وسبق في تدبّر سورة الفرقان تَدَبُّر مَا جَاءَ في القرآن حَوْلَ آيات الله في الْبَحْرَيْن(١).

إنَّ المناظر المنصف من المشركين إذ طُرِحَتْ عَلَيْهِ أسْئِلَةُ هذه المرحلة الثانية من مراحلِ المناظَرةِ، وعُرِضَتْ علَيْهِ الأدِلّةُ العمليّة المثبَتَةُ لِلْحَقِّ، لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ بأنَّ الْخَالِقَ المُتْقِن لِهٰذِهِ الظواهر الكونيّة، الّتي هي آياتٌ من آياتِ اللهِ الكونيَّة، دَالَّاتٌ على طائِفَةٍ من الصفات الّتي لا تكونُ لأحدٍ سِواه، هُوَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَحِينَ يَعْتَرِف بِهٰذِهِ الْحَقِيقَةِ، ويُعْلِنُ أَنَّ الْخَالِقَ الرَّبَّ لكلّ ذٰلِكَ هُوَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ يُقَالُ لَهُ:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ أي: بما أنَّ الرَّبَّ الخالِقَ واحِدٌ، وهُوَ ما ثبتَ لنا بالبراهين، فهو وَحْدَهُ المستحقُّ لأنْ يكون إلٰهاً، أي: مَعْبُوداً، ولا يَصِحُّ عقلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ في إلٰهِيَّتِهِ، أي: في كَوْنِهِ مَعْبُوداً مِنْ خَلْقِهِ، إذْ لَا يُوجَدُ فِي الْكَوْنِ كُلّهِ مَنْ يُشَارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وهذا الرَّبُّ هو اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلطانُهُ.

عندئذٍ يَتَسَنَّىٰ للمناظر المؤمِنِ الدّاعي إلى الله، أَنْ يَقُول بأسْلُوب المسْتَفْهِمِ اسْتِفْهاماً تَعَجُّبِياً إنكارياً: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!!

وفي نهاية هٰذا التعليم أَبَانَ اللَّهُ عزّ وجلَّ للدَّاعي المؤمِنَ أَنَّ أَكْثَرَ المشركين لَا يَعْلَمُونَ، فَقَالَ اللَّهُ عزّ وجل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: بَلْ أَكْثَرُ المشرِكِينَ مُقَلِّدُونَ لأئمّتِهِمْ وقَادَتهم لَا يَعْلَمُونَ، ولَا تُوجَدُ لَدَيْهِم الدَّوافِعُ لِأَن يَبْحَثُوا بأنفُسِهِمْ حَتَّى يَفْصِلُوا الحقَّ عن الباطل في قضيّتي التوحيد والشِّرْك، فَيَعْلَمُوا أَنَّ التوحيد حقٌّ، وأنّ الشِّرْك باطِلٌ، وأَنَّ جزاء الشّرك الخلود في عذاب النار يوم الدّين.

---

(١) انظر المجلد السادس. ص٥٥٨ وما بعدها حتى ٥٦٤.

وفي هذا البيان توجيه كِنَائي للدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، أَنْ يَجْتَهِدُوا في تعليم الأتباع المقلّدين، وإقناعِهِمْ بالحق، فَقَدْ تَنْجَلِي الغَشاواتُ عَن بَصَائِرِهم وعُقُولِهِم، فَيُؤْمِنُ بالحقّ أهْلُ الرُّشْدِ مِنهم، وَلَا يَكُونُ للمعاند المجْرِمِ عُذْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الْدِّينِ بجهله.

المرحلة الثالثة من مراحل المناظرة

قال اللَّهُ عَزَّ وجل:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

فِي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الثالثة من التعليم تَوْجِيهُ الْمُنَاظِرِ الْمُؤْمِنِ الدَّاعي إلى الله، لأنْ يَطْرَحَ السُّؤالَ فِي مُنَاظَرَتِهِ للمشركِ حَوْلَ آيَتَيْنِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، تَتَعَلَّقَانِ بِتَصَارِيفِ اللهِ فِي النَّاسِ.

الآية الأولىٰ: إِجَابَةُ المضطرّ الّذي يَدْعُو لِكَشْفِ السُّوءِ عَنْهُ.

الآية الثانية: جَعْلُ النَّاسِ خُلَفَاءَ الأَرْضِ يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعضاً فيها.

المضطّر: ذُو الحاجَةِ البالغة الشِّدَّة، والملْجأُ إِلْجَاءً بإِكْرَاهٍ عَلَى أَمْرٍ يَكْرَهُهُ، والمضيَّقُ عَلَيْهِ بِشِدَّة.

يُقَالُ لغة: «اضطَرَّهُ إِلَيْهِ» أي: أَحْوَجَهُ وأَلْجَأَهُ، أَصْلُ الفِعْلِ: «اضْتَرَّ» قُلِبَتِ التَّاءُ طَاءً وَفْقَ القاعدة العربيّة، في «افْتَعَلَ» المزيد بالتاء.

- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؟ صيغة السؤال مُمَاثِلَةٌ لما سبق في المرحلتين الأولى والثانية.

والدُّعاءُ لِكَشْفِ السُّوءِ يَدْعُو به الدَّاعي آلِهٰةُ الذي يتقرَّبُ إِلَيْهِ بالعبادَة، وقد جَعَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ من آياتِ وجُودِهِ، وأَنَّهُ هو وحْدَهُ الرَّبُّ الَّذِي تَجِبُ عبادَتُهُ وَحْدَهُ لا شريك لَهُ، أَنَّ مَنْ دَعَاهُ مضطَّراً اضطراراً

حقيقياً، ولو كَانَ كافراً بِهِ، أجابَ دُعَاءَهُ، وكَشَفَ مَا بِهِ مِنْ سُوءٍ.

بخلاف آلِهَةِ المشْرِكينَ، فإنَّ مَنْ دَعَاهَا مَهْمَا كَان مؤمِناً بها وعابداً لها، فإنَّها لَا تُجِيبُهُ ولو كانَ مضطّراً، إذْ هِيَ آلِهَةٌ باطِلَةٌ لَا حَقِيقَةَ لإلٰهِيَّتِهَا، وإذا كان لها وجودٌ في الكونِ فَلَا قُدْرَة لَهَا على إيجابَةِ عَابديها، ولا تَمْلِكُ كَشْفَ السُّوءِ عَنْهُمْ إِذَا سألوها ذَلِكَ بالدُّعاء ولو كانُوا مضطّرين.

والتجربةُ في هٰذا أكْبَرُ بُرْهَانٍ، فَلْيُجَرِّبِ المشركُون دُعَاءَهُمْ للّٰهِ رَبّ العالمينَ، في الأحوال الَّتي يكونون مضطرين فيها، فإنَّهُمْ سَيَجِدُونَ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ سَيَكْشِفُ ما بِهِمْ من سوء، لِيُثْبِتَ لَهُم بالبرهانِ التجريبيّ أنّه الإلٰهُ الحق، والرَّبُّ السَّمِيع المجيب الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ.

أمَّا آلِهَتِهِمْ الَّتِي اتَّخذُوهَا من دون اللهِ فإنَّهَا لَا تَكْشِفُ السُّوءَ عَنْهُمْ، ولَا تَنْفَعُهُمْ بنافِعَة.

فالمعنى: بل: مَنْ هٰذا العظيم الغيبيُّ عن الحواس، الَّذِي يُجِيب دُعَاءَ المضطَّرّ إذا دَعَاه؟؟

أجْرُوا أيُّها المشركون هٰذِهِ التَّجْرِبَةِ في حيواتِكُمْ، فإنَّكم سَتَجِدُونَ اللَّهَ عزّ وجلّ يجيبُ أدْعِيَتَكُمْ، ويَكْشِفُ السُّوءَ عنكم.

لَكِنَّكُمْ إذَا دَعَوْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ فَلَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، وَلَنْ يَكْشِفُوا السُّوءَ عَنكم.

إنّ هٰذِهِ التَّجْرِبَةَ تُقْنِعُ المنصفين أهل الرُّشدِ مِنْكُمْ بأنَّهُ لَا رَبَّ إلَّا الله، فلا إلٰه حتماً إلَّا هو.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: وَمَنْ هذا العظيم القدير، الخَلَّاقُ المتْقِنُ الحكيم، الَّذي يخْلُقُ أجْيَالَكُمْ، جِيلاً سُلَالَةً من جيل، ويَجْعَلُ الأجيالَ اللَّاحِقة خُلَفَاءَ في الأرْضِ للأجيال السّابِقَة، في سُكْنَاهَا والانتفاع بخيراتها؟؟

هذا السؤال قد يَجُرُّ إلى بُحوثٍ مُسْتَفِيضَةٍ، حَوْل ظاهراتِ عظيماتٍ من آياتِ اللهِ في خَلْقِ النَّاسِ جِيلاً فجِيلاً وَفْقَ سُنَّةِ التَّناسُل.

إنّ أهْلَ الْعَقل والرُّشْدِ المُنْصِفِين لَا بُدَّ أَنْ يَقُولوا: إنَّ اللّٰهَ عزَّ وجلَّ هُو الرّبّ الَّذِي جَعَلَ خَلْقَهُ للنَّاسِ عَلَىٰ وفْقِ سُنَّةِ الأجْيَالِ المتلاحِقَةِ الَّتِي يَخْلُفُ اللَّاحِقُ مِنْهَا السَّابِقَ.

وحينَ يَعْتَرِفُ المشْرِكُ بهٰذِهِ الحقيقَةِ حول السُّؤالَيْن، ويُعْلِنُ أنَّ اللّٰهَ عَزَّ وجلَّ هو الذي يجيب المضطّرَّ إذا دَعَاهُ ويَكْشِفُ السُّوء، وهو الذي يخْلُقَ الناس وفْقَ سُنَّة الأجيال الَّتي يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعضاً في سكْنَى الأرْضِ والانتفاع بخيراتها، يتسَنَّى للمؤمن المناظر الداعي إلى الله، أَنْ يقولَ بأسْلُوب المستَفْهِمِ استفهاماً تَعَجُّبيّاً إنكاريّاً: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؟!!

وفي نهاية التعليم وَجَّهَ اللّٰهُ عزّ وجَلَّ خِطَابَهُ للمشركين قائلاً لَهُمْ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أصْلُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: «تتذَكَّرُونَ» حُذِفت التاء الثانية تخفيفاً، وقُرِئَ [يَذَّكَّرُون] و[تَذَّكَّرُونَ] بياءِ الغائبينَ، وبتاء المخاطَبِين.

وفي هذه القراءات وجوه عربيّة جائزة، وتكامُلٌ في الأداء البياني.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: تَذَكُّراً قَلِيلاً جدّاً تتذكّرون، فلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةٌ لمفعولٍ مطلَقٍ محذوفٍ مُقَدَّمٍ على فعله، ولفظ «مَا» إبهاميّة لتأكيد القلّة.

والمرادُ بالتذكُّر الأثَرُ النَّفْسِيُّ والسُّلُوكي الَّذِي يُثِيرُهُ أو يُحْدِثُهُ التَّذَكُّرُ لقضيَّةٍ ما من قضايا المعرفة الدينيَّة، الّتي تَقضي مَنْعَ الإنسانِ من مُمارَسَةِ شهواته المحرَّمَةِ في الدِّين، واتّباعِ أهوائه الّتي فيها مَعْصِيَةٌ لله رَبِّ الْعَالمين.

التَّذكُّر: هو استحضار المعْلُومَةِ في الذّاكِرَة، أو في جهاز التصوُّر الحاضر في الدّماغ، باستخراجها من مخازِنِ المعرفة، وإحضارها إلى ساحَةِ التصوُّرِ الحاضر.

ومخازن المعرفة هي مراكز متخصّصة في الدّماغ للاحتفاظ بالمعارف، وتُسْتَدْعَىٰ المعارفُ مِنْها عِنْدَ الحاجَة، وتتعَرَّضُ للنِّسْيَانِ بِعِدَّةِ أسباب، ومن هٰذِهِ الأسْباب الإهمال، وعَدَمُ اهتمام النّفسِ بالمعلومَة، وعدم الْمُبَالَاةِ بها، والاكتراث لها.

وجاءتِ قِراءَةُ [**يَذَّكَّرُونَ**] تَعْليماً للمؤمنِ الدَّاعي إلى اللَّهِ، لَتَهْوِينِ عَدَم اسْتجابَةِ الكافِرِينَ لِمجاهَدَتِهِ لَهُمْ في نَفْسِهِ، إذْ يَعْلَمُ أنَّ هٰذَا مِنْ سُلُوكِ مُعْظَمِ النَّاسِ إذْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهم وزينات الحياة الدنيا.

المرحلة الرابعة من مراحل المناظرة

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وفي هٰذِهِ المرحلَةِ الرابعة من التّعليم توجِيهُ المناظِر المؤمِنِ الداعي إلى الله، لطَرْحِ السُّؤالِ في مناظَرَتِهِ للمشْرِكِ، حَوْل آيَتَيْنِ من آياتِ اللَّهِ في كونه تتعلّقَانِ بعِنايَتِهِ بالنَّاسِ، وإنْعَامِهِ عَليهم بِالْهِدَايَةِ فِي أَسْفَارِهم، وتَدْبِيرِ وَسَائِلِ رِزْقهم.

الآية الأولى: هِدَايَةُ اللَّهِ النَّاسَ فِي ظُلُماتِ الْبَرّ وَالْبَحْرِ فِي أَسْفَارِهم.

الآية الثانية: إرسَالُ الرّياح الّتي تَسُوقُ السُّحُبَ، وَفِيهَا نَفع كثيرٌ، وتُبَشّرُ بالأمطار الّتي تَحْيا بها الزُّروع والثمار، وتَبْتَهِجُ بها الدّيار.

- ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؟ صِيغَةُ السُّؤال مُماثِلَةٌ

تماماً لما جاءَ في المراحِلِ السَّابقة، والتَّحليلُ الَّذي سَبَقَ يَنْطَبِقُ هُنَا.

إنَّ الهداية للمسافِرِ في ظُلُمَاتِ الْبَرِّ، وفي ظُلُمات الْبَحْرِ، يَتَحقَّقُ قِسْمٌ كَبِيرٌ مِنْهَا عَنْ طَرِيقِ النجوم في السَّمَاء، مَعَ مَعَالِمَ بَارِزَةٍ فِي الأَرْضِ كالجبال، والوِدْيَانِ، وكَهُبُوبِ الرِّياح وأنواعها، إلى غير ذَلِكَ مِمَّا يَكْتَشِفُهُ النَّاسُ مِنْ وَسَائِلَ لِلْهِدَايَةِ مِثْل «البوصلة» الَّتي صارت وسيلَةً هادية في الْبَرّ والْبَحْرِ والْجَوّ، بما جَعَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الأرضِ وفِي الأشياءِ من قُوًى مغناطِيسِيَّةٍ تُحَدِّدُ اتِّجاهَ إِبْرَةِ «البوصلة» فَيَهْتَدِي بها السَّالِكُ.

فَمَنْ هٰذَا الْعَظِيمُ المتقِنُ الحكيمُ، الَّذِي جَعَلَ بِتَدْبِيرِهِ فِي كَوْنِهِ مَا يَهْتَدِي به المسافِرُونَ في ظُلَماتِ البرِّ والْبَحْرِ وَالْجَوِّ!!

إنّ العاقل المنصف الرشيد يقول: هو الله الرَّبُّ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه.

- ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾؟ وجاء في القراءة الأخرىٰ «الرِّيحَ» مفرداً، والمؤدّىٰ واحد.

فعل «يُرْسِل» بصِيغَةِ المضارع يَدُلُّ على ما يَحْدُث بتجدُّدٍ في تصاريف الله في كونه.

والإرْسال فيه معنى الْبَعْثِ لِتَأْدِيَةِ مُهمَّة، فهو هنا يَدُلُّ علىٰ أنَّ بَعْثَ الرِّيَاحِ مَقْصُودٌ بِهِ تَبْلِيغ رِسَالَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بمقْدَمِ غيثٍ هو مِنْ عطاءِ رَحْمَتِهِ، مَعَ قيامِهَا بِوَظَائِفِهَا المادّيَّة.

﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: إحْدَىٰ آيات اللَّهِ عزَّ وجلَّ في كونه، وهي آيَةٌ عَجِيبَةٌ ذاتُ أَحْدَاثٍ كُبرَىٰ في الكون، فمنها ما يأتي بالنفع العظيم، ومنها ما يأتي بالتدمير وبالعَذَاب الأليم.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ في القرآن المجيد آية الرّياح في نُصُوصٍ كثيرة

سَبَقَ أن أفردت لتدبّرها ملحقاً خاصّاً من ملاحق تَدَبُّرِ سُورَةِ (المرسلات)⁽¹⁾.

﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾: أي: إعلاماً سَارًّا بِمَقْدَمِ غَيْثٍ تَسُوقُهُ أوامر الله عزّ وجلّ الّتِي هي من آثارِ رَحْمَتِهِ.

وتحليل هٰذه العبارة يُشْعِرُ بأنَّ التَّبْشِيرَ يَأْتي سابقاً وواقِعاً بَيْنَ المُبَشَّرين وبَيْنَ يَدَيْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

أُطْلِقَ عَلَىٰ الْغَيْثِ لفْظُ «الرَّحْمَةِ» لأَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِها، فهو مجازٌ مُرْسَلٌ مِنْ إطْلاقِ السَّبَبِ وإرَادَةِ المسبَّب، وجُعِلَ لِهٰذِهِ الرَّحْمَةِ يَدَانِ تَجُودُ بِهِمَا، إمَّا على سَبيل الاسْتِعَارَة، أو هُمَا مِنْ صِفاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِهِ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سلطانه.

وعلى قراءات: **[نُشراً، ونُشراً، وَنَشراً]** فالمعنى: يُرْسِلُ الرّياحَ نَاشِرَةً ما يَدُلُّ ذوي الحسّ والفكر علىٰ أَنَّ الغيثَ من رحمة اللهِ قَادِمٌ بَعْدَ هُبُوبِهَا، وهٰذا مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

مَا بَيْنَ يَدَي المَخْلُوقِ إِذَا كَانَ زَمَانِيًّا فالمرادُ بِه مَا مَضَىٰ، وإِذَا كَانَ مَكَانِيًّا فالمراد به مَا يَقَعُ إِلىٰ جِهَةِ وَجْهِهِ وَصَدْرِهِ⁽²⁾.

إنَّ طَرْحَ هٰذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ، وَبَيَانَ مَا يَسْتَتْبِعَانِ مِنْ بُحُوثٍ عِلميَّةٍ توصَّلَ إليها الْعُلَمَاءُ الْكَوْنِيُّون، مِمَّا يَدْفَعُ العاقِلَ المنْصِفُ الرَّشِيدَ إِلَىٰ أن يُعْلِنَ اعترافَهُ بأنَّ الهاديَ الحقَّ في ظُلُمَاتِ البرّ والبحرِ والْجَوّ، وأنَّ مُرْسِلَ الرِّيَاحِ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رحْمَتِهِ هُوَ الْخَالِقُ الرَّبّ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانَه.

عِندَئِذٍ يقُولُ له المناظِرُ المؤمِنُ الدّاعي إلى اللَّهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؟

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبّر سورة (المرسلات) المجلد الثاني. الصفحات من (٦٢١ ـ ٦٦٤).

(٢) انظر القاعدة (٣٦) من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ» للمؤلف.

أي: إذا اعْتَرَفْتَ بِأَنَّ الرَّبَّ فِي الْكَوْنِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ، أفَمِنَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والْحِكْمَةِ أَنْ تَتَّخِذَ إِلٰهاً مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُ لَكَ وَلَا لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلَا ضَرّا؟؟!!

وإنْ أصَرَّ المشْرِكُ على شِرْكِهِ تَسَنَّىٰ للمنَاظِرِ الداعي إلى الله، أَن يقولَ لَهُ على سبيل الإنْكَارِ والتعْنِيفِ والتأنِيب والتَّعَجُّبِ مِنْ عِنَادِهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؟؟!!

وفي نِهَايَةِ هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ مَرَاحِلِ المنَاظَرَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ قَالَ اللهُ عزَّ وَجلَّ مُعَقِّباً: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: أي: تَسَامَىٰ وَتَرَفَّعَ اللهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَنْ أَنْ يُكَافِئَهُ فِي إِلٰهِيَّتِهِ أَحَدٌ، فَمَنْ يَجْعَلُهُمُ المُشْرِكُونَ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، يَعْبُدُونَهُمْ كَعِبَادَةِ اللَّهِ هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَعَبِيدٌ مِنْ عَبِيدِهِ، وَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مِنَ الإلٰهِيَّةِ شَيْئاً.

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ المُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ مَا لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا عِلْمَ وَلَا عَقْل؟؟!!

المرحلة الخامسة من مَرَاحِلِ المناظَرَة

قال اللّٰهُ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وجاء أيضاً في هذه المرحلةِ الخامسة من التَّعْلِيم تَوْجِيهُ المناظِرِ المؤمن الداعي إلى الله، لِطَرْحِ السُّؤَالِ فِي مُنَاظَرَتِهِ للمشرك، حَوْل آيَتَيْنِ مِنْ آياتِ اللّٰهِ في كَوْنِهِ.

الآية الأولى: بَدْءُ الْخَلْقِ، وَالْقُدْرَةُ عَلَىٰ إعادَتِهِ بَعْدَ إفْنَائِهِ.

الآية الثانية: رِزْقُ النَّاسِ وَيُلْحَقُ بِهِمْ سَائِرُ الأحْيَاءِ مِن السَّمَاءِ والأَرْضِ.

- ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؟ صِيغَةُ السُّؤَال مُماثِلَةٌ تَماماً لِمَا جَاءَ فِي الْمَرَاحِلِ السَّابِقَةِ، وَالتَّحْلِيلُ الَّذِي سَبَقَ يَنْطَبِقُ هُنَا، ولَا حَاجَةَ إِلَىٰ الْإِعَادَة للقُرْب.

لَا أَحَدَ يَدَّعِي أَوْ يُدَّعَىٰ لَهُ، أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ خَلْقَ المخلوقَاتِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ أَحْيَاءً، أَمْ نباتَاتٍ، أَمْ غَيْرَ ذٰلِكَ، غَيْرُ اللَّهِ الخالِقِ الرَّبِّ الْغَيْبِيِّ عَنِ الإدْرَاكَاتِ الحِسِّيَّةِ، وَالَّذِي هُوَ مَعْلُومُ الْوُجُودِ بالبراهينِ الْعَقْلِيَّةِ، وَتُدْرِكُ العقولُ طَائِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ استِنْبَاطاً مِنْ آثَارِهِ في كَوْنِهِ.

إِنَّ ظَاهِرَةَ بَدْءِ الْخَلْقِ ظَاهِرَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ فِي الأَحْيَاءِ ذَوَاتِ الحركةِ الْإِرَادِيَّةِ وَالإدْرَاكَاتِ عَلَىٰ مَقَادِيرِهَا، وَظَاهِرةٌ مُتَكَرِّرَةٌ فِي النَّبَاتَاتِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وأَصْنَافِهَا وصِفَاتها، ولهذا جاء في البيان استعْمالُ الْفِعْلِ المضارِعَ [يَبْدَؤ].

والقَادِرُ عَلَىٰ بَدْءِ الْخَلْقِ المشاهَدِ بِتِكْرَارٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِراً على إِعَادَةِ مَا كَانَ قَدْ خَلَقَ بَعْدَ إِفْنَائِهِ لَهُ، وَالْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ فِي هٰذَا كَافٍ لإثباتِ هٰذِهِ الحقِيقَةِ، فجَاءَ في السُّؤَالِ التَّعْلِيمِيِّ قَولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ تَوْطِئَةً لِمَا سَيأْتِي من إقناع، حَوْلَ نبأ الآخِرَةِ الَّذِي يَجْحَدُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا لمُجرَّدِ الاستِبْعَادِ والاستغراب.

والسُّؤال عَنْ بَدْءِ الخَلْقِ يَجُرَّ إِلىٰ اسْتِعْرَاضٍ بحوثٍ علْمِيَّةٍ واسِعَةٍ ومُسْتَفِيضَةٍ عَنْ نَشْأَةِ الْأَكْوانِ، وَنَشْأَةِ الأحياءِ، ونشأةِ الإنسانِ، وهي تَهْدِي بِمَا فِيهَا من إتْقَانٍ عَجِيبٍ إِلىٰ أَنَّ لهٰذَا الْكَوْنِ كُلِّه خَالِقاً عظيماً واحداً أحداً لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الكمال، وهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النقصان.

وعِنْدَئِذٍ فقد يَنْدَفِعُ العاقل المُنْصِف الرَّشِيدُ من المقْصُودينَ بالمناظَرةِ، إِلىٰ الاعْتِرَافِ بأَنَّ الَّذِي يَبْدؤ الْخَلْقَ وهو القَدِيرُ إلى إعادتِهِ، هو اللَّهُ الذي لَا رَبَّ غيره، وعندئذٍ يقُولُ لَهُ المناظر المؤمِنُ الدّاعي إلى اللَّهِ: **[أءله مع الله]**؟!!

أي: بِمَا أَنَّكَ اعْتَرَفْتَ بأنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ وهو القدير على إعادَتِهِ، أفَيَلِيقُ بِكَ أَنْ تَعْبُدَ غَيْرَه، فَتَتَّخِذَ إلٰهاً مَعَهُ تَجْعَلُهُ شَرِيكاً له في إلٰهيَّته؟!!

وإنْ أَصَرَّ الْمُشْرِكُ عَلَىٰ شِرْكِهِ تَسَنَّىٰ للمناظِرِ الدّاعي إلىٰ اللهِ، أَنْ يَقُولَ لَهُ على سبيلِ الإنْكَارِ والتَعْنِيفِ والتأنِيبِ والتَّعَجُّبِ مِنْ عِنَاده: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟؟!!

فالاسْتِفْهَامُ يَصْلُحُ تَوْجِيهُهُ في الحالَتَيْنِ، للدَّلَالَةِ على الموقِفَيْن.

● ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾: أي: وَمَنِ العظيم القَدِيرُ الخَلَّاقُ المتقِنُ الحكيم الَّذِي يَرْزُقُكُمْ أَيُّها المشركون، ويَرْزُقُ النَّاسَ جميعاً وَسَائِرَ الْأَحْيَاءِ؟؟ أَخْبِرُونِي عَمَّا تَعْتَقِدُونَه.

إِنَّ رِزْقَ النَّاسِ وَسَائِرِ الأحياءِ مِنَ السَّمَاءِ يأتي من عِدَّةِ أَسْبَاب لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ خَلْقِهَا، والتَّصَرُّفِ بِهَا عَلَىٰ مُقْتَضىٰ الحكمة، إِلَّا اللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ وعظُمَ سُلْطانَهُ.

إِنَّ النباتَاتِ فِي الْأَرْضِ تَحْتَاجُ إلى الحرارَةِ الَّتِي تَقْذِفُ بها الشَّمس، وهِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْق اللَّهِ، وَنِظَامُهَا وَكُلُّ ما يَصْدُرُ عَنْهَا مِنْ إِبْدَاعِهِ وَخَلْقِهِ وَتَدْبِيراتِهِ وَتَصارِيفِهِ.

والنباتاتُ في الأرض هي مادّة غِذَاءِ الأحياء فيها.

وهي تحتاج إلى الماء وسُقياها يَنْزِلُ عَلَيْهَا من السَّمَاءِ، أي: مِنَ السَّحَابِ المتراكم في جَوِّ الأرض، صَاعِداً مِنْ بُخَارِ المياه في الأرض.

وهي تحتاجُ إلَىٰ عَنَاصِرَ تَمْتَصُّها مِنْ عَنَاصِرِ الأرض، وهٰذِه خَلْقٌ من خَلْقِ الله.

وهي تحتاج إلى الهواء المنتشِرِ غلَافاً حول الأرضِ وهو خلْقٌ من خَلْقِ الله.

فَرِزْقُ النَّاسِ والْأَحْيَاءِ جَمِيعاً مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يأتي بقضاء اللَّهِ وَقَدَرِهِ وخَلْقِهِ وَتَصارِيفه.

وهٰذِهِ الحقيقة لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ مجْرِمٌ لَئِيمٌ، كَافِرٌ بِرَبِّهِ، مع عِلْمِهِ بِأَنَّهُ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ القديرُ الحكيم.

وعِنْدَئِذٍ يُوجِّه المؤمِنُ المنَاظِرُ الدّاعي إلى الله للمعْتَرِفِ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ في بَدْءِ الخَلْقِ وقُدْرَتِهِ على إعادَتِهِ: **[أَءِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ]**؟ سُؤَالَ توجِيهٍ وإِقْنَاعٍ بوُجوب تَوْحِيدِ اللَّهِ في إِلٰهِيَّتِهِ.

ويوجِّه السُّؤالَ نَفْسَه للمصِرِّ على شِرْكِهِ، على معنى الإنكار والتعْنِيف والتأنيب والتَّعَجُّبِ مِنْ عِنَادِهِ، وإصراره على الكُفْرِ الَّذِي يجْعَلُهُ مِنَ الخالِدِينَ في عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدّين.

وفي نهاية هٰذه المرحَلَةِ الختاميَّة من مراحِلِ المناظرة التَّعْلِيميَّة، وجَّه اللَّهُ عزَّ وجلَّ لِلْمُنَاظِرِ المؤمِنِ الدَّاعِي إلى اللَّهِ تَعْلِيماً يَقُولُ فيه للمُصِرِّينَ علَىٰ مَوَاقِفِهِمْ الشِّرْكِيَّة: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في ادّعاء أنَّ لِلَّهِ شَرِيكاً في رُبُوبِيَّتِهِ أو فِي إِلٰهِيَّتِهِ، فَقَالَ الله عزَّ وجلَّ لَهُ:

﴿... قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

البُرْهَان: الحجَّةُ البَيِّنَة الفاصِلَة.

﴿هَاتُوا۟﴾: أي: أعْطُوا. قال الخليل: أَصْلُ «هَاتِ» من آتَى يُؤاتي، فَقُلِبَتِ الألِفُ هَاءً.

أي: أيُّها المؤمن الداعي إلى الله، طَالِبِ المشْرِكِينَ بأَنْ يَأْتُوا بِبُرْهَانِهِمْ عَلَى مَا يدَّعُونَ من إِثْبَاتِ شَرِيكٍ للَّهِ أو شركاء، في رُبُوبِيّته أو في إِلٰهِيَّته، فَمِنْ شَأْنِ مَنْ يَدَّعِي أمْراً، أَوْ يَعْتَقِدُهُ، أَنْ يُقَدِّمَ بُرْهَانَهُ الَّذِي يُثْبِتُ صِحَّةَ دَعْوَاه، أَوْ صِحَّةَ اعْتِقَادِهِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ بُرْهَانٌ، فَلْيَأْتِ بِحُجَّتِهِ لَتَجْرِي مُنَاظَرَتُهُ عَلَيْهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ بُرْهَانٌ وَلَا حُجَّةٌ قَابِلَةٌ للمجادلَةِ عليها، بَلْ ما يَدَّعِيهِ أَوْهَامٌ لَا صِحَّةَ لَهَا، فَيَجِبُ علَيْهِ أَنْ يَنْبِذَ أَوْهَامَهُ، وَيَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ المؤيَّدَةِ بالْبُرْهَانِ، وإلَّا فَإِنَّهُ غَيْرُ صالح لِأَنْ يكونَ

إنْسَاناً سَوِياً عاقلاً رَشِيداً، ولْيُعِدَّ نَفْسَه لِتَلَقّي وَعِيدِ اللّهِ بالعقاب الأبَدِيّ في نار جَهَنَّم يَوْمَ الدِّين على كُفْرِهِ بِربِّهِ، من دَرَكَةِ الشِّرْكِ، أو ممَّا هو أخَسُّ مِنْهَا كَجُحُودِ الرَّبِّ الخالِقِ جُحُوداً كلّياً، وادّعَائِهِ أَنَّهُ لا رَبَّ ولا إله، وأَنَّ الوجود كلَّه مادَّةٌ تتحوَّلُ تَحَوُّلاً ذاتياً دُونَ تَدْبِيرِ رَبٍّ خالِقٍ حَكِيمٍ عَلِيمٍ قَدِير، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ويختار.

* * *

التدبر التحليلي للآيات من (٦٥ ـ ٧٥):

وفيها تعليم بعض أساليب الإقناع لمنكري الآخرة، وفي أثنائِها تربيةٌ من الله عزّ وجلّ لِرَسُوله كما سَبَق بيانه في التمهيد.

قولُ الله عزَّ وجل:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

تَرْجِعُ ضَلالَاتُ المشركِينَ الاعْتِقَادِيَّةُ البارِزَةُ إبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (النمل) إلى ثَلاثَةِ جُذُور.

الجذْرُ الأوَّل: اعتقادُ وجُودِ شُرَكَاءَ لِلَّهِ عزَّ وجَلَّ في رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إلٰهِيَّتِهِ. وقَدْ سَبَقَ بيانُ فَسَادِ اعتقادهم هٰذا في المناظَرة التَّعْلِيمِيَّة للدَّاعي إلى الله، الَّتِي سَبَقَ تَدَبُّرها وشرح عناصِرها في الآيات من (٥٩ ـ ٦٤) مِنْ هذا الدَّرْس السادس من دُروس السُّورَة.

الجذْرُ الثاني: اعْتقادُهُمْ بأنَّ لَدَىٰ الكُهَّانِ عُلُوماً غيْبِيَّةً، يخْبِرُونَهُمْ بِهَا، فَهُمْ يُصَدِّقُونَهُمْ فِيما يُخْبِرُونَهُم بِهِ، وَهٰؤُلَاءِ الكُهَّانُ يَجُرُّونَهُمْ إلَىٰ ضَلَالَاتٍ شِرْكِيَّةٍ كثيرة.

وقد سبَقَ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في الآيات من (٢٢١ ـ ٢٢٣) بيانُ أنَّ الكُهَّانَ أفَّاكُونَ غُلَاةٌ في ارْتِكَابِ الآثام، فَهُمْ

بِأكاذِيبهم يَصْرِفُونَ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ عن الحقّ والْخَيْرِ والْهُدَى، وهُمْ فَاسِدُونَ كالشَّيَاطِين الَّتِي تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ.

وسبَقَ لَدَىٰ تَدبُّرِ هٰذِهِ الآيات بَيَانُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْكَهَانَةِ والْكُهَّانِ، وَتَلَقِّيهم عن شَيَاطِين الجنّ، وكيف أنّ الشيطان مِنْهم قَدْ يَلْتَقِطُ خَبراً بِكَلِمَةٍ يَسْمَعُهَا مِنْ بَعْضِ الملائكَةِ، فَيُلْقِيها إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخرُ إلى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّىٰ يُلْقِيهَا على لِسَانِ السَّاحِرِ أو الْكَاهِنِ، فيَكْذِبُ هذا مَعَها لِلنَّاس مِئَةَ كَذْبَة، أخذاً ممَّا صَحَّ عَن الرَّسول ﷺ.

وصِلَةً بِهذا الْبيانِ الّذي جاء في سورة (الشعراء) واستكمالاً لهُ، جاء هُنَا في سورة (النَّمل) تَعْلِيمٌ مِنَ الله عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَقُولَ للّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الكُهَّانَ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ: لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعُ مَنْ لَدَيْهِم استعدادٌ لِعِلْمِ ما، في السَّماوات والْأرضِ، إِلَّا الله عزَّ وجلَّ وَحْدَهُ، أي: وهو بِحِكْمَتِهِ يُعْلِمُ مَنْ يَشَاءُ من عبادِهِ، مَا يَشَاءُ إِعْلَامَهُمْ بِهِ مِنْ عُلُومٍ وَمَعَارِفَ غَيْبِيَّة. لفظ ﴿مَن﴾ اسْمُ مَوْصُول يَشْمَلُ كُلَّ ذِي عِلْمٍ، وأُطْلِقَ عَلَى اللهِ عزَّ وجلَّ.

والمُرَادُ بالْغَيْبِ هُنَا مَا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِعِبَادِهِ وسَائِلَ لإدْرَاكِهِ بحواسِّهِمْ الظَّاهِرَةَ أو الباطِنَةِ، أو لإدْرَاكِهِ بالاستنتاجِ العقليّ من المدرَكَاتِ الحسيَّة.

ومِنْ هذا الْغَيْبِ ما جاء بيانُهُ في قَوْل الله عزَّ وجلَّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿... وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

ومن الْغَيْب الَّذِي لم يُطْلِع اللَّهُ عَلَيهِ أَحداً مِنْ عِبَادِهِ بِمَنْ فِيهِم الملأُ الأَعْلَىٰ مِنَ الملائكَة، زَمَنُ الْبَعْثِ إلى الْحَيَاةِ الأخرىٰ، فقال اللَّهُ عزَّ وَجلَّ في آخِرِ الآية (٦٥) الموضوعَةِ للتَّدبّر من سورة (النمل):

﴿... وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

الشُّعُور: أَخَفُّ وأَضْعَفُ دَرَجَاتِ الإِدْرَاكِ الْعِلْمِي بالشَّيء، ونَفْيُ الشُّعور بالشَّيْء، مِنْ أَبْلَغِ صُوَرِ نَفْيِ الْعِلْمِ بِهِ نَفْياً كُلِّياً.

﴿أَيَّانَ﴾: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ يُسْتَفْهَمُ بِهِ عن الزَّمان، ويُسْتَعْمل فيما يُرادُ استِعْظامه.

﴿يُبْعَثُونَ﴾: البعْثُ لغةً: الإحياءُ بَعْدَ الْمَوْت، أي: لَا يَشْعُرون بالْوقْت العظيم الّذي يكون فيه بعْثُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِم لحياة الحساب وفصل القضاء وتنفيذِ الجزَاءِ بالثواب أو بالعقاب.

وجاءت هذه العبارة توطئَةً للبيان الآتي حول الآخرَة، وما تَبِعَهُ من تعليم الرسول ﷺ وكلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أمّته حجَّةً مِنْ حُجَجِ الإِقْنَاع بالآخِرَةِ، وهِيَ حُجَّةٌ يَثْبتُ بها قَانُونُ الجزَاءِ الرَّبَّانِي، من خلال الأَمْثِلَةِ التَّطْبِيقِيَّة الَّتي عَاقَبَ اللهُ بِهَا الْمجرمين في الحياة الدنيا قَبْلَ الآخرة، وآثارُها باقية.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿بَل﴾: للإِضْرَابِ الانْتِقَالِيِّ مِنْ فِكْرَةٍ إلى فِكْرَة.

﴿ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ﴾: **ادَّارَكَ**: أي: تَلَاحَقَ، وَتَتَابَعَ، حتَّىٰ لَحِقَ الآخِرُ الأوّلَ في تلاقٍ واحدٍ، أي: إنَّ مُشْرِكي مَكَّةَ المَعْنِيِّينَ بالمعَالَجَةِ في السُّورة، لَهم عِلْمٌ قَدْ سَبَقَ في موضوع الْبَعْثِ إِلَىٰ الحياةِ الآخِرَةِ للحسَابِ وفَصْلِ القضاء وتَنْفِيذِ الجزاء على ما يكْسِبُ الناسُ في رحلة الحياة الدُّنيا.

فقَدْ كانَ لَهُمْ ميراثٌ عِلْمِيٌّ بِهٰذا عَنْ إِسْمَاعِيل بْنِ إبراهيم عليهما السَّلام، وَمَا زَالَ هذا الميراثُ مُتَنَاقَلاً فيما بَيْنَهُمْ.

وجاءَهُمْ عِلْمٌ مُماثِلٌ عَنِ الْيَهُود الّذين كَانُوا يَلْتَقُونَهُمْ، وَجاءَهُم عِلْمٌ مُماثلٌ أيضاً عَنِ النَّصارَىٰ.

فَلَمْ يَأْتِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِعِلْم جَدِيدٍ فِي موضوع الآخِرَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ سَابِقٌ، بَلْ تَلاحَقَ وَتَتَابعَ عِلْمُهُمْ بِهِ، فالْتَقَىٰ مَوْرُوثُهُمْ مَعَ عَقَائِدِ أَهْلِ الكِتَابِ في هٰذا الأَمْرِ عَلَىٰ نَبَإٍ وَاحِدٍ.

فَلِمَاذَا يَسْتَبْعِدُونَ وَيَسْتَغْرِبُونَ وَيَشُكُّونَ؟؟!

يقال لغة: «ادَّارَكَ الْقَوْمُ، وَتَدارَكُوا، وادَّرَكُوا» أي: تَلاحَقُوا وَتَتابَعُوا حَتَّىٰ لَحِقَ آخِرُهُمْ أَوَّلَهُمْ، فَتَلاقَوا فِي مكانٍ وَاحِدٍ.

وكذلِكَ الأَنْبَاءُ فِي مَوْضُوعِ الآخرة وإن اختَلَفَتْ بَعْضَ التفاصِيلِ، قَدْ تَلاحقَتْ وَتَتابَعتْ مُؤَكِّدَةً، قَانُونَ الجزاء الرَّبَّانِيّ عَلَىٰ كَسْبِ الإِنْسَانِ فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيا، فَلَيْسَ أَمْرُ الآخِرَةِ نَبأً جديداً عَلَيْهِمْ.

وقراءة: [أَدْرَكَ] تَدُلُّ على أنَّ عِلْمَهُمْ قَدْ أَدْرَكَ مَعْرِفَةَ مَا فِي أَمْرِ الآخِرة، وهٰذه القراءةُ تَدُلُّ على أنَّ بعضهم قد بلغه هذا العلم دون تلاحق وتتابع، أما قراءة: [ادَّارَكَ] فَتَدُلُّ على أنَّ فريقاً آخر منهم قد وصلهم هذا العلم بتلاحق وتتابع: «أدْرَكَ الشيء»، أي: بلغه وناله.

وجاءتِ التعدِية بحرفِ «في» في عبارة ﴿فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ وكان الظَّاهِرُ استعمالَ حرفِ الْبَاءِ، للدَّلَالَةِ على أنَّ عِلْمَهُمْ بالآخِرَةِ لَيْسَ عِلْماً مُسْتَوْفِياً كُلَّ الْعَنَاصِرِ الَّتِي يجب الإيمانُ بها، والمطابِقَةِ لِلْحقِّ، بَلْ هُوَ عِلْمٌ مَا دَاخِلٌ في عُمُومِ نَبَإِ الآخِرَةِ، وهذا دالٌّ عَلَىٰ قَانُونِ الجَزَاءِ الرَّبَّانِي، وَوُجُودِ آخِرَةٍ يَتَحَقَّقُ فِيها هذا الجزاء.

فالعبارة على تقدير: بَلْ تَلاحَقَ وَتَتَابعَ عِلْمُهُمْ بِحَقِيقَةٍ كُلِّيَّةٍ داخِلَةٍ في عُمُومِ أَمْرِ الآخِرَةِ، لَا مُطَابِقَةٍ لِخُصُوصِ أَجْزَاءِ مَا يَكُونُ فِيها، وأَوَّلُ هٰذِهِ الحقائِقِ قَانُونُ الجزاءِ الرَّبَّاني في آخِرَةٍ غَيْرِ الحيَاةِ الدُّنيا.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾: أي: بَلْ هُمْ عَلىٰ الرُّغْمِ مِنْ تَتَابُعِ هذا الْعِلْمِ، مُنْغَمِسُونَ فِي أَوْحَالِ شَكٍّ مُنَفِّرٍ من الآخِرَةِ، صَارِفٍ لهم عن الإيمان بها، يَسْتَمْسِكُونَ بِخُيُوطٍ عَنْكَبُوتِيَّةٍ مِنَ الشَّكّ، ولَا يَعْبَؤُونَ بمَا لَدَيْهِمْ مِنْ حِبالٍ مَتِينَةٍ مِنَ الْعِلْمِ الْوَاصِلِ إليهم من جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَات.

والَّذِي يُنَفِّرُهُمْ من الإيمان بالآخرة، تَعَلُّقُهُمْ بزِيناتِ الحياة الدُّنيا، وما لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَهَوَاتٍ وأهْواء.

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾: أي: بَلْ هُمْ مِنْ نُفُورِهِمْ من الآخِرَة، تَعَلُّقاً بِزِيناتِ الحياة الدُّنيا وأهْوَائِهِم وشَهَوَاتِهِم الَّتي تَتحقَّقُ لهم فيها، عَمُونَ عَنِ الحقِيقة لَا يُدْرِكُونَهَا بِبَصَائِرَ سَلِيمَةِ الرُّؤْيَة.

﴿عَمُونَ﴾: جَمْعُ «عَمٍ» بمعنى «أعْمَىٰ» أي: هم عَمُونَ عَنْ رُؤْية الحقّ، والاهتداء بآيَاتِهِ ودَلَائِلِهِ، وعَمُونَ عَنْ رؤيَةِ أنوار آيات اللَّهِ البيانيَّةِ والفكريَّةِ والوجْدَانية والكونيَّة.

والْعَمىٰ أنْواع، فمنه ما هُو في الْبَصَرِ الظَّاهِرِ، ومِنْهُ مَا هُوَ فِي الْقُلُوبِ والْبَصَائِرِ، وهكذا كانَ أئمَّةُ وَكُبَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيْش.

«مِنْ» في عبارة: ﴿مِّنْهَا﴾ مُتَعَلّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ مُقَدَّر، وَتَقْدِيرُهُ فِيمَا ظَهَرَ لِي: ﴿بَلْ هُمْ﴾ لِنُفُورِهِمْ ﴿مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: لأجل نفورهمْ منها عمُون، وآثرتُ تقدير كَلِمَةِ «النُّفُور» لاستعمالها بشأنهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) في قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

يقال لغة: «نَفَرَ مِنَ الشَّيْءِ»، أي: أعرض، وصَدَّ، وابْتَعَدَ مُدْبراً، كحالَةِ المذْعُورِ الشَّارِدِ، أو المتَمَنِّعُ المتَرَاجِع بحِرَان.

وجاء استعمال كلمة «نُفُور» بشأنهم في الآية (٤٢) من سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) وفي الآيتين (٤١) و(٤٦) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول). وفي الآية (٢١) من سُورَة (الْمُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

قولُ اللّٰهُ عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾.

أي: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بالرَّسُولِ وبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ كُفراً عِنَادِياً، مع اسْتِيقَانِ أَنْفُسِهِمْ بصِدْقِهِ، وبأَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، بأسْلوب الاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيّ الاسْتِبْعَادِيّ الَّذِي يرادُ بِهِ الإنكار: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾؟! أي: أَئِذَا مُتْنَا وَفَنِيَتْ أَجْسَادُنَا وَصِرْنَا تراباً مُخْتَلِطاً بِتُرَاب الأرض، وَصَارَ آبَاؤُنَا تُراباً كذلك أئِنَّا لَمُخْرَجُونَ مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى؟! إنَّ هٰذا الأمْرُ مُسْتَنْكَرٌ جِداً، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَدَّق.

لم يُقَدّمُوا أيَّ حُجَّةٍ غير الاستفهام التَّعَجُّبي الاسْتِبْعَادِيّ الإنْكاري.

- ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾: أي: لَقَدْ وُعِدْنا قَبلَ مُحَمَّدٍ وَقَبلَ الْقُرآنِ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللّٰهِ رَبّ الْعَالَمِينَ، أَنَّنَا سَنُبْعَثُ بَعْد الْمَوْتِ للحسَابِ والجزاء، وَوُعِدَ آبَاؤُنَا أَيضاً هٰذا الْوَعْدَ نَفْسَهُ إِنْبَاءً عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الأنبياء، وَمَرَّتْ قُرُونٌ وَلَمْ نَجِدْ لِهٰذَا الْبَعْثِ الَّذِي تتابعَتْ عَلَيْهِ الْوُعود أثراً، فَلَمْ نَجِدْ أَحَداً مَاتَ فِي القرونِ الأُولَىٰ قَدْ بُعِث.
- ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾: ﴿إِنۡ﴾: حَرْفُ نَفْي مثل «ما» ﴿هَٰذَآ﴾: أي: نَبأُ الحياةِ بَعْدَ الْمَوتِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ القضاء وتَنْفِيذِ الجزاء.

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: تأتي هٰذه الكلمة في اللُّغةِ بِمَعْنَيَيْنِ:

- فتأتِي بمَعْنَى: أَبَاطِيل، وأَحَادِيث لا نظام لها، واحِدَتُها: «إِسْطَار، وإِسْطَارَة، وأُسْطُور، وأُسْطُورَة».

- وتأتي بمعنَى: مَكْتُوبَات الأوّلين، ومَسْطُوراتِهم، قال أبو عبيدة: جُمِعَ «سَطْر» على «أسْطُر» ثُمَّ جُمِعَ «أسْطُر» على «أَسَاطِير».

والمعْنىٰ الأوَّل هو المعْنَىٰ الملاَئِم هُنَا لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: ما هٰذَا الَّذِي يُنَبِّئُنَا بِهِ مُحَمَّدٌ عَنِ الآخِرَةِ وَما فيها مِنْ دار للنعيم ودار للعذاب بالنَّار، إلَّا أَبَاطِيلُ وخرافاتُ الأوَّلِين، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أُنْذِرَتْ بِهِ أُمَّتُنَا الْعَرَبِيَّةُ عَلى لِسَان إسْمَاعِيل، وأُنْذِرَ بِهِ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِ إِسْمَاعِيل، على ألسنة أنبيائهم، وَقَدْ مَرَّتْ قُرُونٌ كَثيرةٌ علىٰ النَّاس دُونَ أَنْ نَجِدَ لِهٰذِهِ الآخِرَةِ أثراً، وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الحياةَ الأُخْرَىٰ لَا أَصْلَ لها، وَلَا صِحَّةَ لِلنَّبَإِ الْوَارِدِ بِشَأْنِهَا.

وَقَدْ تَكَرَّرَتْ مَوَاقِفُ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي يُعْلِنُونَ بِهَا التَّكْذِيبَ بِيَوْمِ الدِّينِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ حُجَّةٌ يَحْتَجُّونَ بِهَا غَيْرَ التَّعَجُّبِ، وَتَوْجِيهِ أَسْئِلَةِ الاستِغْرَابِ والاسْتِبْعَادِ.

وَقَدْ تَكَرَّرَ في الْبَيَانَاتِ الْقُرْآنِيَّة إبْطَالُ تَعَجُّبِهِمْ واستبعادهم واسْتِغْرَابِهِم، بِقِيَاسِ الحياةِ الأُخرىٰ عَلَىٰ الحياةِ الأولى، فَمَنْ قَدَّرَ وَقَضَىٰ الْحَيَاةَ الأُولَىٰ، وَأَنْشَأَ الأَحْيَاءَ مِنَ التُّرَابِ والْمَاءِ، ولَمْ تَتَغَيَّرْ صِفَاتُهُ لِأَنَّهُ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدِيراً عَلَى إعادةِ الحياة إلى الموْتَىٰ، ولَوْ فَنِيَتْ ذَرَّاتُهُمْ فِي تراب الأرض، لِأَنَّهُ جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ ذَرَّاتِهِمْ وَبِكُلّ صفاتهم، وكما بَدأَ أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أراد شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيكُون.

فَالإِنْكَارُ القائِمُ على التَّعجُّب إنكارٌ سَاقِطٌ عَقْلِياً، لَا وَزْنَ لَهُ، وَلَا قِيمَةَ لَهُ فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَة.

وقد جاءت في القرآن المجيد نُصُوصٌ ثَمَانِيَةٌ تَكْشِفُ مواقف الَّذِينَ كَفَرُوا الْعِنَادِيَّة، بشأنِ إنْكَارِهِمْ الآخِرَةَ اعْتِمَاداً عَلى التَّعَجُّب، وَتَوْجِيه الاسْتِفْهَامِ الاستغرابيّ الإنكاريّ، دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعُوا تَوْجِيهَ حُجَّةٍ صَالِحَةٍ للمناظَرَةِ فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَة.

ولمَّا كَانَ التَّكْذِيب بِنَبَإِ الآخِرَةِ يَسْتَلْزِمُ التَّكْذِيبَ بقانُونِ الجزاء الرَّبَّاني، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعِلاجِيَّةِ الْقَائمة على المناظَرَةِ العقليّة ذَاتِ الأَدِلَّةِ الْبُرْهَانِيَّة، تَوْجِيهُ الأَنْظَارِ إلى آثار العقوبَات الجزائيَّة الرَّبَّانِيَّة، الَّتِي أَجْرَاهَا الله فِي الحياة الدنيا، قَبْلَ يَوْمِ الدّين، والَّتي أَهْلَكَ بِهَا أَقْوَاماً مُتَعَدِّدِينَ من كُفّارِ الْقُرُونَ الأولَىٰ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوهُمْ بِمَا جَاؤُوهم بِهِ مِنْ عِنْدِهِ مِنْ شَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيد.

فعَلَّمَ اللهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ ﷺ وكُلَّ دَاعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أمّتِهِ، أَنْ يَقُولَ للكَافِرِينَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الآخِرَةَ والجزاء الرَّبَّانِيَّ، مَا جَاءَ فِي الآية التالية.

قول الله عز وجل:

- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩﴾.

أي: قُلْ لِهٰؤُلَاءِ الكافِرِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ إذْ لَمْ يُؤْمِنُوا بقانُونِ الجزاءِ الرَّبَّانيّ، الَّذِي يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً الإيمانَ بالآخِرَةِ وَبِيَوْمِ الدِّينِ: سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا آثَارَ عُقُوبَاتِ اللَّهِ بإهْلَاكِ مُجْرِمِي الْقُرُونِ السَّابِقَةِ فِي تَارِيخِ الناس، فانْظُرُوا آثَارَ كُفَّار عَادٍ قَوْمِ الرَّسُولِ هُودٍ عليه السلام، وانْظُرُوا آثار كفَّار ثَمود قوم الرَّسُولِ صَالِحٍ عليه السَّلام، وانْظُرُوا آثَار مُجْرِمي قوم الرسُولِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، وانْظُرُوا آثار فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه وجُنُودِهِ الَّذِينَ أُغْرِقُوا فِي الْبَحْرِ، إلى غَيْرِهِمْ مِنْ مجْرِمِي القرون الأولى.

أَفَلَا يَدُلُّكُمْ كُلُّ ذٰلِكَ عَلَى أَنَّ النَّاسَ فِي الحياة الدنيا مُمْتَحَنُونَ

بالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وأنَّ اللَّهَ رَبَّهم الَّذِي وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ لَا بُدَّ أَنْ يَجْزِيَهُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ الْحياة الدنيا من خَيْرٍ وَشَرّ، وأَنَّ مَنْ لم يَنَلْ جزاءَهُ في هٰذِه الحياةِ الدُّنيا فَلَا بُدَّ أنْ ينالَهُ في ظُرُوفِ حياةٍ أُخْرَىٰ، لأنَّ البارئ جلَّ جلالُهُ حَكِيمٌ، عَدْلٌ، جَوَادٌ كَرِيمٌ، لَم يَخْلُقْ خلقَهُ في الحياةِ الدنيا عبثاً.

﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: سِيرُوا باحِثِينَ عَنْ آثار الأوَّلِينَ فِي الأَرْض. يقال لغة: «سَارَ، يَسِيرُ، سَيْراً، وسِيرَةً، وتَسْيَاراً، ومَسَاراً، ومَسِيرَةً» أي: مَشَىٰ.

﴿فَٱنظُرُواْ﴾: أيْ: فَانْظُرُوا نَظَراً بَصَرِياً إلى الآثار، وَنَظَراً فِكْرِياً لاسْتِنْباطِ الْعِبَر من الْعُقُوبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الآثار، وإدْراكِ أَنَّ سُنَّة اللَّهِ فِي عِبَادِهِ واحِدة، فَمَا كَانَ من عُقُوبَاتِ اللَّهِ للمجْرِمينَ الأوَّلِينَ، سَيَجْرِي نَظِيرُهُ للمُجْرِمِينَ الآخِرِينَ، مَتَىٰ تَطابَقَتِ الأمْثَال، وَاقْتَضَتِ الحِكْمَةُ إِنْزَالَ الْعِقَابِ المُعجَّل، وإدْراكِ أَنَّ الجزاءَ بِالعِقَابِ وبالثواب من قوانين الله رَبّ العالَمِينَ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ فِيها وَلا تَغيير لها، لأنَّها من مُقتضيات كمالِ صِفَاتِه الجليلة.

﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ «كَيْفَ» اسم استفهام مبنيٌّ علىٰ الْفَتْحِ في مَحَلِ نَصْبٍ عَلَىٰ أَنَّهُ حَالٌ، أيْ: عَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ الأوَّلِينَ.

عاقبة عَمَلِ الْعَامِلِ: الجزاء الذي يكون بَعْدَه.

والمعنىٰ: فانْظُرُوا بأبْصَارِكُمْ وَتَفَكَّرُوا بِعُقُولِكُم مُسْتَنْطِقِينَ الآثَارَ، سَائِلِينَ سُؤَال تَدَبُّر: كَيْفَ كَانَ جَزَاءُ المجْرِمِينَ الأوَّلِينَ؟

إنَّ الآثارَ المشهودَة بالأَبْصَار، والاسْتِنْتَاجَاتِ العقليَّةَ الَّتِي تَجْزِمُ بِها الأَفْكَار، تُقَدّم لأُولي الألباب العظَةَ والاعتبار، مؤكّدَة أَنَّ قانُونَ الجزاء

الرَّبّانِيّ حَقٌّ، وأَنَّ ما لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْهُ في هٰذِهِ الدَّارِ دَارِ الحياة الدنيا، فَلا بُدَّ أَنْ يَتَحقَّقَ في حياةٍ أُخرى تكونُ في غَيْرِ هٰذِه الدَّار، هُنالِك يَكُونُ الخُلُود، وهُنَالِكَ يكونُ الْقَرار.

جملة ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهاميَّةُ دَلَّتْ على مَفْعُول: ﴿فَٱنظُرُوا﴾: أي: فَانْظُرُوا من خِلَالِ الواقِعِ الجَزاءَ الَّذِي أَنْزَلَهُ الرَّبُّ الحَكيم العليم القدير بالمجرمين الأوّلين.

لفظ «المجْرِمِينَ» أُطْلِقَ في القرآنِ عُنْواناً مقابلاً لِلْمُسْلِمِينَ، وَوصفاً للكافِرين الَّذِين يَسْتَحِقُّون الخُلُود فِي عذابِ النار أبداً، فهو مصطلحٌ قرآنِيٌّ خُصَّ بِهِ الكافِرُونَ.

وعَقِبَ التعليم الإِقْنَاعِيِّ للرسُولِ ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللّهِ مِنْ أَمَّتِه بشَأْنِ إنكار الذين كَفروا الآخِرَة وقَانُونَ الجزاء الرَّبَّاني، وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ تَوْجِيهاً تَرْبَوِيًّا يُوصِيهِ فِيه أن لا يَحْزَنَ على الكافِرِينَ الَّذِينَ يَحْرِصُ عَلَىٰ إيمانهم لإنقاذِهِمْ مِنْ الْعَذاب الأليم خالِدِينَ فِي جهَنَّم دَارِ قَرَارِ الْمجرمين، ويُوصِيهِ فِيهِ أَنْ لَا يَحْمِلَ هَمَّ ما يَمْكُرُهُ أَعْدَاؤُهُ مِنْهُم لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ. وَأَنْ لَا يَكُونَ فِي ضِيقٍ نَفْسِيٍّ وَقَلْبِيٍّ مِنْ ذٰلِكَ، وَهٰذَا يُشِيرُ ضِمناً إِلَىٰ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ يَتولَّاه، ويَكْفِيهِ أَمْرَهم، ويُدَافِعُ عَنْهُ وَعَنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه، فجاء فِي الآية التالية.

قَوْلُ اللَّهُ عَزّ وجَلّ له:

- ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ⑦⓪﴾: أو ﴿فِي ضِيْقٍ﴾:

الْحُزْنُ: مشاعِرُ أَلَمٍ في النَّفْسِ قَدْ يَطُولُ أَمَدُهُ، بسبب فَوَاتِ مَحْبُوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فِيه، أَوْ بِسَبَبِ مَكْرُوهٍ نَازِلٍ، أَوْ مُتَوَقَّعِ النُّزُولِ.

ضَيْق وضِيق: هُمَا بِمَعْنَىٰ الكَرْبِ أَوْ الأَلَمِ فِي النَّفْسِ الضَّاغِطِ عَلَيْهَا، مِنْ حُدُوثِ مَكْرُوه، أَوْ تَخَوُّفِ حُدُوث مَكْرُوه.

الْمَكْرُ: تَدْبِيرُ أَمْرٍ فِي خفَاء، خَيْراً أَوْ شَرّاً، وأَهْلُ الخيْرِ يُدَبِّرُون خيراً، وأَهْلُ الشَّرّ يُدَبِّرُونَ شَرّاً.

ظاهرٌ أنَّ التوجيه التربويّ الذي اشتملت عليه هٰذه الآية، يَتَضَمَّنُ وصِيَّتَيْنِ:

الوصية الأولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وَلَا تَحْزَنْ عَلَىٰ مَنْ تَحْرِصُ عَلى إيمانِهِمْ وإسْلَامِهِمْ لنجاتهم وإنْقَاذِهِمْ من الخلُودِ فِي عَذَابِ النارِ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِكَ.

وَنَفْهَمُ مِنْ هٰذِهِ الوصيَّةِ أَنَّ هٰؤُلَاءِ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ تَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِم، فَاصْرِفْ نَفْسَك وَقَلْبَكَ عَنِ الْحِرْصِ الشديدِ على إيمانِهِمْ وإسْلَامِهِم.

أي: فَرَبُّكَ الخالِقُ لَهُمْ عَلِيمٌ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ، إِنْ يَعْلَم اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ خَيْراً، يُسَاعِدْهُمْ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسلمينَ، ولَوْ فِي حُدُود دَرَجَةِ النَّجَاةِ مِن الخلود في عَذَابِ النَّارِ، لَكِنَّ هٰؤُلَاءِ لَا خَيْرَ فِي قُلوبِهِمْ، فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.

تربية الله لِرَسُوله في الْقُرْآنِ كُلّه أَنْ لاَ يَحْزَنَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مُعَانِدِينَ:

لقد تدرَّجت تربية الله عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ بشأنِ توصِيَتِهِ أَنْ لَا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا عِنَاداً وإصراراً على الباطل وقد جاء هذا في تسعة نصوص.

(١) فأنزل الله عزّ وجلّ قَوْلِهِ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾:

أي: فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ (المُرَادُ بها هُنَا الرُّوح) تَذْهَبُ مِنْ جَسَدِكَ بِالْمَوْت، بِسَبَبِ تَوَالِي الحَسَرَاتِ وَشِدَّةِ الأَحْزَانِ فيها مِنْ أَجْلِ الَّذِين اختارُوا لأنْفُسِهِم الكُفْرَ بِمَا أَوْجَبَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ إيمانٍ وَعَمَلٍ صالِحٍ يُرْضِيهِ، دُونَ أَنْ تَكُفَّهَا بالتَّسْلِيم التَّامِّ لِلَّهِ فِي تَدْبِيراتِ كَوْنه، والتَّسْلِيمِ التَّامِّ لحكْمَتِهِ في قَدَرِهِ وَقَضَائِهِ وتصاريفِهِ في عباده.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰذه الآيَةِ في مَوْضِعَها مِنْ سُورَة (فاطر).

ونُلَاحِظُ فِي هٰذِهِ الآيَةِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ أوصَىٰ رَسُولَهُ بأَنْ لَا يَحْزَنَ حُزْناً شَدِيداً مُمِيتاً بِحَسَبِ نِظَام الأَسْبَاب والمسبَّباتِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ النهْيَ عن الحزْنِ القاتل لَا يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَن الْحُزْنِ غير القاتل.

(٢) ثم أنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِ قوله في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

فأوصَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ ﷺ في هٰذِهِ الآية بأسْلوبٍ لَا نَهْيَ فِيهِ، ولكِنْ فِيهِ رَائِحَةُ الاسْتِفْهَام العتابي، مع التوجيه المشَدَّد أَنْ لا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِ خَوْفِهِ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

والمعنَىٰ: أَلَا تُشْفِقُ على نَفْسِك يا مُحَمَّد، من أَنْ تُعَرِّضَهَا دُونَ شُعُورٍ مِنْكَ لِقَتْلٍ سَرِيعٍ بِسَبَبِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ والْحُزْن، من أَجْلِ قَوْمٍ لَمْ يُشْفِقُوا عَلىٰ أَنفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ بِهِ؟!

وَيظْهَرْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ خَفَّفَ مِنْ حُزْنِهِ عَليهم، طاعَةً لِرَبِّهِ فِي الْوَصِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي سُورَة (فَاطِر) إِلَّا أَنَّ حُزْنَهُ ما زَالَ شَدِيداً يُعَاوِدُهُ آناً فآناً بشدَّة، إلاَّ أنّ آية (الشعراء) لم تنْهَ عن كلّ الحُزْن أيضاً، بل عن شديده القاتل احتمالاً قَتْلاً سريعاً.

وقد سبق تدبُّر هذه الآية في موضعها من سورة (الشعراء).

(٣) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ . . . ﴿٧٠﴾﴾.

فأَوْصَاهُ بهذا النَّهْيِ أَنْ لَا يَحْزَنَ عليهم حُزناً مَا، فَهُمْ لَيْسُوا أَهْلاً لِأَنْ يَحْزَنَ عَلَيْهم.

(٤) واسْتَبْعَدَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ كلَّ بواعِثِ الْحُزْنِ، لَكِنْ بَقِيَتْ لَدَيْهِ بَقَايَا مِنَ الْحُزْنِ عَلَىٰ بَعْضِ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَالِ والسُّلْطَان، إِذْ كَانَ يَرَىٰ أَنَّ إِيمَانَهُمْ وإِسْلَامَهُمْ يَجُرُّ إلى الإيمان والإِسْلَامِ أَتْبَاعَهُمْ الكَثِيرِينَ مِنْ قَوْمِهِ، فَكَانَ هٰذَا دافعاً يُبْقِي لَدَيْهِ بَقَايَا مِنَ الْحُزْنِ، حِرْصاً عَلَىٰ إِسْلَام أَتْبَاعِهِمْ الكثيرين.

فأَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ في سورة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

فدلَّتْ عبارة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مِنْ كُبَرَاءِ قومِهِ، ذَوِي المالِ والْجَاهِ والأَنْصَارِ والأتباع.

وكُلُّ دَارِسٍ لِسِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ يُدْرِكُ أَنَّهُ قَد كَانَ شَدِيد الحِرْص على إيمَانِ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكَّة وإِسْلَامِهِمْ، إِذْ يُسْلِمُ بإسلامهم أتباعُهم وأَنْصَارُهُمْ وكَثِيرٌ آخَرُونَ مِنْ قَوْمِهِ، فَحُزْنُ الرَّسُولِ في هذه الْمَرْحَلَةِ مِن أَجْلِ انتشار الدِّين، لَا من أَجْلِ أَشْخَاصِ هؤلَاءِ الكُبَراء المعانِدِين.

ومن خلال هذا التَّصوُّر نُدرِكُ الْغَرَضَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ إِبَّانَ نُزُول سورة (الحجر): ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

إنَّ هٰذِه الوصِيَّة لَيسَتْ تَكْرِيراً تَطابُقِياً لما جاء في سورة (النمل) بل هي موجَّهَةٌ للدَّلالة عَلَىٰ أمْرٍ غير الأمْر الّذي دَلَّتْ عَلَيْه آيَة (النمل) أخْذاً مِنْ سِبَاقِ آية (الحِجْرِ) وسِيَاقها.

(٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ عزّ وجلَّ نَصاً مُوجّهاً لكلّ داعٍ إلىٰ اللّٰهِ بخطابٍ إفرادِيّ فيما أرَىٰ، يُوصِي فِيه الله الَّذِينَ آمَنُوا فَرْداً فَرْداً أَنْ لا يَحْزُنَهُ كُفْرُ مَنْ كَفَر مَهما كَانَ شَأْنُه، لأنَّ الحياةَ الدُّنيا حياةُ ابتلاءٍ لِكُلّ فَرْدٍ وَضَعَهُ اللّٰهُ فيها مَوْضِعَ الامْتِحَان، والموضوع موضِعَ الامْتِحَانِ هو المسؤول الوحِيدُ عَنْ نَفْسِه، فإذا اختارَ لِنَفْسِهِ تَرَكَهُ اللّٰهُ واخْتِيَارَه، وعَلىٰ المؤمنين أن يَتْرُكُوهُ واختياره، ولَا يَحْزُنَهُمْ كُفْرُه.

فقال الله عزّ وجلَّ في سورة(لُقْمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ . . . ﴿٢٣﴾﴾:

أي: وَمَنْ كَفَرَ كُفْراً عِنادِياً باخْتِيَارِهِ الحرّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ الحقّ، فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ، لِأَنَّهُ كَشَفَ بالامْتِحَانِ عَنْ هُوِيَّةِ نَفْسِهِ الْمُجْرِمَة، والْمَكَانُ الْمُعَدَّ لَهُ بِحِكْمَةِ اللّٰهِ في قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ جَزَاءَ كُفْرِهِ الإراديّ العنادي دَارَ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

(٦) ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ (الْكَهْفِ/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نُزُول) خطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَولَهُ بِشَأْنِ الَّذِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً، وَفِي مُقَدّمَتِهِمْ النَّصارَىٰ الَّذِينَ جَعَلُوا عِيسَىٰ ابْناً لِلّٰهِ، ويُلْحَقُ بِهِمُ المشركون الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ اللّٰهُ عَنْ ذٰلِكَ عُلُوّاً كبيراً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

فَأَضَافَ هذا النَّصُّ بيانَ قَضِيَّتَيْنِ:

القضيّة الأولى: حُزنُ الرَّسُولِ مِنْ أَجْلِ رَافِضِي الحقّ من النصارى، بدَلِيلِ ما جَاءَ في الآية الخامسة من السّورة، فَلَيْسَ أَمْرُ حُزْن الرَّسُول مُقْتَصِراً علَىٰ قَوْمِهِ.

القضيّة الثانية: التَّذْكِير بِحِكْمَةِ ابْتِلَاءِ النَّاسِ فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، ومَعْلُومٌ أَنَّ الحِكْمَةَ من الابتلاء كَشْفُ مَا فِي النفوس من إرادات خَيْرٍ أَوْ شَرٍ، تمهيداً للجزاء بالعدل أو بالفضل، ومقتضىٰ هذا أَنْ لا يَحْزَنَ عاقِلٌ عَلىٰ كُفرِ كَافِرٍ مُعاندٍ يختار لنَفْسِهِ الكُفْرَ بإرادته الحرَّة، مُعَانداً رَبَّهُ الذي خَلقه، وجَعَلَهُ إنساناً مفضَّلاً على كثيرٍ ممَّا خَلَقَ ليَبْلُوَهُ، فإذا آمَنَ وأَسْلَمَ استحقَّ أَنْ يَكون من أهل دار النعيم بفضل الله، وإذا كَفَرَ وأبىٰ أَنْ يُسْلِمَ استَحَقَّ أَنْ يكون من أهل دار العذاب بِعَدْل الله.

(٧) ثُمَّ أنزل اللّٰهُ عزّ وجلّ آياتٍ مَدَنِيَّة ضُمَّتْ إلى آخِرِ سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نُزُول) المكيّة لمراعاة اقتضاءَين:

(١) اقتضاء فكريٌّ اقتضت الحِكْمَةُ ضَمَّهَا إِلَىٰ آخِرِ سورة (النحل).

(٢) واقتضاء حَرَكِيّ اقتضَتِ الحِكْمَةُ إنْزَالَها في الوقت الذي أُنْزِلَتْ فيه، في الْعَهْدِ المدني.

وهي قَوْل الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

دَلَّ هٰذا النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ المؤمِنِينَ قَدْ يَتَعَرَّضُونَ لِصُوَرٍ من أذىٰ الكافِرِينَ واضطّهادِهِم عِقَاباً لَهُمْ عَلَىٰ إيمانِهِمْ وإسْلَامِهِمْ، إذْ خَالَفُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَخَرَجُوا عَنْ جَمَاعَتِهِمْ.

فأوصَىٰ اللَّهُ المؤمِنينَ إذا تَمكَّنُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَظَفِرُوا بِهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَادِلِينَ، فَيُعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبُوا بِهِ دُونَ زِيَادَة، وَرَغَّبَهُمْ بِأَنْ يَصْبِرُوا فَلَا يُعَاقِبُوا، لِيُقَدِّمُوا أَحْسَنَ الْأَمْثِلَةِ عَنْ مُعَامَلَةِ المؤمنين المسْلِمِينَ لظَالِمِيهم، وفي هٰذا دَعْوَةٌ عَمَلِيَّةٌ صَامِتَةٌ للدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ.

ويَظْهَرُ أَنّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ مَسَّ نَفْسَهُ شَيْءٌ مِنَ الحُزْنِ، مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ قُتِلُوا وَهُمْ كَافِرُونَ فِي بَدْرٍ، مِنْ عُقَلَاءِ قَوْمِهِ، وذَوِي الحكمة، والرّأي فيهم، وكان ﷺ شديد الرَّغبة فِي أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ لِيُعِزَّ اللَّهُ بهم الإسلام، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: أي: لو كان في قُلوبِهِمْ خَيْرٌ كَمَا تَظُنَّ فِيهم، لألْهَمَهُمْ رَبُّكَ الرُّشْدَ، ولآمَنُوا وأَسْلَمُوا وَلَوْ قُبَيْلَ أَنْ يُقْتَلُوا.

وَدَلَّتْ عبارة: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ على أنه ما زال في مكة بَعْدَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ أعداءٌ يَمْكُرُونَ مكراً شديداً، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ متولّيه وناصره. وقد ظهر مكرُهُمْ هٰذا في غزوة أحدٍ، ثم في غزوة الأحزاب.

(٨) ثُمَّ أنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ في أوائل الْعَهْدِ المدنيّ قوله في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ... ﴿١٧٦﴾﴾.

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ هٰذَا النَّصّ نَزَلَ فِي المنافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُون مُسْلِمُونَ، إِلَّا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُسَارِعُونَ فِي سُبُلِ الْكُفر، لَا أَنَّهُمْ مُجَرَّدُ عُصَاة.

سَارَعَ فِي كَذَا: أي: أَسْرَعَ بِهِمَّةٍ وَنَشَاط.

وسُلُوكُ هٰذا الصِّنْفِ من الناسِ يُحْزِنُ الرَّسُولَ والصَّادِقِينَ من المؤمنين، لأَنَّهُ يُحدِث خَلَلاً في صُفُوفِهِمْ، وَتَوَجُّساً من تعاظُم نَوامِي الشرّ والفساد في جماعتهم.

فقال اللَّهُ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ولكُلّ مُؤْمِنٍ صَادِقِ الإيمانِ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ أي: لَنْ يَضُرُّوا الدَّعْوَةَ إلَىٰ الله، ولَنْ يُؤَثِّرُوا عَلَىٰ مَسِيرَةِ الإسْلَام الْحقِّ وانتشاره، فَمِنْ شَأْنِ كُلّ جَمَاعَةِ حَقٍّ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا متشكّكون وَمُرْتَدُّونَ.

(٩) ثم أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ بِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُنَافِقين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ... ﴿٤١﴾﴾.

فَدَلَّتْ صِيغَةُ هٰذِهِ الآيَةِ الصَّرِيحَة في دَلَالَتِهَا على الْمُنَافِقِينَ، عَلى أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا جَاءَ فِي آيَةِ (آل عمران) السَّابِقَةِ المنافِقُونَ أيضاً.

على أنَّ الْمُسَارَعَةَ في السُّبُلِ الْمُوصِلَةِ إلَى الْكُفْرِ الصَّرِيحِ المعلَنِ، إنَّما تَكُونُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ على دَرَكَاتهم، لا من الكافِرِينَ المجاهِرِينَ بِكُفْرِهم، ولَا مِنَ المؤمنين الصَّادِقين في إيمانهم.

وهكذا ظهر لَنَا تكامل النصوص حَوْلَ هذا الموضوع.

* * *

الوصيّةُ الثانية: (في الآية ٧٠ من سورة النمل) دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [فِي ضِيقٍ] والمعنىٰ فِيهِمَا وَاحِدٌ، فالقراءتان لغتان عَربيتان في كَلِمَة «ضِيق».

إنَّ مِنْ طَبيعَةِ فِطْرَةِ الإنْسَانِ أَنَّهُ إذَا عَلِمَ أَنَّ أَعْدَاءَهُ يَمْكُرُون ضِدَّهُ، وَضِدَّ أَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ، أَنْ تُحِيطَ بِجَوَانِبِ نَفْسِهِ الْهُمُومُ وَالْغُمُوم، وأَنْ تَتَوَارَدَ عَلَىٰ نَفْسِهِ حَتَّىٰ قَلْبِهِ الأفكار التدبيريَّةُ لاتخاذ الوسائل المضادّة لما

يَمْكُرُهُ أعْدَاؤهُ، طَلَباً لِلْأَمْنِ والحمايَة، وردِّ مَكْرِ أَعْدَائِهِ إلىٰ نُحُورِهم.

وهٰذِهِ الأمُورُ الدَّاخِلِيَّةِ تُشَكِّلُ مَا يُشْبِهُ الْحِزَامَ الضَاغِطَ عَلَيهِ مِنَ الدَّاخِلِ، فَيَشْعُرُ بِضِيقٍ دَاخِلِيٍّ يَضْغَطُ عَلَىٰ نَفْسِه، وَقَدْ يَصِلُ إِلَىٰ قَلْبِهِ، فَإِلىٰ عُمْقِ فُؤَادِهِ، إذْ يُحِسُّ بِأَنَّهُ مُحَاصَرٌ مِنْ كُلِّ جَانِب، وَلَا يَنْفَرِجُ عَنْهُ هٰذَا الضِّيقُ إلَّا إِذَا أَحَسَّ بالأمْنِ والسَّلامَة، واطْمَأَنَّ إلىٰ أَنَّ مَكْرَ عَدُوِّه مَرْدُودٌ عَلَيْهِ.

وأَعْظَمُ مَا يُفْرِغُ عَلَى النَّفْسِ وَالْقَلْبِ الأَمْنَ والطُّمَأْنِينَة، أَنْ يَأْتِيهِ عِلْمٌ مِنَ اللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، بِأَنَّهُ حَامِيه وَحَافِظُهُ، وَرَادٌّ عنْهُ مَكْرَ عَدُوِّهِ، وَمُحْبِطٌ كَيْدَه.

وقولُ اللَّهِ عزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يَدُلُّ بأُسْلُوب الكناية علىٰ أَنَّهُ حَامِيهِ وحَافِظُهُ ورادٌّ عَنْهُ كَيْدَ أعدائِهِ، فَلْيَكُنْ مُطْمَئِناً مِنْ أَمْرِهِ، فاللَّهُ نَاصِرُه.

هذا التأمِينُ الرَّبَّانيّ يُبْعِدُ عَنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ كُلَّ ضِيْقٍ مَهْمَا كَانَ شَدِيداً، لأَنَّهُ تأمِينٌ من عَلِيم حَكِيم قَدِيرٍ، لا يُعْجِزُهُ مُمْكِنُ الإيجاد، قولُه حَقٌّ وَوَعْدُهُ صِدْق، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون.

وهذه الوصيّة التأمِينيَّة قد أوصَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها رَسُولَهُ فِي أوائِلِ الْعَهْدِ المدني، وهي في النّصّ المدَنِيّ المضْمُومِ إلىٰ سُورَةِ (النَّحْلِ) المَكِّيَّةِ للإشعار بأنَّ أَصْحَابَ هٰذَا المكْرِ أعداءٌ مَكِيُّونَ، فَقَد جاء في الآية (١٢٧) منها قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿... وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وقرأ ابْنُ كَثِيرِ: [فِي ضِيقٍ] كما قرأ في نظير هٰذه العبارة في سورة (النمل).

ومعلومٌ أَنَّ مَكْرَ أَعْدائِهِ المَكِّيين بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ قَدْ كَانَ إعداداً لقتالٍ حَرْبِيٍّ في غَزَوَات، ولا سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ بِهِمْ قَاصِمَةُ ظَهْرٍ، في غَزْوَةِ بَدْر.

قول اللّهِ عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وَجدَ الّذِينَ كَفرُوا إخْفاءَ وَقْتِ قيام السَّاعَةِ الَّتِي يكونُ بها إنْهاءُ ظُروف الحياةِ الدُّنيا كلِّها، تَعِلَّةً يَتَذَرَّعُونَ بِهَا لإنْكَارِ الآخِرَةِ، ولإنْكَارِ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانيّ كُلّه.

فَصَارُوا يَقُولُونَ مُكَرِّرِينَ: مَتَىٰ هٰذَا الْوَعْدُ؟ ويَزْعَمُونَ أَنَّ عَدَمَ تَحْدِيد زَمَنِ قيام السَّاعَةِ الَّذِي لَمْ يُطْلِع اللّٰهُ عَلَيْهِ أحداً مِنْ خَلْقِهِ في الأرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، دَلِيلٌ عَلَى كَذِبِ نَبَإِ القيامة، ونبإِ الجزاء الرَّبَّانيّ كُلّه.

وصَارُوا يُوجِّهُونَ هٰذا الْقَوْلَ لأفراد المؤمِنِين وجماعاتهمْ لفتْنَتِهُمْ عَنْ دِيْنِهِمْ، دَلَّتْ عَلَىٰ هٰذَا آيَةُ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾:

الواو في أوّل الآية تعْطِفُ على عبارة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ في الآية (٦٧).

وعبارة ﴿يَقُولُونَ﴾ بصيغة الفِعْل المضارع دَلَّتْ علَىٰ أنَّهُمْ كَانُوا يُكَرِّرُونَ هٰذا الْقَوْل الذَّرائِعيّ، لأنَّ هٰذه الصيغَة تَدُلُّ علىٰ التكرار والتجدُّد كما يقولُ البلاغيّون.

والمشارُ إلَيْه بِعبارَةِ ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يوْمُ القيامَةِ الّذِي يأتي قيامُ السَّاعَةِ في أُولَىٰ مراحِلِهِ، وَمَا فِي يَوْمِ القيامَةِ مِن جَزَاءٍ رَبَّانِيٍّ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالْفَضْلِ، وَهٰذا الجزاءُ هو الّذِي يُكَذِّبونَ بِهِ فِي حَقِيقَةِ الأمْرِ.

وعبارة: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الكَافِرِينَ يُكَذِّبُونَ بِنَبَأ يَوْم الْقِيامَةِ، وبالجزاء الرَّبَّانِيّ كُلّه مُعَجَّلِهِ فِي الدُّنْيا ومؤجّلِهِ إلى يَوْمِ الدّين، إذْ

جَاءَ فِي العبارة حَرْفُ الشرْطِ «إنْ» الّذِي يَدْخُلُ عَلَى الْمَشْكُوكِ فِيه، أَوْ عَلى مَا يَعْتَقِدُ المتكلّم كَذِبَه، إلّا أنّهُ يُلَطِّفُ عبارتَهُ مُجَامَلَةً لِمَنْ يُخَاطِبُه، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ للدّلالَة على مُجَرَّدِ التّعْلِيقِ الشَّرْطِيّ، دُونَ النَّظَر إلى ما دَخَلَتْ عَليه، مشكوكاً فيه أَمْ غَيْرَ مَشْكُوكٍ فيه.

فجاء الجوابُ التَّعْليميُّ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلّ مُدَافِعٍ عَنِ الإسْلام من أصْحَابِهِ يومئذٍ، بالتوجيه الإفرادي:

فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿قُلْ﴾: فعل أمْرٍ تَعْلِيميّ.

﴿عَسَىٰ﴾: فِعْلٌ جَامِدٌ غَيْرُ مُتَصرِّف، معناهُ تَوَقُّعُ حُصُولِ الشَّيْءِ مُسْتَقْبلاً، مع رجاءِ رُجحان الْوُقُوع.

وقدْ تَأْتِي بمَعْنَى احْتِمال وقوع الشيء دون رُجْحانٍ، ومِنْهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

﴿رَدِفَ لَكُم﴾: يُقَال لُغَةً: «رَدِفَهُ، وَرَدِفَ لَهُ، يَرْدَفُهُ رَدْفاً» أي: دَهَمَهُ، وفَاجَأهُ، وَغَشِيَهُ، دُونَ تَرَقُّبٍ ولَا توقُّع.

أصل مادة كلمة «رَدِفَ» يَدُور حول معنى: «تَبعَ».

فالمعنىٰ: نَتَوَقَّعُ بِرُجحَانٍ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ مَا تَسْتَعْجِلُونَ مِنَ الجزاءِ الرَّبَّانِيّ، قَدْ تَمَّ بِهِ قَضاءُ اللَّهِ وَقَدَرُه، فَقَدْ يُدَاهِمكُمْ ويُفَاجِئُكُمْ وأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، سُكَارَى فِيما أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاكُم وأهوائكم وشهواتكم واستكباراتِكُمْ بغَيْرِ حَقٍّ.

وَاسْتُعْمِلَ الفِعْلِ الماضي: ﴿رَدِفَ﴾ للدّلالَةِ على قُرْبِ الْوُقُوعِ قُرْباً نِسْبِيًّا، يُلائِمُ سُنَنَ اللَّهِ في مَجَارِي مَقَادِيرِه، لِتَغْيِيرِ بَعْضِ أَحْوَالِ الأُمَمِ،

جَزَاءً عَلَى السيِّئاتِ، أو جزاءً على الحَسَنَاتِ، والسَّنواتُ الْمَعْدُودَاتُ زَمَنٌ قَلِيلٌ وَأَجَلُهَا قَرِيبٌ، بِالنِّسْبَةِ إلىٰ إنْزَالِ عِقَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ بِأمَّةٍ من الأُمَم، أو بِالنِّسْبَةِ إلى نَصْرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِئَةً عَلَىٰ فِئَة، فبعد سَنَوَاتٍ مَعْدُوداتٍ نَزَل بمشركي مَكَّةَ مَا يَكْرَهُونَ.

أَمَّا نَحْوُ: «قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ» فَقُرْبُ قِيَامِهَا فِعْلاً يُلائِمُ حَالَها، ويُعَدُّ الزَّمَنُ بالثواني.

وجاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾: مُلائِمةً لِمَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ إنْكَارِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ كُلِّهِ، إذْ أغْرَاهُمْ إمْهَالُ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى وَفْقِ سُنَّتِهِ بِعِبَادِهِ، فَتَوَهَّمُوا أَنَّ الْوَعِيدَ بالْعِقَابِ الرَّبَّانِيِّ لَهُمْ إذَا أصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَعِيدٌ كَاذِبٌ، فَتَمَادَوْا فيما هُمْ فِيهِ من كُفْرٍ وَمُعَانَدَةٍ للحقّ، ومعاداةٍ للرَّسُول ولدَعْوَته، واضطِّهادٍ لضُعَفاء المؤمنين.

وكذلك فَعَلَ كُفَّارُ الأُمَم من قَبْلهم، وكذلك يَفْعَلُ سائر الكفّار من بَعْدِهم إلى أن تقومَ السَّاعَة.

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ إمْهَالَ اللَّهِ للكافِرِينَ المجرمين من عِبادِهِ، داخِلٌ في عُمُوم فَضْلِهِ على النَّاسِ جَمِيعاً، فهو لا يُتْبِعُ جرائِمَهُمْ بعُقُوبَاتِهِ، تَفَضُّلاً مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهم، لِيَتْرُكَ لهم زَمَناً طَويلاً يُرَاجِعُونَ فِيهِ نُفُوسَهُمْ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُسْتَعِدٌ مِنْ أَعْمَاقِهِ للتَّوْبَةِ والنَّدَمِ والرُّجُوعِ إلى الحق، حتَّى إذا وَصَلُوا إلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها مِنْ إيمانِهِمْ وإسْلامهم عن طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة، أَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيز مُقْتَدر.

ولَكِنْ مَعَ هٰذا التَّفَضُّل من اللَّهِ على الناس، وَمِنْهُ التَّفَضُّلُ الإمْهَالِيُّ للعصاةِ والمجرمين، فإنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لَا يُقابِلُونَ تَفَضُّلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالشُّكْر،

وَلَوْ مِنْ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الشُّكْرِ، وِهي دَرَجَةُ الإيمان به والإِسْلَامِ لَهُ.

الفضل: هو في الأَصْلِ الزّيادة، والبَقِيَّةُ مِنَ الشَّيء، واسْتُعْمِلَ بمَعْنَى الابتداء بالإِحْسَانِ وَالْعَطَاءِ مِنَ الخير مادِّياً أَمْ مَعْنَوِياً، وقَدْ اشْتَهَرَ بهذا المعْنَىٰ.

الشكر: مقابلَةُ إِنْعَامِ المنْعِمِ بما يُرْضيه.

وجاء في هذا البيان التوكيدُ بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة» مع أنّ تَوْجِيه الخطاب فيه للمؤمن الّذي لَيْس لَدَيْه شَكٌّ فيما جاء فيه لِغَرَضَيْنِ:

الأول: تَعليم المؤمن في بيانِهِ للمفاهيم الإسلاميَّة، أَنْ يُوجّه إقناعه للآخرينَ بأسْلوب المتحقِّق مِمَّا يقول، والمؤكَّد له، لا بأسْلُوب المتلجلج غَيْر الواثِقِ مِمَّا يَقُول:

الثاني: إسماعُ الكافِرينَ دُونَ مُوَاجَهَتِهِمْ بالخِطَاب، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ يُؤكِّد ما جاء في هٰذا الْبيانِ للرَّسُولِ ولِكُلِّ مخاطَبٍ مِنَ المؤمنين، إعْلاماً بأَنَّهْ حَقٌّ لا شَكَّ فيه.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾.

﴿مَا تُكِنُّ﴾: أي: مَا تَسْتُر. يقالُ لُغَة: «كنَّ الشيءَ يَكُنُّهُ كَنًّا. وأَكَنَّهُ يُكِنُّهُ» أيْ: سَتَرَه.

﴿صُدُورُهُمْ﴾: أي: صُدُور الناسِ جميعاً، ويَدْخُلُ فِي هٰذَا الْعُمُومِ الكافرون المُتَحَدَّثُ عَنْهُمْ في آياتٍ سابقات.

ونَفْهَمُ مِن القرائِنِ أنَّ ما يُخْفِيهِ وَيَسْتُرُهُ الكافِرُونَ فِي صُدُورِهم وَلَا يُعْلِنُونَه، عِدَّةُ أُمور منها ما يلي:

(١) مَكْرُهُمُ الَّذِي يَمْكُرُونَهُ ضِدَّ الرسُول ﷺ ودعْوتِه، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

(٢) كراهِيتُهُمُ الشَّدِيدَةُ لهذا الدّين الذي جاءَهُمْ بِهِ، وَتَخَوُّفُهُمْ من انْتِشَارِهِ على زَعَاماتهم في قَوْمِهِمْ.

(٣) تَلَهُّفَهُمْ للتَّخَلُّصِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَتَرَبُّصُهُمْ بِهِ رَيْبَ المنُون.

(٤) اسْتِكْبَارُهُمْ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وطاعَتِهِ في أَوَامِرِهِ ونواهيه.

ولكلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أشياءُ يُخْفِيهَا فِي صَدْرِهِ حَتَّىٰ عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ.

واللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ـ عليم بكُلّ ذٰلِكَ، لَا يُخْفَىٰ عَلَيْهِ مِمَّا يَكْتُمُونَهُ وَيَسْتُرُونَهُ شَيْء.

وَجَاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ لبيان استقْصَاءِ مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ وَأَحْوَالِهِم، ولِدَفْعِ تَوَهُّمِ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ صُدُورُ النَّاسِ وَلَا يَعْبَأُ بِمَا يُعْلِنُونَ، مَعَ مَا فِي ذِكر هٰذِهِ العبارة في آخر آيتها من تَنَاظُرٍ جَمِيلٍ مَعَ مَا جَاءَ فِي أَوَاخِرِ الآياتِ السابقاتِ واللَّاحِقَاتِ: [**تَسْتَعْجِلُونَ ـ لاَ يَشْكُرُونَ ـ وَمَا يُعْلِنُونَ ـ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**].

قول اللَّهِ عَزَّ وجلَّ:

- ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾.

بَعْدَ بَيَانِ قَضِيَّةِ شُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ مَا يُعْلِنُهُ النَّاسُ وَمَا يُخْفُونَهُ فِي صُدُورِهِم، الَّذِي هُوَ أَخْفَىٰ الْخَفَايَا، وَيَدُلُّ باللُّزُوم الْعَقْلِيِّ عَلَى شُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ لِكُلِّ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ الْإِعْلَامَ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ غَائِبٍ أَوْ مَشْهُودٍ فِي السَّمَاءِ والْأَرْضِ مُسَجَّلٌ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَاضِحٍ لَا غُمُوضَ وَلَا خَفَاء فِيهِ.

وَجَات العبارة بأسْلُوب الْحَصْرِ بالنَّفْيِ والاستِثْنَاء، أي: فَمَا مِنْ

مَوْجُودَةٍ فِي الْأَكْوَانِ غَائِبَةٍ عَنْ إِدْرَاكِ الْخَلَائِقِ أَوْ مَشْهُودَةٍ إِلَّا هِيَ مَعْلُومَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُدَوَّنَةٌ وَمُسَجَّلَةٌ فِي كِتَابٍ مُبِين.

﴿مُّبِينٍ﴾: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» اللَّازم بمَعْنى ظَهَرَ ووضَحَ، ومن فعل «أبَانَ» المتَعَدِّي بمعنَىٰ أَظْهَرَ وأوضَحَ.

وقَدْ كَشَفَتْ لَنَا الوسَائِلُ الحديثَةُ الالكْتُرونيّة الَّتي تُسَجّلُ المعلومَاتِ، طرائقَ لتدوين العلوم والمعارف أَلِيكترُونِياً، لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الأقلامِ والأوراق، وتُسَجِّلُ مَكْتَبَةً كَامِلَةً فِي قُرْصٍ وَزْنُه أَقَلّ مِنْ عَشْرة غرامات، وهي ذاتُ دِقَّةٍ وإِبَانَةٍ عَجيبَةٍ تَظْهَرُ مُدَوَّنَاتُهَا عَلَى شَاشَةٍ تَراهَا أَعْيُنُ الناس.

كَلِمَةُ ﴿غَآئِبَةٍ﴾ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَم، إِذْ لَا تُوجَدُ مَعْلُومَةٌ لِبَعْضِ الْخَلَائِق إِلَّا هِيَ غَائِبَةٌ عَنْ بَعْضٍ آخَرَ منهم، فَتُوصَفُ بأَنَّها غَائبة، ولَا شيء في الوجود هو غائبٌ عن عِلْم الله عزَّ وجلَّ.

وبهذا تم تدبُّر الدرس السادس من سورة (النمل) والحمد لله على مَعُونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٠)

التدبُّر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (النمل) الآيات من (٧٦ ـ ٩٣) وهو الدرس الأخير منها

مقدمة:

وفيه بيان عَنِ القرآن وتوصيات تَرْبَوِيَّة للرَّسُولِ فَلِحَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وفيه بيان عن أحداثٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ هِيَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وأَحْدَاثٍ أُخْرَىٰ هِيَ مِنْ مُشَاهِدِ يَوْم الدِّين، وفيهِ عَرْضُ بَعْضِ الآيَاتِ الكونِيَّةِ الدَّالَّاتِ على رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ المسْتَلْزِمَةِ لإلٰهِيَّتِهِ عَقْلاً، أَثْنَاءَ عَرْضِ بَعْضِ

مَا سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، للإِشْعارِ بأنَّ الدُّنْيا هِيَ الطَّرِيقُ الْمُخْتارُ لِبُلُوغِ الآخِرَةِ، وَنَيْلِ مَا أُعِدَّ فِيهَا مِنْ جَزَاءٍ بالثوابِ أو بالعقاب.

وفي خاتِمَةِ هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ مَا يَقُولُهُ لِأَئِمَّةِ كُفَّار مَكَّةَ إِبَّانَ نُزُولِ هٰذِهِ السُّورَةِ، فِي مُقَابِلِ مَا يَمْكُرُونَهُ ضِدَّهُ وَضِدَّ دَعْوَتِهِ، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ.

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
(٧٦) وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ
أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ
(٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ
ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ
وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى
ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ
بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ (٨٩)
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)
إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا
رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾.

القراءات:

(٧٦) • قرأ ابن كثير: **[الْقُرَانَ]** بفتح الراء وألِف بَعْدَها. وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ براء سَاكِنة وهمزة مفتوحة فألف مَدِّيَّةٍ بَعْدَها.

(٨٠) • قرأ ابن كثير: **[وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾.

وبين القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في الأداء البياني، أي: هُمْ لَا يَسْمَعُونَ فأنْتَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُسْمِعَهُمْ.

(٨١) • قرأ حمزة: **[وَمَا أَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ]**.

وقرأها باقي القُرّاء العشرة: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾.

والقراءتان من التفَنُّن في التعبير، ومؤدّاهُمَا واحد.

(٨٢) • قرأ نافِعٌ، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وابن عَامِرٍ وأبو جعفر: **[إِنَّ النَّاسَ]** بكسر الهمزة، وقرأها باقي القراء العشرة ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ وهما وجْهَان جائزان. فالكسر على الابتداء، والفتح على تقدير الباء.

(٨٧) • قرأ حفصٌ عن عاصم، وحمزة، وخلف: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ على أنه فعل ماضٍ.

وقرأهَا بَاقِي القرّاءِ الْعَشْرَة: **[وَكُلٌّ آتُوهُ]** على أَنَّهُ جَمْعٌ آتٍ اسم فاعل.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد. فصِيغَةُ اسم الفاعِلِ وَصَفَتْ حالَهُمْ وهم يأْتُون إلى ربّهم، وصيغَةُ الفعل الماضي وصفت حالهم بَعْدَ تمام حُضُورِهم عند رَبهم.

• قَرأ ابن عامر، وعَاصِمٌ وحمزة، وأبو جَعْفر: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ بفتح السين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [تَحْسِبُهَا] بِكَسْرِ السِّينِ، وَهُمَا وجهان عربيان في النطق.

(٨٨) • قرأ ابن كثير، وهشام عن ٱبْنِ عَامر، وأبو عَمْرو، ويعقوب: [يَفْعَلُونَ] بالياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

(٨٩) • قرأ نافع، وأبُو جعفر: [مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ] بإضافة «فَزَع» إلى «يَوْمِ».

وقرأها بَاقِي القُرّاءِ الْعَشَرَةِ: ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بتنوين «فَزَع» ونَصْب «يَوْمَ» على الظرفية.

ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، وهما من التَفَنُّنِ في التعبير.

(٩٣) • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جَعْفر، ويَعُقوب: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

هاتان الآيتَانِ موصولَتَانِ بما جاء في الدرس الأول من دُرُوس السورة عن القرآن، فقد جاء فيه:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.

وجاء فيه أيضاً خِطاباً للرَّسُول ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

وإذْ جاء في الدَّرْس الثاني من دُروسِ السُّورَةِ حَدِيثٌ موجَزٌ عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، كَانَ من المناسب أنْ يَأْتِي في الدَّرس الختامي من دروس السورة، بيَانُ أَنَّ الْقُرآنِ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

• ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي: يُحدِّثُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحَدِيثٍ صَحِيحٍ مُطَابِقٍ لِلْحَقّ، مَعَ تَتَبُّعِ الجزْئِيَّاتِ الَّتِي تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ الْبيانِيَّة ذِكْرَهَا.

تقول لغة: «قَصَصْتُ الشيءَ، أَقُصُّهُ، قَصّاً، وقَصَصاً» أي: تَتَبَّعْتَ أَثَرَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً. ويُقَال: «قَصَّ عَلَيْهِ الْخبَرَ»: أَيْ: حَدَّثَهُ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

• ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: عبارة: ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ تدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ:

الْمَعْنَىٰ الأول: أَنَّهُمْ فِيهِ فَرِيقَانِ فَأَكْثَرَ، وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مُخَالِفٌ لِغَيْرِهِ، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الحقُّ موافقاً لما يَعْتَقِدُهُ أَوْ يَقُولُهُ فَرِيقٌ مِنهم، فَقَدْ يَكُونُ الْحَقُّ شَيْئاً آخَرَ مخالِفاً لِجَمِيعِ مَا يَدَّعُونَ.

المعنى الثاني: أَنَّهُمْ جَمِيعاً يَخْتَلِفُونَ فِيهِ مَعَ الْحق، فَيَقُولُونَ أقوالاً مُحرَّفَةً بَاطِلَةً، فِي أُمُورِ الدِّينِ، أو فِي حكايَةِ التَّارِيخ، ومِنْ كَذِبِهِمْ في التَّارِيخ ذِكْرُهُمْ أَنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلام هُوَ الَّذي صَنَعَ الْعِجلَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي

عَبَدُوهُ، وأَبَانَ القرآن أنَّ هَارونَ عليه السَّلام أنْكَرَ عليهم اتِّخاذَهُمُ العجل، وأنَّ السَّامِرِيَّ هو الّذي أخْرَجَ لهم عجلاً جسداً لَهُ خُوار، وأنّ عُبَّادَ الْعِجْلِ مِنْ بَنِي إِسرائيل كَادُوا يَقْتُلُونَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلام لأنَّهُ شدَّد النَّكِير عليهم.

وَدَلَّتْ عبارة: ﴿أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ على أنَّ القرآنَ لَمْ يَقُصَّ علىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلَّ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ عَنِ الْحَقِّ، بَلْ قَصَّ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَهُ.

وَسُكُوتُ الْقُرْآنِ عَمَّا لَمْ يَقُصَّهُ عِليهم مُصَحّحاً فِيهِ بَاطِلَهُمْ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمسْكُوتَ عَنْهُ غَيْرُ ذِي شَأنٍ فِي أُمُور الدِّين، كَحِكَايَاتِهِمْ التَّارِيخِيَّة غَيْرِ ذَاتِ القِيمَةِ في إِثْبَاتِ عَقِيدَةٍ أَوْ سُلُوكٍ دِيني، أَوْ فِي حديثٍ بَاطِلٍ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهم أَوْ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِهِم، فَهٰذِهِ وأَمْثَالُهَا قَدْ قَصَّ القرآنُ فِيها الحقَّ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ ما عِنْدَ بَنِي إسرائيل ممَّا هو مُخالفٌ لما جاءَ به القرآنُ باطلٌ، افْتَرَوْهُ عَمْداً، أَوْ ذَكَرُوهُ خَطَأً أو جَهْلاً.

الاختلاف: يُرادُ بِهِ المغايَرَة، وهٰذه قد تكونُ على سبيل التضادّ، أو التَّناقُضِ، أو على سبيل ما يُسَمَّى عند علماء المنْطِق «التَّخالف» والمتَخَالِفَانِ عندهم هُمَا اللَّذَانِ قَدْ يَجْتَمِعَانِ، وَقَدْ يَرْتفعان⁽¹⁾، كالطُولِ والسَّوادِ، أمّا النَّقِيضَان فلا يجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، كالْوُجُودِ والعدم، وأمّا الضّدّان فلا يجْتَمِعَانِ وقدْ يَرْتَفِعَانِ كالسُّجُود والقِيَامِ لا يجتمعان في شيءٍ واحِدٍ معاً، وقد يَرْتفعان في الجلوس.

- ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

الهدى: مَصْدَرُ «هَدَاهُ، يَهْدِيهِ، هُدىً، وهَدْياً، وهِدَايَةً، وهِدْيَةً» أي: بيَّنَ لَهُ وأَرْشَدَهُ.

وَيُطْلَقُ لفظ: «الْهُدَىٰ» على الصراط، وهو الطريقُ الواضح، وهو طَرِيقُ الحقّ.

---

(١) يراد بارتفاع الوصف عدم وجوده.

ويُطْلَقُ لَفْظُ «الْهُدَىٰ» على إخراج شيءٍ من شيء آخر، ومن عُمُوم هذا الإخراج نَفْهَمُ الإخراجَ من الظُّلُماتِ إلى النور، ومن الكُفْرِ إلى الإيمان، ومِنَ الباطِل إلى الحقّ، ومن الشّرّ إلى الْخَيْرِ، ونحو ذلك.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: أي: والْقُرآنُ رَحْمَةٌ من اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ للنَّاسِ، إذْ أَبَانَ لَهُمْ صِراطَ سَعَادَتِهِمْ في الدنيا، وصِرَاطَ نَجاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّين، وظَفَرِهِمْ بالنَّعِيمِ الخالِدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، فَهُوَ أَثَرٌ منْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

رَحْمَةُ اللَّهِ عَزّ وجلَّ: صِفَةٌ مِنْ صِفاتِهِ عَلَىٰ ما يَلِيقُ بجَلَالِهِ، وَهِيَ تَسْتَلْزِمُ الإنْعَامَ والإكْرَامَ والْإِحْسَانَ، ويكُونُ مِنْ آثَارِهَا بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ الْعَفْوُ والْغُفْرَان، ويكونُ من آثَارِهَا بيانُ الدِّين الَّذِي تَتَحَقَّقُ باتّباعه سعادة الناس.

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: هذا قَيْدٌ لِكَوْنِ القرآنِ هُدىً ورحْمَةً. أي: إنَّ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ كَوْنِ القرآنِ هُدىً وَرَحْمَةً، هُمُ المؤمِنُونَ بِكُلّ ما جَاءَ فيه، بَعْدَ استيفائِهِم الإيمانَ بِكُلِّ أرْكَان الْإِيمان وعناصِرِها، فَهُمْ يتابِعُونَ آيَاتِ القرآنِ بالإيمان الصَّحِيحِ الصَّادِق، الَّذِي من شأنِهِ أَنْ يَدْفَعَهُم إلى العملِ بأحكامه وشرائعِهِ، وعندئذٍ يكون لهم هُدىً، وعِنْدَئِذٍ يَسْعَدُونَ بِعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ.

إنَّ بيانات القرآن، وتعليماته، وَوَصَايَاهُ، تُعَرِّف بالحقّ والباطل، وتُوَضِّحُ المسافة الفاصِلَةَ بَيْنَهُمَا، حَتَّىٰ لَا تَختَلِط حُدودُهما، فَلَا يَقع من يهتَدِي بِهِ في حَمْأَةِ الْبَاطِلِ وهو يَحْسَبُهُ حقاً. وَتُعَرِّف بِطَرِيقَي الْخَير الشّرّ، وطريقَي الفجور والتقوىٰ، وطريقَي الصلاح والفساد، من السُّلُوكِ الإنْسَانِيّ الظاهر والباطِن. وتُوَضِّحُ الْحُدُودَ والفواصِلَ بَيْنَ هٰذِهِ الطُّرُق، فلا يَقَعُ مَنْ يَهْتَدِي بِهَدْيِ القرآن في أوْحَالِ الشرّ والفجور والفسادِ وأوضَارِها وخبائثِها.

فالقرآن كالطبيب النَّاصِحِ الرَّحيم، الَّذِي يُقَدِّمُ نَصائِحَهُ بِشَأْنِ الوقايَةِ قَبْلَ الإصابَةِ بالدَّاء، وبالعلاج بَعْدَ الإصابَةِ بِهِ، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا رُحِمَ وَسُتِرَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا أَوْ أَدْبَرَ خَابَ وَخَسِرَ.

والّذِين لَا يُؤْمِنُونَ بالقرآنِ كتاب اللهِ المنزّل على رسُوله مُحَمَّدٍ ﷺ، ولا بِمَا جَاء فِيه من خَيْرٍ عَظِيم للنَّاس، قَدْ حَرَمُوا نفوسهم بِكُفْرِهِمْ بِهِ، واسْتِكْبَارِهِمْ عَن اتّباع آياته، مِنْ مَنَافِع كَوْنِهِ هدىً، ومنافِعِ كَوْنِهِ رَحْمَةً، وشَأْنُهُمْ كَشَأْنِ مَنْ يَحْجُبُونَ أَعْيُنَهُمْ عَنِ النورِ الْمُبِينَ. أَوْ يَخْتَبِئُونَ فِي المغاراتِ حَتَّىٰ تَمُرَّ قَوَافِلُ الْمِيرَةِ الَّتِي تُعْطَىٰ مَجاناً للسَّائِلِينَ الظاهِرِينَ، المعْتَرِفِينَ بإنْعَامِ المانِحِين.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

هذا بيانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ داعٍ إِلى اللهِ من أمَّته، ثُمَّ سَائِرُ المؤمنين، وفيه طَمْأَنَةٌ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزُ الْعَلِيم، بِشَأْنِ مَا يَمْكُرُهُ أَعْدَاؤه وأعداءُ دَعْوَتِهِ وَأَعْدَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ من تَدْبيراتٍ في الْخَفَاءِ، وهو مَا جَاءَ بيانُهُ في الآية (٧٠) من الدرس السادس، بقول الله عزّ وجلّ لرسوله: ﴿... وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: أي: إنَّ رَبَّكَ الَّذي أَرْسَلَكَ، والْمُهَيْمِنَ عَلَيْكَ، والْحَافِظَ لَكَ وَلِدَعْوَتِكَ ولِأَصْحَابِكَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ يَقْضِي بَيْنَ أَفْرَادِ أعدائِكَ بِحَسَبِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ عَدَاوَةٍ وَمَكْرٍ آناً فآناً.

فَيَكْفِيكَ فَرِيقاً مِنْهُم بالْمَوْتِ، ويَرُدُّ فَرِيقاً مِنْهُمْ بما يَشْغَلُهُ به من أمُور نفسه، ويُحْبِطُ أعْمالَ فَرِيقٍ مِنهم، ويُلْقِي دَوَاعِي الْفُرْقَةِ بَيْنَ فُرَقَائِهِمْ حَتَّىٰ لَا

يَجْتَمِعُوا ضِدّك، إلى غير ذٰلِكَ من أقْضِيَةٍ يَقْضِيهَا بَيْنَ أفرادِهِمْ وجماعَاتِهِمْ، فَلَا تَكُنْ فِي ضِيقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ.

﴿يَقۡضِي﴾: أي: يُبْرِمُ وَيُمْضِي أحْكَامَهُ القضائِيَّةَ آناً فآناً، وإبرامُ القضاء يَسْتَلْزِمُ تَنْفِيذَ المقْضِيّ بِهِ في الأَجَلِ الْمُحَدَّدِ لِتَنْفِيذِهِ، وَحُكْمُ رَبّكَ حَكِيمٌ دَواماً.

أي: فأنت وَمَنْ يُهِمُّكَ أَمْرُهُمْ مَحْمِيُّونَ مَحْفُوظُونَ بِأَقْضِيَةِ رَبّكَ المتَتَابِعَةِ والْمُصَاحِبَةِ لِمَا يُدَبِّرُهُ الْكَافِرُونَ أعداؤُكُمْ وَلِمَا يَمْكُرُونَهُ آناً فآناً.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: أي: وَربُّكَ هُو الْقَوِيُّ الغالِبُ الْقَدِير على حِمَايَتِكَ، وحماية جماعة المؤمنين.

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: أي: الْعَلِيم بكُلّ شيءٍ، ومِنْهُ مَا يَمْكُرُونه ويُدَبِّرُونه ضِدَّكم، فَهُوَ سَيَكْفِيكهُم مَا تَتَخَوَّفُونَ منه.

- ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾: أي: وإذْ أَعْلَمْنَاكَ بأنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ، وبأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ فِي الوجود كُلّه الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ، فَالواجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاكَ بِالنُّبُوَّةِ، واجْتَبَاكَ لِحَمْلِ الرّسَالَةِ الخاتِمَةِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾: أي: إِنَّكَ مُسْتَقِرٌّ علىٰ الْحَقّ الثَّابِتِ الَّذِي لَا شَيْءَ يَنْقُضُهُ، والْمُبِينِ الواضِحِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ غِشَاوَةٌ وَلَا غَبَشٌ، إذْ كُلّ مَا فِي هذا الدّين من قَضَايَا عَقَدِيَّة أو خُلُقِيَّةٍ أو سُلُوكِيَّة، ظاهِرُ الْحَقّ إذا كان من قضايا الحق، وظاهِرُ الأقوَمِيَّةِ إذا كان من قَضايا السُّلُوك، وظاهر الفضل والكَمَال إذا كَان من قضايا الأخلاق، وكُلُّ ذٰلِكَ يُمْكِنُ وَصْفُهُ بأَنَّهُ حَقّ.

التوكُلُ على الله: الاستسلام لِلَّهِ، وتفويض تدبير الأمور وتحقيق المرغوب فيه إليه، مع القيام بالأسْبَابِ المستطاعَة الماديّة والمعنوية طاعة لأمره ونهيه، دون تفريط بشيءٍ منها.

* * *

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أَطْلَقَ اللَّهُ عزّ وجلَّ علىٰ الَّذِينَ لَيْسَ لديْهم استِعْدَادٌ للاستجابَة لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة الكلاميَّة إِطْلَاقَيْن:

الإِطْلَاق الأَوّل: أَنَّهُمْ مَوْتَى، وهٰذا الإِطْلَاقُ يُنَاسِبُ الّذِينَ وَصَلُوا إلى حَضِيضِ مُعَادَاةِ الحقِّ، واسْتَغْرَقُوا فِي أَوْحَالِ لذاتِهم وشَهَواتهم وأَهْوَائهم من الحياة الدُّنيا.

الإِطْلَاقُ الثاني: أَنَّهُمْ صُمٌّ، وهذا الإطلاق يُناسب الَّذِينَ هُمْ يَنْحَدِرُونَ إِلَىٰ الحضيض، ولم يَبْلُغوا بَعْدُ إلى الاستغراقِ في أوحاله.

وأَطْلَقَ الله على الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِم اسْتِعْدَادٌ لِرُؤيَةِ آيَاتِ اللَّهِ في كَوْنِه أَنَّهُمْ عُمْي.

أَمَّا إِطْلَاقُ عُنْوان «المَوْتَيَ» فَهُو عَلَىٰ تَشْبِيه الذين أُطْلِقَ عليهم بالموتى، لأَنَّ قُلُوبَهُمْ بالنِّسْبَةِ إلى الحقّ الرَّبَّانِيّ بمَثَابَةِ الْقُلُوب المَيِّتَةِ فأَطْلِقَ لفْظُ الموْتَىٰ عَلَيْهِمْ عَلىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارة.

وأَمَّا إِطْلَاقُ عُنْوانِ «الصُّمّ» فَهُو على تَشْبِيهِ الّذِين أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ بالصُّمّ، لأَنَّ قُلوبَهُمْ بالنّسْبَةِ إلى بَيَانَاتِ اللَّهِ ورَسُولِه بمَثَابَةِ الآذَانِ الصَّمَّاء، فَأُطْلِقَ لفْظُ الصُّمّ عَلَيْهِم عَلىٰ سَبِيلِ الاستعارة، إلاّ أَنَّهُمْ لم يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكة الموتَى.

وأَمَّا إطلاق عنوان «العُمْي» فهو على تشبيه الّذين أُطْلِقَ عَلَيْهِم بالْعُمْي، لأَنَّ قُلُوبَهُم بالنِّسْبَةِ إلى آيات اللَّهِ الَّتِي تُرىٰ بالأبصار بمَثابَةِ الأَعْيُنِ الْعَمْيَاء، فَأُطْلِقَ لفظ الْعُمْي عليهم على سَبِيلِ الاستعارة، إلَّا أَنَّهُم لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكَة الموتى.

وفي هَاتَيْن الآيَتَيْن يُعَلِّمُ اللَّهِ عزّ وجلَّ رَسُولَهُ فكلَّ داعٍ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، تَوْفِيرَ طَاقَاتِ مُجَاهَدَاتِه فِي دَعْوَتِهِ وَتَوْجِيهَهَا لِمَنْ نَقْتَضِي أحْوالُهُم أَنَّ اسْتِجَابَتَهُمْ مَطْمُوعٌ فِيها، باعْتِبارِ أَنَّهُمْ ما زَالُوا في أَوَائِل تَوْجِيهِ الدَّعْوَةِ لَهُمْ، أو دَلَّتِ التَّجْرِبَةُ على أَنَّ لَدَيْهِم استِعْداداً مَا للتَّفَكُّرِ فيما يُدْعَوْنَ إِلَيْه، واستِعْداداً ما لِتَفَهُّمِ حَقَائِقه، والاسْتِمَاع إلى نَصَائِحِ الدَّاعِي، ومَوَاعِظِه، وحُجَجِهِ وبَرَاهِينِه.

بخلافِ الّذِين دَلَّتِ التجاربُ المتكَرِّراتُ علَىٰ أَنَّهُمْ مَوْتَىٰ الْقُلُوب أو صُمُّها أَوْ عُمْيُها، فإنْفاقُ طاقَاتِ المجاهَدات فِيهِمْ بُغْيَةَ هِدايتهم من التَّبْذِير الَّذِي لَا يَلِيقُ بأهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ المجاهِدِينَ في سبيل اللَّه، لأَنَّهُمْ يُدْرِكُونَ أنَّ بَذْلَ طَاقاتِهِمْ في الميؤوس مِنِ استجابتهم، كَمَنْ يَحْرُثُ فِي الْبَحْر، ويَبْذُرُ في السِّبَاخ.

• ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: أي اعْلَمْ أَنَّ الّذِين وَصَلُوا إلى دَرَكَةِ الموتىٰ مِمَّنْ تُجَاهِدُهُمْ بأقوالِكَ وبيانَاتِكَ طمعاً فِي هدايَتِهِم، فإنَّكَ تُنْفِقُ وَقْتَكَ وَطَاقَاتِكَ إِنْفَاقاً تَبْذِيرِيّاً ضَائِعاً، فَمِنَ الخيْرِ لَكَ أَنْ تُوَجِّهَ مُجَاهَدَتَكَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا أَنْ يَكُونوا مَيْؤُوساً مِنْهم.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾: أي: ومِثْلُ حَالِ مَوْتَى الْقُلُوبِ، حَالُ صُمِّ الْقُلُوبِ إِذَا نَفَرُوا من دَعْوَتِكَ وَتَوَلَّوْا عَنْ قَبُولِ مُواجَهَتِكِ، وابْتَعَدُوا مُدْبِرِينَ.

﴿ٱلدُّعَآءَ﴾: أي: النداء بأعْلَىٰ الصَّوْتِ.

﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾: أي: إذا أدْبَرُوا نَائِين مُبْتَعِدين، يقال لغة: «وَلَّىٰ فُلانٌ» أي: أدْبَر. ويقال: «وَلَّىٰ الشَّيْءَ ووَلَّىٰ عَنِ الشَّيْءِ» أي: جَعَلَ دُبُرَه لَهُ وَنَأَىٰ.

وعبارة ﴿مُدْبِرِينَ﴾: حَالٌ مَؤَكِّدَةٌ لِلْعَامِل.

وعبارة ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ قَيْدٌ لَازِمٌ، أيْ: فإذا لَمْ يَصِلِ الصُّمُّ إِلَىٰ دَرَكَةِ الْمُوَلِّينَ الْمُدْبِرِينَ فَمُجَاهَدَتُهُمْ مَطْلُوبَةٌ، إِذْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ مَعَها عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الحرَّةِ، إذ الأَصَمُّ المُقْبِلُ بوَجْهِه قَدْ يَفْهَمُ بالإشارات.

• ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ وفي القراءة الأُخْرىٰ: **[وَمَا أَنت تَهْدِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ]**.

أي: وَمِثْلُ حَالِ مَوْتَىٰ الْقُلُوبِ، وَصُمّ الْقُلُوبِ حَالُ عُمْي الْقُلُوبِ، فحَالُ عُمْي الْقُلُوب حالٌ مَيْؤُوسٌ مِنْها، فَمَا أَنْتَ بوَاصِلٍ إِلَىٰ هِدَايَتِهِمْ، وَصَرْفِهِمْ عَنْ ضَلَالَتِهِم، وجَعْلِهِمْ يَسْتَجيبون للحَقّ الَّذِي تَدْعُوهُمْ إِلَيْه، والغرضُ بيان عَدَمِ جَدْوى اتّخاذِ الوسائل البصرية لهدايتهمِ.

ضُمّنِ لفْظُ «هَادِي» وفِعْلُ «تَهْدِي» في القراءة الأخرى، مَعْنَىٰ كُلَمةِ «صَارِف» أو فعل «تَصْرِف» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرف «عَنْ» فجاءت العبارة ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: ومَا أنت بهادِي الْعُمْيِ صارفاً لهم عن ضلالَتِهم.

الضَّلالُ والضَّلالَة: الضَّياعُ في متاهات الباطل والشّر، بَسبَبِ الإعراض الإراديّ عن الحقّ وسبيلِ الرَّشاد، وعن الآيات الدَّالّاتِ عَلَيْهما، اتّباعاً للأهواء والشهواتِ والتقاليد العمياء، والعصبِيَّاتِ الذميمات، أو الاسْتِكْبَار، أو الاسْتِغْراقِ فِي متاعِ الحياة الدُّنيا.

• ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: أي مَا تُسْمِعُ إسْمَاعاً واصلاً إلى مراكزِ الإدْراك الدَّاخِلِيّ المؤثّرِ إقْنَاعاً وَتَوْجِيهاً للسُّلُوكِ، إلَّا الّذِينَ لدَيْهِمْ اسْتِعْدادٌ لأَنْ يُؤْمِنُوا بآيَاتِنا الْبيانيّة الّتي يَتَلَقَّوْنَها تِباعاً، إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، دافعاً إلى الطَّاعَةِ والسُّلُوكِ الَّذِي يُرْضِي رَبَّهُمْ فِعلاً أَوْ تَرْكاً.

هؤلَاء هم الَّذِينَ يَسْمَعُونَ حَقًّا الآيَاتِ الرَّبَّانِيَّة الَّتي تَتَضَمَّنُ تَكاليفَ عَمَلِيَّة، وَيَسْتَجِيبُونَ لمَا جاء فيها مُسْلِمينَ طَائِعين.

وفي العبارة حَصْرٌ بالنفي والاِستثناء.

ولدى مُراجَعَةِ ما سبقَ في نجوم التنزيل، نلاحظُ أنَّ التوجيهَ الذي دَلَّت عليه هاتَانِ الآيتان (٨٠) و(٨١) عن طريق استخدَام أسْلُوبِ الاستعارة القائمةِ علَىٰ التشبيه، قَدْ سبقَتْهُ نظائِرُ في نُجُوم التَّنْزِيلِ النازلَة قَبْلَ سُورَة (النَّمْل) مع تغيير في أسلوب التعبير، والْغَرضُ من البيانِ واحد، ولمَّا لَمْ يكُنْ صَرِيحَ الدَّلاَلَة فَقَدْ خَفِيَ المرادُ عَلَى كثيرينَ من أهْلِ التَّأْوِيل.

* * *

قول اللَّه عزّ وجلّ:

- ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

- ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: أصْلُ مَعْنَىٰ الوقُوعِ السُّقُوطُ مِنْ مكانٍ مُرْتَفِعٍ وَوُصُولُهُ إلَىٰ مَكانٍ آخر، وَوُجُودُهُ فِيه، وَلوْ زَمَناً قليلاً.

يُقالُ لغة: «وَقَعَ الشيْءُ، يَقَعُ، وَقْعاً، وَوُقُوعاً» أي: سقَط. ويقالُ: «وَقَعَتِ الدَّوَابّ»، أي: رَبَضَتْ. «وَوَقَتِ الإِبِلُ» أي: بَرَكت. «وَوَقَعَ الطَّيْرُ» أي: نَزَلَ من سَمَائِهِ وَوَقَفَ علَىٰ أرْضٍ أو شَجَر.

وبالتَّوسُّع اللُّغوِيّ من الْمُدْرَكاتِ بالحسّ إلى المعنويّات المدْركاتِ بالفكر قَالُوا: «وَقَعَ الحقُّ» أي: ثَبَتَ. وقالُوا: «وَقَعَ الْقَوْلُ» أي: تحقَّقَ وُجُودُ ما دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ خَبَرٍ عَنْ ماضٍ أو حاضرٍ أو مُسْتَقْبل. أوْ تحقَّقَ تَنْفِيذُ مَا دَلَّ عَلْيه من مطْلُوب.

والْقَولُ الرَّبَّانِيّ قَدْ يكُونُ تَعْبيراً عمَّا تَمَّ بِتَقْدِير اللَّهِ وقَضائه، وهُو:

- إمَّا أنْ يَكُونَ أمْراً بالتَّنْفِيذِ الآنيّ، فالمرادُ بوُقُوعِهِ تحقُّقُ وُجُودِه على وَفْق مُرادِ اللَّهِ وَقَضائِه وقَدَرِهِ فِيهِ.

- وإمَّا أنْ يكُونَ تَعْبِيراً عَنْ مقْضِيٍّ به، لَهُ أَجَلٌ لتحقِيقِهِ فِي المستَقْبل، فَهُوَ قَوْلٌ مُعلَّقٌ عِنْدَ الْخَطِّ الزَّمَنِيِّ المرسُوم على شرِيطِ الزَّمَنِ القادِمِ مِنْ غَيْبِ المستقبل، والسَّاقِطِ في عُمْقِ الماضي، فإذا وصَلَ هذا الخطُّ إلى الحاضِر سَقَطَ القوْلُ المعلّقُ، فتحقَّقَ تَنْفِيذُ المقْضِيِّ بِهِ إيجاداً أَوْ إعداماً.

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: علىٰ الكافِرِينَ أَمْثَالِهِم الّذِينَ سَيَكُونُونَ مَوْجُودِينَ في الأرض إبَّانَ حُدُوثِ أَشْراطِ السَّاعَةِ منَ الأجيال والقرون القادِمَة في المستَقْبل.

من أسْلُوبِ القرآن أنْ يُخاطِبَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ فِيه أحَفادَ السَّابقِينَ، الملْتَزِمِينَ عَقَائِدَ أجْدَادِهِمُ الأَوّلِينَ الْغَابِرِينَ، وَأَنْواعَ سُلُوكِهِمْ، كَما لَوْ كانُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ هم المرتَكِبِينَ لسيِّئَاتِ وقَبَائِحِ أَجْدَادِهِم، باعْتَبارِ أَنَّ انْتِمَاءَهُم إِلَيْهِمْ انْتِمَاءُ افْتِخَارٍ وتَأْيِيد. وأَنْ يَتَحدَّثَ عَنِ كفَارِ الْقُرُونِ القادِمَةِ بكلامٍ ظاهِرُهُ الْحَدِيثُ عَنِ الكُفارِ المعاصِرِينَ، باعتبار التَّشَابُهِ التَّامّ بَيْنَ المُعَاصِرِينَ وَبَيْنَ القادِمِينَ فِي الْقُرُونِ اللّاحِقة في المسْتَقْبَلِ، وَلَوْ كَانَ مُسْتَقْبلاً بَعِيداً.

وَوُقُوعُ الْقَوْلِ علىٰ الكُفَّارِ الآخَرِينَ إِذَا ظَهَرَ شيءٌ من أشراطِ الساعة الكُبْرَىٰ، يَكُونُ بإقْفَالِ بَابِ التَّوْبَةِ والْغُفْرانِ دُونَهُمْ، ويَكُونَ بتَلَاحُقِ أَنْواع الْعَذَابِ والمهْلِكَاتِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ بقيام السَّاعَةِ علىٰ شَرِّ خَلْقِ اللَّهِ، إِذْ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَىٰ أُناسٍ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ اللَّه.

أمَّا المؤْمِنُونَ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ رِيحاً هَيِّنَةً لَيِّنَةً قَبْلَ ذَلِكَ، فَتَمُرُّ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، وَتَقْبِضُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَرْواحَهُمْ طَيِّبَةً نُفُوسُهُمْ بِذَلِكَ، كَمَا تُسَلُّ الشَّعرَةُ مِنَ الْعَجِين.

- ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾:

هذه العِبَارَةُ تُبَيِّنُ إِحْدَىٰ آياتِ الله الكُبْرَىٰ الّتِي سَتَكُونُ قَبْلَ قِيامِ

السَّاعة، وإحْدَىٰ أشْرَاطِ السَّاعَةِ «= علاماتِها» الْعُظْمَىٰ وهيَ إخْرَاجُ دَابَّةٍ من الأرض، على صِفَاتٍ ما مشابهاتٍ لِمَا لصفاتِ دَوَابِّ الأرْضِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ، إلّا أنَّها نَاطِقَةٌ تُكِلّمُ الناسَ بلُغَاتهم.

ما جاء من صحيح في السُّنَّةِ بشأن هذِه الدّابّة:

قال ٱبْن كثيرٍ في تفسيره: وقَدْ وَرَدَ في ذِكْرِ الدَّابَّةِ أحَاديث وآثارُ كثيرة، وأورد منها روايات فيها الصحيح، وفيها ما هو دُونَهُ وأختارُ منها ومنْ كتُب الحديث ما حُكِمَ عَلَيهِ بالصِّحَّة، مع التجاوز عن سَرْدِ المكرَّات.

(١) رَوَى الإمام أحمد، ومُسْلِمٌ، وأَهْلُ السُّنَنِ عن حُذَيفَةَ بْنِ أُسَيْد الغفاريّ، أنّ رسولَ اللّه ﷺ قَال:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّىٰ تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، والدُّخَانُ، والدَّابَّةُ، وخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمأْجُوجَ، وخُرُوجُ عِيسَىٰ ٱبْنِ مَرْيم، والدَّجَّالُ، وثَلاثَةُ خُسُوفٍ: خَسفٌ بالْمَغْرِب، وخَسْفٌ بالْمَشْرِقِ، وخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، ونَارٌ تَخْرُجُ من قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ، أَوْ تَحْشُرُ الناسَ، تَبيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وتَقيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا» قال الترمذي: حديث حَسَنٌ صحيح وروى الحاكم في المستَدْركَ على الصحيْحين، عن واثلة بن الأسْقَعِ نظيرهُ، وفي آخره «تَحْشُرُ الذَّرَّ والنمل» صحَّحهُ الذهبي في التلخيص.

حَيْثُ قالُوا: أي: حيث استراحوا في وقتِ القيْلُولةَ نِصْفَ النهار.

(٢) وروَىٰ مُسلم عن عبْد اللّه بْنِ عَمْرِو قال: حَفِظْتُ من رَسُولِ اللّهِ ﷺ حَدِيثاً لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يقُول:

«إنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُروجاً طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ ضُحىً، وأيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلُ صَاحِبَتِهَا فَالأُخرىٰ عَلَىٰ إثْرِهَا».

يُقال لغة: «جاءَ فِي إِثْرِهِ» أي: جاء عَقِبَهُ.

(٣) وروى مُسْلمٌ أيضاً عن أَبِي هُرَيْرَة، أَنَّ رسُول اللَّه ﷺ قَال:

«بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتَّةً: طُلُوعَ الشَّمِسْ مِنْ مُغْرِبِها، والدُّخَانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وَخَاصَّةَ أَحدِكُمْ، وَأَمْرَ الْعَامَّةَ».

وفي رِوايَةٍ أُخرىٰ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أيضاً، أنّ النبيّ ﷺ قال: «بَادِرُوا بالأعْمَال سِتًّا: الدَّجَالَ، والدُّخانَ، وَدابَّةَ الأَرْضِ. وطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مُغْرِبِها، وأَمْرَ الْعَامَّة، وُخُوَيِصَّةَ أَحدِكُمْ».

ولابْن ماجه في سُنَنِهِ نَظِيرُهُمَا عن أنَسِ بْنِ مالك رضي اللَّه عنه. وقال الألباني فيه: حسَنٌ صحيح.

بَادِرُوا بِالأَعْمَال سِتَّةً: أي: اجْعلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ تَسْبِقُ ظُهُورَ هٰذِهِ الأَشْرَاطِ السِّتّة مِنْ أشْرَاطِ السَّاعَة.

وروايَة «سِتًّا» هي على تقدير «آيات، أو عَلَامَات».

وَأَمْرَ الْعَامَّة: أي: ما يَتَعلَّقُ بصَلاحِ المجتَمعَ الإسلاميّ في دنياه وآخِرَتِه.

خاصَّة أَحدِكم. وخُوَيِصَّةَ أَحَدِكُمْ: أي: ما يَتَعَلَّقُ بالأشياء الّتي تَخُصُّ صَلاح الْفَرْدِ مِنْكُمْ لأُمُور دُنْيَاهُ وآخِرَتِه.

خاصَّةُ الإِنْسَان: مَا يَخْتصُّ بِهِ دُونَ غَيْرِه. ولفظ «خُوَيِصَّة» تَصْغِيرُ لفظ «خَاصَّة» والمرادُ مَا يَتَعَلَّقُ بُخُصُوصِ ذَاتِهِ، مِمَّا لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِيه، ولا يتعَدَّىٰ نَفْعُهُ إِلَىٰ غَيْرِه.

ولم أفهم إدْخَالَ هذين في أشراط الساعّة إلّا أن يكون ظهور الأنانية وتفكّكَ أمر العامة.

(٤) وروى مُسْلِمٌ عَن أبي هُرَيرَة، قالَ: قالَ رسول اللَّه ﷺ: «ثَلاثٌ

إِذَا خَــرَجْــنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾(١) طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها، والدَّجَّالُ، ودَابَّةُ الأَرْض».

(٥) وروىٰ الحاكم النيْسَابُوريّ في المستدرك على الصحيحين(٢) عَنْ أبي الطُّفَيْلِ قال: كُنَّا جُلُوساً عنْدَ حُذَيفَةَ فَذُكِرَتِ الدَّابَّة، فقالَ حُذَيفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّهَا تَخْرُجُ ثَلَاثَ خَرْجَاتٍ فِي بَعْضِ الْبَوادِي، ثُمَّ تكْمُنُ، ثُمَّ تَخْرُجُ في بَعْضِ الْقُرَىٰ، حتَّىٰ يُذْعَرُوا، وحَتَّىٰ تُهْرِيقَ فيهَا الأُمَرَاءُ الدِّمَاءَ، ثُمَّ تَكْمُنُ، قَالَ؛ فبَيْنَمَا النَّاسُ عِنْدَ أعْظَمِ الْمَسَاجِدِ وأفْضَلِهَا وَأَشْرَفِها، حتَّىٰ قُلْنَا: «الْمَسْجد الحرام» وَمَا سَمَّاهُ، إذِ ارْتَفَعَتِ الأَرْضُ، ويَهْرُبُ النَّاسُ، ويَبْقَىٰ عَامَّةٌ مِن الْمُسْلِمينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَنْ يُنْجِيَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْءٌ، فَتَخْرُجُ فَتَجْلُو وُجوهَهُمْ، حَتَّىٰ تَجْعَلَهَا كَالكَوَاكِب الدُّرِّيَّةِ، وتَتْبَعُ النَّاسَ، جِيرَانَ فِي الرِّبَاع، شُرَكَاءَ فِي الأَمْوالِ، وأَصْحَابَ في الإسلام».

هذا حديث صحيح على شَرْط الشيخيْن ولم يُخرِّجاه، قال الذَهبِيُّ في التَّلْخِيص: علىٰ شَرْطِ البخاري ومُسْلِم.

أقول: هذا حَدِيثٌ موقوف على حُذَيفة رضي اللَّه عنه، ولكنَّهُ لا يُقَالُ من قِبَل الرَّأي حَتْماً، فَلَهُ قُوَّةُ الحديثِ الْمَرْفُوع.

وجاءتْ آثار في وَصْفِ هٰذِه الدَّابَّةِ، ووصْفِ بَعْضِ أعْمالِها، لَا تَرْقَىٰ إلى مسْتَوىٰ الاحْتِجاج بها، أَعْرَضْتُ عَنْ ذِكْرِها.

* * *

- ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٥٨).

(٢) ٤/٥٣١.

وفي القراءة الأخرىٰ بِكَسْرِ هَمْزَةِ «إِنَّ» عَلىٰ أنَّها جُمْلَةٌ مُسْتَأْنفَة، أمّا الْفَتْح فعَلَىٰ تقْدير الباء الجارَّةِ أيْ: بسَبَبِ أنَّ الناس كَانُوا بآيَاتِنَا لَا يُوقِنُون.

فالمعنى: وَإِذَا وَقَعَ قَوْلُ اللَّهِ على النَّاسِ بإِقْفَال بابِ التَّوْبَةِ تَمْهِيداً لِقَيام السَّاعَةِ، أَخْرَجْنَا لَهُمْ مِنَ الأَرْضِ دَابَةً عَجِيبَةً غَرِيبَةً، هي آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِنَا للنَّاسِ في الأرض، تُكَلِّمُ الناسَ بِلُغَاتِهِمُ المخْتَلِفَاتِ، فَتُعْطِيْهِمْ يَقِيناً رَاسِخاً بِرُبُوبِيَّتِنا، وقُدْرَتِنَا عَلَىٰ أَنْ نَخْلُقَ مَا نَشَاءُ، وَنُبْدِعَ مَا نُرِيدُ.

وَالسَّبَبُ في إخراجِ هٰذِهِ الآيَةِ للنَّاسِ أنْ تَكْشِفَ لكفَّارِهِمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا لا يُوقِنُونَ بآيَاتِنَا العظيمات في خَلْقِ السَّمَاواتِ والأرْضَ، وَخَلْقِ أنْفُسِهِم، ولا يُوقِنُونَ بآياتنا البيانيَّة المنزَّلَة، ولَا بآياتنا الجزائيَّة الَّتِي سَلَفَت في تارِيخ الناس، عناداً واسْتِكْبَاراً أو اتّباعاً لِلأهواء والشَّهوات والتقاليد العمياء.

أمَا وَقَدْ أقْفِلَ بَابُ التوبَة، وتقارَبَتِ الأحْدَاثُ الّتي هي من أشراط قيام السَّاعَة، فَقَدْ صَارَ مِنَ الحِكْمَة وهُمْ مَا زَالُوا فِي الحياة الدُّنيا لَمْ يَمُوتُوا أَنْ نُخْرِجُ لَهُمْ آيَةً عظيمةً لَا يَسْتَطِيعُون أَنْ يُنْكِرُوا أَنَّها من آياتِ رُبُوبِيَّتِنَا، ولكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ حينئِذٍ، لأنَّهُمْ صَارُوا بِحُكْمِ الموتىٰ، وبِحُكْمِ الدّاخِلِينَ في ظُرُوف جزاء يوم الدِّينِ، بَعْدَ مُشَاهَدَتِهِمْ لأشراطِ السَّاعَةِ التي سبَقَ أن بيَّنَاها في كتابنا، وعَلَىٰ لسَانِ رَسُولِنَا، وكانُوا لها مُكَذِّبينَ، وعَنْ دَلَالَاتِها مُعْرضين، ومُدْبِرين، ولحقائِقِها جاحِدين.

ولا مانِعَ من أن يكُونَ ممَّا تُكَلِّمُهُمْ به ما دَلَّتْ عَلَيْهِ عبارة: [أَنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ] وقد يَكُونُ مِنْ أعْمالها أن تجعلَ علَى وجوه الكافِرين خدوشاً تجرحهم بها، فتكون علاماتٍ على كفرهم، يقال لغة: «كلمَهُ، وكَلَّمَهُ» أيْ: جَرَحَه.

الْيقِين: هُوَ العِلمُ الذي لَا شَكَّ فيه، وأدنَى دَرَجاته مَا اعْتَمَدَ علَىٰ أدِلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ أو خَبَرِيَّةٍ صادِقَةٍ لَا يَعْتَرِيهَا الشَّكُّ.

* * *

قول اللَّه عزّ وجلّ:

- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الآيات الثلاث انْتِقَالٌ بالبيانِ الْقَوْلِيّ إلى يَوْم الدِّين، لِعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِ، ولقَطَاتٍ تصويريَّةٍ بالْقَوْلِ مِنْ لَقَطَاتِه، للدَّلالَة علىٰ أنَّ أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّينِ الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ في المستَقْبَلِ الْبَعِيدِ، بَعْدَ الموْتِ والْبَعْثِ، ذَاتُ بَرْنَامجٍ تَدْبِيرِيٍّ مُحَدَّدِ الْخُطَّةِ قَبْلَ الْخَلْق، وكانَ ذَلِكَ معَ بَتِّ القضاء والْقَدَرِ بِخَلْقِ الَّذِين سيُوضَعُونَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، وأنَّ خُطَّةَ أحْداثِ يَوْم الدِّينِ لَا تكُونُ وَفْقَ أوامِرَ مُرْتَجَلَةِ التَّدْبيرِ في أزْمَانِ إحْدَاثِها وإيقاعِها، بَلْ هِي تَنْفِيذٌ لمَا سبَقَ به القضاءُ والقَدَرُ، معَ ما سبَقَ مِنْ قَضَاءٍ وَقَدَرٍ بشَأْنِ خَلْقِ الأحياء الَّتي سَتُوضَعُ في الحياة الدُّنْيا موضِعَ الابتلاء والتَّكْلِيْفِ وَرَصْدِ الأعْمالِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَة، وإتْبَاعِ كُلِّ ذَلِكَ بالحسَابِ وفَصْلِ القضاءِ وَتَنْفِيذِ الجزاء يَوْمَ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أيّاً كُنْتَ، وإذا كُنْتَ مِنْ حَمَلَةِ رِسالَةِ الدَّعْوَةِ إلَىٰ اللَّهِ، فَأَبْلغْ مَا دَلَّتْ عَلَيْه هٰذهِ الآياتُ مِنْ نَبأٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ سَوْفَ يَكُونُ يَومَ الدّين، في مَسِيرَتِكَ الدَّعَويَّة لغِير المؤمنين، ولعصاة المؤمنين.

الحشر: الْجَمْعُ والسَّوْقِ.

﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

الأمَّة: تُطْلَقُ في الاسْتعمال القرآني على كلّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمَعُها صِفاتٌ أو خَصَائِصُ، أو رَوَابِطُ مُتَمَيِّزَة

الْفَوْج: الْجماعَةُ مِنَ النَّاس، وجمْعُهُ: «الأَفْوَاج».

﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ بَعْدَ الْجَمْعِ والسَّوْقِ، من كُلِّ أُمَّةٍ، يُجْمَعُونَ فِي مَكَانٍ واحِدٍ، ويُرَتَّبُونَ صُفُوفاً بِحَسَبِ انْحطاطَاتِهم فِي الْغُلُوّ تَكْذِيباً وَكُفْراً وَجَرَائم وَإمَامَةً فِي مُعَادَاةِ دِينِ اللَّهِ جَلَّ جلَالُه، ونَشْرِ الكُفْرِ والْفَسَاد في الأرْض.

أصْلُ الْوَزْع في اللُّغَة: الكَفُّ والْحَبْسُ، والْوَازِعُونَ في الحرْبِ، الموكَّلُونَ بالصُّفُوفِ يَزَعُونَها كَفًّا وجَمْعاً وَتَنْظيماً وحَثًّا على ما يَقْتَضِيْهِ الْعَمَل في الحرب.

والمرادُ هُنَا كَفُّ الأفْوَاجِ الأئِمَّةِ من المكذِّبين بآيَات اللَّهِ لَدَى جَمْعِهِمْ في مَكَانٍ واحِدٍ، بَعْدَ انْتِزَاعِ كُلِّ فَوْجٍ مِنْ أمَّتِهِ الّتي هُوَ مِنْها، وكَانَ فيها في الحياة الدنيا إمَاماً مُضِلًّا مُغْوِياً، أو داعيَةً مِنْ دُعَاةِ الإِثْمِ والْعُدْوان، والبغي والْفُجُورِ وَالْعِصْيَانِ، أوْ نَصِيراً مُؤَازِراً، وجُنْدِيًّا فَاسِقاً ضِلِّيلاً فَاجِراً. ولَدَىٰ تَرْتِيْبِ صُفُوفِهِم بحَسَبِ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلْم وبَغْي وشَرٍّ، ومُعَادَاةٍ لِلْحَقِّ والْخَيْرِ، ومَعْصِيَةٍ لله ورسله، وجرائم في رِحْلَةِ الامتحان لإغواء النّاس وصَدِّهِمْ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ، ومُحَارَبَتِهِمْ لِدِينِ اللَّهِ الحقّ، بُغْيَةَ تَوْجِيهِ الْخِطَابِ الرَّبَّانِيِّ التَّأْنِيبِيِّ التَّعْنِيفِيّ لَهُمْ، وَإِعْلَامِهِمْ بالْمَصِيرِ الَّذِي قَضَىٰ اللَّهُ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي دَرَكاتِ الْجَحِيمِ السُّفْلَىٰ، الملَائِمَةِ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ الحياة الدنيا بالْعَدْل، ولكل واحِدٍ مِنْهُمْ دَرَكَةٌ تُلائِم جرائمَهُ.

«مِنْ» في: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ في: ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لِبَيانِ الَّذِينَ أُخِذَ مِنْهُمُ المحشُورُونَ، أمَّا التَّبْعِيضُ فَقد دَلَّ عَلَيْهِ لفْظُ ﴿فَوْجًا﴾ إذْ هذا الْفَوْجُ المأخُوذُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ هُوَ بَعْضٌ مِنْ كُلٍّ، وبَعْضٌ مِمَّنْ يُكَذِّبُ

بآيَاتِ اللَّهِ منها، وحَمْلُ لفْظِ «مِنْ» علَىٰ أنَّها للتَّبعِيضِ هُنا يُفْضِي إلى رِكَاكَة في العِبَارَة، إذْ يَكُونُ التقدير: ويَوْمَ نَحْشر بَعْضَ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً بَعْضَ مَنْ يُكَذِّبُ بآياتنا. وهذا بَعِيدٌ جدًّا عَنْ بَلاغَةِ القرآن وبيانِهِ الرَّفيع.

أمَّا علَىٰ أنَّها للبَيان التَّقْييدي فالتَّقْدِير: ويَوْمَ نَحْشُرُ فَوْجاً منْتَزَعاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا مِنْ كُلِّ أُمَّة.. وعَلَىٰ هٰذا يَكُون إعرابُ ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ حَالاً، أصْلُه وصْفٌ لـ ﴿فَوۡجًا﴾ قُدِّمَ عَلَيْهِ فصَارَ حالاً[1].

﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: مِمَّنْ يُكَذِّبُ في هذِه الحياة الدنيا بآيَاتِنَا المنَزَّلَات، فَكُلَّما تُلِيَتْ عَلَيْه آياتٌ مِنْها كَذَّبَ بِهَا.

دلَّ الفعل المضارع: ﴿يُكَذِّبُ﴾ الدّالُّ عَلَىٰ التجدُّدِ والتكرار عَلىٰ أنَّ هٰؤُلاء مُصِرُّونَ علَىٰ تَكْذِيبِهِمْ بِكُلِّ آيَةٍ من آياتِ كتاب اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ.

ولا يخْفَىٰ مَا فِي هٰذا مِنْ صِلَةٍ بما جاءَ عَنِ القرآنِ في صَدْرِ السورة، وفي بدايَة هذا الدرس السَّابع من دُرُوسها.

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ بَعْدَ سَوْقِهِمْ وَجَمْعِهِمْ في مَكَانٍ خاصٍّ جامِعٍ لهم يُصَفُّونَ وَيُكَفُّونَ ويُمْنَعُون من الْخُرُوجِ عَنِ المواقِع الّتِي وُضِعُوا فيها، فلا يسْتَطِيعُ الواحِدُ مِنْهم أنْ يُفَارِقَ مَوضِعَه، لأنّ الملائكة المأمُورينَ بِوَزْعِهِمْ يَمْنَعُونَهُمْ.

ويَظْهَرُ أنَّ جَمْعَ هؤلَاءِ يكُونُ في مكانٍ قَرِيبٍ مِنْ جهَنَّم، لِيكُونُوا أوائِلَ الَّذِينَ يُكَبُّونَ فيها، باعتبار أنَّهُمْ أئِمَّةُ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمين في الدنيا، فَهُمُ المقَدَّمُونَ إلى الْعَذَابِ فِي الدَّرَكَاتِ السُّفْلَىٰ مِنْها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ حتَّىٰ. هُنَا ابتدائيّة، وهي تَدْخل على الجملتَيْنِ الاسميّة والفِعْليّة، وهي حَرْفٌ لَا عَمَلَ لَهُ تَبْتَدِئُ بَعْدَهُ الْجُمل

---

(١) نظير قول الشاعر: لِمَيَّةَ مُوحشاً طَلَلُ.

إِذَا: ظَرْفٌ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمن مُضَمَّنٌ معنى الشرط.

أي: حتَّىٰ إذَا جَاءُوا المكانَ المخصَّصَ لِحَشْرِهم قُرْبَ أَبْوابِ جَهَنَّم، ولفظ «جَاءَ» فعل ماضٍ، إلّا أنَّه بعد «إذا» صار بمعنى الفعل المضارع.

﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾؟ أَيْ: قال اللّٰهُ عزَّ وجلَّ لهم مُوَبِّخاً مؤثِّماً حاكماً عليهم بالجرْم العظيم، بخطابٍ مباشِرٍ مِنْهُ، أو بوساطَةِ مَأْمُورٍ بمُخَاطَبَتِهِمْ مِنْ مَلائِكَتهِ بَلَاغاً عَنْ رَبّهم، وبأسْلُوب الاستِفْهَامِ التَّوْبيخيّ التأثِيميِّ الدَّافِعِ لَهُمْ على ارتكاب جرائهم: أَكَذَّبْتُمْ رَسُولِي بآيَاتي الَّتي أَنْزَلتُها عَلَيْهِ لِيُبَلِّغَكُمْ إيَّاها، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُذْرٌ مَا فِي تَكْذِيبكُمْ إيَّاه، ولَا في إعْراضِكم وإدْبَارِكم وَتَولّيكُمْ عن آيَاتِي؟!! ولَمْ تَتفكَّرُوا في مَعَانِي آيَاتِي الَّتي أنْزَلْتُها لِتَتَّبِعُوها، وَتَعْمَلُوا بما جاء فيها مِنْ أوامِرِي ونواهِي، ولَمْ تُحِيطُوا بهَا عِلْماً، إذْ رَفَضْتُمْ قَبُولَها وَجَحَدْتُموها ابْتداءً، لأنَّكُم رفَضْتُمْ عِبادَتِي وأنَا رَبُّكُم الْمُمِدُّ لَكُمْ بعَطَاءاتِ رُبُوبيَّتِي، والخالِقُ لكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شيئاً مَذْكُوراً.

ونُلاحظ أَنَّ هَذِهِ الْعِبارة قَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ الْحُكْمِ عَلَيهم بالكُفْرِ العِنَادِي، واعتبارِهِمْ مُجْرِمين مِنْ أَخسِّ الدَّركات.

﴿.. أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟؟ [أَمَّا] أصْلَها «أَمْ» المنْقَطِعَة، وهي بمَعْنَىٰ «بَلْ» و«مَا» الاسْتِفْهامِيَّة وَ«مَاذَا» أي: مَا الَّذِي كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الحياةِ الدُّنيا؟!! وهذا استفهامٌ تأثيميٌّ أيضاً.

إنَّ صحائِفَهُمْ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا طُغَاةً بُغَاةً مُجْرِمِينَ، يَحْمِلُونَ الناسَ على الكُفْرِ باللّٰهِ ورسُولِهِ بِوسَائِلِ الإغْرَاء والإغْواء، أو بوسائل الإكْرَاهِ والتَّعْذِيبِ والاضطهاد، وَيَنشُرُونَ الْفَسَادَ والإفْسَادَ، والإلْحادَ والْوَثَنياتِ في الأَرْض.

هذه وأشباهها أعْمَالُهُمْ الَّتي هي نتائج تلْقَائِيَّة لكُفْرِهم باللَّهِ وبرسُولِه وبيَوْمِ الدّين.

ولَا يَجِدُونَ عُذْراً يَعْتَذِرُونَ بِه وَقَدْ كانُوا أئِمَّةَ ضَلَالٍ وإضْلَالٍ، أو الجنود المخلصِينَ للأئمة المضِلّين المُغْوِين، فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ونُلاحظ أنّ هٰذه العبارَة قد دَلَّتْ على الحُكْم عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ مُجْرِمُون بأعْمَالِهِمْ أيضاً، لَمْ يقْتَصِرْ أمْرُهُمْ عَلَىٰ الكُفْرِ والتّكْذِيبِ بآياتِ رَبّهِم.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: وَوَقَعَ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ الْقَضَائِيُّ عَلَيْهِمْ، المتَضَمِّنُ أَنَّهُمْ مُجْرِمُون مِنْ أخسِّ الدَّرَكات، وَأَنَّهُمْ مِنَ الخَالِدِينَ فِي عَذابِ النار، وأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الدَّركاتِ السُّفْلَىٰ في جَهَنَّم.

﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾: الباء سببيَّة. و«مَا» مَصْدَرِيَّة. أي: وَوقَعَ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ عَلَيْهم حُكْماً وَأمْراً بالتَّنفِيذِ، بسَبَبِ ظُلْمِهِمْ ظُلْماً مِنْ أخسِّ الدَّرَكاتِ وَهذا الظّلم يُلَائِمُهُ أشَدُّ الْعَذابِ، خُلُوداً في الدركاتِ السُّفْلَىٰ مِنْ جهَنّم.

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾: أي: فَهُمْ عَقِبَ وُقُوع الْقَوْلِ الرَّبَّانِيّ عَلَيْهِمْ لَا يَنْطِقُونَ، شُعُوراً مِنْهُمْ بأَنَّهُمْ قد كَانُوا مُجْرِمِينَ حقًّا، يَسْتَحِقُّونَ ما قَضَىٰ اللَّهُ عزّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ، وعَجْزاً عَنْ أَنْ يُقَدِّمُوا عُذْراً ما، فَقَدْ شَهِدَتِ عَلَيْهِمْ بجَرائِمهم أَيْدِيهم وأرْجُلُهُمْ وجُلُودُهُمْ كُلُّها، وقَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ هذا نُصُوصٌ أُخرَى، منها قول اللَّهِ عزَّ وجلّ في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول):

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقول اللَّه عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/٤١ مصحف/٦١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ

سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ . . . (٢١)﴾.

قول اللّه عزّ وجل:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾؟!

في هذِهِ الآيَة عَوْدٌ إلىٰ عَرْضِ بَعْضِ آياتِ اللّهِ في كونِهِ الدالَّةِ على رُبُوبيَّةِ اللّهِ جلّ جلَالُهُ، وعنايتِهِ بعبادِهِ، وهي موصولةٌ بما جاء في الدَّرْسِ السَّادِسِ من دُورس السُّورَة (الآيات من ٦٠ ـ ٦٤) وبما جاء في الدَّرس الثالث (الآية ٢٥).

هٰذه الآية تَتحدَّثُ عَن ظَاهِرَتَي اللَّيْلِ وَالنَّهار مِنْ ظواهر آيات اللّهِ في كَوْنِه.

إنَّ التَّدْبِيرَ الرَّبَّانيّ الَّذِي جَعَلَ اللّهُ عزَّ وجلّ به في الأرْضِ لَيْلاً ونَهاراً مُتعَاقِبَيْنِ، ليَسْكُنَ النَّاسُ في اللَّيْل، وليَعْمَلوا في النَّهار نَشِيطين يُبْصِرُونَ أَماكِنَ أَعْمَالِهِمْ والأشياءَ الَّتي يَعْمَلُونَها أو يَعْمَلُونَ فيها، والأَدَوَاتِ الَّتي يَعْمَلُونَ بها، هُو مِنْ نِعْمَةِ اللّهِ عَلىٰ النَّاس، ومِنْ عِنَايَتِهِ بهم، فَالْوَاجِبُ الْعَقْلِيُّ عَلَيْهم أَنْ يَشْكُرُوا نِعَمَهُ الَّتي أفَاضَها عَلَيْهِم، والّتي لَا يَسْتطِيعُونَ إِحْصَاءَها لو أَرادُوا أَنْ يَعُدُّوها، وهيَ في نُفُوسِهِمْ، وفِي الكَوْنِ مِنْ حَوْلِهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾: اسْتِفْهامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمرِ الْكَافِرِينَ الّذِينَ هُم المعْنِيُّونَ الأَوَّلُونَ بِالإِقْنَاعِ في السُّورَةِ، حَوْلَ رُبُوبيَّة اللّهِ الَّتي لَا شريكَ لَهُ فيها، وإلَهِيَّتِهِ الّتي لا شَرِيكَ لَهُ فيها، والّتي هيَ اللَّازِمُ الْعَقْلِيُّ الأَوَّلُ لِرُبُوبيَّتهِ، وحَوْلَ الْجزاء يَوْمَ الدِّين الَّذِي هُوَ مُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ اللّهِ في خَلْقِ النَّاس، وإلاَّ كانَ خَلْقُهُ للنَّاسِ عَبَثاً وهو جلّ جلالُهُ مُنَزَّهٌ عَن الْعَبث.

أي: ألم يَتفكّرُوا فَيعْلَمُوا عِلْماً مُشَابِهاً للرُّؤْيَةِ بالأبْصارِ أنَّ رَبَّهُمْ بِعَظَمَةِ رُبُوبيَّتِه التي دلَّ عَلَيْها ضَمِيرُ المتَكلّم العظيم، جَعَلَ لَهُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيه سُكُوناً مُريحاً لَهُمْ، وبهذَا السُّكُونِ الَّذِي يَكُونُ النَّوْمُ أَحَدَ عَنَاصِرِه، يَسْتَعِيدُونَ نَشَاطَهُمْ، وقُدْراتِهِمْ علىٰ العَمَل، بَعْدَ أَنْ حلَّ فِيهِمُ التَّعْبُ مِنْ عَمَلِ النَّهارِ السَّابقِ للَّيل في وُجُودِه الزَّمَنِيِّ.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾: أي: وجعَلَ النَّهارَ بضَوْئِهِ كاشِفاً لَهُمْ الأَشْياء الّتي يُرِيدُونَ إِبْصارَهَا بأعْيُنِهِمْ، فَهُو بضَوْئِه يَجْعَلُهُمْ يُبْصِرُون.

يقال لغة: «أَبْصَرَ فُلَانٌ فَلَاناً الشَّيْءَ» أي: جَعَلَهُ يَراهُ بِبَصَرِه، باتّخاذ وسِيلَة من الوسائل الّتي جعَلَها اللَّهُ من وسائل الإبصار.

ومع هذا المستَنَد اللُّغويّ لَا حاجَةَ لاعتْبار إسناد الإبْصَارِ إلى النهار من قبيلِ الإسناد العقليّ، الّذِي يُسْنَدُ فِيه الْفِعْلُ أو ما في معناه إلى غَيْرِ مَنْ هُوَ لَهُ لعلاقَةٍ مِن علَاقاتِ المجاز.

وفي اسْتِعْمَالِ فِعْلِ «جَعَلَ» إشارةٌ إلى أنَّ خَلْقَ المجموعَةِ الشَّمْسِيَّةِ كَانَ أَوّلاً، ثُمَّ جعَلَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ بَتَدْبيرِهِ الأرْضَ المظْلِمَةَ تُدُورُ حَوْلَ نَفْسَها باتّجاه الشَّمْسِ، ضِمْنَ نظام مُعَيَّنٍ، وبِحَرَكَةِ الدَّوَرانِ هذِهِ تَحَقَّقَ وُجُودُ اللَّيْلِ والنَّهارِ في نِظامٍ تَعاقُبِيٍّ حَكِيم.

ويظهَرُ لي أَنَّ اسْتِعْمَالَ فِعْلِ «جَعَلَ» يَكُونُ غالباً لتَصارِيفِ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ في أشْيَاءَ مَوْجُودَةِ العناصِرِ بخَلْقٍ سَابِق، وتجري تصَاريف اللَّهِ في أَوْضَاعِها وأحوالِها بالْجَعْلِ، على أنَّ كُلَّ أفْعالِ اللَّهِ ولَوْ بَتَغْيِير الأوضاع والأحوالِ هِيَ في الْحَقِيقَةِ خَلْقٌ، ومِنْ خَلْقِ اللَّهِ ما هُوَ إيجادٌ من الْعَدَم، ومِنْهُ ما هُوَ إِحْدَاثُ تَصارِيفَ في مَوْجودَاتٍ بِخَلْقٍ سابق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾: أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الْجَعْلِ الْعَظِيم للَّيْلِ والنَّهارِ، لآياتٍ متَعَدّدَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ شُمولِ عِلْمِ اللَّهِ، وعَظِيمِ

قُدْرَتِهِ، وَكَمَال حِكْمَتِهِ، وعِنَايَتِهِ بعِبادِهِ، وإتْقَانِهِ الْعَجِيبِ في تَدْبِيراتِهِ لِكَوْنِهِ، وَصُنْعِهِ الْبَدِيعِ.

ولعُلَماءِ الكونيات بُحُوثٌ دَقيقَةٌ ومُسْتَفِيضَةٌ حَوْلَ ظَاهِرَتَي اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وفوائِدهِمَا الْجَلِيلَةِ بالنِّسْبَةِ إلى سُكَّانِ الأرض، وحَوْلَ إبْدَاعِ التَّدْبير في دورانِ الأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِها باتّجاهِ الشَّمْس لأحْداثِ اللَّيْل والنهار، ودَوَرانِها في مَدَارِ حول الشّمس، لإحْدَاثِ الْفُصُولِ الأَرْبَعَةِ في السَّنَةِ الشَّمْسِيَّة.

وهٰذهِ الآيَاتُ يُدْرِكُها وَيَسْتَفِيدُ مِنْ دَلاَلاَتِهَا قَوْمٌ يُؤْمِنُون، أي: قَوْمٌ لَدَيْهِمْ الاسْتِعْدَاد لأنْ يُؤْمِنُوا بالحق كُلَّما جاءَتْهُمْ أدِلَّةٌ فِيها إقناعٌ بالحقّ.

الإيمان: التَّصْدِيقُ الإرادِيُّ مع طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ، يقالُ لغة: «آمَنَ بالشيء» أيْ: صَدَّقَه، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ لأَنَّهُ حَقٌّ وصِدْق، قال الخليل: الإيمانُ الطُّمَأْنينَة، أي: طُمَأْنينَةُ الْقَلْب لِصدْقِ القضيَّة التي وَرَدَتْ علَيْه.

* * *

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾:

وفي القراءَة الأخْرَىٰ: ﴿وَكُلٌ آتوهُ دَاخِرِينَ﴾ ومؤدّي القراءَتَيْن واحِد إلَّا أنَّ ﴿أَتَوۡهُ﴾ تَدُلُّ علىٰ حَالَةِ انْتِهَاءِ الْمَجِيء، و[آتوهُ] تَدُلُّ على حالَةِ حَرَكَةِ المجِيءِ المتتابع.

هذه الآية معطوفة على الآيات التي فيها بَيانٌ عن الأحداث المتعلّقة بالأخرة. وفي هذه الآية عَوْدٌ إلىٰ عَرْضِ أحْداثٍ مُسْتَقبلِيةٍ تتعَلّقُ بأحْداثِ يَوْم القيامَةِ، بَعْدَ فَاصِلٍ بآيَةٍ عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ فيها من آياتِه الكَوْنِيَّة في الحياةِ الدُّنيا ظَاهِرَتي اللَّيْل والنَّهار.

وهذه المراوَحَةُ بَيْن الأنْبَاءِ عن الآخِرَةِ، وَالحديث عَنْ آيَاتِ اللَّهِ في الحياة الدُّنيا، أَوْ مَطْلُوبِ اللَّهِ عزّ وجلَّ مِنْ عباده فيها، مِنْ رَوائِعِ الأسَاليب الإقْنَاعِيَّةِ بالحقّ، الّتي يَجْرِي التنقُّلُ فيها بَيْن الحاضِرِ وبَيْنَ المستَقْبَلِ الْبَعِيدِ أو الْقَرِيبِ، والْعَوْدَةِ بأسْلُوب المراوَحَة، فَالأحْدَاثُ عِنْدَ اللَّهِ عزَّ وَجلَّ مَاضِيها وحَاضِرُها وَمُسْتَقْبَلُها هي كالمشهُودَةِ الحاضِرَة، ونِسْبَةُ تَحَقُّقِها بالنّسْبَةِ إلَيْهِ واحِدَة.

والتربيَةُ الحكيمَةُ قَدْ تَقْتَضِي المراوَحَةَ في الْعَرْضِ بين الماضِي والمستقبل والحاضر، وهذا مَا نُلَاحِظُهُ في كثيرٍ من النُّصُوصِ القرآنية.

الصُّورُ: مخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ عظيم، كهيئَةِ الْقَرْن إحْدَىٰ جهتَيْهِ فُتْحَةٌ دائِرِيَّة ضيّقة، والأخرى واسِعَةٌ جِدًّا، وباطِنُهُ فارغ، يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فيه، فَيُصْدِرُ صَوْتاً بحسَبِه.

والْمَلَكُ المكَلَّفُ بالنَّفْخِ في الصُّور إسْرَافيلُ عليه السَّلام.

ودلَّت النصوص القرآنية عَلَىٰ أنَّ النَّفْخَاتِ في الصور ثَلاث:

النفخة الأولى: نَفْخَةُ الْفَزَعِ، دلَّتْ عَلَيْها هٰذِهِ الآيَةُ من سورةُ (النمل).

النفخة الثانية: نَفْخَة الصَّعْقِ، دَل عليها قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في سَورَهْ [الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ... ۝٦٨﴾.

صَعِقَ: أي: مَاتَ، يقال لغة: «صَعِقَ، يَصْعَقُ، صَعَقاً، وصَعْقاً» أي: مات.

وبهٰذِهِ النَّفْخَةِ يَمُوتُ الإنْسُ والْجِنُّ والملائكة أجْمَعُونَ، إلَّا مَنْ

شَاء اللَّهُ تَأْخِيرَهُمْ كَإِسْرَافِيل النافِخِ في الصُّور عليه السلام، وبَعْدَ ذَلِكَ يقْبِضُ اللَّهُ أَرْواحَهُمْ.

ويُلْحَقُ بالصَّاعِقِينَ سَائِرُ الأحياء الأخرى، حتَّىٰ لا يَبْقَىٰ في الكون كُلِّهِ حيٌّ إلَّا اللَّهُ عزَّ وجلّ.

النفخة الثالثة: نَفْخَةُ الْبَعْث، دَلَّ عليها تَتِمَّة آية (الزُّمَر) السَّابقة، إذْ جَاء فيها قَوْلُ اللَّه عزَّ وجلّ:

﴿...ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقول اللَّهِ عزّ وجلَّ في سُورَة [يَس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول]: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ومن المستبْعَد أَنْ تكُونَ نَفْخَةُ الْفَزَعِ هيَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ، لأنَّ الإحْيَاءَ يَكُونُ بِهذِهِ النَّفْخَةِ، ودَلَّ النَّصَّانِ عَلَىٰ أنَّ الموتَى عَقِبَها مُباشَرَةً يَقُومُونَ يَنْظُرُونَ، وإِلَىٰ رَبِّهِمْ يُسْرِعُون.

والأرجَحُ أنْ تكُونَ نَفْخَةُ الْفَزَعِ سَابِقَةً لِنَفْخَةِ الصَّعْقِ، ومُمَهِّدَةً لها، لأنَّ نَفْخَةَ الْفَزَعِ قَالَ اللَّهُ بشأنِها: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالْفَاءِ الدَّالةِ على الترتيب مع التَّعْقِيب، وكذلِكَ قال اللهُ عزّ وجلّ بشأن نَفْخَةِ الصعق: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالفاء الدالَّة على الترتيب مع التعقيب، والصَّعْقُ المباشِرُ للنَّفْخَةِ لا يَكُونُ مَعَهُ فَزَعٌ، فَلَا دَاعِيَ لإدْماجِ نَفْخَةِ الْفَزَعِ بنَفْخَةِ الصَّعْق، واللهُ أعلَمْ.

الْفَزَعُ: الخوفُ والذُّعْرُ الَّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثارُ نُفُورٍ فِي حَرَكَات الْجِسْمِ.

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ـ ﴿وَكُلٌ آتوهُ دَاخِرِينَ﴾ في القراءة الأخرى: أي: وَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَاواتِ ومَنْ في الأرضِ سَوْف يَأْتُونَ سِراعاً إلى رَبِّهِمْ دَاخِرِين، حتَّىٰ يَقِفُوا جَمِيعاً في مَحشَرِهم عِنْدَهُ بَعدَ الْبَعْثِ دَاخِرِين.

﴿دَٰخِرِينَ﴾: أي: أَذِلَّاءَ خَاضِعِينَ بانْكِسَارٍ وسُكُون. **الدَّاخر**: الذَّليلُ الخاضِعَ المنكَسِرُ الخاشِع، ولفظ ﴿دَٰخِرِينَ﴾ حَالٌ.

جُمْلَةُ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ لَيْسَتْ مُرَتَّبَةً تَرْتيباً تَعْقِيبِيّاً على مَا قَبْلَها، بَلْ بَيْنَهُما فَاصِلٌ زَمَنِيٌّ طويلٌ تَتِمُّ فِيهِ الإمَاتَةُ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُ الْبَعْثُ، وَلِهٰذَا عُطِفَتْ بِالْوَاوِ الّتِي لا تَقْتَضِي تَرْتيباً ولَا تَعْقِيباً.

* * *

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ عَوْدٌ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُرَاوَحَةِ إِلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِه، الدَّالَّةِ علَىٰ طَائِفَةٍ مَنْ صِفَاتِ رُبُوبيتِه جلّ جلالُهُ وَعظُمَ سُلْطانُهُ، ومِنْهَا عِلْمُهُ الشَّامِلُ، وَقُدْرَتُهُ الّتِي يَخْلُقُ بِهَا مَا يَشَاءُ، وحِكْمَتُهُ فِي تَدْبيرَاتِه، وإتْقَانُهُ صُنْعَ كُلِّ شيءٍ، وقد سبَقَ أنْ عَرَفْنا أنَّ وَحْدَته فِي رُبُوبيَّتِهِ تَسْتَلْزِمُ عقلاً أنَّهُ واحِدٌ في الإلَهِيَّةِ لَا يُشارِكُهُ فِي حَقِّ الإلَهِيَّةِ أَحَدٌ وَلَا شَيْءٌ فِي الوجُودِ كُلّه.

أي: وَتَرَىٰ الجبالَ أَيُّهَا الرَّائِي أيًا كُنْتَ حَالَةَ كَوْنِكَ تَرَاهَا جَامِدَةً، أي: مُتَمَاسِكَةً لَا حَرَكَةَ لِذَرَّاتِها، ولا سَيْرَ لَهَا في جُمْلَتِها، وَهِي في وَاقِعِ حَالِها تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، الّذي تَتَحرَّكُ ذَرَّاتُهُ تَحرُّكاً دَاخِلِيّاً، ويَسِيرُ فِي جُمْلَتِهِ مِنْ مَوْقِعٍ إلَىٰ مَوْقِعٍ في السَّماء.

وَكَذَلِكَ حَالُ الجِبَالِ، وَسَائِرِ ما في الأرض، إذ ذَرَّاتُ كُلِّ شَيْءٍ تَتَحرَّكُ حرَكَاتٍ في دَوَائِرَ وأفْلاكٍ مُقْفَلَةٍ، وَجُمْلَةُ الأَرْضِ مَع جِبالِهَا تَمُرُّ سَائِرَةً في دَوْرَةٍ يُوْمِيَّةٍ حَوْلَ نَفْسِها، وفِي دَوْرَةٍ سَنَويَّةٍ حَوْلَ الشَّمْس.

هذَا مَا أَثْبَتَتْهُ الْعُلُومُ الكونيَّةُ، الَّتي تَوَصَّل عُلماءُ الْبَحْثِ العلميّ إلى بَعْضِ حقَائِقِها، بَعْدَ أكْثَرَ مِنْ ثَلاثَة عشَرَ قَرْناً مِنْ نُزُولِ القرآن المجيد على

مُحمَّدِ بن عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فكانَت اكْتِشَافَاتُهُمْ الْعِلْمِيَّةُ الصَّحِيحةُ مُطَابِقَةً للدَّلاَلات القرآنيَّة، الَّتي مَا كَانَ باسْتِطَاعَةِ مُتَدبِّري القرآنِ السَّابِقِينَ أَنْ يَدْرِكُوها، إذْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ الْوَسَائِلُ الْمَعْرِفِيَّة الَّتي يُدْرِكُون بِهَا الْوَاقِعَ الكَوْنِيَّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، وَمُشَاهَدَةُ الظواهِرِ لَا تَدُلُّ عَلَيْها.

لقطات علميَّة عَنِ الذَّرَة عِنْدَ العلماء الكونيين:

(١) بَيْنَ نَوَاة الذَّرَةِ وَبَيْنَ إلِكْتْرُوناتها الدائِرَة في فضائِها، فراغٌ واسِعٌ جِدًّا، نِسبَتُهُ كنِسبَةِ دائِرَةٍ قُطْرُهَا ستَّة كيلُومترات، تُوجَدُ فِي مَرْكَزِهَا كُرَةٌ بِحَجْمِ كُرَةِ المضْرِب العاديّة، وتَدُورُ في مداراتٍ حوْلَهَا إلِكتْرُوناتها.

(٢) الإلِكتْرُونَاتَ حَوْلَ نَواةِ الذَّرة تَدُور بِسُرْعَةٍ بالغَةٍ جدًّا، إذْ تَقْطَعُ بَلايينَ الدَّوْراتِ في كُلِّ جُزْءٍ مِن مَلْيُون جزْءٍ من الثانية، وبِسَبَبِ هٰذِه السُّرْعَةِ العظيمة لِلإلِكْتْرُونَاتِ تَبْدُوا الذَّرَةُ كأنَّها كُرَةٌ جَامِدَةٌ سَاكِنَةٌ لَا حَرَكَةَ فِي داخِلَها.

(٣) الْجُسَيْمات الصَّغِيرَةُ جدًّا الّتِي يَتَكَوَّنُ مِنها كيَانُ الذَّرَةِ ذُو الفراغ الواسع جدًّا بالنِّسْبَةِ إليها هي: «**الْبُرُوتُونات ـ النَّيوُتْرُونَاتِ ـ الإلِكتْرونات**».

(٤) لَوْ أُزِيلَتِ الفراغاتُ منَ الذَّراتِ، وضغِطَتْ جُسَيمَاتُها إلى بَعْضِها، لَمَا زَادَ حَجْمُ الْجَبَلِ الْعَظِيم على قَبْضَة.

وهكذا اكشَفَتْ لنَا الدّرَاسَاتُ العلميَّةُ الكَونيَّة قضِيَّةً مِنَ قَضَايَا الإعجاز الْعِلْمِيّ في القرآنِ المجيد.

ولَا غَرْو أنَّ يَدْهَشَ المتفكِّرُ المنْصِفُ الّذي لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أرْجَاسٌ فِكْرِيَّةٌ أَوْ خُلُقِيَّة تحجبُهُ عَنِ الإيمان بالرَّبّ العظيم الجليل، مِنْ إتْقَانِ صُنْعِ في كَوْنِه، الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَه.

الصُّنع: مَصْدَرُ «صَنَعَ الشَّيْءَ» أي: عَمِلَه، وَيُطْلَقُ على الشَّيْءِ المصْنُوع.

والمعنى: وتَرَىٰ الجبالَ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شيء، نحْسَبُهَا جَامِدَةً سَاكِنَةً، وهي في واقِعِ حَالِهَا تَمُرُّ مع كلّ عَنَاصِرِ الأَرْضِ مَرَّ السَّحَاب.

يقال لغة: «أتْقَنَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أحْكَمَ صُنْعَهُ، وَجَعَلَهُ مطابِقاً لِلْمقصُودِ به تماماً.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾. وفي قراءة ابن كثير، وهشام، وأبي عمرو، ويَعْقُوب: [إِنَّهُ خبيرٌ بِمَا يَفْعَلُون]: أيْ: إنَّ الرَّبَّ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، لا بُدَّ أنْ يكونَ قَدْ خَلَقَ الإِنْسَانَ بِصِفَاتِهِ الَّتِي هو عَلَيْها لغايَةٍ مُتقنَةٍ حَكِيمة، وهيَ أَنْ يَبْلُوَهُ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثمَّ ليُحاسِبَهُ ويَفْصِلَ القضاء بشأنه، ويُجازِيَهُ على ما قَدَمَ وَكَسَب في رِحْلَةِ امتحانِهِ بإرادتِه الحرَّة، وهٰذِهِ الغايَةُ تَسْتَلْزِمُ أنْ يكُونَ عَلِيماً خَبيراً بما يَفْعَلُ الممتَحنُونَ مِن عبادِه في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وهذا اللاَّزِمُ مُتحقّقٌ عَلَىٰ الْوَجْهِ الأتمِّ الأكْملِ، فالْتفتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى النَّاسِ جَمِيعاً وإلَىٰ سَائِر الممتَحنين من الجنّ، فَقَالَ مُتحدِّثاً عَنْ نَفْسِه بضَمِير الغائب ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: عَلِيمٌ عِلْمَ خِبْرَةٍ بمَا تَفْعَلُون لا يَخْفَىٰ عَلَيْه شَيْءٌ مِنْ أفْعَالِكُمْ الظاهِرَةِ والباطِنَة، و[بِمَا يَفْعَلُون].

الخِبْرَة: هِيَ الْعِلْمُ بالْعَمَلِ على سَبِيلِ الشهودِ والحضور، وَالْمُصاحِبُ لكُلِّ أجزاء العَمل ظواهِرِه، وبواطِنِه.

قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

وفي القراءتَين الأخْرَيَيْن: [مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ] و[مِنْ فَزَعٍ يومئذٍ] وهي وجوهٌ عَرَبيَّة متكافئة.

إنّ الحديثَ عنِ الآخِرَة والجزاءِ فيها، الذي جَاءَ صَرِيحاً في الدَّرس الأوَّل من السُّورة، وإلْمَاحاً أثناء دُروسها، وتَصْرِيحاً فِي الدرس السادس من دُروسها، وفي الآية (٨٧) من هذا الدرس السابع، اقتضىٰ شيئاً من التَّفصِيلِ للجزاء الرَّبَّانيّ الّذي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّين، فجاءت هَاتان الآيتان، وفيهما تَفْصِيلٌ عُنْوانِيٌّ عامٌّ، يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ كُلُّ مَا جَاء في القرآن مِنْ تَفْصِيلَاتٍ جُزْئِيَّةٍ، لأجْناسٍ وأنْواعٍ وَأصْنَافٍ ومُفْرَدَات جزاءَات اللَّهِ لعباده يَوْمَ الدّين، بالثواب على الحسَنَات الَّتي قَدَّمُوها في رِحْلَة امتحانهم في الحياة الدنيا، يَنالُونَهُ بِفَضْلِ اللَّهِ، وبالعقابِ علَىٰ السَّيِّئَاتِ الَّتِي قَدَّمُوها، وهٰذا يَنالُونَهُ بِعَدْل اللَّهِ ضِمْنَ مَجَاري حكمته، جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، مَعَ عَفْوٍ عنْ كثير.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: أي: كُلُّ مَنْ جاءَ رَبَّهُ يَوْمَ الدِّينِ، من الْمَوْضُوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامتحان، بِالحَسَنَةِ يَحْمِلُها فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ الّتي تَوَلّى تَسْجِيلَها الرَّقيبُ العتيد المُصَاحِبُ لَهُ دَواماً من الملائكة.

﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾: أي: فَلَهُ ثوابٌ عظيمٌ جدّاً خَيْرٌ مِنْ حَسَنَتِه الَّتي جاء بها. وقَدْ دَلَّت النُّصُوصُ التَّفْصِيلِيَّةُ على أنَّ الحسنَةَ تُضَاعَف إلى عشرة أمْثَالها، فإلَىٰ سَبْعين ضِعْفاً، فإلى سبعمِئةِ ضِعْفٍ، فإلَىٰ أضْعَافٍ كثيرة، وفَضْلُ اللَّهِ لَا حَدَّ له.

وأوَّلُ الحسنات المرادَةِ بهذا النَّصِّ الإيمانُ الصَّحِيحُ الصَّادق، بعَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانيَّة في دين اللَّهِ لعباده، فإعْلَانُ الإسْلام لَهُ، بالخضُوعِ لأوَامِرِه ونواهيه، وَالْقِيامِ بَواجِب طاعَتِه، وكُلُّ حَسَنَةٍ يُقَدِّمُها المُمْتَحَنُ غير مَبْنِيَّة على إيمانٍ وإسْلَامٍ صَحيحَيْنِ صادِقَيْنِ لَا تُعْتَبَرُ مَقْبُولَةً عِنْدَ اللَّهِ عزّ وجلّ، فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ يومَ الدّين جزاءٌ بالثواب عليها.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾: الضَّمِير في ﴿وَهُم﴾ يَعُودُ علَىٰ ﴿مَن﴾

مُرَاعَاةً للمَعْنَىٰ الْجَمْعِيّ فيها لأنّها من ألفاظ الْعُموم، أمَّا الضَّمِيرُ في: ﴿فَلَهُۥ﴾ فقد أعِيدَ على ﴿مَن﴾ أيضاً مراعاةً للفظ الإفْرَادِيّ فيها.

أي: والَّذِينَ يأتُون بالحسَنَةِ العظمَىٰ، وهي الإيمانُ والإسْلَامُ أوّلاً، ثُمَّ ما يَبْنُونَ عَلَيْهَا مِنْ صَالحاتٍ، هُمْ مِنْ خَوْفٍ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيقِ في نَارِ جَهَنَّمَ آمِنُونَ، إذْ تَأْتِيهِمُ الْبُشْرَيَاتِ من رَبّهِم فيَكُونُونَ آمِنين.

الْفَزَعُ: الْخَوْفُ والذُّعْرُ الّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثارُ نُفُورٍ في حَرَكات الْجِسْم.

الحسنَة: صِفَةٌ لمُوصُوفٍ مَحْذُوفٍ يُفْهَمُ من السِّبَاقِ والسِّيَاق، ويُمْكن تقدير المحذف هنا: «الْمَكْسُوبَة» لاستعمال فعل «كَسَبَ» في القرآن كثيراً، في فِعْلِ المكْسُوبَاتِ بالإرَادَةِ الحرَّةِ، الحسنَاتِ والسَّيّئَاتِ، النَّفْسِيَّةِ والْجَسَدِيَّة، الظاهِرَة والباطِنَةِ، الاعتقاديّة والعَمَلِيَّة.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالسَّيّئَة العظمَىٰ الّتي تَنْزِلُ بِمُكْتَسِبِهَا إلى دَرَكَة الكُفر. والمرادُ: بالمكسوبَةِ السَّيّئَةِ، ومعلوم أنّ السَّيّئة الكُفْرِيَّةَ الْعُظْمَى «تَجُرُّ مُكْتَسَبَاتٍ سَيّئَاتٍ كثِيراتٍ مَعَها وَوَرَاءَها.

﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾: أَيْ: فأُلْقُوا على وجُوهِهِمْ في النَّار دَارِ عذاب المجْرِمين يَوْم الدّين.

الكَبُّ: الْقَلْبُ والإلْقاء، يقال لغة: «كَبَّهُ، يَكُبُّهُ، كَبّاً لِوَجْهِهِ، أو علَىٰ وَجْهِهِ» أي: قَلَبَهُ وألْقَاه.

ذُكِرَتِ الْوُجُوه لأنّهَا أَوّلُ مَا يَذُوقُ لَذْعَ النّارِ من أَجْسَادِهِم وظاهِرٌ أَنّ سَائِر أجسادِهِمْ تَتْبَعُ وُجُوههم.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ أي: وبَعْدَ أنْ يُكَبُّوا في النّار، ويَسْتَقِرُّوا في مَنَازِلِهِمْ مِنْ دَرَكاتِ جَهَنَّمَ، وَيَذُوقُوا الْعَذَابَ الأَلِيمَ يُقَالُ لَهُمْ بأُسْلُوب الاسْتِفْهام التَّوْبيخيّ أو التقريريّ، هَلْ تُجْزَوْنَ لحظَةً فَلَحْظَةً إلَّا

مُعَادِلَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياة الدُّنيا.

أُطْلِقَتْ علَىٰ الجزاءِ المُعَادِلِ لِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ عِبارةُ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للدَّلالَة على المطابَقةِ العَدْلِيَّةِ بَيْنَ مَا كانُوا يَعْمَلُون وبَيْنَ الْجَزَاءِ الّذي يَذُوقونَ آلَامَهُ في النَّار.

* * *

قول اللّه عزّ وجل:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ـ وفي القراءة الأخرىٰ: [عَمَّا يَعْملُونَ] بضمير الغائبين.

سبَقَ أنْ عَرَفْنَا أَنَّ المعْنِيّين الأوّلينَ، بالمعالَجَةِ الدَّعَوِيَّة في هذه السُّورَة، هُمْ مُشْرِكُو مَكَّة الَّذِينَ سَبَقَتْ مُعالَجَتْهم في سُورٍ كثيرة نَزَلَتْ قَبْل نُزُولِ سُورَةِ (النَّمل) ولا سِيمَا كُبَراؤُهُمْ وقَادَتُهُمْ الأَئِمَّةُ لجماهِيرِهم.

وهذه الآياتُ الأخيراتُ من السّورَةِ، فيها تَعْلِيمٌ دَعَوِيٌّ لِلرَّسُول محمَّدٍ ﷺ، مَا يَقُولُهُ للّذِينَ لم يَصِلُوا بَعْدُ مِنْ مُشْرِكي مَكَّةَ إِلىٰ دَرَكَةِ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِن إيمانِهِمْ وإسْلَامِهِم عَنْ طَرِيق إرادَاتِهِمُ الحرَّة، ويَسْتَفِيدُ الدُّعاة إلى اللّهِ عزّوجلّ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ فَحْوَىٰ هٰذا التّعْلِيم، ومن لوازِمِهِ الْفِكْرِيَّة، فِي مَسِيراتِهِمُ الدَّعَوِيَّة.

- ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾: أي: قُلْ لِمَنْ تَرْجُو استجابَتَهُمْ مِنْهُمْ وَلَوْ بالظَّنِّ الضّعِيفِ هذا القول. طُوِيَتْ من اللَّفظ كَلِمَةُ: «قُلْ» لأنّ إدْرَاكَهَا في مُتَنَاوَلِ فِكْرِ السَّامِع أو القارئ، الَّذي يَمْلِكُ بدايَاتِ التَّفكير في معاني الكلام.

وَقَدْ جاءَ النُّطْقُ بها مَرَّتَيْنِ بَعْدَ هذا في النَّصّ في: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠﴾ وفي: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

إِنَّهُ لمَّا كَانَ الدُّعَاةُ الْبَشَرِيُّونَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إلى مَبادئَ وأنْظمَةٍ هُمْ يَضَعُونها، ولَا يُطَبِّقُونها علىٰ أَنْفسِهِمْ، بَلْ يَحْمِلُونَ النَّاسَ عَلَى تَطْبيقِها لِمَصَالِحِهِمْ، كَانَ مِنْ وَاجِب الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ وفي مُقَدِّمَتِهم الرَّسُول أَنْ يُعْلِنُوا أَنَّهُمْ مأمُورُون من رَبِّهِمْ بعِبادَتِه، ومَأمُورُون كَسَائِرِ النَّاسِ بأنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُسْلِمين للّهِ.

ولمَّا كَانَ مُشْرِكُو مَكَّة يُعَظِّمُونَهَا وَيَعْتَقِدُون أنَّ اللَّهِ جَعَلَها حَرَماً حَراماً لَا يُنفَّرُ صَيْدُها، ولَا يُختَلَىٰ خَلَاهَا، ولا يُقْطعُ شَجَرُهَا، ولَا يُتَعَرَّضُ فيها لأحَدٍ بأذىً أَوْ ضُرٍّ، بَلْ يُؤَمَّنُ دَاخِلُها، وكَانَ المشركون مع اعتقادهم حُرْمَة هٰذِهِ الْبَلْدَةِ، يُخَالِفُونَ مُعْتَقَدَهُمْ فَيَتَّعَرَّضُون للرَّسُول ولِمنْ آمَنَ بِهِ بالأذىٰ والتعْذِيب والاضطهاد، في الأنْفُسِ والأرْزاق، كان من الْحِكْمَة في أساليب الدَّعْوَة أَنْ يُعْلِنَ الرَّسُول لهم، أَنَّهُ مأمُورٌ بأَنْ يَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمها.

وَبَدَهِيٌّ أَنَّ اللَّهَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ هُوَ الآمِرُ لَهُ بِهذَا، أي: فأطِيعُوا رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّتِي تَفْتَخِرُونَ بأنَّكُمْ أَهْلُها وحُماتُها على سائِرِ قبائِلِ الْعَرَب، والّذي أكْسَبَكُمْ هذا المجْدَ الموْرُوث من عَهْدِ النَّبِيَّيْنِ الرَّسُولَيْن إبْراهِيمَ وَوَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلام، ومن طَاعَتِكُمْ لِرَبِّ هذِهِ الْبَلْدَةِ أَنْ تُؤْمِنُوا بِرسُولِه، وبالْقُرْآنِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ، وأن تَتَّبِعُوه مُسْلِمينَ للَّهِ رَبِّكُمْ، لَا مُسْتَكْبِرِينَ وَلَا مُتَّبِعِينَ لأهوائكم، وتقاليدِكم الْعَمْياء، وعَابِدِينَ لأوثَانٍ لَا تَنفَعُكُمْ وَلَا تَضُرُّكُم بشيء.

هذه المعاني كُلُّها تُفْهَمُ مِنْ اللَّوَازِم الفِكْرِية لِقَوْلِه لَهُم.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وفي هٰذِهِ العبارة

حَصْرٌ وَقَصْرٌ بالأداة ﴿إِنَّمَآ﴾ والمعْنَى: مَا أُمِرْتُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَسُولاً لِلْعَالَمِين، إِلَّا بأنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَة مَكَّةَ، الَّذي جعَلَها بَلدَةً مُحَرَّمَة، ذَاتَ حُرْمَةٍ عظيمَةٍ عِنْدَهِ، وَهُوَ الّذِي جَعَلَنِي نبياً ورَسُولاً للنَّاس أجْمَعِين، فَأَنَا أَوّل المأْمُورِينَ بعِبَادَتِه مِنْ هَذِه الأُمَّةِ الَّتي هِيَ خَاتِمَةُ الأُمَم، وأنَا لَها خَاتَمُ الأنبياء والْمُرْسَلِين.

هذه الإضافات على الْعِبَارَة مَعْرُوفةٌ من دَلَالَاتِ نُصُوصٍ سابقَةٍ، فَهِي مُنْسَحِبَةٌ في التَّصَوُّرِ علَىٰ كُلّ بيانٍ لاحِق.

عبارة ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ تُعبّرُ عَنْ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئيَّاتِ رُبُوبيَّةِ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْء، لأَنَّهُ هُو الخالِقُ لكلّ شيءٍ، والمتَصَرِّفُ بصِفَاتِ رُبُوبيّتِهِ فِي كُلِّ شيءٍ، إيجاداً وإعداماً، وتَغْيِيراً، وزيادة وَنقصاً، وتَحْرِيكاً وَتَسْكِيناً، وإِمْدَاداً بالبقاء، إلى غيْرِ ذلِكَ من تَصارِيفِ رُبوبيّتِه لِكَوْنِه.

ولهذا جاء في القرآن المجيد بيانُ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ـ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ـ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ـ ورَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ـ فهو جَلَّ جَلَالُهُ رَبُّ كُلِّ شيءٍ في الوجود.

﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾: أي: الّذِي جَعَلَها بَلْدَةً حَراماً، وجاء في القرآن ذِكْرُها بعُنْوان ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[1]. ويظهر معنى كَوْنِ مكَّة بلداً حَراماً ممّا وَرَدَ بشَأْنها عن الرسول ﷺ.

(١) روى البخاري ومُسْلمٌ عن عبد اللَّه بن عبّاسٍ رضي اللَّهُ عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّة:

«إِنَّ هٰذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاواتِ والأَرْضَ، فَهُوَ حَرامٌ

---

[1] (١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (التين/ ٢٨ نزول) في المجلد الثاني. حول الأمن في مكّة.

بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي، ولَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُو حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، ولَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، ولَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَىٰ خَلَاهُ».

فقالَ العَبَّاسُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِلاَّ الإِذْخِرَ، فإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ ولِبُيُوتِهم. فقال: «إِلَّا الإِذْخِرَ».

القَيْنَ: الحدّاد والصانع، وجمعُهُ «قُيُون».

لاَ يُعْضَدُ شَوْكُه: أي: لَا يُقْطَعُ بالمِعْضَد، وهيَ آلةٌ حَدِيدِيَةٌ يُقطعُ بها الشجر.

وَلاَ يُخْتَلَىٰ خَلاَهُ: أي: ولا يُقْطع حَشِيشُه.

وفي رِوَاية عَنْ أبي هُرَيرَة: «وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُها، ولَا يَلْتَقِطُ سَاقِطَتَها إِلَّا مُنْشِدٌ».

(٢) وروى مسلم عن جابرٍ رضي اللَّهِ عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول:

«لَا يَحِلُّ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاح».

● ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾: اللّام في: ﴿وَلَهُۥ﴾ لِلْمِلْكِ، أي: ولَهُ مِلْكُ كُلِّ شَيْءٍ. دلَّتْ عِبارة ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ مَالِكُ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ، إِذْ هُوَ خَالِقُهَا والمتصرِّفُ فيها بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، فَنَاسَبَ هَذا أَنْ يأتِي بعِبَارَةٍ عَامَّةٍ شَامِلَةٍ تُفِيدُ أَنه مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، وهذِهِ الحقيقةُ مِنَ الْقَاعِدَةِ الإِيمانِيَّة قَدْ جَاءَ بيانُهَا وتَثْبيتُها وتأكِيدهَا في نُصُوصٍ كثيرةٍ جدًّا، منها: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى غيرها من نُصُوصٍ كثيرة.

• ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أي: وأمِرْتُ مِنَ اللّهِ ربّي أنْ أكُونَ مُسْلِماً مِن المُسْلِمينَ، مُسْتَسْلِماً مُطيعاً لَهُ في كُلِّ مَا يأمُرُ الْمُسْلِمِينَ به، وفِي كُلّ مَا يَنْهَىٰ المسْلِمِينَ عنه، وَقَدْ يَزِيدُني تَكليفاً فَعَلَيَّ أَنْ أكُونَ مُسْلِماً لَهُ مُطِيعاً، ومَا يَأْذَنُ لي بِهِ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ لمَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالح رِسَالَتِي، أَوْ يخْتَصُّني بِهِ، فأنَا فيه مُسْلِمٌ لِربِّي قيادِي، خاضِعٌ لأوامرِه ونواهِيه.

الْمُسْلِم: المنقادُ المطيع. يقال لغة: «أسْلَمَ، يُسْلِمُ، إسْلاماً» أي: انْقَادَ مُطِيعاً، غير عَاصٍ ولَا مُعْتَرِضٍ ولا رافضٍ للانقياد والطاعة.

• ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي: وأُمِرْتُ أَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِي، وعلَىٰ النَّاسِ الَّذِينَ يَجِبُ عليَّ أنْ أدْعُوَهُمْ إِلَى الدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَنِي بِهِ رَبِّي، وعَلَىٰ الَّذِينَ آمنُوا بي واتَّبعُوني، لأُعَلِّمَهُمْ كِتَّاب رَبِّي، حَتَّىٰ يَتَدَبَّرُوهُ وَيَنْشُرُوهُ فِي النَّاسِ دُعَاةً ومُعَلِّمين.

﴿أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي: أنطِقَ بِهِ مِنْ حِفْظِي، مُتَتَبِّعاً حُرُوفَهُ وكلماتِهِ كما أنْزَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلَّ علي. تقول لغة: «تَلَوْتُ القرآنَ أتْلُوهُ تِلاوَة». فعل «تَلا يتْلُوا تُلوّاً» يأتي في اللُّغةِ بمَعْنَى «تبِعَ» يقال: «تَلاهُ» أي: تَبِعَهُ فَهُو تالٍ، واسْتُعْمِل بمَعْنَىٰ النُّطْقِ بالقرآنِ مَعَ تَتَبُّعِ حُرُوفِه وكلماته كما أُنْزِل.

وَإذَا كانت هذه التّلَاوَةُ تَتَبُّعاً لِلْمكتُوب مِنْه فَهِيَ قِرَاءَة، ولهذا قالَ الرسُول ﷺ لجبريل عليه السلام حين قال له: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أوّلَ مَا نَزَل عليه في حراء: «ما أنا بقارئ»: أي: مَا تَعَلَّمْتُ القراءَة والكتابة.

• ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾:

أي: فَمَن استجابَ لدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانيّة، الهادِيَة، إلى طريق سعادة الدُّنيا والآخرة، فآمَنَ وأسْلَمَ واسْتَقَام على صراط اللّهِ، فاهْتَدَى بذلك، فإنَّهُ لَا يَهْتَدِي إلَّا لِتَحْقِيق سَعَادَة نَفْسِه، فَهُو المستفيد وحَدَهُ من استجابَتِه واهتدائه.

ومَنْ لم يَسْتَجِبْ بإرادَتِهِ الحرَّة مُتَأثِّراً بِدَاعٍ ما من الدَّواعِي، بَعْدَ إدْراكِهِ للحقّ أو رافِضاً إدْرَاكَهُ والإصغَاء لبياناتِهِ، وَرَافضاً التفكُّرَ في آياتِ اللَّهِ الكونيَّة والمنَزَّلَة علىٰ رَسُولِه، ضَلَّ في مَتَاهات الأهواء والشهوات وزِينَاتِ الحياة الدينا، ودُرُوبِ الباطل والشرّ والإثم، وارْتِكَابِ الجرائم، فإنَّهُ لَا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَه، إذْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ بِضَلَالِهِ لِعَذَابٍ ألِيم، مَعَ الخلُودِ في جهَنَّمَ دَارِ المجرمين يَوْمَ الدّين، إذا كان ضَلَالُه مِنْ دَرَكَة الْكُفر.

دَلَّت عبارة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ على أنَّ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فإنَّما يَضِلُّ جانياً على نَفْسِه، وجالباً الضَّرَرَ والعذَابَ لَهَا، دُونَ أنْ يُشَارِكَهُ أَحَدٌ في عَذَابِه، إلَّا مَنْ ضَلَّ مِثْلَ ضَلَالِهِ باختيارهِ الحرّ.

- ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾أي: فقُلْ يَا مُحَمَّدُ لَه: بِمَا أنَّكَ لَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبّكَ، فانْطَلَقْتَ هَائِماً فِي أَوْدِيَةِ الضَّلَالِ والْغَيّ، فاعْلَمْ أنَّكَ مُنْذَرٌ بعذَابٍ أليمٍ خالِدٍ يَوْمَ الدِّينَ، وانْحصَرَتْ وَظِيفَتِي بالنِّسْبَةِ إلَيْكَ بأنْ أكُونَ مُنْذِراً فأنَا في هذهِ الْحَالَةِ مِنْ الْمُنْذِرِين، ولَوِ استَجَبْتَ لدَعْوَةِ رَبّكَ لكُنْتُ لَكَ مِنَ الْمُبَشِّرِين.

ويَنْسَحِبُ على الداعي إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ هٰذا التوجيهُ التَّعْلِيمي، لأنَّهُ مُبَلّغٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ما أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ بِتَبْلِيغِه، وقَائِمٌ بالوظيفَةِ الدَّعوِيَّة الّتي أمَرَ اللَّهِ عزّ وجَلَّ رَسُولَهُ بِالقيام بها، وهُوَ مُطالَبٌ بالْتزام التعليمات الّتي وَجَّهها اللَّهُ عزّ وجلَّ لِرَسُوله.

مع ما في هذا النَّصّ التَّعْلِيمِيّ للرَّسُول مِنْ خطابِ غَيْرِ مباشِرٍ من اللَّهِ عزَّ وجَلَّ للمعنيّينَ بِالمُعَالجَةِ في السورة، ولِنُظَرَائِهِم وأشْبَاهِهم في عَصْرِ التَّنْزِيلَ وفي الْعُصُور اللاَّحقات، كشأنِ سائر النُّصُوصِ المشابِهَة.

- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ وفي القراءة الأُخرى: [**عمَّا يَعْملون**] بياء الغائبين.

هٰذِهِ الآيَة تَدُلُّ عَلَىٰ بَيَانٍ تَعْلِيميّ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِه، وفي هذا البيان ذِكْرٌ عُنْوانيٌّ لِعَنَاصِرِ الموضوع المطَوَّلِ الّذِي يَنْبَغِي توجِيهُهُ للمعنيِّينَ بالمعالجَةِ ولنُظَرائِهِم وأشباهِهِم في القُرون الآتية.

عناصر هذا الموضوع ثلاثة:

العنصر الأوّل: حَمْدُ اللَّهِ عَزَّ وجلّ بِذِكْرِ طَائِفَةٍ من صفاتِهِ الْجَلِيلَةِ، والثناءِ عَلَيْهِ بها، ومنها عِلْمُهُ الْمُحِيطُ بكُلِّ شيء، وقُدْرَتُهُ الَّتِي يَخْلُقُ بِها مَا يَشاء، وحِكْمَتُهُ الَّتي يَخْتَارُ بِهَا الأحْكَمَ والأحْسَنَ ومَا هُوَ خَيْرٌ دواماً، وأنَّ كُلَّ مَا هُوَ في الكَوْنِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِه، وهُوَ مِلْكُهُ يَتَصرَّفُ فِيه بِحِكْمَتِه على مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أمْرٍ حَكِيم، فَضْلاً وعَدْلاً.

دَلَّت على هٰذا الْعُنْصُر عِبارَةُ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: كُلُّ الْحَمْدِ والثناءِ للَّهِ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، لأنَّ كُلّ صِفَاتِ الكمالِ بِلَا نَقْص هِيَ صِفَاتُهُ، فَلَا جُزْئِيَّةَ مِنْ جُزْئيَّاتِ الْحَمْدِ إلّا هُو مُسْتَحِقُّها، فَالْحَمْدُ كُلُّهُ جُمْلَةً وتَفصِيلاً هُوَ لَهُ تباركَ وتَعالَى.

الْعُنْصُر الثاني: أَنَّ اللَّهَ جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ سَيُرِي النَّاسَ في الحياة الدُّنيا قَبْلَ يَوْمِ الدّينِ، بِدَليل حرْفِ «السِّين» الدَّالِّ على المستَقْبَلَ غَيْرِ الْبَعِيدِ جدًّا، بخلَاف «سَوْف» آيَاتٍ من آياتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ أنَّها مَنْ آياتِ اللَّهِ الْجَليلَات الدَّالَّات على أنَّ الْحَمْدَ كُلَّهُ للَّهِ وَحْدَهُ، وأنَّ عَلَيْهِمْ وَاجِبَيْ الإيمانِ والإسلامِ له.

أمّا الثناء على العباد بما فيهم من مَحَامِدَ، فهُو تابعٌ لحَمْدِ اللَّهِ، وفَرْعٌ مِنْ فُرُوعه، إذ هُو الخَالِقُ والواهِبُ والموفّق، ومَن اخْتَارَ بإرادَتِهِ الحرَّةِ فِعْلَ عَمَلٍ مَحْمُودٍ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ هُو الَّذي يُمِدُّه بالقدرة والتَّوفِيق والتَّسْدِيدِ والمعونةِ، فَهُو في الحقيقَة الخالقُ له، فالْحَمْدُ له.

دلَّ على هذا العنصر قول اللَّهِ عزّ وجلّ في التعليم لرسوله: ﴿سَيُرِيكُمْ

ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ والآيات التي سيُريها اللَّهِ للنَّاس في الدنيا تَرْجِعُ إلى الكليَّاتِ التالية:

(١) مَا يَراهُ كُلُّ محْتَضَرٍ قُبَيْلَ مَوْتِهِ من بَعْضِ أمور الآخرة، فالمؤمنُ يَرَى مَنْزِلَهُ مِنَ الجنَّةِ، فَيُحِبُّ لقاء اللَّهِ، فيُحِبُّ اللَّهُ لقاءه، والكافِرُ يرَىٰ مَكَانَهُ مِنَ النَّار، فيَكْرَهُ لقَاءَ اللَّهِ، فيَكْرَهُ اللَّهُ لقاءه، وهذا من آياتِ اللَّهِ على أنَّ ما جاء في القرآن عن الآخرَة حقٌّ لَا رَيْبَ فيه.

(٢) مَا يُحقِّقُ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ أخبارٍ عَنْ أحْداثٍ مَسْتَقْبَلِيَّةٍ، جاءَتْ في بَيَانَاتِ القرآنِ أو في أَحَادِيث الرَّسُولِ الصحيحة، آناً فآناً، كأشْرَاطِ السَّاعَةِ.

(٣) مَا يَكْشِفُ اللَّهُ للنَّاس من آياتٍ كَوْنِيَّةٍ بالوسائِل العلميّة فتَظْهَرُ مُطَابَقَتُهَا لمَا جَاء في النُّصُوص القرآنِيَّة، أو في بيانات الرسول ﷺ، ولَمْ يَكُنِ النَّاسُ في جميع الأرض يَعْلَمُونَ عَنْهَا شيئاً إبَّانَ تَنْزِيلِ القرآن.

وهَذا ما بَدَأَ الباحِثُونَ يُنَقِّبُونَ عَنه، ويُعْطُونَه عُنْوانَ «الإعجاز الْعِلْمِيّ في الْقُرآن والسُّنَّة» وقَدْ ظَهر حتَّىٰ الآن الكَثِيرُ مِنْ هٰذا الإعجاز العلمي، وهذا من آيات اللَّهِ الَّتي وَعَدَ اللَّهُ بأنْ يُرِيها للنَّاس، على لسان رسُوله.

وَقَدْ جاء تَفْصِيلُ هذا الْوَعْدِ بِبَيَانٍ مُباشرٍ مِنْهُ جلَّ جَلَالُه فقال تعالى في سورة [فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول]:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

يَتَحدَّثُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بضمِير المتكلّم العظيم الَّذي هو على كلِّ شيء شَهِيد، لَا تَخفَىٰ عَليْهِ ذَرَّةٌ وَلَا أَصْغَرُ في كُلّ الوجُود.

وآياتهُ في الآفاقِ وفي الأنْفُسِ هِيَ الْعَجائب الكونيَّة الدَّالَّةُ على صِفاتِ رُبُوبيَّته، الدّالّات على وحدانيّتِهِ في رُبوبيّته وفي آلهيَّته.

وكشْفُ هذهِ الآيَاتِ يُرَادُ بِهِ بيَان مطابَقَةِ واقِعِها لِمَا جَاءَ فِي القرآنِ عَنْها، حتَّىٰ يَتَبَيَّن للناس أنَّ القرآنَ حقٌّ مُنزَّلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، دَلَّ علَىٰ هٰذا المراد عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: أي: والَّذِي هُوَ فَوْقَ كُلِّ شيءٍ، كبيراً كَانَ أَمْ صَغِيراً، وَشَهِيدٌ شُهوداً تامّاً لَهُ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْهُ إِلَّا خبراً مُطَابِقاً لواقِعِ حالِه، وهذا يَدُلُّ على أنَّ القرآن تنزيلٌ مِنْ لَدُنْهُ، وأَنَّهُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيه.

الآفاق: هي الأبعاد الْعُلْيَا المحِيطَةُ بالأرْض.

الشَّهِيدُ: هُو الحاضِرُ الّذِي يَرَىٰ كُلَّ شيءٍ حَضَرَه.

العنصُرُ الثَالث: بَيَانُ أنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعِبَادِ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُون في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم.

أي: هُمْ مَجزيُّونَ عَلىٰ أَعْمَالِهِمْ الإرَادِيَّة، ومِنْ لَازِم قَانُونِ الجزاءِ عِلْمُ اللَّهِ الشَّامِلِ بما يَعْمَلُونَ، ومِنْ مُقْتَضَىٰ الْعِلْمِ الشَّامِلِ أَنْ لَا يَغْفُلَ عَنِ شيءٍ ممَّا يَعْمَلُونَ، سَوَاءٌ أَكَانَ مِنْ أعْمَالِ الجوارح الظاهرة، أمْ مِنْ أعْمَالِ الْقُلُوبِ والنُّفوس.

فجاء التعبير التعليمي ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] كِنَايَة عَن أنَّهُمْ مَجْزِيُّونَ بَعْدَ الحساب وفَصْل القضاء على أعْمَالهم، وكِنَايَةً عَنْ شُمُولِ عِلْمِهِ، بذِكْرِ لازم من لوازم شُمُولِ عِلْم اللَّهِ ، وهو أنَّه سبحانه لا يَتَعَرَّضُ لِغَفْلَةٍ ما عن مُشَاهَدَةِ عباده الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، مع شُهُودِه جلّ جلالُهُ لِكُلّ شيء في الكَوْنِ كُلّه.

وعبارة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ التَّعْلِيميَّة فيها الدلالَةُ علىٰ ما يلي:

أي: وَقُلْ لِمَنْ تُعَالِجُهُ مِن أفْرَادِ الْكافِرِينِ: وَمَا رَبُّكَ خالِقُكَ

والمتَصَرِّفُ بِكَ بصِفَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ بغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أيُّها الكافِرونَ، أفْراداً وجَماعَاتٍ، وسَوْف يجازِيكم علَىٰ أعمالِكُمْ، ويُحْبِطُ مَا تُدَبِّرُونَهُ ضِدَّ رَسُولِهِ وكِتَابِهِ، والمؤمِنينَ، ويَرُدُّ كَيْدَكُمْ إلى نُحُورِكم.

الباء في: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ زِيدَ للتَّنصِيصِ علَىٰ الْعُمومِ، أو تأْكيد عُمُوم النفي بحرف «مَا» كما يُقَرّر النحويُّون.

أمّا قراءة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فهي أيضاً تَعْلِيميَّة، وفيها الدَّلَالَةُ علَىٰ ما يلي:

أي: وَقُلْ لِلْمُؤْمِنِ الّذِي يَمَسُّهُ أذَىٰ الكافِرِينَ واضطّهادُهُم: وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونِ، واعْلَمْ أنَّ اللَّهِ بِحكْمَتِهِ سَيَجْزِيهِم، وسَيَنْصُرُ رَسُولَهُ والْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَستَكُونُ لَكُمُ الدَّوْلَةُ والسُّلْطَان، إِذَا استَمْسَكْتُمْ بِدِينِه، واتَّبَعْتُمْ آياته، وأطَعْتُمْ أوَامِرَهُ وَنواهِيَه.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرس السَّابِعِ من دُرُوس سورة (النمل) وهو الدَّرْسُ الأخير مِنْها، وبه يَتمُّ تَدَبُّر السورة.

والْحَمْدُ للَّهِ علَىٰ معونتِه وتَوْفيقِهِ وفَتْحِه، إنَّهُ السّمِيعُ المجيب الوهاب.

* * *

ملاحق تدبّر سورة (النمل)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيَّة من السورة.

الملحق الثاني: تَعِلَّةُ المكذِّبين بِيَوْمِ الدِّين هي توجيه الاستفهام التعجبيّ.

الملحق الثالث: دراسة تكامليَّة للنُّصوص بشأن صالح عليه السلام وقومه ثمود في القرآن المجيد.

* * *

(١١)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغية من السورة

في سورة (النمل) نفائس بلاغيَّة كثيرة، استَخْرَجْتُ مِنْها ما جاء في هذا الملْحِق، وتُوجَدُ فيها نفائس أخرى من أنواعها تَركْتُ استخراجها للمهتمين بالتحرِّي عن الْبَلاغيات، وتوجد بلاغيَّاتٌ لَمْ أَهْتَدِ إلىٰ اسْتِخْرَاجِهَا، مُوقِناً بأنَّ القرآن مَشْحُونٌ بالكنُوز الدُّرِّيَّة مِنَ البلاغيات والفكريَّات، وأنَّها سَتُكْتَشَفُ بتَوْفيق اللهِ وفَتْحِهِ من قِبَلِ مَنْ يُقَيِّضُهُمُ الله عزّ وجلّ لِذَلِك.

أوّلاً

من الفنون البلاغيّة استخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه الْبَعيد، في الإشارة إلى الْمُشَار إلَيْهِ القريب، للدَّلاَلَة على بُعْدِ مَنْزِلَتِه ارْتِفَاعاً وسُمُوّاً، أو للدَّلاَلَة على بُعْدِ دَركَتِهِ انخفاضاً وَانْحِطَاطاً وتَسَفُّلاً.

(١) قوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾:

في هٰذه العبارة جاءت الإشارة إلى آيات القرآن القريبة، المقدّمَةِ للتلاوة، والموجُودَةِ في أذْهان الحفَّاظ، ومكتوبات المسلمين، باسم الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾ الموضوع للمشارة إليها البعيدة، للدّلاَلَة بهٰذَا الإجراء على بُعْد منزلَتِها ارتفاعاً وسُمُوّاً، في معانيها، وفي مبانيها، وفي تأْثيراتِهَا الرَّبَّانيَّة، بما جعل اللهُ عزَّ وجلَّ لَهَا من تأثيراتِ عجيباتِ بتَقْدِيرِهِ وقضائه.

(٢) وقَوْل اللهُ عزَّ وجلَّ بشأن الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ أشِيرَ إلى الّذِين لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ، الذين جاء الحديث عَنْهُمْ قَبْلَها، باسْم الإشارة الموضوع للمشارِ إليهم الْبَعِيدين، مع قُرْبِ الحديث عنهم، للدَّلَالَةِ بِهٰذَا الإجْراء على بُعْدِ دَرَكَاتِهِمُ انْحِطَاطاً ومَهَانَةً وخِسَّة، فَهُمْ ليْسُوا جَدِيرينَ بأنْ يُتَحَدَّثَ عَنْهُمْ حَاضِرينَ قَرِيبين.

ثانياً

ومن الفنون البلاغيّة توْكِيدُ الْخَبَر بمؤكّد أو أكْثر، لأنَّ حَالَ المقْصُودين بإبْلاغِهِمْ إيَّاهُ، سَوَاءٌ أكانوا المخاطَبِينَ بِهِ أمْ غَيْرَهم، مِمَّنْ يُرَادُ إعلامُهُمْ بأسْلُوبٍ غَيْرِ مباشر، تَقْتَضِي تَوْكيد الْخَبَرِ لهم، إذْ هُمْ مُنْكِرُونَ أَوْ شاكُّون، أو بَيْنَ بَيْن.

وفي سورة (النَّملْ) أمْثِلَةٌ كثيرة، ألِفتُ النَّظَرَ إلىٰ بَعْضِها:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ توكيد الخبر بمؤكدَين: «إنَّ ـ الجملة الاسميّة».

وهذا التوكيد يَصْلُحُ لأنْ يُوَجَّهَ لِبَعْضِ المؤمِنين، والمعنيُّون الأوَّلُونَ بأنْ يُؤَكَّدَ لهم الخبر هُمُ الّذِين لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ أنْفُسُهُم، وقَدْ أُبْلِغُوا الْخَبَرَ المؤكَّد بأسْلُوبٍ غَيْرِ مباشِرٍ، لَمْ يُواجَهُوا به.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ بشأنهم أيضاً:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾:

في هذه الآية توكيد الخبر بِضَمِير الْفَصْل في: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. والتوكيد هنا نظير سابقِهِ.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله محمّد ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾:

في هذه الآية تَوْكيد الخبر بـ «إنّ - الجملة الاسمية - اللّام المزحلقة». وهذا التوكيد مُوَجَّهٌ في الظاهر للرسُول ﷺ، والْمَقْصُودُونَ بِهِ مُكَذِّبُوهُ، والمكَذِّبُونَ بِأَنّ القرآن تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ عليم.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في الحديث عن سليمان عليه السلام:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾:

في هذا القول الذي قالَهُ سليمان عليه السّلام التوكيد بالْقَسَمِ المنْوِيّ، وباللّام الواقِعَة في جوابه، وبنُونِ التوكيد الثقيلة، في المواضع الثلاثة.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ حكَايَةً لِمَا أَنْطَقَ بِهِ الْهُدْهُد:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾:

أكّدَ الْهُدْهُدُ بتوكيد دَلّ عليه: «إنّ - والجملة الاسمية».

والداعي لهذا التوكيد، أنَّ الْهُدْهُدَ في مَوقف المحاسبة له عَلَىٰ تغيُّبِهِ بِغَيْرِ أَمْرٍ أَوْ إِذْنٍ له. مِنْ سَيِّدِهِ سليمان عليه السلام.

(٦) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقول «بِلْقِيس» مَلِكَةِ «سَبأ»:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾:

وحَكاية لقولها:

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾:

في هذه الآيات توكيد الأخبار في عِدَّة مواضع بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية» وهي: [إِنِّي أُلْقِيَ ـ إِنَّهُ مِنْ سليمان ـ وإِنَّهُ بِسْمِ الله ـ إِنَّ الْمُلُوكَ ـ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ».

والداعي لهذه التوكيدات إقناع المَلِكة «بِلْقِيس» رِجال دَوْلتها بأنّ الحكمة تقتضي عَدَم اللُّجوء إلى قتال سليمان، بَعْدَ قَوْلهم لها: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ معلنين بهذا اسْتِعْدَادَهُمْ لِلْقِتَال.

(٧) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقَوْلِ العفريتِ من الجنّ بشأن عَرْش بلْقِيس:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾:

فأكّد العفريت عبارته بـ «إنَّ ـ الجملة الاسميّة ـ اللّام المزحْلَقة». والداعي شعورُه بأنّ سُلَيْمانَ يَشُكُّ في قُدْرَتِهِ وفي أمانَتِه على عَرْش الملكة «بِلْقِيسَ» العظيم بحَجمْهِ وجواهِرِه.

(٨) قول الله عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قالَهُ سليمان عليه السلام، حِينَ رأى عَرْش «بِلْقِيسَ» مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيهِ طَرْفُهُ:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾:

جاءَ في هذا النّصّ التّوْكيدُ بـ «إنّما» الحاصرة في عبارة: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾. والتوكيد بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية» في عبارة ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

والتوكيد فيهما مُوجَّهٌ للْجَاهِلين الّذين يَشُكُّون، أو لم يَثْبُتْ بَعْدُ لَدَيهم مَا فيهما من حقائق إيمانيَّة.

(٩) قول الله عزّ وجلّ في حكاية قِصَّةِ «بِلْقِيسَ» ودَعْوَتها لِدُخُول صَرْح «سليمان» عَلَيْهِ السَّلام:

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

في عبارة «سليمانَ» عليه السّلام: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ التوكيد بـ «إنّ ـ والْجُمْلَة الاسمية» وأرى أن التصريح بقوله: [صَرْحٌ] بِقُوَّة التوكيد بضمير الفصل، إذْ كَانَ يَكْفِي أن يَقُولَ: إنَّهُ مُمَرَّدٌ مِنْ قوارير، والداعي رفْعُ تَوَهُّمِها أنَّها تَخوض في ماء.

وفي عبارة «بِلْقيس»: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ...﴾ التوكيد بـ «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة».

والداعي لتوكيدها إثباتُ صِدْق إيمانها وإسْلامِها، بَعْدَ أنْ كانت كافرةً من قومٍ كافِرِين يَسْجُدُونَ للشَّمْس، فمثْلُ هذا التحوّل يحتاج توكيداً.

(١٠) وقول الله عزّ وجلّ خطاباً لرَسُوله، والمقصُودُون بالتوكيد فيه الّذِين يَحْسُنُ تَوْكِيدُ الْخَبَرِ لهم من الناس مُسْلِمينَ أمْ غَيْرَ مُسْلِمِينَ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

في كلّ آيةٍ من هَاتَيْن الآيَتَيْنِ تَوْكِيدُ الْخَبَرَ الذي اشتمَلَتْ عَلَيْهِ بـ «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزَحْلَقَةُ إلَىٰ الخبر».

(١١) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

في الآية (٧٦) تَوْكِيدُ خَبَرِها بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية».

وفي الآية (٧٧) تَوْكيدُ خَبَرِها بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحْلَقة».

والتوكيد فيهما يُقْصَدُ بِهِ مطابقة الكَلَام لما يُلائِمُ أحْوال الكافِرين، والشّاكين، والّذِين هُمْ بَيْنَ بَيْن.

إلى غير ما سَبَق من أمْثِلَةٍ في السورة.

ثالثاً

ومن الفنون البلاغيّة الإيجاز بالحذف، ونَجِدُ مِنْه في سورة (النَّمْل) ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾:

أي: إنّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالأنباء المتَتَابعة عَن الآخِرَة بَعْدَ البعث للحساب وفَصْلِ الْقَضاءِ وتنفيذِ الجزاء معانِدِين ومُكابرين بإراداتٍ حُرَّةٍ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ الجائِرَةَ الْجَانِحَةَ عَنِ الصِّراطِ المسْتَقِيم، بمُقْتَضَىٰ سُنَنِنَا الْعَامَّةِ الّتِي تَجْرِي عَلَىٰ الْبَرِّ والفاجر، فَرأَوْهَا حَسَنَةً جَالِبَةً لَهُمْ لَذَّاتٍ مِنْ مَتاعِ الحياة الدُّنيا، فانْطَمَسَتْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمُ الْعِنادِيّ بالآخِرَة بَصَائِرُهم ﴿فَهُمْ﴾ في سَعْيهمْ في حَيَاتِهِم الدُّنيا ﴿يَعْمَهُونَ﴾ متحيِّرين مُتَخَبِّطِينَ سَائِرِين عَلَىٰ غَيْر هُدىً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في بيان لَقَطَاتٍ من قِصَّة مُوسَىٰ عليه السَّلام:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾:

أي: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ فَأَنا ذَاهِبٌ إِلَىٰ جِهَتِهَا حَتَّى أَصِلَ إِلَىٰ مَا حَوْلها، وَسَائِلٌ أَهْلَهَا عَنْ أَخْبَارِ الطَّرِيق إلى مِصْر، وَأَرْجُو أنّي ﴿سَآتِيكُم مِّنْ﴾ أَهْلِ ﴿هَا بِخَبَرٍ﴾ يَهْدِيني الطّرِيق ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ مِنَ النَّارِ ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ لِرَسوله محمّد ﷺ:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

أي: قل يا مُحَمَّدُ إنَّمَا أُمِرْت، وقد جاء التصريح بفِعلْ «قُلْ» في الآيَتَيْن التالِيَتَيْن (٩٢ و٩٣).

رابعاً

ومن الفنون البلاغيّة في السورة حَدِيث الله عزّ وجلّ عن نَفْسِه بضَمِير المتكلّم المفرد في مواضع لداعٍ بَلاغيّ.

وحَدِيثُهُ عن نَفْسِه بِضَمير المتكِلّم العظيم في مواضع أُخرَىٰ لداعٍ بلاغيٍّ آخر.

- فمِنْ حَدِيثه عن نفسه بضَمِير المتكلّم المفرد لغَرَضِ الإيناسِ، أو التلطُّفِ والترفق بعباده، ما يلي:

(١) قول اللهِ عزّ وجلّ يخاطب موسَىٰ عليه السَّلام:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

(٢) وقوله لَهُ أيضاً:

﴿... إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

(٣) وقولُهُ عزّ وجلّ:

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

● ومن حَدِيثه عَنْ نَفْسه جلّ جلالُهُ بضمير المتكلّم العظيم، لتربية المهابة، وبيان جلَالِ الرُّبُوبيّة، وعظمة صفات الرَّب وأَفْعَالِهِ الجسَام، ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ عَن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾:

فقال تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ بضَمِير المتكلّم العظيم، إذْ كانت آيات عظيمات تَدُلُّ عظمة الرُّبُوبيّة، وسُلْطانِ الرَّب الذي يفعل ما يشاء.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا . . . ﴿١٥﴾﴾.

(٣) وقوله عزّ وجلّ :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا . . . ﴿٤٥﴾﴾.

(٤) وقولُه عزّ وجلّ بِشأنِ قَوْم ثَمود:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

(٥) وقولُه عزّ وجلّ بشأنِ لُوطٍ عليه السَّلام وأَهْلِهِ وقومه:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

ففي هَٰذِهِ النُّصوص استعمال ضَمِير المتكلم العظيم في: [آتَينا -

أَرْسَلْنَا - وَمَكَرْنَا - أَنَّا دَمَّرْنَاهم - وأَنْجَيْنَا - فَأَنْجَيْنَاه - قَدَّرْنَاها - وأَمْطَرْنا].

ونظائرها في الآيات «٦٠ و٨١ و٨٢ و٨٣ و٨٦».

خامساً

ومن اللّطائف البلاغيّة في تحرّي الدقّة، استعمالُ الْفِعْلِ الماضِي الْمَبْنِي لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، فِي حِكايةِ حَدَثٍ جَرَىٰ، لِأَنَّهُ الْمُلَائِمُ لِوَاقِعِ حَال مَنْ جَرَى لَهُ الْحَدث الّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ الفاعِلَ حينئذٍ.

ومِنْه في السُّورة لدَىٰ الحديث عن موسَىٰ عليه السَّلام، إذْ جاء إلى النّار الَّتِي آنَسَهَا عَنْ بُعْدٍ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ⁽٨⁾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⁽٩⁾﴾:

إنّ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ لمَّا سَمِعَ صَوْتاً ينادِيهِ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَنِ الَّذِي كانَ يُنَادِيه، فكانَ مِنَ الملائِمِ أنْ يُقَالَ: ﴿نُودِىَ﴾ لَا أَنْ يُقَالَ: فَنَادَاهُ الله.

وبَعْدَ جُمْلَتَيْنِ أَبَانَ اللهُ عزّ وجلّ أَنَّهُ هُو الّذِي يُكَلِّمُه. وهَٰذَا مِنَ الدِّقَّةِ التَّامَةِ فِي وَضْعِ صِيَغِ الألْفَاظِ في مَوَاضِعِها.

سادساً

ومن الفنون البلاغيّة الَّتِي عَلَّمَنَا الْقُرآنُ حُسْنَ اسْتِخْدَامِهَا، فَنُّ اسْتِقْطَاعِ النَّصِّ مِنَ الْحَدَثِ الّذِي كَانَ فِي الماضِي، أو سَوْف يَجْرِي في المسْتَقْبل، وَتَقْدِيمهُ في البيان كَمَا لَوْ كَانَ يَجْرِي فِي الحَاضِرِ.

ومِنْه في السُّورَة في مَعْرِضِ خِطَابِ اللهِ مُوسَىٰ عليه السَّلام:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ⁽١٠⁾﴾.

جاءت عبارة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ حَتَّىٰ آخِرَ الآيَةِ مُسْتَقْطَعَةً مِنْ حَدَثٍ جَرَىٰ في الماضي، مُرَاعَاةً لفَنِّيَّة الاسْتِقْطَاعِ الْبَدِيعِ.

ولَا أرى في هذا وَأَمْثَالِهِ تقدير نحو: فناداه الله. أو فقال الله له. لأنّ مِثْلَ هَٰذَا التقدير يُضْعِفُ مِنْ جَمَالِ فَنِّيَّةِ الاسْتِقْطَاعِ، ويَقْصُرُ البيانَ على مجرّد الإيجاز بالحذف.

سابعاً

(١) من الزيادات الإطنابيّة المفيدَة طريقة الاحتراس، وتكُونُ بزيادة إطنابيَّةٍ يَدْفَعُ بِها المتكلّم إيهاماً اشتمْل عَلَيْه كَلامُه، ومِنْهَا في السُّورة ما يلي:

قولُ اللهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ⑫﴾.

إنَّ عبارة: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ تُوهِمُ أَنَّ بياضَها رُبَّمَا كَانَ عَنْ بَرَص، فجاءت عبارة: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ تَكْميلاً احْتِرَاسِيًّا لِدَفْع هَٰذا الإيهام.

(٢) ومِنَ الزيادات الإطنابيَّة الْمُفِيدةِ التَّصْرِيحُ بِمَا هُوَ مَفْهُومٌ من العبارة السَّابِقَةِ له، لِغَرَضِ التوكيد، ودَفْعِ تَوَهُّمِ غَيْرِ المراد، ومنها في السورة ما يلي:

قول الله عزّ وجلّ بشأن فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ مِنْ قومه عن الآيات الباهرات الّتي أجراها لموسَىٰ عليه السَّلام:

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . . . ⑭﴾:

الجُحُود: إنْكَارُ أَنَّ الشَّيْء حَقٌّ مع الْعِلْم بأنَّهُ حَقٌّ، ومَعَ اسْتِيقَانِ النَّفْسِ بِه.

وفرعَوْنُ وعِلْيَةُ قَوْمِهِ قد جَحَدُوا بالآياتِ التِّسْعِ الّتي جاء بِهَا مُوسَىٰ عليه السَّلام، والّتي أنزلَتْ بالمصْرِيين مصائب مُتَعَدِّدَة، وكانوا يَرْجِعُونَ إلى مُوسَىٰ كي يَدْعُوَ رَبَّهُ أن يَرْفع عَنْهم ما أنْزَلَ بهم، ويَعِدُونَ بأنْ يَسْتَجِيبوا لدعوته، ثُمَّ يَنْكُثون.

لَكِنَّ فِرْعون ومَنْ مَعَهُ جَحَدُوا كَوْنَهَا آياتٍ مِن اللهِ عزّ وجلّ، مع اسْتيقانِهِمْ بأنّها من رَبّ العالَمين.

عِبَارَة: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كانُوا على عِلْمٍ بأنَّها آياتٌ حَقٌّ من الله.

وجاءت عبارة: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ إطناباً مُفِيداً، فيه تَوْكيد عِلْمِهِمْ المفْهُومِ مِنْ جُحُودِهم، وفيه دَفْعُ تَوَهُّم أنَّ جُحُودَهُمْ لَمْ يَكُنْ مَصْحُوباً بِيَقِينٍ كَامِلٍ مُخَالِفٍ لما أَعْلَنُوه صراحة بأَلْسِنَتِهِمْ.

وفي هذه العبارة إشارةٌ بِصيغَةِ الجمع ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ الّتي هِي من صِيَغِ جُمُوعِ القلّة إلىٰ أنَّ جماهِيرَ الأتْبَاعِ كَانُوا مُقَلِّدِينَ لِفِرْعَوْن وَمَلَئِه، وأنَّ المستَيْقِنِينَ كانُوا فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا دُونَ العشرة.

ثامناً

من الفنون البلاغية اختيار التنكير لداعٍ بلاغي، كالتكثير، والتعظيم، والتقليل، والتخصيص بنوع من أنواع المنكّر، وجاء في السُّورة من هذا الفنّ ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا . . . ﴿١٥﴾﴾.

جاء لفظ ﴿عِلْمًا﴾ مُنَكَّراً للدَّلاَلَة على أنّ اللهَ آتاهُما نَوْعاً خَاصّاً مِن الْعِلْم فضّلَهُما اللهُ به على سائر عباده، ومِنْهُ عِلْمُ مَنْطِقِ الطَّيْر.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ بِشَأن أَشْقِياء قوم صالح عليه السَّلام:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾:

أي: وَمَكَرُوا مَكْراً خفيّاً مُحْكَمَ التَّدْبير لِقَتْلِ رَسُولنا صَالِحٍ وأَهْلِهِ. وَمَكَرْنَا مَكْراً يَسِيراً مُحْكَمَ التَّوْقِيت، فَعَاجَلْنَاهُمْ بتَنْفِيذ مَكْرِنا، فَدَمَّرْنَاهم وَقَوْمَهم أَجْمَعِين، كما جاء في الآية (٥١).

تاسعاً

من المحسِّنات اللفظيّة الجميلة بَدِيعيَّةُ الجناس. ومن أنواعه ما يُسَمَّى «الجِناسَ المزْدَوج» أو «الجناس المكرّر» أو «الجناسَ الْمُرَدَّد» وهو أَنْ يَلِيَ أَحد الْمُتَجَانِسَيْنِ الآخر.

وَمِنْ أَمْثِلَتِهِ كما ذَكر عُلَمَاءُ الْبَلاغَة، قَولُ الله عزّ وجلّ حِكَاية لما قَالَهُ الْهُدْهُدُ لِسُلَيْمانَ عليه السَّلام.

﴿... وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾.

وهذا مِن الإغراق في التَّقْسِيمات عِنْدَ الْبَلاغيين، وهو في الحقيقة من الجناس الناقص.

عاشراً

من الدّواعي البلاغية القصر، ونَجِدُ مِنْهُ في السُّورَةِ ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لما قاله سليمان عليه السَّلام:

﴿...وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾:

أي: ومَنْ شَكَرَ رَبَّهُ عَلَىٰ ما أَوْلاَه من نِعْمَةٍ فإنَّه لَا يَشْكُرُ إلّا لمصلحة نَفْسه، إذ هو بشُكْرِه لا يَنْفَعُ رَبَّهُ بشَيءٍ ما، ومَنْ كفر فعصَىٰ رَبَّهُ فإنه لا يضُرَّ رَبَّهُ بشيءٍ، إذْ هُوَ غَنِيٌّ كَرِيم.

والأداة في هذا القصر «إِنَّما» وهو قُصْر حقيقي، من قبيل قَصْرِ صِفَةِ نَفْعِ الشَّاكِرِ لِرَبِّه على نَفْسِهِ.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: اللهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا هُو، وهو قَصْرٌ حَقِيقي، من قبيلِ قَصْرِ صِفَةِ الإِلَٰهِيَّة الحقّ على الله رَبّ العرش العظيم، لا يُشَارِكُهُ فيها أحد.

والأداة المستعملة في هذا القصر النَّفْي والاستثناء.

(٣) وَقَوْل الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾:

أي: وما تُوجَدُ غائِبَةٌ مَا عَنْ أَحَدٍ من خَلْقِ الله فِي السَّمَاءِ والأرض إِلَّا هي مَعْلُومَةٌ للهِ وَمُدَوَّنَةٌ فِي كتاب، وقَدْ عَلِمْنَا مِنْ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ أَنَّهُ اللَّوْحُ المحفوظ.

أداة القصر هنا: النفي والاستثناء.

والقصر هُنَا هُو مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ مَوْصُوف هو كُلُّ غائِبة، على صِفَةِ أَنَّهُ معلومٌ لله ومُدَوَّنٌ عِنْدَهُ في كِتاب.

وهو قَصْرٌ إِضَافِيّ، أي: بالإضافَة إِلَىٰ كَونه غَيْرَ مَعْلُومٍ وَلَا مُدَوَّن، وهو يرّد اعتقاد غير المؤمنين بهٰذِهِ الحقيقة.

حَادِي عشر

ومن الفنون البلاغية إخراج الاستفهام عن طَلَب الإفهام إلى مَعَانٍ أُخْرَى كثيرة.

منه في السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾؟؟:

يُرادُ بالاستفهامَيْن اللَّذَيْنِ وَجَّهَهُما لوط عليه السَّلامُ لقومِهِ أهلِ سَدُوم، الإنْكَارُ والتشنيع عَلَيْهم، وتوبيخُهُمْ، والتعجيبُ مِنْ غُلُوِّهِمْ في ارْتِكاب الْفَوَاحِشِ الشَّاذّة.

(٢) وقول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ في الآيات (٦٠، و٦١، و٦٢، و٦٣، و٦٤).

ويُرَادُ بالاسْتِفْهام هُنَا التَّنْبِيهُ الشَّدِيد على الحقّ الجليّ، والإنكارُ على المشركين، والتعجيب من اتّخاذِهم آلِهَةً من دون الله عزّ وجلّ، إذ لا أحد من دون اللهِ يَمْلِكُ شيئاً من الرُّبوبيّة، حتَّىٰ يسْتَحِقَّ بِها إلَٰهيَّةً ما.

(٣) وقولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾؟؟.

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾؟: استفهامٌ تَوبيخيٌّ تَقْرِيعي، وفيه مَعْنَىٰ إدانَتِهِمْ بِجَرِيمتهم العظمَىٰ.

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾؟: استفهام توبيخيٌّ تَقْريعي، بسبب ما كانوا يَعْمَلُونَ من جَرَائِم وقبائح، ناتجَة عن تكْذِيبهِمْ بآيَاتِ رَبِّهم المنزّلات.

وأكتفي بهذه المستخرجات في هذا الملْحق والحمْدُ لله علىٰ تَوْفيقه وفتحه ومعونته.

* * *

(١٢)

الملحق الثاني

تَعِلَّةُ المكذبين بيوم الدّين هي توجيه الاستفهام التعجُّبِيّ

لم يكن لدى الكافرين المكذبين بِيَوْمِ الدّين طَوالَ المرحَلَةِ المكيّة، وحتى المرحلة المدنيّة، من مَسِيرَة الرَّسُولِ الدَّعَوِيّة، من تَعِلَّةٍ يَتَذَرَّعُونَ بها غَيْرَ تَوْجِيه الاسْتِفْهَامِ التعجُّبي من الإحياء بَعْدَ الْمَوْت، عَلَىٰ الرَّغْم من الحجج البرهانيَّة الدَّامِغَةِ، إذْ كانت الآيات القرآنيَّةُ تَكْشِفُ لَهُمْ أنَّ إِنْشَاءَ الأحياء في الخلْقِ الأوّل، مع أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ شيئاً مَذْكُوراً، دَلِيلٌ بُرْهَانِيٌّ على قُدْرَةِ الخالِقِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعظم سلطانه ـ علَىٰ أنَّهُ قادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَتِهَا إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ إِمَاتَتِهَا.

ولَدَيْنا في القرآن المجيد عشَرَة نُصُوصٍ تَنَزَّلَت فِي مَرَاحِلَ من نُجُومِ التَّنْزِيل في سَبْعِ سُور، وهذه النصوص موزعَةٌ على مَراحل التنزيل المكيّ، باستثناء نَصٍّ واحد منها نزل في سورة (الرَّعْد) وهِيَ من أواسط التنزيل المدني، على خلاف في كونها مدنيّة التنزيل.

النص الأول

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بشأن المعاندين المكابرين من كفّار مكّة إِبَّان تنزيل السورة:

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾؟؟!

فأنْكَرُوا كوْنَ مُحمّد ﷺ رسُولاً من رَبِّهِ مُسْتَنِدِين إلَىٰ مُجَرَّدِ التَّعَجُّب مِنْ أنْ يأتِيهُمْ رَسُولٌ بَشَرٌ مِنهم.

وأنْكَرُوا يَوْمَ الدِّين مُسْتَنِدِين إلى مُجَرَّد التَّعَجُّب من إحْياءِ الموتَىٰ بَعْدَ أَنْ يَصِيرُوا تراباً، مُتَعامِينَ عَنْ آيَةِ اللهِ السَّابقةِ والدّائمةِ، الّتِي يُنْشِىءِ بها

الأحْيَاءَ في النَّشْأةِ الأولى مِنْ ماء وتراب، ضِمْنَ أطوار سَبَبيَّةٍ يتِمُّ بِهَا إنْشَاءُ الأحْيَاء بتقدير الله وقضائه.

والإعادة في مَفْهُومَاتِ الناسِ أهْوَنُ من الإبداعِ والإنْشاءِ دُون مِثَالٍ سبق.

ومن البَدَهِيّ أنَّ التّعَجُّبَ مِنْ شَيْءٍ لا يَصِحُّ في مَوَازِين الْعُقُولِ السَّوِيَّةِ أنْ يَكُونَ دَلِيلَ نفْيٍ للشَّيْءِ المتعجَّبِ مِنْه.

لَكِنَّ التَّعجُّبَ قَدْ يُتَّخذُ أُسْلوباً بيانيًّا لإنْكارِ المتَعَجَّب منه، ثُمّ إنَّ هَـٰذَا الإنكار يحتاجُ إلى دَلِيلٍ صَحِيح يُقَدَّمَ بَعْدَ إعلان الإنكار بأسْلُوبِ التعجُّب، لِقَبُولِ إنكار المنكر، أمَّا أنْ يَقْتَصِر على أنْ يُعْلِنَ تَعجُّبَه، فهذا هو الأمْرُ الّذِي يَتَعَجَّبُ مِنْه العقلاء حقًّا.

النصّ الثاني

نَصٌّ جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأن بَعْضِ كبراء مُشْرِكي مَكَّة إذْ جَاءَ إلى الرسُول ﷺ وفي يَدِه عَظْمٌ رَمِيمٌ (= بالٍ) وهُوَ يَفُتُّهُ وَيَذْرُوهُ في الهواء، وهو يقول: يَا مُحمَّد، أتَزْعُمُ أنَّ الله يَبْعثُ هٰذا؟!

قال ﷺ: «نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللهُ تَعَالَىٰ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إلىٰ النار».

فأنزل الله عزّ وجلّ قَوْله:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾:

فدَلَّ هذا النصّ على أنَّ المخاصم بشأن البعث إلى يوم الدّين الجاحِدَ، له لم تَكُنْ لَدَيه تَعِلَّةٌ يَحْتَجُّ بها للإنكار غَيْرَ التَّعَجُّب، إذْ قال

مُسْتَفْهِماً استفهام تَعَجّبٍ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾؟! أي: وهِيَ بَالِيَةٌ تَذْرُو الرِّيَاحُ مَا يَتَفَتَّتُ منها.

فَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يُجِيبَهُ قائلاً: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾:

أي: إنَّ الَّذِي أَنْشَأَ الْعِظَامَ فِي المرّة الأولىٰ، وكساها لحماً، وصَوَّرَ الإِنْسَانَ في رَحِم أُمّهِ بأحْسَنِ صُورَة، ونَفَخَ فيه الرُّوحَ فَكَانَ حَيّاً، والَّذِي هُوَ بكُلّ خَلْقٍ يَخْلُقُهُ عَلِيمٌ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَه، إذ الخلقُ مَسْبُوقٌ بِقَدَر اللهِ وقضائِهِ، وعَلِيمٌ به حِينَ خَلَقَهُ علىٰ وفْقِ خَرِيطَةِ تكوينِهِ، وعَلِيمٌ بِهِ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ، وعَلِيمٌ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ بَعْدَ أنْ أماتَهُ وأفْناهُ، هُو نَفْسُهُ - جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ - القدِيرُ على إعَادَةِ الْخَلْقِ، والإحياء بَعْدَ الإِمَاتَة والفناء، مَرَّةً ثانِيَةً، وثالِثَةً، ثُمَّ إلى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنْ مَرَّاتٍ، لَوْ شَاءَ بِحِكْمَتِهِ أن يُمِيتَ ويُحْيِيَ مَرَّاتٍ وَكَرَّاتٍ لَا حَصْرَ لها.

ومَا تَضمنتْهُ هٰذه الإجابَةُ ذَاتُ بُرْهَانٍ عَقْلِيّ لا رَدَّ لَه.

النصّ الثالث

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بشأن أصحاب الشِّمال وهُمْ يُعَذَّبون في النار يوم الدّين، لترهيب المكذبين وهم مَا زَالُوا في رِحْلَة امتحانِهم في الحياة الدّنيا:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾:

فَدَلَّ هـٰذا النصّ على أنَّ الكافِرِينَ بعِنادٍ وجحود، مَا زَالُوا حتَّىٰ وقت نُزولِ سورة (الواقعة) مُصِرّين على تكذيبهِمْ بِيَوْم الدّين، ولَيْسَ لَدَيْهِمْ

تَعِلَّةٌ يُحْتَجُّونَ بها للإنكار غَيْر التَّعَجُّبِ والاستغراب، ولم تَتَفتَّقْ أَذْهَانُهُمْ عَنْ شيءٍ جَدِيد يُضِيفُونَهُ إليها، إلّا أن يَذْكُروا آباءَهُمُ الأَوَّلِين، قائِلين: ﴿... أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

لهذا كَانَ مِنَ الحِكْمة في العِلَاج تَوْجِيه الْبَيَانِ الْخَبَرِيّ، المتضمِّن أَنَّهُمْ سَيُبْعَثُونَ، وَسَيُجْمَعُونَ، وَيُسَاقُون إلى شُهُودِ أَحْدَاثِ ميقاتٍ مَعْلُوم، يَكُونُ فِيه حِسَابُهُمْ، وفَصْلُ الْقَضَاء بشَأنهم، ثُمَّ تَنْفِيذُ الْجَزَاءِ، فَقَالَ اللهُ عزّ وجلّ فِي تَعْلِيمِ رَسُولِهِ فكُلِّ داعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ مَا يُجِيبُهُمْ بِهِ:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

فهذا الجواب مع شرحٍ وتَفْصِيلٍ لَهُ، هُو الملائمُ لِحَالِ إِنْكارهم الجحوديّ العنادي، الَّذِي لَم يُضِيفُوا فِيه شَيْئاً على توجيه التَّعَجُّبِ والاسْتِغراب الّذي كان مِنْهُمْ أَوّلَ مَرَّة.

النصّ الرابع

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

فَدَلّ هذا النصُّ من سورة (النمل) على أنّ الْكَافِرين بعناد وجحود، ما زالُوا حتَّىٰ نُزُول هـٰذه السُّورَة مُصِرِّين على تَكْذِيبِهِمْ بِيَوْم الدِّينِ، وعلَىٰ أَنَّـهُم لَـمْ تـتفـتَّق أَذْهَانُهُمْ عَن شيءٍ يُضِيفُونه إلى عبارات التَّعَجُّب والاسْتِغْراب، الَّتي كانت تَعِلَّتَهُمْ، إلّا أنْ يَقُولُوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

وهـٰذه الإضَافَة الّتِي أضافُوها تَنْقَسِمُ إِلَىٰ قِسْمَيْن:

المقولَةُ الأولى: يُثْبِتُونَ بِهَا أَنَّ الْأنبياءَ والرُّسُلَ السَّابِقِينَ، كَانُوا يُنْذِرُونَ أَقْوَامَهُمْ بِيومِ الدين، وبِالْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء فيه، وقَدْ مرَّتِ القُرُونُ العديدة والمدِيدَة، دُونَ أن يأتي يَوْمُ البعث هـٰذا، دَل على هذه المقولة: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾.

وفِي هـٰذه المقولَة إدانَةٌ لَهُمْ بأنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ لم يأتِهِمْ بجديدٍ عَنْ بَعْثِهِمْ وَبَعْثِ النَّاسِ جميعاً إلى يوم الدّين، فقد أنْبأَ بِهِ باعترافِهِم الرُّسُلُ الأوّلُون، وَمَا كَانَ يَلِيقُ بِهم أنْ يُعْلِنُوا تعَجُّبَهُمْ واستغرابَهُمْ.

المقُولَةُ الثَّانِيَة: يَدَّعُونَ بِهَا أنّ نبأ الْبَعْثِ من أسَاطير الأوّلين، أي: مِنْ أَبَاطِيلِهِمْ وَخُرَافَاتِهم.

ولمّا تضمَّنَتْ هـٰذه المقولَةُ إنكارهم الجزاء الرَّبَّانِيَّ، كَانَ من الحكْمَةِ في التعليم الْعِلَاجيّ تقديمُ دَلِيلٍ واقِعِيٍّ ذي آثارٍ بَاقِيَةٍ في مساكِن وقُرَىٰ المهْلَكِينَ الْأوّلِين الْمُجْرِمِين، الّذِين كَفَروا بِرُسل رَبّهم. وأنكرُوا ما أنْذَرَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ، فقال الله عزّ وجلّ لِرَسُوله فَلِكُلّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمّية مُعَلّماً:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩﴾:

ومعلومٌ أنّ البرهان الواقِعِيَّ ذَا الآثار الباقية هو من أقْوىٰ الأدلة على إثباتِ المدّعَىٰ وإبْطالِ نقيضه.

النصّ الخامس

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾:

ما زالَ المعْنِيُّونَ بالمعالَجة من أئِمَّة مُشْرِكي مَكَّةَ عِنْدَ مَوْقِفِهِم الاسْتِغْرَابِيِّ التّعجُّبِيّ بِالنِّسْبَةِ إلى قضيَّةِ البَعْثِ إلى الحياة الأخرى، فلا يَجِدُونَ إلّا أنْ يُطْلِقُوا الاسْتِفْهَامَ التَّعَجُّبِيَّ، دُونَ أنْ يُضِيفُوا إشْكالاً أو اعْتِراضاً، حَتَّىٰ يُعَالجَ بما يُلائِمُهُ وَيَدْفَعُهُ، ويَكْشِفُ سُقُوطَهُ بدَليلٍ بُرْهَانِيٍّ، وَقَدْ سَبَقَ في نجوم التنزيل بيان سُقُوطِ هذا الاسْتِنْكَارِ التعجُّبيّ عدَّةَ مَرَّاتٍ، بأَنَّ الْخَالِقَ الّذِي خَلَقَهُمْ في المرَّةِ الأولَىٰ هُوَ الّذِي وضَعَ في خُطَّتِهِ أنْ يُمِيتَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا كُلِّها، يَخْلُقُ ظُرُوفَ وشُرُوط الحياة الأخرى، ويَبْعَثُ الْمَوْتَىٰ إلَىٰ الحياة، للحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتنفيذ الجزاء، فأهْلُ الْجَنَّة يكونون خالدين فيها، وأصحاب النار الكافِرُونَ المجرمُون يكُونُون خالدِين فيها.

فعِبارَتُهُمْ: ﴿...أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ هي تكريرٌ في المعْنَى لمَا سَبَقَ أنْ قالُوهُ بشَأْنِ هٰذا الموضوع.

الرُّفات: الْحُطام، والْفُتَاتُ مِنْ كُلِّ مَا تكَسَّرَ وانْدَقَّ.

فجاء التعليم الرَّبانيُّ للرَّسُول ﷺ فلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ عزّ وجلّ مِنْ أمَّتِهِ، مشْتَمِلاً على شيءٍ من الحِدَّةِ والْعُنْفِ فِي الإجَابَة، إذْ لَمْ يَكْتَفُوا فِي الإجابَات السَّابِقَاتِ بنحو: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ من سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول).

فجاء هُنَا فِي التعليم:

﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ ... ﴿٥١﴾﴾.

فطَرَكُمْ: أي: خَلَقَكُمْ ضِمْنَ نِظام الْفَطْرِ، وهو الشَّقُّ وَالْفَلْقُ، لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شيءٍ هِيَ الْعَدَمُ، وَاللهُ هُوَ الْمُوجِدُ مِنَ الْعَدَم.

المعنى: قُلْ لهم: إنَّ تَحَوُّلَ أجْسادِكُمْ إلَىٰ رُفَاتٍ مُنْبَثٍّ في تراب

الأرض لَا يُغَيِّرُ مِنْ حقيقة قُدْرَةِ اللهِ عَلىٰ إعادَتِكُمْ شيئاً، فقَدْ فطَرَكُمْ أوَّلَ مَرَّة ولم تكونوا شيئا مَذْكُوراً، أفَيَعْجزُ عَنْ إعادَتِكُم إلىٰ الحياة بَعْدَ أنْ يُمِيتَكُمْ، وَيُفَرِقَ رُفاتَكُمْ في تراب الأَرْضِ، ضِمْنَ المُمْكِنَاتِ العقلِيَّة.

وَأُبَيِّنُ لَكُمْ حَقِيقَةً هِيَ أَكْثَرُ مِمَّا تُشَاهِدُونَ مِنْ تَفَرُّقِ رُفَاتِ الموتَىٰ في تُراب الأرض، وهِيَ أَنَّ هـٰذا الترابَ قَدْ يَتَحَوَّلُ بمُرُور الزَّمَنِ وعوامِلَ من الضغوط والحرارة، فيَكُونُ حِجارَةً صُلْبَةً، وقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فَيكُونُ حَديداً، وقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فيكُونُ حِجارَةً كَرِيمَةً، كالزَّبَرْجَدِ، والياقوت، والزُّمُرُّدِ، والْأَلْمَاسِ، ونحوها، فَهـٰذِهِ حجارَةٌ لَهَا قِيمَةٌ كَبِيرَةٌ فِي صُدُورِكُمْ.

فَسَيَقُولُونَ: إذَا تَحَوَّلَ رُفَاتُنَا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ حِجارَةً كريمةً فَمَنْ يُعِيدُنَا إلىٰ الحياة مَرَّةً أُخرَىٰ؟!

فقل لهم: يُعِيدُكُمْ إلَىٰ الحياة الّذِي فَطَرَكُمْ أوَّلَ مَرَّة.

- ﴿... فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ...﴾: أي: فَسَيُحَرِّكُونَ، إلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ تَحْرِيكاً دَالًّا على ثَبَاتِهِمْ عِنْدَ مَوْقِفِ المستَبْعِدِ المتعجّب المُنْكِر.

وإذْ لَا يَجِدُونَ تَعِلَّةً يَتَعَلَّلُونَ بِها غَيْرَ الإنْكارِ بأسْلُوبِ التّعَجُّب، فَإنَّهُمْ يَلْجَؤُونَ إلىٰ السؤال عن الوقْتِ الذي تكونُ فِيهِ الْقِيامَةُ وَالْبَعْثُ، فجاءَ في النَّصّ:

- ﴿... وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ... ۝٥١﴾: أي: مَتَّىٰ يَكُونُ هـٰذا الإحياء إلىٰ الآخِرَةِ للحساب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذ الجزاء؟؟

- ﴿... قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾: أي أتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً، وَهـٰذا الجوابُ يَحْتَمِلُ معنيَيْن:

المعنى الأول: تَوَقُّعُ قُرْب مَوْتِهِم، فإنَّهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ تَنْكَشِفُ لَهُمْ حَقَائِقُ الآخِرَة الّتِي لَا يُؤْمِنُونَ بها وهُمْ في الحياة الدُّنيا.

المعنى الثاني: تَوَقُّعُ قُرْبِ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا إنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا، وهُوَ قُرْبٌ نِسْبِيٌّ، يُقَاسُ على مَا سَبَقَ مِنْ عُمْرِ الحياةِ الأولى.

على أنَّ النَّاسَ حِينَ يُبْعَثُونَ لِلْحَياةِ الأُخرىٰ، لَا يُحِسُّونَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْث، لأنَّ الإحْسَاسَ بالزَّمَنِ يَنْعَدِمُ مِنْ نُفُوسِهم انْعِداماً تَامّاً، فَهُمْ يتصَوَّرُونَ حينَ الْبَعْثِ أَنَّهُمْ يَسْتَيْقِظُونَ مِنْ نَوْمَةٍ نَامُوها في سَاعَةٍ مِنْ نهارٍ، وإحْسَاسُ مَيِّتِ أَوَّلِ النَّاسِ بالزَّمَنِ عِنْدَ الْبَعْثِ مُمَاثِلٌ لإحْسَاسِ مَيِّتِ آخِرِ الناس.

دَلَّتْ عَلَىٰ هـٰذا نُصُوصٌ قرآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، وَدَلَّ علىٰ أَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ لم يَلْبَثُوا بَيْنَ الموْتِ والْبَعْثِ إلَّا قَلِيلاً الآيَةُ الأخيرة منْ هذا النّصّ، وهي قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

أي: بَعْثُكُم لِمُلَاقَاةِ أَحْدَاثِ الحياة الآخِرَة، يكُونُ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ رَبُّكُمْ لِلْحِسَاب (وَقَدْ تَكُونُ هـٰذِهِ الدَّعْوَةُ بوسَاطَةِ بَعْضِ ملائِكَتِهِ) فَتَسْتَجيبُون طَائِعِين اسْتِجابَةً مَصْحُوبَةً بِحَمْدِهِ والثَّنَاءِ عَلَيْه بما هو لَهُ أهْلٌ، وتَظُنُّونَ وَأَنْتُم مَسُوقُونَ لِمَوْقِفِ الحسَاب أَنَّكُمْ مَا لَبِثْتُمْ في البرزخ بَيْنَ الموت والْبَعْثِ إلَّا زَمَناً قليلاً.

«إن» حَرْف نفي بمعنى «ما».

النصّ السّادس

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) بِشَأْنِ الْمُصِرِّينَ عَلَى كُفْرِهِم العِناديّ الْجُحُودِيّ، وَعَلَىٰ تَرْدِيدِ مَقُولَتِهِم السابِقَةِ التي هِيَ تَعِلَّتُهُمْ لإنكارِ الْبَعْثِ إلَىٰ يَوْمِ الدّين، وهي الاستِفْهام التعجُّبِيُّ الاسْتِغْرَابِيّ، ويُصَوِّر النَّصُّ مَوْقِفَهُمْ إبَّانَ نُزُولِ سورة (الصّافات):

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑫ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ⑬ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ⑭ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑮ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ⑯ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ⑰ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ⑱ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ⑲ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ⑳ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ㉑﴾:

﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾: أي: يَسْخَرُونَ سُخْرِيةً شَدِيدة فيها إمعانٌ وغُلُوّ. يقال لغة: «سَخِرَ مِنْه، وسَخِرَ به، سَخْراً، وسَخَراً، وسُخْرِيَةً، وسُخْرِيَّةً» أي: هَزِئ به، فإذا اشْتَدَّ في سُخْرِيّتِهِ قيل: اسْتَسْخَرَ.

﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: **الزَّجرةُ**: المرَّةُ من الزَّجْرِ، وَوُصِفَت بأنَّها وَاحِدَةٌ لِدَفْعِ تَوَهُّم تكرارها، ولِتوكِيدِ عَدَم الْحَاجَة لَدىٰ بَعْثِ الموتَىٰ جَمِيعاً إلى أكْثَرَ مِنْ صَيْحَةٍ فيها شِدَّةُ إثارَة.

والمرادُ بالزَّجرِ هُنَا الإثارَةُ الصَّوْتِيَة الَّتِي يُحْدِثُها الصُّورُ، حِينَ يَنْفُخ إسْرَافيل عليه السَّلام فيه بأمْرِ اللهِ عزّ وجلّ نفخة البعْث.

يقال لغة: زَجَرَ الشيءَ: أي: أثاره. ويأتي الزَّجْرُ بمعنى المنْعِ والكفّ وبمعنى الحثّ.

﴿دَٰخِرُونَ﴾: أي أذِلّاءُ صَاغِرُونَ خاضِعُون.

﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾: أي: فَتَحصُل لهم المفاجَأةُ بأَنَّهُمْ يَنْظُرُون بأعْيُنهمْ مَشَاهِدَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الدّين.

﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: أي: يا شدّة خَوْفِنَا من العذاب الذي سنلاقيه، ويا حُزْنَنا على ما فَرّطْنَا في دُنيانا.

دلّت هـٰذِهِ الآيات علَىٰ أنَّ كُبَرَاءَ مُشْرِكِي مَكَّة مَا زَالوا يُكرِّرُون مَوَاقِفَهُمُ السَّابِقَةَ، القائمةَ على العِنَاد، والإصْرَار على الباطل، وتكريرِ

وَسَائِلِهِمْ لِرَفْضِ دعوةِ الرَّسُول ﷺ، وتكْرِيرِ تَعِلَّتِهِمْ لإنكار الْبَعْثِ، وهي توجيه الاسْتِفْهام التَّعَجُّبِيّ، الَّذِي لَا يَقْتَرِنُ بِدَلِيلٍ ما، يُعْطِي لإنكارِهِم ذَرِيعةً صالِحَةً لأَنْ تَكُونَ مِحْوَرَ مُنَاظرَة، حَتَّىٰ يُنَاظَرُوا حَوْلَها، لأَنَّهُمْ في واقِع أمْرِهِمْ لَا يَجِدُونَ دَلِيلاً للإنكار، بَعْد أَنْ أُفْحِمُوا بِبُرْهانٍ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ وهو ما جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

ولهَـٰذَا كانَتِ الْحِكْمَة الْعِلَاجِيَّةُ تَقْتَضِي إِجَابَتَهُمْ بعبارة ﴿نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أذِلَّاءُ صَاغِرُونَ خاضِعُونَ لَا تَجِدُونَ لكم مَهْرباً من حِسَاب الله وَفَصْلِ قَضائِهِ وَتَنْفِيذ جَزَائه.

وَكَانَ من الحكْمَةِ الْعِلَاجِيَّة، أَنْ يَشْتَمِلَ الْبَيان على عَرْضِ لَقَطاتٍ من مَشَاهِدِ أَحْوالِهِمْ يَوْمَ الدِّين، بَدْءاً مِنْ نَفْخَةِ الْبَعْث.

فجاء في التَّعْلِيم للرَّسُولِ ﷺ فَلِكُلّ دَاعٍ إلى الله من أُمَّتِهِ، مَا يجيبُ به الّذين مَا زَالُوا يُكَرِّرُونَ تَعِلَّتَهُمْ قَائِلِينَ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾:

فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾:

ويَسْتفيدُ مُعالِجُهُمْ مِنْ هـٰذا التعليم مَا يخاطِبُهُمْ بِهِ مِنْ عِبارَاتٍ تُلائم الخِطَابَ في الحِوَار.

كأنْ يَقُولَ لهم: نَعَمْ سَوْفَ تَمُوتُونَ، وَتُبْعَثُونَ لشُهودِ أحْداثِ يَوْم الدّين، وأَنْتُمْ أذِلّاءُ صَاغِرُونَ خاضِعُونَ، لا تَجِدُونَ لأنْفُسِكُم مَهْرَباً من ملاقاة حساب ربّكُمْ وفَصْلِ قَضائه، وتَنْفِيذ جزائه، واعْلَمُوا أَنَّ بَعْثَكُمْ وبَعْثَ الموتَىٰ جميعاً لَا يَحْتَاج بقضاء الله إلّا نَفْخَةً واحِدَةً في الصُّور،

يَنْفُخُهَا فِيه إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، فيَقُومُ المْوتَى من الأرضِ يَنْظُرُون، وأَنْتُمْ مِنْهم، وتُشَاهِدُون بَعْضَ أَحْدَاثِ يَوْم الدّين، فَتَقُولُونَ حِينئذٍ: يَا وَيْلَنَا وَيَا خَوْفَنَا من العذاب الَّذِي سَنُلَاقِيه بِسَبَب تَكْذِيبنا رُسُلَ رَبّنا، وَيَا حُزْنَنَا على ما فَرَّطْنَا فِي جَنْب رَبّنا في الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَتَقُولُون: هذا يَوْمُ الدِّينِ الَّذِي كُنَّا في الدّنيا نُكَذِّبُ به، وَلَا نُصَدِّقُ مَا أَنْبَأَنَا بِهِ رَسُولُ رَبّنا.

النصّ السابع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) أيضاً في مَعْرِض عَرْضِ بَعْضِ مَشَاهِدَ مِن أَحْدَاثِ يَوْم الدِّين في لقطات، وعَرْضُ لقَطَاتِ هذا المشْهَدِ يَبْدأُ مِنْ حوارٍ سوف يجري بَيْنَ فَرِيقين مِنْ أهل الجنَّة:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾:

﴿لَمَدِينُونَ﴾: أي: لمَجْزيّونَ عَلَىٰ أعْمَالِنَا. يقالُ لغةً: «دَانَهُ دَيْناً» أي: جَازَاه. ويَوْم الدِّين، هو يوم الجزاء بالْعَدْلِ علىٰ السَّيِّئَاتِ، وبالفضل الرَّبَّاني علىٰ الحسَنات.

﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾: أي: هَلْ تُرِيدُونَ أنْ تَنْظُرُوا معي إلىٰ حَالِ قَرِيني الَّذي كان في الدُّنْيا يحاوِلُ إغوائي، لِأُكَذِّب بِيَوْمِ الدين.

﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: أي: في وسَطِ دَارِ الْعَذَاب يَوْمَ الدّين.

﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾: أي: لكنْتُ مِنَ المُسوقِينَ قَهراً حتّىٰ أكُون حاضِراً مَعَكَ في الجحيم.

إنَّ عَرْضَ هٰذا المشْهَدِ الحِوَارِيّ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين، يُعْتَبَرُ من الوسَائلِ الإقْنَاعِيَّةِ القائمة عَلَىٰ اسْتِثَارَة مِحْوَرَي الرَّغَبِ والرَّهَبِ فِي وقْتٍ واحِدٍ.

فالّذِي كانَ قَدْ آمَنَ بِيَوْم الدِّينِ، وسَعَىٰ سعْياً يُؤَهِّلُهُ بِفَضْلِ رَبِّهِ وإنْعَامِهِ عَلَيْهِ، أنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيم، يَخْطُرُ فِي بالِهِ وَهُوَ فِي حِوَارٍ مَعَ زُمْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الجنة، رَجُلٌ كَانَ قَرِيناً لَهُ فِي الدُّنيا، يُكَرِّرُ عَلَيْهِ مَا يُغْرِيهِ بأنْ يُكَذِّبَ بِيَوْمِ الدِّين، ويَلْزَمُ من التكذيب بِيَوْمِ الدِّين تَكْذِيبُ الرَّسُولِ بنبوّتِهِ ورِسَالَتِه، والتكذيب بكتاب اللهِ الَّذِي أُنْزِلَ عليه فَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ في الجنَّة وهم يتطارحُونَ فيما بَيْنَهُمُ المسَائِل، وَيتبادَلُونَ الأحاديث:

- إنِّي كَانَ لِي في الدُّنيا قَرِينٌ كثيرُ الملازَمَةِ لِي، لكنَّهُ كَانَ كافراً مُكَذِّباً للرَّسُول، ومُكَذِّباً بِكِتَاب اللهِ، ومُكَذِّباً بنبأ يوم الدّين.

- هل كانَ يَدْعُوكَ إلَىٰ أنْ تكُونَ كافرا مِثْلَهُ؟.

- نَعَمْ، كَانَ يَقُولُ لي مُسْتَنْكِراً إيماني، ومُسْتَهْزِئاً بِضَعْفِ عقلي، بأسْلُوبِ الاستِفْهام: أإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ حَقّاً بِمَا جاء به مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِين، أَمْ أَنْتَ مِنَ الْمسَايِرِينَ لِعَشِيرَتِكَ وَقَوْمِكِ وَتَقَالِيدِ أُسْرَتِك؟؟!

وكان يَقُولُ لي مُتَعَجّباً مُسْتَغْرِباً وَمُنْكِراً: أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً، أَءِنَا لَمَبْعُوثُون إِلَىٰ الحياةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وفي الآخرةِ هٰذِهِ نَكُونُ مَجْزِيّين على مَا قَدَّمْنَا فِي هٰذِهِ الحياة؟؟! إنْ هِيَ إلّا خُرَافَةٌ من خُرَافَاتِ الْوَضّاعِين، وأُسْطُورَةٌ باطِلَةٌ مِنْ أَسَاطِيرِ الأوّلين.

- لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الآنَ مُعذَّباً فِي الْجَحِيم، كسائر الكافِرِينَ الْمُجْرِمين.

- نعم، هذا صحيح، إذا لَمْ يكُنْ تَابَ وآمَنَ قَبْلَ مَوْتِه.

وأحَبَّ أنْ يَعْرِفَ مَصِيرَ الَّذِي كَانَ قرِينَهُ في الدنيا، فقال لأهْلِ مَجْلِسِه في الجنَّة: هَلْ تُرِيدُونَ مُشَاهَدَة أَهْلِ الجحيم لَعَلّي أراهُ بَيْنَهُمْ. وَلَعَلِّي أُذَكِّرُه، بمَا كَان مِنْ أَمْرِه مَعِي في الدُّنيا؟

ولَا بُدَّ أنْ تَكُونَ وَسَائِلُ مُشَاهَدَةِ وَمُحَادَثِةِ أَهْلِ النار مُيَسَّرَةً سَهْلَةَ التَّنَاوُل.

فَاسْتَخْدَمَ الْوَسِيلَةَ الْبَصَرِيَّة السَّمْعِيَّة، وطَافَ بِبَصَرِه على أهْل النّار، فرآه في وَسَطِ الْجَحِيم. فكَلَّمَهُ فقال لَهُ: أَنَا فُلَانٌ أُكَلِّمُكَ مِنْ مَنزِلي في جَنَّاتِ النَّعِيم، أَتَذْكُرُ أيَّامَ كُنْتَ قَرِيني في الدُّنْيَا، وَكُنْتَ تُحَاوِلُ أَنْ تُغْرِيَنِي حتَّىٰ أكُونَ كافِراً مِثْلَكَ؟.

- قال: نعم، أذْكُرُ وأنَا نَادِمٌ حزين، أتَقَلَّبُ في العذاب الأليم.
- قَالَ تَالله إنَّ الشَّأْنَ العظيم أنَّك قَدْ كِدْت بإغراءاتِكَ الزُّخْرُفِية تُسْقِطُنِي في الكُفْرِ بالله وبرسُوله، وبيوم الدين.

وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبّي، بِتَقْوِيَة إرَادَتي الخيّرَةِ الصَّادِقَةِ على مقاومَةِ إغراءاتك، لَاسْتَجَبْتُ لَكَ فَكَفَرْتُ، فَكُنْتُ مِنَ المحْضَرِين مَعَكَ فِي الجحيم.

وينتهي الحوار مَعَه.

النصّ الثامن

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن قوم عاد، وإنكارهم يوْمَ الدّين بأسْلُوب الاستفهام التعجبيّ الاستغرابي، الّذي لم يَقْتَرِنْ به دَليلٌ له حظٌّ من النَّظَر الفكرِي، ويَحْكي الله جلَّ جلالُهُ قَوْلَ مَلأِ عادِ قومِ الرَّسُول هُود عَلَيْهِ السلام، لجُمْهُورِهِم الَّذِين يَسْتَجِيبُونَ لهم:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)﴾:

﴿هَيْهَاتَ﴾ اسْمُ فِعْلٍ مَاضٍ مَعْنَاهُ: «بَعُدَ» وجاء في عبارَتِهِمْ تكريرها للتَّوْكيد. وَفي نُطْقِ هٰذِهِ الكَلِمَةِ لغاتٌ عَرَبيّة تَصِلُ إلى نحو خَمْسِينَ لغة، منها «أَيْهاتَ - هَيْهَانِ - أَيْهانِ - هَايَهاتِ» إلى غير ذلك.

وهي مبنية، على الفتح أو الضَّمّ أو الكَسْرِ، لغات.

وكان من الجائز في اللّسان العربي أن يقال: هيْهاتَ هَيْهَات مَا تُوعَدُونَ، بمعنى: بَعُدَ بَعُدَ مَا تُوعَدُون، لأنّ اسْمَ الفعل يُعاملُ معامَلَةَ فِعْله في اللُّزُوم والتَّعدّي، فلِمَاذا جاء في العبارة: هَيْهاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُون.

أقول: إنّ اسْمَ الفِعْلِ قَدْ لا يُسْرِعُ إِلَىٰ فَهْم المتَلَقّي تَنْزيلُهُ مَنْزلَةَ فِعْلِه تَماماً، فَيَحْسُنُ فِي ذَوْقِ النَّاطِقِ الْعَرَبيّ أنْ يُضِيفَ إلى الْمَعْمُولِ لَامَ الْبَيان، كأنَّ المتلَقِّيَ يَسْأَلُهُ، فَيُبَيِّن له، فَيُنَزَّلُ منْزلَةَ الْمَصْدَرِ، ونظيره: «أُفٍّ لَكُمَا، بمَعْنَى: أتضجَّرُ - هِيْتَ لك، بمعنىٰ: أَقْبِلْ - وَيْلٌ له، بمعنى يَأْتِيهِ عذاب - وَاهاً لِرَيَّا ثُمّ وَاهاً واهاً، بمعنى: «أَتَلَهَّف».

وهذا من مِثْل قولهم في المصادر: «سَقْياً لَهُ ورعْياً» فاللّام فِي العربية تُسْتَعْمَلُ لِتَقْويَةِ عَمَلِ مَا يَعْمَلُ عَمَلَ الْأَفعال من المصادر والمشتقات.

هٰذِهِ الآياتُ من سُورَةِ (المؤمنون/٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) تَعْرِضُ للمعانِدِين من كُبَراء كُفَّارِ مَكَّة، أنَّ مَقَالَتَهُمُ الّتِي وَجَّهُوهَا لإِنْكار يوْمِ الدّين، ويُكَرِّرُونَها حِيناً فحِيناً، قَدْ سَبَقَ أَنْ قَالَتْهَا عَادٌ أُمَّةُ النبيِّ الرَّسُولِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام، وأصَرُّوا علَىٰ مَقَالَتِهَا، حَتَّىٰ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بعَذَابٍ شَدِيدٍ، فَدَمَّرَهُمْ تَدْمِيراً.

فتضمَّنتْ هٰذِهِ الآيَاتُ تَلْوِيحاً لِكُبَرَاء كُفَّارِ مَكَّةَ بأَنَّهم إِذَا اسْتَمَرُّوا

مُصِرِّينَ علَىٰ تَكْذِيبِهِمْ، وعلى مَقَالَتِهِم الاستِبْعَادِيَّةِ لإنكار يَوْمِ الدّين، فإنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أنفُسَهُمْ للإِهْلاكِ كما أهْلَكَ اللهُ عاداً مِنْ قَبْلُ.

النص التاسع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (المؤمِنُون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) أيضاً، ولكِنْ بشأنِ المعانِدِين المصِرّين على مَوْقِفِهِم الجُحُوديّ من كُبَراء كُفَّارِ مَكّة، وَلَا سيما مقالَتُهُم الّتي يُكَرِّرُونها بشأن إنْكارِ يَوْم الدّين، دُونَ أنْ يَسْتَطِيعُوا إضَافَةَ دَلِيل لَهُ حَظٌّ مِن النظر الفِكْرِيّ، لتَجْرِيَ علىٰ أَسَاسِهِ مُنَاظَرَةٌ تَعْتَمِدُ على أُسُسٍ عَقْلِيَّة:

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وبَعْدَ هذه الآيات جاء في السّورة بَيَان لِرَسُولِ الله ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أمَّتِه، فيه تَعْلِيمُ مَعَالِمِ مُنَاظَرةٍ جَدَلِيَّة يجادلُ على وفْقِ أُسُسِهَا وَمَعالِمِهَا الكَفَرَةَ المشرِكِينَ، حَوْلَ تَوحِيدِ الرُّبوبيَّةِ للهِ عزّ وجلّ، الّتي يَلْزَمُ عَنهَا تَوْحِيدُ الإلَهيَّةِ له، ويَلْزَمُ عَنهُمَا عَقْلاً إثْباتُ قَانُونِ الجَزَاءِ الرَّبَّانِي، الَّذِي يَسْتَلْزِمُ بالبرهان الْعَقْلِيِّ إِثْبَاتَ يَوْمِ الدّين على مُرَادِ الرَّب جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه، وَهـٰذَا الْمُرَادُ قَدْ أَخْبرَ عَنْهُ في كُتُبِه، وَعَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عليهم الصَّلاةُ والتَّسْليم.

وفي هذه الآيات إشارَةٌ جَلِيَّةٌ إلىٰ مَا جاء في النصّ السابقِ من هـٰذِهِ السُّورَةِ، بشأن عَادٍ قَوْم النبي الرَّسُول هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام.

فمقَالَةُ كُفَّارِ الْآخِرِينَ بِشَأْنِ التَّكْذِيب بِيَوْم الدِّين، مُمَاثِلَةٌ لِمَقَالَة كُفَّارِ الْأَوَّلين الّذيْنَ أهْلَكَهُم اللهُ، مُمَاثَلَةً تَطابُقِيَّة، إذْ لَمْ يَجِدْ هٰؤلاء ولا أولئكَ ذَرِيعَةً فِكْرِيَّةً يَتَّكِئُونَ عَلَيْها، فَلَجَؤُوا جَمِيعاً إلى تَوْجِيهِ الاستِفْهامِ التعجُّبيّ

الاستِغْرَابِيّ الاسْتِبْعَادِي، الّذِي عَبَّرُوا بِهِ عَنْ إنْكَارِهِم وَتَكْذِيبِهِمْ بأنْبَاءِ يَوْم الدِّين.

وهٰذِهِ الآيات قد سَبَقَ تَحْلِيلُ نَظِيرِها في النصّ الرابع من نُصُوص هذا الملحق، وهو من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

النصّ العاشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الرَّعْد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾:

هٰذِهِ الآيات من سورةٍ مَدَنيّة على مَا ترجّح لَدىٰ العلماء بالقرآن والقراءات، هي سُورَة تتحدَّثُ مُعْظَمُ آيَاتِها ومَوْضُوعَاتِها عَنْ كفَّار مكَّة المصِرِّين على مواقفهم السابقة، كأنَّهَا من التنزيلِ المكّي.

وعلى أنَّها سُورَة مَدَنِيّة، فالحِكْمَةُ من اشتمالِهَا على مُعَالَجَةِ الَّذِين مَا زَالُوا عَلَىٰ كُفْرِهِم من أَهْلِ مَكَّة، عَدَمُ قَطْعِ الصِّلَةِ بِدَعْوَةِ الَّذِينَ لَمْ يَنْقَطِعْ خَيْطُ الأمَلِ باستجابَتِهِمْ، ولا سيما بَعْدَ إهلاكِ أئِمَّةِ الكُفْرِ المعانِدِين في غَزْوَةِ بَدْرٍ، وعَدَم ظَفَرِ جَيْشِ مُشْرِكي مَكَّة بما طَمِعُوا به في غَزْوَةِ أُحد، وبَعْدَ أَنْ رَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَىٰ اللهُ المؤمنين القِتَال، في غَزْوَة الأَحْزاب.

وَدَلَّ دُخُولُ معْظَمِهم في الإسلام عَقِب فَتْح مَكَّة، عَلَىٰ أَنَّهُم قَدْ وَصَلُوا بَعْدَ الْمُعَالَجَاتِ السَّابقاتِ إِلَىٰ حَالَاتِ اسْتِعْدَادٍ حَسَنٍ للدُّخول في الإسْلَام، بَعْدَ أنْ أَهْلَكَ اللهُ عزّ وجلَّ قادَتَهُمْ وَأَئِمَّتَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا فيهم بمثَابَةِ الْحُجُب المانِعَة من وُصُولِ أنوار الْهِدَاية إِلَىٰ نُفُوسِهم وقُلُوبهم.

والمعالجة في هذه الآيات تَتعَلَّقُ بِتَكْذِيبهم بيوم الدّين، بتَعِلَّةِ الاستغرابِ والاستِبْعَاد والتَّعَجُّب.

وقَدِ اشتملت هذه المعالجة على أرْبَعِ قَضَايا:

القضيَّةُ الأُولى: دَلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾:

لَقَد أدْرَكُوا في هٰذِهِ المرحلة المدنية أنّ العظامَ صَائِرَة أيضاً إلى التراب كسائر عَناصِرِ الجسم فَحَذَفُوا مِنْ عبارتهم: ﴿وَعِظَٰمًا﴾ وَهٰذا يَدُلُّ عَلىٰ تأخُّرِ نُزُول هذا النّص عَنِ النُّصُوص السابقة الواردة حول هذا الموضوع.

وأدْرَكوا أنّ الْبَعْثَ خَلْقٌ جَدِيدٌ مُنَاظِرٌ لِلْخَلْقِ الأَوّل، وتكُونُ فيه إعادَةُ النَّفْسِ الّتِي ذَاقَتِ الْموتَ بكُلِّ عَناصِرِهَا وصِفَاتِها، إلى الحياة بإعَادة الرُّوحِ إلَيْها، دُونَ شَرْطِ تَجْمِيع أَعْيَانِ ذَرَّاتِ الْجَسَدِ الّذِي بَلِي وَصَار تُراباً، وتحوَّلَ تَحوُّلَاتٍ أخرَىٰ كثيرات، في نَبَاتَاتٍ أَوْ أحيَاء. (ونَقُولُ: إنَّ اللهَ علَىٰ مَا يَشاءُ قَدِير).

فالْخَلْقُ الْجَدِيدُ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَىٰ النَّفْس الَّتِي كانَتْ قَدْ ذَاقَتِ الْمَوْت، وَعَلَىٰ الرُّوح الَّتي كانَتْ مُقْتَرِنَةً بِها، يَكْفِي لتحقيقِ مَعْنى الْبَعْثِ إلىٰ الحياة، سواءٌ أكان ذٰلِكَ فِي ذَرَّاتِ الْجَسَدِ السّابقِ أمْ فِي ذَرَّاتٍ أُخْرَىٰ، لَيسَتْ أكْثَرَ من وِعاءٍ تُرابِيّ الْعَناصِرِ للنَّفْسِ والرُّوح، فَأجْسَادُ الأحْياء مُتَبَدِّلَةٌ دواماً، يَهْلِكُ مِنْها هَالِكٌ وَيأْتِي بَدَلَهُ جَدِيدٌ.

وإذْ وَصَلَ كُفَّارُ مَكَّة إلَىٰ إدْرَاكِ هَـٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ، فَقَدْ صَارَ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يُعَالَجُوا مُعَالَجَةً يُرَاعَىٰ فيها المستوىٰ الْفِكْرِيّ الَّذِي ارْتَقَوْا إلَيْه، فَيُبَيّنَ لَهُمْ أنَّ تَعَجُّبَهُمْ مِنَ الْخَلْقِ الْجَدِيدِ، هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعَجَبَ حَقًّا.

فخاطب اللهُ عزّ وجلّ الرسُول فَكُلَّ ذِي فِكْرٍ صالحٍ للخطاب بقوله تَعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾.

أي: وَإِنْ تَعْجَبْ مِنْ شَيْءٍ يُثِيرُ تَعَجَّبَ أولي الألْبَاب، فَعَجَبٌ حَقًّا قَوْلُهُم: أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً أَءِنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد.

والدَّاعي إلىٰ هـٰذا الْعَجَب الشَّدِيد أنَّ أَذْهَانَهُم قَدْ تَوَصَّلَتْ إِلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ خَلْقٌ جَدِيدٌ من التراب.

أَلَمْ يَخْلُقْهُمُ اللهُ الْقَدِير على مَا يُرِيد من التُّراب في الْخَلْقِ الأوَّل؟! فتَعَجُّبُهُمْ مِنَ الْخَلْقِ الْجَدِيدِ، هُوَ الأمْرُ الَّذِي يُثِيرُ أَهْلَ الْعُقُولِ الفاهِمَةِ إِلَىٰ أنْ يَتَعَجَّبُوا مِنْه.

القَضِيَّة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾:

أي: أولئك الْبُعَدَاءُ عَنْ إدْراكِ الحقّ، الَّذِينَ يَقُولُون المقَالَةَ السَّابِقَةُ، هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ إيماناً صَحِيحاً.

إِنَّهُمْ لَو آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وبِصِفَاتِهِ إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، لَمَا اعْتَرَفُوا بالْخَلْقِ الأوَّل وآمَنُوا به، ثُمَّ تَعَجَّبُوا مِنْ خَبَرِهِ عَنْ بَعْثِهِمْ فِي خَلْقٍ جَدِيد، وكَذَّبُوا رَسُولَ رَبّهم به.

فَعِلّتُهُمُ الْحَقِيقيَّةُ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِبَعْضِ عَنَاصِرِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِه.

هـٰذا هو دَاؤُهم، وشفاؤه يَكُونَ بتكْمِيلِ إيمانِهِمْ بِرَبّهم، وتَصْحِيحِ تَصَوُّرَاتِهِمْ ومَفْهُومَاتِهِمْ عنه.

الْقَضِيَّةُ الثالِثَة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾:

هـٰذِهِ العبارَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْن:

المعنى الأوّل: أَنَّهُمْ يُعَاقَبُونَ يَوْمَ القيامَة، بأنْ تُوضَعَ الأَغْلَال في أعْنَاقِهِمْ، لِسَحْبِهِمْ إِلَىٰ دَركَاتِ تَعْذِيبِهِمْ، إِذْلالاً وإهَانَةً لَهُم.

﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾: جمعُ «غُلّ» وهو طَوْقٌ مِنْ حَدِيدِ أو جِلْدٍ، يُجْعَلُ فِي

عُنُقِ ٱلْأَسِيرِ، أوِ المجْرِمِ، أو في أيْدِيهما، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُ الْمَغْلُولِ إلَىٰ عُنُقِهِ، وَتُطَوَّقَانِ بِالْغُلِّ.

المعنى الثاني: وهو المعنَىٰ الّذِي دَلَّ عليهِ قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا . . . ﴿٨﴾﴾.
أي: أولئك تُوجَدُ في أعْنَاقِهِمْ أغْلَالٌ مَعْنَوِيَّةٌ مِنْ أَهْوَائِهِم، وشَهَواتِهِم، ورَغَبَاتِ الفُجُورِ في نُفُوسِهِم، تَجْعَلُهُمْ أَسْرَىٰ لها، فَتَقُودُهُمْ أَوْ تَسُوقُهُمْ إلَىٰ دَرَكاتِ المَعَاصِي وكَبَائِرِ الآثام، فالْكُفْر.

إنّ سُنَّةَ اللهِ عزّ وجلَّ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ إذْ جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ باخْتِياراتِهِم الحرَّة، أُسَرَاءَ أهوائهم وشهَواتِهِم ورَغَبَاتِهِم، أنْ يَرْفُضُوا دَعْوَةَ الحَقّ الّتي جاءَ بها رسُولُ رَبّهم، وأنْ يُعَانِدُوا وَيُصِرُّوا علىٰ بَاطِلِهِم.

ومَعْلُومٌ أنَّ سُنَن الله وقوانِينَهُ تُعْطِي تَأْثِيراتِها بِجَعْلٍ منْهُ تبارَكَ وَتعالى، وإنْ كانت أَسْبَابُ اسْتِخْدَامِهَا من إرَادَاتِ العباد، كَمَنْ يَصِلُ الكَهْرُباء فَيُضِيءُ المصباحُ الكربائيّ بِخَلْقِ اللهِ ضِمْنَ سُنَّتِهِ الكونية، وكَمَنْ يُدْخِلُ يَدَهُ في النّار فَيُحْرِقُهَا اللهُ لَهُ ضِمْنَ سُنَّتِهِ في كَوْنِهِ، وهكذا إلى سَائِرِ سُنَنِ اللهِ وَقَوَانِينِه التكوينيَّة.

القضيَّة الرّابعة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

أي: وأولئك الكَفَرَة المَكَذّبُونَ، مُلازِمُو البقاءِ في عَذَاب النار يَوْمَ الدِّين، إذا أنْهَوا رِحْلَةَ امتحانهم في الحياة الدُّنيا وهُمْ كَفَرَةَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْم الدّين، وكانوا بذلك من المجرمين.

وبهذا تَم الملحق الثاني من ملاحق السورة، والحمد لله على معونتِهِ وفَتْحِهِ توفيقه.

* * *

(١٣)

الملحق الثالث

دراسة تكاملية للنُّصُوصِ بشأن صالح عليه السّلام وقومه ثمود في القرآن المجيد

نسب الرسول صالح عليه السّلام

قالوا: هو صالح بْنُ عُبَيْد بْن آسِف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عاثِر بْن إرم بْن سام بن نوح عليه السَّلام. والله أعلم. وقد أرسله الله عزّ وجلّ إلى قبيلة «ثمود».

قبيلة ثمود

هي قبيلة من القبائل العربيَّة العاربة، سُمُّوا باسم جدِّهم «ثَمُود» أخي «جَديس» وهما ابْنا عاثر بن إرَم بن سَام بن نوح عليه السَّلام، والله أعلم.

وهي قبيلة تكاثرتْ ونَشأَتْ بَعْدَ إهلاك عادٍ قوم الرَّسُول هُودٍ عليه السَّلام، وقد يُطْلَقُ على «ثمود» عادٌ الأُخْرى، وكانُوا أهْلَ أوثان.

ولفظ «ثمود» جاء في القرآن مَصْرُوفاً مَنُوّناً مُراعاةً لاسم الجدّ، وجاء ممنوعاً من الصَّرْفِ مُراعَاةً لِكَوْنه عَلَماً على القبيلة المؤنثة.

مساكن ثمود

كانت مَسَاكن «ثمود» في أرْضِ «الحِجْرِ» ولهٰذا وَصَفَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ بأنَّهم أصْحَابُ الحِجْر.

الحِجْر: أرضٌ بين الشّام والحجاز، إلى وادي الْقُرى، وتَقَعُ في الطَّرِيق الْبَرِّيّ للمسافِرِ من الشام إلى الحجاز. وآثار مَدَائِن هٰؤلاء الْقَوْمِ ظَاهِرَةٌ حَتَّىٰ الآنَ، وتُسَمَّىٰ «مَدَائِنَ صَالِحٍ» وتُعْرَفُ دِيارُهُمْ أَيْضاً باسْم «فَجّ النَّاقَة».

وقد أهْلَكَ اللهُ عزّ وجلّ مُعْظَمَ هٰذِهِ القبيلة، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَعْدَ إهْلاكِهِمْ إلَّا مَنْ آمَنَ بِرَسُولِهِمْ صالح عليه السَّلام، واتَّقَىٰ الله بِبَعْضِ سُلُوكه، فدلَّ بذلِك على صحة إيمانه وإسلامه.

خلاصة ما عند المؤرخين بشأن صالح عليه السّلام وقومه

يطالعُ النَّاظر في مُدَوَّنات التَّاريخ حَوْلَ قبيلةِ «ثمود» وكيف أَهَلكهم الله، فيجد عدّة رِوايات مَقْبُولاتٍ بوجْهٍ عامّ، وأَسْتَعْرِضُ خلاصَةٌ عَنْها لمَا فيها من تَفْصِيلاتٍ تُتَمِّمُ ما جَاءَ في القرآن عَنْهم، ولا تتعارَضُ مَعَه.

وأختارُ فيما يلي لقَطَاتٍ ممَّا جاء في كُتب التاريخ، ونقَلَهَا بَعْضُ المفسّرين، أخذاً عن ابْنِ إسْحَاق، والسُّدِّي، وأبي الطُّفَيْلِ، وغَيْرِهم.

(١) أَهْلَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ «عَاداً» إلَّا مَنْ آمَنَ بالرَّسُول «هود» عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ، وارْتَحَلَ «هُودٌ» والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ عن أَرْضِ الأحْقَافِ في الجنُوبِ الَّتِي كان فيها هَلَاكُ «عاد».

(٢) ونشَأَتْ بَعْدَها قَبيلَةُ «ثَمُود» في الشَّمَال في أرض «الحِجْر» واسْتُخْلِفُوا في الْأَرْض، وانْتَشَرُوا، ورُبَّما كَانَ كثيرٌ مِنْهم مِنْ سُلَالَة مَنْ آمن بالرَّسُول «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلام، فَهُمْ قَوْمٌ من الْعَرَب الْعَارِبَة.

(٣) ثُمَّ ظَهَرَ فيهم الفساد، وعَبَدُوا آلِهَةً اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ الله، وَنَسُوا مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ قَدْ ذُكِّرُوا بِهِ مُنْذُ عَهْدِ «هُودٍ» عليه السَّلام، فَمَا تَلاهُ مِنْ قُرون.

(٤) فَبَعَثَ اللهُ عزّ وجلّ إلَيْهِمْ نَبِيّاً رَسُولاً منهم، هو «صالح» عليه السَّلام، وهو من أوسَطِهِمْ نَسَباً، وأفْضَلِهِمْ مَكَانَة.

وكانَ قبل نبوّته ورسالَتِه رَجُلاً فاضلاً، حَسَنَ الخلُق، حَسَنَ السِّيرَة، مَرْجُوّاً لكُلّ خَيْرٍ وفضيلَةٍ، وعَمَلِ بِرٍّ وإحْسَان.

(٥) فدعَاهم «صالح» عليه السَّلام إِلَىٰ التوحِيدِ ونَبْذِ الشِّرْكِ بالله، ودعَاهم إلى عبادَة اللهِ وَحْدَه، وتَرْكِ السَّيِّئَاتِ وفِعْلِ الصَّالحاتِ، واجْتِنَابِ الظُّلم والْعُدْوانِ والْفَسَادِ فِي الأرض، وصَبَر «صَالحٌ» عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَيْهم، مُتَابعاً دَعْوَتَهُ إِلَىٰ سَبيلِ رَبِّه، وَبَشَّرَهُمْ بالْجَنَّةِ إِنِ اسْتَجَابُوا لِدَعْوته، يَدْخُلُونَها يَوْمَ الدِّين، وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ بِعِقَابِ اللهِ المعَجَّلِ في الدُّنيا، وبعقَابِ اللَّهِ المؤجَّلِ إلىٰ يَوْمِ الدِّينِ إذا أَبَوْا.

واتَّخذَ عَلَيْهِ السَّلامُ مُخْتَلِفَ الْوَسَائِل المتَاحَةِ لِهِدَايَتِهم، مِنْ إِقْنَاعٍ بالحِجَجِ وَالْبَراهِينَ، وجدَالٍ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيب في مواعِظَ حَسَنَةٍ، مَعَ صَبْرٍ وَحِلْمٍ، وتَلَطُّفٍ وأناة، شَأْنُهُ فِي هٰذَا كَشَأْنِ سَائِرِ الْمُرْسَلِين.

(٦) وبَعْدَ أَنْ أَلَحَّ عَلَيْهِمْ في دَعْوَته، وشَدَّدَ في إنكارِهِ سَيِّئَاتِهِم، طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً مِنَ الخوارقِ المادّيّةِ يَشْهَدُ اللهُ لَهُ بِهَا بأَنَّهُ صَادِقٌ فيما أَخْبَرَهُمْ بِهِ من أَنَّهُ نَبِيٌّ نَبَّأَهُ اللهُ، ورَسُولٌ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِم، لِيُبَلِّغَهُمْ دِينه، والكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ لِيُؤْمِنُوا بِهِ وليَتَّبِعُوا ما جاء فيه.

فقال لهم «صالحٌ» عَلَيْهِ السَّلام: مَاذَا تَطْلُبُونَ من آية خَارِقَة؟.

قالوا: تَخْرُجُ مَعَنَا إلىٰ عِيدِنَا هٰذا، وكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَخرجُونَ إِلَيْهِ بأَصْنامِهِمْ، وَمَا يَعْبُدُونَ من دُونِ الله، فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ من السَّنَة، فَتَدْعُو إِلَهَكَ، ونَدْعُو آلِهَتَنا، فإنِ اسْتُجِيبَ لَكَ اتَّبَعْنَاكَ، وإنِ اسْتُجِيبَ لَنا اتَّبَعْتَنَا.

فقال لهم «صالحْ» عليه السَّلام: «نَعَمْ» وقَبِلَ عَرْضَهُمْ.

(٧) فَخَرَجُوا بِأَوْثَانِهِمْ إِلَىٰ عِيدِهِمْ ذَاكَ، وخَرَجَ مَعَهُمْ «صالحُ» عَلَيْهِ السّلامُ مُتوكّلاً على رَبّهِ الحيِّ الّذِي لا يَمُوت، ومُسَبّحاً بحَمْدِهِ، ومُلْتَجئاً إِلَيْه، وواثقاً بأن اللهَ عزّ وجلّ سيَنْصُرُه عليهم في مباراة الدُّعاء.

أمَّا «ثمود» فدَعَوْا أوْثَانَهُمْ، وسَأَلُوهَا أنْ لَا يُسْتَجَابَ لصَالحِ عليه السَّلام، إذا دَعَا رَبَّهُ في شيءٍ ممَّا يَدْعُوهُ به.

ثُمَّ قَالَ أحَدُ سَاداتِ «ثَمود» وعُظَمَائِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وهو رجُلٌ يُقالُ له: «جُنْدُع»: أَخْرِجْ لَنَا مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ، وعَيَّنَها له، نَاقَةً مُخْتَرِجَة (أي: تُشْبِهُ الْبُخْتَ)(١) جَوْفَاء (أي: عظيمَةَ الْجَوْف) وَبْرَاءَ (أي: ذات وَبَرٍ كَثِير) فإنْ فَعَلْتَ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ في رِسَالَتِكَ، وشَهِدْنَا بأنَّ مَا جِئْتَ به هو حقٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا، وَوَافَقَ سَائِرُ أفراد «ثمود» الّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ على هذا الطلَب.

(٨) وأخَذَ رَسُولُهُمْ «صالحٌ» عَلَيْهِ السَّلام مَوَاثِيقَهُمْ قائلاً: لَئِنْ دَعَوْتُ اللهَ فاسْتَجابَ لِي، وأَخْرَجَ لَكُمُ النَّاقَةَ الَّتِي وَصَفْتُمْ مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ نَفْسِها الَّتِي ذَكَرْتُمْ، لَتُصَدِّقُنّي، وَلَتُؤْمِنَّ بي.

قالُوا: نعم، وأعْطَوْهُ على ذَلِكَ عُهُودَهُمْ ومَوَاثِيقَهُمْ.

(٩) فَدَعَا «صالحٌ» عليه السَّلام رَبّه، بأن يُخْرِجَ لَهُم الناقة الّتي طَلَبُوهَا، من الصَّخْرَةِ الَّتِي ذَكَرُوهَا وَعَيَّنُوها. وكَانَ قَوْمُهُ يَنْظُرُونَ إلَيْهِ وإلى الصَّخْرَة.

فَلَمْ يَلْبَثُوا حَتّىٰ رَأَوُا الصَّخْرَةَ تَتَمَخَّضُ بالنَّاقَةِ المطْلُوبَةِ، تَمَخُّضَ النَّاقَةِ النَّتُوج بوَلَدِها.

وتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ العظيمَةُ فَانْصَدَعَتْ، ثُمَّ أسْقَطَتْ مِنْ بَاطِنِهَا نَاقَةً علىٰ الْوَصْفِ الَّذِي طَلَبَهُ الْقَوْم.

(١٠) فآمَنَ بِهِ «جُنْدُعٌ» ومَنْ كَانَ مَعَهُ على أمْرِهِ مِنْ رَهْطِهِ، وأرَادَ بَعْضُ أشْرَافِ «ثَمود» مِنْ بَعْدِهِ أنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُصَدِّقُوه، فَنَهَاهم «ذُؤابُ بْنُ عَمْرو بْنِ لَبيد» و«الْحُبَابُ» صاحِبُ أَوْثَانِهِم، و«رَبَابُ بْنُ صَمْعَر» وكانُوا مِنْ

---

(١) **البُخْت**: هي من الإبل الخراسَانيّة، وكانت ذَواتِ صفاتٍ مُتَميِّزَة.

أَشْرَافِ ثمود، واسْتَطَاعُوا أَنْ يُؤَثِّرُوا عَلَىٰ سَاداتِ ثمود وأشرافها.

فقال أَحَدُ الَّذِينَ آمَنُوا بصالِحٍ عليه السَّلام واتَّبَعُوه، وهُوَ رَجُلٌ يُقَالُ له: «مُهْوِسُ بْنُ عَنَمة» شِعْراً بشأن «شِهَابٍ» عَزيز ثَمُود، جاء فيه قولُه:

وكَـانَـتْ عُـصْبَـةٌ مِـنْ آلِ عَـمْـرٍو   إلَـىٰ دِيـنِ الـنَّـبِـيّ دَعَـوْا شِـهَـابَـا
عَـزِيـزَ ثَـمُـودَ كُـلَّـهـم جَـمِـيـعـاً   فَـهَـمَّ بِـأَنْ يُـجِـيـبَ وَلَـوْ أَجَـابَـا
لأَصْـبَـحَ صَـالِـحٌ فِـيـنَـا عَـزِيـزاً   وَمَـا عَـدَلُـوا بِـصَـاحِـبِـهِـمْ ذُؤَابَـا
وَلَـكِـنَّ الْـغُـوَاةَ مِـنَ آلِ حِـجْـرٍ   تَـوَلَّـوْا بَـعْـدَ رُشْـدِهُـمُ ذُؤَابَـا

(١) قالوا: وَوَلَدَتِ النَّاقَةُ المعْجَزَةُ سَقَباً (أي: وَلَداً ذَكراً) ثُمَّ لمَّا أنْهَىٰ مُدَّة رَضَاعِهِ فُصِلَ عَنْ أُمّهِ فصارَ فَصِيلاً.

(١٢) وامْتَحَنَ الله ثموداً بِهـٰذِهِ الناقةِ امتحاناً صَعْباً، فقال لَهُمْ رسُولُهم «صالحٌ» عَلَيْهِ السَّلام: هـٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أرْضِ الله، وَلَا تَمَسُّوهَا بسُوءٍ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيم.

وقال لهم أيضاً: إنَّ اللهَ رَبَّكُمُ الَّذِي أَخْرَجَ آيَةً كما طَلَبْتُمْ، أَمَرَ بأن يكون الْمَاءُ الَّذِي تَشْرَبُونَ منْهُ قِسْمَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا مُنَاصَفَةً، لَهَا يَوْمٌ مَعْلُومٌ تَحْضُرُ فيه، وتَشْرَبُ الماء، ولَكُمْ يَوْمٌ مَعْلُومٌ تحضُرُونَ فيه، فَتَشْرَبُونَ وتَمْلَؤُونَ آنِيَتَكُمْ وَأَوْعِيَتكم.

(١٣) وَكَانَتْ هـٰذِهِ النَّاقَةُ تَرْعَى عَلَىٰ مَا تَشَاءُ يَوْماً، وتأتي إلَىٰ مَاءِ ثمود في اليوم التالي، فتنْفَرِدُ بِشُرْبِ الماء، وتَفْرُجُ لَهُمْ رِجْلَيْها يَوْمَ قُدُومِهَا حَتَّىٰ يحْلُبُوا مَا شَاءُوا لَبناً من ضَرْعها، وكانُوا يَشْرَبُون من لَبَنِهَا قَدْرَ وُسْعِهِمْ، ويَدَّخِرُونَ مِنْهُ، حتَّىٰ كانوا يَمْلَؤُونَ آنِيَتَهُمْ، ثُمَّ تَصْدُرُ مِنْ فَجٍّ غَيْرِ الْفَجِّ(١) الَّذِي قَدِمَتْ منه.

---

(١) الفجّ: الطَّريق الواسِعُ البعيد جمع «فِجاج» و«أَفِجَّة».

فإذا كان الْغَدُ كان الْيَوْمُ هُوَ يَوْم شُرْبِهِمْ من الماء، فَيَشْرَبُونَ مَا شَاءُوا. ويَدَّخِرُونَ ما شاءُوا لِلْيَوْم الَّذِي هو يَوْمُ الناقةِ.

(١٤) قَالُوا: وَكَانت النَّاقَةُ إذا اشْتَدَّ الحرُّ ٱرْتَقَتْ إلى المرتَفَعَاتِ في أَرْضِ ثمود، فتخافُ مِنها أنْعَامُ الْقَوْم، فَتَهْرُبُ إلى بَطْنِ الوادي، حَيْثُ الحرُّ والجدْبُ، وَكَانَتْ إذا أَقْبَلَ الْبَرْدُ هَبَطَتْ إلى بَطْنِ الوادي، فَخَافَتْ مِنْهَا أنْعَامُهُمْ، فَهَرَبَتْ إلى المرتفعاتِ حَيْثُ الْبَرْدُ والْجَدْبُ، فَأَضَرَّ ذَلِكَ بمواشِيهِمْ.

(١٥) وَصَعُبَتْ على ثمود مَعِيشَتُهُمْ مَعَ هٰذِهِ النَّاقةِ، بالشُّرُوطِ الَّتِي وُضِعَتْ لها، وضَاقَتْ صُدُورُهم منها، فاتَّفَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ على عَقْرِها، والتخلُّصِ مِنْها.

(١٦) وَكان في القوم امْرَأتانِ ذَواتا شَرٍّ:

الأولى: امْرَأَة «ذُؤاب بْن عَمْرِو» وهي: «أُمُّ غُنْمٍ عُنَيْزَةُ بنْتُ غُنْم» وقَد كانت امرأةً عجوزاً ذاتَ بناتٍ حَسْنَاواتٍ، ومالٍ مِنْ إبلٍ وبَقَرٍ وغَنَم.

الأخرىٰ: «صَدُوفُ بِنْتُ الْمُحَيَّا» حفيدَةُ صاحِب أَوْثَانِ بَنِي عُبَيْد، وكانَتْ ذَاتَ جمالٍ ومَالٍ من إبلٍ وبَقَرٍ وغَنَم.

وكانتا من أَشَدِّ امْرأَتَيْن في ثَمود عداوةً للنبيّ الرسُولِ صَالحٍ عليه السَّلام، ومن أعْظَم النِّساءِ كُفراً به.

وإذْ أضَرَّتِ النَّاقةُ في طَرِيقَةِ حَيَاتِها بأنْعَامِهِما، فَقَدْ حَرِصَتَا على التخلُّصِ مِن النَّاقةِ بِعقْرِها، وعَمِلَتَا على ذَلِكَ بِمَكْرٍ وخُبْثٍ.

أمَّا «صَدُوفُ» فَدَعَتْ رَجُلاً مِنْ ثمُود، يقال له: «الْحُبَابُ» وعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ تُسَلِّمَهُ نَفْسَهَا مُقَابِلَ عقْرِ النَّاقةِ، فأبَىٰ.

فَدَعَتِ ٱبْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ: «مِصْدَع» وعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَها، مُقَابِلَ أنْ يَعْقِرَ النَّاقَةَ، فَقَبِلَ ذَلِكَ.

وأَمَّا «أُمُّ غُنْمٍ عُنَيْزَةُ بِنْتُ غُنْمٍ» فَدَعَتْ «قُدَارَ بْنَ سَالِفٍ» وَكَانَ رَجُلاً أَحْمَرَ أَزْرَقَ قَصِيراً ذَا شَرٍّ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أن تُعْطِيَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ بَنَاتِها الحسناواتِ، على أنْ يَعْقِرَ النَّاقة، وكَانَ «قُدَارُ» هذا عَزِيزاً مَنِيعاً في قَوْمه.

(١٧) فانْطَلَقَ «قُدَارُ» و«مِصْدَع» فاستَنْفَرَا غُوَاةً من ثَمُود، فاتَّبَعَهُمَا سَبْعَةُ نَفرٍ، فَرَصَدُوا الناقة حينَ صَدَرَتْ عَنِ الماء، وقَدْ كَمَنَ لَهَا «قُدَارُ» في أَصْلِ صَخْرَةٍ على طَرِيقها، وكَمَنَ لها «مِصْدَعٌ» في أَصْلِ صَخْرَةٍ أُخْرىٰ، فَمَرَّتْ على «مِصْدَعٍ» فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ، فانْتَظَمَ بِهِ عَضَلَةَ سَاقِها، وأَقْبَلَتْ «عُنَيْزَةَ» ومَعَهَا إحْدَى بَناتها الحسْنَاوَاتِ، فَأَمَرَتْها بأن تُسْفِرَ عَنْ وَجْهِهَا عند «قُدَار» لإغرائِه بِعَقرِ النّاقَة، فَفَتَنَهُ حُسْنُ وَجْهِها، وحَرَّضَتْهُ أُمُّها عَلَىٰ عَقرِ النَّاقَةِ، فَشَدَّ علىٰ النَّاقَةِ بالسَّيْف، فَكَشَفَ عُرْقُوبَها، ثُمَّ طَعَنَ في لَبَّتِهَا فَنَحَرَهَا.

ثم اتَّبَعُوا فَصِيلَهَا فَعَقَرُوه.

(١٨) فَلَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ قال لَهُمْ رَسُولُهُمْ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ: أَبْشِرُوا بعَذَاب اللهِ ونِقْمَتِهِ.

وَكَانَ عَقْرُهُمْ للنَّاقةِ يَوْمَ الأَرْبعاء.

قالُوا له وهُمْ يَهْزَؤُون: ومَتَىٰ ذَلِكَ يَا صَالِحُ؟ وما آيَةُ ذَلِك؟ قال لَهُم: تُصْبِحُونَ غَدَاةَ يَوْم الْخَمِيسِ وَوُجُوهُكُمْ مُصْفَرَّة، ثُمَّ تُصْبِحُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَوُجُوهُكُمْ مُحْمَرَّةٌ، ثُمَّ تُصْبِحُونَ يَوْمَ السَّبْتِ وَوُجُوهُكُمْ مُسْوَدَّةٌ، ثُمَّ يَنْزِلُ بِكُمْ عذابُ اللهِ صَباحَ يَوْمِ الأَحَدِ.

(١٩) فَلَمَّا قَالَ لَهُم رَسُولُهم صالحٌ عليه السَّلام مَا قَال، مُحَدِّدا مَوْعِدَ عَذَابِهِمْ، قال النَّفَرُ التِّسْعَةُ المفسِدُونَ الَّذِين تَوَاطَؤُوا على المشاركةِ في عَقْرِ نَاقَةِ الله، هَلُمُّوا فَلْنَقْتُلْ صَالحاً، فإِنَّهُ إنْ كان صادِقاً عَجَّلْناهُ قَبْلَنَا، وإِنْ كَانَ كَاذِباً أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ.

فأَتَوْهُ لَيْلاً لِيَقْتُلُوهُ، فَدَفَعَتْهُمُ الْمَلائِكَةُ بالحجارة فَأَهْلَكَتْهُمْ، فَلَمَّا أَبْطَؤُوا عَنْ أَصْحَابِهِمْ، أَتَوْا مَنْزِلَ «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلام، فَوَجَدُوهُمْ قَتْلَىٰ.

فَقَالُوا لصالح عليه السَّلامُ: أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ.

(٢٠) ثُمَّ هَمَّ الْقَوْمُ بِقَتْلِهِ، فَحَمَتْهُ عَشِيرَتُه، ولَبِسُوا السِّلاح، وقالُوا لهم: واللهِ لَا تَقْتُلُونَه، فَقَدْ وَعَدَكُمْ أَنَّ العذابَ نَازِلٌ بِكُمْ في ثلاثٍ، فإنْ كانَ صَادِقاً لم تَزِيدُوا رَبَّكُمْ عَلَيْكُم إِلَّا غَضَباً.

وإنْ كان كاذِباً فَأَنْتُمْ مِنْ وَرَاءِ مَا تُرِيدُون.

فانْصَرَفُوا عَنْهُمْ لَيْلَتَهُمْ تِلْكَ، فَأَصْبَحُوا وُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّة، فأَيْقَنُوا بالْعَذَابِ، وعَرَفُوا أنَّ صَالحاً قَدْ صَدَقَهُمْ، فَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ فَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ ذَلك، وشَغَلَهُمْ عَنْ مُلاحَقَتِهِ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ من أَمَارَاتٍ ذكرَهَا لهم.

(٢١) وفي لَيْلَةِ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ لإهْلَاكِهِمْ، خَرَجَ صَالحٌ عَلَيْهِ السَّلام، هُو وَالَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وانْحَازُوا إلى مَكانٍ قَرِيبٍ لَا يَنْزِلُ فِيه العذاب، ثُمَّ تَوَجَّهُوا مُرْتَحِلينَ مِنْ أَرْضِهِمْ ودِيَارِهِم، جِهَةَ أَرْضِ الشَّامِ حَتَّىٰ نَزَلُوا رَمْلَةَ فِلَسطين.

وكانَ ذَلِكَ بَعْدَ أنْ تَمَّ إِهْلَاكُ كُفَّارِ ثَمُود.

(٢٢) لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ العزيزُ المنتقم الجبّارُ علىٰ ثَمُودَ الصيْحَة صَبِيحَةَ يَوْمِ الأحَد، كما ذكَرَ لَهُمْ رسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلام، وأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كبيرٌ وَلَا صَغِيرٌ إِلَّا هَلَكَ.

وكذلِك يفْعَلُ اللهُ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وعظُمَ سُلْطانُهُ ـ بكُلّ المجرمين، متَىٰ صَارَ صَلاحُهُمْ أو صَلَاحُ مُعْظَمِهِمْ ميْؤوساً مِنْهُ تماماً.

تِلْكَ سُنَّة الله عَزَّ وجلَّ في عباده في دار الابتلاء، ولَنْ تَجدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً، ولَنْ تَجدَ لسُنَّةِ اللهِ تَحْويلاً.

استعراض النصوص الواردة في القرآن المجيد بشأن صالح عليه السّلام وقومه مع بيان المناسبة الداعية لذكرها في سورها وهي (٢١) نصاً

النصّ الأول

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

جاء ذكر «ثَمود» في هذا النّصّ ضِمْنَ ذِكر «عَادٍ» و«فِرْعَوْنَ» في سياق التَّلْويح لكفّار مَكَّةَ ومَا حَوْلَها، إبَّانَ التنزيل، ويُلْحَقُ بِهِمْ أشباهُهُمْ إلى قرب قيام السَّاعة، أنَّهم إذا وصَلُوا إلى حالَةٍ تُشْبهُ حَالَةَ «عاد» قوم الرسول «هود» عليه السَّلام، أو تُشْبِهُ حالَةَ «ثَمُود» قوم الرَّسُول «صالح» عليه السَّلام، أو تُشْبِه حَالَةَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وجُنُودِهِ، وكُلُّ هـؤلاء قَدْ طَغَوْا في البلاد فَأَكْثَرُوا فيها الْفَساد، أَنْ يُجْري اللهُ فِيهِمْ سُنَّتَهُ، فَيَصُبَّ عَلَيْهِمْ سَوْطَ عَذَابٍ، إذْ هُو جلَّ جَلَالَهُ لَبِالمرصَادِ، يَرْصُدُ أحْوَال الأمم، وسُنَّتُه بِعِبادِه واحِدَة.

النصّ الثاني

قَوْل اللهِ عَزَّ وجَلّ في سورة (النَّجْم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) في معرض بيان بَعْض أفْعَالِ الرَّبّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي كَوْنِهِ وفي عباده، ومِنْها إهلاك المجرمين الذين قَدْ وَصَلُوا إلَىٰ حَالَةٍ استَحَقُّوا الإهْلاكَ الشامِل معها:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ (٥١) وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ (٥٢) وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤)﴾:

وفي هذا النصّ جاء ذكْرُ إهلاكِ الله «ثموداً» ضِمْن ذِكْرِ إهلاكه «عاداً» و«قَوْم نُوح» و«قَوْم لُوط» المرادين بعبارة [**المُؤْتَفِكَة**] أي: المنْقلبة الّتي انقلبت بلادُهُمْ عَلَيْهم فجعلَ اللهُ عالِيها سَافِلَها.

والغرض إنْذار كُفّار مَكَّة فَمَنْ حَوْلها، ثُمَّ يُلْحَقُ بهم أَشْبَاهُهُم إلى قُرب قيام الساعَة، أنّهم إذا وَصَلُوا إلَىٰ حَالَةٍ تُشْبِهُ حَالَة قوم من هؤلاء المهلكين، أنْ يُجْرِي اللهُ فيهم سُنَّتَهُ فَيُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً شَاملاً مَقْرُوناً بِتَعْذِيبٍ، ثُمَّ لهم عذابٌ أكبر يوم الدّين.

النَّصُّ الثالث

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ (١١) إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا (١٥)﴾.

فجاء في هذه السّورة ذكْرُ إهْلاكِ اللهِ «ثموداً» قَوْم الرَّسُولِ «صالِحٍ» عليه السَّلام، وأفْرَدَهُمْ الله بالذِّكْرِ لإنْذار كفّارِ مكّة ومَنْ حَوْلَها إبّان التَّنْزِيل.

ويظهَرُ لِي أنَّ الْغَرَضَ التَّنْبيه عَلَىٰ أنَّ هؤلاء الكُفَّارَ المنْذَرِين، قَدْ بَدَأَتْ أحْوالُهُم وأعْمالُهُمْ الكُفْرِيَّة تَقْتَرِبُ مِنْ بِدَايَاتِ أَحْوَالِ وأعْمَالِ «ثمود» الكُفْرِيَّة الَّتي جرَّتْهُمْ إلى الدَّرَكات الَّتي اسْتَحقُّوا بها الإهْلَاكَ العامَّ الشّامل.

النَّصُّ الرابع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الْبُرُوج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ فلِكُلِّ متَلَقٍّ لآيات الكتابِ المجيد:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾.

جاء في هٰذِهِ السّورة حَدِيث مُطوَّلٌ عَنْ أصْحَاب الأخُدُودِ وقصّتهم مع مُؤْمِنِي قومهم، وجاء فيها تَلْوِيحٌ لِمَنْ يَضْطهِدُ ضُعَفَاءَ المؤمنين في مَكّة، بأنَّ بَطْشَ اللهِ شديد إذَا بطَش بالطُّغَاةِ الظَّالمين، وضَرَبَ مَثلاً إيمائيًّا علَىٰ بَطْشِهِ بِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجنُودِهِ، وعلى بَطْشِهِ بكُفَّارِ ثَمُودِ.

النّصّ الخامس

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) في معرض الحديث عَنْ كُفَّارِ مكّة وتَعَجُّبِهِمْ مِنْ أنْ يأتِيَهُمْ رَسُولٌ بَشَرٌ منْهم، ومِنْ نبأ يوم الدّين الذي يُبْعَثُ فيه الموتى للحساب وفصل القضاء وتَحْقِيق الجزاء:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾:

فذكر اللهُ عزّ وجلّ في هذا النصّ ثموداً ضِمْنَ مَجْمُوعَةٍ من المهلكِين السَّابِقين، هم «قوم نوح ـ أصْحاب الرَّس ـ ثمود ـ عَادٌ ـ فِرْعَونَ: أي: وملَؤُهُ وقومه ـ إخوان لوط ـ أَصْحَابُ الأيْكَة، وهم من قوم شعيب عليه السَّلام ـ قوم تُبّع» وقد سبَق بيانهم لدى تدبّر السورة. والغرضُ التلويحُ بالْإِهْلَاك، وجاء فيه بيان أنّ إهلاكهم كان تنفيذاً لِوَعِيدٍ سَبَقَ أن بلَّغَتْهُمْ إيَّاهُ رُسُلُ رَبّهم.

النصّ السادس

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ

ٱلْمَآءَ قِسْمَةُۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

سبَق تَدبُّر هـٰذا النَّصّ لَدىٰ تَدبُّر سُورَةِ (القمر) وقَدْ جَاءَ فيها لإنْذَارِ كُفّار مَكَّةَ فَمَنْ حَوْلَهَا إبَّانَ التنزيل، ثُمَّ مَنْ بَعْدهم إلى قُرْب قيام السَّاعة، بإهْلَاكٍ مُمَاثلٍ لإهْلَاك ثمود، إذا وصَلَتْ أحْوَالُ ٱلْأَقْوَام إلى مِثْلِ حَالَةِ ثَمُود حين أُهْلِكوا.

وجاء في هذا النّصّ بَعْضُ تفصيل لِقِصَّتِهِمْ، علىٰ طَرِيقَةِ القرآن في توزيع تَفْصِيلاتِ الْقِصَصِ وَالْمَوْضُوعَاتِ في السُّوَرِ الّتِي تأتي فيها تَوْزِيعاً تكامُلِيًّا.

وسَتأْتي بَعْدَ الاسْتِعْراض النظرة التكامُلِيَّة إنْ شَاءَ اللهُ وأعَانَ وألْهَمَ ووفَّق.

النصّ السابع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشَأْنِ الْمُصِرِّين على عنادِهِمْ وَتَكْذِيبهِمْ منْ كفّارِ مكّة وما حولها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

فذكر الله عزّ وجلَّ في هذا النصّ ثموداً ضِمْنَ مجموعة من المهلَكين السَّابقين، وَجاء فيه بيان أنَّ إهْلاَكَهُمْ كان إهلاك عقاب، بقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

وقد جيءَ به لإنْذَارِ كُبَراء كفَّار مكَّة، الّذِين وَصَلُوا إلى حالَةِ مَنْ هُوَ فِي عزَّةٍ وشِقَاقٍ، يريدُونَ مُقَاومَةَ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ بالْقُوَّة المسلَّحةِ بالأسْلِحَةِ العسكَرِيَّة، إبَّان نزول هـٰذِهِ السورة.

النصّ الثامن

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٧٣) وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٧٤) قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ (٧٥) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٧٩)﴾:

سبق تدبّر هذا النصّ لدَىٰ تَدبُّر سُورَة (الأعراف) وقَد جاء فيها لإنْذار المكذّبين بما جاء به الرسُول محمّد ﷺ، ولم يَتّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

وجاء في هذا النصّ تفصيلاتٌ لَمْ تَأْتِ في النُّصوص الأخرىٰ، وسيأتي إنْ شاء اللهُ التَّدبُّر التكاملي لمجموع النُّصُوص.

النصّ التاسع

قول اللهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) مُنْذِراً كُفَّارَ مَكَّةَ إبَّانَ تنزيل السّورة بإهْلَاكٍ مُمَاثِلٍ لإهْلَاكِ المكَذِّبينَ السَّابقين الّذِين كَذَّبُوا بآيَاتِ رَبّهم، وَكَذَّبُوا رُسُلَه:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾:

فذكر الله عزّ وجلَّ ثموداً في هٰذا النصّ ضِمْنَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ المهلَكِين السَّابقين، وجَاءَ فيه بيانُ أنَّ كُلًّا مِنْهُمْ قَدْ وعظَهُ اللهُ بِضَرْبِ الأمْثَال وحَذَّرَهُ وأنْذَرَهُ، فَلَمْ يَتَّعِظْ، فأهْلَكَهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ إِهْلاكاً فيهِ تَتْبِيرٌ، أي: فِيهِ تَفْتِيتٌ إِلَىٰ أَجْزَاءٍ صُغْرَىٰ.

النصّ العاشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في مَعْرِضِ إنْذَار الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِم، بأنْ يُهْلِكَهُمُ اللهُ مِثْلَمَا أَهْلَكَ المكَذِّبين السَّابِقين من القرون الأولى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨)﴾:

سبق تَدَبُّر هٰذا النصّ لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الشعراء) وقد جاء فيه

تفصيلات لم تأتِ في النُّصوص الأخرى، وسيأتي إنْ شاء اللهُ التدبُّر التكامُليُّ لمَجْمُوعِ النُّصُوص.

النص الحادي عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (٥٣)﴾:

سَبَقَ تَدبُّر هذا النصّ في موضِعِهِ مِنْ سُورَةِ (النّمل) وقَدْ جاء فيه تَفصيلات لم تَأتِ في النُّصُوص الأخرى، وسيأتي إنْ شاء الله التَّدبُّر التكامُليُّ لِمَجْمُوع النّصُوص.

النّص الثاني عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)﴾:

دَلّت هـٰذِهِ الآية على أنَّ كُبَرَاءَ كُفَّارِ مَكَّة طَلَبُوا مِنَ الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، أنْ يُجْرِيَ الله لَهُ آياتٍ خوارِقَ اقترحوها، كَأن يُنَحِيَ عَنْهُمْ

جبالَ مكَّة، أَوْ أَنْ يجْعَلَ بَعْضَ جِبالها أوْ بَعْضَ مواضِعَ مِنْهَا ذَهباً، كَمَا أَخْرَجَ لصالح عليه السَّلام الناقَةَ مِنْ صَخْرَةٍ عيَّنَها قَوْمُه، وَكَانَتْ قِصَّةُ هٰذِهِ النَّاقَةِ وقصَّةُ صالحٍ وقَوْمِهِ ثَمُود مُتَدَاوَلَةً بيْنَهُمْ.

فأَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّه قَادِرٌ عَلَىٰ إرْسَالِ مَا يَطْلُبُونَ وما يَقْتَرِحُونَ مِنْ آيَاتٍ خارقَاتٍ، من الآيَاتِ الماديّة، إلّا أنَّ مِنْ سُنَّتِهِ أَنَّه إذا اسْتَجابَ لمطالِبِ الْقَوْمِ، فأَجْرَىٰ لرسُولِهِ الآيَة أو الآيات الّتي اقْتَرَحُوها، فَلَمْ يُؤْمِنُوا أَنْ يُهْلِكَهُمْ بِعَذَابٍ، ويَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ، إذْ لَا يَكُونُ من الحِكْمَةِ إمْهَالُهُمْ وتَأْخِيرُهُمْ إلَىٰ آجالهم.

وقَدْ أثبتَتِ التَّجاربُ الْبَشَرِيَّةِ، أنَّ الخوارِقَ الَّتِي يَقْتَرِحُهَا الْكَافِرُونَ الْمُعَانِدُونَ الجاحِدُونَ، لَا تُغَيِّرُ مِنْ واقِعِهِمْ شيئاً، فَهُمْ في قُلُوبِهِمْ مُسْتَيْقِنُونَ، إلّا أَنَّهُمْ جاحِدُونَ، ومَا يَقْتَرِحُونَ مِنْ آياتِ خَوارِقَ إنّما هي مَطالِبُ تَعَنُّتِيَّة، ولَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَخْرِقَ اللهُ سُنَنَهُ فِي كوْنِهِ للجاحِدين المتعَنِّتِين، الّذين يَطْرَحُونَ المطالِبَ عَلىٰ سَبيلِ التَّشهّي والتّلاعُب بالسُّنَنِ الرَّبَّانِيّة.

وَمِنَ الأمْثِلَة الواقِعيَّة في تاريخ الأُمَم أنَّ كفَّارَ ثَمُود لَمْ يُؤْمِنُوا، على الرُّغْم مِنْ أنّ اللهَ عزّ وجلَّ قَدْ آتاهم مُعْجِزَة النَاقَةِ على وفْقِ مَا طَلَبُوا تَماماً، فكان مِنَ الحكمة والْعَدْلِ تَعْذِيبُهُمْ، وإِهلاكُهُم أَهْلَاكَ اسْتِئصال.

فالله عزّ وجلَّ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُعَرِّضَ أَهْلَ مَكَّةَ الْبَلَدِ الحَرامِ، لعذابٍ شامِلٍ، يُهْلِكُهُمْ بِهِ إهْلاكَ اسْتِئصال عامّ، وهُمُ الصَّفُّ الأوّل من قوم خاتم رُسُلِهِ وأنبيائه، وفي كثِيرٍ مِنْهُم قابليَّةٌ أن يُؤْمِنوا ويُسْلِمُوا بَعْدَ أنواع علاج في بضْعِ سِنين، يُهْلِكُ اللهُ فيها الكُبَرَاءَ المعَانِدين بجُحُود، الَّذِين يَمْنَعُونَ أَتْباعَهم من الإيمانِ والإسْلام، هذا ما تحقّق فِعلاً بَعْدَ بضْعِ سنين، ثمّ بَعْدَ فتح مكّة.

فالمعنى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ من ﴿أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ المقترحات من الخوارق المادّية الَّتي طَلَبها أَهْل الجحود مِنْ كُبراءِ وأَئِمَّة مُشْرِكي مَكَّة ﴿إِلَّآ﴾ مَا قَضَتْ بِهِ حِكْمَتُنَا، بَعدَ ﴿أَن﴾ كَشَفْنَا للناسِ بالتجربَة أَنَّ المستَيْقنينَ الجاحِدِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ولَوْ أَجْرَيْنَا لَهُمُ الخوارِقَ الَّتِي يَطْلُبُونَ، فَقَدْ ﴿كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَ﴾ مِنْ أَمْثِلَةِ المكَذِّبينَ الْأَوَّلين أَنَّنَا ﴿ءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ الْمُعْجِزَة الخارقَة للعادَة على وفْق مَا اقْتَرحُوا عَلَىٰ رسُولهم صَالح، وكانت هٰذِهِ النَّاقَةُ ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ لَهُمْ إذْ جعَلَتْهُمْ يُدْرِكُون آيَةَ الْحَقِّ بأَبْصَارِهِم ﴿فَظَلَمُواْ﴾ جَاحِدِينَ ﴿بِهَا﴾ وَظَلَمُوا بِعقْرِها، فاسْتَحَقُّوا الْعَذاب الْمُسْتَأْصِلَ.

وبَعْد أَنْ كشَفْنَا للنَّاسِ طَبائِعَ المكذّبينَ الجاحِدِين بتَجْرِبَة كُفَّارِ ثَمُود، صَار من الْحِكْمَةِ أَنْ لَا نَسْتَجِيبَ لمطالِبِ الكافِرِينَ التعَنُّتِيَّة، وأَنْ تكونَ آيَاتُنَا آياتِ تَخْوِيفٍ بأَنَّا قادرونَ على مَا نَشاء ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ ونَحْنُ نختارُها ونُجْرِيها بِحِكْمتِنَا، ولا نَجْعَلُ خَرْقَ سُنَنِنا الكونيّة أُلْعُوبَةً للمتَشَهّين المتعَنِّتين الْجَحُودِينَ، الذين كَذَّبُوا رَسُولَنَا بَعْدَ أنْ صَدَّقْنَاهُ بآيَاتِنَا الْخَوارِق، وَكَذَّبُوا بِكِتَابِنَا الَّذِي نُنَزِّلُ آياتِهِ الْبَيِّنات عَلَيْهِ، ويتْلُوهُ على الناس تباعاً على وَفْق مَا أَنْزَلْنَاه.

الباء في ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ زِيدَت للتوكيد.

النص الثالث عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾:

وَجاء في سورة (هود) أيْضاً حكايةٌ لِمَقالَةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلام لقوْمِهِ وَاعظاً ومحَذّراً ومُنْذِراً.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾:

وجاء فيها أيضاً بَعْدَ بيان إهْلَاك قَوْمِ شعيب عليه السَّلام:

﴿...أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

وهذا النص من سورة (هود) سيأتي إن شاء الله تدبره في الدراسة التكاملية.

النصّ الرابع عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) حكايةً لبعض مَقَالَاتِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ لقومه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

فجاء في هذا النّص ذكر «ثَمُود» ضِمْن مَوْعظةِ مؤمن آل فرعَونَ لِقَومِهِ، مُحَذِّراً لَهُمْ من إهلاك شامِلٍ مماثل لإهلاك هؤلاء الأقوامِ الّذِين ذكَرَهُمْ في مَوْعِظَتِه.

النّصّ الخامس عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) في مَعْرِض الحديث عَنْ كُفّار أَهْلِ مكّة إِبّان التنزيل، وخطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾: أي: فإنْ أعطىٰ كُفّارُ قُرَيشٍ لَكَ ولِدَعْوَتِكَ عارِضَهُمْ غَيْرَ مُسْتَجِيبِينَ لَها وَلَا عَابِئِينَ بها.

﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾: أي: فَقُلْ لَهُمْ مُنْشِئاً إِخْباراً بِإِهْلاكٍ شَامِلٍ إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ إِعْراضِهِمْ وكُفْرِهِمْ.

يقال لُغَةً: «أَنْذَرَهُ الشَّيْءَ» أي: أَعْلَمَهُ بِهِ وَخَوَّفَهُ مِنْه، فالفعل يتعدّىٰ إلى مفعولين مثل فعل «أَعْلَم».

صَاعِقَةً: مَفْعُولٌ به ثَانٍ للفِعْلِ في ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ والصَّاعِقَةُ تُطْلَقُ في اللُّغَة عَلىٰ النَّازِلَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا عَذَابٌ مُهْلِكٌ، أيّاً كانَ نَوْعُها أو كَانَتْ مَادَّتُها. وتُطْلَقُ عَلىٰ جِسْمٍ نَارِيّ مشْتَعِلٍ يَسْقُطُ من السَّماء. ويَظْهَرُ أنَّ المعنىٰ الأوّل هو المرادُ هُنا، ومَعْلُومٌ أنّ المعنىٰ الثّاني يَدْخُلُ في عُمُومِ المعنىٰ الأوّل.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي: اذْكُروا إذْ

جاءَتْهُمْ على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِمْ أنْباءُ الرُّسُلِ الَّذِينَ جاءُوا في التارِيخِ قَبْلَ عَادٍ وثَمُود، وبُشْرَيَاتٌ بالرُّسل الذين سيأتون في التاريخ بَعْدَهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾: أي: ومَضْمُونُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا إلىٰ أقوامِهِمْ قَبْلَ عَادٍ وثَمُودَ، والَّذِينَ سَيأْتُونَ في الأجيال البشريّةِ بَعْدَهُمْ، هي الأمْرُ بعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، والنَّهْيُ عَنْ عِبادَةِ غَيْرِه، إذْ عبادة غيرِهِ إشراكاً أوْ إفراداً كُفْرٌ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ عزّ وجلّ.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: **الْجُحُود**: إنْكَارُ الْحَقِّ مع الْعِلْم بأنَّهُ حَقٌّ. وآيات الله تَشْمَلُ: الآياتِ التكوينيَّة، والآياتِ الإعجازِيَّة الَّتي يُؤَيِّدُ اللهُ بها رُسُلَه، والآياتِ الجزائِيَّة، والآياتِ البيانِيَّة المنَزَّلَةِ على الرُّسُلِ لِتَبْلِيغِها للناس.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي: رِيحاً بَارِدَةً ذَاتَ صَوْتٍ شديدٍ مُخِيفٍ، فيه ما يُشْبِهُ نُطْقَ الصّادِ والرَّاء.

﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾: أي: مُجْهِدَاتٍ ضَارَّاتٍ لَا خَيْرَ وَلَا رَاحَةَ فيها. **النَّحس**: الْجَهْدُ والضُّرُّ.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: أي: فبيَّنّا لَهُمْ صِرَاطَ هِدَايَتِهِمْ إلَىٰ سَعَادَتِهم الْعَاجِلَةِ والآجِلَة:

﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ﴾: أي: فَاشْتَدَّ حبُّهُمْ للكُفْر والضَّلالَةِ وسُبُلِ الغَوايةِ اتّباعاً لأهوائِهِم وشَهَواتهم، ولا يَكُونُ هٰذا إلَّا عَنْ عَمىً في بَصَائِرِهِم، فَحُبُّهُمْ لِهٰذِهِ الأُمُورِ يُصَاحِبُهَا عَمَىٰ البصائر، ومَنْ أحَبَّ شيئاً أحَبَّ مَا يَكُونُ قَرِينا لَهُ مُلازماً.

وكان هذا حالَهُمْ في آخِرِ مَرَاحِلِ دَعْوَتِهِم إلى دين الله الحق.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾: أي: فأخَذَتْهُمْ مِنْ

حَيَواتِهِمْ نَازِلَةٌ مِنْ رَبِّهِم، فِيهَا عَذَابُ الخِزْيِ والإِذْلَالِ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْسِبونَ من جرائمَ وآثام.

النص السادس عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) مُنْذِراً عُتَاة الكافِرِين:

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

هذه الآياتُ تُعَبِّرُ عَنِ الفِقْرَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاةِ «ثَمُودَ» قَبْلَ إِهْلَاكِهم، إِذْ قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلام بعدَ أنْ يَئِسَ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ في حَيَواتِكم الَّتِي سَتُسْلَبُونَها بِنَوازِلِ عَذَابٍ مِنْ رَبِّكم في زَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ما ﴿فَعَتَوْا۟﴾ مُسْتَكْبِرِينَ ومُتَجاوِزِينَ حُدُودَ المعاصِي الَّتي تُغْفَرُ إِلَىٰ الكُفْرِ العناديّ الجحودِيّ الَّذِي لَا يُغْفَرُ، وَمُعْرِضِينَ ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ مِنْ حَيَواتِهِمْ ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ النّازِلَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهم بعذابٍ ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أَسْبَابَهَا، فَصَرَعَتْهُمْ أَرْضاً ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ مِنْ مَصَارِعِهِم ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ على وسائل تَعْذِيبِهِمْ وإِهْلاكهم، بَلْ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أذِلَّة مَخْزِيُّونَ، ضُعَفَاءُ عَاجِزُونَ.

النصّ السابع عشر

قَوْل اللهِ عزّ وجلّ في سُورة (إبراهِيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) حكايَةً لِقَوْل مُوسَىٰ عليه السَّلام لبني إسرائيل:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ

بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾:

﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: في هٰذِهِ الْعِبَارَةَ كِنَايَةٌ عَنْ رَفْضِ اسْتِمَاعِهِمْ لِدَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهم، لأنّ مِنْ عادَةِ المتحدِّثِ الدَّاعي إلَىٰ فِكْرَةٍ مَا، أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ مُشِيراً بِهَا لِتُسَاعِدَ حَرَكَةُ يَدِهِ بَيَانَ لِسَانِه، وَمِنْ عَادَةِ كُبَرَاءِ مَنْ يُحَدِّثُهُمْ الرَّافِضِينَ لمَضْمُون حَدِيثه، والمستكْبِرِينَ عَنِ الاسْتِماعِ إِلَيْه، أَنْ يَرُدُّوا يَدَ الْمُحَدِّثِ الّتي يَمُدُّهَا مُشيراً بها، فَيَجْعَلُوهَا في فِيه إِسْكَاتاً لَهُ.

فَصَارَتْ هٰذِهِ الصُّورَةُ كِنَايَةً عَنْ شِدَّةِ رَفْضِ دَعْوَةِ الدَّاعِي.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾: أي: إِنَّا كَفَرْنَا بالدِّين الَّذِي أرْسِلْتُمْ بِهِ، عَقِيدَةً وعَمَلاً.

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: أي: وإنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مِنْ عَقِيدَةٍ وَعَمَلَ، وهٰذا الشَّكُ يَجْعَلُنَا نَرْتَابُ في أَنَّكَ ذُو غَرَضٍ شَخْصِيٍّ دُنْيَوِيٍّ مِنْ دَعْوَتِك.

النّصّ الثامن عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾:

الْقَارِعَة: القيامة.

الطاغية: الصَّيْحَةُ العظيمَةُ المهْلِكَة.

النصّ التاسع عشر

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) ضِمْنَ بَيانِ طائفة من المهلَكين الأوّلين، وخطاباً لمعانِدِي كُفَّارِ قُرَيشٍ:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ :

﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ : أي: وَكَانُوا مُدْرِكِينَ الْحَقَّ الذي جاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، بِبَصَرٍ فِكْرِيّ قَوِيّ، وَلَكِنْ صَدَّهُمُ الشيطانُ عَنْ سَبِيلِ الله، بالأَهْوَاءِ والشهواتِ الَّتِي زَيَّنَ لَهُمْ بِهَا أعْمَالَهُمْ الآثِمَة الظالِمَة الجائِرَة عَنِ الصّراطِ السّوِي.

النصّ العشرون

قول اللهِ عزَّ وجلَّ في سُورَة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لرسوله بِشأن الذين كذّبوه إبَّان التنزيل:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

يظهر في هذا النّصّ تَسْلِيَةُ اللهِ لِرَسُوله، وَوَعْدٌ لَهُ بِنَصْرِهِ على أعداء دَعْوَتِهِ، وتَهْدِيدٌ لِلْمُكَذِّبين.

النصّ الحادي والعشرون

قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) مُهَدِّداً المنافقين بمِثْلِ العذاب والإهْلاكِ اللَّذيْنِ أنْزلَهُما بالكافِرِينَ السابقين.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ :

أي: فَما كان اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ بِعِقَابِهِ لَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ على وَجْهِ الْخُصُوصِ والتَعْيينِ يَظْلِمُونَ.

وهذه النصوص تتطلَّبُ تَدَبُّراً تكامُلِيًّا في فُصول.

* * *

التدبّر التكاملي

وفيه تِسْعَةُ فُصُول:

الفصل الأوّل: مُجْرِياتُ دَعْوَةِ صالحٍ عليه السَّلام لِقَوْمِه ثمود.

الفصل الثاني: مرحلة تَفَاقُمِ التَّخاصم بَيْنَ المؤْمِنينَ والكافِرين من ثمود.

الفصل الثالث: مَرْحَلَةُ إعلان كُفَّار ثمود عدمَ مُبَالاَتهم بأنْ يأتيهم صالِحٌ بما أنْذَرهم به، إذْ هُمْ لَا يُؤْمِنُون بنُبُوَّتِه ولا برسالته.

الفصل الرابع: مَرْحَلَةُ طغيانهم بعَقْرِ نَاقَةِ الله، وتَحدِّيهم له بأن يأتِيَهُمْ بما يَعِدُهم به من عذاب وإهلاك.

الفصل الخامس: مَرْحَلَةُ تَبْييت أشقياء ثمود قَتْل صالحٍ عَلَيْهِ السَّلام وأهْلِهِ مَعَه.

الفصل السادس: مَرْحَلَةُ إنْذَار صالحٍ عليه السَّلام قَوْمه بأنّ عَذَابَ اللهِ نَازِلٌ بِهِمْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أيَّام.

الفصل السابع: ماذا فعل صالح عليه السَّلام بَعْدَ أنْ أهْلَكَ الله قومه، ونجَّاه والذين آمَنُوا معه.

الفصل الثامن: التَّعْقِيب الرّبّانيّ على إهلاك كُفّارِ ثمود.

الفصل التاسع: توجيه العظة في النصوص القرآنية بما أنزل الله عزَّ وجلَّ بكفَّارِ ثمود.

* * *

الفصل الأول
مُجْرَيَات دَعْوة صَالِحٍ عليه السَّلام لقومه ثمود

أولاً:

ظهر لي من دِراسَةِ النُّصُوص وتَدَبُّرِها تَدبُّراً تكامُلِيًّا أَنَّ أَوَّلَ دَعْوَةِ صالحٍ عليه السَّلام لقومه ثمود، كانت مُشْتَمِلَة على ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾:

التدبّر:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾: أي: وأَرْسَلْنَا إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحاً نبيًّا وَرَسُولاً عليه السَّلام.

وقد كان منهم نَسَباً ولُغَةً وَمَوْطِناً أخذاً ممَّا هو معروف من تاريخه، فكَلِمَة «أخ» لَا تُفِيدُ كونه مِنْهُمْ نَسَباً، إذ اسْتُعْمِلَتْ في نِسْبَة «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلام إلى قومه في القرآن، مع أَنَّهُ لم يَكُنْ مِنْهُمْ نسباً، وإنّما كان صِهْراً لهم، ومتكلِّماً بلُغَتِهم، ومقيماً في أرضهم.

وقد اشْتَمَلَ بيان صالح عليه السَّلام لقَوْمِهِ الّذِي دَلَّتْ عليه هذه الآيَة على سِتِّ قَضَايا:

القضية الأولى: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ حكاية لمَعْنَى ما قاله صالح لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وفي قراءة أخْرَىٰ: ﴿مَا لَكُم مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ﴾ والمؤدَّىٰ واحد.

﴿يَٰقَوْمِ﴾ بحذف ياء المتكلّم، وإبقاء الكسْرَة دَلِيلاً عَلَيْها. وفي هذا النداء استِعْطَافٌ برِفْق.

فكانَتْ بدايَة دَعْوَتِهِ لقومِهِ مُمَاثِلَةً لِبِدَايَاتِ دعوات سائِرِ الرُّسل عليهم السلام لِأَقوامهم، وهي الدَّعْوَةُ إلى عبادة الله عزّ وجلّ وحْدَه، دَوْنَ أن يُشْرِكوا بعبادته أحداً مَا، ولَا شيئاً ما.

لقَدْ بَدَأَهُمْ بالْأَمْرِ بعبادةِ اللهِ وَحْدَهُ، فَدَلَّ هـٰذا عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدونَ أوثاناً.

ومَعْلُومٌ أنَّ عبادة الله عزّ وجلّ هو الواجب الأوّل بَعْدَ الإيمان به رَبّاً لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّته، وبَعْدَ إعلان الإسلام له، وإعْلان الحِرْص على طاعَته.

وأوّل العبادة لله عزّ وجلّ تكُون بطاعَتِه في فِعْلِ مَا أَمَرَ بفِعْلِهِ، وتَرْكِ ما نَهىٰ عنه، وتكونُ بدُعائه لتحقيق المطالب، ثم بالتقرُّب إِلَيْهِ بمحَابِّه فِعْلاً أوْ تَرْكاً.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: أي: ليْسَ لَكُمْ في الواقِع والحَقِيقَةِ إلَٰهٌ حَقٌّ يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُعْبَدَ إلَّا اللهُ وَحْدَه، إِذْ هُوَ الرَّبُّ الذي لا رَبَّ في الوجود سِوَاهُ.

والعبادة من الْعَبْدِ لَا يجوزُ أَنْ تكونَ إِلَّا لِمَنْ هُو رَبُّهُ حقًّا، ورُبُوبيّتُهُ الدائمة المتصَرِّفَةُ فيه تُوجبُ عَلَيْهِ عبادَتَهُ وَحْدَهُ.

أمّا عبادَةُ غَيْرِ مَنْ هُو رَبٌّ حَقًّا فهِيَ شِرْكٌ به، وهذا الشِّرْكُ في إِلَٰهيَّتِهِ أوّلُ دَرَكاتِ الكُفرِ بِهِ، وأحَطُّ وأخَسُّ دَرَكَةً مِنْها دَرَكَةُ الْإِشْرَاكِ بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَه، ثُمَّ دَرَكَةُ جُحودِ اللهِ الرَّبّ جُحُوداً كُلّياً، وَتَزْدَادُ الدَّركاتُ تَسَفُّلاً بارْتكاب جرائم البغي والظُّلْم والْعُدْوان، والْفِسْقِ والفجور والْفَسَادِ والنِّفَاقِ، والدَّعْوَة إلى الكفر وارْتكاب الجرائم، حتَّىٰ تُوصِلَ أصْحَابهَا إلى الدَّرْك الأسْفلِ من النار.

القضية الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلَّ حكايَةً لمعنى ما قالَهُ صالح عليه السَّلام لِقَوْمه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾:

الإنْشَاءُ: الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكامل المتدرّج غالباً، يقالُ لغة: «أنْشَأَ الشيْءَ إنْشَاءً» أي: أحْدَثَهُ إحْداثاً مَصْحُوباً بالتكامُلِ المتدرّج، ويقال لغة: «نَشَأَ الشيْءُ نَشْئاً وَنُشوءاً ونَشْأَةً» أي: حَدَثَ وَتَجدَّدَ.

فأبانَ صالحٌ عليه السَّلام لقَوْمِهِ مَظْهَراً من مظاهر رُبُوبيَّة اللهِ لهم، وهو إنْشاؤهم من الأرض.

أمّا خَلْقُ آدَمَ أبي الْبَشَر فقد كان مِنْ طين «ترابٍ وماء» وهٰذِهِ معلومَةٌ مَوْرُوثَةٌ في الناس من عَهْدِ آدم عليه السَّلام.

وأمّا ذُرِّيَّتُهُ مِنْ بَعْدِه فَمِن المعلُوم لَدىٰ كُلّ الناس أنّ المادّةَ الّتي تتكوَّنُ مِنها الأَجنَّة مَخلُوقَةٌ في الذُّكورِ والإناثِ من الدّماء، والدِّماء مَخْلُوقَةٌ مِن الْغِذَاء النَّباتِي أو الحيوانيّ، وكُلُّ ذٰلِكَ مَنْشَؤُهُ من الماء والتراب، وهما من عناصر الأرض.

وبما أنَّ اللهَ هو الّذي أنْشَأهم من الأرض إنْشَاءً مُتَدَرِجاً فهو رَبُّهم، أي: هو خالِقُهُمْ وفْقَ نظام التربيَةِ الَّتي هي الإنْشَاءُ المتدرّج، وهو المهيْمِنُ عَلَيْهِمْ في كُلّ أطْوَار وُجُودِهم المستمرَّةِ والمتجدّدة.

القضية الثالثة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ حكاية لمعنى ما قالَهُ صالحٌ عليه السَّلام لقومه: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أي: واسْتَعمركم في الأرض، بأنْ جَعَلَ في نُفُوسِكُمْ وقُدْراتِكم الفِكْرِيَةِ والْجَسَدِيّة، ما يَسْتَحِثُّكُم ويَحُضُّكُمْ علىٰ إعْمَارِ الأرض، ببناء مَسَاكِنها، واستِنْبَات زُرُوعها وأشجارها، وإنْشَاءِ جنَّاتِها ومَصَانِعِها وسائر المنشآت النّافعات فيها، وهيَّأَ لَكُمُ الأرْضَ لهذا الإعْمَارِ، ومَكَّنَكُمْ وهَدَاكُمْ لاتّخَاذِ وسائِلِ إعْمارها، لأنّ مصالحكم ومنَافِعَكُمْ في الحياة الدّنيا مُرْتبطَةٌ بإعْمارها. وكذلِكَ جَعَلَكُمْ تَعْمُرونَهَا بأشخاصِكم إذْ تُقيمونَ فيها.

يقال لغة: «اسْتَعْمَرَهُ في المكان» أي: جعلَهُ يَعْمُرُه، بالأمْرِ، أو

بالتمكين والهِدَاية وتَهْيئَةِ الشّروط والوسائل، أو بالإيجاد فيها.

ويقال: «عَمَّرَ الأَرْضَ» أي: بنَىٰ عَلَيْها وَأَهَّلَها.

القضية الرابعة: دلَّ عليها قوْلُ الله عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قاله صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام لقومه: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾: أي: فإذا آمَنْتُمْ باللهِ رَبّكُمْ، وآمَنْتُم بأنَّهُ هُو المعْبُودُ الحقُّ الّذي لاَ إِلَهَ إلّا هُو، وعَلِمْتُمْ أنَّهُ هُو الَّذي يُمِدُّكُم دَوَاماً بعَطَاءاتِ رُبُوبيَّتِهِ في الأَرْضِ الّتي جَعَلَكُمْ تُقِيمونَ فيها، وتَنتَفِعُون من خيراتها، وتُنْشِئُون مُنْشَآتِكُمْ عَلَيْها، فاسْأَلُوهُ أنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وخَطَايَاكُمْ الّتِي ارْتَكَبْتُمُوها، من شِرْكٍ وظُلْمٍ وعُدْوان وكبائر وجرائم وآثام.

غَفَرَ الذَّنْبَ: أي: سَتَرَه، وهذا يسْتَلْزِمُ بفَضْلِ اللهِ التَّجَاوُزَ عَنِ المؤاخَذَةِ عَلَيْه.

تقولُ لغة: «غَفَرَ الشَّيْءَ، يَغْفِرُهُ، غَفْراً، وَغُفْرَاناً، ومَغْفِرَة» أي: سَتَرَه.

القضِيّة الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ حكاية لمَعْنَىٰ ما قالَهُ صَالحٌ لِقَوْمه: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾:

يقال لغة: «تَابَ، يَتُوبُ، تَوْباً، وَتَوْبَةً، ومَتَابَةً، وتابَةً» أي: رَجَعَ. وتَابَ الْعَبْدُ إِلَىٰ رَبِّهِ، أيْ: عَزَمَ على الرُّجُوعِ إلى الطاعَة، والاسْتِقامَة بَعْدَ المعْصِيَة. ويقال: تَابَ اللهُ على عَبْدِهِ، أي: قَبِلَ رَجْعَتَهُ، فَرَجَعَ عَلَيْهِ بالْغُفْرَان والْعَفْوِ وفَضْلِ العطاء.

فالمعنَىٰ: ثُمَّ بعدَ الاستِغْفار الّذي تكونُ بِهِ التَّخْلِيَة من قاذورات الآثام، ارْجِعُوا إلى رَبّكم الّذي كُنْتُمْ قَدِ ابْتَعَدْتُم بمعاصِيكم عن دائرة تَنَزُّلاتِ رَحَمَاتِه، فلازموا طاعَته، بِفِعْلِ ما يأمُرُكُم به، وتَرْكِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْه، فَبِهٰذِهِ التوبَةِ إِلَيْهِ تكونُ تَحْلِيَتُكُمْ بِحِلْيَةِ عباد اللهِ المؤمنين المتَّقين.

القضيّة السّادِسة: دلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لمعنى ما قالَهُ صَالحٌ عَلَيْهِ السَّلام لقومه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾: أي: إنّ رَبِّي الَّذِي بَعَثَنِي إليكم رَسُولاً، والَّذِي هو رَبُّكُمْ، وهو اللهُ جَلَّ جلالُهُ، قَريبٌ مِنْ كُلِّ عباده، بعِلْمِه وَقُدْرَتِهِ وَأَفْعَالِهِ، مُجِيبٌ دُعَاءَ مَنْ دَعَاه مُسْتَغْفِراً تَائِباً إِلَيْه، على وَفْق حِكْمَتِهِ.

هذه القضيَّة جاءت بمَثَابةِ التعليلِ لقَوْلِهِ لهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

وجاء وضْعُ كَلِمَةِ ﴿رَبِّي﴾ مَقَامَ الضَمِير «إِنَّهُ» للدَّلَالَةِ على صِفَاتِ رُبُوبيّتِهِ الَّتِي مِنْها الْغُفْرَانُ واسْتِجَابَةُ الدُّعاء.

ثانياً

فاسْتَجابَ لِدَعْوَةِ صالح عليه السَّلام في هذه المرحَلَةِ فَرِيقٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَكذَّبَهُ فَرِيق آخرُ مِنهم، ويَظْهَرُ أَنَّ مُكَذِّبيه منهم هُمُ الأَكْثَرُ عَدداً، وفيهم مُعْظَمُ سَاداتِهِم وكُبَرائهم.

دلَّ على هٰذِهِ الفقرة مِنْ هٰذِهِ المرْحَلَةِ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (النَّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: أرسَلْنَاهُ بِرِسَالَةٍ عُنوانُهَا العامُّ تَفْسِيرُهُ: أَنِ اعْبُدُوا الله، وعلى هذا تكون «أن» تفسيريّة.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ «إذا» فُجَائيَّة، والفاء دلّت عَلَىٰ أنّ بَعْضَ قَوْمِهِ قَد اسْتَجابَ لِدَعْوتِهِ عَقِبَ بيانها لهم.

والمعْنَىٰ: فإذا قَوْمُهُ عَقِبَ دَعْوَتِهِ لَهُمْ إلى دِينِ اللهِ الحقّ فَرِيقان:

الفريق الأول: الّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، ويَظْهَرُ من عُمُوم قِصَّةِ صالحٍ عليه السَّلام وقومه، أنّ هذا الفريق هو الفريقُ الأقَلُّ والأَضْعَفُ.

الفريق الثاني: الَّذِينَ كَذَّبُوهُ وكَفَرُوا بِمَا دَعَاهُمْ إلَيْه، ويَظْهَرُ من عُمُوم قِصَّتِه معهم، أنّ هذا الفريق هُو الفريق الأكْثَرُ والأقْوى.

وَإذْ صَارَ قَوْمُهُ فَرِيقَيْنِ: مُؤْمِنين بِهِ، وكافرين به، فَلَا بُدَّ بِحَسَبِ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِي أنْ يَجْرِيَ تَخَاصُمٌ بَيْنَهما.

- فالّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه يُبَيِّنُونَ مُبَرِّرَاتِ إيمانِهِمْ، وأدِلَّته، وبراهِينَ صِدْقِ الرّسُولِ وصِحَّةِ مَا جَاءَ به وأنَّهُ الحقُّ.

- والَّذِين كذَّبوا صالحاً، وكَفَرُوا بما جاء به يُبَيِّنُونَ ذَرائِعَ كُفْرِهم والْتِزَامِهِم بتَقَالِيدِهم، وانتقاداتهم لرسُولهم الَّذِي فَرَّقَ جَمْعَ قَوْمِهِ، ومَزَّقَ وَحْدَتَهُمْ، إذ كانُوا مجتمعين على الشِّرْكِ والضّلالِ، والْبَغْي والفَسَادِ في الأَرْض.

ولِلذِّهْنِ أَنْ يَنْطَلِقَ في تَصَوّرَاتِ التخاصُمِ بَيْنَ فَرِيقَي المؤمنين والكافرِين، أَخْذاً مِنَ النَّظائِر في المجتمعات البشرية.

الاختصام والتّخاصُم: المجادلَةُ والمنازعَةُ بيْنَ فَرِيقَيْن. يقال لغة: «اخْتَصَمَ الْقَوْمُ، وتخاصَمَ الْقَوْمُ» أي: جادَلَ ونَازَعَ بَعْضُهُمْ بعْضاً.

ثالثاً:

وأنزلَ الله عزّ وجلّ على رَسُولِهِ صالحٍ عليه السَّلام الكتابَ الخاصّ به جُمْلَةً واحِدَة.

دَلَّ على إنزال الكتاب عليه قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾:

جاء في القرآن في سورة (البيّنة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول) إطْلَاقُ لَفْظِ «البيِّنَة» على الرَّسُولِ وعلَىٰ الكِتاب المنزَّلِ من عند الله.

والظاهِرُ أنَّ المرادَ بالبيِّنَة في هـٰذِهِ الآيَةُ من سورة (الأعراف) هذا المعْنَىٰ.

وكَانَ صالحٌ عليه السَّلام يَتْلُو عَلَىٰ قَوْمِهِ كِتَابَ رَبّه كما أَمَرَهُ، ويُنْذِرُهُمْ بعذاب اللهِ إِذَا تَوَلَّوْا وَلَمْ يُؤْمِنُوا.

فاعْتَرَضَ قَوْمُهُ عَلَىٰ كَوْنِهِ نَبِيًّا وَرَسُولاً وَهُوَ بَشَرٌ واحِدٌ مِنْهم، يَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوه.

واعْتَرَضُوا عَلىٰ إِنْزَالِ كِتَابٍ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ دُونَ سَائِرِ قَوْمِهِ، واتَّهَمُوهُ بأَنَّهُ كَذَّابٌ أَشِرٌ مُسْتَكْبِرٌ، يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْكَلِمَةِ الْعُلْيَا فِي قَوْمِهِ، وذا السُّلْطانِ فيهم.

دلَّ على هـٰذا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الْقَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾:

- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ **النُّذُرُ هُنَا**: جَمْعُ «النَّذِير» الَّذِي هو اسْمُ مَصْدَرِ فِعْلِ «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إِنْذاراً».

فالمعنَىٰ: كَذَّبُوا بالإِنْذَارَاتِ الَّتي أَنْذَرَهُمْ بِها رَسُولُهُم صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام، فَهِيَ إِذَنْ إِنْذَارَاتٌ مُتَعَدِّداتٌ أَنْذَرَهُمْ إيّاها عاجِلَةٌ في الحياة الدُّنيا، وآجِلَةٌ إِلَىٰ يَوْم الدّين.

ولَمّا كانت الإنذاراتُ لَا تُوَجَّهُ إِلَّا بَعْدَ الدَّعْوَةِ إلى الإيمانِ وأَرْكانِه، والدَّعْوَةِ إلى الإسلام والطاعة، كان ذِكْرُ النُّذُرِ هُنَا دَالًّا عَنْ طَرِيق اللُّزُوم

الذِّهْنِيِّ علىٰ أنَّهُمْ كذَّبُوا رسُولَهُمْ صالحاً عَلَيْهِ السَّلام، وكذَّبُوا بِرِسَالَتِهِ، وكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ به عَنْ رَبِّه، وأَخِيراً كَذَّبُوا بإنْذاراته.

فكان من الإيجاز الْبَدِيعِ الاقتصارُ علىٰ بيان تكذيبهِمْ بإنْذاراتِ رَسُولهم، لما فيه من دَلَالَةٍ عَقْلِيَّةٍ على تَكْذِيبهِمْ بما تَقْتَضِي دَعَوَاتُ الْمُرْسَلِينَ بَيانَهُ قَبْلَ إِخْبارِهِم بالإنْذَارَاتِ، وإذْ كَذَّبُوا بإنْذَارَاتِ الرَّسُولِ فَقَدْ كَذَّبُوا الرَّسُول لُزُوماً، وكذَّبوا بكلِّ ما جاءَهُمْ بِهِ عن رَبِّه.

- ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تَلْخِيصٌ لأرْبَعِ مَقَالَاتٍ قَالَهَا كُبَرَاء كُفّار ثمودٍ، ورَدَّدَتْهَا جَمَاهِيرُهُمْ التابِعُون لَهُم، مُعْلِنِين بها استِكْبارَهُمْ عن الاستجابةِ له.

وجاء عطف مقالاتهم هذه بحرف «الفاء» الَّذِي يَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، نظراً إِلَىٰ أوّل مراحل تكْذِيبهِمْ لِرَسُولهم، لَا إلى مَرْحَلَةِ تَكْذِيبهِم بالنُّذُرِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بها.

المقالَة الأولىٰ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارَةُ: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾؟! استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ استنكاريٌّ، يَنِمُّ عَنْ مُنْتَفِخِ الكِبْرِ في صُدُورِهم، إنَّهم يُعْلِنُونَ بهٰذا رَفْضَهُمْ لاتّباع رَسُولٍ بَشَرٍ مِنْهُم، وهو واحِدٌ لَيْسَ بجماعَة. أي: فكيف يتلاءمُ مع مَكَانَتِهم العظيمة في قَوْمهم، ومَنْزِلَتِهِم الرَّفِيعَةِ، أنْ يَتَّبِعُوا بَشَراً مِنْهُمْ واحِداً يَزْعُمُ لَهُمْ أنَّهُ رسولُ اللهِ إِلَيْهِم.

المقالَة الثانية: دلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾: أي: إنّا إذا اتَّبَعْنَا بَشراً واحداً من الْبَشر، فإنَّنَا حِينئذٍ لنَكُونُ مُنْغَمِسِين في ضلالٍ في مَسِيرَتنا في حَيواتِنا، وفي جُنُونٍ في عُقُولِنَا وأفكارِنا، وَهذا أعْظَمُ مَا قَدَّمُوه من ذَرِيعَةٍ، لتَزْيين نُفْرَتهم واسْتِنْكافِهم عن اتّباع رَسُولِ رَبّهم إِلَيْهِم.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾: أي: لَفِي جَهْلٍ وَضَيَاع.

﴿وَسُعُرٍ﴾: أي: ولَفِي جُنون. وهذا أَحَدُ معاني هذه الكلمة، وهو الملائم هنا.

المقالة الثالثة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾:

في هذه العبارة استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ إنكارِيٌّ أيضاً، وهي تَدُلّ عَلَىٰ إنكارِهم الشديد أنْ يكُونَ هـٰذا الواحِدُ مِنهم، مُخْتاراً اخْتِياراً خاصّاً مِنْ بيْنِهِم، للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَة، ولإلْقَاءِ الذِّكْرِ وهو الكتابُ الرَّبّانيُّ عَلَيْهِ، مع أنَّ المفروض بحَسَبِ تَصوُّراتِهم الطبقيَّة الاستكْبارِيَّة، أَنْ يُخْتَارَ لهـٰذِهِ التفضيلات أهْلُ المالِ والْعُزْوَةِ والجنودِ والأنصار والأَنْسَابِ والأَمْجَادِ والمفاخر المتوارثَةِ.

ودَلَّ فِعْلُ [**أُلْقِيَ**] على أنَّ الكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ على صالحٍ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ أُنزِلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَة، فالإلقاء فيه مَعْنَىٰ الطَّرْحِ بمَرَّةٍ واحِدَةٍ، بخلاف معنىٰ الإنْزال والتنزيل، فَهُما لَا يَدُلَّانِ على معْنَىٰ ٱلإِلْقَاءِ جُمْلَةً واحِدَةً.

المقالة الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَة: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾: أي ليْسَ صالحٌ نَبِيًّا وَلَا رَسُولاً، ومَا يَزْعُمُ أَنَّهُ كتابٌ مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ إنَّمَا يَفْتَرِيه علَىٰ الله.

﴿كَذَّابٌ﴾: صيغَة مبالغة لاسم الفاعل «كاذِب» فاتَّهَمُوهُ بِهـٰذِهِ الشَّتِيمة بأشْنَعِ دَرَكَاتِ الْكَذِبِ، مع أَنَّهُمْ مَا عَرَفُوه في حياتِه مَعَهُمْ قَبلَ النُّبُوَّةِ إلَّا صَادِقاً أَمِيناً مَرْجُوّاً لكلّ خَيْرٍ.

﴿أَشِرٌ﴾: أي: مُسْتكْبِرٌ بَطِرٌ، أي: هو طالب زعامَةٍ ورياسةٍ وسُلْطَانٍ في قَوْمِهِ.

لكِنَّهُمْ في الحقيقَةِ هُمُ الكذَّابُونَ الأَشِرُون.

رابعاً:

ثمّ إنّ صالحاً عليه السَّلام وَجَّهَ عنايَتَهُ لِدَعْوَةِ شُبَّانِ قَوْمِه، وأَحْدَاثِ

الأسْنَانِ فيهم، رَجَاءَ أنْ يكُونوا أقْرَبَ إلى الاستِجابَةِ لِدَعْوَتِه من شُيوخ قَوْمِهِ وَذِوي الأَسْنَانِ فيهم.

دلَّ عَلَىٰ هـٰذا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في سورة (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾:

دَلَّنِي على أنَّ دعْوَتَهُ هـٰذِهِ كانَتْ مُوجَّهَةً لِغَيْرِ شُيُوخِ قَوْمِهِ وَكبار السِّنِّ فِيم قولُهُم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ففِي هـٰذِهِ العبارَةِ دَلَالَتَان:

الأولى: دَلَالَةُ قولِهم: ﴿يَعْبُدُ﴾ وهُو فعْلٌ مضارعٌ يَدُلُّ عَلى الحالِ والاسْتِقبال مع التكرار والتجدّد. ومثل هذا التعبير إنَّما يكونُ للدَّلَالَةِ على أمْر مُتكرِّرٍ مُتَجَدِّدٍ في آبائِهِمْ، فلا بُدَّ أنْ يكونُوا أحياءً.

الثانية: قوْلُهم ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ إذْ لَمْ يَقُولوا آباؤنَا الأوَّلُون، كما هُوَ حَالُ الأُمَمِ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُون عَنْ آبائِهِم الموتَىٰ السَّابقين.

فَدَلَّ هـٰذان الأمْرَانِ علَىٰ أنَّ صالحا عَلَيْهِ السَّلام تَوَجَّهَ فِي دَعْوَتِه للشُّبَّانِ وأحْدَاثِ الأسْنَانِ البالغين، رجاء أنْ يكُونوا أقْرَبَ إلى الاسْتِجابَةِ من آبائهم، الَّذِينَ مارَسُوا كُفْرَهُمْ وقَبَائِحَ عَادَاتِهِم عُمْراً مَدِيداً، فَتَصَلَّبَتْ قُلُوبُهُمْ ونُفُوسُهُمْ على ذَلِك.

- ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾:

﴿مَرْجُوًّا﴾: الرَّجاء في اللُّغَةِ: تَوَقُّعُ مَرْغوبٍ فيه، أو مَخُوفٍ منْه، والسِّيَاقُ في هذا القوْل يَدُلُّ على تَوَقُّعِ ما هُوَ مَرْغُوبٌ فيه.

أي: كُنَّا قَبْلَ أنْ تَدْعُوَنَا إِلَىٰ هـٰذا الدِّينِ الْجدِيدِ نَتَوَقَّعُ أنْ تكونَ قَائِداً لَنَا، وسَيِّدَاً مِنْ سَادَاتِ قَوْمِنا، لِمَا تَتَّصِفُ به مِنْ عَقْلٍ وحِكْمَةٍ، وفضائِلِ أخْلَاقٍ وَمَحَاسِنِ شِيَمٍ.

- ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: أي: أتنهانا عَنْ أنْ نَعْبُدَ الأوْثان الَّتِي يَعْبُدُهَا آبَاؤُنَا الَّذِينَ هُمْ قُدْوَتُنَا فِي حَيَاتِنَا، وهُمْ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ فينا؟!

الاستفهام في هٰذِهِ العبارَةِ استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ فِيه مَعْنَىٰ الاستنكار.

- ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: أي: وإنّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ وَحْدَه، وَتَرْكِ عبادَة ما يَعْبُدُ آباؤُنا، إذْ لَمْ نَصِلْ بَعْدُ إلى الاقتناع بأنَّ ما تَدْعُونا إِلَيْهِ هو الحقّ، وهٰذا الشَّكُّ يوقِعُنا في الرَّيْبِ مِنْ غايَتِكَ النفسِيَّة، إذْ تَدْعُونَنَا إلَىٰ خِلافِ مَا نَحْن عَلَيْه في تقالِيدِنا الدّينيّة، ومَوْرُوثاتِنَا من أعْمال وعَادَات، وما عَلَيْهِ آباؤنا، وشَكُّنا يَجْعَلُنَا نَرْتَابُ في أنَّكَ تُرِيدُ مُلْكاً أو إمارَةً أوْ زَعَامَةً أوْ رِيَاسَةً في قَوْمِنا، وهٰذا أمْرٌ يُقلِقُنَا وَيُزْعِجُنا.

يقال لغة: «أَرَابَ ٱلْأَمْرُ فَلَاناً» أي: أقْلَقَهُ وأزْعَجَه. وأوقعه في الشّكّ والرَّيب.

الرَّيْب: الشّكّ، والظنّ، والتُّهَمَةَ، والرَّيْبُ يجعل صاحِبَهُ يتردَّدُ مُحْتاراً.

فأجابَهُم صالحُ عليه السَّلام بما جاء بيانه في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾:

- ﴿يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؟ يُرادُ بالاستفهام في: [أَرَيْتُمْ] الأمْرُ بأنْ يَتفكّرُوا لِيرَوْا، أي: يا قَوْم تَفَكَّرُوا لِتَرَوْا بِعُقُولِكُمْ واقِعَ أَمْرِي مع رَبّي. تفكَّرُوا في أنّي إنْ كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ واضِحَةٍ مِنْ رَبّي بِأنّي نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مُكَلَّفٌ مِنْهُ أنْ أُبَلّغَ رِسَالَته، أفَأمْلِكُ أنْ أعْصِيَ رَبّي فَأُخَالِفَ ما أمَرَنِي به مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَته.

- **[وآتانِي رَحْمَةً مِنْهُ]**: أي: وآتاني من فَضْلِه رَحْمَةً عظيمة. ونَفْهَمُ أنَّ الرَّحْمَةَ الَّتي اختصَّ اللهُ بها صالحاً عَلَيْهِ السَّلام دُونَ سَائِرِ قَوْمِهِ في عَصْرِه، هي النُّبُوَّةُ والرِّسالَةُ والكِتَابُ الَّذي أنْزَلَهُ عَلَيْهِ، والصفات الشخصيَّةُ الفكريَّةُ والنفسيَّةُ الَّتِي فَضَّلَهُ بها.

وهـٰذِهِ الرَّحْمَةُ تتضمَّنُ تكليفَهُ أنْ يَقُومَ في قَوْمِهِ بوظائفِ رِسَالَةِ ربّه.

- ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾؟! استفهام يُرَادُ به نَفْي وُجُودِ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُ.

وقَدْ دَلَّت هـٰذِهِ الْعِبَارة باللُّزوم الذهْنِي على أنَّ شُيُوخَ قَوْمِهِ وَشبّانهم، قد طالَبُوهُ بأنْ يَكُفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ الدَّعْوَةِ إلى الدّين الّذِي جاءَهُمْ به.

فقال لهم: أنَا مَأمُورٌ مِنْ رَبِّي أَمْرَ إلْزَامٍ من الدَّرَجَةِ الْقُصْوَىٰ بأنْ أقُومَ بوَظائفِ رِسَالَةِ رَبّي الّتي حَمَّلَنِي أعْبَاءَها، وفي مُقَدِّمَتِها دَعْوَتُكُمْ إلَىٰ الدِّينِ الّذي أَمَرَني بتبليغهِ لقَوْمي، مع مُتَابَعَةٍ وَتَوْكِيدٍ وَتَذْكير.

وهـٰذا الدِّين يَتَضَمَّن أنْ تَتْرُكُوا شِرْكِيَّاتِكُمْ، وضَلَالاتِكُم، وأنْ تُؤْمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وكتابه، وأنْ تَتَّبِعُوا أحْكامَ الدّين الذي جئتكم بِه من عِنْدِ رَبّكم، فما أنَا إلَّا مُبَلِّغٌ دِينَ رَبّي.

وإنْ لَمْ أَقُمْ بما فَرَضَ اللهُ عليَّ، بَعْدَ أن اصطفاني بالنُّبوة، واجْتَباني لحَمْلِ رِسَالَتِهِ إليكم، فإنّي أكُونُ عاصِياً لِرَبّي مَعْصِيةً عُظْمَى أسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْعِقَابَ الشّدِيد.

وعندئِذٍ فَمَنْ هذا الّذي يَنْصُرُني فَيَحْمِيني مِنْ عذاب اللهِ؟!!.

جاء في العبارة استعمال حرف «إنْ» في ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ لِيُشعِرَهم بأنّه عازِمٌ عَزْماً لا لِينَ فِيهِ علَىٰ أنْ يُطِيع رَبَّهُ وَلَا يَعْصِيَه.

وضُمِّنَ الفعل في: ﴿يَنصُرُنِي﴾ معنَىٰ الفعل في «يَحْمِيني» فَعُدّي تَعْدِيته

بَحَرْف «مِن» أي: فَمَنْ يَنْصُرُني فَيَحْمِيني من عذاب الله؟!

- ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: أي: فإنْ عَصَيْتُ رَبّي مُسْتَجِيباً لِمَا تُطالِبُونني به، فإنْ زِدْتُموني شيئاً لإنقاذي وحمايَتي ونُصْرَتي، بَعْدَ مَعْصِيَتي لِربّي، فَمَا تَزيدُنَنِي غَيْرَ إِضَافَةِ خَسَارَةٍ إلىٰ خَسَارَتي الَّتي تُسَبِّبُهَا لي مَعْصِيَتي.

﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: أي: غَيْرَ نُقْصَانٍ وإِبْعَادٍ لي من الْخَيْرِ، يُقَال لُغَةً: «خَسَّرَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: نَقَصَهُ ـ أبْعَدَهُ من الْخَيْر ـ أهْلَكَه.

خامساً:

فاشتَدَّ كُفَّارُ ثمود غُلُوّاً في كُفْرِهِمْ وَعِنادِهم وطُغْيانهم، إذْ أمْهَلَهُم الله عزّ وجلّ على وفْق سُنَّتِهِ في الأمم، ولَمْ يُنْزِل بهم عذابَهُ الْمُهْلِك باستِئْصال، علىٰ حسَب ما كانوا يتوهَّمُون.

وكانَ فِيهم فِئَةٌ أشْرارٌ مُفْسِدُون إفساداً كبيراً.

فَصَارَ صَالحٌ عَلَيْهِ السَّلام يُوجّه تَذْكِيرَهُ لِقَوْمِهِ بإلْحَاحٍ، وَيُكَرِّرُ دَعْوَتَهُ لَهُمْ بأنْ يَتَّقُوا عَذَابَ الله، ويُطيعُوا رَسُولَهُ، ويُبَيِّنُ لَهُمْ أنَّهُ لَيْسَ ذَا مَصْلَحَةٍ دُنَيويَّةٍ مِنْ دَعْوَته، ويُبَيّن لَهُمْ أنَّ أجْرَهُ الذي يَطْلُبُهُ على قيامه بوظائف رسالَته، إنَّما يَطْلُبُهُ مِنْ رَبّ العالَمِينَ، لا مِنْهُمْ ولَا مِنْ أحَدٍ من العالَمِين.

وأبانَ لَهُمْ أنَّهم لَنْ يُتْرَكُوا فيما هُمْ فِيه من وفْرَةٍ في أرْزاقهم، إذا اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِم وطغيانهم وعنادهم وفجورهم، ولَنْ يُتْرَكوا آمِنينَ لَا يَخافُون ممَّا يَضُرُّهم أوْ يُنْزِلُ بِهِمْ بلاءً، ولَنْ يُتْرَكُوا فيما هُمْ يَسْتَمْتِعُون به مِنْ جَنَّاتٍ وارفاتِ الظلال، وعُيُونِ ماء مُتَدفقات، ورفاهِيَةٍ في مَساكِنهم.

ونهاهم عليه السَّلام عن أن يُطِيعوا أمْرَ مُسْرِفيهم.

وكرَّر تَحْذيرَهُمْ من الْإِصْرَارِ على ما هُمْ فيه من كُفْرٍ وطُغْيانٍ، وظُلْمٍ

وعُدْوان، وفَسَادٍ وإفْسَادٍ في الأرضِ، وأبَانَ لَهُمْ أنَّ مَا هُمْ فِيه سَيُعَرِّضُهُمْ لِعَذَابٍ شَدِيد يَحْرِمُهُمُ اللهُ عزّ وجلّ به مَا هُمْ فيه من أمْنٍ، ورِزْقٍ، ورَفَاهِيَةٍ، وَمَنَعَةٍ.

دَلَّ علَىٰ هٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ جاء لفظ الْمُرسِلين مجموعاً، وجاء نظيرُه بالنّسبة إلى قوم نوح، وعاد، وقوم لوط، وأصْحَاب الأيكة، وقد أورد المفسِّرُونَ عِدَّة احْتِمَالَاتٍ للمراد بالجْمع، ومنها اعتبار أنَّ مَنْ كذَّبَ رسُولا واحداً بمثابة مَنْ كذَّب الرُّسُل.

والّذي تَرَجَّحَ لَدَيّ أَنَّهُ قَدْ جاء لهٰؤلاء الأقوام عدَّة رُسُل، وأنَّ نُوحاً، وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وشعيباً، كانوا آخِرَ الرُّسُلِ لأقوامهم، إرْسالاً إلَيْهم، أو بَقاءً فيهم حتّىٰ إهلاك كُفَّارِهم.

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾:

أُخُوَّة صالح عليه السَّلام لثمود قد كانت أُخُوَّة نَسَبٍ ولُغَةٍ ومُواطَنة، على ما ذكر المؤرخون.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟: عَرْضٌ رَفيق بأداة العرض «أَلَا» وأُرَجّحُ أَنَّها كلمة واحدةٌ، تُسْتَعْمَلُ لِلْعَرْضِ، وللتحْضيض، وللاستفتاح والتَّنْبيه، ولَيْسَتْ مُؤَلَّفَةً

مِنْ همزة الاستفهام وحرف النفي «لا» وعلى فَرْض أنَّ أصْلَها كذلِكَ إلَّا أنَّ هـٰذا الأصْلَ قَدْ تُنوسي، وصارت «أَلَا» بالاستِعْمَالِ كَلِمَةً واحِدَة.

أي: أَلَا تتقّونَ عذَابَ اللهِ وعقابه، والمعْنَىٰ: أَلَا تَجْعَلُونَ بيْنكُمْ وبين عقاب اللهِ وِقايَةً، بالإيمان، والإسلام، والطاعَةِ له.

- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾:

﴿رَسُولٌ﴾: أي: نَبيٌّ وَرَسُولٌ، لأنَّ النُّبُوَّةَ سَابِقَةٌ للرِسَالَة، ومُرَافقة لها دَواماً، بَعْدَ تكْليفِ النبيِّ مسْؤولياتها.

﴿أَمِينٌ﴾: أي: مُتّصِفٌ بِخُلُق الأمَانَةِ بوَجْهٍ عامٍّ، وأمِينٌ علَىٰ رِسالَاتِ رَبّي، أُبَلِّغُهَا لَكُمْ كَمَا أَتَلَقَّاهَا بالْوَحْي عنه، لَا أزِيدُ فيها شيئاً مِنْ عِنْدي، ولَا أنْقصُ مِنْهَا شيئاً.

عبارَة ﴿لَكُمْ﴾ مَعْمُول للفظ ﴿رَسُولٌ﴾ قُدِّمَ علَىٰ عامِلِه لإفَادَةِ التخصِيص، أي: رسَالَتي خاصَّةٌ بكم، فأنَا مَبْعُوثٌ مِنْ عند الله لكم لِأُبَلِّغَكُمْ رِسَالَاتِه.

- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾:

أي: وبما أني رَسُولٌ أمِينٌ من قِبَلِ رَبّكُمْ، فاتّقُوا عَذابَ اللهِ وَأَطِيعُوني، فيما أدْعُوكُمْ إلَيْهِ، وَإذَا لم تَفْعَلُوا كُنْتُمْ مستحِقّينَ لعِقَابِه وعَذَابِه، فَلَيْسَتِ القضيَّةُ خاصَّةً بي، وَإِنَّما هِيَ قضيَّةُ اللهِ رَبّكُمْ، وَلَهَا عَلَاقَةٌ بي وبكُم معاً.

- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

إنَّ أوّل ما يتبادَرُ إلَىٰ أذْهَانِ الأقوام المدْعُوِّين مِنْ قِبَلِ أيِّ داعٍ من الدُّعاة، إلى مَبْدأٍ، أَوْ فِكْرَةٍ، أَوْ عَمَلٍ، أو جَمَاعَةٍ، أَنْ يَتَّهِمُوهُ بأَنَّ لَهُ مَصْلَحَةً شَخْصِيَّةً مِنْهُمْ، يَحْصُلُ عَلَيْها مِنْ جرّاءِ اسْتِجابَتِهِم لِمَا يَدْعُوهُمْ إليه.

فكانَ من الحكْمَة في الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللهِ أنْ يُعْلِنَ الرَّسُول تَجَرُّدَهُ مِنْ آيَّةِ مَصْلَحَةٍ شخصِيَةٍ يَحْصُل عليها مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ إلَىٰ دِينِ الله.

ولَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ هٰذا أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ أَجْراً مُطْلَقاً، فهٰذِهِ مِثَالِيَّةٌ خَيَالِيَّةٌ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الْبَشر، بَلِ الرَّسُولُ واثِقٌ مِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ يَظْفَرُ بِهِ عِنْدَ رَبِّه رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقال صالح عليه السَّلام: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: ما أَجْرِي الَّذِي أرْجُوهُ إلّا عَلىٰ كِفَالَةِ رَبّ العالِمَين، فَهُو الضَّامِنُ له، وهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي تكَفَّلَ بِه.

- ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾:

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾؟: استفهامُ تَحْذِيريّ، يُثِيرُ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام به في نُفُوسِهم وقُلوبِهِمُ الْخَوْفَ مِنْ عِقَابِ اللهِ الْمُعَجِّلِ لَهُمْ عَلَى كُفْرِهم وقبائح أعْمالهم، وَمَعَاصِيهِمْ لِبَارِئِهم، فَهٰذِهِ أُمُورٌ تَسْتَدْعي بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ في عِبَاده، أَنْ يَسْلُبَهُمُ اللهُ مَا هُمْ فِيه مِن نِعَمٍ وَافِرَةٍ، بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَة.

فمن النّعَم الَّتي كَانُوا يسْتَمْتِعُونَ بِها نِعْمَةُ «الأَمْنِ» دلَّ عَلَيْها قولُهُ لَهُمْ: ﴿ءَامِنِينَ﴾: أي: أَيَتْرُكُ لَكُمْ رَبُّكُمْ نِعْمَةَ الأمْنِ وأنْتُمْ تكْفِرُونَ به، وتَعْبُدُونَ مِن دُونِه الأوثان، وتَعْصُونَهُ بالظُّلْم والعُدْوان، والْبَغْي والْفُجور في الأرض، ومِنْ سُنَّتِهِ في عبادِهِ أنْ يُنْزِلَ عُقُوبته، ويَسْلُبَ نِعَمَهُ عَنِ الَّذِين تَصِل خطَايَاهُم إلى مِثْل الحالِ الّتي وَصَلْتُمْ إلَيْهَا.

ومن النِّعَم الَّتي كَانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ الجنَّات، وهي الحدائق والبساتين المكتَظَّةُ بالأشجار، ذواتِ الظِّلَالِ والثّمار.

ومن النِّعَم الَّتِي كانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ الْعيونِ الَّتي كانَ اللهُ عزّ وجلّ يُفَجِّرُهَا لهم، فَيَشْرَبُونَ مِنْها مَاءً حسناً، ويَسْقُونَ مِنْها أَنْعَامَهُمْ وزُرُوعَهم.

ومن النِّعَم الَّتي كانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ الزُّرُوعِ المختلفة، لَهُمْ

ولأنْعَامِهِمْ وَدَوابّهم، إذْ يُنْبِتُها لَهُم، ويَحْمِيها لَهُمْ مِن الآفات والجوائح.

وخَصَّ صالح عليه السَّلام ببَيانه لهم نِعْمَةَ أشْجَارِ النَّخْلِ ذَواتِ الطَّلْعِ الْهَضِيم، إذْ هِيَ أكْرَمُ الأشجار وأنْفَسُها لَدَىٰ سُكّان شبْهِ الجزيرَة الْعَرَبيّة.

﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: أي: ثَمَرُها نَاعِمٌ لَطِيفٌ مَرِيءٌ، سَهْلُ الْهَضْمِ في الجَوْفْ.

- ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ۝١٤٩﴾: وفي القراءة الأخرى: ﴿فرهين﴾: أي: حاذقين مَهَرة، ومُسْتَمْتِعين بِنَعَمٍ وافِرَة، وَمُسْتَكْبِرِينَ أشِرِينَ بَطِرين طَاغِين.

- ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: سَبَقَ نظيرُها في هذا النصّ، فَدَلَّ تَكْرِيرُها عَلَىٰ أنَّ صَالحاً عليه السَّلام كان يُكَرِّرُ مطالَبَةَ قَوْمِهِ بما جاء في مضْمُونها.

- ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾.

المسْرِفُ: هو من يتجاوز حَدَّ الْحِكْمَةِ والحقّ في تَصرُّفاته، ويتجاوز ما يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ الراجح.

ومن شأن المسْرِف أنْ يَرْتَكِبَ القبائح والكبائر من الذنوب، ويَفْعَلَ ما فيه شرٌّ وضُرٌّ.

وكَانَ الكُبَراءُ الكَفَرَةُ المسْرِفُون في ثمود، مَعْرُوفين بتصرُّفاتِهِم الآثمات الظالماتِ الطاغيات الباغيات، وكانوا يُفْسِدون فِي الأرض بغير الحقّ، لتقويَة سُلْطانهم، ويَزْعُمُونَ أنَّهُمْ يُصْلِحُون، لتَغْطِيَةِ إفسادهم بالأكاذيب الّتي يُلَفّقُونها.

سَادساً:

وألَحّتْ ثَمُودُ عَلَىٰ رسُولهم صالح عَلَيْهِ السَّلام، بأَنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خَارِقَةٍ مُعْجِزَةٍ يَقْتَرِحُونها عليه.

فانْتَظَرَ صالح عليه السَّلام الإِذْنَ مِنْ رَبّه، فَصَارَ عُتَاةُ قَوْمِهِ يُرَوّجُون أَنَّهُ كَذَّابٌ أَشِرٌ مُسْتَكْبِرٌ، يُرِيدُ حُكْماً وَرِياسَةً وسُلْطاناً، أو ثراءً ومُلكاً، فأنزل الله عزّ وجلّ عَليه مُواسِياً ومُسَلّياً ومُطَمْئِناً وَهو عَلِيمٌ بأَنَّهُمْ سَيُطَالِبُونَهُ بأنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ يُعَيِّنُونَها، ناقَةً يُحَدِّدُونَ أَوْصَافها، قَوْلَهُ في سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾:

- ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾: أي: سيعلمون في المستقبل القَرِيب أَنَّهُمْ هُمُ الكذِّبُون الأشِرُونَ المسْتَكْبِرون، حينما يُشاهِدُون بَوادِرَ تَعْذِيب اللهِ لهم تَعْذِيباً يُهلِكُهُمْ إِهلاك اسْتِئصالٍ عُقُوبَةً لهم على تَكْذِيبهم بالحق، واسْتكبارهم عَن اتّباع كتابِ رَبّهم ورسُوله، ثم يعلمونَ ذلِكَ في المستقبل البعيد يومَ الدّينَ.

فالمراد بالْعِلْم هُنا الْعِلْمُ بَعِقابِ الله لَهُمْ على تكذيبهم واستكبارهم، لأنّهم يَعْلَمُونَ مِنْ أنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ هم الكذَّابُونَ في إيهامهم وتزويرهم على جماهيرِهم بأنَّ صالحاً لَيْسَ رَسُولاً من رُسُلِ الله عزّ وجلّ، وهم مسْتَيْقِنُون في نُفُوسِهم أنّه رسُولٌ صَادِقٌ وَلَيْسَ بكاذب، وأَنَّهُمْ أشِرُونَ مُسْتَكْبِرُونَ يُرِيدُون بتَكْذِيبِهِ، ورفضِ اتباعِه، وتَحْرِيض جماهيرهم على تكذيبه والتَّوَلّي عنه، المحافظَة على زَعَامَاتِهِمْ ورِياسَاتِهِمْ في قَوْمهم.

وجاء في القراءة الأخرى، مَا يَدُلُّ على أنّ الله عزّ وجلّ خاطَبَهُمْ على لِسَانِ رَسُولِهِمْ صالح عليه السَّلام بقوله: ﴿سَتَعْلَمُون غَدًا مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ بتَاءِ المخاطَبين.

وفي هذا البيان إيماء لحَالَةِ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ. وحَالَةِ مَنْ كَذَّبه مِنْ

قَوْمِهِ وزَعَمَ أنَّهُ طَالِبُ رِيَاسَةٍ ومُلْك، فكأنَّ الله عزّ وجلّ يُخَاطِبُهُمْ بِمِثْلِ مَا خَاطَبَ بِهِ ثَمُوداً قَوْمَ النبيّ الرسُول صالحٍ عليه السَّلام.

- ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: إِنَّا سَنُرْسِلُ لَهُمُ الآيَةَ الَّتِي اقْتَرَحُوها عَلَيْكَ يا صالح، وهي النّاقة الّتي يُعَيِّنون أوْصافها، وطَرِيقَة إخراجها من صَخْرَةٍ يُعَيِّونها.

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾: أي: امتحاناً لهم واختباراً.

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾: أي: فانْتَظِرْهم واجْعَلْهُمْ تَحتَ مُرَاقَبَتِك، وملاحظَتِك لِمَا سَيكونُ مِنهم.

﴿وَٱصْطَبِرْ﴾: أي: وكلِّفْ نَفْسَك الصَّبْرَ عليهم بمجاهدَة نَفْسِك، ولا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أيّ أمْرٍ، إنَّهُمْ سيضيقونَ ذرعاً بامتحانهم، فيَقومُونَ بأعْمالٍ تَقْتضي إهلاكهم إهلاكاً عَامًّا شاملاً.

- ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وأخْبِرْهم حينَ نأْذَنُ لَكَ بأَنْ تَدْعُوَ، لِنُخْرِجَ لَهُم الناقَةَ على ما اقْتَرحُوا، أنّ الْمَاءَ الّذي يَشْرَبُونَ مِنْهُ مَقْسُومٌ بَيْنَهم وبَيْنَ الناقةِ المعْجِزَةِ علَىٰ نِصْفَيْن.

القِسْمَة: اسْمٌ من اقْتِسَامِ الشيءِ، وتُطْلَقُ الْقِسْمةُ علَىٰ النّصِيب.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: **الشِّرْبُ**: بكَسْر الشين، نَوْبَةُ الاستقاءِ من الماء، والنَّصِيبُ المعَيَّنُ للشّارِبِ مِنْه.

مُحْتَضَر: أي: يَحْضُرُهُ مَنْ لَهُ نَوْبَتُه. والصيغَةُ بتاء الافتعال تَدُلُّ على الإلْزامِ بضَبْط مَواعِيدِ حُضُورِهِمْ وحضُور الناقة، لورود الماء بانتظام دُون اختلافٍ ولا عُدْوان.

سَابعاً:

وقَضَتْ حِكْمَةُ الله عزّ وجلّ أَنْ لا يُسْرِعَ في إجابَتِهِمْ إلَىٰ طَلَبِهِم آيَةً خَارِقة، فَظَنُّوا أنّ رَسُولَهُمْ عَاجِزٌ عَن إجراءِ آيَةٍ تَشْهَدُ لَهُ بأنّه نبيّ الله ورسُولُهُ، فقالوا له مَا جَاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾:

- ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: عبارة فيها قصر بأداة «إنّما» أي: ما أنت إلّا من المسَحَّرين، وهو قصر إضافي، أي: ليس لك من الصفات بالنّسْبَةِ إلى ادّعائك الرّسَالة إلّا أنّكَ مُسَحَّر.

المسَحَّر: الّذي سُحِرَ مَرَّةً فَمَرَّةً حتَّىٰ فَسَدَ عَقْلُه ومَسَّهُ الْخَبَل. يقال لغة: «سَحَّرَ السَّاحِرُ فُلَاناً» أي: سَحَرَهُ مَرَّةً فمرَّة، حتَّىٰ تَخَبَّلَ عَقْلُهُ، وضَاعَ رُشْدُهُ.

فاتَّهَم كُبَراءُ ثَمود رَسُولَهُمْ صَالحاً عَلَيْهِ السَّلام بأنَّهُ مُسَحَّرٌ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ مَسْحُورٍ، أي: إنَّ السِّحْرَ الّذِي سُلِّط مُتَتَابعاً عَلَيْه قَدْ جعلَهُ مُخْتَلَّ الْعَقْل مُخبّلاً، لَا يُقَدِّرُ خُطُورة ما يَقُولُ بِشأنِ كُبَرَاءِ قَومِه، وقد واجَهُوهُ بهذا الاتّهام، ولَمْ يَقُولوه في غيبته.

وتعلَّلُوا لِرَفْضِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِه بأنّه بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، مُوهِمِينَ بأنّ كوْنَهُ بَشراً يُنَافِي كوْنَهُ نبيًا ورَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ قِبَلِ رَبِّ العالَمِين، فَقَالُوا لَهُ مَا جاء بيانه بقول الله عزّ وجلّ:

- ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: أي: لَيْسَ لَكَ مِن الصِّفَاتِ الشخصِيَّة الخارجَةِ عَنْ نِظَام الْبَشَر، كعَدَم حَاجَتِكَ إلَىٰ الطَّعَام والشَّرَابِ، وعَدَمِ حَاجَتِكَ إلى أنْ تَتَزَوَّجَ، ما يُؤهِّلُكَ لأنْ تكون نبيّاً تَتلَقَّىٰ الْوَحْيَ عن اللهِ

رَبِّ العالَمِين، ولأنْ تكُونَ رَسُولاً تَحمِلُ رِسَالَةً مِنْهُ، وتُبَلِّغُنَا إيَّاها.

وبَعْدَئذٍ قَالُوا لَهُ مَا أَبَانَه اللهُ عزّ وجلّ بقوْلِهِ:

- ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾: أي: فأْتِ بعَلامَةٍ مِنَ الْعَجَائِبِ الْخَوارِقِ المعْجزة، إنْ كُنْتَ صَادِقاً من الصادقين، في ادّعاء أنَّكَ نَبِيٌّ وَرسُولٌ مبْعُوثٌ من رَبِّ العالَمين.

جاء في العبارة استعمال كَلِمَةِ «إنْ» للإشعارِ بأنَّهم يشُكُّون بَلْ يَعْتَقِدُون أنَّهُ عَاجزٌ عن أنْ يأتِي بآيَةٍ خارقَةٍ مُعْجزة.

ثامناً:

فأذِنَ الله عزّ وجلّ لصالِحٍ عليه السَّلام بأنْ يَدْعُوَه في مَجْمَعٍ حَافِلٍ مِنْ قَوْمِهِ، لِيُخْرِجَ اللهُ لَهُمْ النَّاقَةَ الّتِي طَلَبُوا على وفْق ما وصَفُوا وعَيَّنُوا، فأخْرَجَ اللهُ عزّ وجلّ لَهُمُ النّاقَة من الصَّخْرَة الّتي عيَّنُوها، وعلى وفْقِ الصّفاتِ الّتي ذَكَرُوها.

دلَّ على هٰذا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: هٰذِهِ نَاقَةٌ أخرَجَها اللهُ عزّ وجلّ كما طَلَبْتُمْ ووصَفْتُمْ وعيَّنْتُم، ولمَّا كانَتْ هٰذِهِ النَّاقَةُ آيَةً مِن اللهِ لَهُم، سمَّاهَا صالحُ عليه السَّلام: «نَاقَةَ اللهِ» أي: ناقَةَ آيَةِ اللهِ الخارِقة.

وإذْ أخْرَجَ اللهُ عزّ وجلّ لهم هٰذِهِ النَّاقة طِبقاً لِطَلَبِهم، كانت من حِكْمَةِ ابتِلَائِهم أنْ يُلْزِمَهُمْ بِوَاجِبَاتٍ تُجاهها، سَوَاءٌ آمَنُوا برسُولهم أمْ لم يُؤْمِنُوا به، وقَدْ جعَلَ اللهُ عزّ وجلّ هٰذِهِ التكاليف مادَّةً مِنْ مَوَادِّ ابْتِلَائِهِم

وفتْنَتِهِمْ بما يَسُوؤُهم ويُضَايِقُهُمْ، لأنَّهُمْ هُم الّذِين عيَّنُوا الآية، ولم يُفَوّضُوا للهِ عزّ وجلّ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ مَا، تَشْهَدُ لصالحٍ عليه السَّلام بأنه رَسُولُ اللهِ حَقّاً.

ومِنْ الواجباتِ عَلَيْهم المبيَّنَةِ في هٰذه الآية من سُورَة (الأعراف) ما يلي:

(١) أنْ يَتْرُكُوهَا تأكل في أرْضِ اللهِ علَىٰ مَا تَشاء.

(٢) أنْ لَا يَمَسُّوها مسّاً ما بما يَسُوؤُها ممَّا يُؤْذِيها.

وأنْبَأَهُمْ صَالحٌ عليه السَّلام مِنْ شُرُوطها ما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾:

فأضاف هذا النصُّ واجباً ثالثاً إلى الواجبَيْن السّابقين:

(٣) أنْ يكونَ مَاءُ ثَمُود قِسْمَةً بَيْنَ ثَمُودَ وبَيْنَ الناقة.

﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾: الشِّرْبُ: الحظُّ من الماء. وقيلَ: وقْتُ الشُّرْب ونَوْبَةُ الاستقاء.

وهذا من التكامل بيْنَ النّصّين، وفيهما تكامل آخر، وهو:

- في سورة (الأعراف): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.
- وفي سورة (الشعراء): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

أي: ولاَ تَمَسُّوهَا مَسّاً بسُوءٍ ولو ضايقَتْكُمْ في طَعَامِها، أو في شرابها، فإذا مَسَسْتُمُوها بِسُوءٍ فإنَّهُ يَقْبضُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ قَبْضاً مُؤلماً لَكُمْ بعُنْفٍ وَشِدَّة، في يَوْمٍ عظيم الأهْوالِ، عظيمِ وَسَائل التَّعْذِيب.

وحِينَ ضَاقت صُدُورُ كُفَّارِ ثَمُودَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الثلاثة للنّاقَة الّتي ابتَلاهُمُ اللهُ بِهَا، بَدَؤُوا يَتَهَامَسُونَ فيما بينَهُمْ للتخلُّصِ مِنْها بِعقْرِها، وأَحَسَّ صَالِحٌ عليه السَّلامُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فقال لَهُمْ مَا جَاء بيانُهُ في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾:

فأبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا مَسُّوهَا مَسًّا بِسُوءٍ قَبَضَ عَلَيْهِمْ مِن رَبِهِمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، لَا تأخِيرَ فِيهِ وَلَا تأجيل.

الْمسُّ: اللَّمْسُ بالْيَد، ويُطْلَقُ علَىٰ وُصُولِ سَطْحِ الشيْءِ إلى سَطْحِ الشَّيْءِ الآخر دُونَ الدُّخولِ إلَىٰ شيءٍ مَا تَحتَ السَّطْحِ.

تاسعاً:

فأصَرَّتْ غالبيَّةُ ثَمود على كُفْرِهَا وَتَكْذِيبِها رَسُولَ رَبّها، ولَمْ تُؤَثِّرْ فيها مُعْجِزَةُ النَّاقة.

فَتَابَعَ صَالحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ تَأْدِيَةَ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ فيهم، فقالَ ما جاء بيانُهُ في قَوْلِ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾:

جاء في هذه الآية بيانُ أنَّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلام وَجَّهَ لِكُفّارِ قَوْمِهِ في هذه المرْحلَةِ مِنْ مَسِيرَتِه الدَّعوِيَّة أرْبَعَ قضايا شرَحَها وَفصَّلَها لهم، وقَدْ أوْجَزَتْها الآية:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجلّ حكاية بإيجاز لمعنى ما

قاله صالح عليه السَّلام لقومه: ﴿... وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ... ﴿٧٤﴾﴾:

أي: وَضَعُوا في ذَاكراتكم دواماً أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِ الْعَرَب، مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكَ عَاداً أَسْلَافَكُمْ، لأَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَىٰ مِثْلِ الحالَةِ الّتِي أَنْتُمْ عليها اليوم، منْ شرْكٍ بربّكُمْ، وعبادَة آلِهَةٍ مِنْ دُونِه، وإفْسَادٍ في الأَرْض.

وضَعُوا في ذاكِراتِكُمْ أَنَّ الَّذِينَ نَجَوْا من الْهَلَاكِ الّذِي نَزَلَ بِعَادٍ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِهِمْ «هودٍ» عَلَيْهِ السَّلام، وَنَبَذُوا شِرْكَهُمْ وَأَوْثَانَهُمْ، واتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبّهم.

إنَّ وَضْعَ هَاتَيْنِ الْحَقِيقَتَيْنِ فِي ذَاكِرَاتِكُمْ، واسْتخراجَهُما إلَىٰ سَاحَةِ تَصَوُّرَاتِكُمْ وَقْتاً فَوَقْتاً، عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ دَاعِيَةٍ، يَجْعَلُ احْتِمالَ اعْتِبَارِكُمْ واتِّعَاظِكُمْ أَرْجَىٰ، وأَسْرَعَ زَمَناً، وأَيْسَرَ للاسْتِجَابَةِ وَقَبُولِ النُّصْح، وتَرْكِ سُبُلِ الشَّيْطانِ، واتّباع صراطِ الرَّحِيم الرَّحْمٰن.

القضيّة الثانية: دَلّ عليها قول الله عزّ وجلّ حِكَايَةً بإيجاز لمعنَىٰ مَا قَالَهُ صالح عليه السَّلام لقومه: ﴿... وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا... ﴿٧٤﴾﴾:

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أي: وأَنْزَلَكُمْ، وأعَدَّ لَكُمْ، وهَيَّأَ المكَانَ والمِنْزل الملائكم لكم.

يقال لغة: «بَوَّأَهُ الْمَكَان» أي: أَنْزَلَهُ فيه. ويقال: «بَوَّأَ الْمنزلَ لَهُ» أي: أَعَدَّهُ وَهَيَّأَهُ له. ويقالُ: «أَبَاءَ فُلاناً مَنْزِلاً» أي: هَيَّأَهُ لَهُ وَأَنْزَلَهُ فيه. ويُقال: «تبَوَّأَ الْمَكَانَ ـ وَتبَوَّأَ بِهِ» أي: نَزَلَهُ وَأَقَامَ به.

فالمعنى: وَهيَّأَ لَكُمْ في الأرضِ مَنازِلَ تَسْكُنُونَها، وَمَكَّنَ لَكُمْ فيها، وجَعَلَكُمْ قَادِرِينَ علىٰ أنْ تَتَّخِذُوا لَكُمْ فِيها الْبُيُوت، والْقُصُورَ، وَسَائِرَ المنازِلِ والمسَاكِن المناسِبَةِ لمطالِبكم.

وَإِذْ مَكَّنَكُمْ فِي الأَرْضِ هٰذا التمكِينَ، بمَا وَضَعَ وَهَيَّأَ لَكُمْ مِنْ أَسْبابٍ، وبما أَقْدَرَكُمْ على اسْتِخْدَامِها والانتِفَاعِ بها، حتَّىٰ صِرْتُمْ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولها قُصوراً، فَتَقْطَعُونَ الصُّخُورَ مِنَ الْجِبالِ، وَتَبْنُونَ بِهَا الْقُصُورَ الْفَخْمَةَ، وصِرْتُمْ تَنْحِتُونَ الجبالَ، فَتُجَوِّفُونَ غُرَفاً فِي باطِنِهَا، حتَّىٰ تكُونَ الْجِبَالُ لَكُمْ بُيُوتاً، تَبِيتُونَ فيها، فَتَحْتَمُونَ بِهَا مِنْ مُدَاهَمَاتِ أَعْدَائِكُمْ.

فاذْكُرُوا هٰذِهِ النِّعَمَ الْجَلِيلَةَ الّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ في أَرْضِكُمْ، فآمِنُوا بِهِ رَبًّا وَاحِداً أحداً لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَاعْبُدُوه إلَٰهاً واحِداً أحداً لا إلَٰه في الوجود بحَقٍّ غَيْرُه، ولَا تُشْرِكُوا بعِبَادَتِهِ أحداً ولَا شيئاً ما، وآمِنُوا بِرَسُولِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إليكم، وَشَهِدَ لَهُ بالخارِقَةِ المعجزةِ أَنَّهُ نبِيُّهُ وَرَسُولُهُ حَقّاً، واتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياء.

القضية الثالثة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عزّ وجلّ حِكَايَةً بإيجازٍ لمعَنَىٰ مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِه: ﴿... فَاذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ...﴾: أي: فاذْكُرُوا مَا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ، واذْكُرُوا سَائِرَ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكم، فإذَا ذكرتُمُوهَا آناً فآناً اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَقْتَحِمُوا عقَبَاتِ نُفُوسِكُمْ فَتَتْرُكُوا مَا أَنْتُمْ مُنْغَمِسُونَ فيه مِنْ شِرْكٍ وضَلَالٍ، وطغيَانٍ وفُجُورٍ، وفَسَادٍ وإفْسَادٍ في الأرْضِ، وأنْ تُؤْمِنُوا وتُسْلِمُوا وَتَتَّقُوا رَبَّكُمْ.

الآلاء: هِيَ النِّعَمُ، واحِدُها «أَلْيٌ» و«إِلْيٌ» و«إِلَىً».

القضيَّة الرابعة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عزّ وجلّ حِكَايَةً بإيجازٍ لمَعَنَىٰ مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِه ثمود: ﴿... وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ... ﴿٧٤﴾﴾:

أي: وَلَا تُفْسِدُوا في الْأَرْضِ إفْسَاداً شَدِيداً مُنْكراً.

الْعُثُوُّ: أَشَدُّ الفساد، يقال لغة: «عَثِيَ يَعْثَىٰ عُثُوّاً وَعُثِيًّا وَعَثَيَاناً» أي: أفْسَدَ إفْسَاداً شَدِيداً مُنْكراً. ويُقال: «عَثَا فِي الأرضِ يَعْثُو» أي: أَفْسَدَ.

والإفسادُ: ضِدُّ الإصْلاح، ويَكُونُ الإفسادُ بِجَعْلِ الشَّيْءِ الصّالحِ لِمَا هُو المقْصُودُ بِهِ غَيْر صَالِحٍ له.

هذه المقالة دَلَّتْ على أنَّ ثموداً قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ من السُّوءِ شَنِيعَةٍ، إذْ صَارُوا يَعِيثُونَ في الأرْضِ فساداً بِوَجْهٍ عَامٍّ إلَّا قَلِيلاً مِنْهم.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها، أي: ولَا تُفْسِدُوا حَالَةَ كوْنِكُمْ قَاصِدِينَ الإفساد، وبَاغِينَ الإضْرَارَ، وَفَاعِلينَ لَهُما.

وبهذا انتهى الفصل الأول.

* * *

الفصل الثاني
مرحلة تفاقُمِ التَّخَاصُمِ بَيْنَ المؤمنين والكَافِرِينَ مِنْ ثمود

تخوَّفَ كُبَرَاءُ كُفَّارِ ثَمُود من تَكَاثُرُ أعداد الّذين يُؤمِنُون بِرَسُولهم صالحٍ عليه السَّلام، فَشَدَّدُوا حَمْلَةَ الْجَدَلِيَّاتِ الْعَنِيفَةِ، الَّتِي كانُوا يُجَادِلُون بها الضُّعفاء من الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعوه.

دلَّ علىٰ هذه المرحَلَة قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: هُمْ كبراء الْقَوْمِ وأَعْيَانُهُمْ وَذَوُوا الْوَجاهَةِ فيهم، الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيونَ الْجُمْهُورِ الأعْظَم مِنَ الْعَامَّة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾: أي: الَّذِين اسْتَكْبَرُوا مِن ثَمُود عَنِ الإيمان بصَالح عَلَيْهِ السَّلام، وعَنِ اتّباعِهِ واتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهم،

إذْ رَأَوْا نُفوسَهُمْ أكْبَرَ وأعْلَىٰ مِنْ أنْ يَتَّبِعُوا صالحاً وهو دُونَهُمْ في الطَّبَقَةِ الاجْتِماعِيَّة، وأرْفَعَ مِنْ أنْ يكُونُوا مع الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وهٰؤلاءِ في مَفْهُومَاتِهم الاجتماعيَّةِ الطَّبَقِيَّةِ دُونَهُمْ مَنْزِلَةً فِي المجتَمعَ الثَّمُودِي.

ورُبَّما كان هؤلاء الّذين اسْتَكْبَرُوا هُمْ ذَوي السُّلْطان والأَمْرِ النَّافِذِ فِي قَوْمِهم.

لقد رَفض هؤلاء المسْتكْبِرُونَ دَعْوة صالح عليه السَّلام ومعهم أَتْباعهُم من عامّة ثمود، ولَمْ يَسْتَجِيبُوا له، ولم يُؤْمِنُوا بِهِ ولا بما جاء به من عنْد اللهِ من حقٍّ وَهُدىً.

ولم يقْتَصِرْ هؤلاء المسْتكْبرُونَ عَلَىٰ الكُفْرِ ورفْضِ الاستجابة لِدَعْوة الحقّ والْهُدَىٰ، بلْ تَوجَّهُوا للّذين آمَنُوا بصالح عليه السَّلام من المسْتَضْعَفين مِنْ قوْمهم، لِيَفْتِنُوهم عَنْ دِينهِم، ويَرُدُّوهم عمَّا آمَنُوا بِه، ويُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمْ، ولِيُسْمِعُوا جَمَاهِيرَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ بِرَسُولِهِم، بُغْيَةَ التَّأْثِير عليْهم، حتَّىٰ يَتَوَقَّفُوا عن اتّبَاع نُظَرائهم الذين آمَنُوا واسْتَجابُوا لِدَعْوَة الحقّ، فَمِنْ شَأْنِ النُّظَرَاءِ أَنْ يَجُرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ويُؤَثِّرَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.

واخْتِيَارُ عبارة: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ يُشْعِرُ بأنّ الكَفَرَةَ المسْتَكْبِرِينَ، قَدْ جَمَعُوا جَماهِير المستَضْعَفِينَ، مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ومَنْ لَمْ يُؤْمِنْ، وخاطَبُوا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُسْمِعُوا الآخَرين.

هٰذِهِ الْمَرْحَلَةُ وأَمْثَالُها تكُونُ عَادَةً عِنْدَ ما يَتَخَوَّفُ كُبَراءُ الكافِرينَ مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ المسْتَضْعَفُونَ الَّذِينَ ما زالُوا أتْباعَهُمْ وأنْصارَهُمْ، فَيَخْرُجُوا عَنْ سُلْطَانِهِمْ، ويَكُونُوا قُوَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وقُوَّةً للرَّسُولِ الَّذِي كَذَّبُوه، وخَالَفُوهُ، وناصَبُوه الْعِدَاء.

وكان أُسْلُوبُ هؤلاَءِ المضِلّين، يَعْتَمِدُ على الابْتِعَادِ عن المجادَلَةِ

حَوْلَ مَفْهُومَاتِ الدِّين، الَّذِي آمَنَ بِهِ فَرِيقٌ من المستضْعَفِين، لأنَّ حُجَّتَهُمْ حَوْلَهَا قَوِيَّةٌ ودَامِغَةٌ، فاخْتَارُوا أَنْ يَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَخْصِ «صالح» عليه السَّلام، نَبِيِّهِمْ ورَسُولِهِمْ، لِيَجِدُوا في شَخْصِه شيئاً يُعْطِيهِمْ فُرْصَةً لِلتَّشْكِيكِ في كَوْنِهِ نبيًّا وَرَسُولاً مِنْ رَبّه، قالُوا لَهُمْ:

- ﴿... أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ... ۝٧٥﴾.

أي: هلْ لَدَيْكُمْ أدِلَّةٌ قَوِيَّةٌ تُثْبِتُ أَنَّ صَالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبّه حَقًّا وَصِدْقاً؟!

فأدْرَكَ المسؤُولُون المكيدَةَ الْجَدَلِيَّة، فَلَمْ يُجِيبُوهم عَمَّا سَأَلُوا عَنْه، بلْ رَدُّوا عَلَيْهِمْ بأَنَّ مَضْمُونَ رِسَالَتِه الَّتِي جاء بِهَا حَقٌّ وصِدْقٌ، وَتَشْهَدُ لَهُ البراهِينُ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُرْسِلَ به:

- ﴿...قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٧٥﴾.

أي: لَا تجادلُونَنَا في شخْص النبيّ الرَّسُولِ صالح عليه السَّلام، ولكِنْ نَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لِمُجَادَلَتِكُمْ حَوْلَ مَا أُرْسِلَ به، فَنَحْنُ مُؤْمِنُون به، وإِذَا كَانَ كُلُّ مَا جَاءَ به حَقًّا يَجِبُ الإيمان به، فَمِنَ الزَّيغ عَنْ جَوْهَرِ قَضِيَّةِ الدِّينِ التَّشَاغُلُ بالْبَحْثِ عَنْ شَخْصِ مُبَلِّغِهِ عَنْ رَبّه، وكَوْنُ مَا جَاءَ بِهِ حَقًّا وَصِدْقاً دَلِيلٌ كافٍ لإثْبَاتِ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّه.

من هذا يَظْهَرُ لكلّ ذي فِكْرٍ سَدِيدٍ أَنَّ طَرِيقَةَ هٰؤلاء المؤمنين في هذا الرَّدّ هي الطريقة الحكيمَةُ المفْحِمَة، في أَسَالِيب الْجَدَلِ حَوْلَ قضايا الحقّ.

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَجِدِ المسْتَكْبِرُونَ حُجَجاً يُبْطِلُونَ بِها مَضْمُونَ الرِّسَالَةِ الَّتي أُرْسِلَ بِها صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلام، فَلَجَؤُوا إِلَىٰ أُسْلُوبِ إِصْرَارِ المسْتَكْبِرِ الْمُعَانِدِ بِوَقَاحَةٍ، مُعْلِنِينَ كُفْرَهُمْ بِمَا آمَنَ بِهِ المؤمِنُونَ مِنْ حَقٍّ وهُدىً، دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا حُجَّةً ما، اعْتِماداً عَلَىٰ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ فِي قَوْمِهِم. وقَدْ دَلّ على مَوْقِفِهِمْ هذا قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

ولاَ بُدَّ أنْ يَتَوَقفِ الجدال عند هـٰذِهِ المكابِرَة بالباطل، والإصرار على رفض الحق. لَكِنَّ المكابَرَةَ تتضَمَّنُ في الحقيقةِ هَزيمةَ المكابِرِ، وإدانَتَهُ لَدَىٰ العقلاء، ولَدَىٰ كلِّ ذي فكْرٍ سَلِيم.

* * *

الفصل الثالث

مَرحَلَةُ عَدَمِ مبالاَة قَومِ صَالِحِ عليه السّلام بأنْ يَأتِيَهُمْ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ

لَقَدْ أغرىٰ كُفَّارَ ثَمُودَ إمْهَالُ اللهِ عزّ وجلّ لَهُم، وهي سُنَّتُهُ الدائِمَةُ فِي كُلِّ كُفَّارِ الأُمَم.

وحكمة الله جلَّ جلالُهُ في الإمْهَالِ أنْ لاَ يُبْقِيَ لأحدٍ مِنْهُم عُذْراً يَعْتَذِرَ به، لَدَىٰ الحكْم علَيْهِ بالْخُلودِ في عَذَاب النَّارِ، لِكُفْرِه بالْحَقِّ الّذِي تَبَلَّغَهُ مَقْرُوناً بِبَراهِينه.

دلَّ علىٰ هـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ قَوْلِ الله عزّ وجلّ في سُورَة (النَّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

دلَّ هذا البيان على أواخِرِ مَوَاقف مُكذّبي ثمود لرسولهم صالح عليه السَّلام، فهو مُعبِّرٌ عَنْ هـٰذِهِ المواقف بَعْدَ مَسِيرَةٍ دعوِيَّة اشتَملتْ عَلَيْها سِيرَتُهُ عَلَيْهِ السَّلام مَعَهُمْ، فَهِي مُنْتَزَعَةٌ مِنها اخْتِزَالاً.

ودلَّ عَلَىٰ أنَّهُ قَدْ سَبَقَ أنْ أنْذَرَهُمْ بعِقَابٍ من اللهِ مُهْلِكٍ لَهُمْ إهْلاَكاً

جَمَاعيًّا فِيه إبادَةٌ مُسْتَأْصِلَةٌ لهم، وعلى أنَّ إنْذَارَاته كانت تتوالَىٰ عليهم.

ودلَّ أيضاً على أنَّ اللهَ عزّ وجلّ كَانَ يُمْهِلُهُمْ، رَغْبَةً فِي توبَتِهم وإيمانهم، إلّا أنَّ الإمْهَالَ الطَّوِيلَ أَغْرَاهُمْ بِتَصْدِيق توهُّمِهِمْ بأنَّ صَالحاً لَا يَمْلِكُ مِنْ رَبِّهِ تَحْقِيقَ ما أنْذَرَهُمْ بِهِ، مَعَ أنَّ إنْذَارَهُ لَهُمْ لم يَكُنْ إلّا مُبَلِّغاً إيَّاهُ عَنْ رَبّه، ومعلومٌ أنَّ من سُنَّةِ اللهِ عزّ وجلّ أنْ يُمْهِلَ عبادَهُ في الحياة الدنيا حياة الابتلاء إمهالاً طَوِيلاً، حتَّىٰ يَقْطَعَ كُلَّ أعْذَارِهِمْ.

﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؟! **الاسْتِعجال**: طَلَبُ تَعْجِيلِ الأمْرِ المَوْعُودِ بِهِ قَبْلَ أوانِه، أو طلَبُ تَحْقِيقِ الشيءِ قَبْلَ الوقف الذي قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ الحكيمَةُ بتحقيقه فيه.

جاء فعل «اسْتَعْجَلَ» بمَعْنَىٰ «عَجِلَ» أي: أسْرَعَ فَهُو لازم يتعَدَّى بالحروف.

والمعنىٰ: قال رَسُولُ الله صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام لكُفّارِ قَوْمه: يَا قَوم لِمَ تَعْجَلُونَ بِطَلَبِ تحقِيق ما أنْذرْتُكُمْ بِهِ مِنْ عَذَاب رَبّكُمْ، وإهْلاكِكُمْ إهْلاكاً مُدَمِّراً شاملاً؟!

السَّيِّئَة: تُطْلَقُ عَلىٰ كُلِّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهَة، وتُطْلَقُ علىٰ كُلِّ فَعْلَةٍ قَبِيحَةٍ. والمعنَىٰ الأوَّلُ هو الملائم هُنا.

﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: تُطْلَقُ الْحَسَنَةُ عَلَىٰ الحظُوظ السَّارَّة، وعَلَىٰ النِّعَم الَّتي يَسْتَمْتِعُ بها الَّذِينَ نَالُوها مَتاعاً مَحْبُوباً إلى نفوسهم. وتُطْلَقُ على كُلِّ فَعْلَةٍ جَمِيلَةٍ يُمْدَحُ فاعِلُها. والمعنى الأوّلُ هُو الملائم هنا.

فالمعنى الذي أفْهَمُهُ مِنْ قَوْل صالح لقومه: ﴿يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: يَا قَوْم لِمَ تَعْجَلُونَ بِطَلَبِ إنْزَالِ السّيِّئَة الّتِي تَكْرَهُون إنْزَالَهَا بِكُمْ إذَا نَزَلَتْ، قَبْلَ أن تَسْتَوْفُوا حظُوظَكُمْ الحسْنَةَ الّتي قَضَىٰ اللهُ أن تَسْتَمْتِعُوا بها في الحياة الدنيا.

إنَّ رَبَّكُمْ يُمْهلكُمْ رَغْبَةً في تَوْبَتِكُم واستغفاركم، ما دامَت حكمتُه تقضي بإطالَة مُدَّةِ امْتِحانِكُمْ في هٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

- ﴿... لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿لَوْلَا﴾: تحضيضِيَّة بمعنى «هَلَّا». أي: هلَّا تَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ، فيتجاوَزَ عَنْ كُفْرِكُم وجَرَائمكُمْ فَلَا يُعَاقِبَكُمْ عليها، رحْمَةً منْهُ بكم.

الاستغفار: طَلَبُ الْغُفْرَانِ، وهُو سَتْرُ الذُّنُوب والمعاصِي، ويَلْزَمُ مِنْ سَتْرِها التَّجاوُزُ عن المعاقَبَةِ عليها بفضل الله، ويَنْبَغِي أنْ يكون الاسْتغفارُ مُسْتَتْبعاً بالتوبة من ارتكاب الذُّنوب، إذْ كَيْفَ يُقْبَلُ طَلَبُ سَتْرِ الذَّنبِ الماضِي مع الإصرار على فِعْلِ مِثْلِهِ في الحال أو الاستقبال؟!

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: **لَعَلَّ**: للتَّرَجّي، والتَّرَجّي يُلَائم حَالَ العباد، ولا يُلَائم صِفَاتِ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ، وهُوَ علىٰ مَا يَشَاءُ قَدِير.

فالمعنى: هَلَّا تَسْتَغْفِرُوْنَ اللهَ عزّ وجلّ، رَاجِينَ أنْ يَرْحَمَكُمْ فَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، ويَرْفَعَ عنكم ما أنتم تَسْتَحقُّونَ مِنْ عِقَابٍ على مَا سَبَقَ مِنْكُمْ مِنْ كُفْرٍ في الاعْتِقَادِ، وجرائم في السُّلُوك.

- ﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾: **اطَّيَّرْنا**: أَصْلُهَا: «تَطَيَّرْنا». **والتَّطَيُّر**: هو التشاؤُمُ بالأشياء، أو بالأشْخاص، أو بمَسْمُوعٍ، أو بمَرْئي، أو بنَحْو ذلك.

وأصْل التَّطَيُّرِ مِنْ زَجْرِ الْعَرَبِ للطَّيْر، فإذَا طَارَ إلَىٰ جِهَةِ الْيَمِينِ تَفَاءَلُوا، وإذا طار إلى جِهةِ الشمالِ تشاءَمُوا.

دلَّ تَطَيُّرُهم علىٰ أنَّ الله عزّ وجلَّ قَدْ أنزل بثَمُودَ عَلَى وفْقِ عادتِه في الأقوام، مَقَادِيرَ مِن البأسَاءِ والضَّرَّاءِ، رَغْبَةً في أنْ يتُوبوا ويَتَضَرَّعُوا،

سائِلينَ الله عزّ وجلّ أن يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بهم، بَعْدَ أنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِمْ صالح عَلَيْهِ السَّلام، وبما جاء به عَنْ رَبّهم.

لكِنَّ أهْلَ الكُفْرِ العنادِي الجحودِيّ، ينْسُبُونَ ظَاهِرَاتِ البأسَاءِ والضَّرَّاءِ، إِلَىٰ شُؤْم رُسُلِهِمْ، وشُؤْمِ الَّذِين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم، على سبيلِ التَّطَيّرِ التَّوَهُّمِيّ، الّذِي لَا يكُونُ المتَطَيَّرُ بِهِ سبباً لحُدُوثِ البأسَاءِ والضَّرَّاءِ بحالٍ من الأحْوال.

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَعَلَّقُونَ بالأوْهام الباطِلَةِ، ويُكَذِّبُونَ رُسُلَ رَبّهم الصَّادِقِين، ويُكَذِّبونَ بالحَقِ الّذي يُبَلّغُونَهُ عَنِ الله رَبِّ العالمين.

- ﴿... قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۝٤٧﴾:

﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ﴾: أي: قَالَ: عَمَلُكُمُ انْطَلَقَ طَائِرا فَصَارَ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عِلْماً، وتَسْجِيلاً، وحِسَاباً، وهُوَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْزَلَ الله عزّ وجلّ بِكُمْ مِنَ البأسَاءِ والضّرَّاءِ مَا تكْرَهُون، رَغْبَةً فِي أنْ تَتُوبُوا إِلَيْهِ، وتَسْتَغْفِرُوه، وتَتَضَرَّعوا، سائِلينَ أن يكْشِفَ ما أنزل بكم من مصائب.

لَكِنَّكُمْ صَرَفْتُمْ هـٰذِهِ الحقيقة عَنْ أذْهانِكُمْ، وتَمَسَّكْتُمْ بأَوْهَامِ التَّطَيُّرِ الّذي لَا حَقيقَة له، وإنّما هو ذَرِيعةٌ تَتَهَرَّبُونَ بها من الحقّ.

واخْتِيرَ لفْظُ الطائرِ كِنَايَةً عَنِ الْعَمَلِ، ليتَلَاءَمَ في اللَّفْظِ مع الطِّيَرَةِ المشْتَقَّةِ من الطّائر، وهـٰذِهِ كنايةٌ قُرْآنِيَّة.

فالمعنى: لَا شُؤْمَ مِنّي، ولا مِنَ الّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُونِي، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ، فَتَسْتجيبونَ لوساوس الشيطان وإغراءاته وتَسْويلاته بالباطل، مُنْخَدِعِينَ بها، إذْ يُزَيّنُ لَكُمْ شَهَوَاتِكُمْ من الحياة الدُّنيا، ويُزَيّنُ لَكُمْ ما أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ وَضَلَالٍ عن الحقّ والْهُدَىٰ، وتتأثَّرُونَ بها جائرين عن صراطِ الحقّ، صِراط الله المستقيم.

الفتنة: تأتي في اللُّغة للدَّلالَةِ علَىٰ معاني عَدِيدة منها:

(١) الابتلاء. (٢) التعذيب (٣) الإغراءُ والخداعُ بالباطل للإضلالِ والصَّرْف عن الحق، وهذا المعنىٰ الأخير هو الملائمُ هُنا.

﴿تُفْتَنُونَ﴾: أي: يُتابع شياطين الإنْس والجنِّ عَلَيْكُمْ وَسَائِلَ الإغْراء والإغْوَاءِ لإضْلَالِكُمْ، فتَسْتَجِيبون لَهُمْ، فَتَضِلُّونَ عَنْ إدْراكِ الحقّ، وعن الاسْتِمْسَاكِ بِهِ، والْعَمَلِ بمَا يقْتَضِيه منْكُمْ مِنْ سُلُوكٍ. دلَّ على هٰذِهِ المتابعة استعمال الفِعْلِ المضارع في التعبير.

وقُدِّم المسْنَدُ إلَيه في عبارة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ لتَعْيِينِ افْتِتَانِهِم وضلالهم، في مُقَابِلِ انتفاء الشُّؤم الَّذِي ادَّعَوْهُ بِقَوْلِهِمْ لِرَسُولِهم صالحٍ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾. دَلَّ على هذا حرف «بل». فالعبارة بقُوَّة: لَا شُؤْمَ يَأْتِيكُمْ مِنْ قِبَلِنَا حتَّىٰ تَطَّيَّرُوا بِنا، إنَّما أنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُون.

* * *

الفصل الرابع
مرحلة طُغيَانِ ثمود بعَقر ناقة الله وتحدّيهم رسُولهم بأن يأتيهم بما كان ينذِرهم به

لقد غَرَّ كُفَّارَ ثمود طُولُ إمْهَالِ اللهِ لهم، ليقطَعَ آخِرَ خَيْطٍ من نَسيج معاذيرهم، الّتي قد يعْتَذِرُونَ بِهَا عنْدَ رَبِّهم، فبَعَثُوا أكْثَرَهُمْ كُفراً وطُغياناً وَحِدَّةً وشَرّاً لِعقرِ الناقَة، وقالُوا لصالح عليه السَّلام: ائْتِناً بما تَعِدُنَا من عذابٍ مُهْلِكٍ إنْ كُنتَ مِنَ المرْسَلين، فاقتضت حِكْمَةُ اللهِ عزّ وجلّ أنْ يُعَذِّبَهُمْ عَذَابَ استِئْصَالٍ عَقِب هذه المرحلة.

دلَّ على هٰذِهِ المرحَلَةِ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾:

في آية سورة (الأعراف) بيانُ ثلاثةِ تَحَدّيَاتٍ تحدَّىٰ بها كُفَّارُ ثمود رَسُولَ رَبّهم صالحاً عَلَيْهِ السَّلام، اثنان منها عمليّان، وثالِثُها قَوْلي:

التحدّي العمَلِيُّ الأول: دلَّت عليه عبارة ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ...﴾ أي: إنَّهم لم يعْبؤوا بإنذارِ صالح لهم بأنْ يأْخُذَهُمْ الله بعَذَابٍ أَلِيمٍ وقريبٍ فِي يَوْمٍ عظيم، إذا مَسُّوا ناقَةَ الله بسُوءٍ ما، فكانَ مَنْهُمْ عَقْرُها ونَحْرُها، بِجَرِيمَةٍ كُبْرَى، وهم يَعْلَمُونَ أنَّها آيَةُ اللهِ لَهُمْ، إذْ أخْرَجَها لَهُمْ مِن الصَّخْرَةِ الّتي عيَّنُوها، وعلى الوصْفِ الّذِي حَدَّدُوه، وهٰذِهِ حَمَاقَةٌ لَا يَفْعَلُهَا إلَّا جَبَّارٌ مَغْرُورٌ مُسْتَكْبِر.

التحدّي العَمَلِي الثاني: دَلَّت عليه عبارة: ﴿...وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ...﴾: لَقَدْ وَجَّهَ «صالحٌ» عَلَيْهِ السَّلام لَهُمْ أوَامِرَ من اللهِ لَهُم تتعلَّقُ بالإيمان، وبالعبادة، وبأنواع من السُّلُوك، والأمْرُ يَشْمَلُ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ، وما يَجِبُ تَرْكُه، إذِ الْأَمْرُ بالشيْءِ نَهْيٌ عن ضِدِّهِ، والنَّهْيُ عَن الشيءِ أمْرٌ بضِدِّه.

﴿عَتَوۡاْ﴾: أي: اسْتَكْبَرُوا وتجاوَزُوا حُدُودَ المعاصِي المعتادَةِ في النَّاسِ، وتجاوزوا حُدُودَ الإفْسَادِ الَّذِي تُوجَدُ نِسْبَةٌ مَا مِنْهُ في كلّ أمّة، وغَلَوْا غُلُوًّا فَاحِشاً في ذَلِكَ كَمًّا وكيْفاً، حتَّىٰ بَلَغُوا إلَىٰ حَضِيضٍ تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللهِ مَعَهُ أنْ يُنْزِلَ بِهِم عقاباً صارماً حَازِماً شاملاً.

والعاتِي: هو الطاغِي الجبّارُ المفْسِد.

وقد ضُمِّنَ فِعْل: **«عَتَوْا»** في العبارة معْنَىٰ فعل **«ابْتَعَدُوا»** أو فعل

«أَعْرَضوا» أو فِعْلِ «تَوَلَّوْا» فَعُدّي تَعْدِيته بحرفِ «عَنْ» فقال تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: أي: فَعَتَوْا مُتَوَلّين عَنْ أَمْرِ رَبّهم، فَأَكْثَرُوا الْفَسَادَ والإِفْسَادَ في الأرض.

التحدّي الثالث: (وهو تَحَدٍّ قَوْليّ): دلَّت عليه عبارة: ﴿... وَقَالُوا يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

لَقَدِ اسْتَمَرُّوا مُعَانِدِينَ على ادّعاء أنَّهُ كذَّابٌ ولَيْسَ رَسُولاً من الْمرُسَلِينَ، من قِبَلِ رَبّ العالَمين، على الرُّغم من آيَةِ النّاقَة الَّتِي أَخْرَجَهَا اللهُ عزّ وجلّ لهم من الصخرة وهم شُهُودٌ يَنْظُرُونَ.

لقد غَرَّهم طُولُ إمْهال الله لهم، وتمكُّنُهمْ من عقر ناقة الله، دُونَ أنْ يُنْزِلَ اللهُ بهم الْعِقَابَ الْفَوْرِيَّ على عَقْرِهم الناقة.

ولَعِبَتِ الأَوْهَامُ في نُفُوسهم، فأبْعَدتْهُمْ عن اسْتِبْصَارِ الحقّ، وَرُبّما تَصَوَّرُوا أَمْرَ النَّاقَةِ نَوْعاً مِنَ السِّحْر.

وظاهِرٌ أَنَّهُمْ لم يُرِيدُوا فِعْلاً أنْ يُنْزِلَ اللهُ بِهِمْ عَذاباً بإهْلاَكٍ عامّ شَامِلٍ، وإنَّما تَوَهَّمُوا أنَّ اللهَ عزّ وجلّ لاَ يَسْتَجِيبُ لصالحٍ عَلَيْهِ السَّلام، إذْ هُو في اعْتِقَادِهِمُ القائم على الْغُرُور ليْسَ رسُولاً، دَلَّ على هـٰذا قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً لمعنى مَا قَالُوه له: ﴿... إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ باستعمال حرف «إنْ».

أمّا مَا جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾:

فَدَلَّ علىٰ أنَّ كُبَرَاء «ثَمود» خَافوا أنْ يُبَاشِرُوا عَقْرَ النَّاقَة بأنْفُسِهِمْ، فَنَادُوا صَاحِبَهُم، وهُوَ أشْقَّاهم كما جاء في سورة (الشَّمْس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾:

وجاء التعبير في آية سورة (القمر) بأنّه صاحِبُهُمْ، للإشارَةِ إلىٰ أنَّ كُفَّارَ ثَمُود كُلَّهُمْ أشقياء، إلَّا أنَّ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ مِنهم قَدْ كان أشْقَاهم، وكانَ هـٰذا أخْبَثَ تِسْعَةِ رَهْطٍ أشقياء من ثمود، وهُو قائدهم، وكانَ هؤلاء أكثر قَوْمِهِمْ سَفَاهَةً، وجُرْأَةً علىٰ الشرّ وارْتكاب كبائر الإثم.

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: يُقَالُ لغة: «تَعَاطىٰ الرَّجُلُ» أي: قَامَ على أطراف أصابعِ رجْلَيْه، ورَفَعَ يَدَيْه إلَىٰ الشَّيْءِ لِيَأْخُذه.

﴿فَعَقَرَ﴾: أي: فَعَقَر ناقة الله. الْعَقْرُ في اللُّغةِ يأتي بمَعْنَىٰ قَطْعِ إحْدَىٰ قوائم الْبَعِير ليَسقُطَ على الأرض، ويَتَمَكَّنَ العاقِرُ مِنْ نَحْرِه. ويُقَالَ أيضاً: عَقَرَ الحيوانَ، أي: ذَبَحَهُ.

ويُمْكِنُ تَصْوِير مَا قَامَ به «قُدَارُ» أشْقَىٰ «ثَمود» أنَّ هـٰذا الأشْقَىٰ أسْرَع عَقِبَ مُنَاداة كُبَراءِ قَوْمِهِ له مُحَرّضِينَ إيَّاهُ عَلَىٰ التخلُّصِ منَ الناقة، فتناول سِلاحَهُ بخِفَّة، وأقْبَلَ مُتَبَاسِلاً يَمْشِي على رُؤُوس أصَابعِ رِجْلَيْه، مادًّا يَدَيْهِ بسِلَاحِهِ إلَىٰ الأعْلَىٰ، وأقْبَلَ بِجُرْأَةٍ إلَىٰ النَّاقَةِ، فَعَقَرَهَا أوّلاً حَتَّىٰ سَقَطَتْ إلَىٰ الأرض، وعَقَرَهَا ثَانِياً فَنَحَرَهَا.

جاء هذا التصوير الموجَزُ البديعُ بعبارة: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾.

* * *

الفصل الخامس
مَرحَلَةُ تَبيِيتِ أَشقِياءِ ثمود قَتلَ صالحٍ عليه السّلام وأهْلِهِ معه

يظهر أنَّ تَخلُّصَ كُفَّارِ ثَمُود مِنَ النَّاقَةِ، دُونَ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِهِمْ فَوْراً مَا كَانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ صَالِحٌ عليه السَّلام بِهِ مِنْ عَذَابٍ مُسْتَأْصِلٍ، قَدْ أَغْرَاهُمْ بِأَنْ يَتَخلَّصُوا من رَسُولِهم ومِنْ أهله مَعَهُ، فَدَفَعَ كبراء كفَّار ثَمُودَ عِصَابَةً

أشْقِيَائِهم سِرًّا، أنْ يُدَبِّرُوا قَتْلَ رَسُولِهِمْ وقَتْلَ أهْلِهِ بَيَاتاً، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ أَحَدٌ من أَوْلِيائِهِ، وأَنْ يَحْلِفُوا على أنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً عَنْ هَذَا الحَدِثِ.

دلَّ على هٰذِهِ المرحَلَةِ قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

الرَّهط: الجماعة من الرّجال دون العشرة.

تِسعَةُ رَهطٍ: لمّا كانت كلمة «رَهْطٍ» بمعنى «رجالٍ» صَحَّ تمييزُ لفظ «تِسْعة» بمضافٍ إِلَيْهِ مَجْرُورٍ، كَقوْلنا، «تِسْعَةُ رِجال».

﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: يُفْسِدُونَ في أرض مَدِينَة ثَمُودَ، ورُبَّما يُفْسِدُونَ في غَيْرِها أيضاً.

الإفساد: تحويل الشيْء من كَوْنه صالحاً نافعاً، إلى كونِهِ غَيْرَ صالحٍ ولا نافع، بل رُبَّمَا يَصِيرُ ضارّاً كرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾: إثْبَاتُ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ، لا يَنْفِي أَنَّهُمْ قَدْ يُصْلِحُونَ أحْياناً، فجاءَتْ عبارةُ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لا يَكُونُ مِنْهُمْ صَلاحٌ ولا إصلاحٌ ما، في كلّ أَعْمَالِهِمْ وتَصَرُّفَاتِهِمْ وَمَا يَكْسِبُون.

فعلُ «أصْلَح» يأتي بمَعْنَيَيْنِ:

المعنى الأوّل: يُقَالُ فِيه: «أَصْلَحَ الرَّجُلُ» أي: أَتَى بما هو صالحٌ نَافع، فهو فعل لازمٌ على هذا المعنى.

المعنى الثاني: يُقَالُ فيه: «أَصْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أَزَالَ فَسَادَه، فهُو فِعْلٌ مُتَعَدٌّ عَلَىٰ هٰذا المعنَىٰ.

وكلا المعْنَيَيْن يَنْطَبِقان على هؤلاء الرَّهط التسعة.

فَدَلَّ قَوْلُ الله عزّ وجلَّ في وَصْفهم ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ على أَنَّهم لَا يكُون مِنْهُمْ إلَّا الْفَسَادُ والإفْسَادُ، ولا يَكُونُ مِنْهُمْ صَلَاحٌ ولا إصْلَاح، ويظهر أنَّ عَاقِرَي النّاقة كانا المقدَّمَيْن في هؤلاء الرَّهْط.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ . . . ﴿٤٩﴾﴾.

﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ فِعْلُ أمْرٍ بإحداث الْقَسَم بالله، أي: قَالَ بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ: لِيُقْسِمْ كُلٌّ مِنَّا باللهِ.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾: مَقُولُ قَوْلٍ محذوف هو حال، وتقدير الكلام: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ فَأَقْسَمُوا قَائِلِينَ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾: أي: لَنقتُلَنَّ صَالحاً وَأَهْلَهُ بيَاتاً.

التَّبْيِيت: عَمَلُ شيءٍ ما، أو تَدْبيرُه، أو الاتّفَاقُ عليه، أوْ نِيَّةُ فِعْلِه، لَيلاً. ومن عَمَلَ الشيْءِ لَيْلاً مُباغَتَةُ الْعَدُوِّ في اللّيلِ لِقَتْلِهِ، أوْ سَلْبِهِ، أو إنْزَال مَا يَكْرَهُ به.

- ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾:

﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾: أي: لِأَقْرِبَائِهِ الَّذِينَ يُطَالِبُونَ بالثَّأْرِ.

- ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾: أي: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ صَالح، ولا مَهْلِكَ أَهْلِه، فَلَمْ نَكُنْ حَاضِرِينَ عِنْدَ هَلَاكِهِمْ، حَدَثاً، ولَا زَمَاناً، ولا مَكَاناً.

نَفْيُ شُهُودِ الحَدَثِ أَبْلَغُ مِنْ نَفْي إحْدَاثِه، لأنَّ نَفْي فِعْلِ الحدَثِ قَدْ يَكُونُ مع الحضور والشُّهُودِ، لَكِنَّ نَفْيَ الشُّهُودِ يَدُلُّ علىٰ أنَّ الْعِلْمَ بِهلاكِهِمْ قَدْ كان تَلَقِّيًا مِنْ أخبار النّاس.

- ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: أي: وَنُؤَكِّدُ لِوَلِيِّهِ بَعْدَ الْقَسَمِ صِدْقَنَا في أَنَّنا ما

شَهِدْنَا مَهْلِكَهُمْ، ففي هٰذِهِ الْعِبَارَةِ التوكيد بـ «إنَّ ـ الجملة الاسميّة ـ اللَّامُ المزحْلَقة».

- ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾:

المكر: تَدْبِيرُ أَمْرٍ ما في خَفاءٍ، يكونُ في الخير، ويكُونُ في الشّرّ. أمَّا مَكْرُ أشقياء ثَمُودَ فَقَدْ كَانَ في الشّرّ، إذْ دبَّروا قَتْلَ صالحٍ عليه السَّلام وأَهْلِهِ في خَفَاءٍ. وأمَّا مَكْرُ اللهِ فقد كَانَ في الخير، إذْ أَحْبَطَ اللهِ بِمَكْرِه مَكْرَ أشْقِيَاءِ ثَمُود، وأهْلَكَهُمْ عقاباً لَهُمْ، والجزاءُ بِالْعَدْلِ هُو مِنَ الْخَيْرِ حتماً.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: وهم لَا يَعْلَمُونَ أقلَّ عِلْمٍ بتَدْبير الله عزّ وجلّ.

* * *

الفصل السادس
مرحَلَةُ إنذَار صالح عليه السّلام لكُفّارِ قَوْمِهِ
بأنّ عذاب اللهِ نازِلٌ بهم
بَعْدَ ثَلاثَةِ أيّام

لمَّا وَصَلَ كُفَّارُ ثَمُودِ غَايَةَ الإمْهَالِ الَّذِي قضَتْ بِهِ حِكْمَةُ اللهِ عزّ وجلّ، وشَاءَتْ حِكْمَتُهُ ـ جَلّ جَلَالُه وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنْ يُعَلِمَهُمْ بِمَوْعِدِ إهْلَاكِهِم الْقَرِيب، أَوْحَىٰ إلى رَسُولِهِ صَالح عليه السَّلام بأنْ يُبلِّغَهُمْ بأنَّ إنْزَال الْعَذَابِ الْمُهلِكِ لهُمْ سَيكُونُ بَعْدَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، فَأَبْلَغَهُمْ رَسُولُهُمْ ذَلِكَ كَمَا أوحَىٰ اللهُ عزّ وجلّ إلَيْه.

دلَّ على هذا قولُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نُزُول).

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ . . . (٦٨)﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سِورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٧٨)﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ . . . (١٥٨)﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥)﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (١٨)﴾:

من سورة (هود):

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾:

أي: فَعَقِبَ عَقْرِ «ثَمود» ناقَةَ الله، بِزَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ، جَرَىٰ فِيهِ تَدْبيرُهُمْ قَتْل صَالِحٍ وأَهْلِهِ، وجَرَىٰ فيه إِهْلَاكُ اللهِ عزّ وجلّ أشقياءَ ثَمُودَ التّسعة، قالَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ تَمتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّام، وفي الْيَوْمِ الرَّابِعِ يَكُونُ إِنْزَالُ عَذَابِ اللهِ الأَلِيمِ الْمُهْلِكِ الَّذِي يَسْتَأْصِلُكُمْ اسْتِئصالاً شاملاً.

﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾: أي: انْتَفِعُوا في دَارِكُمْ بما فيها من أَمْنٍ ورَخَاءٍ.

المتاع: كلُّ شَيْءٍ يُنْتَفَعُ به والْفَنَاءُ يأتي عَلَيْهِ في الدُّنيا. أمَّا النعيم فقد خَصَّهُ اللهُ عزّ وجلّ في القرآنِ بما يكونُ في الجنَّةِ يَوْم الدّينِ من لذّاتٍ وَسَعَادَات، والدُّنيا لَا نَعِيمَ فيها، وإنَّما فيها تمتُّعٌ زائِلٌ وَمَشُوبٌ بالمنغّصات.

﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾: أي: ثَلاثَةَ أيام بِلَيَالِيها فقط، وفي الْيَوْمِ الرابع بدْءاً من أوّلِهِ يَنْتَهِي استِمْتَاعُكُمْ، ويأْتِي وقْتَ عَذَابكُمْ.

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أي: ذَلِك الْعَذَابُ الألِيمُ العظيمُ الَّذِي سَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مع بَدْءِ الْيَوْم الرابعِ وَعْدٌ صَادِقٌ حَقّاً، جاءَتْ الإشارة باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه الْبَعيد، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ عِظمِ الْعَذَابِ الموعود به، وشِدَّةِ إيلامِه للمعَذّبين.

﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أي: غَيْرُ مَوْعُودٍ وَعْداً كَذِباً، يُقَالُ لُغَةً: «مَا كَذَبَ الرَّسُولُ قَوْمَهُ وَعْدَه» فوعْدُه غير مكْذُوب. ويقال: «كَذَبَ إبْلِيسُ آدمَ حَدِيثَهُ» فَحَدِيثُهُ مَكْذُوب.

فَلا حَاجَةَ مع هذا إلى تقدير معمول مَحْذُوفٍ، كأنْ نقول: مَكْذُوبٍ فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: فلَمَّا جاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أمْرِنَا الّذِي قَضَيْنَاه، بِتَنْجِيَةِ صَالحٍ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وإهْلَاكِ سائِرِ ثمود بسَبَب ظُلْمِهِمْ.

﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾:

النجاة: الْخَلاصُ من المكْرُوه.

أي: خَلَّصْنَا الَّذِينَ قَضَيْنَا أَنْ نُخَلّصُهُمْ من الإهْلَاكِ، وهم صَالحٌ والَّذِين آمَنُوا مَعَه، بوسِيلَةٍ هي مِنْ آثار رَحْمتنا، وَخَلَّصْنَاهُمْ من الْخِزْي الَّذِي نَزَلَ بِكفَّارِ ثَمُودَ يَوْمَئِذٍ قَبْلَ إمَاتَتِهِم، إِذْ سَبَقَ إِمَاتَتَهُمْ إذْلَالُهُمْ وإسْقَاطُهُمْ عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِم خزَايا مُهَانِينَ مُحْتَقَرِين، وتَعْذِيبُهم عذاباً أليماً.

الخزي: الوقوعُ فِي الشرّ والْعَذابِ والْبَلايا، والذُّلُّ والْهَوانُ، والافتضاحُ بالقبائح.

فدَلَّ هذا البيانُ علَىٰ أنَّ الله عزّ وجلّ أَمَرَ صالحاً عليه السَّلام، بأنْ يَبْتَعِدَ هو وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ عَنْ مَواقِعِ تَنَزُّلِ العذاب، قَبْلَ الموعِدِ المحدّد لإنزاله، وأنَّهم خَرَجُوا مِنْ أَرْضِ ثَمُودَ وابتَعَدُوا عَنْ مَواقِع تنزُّلِ الْعَذاب كما أَمَرَ الله، وأَنَّ الله عزّ وجلّ حَمىٰ بِرَحْمَتِهِ المكَانَ الَّذي وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُصِيبَهُ شيءٌ مِمَّا نَزَلَ بالْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ المهلكِين، فَلَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ خِزْيٌ ولا إهْلاك.

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾: جاءَ في هـٰذِهِ العبارة تمْجِيدٌ لله عزّ وجلّ بِقُوَّتِهِ وَعِزَّته.

﴿ٱلْقَوِىُّ﴾: أي: ذو القوة العظيمة الكُبْرَىٰ، الّتِي يَفْعَلُ بها مَا يشاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيم مَهمَا احْتَاجَ الأمْرُ الذي يَفْعَلُهُ مِنْ قُوَّةٍ عظيمة.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: ذو الْقُوَّةِ الْغالِبَةِ لكُلِّ الْقُوىٰ.

وأَرَىٰ فِي هـٰذا البيان عَقِبَ بَيَانِ تَنجِيَةِ صَالِحِ والَّذِينَ آمَنُوا معه، إِشَارَةً إِلَىٰ أنَّ تَنْجِيَتُهُمْ قَدْ كانَتْ ذَاتَ ظُروفٍ تَحْتَاجُ قُوَّةً عَظِيمَةً وَعِزَّةً غالِبَةً.

فَهَلْ نَجَّاهُمُ الله مَعَ أنَّ أمْكِنَةَ وُجُودِهِمْ قَدْ كانت في مُحِيط تَنَزُّلاَت وَسَائِلِ تَعْذِيبِ كُفَّارِ ثَمُودَ وإهلاكهم؟! الله أَعْلَمُ.

- ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾: أي: وقبضَتِ الصَّيْحَةُ على الَّذِين ظَلَمُوا وهُمْ كُفَّارُ ثَمُودَ، قَبْضَةَ تَعْذِيب وإِخْزاءٍ وإِهْلاكٍ مُسْتَأْصل. **الصَّيْحَةُ**: صَوْتٌ عَظِيم مُمِيت.

اختِيرتْ عبارة ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ للأشعار بأنَّ ظُلْمَهُمْ قد كان هو السَّبَبَ في تَعْذِيبِهِمْ وإخْزَائِهِم وإهْلاكهم.

- ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾:

﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾: أي: فَدَخَلُوا في صَباحِ الْيَوْم المقرَّرِ لإهْلَاكِهِمْ فيه.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لاصِقِينَ بالأرْضِ علَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوههم، مُلازِمِينَ أمْكِنَتَهُمْ هَلْكَىٰ، بَعْدَ أنَ ذَاقُوا عَذاباً أليماً وخِزْياً ذَلَّتْ بِهِ نُفُوسهم، وَنَالَها صَغارٌ ومَهَانَةٌ، جزاءَ مَا كانُوا فيه مِنْ تَعالٍ واسْتِكْبَارٍ على بَارِئهم.

- ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾: أي: فصارت حَالَتُهُمْ بَعْدَ أنْ نَزَلَ بِهِمْ مِن عذاب اللهِ مَا نَزَل، تُشْبِهُ حالَةَ الَّذِينَ لم تَكُنْ لَهُمْ إقَامَةٌ مُطْلقاً في دَارِهِم، وهٰذا يَدُلُّ على اسْتئصالِ وجُودِ أجْسَادِهم الهلْكَىٰ بَعْدَ ذلك، وَطَمْسِ كُلِّ آثارها.

يُقَالُ لغة: «غَنِيَ بالمكانِ يَغْنَىٰ» أي: أقامَ فيه. ويقال: «غَنِيَ الْقَوْمُ بالْمَكَانِ» أي: طالَ مُقَامُهُمْ فيه.

والْمَغْنَىٰ: المنْزِلُ الّذي غَنِيَ بِهِ أَهْلُهُ، وجمعه «مَغَاني».

ودَلَّ النصّ الذي جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) على أنَّ الرَّجْفَةَ قَدْ أخَذَتهم، وهو قول الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾:

الرَّجْفَة: الزَّلْزَلة. يقال لغة: رَجَفَتِ الأرْضُ تَرْجُفُ رَجْفاً، أي: حَصَلَتْ فيها زَلْزَلَة.

فَدَلَّ النَّصّانِ على أنَّ الصَّيْحَةَ في الجوّ قَدْ رافقَتْها زَلْزَلَةٌ في الأرض، فاجْتَمَعَ السَّبَبَانِ العظيمان المهلِكان.

ودَلَّ النَّصُّ الّذي جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) عَلَىٰ أنَّهم أصْبَحوا نادِمِينَ حين رَأَوْا بوادِرَ تَعْذِيبهم، وأنَّ العذابَ الذي نزل بهم، قَدْ ذَاقوا آلامه قَبْلَ أنْ يَهْلِكُوا، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿... فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ... ﴿١٥٨﴾﴾:

وجاء في النّصِ الَّذِي جاء في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) ذِكْرُ الصَّيْحَةِ بِعُنُوانِ «الطّاغِيَة» فقال تعالى فيها:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾: أي: الّتي تجاوزَتْ حُدُودَ الصّيحات المعتادات الّتِي لا تُهْلِكُ، وطَغَتْ حتَّىٰ صارت صَيْحَةً مُهْلِكة.

وَجَاءَ في النصّ الذي جاء في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) ذِكرُ الْوَسِيلَةِ الَّتي أهْلَكَ اللهُ بها ثَمُودَ باسْمِ الصَّاعِقَة، وجاء فيه وصْفُهَا بأنَّهَا صاعِقَةُ العَذَابِ الْهُونِ.

الصَّاعقة: النازِلَةُ الَّتي يكُونُ بهَا عَذَابٌ مُهْلِكٌ.

وبنظرة تكاملية إلى هٰذِهِ النُّصوص، نَفْهَمُ أنَّهُمْ عُذِّبوا، وَبَعْدَ تَعْذِيبهِمْ أُهْلِكُوا، وأنّهم نَدِمُوا حِينَ رَأَوْا بَوَادِرَ تَعْذِيبهم، وأنَّ إهْلاكَهُمْ قَدْ كَانَ بالصَّيْحَةِ الْمَصْحُوبَةِ بالزَّلْزَلَة، وأنّ صالحاً عليه السَّلام قَدْ حَدَّدَ لَهُمُ الْيَوْمَ الّذِي تَنْزلُ عَلَيْهِمْ مَعَ بدايَتِهِ وَسَائِلُ تَعْذِيبهم، وأنَّ إهْلاكَهُمْ يَكُونُ فِيه، وكان ذلك قَبْلَ ثَلاثَةِ أيّام.

وبهذا الْجَمع التكامُلِي ظَهَرَ لَنَا أنَّ النُّصُوصَ القرآنِيّة هٰذِهِ لَا تكرار فيها، إلَّا مَا يَدْعُو ذِكْرُ القضايا المضافة إلى ذكره، وإلَّا مَا تَقْتَضِي العِظَةُ التحذيريَّة العِلَاجِيَّةُ إلى ذِكْرِه.

والحمد لله على مَعُونته وتَوْفيقه وفتحه.

* * *

الفصل السابع

ماذا فعل صالح عليه السّلام بعد أن أهلَكَ الله عزّ وجلّ قومه ونَجّاهُ هو والّذين آمَنُوا مَعَه

لقد انْصَرَفَ صالح عليه السَّلام هو والّذِين آمَنُوا مَعَهُ عَنْ دِيارِ ثَمُودَ مُبْتَعِدين، وخاطَبَهُمْ وهُمْ هالِكُونَ قائِلاً لهم: لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ولَكِنْ لا تُحِبُّونَ الناصِحِين.

دلَّ على هذا قَوْلُ الله عزّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾:

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: أي: أَدْبَرَ وابْتَعَدَ.

والمعنى: فانْصَرَفَ رَسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام عن أرض ثمود، مُهَاجِراً بالّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ وأَنْجاهُمُ اللهِ من الخزي والإهلاك، إلى أرْضٍ أُخْرَى يُقِيمُونَ فيها.

ودلَّ العطف بالفاء على أنّ هٰذا التَّوَلِّي قَدْ كان عقب إهلاك كُفَّارِ ثَمُود.

وعند توليه بمَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنين، خاطب كُفَّارَ قَوْمِهِ وهُمْ هَلْكَىٰ بعبارات ثلاث:

العبارة الأولىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾:

أي: أَدَّيْتُ الأمَانَةَ الّتِي كَلَّفَنِي رَبّي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إيّاها، وقُمْتُ بما أَوْجَب اللهُ عليَّ تُجاهَكُمْ، لَمْ أَزِدْ عَلَىٰ مَا أَمَرَنِي رَبّي أنْ أبَلّغَكُمْ إيَّاهُ شيئاً، ولَمْ أَنْقُصْ مِنْهُ شيئاً.

لَمْ يَقُلْ صالحٌ عليه السَّلامُ رِسَالَاتِ رَبِّي بالجمع، ويُفْهَمُ من هٰـذا أنَّ الله أَنْزَلَ عليه الرِّسَالَةَ جُمْلَةً واحدةً، ولم يَجْعَلْهَا مُنَجَّمةً مُجَزَّأَةً، لِحِكْمَةٍ خاصَّةٍ بِقَوْمِهِ.

بخِلَافِ «نوح، وهُودٍ، وشُعَيْبٍ» عليهم السلام، فَقَد جاء في بياناتِ كلٍّ مِنْهُمْ أنَّهُ قَدْ أَبْلَغَ قَوْمَهُ رِسَالَاتِ رَبِّه.

ويُؤَكِّد هذا الفهم ما جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وهُوَ قَول اللهِ عزّ وجلّ حكايةً لمعنىٰ مَقالَةِ ثَمُودَ لَهُ:

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾.

فقد جاء التعْبير بإلْقَاء الذّكْرِ لا بإنْزَالِهِ ولا بِتَنْزيلهِ، والإلْقَاءُ يُشعِرُ بأنَّهُ كَانَ بأسْلُوب الدُّفْعَةِ الواحِدَة، لَا بأسْلُوب التَّنْزِيلِ المنجَّم.

العبارة الثانية: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أي: وبَذَلْتُ مِنْ أجلِكُمْ كُلَّ مَا أَسْتَطِيعُ مِنْ نُصْحٍ، بالإقناعِ، والموعظة الحسَنَةِ بالترغيب والتَّرْهيب، والْمُجَادَلَةِ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، مع الصَّبْرِ، وسَعَةِ الصَّدْرِ، والْحِلْمِ، وَتَحمُّلِ الأذىٰ.

يقال لغة: «نَصَحَهُ، ونَصَحَ لَهُ».

فَدَلّت هـٰذِهِ العبارةُ على أنَّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلام قَدْ دَلَّ قَوْمَهُ على مَا فيه خَيْرُهُمْ، وأنَّهُ رَغَّبَهُمْ فيه، وأخْلَصَ لَهُمْ بِتَقْدِيم الحقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ خالِصَةً مِنْ كُلِّ شائبة، وَكَانَ بَرِيئاً من أيَّةِ مصلَحَةٍ شَخْصِيَّة له عِنْدَهُمْ، إنَّما يَرْجُو أجْرَهُ عَلَيْهِ السَّلام عِنْدَ رَبِّه.

النُّصْحُ: هو في اللُّغَةِ الْخُلُوصُ من الشوائب، يقال لغة: «نَصَحَ الْمَعْدِنُ» أي: خَلَصَ من الشوائب.

العبارة الثالثة: ﴿... وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: أي: ولَكِنْ كُنْتُمْ

حَتَىٰ نُزُولِ الْعَذَابِ فالْهَلَاكِ بكم، لَا تُحِبُّونَ في الحال وفي الاسْتِقْبَالِ النّاصِحِينَ لَكُمْ، الَّذِينَ تَرَوْنَ في نُصْحِهِمْ أَنَّهُمْ يُبْعِدُونَكُم عَنْ أهوائكم، وشهواتِكم، وَرَغَبَاتِكُمْ في الْفُجُورِ، مَعَ أَنَّهَا سَتَكُونُ أَسْبَابَ شَقَائِكُمْ، وَسَخَطِ الله عَلَيْكُمْ، وأَنْتُم مُتَشَبِّثُون بها، وتَرَوْنَ في تَعَلُّقِكُمْ بها سَعاداتكم.

ويُشْعِرُ الفِعْلُ المضارع في عبارة: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يُهْلِكْهُمُ اللهُ عزّ وجلّ، واسْتَمَرُّوا بَاقِينَ في الحياة الدُّنيا، لاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ هٰذا الوصْفِ لَا يُحِبُونَ النَّاصحين.

وخطابُ صَالِحٍ عليه السَّلام لِقَوْمِهِ بَعْدَ إهْلاَكِ اللهِ لَهُمْ، نَظِيرُ خطاب الرَّسُول مُحَمَّدٍ ﷺ لِقَتْلَىٰ المشركين في غَزْوَةِ بَدْرٍ، إذْ وَقَفَ عَلَىٰ الْقَلِيبِ⁽¹⁾ الَّذِي أَلْقَاهُمْ فيه فقال:

«يَا أَهْلَ الْقَلِيب، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا».

فقال لَهُ أَصْحَابُه: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُكَلِّمُ قَوْماً مَوْتَىٰ؟

فقال رسول الله ﷺ لَهُم: «لَقَدْ سَمِعُوا ما قُلْتُ لَهُم»⁽²⁾.

الفصل الثامن
التعقيب الرّبّانيّ عَلَىٰ إهْلاَكِ كُفّار ثَمود

(١) جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٣ نزول) قول الله عزّ وجلّ بشأن كُفَّارِ ثمود:

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾:

---

(١) **القليب**: الْبِئر.

(٢) انظر سيرة ابن هشام. ج١ ص٦٣٩.

﴿أَلَآ﴾ أداةُ اسْتِفْتَاحٍ وَتَنْبِيه.

﴿إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾: أَيْ: كَفَرُوا بِرَبّهم، جاحِدِينَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به مِنْ صِفَاتِهِ، وَمَا يَجِبُ عليهم من عبادَتِه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾: أُعِيدَتْ أَدَاةُ ﴿أَلَآ﴾ لتوكيد التّنْبيه على ما يُذْكَرُ بَعْدَها، لأنَّ الْحِكْمَةَ تقتضي التوجِيهَ بِشِدَّةٍ لتخصيصهِ بمَزِيدٍ مِنَ الْعِنَايَة.

والمعنى: ألَا طَرْداً لِكُفَّارِ ثَمود، مِنْ مَوَاقِعِ نُزُولِ آثارِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ، والسَّبَبُ في هذا أَنَّهُمْ أَبْعَدُوا نُفُوسَهُمْ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ رَحمَاتِ الرحْمٰن، فاسْتَحَقُّوا الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ بالإِبْعَادِ والطَّرْد.

ونُصِبَ لفظ «بُعْداً» على أَنَّهُ مَفْعُول مطلق لِفِعْل مَحْذُوف.

(٢) وَجَاء في سورة (النَّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قَوْل الله عزّ وجلّ بشأن أشقاء ثمود التسْعَة، خطاباً لكل مُتَلَقٍّ صالحٍ للخطاب، بأسْلُوبِ الخِطَاب الإفرادي.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

- ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: أي: فانْظُرْ أَيُّهَا المتَلَقّي المستَعِدُّ للاتّعاظ مُتفكّراً، الحالَةَ الَّتي وُجِدَتْ عَلَيْهَا عَاقِبَةُ مَكْرِ أشْقِيَاءِ ثَمودَ، وعَاقِبَةُ سَائِر كُفَّارِهِمْ الّذِين طَغَوْا وبَغَوْا.

- ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾: المصْدَرُ المؤوّل مِنْ «أَنَّ» وما بَعْدَها بَدَلٌ من: ﴿عَٰقِبَةُ﴾: أي: فانْظُرْ كيفَ كَانَ تَدْمِيرُنا الأَشْقِياءَ التّسْعَةَ وكُفَّارَ قَوْمِهِمْ أجْمَعِينَ.

العاقِبَةُ: الجزاءُ الّذِي يكُونُ بَعْدَ عَمَلِ العامل.

التَّدْمِير: هو الإهْلَاكُ مع إبَادَةِ المهْلَك، وهٰذا يَكُونُ مصحوباً غالباً بِتَعْذِيبٍ شَدِيد.

يقال لغة: «دَمَّرَ اللهُ الْقَوْمَ تَدْمِيراً، وَدَمَّر عَلَيْهِمْ»: أي: أهْلَكَهُمْ. ويُقال: «دَمَّرَ اللهُ الْقَرْيَةَ وَدَمَّرَ عَلَيْها»: أي: أبَادَهَا وَجعَلَهَا دَارِسَةً.

وَعَلىٰ قِرَاءَة ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بِكَسْرِ هَمْزَةِ «إِنَّ» تَكُونُ الجملة مُسْتَأنَفَةً، جواباً لسؤالٍ مطوِيّ تَقْدِيرُه: كَيْفَ كانت عَاقِبَةُ مَكْرِهم؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أجْمَعِينَ﴾.

والقراءتان مِنَ التَّفَنُّنِ في التعبير، ومؤداهُمَا واحد.

- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾:

أي: فتِلْكَ بُيُوتُهُمُ الباقِيَةُ من آثارِهِم في مَداين صالحٍ، حالَةَ كَوْنها خالِيَةً مِنْهُمْ ومِنْ أيّ ساكِنٍ من النّاسِ بِسَبَبِ ظُلْمِهِم:

﴿خَاوِيَةًۢ﴾: أي: خالِيَةً مِنَ السَّاكِنِينَ. يقال لغة: «خَوَىٰ المكانُ وَنَحْوُهُ يَخْوِي، خَيًّا، وخَوَاءً، وخَوىً، وخُوِيًّا» أي: خلا، والكلمةُ مَنْصُوبَة على أنّها حال، والعامل فيه، مَا في اسْمِ الإشارَةِ مِنْ معنَىٰ «أُشير».

إنَّ آثارَهُمْ تَدُلُّ على أنَّ الله عزّ وجلّ أهْلَكَهُمْ إهْلاَكاً جماعيًّا، دَمَّرَهُمْ فِيهِ تَدْمِيراً، بسَبَب كُفْرِهم وظُلْمِهِم، فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأبْصَار.

إنّ هٰذِهِ الآثار لَعَلامَةٌ جَلِيَّةٌ واضِحَةٌ علىٰ أنَّ الله عزّ وجلّ بِحِكْمَتِه وَعَدْلِه قَدْ يُعَاقِبُ في الدُّنيا الكافِرين الطّاغِين المجرمين، لتَطْهير الأرض مِنْهم، وَلِيَكُونُوا عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرين فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢﴾: أي: إنَّ في ذَلِكَ لَعَلَامَةً واضِحَةً علَىٰ عَدْلِ اللهِ وَجَزَائه،

مُوَجَّهَةً لِقَوْم هم مُسْتَعِدُّونَ أنْ يَعْلَمُوا مَجارِيَ سُنَنِ اللهِ في عباده، وَحِكْمَتَهُ في تَصارِيفه، فإذا عَلِمُوا مِنْهَا شَيْئاً كَانَ عِلْمُهُمْ دَافعاً لهم إلى الالْتزام بطاعَتِه، اعْتِقَاداً وعَمَلاً.

• ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾: أي: وخَلَّصْنَا من العذاب والإهْلاكِ التدميريّ صَالحاً عَلَيْهِ السَّلام، والَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِهِ، وكان لإيمانِهِمْ تَأْثِيرٌ ما في سُلُوكِهم، إذْ كَانُوا يَتَّقُونَ عقابَ اللهِ على المعاصِي، بفِعْلِ ما يأمُرُهم به أمْرَ إيجابٍ وإلْزام، وبِتَرْكِ مَا يَنْهَاهم عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ وَحَظْر.

﴿يَتَّقُونَ﴾: أي: يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَضُرُّهُمْ وَيَسُوؤُهم وِقَايَةً، والوقَايَةُ من عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِه، تَكُونُ بِصِدْقِ الإيمان به وبما أَوْجَبَ الإيمانُ به مع صِحَّة هذا الإيمان، وبطاعَتِهِ مع الإخلاص له ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُم سُلْطَانه ـ في الأقوال والأعْمَالِ بالنيَّاتِ الصَّادِقَات الصحيحات.

(٣) وجاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قول الله عزّ وجلّ تَعْقِيباً على إهلاك كُفّار ثمود:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾:

• ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠﴾؟! حُذِفت من كلمة «نُذُرِ» ياء المتكلم العظيم.

أي: فَعَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ كَانَ عَذَابِي لكُفَّارِ ثَمُود؟! وعلى أَيَّةِ حالٍ كَانَتْ نُذُرِي لِكُفَّارِ ثَمُود؟!

نُذُرِي: أي: إنْذَارَاتي الَّتي بلَّغَهُمْ إيّاها رَسُولي صالح.

الإنْذَار: الإعلام والإخبارُ بعَوَاقِبَ غَيْر سَارَّة.

في هـٰذِهِ العبارة استِفْهامٌ يَنْتَزِع الجوابَ انْتِزاعاً مِنْ كلِّ ذِي فِكْرٍ عادِيٍّ يَفْهَمُ المسائل السَّهْلَة، دُونَ حاجَةٍ إلى رَوِيَّةٍ وتأمُّل، فيقول:

(١) لَقَدْ كَانَ العذابُ عذاباً شدِيداً مُخِيفاً، يُثِيرُ الرَّهَبَ والاتّعاظ والادِّكار.

(٢) ولَقَدْ كانت النُّذُرُ الَّتي أنْذَرَ اللهُ بها قَوْمَ ثَمودَ على لِسَانِ رَسُولهم نُذُراً صادِقَةً، حَقَّقَ الواقِعِ الثّابِتُ في التاريخُ ما جاء فيها بلا نُقْصَان.

- ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ۝٣١﴾:

﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: أي: صَوْتاً عَظِيماً واحداً، كافِياً للإهلاك الإبادة:

﴿فَكَانُواْ﴾: أي: فصَارَ كُفَّارُ ثَمودَ بِتَأْثِيرِ الصَّيْحَةِ الْواحِدَة.

﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾: الْهَشِيمُ في اللُّغَة: يأتي للدَّلَالة على عِدَّةِ معانٍ:

(١) يأتي بِمَعْنَىٰ الْمَهْشُومِ المتكَسِّرِ من النَّباتَاتِ والْأَشجار وغيرها من الأشياء.

(٢) ويأتي بِمَعْنَىٰ الشَّجَرَة البالية الَّتي يأخُذها الحاطب كيف يشاء.

(٣) وَيأتي بِمَعْنَىٰ اليابِسِ من كلِّ شيء، ولا سيما الأشجار والنباتات.

﴿ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾: هو الّذي يُرِيدُ صُنْعَ حَظِيرَةٍ لِمَاشِيَتِهِ، فَيَجْمَعُ أعواداً وأشْجَاراً يابسَةً قَدِيمَةً، وأشْوَاكاً من الهشيم، ويَجْعَلُها أكْوَاماً، لِيُقِيمَ مِنْهَا السِّيَاجَ حَوْلَ حَظِيرَتِهِ.

شَبَّهَ اللهُ هَالكي ثَمُودَ عَقِبَ إهلاكهم بأكوام من الْهَشِيم يَجْمَعُها من يُريد أنْ يَصْنَعَ حَظِيرَة لأنْعَامِه أو دوابّه، ولِيَجْعَلَ مِنْهَا سياجاً حَوْلَ حظيرته.

* * *

الفصل التاسع

توجيه العظة للذينَ يَكْفُرُونَ بِرِسَالَة محمّد ﷺ بما أنزل الله بكُفّار ثمود

كلُّ النُّصوص الّتي جاء فيها طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ ثَمُود، قَدْ اشْتَمَلَت على توجيه العظة للناس جميعاً بَعْدَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ، بأنَّهُم عُرْضَةٌ لعقاب اللهِ وَعَذَابِه في الدُّنيا قَبْل يَوْمِ الدّين، إذَا صَارَتْ أحوالُهُمْ مِثْلَ أَحْوَالِ مُجْرِمي ثَمُود.

ويَبْرُزُ توجيهُ هذه العظة في النُّصُوصِ المختزلَة الْقَصِيرَة، الَّتي جاءَتْ في السُّورَ التالية: (الفجر - النجم - الشمس - البروج - قٓ - صٓ - الفرقان - الذّارِيات - الحاقة - العنكبوت - الحج - التوبة).

وبَعْضُ قصار النُّصوصِ قَدْ جاءت حِكَايَةً لِما قَالَهُ الْوَاعِظُونَ من الناس لأقوامهم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر مَا جَاءَ في هذا الملْحق، والحمدُ لله على مَعُونَتِهِ وفَتْحِهِ وَتَوْفيقِه، وأسْألُهُ الْمَزِيد من مَدَدِه وفتحه ومَعُونته.

* * *

سورة القصص

٢٨ مصحف ٤٩ نزول

وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ إِلَّا:

- الآياتِ مِن (٥٢ - ٥٥) فَهِيَ مَدَنِيَّةٌ
- والآيَة (٨٥) نَزَلتْ في الجُحْفَةِ أثناءَ الهِجْرَةِ إلى المَدِيْنَةِ

(١)

نص السورة وما فيها من فَرْش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن
نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ
عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ
يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾
وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ
أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ
فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ
فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا
وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

---

١ ـ • سكت أبو جعفر سكتة لطيفة بغَيْر تنفّس على: «طا» و«سين» و«ميم».

٦ ـ • قرأ حَمْزَةَ، والكسائي، وخلَف: [**وَيَرَىٰ فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا**] وبين القراءتَيْن تكاملٌ في الأداء البياني، أي: يُرِيهم اللهُ فَهُمْ يَرَوْن.

٨ ـ •قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [**وَحُزْنًا**] بضم الحاء وإسكان الزاي.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَحَزَنًا**].
والقراءتان وجهان عربيان متكافئتان في المعنى.

٨ ـ • قرأ أبو جعفر: [**خَاطِينَ**] وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

=

وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن
يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ
أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا
عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ
فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا
عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ
يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ
أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ
وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾
وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ
يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن
شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا
مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [خَاطِئِينَ] بإثبات الهمزة.

٩ ـ • لفظ [قُرَّتُ] وقف عليه ابنُ كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويَعْقُوب بالهاء: قُرَّهْ.

ووقف عليها باقي القراء العشرة بالتاء: قُرَّتْ.

﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِى ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسۡتَنصَرَهُۥ
بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ
أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن
تَقۡتُلَنِى كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِى
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ
أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ
لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا
يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ
مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهۡدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا
وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا
نَسۡقِى حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ

---

١٩ • قرأ أَبُو جَعْفر: [يَبْطُشُ] بضمّ الطاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَبْطِشُ] بكَسْر الطاء. وهما لغتان عربيّتان في نُطْقِ الكلمة.

٢٢ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أنْ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان [رَبِّي أنْ].
وهما وجهان عربيّان.

٢٣ ـ • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [مِنْ دُونِهِمِ امْرأَتَيْنِ] بكَسْرِ ميم [دونهم] في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة، بضمّ هذه الميم في الوصل.

٢٣ ـ • قرأ أبو عمرو، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفَر: [يَصْدُرَ] من فعل: صَدَرَ يَصْدُر، أي: انْصَرَف وقرأها باقي القراء العشرة: [يُصْدِرَ] مِنْ فِعْلِ «أَصْدَرَهُ» يقال لغة «صَدَرَ الرِّعَاء» أي: انصرفوا، وأصْدَرَ الرِّعَاءُ دَوابَّهم أي: سَقَوْها وصَرَفوها.
ومُؤدَّى القراءتين واحد، وفيهما تفنُّن.

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ
خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ
إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ
وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ
ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ
إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ
عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ
أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ
ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟

---

٢٦ ـ • قرأ ابْنُ عامر، وأبو جَعْفَر: [يَا أَبتَ] بفتح التاء. وقرأ باقي القرّاء العشرة بكسْرِها. وهما وجهان عربيان.

ووقف بالهاء ابن كثير، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفر، ويعقوب.

٢٧ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أُرِيدُ] بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٢٧ ـ • شدّد ابن كثير نون [هَاتَيْنِّ] ولم يشدِّدْها باقي القراء العشرة.

٢٧ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [سَتَجِدُنِيَ إِنْ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٢٩ ـ • قرأ حمزة: [لِأَهْلِهُ امْكُثُوا] بضَمّ هاء الضّمِير. وقرأها باقي القراء العشرة بكسر هذه الهاء. وهما وجهان عربيّان في النطق.

إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ
مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ
مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن
يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ
أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي
جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ
ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ
إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ

---

٢٩ و٣٠ و٣٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، بفتح ياء المتكلّم في: [إِنِّيَ آنستُ] و[لَعَلِّيَ آتِيكُمْ] و[إِنِّيَ أَنَا] و[إِنِّيَ أَخافُ].

وقرأ ابن عامر: [لَعَلِّيَ آتِيكُمْ] بفتح ياء المتكلم في هذه دون الثلاثة الأخرى.

وقرأها كلّها باقي القراء العَشرة [illegible]كان.

٢٩ ـ • قرأ عاصم: [جَذْوَةٍ] بف[illegible] الجيم.

وقرأها حمزة، وخلف [جُذْوَةٍ] بضمّ الجيم.

وقرأها باقي القراء العشرة [جِذْوَةٍ] بكسر الجيم.

وهي لغاتٌ عربيَّةٌ متكافئة.

٣٢ ـ • قرأ ابنُ عَامر، وشُعبة، وحمزة، والكسائي وخلف: [مِنَ الرُّهْبِ] بضم الراء وإسكان الهاء.

وقرأها حفص: [مِنَ الرَّهْبِ] بفتح الراء وإسكان الهاء.

وقَرأها باقي القراء العشرة: من [الرَّهَب] بفتح الرّاء والهاء. وهي لغات عربية.

٣٢ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، ورُوَيْس: [فَذَانِّكَ] بتشْدِيد النون، مع المدّ المشبَع.

وقرأها باقي القراء العشرة: [فَذَانِكَ].

نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي
لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ
﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى
وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ
أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ
ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا

---

٣٣ ـ • قرأ يعقُوب: [أَنْ يَقْتُلُونِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة [أَنْ يَقْتُلُونِ] بحذف ياء المتكلّم.

٣٤ ـ • قرأ حَفْصٌ: [مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي]. وقرأها نافع: [مَعِيْ رِدءاً يُصَدِّقْنِي]. وقرأها شعبة وحَمْزة: [مَعِيْ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي] ووقف حمزة بنقل حركة الهمزة إلى الدّال مع حذف الهمزة. وقرأها أبو جَعْفر: [مَعِيْ رِدا يُصَدِّقْنِي] مع إبدال التنوين ألفاً في الوصل والوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: [مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقْنِي] وكلّها وجوه جائزة.

٣٤ ـ • أثبت ياء المتكلم في [يُكَذِّبُونِي] ورشٌ في الوصل ويعقوب مطلقاً. وحذفها باقي القراء العشرة.

٣٧ ـ • قرأ ابنُ كثير: [قَالَ مُوسَىٰ] بدون حَرْف عطف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَقَالَ مُوسَىٰ] بإثبات حرف العطف الواو. الفصل والوصل وجهان بلاغيان متكافئان هنا.

٣٧ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أعلَمُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها الباقون بإسكانها.

٣٧ ـ • قرأ حَمْزة، والكسائي، وخلف: [وَمَنْ يكُونُ] بالياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَمَنْ تَكُونُ] بالتاء.
وهما وجهان عربيان متكافئان، لأنّ اسم «تكون» مجازيُّ التأنيث، إذْ هو [عَاقِبَةُ].

ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ
عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ
وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ
إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي
هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ
ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾
وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ

---

٣٨ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأَبُو عَمْرو وابن عامر، وأبو جعفر [لَعَلِّيَ أَطَّلِعُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكَانِ.

٣٩ ـ • قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، ويَعْقُوب، وخلَف: [لاَ يَرْجِعُونَ] بالمبني للمعلوم، وقرأها باقي القراء العشرة: [لاَ يُرْجَعُونَ] بالمبنِيّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، أي: وظَنُّوا أنَّ الله عزّ وجلّ لَا يُرْجِعُهُمْ، فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إليه بحَسَبِ ظنهم.

٤٥ ـ • قرأ أبو عَمْرو [عَلَيْهِمِ الْعُمُرُ] بكَسْرِ هاء وميم «عليهم».

وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف ويعقوب: [عَلَيْهُمُ الْعُمُرُ] بضم هاء وميم «عَلَيْهُمُ».

=

وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا
وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ
نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن
نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم
مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ
تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾
فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ] بِكَسْر الهاء وضمّ الميم من «عليهم».

ومعلوم أنّ كسْرَ الميم أو ضمها إنّما يكونان في الوصل.

٤٨ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف، [سِحْرَانِ]. وقَرأها باقي القراء العَشرَةِ [سَاحِرَانِ].

قراءة «سِحْرَانِ» دَلَّت على ما جَاءَا به، وأنَّهُ من قبيل السّحر. وقراءة «سَاحِرَانِ» دَلَّتْ على وصْفِهِما فيما جاءا به. فهما متكاملتان في الأداء البياني.

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ
إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا
صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ
أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي
مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ
﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ
نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن
لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن
قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ
بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ
وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

---

٥٧ - ● قرأ نافع، وأبو جعفر، ورُوَيس: [تُجْبَىٰ] بالتاء. وقرأها باقي القراء العشرة: [يُجْبَىٰ] بالياء.

وهما وجهان عربيان جائزان، لأنَّ نائب الفاعل مجازيّ التأنيث، وهو [ثَمَرَاتُ].

٥٩ - ● قرأ حَمْزَة، والكِسائي: [فِي إِمِّهَا] بكَسْرِ الهمزة وصلاً. وقرأها باقي القراء العشرة بضَمِّ الهمزة.

والجميع يَبْتَدِئُونَ بِضَمّ الهمزة.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا
يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ
وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ
مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ
فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا
فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ

---

٦٠ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [يَعْقِلُونَ] بياء الغائبين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [تَعْقِلُونَ] بتاء المخاطبين.
وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البيانيّ.

٦١ ـ • قرأ قالون، والكسائيّ، وأبو جعفر: [ثُمَّ هْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [ثُمَّ هُوَ] بضمّ الهاء، والقراءتان وجهان من النطق في العربية.

٦٢ و٦٥ ـ • قرأ يَعْقُوبُ [يُنَادِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير في الآيتين.
وقرأها باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

٦٣ و٦٦ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [عَلَيْهِمِ الْقَوْلَ] و[وَعَلَيْهِمِ الأَنْبَاءَ] وقَرَأَهُما حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوبُ: [عَلَيْهُمُ الْقَوْلَ] و[عَلَيْهُمُ الأَنْبَاءَ].
وقرأهما باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ] و[عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءَ]. وهي وُجُوهٌ جائزة في اللّسان العربي.

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا
يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى
ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن
جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ
ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن
جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ
إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ
﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن
كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ
لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ
كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ

---

٧٠ ـ • قرأ يعقوبُ: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلُوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [تُرْجَعُونَ] بالبناء لما لم يُسَمّ فاعله.

وبين القراءتَيْنِ تكاملٌ في الأداءِ البيانيّ، إذْ يُرجِعُهُمُ الله إلَيْهِ، فهم يَرجِعُونَ مُطَاوعِين بالجبْر الرَّباني.

٧١ ـ • قرأ قُنبل: [بضِئَآءٍ] بالهمزة بدلَ الياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [بِضِيَاءٍ].

وهما وجهان في النطق جائزان، إلَّا أنّ قراءة جمهور القرّاء العشرة ألْيَنُ في النطق.

مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ
قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ
فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ
ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي
ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ
عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ
ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن
ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ
ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ
قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا
يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا
كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ

---

٧٨ ـ • قرأ نافع، وقُنبل، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عِندِيَ أَوَ لَمْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٧٨ ـ • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [ذُنُوبِهِمِ الْمُجْرِمُونَ] بكسر الهاء والميم من «ذُنُوبِهِم» وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [ذُنُوبِهُمُ الْمُجْرِمُونَ] بضم الهاء والميم من «ذُنُوبِهُمْ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ] بكَسْرِ الهاء وضم الميم.

٨١ ـ • قرأ أبو جعفر: [مِنْ فِيَةٍ] بالياء بَدَلَ الهمزة. =

ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ
وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ
أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾
تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا
فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن
جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ
مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن
رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ
كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ .

= وقرأها باقي القراء العشرة: [مِن فِئَةٍ] بالهمزة. وهما وجهان من النطق في العربية.

٨٢ ـ • قرأ حفص، ويعقوب: [لَخَسَفَ بِنَا]: أي: لخَسَفَ اللهُ بنا. وقرأها باقي القراء العشرة: [لَخُسِفَ بِنَا] في البناء لما لم يُسَمَّ فاعله، ومَعلُوم أنَّ اللهَ عزّ وجلّ هو الذي يخسف بهم إن شاء.

٨٥ ـ • قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: [رَبِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رَبِّي أَعْلَمُ] بإسكان ياء المتكلم.

٨٨ ـ • وقرأ يعقوب: [تَرْجِعُونَ] وقرأها باقي القراء العشرة: [تُرْجَعُون] بالمبني لما لم يُسَمَّ فاعله.
وسبق نظيرهما قريباً في الآية (٧٠).

(٢)

موضوع سورة (القَصَص)

(١) تشتمل هذه السورة على متابعة معالجة الكبراء المعاندين الجاحِدين من مشركي قريش إبّان نزول السورة، ويُلْحَقُ بهم أتْباعُهم، وهٰذِهِ المتابعة مبنيَّةٌ على ما سَبَق أنْ نَزَلَ من قرآن قبل هذه السورة، ولا سيما:

- ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وعلى الخصوص ما جاء فيها من قصّة موسى وهارون مع فرعون وقومه، وكيف نصَرَ الله في آخِرِ الأمْر أولياءه، وأهْلَكَ الكفرة المعاندين المجرمين.
- وما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وعلى الخصوص ما جاء فيها من إضافات في لقطات بشأن موسى وهارون مع فرعون وقومه، وكيف نصرَ الله أولياءه، وأهلك أعداءه المجرمين.
- وما جاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) وعلى الخصوص ما جاء فيها من إضافات في لقطات بشأن موسى وهارون مع فرعون وقومه ـ وكيف كان عاقبة المفسدين، وما جاء فيها من انتصار الحق على الباطل في قصة سليمان، وإهلاك كفار ثمود، وإهلاك قوم لوط. وما جاء فيها من تعليم جدلي للرسول ولكل داع إلى الله من أمَّتِه.

(٢) وتشتمل هذه السّورة على متابَعَةِ تَرْبيَةِ الله لرسوله، وتعليمه، وبشارته بأنّ الله نَاصِرُه، ويُلْحَقُ به الدُّعاة إلى الله من أُمَّتِه، ثُم سَائرُ المؤمنين المسلمين.

ومُعَالجَةُ الكافرين تَعْتَمِدُ هنا علىٰ الترهيب بضرب أمْثِلَةٍ من المهْلَكِينَ الأوَّلين، فعلىٰ الإقناع، فعلىٰ الترغيب.

* * *

(٣)

دُروس السُّورة

تشتمل سورة (الْقَصَص) على سبعة دُرُوس فيما ظَهَر لي:

الدرس الأوّل: (الآية ٢).

هو آيةٌ واحدةٌ فيها تمجيد القرآن بعد آية الحروف المقطّعة ﴿طسٓمٓ ①﴾ وهي آيةٌ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾.

الدرس الثاني: (الآيات من ٣ ـ ٤٣).

اشتمل هذا الدرس على لقطاتٍ مضافاتٍ إلى مَا سَبَقَ تَنْزيله بشأْنِ قِصَّةِ مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام، مع فرْعَوْنَ وملَئِهِ وجُنُودِهما، وفي آخرها الموعظةُ بالتَّحْذِير مِنْ مثل العاقبة التي كانت لِفِرْعَوْنَ وآلِهِ وملَئِه وجنودها، ومِنْ شأنِ هذا التحذير الدّوَائِيّ، أنْ يُكَرَّر في القرآن، فيأتِيَ مع عرض قِصَصِ المهلَكين الأولين، في آخر القصّةِ أو في بدئها، ورُبَّما في أثنائها.

الدرس الثالث: (الآيات من ٤٤ ـ ٧٠).

يشتمل على بيان يخاطِبُ الله عزّ وجلّ به رَسُولَهُ ﷺ، بشَأْنِ المعْلُومات الّتي أنْزَلها عَلَيْه مما يتعلَّقُ بقصّة موسى عليه السَّلام، وهذه التفصيلات الّتي بيّنها له ما كان للرسول ﷺ أنْ يَعْلَمَها لَوْلا أنْ أنْزَلَها اللهُ عليه.

والغرض إسْماع أئمة المشركين في مكَّة يومئذٍ، وإسْماعُ أتْباعِهم، بأنّ المعلومات الّتي جاءت في القرآن من قصَّةِ موسى عليه السَّلام، ما كان للرَّسُول محمّد أنْ يَعْلَمها، لولا أنْ أعْلَمَهُ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ بِها، وأنْزَلَ بها قُرآناً يُتْلَىٰ عليهم وعلى أهل الكتاب، وفيها حُجَّةٌ على علماء اليهود الّذين يخْفُونَ هٰذِهِ الْمَعْلُوماتِ، ويَجْعَلُونها خاصَّةً بحاخاماتهم الكبار.

وهذا البيان مع ما فيه من موعظةٍ تَحْذِيريَّة لِكُبَرَاء مُشْركي قُرَيشٍ وأتباعهم، فقد جاء توطِئَةٌ لمُعَالجاتٍ أخْرَىٰ إقناعِيَّة، جاءَتْ مضافات لما سَبَقَ في نجوم التنزيل من معالجات، وهي ملائمات للمواقف الَّتي كَانُوا عليها إبَّانَ تنزيلِ السّورَة، وصالحات لأنْ يَسْتَفِيدَ الدُّعاة إلى اللهِ منها في كُلِّ عَصْرٍ، وفي كُلّ قَوْم، أفراداً وجماعات.

الدرس الرابع: (الآيات من ٧١ ـ ٧٥).

درْسٌ فيه تعليم جدَلِيٌّ للرسُول ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه، حول توحِيد الرُّبُوبيَّة للهِ عزّ وجلّ، الَّذِي يَلْزَمُ عنْهُ عقلاً تَوْحِيدُ الإلَهِيَّةِ له.

وفيه عَرْضُ مَشْهَدٍ من مَشَاهِدِ يوم القيامة، يتضمَّنُ سؤالَ المشركين عن شركائهم، ويَتَضمَّنُ إحْضَارَ الشُّهداء الَّذِينَ يَشْهَدُونَ على الكافرين.

الدرس الخامس: (الآيات من ٧٦ ـ ٨٢).

وهو درس يتضمَّن معالجَةَ ذوي الجاه والْمَالِ الكَثِيرِ، من مُعَانِدي مُشْرِكي مكة، بضَرْبِ مَثَلٍ تاريخيّ، وهو قارون في عَهْدِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، الذي جاء في السّورَة حديثٌ مطوّلٌ عَنْهُ، وعَنْ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه وجنُودِهم، إذْ كان قارُونُ إسرائيليًا من قَوْمِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، إلَّا أنَّهُ كان من أنْصار فِرْعَوْنَ وَآله، وكان ذا مالٍ كثيرٍ جدًّا، وذَا جَاهٍ عريضٍ في مصر، بتأييد من فرعَوْن وآلِه، ليُمَكِّنَ به استعباده للإسرائيلّيين.

فاسْتَكْبَرَ قارُونُ وبغَىٰ، ونَصَر الباطل على الحق، وصار يفتخر ويَتَبَاهَىٰ بما آتاهُ الله من زينة الحياة الدّنيا.

فخَسَفَ اللهُ بِهِ وبداره الأرض، فكان عِبْرَةً لِأُولي الألْباب.

الدرس السادس: (الآيتان ٨٣ و٨٤).

وهو درس فيه بيانٌ مُرْتَبِطٌ بقصَّةِ قارون، وقصّة فرْعَوْنَ ومَلَئِهِ

وجنُودهم، عن مستحقِّي جنَّاتِ النّعيم يوم الدين، وهم الّذِين لا يُرِيدُون عُلُوّاً في ٱلْأَرْض، ولا يُرِيدون فساداً.

وفيه بيانٌ إجماليٌّ عن جزاء الآخِرَة بالثواب أو بالعقاب.

الدرس السابع: (الآيات من ٨٥ ـ ٨٨ آخر السورة).

درس فيه بُشْرَىٰ للرَّسُول ﷺ بالْعَوْدَةِ إلى مَكَّةَ فاتحاً، وفيه وصايا تَرْبويَّة للرَّسول، وهـٰذِهِ الوصايا يَسْتَفِيدُ منها الدعاة إلى اللهِ عزّ وجلّ من أمَّتِه، في مَسِيرَاتِهم الدَّعوِيَّة.

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (القصص)

الآيتان (١ و٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾:

- ﴿طسٓمٓ ①﴾: تُقرأ: «طَا ـ سِينْ ـ مِيمْ» دُون سَكْتٍ. وسكت أبو جعفر سَكْتَةً لطيفةً بغَيْر تنفُّسٍ عَقِب كلِّ حَرْف منها.

وقد سبق بيان ما يكْفِي في أوّل سُورَةِ (القلم) بشأن الحروف المقطّعَةِ الموجُودَة في أوائل بَعْضِ السُّور.

- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾ اسْمُ الإشارة في [تِلْكَ] مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ خبر المبتدأ.

أي: أيُّهَا المتَلَقِّي لهـٰذا الخطابِ الرَّبَّانِيّ، تِلْكَ الْعَظِيمَاتُ السَّامِيَاتُ المنَزَّلاتُ على الرَّسُول مُحَمَّدٍ آناً فآنا آياتُ الكِتَابِ الرَّبَّانِيّ المُبِينِ، الّذي

جَعَلَهُ اللهُ كِتابَ رِسَالَتِه الخاتِمَةِ، المصْطَفَاةِ لخاتَمِ أنْبيائِه ورُسُلِهِ للنَّاس أَجْمَعِينَ.

جاءت هٰذِهِ الآيَةُ بمَثَابَةِ مِفتاحٍ للدُّخول إلى ما جاء في السّورة مِنْ بيانات، وهي آيَةٌ تُنبه على أنَّ آيات القرآن آياتٌ مَجِيدَاتٌ، فهِي رَفِيعَاتُ المنْزِلَةِ في سَمَاوات الْعِلْم، والحقِّ، والحِكْمَةِ، والْهِدَايَةِ إلى خَيْرِ النّاسِ وسَعَادَتِهِمْ في دُنياهُمْ وآخِرَتهم. دلَّ على هذا اسم الإشارة في ﴿تِلْكَ﴾ الموضوع في اللّغة للمشارة إليها البعيدة.

﴿ءَايَٰتُ﴾: أي: علاماتٌ بالْبَيَانِ الكَلامِيِّ دَالّاتٌ على مَعَاني جَليلاتٍ، لما فيها من علم، وحقّ، وحِكْمَةٍ، وهداية إلى خير الناس وسعادتهم في دُنياهُمْ وآخِرَتِهم.

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: التّنْزِيلِ الرَّبَّانِيّ بالْوَحْي، المطْلُوب أنْ يُدَوَّنَ فِي كِتَابٍ واضِحِ الرَّسْمِ الكتابيّ، مُوثَّقٍ، لا اختِلَافَ في نُسَخِهِ، مَهْمَا تَعَدَّدَتْ مَخْطُوطَاتُهُ، أَوْ مَطْبُوعَاتُه.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾: أي: الواضح الدّلالاتِ لمن أحْسَنَ تَدَبُّره، والْمُوضِح لِلْمَعانِي الْمُرَادَةِ مِنْ آيَاتِهِ. مُبِين: من فعل «أَبَانَ» اللازم، بمعنى: وضَحَ وظَهر، ومن فعل «أَبَانَ» المتعدّي، بمعنى: أوضَحَ وأظهر.

فدلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ هٰذا القرآن الّذي هُوَ كِتَابُ اللهِ الخاتِم لِكُتُبه للنّاس، ذو مَجْدٍ عظيم، ومَنْزِلَةٍ رَفِيعة، وهٰذِهِ الصِّفَةُ الذَّاتِيَّةُ فِيهِ تَدُلُّ علَىٰ أَنَّهُ كَلامُ اللهِ المنزَّلُ مِنْ لَدُنْ عَلِيمٍ حَكِيمٍ حَمِيد، فَهُوَ كلامٌ لَا يأتِيه الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه.

ويوجد في تَدَبُّر الآية الأولى من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بيانٌ أَوْسَع أُحِيلُ عليه، لما بَيْنَ الآيَتَيْنِ من تَشَابُهٍ في معظم العناصر.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (القصص) (الآيات من (٣ ـ ٤٣).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

تمهيد:

جاءت هٰذِهِ الآياتُ بمثابَةِ مَدْخلٍ للَّقطات المختاراتِ في هٰذِهِ السُّورة من قصَّةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، وفرعَوْن عَلَيْه اللّعنةُ.

وجاء فيها ذكْرُ أنَّ الأخبار البارزَة المنْتَقَاةَ للبيان فيها حقٌّ، إذْ هي مُطابَقَةٌ لِلْوَقع تماماً، وأنَّ الّذِين يَنْتَفِعُونَ بها هُمْ قَوْمٌ لديْهِمُ الاستعداد لأنْ يُؤْمِنُوا بالحقِّ إذا عَلِمُوا به.

وجاء فيها إجْمالٌ عنوانيٌّ للكلياتِ الَّتي كان عليها فرعون في أرض مِصْر، وتَدْخُلُ تَحْتَها تَفْصِيلاتٌ مُوسَّعَات:

الكليّة الأُولى: أنَّ فِرْعَوْنَ عَلا في أَرْض مِصْر، إذْ كانَ هُوَ الحاكم المستبدَّ بكلّ شيء، فلا أَمْرَ إلَّا أَمْرُه، وَلَا رَأْيَ إلَّا رَأْيُه، ولَا حُكْمَ إلَّا حُكْمُهُ والحديثُ عَنْهُ في الْقَضَايَا العامَّةِ، بقُوَّة الحديث عَنْ كُلِّ شعب مصر في زمَنه.

الكليّةُ الثانية: أنَّه جعَلَ أهْلَ مصْرَ شيعاً وأحزاباً يُصارعَ بَعْضُهُمْ بعضاً، ويعادي بعضُهُمْ بعضاً، ويُنَافِسُ بعضُهُمْ بعضاً، لِيَسُودَ الجميعَ مِنْ خلال تَفَرُّقِهِم وتنافُسِهم، ضمْن القاعدة الّتي يَعْمَلُ بها المستبّدونَ في كلّ أمَّة: «فَرّقْ تَسُدْ».

الكليّة الثالثة: أنَّهُ كَانَ يَسْتَضْعفُ طَائفَةً منهم، وهم بنُو إسرائيل، ليَجْعَلَهُمْ بَمَثَابَةِ عبيدٍ لَهُ ولسَائرِ أَهْلِ مصْر، ولِيَسْتَرْضِي باستعبادهم وتَسْخِيرهم وإذْلالِهم أصحاب البلاد الأصلاء بِهَذا تكُونُ شِيعَةُ بني إسْرَائيل الطّبقة الاجتماعيةَ الْمُهَانَةَ المسْتَعْبَدة مِنْ سَائر شَعْبِ مصر.

ومن مظاهر اسْتضْعافِه لبني إسْرَائيلَ أَمْرُهُ بذَبْحِ المواليد الذكُور في بعض السَّنَواتِ دُونَ بَعْض، لئلَّا يَكْثُرَ رِجالُ الإسرائيليّين في أرْض مصر، فيكُونوا قُوَّةً مُنافِسَةً لِشَعْبِ مِصْر، ولِفِرْعَوْنِهم وآلِهِ وَمَلَئِه.

الكليّة الرابعة: أنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِين، ويظْهَرُ أنَّ اخْتِيَارَهُ سَبِيلَ الْفَسادِ والإفساد لأنَّهُ الوسيلةُ للمحافَظَةِ على حُكْمِهِ الاستِبْدَادِيّ الظّالِم الغاشِم.

التدبّر التحليلي:

قول لله عزّ وجلّ:

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾:

الخِطَابُ مُوجَّهٌ للرَّسُولِ محمد ﷺ، وهو ينسحِبُ علَىٰ كُلّ متلَقٍّ لَهُ مؤمِنٍ به بأسْلُوب الخطاب الإفرادي.

وجاء استِعْمال الفعل المضارع ﴿نَتْلُوا۟﴾: مُرَاعَاةٍ لزمَن التَّنزل، مع ملاحظة أنَّ الْقُرْآنَ المجيد كُلَّهُ، لَهُ صِفَةُ التَّنزُّلِ المتَجَدِّد دواماً، لأنَّهُ بيانٌ مِنَ الله عزّ وجلّ لعباده في كُلّ زَمَانَ بَعْدَ التَّنْزِيل، إذْ يُخَاطِبُ اللهُ عزّ وجلّ عبادَهُ بِهِ دواماً، وعلى كلّ العباد أنْ يَتَلَقَّوْهُ.

﴿نَتْلُوا۟﴾: أي: نُتَابِعُ فيما نُوحِي إلَيْكَ. يقال لُغَةً: «تَلا، يَتْلو، تُلُوًّا» أي: تَبِعَ، ويقال: «تَلاهُ، يَتْلُوه» أي: تبعَهُ فَهُو تَالٍ، وتِلَاوةُ القرآن وحياً على الرَّسُول، تَدُلُّ علَىٰ تَتَبُّعِ حُرُوفه وكَلِمَاتِهِ كَمَا هِيَ في

اللَّوْحِ الْمَحْفوظِ بإسماعِه إيَّاها وإبلاغِهَا إلَيْهِ، حَرْفاً بِحَرْفٍ، وكَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، وآيَةً بآيَة.

- ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾: أي: بعْضَ نَبَأِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، في لقَطاتٍ مِن قصَّتِه، ذاتِ العلاقَةِ بِفِرْعَوْن ﴿مِن﴾ للتبعيض.

النَّبأ: يُسْتَعْمل كثيراً في الخَبَرِ ذي الشَّأْنِ المتميِّز المرتفع، لأنَّ مادة الكَلِمة تدور حَوْلَ مَعْنَىٰ الارْتفاع والظُّهور.

- ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي: حَالة كَوْنِ النّبأ مُلْتَبِساً بالحقّ، ومحاطاً به، فَلَا شَكَّ فِيه ولا باطل، **الحق**: الثابت الصادق المطابق للواقع.

- ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: ليتَبَلَّغَهُ ويَهْتَدِي بِمَا فِيه من هُدىً قَوْمٌ لَدَيْهم الاسْتعدادُ لأنْ يُؤْمِنُوا، إذَا تُلِيَتْ عَلَيهم آياتُ رَبّهم فيها هُدًى ونُور. هذا ما دَلَّ عليه الفِعْلُ المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وكذلك الَّذين هم في الحال مُؤْمِنُون.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾:

أي: إنَّ فرعَونَ الَّذي كان مَلِكَ مِصْرَ في أيَّامِ مُوسَىٰ، قَدْ وَصَلَ في قُوَّةِ سُلْطانِهِ وجَبَرُوته إلَىٰ عُلُوٍّ رَفِيعٍ في أرْضِ مِصْر.

الْعلوّ: الارْتفاعُ الحسّيّ الذي يُشهَدُ بالأبصار، واسْتُعْمِلَ في القرآن بمَعْنى الارتفاع المعنوي، ومنْهُ بُلُوغ الإنْسانِ أنْ يكون مَلِكاً مستَبدًّا مُتَسَلِّطاً جبّاراً، وبُلُوغُ جَمَاعَةٍ من الناس أو أمةٍ من الأمم إلى مثْلِ ذَلِكَ في أرضٍ ما، أو دولةٍ ما، وتَسَلُّطِهم علىٰ شَعْبٍ أو أُمَّةٍ من دُونهم.

أثبتَتِ الآيَةُ بَيَانَ عُلُوّ فرعَوْنَ في أرض مصر، ومن المعلوم أنَّ لكُلِّ ظاهِرَةٍ في الكَوْنِ سَبباً، فَعُلُوُّ فرعَوْن كَانَتْ لَهُ أَسْبَابٌ اقتضَتْ أنْ يَصِل إلىٰ ما وَصَلَ إليه من عُلُوّ، إلّا أنّ ما يتحقّقُ وجُودُهُ بالأسْبابِ مَسْبُوقٌ بقضاء اللهِ وَقَدَرِه، فالله عزّ وجلّ هو الّذِي جعَلَ لَهُ عُلُوًّا في أَرْض مصر، ليَبْلُوه ويَبْلُوَ به.

• ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾: أي: وجعَلَ أهْلَ أرْضِ مِصْرَ، أحْزَاباً مُتَفَرِّقَةً، مُتَعَارِضَةَ المصالح والأهواء والأفكار.

الشيعة: الفرقة والجماعَةُ الّتي يناصِرُ بَعْضُهُمْ بعضاً، والحزبُ الواحد، والجمْعُ «شِيَع».

فَدَلَّ هذا البيانُ علَىٰ أنَّ فرعَوْنَ قد اتّخذ وسِيلَةَ: «فَرِّقْ تَسُدْ» وهذا التفريق قَدْ كان بجَعْل شَعْبِ مِصْرَ، شيعاً متخالفةً متَعادِيَة، وأحْزَاباً مُتصارعَةً مُتنافِسَةً فيما بَيْنَها.

• ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾:

أي: يَعْمَل علَىٰ جَعْل بني إسرائيل الّذين هاجَرُوا إلى أرض مِصْرَ منذ أيام يُوسُف عَلَيْهِ السَّلام ضُعفَاءَ، بَعْدَ أَنْ كانُوا ذوي مكانةٍ رفيعةٍ مُتَمَيِّزَة بتمكينِ يوسُفَ لهم فيها.

دلَّ على أنَّ المرَادَ بعِبَارَة ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ الْعَمَلُ على جَعْلِهِمْ ضُعَفاء، لا قُوَّةَ لَهُمْ في مِصْر تَمْنَعُ عَنْهُمْ الاستعباد والإذْلال والاضطهاد، عبارَةُ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾ لَقَدْ كَانَتْ هـٰذِهِ عادَةَ فراعِنَة مصْرَ، ضِدّ الأقليّاتِ الّتِي يَخْشَوْنَ تكاثُرَها. وبُلُوغَها مبْلَغَ الْقُوَّةِ المنافِسَة، أو المتمرِّدَةِ على سلطانهم وجبروتهم.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾: أي: يأمُرُ بتَذْبِيح مواليدهم الذُّكور بَعْدَ ولادتهم وهم في سِنّ الرَّضاع، لئلّا يكْبُرُوا فيَكْثُرَ الرجَالُ القادرون على القتال

منهم، وجاء في بعض أخبار الإسرائيليّين أنَّ هذا لم يكن دَوَاماً، بل رُبّما كان في بعض السنين دون بعضها.

ولمَّا كان التخلُّص من مواليد الإسرائيليين الذكور قَدْ يكون بأيَّةِ وسِيلَةٍ مِنْ وسَائل القتل غير الذبح، جاء التَّعْبِيرُ في بعض النصوص القرآنية بعبارات: «سنُقَتِّلُ ـ سَنَقْتُلْ ـ اقْتُلُوا».

• ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾: أيْ: وَيُبْقي المواليد الإناث على قَيْدِ الحياة، للانتفاع مِنْهُنَّ بالخِدْمَةِ والتَّسْخِير. يقال لغة: «استَحْيَا الْقَائِدُ الأسِير» أي: اسْتَبْقَاه حيّاً فَلَمْ يَقْتُلْه.

• ﴿...إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾: أي: إنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ في حياتِه مُفْسِداً من زُمْرَةِ المفْسِدين.

المفسِدُ: هو الذي يجعل الأشْياءَ الصالحة عديمةَ الصَّلاح، غير نافعة، أو يُحَوِّلُها مِن نافعة إلى ضارَّةٍ كريهةٍ مؤذية.

وظاهر أنَّ جَعْلَ الشَّعْب الواحد شيَعاً وأحْزاباً مُتَصَارِعَةً متعادية متقاتلة من الإفساد في المجتمع البشري.

وظاهر أنّ استعباد الناس وإذْلالهم واضطهادهم وتعذيبهم بغير حقّ، من الإفساد في المجتمع البشري.

وظاهر أنّ قَتْلَ المواليد الذكُور تخوُّفاً مِنْ تكاثر الطائفة المستضعفة، من الإفساد الشَّنِيع في المجتمع البشري.

ولا يخفي ما في جمل هذه الآية (٤) من توكيد موجّه للشاكّين.

* * *

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا
كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ
فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ
﴿٧﴾ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا
تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾
۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ
يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا
وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

تمهيد:

في هٰذِهِ الآيَاتِ لَقَطاتٌ مِنْ قِصَّةِ موسَىٰ عليه السَّلام، وفرعونَ عليْهِ لعْنَةُ الله، بَيْنَها وبَيْنَ مَا جَاءَ في سَائر القرآن حول هٰذا الموضوع تكامل، ممّا اقتضت حكْمَةُ اللهِ بيانَهُ في القرآن المجيد.

وقد جاء فيها بيانُ أنَّ الله ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُه ـ شَاءَ أنْ يَمُنَّ علىٰ بني إسْرائيل، إذْ كانُوا في ذُلِّ الاضطهاد الفرعَوْنيّ مُسْتَضْعَفِينَ ثَلاثَ مِنَن.

المنَّةُ الأولىٰ: أنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ أئِمَّةَ هِدَايَة، إذْ عَلِمَ أنَّ بَعْضَ سُلَالاتهم سَيَكُونُون مُؤَهَّلِينَ للاصطفاء بالنُّبوة، وللاصطفاء بالرّسالة يَوْمَئِذٍ، وَمَتَىٰ وُجِدَ الإمَام الصالح في أُمَّة، وقادَهُم قيادةً حكيمة، واستطاع أن يكبَحَ جمَاحَ عُصاتِهم ولو بالمرهباتِ والعقوبات، كانَ أفرادُ الأُمَّة بمَجْمُوعِهِم وبِصُورَةٍ عامَّةٍ بمثابَةِ الأئمة.

المنّة الثانية: أنْ يَجْعَلَ بَنِي إسرائيلَ الوارثينَ لأَرْضٍ وكُنُوزٍ وسُلْطَانٍ ومُلْكٍ في أرْضِ فلْسِطينَ، وهذا ما تحقَّقَ بعْدَ حِينٍ.

المنَّةُ الثالثة: أنْ يُمَكِّنَ لَهُمْ في الأرْضِ، وقد ظهر هذا في أيّام طالُوتَ ودَاوُد وسليمان عليهما السَّلام، وبَقي قليلاً بَعْدَهُما.

وجاء فيها بيان أنَّ الله عزّ وجلّ شاءَ أن يُرِيَ فِرْعَونَ ووزيرَه الأوَّل هامان، وجُنُودَهُما مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْ بَني إسرائيل، إذْ كانُوا يخافُونَ تكاثُرهم في مصر، وتنامِيَ قُوَّتهم، وهلاكَهُمْ علىٰ أيْدِيهم، أو بسبَبِهم.

وتَبْدَأُ الأحداث بميلاد الْإمام الأوَّل من أئمة بني إسرائيل، وهو الطّفْلُ مُوسَىٰ عليه السَّلام، في السَّنَةِ الَّتِي كَانَ يجري فيها ذَبْح المواليد الذكور من بني إسْرَائيلَ، ولَمْ يُغْنِ فِرْعَوْنَ هـٰذا الإجراءُ شيئاً، لأنَّ مَا يُقَدِّره الله عزّ وجلّ ويَقْضِيه لَا يُعَانَدُ وَلَا يُمْنَعُ وَلَا يُرْفَعُ ولَا يُدْفع.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: **[وَيَرَىٰ فِرْعَوْنُ وهَامَانُ وجُنُودُهُما]** وبين القراءتَيْن تكاملٌ في الأداء البياني، أي: يُرِيهم الله في مجاري مقاديره وقضائه، ما كانوا يَحْذَرُونَ من بني إسرائيل، فهم يَرَوْنَ ذَلِك لا مَحالة.

- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾: جاء التعْبيرُ هنا بضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ الأحداث الّتي تحقَّقَتْ بإرادة اللهِ عزّ وجلّ، إنَّما تحقَّقَتْ بسلطانِ رُبُوبيَّةِ اللهِ

العزيز القاهر، الّذي لا رَادَّ لقضائه، وهو الغالِبُ على أمْرِه.

وجاء في العبارة استعمالُ الفعل المضارع: «نُرِيد» على طريقة الاستقطاع من الماضي، وتقديمهِ في البيان تقديماً يُشْبِهُ ما يَجْرِي الآن مع تلاوة البيان من أحداث. والمرادُ بالإرادة هُنَا إرَادَةُ التنفيذ مع أزْمان الأحداث، لا إرَادَةُ التَّقْدِيرِ والإمضاءِ بالقضاء الّتي تكُونُ سابقَةً للأحداث، ومُسَجَّلَةً في اللَّوْحِ المحفوظ.

الْمَنُّ: الإنعام والإحسان، يقال لغة: «مَنَّ عَلَيْهِ يَمُنُّ مَنًّا» أي: أنعم عليه نِعْمَةً طَيِّبَةً، وأحْسَنَ إلَيه بعطيّة.

- ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المرادُ بِهِمْ بَنُو إسرائيل في مِصْر قَبْلَ ميلاد مُوسَىٰ عليه السَّلام، وبَعْدَهُ حَتَّىٰ خُرُوجهم من مصر وعبورِهم البحْر، وهلَاكِ فِرْعَوْنَ وملَئِهِ وجنُوده غرقاً عقب نجاةِ العابرين بمنَّةِ الله علَيْهم. أي: ونُرِيدُ أنْ نمُنَّ عليهم فنخرجهم مِمّا هُمْ فيه من ضعف وذلٍّ واستعبَاد.

﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾: أي: اتُّخذتِ الوسائلُ الإكراهيَّةِ لإضعافِهِمْ وإذْلالهم واستعبادهم، ومنها تذبيح مواليدهم من الذكور، في بعض السَّنوات، كسَنَةِ تذبيحٍ وسَنَةِ إعْفاء.

- ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: في أرض مصر. «ال» في عبارة «الأرض» للْعَهْدِ الذّهْنِي، المفهوم من سِباق النصّ وسِياقه.

- ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾: **أَئِمَّة**: جَمْعُ «إمام» وهو ما يُؤْتَمُّ به، ومَنْ يُؤْتَمُّ بِه، أي: يُتَّبَعُ ويُقْتَدَىٰ به، والمرادُ بالإمامة هُنَا الإمامَةُ الصَّالحةُ، الّتي يُقْتَدىٰ بها في الإحسان والْبِرِّ والتقوىٰ.

ومن الظاهر أنَّ جعْلَهُمْ أئمة لا يَقْتَضِي جَعْلَ كلِّ أفرادهم كذلك، بل إذا جَعَلَ اللهُ عزّ وجلّ قادَتَهُم أئمَّةً صالحين، وأحْسَنَ هؤلاء القادةُ سِياسَةَ

جماهيرهم، وساروا بهم على صراط اللهِ المستقيم، كانوا بمجموعهم أئِمَّةً لِغَيْرِهم من الأمم.

وقد سَبَق في عِلْم اللهِ عزّ وجلّ، أنَّهُ سَيُولَدُ في أنسالِهِمْ مَنْ يكونُون مؤهّلِين للاصطفاء بالنبّوة، وللاصطفاء بالرّسَالَة، وتحقَّق هـٰذا في الواقع، فظهر فيهم موسَىٰ وهَارُون عَلَيْهما السلام، وداود وسليمان عليهما السلام، وسائِرُ أنبياء بني إسرائيل، ثُمَّ خَرَجُوا عن دين الله الحق، فَفَسَقُوا وفَسَدُوا وأفْسَدُوا في الأرض كثيراً، وصَاروا يقْتُلُونَ الأنبياء بغير حقٍّ، وتحالَفُوا مع إبليس على إغواء الناس أجمعين.

- ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ﴾: أي: ونَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ لجناتٍ وعُيُونٍ، وكُنوزٍ ومَقَامٍ كريم، ومُلْكٍ وسُلْطَانٍ في الأرض، بِهِبَةٍ منَّا لَهُم، في مجاري قضائنا قَدَرِنا ضِمْن أنظمة الأسْباب والمَسببَات التي هي من سُنَنِنا في كوننا.

وقد تحقَّق هذا بامْتِلاك بني إسرائيل فِلْسِطين، في أزمان صلاحهم واستقامتهم، فلَمَّا فَسَدُوا وَطَغَوْا وبَغَوْا سَلَبَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ ما كان قَدْ مَنَحَهُم، ومزّقهم وشتَّتَهُمْ وضَرَبَ عليهم الذِّلَّة والمسكنة.

- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: **التَّمكِين**: الإقدار على التصرّفِ الموصلِ إلى تحقيق المطلوب، مع التثبُّتِ في المكان، والْقُدْرة على التحرُّكِ فيه بحُرِّيَّة.

وقد حصل لبَني إسرائيل هذا التمكين، أيَّامَ امتلاكِهم لفلِسْطين، وتَسَلُّطِهِمْ على مُقَدَّراتها، وكان هذا في عُهُودِ طالوت وداود وسليمان عليهما السلام، وزَمنٍ غير طويل بَعْدَ ذلك.

- ﴿. . . وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾:

أي: وَنُرِيدُ بتنفيذ أقضيتنا تِباعاً أنْ نُرِي هؤلاء المفْسِدينَ في مِصْر، مُسْتَغِلِّين قُوَّة سُلْطَانهم، ما كانوا يَحْذَرُونَ من هلاكهم على أيدي الإسرائيليين أو بسببهم، كما سبق بيانه، وكان هذا هو الباعث لإصدار الأمر الفرعونيّ بذَبْحِ المواليد الذكور لبَني إسرائيل.

حذف معمول فعل ﴿يَحْذَرُونَ﴾ إيجازاً، للعلم به، فهو ملاحظ ذهناً، والتقدير: «يَحْذَرُونه».

يقال لغة: «حَذِرَ الشَّيءَ يَحْذَرُهُ» ويقال: «حَذِرَ مِنْه» أي: خاف من شَرِّه واحْتَرَزَ مِنه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ⑦﴾:

أخذاً من دَلالاَتِ مختلِف النصوص، يظهر للمتدبّر أنّ المراد بالوحي إلىٰ أمّ موسىَ عليه السَّلام نوعٌ من الإعْلَام الخفيّ الّذي يكون لِغَيْر الأنبياء والمرسَلِين، ولا يُشْتَرَطُ له الاصطفاء بالنُّبُوَّة، إذْ قَدْ يأتي إلْهَاماً علَىٰ شَكْل خواطِرَ قَوِيَّةٍ دافِعَةٍ بقوّةٍ إلى العمل بمقتضاها، وقد تأتي بواسطة حُلْم جَلِيٍّ يُرَىٰ في المنام، أو بواسطة مَلَكٍ يأتي بصُورة إنْسَان ناصحٍ غَيْرِ مَعْرُوف أنَّهُ مَلَك.

وقد جاء في بيانات الرَّسُول ﷺ، أنَّ الله عزّ وجلّ أَرسَلَ بَعْض ملائكته لبَعْضِ عِباده، فبلَّغُوهم وأَخبَرُوهم أخباراً صادقة. . دُون أن يكون المرسَلُ إليهم أنبياء، ومن هذا ما جاء في حديث الأقرع والأبْرص والأعْمَىٰ، عند البخاري ومسلم. ومنه أيضاً ما جاء في الصحيح من أنَّ الملائكة سلَّمَتْ على «عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْن» وهو ليس بِنَبِيٍّ. ومنه أيضاً ما جاء في حديثِ الّذي ذهَبَ ليزُورَ أخاً لَهُ في اللهِ، سَاكِنٍ في بَلَدٍ غير بَلَدِه،

فظهر له ملَكٌ وسَألَهُ عن قَصْدِهِ وحادثه، وهو لا يَعْلَمُ أنَّهُ ملك.

فهٰذِهِ الأنواعُ مِنَ الوحْي لَا تَقْتَضِي النُّبوَّة، ولَا تُشْتَرَطُ لَهَا النبوَّة.

وقد اتّفق جمهور أهل العلم على أنَّ النبوَّة لَا تكُونُ للنّساء، فَلَمْ تكُنْ أُمُّ مُوسَىٰ يُوحَىٰ إليها كما يوحَىٰ إلى الأنبياء.

- ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾: أي: وأَوْحَينَا إلىٰ أُمّ مُوسَىٰ وَحْياً يَتَضَمَّنُ مَعْنَاهُ أنِ اسْتَمِرّي على إرْضاعِهِ في الخفاء، عن أعْيُنِ الرُّقباء، وأَعْيُنِ مشيِّعي الأَنباء.

- ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾: أي: فإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ أَنْ يُعْلَمَ أَمْرُه، ويَصِلَ خَبَرُهُ إلى جُنُودِ السُّلْطَةِ الفرْعَوْنِيَّة، وأَنْ يأتُوا إلَيْكِ لِيَذْبَحُوه.

- ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾: أي: فضعيه في الصُّنْدُوق «التَّابُوت» كما جاء في الآية (٣٩) من سورة (طـه) وأَلْقِيهِ مع تابوته في نهر النيل طافياً يَجْري كمركب بَحْرِيّ صغير.

- ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾: أي: وَلَا تخافي عَلَيْهِ من الغرق إذا أَلْقَيْتِيهِ في اليمِّ بتَابُوتِهِ، فاللهُ رَبُّهُ حَافِظٌ لَهُ وحَاميه، ولَا تَحْزَني علىٰ فِراقِهِ إذْ هُو فِراقٌ في زَمَنٍ قليل.

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾: جاءَتْ هـٰذِهِ العبارة فيمَا أوحىٰ اللهُ إِلَيْهَا بمثابَةِ التَّعْلِيل لنَهْيها عَنْ أَنْ تَحْزَنَ لفراقِه، أي: إنَّا سَنَرُدُّهُ قَرِيباً إِلَيْكَ، إذْ تكونين أَنْتِ مُرْضِعَته وَحَاضِنَته.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: أي: وإنَّا جاعِلُوهُ مستَقْبلاً حينَما يكُونُ أهْلاً للاصطفاء بالنبوَّةِ والرِّسَالةِ، نبيًّا من الأنبياء، ورَسُولاً من المرسَلين.

هذا البيان الذي جاء في هذه الآية (٧) يَدُلُّ على أنَّ وَضْعَهُ في التابوت، وإلقاءه في اليمّ، لم يكن عَقِبَ وِلادَتِه مباشرةً، بل كان بَعْدَ مُدَّةٍ

أرْضَعَتْهُ فيها سرّاً، وهِيَ تُخْفِي أَنْ يكُونَ لَها طِفْلٌ صغِيرٌ تُرْضِعُه، وقد تكُونُ هـٰذِهِ المدَّةُ ثلاثَةَ أشْهُرٍ كَمَا ذَكَرَ الإسرائيليُّون في سِفْرِ الخروج.

ويدُلُّ أيضاً على أنَّهُ قَدْ كان وَحْياً صَرِيحاً ببيانٍ قَوْلي، دلالَةً راجحةً غَيْر قطعيَّة.

- ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾:

كلمة «آل» مثل كلمة «أهل» إلّا أنَّها لَا تُسْتَعْمل غالباً إلّا في أشراف الأهل، وذوي المكانةِ المطاعة فيهم، فآل فرعَوْن هم من كانت لهم مكانةٌ في قَصْرِه من أهْله، وكلمتُهم مُجابَةٌ عند سيّد القصر.

جاء في هذه الآية بيان أنَّ من التقطه من النيل إلى جانب شطِّ قصْرِ آل فِرْعَونَ هُمْ آل فرعَوْنَ، وهذا يَصْدُق بأن تكون اللّاقطة الأولى له امرأة فرعون، أو ابنته، أو بعض جَواري الْقَصر الفرعوْني، إذْ قَد وصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إلى آلِ فرعَوْنَ جميعاً، وعَلِمُوا به، وهُمْ أصْحَابُ الكَلِمَةِ المجابَةِ عنْد فرعون نفسه سيّدِ الْقَصر.

وجاء في هذه الآية أيضاً بَيانُ أنَّ الغاية من تقدير اللهِ وقضائه بالْتِقَاطِ آلِ فرعَوْن لَهُ من النَّهر، وتنشئتِهِ مَحْمِيًّا فيه، وتَرْبيَتِه كتَرْبِيَةِ أَوْلاد الملُوك، هي أن يكون في المستقبل عَدُوّاً لفرعَوْن وآلِهِ الكافِرين الجبَّارِين، وأعوانهم وأنصارهم وجنودهم، وأن يكون أيضاً سبَباً في إنزالِ الحزْنِ فيمَنْ سيَبَقْىٰ منهم، بَعْدَ إهلاك اللهِ فِرْعَوْنَ ومَنْ كانَ معَهُ غَرَقاً في الْبَحر، وهُمْ يتابِعُونَ بني إسرائيل الخارجين من مصْرَ في اتّجاه سيناء.

- قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: **[وَحُزناً]** بضمّ الحاء وإسكان الزّاي، وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَحَزَناً]** بفتح الحاء والزّاي.

القراءتان لغتان عربيتان متكافئتان، ومعناهما واحد.

الْحُزْنُ والْحَزَنُ: ضدُّ الفرح والسُّرور، يقال لغة: «حَزَنَهُ الأمْرُ يَحْزُنُهُ حُزْناً». ويقال: «أَحْزَنَهُ الأمْرُ إحْزاناً». قال الجوهري: «حَزَنَهُ» لغةُ قريش، و«أَحْزَنَهُ» لغة تميم.

ويقال: «حَزِنَ الرَّجُلُ يَحْزَنُ حَزَناً» فهو «مَحْزُونٌ، ومُحْزَنٌ، وحَزِينٌ، وحَزِنٌ» من قَوْمٍ «حِزَانٍ، وحُزَنَاءَ».

الحزْن: مشاعِرُ ألَم في النفس، بسَببِ فواتِ محبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه، أو بسَبَب حُدُوثِ مَكْرُوه، أو تَوقُّعِ حُدُوثه، كالحزْنِ على محكومٍ علَيْه بالْقَتل، وهو يَترقَّبُ التنفيذ.

قال النحويون والمفسّرون: اللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ من عبارة: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ هي لام العاقِبة، وليسَتْ لام الغاية.

فالمعنى: الْتَقَطُوه لتكون عاقبةُ أَمْرِه أن يَصِيرَ عَدُوًّا لمريدي قَتْله والتخلُّص منه فيهم، ولِيَكونَ سَبَباً في إحْزَانِ سائر مَنْ يَبْقَى منهم، بَعْدَ هَلاكِ فرعَوْن ومَنْ مَعَهُ من آله، كالنساء الكَوَافِر، وكالّذين لم يخْرُجُوا من كُفَّارِ آل فرعَوْن، معَ فرعون وجنوده، لقتال بني إسرائيل الخارجين من مصر بقيادة موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ⑧﴾:

جاءت هٰذِهِ الجملة بمثابَة التعْلِيل لقضاء الله عزّ وجلّ، بأن يكُونَ موسىٰ عليه السَّلام في المستقبل عَدُوّا وحَزْناً لكفّارِ آل فرعون وأنصارهم وجُنُودِهم.

هَامَان: أخذاً مِن فَحْوىٰ النصوص فهمْتُ أنَّ «هَامَان» هو الوزير الأوّل لفرعَوْن، والمعين الأكبر له على ارْتكاب جرائمه وعُدْوانَاتِه، وظُلْمه وطغياناته، وارتكاب خطاياه، مع الإصرار على الكُفر عناداً واستِكْبَاراً.

﴿كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾: أي: كانُوا مُذْنِبينَ عَنْ عَمْدٍ وإصرارٍ، اتّباعاً للأهواء والشهوات، وتحقيقاً لمصالحهم من الحكم والسُّلطان، بفَرْضِ جَبَرُوتِهم وكِبْرِيَائهم في الأرض. وقرأ أبو جعفر: [خَاطِين] بحذف الهمزة، وهي لغة.

يقال لغة: «خَطِيءَ، يَخْطَأُ، خَطَأً، وَخِطْأً»: أي: أذنبَ عَنْ عَمْد، وكذلك: «أخْطَأَ».

وتستعمل هذه المادّة بمعنى الغَلَط عَنْ غير عَمْد، وهذا المعنى غير مرادٍ هنا.

• ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾:

أي: وقالت امرأةُ فِرعَوْنَ لَهُ: هـٰذا الصبيُّ الّذي التقطْنَاهُ مِنَ الْيَمّ، قُرَّةُ عَيْنٍ لي، وقُرَّة عَيْنٍ لَكَ.

وقالَتْ له: لَا تَقْتُلوه، أي: لاَ تُصْدِرْ أَمْرَكَ لجنُودِكَ بأَنْ يقتلوه، أو أصْدِر أَمْرَك بأن لاَ يَقْتُلُوه مع المواليد الذُّكُورِ من الإسرائيليّين، تنفيذاً لأمْرِك السابق.

وقالَتْ له: عَسَىٰ أنْ يَنْفَعَنَا إِذَا كَبِرَ وَنَمَا فِي قَصْرِنا، فَيَكُونَ لنا قُوَّةً علَىٰ الإسْرائِيلِيّينِ وغَيْرِهم، أَوْ عَسَىٰ أن نَجدَ فيه خيراً ونُبوغاً، فنتَبَنَّاهُ وَنَتَّخِذَهُ وَلَداً لنا.

عسىٰ: فعلٌ غَيْرُ متصرّف، معناه المقاربة على سبيل الترجّي، وهي هُنَا تَامَّة لاَ تحتاج إلى خَبَرٍ منصوب أو هي ناقصة واسمها ضمير يعود على موسى، وخبرها المصدر المؤوّل من ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾.

• ﴿... وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذه الجملة حاليَّة، وقد دلَّت علَىٰ أنّ الله

عزّ وجلّ صرفَ عَنْ أذهَانِ فِرْعَوْنَ وآلِهِ احْتمالَ أنْ يكون هذا الصبيُّ هو الْوَلَدَ المحْذُورَ منْه من بني إسرائيل، الذي صَدَرَ الأَمْرُ الفرعَوْنيُّ بقتل مواليد بني إسرائيل الذُّكور مِنْ أجله، إنْ صَحَّ أنّ المنجمين قالُوا لفِرْعَوْن: سيُولَدُ مَوْلُودٌ من بني إسرائيل يكون هَلاكُهُ وتقويض مملكتِه على يَدَيه، وهي مقولةٌ لم أجِدْ لهَا سَنَداً في غَيْر أقْوَال بعض المفسّرين.

ومعنى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ والحالُ أنَّهُمْ لم يَحْصُلْ لَهُمْ أقَلُّ تَصوُّرٍ احتماليٍّ، بأنْ يكُونَ هذا الصبيُّ سَبباً في هَلاكِ فرْعَوْنَ وتَقْويضِ مملَكَتِه في مصر.

عبارة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾: كنَايَةٌ عَن السُّرُور والرّضا، يقال لغة: «قَرَّتْ عَيْنُ فلان» أي: برَدَت، ويُكَنَّى بهٰذا التعبير عَنْ سُرُوره ورضاه، لأنَّ بَرْدَ العَين المضادَّ لسُخُونَتِها يكُون في حالة السُّرور والرِّضا.

- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾:

الفؤاد: هُو عُمْقُ القلْبِ في كيانِ الإنسانِ النفسِيّ.

أي: وإنّ فؤاد أُمّ موسَىٰ بَعْدَ إلْقائه في تابوته في النّيل، نَحْو آخِرِ اللّيل، وفْقَ الوحْي الرَّبَّانِيّ الذي جاءها، أصْبَحَ فَارِغاً، أي: خفيفاً طائشاً، غَيْرَ ذِي وزْنٍ ثقيلٍ يُثَبّته، وبخفَّتِهِ وطَيْشِهِ صَارَ مُؤَهّلاً لأنْ يَتَأَثَّر بآلام نَفْسِها من أجل ولَدِها، فيُعْطِيَ بِطَيْشِه وخفَّتِه تَوْجيهَهُ لإرادتها، فَتُصْدِرَ أوامِرَها لِلِسَانِها بأنْ يَبُوحَ بما فَعَلَتْ سرًّا.

وعندئذٍ يفتَضِحُ أمْرُها، ويتَعَرَّضُ الصَّبِيُّ للقَتْل بَعْد استخراجِهِ من اليَمّ.

و«إنْ» في عبارة ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ هي المخفَّفةُ من الثقيلة، واسْمُها ضَمِيرُ الشَّأن الّذي يُحذَفُ دواماً في اللِّسانِ الْعَربيّ.

أي: إنَّ الشَّأْنَ الخطير أنَّ أُمَّ مُوسَىٰ كادَتْ لتُبْدِي أَمْرَ مَا فعلَتْ بصَبِيّها، إذْ وَضَعَتْهُ في تَابوتٍ، وأَلْقَتْهُ في النيل، وعندئذٍ يَفْتَضح أمْرُهَا، ويَشيعُ خَبَرُها.

يقال لغة: «أَبْدَىٰ الشيءَ وأَبْدَىٰ بِه» أي: أَظْهَرَه.

وقد تكون تعْدِية الفعل على التضمين، والتقدير: إنْ كادَت لتُبْدِي أَمْرَها مُتَحَدِّثَةً بشأن صَبِيّها وما فعلَتْ به إذْ أَلْقَتْهُ في النيل داخل صنْدوق فَهُو يجري مع الماء.

لكِنَّ اللهَ عزّ وجلّ رَبَطَ علىٰ قَلْبها برباطٍ معنويٍّ من التجلُّدِ والصَّبْر، والثقة بالله والتوكُّل عليه، فهو الّذي أوْحىٰ إلَيْها وَحْياً على ما سَبَقَ بيانُه، بأن تضَعه في تابوتٍ وتُلْقِيه في اليمّ.

وبهذا الرَّبط الرَّبَّانِيّ ارْتَقَتْ مَنْزِلَتُهَا من فِئَةِ المؤمِنَاتِ إلىٰ فِئَةِ المؤمنين من الرِّجال، دلَّت على هذا عبارة: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ المؤمنون الصابِرُون الثابتُون المتوكّلونَ على اللهِ من الرّجال، يضبطون بإراداتِهم الحازماتِ تَصَرُّفاتِهم على مقتضَىٰ الحكمة، بخلاف النساء فإنَّ طبائِعَهُنَّ تَغْلِبُهُنَّ فتدفعُهُنَّ الْخِفَّةُ إلىٰ تَصَرُّفاتٍ لَا تُحْمَد عُقباها، إلَّا مَنْ يَعْتَنِي اللهُ عزّ وجلّ بِها مِنْهُنَّ، فَيَرْبِطُ على قَلْبِها، فيَجْعَلُها في خصائصها النفسيَّة مِثْلَ فُضَلَاءِ الرّجال المؤمنين.

وهذا نظير وصْفِ الله عزّ وجلّ مَرْيم أُمَّ عيسَى عليه السَّلام، بأنَّها كانت من القانتين، ولم يَقُلْ من القانتات.

الرَّبْط على القلُوبِ في دَلَالَاتِ النّصوص القرآنيّة يُفيد معنى التثْبِيتِ والتقوية، لمَنْعِهَا من الاندفاع بخفَّةٍ وطَيْشٍ.

وعوامِلُ هذا الرَّبْطِ التَّثْبِيتي هي عوامل إيمانيَّة، من الثِّقَةِ باللهِ وبحكمَتِه، والتوكُّل عليه، وتَسْليم الأمْر إليه، والرِّضا بقضائه وقَدَرِه، إلى

سائرِ مُمِدّاتِ النَّفْس بالصَّبْر والحلْم والْقُدْرَةِ على تحمُّل المؤلماتِ والموجعات والمزْعِجات.

بخلاف الشَّدِّ علىٰ القلوب فَهُو يُفيدُ معنَىٰ الضغْط عَلَيْها بالمؤلماتِ والمكارِه والكُرُوبِ والمخاوف والأحزان، ونحو ذلك.

- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑪﴾:

أي: وقالت أُمُّ مُوسَىٰ عليه السَّلام بَعْدَ أَنْ ألقتْه في النيل في تابوته.

﴿لِأُخْتِهِۦ﴾: قالوا: اسْمُها مَرْيم، وقد كانت حينئذٍ فتاةً راشدَةً.

﴿قُصِّيهِۖ﴾: أي: تَتَبَّعِي تنقُّلاتِ أخيك في الصُّنْدُوق الّذي هو فيه، وتَتَبَّعِي حَرَكَته، وإلَىٰ أيْنَ يَصل.

تقول لغة: «قَصَصْتُ الشَّيْءَ أَقُصُّهُ قصًّا وَقَصَصاً» أي: تتبَّعْتُ أَثَرَهُ شيئاً فشيئاً.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾: أي: فَعَلِمَتْ به، يقال لغة: «بَصُر بالشَّيْءِ يَبْصُرُ بَصَراً وَبَصَارَةً» أي: عَلِمَ بِهِ عِلْماً صحيحاً مُؤَكّداً، فَهُو بِهِ بَصِير.

﴿عَن جُنُبٍ﴾: أي: حالَةَ كَوْنِها متجاوزةً مَكاناً يَفْصِلُ بَيْنَهَا وبَيْنَ النِّيل بمقدار هُو في نظر الناس بعيد، لا يُعْتَبَرُ الموجُودُ فيه مُرَاقِباً لمَا يَحْدُثُ في النَّهر.

الجنُبُ: الْبَعِيد، ويُطْلَقُ أيضاً على القريب، فهو من الألفاظ الّتي تُطْلَقُ علىٰ المتضادَّين، إلّا أنّ المراد هُنَا المعنى الأول، واللهُ أعلم.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: قُصِّيهِ في حالَةِ أنَّ الَّذِينَ يَعْنِيهم قَتْل مواليد بني إسرائيل الذكور، أو يَعْنِيهم إشاعَةُ الأخبار عنهم، أو نَقْلُها إلى جنود الظالمين، لا يَشْعُرونَ بوجودِ مُراقِب متابع لشيءٍ ما في النهر.

الشعُور بالشيء: العِلْمُ به، ولو من أدْنَىٰ درجات الإحساس به، أخْذاً مِنْ مَسِّ الشَّعر الذي يحْصُل به إحساسٌ خفيف.

• ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ⑫﴾:

• ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾: أي: ومنَعْنَاهُ بأَمْرِ التكوينِ من قَبُولِ ثَدْي مُرْضِعَةٍ ما تُرْضِعُهُ غَيْر ثَدْي أُمّه.

التحريم: هو في اللّغة المنْع، وهذا المنع قَدْ يكُونُ بأمْرٍ تَكْويني، فيتحقَّقُ الامتناع بالجبر، وقد يكون بأمْرٍ تَكْلِيفي لذوي الإراداتِ المطيعة بالفطرة، أو الإرادات القادرات عل الطاعة والمعصية، وهذا المنع يُسمَّىٰ حينئذٍ نهياً تكليفياً.

مراضِع: جمْعُ «مُرْضِع» و«مُرْضِعَة» وهي الّتي تُرْضِعُ من ثَدْيها لبناً.

• ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ وُصُولِ أُخْتِه إلى مكانِ طَلَبِ مُرْضعٍ للصَّبِيِّ الملتقَطِ والمنْتَشَلِ من النهر.

• ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ⑫﴾:

أي: فقالَتْ أُخْته مَرْيمُ لمَّا عَلِمَتْ أنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ أَثْداءَ المرضعاتِ اللّواتي عُرِضْنَ عَلَيْه: هَلْ أَدُلُّكُمْ علَىٰ أهْلِ بَيْتٍ يقومُون بإرْضاعه، وتَرْبِيَته، وحضَانَتِه، وخِدْمَتِه، لَكُمْ بالأجْرِ، في كفَالَةٍ حَسَنَةٍ، وهم أَهْلُ نُصْحٍ لمَنْ يكْفُلُونه.

﴿نَٰصِحُونَ﴾: أي: مخْلِصُونَ، ليْسَ في كفَالَتِهِمْ غِشٌّ، وَلَا خيانَةٌ لأَمَانَة.

وأرادت بعبارَة: ﴿أَهْلِ بَيْتٍ﴾ أمَّها، وأباها، ونفسها، وسائِر منْ في بيْتِ أبيها، إلَّا أنَّ الّتِي تُرْضِعُهُ هي أُمُّها.

وطوى النصّ ما جرىٰ من تفاوُضٍ بين طالبي المرضع للصّبيّ، وبَيْنَ أختِه الّتِي لَمْ تَكْشِفْ أنَّ لهَا عَلَاقَةً ما به، فجاءَ ما بعْدَ هذه الآيَةِ مَعْطوفاً علَىٰ هذا المطويّ، لإمكان العِلْم به بالاستنتاج الفكريّ.

- ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: فأرْجَعنَا الصَّبيَّ مُوسَىٰ إلىٰ أُمِّه، لتَقُومَ بإرْضاعه وكفالَتِهِ في نظر مُلْتَقِطيه، وأمّا بحِكْمَةِ اللهِ فَكَانَ لهٰذَا الرَّدّ مِنَنٌ ثلاثٌ علَىٰ أمّه:

المنَّةُ الأولى: أنْ تَقرَّ عَيْنُها، دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في الآيَة: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: أي: لِكَيْ تُسَرَّ وَتَسْعَدَ وَتَرْضَا بعَوْدَة طِفْلِها الرَّضِيع إليها.

المنَّةُ الثانية: أنْ لَا تَحْزَنَ بِسَبَبِ فِراقه لها، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾.

المنَّةُ الثالِثَة: أنْ تَعْلَم أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وهو ما جاء بيانُهُ في الآية (٧): ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ فَقَدْ رَدَّهُ اللهُ إلَيْها، وسيَجْعَلُهُ اللهُ عزّ وجلّ نبيًّا من الأنبياء، وَرسُولاً مِنَ الْمُرْسَلِين، وقد دَلَّ على هذه المنة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

وقَد جَاء التعليقُ على هذه الحقيقة بقول الله عزّ وجلّ: ﴿. . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: ولَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ جاهِلُونَ لَا يَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقيقة، ولا سيما وعْدُ الله بالبعْثِ والحياة الأخْرىٰ، ومَا فيها من جزاء بالثواب في الجنَّة دار المؤمنين المسلمين، أو جزاء بالعقاب في النار دار العصاة والمجْرمين، ولا يعلمون مِنَنَ اللهِ الكثيرة عليهم.

وقد سبقت النظرات التكامليّة بين هذا النَّصّ وما جاء بشأن موضوعه في سورة (طـٰه) في الآيات من (٣٧ ـ ٤٠).

* * *

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

تمهيد:

في هـٰذِهِ الآيات بيان لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةٍ جرَتْ لمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام في مِصْرَ، وهُو في كمال رجُولَتِه، وشبابه، وقُوَّةِ جِسْمِهِ، وسَخَطِه علىٰ النظام الفرعَوْنِيّ المستَعْبِدِ المضْطَهِدِ المذِلّ لِقَوْمِهِ الإسرائيليين.

وتَدُلّ هـٰذِهِ الآيات بدلالاتِها الصريحة وبفَحْواها على أنَّ موسَىٰ عليه السَّلام كان عند حُدُوث هـٰذِهِ القِصّة يَسْكُنُ في بعض القصور الفرعونية، وقصور الملوك تكون في العادة خارج وسط المدينَة، أو خارجَ أسْوارها إذا كانت لها أسوار.

وفي بعض الأيّام خَرَج من منزلِهِ، ودَخَلَ وسَطَ المدينَةِ في وقت يكون الناس فيه غافلين عمَّا يجري من أحداثٍ في أسواق المدينة، كوقت القَيْلُولَة، أو ما بَيْنَ المغرب العشاء.

ووصل إلى مكانٍ ما وسَطَ أسْواقِ المدينة، فوَجَدَ إسرائيليًا ومصْرِيّاً يتخاصَمَان ويتضاربان تضارُبَ تقاتل.

- الإسرائيليّ من شِيعَتِهِ، أي: من قومه بني إسرائيل.
- والمصْرِي مِن عَدُوّه الّذين يُسَخِّرُون الشَّعْبَ الإسرائيليَّ ظلماً وعدواناً، ويستعْبِدُونهم.

فطلب الإسرائيليُّ المعُونَةَ من مُوسَىٰ الإسْرَائيلي، ذي القُوة المسْتَنِدِة إلى سُلْطان الْقَصْر الفرعَوْني في نظر الناس.

فنظر موسَىٰ في الْخُصُومَة بينهما، فَعَلِمَ أنَّ المصريّ هُو المعتَدِي الظالم الباغي، الذي يُريدُ تَسْخِير الإسْرَائِيليّ بغَيْر حَقٍّ في عَمَلٍ لَا يَجِبُ علَيْه أنْ يَعْملَه.

وكان مُوسَىٰ شديدَ القوَّةِ الْبَدَنِيَّة، وكان المصْري يُهاجِمُ ويُضارب، وأراد موسَىٰ أن يُصْلِحَ بينهما، فتطاول المصْري وربّما حاول إبعاد موسىٰ، فأراد موسَىٰ أن يَدْفع المصْريّ انتصاراً للحق، فَدَفَعَهُ بقَبْضَةِ يَدِه القوِيَّة، فَسَقَطَ الْمصْريّ في الأرض قتيلاً من قُوَّة الدَّفعِ، أَوْ مِنْ مَكان السُّقُوطِ إذْ أصَابَ مِنْهُ مقتلاً.

فَلَمَّا رَأىٰ مُوسَىٰ أنَّ القِبطيَّ سَقَطَ قتيلاً ولم يكُنْ يُرِيدُ قتْلَه، نَدِمَ على ما جرَىٰ مِنْهُ، وقال:

﴿. . .هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ⑮﴾.

ودَعَا رَبَّهُ قَائِلاً:

﴿. . .رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي. . . ⑯﴾.

وسَتَرَهُ اللهُ فَلَمْ يَفْتَضِحْ أَمْرُهُ، لأنَّ الإسرائيليَّ لم يَكْشِفْ عن اسْم موسَىٰ، ولم يكن أحَدٌ من المصريين قد شَهِدَ الحَدَث، ويظهر أنَّه ذكر

للنّاسِ أو لرجالِ الأمْن أنَّ رَجلاً عابراً شَهِدَ خُصومَتَهُ مع المصري، فأراد أَنْ يُصْلِح بيْنَهما، فَدفَعَ القبطيَّ بِيَدِه دَفْعَةً واحِدَةً سَقَط بِها قتيلاً.

فَحَمِد مُوسَىٰ رَبَّهُ على أنْ أنْعَمَ عَلَيْهِ بِسَتْرِ ما جَرَىٰ مِنه، ولَعَلَّهُ أدْرَكَ أنَّ الإسْرَائِيليَّ قَدْ يكُونُ في حقِيقَةِ أمْرِه مُجْرِماً مُذْنباً غَيْر صاحب حقٍّ كامل، فدَعَىٰ رَبَّهُ قَائلاً:

﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

لكنَّ مُوسَىٰ لم يطمَئِنَّ قَلْبُهُ لِعَدَمِ اكتِشَافِ أنَّهُ هُو الَّذِي قَتَلَ المصريّ في مكانٍ ما من أسواق المدينة، فأصْبَحَ في الْيَوْم الثاني خائفاً يَتَرَقَّبُ أقوال النّاس وإشَاعَاتهم، ويَخْشَىٰ أنْ يُشِيرَ أحدٌ إلَيْه، وأنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ دَخَلَ أسْوَاقَ المدِينَةِ في أوائل اللَّيْل المنْصَرِم، قَبْلَ سُقُوطِ الْقَتِيل.

وشاءَتْ ألْطَافُ اللهِ العِليّ الحكيم أنْ يَبْتَعِدَ عَنْ مِصْرَ إلى مَدْين، فأجْرَىٰ مقادِيرَهُ الخفيَّة، فَشَهِدَ في أوَّلِ النَّهار أنَّ الإسْرَائيليَّ الّذي كان طَلَب نُصْرَتَهُ بالأمْسِ، فَنَتَجَ عَنْ نُصْرَتِهِ له سُقُوط المصريّ قتيلاً بِدَفْعَةٍ دَفَعَهُ إيَّاها بجُمْعِ يَدِه، يَسْتَصْرِخُه الْيَوْمَ لِنُصْرَتِه ضِدَّ مصريّ آخَرَ يُخَاصِمُهُ ويُقَاتِلُه، فقال مُوسَىٰ للإسْرَائيليّ: ﴿... إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

وأدْرَكَ المصريّون الشهودُ من هـٰذا، أنَّ مُوسَىٰ هو الّذي انْتَصَرَ للإسرائيليّ بالأمْسِ، وأنَّهُ هُو الَّذي قَتَلَ المصريّ، وأخَذَ النَّبأُ يَشِيعُ.

فأراد مُوسَىٰ أن ينتصر للإسْرائيليّ، فلَمَّا أقْبَلَ نَحْوَ المصريّ راغباً في أنْ يَبْطِشَ به، قال له المصريّ:

﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وشَاعَ الخبرُ وَذَاعَ، وَوَصَل إلى رجال القصر الفرعَوْني أنَّ قَاتِلَ المصريّ هو مُوسَىٰ.

فَعَقَد وُزَرَاءُ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيّ مَجْلِسَ تَشَاوُرٍ بشَأْنِ الحَدث، واتَّجهَتِ الْآرَاءُ لإصدار الأمرِ بِقَتْلِ مُوسَىٰ، عُقُوبَةً لَهُ على قَتْلِهِ المصريّ.

وعَلِمَ بَعْضُ مُحِبِّي مُوسَىٰ بالْأمْر، فجاء إليه مِنْ أقْصَىٰ المدينَةِ يَسْعَىٰ، وقالَ له:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

رُبَّما كان هذا الرَّجُل من موظّفي الْقَصْر الفرعوني، ورُبَّما كَانَ مُرْسلاً من قبَلِ مَنْ لَهُ عِلْمٌ بما يجري فيه من مُحِبّي موسَىٰ.

فأدْرَكَ مُوسَىٰ خطورة الأمْر، فقَرَّرَ أنْ يُهاجِرَ مُسْتَخْفِياً من مصر.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

• ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: ولمَّا بَلَغَ مُوسَىٰ الإسرائيليُّ النَّاشِيءُ في القصر الفَرْعَوْنِيّ، اكتِمَالَ قُوىٰ رُجولَتِه ونُضْجِه الفِكْري والنفسيّ.

أشُدُّ الشَّيْء في اللُّغة: اكْتِمَالُه، والاكتمالُ يتناول مختَلف القوى الجسَدِيَّة والفكريَّة والنفسية. واكتمالُ كلِّ شيءٍ بَحَسبِه.

• ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: أي: واعْتَدل واستَقَام. **الاستواء في اللّغة**: الاستقامَةُ والاعْتدال. فوصف الله عزّ وجلَّ مُوسَىٰ بوصفين: أنّه بلَغَ أشُدَّه، وأنَّهُ اسْتَوىٰ.

والمرادُ باعْتدالِ الإنسان أنْ يأخُذَ كُلُ جُزْءٍ من أَجْزَائِهِ حظَّهُ وافياً، وفق الْخُطَّة المقدَّرَة لكَمَالِ نَوعْه.

• ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: جاءت هذه العبارة بضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بمنَّة اللهِ العظيمة عليه بالْحُكْمِ والْعِلمْ.

الْحُكْمُ: فِقْهُ الأمُور، ومَعْرِفَةُ الْحَقّ والباطل وحُدودهما، ومَعْرِفَةُ الخير والشرّ وحُدُودِهما، ومَعْرِفَةُ الحسَنِ والسّيّىء، والجميلِ والقبيحِ وحُدُودها.

وبناء على فِقْهِ الأمور يسْتَطيع أنْ يُصْدِرَ مَنْ أُوتي الحكْمَ أحْكَامَهُ العلميَّةَ والْعَمَلِيَّة والقضائيَّة بما يُلائم الحقّ والخير والحَسَن الجميل، وما هو الأفضل في الأمور.

الْعِلْم: يَشْمِلُ ما اكتَسَبَهُ موسَىٰ عليه السَّلام من معارفَ دِينيَّةٍ ودنيويَّة واجتماعيَّة تتعلَّقُ بالنّاس، وفردِّيةٍ تتعَلّق بالأشياء وصفاتها، وبأفْراد الناس وصفاتهم وأنواع سُلُوكهم الإراديّ.

• ﴿... وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ⑭﴾: دلَّت هـٰذه العبارةُ علَىٰ مَحْذُوفٍ يَنْبَغِي أنْ يُلاحَظَ ذهناً، والتقدير: ولمَّا بَلَغ مُوسَىٰ أشُدَّهُ واسْتَوَىٰ وأحْسَنَ سَالِكاً سَبيهلَ المحسنين آتيناه حُكماً وعِلْماً، ضِمْن مجاري سُنَّتِنا لعبادنا.

فالمعنى: ومثْلَ ذَلِكَ الجزاءِ الّذي جَازَيْنَاهُ مُوسَىٰ على إحْسَانِهِ نَجْزي كُلَّ المحْسِنين.

قول الله عزّ وجلّ بشأن موسَىٰ عليه السَّلام:

• ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ⑮ قَالَ رَبِّ إِنِّى

ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

• ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في هٰذِهِ العبارة شُرُوعٌ في بيانِ حَدَثٍ جَرَىٰ لموسَىٰ عليه السَّلام في مصر، بَعْدَ أنْ بلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَىٰ، ولَمْ يكُنْ حينئذٍ رسُولاً ولا نبيّاً.

ومعلومٌ أنَّ الناسَ بحَسَب الْعَادَةِ يكُونُونَ في غَفْلَةٍ عمَّا يجري في أسواقِ المدينَةِ مِن أحداثٍ في وقْتَيْن.

الوقت الأوّل: وقْتُ الْقَيْلُولَة عند شِدَّةِ الحرِّ بَعْدَ زوالِ الشَّمْسِ عَنْ كَبِد السماء، إذْ يَلْجَؤُونَ إلَىٰ السُّكُون في بيوتهم، أو داخِلَ مَحَلَّاتِهِم التجاريَّة.

الوقت الثاني: عقب غُروب الشمس، عند دُخول أوَّلِ اللَّيْلِ زاحِفاً، إذْ يَلْجَؤُونَ إلىٰ الراحَةِ والالْتِفَافِ على المصابيح، أو نحو ذلك بَعِيداً عَنِ أسواق الْبَيع والشراء، كان هذا قبل اكتشاف الكهرباء وتحَوُّل معظَمِ اللّيل إلى مِثْلِ النهار.

ويترجَّحُ لدَيَّ هٰذا الوقْتُ، إذْ جاء في الآية (١٨) قولُ الله عزّ وجلّ بشأْنِهِ: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ . . . ﴿١٨﴾﴾: أي: فدَخلَ في صَبَاح اليومِ التَّالِي حالَةَ كَوْنِه خَائفاً يَتَرقَّبُ ما يَحْدُثُ من جرَّاءِ قَتْلِهِ المصريّ، هَلْ وَصَلَ الْعِلْمُ إلى رجال الْقَصر الفرعَوْني بأنَّهُ هو القاتل؟.

وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ لَمْ يَسْتَجبْ إلى إغراءاتِ فرعَوْن ورِجال قَصْرِه، فهو يخاف نِقْمَتَهُمْ علَيْه، إذْ لم يَنَلْ حُظْوَة عندهم وَلَا تمكينا.

• ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: أي: على وقْتِ غَفْلَةٍ عمَّا يجري في أَسْوَاقِ المدينَةِ من أحداثٍ، وهٰذِهِ الغفلةُ كائِنَةٌ من أهل أسواقها.

الغفلَةُ عن الشيء: انْصِراف الذهْنِ عن ملاحظَتِهِ ومُرَاقَبته، مع وجوده في مجال الإدْراك، أو وُجود أدلّتِه، وإمكان إدْراكه لولا وُجود الصارِف أو السَّهْو. يقال لغة: «غَفَلَ عَنِ الشّيءِ يَغْفُل غُفُولاً وغَفْلَةً».

- ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾: أي: فوجَدَ في مكانٍ مَا من أسْواقِ المدِينة، رَجُلَيْنِ يتخاصَمان ويَتَضارَبانِ تضَارُباً يُشْبِهُ التَّقاتُل.

- ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: في هٰذِهِ العبارَةِ تفصيلٌ للانتِماء الْقَوْمِيّ لِكُلٍّ من الرَّجُلَيْنِ اللّذَيْن يقْتَتِلاَن.

هٰذا من شِيعَتِهِ: أي: هو إسرائيليٌّ، من بني إسرائيل الّذينَ هُمُ الأقلِّيَّةُ المضطَّهَدُونَ المستَعْبَدُونَ في مِصْرَ في ذَلِكَ الوقت.

الشّيعة: كلُّ جماعةٍ لهم أمْرٌ واحِدٌ يشتركون فيه، وموسىٰ يشْتَرِكُ مع الشعب الإسْرَائيليّ حينئذٍ في النَّسَبِ، وعَدَدٍ من الرَّوابط القوميَّة والجذُور الدّينيَّة.

وهٰذا مِنْ عدُوِّه: أي: هُو مصريّ، مِنْ قَوْم فرعَون الّذين هُمُ الجمهور الأعظم في مِصر، وهم بالتمكين الفرعوني لهم يضطَّهِدُونَ الإسْرَائيليّين ويسْتَعْبِدُونَهُمْ ويُسَخّرونَهُمْ في الأعمال بغير حقّ.

وبسبب هذا الإذْلال والاسْتِعْبَاد كان المصريّون أعداءً للإسْرَائيليين.

- ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾:

الاسْتِغَاثة: طلَبُ الْعَوْنِ، أو النَّصْر، أو طلبُ المساعدة على كشف نازلَةٍ، أو دَفْع مُصِيبَة، أو قضاء حاجَةٍ شديدَة، ونَحْو ذلِك.

أي: فاسْتَغَاثَ الإسْرَائيليُّ بموسَىٰ لِيَنْصُرَهُ علىٰ المصْرِيّ الظالِمِ.

- ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾:

فوَكَزَهُ: يأتي الْوَكْزُ في اللّغة للدلالَة على معنى الدَّفْعِ، والضَّرْب،

ويقال: «وَكَزَهُ، يَكِزُهُ وَكْزاً»: أي: ضَرَبَهُ بِجُمْعِ يَدِهِ علىٰ ذَقَنِهِ.

أقول: لا بُدَّ أَنْ يكُونَ مُوسَىٰ قَدْ بَدَا لَهُ أَنَّ القِبطِيَّ هُو المعْتَدِي الظَّالِم للإسرائيليّ، بَعدَ أَنْ حَاوَلَ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُما، مع مَا في نَفْسِهِ من ضغينَةٍ علىٰ مستَعْبِدِي قَوْمِهِ بغَيْرِ حَق. لَكِنَّ المصرِيّ بدأ يَتَطَاوَلُ بالْهُجُوم القتالِيّ علىٰ الإِسْرَائيلِيّ، وموسىٰ يفصل بينهُمَا، وربما تطاول على موسى، وثارَتْ حَفِيظَةُ مُوسَىٰ، فأَرَادَ أَنْ يَدْفَعَ المصرِيّ عَنِ الإِسْرَائيلِيّ، وكان ذَا قُوَّةٍ شَدِيدَة فوكَزَ المصْرِيّ بِجُمْع يَدِهِ على ذَقَنِهِ، فَسَقَطَ بها المصرِيّ قتيلاً، وهـٰذِهِ من الكبائِرِ الكُبْرىٰ عِنْدَ رِجالِ الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِي، أَنْ يَقْتُلَ إِسْرَائيليٌّ مِصْرِيّ.

- ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾: أي: فقَتَلَه، عبارة جرَىٰ بها الاسْتِعْمَالُ للدَّلَالَة على هـٰذا المعنى. يُقالُ في الاستِعْمَالِ العربي: «ضَرَبَهُ فقَضَىٰ عَلَيْه» أيْ: فقَتَلَهُ.

- ﴿...قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾:

لمَّا رَأَىٰ مُوسَىٰ عليه السَّلام المصْرِيّ قَتِيلاً، لَامَ نَفْسَهُ عَلَىٰ حِدَّةِ نَفْسِهِ وَتَسَرُّعِهِ وَضَرْبِهِ المصْرِيّ ضَرْبَةً قَصَدَ بِهَا دفْعَهُ ولَمْ يَقْصِدْ قَتْلَهُ، وذكَر أَنَّ مَا جَرَىٰ مَعَهُ من تَسَرُّعٍ، قَدْ كَانَ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطان، لَا مِنْ عَقْل ورَوِيَّةٍ وبصيرة.

ووصَف الشيطانَ بأَنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ واضِحُ الْإِضْلَالِ للإنْسَان، ليُخْرِجَهُ عَنْ صراط اللهِ المستقيم.

وأدْرَكَ مُوسَىٰ أَنَّ وظيفَتَهُ في مِثْل هـٰذِهِ الحالَةِ أَنْ يَكُونَ مُصْلِحاً بَيْنَ الخَصْمَيْن، لا أَنْ يكونَ قاضِياً وحَاكِماً ومُنَفِّذاً حُكْمَهُ، إِذْ لَيْسَ من حَقِّهِ وَهُوَ فَرْدٌ من أفراد الرَّعِيَّةِ، وَلَوْ في دَوْلَةٍ كافِرَةٍ، أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ حَاكِماً وَمُنَفِّذاً أحكامَهُ، إِذْ لَا تَتَعَدَّىٰ صَلاحيَّاتُ أيّ فَرْدٍ من أفراد الرَّعِيَّة في مِثْلِ هـٰذه الحالَة حُدُودَ الإصْلاحِ بيْنَ المتخاصِمِينَ، أَمَامَ أُسُسِ الحقّ الْوَاجب الّتي تَتَّفِقُ عَلَيْها العقول، ونزلَتْ بها شرائع الله لعباده.

وإِذْ أدْرَكَ مُوسَىٰ هـٰذا:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾: أي: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ عَملاً مُنْكراً مِنْ مِثْلِي لَمْ تَأْمُرْنِي بِهِ، ولَمْ تأذَنْ لِي بِهِ، فظَلَمْتُ نَفْسِي بِارْتِكَابِهِ، فَاغْفِرْهُ لِي واغْفِرْ كُلَّ خَطَايايَ.

غَفْرُ الذّنْب: سَتْرُه، وهـٰذا يسْتَلزم مع فَضْلِ اللهِ التجاوُزَ عَنْهُ وعَدَمَ المؤاخَذَةِ عَلَيْه.

• ﴿... فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾: أي: فاسْتَجابَ اللهُ دُعَاءَهُ فغَفَر له.

وعَلَّمَ اللهُ عزّ وجلّ عبادَهُ المؤْمِنِين الثَّناء عَلَيْهِ بأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ في الوُجُود كُلِّه الْغَفُورُ الرَّحِيمَ.

الْغَفُور: أي: الكثير المغفرة، والعظيم المغفرة. صيغة: «فَعُول» من صِيَغِ المبالغة لاسم الفاعل.

الرَّحِيم: أي: الكثيرُ والعظيم الرَّحْمة. صيغة «فَعِيل» من صيغ المبالغة أيضاً لاسم الفاعل.

الرحْمَة: صفَةٌ مِن صِفاتِ الله الجليلة، وهي صفة نَفْسِيَّة نُثْبِتُهَا لله عزّ وجلّ على ما يليق بجلَالِهِ، ومن آثارها العطاء، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ الْبُؤْس، والإمدادُ بما يَسُرُّ، ويُسَكّنُ النّفْس، ويُطْمْئِنُ القلْب، ويُمَتِّعُ ذَا الحياة بما يَطِيبُ له، ونَحو ذلك.

• ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

دلَّتْ هـٰذِهِ الْعِبارَة على قَضِيَّتَيْن.

القضيَّة الأولىٰ: أَنَّ اللهَ عزّ وجلَّ أَنْعَمَ علىٰ مُوسَى بِسَتْرِ قَتْلِهِ للقِبْطِيّ، في تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي كانَتْ حادِثَةُ الْقَتْلِ في أوائِلِها.

الْقَضِيَّةُ الثانِيَة: أَنَّهُ أَدرَكَ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ الإِسْرَائيلِيُّ هو المذْنِب، وأَنَّهُ قَدْ نَصَرَهُ دُونَ حَقٍّ، بدافع ولائِهِ لقَوْمِه، ورُبَّما ظَهَرَ لَهُ من الأَمَارَات مَا رجَّحَ لَدَيْهِ هٰذا الظَّنّ، فعاهَدَ رَبَّهُ أَنْ لَا يَكُونَ مُنَاصراً لِأَيِّ مُذْنِبٍ وَلَوْ كَانَ من قَوْمِهِ وشيعَتِه الإِسْرَائيلِيِّين، أو من أَقْرَبِ الناسِ إِلَيْه.

ظَهِيراً: أي: معيناً. **الظهير**: هو في اللّغة المعين، يُسْتَعْمَلُ هكذا للواحد والجمع.

الْمُجْرِم: المتَعَدِّي بذَنْبٍ كَبير.

• ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

• ﴿فَأَصْبَحَ﴾: أي: فَدَخَلَ في الصباح، وهُوَ أَوَّلُ النهار.

• ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي: يَسِيرُ في أَسْوَاقِ المدينَة، حيْثُ المواضعُ والأَسْوَاقُ اتي سار فيها بالأَمْس.

• ﴿خَآئِفًا﴾: أي: خائِفاً مِنْ أَنْ يكُونَ قَدْ انْتَشَرَ بَيْنَ النَّاسِ فيها أَنَّهُ هُو الّذي قَتَلَ القِبْطِيَّ بالأَمْسِ، فيَصِلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ الْقَصْرِ الفرعَوْنِيّ، فيُعَاقَبَ على ذَلِكَ بالقتل.

• ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: أي: يُلاحِظُ بانْتِبَاهٍ شَدِيدٍ بسَمْعِه وبَصَرِه ما يتَّصِلُ بقتيل الأَمْسِ ومَنْ قَتَلَه.

• ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: أي: ففوجِىء موسَىٰ بأَنَّ الإِسْرَائيليَّ الَّذِي طَلَبَ نُصْرتَهُ بالْأَمْسِ على المصْرِيّ يَسْتَغِيثُ بِهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، طالباً أَنْ يَنْصُرَهُ عَلَىٰ مِصْرِيّ آخر.

- ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: أي: يَصِيحُ مُسْتغيثاً به.

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾: أي: قالَ مُوسَىٰ للإسرائيليّ: إنَّكَ لمُمعِنٌ في الضَّلَالِ ظاهر الْبُعْدِ عَنْ جادة الْحَقّ.

الْغَوِي: الْمُمْعِنُ في الضَّلَالِ بُعْداً عَنْ صراط الحق.

فأدْرَكَ شُهُودُ الْحَدَثِ في السُّوقِ أَنَّ مُوسىٰ هُو الذي استغاثَ به الإسْرَائيليُّ بالأمْسِ، فنصَرَهُ فقَتَلَ خَصْمَهُ المصْرِيّ، وأَخَذَ النَّاسُ يَتَهَامَسُونَ بهَذا وَيُشيعُونَ الخبر، وَوَصَلَ النبأ إلى أَسْمَاع رجالِ الأمْنِ، فنَقَلُوهُ بِسُرْعَةٍ إلى رُؤسَائِهِم، وَوَصَلَ الأمْرُ إلى ذوي السُّلْطَة فِي الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ.

- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا...﴾ دلَّتْ هـٰذِهِ العبارة على أنَّ مُوسَىٰ أَخَذَتْهُ حِدَّةُ الانْتِصَارِ لِقَوْمِهِ الإسْرَائيلِيين، فَأَقْبَلَ نَحْو المصريّ، لِيُصْلِحَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الإسْرَائيليّ فِيمَا يَظْهَر، وفي نَفْسِه أنْ يَبْطشَ بالْقِبْطِيّ إذَا رآهُ ظالماً، وأنْ يَحْبِسَ نَفْسَه عن التَّسُّرع حتى يَسْتوثق:

- ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

قرأ أبو جعفر: [يَبْطُش]. كسر الطاء وضمُّها لغتان عربيّتان في هذه الكلمة.

يَظْهَر أنّ المصريَّ هـٰذا كَانَ هو المعتَدِي الظَّالم، فَأَسْرَعَ إلى اتّهامِ مُوسَىٰ بأنَّهُ هُو الّذِي قَتَلَ القِبْطِيَّ بالأمْسِ، اعْتماداً على الظَّنِّ الذي حَفَّتْ بِهِ الْأَمَارَاتُ المرجّحات، ولِيُشِيعَ هـٰذا في شُهُودِ الْحَدَث، ولِيَصُدَّ مُوسَىٰ عَنْ أن يَتَدَخَّلَ في الأمْرِ مُصْلِحاً بَيْنَهُ وبَيْنَ الإسْرَائِيلِيّ، وفَجَرَ فِي شَتِيمَتِهِ لموسَىٰ، فقالَ لَهُ: مَا تُرِيدُ إلَّا أنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ من المصْلِحِينَ بَيْنَ الْخُصَماء، وفي هـٰذِهِ الشتيمَةِ إثارَةٌ لحفيظَةِ رِجَال الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ علَىٰ مُوسَىٰ إذَا وَصَلَهُمُ النَّبأُ بِمَا جَرَىٰ.

- ﴿إِن تُرِيدُ﴾: أي: مَا تُرِيد، فحرف «إنْ» هنا حرْفُ نَفْيٍ بمعنى «ما».

- ﴿جَبَّارًا﴾: أي: مُتَسَلِّطاً بالْقُوَة، يُكْرِهُ الناسَ على ما يُرِيدُ بالْقُوَّةِ والْعُنْفِ والْقَهْر. ويأتي الجبّارُ بمعنىٰ المتكبِّر العاتي، والمؤدّىٰ واحد.

- ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: أي: من المصْلِحِينَ بَيْنَ الخُصَماء. يقال لغة: «أَصْلَحَ بَيْنَ الخُصَماء» أي: أَزَالَ مَا بَيْنَهُمَا من عَدَاوَةٍ وخِلافٍ وشقاق.

قول الله تعالى مُتَابعاً قِصَّة هٰذا الحدَث:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

دلّت هٰذِهِ الآية علىٰ أنَّ ما أدْرَكَهُ أَهْلُ سُوقِ المدينةِ، من أنَّ مُوسَىٰ هُوَ الَّذِي قَتَل القِبْطِيَّ بالْأَمْسِ، قَدْ وَصَلَ إلَىٰ مَلَأِ الْقَوْمِ، وهُمْ رِجَالُ الْقَصْرِ الفِرْعَوْني، عَنْ طَرِيقِ رِجالِ الأمْن، وأنَّهُمْ عَقَدُوا مَجْلِساً وِزاريًا علىٰ وَجْهِ السُّرْعَة، وأخَذُوا يَتشاوَرُونَ بَيْنَهُمْ لِلْحُكْم علىٰ مُوسىٰ بالْقَتْل، حتَّىٰ لَا يَتَجَرَّأَ الْإِسْرَائيلِيُّونَ عَلَىٰ السُّلْطَةِ الفِرْعَوْنِيَّة، ويُطَالِبُوا بالتَّحرُّرِ مِنْ ذُلِّ الاستِعْبَادِ والتَّسْخِير في مِصْر.

ودلَّتْ هٰذِهِ الآيَة عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ يُوجَدُ في أخْبَثِ الأمَاكِنِ، ظُلْماً وكفراً وعُدْواناً، مَنْ يُدْرِكُ الحقَّ ويُحَاوِلُ نُصْرَتَهُ عَلَىٰ قَدْرِه، فهذا الرَّجُلُ الَّذِي جَاءَ مِنْ أقْصَىٰ المدينَةِ حَيْثُ تُوجَدُ الْقُصُورُ الفِرْعَوْنِيَّة، يَسْعَىٰ بِهِمَّةٍ وسُرْعَةٍ وَنَشَاطٍ لِيَصِلَ إلَىٰ مُوسَىٰ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُحِبِّي الحَقَّ والعامِلِينَ لِنُصْرَتِهِ علىٰ مِقْدَارِ اسْتِطاعَتِه، ولَا بُدَّ أنْ يكُونَ مِمَّنْ يَعْرِفُ فَضَائِلَ مُوسَىٰ وأَخْلَاقَهُ وَكَمَالَاتِهِ، وأنَّهُ وقَوْمَهُ مسْتَعْبَدُونَ فِي مِصْر بِغَيْرِ حَقٍّ. لَقَدْ عَلِمَ هٰذا الرَّجُلُ بنَفْسِهِ أَوْ مِنْ بَعْضِ رِجالِ الْقَصْرِ أوْ مُوَظَّفِيهِ أَنَّ مَجْلِسَ وزراءِ فِرْعَوْنَ وَكُبَراءِ مُسْتَشَارِيهِ عَقَدُوا مَجْلِساً للتَّشَاوُرِ في قَتْلِ مُوسَىٰ، والتخلُّص

مِنْ فِتْنَتِهِ وآثَارِهَا فِي بَنِي إِسْرَائيل، فأسْرَعَ يَسْعَىٰ لِيُبَلِّغَ مُوسَىٰ النَّبأَ الْخَطِيرَ وَلِيَنْصَحهُ بأَنْ يَخْرُجَ من البلاد مَهَاجِراً من مِصْرَ كُلّها.

- ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي: من أَبْعَدِ مَسَاكِنِهَا عَنْ أَسْوَاقِهَا ومَتَاجِرها.

- ﴿يَسْعَىٰ﴾: أي: يَسِيرُ سَيْراً فَوْقَ المشْيِ المعْتَادِ، ودُون الْعَدْو.

وهٰذا السَّعْيُ يَدُلُّ عَلىٰ حِرْصِ الرُّجُلِ عَلَىٰ أَنْ يَصِلَ إلى مُوسَىٰ ويبلِّغَهُ النَّبأَ قَبْلَ فوات الأوان.

- ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

- ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: أشرافُ الْقَوم وسَرَاتُهم الَّذِينَ يَمْلَؤُون عُيُونَ الْعَامَّة. والمرادُ هُنَا وُزَرَاءُ فِرْعَوْنَ ومَجْلِسُ مُسْتَشَارِيه.

- ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾: أي: يَتَشَاوَرُونَ فيما بَيْنَهُمْ بأمْرِ قَتْلِكَ المصْرِيَّ.

- ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾: أي: يَتَشَاوَرُونَ بشأنِكَ لِيَحْكُمُوا عليْكَ بالْقَتْلِ، لأنَّكَ قتَلْتَ القِبطيّ انتصار للإسْرَائيليّ.

- ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: أي: فاخْرُجْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا مُهَاجِراً حتَّىٰ لا يَظْفَرُوا بِكَ فيَقْتُلُوه، وَأُأَكِّدُ لَكَ أَنَّنِي لَكَ نَاصِحٌ مِنَ النَّاصِحِينَ، فالأَمْرُ خَطِيرٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ، لأنَّهُ إِذَا صَدَرَ الأَمْرُ بقَتْلِكَ لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تتخلَّصَ مِنْ أَيْدِي زبانِيَةِ فِرْعَوْنَ ورِجال دَوْلَتِه.

فاسْتجابَ مُوسَىٰ لِنُصْحِ الرَّجُلِ الصادِقِ الناصح.

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

تمهيد:

في هٰذِهِ الآيات بيانُ قِصَّةِ خُرُوجِ مُوسَىٰ مِنْ مِصْرَ مُهاجراً، في اتّجاه سِيناء، وَوُصُولِهِ إلَىٰ مَدْين، وزواجِهِ من ابْنَةِ الرَّجُلِ الصَّالح فيها مِنَ الّذِينَ آمَنُوا بشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ واتَّبَعُوه، ومَا رافَقَ هٰذِهِ القِصَّةَ مِنْ أحْداثٍ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾:

أي: فاسْتجابَ مُوسَىٰ لنُصْحِ الرَّجُلِ الّذِي أخْبَرَهُ بأنَّ مَلأَ الْقَوْمِ يأْتَمِرُونَ بشأنِهِ لِيَقْتُلُوه، فَشَرَعَ في الخروج من مِصْرَ كُلِّهَا حالَةَ كَوْنِهِ خائفاً من أنْ يَصْدُرَ الأَمْرُ بالْقَبْضِ عليه، وسَوْقِهِ لتَنْفِيذِ حُكْمِ الْقَتْلِ به، وَحالَةَ كَوْنِه يُلاحِظُ بانْتِباهٍ شَديدٍ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِه ما يَتَعَلَّقُ بالْحُكم عَلَيْهِ بالْقَتْلِ،

وبالْقَبْضِ عَلَيْهِ أيْنَمَا وُجِدَ. وسَأَلَ رَبَّهُ داعِياً مَعَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ من شُرُوعه في الخروج قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولاقْتِرانِ هٰذا الدُّعَاءِ بأوَّلِ خطوات الخروج، جاء فعل ﴿قَالَ﴾ مَفْصُولاً دُونَ حَرْفِ عَطْفٍ. أي: ففعل ما يلي:

خرج ـ قال.

﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **ربِّ**: أي: يَا رَبِّي، حُذِفت أداةُ النداء، وهو الأدبُ في نِدَاء الرَّبّ، إذْ هُو أقْرَبُ إلى مُنَاديه من وَرِيدِه المتعلّق بقَلْبه. وحُذِفَتْ ياء المتكلِّم وأُبْقِيَتِ الكَسْرَةُ دَلِيلاً عليها، وهذا جائِزٌ عَرَبيًّا، وهو المناسبُ بلاغيًّا في دُعَاءِ الرَّبّ جلَّ جَلالُهُ، وكل ما جاء في القرآن من دُعاء الرَّب جاء بعبارة «رَبِّ» إلَّا في موضعين هما في ذات الله ومن أجل دينه فجاء: **[يَا رَبِّ]**.

﴿نَجِّنِى﴾: أي: خَلِّصْنِي. يُقال لغة: «نَجَّىٰ فُلاَنٌ فُلاناً تَنْجِيَةً» أي: خَلَّصَهُ مِنْ مَكْرُوهٍ مُتوقَّع الحدوث.

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: من فِرْعَوْنَ والكَفَرَةِ من آلِهِ، ومن جُنُودِهِم. وقَدْ وَصَفَهُمْ بأنَّهُمْ ظَالِمُونَ لِعِلْمِه بِكُفْرِهم، وبأعْمالِهم الظَّالِمَة لِعِبَاد الله، ومِنْها أنَّهُمْ إذَا قَرَّرُوا قَتْلَهُ فإنَّهُمْ يظْلِمُونَهُ بذَلِكَ، إذْ لَمْ يَقْتُل المصْرِيَّ مُتَعَمِّداً قَتْلَه، وإنَّما أرَادَ دَفْعَهُ وإبعادَه، فنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ أنَّه سَقَطَ قتيلاً، لكِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ يُرِيدُونَ التخلُّصَ مِنْهُ بالْقَتْلِ، لأنَّهُ إسرائيليٌّ يُدَافِعُ عَنْ بَنِي إسرائيل فِي مِصْرَ، ويُثِيرُ في نُفُوسِهِمْ دَوافِعَ الْخَلاَصِ من الاسْتِعْبَاد الفرعَوْنِيِّ لهم بغَيْرِ حَقّ.

قول اللهِ تعالى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾:

﴿تِلْقَآءَ﴾: مَصْدَرٌ مِنْ مَصادِرِ لَقِيَ الشيْءَ. يُقَالُ لغة: «لَقِيَ فُلانٌ الشيْءَ لِقَاءً، وتِلْقَاءً، ولُقِيًّا» أي: اسْتَقْبَلَهُ.

وهو حالٌ على تَنْزِيلِهِ مُنزلَةَ اسْمِ الفاعل، والمعْنَىٰ: ولمَّا تَوَجَّهَ مُسْتَقْبِلاً مَدْين. أو هو نائب مفعول مطلق، والمعنى على هذا: ولمَّا تَوَجَّهَ تَوَجُّهاً كائناً تِلْقَاءَ مَدْيَنَ واسْتِقْبالاً لها، عالماً بهذا أو غَيْرَ عالم.

• ﴿مَدْيَنَ﴾: هـٰذا اللَّفْظُ هو في الأصل اسم لقبيلَةِ «شُعَيب» عليه السَّلام، وأُطْلِقَ هـٰذا اللَّفْظُ على مَكانِ إقامَتِهِمْ، فَسُمّيتِ الْبَلْدَةُ باسْمِهِم. وهي مدينة خرابٌ على بَحْر الْقَلْزَم (= الْبَحْر الأحْمَر) وهي محاذيَةٌ لتبوك من بِلَاد الشام، على نحو سِتِّ مراحل منها⁽¹⁾.

• ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قالَ: أَرْجُو من رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي وَسَطَ السَّبِيل الَّذِي يُنَجِّيني بِسُلُوكِهِ من الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فِي مِصْر، فأخْرُج عَنْ حُدُودِ سُلْطَانِهِم، إلى أرْضٍ لَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلَيْها.

• ﴿عَسَىٰ﴾: فِعْلٌ غَيْرُ مُتَصرِّف، معْنَاهُ المقارَبَةُ على سَبِيل التَّرَجّي والتَّوَقُّع المقْرُون بالظَّنِّ الرَّاجِحِ.

﴿أَن يَهْدِيَنِى﴾: أي: أنْ يحقّق لِي بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِه الهداية.

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: وسَطه، وهو أعْدَلُهُ وَأعْلَاه. **السبيل**: الطريق.

يقال لغةً: «هَدَاهُ الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ لَهُ، وهَدَاهُ إِلَيْه» أي: بيَّنَهُ لَهُ، وأَوْضَحَهُ لَهُ، وأَرْشَدَهُ إِلَيْهِ، وأَعْلَمَهُ به.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾:

---

(١) انظر أطلس تاريخ الإسلام. د. حسين مؤنس. ص١٥٢ و٣٢٥.

دلّ هـٰذا الْبَيَان عَلَىٰ أنّ الله عزّ وجلّ هَدَاهُ سَوَاءَ السّبِيل حتّىٰ وَصَلَ أَرْضَ مَدْيَنَ، وَوَرَدَ مَاءَ أَهْلِهَا، وهُو بِئْرٌ يستقُونَ مِنْهُ، ويَسْقُونَ مِنْهُ أَنْعَامَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ.

• ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾: أي: وحِينَ أشْرَفَ مُوسَىٰ علىٰ الأرْضِ الّتِي فيها مَاءُ مَدْيَنَ، وَوَصَلَ إلَيْها، ففي الكلام مُضَافٌ محذوف، أي: ورد أرضَ ماء مدين.

يُقَالُ لُغَةً: «وَرَدَ فُلانٌ الْمَكَانَ، وورَد عَلَيْه» أي: أشْرَفَ عَلَيْهِ دَخَلَهُ أم لم يَدْخُلْه.

• ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾: أي: وَجَدَ علَىٰ ماءِ مَدْيَنَ جماعَةً مِنَ النّاسِ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مَا، يَسْقُونَ مِنْ مَاءِ الْبِئْرِ أَنْعَامَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ، أي: فَهُمْ يَسْتَخْرِجُونَ الماءَ بالدِّلَاءِ ويَصُبُّونَهُ في نَحْوِ أجْرَانٍ، لِتَشْرَبَ أنْعَامُهُمْ وَدَوَابُّهُمْ مِنْها.

• ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾: أي: وَوَجَدَ مُوسَىٰ مِنْ خَلْفِ الأمَّةِ مِن النّاس الّذين يَسْقُونَ، امْرأَتَيْنِ تَدْفَعَانِ وَتُبْعِدَانِ أنْعَامَهُمَا عَنِ الماء.

﴿مِن دُونِهِمُ﴾: المرادُ هُنَا: مِنْ خَلْفِهِمْ، وهذا من معاني استعمال كَلِمَةِ «دُون».

﴿تَذُودَانِۖ﴾: أي: تَدْفَعَانِ وَتُبعِدَانِ أنْعَامَهُمَا عَن الماء، والظَّاهِرُ أنَّها كانَتْ أغْنَاماً، حُذِفَ المفْعُولُ بِهِ إيجازاً لِلْعِلْمِ بِهِ من الْقَرائن.

يقالُ لغة: «ذَادَهُ، يَذُودُهُ، ذَوْداً، وذِياداً» أي: دفَعَهُ وَأبْعَدَه، ومِنْهُ ذَوْدُ الدَّوابّ عن الموارد.

• ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾: أي: قال مُوسَىٰ للامْرأتين: مَا شأنُكما وَمَا

حَالُكُمَا الَّذِي جَعَلَكُمَا تَذُودَانِ أنْعَامَكُمَا عنِ الماء، ولا تُشَارِكان الْأُمَّةَ بِسَقْيِ أنْعَامِكُمَا مِنَ الماء. **الخطب**: الشأْنُ والحال.

- ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾:

قرأ أبو عمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعْفر: [**يَصْدُرَ**] مِنْ فعل: «صَدَرَ يَصْدُرُ» أي: انْصَرَفَ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**يُصْدِرَ**] من فِعْل «أَصْدَرَهُ» أي: حتَّىٰ يَصْرِفُوا مواشِيَهُمْ من بَعْد أن يَسْقُوها.

يقال لغة: «صَدَرَ الرِّعاء» أي: انْصَرَفُوا. ويُقَالُ: «أَصْدَرَ الرِّعَاءُ دَوَابَّهُمْ» أي: سَقَوْها وَصَرَفُوها.

ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحدٌ، وفيهما تفنُّن.

﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ جمْعُ مُفْرَدُه «الرَّاعي» وهو مَنْ يحفَظُ الماشية ويَرْعَاها، ويُجْمَعُ أيْضاً على «رُعَاةٍ» و«رُعْيان».

والمعنى: لَا نُزَاحِمُ النَّاسَ في سَقِي مُوَاشِينَا أدباً وحَيَاءً، بَل نَنْتَظِرُ حتَّىٰ ينْتَهِيَ الناسُ مِنْ سَقِي مواشِيهم ويَنْصَرِفُوا، وبَعْدَئِذٍ نَسْقِي مواشِيَنَا.

والسَّبَبُ في قيامِنَا بوظيفَةِ سَقْيِ مواشي أَبِينا، أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا إِخْوَةٌ ذُكُورٌ لِلْقِيام بهـٰذِهِ الوظيفةِ، وأبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يرِدَ الماءَ ويَسْقِي مَواشِيه.

اعْتِذَارُهُما عَنْ أَبِيهما دَلَّ علىٰ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ في أُسْرَتِهما ذَكَرٌ غَيْرُهُ يَسْقِي مَواشِيَه، وهُو شيْخٌ كبير عَاجز عن القيام بهـٰذِهِ الوظيفة.

قول الله تعالى:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فَدَفعَتْ موسَىٰ الأرْيحيَّةُ والشهامَةُ والرَّغْبَةُ في فعل الخيْر ومُسَاعَدَةِ المرْأتَيْن الضَّعيفتَيْن، فَسَقَىٰ لَهُما مَواشِيَهما، إذ صَارَ يَسْتَخْرِجُ الماء من البئر بالدّلَاء، ويَصُبُّ في الأجْرانِ، فتشْرَبُ مَاشيتُهما.

جاء عند المفسّرين أقْوال لَيْسَ لها سَنَدٌ عنِ الرَّسُولِ ﷺ، منها ما يلي:

- سَارَ مُوسَىٰ عليه السَّلام مِنْ مصر إلى مَدْيَنَ لم يأكُلْ إلَّا الْبَقَلَ وورق الشجر، حتَّىٰ لصِقَ بَطْنُهُ بظهره من الجوع، وإنَّ خضرة الْبَقْلِ لتُرَىٰ مِنْ داخِلِ جَوفه.
- وكان يَمْشِي حَافِياً، وسقَطَتْ نَعْلَا قَدَمَيْهِ من الْخَفَاء.
- وكانَ لِبئْرِ مَدْيَنَ غِطاءٌ حَجَرِيٌّ عَظِيمٌ، وكان الرِّعاء إذا فرغوا من وِرْدِهِمْ وَضَعُوا هذا الغطاء الحجري على فَم البئر، وكَانَ لاَ يَرْفَعُهُ إلَّا عَشَرَةُ رجال، فَرَفَعَهُ مُوسَىٰ وَحْدَه، ثمَّ رَدَّهُ إلى ما كان عليه بَعْدَ أَنْ سَقَىٰ لهما. وكانت المرأتان تسْقيان أغنامهما في فَضْلِ أغْنَامِ الناس.

وإذْ لَا تُوجَدُ أسَانِيد تُصَحِّحُ هٰذِهِ الأقوال فَلَا دَاعِي لاعْتِمَادِهَا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾: أي: وبَعْدَ أَنْ سَاقَتِ المرْأتَانِ أغْنَامَهما، وابْتَعَدَتَا في اتّجاه دار أبيهما في مَدْيَن، إذْ كانت البِئْرُ في خارجِ مساكِنِ البلْدَة، وكان مُوسَىٰ يَتجوَّلُ في الشَّمْسِ حَوْلَ البِئْر، قَسَىٰ عليه حَرُّ الشَّمْس قَليلاً فَاخْتَارَ أَنْ يَجْلِسَ في ظلِّ شجَرَةٍ ليسَتْ قَريبَةً من الماء.

دلَّ حَرْفُ «ثُمَّ» على تراخٍ زَمَنِيّ بَيْنَ عَمَلِهِ المبرور وبَيْنَ لُجُوئِهِ إلى ظِلّ الشجرة، ونَدرِكُ أَنَّ المرأتَيْنِ قَدِ ابْتَعَدَتَا بأغْنَامِهِما عن مَكَانِ البئر في اتّجاه مَسَاكِنِ مَدْيَنَ في هٰذِهِ المدَّة.

﴿تَوَلَّىٰٓ﴾: أي: ابْتَعَدَ عَن مَكانِ الْبِئْرِ ليَجلِسَ في ظِلّ شَجَرَةٍ ذاتِ ظِلّ.

فالمعْنَىٰ: وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخيَةٍ نسبيّاً، ابْتَعَدَ عَنْ مَكانِ البِئْرِ، وأوَىٰ إلى ظِلّ شَجَرَةٍ ذاتِ ظِلٍّ، لَيْسَتْ قَرِيبةً من البئر بدليل فعل ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ أي: ابْتَعَدَ، ورُبّما أَدْبَرَ أيْضاً، أي: أعْطَىٰ ظَهْرَه إلى جِهَةِ الْبِئْر، وجَعَلَ وجْهَهُ في اتّجاه مساكِنِ البَلْدَة، إذْ لفظ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ يعطي أيضاً معنى أدْبر.

• ﴿...فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فحِينَ وَصَلَ إلى الشَّجَرَة وجَلَسَ في ظِلِّها سَأَلَ رَبَّهُ قَائِلاً: رَبِّ إنّي لِمَا سَبَقَ أنْ أَنْزَلْتَ إِلَيَّ من النَّجاةِ من الظالِمِينَ، والوصُول إلى مَاءِ مَدْيَنَ، والاسْتِظْلَالِ آمِنَا في ظلٍّ هٰذِهِ الشَّجَرةِ، قَدْ كُنْتُ فقيراً، وفي هٰذا ثناءٌ عَلىٰ اللهِ بِمَا أنْزَلَ إلَيْهِ من خَيْرٍ تفضُّلاً مِنْهُ وإنْعَاماً، وألْمَحَ بهٰذا الدُّعاء إلَىٰ فَقْرِهِ إلَىٰ مَا سَيُنْزِلُ اللهُ إلَيْهِ من خَيْرٍ يَتَرقَّبُ تَوَالِيَ حُصُولِه، ومِنْهُ تأمِينُ طَعَامِهِ وسَكَنِهِ، وتزويجُهُ من زَوْجَةٍ صالِحَةٍ عفيفَةٍ شَرِيفَةٍ تُعِفُّهُ وَتَكُونُ لَهُ سَكَناً.

الفقير: مَنْ كانَ ذَا حاجَةٍ إلَىٰ شَيْءٍ ما وهُوَ غَيْرُ واجدٍ له.

وفي الكلام مطويٌّ يَسْهُلُ إدْراكه، وهو أنَّ المرأتَيْن وصَلَتَا إلى أبيهما وأخبرتاه خَبَرَ الرَّجُلِ الذي سَقَىٰ لَهُما، ولَيْسَ هو من أهل مَدْين، بل هو رجلٌ غريب.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

• ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾: أي: فعَقِبَ دُعائِهِ ربَّهُ مُباشَرَةً، وجَدَ أَنَّ إحْدَىٰ المرأتَيْنِ قَدْ وَصَلَتْ إلَيْهِ عَائِدَةً بِرِسَالَةٍ كَلامِيَّةٍ مِنْ أبيها، ووَجَدَ أنَّها تَمْشِي مَشْياً رَفِيقاً قَد انْضَمَّ بَعْضُهَا إلى بَعْضٍ، فَكَأَنَّها عَلَىٰ مَطِيَّةٍ

اسْتِحياء، خجَلاً من أنْ تَأْتِي وَحْدَهَا وَتُكَلِّمَ رَجُلاً لَيْسَ مِنْ مَحَارِمِها.

• ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: هذه هي الرِّسَالَةُ الكلاميَّة مِنْ أبِيها الَّتي أَبْلَغَتْهُ إيَّاها.

• ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾: أي: أُؤَكِّدُ لَكَ أنَّ أَبِي الَّذِي ذكرنا لَكَ سَابقاً أنَّهُ شيْخٌ كَبِيرٌ، يَطْلُبُ مِنْكَ بشِدَّة أنْ تَأْتِي إِلَيْهِ.

• ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: أي: لِيُكَافِئَكَ عَلَىٰ عَمَلِكَ الَّذي سَقَيْتَ لَنا بِهِ مَا شِيَتنا.

فاستجاب مُوسَىٰ عليه السَّلام لِدَعْوَةِ أبيها، ومشَىٰ مَعَها فِي اتّجاه مَسَاكِنِ مَدْين.

ذكر المفسّرُون أنَّ مُوسَىٰ ولم يَكُنْ بَعْدُ نَبِيًّا طَلَبَ من هٰذِهِ المرأة أنْ تَمْشِي وراءَهُ، وأنْ تَصِفَ لَهُ الطَّرِيقَ، لئلَّا تُصِيبَ الرِّيحُ ثيابَها فَتَصِفَ لَهُ جَسَدَهَا، وهذا من أدَب وعِفَّةِ فُضَلَاءِ الرِّجال.

• ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾: أي: فَلَمَا جاءَ مُوسَىٰ أبَاهُمَا الشيْخَ الكَبيرَ وأكْرَمَهُ، وَقَصَّ عليه موسَىٰ الْقَصَصَ الَّتي جَرَتْ لَهُ في مِصْرَ مُنْذُ مِيلاده حتَّىٰ خُرُوجه من مصْر، ممَّا هُو ذُو شأنٍ يُذْكَرُ ويُرْوَىٰ، ولا أرَىٰ أنّه اقتصر عَلَىٰ حادِثَةِ سُقُوط المصْرِيّ قتيلاً بوكْزَتِهِ له.

﴿ٱلْقَصَصَ﴾: مَصْدَرُ «قَصَّ» يقالُ لغة: «قَصَّ الشّيْءَ قَصًّا وَقَصَصاً» أي: تتبَّعَ أثَرَهُ شيئاً فشيئاً. ويُقالُ: «قَصَّ عَلَيْهِ الخبَرَ قصًّا وَقَصَصاً» أي: حَدَّثَهُ به على مَا تَحَمَّلَهُ.

أُطْلِقَ الْقَصَصُ الذي هو مَصْدَرٌ، وأُرِيدَ بِهِ اسْمُ المفْعُولِ وهُوَ النَّبَأُ الْمَقْصُوص، و«ال» في لَفْظِ «الْقَصَصَ» تُشْعِرُ بالمقْصُوصِ ذِي الشَّأْنِ الذي يَحْسُنُ ويُفِيدُ عِنْدَ عُقَلَاءِ الرِّجالِ التحدُّثُ به وتَتَبُّعُ أحداثه.

- ﴿قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: قال الشيخ أبو المرأتين لموسَىٰ: لاَ تَخَفْ مِنْ جُنود السُّلْطَةِ الْفِرْعَوْنيَّة، فَنَحْنُ فِي مَدْيَنَ تَقَعُ خَارِجَ سُلْطَة فِرْعَوْنَ وَنِظَام حُكْمِهِ. وبِوُصُولِكَ إلى هٰذِهِ الأَرْض نَجَوْتَ مِن الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، فِرْعَوْنَ وآلِهِ وجُنُودِهِمْ في أرْضِ مِصْر.

مَنْ هُو الشَّيْخُ أبو المرأتين من أَهْلِ مَدْين؟

- جاء عند جمهور المفسّرين أنَّه شُعَيْبٌ الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلام، ولَيْسَ لِهَذَا القول سَنَدٌ يَرْفَعُهُ إلى الرسُول ﷺ.

- وقيل: اسْمُهُ شعيب على اسم الرَّسُول شعيب عليه السَّلام.
- وقيل: هو ابْنُ أخِي شعيب عليه السَّلام.
- وقيل: هو ابْنُ عَمِّهِ.
- وقيل: هو رَجُلٌ مُؤْمِنٌ من قَوْمِ شعيب.

أقول: جاء في الإصْحاح (٢) من سِفْر الخروج عند أَهْلِ الكتاب أنّ اسْمَهُ «رَعُوئِيل» فقرة (١٨).

وجاء في الإصحاح (٣) من سفر الخروج أنّ اسْمَهُ «يَثْرُونَ» وأنَّه كَانَ كاهِنَ مَدْيَان. فقرة (١).

وجاء في كتاب قاموس الكتاب المقدّس: أنَّ «يَثْرُونَ» معناه: فَضْل، وأنَّ «رَعُوئِيل» معْنَاهُ: صَدِيق، أو خَلِيلُ الله. قالوا: ويظهر أنَّ هذا الاسْم كان اسْمُهُ الشخصيّ، وأنَّ «يَثْرُونَ» لَقَبُ شَرَفٍ أُطْلِقَ عليه.

والّذي أرَاه أنَّه لا داعِيَ لاعْتِمَادِ قَوْلٍ بِعَيْنِه، وعلى الرُّغْم ممَّا عنْدَ أَهْل الكتاب من أغالِيط كثيرة، فلا مانع عقلاً من أن يكون هذا الرجُل «رَعُوئيل» وأنّ لفظ «يَثْرُونَ» لَقَبُ شَرَفٍ أُطْلِقَ عليه، وأنَّه كان كاهِنَ «مَدْيَان» أي: كان ذَا رِياسةٍ دينيَّة في قومِهِ، علَى مِلَّة الرَّسُولِ شُعَيبٍ عَلَيْهِ السَّلام.

قول الله تعالى:

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾:

الظاهر أنَّ هـٰذِهِ المرأةَ هِيَ الَّتِي ذَهَبَتْ إِلَيْهِ وَأَبْلَغَتْهُ رِسَالَةَ أَبِيهَا، ودَعْوَتَهُ لَه.

أي: سَأَلَتْ أَبَاهَا أَنْ يَسْتَأْجِرَهُ لِيَرْعَىٰ غَنَمَهُ، وَيَقُومَ عَلَىٰ حفْظِهَا وَخِدْمِتها، فيَحْمِلَ عَنْهَا وَعَنْ أُخْتِهَا هـٰذا الْعِبْءَ.

وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بالْقُوَّةِ الْجَسَدِيَّة، وبالأَمَانَةِ النَّفْسِيَّة، دَلَّ علَىٰ هـٰذا الثَّنَاءِ العِبَارَةُ الَّتِي جاءَتْ بأسْلُوبٍ كِنَائيّ: ﴿... إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: إنَّهُ قَوِيٌّ أمِينٌ، وإنَّهُ خَيْرُ مَنْ تَسْتَأْجِرُ إذا أَرَدْتَ أنْ تَسْتَأْجِرَ أَجِيراً عِنْدَكَ.

أمّا قُوَّتُهُ الْجَسَدِيَّة فَقَدْ رَأَتْ أَثَرَهَا في اسْتخراجِهِ الماءَ بالدِّلَاءِ من الْبِئْرِ بقُوَّةٍ وَهِمَّةٍ، عَلَىٰ الرُّغم مِنْ قُدُومِهِ إلى مَدْيَنَ مَاشياً على قَدَمَيْهِ مِنْ مِصْر. وأَمَّا أمَانَتُهُ فَقَدْ رَأَتْ آثَرَهَا في اختياره أن يَمْشِيَ أمَامَها إلى مَسْكَنِ أَبِيهَا حَتَّىٰ لَا تَصِفَ الرِّيحُ الّتي قَدْ تضْغَطُ على ثيابها جَسَدَها.

فَلَمَّا عَلِمَ «يَثْرُونَ» أخْبَارَ مُوسَىٰ في مِصْر، واسْتَوْثَقَ من ابْنَتِهِ أنَّهُ قَوِيٌّ أمِين.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

إذا كان للرَّجُل بَنَاتٌ أُخرَيَاتٌ غَيْرُ هَاتَيْنِ البِنْتَيْن، فالأُخْرَيات إمَّا أنْ يَكُنَّ مُتزوّجات، وإمَّا أنْ يَكُنَّ صَغِيراتٍ، ولهـٰذا جاءت عبارة الْعَرْضِ خاصَّةً بإحْدىٰ ابْنَتَيْهِ، وَأشار إِلَيهِمَا بِاسْمِ الإِشَارَة هَاتَيْنِ لِيَسْتَبْعِدَ غَيْرَهُمَا.

وهٰذا دأبُ عُقَلاءِ الرِّجَال، أنْ يَخْتَارُوا هُمْ أزْوَاجاً أكْفِيَاءَ صَالِحِينَ لبَنَاتِهِم، ولَيْسَ في مِثْل هٰذا الطَّلَب وإبْدَاء الرَّغْبَةِ منقَصَةٌ لهم، بَلْ فيها مُرُوءَةٌ وقُوَّة إرادَةٍ وحُسْنُ تَدْبير.

وجَعَلَ مَهْرَ مَنْ يَخْتَارُهَا مِنْهُمَا زَوْجَةً لَهُ أنْ يَكُونَ أجيراً عِنْدَهُ يَرْعَىٰ مَوَاشِيَهُ ومَصَالِحَهُ ثَمَانِي سِنِينَ، ورَغِبَ أنْ تَكُونَ عَشْراً عَلَىٰ سَبيل التَّفَضُّلِ مِنْهُ بسَنَتْينِ فَوْقَ حَقّ الْمَهْر، وقَدْ كانَتْ مُهُورُ الْبَنَاتِ علَىٰ مِثْلِ هٰذا الاسْتِئْجار مِنَ الأُمُور الْمُعْتَادَةِ فِي الأُمَم السَّابِقَةَ، فَقَال لَهُ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾: أي: فَهُوَ تَفضُّلٌ مِنْ عِنْدِكَ، لسْتَ مُلْزماً به.

وأبان لموسَىٰ أنَّهُ لَا يُرِيدُ بهٰذا الاستئجار أنْ يَشُقَّ عَلَيْهِ في الْعَمَلِ، فَيُحَمِّلَهُ مِنَ التَّكَالِيفِ مَا فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَيْهِ زَائِدَةٌ علىٰ مَا هُوَ مَعْلُومٌ عُرْفاً من حُقُوقِ المسْتَأْجِرِ علىٰ الأَجِيرِ عِنْدَه، وَوَعَدَهُ بأنَّهُ سَيَجدُهُ إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحين.

- ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾: أي: علَىٰ شرْطِ أنْ تكُونَ أجِيراً لِي تَعْمَلُ بأمْرِي.

يُقال لغة: «أجَرَ فُلَانٌ رَبَّ عَمَلٍ يَأْجُرُهُ» أي: رَضِيَ أنْ يَكُونَ أجيراً لَهُ مُقَابِلَ أجْرٍ أوْ مَنْفَعَةٍ يَحْصُلُ عَلَيْها مِنْ قِبَلِ رَبّ العمل.

- ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾: أي: ثمانِيَ سنَوَات. **حِجَج**: جمع «حِجَّة» وهي تُطْلَق علَىٰ مَعْنَىٰ سنة، فيما تُطلَقُ عَلَيْهِ، وهو المراد هُنَا.

- ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾: أي: وما أرِيدُ باستئجاري لَكَ أن أُكَلِّفَكَ أعْمَالاً شَاقَّة عَسِيرة صَعْبَة. يُقال لغة: «شَقَّ الأمْرُ، يَشُقُّ، شَقًّا»، أي: صَعُبَ. ويُقَال: «شَقَّ فُلَانٌ علَىٰ فُلَانٍ» أي: أوقَعَهُ في المشَقّة، وهي العمل الصَّعْبُ الَّذِي فيه عناء.

أقول: وهٰذا يُعْتَبَرُ شَرْطاً مِنْ شُرُوط عَقْدِ الاستئجار للقيام بِعَمَل ما،

فإنْ خالَفَ المستأجِرُ، فحمَّلَ الْأجِيرَ عَمَلاً فِيه مَشَقَّةٌ بِحَسَبِ مُعْتادِ الناس، فلِلأجِير أنْ لا يَسْتَجِيبَ لِمُخالَفَتِه للشَّرْطِ.

• ﴿... سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: سَتَجِدُني إن شاء اللهُ في المستقبل وأنْتَ تَقُومُ بِخِدْمَتِي مِن المتَّصِفين بالصَّلَاح، هذا وَعْدٌ مِنْهُ لموسَىٰ عليه السلام.

جاء لفظ «الصّالحين» في القرآن وصفاً للأنبياء والمؤمنين الذين يأمُرُون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويُسَارِعُونَ في الخيرات، وجاء أيضاً وصفاً للأوّابين الذين إذا عَصَوْا آبوا إلى اللهِ بالتوبة.

الصالح: هو مَنْ يتقي اللهَ في أعماله وتَصَرُّفَاتِه، وقد يزيد فيكونُ من الأبرار والمحسنين.

والتزمَ بالأدَبِ مع اللهِ إذْ وَعْدَ بما سَيَعْمَلُه مُسْتَقبلاً، فعلَّقَ الْأمْرَ علَىٰ مَشِيئةِ الله، وَهـٰذا أمْرُ جاء التعليم القرآنيُّ بالْتِزَامِهِ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

إنَّ التَّعْلِيقَ على مَشِيئَة اللهِ بالنِّسْبَةِ إلى الأعمال المستقبليَّة، هو من مقْتَضَىٰ الأمُور الْعَقَدِيَّةِ، إذ المسْتَقْبَلُ غيبٌ ومَجْهولٌ للإنسان، فقد تقُومُ الموانِعُ فتمْنَعُ الإنسان من القيام بما وَعدَ به، وقد ينْزِل بالإنْسَانَ العجز، وقَدْ تَنْزِلُ بِهِ مَنِيَّتُه، ولهذا قالَ الله عزّ وجلّ في سورة (لُقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿... وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾:

* * *

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ (٣١) ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥) ﴾.

تمهيد:

اشْتَمَلَتْ هٰذِهِ الآيات عَلَىٰ لَقَطاتٍ من فَصْلِ خروج موسَىٰ بأَهْلِهِ مِنْ مَدْين، عازماً الْعَوْدَةَ إلى مِصْر، ومَا جرى لَهُ في طَرِيق العودة، من مكالمَةَ اللهِ لَهُ بجانب جبَلِ الطّور، واصطِفَائِهِ بالنُّبُوَّة، وبرِسالَةٍ عُظْمَىٰ.

وسبق لدى تدبّر سورة (طـه) تدبُّر تكامُليٌّ بيْنَ هذا النصّ وبين ما جاء حول مضمونه في سورة (طـه) وفي غيرها من السّور، فلا داعي هُنَا إلى إعادة النظرات التكامليّات بَيْنه وبين النصوص الأخرىٰ الّتي تتعلّق بما جاء فيه، وأقتصر هنا على التدبُّر التحليليّ لهذا النصّ.

التدبّر التحليليّ:

قول الله تعالى:

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ

نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

دلَّت هٰذِهِ الآيَة علىٰ خَمْسِ قَضَايا:

القضيَّة الأُولى: أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ رَضِيَ بِعَرْضِ شيخ مَدْيَن «يَثْرُون» وتَزَوَّجَ البِنْتَ الَّتِي اخْتَارَهَا من ابْنَتَيْهِ عَلَىٰ الشَّرْط الَّذِي عَرَضَهُ علَيْهِ أبوها.

قالُوا: واسْمُها «صَفُّورَة» على مَا جاء عند أَهْلِ الكتاب في سفر الخروج.

وهٰذِهِ القضيَّةُ تُفْهَمُ باللُّزُوم الفِكْري، إذْ لَا يَقْضِي أجلَ استئجارِه مهراً لزَوْجَتِه مَا لم يَكُنْ وافق على الْعَرْضِ، وتَزَوَّج، وأدَّىٰ الخِدْمَةَ المطْلُوبَةَ، وانْتَهىٰ أَجلُها.

القضيَّةُ الثانِيَة: أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام وَفَّىٰ الخِدْمَةَ لوَالِدِ زَوْجَتِهِ، حتَّىٰ غايَةِ أجلِهَا المحدَّد، دَلَّ عَلَىٰ هٰذِهِ القضيَّةِ قولُ اللهِ عزّ وجلّ في الآيَة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾: أي: فَلَمَّا قَام بالخِدْمَةِ علَىٰ الوجْهِ المطْلُوب الْمُرْضِي لوالِدِ زَوْجَتِه، وأَنْهَىٰ الأَجلَ الْمُحَدَّدَ بالشَّرْط.

وهُنا يَرِدُ سُؤال: وهو أنّ الأجَلَ قَدْ كَانَ مُتَرَدّداً بَيْنَ واجبٍ وتَطَوُّع من عند موسى، فالواجب ثَمَاني سَنَوات، والتطوُّعُ سَنَتانِ زيادَةً عَلَيْهَا يَتَطَوَّعُ بِهَا مُوسَىٰ مِنْ عِنْدِهِ بِرّاً بِوَالِدِ زَوْجَتِهِ.

فأيّ الأَجَلَيْنِ قضَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام؟.

أقول: لَقَدْ جاء في رِوايات مُتَعَدِّدَاتٍ عن الرَّسول ﷺ يُقَوِّي بَعْضُها بعْضاً، أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام قَضَىٰ أَبَرَّ الْأَجَلَيْنِ وَأَوْفَاهُما.

وهٰذا هو المنتظر ممَّن هو دُونَ موسَىٰ عقلاً وحِكْمةً وفَضلاً، فكَيْفَ به؟!

وجاء في الأصحاح الثاني من سفر الخروج عند الإسرائيليين: أنَّ مَلِكَ مِصْرَ الّذِينَ كان يَقْسُو على بني إسرائيل بالاستعباد والإذْلَال، قَدْ ماتَ أثْنَاءَ وجود مُوسَىٰ في «مَدْين» وخَلَفَهُ من آلِهِ غَيْرُهُ.

ولعَلَّ هٰذا قَدْ حَرَّكَ عاطِفَةَ مُوسَىٰ أنْ يَعُودَ إلَىٰ قَوْمِهِ بَنِي إسْرَائِيل في مصر، ولا سيما كونُهُ قَدْ قَضَىٰ أجَلَ الخِدْمَةِ واجِبَهَا وتَطَوُّعَها، فَعزَمَ على الْعَوْدَةِ بأهْلِهِ إلَىٰ مصر.

قالوا: ولمَّا عَزَمَ علَىٰ الْعَوْدَةِ بأَهْلِهِ إلَىٰ مِصْر، أعْلَمَ زَوْجَتَهُ بعَزْمِهِ، وطلَبَ مِنْهَا أنْ تَسْأَلَ أبَاهَا أنْ يُعْطِيَها مِنْ غَنَمِهِ مَا يَعِيشُونَ به.

فأخبَرَتْ أبَاهَا بالأمْرِ، وسَألَتْهُ أنْ يُعْطِيَها مِنْ غَنَمِهِ مَا يَعِيشُونَ به، فقال لها: لَكِ من غَنَمِي في هٰذا الْعَام مَا وَلَدَتْ مِنْ قَالِب لَوْن، أي: من لَوْنٍ مُخَالِفٍ لَوْنَ أُمِّه، كولَدِ أسْودِ الصّوف، من أُمٍّ ذاتِ صوف أبيض، أو العكس، وكانَتْ غَنَمُهُ سَوْداءَ حِسَاناً.

قَالُوا: فَوَضَعَتْ كُلُّها بقضاء الله وقَدَرِهِ قَوالِبَ ألوان، فكانت من حظِّ «صَفُّورَة» وحينَ انْطَلَقَ موسَىٰ مُتَوَجِّهاً شَطْرَ مِصْرَ سَاقَ هـٰذا القَطِيعَ من الغَنم المواليدِ مَعَه.

القضية الثالثة: أنّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام سَارَ بأَهْلِهِ مُتَوَجّهاً شَطْرَ مِصْر، مُفَارِقاً أرْض «مَدْين» دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾: أي: فلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ الأوْفَىٰ وعزَم على العودَةِ بأهْلِهِ إلى مصر، وسَارَ بأهْلِهِ متَّجِهاً شَطْرَ مصْرَ حيْثُ قَوْمُه بَنُو إسْرَائيل.

الباء في ﴿بِأَهْلِهِۦٓ﴾ للمصاحَبَة، أي: سَارَ مُصَاحِباً أهْلَه.

القضيَّة الرابعة: أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام آنَسَ وهُوَ يَسِيرُ بأهْلِهِ ليلاً عَنْ بَعْدٍ ناراً تتَعَالَىٰ أَلْسِنَةُ لهَبِهَا في الْجَوّ، وكان الْبَرْدُ شديداً، ولَمْ يَقْدَحْ زِنادَهُ لإيقادِ نَارٍ للاسْتِدْفَاءِ بها، وكَانَ الطّريقُ السّوِيُّ إلى مِصْرَ غَيْرَ وَاضِح، وقَدْ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ آنَسَ نَاراً قول اللهِ عزّ وجلّ في الْآيَة: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾: أي: وحِينَ قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بأهْلِهِ مُتوجِّهاً شَطْرَ مِصْر، أنَسَ وهو يَسِيرٌ علىٰ الطَرِيق نَاراً تَلْتَهِبُ مُتَصَاعِدَةً مِنْ جَانِبِ الطُّور.

- ﴿ءَانَسَ﴾: أي: أَبْصَر، يُقَالُ لغة: «أنسَ الشَّيْءَ» أي: أَحَسَّ به. ويُقَالُ: «آنسَهُ» أي: أبْصَرَه، أو عَلِمَهُ إذَا كانَ ممَّا يُعْلَم، أوْ سَمِعَهُ إذا كان ممَّا يُسْمَع.

- ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: أي: من ناحِيَةٍ وَجِهَةٍ وَمَكَانٍ قَرِيبٍ من جَبَلِ الطّور. ويُسَمَّى عند الإسرائيليين: «جبل الله حُوريب».

- ﴿نَارًا﴾: أي: شيئاً مُشْتَعِلاً علىٰ شكْل نارٍ. قَالُوا: ولم تَكُنْ في الحقيقة ناراً، وإنَّما كانَتْ نُوراً علَىٰ شَكْلِ نَارٍ ذَاتِ لَهَب.

القضية الخامسة: أنَّهُ طَلَبَ مِنْ أَهْلِهِ زوْجَتِهِ وَوَلَدَيهِ ورُبّما كان معَهُمْ خادِمُهُمْ، أنْ يَمْكُثُوا لِيَذْهَبَ إلَىٰ جِهَةِ النَّار، راجياً أنْ يُحَقِّقَ أَمْرَيْنِ أَوْ أَحَدَهُما:

الأَمرُ الأول: أنْ يَسْتَفِيد خبراً من أهل النار عن أيْسَر وأقْرَبِ طَرِيقٍ مُوصل إلى مصر.

الأمر الثاني: أنْ يأتي بِجَذْوَةٍ مِنْ نَارٍ يُوقِدُونَ بها حطباً بغْيَةَ أَنْ يَسْتَدْفِئُوا مِنَ الْبَرْد.

دلَّ على هـٰذِهِ القضيَّة قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿...قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

- ﴿لِأَهۡلِهِ﴾ لفظ «الأهل» يُطْلَقُ على الأقارب، والعشيرة، والأصحاب، والزّوجَةِ. وأهْلُ الدَّراهم سُكّانها.

- ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾: **المُكث**: التَّوَقُّفُ، والانتظار، والتمَهُّل، يقالُ لغة: «مَكَثَ بالمكان، يَمْكُثُ، مُكثاً، وَمَكْثاً، ومُكوثاً» أي: توقّف، وانتظَرَ، وتمَهَّل.

﴿لَّعَلِّيٓ﴾: جاء بعبارة التَّرَجّي، إذْ لَمْ يَكُنْ جازماً بتحقُّقِ كلا الأَمْرَيْنِ أوْ أحَدِهِما. وكذلك: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: أي: أتوقَّعُ دُونَ جَزْمٍ أنْ آتِيَكُمْ إذا ذَهَبْتُ إلى جهة النار وعُدْتُ، بخَبَرٍ عن أيْسَرِ طَرِيق وَأَقْرَبِهِ مُوصِلٍ إلىٰ مصر، أو بِجَذْوَةٍ مِنْ نَارٍ لِتُوقِدُوا مِنْها حَطباً رجاء أنْ تَسْتَدْفِئُوا بناره.

الجذْوَة: مُثَلَّثَة الجيم في اللّغة، وهي الْجَمْرَة الملتهِبَة.

﴿تَصۡطَلُونَ﴾: أي: تَسْتَدْفِئُونَ، وهذه العبارة تَدُلُّ علَىٰ أنَّهُمْ كانُوا يُعَانُونَ مِنْ شِدّةِ الْبَرْد.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾:

أي: فلمّا أَتَىٰ مُوسَىٰ عليه السَّلام النَّار، إذْ صار قَرِيباً من الْمَكانِ الّذِي آنَسَهَا فيه، نُودِيَ مِنْ قِبَلِ اللهِ عزّ وجلّ بِنِدَاء عَالٍ يَسْمَعُهُ، وقَدْ حَصَلَ هٰذا النداء قَبْلَ أنْ يُقَرِّبَهُ اللهُ بجياً، فيُنَاجِيَهُ دُونَ رَفع صَوْت كما جاء في نصّ آخر.

- ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾: شَاطِىء الوادي الأيمَن هُو جَانِبُ الطُّور الأيمن، فشاطىء النهر، أو شَاطىء الوادي، هو جانبه.

ونفهم أنّ شَاطِىء الوادي الواقِعَ إلى جَانِب الْجَبَلِ هو أسْفَلُ الْجبَلِ الملاصِقُ للْوَادِي.

وَوُصِفَ بالأَيْمَنَ، لأنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام كَانَ مُتَوَجِّهاً بوَجْهِهِ لِمنْطِقَةٍ وُسْطَىٰ مِنْ جَبَلِ الطور.

- ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

الْبُقْعَة: هي القطْعَةُ من الأرض المتميّزَةُ ممَّا حَوْلَها.

الْمُبارَكَة: أي: الَّتِي جَعَلَ اللهُ عزّ وجلّ فيها البركة، وهي الزيادة والنماء من الخير.

مِنَ الشَّجَرَة: أي: من حُدودِ الشَّجرة وامْتِدَادَات جُذُورها وفُرُوعها، إذْ جَعَلَهَا اللهُ مُباركةً، وهي الّتي رأى موسى عليه السَّلام منها النار ساطعةً، ولم تكن ناراً لاهبة، وإنما كانت نوراً على صُورَةِ نار.

سمَّىٰ الإسْرَائِيليُّون هـٰذِهِ الشجرة في الأصحاح الثالث من سفر الخروج «عُلَّيْقَة» وظنّ بعْضُ باحِثِي أَهْل الكتاب أنّها من شَجَر «السَّنْط».

﴿...أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أَن﴾: حرف تَفْسير للمقُول في النداء.

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: أُؤَكدُ لَكَ يا مُوسَىٰ ما أقولُ لَكَ، أَنَا اللهُ الَّذي تُؤْمِنُ به، أنْتَ وآباؤُكَ المؤْمِنُون الموحِّدُونَ، وأنا رَبُّ الْعَالَمِين جميعاً.

رَبُّ العالَمين: أي: خالِقُ الكائنات كلّها، والمتصرّفُ فيها بحكْمَتِه دواماً، وبسُلْطانِ رُبُوبيّته الشامِلَةِ لكلّ مَا في الكوْنِ من حوادث وتَصَارِيف.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ

بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

• ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ «أَنْ» هُنَا مثل «أَنْ» في [أَنْ يا مُوسَىٰ] حَرْف تفسير للْمَقُول في النداء.

• ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾: أي: ادْفَعْها مِنْ يَدِك إلَىٰ الأرضِ رَمْياً.

• ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

﴿تَهْتَزُّ﴾: أي: تتحرَّكُ تَحرُّكاً سَرِيعاً.

﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: جانٌّ: نَوْعٌ من الحيَّات، أكْحَلُ العيْنَيْن، يَضْرِبُ إلَىٰ الصُّفْرَةِ، كثير الحركة وسَرِيعها، يُجْمَعُ على «جِنَّان» و«جَوَانّ».

أي: كأنّها جَانٌّ في السُّرْعَةِ والحركة المخيفة، لا في سائر الصفات، لأنّ هذا الصّنف من الحيَّاتِ غَيْر مُؤْذٍ.

• ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: أي: انْهزَمَ مُبْتَعِداً، مُعْطِياً ظَهْرَهُ لِجِهَةِ العصا الّتي انقلَبتْ حَيَّةً مخيفةً تَسْعَىٰ.

وَلَّىٰ: أي: ابْتَعَدَ. مُدْبراً: الإدْبار: إعطاء الدُّبرُ للشيء، فجمع موسَىٰ عليه السَّلام بيْنَ الابتعادِ وإعطاء الدُّبُر.

• ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: أي: ولَمْ يَكِرَّ راجعاً، من شِدَّةِ خَوْفه علَىٰ نفسه. وكان هٰذا مِنْهُ بحَسَب طبيعَتِه الْبَشَرِيَّةِ الَّتي فُطِرَ عَلَيْها، ذات الحِدَّة والسُّرْعَةِ في التنفيذ.

• ﴿... يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ كارّاً إلىٰ المكان الّذي فَرَرْت مِنْهُ خَوْفاً مِنَ الحيَّة، ولَا تَخَفْ أنْ تُؤْذِيَكَ، إنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ بِتأْمِينِ رَبّكَ لَكَ.

فكَرَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام رَاجعاً امتثالاً وطَاعَة لأمْرِ اللهِ له.

هـٰذِهِ العبارة جاءَتْ مُقْتَطَعَةً من الحدَثِ الماضِي اقتطاعاً، وهذا الاقتطاع من الْإِبْدَاعَاتِ الرائِعَاتِ في القرآن المجيد.

- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ... ﴿٣٢﴾﴾:

أي: أدْخِلْ يَدَكَ في جَيْب ثَوْبِكَ وأوصلها إلى إبطِكَ أخذاً من نصٍّ آخر، وأخرِجْها بَعْدَ ذَلِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مُتَلأْلِئَةً مُضيئَةً لَا بَرَصَ فيها ولا بَهَقَ.

من غَيْرِ سُوء: احتراسٌ من أَنْ يسْبِقَ إلَىٰ الذّهْنِ أنّها تَخْرُجُ برصَاءَ أو مَعيبةً بعيبٍ آخر.

قالُوا: فإذا هِيَ تُضِيء كالْبَرْق.

﴿... وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ...﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام على الرُّغم من إقبالِهِ وعَوْدَته إلى المكان الذي فرَّ مِنْه، امتثالاً لأمْرِ رَبّه، وعلى الرُّغْم من أخْذِهِ الحَيَّة الّتي عادَتْ عِنْدَ أخْذِهِ لها سِيرَتَها الأولى، كما جاء في نصٍّ آخر، ما زَالَ قَلْبُهُ يَرْجُفُ رَجفاناً ميكانيكيًّا من تأثير الخوف السّابق، فَعَلّمَهُ اللهُ أنْ يضُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَىٰ إلى جانب جِسْمِه الأيْسَرِ، حَيْثُ قَلْبُهُ، لِيَسْكُنَ مِنْ أَثَرِ الرَّهَب الَّذِي كَانَ قَدْ أَصَابَه.

جَنَاحَكَ: أي: يَدَكَ، تَشبيهاً لها بجناحِ الطَّائِرِ الذي يَضُمُّه إلَىٰ جَسَدِهِ عنْدَ التوقُّف عن الطيران.

واخْتَرْتُ في الْفَهْم الْيَدَ الْيُسْرَىٰ لأَنَّها الأقْرب إلى تَسْكِين رَجفَان الجانب الّذي فيه الْقَلْب، وأمَّا الْيُمْنَىٰ فَقَدْ أمْسَكَ بها العصا.

أقول: إذا كان انقلاب العصا حيَّةً مُرْعِبةً، قَدْ أخَافت مُوسَىٰ وهو بين يَدَي رَبّه يُكَلّمه، ففرَّ منها، فكَيْف يَكُونُ حَالُ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه، حينَ إجْرَاءِ هـٰذِهِ الآيَةِ الرَّبَّانِيَّة أمَامَهُمْ؟!!

﴿... فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿فَذَٰنِكَ﴾ الفاء عاطِفَة للتفريع على ما أجْرَىٰ الله عزَّ وجلَّ من آيتي الْعَصَا واليد. «ذَانِ» اسم إشارة للمثنَّىٰ المذكر. والكاف لخطاب المفرد المذكر، والمشارُ إليه آيَتَا الْعَصَا والْيَد.

﴿بُرْهَٰنَانِ﴾: مثنَّى بُرْهَان، وهو الْحجَّةُ البيِّنَةُ الفاصِلَة، وجمعُهُ براهين.

أي: فذانِكَ الخارِقَانِ العَجِيبَان، قَلْبُ الْعَصَا حيَّةً مُخِيفَةً، وقَلْبُ الْيَد السَّمْراءِ بيضاءَ تَبْرُقُ كالْبَرْق، هُمَا حُجَّتَان بَيِّنَتَان فاصِلَتَان، تُثْبِتَانِ لِفِرْعُونَ وَمَلئِهِ وجُنُودِهِم وأتْباعِهم أنَّكَ رَسُولٌ مُرْسَلٌ من رَبّ الْعَالَمِين.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: في هٰذِهِ العبارة بَيَانُ أن المرسَلَ إليهم أوّلاً فِرْعَوْنُ ومَلَؤُه.

الملأ: أشراف القوم وسَرَاتُهُمْ وَسَادتُهُمُ الَّذِين يملَؤُونَ عُيون العامّة. ومَلَؤُ فِرْعَوْنَ وُزراؤه ومُسْتَشَارُوه، حاشية قَصْرِه، وكُبَرَاءُ المصْرِيين المسانِدُون والموالُونَ لِفِرْعون.

ولمَّا كان سائر المصْرِيّين يَوْمئذٍ تبعاً لِفِرْعَوْنَ وملَئِه، كانت رسالَةُ موسَىٰ وهارون مُوجَّهَةً لهم جميعاً.

﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾: أي: إنَّهُمْ كَانُوا زَمَناً طويلاً فاسقين، وما زالُوا على فسقهم، فدلّت هذه العبارة على الغرض من إرسالِه إليهم، وهو دعوتهم إلى دين الله الحق.

الفاسق: العاصي، الخارج عن الحق، والتارك لأوامر الله، المتعرِّضُ للفساد والإفساد.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾:

أبانَ مُوسَىٰ عليه السَّلام لربِّه أنَّهُ يَخافُ أنْ يَقْتُلوهُ عِقاباً علَىٰ قَتْلِهِ للمصريّ قبْلَ خُروجه من مصر إلى مَدين.

وأبان لربّه أيْضاً أنّ في لسانِهِ عُقْدَةً تَجعَلُهُ غَيْرَ مِنْطِيقٍ فَصِيحٍ في بيانه، وأنَّ أخاهُ هارُونَ أفْصَحُ مِنْهُ لِساناً، وسَأَلَ رَبَّهُ أنْ يَجْعَلَهُ نَبِيًّا ورَسُولاً مَعَهُ يكُونُ لَهُ مُعيناً وَناصراً، وسَبَبا مُرَجّحاً في تَصْدِيق الْقَوْمِ له، فالرَّسُولَانِ معاً أقْوَىٰ في نظر الناس من رسُولٍ واحد.

﴿رِدْءًا﴾: **الرِّدْءُ**: هو في اللّغَةِ الْمُعِينُ والنَّاصر، والقوة والعِمَاد، يقال لُغَةً رَدَأَ الْبَنَّاءُ الجدارَ مثلاً، أي: دعَمَهُ وقوّاه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

الْعَضُد: هو من اليد ما بَيْنَ الْمِرْفَق إلَىٰ الكَتِف، وجمعه «أعْضَاد» وشَدُّ عضُدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام كنايَةٌ عَنْ تَقْوِيَتِهِ بأخيه، وفي هذا دلالَةٌ على أنَّ ربَّه قَدْ آتَاهُ سُؤْلَه.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾: أي: ونَجعَلُ لَكُمَا قُوَّةً غَيْبِيَّةً مَعْنَوِيَّةً تَحجُزُ فِرْعَونَ ومَلأَهُ وجُنُودَهُ عَنْ أنْ يَصِلُوا إلَيْكُمَا بما فيه ضُرٌّ أَوْ أذًى لَكُمَا.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾: أي: فَلا يَصِلُون إلَيْكُمَا وُصُولاً بشيءٍ يَضرُّكُمَا أَوْ يُؤْذِيكما. وهـٰذا المنْعُ يكُونُ بما نُرِيهم مِنْ آياتِنا الَّتِي نُخِيفُهُمْ بها، فيَحْذَرُونَ أنْ يَهْلِكُوا إذا مَكَرُوا مَكراً للإضرار بِكُمَا، أو كادُوكُما كَيْداً يُؤْذِي أحداً مِنْكما.

﴿. . .أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾: هـٰذا وَعْدٌ من اللهِ عزّ وجلّ لِمُوسَىٰ وهَارُون، بأَنَّهُمَا وَمَنِ اتَّبَعَهُما الْغَالِبُونَ، في نهايَةِ مَسِيرَتهما في دَعْوَتِهما لِفِرْعَونَ وَمَلَئِهِ وسَائِرِ المصْريين.

وقَدْ حَقَّقَ اللهُ عزّ وجلّ هـٰذا الوعْدَ في نِهَايَةِ مَسِيرتهما الدَّعَوِيَّة، فأغْرَقَ فِرْعَوْنَ ومَلأَه وجُنُودَهم في الْبَحْرِ، وكانوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِر.

* * *

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

تمهيد:

في هـٰذِهِ الآيات لقطات مختزلات جدًّا مِنْ قِصَّة موسَىٰ عليه السَّلام، في دعوته لفرعَوْن وملَئِه وجنودهم، ومكابرة فرعون وادّعائه الإلٰهيَّة لمِلَئِه، واحتياله ببناء صرح عالٍ لِيَطَّلِع إلى آله موسى في جِهَةِ السّماء، مع بَيَان اسْتِكْبَاره هو وجنوده في الأرض بغير الحق، وبيانِ ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُرْجَعونَ

إلى ربّهم للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الْجَزَاء، وبيان مصيرهم في الدنيا إذْ نَبَذهم اللهُ في اليَم في الدُّنيا فأغرقهم، وأتْبَعَهُمْ فيها لَعْنَةً شنيعَةً، وقضىٰ أنْ يكونُوا في الآخِرَةِ من الَّذِين لَزِمَهُمْ قُبْحُ الْعَذاب الأَبَدِي الْخَالد، وقُبْحُ أشكالهم في السّعير، إذْ يقَبّح حَرِيقُ النّارِ أشكالَهُمْ.

وبيْنَ هذا النصّ ونصوص أخرى جاءت في القرآن المجيد تَكَامُلٌ، في بيان المراد بيانُهُ من هـٰذِهِ المرحَلَةِ من تاريخ موسى في مِصْرَ، بعد أَنْ جعَلَهُ اللهُ نبيًّا ورَسُولاً إذْ كَلَّمَهُ بجانب الطُّور وهُو عَائِدٌ بأهْلِه من مَدْينَ إلى مصر، والنَّظَرَاتُ التدبّريَّة التكاملية بين هذا النَّصَّ وبين غَيْرِه من النصوص قَد سبقت لدى تدبّر سورة (طـه).

ويُلاحَظُ أنَّ هـٰذا النصّ من سورة (القصص) قد دَلَّ على لقطاتٍ من أحداثِ المراحل الأخيرة للنشاط الدّعويّ الذي قام به موسىٰ عليه السَّلام في مسيرته الدَّعويّةِ، ويُلْحَقُ به أخوه هارون عليه السَّلام.

وهـٰذِهِ المراحل الأخيرة مَسْبُوقَةٌ بإجراء اللهِ عزّ وجلَّ الآياتِ التِّسْعَ كُلَّها الّتي آتاها اللهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام، لإقناع فرعَوْنَ فَمَنْ دُونَهُ بأنَّهُ هو وأخُوهُ رسُولان حَقًّا وصِدْقاً من عند الله رَبّ العالمين، وإقناعهم بأنَّ الدين الّذي جاءا به هو من عند الله حقًّا وصِدْقاً.

ولا بُدَّ أنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُما قَدْ اقْتَرَنَتْ بالإقناعاتِ الفكريَّة بأنّ لهذا الكَوْنِ رَبًّا يَتَصَرَّفُ بكُلّ شيءٍ فيه وحْدَه، بصفات ربُوبيّته العظيمة، وأنَّهُ هُو الإلَه الّذي يجب أنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيك.

وإذْ سبَقَ التَّدبُّرُ التكامليّ لدى تدبّر سورة (طـه/ ٤٥ نزول) فإنّي أقتصر هُنا على تَحْلِيل فقراتِ هذا النصّ من سورة (القصص).

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى. . . ﴿٣٦﴾﴾:

أي: فلمّا جاء موسَىٰ عليه السَّلام فِرْعَوْنَ ومَلأَهُ فَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ سائر المصريِّين، باستثناء مَنْ كان يكْتُمُ إيمانَهُ، بآياتنا التِّسْع، حالة كونها بيّنات واضِحَاتِ الدلالات على أنَّها من اللهِ رَبِّ العالين، وهي:

(١) آيَة العصا التي تنقلب ثُعْبَاناً مُرْهباً.

(٢) آيَة اليد الّتي تنْقَلِب بيضاء لامِعَةً كالْبَرْقِ مِنْ غَيْرِ سوء.

(٣) آيَة الطوفان، وجاء عند الإسرائيليّين في سفر الخروج (٩) بيانُ أنّ اللهَ أمْطَرَ عَلَيْهم بَرَداً لم يَكُنْ مِثْله، فأهْلَكَ النباتات وبَعْضَ الحيوانات والناس.

(٤) آيَةُ الجراد، وجاء عند الإسرائيليّين في سفر الخروج (١٠) أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام أنْذَرَ فِرْعَوْنَ بجرادٍ يُغطّي وجْهَ الأرض، ويأكُلُ جميع الشَّجَرِ النَّابِتِ في الحقول. وأنّ ذَلِكَ قد حَصَلَ.

(٥) آيَةُ الْقُمَّل، وجاء في سفر الخروج (٨) أنَّ هارُونَ ضَرَبَ بالْعَصَا تُرابَ الْأَرْض، فَصار الْبَعُوضُ على النّاس والبهائم، وأنَّ مُوسَىٰ أنْذَرَ فِرْعَوْنَ بالذُّبّان، فَخرِبت الأرْضُ من الذبّان، وهو الذُّبَابُ المؤذي.

(٦) آيَةُ الضَفَادع: وجاء في سِفْر الخروج (٨) أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام أنْذَرَ فِرْعَوْنَ بالضفادع الّتي تَصْعَدُ وتَدْخُلُ في البُيُوت، وتكُونُ في كُلِّ مَخْدَعٍ، وعلَىٰ كُلّ سَرِير، وتَسْقُطُ في الْأَطْعِمَة، وقد حَصَلَ ذلك.

(٧) آيَة الدّم، وقد جاء في سفر الخروج (٧) أنَّ مُوسَىٰ وهارونَ ضربَ كلٌّ منهما المياه بالْعَصَا، فتَحوَّلَ كُلُّ الماء الذي في النيل وغَيْره دَماً.

(٨) آيَةُ الرّجْز، وهو عذابٌ من الله أنْزَله بِفِرْعُوْن وملَئِه وقومه، كَأَمْرَاضٍ وأوجاعٍ لَا عْهَدْ لَهُمْ بِمِثْلها.

(٩) آيَة السنين، وهي سنوات مُجْدِبات، حصَلَ فيها نقْصٌ من الثمرات، وطَمْسٌ على الأموال، وضغْطٌ على القُلُوب.

وقد سبق في سورة (طـٰه/ ٤٥ نزول) بيان أدِلَّةِ هـٰذِهِ الآيات التِّسْعِ من القرآن الكريم.

• ﴿...قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى... ﴿٣٦﴾﴾: أي: مَا هذا الَّذِي جاء به مُوسَىٰ من آياتٍ. إلَّا ظَوَاهِرُ أعْمَالٍ من أعمال السِّحْر، وادِّعَاؤُه أنَّها آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ خَوارِقُ يُجْرِيها رَبُّ العالَمِينَ لَهُ ادِّعاءٌ مُفْترىٰ.

الافتراء: اختلاقُ الكذِب واصطناعُهُ عَنْ عَمْد.

• ﴿...وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: ومَا سَمِعْنَا بهـٰذا الذي جاء به موسَىٰ وأخوه هارون، من توحيد الرُّبُوبيَّة، وتوحيد الإلَٰهيَّة لموجُودٍ أزليٍّ أبَدِيٍّ واحد، في أخبَارِ آبائِنا الأوَّلِينَ السَّابقين، الَّذِينَ كانُوا على مِثْل ديننا.

فموسَىٰ وهارونُ قَدْ جاءَا بدِينٍ لم يسْبِقْ لنَا بِهِ عِلْمٌ، أوْ خَبَرٌ متوارثٌ عن آبائنا، فَهُما مُفْتَرِيان علَىٰ الحقيقة، ولَيْسَا على هُدىً، ولَمْ يَأْتِيا كما يَزْعُمَانِ بالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِ خالِقِ الكَوْن، وادّعَاءاتهما عن الْبَعْث والحياة الأخرى، والجنَّةِ دار المؤمنين المتقين، وجهنَّم دار الكافرين المجرمين، ادّعَاءاتٌ باطلات مفترياتٌ على الحقيقة. وما نَحْنُ عليه وما وَرِثْناهُ عَنْ آبائنا هو الْهُدَى.

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

قرأ ابْنُ كثير: [**قَالَ مُوسَىٰ**] بحَذْفِ حَرْف العطف، وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَقَالَ مُوسَىٰ**] بإثبات حَرْف العطف «الواو» وفي القراءتَيْن إشارةٌ إلَىٰ أنَّهُ يَحْسُنُ الْوَصْلُ بحرف العطف «الواو» باعتبار أنّ الموضوع

يتحدّث عن الآيات البينات التي جاء بها موسى عليه السَّلام، ويَحْسُنُ الفصل باعتبار أن موسىٰ عليه السَّلام كان يتحدَّثُ في أحوال مختلفة، دون أنْ يكون جواباً لمقالتهم.

وقد دلت هذه الآية على رَدّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام على فرعون وملئه، إذ قالُوا عن آيات الله التِّسْعِ الّتي أجْراها الله له: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ وعلىٰ بيانه الذي كان يُكَرِّرُهُ في أواخِرِ مَسِيرتِهِ الدَّعَوِيَّةِ في مصر، وهذا الرَّدَّ قد اشتَمَلَ عَلَىٰ ثلاث قضايا.

القضية الأولى: دلّت علَيْها عبارة: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو: [**رَبِّيَ أَعْلَمُ**] بفتح ياء المتكلم:

أي: رَبِّي الّذي هُو رَبُّ كلِّ صَغِيرٍ وكَبيرٍ في الكَوْنِ من أحياء وغير أحياء، أعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ بِمَنْ جاءَ بالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِه، وبمَنْ هُو كَذَّابٌ يَفْترِي عَلَيْه.

وبمَا أَنَّهُ كذلِكَ، وهو الّذي يُعَاقِبُ مَنِ افْتَرَىٰ عَلَيْهِ، ويُجازي مَنْ أَطاع والْتَزَمَ هُدَاه، ويُعَاقِبُ مَنْ عَصَىٰ وتمَرَّدَ علَىٰ طاعَتِه، فَلْيَرْتَقِبْ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَّا عَاقِبَةَ أَمْرِهِ في الدُّنيا، ثُمَّ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الدين.

القضيَّة الثانية: دلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**وَمَنْ يَكُونُ لَهُ**] بالياء، وهما وجهان عربيان جائزان:

عبارة: «عَاقِبَةُ الدّارِ» وعبارة: «عُقْبَىٰ الدَّارِ» قَدْ جاءتَا في القرآنِ المجيد للدَّلَالَة على دَارِ النَّعِيم يوْمَ الدّين.

وقد جاء في سورة (الرَّعْدِ/١٣ مصحف/٩٦ نزول) تَفْسِيرُ «عُقْبَىٰ الدَّار» بأنَّها جَنَّاتُ عَدْن، فقال اللهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

لفظ «عَاقِبَة» ولفظ «عُقْبَىٰ» مترادفان في المعنى، وهُمَا بمَعْنَىٰ: آخِرِ أيّ شيءٍ وخَاتِمَتِه، وبمعْنَىٰ: جَزَاءِ الْعَمل أو الأمْر.

و«ال» في لفظ «الدَّار» هي للكمال، ومعلوم أنّ الدار الكامِلَةَ في العَاقِبَةِ الحسْنَىٰ هي جنَّاتُ عَدْنٍ، وأنَّ الدار الكاملَة في العاقِبَةَ السُّوأىٰ، هي دركاتُ عَذَاب الحَرِيق، في جهنَّم دار عذَاب المجْرمين.

والإضافة في عبارة: «عَاقِبَةُ الدَّار» وعبارة «عُقْبَى الدّار» هي على معنىٰ: «في» أي: عاقِبَةٌ حَسَنَةٌ جدّاً في الدّار العظيمة الكامِلَةِ في صِفَائِها، والتي هي جَنَّاتُ عَدْنٍ، ذواتُ الدَّرَجَاتِ الرَّفيعاتِ في عُمُومِ الجنَّة.

القضيّة الثالثة: دلَّت عليها عبارة: ﴿... إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

الفلاح: الْفَوْزُ، والنَّجاةُ، والظَّفرُ، والْبَقَاءُ في السُّلْطان.

أي: إنَّ الشَّأْنَ العظيم الّذِي هُو مِنْ سُنَنِ اللهِ في عباده، أنَّ الظّالمين بالافتراء علىٰ الله، أو بجُحُودِ رُبوبيَّتِهِ وإلَهيَّتِه، والتمَرُّدِ علىٰ طاعَتِه، لَا يَكُونُ لَهُمْ فَلَاحٌ في الدُّنيا، ولا يكون لَهُم فلاحٌ في الآخِرَة يَوْم الدّين.

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

هَامَان: يظْهَرُ أنّه الوزيرُ الأوّل، والْيَدُ الْيُمْنَىٰ لِفِرْعَوْنَ، وذُو السُّلْطان النافِذِ في مَمْلَكَتِه.

• ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾: أي: فاتّخِذْ يا هامَانُ وَسائِلَكَ لِيُوقِدَ الْعُمَّالُ النَّارَ علىٰ اللَّبِنِ من الطِينَ لِيَصِيرَ آجُرّاً.

• ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾: أي: فأمْرُ الْبَنَّائِينَ بَعْدَ تَهْيِئَةِ الآجُرّ اللازم بِبناء صَرْحٍ شاهق لي، واتَّخذْ كُلَّ مَا يَلْزم لذلك.

الصَّرْح: هو في اللُّغَةِ الْقَصْرُ العالي، والبنَاءُ الشَّاهِقُ الذَّاهِبُ ارتفاعاً في الْجَوّ.

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ﴾: أي: لِأَطّلِعَ. «لَعَلَّ» هُنَا بمعنَىٰ لَام التعليل.

وقرأ نافع، ابْنُ كثير، وأبو جَعْفر، وأبو عمرو، وابن عامر: **[لَعَلِّيَ أطّلِعُ]** بفتح ياء المتكلم.

أطّلِع: أي: أنظُر وأُشاهد. يُقَال لغةً: «اطَّلعَ إلى الشَّيْء» أي: تَطَلَّعَ وَنَظَرَ لِيَعْرِفَهُ.

أقول: كانَ الإلَهُ المعْبُود في تصوّرهم هو الّذي يجبُ على النّاس طاعَة أوامرِه ونواهيِه، والّذي يجبُ على الشَّعْب أنْ يَخْضَعُوا لَهُ خُضُوعاً تَامًّا.

ويَكْتَسِبُ هٰـذا الإنسانُ إلَهِيَّتَه بِقُوَّةٍ وِرَاثِيَّةٍ مِنْ آبائِه وأجدادِه الآلِهَة، وتَكُون هٰـذِهِ الْقُوَّةُ المعْنَوِيَّةُ في ذَاتِ الْمَلِك، وتَمْنَحُهُ هٰـذا الحقَّ مَتَىٰ مَلَك، إذْ تَحُلُّ فِيه رُوحُ الإِلَهِيَّةِ الَّتي كانت في آبائِهِ وأجْدَادِه. (هكذا كانت عَقِيدَتُهُم المفتراة).

وبما أنَّ فرعَوْنَ قَدْ كانَ هُو مَلِكَ مِصْرَ غَيْرَ مُنَازَع، فإنَّهُ لَا يَعْلَمُ أنَّ لِلْمَلأَ وهُمْ أعْيَانُ مَمْلَكَتِهِ مِنْ إلَهٍ غيره، تجب طاعَتُه، ويجب الخضوعُ له، وبما أنَّه هو إلَه الأعيان فلا بُدَّ أنْ يكُون إلَهاً لكلّ مَنْ دُونَهُمْ من شعب مملكته.

وبهٰذا أعْلَنَ أنّه إلَه كلِّ شَعْبِهِ من المصريين، ويُلْحَقُ بهم الإِسْرَائِيلِيُّون.

وإذْ يَدَّعي مُوسَىٰ أنَّ إلَهَهُ في السَّمَاء، فَٱبْنِ لي يَا وَزيري هامان، ويا سَاعِدِي الأيمن، صَرْحاً من آجُرٍّ، لأرْقَىٰ في طبقاتِ هذا الصَّرْح، لَعَلِّي أُشَاهِدُ في الأجْوَاءِ الْعُلْيَا إلَه مُوسَىٰ، فإذَا لَمْ أجِدْ لَهُ وُجُوداً، فَمُوسَىٰ كاذِبٌ في ادّعاء أنَّ إلَهَهُ في السَّماء.

إنَّ فرْعَوْنَ يخْدَعُ شَعْبَهُ، إذْ يَزْعُمُ أنَّهُ إذَا بَنَىٰ بِناءً عَالياً شاهِقاً، وصَعَد إلىٰ أعْلاَهُ، فَلا بُدَّ أنْ يُحِيطَ نَظَرُهُ بكُلِّ شَيْءٍ، فإذا لَمْ يَجِدْ إلَه مُوسَىٰ، فإنَّ هٰذا الإلَهَ لا وُجُودَ لَهُ، ومُوسَىٰ كاذِبٌ في ادِّعائه.

ولا بُدَّ أنْ تكونَ جماهِيرُ شَعْبه يومَئذٍ من السَّذاجَةِ وضَحالَةِ الفِكْر في دَرَكَةٍ تجْعَلُهُمْ يقْبَلُونَ هٰذِهِ الخديعة الفِرْعَوْنيّة.

أمَّا أذْكياءُ شَعْبِهِ فقَدْ أغْرَقَهُمْ بالمنافع، فَهُمْ بخُبْثٍ يُؤَيّدونَ أقوالَهُ، مع علمهم بأنّها بَاطِلَةٌ ساقطَةٌ لا قِيمة لَهَا، وهم بهٰذا يُشَارِكُونَهُ في خداع جماهير الشَّعْبِ المصْرِيّ السَّاذج.

وأحْكَمَ فِرْعَوْنُ خديعَتَهُ الّتي أراد تَرْويجها في شَعْبه، إذْ قال قَبْل بناءِ الصَّرْحِ عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿... وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فأظْهَرَ بهٰذِهِ العبارة اهْتِمَامَهُ بالتَّعرّف على إلَه مُوسَىٰ، فلَمْ يَقُل: وإنَّهُ من الكاذبين، بلْ جعل ذَلِكَ احْتمالاً ظَنيّاً، وأنَّ مُراقَبَةَ السَّماء من أعْلَىٰ الصَّرْحِ تَكْشِفُ صِحَّةَ هٰذا الظَّنِّ أوْ عَدَم صِحَّته.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

- ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾: أي: وامْتَنَعَ فِرْعَوْنُ عَنْ قَبُولِ الحقِّ مُعَانَدَةً وَتَكَبُّراً. وتكَبَّرَ تكَبُّراً شَدِيداً.

الاسْتِكْبَار: يأتي في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ الامتناع عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ معانَدَةً وَتكَبُّراً. ويأتي بِمَعْنَىٰ التَّكَبُّرِ بِشِدَّةٍ، أخْذاً مِنْ دَلَالَةِ صيغَة «اسْتَفْعَل».

أي: وتكَبَّرَ فِرْعَوْنُ هُوَ وَجُنُودُهُ تَكَبُّراً شَدِيداً، وامْتَنَعُوا عَنْ قَبُولِ الحقّ الرَّبَّانيّ، بِغَيْرِ دَلِيلٍ يُعْطِيهِم شيئاً قليلاً من الْعُذْر.

• ﴿...وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [لاَ يَرْجِعُونَ] بالبناء لِلْمَعْلُوم. وبيْنَ القراءتَيْن تَكامُلٌ في أداء المعْنَىٰ المَرادِ بَيَانُه، أي: وظَنُّوا أَنَّهم لَا يُرْجَعُون بإرْجاع الله لهم، فَهُمْ لَا يَرجعُونَ، هٰذا ظَنُّهُمْ، لكنَّهُمْ يُرْجَعُونَ فَيَرْجِعُونَ مُطَاوِعين قَهْراً.

أي: ولَمْ يَقْبَلُوا أنْ يُؤْمِنُوا بَنَبأ الْبَعْثِ وَالجزاء في حياةٍ أُخْرَىٰ، بَعْدَ هٰذِهِ الحياة الدنيا، للحسَاب، وفَصْل الْقَضَاءِ، وتحْقِيقِ الجزاء، مِنْ قِبَلِ رَبِّ العالِمينَ، معَ أنَّ هٰذا النَّبَأَ مَقْرُونٌ بِحُجَجٍ عَقْلِيَّةٍ بَيِّنَةٍ، وآيَاتٍ إعْجازِيَّةٍ بَاهِرَةٍ، آتاهَا اللهُ عزّ وجلَّ مُوسَىٰ وهارونَ عليهما السلام.

وكانَ ظَنُّهُمْ الَّذِي اعْتَمَدُوا عَلَيْهِ لإنْكارِ يَوْم الدّين، ظنًّا تَوَهُّمِيّاً باطلاً، يَتَخَيَّلُ أنَّ الحَياةَ قَاصِرَةٌ علىٰ هٰذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا.

• ﴿...فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ...﴾: أي: فجَعَلْنَا فِي نَفْسِهِ غيظاً يَدْفَعُهُ لاتّباع مُوسَىٰ وَقَوْمِهِ بَنِي إسْرائيل بِجَيْشٍ قَوِيٍّ لمقَاتَلَتِهِمْ، وقَتْلِ كُبَرائِهم، وإعَادَةِ سَائِرِ شَعْبِ بَنِي إسْرَائِيلَ عَبِيداً، وجَعَلْنَا فِي نَفْسِهِ الْخَوْفَ مِن عَوْدَةِ مُوسَىٰ بَعْدَ هٰذا الخروج بِجَيْشٍ مُقَاتِلٍ، وَزَيَّنا لَهُ تَكْوِينَ جَيْشٍ لِمُلاَحقَتِهِمْ وَقِتَالِهِم، واسْتَدْرَجْناهُمْ حَتَّىٰ دَخَلُوا مُلاحِقين الإسْرائِيلِيّين مِنْ مَكانِ الْفَلْقِ في الْبَحْر الَّذي فَلَقَهُ اللهُ لَهُمْ.

فَلَمَّا اكْتَمَلَ دُخُولُهُمْ جَمِيعاً في الطَّريق الَّذِي عَبَرَ مِنْهُ مُوسَىٰ وهَارُونَ

وَقَوْمُهُما وَمَا مَعَهُمْ، وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ عُبُورُ آخِرِ عابرينَ مِنْ بَنِي إسرائيل وما معهم ضَمَمْنَا على فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ فِلْقَتَي الْبَحْرِ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ أجمعِين.

﴿فَنَبَذْنَهُمْ﴾: أيْ: فَطَرَحْنَاهُمْ، وأَبْعَدْنَاهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ، كَمَا يُطْرَحُ الشَّيْءُ المحْتَقَرُ المكْرُوهُ، ومِنْهُ نَبْذُ النَّوَاة.

- ﴿... فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: فَتَفَكَّرْ أَيُّها الصَّالِحُ للنظر التَّفَكُّرِيّ أيّا كُنْتَ، في مَجَارِي قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، وجَزاءَاتِهِ الْعَادِلَاتِ، كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ فِرْعَوْن وجُنوده الظالِمين ظلْماً مِنْ دَرَكَة الكُفْر، عناداً ومُكابَرَةً وإصْرَاراً على الباطل، اغتراراً بزينَة الحياة الدُّنيا.

هذا في الدُّنيا، وأمَّا في الآخِرَة فَهُمْ خَالِدُون في عذاب النار.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

- ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾:

أئِمَّة: جَمْعُ «إمَام» وهُوَ مَنْ يُؤْتَمُّ به، وَمَا يُؤْتَمُّ بِهِ، أيْ: يُتَّبَعُ وَيُقْتَدَىٰ به.

أي: وَجَعَلْنَا ضِمْنَ نِظَام التكوين العامّ للمجتمع الْبَشَرِيّ الَّذِي لَا جَبْرَ فيه للأفراد، فِرْعَوْنَ ومَلَأَهُ وجُنُودَهُمْ، أئِمَّةً في الكُفْرِ، والشّرّ، والْفَسَادِ، والإفْسادِ في الأرض، فهم بمُقْتَضَىٰ هٰذِهِ الإمَامَةِ الَّتِي تَجْذِبُ مَنْ تَتوجَّهُ إراداتُهُم الحرَّةُ لِلْكُفْرِ بالحقّ، وفِعْلِ الشّرّ، والفَسَادِ والإفساد في الأرض، يَدْعُونَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إلى الكفريات وتوابِعها، المؤدّيَةِ إلى عذاب النار يوم الدّين، بِعَدْلِ اللهِ الرَّبّ، الذي وضَعَ النّاسَ في الحياة الدنيا مَوضع الامتحان.

فالمستجيبُونَ لِهٰؤُلاءِ الأئمَّةِ يُتَابِعُونَهُمْ في ضَلَالَاتهم أيْنَ سارُوا، وكيف اتَّجَهُوا، مختارِين بانقيادٍ طوعيّ، إذْ وَجَدُوا عِنْدَهُمْ ما يوافِقُ أهواءهم وشهواتهم وَرَغباتِهِمْ مِن الحياة الدُّنيا.

- ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: أي: إنَّ دَعْوَتَهُمْ إلىٰ مَفْهُومَاتِهم ومناهِجِهم وأعْمَالِهِمْ هي في الحقيقة دَعْوَةٌ إلَىٰ النار، إذْ مَصِيرَهُمْ باستجابَتِهِمْ لهٰذِهِ الدَّعْوَة الّذي سَوفَ يَصِيرُونَ إلَيْه، هُو الْخُلُودُ في عذاب النار يوم الدّين.

تَحْلِيلُ مَعْنَىٰ الْجَعْل الْقَدَرِيّ في النظام العامّ للمجتمع البشريّ:

أكَرِّرُ هُنَا أنّ الْجَعْلَ القدَرِيَّ في النِّظَام الْعَامّ للمجْتَمع الْبَشَرِيّ، لَا يُلْغِي حُرِّيَّةَ الإرادة الفرديَّة، الموضوعَة في الحياة الدُّنيا مَوْضع الابتلاء. بَلْ هُو مِنْ تَمام ظُرُوفِ الامتحان الأمثَلِ للإرَادَات ذواتِ الحرّيَّةِ الكامِلَةُ في تَوَجّهَاتها.

وأضْرِبُ مثلاً علىٰ هٰذا فيما يلي:

مَنْ أَرَادَ من الناس أنْ يَخْتَبرَ ما في نُفُوس جماعَةٍ مُخْتَلِطة، لكُلّ فَرْدٍ مِنْ أفرادها إرَادَتُهُ الحرَّة، ورَغباتُهُ الخاصَّةُ الخبيئَةُ داخِلَ نَفْسِه، ومُيُولَاتُهُ ومَطَالِبُهُ الّتِي يَسْعَىٰ لِتَحْقِيقها، ليَكْشِفَ اختياراتهم ومَسِيراتهم، فَمِنْ أحْسَن وسَائِل الاختبار أنْ يَضَعَ على مُفْتَرَقِ السُّبُلِ مَجْمُوعَاتٍ مختلفاتِ الاتجاهاتِ والأعمال، ولكُلّ مجموعةٍ مِنها من الصّفاتِ والسُّلُوكياتِ ما يَجْذِبُ فَرِيقاً من الجماعَةِ المختَلِطة.

ومن هٰذِهِ المجموعات مجموعةُ خَيْرٍ، ومَجْمُوعَةُ شرّ، وهُنَا نلاحظ:

(١) أنّ مجموعَةَ أهل الحقّ والْخَيْر والرُّشْدِ والفضيلَة، يَتْبَعُها مُنْجَذِباً إليها، مَنْ لَدَيْهِمْ حُبٌّ لِلْحَقّ، والْخَيرِ، والرُّشْدُ، والْفَضِيلَة، بإرَادَاتِهِمُ الْحُرَّة، رَاضِينَ بأنْ يَكُونوا أئِمَّةً لهم.

وفي فُرُوعِ صراط هؤلاء، يتْبَعُ طُلَّابُ عُلُومِ الدّين الْعُلَماء، وطُلَّابُ عبادة اللهِ بالصَّلَوات والصّيام والحجّ الْعُبَّاد، وطلاب الجهاد في سبيل الله المجاهِدِين.

(٢) وأنَّ مجموعَة أهْلِ الباطل، والشّرّ، والْغَيّ، والرّذِيلة، يتبَعُهَا مُنْجذِباً إليها، ومُقْتَدِياً بها، مَنْ لَدَيْهِم حبٌّ للباطل، والشّرِّ، والْغَيّ، والرَّذيلة، بإراداتِهِم الحرَّة، راضِينَ بأنْ يكُونوا أئِمَّةً لهم.

وفي فروع سُبُلِ هؤلاء الأئمة الضالّين، يَتْبَعُ طُلَّابُ الشَّهَوَاتِ واللَّذَّات أئِمَّةً لَهُمْ فيها، ويتْبَعُ طُلَّاب الْمَالِ أئمة لهم فيها، ويَتْبَعُ طُلَّابُ السُّلْطَانِ وَظُلْم الْعِبادِ أئِمَّةً لهم فيها، ويَتْبَعُ طُلَّابُ الْبَغْي والْفَسَادِ والإفْسَادِ في الأَرْضِ أئِمَّةً لهم فيها.

وهكذا يَتْبَعُ كُلُّ فِريقٍ من النَّاسِ باختياراتهم الحرَّة، أئِمَّةً يُلائمُونَ مَا في نُفُوسِهم، رَغْبَةً في اجْتماع الأشباه والنظراء بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ في زُمَرٍ يُلائِمُ فيها بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وهٰذا من سُنَنِ الاجْتِماعِ الْبَشَرِيّ الَّتي فَطَرَ اللهُ عزّ وجلّ النُّفُوسَ علَيْها.

• ﴿...وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: وَيَوْم الْقِيامَةِ لا يَجِدُ الْأَئِمَّةُ الكَفَرَةُ الْفَجرَةُ وَلَا مِنَ أُتَمَّ بِهِم مَنْ يَنْصُرُهُمْ، فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ، أَوْ يَرْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئاً منه.

النَّصر: التَّأْييدُ، والْإِعَانَةُ، والْمُساعَدَةُ بالْقُوَّةِ، الَّتي تَدْفَعُ أوْ تَرْفَعُ مَكْرُوهاً عن المنصور.

• ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً...﴿٤٢﴾﴾: أي: وأتْبَعْنَا فِرْعَوْنَ وجُنُودَهُ بَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ بِالْإِغْرَاقِ في هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً شَدِيدَة.

اللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإبْعَادُ مِنْ كُلّ خَيْر.

ويَتَحَقَّقُ هـٰذا اللَّعْنُ بِمَا هُمْ فِيه مِنْ عَذَابٍ نَفْسِيّ وَرُوحِيٍّ بَعْدَ الموت، حتَّىٰ الْبَعْث. وبتَرْغِيب المؤمنين أنْ يَدْعُوا عليهم باللَّعْنِ كُلَّما جاء ذِكْرُهُمْ وقُصَّتْ قِصَّة كُفْرِهِمْ وطُغْيَانِهم ومُعَانَدَتِهِمْ لآياتِ رَبّهم.

﴿...وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: ويَوْم القيامَةِ هُمْ أيْضاً مِنَ الْمَطْرُودين المبْعَدِينَ مِنْ كُلِّ خَيْر.

المقْبُوح: المبْعَدُ مِنْ كُلّ خير، يقال لغة: «قَبَحَ اللهُ فُلاناً يَقْبَحُهُ، قَبْحاً، وقُبُوحاً» أي: أبْعَدَهُ من كُلِّ خيرٍ، فَهُو مَقْبُوح.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾: «قَدْ» حَرْفٌ يَدْخُلُ على الفِعْلِ الماضِي، فَيُفِيدُه التوكيد، واللّام واقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ كما يرى كثير من النحاة.

وجاء هـٰذا التوكيد مُرَاعَاة لِحَالِ المقْصُودِين بالْخِطَابِ وهُمُ الكُفَّارُ برسالَةِ مُحمّدٍ ﷺ، وَبالْقُرْآنِ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إياهُ عَنْ رَبّهم، باعْتِبَارِهِمْ قَدْ كَفَرُوا أيضاً بكتَاب التوراة الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ على مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

أي: ولَقَدْ آتَيْنا مُوسَىٰ الكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاه عَلَيْه وهو التوراة، مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولى، قَوْمَ نُوحٍ، وقَوْمَ هُودٍ، وقَوْمَ صَالِحٍ، وقَوْمَ لُوطٍ، وقَوْمَ شُعَيْب، عَلَيْهُمْ السَّلام، وَفِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ أيْضاً عَلَيْهِم لَعْنَةُ الله، حَالَة كَوْنِ هذا الكتابِ يتَّصِفُ بصفاتٍ ثلاث:

الصّفة الأولَى: كَوْنُهُ بَصَائِرَ للنَّاس، أي: يشتمل على عِلْم، وحُجَجٍ وبراهِينَ، وعِبَرٍ للناس، ممَّا يَنْفَعُهُمْ لِدُنياهم وآخِرَتهم.

بَصَائِر: جمع «بَصِيرَة» وهي تُطْلَقُ علَىٰ الْعِلْم، والْخِبْرَة، والحجَّة، والعِبْرَةِ، من ضِمْن مَا تُطْلَقُ عَلَيْه.

الصِّفَةُ الثَّانية: كَوْنُهُ هُدَى، أي: يَشْتَمِلُ على ما فيه هِدَايَة للناس، إلى ما فيه سعادتُهُمْ في دُنْيَاهُمْ وآخِرَتهم.

الْهُدَىٰ: الدَّلَالَةُ عَلَىٰ ما فيه حقٌّ وخَيْرٌ وَصَلاحٌ وَرَشادٌ.

الصِّفَةُ الثالِثَةُ: كوْنُهُ رَحْمَةً، أي: يَشْتَمِلُ على ما فِيهِ رَحْمَةٌ للناس في عاجل أَمْرِهِمْ وآجِلِهِ، بما فيه من دلالَة على الحقّ والخير والصراط المستقيم، وتَحْذِير من الباطل والشّرّ، وسُبُلِ الضلال. وهٰذِهِ الدَّلالَة أثَرٌ من آثار رَحْمَةِ الله بعباده.

الرَّحْمَة: صفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ آثارها العطاء، والمعونَة، والتوفيق. والدَّلَالَةُ عَلَىٰ الحقّ والخير والصراط السّويّ، وإزالَةُ البؤس، والإمدادُ بما يُسْعِدُ، ويُسَكِّنُ النَّفس، ويُطَمْئِنُ الْقَلْبَ، ويُمْتِعُ ذَا الحياة بما يَطِيبُ لَدَيه، إلى غير ذَلِكَ مِنْ عطايا وهِبَاتٍ وهدايَةٍ، وتحذيرٍ من الشُّرُور.

﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ يَضَعَ النَّاس الَّذِينَ أُنْزِلَتِ التوراةُ لِهِدَايَتِهِمْ مَا اشتَمَلَتْ علَيْهِ في ذَاكرَاتِهِمْ، فَيَتَذَكّرُوا مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ حَدَثٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ مُنَاسَبَةٍ مَا يَهْدِيهم إلىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِم وآجله، فيَكُونَ ذَلِكَ دَافِعاً إِلَىٰ الْعَمَلِ بما جاء فيها من أوامر، أَوْ نَوَاهِيَ، أَوْ وَصَايا، أو نَصَائِحَ وإرْشَادَات.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثَّانِي من دُرُوس سورة (القصص) والحمدُ لله على إمْدَادِه، وتوفيقه، وفَتْحِهِ، ومَعُونَتِهِ.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (القصص) الآيات من (٤٤ ـ ٧٠)

وهو درسٌ يَشْتَمل على مُتابَعَةٍ عِلاجيَّةٍ دَعوِيَّةٍ لكُبَرَاء مُشْرِكي مكة وما حولها بأساليب مختلفات، وفيه علاجاتٌ مضافَاتٌ إلى ما سبَقَ أنْ عُولجوا به في نجوم التنزيل الّتي نزلت قبل سورة (القصص). ونظراً إلى طول هذا الدّرس فَمِن المسْتَحْسَن أَنْ أُقَسِّمَهُ إلى أجْزاءٍ يُعْتَبَرُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا بمثَابَة وحْدَةٍ مُترابِطَةِ الدَّلالات.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾.

تمهيد:

في هٰذه الآيات تَنْبِيهٌ لِلمُعالِجِينَ على دَلِيلٍ من أدِلَّة كَوْن القرآن مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ الله، إذْ جاءَ فِيه بَيَانُ أَحْدَاثٍ جَرَتْ لموسَىٰ وهو في الوادي المقَدَّسِ «طُوى» الواقع إلى جانب «الطور» وهذا الجانب يَقَعُ إلى الجهة الغربية من الوادي لا إلى الجهة الشرقيّة منه، وهذهِ الأحداث ما كان لمحمّد أن يَعْلَمَها بحَسَب واقع حاله في قومه لولا أن أنزلها اللّهُ علَيْه وأَعْلَمَهُ بها، إذْ لم يَكُنْ حاضراً هٰذِهِ الأَحداث بداهَةً، وهُوَ أمِّيٌّ لَا يَقْرأ ولَا يَكْتُبُ فَهُو لم يَقْرأْهَا في كتابٍ من كُتُبِ أَهْلِ الكتاب، وهذا يَكْفِي

دَليلاً عنْدَ أهْلِ العقل والرُّشْد أنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ من رَبّ العالمين.

وقد جاء بيان هٰذا الدَّليل بَعْدَ ذِكْرِ أحْداثِ مُوسَىٰ عليه السلام في الدرس الثاني من دُرُوس السورة.

ولم يُوَاجِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بهذا الخطَابِ المقصُودِينَ بالمعالَجَة إعراضاً عنهم، في مقابل إدْبارهم وتَوَلّيهم، بَلْ خاطَبَ الرَّسُولَ مُحمَّداً ﷺ به، والْغَرَضُ إسْمَاعُهُمْ بأُسلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشر.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾: أي: وما كنْتَ مَوْجُوداً بجانِبِ المكانِ الْغَرْبِيّ الَّذِي نَاجَىٰ اللَّهُ بهِ مُوسَىٰ في الوادي المقَدَّسِ «طُوى» بعد أن ناداه مِنْ شَاطِئ الوادي الأيمَنِ في البقعة المباركة، حتَّىٰ تَسمَعَ دُون مُشَاهَدةٍ، مَا جَرىٰ من مُنَاجَاةٍ بَيْن مُوسَىٰ وربّه، فتَتَحدَّثَ به لِقَوْمِكَ، وهُو أمْرٌ حقٌّ يَشْهَدُ بِصْحَّتِهِ مُؤْمِنُو أهْلِ الكتابِ، لمطابَقَتِه لِمَا عَنْدَهُمْ من حقٍّ.

- ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾: أي: وَقْتَ إنْهَائِنَا إلى مُوسَىٰ أمْرَ مُكالَمَتِهِ، وجَعْلِه نبيّاً ورَسُولاً، وإيتائه آيَتَي الْعَصَا والْيَد، وتكليفِه أنْ يَذْهَبَ حاملاً رِسَالَةَ رَبِّهِ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فسائِرِ شَعْبِ مِصْر يوْمَئذ.

جاء التّعبير بضمير المتكلّم العظيم إشارة إلى ما جرىٰ في هذه الأحداث من أمُور جليلة عظيمة لا تَصْدُرُ إلّا عن اللَّهِ رَبّ العالمين.

- ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: أي: وما كنْتُ من الحاضِرين في هٰذهِ الْأحْدَاثِ الشَّاهِدِينَ لَهَا.

الشّاهد: الحاضِرُ في الحدَث، أو المعاينُ لَهُ رُؤيا عَيْن، يقالُ لُغَةً: «شَهِدَ فُلانٌ الشَّيْءَ» أي: عايَنَهُ بمعْنَى رآه رُؤْيا العين.

فجاءت الجملَةُ الْأُولَىٰ من الآيَةِ لِنَفْيِ وُجُودِهِ بجانب المكان يَسْتَمِعُ ما يَجْرِي فِيه من كلام.

وجاءت الجملَةُ الأخيرة من الآيَة لنفي حضورِه في وَسَطِ الْحَدَثِ يَرَىٰ بَعيْنَيْهِ مَا يَجْرِي، ويَسْمَعُ مَا يُقَالُ فيه من كلام.

وهٰذا من اسْتقصاء نَفْي الاحْتمالَات الَّتِي يُرادُ بِها الاسْتِهَانَةُ بمدَارِكِ المعالَجِينَ الذّهْنِيَّة، مع أنَّ إحْدىٰ الجملَتَيْن تُغْنِي عن الْأُخرىٰ عن طَرِيق اللُّزُوم الذِّهْنِّي.

قولُ اللّهِ عزّ وجلّ:

- ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

- ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾: أي: والسَّبَبُ فِي إعادَةِ إرْسَالِ الرُّسُلِ برِسَالَاتٍ مِنْ لَدُنَّا، أَنَّنَا أنْشَأْنَا قُرُوناً عَدِيدَة بَعْدَ مُوسَىٰ والتوراة، فَتَطَاوَلَ عَلَيهمُ الزَّمَنُ، فَنَسُوا وأهْمَلُوا وَضَيَّعُوا مَا كَانَ قَدْ أَنْزَلَ رَبُّهُمْ من الدّين الذي اصطَفَاهُ للموضوعين مَوْضِعَ الامتحان من عباده.

فاقتضىٰ هذا الواقِعُ إرْسَالَ رُسُلٍ لَاحقين لِرُسُلٍ سابقين، وَكنْتَ أنْتَ يَا مُحَمَّدُ آخِرَهُمْ وَخاتمهم.

تَطاوَلَ عَلَيهِمُ الْعُمُرُ: أي: طال عليهم الزَّمَنُ الذي كان بمثابة وِعاءٍ لأعْمَار أفراد هٰذِهِ القرون.

القرن: هو من الناس أهل زمان واحد، وسُمُّوا قَرْناً لأنَّهم اقترنُوا معاً في ذلِكَ الزمان.

العُمُر: مُدَّة حياةِ الكائنِ الحيّ.

• ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾:

﴿ثَاوِيًا﴾: أي: مقيماً ومُسْتَقِرّاً، يقال لغة: «ثَوىٰ بالمكان، وثَوَىٰ فِي المكان، يَثْوِي، ثَواءً، وَثُوِيًّا» أي: أقام واسْتَقرَّ فيه.

أي: ومَا كنْتَ يَا مُحمَّد مقيماً في أهْلِ مَدْيَنَ أيَّامَ وُجود مُوسَىٰ فيها، حتَّىٰ تَعْلَمَ أخبارَهُ وتَنْقُلَها.

وجَاءَتْ عبارة: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ دَالَّةً عَلَىٰ أنَّه صلوات اللَّهِ عليه لَو كَانَ حيًّا في ذَلِكَ الزَّمَانِ في مَدْيَنِ، لَكَانَ رَسُولاً يَتْلُو عَلَى أهْل مَدْيَنَ آيات رَبِّهِ، بمقْتَضَىٰ الفِطْرَةِ الَّتي فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْها كاملاً، مؤهَّلاً لأنْ يكون نبيّاً وَرَسُولاً.

• ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: أي: فلَمْ نَتْرُك الْقُرُونَ الَّتي نَسِيَتْ أوْ أهْمَلَتْ أوْ أَضَاعَتِ الدِّينَ الَّذِي أنْزَلْنَاه على مُوسَىٰ، ولَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رُسُلاً، أبْلَغُوهُمْ مِنْ جَدِيدِ الدّينَ الَّذي اصْطَفَيْنَاهُ لَهُمْ، وكنْتَ يَا مُحَمَّدُ آخِرَهُمْ وَخَاتِمَتَهُمْ، لأَنَّنَا تَكَفَّلْنَا بِحفْظِ الكتاب الّذي نُنْزِلُهُ عَلَيْكَ وَهُو القرآنِ، وحِفْظِ هٰذا الدِّين حَتىٰ تَقُومَ السَّاعَة، نظراً إلى ما تطَوَّرَ إِلَيْهِ المجتَمعُ البشري من إمْكَانِ جَمْعِهِمْ على دِينٍ واحِدٍ، وتكليفِهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ جميعاً، حتَّىٰ آخرِ مُمْتَحَنٍ سَيُوجَدُ في الناس، موضوع في الحياة موضع الاختبار، والمسؤوليَّة، والجزاء.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

• ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾: أي: ومَا كُنْتَ بجانِبِ جَبَلِ الطُّورِ حِينَ نَادَيْنَا مُوسَىٰ نداءاتٍ سبَقَ بيانُها في (الشعراء/ ٤٧ نزول) وفي (مَرْيم/ ٤٤ نزول) قَبْلَ أَنْ نُقَرِّبَهُ نَجِيًّا وَنُنَاجِيَه سِرّاً.

فما جاء في الآية (٤٤) تَدُلُّ القرائِنُ على حالة المناجاة، وما جاء في هذه الآيَةِ (٤٦) تَدُلُّ عبارَةُ: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ علىٰ ما كان قبل أَنْ يُقَرِّبَهُ اللَّهُ نَجِيًّا، واللَّهُ أعْلَم.

• ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: فَمَا تَرَكْنَا النَّاسَ يتخبَّطُونَ في الظُّلُمَاتِ والضَّلاَلاَتِ بَعْدَ أَنْ ضَاعَتْ وحُرِّفَتْ ونُسِيَتْ بياناتُنا الَّتِي سبَقَ أَنْ أَنْزَلْنَاها، ولٰكِنْ جعَلْنَاكَ نَبِيًّا ورَسُولاً ونُنَزِّلُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتُبَلّغَهُ للنَّاس رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ بِهِمْ.

وُضِعَ الاسم الظاهر في عبارة: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مَوْضِعَ الضَّمِير: «مِنَّا» للدَّلاَلَة على صِفَاتِ رُبُوبيَّةِ الرَّبّ لِعبادِه، الَّتي قضَتْ أن يضَعَهُمْ مَوضع الابْتِلاء، في ظروف الحياة الدُّنيا، ليحاسبهم، ويفصل القضاء بشَأْنهم، ثُمَّ لِيُجَازِيَهُمْ على اختياراتهم وأعْمالهم يوم الدّين.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾:

نَذِير: يأتي اسمْاً للإنذار الّذي هو مَصْدَرُ فِعْل «أَنْذَر». ويأتي أيضاً بمعنى: «مُنْذِر».

والمعنى: لِتُنْذِرَ قَوْماً الْإِنْذَارَ الّذي سَبَقَ أَنْ أَتاهُمْ مِنْ قَبْلِكَ، وبَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ.

هٰذا ما رأَيْتُهُ هو الحقّ في هٰذهِ المسألَة، وأَنَّ كلمة «مَا» في عبارة ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ لَيْسَتْ نَافِية، بَلْ هي اسْمُ مَوْصُول.

وقد سبَقَ بَسْطُ ما يتعلَّقُ بهٰذِه القضيَّة لدَىٰ تَدبّر الآية (٦) من سورة

(يس/ ٤١ نزول)(١).

و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: رَغبةً في أَنْ يَضَعُوا مَا نُنْزِلُ علَيْكَ مِنْ قُرْآن في ذِاكراتهم، بَعْدَ أَنْ يَتَبَلَّغُوهُ ويتَفَهَّمُوا معانيه، ورَغبَةً في أن يَتذَكَّرُوا مِنْهُ عنْدَ كلِّ مناسَبَةٍ وكلِّ حَدَثٍ وكُلّ عَمَلٍ ما يُلائم ذلِكَ ليَعْمَلُوا به.

لعَلْ: للتَّرَجّي، ومِنْ لوازم المرجُوّ المترقَب الرَّغْبَةُ في تَحقُّقِه، وإذْ لا يليق الترجِّي باللَّهِ عزَّ وجَلَّ، لأنَّهُ الْعَلِيم بما كان وبما هو كائِنُ وبما سيكون، فينْبَغِي حَمْلُ اللّفظ على لازمِ معناه، وهو الرغبة، وهذا يَليقُ بالله جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه.

قول الله عزّ وجلّ بشأن عُتَاة كفّار مَكَّة وأشباههم:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: إنَّ مَا هُمْ فِيه من كُفرِيَّاتٍ وأعْمَالِ بَغْي وظُلْمٍ وعُدْوانٍ وفُجُورٍ، وهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ والباطِلَ، والخيْرَ والشّر، والظُّلْمَ والْعَدْل، ويعْلَمُونَ أنَّ اللَّهَ قَدْ أرْسَلَ رُسُلاً بَلَّغُوا وَبَشَّرُوا وَحذَّرُوا وأنْذَرُوا، كافٍ بمُقْتَضَىٰ الحقّ والْعَدْلِ لِأَنْ نُعاقِبَهُمْ علَىٰ ذُنُوبهم، فَنُنْزِلَ بِهِمْ مُصِيبَةً بَسبَبِ مَا قَدَّمَتْ أيْدِيهم من آثام.

لكِنَّ مُعَاقَبَتَهُمْ في هٰذِهِ الحالَةِ تَجْعَلُهُمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا هَلَّا أرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِكَ، وَيُبلِّغُنَا مَطْلُوبَكَ مِنَّا في رَحلَةِ امْتِحانِنَا، فنَتَّبعَ آيَاتِكَ ونَفْعَلَ مَا تَأْمُرُنَا به، ونَتْرُكَ مَا تَنْهَانَا عَنْه.

وبما أنّ هٰذا الْقَوْلَ قَدْ يَحْمِلُ عُذْراً ظَاهِرِيًّا، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ لِقَطْعِ كلِّ أعْذَارِهِمْ، أَنْ نُمْهِلَهُمْ، ونُمِدَّ لَهُمْ، ونُرْسِلَ لَهُمْ رَسُولاً مبلّغاً ومَبيّناً

---

(١) انظر المجلد السادس، الصفحات من (٣٤ ـ ٤٢).

وَبَشيراً ونَذِيراً، ونُؤَخِّرَ عِقَابَهُمْ إِلَى مَا بَعْدَ اسْتِيفاء شُرُوط البيان الكافي، والتَّحْذِيرِ والإِنْذار.

﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾: أي: هَلَّا أرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُولاً، فكلمةُ ﴿لَوۡلَآ﴾ هُنَا هي بمَعْنَىٰ «هَلَّا» أداةُ تحْضِيض.

وجواب: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ محذوف تقْديرُهُ لَعاقَبْنَاهُمْ بإنْزَالِ المصائب العِقَابِيَّةِ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولنَا محمَّداً وقَبْلَ أنْ نُنْزِلَ علَيْهِ القرآن. و«لَوْلَا» هٰذِهِ حرْفٌ يَدُلُّ على امتناع شيءٍ لوجود غيره. ولا بُدَّ لَهُ من جوابٍ مَذْكورٍ أو مُقَدَّر، وتكْثُرُ اللَّام في جوابها.

* * *

قال اللَّهُ عزّ وجلّ بشأن عُتَاة كفار مكَّة وأشباههم إبَّان التَّنزيل إيضاً:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

القراءات:

- قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿سِحۡرَانِ﴾.

وقرأها بَاقي القرّاء العشَرَة: [سَاحِرَان].

قراءة «سِحْرَانِ» دَلَّت على مَا جاء بِهِ مُوسَىٰ ومُحَمَّدٌ عليهما الصلاة والسّلام.

وقراءَةُ «سَاحِرانِ» دَلَّت على وصْفِهِما فيما جاءا به. فالقراءتان

متكامِلَتان في الأداء البياني، إذ يَلْزَمُ من كون مَا جاءا بهِ سِحْرَيْن أَنْ يكونا ساحِرَيْن، ويلزَمُ من كونِهِمَا سَاحِرَيْنِ أَنْ يكُونَ ما جاءا به سِحْرَيْن، فجاءَ التعبيران بلازِم كلٍّ منهما.

تمهيد:

في هَذِهِ الآيات بَيَانُ حَالِ المقصودين بالمعالَجَةِ بَعْدَ بِعْثَةِ الرّسول محمّدٍ ﷺ إلَيْهم، وبيانُ بعْضِ جَدَليَّاتهم بشأن ما آتىٰ اللَّهُ رسُولَهُ من آيات، وأنَّها لَيْسَتْ مُشَابِهَةً لِمَا أُوتَىٰ مُوسَىٰ، والرَّدّ عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ كَفَرُوا بما أُوتي مُوسَىٰ من قَبْلُ، ثُمَّ كَفَرُوا بِما أُوتِي مُحمد، وزَعَمُوا كما زَعَمَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُه أنَّ مَا جاءَ به مُوسَىٰ قَدْ كانَ مِنْ قَبِيلِ السِّحْر، وأنَّ مَا جاء بِهِ محمَّدٌ مِنْ قُرْآنٍ مَعْجِزٍ هُوَ سِحْرٌ أَيْضاً، وأنَّ مُوسىٰ ومُحمّداً تَظَاهَرا على افتراء الدّينِ عن اللَّهِ مسْتَخْدِمَيْنِ السِّحْرَ وَسِيلَةً لإقْنَاعِ النَّاسِ بفِرْيَتَيْهِما الدّينيَّة.

وجاء فيها تعليمُ الرَّسُول أن يتحدّاهم بأنْ يأتُوا بكتابٍ هو أَهْدَىٰ من التوارة والقرآن حتَّىٰ يَتّبِعَهُ إنْ كانوا صَادِقِين بأن التوراة والقرآن وضْعٌ بشَرِيٌّ، وليْسَ تَنْزِيلاً من لَدُنْ رَبّ العالمين.

وجاء فيها بيانُ حَالِهِم الضَّالّ عن الحقّ وصراط الْهُدَىٰ اتّباعاً لأهوائهم، وأنّ الله لَا يحكُم لَهُمْ بالْهِدَايَة وهُمْ ظالِمُونَ، وبَيَانُ أنَّ اللَّهَ وصَّلَ لَهُمُ الْقَوْلَ الهادي إلى الحقّ والخيرِ وصراطه المستقيم، رغْبَةً في أن يَتذَكَّرُوا، فَمَسْؤُلِيَّتُهُمْ مَسْؤُولِيَّةٌ تَامَّة، ولا عُذْرَ لَهُمْ في عَدَم اسْتِجَابَتِهم ولا شُبْهَةُ عُذْرٍ، فَلْيلَاقُوا مَصِيرَهُمُ الَّذِي أنْذَرَهُمْ بهِ كِتَابُ رَبِّهِمْ وَرَسُولُه.

التدبّر التحليلي:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ. . . ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وقَطْعاً لِأعْذَارِهِم، وَكُلِّ تَعِلَّاتِهِمْ، لم نُعَاقِبْهُمْ علَىٰ كُفْرِهم وطغيانهم وظُلْمِهِمْ وعُدْوانِهِمْ، وفُجورِهم، قَبْلَ إرْسَال رَسُولٍ لهم، يتْلُو عليهم آيَاتِنَا ويبلّغُهم أوامِرَنَا ونَوَاهِينا، ويوضِّحُ لَهُمْ صِرَاطنَا المستقيم، فلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا الَّذِي أبْلَغَهُمْ إيَّاهُ رسولُنا مُحَمَّد، وتَلَا عَلَيْهِم ما أنْزَلْنا عليْهِ مِنْ كِتَابِنَا الْقُرْآن وَوَعَوْا بيانَاتِنَا، لم يَسْتَجِيبوا لِمَا دَعَوْنَاهُمْ إلَيْه، بَلْ افْتَعلُوا تَعِلَّةً جَدِيدَةً قَالُوا فيها: هَلَّا أُوتِي مُحَمَّدٌ مِنَ الآيات الخوارِقِ المعجزات مِثْلَ مَا أُوتيَ مُوسَىٰ كآيَةِ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ حَيَّةً تَسْعَىٰ، وكآيَةِ الْيَدِ الّتي تنقَلِبُ بيضاءَ مضيئةً متلألئةً من غَيْر سُوء.

﴿لَوْلَآ﴾ هنا بمعنَىٰ «هَلَّا» أداةُ تَحْضِيضٍ.

قول الله عزّ وجل:

﴿... أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: كيْفَ يُطالِبُونَ بأنْ يُؤْتَىٰ مُحَمَّدٌ لِتَصْدِيق بلاغاتِه عن رَبِّه، ولا سيما الكتابُ الّذي يَتْلُو عليْهم آياته، مِثْلَ مَا أُوتِي مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ من آيات باهِرَات، وهُمْ يَكْفُرُونَ بِما أُوتي مُوسَىٰ من التوراة، ويَكْفُرُونَ بالآيَاتِ الّتِي آتاه اللَّهُ إيَّاها مُصَدِّقَةً أنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِين، وَمُصَدِّقَةً بلاغَاتِه عَنْه، وقَالَ قَائِلُونَ مِنْهُمْ وسَكَتَ الآخَرُون: إنَّ مَا جاء بِه مَوسَىٰ سِحْر، فهو ساحر، وإنَّ مَا جاء به مُحَمَّدٌ من قُرْآن عجيب معجز هو أيضاً سِحْرٌ، فمحمَّد ساحِرٌ مِثْلُ مُوسَىٰ، وقَدْ اجْتَمعَا كالمتعاونَيْنِ على إثباتِ قضيَّةٍ واحِدَةٍ، هي توحيدُ الله في رُبُوبيّته وإلَهِيَّته، ونَفْيُ الشُّرَكاء، ومُحَارَبَةُ الأَوْثان، وإثباتُ يَوْم الدّين.

﴿تَظَٰهَرَا﴾: أي: تَعَاوَنَا، وينبغي حَمْلُ التعاون علَىٰ مَعْنَىٰ التَّلاقِي على إثباتِ قضيَّةٍ واحدة.

ولم يَرِدْ عيسَىٰ عليه السَّلَامُ في هذا المجال لأنَّ المشهور بَيْنَ الْعَرب

من دِيَانَتِه التثليث، وهو من الشِّرْكِ الذي يلْتَقِي المشركون معَهُ التقاءً ما، وهذا ما جعلهم يقولون كما جاء في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن محمد ﷺ:

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾.

﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي: في الدِّيَانَةِ النَّصْرَانِيَّة.

دلّ هذا البيان الرّبّاني في هذه الآية (٤٨) من السورة علَىٰ أَنَّ مشركي الْعَرب كانوا مطالَبين بالإيمان بما جاء به مُوسَىٰ عليه السَّلام من كتابٍ وآياتٍ، ومطالَبين بالْعَمَلِ بما جاء في التوراة من توحيدٍ ونَبْذٍ للشّرْك، فهم مُحَاسَبُونَ عَلَىٰ كُفرِهِمْ بِالْحَقِّ مِنْ قَبْلِ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وهم بَعْد بِعْثَةِ محمّد ﷺ أعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بَما جَاءَ به كُلٌّ من الرّسُولَيْن عليهما الصَّلاة والسّلام، دلَّ علَىٰ هٰذا قَوْل اللَّهِ عزّ وجلّ في آخِرِ الآية:

﴿.. وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨﴾: أي: وقالُوا مُعْلِنين كُفْرَهُمْ ومؤَكِّدين قَوْلَهُمْ: إِنَّا بكُلٍّ مِمَّا جاء به مُوسَىٰ، ومِمَّا جاء به مُحَمَّدٌ كَافِرُونَ، وبكلٍّ من نُبُوَّتِهما ورِسَالَتِهما كافِرُون، لا نُؤْمِنُ بأنَّهما نَبِيَّان ورسولان لِلَّهِ رَبِّ العالمين.

قول الله عزَّ وجل:

- ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٩﴾:

إنّ إعلان عُتَاةَ مُشْرِكي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَها إِبَّانَ التنزيل كُفْرَهُمْ بالتوراةِ وكُفْرَهُمْ بالْقُرآن، يقْتَضِي عن طَرِيقِ اللُّزُوم الذِّهْنِي أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ مُوسَىٰ

افْتَرَىٰ التوراة مِنْ عِنْدِهِ على رَبّه، وأنَّ محمَّداً يَفْتَرِي الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِه عَلَىٰ رَبِّه.

والمحاجَّةُ الْجَدَلِيَّةُ في مُقَابِلِ هٰذا الزَّعْمِ الواضِحِ الْبُطلانِ، تَقْتَضِي أنْ يُقَالَ لَهُمْ: أعْطُونَا كِتَاباً تعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، هُوَ أَكْثَرُ هِدَايَةً إلَىٰ الحقّ والخير والفَضِيلَةِ وَمِنْهَاجِ السُّلُوكِ الْأَقْوَم، من التَّوْرَاةِ والْقُرْآن، فإنْ جِئْتُمْ بِهِ فإنَّنَا نَتبِعُهُ لأَنَّنَا طُلَّابُ حَقٍّ وهِدَايَةٍ إلى الَّتِي هِيَ أقْوَم، هٰذا إنْ كنْتُمْ صَادِقِينَ مَعَ أَنْفُسِكُمْ في أَنَّكُمْ تَعْتَقِدُون أنَّ التوراةَ والْقُرْآنَ مُفْتَرَيَانِ عَلَىٰ الله.

هٰذِهِ المحاجَّةِ الْجَدَلِيَّة هي الَّتي عَلَّمَها اللّٰهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، فَكُلَّ دَاعٍ إلَىٰ اللَّهِ مِنْ أمَّتِه، بِهٰذِهِ الآية.

- ﴿قُلْ﴾: أي: يَا أَيَّها الرَّسُول ويا أيُّها المجادِلُ لَهُمْ مِنْ أُمَّتِه.

- ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ يَا أيُّها الكَفَرَةُ المشرِكُون صَادِقِين مع أنْفُسِكُمْ في اعْتِقَادِ أَنَّ التَّوْراةَ والقرآنَ مُفْتَرَيَانِ عَلَىٰ اللَّهِ، فأنْتُمْ لهذا تكْفُرُونَ بهما، فاعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكَ عِبادَهُ مِنْ دُونِ كِتَابٍ يُنْزِلُه لهم، لِيُبَيِّنَ مَطْلُوبَهُ مِنْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدّنيا، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مشْتَمِلاً على الحقّ والخيرِ والفضيلةِ والْهِدايَةِ إلى الصِّراط المستقيم.

فابحَثُوا عَنْ كتابٍ رَبَّانيٍّ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ هذا عِنْدَ الناس أجْمَعِين، فإنْ جئْتُمْ بِه، وَوَجَدْنَاهُ أكْثَرَ هِدَايَةً مِنَ التوراةِ والْقُرْآن، فإنَّنا نَتَّبِعُه، ولا نَجِدُ أيَّة غَضَاضَةٍ في اتّباعِهِ، لِأَنَّنَا طُلَّابُ حَقٍّ وَخَيْرٍ وَفضِيلَةٍ وَهِدَايَةٍ إلَىٰ الصِّراط المستقيم.

- ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾: أي: هو أكثر هِدَايَةً من التوراة والقرآن. «أَهْدَىٰ» أفعل تفضيل من فعل «هداه لَهُ وَهَداهُ إلَيْهِ يَهْدِيه» أي: بيَّنه له، وأوْضَحَهُ لَهُ وأرْشَدَهُ إلَيْه وَدَلَّهُ علَيْهِ وعرَّفَهُ به.

• ﴿.. إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين في زعْمِكُمْ أنَّ التوراة والْقُرْآنَ مُفْتَرَيَانِ على الله، علَىٰ الرُّغم من أنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بأنَّ الله جلّ جلالُهُ بحكْمَتِهِ السَّنِيَّة لَا يَتْرُكُ عباده الذين وَضَعَهُمْ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، دُون أَنْ يُنْزِلَ إِلَيْهِمْ كتَاباً يُبَيِّنُ لَهُمْ فِيه مَطْلُوبَهُ مِنْهُمْ في رحْلَةِ امْتِحَانهم، ولِيُجْرِي حِسَابَهُمْ، وفَصْل القضاءِ بينهم، ومُجَازَاتَهُمْ يَوْمَ الدّين، عَلَىٰ وفْق مَا جاءَ فِيهِ مِنْ بيانَاتٍ وَتكاليف. وجاء استعمال «إنْ» للإشعار بأنّهم كاذبون غير صادِقين.

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ خطاباً للرَّسُول محمد ﷺ بشأن المعالجين أنفسهم:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

جاءت هٰذِهِ الآية خطاباً للرَّسُولِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، والْغَرَضُ إسْمَاعُ المعالَجِين في السُّورَةِ، وهم عُتَاةُ كُفَّارِ مكَّةَ إبَّانَ التنزيل، بأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، وبأَنَّهُمْ بلَغُوا في الضَّلَالَةِ أحطَّ دَرَكَةٍ وأخسَّهَا، فَلا تُوجَدُ دَرَكَةٌ أحَطُّ وأخَسُّ منها، وبأَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِ المطموع فيه أنَّ يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُمْ بالْهِدَاية، لِأَنَّ اللَّهَ بعَدْلِهِ وحِكْمَتِه لَا يَحْكُمُ بالْهِدَايَةِ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِين.

• ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾: أي: فإنْ لَمْ يُطِيعُوك، ولَمْ يُحَقِّقُوا مَا طَلَبْتَهُ مِنْهُمْ في دَعْوَتِك ومُنَاظراتِكَ وَجدَلِيَّاتِكَ لَهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَن.

يقال لغَةً: «استجابَ فُلَانٌ للدَّاعي» أي: قَبِلَ دَعْوَتَه، وأطاعَه، وَحقَّقَ مَا طَلَبَ مِنه، ومن هذه الاستجابة الاتيانُ بكتابٍ هُوَ أهدى من التوراة والقرآن.

جاء في هذه العبارة استعمالُ «إنْ» الشرطيّة الدَّاخِلَة على عَدَمِ استجابتِهم، لإشعارِهِمْ بأَنَّهُمْ لم يَبْلُغُوا بَعْدُ مَبْلَغَ الميؤُوس من إيمانهم

وإسْلَامِهِم، وقَدْ يُلاحَظُ في هذا أتباعُ الأئِمَةِ الْعُتَاةِ، لَا الْعُتَاةُ الطُّغَاةُ أنفسهم.

• ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾: أي: فاْعلَمْ أنَّهُمْ مَا يَتَّبِعُونَ إلَّا أَهْوَاءَهُمْ، والمعْنَى أَنَّ اتباعَهُمْ في عَدَمِ اسْتِجابَتِهِمْ لِدَعْوَتِكَ مَقْصُورُ علَىٰ أَهْوَائهم، فَهُمْ لَا يَتبِعُونَ حَقًّا ولا خيراً وَلَا هُدىٰ.

«أَنَّمَا» مِنْ أدواةِ الْقَصْر، والْقَصْرُ هُنَا إضافي، وهو من قَصْرِ الموصوفِ الّذي هو «الاتّباع» على الصفة وهي الْأَهْوَاء».

الْهَوَىٰ: مَيْلُ النَّفْسِ إلى مَا تَحِبُّ ولَوْ كانَ فِيهِ ضُرٌّ وَشَرّ وإثْمٌ وعِصْيانٌ وكُفْرٌ وفُجور، وفي الْهَوَىٰ معَنىٰ السُّقُوط والْهُبُوطِ مِنْ عُلُوٍ إلى سُفُولٍ.

واتّباعُهُمْ أهواءَهم يَجْعَلُهُمْ ضَالّين حتماً ضَلَالاً بعيداً.

• ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾: اسْتفهامٌ يُرادُ به انْتِزاعُ اعْتِرَافِ أهْلِ العقل والرُّشْدِ أُولِي الْأَلْبَاب، بأنَّهُ لَا يُوجَدُ أحَدٌ أضَلُّ مِنْهُ، إذْ يَبْلُغُ باتِبَاعِهِ هَوَاهُ غايَةَ مُنْحدَرِ الضلال.

وجاءت عبارة: ﴿بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ قَيْداً لازماً، لأنَّ مَنْ يلْتَزِمُ بهُدىٰ الله يَتَعَلَّقُ هَوَاهُ بمراضِي اللَّهِ وَمَحابِّهِ، فيَكُونُ هَوَاهُ تَبعاً لمَا يحِبُّ اللَّهُ وَيَرْضىٰ.

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: إنَّ اللَّهَ لَيْسَ من حكْمَتهِ أنْ يَحْكُمَ بالْهِدَايَةِ لهٰؤُلاءِ المقْصُودِينَ بالمعالَجَةِ، ما دَامُوا علَىٰ كُفْرِهم وطُغْيَانِهم وظُلْمِهِمْ وجُحُودِهِمْ للحق، وهُمْ يَدْخُلونَ ضِمْنَ عُمُومِ الظالمِينَ من دَرَكَةِ الكُفر، ومن سُنَنِ اللَّهِ الّتي لا تَبْدِيل فيها ولَا تَحْوِيل، إذْ هي مِنْ مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِه وعَدْلِهِ، أنَّهُ لَا يَحْكُمُ بالْهِدَايَةِ لِلْقَوْمِ الظَّالمين.

فَمعَنْىٰ ﴿لَا يَهْدِى﴾ هُنَا: لَا يَحْكُمُ بالْهِدَايَة، لأنَّ الْحُكْمَ لَهُم بالهداية لا يكُونُ إلَّا إذَا كانوا في واقِعِ حَالِهم مَهْدِيين، أمَا وهُمْ ظالِمُونَ ضَالُّونَ، فإنَّهُ مِمَّا يُنَافِي الحكْمَة أَنْ يَهْدِيَهُمْ فيَحْكُمَ لَهُمْ بأنَّهُمْ مَهْدِيُّونَ، واللَّهُ جلَّ جَلالُهُ لَا يُجْرِي تصاريفَهُ على خِلَافِ مقتضىٰ حكْمَته، وهٰذا مِنْ كَمَالِ صِفَاتِه.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

- ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ﴾: أي: وَنُؤَكِّدُ تأكيداً شديداً أَنَّنَا بصِفات الرُّبُوبيَّة.

﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾: أي: جَعلْنَا القَوْلَ الذِي يَشْتَمِلُ علَىٰ مَطْلُوبنا من عبادنا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، يَصِلُ إلَىٰ مَرَاكِزِ وَعْيِهِمْ لمعانِيه وصُولاً تامًّا، حتَّىٰ امْتَلَكَتْ أَذْهَانُهُمْ هٰذهِ المعاني امْتِلَاكاً كافِياً، رغْبَةً مِنَّافي أَنْ يُؤمِنُوا إيماناً إراديًّا، ويُسْلِمُوا إسْلَاماً إراديًّا صَادِقاً، ويَتَذكروا مِنْ مَعَاني الْقَوْل الذي وَصَّلْنَاهُ لَهُمْ مَا تَدْعُو لِتَذَكُّرِه الأحداث والمناسِبَاتُ والأعمال ما يجب منها فِعْلُه ويجب مِنْهَا تَرْكُهُ، لينجُوا من عذاب الجحيم، ويظْفَرُوا بجنَّاتِ النّعيم.

يقال لغة: «وَصَّلَ فُلَانٌ الشَّيْءَ إلَىٰ فُلَان» أي: أنهاه إليه وأبْلَغَهُ إيّاه.

ولكِنْ جاءت التَّعْدِيَةُ في الآيَةِ بحرف «اللّام» لَا بِحَرْفِ «إلَىٰ» للدَّلَالَةِ على أَنَّ التَّوصِيلَ لمفهومات العقائِد الدّينيَّة، وكُبْرَيَات مطالِبِ الله مِنْ عباده في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا، لَمْ يَقْتَصِرْ على إسْمَاع آذانهم، بَلْ بَلَغَ إلَىٰ عُمْقِ مَرَاكِزِ إدْرَاكِهِمُ الواعِي للْمَعَانِي، حَتَّىٰ امْتَلَكَتْ أجْهِزَةُ التَّفْكِيرِ فيهِمْ هٰذِهِ المعاني، إذْ من معاني اللام الجارَّةِ الْمِلْك.

والتقدير: وَصَّلْنَا إليهم الْقَوْلَ، وَأدْخَلْنَا مَعَانِيَهُ إلَىٰ أجْهِزَة التفكير فيهم، حتَّىٰ صَارَت أشْيَاءَ مَمْلُوكةً لَهَا بالتمليك الْجَبْرِي، الّذِي لَا تَستطيعُ

الإرادات الحرَّةُ دَفعَهُ وَلَا رَفْعَهُ، كما تَرَىٰ الْعَيْنُ الْقَمَرَ بَازِغاً، إذْ يَنْطَبعُ في الذهنِ انطباعاً جَبْرِيّاً.

وبقِي علَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بما عَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ إيماناً إرادِيًّا، وأَنْ يُسْلِمُوا لِلَّهِ إسْلَاماً إرادِيًّا طَوْعِيًّا لَا جَبْرِيًّا، تأثّراً بما عَلِمُوا من الحقّ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: راغبينَ أَنْ يَتَذَكَّرُوا تَذَكُّراً مؤثراً فيهم إيماناً وإسلاماً.

* * *

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

تمهيد:

هذه الآيَاتُ الأربع آياتٌ مَدَنِيَّةُ التَّنْزيل، ضُمَّتْ إِلَىٰ سُورَةِ (القَصص) المكيَّة التنزيل لمراعاة اقتضاءَيْن.

الاقتضاءُ الأوّل: وُجُودُ بعْضِ أَهْلِ الكِتَاب من يَهُودِ المدينَةِ، الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا صَادِقينَ، وَتَنْطَبِقُ عَليهم الصّفات الّتي جاءت في هذِهِ الآيات، وكان هذا بَعْدَ هجْرَةِ الرسُول ﷺ إلَيْها.

الاقتضاء الثاني: الدَّلَالَةُ علىٰ أَنَّ مَا جاء في سُورَة (القصص) من معالجاتٍ لعُتَاةِ مُشْرِكي مكَّة وَمَا حَولَها، مُتَجدِّدُ التَّوْجِيهِ ولَو انْتَقَلَ الرَّسُولُ مُهَاجِراً إِلَىٰ المدينَةِ، ولَوْ هاجر أيضاً مُعْظم مؤمِني ومُسْلِمي أَهْلِ مَكَّة، فَدَعْوَة أَهْلِ مَكَّةَ لَمْ تَنْقَطِعْ بالهجرة إلَىٰ المدينة.

التدبُّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣)﴾:

عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ لفظ عامٌّ أُرِيدَ به خُصُوص من آمَنَ بالرسُول محمّد ﷺ، وَبالْقُرْآنِ الّذِي يَتنزَّلُ عليه من أهْلِ الكِتَاب، من الْيَهُود كعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَام، وكَان حَبْراً مِنْ أحبار اليهود، وكالنَّجَاشي مَلِك الحَبَشةِ، وسَائِرِ مَنْ أسْلَمَ مِنْ أهْلِ الكتاب قبْلَ نزول هذه الآيات، أوْ هُو مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يُؤْمِنَ وَيُسْلِمَ مُسْتَقْبَلاً، بدليلِ استعمال الفِعْل المضارع في عبارة ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وقَدْ دَخَلَ في الإسلام كثيرون جدًّا من أهل الكتاب عبر القرون ولا يزالون يدخلون.

- ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾: أي: من قَبْلِ الْقُرْآنِ الّذِي يَتنزَّلُ على محمد ﷺ.
- ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾أي: وإذا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ جَدِيدٌ يَتنزَّلُ مِنَ القرآن.
- ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾: أي: قالوا: آمَنَّا بهٰذا الْجَدِيد الّذي تَنَزَّل مِنَ الْقُرْآن، وقالوا: إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا، ولم يَعْتَرِضوا على شيءٍ يَتنزَّلُ مِنْه، ولو كان مخالفاً لِبَعْضِ أحكام التوراة أو الإنجيل الْعَمَلِيَّةِ مُسْتَسْلِمِينَ لِلَّهِ فيما يُثْبِتُ من أحكام وفيما يَنْسَخُ مِنْها. وقَالُوا: إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ تَنَزُّلِ الْقُرْآن مُؤْمِنين بِرَبِّنا وَمُسْلِمِينَ لَهُ إسلاماً تامًّا لَا تَشُوبُهُ شَائِبَةُ اعْتِرَاضٍ وَلَا هوى ولَا تَعَصُّب، ولَدَينا بشائر عن مُحمّدٍ خاتَمِ النبيين والمرسَلين، وكُنَّا مُسْتَعِدّين لأنْ نُؤمِنَ بِهِ ونُسْلِمَ لَهُ طَائِعِين.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

وعَدَ الله عزّ وجلَّ المُعنِيِّينَ بقَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بأنْ يُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، أي: ضِعْفَيْنِ عَنْ أمْثالِهِم مِنَ المؤمِنين الْمُسْلِمين الَّذِينَ لَمْ يَجْمَعُوا بَيْنَ إيمانٍ وإسلامٍ صحيحين سابقَيْن قَبْلَ بِعْثَةِ مُحمّد ﷺ، وبَيْنَ إيمانٍ وإسلامٍ صحيحين بَعْدَ بِعْثَتِهِ.

وجاء هٰذَا الْوَعْدُ مَبْنيًا على سَبَبٍ يَتَضَمَّنُ تَحلِّيَهُمْ بأرْبَعِ صِفَاتٍ فُضْلَىٰ مِنْ صِفَاتِ فُضَلاءِ المؤمِنينَ المُسْلِمين:

الصِّفَةُ الأُولى: صِفَةُ الصَّبْرِ، دَلَّ عَلَيْهِا قول اللّهِ عزّ وجل: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بسبب صَبْرِهم. «الباء» سَبَبِيَّة. و«مَا» مَصْدَرِية، تُؤَوَّلُ مَعَ بَعْدَها بِمَصْدر.

ولَا يَخفَىٰ مَا يُلاقِيه مُفارِقُو دِينِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ والنصارىٰ الّذِين يُسْلِمُونَ، من أذىً شَدِيدٍ من أُسَرِهِمْ وَأَهْلِ مِلَّتِهِمْ، كالحِرْمَانِ من الرزْق، والقطيعَة، وتوجيه سِهَامِ الْعِدَاء، وأنْواعٍ أُخرَىٰ شَتَّىٰ مِنَ المصائب، وهٰذِهِ تحْتَاجُ من المؤمِنِ المسْلِمِ الصَّادِقِ صَبْراً عظيماً.

الصِّفَة الثانية: أَنَّهُمْ يَدْرَؤُونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، دلَّ عَلَيْها قول اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: أي: ويَتخذُونَ الْحَسَنَة الَّتي يَفْعَلُونَها، دَرِيئَةً تَصْطَدِمُ بها السَّيِّئَة الَّتي تُوَجَّهُ لَهُمْ، فَيَدْفَعُونَ بِذَلِكَ الأَذىٰ والضُّرَّ عَنْ أنفُسِهِمْ. **الدّرِيئة**: مَا يَسْتَتِرُ بِهِ الصَّياد.

يقال لُغَة: «دَرَأَ فُلانٌ دَرْءاً» أي: اتَّخَذَ دَرِيئةً، ويقالُ: «دَرَأَ الشَّيْءَ، دَرْءاً وَدَرْءَةً» أي: دَفَعَه. وَيقال: «دَرأَ عَنْهُ الشيْءَ بِكذا» أي: دفَعَهُ عَنْهُ.

إنّ دَرْأَ السَّيِّئةِ بالحسَنَةِ مِنْ أَجلّ فضائل الأخلاق الاجتماعية.

وفي تقديم: [بِالْحَسَنَةِ] على كَلِمَة [السَّيِّئَةِ] في العبارة دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يبادِرُونَ دواماً بفِعْلِ الحسَنَاتِ الَّتي تكُونُ سَبَباً في دَفْع السّيّئاتِ الّتي كان من المرتقب أَنْ تُوَجَّهَ لهم، فإِنْ وُجِّهَتْ لَهُمْ سَيِّئَةٌ كانت حَسَنَتُهُمْ بمثابَةِ دَرِيئَةٍ تَدْفَعُ عَنْهُمُ الأذىٰ، ومن ذَلِكَ أَنْ يُدافِعَ عَنْهُمْ مَنْ نالَهُمْ إِحْسَانُهُ من الناس.

الصِّفَةُ الثالثة: أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ ممَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاتِه، دلَّ على هذه الصفة قول الله عزّ وجلّ: ﴿.. وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: أي: ويَنْفِقُونَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِنَا، وَفي السُّبُلِ الّتِي طَالَبْنَا عِبَادَنا بأن يُنْفِقُوا فيها وهِيَ سُبُل الخير، بَعْضاً ممَّا رَزَقْنَاهُمْ.

حرف «مِنْ» في «ومِمَّا» حرفُ جَرٍّ معناهُ هُنَا التَّبْعِيض.

الصفة الرابعة: أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا لَغواً مِنَ الْقَوْلِ، اسْتِهْزاءً بالمومنين، أو طَعْناً في الدِّين، ولَوْ كانَ علىٰ شَكْلِ الْمُزَاحِ واللَّهْوِ واللَّعِب، والْمُلَحِ المضْحِكَة الَّتي يَزْعُمُ مُطْلِقُوها أَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ بها اسْتِهْزَاءَ ولا طَعْناً حَقِيقيًّا، أَعْرَضُوا عَنْهُ، ولَمْ يُشَارِكُوا فيه ولَوْ على سَبِيلِ اسْتِحْسَانٍ للنكْتَةِ، أو استِحْسَانٍ للتَّقْلِيدِ المطابقِ للمقلَّد، وقالُوا لأصحاب اللَّغْو، والظاهر أَنَّهم كافِرُونَ صُرَحَاء، أو مُنَافِقُون يبْطِنُونَ كُفْرَهم:

- ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾: أي: وتُنْسَبُ إلينَا عِنْدَ رَبِّنا أعْمالُنا، فَنَحْنُ نُحاسَبُ عَلَيْها، وتكُونُ لَنَا دُون غَيْرِنا، فنُجازَىٰ عليها بفضل الله.

- ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: أي: وتُنْسَبُ إليكم أعمالُكُمْ عِنْدَ رَبُّكم، فانتُمْ تُحَاسَبُونَ عليها، وتكونُ لَكُمْ دُونَ غَيْرِكم، فَتُجَازُوْنَ عليها بِعَدْلِ الله.

- ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: أي: أَمَانٌ مِنَّا عَلَيْكُمْ فَلَا نُقَاتلُكُمْ من أَجْلِ اسْتِهْزَائِكُمْ بالمؤمِنينَ وطَعْنِكُمْ في الدّين، وهو سَلَامُ مُغَارَقةٍ لكُمْ ولما أَنْتُمْ فيه من لَغْوٍ تَعْصُونَ به اللَّهَ رَبَّكُمْ وَتَظْلِمُونَ بِهِ عبادَه المؤمنين.

﴿.. لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: لَا نُرِيدُ مشَارَكَة الْجاهِلِين، في جَهْلِهِمْ، وسَفَهِهِم.

يُقَال لغة: «ابْتَغَىٰ الشَّيْءَ» أي: أراده. أو طَلَبَه، ومعنَىٰ أرادَهُ هو المناسِبُ هنا.

والْمُرادُ بالجاهِلِينَ هنا: الْجُفاةُ السُّفَاءُ، وأصْلُ الْجَهْلِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَولِهِم: «جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ جَهْلاً» أي: اشْتَدّ غَلَيَانُها، وهُو ضِدُّ تَحَلَّمت، ويُقَالُ: «جَهِلَ فُلانٌ عَلَىٰ غَيْرِه» أي: جفَا وَتَسَافَه، ومن هذا قولُ الشّاعر العربي:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

اللَّغو: كُلُّ مَا لا يُعْتَدُّ بِهِ من كلامٍ وَغَيْرِه، وقَدْ أُرِيدَ باللَّغْوِ هُنَا مَا ظَاهِرُهُ لَغْوٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَيُرَادُ به الطَّعْنُ في الدّين، والاستهزاءُ بالْمُؤْمِنين، وَهٰذا اللَّغْوُ مِنْ صِفاتِ المنافِقين، ومنْ ظواهِرِ تَصرُّفَاتِهِمْ وَهُم بَيْنَ المؤمِنين، إذْ يُخفُونَ نفثَاتِ كُفْرِهِمْ بألاعيب المُزاحِ، وَيَقُولُونَ مُعْتَذِرِين: كُنا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، لا نَقصِدُ الطَّعْنَ فِي الدّين، ولَا الاسْتِهزاءَ بالمؤمنين، وهُمْ كاذِبُون.

* * *

قال اللّهُ عزَّ وجلّ خطاباً لِرَسُولِهِ مُحمَّد ﷺ، وَيُلْحَقُ به كُلُّ مَنْ يَصْلُحُ لِهٰذا الخطاب:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

كان عمُّ الرَّسُول ﷺ أبو طَالب الّذي كفَلَهُ بَعْدَ جَدّه عبد المطلب، وحماه ونَصَرَهُ ودفع عنهُ مكايد كبراء مشْركي مكّة، وأعْلَنَ حِمَايَتَهُ لَهُ ونَصْرَه، مع أنه كان مُشْرِكاً على مَذْهبِ مشركي قومه، وكان الرَّسُول بحُبٍّ

قَوِيٌّ وحِرْصٍ بالِغٍ يُرِيدُ مِنْ عَمِّهِ أنْ يُعْلِنَ إيمانه وإسْلامَه ولو سِرًّا بَيْنه وبيْنَهُ، ولو في أُذُنِهِ لِيَشْهَدَ لَهُ بذلِكَ عند رَبِّه يوم الدِّين.

لكنّ أبا طالب لم يحقّق رغْبَةَ ابْنِ أخيهِ محمَّدٍ رسُول اللَّهِ للناس أجمعين، وماتَ ولَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ رَسُولُ الله ﷺ كَلِمَةَ التوحيد، فَحَزِنَ من أجله، وتمنَّىٰ له الهدايَةَ لِيُنْجِيَهُ اللَّهُ يَوْم الدِّينِ من الخلود في عذاب النار، فأنزل اللَّهُ عَلَيْهِ هذه الآية.

روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث المسيّب. ورَوى مُسْلِمٌ وغيره من حديث أبي هُرَيرة: أنَّ قَوْلَ الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نَزَلَتْ في أبي طالبٍ لمَّا امتَنَعَ من الإسْلام.

عبارَة: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: هِدَايَتَهُ يُمْكن حَمْلُها على معنَيَيْن:

المعنىٰ الأول: إنَّك لَا تَسْتَطِيعُ أن تَجْعَلَ مَنْ أحْبَبْتَ مُؤْمِناً مُسْلِماً مَهْدِيًّا، بِطَريقةٍ إلْزَمِيَّةٍ جَبْرِيّة، إذْ لَسْتَ خَالقاً تَمْلِكُ الْخَلْقَ الْجَبْرِيّ، ولَسْتَ تَمْلِكُ الإلْزَامَ الْقَسْرِيّ على الهداية، لأنّ الإيمان والإسلام من أعمال الْقُلُوب وتَصَرُّفَاتِ الإراداتِ الحرَّة، والمطلوب في الدِّين هو الإيمان والإسلام بالاختيار الحرّ، ولَيْسَ بالإلْزَامِ والإكراه، ومن أعْلَنَ إيمانَهُ وإسلامَهُ وهو مُكْرَهٌ فإنَّهُ لا يُقْبَلُ ذَلِكَ منْهُ عِنْدَ رَبِّه، ويُحَاسَبُ على ما في قَلْبه.

وبِمُقْتَضىٰ هذا المعنى تَكُونُ عبارة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ دالَّةً علىٰ مَعْنَى: أنَّ اللَّهَ هُو القادِرُ عَلَىٰ أنْ يَخْلُقَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده مَجْبُوراً علَىٰ الْهداية، كما خَلَقَ الملائكة الكرام مَفْطُورين على الإيمان بربّهم، والطاعَة له، ولكنَّه لم يضَعْهُم مَوْضِعَ الابتلاء والامتحان.

وإذْ وَضعَ اللَّهُ النَّاسَ مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ والامتحان، الذي يقتضي حرّيّة

الإرادة، لم يكن من حِكْمَتِه أنْ يَجْعَلَ أحداً مِنْهُمْ مجبوراً بالفطرة على أن يكون مَهْدِيًّا، ولا أنْ يجعل أحداً مِنهُمْ مجبوراً بالفطرة عَلَىٰ أن يكونَ ضالًّا، لأنّ هذا مُناقِضٌ لوَضْعِ الناس في الحياة الدنيا موضع الامتحَان المستَلْزِمِ عقْلاً لحُرِّيَّةِ الإرادة، إذْ بين الْجَبْرِ وحُرِّيَّةِ الإرادة تناقض واضح.

المعنى الثاني: إنَّكَ لَا تَسْتطِيعُ أَنْ تَحْكُمَ بِالْهِدَايَةِ لمَنْ تُحِبُّ، لأنَّ الْحُكْمَ بالْهِدَايَةِ أو الضَّلَالَة هُو لِلّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، ولا تَمْلِكُ من رَبّك أَنْ يَحْكُمَ بِهدَايَةِ مَنْ تُحِبُّ، إنِ الحكْمُ إلّا لله، وهو يَحْكُمُ عَلَىٰ من يشاءُ بالضَّلَالَة، ولمَنْ يَشَاءُ بالْهِدَايَة، لَكِنَّ مَشيئتَهُ لا تُفَارِقُ حكْمَته، ولَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنْ يَحْكُمَ للضَّالِّ في واقِع حَالِه بأنَّه كانَ مَهْدِيًّا، ولا أنْ يَحْكُمَ على ذي الهدايةِ في واقعِ حالِهِ بأنَّهُ ضَالٌّ، بل مَنْ كان ضَالًّا في واقِعِ حَالِهِ حَكَمَ عليه بأنَّهُ ضَالٌّ بمَشيئَتِهِ تَعالَىٰ المطْلَقَةِ الّتي لَا تُفارِقُ حِكْمَتَه، وَمَنْ كان مُهْتَدِياً في واقِعِ حَالِهِ حكَمَ لَهُ بالْهِدَايَة، بمَشِيئته المطْلَقَةِ الّتِي لَا تُفَارِقُ حكْمَتَهُ أيضاً.

وبمُقْتَضىٰ هذا المعنى تكُونُ عبارة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ دالَّةً علَىٰ معنَىٰ: أنَّ الْحُكْمَ بالْهِدايَةِ أو بالضَّلَالَةِ هو للّٰهِ وَحْدَه، وهُوَ سُبْحانَهُ يَحْكُمُ بمَشيئَتِهِ المَطْلَقَة، ولَكِنَّ صِفَةَ مَشيئَتِهِ المطلَقَةِ لَا تُفَارِقُ صِفَةَ حِكْمَتِهِ، وَلَا تتَنَاقَضُ مَعَها ولا تَتَعَارض، بل صِفَاتُ اللّهِ جلّ جلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ متكاملاتٌ فيما بَيْنَها، لا يُمْكِنُ أن يكُونَ بينها تَنَاقُضٌ أو تَضادّ، وهذا من كمال صِفَات الله.

وتأتي عبارة: ﴿.. وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ في الآيَةِ متَمِّمةً لِهٰذا المعنى الثاني، أي: وهو أعْلَمُ بالمهْتَدِينَ هدايَةً حقيقيَّةً في بَاطِنِ مَا في نُفُوسِهم وقُلُوبهم، فَهُو يحكُمُ بالْهدايَةِ لِمَنْ يعلَمْ من نَفْسِه وقَلْبه أنَّه مُهْتَدٍ، ويَحْكُمُ بالضَّلالَة على من يَعْلَمُ من نَفْسه وقَلْبِهِ أنَّهُ ضَالٌّ.

* * *

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

القراءات:

- قرأ نافع، وأبو جعفر، ورُويس: [تُجْبَىٰ] بالتاء على أن الموصوف مؤنث.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾ بالياء.

والقراءتان وجْهان عربيان جائزان، لأنّ نائب الفاعل وهو ﴿ثَمَرَٰتُ﴾ مجازيُّ التأنيث.

- وقرأ حَمْزَة، والكِسَائي: [فِي إِمِّهَا] بكَسْر الهمزة وصْلاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فِيٓ أُمِّهَا﴾ بضم الهمزة.

والجميع يبْتَدِئُون بضمّ الهمزة.

والقراءَتان لُغَتان عَربيّتانِ في النُّطْق.

تمهيد:

في هذه الآيات عَرْضٌ لمقالَةٍ منْ مَقالات بَعْضِ أئمَّةِ الشِّرْكِ في مكَّة، المشتَملَةِ على اعْتِذَار مَنْ قَالَهَا عَن الدُّخول في الإسْلَام، بالتَّخَوُّفِ من نِقْمَةِ مَنْ حَوْلَهُمْ من النَّاس المشركين، أنْ يتكاثَرُوا عَلَيْهِم وَيَتَخَطَّفُوهُمْ منْ أَرْضهم، وأُتْبعَتْ بالرَّدِّ المقْنِعِ المسقط لهذا التخوُّف، وبالتذكير بتَخَوُّفِ

أعْظَم هُوَ عُقُوبَةُ اللَّهِ لهم على كفرهم العنادِيّ الظالم الّذي لا عُذْرَ لهم فيه، وبه يكونُ إهلاكُهُمْ إهلاكاً عامًّا شاملاً، مشابهاً لإهْلَاكِ أقوام سَلَفُوا لم يَرْعَوْا نِعَمَ اللَّهِ الّتي أنعم بها عليهم، فكفَرُوا به، واتَّخذُوا مِنْ دُونه شركاء، ولم يَسْتجيبوا لما دَعَاهُمْ رَبّهم إليه عن طريق رُسُلِهِ، من إيمانٍ صحيح وإسْلَامٍ صادق.

روَىٰ ابْنُ جَرِير، وابْنُ أبي حاتم، وٱبْنُ مَرْدَوَيْه، عن ٱبن عباس: أنَّ نَاساً من قريش قالُوا للنبيّ ﷺ: «إنْ نَتَّبِعْكَ يَتَخطَّفْنَا النَّاسُ» فنزل قول الله عزّ وجل:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . . ﴿٥٧﴾﴾:

التدبُّر التحليليّ:

قول اللَّهِ عزّ وجل:

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

[نُتخطَّفْ]: أي: نُخْطَف بِشدَّةٍ من القبائلِ العربيَّةِ من حَوْلِنَا، إذْ نُخَالِفُ عَقَائِدهم، ولَهُمْ فِي مكَةَّ نُسُكٌ، ولَهُمْ بالأوثان حول الكعبةِ وعلى ظهْرِها ارْتباط عابدٍ بمعبود.

يقال لغة: «خَطفَ، يَخْطِفُ، خَطْفاً، وخَطَفَاناً، وخَطِفَ، يَخْطَفُ، خَطْفاً» أي: جذبَ الشيْءَ وأخذَهُ بِسُرْعَة.

ويقال: «اخْتَطَفَهُ، يَخْتَطِفُهُ، وتَخَطَّفَهُ، يتخطَّفُهُ» أي: خَطَفَهُ بِشدَّة، وقُوَّة.

هذه تَعِلَّةٌ اعتِذاريّة، وجَّهَهَا بَعْضُ كُبَراء مشركي قُرَيش، وفيها معنى تخويف الرَّسُول والّذينَ آمَنُوا به، من قبائل الْعَرَب، إذْ يجْتَمِعُونَ على

قِتالِهِمْ، فيخْتَطِفونَهُمُ اخْتِطافاً، ولا قِبَلَ لَهُمْ حينَئذٍ بمواجَهَةِ قبائلِ الْعَرب إذْ تجتَمِعُ عَلَيْهم وتُقَاتِلُهُمْ، فلَهُمْ حقٌّ دينيٌّ مَوْرُوث في مَكَّة وَمَسْجِدِها، والكَعْبَةِ فيه، والأَوْثَانِ عَلَيْها ومن حَوْلها.

فأبان اللَّهُ عزّ وجلّ لهم، أَنَّ التَّمْكينَ الّذِي هم فيهِ دَاخِلَ حُدُود حَرَم مَكَّة، والأَمْنَ الَّذِي هُمْ فِيه، والثَّمَرَاتِ الَّتي تُجبَىٰ إلَيْهِ من مُخْتَلِفِ بِلَادِ الأَرض رِزْقاً لَهُمْ وَلِلْوَافِدِين إلَيْهِمْ حُجّاجاً وَزُوّاراً، هُو مِنْ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهم، لِيَبْقَىٰ أَوّلُ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللَّهُ فيه مَثَابَةً للنَّاسِ وأَمْناً، رغبةً في أن يَعْبُدُوه وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُونَ بعِبَادَتِهِ شيئاً.

ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقيقة الَّتِي امْتَنَّ اللَّهُ علَيْهم بها، لأنَّهُمْ أَلِفُوا أَنْ يَعِيشُوا في مَكَّةَ آمِنينَ مَرْزُوقِين، ذوي مَكانَةٍ مُتَميِّزَةٍ بَيْنَ قبائل العرب، مُنْذُ عَهْدِ إسْمَاعِيل عليه السلام، نظراً إلى أَنَّهُمْ سَدَنَةُ بَيْتِ اللَّهِ، وحُمَاتُهُ، والمقيمونَ في حَرَمه.

أقول: ولَوْ رَجَعُوا قَلِيلاً إلَىٰ تاريخ نَيِّفٍ وأرْبَعِينَ سَنَّة، لتذكَّرُوا ما جَرَىٰ بأصْحَاب الْفِيل، وكيْفَ حَمَىٰ اللَّهُ بَيْتَهُ الحرامَ مِنْهم، وقَدْ جاءُوا لِهَدْمِه.

فالأمن الّذِي يَنْعَمُونَ بِهِ في مَكَّة مِنْ جَعْلِ الله إيَّاها حَرَماً آمِناً، ومَعْلُومٌ أنَّ الْأَمْنَ الدَّائم يَجْلُبُ الْأَرْزَاقَ.

- ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾: التمكِينُ من الشيء، الإقْدَار على التَّصرُّف فيه الموصِلِ إلى تحقيق المطلوب مِنْه، مع التثبيت في المكان، والْقُدْرَة على التَّحرُّكِ فيه بحُرِّيّة.

حَرَماً آمناً: هو حُدود حَرَمِ مَكَّة حَرَسَها الله.

- ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾: أَيْ: يُجْمَعُ وَيُسَاقُ إلَيْهِ ثَمَرَاتُ كلِّ شيْءٍ ذِي ثمراتٍ رزْقاً مِنْ لَدُنّا.

معنى ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾ في اللُّغَة: «يُجْمَع» وضُمِنّ معْنىٰ فعل «يُسَاق» فَعُدِّي تعْدِيته بحرف «إلَىٰ» فصار المعْنَىٰ: يُجْمَعُ ويُساق إليه ثمراتُ كلّ شيء ذي ثمراتٍ تجْمَعُ وتُساق.

﴿مِّن لَّدُنَّا﴾: لَدُن: ظَرْفٌ زَمانِيٌّ وَمَكانِيٌّ بمَنْزلَةِ «عِنْد» إلّا أنَّهُ أقربُ من عنْد وأخصّ منه. ولَدُنْ مُلازمَةٌ للإضافة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أي: وَلكِنَّ وَاقِعَ حَالِ مُشْرِكي مَكَّةَ أَنَّ أكْثَرَهم لا يَعْلَمونَ أنَّا نَحْنُ الَّذِين جَعَلْنا حَرَمَ مَكَّةَ مُمَكَّنا لَهُم، وتُجْبَىٰ سَوْقاً إلَيْه ثَمَرَاتُ كلّ شيء رِزْقاً من لدُنا.

وتابعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُعَالَجَتَهُمْ بَشَأْنِ مَقَالَتِهِمْ للرَّسُول: «إنْ نَتَّبِعْكَ يَتَخَطَّفناً النَّاسُ» فأنْزَلَ في أواخِرِ الْعَهْدِ المكّيّ من سِيرَةِ الرَّسُول الدَّعَوِيَّةِ قَوله في سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ۝٦٧﴾:

دَلَّتْ هٰذهِ الآيةُ على أنّ النَّاسَ من حَوْلهم مِنْ قَبائِلِ الْعَرَبِ وسُكَّانِ كثيرٍ منْ قُراهُمْ، قَدْ تَعَرَّضُوا للتَّخطُّفِ مِنْ قِبَلِ الْغُزاةِ، بالْقَتْلِ والسَّبْي والنَّهْبِ والسَّلبْ وَكُلِّ صُوَرِ وأنواع الضُّرِّ والأذى، وهُمْ في مَكَّةَ آمِنُونَ بتَأمِينِ اللَّهِ لَهُمْ، مَراعَاةً لبيْته الحرام الَّذِي جَعَلَهُ بمقادِيره والْطَافِه آمِناً.

فَهَلْ مِنَ الْعقْلِ والرُّشْدِ وَحُسْنِ تَقْدِير عَواقِب الأُمُور أنْ يُؤْمِنُوا بالْبَاطِلِ من الشِّرْكِ وأوثانه، وأنْ يَكْفُرُوا بِنعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِم، وأنْ يُعرِّضُوا أنْفسَهُم لسَخَطِ اللَّهِ وَعُقُوباتِه العاجِلَةِ والآجلَة.

وإذْ تَأثَّرَ بَعْضُ الّذِي آمَنُوا بمَقَالَة بَعْضِ المشْرِكين للرسول: «إنْ نَتَّبِعْكَ يَتَخَطَّفْنَا النَّاس» فكانُوا على حَذَرٍ إلّا أنّ الله عزّ وجلّ حَمَاهم وحَفِظَهُمْ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ يُهاجِرُون مِنْ مَكَّة، وآواهم في مَوْطِنِ هِجْرَتِهم، ثُمَّ

نَصرَهُمْ وَأعْطاهُمْ قُوَّةً وَمَنَعَةً، كَانَ مِنَ الحكْمَةِ التَّرْبَوِيّةِ لَهُمْ ولِغَيْرِهم، أَنْ يُذَكِّرَهُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ بِمِنّتِهِ عليهم، بأنّ آوَاهُمْ آمِنين في المدينَة، وأيَّدَهُمْ بنَصْرِه، ورزَقَهُمْ مِنَ الطيّبات، رَغْبَةً في أنْ يشْكُرُوه على ما امْتَنَّ به عَلَيْهم، فأنزل جَلَّ جَلَالُهُ في الْعَهْدِ الْمَدَنيّ قَوْلَهُ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول). خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ:

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

ذَكَّرَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ المعالَجِينَ الَّذِين قالُوا للرسُول: «إنْ نَتّبِعْكَ يَتَخَطَّفْنَا النَّاس» بأنَّ كُفرَهُمُ الَّذِي يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَتَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ، يُعَرِّضُهُمْ لعقابٍ مُعَجَّلٍ في الحياةِ الدّنيا من رَبّهِمْ، وهُو إهْلَاكٌ جماعِيٌّ شَامِلٌ، نَظِير الّذِي أنْزَلَهُ بأهْلِ قُرىً مِنْ قَبْلِهِمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وكِبْرِهِمْ، وفجُورِهم، واتّباعهم للأهواء والشهوات.

وشواهِدُ هٰذِهِ الْقُرَىٰ الْمَدمَّرَة، الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ كُفَّارَهَا إهْلاكاً جَماعِيًّا، ظاهِرَةٌ في مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَرْض، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ الّتي كانوا يَسْكُنُونها، لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلّا زَمَناً قليلاً، فلا يُوجَدُ مَنْ يَحْرِصُونَ على السُّكْنَىٰ فيها، بَلْ عَادَتْ فَدَخَلَتْ في مِلْكِ الله العامّ لَكُلّ شيءٍ في كوْنه.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ﴾: «كَمْ» اسمٌ ثنائي مبنيٌّ على السّكُون، يُعَبَّرُ به عن عَدَدٍ مُبْهَمِ الْقَدْرِ والجنس، فهو يحتاج إلى مُمَيِّز.

وكلمة «كم» هُنَا خبريّة تدلُّ على عَدَدٍ كثير، ومُمَيِّزُها ﴿مِن قَرْيَةٍۭ﴾:

أي: من أهل قَرْيةٍ، والمراد بالقرية كلّ أرض فيها بيوتٌ ومَساكِنُ مجتمعة، قَلّتْ أم كَثُرت، ولو بلَغتْ مدينةً عظيمةً جداً.

والمعنى: وعَدَداً كثيراً من الْقُرَىٰ أَهْلَكْنا.

- ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: **الْبَطَر**: الْغُلُوّ في المرَحِ والزَّهو.

والمعيشَةُ: مَا يُعَاشُ بِهِ من كلّ مطالب النّاس في الدُّنيا، وجمعها «معايش».

ويُقَالُ لغة: «بَطِرَ فُلاَنٌ النِّعْمَةَ» أي: اسْتَخَفَّهَا فكَفَرَها. ويقال: «بَطِر الْحَقَّ» أي: أَنْكَرَهُ ولَمْ يَقْبَلْهُ. «بَطِرَ يَبْطَرُ بَطَراً».

والمعنى: أَخَذَهَا المرَحُ والزهْوُ والكِبْرُ، فاسْتَخَفَّت نِعَمَ اللّهِ علَيْهَا، فَكَفَرَتْها، وجَحَدَتْ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْها، فلَمْ تُؤْمِنْ بما يجب علَيْها أن تُؤمِنَ به، ولَمْ تُسْلِمْ لِرَبِّها ولِرَسُوله، ولَمْ تُؤَدّ من طاعةِ اللَّهِ شيئاً ممَّا يجب عَلَيْها أَنْ تطيعهُ فيه، فاسْتَحقَّتْ أَنْ يُنْهِيَ اللَّهُ عزّ وجلّ ظُرُوفَ امتحانِهَا، فَيُهْلِكَهَا إِهْلَاكاً جماعيًا شاملاً، ولَعَذَابُ اللّهِ أَكْبَرُ يَوْم الدّين.

- ﴿.. فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ..﴾: جاءت الإشارة إلى مَسَاكِنِهم باسْم الإشارة الْمَوْضوع للبعيد، لأنَّ المعالجين في النّص، وهُمْ كُفَّارُ مكَّةَ إبَّانَ التَّنْزيل بَعِيدُون عن الأحقاف حيث مَسَاكن عاد، وعَنِ الحجر حيْثُ مساكِنُ ثمود، وعَنْ مساكِنِ قوم لوط، ومساكن قوم شعيب عليهما السلام.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا زمَناً قليلاً، أو إلّا مكاناً مِنْهاً قليلاً.

- ﴿.. وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾: من المعلوم أنّ اللّهَ عزَّ وجلَّ مالِكُ كلّ شيءٍ في الوجود كلِّهِ دَواماً، لَا تَنْقَطِعُ ملكيَّتُه.

ولكِنْ قَضَتْ حِكْمَتُهُ أنّ يَملِّكَ عبادَهُ الَّذين هُمْ وَكُلُّ مَا يملِكُون

مِلْكه، تمليك تصَرُّفٍ بما يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفوا فيه، على سبيل الانتفاع المباشر، أو على سبيل العطاء للآخرين، لِيَبْلُوهم فيما آتاهم في ظروف الحياة الدنيا.

فجعل انْتزاعَهُ جلَّ جَلَالُهُ ممتلكاتِهِمْ مِنْهُمْ بإهلاكهم بمثابَةِ مِيراثٍ يَرِثُهُ هو مِنهم، إذْ لَا يُعْطِيهِمْ في مُقَابِلِهِ شيئاً، كما يَرِثُ النَّاسُ أمْوالَ مَنْ مَاتَ مِنْ مَوَرِّثيهم.

الميراث: مَا يَمْلِكُهُ الخَلَفُ من سَلَفٍ دُونَ عِوَض، ويشْمَلُ الماديّات والمعنويات.

قول اللَّهِ عزّ وجل:

• ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

استَمَلَتْ هٰذه الآيَة علىٰ بيان قاعِدَتَيْنِ مِنْ قواعِدِ سُنَنِ اللَّهِ في معامَلَةِ عباده:

القاعدة الأولى: أنّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ لا يُهْلك مجموعةً من القرىٰ هِيَ بِمَثَابَةِ دَولَةٍ واحِدَة لها قَرْيَةٌ كُبْرَىٰ تُعْتَبر كَأُمٍّ لَهَا، إذْ فيها مراكز إدَارَتِها، وقَصْرُ الحكم لِسُلْطَانها الأعظم، وفيها يَقْضِي أهْلُ سَائر القرىٰ مَصَالِحَهُمُ الإداريَّة الكبرى، وغيرها من المصالح.

دلَّ على هٰذه القاعدة قول الله عزَّ وجلَّ في الآية:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾:

أي: وَليس من سُنَّة رَبِّكَ أَنْ يُهْلِكَ الْقُرىٰ الظَّالمة ظُلْماً من دَرَكة الكفرِ والطغيان، والبَغْي والفجور والعصيان، إهلاكاً جَمَاعيًا شاملاً، حَتَّىٰ يُعْلِمهَا بما يَجِبُ علَيْها تجاه رَبّها، فيَبْعَثَ إليها في قَاعِدَةِ قُرَاهَا الكُبْرَىٰ

رَسُولاً يَتْلُو عَلَيها آياتهِ المنزَّلات، وفيها بيانٌ كافٍ، وتَبْشيرٌ لِمَنْ أطاع، وإنذارٌ لمن عصَىٰ.

الأمّ: في اللُّغَةِ المَجْمَعُ والمضَمّ. وأمُّ الْقُرَىٰ هي كُبْرَاها وعاصِمَتُها، الّتي تجْمع مبَانيَ إدَارَاتِها الكبْرَىٰ، وقَصْرَ الحكم الأوّلِ لها.

القاعدة الثانية: أنَّ الله - جلّ جلالُهُ وعظم سلطانُه - ليس من سنّتِهِ أنْ يُهْلِكَ الْقُرَىٰ إهْلاكاً جماعِيًّا شاملاً، إلّا في حالَةِ كوْنِ أَهْلِهَا ظالِمِينَ ظُلماً تَسْتَحِقُّ بسَبَبِهِ أنْ يُهْلِكَهُمْ.

دلّ على هذهِ القاعدة في الآيَةِ قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

- ﴿.. وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: ولَيْسَ مِنْ سُنَّتِنا أنْ نُهْلِك الْقُرَىٰ إهْلَاكاً جماعِيًّا شاملاً، فِي حَالٍ من الأحوال، إلّا في حَالَةِ كوْنِ أهْلِهَا ظالِمِين.

وينبغي حَمْلُ الظُّلْم هُنَا أخذاً مِنْ مُخْتَلِفِ دَلالَاتِ النُّصُوصِ، على الظُّلْم الكَبِير من دَرَكَةِ الكُفْرِ العنادِيّ، وما يَلْزَمُ عَنْهُ من أعْمَالِ بَغْي وطُغْيَانٍ، وفُجُورٍ وعُدْوانٍ، وفَسَادٍ وإفْسَادٍ في الأرض، وانتشار ذلك فِي أهل الْقُرَىٰ انتشاراً طاغياً.

* * *

قالَ اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ

فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ
أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا
مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا
يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ».

القراءات:

(٦٠) • قرأ أبو عَمْرو: [**يَعْقِلُونَ**] بضمير الغائبين.

وقرأ باقي القراء العشرة: «**تَعْقِلُونَ**» بضمير المخاطَبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، إحْدَاهُما تُخاطِبُهم، فيقول الله لهم: «**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**». والأُخْرَىٰ يَلْتَفِتُ اللَّهُ عَنْهُمْ فيقول على اعتبار أنهم غائبُون: [**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**] مخاطباً المؤمنين.

(٦١) • قرأ قَالُون، والكِسَائي، وأبو جَعْفر: [**ثُمَّ هْوَ**] بإسكان الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: «**ثُمَّ هُوَ**» بضَمّ الهاء.

والقراءتان وجهان من النطق في الْعَرَبيَّة.

(٦٢) و(٦٥) • قرأ يَعْقُوب: [**يُنَادِيهُمْ**] بضَمّ هاء الضمير في الآيتَين.

وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْرِ هاء الضمير فيهما.

وهُمَا وَجْهَان عَربيّان في النُّطق.

(٦٣) و(٦٦) • قَرأ أبو عَمْرو: [**عَلَيْهِمِ الْقَوْلَ**] و[**عَلَيْهِمِ الأَنْبَاءَ**].

وقرأهما حمزة، والكسائي، وخلَفٌ، ويَعْقُوب: [**عَلَيْهُمُ الْقَوْلَ**] و[**عَلَيْهُمُ الأَنْبَاءَ**].

وقرأهما باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ] و[عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ].

وهي وُجوهٌ عربيَّةٌ في النطق.

(٧٠) •قرأ يعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعْلُوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

وبَيْن القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني، إذْ يُرْجِعُهُم اللَّهُ إليه، فَهُمْ يَرْجُعُونَ مطاوعين بالْجَبْرِ الرَّبّاني.

تمهيد:

اشتملت هذه الآياتُ بصَرِيحِ ألفاظها، واللّوازم الفكرِيَّةِ الّتي تَدُلُّ عليها على ما يلي:

(١) اشتملت على علاج إقناعِيٍّ يكشِفُ أنَّ الحياة الدُّنيا الّتي يتشبَّثُ بالتعلُّقِ بها الكافرون، هي متاعٌ قَلِيلٌ زَائلٌ، وزينَةٌ خادعَةٌ لَا بقاء لها، وأنَّ الآخِرَةَ الَّتي وَعَدَ اللَّهُ المؤمنين المتقين أَنْ يُنَعِّمَهُمْ فيها نعيماً خالداً هي الْخَيْرُ العظيم الباقي الخالد.

(٢) واشتملت على مُقَارَنَةٍ بَيْنَ المؤمنِينَ المتّقِين الّذين وَعَدَهُمُ اللَّهُ وعْداً حَسَناً، بالسَّعادَة الأبدِيَّة في جَنَّاتِ النعيم، الّتي يَدْخُلونَها خالدِينَ فيها أبَداً بفضل رَبّهم، وبَيْنَ الكافِرِينَ الَّذِينَ يتمَتَّعُونَ في الحياة الدُّنيا ببَعْضِ لذَّاتِها كما يَتَمَتَّعُ بها المؤمنُون المتَّقُون، ثُمَّ يكُون مَصِيرُهم أنْ يَكُونوا مُحضَرِين في جَهَنَّمَ يَوْم الدِّين يَذُوقُونَ فيها عذاب الحريق، وهُمْ فيها خالِدُون أبداً.

(٣) واشْتَمَلَتْ على عَرْضٍ لقَطَاتٍ منْ مشاهِدِ يوم الدّين، لمَا فيها من اقناع تَرْهيبيّ، يَدُلُّ علىٰ خُطَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ مُحْكَمَةٍ مُدَبَّرَةٍ من قَبْلِ خَلْقِ العباد وَوَضْعِهِم مَوْضِعَ الامْتِحان.

(٤) واشتملَتْ على بيانٍ بشَأْنِ مَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً، وأَنَّه سيكُونُ بفَضْلِ اللَّهِ من الْمُحْسِنين.

(٥) واشتملَتْ على بَيَانٍ يَدُلُّ على أنَّ الرَّبَّ الخالقَ هو الّذي يَخْلُقُ ما يشاء، وهو الّذي يختار بإرادَتِه مَا شاء ممَّا هو الأحْكم والأصلح، فَهُو الذي يجب على العباد أَنْ يَعْبُدوه وحْدَهُ لَا شريكَ لَهُ.

أمّا الشُّرَكاء الّذين يتَّخِذُهُمُ المشركون أرْباباً وآلهةً من دُون الله، فلا يَخْلُقُونَ شيئاً، ولَيْسَ لَهُمُ الخِيَرَةُ في شيءٍ من الْخَلْقِ لا في غيرهم، ولا في أنفسهم، فهم لا يسْتَحِقُّون من الإلَهِيَّةِ شيئاً. وقد تنزّهَ الله جلَّ جلالُهُ. عن أن يكون له شُرَكاء في رُبُوبيَّتِهِ، أو في إلَهيّتِهِ.

(٦) واشتملت عن طريق اللُّزُومِ الذّهْنِيّ، على بَيَانٍ أنَّ الْعِبَادَ مَوْضُوعُونَ في الحياة الدُّنيا مَوْضع امتحان إراداتهم، وهذا يقْتَضِي أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ جَمِيعَ مَا تُكِنُّ صُدُورهم، وَجَمِيعَ ما يُعْلِنُون، ليحاسبهم، ويفصل القضاء بينهم، ويجازيَهم يَوْمَ الدّين، علىٰ وفْقِ ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانهم.

(٧) واشتملت أَخيراً على عِدَّة قَضَايا إيمانِيَّةٍ ذَواتِ صِلَةٍ بما سَبَقَ أن اشتملَتْ عليه هٰذِهِ الآيات، وهي:

- أنَّ اللَّهَ لَا إلَهِ بحَقٍّ إلّا هو.
- وأنّ لَهُ الْحمْدَ كُلَّهُ في الْأُولَىٰ والآخِرَة.
- وأنَّ لَهُ وَحْدَهُ الْحُكْمَ بين العباد، لَا يُشَارِكُهُ فيه أحَدٌ.
- وأنَّ العِبادَ الموضُوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامْتحان، سَوْف يَرْجعُونَ إلَيْه يَوْمَ الدّين، بَعْدَ أن يَبْعَثَهُمْ إلى الحياة مَرَّةً أخرى، للْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضاء، وَتَنفِيذِ الجزاء.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾؟ وفي القراءة الأخرى: [**أفلا يعقلون**]؟:

هٰذِهِ الآيَةُ ذَاتُ هَدَفين: أَحَدُهُما عِلَاجِيٌّ للمقْصُودِين الأوّلين بالعلاج في السّورة، وهم عُتَاةُ كُبرَاء مُشْرِكي مَلَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل. والآخَرُ بيانيٌّ تَوْجيهيٌّ لِكُلِّ الصالِحين للخِطَابِ الموضُوعين في الحياة الدنيا مَوْضع الابتلاء، وهٰؤلاء يُنَاسِبُهُمْ قراءةُ: [**أفلا يعقلون**]؟ حَدِيثاً عَنِ الكافرين المغترين بمتاع الحياة الدّنيا وزينَتِها.

- ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾: أي: كُلُّ مَا آتاكُمْ رَبُّكُمْ في هٰذِهِ الحياة مِنْ شيءٍ، مَهْمَا كانَ في نظركم جليلاً وعظيماً، حتّىٰ مَا يَنالُهُ عظماءُ مُلُوكِ الأرْضِ مِنْ كُلّ ما يُحِبُّونَ أَوْ يَرْغَبُون فيه، فَهُوَ لَا يَزيدُ عَلَىٰ كَوْنِهِ مَتاعاً مِنَ مَتاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وزينَةً من زِيناتها.

«ما» شرطيةٌ تفيد العموم «أُوتِيتُمْ» فعل الشرط «مِنْ شَيْء» لبيان إبْهام «ما» و«مِنْ» جارَّةٌ بيانيَّة «فمَتَاعُ الحياة الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا» جواب الشرط، وجاءت «الفاء» رَابطةً لجواب الشرط.

- ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾: **المَتَاعُ**: كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ لِوَقتٍ ما، ومَصِيرُه إلى الزّوال. **الزِّينَة**: مَا يُرَىٰ بالحواسّ حَسَناً جميلاً، وَقَدْ يكُونُ خِدَاعاً وباطلاً. وكُلُّ مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ للتَّحْسِينِ والتَّجْمِيل، وقَدْ يكُونُ طِلاءً وأصْبَاغاً لَا بقاء لها، والزينةُ لَا تَعْدُو أَنْ تكُونَ مَتَاعاً زائلاً.

- ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ﴾: أي: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِمَّا ادَّخَرَهُ لأهْلِ الإيمانِ والتَّقْوَىٰ في جنات النعيم يومَ الدين خَيْرٌ وأبْقَىٰ، لِأَنَّهُ مُتَجَدِّدٌ لَا يَنْقَطِعُ أبداً.

خَيْرٌ: لَهُ معْنَيانٌ: **الأول**: ما كان ذا حَقِيقَةٍ مُثْلَىٰ في النَّفْعِ والْحُسْنِ، ومحقِّقاً لسعادةٍ حقيقيَّةٍ غَيْرِ مَشُوبَةٍ بِمُنَغِّصَاتٍ ولا مُسْتَتْبِعَةٍ لمؤلمات أو مُكدِّرات. **الثاني**: اسم تفضيل عَلى غَيْر قياس، بمَعْنىٰ: أفضل في النفع والْحُسْنِ وتحقيق ما تحبُّهُ النّفوسُ وتلَذُّه الحواسّ.

والمعنى الأول أَلْيَقُ بما في الجنَّةِ من نعيم مقيم. والمعنى الثاني يلائِمُ ما يُسَمِّيه الناسُ خيراً من مَتَاع الحياة الدُّنيا، كالمَالِ.

- ﴿.. أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾: استفهامٌ فيه معنى التثريب والتّلويم إلى حدّ التوبيخ، وهو مُوَجَّهٌ للكفَرَة الّذين يتّبِعُونَ أهواءَهم وشهواتهم فيُؤْثِرُونَ الفاني الزائلَ المشوبَ بالألآم والأكدار، على الخير العظيم الخالد الخالصَ من كلّ الشوائب المنغّصَة.

أي: أنْطَمَسَتْ بصائِركُمْ فَلَا تَفْهَمُونَ الْفَرْق بَيْنَ الفاني المختلط بالمنغِّصَات، وبَيْنَ النعيم الخالد الخالص المصَفَّىٰ من كلّ الأكدار؟!!

هذا إذَا حَمَلْنَا «تَعْقِلُونَ» على العقل العلميّ. أمّا إذا حَمَلْنَاهُ علَىٰ العَقْل الإرادي، فالمعنى:

أعَجَزْتُمْ وَضَعُفَتْ إِرَادَاتُكُمْ، فَلَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَعْقِلُوا بها أَهْوَاءَكُمْ وشَهَواتِكم بإِرَادَاتِكُمْ، مُخْتَارِينَ بِهَا مَا يُحَقِّقُ لَكُمُ السَّعَادَةَ الأَبَدِيَّة، ويحميكُمْ مِنَ الشقاء الأَبَدِيّ في عَذَابِ النّار؟!!.

كَيْفَ تُعَرِّضُونَ نُفُوسَكُمْ لعذابٍ أبَدِي وتَحْرِمُونَهَا مِنْ نَعِيمٍ أَبَدِي، من أَجْلِ شَهَواتٍ سَرِيعَاتِ الزّوال مشُوباتٍ بالمنغصاتِ، وأَهْواءٍ تَتوهَّمُونَ أَنَّها تَجْلُبُ لَكُمْ خيراً؟!!.

وعلى قراءَةِ [**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**]: يكُونُ الْخِطابُ مُوَجّهاً للمؤمِنينَ، بشَأْنِ أحْوالِ الكافِرين، ولا يختلِفُ التحليل بالنِّسْبَةِ إلى الْعَقْلِ العلْمِيّ أو الْعَقْلِ الإراديّ.

قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾؟:

استفهامٌ يرادُ به انْتِزَاعُ الاعتراف بنَفْي التَّساوي بَيْنَ مَنْ صَدَّقَ وعْدَ الله الْحَسَنِ بجَنّاتِ النّعيم يَوْمَ الدّين، فآمَنَ وأسْلَمَ فَهُوَ لاَقِيهِ حتماً جَزاءَ ما قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِ في الحياة الدّنيا، وبَيْنَ مَنْ لَمْ يُصَدِّقْ وَعْدَ الله، واغْتَرَّ بِمَا يَنالُهُ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا الّذِي يَنالُهُ بعطَاءٍ من اللَّهِ، كَمَا يَنالُ نَظِيرَهُ غَيْرُهُ مِنَ المؤمنين المصَدِّقِين، ثُمَّ يَمُوتُ عَلَىٰ كُفْرِه، ويُقْضَىٰ علَيْهِ يَوْمَ الدّينِ بأنْ يَكونَ مِنَ المحضَرِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ يَذُوقُ فيها الْحَرِيق بالنّار.

﴿لَٰقِيهِ﴾: اسم فاعل مضاف إلي مفعوله من فعل «لَقِيَهُ، يَلْقَاهُ، لِقَاءً» أي اسْتَقْبَلَهُ، واسْتِقبالُ وَعْدِ الله الحَسِن يلْزَمُ عَنْهُ تحقُّقُ السَّعادَةِ به.

[مِنَ الْمُحْضَرِينَ]: أي: من المُسوقين قَهْراً حَتَّىٰ يَحْضُرُوا عند رَبّهم، لمحاسَبَتِهِمْ، وفصل القضاء بشأنِهِمْ، ومجازاتِهم علَىٰ كُفْرِهِمْ في نَارِ جهنم، وتكرَّرَ في الْقُرآن استعمالُ نَظِيرِ هٰذا التعبير على معنىٰ الحضور في جَهَنَّمَ دَارِ الْعذاب، ومنه: (أولئِكَ في العَذاب مُحْضَرُونَ ـ فَكَذَّبُوه فإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُون ـ ولَوْلا نَعْمَةُ رَبّي لكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِين).

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

في هذه الآياتِ عَرْضٌ بإيجازٍ لِمَشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، وفي هذا المشْهَدِ ثَلاث زُمَر، زُمْرَتَان ظاهِرَتان، والزُّمْرَةُ الثالثة غَيْرُ ظاهرة.

الزُّمـرَةُ الأُولَىٰ: فَـرِيـقٌ مِـنَ الـمشـركـيـن، وهُـمْ ظَـاهِـرُون مُـحْـضَـرُونَ للحساب، وفَصْلِ القضاء.

الزُّمْرَة الثانِية: زُمْرَةُ الَّذِينَ كانُوا في الدُّنيا قَدْ أَغْوَوْا الزُّمْرَة الأُولى، وهم أَيْضاً ظاهِرُونَ مُحْضَرُونَ.

الزُّمْرَة الثالِثَة: زُمْرة الّذِين كان المشركونَ يَعْبُدُونَهُمْ من دُون الله، ولَيْس في النصّ مَا يَدُلُّ على أَنَّهُمْ ظاهِرُونَ مُحْضَرُونَ في المشهد.

وحركة المشهد تَشْتَمِلُ علَىٰ لقطات:

اللَّقْطَةُ الأُولى: يُنَادِي اللَّهُ عزَّ وَجلّ زُمْرَةَ المشْرِكين، دَلَّ عليها قَـوْلُ الـلَّـهِ عـزّ وجـلّ فـي الـنـصّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟ أي: تَزْعُمونَ أَنَّهُمْ شُرَكائي، فتَعْبُدونَهُمْ من دُوني.

اللَّقْطَة الثانية: لقْطَةٌ مَطْوِيَّةٌ فِي النَّصِّ، نَسْتَطِيعُ اسْتِخْرَاجهَا بالتَّأَمُّلِ. وهي أنّ زُمْرَة الـمشْرِكينَ يَقُولُونَ عَنِ الزُّمْرَةِ الثانية، رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَوْنَا، إذْ زَعَمُوا لَنَا مَزَاعِمَ كثيرةً أَضَلُّونا بها، وأَنَّ مَنْ كُنَّا نَعْبُدهُمْ مِنْ دُونِكَ هُمْ آلِهَةٌ حَقًّا، لَهُمْ مُشَارَكَةٌ للرَّبِّ في بَعْضِ ربوبيته، أو هم شفعاء لَنا عِنْدَه.

اللَّقْطة الثالثة: لَقْطَةٌ مَطْوِيَّةٌ في النصّ أيضاً، وهي أنَّ الله ـ جلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ يَسْأَلُ زُمْرَة الْمُغْوِين، الَّذِين سبَقَ أنْ قَضَىٰ بشَأْنِهِم، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ بأَنَّهُمْ مَجزِيُّونَ بالْخُلُود في عذاب النار.

ومَضْمُونُ السُّؤال: هَلْ أَنْتُم أَغْوَيْتُمْ هٰؤُلَاءِ كَمَا يَقُولُونَ؟

اللَّقطة الرابعة: تُصَوِّرُ اعْتَرافَ زُمْرَةِ الْمُغْوِينَ بما كَانَ مِنْهُمْ مِنْ إغْواءِ الزُّمْرَةِ الأُولى، دلَّ على هذه اللَّقْطَةِ قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ وفي النصّ:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾:

﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾: أي: ثَبتَ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللَّهِ القضائيّ بِشَأْنِهِم، أنَّهُمْ مَجْزيُّونَ بِعَذَاب الْحَرِيق، لِكُفْرِهِمْ وإغْوَائِهِمْ مَنِ اسْتَجَابَ لَهُمْ، إذْ حَاسَبَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ، وَقَضَىٰ بِشَأْنِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يُحَاسِبَ أتْباعَهُمْ الّذِينَ تأثَّرُوا بِهِمْ مِن المشرِكين، وهٰذا يَدُلُّ على أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَفْصِلُ قَضَاءَهُ بِشَأْنَ المتْبُوعين من المجرمين، قَبْلَ أَنْ يَفْصِلَ قَضَاءَه بشأن تابعيهم.

- ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾:

﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾: أي: أَوْقَعْنَاهُمْ في الْغَوايَة، وهي الإمعانُ في الضَّلَالِ والْبُعْدِ عَنْ صِراطِ الحقّ والْهُدَىٰ، بالْأَقْوال والأعمال الّتي كُنَّا نُضَلِّلُهُمْ بها، ونَسْتَدْرِجُهُمْ بها إلى الْغَوَايَة.

وإغواؤُنَا لَهُمْ قَدْ كانَ بسَبَبِ أنّنا غَوَيْنا، فبَدا لَنَا أنْ نَضُمَّهُمْ إلَىٰ حِزْبِنا، وَنَسْتَكْثِرَ بِهِمْ مِنْ أَنْصارِنا.

وهُنَا يُوَجَّهُ لَهُمْ سُؤَالٌ: هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَكُمْ؟ فيَتَبَرَّؤُونَ إلَىٰ اللَّهِ من ذَلِكَ قَائلهين لرَبِّهِمْ: مَا كَانُوا إيَّانا يَعْبُدُون، أي: بَلْ كانُوا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِم، دَلَّ على هذا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في النصّ:

﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ۝٦٣﴾: أي: بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْرَنا.

﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾: أي: تَبرَّأْنَا مِنهُمْ لَا نَحْمِلُ وِزْرَ عبادَتِهِمْ لَنا، وَنَلْجأُ. إليك رَبَّنا أَنْ لَا نُعَذَّبَنا علَىٰ اتّخاذِنَا أنْفُسَنا آلِهَةً مِنْ دُونِك لأَنَّنا لَمْ نَفْعَلْ هذا.

التَّبرُّؤ: التَّخلّي والتَّخلُّص.

اللَّقْطَةُ الْخَامِسَة: تُصَوِّرُ عَوْدَةً إلَى الزُّمْرَة الأُولى زُمْرَةِ المشركين، إذْ يُقَالُ لَهُمْ: ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُمْ من دُون الله.

فيَدْعُونَهُمْ، لِكِنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ، ويخيبونَ في نِدائِهِمْ آلِهَتَهُم،

فيَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بالعذاب في جَهَنَّم بحَسَب دَرَكاتِ كفرهم، وحِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ، يتمنَّونَ لو أَنَّهُمْ كانُوا في الحياة الدُّنيا يَهْتَدُونَ آناً فآناً، استجابَةً لِرُسُلِهِمْ أو للدُّعَاةِ إلىٰ اللَّهِ مِنْ بَعْدِهم، حينَما كانُوا يَدْعُونهم إلى الهدى.

دلَّ على هذه اللَّقْطَة قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في النص:

- ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

جاءت هٰذهِ الآيَةُ بصِيغَةِ حَدَثٍ مضىٰ، وهو لَقْطَةٌ من لقطاتِ مَشْهَدٍ سوف يَحْدُثُ يوم الدّين، للدّلالَة على أنّه سَوْف يَحْدُثُ حَتْمًا، فهو حقيقةٌ من حقائق علم اللَّهِ المتعلّقِ بالمستقبل الذي لا يُمْكِنُ أن يتخلّف، ويكون هذا النّصُّ بَعْدَ الوقُوع حَدِيثاً عَنْ أمْرٍ مضىٰ.

- ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾: أي: وقال الرَّبُّ أو مَنْ أمَرَهُ بأن يَقُولَ لَهُم: نَادُوا الَّذِينَ كُنْتُمْ في الحياة الدُّنيا اتّخَذْتُمُوهم شُرَكَاءَ لله، فعَبَدْتموهم من دُونه، لِيَنْصُرُوكُم الْيَوْمَ، أو لِيَشْفَعُوا لَكُمْ عِنْدَ رَبّكم.

- ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾: أي: فصار كُلُّ مُشْرِكٍ يُنَادِي مَعْبُودَه، فَالْوَثَنِيُّ نَادَىٰ وَثَنَه، وعُبَّادُ عيسَىٰ نَادَوْا يَا عيسَىٰ، وعبَّادُ مَرْيَمَ نَادَوْا يَا مَرْيم، وعُبَّادُ بُوذَا نَادُوْا يَابُوذا، وهكذا.

- ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾: أي: فَمَا اسْتَجَابُوا لِنِدَاءاتِ عَابِدِيهم.

وهُنَا ظَهَرَتْ خَيْبَةُ المشْرِكِين، وَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّين، اتَّبَعُوا أهواءَهم وَتَقَالِيدَهُمُ العمياء، ولم يَعْمَلُوا بما كان الْعَقْلُ والرشْدُ يُمْلِيهِ عليهم، ولم يَسْتجيبُوا لِرُسُلِ رَبِّهِمْ، ولِلْعُلَمَاءِ الدُّعاةِ مِنْ أتْبَاعِهم الّذين قَامُوا بواجب الدَّعْوَةِ إلَىٰ اللَّهِ، والإيمانِ بما أَنْزَلَ علىٰ رُسُلِهِ والْعَمَلِ به.

وهُنَا يُوجَدُ مَطْوِيٌّ في النّصّ يُمْكن اسْتنباطُهُ بالتَّأمُّل الْيَسير، وهو

أنّ اللَّهَ جَلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بالْخُلودِ في عَذَاب النارِ بِحَسَبِ دَرَكَاتِ كُفْرِهم، وأنَّهُمْ سِيقُوا إلى جِهَةِ جهنَّمَ حَتَّىٰ يَرَوْهَا، ويَرَوْا مَنَازِلَهُمْ فيها:

دَلَّتْ على هٰذا المطويّ عِبارَة:

- ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾: أي: ورأوْا بأبْصارِهِمْ دَارَ الْعَذَاب، ورأَوْا مَنَازِلَهُمْ فيها، والمصِيرَ الّذي هُمْ إلَيْهِ صَائِرُونَ.

- ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾: هٰذِهِ عبارَةٌ مقْتَطَعَةٌ مِنَ أقْوَالِ المشركين إذْ رَأَوُا دارَ عَذَابِهِمْ وَمَنَازِلِهم فيها.

إنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ يَوْمَئِذٍ إلَّا التَّمَنّي، فَيُعْلِنُونَ تمنّيَهُمْ قَائِلِينَ هذا الْقَوْل، أَوْ مَا يَدُلُّ على مَضْمونِهِ.

«لَوْ» في هذهِ العبارة للتَّمنّي، أي: لَيتَنَا كُنَّا في الحياة الدُّنيا نَهْتَدِي، اسْتِجَابَةً لمَا كانَ الدُّعَاةُ إلَىٰ اللَّهِ يَدْعُونَنَا إلَيْه آنا فآنا.

والجوابُ محذوفٌ تَقْدِيرُه، فنَنْجُوَ مِنْ هٰذا العذاب، ونظفر بجنَّاتِ النعيم.

وهكذا ظهَرَتْ بالتَّدبُّر مَطْوِيَاتٌ، مَا كانت لتظْهَرَ بالتَّوقف عند تفسير كلمات النصّ وفِقَرَاتِه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيتَيْن بيانٌ مُوجزٌ عَنْ مَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين، في مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء.

هٰذا مَشْهَدٌ يُجْمَعُ فيه الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ في الحياة الدُّنيا،

فيُنَادِيهِمْ رَبُّهُمْ فيقول لَهُمْ: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؟: أي: الَّذِين أَرْسَلْتُهُمْ إليكُمْ، فَدَعَوْكم إلَىٰ الإيمانِ بمَا أوْجَبْتُ عَلَيْكُمْ أنْ تُؤْمِنُوا به، وإلى الإسلام لِي وطاعَتِي فيما آمُرُكُمْ به وفيما أنْهَاكُمْ عنه.

والمعنى: مَا الّذِي أجَبْتُمُ الْمُرسَلِينَ بِهِ إذْ دَعَوْكُمْ؟ اسْتِفْهَامٌ عَمَّا أَجَابُوا بِهِ رُسُلَ رَبِّهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

إنَّهُمْ في الحقيقة قَدْ رَفَضُوا قَبُولَ دَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، فَلَمْ يُجيبوهم إلَىٰ مَا دَعَوْهُمْ إلَيْه، فَهَلْ يُعْلِنُونَ مُباشَرَةً اعْتِرَافَهُمْ بِذَنْبِهِمْ؟.

إنَّهُمْ يَتَرَيَّثُونَ، لعَلَّهُمْ يَجِدُونَ جَوَاباً جَزَاؤُهُ أخَفُّ من جزاءِ الاعْتِرَافِ، فيتَفَكَّرُونَ، لَكِنْ لَا يَظْهَرُ لَهُمْ نَبَأٌ بَارِزٌ يُجِيبونَ به على السُّؤَال، وهٰذا النبأ قَدْ يُخَفِّفُ مِنْ جُرْمِهِمْ عِنْدَ رَبّهم.

لَقَدْ خَفِيَتْ والْتَبَسَتْ عَلَيْهِمْ أَبْنَاءُ مَاضِي حَياتهم الدُّنيا، فَلَمْ يجِدُوا فيها نَبأً يخَفِفُ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يجيبُوا بِهِ رَبَّهُمْ، دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجل:

- ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: فَخَفِيَتْ والْتَبَسَتْ عَلَيْهِمْ الْأَنْبَاء. يُقَالُ لُغَةً: «عَمِيَتِ الْأَخْبَارُ والْأُمُورُ عَنْ فُلَانٍ، وعَمِيَتْ عَلَيْهِ» أي: خَفِيَتْ والْتَبَسَت. وهٰذا قَدْ عَمَّ جَمِيعَ أفرادِهم، فَلَا أحَدَ مِنْهُمْ يَجِدُ جواباً مُخَفِّفاً.

- ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي: فَهُمْ لَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً في تَشَاوُرٍ عَنْ جوابٍ يجيبُونَ رَبَّهُمْ به، لظُهُورِ الدَّهْشَةِ والْحَيْرَةِ والْعَجْزِ والذّلِّ والانْكِسَارِ، عَلَىٰ وَجُوهِمْ وعُيُونِهِمْ جَمِيعاً بغير اسْتِثْنَاءٍ، فلا أحَدَ مِنْهُمْ مُسْتَعِدٌّ لأنْ يُسْأَلَ أَوْ يُجِيب.

قول اللّٰهِ عزّ وجَلّ:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

قَضَتِ الحكْمَةُ الْعِلَاجيَّةُ بَعْدَ تَرْهِيب الكافِرين في الآيات من (٦١ ـ ٦٦) إطْمَاعَهُمْ بالتوبَةِ من كُفْرِهم، وبالايمانِ بالْحَقّ الّذي أمَرهُمْ رَبُّهُمْ أن يُؤْمِنُوا به، وبِعَمَلٍ صَالحٍ فيه مَرْضَاةٌ للَّهِ يُعَبِّرُ عَنْ صِحَّةِ إيمانهم، فإذا فَعَلُوا ذلِكَ فَسَوْف يَجْعَلُهُمُ اللَّهُ رَبُّهُمْ مِن الْمُفْلِحِينَ يَوْمَ الدّين.

«أمَّا» حَرْفٌ فِيهِ معْنَى الشَّرْطِ والتوكيدِ دَائماً، والتفصيل غالباً، وهو نائبٌ عن أداة الشَّرْط وجُمْلَتِه، ولهٰذا يُؤَوّل بـ «مَهْمَا يكُنْ مِنْ شيْءٍ».

- ﴿مَن تَابَ﴾: أي: مَنْ رَجَعَ إلَىٰ رَبِّهِ طالِباً غُفْرانَهُ وعفْوَه مِمَّا كَانَ فيهِ مِنْ كُفْرٍ، ومَعْلُومٌ أَنَّ أَوَّلَ دَرَكاتِ الْكُفرِ الشِّرْكُ باللَّهِ.

- ﴿وَءَامَنَ﴾: أي: وآمَنَ بما أوْجَبَ اللَّهُ علَىٰ عبادِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا به.

الإيمان: تَصْدِيقٌ إرادِيٌّ قَلْبِيٌّ بالحق، مَعَ طُمَأْنِينَةِ الْقَلْب، ومِنْ شأنِه أَنْ يُوَجِّهَ الإرادَاتِ للسُّلُوكِ الّذي يقْتَضِيه الإيمان.

- ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: أي: وعَمِلَ عَمَلاً صَالحاً فِيه مَرْضَاةٌ لله، يُعَبِّرُ بِهِ المؤمِنُ عَنْ صِدْقِ إيمانِه.

- ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾:

عَسَىٰ: فِعْلٌ غَيْرُ متصَرِّفٍ، مَعْنَاهُ المقارَبَة على سَبيلِ تَوَقُّعِ حُصُولِ الشَّيْءِ مُسْتَقْبلاً مع رَجْحَانِ الْوُقُوع.

ومِثْلُ هذا التعبير إذَا حَمَلْنَاهُ علَىٰ أَنَّهُ مُوَجَّهٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِه، فَهُوَ وَعْدٌ حَقٌّ مَقْطُوعٌ بِهِ، بِشَرْط انْتِهاءِ رِحْلَةِ امْتِحانِ الْعَبْدِ وهُوَ متحقّقٌ بالشُّرُوطِ الّتي رُتِّبَ عَلَيْهَا الْوَعْدُ.

ويحْتَمِلُ أَنْ تكُونَ الجملَةُ تَعْبِيراً عمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَشْعُرَ به الْعَبْدُ، بَعْدَ التوبَةِ والإيمانِ والْعَملِ الصالح، مِنْ رَجاءِ أَنْ يَسْتَمِرَّ حَالَهُ كذَلِكَ ويَمُوتَ عَلَيْهِ، لِيَكُونَ مِن الْمُفْلِحِينَ تَحْقِيقاً لِوَعْدِ الله.

الفلاح: النَّجاة، والْفوْزُ، والظفر. وأصْلُ الْفَلاحِ: البقاء في النعيم والخير. قال الأزهَرِيّ: وإنَّما قِيلَ لِأَهْلِ الْجنَّةِ مُفْلِحُون، لِفَوْزِهِمْ بِبَقَاءِ الأَبَد.

قول الله عزّ وجل:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾:

هٰذهِ الآيَةُ جَاءَتْ لِبَيَانِ أَنَّ الرَّبَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ يَخلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار، وَهٰذِهِ صِفَةُ رَبِّكَ أَيُّها الْعَبْدُ الصَّالِحُ للخطابِ أيًّا كُنْتَ.

ويَدُلُّ الْجَمْعُ بَيْنَ فِعْلَيْ: ﴿يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ﴾ على أَنَّ مَشيئَتَهُ جَلَّ جلالُهُ، مَشيئَةُ اخْتِيار، إذ الاخْتيَارُ هُوَ مَشيئَةُ الْأَخْيَرِ والأفْضَل.

يقال لغة: «اخْتَارَ فلانٌ الشيءَ» أي: انْتَقاهُ واصطفاه، إذْ رآه الأَخْيَرَ والْأَفْضَل، وهٰذا أَخَصُّ مِنْ مُطْلَق المشيئة، ومن كَمالِ صفات اللَّهِ أَنْ يَشَاءَ مَا هُوَ الْأَحْسَنُ والْأَفْضَلُ من الاحْتِمَالَات الممكِنَةِ الَّتي يَشَاءُ مِنْها، ولَيْسَتْ مشِيئَاتُهُ سُبْحَانَهُ مشِيئَاتٍ غَيْرَ مَرْتَبِطَةٍ بحِكْمَتِهِ في الاختيار، بَلْ هُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ عَلِيمٌ حَكِيم.

وَأَمَّا غَيْرُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَنْ في الْوُجُود فَمَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةَ فِي خَلْقِ شيءٍ مَا أَيِّ شيءٍ.

﴿ٱلْخِيَرَةُۚ﴾: اسْمٌ من «الاختيار» أي: لَيْسَ لَهُمْ اختيارٌ في خَلْقِ أيِّ شيء، ولا أَنْ يَقْتَرِحُوا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَخْتارُونه، فَلا يسْتحِقُّونَ شيئاً من الإِلَٰهيَّة.

وظاهرٌ أَنَّ هٰذهِ الآيَةَ آيَةٌ إقناعيَّةٌ للمشركين الّذِين سَبَقَ تَرْهيبهم في الآيات من (٦٤ ـ ٦٦).

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾:

أي: ولمَّا كَانَ الْعِبَادُ مَوْضُوعِين في ظُرُوف الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاء، ولهٰذا أرسَلَ اللَّهُ لَهُمُ الرُّسُل، وأَنْزَلَ آيَاتِهِ فِي كُتُبِهِ لِتُتْلَىٰ عليهم، وكَلّفَهُمْ أنْ يَتَّخِذُوها ذِكْراً، وأنْ يَتَّبِعُوها، فَيَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فيها، كَانَ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ أنْ يَعْلَمَ رَبُّكَ أيُّهَا الصَّالِحُ للخطاب كُلَّ شيءٍ تُكِنُّهُ صُدُورُ عبادِه، وكُلَّ شَيْءٍ يُعْلِنُونه، لِأَنَّ حِسَابَهُمْ يَوْم الدِّين، وَفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِم، يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ مَا يَكْسِبُونَهُ بِإرَادَاتِهِم الحرَّة مِنْ عَمَلٍ باطِنٍ تُكِنُّهُ صُدُورُهم كالعقائد والنيّات، وعَمَلٍ ظَاهِرٍ بجوارِحِهِمْ يُعْلِنُونَهُ مِنْ أقوالٍ وأفْعَال.

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: أي: مَا تَسْتُرُهُ صُدُورُهم، يُقَالُ لُغَةً: «كنَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ يَكُنُّهُ كَنًّا» ويُقَالُ: «أَكَنَّهُ يُكِنُّهُ» أي: سَتَرَه.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

- ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ وفي القراءة الأُخرى: [وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ]. وقد سبَق بيان تكامل القراءتيْن في الأداء البياني.

جاءت هذه الآيَةُ خِتَاماً لهٰذا الدَّرسِ الثالث من دُروس السّورة، لرَبط مَا جاء فيه بخَمْسِ قَواعِدَ مِنْ أرْكَانِ الإيمان، في الدِّين الّذي اصطفاه اللَّهُ لعباده:

القاعِدَة الأُولى: أنّ الغيبيّ الخالِقَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كلّ شيءٍ، ولَهُ الْخَلْقُ والأمْرُ، والذي وضَعَ المكلّفين مِنَ الناس مَوْضع الامتحان في رِحْلَة الحياة الدّنيا، هُوَ الله، دلَّ عَلَيْها: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾.

القاعدة الثانية: أنَّهُ لَا يُوجَدُ مَعْبُودٌ في الوجود يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُه، وكلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ مَعْبُوداتٌ باطلاتٌ، افْتَرَاها المشرِكُونَ على رَبّهم. دَلَّ على هذه القاعدة: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

القاعدة الثالِثَة: أنَّ جَمِيعَ الْحَمْدِ مَا يُدْرِكُ الْمَخْلُوقُونَ مِنْهُ، ومَالَا يُدْرِكُونَ، في الحياة الأُولَىٰ للخلائق، وفي الْحَيَاة الأُخْرىٰ يَوْمَ الدِّين، هُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فيه، دَلَّ على هٰذهِ القاعدة: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾: أي: لَهُ وَحْدَهُ كُلُّ الحمد، اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ تَقْدِيم الْخَبَرِ «لَهُ» على المبتدأ «الْحَمْد».

القاعدة الرابعة: أنّ لَهُ وَحْدَهُ الْحُكْمَ بَيْنَ العِبَادِ يَوْم الدِّين، لَا يُشَارِكُهُ فِيه نبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّب، دلَّ على هٰذِهِ القاعدة: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وفي هذه العبارة أيضاً قصْرٌ دلَّ علَيْهِ تقديم الخبر «لَهُ» على المبتدأ «الْحُكْم».

القاعِدَة الخامِسَة: أنَّ جَمِيعَ الخلائق يَرْجعُونَ إلَىٰ رَبّهم يَوْم القيامَةِ، بإرْجاع اللَّهِ لَهُمْ بالْبَعث إلى الحياة مَرَّةً أُخرَىٰ، ليُحَاسِبَ مَنْ كانَ مَوْضُوعاً مِنْهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وليفْصِلَ القضاءَ بشَأْنه، وليجازيه، دلّ على هذه القاعدة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [وإليهِ تَرْجِعُونَ].

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُروس سورة (القصص) والحمد لله على إمداداته وفتْحِه ومَنِّه وتوفيقه، وأسألُهُ المزيدَ من هباته، والتّسْدِيد في أمْرِي كُلِه، وأنْ يَرْزُقني الإخلاص في القول والعمل.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (القصص) الآيات من (٧١ ـ ٧٥)

وهو دَرْسٌ يشتمل على تعليم مُناظرة جدليّة حَوْلَ رُبُوبيَّة اللَّهِ التي لا يُشَارِكهُ فيها أحد، والّتي تَسْتَلْزِمُ عَقْلاً إلَهِيَّتَهُ، وأَنَّهُ لَا شَرِيك لَهُ في إلَهيَّته، مع إقناعات فكريَّة، وعلاجٍ تَرْهِيبيّ.

قال اللَّهُ عزّ وجلّ خطاباً للرّسُول ﷺ فلكُلّ داعٍ إلى اللَّهِ من أُمَّته:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

القراءات:

- قرأ قنبل: [بضِئَاءٍ] بالهمزة بدل الياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿بِضِيَآءٍ﴾.

وهُمَا وَجْهان في النطق جائزان، إلّا أنّ قراءة جمهور القرّاء العشرة ألْيَنُ في النطق.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿سَرْمَدًا﴾: السَّرْمَدُ: الدائم الذي لا ينقطع.

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؟ أي: تَفَكَّرُوا لِتَرَوْا، المراد بالرُّؤيَةِ هُنا الرُّؤْيَةُ الفِكْرِيَّة الهاديَةُ إلىٰ الحق. والاسْتِفْهام يُرادُ بِهِ الْحَثُّ علَىٰ التَّفكّرِ والنظر التأمُّلِيّ العَقْلِي.

التعليم في هذه المناظرة الجدَليّة الإقناعِيَّة، يُوجِّهُ الدَّاعِيَ إلَى الله وإلى تَوحِيدِه في الرُّبُوبيَّةِ والإلَهيّة، أنْ يَطْرَحَ علَىٰ المشْرِكينَ الَّذِين يَعْبُدونَ من دُون الله السُّؤال حَوْل ظاهِرَتَيْنِ من ظواهر تَدْبير اللَّهِ في كَوْنِهِ، رَحْمَةً بعِبَادِهِ سُكَّان الأرض.

هُمَا ظاهِرَتَا اللَّيْلِ والنَّهار، اللَّتَّانِ هُمَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بسُكَّانِ الْأَرْضِ، إذْ وَاءَمَ بَيْنَ مَا فَطَرهُمْ عَلَيْه، وبَيْنَ مَا أعَدَّ لَهُمْ في الأرضِ الَّتِي اخْتَارَهَا لِيَسْكُنُوها.

ومن هٰذِهِ المواءمَةِ أَنْ جَعَلَ لَهُمْ لَيْلاً ليسْكُنُوا فِيه، وجَعَلَ لَهُمْ نهاراً ليعملوا فيه أعْمَالاً يَبْتغون بها مَا يَنَالُونَهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عليهم في أرْزاقهم ومطالب حياتهم.

الداعي إلى الله يخاطب المشركين مُسَائلاً: أتفكَّرْتُمْ في ظاهِرَتي اللَّيْلِ والنّهار، اللّتَيْن تفضّلَ اللَّهُ الرَّبُّ الخالِقُ الحكيم الذي يخْلُقُ مَا يَشاءُ ويَخْتَار بهما على عباده في الأرض رَحْمَةً بهم.

لَوْ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلاَلهُ ـ لَمْ يَجْعَلْ هٰذا النظام القائم بَيْنَ الأَرْضِ والشَّمْس، إذْ تَدُورُ الْأَرْضُ حَوْلَ نَفْسِها باتّجاه الشَّمْسِ في نظام دَقيقٍ جدًّا لم يَخْرِمْ طَوالَ مَلايينِ الْأحقاب، بَلْ جَعَلَ الْأَرْضَ مُظْلِمَةٌ دواماً، لَا تُشْرِقُ عَلَيْها شَمْسٌ يَجعَلُ فيها نهاراً بَلْ كَانَ اللَّيْلُ فِيها سَرْمَداً إلَىٰ يَوْمِ القيامَةِ.

فَهَلْ آلِهَتُكُمْ الَّتي تَعْبُدُونها منْ دُونِ اللَّهِ رَبِّكُمْ، قَادِرَةٌ على أَنْ تَأْتِيَكُمْ بضِيَاءِ مِنْ كَوْكبٍ من الكواكب الملْتَهبَة، فتَجْعَل علَىٰ أَرْضِكُمْ نَهاراً تُحقِّقُونَ فيهِ كثيراً مِنْ مَصَالِحِ حياتِكُم؟؟.

إنَّ أَحَداً من المشْرِكين لَا يَسْتَطِيع أنْ يَدَّعِيَ أنَّ إلَهَهُ أَوْ آلِهَتَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَادِرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَفْعَلَ ذٰلِكَ.

إنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ جواباً لِهَذَا السُّؤَال، بل يَصْمُتُون، وفي هٰذا الصَّمْتِ

إعْلَانٌ عَنِ اعْتِرافِهِمْ بأَنَّهُ لَا أَحَدَ غَيْرُ اللَّهِ الرَّبُّ الخالق يفْعَلُ ذلك.

عندئذ يقول لَهُمُ الدَّاعي إلى اللَّهِ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾: أي: أيْنَ آذانُكُمُ الّتي تَسْمَعُ بيانَاتِ الْحَقّ، وتَنْقُلُهَا إلَىٰ أجْهزَةِ التفكير فيكم حتَّىٰ تَعْقِلُوها، أصُمَّتْ فأنْتُمْ لَا تَسْمَعُون.

واختيرت في النصّ هُنا عَقِبَ هٰذ الطَّرْحِ الْجَدَلِيّ عِبَارَة ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟! لأنّ السُّؤَالَ يَتَعَلَّقُ باحْتِمالِ مَا لَوْ جَعَلَ اللَّهُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إلَىٰ يَوْمِ القيامة، فالظُّلْمَةُ يُلائِمُها السَّمْعُ لَا الْبَصر.

ومثل هذا من الاختيارات الفنيّة الأدبية.

السؤال الثاني الذي يَطْرَحُهُ الدَّاعي إلى اللَّهِ المناظر للمشركين، نظيرُ السؤال الأوّلِ تماماً إلَّا أنَّهُ يَتَعَلَّقُ باحْتِمَالِ أنْ يَجعَلَ اللَّهُ النَّهارَ سَرْمداً إلَىٰ يَوْم القيامة.

أي: لو جَعَلَ اللَّهُ النَّهارَ على الأرض دائماً لَا يَنْقَطِعُ إلىٰ يَوْمِ القيامة، فَهَلْ آلِهَتُكُمْ قَادِرَةٌ عَلَىٰ أنْ تَأتِيَكُم بلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فيه؟؟

إنَّهُمْ لَا يَجدُونَ جواباً لهذا السُّؤال أيضاً، بل يصْمُتُونَ، وفي هذا الصَّمْت إعلان عن اعترافِهم بأنَّهُ لَا أحَدَ غَيْرُ اللَّهِ الرَّبُّ الخالق يفْعَل ذَلِك.

عندئذٍ يقولُ لهم الدَّاعي إلى الله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي: أيْنَ أَبْصَارُكُمُ الَّتي تُبْصِرُ آياتِ اللَّهِ المشْهُودَةِ في كَوْنِه، وتَنْقُلُهَا إلى أجْهِزَةِ التَّفْكِيرِ فيكم، فَتَسْتَنْبطُونَ مِنْها أنَّهُ لا رَبَّ في الكَوْنِ إلَّا اللَّهُ، فَلَا إلَهَ إلَّا هو، أعَمِيَتْ أعْيُنُكُمْ فَأَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ.

واختير في النصّ هُنَا عَقِبَ هٰذا الطَّرْحِ الجدَلِيّ عبارَة: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟! لأنَّ السُّؤَالَ يَتَعَلَّقُ باحْتِمَالِ مَا لَوْ جَعَلَ اللَّهُ النَّهار سَرْمَداً إلى

يَوْمِ القيامة، فالنَّهَارُ يُلائمة اسْتِخْدَامُ الْبَصَرِ لرُؤْيَةِ آياتِ اللَّهِ المشْهُودَةِ في كوْنه. ومثل هذا مِنَ الاختيارات الفنيَّة الأدبيّة.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

هذه الآيَةُ بَعْدَ تَعْلِيم المناظرَة الْجَدَليَّة، جاءت معطوفةً على ما جاء في الآيات من (٦٨ ـ ٧٠) لبيانِ التَّرابُطِ في السُّورَةِ الّتي تَجْمعها وَحْدَةُ مَوْضوع.

أي: من آثار رَحْمَة اللَّهِ جلَّ جلالُهُ بعباده، ذَات الظَّوَاهِرِ الكونيَّة المتكرّرة أنَّهُ جَعَلَ للنَّاسِ اللَّيْلَ ليَسْكُنُون فِيه، والنهارَ لِيبْتَغُوا أرْزاقَهُمْ وَمَطالِبَ حَياتِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ.

والخطاب في: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ مُوَجَّهٌ للنَّاسِ جَمِيعاً، فهذا الْجَعْلُ الحكيم من مِنَنِ اللَّهِ علَىٰ عباده في ظُرُوف الحياة الدُّنيا.

وفي عبارة: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من البديع اللّفُّ والنَّشْرُ الْمُرتَّبُ. فاللّف في: ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ والنَّشْرُ في: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أوّلُهُما لأوّل ما في اللّف، وثانيهما لثاني مَا في اللّف.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: وَنرْغَبُ في أنْ تشْكُرُوا، لنَمْنحكُمْ سعادة الدُّنيا والآخرة.

قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الآيَتَين بَيَانُ مَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ يوم الدِّين، غير المشْهَدِ الذي سبَقَ تَدَبُّرُهُ في الدّرس الثالث من دُروس السُّورة.

وجاء بَدْءُ المشْهَدِ مُماثِلاً لما بُدِءَ به المشْهَدُ السَّابق، وفي هٰذا المشْهَدِ يَكُونُ المشْرِكُونَ مُجْمُوعِينَ مِنْ كُلّ الْأُمَمِ أَوّلِهَا وآخِرِها، فَيُناديهم الرَّبُّ جلّ جَلَالُهُ وَعظُمَ سُلْطانُهُ، نِدَاءً مطابِقاً للنداء الّذي نَادَاهُمْ إيَّاهُ في المشْهَدِ السَّابق، فيقولُ لهم:

﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾؟.

لكِنَّهُمْ في هٰذا المشهد قَدْ يُوجَدُ فيهم مَنْ يَعْتَذِرُون بأَنَّهُمْ لَمْ يَتَبَلَّغُوا مَا يجبُ عَلَيْهم تُجاهَ رَبّهم، من أنَّ اتّخاذ الشُّرَكَاء للَّهِ كُفْرٌ به، وأنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، دَلَّ على هذا المطْوِيّ في النصّ مَا جاء في الآية (٧٥) مِنْ إحْضَارِ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ قَدْ بلّغُوهم أنَّ الشّرْكَ باللَّهِ وَلَوْ مِنْ أوّلِ دَرَكاتِ الشَّرْكِ كُفْرٌ باللَّهِ، واللَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وأنَّ مَنْ مَاتَ وهُوَ على شِرْكِه بِرَبّه سَوْف يكُونُ خالداً في عذاب النار.

فقال الله تعالى:

- ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: أي: وَجَذَبْنا بِسُرْعَةٍ وأخْرَجْنا من كُلّ جَمَاعَةٍ، مَنْ كَانُوا في الدُّنْيا قَدْ بَلَّغُوا جماعَاتِهِمْ واجبَ اللَّهِ علَيْهِمْ، وحذّرُوهُمْ من الشّرْك بالله، وأبانُوا لهم أن مَصِيرَ المشركين هو الخلود في عذاب النار يوم الدّين.

وأوّلُ هٰؤلَاءِ الشُّهَدَاء الْمُرْسَلُونَ والأنبياء، ثم كُلُّ الدُّعاةِ إلى الله من الذي آمَنُوا بِرُسُلِ اللَّهِ واتّبَعُوهم، وبَلَّغُوا النَّاسَ مَا تَلَقَّوْهُ عن الْمُرْسَلِين، مِنْ أُصُول الدّين فَفُرُوعه.

وبَعْدَ إحْضَارِ الشُّهَدَاءِ من الرُّسُلِ والأنبياءِ والدُّعَاةِ إلى اللَّهِ من أَتْباع

الرُّسل، يُدْعَوْنَ لِتَقْدِيم شَهَادَاتِهِمْ بأنَّهُم بَلَّغُوا وبيَّنُوا مَا يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُونَ مِنَ المشركينَ في مَوْقف الحسَاب يَوْمَ الدّين.

فيقولُ اللَّهُ عزّ وجلّ للجاحِدِينَ من المشركين: هَاتُوا بُرْهَانَكُمُ الَّذِي يُثْبِتُ مَا تَدَّعُونَ، دَلَّ علَىٰ هٰذا: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾.

لكِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ بُرْهَاناً يُثْبِتُ ما يَدَّعُون، وقَدْ بَهَتَتْهُمْ شَهَاداتُ الشُّهَدَاءِ علَيْهِمْ، فيَخْضَعُونَ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ كُلَّهُ لِلَّهِ، ولَيْسَ لهم شيء مِنَ الحقّ، دَلَّ على هٰذا: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ وبَحَثُوا عَنْ شُرَكَائِهِمْ لِيَنْصُرُوهم، أو لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهم، فلَمْ يَسْتَجِيبُوا لهُمْ، أَوْ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ أثراً، إذْ كانُوا أوهَاماً أو أَسْمَاءً هُمْ سَمَّوْها لَا حقيقة لها، دَلَّ على هٰذا: ﴿.. وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: وَضَاعَ مِنْهُمْ شُرَكَاؤهم الذين كانُوا يَفْتَرُونَهُمْ على اللَّهِ رَبّهم.

الشُّهَدَاءُ يَوْمَ الدّين في دَلَالَاتِ النُّصُوص القرآنيَّة:

(١) جاء في القرآن بَيَانُ أَن النبيّين والشُّهَدَاءَ على النّاسِ من غير النبيّين يُؤْتَىٰ بِهِمْ، ليُؤَدُّوا شَهادَاتِهم علَىٰ الّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لبلاغاتهم الّتي بَلَّغُوا بِهَا آيَاتِ رَبّهم، ومطالِبَهُ من عباده في رحلة امتحانهم:

- فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحفٌ/ ٥٩ نزول) بَشَأْنِ يَوْمِ الْقِيَامة:

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: وجيء بالنبيّين وبالشُّهَداء من غيرِ النبيّين، لِيَشْهَدُوا علَى أهل الجحود بأنهم بَلَّغُوهم آيات رَبّهم، ومطالِبَهُ من عباده في رحلة امتحانهم، والكتاب الذي يُوضع يَنْبَغِي أن يكون كتابَ أعْمالِ العباد، فهو المناسب

للشهداء وللقضاء بينهم بالحق، وقد يكون كتاباً عامًّا جامعاً لكل الكتب التي وزِّعَتْ عليهم وفيها تسجيل أعمالهم.

• وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سُورَة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: وَيَوْم القيامَةِ نَبْعَثُ مِنْ كلِّ أُمَّةٍ كُبرَىٰ أو صُغْرَىٰ شَهِيداً من النبيِّين أو من غَيْرِ النبيّين من الدُّعاة إلى اللَّهِ أتباع الْمُرْسَلِين، لِيَشْهَدوا على الناسِ بأنَّهمُ بَلَّغُوهم رِسَالَاتِ رَبّهم.

ثُمّ بَعْدَ الْحُكْم على الّذِين كَفَرُوا بالكُفْرِ وباسْتِحْقَاقِ الْخُلُودِ في عذاب النار، لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ بأَنْ يُجَادِلُوا أَوْ يَعْتَذِرُوا، وإذا سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَيَتَجاوزَ عَنْ جَرائِمِهم، فَإِنَّهُمْ لَا يُسْتَعْتَبُون.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: ولَا هُمْ يُرْفَعُ عَنْهُمُ الْعَتْبُ واللَّوْمُ بالْعَفْوِ أو الْغُفْران، لِأنَّ جَرائِمَهُمْ هي من دَرَكاتِ الكُفْرِ الَّذِي لَا عُذْرَ لَهُمْ به.

• وقول الله عزّ وجلّ الذي سبق تدبّره آنفاً من سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... ﴿٧٥﴾﴾.

(٢) وجاء في القرآن بالنسْبَة إلى رسُولِ اللَّهِ مُحَمَّد ﷺ، والدُّعاة إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّته.

• قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَيومَ القيامَةِ نَبْعَثُ فِي كُلّ أُمَّةٍ كُبْرىٰ أَوْ صُغرىٰ شهِيداً عَلَيْهِمْ

هُو مِنْ أنفُسِهِمْ لُغَةً وانْتِمَاءً، من النبيّين، أو من غير النبيّينَ، من الدُّعَاة إلَىٰ الله أتْبَاعِ الْمُرْسَلِينَ، لِيَشْهَدُوا على الناس، بأنَّهُمْ بَلَّغُوهم رِسَالَاتِ رَبّهم.

وجئْنَا بِكَ يَا مُحَمَّدُ شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ تُبَلِّغُهُمْ رِسَالاتِ رَبّك، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بمَا بَلَّغْتَهُمْ إيّاه.

﴿.. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَنزّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ المشتَمِلَ على ما يلي:

أ ـ أنَّهُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ من الْأشياء الَّتي فيها نجاتُهُمْ يَوْم الدِّين وفَوْزُهم بجَنَّاتِ النعيم.

ب ـ وأنَّهُ هُدًى يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ صِرَاطِ سَعادَتِهِم في دُنْيَاهم وآخِرَتهم.

جـ ـ وأنَّهُ رَحْمَةٌ لَهُمْ إذْ يُرْشِدُهُمْ إلى ما يَدْفع عنهم الضُّرَّ والْأذى، ويَجْلِبُ لَهُمُ الْخَيرَ العظيم في الحياة الدنيا وفي الآخرى.

د ـ وأنَّهُ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمين يُبَشِّرُهم بِرِضوانِ اللّهِ عليهم، وبالسَّعَادَةِ الأبَدِيَّةِ الخالِدَةِ في الجنَّةِ يوم الدين.

• وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لأمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾﴾:

دلَّ هذا البيانُ علَىٰ أنَّ اللّهَ عزَّ وَجلَّ اصْطَفَىٰ ـ بصِفَةٍ عَامَّةٍ ـ أمَّةَ مُحَمَّدٍ خَاتم المرسَلِينَ، لَا كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أفرادِهم، فجعلَهُمْ ـ بصِفَةٍ عامَّةٍ ـ عُدُولاً (وَسَطاً) إذْ لَا تَزَال طائِفَةٌ مِنْهُمْ ظاهِرِينَ على الحقّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ

خَالَفُهُمْ، وبِسَبَبِ ذَلِكَ تَكُونُ شَهَادَاتُهُمْ مَقْبُولَةً عند اللَّهِ على النَّاسِ يَوْم الدِّين، بأنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ للناسِ كَمَا تبلَّغُوها مِنَ الرَّسُول ﷺ، أَوْ تَبَلَّغُوهَا عَنْهُ بالسَّنَدِ المتّصِلِ الْقَطْعِيّ، باعْتِبَارِ أَنَّهم أُمَّةُ دَعْوَةٍ إِلَىٰ اللَّهِ وإلى صراطِهِ المستقيم، مُكَلَّفُونَ أَنْ يُبَلِّغُوا الناسَ جميعاً رِسَالَاتِ رَبِّهم الّتي أَنْزَلَها على خَاتم أنبيائه ورُسُله، علَىٰ تَوَالي الْعُصُور والأحقاب.

- وقول الله عزّ وجل في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً للّذِينَ آمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾:

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: أي: هو اصْطَفَاكُمْ واختارَكُمْ مِنْ بَيْنِ جميع الأمم لتبليغ رِسَالَاته للناس.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: أي: وَمَا جَعَلَ عليكم في الدِّين الذي أَنْزَلَهُ على رَسُوله مُحَمَّد مِنْ ضِيقٍ وَشِدَّة، بَلْ هُو يُسْرٌ سَهْلٌ لَا إِصْرَ فِيه.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾: أي: من قَبْلِ بِعْثَةِ محمد ﷺ، ومِنْهُ قولُهُ عليه السلام في دُعائه وهو يبني الكعْبَةَ مَعَ وَلَدِهِ إسماعيل عليهما السلام:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ . . . ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة).

﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: وَفي هٰذا الدِّين أَنْتُم مُسْلِمون.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأنَّهُ بَلَّغَ رِسالات رَبه.

﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾: إذا قُمْتُمْ بواجِبِكُمْ فَبلغْتُمْ رِسَالات ربكم للناس. وبهذا انتهى تدبّر الدرس الرابع، والحمد لله على مَدَدِه وتوفيقه ومعونته.

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُرُوس سورة (القصص)

الآيات من (٧٦ ـ ٨٢)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ (٧٦) وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ (٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ (٨٠) فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٢)﴾.

القراءات:

(٧٨) ● قرأ نافع، وقنبل، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: **[عِنْدِيَ أو لم]** بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

(٧٨) • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [عَنْ ذُنُوبِهِمِ الْمُجْرِمُونَ] بكسر الهاء والميم من «ذُنُوبِهِمِ» وقرأها حمزة، والكسائي، وخلَفٌ بضَمِّهِما، وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الهاء وضمّ الميم.

(٨١) • قرأ أبو جعفر: [مِنْ فِيَةٍ] بالياء بَدَل الهمزة. وقرأها بَاقي القرّاء العشرة ﴿مِن فِئَةٍ﴾ بالهمزة.

(٨٢) • قرأ حفص، ويَعْقُوب: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لَخَسَفَ اللَّهُ بنا. وقرأها باقي القرّاء العشرة [لَخُسف بِنَا] بالبناء لما لم يُسَّم فَاعِلُهُ.

ومَعْلُومٌ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ هُوَ الّذي يَخْسِفُ بهم إنْ شاء.

تمهيد:

في هذه الآيات بيانُ لقَطَاتٍ مِنْ قصّة قارُون، وفي هذه اللّقطاتِ عِبْرَةٌ يَعْتَبر بها أولُو الْألبابِ الّذِين يُؤْمِنُون بالله وحكْمَتِه وعَدْله، ويُؤْمِنُونَ بيَوم الدّين، إذْ لقِصَّةِ قارُونَ أشْبَاهٌ كثيرة في التاريخ الإنْسَانيّ، ولَا يَزَالُ كثيرونَ منَ النَّاسِ يُكَرِّرُونَ ما صَنَعَ قارُون، ويُنْزِلُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ عُقُوبَاتِهِ فيهم، بوجْوهٍ مخْتَلِفة غَيْرِ الْخَسْفِ الّذِي عاقَبَ بِه قارُونَ ومَنْ مَعَهُ علَىٰ قبائحهِ في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبْقَىٰ.

وقصَّةُ قارُون وهُو مِن بني إسرائيل ذاتُ صلَةٍ فكْرِيَّةٍ بقِصّة فرعونَ في السّورة وهُوَ من المصْرِيين، وفيهما دلالة على أنّ سُنة الله في عباده واحدَةً فَمَن طغى وبَغَىٰ أهْلَكَهُ الله وعاقبَهُ بما هو له أهل، والعبرة فيهما متشابهة.

مختارات مِنْ قصة قارُونَ عِنْدَ أهْلِ التّاريخ مع مفهومات أخرى:

(١) رُوِي عن ٱبْن عباسٍ أنَّهُ كان ٱبن عَمّ مُوسَىٰ، فهو من الإسرائيليين في مصر، وقيل بشأن قرابتِهِ لموسى عليه السلام غير ذلك واللَّهُ أعلم.

(٢) تَدُلّ قرائنُ قصّتهِ أنَّهُ تَزَلَّفَ إلَىٰ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ، فمكّنُوهُ مِنْ جَمْعِ ثَرْوةٍ

مَالِيَّةٍ عظيمةٍ في مصر، ليكُونَ عيْناً وَيَداً لهم على الإسْرَائيليين وهو مِنْهُمْ نسَباً وقَوْميَّةً، فيكُون خادماً مُطِيعاً مِنْ خدّام الْقَصْرِ الفرعونيّ في قَوْمِه.

(٣) جمع من الأمْوال واكْتَنزَهَا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَة، وأقْفَلَ عليها بأقفالٍ ذاتِ مَفاتيحَ، ولكَثْرَةِ هٰذِهِ المفاتيح وثِقَلِها تضْعُفُ الجماعةُ من الناس عن حَمْلِها بنَشاطٍ وقوَّة، فإذا حَمَلُوها مالَتْ ظُهُورُهم من ثِقَلِها عجْزاً عن النُّهُوضِ بها قَائمين، إذْ كانت مَفَاتيح حَدِيديَّة كبيرة تُلَائمَ الأقفال العظمية التي تقفَلُ بِها أبواب الكنوز.

(٤) وكان «قارون» يتعاظم علىٰ بني إسْرَائيل ويتبَاهَىٰ مُتفاخِراً بأمْوَالِه، ومَرَاكِبه، وَخَدَمِهِ، وزينَتِهِ، إغراءً لكبراء قَوْمِهِ أنْ يكُونوا مثْلَه أعْوَانَ الْقَصْرِ الفرعَوْنيّ علَىٰ قَومِهِمْ، حَتَّىٰ لا يَثُوروا على التَّسْخِير والاسْتعبادِ الذي هُمْ فيه.

(٥) وعَظَهُ الناصِحُونَ أهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والإيمانِ من قومه الإسرائيليين، فقالُوا لَهُ: لَا تَفْرحْ مُسْتَكْبِراً بما آتاكَ اللَّهُ من أمْوالٍ وزِينَةٍ وَخَدَمٍ وأعْوَان، وابْتَغ في هٰذا الّذِي آتاكَ اللَّهُ إيَّاهُ ثوابَ الدَّارِ الآخرة، ودرجاتِ النعيم في الجنَةِ دَارِ الخلُود يَوْمَ الدّين، ولَا تَنسَ أَنْ تَأخُذَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا، لحاجات حياتِكَ ومطالِب نَفْسِك ممَّا أبَاحَ الله.

ورأَوْهُ شحيحاً بخيلاً، لا يُقَدِّمُ إحساناً ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، فقالوا لَهُ: وَأَحْسِنْ إلى النَّاسِ كما أحْسَنَ اللَّهُ إلَيْك، شُكْراً لله على مَا آتاك.

ورأَوْهُ مُفْسِداً يَبْتَغِي بإفْسَادِه مصَالِحَ نَفْسِهِ، وخِدْمَةَ فرعونَ وآله، ضِدَّ قَوْمِهِ بني إسْرَائيل، فقالوا له: وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ في الأَرْضِ إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِين، أي: فَهُوَ يَنْقِمُ عليهم ويُعَاقِبُهم.

فاسْتَكْبَرَ عَنْ أَنْ يَعْتَرِفَ بأَنَّ مَا لَدَيْهِ مِنْ أمْوَالٍ وَمَتَاعٍ وزِينَاتِ الحيَاةِ الدُّنْيَا، هو من فضلِ اللَّهِ عليه، وأَنَّ اللَّهَ هُو الَّذي آتاهُ ذَلِكَ، فَرَدَّ علَىٰ

نَاصِحِيهِ بكلِمَةِ كُفْرٍ بقضاء اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَمنَّتِه علَيْه، فقال لَهُمْ جاحداً نِعَمَه: إنَّمَا أُوتِيتُ هٰذا الَّذِي أَمْلِكُهُ مُكَافَأَةً كَوْنِيَّةً لي علَىٰ عَلْمٍ عِنْدِي بأسْبَابِ تَحْصِيلِ الثَّرواتِ، وحُسْنِ التَّدْبير والتَّصرُّفِ في اكْتِسَابِ الأمْوالِ والمنافع واللَّذَّاتِ والزِّينَاتِ وَمظاهر المجْدِ والعظمة.

(٦) وَإمْعَاناً في تَعَاظُمِهِ واسْتِكْبَارِه علَىٰ قَوْمِهِ، أرادَ أَنْ يُظْهِرَ لقَوْمِهِ بَنِي إسْرَائيل مَا هُوَ فِيه من غِنَىٰ وَمَجْدٍ وعظَمَةٍ وَزينَاتٍ من زِيناتِ الحياة الدّنيا، فأعَدَّ لِنَفْسِهِ مَوْكباً كبيراً مُحلّىً بالزِّينات، فيه المراكب الّتي تَجُرُّهَا الْخُيُولُ علَىٰ مَا هُو مُعْتَادُ الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِي، وفيه الْخَدَمُ والْحَشَمُ والأعلامُ التزينيَّةُ وغَيْرُ ذَلِكَ مِن مظَاهِرِ الْعَظَمَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَخَرَجَ يَمُرُّ بهذا الموكِب في طُرُقَاتِ أحْيَاءِ وَمَسَاكِنِ بني إسرائيل في مصر، ولَا بُدَّ أَنْ يكُونَ ذَلِكَ بإذْنٍ من الْقَصْرِ الفِرْعَوْني، إذْ فِيه تَقْوِيَةُ شَأْنِهِ بَيْنَ قَوْمه.

فكان بَنُو إسْرَائيلَ في أَحْيَائهم وَمَسَاكِنِهِم وهُوَ مَارٌّ بمَوْكِبِهِ الْفَخْمِ في طُرُقَاتِهِمْ فَرِيقين:

الفريق الأول: فَرِيقُ الدَّهْمَاء، وهُمْ عَامَّة النَّاسِ وسَوَادُهم الأكْبَر، الّذِين تَغرُّهم وَتَفْتِنُهُمْ مظاهِرُ الحيَاةِ الدنيا وَزِينَاتُها، ونُفُوسُهُمْ مُتَعلِّقَةٌ بها، ولمَّا رأىٰ هٰؤلَاء مَوكِبَ قَارُونَ بعظَمَتِهِ وَزِينَاته قالُوا: يَا لَيْتَ لَنا مِثْلَ مَا أُوتِي قارون، إنَّهُ لَذُو حَظٍّ عظيم.

الفريق الثاني: الْقَلِيلُونَ الَّذِين أُوتُوا الْعِلْمَ الْحَقّ، والبَصِيرَةَ الواعِيَةَ، وقُلُوبُهُمْ ونُفُوسُهُمْ مُتَعلِّقَةٌ بالآخِرَةِ، وَثَوابِ اللَّهِ العظيم فيها.

وهؤلاء لمَّا رَأَوْا مَوْكِبَ قَارُونَ لَمْ يَغْتَرُوا به، ولَمْ يَكْتَرِثُوا له، ورَأَوْا أنَّ ثوابَ اللَّهِ يَوْم الدِّينِ خَيْرٌ وأعْظَمُ وأبْقَىٰ.

وسَمِعَ هٰؤلاء مقالَةَ فَرِيق الدَّهْماء فقالُوا لهم: وَيْلَكُمْ مِنْ تَمَنِّيكم أَنْ تُؤْتَوْا مِثْلَ ما أُوتِيَ قَارُون، ومِنْ تَصَوُّرِكُمْ أَنَّهُ لَذُو حظٍّ عظيم، اعْلَمُوا أَنَّ

ثوابَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ خَيْرٌ وأجَلُّ وأعْظَمُ وأبْقَىٰ، لِمَنْ آمَنَ إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، وعَبَّرَ عِنْ صِدْقِ إيمانِه بِعَمَلٍ صَالِحٍ فيه مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عزَّ وجل، واعْلَمُوا أنَّ صفاتِ الْإيمانِ الصحيح الصّادِقِ، مع التعبير عنْهُ بالْعَمَلِ الصَّالح، مَا يُلَقَّاهَا بتوفيق اللَّهِ ومَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ إلَّا الصَّابِرُون، الّذِين لَا يُعْطُونَ نُفُوسُهُمْ هواها، فيكفُونَ نَفوسَهُمْ عمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عليهم صَابِرِينَ، ويؤَدُّونَ ما يُقَرِّبُهُمْ إلى اللَّهِ مِنْ أعمالٍ تَشُقُّ علىٰ نفوسهم صابرين، بإرادات قويَّةٍ تَشُدُّهُم إلَىٰ ما أعَدَّ اللَّهُ لِعِبادِهِ الصَّالِحين في جناتِ النّعيم يوْمَ الدّين.

(٧) رُوِي أنَّ قَارُونَ أعْطَىٰ امْرَأةً بَغِيًّا مَالاً، لتَقُولَ لموسَىٰ في مَلأ من بني إسْرَائيلَ إنَّكَ زَنَيْتَ بي، ففَعَلَتْ هٰذِهِ الْبَغِيُّ مَا طَلَبَ مِنْهَا قارُون، فانْتَفَضَ مُوسَىٰ علَيْهِ السَّلامُ مُغْضَباً، وصَلَّى لِرَبِّه رَكْعَتَيْنْ، ثُمَّ أقْبَلَ على المرأةِ البغيّ، فاسْتَحْلَفَهَا بِشَأْنِ ما زَعَمَتْ، وقال لَهَا: مَا حَمَلَكِ علَىٰ هٰذا؟ فَقَذَفَ اللَّهُ في قَلْبِهَا رُعْباً، فَقَالَتْ: إنَّ قَارُونَ هو الّذِي اسْتَأْجَرَها لِتَقُولَ هٰذِهِ الْفِرْيَة، واسْتَغْفَرَتْ، فَخَرَّ مُوسَىٰ لِلَّهِ سَاجداً، ودَعَىٰ علَىٰ قارون.

(٨) فَخَسَفَ اللَّهُ بقارُونَ وبدارِهِ الْأَرْض، ولَمْ يَجِدْ أَحَداً يَحْمِيهِ مِنْ عِقَابِ الله، ولَمْ يَجدْ لَدَىٰ آلِ فِرْعَوْن مَنْ يَنْصُرُه، لِأنَّ رَبَّهُ قَدْ أَنْزَلَ بِهِ نِقْمَتَهُ خَسْفاً فَأهْلَكَتْهُ وابْتَلَعَتِ الأرْضُ دَارَهُ وكُنُوزه ومَنْ قَضَىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ بالإهْلَاك من أهله وأنْصارِه، وأقْبَرَهُمُ اللَّهُ في بَاطِنِ مَكانِ الْخَسْفِ، وكانَ هٰذا لَيْلاً أوْ عِنْدَ الْفَجْر.

(٩) أمّا فِرِيقُ الدَّهماء الّذِين سَبَقَ أنْ تَمَنَّوا أَنْ يكون لَهُمْ مِثْلُ مَا آتَىٰ اللَّهُ قارُون، فَقَدْ أصْبَحُوا يَقُولُون مُذْعِنِينَ لحكْمَةِ اللَّهِ ومعترفين بفَضْلِ اللَّهِ عليهم إذْ لم يَجْعَلْهمُ مِثْلَ قَارُون، وعَالِمِين بأنَّ بَسْطَ الرِّزْقِ وتضييقه إنَّما هُما لِحِكْمَةِ امْتِحانِ كُلِّ فَرْدٍ بما آتاه الله، ولَيْسَ مَنْ بَسَطَ الله

لَهُ الرّزقَ قَدْ فضَّلَهُ رَبُّهُ بذلك على مَنْ قَدَرَ عليه الرِّزْق، بل قد يكونُ سَبَبَ طغيانِهِ وَهَلاكه، وأصْبَحُوا يُدْرِكُون أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ مَنَّ عَلَيْهِم إذْ لَمْ يَجْعَلْهُم مِثْلَ قَارُون، إذْ لو كانوا مِثْلَهُ لكانَ من المحتَمِل أَنْ يَطْغَوْا مثْلَما طَغىٰ، وأَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ عِقَابُ اللَّهِ مِثْلَمَا نَزَلَ به، وأعْلَنُوا أنَّهُ لَا يُفْلَحُ الْكَافِرُونَ.

توجد مَرْوِيَّاتٌ في قِصَّةِ قارونَ ما اسْتَسَغْتُها، ولم أَجِدْ لَهَا أَسَانِيد تَجْعَلُها مقْبُولَةً فيما يُرْوَىٰ، فَأَعْرَضْتُ عنها.

التَّدَبُّر التحليلي:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

- ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾:

«قارُون» كان ٱبن عم مُوسَىٰ في أرْجَح الرّوايات، ولفظه ممنوعٌ من الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيّة والْعُجْمَة.

- ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾: أي: كَانَ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، وجَرَتْ أَحْدَاثُ قِصَّتِه الآتِية إذْ كَانُوا يُنْسَبُونَ إلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام بَعْدَ عَوْدَتِه مِنْ مَدْيَنَ نَبِيًّا وَرَسُولاً، فَهُمْ قَوْمُ مُوسَىٰ من ذلِكَ الحين، إذْ كان قائِدَهم والمطالِبَ بحُقُوقِهِمْ، عِنْدَ فِرْعَوْن وآلِهِ وسَائِر السُّلْطة الحاكمة في مصْرَ حينَئذٍ.

- ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: أي: فَظَلَم قَوْمَهُ الإسْرَائيليّينَ وفي مقدمَتِهِمْ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وَتَكَبَّرَ عَلَيْهم، وصَار يَنْشُر فيهم الفساد والإفساد.

البغي: تجاوُزُ الحَدِّ المألُوفِ نظيرُه لَدىٰ الجائرين عن الصراط المستقيم، ويُطْلَقُ علَىٰ الْغُلُوّ في الكِبْر، والظُّلْم، والفساد والإفساد في الأرض.

ومِنْ بغْيِهِ على مُوسَىٰ عليه السّلام مَا جاء في قصَّتِه عند المؤرخين من أنَّه اسْتَأْجَرَ امرأةً فاجرَةً لتَتَّهِمَهُ بأنَّهُ فَجَرَ بها، فَصَلَّىٰ مُوسَىٰ عليه السلام ركْعَتَيْن، وتَوَجَّهَ لها سَائِلاً مَنِ اسْتَأْجَرَك للافتراء عليَّ، فقالَتْ أمَامَ جُمْهُورِ قَوْمِهِ: قَارُون، فظَهَرَتْ بَراءَتُهُ وَخَسِئَ قارون.

ومَا كان باسْتِطَاعَة «قارون» أَنْ يَبْغِيَ على قَوْمِهِ وهُوَ مِنْهُم لَولَا أَنَّهُ تَزَلَّفَ إلَىٰ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِي، وجَعَلَ نَفْسَهُ خادِماً لمصَالح فِرعَوْنَ وآلِهِ فِي قَوْمِهِ، ضِدَّ مُوسَىٰ وهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ومَن اتَّبَعَهُمَا، فَمَكَّنَ لَهُ فِرْعَوْنُ فِي مِصْرَ أَنْ يَجْمَعَ أَمْوالاً كثِيرَةً وَيَكْنِزَهَا في كُنُوز، وأَنْ تَكُونَ لَهُ مظَاهِرُ سُلْطَانٍ واسْتِكْبارٍ علَىٰ قَوْمِهِ، ليكُونَ عَوْناً للْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ علَىٰ إذْلَالِ بَنِي إسْرَائيل في مِصْر، وتَسْخِيرهم واسْتِعبادهم.

- ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾:

الكُنوز: جَمْعُ مُفْرَدُه «الكَنْز» وهو المال من الذَّهَب والفضّةِ والجواهِرِ الكريمة ونحو ذلِكَ، الَّذِي يُدْفَنُ في باطِنِ الأَرْض، أو في أَمَاكِنَ حَصِينَةٍ دَاخِلَ مَبَانِي لَا يُسْتَطاعُ الْوُصُول إلى داخِلِها إلَّا بقُوىً عظيمةٍ تُفُوق الْقُوَىٰ المعتادة للناس.

وقَدْ آتَىٰ اللَّهُ عزّ وجلَّ قَارُونَ بتَمْكِينهِ منَ الوسائل السَّببيَّةِ كنُوزاً كثيرةً، اكْتَنزَها فِي مَبَاني حصينَةٍ، ذَاتِ أبوابٍ تُقْفَلُ بإحْكَامِ بالِغ، فَلَا تُفْتَحُ إلَّا بمَفَاتِيحَ خَاصَّةٍ بها، وقَدْ جَمَعَها فِي ظِلِّ خِدْمَتِه لِفِرْعَوْنَ وآلِهِ ضِدَّ قَوْمِه.

• ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾: «مَا» اسْمُ مَوْصُول بِمَعْنَىٰ الّذي «إِنَّ» واسْمُها وَخَبَرُها صِلَةُ الموصول، ولهٰذا جاءت «إِنَّ» مَكْسُورةً.

﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾: الضمير يَعُودُ على اسْم الموصول «ما» ولفظ «مَفَاتِح» جَمْعُ «مِفْتَح» وهو المفْتَاح، وفي الجمع يُقال: «مَفاتح» و«مَفَاتِيح».

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾: يقالُ لُغَةً: «نَاءَ بالرَّجُلِ الْحِمْلُ» أي: ثَقُلَ عَلَيْهِ فَأَمَالَهُ عَجْزاً عَنِ النهوض بِهِ قَائماً.

و«الْعُصْبَةُ» هِيَ الجمَاعَةُ مِنَ النَّاس.

فَدَلَّت الْعِبَارَةُ عَلَىٰ أَنَّ مَفَاتِحَ أَبْوابِ كُنُوزِ قَارُونَ، إذَا حَمَلَتْهَا الجماعَةُ منَ الرِّجال ذَوِي الْقُوَّةِ، مَالَتْ ظُهُورُهُم مِنْ ثِقَلِهَا عَجْزاً عَنِ النُّهُوضِ بها قَائِمين.

أقول: هٰذا يَسْتَلْزِمُ ذِهْناً أَنْ تَكُونَ مَفَاتيحَ حَدِيدِيَّةً كبيرَةً، تُفْتَحُ بِهَا أَقْفَالٌ عظيمَةٌ مُثَبَّتَةٌ فِي أبواب الكنوز، أمّا ما قيل من أنّها صغيرة، أو مِنْ جُلُودٍ فغيْرُ مقْبُولٍ عقلاً.

وقال لَهُ عُقَلاءُ قَوْمِهِ وراشِدُوهُمُ المؤمِنُونَ، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ في مُقَدِّمَتِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونُ عَلَيْهِما السلام، خَمْسَ مَقَالاتٍ نَصَحُوهُ وَوَعَظُوهُ بها، جاء في هٰذا النَّصِّ بيانُ عُنْوَانَاتِها، وهِيَ كما يلَي:

المقالَةُ الأولَىٰ: دلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿.. إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾:

أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي أيًّا كُنْت قَوْلَ قوم قارونَ له: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾ يأتي الفَرَحُ في اللُّغَة بمعنىٰ البَطَرِ والأشَر، أي: بمعْنَىٰ الاسْتِكْبَارِ والتفاخِرِ والتَّعَالي علَىٰ الناس، ومعْلُومٌ أنَّ مَنْ فَرِحَ بكَثْرَةِ أمْوالِه، طَغَىٰ

فَرحُهُ عَلَىٰ بَصِيرَتِهِ فَطَمَسَها، فَصَارَ يَتَصَرَّفُ تَصرُّفَ الطُّغَاة، وهذا المعنَىٰ هو المراد هُنَا مِنَ النَّهْي عَنِ الْفَرح.

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾: أي: كُنْ عَلَىٰ حذَرٍ من نِقْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وعِقَابه، فَمَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ بإرادَتِهِ في زُمْرَةِ مَنْ لَا يُحِبُّهم اللَّهُ عزّ وجلّ، فَقَدْ جَعَلَها عُرْضَةً لِنِقْمَةِ اللَّهِ وعِقَابِهِ الشديد.

فالعبارة استخدمَتْ على سَبِيلِ الكنايَةِ للتَّرْهِيبِ من عقابِ اللَّهِ الشديدِ ونِقْمَتِه، كما عاقَبَ الْفَرِحينَ المسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِه.

المقالة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ الله عزّ وجل: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: **وابْتَغ:** أي: واطْلُب، يُقَالُ لغة: «بَغَىٰ الشَّيْءَ وابْتَغَاهُ، أي: طَلَبَه.

المعنى: واطْلُبْ فيما آتاكَ اللَّهُ مِنْ مَالٍ كثيرٍ، وَوَافِرٍ مِنْ زِينَةِ الحياةِ الدُّنْيَا، وتَمَكُّنٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، ثوابَ رَبِّكَ الَّذِي لَا يَنْفَدُ، لأَنَّهُ ثَوابٌ خَالِدٌ فِي جَنَّاتِ النعيم، فاعْمَلْ فِيمَا آتاكَ اللَّهُ ليَبْلُوكَ، أعْمالاً صالِحَةً تُرْضِي اللَّهَ عَنْكَ، فَيُدْخِلُكَ فِي رَحْمَتِهِ، ويَجْعَلُكَ من الخالِدِينَ في جَنَّتِهِ يَوْمَ الدِّين.

المقالَةُ الثَّالِثَة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

هٰذِه مَقَالَةٌ احْتَراسِيَّةٌ تَكْشِفُ حُدُودَ المنْصُوحِ به في المقالة الثانية، أيْ: ولَا تَفْهَمْ أَنَّنا نَنْصَحُكَ، أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ ما آتَاكَ اللَّهُ مُوَجَّهاً لتَحْصِيلِ ثَوَابِ الآخِرَةِ في جنَّاتِ النَّعيم، بَلْ نَقُولُ لَكَ أيْضاً: وَلَا تَتْرُكْ نَصِيبَكَ الَّذِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَمْتِعَ به مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ ما تُحِبُّ أَنْ تكُونَ مُرَفَّهاً فِيهِ أنت ومَنْ تُحبُّ ممَّا أحَلَّ اللَّهُ لك.

أَصْلُ معْنَىٰ النِّسْيَانِ في اللُّغَةِ التَّرْكُ، وهٰذا المعنى هو الملائم هنا.

المقالة الرابعة: دلَّ علَيْها قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾:

تَدُلُّ هٰذِهِ النَّصيحَةُ الموجَّهَةُ لقَارُونَ مِنْ قَوْمِه وفي مقدمتهم موسَىٰ وهارونُ عليهما السلام، علَى أنَّ قَارُون كان شحيحاً مُمْسِكاً، لا يُسَاعِدُ فُقَراء قَوْمِهِ وضُعَفَاءَهم ومَسَاكِينَهُمْ وذوي الحاجاتِ فيهم، بَلْ يَتعاظَمُ ويَسْتَكْبِرُ ويتَفَاخَرُ عَلَيْهِم، دُونَ أَنْ يُحْسِنَ إِلَىٰ ذَوِي الضَّرُوراتِ والحاجَاتِ فيهم، بمالٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَل.

يقال لغة: «أَحْسَنَ الرَّجُلُ إِحْسَاناً» أي: فَعَلَ مَا هو حَسَنٌ، كَبَذْلِ مالٍ في وجْهِ مِنْ وُجُوه الخير الّتي يُبْتَغَىٰ بِها وَجْهُ اللَّهِ عزّ وجلّ، وكتَوْجِيه نَصِيحَةٍ حَسَنَةٍ بقَوْلٍ لَيِّنٍ رَفيق، وكَمُسَاعَدَةٍ بِعَمَلٍ مِنَ الأَعْمَالِ الحسَنَةِ ممَّا يُحِبُّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فِعْلَهُ.

وتُطْلَقُ الحسَنَةُ علَىٰ الصَّدَقَة، وكلُّ هٰذه المعاني ملائمة لحَمْلِ المقالَةِ علَيْها، لكن يأتي في مُقَدِّمَتِها بالنِّسْبَةِ إلى قارُون، دَعْوَتُهُ إلى الإحْسَانِ بِبَذْلِ مَالٍ ممَّا أَحْسَنَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ في وُجُوهِ الخير والبّر.

وَلَا يَرِدُ هُنَا معنَىٰ الْإِحْسَانِ في العبادة الّذي هُو المرتَبَةُ الْعُلْيَا مِنْ مَرَاتِب عبادة الله «التَّقْوىٰ والْبِرّ والإِحْسَان» فَقَدْ جاء تفسير هٰذا الإحسان في بيان الرَّسُول ﷺ بقوله: «أَنَّ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاه».

فَدَعْوَة قَارُونَ إلى أَنْ يُحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ، دعْوَتُهُ إِلَىٰ فِعْلِ مَا هُو حَسَنٌ كَمَا سبَقَ بيانه.

المقالة الخامسة: دَلَّ علَيْها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿.. وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾:

الْفَسَادُ: التَّلَفُ الّذي يُصِيبُ شيئاً مَا، ويُحَوِّلُهُ مِنْ كَوْنه صَالحاً نافعاً،

إلى كَوْنِهِ غَيْرَ صَالحٍ ولا نَافع، بَلْ رُبَّما يَصِيرُ ضَارًّا كريهاً مُفْسِداً لِغَيْرِه من الأشياء الصَّالِحَة.

ويَشْمَلُ الْفَسَادُ الماديّاتِ، والمعنويات النفسيَّة، والمفْهُومَاتِ الفِكْرِيَّة، فَإِتْلَافُ المباني الصالحة والمزارع النافِعَةِ مِنَ الإفْسَادِ في الأرْض، وتَرْبِيَةُ النُّفُوسِ علىٰ الحقْدِ والحَسدِ، وكَيْدِ الناس وسَلْبِ أموالِهم بغَيْرِ حقٍّ، والطَّمَعِ بمَا آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وإفْقَارِهِمْ وإذْلَالِهِمْ وتَسْخِيرِهِمْ بالإكْرَاهِ، واسْتِعْبَادِهِمْ بغَيْر حقٍّ، من الْإِفساد في الأرض، وَطَرْحُ الشُّبُهَاتِ ضِدَّ أرْكانِ الْإِيمان، وأرْكانِ الإسلام، وأحْكَامِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، في الأخْلاقِ، والمعاملات، والعباداتِ المحْضَة، والآدابِ، وغَيْرِ ذلكَ، من الإفساد في الأرض.

هٰذِهِ النصيحة الموَجَّهَةُ لقارُونَ مِنْ قِبَلِ عُقَلَاءِ قَوْمِهِ وأَهْلِ الرُّشْدِ فيهم وفي مُقَدِّمَتِهِمْ مُوسَىٰ وهارُونَ عليهما السلام، تَدُلُّ على أنَّ قَارُونَ كَانَ يَتَّخِذُ وَسَائِلَ يَحْصُلُ بِهَا فَسَادٌ في الْأَرْضِ، كظُلْم الإسْرَائِيلِيّينَ قَوْمِه، والعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ في أمْوَالهم ومُمْتَلَكَاتِهِمْ الثابِتَةِ والمنْقُولَة، وإذْلَالِهِمْ وسَوْقِهِمْ مُسَخَّرِينَ لِأَسْيادِهِ آلِ فِرْعَوْن، ونَشْرِ الْفَاحِشَةِ وَأَكْلِ أمْوَال النّاسِ بِالْبَاطِلِ وتَسْلِيطِ بَعْضِ النّاسِ علَىٰ بَعْضٍ، بما مَكَّنَهُ مِنْهُ فِرْعَوْنُ وآلُهُ من سُلْطان، وَكَنَشْرِ الْعَقِيدَةِ الْفِرْعَوْنِيَّة الوثنيَّةِ في بَنِي إسْرَائيل، الْقَائِمةِ علَىٰ تَأْلِيهِ فِرْعَوْنَ واعتبارِهِ رَبَّهُمُ الأعْلَىٰ.

﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾: أيْ: كُنْ على حَذْرٍ شدِيدٍ مِنْ نِقْمَةِ اللّٰهِ عَلَيْكَ وَعِقَابِهِ، فَمَنْ جعَلَ نَفْسَهُ بارادَتِهِ مِنْ زُمْرَةِ الّذِين لَا يُحِبُّهُمُ اللّٰهُ عزَّ وَجلّ بسَبَبِ كَوْنِهِمْ مُفْسِدين في الأرض، فقد جعَلَها عُرْضَةً لِنِقْمَتِهِ، وعَذَابٍ مِنْهُ يُخْزِيه وَيُذِلُّهُ.

وهٰذه العبارة قد اسْتُخْدِمَتْ اسْتِخدام نظِيرَتِها السابقة، عَلَىٰ سبيل

الكِنَايَةِ للتَّرْهِيب من عِقَاب اللَّهِ الشَّدِيدِ ونِقْمَتِهِ، كما عاقَبَ المفسِدِينَ في الأرض مِنْ قَبْلِهِ.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ حكايَةً لمَا رَدّ بِهِ قَارُونُ علَىٰ نَصَائِحِ قَوْمِه له، ومَا أبَانَهُ اللَّهُ تبارَكَ وتَعَالَىٰ تَعْلِيقاً علَىٰ مقالِ قارُون:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

لَقَدْ كَانَ رَدُّ قَارُونَ علَىٰ النَّاصِحِينَ لَهُ مِنْ قَوْمِه، مُوَجَّهاً ضِدَّ قولهم لَهُ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فقال لهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾: أي: لَمْ أَمْلِكْ مَا مَلَكْتُهُ مِنْ أَمْوَالٍ، وَلَمْ أَحْصُلْ عَلَىٰ مَا حَصَلْتُ علَيْهِ مِن زِينَاتٍ، وما أَتَفَاخَرُ به وأتباهىٰ به علَىٰ قَوْمِي، بِعَطَاءٍ أعْطَانِيه اللَّهُ إِحْسَاناً، بَلْ أُوتِيتُهُ وَحَصَلْتُ علَيْهِ ضِمْنَ الأَنْظِمَةِ السَّبَبِيَّة، الَّتِي تَأْتِي ثَمراتُها وَنَتَائِجُها مَبْنِيَّةً عَلَىٰ أسبابها، وبِنَاءً علَىٰ عِلْمِي بالأَسْباب، واتِّخَاذِي لها اتِّخَاذاً حَكِيماً، مَلَكْتُ مَا مَلَكْتُهُ، وحَصَلْتُ علَىٰ مَا حَصَلْتُ عليه، فَلَا تَقُولُوا لِي بغباءٍ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أَنْتُمْ جاهِلُونَ لَا تَعْلَمُونَ أَسْبَابَ اكْتِسَابِ الْأَموالِ وَجَمْعِها، ولَا أسْبابَ اكْتِسَاب الْمَجْدِ، والْوُصُولِ إلىٰ مَرَاتِبِ الرِّفْعَةِ والْعِزَّةِ والْعُلُوّ في الْأَرْض.

لَقَدِ انْتَفَخَ الْغُرُورُ في صَدْرِهِ وَرَأْسِهِ، حتَّىٰ طَمَسَ بَصِيرَتَهُ، فَجَعَلَهُ يَجْحَدُ قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدَرَهُ، مُسْتَبْعِداً عَنْ ذِهْنِهِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ مُسَبِّبُ الْأَسْبَاب بِأَلْطَافِهِ وتَدَابِيرِهِ الخفيَّةِ، وغافِلاً عَنْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي آتَاهُ مَا هُوَ فِيه، هُو القادِرُ علَىٰ أَنْ يَسْلُبَهُ مَا آتَاهُ، أَوْ يُهْلِكَهُ فَيَصْرِفَهُ عَنِ الحياةِ الدُّنيا وعَنْ كُلِّ مَا آتاهُ فِيها، وَيَقْذِفَ بِهِ إلى عَذابِ الْجَحِيمِ، جزاءَ كُفْرِهِ بربّه.

وَجاءَ البيانُ الرَّبَّانِيُّ الْحَكِيمُ كاشِفاً جَهْلَ هٰذا المغْرُور بذكائِهِ وعِلْمِهِ بالأَسْباب، إذْ لَمْ يَعْتَبِرْ بِمَنْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ،

الَّذِينَ سَلَبَ ذَواتِهِمْ مِنْ كُلِّ مَا يَمْلكُونَ وَكانُوا قَبْلَ أنْ يُهْلِكَهُمُ اللَّهُ أشَدَّ مِنْهُ قُوَّة وأكْثَرَ مِنْهُ جَمْعاً.

فقال اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِي هٰذا البيان:

- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ... ﴿٧٨﴾﴾؟؟!!.

اسْتِفْهَامُ تَلْوِيمِيٌّ تَثْرِيبيّ، يَدُلُّ علَىٰ أَنَّهُ عَلَىٰ عِلْم بِمَنْ أُهْلِكَ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الماضِيَة، وعَلَىٰ عِلْمِ بأنَّهُمْ قَدْ كَانُوا أشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً، وأكْثَرَ مِنْهُ جَمْعاً لِلْأَمْوالِ، واكتِنَازاً لَهَا.

أي: أعَاشَ بَعِيداً عَنِ الحضارة ومَا يَتَحَدَّثُ بِهِ الإخبارِيُّونَ عَنِ الْقُرُونِ الماضِيَة، وَمَا جَرَىٰ لهم، وهُوَ مِنْ أُجَراءِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْني، وَمِنْ عِلْيَةِ سُلَالَاتِ بَنِي إسْرَائيل؟!! وبِسَبَبِ ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمْ أنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُو أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأكْثَرَ جمعاً.

لكِنَّهُ يَعْلَمُ هٰذِهِ الحقيقة ولا يَجْهَلُها، فَلْيُعِدَّ نَفْسَهُ لِمَصِيرٍ يَكُونُ فِيه هَالكاً مُعَذَّباً، جزاءً لَهُ على حُجُودِهِ، الَّذِي أسْقَطَهُ فِيه اغْتِرَارُهُ بِنَفْسِهِ وبمَا يَمْلِكُ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا، وجزاءً لَهُ علَىٰ بَغْيِهِ واسْتِكْبَاره وعُدْوانِه على قَوْمِه.

- ﴿.. وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾: أي: وَحِينَ يَقْضِي اللَّهُ عَزَّ وجلَّ بإهْلَاكِ الْمُجْرِمِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، فإنَّهُ يُهْلِكُهُمْ ويُنْهِي وُجُودَهم فيها، دُونَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ وَيُحَاسِبَهُمْ، إذِ السُّؤالُ والحسَابُ وَفصْلُ الْقَضَاءِ إنَّما يَكُونُ يَوْمَ الدِّين، قَبْلَ تَنْفِيذِ الجزاء.

أمَّا الإهْلَالُ في الحياةِ الدُّنْيا، فَالْغَرَضُ مِنْهُ إيقَافُ شُرُور أَهْلِ الشَّرّ، وتَطْهِيرُ المجتمع البَشَرِيّ مِنْ دَاءٍ بَشَرِيٍّ وَبَائِيٍّ، زَادَ عَنْ حَدِّهِ الَّذِي تَقْتَضِيه حِكْمَةُ ابْتِلَاءِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْض.

الْمُجْرِمُون: المذْنِبُونَ ذُنوباً كُبْرَىٰ مِنْ دَرَكاتِ الذُّنُوب الَّتي تَجْعَلُ مُرْتَكِبيها من الخالِدِينَ في عذاب النار، وهٰذا المعنَّىٰ مُصْطَلَحٌ قُرْآنيٌّ، دلَّ عليه اسْتقراء النُّصوص القرآنية.

قول الله عزّ وجلّ مُتَابعاً الحديث عَنْ قارُونَ:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

بَعْدَ أنْ رَدّ قَارُونُ على نُصْحِ أولي الْعَقْلِ والرُّشْدِ لَهُ بقَوْلِهِ لهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ﴾ أرادَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِم رَدًّا عَمَلِيًّا يُبَيِّنُ لَهُمْ فيه تَمَيُّزَهُ علَىٰ سَائِرِ قَوْمِهِ الإسْرائيليّين، بما يَمْتَلِكُهُ مِنْ أموالٍ وَقُوَّةٍ وتَمكُّنٍ فِي مِصْر، يَجْعَلُ جَمْهُورَ قَوْمِهِ يَغْبِطُونَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، ويَتَمَنَّوْنَ أَنْ يكُونَ لَهُمْ مِثْلُ مَا أُوتي، ويُعْلِنُونَ أَنَّهُ ذُو حَظٍّ عَظِيم لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ في ذَلِكَ الْوَقْتِ مِثْلَ ما أُوتِي، وذَلِكَ بخُضُوعِهِ لِفرْعَوْنَ وآلِه ونُصْرَتِهِ لهم، وفي هذا اسْتِدْرَاجٌ لِبَعْضِ قَوْمِهِ أَنْ يَقْتَدُوا به، على خلاف مَا عَلَيْهِ مُوسَىٰ وهارون، ويَغْلِبُ علَىٰ الظَّنّ أنه اسْتَأْذَنَ فِرْعَوْنَ وَرِجَالَ قَصْرِه، أَنْ يَخْرُجَ على قَوْمِهِ في زِينَتِه، لِيُطَوِّعَهُمْ لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيّ.

ولتحقيق هٰذهِ الْغَايَةِ أَعَدَّ لِنَفْسِهِ مَوْكِباً يَعْظُمُ في عُيُونِ جُمهور قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، لِيَمُرَّ بِهِ في أَحْيَاءِ وطُرُقَاتِ مَسَاكِنِهِمْ، ويُرِيَهُمْ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ مَجْدٍ وعزّةٍ وَمَكَانَةٍ رَفِيعةٍ فِي مصر.

وكان لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ مَرَاكِبُ تَجُرُّهَا الْخُيُول، فإذا خَرَجُوا مارِّين فِي الطّرقات، حَفَّتْ بمراكِبهم الجنُودُ والحرَسُ والأعلامُ والزينات، اسْتعلاء بعَظَمَةِ مُلْكِهم، واسْتِكْباراً بِقُوَّةِ سُلْطانهم.

ويَظْهرُ أَنَّ قَارُونَ فَعَلَ شبيهاً بِذَلك، ليَمُرَّ بمَوْكِبِهِ في أَحْيَاءِ بني

إسْرَائيلَ وطُرُقَاتِ مَسَاكِنِهِمْ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ ولم يكن قَدْ فَعَلَ هٰذا مِنْ قَبْلُ، لكِنَّهُ أرَادَ أَنْ يَرُدَّ علَىٰ نَاصِحيهِ، بحَرَكَةٍ عَمَلِيَّةٍ في مَشْهَدٍ يَبْهَرُ بِهِ جُمْهُورَ قَوْمِهِ.

فلَمَّا مَرَّ في أحياء قَوْمِهِ وطُرُقَاتِ مَسَاكِنِهِمْ، أدْهَشَ جُمْهُورَ عَامَّةِ قَوْمِهِ، وسَوَادَهُمُ الْأَعْظَمَ، ومِنَ الْمُعْتَادِ في أمْثَالِ هؤلاءِ في كُلِّ شَعْبٍ وفي جماهير كُلّ أمَّةٍ أنَّهُمْ يُرِيدُونَ الحياة الدُّنْيا، إذْ هي المَسَيْطِرَة علىٰ تَصَوُّرَاتِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ، وانْدِفَاعاً مَعَ دَهْشَتِهِم قالوا: ﴿.. يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وتَحَقَّقَ لِقَارُونَ مَا كَانَ يَرْمِي إلَيْهِ مِنْ تَدْبيرِه هٰذا.

عِنْدَئِذٍ أسْرَعَ أولُو النُّهَىٰ والعِلْمِ مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ بقيادة مُوسَى وهَارُون عليهما السَّلام، لإصْلَاح الْإفسادِ الْفِكْرِي والنَّفْسِيّ الَّذي أحْدَثَهُ هٰذا الاسْتِعْرَاضُ الخادِعُ في السَّوَادِ الْأَعْظَم من بَنِي إسرائيل.

دَلَّ علَىٰ هٰذا قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

أي: وانْطلَقَ الْفُضَلاءُ الْعُلَمَاءُ مِنْ بَنِي إسْرَائيل يُبَشِّرُونَ بهٰذِهِ الحقيقة، في جماهِير العامَّةِ الَّذِينَ فُتِنُوا بالاسْتِعْراضِ الْفَخْمِ الَّذِي صَنَعَهُ قارون.

﴿وَيْلَكُمْ﴾: أي: احْذَرُوا هَلَاكَكُمْ وَعَذَابَكُمْ، مِمَّا فُتِنْتُمْ بِهِ، إذْ تَمَنَّيْتُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِثْلُ مَا أُوتِيَ قَارُون، إنَّ هذا يَجْعَلُكُمْ تَسْتَخِذُونَ فَتُقَلِّدُونَهُ في طَرِيقَتِهِ، إذ جَعَلَ نَفْسَهُ عبْداً مِنْ عَبِيدِ فِرْعَوْنَ، وكافراً باللَّهِ وَباليَوْم الآخِرِ مِثْلَهُ، وخارِجاً عَنْ دِين آبائه وأجدادِه، دِين الله الحقِّ الذي اصطفاه لعباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا.

كلمةُ «وَيْل» كلمة عذاب.

- ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾: أي: الثوابُ العظيم الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِأَهْلِ طاعَتِهِ خيرٌ مِنْ هٰذا الّذي اسْتَعْرَضَهُ قارُونُ، وخَيْرٌ مِن كُلّ ما لَدَىٰ فِرْعَوْنَ وآلِهِ، وخَيْرٌ مِنْ كُلِّ الدُّنْيا وما فيها، ويفهم هذا قياساً على ما لدى قارون، مع مفهومات العقيدة الإيمانية في كلّ رسالات الله للناس.

- ﴿لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: أي: هـذا الثوابُ العظيم مُعَدٌّ بقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، لِمَنْ آمَنَ بمَا أَوْجَبَ اللَّهُ علىٰ عبادِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا به في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وعَبَّرَ عَنْ صِحَّةِ إيمانِهِ وَصِدْقِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ فيه مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عزّ وجلّ، لأنَّهُ ممَّا أَمَرَ بِفِعْلِهِ إذَا كان فِعْلاً أو أَمَرَ بتَرْكه إِذَا كَانَ تَرْكاً، وبهٰذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَكْتَسِبُونَ الصِّفَة المؤهِّلَةِ لثواب الله العظيم يوم الدّين.

﴿.. وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: أي: وَلَا يَنالُ هٰذِهِ الصِّفَة المؤهِّلَة لِثَوابِ اللَّهِ العظيم إِلَّا الصَّابِرُون.

دَلَّ عَوْدُ الضَّمِير في ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ على الإيمان والْعَمَل الصَّالِحِ الّذين دَلَّ عَلَيْهما: «مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً» علىٰ أنّهما بِمَثابَةِ صِفَةٍ واحِدَةٍ هي شَرْطٌ للظَّفَرِ بثواب اللَّهِ العظيم يَوْمَ الدِّين، إِذَ الإيمَانُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ بما كَلَّفَ اللَّهُ عبادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ آثارٌ في السُّلُوكِ من عَمَلٍ صالحٍ فِيهِ مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عزَّ وجل، فَهُمَا مَعاً بِمَثَابَةِ صِفَةٍ واحِدَةٍ، فَصَحَّ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَيْها بالإفرادِ والتَّأْنِيث، أَخْذاً من لازِمِ مَفْهومِ النَّصْ.

يُقَالَ لُغَةً: «لَقِيَ الشَّيْءَ وتَلَقَّاهُ» أيْ: أَخَذَهُ وَنالَهُ.

لَكِنَّ تَأَثُّرَ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْ بَنِي إِسْرائيل بمَوْكِب قَارُونَ قَدْ كَانَ بَالِغَ الْعُمْقِ فِي نَفُوسِهِمْ، فَكَانُوا بحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إلىٰ إِقْنَاعٍ عَمَلِيٍّ يُصَحِّحُ لَدَيْهِمْ ما أَفْسَدَهُ مَوْكِبُ قَارُونَ الاسْتِعْرَاضِيُّ الْعَمَلِيُّ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِقَارُونَ وبَدَارِهِ والأَرْض.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾:

يُقَالُ لُغَةً: «خَسَفَ اللَّهُ بِقَوْمِ الأَرْض» أي: جَعَلَها تَغُورُ بِهِمْ إلىٰ الأَعْمَاقِ فَيَغِيبُونَ فيها مَقْبُورِينَ هَلْكىٰ.

أي: فَأَتْبَعْنَا اسْتِعْرَاضَهُ الكَيْدِيَّ التضليليَّ، بما يَمْحُو آثارَهُ في نُفُوسِ الجمهور الأعْظَمِ مِنَ الإسْرَائِيليّين مَحْواً كُلّيًا، وبإقْنَاعٍ عِقَابِيّ عَمَلِيّ، فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِه الأَرْضِ.

• ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: فَلَمْ تُوجَدْ لَهُ فِئَةٌ ذَاتُ قُوَّةٍ وَبأْسٍ فِي مِصْرَ يَنْصُرُونَهُ، فَيَمْنَعُونَ عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ عِقَابِ الله.

«من» في: ﴿مِن فِئَةٍ﴾ جاءَتْ مَزِيدَةً لتأْكيد عُمُوم النَّفْي والتَنْصِيصِ عليه.

ولَمْ يَسْتَطِعْ فِرْعَوْنُ وآلُهُ وَجُنُودُهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ عِقَابَ اللَّهِ الُّذِي نَزَل بِه، لَقَدْ غَيَّبَتْهُ الْأَرْضُ وَغَيَّبَتْ دَارَهُ وكَثِيراً مِنْ كُنُوزِهِ في بَاطِنها.

• ﴿.. وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾: أي: ومَا اسْتَطَاعَ هُوَ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ مَا نَزَلَ به، لَقَدْ كانَ يَسْتَكْبِرُ علىٰ قَوْمِهِ اسْتِكْبَارَ الْمَغْرُورِين بما لَديْهم مِنْ أَمْوَالٍ وخُدَّامٍ وأعْوَانٍ ومظاهِرِ عزَّة وقُوَّةٍ واسْتِعْلاء في الأرض، فَلَمْ يَنْفَعْهُ اسْتِكْبَارُهُ شَيْئاً، حِينَ أَرَادَ الله العزيز الْقَهَّارُ أَنْ يُنْزِلَ بِهِ عِقَابِه.

ودَخَلَ أَوَّلُ نَهَارِ اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ فِيها الْخَسْفُ عَقِبَ مَوْكِب الاسْتِعْلَاءِ الاسْتِعَرَاضِي، وشَاعَ في النَّاسِ نَبأُ الْخَسْفِ الّذِي غَيَّبَ قَارُونَ وَدَارَهُ في باطِنِ الْأَرْض، وَعَادَ الْمفتُونُونَ مِنْ الجمهُور الأعْظَم مِنْ بني إسْرائيل إلى رُشْدِهم وَإيمانِهِمْ، وحمِدُوا اللَّهَ عَلىٰ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِثْلَهُ، وأَدْرَكُوا حِكْمَةَ اللَّهِ فِي بَسْطِهِ الرِّزْقَ وَتَضْيِيقِهِ، وأنَّ الْبَسْط لَيْس تَكْرِيماً، وأَنَّ التضييق ليس إهانَةً.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

كلمة «وَيّ» مِنْ: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ومِنْ [وَيكَأَنَّهُ]: كَلِمةَ تَعجُّبٍ، وهي: اسْمُ فِعْلٍ بمَعْنَىٰ: «أَعْجَبُ» أو «نَعْجَبُ» وقَدْ تَلِيها كافُ الْخِطَابِ.

- ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ..﴾:

- ﴿وَأَصْبَحَ﴾: أي: ودَخَلَ فِي صَبَاحِ لَيْلَةِ الْخَسْفِ بقارون.

- ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾: وَهُمُ الْجُمْهُورُ الأَعْظَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائيل الّذينَ كَانُوا يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا، وَفَتَنَتْهُمْ مَظَاهِرُ مَوْكِبِ قَارُون، فَقَالُوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

- ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: أي: باليَومِ الَّذي كَانَ قَبْلَ لَيْلَةِ الخسْفِ بقَارُونَ.

- ﴿يَقُولُونَ﴾: أي: يَقُولُ أَفْرادُهُم بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: [وَيكَأَنَّهُ]: الّذِي ظَهَرَ لي، أَنَّ كَلِمَةَ «وَيْ» بمَعْنَىٰ «أَعْجَبُ» أو «نَعْجَبُ» وأَنَّ الكاف كَافُ الْخِطابِ، وأَنَّ الْجُمْلَةَ بَعْدَهَا تَقْرِيرٌ للْحَقِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُمْ وَكَانُوا يَجْهَلُونَهُ أَوْ يَغْفُلُونَ عَنْه، فَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْ نُفُوسِهِمْ كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْهِمْ هذا الأمْر حَتَّىٰ رَأَوْا بُرْهَانَهُ، أمْراً وَاقِعاً مَشْهُوداً، بَقَضَاءِ اللَّهِ العَزِيزِ الجبّار.

فَالمعنى: اسْمَعْ أَيُّها المخاطَبُ تَعَجُّبي مِنْ نَفْسِي كَيْفَ كُنْتُ جاهِلاً أَوْ غَافِلاً، عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ الله هُو الّذِي يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاء من عباده وَيَقْدِرُ (أي: ويُضَيِّقُ الرِّزْقَ) علَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عبادِه، وأَنَّ ذٰلِكَ لِحِكَم هو يعلمها، وَلَيْسَ الْبَسْطُ تَكْرِيماً وَلَا التضْييقُ إهَانَةً، ولَيْس أَمْرُ الْبَسْطِ

والتَّضْييقِ رَاجعاً إِلَىٰ عِلْمِ الْعِبَاد أَوْ جَهْلِهِمْ باكْتِسَاب الأَرْزاق، بَلِ الْأَمْرُ خَاضِعٌ لقضاء اللَّهِ وَقَدْرِه.

وجاء في نُصُوصٍ أخرى بَيَانُ أَنَّ الْغَرَض مِنْ بَسْطِ الرِّزْقِ لبَعْضِ العباد، وتَضييقِه علَىٰ بَعْضِهِمْ، أَنْ يَبْلُوَ اللَّهُ عزّ وجلّ كُلًّا فِيما آتاه في ظروف الحياة الدُّنيا.

- ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾: أي: لَولَا أَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلَمْ يُؤْتِنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ، بَلْ أَبْعَدَنَا وَحَمَانَا مِنَ بَسْطِ الرِّزْقِ الْمُطْغِي والموصِلِ إِلَىٰ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ قَارُونَ، من طُغْيَانٍ وبَغْيٍ وَخَسْفٍ عقاباً لَهُ وَعِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِر.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: هذه العبارة نظيرة سابقَتِها، والمعْنَىٰ: اسْمَعْ أَيُّها الْمُخَاطبُ تَعَجُّبِي مِنْ نَفْسِي كَيْفَ كُنْتُ جَاهِلاً أَوْ غَافِلاً عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ الشَّأْنَ الْعَظِيمَ مِنْ مَقَادِيرِ اللَّهِ في كَوْنِهِ وَسُنَنِهِ فِي عباده، عَدَمُ فَلَاح الكافِرِينَ، الَّذِينَ يَتَمَرَّدُونَ علَىٰ رَبِّهِمْ، وَيَجْحَدُونَ نِعَمَهُ عَلَيْهم، ولَا يُؤْمِنُونَ بمَا فَرَضَ عَلَيْهِم أَنْ يُؤْمِنوا بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم.

الْفَلَاح: الظَّفَرُ بالمراد، والْفَوْزُ بجنَّاتِ النعيم يوم الدين.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الخامس من دُرُوسِ سُورَة (القصص) والحمْدُ للَّهِ علىٰ مَدَدِه وَتَوْفيقه وفَتْحِه.

* * *

(٩)

التدبر التحليلي للدّرس السّادس من دُرُوس سورة (القصص)

الآيتان: (٨٣ و٨٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا

وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

تمهيد:

اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّة التَّعْقِيبَ علىٰ قِصَّةِ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه الّذِين أرَادُوا الْعُلُوَّ في الأرْض، فانْزَلَقُوا إلى كُفْرٍ وجَرائِمَ حَرَمَتْهُمْ مِنَ السَعَادَةِ بِنَعِيم الجنَّةِ يَوْمَ الدّين، وجَعَلَتْهُمْ مِنْ أهْلِ الْعَذابِ خالِدينَ في الجحيم، يذُوقُونَ عَذَابَ الْحَرِيق. والتعقيب على قِصَّةِ قارون الّذِي أرَادَ الْعُلُوَّ في الأرضِ، فأنْزَلَقَ إلىٰ مِثْلِ مَا أنزلَقَ إليه فِرْعَوْنُ وَمَلُؤه.

والْغَرَضُ مِنْ هٰذا التَّعْقِيب، بيانُ أنَّ إرَادَةَ الْعُلُوّ في الأرْضَ، إذَا اتَّجهَتْ في الإنْسانِ اتِّجاهًا جازِماً مُسَيْطِراً على مشاعِرِه وتَصوُّرَاتِهِ فَلا بُدَّ أنْ تنطَمِسَ بَصِيرَتُه، ومَتَّىٰ انطَمَسَتْ بَصِيرَتُهُ انْزَلَقَ إلىٰ جِهَةِ الحضِيضِ في أفكاره ومَفْهُومَاتِه، وفي حَرَكات نَفْسِهِ وسَكَنَاتِها، وفي أخْلاَقِهِ وتَصرُّفَاتِه، وفي سُلُوكِه داخِلَ المجتمع الْبَشَرِيّ، آثِماً ظَالِماً مُعْتَدِياً جبَّاراً مُفْسِداً، ورُبما زاد في انزلاقه حتَّىٰ بَلَغَ حَضِيضَ الْكُفْرِ بِرَبِّه وبمَطالِبِه مِنْ عباده، في رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيا، رِحْلَةِ الامْتِحانِ والابْتِلاء.

ولا بُدَّ أنْ يَخْسَرَ مِنْ سَعَادَةِ الدَّار الآخِرَةِ ونَعِيمِها على مقدار انْزِلَاقِه هَابطاً في اتّجاه الحضيضِ، ثُمَّ يَسْتَحِقُّ من العذاب في جَهَنَّمَ على مقدارِ هُبُوطِهِ في ارْتكابِ كَبَائِرِ الإثم، والجرائم الفِكرية والنفسيَّةِ والسُّلُوكيَّة، فإذا بَلَغَ حضيضَ الكُفْرِ كَانَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ من النَّار.

واسْتَدْعَىٰ هٰذا البيانُ ذِكْرَ الْخُطَّةِ الكُلّيَّةِ الْعَامَّةِ للْجَزاء الرَّبَّانيّ يَوْم الدِّين، وبيانَ أنّ الجزاء لا يقتصر على العقاب المعَجلّ كما حصل لفرعون وقارون، من إغراقٍ وخَسْفٍ، بَلِ الجزاءُ الأَسَاسُ هو الذي يكُونُ يَوْمَ الدّين، ومَا جَرَىٰ في الدُّنيا لِلْمُهْلَكِينِ هُوَ من التَّدْبِيراتِ العاجلات،

لإصلاحِ أوضاعٍ في المجتمعِ الْبَشَرِي، ولِيَرَىٰ النَّاسُ أمْثِلَةً مِنْ عِقَاب اللَّه، رغْبَةً في أن يَعْتَبِرَ بها الْمَعْتبرون أولُو الألباب.

التدبر التحليلي:

قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

جاء في القرآن لفظ «الدار الآخرة» ولفظ «دَار الآخِرَة» ثماني مرّات، والمرادُ بكلّ واحِدٍ منها «الجنَّة» وهذا من التخصيصات القرآنيَّة في العبارات، فصارت العبارة بمثابَةِ عَلَمٍ على الجنّة.

وجاء في الآيَة اسْتِعْمَالُ اسْمِ الإشارَة الموضوع للمشار إلَيْهَا الْبَعِيدة البعيد «تِلْكِ» لأمْرَين: بُعْدِ مكانِها عَنِ المخاطب، وبَعْدِ مَكانَتها وارْتفاع مَنْزَلَتِها، بما جعلَ اللَّهُ فيها مِنْ نِعيم عظيم، ومِمَّا لا عَيْن رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولَا خطر على قَلْبِ بَشر.

وجاء الخطاب في الآيَة لِكُلِّ صَالِح للخاطب بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، فكأنّ اللَّه يُخاطِبُ عبادَهُ فَرْداً فَرْداً.

﴿نَجْعَلُهَا﴾: أي: مُسْتقْبلاً في الواقع التنفيذي، بَعْدَ الحساب، وفَصْل القضاء يَوْم الدّين.

- ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾:

إنَّ إرَادَة الْعُلُوّ في الأرض، بمَعْنَىٰ الاسْتِكْبَار، والتعاظُم، لتحقيقِ حظوظِ النُّفُوسِ مِنَ الدُّنْيَا، والتَّفَاخُر علَىٰ عِبَادِ اللَّهِ بها، لَيْسَتْ من شَأْنِ المتقين، فضلاً عن الأبرار والمحسنين.

إنَّ مِنْ شَأْنِ المتَّقِينَ التواضُعُ لِلَّهِ، وعَدَمُ إرادَةِ الْعُلُوِّ في الأَرْضِ لتَحْقيقِ حُظُوظِ النُّفوسِ مِنَ الدُّنيا، وإنْ رُفِعَتْ شِعَارَاتُ إرَادَةِ نُصْرَةِ الإسْلَامِ

والمسْلِمينَ، وإقَامَةِ الْحُكْمِ الإسْلامي، فَمَنْ كان مَطْلَبُهُ تَحْقِيقَ الْعُلُوِّ في الأرْضِ للوصول إلى حُظُوظ نَفْسِه، سَقَطَ عنْدَ امْتِحَانِهِ بالوصُولِ إلى مَغْنَم كبير ممَّا يُحِبُّ من زينَةِ الحياة الدُّنيا، كالإطماع بمالٍ وَفير، أَوْ مَنْصِبٍ خَطِير، أو مَرْكَزٍ اجْتِمَاعِيٍّ رَافِع، أو ثناءٍ عَطِرٍ ذَائع، وتمزَّقَتِ الشِّعَارَاتُ السَّابِقَاتُ، واشْتَدَّتْ بِنَسْفِهَا إلى القُمَامَاتِ رِيَاحُ الواقِع.

وإرَادَةُ الْعُلُوّ في الأرض لتحقيقِ حظوظِ النَّفْسِ، لَا بُدَّ أنْ تَجُرَّ صَاحِبَهَا إلى إرَادَةِ الْفَسَادِ، لتحقيق المراد، فحظوظ نُفوسِ الأفراد من الدُّنيا لا تتحقَّقُ إلَّا بالفساد.

أمَّا طَلَبُ الإمَارَةِ، أو الْوَظيفَةِ الإدَارِيَّة، أو الوظيفة الدّينيَّة، أو الرِّضَا بشيءٍ من ذَلِكَ، لإقَامَة الحقِّ والْعَدْلِ وَرَفْعِ الظُّلْمِ، ولإقامَةِ أحكام الإسْلام وشرائِعِه، ونَشْرِ دين اللَّهِ في الأرض، والدَّعْوَةِ إليه، وتَبْليغ بيانَاتِهِ للنّاس، مع الصِّدْقِ في كُلّ ذلِكَ، فَلَا يَدْخُلُ في عُمُومِ إرَادَة الْعُلُوّ في الأَرْضِ، بَلْ لَهُ عُنْوَانٌ آخَرُ يَدْخُلُ في عُمُومه هُوَ الجهادُ في سبيل الله، إنَّ المؤمنين الصّادقين المتَّقِينَ لَا يُريدون الْعُلوَّ في الأرض، وَإِنَّ إرادَة العُلُوّ في الأرْضِ لا تكُونُ إلَّا مَدْفُوعَةً بِعَوَامِلِ الكِبْر، ورَغَباتِ تحقيق حُظُوظِ النفْسِ من الدّنيا، وقلّما يَسْلَمُ طَالب مراتِبِ الدنيا مِنْ داء حبّ العلوّ في الأرض، لتحقيق حظوظ النفس من الدنيا، ولهذا كان يتهرّبُ منها طلّاب الآخرة.

● ﴿. . وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: جاءت في القرآن كَلِمَةُ **[الْعَاقِبَة]** مُعَرَّفَةً بـ(ال) الّتي تَدُلُّ علَىٰ كَمالِ مَا عَرَّفَتْهُ أَرْبَعَ مَرَّات، والمرادُ بها في كلِّ هذه المواضِع الْعَاقِبَةُ الحسَنَةُ في جَنَّاتِ النعيم.

المتَّقُونَ: هُمُ الَّذِينَ يقُونَ نُفُوسَهُمْ مِنَ الْخُلُودِ في العَذَابِ يَوْم الدّين، بإيمانٍ صَحِيح صادق، وَعَمَلٍ صالحٍ فيه مَرْضَاةٍ للَّهِ عَزَّ وَجلَّ، يُعَبّرُون به عَنْ صدْقِ إيمانهم، ثم يرتقون في درجات مرتبة التقوىٰ، وقد يرتقون إلى مرتبة البرّ فمَرْتَبَة الإحسان.

• ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

جاء في هذهِ الآيَةِ بَيانُ الْقَاعِدَةِ الكليَّةِ الْعَامَّةِ لِلْجَزاءِ الرَّبَّانِيّ يَوْم الدّين، وهذِهِ الْقَاعِدَةُ تَشْتَمِلُ على مَادَّتَيْن:

الْمَادَّةُ الأُولى: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾: أي: مَن أَتىٰ رَبَّهُ يَوْمَ القيامَةِ بالْحَسَنَةِ المقبولَة عنْدَه تعالى، مُسَجَّلَةً في كِتَاب أعْمَالِه الّذي لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرةً إلّا أحْصَاهَا، فَلَهُ عِنْدَ رَبِّهِ خيرٌ مِنْهَا ثواباً عليْها وجزاءً حَسَناً، وثبت في نصوصٍ أُخرىٰ أنَّ أدْنَىٰ ثوابه على الحسنة عشرةُ أضْعَافها، إلى سَبْعمائة ضِعْفٍ، إلى أضْعاف كثيرة لا يَعْلَمُها إلّا الله، وفُهِمَ كوْنُ هذا جزاءً، من الجزاء المصرَّحِ به بالنسبة إلى من جاء بالسيّئة.

والمُرَادُ بالْحَسَنَةِ مَا يَكْسِبُهُ الإنسانُ بإرادَتِهِ الحرَّةِ ابْتغاءَ مرضَاةِ رَبِّه، مِنْ حَرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ أو فِكْرِيَّةٍ أو جَسَدِيَّة، يُقَدِّمُ بها طاعَةً لِرَبِّهِ من ذَاتِهِ أو مِمَّا يَمْلكهُ أوْ ممَّا يخْتَصُّ به، ولو خاطِرَةً فيها نَفْعٌ وخير يُقَدِّمُها في سبيل اللّٰهِ وطاعَةً له، أو نِيَّةً قَلْبِيَّةً مِنْ وراء إرادَةِ كسْبٍ صالحٍ ظَاهِرٍ أوْ باطن عَمِلَهُ أو قَام مانِعٌ من عَمَلِهِ لَمْ تُنْقَضْ بِهِ إرادَتُه.

وكلُّ مكْسُوبٍ إرَادِيّ يَدْخُلُ في عُمُوم مَطْلُوبَات اللّٰهِ من عباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا، إلْزاماً أو تَرْغيباً وَنَدْباً، ويُطْلَقُ عَلَيْهِ عُنْوَانُ «الْحَسَنَة» كبيراً كان أمْ صغيراً، ظاهراً كان أمْ خَفِيًّا، ولو كان في صِغَرِهِ وَخَفَائِهِ ممَّا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللّٰهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

يُقَالَ لغة: «جَاءَ بكذا» أي: أتىٰ به، ويُفْهَمُ من القرائِنِ بوضوحٍ أنَّهُ أتَىٰ بالمكسُوبَةِ الحسنَةِ إلى رَبِّهِ في كتاب أعمالِهِ يوم الدّين.

لفظ «الحَسَنة» مؤنث لفظ «الحسَن» وهو الشيء الجميل، ولا يَأْمُرُ اللّٰهُ ولَا يُرَغِّبُ إلّا بالجميل، وعلى النَّقِيضِ تماماً ما يأمُرُ بِه الشيْطانُ أو يُرَغِّبُ فيه.

المادّة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْها عِبارَة: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

كانَ من المتَبادِرِ أَنْ يُقَالَ: وَمَنْ جاءَ بالسّيِّئَة فَلَهُ مِثْلُها. فَمَا الحِكْمَةُ ممّا عُدِلَ إِلَيْهِ مِمَّا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ إِطْنَاب.

أقول: دَلَّتْ هذِهِ الْعِبَارَةُ المختارَةُ فِي النَّصّ على عدّة قضايا:

الأولى: نَفي الزّيادةِ على الْمِثْلِ بأسْلُوب الْحَصْرِ والْقَصْر، عن طَرِيق النَّفْي والاستثناء.

الثانية: الإشعار باحْتِمالِ الغفرانِ والْعَفْو، لأنَّ نَفْيَ الزّيادة على المثل، لَا يَدُلُّ علىٰ الجزاء بالْمِثْلِ حَتْماً، بَلْ إذَا حَصَلَ الجزاء فَلا تكونُ فيه زيادةٌ على المثل، وقدْ يَحْصُلُ الغفران والعفو.

الثالِثَة: اسْتِعْمَالُ عبارَةِ: ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تَدُلُّ على المطابَقَةِ التامَّةِ بين السَّيِّئَة وَجَزائِها، حتَّىٰ يُقَالَ في الجزاء هو عَيْنُ الْعَمَلِ لشِدَّةِ المطابَقة بَيْنهما، بخلاف التعبير بلَفْظِ «مِثْل» أَوْ نَحْوِها، فإنَّها تَحْتَمِلُ الزّيادَةَ ولَوْ قَلِيلاً كَمَا تَحْتَمِلُ النُّقْصَانَ في فَهْمِ الناسِ لمعنى المماثَلَةِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، لكِنَّ الجزاء الرَّبَّانِيَّ على السَّيِّئَةِ إذا حصل فهو لا يَزِيدُ على المطابَقةِ حَتْماً.

الرّابعة: التَّنْصِيصُ بعِبَارَة كُلِّيَّةٍ عَامَّة، على أَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئات، لَا يُجْزَوْنَ إلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ، فلا يُزَادُ أحدٌ منهم على ذلك.

وهذِهِ القضايا الأَرْبَعُ لَا تُسْتَفَادُ من عبارة: وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلَهُ مِثْلُها.

وجاء في القرآن بشأن الجزاء على السَّيِّئة ما يلي:

(١) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ الأنعام.

أي: فلا يُجْزَىٰ إذا جُوزِي جزاءً كاملاً إلَّا مثْلَهَا.

(٢) ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا... ﴿٢٧﴾﴾ يونس.

أي: إنْ جوزوا جزاءً كامِلاً فجزاء سَيِّئَةٍ بِمثلها.

(٣) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۝٤٠﴾ غافر.

أي: فلا يُجْزَىٰ إذا جُوزِي جزاءً كاملاً إلَّا مِثْلَها.

فدلت جملة النصوص على حقيقةٍ واحدة جاء تفصيلها في آية سورة (القصص).

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرس السادس من دُروس سورة (القصص).

والحمد لله على فتحه ومدده ومعونته وتوفيقه.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُروس سورة (القصص) الآيات من (٨٥ ـ ٨٨) آخر السورة

قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨٥ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾.

القراءات:

(٨٥) • قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**رَبِّيَ أَعْلَم**] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكانها.

(٨٨) • قرأ يَعْقُوب: [**تَرْجِعُونَ**] بِبنَاءِ الفعل للمعلوم. وقرأها بَاقي القُرّاء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ببناء الفِعْلِ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ.

وبين الْقِراءتَيْن تَكَامُلٌ في الأداء البياني.

تمهيد:

الآية (٨٥) من هذا الدَّرْس نَزَلَتْ في الْجُحْفَة⁽¹⁾ أثناء هجرة الرسُولِ ﷺ إلَىٰ المدِينة.

ويشتمل هذا الدَّرْسُ على بُشْرَىٰ للرَّسُول ﷺ بالْعَوْدَةِ إلى مَكَّةَ فاتِحاً، وفيه وصَايا تَرْبَوِيَّةٌ للرَّسُول، وهذِهِ الوصايا مُوجَّهَةٌ تَبعاً للدُّعَاةِ إلَىٰ الله عزَّ وجلّ مِنْ أُمّتِه، في مَسِيرَاتِهِم الدعويَّة.

التدبّر التحليلي:

قول اللّه عزّ وجلَّ خِطاباً لرسُوله محمَّد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾:

في هٰذه الآيَة الّتي نَزَلَتْ على الرَّسُول ﷺ في الْجُحْفَةِ أثناءِ هِجْرَته إلى المدِينة، بُشْرَىٰ لَهُ بأنّ اللَّهَ سَيَرُدَّهُ إلَىٰ مَكّة، على رُغْمِ أنوفِ الَّذِينَ أَخْرَجُوه فأخْرَجُوهُ مِنْها مُهاجراً إلى المدينة.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي: إنَّ رَبَّكَ الَّذي أَوْجَبَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ تَبْلِيغَ الْقُرْآن الَّذِي يُنَزَّلُ عليك، فقُمْتَ بما فَرَضَ اللّهُ عليك مِنْ التَبْلِيغ، فكَان قِيَامُكَ بهٰذا الواجب سَبباً فِي إخْرَاجِكَ وإخْراجِكَ من البَلْدَةِ الحبيبَة إلى قَلْبكَ مَكَّةَ المكرَّمَة، مُهَاجراً مِنْها إلى المدينَة.

- ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾: أي: لَمُرْجِعُكَ إِلَىٰ مَكَانِ عَوْدٍ فيها مُسْتَقْبلاً، وهٰذَا وعْدٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ، ويتَضَمَّنُ بالتَّبَعِ وَعْداً للمؤمِنين المسْلِمينَ الّذِين هَاجَرُوا مِنها.

«رَادّ» اسْم فاعل، يُسْتَعْمَلُ في الحال والاسْتقبال كالْفِعْلِ المضارِع،

---

(١) **الجحفة**: كانت ميقات أهل الشام ومصر، وهي الآن دَارِسَة، ومكانها قريب من قرية «رابغ» على الطريق بين مكة والمدينة.

وهنا مسْتَعْمَل في الاستقبال لأنَّهُ أَمْرٌ مَوْعُودٌ بِه عِنْدَ نُزُولِ النَّصّ، ولَمْ يَتحقَّقْ إلَّا بَعْدَ سِنين، والرَّدُ هو الإرجاع والإعادة.

«مَعَاد»: اسْمٌ صَالحٌ لأنْ يَكونَ اسْمَ مكانٍ واسْمَ زَمَان، ولكِنَّ الرَّدّ يقْتَضِي هُنَا أن يكون اسْمَ مكان، والمكان الموعُودُ بالرَّدّ إلَيْه هو مكة المكرمَّة حفظها اللّه وحَرَسَهَا وزادها تَشْرِيفاً وتعظيماً.

وقَدْ حقَّقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ هذا الَّذي وعَدَ بهِ رَسُوله ﷺ فَرجَعَ إلَىٰ مَكَّة في عُمْرَةِ الْقَضاء، بَعْدَ عَام صُلْح الْحُدَيبيَة، وعَادَ إلَى مَكَّة فاتِحاً مُنْتصراً عَامَ الْفتْح، بِجَيْشٍ لِا قِبَلَ لأَهْل مكَّة ومُقَاتِلِيها. بِمُواجَهتِه وصَدِّه.

وقَبْلَ دُخول الرَّسُولِ ومَعَهُ قُرابَةُ أَلْفَيْن، لأداء العمرة التي عُرِفتْ بِعُمْرةِ القضاء، بأكثر من سنة وقبل صُلْحِ الحديبيَة، أرَىٰ اللَّهُ رَسُولَهُ رُؤيا حَقّ، فيها وعْدٌ بأنْ يَدْخُلَ الْمَسْجدَ الحرامَ ومَعَهُ عَدَدٌ كثير من المؤمنين معتمراً، دلَّ على هذا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة [الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نـزول): ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله الله تعالى:

﴿... قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾: لَمَّا كَانَ خُرُوجُ الرَّسُول ﷺ من مكّة مُهَاجِراً قَدْ يَجْعَلُ في نُفُوسِ المتَعَجِّلين أصْحَابِ النَّظر الْقَصِير، الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ سُنَنَ اللَّهِ في المجتَمَعِ الْبَشَرِيّ، شُعُوراً بانْتِصَارِ مُشْرِكِي مَكَّة عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه، الأمْرِ الَّذي جعَلَهُمْ يَتْرُكُونَ بَلَدَهُمْ ويُهَاجِرُونَ مِنْهَا خَوْفاً علىٰ نفُوسهم مِن قُوىٰ أئِمَّةِ الشِّرْكِ في مكة، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أنْ يُعَلِّمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ رَسُولَهُ مَا يَقُولُهُ لِمَنْ يَرَىٰ أنَّ لَدَيْهِمْ تَصَوُّراتٍ باحْتِمالِ أنْ يَكُونَ

مُشْرِكُو مَكَّة علَى حَقٍّ، ولَهٰذا نَصَرهُمُ اللَّهُ فَأخْرجُوا مُحمّداً والّذِين آمَنُوا بِهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ في مكَّة، وألْجَؤوهُمْ إلْجاءً إلَىٰ أنْ يُهَاجِرُوا مِنها، وتَوَقَّفَتْ نظراتُ هَؤلَاءِ عنْدَ هٰذا الحدِّ، ولَمْ يضَعُوا في حُسْبَانِهِمْ أَنْ تَكُونَ هذِهِ الهجرة سَبَباً في إعْدادِ قَويِّ قِتاليَّة يَنْصُرُ اللَّهُ بِها رَسُولَهُ والَّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبعُوه، عَلَىٰ مُشْرِكي مَكَّةَ المعانِدينَ في مَعَارِكَ قتاليَّة، وأنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ إعْدَادِ جَيْشٍ مُقَاتِلٍ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهِ مَكَّة لِلإسْلَامِ والمسلمين، وينْتَهِي الشِّرْكُ والمشْرِكُونَ فيها.

وقد جاء في هذَا التعليم الرَّبَّانِيّ للرَّسُولِ ﷺ، أن يَقُولَ: رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ مَنْ جاءَ بالْهُدَىٰ مِنَ اللَّه، وبَلَّغَهُ للنَّاسِ فعادَاهُ المضِلُّونَ، وَمَنْ هُوَ مُوغِلٌ في ضَلَالٍ مُبِينٍ، بَعيداً عن الحقّ والْهُدَىٰ والْخَيْرِ والفضيلة وصِراط اللَّهِ المستقيم، أي: وبما أنَّ اللَّهَ رَبِّي أعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذي عِلْم بهٰذا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْصُر مُسْتَقْبلاً مَنْ جاءَ بِالْهُدَىٰ نَصْراً حَقِيقيّاً مُؤَزراً ونِهائياً عَلىٰ مَنْ هُوَ في ضَلَالٍ مُبين، أمَّا الصِّرَاعَاتُ الْمَرْحَلِيَّةُ بَيْنَ أَهْلِ الحقّ وأَهْلِ الْبَاطِلِ فَهِيَ سِجَالٌ مُتَداوَلَةُ الْغَلَبَةِ والْهَزِيمَةِ بَيْنَ الْفَرِيقين، بمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللَّه في المجتمع البشري، لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا في صُدُور المؤمنين، وليُمِّحِصَ⁽¹⁾ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، وهُوَ الْعَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُور.

هذا يُفْهَمُ عَنْ طَرِيق اللُّزُوم الْفِكْرِيّ، لأنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، فَهُو بِحكْمَتِه وبِوَعْدِهِ الكريم، لَا بُدَّ أَنْ يَنْصُرَ في آخرِ مَرَاحِلِ الصِّراع مَنْ جَاءَ بالحقّ، علَىٰ مَنْ هُوَ في ضَلَالٍ مُبين.

فالعبارة كنايَةٌ عَنْ هٰذا المعنى، الَّذي فُهِمَ عَنْ طريق اللُّزوم الكفري.

وتقديرُ الْعِبَارِة: قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْم، يَعْلَمُ مَن جاء بالْهُدَى، ويَعْلَمُ مَنْ هُو في ضَلالٍ مُبين، وهو بحكْمَتِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْصُرَ في

---

(١) وليُمَحّص: أي: وليمْتَحِنَ.

آخِرِ مَرَاحِلِ الصِّراعِ من جاء بالْهُدىٰ على مَنْ هو في ضَلَالٍ مبين(١).

قول اللَّه عزّ وجلّ خطاباً لرسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

• ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾: وَمَا كُنْتَ تَتَوَقَّعُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكَ الْوَحْيُ ويَتْلُوَ عَلَيْكَ آيات رَبّك.

أَصْلُ معنى «الرَّجاء» مُطْلَقُ التَّوقُّع للْمَرْغُوبِ فيه، أو المخوف مِنْه.

• ﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: أي: ومَا كُنْتَ تَتوَقَّعُ أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْقُرْآنُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْي، فَلَمْ يكُنْ لَكَ كَسْبٌ مَا فِي ذَلِك، بل اصْطَفَاكَ رَبُّكَ نَبِيّاً، واصْطَفَاكَ رَسُولاً، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكَ آياتِ كِتَابِهِ لِتُبلِّغَهُ للنَّاس، دون توَقُّعٍ سابقٍ منْكَ لهذا.

• ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ﴾: أي: لَمْ يُلْقَ إِلَيْكَ الْقُرْآنُ إِلَّا إلْقَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبّكَ لَكَ وللنَّاسِ أجْمَعِين.

رَحْمَةُ اللَّه: صفة مِن صفاتِه الجليلة، وهي صفَةٌ نفْسِيَّة للَّهِ عزّ وجلّ نُثْبِتُها لَهُ على ما يَلِيقُ بجَلَاله، ومن آثَارِهَا العطاءُ، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ البؤس، والإمْدَادُ بِمَا يَسُرُّ ويُسَكِّنُ النفْسَ، ويُطَمْئِنُ الْقَلْب، ومن آثَارِهَا إِنْزَالُ مَا يَهْدِي وَيُرْشِدُ إلى ما يَجْلُبُ سَعَادَة الدُّنيا والآخَرة، فإنْزَالُ الكِتَابِ علَىٰ رسُولِ اللَّهِ مُحمّدٍ ﷺ هو من آثار رَحْمَةِ اللَّهِ بعِبادِه.

• ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾: أي: فَلَا تتأَثَّر بما يَنْشُرُهُ أو

---

(١) أفعل التفضيل لَا يَنْصِبُ المفعول به عند النحاة، فتقدير عَاملٍ مَحْذُوف لفظاً ملاحظ ذهْناً أمْرٌ تقتضيه العبارة. ولولا قرار النحويين هذا لآثرتُ أن تكون كلمة «مَنْ» مفعولاً به لا فعل التفضيل «أعْلَم» إذْ لا أرى مانعاً من أنْ تقول مثلاً: فلانٌ أشربُ الناسِ ماءً، والمنشار أقطع الأدوات أشجار الغابة.

يُوَسْوِسُ به المضِلُّونَ، ويُرَدِّدُه الجاهِلُونَ وَقَصِيرُو النَّظَرِ الذين يَتَوَهَّمُون أنَّ رَبَّكَ تخلَّيٰ عَنْ نَصْرَتِكَ، إذْ مَكَّنَ أَئِمَّةَ الشِّرْكِ والكُفر في مَكَّة من اضطهاد الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوك، وإذْ مَكَّنَهُمْ مِنْ إيذائِكَ باتِّهَامَاتِهِم الكاذبات الظَّالمات، كاتّهامِهِم لَكَ بأنَّكَ سَاحِرٌ، أو شاعِرٌ، أَوْ تَفْتَرِي على رَبّك فتَنْسُبُ إلَيْهِ الآيَاتِ والسُّورَ الَّتي تَتْلُوها عليهم.

إنَّكَ إذَا تَأَثَّرتَ بهٰذِهِ الأشياء، فضَعُفَ يَقِينُكَ بأنَّ رَبَّكَ سيَنْصُرُكَ حَتْماً في نهايَةِ مَرَاحِلِ الصّراع الَّذي لا بُدَّ مِنْه؛ بحَسَبِ سُنَنِ اللَّهِ في المجْتَمَعِ البشريّ، فإنَّكَ تكُونُ بهَذا التَّأثّر ظَهِيراً مُعِيناً لِلْكافِرِينَ عَلَىٰ نَفْسِك. **الظهير**: المعين.

لكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ محمّداً ﷺ لَا يَتَأَثَّرُ بهٰذِهِ الْعَوَارِضِ المشَوِّشة، بَيْدَ أَنَّ الْخِطَابَ مُوَجَّهٌ لَهُ والْمَقْصُودُ بِهِ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وَلَا سيما الَّذين لا خِبْرَة لَهُمْ بسُنَنِ اللَّه في المجتمع البشري. ومن التأثّر الذي يكُون بهِ الداعي إلى اللَّه ظَهيراً للكافرين ضَعْفُهُ أو تهاوُنُهُ في مُتَابَعَةِ تبليغه آيات اللَّه، أو في الدَّعْوة إلى رَبّه، أو تَسَلُّلُ بعض مفاهيم الشرك السببيّ إلى نفسه، أو نحو ذلك.

قول اللَّه عز وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

- ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ وفي القراءة الآخرى: **[تَرْجِعُون]**.

وفي هاتين الآيَتَيْن بيانُ أَربَع وَصَايا، يَتْبَعُهَا بيان أَرْبَعِ قضايا، وهي مُوجّهة لِلرسول ﷺ باعْتِبارِه أوَّلَ مُخاطَبٍ بِبَيَانِ اللَّهِ لعبادِهِ، ويُلْحَقُ به سَائِرُ الموضوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، ولا سيما أئمَّةُ المتقين،

حَامِلُو رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ، والنُّصْحِ والإِرْشَادِ، والأَمْر بالْمَعْرُوفِ والنَّهْي عَنِ المنكر، وهي بمثابَة تفصيل إيمائيّ لعبارة. **[فَلا تَكُونَنَّ ظهيراً للكافرين]**.

الوَصِيَّةُ الأُولىٰ: دلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾: أي: ولا تتأثّرْ بمكايد الكافِرينَ الضِّدِّيَّة، وتأخُّرِ نَصْرِ رَبِّكَ لَكَ الذي تأتي مقاديرُهُ على وفْقِ حكْمَته، فيكُونَ ذلِكَ صَادًّا لك عَن مُتَابَعَة تَبْلِيغ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ وَقْتِ إنْزَالِهَا إِلَيْكَ، بل بَلِّغْها بَعزيمَةٍ قويَّةٍ عَقِبَ إنْزالها.

- ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾: أي: ولَا يَصْرِفُنَّك، الضمير يَعُودُ عَلَىٰ الْكافِرين في الآية السابقة (٨٦).

يقالُ لُغَةً: «صَدَّهُ، يَصُدُّهُ، صَدّاً، وصُدُوداً» أي: صَرَفَهُ عَمَّا هُو فيه، أو منَعَهُ عن مُتَابَعَةِ مَا هو فيه.

- ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: عَنْ تَبْلِيغ آياتِ اللَّهِ الّتي هي وَظيفتُكَ الأولَىٰ في رِسالَتِك، أو عن الْعَمَلِ بها، وهو الوظيفة الثانية من وظائف رِسالتك، إذْ يجب أنْ تكون أسْوَةً حسَنَةً، لعباد اللَّهِ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الابتلاء.

- ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾: أي: بَعْدَ وَقْتِ إنْزالِهَا إلَيْكَ دُونَ تَهاوُنٍ أو تباطُؤٍ أو تقصير.

«إِذْ» ظَرْفُ زَمَانٍ لحدَثٍ مضىٰ. وهو مُضَافٌ لجملَةِ: «أُنْزِلَتْ إِلَيْك».

الوصيَّة الثّانية: دلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللَّه عزّ وجل: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي: وادْعُ إلى الإيمان بِرَبّك لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيّتِه، وادْعُ إلَى الإيمانِ بالدِّين الَّذي كَلَّفَكَ أنْ تُبَلِّغَهُ للنَّاس، وادْعُ إلى سُلُوكِ صراط رَبِّكَ المسْتَقيم، الَّذِي يُنَزِّلُ معَالِمَهُ وَحدُوده.

هذه الدّعْوة الّتي أمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِها، فيها تكليفٌ لَهُ أَنْ يَشْرَحَ ويُبَيّنَ ويُفَصّل للنّاس على مَقَادِيرِ أفْهَامهم قضايا دينِهِم، وهٰذِه تكاليفُ زائِدَةٌ على تَبْلِيغ مَا يُنْزِلُ اللَّه عزَّ وجلّ إليه من آياتِ كتابه، الأمْر الذي جاء في الوصية الأولىٰ.

الوصيّة الثالثة: دلَّ علَيْها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: في تَوجيه مِثْلِ هذا النّهي عَن الشّرْكِ للرّسُولِ المجتبىٰ ﷺ عِدَّةُ أغْراضٍ:

(١) إعْلامُ الكافِرينَ بأنَّ الرَّسُولَ الَّذِي اجْتَباه اللَّهُ جلّ جلالُهُ لتُبلِيغ رسالَتِه، أوّلُ الّذين ينهاهم اللَّهُ عن الشّرْك مَهْمَا كَانَ شِرْكاً خفِيًّا، ومِنْهُ تصَوُّرُ أنْ لِلأَسْبَاب تَأثيراً دُونَ تَدَخُّلِ خَلْقِ اللَّهِ لمَا يَنْتُجُ عَنْها.

(٢) تَحْذِيرُ المؤمِنينَ أتْباعِ الرَّسُولِ ولَا سيما الدُّعاة مِنْهُم، مِنَ الشّرْكِ مَهْمَا كَانَ خفِيًّا، إذْ هُمْ مَشْمُولُونَ بالوصايا الْمُوجَّهةِ للرّسُول ﷺ تبَعاً له.

(٣) التّأكيد على رَبْطِ فُرُوعِ الدِّينِ بأصُولِهِ، كُلَّمَا اقْتَضَتِ الحكْمَةُ البيانِيَّة ذلك ومعلومٌ أن توحِيدَ اللَّه في رُبُوبيَّتِه وفي إلٰهيَّته والتَّحْذِيرَ الشَّديد من الشّرْكِ، من الأركان الأولَىٰ في الْعَقِيدة الإيمانيَّة فِي دِينِ اللَّهِ لعباده، والحِكْمَةُ الدَّعَوِيَّةُ تَقْتَضِي تَأْصِيلَ هٰذا الرُّكْنِ عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ يَحْسُنُ فيها تأكِيدُهُ، ولو كان الخطابُ مُوَجّهاً بوصَايا للرَّسُول ﷺ المعصُوم حتماً من الشّرْكِ ومِنَ المعاصِي الّتي تتنافىٰ مع درجات مرتبَةِ المتقين.

الوصيّة الرّابعة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: أي: ولَا تدْعُ مَعَ اللَّهِ مَدْعُوّاً آخَرَ، قَدْ يَتَوَهَّمُ الجاهِلُون من دُعائِكَ له أنَّهُ شَرِيكٌ للَّهِ في إلٰهيَّته، فكُنْ شَدِيدَ الحذَرِ في دُعَائِكَ وفي أقْوالِكَ، حتّىٰ لَا تَنْزَلِق إلىٰ قَوْلٍ يَتَوَهَّم مِنْهُ بَعْضُ النَّاسِ جوازَ تأْلِيهِ غَيْرِ اللَّه، فيَكُونُ ذَلِكَ مُسْتَنداً لَهُمْ في ادّعاء الإلهيَّة له.

دَعَاني إلى هذا الْفَهم مَا جاء في الوصية الثالِثَة من النَّهْي عن الشِّرْك، ودَعَاءُ غير اللَّهِ من الشِّرْك إذا حَمَلْنَا اللَّفظَ على المتبادر منه، وبهذا تكُونُ الوصيَّةُ الرابعةُ تكراراً للوصية الثالثة: أو بمثابَة التكرار لها. أمّا الْفَهْمُ الّذي ظَهَرَ لِي فهو يُضِيفُ نَهْياً جَدِيداً ذا دَلَالَةٍ خاصَّة.

وجاء في النّصّ بَعْدَ هٰذِهِ الوصَايا الأرْبَعِ بيانُ أرْبَعِ قَضايا إيمانِيَّة، هي من أركان الإيمان الكبرىٰ، تأصيلاً لهَا، ورَبْطاً لِفُرُوعِ الإسلام بها.

القضية الأولى: دلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾: أي: لَا مَعْبُودَ بحَقٍّ فِي الْوُجود كُلّهِ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وكُلُّ مَعْبُودٍ من دُونِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ إلَهيَّةٌ مطْلقاً، بل الإلَهيَّةُ المدَّعَاة لَهُ باطِلَةٌ ومُفْتَرَاةٌ علَىٰ اللَّه جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

القضية الثانية: دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾:

هَالِكٌ: أصْلُ الإهْلَاكَ في اللُّغَةِ الإمَاتَةُ. ويَقَعُ أيْضاً على إفْنَاءِ الأشياء واسْتِئْصَالها.

وقدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ على أنَّهُ يَبْقَىٰ مِنَ الإنْسَانِ لَا يَفْنَىٰ عَجْبُ الذَّنب، وَمِنْهُ تكُونُ نَشَأَتُهُ الأخرىٰ عند البعث، فالفَنْاء الْعَامّ بمعنَىٰ إعدام كلِّ شيءٍ غَيْرُ مُراد، فلا بُدَّ مِنْ فَهْم (هَالِك. على معنَىٰ): «مَيّت» وَتكونُ العبارة على تقدير: كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ سَيكُونُ أو سَوْفَ يكُونُ هَالِكاً أي: مَيّتاً، حتَّىٰ أهْلُ الملأ الأعْلَىٰ، ومنهم «جبرائيل، وإسْرَافيل، ومِيكائيل» فلا يَبْقَىٰ في الْوُجُودِ حَيٌّ غَيْرُ اللَّه جَلَّ جلالُهُ وعظُم سُلْطَانه.

[إلاَّ وَجْهَهُ]: أُطْلِقَ لَفْظُ الْوَجْهِ، والمرادُ كُلُّ ذَاتِهِ، تبارَكَ وتَعَالَىٰ، مُرَاعَاةً لمَا يَفْهَمُه المخْلُوقُونَ، منْ إطْلَاقِ أكْرَمِ شيءٍ فيهم وهو الْوَجْهُ علَىٰ كُلّ ذَوَاتهم في اسْتِعْمالَاتهم، وهو من إطلاقِ الْبَعْضِ وإرادة الكلِّ على سبيل المجازِ المرسل.

القضية الثالثة: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجل: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: أي: لَهُ جلُ جلالُهُ الحكم التّكليفيّ لعبادِه الْمُمْتَحنِين، إذْ هُو الرَّبُّ الخالِقِ المتصرف بكُلّ عباده. وله الْحُكْمُ القضائيّ الَّذِي يفْصِلُ بهِ بين عباده الَّذين وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامتحانِ في الحياة الدُّنيا، ولَهُ الحكْمُ التَّنْفِيذيُّ لكُلِّ أمْرٍ يَتمُّ بِهِ قَدَرُهُ وقَضَاؤه، فَلَا حُكْمَ في الْوُجُود كُلِّهِ بِشَأْنِ هٰذِهِ الأُمُورِ إلّا للَّهِ وَحْدَه لَا شَرِيكَ له.

وهٰذِهِ القضيَّةُ مُوجَّهَةٌ بالدَّرَجَة الأولَىٰ لِلْحُكْم علَىٰ العباد يوْمَ الحساب وفَصْلِ القضاء، تمْهِيداً لِتَنْفِيذ الجزاء، مع عُموم دَلالَتِها كلّ ما سبَقَ بيانه.

الْقَضِيَّة الرَّابعة: دلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿.. وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإلَىٰ حُكْمِهِ، وفَصْلِ قَضائِهِ بَيْنَكُمْ، تُرْجَعُونَ بَعْدَ بَعْثِكُمْ من مَوْتِكُمْ، وَقيامَتِكُمْ مِنْ أجداثِكُمْ، ثُمَّ إلَىٰ حُكْمِهِ بِتَنْفِيذِ جزائِهِ فِيكُمْ بِحَسَبِ مَا قَدَّمْتُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِكُم في الحياة الدُّنيا أيُّها الموضُوعونَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الابتلاء.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر سُورَة (القصص) والحْدُ للَّهِ على مَدَدِه، وفيض عطائه، وتوفيقه وفَتْحه.

* * *

(١١)

ملحق

مستخرجات بلاغية من سورة (القصص)

في هذه السُّورة روائع وبدائع بلاغيَّة كثيرة، وأَسْتَخرج منها لهذا الملْحَق أشباه ما اعْتَدْتُ على اسْتخراجِهِ في السّور التي سَبَقَ تدبُّر آيَاتِها ودُرُوسها.

أوّلاً

الإيجاز الرائع بالحذفِ والطَّيِّ بَيْنَ مَنْطُوقِ الْجُمَل، وهَذا النوع من الإيجاز كثير في هٰذهِ السورة، ويَكْشِفُهُ مَا يقْتِضيهِ الترابُط الْفِكْرِيّ بين الجمل، وقَدْ يأتي المطويُّ في هذه السورة مُصَرّحاً بِهِ في سُورَةٍ أُخرىٰ، ولا سيما بالنّسْبَةِ إلىٰ القِصَص الّتي يُرَىٰ أنّها مُكرَّرَة في بَعْضِ السُّور، والتدبُّر المتأني يكْشِفُ أنّها متكاملة فيما بَيْنها.

ومِنْ هذا الإيجاز مَا أذْكُره فيما يلي دون تفصيل مُوسّع:

(١) قول اللّه عزّ وجلّ بشأن مُوسَى وهو رضيعٌ انتشَلَهُ آل فرعْون من النيل، وأخته مَرْيم الّتي تتابعُ أحداثَ انتقاله وهو داخل التابوت في الماء، حتَّى انتشَلَهُ آل فرْعَوْن، دون أنْ تُشْعِرَ أحداً بأن لَهَا صلَة ما به.

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ ....﴾ أي: وَحَرَّمْنَا علَى مُوسَىٰ تَحْريماً قدريًّا المراضِعَ فمنعْناه بالقضاء والْقدر من أن يقبل ثَدْي إحداهُنَّ لِنَرُدَّه إلَىٰ أُمّه، وكانت أختُه مريم تَقصُّ أخباره، فلَمّا وَصلَتْ إلى حيْثُ يُطْلَبُ لَهُ مُرْضِعٌ يَقْبَلُ ثَدْيَها، قالَت للطالِبينَ، هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وهُمْ لَهُ نَاصِحُون؟

(٢)وقول اللّه عزّ وجلّ بشأن مُوسَىٰ بَعْدَ أن اكْتَمَلَتْ رُجولَتُه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: ولَمّا بَلَغَ أشُدَّهُ واسْتَوىٰ وكَانَ في سُلُوكِهِ في نَشْأَتِهِ، وفي شبابه، وفي اكْتِمَالِ رُجولَتِهِ، مِنَ الْمُحْسِنينَ، آتَيْناهُ حُكْماً وعِلْماً، وكذٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ المحْسِنينَ ضِمْنَ سُنَنِنا في عبادنا، إذْ نُؤْتِيهم حُكْماً وَعِلْماً.

(٣) وقول اللّه عزّ وجلّ بشأن حَدَثٍ من الأحداث الّتي جَرَتْ لمُوسَى قبل فراره مِنْ جُنودِ فرْعَوْنَ إلَىٰ مَدْين:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾:

أي: فتَدَخَّلَ مُوسَىٰ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا فَتَطاولَ عَلْيهِ المصْرِي معتزّاً بعُنْصُرِيَّتِه، فوكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْه.

دلَّ على أنَّه تَدَخَّلَ لِيُصْلِحَ بينهما حادثَةُ اليوم التالي إذْ قَالَ لِهُ المصريّ الآخر: ﴿. . وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

(٤) وقَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ بشَأنِ مُوسَىٰ أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: قال رَبِّ بما أنْعَمْتَ عليَّ بالسّتر فَلَمْ تَكْشِفْ أَنِّي أنا الَّذِي قتَلْتُ المصريّ. كان هذا قَبْلَ أن يُكْشَفَ أَمْرُهُ في اليوم التالي.

(٥) وقول اللَّه عزّ وجلّ بشَأن مُوسَىٰ عليه السلام حين وَصَلَ إلَىٰ أرْض مَدْيَنَ فاراً مِنْ مِصر وَجُنُودِ فرعَوْن:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: ووَجَدَ مِنْ دُونِهِم امْرَأتَيْنِ تَذُودان (أي: تُبْعِدَان) اغْنامَهُما.

(٦) وقول اللَّه عزَّ وجلّ بشَأن مُوسَىٰ عليه السلام أيضاً: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ واسْتَأْذَنَ أبَا زَوْجَتِهِ أنْ يُسَافِرَ إلى

مصر، مُسْتَصْحِباً زَوْجَتَهُ وولَدَه، وأذِنَ لَهُ، وأعَدَ ما يَلْزَمُ لهذا الرَّحيل ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ وإنّي ذَاهِبٌ إلى المكان الّذي هي فيه ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي: من أهْلِها ﴿بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

(٧) قول اللَّه عزَّ وجَلّ خطاباً لرسُوله محمّد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا . . . ﴿٤٦﴾﴾: أي: إذْ نَادَيْنا مُوسَىٰ.

ثانياً: الكناية

وهي اللَّفظ المسْتَعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلَاحِ التّخاطب، للدَّلَالَة بِهِ على معْنَىٰ آخَرَ لازم لَهُ، أو مصاحب له، أو يُشَارُ بِهِ عادَة إلَيْهِ، لمَا بيْنَهُما من الملابَسَةِ بوجْهٍ مِنَ الْوُجُوه.

وهي من أساليب التعبير الرَّفيعِ، عن المراد بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَة، وهي من أبْدَع وأجْمَلِ فُنُون الأدَب، وفيها إشعار المخاطب بأنَّهُ من الأذكياء أولي الألْبَاب الّذِينَ تكْفِيهُمُ الإشاراتُ، واللّمْحيَّاتُ فِي الْعِبَارَات.

وممَّا في السورة من الكنايَة ما يلي:

(١) قول اللَّه عزّ وجلّ بشَأْنِ أمّ مُوسَىٰ حِينَ وضَعَتْهُ في التابوت وألْقَتْهُ في اليمّ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾:

جاء في هٰذِهِ الآية كِنَايَتَان:

الكنايَة الأولَىٰ: الكنايَة بالفراغِ للدَّلالَة علَىٰ الخِفَّةِ الَّتي يطِيشُ بها الفارغ وَلَا يَثْبتُ، ومَعَ طَيْشِ الْفُؤَادِ يُبْدِي الإنسان ما يَجِبُ أنْ يكونَ كاتماً له محافظاً علىٰ سِرِّيّته.

الكناية الثانية: الكِنَايَةُ بالرّبط للدّلَالَةِ علَىٰ التَّثْبِيتِ المعنوي. أو نقول: شُبِّه التثبتُ المعنويُّ بالرَّبْطِ الذي يَثْبُتُ به المرْبوط، واسْتُعير الفعل في «رَبَطْنا» للدّلالَة بِه على معنى الفعل في «ثَبَّتْنا».

(٢) وقول اللّٰه عزّ وجلّ بشأن موسَى عليه السلام وفرعون ومَلَئِهِ وأتباعهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

في رَدّ مُوسَىٰ عليه السلام على فرعون وملَئِهِ كِنَايَةٌ عَنْ إِنْذارِهِم بعقاب اللّٰه عزّ وجلّ، لأنَّ اللّٰهَ أعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بالْهُدَىٰ ومَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ وهيَ الجنَّة، ويَلْزَمُ مِنْ هٰذا أَنَّ مَنْ أبَىٰ أن يَسْتَجِيبَ للْهُدَىٰ فَلَهُ عذابُ النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

ونَظِيرُ هٰذه الكنايَة مَا جَاءَ في قول اللّٰهِ عزّ وجلّ لِرَسُوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: فَهُو يَنْصُرُ وَيُثِيبُ مَنْ جاء بالْهُدَى، وهو يَخْذُلُ ويُعَاقِبُ مَنْ هُو في ضَلَالٍ مُبين.

ثالثاً: ممّا يَحسُنُ في البيان مخالَفَةُ مقتضى الظاهرِ لدَواعٍ بلاغيّة

أ ـ من مخالفة مقتضىٰ الظاهر الإشارة إلى القريب باسم الإشارة الموضوع للبعيد لداعٍ بلاغي، ومنه ما يلي:

(١) قول اللّٰه عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾:

جاء في هذه الآيَةِ اسْتِعْمالُ اسْم الإشارة الموضوع للبعيد «تِلْكَ»

للدَّلَالة على ارْتفاع مَنْزِلَةِ آيات القرآن المجيد، بأنَّها كلامُ اللَّه عزّ وجلّ، وبأنَّها معجزة في أَلْفَاظِهَا وَفي جُمْلَةِ معانيها.

(٢) وقول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

جاءت الإشارة إلى «الدَّارِ الآخِرَة» الَّتِي هِيَ الجنَّةُ باسْم الإشارَة «تِلْكَ» الْمَوْضُوعِ للمشار إلَيْهِ الْبَعِيد، لِبُعدِ مكانِهَا الآنَ في الحياة الدُّنيا، ولارْتِفَاعِ مَكَانَتِها العظيمة، بما جَعَلَ اللَّهُ فيها من نَعِيم عظِيمُ مقِيم خالِدٍ، وبما جعل اللَّهُ فيها للمتقين ممّا لَا عَيْنٌ رأَتْ، ولَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولَا خَطَرَ علَىٰ قَلْبِ بَشَر.

ب ـ ومِنْ مُخَالَفَةِ مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ أَنْ يَتَحدَّثَ المتكلّم الواحد عَنْ نَفْسِهِ بضَمِيرِ الْجماعَة، ويَحْسُنُ تَسْمِيَتُهُ ضَمِيرَ المتكلّم العظيم.

وَجاء في السُّورَةِ أمْثِلَةٌ كثيرةٌ من حَدِيث اللَّهِ عزّ وجلَّ عَنْ نَفْسِهِ بضمير المتكلّم العظيم، لتربيَةِ المهابَة مِنْه جلّ جلاله، أو لأنّ مضْمُونَ الكلام يَتَعلَّقُ بأمُورٍ هي من خَصَائِصِ الرَّبّ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانِه. ومِنْ هٰذه الأمْثِلة:

[نَتْلُو عَلَيْكَ ـ ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ـ ونَجْعَلَهُمْ أئمَّةً ـ ونَجْعَلَهُمْ الوارِثِينَ ـ وأَوْحَيْنَا إلَىٰ أُمّ مُوسَىٰ ـ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا ـ آتَيْنَاهُ ـ سَنَشُدَّ عَضُدَكَ بأخيك ـ ونَجْعَلُ لكُما سُلْطاناً ـ فلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ بآياتِنا].

رابعاً: من الفنون البيانيّة إيراد الجملة مورد التعليل دون دليل لفظيّ يَدُلّ عليه

وهذ الْفَنُّ لَهُ أمثلة كثيرة في القرآن المجيد، ومن أَمْثِلَتِهِ في سورة (القصص) ما يلي:

قول اللّه عزّ وجلّ في خطاب موسَىٰ عليه السلام بجانب الطور:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

جملة: **[إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فاسِقِينَ]**: أُورِدَت مَوْرِدَ التعليل، أي: نُرْسِلُكَ رَسُولاً إليهم، لِتُبَلِّغَهُمْ رِسَالَاتِنا، ومَعَك بُرْهَانَان هما الْعَصَا والْيد من رَبّك لأَنَّهُمْ كانوا قَوْماً فَاسِقِين، والْحِكْمَةُ تقتَضِي إرْسَالَ رَسُولٍ لَهُمْ وَإِنْذارَهُمْ قبلْ إنْزَالِ الْعِقَابِ المعَجَّلِ عَلَيْهِم بالإِهْلَاك.

خامساً

التوكيد للجمل بأدواتِ التوكِيد لدَواعٍ بلَاغيَّة، يُرَاعَىٰ فيها حَالُ المخاطَبين، أو حالُ المتكلّم.

وفي السَّورة من هذا التوكيد أمْثِلَة كثيرة جدّاً، لَا تخفىٰ عَلَىٰ مَنْ نظر المستخرجات البلاغيَّة من السَّور الَّتي جَاءَتْ قبلَ سورة (الْقَصَص) وباستطاعَتِهِ أَنْ يَقِيسَ عليها، ولا سِيما حينما يَضَعُ أدواتِ التوكِيد أَمَامَ عيْنيْهِ، وباستطاعته أن يسْتعين بكتابي «البلاغَة العربية ـ أُسُسُها، وعُلُومُها، وفُنُونها» وأنْ يَنْظُرَ موضوع «مؤكدات الإسناد الخبري» في الجزء الأول منه، في الصفحات من (١٨٦ ـ ١٩٣).

وأقتصر على هذه المستخرجات من هذه السورة تاركاً للمهتمين بعلوم البلاغَة مجالاً واسعاً للاستخراج، فالقرآن معين ثرٌّ في كلّ مجالٍ من مجالَاتِه الفكرية والعلمية والأدبية.

* * *

سورة الإسراء

وتسمّىٰ سورة «بني إسرائيل»
وتسمّىٰ سُورَةُ «سُبْحان»

١٧ مصْحَف ٥٠ نُزُول
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ إلَّا:

- الآيـة: (٢٦) فـمَدَنِيَّة.
- وَالآيتين: (٣٢ و ٣٣) فَمَدَنِيَّة.
- وَالآيـة: (٥٧) فَمَدَنِيَّة.
- وَالآيات مِن (٧٣ ـ ٨٠) فَمَدَنِيَّة.

علىٰ مَا ذكَرَ عُلمَاءُ القِراءاتِ وَاللهُ أعْلمُ.

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ
حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى
بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾
ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ
وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ
وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ

---

٢ ـ • قرأ أبو عَمْرو: **[أَلاَّ يَتَّخِذُوا]** بياء الغائبين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا﴾** بتاء المخاطبين.
وبين القراءتَيْنِ تكامل في الأداء البياني.

٧ ـ • قرأ ٱبن عامر، وشعْبَة، وحَمْزَة، وخلف: **[لِيَسُوءَ]**.
وقرأ الكسائي: **[لِنَسُوءَ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لِيَسُوؤُوا]**.
وبين هذه القراءات تكامل في الأداء البياني، وتفنُّنٌ في التعبير، فالفاعل=

وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ
تَتۡبِيرًا ⑦ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ
لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ⑧ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ
وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا
⑨ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا
⑩ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ⑪
وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ
مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ⑫ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ
طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا

= الحقيقيُّ المقدِّرُ هو الله، والفاعلُ السَّببِيُّ الناس.
ومؤدّىٰ القراءات واحد.

٩ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُرَانَ] وصلاً ووقفاً. وحمزة في الوقف فقط.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الْقُرْءَانَ].

٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [وَيَبْشُرُ] من فعل «بَشَرَ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ من فعل: «بَشَّرَ».

١٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [وَيُخْرَجُ].
وقرأها يعقوب: [وَيَخْرُجُ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَنُخْرِجُ﴾.
ومؤدّىٰ هذه القراءات واحد، وهي من التفنُّن في التعبير.

١٣ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [يُلَقَّاهُ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يَلْقَاهُ﴾.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ مَّنِ
ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ
أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ
فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ
عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا
مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ
مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ
وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾
ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ

---

١٤ ـ • كلمة (اقْرَأْ) أَبْدَل همزَتَها ألفاً مَدِّيَّة، أبو جعفر في الوصْلِ والوقف، وحمزة وهشام في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالهمزة وصلاً ووقفاً.

١٦ ـ • قرأ يَعْقُوبُ: [ءَامَرْنَا] بمعْنَىٰ: كَثَّرْنَا، يُقالُ لغة: «آمَرَ اللَّهُ القومَ إيماراً» أي: كثَّرَ نَسْلَهُمْ وَمَاشيتهم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنىٰ وجَّهْنَا لهم أمْراً تكْلِيفيًّا إلْزاميًّا.

ويأتي هذا الفعل أيضاً بمعنىٰ: كثَّرنا، يقال لغة: «أمَرَ اللَّهُ الْقَوْم» أي: كَثَّرَ نَسْلَهُمْ ومَاشيتهم.

فبين القراءَتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

١٩ ـ • قرأ قالُون، وأبو عمْرو، والكسائي، وأبو جَعْفر: [وَهْوَ] بإسْكان الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضمّ الهاء.

وهُما لغتان عربيّتان.

وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا
مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا
فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا
﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا
كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ
صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ
إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ
عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا
تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا
مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ
نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ

---

٢٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [إمَّا يَبْلُغَانِّ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ﴾.
ومؤدّىٰ القِراءَتَيْنِ واحد، وهما من التفنُّن في البيان.

٢٣ ـ • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر: ﴿أُفّٖ﴾ بكسر الفاء مع التنوين.
وقرأها ابن كثير، وٱبْن عامر، ويعقوب: [أُفَّ] بفتح الفاء دون تنوين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أُفِّ] بكسر الفاء دون تنوين.
وهي لغاتٌ عربيّة لهذه الكلمة.

٣١ ـ • قرأ ابن كثير [خِطَاءً].

=

ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ
ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ
سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا
تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ
بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ
وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا
تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ
أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ
لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ
سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ

= وقرأها ابنُ ذكوان، وأبو جعفر: [خَطَأً].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿خِطْأً﴾.

الخِطْءُ، والخَطأُ يَقَعانِ على الذنب.

وأمّا قراءة ابن كثير، فيظهَرُ أنّها لُغَةٌ كالْخِطْءِ إلّا أنَّ مُدَوِّني المعجمات اللُّغَويَّة لَمْ يَذْكُروها، وكونُها قراءة متواترة يَكْفِي لإثباتها، ففي لغات العرب كثيرٌ لم تُدَوِّنْهُ المعجمات اللّغويّة.

٣٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [فَلَا تُسْرِفْ] بتاء المخاطب، وهو خطاب موجَّهٌ للوليّ.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فَلَا يُسْرِفْ﴾ بياء الغائب، والضمير يعود على الوليّ.

والقراءتان من التَّفَنُّن في التعبير.

٣٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [بالقِسْطَاسِ] بكسر القاف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بالقُسْطَاسِ] بضم القاف.

وهما لغتان عربيّتان في هذه الكلمة.

٣٨ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، ويعقوب: [سَيِّئَةً]. =

ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا
مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ
إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ
لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا
يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا
يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن
فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿سَيِّئُهُ﴾.

وبين القراءتَيْنِ تكاملٌ في أداء المعنَىٰ المراد، أي: كلُّ مَنْهِيّ عنه من ذَلِكَ الذي نَهَىٰ اللَّهُ عنهُ في الآيات السَّابقات كانَ سيئُهُ الذي يَكْرَهُهُ ربُّكَ مَكْسُوبَةً سَيِّئَةً، يسْتحِقُّ فاعِلُها أنْ يُعاقَبَ عليها.

٤١ ـ • قَرَأَ حمزة، والكسائي، وخلف: [لِيَذْكُرُوا].

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أصْلُها ليتَذَكَّروا.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد. أي: لِيَذْكُر قسمٌ من الناس ذكراً لا مبالغة فيه، ولِيَذَّكَّر قسم أهل السّبقِ ذكراً فيه اجتهاد وحرصٌ شديدٌ على المسابقة في الخيرات والقربات.

٤٢ ـ • قرأ ابن كثير وحفص: [كَمَا يقُولون] بالياء. وقرأها باقي القراء العشرة بالتاء [كَمَا تَقُولُونَ] وبينهما تكامُلٌ في الأداء البياني بين الغيبة والخطاب.

٤٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [عَمَّا تَقُولون] بالتاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالياء: [عَمَّا يَقُولُون]. وبينهما تكامل في الأداء البياني.

٤٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر [يُسَبِّحُ لَهُ] بالياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ بالتاء.

وهما وجهان عربيان جائزان متكافئان.

٤٤ ـ • قرأ يعقوب بضم الهاء من [فِيهُنَّ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الهاء [فِيهِنّ] وهما لغتان في هاء الضمير.

إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ
وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ
خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى
فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ
قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ
وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ
أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا

---

٤٥ ـ • قرأ السوسي، وأبو جَعْفر: **[وَإِذَا قَرَات]** بإبدال الهمزة ألفاً، وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالهمزة.

٤٥ ـ • كلمة «القرآن» هنا وفي الآية السابقة (٤١) أبدل الهمزة ألفاً ابنُ كثير، وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط. وباقي القراء بالهمزة.

٤٩ ـ • قرأ نافع، والكسائي، ويعقوب: **[أئِذَا كُنَّا عِظاماً وَرُفَاتاً إنَّا]**؟.
وقرأها ابن عامر، وأبو جعفر: **[إذا كُنَّا عِظاماً وَرُفَاتاً أئِنَّا]**؟.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿أئِذَا كُنَّا عِظاماً وَرُفَاتاً أئِنَّا﴾**.
ومؤدّى هذه القراءات واحد، فالاستفهام، ذُكِرَ أمْ لم يُذْكَرْ مُقَدَّرٌ ذِهْناً.

مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ
زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ
وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن
قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا
شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ
بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً

---

٥٤ ـ • أبدَل الهمزة من [يَشَا] ألفاً في الموضعين أبو جعفر في الوصل والوقف.
وحمزة وهشام في الوقف فقط.
وباقي القرّاء العشرة قرؤوها بالهمزة الساكنة: [إِنْ يَشَأْ].

٥٥ ـ • قرأ نافع: [النَّبِيئِينَ] مع المدّ المتصل. ولورش ثلاثة البدل.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿النَّبِيِّين﴾.

٥٥ ـ • قرأ حمزة، وخَلَفٌ: [زُبُوراً] بضمّ الزاي، وهو جمع «الزُّبْر» وهو المكتوب.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿زَبُوراً﴾ بفتح الزاي. وهو الكتاب المزْبُور.
ومؤدىٰ القراءتَيْنِ واحد.

٥٦ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [قُلِ ادعُوا] بكسر اللام في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة بضم اللام: [قُلُ ادْعُوا] مراعاة لضمّ العين.

٥٧ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [رَبِّهِمِ الْوَسِيلَةَ] بكسر هاء الضمير وميم الجمع.
وقرأ حمزَة، والكسائي، وخلف بضمّهما [رَبِّهُمُ الْوَسِيلَةَ].
وقرأ باقي القرّاء العشرة بكسرِ الهاء وضمّ الميم ﴿رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾.
وهي وُجُوهٌ عَرَبيَّةٌ في النطق.

فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ
إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ
لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا
طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ
إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا
ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم
بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ
وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ
عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾

---

٦٠ ـ • قرأ السّوسي: [الرُّويَا].
وقرأها أبو جعفر: [الرُّيَّا].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿الرُّؤْيَا﴾.
ووقف حمزة كالسُّوسي وأبي جعفر.

٦١ ـ • قرأ أبو جعفر: [لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا] مراعاةً لضم الجيم في اسْجُدُوا وصلاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالكَسْرِ: [لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا] بالكسر على الأصل.

٦٢ ـ • أثبت ياء المتكلم في: [أَخَّرْتَنِي] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، في الوصل. وابن كثير، ويعقوب في الوصل والوقف.
ولَمْ يُثْبِتْها باقي القراء العشرة فقالوا: ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ في الوصل والوقف.

٦٤ ـ • قرأ حفص: [وَرَجِلِكَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَرَجْلِكَ﴾ الرَّجْل اسم جمع الرَّاجِل الماشي على رِجلَيْه. ويظهر أنّ كَسْر الجيم لغة.

رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ
إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ
مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ
كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ
عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ
أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ
فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡۙ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾
۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ
وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ
خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ
فَتِيلٗا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ
وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ

---

٦٨ و٦٩ ـ • قرأ ٱبن كثير، وأبو عمرو: بنون المتكلم العظيم في الأفعال التالية: [نَخسِفَ ـ نُرْسِلَ ـ نُعِيدَكُم ـ فَنُرْسِلَ ـ فَنُغرِقَكُمْ].

وقرأها رُوَيس عن يعقوب، وأبو جعفر بخُلْفٍ عن ٱبْن وردَان: [يَخسِفَ ـ يُرْسِلَ ـ يُعِيدَكُم ـ فيُرْسِلَ ـ فَتُغرِّقَكُمْ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَخسِفَ ـ يُرْسِلَ ـ يُعِيدَكُم ـ فَيُرْسِلَ ـ فَيُغرِقَكُمْ].

ومؤدى هذه القراءات واحد، وفيها تفنُّنٌ في الأداء البياني، وزيادة ترهيب في [فَتُغرِّقَكُمْ].

٦٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [مِنَ الرِّياحِ] بالجمع، وهو يدلُّ على تعدّد أنواعها.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿مِنَ الرِّيحِ﴾ بالإفراد، وهو يَدُلُّ على الجنس.

إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَآ
أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا
لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا
نَصِيرًا (٧٥) وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ
مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۚ إِنَّ قُرْءَانَ
ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ
عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى
مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا
نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ

---

٧٢ ـ • في [فهو] قراءتان إسكان الهاء وضمها كما في الآية (١٩).

٧٤ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيهُمْ] بضم هاء الضمير.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿إِلَيهِمْ﴾ بكسرِ هاء الضمير.
وهما لغتان عربيتان.

٧٦ ـ • قرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [خِلاَفَكَ] أي: بَعْدَك.
وقَرَأَهَا باقي القراء العشرة: [خَلْفَكَ] أي: وراءَ ظهرِك الذي توليه إيَّاهم عند خروجك.
ومؤدّى القراءتين واحد، وهما من التفنُّن في التعبير.

٧٧ ـ • قرأ أبو عمرو: [رُسْلِنَا] بإسكان السّين.
وقرأها باقي القراء العشرة بضمها: ﴿رُسُلِنَا﴾.
وهما لغتان عربيّتان.

زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ
وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ
أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ
يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾
وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ
ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ
ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ
إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ
وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ
كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

---

٨٢ - • قرأ أبو عَمرو، ويَعْقُوب: [وَنُنْزِلَ] من فعل: «أنزل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَنُنَزِّلَ] من فعل: «نزّل»، أنزل ونزّل مُتكافِئان.

٨٣ - • قرأ ابن ذكوان، وأبو جعفر: [وَنَاءَ]: أي: ونهض كالْمثقَلِ من حِمْل، وهو كناية عن الابتعاد، مع إعطاء مظهر الاستكْبار.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَنَأَىٰ﴾ أي: ابْتَعَد.
وبين هاتين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فقراءة: [وَنَاءَ] تَدُلُّ علىٰ إعراض المتثاقل المستكبر، وهذه صفة بعض الناس، وقراءة ﴿وَنَأَىٰ﴾ تَدُلُّ على الإعراض مع الابتعاد عن الحق وطاعة الله، دون استكبار، وهذه صفة بعض الناس.

٨٨ - • قرأ ابن كثير: [الْقُرَان] وحمزة في الوقف.
وباقي القراء العشرة: ﴿الْقُرْآن﴾.

وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا
تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ
تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ
أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا
نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا
مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ
بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ
مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُل

---

٩٠ ـ • قرأ نافع، وٱبن كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْن عامر، وأبو جعفر: [تُفَجِّرَ] من فعل: «فَجَّرَ» المضعف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تَفْجُرَ﴾ من فعل: «فَجَرَ» غير المضعف.

والقراءتان تُعَبِّرَان عَنْ مقالتين قالهما كبراء كفار قريش، فقال بعضُهُمْ: حتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا من الأرض يَنْبُوعاً، مشيراً إلى أرض لينة.

وقال بعضهم: حَتَّىٰ تُفَجِّرَ مشيراً إلى أرض صخرِيَّةٍ صَعْبَة التشقق.

٩٢ ـ • قرأ نافع، وٱبن عامر، وعاصم، وأبو جَعْفر: [كِسَفاً] بفتح السين.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان السين [كِسْفاً].

كِسْف، وكِسَف، جمع «كِسْفَة» بمعنىٰ: قطعة. فالقراءتان متكافئتان.

٩٣ ـ • قرأ أبو عمرو، ويَعقوب: [تُنْزِلَ] مِنْ فعل «أَنْزَل».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿تُنَزِّلَ﴾ من فعل «نَزَّلَ» المضعَّف.

أنْزَل، ونزّل، متكافئان، فالهمز أخو التضعيف.

٩٣ ـ • قرأ ٱبن كثير، وٱبن عامر: [قَالَ سُبْحَانَ] بالفعل الماضي.

وقرأها باقي القراء العشر: ﴿قُلْ سُبْحَانَ﴾ بفعل الأمر.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: قال له الله عزّ وجلّ: قُلْ، فقالَ.

كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا
بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ
لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا
وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا
أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ
وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا
﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ
خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ
ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي
لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ

---

٩٧ ـ • أثبت الْيَاء في لفظ [الْمُهْتَدِي] نافِع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، في الوصل، وأثبتها في الوصل والوقف يعقوب.

وحَذَفها باقي القراء العشرة فقالوا: ﴿الْمُهْتَدِ﴾ وهذا الحذف من الإيجاز الذي له نظائر.

٩٨ ـ • في: [أَءِذَا كُنّا عِظَاماً ورُفَاتاً أءِنّا] القراءات التي ذُكِرَتْ في الآية (٤٩).

١٠٠ ـ • فتح ياء المتكلم في: [رَبِّيَ إِذًا] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعْفر.

وأسكنها باقي القرّاء العشرة.

١٠١ ـ • قرأ ابْن كثير، والكسائي، وخَلف: [فَسَلْ]. وحمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فاسْأَلْ﴾.

والقراءتان وجهان عربيان في فعل الأمر من فعل «سَأل».

١٠٢ ـ • قرأ الكِسَائي: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المتكلّم وهو موسى عليه السلام. =

إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ
مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ
جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا
جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ
نَزَلَۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى
ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا
﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾
وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ
أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَلَا تَجْهَرْ
بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن
لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بضمير المخاطب وهو فرعون عليه اللَّعنة.

وبين القراءتين تكاملٌ في بيان الواقع الذي أجاب به موسى عليه السلام، إذْ قال لِفِرْعَوْنَ: لَقَدْ عَلِمْتُ أنا، ولَقَدْ عَلِمْتَ أنْتَ.

١١٠ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة: [قُلِ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ].

وقرأها يعقوب: [قُلِ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوُ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قُلُ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوُ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ].

(٢)

ممّا جاء في السُّنّة بشأن هذه السورة

(١) روى البخاري عن ٱبْن مسعود رضي اللَّهُ عنه قال: «في بني إسرائيل، والكهف، ومَرْيم» إنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ مِنْ تِلَادِي».

«في بني إسرائيل» أي: في سورة «بني إسرائيل» وهي «الإسراء».

«مِنَ العِتَاق الأُوَل»: أي: من النفائس الْقَدِيمة. **العِتَاق**: جمع «العتيق» وهو القديم الكريم النفيس، ذو القيمة العظيمة القديمة الّتي تعتبر من الكنوز.

«وهُنَّ مِنْ تِلَادِي»: أي: وهُنَّ من النفائس القديمة ذاتِ القيمة العظيمة عِنْدِي، وهذه العبارة مؤكِّدَة للعبارة الأولىٰ بغية التنْبيهِ على شرف هذه السور.

ولا بُدّ أنْ يكون ابنُ مسعود رضي الله عنه قد سمع هذا من الرسول ﷺ، ولوْ لَمْ يُصَرَّحْ في السَّند هذا.

(٢) وروى الترمذي في جامعه، في أبواب الدُّعاء، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

«كانَ النبيُّ ﷺ لَا يَنَامُ حَتَّىٰ يَقْرَأَ الزُّمَرَ وبَنِي إسْرَائيل».

أي: وسورة «الإسراء».

(٣) وروى الإمام أحمد بسَنَدِه عن عائشةَ قَالت:

«كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حتَّىٰ نَقُولَ: ما يُرِيدُ أَنْ يُفطِرَ، ويُفْطِرُ حتَّىٰ نَقُولَ: ما يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ، وكانَ يَقْرأُ كُلَّ لَيْلَةٍ بني إسْرَائيل، والزّمَر».

أي: كان يتْلو هَاتَيْنِ السورتين: الإسراء، والزُّمَر.

* * *

(٣)

موضوع سورة «الإسراء»

تدور آيات هذه السورة حول وحدة الرّسَالَات الرَّبَّانية للناس، ومن أمثلة هذه الوحدة، ذكْرُ بعض العناصر المادّيَّةِ والمعنوية العَقَديَّة والتشريعيّة والْخُلُقيَّةِ الجامِعَةِ بَيْنَ رِسَالَةِ مُوسَىٰ عليه السلام، الْمُطَالَبِ بِها بَنُو إسرائيل حتَّىٰ إنْهَاءِ الْعَمَلِ بها بِبعْثَةِ محمد ﷺ، وبين الرسَالة الخاتِمَةِ، رِسَالَة مُحَمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

فقد جمع الله عزّ وجلّ لخاتم رُسُلِهِ محمد بن عبد الله ﷺ بَيْنَ أعظم مَسْجِدَيْن أُسِّسَا لعبادة الله عزّ وجلّ في الأرض بحادِثَةِ الإسراء:

أوّلُهما: المسجد الحرام في مكة المكرمة، وفيه الكعبَةُ المشرفَةُ أوّلُ بيت وُضِع للناس، والّذي رفع قواعِدَهُ على أسُسِه القديمة إبراهيم مع ولَدِهِ إسْمَاعيل عليهما السلام، بوحْيٍ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ وتعيينِ مكانه وتحديد حُدُوده.

وثانيهما: المسْجدُ الأقْصَىٰ في الْقُدْس، ويظهر أنّ أوّلَ من بناه إبراهيم عليه السَّلامُ بَعْدَ رَفع قواعد الكعْبَة بأرْبعين سنة، دلَّ على هذا ما رواه البخاري ومُسْلم عَنْ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرْضِ أوّلُ؟.

قال: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ). قُلْتُ: ثُمَّ أيّ؟. قال: (الْمَسْجِدُ الأقْصَىٰ).

قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟. قال: (أرْبَعُونَ سَنَة)».

وظاهرٌ أنَّهُ لَا أحَدَ يُعْنَىٰ ببناء المسجد الأقْصَىٰ في هذِهِ المدَّةِ غَيْرُ إبراهيم عليه السلام(١)، ورُبَّما شَارَكَهُ ابنُهُ إسْحَاقُ عَلَيْهِ السلام واللَّهُ أعْلَم،

---

(١) تبعتُ بهذا الفهم الشيخ محمّد بن الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير».

وظاهرٌ أنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ يتَحدَّث عن بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة، لا عن تأسِيسِها الأوّل في تاريخ البشر.

وقد أنْزَل الله عزّ وجلّ على رسوله محمّد ﷺ القرآن خاتمة كُتُبه للناس، وجَمَعَ فيه زُبْدَةَ مَا في كتُبه للأوّلين، ومنها التوراة الكتاب الرَّبَّاني الّذي آتاه اللَّهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، ففي القرآن كُلُّ البيانات والتعليمات الرَّبَّانِيَّة السّابِقَةِ في كُتُبِه، وكلُّ الأحكام الّتي لها صفة الدَّوام، لَا صِفَةُ التعليمات والأحكَام الزَّمَنِيَّة الْمَرْحَلِيَّة المتابعة، أو صفة الأحكام العلاجيَّة لأمَّةٍ من الأمم، كالأحكام العلاجيَّة التي فرَضها اللَّهُ على بني إسرائيل بسَبَبِ ظُلْمِ منهم.

ومِنَ الأمْثِلَة على هذا اشتمالُ سورة (الإسراء) على الوصَايَا العشر الّتي كتبها اللَّهُ عزّ وجلَّ لموسَىٰ في الألْواح، مع وصَايا أخرىٰ مُضَافَة، وبياناتٍ مُفَصَّلَاتٍ.

ومن الأمْثِلة أيضاً بيانُ مَا أعْلَمَ اللَّهُ به بني إسرائيل في التوراة، بشأن تاريخِهِم المستقبلِيِّ، وَمَا سَيكُونُ مِنْهُمْ من إفسادٍ في الأرض ومن عُلُوٍّ كَبِير فيها، وكَيْفَ أنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً شديداً بعَدْلِهِ وحِكْمَتِهِ.

وألَمَح جلَّ جلالُهُ إلى أنَّ عِلَّةَ أجْيَالِ بني إسْرَائيل النفسيَّة أنَّهم مُتَشبِّهُونَ بحُب العاجِلَةِ، فهُمْ في الغالب منهم يحبُّونَ العاجِلةَ ويَذَرُونَ الآخرة، فيُنْفِقُونَ كلّ ما لدَيْهم من طَاقَاتٍ، وكلَّ ما لديهم من ذكاء وحِيلَةٍ ومكْرٍ، في الحصول على متاع الحياة الدُّنيا.

واقتضىٰ الْبَيَانُ الحكيم الّذي تُفْهَمُ منْهُ وَحْدَةُ الرَّسالات الرَّبَّانيَّة، التوجُّهَ لدعوة بني إسرائيل وكلّ أهل الكتاب وغيرهم إلى الدُّخول في الإسلام الدّين الرَّبّاني الخاتم، ومعالَجَتِهِمْ معالَجَاتٍ مَبْدَئِيَّة، تمهيداً للمعالجَات الموسَّعَات الّتي سَتَكُون بَعْدَ هِجرة الرَّسول إلى

المدينة، واحتكاك الرَّسُول بالمستوطنين من اليهود فيها.

واقتضىٰ الْبَيَانُ الحكيم أيضاً مُتابَعَةَ مُعالَجَةِ مُشْرِكي مَكَّة، بناءً على المعالجات السابقات، الّتي أنْزَلَهَا اللَّهُ عزّ وجلَّ قَبْلَ سُورَة (الإسْرَاء) مع العناية بما استجدَّ مِنْ أَمْرِهِم.

واقتضىٰ أيضاً توجيه تَرْبياتٍ للرَّسُول مُحَمَّدٍ ﷺ تتعلَّقُ بِمَسِيرَته الدَّعَوِيَّة، وتَتَعَلَّقُ بعَلَاقته التَّعَبُّدِيَّة بِرَبّه.

ومَعْلُومُ أنَّ جميع الوصايات والتعليمات في السُّورَةِ مُوَجَّهَةٌ لكلِّ مَنْ آمَنَ تكليفاً، وهي بيان دَعَوِيٌّ لغير المؤمنين.

ومن طبيعة المعالجاتِ الدّعَويَّة أن تتنقَّلَ في القضايا الجزئيَّة بحسب واقع حال الْمُعَالَجِين. ومن عجيب المعالجات في هذه السُّورَة كثْرَةُ مَا فيها من إجابات على أسْئُلَةٍ مَطْوِيَّةٍ في السُّورة لم يُصَرَّحْ بها، وهذه الأسْئِلة المطويَّةُ تُفْهَمُ من الإجابَةِ العلاجيَّة، وبسبب هذا فقد تخفىٰ على مُتَدبّر هذه السُّورة وَحْدَةُ مَوْضوعها.

فالسُّورة تَدُلُّ بفَحْوَىٰ مقدِّمَاتِها على وحْدَةِ الرّسالات الرَّبَّانيَّة، ودَعْوَةِ أهل الكتاب، ولا سيما بنو إسرائيل إلى الدُّخول في الإسلام، مع بيان تاريخهم المستقبلي، وتوجيه مُقدّماتِ دَعَوِيَّةٍ علاجِيَّةٍ لهم، ومُتَابَعَةِ علاجٍ لكُفَّارِ قُرَيشٍ إبَّانَ التَّنْزِيل، وفي ضمن ذلِكَ توجيهات بوصايا للمؤمنين، وتربيَةٌ توجيهيَّة للرَّسُول ﷺ.

ويُلاحظ في كلِّ ذلك المرْحَلَةُ الّتي وصَلَ إليها الرسول ﷺ في مَسِيرَته الدّعويَّة إبَّان نزول السّورة، والأحْدَاثُ الّتي جَدَّتْ، والمواقف الّتي حَدَثَتْ أو اسْتَمَرَّتْ أو تكَرَّرتْ من مواقف المشركين.

* * *

(٤)

دزوس سورة (الإسراء)

سورة (الإسراء) سورة متشابكة الترابط بخُطُوطٍ ذهْنِيَّةٍ غَيْرِ منْظُورَة، ولتَيْسِيرِ تَدَبُّرِها أُقَسِّمُها إلى (٢١) دَرْساً.

الدّرس الأول: الآية (١) منها.

وهذا الدّرْس يشْتَمِلُ على تنزيه اللَّهِ عزّ وجلّ، وتمجيد قُدْرَتِه وحِكْمَتِه، وبيان حَدَثِ إسرائه برسوله محمّد ﷺ من المسْجِدِ الحرام، إلى المسْجِد الأقصَىٰ، لِيُرِيَهُ من آياتِه، فَيُدْرِكها بحَاسَّتَيْ سَمْعِه وبَصَرِه.

الدّرس الثاني: الآيات من (٢ ـ ٨).

وهو يشتمل على أنّ الله عزّ وجلّ آتَىٰ موسى كتابَ التوراة، وجَعَلَهُ هُدىً لبني إسْرائيل، وأنَّه جَلَّ جلالُه أعْلَمهُمْ فيه بلقطاتٍ بارِزاتٍ من تاريخهم المستقبليّ، الذي سيخالفون فيه التعليمات الّتي أنْزِلَتْ إليهم في الكتاب، فَيُفْسِدُونَ في الأرْضِ إفْسَاداً عَرِيضاً مَرَّتين، بإراداتهم الحرَّة، واختياراتهم الّتي لا جَبْرَ فيها، ويَعْلُونَ عُلُوًّا كبيراً، وأنّ اللَّهَ سَيَنْتَقِمُ منْهُمْ في كِلْتَا المرَّتَيْنِ، فيُسَلِّطُ علَيْهم من عباده مَنْ يُكْثِرُونَ الْقَتْلَ فيهم، ويُعَذِّبونَهُم، ويُذِلُّونَهُمْ، ويُمَزّقُونَهُمْ تَمْزِيقاً شَدِيداً.

وأبان لهم أنّ هذِهِ سُنَّتُهُ الدائمة فيهم كلّما أفْسَدُوا في الأرضِ وطَغَوْا وبَغَوْا، فإذا استقامُوا واستكانوا رَحِمَهِم.

وأبان لهم أنّ عاقبة الكافِرِين منهم بما أنزل اللَّهُ على رُسُلِهم، وبمحمد خاتم أنبيائه ورسُله، وبالقرآن الذي أنزلَهُ عليه، عذابٌ أليمٌ في جهنم، كما هي عاقبة سائر الكافِرِين.

الدرس الثالث: الآيتان: (٩) و(١٠).

وهو دَرْسٌ يَتَعَلَّقُ بالْقُرْآن، ووظيفته التي تَشْتَمِلُ على ثلاثة عناصر:

(١) الهداية للّتِي هي أَقْوَمُ.

(٢) تبشير المؤمنين الَّذِين يَعْمَلُونَ الصالحات، بالأجْرِ الكبير يوم الدين.

(٣) وَعِيد الكافرين الّذِين لا يُؤمِنُونَ بالآخرة بالْعَذاب الأليم يوم الدّين.

وذكر هذه الصفاتِ للقُرْآن بَعْدَ ذِكْرِ الكتاب الّذي آتاه الله موسَىٰ عليه السلام، وبَعْدَ ذِكْرِ بعض ما يتعلَّقُ بالأحداثِ المستقبليَّة لبني إسرائيل، يتَضَمَّنُ دَعْوَة بني إسرائيل إلى الدُّخول في الإسلام، دُونَ مواجهتهم بالخِطَاب، مع دعوة كُلّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، إلى الدُّخول في الإسلام عقيدةً وعملاً.

الدرس الرابع: الآية (١١).

وفي هذا الدَّرْسِ إلْمَاحٌ إلَىٰ أنّ الإنسان عَجُولٌ، يُحِبُّ الدُّنيا العاجلَةَ ولو انتهىٰ به حبُّهُ لها، أو حُصُولُهُ علىٰ ما يحبّ منها، إلى شقائه الأبدي.

ويُعْرِضُ عن الآخِرَة ويَذَرُها، ولو كانَ عَمَلُهُ لها يَجْعَلُه من أصْحَاب السعادة الأبَدِيَّة والنّعِيم العظيم الخالد.

والدّليل على هذا أنّه في مطالِبِهِ القريبة الزّمنيَّة من الحياة الدنيا، كالمالِ، والولَدِ، والمنْصَبِ، والحبيبَةِ، يَدْعُو رَبَّهُ بإلحاحٍ أنْ يَهبَهُ مطلوبَه، مُتَصَوِّراً أنَّهُ سَيَنَالُ به السّعادة، دون أنْ يَضَعَ في حُسْبانه أَنَّهُ قَدْ يكونُ شرًّا له، وجالباً لَهُ تَعَاسَةً، وشقاءً، وعذاباً، وخَيْبَة.

وهذا من قِصَرِ نظر الإنسان وحُبِّه للعاجِلَة، ولو كان من المؤمنين باللَّهِ وباليَومِ الآخر، فكَيْفَ يكُونُ حالُهُ إذا كان من الكافرين المنكِرين؟!

وذكر هذا الدّرس بعدما سَبَق يُشْعِرُ بأنّ العلّة النفسيَّة الّتي تَصْرِفُ بني

إسرائيل عن الدُّخول في الإسلام، هي أنَّهم يُحِبُّونَ العاجلة، ويتشبَّثُونَ بها ويَذَرُونَ الآخِرَة، على خلاف مطلوب اللَّهِ من عباده في رحلة امتحانهم.

الدرس الخامس: الآية (١٢).

وهذا الدَّرْسُ يتضمّن تذكيراً أو تَنْبِيهاً على آيَتَيْنِ من آياتِ عِنَايَةِ اللَّهِ عزّ وجلّ بعباده في الأرض، في حياة الابتلاء، إذْ جعل لهم اللَّيْلَ والنهار، وفيهما لهم منْفَعَتَانِ عظيمتان:

(١) أَنْ يَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ رَبِّهِمْ في الأعمال التي يَقُومُونَ بها لمصالح دُنياهم.

(٢) أن يَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنين والْحِسَاب، بَعَدّ الأيّام الّتي تمرُّ عليهم، وأنهى الله عزّ وجلّ هذا الدَّرس بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾. والمتفكر المتدبر يرى هذا التفصيل ظاهراً في كلّ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شيْءٍ، وظاهراً في بيانات الله المنزَّلاتِ في آيات كتابه.

الدّرس السادس: الآيات من (١٣ ـ ١٧).

وهذا الدرس يشتمل على فقرات من قانون الجزاءِ الربَّاني المعجّل والمؤجل، للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، ومن موادّ هذا القانون ما يلي:

المادّة الأولى: كُلَّ إنْسانٍ موضوعٍ في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، يرتبط به عَمَلُهُ الإختياريُّ، لا يَنْفَكُّ عنْهُ، ولا يتعدّاهُ إلى غيره، فهو كالْمُعَلّق في عُنُقِه.

المادّة الثانية: إنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يُخْرِج للمكلَّفِ يَوْم القيامَةِ كتابَ عَمَلِه الّذي عَمِلَه في رِحلة امتحانه، فيلقاهُ مَنْشُوراً، ليُجْرِي حسابَهُ، وفَصْل القضاء بشأنه على وَفْقِ كتابه.

ويقال له: اقرأ كتابَكَ كَفَىٰ بنفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً.

المادّة الثالثة: من اهتدىٰ بأَن اخْتَار لنَفْسِهِ أنْ يُؤْمِنَ ويَعْمَلَ صالحاً، فهو وحْدَهُ المستفيد من اختياره سَبيلَ الْهُدَىٰ.

المادّة الرابعة: مَنْ ضَلَّ بأنِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكْفُرَ ويَعْمَلَ عملاً سَيِّئاً، فهو وحْدَهُ الّذي يَنَالُ جزَاءَ اختياره الحرّ عذاباً أليماً خالداً.

المادّة الخامسة: لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ منْ شَأْنها أَنْ تَكْسِبَ وِزْراً وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ.

المادّة السادسة: لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ جلّ جلالُهُ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعِ الامْتِحان، على عصيانهم لأوامره ونواهيه في الإيمان والعمل، حتَّىٰ يُرْسِلَ إليهم رسُولاً يُبَيِّنُ لهم مَا يجب عليهم تجاه رَبِّهم الذي يُمِدُّهم دواماً بعَطَاءَاتِ رُبُوبيَّتِه.

ودلَّت نُصُوصٌ أخرىٰ على أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ بَعَثَ في كلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً، فلا عُذْرَ للأمم.

أمّا الأفراد الَّذِين لم تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ، فإنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لَا يُعَذِّبُهُمْ حتَّى يُتِمَّ لَهُمْ شُرُوط امتحانه لهم، وله فيهم الاختيار العادل، وربّما يجْعَلُهُمْ بمَثَابَةِ البهائم الّتي يُنْهِي اللَّهُ وجودَهَا فتكُونُ تُراباً، والله أعلم.

والحقّ الّذي لا مَحِيدَ عَنْهُ أنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أحداً مِثْقَالَ ذَرَّة.

المادّة السابعة: أَنَّ الإهلاكَ الجماعيَّ المعجّل في الحياة الدنيا لَهُ سُنَّةٌ حكيمة من سُنَن اللَّهِ في عِباده.

أن يُوَجّهَ لمتْرَفي أَهْلِ الْقُرَىٰ أوامِرَه بفِعْلِ الصَّالحات، ونواهيَهُ بتَرْكِ المنكرات، لكنَّهُمْ يَفْسُقُون خارجين عن طاعة رَبّهم، فيُغْدِقُ اللَّهُ عليهم خيرات الحياة الدنيا فيَكْثُر مُتْرَفُوهم، وَيَتَعَاظم الفِسْقُ فيهم، حتَّىٰ يكونَ هُو

الطَّاغي على جميع أفرادِهم، وعندئذٍ يكونُ من الحكمةِ أنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بهم الإهلاك العام الشّامل، إذ تَنْعَدِمُ فيهم ظروف الامتحان السّوي، بسبب تحوّل بيئتهم إلى بيئة عَدْوىٰ بفسادٍ طاغٍ تَنْعَدِم معه اختيارات الأفراد الحرَّة.

وختم الله عزّ وجلّ هذا الدّرْس بالتذكير بالْمُهْلَكِينَ السَّابقين من أهل القرىٰ السالفة إهْلاكاً جماعيًّا شاملاً.

وهذا الدرس متصلٌ فكريًّا بالدروس السابقة اتصالاً جليًّا.

الدرس السابع: الآيات من (١٨ ـ ٢١).

وهو درس يتضمّن بيانَ سُنَّة اللَّهِ فيما يُؤْتي عبادَهُ من متاعِ الحياة الدنيا في رحْلَةِ امتحانهم، على وَفْقِ حكْمَتِه وعِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ منْ أفرادهم، وهذه السُّنَّة تَشْتَمِلُ على أرْبَع مَوادّ.

المادّة الأولى: من كان يُريد الحياة الدُّنيا فقط، ولا يريد الآخرة، عجّلَ الله لَهُ مِنْ مَتاعها بحَسَبِ إرادَتِهِ الّتي تقتضيها حكمتُه.

ولا يكون مُريدو الحياة الدّنيا مُتَساوين فيما يؤتيهم من مَتَاعها، بَلْ مِنْهم من يُوسِّعُ الله له بَحَسَبِ عِلْمِهِ به وبما في داخل نفسه، ومنهم من يُضَيِّقُ اللَّهُ عَلَيْهِ بحَسَبِ عِلْمِهِ به وبما في داخل نفسه، وهو جلّ جلالُهُ العليم الحكيم الخلّاقُ الوهّاب.

لكنّ عاقبة كلّ واحدٍ من هؤلاء جَهَنَّمُ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً.

المادّة الثانية: مَنْ كانَ مؤمِناً ويُرِيدُ الآخِرَةَ إرادةً جازمَةً، وسَعَىٰ لنَيْلِ ثواب الله فيها السَّعْيَ الْمطلُوبَ للظفر به، شكر اللَّهُ لَهُ سَعْيَهُ، فأثابَهُ ثواباً جزيلاً في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين.

ويُعْطِيه الله من متاع الحياة الدُّنيا بحَسَب عِلْمِهِ به وبما في دَاخل نفسه.

ومُرِيدُو الآخرة لا يكونون متساوينَ فيما يُؤْتيهم الله من متاعِ الحياة الدنيا، بلْ منهم مَنْ يُوَسّعُ الله لَهُ بحسَب عِلْمِهِ به وبما في داخل نفسه، ومنهم مَنْ يُضَيِّقُ اللَّهُ عَلَيْهِ بحَسَبِ عِلْمِهِ به، وبما في داخل نفسه، وهو جلّ جلالُه العليم الحكيم الخلاقُ الوهاب.

المادة الثالثة: إنّ كُلّ واحِدٍ من مُرِيدي العاجِلَةِ ومُرِيدي الآخرة، يُمِدُّهُ الله بعَطَاءاته من متاعِ الحياة الدُّنيا ومطالب النفوس منها، بحَسَبِ عِلْمِه وحكمَته، مُوَسّعاً أو مضيّقاً، وعطاء الله لعباده ليَسْ ممنوعاً عن أحَدٍ في الحياة الدنيا، أمَّا التفاضُلُ في التوزيع فهو يرجِع إلى علم اللَّهِ بعباده، وحِكْمَتِهِ في إمدادِه لكلّ فردٍ من أفرادهم.

المادّة الرابعة: عطاءاتُ اللَّهِ عزّ وجَلَّ قائِمَةٌ على التفاضُلِ لَا علَىٰ التَّساوي، في الدُّنيا دار الابْتلاء، وفي الآخرة دار الجزاء.

ومَنْ فضَّلَهُ اللَّهُ عزّ وجلَّ في الدنيا بإمْدَاداتِه قَدْ يكونُ مَحْرُوماً، أو غَيْرَ مُفضَّلٍ يَوْم الدِّين.

ومَنْ جَعَلَهُ الله قَلِيلَ الحظُوظ من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، قَدْ يَكُونُ هُوَ المفَضَّلَ علَىٰ نظرائِه يَوْم الدّين.

الدرس الثامن: الآيات من (٢٢ ـ ٣٩).

وهو درس يشْتَمِلُ على أوامِرَ ونواهِي ووصايا عظيمة، وبياناتٍ حولَها.

ومعظم هذِه التعليمات ممّا الْتَقَتْ عليه الرسالات الرَّبَّانيَّة للموضوعين في الحياة الدُّنيا موْضِع الابتلاء، ولا سيما كتاب التوراة الذي أنزله اللَّهُ عزّ وجلّ على مُوسَىٰ علَيْهِ السلام، والوصايا العشر الّتي كتبها له في الألواح.

الدرس التاسع: الآيات من (٤٠ ـ ٦٠).

وهو درس يشتمل على مُتابعةِ مُعَالجاتٍ للّذِين كَفَرُوا مِنْ مُشْرِكي

مكَّة، بحَسَب المواقف الَّتي كانوا عليها إبّانَ تنزيل السورة، وهذه المواقف منها ما هو قَديم ومنها ما هو جديد.

الدرس العاشر: الآيات من (٦١ ـ ٦٥).

وهو درسٌ يَعْرِضُ اللَّهُ عزّ وجل فيهِ لقطةً من إباء إبليس أن يسْجُدَ لآدم، وذريعتِه في رفْضِه أنْ يَسْجُدَ له، وإعْلانِه بوقاحَةٍ إلْزَامَ نفسه بأن يُغْوِيَ ذُرّية آدم سائقاً لهم إلى شقائهم الأبَدِيّ، إذا أخَّرَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ ولَمْ يُمِتْهُ إلى يَوْمِ القيامة، مع بيان بعض خُطَّتِه في الإغواء، وبيان ما رَدَّ اللَّهُ بِه عَلَيه.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٦٦ ـ ٧٠).

وهو درسٌ يكْشِف الله به أنّ النّاسَ يلجؤون إلى ربّهم عنْدَ المخاوف والضرورات الشديدات، فإذا كَشَف عَنْهُم الضُّرّ مُسْتجيباً لأدعيتهم أعْرَضُوا، والسَّبَبُ في ذَلِكَ أنَّ الإنسان كفورٌ بنعْمَةِ اللَّهِ عليه، مع أنَّ الله جلَّ جَلاَلُهُ قد كرَّمه.

وفيه معالجة للنَّاس تُجاه هذِهِ الصِّفَةِ الذميمة فيهم، الناتجة عن اختيارهم الحرّ، ليتَهَرَّبُوا من تأديَةِ واجب الشكر.

الدرس الثاني عشر: الآيتان: (٧١) و(٧٢).

وهو درس يشتمل على عرض لقطة من لقطات مشاهد يوم الدين، لأنّ العلاج الدعويَّ الحكيم، ينبغي أنْ يُذَكِّرَ المعالَجَ آناً فآناً بالمُرْهبات المحذّرات من عذاب الله على الكفر والفسوق والعصيان.

الدرس الثالث عشر: الآيات من (٧٣ ـ ٧٧).

وهو درسٌ فيه تَرْبيةٌ للرَّسُول ﷺ، بحسب الصّيغة الظاهرة، وهو في حقيقته يتضمَّن إيئاساً لكبراء مشركي مكَّة، من تنازُلِ الرَّسُولِ أو تَهَاوُنِه في بَعْضِ ما أنزل اللَّهُ إليه، حتَّى يَكُفُّوا عن اتّخاذ وسائلَ لاسْتِدْراجه بزُخْرُفِ

من الْقَول قَدْ يُوحي إلى الرسُولِ ﷺ باحْتمال وُجُودِ مصْلَحةٍ للدِّين وانتشاره بين كبراء قومه، إذَا لَانَ لهم في بعض ما يطالبونه به ممّا لا يُؤَثِّر على جَوْهَرِ الدّين وأحْكَامِه وشرائعه، فحذّر الله رَسُولَهُ من أنْ يَرْكَنَ إليهم، ولَوْ رُكوناً قَليلاً، وهذا التحذير يتضمَّنُ تَحْذِيراً للدُّعاة من أُمَّتِهِ من الاستجابة لمطالِب الكبراء والقادة السّياسيين في إصْدَارِ الفتاوىٰ التي فيها تنازُلٌ عن أحكام الله.

الدرس الرابع عشر: الآيات من (٧٨ ـ ٨١).

وهو دَرْسٌ فيه أمْرٌ للرَّسُول ﷺ فلسائر المسلمين، بإقامة الصَّلَاةِ في أَوْقَاتٍ بينَتْهَا الآيات، وأَمْرٌ لَهُ بأنْ يتهجَّدَ من اللّيْلِ نَافِلَةً له، وهذا موصُولٌ بالآية الأولى من السُّورة، الَّتي جاء فيها أنَّ الله أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ من المسْجِدِ الحرام إلى المسْجِد الأقْصَىٰ، وقَدْ ثَبَتَ في السُّنَّة أَنَّ الصَّلَواتِ الخمس قَدْ فُرِضَتْ في لَيْلَةِ الإسراء.

وفي هذا الدَّرس آياتٌ مَدَنية التنزيل فيها بشَارَةٌ لَهُ بفَتْحِ مكَّة، وتعليمٌ لَهُ مَا يَدْعُو بِهِ رَبَّهُ في هذه المناسبة، وما يُعْلِنُهُ عِنْدَ دُخُولها فاتحاً.

الدرس الخامس عشر: الآية (٨٢).

وهي قول الله عزّ وجلّ في السورة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بما جاء في السّورَةِ بشأن القرآن في:

(١) الآيَتَيْن: (٩) و(١٠).

(٢) والآيَتَيْن: (٤٥) و(٤٦).

الدرس السادس عشر: الآيتان: (٨٣) و(٨٤).

وفيه بيان بشَأْنِ وَصْفِ الإنْسَانِ الْجَحُود، إذْ مِنْ شَأْنِهِ أنّ اللّهَ إذا أَنْعَمَ عَلَيْه أعْرَضَ ونأىٰ بجانبه، عن الصِّلَةِ بِرَبِّهِ وعن العمل بمراضِيه، أمّا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسًّا فإنَّهُ يكونُ يَؤُوساً.

وهذا الدَّرس موصول بما جاء في السّورة عَنْ وَصْفِ سُلُوك الإنسان في:

(١) الآية (١١).

(٢) الآيات من (٦٧ ـ ٦٩).

الدرس السابع عشر: الآية (٨٥).

وفي هذا الدَّرسِ بيان السؤال عن الرُّوح، والإجابَة الرَّبَّانية على هذا السُّؤال.

ويظهر أنَّهُ قَدْ تَكَرَّرَ السُّؤال عن الرُّوحِ في هذه المرحلة من مراحل سيرة الرَّسُول ﷺ الدَّعوية، فكان من الحكمة الإجابَةُ على هذا السؤال.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٨٦ ـ ٨٩).

وهو دَرْسٌ يَتَعَلَّقُ بالقرآن، وأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لو شاء لمسَحَ مِنْ ذَاكِرَةِ الرَّسُولِ ﷺ كلَّ ما يحفَظُ مِنْه.

وفي هذا الدَّرْسِ تَحَدٍّ للإنْسِ والْجِنِّ بأَنْ يأتُوا بمِثْلِه ولَوْ كانَ بعْضُهُمْ لبَعْضٍ ظهيراً.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُول بما جاء بشأن القرآنِ في السُّورة، في:

(١) الآية: (٩).

(٢) الآية: (٣٩).

(٣) الآيتان: (٤٥) و(٤٦).

(٤) الآية: (٦٠).

(٥) الآية: (٧٣).

(٦) ثمّ في الآيتين: (١٠٥) و(١٠٦) من الدرس (الحادي والعشرين).

الدّرس التاسع عشر: الآيات من (٩٠ ـ ١٠٠).

وفيه بيان بَعْض مطالب الّذين كفَرُوا التعنُّتيَّة من الرَّسُول، مع بيان حكْمَةِ الله في عدَمِ الاستجابة لمطالِبهم.

وفيه إنذارٌ لهم وتَرْهيب من عذابٍ شديدٍ يوم الدّين.

وفيه رَدٌّ على بعْض أسئلةٍ مطويَّةٍ في النّصّ مُوجَّهَةٍ من الّذين كَفَرُوا، وتَدُلُّ الإجابَةُ المصَرَّحُ بها عليها.

الدرس العشرون: الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤).

وفيه عرضُ لقطاتٍ من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، ومَا قالَهُ الله لبني إسْرَائيل من بعد موسَىٰ بأمْرٍ تكوينيّ، جَعَلَهُمْ به مُوزَّعين في أشتاتٍ من الأرْض، ثم يأتي بهم إلى فِلِسْطين لَفِيفاً، ليكونَ لَهُمْ علُوٌّ مؤقَّتٌ في الأرْض، ثُمَّ ليُلاقُوا مَصِيرَهُمُ المحتوم، بحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ فيهم.

الدّرس الحادي والعشرون: الآيات من (١٠٥ ـ ١١١) آخر السورة.

وفي هذا الدَّرْسِ حَدِيثٌ عن القرآن، وتعليم للرسُول مَا يقُولُهُ للمشركين المعاندين، وثناء على الذين يُؤْمِنُونَ بالقرآن والرسُولِ من أهل الكتاب.

وفيه توجيه للدّعاء بأسماء الله وصفاته.

وتوجيه لأدب مقدار رَفْعِ الصَّوْتِ في الصلاة.

وختمت السّورة بقول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله فَلِكُلّ مسلم:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

* * *

(٥)

التّدبُّر التّحليلي للدرس الأول من درُوس سورة (الإسراء)

الآية (١)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾.

تمهيد:

هذه الآية الأولى من السُّورَةِ، تُمَجّدُ بحادثة الإسراء الّتي فضَّلَ اللَّهُ عزَّ وجلّ بها رسُولَهُ مُحَمّداً ﷺ، إذْ أسْرَىٰ به في جُزْءٍ من لَيْلَةٍ واحِدَةٍ، مِنَ الْمَسْجِدِ الحرام في مكَّة المكرّمة، إلى الْمَسْجِد الأقْصَىٰ في القدس الَّذِي بَارَكَ حوْلَهُ، لِيُرِيَهُ مِنْ آياتِهِ العظيمَةِ بِبَصَرِهِ، ولِيُسْمِعَهُ بأُذُنِهِ مَسْمُوعَاتٍ هِيَ مِنْ آيَاتِهِ العظيمة، إذْ كانَ الرَّسُولُ ﷺ فيها قَدْ وهَبَهُ رَبُّهُ خَصِيصَتَيْنِ انْفَرَدَ بهما: إحْدَاهما في سَمْعِه، فجعَلَتْهُ يَسْمَعُ من الأصواتِ ما لَا يَسْمَعُ غَيْرُهُ من السّامِعِين والسَّامِعَات. وأُخْرَاهما في بَصَرِه، فجَعَلَتْه يُبْصِرُ بِعَيْنَيْهِ من المرْئِيَّاتِ ما لا يُبْصِرُ غيْرُهُ من الْمُبْصِرِينَ والمبْصِرَات، بدليل وصْفِ اللَّهِ عزّ وجلَّ لَهُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: إنَّهُ هو وَحْدَهُ المختَصُّ مِنْ عِبادِ اللَّهِ حينَئِذٍ بأعْظَمِ سَمْعٍ وأعْظَم بَصَر.

التدبّر التحليلي:

- ﴿سُبْحَٰنَ﴾: اسْمَ عَلَمٌ لمعْنَىٰ الْبَرَاءَةِ والتَّنْزِيهِ، وفيه زيادة الألف والنون، وهُوَ ممنوعٌ من الصرف.

وهو في موضع المصدر، والأصل فيه: «أسَبّحُ تَسْبيحاً» أي: أنَزّهُ

تَنْزِيهاً، وأُقَدِّسُ تَقْدِيساً، وتَأْتي: «سُبْحَانَ الله» ونَحْوها بمَعْنَىٰ التَّعَجُّبِ، أو بمَعْنَىٰ التعجيب من أمْرٍ عظيم.

والتَّنْزِيهُ بالنِّسْبَةِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ، هو تَبْرِئَتُهُ مِنْ كلِّ مَا لَا يليق بجلالِهِ وعظيم سُلْطانِه، وكمالِ صِفَاتِهِ وأسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، وكَمالِ أفْعَالِهِ وَتَصاريفِه.

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾: كَلِمةُ «سُبْحانَ» أُضِيفَتْ إلى اسْمِ الموصُولِ الذي يُرادُ به هُنَا مَنْ دَلَّتْ عَلَيْهِ صِلَتُهُ، وهو اللَّهُ - جَلَّ جلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه - فَهُوَ الَّذِي أسْرَىٰ بِعَبْدِه مُحَمَّدٍ ﷺ من الْمَسْجِدِ الحرام إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ الَّذِي بَارَكَهُ وبَارَكَ حَوْلَه.

وجاء التعبيرُ عن الله عزّ وجلّ باسم الموصول لأنّ الغرضَ التعريفُ بحادثة الإسراء التي دلَّتْ عليها صِلَةُ الموصول، وَالتَّعْجيبُ من تخصيص الرَّسُول بها، وبما جرَىٰ لَهُ فيها من جلائِلِ الهبات والمِنَنِ الرَّبَّانِيَّة والمشاهداتِ العجيباتِ من آيات اللَّهِ جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

- ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أي: جَعَلَهُ يَسْرِي لَيْلاً. يقال لغة: «سَرَىٰ وأَسْرَىٰ فُلَانٌ اللَّيْلَ، وسَرَىٰ وأسْرَىٰ به» أيْ: قَطَعَهُ بالسَّيْر. ويقال: «سَرَىٰ فُلَانٌ بِفُلَانٍ لَيْلاً وَأسْرَىٰ به» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ فيه. فَفِعْلا «سَرَىٰ، وأسْرَىٰ» متماثِلَان في حالَتَي اللُّزُومِ والتَّعْدِية.

«سَرَىٰ يَسْرِي، سَرْياً، وسِرَايَةً، وسُرَىً» و«أَسْرَى يُسْرِي إسراءً» أي: سارَ ليلاً، قال أهل اللّغة: وقد يُذْكَرُ اللّيلُ توكيداً.

والمرادُ: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ رَسُولُ اللَّهِ مُحمَّد ﷺ، وقَدْ فَهِمَ أهل التَّفْسِير مِن إضافَةِ «عَبْد» إلَىٰ الضمير العائِدِ علَىٰ الله الذي أسْرَىٰ بِهِ أنَّها إِضافة تَشْرِيفٍ لِرَسُولِه.

أقُول: هذه الإضافة جاء نظيرها بالنسبة إلى زكريا عليه السلام،

وجاءت كلمةُ «عَبْد» مضافةً إلى ضمير المتكلّم العظيم «عبدنا» بشأن «محمد» و«داود» و«أيُّوب» و«نوح» عليهم السلام. وجاءت كلمة «عباد» مضافةً إلى ضمير المتكلّم العظيم مراداً بها الرُّسُل، وغير الرُّسُل مِنْ عباد الله مؤمنين وغير مؤمنين.

ويظْهَر لي أنَّ ذِكْرَ مُحمَّدٍ ﷺ هُنَا بِأنَّه عَبْدُ اللَّهِ يُقْصَدُ بِهِ دَفْعُ أوْهَامِ مَنْ يَتوهَّمُ ارْتفاعَ مَنْزِلَتهِ عَنْ كَوْنِهِ عَبْداً لله، بِسَبَبِ الإسْراءِ بِهِ إلى الْمَسْجِدِ الأقْصَىٰ، وما تَبِعَهُ مِنْ عُرُوجٍ به إلى السَّمَاء، كما تَوَهَّمَ النَّصارىٰ إذْ أَلَّهُوا عيسَىٰ عليه السلام، بشُبْهَةِ أنَّ أُمَّهُ حَمَلَتْ بِهِ مِنْ غَيْرِ أبٍ.

- ﴿لَيۡلٗا﴾: أي: في لَيْلٍ ذي شَأْنٍ عظيم جَعَلَ اللَّهُ لَهُ خُصُوصِيَّةً جَلِيلَة، فأسْرَى فيه وعَرَجَ بِرَسُوله، كما جَعَلَ لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ خُصُوصِيَّةً فأنْزَلَ فيها القرآن.

دلَّ ذكْرُ: ﴿لَيۡلٗا﴾ مع أنَّ الإسْرَاءَ إنما يكونُ باللّيل، وَدَلَّ تنكيرهُ علَىٰ أنَّهُ ليلٌ عظيم ذو خُصُوصيَّةٍ جَعَلَها اللَّهُ عزّ وجلّ له.

- ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾: **الْمَسْجِد الحرامُ**: الكَعْبَةُ المشرّفَةُ وسائِرُ المكان المخصّص للعبادة حَوْلها. وسُمِّيَ حَراماً لأنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ مكانَهُ آمِناً مَمْنُوعاً بالأمْرِ التَكْوينيّ من نَحوِ البراكين والزَّلازِلِ والْخَسْفِ، ومَمْنُوعاً بالأمْرِ التكليفيّ، مِنْ نَحْوِ التَّقاتل والْعُدْوانِ والإضرار فيه وإرادَةِ الإلْحادِ فيه بظُلْم.

الحَرَام: هو في اللُّغَةِ الممنُوعُ منه، أو من فِعْلِ شيءٍ غير مأذونٍ به فيه، أو من القُرْبِ مِنْه، ونحو ذلك.

وقَدْ وصف اللَّهُ عزّ وجلّ حَرَمَ مَكَّةَ بأنَّهُ حَرَمٌ آمِنٌ:

فقال تَعالَىٰ بشَأْنِهِ مُتَحدِّثاً عَنْ كُفَّارِ قُرَيش في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿... أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وَقال تَعَالَىٰ أيضاً في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ووصف اللَّهُ البيتَ الحرام بأنَّهُ مُبَارَكٌ وَهُدًى للعالمين، فقال عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

فالمسجد الحرام وما حوله حرَمٌ آمِنٌ، وبَرَكَاتُ اللَّهِ مِنْ بلاد الدُّنيا تُجبَىٰ إِلَيْهِ وَهُوَ مبارَكٌ وهُدىً لِلْعَالِمين، وأَوَّلُ بيتٍ وُضِعَ للناسِ لعبادة الله.

- ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾: **المسْجدُ الأقصىٰ**: هو بيت المقدس، في مَدِينة الْقُدْس.

الأقْصىٰ: أي: الأبْعَد بالنّسْبَةِ إلى الْمَسْجد الحرام، إذْ لم يكن في الأرض مَسْجَدُ أُسِّسَ لعبادة الله وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ أَبْعَدُ مِنْهُ عن المسْجِد الحرام، وتُوجَدُ معابِدُ وَثنِيَّةٌ كثيرة مُنْتَشِرَة في الأرض، أقْرَبُ مِنْهُ إلى المسجد الحرام وأبْعَد.

ولم يذكُر المؤرخون وُجُودَ مَسْجدٍ أُسِّسَ لعبادة الله وحْدَهُ أقْرَبَ إلى الْمَسْجِدِ الحرام من بيت المقدس، ولا أرى مانعاً من أنَّه كانت توجَدُ مَسَاجِدُ أَسَّسَها بَعْضُ أنبياءِ اللَّهِ ورُسُلِهِ هي أقْرَبُ إلَىٰ الْمَسْجِدِ الحرام، إلَّا أنَّهَا دَرَسَتْ ومُحِيَتْ آثارُها، ولا دَاعِي لحمْلِ لفظة «الأقْصىٰ» على مَعْنَىٰ الْقَصِيّ، واعتبار «أفْعَل» التفضيل مستعملاً على غير بابه، والله أعلم.

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾: أي: الذي جعَلْنا فيه وحَوْلَهُ بَركاتٍ مَادّيَّةً مِنْ خَيْرَاتِ الأرض، ومَعْنوِيَّةً مِنْ فُيوض عطاءات الله المعنويّة.

مِنّة اللَّهِ عزّ وجلّ على رسُوله محمد ﷺ بالإسْرَاءِ والْمِعْرَاج:

كثُرَتِ الرّواياتُ ذَوَاتُ الأسانيد الصحيحة، إلّا أنّ في مُتونِها اختلافاً بالْبَسْطِ والإيجاز، وبتقديم وتأخير بعض الأحداث، ويتَعَذَّرُ الجمع بينها في نَسَقٍ واحد، وأوْلَاهَا بالذّكر روايةٌ جاءت في صحيح مسلم من طريق شيْبانَ بْنِ فَرُّوخ، عن حمّاد بْنِ سلمة قال: حَدَّثَنا ثابِتُ الْبُنَانِي، عن أَنسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال:

«أُتِيتُ بالْبُرَاقِ - وهو دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهِ - قال: فَرَكِبْتُهُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِس. قال: فَرَبَطْتُهُ بالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بها الأَنْبِيَاء. قال: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فجاءني جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ بإناءٍ مِنْ خَمْرٍ وإنَاءٍ من لَبَنٍ، فاخْتَرْتُ اللَّبَنَ. فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ اخْتَرْتَ الْفِطْرَة.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟. قالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْه؟. قال: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثّانية، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فقيل: مَنْ أَنْتَ؟. قالَ جِبْرِيل، قيل: ومَنْ مَعَكَ؟. قال: محمّد. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا. فإذا أَنَا بابْنَي الْخَالَة: عِيسَىٰ بْنِ مَرْيم، ويَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّاءَ عَلَيْهما السَّلام، فَرَحَّبا، وَدَعَوا لي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟. قالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قال مُحمّد: قِيلَ: وقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قال: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فإذا أَنَا بيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، إذا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، قِيلَ: مَنْ هٰذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قال: محمّد. قِيلَ: وقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قال: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بإِدْرِيسَ. فَرَحَّبَ وَدَعَا

لِي بِخَيْرٍ. قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الخامِسَة، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ عليه السلام، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَة، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ عليه السلام، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّد. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، مُسْنِداً ظَهْرَهُ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُور، وإذا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ ذهبَ بي إِلَى السِّدْرَةِ المنْتَهَىٰ، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الفِيلَة، وإذا ثَمَرُهَا كالْقِلَالِ(١). قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا. فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إليَّ مَا أَوْحَىٰ، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. فَنَزَلْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، فقالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟. قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً. قالَ: ارجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فإنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قالَ: فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَىٰ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْساً، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْساً. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ

---

(١) **القِلَال**: جَمْعُ «قُلَّة» وهي إِنَاءٌ مِنْ فَخَّار، منه كبيرٌ ومنه صغير، والقُلَّةُ مِنْ قِلَالِ هَجَر تَسَعُ نَحو قِرْبَتَينِ ماءً، وقدر القُلَّتَيْنِ بالمساحة: ذراعٌ ورُبْعُ الذِّرَاع، طولاً وعَرْضاً وعُمْقاً.

التَّخفِيفَ. قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وبَيْنَ مُوسَىٰ عليه السَّلام، حَتَّى قال: يَا مُحَمَّدُ، إنَّهُنَّ خَمسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شيْئاً، فإنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً واحِدَةً. قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إلى مُوسَىٰ عَليْهِ السَّلام، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التخفيف. فقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إلَىٰ رَبِّي حَتَّى اسْتَحَيَيْتُ مِنْهُ».

ورَوىٰ البخاري عن جابر بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقُول:

«لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

وأقول: إنَّ مِنَّةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ على رَسُولِهِ محمّد ﷺ بالإسْرَاءِ والمِعْرَاجِ قَدْ كانَتْ لِكَامِلِ ذَاتِهِ، الجامِعَةِ لِرُوحِهِ ونَفْسِهِ وكُلِّ خَصَائِصِ حَيَاتِهِ الدُّنْيا، وادِّعَاءُ أَنَّها كانَتْ مَنَاماً مَنْقُوضٌ بِتَكْذِيبِ قُرَيْشٍ للإسْرَاء، إذْ لَوْ كانَتْ مَنَاماً لَمْ يَجِدُوا تَعِلَّةً لتَكْذِيبها، وادِّعَاءُ أَنَّها كانتْ بالرّوحِ لا بِكَامِلِ الذَّاتِ خُرُوجٌ بالْمِنَّةِ عمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ، ولَا دَاعِيَ لَهُ، إذْ لَيْسَ فِي حَادِثَتَي الإسْرَاء والمِعْرَاجِ مَا يُنَافِي الجائِزَاتِ الْعَقْلِيَّةَ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُم سُلْطَانُهُ، والاشْتِغَالُ بِمُنَاقَشَةِ آراءِ النَّاسِ الَّتي لَا قِيمَةَ لَهَا في هذا الْمَجَالِ، تَشْوِيشٌ لَا حَاجَةَ إلَيْهِ، وفُضُولٌ يُعَكِّرُ صَفَاءَ الأفْكَار، ويُهْدِرُ بَلَا فَائِدَةٍ مِنْ ثَمِينِ الأَعْمَارِ.

﴿.. لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: أي: لِنُرِيَهُ بأداة بَصَرِه، ونُسْمِعَهُ بأداةِ سَمْعِهِ، بَعْضَ آياتنا الْعُظْمَى، وقَدْ دَلَّ علَىٰ المطويِّ قَوْلُ اللَّهِ

عَزَّ وجلَّ في وصْفِ النبيّ ﷺ: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: أي: فَقَدْ سَمِعَ ورَأَىٰ من آيَاتِنَا الْعُظْمَىٰ.

دَلَّ عَلىٰ حُضُورِهِ بِكَامِلِ ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةِ وتَخْصِيصِه بهذِه الْمِنَّةِ التوكيد بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الإسْمِيَّة ـ وضَمِيرُ الْفَصْلِ».

ووصْفُ الرَّسُولِ بَأَنَّهُ: «السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» يُفيدُ تخصيصَهُ في تلك اللّيلَةِ، بغَايَةِ السَّمْعِ، وغايةِ البصَرِ، لإدراكِ بعض آياتِ اللَّهِ العظمى المسموعةِ بأداةِ السَّمْعِ، والْمَرْئِيَّةِ بأدَاةِ الْبَصَر.

والآيات العظيمة الّتي رآها بِبَصَرِهِ وسَمِعَهَا بِسَمْعِهِ قَدْ كَانَتْ حِينَما عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوات، فأوحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ الصَّلوات الْخَمْس، وشَاهَدَ بِبَصَرِهِ السِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ، وشاهِدَ من عجائب آيات اللَّهِ مَا شَاهد.

فالآية تَدُلُّ بِصَدْرِهَا علَىٰ الإسْرَاء مِنَ الْمَسْجِدِ الحرامِ إلى الْمَسْجِدِ الأقْصَىٰ، وَتَدُلُّ بآخِرِها: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ علَىٰ الْمِعْرَاجِ الّذِي جَاءَ تَفْصِيلُ بَعْضِ أَحْدَاثِهِ في الأحاديث الصَّحيحة الصَّرِيحة، أي: وعَرَجْنَا بِهِ إِلَىٰ السَّمَاوات حَتَّىٰ السِّدْرَةِ الْمنتهَىٰ لِنُرِيَهُ من آياتِنَا العظمَىٰ. ودَلَّ على كونِها عظْمَىٰ اسْتِعْمَالُ ضَميرِ المتكلّم العظيم في: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

السَّنَةُ الّتي امْتَنَّ اللَّهُ عزّ وجلّ فيها على رسُوله بالإسراء والمعراج:

وردت في تحديد السّنة التي امتنّ الله فيها على رسوله محمّد ﷺ بالإسراء والمعراج عدّةُ روايات ليس فيها ما يرقى إلى درجَةِ الصحيح أو الحسن.

فقيل: كان الإسراء والمعراجُ قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: قَبْلَها بأربع سنين، وقيل: قبلَها بخمس سنين، وقيل: قبلَها بسَنَة، وقيل: قبلها بثمانية عشر شهراً.

وقد نظرت إلى تَرْتِيب نُزُول سورة (الإسراء) فوَجَدْتُ أنها الخمسون بحَسَب تَرْتيب النزول، وأنّ بَيْنَها وَبين أوّل سورة مَدَنية وهي سورة (البقرة/ ٨٧ نزول) سِتًّا وعِشْرِين سورة، وقَدْ عَدَدْت صفحاتها مع صفحات سورة (الإسراء) فوجدتها (١٩٦) صفحة تَزيدُ أو تنقص أقل من صفحة، ووجَدْت أنّ هذه الصفحات تعادل ثُلُثَ المصْحَفِ تقريباً.

ثم نظرْتُ في قول الله عزّ وجلّ في أواخر سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: أي: على تَمَهُّلٍ فيه توقُّفٌ وانتظار بَيْنَ تَنْزِيلِ نُجُومه.

فرأيتُ أنّ ثُلُثَ المصحف مع حِكْمَةِ التَّمَهُّلِ يحْتَاجُ خَمْسَ سِنين أو أرْبَع سنين تتنَزَّلُ فيها نجومه.

ولهذا أستَبْعِدُ بشدّة أنْ يكون هذا القدر قَدْ نَزَل في أَقَلَّ مِنْ أربع سِنِين، وقياساً على مَا نَزَلَ قَبْلَهُ مِنْ سُورٍ مَكِّيّة.

وعلى هذا فمِنَّةُ اللَّهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه ـ علىٰ رَسُولِهِ محمّد ﷺ بالإسْراء والمعراج، قد كانت قبل الهجرة بخَمْسِ سنين، أو بأرْبع سنين على أقلّ تقدير.

وعلى هذا فالصلوات الخمس قد فُرِضَتْ في السَّنة الثامِنَة، أو التاسعة، مِنْ بِعْثَةِ الرَّسُول محمّد ﷺ، لأنّها قَدْ فُرِضَت في لَيْلَة الإسْرَاء والمعراج، كما جاء في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الصريحة.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدرس الأول من دُروس سورة (الإسراء) والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته ومَدَدِه.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (٢ ـ ٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا (٨)﴾.

القراءات:

(٢) • قرأ أبو عَمْرو: **[أَلاَّ يَتَّخِذُوا]** بياء الغائبين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ بتاء المخاطبين. وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، إحْدَاهُما في الحديث عن بني إسرائيل، والأُخْرَىٰ خِطَابٌ لهم.

(٧) • قرأ ٱبن عامر، وشعْبَة، وحَمْزَة، وخلف: **[لِيَسُوءَ]** أي: ليَسُوءَ اللّهُ وُجوهَكُم.

وقرأها الكسائي: **[لِنَسُوءَ]** بضمير المتكلّم العظيم. وقرأها باقي القرّاءِ الْعَشَرَة: **[لِيَسُوؤُوا]** أي: لِيَسُوءَ عِبادٌ لَنَا وُجُوهَكُمْ. وبين هذه القراءات تكامل في الأداء البياني، وتفنُّنٌ في التعبير، فالفاعل الحقيقيُّ المقَدَّرُ هو الله، والفاعلُ السَّبَبِيُّ الناس، ومؤدَّىٰ القراءات واحد.

تمهيد:

هذا دَرْسٌ يَشْتَمِلُ على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ آتَىٰ مُوسَىٰ كتاب التوراة، وجَعَلَهُ هُدىً لبني إسرائيل، وَأَنَّهُ جلَّ جلالُهُ أعْلَمَهُمْ فيه بلَقَطاتٍ بَارزَاتٍ مِنْ تَاريخِهِمُ المستَقْبَلِيِّ، الَّذِي سَيُخَالِفُونَ فيه التعليمات الَّتي أُنْزلَتْ إِلَيْهِمْ في كتاب التوراة، فَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ إفْسَاداً عَرِيضاً مَرَّتَيْن، بإراداتِهِمُ الْحُرَّة، واخْتِيَاراتِهِمُ الّتي لَا جَبْرَ فيها، ويَعْلُونَ في الأَرْضِ عُلُوًّا كبيراً، وأَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي كِلْتَا الْمَرَّتَيْنِ، فَيُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مِنْ عبادِهِ مَنْ يُكْثِرُونَ فِيهِمُ الْقَتْلَ، وَيُعَذِّبُونَهُمْ، وَيُذِلُّونَهُمْ، وَيُمَزِّقُونَهُمْ تَمْزِيقاً شَدِيداً.

وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ هذِهِ هِيَ سُنَّتُهُ الدَّائِمَةُ فِيهِمْ كُلَّمَا أَفْسَدُوا في الأَرْضِ وطَغَوْا وَبغَوْا، فإذا اسْتَقَامُوا واسْتَكانُوا رَحِمَهُمْ.

وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ عَاقِبَةَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رُسُلِهِم، قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّد ﷺ، والكافِرينَ مِنْهُم بمُحمَّدٍ خاتم أنبيائه ورُسُلِهِ بَعْدَ بِعْثَتِه، وبالقرآنِ الّذِي أنْزَلَه علَيْه، عَذَابٌ أَلِيمٌ في جهنَّم يَوْمَ الدِّين، كما هِيَ عَاقِبَةُ سَائِرِ الكافِرِين.

ثـمّ إذَا نَظَرْنَا إلى هذا الدَّرْسِ بتَأَمُّلٍ وَإِمْعَانٍ، وإِلَىٰ الدَّرْسِ الأول الّذي تضَمَّنَ التَّنْويهَ بِمِنَّةِ اللَّهِ علَىٰ رَسُولِهِ محمّد ﷺ بالإسْرَاءِ والْمِعْرَاج، وبما جاء في مَطْلِعِ الدَّرْس الثالث الآتي، من إنْزَالِ القرآن المجيد عَلَيْه، المتَحَلِّي بأكْمَلِ الصِّفَاتِ الَّتي يتحلَّىٰ بها كتابٌ من الله للنّاس، وبما سَبَقَ أَنْ أنزل اللَّهُ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) مِنْ بيان أنَّ اللَّهَ أوْرَثَ الكتابَ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ عبادِه، وهُمْ أُمَّةُ مُحمّد ﷺ، وذَلِكَ في الآية (٣٢) مِنْها، وبما سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأنِ أمَّةِ محمّد ﷺ وهو قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

إذَا أمْعَنَّا النَّظَرَ في كلّ هذا وتدَبَّرْنَا ما يَدُلُّ عليه إلْماحاً ظَهَرَت لنا الحقائق التالية:

الحقيقة الأولىٰ: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ فضَّلَ محمّداً ﷺ، علَىٰ موسَىٰ عليه السّلام، بِمِنَّةِ الإسراء والمعراج وبمكالمتِهِ بالْوَحْيِ إليه في السَّماء السّابعة أو عند سِدْرَةِ المنْتَهَىٰ، وبِمِنَّةِ مُشَاهَدَاتِ جَليلاتٍ لبَعْضِ آياته العظمى، في مُقَابلِ مِنَّةِ اللَّهِ على مُوسَىٰ إذْ نَادَاهُ وكَلَّمَهُ بجانب الطّور تكليماً، وإذْ قَرَّبَهُ نَجيًّا.

الحقيقة الثانية: أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ فضَّلَ مُحمّداً ﷺ بأَنْ أنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآن الْمعجِزَ الجامع لزُبْدَةِ مَا أَنْزَلَ في كُتُبِهِ السابقة، والخاتِم لكُتُبِهِ للناسِ، والمحفوظَ بحْفِظِهِ ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه ـ في مُقَابل كتاب التوراة الَّذِي آتاه اللَّهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام، وجَعَلَه هُدىً لبني إسْرَائيل، ولهذا لم يتكفَّلِ اللَّهُ بحفْظِه.

ومَعْلُومٌ أنَّ القرآن المجيد أجْمَعُ لصِفَاتِ الكمالِ من التوراة ومِنْ كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ علَىٰ رَسُولٍ من رُسُلِه.

الحقيقة الثالثة: أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ أعْلَمَ بَني إسْرَائيلَ فيما أنزل على مُوسَىٰ، ورُبّما على غيره من رُسُل بني إسْرَائيل، بأَنَّهُمْ غَيْرُ صَالِحِينَ لحَمْلِ رِسَالَةِ اللَّهِ للنَّاس، لأنَّ تَاريخهم المستقْبَلِيّ الَّذِي سَبَقَ في عِلْمِ اللَّهِ المحيطِ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً، ما كانَ، ومَا هُوَ كائِنٌ، ومَا سَيكُونُ، أنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ في الأرْضِ حَرِيصين علَىٰ الْعُلُوِّ فيها، وأنَّ ذَلِكَ يكونُ بإراداتهم الحرَّةِ الَّتي لا مُجْبِرَ لها، وبأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ وحَكَمٍ فَعَدَلَ سَيُسَلِّطُ عَلَيْهِم إلى يوم القيامَةِ كلَّما أفْسَدُوا في الأرض إفْساداً عَرِيضاً، مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب.

ولهذا لم يَصْطَفِهِمْ لهذا المجْدِ العظيم، وهو أنْ يَحْملوا رِسَالَةَ تَبْلِيغِ

رِسَالَتِهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وهِدَايةِ عباد اللَّهِ بالحق، إذْ تاريخُهُمْ المستقْبَليُّ لَا يُؤَهِّلُهُمْ لَحِمْلِ هذِهِ الرِّسَالَة.

إنَّ ذُرِّيَّاتِهِمْ مُؤَهَّلُونَ لمشارَكَةِ إبْلِيسَ في إغْوَائِهِ وإغرائِهِ وإضْلَالِهِ لِذُرِّيَاتِ آدم.

الحقيقة الرّابعة: أنَّ اللَّهَ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وشَمَلَ عِلْمُهُ مَا كانَ ومَا هُوَ كائِنٌ ومَا سَيكُونَ ـ قَدْ سَبَقَ في عِلْمِهِ أَنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أيّ عِرْقٍ أَوْ لَوْن أَوْ لُغَةٍ، صَالحةٌ بمَجْمُوعِها لَا بكُلِّ أفرادِها، لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ الْخَاتِمَة، والْمُحَافَظَةِ عَلَيْها، وتَبْلِيغِها للنَّاس، ولهداية عباد اللَّهِ بالحقّ، وإذَا حَكَمُوا فَهُمْ يَحْكُمُونَ بالْعَدْل، وأَنَّهُمْ ستَبْقَىٰ فيهمْ طَائِفَةٌ ظَاهِرِينَ على الحقّ لَا يَضُرُّهم مَنْ خالَفَهُمْ حتَّى تَقُومَ السَّاعَة، وهذا يَكُونُ باختيارهم الحرِّ دُونَ جَبْرٍ وَلَا إكْرَاه.

ومِنْ أجْلِ هذا اصْطَفاهُمُ اللَّهُ واجْتَبَاهُمْ لِحَمْلِ رِسالَتِهِ الْخَاتِمَةِ، وحِفْظِ كتابِهِ المجيد القرآن، وتَبْلِيغهما للنَّاسِ، ولِهِدَايَةِ عِبَادِ اللَّهِ مِنْ مُخْتَلِفِ الأُمَم والشُّعوب بالْحَقِّ، وقَدْ أَثْبَتَ تَاريخ الأمَّةِ الإسْلَامِيَّةِ هذِهِ الحقيقة.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾:

أَلْمَحُ أَنَّ العطفَ في ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هُو على مُلاحَظٍ ذهْناً من فَحْوَىٰ الآيَةِ الأولى، أي: آتَيْنا مُحمَّداً القرآن، وفَضَّلْناه بالإسْراءِ والمِعْرَاجِ، وآتَيْنا مُوسَىٰ الَّذِي كلّمْنَاهُ بجانِبِ الطور وقَرَّبْناهُ نَجيًا كِتَابَ التَّوْرَاةِ.

ولَدَىٰ التأمُّلِ فيما فَضَّلَ اللَّهُ به محمّداً ﷺ، وفيما فَضَّلَ اللَّهُ به مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، نُدْرِكُ بِوُضوحٍ ٱرْتِقَاءَ دَرَجَاتِ التَّفضيلِ الّتي فَضَّلَ اللَّهُ بها محمّداً خاتمَ أنبيائه ورُسُلِهِ عليهم الصَّلاة والسلام ارتقاءً كبيراً، على دَرَجاتِ التفضيل الَّتي فَضَّلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها مُوسَىٰ عليه السَّلام.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: وجَعلْنا كِتَابَ التوراةِ هُدَى لِبَنِي إسْرَائِيلَ، الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وافْتَخَرُوا بأنّه كِتَابُ اللَّهِ لَهُمْ، لَا عَلَىٰ معْنَىٰ التخصيص بأنَّهُ هُدىً لهم فقط، بَلْ هُو هُدىً لِلْمِصْرِيين لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمُوسَىٰ واتَّبَعُوه، وهُدىً لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ وأرَادَ أَنْ يُؤْمِنَ بِالحَقِّ المنزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، واسْتَمَرَّ هُدىً للصَّالِحِينَ مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ حتَّىٰ هَجَرُوهُ، واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهم.

هُدىً: أي: هادياً وَدَالًّا ومُرْشِداً إلى الحقِّ، والخيْرِ، والفضيلة، وإلى صراطِ اللَّهِ المستقيم. اسْتُعْمِلِ المصدَرُ بمعنى اسم الفاعل، للإشعار بأنَّ كُلَّ شيءٍ فيه يَدُلُّ علَىٰ مَا فِيه نَجَاحٌ وفلاحٌ وعاقِبَةٌ حسَنَة مُسْعِدَةٌ لِمَنِ اتَّبَعَه.

﴿.. أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾: أي: واشْتَمَلَ هذا الكتابُ علىٰ خِطابٍ من اللَّهِ لبني إسْرَائِيلَ تَفْسِيرُهُ، أَنْ لا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ رَبِّكُمْ وَكيلاً تَكِلُونَ إِلَيْهِ أُمُورَ هِدَايَتِكُمْ إلى مَا فيه سَعَادَتُكُمْ فِي دُنْياكُمْ، وفي آخِرَتِكُمْ، ومِنِ اتّخاذِهِمْ وكيلاً من دُونِ اللَّهِ اتكالُهُمْ علَىٰ عقولِهم وآرائِهم، واتكالُهُمْ على الموسْوِسين المضلّين من الإنْسِ والجنّ، واتكالُهُمْ على مَا يشْعُرُونَ بأنهم يمتلكونه ممَّا وهبهم الله ربهم.

الوَكيل: هُوَ مَنْ يُسَلَّمُ إِلَيهِ أَمْرٌ مَا، ويُكْتَفَىٰ به في اختياره أوْ عَمَله، من قِبَلِ مَنْ جَعَلَهُ وَكيلاً له.

والتَّوَكُلُ علَىٰ الله: الاستسلامُ إِلَيْهِ، وتَفْوِيضُ تَدْبير الأمُورِ وتحقيق ما

يَرْغَبُ فيه المتوكِّل إلَيْه، مع القيام بالأسْبَابِ المسْتَطَاعَةِ المادّيَّةِ والمعنويَّةِ طَاعَةً لأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

لكِنَّ بني إسْرَائيلَ قَدْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمْ، تَرَكُوا التوكُّلَ علَىٰ اللَّهِ، واتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ وُكَلَاء، فاسْتَسْلَمُوا لآرَائِهِم، وعُقُولِهِمْ الَّتِي أَضَلَّتْهُمْ، واسْتَسْلَمُوا للْمُضِلِّين المغْوين من الإنس والجنّ، واتَّخذُوهُمْ وُكَلَاءَ لَهُمْ من دُون اللَّهِ، بِسَبَبِ اتِّباعِهم أهواءَهُمْ وَشَهَواتِهم وَإرادَاتِهِمُ الْفُجُورَ والْعُلُوَّ في الأَرْضِ علىٰ النَّاس بغَيْرِ حقّ، وحِينَ آتاهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ تَمْكيناً فِي الأرض اتَّخَذُوا لَهُ أَسْبَابَهُ تَوَكَّلُوا على ما لَدَيْهم مِنْ قُوَىٰ، فَطَغَوْا وَبغَوْا، فَعَلَيْهِم الآنَ أنْ يَترَقَّبُوا سُنَّةَ اللَّهِ فيهم الَّتي أعْلَمَهُمْ بها، وهِيَ أنْ يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَاب، ويُتَبِّرُ وَيُحَطِّمُ مُنْشَآتِهِم تَتْبيراً شاملاً.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: نِداءٌ من اللَّهِ لبني إسْرَائيل، أي: يا ذُرِّيَّة مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ في السَّفِينَة، وقد ظهر لي ترجيح احتمال النداء على الاحتمالات الأخرى.

وجاءَ في القرآن أنّ الّذينَ بَقِيَتْ لَهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَعْدَ الطُّوفان كَانُوا مِنْ ذُرِّيَّةِ نوح عَلَيْهِ السلام.

والمعروف أنّ بني إسرائيل هُمْ من ذُرِّيَّةِ «سَامٍ» ولَدِ نوحٍ عليه السَّلام.

وفي تذكيرهم بِأَنَّهُمْ ذُرِّيَّةُ مَنْ آمَنَ بِنُوحٍ مِنْ ذُرِّيَّتِه، تَحْذِيرٌ إلْمَاحِيٌّ لَهُمْ بأَنَّهُمْ إذَا كَفُروا واتَّخذُوا سبيلاً غير سَبِيلِ رَبِّهِم، عَرَّضُوا نُفُوسَهُمْ لِنِقْمَةِ اللَّهِ عليهم، وإنْزَالِ عِقَابِهِ المعَذِّب لَهُم، كَمَا عَذَّبَ أقواماً قَبْلَهُمْ هُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ نوح عليه السَّلام، وأغْرَقَ قَبْلَهُمْ الكافِرَ مِنْ أوْلَادِ نوح مع سائِرِ كفّار قومه.

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: أي: إنَّ نُوحاً كَانَ مُتَحَقِّقاً بِعُبُودِيَّتِهِ لِرَبّه، خُضُوعاً وطاعَةً وامْتِثالاً لأوامِرِه ونَواهِيه، وَكَانَ شَكُوراً لِنِعَمِ اللَّهِ علَيْه، من دَرجاتِ مَرْتَبَةِ الأبْرارِ والْمُحْسِنين.

شَكُور: صيغَة مبالغةٍ لاسم الفاعل «شَاكِر» فَوَصْفُ نُوحٍ عليه السلام بأنَّهُ «شَكُور» يَدُلُّ علَىٰ أنَّهُ لمْ يقتَصِرْ في شُكْرِهِ على القيام بحُقوق درجاتِ مَرتَبَةِ التَّقوى مِنْ فعل الواجبات وتَرْك المحرّمات، بَلْ كانَ يَقُوم بفَضَائِلِ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْبِّر، ودَرَجات مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، تَقَرُّباً إلَىٰ رَبِّهِ بنَوافِلِ العبادات والقُرْبَاتِ.

وفي هذا الثناء من الله عزّ وجلّ على نوحٍ عَلَيْهِ السلام، اسْتِحْثَاثٌ لراغبي الدَّرَجَاتِ الرَّفيعاتِ عند اللَّهِ عزّ وجلّ أنْ يَكُونُوا شَكُورِينَ، مُسْتَزِيدينَ من نوافل العباداتِ والْقُرباتِ.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾:

• ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: وأَنْهَيْنَا إلَىٰ بَنِي إسرائيل فيما أنزَلْنَا إلَيْهِم منْ كتابٍ خَبَراً عن تاريخهم المستقبليّ، فوصَلَ إلَيْهِمْ، وَوَعَاهُ مِنْهُمْ عُلَمَاؤُهم، ومَنْ سَمَع مِنْ عُلَمائهم، ويشمل عنوان «الكتاب» كلَّ مَا أنزل الله على رُسُلهم وأنبيائهم من كُتُبٍ هي ملحقة بما أنزل الله على موسى، ويُسمونها أسفار الْعَهْدِ القديم، ويجعلونَ لها عنوان «الكتاب المقدس» لأنَّ أنبياءهم ورُسُلَهُمْ يحكمون بالتوراة الكتاب المنزل على موسى عليه السلام.

يقال لغة: «قضىٰ إليه الأمْرَ» أي: أنهاه إليه، أصل معنى «القضاء» في اللّغة، إمضاءُ الشّيءِ وإنهَاؤه وإتمامُه، ومعلومٌ أنَّ إنْهاء كلّ شَيْءٍ يكُونُ بحَسَبِه، قولاً أو فِعْلاً أو إرادَةً أو حُكْماً أو غير ذلك.

• ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾: أي: أُقْسِمُ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ إفْسَاداً

عَرِيضاً مُنْتَشِراً مَرَّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ، بِدَلِيلِ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ وَصَفَهُمْ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بقَوْلِهِ تعالَىٰ:

﴿.. كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فَدَلَّ هذا البيانُ عَلَىٰ أنَّ دَأْبَهُمْ أَنْ يَسْعَوْا في الأرْضِ فساداً، مَهْمَا وجَدُوا إلى الإفْسادِ سبيلاً، وهذا في كُلّ وقْتٍ، وحيْثُما وُجِدُوا.

فإعْلَامُهُمْ بالإفسادِ مَرَّتَيْنِ، مِنْ ضِمْنِ سَعْيِهِم الإفساديّ العَامَ، يَدُلُّ بوُضوحٍ على أنّهما مَرَّتَانِ كُبْرَيَانِ مُتَفَاقِمَتَانِ في الشَّناعَةِ والانتشار.

الفساد: التَّلَفُ والْعَطَب، وتحوُّلُ الشيْءِ عَنْ كونِهِ صالحاً نافعاً إلَىٰ كونه غير صالح ولا نافع، بل رُبَّما يَصِيرُ ضارًّا كرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

والإفساد: العمل الذي تكون به هذه الأمور، فَمِنَ الإفساد الدَّعْوَةُ إلى الكفر والإلْحاد، ونَشْرُ المذاهبِ الفكْرِيَّةِ المضادّةِ لدِينِ اللَّهِ الحق، ونَشْرُ الوثَنِيَّات، وأَعْمَالِ السّوء، وإقامةُ مُؤَسَّسَاتِ الرّبا، ودُورِ الزّنا، ودُورِ شُرْبِ الخمور، وإنْشَاءُ مَعَامِلِ صُنْعِها، وإلزام النساء بإزَالَةِ حِجَابِهِنَّ عَنْ غَيْرِ مَحَارِمِهِنّ، وإقامةُ دُورِ القمار، ونَشْرُ أعمال القمار، والدَّعْوَةُ إلَىٰ إباحَةِ مُحَرَّمَات الفروج، وتأْسِيسُ المنظَّمَاتِ الْعَلَنِيَّةِ والسِّرِّيَّة الّتي تَعْمَلُ لهَدْمِ دين الله وإقامَةِ نُظُمٍ مُضَادَّةٍ لشرائعِ اللَّهِ لعبادِه، كالماركسية الشُّيُوعية، والاشتراكيَّة، والماسُونيَّة، والهِبِّيَّة، والفوضويّة، ومنظمة شهود يَهْوَه.

ومن الإفْسَاد في الأرض تخريب الْعِمْرانِ لَا لإصلاحِه أو إقَامَةِ مَا هو خيرٌ منه، وقَتْلُ النفوس الّتي حرَّمَ اللَّهُ قَتْلَها إلّا بالحقِّ، والظُّلْمُ والْعُدْوانُ وأَكْلُ أموال الناس وسَلْبُهَا بغير حقّ.

ومن الإفساد في الأرض نَشْرُ الرِّشْوَةِ بَيْنَ مُوظَّفِي الدَّوْلَةِ وعُمَّالِها،

وتَدْرِيبُهُمْ على تَرْكِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِم أنْ يُؤَدُّوهُ ما لَمْ يأُخُذُوا مَا يُرْضِيهِمْ مِنْ مَالٍ ظُلْماً وعُدْواناً، أو تكُنْ لَهُمْ بأدائِهِ مصْلَحَةٌ خاصَّة.

إلى غَيْر ذلك من أمور يَعْسُرُ إحصاؤها.

• ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾: أي: وأُقْسِمُ لَيَكُونَنَّ لَكُمْ عُلُوٌّ كبيرٌ في الأرض بأسْبَابٍ منكم وتَمْكِينٍ مِنَّا، فيكُونُ لَكُمْ سُلْطانٌ وَقُوَّةٌ وكَلِمَةٌ نَافِذَةٌ، وتَمَكُّنٌ مِنْ تَحْقِيقِ مَا تُرِيدُون ضِمْنَ حُدُودِ سُلْطانكم.

ويَظْهَرُ أنَّ هذا الْعُلُوَّ الّذِي وصَفَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بأنَّهُ كبير، يَكُونُ لَهُمْ مَرَّتَيْنِ أيضاً.

وقَدْ نظرْتُ في تاريخ بني إسْرَائيل فَلَمْ أجِدْ لَهُمْ عُلُواً كبيراً كما وصَفَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ، إلَّا في عَهْدِ داوُد وسُلَيْمانَ عَلَيْهما السّلام، ومن مظاهِر هذا العُلُوّ خُضُوعُ «بِلْقِيسَ» مَلِكَةِ «سَبأ» ورجالِ دَوْلَتِها «لسُلَيْمانَ» ومُلْكِهِ العظيم، واسْتَمَرَّ هذا الْعُلُوّ قَلِيلاً بَعْدَ «سليمان» عليه السَّلام.

ثم فَسَدَ بنو إسرائيل، وعَبَدُوا الأوثان، واتَّبَعُوا الأهواء والشَّهوات، وتصَارَعُوا علَى السُّلْطة، فسلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ «نَبوخَذْ نَصر» المعروف باسم «بُخْتَنْصَّر» ملك «بابل وآشور». إذْ غزاهُمْ عِدَّةَ غزوات، فقتل منهم وسَبَىٰ، وكان آخرُها سنة (٥٨٨) قبل المسيح عليه السلام، وفي هذِهِ الغَزَاةِ سَبَىٰ كلَّ شعب يهوذا، وأحْرَقَ هيكل سليمان، وبَقِيَتْ مَدينةُ «أورُشَليم» خراباً، حتى مَكَّنَهُمْ مِنَ العودة إليها مَلِكُ فارِس «دَارِيُوس» بَعْدَ أنِ انْتَصَرَ الْفُرْسُ على البابليين في عدّة معارك.

وكانت عوْدَتُهُمْ بَعْدَ نَيِّفٍ وأَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ سَبْيِهم على مَا ذَكَرُوا.

واتَّجَهَتْ آراءُ المفسِّرين الاجتهاديَّة إلى أنَّ المرَّة الثَّانية قَدْ مضَتْ، وأنَّهَا كانَتْ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ الرُّومانيَّة، إذْ دَخلَتْ مَمْلَكَةُ الإسْرَائيليّين تَحْتَ سُلْطانِ الرُّومَانيّين سنة (٤٠) ق.م. ثمّ حَاوَلُوا الخروج على سُلْطَةِ

الرُّومانيّين، فأرْسَلَ قَيْصَرُ روميَّة جيشاً كبيراً للقضاء علىٰ تمرُّدهم نحو سنة (٤٠) م فخَرَّبَ أورُشَليم، وأحرق معْبَدَهُمْ، وقتل من اليهود قرابة «ألف ألف» وأسَرَ قرابة تسعين ألفاً منهم، ثُمَّ أجْهَزَ الرُّومَانيّونَ على مَنْ بقي مِنْهُمْ سنة (١٣٥) م فتشتَّتَ اليهود في الأرض، ولم تخرج أورُشليم من حكم الرُّومان حتَّىٰ فَتَحها المسلمون في عَهْدِ خِلَافَة عُمر بن الخطّاب رضي الله عنه سنَةَ (١٦) هجرية صُلْحاً.

لكِنّي رَأيْتُ أنَّ بَنِي إسْرَائيلَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُلُوٌّ في الأرض بَعْدَ عَهْدِ سُلَيْمَانَ عليه السَّلامُ وذُيُولِ عَهْدِهِ، يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ أنَّهُ عُلُوٌّ كبيرٌ كما وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ.

وإذَا نَظَرْنا إلَىٰ واقِعِهم المعاصِرِ الآنَ، في القرن العشرين المسيحيّ وبداياتِ الْقَرْنِ الْحَادِي والعشرين، وَجَدْنَا أنَّ بَنِي إسْرَائيلَ قَدْ أوْجَدُوا بأسْبَابِهِمْ وتَمْكِينِ اللَّهِ لَهُمْ أمْرَيْنِ عظيمين:

الأمرُ الأوّل: إفسادُهُمُ الْعَرِيضُ في كُلِّ الدُّنيا، وفي كُلِّ دُوَلِ الأَرْضِ وشُعُوبها، فَمَا مِنْ شَرٍّ وَلَا فَسَادٍ ولا حَرْبٍ قَامَتْ، ولَا مَذْهَبٍ أوْ حِزْبٍ يُحَارِبُ اللَّهَ ورُسُلَهُ ودِينَهُ الْحَقِّ، إلّا كانوا هم شَيَاطِنَهُ المدَبِّرينَ لِخُطَطِهِ، وأصْحَابَ المكْرِ والكَيْدِ والْعَملِ لِبَذْرِ بُزُوره، وَنَشْرِ نَبْتَاتِها الْخَبِيثَاتِ حتَّىٰ تَعَمَّ بِلَادَ الدُّنيا، وجَمِيعَ شُعُوبِ الأرض، متحالِفِينَ مع إبْلِيسَ وجنُودِه من شياطين الجنّ والإنسِ.

الأمْرُ الثاني: بُلُوغُهُمْ إلى عُلُوٍّ في الأَرْضِ لَمْ تَبْلُغْهُ أمَّةٌ مِنَ الأُمَم، ولَا شَعْبٌ مِنَ الشُّعُوب، دُونَ أنْ تَكُونَ لَهُمْ دَوْلَةٌ ظاهِرَةٌ عُظْمَىٰ تَحْكُمُ العَالَمَ بِمَا لَدَيْهَا مِنْ قُوَّةٍ قَاهِرَة.

لَقَدْ سَاقُوا وقَادُوا رُؤُوسَ دُوَلِ الْعَالَم، عَنْ طَرِيق منَّظمَاتِهِم السِّرِّيَّة الشيطانيَّة الَّتِي أَسَّسُوها، وفي مُقَدِّمَتِها:

(١) المحافل «الماسُونية».

(٢) نوادي «الرُّوتاري».

(٣) نوادي «اللّيُونْز» = الأسود.

(٤) الأحزاب الشيوعية والاشتراكية.

(٥) منظمة «شهود يَهْوَه».

(٦) فِرَقُ «الباطنيّة».

إلى غيرها من المنظمات الفاسدة المفسدة[1]، فلا تجدُ دَوْلَةً في العالم تُشَهِّرُ بجرائمهم وتطالب بمحاسبتهمْ عليها على الرغم من شناعتها ضدّ شعب فلسطين الأعزل، مع سيطرتهم على الاقتصاد وأموال شعوب الأرض، وسيطرتهم على الإعلام، وعلى معظم القوى العلمية والثقافية والإداريّة في العالم، إلى غير ذلك.

فالذي أراه أن مَا عَلَيْهِ اليَهُودُ الآنَ هُو المرَّةُ الثانية إفْسَاداً وعُلُوًّا كبيراً في الأَرْض.

ويُؤَيِّدُ هذا الْفَهْمَ مَا جَاءَ قُبَيْلَ أواخِرِ سُورَةِ (الإسراء) الَّتي أسْأَلُ اللَّهَ عزّ وجلّ أنْ يَفْتَحَ عَلَيَّ في تَدَبُّرِها:

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

تأخير هذه الآية إلى أواخِرِ السُّورَةِ، فيه حِكْمَةُ تَرْكِ الأمْرِ للآراء الاجتهادية، حتّىٰ يكشف الواقع المرادَ بِهِ، وهو من الإعلام بالمستقبليات إعلاماً لَمْحِيًّا.

---

[1] انظر ما جاء في كتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» وما جاء في كتاب «ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، آخر الجزء الثاني» وكتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف.

أي: وقُلْنَا بأمْرٍ تكوينيّ لبني إسْرَائيل: اسْكُنُوا في شَتَاتِ الأَرْضِ، وقَدْ تَحَقَّقَ هذا إذْ آثَرُوا التخلُّصَ مِنْ ضَغْطِ حُكْمِ الرُّومانيين سنة (١٣٥)م.

﴿..فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾: أي: فإذا جاء وَقْتُ تحقيقِ وعْدِ الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، جِئْنَا بكُمْ مِنْ مَوَاقِعِ شتاتِكُمْ في الدُّنْيا، طَامِعِينَ بأَنْ تَكُونَ لَكُمْ دَوْلَةٌ عُظْمَىٰ تَحْكُمُ العالَمَ حُكْماً ظَاهِراً، لَا حُكْماً مِنْ وراءِ حُجُبِ أُجَرائِكُمْ وعُمَلائِكُمْ مِنْ شعُوبِ الأرْض، وعِنْدَئِذٍ سَيَسُوءُ عبادٌ لَنَا وُجُوهَكُمْ، وَيَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الأَقْصَىٰ معظِّمِينَ لَهُ، كَمَا قَدَّرْنَا أنْ يَدْخُلُوه في أوّل مَرَّةٍ في عَهْدِ خِلَافَةِ عُمَر، ومَعَهُمُ الْقُوَّةُ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يُحَطِّمُونَ مُنْشآتِ قُوَّاتِكُمْ تَحْطِيماً شَدِيداً يَجْعَلُها كأكوام الرِّمال والحصَىٰ.

اللّفِيفُ: مَا اجْتَمَعَ من النّاسِ من أخْلَاطٍ شَتَّىٰ، ومن قَبَائِلَ شَتَّىٰ. وظاهِرٌ أنَّ اجتماع الْيَهُودِ في هذا الْعَصْرِ في فِلَسْطِينَ مِنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ، ومن كلِّ بلاد الشَّتاتِ تحْقِيقٌ لِلْوَعْدِ الرَّبَّانِيّ بأنْ يأتِي بهِمْ لَفِيفاً لِيُلَاقُوا مَصِيرَهُمُ المحتُومَ، مُسْتَفِيدِينَ قَبْلَ ذَلِكَ مِمَّا وَصَلُوا إلَيْهِ مِنْ عُلُوٍّ كبير، ولَمْ يُجْمَعُوا مِثْلَ هذا الْجَمْعِ قَبلَهُ في تاريخهم.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾:

أي: ومِمَّا أنْهَاهُ الله عَزَّ وجلَّ إلَىٰ بَنِي إسْرَائيلَ في الكتاب على مَا سَبَقَ تَدَبُّرُهُ، قَوْلُهُ لَهُمْ: فإذا جاءَ وَقْتُ وَعْدِ عِقابِنَا لكُم علَىٰ إفْسادِكم في المرَّةِ الأُولى، بَعَثْنَا عليكم عباداً لنا أُولي بَأْسٍ شَدِيدٍ، ضِمْنَ تَصَارِيفِنَا الَّتِي تَجْرِي مِنْ خِلَالِ أَسْبَابٍ إنْسانِيَّة يتَحرَّكُ فيها النَّاسُ باخْتِيَارَاتِهِمُ الحرَّة، فَدَخلُوا دِيارَ مُدُنِكم وبَلْدَاتِكُمْ عَنْوَةً قَاهِرِينَ لَكُمْ يَتَرَدَّدُون ذاهِبِينَ وآيِبِينَ،

يَبْحَثُونَ عَمَّنْ يَقْتُلُونَهُ مِنْكُمْ، وَعَمَّنْ يأسِرُونَ، وَعَمَّا يَسْلُبُونَ ويَغْنَمُونَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَمُمْتَلَكَاتِكُمْ، ونَحنُ نُمَكِّنُهُمْ مِنْ ذَلِكَ عِقَاباً لَكُمْ.

الْبَأْسُ: هُنا الشّدَّةُ في الحرْب.

جَاسُوا: تَرَدَّدُوا ذاهبين وآيِبين بحْثاً وتَفْتِيشاً، يقال لغة: «جَاسَ، يَجُوسُ، جَوْساً، وجَوَسَاناً» أي: تَرَدّدَ ذاهباً وآيباً. ولَا يَفْعَلُ هذا في دِيَارِ الأعْدَاء إلَّا مَنْ دَخلَها عَنْوَةً، مُقَاتِلاً مُحَارِباً، يَقْتُلُ، وَيَأْسِرُ، ويَسْلُبُ، ويَغْنَمُ، بقُوَّةٍ لَا قِبَلَ لِعَدُوِّهِ بِصَدِّها.

خِلَالَ الدِّيَار: أي: في كُلِّ مِنْفَرِجٍ مَا بَيْنَ شَيْئين من دِيَارِكُمْ.

وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ تَمَكُّنِ الْمُسَلّطِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِ كلِّ مَكَانٍ مِنْ دِيَارِهم، حتَّىٰ مَا كان من خِلَالِ دَاخِلَ بُيُوتِهم.

وأَثْبَتَ التاريخ أنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ سَلَّطَ عليهم «بُخْتَنَصَّر» مَلِكَ بَابلَ وآشُور، فقتل وأسَرَ وَغَنِمَ، وسَاقَ بقَايَاهُمْ أَسْرَىٰ إلَىٰ بلاده، كما سَبَقَ بَيَانُه.

وأَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أَنَّهُ بَيَانٌ قُرْآنِيٌّ دَلَّ عَلَىٰ أنَّ مضْمُونَ هذا الْوَعْد قَدْ تحقَّقَ فِعلاً قَبْلَ نُزُولِ هذا البيان القرآنيّ.

الْوَعْدُ: هُوَ الإخبار بما تَمَّ العزْمُ علَىٰ فِعْلِهِ في المستقبل، يكُونُ في الْخَيْر، ويكُونُ في الشرّ، يقال لُغَةً: وَعَدَهُ بنَفْعٍ، ووعَدَهُ بِضُرّ.

ووعْدُ الله هُنَا لبني إسْرَائيلَ بالعقاب على أَيْدِي عبادٍ لَهُ غَير مُؤْمِنينَ، هُو بمعْنَىٰ تمْكِين البابلِيّين والآشوريّين، من اتّخاذ الوسَائِلِ للتّسلُّط عَلَىٰ عُصَاةِ بني إسرائيل وكُفَّارِهِمْ مع وُجُودِ الكِتَاب الرَّبَّانِيّ عندهم، ووُجودِ أنبياءِ فيهم يُحَذِّرُونَهُمْ، ويُنْذِرُونهم عقابَ اللَّهِ لهم، وبمعنىٰ إغراء مَلِكِ بَابل

وآشور بالطَّمَعِ بالتَّسَلُّطِ عليهم، وسَلْبِهِمْ مَا يَمْلِكُون، وإغراء الإسْرَائيليّين بالتكبُّر والتفاخُرِ والتعالي على الملُوكِ بما كانَ لهم من مُلْكٍ عظيم أيَّام سُلَيْمان، وأنَّهُمْ لَا بُدَّ أنْ يَعْمَلُوا لاسْتِرْجاعِ هَذَا الْمُلْكَ الَّذي فَقَدُوه، وكَسْرِ رُؤُوس الْمُلُوكِ مِنْ حَوْلهم.

وسابقُ عِلْمِ اللَّهِ الْكاشِفِ لأحْدَاثِ المستَقْبَل، يَكْفِي لِلْجَمْعِ بين إراداتِ العباد الحرّة الّتي لا جَبْرَ فِيها، وبَيْنَ تَحْقِيقِ مُرَادِ اللَّهِ منْ بَاطِنِ أَعْمَالِ الْخَلَائِقِ الإراديَّة.

لفظ «عباد» يُطْلَقُ علَىٰ كُلِّ الموجودَاتِ ذوات العلم، إذْ هم جميعاً عبادٌ مَمْلُوكُونَ لله الرَّب خالِقِهم، والممدّ لَهُمْ دواماً بعطاءات رُبُوبيّته، سواءٌ أكانوا مُؤْمِنين أَمْ كافِرين، حتَّى الملائكة فقد وصفهم اللَّهُ عزّ وجلّ بأنَّهُمْ عبادٌ مُكْرَمُونَ.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ . .﴾:
- ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾: **أَكْثَرَ نَفِيراً**: أي: أكثَرَ رِجَالاً قادِرين على أنْ يخْرُجوا إلى القتالِ ممّا كنتُمْ عَلَيْه قَبْلَ السَّبْي.

المعنى: وبَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَنِ مُتَراخِيةٍ ذكر المؤرخون أنَّها نَحْوُ أربعين سنة أَرْجَعْنَا لَكُمُ الكرَّةَ المنتصِرَة على الذين سَبوكُمْ، فَعُدْتم إلى فِلِسْطِين.

الْكَرَّة: الرَّجْعَة، وَالْحَمْلَةُ الراجِعَةُ إلى جِهَةِ الْعَدُوِّ لِقِتَالِهِ، بَعْدَ الْفِرَارِ من وجْهِهِ أو الهزيمةِ أو الانْكسارِ. **والكرّة**: واحِدَةُ الكرِّ، وهو الرُّجُوعُ إلى الوراء لاستئناف الإقبال إلى الأمام.

هذه العبارة تَدُلُّ إلْماحاً معَ النظر إلى التاريخ أنّ بعض الإسرائيليّين

اتَّصَلُوا بمَلِكِ فارِسَ، حينما كانوا في أَسْرِ الأشُوريّين من غير الواقعين في الأسْرِ أو ممّنْ فَرَّ مِنْهُم، وحَرَّضُوهُ على قتالِهِمْ، وَوَعَدُوه بأنْ يُعاونُوهُ، فوجَدَ مَلِكُ فَارِسَ الْفُرْصَةَ مُواتِيَةً لَهُ للظفر بغنيمَةٍ كبيرة، فحارب «كُورَشْ» مَلِكُ فارس البابليين، فهزمهم، ثم حاربهم المَلِكُ بَعْدَهُ «دَاريوسُ» ففتح بَابِلَ، وأَذِنَ لليَهُودِ في سنة (٥٣٠) ق م أَنْ يَرْجِعُوا إلى أورُشَلِيم ويُجَدّدُوا دَوْلَتَهُمْ، فعادوا تائبين إلى ربّهم ممَّا أَحْدَثُوا من كُفْرٍ وفَسَادٍ وإفْسَاد.

لكِنَّهُمْ عَادُوا إلى مَا كَانوا قَدْ نُهُوا عَنْهُ من فسادٍ وإفسادٍ، فانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ انتقامَاتٍ جُزْئِيَّة، دُونَ أنْ يكُونَ لَهُمْ عُلُوٌّ ظاهر في الأرض، حتَّىٰ آثَرُوا الهجْرَةَ مِنْ فِلَسْطِينَ، والتَّوَزُّعَ في بلاد الدُّنيا غَرْبِها وشَرْقِها وجَنُوبِها وشمالِها، ولم يَبْقَ لهم وُجُودٌ بَارِزٌ في فِلِسْطِين.

- ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ . . . ⑦﴾:

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾: أي: إِنْ فَعَلْتُمْ مَا هُوَ حَسَنٌ يَرْضَاهُ اللَّهُ.

﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ﴾: أي: وإِنْ فَعَلْتُمْ مَا هُو سَيِّءٌ قبيحٌ لَا يَرْضَاهُ الله.

هذا خطابٌ خاطبَ اللَّهُ بِهِ بَنِي إسْرَائيلَ، وهُوَ يَدُلُّ على مادَّتَيْنِ مِنْ موادّ الجزاء الرَّبَّاني لكلّ عبادِهِ الموضُوعِين في الحياة الدّنيا موضع الابتلاء، مِنْ قَبْلِ أنْ يَخْلُقَ اللَّهُ الخلْق.

المادّة الأُولى: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً حَسَناً يَرْضَاهُ اللَّهُ كَسَبَ لنفسه ثواباً حسناً، ويكونُ بِذَلِكَ قَدْ أَحْسَنَ لفائِدَةِ نَفْسِهِ.

المادّة الثانية: مَنْ عَمِلَ عَملاً سَيِّئاً لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لعِقَابٍ يَسُوؤُهُ، ويَكُونُ بذلِكَ قَدْ أَسَاءَ لِنَفْسِه، فَجَرَّ لنَفْسِهِ عذاباً يُؤْلِمُهُ إذا لَمْ يَغْفر اللَّهُ له بمقتضى حكمته. يقال لغة: «أَسَاءَ فُلَاناً، وأَسَاءَ لَهُ، وأَسَاءَ إلَيه، وأَسَاءَ عَلَيْه، وأَسَاءَ به» أي: فعل به مَا يَكْرَه، فلا حاجَةَ إلى تأويلاتٍ لا لُزُومَ لَهَا، إذْ جاء الاستعمال: ﴿فَلَهَاۚ﴾ ولم يأتِ: فَعَلَيْها. بَيْدَ

أنَّه قَدْ جاء في مواضِعَ مِنَ الْقرآن اسْتِعْمَالُ حَرْف «على» للإشارة إلى أنَّهُ قَدْ تَسبَّبَ في أنْ يَنْزِلَ الْعِقَابُ مُنْصبًّا علَيْهِ من فوقه، وكلُّ ما يقضيه اللَّهُ جلّ وعَلا، لَهُ العلُوُّ والْفَوْقِيَّةُ دَواماً.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿..فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾:

مَا جَاءَ في هذه الآية (٧) يَنْبغِي تَدَبُّرُهُ مع قول الله عزّ وجلّ عَقِبَ بيَانِ لقطاتٍ مُوجَزاتٍ جدًّا مِنْ قِصَّة مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام وفِرْعُونَ عَلَيْهِ اللَّعْنَة، وبَعْدَ بيان أنَّ فِرْعَوْنَ أراد أنْ يَسْتَفِزَّ بني إسْرَائيل من الأرْضِ الّتي هم فيها في مصر، فأغْرَقَهُ اللَّهُ وَمَنْ مَعَه:

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤﴾: أي: وقُلْنَا قَوْلاً تكوينيًّا مَسْبُوقاً بقَدَرٍ فقضاء.

اتّجهت آراء المفسِّرين إلى أنّ المراد بهذِهِ الآية: اسْكُنُوا أرْضَ فِلَسْطِين، فإذا جاءَ وعْدُ الحياة الآخِرَةِ يَوْمَ القيامة جِئْنَا بِكُمْ لِفَيفاً، لكنّي كما سبَق أنْ ذكَرْتُ أرَىٰ أنَّ هذه الآية (١٠٤) مُكَمِّلَةٌ للبيان الذّي جاء في الآية (٧) على طريقة القرآن في توزيع عَنَاصِرِ قضايا القِصَصِ وَالأَحْدَاثِ المستَقْبَلِيَّةِ على نُصُوصٍ مُفَرَّقَةٍ، لِتُفْهَمَ فَهْماً تكامُلِيًّا مِنْ قِبَلِ مَنْ يَفْتَحُ اللَّهُ علَيْهِم مُتَدبِّرِين.

والمعنى: فإذا جاء وقْتُ تحقيقِ عُقُوبَتِكم على إفْسَادِكُمْ العريض في المرَّةِ الآخِرَةِ، جِئْنَا بِكُمْ مِنْ مَوَاقِعِ تَفَرُّقِكُمْ في الدُّنيا إلَىٰ فِلِسطِين، بِتَدْبيراتٍ أَنْتُمْ تَتَّخِذُونَها، ظانّين أنَّها تحقّق لكم ما تُرِيدُون من سُلْطَانٍ، ومُلْكٍ عظيم، فتكونون في فلسْطين لفيفاً مِنْ أخْلاطٍ شَتَّىٰ قادِمَةٍ مِنْ شَرْقِ الدنيا وغَرْبِها وجنوبها وشمالِها، وبَعْدَ ذلِكَ نَبْعَثُ عليكُمْ عباداً لَنا يَغْلِبُونَكُمْ

وَيَسُومونكُمْ سُوءَ الْعَذَاب، ولَا يَكُونُ هَدَفُهم إبادَتَكُمْ، بل هَدَفُهُمْ أن يُعيدُوكم إلى وضْعِكُمْ غَيْر الاسْتِثْنَائيّ، وهُوَ مَا ضُرِبَ عليكم مِنَ الذِّلّةِ والمسْكَنَة، الّتِي تَسُوؤكم مِنْ أعْمَاقِ نُفوسِكُمْ وقُلُوبِكُمْ، فَتَظْهَرُ آثارُ هذِهِ المسَاءَةِ على وُجُوهِكُمْ دَواماً. أو لتكونَ غَايَةُ بَعْثِهِمْ تَحْقِيقَ هذا.

فاللّامات الجارة في الآية (٧) متعلقة بمحذوف تقديرُه: «بَعَثْنَا عليكم عباداً لَنَا أُولي بَأسٍ شديد» وهُوَ مستفاد من النظير السابق، واللّامات معناها التعليل، وهي في: [لِيَسوءُوا] ـ [لِيَدْخلوا] ـ [لِيُتَبِّرُوا].

ودلَّ على الحالتين الغالبة والاستثنائية قول الله عزّ وجلّ بشأن اليهود، في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

فالْوَضْعُ غَيْرُ الاسْتِثْنَائِيّ، الشَّامِلُ لمعْظَم أحْوَالِ تَارِيخِهِم الّذِي بَدَأ بَعْدَ فَسَادِهِمْ وإفسادِهم وسُقُوطِ مَمْلَكَتِهِمْ:

(١) أنَّهُمْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّة (= الضَّعْفُ والْهَوان) أيْنما وُجِدُوا ملاحَقِين لقتالهم، في كلّ أحوالهم، باسْتثناءِ حالَةٍ يُمِدُّهُمُ اللَّهُ فيها بحَبْلٍ معْنَويٍّ ليُؤَدِّبَ بهِم المسْلِمينَ الْعُصَاة، ويُمَكّنُ فيها دُوَلاً مِنْ شُعُوب الأرْضِ مِنْ أنْ تُعْطِيَهُمْ حَبْلَ قُوّةٍ يَسْتَعْلُونَ به.

(٢) أنَّهُمْ بَاءُوا بغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، أي: حَلُّوا بِهِ، فَهُمْ مُقِيمُونَ دائماً فيه، ما دامُوا علَىٰ كُفْرِهِمْ وفَسادِهم وإفسادهم لا يَدْخُلُونَ في دين اللَّهِ الحقّ، الذي جعَلَهُ عَامًّا شاملاً للنَّاسِ أجْمَعِينَ.

(٣) أنَّهُم ضُرِبَتْ عَلَيْهُم المسْكَنَةُ، أي: التظاهُر بالضَّعْفِ والحاجَةِ والذُّلّ، ولَوْ كانُوا عَلَىٰ خِلافِ ذَلِكَ في الواقع.

هذه العقوباتُ الرَّبَّانِيَّة نَزَلتْ بهم بسبب أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيات اللَّهِ، وكانُوا يَقْتُلُونَ الأنبياء بغَيْرِ حقّ، وكانوا يَعْصُونَ رَبَّهُم، وكانوا يَعْتَدُونَ على عباد الله.

وأخلافُهُمُ الملْتَزِمُون بما كانَ عليه آباؤهم تَنْسَحِبُ عليهم هذِهِ العقوبات الرَّبَّانِيَّة.

• ﴿.. وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي: ولِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ الأَقْصَىٰ مُنْتَصِرين، ومُعَظِّمِينَ لَهُ وَمُقَدِسِينَ، كما دَخَلُوه كذلِكَ أَوَّلَ مَرَّة. وَهذا يَنْطَبِقُ علَىٰ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ الْمُحَمَّدِيَّة، الّذين دَخَلُوهُ في عَهْدِ خلافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب، فأَحَاطُوهُ بالْعِنَايَةِ والرِّعَايَةِ والنظافة والاحْترام، وجَعَلُوهُ مكاناً صالحاً للعبادة، بَعْدَ أنْ خَرَّبَهُ وألْقَىٰ عَلَيْه الأقْذَارَ والْقُمَامَاتِ الْبَابِلِيُّون، والرُّومانِيّون نِكايَةً بالْيَهُودِ وإذْلالاً وإهانَةً لهم، ولم يَدْخُلُوهُ، بَلْ خَرَّبُوه ودَمَّرُوه وأحْرَقوه دونَ دُخولٍ إلى حَرَمِه دُخُولَ استِمْتَاع وانتفاع.

• ﴿.. وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾:

التّتبير: التكْسِير، والتحطيم، والتّفْتِيت، بِشِدَّة.

﴿مَا عَلَوْا۟﴾: أي: الّذي عَلَوْهُ مُنْتَصِرِينَ فَاتِحِين مِنْ مُنْشآتِ وَمُؤَسَّسَاتِ الْيَهُودِ في فِلِسطِين «ما» اسم موصول، والضمير العائد عليه محذوف مقدَّر ذهناً.

وهذا يَدُلُّ علَىٰ أنَّ هؤلاءِ الفاتِحين مِنْ عبادِ اللَّهِ، يَمْلِكُونَ قُوىً تَفْجِيريَّةً قَادِرَةً على التَّتبِيرِ والتفْتِيتِ بشِدَّةٍ، حتَّىٰ يَتحوَّلَ البناء العظيم الشَّاهِقُ فَيَكُونَ تَلَّةً من الرَّمْلِ والْحَصَىٰ.

والأَحَادِيثُ الصحيحة تُبَيِّنُ أنّ مَعْركَةً حَاسِمَةً فَاصِلَةً، سَتَكُونُ بَيْنَ الْمُسْلِمين والْيَهُود، وأَنَّ الْمُسْلِمينَ سَيَكُونُونَ هُمُ الغالبين المنتصرين، ولَكِنَّ تحقيق هذا الْوَعْد يتوقَّفُ على المسلمين أنفُسِهم، فالأمْرُ مَشْرُوطٌ بأنْ

يكُونوا مُسْلِمِينَ حقًّا، وبأنْ يُعِدُّوا لهذا الانتصار عُدَّتَهُ ضِمْنَ أنْظِمَة الله السَّبَبِيَّة في كَوْنه.

ولَكِنَّ عقابَ اللَّهِ لليهودِ لا يكونُ عقابَ استئصالٍ وإبَادَةٍ شاملَة، لِمَا للَّهِ فيهم من حِكْمَةٍ أو حِكَمٍ، كما كان للَّهِ من حِكْمَةٍ في إنظار إبليسَ إلى إنهاء ظروف الحياة الدّنيا.

قول الله عزّ وجلّ في مُتَابَعَةِ مَا أَنْهَاهُ إِلَىٰ بني إِسْرَائيل من بيانٍ عن لقطاتٍ مِنْ تاريخهم المسْتَقْبَلِيِّ، يَنْصَحُهُمْ، ويُحَذِّرُهُمْ، ويُبَيِّنُ لهم أَنَّ جَهَنَّمَ هي عاقبة الكافِرِينَ جَميعاً مِنْهُمْ ومِنْ غَيْرِهِم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ⑧﴾:

في هذه الآية الّتي خَتَمَ اللَّهُ بها هذا الدَّرْس الثاني بيانُ ثلاث قضايا وجَّهَهَا اللَّهُ لبَنِي إسرائيل، وهي تَشْمَلُ عَامَّةَ الْيَهُود ومن على شاكِلَتِهِم:

القضيَّةُ الأُولى: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾: أي: بَعْدَ مُعَاقَبَةِ اللَّهِ لَكُمْ بِأَيْدِي عبادٍ لَهُ (وهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَهْماً مِنْ عِدَّةِ أدِلَّةٍ وقرائِنَ) يُبْقِي اللَّهُ لَكُمُ الرَّجاءَ بأنْ يَرْحَمَكُمْ ويَتُوبَ عليْكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ ضِمْنَ عبادِه المرحُومين. ومَعْلُومٌ أنَّ هذه الرَّحْمَةَ الخاصَّةَ مَشْرُوطةٌ بالإيمانِ بما أوْجَبَ اللَّهُ الإيمانَ به، وبِعَمَلٍ صالحٍ يُعَبِّرُ عَنْ صِحَّةِ هذا الإيمان والصِّدْقِ فيه، أخْذاً مِنْ دَلَالَاتِ النُّصُوص القرآنيَّةِ الكثيرة، وهذا إنّما يكون بإسلام مَنْ يُرِيدُ لنفسه النجاة والسَّعَادَة الأبديَّة منهم.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾: أي: وإنْ عُدْتُم إلى مِثْل مَا كُنتُمْ عَلَيْهِ من إفسادٍ عَرِيضٍ في الأرض، وطَمَعٍ في أنْ يَكُونَ لَكُمْ عُلُوٌّ كبيرٌ ومُلْكٌ عَظِيمٌ، عُدْنَا إِلَىٰ اتِّخاذِ تَدْبيراتٍ تُرْجِعُكُمْ إِلَىٰ وَضْعِكُمْ الّذِي ضُرِبَ علَيْكُم من الذِّلَّةِ والمسْكَنَةِ، مَعَ إقامَتِكُمْ الدَّائِمَةِ بمَوْقِع غَضَبٍ من اللَّهِ عليكم.

وجاء في العبارة استعمال «إنْ» للإشْعَارِ بأنَّهم بَعْدَ هذِهِ الضَّرْبَةِ العنيفة الشَّدِيدة، يَيْأَسُونَ مِنْ أَنْ يَتحرَّكُوا تَحرُّكاتٍ يَرَوْنَ أنَّها قَدْ تُوصِلُهُمْ إلَىٰ الملْكِ الْعَظِيم الَّذِي يَطْمَعُونَ فِيه.

وَتُشْعِرُ هذِهِ العبارة أيضاً بأنَّ هذه الضَّرْبَةَ الْعَنِيفَةَ لَهُمْ تَكُونُ قَبلَ نُزُول عيْسَىٰ عليه السّلام، إذْ تَتَابَعُ الأحْدَاثُ بَعْدَ نُزُوله تتابعاً متواصلاً حتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ في خاتِمَتِها، ولَيْسَ في الأرض مَنْ يقول: «الله».

ومع تتابُعِ هذه الأحْدَاثِ، يكون تفكير اليهود في الْعَوْدَةِ إلى اتّخاذ تَدْبيراتٍ تُعِيدُ لَهُمْ مُلْكَ سُلَيْمَانَ من الأمُورِ المستَبْعَدَةِ جدًّا.

القضيَّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلّ: ﴿..وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ⑧﴾:

الْحَصِيرُ: الْحَابِسُ المانِعُ مِنَ الْحَرَكة، وهذا يَنْطَبِقُ على السِّجْن. أي: وَجَعَلْنَا جَهنَّمَ يَوْم الدّينِ لِلْكَافِرِينَ سِجْناً دَائماً، دلَّ على الدّوام النصوصُ الكثيرة القطعيَّة بأنَّ الكافِرِينَ يَكُونُونَ يَوْمَ الدِّين في جَهَنَّم خَالِدِين.

هذِهِ القضيَّةُ الَّتي جاءَتْ في هذِهِ الْعِبَارَة تَشْمَلُ كُلَّ الكافِرين، ويَدْخُل في هذا الْعُموم كُفَّارُ الْيَهُود، ففيها إنْذَارٌ لَهُمْ بعذابٍ خالِدٍ في جهَنَّمَ يَوْمَ الدّين.

جَهَنَّم: اسْمٌ عَلَمٌ من أسماء دار العذاب الّتي أعْتَدَهَا اللَّهُ عَزَّ وجَلّ، لِيُعَذِّبَ فيها الكافِرِينَ والْعُصَاةَ يَوْمَ الدّين. وهو مَمْنُوعٌ من الصرف لِلْعَلَمِيَّة والتأنِيث.

ويُقَالُ للقَعْرِ البعيد في اللُّغَةِ: جَهَنّم. ويقال: بئْرٌ جهنّم، أيْ: بَعِيدَة القعر.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الثاني من دُرُوس سورة (الإسْراء) والحمد لله على إمداده ومعونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الإسراء)

الآيتان (٩ و١٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾.

القراءات:

(٩) ● قرأ ابْن كثير: **[الْقُرَانَ]** وَصْلاً ووقفاً. وحمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[الْقُرْءَانَ]**.

وهما وجْهان عَربيان في النطق.

● وقرأ حَمْزَةُ، والكِسَائي: **[وَيَبْشُرُ]** من فعل: «بَشَرَهُ يَبْشُرُه» بمعنى أخْبَرَهُ بمَا يَسُرُّهُ، وهذه القراءة تُنَاسِبُ أصحاب الدَّرجات الدنيا من المؤمنين.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ من فعل: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُه» وهذه القراءة تُنَاسِبُ أصْحَابَ الدَّرَجَاتِ الرَّفيعَاتِ مِنَ المؤمنين، إذْ فيها معنىٰ تعْظِيمِ البِشَارَةِ الموجَّهَةِ لهم.

فبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

تمهيد:

جاء في هذا الدَّرْسُ بَيَانُ مِنَّةِ اللَّهِ على رَسُولِهِ محمّد خاتم الأنبياء والْمُرْسَلِين بالقرآنِ المجيد، وعَلَىٰ الأُمَّة المحمَّدِيَّةِ إذْ جَعَلَها اللَّهُ عزَّ وجلَّ هي الوارثَةَ لِكتَابِ رَبِّ العالمين للناس أجمعين، وهي الأُمَّة الخاتمة.

في مُقَابِلِ بيانِ مِنَّةِ اللَّهِ على موسى عليه السلام وبني إسرائيل بالتَّوْرَاة في الدرس الثاني.

وبالتقابُل يَظْهَرُ تفضيل محمّد ﷺ علىٰ مُوسَىٰ عليه السلام، وتفضيل أمَّةِ محمد ﷺ على بني إسرائيل.

التدبر التَّحْلِيلِيّ:

ذكر الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْسِ القرآنَ المجيد، وأبَانَ مِن صِفَاتِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانٍ ثَلاث صِفَاتٍ:

الصِّفَةُ الأُولَىٰ: أنَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هي أقْوَمُ، فَقَالَ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾:

هذه العبارَةُ تَتَحَدَّثُ عَمَّا في القرآنِ المجيدِ مِنْ دَلَالَةٍ على السُّلُوكِ الإرَادِيِّ الأَقْوَمِ، النَّفْسِيّ والْخُلُقِيِّ والْجَسَدِيّ، لِلْموضُوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء، في كُلّ جوانِبِ حياة الإنْسَانِ أفْراداً وَجَماعَات.

﴿يَهْدِى﴾: أي: يَدُلُّ وَيُرْشِدُ ويُبَيّن.

﴿أَقْوَمُ﴾: أي: أقْرَبُ إلى الاعتدالِ الكامل، يقال لُغة: «قَامَ الأَمْرُ، أوْ قَامَ الشَيْءُ» أي: اعْتَدَل، ولفْظُ «أقْوم» أَفْعَلُ تفضيل منه، ولمَّا كان اعتدال السُّلُوك الإنسانيّ أمْراً نِسْبيًّا كان المناسبُ في هدايته أن تكون هداية للتي هي أقوم، أي أقرب إلى الاعتدال. فالمعنى: إنَّ هذا القرْآن في كلِّ سُلُوك بَشَرِيٍّ أنزلَ اللَّهُ له حكماً فإنَّه يَهْدِي فيه للَّتي هي أكْثَرُ

اسْتِقَامَةً من المكْسُوبَاتِ البشريّة، وأكثَرُ قرباً إلى الاعتدال الكامل، من كلّ مَا يَدْعُو إلَيْهِ دَاعٍ مَا، ومِنْ كلِّ ما يُفَكِّرُ فيه مُفَكِّرٌ مَا، ومِنْ كلِّ ما يَضَعُهُ واضِعُ نظامٍ أوْ مُرْشِدٌ إلى عَمَلٍ، مَا لَمْ يَكُنْ مُطَابِقاً لِمَا جَاءَ فِي هَذْي الْقُرآن.

وهذا يَشْمَلُ كُلَّ أحْكَام السُّلُوكِ الّتي دَلّ عليها القرآنُ في كلّ أمْرٍ من أُمُورِ حياةِ الإنسان الْجَسَدِيَّة وَغَيْرِ الْجَسَدِيَّة، مِمَّا يَدْعُو إلى فِعْلِه أو يَدْعُو إلى تَرْكه.

أمثلة:

(١) إنَّ الأقْرَب إلى الاعتدال الكامل بين الرهبانيَّة والإباحيَّة في قضاء شهوات الفروج، هو الزواج المشروع ضمن حُدود مثنى وثُلَاث ورُباع، وضِمْنَ حُدُود الأحكام التفصيليّة المنظمة له.

(٢) إنّ الأقربَ إلى الاعتدال الكامل بين الرأسمالِيَّة والاشتراكية، هو نظام الإسلام الاقتصادي، الذي يُعادِلُ بَيْنَ حقِّ الفرد وحُرِّيَّته، وبَيْنَ حَقِّ الجماعَة.

(٣) إنّ الأقرب إلى الاعتدال الكامل بين نظام الحكم الاسْتَبدادي، والنظام الديمقراطي، هو نظام الحكم الإسلاميّ الرَّبَّانيّ فيما لله فيه أحكامٌ مُبْرَمَة، والشُّورِي فيما تَرَكَهُ اللَّهُ لاجتهادات الناس وتجرِبَاتهم.

وهكذا إلَىٰ سَائر نُظُمِ الإسلام وأحْكَامِه في الفروع.

ولَمْ يَتَعَرَّضْ الْبَيَانُ في هذا النَّصّ للخبريّاتِ الّتي هي حقٌّ لَا رَيبَ فيه، في كلِّ قَضِيَّةٍ تتعلّق بما كَانَ أو بما هو كائنٌ أو بما سَيَكُون أو بما لَا يمكنُ أنْ يكُون، من الواجبات والجائزات والمستحيلاتِ عقلاً، لأنّ نصوصاً قرآنيَّة كثيرة أبانت أنّ القرآن حَقٌّ لَا رَيْبَ فيه.

الصّفة الثانية: أنَّهُ يُبَشِّرُ المؤمِنينَ الَّذِين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات بأنَّ لَهُمْ أجْراً كبيراً يَنَالُونَهُ يَوْمَ الدّين، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿.. وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾:

التَّبْشِيرُ: الإخْبَارُ بما يَسُرُّ وَيُفْرِح. وقَدْ يُسْتَعْمَلُ في الشرِّ وفيما يَسُوءُ مَعَ قَرِينة. يقالُ لغة: «بَشَّرَهُ، وأبْشَرَه» أي: أخبره بما يَسُرُّه. ويُقَال: «بَشَّرَهُ بكذا، وأبْشَرَهُ بِهِ، وبَشَرَهُ بِهِ».

المؤمنين: أي: المتصفين بالإيمان بما أوجب الله الإيمان به إيماناً صحيحاً صَادِقاً، واسْتَمَرُّوا على هذا الإيمان دُونَ أنْ ينْقُضُوهُ بمُكَفِّرٍ مِنَ المكفّراتِ، حتَّى ماتُوا وهُمْ مُسْلِمُون.

الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات: أي: الّذِي يُعَبِّرُونَ عن صِحَّةِ إيمانهم وصِدْقِهِ بأعْمَالٍ صَالحاتٍ يُحِبُّ اللَّهُ مِنْ عباده أنْ يَعْمَلُوها، وهذا يَشْمَلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أمْرَ إيجاب، أو أمْرَ نَدْبٍ وتَرْغيب.

ويشمَلُ أيضاً الأعمال الّتي يتحقَّقُ بها تَرْكُ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ نهْيَ تَحْرِيم، أوْ نَهْيَ نَدْبٍ وَتَرْغيب. والتعبير بالأعمال الصالحات هو من «الإسلام».

وَجَاء في القرآن تَفْصِيلُ الأَجْرِ الكَبِيرِ بصُوَرٍ كُلّيَّةٍ مُجْمَلَةٍ فيما أعَدَّ اللَّهُ للمتقينَ في جَنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدّين، وفِيمَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ مِنْ جزاءٍ حَسَنٍ في مُدَّة الْبَرْزَخ بين الموْتِ والْبَعْث للأرْواح والنفوس، وجَمْعُ هذِهِ النُّصُوص وتَدَبُّرهَا تَدبُّراً تكامُليًّا مُفَصَّلاً يحْتَاج أكْثَر من مُجَلَّدٍ كبير.

وجاء تَنْكِيرُ الأجْر معَ وَصْفِهِ بأنَّه كبير في قوله تَعالَىٰ: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ أنَّهُ كبيرٌ جدًّا لَا يَحُدُّهُ وَصْفٌ كلامِيٌّ، والعبارة على تقدير: بأنَّ لهم أجراً كبيراً، وحَذْفُ الجارّ قبل «أنَّ» قياسٌ مطَّرد.

الصِّفَةُ الثالِثَة: أنَّهُ يُنْذِرُ الَّذِين لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرةِ بأنَّ اللَّهَ أعْتَدَ لَهُمْ

عَذَاباً أَلِيماً، فقَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾:

جاء التَّعْبِيرُ بضمير المتكلِّم العظيم: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ للإشْعَارِ بِعِظَمِ الْعَذَاب الأَلِيم الذي أعْتَدَهُ اللَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ للكافِرِين.

ولمَّا كَانَ الكُفْرُ بِبَعْضِ أَرْكَانِ الإيمان مُوجباً لِلْخُلُودِ في العذاب الأليم يَوْمَ الدّين بدار تَعْذِيب المجْرِمين، اقْتَصَر النَّصُّ هُنَا على ذِكْرِ الكُفْرِ بالحياة الآخرة، الّتي تكُونُ بِبَعْثِ الموتَىٰ للحساب وفَصْلِ القضاء وتَنْفِيذِ الجزَاءِ.

وبهذا تَمَّ تَدَبّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الإسراء) والحمْدُ للَّهِ على مَعُونَتِه وتَوْفيقه وفيض عطَائه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (الإسراء) الآية (١١)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ الموجَز الذي هو آيَةٌ واحِدَةٌ إلْماحٌ إلَىٰ أنّ الإنْسَانَ عَجُولٌ يَتّبِعُ أَهْوَاءَ نَفْسِه ولَا يَتّبِعُ مَنْطِقَ عَقْلِهِ، فَهُو يحبُّ الدُّنيا الْعَاجِلَة، ولو انْتَهَىٰ بِهِ حُبُّهُ لَها أوْ حُصُولُهُ علىٰ مَا يحبُّ مِنْها إلى شقائِه وعذابِهِ الأَبَدِيّ، وهُو يُعْرِضُ عَنِ الآخِرَة ويَذَرُهَا غَيْرَ عَابِئٍ بها، وَلَوْ كان عَمَلُهُ لَهَا يجْعَلُهُ مِنْ أَصْحَاب السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ، والنعيم العظيم الخالد.

والدَّليلُ علَىٰ هذا مِنْ وَاقِعِ حَالِهِ في سُلُوكِهِ الحياتيِّ تُجاه مَطَالِبِهِ الْقَرِيْبَةِ الزَّمنِيَّة مِنَ الحياة الدُّنيا، كالمال، والْوَلِدِ، والمنْصِب، والدار، والحبيبَة.

أَنَّهُ يَدْعُو رَبَّهُ أو من يَعْتَقِدُ بأَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لَهُ بإلْحَاحٍ، لتحقيقِ مَطْلُوبِهِ الّذِي تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ به، مُتَصَوِّراً أَنَّهُ سَيَنَالُ بِه السَّعَادَة، دُونَ أنْ يضَعَ في حُسْبَانِهِ وَتقدِيرَاتِه احْتِمَالَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ شرًّا له، وجَالباً لَهُ تَعَاسَةً وشقاءً وَعَذَاباً وخَيْبَةً.

وهذا مِنْ قِصَرِ نَظَرِ الإنْسَانِ، وعَدَمِ تَطَلُّعِهِ إلى احتِمالاتِ المستقبل الّذي لم يَصِلْ إلَيْهِ امْتِدادُ رُؤيَتِهِ الفِكْرِيَّة، ومِنْ شدَّةِ تَعَلُّقِ نَفْسِه بالْعَاجِلَة وَحُبِّهِ لَهَا، الأمْرِ الّذي يَمُدُّ غِشَاوَةً على بَصِيرَته، وقد يكونُ بعض هؤلاء من الذين يؤمنون باللَّهِ واليوم الآخِر، فكيفَ يكون حال الذين لا يؤمنون باللَّهِ واليوم الآخر.

وقد جاء هذا الدَّرْس بَعْدَ بيان عاقِبة الّذين لَا يُؤْمِنُون بالآخرة، وفيه إشعارٌ بأنّ بني إسْرَائيل الّذين تَحَدَّث الدَّرْسُ الثاني من دُروس السُّورَةِ عنهم، مُبَيِّناً أَنَّهُمْ سَيَفْسِدُون في الأرض مَرَّتَيْنِ كُبرَيَينِ، وسَيَعْلُونَ عُلُوًّا كبيراً، وسَيُعَاقِبُهُم اللَّهُ علَىٰ ذلِكَ كما سَبَقَ شَرْحه، يُعَانُونَ مِنْ دَاءٍ نَفْسِيٍّ خَطِيرٍ، جُرْثُومَتُهُ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَيَذَرُونَ أَوْ يَكْفُرُونَ بالآخِرَة، وَيَتَشَبَّثُونَ بالمال والشهوات ورَغباتِ الْعُلُوِّ في الأرض، على خِلَافِ مَطْلُوبِ اللَّهِ مِنْ عباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا.

وبهذا انْكَشَفَ لنا الرَّبطُ الفِكْرِيُّ بيْنَ هذا الدَّرسِ وبَيْنَ سَابقَيْهِ الثاني والثالث.

التدبّر التحليلي:

- ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ⑪﴾:

حذفت الواو من «يَدْعُو» في كتابة المصحف مراعاة لسقوطها في الوصل.

مقدّمة:

- يحبّ الإنسان شيئاً اغْتِرَاراً بما يتَهَيّأُ له منه، أو طلباً لِلَذَّةٍ عاجِلَةٍ تحْصُل لَهُ مِنْهُ، ولَكِنَّهُ قَدْ يكونُ بَعْدَ ذَلِكَ شَرًّا عظيماً له.

- ويَكْرَهُ الإنْسَان شيئاً نُفُوراً ممّا يَتَهَيّأ له فيه، أو تجافياً عَنْ ألَمٍ عاجلٍ يحْصُل لَهُ مِنه، ولكن قد يكونُ الشيْءُ الّذِي كَرِهَهُ خيراً عظيماً له.

وقد نَبَّهَ اللَّهُ عزَّ وجلّ على هذا بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

أي: واللَّهُ يَعْلَمُ عِلْمَ إحَاطَةٍ للماضِي والحاضِرِ والْمستَقْبَل، وللظاهِرِ والباطن، وأنتم لا تَعْلَمُونَ مِنْ هذا الْعِلْمِ إلَّا قَلِيلاً جدًّا.

والسَّبَبُ أنَّ نظرَة الإنسان إلى الأشياءِ نظرةٌ قَصِيرَةٌ سطحيَّة عَجْلَىٰ، فهو لا ينْظُر بعُمْقٍ وَشُمُولٍ، وَلَا تَمْتَدُّ رُؤْيَتُهُ الفِكْرِيَّة إلى احْتِمَالَاتِ المسْتَقْبَل، وتَجَارب الآخرين من الناس، إلى حقيقة ما يَسْتَثِير عوامل حُبِّه، أو يَسْتَثِير عوامل كراهيته.

أمثلة:

(١) يُعَاقِرُ بعضُ النَّاسِ الْخَمْرَة أو المخدّراتِ لتَحْصِيل لَذَّةٍ عَاجِلَةٍ أو اغْتِرَاراً بالْحُصُولِ عَلَيْها، لكِنَّهُ في حقيقة أَمْرِه يتجرَّعُ سُمًّا يَظْهَرُ أثَرُهُ الْمُعَذِّبُ لَهُ بَعْد حِين.

فالشيءُ الّذِي رآه بتَعَجُّلِهِ خيراً لَهُ، هو في حقيقَتِهِ شَرٌّ له.

(٢) ويُحِبُّ اللِّصُّ اسْتِلَابَ أمْوَالِ النَّاسِ بغير حقّ، إذْ يَرَىٰ هذا أعْجَلَ وَسِيلَةٍ لاكْتِسَابِ الثَّرْوَةِ الكبيرة، لكِنَّ لُصُوصيَّتَهُ تَجْلُبُ لَهُ شرًّا كبيراً وعَذَاباً أليماً.

فالشيْءُ الَّذِي رآه بتَعَجُّلِهِ خيراً لَهُ، هو في حقيقته شرٌّ له.

(٣) ويَعْشَقُ شابٌّ غِرٌّ إحْدَىٰ الفاسِقَاتِ الماجِنَاتِ اللّعُوب، ويَطْلُبُ بإلْحَاحٍ أنْ يَتَزَوَّجها، ظانًّا أنَّهُ إذَا تزَوَّجها نَالَ خيراً عظيماً، وَلَا يَسْمَعُ فيها نُصْحَ نَاصِحٍ مُجَرِّبٍ حكيم. لكنَّه مَا يَلْبَثُ بَعْدَ أنْ يَتَزَوَّجها حَتَّىٰ يَبْكِي بكاءَ الثَّكْلَىٰ مِنَ الشّرّ المسْتَطير الّذي جلَبَتْهُ إلَيْه هذه الماجنة، وعِلّتُهُ أنَّهُ طَلَبَ اللَّذَة العاجلَة، ولم يَنْظُرْ إلى المستقبل الّذي حذّرَهُ مِنْهُ أهل الْعَقْلِ والرُّشْدِ والتجارب.

فالشيءُ نَفْسُه الّذي رآه بتعجُّلِهِ خيراً له، هو في حقيقته شَرٌّ له.

(٤) وأكثر النّاس يحبُّونَ لذَّاتِهم من الحياة الدّنيا وأنواع متاعها، ويغترُّون بزيناتها، فيَتْرُكُونَ الآخرة وما فيها من نعيم عظيم خالد، وقد يكْفُرون بها، فيكونُ مَا أحَبُوه من الدنيا شرًّا مسْتطِيراً، وجالباً لهم في آخِرَتِهِمْ عذاباً كبيراً.

وفي كلّ هذا يُقَالُ للمتَعَجِّلِ المغرور: طلَبَ لنَفْسِه الشرّ في حقيقة الأمْر، بطَلَبِهِ لنفْسِه ما رآه بتَعَجُّلِهِ وقِصَرِ نَظَرِه خيراً له.

وأضرِبُ مثَلاً قصّة أمِير طَلَبَ عَسَلاً مُذَاباً بالماء، فَدَسَّ فيه بعْضُ أعدائه سُمًّا قَاتلاً، فَشَرِبَه مُتَلَذِّذاً به.

فقال أعرابيٌّ فصِيحٌ عَلِمَ بالأمْرِ شعراً:

مَنْ سَيَحْمِي نَفْسَ الأمِيرِ وَقَدْ   شَرِبَ السُّمَّ شُرْبَهُ الْعَسَلَا

أي: شَرِبَ السُّمَّ في حَقِيقَةِ الأَمْرِ شُرْبَهُ الْعَسَلَ في ظَنِّهِ واعْتقاده.

ونَسْأَلُ نَحْوِيًّا مُتمكّناً: كيف تُعْرِبُ «شُرْبَهُ الْعَسَلا»؟.

فيقول: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مُبَيِّنٌ للنوّع، وأصْلُ العبارة: شَرِبَ شُرْبَ مَزِيج ماءٍ وعَسَلٍ، لكنَّهُ كانَ في الواقع مُخْطِئاً في تقديرِه، إذْ شَرِبَ في حقيقة الأمْرِ سُمًّا، فجاء التعبير الموجز: شَرِبَ السُّمَّ شُرْبَهُ الْعَسَلَا.

بَعْدَ هٰذِهِ المقدَّمَةِ يَسْهُلُ علَىٰ المتَدَبّر فَهْمُ النّصّ القرآنيّ، في آيَةِ هذا الدرس.

فالمعنى: وَيَدْعُو الإنْسَانُ بالشّرِّ في حقيقةِ الأمْرِ الخافِيَةِ عليهِ، دُعَاءَهُ بالْخَيْرِ الّذي يَتَهَيَّأُ لَهُ بتَعَجُّلِهِ وَقِصَرِ نَظَرِهِ وَعَدَم شُمُولِ مَعْرِفَتِهِ. والسَّبَبُ كَوْنُهُ عَجُولاً يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ وشَهَواتِهِ، فتُلْقِي غِشَاوَةً عَلَى بَصِيرَتِه.

وقياساً على المثال الذي ذكَرْتُهُ آنِفاً يُمْكن إعرابُ «دُعَاءَهُ بالْخَيْر» مَفْعُولاً مُطْلقاً مُبيّناً للنوع، وبهذا يظْهَرُ معنى الآيَة ظُهوراً واضحاً خالياً من إشكالاتٍ تَرِدُ عليه.

وفعل: «يَدْعُو» بمعْنَىٰ يَدْعُو رَبَّه، أو يَطْلُبُ على أيّ وَجْه، يُقَال لغة: «دَعَا بالشّيء، دَعْواً، ودَعْوَةً، وَدُعَاءً، ودَعْوَىٰ» أي: طَلَب إحضارَه، أَوْ إيجاده، أو فِعْلَهُ، أَوْ نحو ذلك.

الإنسان: المرادُ به هنا جنْسُ الإنسان بوَجْهٍ عَامّ، ومَا جاء في هذه الآيَة ينْطَبِقُ على أكْثرِ الناس لَا على جميع أفرادهم، لأنَّ مَنْ آتاه اللّٰهُ عَقْلاً وَرُشْداً وبَصِيرَةً واعِيَةً، فإنَّهُ إذا رَغِبَ في شيءٍ دَعَا رَبَّهُ قائلاً: اللّٰهُمَّ إنْ كَانَ في هذا الشيءِ خَيْرٌ لي في دِيني وَدُنْيَاي وعَاجِلِ أمْرِي وَآجِلِهِ فَيَسِّرْهُ لي، واقْضِ لي به، وإنْ كان فيه شَرٌّ لي في ديني ودُنيايَ وعاجلِ أمْرِي وآجِلِهِ، فاصْرِفْهُ عَنّي واصْرِفْني عَنْهُ، واقْدُرْ لي الْخَيْرَ حَيْثُ كان، ثم رَضِّني به، أو نحو هذا الدُّعاء.

وإذا ضاقَتْ عليه الحياة وتكاثَرتْ علَيْهِ الآلام وَرَغِبَ في المَوْتُ

قال: اللَّهُمّ أحْيِنِي مَا كانت الحياةُ خَيْراً لي، وأَمِتْنِي إذَا كانَ الموتُ خيراً لي.

وقد سَبَقَ بيانُ صِلَةِ هَذا الدَّرْسِ بما قَبْلَهُ، بخُطُوطٍ فِكْرِيَّةٍ غير مُعَبَّرٍ عَنْهَا بالألْفَاظ.

وبهذا تمّ تدبّر الدَّرْس الرابع من دُروس سورة (الإسراء) والحمْدُ لِلَّهِ على مَدَدِه، وتوفيقِهِ، وفَتْحِهِ، وإلْهَامَاته.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (الإسراء)

الآية (١٢)

قال اللَّه عزّ وجّل:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

تمهيد:

هذا الدّرس يتضَمَّنُ تَذْكيراً بآيَتَيْنِ منْ آيات عنايَة اللَّهِ عزَّ وجلّ بعبَادِه في الأرْضِ، في حَيَاةِ الابْتِلَاء، أَوْ تَنْبيهاً عَلَيْهِا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ تَلَقَّىٰ تَنْبِيهاً عَلَيْهِما.

وهما آيتا اللّيل والنهار، إذْ جَعَلَ الخالِقُ الرَّبُّ الحكيم فيهما للنَّاسِ منفعَتين عظيمتين:

الأولى: أَنْ يَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ رَبِّهِم في الأَعْمال التي يَقُومُونَ بها لمصالح دُنياهم.

الثانية: أَنْ يَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحساب، بِعَدِّ الأيّام الّتي تمرُّ عليهم.

وقَدْ أنهى اللّه عزّ وجلّ هذا الدَّرْسَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

وهذا الدّرْس مُتّسِقٌ مع مَنْهَج القرآن في السُّور القائم على التَّنْبيه أو التَّذْكير بآيات رُبُوبيَّةِ اللَّهِ في كَوْنِهِ وَأَحَدِيّتِه فِيها، الَّتي يَلْزَمُ عَنْها عقلاً تَوْحيدُهُ فِي الإلٰهيّة، وعلى التَّنْبيهِ أو التَّذْكير بآيَاتِ نَعَمِ اللَّهِ عَلَىٰ عبادِهِ وعِنَايَتِهِ بِهِمْ في دار الحياة الدنيا، حَيْثُ وَضَعَهُمْ فيها مَوْضِعَ الابتلاء، لاسْتثارَةِ دَوافعِهم لأداء واجب شُكْرِ اللَّهِ عَلَىٰ نِعَمه الكثيرة.

وخَطُّ هذا التَّنْبِيهِ والتَّذْكِير مُتَّصِلٌ اتِّصَالاً تكامُلِيّاً في مُعْظَم السُّوَرِ، ومُتَتَابعٌ في مُعْظَم نُجُومِ التنزيل، اهتماماً بتوحيد الرَّبُوبيَّةِ وتوحِيد الإِلٰهيَّة للَّهِ عزَّ وجلَّ إذْ هُمَا القضيَّتَانِ الأُولَيان من قضايا أركانِ الإيمان.

ونظراً إلىٰ مَبْلَغ العِنَاية بآيَتي اللَّيلِ والنّهار، جاء في القرآن التنبيهُ عَلَيْهما والتذكير بهما من جوانب مختلفة، في (٣٨) نصّاً مُوَزَّعَةٍ في (٣٤) سورة، ودراسَةُ هٰذِهِ النُّصُوصِ بتأمُّل وإمعانِ نظر، يتطلّب إفراداً لها في بحث خاصّ عسَىٰ أَنْ يفتح اللَّهُ عليَّ بهِ في مُلْحَقٍ من ملاحق تدبُّرِ السّور.

التدبّر التحليلي:

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾: العطْفُ في هذه الجملة هو من قبيلِ عَطْفِ مَوْضُوعٍ عَلَىٰ مَوْضوع سَابِقٍ يَلْتَقِيان في كَوْنِهما مِنْ آثار خَلْقِ اللّه وتَدْبيراتِه وتَصاريفهِ الحكيمة في كوْنِه.

أي: وَقَصَدْنَا بِخَلْقِ اللّيلِ والنّهار، وأَسْبَابِ تَدَاوُلِهِمَا بإتْقَانٍ بالِغٍ عجيب، مُرْتَبِطٍ بحَرَكَةِ الأرْضِ حَوْل نَفْسِها باتّجاهِ الشَّمْسِ، ضِمْنَ بُعْدٍ

بَيْنَهُما مُحْكَمِ التدبير، وسَبْح في مَدَارٍ لَا تَحِيدُ عَنْهُ دقيق الْمسير، أَنْ يَكُونا آيَتَيْنِ دالَّتَيْن عَلَىٰ رُبُوبِيّتِنَا الَّتي لَا يُشَارِكُنَا فيها أحد، وعلَىٰ عِنَايَتِنَا بِعبادِنَا الّذِين جعلْنَا الأرض مَكَانَ سُكْنَاهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الأولَىٰ.

الآية: العلامَةُ الظاهرة الدَّالَّةُ عَلَىٰ أَمْرٍ ما.

- ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

مَحْوُ الشيء: إذْهابُ أثره. يقال لغة: «مَحَتِ الرّيحُ السَّحَابَ» أي: أذْهَبَتْهُ ولَمْ تُبْقِ له أثراً.

ومَعْلَومٌ أنَّ اللَّيْلَ هو مَحْوٌ لِلْمَرْئِيَّاتِ عَنْ أَنْ تُرَىٰ بالأبصار، بَسبب ذهَاب الضَّوْءِ الْكَاشِفِ لها. لكِنْ إذَا بَقِيَ ضَوْءٌ مَا، أَوْ نُورٌ ما، كُنُور القمر، أو أضواء النجوم، فإنَّ المِقْدَارَ الّذي أصَابَهُ المحْوُ من المرْئيّات هُوَ اللَّيلُ في الْحَقِيقَة، لأنّ اللَّيل مَحْوٌ، وحينَ يَنْعَدِمُ كُلُّ ضَوْءٍ أَوْ نُورٍ كاشِفٍ فهُو لَيْلٌ كامِل، ودُونَ ذلِك يُسَمَّى ليلاً باعْتِبار النِّسْبَةِ الغالِبَة التي أصابَهَا مَحْوُ الرُّؤيَة.

مُبْصِرَة: أي: مُسَبِّبَة لإبْصَارِ أصْحَابِ الْعُيُونِ السّلِيمَةِ الأشياءَ القابِلَة لأَنْ تُبْصِرَها، قال أبو إسحاق: مَعَنىٰ: «مُبْصِرَة» تُبَصِّرُهم، وقال الأخْفَشُ: تُبَصِّرُهم فتجعَلُهُمْ بُصَراء، وهذا المعنى هو الملائم هُنَا فيما أرَىٰ.

المعنى؛ فجَعَلْنَا آيَةَ اللَّيْلِ مَحْواً للمرْئِيَّاتِ عَنْ أن تُرَىٰ بالأبْصَارِ، بَسَببِ انْعِدَام الكاشفِ لها من ضياءٍ أو نُور، وجَعَلْنَا آية النَّهَار مُسَبِّبَة لإبْصَارِ أصْحاب الْعُيونِ السّلِيمَة لها.

ولكلّ من المحوِ والكَشْفِ مَنافِعُهُ الْجِلِيلَةُ بِالنّسْبَةِ إلى الناس.

- ﴿لِتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: هذه العبارة جاءت لبيان إمْكَانِ ابْتغاءِ الرِّزْقِ وغيره من فَضْلِ اللَّهِ في كُلٍّ مِنَ اللَّيل والنّهار، دُونَ حَرَج، فيما أرى.

لكِنْ جاء في نُصُوصٍ كثيرة الإرْشادُ إلى اختيار أَنْ يكُونَ اللَّيلُ سَكناً، وأَنْ يكونَ النهار مَعَاشاً للعمل في اكتسَاب الأرْزاق، فإنَّه الأفضل للصحة، والأكثر ملاءمة لطبيعة الحياة في الأرْضِ ولِنظَامها على ما خلق اللَّهِ.

- ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾:

أي: إنَّ توالي اللَّيْلِ والنَّهارِ مُتَدَاوِلَيْنِ مِنْ فوائِدِه، عِلْمُ عَدَدِ السِّنين الْقَمَرِيَّة والشَّمْسِيَّة، إذْ نِظَامُ تداوُلِ اللّيلِ النّهار لَهُ ارْتِباطَانِ:

أحَدُهما: ارتبَاطٌ بالْقَمَرِ بَدْءاً بظُهُورِهِ، هِلَالاً وتزايُدِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ بَدْراً، وتناقُصِه حتَىٰ لَيْلَةِ الْمحَاق، وبهذا يَتِمُّ شَهْرٌ قَمَرِي، وبِمُرُور اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً تَكُونُ قَدْ مَرَّتْ سَنَةٌ بَالْعَدِّ الْقَمَرِيّ لِلأَشْهَرِ، والسنة القمرية تعادل (٣٥٤) يوماً تقريباً.

ثانيهما: ارتباطٌ بالأرض إذْ تَدُور حوْلَ نفسها دَوْرَةً كامِلةً في:

ثانية	دقيقة	ساعة
٤,٠٩	٥٦	٢٣

باتّجاه الشمس، وهٰذِه المدّة تُسَمَّى اليوم النجمي.

وتَدُورُ في مَدارِ حوْلَ الشمْسِ في زَمَنٍ قدرُه:

ثانية	دقيقة	ساعة	يوم
٩,٥٤٠	٩	٦	٣٦٥

وهذه المدة تُسَمَّىٰ السَّنَة الشّمْسِيَّة.

وحينما يَعُدُّ النَّاسُ الأيام ويُلاحِظُونَ ارْتِبَاطَها بالأرض والقمر والشمس، يَعْلَمُون عَدَدَ السَّنين القمريّة، وعَدَد السِّنينَ الشمسيَّة، ومُلاحَظَةُ دَوْرَةِ الأَرْضِ حَوْل نَفْسِها وحَوْل الشّمْس، ودَوْرَةِ الْقَمَرِ حول نَفْسه وحَوْل الأرْضِ، تفْتحُ مجالاً واسِعاً أَمَامَ أصْحَاب الأذهان الرّيَاضِيَّةِ، لِتَعلُّم الْحِسَابِ ذي الشجَرَة الفِكْرِيَّةِ العظيمة، ذاتِ الفُروعِ الكثيرةِ الْمُمْتَدَّةِ في أبْعَادٍ غير ذاتِ نهاية.

الحسَاب: الْعَدُّ لكلّ ما هو قابلٌ لِأَنْ يُعَدَّ، وهذا عنوان لكلّ الْعُلوم

الرياضية الَّتي تَعْتَمِدُ الْعَدَدَ أَسَاساً لأعْمَالها، وتَدْخل فيها الهندسيات، وحسابات السُّرْعَات على اختلافها، وهذا العلم بَحْرٌ لا سَاحِلَ له يَدْخُلُ في كلّ العلوم التي تُسَمَّى علوماً طبيعيَّة أو فلكيَّة أَو نحْوَهَا.

- ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾:

التَّفْصِيلُ: التَّبْيِينُ، وكَشْفُ حُدُودِ الأجْزَاء المتلاصِقَةِ بإظْهارِ ما بَيْنَها من انْفِصَالٍ، ولَوْ لَم يكُنْ مَرْئيّاً، لتَمْيِيزِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ في الإدْراكِ الْفِكْرِي.

أمّا خَلْقُ اللَّهِ عزّ وجلّ في كوْنِه فَهو قائمٌ على التفصيل الدقيق، حتَّى لَا تَطْغَىٰ ذَرَّةٌ، علَىٰ ذَرَّة، ولا خَلِيَّةٌ علي خَلِيَّة، ولا نَجْمٌ على نجم، ولَا كَوْكَبٌ على كوكَب، ولَا نَجْمٌ علىٰ كَوْكب، إلّا بإرادة العزيز الجبَّار. وبهذا التفصيل الدقيق ذي الضوابط الرَّبّانيّة القاهِرَة، لَا تَسْتطِيعُ الشمسُ على الرُّغْم مِنْ جاذِبيتِها العظيمة أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَر، وتَجْذِبَهُ إليها وتَبْتَلِعَهُ، ولَا تَسْتَطِيعُ الأرضُ أن تَجْذِبَ بقوّة جاذبيتها القمر إليها، وتجعَلَهُ جزْءاً منها. ولَا تَسْتطِيعُ شُمُوسٌ عظيمةٌ أعْظَمُ مِنْ شمْسِنَا أَنْ تَجْذِبَ بجاذِبيَّاتها مجموعتنا الشمسيَّة.

كذلك كتابُ اللَّهِ القرآن المنزّلُ هُدىً للعالَمين، هو أيضاً مُفَصَّلُ الْبَيان تفصِيلاً مُحْكماً، في كلّ القضايا الّتي تتعلَّقُ بها هِدَايَةُ العباد، إلى النجاة والفوز والفلاح يوْمَ المعاد.

فجاءت هذه الجملةُ الكليَّة مناسبة لما جاء في هذا الدرس الخامس، ومناسبة لما جاء في الدرسَيْن الثالث والرابع قبله، مع أنّها ذاتُ عُمُومٍ شامل يشمل الكونيّات، والبيانات المنزَّلَات.

لفظ ﴿كُلَّ﴾ منصوبٌ بفعلٍ يُفَسِّرُه ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ لاشتغاله بالْعَمَلِ بضميره عنه، كما يَرَىٰ النحويون.

وبهذا تمَّ تدبُّر الدرس الخامس من دروس سورة (الإسراء) والحمد للّه على معونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٠)

التدبر التحليلي للدّرس السادس من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (١٣ ـ ١٧)

قال اللَّه عزّ وجل:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

القراءات:

(١٣) • قرأ أبو جَعْفر: [**وَيُخْرَجُ**] بضم الياء وفتح الراء بالبناء لما لم يُسَّم فاعله. وقرأ يَعْقُوب: [**وَيَخْرُجُ**] بفتح الياء وضم الراء على أنّ الفاعل ضمير يعود على طائر. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَنُخْرِجُ﴾ بالنّون المضمومة مع كسر الراء على أنَّ الفاعل ضمير المتكلّم العظيم.

والمؤدّىٰ من هذه القراءات واحد، وهي من التفنُّنِ في التعبير.

(١٣) • قرأ ابْنُ عامر، وأبو جَعْفر: [**يُلَقَّاهُ**] أي: يُوَجَّهُ لَهُ لِيستَقْبِلَهُ ويَلْقَّاهُ. وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَةُ: ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أيْ: يَسْتَقْبِلُهُ وَيَتَنَاوَلُه. وبين

القِراءتين تكامل في الأداء البيانيّ، أي: يُوجَّهُ له من قِبَلِ الملائِكَة فيَتَناوَلُهُ ويَلْقَاه.

(١٦) • قرأ يَعْقُوب: [ءَامَرْنَا] بمَعْنَىٰ كَثَّرْنا، يُقالُ لغة: «ءَامَرَ اللَّهُ القومَ إيمَاراً»، أي كثّرَ نَسْلَهُمْ ومَاشيتهم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿أَمَرْنَا﴾ أي: وجّهْنَا لهم أمْراً تكليفيّاً إلْزامياً. ويأتي أيضاً بمعنى: كثرنا مثل: «ءَامَرْنَا» فبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

تمهيد:

هذا الدّرْس يَشْتَمِل على فِقراتٍ من قانون الجزاء الرَّبّاني المعجّل والمؤجّل، لِلمَوْضوعين في الحياة الدنيا موضع الإبتلاء.

وصِلَتُهُ بما جاءَ في دروس السورة قبله واضحة، فالدَّرْسُ الثاني جاء فيه إنذار بني إسرائيل بعقاب اللَّهِ المعجّل والمؤجّل، والدّرس الثالث جاء فيه بيان ما اشتمل عليه القرآن المجيد من هدايةٍ، ومِنْ بَيانِ ثواب الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات يوم الدّين، وعقابِ الذين لا يُؤْمِنون بالآخِرةِ بالْعَذَاب الأليم يوم الدين. والدرسُ الرابع جاء فيه بيان السّبَب الصارِفِ للإنسان عن العمل للأخِرَةِ، والدرسُ الخامس جاء فيه تذكيرٌ ببَعْض آيات اللَّهِ الدَّالَّة على وحْدَانيَّتِه في ربوبيته ووحدانيته في إلَهيَّتِه، والدّالَّةِ على عِنَايَتِه بعبادِهِ الَّتِي تُوجِبُ عليهم أن يَعْبُدوه وحْدَه، وأَنْ يَشْكُرُوه على ما أوْلاَهُمْ من نِعَم، لِيَقِيَهُمْ عذابَهُ، ويَمْنَحَهُمْ ثوابَهُ في جَنَّاتِ النعيم.

التدبّر التحليلي:

يشتمل هذا الدرس على بيانٍ مُوجزٍ لعشْرِ قضايا تتعلّقُ بالجزاء الرَّباني وهي ما يلي:

الْقَضِيّة الأُولَىٰ: دَلّ عليها قولُ اللّه عزّ وجل: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾:

أي: وَكُلَّ إنْسَانٍ مَوْضُوعٍ فِي الْحَياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاء، لأنّ الموضوع يتعلّقُ بإلْزَامِهِ عَمَلَه لمحاسَبَتِه عليه ومجازاته.

﴿أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾: أي أثْبَتْنا مَسْؤُوليَّته عَن عَمَلِهِ في عُنُقِهِ إثباتاً دائماً، يقال لغة: «أَلْزَمَ الشَّيْءَ» أي: أَثْبَتَهُ وأدامه. ويقال: «أَلْزَمَ فُلاَنا الشَّيْءَ»: أي: أثبَتَ الشيْءَ به إثباتاً له صفةُ الدوام.

أُطْلِقَ لفظ «طَائرٍ» على مَا يَكْسِبُهُ الإنسان في رحْلة امتحانِه فِي الْحَيَاة الدُّنْيا، من عَمَلٍ جَسَدِيٍّ أَوْ نَفْسِيّ، على سبيلِ الإستعارة.

لأنَّ قُدْرَة الإنسانِ على الكَسْبِ الإراديّ الظَّاهِرِ والباطِنِ تَكُونُ حبِيسَةً في ذَاته، كالطائر في القَفَصِ، وحينَ يَعْمَلُ الإنْسَانُ عَمَلَهُ الإرادِيّ الَّذي يُحَاسَبُ عليه عند رَبّه، فإنَّهُ يَطِيرُ مِنْ ذاتِهِ الّتي هي قَفَصُهُ، فإذا طَارَ لَمْ يَسْتَطِعْ إعادتَهُ إلى قَفَصِه، لَكِنْ تَبْقَىٰ مَسْؤُولِيَّتُهُ عَلَيْهِ، مُلاَزِمَةً له، مَا لَمْ يَغْفِرْها اللَّهُ أو يَعْفُ عَنْها، بطَائِرٍ آخَرَ هُوَ كَسْبٌ حَسَنٌ قد يمْحُو اللَّهُ بِهِ أثَرَ الكَسْبِ السَّيّئ، على قاعدة: «إنَّ الحسَنَاتِ يَذْهِبْنَ السَّيِّئَات».

وذُكِرَ لفْظُ «عُنُق» في عبارة ﴿فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ كِنَايَةً عَنْ كُلّ ذَاتِ نَفْسِه، وذلك لأنَّ الأسِير يُوضَعُ الْغُلُّ فِي عُنُقِهِ والمرادُ حَبْسُ ذاتِهِ عن الْفِرار، وكذلِكَ الْمُجْرِمُ إِذَا أُخِذَ وأُرِيدَ قَوْدُهُ إلى سِجْنِهِ أوْ عِقَابِه.

وإعْرَابُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ﴾ نظير: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ على ما ذكَرْتُ في آخر الدَّرْس السابق.

الْقَضِيَّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزّ وجل: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾:

دلَّت هذه القضيَّةُ علىٰ إحْدَىٰ وَسَائِلِ الإثبات الَّتي تُقَدَّمُ لَهُ يَوْم القيامة، ليجْرِيَ حِسَابُهُ على كَسْبِه الإراديّ في رِحْلَة امْتِحانه، ولِيَجْري فَصْلُ الْقَضَاء بشأنه، محسناً كان أم مُسِيئاً، أخْذاً مِنْ واقع كتابِهِ الْمَسَجَّل عليه، ثُمَّ تكُونُ مُجازاتُهُ تنفيذاً لما قضىٰ ربُّهُ بِشَأْنِهِ.

ولَسْنَا نَدْرِي صِفَة هٰذا الكتاب، لَكِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَىٰ مَا هُوَ مُطابِقٌ مُطَابَقَةً تَامَّةً لواقع حَيَاتِهِ في الدنيا، صُورَةً وصَوْتاً ونيَّاتٍ، وأعمالاً نَفْسِيَّةً باطِنَة، كالكفر، والحِقْدِ، والحسَد، وإرادَةِ الشّرّ، في جانب السّيِّئات، وكذٰلِكَ ما يُقَابلها في جَانِب الحسنات.

يُعْطَىٰ الإنسان كتابَهُ، فإنْ كان مِنْ أَهْلِ الْيَمين فإنَّهُ يُعْطَاهُ من أمامه بيَمِينِه، وإنْ كان من أهل الشّمال فإنَّهُ يُعْطَاه بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاء ظَهْرِه، فَهُو يَلْقَاهُ حِينَ يُلَقَّاهُ مِنْ مُوَظَّفِي التوزِيعِ، فَيَجِدُهُ مَنْشُوراً، أي: مَبْسُوطاً أَمَامَ عَيْنَيْهِ، كصَفْحَةٍ واحِدَةٍ يُشَاهِدُ فيها سِجِلَّ حَيَاتِه كُلِّها، إذْ يَلْقَاهُ مَنْشُوراً.

القضيَّةُ الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

الْحَسِيب: المحاسِبُ الَّذِي يَعُدُّ على مَنْ يُحَاسِبُهُ مَا هو له، ومَا هُو عَلَيْهِ، بِحَسَبِ المقادِير الدقيقَةِ الَّتِي لا زيادَةَ فيها وَلَا نَقْص.

أي: وَبَعْدَ أَنْ يُعْطَىٰ كِتَابَهُ المشْتَمِلَ عَلَىٰ صُورَةٍ كامِلَةٍ لحياته في رِحْلَةِ امْتِحَانِه، يُقَالُ لَهُ مِنْ قِبَلِ مَنْ سَلَّمَهُ الكِتابَ من الملائكة، إقْرأْ أَنْتَ كِتَابَكَ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ على ما كسَبْتَ بإرادتِكَ فِي الحياة الدُّنيا، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْمفطُورَةِ عَلَىٰ الصِّدْقِ والأَمَانَةِ الْيَوْمَ حَسِيباً علَىٰ ذَاتِكَ، بِشَأْنِ مَا قَدَّمْتَ في رِحْلَةِ امْتِحَانك، ولو جادَلَ لسانُك، ولَوْ كَذَبْتَ وَأَلْقَيْتَ مَعَاذِيرَكَ طَامِعاً بأنْ تُخَفِّفَ عَنْ نَفْسِكَ الْعذابَ. بالجدَالِ بالباطل، إنَّك في قرارة نَفْسِكَ ستَعْتَرِفُ بِكُلِّ ما هُوَ مُسَجَّلٌ عَلَيْكَ فِي كِتَابِكَ، أمَّا ما هو لَكَ من

صالحاتٍ، فَسَتَجدُه مُضَاعَفاً أضعافاً كثيرة، وأمّا مَا هوُ علَيْكَ مِنْ سَيّئات فلا تجدُ في شيءٍ مِنْهُ ظلماً لك.

القضيّة الرابعة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾:

أي: مَنِ اختارَ لنَفْسِهِ بإرادَتِهِ الحرَّة أَنْ يَهْتَدِي، ومشَىٰ في حيَاته على صراط اللَّه، مُتَّبِعاً مَا أَنْزَلَ لِعبَادِهِ من آياتٍ بَيّنَاتٍ، فإنَّه لَا يَهْتَدِي إلَّا لمَصْلَحَةِ نَفْسِه، إذْ هُوَ المستفيدُ الوحِيدُ من سُلُوكِه سبيل الْهُدى، فالأَجْرُ الّذِي أعدَّهُ اللَّهُ للمهتدين يوم القيامة، يُوزَّعُ على أفرادِهم بِحَسَبِ وَاقِعِ حَالِ كلٍّ مِنْهم، ولَا يُعْطَىٰ من نَصِيب المهتَدِي العامل قَرِيبٌ وَلَا حَبِيبٌ مَهْما اشْتَدَّتْ قَرابَتُهُ، ومَهْمَا عَظُمَ حُبُّهُ له.

وقد جاءت العبارة بأسلوب الحصْرِ بأداة «إنما».

وجاءَ فِعْل: [يَهتَدِي] بصِيغَةِ الفعل المضارع للدَّلاَلَة على مَسِيرَتِه المتجدّدَةِ المتكرِّرَةِ على صِرَاط الْهُدَىٰ، بَعْدَ خُطْوَةِ الْهِدَايَةِ الأُولى الّتِي تَحقَّقَتْ بالإيمان والإسلام الصَّحِيحَيْن الصّادِقَيْن.

القضيّة الخامسة: دلَّ عَلَيْها قول اللَّهِ عزَّ وجل: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾:

أي: وَمَن اخْتَار لنَفْسِه بإرادَتِه الحرَّة أَنْ يَضِلَّ بَعِيداً عن صِراطِ اللَّه، وسَالكاً سُبُلَ الضَّلَالِ، مُتّبِعاً أهْواءَهُ وَشَهواتِهِ وَوَسَاوِسَ شياطِين الإنْسِ والجنّ، فإنَّهُ لَا يَضِلُّ إلَّا جَانياً على نَفْسِه، ومُسَلِّطاً علَيْها نِقْمَةَ اللَّهِ وَعذَابَه، وهو وَحْدَه المجْنِيُّ عَلىٰ نَفْسِهِ مِنْ نَفْسِه، وَلَا أحدَ يَنالُهُ ضَرَرُ ضَلَالِه. ومَنْ اتَّبَعهُ باختياره الحرّ فإنَّ المتّبعَ يَجْني عَلَىٰ نَفْسِه بما كَسَب من شرٍّ، وحِينَ يكُونُ للمتْبُوع تأثيرٌ مَا على التابع في سُلُوك سُبُلِ الضّلال، فإنَّهُ يَحمِلُ إثْمَ ضَلَالِهِ ويَحمِلُ إثْمَ إضْلَالِهِ لِغَيْرِهِ، دُونَ أَنْ يُخَفِّفَ هذا من إثْم

التّابع، لأنَّهُ قَدْ كانَ في اتّباعه حُرّاً مُخْتاراً، ولَمْ يَكُنْ مُكْرَهاً ولَا مَجْبُوراً.

القضيَّة السادسة: دلَّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾:

سبق مُطابق هذه العبارة في الآية (١٨) من سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف ٤٣ نزول) بَياناً للمسؤوليَّة الشخصيَّةِ في قانون الجزاء الرَّبّاني.

المعنى: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ وازِرَةٌ من شأنها أَنْ تَحمِلَ أَوْزَارَهَا الّتِي تَكْتَسِبها، وِزْرَ نَفْسٍ أُخرىٰ قَدْ حَمَلَتْ بِمَا اكتسبَتْ أَوْزَاراً وذُنوباً.

الوِزْر: لُغةً الْحِمْلُ الثَّقِيلُ، ومن الأحمال الثقيلة أسْلِحَةُ الحرب، ولمَّا كان ارْتِكَابُ الذَّنْبِ وفِعْلُ الإثْم مِمَّا يتَحمَّلُ به الإنْسانُ مَا يُشْبِهُ الحِمْلَ الثقيل، أُطْلِقَ في اللُّغَةِ لفظ «الوِزْر» علىٰ الذَّنْبِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ المكَلَّفُ المختَارُ، المسؤُولُ عن أعْمَالِهِ الإراديَّة.

وجمْعُ الوِزْرِ «الأوزار» يُقَالُ لغة: «وزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، وَوَزْراً، وَزِرَةً» أي: حَمَلَ حِمْلاً ثقيلاً، أو ارْتكَبَ ذَنْباً يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ عِقَابٌ، فهو «وازِرٌ» وهي «وازِرَة».

القضيَّة السَّابعة: دَلَّ عليها قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾:

دلَّتْ هذه العبارة على أنّ الله عزَّ وجَلَّ قَدْ قَضَتْ حِكْمَتُه أَنْ لا يُعَذِّبَ الموضوعِين في الحياة الدُّنِيا موضع الامتحان، على عِصْيانهم لأوامِرِه ونواهيه، في الإيمان والْعَمل، حتَّىٰ يُرْسِلَ إليهم رسولاً يُبَيّن لهم ما يجب عليهم تُجاه رَبِّهم الَّذِي يُمِدُّهُمْ دَواماً بعَطَاءَاتِ رُبُوبيَّته.

ودَلَّتْ نُصُوصٌ أُخْرى على أَنَّ اللَّه عزّ وجلّ قَدْ بَعَثَ في كلِّ أُمَّةٍ رسُولاً، فَلَا عُذْرَ للأمم.

أمّا الأفراد الذينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ لَا يُعَذِّبُهم حتَّىٰ يُتِمَّ لهم شُرُوط امْتِحَانِهِ لَهُم، وله سبحانه وتعالىٰ فيهم الاختيار العادل ولا يظْلِمُ اللَّهُ أحداً مثقال ذرَّة.

القضية الثامنة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى **[ءَامَرْنَا]** بمَعْنَىٰ: كَثَّرْنا. وقراءة ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنى: وَجَّهْنَا لَها أمْراً تكْلِيفياً بفعْل الصَّالحات وتَرْكِ المنكرات، وتأتي بمعْنى كَثَّرْنا.

المترفُون: الذين هم كثيرو الاستمتاع بما أنعم اللَّهُ عليهم من متاع الحياة الدّنيا، والبَطِرُون المستكْبِرون.

والمعنى: وَإذا أَرَدْنا أَنْ نُهلِكَ أَهْلَ قَرْيَةٍ إهْلَاكاً جماعِيّاً في الحياة الدُّنيا، لأنَّ الحِكْمَةَ تقتضي إهلاكهم بسَبَبِ كُفرِهم وطُغْيَانهم وَفَسَادِهِمْ وإفْسَادِهم، فإنَّ لنَا سُنَّةً لِتَحْقيق هٰذَا الإهلاك.

وهذه السُّنَّةُ تتلَخَّصُ بأمْرَين:

الأمْر الأوّل: أَنْ نُوَجِّهَ لَهُمُ الأوامر والنواهِيَ الصارمة، فنأْمُرَهم بِفعل الصّالحات، ونَنْهَاهُمْ عَنْ فِعْلِ المنكرات، ونُحَذِّرَهُمْ من الفسْقِ بالخروج عَنْ طَاعَتِنَا.

إلَّا أَنَّهُمْ لِسُوئِهِم يَفْسُقُونَ ولَا يُطيعُون، وتَكُونُ الكَثْرَةُ غَيْرُ المتْرَفَةِ فيهم تَابِعَةً لَهُمْ بالتَّقْليد الأعمىٰ، وبالْخُضُوعِ لأكابرهم دُونَ وَعْيٍ منهم.

الأَمْرُ الثاني: أَنْ نُوَسِّعَ عَلَيْهِم في الأَرْزاقِ والخيراتِ ووافِراتٍ من متاع الحياة الدنيا وزيناتها، حتَّىٰ يَكْثُرَ مُتْرَفُوهُمْ وَيكُونُوا هُمُ النِّسْبَةَ الغالِبَة، والذين لم يَكُونوا مُتْرَفِين يَتَحَرَّرُون من تَبَعيَّتِهم للْمُتْرَفين السَّابقين، فَلا تكُونُ على بَصَائِرِهِمْ غِشَاوَةٌ أَلْقَتْهَا سُلْطَةٌ اجْتِمَاعيَّةٌ ذاتُ تَاثير، بَلْ هؤلَاء

يَسْلُكُونَ سبيل سَابِقِيهم اتِّباعاً للأهواء والشهوات، ورَغبات الفجور والْعُلُوّ في الأرض.

ويَصِير المجتَمَعُ بَوجْهٍ عامٍّ مجتمعاً ميْؤوساً من إصلاحِه عن طَرِيق إرَادات أفراده الْحُرَّة، ويَتعاظَمُ فيه الْفِسْقُ والْفُجُورُ، والْبَغْيُ والطغيان، والظُّلْمُ والْعُدْوان، وعندئذٍ يكون من الحكمة أنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِهِم الإهلاك الْعَامّ الشامل، إذْ تَنْعَدِمُ فِيهم ظُرُوف الامْتِحَانِ السَّوِيّ.

القضيَّةُ التاسِعَة: ذَلَّ عَلَيْها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾:

جاءَ في هٰذِهِ القضيَّةِ التَّذْكِيرُ بأنَّ اللَّهَ عَزّ وَجلَّ قَدْ عَاقَبَ بالإهلاك العامّ الشَّامِلِ أقواماً سَابِقِينَ كثيرين، تَطْبيقاً لمادّةٍ من موادّ قَانُونِ جزائه العام المعَجَّل في الحياة الدُّنيا.

«كَمْ» اسم يقع على عَدَدٍ مَا بمعنى كثير، وهذه تُسَمَّى خَبَرِيَّة، ولإبهامها ودَلَالَتِهَا على مَجْهُولِ الجنْس فهِيَ مُفْتَقِرَةٌ إلى التميز، ومُمَيِّزُها هنا عبارة ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾.

الْقَرْنُ: هو من الناس أهل زمَانٍ واحد، وسُمُّوا قَرْنا لأَنَّهُمُ اقْتَرَنُوا معاً في ذلِكَ الزّمَان.

فالمعنى: وعدداً كثيراً من الْقرون أهْلَكْنا مِنْ بَعْدِ نوح عليه السلام، أي: ومن بَعْدِ إهْلاكِ قَومه.

القضية العاشرة: دلَّ عليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: وَلَا تَحْمِلْ أيُّها الدّاعِي إلَىٰ اللَّهِ رَسُولاً فَمَنْ دُونَهُ هَمَّ كَثْرَةِ الكافِرِينَ وَدُعَاةِ الضَّلالِ والفسادِ والإفساد في الأرْض، ولَا تَسْتَعْجِلْ فِي

طلب إهلاكهم، فاللَّهُ رَبُّكَ الّذِي خَلقَهُمْ ووضعهم في الحياة الدنيا مَوْضِع الامْتحَان عليمٌ بأمْرِهم خَبيرٌ بتدابيرهم ومَكْرِهم وكيدهم، بَصِيرٌ بكل مَا يَعْمَلُون، فتوكَّلْ عليه، وسَلِّمْ أمْرَكَ إليه فإنَّهُ يَكْفِي أوْلِياءَهُ شُرورَ أعدائه.

«الباء» في [بِرَبّك] زِيدَ للتوكيد، والأصل، كفى رَبُّكَ.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدرس السادس من سورة (الإسراء) والحمد للَّه على توفيقه ومعونته وفتحه.

* * *

(١١)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (١٨ ـ ٢١)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

القراءات:

(١٩) • قرأ قالُون، وأبو عمْرو، والكسائي، وأبُو جعفر: [وَهْوَ] بإسكان الهاء. وقرأها باقي القراء العشرة بالضم. وهما وجهان عربيان في النطق.

تمهيد:

هذا الدرس بتضمّن بيَان سُنَّةِ اللَّهِ فيما يُؤْتي عِبادَهُ من متاعِ الحياة

الدنيا في رِحْلَةِ امْتِحَانهم، على وفْقِ حكْمَتِهِ وعِلْمِهِ بكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أفرادهم.

وهذا الدرس موصول مع دروس السورة السابقة بالخطّ الذي يَنْطَلِقُ من كون الإنْسان المؤهّل للامتحان، موضوعاً في ظروف الحياة الدنيا المختلفة لامتحان إرادَتِه الحرَّة، بَيْن طَريقي الخيروالشرّ.

وهو يجب على أسْئِلَةٍ مَطْوِيَّةٍ غير مَذْكورة في النّصّ، إلَّا أنَّه يَسْتَطيعُ المتدبِّر اسْتِنْباطَها مِنَ الجواب عليها، وهذا كثير في القرآن، وفي هذه السّورة شواهد متعدّدةٌ علَيْهِ.

التدبُّر التحليلي:

يتساءَلُ الإنسانُ عَنْ سُنَّةِ اللَّهِ الْعَامَّةِ فيما يَمْنَحُ عباده من متاع الحياة الدنيا وزينَتِها وَمَا يُحِبُّونَ مِنْها؟

- هَلْ يَخْصُّ الكافِرين بِمَزِيدٍ من العطاء مِمَّا يُحِبُّون من زينَةِ الحياة الدنيا؟

- هل يَخُصُّ المؤمنينَ بمَزيدٍ من العطاء؟

- هَلْ يَجْعَلُ عَطاءَه بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ وعِلْمِهِ بكُلّ فَرْدٍ من أَفْرادِ عباده متفاضِلاً، لِيَبْلُوَ كُلَّ فَرْدٍ بمَا آتاهُ بحَسَبِ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ فيه؟

فجاء الجوابُ الرَّبَّانيُّ الَّذي دَلَّ عَلَيْهِ هٰذا الدَّرْسُ، أنّ عَطاءَ اللَّهِ لِعَبادِهِ مؤمنِيِهِمْ وكافِرِيهم قائمٌ على التفاضُلِ بَيْن الأفرادِ، بحَسَب حِكْمَةِ اللَّهِ وعِلْمِهِ بِكلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهم، ولكنّ هذا الجوابَ جاء مُفَصّلاً مَقْرُوناً ببَياناتٍ دالَّاتٍ على حِكْمَةِ اللَّه، وتَنْبيهٍ علَى الجزاء الّذِي أعَدَّهُ يَوْمَ الدِّينِ للكافرين، بحَسَبِ تَنَازُلِ دَرَكاتهم، ولِلْمُؤْمِنينَ بحَسَبِ تفاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ في الإيمَانِ والْعَمَل.

قول اللَّه عزّ وجلّ:

• ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾:

﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ صِفَةٌ لموصوفٍ يَدُلُّ عليه لفظ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ في الآية التالية، أي: من أراد الحياةَ العاجلة في الدنيا. **العاجِلَة**: مؤَنَّثُ الْعَاجِل، وهو ضدُّ الآجل، وأطْلِقَتْ في القرآن على الحياة الدُّنيا، واختير هذا العنوان لِيَنْسَجِمَ مع ما جاء في الآية (١١) من وصف الإنسان بأنّه عَجُولٌ.

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: قَدَّمْنَا لَهُ فِيهَا عُجَالَةً مِنَ مَتاع الحياة الدُّنيا.

[مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ]: أي: وَمَا نُقَدِّمُ مِنْ عُجَالَةٍ خاضِعٌ لِمَشيئَتِنا الَّتِي لا تُفَارِقُ حِكْمَتَنَا، ونُقَدِّمُه، لِمَنْ نُرِيدُ من عبادِنا، وهذا يَدُلُّ علَىٰ التفاضُلِ في الْعَطاءِ بَيْن الْعِباد.

ومُرِيدُ الْعَاجلَةِ هُوَ الَّذي لا يُؤْمِنُ بالآخِرَة، فَلَا تَعَلُّقَ لِنَفْسِهِ وقَلْبِهِ إلّا بمَتَاعِ الحياة الدُّنيا وَزِيناتها، فَلَا حَظَّ لهُ يوم الدّين بشيءٍ من جنَّاتِ النعيم، بَلْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ عَذَابَ جِهنَّمَ يوم القيامة حَرِيقاً بنارِها.

﴿يَصْلَىٰهَا﴾: أي: يَحْتَرِقُ بنارِها، إذْ يَذُوقُ فيها عذابَ الْحَرِيقُ، يقال لُغَةً: «صَلِيَ النَّار، وصَلِيَ بِهَا» أي: احْتَرَقَ فيها، ولا مَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً، وهذا خاصٌّ بالْأَشْقَيْنَ الكافِرِينَ المجرمين.

﴿مَذْمُومًا﴾: أيْ: مُوَجّهاً لَهُ الذَّمُّ واللَّوْمُ علَىٰ ماجنَىٰ من إثم عظيم في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدّنيا.

﴿مَّدْحُورًا﴾: أي: مَطْرُوداً مُبْعَداً مع إهانَةٍ وإذْلَال. يقال لغة: «دَحَرَهُ، يَدْحَرُهُ، دَحْراً، وَدُحُوراً» أي: طرَدَهُ، ودَفَعَهُ بعُنْفٍ شَدِيدٍ، لِيُبْعَدَهُ، مع إهَانَةٍ وإذْلَال.

فالمعنى: مَنْ كَانَ مِنَ الْمَوْضوعِينِ موضع الامْتحان في الحياة

الدُّنيا، يُرِيدُ باسْتمرارٍ حتَّى نِهايَةِ رِحْلَةِ امتحانه، لَذَّاتِهِ، وأنواعَ مَتاعِه من الحياة الدنيا العاجلة، كافراً الآخِرَةِ ولَا يَسْعَىٰ للنّعِيم فيها سعياً مَا، قَدَّمْنا لَهُ عُجَالَةً منْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، بمَشيئَتِنا المقتَرنَةِ بحِكْمَتِنَا وَعِلْمِنا بِعَبْدِنا الَّذِي نَعَجِّلُ له، لكِنْ لَاحَظَّ لَهُ يَوْمَ الدِّينِ بشيءٍ من نعيم الجنَّة، بَلْ جَعلْنَا لَهُ جهَنَّمَ دَارَ عذابِ المجرمين يوم القيامة يَحْتَرِقُ بنارِها حَالَةَ كَوْنِهِ مَذْمُوماً مَلُوماً مَطْرُوداً بعُنْفٍ وشِدَّةٍ عَنْ تَنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِنَا.

قول اللَّه عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾:

اختلَفَ أسْلُوبُ التَّعْبِير هُنَا عن أسلوب التعبير في الآية السابقة، فجاء هُنَا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بَدَل ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وأفْهَمُ من هَذا أنّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ جَعلَ لِمَنْ كَانَ يُرِيدُ العاجلَةَ مُعْظَمَ حياتِهِ بِتَجدُّدٍ، إمْكان أَنْ يَتُوبَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِزَمَنٍ كافٍ لأَنْ يُؤْمِنَ وَيَعْمَلَ عملاً صَالحاً يَسْعَىٰ بِه للظَّفَرِ بِجنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدّين، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ في حياته يُرِيدُ الآخِرَةَ بتَجَدُّدٍ في زمَنٍ طَوِيلٍ مَنْ عُمْرِه.

وَلكِنَّ إِرَادَةَ ثوابِ الآخِرَةِ في جنَّاتِ النَّعِيم، لَا تَنْفَعُ الْمُرِيدَ مَالَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا إيمانٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ بما أوجب اللَّهُ الإيمان بِهِ، في الدِّين الّذي اصطفاه لعباده، وعَمَلٌ صَالِحٌ ظَاهرٌ أَوْ بَاطِنٌ يكونُ مُعبِّراً في السُّلُوكِ عَنْ صِدْقِ الإيمان. دلَّ على هذا قَوْل اللَّه عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: ومن هٰذا السَّعي في الْعَمَلِ الظاهِرِ: إعْلَانُ كِلَمَةِ التوحيد، والصَّلَاة للّهِ وَحْدَه لا شَرِيك له، وأداءُ أيّ رُكْنٍ آخَرَ مِنْ أَرْكانِ الإسلام. ومن هٰذا السَّعْي في الْعَمَل الباطن الْعَزْمُ على الْتِزام شَرَائع الإسلام، والرِّضا عن اللَّهِ، والتسْلِمُ الْقَلْبِيُّ والنَّفْسِيُّ له، وحُبُّ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ وأهْلِ الإيمان والتقوىٰ، وكراهيةُ الكُفْرِ والْفُسُوقِ والْعِصْيان.

وجاءت عِبَارَةُ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جُمْلَةً حالِيَّةً، ومن المعلوم أنّ الحالَ وصْفٌ لصَاحِبها قَيْدٌ لعاملها، أي: وَسَعَىٰ للآخِرَةِ سَعْيَها في حَالَة كَوْنِهِ مَؤْمِناً، ثُمَّ مَاتَ وهُوَ علَىٰ ذَلِكَ لَمْ يَنْقُضْ إيمانَه.

● ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾: جاءت «الفاء» مزيدةً في صَدْرِ هذه الجملة التي هي خَبر «مَنْ» في: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ لأنَّ فيها رائِحة الشّرط، وهي تقع على المفرد والجمع، ومراعاة للمعنىٰ الجمْعِيّ فيها جاء خبرهَا ممَّا يَدُلُّ علىٰ الجمع «أولَئك».

واختير في الخبر هنا اسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدلالة على ارْتفاع مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِم، بسبب إيمانهم، وسَعْيِهِمْ لثوابِ الآخِرَة عن طَرِيق مَرْضَاةِ اللَّه.

وَفعل ﴿كَانَ﴾ هُنَا يَدُلُّ عَلَىٰ الكيْنُونَةِ الدَّائِمَةِ.

أي: فأولئِك رفيعو المنزلَةِ عِنْدَ رَبِّهِم تحقَّقَ أَنَّ سَعْيَهُمُ الْمَدْفُوعَ بإيمانِهِمْ مَشْكُورٌ لَدَيْه.

والْعَمَلُ المشكورُ عِنْدَ اللَّهِ الجليلِ الكريمِ الوهَّابِ ذي الْجُودِ العظيم، هو المجْزِيُّ بِثوابٍ يُنَاسِبُ عظَمَةَ رُبُوبيّتِه، مع الثناء على الْعَامِلِ بِعَمَلِه الصالح، ومَعْلُومٌ أَنَّ الإيمانَ مِنْ أَعْمالِ الْقُلُوب، لأَنَّهُ اختيارٌ إرادِيٌّ لَا تَرَدُّدَ فيه ولَا قَلَق.

الشُكْرُ: مَقَابِلَةُ الْعَمَلِ الْحَسَنِ بما يُرْضي الْعَامِلِ، وقَدْ يَشْمَلُ الثناء بالْقَوْلِ الّذي يُرْضيه، لكنَّ هذا يخْتَصُّ بعُنْوانِ الْحَمْد.

وأجَلُّ شُكْرِ اللَّهِ للمُحْسِنين من عباده يَكُونُ بإدْخالهم دَارَ النعيم يوم الدين، وجَعْلِهِمْ خَالِدِينَ فيها.

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿نُّمِدُّ﴾: أي: نَزِيدُ في الْعَطَاءِ يقال لغة: «مَدَّ، وأمَدَّ»: أي: زَادَ، فإذا كان عطاءً فهو زيادة في العطاء.

﴿كُلًّا﴾ مفعُول به لـ﴿نُّمِدُّ﴾ مُقَدّمٌ عليه لتوكيد مضمون الخبر الذي اشتَمَلَتْ عليه الآية، والذي يجيبُ على سؤالٍ مطويٍّ، يقول فيه السائل: لماذا يُوسِّعُ اللَّهُ علَىٰ بَعْضِ الكافِرين وغلاة العصاة بالأموال وكثيرٍ من متاع الحياة الدنيا وزينتها وزخْرُفِها؟! ولماذا لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِمْ حتَّى يكونَ التضييق عليهم سبباً من أسباب دَفْعِهِمْ إلى الإيمان الصحيح الصادق والْعَمل الصالحِ والاستقامة على صراط اللَّه؟!

والجواب المنطقيُّ الْعَقْلِيُّ الّذي يَدْلُّ على حِكْمَةِ الحكيم، أَنَّ ظُرُوفَ الامتحان الأمْثلِ للناس في الحياةِ الدُّنيا، تَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ فُصُولُ الموضوعين موضع الامتحانِ مُتَسَاوِيَةً في الخُطَّةِ العامَّة لحيَوَاتِهِمْ فيها، دُونَ تَمْييزٍ لِفَصْلٍ عَلَىٰ فَصْل، وبما أنَّ الْفُصولَ مُخْتَلِطَةٌ في مَوَاقِع الامتحان، فالحكمة تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لكلِّ فَرْدٍ مَوَادُّ امْتِحانٍ تُلَائِمُ واقِعَ الْفَصْلِ الّذِي هو مِنْه.

وبناءً عَلَى هَذا فَكُلّ فَرْدٍ مِنْ أفراد الكافِرينَ والمؤمنين، والمجرْمين والمسلمين، والْعُصَاة والمطيعين، لَهُ موادُّ امْتِحَانٍ تُلائمُ واقعَهُ النَّفْسِيَّ الّذِي فَطَرَهُ اللَّهُ عليه، فالأفْضَلُ والأحْكَمُ لامتحان بَعْضِ الأفراد الغِنَى، ولامْتِحان آخَرِين الفقر، ولامتحان بعضهم الصحّة ولامْتحان بعضهم المرض، ولامتحان بعضهم العزّ، ولامْتحان بعضهم الذّلُّ، أو تَقْلِيبُ الْفَردِ بَيْنَ الاحْتِمالَاتِ المختلفات، ولا يَعْلَمُ الأكْثَرَ حِكْمَةً لكلِّ فَرْدٍ إلاَّ اللَّهُ الحكيم العليم الخبير.

فمعنى الآيَةِ بَعْدَ هذا البيان: أنّ اللّه عزّ وجلَّ يُمِدُّ بعطاءاتِهِ من الدنيا في ظُروف الحياة الدُّنيا الّتي جَعَلَها لابتلاء عِبادِه، هؤلَاءِ الكافِرِينَ وغُلَاةَ العصاة، وهؤلاء المؤمنِين والمتقين، على وفْقِ حكْمَتِهِ وعِلْمِهِ بِكُلّ فَرْدٍ مِنْ أفرادهم، ومَا كانَ عَطَاءُ رَبِّكَ ايُّهَا المستَفْهِمُ عَنْ حِكْمَتِه مَمْنُوعاً عَنِ الكافِرِينَ وغُلَاةِ العصاة في رِحْلَةِ امْتِحَانهم، فالامتحانُ الأَمْثَل يَقْتضِي هذا، وبما أنّ عطاءات اللّه تكونُ على وفق حكْمتِه وعِلْمِهِ بكُلّ فرد من عبّاده، وبما أنّ الأفراد متفاضلون في تكوينِ اللّه لأجسادهم وخصائِصِها ولخصائِص نفوسهم، فلا بُدّ أن يكونوا متفاضلين في عطاءات اللّه لهم.

[محظُوراً]: أي: ممنوعاً.

وقد أبان اللّهُ عزّ وجلَّ في سُورَة (الزّخرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) حِكْمَتَهُ في أَنَّهُ لَمْ يُخُصَّ الكافِرِينَ بالعطاء الواسع من زينَات الحياة الدّنيا، باعتبار أَنَّ الأعمار في الحياة الدُّنيا قصيرة، وأنَّ الدُّنيا لَا تساوِي عند اللّهِ جناح بَعُوضة، أمَّا المؤمِنُونَ فَلَهُمْ يَوْمَ الدّين نَعِيم عظيم جدّاً يَكُونُونَ فيه خالدين بلا نهاية.

هٰذه الحكمة هي أَنَّ تَفْضِيل الكافِرِينَ بالْعَطاء الواسع من زينات الحياة الدُّنيا، فِتْنَةٌ للّذين لَدَيْهِمُ اسْتِعدادٌ لأنْ يُؤْمِنُوا، إذْ تَضْعُفُ مُقَاوَمَتُهُمْ تَجَاه مُغْرِيَاتِ الحياة الدنيا، فيَخْتَارُون سُبُلَ الكُفْرِ والعصيان، لِتَكُونَ لَهُمْ حظُوظٌ واسِعَةٌ مِنْ زِيناتِ الحياة الدّنيا، وبهذا يكونُ الناسُ باسْتثناء الْمَعْصُومِينَ منهم بعِصْمةِ اللّه، أمَّةً واحدة كافرة.

فقال اللّهُ عزّ وجل فيها:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

الزُّخْرُف: الذَّهَبُ، وأنواع الزّينَاتِ، وزُخْرُفَ الْبَيْتِ مَتاعُهُ.

قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾: أي: انْظُر وتفكَّرْ أيُّها الصالح للخطابِ في حِكمتنا من تفضيلِنَا بَعْضَ عبادنا على بَعْضٍ في عَطَاءاتِنَا من متاع الحياة الدُّنيا وزينتها، فهذا وَاقِعٌ مَشْهُودٌ لكلِّ ناظر، ولكنّ مَعْرِفَةَ الحكمَةِ مِنْه تحتاجُ إلىٰ تفكُّرٍ سَلِيم.

وقد أعان اللَّهُ جلّ جلالُه على اكتشاف الحِكَمَةِ بالتحليل السّابق آنفاً.

وهَذا التفضيل في الحياة الدُّنيا، القائمُ على التفاوُتِ في الخصائص الْجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّة بيْنَ الأفراد، لتهيِئَةِ الامتحان الأمثل، يَهْدِي المتفكِّرَ إلَىٰ أنَّ عَطاءَاتِ اللَّهِ في الحياة الآخِرَةِ، لِمُجْتَازِي رحْلَةِ الامْتِحَانِ في الحياة الدّنيا، لَا بُدَّ أنْ تَكُونَ أكْبَرَ دَرَجاتٍ وَأكْبَرَ تَفْضِيلاً، لأنَّ مُكْتَسَبَاتِهِمْ الإرادِيَّةَ الّتي يَتَرَتَّبُ عليها الجزاءُ يَوْمَ الدِّين، مُتَفَاوِتَةٌ مَا بَيْنَ أحَطِّ دَرَكاتِ جَهَنَّمَ إلَىٰ أعْلَىٰ دَرجاتِ الْفِرْدَوْس في جنّات النعيم، فقال اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ مُنَبِّهاً عَلَىٰ هٰذِهِ الحقيقة: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾:

أي: أكْبَرُ دَرَجاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ في جَنَّاتِ النَّعِيم، وأكْبَرُ تَفْضِيلاً بِعَطَاءات النَّعِيم وَوَسَائِلِهِ فيها. ويُقَابِلُ هٰذَا تَفَاوُتُ المعذَّبين في النَّارِ، بِتَنازُلِ الدَّركاتِ وانْحِطَاطِها حَتَّى الدَّرْكِ الأسْفَلِ منها، وبِتَزَايُدِ مَقَادِيرِ الْعَذَاب، بحَسَبِ مَقَادِيرِ ذُنُوبِهِمْ وجرائمهم الّتِي اكْتَسَبُوها في الحياة الدّنيا بإرادَاتِهِمُ الحرَّة.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرْس السابع من دُروس سورة (الإسراء).

والحمْدُ للَّهِ على فَتْحِهِ وتوفيقه ومَدَدِهِ ومعونته.

* * *

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن من دُرُوس سورة (الإسراء)

الآيات من (٢٢ - ٣٩)

قال اللَّه عزّ وجل:

﴿لَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا (٢٢) ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا
تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ
أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا
(٢٣) وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا
(٢٤) رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا
(٢٥) وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا (٢٦) إِنَّ
ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا (٢٧) وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ
عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا (٢٨) وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ
مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ
يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا (٣٠) وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ
أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا (٣١) وَلَا
تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا (٣٢) وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ
إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ
كَانَ مَنصُورٗا (٣٣) وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ
بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا (٣٤) وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ
ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا (٣٥) وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ
وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا (٣٦) وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ
لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ
مَكۡرُوهٗا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا (٣٩)﴾.

القراءات:

(٢٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[إِمَّا يَبْلُغَانِّ]**.

وقرأهَا باقي القراء العشرة: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾.

ومؤدّي القراءتين واحِدٌ، وهو من التَّفَنُّن في البيان.

(٢٣) • قرأ نافع، وحفص، وأبو جَعْفر: ﴿أُفٍّ﴾ بِكَسْرِ الفاء مع التنوين. وقرأها ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب: **[أُفَّ]** بفتح الفاء دون تنوين. وقرأها باقي القرّار العشرة: **[أُفِّ]** بكسر الفاء دون تنوين. وهي لغات عرَبيَّةٌ لهذه الكلمة، وفي هذه الكلمة لغاتٌ أخرى.

(٣١) • قرأ ابْن كثير **[خِطَاءً]** بِكَسْر الخاء وطاء مفتوحه وألف بَعْدها. وقرأها ابْنُ ذَكْوان، وأبو جعفر: **[خَطَأً]**. وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿خِطْئًا﴾.

الخِطْءُ والْخَطَأُ يقَعَانِ علَىٰ الذَّنْب، أمّا قراءة ابن كثير: **[خِطَاءً]** فيَظهَرُ أنَّها لُغَةٌ كالخِطْء، إلَّا أنَّ مُدَوِّني المعْجَماتِ اللّغويَّة. لم يذكُروها، وكوْنُها قراءة متواتِرَةً يكْفِي لإثباتها، ففي لُغَاتِ الْعَرَبِ كثيرٌ لَمْ تُدَوِّنْهُ المعْجَماتُ اللّغَوِيَّة.

(٣٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[فَلَا تُسْرِفْ]** بناء المخاطَبِ، وهو مُوجَّهُ للْوَليّ.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: **[فَلَا يُسْرِفْ]** بياء الغائب، والضمير يعُودُ على الْوَلي.

والقراءتان من التفنُّن في التعبير.

(٣٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخَلف: **[بِالْقِسْطَاسِ]** بكَسْرِ القاف.

وقرأها باقي القرة العشرة: [**بِالْقُسْطاسِ**] بضمّ القاف. وهُما لغتان عرَبِيَّتانِ في هذه الكلمة.

(٣٨) ● قرأ نافع، وابْن كثير، وَأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [**سَيِّئَةً**].

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أَدَاء المعنَىٰ المراد، أي: كُلُّ مَنْهِيٍّ عنْهُ من ذَلِكَ الَّذِي نَهىٰ اللَّهُ عَنْهُ في الآيات السَّابِقاتِ كَان سَيِّئُهُ الَّذِي يكْرَهُهُ رَبُّكَ مَكْسُوبَةً سَيِّئَةً يَسْتَحِقُّ فاعِلُها أَنْ يُعاقَبَ عَلْيها.

تمهيد:

هذا الدَّرْس يشتمل على أوامِرَ وَنواهي ووَصَايا عظيمة، وبيانَاتٍ حَوْلَها. ومعظم هذه التعليمات مما الْتَقَتْ عليه الرِّسَالات الرَّبَّانيّة، لِلْمَوْضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، ولا سيما كتاب التوارة الّذي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلَّ على مُوسَىٰ عليه السلام، والوصايا العشر الَّتي كتَبَها لَهُ في الألواح.

وفي هذا الدرس بَعْضُ تفصيل لما جاء في الآية (٩) من أنَّ هذا القرآن يَهْدِي للَّتي هي أقوم فهو موصولٌ بالدرس الثالث من دُروس السّورة.

التدبّر التحليلي:

في هذا الدرس (١٤) وصيّة من أوامر اللَّه ونواهيه لعباده، مُوجَّهَةٌ للرَّسُول باعتباره أوّل مُكَلَّفٍ من أمَّتهِ ويَجِبُ عليه أنْ يَكونَ أوّلَ المسْلِمين، وباعْتِبارِهِ مُتَلَقِّيَ الوحْي من ربّه، ومُوجَّهٌ تبعاً بأسْلُوب الخطابِ الإفراديّ لكلِّ صالّح للخطابِ من أمّتِه، وهٰذِهِ الوصايا مَحْصُورَة بحَاصِرَيْنِ مُتَماثِلَيْنِ

مُتكامِلين قبل بَدْئِها وبَعْدَ خِتامِها. فالحاصِرُ قَبْلَ بَدْئها هو قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ والحاصر بَعْدَ خِتامِها هو قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

ويَدُلُّ هٰذان الحاصران على أنّ طاعَةَ اللَّهِ في الوصايا الواقعة بَيْنَهما في النَّصّ مِنْ تَوْحِيدِهِ في إلٰهيَّتِهِ، مع دَلَالَتِهِما على التَّحْذِير من اتّخاذِ إلَهٍ آخَرَ مع اللَّهِ في قضايا أخرىٰ لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَيْها هذِهِ الوصايا، ومضمون الحاصَرين يمثّلِ وصِيةً من الوصايا مؤكدة لمضمون الوصية الأولى.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: أي: لَا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ مَعْبُوداً آخر غير اللَّه، فهذه العبادة من الشّرْك.

• ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ جاء التعبير بالْقُعُودِ لأنَّه يَدُلُّ على الْعَجْز وانخفاضِ المكانَةِ، فلفظ «القاعد» يُكَنَّىٰ بِهِ عن العاجز الذي يَنْظُرُ إلَيْهِ القائمون العامِلُون أصْحَابُ العزائم نظراتِ اسْتِعْلَاءٍ علَيْه، واسْتِهَانَةٍ به، وذمٍّ لِكَسَلِهِ وجُبْنِهِ وضَعَتِه، فَهُوَ مَذْمُومٌ عند اللَّهِ وملائكتِه، وعباده الصّالحين، وهذا من عقوبات اللَّه له في الدنيا.

﴿مَّخْذُولًا﴾: أي: غير مُعَانٍ وَلَا مَنْصُورٍ عند حاجَتِه إلى مَنْ يُعينُه ويَنْصُرُه، وهذا من عُقوبات اللَّهِ له في الدّنيا، وشركاؤه لا تغني عنه شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخِرَة.

• ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾: في هذه العبارة الّتي خُتِمَ بها الحاصِرُ الأخير بيانٌ لعقوبَتِهِ يَوْمَ الدِّينِ علَىٰ شِرْكه، بإلْقَائِهِ في جهَنَّمَ خالداً فيها مُخَلّداً، حالَةَ كونِهِ مَلوماً مَدْحوراً.

﴿مَلُومًا﴾: أي: مَوْصوفاً بالذَّنْبِ والإثم، وهو شِرْكه، والشِّرْكُ ظُلْمٌ عظيم، وجُرْمٌ كبير، مع لوازم هذا الشرك من سُلوك سَيِّئٍ.

﴿مَّدۡحُورًا﴾: أي: مطروداً مُبْعداً مع إهانَةٍ وإذْلال عن مواطن تنزُّلات رَحماتِ اللّهِ. وبَعْدَ تَدبُّر الحاصِرَين أَسْتِعينُ باللّهِ في تَدبُّر الوصايا:

الوصية الأولى: دَلَّ عَلَيْها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾:

أي: وأنْهَىٰ رَبُّكَ إرادتَهُ التكليفيَّةَ بِقَضاءٍ مُبْرمٍ تَفْسِيرُه: أنْ لَا تعبُدُوا إلَّا إيَّاه. أي: اجْعَلُوا كُلَّ عباداتِكُمْ مَحْصُورَة به وَمَقصُورَةً عليه، وهذا الخطابُ مَوَجَّهٌ لكلِّ الموضُوعين في الحياة الدُّنْيا مَوْضع الامْتحان، مع خطاب إفراديٍّ يخاطَبُ بهِ كلُّ واحِدٍ منهم دَلَّتْ عَلَيْه عبارة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بالخطاب الإفرادي.

واخْتِيرَ هنا مِنْ أسماء اللّهِ اسْمُ «رَبّ» لأنْ وَحْدَانيَّة الرُّبُوبيَّةِ للّهِ عزّ وجلَّ تَسْتَلْزِمُ عَقْلاً وَحْدَانيَّتَهُ في إلَهيّتِه، فلا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سواه، إذِ الْعِبادَةُ حَقُّ الرَّبِّ الْمُمِدِّ بِعَطاءَاتِ رُبُوبيَّتِه مَا دَامَ الْعبدُ لَهُ وُجُودٌ مَمْدُودٌ بمَدَدٍ ما.

الوصِيَّة الثانية: دَلَّ عليها قَوْلُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾.

أي: وقضىٰ موجباً عليكم:

- أنْ تُحسِنُوا بالوالِدَيْنِ إحْسَاناً. يقال لغة: «أحْسَنَ به، وأحْسَنَ إلَيْهِ» أي: فَعَلَ مَا هُو حَسَن، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾.
- ومحرّماً عليكم أن تُسيئوا إليهما. ومن صُور الإسَاءَة إليهما ما يلي:

(١) التضجُّرُ منهما أو مِنْ أحَدِهِما في حالة الكِبَر وكثْرةِ المطالب

والاعتراضات والتّدخلات في الصغائر، وكثرة الأوامر والنواهي، بتوجِيهِ كَلِمةِ: «أفّ» ومثل «أفّ» ما يُسَاويها من الكلام المؤذِي لنَفْسِ الوالِدَيْن.

«أفّ» اسم فعل مضارع بمعنى «أتضجر» وفيها عشْرُ لغات. فقال اللَّه عزّ وجلّ خطاباً للولد ذكراً كان أم انثىٰ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾:

«إِمَّا» مركبة من «إِنْ» الشرطية و«ما» الزّائدة. والنون في ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ نُونُ التوكِيد الثقيلَة، وهذه النون في الفعل المضارع بعد «إِمَّا» تكادُ تكُونُ واجبة. وكذلك ما جاء في القراءة الأخرى: [يَبْلُغَانِّ].

وفي عبارَةِ [عِندَكَ] دَلَالَةٌ عَلَىٰ أنّ الْوَالِدَ الكبير المساكِنَ الّذي تكثُر تكاليفُهُ وأوامِرُهُ ونواهِيهِ، وتَدَخُّلَاتُه في الصَّغائِرِ، من شأْنِهِ أَنْ يُثِيرَ الضّجَرَ، بخلاف غير المساكن، وعلى الرُّغم من ذلك فالْوَلَدُ مأْمُور بالصُّبْرِ والتحمل، وعَدَمِ تَوجيه كَلِمَةِ أفٍّ، فَضْلاً عمَّا هو أشَدُّ مِنْها.

(٢) النَّهْر، وهو الزَّجْرُ، وهو أشدّ مِنْ تَوْجيهِ كلمة «أُفّ» فقال اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: يُقَالُ لُغَةً: «نَهَرَ فُلانٌ فلاناً، يَنْهَرُهُ، نَهْراً» أي: زَجَرَهُ وأغْضَبَهُ، ومِثْلُ النَّهْرِ مَا يُسَاوِيه مِمَّا يُؤْذي.

(٣) ما هو أشَدُّ من النَّهْرِ والزَّجْر، كَالشَّتْم والسَّبّ والضَّرْب، وهَذَا يُفْهَمُ مِنْ فَحوىٰ الخطاب عَنْ طَرِيق اللُّزُوم الْفِكريّ، والنَّهْيُ عن هذا الأشدّ يُفْهَمُ مِنْ باب أوْلَىٰ، ولَوْ لَمْ يُصَرَّحْ به في النَّصّ.

ومن صُورِ الإحسانِ بالوالِدَيْن ما يلي:

(١) توجيهُ القولِ الكريم لهما، وهو القول الذي فيه تكريم للمخاطبِ ورَفْعٌ من شأنه، وإرْضاءٌ لِنَفْسِه، فقال اللَّهُ عزّ وجل خطاباً للولَدِ: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾: أي: وقُلْ لَهُمَا قَوْلاً فيهِ تكْرِيمٌ لَهُما، وتعظيم لِفَضْلِهما ومنّتِهما فيما تحمَّلا منه عَنَاءِ تَرْبِيَةٍ وإحْسَانٍ مِنْهُما إلَيْكَ.

(٢) التَّذَلُّلُ لَهُمَتا، والتواضُعُ بَيْنَ أيْدِيهما، تخفيفاً على أنْفُسِهِمَا مِنْ مشاعِرِ الضَّعْفِ والتناقُصِ في مُخْتَلِفِ الْقُوى، وهي مشاعِرُ غير سارَّةٍ بَعْدَ مَا كانَا عَلَيْه في شَبَابِهما وكُهولَتِهما من قوّة ونشاطٍ وحَيَويّة، إذْ يَجِدَانِ فِي وَلَدِهِما مَا فَقَدَاهُ في أنْفُسِهما، فقال اللَّهِ عزّ وجل للولد: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ في هٰذِهِ العبارة تَشْبيه التذَلُّلِ للوالِدَيْنِ بِتَذَلُّلِ الطائِرِ حِينَ يَخْفِضُ جَناحَهُ مُنْكَسِراً لِفِرَاخِهِ أو لِزَوْجه أو لِغيْرِهما، ولَكِنْ أُضْمِرَ التَّشْبيه، فَلَمْ يُذْكَرْ لفظُ المشَبَّهِ بِهِ، وإنَّمَا كُنِّيَ عَنْهُ بشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَهُوَ الجناح، وأُضِيفَ هذَا المكَنَّىٰ به إلَىٰ المشَبَّه.

وهذا على ما ظهر لي هو من التشبيه البليغ المكَنَّىٰ فيه عن المشَبَّهِ به بِبَعْضِ لوازمه⁽١⁾.

فالمعنى: لِيَكُنْ أيها الولَدُ ذُلُّكَ لِوَالِدَيْكَ، كَطَائِرٍ يخْفِضُ جناحَهُ تَذَلُّلاً مِنَ الرَّحْمَةِ.

الْخفض في اللُّغَة: التواضُعُ ولِينُ الجانب، والميْلُ إلى المنخفض المطْمَئِنِّ من الأرْض، وهو ضِدُّ الرَّفْع.

وذُكِرَ قَيْدُ: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ لاسْتِبْعَادِ التَّذَلُّلِ نفاقاً ظاهريّاً، أو بِدَافِعِ الطَّمَعِ بشيءٍ من أمْوالهما، أو نَحْوِ ذَلِكَ من مصالِحَ دُنيويَّة.

(٣) الدُّعَاءُ لَهُما، إذْ دُعَاءُ الْوَلَدِ لِوَالِدَيْهِ هو من أعمالِهِمَا، ولَوْماتَا. فقال اللَّهِ عزّ وجلّ لِلْوَلَد: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

الكاف في ﴿كَمَا﴾ للتعليل، أيْ: لأجْلِ أنّهما ربَّياني حَالَةَ كوني صَغيراً، لا أستطيعُ أنْ أقُوم بشؤُوني لنَفْسِي.

---

(١) وهذا ما أثبته في كتابي «البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها» ولم أرَ هذه العبارة من باب الاستعارة، بل هي من التشبيه المكني.

الرَّحْمَة: الّتي يَدْعُو بها الولد لوالديه تَشْمَلُ دَفْعَ كلّ سُوءٍ عنهما وجلب كلّ خير لهما. ولا يخفىٰ مَا في جَعْل الوَصيَّة الثانية الأمْرَ بالإحْسَانِ للوالِدَيْنِ والنهْيَ عَنْ عُقُوقِهما من العناية العظيمة بها.

الوصيّة الثالثة: الأمْرُ بجعل المكسوبات الإراديَّة النفسيَّةِ مكْسُوباتٍ صالحات، على وفْقِ مَا هدَىٰ اللَّهُ إليْهِ عباده من أعمال القلُوب والنفوس الإراديَّة، كالإيمان الصحيح الصادق بما أوجب اللَّهُ الإيمانَ به، وكَالنيّاتِ بابتغاء مرضاة اللَّهِ من وراء الأعمال الَّتي أمَرَ بها، وكَحُبّ الحقّ والخير وطاعة اللَّه، وكراهية الباطِلِ والشّرّ ومَعْصِيَةِ اللَّهِ.

دلَّ على هٰذه الوصِيَّة قول اللَّه عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾:

لَمْ يَأْتِ التكليفُ فِي هذِه الوصِيَّةِ تكليفاً مُباشِراً بأمْرٍ أو نَهْيٍ، وإنَّما جاءَ بأُسْلُوب الكِنَايَة، ولَمْ يأْتِ بأسْلُوبِ الخطاب الإفرادي كبَعْضِ النظائر السابقة، وإنَّما جاء الخطابُ فيها عامًّا لكُلّ الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

المعنَىٰ: أنْتُم مُطالَبونَ بالإيمان، وبابتغاء طاعَةِ رَبّكم والتَّقَرُّبِ إلَيْه في نيّاتِكم من وراء أعْمَالِكُمْ، ومطالَبُونَ بالتَّسْلِيم الكامل له في أوامِرِه ونواهيه، وسائِر تكاليفه وأحْكامه، وقضائِه وقَدَرِه، ومطالَبُون بِحُبِّ الحقّ والخيْرِ والفضائل والمتحلّين بِها، وبكراهية الباطِلِ والشّرّ والرذائل وبُغْض أصحابها، ومطالبُونَ بأنْ لَا تَحْسُدُوا النَّاسَ على ما آتاهم حسَداً مَذْمُوماً، ومطالَبُونَ بابتغاء مَرْضاةِ اللَّه وأن تكونوا مخلِصِين لَهُ فيما تقومون بِهِ من برٍّ للوالِدَين، إلى غير ذلك من أعمال النفوس الإرادية، ورَبُّكُمْ أعْلَمُ بما في نُفُوسِكُمْ، وهُو يجازيكُمْ عليها بِعَدْلِه أو فَضْلِه.

واعْلَمُوا أنَّكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَالِحِينَ في نُفُوسِكُم، بإيمان صحيح صادقٍ

مطابقٍ لمطلوب اللَّهِ منكُمْ، وبِرَغْبَةٍ صادقةٍ في رِضْوانِ رَبِّكُمْ عَنْكُمْ والظَّفْرِ بثوابِهِ العظيم، فإنَّكُمْ ستقَعُونَ في أخْطَاءٍ وسَتَرْتَكِبُونَ ذُنُوباً، فُكُلُّ بني آدم خَطَّاؤون، لكنّ بواعِثَ الإيمان فيكم، وهو رأسُ صلاح نفوسِكُمْ، وستجْعلُكُمْ رَجّاعِين إلى رَبّكُمْ بالاستغفار والتوبَةِ والْعَمَلِ الصَّالح، كُلَّما ارْتَكَبْتُمْ ذُنُوباً وخَطَايَا.

فإذا كُنْتُمْ أوّابِينَ رَجّاعِينَ بصِدْقٍ إلَىٰ رَبّكُمْ، وكان إيمانُكُمْ صحيحاً سَلِيماً، فإنَّ رَبّكُمْ يَغْفِرُ لَكُمْ، لأنَّ مِنْ صفاتِ رَبِّكُمْ ذاتِ الكَيْنُونَةِ الدَّائِمة أنَّهُ غفورٌ لِلأَوَّابين.

الأوّابُون: الرَّجَّاعُونَ إلَىٰ اللَّهِ رَبّهم بالاستغفار والتوبة والْعَزْمِ علَىٰ الطاعَةِ، بَعْدَ السُّقُوطِ في المعصِيَةِ والإثم.

فعل «كَانَ» في جُمْلَة: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ يَدُلُّ على الكيْنُونَةِ الدائمة، فغُفْرانُهُ للأوّابين من صفاته الدائمة جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

وهذه الْجُمْلَةُ دلّت بالكِنَايَةِ على أنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ إذاً رَجَعُوا إليه بالاستغفار والتوبَةِ والْعَزْم على الطاعَة، فقَدْ جاءت تَعْلِيلاً لكلام مَطْوِي تَقْدِيرِه: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ وارْتَكَبْتُمْ ذِنُوباً وكُنْتُمْ بَعْدَهَا أَوّابِينَ يغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

غَفوراً: أي: كثِيرَ السّتْر لذُنوب عبادِهِ، الذي يَتْبَعُهُ عَدَمُ المؤاخَذَة عَلَيْها، مَا لَمْ يكونُوا مِنَ المجاهرين الماجنين.

الوصية الرابعة: الأمْرُ بإيتاء ذي القربَىٰ حَقَّه، وإيتَاءِ الْمِسْكِينَ حَقّهُ وإيتاء ابْنِ السَّبِيلِ حقّه، دَلَّ عَلَيْها قول اللَّهِ عزّ وجل بأسْلُوب الخطاب الإفرادي: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ذُو الْقُرْبَىٰ: أي: صاحِبُ القرابَة في النَّسب، ومعلومٌ أنَّ بَعْضَ أقرباء

النّسبِ لهم حُقُوق مَالِيَّة كالأولاد الفقراء على آبائهم، وكالأباء والأمَّهاتِ الفقراء على أَوْلَادِهِم، على وفْقِ مَا جاء بيان هذا في السُّنَّة.

وهٰذه الحقوق الماليّةُ لذوي القربَىٰ، غَيْرُ حُقُوق صِلَةِ الرّحم للقرابات القريبَةِ والقراباتِ البعيدة في النسب.

وَالمسْكِين: وهُوَ مَنْ يَبْدُو مِنْ ظَاهِرِ حَالِهِ أَنَّهُ فَقِير، كالسَّائل الَّذِي يَدَّعي الفقر، وكالَّذِي يَتَعَرَّض لِعَطَاءِ المْحسِنِينَ وَلَوْ لَمْ يَسْأَلْ بِلِسَانِه، وهذا المسكين قَدْ يكون فقيراً في واقِع حَالِهِ، وقَدْ لَا يَكُونَ، وعِنْدَ الْجَهْلِ بِوَاقِع حَالِهِ فالأَصْلُ مُعَامَلَتُه بَحَسَب ظاهِرِ حَالِه، أَمَّا في حَالَةِ الْعِلْم بغِناهُ فإنَّهُ لَا حَقَّ لَهُ، فَلَا يُعْطَىٰ مِنْ أمْوَالِ الزَّكاة، ولكِنْ إذَا رَأَىٰ الْبَاذِلُ أَنَّ في إعْطَائِهِ مصْلَحةً هي من مقاصِدِ الدّين، فإنَّهُ يُعْطِيهِ مِن الصَّدَقَاتِ العامَّةِ لَا مِنْ أمْوَالِ الزَّكاة.

وٱبْنَ السَّبِيل: وهو المسافِرُ، فإنْ نَزَلَ ضيفاً كَانَ لَهُ حَقُّ الضِّيَافَةِ، وَإنْ كانَ مُنْقَطِعاً لَا يَمْلِكُ مَا يُوصِلُهُ إلىٰ بَلَدِه، فإنَّهُ يُعْطَىٰ مِنَ الزَّكَاة مَا يُوصِلُهُ إلى بَلَدِهِ، إلَّا أن يكون في بَلَدِه فقيراً فإنّهُ يُعطىٰ أكثر من ذلك.

وأُطْلِق على المسافِرِ أنَّه: «ٱبْنُ السَّبِيلِ» لأنَّه غريبٌ لَا تُعْرَفُ لَهُ نِسْبَةٌ فِي مَكانِ غُرْبَتِه، الَّتي هُوَ فيها عَابِرُ سَبِيل، فإذا قيلَ: هُو ٱبْنُ مَنْ؟ كَانَ الْجوَابُ: هَو ٱبْنُ السبيل.

الوصية الخامِسَةُ: النَّهْيُ عَنِ التَّبْذِير، دلَّ عَلَيها قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾:

التَّبْذِير: تفريقُ المالِ بإسْرافٍ، مأخوذٌ من بَذْرِ بُزُور الزّرْع مُفَرّقَةً مُنْتَشِرَةً دُونَ تَعَمُّدٍ لِمَواقِعَها، وهو مَذْمُوم شرعاً، لمجاوزَتِه ما هُو مقبولٌ في الإنفاق.

قال الشافِعِيُّ: التبذيرُ إنفاقُ المال في غَيْرِ حَقِّهِ، ولا تَبْذِيرَ في عَمَلِ الخير.

أقول: كُلُّ إنفاقٍ في معْصِيَةِ اللَّهِ هو من التَّبْذِير، وكُلُّ إنْفَاق يَزِيدُ علَىٰ تحقيق المطْلُوبِ للنُّفوسِ مِمَّا أباحَ اللَّهُ هُوَ من التَّبْذِير، وكُلُّ إنْفَاقٍ فِيه ضُرٌّ أَوْ أذىً هُوَ من التَّبْذِير، وكُلُّ إنفاقٍ عَشْوَائِيٍّ لَا تُعْرَفُ فيه مَواقِع الْمَالِ المبْذُولِ هو من التبذير، وهو عَبَثٌ لَا تفْعَلُهُ العقلاء.

- فَمِنَ التبْذِيرِ إنفاقُ الأموال في شِراء الْمُسْكِرَات، والمخدِّرات، والْمُفتِّراتِ.
- ومِنَ التَّبْذِيرِ مَا يَزِيدُ على حَاجَاتِ المدعُوِّين في الولائم، ثُمَّ يُرْمَى الزائِدُ في الْقُمَامَاتِ.
- ومِنَ التَّبْذِيرِ إنْفَاقُ أَمْوالٍ كَثِيرَةٍ في إطْلَاقِ قَذَائِف نَارِيَّةٍ تُرِي في الْجَوِّ مَا يُعْجِبُ النَّظر، وتَنْطَفِئُ فِي عَدَدٍ من الثواني.
- ومِنَ التَّبْذِير ما يُصْنَعُ مِنْ ثيابٍ مُزَرْكَشَةٍ مُزَخْرَفَةٍ للنِّسَاءِ، لِحُضُور حفَلَاتٍ يَتَبَاهَيْنَ بها علىٰ قريناتِهِنّ، وهي ذواتُ قِيَمٍ باهظةِ الثَّمنِ ولا تُلْبَس إِلَّا لِحفْلَةٍ أَوْ حفْلَتَيْن.
- ومِنَ التَّبْذير مَا يُبْذَلُ مِنْ أموالٍ لِلأَوْثَانِ الَّتي تُزَيَّنُ بِها الْقُصور.
- ومِنَ التَّبْذير مَا تُزَخْرَفُ بِهِ الْقُصُورُ للتَّبَاهِي والتَّفَاخِرِ، مع حُصُول مُتْعِةِ الأنفس بما هو دُون ذَلِك، ولا سِيما تَغْلِيفُ جُدْرانِها وأَعْمِدَتِها ونحو ذلِكَ بِصَفَائحِ الذَّهَب والفِضَّة.
- ومن كان دَخْلُهُ الشَّهْرِيُّ يَكْفِيهِ ويَكْفِي أسْرَتَهُ لَوْ اقْتَصَدَ وأنْفَق بِعَقْلٍ وحِكْمةٍ، فصارَ يُنْفِقُهُ في نصف شَهْرٍ أو في ثُلُثَيْ شَهْرٍ، فَهُو من الْمُبَذِّرِين.

وجاء في عبارة الوصيَّةِ التَّوْكيدُ بالمفعُول المطْلَق: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ للدّلَالَة على أنَّ إنفَاقات ممَّا يَحْكُمُ علَيْها أهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ بأنَّها من التَّبْذير، إذِ المعْنَىٰ: ولَا تُبذِّرْ تَبْذِيراً واضِحاً يَحْكُمُ عَلَيْهِ أصْحابُ الْعُقُولِ الْمُجَرِّبُونَ الخبيرون بأنَّهُ من التَّبْذِير.

ووَصَفَ اللَّهُ المبَذِّرِينَ بأَنَّهُمْ أَخْوَانُ الشَّياطِين، أي: مُصَاحِبُوهُمْ والمتأثِّرون بوَسَاوِسِهِمْ وَنَزَغَاتِهِم، والسَّبَبُ في هَذا أنّ انْعِدام الرُّشْدِ في الإنْفَاقِ لَدَيهِمْ، يَجْعَلُهُمْ عُرْضَةً للتأثّرِ بِنَزْغٍ شيطانيٍّ يَضْغَطُ علَىٰ هَوىً طارِئٍ لَدَيْهِم، فَيَنْدَفِعُونَ لِتَحْقِيقِهِ مَهمَا بَذَلُوا مِنْ أَمْوَالٍ فيه، إذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ ضَابِطٌ إرادِيٌّ يَتَحَكَّمُ بأهْوَائهم، وتَسْتَخِفُّهُمْ شياطينُ الإنسِ والجِنّ، وَيَسْتَدْرِجُونَهُمْ من المباحات إلى المكْرُوهَاتِ، فإلَىٰ المحرَّمَات الصُّغْرَى، فإلَى الكبائِرِ الكُبْرَىٰ، ثُمَّ إلى الكُفْرِ والْعِياذُ باللَّه، وذَلِكَ بِحَسْبِ غَلَبَةِ سُلْطَانِ الْهَوَىٰ والشهوات على كلّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهم.

فَقولُ اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧﴾ قَدْ دَلَّ عَلَىٰ هذا بنصِّهِ وبِلَوَازِمِهِ الْفِكْرِيَّة.

وَفِعْلُ «كَانَ» في هذا النّصّ يَدُلُّ على الكَيْنُونَةِ الدَّائِمة، أي: إنَّ المبذِّرِينَ هُمْ إخوانُ الشَّيَاطِين دَواماً، والشيطانُ كفورٌ لربِّه دَواماً.

وقَدْ جاءَتْ هذه **الوصيَّةُ الخامسَةُ**: (النَّهْيُ عَنِ التَّبْذِير) بمثابَةِ بيان مُلْحَقٍ **بالوصِيَّة الرَّابعَة** (الأمر بإيتاء ذي الْقُرْبَىٰ والمسكين وٱبْن السَّبِيل) ولهذا جَاءَت الآيَة (٢٨) مُتَمِّمةً للْبَيَان الّذي جاء في الوصِيَّةِ الرَّابعة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨﴾:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾: في التحليل النّحْوِي، مِثْل ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ الّتي سبق بيانها في الآية (٢٣).

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾: أيْ: قَوْلاً حَسَناً سَهْلاً عَلَيْكَ أنْ تَقُولَهُ، فالْقَوْلُ الْحَسَنُ سَهْلٌ علَىٰ كلّ ناطِقٍ أَنْ يَقُولَهُ، إذْ لَا كُلْفَةَ فِيه، ومن القول الميسور الوعْدُ الجميل، والاعتذار المقبول.

المَيْسُور: الشيْءُ الْمُيَسَّرُ السَّهْلُ اللّيِّنُ المنْقَاد، وتقول: يَسَّرْتُ لَهُ الْقَوْلَ: أي: ليّنْتُهُ له.

أي: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ والمسْكِينِ وابْن السَّبِيلِ، لكَوْنِكَ غَيْرَ ذِي يَسَارٍ وَغِنًى، وكانَ إعْرَاضُكَ عَنْ إعْطَائِهِم لأجْلِ ابْتِغَاء أَنْ يُوسِّعَ رَبُّكَ عَلَيْكَ الرِّزْقَ بِرَحْمَتِه، وأَنْتَ تَتَرَقَّبُ ذَلِكَ، فَقُلْ لَهُمْ قولاً حَسَناً مَيْسُوراً لَكَ أَنْ تَقُولَهُ لهم.

فَعَدَمُ الْبَذْلِ مَعَ الْعُسْرِ في الأموال يُهَوِّنُ مِنْ وَخَزَاتِه الْيُسْرُ في الأقوال.

الإعْراض: إعْطَاءُ الْعَارِضِ، أي: جانبِ الْوَجْه، وهو وَسَطٌ بين الإقبال والإدْبار، ولَيْسَ المرادُ الْحَرَكَةَ فِي الْجِسْم هُنَا، بَلِ المرادُ عَدَم الإعْطَاءِ ولكِنْ بِرِفْقٍ، إذِ الإقْبَالُ مُطْمِع، والإدْبارُ مُوجِع، أمَّا الإعْرَاضُ مَعَ الْقَوْلِ الْحَسَنِ الْمَيْسُورِ فَمُقْنِع.

الْوَصِيَّةُ السَّادِسَة: التَّوْجِيهُ للتَّوَسُّطِ والاعْتِدالِ في الإنفاق، دَلَّ علَىٰ هذه الوصيَّة قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ بأُسْلُوب الخطاب الإفرادِيّ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾﴾:

جاء التّعبير عن الأمْرِ بالْقَصْدِ في الإنفاقِ وهو التوسّط والاعتدال، بالنَّهْي عن الطَّرَفَيْنِ الذَّمِيمَيْنِ وهُمَا الشُّحُّ والْبُخْلُ في الإنفاق، ويقابِلُهما الإسْرافُ والتَّبْذير.

- أمّا الشّحُّ والْبُخْلُ فقد جاء التَّعْبير عَنهما بِكنَايَةِ قَبْضِ الْيَدِ وضَمِّهَا بِعُنْفٍ إلَىٰ جِهَةِ الْعُنق، حتىٰ تكُونَ كَالمغْلُولَةِ إلَىٰ الْعُنُق.

الْغُلّ: طَوْقٌ من حَدِيد أو جِلْدٍ يُجْعَلُ في عَنَقِ الأَسِير أو المجرم، أو في يَدَيْه، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُهُ إلَىٰ عُنُقِهِ، وتَطَوَّقانِ بالْغُلّ، وتُعْقَدُ به سِلْسِلَةٌ أو نحوها لجرّهِ وَقَوْدِه.

ولَمَّا كانَ الشَّحِيحُ ويُلْحَقُ بِهِ الْبَخِيلُ، من عَادَتِهِ حينمَا يُطْلَبُ مِنْهُ الإنفاقُ أَنْ يَقْبِضَ يَدَهُ بِسُرعَةٍ وعُنْفٍ، ومَسِيرُ هٰذِه الْحَرَكَة الطَّبِيعي يَكُونُ

إلَى جِهَةِ الْعُنُقِ، إذْ يُدِيرُ جِسْمَهُ إلى جهَةِ الشِّمَالِ عن مُوَاجَهَةِ الطالب، فَحرَكَةُ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ تكونُ إلىٰ جهَةِ عُنُقِهِ، فيكُونُ حِينئذٍ بمَثابَةِ مَغْلُولِ الْيَدِ إلَىٰ عُنُقِهِ، كَانَ مِنْ بَدِيعِ الكِنَايَاتِ أَنْ يُقَالَ له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لَا تَكُنْ شَحِيحاً ولَا بَخِيلاً في الإنْفَاقِ عَلَىٰ نَفسِكَ وأَهْلِكَ وَعَشِيرَتِكَ وضَيْفِكَ وغَيْرِهم.

هذا التعبير الكِنَائي، قد امْتَزَجَتْ فِيهِ اسْتَعَارَةٌ قَائِمَةٌ عَلَىٰ تَشبيه الشحيح بالأَسِيرِ الَّذِي غُلَّتْ يَدُهُ إلىٰ عُنُقِه، فَهُو من الأَمْثِلَةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي امْتَزَجَتْ فِيها الكِنَايَةُ بالاسْتِعَارَة، أو بِالتشبيه، على تَقْدِير: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ كالمغْلُولَة إلى عُنُقِك.

ويُوحِي هٰذا التَّعْبِيرُ بأنَّ الشَّحِيحَ يَأْسِرُهُ شُحُّهُ، فَيَجْعَلُ يَدَهُ كالْمَغْلُولَةِ إلَىٰ عُنُقِهِ، برِباطٍ من داخِلِ نَفْسِه.

● وأَمَّا التَّبْذِيرُ والإسرافُ فَقَدْ جاء التَّعْبِيرُ عَنْهما بكِنَايَةِ بَسْطِ الْيَدِ بَسْطاً كامِلاً، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: ولَا تَبْسُطْهَا الْبَسْطَ كُلَّه، لأنَّ بَعْضَ الْبَسْط مَحْمُودٌ، وهو الْجُودُ والكَرَمُ والتوسِعَةُ في الْبَذْلِ في غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّه عزّ وجلّ، ولَكِنْ دُونَ أَنْ يَصِلَ هَذا إلَىٰ حَدِّ الخروج عَنِ الحِكْمَةِ والرُّشْدِ في التَّصَرُّف.

وحينما تقتضي المصلَحَةُ الإسلامِيَّةُ بَذْلَ كُلِّ شَيْءٍ يكُونُ بَذْلُهُ إيثاراً حَكِيماً، وعَملاً رَشيداً، وإحْسَاناً رَفيعاً، وهو كالتَضْحِيَةِ بالنَّفْس جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وعلَىٰ هٰذا يُحْمَلُ ما فَعَل «أبو بكر» رضي اللَّهُ عَنْه. حينما جاء إلىٰ الرَّسُول ﷺ بِكُلّ مَا يَمْلِكُ لتَموْيل القتال في سبيل اللَّه، فقال الرسُولُ له: مَاذَا تَرَكْتَ لِعِيَالِكَ؟ فقال: تَرَكْتُ لَهُمُ اللَّهَ ورَسُوله.

وفي خِتَام هٰذه الوصيَّة بالْقَصْدِ في الإنفاق قَال اللَّه عزَّ وجل: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾:

﴿مَلُومًا﴾: أي: موصُوفاً بما تُلامُ علَيْهِ من سوء تصرُّف، أو بارْتكاب أَمْرٍ مَذْمُومٍ لَا رُشْدَ ولَا عَقْلَ فيه.

﴿مَّحْسُورًا﴾: أي: كَالًّا عاجِزاً عَنْ تَحْقِيق مطْلُوبَاتِك من دُنياك أو آخِرَتِك. وأرىٰ أنَّ هٰذيْن الوصْفَيْنِ يَلْحقَانِ كُلًّا مِنَ الْمُمْسِكِ شُحًّا وبُخْلاً، والباسِطِ تَبْذِيراً وإسْرَافاً.

أمَّا الْمُمْسِكُ شحًّا أو بُخْلاً، فَهُوَ مَلُومٌ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّهِ وملائِكَتِهِ وعِنْدَ النَّاس، ثُمَّ يكُونُ مَحْسُوراً غَيْرَ قَادِرٍ عَلَىٰ تحْقِيقِ كثيرٍ مِنْ مطلوبَاتِه عنْدَ ربّه يَوْمَ الدّين، وإذا تعرَّضَ لِمَا يُحْوِجُهُ لمساعَدَةِ الناس لَمْ يَجِدْ مَنْ يُسَاعِدُهُ ويُعِينُه، فَقَدْ كانَ شَحِيحاً غَيْرَ مُعِينٍ لَهُمْ، فيَقْعُدُ حَزِيناً مَحْسُوراً، لَا يَجِدُ مَنْ يَمُدُّ لَهُ يَدَ المساعدة.

وإمَّا الباسِطُ تَبْذِيراً وإسرافاً بلا عَقْلٍ وَلَا رُشْدٍ، فَهُو سَفِيهٌ مَلُومٌ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّه وَمَلَائِكَتِهِ وَعِنْدَ النَّاس، ثُمَّ يَكُونُ مَحْسُوراً غير قَادِرٍ علَىٰ تَحْقِيقِ كثيرٍ مِنْ مَطْلُوبَاته عَنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدّين، وقَدْ يَجعَلُهُ تَبْذِيرُهُ وإسْرافُهُ فَقِيراً مُحْتَاجاً إلى صَدَقَاتِ المزكِّين، وعَطَاءَاتِ الْمُحْسِنين، فَيَقْعُد مَحْسُوراً نَادِماً على مَا فَعَل أيَّامَ سَفَهِهِ مُبَذِّراً مُسْرِفاً في غَيْر طَاعَةِ اللَّهِ وفِعْلِ الخير.

وأتْبَعَ اللَّهُ عزّ وجلّ الوصايا: «الرابعَة» و«الخامسة» و«السّادسة» المتعلّقة بالأموالَ بقوله مُبيناً حِكْمَتَهُ في بَسْطِ الرِّزْقِ وَتقديرِهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بعباده، فقال جلَّ جَلَالُهُ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾:

في هذه الآيَةِ تكمِيلٌ لِبَعْضِ مَا جاء في الآيات من (١٨ ـ ٢١) فَهِي موصولَةٌ بالْخَطِّ الْفِكْرِيّ المارّ فيها.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يُوسّعه ويُكَثّره.

﴿وَيَقْدِرُۚ﴾: أي: ويُضَيّقُ وَيُقَلّل عَن الحاجَة، يقال لغة: «قَدَرَ اللَّهُ

على فُلَانٍ الرِّزْقَ، وقَدَّرَهُ عَلَيْهِ» أي: ضَيَّقَهُ وقَلَّلَهُ عَنْ حاجَتهِ وحَاجَةِ عِيَالِه.

وَبَسْطُ اللَّهِ الرِّزْقَ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، وتَضييقُهُ علَىٰ بَعْضِ عباده، إنَّما يَكُونُ بِمَشيئَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُه ـ ومَشيئَتُهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهِ، فكَمَا أنَّهُ بعِزَّته يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، هُوَ حَكِيمٌ دَواماً، ومشيئَتُهُ المطْلَقَةُ لَا تُفَارِقُ حِكمَته. ودَلَّتْ على حِكْمَتِهِ جَمْلَةُ التَّعْليل في آخِرِ الآيَة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾:

الخبير: الْعَالِمُ بالأَمْر أوْ بِالشَّيء عِلْماً قائماً على تَجْرِبَةٍ لَهُ، وإدْراكٍ لجُزْئِيَّاتِه، فَهُو بِخبْرَتِهِ يخْتَارُ مَا هو الأَحْكَمُ والأحْسَنُ له.

الْبَصِيرُ: المدْرِكُ بِبَصَرِهِ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أنْ يُرَىٰ حتى الخفايا الباطِنَة.

الْمَعْنَىٰ: إنَّ رَبَّكَ الّذي يُمِدُّكَ بِعَطَاءَات رُبُوبيَّتِهِ دواماً، يا أَيُّها الموضوع في الحياة الدُّنيا موضع الامْتِحَانِ، قَدْ جَعَلَ مِنْ مَوَادِّ امْتِحَانِهِ لِعِبَادِه، بَسْطَ الرِّزْقِ بتَفاضُل، وَتَضْييقَ الرِّزْقِ بِتَفاوُتٍ، وهو عَلِمٌ بِعبادِه عِلْمَ خِبْرَةٍ، بَصِيرٌ بِكُلِّ خَفَايَا نُفُوسِهِم، فَهُوَ بَحسَبِ عِلْمِهِ بكلِّ فَرْدٍ من أفرادهم، وعِلْمِهِ بمَا هُوَ الأَحْكَمُ والأَمْثَلُ لاختبارِه في رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيا، رِحْلَةِ الامْتِحانِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لَهُ بِالمقْدَارِ الأَكْثَرِ حكْمَةً، أوْ يضيِّقُهُ عَلَيْهِ بالمقْدَارِ الأَكْثَرِ حِكْمَة.

الوصِيَّة السّابعة: النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ الأَولَاد خَشْيَةَ الْفَقْر، إذْ كان هذا من عادات بَعْضِ أَهْلِ الجاهِلِيَّة من العرب، دَلَّ على هٰذِهِ الوصيَّة قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

ثُمَّ أنزل اللَّهُ عزّ وجل قَوْلَهُ في سورة [الأنْعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول] مِنْ آية قيل: هي ذَاتُ تتزيلٍ مَدَنيٍّ، ضُمَّتْ إلى سُورَةٍ مكيّةِ التنزيل والله أعلم.

﴿... وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ... ﴿١٥١﴾﴾:

﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾: أي: خَوْفَ حُدُوثِ فَقْرٍ في المستَقْبَل: **الإمْلاَقُ**: الْفقْر الشَّدِيد، يُقالُ لغة: «أَمْلَقَ الدَّهْرُ مَالَهُ» أي: أَذْهَبَهُ أو أفسَدَه.

[**مِنْ إمْلاَقٍ**]: أي: مِنْ فَقْرٍ موجُودٍ حَاصلٍ. «مِنْ» معناها التعليل أي: من أَجْلِ فَقْرٍ مَوْجُودٍ حاصل.

[**خِطأً كَبِيراً**]: أي: إثماً وَذَنْباً كبِيراً.

كان من عادة بَعْضِ العَرب في الجاهليّة أَنْ يتخلَّصُوا من بناتِهِمْ بِالقَتْلِ وأداً، أي: دفناً لَها في التراب عَقِبَ وِلاَدَتِها، وكانَ بَعْضُهُمْ يَفْعَلُ ذَلِكَ إذا كَبِرْنَ خَوْفاً مِنَ الْفَقْرِ، أَوْ خَوْفاً من الْعَارِ إذَا سُبِينَ مِنْ قِبَلِ الْغُزَاةِ.

وهٰذَانِ النَّصَّانِ يتَعَلَّقَانِ بقَتْل الأولاد، للتخلُّصِ مِنَ النَّفَقَةِ عليهم، بسبب الفقر المخوف من حُدُوثِهِ أو الواقع فِعلاً.

وهُمَا مُتكامِلان لَا مُكَرَّرَان:

- فَمَا جاء في سورة (الأسراء) جاء التعبير يه بعبارة: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: خَشْيَةَ حُدُوثِ فَقْرٍ في المستَقْبل، وجاء التَّعْقِيبُ عليه في الآية بعبارة: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ففيها تَقْدِيمُ رِزْقِ الأولاد على رِزْقِ الآباء، لأنَّ الفقر أمْرٌ مَخْوفٌ مِنْ حُدُوثِهِ في المستقبل.

- ومَا جاء في سورة (الأنعام) جاء التعبير فيه بعبارة: [**مِنْ إملاق**] أي: من فَقْرٍ واقِعٍ، وجاء التعقيبُ عليه في الآية بعبارة: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فَفِيها تقديمُ رِزْقِ الآباء علىٰ رِزْق الأوْلاد، لأنَّ الْفَقْرَ أَمْرٌ واقِعٌ موجود والآبَاء بحاجَةٍ آنِيَةٍ إلى الرِّزْق.

فتكامل النَّصَّانِ في أدَاءِ المعْنَىٰ المراد، وجَاءَ تأْخِيرُ آيَةِ (الأنْعَامِ) إلَىٰ

المرحَلَةِ المدنية على ما قيل، لأنَّ النَّهْيَ عَنْ قَتْلِ الأَوْلَادِ فيها مجموعٌ مَعَ وَصَايا فيها بيانَاتٌ مِنَ المناسِبِ تَأْخِيرُ تَزِيلها إلىٰ الْعَهْدِ الْمَدَنى، وضُمَّتْ إلى سُورَةٍ مِكيَّةٍ للدَّلَالَةِ علَىٰ أَنَّ مَطْلُوبَ اللَّهِ فِيها بَعْدَ إكمالِ الدِّين، يَجِبُ تَوْجِيهُهُ في زَمنٍ يُعَادِلُ أوَاسِطَ النِّصْفِ الثاني من المرحَلَةِ المكيّة.

عبارة: ﴿أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ تَشْمَلُ الذُّكُورَ والإناثِ، ولَكِنْ كَانَ مِنْ عادَةِ بَعْضِ الْعَرَبِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا من البنات أكْثَرَ مِنْ تخلُّصِهم من الذكور، ويَقُولُ قائلهم: «وَأْدُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ».

المعنى: لا تُقتُلُوا أَوْلَادَكُمْ لتَتَخَلَّصُوا مِنَ النفقَةِ عَلَيْهِمْ خَشْيَةَ أَنْ تُصَابُوا في المستَقْبَلِ بالْفَقْر بسبَب النَّفقَةِ عليهم، فاللَّهُ بعظَمَةِ رُبُوبيَّتِهِ كفِيلٌ بأنْ برْزُقَهُمْ وَيرْزُقَكُمْ، إذا نَفَدَتِ النَّفَقَةُ الّتِي في أَيْدِيكم، وقد يكونُ رِزْقُكُمْ بسبَبِهِمْ أوْ عَنْ طَرِيقهم إذا كَبِرُوا، ولمَّا كانَ الباعِثُ هُنَا خَشْيَةَ حُدُوثَ الْفَقرِ مستقبلاً، لَا واقِع الفقر، كان البيان مشتَملاً على تقديم رزْقِ الأوْلَادِ على رِزْقِ أوْليائِهم الّذين يُنْفِقُونَ عَلَيْهم، لأنَّ الأمْرَ هُنَا يَتَعَلَّقُ بالحذَرِ من المستقبل المجْهُولِ، وفِيه شَكٌّ في اللَّهِ ووَعْدِهِ، ومقادِير رِزْقه، وفيهِ تخَلٍّ عَنْ واجِب التوكُّلِ عليه تبارَكَ وتعالَىٰ. بخلاف الحالة الأخرى، وهي قَتْلُ الأولادِ للتخلُّصِ من واقِع الفقر، ومَا فيه من آلَامٍ تُحْدِثُ اضطراباً في النَّفْسِ والْفِكْرِ قَدْ يُغَشِّي على ثَوابِتِ الإيمانِ ورَكائِزه وتَصَوُّراتِه، فيَجْعَلُ صَاحِبَهُ يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَ غَيْر المؤمنينَ، لذَلِكَ كانَ بحاجَةٍ إلىٰ مَا يُزِيلُ الْغَشَاوَةَ عَنْ نَفْسِهِ وَفِكْرِه، حتَّىٰ تَتَبَيَّنَ لَهُ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقَائِقِ الإيمان، وهِيَ: أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ وَيرْزُقُ أَوْلَادَه، فَلا دَاعِيَ للتَّخُلصِ من واجِب النَّفَقَةِ عليهم، ومن واجب السَّعْي لاكتسابها كما أَمَرَ اللَّهُ، فالقضيَّةُ واجِبٌ إجتماعِيٌّ مضْمُونُ النتائج بكَفَالَةِ الخالِقِ الرازق.

الوصيّةُ الثامِنَة: النَّهْيُ عَنِ الزِّنَىٰ والاقْتِرَابِ مِنْهُ بالمقدِّماتِ الَّتِي قَدْ

تَجُرُّ إلَيْه، دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللَّه عزّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾:

• ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾: النَّهْيُ عَنِ اقْتِرابِ الزِّنَىٰ أَبْلَغُ من النَّهْيِ عن الزِّنَىٰ نَفْسِه، وَفي النَّهْيِ عَنِ الاقْتِراب معْنَىٰ النَّهْيِ عَنِ المقَدِّماتِ الّتِي قَدْ تُفْضِي إلَيْهِ، كالملامَسَةِ والتقبيل ونحو ذلك.

يُقَال لُغَةً: «قَرِبَ الشيْءَ، يَقْرَبُهُ، قُرْباً، وَقُرْباناً» أي: دَنَا مِنْه ـ وبَاشَرَه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾: أيْ: إنَّهُ فَاحِشَةٌ دواماً، ففِعْلُ «كَانَ» هُنَا مَعْنَاهُ الوجُودُ الدائم.

الفاحشَة: كُلُّ قَبيحٍ تَجاوَزَ حَدَّ مَا يُحْتَمَلُ وَيُغْضَىٰ عَنْهُ عَادَةً من قَوْلٍ أو فِعْلٍ. قَال أهل اللُّغَة: كُلُّ شيءٍ جاوز قَدْرَه وحَدَّهُ فَهُوَ فاحِش. وجاء في القرآن استعمال: (الفاحِشَة، والفحشاء، والفواحش» في الكبائر المتعلِّقَةِ بشَهَواتِ الْفُرُوج.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ **سَاءَ**: فِعْلٌ يُقَالُ في إنْشَاءِ الذّمّ على سَبيلِ المبالغة، وهُوَ: مِثْل: «بِئْسَ». والمعنى: وبِئْسَ الزِّنىٰ سبيلاً إلَىٰ تحقيق شهَواتِ الْفُرُوج.

وقد شدّد اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في النَّهْي عَنِ الزِّنا، وجاء في القرآن بشأنه سِتَّةُ نُصوصٍ متكامِلَةُ الدَّلالاتِ فيما بينها.

الوصية التاسعة: النَّهيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إلَّا بالحقّ، دَلَّ هذه الوصِيَّة قول اللَّهِ عزّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾:

لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ في ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيَا لِيَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أحْسَنُ عَمَلاً، أي: ليكْشِفَ دَرَجَاتِهِمْ في حُسْنِ العَمل، ويُقَابِلُ هَذا كَشْفُ دَرَكَاتِهِمْ فِي سُوءِ العَمل، وهذا الإبتلاءُ يَسْتَتْبعُ في حِكْمَةِ اللَّهِ الْحَسَابَ يَوْمَ الدِّين، وفَصْلَ الْقَضَاءِ، ثُمَّ الجزاء بِحَسَب الأحكام القضائيّة الَّتي تَصْدُرُ مِنَ اللَّهِ عزّ وجلّ بشَأْنِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ، عَلَىٰ مَا كَشَفَ ابْتِلَاؤه في رِحْلَةِ الحيَاةِ الدُّنيا، ويَعْفُو بِحِكْمَتِهِ عَنْ كثيرٍ مِنْ سَيِّئاتهم.

ولَهٰذا حَرَّمَ اللَّهُ عزّ وجلَّ عَلىٰ عِبَادِهِ قَتْلَ النُّفُوسِ بغَيْرِ حَقٍّ، لأنَّ هٰذا يُعَارِضُ حِكْمَتَهُ فِي وَضع النُّفُوسِ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، فالأصْلُ في النَّفْسِ الإنْسَانِيَّةِ صيانَتُها مِنَ الْقَتْلِ ولو كانت كافِرَةً بِرَبِّها.

وقَتْلُ النَّفْس بوسِيلَةٍ من الْوَسَائِلِ الّتي جَعَلَها اللَّهِ عزّ وجَلَّ أسْبَاباً لانفصال الرُّوح عنها، إذِ النُّفُوسُ هي الّتِي تَذُوق الموْتَ، والإنسانُ مُكوَّن من نَفْسٍ، وَجَسدٍ يَحْتَوِي على النَّفْس ذَاتِ الْخَصَائصِ الَّتِي فَطَرَهُ اللَّهُ عليها، وَرُوحٍ تُمِدُّ النَّفْسَ والْجَسَدَ بالحياة، كالآلَةِ الكهْرُبائِيَّةِ ذاتِ الخصائص الَّتِي تعَمَلُ بمُقْتَضَاهَا، إذا دَخَلَتْ في أسلاكها الخاصَّةِ الطاقَةُ الكهربائيّة أدَّتْ أعمالها، وإذَا انْفَصَلَت عَنْها الطاقَةُ الكهربائية تَوَقَّفَتْ عَنِ الْعَمل.

ولأجْسَادِ الأحياء نظامٌ رَبَّانِيٌّ خاصٌّ، فإذَا أُصِيبَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ فِيه مَقْتلاً بإصابَةٍ قاتِلَةٍ، انْفَصَلَتْ فِيه الرُّوحُ عَن النَّفْسِ، فَتَذُوقُ النَّفْسُ بهذا الانْفِصَالِ الموتَ، ويَصِيرُ الْجَسَدُ مَيّتاً لَيْسَ فِيهِ حَيَاةٌ تَجْمَعُ كُلَّ أعْضَائِهِ الرَّئِيسَةِ الّتي يَكُونُ بها حيّاً.

فَمَعْنَىٰ قَتْل النَّفْس اتِّخاذُ وسِيلَةٍ جَعَلَهَا اللَّهُ سَبباً لانْفِصال الرُّوحِ عَنْها، أمّا الإماتَةُ بانفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ فَلا تَكُون إلّا بخَلْقِ اللَّهِ أَوْ إذْنِه.

واللَّهُ عزَّ وجلَّ نَهَىٰ عَن اتّخاذِ وَسِيلَةٍ ما من الوسائل الّتي جَعلَها في نِظَامِهِ التّكْويني سبباً من أسْبَاب انْفِصَالِ الأرْواح عَنِ النّفُوس.

النّفْسُ: هِيَ المادّةُ الّتِي أوْدَعَ اللَّهُ فِيهَا خَرِيطَةَ الْكَائِنِ الحيّ الحاوِيَة لِكلِّ صِفَاتِه المعنويّةِ والْجَسَدِيَّة، فإذا دَخلَتْ فِيها الطّافةُ الرُّوحِيّة، بالشُّرُوط الّتِي جَعلَهَا اللَّهُ لَها، صَارَت النّفْسُ وَكُلُّ مَا الْتَحَقَ بها من جَسَدٍ كَائِناً حَيّاً.

وأحْيَاناً تُطْلَقُ النَّفْسُ علَىٰ الرُّوح، وأحياناً تُطْلَقُ الرُّوح عَلَىٰ النَّفْس، لكِنَّ تَدَبُّر النَّصُوص بِعُمْقٍ يَدُلُّ على أنَّ الرُّوحَ مَا تَكُونُ بِهِ الحياةِ، وأنَّ النَّفْسَ ما يَحْتَوِي خَرِيطَةَ الكائِنِ الحيّ، بصِفَاتِهِ المعنويّةِ والْجَسَدِيَّة.

قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ الحقُّ هُنَا هُوَ مَا أَذِنَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيهِ بالقتل، أَوْ أَمَرَ به، كَقَتْلِ الْقَاتِلِ الَّذِي لَمْ يَعْفُ عنْهُ بَعْضُ أَوْلِياءِ المقتول، وكقَتْلِ الزّاني المحْصَنِ رَجماً، وقَتْلِ الْمُرْتَدِّ عن الإسلام المفارِقِ لجماعَةِ المسْلِمين، وَقَتْلِ المقاتلينَ من الكافِرين، وقَتْلِ الصَّائِلين، وقَتْل ذوي الحِرابَةِ الخارجين على نظام الدَّوْلَة المسْلِمة، وقِتَال الفِئَةِ الْبَاغِيَة.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾﴾:

كان من عادَةِ عشائرِ وقبائلِ الْعَرَبِ في الجاهليّة قبلِ الإسْلام، أنْ يَقْتُلُوا في مُقَابِلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ ظُلْماً وَعُدْواناً، أعْداداً كثيرةً مِن عَشِيرَةِ أو قَبيلَةِ القاتِل، وتتّسع بهَذا دوائِرُ التقاتُلِ والعداء، وهذا مُنَافٍ لِقَانُونِ الْحَقِّ والعَدْلِ، الَّذِي يَقْضِي بِحَصْرِ جَرِيمَةِ الْقَتْلِ ظُلْماً وعُدْواناً بالْقَاتِلِ، دُونَ أَنْ يتعَدَّىٰ ذَلِكَ إلى أوْلِيَائِهِ، أو عشيرَتِهِ، أوْ قَبِيلَتِهِ [لِوَلِيّهِ] إضافة «الولي» إلى ضمير المقتول تفيد العموم، فهو يَنْطبقُ على الواحد فأكْثَر.

وبِحَصْرِ جريمةِ هذا الْقَتْلِ بالْقَاتِلِ، يَكُونُ مِنْ حَقِّ أَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ وهم

مُسْتَحِقُّو الإرْث مِنْ تَرِكَتِهِ، أنْ يُطالِبُوا بالقِصَاصِ، أو بأنْ يَرْضَوْا أَوْ يَرْضَىٰ بَعْضُهُمْ بالدِّيَة، وبِهَا يَكُفُّ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ عَنِ المطَالَبَةِ بالْقِصَاصِ مِنَ القَاتِلِ.

وبهذَا جَاءَ الإسْلام، فَحَمَّلَ القضاءَ الشَّرْعِيَّ، والدَّوْلَةَ الإسْلامِيَّة، مَسْؤولِيَّةَ الْقَبْضِ على الْقَاتِلِ، والْحُكْم عَلَيْهِ بالْقِصَاصِ إذا طَالَبَ أَوْلِياءُ الْقَتِيلِ بالْقِصَاصِ إجْماعاً، أَوْ بِدَفْع الدِّيَةِ المقرَّرَةِ شَرْعاً، إذَا رَضِيَ بَعْضُهُمْ بالْعَفْوِ عَنِ الْقِصَاصِ، وَقَبُولِ الدِّيَة، وَتَقُومُ الدَّوْلَةُ الْمُسْلِمَةُ بالتَّنْفِيذِ في حَالَةِ الْحُكْمِ بالْقِصَاصِ، وبإلْزَام الْقَاتِلِ بالدِّيَةِ في حَالَةِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِدَفْعِ الدِّيَة، وهٰذا نصْرٌ من اللَّهِ جلَّ جَلاَلُهُ لِأَوْلِيَاءِ الْقَتِيل.

فالمعْنَىٰ بَعْدَ هذا البيان: وَمَنْ قُتِلَ مظْلُوماً عَمْداً وَعُدْواناً، فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ (وهُمْ وَارِثُوه) سُلْطَاناً (أيْ: قُوَّةً تُحقِّقُ قانُونَ الْعَدْلِ) بالْحُكم الشَّرْعِيّ الرَّبَّانِيّ، وبالدَّوْلَةِ التَّنْفِيذيَّةِ الْمُسْلِمَة، فَعَلَىٰ الْوَلِيّ فَرْداً كَانَ أَمْ أَكْثَرَ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ تَقَالِيد أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ الآثِمَة الظَّالِمَة، الناشِرَةِ لِلْعِدَاءِ والتقاتُل، بيْنَ الأُسَرِ، والْعُشَائِرِ، والقبائل، فَلاَ يُسْرِفْ في الْقَتْلِ، بالمطالَبَةِ بِدَمِ غَيْر القاتل، أو بالْعَمَل عَلَىٰ قَتْلِ أعْدَادٍ من أُسْرَةِ الْقَاتِلِ أَوْ عَشِيرَتِهِ، أَوْ قبيلَتِهِ، أَوْ قَوْمِه، لأَنَّ كُلَّ هٰذا مُنَافٍ للْحَقّ والْعَدْل، إذ هُوَ مَنْصُورٌ بالْحُكْمِ الرَّبَّانيّ، وبالدَّوْلَةِ المسْلِمَةِ المنَفِّذَةِ لشَرْع اللَّهِ، وأَحْكامِ دِينِهِ لعِبَادِه.

وهذا يَتَضَمَّنُ مُطَالَبَةَ الْمُسْلِمينَ جَمِيعاً، بإقَامَةِ دَوْلَةٍ مُسْلِمَةٍ تَحْكُمُ بِشَرْعِ اللَّهِ، وتَنْصُرُ المظْلُومِينَ وأَوْلِيَاءَهُم عَلَىٰ الظَّالِمِينَ الْمَعْتَدِين.

الوصية العاشرة: النَّهْيُ عَنِ الاقتراب مِنْ مَالِ الْيَتِيم إلَّا بالَّتِي هيَ أحْسَن، دَلَّ عَلَى هٰذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ. . . ﴿٣٤﴾﴾:

ثُمَّ أَنْزَل اللَّهُ عَزَّ وجلّ في الْعَهْدِ المدَنِيّ مُطَابِقَ هذِهِ الوصِيَّة، ضِمْنَ

وَصَايا مُتَعَدِّده، ضُمَّتْ إِلَىٰ سُورَةِ (الأنْعَام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) المكية في الآيتيْن (١٥١ و١٥٢) مِنْها.

النَّهْيُ عَنِ الاقْتِراب كما سبَقَ آنِفاً لَدَى تَدبُّرِ الآية (٣٢) أبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنْ مُبَاشَرَةِ الشَّيْء.

إنَّ أمْوَالَ الْيَتَامَىٰ الضُّعَفَاءِ تُغْرِي ذَوِي النُّفُوسِ الطَّامِعَةِ الآثِمَةِ، بأنْ يَأْكُلُوهَا ظُلْماً وعُدْواناً، وَبأنْ يَسْتَأْثِرُوا بها لأنْفسِهِمْ، إذْ يَجدُونَ أنْفسَهُمْ الأَوْصِيَاءَ عَلَيْها، وَمَالِكُوهَا لَا يَسْتَطيعُون مُرَاقَبَتَهُمْ ولَا مُحَاسَبَتْهُمْ عَلَىٰ تَصَرُّفَاتِهِمْ فِيها.

وكانَ أَهْلُ الْجاهِلِيَّةِ يَسْطُونَ عَلَىٰ أمْوالِ الْيَتَامَىٰ، سَواءٌ أكانوا إخْوَانَهُمْ أَمْ أَخَواتِهِمْ، أم أَوْلَادَ إخْوتِهم، أمْ أَوْلَادَ أيِّ قَرِيبٍ من أقربائِهم، فَيَضُمُّونَهَا إلى أمْوَالهم، ظُلْماً وعُدْواناً.

فَشَدَّدَ اللَّهُ عزّ وجلَّ وأكَدَّ في الإسْلام التَّحْذِيرَ مِن الأقْتِرَاب مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ اقْتِرَاباً يُغْرِي بأخْذِ شيءٍ مِنْها بغَيْرِ حَقٍّ، أو بِالانتفاع بشيءٍ مِنْها بغَيْرِ حَقٍّ، أو اقْتِرَاباً مُفْسِداً إفْسَاداً ما.

واسْتَثْنَىٰ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ مَا كَانَ لِحفْظ المالِ، أو لْلإنْفَاقِ مِنْهُ علَىٰ اليتيم، أو لإصْلَاحِهِ، وَتَنمِيَتِه، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ أحْسَنُ مِنْ عَدَم الاقْتراب مِنْه.

وجاءتْ هذه الوصيَّة بأسْلُوب الخطاب الجماعِيّ، لتحميل الجماعَة الْمُحِيطَةِ باليتيم مَسْؤُولِيَّةُ المراقَبَةِ والمحاسَبَةِ والتَّدخُّلِ لحفظ مالِهِ، مِنْ أَنْ يَأْكُلَهُ أحَدٌ بغَيْرِ حَقٍّ، ولِحفْظِهِ من أَنْ يَتَعَرَّضَ للنقصِ والفساد بالإهمال.

اليتيم: هو الولد الصَّغير الذّي مَاتَ أبُوهُ مِن النَّاس، وَيَبْقَى يتيماً حتَّى يَبْلُغَ الْحُلم، ويُجمَعُ على «أيْتام» و«يَتامَىٰ».

[إلاَّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ] أيّ إلَّا اقْتِرباً وَمُباشَرَةً بالمكْسُوبَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ عَدَمِ الاقتراب والمباشرة، على ما سبَقَ بيانه.

[حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ]: أي: حتَّىٰ يَبْلُغ اكْتِمَالَه، أشَدُّ كُلِّ شيءٍ اكْتِمَالُ تنامِيه، بحَسَبِ صِفَاتِهِ القابِلَةِ للاكْتِمَال.

وجاء بيانُ هذا الاكتمال بأنَّه إينَاس الرُّشْدِ في الْيَتِيم، بقول اللَّهِ عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ . . . ⑥﴾.

دلَّت هذه الآية على أنّ بلوغ الحُلُم لا يكفي لتسْلِيم اليتيم أمواله، بل لا بُدَّ من بلوغه الرُّشْد في تصرُّفاته. ولمَّا كان الْعُدْوانُ علىٰ مَالِ الْيَتيم عُدْواناً علىٰ حَقٍّ ضَعِيفٍ لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يُدَافِعَ عَنْ حُقُوقه، جعَلَ اللَّهُ عزّ وجل عُقُوبَة مَنْ يأكُلُ مَالَ اليَتِيم ظُلْماً كَمَنْ يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ ناراً، فقال تبارَك وتَعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ⑩﴾:

أي: وَسَيُعَاقِبُ اللَّهُ عزّ وجلّ نَفُوسَهُم بَعْدَ الموتِ في مُدّةِ البرْزخ بأنْ يَذُوقُوا عَذَابَ سَعِير، أي: عَذَابَ مَسِّ لَهَبِ نَارٍ، دَلَّ على أنَّهُ من أنواع عذاب القبر استعمالُ «السّين» من أدواتِ المستقبل، فالمستقبل الْبَعِيدُ الَّذِي يكونُ يومَ الدّين تُسْتعْمَلُ لَهُ في القرآن بِوَعْدٍ من الرَّبِّ كَلِمةُ «سَوْف» فيما ظهر لي.

الْوَصِيَّةُ الحادِية عشرة: الأمْرُ بالوفاء بالْعَهْد، دلَّ علَىٰ هذِهِ الوصيَّةِ قول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ㉞﴾:

الْعَهْدُ: كلُّ مَا بَيْن الْعِبادِ من مَوَاثِيقَ يَلْتزِمُونَ بالْوَفَاءِ بها، علىٰ مَا اتّفقُوا عليه، وكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ به ونَهَىٰ عَنْهُ، وأعْلَنَ الْمُسْلِمُ بِأَنَّهُ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِ، وبَايَعَ اللَّهَ عَلَيْهِ بإعْلَانِه إسْلَامَه.

والْوَفَاءُ بِالْعَهد: تَحْقِيقُ مَا تَمَّ عَلَيْهِ الْعَهْدُ وافِياً تَاماً، بلَا نَقْضٍ ولا إخْلَافٍ، وَلَا نَقْصٍ.

يقال لغة: «أَوْفَىٰ الشيءَ، يُوفِيهِ إِيفاءً وَوَفَّاهُ يُوَفِّيهِ تَوْفِيَةً» أي: أَتَمَّهُ وافِياً كامِلاً غَيْرَ مَنْقُوص. ويُقَالُ: «أَوْفَىٰ ووفَّىٰ فُلَاناً حَقَّهُ» أي: أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وافِياً غَيْرَ مَنْقُوص. ويقال: «أوفَىٰ بالْوَعْدِ والْعَهْد» أي: حَقَّقَ مَا وَعدَ بِهِ، أَوْ عَاهَدَ عَلَيه، تامّاً غَيْرَ منْقُوصٍ.

والوفاء بالْعَهْدِ مِنْ فَضَائِلِ الصِّدْقِ في التّعَامُلِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّه، وَمِنْ فَضَائِلِ الصِّدْق في التعامُلِ بَيْنَ الإنْسَانِ والإنْسَان، وتَعَمُّدُ عَدَم الوفاء بِالْعَهْدِ كَذِبٌ وَخِيَانَةٌ، ومَعلُومٌ أَنَّ الصِّدْقَ والأَمَانَةَ من الْجُذُورِ الكُبْرَىٰ لفَضَائِلِ الأَخْلَاق، وفَضَائِلُ الأَخلَاقِ من كُلّيَّاتِ الدِّين الَّذِي اصطفاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ لعباده، فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا.

الوصية الثانية عشرة: الأمْرُ بإيفاء الكَيْلِ والْوَزْنِ بالْقِسْطَاسِ المستقيم، دَلَّ علىٰ هذه الوصية قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلَّ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

تَعْتَمِد الْمُبَادَلَاتُ فِي مُعَامَلَاتِ الْبَيْع والشِّراء وَنَحْوِهما بَيْنَ النَّاسِ، عَلَىٰ الكيل فيما يُكالُ، وَعَلَى الْوَزْنِ فيما يُوزَنُ بَحَسَبِ اعْرَافِ النَّاس.

الكَيلَ: تَحدِيدُ مقدار الشيء بوسَاطَةِ آلَةٍ مُعَدَّةٍ لذلك، يُقَدَّرُ بها حَجْمُه، أو يُقَاسُ بها طُولُهُ وعَرْضُهُ، وهٰذه الآلَةُ مُتَعَارَفٌ عليها. وإيفاءُ الكَيْلِ جَعْلُهُ وافِياً غَيْرَ منْقُوص.

وحين يَكِيلُ البائِعُ للشّاري كيْلاً غَيْرَ وافٍ يَكُونَ آكِلاً لبَعْضِ مَالِهِ بالباطِل، وكذلك حِينَ يكيلُ الشّاري لِنَفِسِهِ كيلاً زَائِداً عَلَىٰ حَقِّهِ، يكُون آكِلاً لِبَعْضِ مَالِ البائِع بالْباطِلِ.

الْقُسْطَاس: بضَمّ الْقَافِ وكَسْرِها، أَضْبَطُ الْمَوازِينِ وأعْدَلُها، وجاءَ

في الْوَصِيَّةِ وَصْفُهُ بِالمسقيم لِتَوْكِيدِ وُجُوبِ كونِه مُعْتَدِلاً، لَمْ تَدْخُلْ فِيهِ يَدٌ عَابِثَةٌ، وَلْم يَتَعَرَّضْ لِمَا يُغَيِّرُ ضَبْطَهُ التَّامَّ.

وأبانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في الوصيَّة أنَّ إِيفَاءَ الكيل، وَالْوَزْنَ بالْقسطاسِ المستقيمِ خَيْرٌ لِلإِنْسَانِ مِنْ أَنْ يَطْمَعَ بزِيَادَةٍ علَىٰ حَقِّهِ، أَوْ نَقْصٍ مِنْ حَقّ الشَّخْص الّذِي يَتَعَامَلُ مَعه، فَيَجْلُبَ ذَٰلِكَ لَهُ خَسَارَةً وعُقَوبَةً له في مالِهِ في الدُّنيا، وهو أيضاً أحْسَنُ مآلاً يَوْمَ الدِّين.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: **التَّأويلُ**: الإرْجاعُ، والتَّصْيِيرُ. ومَعْلُومٌ أَنَّ التَّبَرُّؤَ: مِنْ أكْل أموال الناس بالْبَاطِلِ أحْسَنُ جَزاءً، فَالجزَاءُ هو الَّذِي يُرْجِعُهُ اللَّهُ إِلَىٰ الإنْسَانِ عَلَىٰ ما أصْدَرَ مِنْ عَمَلِه، وأَحْسَنُ تَصْيِيراً، فالجزاءُ هُو الذي يَصِيرُ إِلَيْهِ الإنْسَانُ، وهُو إمَّا أنْ يكون مَصِيراً حسناً، أوْ مَصِيراً سَيِّئاً بَحسَب عمله الذي قدَّمه.

الوصية الثالِثَة عشرة: النَّهْيُ عَن تَبعِيَّةِ الإنْسَانِ لغَيْرِه فيما لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وإذْ هُو من التَّقْلِيدِ والاتّباعِ الأعْمَىٰ، مع أَنَّ الخالِقَ الْفَاطِرَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ قَدْ وَهَبَ الإنْسَانَ أَدوَاتِ الْمَعْرِفِةِ، ومن أعظمها السَّمْعُ والْبَصَرُ والْفُؤاد (وهُوَ الْقُوَّةِ الْمُفَكِّرَةُ الْمَدْرِكَةُ الْعَاقِلَة).

دَلَّ علَىٰ هٰذِهِ الوصيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ، بأسْلُوب الخِطَاب الإفرادِيّ لأنَّ البواعِثَ هُنَا بِواعِثُ فَرْدِيَّة:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾:

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أي: وَلَا تَتبَعْ. يُقَالُ لُغَةً: «قَفَا الشيءَ يَقْفُوه قَفْواً، وَقَفَاهُ يَقْفِيهِ قَفْياً» أي: تَبِعَهُ، والأصْلُ اتّباعُ الإنسانِ مِنْ قَفَاهُ، فالْقَفَا مُؤَخَّرُ الْعُنُق.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: ولَا تَتَّبعْ شَيْئاً لَا تعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ وصَوابٌ، أو

هُو الأرجَحُ والأفْضَلُ مِنْ غَيْرِه، لتحقِيقِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دفْعِ مضَرَّة.

• المشْرِكُ يَتَّبِعُ فِكْرَةً لَا يَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ وصَواب، ولَا يَعْلَمُ أَنَّ مَا يَعْبدُ مِنْ دُون اللَّهِ يجْلُبُ لَهُ بِعِبَادَتِهِ نَفْعاً أو يَدْفَعُ عَنْهُ ضرّاً، وإنَّما يُقَلِّدُ تَقْلِيداً أعْمَىٰ، ويَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عَلْم.

• والّذي يُقَاتِلُ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً وَيَنْصُرُ عصبيَّة، يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِه عِلْمٌ، واتّباعُهُ هَذا الْتزامٌ بمفاهِيم جاهِلِيَّة لَاحقَّ فيها ولَا رُشْدَ.

• ومُلْتَزِمُ أوامِرِ قَادَةِ الحزب الَّذي يَنْتَمِي إلَيْهِ، يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، إذْ قَدْ تَكُونُ أوامِرُ القادَةِ مَدْفُوعَةً بأهْواءٍ ومَصَالِحَ شخصيَّة، فالمُلْتَزِمُ بها من الأفْرَادِ المنتمِينَ إلى الحزب، يَعْمَلُ على تَحْقِيق أهواء القادة، ومصالحهم الخاصَّةِ، ورُبَّما كان هؤلاء القادةُ خائِنين يَعْمَلُون بأوامِرِ أعْداء الأمَّةِ كُلّها، كحِزْبٍ عَرَبيٍّ يَعَمَلُ قادَتُهُ بأوامِرَ سِرِّيَّةٍ من المحَافِلِ الماسُونيَّةِ ذَاتِ القِيادَةِ اليهوديَّةِ في العالم.

ومُلْتَزِمُ مَذْهَبٍ وَضْعِيٍّ مِنْ مَذَاهِبِ الناسِ بكُلّ مَا فِيه، يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ ولَا بنتَائِجِهِ وَلَا بآثارِهِ عِلْمٌ، وَحِينَ تَظْهَرُ آثَارُ المذهَبِ الفاسِدَةُ والْمُفْسِدَةُ لِلأَفْرَادِ ولِلأُمَّةِ جَمِيعاً، يَقُول: مَا كُنْتُ أتصَوَّرُ أَنَّ هٰذَا المذْهَب سَيُلْقِي بالمجتمع كُلِّه في هذِهِ الأوحال، وهٰذا لَا يَصْلُح عُذْراً، لأَنَّهُ خَالَفَ وَصِيَّةَ اللَّهِ ابْتِداءً، فَاتَّبَعَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْم.

ومُلْتَزِمُ مَذْهَب اجْتِهَادِيٍّ في مسَائل الدِّينِ، الْتِزَاماً تَعَصُّبيًّا، فَهُو لَا يَرَىٰ حَقًّا إلَّا مَا ذَكَرَهُ مُدَوِّنُو المذهَبِ في كلِّ مسألَةٍ، وَفي كُلّ قَضيَّة، ويَجْعَلُ كُلَّ اجْتِهَادٍ خالَفَ رَأْيَ مَذْهَبِهِ اجْتِهاداً باطِلاً، يَدْخُلُ فِي عُمُومِ الّذِين يَقْفُونَ مَالَيْس لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ. مَا أحْكَمَ هذِهِ الوصِيَّةَ الرَّبَّانِيَّةَ، ذَاتَ الْمَفْهُومِ الْكُلِّيِّ الَّذِي هو مِنْ جَوامِعِ الْكَلِم!! إنَّهَا تنْطَبِقُ علىٰ صُوَرٍ كَثِيرَةٍ جِدّاً يَصْعُبُ حَصْرُ مَفْرَدَاتها.

• ﴿. . إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾:

المرادُ بالْفُؤادِ هُنَا عُمْقَ الجهازِ الْمُدْرِكِ المفكّر العاقِلِ داخِلِ النَّفْسِ الإنْسَانِيَّة.

وإثباتُ مَسْؤُوليَّةِ السَّمْع والْبَصَرِ والْفُؤَادِ في الإنْسَانِ، هو في الحقيقة إثْبَاتٌ لِمَسْؤولِيَّةِ إرادَتِهِ فِيه، فَهِيَ مَناطُ مَسْؤُولِيَّتِهِ في رِحْلَةِ ابْتِلائِه في الحياة الدُّنيا، مُقْتَرِنَةً بِبَاقِي شُرُوط امْتِحانِهِ الأمْثل.

فَالسَّمْعُ يُقَدِّمُ لِلْقُوَّةِ المدرِكَةِ الْمُفكِّرَة الْعَاقِلَةِ مِقْداراً كبيراً من المعارف الَّتِي تُبَيِّنُ لَهُ بِوُضوحٍ كثيراً مِنَ الحقائق، ومنْهَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ عقلاً أَنْ يَقْفُوَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْم.

والْبَصَرُ يُقَدِّمُ لَهَا مقداراً كبيراً من المعارفِ، ومِنْها أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ عَقْلاً أَنْ يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْم.

والْفُؤَاد (الّذي هُوَ عُمْقُ الْقُوَّةِ المفكِّرَةِ العاقِلَةِ في الإنسان) يُقَدِّمُ لَهُ بتَحْلِيلَاتِهِ جُمْلَةً مِنَ الحقائِقِ المعرفيّة، ومِنْها أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ عَقْلاً أَنْ يَقْفُوَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْم.

ويُقَاسُ على السَّمْعِ والْبَصَرِ سَائِرُ الحواسِّ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَة. والمعنى: يَا أَيّها الإنْسَانُ ذُو الإرادَةِ الحرَّةِ الواعِيَة، لَقَدْ مَنَحكَ رَبُّكَ فُؤاداً تُدْرِكُ بِهِ كثيراً مِنْ حَقَائِقِ الأشياء، بتحليلاتِهِ الذَّاتِيَّة، وعن طَرِيق مَا تُقَدمُ لَهُ حَوَاسُّكَ الظَّاهِرَة، وأَجَلُّها السَّمْعُ والْبَصر، فَلَا تَتَّبعْ في سُلُوكِكَ في الحياة مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم، ففي هَذا الاتّباعِ تَعْطِيلٌ لِمَا وَهَبَكَ رَبُّكَ مِنْ أدواتٍ ظاهِرَةٍ وبَاطِنَةٍ، تَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ تَعْلَمَ الْحَقَّ والصَّوَاب، وَمَا هُوَ الأَرْجَحُ والأفْضَلُ مِنْ غَيْرِه، لِتَحْقِيق مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مضَرةٍ، فَلِمَاذَا اتَّبَعْتَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، في كَذَا، وكذَا، وكَذا؟؟.

ألم يَهَبْكَ رَبُّكَ سَمْعاً تَسْمَعُ بِهِ؟!. أَلَمْ يَهبْكَ بَصَراً تُبْصِرُ بِه؟!. أَلَمْ

يَهَبْكَ فُؤَاداً تُفكِّرُ بِهِ، وتَعْقِلُ بهِ، وتُدْرِكُ بِهِ حَقَائِقَ الأُمُورِ الَّتِي اتبَعْتَهَا وأنْتَ جاهِلٌ لَا تَعْلَمُ أنَّها حَقٌّ وخَيْرٌ ورُشْد، وكَانَ باسْتطاعَتِك أَنْ تُدْرِكَ أَنَّها بَاطِلٌ وشَرٌّ وإثم، أَوْ أَنْ تَكُفَّ نَفْسَكَ عن اتبّاعها إنْ لم تَعْلَمْ حَقيقَتَها؟؟!

الوصيّة الرابعة عشرة: النهْيُ عن الكِبْرِ ومِنْ مظاهِرِهِ أنْ يَمْشِيَ الإنْسَانُ في الأرضِ مُسْتَكْبِراً مُتَبَخْتَراً مُتَعَالِياً عَلَىٰ عِبادِ اللَّه، دلَّ على هٰذهِ الوصِيَّة قول اللَّهِ عزّ وجلّ بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفْرَادِي: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾:

المَرَحُ: الاخْتِيَالُ والتَّبَخْتُر في المشي، وَأَصْلُهُ شِدَّةُ الْفَرَحِ والنَّشَاطِ وتجاوُزُ الحدِّ فِي الحركَاتِ.

وجاء في وَصَايَا لُقْمَانَ لِابْنِهِ قَوْلُهُ لَهُ، كما جاء في سورة [لُقْمانَ/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول]:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾:

وصَايا لُقْمَان لابْنِهِ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَىٰ اللَّهُ بها النَّاسَ، في الشرائِعِ والرِّسَالَاتِ السَّابقاتِ لِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ أَوْرَدَهَا اللَّهُ عزّ وجلَّ تعْلِيماً لْلآبَاءِ مَا يُوصُونَ بِهِ أَبْنَاءَهم، وثناءً على لُقْمَانَ إذْ قام بهذا الواجب التَّرْبُويّ تُجاهَ ابْنِه، وإِشعاراً بأَنَّ هذا مِنْ تعاليم الإسلام.

تَصْعِيرُ الخدِّ للنّاسِ: إِمَالَةُ الْوَجْهِ عَنْهُمْ علَىٰ سَبِيل الإعراض استكباراً عَلَيْهِم، وهُو ظاهِرَةٌ مِنْ ظَواهِرِ الكِبْرِ في السُّلُوكِ والْعُجْبِ بالنَّفْس.

وكلٌّ مِنْ تَصْعِير الخدِّ للنَّاسِ، والمشْي فِي الأرْضِ على وجْهِ المرَحِ والاختيالِ اسْتِكْبَاراً علَىٰ النَّاس وَافْتِخاراً، وتَعَالِياً عَلَيْهِمْ، ممَّا يُبْغِضُهُ اللَّهُ في عبادِهِ، باسْتِثْناء مَا تَقْتَضِيهِ مَصْلَحَةٌ دينِيَّة، كاخْتِيالِ الْمُقَاتِلِ الْمُسْلِم لَدَىٰ مُوَاجَهتِهِ لِنِدِّه من الكافِرِين فِي الحرْب.

[وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرحاً]: أي: وَلَا تَمْشِ أَيُّها المؤمنُ الْمُسْلِمُ فِي الأرْضِ مِشْيَةَ تبخْتُرٍ واخْتِيَال وَتَفاخر، فَاللَّهُ عزَّ وَجلَّ لَا يُحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ علَىٰ النَّاسِ، مستَكبِرٍ بِمشيَتِهِ، ولَا يُحِبُّ كلَّ فَخُورٍ على الناس بنَفْسِهِ، أو بما آتاه اللَّهُ من مَفَاخِرِ الحياة الدُّنيا.

وكشَفَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ للمستكْبِرِ المختالِ فِي مِشْيَتِهِ وَاقِعَ حَالِهِ الصغير، فأبَانَ لَهُ أنَّهُ حين يَضْرِبُ الأَرْضَ بِرِجْلِهِ، ويتَطاوَلُ مُسْتَعْلِياً بقَامتِهِ على الناس، لَنْ يَسْتَطِعَ أَنْ يَخْرِق الأَرْضَ أو أَنْ يَبْلُغَ الجبالَ طُولاً.

وفي هذا إمْعَانٌ إلْماحِيٌّ بِتَحْقِيرِ المسْتَكْبِرِ، فالأرضُ الَّتِي يَمْشِي علَيْها أَصْلَبُ مِنْ قُوَّتِه، والصُّخُورُ الجامِدَةُ المكَدَّسَةُ جِبالاً أَطْوَلُ مِنْ قَامَتِه، فَلَا يَزْعُمَنَّ أنَّ شِدَّةَ الْوَطْءِ، أو تَطاوُل الجِسْمِ، يَمْنَحانِهِ عِظَماً حَقِيقِيّاً.

فَمَهْلاً بِنفْسِكَ أَيُّهَا المستَكْبِرُ المتبَخْتِرُ، إلَىٰ أيْنَ أَنْت ذَاهِبٌ بِنَفْسِكَ، مُتَطاوِلاً بِجِسْمِك، إلَىٰ جِهَةِ الأَرْضِ فَتَرْفُسُهَا بِقَدَمَيْكَ، وَإِلَىٰ جِهَةِ السَّمَاء فَتَنْطَحُهَا بِرَأْسِك.

هَوِّنْ عَلَيْكَ، إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ مَهْمَا تَبخْتَرتَ عَلَيْها، إِنَّك إِنْ تَحَدَّيْتَهَا هَشَّمْتَ جِسْمَكَ وَحطَّمْته، ثُمَّ إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً، مَعَ أَنَّها مَهْمَا عَلَتْ فِي جِسْمِها عَنْ مُسْتَوىٰ مَا انْبَسَطَ مِنَ الأَرْضِ، فَهِيَ أَقَلُّ قِيمَةً مِنَ الإنْسَانِ الَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِكمالَاتِهِ المعْنَوِيَّة.

فلا تحاوِلْ أَنْ تكْسِبَ الْمَجْدَ بالتَّبَخْتُرِ والْخُيلَاءِ على خلْقِ اللَّه، إنَّ المجْدَ الإِنْسَانِيَّ لَا يَكُونُ بطُولِ الأجْسَامِ ولَا بِعَرْضِها، ولا يكُونُ بِتبخْتُرِهَا وَضَرْبَها الأَرْضَ بأَقْدَامِهَا حِينَ مَشْيها.

فيا لهذا مِنْ تَبْكِيتٍ لِلْمُسْتكبرينَ بديعٍ ورَائع!!

وبَعْدَ أن انتهت الوصَايا (١٤) أَتْبَعَهَا اللَّهُ عزّ وجلَّ بِقَولِهِ مُعَقِّباً عليها في خطابٍ مُوَجَّهٍ للرَّسُولِ محمَّد ﷺ ويَتضَمَّنُ بياناً لكلّ صالح

للخطاب،.. ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾: وفي القراءة الأخرىٰ [سَيِّئَةً].

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المشارُ إِلَيْهِ جَمِيعُ مَا سَبَقَ في الوصَايا.

﴿سَيِّئُهُۥ﴾: أي: الجانِبُ السَّيِّئُ مِنْهُ وهو المنهيُّ عَنْهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ المأْمُورَ بِهِ مَنْهيٌّ عن ضِدِّهِ، فَسَيِّئُهُ هُوَ المنْهِيُّ عَنْهُ وهو ضِدُّ الذي أَمَرَ اللَّهُ به، فضِدُّ بِرِّ الْوالِدَيْنِ والإِحْسَانِ إليهما عُقُوقُهما، والإِسَاءَة إليهما.

وَقِرَاءة [سَيِّئَةً] تُحْمَلُ علَىٰ المنْهِيِّ عَنْه، وعَلَىٰ ضِدِّ المأْمُورِ به، فهُو السَّيئة، أي: القبيحة المذْمُومَةُ.

﴿مَكْرُوهًا﴾: أي: غَيْرَ مَحْبُوبٍ.

فالمعنى المستفاد من قوله عزّ وجل: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾: كُلُّ مَا جاء في الوصايا (١٤) السَّابقة في هٰذا الدَّرْس، فالسَّيء المنْهِيُّ عَنْهُ بمَنْطُوقِ اللَّفْظِ أو بمَفْهُومِهِ مَكْرُوه عنْدَ رَبِّكَ بِصِفَة ثَابِتَةٍ دَواماً.

فِعْلُ «كان» هُنَا يَدُلُّ عَلَىٰ الكَيْنُونَةِ الدَّائِمَةِ المستقرة.

- ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ... ﴿٣٩﴾﴾:

أبانَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ بهٰذا البيان أنَّ مَا جاء في الوصايا (١٤) هو من الحكمة في السُّلُوك الإنساني، وفيه دَلِيلٌ على أَنَّ التَّعْليمات السُّلُوكية الّتي جاءت في القرآن يَنْطَبِقُ عَلْيها عنوان: «الحكْمَة» ولَسْتُ أَرَىٰ تخصيصَ عنوان الحكمة بالسُّنَّةِ النَّبويَّة فهماً مِن ظواهِرِ بعض النصوص، بَلْ بَعْضُ ما جاء في السُّنَّةِ عن الرَّسول ﷺ هُوَ مِنَ الحكمة حتماً.

الحكمة: وضْعُ الأشياء في مواضعها الملائمة لهَا، عملاً، أو فِكْراً، أَوْ مَعْرِفَةً وفَهماً وفِقْهاً، أو اعْتِقَاداً، أو غير ذلك من صُور السُّلُوك الإرادي، أو التعليم الْهَادِي إلَيْه.

والحكيم: هو الّذي يضع الأشياء في مواضِعِها الملائمة لها، ويختارُ أفْضَل الأشياء وأتْقَنَهَا وَأحْسَنَهَا في الأمُورِ المختلفة، لمَا يُعْطِي أحْسَنَ نتيجة.

والله ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ أحْكَمُ الحاكمين، وأحْكَمُ المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحِكْمته بالِغَةٌ الغايَةَ دَواماً فِي كلِّ شيء.

عبارة: ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ﴾ تَدُلُّ على أنّ عُنْوانَ «الْحِكْمَةِ» يَنْطَبِقُ على أمُورٍ كثيرة، وهٰذِهِ الوصَايَا بَعْضٌ مِنْها.

ويجبُ أنْ نَفْهَم أنَّ كلَّ مَا أنْزَلَ اللَّهُ علَىٰ رَسُلِهِ وأنبيائه عليهم السَّلام من الوصايا هو من الحكْمة.

وثبت في النُّصُوصِ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ آتَىٰ بَعْضَ عِبَادِه مقادير من الحكمة في الفِكْر وفي السُّلُوكِ وفي اختياراتهم في الحكم والإدارة.

وأنهَىٰ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ هذا الدَّرْسَ بقَوْله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وقد سبَق تَدَبُّره عَنْدَ بَدْءِ تَحْلِيلِ هذا الدَّرس، وسبَقَ بيان أنَّ هذا القول بمثابَة حَاصِرٍ ختامي بَيْنه وبَيْنَ الحاصِرِ الأوّل تطابُقٌ في بدايَتِهِ وتكامل في آخِرِه، وهٰذا مِنْ بدائع القران، فالحاصران من أوّل الدَّرْس ومن آخِرِه لَيسا مُجَرَّدَ إشارَةٍ رَمْزِيَّة، بَلْ هُو عبارة ذَاتُ دَلالَةٍ فِكْرِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ جَامِعَةٍ لمَا جاء بَيْنَ الحاصِرَيْن من جُزْئيات.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدَّرْس الثامن من دُررس سورة (الإسراء) والحمد للّٰه على مَدَدِه ومعونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٣)

التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٤٠ ـ ٦٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا
﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ
ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا
كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ
وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ
وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن
يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾
نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ
كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن
يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ
عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ
كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن
دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ
كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا

شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾:

القراءات:

٤١ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[لِيَذْكُرُوا]** من فعل «ذكَر».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[لِيَذَّكَّرُوا]** أصْلُها لِيَتَذَكَّرُوا، من فِعْل «تذَكَّر» وبين القراءتَيْن تكامُلٌ، إذْ بَعْضُ الناسِ يَذْكُر ذِكْراً بلَا تَكَلُّف، وبعْضُ الناسِ يَتَذَكَّرُ بِتَكَلُّف حرصاً منه على المسابقة في الخيرات.

٤٢ ـ • قرأ ابن كثير، وحفصٌ: **[كَمَا يَقُولُونَ]** بالْيَاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[كَمَا تَقُولُونَ]** بالتاء.

وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في الأداء البياني، إحْدَاهما بالخطاب، والأخرىٰ بالحديث عن الغائبين.

٤٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[عَمَّا تَقُولُونَ]** بالتاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[عَمَّا يَقُولُونَ]** بالياء.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٤٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعْبة، وأبو جعفر: **[يُسَبِّحُ لَهُ]** بالياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[تُسَبِّحُ لَهُ]** بالتاء.

والقراءتان وجهان عربيّان جائزان.

٤٥ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: **[وَإِذَا قَرَاتَ]** بإبْدَالِ الهمزة ألفاً، وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَإِذا قَرَأْتَ]** بالهمزة.

وهما من اللَّهجات العربيّة.

٤٥ ـ ● كلمة «القرآن» هنَا وفي الآية السابقة (٤١) أَبْدَلَ الهمزة أَلِفاً أَبْنُ كثير، وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالهمزة.

٤٩ ـ ● قرأ نافع، والكسائي، ويَعْقُوب: **[أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتا إِنَّا]**؟ وقرأها ابْن عامر، وأَبُو جَعْفر: **[إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا]**؟.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا]**؟

ومؤدَّىٰ هـٰذِهِ القراءات واحد، فالاستِفْهام ذُكِرَ أَمْ لم يُذْكَرْ هو مُقَدَّر ذِهْناً.

٥٤ ـ ● أبْدَلَ الهمزة مِنْ **[يَشا]** ألفاً في الموضِعَيْن أبو جعفر في الوصل والوقف، وحمزة وهشام في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة بالهمزة الساكنة: **[إِنْ يَشَأْ]**.

٥٥ ـ ● قرأ نافع **[النَّبِيئِينَ]** مع المدّ المتصل، ولورش ثلاثة البدل.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[النَّبِيِّينَ]**.

وهما وجهان عربيان.

٥٥ ـ ● قرأ حمزة، وخَلَف: **[زُبُوراً]** بضَمّ الزَّاي، وهو جمع «الزِّبْر» وهو المكتوب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[زَبُوراً]** بفتح الزّاي، وهو الكتاب المزبُور. ومؤدَّىٰ القراءَتَيْنِ واحد.

٥٦ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة، ويَعْقُوب: **[قُلِ ادْعُوا]** بكسر اللّام في الوصل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قُلُ ادعُوا]** بضم اللام في الوصل، مراعاة لضم العين.

وهما وجهان عربيّان في النُّطق.

٥٧ ـ ● قرأ أبو عمرو، ويَعْقُوب: **[رَبِّهِمِ الْوَسِيلَةَ]** بِكَسْرِ هاء الضمير وميم الجمع.

وقرأها حمزة، والكسائي، والكِسَائي: **[رَبِّهُمُ الْوَسِيلَةَ]** بضمهما.

وقرأها باقي القراء العشرة، بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم: **[رَبِّهِمُ الْوَسِيلَة]** وهي وجُوهٌ عربيَّة في النطق.

٦٠ ـ ● قرأ السُّوسي: **[الرُّويَا]**. ورواية في الوقف لحمزة.

وقرأها أبو جعفر: **[الرُّيَّا]**. ورواية في الوقف لحمزة.

وقرأها بَاقي الْقُرّاء العشرة: **[الرُّؤْيَا]**.

تمهيد:

هذا الدَّرس يَشْتِمل على مُتَابعةِ معالجاتٍ للّذين كَفَرُوا من مُشْرِكِي مكَّة، بحَسَب المواقف الَّتِي كانُوا عليها إبَّانَ تَنْزِيل السورة، وهذه المواقف مِنْهَا مَا هُوَ قَدِيم ومِنْها ما هُوَ جَدِيد.

التدبّر التحليلي:

باستطاعة المتَدَبِّر أن يُقَسِّمَ هـٰذا الدَّرْسَ إلى (٧) فُصُولٍ مُتَشَابِكَةِ الْخُطُوطِ الْفِكْرِيَّةِ فيما بينها.

وهـٰذه الفصُول تُعَالِجُ مشركي مكَّة إبّان تنزيل السورة بشأنِ عَدَدٍ من المواقِف التي يُصِرُّونَ علَيْها وبشأنِ أسْئِلَةٍ تَرَدَّدَتْ في نُفوسِهِمْ، أو طَرَحُوها وطَوىٰ النَّصُّ القرآنِيُّ ذِكْرَهَا، مُكْتَفِياً بالإجابَةِ عَلَيْها. وفيها تعْلِيمٌ للرسول

وتَرْبِيةٌ له، وكشْف لَمْحَةٍ من تاريخ الناس المستقبليّ بالنِّسْبَةِ إلى دِينِ اللهِ لعباده، وعقوبات اللهِ لهم، وبيانٌ بشَأْنِ حِكْمَةِ اللهِ في عدم استجابتِهِ لمطالب المشركين إذْ ألَحُّوا في المطالَبَةِ بإجراء آياتٍ ماديَّة كبرى. وبيان أنّ اللهَ عزّ وجلّ يُخَوِّفُ الكافرين بصُوَرٍ مختلفةٍ من التخويفات، إلّا أنهم لم يكونوا يَكْتِرِثون لَها، بل يَزِيدُون طُغْياناً.

الفصل الأول

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لمدّعِي أنّ الملائكة بنَاتُ اللهِ من المشركين.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

أصْفَاكُمْ: أي: آثَرَكُمْ. والفاء في: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ فَصِيحَةٌ تعطف على محذوف.

رَبُّكُم: أي: خَالِقُكُمْ ومُمِدُّكُم بِعَطَاءَاتِ رُبُوبيَّتِهِ دَواماً ما دُمْتُم في الْوُجُودِ، وهُو الَّذِي يَبْلُوكُمْ، ويُحَاسِبُكُمْ، ويَفْصِلُ القضاء بشأنِكُمْ، ويُجَازِيكُمْ يَوْمَ الدّين.

والمعنى: أتَنازَلَ رَبُّكُمْ عَنْ وَحْدَانِيَّته في رُبُوبيَّتِهِ وإلَهيَّتِهِ، وفَضَّلَكُمْ علىٰ نَفْسِهِ، فَآثَرَكُمْ بالْبَنِينَ، واتَّخَذَ لِنَفْسِهِ مِنَ الملائِكَةِ إناثاً بالْوِلَادَةِ، أَوْ بالتَّبَنِّي، ثُمَّ جَعَلَهُنَّ شركاءَ لَهُ فِي إلَهِيَّتِهِ، المسْتَلْزِمَةِ لمشارَكَتِهِمْ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ؟!!

إنَّ هٰذا الأَمْرَ قبيحٌ مِنْكُمْ جِدّاً أنْ تَعْتَقِدُوه وَتَقُولُوه، لمنافَاتِهِ لِلْحَقِّ والْوَاقِعِ، ولكُلِّ منْطِقٍ عَقْلِيٍّ سَلِيمٍ، ولكُلِّ رَأْيٍ سَدِيد.

إنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً شَنِيعاً جِدًّا في وَصْفِ رَبِّكُمْ بما هُوَ مُسْتَحِيلٌ عَقْلاً أنْ يتَّصِفَ به.

الملائِكَةُ مُخْلُوقُونَ مِنْ نُور، وهُمْ عِبادٌ للهِ مُكْرَمُون، وأجْسَادُهم نُورانيّة، فلا يراهُمُ الْبَشَرُ بحَسَب العادة، وهُمْ قَادِرُونَ علىٰ التَشكُّلِ بالْأَشْكالِ الجسمانيَّة الَّتي يَسْتَطِيعُ البشر أَنْ يَرَوْها.

ولفظ «مَلائكة» جَمْعٌ مُفْرَدُه «مَلَك» و«مَلَاك» ومادّةُ الكلمة مأخوذَةٌ من «الْأَلُوك» و«الْمَأْلَكَة» و«الْمَأْلُكة» بمعْنَىٰ الرِّسَالَة الّتي يَحْمِلُها الرَّسُول، ويُؤَدّيها حسْبَ التْكليف، يقالُ لغةً: «أَلَكَ بَيْنَ الْقَوْمِ أَلْكاً، وأُلُوكاً» أي: حَملَ بَيْنَهُمْ رِسالَة.

ولمَّا كانت الملائكةُ رُسُلَ رَبِّهِم في كَوْنه، لتأدِيَة الوظائف الَّتي يَأْمُرُهُمْ بها، كانَ مِنَ المناسِبِ تَسْمِيَتُهُمْ مَلائكة، الواحد منهم «مُلْأَكٌ» أي: حَامِلُ رِسَالَة، وبتسهيل الهمزة صَار اللَّفْظُ يُنْطَقُ «مَلَاكاً» ثُمَّ بِحَذْفِ الألف صَارَ «مَلَكاً».

وقَدْ سَبَقَتْ دِراسَةُ عقيدةِ مُشْركي الْعَرَب في الجاهلية بِتَدَبُّرِ النصوص القرآنيَة الوارِدَة حَوْلَها، في الْمَلْحَقِ الثاني مِنَ مَلَاحِقِ تدبُّرِ سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) حول معالجة المشركين بشَأْن عَقِيدَتِهِم في الملائكة. فلْيُرْجَعُ إليه⁽¹⁾.

الفصل الثاني

قال الله عزّ وجلّ بشأن المشركين تُجاه تَصْرِيفه العلاجيّ لهم في القرآن المجيد:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾:

التصريف: التَّنويع والتغيير، واتّخاذُ مختَلِفِ الوجوه المُمْكِنَة للوصل إلى الغاية، أو لمعالجة الأمْرِ الّذي يرادُ التأثير فيه بأحسن الوسائل.

والتَّصْرِيف في القرآن هو تنويع أساليب الحجج والْبَراهينِ

---

(١) انظر هذا الملحق في المجلد الثاني، في الصفحات من (١٧٢ ـ ١٩٣).

والإقناعات، وتنويع أساليب الترغيب والترهيب والتربية، بحَسب اختلاف طبائع الناس، ومستَويَات قُدْراتِ الفهم لَدَيهم، وبحَسَب ما لدىٰ أصنافهم من استعداداتٍ للاستجابة، وقدرةٍ على مُخَالفةِ أهوائهم وشهواتهم، ومخالفة المعْتَاد المألُوف من الْبَاطِلِ أو الشرّ، أو ما فيه ضرٌّ أو أذىً.

ويَسْتَوفي هذا التَّصْرِيفُ كلَّ الاحتمالات الّتي يُرْجَىٰ نَفْعُها ولَوْ لبَعْضِ الأفراد أو الجماعات، لقطع أعْذَارِ المكلَّفِينَ، حتَّىٰ لا تكونَ لَهُمْ حُجَّةٌ عِنْدَ ربّهم.

﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾: أصْلُها: «لِيَتَذَكَّرُوا» أدْغِمتِ التّاءُ بالذّال فَصَارَتْ ذالاً مُشَدَّدَة. واللّام الجارّة معناها التعليل، على تقدير لتهيئة كلّ ما من شَأْنِه أَنْ يَتَذَكَّروا بِه باختيارهم الحرّ، وبهذا التَّصْريف تنقطع أعْذارُهم. وليس المراد: ليتحقَّقَ تَذَكُّرُهم في الواقع، فلَوْ كان هذا هو المراد لتَذَكَّرُوا جَمِيعاً، لأنّ ما يُريدُه الله لا يمكن أنْ يتخلَّف.

التّذكُر: اسْتِدْعَاءُ الْمَعْلُومَةِ المخْتَزَنَةِ في الحافِظَةِ مِنْ جِهَازِ الْمَعْرِفَةِ في النَّفْسِ، إلَىٰ سَاحَةِ الْمُدْرَكَات الحاضِرَة المشهودَةِ بِعَيْنِ التَّفكُّرِ عِنْدَ التَّذكُّر، والْغَرَضُ حَثُّ جِهَازِ الْمَعْرِفَةِ على الاستِبْصار، بُغْيَةَ إدْرَاكِ الحقِّ الّذِي يَهْدِي إلَيْهِ التَّصْرِيفُ في الْقُرآن، فَمَنْ رأىٰ الحقَّ حقًّا، وكَانَ لَدَيْهِ اسْتِعدادٌ نَفْسِيٌّ لِأَنْ يُؤْمِنَ به، ولَوْ خالَفَ أهواءَهُ وشهواتِهِ، ومَطَالِبَهُ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، كانَ تَذَكُّرُهُ قائِدَهُ إلى الالْتزام بالحقّ، والالْتِزام بما يَدْعُو إلَيْهِ الحقُّ من سُلُوكٍ في رِحْلَةِ امْتِحانِهِ في الحياة الدُّنيا.

فالْغَرَضُ من التَّصْريف في القرآنِ، أنْ يكُونَ وَسِيلَةً من الوسائِلِ الّتِي يَتَذَكَّر بها الّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، وعندئذٍ يَنْتَفِعُ بالتَّذَكُّرِ الّذِينَ لَديهِمُ استعدادٌ نَفْسِيٌّ للاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَة الحقّ، على مقدارِ ما لَدَيْهِم من استعدادٍ لمخالَفَةِ أهوائهم وشهواتِهِم ومطالِب نفوسهم من الحياة الدُّنيا، وبهذا تتفاضَلُ استجابَاتُهُمْ.

والضَّمِيرُ في [**ليذكروا**] يَعُودُ على المعنِّيينَ بالمعالَجَةِ في هذا الدَّرْس، وهم كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ المعانِدُون، الْمُصِرُّونَ على كُفْرِهِم ومُقَاوَمَتِهِمْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّهِم، ولهذا جاء في وصْفِهِم قول اللهِ عزّ وجلّ في الآية:

- ﴿. . .وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾: أي: ومَا يَزِيدُهُمْ هٰذا التَّصْرِيفُ في القرآن، وهٰذا التَّذَكُّرُ الّذِي يَحْصُل لَهُمْ في سَاحَةِ المدْرَكات الحاضِرات المشْهُوداتِ بِعَيْنِ التفكّر إلّا نُفُوراً.

النفور: الصَّدُّ والابْتعادُ كحالَةِ المذْعُور الشارد، أو المتَمَنِّعِ المتراجِعِ بحِرَان.

إنّ من شأن التَّصْرِيف في القرآن المذكِّر لَهُمْ أَنْ تَتولَّدَ به لدَيْهِم القَنَاعَةُ الكافِيَةُ بالْحَقّ الرَّبَّانِيّ، وبالهدايةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلَّتِي هي أَقْوَم.

ولمَّا كَانَ التَّصْرِيفُ القرآنيُّ الْمُتَتابعُ عَلَيْهِمْ لَا يَزِيدُهُم إلَّا نُفوراً، كَانَ هٰذا دَلِيلاً عَلىٰ أنَّ عِلَّتَهُمُ النَّفْسِيَّةَ لَيْسَتْ عَدَمَ اقْتِنَاعِهِم بالحَقِّ والْهُدَىٰ، وإنَّما هي غَلَبَةُ أهوائِهِم وشهَواتِهِمْ والتعلُّقِ بمطالب نفوسِهِم من زيناتِ الحَياةِ الدُّنيا، على إراداتِهِمْ، ويَشْمَلُ هٰذا حُبَّهُمْ للعَاجِلَة وإيثَارَهَا علَىٰ الآخِرَة، وهذا مَوْصُولٌ بأحَدِ خُطُوطِ السُّورَةِ وهو بيان أنَّ الإنْسانَ عَجُول.

وقد نَزَلَ بشَأْنِ التَّصْرِيفِ في القرآنِ قَبْلَ نُزُول هٰذا النّصّ نَصَّانِ آخران:

الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن القرآن:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾:

أي: فأبَىٰ أكْثَرُ مُشْرِكي مَكّة إبَّانَ التّنزيل ومَنْ تأثَّر بِهِم إلَّا شِدَّةً فِي الكُفْر.

الثاني: قول الله عزّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾:

فدلَّ نصُّ سورة (طـه) علىٰ أنّ المقصودَ بالتّصْريف في القرآن من الوعيد الرَّغْبَةُ في أنْ يَتّقُوا عِقَابَ الله لهم، أو في أنْ يُحْدِثَ لَهُمُ الوعيدُ ذِكْراً ذا تأثيرٍ ما فيهم.

ودَلَّ نَصُّ سُورَة (الفرقان) على أنّ أكْثَرَ مُشْرِكي مكة قد أبَوْا إلّا غُلُوّاً في الكُفر، مع ما حَصَل لَهُمْ من تَذَكّر.

ودَلّ نصُّ سورة (الإسراء) على أنَّ هؤلاء المعالَجِينَ، مَا كَانَ يَزِيدُهُم التّذكّر الّذي يَحْصلُ لَدَيهم بالتّصريف في القرآن إلّا نُفُوراً.

فبين هٰذِهِ النُّصُوص تكامُلٌ ظاهر.

الفصل الثالث

قال الله عزّ وجلّ يُعَلِّم رَسُولَهُ ﷺ فكُلَّ داعٍ إلى الله مِنْ أمَّتِه فِقَرَةً جَدَلِيَّةً مِن فقرات مجادَلَةِ المشركين، مع تَعْقِيبٍ رَبَّانِيٍّ كاشف للحقّ:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾:

وفي قراءة جمهور القراء العشرة: [**كما تقُولُونَ**] خطاباً للمشركين.

اشتملت الآية (٤٢) من هٰذِهِ الآياتِ على تعْليم حُجَّةٍ بُرهَانِيَّةٍ تُثْبِتُ أنَّهُ لَا يُوجَدُ آلِهَةٌ مَعَ اللهِ عزّ وجلَّ كَمَا يَفْتَري المشْرِكُون.

يَزْعُمُ المشْرِكُونَ أنَّهُ تُوجَدُ آلِهَةٌ حَقٌّ مَعَ اللهِ، ولَهَا تصاريفُ في الكَوْن، وتَأْثِيراتٌ في النَّاسِ، وَتَنْفَعُ مَنْ يَعْبُدُهَا.

إِنَّ الإِلَٰهَ الحقَّ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ مُشَارَكَةٌ للهِ في صِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ، وَمَنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا مَا يَشَاءُ في الْكَوْنِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نِدّاً للهِ جلَّ جلالُهُ، والنِّدُّ لَا بُدَّ أَنْ يُنَفِّذَ مَا أَرَادَه، فإذا كَانَ مُرَادُه مُعَارِضاً لِمُرَادِ نِدِّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَصْطَدِمَا، لِيُنَفِّذَ كُلٌّ مِنْهما مُرَادَه، فَمِنْ صفاتِ الرَّبِّ أَنَّهُ إذا أرادَ شيئاً فَعَلَه.

لكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْن خاضِعٌ لنِظَامِ رَبٍّ واحِدٍ، وكُلُّ جُزْءٍ فِيهِ مَحْكومٌ بقوانِين الوحْدَةِ الكليَّةِ للكَوْن، على الرُّغْم من وُجودِ احْتِمالاَتٍ كثيراتٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الكَوْنُ عليها، هذا يَدُلُّ على أَنَّ المختارَ الخالِقَ الرَّبَّ هُوَ وَاحِدٌ لِلْكُونِ كُلِّه.

فَلَوْ كانت الْآلِهَةُ الأَرْبَابُ الَّتِي يُؤْمِنُ بها المشْرِكُونَ لَهَا رُبُوبيَّاتٌ حَقِيقيَّةٌ يَقْدِرُونَ بها علىٰ تَنْفِيذِ مَا يُرِيدُون، لَمَا تَرَكُوا رَبَّ الْعَرْشِ والسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ يُمْسِكُ بنواصِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ من جُزْئيَّاتِ الكَوْنِ، وَيَتَصَرَّفُ بِهِ عَلَىٰ مُرَادِهِ ضِمْنَ قَوَانِينِهِ العامَّةِ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْهُ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، ولَابْتَغَوْا إلى مُقَاوَمَةِ ذِي الْعَرْشِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ لتَحْقِيقِ مُرَادَاتِهِمْ ولَوْ في حُدُودِ رُبُوبِيَّاتِهِم الجزئيَّة.

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾: أي: قُلْ أَيُّها الدّاعي إلى اللهِ للمشركين، الّذين يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لِشُرَكائهمْ قُدراتِ خَلْقٍ هِيَ من صفاتِ الرُّبُوبِيَّة، كالنَّصْرِ علىٰ الأَعْدَاء، والرِّزْقِ، وَهِبَةِ الذُّرِّيَّةِ، والتأمِينِ في المخاوف.

فالمعنى: لو كانَ مع اللهِ آلِهةٌ أَرْبابٌ ولَوْ ضِمْنَ حُدُودِ رُبُوبيَّاتٍ مَحْدُودات.

- ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ في الحديث عنهم، وفي قراءة جُمهور القرَّاء العشرة: **[كما تقولون]** خِطَاباً لَهُم.

- ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾: أي: إذَنْ لكان من أمْرِهم أَنْ

طَلَبُوا سَبِيلاً يُمَكِّنُهُمْ مِنْ كَفِّ سُلْطَانِ ذي الْعَرْشِ، عَنْ المجَالاتِ الَّتِي يُرِيدُون أَنْ يُحَقِّقُوا فِيها رُبوبيَّاتِهِم، بِتَنْفِيذِ مُرادَاتِهِمْ الَّتِي يُرْضُونَ بِهَا عَابِديهِمْ.

﴿إِذًا﴾ «إِذَنْ» حَرْفٌ يَقَعُ فِي صَدْرِ الكلام معناه الجواب والجزاء لكلامٍ سابق.

﴿لَّٱبْتَغَوْا۟﴾: أي: لَطَلَبُوا. «بَغَىٰ الشيءَ وابْتَغَاه» أي: طَلَبَه.

- ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾: أي: إِلَىٰ صَاحِبِ العرشِ وهو الله جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطانُه.

﴿سَبِيلًا﴾: أي: طَرِيقاً مَادِّيًّا أوْ مَعْنَوِيًّا يُمَكِّنُهُمْ من تَحْقِيقِ رُبُوبياتهم بِفِعْلِ مَا يُرِيدُونَ فِعْلَهُ لعبادِيهم في الأرض.

لكنَّهُمْ لم يَسْتَطِيعوا ذَلِكَ، فَلَيْسَ لَهُمْ رُبُوبِيَّةٌ ما، فليس لَهُمْ إِلَهِيَّةٌ ما.

بَعْدَ هـٰذا التَّعْلِيمِ الْجَدَليّ أبَانَ اللهُ عزّ وجلَّ أنَّهُ مُنَزَّهٌ تَنْزِيهاً كامِلاً عَنْ كُلِّ مَقالاَتِ المشْرِكينَ الشِّرْكِيَّة، فقال تعالى:

- ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: تنزَّهَ اللهُ ـ جلَّ جَلاَلُهُ ـ وتَعَالَىٰ عُلُوًّا لَا حُدودَ لَهُ ولا نِهَاية، وَتَرفَّعَ عَنْ كُلِّ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تليقُ بجَلَالِهِ وعظيم سلطانه.

تَعَالَى: أي: عَلَا عُلُوًّا لَا حُدود له ولا نِهايَةَ له، فَهُو مُتَرَفِّع عَنْ كُلِّ الصفات الّتي لَا تليق به، ومتَنَزِّهٌ عَنِ الحاجَةِ لِذَاتِهِ أَوْ لِصفَاتِهِ.

- ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾: أي: عَمَّا يَقُولُ المشْرِكُونَ مِنْ مَقَالاتِ شِرِكِيَّةٍ، تَجْعَلُ مَعَ اللهِ إِلَهاً، أَوْ تَجْعَلُ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً، مَهْمَا كَانَتْ مُشَارَكَتُهُ له في اعْتِقَادِهِمْ صَغِيرَةً أَوْ جُزْئِيَّةً.

- ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: أَيْ: عُلُوّاً كبيراً لَا تَحُدُّهُ حُدود.

- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ . . . ﴿٤٤﴾﴾:

أي: تُنَزِّهُ بِصُوَرٍ كَثِيرَةٍ من التَّنْزِيهَاتِ الْمُوَجَّهَاتِ للهِ عزّ وجلّ، السَّمَاوَاتُ السَّبْعَ والْأَرْضُ وَذَوَاتُ مَنْ فِيهِنَّ مِنْ كُلِّ ذي عِلْم.

التَّسْبيح: التَّمجيدُ بالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ بِبَيَانِ براءة اللهِ عزّ وجلّ مِنها. بخلافِ «التَّوْقِير» إذْ هو التمجيدُ بالصِّفَاتِ الْوُجُودِيّةِ الّتِي هِيَ مِنْ كَمَالَاته جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

أمّا تَسْبِيحُ ذَوَاتِ الكائِنَاتِ الَّتِي ليْسَ لَهَا إدْرَاكٌ عَلميٌّ، فإنْ كان بِلِسَانِ حَالِها، فصِفَاتُها الَّتِي خَلَقَها اللهُ عزّ وجلّ كامِلَةَ الإبْدَاع والإتْقَانِ تَدُلُّ دَلَالَةً عَقْلِيَّةً علىٰ تَنْزِيه الرَّبّ جلَّ جَلَالُهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَليقُ به، يفْقَهُ هذا مَنْ يَفْقَهُهُ ويَغفُلُ عَنْهُ الغافلون.

واللهُ قَدِيرٌ علىٰ أنْ يَجْعلَ كُلَّ ذَرَّةٍ من ذَرَّاتِها تَنْطِقُ بِمَا يَدُلُّ علىٰ تَسْبِيحِ اللهِ عزّ وجلّ.

وشواهِدُ هٰذا في مُكْتَشَفَاتِ هٰذا الْعَصْر صَارَتْ تُقَرِّبُ إلَىٰ الْأَذْهَان أنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أنْ يُنْطِقَ كُلَّ شيء، إنَّ شَرِيحَةً مَعْدَنِيَّةً بِحَجْمِ رَاحَةِ الكَفِّ ممَّا يُعَدُّ للكُومْبيوتر، تَنْطِقُ بِوَسَاطَةِ جهازٍ مِنْ مكتَشَفَاتِ الناسِ بِكَلَامٍ قَدْ يُفَرَّغُ فِي كُتُبِ خِزَانَةٍ كامِلَةٍ، فَلَيْسَ مِنَ المستَغْرَبِ أنْ يَجْعَلَ اللهُ عزّ وجلّ ذَرَّاتِ كُلِّ شَيْءٍ في الكَونِ مَفْطُورَةً عَلَىٰ التَّسْبيحِ الموجَّهِ للهِ الّذي خَلَقَهَا وَيُمِدُّهَا دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

- ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾:

- ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾: أي: وَمَا مِنْ شيءٍ في الوجود كُلِّه إلَّا يُسَبِّحُ اللهَ تَسْبِيحاً مُقْتَرِناً بِحَمْدِهِ، أي: يُنَزِّهُ اللهَ ويثني علَيْه بصِفَاتِ كماله.

«إنْ» أدَاةُ نفيٍ مثل «ما». وفي الجملَةِ قَصْرٌ بالنَّفْيِ والاستِثْنَاءِ، وهو قَصْرٌ إضَافيٌّ.

ويَدْخُلُ في هـٰذا الْعُمُوم كُلُّ ذَرَّةٍ فَهِي شيء، وكُلُّ نواةٍ في الذَّرَاتِ فهِيَ شيء، وَكَلُّ «أليكْترون» يَدُور حولَها فَهُو شيءٌ.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾: **الفقه**: الْفَهْمُ. والفِطْنَةُ. ويُسْتَعْمَلُ الْفِقْهُ للدَّلَالَةِ علىٰ العِلْم بِبَوَاطِنِ الْأُمور، وخَفَايَاها، وبواطِنِها، فهو أَخَصُّ مِن مُطْلَقِ الْعِلْم على هذا.

فالّذِين يُدْرِكُونَ إدْراكاً عَقْلِيًّا، أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْنِ يُسَبِّحُ بِلِسَان حالِهِ عن طَرِيق إدْراكِ إتْقَانِ خَلْقِ اللهِ له، تَسْبيحاً مُقْتَرِناً بِحَمْدِهِ، يَعْجِزُونَ عَنِ الْعِلْم بِبواطِنِ أمُورِها وخَفَايَاها في أعماقها الّذي هُو الْفِقْهُ. والْغَافِلُونَ بَعِيدُونَ جدًّا عن فَهْمِها وإدْراكها.

● ﴿.. إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾: جَاءَ هـٰذا الْبَيانُ تَعْليلاً لسؤال مَطْوِيٍّ، وإِطْمَاعاً للذّينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقّ، بأنّهُمْ إذا تَابُوا وآمَنُوا وأسْلَمُوا غَفَرَ اللهُ لهم.

والسُّؤال المطويُّ الّذِي يكْشِفُهُ التَّدَبُّرُ ذِهْناً: لِمَ لَمْ يُنْزِل اللهُ عِقَابَهُ بالمشْرِكِين الْمُصِرِّينَ على كُفْرِهِمْ عناداً وَجُحُوداً؟.

والجواب: إنَّ اللهَ كَانَ حَلِيماً، أي: إنَّهُ حَلِيمٌ دَواماً بعباده، وفعل «كانَ» هنا يَدُلُّ على الكيْنُونَةِ الدَّائِمَة.

الْحَلِيم: أي الكثير الْحِلْم الَّذِي لَا يَعْجَلُ بمُعَاقَبَةِ عباده الْمُجْرِمِين، رَغْبَةً في أَنْ يَتُوبُوا، ويَسْتَجِيبُوا لِرَبّهم فيما دعاهم إليه، فإذا استجابُوا غَفر لهم لِأَنَّهُ جَلَّ جلالُهُ غَفُور، كثير المغفرة لعباده.

الفصل الرابع

قال الله عزّ وجلّ خِطاباً لِرَسُولِه وبَيَاناً لِوَاقِعِ حالِ أئِمَّةِ المشركينَ في مَكَّة حِينَما كَانَ يَتْلُو عليهم القرآن:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

في هذه الآيات بيان الصّفات الّتي تَتَّصِفُ بها على التّوزيع زُمَرُ أئِمَّةِ المشركين، في مكَّةَ ومَا حَوْلَها إبَّانَ التنزيل، وهُمُ المعنيُّونَ بالمعالَجَةِ في السُّورة، وفي عِدَّة سُوَرٍ قَبْلَها، تُجاهَ سَمَاعِهم القرآن، وقد جاء في السُّورة الحديثُ عن القرآن وما فيه من هداية تبشير وإنذار في الآية (٩) فهذا البيان موصول بخطِ الحديث عن القرآنِ في السورة مع خطِّ المعالجين.

ولكلّ زُمْرَةٍ من زُمَر هؤلاء المعنيين بالمعالَجة، صِفَةٌ تُلائم الدَّرَكَة الكُفْرِيَّةِ الَّتي هُو فيها، وقد جاء الكلام عَامًّا بِشَأْنِهم، إلّا أنَّ باستطاعَةِ المتفكّر المتدبّر أنْ يُدرِكَ أَنَّهُ بَيانٌ مُقسَّمٌ علَىٰ زُمَرِهِم، ولدَىٰ تَفْصِيل الصفات الّتي اشْتَمَلَ عَلَيْهَاهذا البيان ظهر لي أنّها أرْبَعُ صفات:

الصّفة الأولى: انصرافُ نُفُوسهم عن اسْتِمَاعِ القرآن انصرافاً كُلّيًا، وهذه الصّفة تَظْهَرُ لَدَى زُمْرَةٍ مِنْهم.

دلَّ على هـٰذِهِ الصِّفَةِ قولُ اللهِ عزّ وجلّ خِطَاباً للرَّسُولِ ويلحق به دعاة أُمَّتِهِ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾:

إنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ، الَّتِي يَكُون فيها الجزاء على مَكْسُوبَاتِ

الموضُوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ، هم مُتَعَلِّقُون بشهواتِهِم وأهوائهم من الحياة الدُّنيا، لَا يَعْنِيهم شَيْءٌ ممَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ بَيَان، فمِمَّا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النُّفوسُ بخَلْقِ اللهِ أَنْ تَنْصَرِفَ عمَّا لَا يَعْنِيها وهِيَ مَشْغُولَةٌ شُغْلاً تامًّا بما يَعْنِيها، فإنْ كان الذي لَا يَعْنِيها مَسْمُوعاً فإنَّها لَا تَسْمَعُه، وإنْ كان مَرْئِيًّا فإنَّها لَا تَراه.

قَدْ تَسْمَعُ أذانُهُمْ أصْواتاً غَيْرَ ذَاتَ دَلَالَة، وقَدْ تَرَى عُيُونُهُمْ أَشْباحاً لَا تُمَيِّزُ بَيْنَها.

والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وُجُودُ حجابٍ خَفِيٍّ من انْشِغَالِهم التامّ فيما يَعْنِيهِمْ، وهذا الحجابُ الْخفِيُّ المسْتُور يَحْجُبُ عن أسْمَاعِهِم إدْرَاكَ الأقوال الَّتي تَطْرُقُ آذانَهم، فإذا سُئِلُوا بَعْدَ ذلِكَ: مَاذَا سَمِعْتُمْ؟ قَالُوا لم نَسْمَعْ شيئاً. وهذا الحجابُ الْخفيُّ المستورُ يَحْجُبُ عن أبْصَارِهم إدْرَاك مَا عُرِضَ عَلَيْها، فإذا سُئِلُوا بَعْدَ ذَلك: مَاذا رأيْتُمْ؟ قَالُوا لَمْ نَرَ شَيْئاً.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أصْلُ القِرَاءَةِ النُّطْقُ بِمَكْتُوبٍ علَىٰ شيءٍ بقَلمٍ مَا، وبالتَّوسُّعِ في الاسْتِعْمَالِ أُطْلِقَتْ على المنْطُوق من الكلام ولو كانَ اسْتِدْعاءً من الذَّاكِرَة، وليشْمَلَ النَّصُّ ما يَقْرَؤُه من المكتوب غير الرسول ﷺ.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾:

أي: جعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اسْتِماع الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ لِقَرَاءَتِكَ الْقُرْآنَ حِجاباً مَانِعاً مِنْ وُصُولِ قِرَاءَتِكَ إِلَىٰ أَسْمَاعهم، وهذا الحجابُ مَسْتُورٌ غَيْرُ مَرْئِي، فَهُو أَثَرٌ مَعْنَوِيٌّ مِنْ أَثَار صَدِّ نُفُوسِهِمْ عن تَلَقِّي الْقُرْآنِ، بِسَبَبِ عَدَمِ إِيمَانِهِم بالجزاء الرَّبَّانيّ يَوْمَ الدِّين.

والمرادُ بالْجَعْلِ هُنَا ما جَبَلَ اللهُ عَلَيْهِ النُّفُوسَ بالتَّكْوِين العامّ، فَكُلُّ مَنْ لم يُؤْمِنْ بالآخِرَةِ وَمَا فِيها مِنْ جَزَاءٍ رَبَّاني، يَنْصَرِفُ انْصِرَافاً تَامّا عَنْ

تَفَهُّم أوْ تَلَقِّي مَعَارِفَ إيمانِيةٍ فِيها إبْعَادٌ لَهُ عَمَّا هو مُتَعَلِّقٌ بِهِ من أمُورِ دُنْياه.

الصفة الثانية: وتُوجَدُ زُمْرَةٌ من المعْنِيِّين بالمعالجة، يَسْتَمِعُونَ آياتٍ من القرآن تُقْرأ عليهم، وتَصِلُ إلى مواطِنِ السَّمْعِ في أدْمِغَتِهِمْ، لكِنَّهُمْ لَا يُعْمِلُونَ قُدْراتِ التفكير لدَيْهم في فَهْمِ دلالاتها.

دلَّ على صِفَةِ هٰذِهِ الزُّمْرَةِ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا... ﴿٤٦﴾﴾:

﴿أَكِنَّةً﴾: أي: أغْطِيَةً، جَمْعُ «كِنَان» وهو الغِطَاء، وكلُّ شيءٍ يَقِي شيئاً يَسْتُرُه.

﴿وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلاً شديداً في السَّمع. وقد يَصِلُ الْوَقْرُ إِلَىٰ الصَّمَم.

والمرادُ بالْجَعْلِ هنا أيْضاً مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النفوس الإنسانيَّةُ كُلُّها. إِذَا انْحَطَّتْ بإرادَاتِها الحرَّةِ إلى دَرَكَةِ أنَّها تَسْمَعُ الأقوال الْهَادِيَةَ ولَا تَفْقَهُ دَلَالَاتِها، لِأَنَّ قُلُوبَها وهي مَرَاكِزُ التفكير والْفَهْم والْوَعْي في أكِنَّةٍ، وهٰذِهِ الْأَكِنَّةُ تَحْجُبُ عَنْهَا الإدْرَاكَ بِفَهْم وَوَعْي لدَلَالَاتِ الْأَقْوَالِ الَّتِي تَصِلُ إليها، علىٰ أَنَّ هٰذِهِ الأقوال الهاديَةَ إذَاً وَصَلَتْ إليها فإنَّها تَصِلُ إليها باهِتَةً ضعِيفَةً بسَبَبِ الوقْرِ الّذِي في آذانِهِمْ، وهو ما أحْدَثَهُ انصرافُهُمْ عن الآخِرَةِ وتَعَلُّقُهُمْ بالدُّنيا، وأهوائهم وشهواتهم منها.

وظاهِرٌ أنَّ مَرَضَ هٰذِهِ الزُّمْرَة أخَفُّ قَلِيلاً مِنْ مَرَضِ الزُّمْرَةِ الأولى.

- ﴿أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: أكِنَّةً حَاجِبَةً لَهُم عَنْ فِقْهِهِ.

الصِّفَة الثالثة: وتُوجَدُ زُمْرَةٌ مِنَ المعْنِيِّينَ بالمعالَجة، يَحْضُرُونَ مَجْلِسَ اسْتِمَاعِ الْقُرآنِ، وَيَفْهَمُونَ بَعْضَ آيَاتِه، لكِنَّهُمْ إذَا سَمِعُوا آياتٍ دَالَّاتٍ علىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلٰهِيَّتِهِ، وفَهِمُوا مِنها الدَّلَالَةَ علىٰ بُطْلَانِ مَا

يَعْبُدُونَ مِنْ آلِهَة، ضَاقَتْ صُدُورُهم، واشْمَأَزَّتْ نُفُوسُهُمْ، لتَعَلُّقِهم بآلِهَتِهِمْ، وَوَلَّوْا على أدْبارِهِمْ نَافِرِينَ مِنَ الْمَجْلِسِ الّذِي يُقْرأ فِيهِ القرآن.

دلَّ على صِفَةِ هـٰذِهِ الزُّمْرَةِ قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . .وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾: **وَلَّوْا**: أي: أدْبَرُوا ونَأَوْا.

عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ: أي: جَاعِلِين مَا كَرِهُوا اسْتِمَاعَهُ من توحِيدِ الرُّبوبيَّةِ والإِلَهِيَّةِ للهِ عزّ وجلّ وَحْدَهُ، وإِبْطَالِ آلِهتهم الَّتي يَعْبُدُونها مِنْ دُون الله، مَطْرُوحَةً على أَبَارِهِمْ، غَيْر عابِئِينَ بها، وَلَا مُكْتَرِين لَها، لمخالفتِها لمَأْلُوفَاتِهِمْ الاعتقاديّة الَّتِي يَتَشَبَّثُونَ بها.

نُفُوراً: أي: وَلَّوْا حَالَةَ كَوْنهم نَافِرِين. **النُّفُور**: الصَّدُّ والابْتِعاد كحالَةِ المذْعُور الشَّارِدِ، أو الْمُتمنِّع المتَراجِع بِحِرَان. ويُلَائِمُ هذا المعنى أنْ نَفْهَمَ: ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ بمَعْنَىٰ تَرَاجُعِهِمْ تراجُعاً عَلَىٰ الأمْكِنَةِ الواقِعَةِ خَلْفَ أدْبارِهم، وَوُجُوهُهُمْ إِلَىٰ جِهَةِ مَجْلِس تِلَاوَةِ الْقُرْآن، أو قراءَتِه.

وظاهِرٌ أَنَّ مَرَض هـٰذِهِ الزُّمْرَةِ أخفُّ من مَرَضِ الزُّمْرَتَيْنِ: الأولى، والثانية.

الصّفَة الرَّابعة: وَتُوجَدُ زُمْرَةٌ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآن، ويَفْهَمُونَ من دَلَالَاتِ آيَاتِهِ على مَقَادِيرِ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُدْراتِ فَهْم، ويُدْهِشُهُمْ مَا سَمِعُوا مِنْهُ، ويُدْرِكُونَ بَعْضَ مَا فِيهِ مِنْ إعجازٍ بَلاغِيّ هُوَ فَوْقَ مُسْتَطَاع الْبَشَر، وَيَخْشَوْنَ أَنْ تَتَأَثَّرَ بِهِ جَماهِيرهم، فَيُسرُّ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ أنْ يُشيعُوا في النّاسِ أنَّ مُحَمّداً مَسْحُور، يُلْقِي إلَيْهِ الجِنُّ مَا يَسْمَعُونَ مِنْهُ مِنْ قُرْآن، وهؤلاء الْجِنُّ هُمْ قُرنَاءُ الّذِينَ سَحَرُوهُ مِنَ الإنس.

دلَّ على صِفَةِ هـٰذِهِ الزُّمْرَة قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ...﴾:

أَفْهَمُ من هٰذِهِ العبارَة أنَّ المعنيّين بالْبَيان يَسْتَمِعُونَ بأداةِ اسْتِماعٍ فِكْرِيَّةٍ رَافِضَةٍ ابْتِدَاءً قَبُولَ مَعَانِي مَا يَسْمَعُونه، ولَوْ كَانَ حَقًّا جَلِيًّا، وهٰذا شيءٌ خَفِيٌّ دَاخِلَ نُفُوسهم، لَكِنَّ اللهَ عزّ وجلّ عَلِيمٌ به، وهُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ عِلْمِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَلَوْ كانُوا شُرَكَاءَ في الكُفْرِ العناديّ الجحوديّ القائم على الباطل، وشُرَكاء في المكْرِ الذي يمكُرُونَهُ للصَّدِّ عَنِ الْقُرْآنِ، وَفِتْنَةِ المؤمنين عَنْ دِينِهِمْ، باتّهامِهِم الرَّسُولَ ﷺ بأَنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ.

- ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: أي: حِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكِ اسْتِماعَ عازِمٍ ابْتداءً عَلَىٰ الرَّفْضِ، وتَصَيُّدِ مَا يَتَّخِذُونَهُ ذَرِيعَةً للتَّشْهِيرِ بِك، والطَّعْنِ فيما تَتْلُو عليهم من القرآن.

- ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾: أي: وَحِينَ تَنَاجيهم يُسِرُّونَ الحديثَ فيما بيْنَهم.

يُطْلَقُ لفظ «نجوى» على الإسْرار بالحديث، ويُطْلَقُ على المتَنَاجِين، وهو من الوصف بالمصدر، ويَسْتَوي فيه الواحِدُ وغيره. يقال لغة: «نَجا فُلَانٌ فُلاناً الحديث، يَنْجُوهُ، نَجْواً، ونَجْوىٰ» أي: أَسَرَّ إِلَيْهِ الحديث.

- ﴿...إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾:

أي: حِينَ يَقُولُ المشْرِكُونَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة من كُفَّارِ هٰذه الزُّمْرَة الرابعة، في أَحَاديث سِرِّيَّةٍ لِمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ مِنَ المؤمنين: مَا تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلاً مَسْحُوراً، تُمْلِي عليه قُرَنَاء السَّحَرَةِ من الجنِّ هٰذا القرآن الّذِي يَتْلُوهُ، فتَتَأَثَّرُونَ به.

يفعلون هذا بُغْيَةَ فتنة المؤمنين عن دِينهِم، مَكْراً بالرَّسُولِ وبما يُنَزِّلُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ آيات كتابِهِ المجيد.

جاء في العبارة اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ المضارع: ﴿يَقُولُونَ﴾ للدَّلَالَةِ على أنَّهم صَارُوا يُرَدِّدُونَها لِيُشِيعُوها بَيْنَ الناس، بينما جاءت العبارة في سورة (الْفُرْقَان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

ويظهر أنَّهُمْ بَعْدَ أنْ قَالُوها إِبَّانَ سُورَةِ (الْفُرْقَان) بَدَا لَهُمْ أنْ يُرَدِّدُوها لتكُونَ شَائِعَةً مَقْبولَةً عِنْد الناس، فجاء التعبير في سورة (الإسراء) بعبارة: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقد سبق في تدبّر سُورَةِ (الفرقان) تحليل هذه العبارة.

وقد ذكرهم الله عزّ وجلّ بوَصْفِ الظَّالِمِينَ في (الفرقان) وفي (الإسراء) لأنَّ الصِّفَةَ البارِزَةَ فيما اتَّهَمُوا به الرَّسُول بأنَّه مَسْحُورٌ، هِيَ صفة الظلْم لشَخْص الرَّسُول ﷺ الّذي يتَلَقَّىٰ الوحْيَ عَنْ رَبّه، ولَا يَسْتَطيعُ السَّحَرَةُ أنْ يُؤثِّرُوا على شيءٍ من قُدْراتِهِ الفكرِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، ولم يظهر في شيء من صفاتِه ما يَدُلُّ على أنَّهُ مَسْحُور.

وقد كرَّم الله رَسُولَهُ بقولِه له:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

أعاد اللهُ عزّ وجلَّ هنا في سورة (الإسراء) مَا كان قَدْ خاطَبَ بِهِ رَسُولَهُ في سورة (الفرقان) في الآية (٩) منها.

وإذْ جاء التحليلُ التدبُّريُّ مُوسَّعاً لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الفرقان) حَوْلَ الآية (٩) المطَابِقَة للآية (٤٨) من سورة (الإسراء) فإنّي أقتصر هُنَا على بيانٍ غير مستفيضٍ التفصيل.

فالمعْنَىٰ: انظر يا محمّد بفكرك الذي لا تحتاجُ مَعَهُ إلى تأمُّلٍ وتَدقيقٍ وتعمُّقٍ، مُتَعَجِّباً مُسْتَنْكِراً كَيْفَ اصْطَنَعُوا كاذِبين مُفْتَرِين لَكَ أوْصَافاً، يَكْشِفُ الْفِكْرُ القريب بُطْلَانَها، لمنافاتها لِصَفَاتِكَ العظيمَةِ الَّتي تَتَحَلَّىٰ بها، وَيُدْرِكُها كلُّ ذي فِكْر، ولو لَمْ يَكُنْ فَطِناً وَلَا أَلْمَعِيًّا، وَلَا بَاحِثاً متعمّقاً، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْخِطَابَ للرَّسُول خِطَابٌ لِكُلِّ ذي نظر فكريّ.

وجاءت كلمة «الأمْثال» بالجمْع إذْ سَبَقَ لهم أنْ وَصَفُوا الرَّسُول ظُلْماً وعُدْواناً بأنه ساحر، وبأنَّهُ كذَّاب، وبأنَّه مَجْنُون، ووصفوه هنا بأنَّهُ مَسْحُور، مع ما بَيْنَ بَعْضِ هٰذِهِ الصفات من تناقض يُسْقِطُ أقوالهم.

ونلمح في عِبارة ﴿ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ إبْداعاً قَائماً على عكْسِ التشبيه.

فالأصْل في التشبيه أن يُقالَ: جعَلُوكَ مِثْلَ المسْحُور، أو مثل السَّاحر، أو مِثْل المجْنُون، ونحو ذلك.

لكنَّ النّصّ القرآنِيَّ كَرَّمَ الرَّسُولَ عَنْ هَذا، فعَبَّر عن عملهم بأنَّهم اخْترَعُوا مِنْ عِنْدِهم رُسُومات، وضَرَبُوهَا كما تُضْربُ النقود تثبيتاً لها، وادَّعَوْا أنَّها تُشْبِهُكَ. وهذا أسْلُوبٌ من تكريم الرسُولِ عَنْ شَتَائِم أئمة المشركين له عجيب.

وإذ وَصَفُوا الرَّسُول بهٰذِهِ الصفات المتعارضات المتناقضات الّتي لَيْسَ من العقول اجْتِمَاعُها في شخْصٍ واحِدٍ، فإنَّهُمْ قد وَضَعُوا نفوسَهُمْ في مَتَاهَةٍ فِكْريَّةٍ مظْلِمةٍ بعيدَةٍ عن سبيل الحق، فقال تعالى: ﴿...فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾: أي: فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أن يُحَدِّدُوا لِنُفُوسِهِمْ سَبيلاً يُقْنِعُونَ بِهِ جَماهِيرَهُمُ الّذِينَ يَدِينُونَ لهُمْ بالْوَلاء، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ضَلُّوا ضلالاً بعيداً.

الفصل الخامس

قال اللهُ عزّ وجلَّ مُبيِّناً تكريرَهُمْ مَقالَتَهم التعَجُّبِيَّةَ بِشَأْنِ الْبَعْث:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا (٤٩) ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا (٥٠) أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا (٥١) يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا (٥٢)﴾:

إنّ الْمَعْنِيّينَ بالْمُعالَجةِ في السُّورَةِ مِنْ أئِمَّةِ مُشْرِكي مَكَّةَ ما زالُوا بالنِّسْبَةِ إلى الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والآخِرَةِ والجزاء فيها، عِنْدَ مَوْقِفِهِمْ الاسْتِغْرَابيّ التَّعَجُّبِيّ، يُطْلِقُونَ فِيهِ الاسْتِفْهامَ التَّعجُّبِي، دُونَ أَنْ يَضِيفُوا إشْكالاً أو اعْتِراضاً، حتَّىٰ يُعالَجَ بما يُلائِمُهُ ويَدْفَعُهُ ويَكْشِفُ سُقُوطَهُ بِدَلِيلٍ بُرْهَانِيّ، وَقَدْ سَبَقَ في نُجومِ التَّنْزِيلِ بيانُ سُقُوطِ هٰذا الاستِنْكار التعجبيّ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، بأنَّ الخالِقَ الذي خَلَقَهُمْ في المرَّةِ الأولَىٰ هُوَ الّذي وضَعَ في خُطَّتِه أنْ يُمِيتَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهاء ظُروفِ الحياة الدُّنيا كُلِّها، يَخْلُقُ ظُرُوفَ وَشُروطَ الحياة الأخْرَىٰ، ويَبْعَثُ الْمَوْتَىٰ إلَىٰ الحياة، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، فأهْلُ الجنَّة يكُونونَ خالِدِينَ فيها، وأصْحَابُ النَّار الكافِرُون المجْرِمُونَ يكونون خالِدين فيها.

فعبارتُهُمْ: ﴿...أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا (٤٩)﴾ هي تَكْرِيرٌ لمَا سَبَقَ أنْ قَالُوه بشَأْنِ هذا الموضوع.

الرُّفَات: الحُطامُ، والْفُتَاتُ مِنْ كُلِّ مَا تَكَسَّرَ وانْدَقَّ.

فجاء التعليم الرَّبَّانِيُّ للرَّسول ﷺ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمَّتِهِ مُشْتمِلاً علىٰ شيءٍ من الحِدَّةِ والعُنْفِ في الإجابة، إذْ لَمْ يَكْتَفُوا في الإجابات السَّابقات بنحو: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ من سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

فجاء في هذا التعليم من سورة (الإسراء):

• ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ﴿٥١﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ: إنَّ تَحَوَّلَ أجْسَادِكم إلَىٰ رُفَاتٍ مُنبَثٍّ فِي تُراب الأرْض، لَا يُغَيّرُ مِنْ حَقِيقَةِ قُدْرَةِ اللهِ علَىٰ إعَادَتِكُمْ شَيْئاً، فَقَدْ فَطَرَكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ وَلَم تكونُوا شيئاً مَذْكُوراً، أفَيَعْجِزُ عَنْ إعادتِكُمْ إلى الحياة بَعْدَ أنْ يُمِيتُكُمْ، وَيُفَرّقَ رُفَاتَكُمْ فِي تُرَابِ الأرْضِ، ضِمْنَ الممكنَات العقلية.

وأبَيّنُ لَكُمْ حَقِيقَةً أكْثَرَ مِمّا تُشَاهِدُون من تَفرُّقِ رُفاتِ الْمَوْتَىٰ في تُرَابِ الْأَرْضِ، وَهِيَ أَنَّ هـٰذا التُّرَابَ قَدْ يَتَحَوَّلُ بِمُرُور الزَّمَنِ فَيَكُونُ حِجارَةً صُلْبَة، وقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فَيَكُونُ حَدِيداً، وقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فيكون حجارَةً كرِيمة كالزَّبَرْجَدِ، والياقوت، والزّمُرُّدِ، والألْمَاسِ، ونَحْوِها، فهـٰذه حجارةٌ لَهَا قِيمَةٌ كبيرة في صُدُورِكم.

فَسَيَقُولُون: إذَا تَحَوَّلَ رُفاتُنَا حِجارةً أَوْ حَدِيداً أوْ حجارةً كريمَةً، فَمَنْ يُعِيدنا إلى الحياةِ مَرَّةً أخرى؟!

فقل لهم: يُعيدُكُم إلَىٰ الحياةِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أوَّل مَرَّة، على أنّ الإعادة إلى الحياة لا تستلزم إعادّة أعيانِ رُفاتِ الأجسادِ، بل يكْفِي إنْشَاءُ أجْسَادٍ من خريطة النفس الباقية.

• ﴿... فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ... ﴿٥١﴾﴾: أي: فَسَيُحرّكُونَ إلَيْك رُؤُوسَهُمْ تَحْرِيكاً دَالًّا على الثبات عند مَوْقفِ الْمُستَبْعِدِ الْمُتَعجّب المنْكِر.

وإذْ لا يَجِدُونَ تَعِلَّةً يَتَعَلَّلُونَ بِهَا غَيْرَ الإنكار بأسْلُوبِ التَّعَجّب، فإنَّهُمْ يلْجَؤُون إلى السُّؤَالِ عَنِ الْوَقْتِ الّذي تكُونُ فيه القيامَةُ والْبَعْث، فجاء في النصّ:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ...﴾؟ أي: متىٰ يكونُ هـٰذا الإحياءُ إلى الآخرة لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضاء، وتَنْفِيذ الجزاء؟

- ﴿... قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾: أي: أتوقَّعُ أنْ يكون قَرِيباً، وهـٰذا الجوابُ يحْتَمِلُ معنَيْين:

المعنى الأول: توقُّعُ قُرْب مَوْتهم، فإنَّهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ تَنْكَشِفُ لَهُمْ حقائِقُ الآخِرَة الَّتِي لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وهُمْ في الحياة الدنيا، فَمَنْ مات قامَتْ قِيامَته.

المعنىٰ الثاني: تَوَقُّعُ قَرْبِ السَّاعَةِ الَّتِي يكُونُ بِها إنْهاءُ ظُرُوف الحيَاةِ الدُّنْيا، وهو قُرْبٌ نِسْبِيٌّ، يُقَاسُ على ما سَبَقَ من عُمْرِ الحياة الأولىٰ للأَحْياء جميعاً.

على أنَّ النّاسَ حِينَ يُبْعَثُونَ للحَيَاةِ الأخرىٰ، لا يُحسُّونَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ بيْنَ الموتِ والبَعْثِ، لأنَّ الإحْسَاسَ بالزَّمَنِ يَنْعَدِمُ مِنْ نُفُوسِهِمْ انْعداماً تامّاً، فَهُمْ يتصَوَّرُونَ حين الْبَعْثِ أنَّهُمْ يَسْتَيْقِظُونَ مِنْ نَوْمَةٍ نامُوهَا في سَاعَةٍ من نهار، وإحْسَاسُ ميِّتِ أوَّلِ النَّاسِ بالزَّمَنِ عِنْدَ الْبَعْثِ مُمَاثِلٌ لإحْسَاسِ مَيِّتِ آخِرِ النَّاس.

دَلَّتْ على هـٰذا نُصُوصٌ قرآنيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، ودَلَّ علىٰ أنَّهُمْ يظُنُّونَ أنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ الموْتِ والْبعْثِ إلَّا قَلِيلاً الآية الأخيرة من هذا النصّ، وهي قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

أي: بَعْثُكُمْ لمَلاقَاةِ أَحْداثِ الحياةِ الآخِرَة، يَكُونُ يَوْمَ يَدْعُوكُم رَبُّكُم لِلْحِسَاب (وقد تكونُ هـٰذِهِ الدَّعْوَةُ بوسَاطَةِ بَعْضِ مَلائكتِهِ) فتَسْتَجِيبونَ طَائِعِينَ اسْتِجَابَةً مَصْحُوبَةً بِحَمْدِه والثناءِ عَلَيْهِ بما هو لَهُ أهل، وتَظُنُّونَ وأنْتُمْ مَسُوقُونَ لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ أنَّكُمْ مَا لَبِثْتُمْ في الْبرْزَخ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إلَّا زمناً قليلاً.

«إنْ» حرف نفي بمعنى «ما».

الفصل السادس

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

تمهيد:

في هذا الفصل تَعْلِيمٌ للرَّسُول ﷺ أنْ يأمُرَ المؤمِنِينَ، ولا سيما الدعاة إلى اللهِ مِنْهم، بأنْ يَقُولُوا لَدىٰ مخاطَبَاتِهِمْ، ومُنَاظراتِهِمُ الْجدَلِيَّةِ، وَدَعْوتهم إلى دين اللهِ الحقّ، المقالَةَ الَّتِي هي أحْسَنُ، لأنَّ الكلامَ قَدْ يَجُرُّ إلى الخِصَامِ فالتّعادي، فالتقاتل، بسبب النزْغِ الشيطانِيّ الّذي يَنْزِغُهُ بَيْنهم.

وفيه بَيَانٌ تَرْبَوِيٌّ للرسُول ﷺ وإشْعارٌ ضِمْنِيٌّ لَهُ بِتَفْضِيلِهِ علىٰ غَيْرِهِ مِنَ النَّبِيّين، وهٰذا يُحَمِّلُهُ أعْبَاءً ثَقِيلَةً في مَسِرَتِهِ لتأدِيَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِه الخاتِمَة.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾:

وجَّهَ الله عزّ وجلّ في الآيات من (٢٢ ـ ٣٩) أرْبَعَ عَشْرَةَ وصيَّةً

لِلْمُؤْمِنين سَبَقَ تَدَبُّرهَا، وتوجيهها كانَ بخطاب مُبَاشرٍ من اللهِ جلَّ جلالُهُ، وبَعْدَهَا وجَّهَ خطاباً مباشراً للمشركين الّذِين زَعَمُوا أنَّ الملائكة بناتُ الله أنَّبَهُمْ فيه على افترائهم الباطِل، وعلى نُفُورِهم من حُجَج القرآنِ وبَيَاناته. وبَعْدَهُ علَّمَ رسُوله فِقرةً جِداليَّة إقناعيَّة يجادل بها المشركين بشأن اعتقادهم الباطلِ في آلِهَةٍ من دون الله جل جلاله وعظم سلطانه. وبعدها أبانَ لَهُ صِفاتِ أئمة الشرك في مكة تجاه القرآن، وهذه الصفات تنطبق على أمثالهم. وبَعْدَها عَلَّمَهُ فِقَرة من فقرات مناظَرَتهم بشَأْنِ إنْكارِهم للبعث واليوم الآخر.

وفي هٰذِهِ الآياتِ أمَرَ اللهَ عزّ وجلَّ رسُولَهُ بأنْ يُخَاطِبَ المؤمنين بتَعْلِيماتٍ مُلْحَقَاتٍ بوصايا الله، أعْطَاهُ اللهُ بها صِفة المعلّم المنفذ لأمر ربّه. وبأنْ يخاطِبَ المشركين خِطَاباً إقناعيًّا يَهْدِيهم إلى أنّ آلِهتَهُمْ لَنْ تَنْفَعَهُمْ إذا جَرَّبُوا أنْ يَدْعُوها لتكشف عَنْهُمْ ضُرّاً يَنْزِلُ بهم.

هٰذا التنويعُ بَيْنَ خِطاب اللهِ المباشرِ للناس، وبَيْنَ تكليف الرسُول أنْ يُخاطِبهم، يَدُلُّ على أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ يمْنَحُ رَسُولَهُ وَظيفَةً حَرَكِيَّةً في تأدِيَةِ رِسَالَتِهِ أكْثَرَ مِنْ وَظِيفَةِ مُبَلِّغِ كتابَ رَبّه، فهو يُمارسُ أمْراً وَنَهْياً وتَرْبيَةً وإقْنَاعاً وقيادَةً بأمْرِ اللهِ لَهُ بذلك، وهُو مَهْدِيٌّ بِهَدْيِ الله لَهُ، ومُسَدَّدٌ بتَسْدِيدِ اللهِ له.

وفي هذه الآيَةِ يأمُرُ اللهُ رسُولَهُ بأنْ يَأمُرَ المؤمنينَ بِضَبْطِ ألْسِنَتِهم، واختيار الأحْسَنِ من الأقوالِ في كُلّ الأحوال، ولا سِيما لدَىٰ مُخَاطَبَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، ولدَىٰ مُخَاصَمَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْض. ولدى قيامهم بوظيفَةِ دَعْوَةِ غَيْرِ المسلمين إلىٰ دين اللهِ الحقّ. ولدى معاملتهم لهم.

إنّ ضَبطَ ألْسِنَةِ المؤمنين باختيار الأحْسَنِ من الأقوال، جُزْءٌ مِنْ بِنَاءِ المجتَمَعِ الإسْلَامِيّ الْفَاضِلِ، المتميِّز تَهْذِيباً وأدَباً وحَضَارَةً راقية.

فجاء في التَّعليم: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ...﴾.

أي: قُلْ لعبادِي المؤمنين لِيقُولُوا دَواماً المقُولَةَ الّتي هي أحْسَنُ في اختياراتِهِمْ لأقوالهم.

﴿يَقُولُوا۟﴾ مجزومٌ بلَامِ أمْرٍ مَحْذُوفة، دلَّ عَلَيْهَا فعل «قُلْ» وحَذْف هذه اللّام لَهُ شاهِدٌ من كلام العرب، وهذا أحْسَنُ الآراء النحويَّةِ فيما ظهر لي. ولَهُ نظير في الآية (٣١) من سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول).

واخْتِير الفِعْلُ المضارعُ ﴿يَقُولُوا۟﴾ لِيَدُلَّ على مُطالَبَتِهم باختيار المقُولَاتِ الأحْسَنِ في كُلِّ ما يَنْطِقُونَ به، فإذا طَبَّقَ المؤمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ هٰذا الأدَبَ الرَّفِيعَ، كَانَ الْمُجْتَمَعُ الإسْلَامِيُّ مُحَقِّقاً أرْقَىٰ حَضَارَةٍ مثْلَىٰ في مجالِ أدَبِ الْقَوْلِ، وأسْلُوبِ الخطابِ، في مخْتَلِفِ أحْوال الرضَىٰ والغضَبِ، والوِئامِ والخِصَامِ، واللَّذاتِ والآلام، والمسَرَّاتِ والأحْزان.

﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: صِفَةُ مَوصُوفٍ مَحْذُوفٍ تقديرُهُ: المقولاتِ الّتِي هي أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِها، والأمْرُ باختيارِ الأحْسَنِ دَواماً يَتَضَمَّنُ حَثَّ الْمُسْلِمين على الارْتقاء في دَرَجاتِ سُلَّمِ الحضارَة المثْلَىٰ في مَجالِ الأقوال، إذ هُمْ مطالَبُون بِالأحْسَنِ فَالأحْسَن دَواماً.

إنّ الْأَمْرَ بضَبْطِ اللِّسَانِ، والبُعْدِ عن الأقْوالِ السَّيِّئَةِ، واختيار الأحْسَنِ فَالأحْسَنِ مِن الأقوال، من الأُمُور الَّتي وَجَّهَتِ التعليماتُ الإسْلَامِيَّةُ لَهَا عِنَايَةً عظيمة، ارْتقاءً بالمجتعِ الإسْلَامي في تَهْذِيب أقوالِ أفرادِهِ ارْتقاءً حَضاريّاً رَفيعاً.

جاء في حديث رواه الترمذيُّ وأحمد والنسائيُّ وغيرهم من معاذ بن جبل رضي الله عنه، بعْدَ أن أجابه الرَّسُولُ ﷺ عن الأعمال الّتي تُدْخُلُه الْجَنَّة، قال له:

«ألَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟».

قال مُعاذٌ: قُلْتُ بلَىٰ يَا رَسُولِ الله، قال مُعَاذ: فأخَذَ بلسانِهِ ثُمَّ قال: «كُفَّ عَلَيْكَ هٰذا» قُلْتُ: يا نَبِيَّ اللهِ، وإنَّا لمؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقال:

«ثَكِلَتْكِ أُمُّكَ يَا مُعاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النّار عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ» أو قال: «عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إلّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

قال الترمذي: حديث حَسَنٌ صحيح⁽¹⁾.

إنَّ كثيراً من الْخُصُومات الشَّدِيداتِ والمشاحَنَاتِ والتَّغَاضُبِ إلىٰ حَدِّ التقاتُلِ، تُثِيرُها بَيْنَ الْمُسْلِمِين أَقْوالٌ غَيْرُ حَسَنَةٍ، ويَعْمَلُ الشَّيْطَانُ بِنَزَغَاتِهِ في النُّفُوسِ على إثارَةِ غَضَبِها لِيُوقِعَ بَيْنَ المسْلِمينَ الشَّحْنَاء والْبَغْضَاءَ والْعِدَاءَ والتَّقاتُل.

وكذلِكَ يفْعَلُ الشَّيْطَانُ بَيْنَ المسْلِم وغَيْرِ الْمُسْلِمِ في المخاطبَاتِ، ولا سِيمَا حينما يَقُومُ المُسْلِمُ بوَظِيفَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ، إذْ يَنْزَغُ فِي نَفْسِ غَيْرِ الْمُسْلِمِ لِيُوجّهَ للدَّاعِي الْمُسْلِمِ أقوالاً جارِحَةً، ورُبَّما يكون فيها سَبٌّ وشَتْمٌ وهُزْءٌ وسُخْرِيةٌ، وعنْدَئِذٍ يَنْزَغُ فِي نَفْسِ الْمُسْلِمِ لِيُقَابِلَ السيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، فَيَسْقُطَ بذَلِكَ جِهادُهُ الدَّعَوِيُّ، وتَتحوَّلُ المحادَثَةُ بَيْنَهُما إلىٰ مُصارعَةٍ فمُقَاتَلَة.

دلَّ على هذا قَوْل الله عزّ وجلَّ في الآية: ﴿... إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝٥٣﴾:

نَزْغُ الشيطان: وَساوِسُهُ وتَسْوِيلاتُهُ الّتي يَحْمِلُ بها الإنسان على الشرِّ ومَا لَا تُحْمَدُ عُقْباه. يُقال لغة: «نَزغ فلانٌ بيْنَ القوم» أي: أفْسَدَ بينهم وحَمَل بعْضَهُمْ على بَعْضٍ. ويُطْلَقُ النَّزْغُ على الكلام الذي يُقْصد به الإغراء والإفساد بيْنَ الناس.

---

(١) قال ابن رجب الحنبلي: وفي هذا نظر، أي: في تصحيح الترمذي له. انظر: «جامع العلوم والحكم» له عند شرح الحديث.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: أي: إنَّ الشَّيطان إبليس وجُنُودَهُ مِن الجنّ هُمْ أعْداءٌ دواماً للإنْسَان آدَمَ فَذُرِّيَّاتِهِ، وعَدَاوَتُهُمْ مُبينَةٌ ظَاهِرَة.

أمّا الإنسانُ المؤمن فالشَّيطانُ حَرِيصٌ على أنْ يُغْوِيَهُ حتَّىٰ يَعْصِي رَبَّهُ، وحتَّىٰ يَخْرُجَ من الإسْلام والإيمان، ثُمَّ يُوغِلَ في الكُفْر ويكون في الدَّرْك الأسْفَل من النار.

وأمّا الإنْسَانُ الكافرُ فَالشّيطانُ حَرِيصٌ على أنْ يَسْتَدْرِجَهُ ويُنْزِلَهُ مُوغِلاً في دَرَكَاتِ الكُفْر، حتَّىٰ يكُونَ من أهْلِ الدَّرْكِ الأسْفَل من النار.

وهـٰذِهِ العَدَاوَةُ تَظْهَرُ بِوُضوحٍ من خِلَال وَسَاوِسِه في نَفْسِ الإنسان، فإنَّهُ لَا يُوَسْوِس لَهُ إلَّا بَشَرٍّ وإثْمٍ ومَعْصِيةِ للهِ عزّ وجلّ، وهـٰذِهِ تُزْلِقُ الإنْسَانَ إلى عَذَاب الله، أفَلَيْسَ هـٰذا من عداوته الظاهرة لكلِّ إنْسَان؟؟

وهـٰذا النَّزْغُ يُشْعِرُ بأنَّ بَعْضَ المؤمنين المسْلِمنَ سَيَسْتَجِيبُ لِوَسَاوِسِ الشيطان، ويَقَعُ في معصية الله تباركَ وتعالىٰ، فاقتضَىٰ هذا أنْ يُخَاطِبَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ بقوله:

- ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي: من كُلِّ عَلِيم بكُم ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ أي: فَيَغْفِرْ ذُنُوبكم إذا سقَطْتُمْ في معصيَته، بِمُقْتَضَىٰ حِكمَته، لأنَّ مشيئتَهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ عُقوبةً لكُمْ على مَعَاصِيكُمْ، إذا اقتضَتْ مشيئَتُهُ الحكيمَةُ عُقُوبتَكُم.

فالمغفِرة والعفْوُ والعقابُ كُلُّ ذَلِكَ إنَّمَا يكُونُ بمَشيئَةِ اللهِ الحكيمة، الّتي لَا يُوجَدُ في الْوجُودِ مَا يُلْزِمُها أوْ يُؤَثّر عليها، فالمشيئة المطلقَةُ المقْتَرِنَةُ بالحكْمة دَوَاماً من صفات كَمالِه، جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

ولمَّا كان الرَّسُولُ ﷺ مسؤولاً فقط عن أدائِه وظائف رِسالَته، ولَيْسَ مِنْهَا أَنْ يُلْزِمَ النَّاسَ أوْ يُجْبِرَهُمْ على الإيمان والطاعَةِ، أوْ يُحَوِّلَهُمْ عَنْ

تَنَكُّب صراط رَبهم، إلى الالْتزام بِسُلُوكِهِ، قال الله عزّ وجلّ لَهُ: ﴿...وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾﴾: أي: مَسْؤُولاً عن اختياراتهم في رحْلَةِ امْتِحانهم، ولا عَنْ أيّ سُلوكٍ مِنْ وَاقِعِ سلوكاتهم الإراديّة.

وكيل الرجل في اللُّغة: الّذي يَقُومُ بأمْرِه، سُمِّيَ وَكيلاً لأنَّ مُوَكِّلَهُ قَدْ وَكَلَ إلَيْهِ الْقِيَامَ بأمْرِهِ.

فالمعنى: وما أرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ لتكُونَ قائماً على الناس بصِفَةِ رُبُوبِيَّتِنَا وكيلاً عَنَّا على الناسِ، إنَّما أنْتَ مكلّفٌ أن تَقُومَ بوظائف رسالَتِكَ، وهِيَ التَّبْليغُ، والتَّعليمُ، والتذكيرُ، والمعالجةُ بالتربية والمحاجَّةِ واتّخاذِ الوسَائل الإقْناعِيّة، وحُسْنُ قيادَةِ مَنِ اسْتَجابَ لَكَ وأطاعَكَ.

ولَسْتَ مطالباً بتحويلِ النّاس من الكُفْر إلى الإيمان، ومن العِصْيَانِ إلى الطاعة، ومن الضّلالِ إلىٰ الْهُدَىٰ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ منهم موضوع موضع الامتحان بَعْدَ تبليغه وإجابتِه تُجاهَ رَبّه مسؤولٌ عن نَفْسِهِ مسؤوليَّةً تَامَّة.

ونَفْهَمُ مِنْ هذا النصّ وغيره أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ إذْ وَهَبَ الناسَ إراداتٍ حُرَّةً لِيَبْلُوهم فيما آتاهُمْ، فإنّه تبارَكَ وتَعالَى لا يَسْلُبُهُمْ هٰذِهِ الإراداتِ، ولَا يُكْرِهُهُمْ، ولا يأذَنُ للرّسُولِ وللمؤمنين بإكْراهِهِمْ، بَلْ يَتْرُكُ لهم حُرّيّاتهم في اختياراتهم، لينالُوا جزاءَهُم في الآخِرَةِ علىٰ ما اخْتَارُوهُ لأنْفُسِهم مما هو خيْرٌ لها، وممّا هُو شرٌّ لها.

إنَّهم مُوْهُوبُونَ أدَواتِ الْعِلم والْمَعْرِفَةِ، والإراداتِ الحرَّة، ليكُونوا مسؤولين مسؤوليَّةً تامَّةً عن اختياراتهم. ولَيْسُوا قُطْعَانَ أغْنَامٍ لا عقولَ لَهَا حتى تكون يا محمّد مَسْؤولاً عن حفظهم وحمايتهم، وإكراهِهِمْ على الدخُول في حظائِرَ تحميهم من الذِّئاب، فَوَظيفَتُكَ لَيْسَتْ كوظيفَةِ الْوَكيل على قطيعٍ من الغنم، بل أنْتَ مبَلّغٌ مُعَلّمٌ مُرْشِدٌ داع إلى سُلُوكِ صِراطِ اللهِ المسْتَقِيم، وعلى النَّاس أنْ يُؤَدُّوا واجباتِهِم تجاهَ رَبِّهم.

وبَعْدَ خطابِ الله عزّ وجلّ المباشرِ للمؤمنين المسلمين، خصَّ الله رسوله محمّداً ﷺ بخطابٍ أشعَرَهُ فِيهِ بإلماح ضِمْنيّ دُون أنْ يكُونَ في اللّفظ مَا يَدُلُّ علَيْه، بأنَّهُ قَدْ فَضَّلَهُ على سَائِرِ مَنْ خَلَق في السَّمَاواتِ والأرض، وهـٰذا مَوْصُولٌ بما بدأتْ به السُّورَةُ، ومَا جَاءَ في الآيات الأولى منها من إلماح إلى تفضيل الرسول محمّد ﷺ بالإسراء والمعراجِ حتَّىٰ سِدْرَةِ المنتهى، ليُرِيَهُ من آياتِه، وليُسْمِعَهُ من كلَامِهِ وَحْياً من وراء حِجابٍ في ذلك المكان الرفيع.

فقال الله عزّ وجلّ لرسُوله:

- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝٥٥﴾:

أي: وَرَبُّكَ يا مُحَمَّدُ أعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْم بمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْض، وهُنَا مَطْوِيٌّ لَمْ يُذْكر، قَدْ يُدْرَكُ إلْماحاً من وراءَ سَحَابٍ، من قِبَلِ بَعْضِ المتدبّرين وبالنَّظر إلىٰ السّياق، ، أي: وبِعِلْمِنَا بكُلِّ مَنْ في السماوات من ملائكة، وكلِّ مَنْ في الأرض من ملائكةٍ وإنْسٍ وجنٍّ، فَضَّلْنَاكَ عَلَيْهم جميعاً، إذْ آتَيْنَاكَ مَا لَمْ نُؤْتِ أحَداً منهم من تكريم وتشريف.

- ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ كَمَا فَضَّلْنَاكَ علىٰ جَمِيعِ مَنْ خَلَقْنَا في السَّمَاوَاتِ والأرض.

- ﴿. . .وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أي: ومن أمْثِلَةِ تَفْضِيلِ بَعْضِ النبيّين علىٰ بَعْضٍ أنَّنا آتيْنا داود زَبُوراً فَضَّلْناه بِهِ على كثير من أنبياء بني إسرائيل الّذين لَمْ نُؤْتِهِمْ كُتُباً.

والزّبور الّذي آتاهُ الله عزّ وجلّ داود عليه السَّلام كتابُ حِكَمٍ ومواعظ ونَصائح، ومُنَاجاةٍ للهِ وتضرُّعَ ودعاء، وتمجيدٍ وتقديسٍ له وثناءٍ،

وحَمْدٍ له على جليل صفاته وعظيم مِنَنه، وفيه وصْفٌ لأحوال الأشرار وتميكن الله لهم من فِعْلِ الشرِّ ضدّ الضعفاء والمساكين واليتامى، وأنّ الأشرار يَجْحَدُون الجزاء، ويَتَوَهَّمُون أنَّ اللهَ لاَ يَطْلُبُهُمْ لِيُقِيم عَدْلَهُ فيهم، إلى نحو ذَلِكَ من ابتهالات.

وهو ينْقَسِم إلى مزامير، ويَشْتَمِلُ على (١٥٠) مَزْمُوراً، بحَسَبِ ما هُو مُدَوَّنٌ في الْعَهْدِ القديم عند أهل الكتاب.

وبَعْد هـٰذا رَجَعَ الْبَيَانُ في السُّورة إلى تَعْلِيم الرَّسُول فكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ أسْلُوباً من أسَاليب إقْناعِ المشْرِكِين بأنَّ آلِهَتَهُمْ من دُونِ اللهِ لَا تَنْفَعُهُمْ شَيئاً، فَلْيُجَرِّبُوا مَعَهُمْ الدُّعَاءَ لكَشْفِ الضرِّ عَنْهُمْ إذا نَزَلَ بِهِمْ، فإنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَه عَنْهُم، ولا يَمْلِكُونَ تَحْوِيلَهُ، فقال الله عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾:

أي: قل يا مُحمّد ويَا كُلَّ داعٍ إلى اللهِ من أمتِه للمشركين: أَجْرُوا مع آلِهتكم الَّذينَ زَعَمْتُمْ أنَّهُمْ شُركاءُ للهِ في إلَهِيَّتِهِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ مُشَارَكَةً مَا لَهُ فِي رُوبُوبِيّتِه، تَجْرِبَةَ الدُّعَاءِ إِذَا نَزَلَ عَلَيْكُمُ الضُّرُّ فَعَمَّ مَشَاعِرَكُم وَنُفُوسَكُمْ، فَادْعُوهُمْ لِيَكْشِفُوا الضُّرَّ عَنْكُمْ كَشَفَ إزالةٍ تَجْعَلُهُ عَدَماً، أَوْ لِيُحَوِّلُوهُ عَنْكُم إلَىٰ مكانٍ مَا، أو إلى أعدائِكُم كَمَا تُحِبُّون.

فإذا دَعَوْتُموهُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُم لَا يَمْلِكونَ قُدْرَةً مَا يَكْشِفُون بِهَا الضُّرَّ عَنْكُمْ كَشْفَ إزالَةٍ إلى الْعَدَمِ، ولا يَمْلِكُون قُدْرَةً مَا يُحَوِّلُونَ بِها الضُّرَّ عنكم.

إنَّ تَجْرِبَةَ الدُّعَاءِ من أعظم اخْتبارات صِحَّةِ كَوْنِ المدْعُوِّ إلَهاً حَقًّا، قادِراً علَىٰ إجَابَةِ الدَّاعي وإيتائهِ سُؤْلَهُ عِنْدَ شِدَّةِ الضَّرُورَة.

أمّا الآلِهَةُ من دُونَ اللهِ ـ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ ـ فإنَّها آلِهَةٌ باطِلَةٌ، إذْ هِيَ إمَّا أَوْهامٌ، أو لها وُجُودٌ ولكنَّها عاجِزَةٌ عن إجَابَةِ مَنْ يَدْعُوها وإيتائِهِ سُؤْلَهُ.

وليسَ في الوجود كُلِّه إلَهٌ رَبٌّ يُجيبُ دُعَاءَ المضْطَر إذا دَعَاه غَيْرُ اللهِ الواحِدِ الأحد، الَّذِي لَا رَبَّ غَيْرُهُ، فَلَا إِلَهَ بِحَقٍّ سِوَاه.

ولِهٰذا جَاءَ في البيانِ الرَّبَّانِيِّ بَعْدَ هٰذا التَّعْلِيم، قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾:

﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾: أي: المنْزِلَةَ ذَاتَ الْقُرْب من الله، وهٰذِهِ الوسِيلَة تُنَالُ بالتَّقَرُّب إلىٰ الله بالأعْمَالِ الصّالحة مِنْ مَحابّه جَلَّ جلاَلُهُ.

ومَنَازِلُ الْقُرب من اللهِ عزّ وجلّ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ بَعْضُهَا أرْفَعُ مِنْ بَعْضَ، وكُلُّ ارْتِقَاءٍ فيها يَزِيدُ الْعَبْدَ قُرْباً مِنْ رَبِّه، وكُلَّما اجْتَهَدَ الْعَبْدُ للتَّقَرُّبِ إلى اللهِ بالأعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ازْدَادَ ارْتقاءً فِي دَرَجَاتِ الوسِيلَةِ قُرْباً من الله جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ.

فالمعنى: أُولئِكَ الْفُضَلاءُ رَفِيعُوا المنْزِلَةِ عنْدَ رَبّهم، هُمُ الّذينَ يَسْتَجِيبُ اللهُ لَهُمْ مِنْ عِبادِهِ إذَا دَعَوْهُ، وهُمُ الَّذِيْنَ يَنْتَفِعُون من دُعَائِهِمْ إلَهَهُم، لأنَّ إلَهَهم هو الإلَه الْحَقُّ، إذْ هو رَبُّ كلِّ شيءٍ، الْقَادِرُ عَلَىٰ فِعْلِ مَا يَشاء، وهو الذي يُجيبُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ ويُؤْتيهِ سُؤْلَهُ ضِمْنَ مقتضَىٰ حِكْمَتِه، أو يُعْطِيه خيراً مِمَّا سألَ.

أشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين «أولَئِكَ» للدَّلاَلَة على ارْتفاعِ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبّهم، بإيمانِهم، وصِدْقِ إسْلامِهِم، وباجْتِهَادِهم فيما يُقَرِّبُهُمْ إلَيْه من الأعْمَال الصالحة.

وقد وصَفَهُمُ اللهُ في هـٰذِهِ الآيَةِ بِصِفَاتٍ ثلاث:

الصِّفَةُ الأُولى: أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ، باجْتِهَادهم في صالحات الأعمال التي تجعَلُهم أقْرَبَ فَأقْرَبَ مَنْزِلَةً من رَبِّهِم، وبِتسابُقِهِمْ في فِعْلِ الخيراتِ يَظْهَرُ أَيُّهُمْ أقْرَبُ مِنْ رَبّه مَنْزِلَةً.

- ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: أي: يَطْلُبُونَ إضَافَةً إِلَىٰ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، المنْزِلَةَ ذَاتَ الْقُرْبِ مِنْه، باجْتِهَادِهِمْ بِنَوافِلِ العبادات والْقُرُبَاتِ، ومَعْلُومٌ أَنَّهُمْ باجْتِهَادِهِم يُسَابِقُونَ، وبما أنَّ المتَسابِقِينَ من الْعُبَّاد لَا بُدَّ أنْ يَكُونُوا مُتَفَاضِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكْشِفَ تَسَابُقُهُمْ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ فأقْرَبُ مَنْزِلَةً من رَبّه.

يَبْتَغُونَ: أيْ: يَطْلُبُون.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؟ اسْتِفْهَامٌ عَنِ الأَقْرَب يُشْعِرُ بأنَّ الْعَبْدَ كلَّما كَانَ أقْرَبَ مَنْزِلَةً مِنْ رَبّه بمُجَاهَدَتِهِ، كَانَتْ أَدْعِيَتُهُ لِرَبِّهِ أَسْرَعَ اسْتِجابَةً وأكْثَرَ قَبُولاً، وآتاهُ اللهُ سُؤْلَهُ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مضطرّاً، فَدَلَّتْ هـٰذِهِ العبارة باللُّزوم الفكريّ على تَسَابُقِهم في التقرُّب إلى الله، وتفاضُلِهِمْ في الْقُرب.

والمعْنَىٰ: أَيُّهُمْ أقْربُ فهُوَ أَسْرَعُ استجابةً، وأكثر قبولاً عنْد رَبّه.

وما ظهر لي في هذا الْبيان القرآنيّ المختزل، جاء بيانُه صَرِيحاً واضحاً في حديث قُدْسِيّ صحيح، رواه البخاريُّ عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قال: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًا فَقعدْ آذَنْتُهُ بالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشَيْءٍ أَحبَّ إليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عليه، ومَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الّذي يُبْصِرُ به، وَيَدَهُ الّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الّتي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وإِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ

تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نفسِ المؤمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

أَمَّا إجابةُ اللهِ عزّ وجلّ المضطَرَّ إذا دَعَاهُ، فَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ عزّ وجلّ إِحْدَىٰ الْأَدِلَّةِ الَّتِي يَدُلُّ بِهَا عَلَىٰ وُجُوده، ولَوْ كان الدَّاعي المضطَّرُّ كافِراً، وبهذا يَظْهَرُ للمشركين الْفَرْقُ واضِحاً بَيْنَ دُعَائِهِمْ لآلِهَتِهِم مِنْ دُون الله، ودُعَائِهِمْ للهِ رَبِّهِم ورَبِّ السَّمَاواتِ والْأَرْض وما فيهما ومن فيهما.

الصّفةُ الثانية: أَنَّهُمْ يَرْجُونَ مُتَرَقِّبِينَ دَواماً رَحْمَةَ اللهِ، دَلَّ على هٰذِهِ الصِّفَة: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ عَطْفاً علىٰ: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

يَرْجُونَ: أي: يَتَوقَّعُونَ آناً فآناً على تَوالِي الأزمان.

رَحْمَتَهُ: أي: آثارَ رحْمَتِهِ، وآثارُ رحْمَتِه العطاء، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ الْبُؤْس، والإمداد بما يَسُرُّ، ومنها الغفرانُ والعفْوُ عَنِ السّيّئات، إلى غير ذلك من جَلب كلّ مَا يُحِبُّ الإنسان، ودَفْعِ كلّ مَا يَكْرَهُ. ومِنْهَا الثوابُ الجزيلُ على فِعْلِ الطاعَاتِ والْقُربات في العاجلة والآجِلَة.

الصّفةُ الثالثة: أَنَّهُمْ يَخافُون عَذَابَهُ الَّذِي أوْعَدَ به الكافِرِينَ والْعُصَاةَ، فهم بهذا الخوف يَجْتَنِبُونَ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، ويَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ بِه، ما استطاعُوا إِلَىٰ ذَٰلِكَ سبيلاً.

دلَّ على هٰذِهِ الصفة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾: أي: فيجعَلُهُمْ الْخَوْفُ يَجْتَنِبُونَ مَعْصِيَتَه.

وخَتَمَ اللهُ عزّ وجلَّ الآية بقَوْلِهِ مُنْذِراً بأَنَّ عَذَابَهُ أَلِيم شَدِيد، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾: أي: إنَّ عذاب رَبِّكَ أيُّها الصّالح للخطابِ، الّذي أعْتَدَهُ للكافِرِين والْعُصَاةِ، عَذَابٌ شَدِيدُ أَلِيم يَحْذَرُهُ دَواماً المؤمِنُونَ أُولُوا الألْبَاب، فيتوسَّلُونَ إلى حِمَايَةِ أنْفُسِهِمْ مِنْه بالإيمَانِ به، والإسْلاَمِ لَهُ، وطَاعَتِهِ والْعَمَلِ بما يُرْضِيه من عباده.

يقال لغة: «حَذِرَ الشيْءَ، وحَذِرَ مِنْهُ، يَحْذَرُ، حَذَراً» أي: خافَهُ واحْتَرَزَ مِنْه، فهو «حَاذِرٌ» و«حَذِرٌ» والشيْءُ «مَحْذُورٌ» و«مَحْذُورٌ مِنْهُ».

وبَعْدَ أَنْ عالج اللهُ عزّ وجلَّ المشركين، وأمَرَ بِمُعَالَجَتِهم، لإِقْنَاعِهِمْ وقَطْعِ أعْذَارِهِمْ، وأمَرَ رَسُولَهُ بأنْ يُوصِيَ المؤمنين بأن يَقُولُوا المقالات الَّتِي هي أحْسَنُ، وأنْ يُصْلِحُوا ما في سَرَائِرِهِمْ الّتِي يَعْلَمُها اللهُ وقَدْ يجازيهِمُ علَىٰ السّيِّئَاتِ منها، وألْمَحَ إلْمَاحاً خفيًّا لِرَسُولِهِ بأنَّهُ فَضَّلَهُ على العالمين، وأمَرَهُ بأنْ يُعَالِجَ المشْرِكِين مِعَالَجَةً إقناعِيَّة تَعْتَمِدُ على اختبارٍ تجريبيٍّ لآلِهَتِهم، ولِلرَّبِّ جَلَّ جَلالُه، وأبَانَ صِفَةَ المؤمِنِينَ الصادقين الَّذِين يَسْتَجِيب دَعواتهم، انتقَلَ إلى بَيَانِ أحْوَالِ النَّاسِ المستقبليَّة، وأنَّهُمْ بمَعَاصِيهم سَيَسْتَحِقُّونَ إهْلاكَهُمْ فِي قُرَاهم، أوْ إنْزَالَ عَذَابٍ شَدِيدٍ فيهم، فقال اللهُ عزّ وجلَّ:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي: وما مِنْ أهْلِ قَرْيَةٍ «إنْ» حرف نفي، مثل «ما»، و«مِنْ» جيء بها زائدة لإفادة الاستغراق.

القرية: كُلُّ مجمَّعٍ سَكَنِيٍّ وتوابعُهُ، ولو كان مَدينةً عظمىٰ جدّاً.

﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾:

يتَحدَّثُ اللهُ عزّ وجلَّ بضمير المتكلّم العظيم الدّالّ على عظمة ربوبيّته، وأنَّهُ هو القاهر فوق عباده.

مُهْلِكُوها: أي: سَنُهْلكها إهْلاكَ استئصَالٍ كإهْلاكِ عادٍ وثمود، وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ الْقُرَىٰ الَّتي سيُهْلِكُها قد وصلَتْ بِكُفْرِها وطُغْيانها إلى استحقاقِهَا الإهلاكَ الشامل بحكمة الله عزّ وجلّ، كما أهْلَكَ كفّارَ القرون السابقة.

﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾: أي: أَوْ سَنُعَذِّبها عذاباً شديداً دُون عَذَابِ الاستئصالِ. وهٰذا يَدُلُّ على أنّ القُرَىٰ الَّتِي سَيُعَذِّبُها لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ عَذَابِ الاستئصال بالإهلاك الشامل، وهذه رُبَّما تكُونُ مُسْلِمَةً، إلَّا أنَّ كَثْرَةَ مَعَاصِيها من دُون الكُفْر قَدْ جعلَتْها تَسْتَحِقُّ أنْ يُنْزِلَ اللهُ بها عَذَاباً شديداً، ولَوْ كان هذا العذابُ بأيْدِي النَّاسِ من الجبابرة أو الكَفَرة، وهٰذا العذابُ قَدْ وَجَدْنا أمْثِلَةً كثيرةً مِنْهُ، فِي تاريخ النّاسِ، وفي بُلْدانِ المسْلِمين، فَكَمْ تَعَرَّضَ الْمُسْلِمُونَ لعَذَابٍ شَدِيدٍ في قُراهُمْ وعواصِمِهم الكبرىٰ علَى أَيْدِي أعْدَائِهِم الكَفَرَةِ، ولَوْ كانُوا منْ أَعْرَاقِهِمْ وأقوامهم والنَّاطقين بلغاتهم.

فلا حَاجَةَ بَعْدَ هٰذا الْفَهْم لتخصيص لفظ «قرية» في عبارة: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ بوصف: «كافِرَة» فالتعميمُ في العِبارَة يَشْمَلُ القُرىٰ الّتي يكونُ أهْلُهَا كافِرين، والْقُرَىٰ الَّتِي يَنْتَمِي أَهْلُهَا إلى الإسلام، فَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أنَّ كُلَّ مُجمَّعٍ سَكَنِيٍّ للنّاس، سَيَمُرُّ أَهْلُهُ في مُسْتَقْبَلِ تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ في مَرْحَلَةٍ يَكُونُون فيها كافِرينَ طُغَاةً يَسْتَحِقُّونَ الإهْلَاكَ الشامِلَ، كما أَهْلَكَ اللهُ بعَدْلِهِ وَجَبَرُوتِ رُبُوبيَّتِهِ قومَ نُوحٍ، وعاداً، وثَمُودَ، وقَوْم لوط، وقَوْمَ شُعَيب. أو في مَرْحَلَةٍ من التَّمادِي في المعَاصِي يكونُونَ فيها مُسْتَحِقِّينَ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِهِمْ عذاباً شديداً.

وهٰذا الذي سَبَقَ في عِلْمِ اللهِ بشأن مستقبلِ تَارِيخ الناس، مَكْتُوبٌ مَسْطُورٌ فِي اللَّوْحِ المحْفُوظ، دلَّ على هٰذا قولُ الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿... كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾﴾: أي: كَانَ بَيَانُ ذَلِكَ الإهلاك أو العَذاب الشّديد الوارِد في الآيَةِ مُدوّناً مَكْتُوباً في اللَّوْحِ المحفوظ، من قبل أن يخْلُقَ اللهُ النَّاسَ، وَيَضَعَ الممتحنين مِنْهُمْ موضع الامْتِحان الفِعْليّ في الحياة الدُّنيا.

مَسْطُوراً: أي: مكتُوباً كِتَابَةً يَعْلَمُها اللهُ عزّ وجلّ. يقال لُغَةً: «سَطَرَ الكتابَ، يَسطُرُهُ، سَطْراً» أي: كتبَه.

وأرِيدَ بلَفْظِ «الكتاب» هنا في الآية، اللَّوْحَ المحفوظ، لِلْعِلم مِنْ

سوابِقِ التنزيل، أنَّ الكِتَابَ الْجَامِعَ للمَعْلُومَاتِ عن الكائِنَاتِ هُوَ «اللَّوْحُ المحْفُوظ» فلفظ «ال» في «الكتاب» هنا عَهْدِيَّة.

وجاءَتْ في الآية عبارَةُ: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قَيْداً لازماً، لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أنّ هـٰذِهِ الإجراءاتِ العِقَابيَّةَ سَوْفَ تكونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ عندَ قيام السَّاعَةِ الّتي يَكُونُ بِها إنْهاءُ ظُروفِ الحياةِ الدُّنيا. بَلْ سَتَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ إذْ يَكُونُ النَّاسُ ضِمْنَ ظُرُوفِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدُّنيا.

وجاءَ النَّفْيُ الاسْتِغْرَاقِيُّ والاسْتِثْناءُ في الآية لإفادَةِ الْقَصْرِ والْحَصْر، أيْ: ومَا قَرْيَةٌ فِي الأَرْضِ للنَّاسِ إلَّا سَيُهْلِكُهَا اللهُ عزّ وجلَّ أَوْ يُعَذِّبُها عذاباً شَدِيداً قَبْلَ يَوْمِ القيامَةِ، لأنَّ الْمُهْلَكَةَ قَدِ استحقَّتِ الْإهلاكَ بِكُفْرِهَا وَطُغْيانِها وفُجُورِها، ولأنَّ الْمُعَذَّبَةَ عَذاباً شَدِيداً قَدِ اسْتَحَقَّتْ أنْ تُعَذَّبَ عَذاباً شديداً، بِكَثْرَةِ ذُنُوبِها ومَعَاصِيها، وخروجِهَا عن صراط رَبّها المستقيم.

وهذا قَصْرٌ إضافيٌّ من قَصْرِ مَوْصُوفٍ علَىٰ صِفَةٍ، بحَسَبِ مُقَرَّراتِ الْبلاغِيّين.

وإخراجُ الْعُمُومِ الذي دَلَّ عليه النَّفْيُ المستَغْرِقُ والاستثناء، عَنْ أَصْلِ دَلَالَاتِه، ممّا لا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ التدبُّر المتأنّي السَّليم، والله أعلم.

الفصل السابع

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾:

تمهيد:

في هاتَيْن الآيتَيْن تَرْبيةٌ من اللهِ عزّ وجلّ لرسُوله ﷺ ويُلْحِقُ بِه

أصْحَابه، بشأن أرْبَعِ قضَايا، مع بيانٍ تَعْقِيبيٍّ يكْشِفُ اللهُ عزّ وجلّ بِهِ واقِعَ حَالِ الْكَافِرِين، تُجَاهَ آيَاتِهِ التَّخْوِيفيَّة:

القضيَّةُ الأولى: تَطَلُّعُ نَفْسِ الرَّسُول ﷺ، دُونَ طَلَبَ صَرِيح منه أدباً مع رَبِّهِ، وتَطَلُّع نفوس بَعْضِ أصحابه، أنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ جلَّ جَلَالُهُ لِطَلَبِ كبراء مشركي قومه آياتٍ مُعْجِزاتٍ، مِنَ المعجزاتِ الماديَّةِ، كعَصَا مُوسَىٰ، ونَاقَةِ صالح، وإحياء الموتىٰ لعيسَىٰ علَيْهِم السلام، رجَاءَ أنْ يُؤْمِنُوا بالحقِّ، ويَسْتَجِيبوا لدَعْوَتِهِ، ويَتَّبِعُوا ما جاء في القرآنِ الّذي يَتَنَزَّلُ علَيْه.

القضية الثانية: تَطَلُّعُ نَفْسِ الرَّسُول ﷺ، دُونَ طَلَبٍ صَرِيحٍ مِنْه، وتَطَلُّعُ معْظَم أصحابه، أنْ يَنْصُرَهُمْ اللهُ علىٰ عَدُوّهِم ليتخَلَّصُوا من الاضطهادِ الَّذِي هُمْ فيه من قِبَلِ أئِمَّةِ المشركين فِي مَكَّة.

القضيَّة الثَّالثَة: ما أحْدَثَهُ المشْرِكُون من ضَجِيجِ إعْلامي، حَوْل ما امْتَنَّ اللهُ به على رسُولِهِ محمّد ﷺ، مِنْ مِنَّةِ الإسراء والمعراج، وَحَدِيثِهِ عَنْهُما للمؤمنين، ووُصُولِ خَبَرِهِما إلى مُشْرِكي قومه.

القضية الرابعة: مُتَابَعَةُ المشركين ضَجِيجَهُمُ الإعْلاميّ بشَأْنِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم، الشَّجَرَةِ الملْعُونَةِ المذكُورَة في القرآن، والمتْلُوَّةِ بألْسِنَةِ المؤمنين، كلَّما تَلَوْا الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة: (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾:

هـٰذِهِ الآيَةُ تتعلَّقُ بالْقَضِيَّةِ الْأُولَىٰ مِنَ القضايا الأربع، الَّتي ذكَرْتُهَا في التمهيد.

وقَدْ دَلَّتْ هـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أنَّ كُبَرَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ طَلَبُوا من الرَّسُولِ مُحَمَّد ﷺ، أنْ يُجْرِيَ اللهُ لَهُ آياتٍ خوارقَ اقْتَرحُوها، كَأَنْ يُنَحِّيَ عَنْهُمْ جِبَالَ مَكَّة، أَوْ أنْ يَجْعَلَ بَعْضَ جبالها أو بَعْضَ مواضِعَ مِنْها ذَهباً، كما أخْرَجَ لصالح عَلَيْهِ السَّلام النَّاقَةَ مِنْ صَخْرَةٍ عَيَّنَها قومُهُ وكانت قِصَّةُ هـٰذِهِ النَّاقَة، وقِصَّةُ صالح عليه السَّلام وقومِهِ ثمود متداولةً بَيْنَهُمْ، وكَأَنْ يأتِيَهُمْ بآياتٍ كآياتِ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وآيات عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

فأبانَ اللهُ عزّ وجلَّ أنَّهُ قادِرٌ على إرْسال مَا يَطْلُبُون وَمَا يَقْتَرِحُونَ من آيات خارقات، من نَوْع الآيَاتِ المادّيات اللّواتي تُدْرَكْنَ بالحواسّ الظاهرة، إلَّا أنّ من سُنَّتِهِ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ أنَّهُ إذَا اسْتَجابَ لمطالِب الْقَوْم، فأجْرَىٰ لِرَسُولِهِ الآيَةَ أو الآيَاتِ الّتِي اقْتَرحُوها أو الّتي يَقْتَرِحُونَها، فَلَمْ يُؤْمِنُوا أنْ يُهْلِكَهُمْ بعَذَابٍ، وَيَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ، إذْ لَا يَكُونُ مِنَ الحكْمَةِ إمْهَالُهُم وتأخِيرُهُمْ إلَىٰ آجالِهِمْ.

وقَدْ أثبتَتِ التجارِبُ الْبَشَرِيَّةُ، أنَّ الخوارقَ الَّتِي يَقْتَرِحُها الْكَافِرُونَ المعانِدُون الجاحِدُونَ، على رُسُلِ ربّهم، إذَا أجْرَاهَا اللهُ عزّ وجلّ فإنّها لَا تُغَيِّرُ مِنْ وَاقِعِ حَالِهِمْ شَيْئاً، إذْ هُمْ في قُلُوبهم مستيْقِنُونَ، إلَّا أنَّهُمْ جَاحِدُونَ، وَمَا يَقْتَرِحُونَهُ مِنْ آياتِ خَوارِقَ، لاَ يَعْدُو أنْ تكونَ مطالبَ تعنُّتِيَّة، ولَيْسَ من الحكْمَة أنْ يَخْرِقَ اللهُ عزّ وجلّ سُنَنَهُ فِي كونِهِ لِلْجَاحِدِين المتعَنّتين، الَّذِينَ يَطْرَحُونَ المطالِبَ على سبيل التَّشَهِّي والتّلاعُبِ بالسُّنَنِ الرَّبَّانِيَّة.

ومِنَ الأمْثِلَةِ الواقِعِيَّة في تاريخ الْأُمَم أنَّ كُفَّارَ ثَمُودَ لَمْ يُؤْمِنُوا، على الرُّغم من أنَّ اللهَ عزّ وجلّ اسْتَجابَ لطَلَبِهِمْ، فأخْرَجَ لَهُمْ مُعْجِزَةَ النَّاقَةِ

علىٰ وفْقِ مَا طَلَبُوا تَماماً، فَكَانَ من الحكْمَةِ تَعْذِيبُهُمْ، وإهْلاَكُهُم إهْلاَكَ استِئْصالٍ.

فاللهُ عزّ وجلّ لَمْ يَشأْ أنْ يُعَرِّضَ أهْلَ مَكّةَ الْبَلَدِ الحرام، لعذَابٍ شاملٍ، يُهْلِكُهُمْ بِهِ إهْلاَكَ استِئْصَالٍ عامٍّ، وهُمُ الصَّفُّ الأوّلُ من قوم خاتم رسُلِهِ وأنبيائه، وفي كثيرٍ مِنهُمْ قَابِلِيَّةُ أنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا بَعْدَ أنواع من العلاج الحكيم، في بضْعِ سنين، يُهْلِكُ اللهُ فيها الكبراء المعانِدِين بجُحود، الّذِينَ يَمْنَعُونَ أتباعَهُمْ مِنَ الإيمان والإسلام، وهذا ما تحققَ فِعلاً بَعْدَ بِضْعِ سنين، ثمَّ بَعْدَ فتح مكة.

فالمعنى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ وفْقَ مُقْتَضَياتِ الْحِكْمَةِ، من ﴿أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ المقترحَاتِ من الخوارق الماديَّة، الّتِي طَلَبَهَا أهْلُ الجحود مِن كُبَرَاءِ وأئِمَّةِ مُشْرِكِي مَكَّة ﴿إِلَّآ﴾ مَا قَضَتْ به حِكْمَتُنَا بَعْدَ ﴿أَن﴾ كَشَفْنَا للنَّاسِ بالتَّجْرِبَةِ أنَّ المستَيْقِنِين الجاحِدِين لَا يُؤْمِنُونَ، ولَوْ أَجْرَيْنَا لَهُمُ الخوارقَ الّتِي يَطْلُبُونَ، فَقَدْ ﴿كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾ وَ مِنْ أمْثِلَةِ المكذِّبِينَ الأوّلِين أنّنا ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ المعجزَة الخارقَةَ للعادَةِ، على وَفْقِ مَا اقْتَرَحُوا عَلَىٰ رَسُولِهِمْ صَالح، وكانت هـٰذِهِ الناقَةُ ﴿مُبْصِرَةً﴾ لهم، إذْ جَعَلَتْهُمْ يُدْرِكُونَ آيَةَ الحقِّ بأبْصارِهم ﴿فَظَلَمُواْ﴾ جاحِدِينَ ﴿بِهَا﴾ وظَلَمُوا بِعقْرِهَا، فاسْتَحقُّوا العذاب الشامِل المسْتأْصل.

وبَعْد أنْ كشَفْنَا للنّاس طبائعَ المكذِّبين الجاحِدِينَ بتَجْرِبَة كُفَّارِ ثمود، صارَ مِن الحكْمةِ أنْ لا نَسْتَجِيبَ لمطالِبِ الكافرين التَّعَنُّتِيَّة، وأنْ تَكُونَ آيَاتُنَا آياتِ تخْويفٍ علىٰ أنّنا قادِرُونَ علىٰ أنْ نَفْعَل ما نَشاءُ ﴿...وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ أي: وَمَا نُرْسِلُ بالآياتِ إلّا لِتَحمِلَ للنّاسِ رِسَالَةَ تَخْويفٍ لَهُم بِعَذَابِنا، وهـٰذِهِ الآياتُ نختارُها ونُجْرِيها بِحِكْمَتِنَا، ولا نَجْعَلُ خَرْقَ سُنَنِنَا الكونيَّةِ أُلْعُوبَةً للمتشهِّينَ المتعنِّتين الجحُودينَ، الَّذِينَ كَذّبوا رَسُولَنَا بَعْدَ أَنْ أَريناهُمْ آياتِ صِدْقه الخوارِقِ، وكذَّبُوا بِكِتَابِنَا الّذي نُنَزِّلُ

آياتنا البيِّنَاتِ عَلَيْهِ، ويَتلُوهُ علىٰ النَّاسِ تِباعاً علَىٰ وفْقِ مَا أَنْزَلْنَاهُ.

الباء في ﴿بِٱلْأَيَٰتِ﴾ زِيدَتِ للتوكيد.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ... ﴿٦٠﴾﴾:

أي: واذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إذْ قُلْنَا لَكَ إنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالنَّاس، ووضْعُكَ معْنَىٰ هـٰذِهِ الإحَاطَةِ فِي ذَاكِرَتِكَ، يَجْعَلُكَ مُطْمَئِنًّا مَعْ وَعْدِ رَبِّكَ لَكَ ولِلَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ بالنَّصر، إلَىٰ أَنَّكُمْ مَنْصُورُونَ لَا مَحَالَة، إلَّا أنَّ تَحْدِيدَ الْوَقْتْ وكَيْفِيَّةِ النَّصْرِ خَاضِعَانِ لإرَادَاتِنَا الْحَكِيمَة، لَا لرَغَبَاتِكُمُ المتعجِّلَة.

هـٰذه هي القضيَّة الثانيَّة الَّتي دَلَّ عَلَيْهَا الْعِلَاجُ الرَّبَّانِيُّ، بالتذكير بما سَبَقَ تَنْزِيلُهُ في نُجُومِ القرآن، قَبْلَ نُزُول سُورَةِ (الإسراء).

وقَدْ بَحَثْتُ في سَوابِقِ التنزيل بِحَسَبِ تَرْتِيب نُزُول السُّور، فَوَجَدْتُ أنَّ الْمُحَالَ عَلَيْهِ والْمَطْلُوبَ تَذَكُّرُهُ دَواماً، هُو قولُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) بِشَأْنِ الّذِينَ كَفَرُوا مُعَانِدِينَ من أئِمَّةِ مُشْرِكي مَكَّة وكُبَرائِهم:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: لَيْسَ الذين كفَرُوا من أئمة المشركين في مكَّةَ مَعْذُورِينَ في عَدَم إيمانهم، بل هُمْ غَارِقُونَ في أَوْ حَالِ التَّكْذِيب بالحقّ، مَعَ ظُهُورِه لهم، وعِلْمِهِمْ بِصِدْقِ الرَّسُولِ مُحَمّد ﷺ، ومَهْمَا مَكَرُوا وَكَادُوا فإنّ اللهَ من وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ، فَهُوَ قَدْ يُمْهِلُهُمْ ليقطع كُلَّ أَعْذَارِهم، إلَّا أَنَّهُمْ غَيْرُ مَتْرُوكين، وغَيْر مُفْلِتينَ من عذاب ربّهم وانتقامِه، فَهُو مُحِيطٌ بهم بعِلْمه، وسُلْطانِهِ وقُدْرَتِهِ إحَاطَةً تَامَّةً، لَا تَدَعُ لهم مَهْرَباً، ولَا بُدَّ بَعْدَ حِينٍ أنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿...وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ... ﴿٦٠﴾﴾.

هذا البيان من الآية يشتمل على القضيّتين الثالثة والرَّابعة، اللَّتَيْن أثار عليهما كبراء المشركين وأئِمَّتُهُمْ ضجيجاً إعلاميًا. بُغْيَةَ الصَّدّ عَنْ تَصْدِيق الرَّسُولُ مُحَمَّدٍ ﷺ، والتأثير على بَعْضِ الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَتَغَلْغَلْ بَعْدُ الإيمان في قُلُوبهم

فالقضيَّةُ الثالثة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾.

الرُّؤيَا: هي مَا أَرَىٰ اللهُ رَسُولَهُ مِنْ آيَاتِهِ لَيْلَةَ أَسْرَىٰ بِهِ من الْمَسْجِدِ الحَرام إلى المسْجِدِ الأقْصَىٰ، وعَرَجَ به إلى السَّماء السابعَةِ فإلىٰ سِدْرَةِ المنتهَىٰ، وكانَتْ رُؤْيَةً بَصَرِيَّة، وسَمِعَ مَعَهَا كلامَ رَبِّهِ وَحْياً من وراءِ حجاب، فقد كان الرّسُولُ لَيْلَتئِذٍ سَمِيعاً بَصِيراً.

الأكثر في استعمالِ كلمة «الرُّؤيَا» لِمَا يُرَىٰ في المنام من حُلُم، ولكِنْ تُسْتَعْمَلَ كلمة «الرُّؤيا» عند العرب لما تراهُ العَيْن في اليقظة.

قال ابْن بَرّي: وقَدْ جاءَ «الرُّؤْيَا» في الْيَقَظة، قال الراعي[1]:

فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فُؤَادُهُ وبَشَّرَ نَفْساً كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا

وظاهرٌ أنَّ الرُّؤيَا هنا بَصَرِيَّةٌ في اليقظَةِ لَا في الحُلُم، وعليه قولُ أبي الطَّيِّب المتنبيّ في بَدْر بْنِ عمَّار:

مَضَىٰ اللَّيْلُ والْفَضْلُ الّذِي لَكَ لَا يَمْضِي ورُؤيَاكَ أحْلَىٰ في الْعُيونِ مِنَ الغُمْضِ

الْغُمْض: النوم.

---

[1] انظر لسان العرب لابْنِ منظور، مادة (رأىٰ).

ونُقِلَ عَن ابْنَ عَبّاسٍ أنّ الرُّؤيَا في الآية هنا هِي رُؤْيا عَيْن أُريها النبيُّ ﷺ ليلةَ أسْرِيَ به إلى بيت المقدس.

فالمعنى: ومَا جَعَلْنَا الرُّؤيَةَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ لَيْلَةَ أسْرَينَا بكَ من المسْجِد الحرام إلى المسْجِدِ الأقْصَىٰ، وعَرَجْنَا بِكَ إلى السَّمَاءِ السابعة فسِدْرَةِ المنْتَهَىٰ، وَمَا جَعَلْنَا أمْرَنَا لَكَ بالْحَدِيث عن هـٰذِهِ المنَّةِ العظيمة، إلّا فِتْنَةً (أي: امْتِحاناً وابْتلاءً) للنّاس.

ويظْهَرُ أثَرُ هـٰذا الامْتِحان في الَّذِينَ أعْلَنُوا إسْلاَمَهُمْ ولمَّا يَتَغَلْغَلِ الإيمان في قُلُوبهم، أمَّا الّذِين كانُوا مؤمنينَ حَقًّا فيزْدادُون إيمَاناً، وأمَّا الكافِرُونَ فَيْزَدَادُون كُفْراً، ويَجِدُونَ ذَرِيعَةً يَتَذَرَّعُون بها لفِتْنَةِ النَّاسِ وصَدِّهِمْ عن الإيمان بالحق، إضافةً إلىٰ ذَرائِعِهِمْ الّتِي كانُوا يَتَذَرَّعُونَ بها، وهي ذرائع باطلة.

والقضية الرابعة: دلَّ عليها قول اللهِ عزّ وجلّ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ﴾: هي شجرة الزَّقُوم، الّتِي سَبَقَ في نجوم التنزيل أن جاء ذِكْرُهَا في سُورَة (الْوَاقِعَةِ/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾:

وقد سبق في سورة (الواقعة) تدبُّرُ هـٰذِهِ الآيات، وفي الملحق الثاني من ملاحق تدَبُّرِهَا تدبُّرُ النصوص القرآنية الواردة بشأن شجرة الزّقوم، وهي ثلاثة نصوص:

الأول: الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

الثاني: الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) من سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

الثالث: الآيات من (٤٣ ـ ٥٠) من سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول).

وجاء في نص سورة (الصافات) بيانُ أنَّها شجرة تخرج في أصل الجحيم وكَوْنُ هٰذِهِ الشجرة تَخْرُجُ في أصْلِ الجحيم هو طَرْدٌ لَهَا وإبْعَادٌ عَنْ كُلِّ تَنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِ اللهِ، فَهِيَ مَلْعُونَةُ الذَّاتِ، أي: مَطْرُودَةٌ إلَى قَاعِ الجحيم، لأنَّهَا هنالك طَعَامُ الأثيم، وطَلْعُهَا كأنَّهُ رُؤُوس الشياطين، لقَدْ أُبْعِدَتْ كما أُبْعِدَ المعَذَّبُونَ بالْأَكْلِ مِنْها، فَهُمْ في الْجَحِيم علىٰ دَرَكَاتِهِمْ مِنها.

فالمعنى: وجَعَلْنَا الشجرَةَ الملْعُونَةَ المطْرُودَة إلَىٰ أصْلِ الجحيمِ علىٰ ما أبَنَّا في القرآن فِتْنَةً للناس أيضاً.

وجاء التّصْرِيحُ بكَوْنها فِتْنَةً للظَّالِمِينَ، في قول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ﴾: أي: عذاباً للظّالِمِين في دَارِ العذاب يَوْم الدِّين.

وخَتَمَ اللهُ عزّ وجلّ آيت هذا الفصل السابع من الدّرْس التاسع من دُروس السورة بقوله تَعَالَىٰ:

﴿... وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾:

أي: ونُخَوِّفُ هٰؤلَاءِ المعنيين بالعِلَاج، وهم أئمة مُشْرِكي مَكَّةَ إبَّانَ

التَّنزيل، بالمخوّفاتِ مِنَ البأسَاء والضّرّاءِ لعلَّهُمْ يَتضرَّعُون، فما يزيدهم تَخْويفنا إلّا طُغْياناً كبيراً.

الطُّغْيَان: هُوَ تجاوزهُمْ الْحُدُودَ المعتادَةَ في أهْلِ الكُفْرِ والْفُجُور، وغُلُوُّهم في معادات الحقّ، ومُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الرَّسُول، ومحاولة إطفاءِ نور الله بأفواههم، وصدِّ النّاسِ عن كتاب اللهِ المجيد.

والكِبَرُ وصْفٌ يُسْتَعْمَلُ في المادِّيَّاتِ وفي المعنويات بالتوسُّعِ اللُّغَويّ.

وبهذا انتهى تَدَبُّر الدرس التاسع من دُرُوس سورة (الإسراء).

والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٤)

التدبّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٦١ ـ ٦٥).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

القراءات:

٦١ ـ • قرأ أبو جَعْفر: [**لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا**] بضم التاء في الوصل مراعاة لضم الجيم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالكسر: [**لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا**].

٦٢ ـ • أثْبتَ يَاء المتكلم في: [**أَخَّرْتَنِي**] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، في الوصل، وابْن كثير، ويَعْقُوب، في الوصل والوقف.

ولم يُثْبِتْها باقي القراء العشرة، فقالوا: [**أَخَّرْتَنِ**] في الوصْلِ والوقَف. وحذْفُ ياء المتكلّم كثير في العربية.

٦٤ ـ • قَرأ حَفْص: [**وَرَجِلِكَ**] بكسر الجيم.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة بإسْكان الجيم: [**وَرَجْلِكَ**].

الرَّجْلُ: اسم جمْع الراجل الماشي على رِجْلَيْه. ويظهر أنَّ كسْرَ الجيم لغةٌ جاءت في رواية حفص عن عاصم.

تمهيد:

هذا الدَّرس يَعْرِضُ اللهُ عزّ وجلّ فيه لقْطَةً من إباء إبْليس أنْ يَسْجُدَ لآدم، وذَرِيعَتِه في رَفْضِهِ أنْ يَسْجُدَ لَه، وإعْلَانِهِ بوقاحَةِ إلْزَام نَفْسِه بأنْ يُغْوِيَ ذُرِّيَّة آدم، سَائِقاً لهم إلَىٰ شقائهم الأبَدِيّ، إذَا أخَّرَهُ رَبُّهُ ولم يُمِتْهُ إلَىٰ يَوْم القيامة، مع بيانِ بعْضِ خُطَّتِهِ في الإغْوَاء، وبيان ما رَدَّ اللهُ به عليه.

التدبّر التحليلي:

سبق في الملحق الرابع من ملاحق تدبّر سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) تَدَبُّر النّصوص القرآنيّة المتعلّقة بخَلْقِ آدم وما رَافَقَهُ من أَحْداث، تَدبُّراً تكامُلِيًّا، ومِنْها ما جاء من آياتٍ في هذا الدرس، ولهـٰذا فإنّي اقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّر فِقَرَاتِ هذا الدَّرْس.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ. . . ﴿٦١﴾﴾:

أي: وضعَ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي أيًا كُنْتَ، هٰذِهِ القضايا الَّتي نُحدِّثُكَ بها، من الأحْدَاثِ الّتي جرَتْ وقْتَ قَوْلِنا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَم، بَعْدَ أنْ قَالُوا: ﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ... ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة] وبَعْدَ أنْ أجْرَيْنَا بَيْنَ آدم وبَيْنَ الملائكة مُبَارَاةَ العِلْم، فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ جَمِيعاً إلَّا إبْلِيسَ، فقد كان من الجنّ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَة، فَفَسَق خارِجاً عَنْ أمْرِ رَبِّه، إذْ أمَرَهُ بالسجود مع الملائكة.

قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمعنى ما قالَهُ إبليس في بَعْضِ مواقفه:

- ﴿... قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾: استفهامٌ استنكارِيٌّ فِيهِ معنَىٰ الكِبْرِ الْعُنْصرِيّ، افْتِخاراً بالنّارِ الّتِي خُلِقَ منْها، واحْتِقَاراً للطِّينِ الّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدم.

أي: لا يَليقُ بي وأنَا المخْلُوقُ مِنْ نَارٍ أنْ أسْجُدَ للَّذِي خَلَقْتَهُ أوّلَ مَا خَلَقْتَهُ طيناً من تراب وَمَاءٍ، ولمَّا سَوَّيْتَهُ نَفَخْتَ فِيهِ الرُّوح وجَعَلْتَه كائِناً حيًا، وأرَدْتَ أنْ تُفَضِّلَهُ علينَا، فأمَرْتَنا بالسُّجودِ له، إنَّني لَا أسْجُدُ لَهُ مع السَّاجِدِينَ له من مَلَائكتِك.

ويظْهَر لي ـ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ في التدبّر التكامُلِيّ ـ أنَّ إبليس قالَ هٰذا الكلام في نَفْسِه، مُوَجّهاً خِطَابَهُ لِرَبِّهِ حِينَ أَبَىٰ أنْ يَسْجُدَ لآدَم.

قول اللهِ عزّ وجلّ حِكَايَةً لمعنَىٰ ما قالَهُ إبْليسُ بَعْدَ جَلَسَاتِ مُحَاكمتِهِ في حِوَارٍ جَرَىٰ بَيْنَهُ وَبيْنَ رَبِّه، كما ظهر لي في التدبّر التكامُلِيّ.

- ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

خاطَبَ إبليسُ اللّعِينُ رَبَّهُ مُعْتَرِضاً عَلَيْهِ بوَقَاحَةٍ قائلاً له:

﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: أي: أرأيتَ نفسَكَ وَمَا فَعَلْتَ إِذْ كَرَّمْتَ عَلَيَّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ التَّكْرِيمَ، لِأَنَّكَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِين.

ويمكن أن نعتبر الكافَ مُؤَكِّدَةً للخطاب الّذي دَلَّتْ عليه تَاءُ المخاطب، ولكنَّ التقدير الأوّلَ أرْجَحُ فيما أرىٰ.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: هٰذِهِ العبارة بَدَلٌ من كاف الخطاب في ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ والمشارُ إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هو آدم عليه السَّلام، واستَعْمَلَ إبليس اسم الإشارة للمشَارِ إليه المفرد لِيُشْعِرَ باحتقاره لآدَم.

﴿كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: أي: جَعَلْتَهُ أكْرَمَ مِنّي، وفضَّلْتَهُ عليَّ.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: اللّامُ في ﴿لَئِنْ﴾ واقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَحْذُوف، وتُسَمَّىٰ مُوَطِّئَةً للقسم.

والمعنى: أقْسِمُ لَئِنْ أَمْهَلْتنِي فِعلاً، فأبْقَيْتَنِي حيّاً كما وَعَدْتَنِي إلى يوم القيامَةِ، وهو يوْمُ قيام السّاعَةِ الَّتي تنتهي بقيامِها ظُروفُ الحياة الدُّنيا كلها. وهذا يَدُلُّ علىٰ أنَّ نبأ قيام السَّاعَةِ، وَنَبَأَ الْبَعْثِ للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، قَدْ كان مَعْلُوماً للجنّ، إذْ إبليسُ واحِدٌ منهم، وكانَ مَعْلُوماً حَتْماً للملائكة، وأنَّ الجنَّ كانوا مَوْضوعين موضِعَ الامتحان في الحياة الدُّنيا قَبْلَ الإنس.

والفعل في ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ هو فعل الشرط في عبارة ﴿لَئِنْ﴾.

﴿... لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾: الفعل في ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ جوابُ الشرط. المعنىٰ: لأضَعَنَّ اللُّجُم في أحْناكِ ذُرِّيَّةِ آدم، كَما تُوضَعُ اللُّجُمُ في أحْناكِ الدَّواب، لتطويعها وقِيَادَتها أو سَوْقِها إلى حيْثُ يُرِيدُ مُطَوِّعُها.

في هذه العبارة اسْتِعارَةٌ مكْنِيَّةٌ، إذْ شَبَّهَ إبْليسُ ذُرِّيَّةَ آدَم بالدَّوابّ التي

تُطَوَّعُ للرُّكُوبِ والْقِيَادَةِ والسَّوْقِ، ولَمْ يُصَرِّحْ بلَفْظِ الدَّواب، بَلْ جاء بشيءٍ من خَصَائِصِها يَدُلُّ عليها، وهو احْتِنَاكُهَا لِتَطْوِيعها.

يقال لُغَةً: «احْتَنَكَ صَاحِبُ الدَّابَّةِ دَابَّتَهُ» أي: وضَعَ الحَبْلَ أو اللِّجَام في حَنَكِهَا لِيَطَوِّعَها للرُّكُوب، والْقِيَادَةِ والسَّوْق.

فالمعنىٰ: لأجْعَلَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ كالدَّوابّ الّتي تُطَوَّعُ بِوَضْعِ اللُّجُم في أَحْنَاكِهَا، ولَأُسَيِّرَنَّهُمْ في هٰذِهِ الحياة الدُّنيا عُصَاةً لَكَ، ولَأَنْقُلَنَّهُمْ خُطْوَةً فَخُطْوَةً، حتّىٰ أُوصِلَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لي مِنْهُمْ إلَىٰ دَرَكة الكافِرِينَ المجْرِمينَ، الّذين يَسْتَحِقُّونَ العذاب الأبَدِيَّ الخالِدَ في الجحيم.

واستَثْنىٰ إبليسُ فقالَ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: مُرِيداً بالْقَلِيل مَنْ لا يَتَأَثَّرُ بِوَسَاوِسِهِ وتَسْوِيلاتِهِ مُطْلقاً وهُمُ المُحْسِنُونَ، والأبْرَارُ، وكامِلُوا التَّقْوَىٰ، وهُمُ المخْلَصُونَ والمخْلِصُونَ، كما جاء في النّصُوصِ الأخرىٰ.

قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لما رَدَّ بِهِ جلّ جلالُهُ على إبليس اللّعين:

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾:

أي: اذهَبْ فأنْتَ مُمَكَّنٌ ممَّا أعْدَدْتَ نَفْسَكَ للقيام به من إغْراءٍ وإغْوَاءٍ، دُونَ أنْ يكُونَ لَكَ عليهم سُلْطانٌ يُلْغِي إراداتهم الحرَّة، فَمَنْ تَبِعَكَ في كُفْرِكَ وَتمرُّدِكَ علىٰ طاعَتِي وحُقُوقِ رُبُوبيَّتِي لَهُ، وحُقوقِ إلٰهيَّتِي مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم، فإنَّ عَذَابَ جهَنَّمَ جَزاؤُكُم جَمِيْعاً حَالَة كَوْنِهِ جزاءً مَوْفُوراً، أيْ: كثيراً واسعاً، يأخُذُ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ جَزَاءَهُ بالْعَدْلِ فيها.

ولله ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ في هذا التمْكِينِ لإبليسَ وجنُودِهِ من الإغْراء والإغواء، بالْوَسْوَسَةِ والتَّسْوِيلات واستثارة

الأهواء والشهواتِ، دُونَ أنْ يكونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ يُؤَثّرُونَ فيه بالْجَبْر علىٰ الموضُوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

وهٰذِهِ الحكْمَةُ تَظْهَرُ لنَا حينَما نُدْرِكُ أنَّ إرَادَاتِهِم الحرَّةَ، تَكُونُ في الحياة الدُّنيا عنْدَ الإشارَةِ المتوسِّطَةِ تماماً، بَيْنَ طَرِيق الخير، وطَرِيق الشرّ، بَيْنَ نَجْدِ الخيْرِ والْهُدَىٰ ومنْطِقِ العقل والحكمة والرُّشد، من جِهَةِ اليمين، مع الإغراء بالسعادة الحقيقيَّة العاجلة والآجلَة، والخلود الأبدي في جنّاتِ النعيم، والخلاص والنجاة من عذاب الجحيم، وبيْنَ نَجْدِ الشرِّ والضلال وزينات الحياة الدنيا وشهواتها ومُغْرِيَاتها العاجلات، وَمَعَها زُخْرُفُ وَسَاوِسِ الشياطين وَتَسْويلاتهم، وإطماعهم بالباطل، ووعُودهم الكاذِبَاتِ، وحُجَجِهِمُ الباطلات، مغَلَّفَةً بتَحْقِيقِ عَاجِلِ الأهواء والشهوات.

وبهذا يَتِمُّ التكافُؤُ بَيْنَ جواذِبِ طَرِيق الخير والْهُدَىٰ، وَجَواذب طَرِيق الشّرّ والضَّلَالِ، في التأثير عَلىٰ الإنْسان.

وعندئذٍ تكونُ الإرادةُ المقْتَرِنَةُ بالْقُوَّةِ الإدْراكيَّةِ الواعِيَة، في المخْلُوقِ الممتَحَنِ هي المرَجِّحة في السَّيْرِ في طَرِيق الخيْر والْهُدَىٰ، أو السَّيْرِ في طَرِيقِ الشّرّ والضَّلَالِ، خِلال رِحْلَةِ الامْتِحَانِ، في مَسِيرة الحياة الدُّنيا.

والتمكين الذي أعْطَاهُ الله - جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ - لإبْلِيسَ وجُنُودِه، دُونَ أنْ يكونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ جَبْرِيٌّ على العباد الموضوعينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، يَتَلَخَّصُ بأرْبَعَةِ مجالَات:

المجال الأوّل: المجالُ الإعْلَامِيُّ الدِّعَائي، بالْوَسَاوِسِ والتَّسْويلاتِ وأنواعٍ لَا تُحْصَرُ مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْل.

دلَّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس من دُرُوس السورة، لإبليسَ اللّعين:

﴿... وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ... ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾: أي: واعْمَلْ بِوَسائِلِكَ الصَّوْتِيَّةِ الإعلامية، لِتَسْتَفِزَّ بِهَا مَنْ تَسْتَخِفُّ منهم، فَتُنْهِضُهُ مِنْ مكانِ اسْتِقْرَارِهِ، وتَجْعَلُهُ يتّبِعُك بحَمَاقَةٍ ورُعُونَة.

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَفَزَّ الخوفُ فلاناً» أي: استخفَّهُ فأنْهضه. ويقال: «اسْتَفَزَّ المنادِي قَوْمَهُ» أي: أثارهم وأزْعَجَهُمْ بندائه، وجعَلَهُمْ يَنْهَضُونَ وَيَنْشَطُونَ لِتَلِبِيَةِ النداء. ويقال: «اسْتَفَزَّه» أي: استخفَّهُ بالمخيفات والمفزعات، واسْتَخْرَجَهُ وَخَتَلَهُ حتَّىٰ ألقاهُ في مهلكة.

ومن الملاحظ أنَّ شياطينَ الإنْسِ الّذِين يتلَقَّوْنَ بالإيحاء من شياطين الجنّ تعليماتهم، ويُضيفُونَ إليها إضَافَاتٍ لَا يَسْتَطِيعُها أوْلِياؤهم من الجنّ، قد اسْتَخْدَمُوا في هٰذا العصر وَسَائل الإعلام المختلفة، للإغراء والإغواء والتضليل، والإخراج عن صراط اللهِ المستقيم، والسَّوْقِ إلى سُبُلِ الجحيم، وهي جميعُها تَدْخُلُ تحتَ عنوان «الاسْتِفْزَاز الصّوتي».

ويَدْخُلُ في الاسْتِفْزازِ الصَّوْتي كُلُّ وسَائِلِ الإعلام المسموعة والمقروءة والمشاهدة، إذ القاعدةُ الأولَىٰ لكُلِّ ذَلِكَ: زُخْرفُ الْقَوْلِ الَّذِي يُطْلَقُ بالصَّوْت.

المجال الثاني: جَمْعُ الجنُود والأعْوان والأنصار، واستخدامُهُمْ في الإغراء والإغواء، من شياطين الجنّ والإنس.

دلَّ على هذا الجمع للجنود قول الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْسِ خطاباً لإبْلِيسَ اللّعين:

﴿... وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ... ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَأَجۡلِبۡ﴾: أي: واجْمَعْ - يُقَالُ لغةً: «أَجَلَبَ الْعَدُوُّ عَلَىٰ عَدُوِّه» أيْ: جَمَعَ جُنُودَهُ وأنْصَارَهُ وأعْوَانَه، لتحقيق غايته.

﴿بِخَيْلِكَ﴾: أي: مُتَقَوِّياً بخَيْلِكَ، وذِكْرُ الخيْلِ كِنَايَةٌ عَنِ الْفُرْسَانِ، أي: متقوِّياً بفُرْسَانِكَ الّذين يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ الخيُول.

﴿وَرَجِلِكَ﴾ فيها قراءتان: بإسْكانِ الْجِيمِ، وهو المنصوصُ عَلَيْهِ في كُتب اللّغة، وبكسر الجيم، وهي قراءة حفص عن عاصم، ولا بُدَّ أنْ تكُونَ لُغَةً في الكلمة. أي: ومتقوِّياً بالجنود المشاة علىٰ أرْجُلِهِم.

وقد كانَتْ جُيوش المحاربين تتألَّفُ من مقاتِلِينَ فُرْسَان، يَمْتَطُونَ الخيول، ويقاتلُون وهُمْ علَىٰ ظهُورِها، وهم القوّة الأشد، ومن مقاتلين رِجال يمْشُونَ علىٰ أَرْجُلِهِمْ، يُقَاتِلُونَ حينما تَلْتَحِمُ الصفوف.

والمعنى: واجْمَعْ لتحقيق ما عَزَمْتَ عَلَيْهِ من إغراءٍ وإغْواء كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُ جَمْعَهُ مِنْ قُوَّاتٍ تُسَاعِدُكَ وتُعِينُك.

فعِبَارَة: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ كِنَايَةٌ عَنْ تَمْكِينه من جَمْعِ كُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ جَمْعَهُ من قُوّاتٍ تَنْتَشِرُ في الأرض لإغراءِ الناس وإغوائهم وإضْلَالهم، وسَوْقِهم إلى معْصِيَةِ اللهِ فَعذَابِه.

ومن الملاحظ أنَّ جُنُودَ إبْليسَ من الإنْسِ يَجْمَعُونَ قُوَّاتٍ عظيمةً وكثيرَةً، ويَبْذُلُونَ فِي جَمعِها أموالاً كالجبال، للقيام بأعْمَال الإغراء والإغواء والإضْلَالِ، للإبْعَادِ عَنْ صِراط اللهِ المستقيم، وإخراج سالكيه منه.

المجالُ الثالث: مُشَارَكَةُ النَّاس في كَسْبِ أمْوالهم، واسْتِيلَادِ أولادهم.

دلَّ علىٰ هـٰذِهِ المشاركة قولُ اللهِ عزّ وجلّ في هذا الدرس خطاباً لإبليس اللّعين:

﴿... وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ... ﴿٦٤﴾﴾:

إنّ مُشَارَكَة إبليسَ للنّاسِ في الأمْوَالِ والأولاد، تَكُونُ بإضْلَالِهِمْ حَتَّىٰ يُطَبِّقُوا مَا يَضَعُهُ لهم من مَذَاهِبَ وأفكارٍ وإباحِيَّاتٍ لِكَسْبِ الأمْوَالِ، والأولاد.

فهو يُغْرِيهم أنْ يأكُلَ بَعْضُهُمْ أمْوَالَ بَعْضٍ بالباطل، ظلماً وعُدْواناً بمختَلِفِ وَسَائِلِ اللّصُوصِيَّةِ، والسَّلْبِ، والنَّهْبِ، والْغِشّ، والتطفيف في المكيال والميزان وغير ذلك، وحتَّىٰ يَسُنُّوا قوانينَ طاغوتيَّةً تُخَالِف شريعةَ اللهِ وأحْكامَهُ لِعِبَادِه.

ومن أمثلَةِ هٰـذِهِ المشاركةِ الّتي ظهَرَتْ في الناس، البُنوكُ الربَوِيَّة، الَّتي يُغْرِي شياطِينُ الإنْس والجنّ النّاسَ بالتعامُلِ عن طريقها، حتَّىٰ أمْسَتْ أمْوال معظم النّاسِ في أيْدِي أصْحَابِ هٰـذِهِ البنوك، يتصَرَّفُونَ بها على مَناهج إبليس، وهذه من مُشَارَكَة الشيطان، بمناهجه للناس في أموالهم.

ومن أمثلتها أيضاً المضاربات المحرَّمة، والاحتكارات، والغش، وأنوع القمار، وقرارات التأمِيم الاشتراكيَّة والرَّشوات والسّرقات.

وقد صار الشيطانُ إبليسُ اللّعِينُ شَرِيكاً للناس بمناهجه المخالِفَةِ لصِرَاطِ اللهِ المستقيم، في معظم أعمال اكْتِسَابِ المالِ وجَمْعِهِ ومَنْعِهِ.

وأمّا مُشَارَكَةُ إبليسَ للنّاسِ في الأولاد، فتكون بإغْرَائهم حتَّىٰ يخالِفُوا صِرَاطَ الله المستقيم، فيما يُزَيِّنُ ويُحَسِّنُ لَهُمْ من حُبّ الشّهواتِ المحرَّمَةِ الّتي نهىٰ الله عنها، واسْتِيلادِ الأولاد بغيْرِ ما شرع الله.

ومن الملاحَظِ أنَّ دَعَوَاتِ إبَاحِيَّةِ قَضَاءَ شَهَوَاتِ الفروج، دُونَ أيِّ ضابطٍ دِينِيٍّ أَوْ عَقْلِيٍّ أوْ صِحِيّ أو مَصْلَحِيّ اجْتِماعِيّ أوْ فَرْدِيّ، وانتشارَ هٰذِهِ الإباحِيَّةِ فِي الْعَالَم، بِتَأْثِير الدُّعَاةِ المنْتَشِرِينَ الدَّاعِينَ إلَيْهَا حَتَّىٰ في مُؤْتمراتٍ تَرْعَاها مؤسَّسَاتٌ وَدُول، قَدْ أمْسَتْ لُعْبَةَ إبْلِيسَ وجنودِهِ من شياطين الجنّ والإنس في عَالَمِنَا المعاصر، وقَدْ كانَ لَهُمْ نُظَراءُ فِي مُخْتَلِفِ أُمَمِ الأرْضِ وشُعُوبها في الْعُصُورِ الْغَوابر.

وظاهِرٌ أنَّ مُمَارسَاتِ النّاس الإبَاحِيَّاتِ في هذا المجال هي مِنْ مشاركة إبْليسَ اللّعِينِ لَهُمْ بمناهِجِه، في أوْلادهم الّذين يولَدُونَ لهم من غَيْرِ الطَّرِيقِ الذي شَرَعَهُ اللهُ عزّ وجلّ لِعبَادِهِ.

المجال الرابع: مواعيدُ إبْلِيسَ وجُنُودِه للناس الْقَائِمَةُ على التغرير بهم، لاستدْرَاجِهِمْ إلَىٰ مَهَالِكِمْ، أوْ إزْلَاقهم إلى نَكدِ الحياة الدُّنيا ومَتَاعِبِها، والحِرْمَانِ من سعادَةِ النَّفْسِ، وراحَةِ الضمير، ثمّ إلَىٰ عذاب الله يَوْمَ الدِّين.

دلَّ على هذه المواعيد التغريريَّةِ الكاذِبة، قولُ اللهِ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس لإبْلِيسَ اللّعِين.

﴿وَعِدْهُمْۚ﴾: أي: وَزَيّنْ لهم بما تُقَدِّمُ لهم مِنْ وُعُودٍ كاذبة، الابْتِعَادَ عَنْ صِرَاطِ رَبّك المستقيم لعباده.

ومِنْ أمثلة المواعيد التَّغْريريَّةِ الكاذبة، إغراءُ الناسِ بِعُدْوانِ بعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، بالْحُرُوبِ الظَّالِمَةِ الآثِمَةِ، بُغْيَةَ الظَّفَر بأموالٍ أو سُلْطَانٍ، أوْ تَوَسُّعٍ في المُلْكِ، وتكونُ عَاقبَتُها ملايين الْقَتْلَىٰ، وخَراب الْعِمْرَان، وانْتِشَار الْفَسَادِ في الأرض.

وفي تحْذِيرِ اللهِ عزّ وجلّ النّاسَ من مَوَاعِيدِ الشيطان الكاذبة، قالَ اللهُ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس:

﴿... وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا... ﴿٦٤﴾﴾:

الْغُرُور: الخِدَاعُ والإطْمَاعُ بالْبَاطل.

أي: ومَا يَعِدُهُم الشيطانُ إلّا وَعْداً غُروراً، مُخَادَعةً وإطماعاً بالباطل.

لفظ ﴿غُرُورًا﴾ صِفَة لموصوفٍ محذوفٍ هُو مَصْدَرُ ﴿يَعِدُهُمْ﴾ وقَدْ

جاء الوصْفُ بالمصْدَرِ للمبالغة، حتَّىٰ كأَنَّ الْوَعْدَ هو غُرُور، من شِدَّةِ مَا فيه من تغرير، ومخادَعَةٍ وإطْماعٍ بالْبَاطل.

ومن أمثلة وعْدِ الشيطان للإنْسانِ أن يُوَسْوِسَ لَهُ بأَنَّ المال هو وسيلة السَّعَادَةَ في الحياةِ، فَيَغْتَرُّ الإِنْسَانُ بهٰذِهِ الوسْوَسَةِ، فَيَشْقَىٰ في جَمْعِ المالِ من كلِّ طَرِيقٍ مُحَرَّمَةٍ يكون بها ظالماً آثماً مُعْتَدِياً.

ومن الأمْثِلَةِ أن يُخَوِّفَ الشَّيْطَانُ الإنْسَانَ من الْبَذْل في وُجوهِ الخير ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ، ويُغريه بالبُخْلِ لئلا يَكُونَ عَالَةً عَلَىٰ غَيْرِهِ، وأَنْ يُغْرِيَهُ بالْبَذْلِ الكثير في الشهوات واللّذَاتِ وتحقيق الأهواء، لاغْتنام مُتَعِ الحياة الدُّنيا قَبْلَ أنْ يَأتِيَهُ الموتُ الّذي لَا بُدَّ مِنْه.

ومن الأمثلة أنْ يَعِدَهُ بتحقيق أمانيه ومطالِبِهِ من الحياة الدنيا، إذَا انْتَمَىٰ إلى دَوْلَةٍ كافِرَةٍ عُظْمَىٰ، أو انْتَمَىٰ إلىٰ جماعَةٍ سِرِّيَّةٍ خبيثَةٍ لا تُؤْمِنُ باللهِ ولا بالْيَوْمِ الآخِر.

إلى غير ذلك من وُعُودٍ يَصْعُبُ تَحْدِيدُ احْتمالات صُوَرِها.

وبعد البيان السابق أبانَ اللهُ عزّ وجلَّ أَنَّهُ قَالَ لإبليس في آخِرِ الحوار:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾:

أي: إنَّ عبادي الذين يَسْتَعِيذُونَ بي، ويَحْتَمُونَ بحمايَتي، مؤمنين بي مسلمين لي، لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ تُؤَثِّرُ به عليهم، لأنّني بعزّتي وقُدْرتي على مَا أشاء سأُوَفّقُهُمْ إلَىٰ تحْقِيق نهايَةٍ سَعِيدَة، ولو ارتكَبُوا بعض الآثام.

ويُمْكنُ أن نَفْهم من هذا البيان ما يلي:

إنَّ عبادِي كُلَّهُمْ لَا أجْعَلُ لَكَ سُلْطاناً جَبْرِيًّا عليهم، نُلْغِي به إراداتِهم الحرَّة، ولا يكونُ مِنْكَ لهم أكثر من اتّخاذِ الأسباب الإغرائيّة غير الإكراهِيَّة ولا الجبْرِيَّة.

وعبارة: ﴿... وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ ذاتُ عدّة أهداف:

الْهَدَفُ الأول: التَّلْويحُ لإبْلِيسَ بالانتقام الشَّدِيد إذا حَاوَلَ تجاوُزَ حُدودِ الإغراء والإغواء بِمَا مَكَّنَهُ اللهُ مِنه، فَرَبُّهُ لَهُ بالمرصاد.

الهدَف الثاني: تَوْصِيَةُ المؤمِنين بأنْ يَتوَكَّلُوا علىٰ رَبّهم، ليَحْمِيَهُمْ مِنْ إغواء الشياطين، فمَنْ تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ كَفَاهُ، فَصَانَهُ وحَمَاه.

الهدف الثالث: التَّذْكِيرُ بعُنْصُرٍ من عناصِرِ القاعدة الإيمانية، وهو أنَّ اللهَ عليم قَدِير حكيم، لا يَجْرِي شيءٌ في الكون إلَّا بتقديره، أو تمكينِهِ وإذْنه، فإذا عَلِمَ صِحَّةَ إيمانِ عَبْدِهِ، وصِدْقَهُ، وتوكُّلَهُ عَلَيْه، وفَّقَهُ للْعَمَلِ بمرَاضيه لأنَّهُ ولِيُّه.

التوكُلُ على الله: الاسْتِسْلامُ إلَيْه، وتَفْوِيضُ تَدْبير الأمُور إلَيه، لتحقيق ما يَرْجو المتوكِّلُ، مع القيام بالأسْباب المستطاعَةِ المادّيّة والمعنوية طاعَةً لله.

الباء في: ﴿بِرَبِّكَ﴾ زِيدَتْ لتوكيد أنَّ اللهَ كَفَىٰ وَكيلاً، والأصل: كَفَىٰ رَبُّكَ.

وجاء الخطاب في العبارة بأسْلُوب الخِطاب الإفرادي ليَشْعُر كُلُّ مُخَاطَبٍ أنَّه مُوَجَّهُ له من رَبّه جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس العاشر من دروس سورة (الإسراء).

والحمد لله على مدَدِه ومعنوته وتوفيقه.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الحادي عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٦٦ ـ ٧٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ

بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا (٦٩) ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾:

القراءات:

٦٨ و٦٩ ـ ● قرأ ابْن كثير، وأبُو عَمْرٍو بنون المتكلّم العظيم في الأفعال التالية:

[نَخسِفَ ـ نُرسِلَ ـ نُعِيدَكم ـ فَنُرسِلَ ـ فَنُغرِقَكُمْ].

وقرأها رُوَيْس عَنْ يعقُوب، وأبو جعْفر بخُلْفٍ عن ابْن ورْدان:

[يَخْسِفَ ـ يُرسِلَ ـ يُعِيدَكُم ـ فيُرْسِلَ ـ فَتُغرِقَكُمْ].

وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَخْسِفَ ـ يُرْسِلَ ـ يُعِيدَكم ـ فَيُرْسِلَ ـ فَيُغرقَكُمْ]** بالياء.

ومؤدّى هذه القراءات واحِدٌ، وفيها تَفَنُّنٌ في الأداء البياني ـ وزيادةُ تَرْهيب في قراءة: **[فَتُغرِقَكُمْ]**.

٦٩ ـ ● قرأ أبو جَعْفَر: **[مِنَ الرِّياح]** بالجمع وهو يَدُلُّ على تَعَدُّدِ أنواعها.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[مِنَ الرِّيحِ]** بالإفراد، وهو يَدُلُّ على الجنس. ومؤدىٰ القراءتين واحد.

تمهيد:

هذا دَرْسٌ يكْشِفُ اللهُ عزّ وجلّ به أنَّ النَّاس يلْجؤونَ إلَى ربّهم عند

المخاوفِ والضَّرُورات الشديدات، فإذَا كشَفَ عنْهُم الضُّرَّ مستجيباً لأدْعَيَتِهم أعْرَضُوا، والسَّبَبُ في ذَلِكَ أنَّ الإنْسَانَ كَفُورٌ بِنِعَمِ الله عليه، مع أنَّ اللهَ جَلَّ جلاَلُهُ قَدْ كَرَّمَه.

وفيه معالجة للنّاسِ تجاه هذه الصِّفَةِ الذَّمِيمَة فيهم، الناتِجَةِ عن اختيارهم الحرّ، لِيَتَهَرَّبُوا من تَأْدِيَةِ وَاجِبِ الشكر.

التدبُّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس جميعاً:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾:

﴿يُزْجِى﴾: أي: يَسُوقُ، أوْ يَدْفع، بِرفْقٍ ويُسْرٍ واسْتقامة. يقالُ لغة: «زَجَا فلانُ الشيءَ يَزْجُوهُ، زَجْواً، وزُجُوّاً، وزَجَاءً. وأزْجَاهُ يُزْجِيه»: أيْ: سَاقَهُ بِرِفْق، ودَفَعَه.

﴿ٱلْفُلْكَ﴾: مَرْكبُ الْبَحْر، يطْلَقُ على الواحد وغيره، ويُذَكَّر ويُؤَنَّثُ، فيقال: هو الفلْك، وهي الْفُلك.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: أي: لتَطْلُبُوا أرْزَاقَكُمْ وَغيْرَهَا ممَّا تَحْتَاجُونَ إلَيْه من دُنْياكُم، منْ فَضْل رَبّكم الّذِي يَتَفضَّلُ بِهِ عليكُمْ أيُّها النَّاس، إذْ كُلُّ مَا تَنالُونَهُ بكَسْبكُمْ، ممَّا تجِدُونَ فِيه خيراً لكم في دُنْيَاكُمْ وآخِرَتكم، هُوَ مِنْ فَضْل الله عليكم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾: أي: إنَّهُ رَحِيمٌ بكُمْ دَواماً، وَتَفضُّلُهُ عليكم هو من آثار رحْمَتِهِ، والجملة تتضَمَّن معنى التعليل لما يتفضل الله به على عباده.

فعل «كان» هنا يَدُلُّ على الكَيْنُونَةِ الدائمة، وهو بماثبة فِعْلٍ مؤكّد للإسناد في الجملة.

فالمعنى: رَبُّكُمْ أيُّها النّاسُ الّذي يُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ دواماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، المتصرِّفَةِ بِكُمْ وبالكَوْنِ كُلِّه، في كلّ حَرَكَةٍ وسُكُون، وزيادَةٍ أو نَقْصٍ، وتغْيِيرٍ أوْ تَحْوِيل، هُوَ الّذي يَسُوقُ لَكُمْ بِرِفْقٍ مَراكِبَكُمُ الْبَحْرِيَّةَ، حِينَ تَسْتَخْدِمُونَها في تَنَقُّلاتكم الْبَحْرِيَّةِ مُسْتَوِينَ على ظُهُورِها، لِتَطْلُبُوا باسْتِخْدَامِهَا مَطْلُوبَاتٍ مختَلِفَاتٍ مِنْ دُنْياكُمْ، وهو يُحَقِّقُهَا لَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ رَحِيمٌ بِكُمْ دواماً في حياة الابتلاء الَّتِي وَضَعَكُمْ فيها.

جاء هذا البيانُ مُنبِّهاً علَىٰ عُنْصُرٍ من عناصِرِ الإيمان، بشأنِ جُزْئِيَّةٍ من جُزْئيات تَصاريف اللهِ عزّ وجلّ في كَوْنِهِ، تَوْطِئَةً لكَشْفِ أنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي يَتَرَعْرَعُ بفَضْلِ الله الدّائم عَلَيْهِ، كَفُورٌ لِنِعَم رَبِّهِ عَلَيْهِ، يَلْتَجِئُ إِلَيْهِ لتحقيق مطالِبِهِ، ولا سيما إذا مَسَّهُ الضُّرُّ، فإذا كشَفَ الله عَنْهُ الضُّرَّ أَعْرَضَ عَنْ رَبّه، ولم يَعْبَأْ بَأَنْ يُؤَدِّيَ واجِبَ الشُّكْرِ له.

وَأَتْبَعَ اللهُ هٰذا الكَشْفَ بِبَيَانٍ إقناعِيٍّ حكيم لِلْكَفُورِينَ من الناس.

قول الله عزّ وجلّ مُتابعاً خطابَ الناس:

- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾:

- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ...﴾: أي: وإِذَا اشْتَدَّتِ الرِّيَاحُ تُحَرِّكُ الْفُلْكَ يَمِيناً وشِمَالاً وأنتم فيها، واضْطَّرَبَتْ أَمْواجُ الْبَحْرِ اضطّراباً شديداً، وخفْتُمْ من الْغَرَق.

سَمَّىٰ الله عزّ وجلّ هٰذا مَسًّا، لأنَّ الضُّرَّ لَمْ يَنْزِلْ بَعْدُ، وإِنَّما بدأت أيادِيهِ تَمَسُّ مُسًّا يُخافُ مِنْ بَعْدِه نُزُولُ الضُّرِّ براكِبِي الْفُلْك، إِذْ تَغْرَقُ أو تتحَطَّمُ فَيغْرَقُون.

- ﴿...ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ... ﴿٦٧﴾﴾: أي: ضاعَ وانْعَدَمَ كُلُّ مَدْعُوٍ تَدْعُونَهُ من آلِهَةٍ من دُونِ الله، إِذْ لَا أَحَدَ مِنْهَا يَسْتَجِيبُ دُعاءَكم،

لأنَّهَا باطِلَةٌ لَا حَقِيقَة لإلهيَّتِها. إلَّا أنْ تَدْعُو الله رَبَّكُمْ فَهُو يَسْتَجِيبُ دُعَاءَكم، فيُهَدِّىءُ أمْوَاجَ الْبَحْر، ويُسَكِّنُ الرِّياحَ، ويُوصِلُكُمْ إلىٰ الْبرِّ آمِنين.

• ﴿...فَلَمَّا نَجَّنٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ... ﴿٦٧﴾﴾: أي: فَلَمَّا دَعَوْتُمْ الله رَبَّكُمْ واسْتَجَابَ دُعَاءَكم، ونَجَّاكُمْ مِنَ الْهَلَاكِ الّذِي كُنْتُمْ تَخَافُونَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُم، وَأَوْصَلَكُمْ إلىٰ الْبَرِّ، وَشَعَرْتُمْ بالأمْنِ والطُّمَأْنِينَة علَىٰ الأرْضِ، أَعْرَضْتُمْ عَنْ حَمْدِ رَبِّكُمْ وشُكْرِهِ على ما أوْلَاكم، وتوجَّهْتُمْ لمصالِحِكُمْ مِنْ دُنْياكُمْ وَأَهْوَائِكُمْ وشهواتِكُمْ، وعُدْتُمْ إلَىٰ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ من اسْتِغْرَاقٍ في مَعْصِيَةِ رَبِّكُمْ، وتَنَكُّب الصراط السَّوِيّ الَّذِي أبَانَهُ لعباده، وأمَرَهُمْ بِسُلُوكِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم في الحياة الدُّنيا.

﴿نَجَّنٰكُمْ﴾: أي: خَلَّصَكُمْ، ضُمِّنَ هٰذا الفِعْلُ معنَىٰ الفِعل في «أوصَلَكُمْ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فَمَعْنَىٰ العبارة: فَلَمَّا نَجَّاكُمْ مُوصِلاً إيَّاكم إلى الْبرِّ أعْرَضْتُمْ.

الإعراض: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبالِ والإدْبار، ويكونُ هذا الإعراضُ بانْصِرَافِ الإنْسَانِ عَنْ حَمْدِ رَبِّه، وَشُكْرِهِ بطاعَتِه، والْعَمَلِ بما يُرْضيه، وهٰذا الوصْفُ قَدْ يَنْطَبِقُ علىٰ عُصَاةِ المؤمنين.

أمّا عَوْدَةُ الكافِرِ إلىٰ كُفْرِهِ بَعْدَ هٰذِهِ الحالَةِ فينْطَبِقُ عَلَيْهَا معنَىٰ الْإدْبَارِ والتولّي، وهُما أشَدُّ من الإعْرَاضِ، وهؤلاء ينْطَبِق عليهم ما جاء في الآيتين (٢٢ و٢٣) من سورة (يونس/ ١٠ محصف/ ٥١ نزول) وما جاء في الآيَتَيْن (٦٣ و٦٤) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وما جاء في الآية (٦٥) من سُورَة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول).

• ﴿...وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾: أي: والسَّبَبُ في الإعْراض أنّ الإنْسَانَ كَفُورٌ جَحُود، أي: كثير جُحودِ النِّعْمَةِ، ويظهَرُ للمتفكّر أنَّ دافِعَهُ لجُحودِ نِعْمَةِ مَنْ أنْعَمَ عَلَيْهِ يَرْجِعُ إلى عامِلَيْن:

الأول: الكِبْرُ، ورَغْبَةُ الْإِنْسَان فِي أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْلِياً غَيْرَ ذِي حَاجَةٍ إِلَىٰ غَيْرِه، فَهُوَ لَا يُحِبُّ أنْ يَعْتَرِفَ بِمِنَّةِ غَيْرِهِ عليه.

الثاني: التَّهَرُّبُ من تَأْدِيَةِ واجِبِ الشُّكْر، لأَنَّهُ متَىٰ أعْلَنَ اعْتِرَافَهُ بِمِنَّةِ ذي المِنَّةِ، كَانَ مَسْؤُولاً أدبِيًّا أَمَامَ النّاسَ عَنْ شُكْرِ مَنْ أَنْعَمَ علَيْه بما يَسْتَحِقُّ من شُكر.

كَفُور: مِنْ صِيَغِ المبَالَغَة، أي: كَثِيرُ جُحُودِ مَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيه من نِعْمَة. وأقْبَحُ كُفْرِ النِّعْمَة، جُحودُ الإنْسَانِ نِعَمَ اللهِ عَلَيْه، إذْ لا بَقَاء لَهُ في الوجود أو في السَّلَامَةِ إلَّا بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ.

قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ مُخَاطِباً الْمُعْرِضينَ خِطَاباً بُرْهَانِيًّا لَا مَهْرَبَ مِنْهُ:

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾:

يطْرَحُ اللهُ عزّ وجلَّ على المعْرضين عَنْ شُكْرِه، بَعْدَ أَنْ دَعَوْهُ في الْبَحْرِ إذْ مَسَّهُمُ الضُّرُّ، فنَجَّاهُمْ من الْهَلَاكِ وأوصَلَهُمْ إلى الْبَرِّ، أسْئِلَةً حَوْلَ عِدَّةِ احْتِمالَاتٍ يُمْكِنُ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ بواحدٍ مِنْها الضُّرَّ الَّذِي كانُوا قَدْ خَافُوا مِنْهُ وهُمْ في الْبَحْرِ الثَّائِرِ والرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، وهِيَ أَحْدَاثٌ لَم تَكُنْ إِلَّا بقَدَرِ الله وَقَضَائِهِ وخَلْقِهِ، ولَمْ يَكُنْ إيقافُها وإِسْكَانُها إِلَّا بقَدَرِ اللهِ وقضائِهِ وخَلْقه.

الاحْتِمال الْأَوَّل: أنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِم الأرض من تَحْتِهِمْ، فَيُهْلِكَهُمْ وهُمْ في الْبَرّ لَا في الْبَحْر، فَهَلْ هُمْ في أمْنٍ من حُدُوثِ هٰذا الْخَسْفِ لَوْ شَاءَهُ اللهُ القديرُ على مَا يَشَاء.

دلَّ على هذا الاحْتمال قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ. . . ﴿٦٨﴾﴾؟؟:

أي: أَمَلَكْتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ الْخَاضِعِ لِسُلْطَانِ الرَّبِّ وتَصَارِيفِهِ، أَوْ أَخَذْتُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَهْداً بأَنْ لَا يُجْرِيَ فِيهِ خَسْفاً، فَأَمِنْتُمْ مِنْ أَنْ يَخْسِفَ رَبُّكُمْ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ فَيُهْلِكَكُمْ عُقُوبَةً لَكُمْ عَلَىٰ كُفْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ؟؟

لَقَدْ ظهر لي أنّ الفاءَ في ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ على مَحْذُوف، وتقديرُهُ مَا سَبَقَ إظهارُهُ في الشَّرْحِ التَّدَبُّرِي.

الاحتِمَالُ الثاني: أنْ يُرْسِلَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ في الْبَرِّ رِيحاً تَحْمِلُ التُّرَابَ والْحَصْبَاءَ مِنَ الأرض، فَيُنْزِلَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، ويَضْرِبَكُمْ بِهِ ضَرْبَ تَعْذِيبٍ فإهْلَاكَ، فَهَلْ أَنْتُمْ فِي الْبَرِّ آمِنُونَ مِنْ تَعْذِيبكم وإهْلَاكِكُمْ بهذا السَّبَب لَوْ شَاءَهُ اللهُ القدير عَلَىٰ مَا يشاء.

دَلَّ عَلَىٰ هٰذا الاحْتِمَالِ قول اللهِ عزّ وجلّ: ﴿...أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا... ﴿٦٨﴾﴾؟:

حَاصِباً: أي: رِيحاً تَحْمِلُ الرِّيحَ والْحَصْبَاء، وتَضْرِبُ بها الأشياء. فيُصِيبُ اللهُ بها مَنْ يَشاء.

والمعنى: أَوَ مَلَكْتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ الرِّياحَ وإرْسَالَهَا أَوْ كَفَّهَا، أَوْ أَخَذْتم من رَبِّكُمْ عَهْداً بِأَنْ لَا يُهْلِكَكُمْ بها وَأَنْتُمْ بجانب البرّ، فأَمِنْتُمْ مِنْ أن يُرْسِلَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَاصِباً يكونُ سَبَبَ تَعْذِيبِكُمْ وإِهْلَاكِكُمْ.

وخاطبهم اللهُ عزّ وجلَّ بِقَوْله:

﴿...ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾: أي: ثـم بَعْد أنْ يَخْسِفَ اللهُ بِكُمْ جانب الْبَرِّ، أَوْ بَعْدَ أَنْ يُرْسِلَ عليكم حَاصِباً يُهْلِكُكُم، لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً يَتَوَكَّلُ أَمْرَ دَفْعِ عَذَابِ اللهِ عَنْكُمْ، أو يُسَائِلُ اللهَ ويُقَاضِيهِ عَمَّا أَنْزَلَ بِكُمْ، إِذْ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، لَا يُسْأَلُ عمَّا يفْعَل، لَكِنَّ أفْعَالَهُ كُلَّها حَكِيمَة، وهِيَ في عِبَادِهِ لَا تَخْرُجُ عن دَائِرَتي الْفَضْلِ والْعَدْلِ عند الجزاء.

الاحتِمَالُ الثالث: أنْ يُعِيدَكُمْ بمقَادِيرِه الخفيَّةِ إلى الْبَحْرِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، ظَانِّينَ أَنَّ الْبَحْرَ هَادِىء، وأنّ الرِّيَاحَ مُوَاتِيَةٌ لِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ آمِنَةٍ عَلَىٰ سَفِينَةٍ عظيمَةٍ قَوِيَّة، فإذا تَوَغَّلْتُمْ في الْبَحْرِ بَعِيداً عن الشَّواطِئ، وعَنْ كُلِّ مُنْجِدٍ يُمْكِنُ أَنْ يُنْجِدَكُم، أَرْسَلَ عَلَيْكُمْ رِيحاً شَدِيدة قَاصِفَةً، فأغْرَقَكُمْ بها بسَبَبِ كُفْرِكُم بِنِعَمِ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ.

دَلَّ علَىٰ هـٰذا الاحْتِمال قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ... ﴿٦٩﴾﴾؟؟:

- ﴿أَمْ﴾ هُنَا بمعنى «بَلْ» التي تُفِيدُ الإضْرَابَ الانتقاليَّ من معنًى إلى معنًى آخر.

- ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: عَوْدَةً أُخْرَىٰ، أو إعَادَةً أُخْرَىٰ، يقال لغة: «تاوَرَهُ الأمْرُ» أي: عَاوَدَهُ تَارَةً بَعْدَ تَارَة، والمعنَىٰ: عاودَه مُدَّةً بَعْدَ مُدَّة. **التارة**: المدَّة ـ الْحِين.

- ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾: **القاصِفُ**: الرّيحُ الّتي تأْتِي شَدِيدَةً عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ الأشجار فَتَقْصِفُها وَتكسّرُها. وهي في الْبَحْرِ تَكَسّرُ السُّفن وتُغْرِقها. يقال: ريحٌ قَاصِف، وريح قَاصِفَة.

والمعنى: بَلْ أَمِلْتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ إذَا عُدْتُمْ إلَىٰ رُكُوبِ السُّفُنِ في البحر بتقْدِير الله لتحقيق مطالِبكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ، أنْ تَحْمُوا أنفُسِكُمْ من أَنْ يُرْسِلَ رَبُّكُمْ عليكم رِيحاً قَاصِفاً، يُكَسِّرُ مَرْكَبَكُمُ الْبَحْرِيَّ، فَيُغْرِقَكُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِنِعَمِ اللهِ عليكم؟؟.

وخاطَبَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ بقَوْله:

- ﴿... ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾:

﴿تَبِيعًا﴾: **التبيع**: الْمُطَالِبُ بالثأر، والّذي يَتَتَبَّعُ غَيْرَه لاقتضاءِ شيءٍ مِنه.

والمعنى: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ نُغْرقكم بالرِّيح الْقَاصِفِ، لَا تَجِدُونَ مَنْ يُطَالِبُ مِنْ أُوْلَيائكم بالثَّأْرِ مِنَّا، لِعَجْزِهِ عَجزاً تامًّا عَنْ ذَلِكَ.

مَنْ هـٰذا الّذي يَسْتَطِيعُ مُقَاضَاةَ رَبّ الْعَالَمِينَ أَوْ مُسَاءَلَته، أو الثَّأْرَ مِنْهُ إذا أَهْلَكَ بَعْضَ عباده، أوْ أَهْلَكَهُمْ كُلَّهُم، وهُمْ جَمِيعاً عَبِيدُه، وَنَواصِيهِمْ بِيَدِهِ، وحَيَاتُهُمْ ومَوْتُهُمْ خَاضِعَانِ لأمْرِ التكوين، إنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ. فَهُو يكون فوراً.

وخَتَمَ اللهُ هـٰذا الدَّرْسَ بقوله عزّ وجلّ:

- ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾:

- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾: يُؤكّد رَبُّنَا ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ ـ أَنَّهُ كَرَّمَ بَنِي آدَمَ، أَيْ: فَضَّلَهُمْ، ورفعَ شَأْنَهُمْ بَيْنَ خَلْقِهِ.

التكْريم: يأتي بِمَعْنَىٰ التفضيل، ويأتي بِمَعْنَىٰ التعظيم، ويأتِي بمَعْنَىٰ مَنْحِهِ الصِّفَاتِ النَّفِيسَةَ الّتِي امْتَازَ بِهَا عَلىٰ غَيْرِهِ.

وإذَا نظرنَا إلَىٰ بَنِي آدَمَ وقارَنَّاهُمْ مع الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ المشْهُودَةِ لنَا، وجَدْنَا أنَّ جُمْلَةَ صِفَاتِهِمْ في التكوينِ الرَّبَّانِي هِيَ أَسْمَىٰ وأنْفَسُ من صِفاتِ سائر الأحياء المدْرَكة بالحواس.

إنّ صِفات الإنسان النَّفْسِيَّة ولا سيما ما لَدَيْه من أجْهِزَة الْعِلْم والتفكير والإرادة الحرَّة، صِفَاتٌ يمْتَازُ بِها على سائر الموجودات الحيّة المدركة، وهـٰذِهِ ميزَاتٌ ظاهِرَةٌ لَا تحتاج تفصيلاً ولا إقامةَ بُرْهانٍ عليها.

وجَسَدُ الإنْسَانِ في تَقْويمِهِ الْعَامّ أحْسَنُ الأجْسادِ الحيَّة المشْهُودَةِ تَقْوِيماً.

وتَفْضِيل اللهِ آدَمَ على الملَائِكَةِ وإبْلِيسِ الجنّ بالْعِلْم، وأمْرُ اللهِ لَهُمْ بالسُّجُودِ لآدم، بَعْدَ تَفَوُّقِهِ في مُباراةِ عِلْمِ أَسْمَاءِ الأشياء الَّذِي يَشْمَلُ

صِفَاتِها، يَدُلُّ على تفضيله بميزة العلم، ويدُلُّ أيْضاً عَلَىٰ تَكْلِيفِ أَهْلِ الملأ الأعْلَىٰ وإبلِيسِ الجنِّ أنْ يَسْجُدُوا لَهُ على أنّ اللهَ كَرَّمَهُ عَلَىٰ الإنْسِ والجنّ.

إلَّا أنَّ تَكْرِيمَ النَّوْعِ ذِي الإرادةِ الحرَّةِ لَا يتَحقَّقُ لِكُلِّ فَرْدٍ من أفراده، مَا لَمْ يُثْبِت الْفَرْدُ أَنَّهُ أَهْلٌ لهذا التكريم بِعُبُودِّيتِهِ الاختياريَّة، للرَّبِّ الّذِي كَرَّمَهُ بأصْل التكْوين، فإذا لَمْ يُحقّقْ ذَلِكَ رَدَّ نَفْسَهُ مُتَسَفِّلاً في الدَّرَكَاتِ، وقَدْ يَصِلُ باختياره الأَحَطَّ فالأحَطَّ، حَتَى يكونَ في أسْفَلِ سَافِلين.

ومَنْ حَافَظَ على مِقْدَارٍ ما من تكرِيم البارئ لَهُ، كَانَ لَهُ مِنْ مَنَازِلِ الجنَّةِ مُتَصَاعِداً على مقدار مَا حَافَظَ عليه، وقَدْ يَصِلُ باختياره الأكْمَلَ فالأَكْمَلَ حَتَّىٰ يكُونَ مِنْ أَهْلِ الفردَوْسِ الأعْلَىٰ في جنَّاتِ النَّعِيمِ.

وشرح تكريم بني آدَمَ بالتكوين الرَّبَّانِي لَهم، يتَطَلَّبُ دِرَاسَةً عِلْمِيَّةً مُوسَّعَةً جدًّا، تُحرَّرُ في أسْفار.

● ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: أي: وأنْعَمْنا عَلَيْهِم بأنْ تَحمِلَهُمُ في الْبَرّ المراكِبُ الحيوانيَّة، ثُمَّ المراكبُ غَيْرُ الحيوانيّة ممّا هَدَيناهم إلى اكْتِشَافه ـ وبأنْ تَحمِلَهُم في الْبَحْر المراكبُ غَيْرُ الحيوانية الَّتي هَدَيناهم إلى صُنْعِها مُذْ أمَرْنا نوحاً بِصُنْعِ الْفُلْكِ الّتي أنجيناه بها من الإغراقِ، هو والّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ واتّبَعُوه.

وتُقَاسُ المراكب الجويَّة على المراكب الْبَرِّيَّةِ والْبَحْرِيَّةِ غير الحَيَوانيَّة، ولَمْ تُذْكَرْ في القرآن لأنَّهَا لم تَكُنْ قَدِ اكْتُشِفَت إبّانَ نزول القرآن، ويَشْمَلُها قول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾:

ففي عبارة: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تَدْخُلُ كُلُّ المراكب التي سيكْتَشِفُ النَّاسُ قوانينها، وطرائق صُنْعِها، وَقُوَّة حَرَكَتِها لتأدِيَة الوظائفِ والمنافع المطلوبة منها.

• ﴿... وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ... ﴿٧٠﴾﴾: أي: وَرَزَقْناهُمْ في الحياة الدُّنيا بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ، من المآكِلِ، والمشارِب، والمناكِح، وَمُمْتِعَاتِ السَّمْعِ والْبَصَرِ وسَائِرِ الْحَوَاس.

وبَنُو آدَمَ مُفَضَّلُون بهـٰذِهِ الطيّبات على غيرهم من الأحياء، فَهُمْ يسْتَمْتِعُونَ بها في الحياة الدُّنيا، رَغْبَةً في أَنْ يكونُوا من الشاكِرِينَ لِرَبِّهِمْ عليها.

• ﴿... وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾: دلَّتْ هـٰذِهِ العبارة على أنَّ بَنِي آدَمَ قَدْ يَتَسَاوَوْنَ مَعَ بَعْضِ مَنْ خَلَقَهُمُ اللهُ فيما منَحَهُمْ إيّاه، لكِنَّهُ فضَّلَهُمْ عَلَىٰ كثِيرٍ ممَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً عظيماً.

وتُشْعِرُ هـٰذِهِ الآيَة بِأَنَّهُ قَدْ كَانَ من الواجب على بني آدَم أَنْ يكونوا شَكُورِينَ لِرَبّهم على مَا فَضَّلَهُمْ بِهِ وَعَلَىٰ تكْرِيمه لهم، إلَّا أنْ كثيرين منهم، قَدْ أَثْبَتُوا بَعْدَ اخْتِبَارِهِمْ أَنَّهُمْ كَفُورُونَ، وأنّ الْقَلِيلَ جِدًّا مِنْهُمُ الشُّكُورُون.

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الإسراء)

والحمْدُ لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه.

* * *

(١٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيتان: (٧١ و٧٢)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾:

القراءات:

٧٢ ـ • قرأ قالُون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جَعفر: [فَهْوَ] بإسكان الهاء وقرأها باقي القراء العشرة: [فَهُوَ] بضَمّ الهاء.

وهما لغتان عربيتان:

تمهيد:

هذا دَرْسٌ يشْتَمِلُ عَلَىٰ عَرْضٍ لقْطَةٍ من لَقطَاتِ مشاهِدِ يوم الدين، لأنَّ الْعِلَاجَ الدّعوِيَّ الحكيم، ينبغي أنْ يَتضَمَّنَ تَذْكير الْمُعَالَجِ آناً فآناً بالْمُرْهِبَات المحَذِّرَاتِ منْ عذاب اللهِ على الكُفْرِ والْفُسُوقِ والْعِصْيان، وهُو موصُولٌ بالمعالجات السابقات في السُّورة، للمعنيّين بالمعالجة، وهم كُبَراء مُشْرِكي مَكَّة إبَّانَ التَّنْزيل، وهُو يَنْسَحِبُ على أمْثالهم عَبْر تاريخ الناس.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ عَرَضٌ لمشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ، فِيهِ بَيَانُ نِداءِ زُمَرِ النَّاسِ، بِحَسَبِ أئمتهم في الدّنيا.

الإمام: هو في اللّغَة مَا يُؤتَمّ، أو مَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، أي: يُتَّبَعُ. وهو يَدُلُّ على المفرد، وقد يكون جمعاً، مثل: صائم وصِيَام، وقائم وقِيَام، ومِنْه: ﴿... وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ الفرقان.

وجاء في القرآن بيانُ أنَّ اللهَ عزّ وجلّ قال لإبراهيم عليه السَّلام: ﴿... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا... ﴿١٢٤﴾﴾ البقرة.

وذكر اللهُ عزّ وجلّ أنَّهُ جَعَلَ في الناس أئِمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِهِ، وجَعَلَ

فِيهِم أئِمَّةٌ يَدْعُونَ إلَىٰ النّار. ومن هؤلاء الأئمة الّذِينَ يَدْعُونَ إلى النار فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُه، فقال اللهُ عزّ وجلّ بشَأْنِهِمْ في سُورَةِ (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ومن هٰذا يظهر للمتدبّر أنَّ المرادَ بالإمام، في عبارة **[بِإِمَامِهِمْ]** هُوَ من كانَ في الدُّنيا إمَامَ هُدىً، أَوْ إمَامَ ضَلَال.

فأتْباعُ إمَامٍ كانَ يَهْدِي في الدُّنيا إلىٰ الجنَّةِ ومَرْضَاةِ اللهِ عَلَىٰ مَا شَرَعَ لعباده، يُنَادَوْنَ يَا أتباع فُلان، نحو: يا أتباع موسى. يا أتباع عيسىٰ. ياأتباع مُحمّد، وهكذا.

وأتْباعُ إمَامٍ كَانَ يَدْعُو في الدُّنيا إلى الكُفْرِ المزْلِقِ إلى النّار، يُنادَونَ يَا أتباعَ فُلان، نحو: يا أتباع فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، يا أتبَاعَ نُمْرود. يا أتباع بُولُس. يا أتباعَ ماركس، وهكذا.

فالمعنى: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أيًا كُنْتَ هٰذا المشهد من مشاهِدِ الدَّعْوَةِ إلَىٰ مَوْقف الْحِسَابِ والمساءَلَةِ، لِفَصْل القضاء، ثُمَّ لتنفيذِ الجزاء بالفضل أو بالْعَدْل، يَوْم نُقَسِّمُ النَّاسَ إلَىٰ زُمَر، بِحَسَبِ أئِمَّتِهِمْ في الدُّنيا، وَنَدْعُو كُلَّ زُمْرَةٍ مِنْهُمْ مُعَرَّفين بإمامِهِمْ الّذِي كانُوا يَتَّبِعُونه في الدُّنيا، سواءٌ أكان دَاعِياً إلى الله والجنة، أم كان داعِياً إلى سُبُلِ الشّياطين الْمَوْصُولَةِ في نهاياتها بالنار.

وتكُونُ هٰذِهِ الدَّعْوَةُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ أهْلُ الموقف قَدْ تَسَلَّمُوا كُتُبَ أعْمالِهِم، فالمؤمِنُون يَتَسَلَّمُونَ كتُبَ أَعْمَالِهِمْ بأيمانهم، والكافِرُونَ يتسلَّمُونَ كُتُبَ أعْمَالِهِمْ بِشَمَائِلِهِم مِنْ وَرَاءِ ظُهُورهم.

أمّا الّذِينَ أُوتُوا كُتُبَ أعْمَالِهِمْ بأيمانِهِمْ، فأولئكَ ذَوُوا المنزلَةِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، يَقْرَؤُونَ كُتُبَهِمْ فَرِحينَ بأنَّ مَصِيرَهُمْ إلى جَنَّاتِ النَّعِيم، وهُمْ

عِنْدَ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً، بَلْ يَجِدُونَ أَنَّ اللهَ قَدْ ضَاعَفَ لَهُمْ بِفَضْلِهِ حَسَناتِهم، وقَضَىٰ لَهُمْ بثوابٍ عَظِيم لم يَكُنْ فِي حُسْبانهم.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الفاء تفريعية دلَّت علىٰ أنّ الْمَدْعُوِّين بأئِمَّتِهم هُمْ قِسْمانِ رَئيسيَّان: مُؤْمِنُون تَسَلَّمُوا كُتُبَ أعْمالِهم بأيمانهم، وكافرُون تَسَلَّمُوا كُتبَ أعْمالهم بشَمَائِلهم.

لفظ «مَنْ» اسْم مَوْصُول يُعَادُ عَلىٰ لفظه بالإفراد، ويُعادُ عَلَىٰ مَعْنَاهُ إذا كان جَمْعاً بالجمع، وأعُيد هُنَا الضَّمِيرُ على لفظه بالإفراد، وأشير إلى مَعْنَاه الذي هو جمع باسم الإشارة «أولَئك».

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾: أي: يَقْرَؤُونَ كُتُبَهُمْ فَرِحِينَ بِمَا تَفَضَّل الله عَلَيْهِمْ به، من مضاعَفَةٍ لِلْحَسَنَاتِ، وتجاوزٍ عن كثير من السّيئَات.

لفظ «كِتَابِ» اسْتفاد الْعُمُوم بإضَافَتِهِ إلَىٰ ضمير الجماعة، فهو بمعنَىٰ «كُتُبَهُمْ».

﴿. . .وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: أي: ولَا يُظْلَمُونَ شيئاً مَهْمَا قَلَّ مِقْداره، فَلَا يُنْقَصُ من حَسَناتهم شيء، بل تُضَاعفُ لَهُمْ، ولا يُزَادُ في سيّئاتهم شيءٌ، بل يَعْفُو الله عن كثير منها.

فتيلاً: أي: مقدار فتيل، وهو الخيط الرفيع الّذي يكون في شِقِّ النَّواة، واختير هذا اللفظ هنا للدّلالة على القلّة الشديدة الّتِي لا يُكْتَرَثُ لَهَا، مراعاةً لرؤوس الآياتِ قَبْلَ هٰذِهِ الآية وبَعْدَها.

ويُفْهَمُ من السّكوت عن المقابل، وهم الكافِرُونَ الّذِينَ يُؤْتَوْن كُتُبَهُمْ بِشَمَائِلِهم، أنَّهم لَا يَقْرَؤُونَ كُتُبَهُمْ، لأنَّهُمْ يَتَذَكَّرُون كُلَّ جرائِمِهم وخَبَائِثهم، وبَعْدَ أَنْ تَحقَّقَ مَا كانُوا يُكَذّبونَ به من الْبَعْثِ وأهوال يوم القيامة، يُوقِنُونَ بأنَّ كُلَّ مَا فِي كُتُب أعْمَالِهِمْ حَقٌّ، ويَكْفِيهِمْ جُرْماً لِلْخُلُودِ في النّار، أنَّهُمْ

كانُوا في الحياة الدُّنيا كافِرين باللهِ والْيَوْم الآخِر، ومُكَذّبين رُسُلَ رَبّهم، ومُكَذِّبين بمَا جاءُوا به عنْهُ جلّ جلاله.

وجاءَ بديلاً عَنْ هـٰذا المسكوت عنه مُرَاعَاةً لفنيَّةِ التقابُلِ في اللّفظ، قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾:

أي: وأمَّا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ أَخَذُوا كُتُبَ أعْمَالِهِمْ بِشَمَائلهم، والّذِينَ كانوا عُمْيَاناً في الحياة الدُّنيا، إذْ حَجَبُوا أبْصَارَ بَصَائِرهم عَنْ رُؤيَةِ الْحَقِّ الذي أمَرَهُمْ رَبُّهُمْ أن يُؤْمِنُوا بِهِ عَلَىٰ ألْسِنَةِ رُسُلِهِ، فَسَوْفَ يُحْشَرُونَ عُمْيَاناً، لَا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَهْتَدُوا إلى طَرِيقٍ يُبْعِدُهم عن عذابِ اللهِ في جَهَنّم، ويُوصِلُهُمْ إلى دُخُول الجنَّة، إنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ إلَّا طَرِيقاً واحداً، هو طَرِيقُ جهَنَّمَ الَّتِي يَكُونُون خالِدِينَ فيها أبداً.

- ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ﴾: أي: في هـٰذِهِ الحياة الدُّنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾: أي: كافراً ضالًّا بِكُفْرِه عَنْ سَبِيلِ سَعَادَتِهِ العاجِلَةِ والْآجِلَةِ.

اسْتُعِيرَ لفظ «أعْمَىٰ» للدّلَالَةِ على معْنَى «كافر» ذِي كُفْرٍ وضلالٍ مصاحِبٍ له، واسْتِعْمَالُ هذه الاستعارة كثير في القرآن المجيد، للدَّلالة على الكافِرِ بربِّه وبما جاء عنه على لسان أيّ رَسُولٍ من رُسُله.

- ﴿...فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ...﴾: أي: فَهُو في الآخِرَةِ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ بأنَّهُ أعْمَىٰ (= كافر) مَفْرُوزٌ مع زُمَرِ الكافِرِين.

- ﴿...وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وهُو يَوْمَئِذٍ أكْثَر ضَلالاً عَنْ سَبيلٍ ينجيه من عذابِ اللهِ، ويَجْعَلُهُ من الفائِزين بجنَّاتِ النعيم، إذْ لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَدارَكَ أمْرَه بالإيمان والعَمَل الصالح، فَقَدِ انْتَهَىٰ زَمَنُ الامْتِحانِ، وجاءَ يَوْمُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء، فَلا حيلَةَ لَهُ فِي أنْ يَهْتَدِي إلى سبيل نجاتِه من الجحيم، وسَعَادَتِهِ فِي جنَّاتِ النعيم، أمَّا في الحياة

الدُّنيا فقد كان قادراً علىٰ أنْ يَتَدارَكَ أمْرَهُ بالإيمان والْعَمَل الصالح، ولَوْ قَبْلَ سَاعَةِ الْمَوْتِ بزَمَنٍ قليلٍ، لهذا فهو في الآخِرَةِ أضَلُّ سبيلاً، إذْ لَا يَجِدُ لنفْسه طَرِيقاً يَسْلُكُهُ بل يُكْرَهُ عَلَىٰ سُلُوكِهِ إلَّا طَرِيقَ جَهَنَّم الَّتي يكُون فيها خالداً أبداً، كما قال اللهُ عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نُزُول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾: اللّام في «لِيَغْفِر» لَامُ الجحود، إذ جاءتْ بَعْدَ كَوْنٍ مَنْفي، وهذا التعبير منْ أبْلَغِ أنواعِ النَّفْي، وكذلِكَ كلُّ كون منفيٍّ جاءت بَعْدَه لَامُ الجحود.

وبهذا انْتَهىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْس الثاني عشر من دُروس سورة (الإسراء).

والحَمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِه ومَدَدِهِ وتَوْفيقه وفتحه.

* * *

(١٧)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثالث عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٧٣ - ٧٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

القراءات:

٧٤ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بِضَمّ هَاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ هاء الضمير. وهُما لغتان عَرَبِيّتان.

٧٦ ـ • قرأ ابن عامر، وحفص عَنْ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف: [خِلَافَكَ] أي: بَعْدَكَ.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: [خَلْفَكَ]: أي: وَرَاءَ ظَهْرِكَ الذي تُولِّيه إياهُمْ عنْدَ خروجك.

ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في التعبير.

٧٧ ـ • قرأ أبو عَمْرٍو: [رُسْلِنَا] بإسْكان السّين.

وقرأهَا باقي القراء العشرة: [رُسُلِنَا] بضمّ السّين. وهُما لُغَتَانِ عَربيّتان.

تمهيد:

هذا درسٌ مَدَنيّ التّنْزيل، وفيه تربيَةٌ للرَّسُولِ ﷺ، بِحَسَبِ الصيغَةِ الظَّاهرة، وهو في حقيقَتِه يتضَمَّنُ إيئَاساً لِكُلِّ من يحاول إغراء الرسول، أنْ يَتَنَازَلَ عَنْ شيءٍ من الدّين أو يتهاوَنَ في تطبيق بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عزّ وجلَّ إليه، حتَّىٰ يكُفُّوا عَنِ اتّخاذِ وسائِلَ وأسْبَابٍ لاسْتِدْراجِهِ بزخْرُفٍ من القول، ومَوَاعِيدَ كاذِبَةٍ، قَدْ تُوحِي إلى الرَّسُول ﷺ، باحْتِمَالِ وجُودِ مَصْلَحَةٍ للدِّين، وانتشارِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ وغيرهم، إذَا لَانَ لَهُمْ في بَعْضِ مَا يُطَالِبُونَهُ بِهِ ممَّا لَا يُؤَثِّرُ على جَوْهَرِ الدِّينِ وَأَحْكامه وشرائعه.

فَحَذَّرَ اللهُ رَسُولَهُ تَحْذِيراً عَلَنِيًّا في قُرْآنٍ يُتْلَىٰ، من أَنْ يَرْكَنَ إلى إغْرَاءَات الكافرين ومواعيدهم الكاذِبَةِ، ولَوْ رُكوناً قَلِيلاً.

وهٰذا التحذير يتضَمَّنُ تَحْذِيراً للدُّعَاة من أُمَّتِهِ، وأَئِمَّةِ الْفِقْهِ والْعِلْم بالدّين، من الاستجابَةِ لمطالِب الكُبَرَاءِ والقادَةِ السّياسيّين الزَّمَنيّين، في إصْدَارِ الفتاوَىٰ الَّتِي فيها تَنازُلٌ عَنْ أحْكامِ اللهِ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُم سُلْطَانُه، مَهْمَا كانت الذّرائِع لذَلِك.

التدبُّر التحليلي:

- ﴿وَإِن كَادُواْ...﴾ أي: وقَدْ كادَ كُبَرَاء كُفَّارِ مَكَّة. فِعْل «كَادَ» من أفعالِ المقارَبَة، فالمعنى: وقد قارَبَ هؤلاء الكفار. وكَلِمةُ «إِنْ» هي المخففة من الثقيلة، واسْمُها ضمير الشأن، أي: وإِنَّ الشأْنَ العظيم الْخَطِيرَ أَنَّ كُبَرَاء كُفَّار مَكَّةَ قَارَبُوا. واختصاراً لبيان المراد من التعبير أقول: وَقَدْ كادُوا.

﴿...لَيَفْتِنُونَكَ...﴾: اللّام هي الفارقة التِي تبَيّن أَنَّ «إِنْ» قبلها هي المخففة من الثقيلة، لا «إِنْ» النافية. «يَفْتِنُونَكَ» أي: يُغْرُونَكَ يا مُحَمَّدُ بِمَعْسُولِ الْقَوْلِ، والمواعِيد الكاذبة، وهذا أَقْرَبُ معانِي الفتْنَةِ الصَّالِحُ لأَنْ يكون مُراداً هُنَا، وهو إغراء قَدْ يَرَى فيه الرَّسُولِ ﷺ باجتهاده، أَنّ استجابَتَهُ لبَعْضِ مطالِبهم وبِصُورَةٍ مَرْحَلِيَّة مُؤقَّتَةٍ، فيه مَصْلَحَةٌ لانتشار الإسلام، ولا سيما بَيْنَ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ الّذين إذا أَسْلَمُوا أَسْلَمَ من ورَائِهِم أَتْباعُهُمْ، الَّذِينَ لَمْ يَصُدَّهُمْ عن الإسلام إلّا أئِمَّتُهم، وقادَتُهم الّذينَ لَهُمْ سُلْطانٌ عليهم، بهَيْمنَةٍ اجتاعيَّة.

- ﴿...عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾: أي: صَارِفِينَ إِيَاكَ عَنْ تَطْبِيقِ بَعْض الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْك، ممَّا يَسُؤوهم سماعُه أو تَطْبيقُهُ، كذِكْرِ آلِهَتِهِمْ بأنّها حجارة لاَ تَضُرُّ ولا تنْفع، وكتسْوِيتهم في مَجَالِسِك بضُعَفاء المسلمين وفقرائهم.

ضُمّنَ الفِعل في «يَفْتِنُونَكَ» معنَىٰ الفَعْلِ في «يَصْرِفُونَكَ» فَعُدِّي

تَعْدِيته، بحرف «عَنْ» فأغْنَتِ الجملَةُ عن جُمْلَتين، فصَار المعْنَى: وإنْ كَادُوا لِيَفْتِنُونَكَ فيَصْرِفُونَكَ عَن تلاوة أو تطبيق بَعْضِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إليك، وأمَرْنَاك بتلاوته أو بتطبيقه.

• ﴿... لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ...﴾ كأنْ تُغَيِّرَ في سُلُوكِكَ بَعْضَ مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، فتَجْعَلَ بَدَلَهُ سُلوكاً آخَرَ يُرْضِي كُبرَاءَ قَوْمِكَ، دُونَ أنْ يؤثّر أي تأثير على جوهر الدّين وأحكامه فيما ترىٰ، لَكِنَّ هـٰذا من الافتراء علينا، لأنَّكَ في تطبيقاتِكَ الأُسْوَةُ الحسنة للمؤمنين، وأفْعَالُكَ حُجَّةٌ في الإيجاب والتحريم والإباحَةِ والنَّدْب.

• ﴿... وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)﴾: أرىٰ أنّ الواو في هذه الجملة تَعْطِفُ جُمْلَةً مَحْذُوفَةً عَلَىٰ جُمْلَةِ: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ والتَّقْدِيرُ: وإنِ استجبْتَ لَهُمْ، فافتريْتَ علينا غَيْرَهُ بتطبيقاتك، طمعاً في إسلامهم، إذاً لاتَخَذُوكَ خَليلاً، وهذا الأخير من تمام حكاية عُروضِهم الإغرائيّة.

«إِذَنْ» هذا هو الأولى في كتابتها، لأنّ النون فيها من أصل بناء الْكَلِمة، وهو حرف يقع في صدر الكلام، معناه الجواب والجزاء.

﴿خَلِيلًا﴾: **الخليل**: الصَّدِيق الّذي تخلّلتْ مودّتُه قلْبَ صَدِيقه، حتَّى صار مداخلاً مخالطاً، يطَّلِعُ على بواطنِهِ وأسْراره.

• ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾: «**لَوْلا**»: حَرْفٌ يَدُلُّ على امْتِناع شيءٍ لِوُجود غَيْره. **ثَبَّتْنَاكَ**: أي: مَكَّنَّاكَ منَ الثَّباتِ عَلَىٰ عدَم الاستجابَةِ لإغراءاتهم، بما شَدَدْنَا بِهِ عَزِيمَتَكَ في فُؤادِك، وهذا من عصْمَتِنا لَكَ.

• ﴿... لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا (٧٤)﴾:

﴿تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾: أي: تَمِيلُ إلى بَعْضِ إغراءاتهم. يُقَالُ لغة: «رَكَنَ فُلَانٌ إلى فُلَانٍ يرْكُنُ، رَكْناً، ورُكوناً، ورَكِنَ إلَيْهِ يرْكَنُ» أي: مَالَ إلَيْه، وسَكَنَ.

﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾: أي: لَمْ تَمِلْ في أحاديثِ نَفْسِكَ إلى قَبُولِ بَعْضِ إغراءاتهم مَيْلاً كثيراً، بَلْ حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بأنْ تَقْبَلَ مِنْها شيئاً قَلِيلاً رَأيْتَ أنَّهُ من نوعِ المدَارَاةِ الاجتماعيَّة، ولَا تأثيرَ لَهُ على جَوْهَرِ الدِّينِ وأحْكامِهِ وتعليماته.

والمعنى: نُؤَكِّدُ لَكَ يَا مُحَمّد أنَّكَ لَقَدْ قَارَبْتَ ولَمْ تَفْعَلْ، أنْ تَمِيلَ إلى بَعْضِ إغْراءَات كبراء مُشْرِكي مكة، في تَصَوُّرَاتِكَ وأحَادِيثِ نَفْسَك.

شيئاً: منصوب على أنّه نائب مَفْعُول مُطْلَق، إذْ هو دالٌّ على بَعْضِ الرُّكونِ. **«قَلِيلاً»**: نَعْتٌ لكلمة **«شيئاً»**.

أُخِّرَ هذا التنزيل إلى العهد المدَني لأنّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يركَنْ في واقع حاله إلى إغراءات كُبَراء قَوْمه، وقَدْ عَصمَهُ اللهُ من ذلك.

واقتَضَتِ الحكْمَة تأخِيرَ إنْزَالِهِ إلى العهد المدنيّ، لتَيْئِيس الكافرين ولا سيما يهودُ المدينَةِ من إغراء الرسول بالتنازُل عَنْ شيءٍ ممّا أنزلَ اللهُ إليه، ولتحذِير المؤمنين من أن يتأثَّروا بإغراءات ذوي السُّلطان والقوّة والجاه، فَيُفْتُوهم بغَيْرِ مَا أنْزَل الله، أو يَلِينُوا لهم بتطبيق أعْمَالٍ مضادَّةٍ لأحكام الله لعباده.

- ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾:

الضِّعْف: هو في كلام العَرَبِ على ضَرْبين:

أحَدُهما: المِثْلُ.

والآخر: يكون بمعْنَىٰ تَضْعِيفِ الشيء بالزيادَةِ عليه إلى مِثْلَيْهِ وأكثر.

[إذَنْ] حَرْفٌ يَقَعُ في صَدْرِ الكلام معناه الجواب والجزاء، كما سَبَقَ بيانُ هٰذا قَرِيباً.

وهٰذا الْبَيَانُ المصدَّرُ بحرف «إذَنْ» يَسْتَدْعي كَلاماً مَطْوِيًّا لم يُصَرَّحْ بِهِ في اللّفظ، ويُمْكِنُ تَقْدِيره بما يلي: ولَوْ أنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رَكَنْتَ إلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً، لأَذَقْنَاكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِكَ وأنْتَ إمَامُ المسْلِمين وأوَّلُهُمْ طاعَةً وَتَطْبِيقاً للإسلام، وأنت الأُسْوَةُ الحَسَنَةُ لَهُمْ في أقوالِكَ وأعْمَالِكَ، ضِعْفَ عَذَابِ ذَنْبِكَ في الحياة مِثْلَيْن فأكْثَر، وضِعْفَ عَذَاب الْمَمَاتِ في البَرْزَخِ بَيْنَ المَوْتِ والْبَعْث، مِثْلَيْنِ فأكثر، وسَكَتَ النَّصُّ عَمَّا بَعْدَ الْبَعْث.

ثُمَّ إذَا أَنْزَلْنَا بِكَ الْعَذَابَ علَىٰ هٰذِهِ الْمَعْصِيَةِ الكبيرَة لَا تَجِدُ لَكَ نَصِيراً يَنْصُرُكَ عَلَيْنا فَيَرْفَعُ عَنْكَ الْعَذَابَ.

لَكِنَّكَ لَمْ تَفْعَلْ شيئاً مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّكَ قَارَبْتَ أَنْ تَفْعَلَ فلَمْ تَفْعَل، وَتَوَكَّلْتَ عَلَيْنا فَثَبَّتْنَاكَ وَعَصَمْنَاكَ.

ومعلوم أنّ ما دخلت عليّه «لو» منفيُّ الوقوع، فليس في البيان إشكالٌ ما حول عِصْمَة الرسول ﷺ.

وإنَّ المتدبّر المتأنّيَ يَرَىٰ أنَّ هٰذا البيان الذي تأخّر إنزالُهُ إلَىٰ الْعَهْدِ الْمَدَنِي، وَضُمَّ إلى سُورَةِ (الإسْراء) المكيَّة، الّتِي كان كُبَراءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ إبَّانَ تَنْزِيلِها، يُوَجّهُونَ للرَّسُولِ مطالِبَهُمُ الإغرائيّة الاسْتِدْراجية، لَمْ يُقْصَدْ بِهِ شَخصُ الرَّسُولِ ﷺ، لأنّ المرحَلَة قد مَرَّت وَمَضَت ولم يَكُنْ مِنْهُ رُكُونٌ ما بِصُورَةٍ فِعْلِيَّة، والظَاهِرُ أنّها كانَتْ خواطِرَ وأحاديثَ نَفْسٍ لَيْسَتْ مناطَ مَسْؤُولِيَّةٍ ولا مُحَاسَبَة، وإنّما المقْصُودُ بهذا البيان تَحْذِيرُ أئِمَّةِ المتّقِينَ، وإقْنَاعُ أَهْلِ الكِتابِ في المدينة وغيرهم، بأنْ يُوَطِّنُوا نُفُوسَهِمْ، عَلَىٰ اليأسِ من أنْ يَتَأَثَّرَ الرَّسُولُ محمّد ﷺ بإغراءاتِهم، وعَرُوضهم الّتِي يُرِيدُونَ بها إزْلَاقَهُ، وإخراجَهُ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عليه من تَعْلِيماتٍ وبيانَات وأحكام، وقَدْ فَعَلَ اليهودُ هذا فخابوا.

﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ شبَّه الله عزّ وجلّ الإحْسَاسَ بألَمِ العذاب بالذّواق،

لتقريب مَعْرِفَة الإحْسَاسِ به، ففي التعبير استعارَةٌ قائمةٌ علىٰ التشبيه.

وجاء في الآية حَذْف كَلِمة «عَذَاب» في موضعين، قبل لفظ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ وقبْل لفظ ﴿ٱلْمَمَاتِ﴾ تَكْرِيماً من الله لِرَسُولِهِ عَنْ أنْ يواجِهَهُ بلَفْظَة «عذاب» ولو لم يكنْ هو المقْصُودَ حَقيقَةً في النّصّ كلّه، كما سَبَقَ بيانُه.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُولِه بِشأْنِ كُفَّارِ مَكَّةِ المعانِدِين:

- ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾:

هاتان الآيتان من التنزيل المدَني أيْضاً، ضُمَّتَا إلى مَوْضِعِهما من سُورَةِ (الإِسْرَاءِ) المكيّة، للدَّلَالَة على أنَّ الْحَدَثَ الْمَذْكُورَ فيهما قَدْ كَانَ إبَّان نُزول سُورَةِ (الإسراء) ولَمْ يُنْزِلْهُما اللهُ عزّ وجلَّ في الْعَهْدِ المكِيّ، لأنَّ الْحِكْمَةَ السّياسيّةَ اقتضَتْ كِتْمَانَ عِلْمِ الرَّسُولِ والمؤمِنِينَ بما يُدَبِّرُهُ كُبَراءُ كُفّار مكّة، وعَدَمَ إعْلَانِهِ قُرْآناً يُتْلَىٰ.

﴿وَإِن كَادُوا۟﴾: أي: وقد كَادَ كُفَّارُ مكَّةَ المصِرُّونَ على عنادِهم. فعل «كاد» من أفعال المقاربَة، فالمعنى: وقد قارب هؤلاء الكفار. كلمة «إِنْ» هي المخفّفة من الثقيلة «إنَّ» واسْمها ضمير الشأن، أي: وإِنَّ الشّأن الخطير أيضاً، أنَّ هؤلاء الكفار قاربوا. واختصاراً لبيان المراد بالتعبير أقول: وقَدْ كادُوا.

﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾: اللّام هي اللّام الفارقة كما سبق بيانه في الآية (٧٢).

يُقَال لغة: «اسْتَفَزَّهُ، يَسْتَفِزُّه» أي: اسْتَخَفَّهُ بالمخِيفَاتِ والمفزعات، واسْتَخْرَجَهُ، وختَلَهُ حتَّىٰ أوْقَعَهُ فيما يُكْرَه.

﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: من مكةَ الأرضِ الّتي تُحِبُّها يا مُحمَّد.

﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾: أي: لِيجعلُوك تَخْرُجُ مُهَاجِراً مِنها، وكانَ هذا إبَّانَ نُزُولِ سُورَة (الإسراء) ثم إنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ اشْتَدَّ بِهِمُ الغضَبُ، فَدَبَّرُوا في الخفاء أَنْ يَسْجُنوا الرَّسُول، أو يَقْتُلُوه أَوْ يُخْرِجُوه من مكَّة مَطْرُوداً، وهو مَا أبانَهُ اللهُ عزّ وجلّ في آياتٍ أنزلت في أواخِرِ العهد المكيّ، وضُمَّت إلى سُورَةِ الأنْفَال المدنية، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٣٠)﴾:

واسْتَقَرَّ رأيُهُمْ أخيراً على قتله، فأوحى الله إلَيْهِ بأنْ يُهاجِرَ إلى الْمَدِينَة، فخرج من بَيْتِه لَيْلَةَ إحَاطَةِ المختارِينَ لقتله به، فرَمَاهم بحَفْنَةٍ مِنَ التّرَاب أصَابَتْ عُيُونَهُمْ جَمِيعاً، فاشْتَغَلُوا بمعالَجَةِ التخلُّصِ ممَّا أصَابهم، ومَرَّ الرَّسُولُ من بينهم وهُمْ لَا يَشْعُرُون، ظانِّين أنّ ريحاً نَسَفَتْ من الأرض تراباً فأصَابَ عُيُونهم.

فمعنى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا . . . (٧٦)﴾:

وقَدْ قارَبُوا أنْ يَسْتخِفُّوكَ بالمثِيراتِ المزْعجاتِ، وبالْمُغْضِبَاتِ، لِتُقَرِّرَ بنَفْسِكَ الهِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ إلى غَيْرِها، وغَرَضُهُمْ في هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ أنْ يُخْرِجُوْكَ مِنْ مَكَّةِ مُهاجِراً، دُونَ أَنْ يُكْرِهُوكَ على هٰذا الخروج.

لكنَّكَ لم تتأثَّرْ بما فَعَلُوا فلَمْ تُهاجِرْ من مَكّة حينَئِذٍ، لأنّ الحكْمَة لم تَقْتَضِ خُروجَك، فَلَمْ يأذَنْ لَكَ رَبُّكَ بالهجرة.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦)﴾: أي: وإنْ أخْرجُوكَ بالاستفزاز

أو بالإكراه، فإنَّهُمْ لَا يَلْبَثُونَ بَعْدَكَ في مَكَّة إلَّا زَمَناً قَلِيلاً، لِأَنَّنَا نُدَبِّرُ لَهُمْ تَدْبيراً يُهلِكُهُمْ، أو نُخْرِجُهم مِنْها مُبْعَدِين مَطْرُودين، لا يسْتَطيعون العودة إليها.

الواو في: ﴿وَإِذًا﴾ تعطِفُ مَحْذُوفاً على جُمْلَةِ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ والتقدير [و] إن اسْتَفَزُّوكَ فأخْرَجُوك ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا مَا حَصَلَ فِعْلاً إذ اضطروه إلى الخروج حين هاجر بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَن لا تقِلُّ عن أربع سنين، فإن الله عزّ وجلّ دَبَّرَ اسْتِدْرَاجَهُمْ إلى مصَارِعِهِمْ في بَدْرٍ، في السَّنة الثانية من هجرة الرَّسول ﷺ إلى المدينة، وأبو لهب الذي لم يَخْرُجْ مع نظرائه من أئمة المشركين إلى بَدْر، أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ به داءَ وَبَائِيًا قاتلاً، فقضَىٰ عليه به، فلَمْ يَلْبَثْ في مكَّة بعْدَ هجرَة الرَّسُولِ منها إلَّا زَمناً قليلاً، كما حَصَلَ لبَاقي أئمة المشركين الذين قُتلُوا في بَدْر، وهم أصْحَابُ تَدْبير التخلُّصِ من الرَّسُول بالقتل.

«إذن» حرْفٌ يقع في صَدْر الكلام معناه الجواب والجزاء، وهو كنظائره السابقة قريباً.

﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾: أي: لَا يُقِيمُون. يقالُ لغة: «لَبِثَ بالمكَانِ يَلْبِثُ، لَبْثاً ولُبْثاً، فَهُوَ لَابِثٌ، وَلَبِثٌ» أي: أقام فيه.

﴿خِلَٰفَكَ﴾: أي: بَعْدَك.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي: إلَّا زَمَناً قَلِيلاً، فلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةٌ لموصُوفٍ مَحْذُوف، تقديرُه «زمَناً» وقد حَسَّنَ هذا الحذف أنَّه سَهَّلُ الإدْراك والاستخراج.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾:

أي: حَالَةَ كَوْنِ هـٰذا الْعِقَابِ لِمُخرِجِي رَسُولِهِم، المفهوم من عبارة: ﴿... وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ سُنَّتَنَا (= طَرِيقَتَنا المتَّبَعَة) في كُلِّ مَنْ أَخْرَجَ مِنْ بَلَدِه مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا.

وهـٰذِهِ السُّنَّةُ لَا يَتَخَلَّفُ تَطْبِيقُها كُلَّما وُجِدَ النَّظير، ولا تَجِدُ لَهَا تَحْويلاً عَنْ مَجْراها.

ظهر لي إعراب «سُنَّةَ» حَالاً كما أوْضَحتُ، دُونَ مَا ذَكَرَه المفسِّرون من تخريجات أخرى، واللهُ أعلم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث عشر من دورس سورة (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِه ومَعُونَتِهِ وتَوفيقه وفتحه.

* * *

(١٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع عشر من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (٧٨ ـ ٨١).

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾.

تمهيد:

في هـٰذا الدَّرْس أمْرٌ للرَّسول ﷺ فلكُلِّ مُكلَّفٍ من المسلمين، ولغير المسلمين شَرْط أنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا، بإقامَةِ الصَّلَاةِ المفروضة في أوقاتٍ

بينتْهَا الآيات، وأمْرٌ لَهُ فلسائر المسلمين، بأن يَتَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ زيادةً إلْزامِيَّةً له، وتَطَوُّعيَّة للمسلمين.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ فكريًّا بالآيَةِ الأولَىٰ من السورة، الَّتي جاء فيها أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً من المسْجد الحرام إلى الْمَسْجِد الأقصى، وقَدْ ثَبَتَ في السُّنَّةِ أَنَّ الصّلَواتِ الْخَمْسِ فُرِضَتْ في لَيْلَةِ الإسْراء.

وفي هذا الدّرْس بشارة إلماحِيَّةٌ بفتح مكَّة، وفيه تعليم الرسول ﷺ مَا يَقُولُه عِنْدَ دُخُولَها فاتِحاً.

التدبّر التحليليّ:

- ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾:

- ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾: أي: أقِم الصَّلاة بَعْد زوال الشمس عن وسط السماء، وبَعْد غروب الشمس إلى ظلمة الليل.

اللام في عبارة: ﴿لِدُلُوكِ﴾ هي بمعنى بَعْد كما يقولُ النحويون.

دُلُوكُ الشَّمْسِ: جاء في لِسَانِ العرب، لابْن منظور، أنَّ دُلُوكَ الشَّمْسِ يأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَيَيْن: زَوالِها عَنْ وَسَطِ السَّماءِ إلى جِهَةِ الْغُروب، وهٰذا يكونُ في مُنْتَصِف النهار. وغُرُوبِها، وهٰذا زَوالٌ لها عِنْدَ أوَّلِ اللَّيل عن السَّماءِ كُلّها.

وَأخذاً بدَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَىٰ المعْنَيين، وهُو مَذْهَبُ جُمْهُورُ المجتهدين من الفقهاء يكُونُ المعْنَىٰ كما يلي:

أقم الصلاةَ بَعْدَ زَوال الشَّمْسِ عَنْ وَسَطِ السَّماء، وبَعْدَ غُرُوبها، وهٰذِهِ الْبَعْدِيَّة تَسْتَمِرُّ من الزَّوَال إلى الْغُروب. ثم من الغروب إلىٰ غَسَق اللَّيل.

غَسَقُ اللَّيل: ظُلْمَته، وإذْ بَدَأ الدُّلُوكُ الْغُروبي من أوّل ظُلْمَةِ اللَّيل، كان من التَّدبُّرِ السَّلِيم حَمْلُ عِبارة: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ على مَعْنَىٰ إلى آخِر غَسَقِ اللّيل. وَبَعْدَ آخِر غَسَقِ اللّيلِ يَدْخُلُ الفجرُ، وهُوَ بدْءُ وقت صلاة الفجر.

وجاء البيانُ النّبويُّ أخْذاً مِنْ الوحْي الّذِي نَزَلَ به جبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، أنّ مَا بَعْدَ دُلُوكِ الشّمس عَنْ وسَطِ السَّمَاءِ إلى مَا قَبْلَ بَدْءِ غُرُوبها قَدْ فُرِضَتْ صَلاتان هما الظُّهْرُ والْعَصْر، وأنَّ مَا بَعْدَ دُلُوكِ الشَّمْسِ وهُو غُرُوبُها كُلِّيًا قَدْ فُرِضَتْ صَلاتانِ هُما الْمِغْرِبُ والعشاء.

ولعَلَّ الْحِكْمَةِ مِنْ جَمْعِ الظُّهْرِ والْعَصْر بَعْدَ الدُّلُوك الأوّل، وجَمْعِ المغْرِبِ والعشاء بَعْدَ الدُّلُوكِ الثاني، أنَّ الظُّهْرَ والْعَصْرَ تُجْمَعَانِ في وقت واحدٍ موسَّعٍ في حالَاتِ الْعُذْرِ كالسَّفر، وأنَّ المغرب والعشاءَ تُجْمَعَانِ أيضاً في وقْتٍ واحدٍ موسَّع في حالَات الْعُذْر.

أمّا الصَّلاة الخامِسَةُ المفروضة وهي صَلَاةُ الْفَجْرِ فقد جَاءَ التَّعْبير عَنْها بقول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿. . . وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾﴾:

وجاء في البيان النبويّ تحْدِيدُ أوّل وقت صلاة الفجر الموسّع، وتحديد آخره، إذْ هي لا تُجمَع مع غَيْرِها في سَفَرٍ ولا مَرَض، وجاء في بياناتِهِ تحْدِيدُ أوائل أوقات الصّلواتِ الأُخرىٰ الموسَّعَة وتَحْدِيدُ أواخِرِها، إلَّا في حالات الْعُذْر الّتي تجمع فيها صَلَاتا الظُّهِرِ والْعَصْرِ في وقْتِ أيّ صَلَاةٍ منهما، وتُجْمَعُ فيها صَلَاتا المغرب والعشاء في وقت أي صلاة منهما.

وجاء في السُّنَّة أنّ الرسول ﷺ تلَقَّىٰ مَعْرِفَةَ أوائِلِ أوقات الصَّلَواتِ وأواخِرِها عَنْ جِبريل عليه السَّلام.

أمّا التعبير عن صَلاةِ الفجر بعِبَارَة: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ فَهُوَ من إطْلَاقِ الْبَعْضِ عَلَىٰ الكُلِّ، باعْتِبَارِ أنَّ قراءة القرآنِ في الصَّلَاةِ أجَلُّ وأعْظَمُ أرْكانِها الْقَوْلِيّة، وهٰذا الإطلاق ينْسَحِبُ على سَائِرِ الصَّلوات، وخُصَّتْ في الآيَة صَلَاةُ الْفَجْر بهٰذا الإطْلاقِ لِمَا جاء في الآية من أنَّ هٰذِهِ الصَّلَاة صلاة مَشْهُودَةٌ تَحْضُرُها ملائِكة اللَّيلِ ومَلَائكَةُ النهارِ مأمُورَةً بهٰذا الحضور، لِعِظَمِ صلاة الفجر عند الله عزّ وجلّ، إذْ يَشُدُّ بها المصَلُّونَ نُفوسهُمْ من مضاجِعهم شدًّا فيه كُلْفَةٌ ومُخالَفَةٌ لِمَا يُحِبُّونَ من النّوم في ذَلِكَ الْوَقْتِ.

روى البخاري عن أبي هريرة عَن النبيّ ﷺ قال:

«فَضْلُ صَلَاةِ الجميع على صلاة الواحِدِ خَمْسٌ وعِشْرُونَ دَرَجَةً. وتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللّيْلِ ومَلَائِكَةُ النَّهَارِ في صَلَاةِ الْفَجْرِ».

يَقُولُ أبو هُرَيرَةَ: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿...وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨﴾.

وروى البخاري ومسلم عَنْ أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال:

«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ باللَّيلِ ومَلَائِكَةٌ بالنَّهارِ فَيَجْتَمِعُونَ في صَلَاةِ الصُّبْحِ وفي صَلَاةِ الْعَصْر، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فيكُمْ فيسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وهو أعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أتَيْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّون».

أقول: وإذا رَسَمْنَا دائرَةَ اللّيل والنهار وما جاء في الآية من تحديد الأقوات للصَّلَوات، ثم تدبَّرْنَا ما جاء في الآية أيضاً من إعلاء لِقِيمَةِ صلاة الفجر وشهود الملائكة لها ترجَّحَ لدينا أنَّ الصلاة الوسْطَىٰ المذكورة في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ هي صلاة الفجر، وإلى هذا ذهب كثير من المفسّرين والصحابة والتابعين.

إنَّ صلاة الفجر هي الصلاة الوحيدة الّتي لا تُجْمَعُ مَعَ غيرها في

سفَرٍ ولا حَضر وهي صلاة وسْطَىٰ لأنَّها أفْضَلُ الصلوات الخمس، ووقت أدائها يقع وسَطاً بين زمن ليس فيه صلاة مفروضة، وزمن فيه صلوات مفروضة والله أعلم.

ولكن صحَّ عن النبي ﷺ وصف صلاة العصر بأنّها الوسطى، وقد تكون هي وسطى أيضاً بين صلاتي الدلوكين، والله أعلم.

رسم توضيحي لدائرة اللّيل والنهار وأوقات الصلوات فيها وترجيح أن الصلاة الوسطى هي الفجر

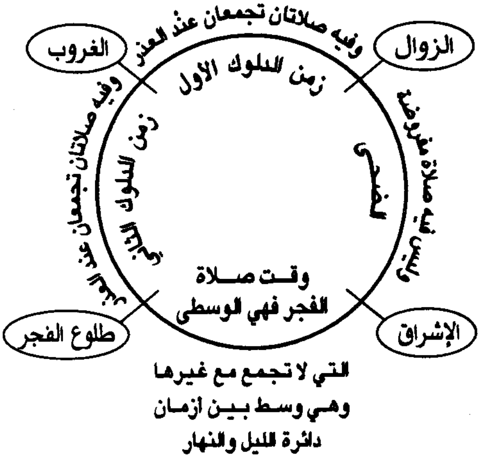
وفيه صلاتان تجمعان عند العذر
الغروب
الزوال
زمن الدلوك الاول
وفيه صلاتان تجمعان عند العذر
زمن الدلوك الثاني
الضحى
ليس فيه صلاة مفروضة
وقت صلاة الفجر فهي الوسطى
طلوع الفجر
الإشراق
التي لا تجمع مع غيرها وهي وسط بين ازمان دائرة الليل والنهار

قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

- ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾:
- ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: وقُمْ من اللَّيْل، بمعنى: وقم بَعْضَ اللّيل.
- ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾: أي: فَصَلِّ لِربّك في هذا الْبَعْض. أصْلُ معنى الْهُجود النَّوْم، يقال لغة: «هَجَدَ يَهْجُدُ هُجُوداً» أي: نَامَ. وجاءت صيغة تَهَجَّدَ «تَفَعَّل» للدلالة على معنى إزالة النوم، نظير: «تأثّم» أي تَجنّب الإثم، و«تحرَّجَ» أي: تجنَّبَ الحرج.

فمعنَىٰ «تَهَجَّدَ» تجنَّبَ الهُجُودَ، وهو النوم، ثُمّ صار التَّهُّجد دَالّاً على الصَّلاة في اللّيل بَعْدَ الاستيقاظ من النَّوْم.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: أي: زيادةً نَافعة أو مُوَجَّهةً لك، ودَلَّ الأمْرُ بعبارة ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ على الإيجاب بالنسبة إلى الرسول ﷺ، ولم يُحَدِّد اللهُ عزّ وجلّ في هذا التنزيل المَدَنِيّ المضموم إلى سورة مكيَّةٍ جاء فيها بَيَان الصلوات المفروضة مقدارُ زمن التهجُّد، لإشعاره بأنَّ مَا جاء في سورة (المزَّمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) من إلْزامِهِ بأنْ يَقُوم من اللَّيْلِ نِصْفَهُ أوْ أقلَّ قليلاً أوْ زائداً على النَّصْف، قد جاء التخفيف من مقداره، فإذا قام أقَلَّ مِنْ ثلث اللّيل كان مؤدّياً للواجب، ثم نزلَتْ في العهد المدنيّ الآيَةُ الأخيرة من سورة (المزّمل) متضَمِّنَةً تخفيفاً أكثر، إلَىٰ قراءَةِ مَا تيَسَّرَ من القرآنِ في صَلاةٍ أثناءَ اللّيل.

وما أوجبه اللهُ عزّ وجلّ على رسُولِهِ من قيام اللّيل، هو سُنَّةٌ بالنسبَةِ إلَىٰ غَيْرِهِ من المسْلِمين، دلَّ علىٰ هـٰذا القرآنُ والسُّنَّة.

● ﴿. . . عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾: أي: فَتهجَّدْ به رَاجِياً مُتَرَقِّباً أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ الّذِي تَتَقَرَّبُ إلَيْهِ بالصَّلَاةِ في جَوْفِ اللّيل، مُقيماً لَكَ مَقَاماً مَحْمُوداً يَوْمَ الْقِيامَةِ، قَدْ وَعَدَكَ به، وهو سوف يَحْصُل حتماً لك.

ضُمِّنَ الفِعْل في [يَبْعَثُكَ] معنى الفِعْل في «يُقِيمُك» فانْتَصَبَ لفظ «مَقَاماً» على أنَّهُ ظَرْفُ مكان، وَوُصِفَ بِكَوْنِهِ مَحْمُوداً، أي: تُثْنِي الخلائق عَلَيْه يَوْمَ القِيَامَةِ ثناءً عظيماً.

ويَشْمَلُ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُقِيمُ اللهُ عزّ وجلّ فيه رَسُولَهُ يوم القيامة، مَقامَهُ حِينَ يَشْفَعُ للخلائق⁽¹⁾، ومقامَهُ حَامِلاً لواء الْحَمْد يوم القيامة، وغيرهُمَا مِنْ تَكْرِيماتٍ وَتَشْرِيفاتٍ لِرَسُوله ﷺ.

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (طه/ ٤٥ نزول) حول الشفاعة يوم الدّين وأنواعها.

قول اللهِ عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾:

﴿مُدْخَلَ﴾ و﴿مُخْرَجَ﴾ ٱسْمَا مَكَان الدُّخُول والْخُروج وٱسْما زمَانهما.

﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: أي: مُدْخلاً نِعْمَ هو مُدخلاً، وَمُخْرَجاً نِعْمَ هُوَ مُخرَجاً.

تقول العرب: فُلَانٌ رَجُلُ صِدْقٍ، أي: نِعْمَ هُو رَجُلاً. وفُلَانَةٌ امْرأةُ صِدْقٍ، أي: نِعْمَتْ هِيَ امْرَأَةً.

فهذه العبارة وأمْثَالُها من صِيَغ الثناء والْحَمْد، ومنها في القرآن: «قَدَمُ صِدْق ـ مَقْعَدُ صِدْقٍ ـ لِسَانُ صِدْقٍ ـ مُبوّأُ صِدْقٍ ـ مُدْخَلُ صِدْق ـ مُخْرَج صِدْقٍ».

وهذا التعبير من إضافَةِ الموصُوف إلى صِفَته، أصْلُهُ: مُدْخَلٌ صِدْقٌ، وَمُخْرَجٌ صِدْق. أي: حقّق الموصوفُ في الواقِع كُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْ كَمالِ صِفاته، فَاسْتَحقَّ الثناءَ والمدْحَ بما يَدُلُّ علَىٰ كمال المطابَقَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ الصُّورَة المثْلَىٰ لنَوْعه، وذَلِكَ هو الصِّدْقُ حقًّا.

﴿. . . وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾:

الْمُرَاد بالسُّلْطَانِ هُنَا قُوَّةٌ قَاهِرَةٌ مِنَ اللهِ تَنْصُره على مَنْ يكيدُهُ ويكيد المسلمين، ويُقَاومُ دَعْوَة الإسلام الحق.

- ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾:

الحقُّ: الأمْرُ الثابت الذي لا شَكَّ فيه، المطابق للواقع.

الباطِل: ضدّ الحق، وهو الأمر الذي لا ثبات له لمخالفته للواقع.

زَهَقَ: أي: ذَهَبَ واضْمَحلّ. يقال لغة: «زَهَقَ، يَزْهَقُ، زَهْقاً، وزُهُوقاً، فهو زاهِقٌ، وزَهُوقٌ» أي: زائل مضْمَحلٌّ لا ثَبَاتَ له، ويقال: «زهقَتْ نفسُه» أي: ذاقَت الموتَ مع سُرْعَةٍ وشِدَّةٍ قَبْلَ أنْ تحقِّقَ مُراداتِها مِنْ دُنياها.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾: أي: إنّ الباطل من شأنِهِ بِصُورَةٍ دائِمة أن يأتي عليه الزّهوق، ولو ظهرَ لَهُ زَبَدٌ خادع يَحْسَبُهُ الجاهِل المتَسَرّعُ آنِيُّ النظر شيئاً ذَا قيمةٍ حقِيقيّة، مع أنّه فارغٌ ليس لَهُ ظاهِرٌ مُتماسِكٌ، ولا وَزْنَ له في موازين الحقيقة، فلا بُدَّ أنْ يكونَ زَهُوقاً عِنْدَ لَمْسَةٍ خفيفَةٍ تضْغط عليه. صيغة «زَهُوق» من صيغ المبالغة.

وأعْتَمِدُ بالنسبة إلى هاتَيْنِ الآيتين مَا صَحَّ عن ٱبْنِ عَبَّاس وعن عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنهما.

روى الإمام أَحْمَدُ والترمذيُّ عن ابْن عبّاسٍ قال: كانَ النّبيّ ﷺ بمكّة، ثُمَّ أُمِرَ بالهجرة، فأنزَل الله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

ويُفْهَمُ مِنْ هٰذا أنَّ الْمُرَادَ الدُّخُولُ إلى المدِينَةِ، والخرُوجُ مِنْ مَكّة، بالنظر إلى المناسَبَةِ، مع صَلاحِيَّةِ اللَّفْظِ لكلّ دُخُولٍ وخُرُوجٍ في مَرْضَاةِ الله لَا في مَعْصِيَتِه.

وروى البخاريُّ عن عبْد اللهِ بْنِ مسْعُودٍ، قالَ: دَخَلَ النبيُّ ﷺ مكّة (أي: فاتحاً) وحَوْلَ الْبَيْتِ سِتون وثلاثمائة نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعَنُها بِعُودٍ في يَدِه ويَقُول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ـ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ سبأ.

ونَلْمَحُ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿. . . وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ إعلاماً ضِمْنِيًّا بأنّهُ مَنْصورٌ، وأنّهُ فاتِحٌ مَكّةَ وأنّهُ

سَيُحطّم الأوثان، ويَقُولُ مَا جاء في هٰذا التعليم، كما أثبت الواقع الْفِعْلِيّ هذا.

وبهذا انتهى تدبّر الدَّرْس الرابع عشر من دروس سورة (الإسراء) والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه.

* * *

(١٩)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الخامس عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآية (٨٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

القراءات:

- قرأ أبو عَمْرو، ويعْقُوب: [وَنُنْزِلُ] مِنْ فعل «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَنُنَزِّلُ] مِنْ فِعْل «نَزَّلَ».

أَنْزَل، ونَزَّلَ متكافئان فالمهْمُوزُ أخُو المضَعَّف، وما ذُكِر من الفرق بينهما لم تثبُتْ عندي في القرآن صحّته.

تمهيد:

هذا الدرسُ عن القرآنِ، وهو موصول بما جاء في السّورة بشأن القرآن في الآيتَيْن (٩ و١٠) وفي الآيتَيْن (٤٥ و٤٦).

التدبر التحليلي:

هٰذِهِ الآيَةُ مِنْ نُجُومِ التنزيلِ المكِيِّ، وما سَبَقَ أَنْ نَزَلَ من القرآن لَا

يَبْلُغ مِقْدارَ نِصْفِ كامِلِ المصْحَف، فَحَمْلُ «مِنْ» في عبارة: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ علَىٰ التَّبْعِيض يتلاَّمُ مَعَ تَنْزِيلِ القرآنِ مُنجماً، فالله عزّ وجلّ يُنَزِّلُ من القرآن يُرادُ به مُتَابَعَةُ تَنْزِيله حتَّىٰ آخِرِ تَنْزِيلٍ مِنْهُ في أواخِرِ المرحلة المدنيّة.

﴿شِفَآءٌ﴾: الشّفاء الْبُرْءُ من المرض، وقَدْ أُطْلِقَ المَرَضُ في القرآن على المرض الجسدِيّ، وعلى المرض النفسي وأخبثه مَرَضُ الْقُلُوب بالكفر أو بالنفاق، ودُونَهُ مَرَض حُبِّ المعاصي والشهواتِ المحرّمة، واستعداد النفس لارْتِكابِها.

فَمِنْ حُسْنِ التَّدبُّر حَمْلُ الشّفاء على المعْنَييْن، الشفاء من المرضِ الْجَسَدِي، والشفاء من المرض النفسِيّ، وأُطْلِقَ على القرآن أنَّه شفاء على معنى أنَّهُ سبَبُ شفاء، فهو من المجاز المرسل.

وأعْظم الشَّفَاءَيْنِ مَا كانَ شفاءً لِلْقُلُوبِ والنُّفُوس، وهو الغرض الأعظم من تنزيل القرآن المجيد هُدىً للناس.

وثبت في الصحيح وفي التجربَات الكثيرة الّتي لاَ يُنْكِرُهَا إلّا جاحد، تأثير تلاوة القرآن في الشّفاء، من الأمراض عامّة، ومن الأمراض الّتي تأتي باستخدام السّحر، ومن الأمراض الّتي تكون بتأثير الإصابَةِ بعَيْنِ حَاسِد.

روى البخاريّ ومُسْلمٌ من حَدِيث أبي سعيد الخدري قال:

انْطلَق نفرٌ من أصحاب النبيّ ﷺ في سَفْرَةٍ سَافروها، حتَّىٰ نَزَلُوا علَىٰ حَيٍّ من أحْيَاءِ الْعرب، فاسْتَضَافُوهُمْ، فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهم، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيّ، فَسَعَوْا لَهُ بكُلِّ شيءٍ، لا يَنْفَعُهُ شيء.

فقال بَعْضُهُمْ لَوْ أَتَيْتُمْ هـٰؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُمْ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فقالُوا: يا أيُّها الرَّهْطُ، إنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ وسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شيءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شيءٍ؟

فقال بَعْضُهُمْ: نعَمْ، واللهِ إنّي لَأرْقِي، ولَكِنِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونا، فما أَنَا بِرَاقٍ حَتَّىٰ تَجعَلُوا لَنَا جُعْلاً.

فَصَالَحُوهُمْ عَلَىٰ قَطِيع مِنَ الْغَنَم، فانْطَلَقَ يَتْفُلُ عليه ويَقْرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ فَكَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَال، فانطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ(١).

قال: فأوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عليه، فقال بعْضُهُمُ اقْتَسِمُوا، فقال الّذي رَقَىٰ: لَا تَفْعَلُوا حتَّىٰ نَأتِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فنَذْكُرَ له الذي كان، فنَنْظُرَ مَا يأمُرُنَا، فَقَدِمُوا على رسُول الله ﷺ، فذَكَرُوا لَهُ فقال:

«ومَا يُدْرِيكَ أنَّهَا رُقْية؟!» ثم قال: «قَدْ أصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا واضْرِبُوا لي مَعَكُمْ سَهْماً».

- ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: وَمَا في القرآنِ مِنْ عِلْم وحَقٍّ وهِدَايَةٍ إلى سَعَادَةِ الدُّنْيا والآخرة، رَحْمَةٌ للّذِينَ يُؤْمِنُونَ بما أنزَلَ اللهُ فِيه، كُلَّما تَدَبَّرُوا مِنْهُ آيَةً فآيَةً، فَيَدْفَعُهُمْ إيمانُهم إلى تَطْبِيقِ أحْكامِ شَرِيعَةِ الله لعباده.

أُطْلِقَ عَلَىٰ مَا جاء في القرآن المجيد أنَّهُ رَحْمَة، لأنَّهُ أثَرٌ تَعْلِيميٌّ وبَيَانِيٌّ من آثارِ صِفَةِ رَحْمَةِ الله بعبادِه، والمنْتَفِعُون منْ آثار هذه الرحْمَةِ هُمُ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بما جاء فيها.

وهٰذا الإطلاق يُسَمَّىٰ عند البلاغيين مجازاً مُرْسَلاً، وهو من إطْلَاقِ اسْمِ السَّبَب على المسَبَّب.

- ﴿...وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾: أي: ولا يَزِيدُ كُلُّ نَجْم قُرْآنِيٍّ يَنْزِلُ فَرِيقَ الظَّالِمينَ بِكُفْرِهِمْ بالْحَقّ إلَّا خَسَاراً مِمَّا كانَ يُمْكِنُ أنْ يُحَقِّقُوه بإرادَاتِهم الحرَّة، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

---

(١) وَمَا بِهِ قَلَبَة: أي: وما به عِلَّةٌ ولا أَلَمٌ ولا داء، بقراءة الصحابيّ لفاتِحَةِ الكتاب.

الخسار: النَّقْصُ، وهو يَشْمَلُ الحرمانَ من السَّعادَةِ يَوْم الدِّين، والْهُبُوطَ في دَرَكاتِ العذاب في دار العذاب، فكلُّ دَرَكَةٍ هي أَحَطُّ من الَّتي فَوْقَها، يكُونُ فيها نَقْصٌ في الرّاحَةِ من الْعَذَابِ، بسَبَبِ الزّيَادَةِ فيه بانحطاط الدّرَكة.

وفي هذا التَّعْبير من الدّقَّةِ في النَّظْرَةِ الْعَقْلِية، والحسابِ الرّياضي، ما يُثِيرُ إعجابَ المتدبّرين من أَهْلِ الفكر أُولي الألْبَاب.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الخامس عشر من دروس سورة (الإسراء) والحمد لله على مَدَدِه وتوفيقه ومعونته.

* * *

(٢٠)

التدبّر التحليلي للدّرس السادس عشر من دروس سورة (الإسراء) الآيتان: (٨٣ و٨٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾:

القراءات:

٨٣ ـ • قرأ ٱبْن ذكوان، وأبو جَعْفر: **[وَناءَ]**: أي: وَنَهَضَ كالمثْقَلِ من حِمْل، وهو كناية عن الابتعاد عن ربّه وطاعته، مع الظهور بمظهر الاستكبار.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَنَأَىٰ]**: أي: ابْتَعَدَ.

وبَيْن هاتين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فقراءة: **[وَناءَ]** تدُلُّ على إعراضِ المتثاقِلِ المستكبر، وهذه صفة بعض الناس. وقراءة

[وَنأى] تَدُلُّ على الإعراض مع الابتعاد عن الرَّبّ وطاعته، دون استكبار، وهذه صفة بعض الناس.

تمهيد:

في هذا الدرس بيانُ وصْفِ الإنسان الجَحُود الكَنُود، إذْ من شأنِهِ أنَّ اللهَ عزّ وجلّ إذا أنْعَمَ علَيْهِ فَوَسَّعَ لَهُ من محابِّهِ من زينات الحياة الدُّنيا ومَتاعاتها، أعْرَض عَن رَبّه المنْعِم عَلَيْهِ، ومَشَىٰ بين الناس مستكبراً بما آتاه الله، أو أعْرَضَ وابْتَعَد عن الصّلَة برَبّه وعن العمل بمراضيه. أمَّا إذا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسّاً خَفِيفاً فإنَّهُ يَكُونُ يَؤُوساً حَزِيناً متضجرّاً.

وهذا الدّرس موصُولٌ ببعض ما جاء في السورة عَنْ وصف سلوك الإنسان في الآية (١١) وفي الآيات من (٦٧ ـ ٦٩) فوصْفُ الإنسان أحَدُ فروع شجرة موضوع السورة.

التدبر التحليلي:

- ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: أي: وإذَا أعْطَيْنَا الإنْسَانَ عَطاءً واسعاً مِنْ محابِّه من متاع الحياة الدنيا. والمرادُ بالإنسان النّوعُ، ويَصْدُق بما هُو دُون الاستغراق.

والواقع يَدُلُّ على أنَّ أكْثَرَ الناس باستثناء العدد القليل منهم يَنْطَبِقُ عليهم الوصْف الذي جاء في هذا الدَّرْس.

﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: **أعْرَضَ**: أي: الْتَفَتَ وأعْطَىٰ عارِضَه، وهو جانِبُ وجْهِهِ، عُرْضُ الشيءِ جانِبُهُ، وعارِضا الإنسان صَفْحتَا خَدَّيه. **والإعْراض**: مَنْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقبَالِ والإدْبار.

ونأىٰ بجانِبِهِ: أي: وابْتَعَدَ بجانبِهِ عن رَبِّهِ الّذي أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَوَسَّعَ عَلَيْهِ من محابّة من دُنياه، زائداً عَنْ حاجَاته.

يقال لغة: «نَأَىٰ، ينأىٰ، نَأْياً، فهو نَاءٍ» أي: بَعُد.

وفي القراءة الأخْرَى: ﴿وناءَ بِجَانِبِهِ﴾: أي: ونَهَضَ بجانِبِهِ متثاقلاً، كما يَفْعَلُ المسْتَكْبِرُون. وقد يكون بمعْنَىٰ غيابِه غياباً كُلِّيًا، كما يَسْقط النجم غائباً عِنْدَ الفجر، وهـٰذِهِ حَالَةٌ أشَدُّ من الإعراضِ والنأيِ، وهذا الغيابُ التامُّ عن المنْعِم يفْعَلُهُ بعْضُ الجاحِدِين.

• ﴿. . . وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾: **المسُّ**: يُطْلَقُ عَلَىٰ وُصُولِ سَطْحِ الشيء إلى سَطْحِ الشَّيْءِ الآخر، دُون الدُّخول في شيءٍ تحت السَّطْحِ.

اليَؤُوس: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «يَائِس» أي منقطع الأمل.

اليأس من الشيء: انقطاع الأمَلِ منْه، وانتفاء الطّمع فيه. يقال لغة: «يئِسَ مِنْهُ ييْأس، ويَيْئِسُ، يأساً، ويَآسَةً» أي: انقطع أمَلُهُ منه، وانتفىٰ طَمَعُهُ فيه.

فمعْنَىٰ قَوْلِ الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾: ومِن سُلوك الإنْسَانِ (أي: في مُعْظَم أفرادِهِ): الاختياريّ الّذي لا جَبْر فيه أنّه إذَا وَسَّعْنَا لَهُ الْعَطَاءَ مِنْ مَتاعِ الحياة الدُّنْيَا، فتنَهُ ذَلِكَ، فأعْرَضَ عَنْ رَبِّهِ المنْعِمِ عَلَيْهِ، وابْتَعَدَ بجانِبِهِ عَنْ ذِكْرِه، ومُرَاقَبَتِهِ، وطاعَتِه، أو اسْتَكْبَرَ، أوْ غَابَ غياباً كُلِّيًّا، وسَارَ في سُبُلِ الشيطان. وإذا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسًّا خَفيفاً صَارَ شَديدَ الْيَأسِ، مُنْقَطِعَ الْأَمَلِ، ظَانًّا أنَّهُ لَا خَلاصَ لَهُ مِن الشَّرِّ الّذي جاءَتْ بدايَتُهُ مَسّاً.

اسْتُعْمِلَ لفظ «كَانَ» هُنَا بمَعْنَىٰ «صَار» وهذا أحَدُ المعاني الذي يُسْتَعْمَلُ فيه فعْلُ «كانَ».

قول الله عزّ وجلَّ لرسُولِهِ فَلِكُلِّ حَامِلِ رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾:

﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾: أي: علىٰ مَا في نَفْسِهِ منْ عَوامِلَ تُوَجّهُ إرادَتَهُ الْحُرَّة. وعلى وفق الطريقة والسّيرة التي اعتادَها في حياته.

أي: قُلْ أيُّها النَّاصِحُ الدَّاعِي إلى الله للّذِينَ إذا أنعم الله عَلَيْهم أعْرَضوا ونَأَوْا بجوانبهم، وإذا مَسَّهُمُ الشَّرُّ كَانُوا يَؤُوسِين: كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ يَعْمَلُ في حياتِه الّتِي وُضِعَ فيها مَوْضِعَ الامْتِحان، علىٰ وَفْقِ مَا في نَفْسِه مِن عَوَامِلَ تُوَجِّهُ إرَادَاتَهُ الْحُرَّة، وعلى وَفْق الطريقة الّتي اعْتَادها في حياته.

وبما أنَّ النَّاسَ مخْتَلِفُونَ، فلا بُدَّ أن يَتَفَاوَتُوا في مَنازِلِهِمْ، ارْتِقَاءً وهُبُوطاً فِي سُلَّم الْهِدَاية والضلال، وتفاوُتُهم هذا يجْعَلُ بعضهم أهدى من بعض، أو أضَلَّ مِنْ بَعْض، ولهذا يقول الناصح الداعي لهم:

فَرَبُّكُمْ العليم بِكُلِّ شيءٍ، أعْلَمُ مِنْ كلِّ ذي عِلْم بِمَنْ هُو أَهْدَىٰ مِنْكُمْ سَبِيلاً مُوصِلاً إلى سَعَادَةِ الدَّارَين، أوْ أحطُّ دَرَكَةً نَازِلَةً إلى عذاب الله.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرس السادس عشر من دروس سورة (الإسراء) والحمْد لله على مَدَدِهِ وتوفيقه ومعونته.

* * *

(٢١)

التَّدبُّر التحليلي للدَّرسِ السابع عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآية (٨٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾:

تمهيد:

في هذا الدرس بيان السُّؤال عن الرُّوح، والإجابة الرَّبَّانيَّة على هذا السؤال.

ويظهر أنّ السؤال عن الرُّوح قد تكرَّرَ في هٰذِهِ المرحَلَةِ من مراحل سيرة الرسول ﷺ الدَّعوِية، فكان من الحكمة الإجَابَةُ عَلَىٰ هٰذا السُّؤال.

التّدبُّر التحليلي:

دلَّ علىٰ تَكَرُّرِ سؤَالِ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّة عَنِ الرُّوح، بمعْنَىٰ السُّؤَالِ عن حَقِيقَتِها وَمَاهِيَّتِها، اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ المضارعِ الّذي يَدُلُّ على التكرار: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾.

وسؤال هؤلاء الرَّسُولِ ﷺ عن الرُّوح، من الأحداث الّتي وقَعَتْ إبَّانَ نُزُول سُورَة (الإسراء) فكان من الحكمة إنزالُ هذه الآية، وضَمُّهَا إلى المعالجات المتعلّقاتِ بكُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكَّة الَّتي اشْتَمَلَتْ عليها هٰذِهِ السُّورة.

وجاء في سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن ٱبْن عباس، قال: «قالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ: أعْطُونَا شَيْئاً نَسْأَلُ هٰذا الرَّجُلَ عَنْه، فقالوا: سَلُوهُ عَنِ الرُّوح، قال: فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾».

وقد كان بين قريش في مكّة وبين يَهُودِ المدينة صِلَاتٌ، ومنها صلاتٌ تجاريّة.

وروى محمد بن إسحاق أنَّ قُرَيشاً بعَثُوا النَّضْرَ بْنَ الحارث، وعُقْبَةَ بْنَ أبي مُعَيْطٍ إلى أحبار الْيَهُودِ بيثْرِبَ، يسْألانِهِمْ عن أمْرِ النبيّ ﷺ فقال الْيَهُودُ لَهُما: سَلُوه عَنْ ثلاثَة: وَذَكَرُوا لهم أهْلَ الكَهْف، وَذَا الْقَرْنَيْن، وعَنِ الرُّوح.

أقول: ويظهر أنَّهم سَأَلُوه إبَّانَ نُزُول سورة (الإسراء) عن الرُّوح، فأنزل اللهُ عزّ وجلّ هذه الآية. ثمّ سَأَلُوه إبَّانَ نُزُولِ سورة (الكهف/ ١٨

مصحف/ ٦٩ نزول) عَنْ أهل الكَهْفِ، وعَنْ ذِي القرنَيْن، فأنزل الله عزّ وجلّ فيها أخباراً عنهما.

وصَحَّ أيضاً أنَّ بَعْضَ اليهود سَألُوا الرَّسُول ﷺ في المدينة بَعْدَ هجْرَته إليها عَن الرُّوح، فأجابَهُمْ بما كَانَ قَدْ أنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ في الْعَهْدِ المكّيّ، بَعْدَ أنْ تَرَيَّثَ قَليلاً بانتظار ما يجيء به الوحْي.

روى البخاري عن عبد الله بن مَسْعُود رضي الله عنه، قال:

«بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مع النبي ﷺ في حَرْثٍ وهُوَ مُتَوَكّىءٌ عَلَىٰ عَسِيب⁽¹⁾، إذْ مَرَّ الْيَهُود، فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فقال: مَا رَابَكُمْ إلَيْه، وقال بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلَنَّكُم بشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فقالوا: سَلُوهُ، فَسَألُوهُ عن الرُّوح، فأمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شيئاً، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إلَيْه، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الوحْيُ قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

وروى مسلم نظير هذه الرّواية الّتي رواها البخاري رحمهما الله.

ويَدُلُّ التعْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ علىٰ أنَّها مَخْلُوقٌ مُبْتَدِىءُ الْوُجُودِ بأمْرِ التَّكوينِ الرَّبَّانيّ مُبَاشَرَةً. وأفْهَمُ مِنْ هذا أَنَّهُ لَمْ يُسْتَخْدَمْ في خَلْقِهِ مَخْلُوقٌ آخَرُ، قَدْ سَبَقَ خَلْقُ اللهِ عزّ وجلّ له، بخلاف جسم الإنسان مثلاً، فقَدْ خَلَقَهُ اللهُ عزّ وجلّ من مخْلُوقٍ سَبَقَ أنْ خَلَقَهُ جلّ جلالُهُ، وهو الماء والتراب.

أمّا الرُّوح فَقَدْ صَدَرَ خَلْقُهُ بأمْرِ التكْوين الرَّبّانيّ.

ولفظ «الرُّوح» يذكّر ويُؤَنَّث، فيقال: هو الرُّوح، وهي الرُّوح.

الرُّوح: هو المخْلُوقُ العَجِيبُ الْخَفِيُّ الّذِي تَكُونُ بِهِ المَخْلُوقَاتُ

---

(١) **الْعَسِيب**: جريدة النَّخْلِ المسْتَقيمة، يُكْشَطُ خوصُها.

ذَواتُ الحياة حيَّة، فهو ما به تكُونُ الحياة في الأشياء.

والرُّوحُ في الإنْسَانِ شيءٌ غَيْرُ نَفْسِه، إذْ نَفْسُهُ هي الشيْءُ الّذي طَبَعَ اللهُ فيه طَبْعَةَ صِفَاتِهِ المادّيَّةِ والمعْنَوِيَّة، وهو ما يَحتوي على مَا يُسَمَّىٰ: «جيناته الوراثيَّة» أو «الكُرْمُوزُومَات الحاملات لصفاته المادّيَّةِ والمعنوية» بحَسَب مكتشفات عُلَماءِ الأحياء المعاصرين، القابلة للتكميل والزّيادة، بتطوير أدَوَاتِ المعرفة، ومتابعة البحوث العلميّة.

والنَّفس: هي الّتِي تَذُوقُ الْمَوْتَ بانفصالِ الرُّوح عنْها.

أمّا مَعْرَفَةُ حَقِيقَةِ الرُّوحِ الّتي تكونُ بها الأحياء ذَاتَ حَيَاةٍ، فقد دَلَّ قول اللهِ عزّ وجلَّ في الآية: ﴿...وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ عَلَىٰ أنَّ النَّاسَ لَمْ يُؤْتَوْا مِنَ الْقُدْرَات الإدْرَاكِيَّة، ولَا مِنْ أسْبَابهاووسائِلِها، مَا يُوصِلُهُمْ إلَىٰ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الرُّوح، فاسْتُخْدِمَتِ العبارة كناية عن هذا.

ويَعْتَرِف الْعُلَمَاءُ الْكَوْنِيُّون بهذه الحقيقة، وأنَّ عِلْمَهُمْ على اتِّساعه في القرونِ المُعَاصِرَة ما زَال في بدايات شَواطئ بحور العلم المتوغِّلَة في غُيُوبٍ لا تُعْرَفُ لَهَا نهايات.

وبهذا انتهى تدبُّر الدّرس السابع عشر من دُروس سورة (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتوفيقه وفتحه.

(٢٢)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٨٦ ـ ٨٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ

ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾:

القراءات:

٨٨ و٨٩ ـ ● قرأ ابن كثير: [الْقُرَانِ] وحمزةُ في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: [الْقُرْآنِ].

تمهيد:

هذا دَرْس يتعلَّق بالقرآن، وأنَّ الله عزّ وجلّ لو شاء لمسَحَ من ذاكِرَة الرَّسُول ﷺ كُلَّ ما يَحْفَظُ منْهُ، وفيه تَحَدٍّ للإنْسِ والجنّ بأن يأتُوا بمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بعضهم لبَعْضٍ ظهيراً.

وهذا الدّرس موصول بخطّ الحديثِ عَنِ القرآن في السورة، الذي تعَلّقت به الآيات (٩) و(٣٩) (٤٥) و(٤٦) و(٦٠) و(٧٣) ومن الآيات (٨٦ ـ ٨٩) ثمّ الآية (١٠٥) و(١٠٦).

التدبّر التحليلي:

إلحاقاً بالتربية التي جاءت في الدرس الثالث عشر، في الآية:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ وفي الآيتين بَعْدَها، جاء قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرَسُوله:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾:

أي: لَسْتَ أنْتَ يَا مُحمَّدُ الّذِي تَتْلُو القرآنَ مِنْ عِنْدِك اسْتِخْرَاجاً مِنْ قُدْرَاتِكَ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا بِهِ إِلَيْكَ، ونحن الذينَ نُثَبّتُهُ في ذاكِرَتك

فنجعلُكَ لَا تَنْسَاه، ولَئِنْ شِئْنَا أنْ نَمْسَحَهُ مِنْ ذَاكِرَتِكَ لَنَذْهَبَنَّ بِهِ، فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتْلُوَ مِنْهُ سُورَةً أَوْ آيَةً أو كَلِمَةً.

ثُمَّ إنْ فَعَلْنَا ذلِكَ، فَلَوْ حَاوَلْتَ أنْ تَفْتَرِي عَلَيْنَا شَيْئاً غَيْر الّذي أوْحَيْنَا إليك فإنَّك لَا تَجِدُ في الْوُجود كُلِّه وَكِيلاً لَكَ عَلَيْنَا ذا سُلْطَةٍ عَلَيْنَا أو شفاعَةٍ بشَأنِ القرآن، لِنُعِيدَ إلى ذاكِرَتك مَا مَسَحْنَاهُ مِنْها.

وقَدْ سَبَقَ أنْ عَرَفْنَا في الدَّرْس الثالث عشر، أنَّ الخِطَابَ الموجَّهَ فيه ظاهراً للرسُول ﷺ، هو في حَقيقَتِهِ تيْئِيسٌ بقُوَّة للكافِرِينَ الَّذِينَ يُطالِبُونَ الرَّسُولَ بتغيير بَعْضِ ما في الْقُرْآنِ مِمَّا يَكْرَهُونَ، ونظيره مَا جاء في هذا الدَّرْس الثامن عشر.

وهذا من قبيلِ قول الأب لابْنِهِ في نَفْسِه: عَلَيْكَ أقْسُو يَا حَبِيبي لِيَيْأسَ من الطَّمَعِ فِيَّ سُفَهَاءُ أَوْلَادِ الْجِيرَان.

اللام في ﴿لَئِنْ﴾ مُوَطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ المنْوِيّ. وجُمْلَةُ: ﴿لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ جوابُ الْقَسَم.

قول الله عزّ وجلّ في الآية التالية:

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾:

أي: لَكِنْ ثَبَّتْنَاكَ فَلَمْ تَرْكَنْ إلى الّذِين كَفَرُوا، وأثبَتْنَا مَا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ في ذَاكِرَتِكَ رَحْمَةً بِكَ مُوَجَّهَةً من صفاتِ رُبُوبيَّتِنَا لك، فَتَفَضَّلْنَا عَلَيْكَ بِتَثْبِيتِكَ، وبِعَدَمِ مَسْحِ مَا أوْحَيْنا إليك من ذاكِرَتِك.

اختيرتْ عبارة ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ بَدَلَ ضَمِيرِ المتكلِّم العظيم «منّا» للدَّلالَةِ على صِفَات رُبُوبيّة اللهِ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وفَضْلُه.

وبهذا الْفَهْم تكونُ «إلَّا» بمعْنَىٰ «لَكِن» الاستدراكيّة، وهذا فيما ظَهَرَ لي أولَىٰ من اعتِبَارها استثنائيّة تَدُلُّ على مَحْذُوفاتٍ مطويَّاتٍ تحتاجُ تَقْدِيراً.

وأبَانَ اللهُ عزّ وجلّ فَضْلَهُ الكَبِيرَ عَلَىٰ رسُولَهُ فقال له في الآية: ﴿... إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾: أي: إنَّ فَضلَ رَبِّكَ عَلَيْكَ هُوَ دَواماً فَضلٌ كَبِير.

الفضل: الزّيادةُ ممَّا يُحْمَدُ غالباً. والكِبَرُ يَكونُ في المادِّيَّاتِ وفي المعنويّات.

كيف لا يكونُ فَضلُ اللهِ عَلَيْهِ عَظِيماً، وَقَدْ جَعَلَهُ أفْضَلَ خَلْقِهِ، وخاتم أنبيائه ورُسُلِهِ، وأنزل علَيْهِ القرآنَ أعْظَمَ كُتُبِه، وأكْرَمَهُ بالإسراء، وبالمعراج إلى السَّمَاوَاتِ العُلا، إلى غير ذَلِكَ من خصائص.

قول الله عزّ وجلّ لِرَسُوله:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾:

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: مُعِيناً، يُطْلَقُ لفظ «ظَهِير» على الواحد والجمع.

إنّ عُرُوضَ المزالِقِ التي حَاولَ أئِمَّةُ المشركينَ بها إغراء الرَّسُول أنْ يُبَدِّلَ مَا كَرِهُوا من آياتِ القرآن، ويَجْعَلَ في مكانِهَا آياتٍ تُرْضِيهِمْ، تُشْعِرُ بأنَّهُمْ يَتوهَّمُونَ أنَّ القرآنَ مِنْ وَضْعِ مُحَمَّدٍ وابْتِكَارَاتِه وتأليفَاتِه، وَهُوَ يقول: إنَّهُ تَنْزِيلُ رَبِّه افتراءَ عليه، فكانَ من الحكمة تَكْلِيفُهُ أنْ يَقُولَ لهم أنَا عَاجِزٌ عن الإتيانِ بمِثْل هـٰذا القرآن، إذْ لَيْسَ في قُدْراتي ولَا في قُدْراتِ جَمِيعِ الإنْسِ والجنّ أنْ يأتُوا بمِثْلِهِ، وأنَا أتحدَّاكُمْ يَا بُلَغَاءَ العَرَبِ وَفُصَحاءَهُمْ أنْ تأتُوا بمِثْله.

بل أقول لَكُمْ أكْثَرَ من ذلِكَ: أُقْسِمُ لَكُمْ: لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ كُلُّهُمْ، مع الجنِّ كُلِّهِمْ، عَازِمينَ بكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ من قُدْرَاتٍ على أنْ يأتوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ، في إعجازه البياني، في إعجازِهِ العِلْمِي، وفي إعْجَازِهِ التَّشْرِيعي، وفي سَائِرِ جوانب إعجازه، فإنَّهُمْ لَا يسْتَطِيعُونَ أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مُعِيناً.

أي: فَلَا تَزْعُمُوا أنّ الْقُرْآنَ مِنْ وضْعِي وابتكاراتي وَتَأْلِيفِي، إنَّمَا أنَا بالنِّسْبَةِ إلَيْه مُجَرَّدُ مُبلِّغ وَمُبَيِّنٍ وَشَارحٍ ما أنْزَلَ اللهُ فيه للناس.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ بيانٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ بِشأْنِ إحْدَىٰ مُعْجزاتِ القرآنِ، وهي اشْتِمالُهُ عَلَىٰ ذِكْرِ نَمُوذجٍ (مَثَلٍ) أو أكْثَرَ، لِكُلِّ نَوْعٍ أوْ عَمَلٍ أو تَشْرِيعٍ، أوْ سُنَّة من سُنَنِ اللهِ في كَوْنِهِ، ممَّا تَقْتَضِيهِ هِدَايَةُ اللهِ لعباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهذا بالنسبة إلى ما قضت حكم الله عزّ وجلّ إنزاله من الدِّين حتى نزول هذه السورة.

ثُمَّ يأتي القياسُ المسْتَنِدُ إلى شمُولِ الأحكامِ للْمُتَماثِلاتِ الَّتي تَقْضِي بِهِ أصُولُ الحقائق، أوْ تقضي به حِكْمَةُ الْخَالِقِ في خَلْقِهِ، وفي تَصَارِيف عَدْلِهِ، وَفي ثَبَاتِ سُنَنِه، فَيُنْتِجُ أحْكاماً عَامَّةً تَشْمَلُ سَائِرَ الْأَفْرَادِ المماثِلَةِ لِمَا جَاءَ في المثَل.

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: الواو حرْف يَعْطِفُ هٰذِهِ الآيَةَ على الآيات السابقة المتعلِّقَةِ بالقرآن. «لَقَدْ» عبارةٌ مؤكِّدَةٌ لمَا جاء في هذه الآية من خبَرَ. صَرَّفْنَا: التَّصْرِيفُ: التدبير، والتنويع، والتغيير، واتّخَاذُ مُخْتَلِفِ الْوُجوه الممكنة للوصل إلى الغاية.

- ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: أي: الّذي نُنَزِّلُهُ تِباعاً على محمّدٍ آياتٍ وسُوراً في نجوم التنزيل.

- ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أي: مِنْ كُلِّ نَمُوذَجٍ هو فَرْدٌ من أَفْرادِ صِنْفِهِ، أَوْ نَوْعِهِ أَوْ جِنْسِهِ، لقياسِ سَائِرِ أمْثَالِهِ عَلَيْهِ في حُكْمِه.

- ﴿... فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾:

الكُفُور: مَصْدَرٌ بمَعَنَىٰ «الكُفْر» وهو أبْلَغ من الكُفْرِ أخْذاً من زِيَادَةِ المبْنَىٰ الّتي تَدُلُّ عَلَىٰ زِيَادَةِ المعنى. قال الأخْفَش: **الكُفُور**: جَمْعُ الكُفْر، مثل بُرْدٍ وَبُرُودٍ.

الكُفر: سَتْرُ الحقِّ وأدِلَّةِ الحقِّ وَبَرَاهِينِهِ بالمغالَطاتِ وَزَخَارِفِ الأقوال، وبالجُحُود والْعِنَادِ وطَرْح التشكيكات.

أي: فَأَبَىٰ أكْثَرَ النَّاس في مَكَّة إبَّانَ التنزيل إلَّا أَنْ يَكْفُرُوا كُفْرَ إصرارٍ على الْبَاطِلِ، وجُحُودٍ لِلْحَقِّ، وعِنَادٍ بحَمَاقَةٍ، مع أنَّهُمْ قَدْ تُلِيَ عليهم ما جاء في القرآن مِن تَصْرِيفٍ في الْأدِلَّةِ والْبَيَانَاتِ والترغيب والتَّرْهِيبِ والعِظاتِ وتَقْدِيم نَمُوذَجٍ أوْ أكْثَرَ، لِكُلِّ صِنْفٍ، أوْ نَوْعٍ، أو جنسٍ، ممَّا تَقْتَضِيهِ هِدَايَةُ اللهِ لعِبادهِ، مِنْ قضايا أُصُولِ الإيمان، وأُصُولِ الأخْلاَقِ، وقواعِدِ الجزاءِ الرَّبَّانيّ، وَغْيرِ ذَلِكَ من قضايا.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الثامن عشر من دُرُوس سورة (الإسراء)

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٣)

التدبّر التحليلي للدّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٩٠ ـ ١٠٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن

زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ
رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن
قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ
لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي
وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن
تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ
جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ
فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا
لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ ».

القراءات:

٩٠ ـ • قرأ نافع، وٱبنُ كثير، وأبو عمْرو، وٱبْنُ عامر، وأبو جَعْفر: [تفَجِّرَ] من فِعْل «فَجَّرَ» المضعَّف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تفْجُرَ] مِنْ فِعْلِ «فَجَرَ» غير المضعَّف.

والقراءتان تُعبِّرانِ عَنْ مَقالَتَيْن قَالَهُما كبراء كفار قريش، فقال بعضُهُمْ: حَتَّىٰ تَفْجُرَ لنا مِنَ الأرضِ يَنْبُوعاً، مشيراً إلى أرْضٍ ليّنة هيّنة. وقال بعضهم: حتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا من الأرض يَنْبُوعاً مشيراً إلى أرض صخْرِيَّةٍ صَعْبَةِ التشقُّق.

٩٢ ـ • قرأ نافع، وٱبْنُ عامِرٍ، وعاصِمٌ، وأبو جَعْفر: [كِسَفاً] بفتْحِ السين.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكانِ السّين: [كِسْفاً].

كِسْف، وكِسَف: جمع «كِسْفَة» بمعنى: قِطْعَة، فالقراءتان متكافئتان.

٩٣ ـ • قرأ أبو عَمْرو، ويَعْقُوب: [**تُنْزِلَ**] مِنْ فعل: «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [**تُنَزِّلَ**] من فعل: «نَزَّل».

أَنْزَلَ، ونَزَّلَ متكافِئَان، فالمهْمُوزُ أخو المضعَّف.

٩٣ ـ • قرأ ٱبن كثير، وٱبْنُ عَامر: [**قَالَ سُبْحَانَ**] بالفعل الماضي.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**قُلْ سُبْحَانَ**] بفعل الأمر.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: قال الله عزّ وجلّ له: قُلْ: فقال.

٩٧ ـ • أثبت الياء في لفظ [**الْمُهْتَدِي**] نافع، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر، في الوصل، وأثبتها في الوصْلِ والوقف يعقوب.

وحَذَفها باقي القراء العشرة، فقالُوا: [**الْمُهْتَدِ**] وهذا الحذف من الإيجاز الذي لَهُ نظائر.

٩٨ ـ • توجدُ في [**أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِذَا**] القراءات الّتي ذُكِرَت في الآية (٤٩).

١٠٠ ـ • فتح ياء المتكلّم في [**رَبِّيَ إِذَا**] نَافع، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعفر. وأسْكَنَهَا باقي القراء العشرة.

تمهيد:

في هذا الدَّرْس بيان بَعْضِ مَطَالِبِ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكَّةَ التَّعَنُّتِيَّةِ مِنَ الخوارق إبَّانَ التَّنزِيل، مع بيان حِكْمَةِ اللهِ في عَدَم الاسْتِجابَةِ لمطالبهم.

وفيه إنْذَارٌ لَهُمْ وَتَرْهِيبٌ من عذاب شدِيدٍ يَوْمَ الدّين.

وفيه رَدٌّ على بَعْضِ أسْئِلَةٍ مَطْوِيَّةٍ في النّصّ مُوَجَّهَةٍ من الّذِينَ كَفَرُوا، وتَدُلُّ عَلَيْها الإجَابَةُ المصَرَّحُ بها.

وتفصيلُ بَعْضِ المطالِبِ التَّعَنُّتِيَّة، مُتَّصِلٌ بما جاء في الآية (٥٩) من السورة، وهي قولُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾:

التدبّر التحليلي:

طالَب المعنِيُّون بالمعَالَجةِ في السُّورَةِ الرَّسُولَ ﷺ بأنْ يأتِيَهُمْ بخَوارِقَ ذَكَرُوهَا، واعْتَبَرُوها شُرُوطاً للإيمان بِهِ والإسْلام لَه، ومِنْ هٰذِهِ الخوارِقِ مَا يكُونُ سَبباً لإهْلَاكِهِم، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْها، وهي سِتَّةُ خوارق ذَكَرُوها.

الْخَارِقُ الأول: أنْ «يَفْجُرَ» أو «يُفَجِّرَ» على القراءتَيْن لهم في أَرْضِ مَكَّةِ يَنْبُوعاً، أي عَيْنَ مَاءٍ تجري: دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ حكاية لِمَطَالِبِهِم التعنُّتِي: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾: أي: لَن نُؤْمِنَ بِكَ مُسْلِمِينَ لَكَ، ضُمِّنَ فعل «نُؤْمِن» معنى فعل «نُسْلِم» فَعُدِّي تَعْدِيتَه، فأغْنَتِ الجملة عن جملَتَيْن.

- ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾: أي: حتَّىٰ تُخْرِج لَنا عَيْنَ مَاءٍ وتَشُقَّ لَهَا طَرِيقاً.

الخارق الثاني: أنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ في مَكَّة وَأَنْ يُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بخارِقٍ للعادة، دلَّ عَلَىٰ هٰذا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ حكاية لقولهم: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾:

الْجَنَّة: مَا يحتوي على أشجار، ثمارٍ، وزُروع، وأنهارٍ، وقُصُور.

تُفَجِّر: مُبَالَغَةُ «تفْجر» أي: تُشَقِّقُ لِمَاءِ الْعُيُونِ أنْهاراً.

تَفْجِيراً: مَفْعُول مُطْلَق لفعل «تُفَجِّر».

الخارق الثالث: تَحدُّوا الرَّسُولَ فِيه أَنْ يُسْقِطَ عَلَيْهِمْ من السَّمَاءِ قِطَعاً تُهْلِكُهُمْ، إذْ كان ﷺ قَدْ تَوَعَّدَهم بذلك، دلَّ على هٰذا قول الله عزّ وجلّ حكاية لقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا. . . ﴿٩٢﴾﴾: **كِسَفاً، وكِسْفاً**: أي: قِطَعاً، جَمْع «كِسْفَة». أي: حالة كونها قطعاً قاتِلَةً مُهْلِكَة.

إنَّهُمْ لَا يَطْلُبُون إهْلَاكَهَمْ بِقِطَع تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ من جِهَةِ السَّمَاء، وإنَّمَا يَظُنُّونَ أنَّ محمَّداً لَا يَمْلِكُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُسْقِطَ عليهم لإهْلاكهم هٰذِهِ الكِسَف، فَهُمْ يَتَحَدَّوْنَهُ بهٰذا.

الخارق الرَّابع: أَنْ يَأْتِيَهُمْ باللهِ والْمَلَائِكَةِ مُجْتَمِعِينَ، لِيَشْهَدُوا لَهُ بأنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ يُبَلِّغُ عن رَبِّهِ آيَاتِهِ المنزَّلَات، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ حكاية لقولهم: ﴿. . .أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾:

القبيل في اللُّغَة: الجماعَةُ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الضَّامِنِ والكَفِيل، ويُفْهَمُ مِنْ طَلَبِهِمُ الإتيان باللهِ وبالملائكة جَمَاعَةً، أنْ يَأْتي بهم لِيَشْهَدُوا لَهُ بالنبوَّةِ والرِّسَالَة، وليكونُوا بمَثَابَةِ ضَامِنٍ وكفِيلٍ يضْمَنُونَ ويكْفُلُونَ أنَّ ما يَنْقُلُهُ عن رَبِّهِ حَقٌّ وَصِدْق. ﴿قَبِيلًا﴾: منصوبٌ على الحالية.

وظاهِرٌ أَنَّ هٰذا مَطْلَبٌ تَعَنُّتِيٌّ لَا يَطْلُبُهُ عاقِلٌ رَشِيد، فَلَوْ كان من الحكمة أنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ، أوْ يُرْسِلَ إليهم ملائكةً، لَمَا بَعَثَ اللهُ إليهم رَسُولاً بَشَراً مِنْهُمْ.

الْخَارِقُ الْخَامِسُ: أن يكُونَ لَهُ بخارقٍ بَيْتٌ مِنْ ذَهَب، دَلَّ علىٰ هٰذا قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً لِقَوْلهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ. . . ﴿٩٣﴾﴾:

الزُّخرُفُ: الذَّهَب. ويُطْلَقُ علَىٰ الزِّينَةِ وكمالِ حُسْنِ الشيء، وظاهِرٌ أنّ المراد هنا الذَّهَبُ، فقد كانَ الذَّهَبُ هو المادّةَ النادرة العظيمة في تَصَوُّراتهم.

الخارق السادس: أنْ يَرْقَىٰ في السَّمَاءِ وهُمْ يُشَاهِدُونَ رُقِيَّهُ، ويُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ من السَّمَاءِ كِتَاباً يَقْرَؤُونه، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ حكاية لِقَوْلهم:

﴿. . .أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ. . . ﴿٩٣﴾﴾:

أي: ولَوْ رَقِيتَ في السَّمَاءِ فَلَنْ نُؤْمِنَ بِكَ لِأَجْلِ رُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً رَبَّانِيًّا من السَّمَاءِ نَقْرَؤه.

يُقَال لغة: «رَقِيَ في الشيء يَرْقَىٰ، رَقْياً، ورُقِيًّا» أي: صَعِدَ. ومنْهُ: «رَقِيَ في السُّلَّم» أي: صَعِد فيه.

مطالِبُ تَعَنُّتِيَّةٌ لَا تَدُلُّ علىٰ أَنَّهُمْ يُرِيدُون مَعْرِفَة الْحَقِّ ليؤمِنُوا به، بل تَدُلُّ على أَنَّهُمْ جاحِدُونَ مُكَابِرُون مُعَانِدُونَ، فلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَة تَلْبِيَةُ شيءٍ مِنْ مطالِبِهِم.

بَعْدَ ذِكْرِ مطالِبهم التعنتيَّة الدَّالّة على العنادِ، وبَيانِ عدَمِ استعدادهم الإيمانَ بالحقِّ ولَوْ ظَهَرَ لَهُمْ ظُهورَ الشَّمْسِ في رابِعَةِ النهار، عَلَّمَ الله عزّ وجلّ رَسُولَهُ ما يقولُه لَهُمْ فقال تعالى:

﴿. . .قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [قَالَ]:

﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾: أي: تَنْزِيهاً لِرَبّي، وهٰذِهِ العبارة تُستَعْمَلُ في التَّعَجُّب، وفي التعجيب.

أي: عجباً لَكُمْ أَيُّها المُتَعَنِّتُونَ على ربّكم الذي يجب عليكم أنْ تُنَزِّهُوهُ عمَّا لَا يليق به، ومِنْهُ خَرْقُ نظامِهِ في كونه استِجَابَةً لمطالب الكفورين الْجَحُودِين المُعَانِدِيْنَ المتعَنّتين، وهو يَعْلَمُ أَنَّهم مُسْتَيْقنون في قُلُوبهم، إلَّا أَنَّهُم بآياتِ اللهِ يَجْحَدُون.

- ﴿...هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾؟!. أي: هَلْ وَصْفِي الدائم إِلَّا أَنَّنِي بَشَرٌ رَسُولٌ، أَحْمِلُ إليكم رِسَالَةً من رَبِّي فَأَنا أُبَلِّغُكُمْ إِيَّاهَا كَمَا أَوْحَىٰ إِلَيَّ بِهَا؟! إنِّي لم أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي رَبٌّ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ أَخْلُقَ، وأَتَصَرَّفَ في الكَوْنِ عَلَىٰ مَا أُرِيد، حتَّىٰ تَطْلُبُوا مِنِّي هذه المطالب التعنُّتِيَّة، أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَقَدِ اخْتَارني اللهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ للنَّاسِ، فإنْ قَبِلْتُمُوهَا فَرَبُّكُم يُبَشِّرُكُمْ بنَعِيم خَالِدٍ أَبَدِيٍّ يكُونُ يَوْمَ القيامة، وإِنْ أَبَيْتُمْ أَنْ تَقْبلُوها فَرَبُّكُمْ يُنْذِرُكم بعَذَابٍ خالِدٍ أَبَدِيٍّ يَوْمَ القيامَة، فاخْتَارُوا لنُفُوسِكُمْ مَا تَشَاءُون، لَا جَبْرَ لَكُمْ وَلا إكراه.

الاستفهام في هذه العبارة استفهام تَعَجُّبِيٌّ من مَطَالِبِهم التعنُّتِيّة الّتي لا يَطْلُبُهَا منْصِفٌ يَنْشُدُ الحقّ.

وبمناسَبَةِ تَعْلِيمِ اللهِ رَسُولَهُ أنْ يَقُولَ لَهُمْ هـٰذا الْقَوْلَ، أَبَانَ اللهُ عزّ وجلّ أنّ كَوْنَ رَسُولِهِ بَشَراً هو من الموانِعِ الّتي مَنَعَتْ هؤلاء المعَالَجِينَ من أَنْ يُؤْمِنُوا بما بَلَّغَهُمْ عَنْ رَبِّهِ، وأَنَّ هذا المانِعَ نَفْسَه قَدْ كَانَ مَانِعَ كُفَّارِ الْقُرُونِ الْأُولىٰ مِنَ الإيمانِ بِرُسُلِ رَبِّهِم، واتّباعِ الْهُدَىٰ الّذِي جاءُوهم به، فقال جلَّ جلالُهُ:

- ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤﴾:

أي: فكان اسْتِكْبَارُهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولٍ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ، هو المانِعَ لَهُمْ من الإيمان بالحقِّ، وقَبُولِ الْهُدَىٰ الذي جاءُوهم بِهِ عن رَبِّهِم⁽¹⁾.

قول الكافرين:

﴿...أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ استفهامٌ إنكاريٌّ، معناه: ليسَ من

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (يس/ ٤١) حول «بيان اعتراض الأمم علىٰ بَشَرِيَّة الرُّسُل».

الْمُمْكِن، أو لَيْسَ من المعقول، أو لَيْسَ من الحكمة، أَنْ يَبْعَثَ اللهُ بشراً رَسُولاً، لِيُبَلِّغَ عَنْهُ مَطْلُوبَاتِهِ مِنْ عباده، وقضايا دينِه الذي اختارَهُ لهم. فَمَنْ يَدَّعِي مِنَ الْبَشَر أنَّه رَسُولُ اللهِ يَحْمِلُ للناسِ رسالة من رَبّه، هُوَ مُدَّعٍ كذَّابٌ، لَهُ غاياتٌ ومَصَالِحُ دُنْيَوِيَّةٌ من إيمان الناس بأنَّه رَسُولُ الله.

وجاء التَّعْليم الرَّبَّانيُّ لِلرَّدِّ علىٰ هـٰذِهِ الشُّبْهَةِ، بِبَيَانِ أنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي أنْ يكُونَ الرَّسُولُ إلى البشر بَشَراً مِثْلَهُمْ، لَا مَلَكاً كَمَا يَتَوَهَّمُ الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى بَشَرِيَّةِ الرَّسُولِ، فقال اللهُ عزّ وجلّ لِرَسُوله محمَّدٍ ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾:

﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: أي: ثابِتِينَ على ظَهْرِ الأَرْضِ مُسْتَقِرِّين، ولَيْسُوا نُورَانِيِّينَ لا تَجْذِبُهُمُ الأَرْضُ بِجَاذِبِيّتها.

وفي الكلام هُنَا عِبَارَةٌ مَطْوِيَّةٌ مَحْذُوفَة لَفْظاً، مُقَدَّرَةٌ ذِهْناً، تقديرُها: وَكَانُوا مَوْضُوعين مَوْضِعَ الامْتِحَانِ كالإنْسِ، واقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ إرْسَالَ رَسُولٍ إِلَيْهِم مِنْ نَوْعِهِمْ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ من السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً، لأنَّ الحِكْمَة حينئذٍ تَقْتَضِي أنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إلَيْهِم من نَوْعِهِمْ مَلَكاً، لَهُ مِثْلُ صِفَاتِهِمُ الْعَامَّةِ تَمَاماً.

وكذلِكَ حَالُ الْبَشَرِ، تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ السَّنِيَّةُ أَنْ يكُونَ الرَّسُولُ إلَيْهِمْ بَشَراً مِثْلَ سَائِرِ الْبَشَر، غرائِزُه مِثْلُ غرائزهم، وشَهَوَاتُهُ مِثْلُ شَهَوَاتِهم، وَحَاجَاتُهُ من الحياة الدّنيا مِثْلُ حَاجَاتِهِم، كالطَّعَام والشَّرَابِ والنّكاح، والْعَمَلِ لاكْتِسَابِ رِزْقِهِ، ونحو ذلك، لِيَكُونَ في إيمانه وإسْلاَمِهِ وكلّ سُلُوكَاتِهِ حُجَّةً عَلَيْهِم.

فالمعْنَىٰ: لو كان في الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ تَجْذِبُهُمُ الأَرْضُ بِجَاذِبِيَّتها،

تَجْعَلُهُمْ يَمْشُونَ على ظَهْرِهَا مُسْتَقِرِّينَ ثَابِتِينَ، وكانُوا مَوْضُوعِينَ مِثْلَ الإنْسِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنْيَا، لَنَزَّلَ الله عليهم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً، يُبَلِّغُهم تَعْلِيمَاتِ الدِّين، ومطالِبَ رَبِّ الْعَالَمِين.

وأَتْبَعَ اللهُ عزّ وجلَّ هٰذا التَّعْلِيم بتَعْلِيم آخَرَ يَخْتَصُّ بِكَوْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولاً صَادِقاً أَرْسَلَهُ رَبُّ العالَمِينَ للنّاسِ أجْمَعِين، فقال اللهُ جلَّ جَلالُهُ:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لمكَذِّبي أنّكَ رَسُولُ رَبِّكَ: إنَّ اللهَ يَشْهَدُ لي بأنّي رَسُولُهُ، وكَفَىٰ باللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يَشْهَدُ لي.

كفَىٰ باللهِ شَهيداً: أي: كَفَىٰ الله، فالباء زائدة لِلتَّوْكيد، والْمَعْنَىٰ: أغْنَىٰ اللهُ حَالَةَ كَوْنِهِ شَهِيداً، طَالِبَ تَثَبُّتٍ من كَوْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولَ رَبّهِ للنَّاسِ أجمعين.

وشهادةُ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ، تَظْهَرُ بِمُعْجزَةِ القرآنِ المجيدِ، ثُمَّ بالآيات الخوارق الّتِي آتاه اللهُ إيَّاها، ومِنْهَا آيَةُ انْشِقَاقِ القَمَر، وآيَةُ الإسْرَاءِ مِن المسْجِدِ الحرام إلَىٰ المسْجِد الأقْصَىٰ والآيات الّتي سَيُؤْتِيه إيَّاها مُسْتَقْبلاً، بَعْدَ إنْزَالِ هٰذا البيان.

وجاءَتْ عِبارَةُ: ﴿... إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ لإشعار المكَذّبين بأنَّ اللهَ عَليمٌ عِلْماً تَامّاً بِهِم، نَاشِئاً عَنْ خِبْرَةٍ وَرُؤيَةٍ نَافِذَةٍ إلىٰ الأعْمَاقِ، فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إلَىٰ التَّوَثُّقِ من كَوْنِ مُحَمَّد رَسُولَ اللهِ، يُهَيّىءُ اللهُ لَهُ مَا يُوصِلُهُ إلىٰ الاسْتِيقان بأنَّ مُحَمّداً رَسُولُ رَبِّ العالمي، ومن يَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَيْقِنٌ جاحِدٌ مُعَانِدٌ، يُعَامِلُهُ الله بحَسَب مَا في نَفْسِهِ على وَفْقِ مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ.

وَبِنَاءً على عِلْم اللهِ بعبادِهِ عِلْمَ خِبْرَةٍ ورُؤيَةٍ نَافِذَةٍ إلى أَعْمَاقِ السَّرائِر، فإنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ يَحْكُمُ بِهدَايَةِ مَنِ اهْتَدَىٰ باختيارِه الحرِّ، ويَحْكُمُ بِضَلالِ مَنْ

ضَلَّ باخْتِيارِهِ الْحُرّ، وَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ لَهُ بالْهِدَايَةِ فَهُو الْمُهْتَدِي حقًّا، وَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ، نَالَ عُقُوبَة ضَلَالِهِ بحَسَبِ دَرَكَتِهِ وانْحِطَاطِها في الإثْم والْجُرْم، وَمَهْمَا اجْتَهَدَ بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ، فإنَّهُ لَنْ يَجِدَ نَصِيراً يَنْصُرُه، وَلَا وَلِيًّا يَتَوَلَّىٰ أَمْرَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، لِيَدْفَعَ أَوْ يَرْفَعَ عَنْهُ عذَابَ اللهِ الّذي يَسْتَحِقُّه بعَدْلِ الله، علَىٰ ما اكْتَسَبَ مِن آثام وجرائم.

دلَّ علَى هٰذِهِ الحقائق قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في الآيتَيْنِ التاليَتَيْن:

- ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾:

- ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُم اللهُ لَهُ بالهدايةِ، لأنَّهُ كَانَ مُهْتَدِياً فِعْلاً باخْتِيارِه الْحُرِّ، في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدنيا، فَهُو الْمُهْتَدِي حَقًّا، وهُوَ الّذِي يَسْتَحِقُّ ثوابَ المهتدينَ بحَسَبِ دَرَجَتِهِ في الإيمان، والإسلام، وفِعْلِ الصالحات.

ولا أَحَد في الوجود قادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُغَيِّرَ حُكْمَ اللهِ فِيه، إذ الْحُكْمُ في الهداية والضَّلَالِ للهِ وَحْدَه لَا شريكَ لَهُ، ولَا مُعَقِّبَ لحكْمِهِ.

حُذِفَتِ الياءُ مِن «المُهْتَدِي» تخفيفاً في اللّفظ وإيجازاً، ولَهُ نظائر في العربية.

و«مَنْ» الشرطيّة من ألفاظ الْعُموم، وهو يشمل كلَّ إنسان يَحْكُمُ اللهُ عزّ وجلَّ لَهُ بالهداية، وأُعِيد الضمير عليه الإفراد مراعاةً للفظه.

- ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ . . . ﴿٩٧﴾﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُم اللهُ عَلَيْهِم بالضَّلَالَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ فِعْلاً باختيارهمُ الحرّ، في رِحْلَاتِ امْتِحانِهِم في الحياةِ الدُّنْيا، فَهُمُ الضَّالُونَ حَقًّا، وكلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ

يَسْتَحِقُّ مِنْ عِقَابِ الضَّالِّين بِحَسَبِ دَرَكَتِهِ في الكُفْرِ وارتكاب الآثام والجرائم وفِعْلِ السَّيِّئاتِ الكُبْرَيَات.

ولَنْ تَجِدَ أيُّها الباحِثُ المتَابِعُ لِهَؤلَاءِ الَّذِينَ حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِم بالضَّلَالِ، أَوْلِيَاءَ من دُون اللهِ يَنْصُرُونَهُمْ، فَيَدْفعُونَ أَوْ يَرْفَعُونَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ علَيْهِمْ، أَوْ شَيئاً مِنْهُ.

ولا أَحَدَ في الوجود قادِرٌ علىٰ أنْ يُغَيِّرَ حُكْمَ اللهِ في واحِدٍ مَا مِنْهُم، إذ الحكْمُ في الْهِدَايَةِ والضَّلَالِ للهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، ولَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه.

أعِيدَتِ الضَّمَائِر هُنَا عَلَىٰ «مَن» الشَّرْطِيَّةِ بالجمْعِ مُرَاعَاةً لمعْنَاها.

وجاء هذا التغيير في التَّعبيرُ فَنًّا بَدِيعاً، لِمَا في التنويع في الْبَيَانِ مِنْ تَأْثِيرٍ يُدْرِكُهُ الْبُلَغاء، ولِأَنَّ الضَّالِّينَ يَحْسُنُ فِي الحديثِ عَنْهُمْ مَا يَلِيقُ بِهِمْ مِنْ جَعْلِهِم رُكَاماً، وإِلْقَائِهِمْ في جَهَنَّمَ إلقاءً كَبّاً فِيه إهانَةٌ وإذْلال.

أولياءَ: جَمْعُ «وليّ» والمرادُ بِهِ هُنَا النَّصِير، قريباً في النَّسَب كانَ أمْ غير قريب.

ومن صُور عِقَاب الضَّالِينَ يوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ علَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وبُكماً وصُمّاً، وهذا خاصٌّ بِبَعْضِ أحْوَالِهِمْ يَوْمَ الدِّين، جَمعاً بين مُخْتَلِفِ النُّصُوص، فقال اللهُ عزّ وجلَّ:

- ﴿. . . وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا . . . ﴿٩٧﴾﴾:

الْحَشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْق.

عُمْياً: جَمْع «أعْمَىٰ» وهو فاقد الْبَصر.

بُكْماً: جمْع «أَبْكم» وهو العاجز عن النُّطْق.

صُمّاً: جَمْع «أَصَمّ» وهو الذي لا يَسْمَعُ الأصوات.

وقد سبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّر الآية (٣٤) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بيانٌ تَدَبُّرِيٌّ فيه بَعْضُ تفصيل عن الحشر يَحْسُنُ النَّظرُ فيه(١).

وبَعْدَ الحَشْر والحِسَاب وفَصْلِ القضاء يَكُونُ مَأْواهُمُ الدائِمُ في جَهَنَّم لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِها، فقال اللهُ عزّ وجلّ في تَتِمَّةِ الآيَة:

- ﴿... مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾:

الْمَأْوَىٰ: المنْزِلُ والمكانُ الّذِي يُنْزَلُ فِيه وَيُسْكَنُ. يقالُ لغةً: «أَوَىٰ المكَانَ يَأْوِيهِ، وأَوَىٰ إِلَيْهِ يَأْوِي» أي: نزَلَ بِهِ وسَكَنَهُ.

جَهَنَّم: اسْمُ علَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النّار الّتي أعَدَّهَا اللهُ عزّ وجلّ لِيُعَذِّبَ فيها الكافِرِينَ والْعُصَاة يَوْمَ الدين. وهو ممنوعٌ من الصَّرْف للعلميّة والتأنيث.

ويقال لِلْقَعْرِ الْبَعِيدِ في اللُّغَةِ: جَهَنّم.

خَبَتْ: أي: سَكَنَتْ وخَمَدَ لَهَبُهَا، يقال لغة: «خَبَتِ النَّارُ، تَخْبُو، خَبْواً، وخُبُوّاً» أي: سَكَنتْ وَخَمَدَ لَهَبُها.

سَعِيراً: السَّعِيرُ: النّار، وقيلَ لَهَبُ النَّار.

وفي عبارة: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ دلالَةٌ علىٰ خُلُوهم في جَهَنَّم.

فالمعنى: وَمَكَانُ إقامَةِ الذِينَ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِم بالضَّلالِ يَوْمَ الدِّين الدَّائِمَةِ، يَكُونُ في دار الْعَذَاب جَهَنَّم، الَّتي تَتَوَقَّدُ النَّارُ ذَاتُ اللَّهَبِ فيها، وكَلَّمَا سَكَنَتْ وَخَمَدَ لَهَبُها زَادَهَا اللهُ عزّ وجلّ سَعِيراً، لِئَلَّا تَقِلَّ نِسْبَةُ عَذَابِ المعَذَّبِين المجْرِمِينَ فيها، إذْ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ، ولا هُمْ مِنْهَا مُخْرَجُون.

---

(١) انظر الصفحات من (٤٩١ ـ ٤٩٦) من المجلد السادس.

وبَعْدَ أنْ ذَكَرَ اللهُ عزّ وجلّ أنَّ مَأْوَاهُمْ جهَنَّم، أبَانَ السَّبَبَ الّذي اسْتَحَقُّوا بِهِ هٰذا الْعَذَابَ الأليمَ الخالد، فقال تبارك وتَعَالَىٰ:

- ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾:

المشارُ إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ حَشْرُهُمْ يَوْم القِيامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا، وَتَعْذِيبُهُم بَعْدَ ذَلِكَ في جَهَنَّمَ خالدين فيها. و﴿جَزَآؤُهُم﴾ خَبَرُ ﴿ذَٰلِكَ﴾.

أمَّا السَّبَبُ فَهُو يَرْجع إلى عُنْصُرَين:

الأول: أنَّهُمْ كَفَرُوا بآيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّةِ، والإعْجَازِيَّةِ، والبيانيّة، والْجَزَائيَّة.

الثّاني: أنَّهُمْ كَذَبُوا بالْبَعْث وَيَوْم الدِّين، ولَيْسَ لهم إلَّا التعجُّبُ بعِبَارَةِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟. وَقَدْ سَبَقَ شَرْحُ عبارتِهِمْ هٰذِهِ لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآية (٤٩) من هذه السُّورَة.

وبَعْدَ هٰذا وجَّهَ اللهُ عزّ وجلّ فِقْرَةً مِنْ فِقَرَاتِ عِلاجِهِمْ، دُونَ أنْ يُواجِهَهُمْ بالخطاب، بَلْ تَحدَّثَ عَنْهُمْ بأُسْلُوبِ الحديث عن الغائِبينَ، فقال تبارَكَ وتَعَالى:

- ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾:

دلَّت هٰذِهِ الآيَةُ بمُقْتَضَىٰ العِلَاج فيها، عَلىٰ أنّ المعَالَجِينَ مُعْجَبُون بِنُفُوسهم، وبما أُوتُوا مِنْ فِطْنَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَىٰ الْبَيَانِ، وتَمَيُّزٍ بِصِفَاتِهِم الذّاتِيّةِ، وهٰذا قَدْ جعَلَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ، وتَنْتَفِخُ صُدُورُهُمْ بالْعُجْبِ، ويَقُولُونَ في نُفُوسِهِمْ: لَا يَلِيقُ بِنَا أنْ نَتَّبِعَ رَجُلاً مِنَّا هُو دُونَنَا في المكانةِ الاجْتِماعِيَّة، ولَيْسَ عظيماً من عظماءِ قَوْمِنا.

فتَحدَّث الله عزّ وجلَّ عَنهم، مُعْرِضاً عَنْ مُواجَهَتِهِمْ تَصْغِيراً لَهُمْ، وتخطِيماً لِمَا تَصلَّبَ مِنْ عُنجُهِيَّاتهم، فقال تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: أي: أنطمَسَتْ بَصائِرُهم، وَسُلِبَتْ فِطْنَتُهُمْ، وَلَمْ يروْا بما لَدَيْهِمْ مِنْ قُدْراتِ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ واسْتِنْبَاطٍ.

- ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهُمْ بَعْضُ مَخْلُوقَاتِهِ الكثِيرَةِ في الأَرْضِ.

- ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: في صِفاتِهِم الذَّاتِيَّة، ثُمَّ لَا يَكُونُونَ أَمْثَالَهُمْ فِي صِفَاتِهِمُ السُّلوكِيَّةِ الاختِيارِيَّةِ، بَلْ سَيَخْتَارُونَ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنين مُسْلِمِينَ مُتَّبِعِينَ رَسُولَ رَبّهم.

- ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الّذي خلَقَهُمْ، جَعَلَ لِبَقَاءِ كلّ واحِدٍ مِنْهُمْ في الحياة الدُّنيا أَجلاً تَنْتَهِي عِنْدَهُ حَيَاتُهُ بالْمَوْتِ، فَهُمْ لَيْسُوا خالِدِينَ في هٰذِهِ الحياة حتَّىٰ يَفْتِنَهُمُ الشُّعُورُ بالْخُلُودِ عَنْ إدراكِ الحكْمَةِ مِنْ خَلْقِهِمْ، وهي امْتِحَانُهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ بينهم، ثُمَّ مُجَازَاتِهِمْ على مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهم، وهذا الأجلُ المحتوم لَا يَشُكُّونَ فيه، إذْ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ احْتِمَالُ الشَّكِّ، أَخْذاً مِنْ واقِعِ حَالِ كُلِّ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ بَشَرٍ وأَحْيَاءٍ أُخْرَىٰ في الأَرض.

الأجل: يأتي بمعنَى غايَةِ الوقْتِ الْمُحَدَّدِ لشيءٍ ما، أو المأذون به، هذا المعنى هو المراد هنا كما هو ظاهر. ويأتي بمعْنَىٰ الوقْتِ المحدَّدِ لحصُول الشيء وابْتِدَاء زَمانِه. ويأتي بِمَعْنَىٰ المدَّةِ المحَدَّدَةِ للشَّيْءِ والمحصُورَةِ بَيْنَ أَوَّلٍ وآخِرٍ.

لاَ رَيْبَ فِيه: أي: لَا يُوجَدُ فِيهِ احْتِمالٌ للشَّكِّ، فلا عُذْرَ لَهُمْ في الطَمَعِ في الْخُلُودِ بهٰذِهِ الحياة الدنيا.

- ﴿... فَأَبَىٰٓ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾: وُضِعَ الوصْفُ ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ موضِعَ الضَّمِير العائِدِ عَلَىٰ المعالَجِينَ، وهُمُ الجَاحِدُونَ المعَانِدُونَ مِنْ كُبَراءِ كُفَّارِ قُرَيش، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ صِفَةِ الظُّلْم فيهم، الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يَكْفُرُون بالْحَقِّ كُفْراً مُوغِلاً في ظُلُمَاتِ الجريمَةِ والإِثْمِ والْجُحُود، عَلَىٰ الرُّغْمِ من ظُهُورِ أدِلَّةِ الحقّ.

كُفُوراً: الكُفُور: مَصْدَرٌ بمَعْنَىٰ «الْكُفْر» وهو أبْلَغُ مِنَ الكُفْرِ أخْذاً مِنْ زِيَادَةِ المبْنَىٰ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ زيادَةِ المعنى. قال الأخْفَش: **الْكُفُور**: جَمْعُ الكُفْر، مِثْلُ بُرْدٍ، وبُرُود.

وبَعْدَ هٰذا عَلَّمَ اللهُ عزّ وجلَّ رَسُوْلَهُ مُعالَجَةً لَهُمْ، تَتَعَلَّقُ بِتَفْضِيلِ اللهِ بَعْضَ النَّاسِ عَلَىٰ بَعْضٍ في الرِّزْق بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَتِه في امْتِحَانِهِم، وهو مَا جاء بيانُهُ في الآيَتَيْنِ (٢٠ و٢١) وَيَظْهَرُ مِنَ المعالَجَةِ أَنَّهُمْ اعْتَرَضُوا عَلَىٰ حِكْمَةِ اللهِ فِي مَنْحِ عِبَادِهِ الْأَرْزَاقَ، فَقَالَ اللهُ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِه:

- ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ: إنَّ اللهَ عزّ وجلَّ عظيم الجود، ولَكِنَّ لَهُ حِكَماً فِي عَطَائِهِ وَمَنْعِهِ، وفي التَّوْسِعَةِ علَىٰ بَعْضِ عِبَادِهِ، والتَّضْيِيق علَىٰ آخَرِين، ضِمْنَ ظُرُوفِ حَيَاةِ الامْتِحَانِ، لاخْتِبَارِ النَّاسِ فِيمَا آتَىٰ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بَحَسَبِ خَصَائِصِ نَفْسِهِ، فاللهُ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ لَيْسَ قَتُوراً كَمَا تَتَوهَّمُون، وعِنْدَهُ الْخَزائِنُ الّتي لَا تَنْفَدُ، وهِيَ مِنْ آثارِ فَيْض عطاءات رَحْمَتِهِ، بَلِ الإنْسَانُ هُوَ الْقَتُور، لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي لَأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ نَفَادِ الْخَزَائِنِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي لا تَنْفَد.

﴿لَّوْ﴾ هُنَا حَرْفُ شَرْطٍ بمنْزِلَة «إِنْ» الشَّرطِيَّة.

﴿إِذًا﴾: حَرْفُ جوابٍ وَجزاءٍ لِكَلَامٍ سَابقٍ.

﴿لَّأَمْسَكْتُمْ﴾: أي: لَبَخِلْتُم فَامْتَنَعْتُمْ عَنِ البَذْلِ والْعَطاءِ.

﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾: أي: خَوْفَ فَناءِ خَزَائِنِ اللهِ الَّتِي لا تَنْفَد.

أَصْلُ معْنَىٰ «الْإنْفَاقِ» إفْنَاءُ المالِ. ويأتي بمَعْنَىٰ الْفَقْرِ والإمْلَاق، أي: فأنْتُم تَبْخَلُونَ فَتَمْتَنِعُونَ عَنِ الْبَذْلِ خَوْفَ الْفَقْرِ، مَعَ أنَّ خَزَائِنَ رَحْمَةِ اللهِ لَا تَنْفَدُ، وَمَهْمَا بُذِلَ مِنْهَا فإنَّها لَا تَنْقُصُ إلَّا كَمَا يَنْقُصُ المخْيَطُ مِنَ الْبَحْرِ إذَا أُدْخِلَ فيه.

﴿...وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾: أَيْ: وَالإنْسَانُ بَخِيلٌ بالكَيْنُونَةِ الدائمة.

قَتُوراً: أي: بَخِيلاً.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس التاسع عشر من دُرُوس سورة (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتَوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٤)

التدبّر التحليلي للدّرس العشرين من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾:

القراءات:

١٠١ ـ • قرأ ابْنُ كَثِير، والكِسَائِيُّ، وَخَلَف: [فَسَلْ] وَصلاً ووقْفاً، وقرأها حمزة كذلِكَ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَاسْأَلْ].

والقراءتان وجْهَانِ عَرَبيّان في فعل الأمْر من «سَأَلَ».

١٠٢ ـ • قرأ الكِسَائِيُّ: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المتكلّم وهو موسى عليه السَّلام.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لَقَدْ عَلِمْتَ] بِضَمِير المخاطَبِ وهو فرعون.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في بيانِ الواقع الّذي أَجابَ بِهِ موسَىٰ عليه السَّلام، فَقَدْ قَال لِفِرْعَوْنَ: لَقَد عَلِمْتُ، وقال له: لَقَدْ عَلِمْتَ.

تَمْهيد:

في هذا الدَّرْس عَرْضُ لقطاتٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام مع فرعَوْنَ وقومه، وَبيان ما انتهوا إليه إذْ أَغْرَقَ اللهُ عزّ وجلّ فِرْعَوْنَ ومَنْ خَرَجَ مَعَهُ لقتال بني إسرائيل الفارّين من مصر بقيادة موسىٰ عليه السَّلام.

وفيه بَيَانُ مَا قالَهُ عزّ وجلَّ لِبَنِي إسْرَائِيل مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ، بأمْرٍ تكْوِينِيٍّ جَعَلَهُمْ به مُوزّعين في شَتَّىٰ الأَرْض، ثُمَّ يَأْتِي بهم إلىٰ فِلِسْطِينَ لَفِيفاً، لِيَكُونَ لَهُمْ عُلُوٌّ مُؤَقَّتٌ فِي الأَرْض، ثُمَّ لِيُلاقُوا مَصِيرَهُمُ الْمَحْتُوم، بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ عزّ وجلَّ فِيهِم.

وآياتُ هذا الدَّرْسِ مَوْصُولَةٌ بِآياتِ الدَّرْسِ الثاني من دُرُوسِ السُّورَةِ، وهو الآيات من (٢ ـ ٨) وَفْقَ الْمَنْهَج المختار في السُّورَة، من تَوْزِيع أَجْزاءِ فُرُوعِ شَجَرتِهَا عَلَىٰ سَاقِها الأعْظَم الْمُمْتَدِّ ارْتِفَاعاً.

ومن الفروع المجزَّأة الموزعَةِ الحديثُ عن القرآن، والحديثُ عن الإنسان. وبيان أدِلَّةِ تَوْحيد الرُّبُوبيَّةِ والإلَهيَّة للهِ الرّب جَلَّ جلاله. وبَيَانُ سُنَنِ اللهِ في عباده في الحياة الدُّنيا. وَوَصَايا اللهِ لمَنْ يَسْتَجيب مِنْ عباده لِدَعْوَةِ الحق. وتَرْبية اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُوله ﷺ. وعِلَاجُ أئِمَّةِ مُشْرِكي مَكَّة. وتَبْشِير الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات. وإنْذَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا عناداً واسْتِكْبَاراً. إلى غير ذلك من أجزاء فروع شَجَرة مَوْضوع السُّورَةِ، بأسْلُوبٍ عجيبٍ تَكَادُ تَنْفرِدُ به.

التدبُّر التحليلي:

قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾:

• ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾: أي: تِسْعَ آياتٍ معجزاتٍ خَارِقَاتٍ للنُّظم الكونيّة الدّائمة، ومِنْها آيتا العصَا والْيَد، وقَدْ سَبَقَ بيانها مُفَصَّلَةً في مواضع، ومنها ما جاء في تدبر الآية (١٢) مِنْ سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿بَيِّنَٰتٍۖ﴾: أي: واضِحَاتٍ جَلِيَّات، آتَيْنَاهُ إيَّاها إلى فِرْعَونَ وقَوْمِهِ.

• ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: الّذي أراهُ أنَّ هـذا الأمْرَ بالسُّؤَالِ مُوَجَّهُ بالْخِطَاب الإفْرادِيّ، لكلِّ واحِدٍ من المعالَجِينَ فِي السُّورَة، وهُمْ كُبَراء مُشْرِكي مَكَّة إيَّانَ التَّنْزِيل، الَّذِين ألَحُّوا على الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَطالِبِهِمُ التَّعَنُّتِيَّة لآيَاتٍ خَارِقَاتٍ تَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً، ومِنْهَا مَا جاء بيانُهُ في الآيَاتِ من (٩٠ ـ ٩٣) من السُّورَة، وهم في الحقيقة غَيْرُ مُسْتَعِدّين للإيمان والإسلام، مَهْمَا آتَىٰ اللهُ رَسُولَهُ من آياتٍ خوارقَ مَادِّيَّة،

وَحَالُهُمْ العنادِيُ كحالِ فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ وجُنُودِه، الَّذِين أهْلَكَهُمُ اللهِ بالْغَرَق، وَهُمْ يُتَابِعُونَ بَنِي إسْرائيلَ، إذْ دَخَلُوا في طَرِيق الْبَحْر الّذِي فَلَقَهُ اللهُ عزّ وجلَّ لموسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وليس الأمْرُ بهذا السؤَال مُوَجَّهاً للرَّسُول ﷺ.

وأمْرُ السَّائل مِنْهُمْ أَنْ يَسْأَلَ بَنِي إسْرَائيل، لأنَّهُمْ كانُوا عَلَىٰ صِلَةٍ بِيَهُود الْمَدِينَةِ وَأحْبَارِهم، وهُمُ الَّذِينَ أشَارُوا عَلَيْهِم بأنْ يَسْألُوا الرَّسُول محمّداً ﷺ عَنِ الرُّوحِ، كما سَبَقَ بَيَانُه.

والمعنىٰ: وإذا كنْتَ أيُّها المتعنّتُ شاكاً في خَبَرِنَا في الْقُرآن عَنْ إيتائِنا مُوسَىٰ تِسْعَ آياتٍ كبِيرَاتٍ، فَكَذَّبَ بها فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُه، وتَبِعَتْهُمْ جُنُودهُمْ في التَّكْذِيب، فاسْأَلْ بَنِي إسْرَائيلَ عَنْ هٰذا النَّبَأ، فهذا مِنَ الأَمْثِلَةِ الواقِعِيَّةِ في النَّاسِ الّتي جَعَلَتْنَا لَا نَسْتَجِيبُ لمطالِب كُبَراء كُفَّار قُرَيْشٍ، بشَأْنِ إجراء آياتٍ مَادِّيّاتٍ شاهداتٍ للرَّسُولِ محمّد بِصِدْقِهِ في نُبُوَّتِهِ وَرِسالَتِه، كَمَا سَبَقَ أَنْ قُلْنَا فِي هٰذِهِ السُّورَة:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ . . . ﴿٥٩﴾﴾.

- ﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾: أي: في وقْتِ أنْ جَاءَ مُوسَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بآياتِنا التِّسْعِ الْبَيِّنَات، أُعِيدَ الضَّمِيرُ عَلَىٰ مُلاَحَظِين ذِهْناً غير مَذْكُورِينَ لفظاً، وَيَدُلُّ عَلَيْهِمُ السِّيَاق.

﴿. . . فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾﴾: الظَّاهر أنَّ هٰذا الْحِوارَ بين فِرْعَوْنَ وَمُوسَى قَدْ كَانَ فِي أَوَاخِرِ مَسِيرَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام الدَّعَوِيَّةِ في مِصْر، وَبَعْدَ أَنْ أجْرَىٰ اللهُ عزّ وجلَّ لَهُ الآياتِ التِّسْعَ كُلَّها، ولم يَكُنْ باسْتِطَاعَةِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَتَّهِمَ مُوسَىٰ بالجنُونِ حِينئذٍ، وَلَا أَنْ يَقُولَ لَهُ جَازِماً: إنَّكَ مَسْحُورٌ، تُؤَثِّرُ عَلَيْكَ أعْمَالُ السَّحَرَةِ فتَجْعلُكَ تَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَات لَيْسَتْ صَادِرَاتٍ عَنْ إرَادَتِكَ الواعِيَة، إذْ وَصَلَ فِرْعَوْنُ إِلَىٰ حَالَةِ استيقانٍ تامٍّ بصِدْقِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عليْهما السَّلام، وأنَّهُما رَسُولانِ مِنْ رَبِّ

العالَمين، إلَّا أنّه كانَ مُستَكْبراً مُكابراً مُعَانداً جَاحِداً، فقالَ لِمُوسَىٰ عليه السَّلام: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾.

فأجابَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام دُونَ مُدَارَاةٍ له بما جاء في قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: و﴿لَقَدْ عَلِمْتُ﴾. وسبق بيان الحكمة من القراءتين، وأنّ بَيْنَهما تكاملاً في أداء المعنى المراد.

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: هٰؤلَاءِ الآياتِ التِّسع.

﴿بَصَآئِرَ﴾: جمْعُ «بَصِيرَة» وهي هُنَا الحجَّةُ والْبُرْهَان.

﴿مَثْبُورًا﴾: أي: هَالِكاً بعُقُوبَةٍ من الله لك. يقال لغة: «ثَبَرَ فُلَانٌ، يَثْبُرُ، ثَبْراً، وثُبُوراً» أي: هَلَكَ. ويُقَال: «ثَبَرَهُ اللهُ» أي: أهْلَكَهُ.

المعنىٰ: أُوَكِّدُ لَكَ يَا فِرْعَوْنُ أنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ كما أنَا أَعْلَمُ أن هٰؤلَاءِ الآياتِ التِّسع الّتي جرَتْ في مصْرَ خِلَالَ سِنين، مَا أَنْزَلَهَا إلّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ بقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِه، لتَكُونَ حُجَجاً وبَرَاهِينَ على أنّي وَأخي هَارُونَ رَسُولَانِ مَبْعُوثَانِ إلَيْكُم، فَلَمْ تُؤْمِنُوا بها جُحُوداً واسْتِكْبَاراً.

وواقِعُكُمْ هٰذا يَسْمَحُ لي بأنْ أظُنَّ ظنًّا رَاجِحاً قَوِيًّا، بأنَّكَ يَا فِرْعَوْنُ هَالِكٌ عُقُوبَةً رَبَّانِيَّةً لَكَ، وَتحقيقاً لسُنَّةِ اللهِ في عباده، ما لَمْ تَتَدَارَكْ نَفْسَكَ بالإيمان باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، وبِعَمَلٍ صَالحٍ يُثْبِتُ صِحَّة إيمانِكَ وإسلامِك.

لَكِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ أصَرُّوا عَلىٰ عِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، ولَجَؤُوا إِلَىٰ اتِّخاذِ تَدْبيراتٍ يُخْرِجون بها بَنِي إسْرَائيل، من مكان تجَمُّعِهِمْ، وهي أَرْضُ جَاسَان، وكانت أرضاً خِصْبَةً جَيِّدَةً، أنْزَلَهُم فيها يُوسُفُ عليه السَّلام، حِينَ

قَدِمُوا مِنْ أَرْضِ كَنْعَان، ويُوَزِّعُونهم مُفَرَّقين فِي أَرْضِ مِصْرَ، حَتَّىٰ لَا تكُونَ لَهُمْ قيادَةٌ تَجْمَعُهم، ولَا أَرْضٌ وَاحِدَةٌ تَجْعَلُ مِنْهُمْ وَحْدَةً مُتَمَاسِكَة. وَقبلَ تَنْفِيذِ هٰذِهِ المكيدة، أَمَرَ مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائيل بالخروج من مِصْرَ لَيْلاً في اتّجاهِ سيناء، دُونَ أَنْ يُشْعِرُوا المصْرِيينَ بخُرُوجهم، ولمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ ومَلَؤُه بالأمْرِ دبَّرُوا خُطَّةَ اللَّحاق بهم بجَيْشٍ مَقَاتل، فكانَت عَاقِبَةُ أمْرِهم إغراقاً في مكان عُبُورِ بني إسرائيل في الْبَحْرِ.

وفي تَعْبِير موجَزٍ عَنْ هـٰذا الحدث قال اللهُ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس:

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾:

﴿فَأَرَادَ﴾: أي: فِرْعَوْنُ، ويُلْحَقُ بِهِ مَلَؤُهُ ورِجالُ مَشُورَته.

﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أَنْ يسْتَخْرِجَهُمْ من الأرض التي يَسْكنونها، ويُوزِّعَهُمْ في شَتَّىٰ أَرْضِ مِصْر، ويَسْتَخِفَّهُمْ بالمزعجات والمخِيفَات حتَّىٰ يخْرُجُوا من أرْضِ جاسَانَ الَّتي يسْكُنُونها وَيَتَوَزَّعُوا في شتَّىٰ أرْضِ مِصْرَ أَذِلَّاءَ مُهَانِينَ.

ولا أرىٰ أنَّ فِرْعَونَ قَدْ أرادَ إخراج بني إسْرَائيل من مِصْرَ كُلِّها، لأنَّ هـٰذا أَحَدُ مَطَالِبِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام من فِرْعُون، إلَّا أنَّ فِرْعَوْنَ كانَ يَرْفُضُها دَواماً، لِئَلا يحرم المصْرِيين من عبيد أذِلَّاءَ مضطهَدِين، والأخْطَرُ مِنْ هـٰذا تَخَوُّفُهُ مِنْ تَكْوِينِ جَيْشٍ خارجَ مِصْر، ثُمَّ عَوْدَتِهِمْ مُقَاتِلين أشِدَّاء، لِيَنْتَزِعُوا مُلْكَ مِصْرَ مِنَ الأُسْرَةِ الحاكِمَةِ وأنْصارِهَا وجُنُودِها.

﴿... فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾: أي: فَكَانَتْ عاقِبَةُ فِرْعَوْنَ ومَنْ خَرجَ مَعَهُ لِيُقَاتِلُوا بَنِي إسْرَائيل، ويُعِيدُوهم إلى الذُّلِّ والتَّسْخِير والاستِعْبَادِ، أنَّ الله بِعَظَمَةِ رُبُوبيَّته أغْرَقَهُمْ جميعاً.

وقد سَبَق تَفْصِيلُ هـٰذا الْحَدَثِ، لَدَىٰ تَدَبُّرِ لَقَطَاتٍ سَابِقَاتٍ في نُجُومِ التَّنْزِيل، مِن قَصَّةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، وفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِه.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

الّذي ظَهَرَ لي من جَمْعِ النُّصُوصِ الْقُرآنيَّة المتَعَلِّقَةِ بِبَنِي إسْرَائيل، وتَدَبُّرها تَدَبُّراً تكامُلِيًّا، أنَّ هـٰذِهِ الآيَة تَدُلُّ على قَدَرِ اللهِ وقضَائِهِ في بَنِي إسْرائيلَ إبَّانَ أواخِرِ وُجُودِهِم الماضِي في فِلَسْطين وُجُوداً مُقْتَرِناً بإفسادٍ وعُلُوّ فيها، وقُبَيْلَ حُكْمِ الرُّومَانِ لها، إذْ دَخَلَتْ تحت سُلْطانِ الرُّومانِيّين سنة (٤٠) ق.م كما سَبَقَ بَيَانُهُ في الدرس الثاني من دُروس السُّورَة.

والقولُ الرَّبَّانِيُّ الّذِي جاء في هذه الآية أَمْرٌ قَدريٌّ قضائي بتَشْتِيت بَنِي إسْرَائيل في بُلْدَانِ الأرْضِ كلّها شَرْقِها وغَرْبها، وإخْرَاجِهم إلّا قَلِيلاً مِنْهُمْ من أرْضِ فِلِسْطِين، كما سَبَقَ أن أوْضَحْتُهُ لدىٰ تَدَبُّرِ الآيتين (٤) و(٥) من هذه السّورة.

- ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾:

أي: وقُلْنَا مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ وآثار دَعْوَتِهِ الّتي امْتَدَت حتَّى قُبَيْلَ بِعْثَةِ عيسَىٰ عليه السَّلام، بأمْرٍ قَدَرِيٍّ قَضَائيٍّ مُشَتِّتٍ لِبَنِي إسْرَائيل، اسْكُنُوا الْأَرْضَ مُشَتَّتِينَ فيها خَارِجَ أَرْضِ فِلِسْطِينَ، الَّتِي أسْكَنَّاكُمْ فيها لِتُقِيمُوا الدِّين، فَعَلَوْتُمْ فِيها مُسْتَكْبِرِينَ ومُفْسِدين، وكُنْتُمْ في الدِّين مِثالاً سيِّئاً للتَّحْريفِ والفِسْقِ والْفُجور، والْبَغْي والطغيانِ، والظُّلْمِ وابْتغاءِ الإفْسَادِ في الْأَرْضِ، وارْتكاب الشُّرُور بغُرُور.

- ﴿...فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾:

أي: فإذا جاءَ وَعْدُ المرَّةِ الآخِرَةِ الَّتِي قُلْنَا لَكُمْ فيها: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ جئـنَا بكُمْ مِنْ أشْتَاتِ الأَرْضِ إلَىٰ فِلِسْطِينَ لَفِيفاً، لِتَنَالُوا عُقُوبَةَ رَبّكُمْ في فِلَسْطِينَ، بأيْدِي عِبادٍ لَنا مُؤْمنين

مِسْلِمينَ، يَسُوؤُون وُجُوهَكُمْ، ويُحَطِّمُونَ مَا عَلَوْهُ مِنْ مُنْشَآتِكُمْ تَحْطِيماً، كما قُلْنَا لَكُمْ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا (٧)﴾:

﴿لَفِيفٗا﴾: **اللَّفِيفُ**: مَا اجْتَمَعَ من النَّاسِ من أخْلَاطٍ شَتَّىٰ، ومِنْ قبائلَ شَتّى.

وظاهِرٌ أنَّ اجتماعَ اليهود في هذا الْعَصْر في فِلْسِطينَ منَ الشَّرْقِ والْغَرْب، ومِنْ كُلِّ بلاَد الشَّتَاتِ، تَحْقِيقٌ لِلْوَعْدِ الرَّبَّانِيِّ بأنْ يأتِيَ بهم لَفِيفاً، لِيُلاقُوا مَصِيرَهُمُ المحْتُوم، ولَم يَجْتَمِعُوا مِثْلَ هذا الاجْتِماعِ قَبْلَهُ في تاريخهم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس العشرين من دُروسِ سورة (الإسراء)

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٥)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الحادي والعشرين من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (١٠٥ ـ ١١١) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا (١٠٥) وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا (١٠٦) قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ (١٠٩) قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا (١١٠) وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا (١١١)﴾:

القراءات:

١١٠ - • قرأ عَاصم، وحَمْزَةُ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ بِكَسْرِ اللام من «قُلِ» وكسر الواو من «أوِ» في الوصل.

وقرأها يَعْقُوب، بكَسْرِ اللام من «قُلِ» وَضَمّ الواو من «أَوُ» وصلاً وقَرأها بَاقِي القراء العشرة بضَمِّهِمَا وَصْلاً.

وهي وُجُوهٌ عَرَبيَّةٌ فِي النُّطْق.

تَمْهيد:

في هذا الدَّرْس مُتَابَعَةُ حَدِيثٍ عَن القرآن، وتعليمٌ للرَّسُول ﷺ مَا يقولُهُ للمشركين المعانِدِين المكابرين الجاحِدِين.

وفيه ثناءٌ عَلَىٰ الَّذِين يُؤْمِنُونَ بالقرآن وبالرَّسُول من أهْلِ الكتاب.

وفيه توجيهٌ للدُّعَاء بأسْمَاءِ اللهِ وصفاته.

وفيه توجيه لأدب مقدار رَفْعِ الصَّوْتِ في الصلاة.

وخُتِمَتِ السُّورةِ بقول الله عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُولِه فَلِكُلّ مُسْلم.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

التدبّر التحليلي:

قول اللهِ عزّ وجلّ:

• ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾:

هاتان الآيتان مَوْصَلَتَانِ بمَا جاء في السُّورَةِ بشَأْنِ القرآن، وبشَأْنِ الرَّسُول ﷺ.

فَمِنْ تَتِمَّاتِ الحديثِ عن القرآن بَيَانُ قَضِيَّتَيْن:

القضيَّةُ الأُولَىٰ: أنَّ كُلَّ مَا فِيهِ حَقٌّ مُطَابِقٌ للواقِع، ومُطَابِقٌ لِمَا شَرَعَ اللهُ لعِبادِهِ في الدِّينِ الخاتِمِ لِرِسَالَاتِهِ للنَّاسِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، وطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بها وَيتّبِعُوا مَا جَاء فيها.

فَقَدْ أَنْزَلَهُ اللهُ مِنْ لَدُنْهُ مُتَّصِفاً بالْحَقِّ، فَلَا شَيْءَ فِيه مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ، وحَمَلَهُ أَمِينُ الْوَحْيِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، وبَلَّغَهُ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ كَمَا تَلَقَّاهُ عَنْ رَبّه، حَرْفاً بِحَرْفٍ، وكَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، وآيَةً بِآيَة، فَنَزَلَ مُتَّصِفاً بالْحَقِّ وَوَصَلَ إِلَىٰ الرسُول محمّد ﷺ متَّصِفاً بالْحَقِّ، وهـٰذا من الأدِلَّةِ الواضِحَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ كلامُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً، إِذْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدَ الباحِثُونَ فيه اخْتِلَافاً كثيراً بَيْنَ بَيَانَاتِهِ وبَيْنَ الْحَقِّ.

دلَّ على هذه القضيَّة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾: أعيد الضّمِير على القرآن مع وجود فاصلٍ بين هذه الآية وبين الآية (٨٨) الّتِي جاء فيها ذِكْرُ القرآن، لأنَّ الْفِعْلَ في أَنْزَلْنَاهُ مع دَلَالَةِ كَوْنِ الإِنْزَال بالحقّ، يَدُلُّ بوضوحٍ على أنَّ المراد القرآن.

القضيَّة الثانية: جاء فيها بيان عُنْصُرٍ من عناصر حِكْمَةِ اللهِ في إِنْزَالِ الْقُرْآنِ نُجُوماً مُفرَّقة، وعَدَم إِنْزَالِهِ جُمْلَةً واحِدَةً فِي وقْتٍ واحِدٍ.

وجاء هـٰذا الْبَيَانُ تَفْصِيلاً لِعُنْصُرٍ ذُكِرَ مُجْمَلاً في سُورَةِ (الفرقان/ ٤٢ نزول) إِجَابَةً على اعْتِرَاض الّذين كَفَرُوا علَىٰ إِنْزَالِ القرآن مُفرَّقاً، وعَدَم إِنْزَالِهِ جُمْلَةً واحِدَة، فَقَدْ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾:

هاتان الآيتان اشْتَمَلَتَا عَلَىٰ بَيَانِ حِكَم ثَلَاثٍ لِتَنْزِيل الْقُرْآنِ مُفرَّقاً،

سَبَقَ تَدَبُّرُها وشَرْحُهَا لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ الْفُرْقَان، إلَّا أنَّ عِبَارَة: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ قَدْ جَاءَتْ فيهما مُجْمَلَةً غَيْرَ مُفَصَّلَة.

وعَلَىٰ وفْقِ مَنْهَجِ الْقُرْآنِ في تَوْزِيعِ بَيَانَاتِه نُلَاحِظُ أنَّ قَوْلَ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الإسراء) الجاري تَدَبُّرهَا خطاباً للرَّسول:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿فَرَقْنَٰهُ﴾: أي: جَزَّأْنَاهُ، وَفَصَّلْنَاهُ، وبيَّنَاهُ، أَصْلُ مَعْنَىٰ الْفَرْقِ الْفَصْلُ بَيْنَ الشيئَيْن أو الأشياء، وتَمْيِيزُ بَعْضِها عَنْ بعض، وأَوْضَحُ صُورِ هٰذا الْفَصْلِ والتمييز أنْ يُنَزَّلَ الكِتَابُ عَلَىٰ مراحِلَ زَمنيَّةٍ مُتَفَاصِلَةٍ مُتَبَاعِدة.

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: أي: علَىٰ تَمَهُّلٍ، وتَوَقُّفٍ وانْتِظَارٍ، رَيْثَمَا تَثْبُتُ مَعْرِفَةُ الْقِسْمِ المنزَّل.

يُقَالُ لُغَةً: «مَكَثَ بالمكان يَمْكُثُ، مُكْثاً، ومُكُوثاً» أي: تَوقَّفَ وانْتظَرَ.

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾: أي: ونَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً بأناةٍ وتَمَهُّلٍ وَتَحْقِيقٍ مَعَ كُلِّ قِسْمٍ يُنَزَّلُ مِنْه، فالتَّوْكيد بالْمَفْعُولِ المطلَقِ للإشارَةِ إلى نَوْعِ التَّنْزِيل، وهو التَّنْزيل بأناةٍ وتَمهُّل.

ومِنْ تَتِمَّاتِ الْحَدِيث عَن الرَّسُول ﷺ، جاءت عِبَارَةُ: ﴿...وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾.

هذه العبارة جاءَت تَوْكيداً مُطَابقاً لِمَا جاء في الآية (٥٦) من سُورَةِ (الْفُرْقَان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وأُعِيدُ هُنَا ما سَبَقَ أنْ ذَكَرْتُهُ في تَدَبّر سورة (الفرقان) فأقول:

في هٰذِهِ الجملَةِ حَصْرٌ لإرْسالِ الرَّسُولِ بالتَّبْشِير والإنْذار، ولكِنْ لَمَّا كان التَّبْشِير والإنْذارُ إنَّما يَكُونَانِ بَعْدَ سِلْسِلَةِ أعْمَالٍ يَقُومُ بها الرَّسُول ﷺ،

يَبْرُزُ مِنْهَا التَّبْليغ والتعليم والإقْناعُ والصَّبْرُ علَىٰ الْأَذَىٰ، واتّخاذُ كُلّ الْوَسَائِلِ الّتي يُرْجَىٰ بِهَا اسْتجابَةُ المَدْعُوِّين عَنْ طَرِيقِ اخْتيارِهِم الحرّ، فإنَّ حَلَقَاتِ هٰذِهِ السِّلْسِلَةِ السَّابقَةِ للتّبْشِير والْإِنْذَارِ دَاخِلَةٌ فِي المحْصُورِ بأدَاةِ الْحَصْرِ «ما» و«إلّا».

وَقَدْ دَعَا إِلَىٰ إعَادَةِ هٰذا البيان الذي سبَقَ إنْزَالُهُ في سُورَةِ (الْفُرْقَان/ ٤٢ نزول) لأنَّ المعالَجين في السُّورَةِ مَا زَالُوا عِنْدَ موقِفِهِمْ السَّابق، فالمناسِبُ لعنادهم بيانُ أنَّهُمْ لَا يَلِيقُ بهم أوْ بأكْثَرِهِمْ إلَّا الإنْذَارُ بِعَذَاب اللهِ، وإنْزَالِ نِقْمَتِهِ فيهم، ولا سيما قولهم الذي جاء بيانُهُ فِي السُّورَة، إذْ قالوا للرّسُول: لَا نُؤمِنُ لَكَ حَتَّىٰ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً.

قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ لرسُوله مُعَلِّماً بَعْضَ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ:

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: قُلْ لهٰؤلَاءِ المعالَجين، وهم أَئِمَّةُ الكُفْرِ العناديّ الجحودي في مكّةَ إبَّان التنزيل، آمِنُوا بالقرآن أو اكْفُرُوا به، أنْتُمْ بالخيار، إنَّ إيمَانكُمْ لَا يَنْفَعُ رَبّكُمْ شَيْئاً، وإنَّ كُفْرَكُمْ لا يَضُرُّ رَبّكُم شيئاً، بلْ إيمانُكُم يَنْفَعُكُمْ أنْتُمْ، وكُفْرُكُمْ يَضُرُّكُمْ أنْتُمْ، وَمِنْ الخير لَكُمْ أَنْ تَسْبِقُوا غَيْرَكُمْ إلى الإيمان، إذِ اخْتَارَ اللهُ الرَّسُولَ الْخَاتِمَ الْمُبَشَّرَ بِهِ في كُتُبِ أهْلِ الكتاب مِنْكُمْ عَربيًّا قُرَشِيًّا.

واعْلَمُوا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بقضايا الدِّين من قَبْلِكُمْ، وجَاءَتْ في كُتُبِهِمْ المبشِّرَاتُ بأخْبارِ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ، وبصِفَاتِهِ المنْطَبِقَةِ علَىٰ مُحمّد، سَيُؤْمِنُونَ بِهِ نَبيًّا وَرَسُولاً، وإذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ الْقُرآنُ

يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجّداً، ويَقُولُونَ تَنَزَّهَ رَبُّنَا عَنِ الإخْلافِ فِيما وعدَ بِمَا أنْزَلَ عَلَىٰ رُسُلِ بَنِي إسْرَائِيل، فَلَقَدْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنا بِبِعْثَةِ الرَّسُولِ المخلِّصِ الخاتِمِ مَفْعُولاً حَقًّا، بِإرْسَالِ مُحَمَّدِ بن عَبْدِ اللهِ وَإنْزَالِ الْقُرْآنِ المجيد عليه، ويَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَزَادَهُمُ الْقُرْآن خُشُوعاً.

وهٰذا إخبارٌ قُرْآنِيٌّ عَنْ مُسْتَقْبَلٍ قَدْ تَحقَّقَ فيما بَعْد، ورُبَّمَا عَنْ وَاقِعٍ حَصَلَ في الحَبَشَةِ، حِينَ سَمِعَ بَعْضُ قَسَاوِسَةِ النصارى ورهبانهم القرآن من بعْضِ الّذينَ هَاجَرُوا مِنَ المسْلِمِينَ إليها، وما زَالَ يتحقَّقُ ولَنْ يَزَالَ.

ومن الّذِينَ تحقَّقَ فيهم هٰذا الوصْفُ الّذِينَ أنْزَلَ اللهُ فيهم قولَهُ في سُورَة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) وهم من النصارىٰ:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ولا أرَىٰ حَاجَةٍ إلى ذِكْرِ رِوَايَاتٍ عَنْ أشخاصٍ بأعيانهم، لم تأتِ بأسانيد صحيحة، فالّذِين أسْلَمُوا مِنْ أهْلِ الكتاب، وتَحقَّقَ فِيهم الْوَصْفُ القرآني، عَبْرَ التاريخ كَثِيرُونَ جدّاً، ولَا يَزَالُ يَتَوَافَدُ إلى الإسْلام من أهْلِ الكتاب كثيرون، ويخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجّداً، ويَقُولُونَ: سبحان رَبّنا لَقَدْ كَانَ وعْدُ رَبّنا مَفْعُولاً، وهم يَبْكُونَ ويَزِيدُهُمُ القرآنُ إذا تُلِيَ عَلَيْهِم خُشوْعاً.

• ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾: ذكَرَ المفسِّرُونَ أن «اللّام» في ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ هي بمعنى «عَلَىٰ». والّذي أرَاهُ أنّهُ لَا دَاعِي لإخراج اللّام هنا عَنْ مَعْنَىٰ انْتِهَاءِ الْغَايَةُ، فالْخُرُورُ تَكُونُ نهايَتُهُ وُقُوعاً على مَكان السُّجُودِ لَا على الأذْقان، وإنَّما يَكُونُ انْتِهَاءُ الْخُرُورِ عِنْدَ وُصُولِ الأذْقَانِ لمكانِ السُّجود.

الأذْقَان: جمع مفردُهُ: «الذَّقَن» وهو مجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ من أسْفَلِهما.

سُجّداً: جمع «سَاجِدٍ» وغاية السُّجُود يَكُونُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ على مكان السُّجود من الأرْضِ.

- ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: ويَقُولُونَ: تَنزَّهَ رَبُّنَا عَنْ إخْلَافِ وَعْدِه الّذِي ذَكَرَه في كُتبنا، بشَأْن الرَّسُولِ الخاتم، فَقَدْ تَحقَّقَ بإرْسَالِ مُحمَّدٍ خاتم الأنبياء والمرسلين، وبإنْزَال القرآن المجيد عليه.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾:

الْخُشُوع: الخضوع، والسُّكون، والخوف.

أي: وإذا تُلِيَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ مَرَّةً بَعْدَ مرَّة، يَخِرُّون لِلْأَذْقَانِ سَاجِدِينَ يَبْكُونَ تَأَثُّراً بِتَذَلُّلِهِمْ لِرَبِّهِم جلَّ جلَالَهُ، وسُروراً بِتوفِيقِ اللهِ لَهُمْ، إذ هداهم إلى الإيمان والإسلام، ويَزِيدُهُم القرآن خُضُوعاً، وسُكُوناً، وخَشْيَةً مِنَ الله رَبّهم جلَّ جلالُهُ وعظم سُلْطانه، وطُمَأْنِينَةً لِوَعْدِهِ الكريم بجَنّات النعيم.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾:

جَاءَ في الآية (١١) قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ﴾.

وَجاء في الآيَتَيْن (٥٦) و(٥٧) بيانُ أنَّ دُعَاءَ المشْرِكِين آلِهَتَهُمْ من دُون الله، دُعَاءٌ ضَائِعٌ لَا يُجدِي شيئاً، أمّا الّذِينَ يَنْفَعُهُم الدُّعاء، فهم الّذِينَ يَدْعُونَ الله وَيَبْتَغُونَ إلَيْهِ الْوَسِيلَة.

فكان من المنَاسِبِ في أوَاخِرِ السُّورَةِ بَيَانُ أنَّ الدُّعَاء يكُونُ باسْمه «الله» ويكُونُ باسْمِه «الرَّحْمٰن» وَيكُونُ بأيّ اسْم من أسْمَائِهِ الحسنى.

وَجَاءَ تخصيصُ اسْم اللهِ «الرحْمٰن» لأنَّ مُشْرِكي مكَّةَ كانُوا يُنكرونَ أَنْ يكون هذا الاسم من أسْماءِ اللهِ الحسْنَىٰ، إذْ هُمْ يُنْكِرُونَ اتّصَافَ اللهِ عزّ وجلّ بالرَّحْمة، وسبَقَ بَيانُ هذا بتفصيل لَدَىٰ تَدبُّرِ الآية (٦٠) من سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول).

وروى مكْحُول: أنَّ رَجُلاً مِنَ المشركين سَمِعَ النبيَّ ﷺ، وهو يقول في سُجُودِه: «يَا رَحْمٰنُ يَا رَحِيمٌ» فقال: إنَّهُ يَزْعُمُ أنَّهُ يَدْعُو واحداً، وهو يَدْعُو اثنين، فأنزل اللهُ عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ... ﴿١١٠﴾﴾.

وكَذَا رُوِيَ عن ٱبْن عباس(١).

﴿أَيًّا مَّا﴾: «أيًّا» اسْمُ شَرْطٍ مُبْهَمٌ يَجزم فعلَيْن، وهو مَنْصُوب بفعل الشرط في: ﴿تَدْعُواْ﴾ و﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الفاء واقعة في صَدْر الجملة التي هي جواب. «مَا» مقترنة بلفظ «أي» لتوكيد الإبهام فيها.

والمعنى: أيًّا من اسْمَي الله والرَّحْمٰنِ وكَذَا سَائرُ أَسْمَاءِ الله يُطْلَب الدُّعَاءُ به، فلِلَّهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ، فَادْعُوه بها، والمدْعُوُّ بها وَاحِدٌ، سواءٌ أُذْكِرَ الاسْمُ مِنها وَحْدَه، أمْ ذُكِرَ مَعَهُ غَيْرُهُ من أسْماء الله عزّ وجلّ، فكُلُّهَا حُسْنَىٰ، لِمَا تَتَضَمَّنُ مِنْ وَصْفِ اللهِ بصِفَاتِ الكمال الّتِي تليقُ بِجَلَالِهِ وعظيم سُلْطَانه.

وبمناسَبَةِ فَرْضِ الصَّلَواتِ الخمس في لَيْلَةِ الإسراء والمعراج، كما هو المفهوم من الآية الأولى في السورة معَ مَا وَرَدَ في السُّنَّةِ عن المعراج، وبمنَاسَبَةِ ما جاء في الآيتين (٧٨ و٧٩) من إشارة إلَىٰ الصلوات الخمْس المفروضة، وإلى أَوْقَاتِها، وأمْرٍ للرَّسُول بالتهجّد من اللَّيل، كَانَ من المنَاسِب توجيه التَّعْلِيم إلَىٰ الأدَب في نِسْبَةِ ارْتِفَاعِ الصَّوْت وانْخِفَاضِهِ،

---

(١) قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: رواهُما ابْنُ جَرير.

عند تِلاوة الْقُرْآنِ فِي الصَّلاةِ، وعِنْدَ الذِّكْرِ والدُّعَاءِ فيها، فجاء في هذه الآية قول اللهِ عزّ وجلّ لرسُوله فلِكُلّ مُسْلِمٍ يُصَلِّي:

- ﴿... وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

- ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: أي: وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ عِنْدَ تِلَاوَاتِكَ الْقُرْآنَ في صَلاتك، وعِنْدَ نُطْقِكَ بالْأَذْكار والأدْعية فيها.

يُقَالُ لُغة: «جَهَرَ بالْكَلَام ونَحْوِه، يَجْهَرُ، جَهْراً، وجِهَاراً» أي: أعْلَنَهُ، ويكُونُ هٰذا بِرَفْعِ الصَّوْت.

- ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: أي: ولَا تَخْفِضْ صَوْتَكَ في صَلاتِكَ إلى مُسْتَوىٰ الإسْرَار والإخفاء.

يقال لغة: «خَفَتَ الصَّوْتُ، يَخْفِتُ، ويَخْفُتُ، خَفْتاً، وخُفُوتاً، وخُفَاتاً» أي: انْخَفَضَ انْخِفَاضاً شَبِيهاً بالإسْرار. ويقال: «خَافَتَ، يُخَافِتُ بِصَوْتِه» أيّ: خَفَّضَهُ وأسَرَّه.

- ﴿... وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾: أي: واطْلُبْ بَيْنَ الْجَهْرِ بالصَّوْت في الصَّلاَةِ وبَيْنَ المخافتَةِ فيها طَرِيقاً وَسَطاً بَيْنَها.

ويَظْهَرُ أنَّ هٰذا السبيلَ الوسَط بَيْنَ الأمْرين، هو مَا يُسْمِعُ به المصَلِّي نَفْسَه، وأُذُنَ الْقَرِيبِ جدًّا منه.

ويَبْدُو ولي أنّ هٰذا التعليم، قَدْ كَانَ فِي مكَّة قَبْلَ التَّشْرِيعِ بالْجَهْرِ بالتِّلاوَةِ في الركْعَتَيْنِ الأولَىٰ والثانِيَة من الصّلَوات الجهريّة، وهي (المغرب والعشاء والفجر وركعتا الجمعة) أمّا التّلاوَة والأذكارُ والأدْعيَة في غير التّلاوَةِ الّتي شُرِعَ الجهْرُ بها في الصَّلاَة فَقَدْ بَقِيَتْ علىٰ أنَّ الأدَبَ فيها أَنْ تَكونَ وَسَطاً بيْنَ الْجَهْرِ والمخافتة.

ولعلَّ ظروف الْعَهْدِ المكيّ الاجْتماعيَّة، كَانَ يُلائمها التعليم الّذِي أَبَانَهُ اللهُ عزّ وجلَّ فِي هٰذِهِ الآيَةِ مِنْ سُورَةِ (الإسراء).

أمّا الذِّكْرُ ومنه الدُّعاء في غير الصلاة، فَقَدْ سَبَقَ بيانُ الأدَب فيه، في سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول) بقَوْل اللهِ عزّ وجلّ فيها خطاباً للرَّسُول ﷺ فلكُلّ مُسْلمٍ بأسْلُوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

وَقد سبَقَ تَدبُّرُ هٰذِهِ الآيَةِ في مَوْضِعها من سُورَةِ (الأعراف).

وَخَتَمَ اللهُ عزّ وجلّ سُورَة (الإسراء) بالأمْرِ الموجَّهِ للرَّسُولِ ﷺ فلِكُلّ مُؤْمِنٍ مسلم:

- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾:

وَرَدَ عن النبيّ ﷺ أنَّ هٰذِهِ الآيَةَ آيَةُ العزّ.

أخْرَجَ الإمامُ أحْمَدُ والطبرانيُّ عَنْ مُعاذ بْنِ أنَسٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«آيَةُ الْعِزّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...﴾ إلى آخر الآية.

وأبان «محمد بْنُ كعب الْقَرَظِي» الحكْمَةَ مِمَّا جاءَ مِنْ تَنْزيهِ للهِ عزّ وجلَّ في هٰذِهِ الآية، على ما رَوىٰ ابْن جرير، وأبْنُ أبي حَاتم، أنَّهُ قال:

إنَّ الْيَهُودَ والنَّصارَىٰ قَالُوا: اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً. وقالَتِ الْعَرَبُ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إلَّا شَرِيكاً هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. وقال الصَّابِئُونَ والمجُوسُ: لَوْلَا أوْلِيَاءُ اللههٰذِهِ لَذَلَّ، فأنْزَلَ اللهُ هٰذِهِ الآية.

أقول: هذه الآية الّتي خَتَمَ اللهُ عزّ وجلّ بها سُورَة (الإسْرَاء) تَتَضَمَّنُ الْوَصِيَّةَ بإعْلانِ قَضَايَا مِنْ عَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانيَّة، لتَأْصِيلها، ورَبْطِ الفروع الْإِيمانيَّة والإسْلاميَّة بِهَا، وَرَدِّ عَقَائِدِ الْكَافِرِينَ المخالِفَةِ لها.

- ﴿وَقُلِ﴾: أي: وقُلْ يا محمَّدُ، ويَا كُلَّ مُؤمِنٍ مُسْلِمٍ.

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: كُلُّ صِفَاتِ الكَمَال الَّتِي يُحْمَدُ عَلَيْهَا عَقْلاً غايَةَ الْحَمْدِ، هي للهِ وَحْدَهُ جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، ولِهٰذا نَقُولُ في الثناءِ علَيْه: الْحَمْدُ لله.

- ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: أي: لَمْ يُنْجِبْ وَلَداً، لأنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ إنجاب ولَد، وَلَمْ يَتخِذْ وَلَداً مِنْ مَخْلُوقاتِهِ بالتَّبَنِّي، لأنَّ هذا يَتَنَافَىٰ مَعَ كمالِهِ وَعَدَمِ حَاجَتِهِ إلَىٰ شيء، لاستغنائه بذاته عَنْ كُلِّ شيء.

وقَدْ كَذَبَ علَىٰ اللهِ الَّذِينَ زَعَمُوا أنَّ للهِ وَلَداً، وافْتَرُوا عَلَيْهِ فِرْيَةً عظمى.

- ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾: لأنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ في الوجُودِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ وَصُنْعِهِ وإيجاده، وَخَالِقُ الشيء من الْعَدَم هُوَ مَالِكُهُ، ولَا يُشارِكُهُ في مُلْكِه أحَدٌ سِوَاه.

وقد كَذَبَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا للهِ شُرَكاء مِنْ دُونه.

- ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾: أي: ولَمْ يَكُنْ لَهُ بالكَيْنُونَةِ الدائِمَةِ الَّتِي لَا تَتغَيَّرُ، وَلِيٌّ مَا وَلَا أَوْلِيَاءُ يَنْصُرُونَهُ لحاجَةٍ لَدَيْهِ إلى نُصْرَتِهم، لأنَّهُ عَزِيزٌ بذَاتِه، ذُو قُوَّةٍ غالِبَةٍ، فَلَا يَحْتَاجُ ناصراً وَلَا مُعِيناً.

مِنَ الذُّلِّ: أي: من الضَّعْف، فالذُّلُّ في اللُّغة الضعف.

أَمَّا أنْصَارُ اللهِ بِمَعْنَىٰ أنْصَارِ دِينِهِ، وأَنْصَارِ رَسُولِهِ وجماعَةِ المؤمنين، فإِنَّهُمُ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ بإراداتِهِم الحرَّةِ أنَّهُمْ يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ الله، إذْ وَضَعَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ فِي الحَياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، وهُو غَنِيٌّ عَنْ نُصْرَةِ أحَدٍ مِنْ عباده، ومنْ عناصِرِ امتحانهم مجاهدتُهم في سبيله، والْعَمَلُ على نُصْرَتِهِم دينَهُ ورسُولَه وجماعة المؤمنين.

﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾: أيْ: وأعْلِنْ تَعْظِيمَهُ بِعِبَارَاتِ التكْبِيرِ المبَالَغِ فيها كثيراً، مثل: اللهُ أكْبَرُ كَبِيراً، مع تكرير عبارات التكبير له.

تَكْبِيراً: مَفْعُول مُطْلَقٌ، والتنكيرُ فِيه يرادُ به بلاغيًّا التَّكْثِير، أي: وكَبِّرْهُ تكْبِيراً كثيراً جدًّا.

وبهذا التوجيه للإعلانِ عَنِ عناصِرَ جَلِيلَةٍ من عناصر القاعِدَة الإيمانية، لِرَبْطِ الْفُرُوعِ بالأُصُولِ، تنتَهِي السُّورَة.

وهنا يَنْتَهِي تَدَبُّر الدَّرْسِ الأخير مِنْ سُورَةِ (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِهِ ومعونَتِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٦)

مستخرجات بلاغية من سُورَة (الإسراء)

في هذه السّورة بلاغيات كثيرة، وأنتقي في هذا الاستخراج منها ما يَقِلُّ تكرُّرُهُ في السُّور:

أوّلاً:

من استِخْدام المجاز في السّورة ما يلي:

(١) **المجاز العقلي**: وهو إسناد الفعل أو ما في معْنَاه إلى غَيْرِ ما هُوَ له، ومنه قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ ﴿١٢﴾﴾:

جُعِلَتْ آيَةُ اللَّيْلِ مَمْحُوَّةً في هـٰذا الإسْنادِ، مَعَ أنَّها مَاحِيَةٌ لِلرُّؤْيَة.

وهذا من قبيل المجاز العقلي، والعلاقَةُ أنّ اللَّيْلَ سَبَبٌ لِمَحْوِ الأشياءِ عَنْ رُؤيَة الأبْصَارِ لها.

(٢) **المجاز المرسَل**: وهو المجاز الَّذِي لا يكون أسَاسُهُ التَّشْبيه،

ولا يَكُونُ في الْإِسْنَادِ، بل لَهُ علاقَةٌ من الْعَلَاقَاتِ الّتِي تُصَحِّحُ التجوُّز، ومنه قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ... ﴿٨٢﴾﴾:

أي: مَا هو سَبَبُ شفاء، أُطْلِقَ السَّبَبُ وأرِيد به الْمُسَبَّب، والعلاقَةُ السَّبِبيّة.

وأُطْلِقَ علَى الْقُرْآن أَنَّهُ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِين، لأَنَّهُ أَثَرٌ من آثار رَحْمَةِ الله عزّ وجلّ بعباده، وهذا أيضاً من المجاز المرسَل.

ثانياً:

من الإيجاز بالحذف ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾:

أي: أمَرْنَا مُتْرَفيها بالإيمان والإسلام والْعَمَل الصَّالح، فَفَسَقُوا فيها خَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِنا، وهذا المحذوف يَسْهُل اسْتِخْرَاجُهُ فالله لا يأمُرُ بالْفِسْق.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿... فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾:

ضُمِّنَ الفِعْل في: ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾ معنى الفعل في «أوْصَلَكم» فَعُدِّي تَعْدِيَتَهُ، فأغْنَتْ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن. حُذِفَ مِنْ كُلٍّ مِنْهما شيءٌ وأثْبِتُ شيْءٌ، والمعنى: فلما نجّاكم من الهلاك وأوْصَلَكُم إلى البرّ.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ... ﴿٦٨﴾﴾:

«الفاء» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ، والتَّقْدير: أَمَلَكْتُمْ بِقُدْرَاتِكُم جانِبَ الْبَرِّ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بكُمْ جَانِبَ الْبَرّ.

ثالثاً:

من الكناية، ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾:

دلّت عِبَارة: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ بالكنايَةِ علَىٰ أَنَّهُ يَغْفِرُ لهم إذا رجَعُوا إليه بالاستغفار والتوبَة، وعَلِمَ صِدْقَ قُلُوبهم.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ... ﴿٢٩﴾﴾ في هذا التعبير كنايَةٌ عن الْبُخْل أَوّلاً، وعَنِ التبذير ثانياً.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾:

في عبارة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ كِنَايَةُ عَنْ حِكْمتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ في بَسْطِه الرِّزْقَ لِبَعْضِ عِبَادِه، وتضيقِهِ على بَعْضِهِم، لأنّه خبير بصير بهم.

رابعاً:

الوصْفُ بالمصْدَرِ بَدَلَ اسْم الفاعل، للدَّلَالَة علىٰ أنَّ الموصُوفَ قَدْ صَارَ كُلُّهُ بِمَثَابَةِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمَصْدر، ومنه:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢﴾﴾:

لفظ «هُدىً» مصْدَرُ «هَدَاهُ يَهْدِيهِ هُدىً» وقد جاء لفظ «هُدَىً» بدلَ اسْمِ الفاعل، أي: وجَعَلْنَاهُ هَادِياً لبنِي إسرائيل، للدَّلَالَة عَلَىٰ أنَّ كُلَّ شيءٍ فيه يَهْدِي، فصَارَ كما لَوْ كَانَ كُلُّهُ هُدىً.

وهٰذ لدىٰ التحليل يَرْجع إلى الاستعارة.

خامساً:

من التشبيه البليغ المكْنِيّ فيه عن المشبّهِ بِه بِبَعْضِ لوازمه، قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾:

في هذه الآيَة تشبيه التذلُّلِ للوالِدَيْن بتَذَلُّل الطائِر حِينَ يخْفِضُ جناحَهُ مُنْكَسِراً لفراخِهِ أو لِزَوْجِهِ أو لِغَيْرِهما، ولَكِنْ أُضْمِرَ التَّشْبيه، فَلَمْ يُذْكَرْ لفظ المشبَّهِ بهِ، وإنَّما كُنِّي عَنْهُ بِشَيْءٍ من صفاتِه، وهو الجناح، وأُضِيفَ هذا المكْنِيُّ بِه إلَىٰ المشَبَّه.

وهذا على ما ظهر لي هو من التَّشبيه الْبَليغ المكْنِيّ فيه عَن المشَبَّهِ بِهِ بِبَعْضِ لوازمه، ولَيْسَ هو من الاستعارة المكْنِيَّة⁽¹⁾.

سادساً:

من خروج الاستفهام عن أصل دَلالته، قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ... ﴿٤٠﴾﴾:

الاستفهام هنا استفهام إنْكاريٌّ تَلْوِيمِيٌّ موجَّهٌ لِمُدَّعي أنَّ الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عمّا يقولون عُلُوّاً كبيراً.

سابعاً:

من القصر، قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗا... ﴿٥٨﴾﴾:

في هذه الآية قَصْرٌ إضافِيّ من قَصْرِ مَوْصُوفٍ على صِفَةٍ، بحسَب مُقَرَّراتِ البلاغيّين.

---

(١) انظر: «كتاب البلاغة العربية» للمؤلف، (التشبيه المكنيّ).

ثامناً:

ومن بلاغيات السّورة الاستقطاع من أحداث الماضي، أو من الأحْداث التي سوف تكون في المستقبل، وتقديمُها كأنَّها تَحْدُثُ عند زمن التكَلُّم، ومنه قول الله عزّ وجلّ بياناً لما يُقَالُ للإنسان يوم القيامة:

﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾:

جاءت هذه العبارة مستقطَعةً دُونَ أنْ يُصَرَّح في البيان أنّها تقالُ له.

تاسعاً:

من الاستعارة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ... ﴿١٣﴾﴾:

أُطْلِقَ لفظ «طَائِر» في هـٰذِهِ العبارة علىٰ ما يكْسِبُهُ الإنْسانُ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدنيا، على سبيل الاستعارة، لأنّ العمل يَنْطَلِقُ كالطَّائِرِ من الإنْسَان، فَلَا يَسْتَطِيعُ اسْتِعادتَه، لَكِنَّ مسؤوليّته عَنْ عَمَلِه تَبْقَىٰ مُلازِمَةً له.

وأُطْلِقَ الْعُنُقُ والْمُرادُ مَنَاطُ المسؤوليَّة داخِلَ نَفْسِه، وهذا مجاز مُرْسل علاقَتُه اتّصالُ الظَّاهِرِ بالباطن، واخْتِير الْعُنُق لأنَّ الأسِير يُوضَعُ الْغُلُّ في عُنُقِهِ لِسَوْقِهِ أو قيادته حَتَّىٰ يَنالَ مَا قُضِيَ علَيْهِ به.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ تَعْبيراً عَنْ قَول إبليس بِشَأْن ذُرِّيَّة آدم يخاطبّ رَبَّه:

﴿... لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

في هـٰذِهِ العبارة اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّة، إذْ شَبَّهَ إبْلِيسُ ذُرِّيَّة آدم عليه السَّلام بالدَّواب الَّتِي تُطَوَّعُ للرُّكُوبِ والقيادة والسَّوْق، ولَمْ يُصَرِّحْ بلَفْظِ الدَّواب، بل جاء بشَيْءٍ من خَصائِصِها يدُلُّ عليها، وهو احْتِنَاكُها لتَطْوِيعها.

يُقَال لغة: «احْتَنَكَ صاحبُ الدَّابَّةِ دابَّتَهُ» أي: وضَعَ الحبْلَ أو

اللِّجام في حَنَكِهَا لِيُطَوِّعَهَا للرُّكُوب، والقيادة، والسَّوْق.

أي: لأجْعَلَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ كالدَّواب الَّتي تُطَوَّعُ بوضْعِ اللُّجُم في أحْنَاكِها، وَلَأُسَيِّرَنَّهُمْ في هٰذِهِ الحياة الدُّنيا عُصَاة لَكَ، ولأنْقُلَنَّهُمْ خُطْوَةً فَخُطْوَة، حتَّىٰ أُوصِلَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لي مِنْهُمْ إلى دَرَكَةِ الكافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، الّذِين يَسْتَحِقُّونَ العذاب الأبديَّ الخالِدَ في الجحيم.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾:

أي: وَمَنْ كَانَ في هٰذِهِ الحياة الدُّنيا كَافِراً فَهُوَ في الآخِرَةِ محكومٌ عليه بالكُفْرِ، ويكون فيها أضَلَّ سبيلاً لَا يَجِدُ طَرِيقاً إلى نجاتِهِ من عذابِ الله.

اسْتُعِيرَ لفْظُ «أعْمَىٰ» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ «كافِر» للشَّبَهِ الكبير بين الأعْمَىٰ الّذي لاَ يَعْرِفُ طَرِيقَه، والكافِرِ الضَّالِ عَن سبيل نجاتِهِ وسعادته الأبَدِيّة.

(٤) قول اللهِ عزّ وجلّ خطاباً لرَسُوله:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾:

اسْتُعِيرَ الفِعْلُ في ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ للدَّلَالَة على معْنَىٰ: لجَعلْنَاكَ تُحِسُّ بألَمِ التَّعْذِيب.

وفي الآية (٧٥) حَذْف، والتقدير: لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ عذاب الحياة، وضِعْفَ عذاب المَمات.

حُذِفَ لفظ «عذاب» تكْرِيماً للرَّسُولِ ﷺ عن أنْ يخاطَبَ به، لأنَّهُ لَمْ يَرْكَنْ إلى مَزَالِقِ الكافِرِين الإغرائيّة، ولَمْ يَسْتَحِقَّ هذا العذاب.

وأكتفي بهذه المستخرجات البلاغية من هذه السُّورة، وآخر دَعْوَانا أن الحمْدُ لله رَبّ العالمين.

* * *

خاتمة المجلد التاسع

هذا ما أكرمني به الله ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ من عطاءٍ في تدبُّر سُوَرِ (النمل ـ والْقَصَص ـ والإسْرَاء) الّتي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا هـٰذا المجلَّدُ التاسع، مُجْتَهِداً في التقيُّدِ بالمنهج الّذي فَتَحَ اللهُ به عليَّ في كتاب: «قواعد التَّدَبُّر الْأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللهِ عزّ وجلّ».

فما أَصَبْتُ فيه فهو من فَيْضِ ما امْتَنَّ اللهُ بِهَ عليّ. ولا أَنْسُبُ إِلَىٰ نَفْسِي مِنْهُ شيئاً.

وما أَخْطَأْتُ فيه، فَهُو مِنِّي، ومِنْ عَجْزِي، ونَقْصِ قُدْراتي عَنْ بُلُوغ المأمول، مَهْمَا اجْتَهَدْت في التفكّر والتدبّر، والنظر في حقائقِ العلوم وفي المعقول، والتَّأَمُّلِ فيما سَبَقَ إلى تَدْوِينِهِ الْفُحُول.

والْحَمْد للهِ الْعَلِيّ الأعلى، ذي الْمَنِّ والكرَمِ والْجُود، على تَوْفيقه، ومَدَدِه، ومَعُونَتِه، وفَتْحِه المبين.

والصَّلاة والسَّلامُ على خَاتم الأنبياء والمرسَلين، سَيِّد الأوَّلِينَ والآخِرين، وقُرَّةِ عُيُونِ المؤمنين المتقين.

وسلامٌ على سائر عباد اللهِ الذين اصطفى.

وآخِرُ دَعْوَّنَا أنِ الحمْدُ للهِ رَبِّ العالمين.

وكان الفراغ مِنْ كتابَةِ هذا المجلّد صباح يوم الأحد (٢٥ من شهر

ربيع الأول لسنة (١٤٢٢ هجرية) الموافق لـ (١٧ من حزيران سنة ٢٠٠١ م) في دَار إقامَتِي بمكة المكرمة، حرسها الله وزادها شرفاً.

ومنذ يومين سافرت زَوْجَتي «عائدة راغب الجراح الحلاق» مع ولدي منها الدكتور الشيخ «محمد» للعلاج من مَرَضٍ خبيثٍ أصابها، إلى باريس.

أسأل الله لها العافية التَّامّة لدُنياها وآخِرَتها، وأنْ يَرُدَّهُمَا سالِمَيْن، غانمين أعمالاً صالحة، وذخائر من رضوان اللهِ عزّ وجلّ.

عبد الرحمن حسن حبنّكه الميداني

* * *

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

(٤٨)
سورة النمل
٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول

مقدمات ٥
(١) نصّ السورة وما فيها من فَرْش القراءات ٧
(٢) موضوع سورة (النمل) ١٩
(٣) دُروس سورة (النمل) ٢١
(٤) **التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (النمل)** الآيات من (١ ـ ٦) .. ٢٤
- القراءات ٢٤
- تمهيد ٢٥
• ﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ القرآنِ وكتابٍ مُبِين (١) هُدىً وبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ .. ٢٦
• ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاة وهُمْ بالأُخِرَة هُمْ يُوقِنُونَ (٣)﴾ .. ٢٩
• ﴿إنَّ الَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَة زَيَّنَا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)
أُولَٰئِكَ الذين لَهُمْ سُوءُ العذابِ وهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥)﴾ ... ٣٢
• ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّىٰ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)﴾ ٣٤
(٥) **التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (النمل)** الآيات من (٧ ـ ١٤) ... ٣٦
- تمهيد ٣٦
• ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أو آتِيكُمْ
بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعلَّكُم تَصْطَلُونَ (٧)﴾ ٣٧
• ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ
العَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللهُ العَزِيزُ الحكيم (٩)﴾ ٣٩
• ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ
لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ
سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١)﴾ ٤١

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (١٢)﴾ ٤٤

• ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ (١٤)﴾ .. ٤٥

(٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (النمل) الآيات من (١٥ ـ ٤٤) ٤٨

ـ القراءات ٥٠

ـ تمهيد ٥٣

• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المؤمنين (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ داودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)﴾ ٥٤

• ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِها وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ والِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ ٦٠

• الآيات من (٢٠ ـ ٢٦) ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ...﴾ ٧٠

ـ تمهيد ٧٠

• ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فقال مَالِيَ لَا أَرَىٰ الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ .. ٧١

• ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١)﴾ ٧٢

• ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وجِئْتُكَ من سَبَإٍ بِنَبَإٍ يقين (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ... (٢٤)﴾ ... ٧٣

• ﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾ ٧٥

ـ تمهيد ٧٥

الموضوع **الصفحة**

التدبّر التحليلي ٧٦
• الآيات من (٢٧ ـ ٣٥) ٧٨
ـ تمهيد ٧٩
ـ التدبر التحليلي ٧٩
• ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾ ٧٩
• ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَـٰذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ . ٨٠
• ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ باسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾ ٨١
• ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾ ٨٤
• ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)﴾ ٨٥
• ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)﴾ ٨٦
الآيات من (٣٨ ـ ٤١) ٨٩
ـ القراءات ٨٩
ـ تمهيد ٨٩
ـ التدبّر التحليلي ٨٩
• ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾ ... ٨٩
• ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)﴾ ٩٠
• ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ به قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ... (٤٠)﴾ ٩٠
• ﴿... فَلَمَّا رآه مُسْتَقِراً عِنْدَهُ قَالَ هَـٰذا من فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ ٩١
• ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١)﴾ . ٩٣

الموضوع **الصفحة**

ـ الآيات من (٤٢ ـ ٤٤) ٩٤
ـ القراءات ٩٥
ـ تمهيد ٩٥
ـ التدبّر التحليلي ٩٦
• ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ... (٤٢)﴾ ٩٦
• ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ ٩٧
• ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)﴾ ... ٩٨
• ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِير قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ ٩٩
(٧) التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (النمل) الآيات من (٤٥ ـ ٥٣) ١٠١
ـ القراءات ١٠١
ـ تمهيد ١٠٢
• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ ٱعْبُدُوا الله فإذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾ ١٠٣
• ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)﴾ ١٠٦
• ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾ ١٠٨
• ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨)﴾ .. ١١١
• ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا باللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩)﴾ ١١٢
• ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١)﴾ ١١٣
• ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾ ١١٥
(٨) التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (النمل) الآيات من (٥٤ ـ ٥٨) ١١٧
ـ القراءات ١١٧

الموضوع **الصفحة**

- تمهيد ١١٧
- التدبّر التحليلي ١١٨
• ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾ ١١٨
• ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ ١٢٠
• ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)﴾ ١٢١
(٩) التدبّر التحليلي للدّرس السّادِسِ من دُروس سورة (النمل) الآيات من (٥٩ ـ ٧٥) ١٢٢
- القراءات ١٢٣
- تمهيد ١٢٥
- تدبر الآيات من (٥٩ ـ ٦٤) وفيها تَعْلِيمُ الدّاعي إلى الله مُنَاظَرَةً جَدَلِيَّةً يُنَاظِرُ بها المشركين ١٢٧
  - **مُقَدِّمَةُ تعليم المناظرة الجدلية** ١٢٧
• ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ ١٢٧
  - **الْمَرْحَلَةُ الأولىٰ مِن مَرَاحِلِ الْمُنَاظَرَةِ** ١٢٩
• ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)﴾ ١٢٩
  - **المرحلة الثانية مِن مَرَاحِلِ المناظَرَة** ١٣١
• ﴿أَمَّنْ جعلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَءِلَٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ ١٣١
  - **المرحَلَةُ الثالثة من مراحِلِ المناظرة** ١٣٦
• ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ ١٣٦
  - **المرحَلَةُ الرابعة من مراحِلِ المناظرة** ١٣٩
• ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَٰهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)﴾ ١٣٩

الموضوع **الصفحة**

- **المرحَلَةُ الخامسَةُ مِنْ مراحِلِ المناظرة** ١٤٢
• ﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)﴾ ١٤٢
- التدبّر التحليلي للآيات من (٦٥ ـ ٧٥) ١٤٦
• ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)﴾ ١٤٦
• ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)﴾ ١٤٨
• ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)﴾ ١٥١
• ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾ ... ١٥٣
• ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)﴾ ١٥٥
تَربِيَةُ اللهِ لِرَسُولِهِ فِي القرآنِ كُلِّهِ أَنْ لاَ يَحزَنَ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا معانِدِين . ١٥٦
• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢)﴾ ١٦٤
• ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ على النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ .. ١٦٦
• ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهم وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤)﴾ ١٦٧
• ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ والْأَرْضِ إِلَّا في كِتَابٍ مُبِين (٧٥)﴾ ١٦٨
(١٠) **التدبّر التحليلي للدَّرْس السابع من دُروس سورة (النمل)** الآيات من (٧٦ ـ ٩٣) وهو الدّرسُ الأخير منها ١٦٩
- مقدمة ١٦٩
- القراءات ١٧١
- التدبّر التحليلي ١٧٢
• ﴿إِنَّ هَـٰذا القرآن يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيه يخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾ ١٧٢
• ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ المبين (٧٩)﴾ ١٧٦
• ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)﴾ ... ١٧٨

الموضوع الصفحة

• ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)﴾ ١٨١

ـ مَا جاء من صحيح في السُّنَّةِ بشأن دابَّةِ الأرضِ ١٨٣

• ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّن يُكَذِّبُ بآيَاتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ القولُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥)﴾ ١٨٧

ـ تمهيد ١٨٧

ـ التدبّر التحليلي ١٨٧

• ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّن يُكَذِّبُ بآيَاتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣)...﴾. ١٨٧

• ﴿...حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا... (٨٤)﴾ ١٨٩

• ﴿...قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤)...﴾. ١٩٠

• ﴿...وَوَقَعَ القولُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥)﴾ ١٩١

• ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾ ١٩٢

• ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)﴾ ١٩٤

• ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)﴾ ١٩٧

ـ لَقَطات عِلمِيَّة عَن الذَّرَّة عند العلماء الكونيين ١٩٨

• ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾ ١٩٩

• ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ ٢٠٢

(١١) **الملحق الأول**: مستخرجات بلاغيّة من سورة (النمل) ٢١٢

(١٢) **الملحق الثاني**: تَعِلَّةُ المكذّبين بِيَوْمِ الدّين: هي توجيه الاستفهام التَّعَجُّبِيّ ... ٢٢٦

الموضوع **الصفحة**

(١٣) **الملحق الثالث**: دِرَاسةٌ تكامُلِيَّة للنُّصُوصِ بشأن صالح عليه السلام وقومِهِ ثمود ٢٤٥

(٤٩)

سورة القصص

٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول

مقدمات ٣٢١

(١) نصّ السورة وَمَا فيها من فرش القراءات ٣٢٣

(٢) موضوع سورة (القصص/٤٩ نزول) ٣٣٦

(٣) دُروس سورة (القصص) ٣٣٧

(٤) **التدبّر التحليلي للدَّرْس الأول من دُروس سورة (القصص)** الآيتان (١و ٢) . ٣٣٩

- ﴿طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾ ٣٣٩

(٥) **التدبّر التحليلي للدَّرْس الثاني من دُروس سورة (القصص)** الآيات من (٣ ـ ٤٣) .. ٣٤١

ـ تدبُّر الآيتين (٣ و٤) ٣٤١

ـ تمهيد ٣٤١

- ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)﴾ ٣٤٢
- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا في الْأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحِيي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾ ٣٤٣

ـ تدبُّر الآيات من (٥ ـ ١٣) ٣٤٥

ـ تمهيد ٣٤٦

- ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا في الْأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ (٥) ونُمَكِّنَ لَهُمْ في الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامَانَ وجُنُودَهُما مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾ ٣٤٧
- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ ٣٥٠
- ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)﴾ ٣٥٢
- ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ ٣٥٤

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المؤْمِنِينَ (١٠)﴾ ٣٥٥

• ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وهم لَا يَشْعُرُونَ (١١)﴾ ... ٣٥٧

• ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢)﴾ ٣٥٨

• ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ ٣٥٩

ـ تدبّر الآيات من (١٤ ـ ٢٠) ٣٦٠

ـ تمهيد ٣٦٠

ـ التدبّر التحليلي ٣٦٣

• ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)﴾ ٣٦٣

• ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ على حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذا من شِيعَتِهِ وهَـٰذا مِن عَدُوِّه فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي من شِيعَتِهِ على الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هذا من عَمَلِ الشيطان إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥)﴾ ٣٦٥

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾ ٣٦٨

• ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)﴾ ٣٦٨

• ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨)﴾ ٣٦٩

• ﴿فَلَمَّا أن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً في الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)﴾ ٣٧٠

• ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠)﴾ ٣٧١

ـ تدبّر الآيات من (٢١ ـ ٢٨) ٣٧٢

ـ تمهيد ٣٧٣

ـ التدبّر التحليلي ٣٧٣

• ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي من الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)﴾ .. ٣٧٣

• ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)﴾ ... ٣٧٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ ٣٧٥
- ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالمين (٢٥)﴾ ٣٧٩
- ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾ ٣٨٢
- ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَىٰ ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ومَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ ٣٨٢

ـ تَدَبُّر الآيات من (٢٩ ـ ٣٥) ٣٨٥

ـ تمهيد ٣٨٥

ـ التدبّر التحليلي ٣٨٥

- ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ نَارٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُون (٢٩)﴾ ٣٨٥
- ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ المبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)﴾ ٣٨٩
- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فَاسِقِين (٣٢)﴾ ٣٩٠
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونَ (٣٤)﴾ ... ٣٩٤
- ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ونَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ ٣٩٤

ـ تَدَبُّر الآيات من (٣٦ ـ ٤٣) ٣٩٥

الموضوع **الصفحة**

ـ تمهيد ٣٩٥

• ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىٰ. . . (٣٦)﴾ . ٣٩٦

• ﴿. . . وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦)﴾ ٣٩٨

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)﴾ ٣٩٨

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَىٰ الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)﴾ ٤٠٠

• ﴿واسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ ٤٠٢

• ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَىٰ النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾ ٤٠٤

• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾ ٤٠٧

(٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (القصص) الآيات من (٤٤ ـ ٧٠) ٤٠٩

ـ تمهيد ٤٠٩

ـ التدبّر التحليلي للآيات من (٤٤ ـ ٤٧) ٤١٠

• ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِين (٤٤)﴾ ٤١٠

• ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥)﴾ ٤١١

• ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)﴾ ٤١٢

• ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ ٤١٤

ـ التدبّر التحليلي للآياتِ من (٤٨ ـ ٥١) ٤١٥

ـ القراءات ٤١٥

ـ تمهيد ٤١٦

الموضوع **الصفحة**

• ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قالوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ (٤٨)﴾ . ٤١٦

• ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بما أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وقَالُوا: إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾ ٤١٧

• ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾ ٤١٨

• ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً من اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾ ٤٢٠

• ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)﴾ ٤٢٢

ـ تَدَبُّر الآيات من (٥٢ ـ ٥٥) ٤٢٣

ـ تمهيد ٤٢٣

ـ التدبّر التحليلي ٤٢٤

• ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا به إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣)﴾ ٤٢٤

• ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ ٤٢٤

ـ تدبر الآية (٥٦) ٤٢٧

• ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾ ٤٢٧

ـ تدبّر الآيات من (٥٧ ـ ٥٩) ٤٣٠

ـ القراءات ٤٣٠

ـ تمهيد ٤٣٠

ـ التدبّر التحليلي ٤٣١

• ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾ ٤٣١

• ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾ ٤٣٤

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)﴾ ٤٣٦
ـ تدبر الآيات من (٦٠ ـ ٧٠) ٤٣٧
ـ القراءات ٤٣٨
ـ تمهيد ٤٣٩
ـ التدبّر التحليلي ٤٤١
• ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُون (٦٠)﴾ ٤٤١
• ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)﴾ ٤٤٣
• ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُم تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُم كما غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدون (٦٣) وَقِيلَ ادعُوا شُرَكَاءَكُم فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤)﴾ ٤٤٣
• ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦)﴾ ٤٤٧
• ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)﴾ . ٤٤٨
• ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيرةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ ٤٥٠
• ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدورُهم وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩)﴾ ٤٥١
• ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ والآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ ٤٥١
(٧) التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (القصص) الآيات من (٧١ ـ ٧٥) ٤٥٢
ـ القراءات ٤٥٣
ـ التدبّر التحليلي ٤٥٣
• ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَار سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ ٤٥٣

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ ٤٥٦

• ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لله وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾ ٤٥٦

(٨) التدبّر التحليلي للدَّرْس الخامس من دُروس سورة (القصص) الآيات من (٧٦ ـ ٨٢) ٤٦٢

- القراءات ٤٦٢
- تمهيد ٤٦٣
- مُخْتَارَات من قصة قارون عند أهل التاريخ مع مفْهُومَاتٍ أخرى ٤٦٣
- التدبّر التحليلي ٤٦٧

• ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ من الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفسادَ في الأرضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ ٤٦٧

• ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)﴾ ٤٧٣

• ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾ ٤٧٥

• ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١)﴾ ٤٧٨

• ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾ ٤٧٩

(٩) التدبّر التحليلي للدَّرْس السادس من دُروس سورة (القصص) الآيتان: (٨٣ و٨٤) ٤٨٠

- تَمْهيد ٤٨١

الموضوع **الصفحة**

ـ التدبّر التحليلي ٤٨٢

• ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدونَ عُلُوّاً في الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ ٤٨٢

• ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾ ٤٨٤

(١٠) **التدبّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (القصص)** الآيات من (٨٥ ـ ٨٨) آخر السورة ٤٨٦

ـ القراءات ٤٨٦

ـ تمهيد ٤٨٧

ـ التدبّر التحليلي ٤٨٧

• ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥)﴾ ٤٨٧

• ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ ٤٩٠

• ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شيءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ ٤٩١

(١١) مُلْحقُ مستَخْرَجاتٍ بَلَاغِيَّة من سورة (القصص) ٤٩٥

(٥٠)

سورة الإسراء

١٧ مصحف/ ٥٠ نزول

(١) نَصُّ السُّورَة وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْشِ القراءات ٥٠٥

(٢) ممّا جاء في السُّنَّةِ بِشَأْنِ سورة (الإسراء) ٥٢٠

(٣) مَوْضوع سورة (الإسراء) ٥٢١

(٤) دُرُوسُ سُورَةِ (الإسْراء) ٥٢٤

(٥) **التدبّر التحليلي للدّرس الأول مِنْ دُرُوس سورة (الإسراء)** الآية الأولى منها . ٥٣٤

• ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحرام إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾ ... ٥٣٤

الموضوع **الصفحة**

- تمهيد ٥٣٤
- التدبّر التحليلي ٥٣٤
- مِنَّةُ اللهِ عزّ وجلّ عَلَىٰ رَسُولِهِ محمد ﷺ بالإسراء والمعراج ٥٣٨
- السَّنَةُ الَّتِي امْتَنَّ اللهُ عزّ وجلّ فيها على رسوله بالإسْراء والمعراج ٥٤١

(٦) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثاني من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٢ ـ ٨) .. ٥٤٣

- القراءات ٥٤٣
- تمهيد ٥٤٤
- التدبّر التحليلي ٥٤٦
- • ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ الكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُوني وَكيلاً (٢) ذُرِّيَّة مَنْ حَمَلْنَا مع نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً (٣)﴾ ٥٤٦
- • ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ في الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنَا أولي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلال الدِّيارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً (٥)﴾ ٥٤٩
- • ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وبَنِينَ وجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُم فلها... (٧)﴾ ٥٥٦
- • ﴿... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤوا وُجُوهَكُمْ وليَدْخُلوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً (٧)﴾ ٥٥٨
- • ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨)﴾ ٥٦١

(٧) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الإسراء) الآيتان (٩ و١٠) ٥٦٣

- القراءات ٥٦٣
- تمهيد ٥٦٤
- التدبّر التحليلي ٥٦٤
- • ﴿إِنَّ هـٰذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هي أَقْوَمُ (٩)﴾ ٥٦٤
- • ﴿... وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحات أَنَّ لَهُمْ أَجراً كَبِيراً (٩)﴾ . ٥٦٦
- • ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٠)﴾ ٥٦٧

(٨) التدبّر التحليلي للدَّرْس الرابع من دُرُوس سُورَةِ (الإسراء) الآية (١١) ٥٦٧

- • ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً (١١)﴾ ٥٦٧

الموضوع **الصفحة**

ـ تمهيد ٥٦٧

ـ التدبّر التحليلي ٥٦٨

(٩) التدبّر التحليلي للدَّرْس الخامس من دُرُوس سورة (الإسراء) الآية (١٢) ... ٥٧٢

• ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِين والْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢)﴾ ٥٧٢

ـ تمهيد ٥٧٢

ـ التدبّر التَّحْليلي ٥٧٣

(١٠) التدبّر التحليلي للدَّرْس السّادسِ من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (١٣ ـ ١٧) ٥٧٧

ـ القراءات ٥٧٧

ـ تمهيد ٥٧٨

ـ التدبّر التحليلي ٥٧٨

• ﴿وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (١٣)﴾ ٥٧٩

• ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤)﴾ ٥٨٠

• ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا... (١٥)﴾ .. ٥٨١

• ﴿... وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ .. ٥٨٢

• ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦)﴾ ٥٨٣

• ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧)﴾ ٥٨٤

(١١) التدبّر التحليلي للدَّرْس السّابع من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (١٨ ـ ٢١) ٥٨٥

ـ القراءات ٥٨٥

ـ تمهيد ٥٨٥

ـ التدبّر التحليلي ٥٨٦

• ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (١٨)﴾ ٥٨٧

الموضوع الصفحة

- ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩)﴾ ٥٨٨
- ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠)﴾ ٥٩٠
- ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١)﴾ ٥٩٢

(١٢) **التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دُروسِ سُورَةِ (الإسراء) الآيات من (٢٢ ـ ٣٩)** ٥٩٣

ـ القراءات ٥٩٤
ـ تمهيد ٥٩٥
ـ التدبر التحليلي ٥٩٥

- ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (٢٢)﴾ ٥٩٦
- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤)﴾ ٥٩٧
- ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥)﴾ ٦٠٠
- ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ.. (٢٦)﴾ ٦٠١
- ﴿... وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧)﴾ ٦٠٢
- ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (٢٨)﴾ ٦٠٤
- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩)﴾ ٦٠٥
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠)﴾ ٦٠٧
- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (٣١)﴾ ٦٠٨
- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ ٦١١

الموضوع الصفحة

• ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (٣٣)﴾ ٦١١

• ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ... (٣٤)﴾. .. ٦١٤

• ﴿...وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (٣٤)﴾ ٦١٦

• ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥)﴾ ٦١٧

• ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ ٦١٨

• ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧)﴾ ٦٢١

• ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (٣٩)﴾ ٦٢٣

(١٣) **التدبر التحليلي للدّرس التاسع من دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء) الآيات من (٤٠ ـ ٦٠)** ٦٢٥

ـ القراءات ٦٢٦

ـ تمهيد ٦٢٨

ـ التدبّر التحليلي ٦٢٨

ـ يُقَسَّمُ هذا الدّرس إلى (٧) فُصُول ٦٢٨

الفصل الأول ٦٢٩

• ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (٤٠)﴾ ٦٢٩

الفصل الثاني ٦٣٠

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (٤١)﴾ .. ٦٣٠

الفصل الثالث ٦٣٣

• ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤)﴾ ٦٣٣

الموضوع **الصفحة**

الفصل الرابع الآيات من (٤٥ ـ ٤٨) ٦٣٨

• ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (٤٥)﴾ ٦٣٨

• ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْراً... (٤٦)﴾ ٦٤٠

• ﴿... وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (٤٦)﴾ . ٦٤١

• ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً (٤٧) انظر كيفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨)﴾ ٦٤٢

الفصل الخامس الآيات من (٤٩ ـ ٥٢) ٦٤٥

• ﴿وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩)﴾ ٦٤٥

• ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ... (٥١)﴾ ٦٤٦

• ﴿... ويَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (٥١)﴾ ٦٤٧

• ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً (٥٢)﴾ ... ٦٤٧

الفصل السادس الآيات من (٥٣ ـ ٥٨) ٦٤٨

- تمهيد ٦٤٨

- التدبّر التحليلي ٦٤٨

• ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هي أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً (٥٣)﴾ ٦٤٨

• ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ... (٥٤)﴾. ... ٦٥٢

• ﴿... وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤)﴾ ٦٥٣

• ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (٥٥)﴾ ٦٥٤

• ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (٥٦)﴾ ٦٥٥

• ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (٥٧)﴾ ٦٥٦

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَة أو مُعذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨)﴾ ٦٥٩

الفصل السابع الآيتان (٥٩ و٦٠) ٦٦١

- تمهيد ٦٦١

- التدبّر التحليلي ٦٦٢

• ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (٥٩)﴾ ٦٦٢

• ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالنَّاس... (٦٠)﴾ ٦٦٥

• ﴿... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً للنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ... (٦٠)﴾ ٦٦٦

• ﴿... وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً (٦٠)﴾ ٦٦٨

(١٤) التدبّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٦١ ـ ٦٥) ٦٦٩

- القراءات ٦٦٩

- تمهيد ٦٧٠

- التدبّر التحليلي ٦٧٠

• ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ... (٦١)﴾ ٦٧٠

• ﴿...قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١)﴾ ٦٧١

• ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً (٦٢)﴾ ٦٧١

• ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً (٦٣) واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ والْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥)﴾ ٦٧٣

(١٥) التدبّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٦٦ ـ ٧٠) ٦٨٠

- القراءات ٦٨١

- تمهيد ٦٨١

- التدبّر التحليلي ٦٨٢

الموضوع الصفحة

• ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦)﴾ ٦٨٢

• ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاه فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً (٦٧)﴾ ٦٨٣

• ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (٦٩)﴾ ٦٨٥

• ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)﴾ ٦٨٨

(١٦) **التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الإسراء)** الآيتان (٧١ و٧٢) ٦٩٠

- القراءات ٦٩١
- تمهيد ٦٩١
- التدبّر التحليلي ٦٩١

• ﴿يَوْمَ نَدعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فأولٰئِكَ يَقْرَؤُون كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١)﴾ ٦٩١

• ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)﴾ ٦٩٤

(١٧) **التدبّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (الإسراء)** الآيات من (٧٣ ـ ٧٧) ٦٩٥

- القراءات ٦٩٦
- تمهيد ٦٩٦
- التدبّر التحليلي ٦٩٧

• ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ... (٧٣)﴾ ٦٩٧

• ﴿...لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣)﴾ ٦٩٨

• ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شيئاً قَلِيلاً (٧٤)﴾ ٦٩٨

• ﴿إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَك عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥)﴾ ٦٩٩

• ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧)﴾ ٧٠١

الموضوع الصفحة

(١٨) تَدَبُّر الدَّرْس الرابع عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٧٨ ـ ٨١) ... ٧٠٤

ـ تمهيد ٧٠٤

ـ التدبّر التحليلي ٧٠٥

• ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨)﴾ ٧٠٥

• ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (٧٩)﴾ ٧٠٨

• ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (٨١)﴾ ٧١٠

(١٩) التدبّر التحليلي للدَّرْس الخامس عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآية (٨٢) .. ٧١٢

• ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (٨٢)﴾ ٧١٢

ـ القراءات ٧١٢

ـ تمهيد ٧١٢

ـ التدبّر التحليلي ٧١٢

(٢٠) التدبّر التحليلي للدَّرْس السَّادِس عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيتان: (٨٣ و٨٤) ٧١٥

ـ القراءات ٧١٥

ـ تمهيد ٧١٦

ـ التدبّر التحليلي ٧١٦

• ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ... (٨٣)﴾. ٧١٦

• ﴿... وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً (٨٣)﴾ ٧١٧

• ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤)﴾ .. ٧١٧

(٢١) التدبّر التحليلي للدَّرْس السابع عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآية (٨٥) ... ٧١٨

ـ تمهيد ٧١٨

ـ التدبر التحليلي ٧١٩

• ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عن الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥)﴾ ٧١٩

الموضوع **الصفحة**

(٢٢) التدبّر التحليلي للدّرس الثامن عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٨٦ ـ ٨٩) ٧٢١

ـ القراءات ٧٢٢

ـ تمهيد ٧٢٢

ـ التدبّر التحليلي ٧٢٢

• ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ⦗٨٦⦘﴾ . ٧٢٢

• ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ⦗٨٧⦘﴾ ٧٢٣

• ﴿قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ⦗٨٨⦘﴾ ٧٢٤

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ⦗٨٩⦘﴾ ٧٢٥

(٢٣) التدبّر التحليلي للدّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (٩٠ ـ ١٠٠) ٧٢٦

ـ القراءات ٧٢٧

ـ تمهيد ٧٢٨

ـ التدبّر التحليلي ٧٢٩

• ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعاً ⦗٩٠⦘﴾ ٧٢٩

• ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً ⦗٩١⦘﴾ .. ٧٢٩

• ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ⦗٩٢⦘﴾ ٧٣٠

• ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ... ⦗٩٣⦘﴾. ٧٣٠

• ﴿...أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً ⦗٩٣⦘﴾ ٧٣١

• ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً ⦗٩٤⦘﴾ ٧٣٢

• ﴿قُل لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً ⦗٩٥⦘﴾ ٧٣٣

• ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ⦗٩٦⦘﴾ . ٧٣٤

الموضوع الصفحة

• ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ علَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴿٩٨﴾﴾ ٧٣٥

• ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَىٰ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً ﴿٩٩﴾﴾ ٧٣٨

• ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً ﴿١٠٠﴾﴾ ٧٤٠

(٢٤) التدبّر التحليلي للدَّرس العشرينَ من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤) ٧٤١

ـ القراءات ٧٤٢

ـ تمهيد ٧٤٢

ـ التدبّر التحليلي ٧٤٣

• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَـٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴿١٠٢﴾﴾ ٧٤٣

• ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً ﴿١٠٣﴾﴾ ٧٤٦

• ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴿١٠٤﴾﴾ ٧٤٧

(٢٥) التدبّر التحليلي للدَّرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (الإسراء) الآيات من (١٠٥ ـ ١١١) آخر السورة ٧٤٨

ـ القراءات ٧٤٩

ـ تمهيد ٧٤٩

ـ التدبّر التحليلي ٧٤٩

• ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴿١٠٦﴾﴾ ٧٤٩

الموضوع **الصفحة**

• ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩)﴾ ٧٥٢

• ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١١٠)﴾ ٧٥٤

• ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ من الذُّلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (١١١)﴾ ٧٥٧

(٢٦) مُسْتَخْرَجَاتٌ بَلَاغِيَّةٌ مِنْ سُورَة (الإسراء) ٧٥٩

- خاتمة الْمُجَلَّدِ التاسع ٧٦٥

* الفهرس ٧٦٧

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقرآنِ الكريمِ بحسبِ ترتيبِ النُّزُولِ
وِفْقَ منهجِ كتابِ «قواعدِ التَّدبُّرِ الأمْثلِ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ»

المجلّد العاشر
تفْسِيرُ السُّورِ التَّاليةِ:
يُونُس/٥١ وَهُود/٥٢ وَيُوسف/٥٣

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

١٠

دار القلم
دمشق

أسسها:
محمد علي دولة
سنة ١٩٦٧م

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

سورة يونُس

١٠ مصحف ٥١ نـزول

وهي سورةٌ مكيةٌ قالُوا:

إلَّا الآيات (٤٠ و٩٤ و٩٥ و٩٦)

فهي مَدَنِية والله أعلم

وآياتها (١٠٩)

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ
أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ
لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ
(٢) إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ
إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ

---

١ - • في ﴿الٓر﴾ سكت أبو جعْفر على «ألف» و«لام» و«راء» سكتَةً خفيفةً من غير تَنَفُّس.

٢ - • قرأ نافعٌ وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامِر، وأبُو جعفر، ويعقوب: [لَسِحْرٌ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة [لَسَاحِرٌ].
وبين القراءَتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ قال الكافرون عما جاء به الرَّسُول هو سِحْرٌ مُبين، وقالوا عن الرسول هو ساحِرٌ مبين.

٣ - • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلَف ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ من فعل: تَذَكَّرَ يَتَذَكَّرُ، وَهَذِهِ تُنَاسِبُ حال بعض المخاطبين وقرأها باقي القُرَّاء العشرة.
[تَذَّكَّرُونَ] أَصْلُها: تَتَذَكَّرون، أُدْغِمَتْ التَّاءُ بالذَّالِ، وهذه تناسب حال بعض المخاطبين، الذين يحتاجون تشديداً.

٤ - • قرأ أبو جعفر: [أَنَّهُ يَبْدَؤُ] بفتح هَمْزَة «أَنَّ» على أن الجملة تعليلية. وقرأها باقي القراء العشرة ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُ﴾ بكسر هَمْزَة «إِنَّ» على أن الجملة ابتدائية. وبين القراءتين تكامل.

لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾
هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ
لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ
يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ
وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ
﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ
بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي
جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا
سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞
وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ
أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ

---

٥ - • قرأ قُنْبل: [ضِئَاءً] بإبدال الياء همزة وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿ضِيَاءً﴾. والقراءتان وجهان من الأداء في العربية.

٥ - • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياء، وقرأها باقي القراء العشرة [نُفَصِّلُ] بنُون المتكلِّم العظيم، ومؤدّى القراءتَيْن واحِد.

١١ - • قرأ ابن عامِر: [لَقَضَى إِلَيهِم أَجَلَهُمْ] ببناء فعل «قضى» للمعلوم ونصب «أَجَلَهم» أي: لقَضَىٰ الله إليهم أجَلَهُم.
وكذلك قرأها يعقوب ولكن بضم الهاء من «إلَيْهُمْ».
وقرأها حَمْزَة: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهُمْ أَجَلُهُمْ﴾ ببناء فعل «قَضَىٰ» لما لَمْ يُسَمَّ فاعله،

يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا
أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ
مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ
أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ
﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ
أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ
أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ

= وبضم هاء الضمير من «إليهُم» والمعنى: لَقُضِي إليهم أجلُهم من رَبِّهم.
وكذلك قرأها باقي القُرَّاء العشرة، ولكن بكسر هاء الضمِير مِنْ «إِلَيْهِمْ».

١٣ ـ • قرأ أبو عَمْرو: **[رُسْلَهُمْ]** بإسكان السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بضمها.
والقراءتان وجهان عربيّان للكلمة.

١٥ ـ • قرأ ورش، والسوسي، وأبو جعفر: **[لِقَاءَنَا اتِ]** بإبدال الهمزة الساكنة في الوصل حرف مدّ من جنْس سابقتها، وهو وجه من وجوه الأداء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بإثبات الهمزة: **﴿لِقَاءَنَا أئْتِ﴾**.

١٥ ـ • قرأ ابْن كثير: **[بِقُرَانٍ]** بحذف الهمزة.
وكذلك قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة **﴿بِقُرْءَانٍ﴾** بإثبات الهمزة.

١٥ ـ • فتح ياء المتكلم في **﴿لِيَ أَنْ﴾** وفي: **﴿إِنِّيَ أَخَافُ﴾** نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر.
وأسكنها الباقون.

ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ
بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ
فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ
﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم

= وفتحها في: [**نَفْسِيَ أَنْ**] نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر.
وأسْكَنَها الباقون.

١٦ ـ ● قرأ البزّي في إحدى روايتين عن ابن كثير: [**وَلَأَدْرَاكُمْ بِهِ**] بالإثبات.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**ولا أَدْرَاكُمْ بِهِ**﴾ بالنفي، وهي الرواية الثانية للبزّي عن ابن كثير.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

١٨ ـ ● قرأ أبو جعفر [**أَتنبُونَ**]. وكذلك قرأها حمزة في الوقف، وله التسهيلُ والإبدال ياء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**أَتُنبِئُونَ**﴾ وهذه القراءات وجوهٌ من الأداء.

١٨ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [**عَمَّا تُشْرِكُونَ**] بضمير المخاطبين.
وقرأها باقي القُرّاء العشرة: ﴿**عَمَّا يُشْرِكونَ**﴾ بضمير الغائبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا
تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ
فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ
عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ
دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ
وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

---

٢١ ـ ● قرأ أبو عَمرو: [رُسْلَنَا] بإسْكَانِ السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿رُسُلَنَا﴾ بضم السين.
وهما وجْهان عربيان في النطق.

٢١ ـ ● قرأ رَوْح: [مَا يَمْكُرُونَ] بضمير الغائبين.
وقرأها باقي القُرّاء العشرة: ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ بتاء المخاطبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٢٢ ـ ● قرأ ابن عامر، وأبو جَعْفَر: [يَنْشُرُكُمْ] من فِعْل «نَشَرَ» وقَرَأَها باقي القرّاء العشرة: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من فِعْل «سَيَّرَ».
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.
فالله يَنْشُر الناس في البرّ والْبَحْر وهو يُسَيِّرُهُمْ فيهما. النشر: البَثُّ والتوزيع.

٢٣ ـ ● قرأ حفص: ﴿مَتَاعَ﴾ بالنَّصب، على أنها حال.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مَتَاعُ] بالرَّفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هو متاعُ الحياة الدنيا، وَبَيْنَ القراءَتَين تفنُّنٌ في البيان.

فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن
يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ
وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ
ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ
ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ
نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ
فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾
هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ
ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ

---

٢٥ - ● قرأ قُنْبل، ورُوَيْس: [سِرَاطٍ] وقرأها خلف عن حمزة بإشمام الصّاد زاياً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿صِرَاطٍ﴾.
وهي وجُوهٌ عربيّةٌ لنُطق الكلمة.

٢٧ - ● قرأ ابْنُ كثير، والكسائي، ويعقوب: [قِطْعاً] بإسكان الطاء، وهو اسمٌ للجزء من زمن اللّيل المظلم.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة ﴿قِطَعاً﴾ بفتح الطاء، وهو جمع «قِطْعَة» وهي الجزء المقتطَعُ من الشيء.
ومؤدى القراءتين واحد. أو هو من التفنّنِ والتكامُلِ في أداء المعنى المراد.

٣٠ - ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [تتْلو] أي: تتْبَعُ.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تبْلو﴾ أي: تكشف.
فبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ
ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ
فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ
إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن
يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ
تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ
يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ
إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ

---

٣١ ـ • قرأ ابْن كثير، وأبو عَمْرو، وابْن عامر، وشعبة: [الْمَيْت] بإسكان الياء دون تشدِيدٍ في الموضعين.
وقرأ باقي القراء العشرة بتَشْدِيد الياء فيهما مكْسُورة.

٣٣ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جَعفر: ﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ بالجمع.
وَقَرَأها بَاقي القراء العشرة [كَلِمَتُ رَبِّكَ] بالإفراد.
ومؤدى القراءتَيْن واحد، فالمفرد المضاف إلى المعْرفة يَعُمّ.

٣٥ ـ • قرأ قالُون بخُلْفٍ عنه: ﴿لا يَهَدِّيْ﴾ بفتح الهاء وتَشْدِيد الدّالِ المكسورة.
وقرأها أبو عَمْرو بفتح الياء واختلاس فتحة الهاء مع تشديد الدّال المكسورة.
وقرأها قالون وأبو جعفر بفتح الياء وإسكاء الهاء مع تشديد الدال المكسورة.
وقرأها ورش، وابن كثير، وابن عامر: بفتح الياء والهاء وتشديد الدّال المكسورة.
وقرأها شعبة بِكَسْرِ الياء والهاء مع تشديد الياء المكسورة.
وقرأها حفص، ويعقوب بفتح الياء وكسْرِ الهاء مع تشديد الدال المكسورة.
وقرأها باقي القراء بفتح الياء وكسر الهاء وكسْر الدال بلا تشديد.
وهٰذه القراءات وجُوه من الأداء مع بعض اختلافٍ في المعاني بين «يَهْدِي» و«يَهْتَدِي» إذْ بينهما تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا
يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن
تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ
مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا
لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن
يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ
﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ
مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ
إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن
يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ
﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ

---

٣٧ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف، ورُوَيْس بإشمام الصاد صوت الزاي من كلمة ﴿تَصْدِيقَ﴾.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالصاد الخالصة.

٣٩ - • قرأ رُوَيْس **[يَأْتِهُمْ]** بضم هاء الضمير. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر هذه الهاء. وهما لغتان عربيّتان.

٤٤ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: **[وَلَكِنِ النَّاسُ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**وَلَكِنَّ النَّاسَ**﴾.

ومُؤدَّى القراءتين واحد، وهما من التفنُّن في التعبير.

يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ
﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ
ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ
رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ
مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي
ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ
فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ
عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا
مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ
لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ
تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ
لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي

---

٤٥ ـ • قرأ حفص: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بضمير الغائب، أي: يحشُرهم الله تعالى.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ] بضمير المتكلم العظيم.
ومؤادهما واحد، وهما من التفنّن في التعبير.

٥٣ ـ • قرأ أبو جعفرٌ: [وَيَسْتَنْبُونَكَ].
وكذلك حمزةُ في الوقف، وله التسهيل والإبدالُ ياءً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ والقراءتان من اللّهجات العربية.

٥٣ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرُو، وأبو جعفر: ﴿وربِّيَ إِنَّهُ﴾ بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان.
فتح ياء المتكلم وإسكانُها لغتان عربيّتان.

ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ
بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا
يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ
فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ
أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ
يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا
تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ

---

٥٦ ـ • قرأ يعقوب: [**تَرْجِعُونَ**] بالبناء للمعموم.
وقرأها باقي القراء العشرة [**تُرْجَعُونَ**] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.
وبين القراءتين تكاملٌ، أي: يُرْجعكُم الله فترجعُونَ مطاوِعينَ بالقهر.

٥٨ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: ﴿**فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ**﴾.
وقرأها رُوَيْس: [**فَلْتَفْرَحُوا**] ﴿**تَجْمَعُونَ**﴾.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**فَلْيَفْرَحُوا**﴾ ـ ﴿**يَجْمَعُونَ**﴾.
ومُؤَدّى القراءات واحد، وهي من التفنُّن بين الغيبة والخطاب.

٦١ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [**شَانٍ**] بإبدال الهمزة ألفاً، وكذلك حَمْزَة في الوقف، وهذا الإبدال نطق عربي.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**شَأْنٍ**﴾.

شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي
كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا
هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾
لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ
لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ
قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ
إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ
ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا

---

٦١ ـ • قرأ الكسائي: **[يَعْزِبُ]** بكَسْرِ الزاي.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿يَعْزُبُ﴾** بضمّ الزاي.
والقراءتان وجهان عربيّان في النطق.

٦١ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب، وخلف: **﴿وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ﴾** برفع «أصغر» و«أكْبر».
وقرأهما باقي القراء العشرة بفتح «أَصْغَرَ» و«أَكْبَرَ»، وهُما وَجْهان نحويّانِ جائزان.

٦٢ ـ • قرأ يعقوب: **[لاَ خوْفَ عَليهُمْ]** بفتح «خَوْفَ» وضمّ هاء «عَلَيْهُمْ».
وقرأها حمزة **[لاَ خَوْفٌ عَلَيهُمْ]** برفْع «خَوْفٌ» وضم هاء «عَلَيْهُمْ».
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾** برفع «خَوْفٌ» وكسر هاءِ «عَلَيْهِمْ».
وهي وجوهٌ جائزة.

٦٥ ـ • قرأ نافع: **[وَلاَ يُحْزِنْكَ]** من فعل «أَحْزَنَهُ».
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ﴾** من فعل «حَزَنَهُ».
حَزَنَه وأَحْزَنَه: لغتان عربيتان متكافئتان.

ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ
لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِىُّۖ
لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن
سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِى
ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا
كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ
يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِى وَتَذۡكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ
غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا
سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ

---

٧١ - • قرأ رُوَيس: [فَاجْمَعُوا] من فعل: «جَمَعَ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿فَأَجۡمِعُوا﴾ مِنْ فِعْلِ: «أَجْمَعَ» ومؤدّىٰ القراءتين واحد.

٧١ - • قرأ يعقوب: [وَشُرَكَاؤُكُمْ] بالرفع عطفاً على ضمير ﴿فَأَجۡمِعُوا﴾.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ بالنّصب على تقدير: وادْعُوا شرَكاءكم، أو على أنّ الواو بمعنى «مع».

٧١ - • قرأ يعقوب: [وَلاَ تُنْظِرُونِي] بإثبات ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم.

٧٢ - • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ﴾ بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرَّاءِ العشرة بالإسْكان.

ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ
خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ
إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾
وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ

---

٧٩ ـ • أبدل ورش، والسّوسي، وكذلك أبو جعفر في وصل الهمزة الساكنة واواً مدّية في: ﴿فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي﴾ فقالوا: فِرْعَوْنُ وتوني.

وباقي القرّاء قرؤوها بالتحقيق.

٧٩ ـ • قرأ حَمْزَةُ، والكسائي، وخَلَفٌ: [بِكُلِّ سَحَّارٍ] مبالغة ساحر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾.

وبين القراءتين تكامل فقد دلّا على أنّ فِرْعَوْن طَلَب كلَّ سَحَّار، ثمَّ طَلَبَ كلَّ سَاحِرٍ.

٨١ ـ • قرأ أبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: [بِهِ آلسِّحْرُ] بزيادة همزة استفهامٍ قبل همزة الوصل.

عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ
ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ
خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن
تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ
ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ
فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۙ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن
سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ
حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا

= وقرأها الباقون: ﴿**به السِّحْرُ**﴾.

فدلَّت القراءتان على أنّ موسى عليه السلام قال لهم أوّلاً مستفهماً فقالوا له: نعم. وعند المباراة قال لهم مثبتاً غير مستفهم.

٨٧ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿**بُيُوتاً ـ بُيُوتَكُمْ**﴾ بضم الباء.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة بكسر الباء. وهما لغتان عربيتان.

٨٨ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: ﴿**لِيُضِلُّوا**﴾ من فعل «أَضَلَّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لِيَضِلُّوا**] من فعل «ضَلَّ».

فَدَلَّتِ القراءتَان على أَنَّ مُوسى عليه السلام قال في دُعائه لِربِّه: لِيَضِلُّوا وَلِيُضِلُّوا.

فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞
وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا
وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ
عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ
بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ
ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ
وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ
يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ
فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن

---

٨٩ ـ ● قرأ ابن ذَكْوان: **[وَلاَ تَتْبِعَانِ]** بكسر النون دون تشديد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿وَلاَ تَتَّبِعَانِّ﴾** بكسر النون مع التشديد.
ودلّت القراءتان على أنّ الله عزَّ وجلَّ أكّد لموسَىٰ وهارون أولاً تأكيداً مخففاً، ثم تأكيداً مشدّداً.

٩٠ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: **[آمَنْتُ إِنَّهُ]** بكَسْرِ همزة «إِنَّه» على أنّ الجملة مستأنفة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿آمَنْتُ أَنَّهُ﴾** بفتح همزة «أَنَّهُ» على تقدير: آمنت بأنَّهُ لَا إله إلَّا الَّذِي آمنت به بنو إسرائيل.
فدلَّتِ القراءتان على أنَّ فرعون قال القوْلَيْن بالتتابُع حينما أدْركه الغرق.

٩٢ ـ ● قرأ يَعْقُوب: **[نُنْجِيكَ]** مِنْ فعل: «أَنْجى».
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿نُنَجِّيكَ﴾** من فِعْل: «نَجّى».
والقراءتان متكافئتان، لأنَّ الفعل المهموز أخُو الفِعْلِ المضعّف.

٩٤ ـ ● قرأ ابن كثير، والكسائي، وخَلَف: **[فَسَلْ]**.
وقرأها باقِي الْقُرّاء العشرة: **﴿فَاسْأَلْ﴾**.

قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ
(٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ
مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٩٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
لَا يُؤۡمِنُونَ (٩٦) وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ
ٱلۡأَلِيمَ (٩٧) فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ
يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ (٩٨) وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ
(٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ
ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ (١٠٠) قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا
يُؤۡمِنُونَ (١٠١) فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن

= هاتان القراءتان لغتان عربيّتان لفعل الأمرِ من «سَأَلَ».

٩٦ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: **[كَلِمَاتُ]** بالجمع.
وقرأها باقي القرّاء العشرة **﴿كَلِمَتُ﴾** بالإفراد.
ومؤدّى القراءتين واحد، فالمفرد المضاف إلى معرفة يَعُمُّ.

١٠٠ ـ • قرأ شعبة: **[وَنَجْعَلُ]** بنون المتكلّم العظيم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿وَيَجْعَلُ﴾** بضمير الغائب الذي يعود على الله جلَّ جلاله.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

١٠١ ـ • قرأ عاصم، وحَمْزَة، ويعقوب: **﴿قُلِ انظُرُوا﴾** بِكَسْرِ اللّام.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[قُلُ انظُرُوا]** بضَمّ اللّام.
وهما وجهان عربيان في النُّطقِ. وفي الضم مُراعاة ضمّ الظاء.

قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ
نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ
ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ
وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ
وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ
عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ
جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾
وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

---

١٠٣ ـ ● قرأ أبو عمْرو: [نُنَجِّي رُسْلَنَا] من فعل: «نَجَّى» وبإسكان السِّين.
وقرأها يعقوب: ﴿نُنْجِي رُسُلَنَا﴾ من فعل «أَنْجَى» وبضمّ السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشْرةُ: ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ من فعل «نَجّىٰ» وبضم السِّين.
وهي قراءات متكافئة لغة.

١٠٣ ـ ● قرأ حفص، والكسائي، ويعقوب: [نُنْجِ المؤمِنِينَ] من فعل «أَنْجَى».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿نُنَجِّ المؤمِنِينَ﴾ من فعل «نَجّى». والقراءتان متكافئتان.
ووقف يعقوب بالياء في «نُنْجِي». وحذف باقي القراء هذه الياء وصلاً ووقفاً.

(٢)

موضوع سورة «يونس»

بعد قراءة السّورة مرّاتٍ عَدِيداتٍ، مع التأمل واستذكار ما سبَقَ من القضايا الّتي جاءت في سورة (الإسراء) النازلة قبل سورة (يونس) وقضايا اشتملَتْ عَلَيْها سُوَرٌ نزلَتْ قبل سورة (الإسراء) ظهر لي أنّ موضوع سورة (يونس) كما يلي:

متابَعَةُ بياناتٍ شَارِحَاتٍ، ومُفَصِّلاتٍ، ومُضَافَاتٍ، بِشَأْنِ قضايا اشْتَمَلَتْ عليها سورة (الإسراء) وقضايا جاءت في سُوَرٍ نَازِلَةٍ قَبْلَها، وبشأن معالجاتٍ للمواقف الّتي جَمَدَ عندها كُبَرَاءُ مُشْرِكي مكَّة، أَوْ تَطَوَّرُوا إليها، وبشأن تَرْبِياتٍ للرَّسُولِ ﷺ وللمُؤْمِنين، اقتَضَتْهَا الحِكْمَةُ إبَّانَ نُزُولِ سورة (يُونُس) وبعضُ هٰذه القضايا كانَتْ تَعْتَلِجُ في نَفْسِهِ أَوْ نُفُوسِ المؤْمِنِينَ، دُونَ أَنْ يُصَرِّحَ الرَّسُولُ أو المؤمِنُونَ بها، ونُدْرِكُها من المعالجة التَّرْبَوِيَّة الواردة في السُّورة.

وتَظْهَرُ لنَا في هٰذِهِ السُّورة حِكْمَةُ الله السَّامِيَة، العلاجيَّة والتَرْبَوِيَّة في متابعة أحداثِ مسيرةِ الرَّسُولِ الدَّعَوِيَّة لغَيْرِ المؤمنين، والقياديَّةِ للمؤمنين، وتَظْهَرُ لنَا حكمة الله جلَّ جلالُهُ في مخاطبته رسُولَه ﷺ، والمقصودُ بعض الَّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، مَعَ إسْمَاعِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ بأنَّ الرَّسُولَ مأمُورٌ من رَبِّهِ بالإيمانِ والعِبَادةِ والطَّاعَةِ كسَائِر النَّاس، وأنّ الجزاء الرَّبَّانيّ يَشْمَلُ بالْعَدْلِ أو بالفضل جميع عباده، بدءاً من الرسُولِ المعْصُومِ أفضل خَلْقِه، ونزولاً حتَّىٰ أَهْلِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

(٣)

دروس سورة (يونس)

بَدَا لي تقسيم هذه السورة إلى عشرين دَرْساً.

الدرس الأول: وهو الآيات من (١ ـ ١٠).

وهو يتضمَّنُ ما يلي:

(١) الثناء على القرآن بأنّه حكيم.

(٢) عرض كون الكافرين تَعَجَّبُوا من أن يكون الرَّسُول رجُلاً منهم، فأنْكَرُوا رسالَتَهُ، ولا دَلِيلَ لَهُمْ إلّا التَّعجُّب، وهو ليس بدليلٍ مطلقاً، وقد أنْذَرَهُمُ الله بعذابٍ يَوْمَ الدِّين، وأطْلَقَ عليهم عنوان: «النَّاس».

أما المؤمنون فقد بشَّرَهُمُ الله بأنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ.

(٣) بيانُ تَرْوِيجِ المشرِكين مقولَتَهُمْ بشأن الرسول ﷺ أنَّهُ ساحِرٌ مُبين، مؤكِّدِين ما سَبَقَ أَنْ قَالُوه في مَراحِلَ سابقة.

(٤) معالجة المعنيّين بالمعالَجَةِ، بإثبات رُبُوبيَّة الله، والمطالبة بعبادته، وبالترهيب من عذاب اللهِ للكافِرين، وبالترغيب بنعيم الجنّة للمؤمنين.

الدرس الثاني: وهو الآية (١١).

وهو يتضمن متابعةَ معالجة استعجال النَّاس ما يَرَوْنه خيراً لهم، وهو في حقيقتِه شرٌ لهم.

فقد سبق في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) بيانُ أنّ الإنسان يَدْعُو بالشرّ دعاءه بالخير، بسبب كونه عجولاً، وقد جاء هذا الموضوع في الآية (١١) وفي الآية (١٨) منها.

الدرس الثالث: وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤).

وهو يتضمن متابعة وَصْفِ حالِ الإنسان إذا مسّه الضرّ، ثم إذا كشف الله عنه الضرّ.

وقد سَبَقَ بيانُ هٰذِهِ القضية في الآيات من (٦٧ ـ ٦٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول).

وتضمَّنَتْ هٰذه المتابَعَةُ الإنذار بإهْلَاكٍ مُعَجَّل.

الدرس الرابع: وهو الآيات من (١٥ ـ ١٧).

وهو يَتَضَمَّنُ بيَانَ مُتَابَعَةِ مطالَبَةِ الذين كفروا بأن يأتي الرسُولُ بقرآنٍ غير القرآن الذي يتْلُوهُ عليهم، على أن تكون مضامينُ القرآنِ الجديد مطابقةً لما يُرْضِيهم، لا لِلْحَقِّ والخير والفضيلة.

ويتضمَّنُ مُعَالجَةَ هذا الطلب التعنّتِيِّ الباطل.

الدرس الخامس: وهو الآيتان (١٨ و١٩).

ويتضمن متابعة بيان حال كفَّار مكَّة الشّركي، مع معالجة ما أضافُوهُ من ادِّعاء أنَّ شُركاءَهم يَشْفَعُونَ لهم عند الله. ومع بيان أنّ الناس كانُوا أمَّةً واحدة مؤمِنَةً منْذُ عَهْدِ آدَمَ فَمَا بَعْدَه، فاخْتَلَفُوا بِدُخُولِ الشركيَّاتِ إلى عقائدهم، ومَعَ بيان الحكمة من تأجيل معاقَبَتِهم إلى يَوْمِ الدِّين.

الدَّرس السَّادس: وهو الآية (٢٠).

ويتضمن بيان متابَعَةِ مُطَالَبَةِ أئِمَّةِ كُفَّارِ مَكَّة بآيات ماديَّة كعصا موسى عليه السلام، معَ تَعْلِيم الرَّسُولِ فَكُلِّ دَاع إلى الله من أمَّتِه، ما يقولُهُ جواباً على هذه المطالبة التَّعَنُّتِيَّة.

الدرس السابع: وهو الآيات من (٢١ ـ ٢٣).

وهو يتضمّن متابعة حال الإنسان الذي جاء في الدَّرس الثالث من هذه السّورة بيانُه.

الدرس الثامن: وهو الآيات من (٢٤ ـ ٣٠).

وهو يتضمَّن الإقْنَاعَ بواقع حالِ الحياة الدُّنيا، وأنَّها حياةُ فناء وزوال، وليسَتْ حياة بقاء.

أمَّا حياة البقاء فهي الحياة الأخرى الّتي لَهَا دَارَانِ، دار نعيم خالدة، ودارُ عذاب.

الدَّرس التاسع: وهو الآيات من (٣١ ـ ٣٦).

وهو يتضمن تعليم الرَّسُولِ فكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمّتِه جِدَالاً للمشركينَ، حوْلَ تفصيلات من صفاتِ رُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

الدرس العاشر: وهو الآياتُ من (٣٧ ـ ٤١).

وهو يتضمَّن متابَعَةَ المعالجةِ بشأنِ القرآن، وأنَّهُ مُنَزَّلٌ حقّاً من عند الله، ولا يُمْكِنُ أَنْ يكُونَ مِنْ قولِ إِنْسٍ ولا جِنّ.

الدرس الحادي عشر: وهو الآيتان: (٤٢ و٤٣).

وهو يتضمَّن بيان واقع حال المدعُوّين، فمنهم من يستمعون للرسول، ومنهم من لا يسْتَمعُون، ومنهم من يَنْظُرُون إليه، ومنهم من لا يَنْظُرُون، مع البيان الرَّبَّاني بشأن هذا الواقع.

الدرس الثاني عشر: وهو الآيَاتُ (٤٤ ـ ٥٤).

وهو يتضَمَّن بيان أنّ الله لا يظلم الناس شيئاً، مع تذكيرٍ بالجزاء المؤجّل والجزاء المعجَّل.

الدرس الثالث عشر: وهو الآيتان: (٥٥ و٥٦).

وهو يتضمَّن بيان حقائق من القاعدة الإيمانية:

- لله ما في السماوات والأرض.
- وعْدُ اللهِ حَق.
- اللهُ يُحْيِي ويُمِيت.

الدرس الرابع عشر: وهو الآية: (٥٧).

ويتضمنُ خطاب الناس بشأن القرآن، وما فيه من موعظة، وشفاء لما في الصُّدُور، وهُدىً ورحمة للمؤمنين.

الدرس الخامس عشر: وهو الآيات من (٥٨ ـ ٦١).

وهو يتضَمَّنُ تعليمَ الرَّسُولِ فكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته بعْضَ ما يقولُه للمشركين، مع معالجتهم بشأن افترائهم على الله بشأن الحلال والحرام في أحكام الدّين، وتحذيرهم من مغبّة ذلك يوم القيامة.

الدرس السادس عشر: وهو الآيات من (٦٢ ـ ٦٤).

ويتضمَّن بيان من هم أولياءُ الله، مع ذكر بعض جزائِهِمْ عند ربِّهِمْ يَوْم الدّين.

الدرس السابع عشر: وهو الآيات من (٦٥ ـ ٧٠).

ويتضمّن تَرْبية الرَّسُول ﷺ، بشأن أقوال المشركين المؤذية له، والمستَهِينَة بِهِ لِضَعْفِهِ وضعف الَّذِينَ آمَنُوا به عن رَدِّ أذاهم، مع المعالجة المناسِبَة.

الدرس الثامن عشر: وهو الآيات من (٧١ ـ ٩٣).

ويتضمن تحذير المشركين من مصير تكذيبهم بآيات الله، وأنهم بتكذيبهم يُعَرّضون نفوسهم لعقاب مُعَجَّل، بإهلاكٍ عامٍّ شامل، نظير الذي حَصَل لقَوْمِ نُوحٍ، والّذين جاءوا من بَعْدِهِم (أي: قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب) أو نظير ما حصل لِفِرْعَوْن ومَلَئِه وجنُوده.

الدرس التاسع عشر: وهو الآيات من (٩٤ ـ ٩٨).

ويتضمَّن خطاب الله عزَّ وجلّ لرَسُوله (والمراد خطاب الّذِين يَشُكُّون فيما أنزلَ اللهُ إليه) بأنْ يَسْأَلَ الَّذِين يَقْرَؤُونَ الكتاب السَّابق للقرآن، ليتأكَّدَ المرادُون بالخطاب من صِحَّةِ ما جاء في القرآن من إهْلَاكِ كُفَّار القرون الأولى، ولا سيما فرعون وجنوده.

الدرس العشرون: وهو الآيات من (٩٩ ـ ١٠٩) آخر السّورة.

ويتضمَّن تعليمات مُوَجَّهاتٍ من الله لرسُوله تَرْبيةً له، بشأن ما يعْتَلِجُ في نفسه، وتعليماتٍ بشأن بعض أساليب الإقناع الَّتي يَنْبَغِي للرَّسُولِ توجيهها للمدْعُوِّين.

وهٰذه التعليمات تتضمَّن توجيهاً رَبَّانياً للمدْعُوِّين بأُسْلُوبٍ غير مباشر، إذْ ظاهرها يُفِيدُ أنَّها مُوَجَّهةٌ لِلرَّسُول ﷺ، وهي في حَقِيقَتِها تتضمَّنُ توجيهاً غير مباشر للمدعُوِّين إلى الإيمان والإسلام.

❊ ❊ ❊

(٤)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (يونس) وهو الآيات من (١ ـ ١٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ (٤) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (٥) إِنَّ فِى ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ

ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا
غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

تمهيد:

(١) بدأ هذا الدرسُ بتمجيد القرآن بأنَّهُ كتابٌ حكيم، أي: وكونُهُ حكيماً يَدُلُّ على أنَّهُ تَنْزِيلٌ من رَبّ الْعَالمين.

(٢) وعَرَضَ بَعْدَ بيانِ كَوْنِ القرآنِ حكيماً، الْمَوْقِفَ الّذِي أَصَرَّ عَلَيْهِ كُبراءُ كُفَّار قريشٍ إبَّانَ التنزيل، وهو تكذيبُهم بأنَّ محمّداً رَسُولُ اللهِ، إذْ تَعَجَّبُوا أَنْ يَكونَ رَسُولُ اللهِ رجُلاً من النَّاس يُنْذِرُ الكافِرِينَ منهم بعذابِ الله، ويُبَشِّر الّذينَ آمَنُوا بأنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبّهم.

وإذْ أدهَشَهُمُ القرآنُ بما فيه من إعجازٍ بلاغي زَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ قبيل السِّحر، وقالوا عن الرَّسُول ﷺ: إنَّ هٰذا لسَاحِرٌ مُبين.

(٣) وبَعْد عَرْضِ مَوْقِفِهِمُ الَّذِي أصَرُّوا عليه دُونَ أَنْ يَتَزَحْزَحُوا عَنْ عَقائدهم الشِّرْكِيَّة، عَالَجَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لإقناعِهِمْ بالْبَدْءِ بإثباتِ الرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا لَهُ، جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ في الوُجودِ كُلِّهِ.

وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ كَما لَا تَمْلِكُ شَيْئاً من الرُّبُوبِيَّةِ في الْوُجُود فَهِيَ لَا تَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ لَهُم عنْدَهُ، إذْ لَا شَفِيعَ عِنْدَ اللهِ إلَّا مِنْ بَعْدِ إذْنِه، وهو لَمْ يأْذَنْ لِآلِهَتِهِمْ بأنْ يَشْفَعُوا لأحَدٍ عنْدَه، ولا سيما الَّذِينَ هُمْ مُشْرِكُون بِرَبّهم.

وأَمَرهم اللهُ بأَنْ يَعْبُدوه وحْدَه، وأبَانَ لَهُمْ أَنّ مَرْجِعَهُمْ بَعْدَ الموتِ

والبعثِ إِلَيْهِ لِلْحِسَابِ، وَفَصلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء، هٰذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ رَبِّهِمْ، وَوَعْدُ اللهِ حقّ، فهو الذي يَبْدَأ الخَلْقَ ثمَّ يُعِيدُه، لِيَجْزِيَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات بالثَّوابِ الّذي وَعَدهم به، وتنفيذ هذا الجزاء معادلٌ لنصوص الْوَعْدِ، وَثَبَتَ في نصوص أخرى أَنَّهُ تبارك وتعالىٰ يَزِيدُهم من فضله، ولِيجْزِيَ الّذين كَفَرُوا بِعذابٍ أليم بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي رِحْلَةِ امتحانهم يكْفُرُونَ بما أمَرَهُم رَبُّهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

(٤) وجاء في هذا الدَّرس بَعْدَ ما سبَقَ عَرْضُ بَعْضِ آياتِ رُبُوبِيَّةِ الله جلَّ جلالُهُ في ظواهِرِ الكونِ.

(٥) وأخيراً جاء في الدرسِ عَرْضٌ فيه بَعْضُ تَفْصِيلٍ بشَأْنِ الكافرين المكذِّبينَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّين، وبشأْنِ جزائهم فيه، وبشأن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات وثوابِهِمْ في جنَّاتِ النّعيم.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

- ﴿الٓرۚ﴾: هذه من الحروف المقطعة التي بدأ الله بها بعض السّور، وقَدْ سَبقَ بيان ما يَكْفِي بشأنها في تَدبّر أوّلِ سُورَةِ (القلم/ ٤ نزول).
- ﴿.. تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

جاءت الإشارة إلىٰ آيات القرآن باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد للدّلالة على ارْتفاع مكانَتِها في بلاغَتِها، وفي المعاني السَّامِيَةِ الّتي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا دَلَالَاتُ جُمَلِها.

وسُمِّيَتْ أَجْزَاءُ السّورة الّتي تَنْتَهِي بفاصِلَاتِها «آيات» لأنَّ فيها عَلَامَاتٍ دَالّاتٍ علَى كوْنِها مُنَزَّلَاتٍ من عِنْدِ الله، وليْسَتْ من كَلَامِ إنْسٍ ولا جِنٍّ وَلَا غَيْرِهما من خَلْقِ الله.

وأُطْلِقَ على الْقُرآن لفظ «الكِتَاب» للدّلَالَةِ على وُجُوب تَدْوِينهِ بالكِتَابَةِ، وَجَعْلِهِ بَيْنَ النَّاس كِتَاباً مُحَرَّراً يَرْجِعُونَ إلَيْهِ، مَحْمِيّاً من التحريف والتغيير، بالزِّيادَةِ، أو النقص، أو التبديل.

و«ال» في لفظ «الكتاب» للكمال.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: أي: المحْكَمُ، والمُحْكَمُ هُو الّذي وُضِعَ فيه كُلُّ شَيْءٍ في أفضل المواضع وأحْسَنِها وأَتْقَنِها مِنْه، واختِيرَ لَهُ أَفْضَلُ الأشياء وأَتْقَنُهَا وأحْسَنُها مِنْ كُلِّ الْبَدَائِل القابِلَةِ للاختيار.

والقرآن هو مُحْكَمٌ في بنائِهِ اللَّفْظِي، ومُحْكَمٌ في معانيه، ومُحْكَمٌ فيما اشتمل عليه من أوامرَ ونواهيَ ووصايا وأحْكام، ومُحْكَمٌ فيما اشْتَمَلَ عليه من تَرْبيَةٍ ومُعَالجَاتٍ وإقْنَاعَاتٍ وجَدَلِيَّات، وتعليم، وَبَيَانٍ للصراط المستقيم.

وهٰذه هي المرَّةُ الثانيةُ في نجوم التنزيل الّتي وصف الله بها القرآن بأنَّه حكيم، وهي خَمْسُ مَرَّات، وإذْ كان اللهُ عزَّ وجلَّ حَكِيماً فلا بُدَّ أَنْ يكونَ كلامه حكيماً.

الأولى: في سورة (يس/٤١ نزول) فقال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

الثانية: في سورة (يونس/٥١ نزول) فقال الله عزّ وجلّ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

الثالثة: في سورة (هود/٥٢ نزول) فقد جاء فيها وصف القرآن بأنّه كتاب أُحْكِمَتْ آياتُهُ، أي: فهو مُحْكَم، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾.

الرابعة: في سورة (لقمان/٥٧ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

الخامسة: في سورة (الزخرف/٦٣ نزول) فقال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.

وقد جاء في صَدْر هٰذه السُّورَةِ بيان أنّ القرآن حَكِيمٌ في كُلّ عناصره، ليكون بمثابَةِ تقديم دَليلٍ على صِدْقِ الرَّسُولِ في أنَّهُ نبيُّ اللهِ ورسُولُه، فكِتابٌ حَكِيمٌ في كلِّ عناصِرِه لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إلَّا مِنْ عند اللهِ الْعَلِيم الحكيم، وقد جاء هذا الدَّليل تمهيداً لِمَا جاء في الآية الثانية، وإشعاراً بأنَّ الكافِرِينَ جَحَدُوا مقتضىٰ هذا الدليل.

ويُدْرِكُ المتدبر أنَّ في الكلام مطويّا يُفْهَمُ باللزوم الفكري، أي: تِلْكَ آيات الكتاب الحكيم الَّذي نوحي به إلى عبْدنا ونبينا ورَسُولِنا محمدِ بن عبد الله.

قولُ الله تعالى:

- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

وفي القراءة الأخرىٰ: **[إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ]**.

وقد سبَقَ في سورة (ص/٣٨ نزول) بيان أَنَّهُمْ قالوا بشأن الرَّسُول ﷺ هٰذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، إذْ جاءَ فيها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤﴾.

فَدَلَّ هذا على أنّهم إِبَّان نُزُول سورة (يونس/ ٥١ نزول) زادُوا مقالَتَهُم تَوْكيداً، وادِّعاءً بأَنَّ كَوْنَهُ سَاحِراً أَمْرٌ مُبِينٌ وَاضِحٌ جَلِيّ، وبأَنَّ سِحْرَهُ يَتَعَلَّقُ بما يأتي به من كلام بَلِيغ يَأْسِرُ الْعُقُولَ والنُّفُوسَ، فقالُوا بشَأْنِ الرَّسُول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ وقالُوا بشَأْنِ القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ ومَعْلُومٌ أَنَّ كُلّاً من الادّعائَيْنِ يَلْزَمُ عنْهُ الآخَرُ، وهم بهذا يَتَهرَّبُونَ من إِعْلَانِ الحقّ والإِذْعَانِ له.

- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ . . ②﴾:

استفهام تعجبيٌّ من أمرِ مُنْكِرِي رِسالة الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، بحُجَّةِ التعجُّبِ والاسْتِغْرَابِ والاستِبْعَادِ، مع أنَّ قَضِيَّةَ النُّبُوَّة والإرْسال لا تَحْتَاجُ أكْثَرَ مِنْ أَنْ يَخْتَارَ الله عزَّ وجلَّ عَبْداً من عباده بحكمَتِهِ، ويُوحِي إِلَيْهِ ببيَانَاتٍ وعلوم وأوامِرَ وَنَوَاهِيَ ووصَايَا، ويأمُرَهُ بِتَبْلِيغِهَا للنَّاس، وهَلْ في هٰذَا اسْتِحَالَةٌ عَقْلِيَّةٌ أَو اسْتِحَالَةٌ عَادِيَّة؟!

إنَّها من الممكناتِ في مَوازِين العقول السَّلِيمَةِ، ومِمَّا جَرَتْ به عادَةُ اللهِ بِالنِّسْبَةِ إلى سَائِرِ المرسَلِين السَّابِقِين، وقد سَبَقَ أنْ أوحَىٰ اللهُ إلَى كَثيرٍ من أنبيائه السَّابقين، فما الدَّاعي إلى هذا التعجب؟!

إنّ عَجَبَ مُكَذِّبي الرَّسُولِ في نبوّته ورسالَتِه، هو الَّذي يَسْتَدْعِي التعجُّبَ والاستِبْعَادَ والاستغرابَ حقّاً، فتعَجَّبُوا يَا أيُّها العقَلاءُ المؤمِنُونَ مِنْ هؤلاء المنكِرينَ المكذّبين بحُجَّةِ التعجُّب.

وفي هذا الاستفهام التعجبي معنى التلويم والتثريب والتوبيخ.

﴿لِلنَّاسِ﴾ يُرَادُ بإطْلَاقِ عبارة «الناس» الّذِينَ كذَّبُوا وكَفَرُوا بذريعة التعجّب، فهم الذين يُوَجَّهُ لهم الإنْذَار، والجار والمجرور متعلقان بـ﴿عَجَبًا﴾ فيما أَرَى مُقَدَّم عليه، للاهتمام بإظهار قباحة أن يَتَعَجَّبَ ناسٌ لهم فكر من أمْرٍ لا يَصِحُّ عقلاً أن يتعجَّبوا منه، ولفظ «عجباً» خبر «كان».

العَجَبُ: مصْدَرُ «عَجِبَ مِنه، يَعْجَبُ، عَجَباً، وعَجْباً، وعُجْباً» أي: أنْكَرَهُ إذْ لَمْ يَعْتَدْهُ.

﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ المصدرُ المؤوّل من «أَنْ» و«أوْحَيْنَا» اسْم «كان» أي: أكان وَحْيُنَا إلى رجُلٍ مِنْهُمْ عَجَباً يَسْتَدْعِي الإنكار؟!

الوحي: في المفهوم الدّيني، إعلامُ الله رَسُولاً من رُسُلِه، أو نبيّاً من

أنبيائه ما يشاءُ من كلامٍ أو معنى، بطريقة تُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينيَّ القاطِعَ بما أَعْلَمَهُ اللهُ به.

﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إلى رَجُلٍ من جِنْسِ بني آدم، وفي اختيار لفظ «رَجُلٍ» إشْعَارٌ بأنَّ الْوَحْيَ في قَضَايَا الدِّينِ جعَلَهُ اللهُ خاصّاً بالرِّجال مِنْ جِنْسِ الناس لِلنّاس.

- ﴿.. أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ .. ②﴾.

﴿أَنْ﴾ أي: بأن أنْذر الناس، وبَشِّرِ الّذين آمنوا، وحذف الجار قبل «أَنْ» جائز باطراد، أوْ تَفْسِيريّةٌ لمضمون ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ والمعنى: تضمّن مَا أَوْحَيْنَا بِهِ إلى رسُولِنَا قضيّتَيْنِ كُلّيَّتَيْنِ.

القَضِيَّةُ الأُولى: إنْذارُ الكافِرِينَ المكذِّبِينَ بعذابٍ أَبَدِيّ في دار العذاب يوم الدّين، دَلَّ عَلَيْهَا قَولُهُ تعالَى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أُطْلِقَ على الكافِرِينَ المكَذِّبينَ عُنْوَانُ «النَّاس» إذْ هُمُ النِّسْبَةُ الأَكْثَرُ، الّذِينَ لم يَكْتَسِبُوا بَعْدُ صِفَةَ «الَّذِينَ آمَنُوا».

لَم يُبَيَّنْ في هذه الآية ما أُنْذِرُوا بِهِ لِلْعِلْمِ به من دلالةِ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (يُونس).

القضيَّة الثَّانِيَةُ: تَبْشِيرُ الَّذِين آمَنُوا بِأَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى في الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾.

﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: قَدَماً نِعْمَتْ هِيَ قَدَماً، أُطْلِقَ لَفْظُ الْقَدَم وأُرِيدَ بها المكانَةُ والمنْزِلَةُ الَّتي يَحْتَلُّهَا المؤمِنُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الدين، ولهذا جاء عند المفسِّرين: «مَنْزِل صِدْق، درجَةٌ عالية» ونحو هذا.

أقول: تقول العرب: فُلَانٌ رَجُلُ صِدْقٍ، أي: نِعْم هو رَجُلاً، وفُلَانَةٌ امرأة صِدْقٍ، أي: نِعْمَتْ هي امرأةً.

فهذه العبارة وأمثالها من صِيَغِ الثناء والْحَمْدِ، ومنها في القرآن المجيد: «قَدَمُ صِدْق، مَقْعَدُ صِدْق، لِسَانُ صِدْقٍ، مُبَوَّأُ صِدْقٍ، مُدْخَلُ صِدْقٍ، مُخْرَجُ صِدْقٍ».

وهذا التعبير من إضافة الموصوف إلى صِفَته، أصْلُهُ: قَدَمٌ صِدْقٌ، ومَقْعَدٌ صِدْقٌ، وهكذا. أي: حَقَّقَ الموصُوفُ في الواقِعِ كُلَّ مَا يُطْلَبُ من كمال صِفَاته، فاستَحَقَّ الثناءَ والمدْحَ بما يَدُلُّ على كمال المطابقة بَيْنَهُ وبَيْنَ الصُّورَةِ المُثْلَى لِنَوْعِهِ، وذلك هو الصِّدْقُ حَقاً.

فالمعنى: وَبَشّرِ الّذِينَ آمَنُوا بأنّ لَهُمْ مكانَةً ومَنْزِلَةً حَسَنَةً رَفيعة لَهَا صِفَاتُ الكمالِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ نَوْعِهَا في جَنَّاتِ النَّعِيم، ولمّا كَانَتْ جَنَّاتُ النعيم مَنَازِلَ وَدَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ مَنْزِلَةٌ كَامِلَةٌ مُلَائِمَةٌ لِدَرَجَتِه، فالعبارَةُ الْقُرْآنِيَّةُ تَشْمَلُ كُلَّ الدَّرَجَاتِ المتَفَاضِلَات، لأنّ كلَّ دَرَجَةٍ مِنْهَا هي الدَّرَجَةُ الكامِلَةُ بالنِّسْبَةِ إلى مُسْتَحِقِّيها، كَدَرَجَةِ المئة بالنسبَةِ إلى أهل الصَّفِّ الأدْنَىٰ، ودَرَجَةِ المئَةِ بالنسبة إلى الصُّفُوف فَوْقه، الأَعْلَى فَالْأَعْلَى.

الإنْذَار: الإعْلَامُ بمكْرُوهٍ قادِمٍ، ولَوْ كَانَ مبنياً على سبَب.

التبشير: الإعْلَامُ بسارٍّ مُفْرِحٍ قَدْ حَصَلَ، أو سَيَحْصُل، ولَوْ كَانَ مبْنِياً عَلَى سَبَب.

- ﴿.. قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ يُشِيرُونَ إلى الرَّسُولِ محمَّد ﷺ الّذِي يأسِرُ النَّاسَ بما يَتْلُو عَلَيْهِمْ من قُرآن.

وجاء في القراءة الأُخْرَىٰ: [.. **قَالَ الْكَافِرُونَ إنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ]** يُشيرُونَ إلى القرآن الّذِي يَتْلُوهُ على الناس رَسُولُ الله محمد ﷺ فَدَلَّتِ

القراءتان على أَنَّ الكافِرِينَ قَالُوا كُلًّا من القولَيْن، فَوَصَفُوا القرآن بأَنَّهُ نَوْعٌ من السِّحْر، ووصَفُوا الرَّسُولَ بأَنَّهُ سَاحِرٌ.

إِنَّهم نَفَرُوا مِنْ أَنْ يَعْتَرِفُوا بالحَقِّ ويُذْعِنُوا لَهُ، ويُؤْمِنُوا بأَنَّ الآيَاتِ الّتي يَتْلُوهَا عَلَيْهِم تَنْزِيلٌ مِنْ رَبّ العالمين، لِئَلَّا يَتَّبِعُوا مَا جاء فِيها، مَعَ شُعُورِهِمْ بعَظَمَتِها وَتَأْثِيرها على الْعُقُولِ والقُلُوب والنُّفُوس، فتذَرَّعُوا لتَحْسِينِ نُفُورِهم ورَفْضِهِمْ وَجُحُودِهم بالحقّ باتِّهام الرَّسُول بأَنَّهُ سَاحِرٌ، واتّهام القرآن بأَنَّهُ نَوْعٌ من السِّحْر.

وقد جاءت هذه الجملة مفْصُولَةً غَيْرَ مَوْصُولَةٍ بِحَرْفِ الْعَطْفِ، إِذْ جاءت جواباً لسؤال مُقَدَّرٍ ذِهْناً، مضْمُونه: فَمَاذَا قَالُوا عن الرَّسُولِ وعن القرآن إذْ كَذَّبُوا بِهِمَا؟

فجاء الجواب: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. [إِنَّ هٰذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ].

وفي اسْتِعمالهم اسم الإشارة «هٰذا» الموضوع للمشار إليه القريب، معنى استهانتِهم بهما.

قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③﴾.

وفي القراءة الأخرى: **[أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ]**؟ أَصْلُها: أفلا تتذَكَّرُونَ.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، إذْ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③﴾؟ تُنَاسِبُ أحوال بَعْضِ المخاطَبين، و**[أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ]**؟ تُنَاسِبُ أَحْوَال آخَرين، يُطَالَبُون بأن يُبَالِغُوا بتكلُّف التّذكُّر.

تمهيد:

يُعلِّمُنا رَبُّنا جلَّ جلالُهُ أسْلُوبَ الْعَوْدَةِ إِلَى الإقناعِ بأركان القاعِدَة

الإيمانيَّةِ فِي الدِّين، لَدَىٰ دَعْوَةِ المشركين، أو الكافِرينَ بِبَعْضِ صفاتِ رَبّ العالمين، ولوازِمِها الفكريَّةِ، فآمَنُوا بأفكارٍ باطلةٍ، والْتَزَمُوا بلَوَازِمِهَا في السُّلُوك.

فهذا هو المنْهَجُ السَّلِيمُ في الإقْنَاعِ بِالْحَقِّ، والحِوَارِ المُجْدِي، والمجادَلَةِ بالَّتِي هي أحْسَن.

أمّا الحِوَارُ والمُجادَلَةُ فِي الْفُرُوعِ قَبْلَ تَصْحِيحِ القاعدة الإيمانية ولوازمها الفكريّة والسُّلُوكيّة، فَعَمَلٌ غيْرُ ذِي جَدْوىٰ، ورُبّما يكون ضَرَرُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ.

إنّ المتدبّر المتأمِّلَ يُدْرِك من خِلَالِ تَدَبُّرِهِ لِهٰذِهِ الآية، وإيرادِها عَقِب بيان تَكْذِيبِ المشركينَ للرَّسُول، وتكْذِيبهم بآيات القرآن المجيد، أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَعُودُ بِهِمْ إِلىٰ إثباتِ رُبُوبِيَّةِ رَبّهِمْ الشامِلَةِ لِكُلِّ الْوُجود، والّتي لَا يُشَارِكُهُ فِي شيءٍ من عناصِرِهَا شَرِيكٌ ما، لأنَّهم إذَا آمَنُوا بهٰذِهِ الحقيقة، سَقَطَ شِرْكُهم، وسقطَتْ كُلُّ لوازِمِه الفكريّة والسُّلُوكِيَّة، فصَفَتْ قُلُوبُهم لإدْرَاكِ أَنّ محمّداً عبْدُ اللهِ ونَبِيُّهُ ورَسُولُهُ حَقّاً، وأَنَّ مَا يَتْلُوهُ عليهم من القرآن المجيد، هو مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ الْعَلِيم الحكيم حَقّاً وصِدْقاً.

وبهذا يكونُ حالُ مَنْ لَدَيْهِ قابليَّةٌ ما للاستجابَةِ لِدَعْوَةِ الحقّ، أكْثر لِيناً، وأَقْرَبَ إلى الإيمانِ بالحقِّ الرَّبَّانِيِّ، والدُّخُولِ في الإسلامِ، وأكْثَر قُدْرَة علَى مُجَافَاةِ مَا هُو فِيهِ من كُفْرٍ وعِنَادٍ وتَقْلِيدٍ أَعْمَىٰ.

التدبُّر التحليلي:

هذه الآية الثالثة من السُّورة تَشْتَمِلُ على خطاب المكذّبين للرَّسُول، والمكذّبين بالقرآن، بِبَيانِ خَمْسِ صفاتٍ من صفاتِ رَبِّهم، فيقولُ الله عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أي: إِنَّ خَالِقَكُمْ، وَمُمِدَّكُمْ بالْبَقَاءِ، وَرَازِقَكُمْ، وَمُحْيِيَكُمْ، وَمُمِيتَكُمْ، وَوَاضِعَكُمْ في الحياةِ الدُّنيا موضعَ الابتلاء،

ومطالبكم بالإيمان والطاعة، وباعِثُكُمْ إلَىٰ الحياةِ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، ومُحَاسِبُكُمْ، وَمُجَازِيكم، والمتَصَرِّفَ بِكُلِّ أُمُورِكم، صِغَارِهَا وكِبَارِها، والَّذِي يَسْتَجِيب لكم إذا دَعَوْتُمُوه، مِنْ صِفاتِهِ ما يلي:

الصِّفَةُ الْأُولَى: أنَّ اسْمَهُ العَلَم الجامِعَ لِكُلِّ صفاتِه: «الله»: دَلَّ على هٰذِهِ الصفَةِ قولُهُ تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: إنَّ رَبَّكُمُ الذي لا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ على أيِّ معنىً من معاني الرُّبُوبيَّة اسْمُهُ الله.

الصفة الثانية: أنَّهُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: خَلَقَ كُلَّ هٰذِهِ الكائِنَاتِ السَّبْعِ السَّامِيَاتِ فَوْقَكُمْ، والّتي تعْرِفُونَ أَنَّهَا سماوات، ويَدْخُلُ في خَلْقِهَا خَلْقُ مَا فِيهَا، وخَلَقَ الْأَرْضَ الَّتِي تَسْكُنُونها، وخَلَقَ كُلَّ مَا فِيها، وتمَّ خَلْقُ السَّماواتِ والأرض في سِتَّة مَقَادِيرَ زَمَنِيَّة.

سمَّىٰ الله عزّ وجلّ كُلَّ مِقْدَارٍ زَمَنِيٍّ مِنْهَا يوماً، وقد عَرَفْنَا من استقراء النُّصُوص القرآنيَّةِ أنَّ لَفْظَ «يَوْمَ» يُطْلَقُ على مقدارٍ زَمَنِيٍّ ما يخْتَلِفُ باخْتِلَافِ القاعِدَةِ الّتي يَسْتَنِدُ إليها حسابُ زمَنِ اليوم، وقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ يَوْمَ بَعْضِ الكواكِب أقْصَرُ مِنْ يَوْم الأرض، وأَنَّ يَوْمَ بَعْضِهَا أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ الأرض، ولكُلِّ نَجْمٍ دَوْرَةٌ يَتِمُّ بِتَمَامِها يَوْمُه، وللمجرّاتِ أيَّامٌ طَوِيلَةٌ جدّاً.

وجاء في القرآن بيان أنّ مقدار بعْضِ الأيام عند الله كألف سَنَةٍ ممّا يَعُدُّ الناس في الأرض، وجاء فيه أيضاً أنَّ مِقدار بعض الأيام خَمْسُونَ ألف سنة ممَّا يَعُدُّ الناس.

فالله أعْلَمُ بمقَادِير الأيّام الّتي خَلَقَ فِيها السَّماوات والأرض، مع إيمانِنا بأنَّ الله جلَّ جلالُهُ قادِرٌ علَىٰ أَنْ يَخْلُقَهَا بأقلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ بِأَمْرِ التكوين، لو شاء ذلك، إنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُنْ» فَهُوَ يكونُ على وفْقِ مُرادِهِ فيه.

الصِّفَةُ الثَّالِثَة: أَنَّهُ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ مُتَرَاخٍ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ، دَلَّ على هٰذِهِ الصِّفَةِ قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾.

الاستواء: هو في اللُّغة الاستقامَةُ والاعتدال، ويقالُ لُغَةً: اسْتَوَى عَلَى كَذَا، أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ فَوْقَه. ويُقَال: اسْتَوىٰ إلى فِعْلِ كذا، أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ مُتَوَجِّهاً لِفِعْلِهِ، قاصداً إليه، لا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ آخر.

وأَحْسَنُ بَيَانٍ بِشَأْنِ الاستواء الَّذِي وَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ به نفسه ما قالَهُ الإمامُ مالِكٌ إِمَامُ دَارِ الهجرة:

«الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُول، والاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَة».

الْعَرْش: الْعَرْش مَخْلُوقٌ أَعْظَمُ فَوْقَ السّماواتِ السَّبْعِ ومُحِيطٌ بِهَا.

ورُوي أنَّ السماواتِ بالنسبة إليه كحلْقَةٍ مُلْقَاةٍ في أَرْضٍ فَلَاة واسعة، والله أعلم.

الصفة الرابعة: أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانَهُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ﴾ أي: يُدَبِّرُ أُمُورَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْأَكْوَانِ كُلِّهَا، فَهِيَ خَلْقُهُ، وَتَصْرِيفُ أُمُورِهَا بِتَدْبِيرٍ حَكِيمٍ مِنْ صِفَاته، مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقٍ لَهُ، حَتَّىٰ أَكْبَرِ مَخْلُوق، ومن المخلُوقاتِ الصُّغْرَىٰ الَّتِي يُدَبِّر اللهُ الرَّبُّ أُمُورَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهَا، الْفَيْرُوسَاتُ، وما هُوَ أَصْغَرُ مِنها، وهذه الجملة خبرٌ ثانٍ.

التدبير: إعْدادُ الخُطَطِ الدَّقِيقَةِ السَّلِيمَةِ الحكيمة، الّتي تَكْفُلُ أَحْسَنَ العواقِبِ الّتي تكونُ في أواخِرِ الْأُمُورِ وأَدْبَارِها.

الصفة الخامسة: أَنَّهُ لَا شَفَاعَةَ لِأَحَدٍ تُقْبَلُ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، دَلَّ عَلَى هذه الصفة قَوْلُ الله تعالى في الآية: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ أي: لَا يُوجَدُ شَفِيعٌ مَهْما كَانَ ذا قُرْبٍ مِن اللهِ يَشْفَعُ لِأَحدٍ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ

بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُ بِأَنْ يَشْفَعَ ضِمْنَ شُرُوطٍ أبانَها اللهُ في غَيْرِ هٰذِهِ الآية(١)، وهذه الجملة خَبَرٌ ثالث.

لفظُ «مِنْ» في عِبارَةِ ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ زِيدَتْ فِي النَّصِّ لإفادة استِغْرَاقِ عُمُومِ النَّفْيِ والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

وقد جيء بهٰذه الصِّفَةِ تَوْطِئَة لما جاء في الآية (١٨) من هٰذه السورة، إذْ لمَّا دَمَغَتِ المشركين الحُجَجُ البرهانيّة الّتِي تُثْبتُ أَنَّ آلِهَتَهُمُ الّتِي يَعْبُدونَها من دُون الله لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، اتَّخَذَ بَعْضُهُمْ ذَرِيعَةً لِتَحْسِينِ عِبادَتِها بأَنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ لهم عِنْدَ اللهِ، فَجَعَلُوا يُكَرّرُونَ مَقُولَةَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ فأبان اللهُ عزّ وجلّ أَنَّهُمْ يَفْتَرون على رَبِّهِمْ في هٰذا الادّعاءِ الباطل، كما سَيأْتِي إن شاء الله لدى تدبّر الآية (١٨).

وبَعْدَ أن ذَكَرَ الله عزَّ وجَلَّ هٰذِهِ الصِّفَاتِ الخمس للرَّب جَلَّ جَلاَله، خاطَبَ المشركين المكذّبين للرَّسُول والمكَذِّبين بالقرآن بقوله لهم:

﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③﴾:

أي: ذَلِكُمُ اللهُ العظيمُ الجليلُ الْعَليُّ الأعْلىٰ هُو رَبُّكُمُ الَّذِي لا يُشَارِكُهُ في رُبُوبِيَّتِهِ أَحَدٌ، فاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، فَهُو وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وعِبادَةُ غَيْرِهِ وَلَوْ عَلَى سبيل الإشراك عُدْوانٌ عَلى حَقِّهِ تَبارَكَ وَتعالى.

استعمل اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، لأنّ الله هو العلي الأعلى.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③﴾ ـ **[أَفَلا تَذَّكَّرُونَ]؟؟** استفهامٌ فيه مَعْنَىٰ الحَثِّ

---

(١) انظر الملحق الثاني التابع لتدبُّر سورة (طه/ ٤٥ نزول) حول: «الشفاعة يَوْمَ الدِّين وأنواعها».

والحضّ على التذكّر، والتَّلْويمِ والتثريب على تَرْكِ التَّذَكُّر المطلوب.

فعل: «تَذَكَّر، يَتَذَكَّر» ومَصْدَرُه وتصاريفُه، اسْتُعمل في القرآن المجيد للدَّلَالَة على الأثَرِ النَّفْسِيِّ والْقَلْبِيِّ لحضور المعلومَةِ المطلوب حضُورُها في الذَّاكِرَةِ، اسْتِدْعاءً لَهَا من مخازِنِ المَعْرِفَةِ، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لها من الخارج، عَنْ طَرِيق بيانٍ وارِدٍ، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيٍّ ذَاتِيٍ، أو بتأثيرِ حَدَثٍ، أو ظَاهِرَةٍ كَوْنِيَّة، أو غير ذلك.

فصار هٰذا المرادُ بهٰذِهِ المادَّة اللُّغَوِيَّة بمثَابَةِ مصْطَلَحٍ قُرْآنِي، كمُصْطَلَح الصلاة، ومصطلح الزّكاة، في الدَّلَالَةِ عَلَىٰ معَانِيها الدِّينِيَّةِ.

وهٰذا الأثر النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ هو المطلوبُ الدّيني من الذِّكْرِ والتَّذَكّر، واكتِسَابِ المعارِف الدينيَّة، وهو الدَّافِعُ للسُّلُوكِ الدينيِّ الملائِم له، والمطلوبِ فيه.

قول الله تعالى:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

في هذه الآية مُتَابَعَةٌ لخطاب المكذبين للرَّسُول والمكذّبين بالقرآن من المشركين، رغبةً في إقناعهم بعناصر القاعدة الإيمانيّة الكبرىٰ.

وبَعْدَ بيان تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّة لله الرَّبِّ جَلَّ جلالُهُ، والأمْرِ بعبادته، يَتَساءَلُ الْفِكْرُ: لِمَاذا نَعْبُدُ الله؟

وبالتأمُّلِ مَعَ دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الَّتِي نَزَلَتْ قبل نزُولِ سورة (يُونس) نُدْرِكُ أنّ الرَّبَّ قَدْ خَلَقَ النَّاسَ لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

وهُنَا نُدْرِكُ أَنَّ الامْتِحَانَ يَسْتَتْبِعُ الجَزَاءَ حَتْماً، ولمّا كانت ظُروف

الحَياةِ الدُّنْيَا خالِيَةً من تَحْقِيقِ الجزاءِ الملائِمِ الَّذِي تقتضيه حِكْمَةُ الحكيم، كَانَ لَا بُدَّ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَعَدَّ ظُرُوف حَياةٍ أُخْرَىٰ فِي خُطَّةِ التكوين لِتَحْقِيقِ الجزاء الأَمْثَل.

ولبيان هذه الحقيقة خاطَبَ اللهُ المكذِّبين مُدْخِلاً لَهُمْ ضِمْنَ عُمُومِ النَّاسِ فقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: أي: إِنَّكُمْ سَتَمُوتُونَ كما تَعْلَمُون، ولكِنْ بَعْدَ الموْتِ وَمُرُورِ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ سَوْفَ تُبْعَثُونَ إِلَىٰ الحياة مَرَّةً أُخْرَىٰ، وَبَعْدَ هذا البَعْثِ يكُونُ رُجُوعُكُم إلى حِسَابِ رَبِّكُمْ، وفَصْلِ قَضَائِهِ بَيْنَكُمْ، وتَحْقِيقِ جزائِهِ على ما قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَة امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: **الْمَرْجِعُ**: مَصْدَرٌ ميميٌّ، واسْمُ مَكَانٍ واسْمُ زَمَانِ الرُّجُوع، وهٰذِهِ المعاني الثَّلاثَة صَالِحَةٌ لأَنْ تَكُونَ مُرادَةً هُنا، فإلى الله الرُّجُوع، وإِلَىٰ اللهِ تَعْيِينُ زَمَانِ الرُّجوع، وإِلَيْهِ تَهْيِئَةُ مكانِ الرُّجُوع.

﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من الضمير في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وهي مؤكدةٌ له، وناصَّةٌ على العموم.

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾: أي: إليه مَرْجعكم جَميعاً رُجُوعاً وَعْدَ الله حقّاً، فـ«وَعْدَ اللهِ» نَائب مَفْعُول مُطْلَق مُبَيِّنٌ لِنَوْعِهِ، و«حَقّاً» مفْعول مطلق جيء به لتوكيد مضمون جُمْلَةِ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

- ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: لَمَّا كان المكذّبونَ للرَّسُول والمكذّبون بالْقُرآن مُكَذِّبينَ أيضاً بخبر الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين، كَانَ مِنَ الحكمة في البيان تقديمُ دليلٍ يَدْفَعُ شبْهَةَ استِبْعَادِ واسْتِغْرَابِ الْبَعْثِ إلى الحياة مرَّة أُخْرىٰ، بَعْدَ الموت وفناء الأَجْساد، وهذا الدّليل يَعْتَمِدُ على بَدِيهِيَّةٍ عَقْلِيَّة، وهي أَنَّ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ دُونَ أَنْ يَكُونَ شَيئاً مذكوراً، قَادِرٌ بَداهَةً عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ بَعْدَ أَنْ يُمِيتَهُ وَيُفْنِي جَسَدَهُ، فَهُوَ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، وَصِفَاتُهُ كُلُّها أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّة، فإذا أَخْبَرَ هُوَ جَلَّ جَلالُهُ بِأَنَّهُ سَيَبْعَثُ الْمَوْتَى إِلَى الْحَياةِ مَرَّةً أُخْرى

بَعْدَ أَنْ يُمِيتَهُمْ وَيُفْنِي أَجْسَادَهُمْ، لِيُحَاسِبَهُمْ، وَيفْصِلَ قَضَاءَه فِيهم، ويُجَازِيَهُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَبَرُهُ حَقّاً وَصِدْقاً.

وعلى قراءة فتح همزة «أنّه» يكون التقدير: وَعْدَ الله حَقّاً لِأَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه.

- ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾: في هٰذهِ العبارة بيان الحِكْمةِ والغَرضِ مِنْ إحياءِ النَّاسِ بعد مَوْتهم وفناء أجسادهم، وهُوَ تَحْقِيقُ الجزاءِ يَوْمَ الدّين، علَى مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا، ولولا هٰذا لَكانَ خَلْقُ النَّاسِ بِصِفَاتِهِمْ الَّتِي وَهَبَهُمُ اللهُ إيَّاهَا عَبَثاً، وَقَدْ تَنَزَّهَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ ـ عَنِ الْعَبَثِ في أفعاله.

الجزاء: مقابلَةُ الْعَمل بما يُلائِمُه من خَيْرٍ أَوْ شَرّ، فَيَكُونُ بمقابلة الحسنة بمثْلها فما فَوْقَ تفضُّلاً، وبمقابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا عَدْلاً، فَبِمَا دُونَهَا تجاوزاً وصفحاً.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: الَّذين صَدَّقُوا تَصْدِيقاً إرَادِيّاً قلبيّاً بكلّ مَا أَوْجَبَ اللهُ عليهم أَنْ يُؤْمِنُوا به، وهي أَرْكان الإيمان الستَّة، وتَفْصيلاتُها وفُروعُها الثابتَةُ بيقين.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: وَعَبَّرُوا بسُلُوكهم الإرَادِيّ في أَعْمالٍ باطِنَةٍ وظاهِرَةٍ عن صِحَّةِ إيمانهم وصِدْقِهِمْ فيه.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ **القِسْطُ**: بكَسْرِ القاف هو العدل، وهو من المصادر الّتي يوصف بها الواحد والجمع، أمّا القَسْطُ بفتح القاف فهو الْجَوْرُ، وهو ضِدُّ الْعَدْل.

جاءَ الْقِسْطُ هُنَا بَيَاناً لِجزاءِ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ، أنَّ جزاءَهُمُ العظيمَ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ إِنَّما يَكُونُ بِفَضْلٍ مِن اللهِ عليهم، وهو فَوْق قانُون القِسْط والْعَدْل.

وهٰذا يُثيرُ تَساؤُلاً عَنِ الحِكْمَةِ الدَّاعِيَةِ لِذِكْرِ الْقِسْطِ في هذا النصّ؟.

أقول:

أوّلاً: إنَّ ذِكْرَ القِسْطِ الَّذِي هُو أدْنَىٰ دَرَجاتِ جزاء الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات، ويكُون بوِقَايَتِهِم من العذاب وحمايتهم مِنْهُ، لا يَنْفِي تفضُّل اللهِ عليهم بدرجات كثيراتٍ من النَّعِيم فَوْقَ ذَلِكَ، وهو ما جاء بيانُه في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ كثِيرة، وَفْقَ مَنْهَجِ القرآن في تَوْزِيعِ أَفْكَارِ الموضوع الواحد على عَدَدٍ مِنَ النُّصُوصِ فِي عَدَدٍ مِنْ سُوَر القرآن.

ثانياً: إذَا أَدْرَكْنا أَنَّ وَعْدَ اللهِ لَهُمْ بالجزاء العظيم على سبيل التَّفَضُّلِ بالغاً ما بلَغَ، قَدْ جَعَلَ لَهُمْ حقّاً على كَرَمِ اللهِ وَجُودِهِ العظيم، أَنْ يَفِيَ لَهُمْ بما وَعَدَهُمْ بِهِ، ووفَاءُ اللهِ لَهُمْ بهذا الوعْدِ هُو من القسط.

وبهذا يَنْحَلُّ الإشكالُ، وتتم الإجابَةُ على السؤال، ولا تعارض حينئذ بَيْنَه وبين ما جاء في الصحيح عن الرسول ﷺ بقوله:

«لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجنَّة».

قالوا: ولا أنت يا رسُولَ الله؟!

قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ».

﴿.. وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ④﴾:

من إبداعِ القرآنِ في بَيَانِهِ، التَّنْويعُ فِي أسَالِيب العرض بَيْنَ المتقابلات، وبين الأقسام، وبَيْنَ المتماثلات والأشباه والنظائر.

وقد جاء هنا بيان لقطة من عذاب الّذِين كفروا يوم الدّين في جهنم بأُسْلُوب مخالِفٍ لأُسْلُوبِ بيانِ جزاء الّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ بالقسط.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾: أي: في جهنَّمَ دَارِ عذابِ الَّذِينَ كَفَرُوا.

من حَمِيم: أي: من مَاءٍ حَارٍّ شَدِيدِ الحَرَارَة، فالَّذِينَ كفروا شرابُهُمْ في جَهَنَّم الّذي يُضطرون إلى أن يَشْرَبُوا مِنْهُ لِشِدَّةِ ظَمَئِهِم هُو مَاءٌ شديد الحرارة، فَهُوَ الّذي هو شرابٌ لهم فيها مُعَدٌّ جُزْءاً من عذابهم.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: وعقابٌ مؤلِمٌ لَهُمْ. **أليم**: أي: مؤلم، فعِيل بمَعْنَىٰ مُفْعل.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: الباء سببيّة، أي: بسَبَبِ مَا كَانُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا يَكْفُرون بالحقّ الَّذي أمَرَ اللهُ عباده بأن يُؤْمِنُوا به. أو هي بمعنىٰ التَّعْوِيض والمقابَلَة.

السببيَّةُ، والمقابَلَة والتَّعوِيض، من معاني حَرْف الجرّ «الباء».

الكُفْرُ: في المفُهُوم الدّينيّ هو موقف الرفض والجحود بعد معرفة الحقّ ببراهِينِه، هذا ما تَدُلُّ عليه الاستعمالَات القرآنية المختلفة. وهو يتلاءم مع المعنى اللُّغوي وهو السَّتْر، فالكافر يسْتُرُ أدلَّة الإيمانِ ويَجْحَدُها.

قول الله تعالىٰ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾: أي: رَبُّكُم الَّذي يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوه وَحْدَه، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شيئاً، ولا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ، هو الَّذي امْتَنَّ على عَبَادِهِ في الأرض، فجَعَلَ لَهُمُ الشَّمْسَ ذَاتَ ضِيَاءٍ، كوكباً ناريّاً مُشْتَعِلاً ذا لَهبٍ، يَبُثُّ أشِعَةً حَارَّة نَافِعَةً لِسُكَّانِ الأرض منافِعَ مُخْتَلِفَةً

جَلِيلَةً لحيواتهم، وجَعَلَ الْقَمَر نوراً، أي: ذَا نُور، فهو يبثُّ نُوراً بارِداً لَا حَرَارَة له، نافعاً لسُكّان الأرض.

ضِيَاءً: مصدر ضَاءَ، تقول لُغَةً: «ضَاءَ الشيْءُ يَضُوءُ ضَوْءاً وضِيَاءً» أي: نشرَ أشِعَّة حارّة تكشف الظلمات.

وجاء في سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) ذكْر الشَّمس بِعُنْوان «سِرَاج» ووصْفُ الْقَمَر بأَنَّهُ منير، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

وكذلِكَ أبَانَ نُوحٌ عليه السلام لقومه، فقال الله عزَّ وجلَّ حكايَةً لِقَوْلِهِ لقَوْمِهِ في سورة (نوح/ ٧١ نزول).:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

ومعلُومٌ أنَّ السِّراجَ ذُو لَهَبٍ نَارِيٍّ، فدَلَّتْ هذه النُّصُوص علىٰ ما أثْبَتَتْهُ المعارِف الإنسانيّة الّتي جاءت متأخِّرَةً من أنَّ الْقَمَر عاكِسُ نُورٍ فقط، ولَيْسَ لهُ ضِيَاءٌ ذَاتِيٌّ صَادِرٌ عنه. وأثبتَتِ المعارِف الإِنْسَانِيَّةُ أنَّ الطّاقَةَ الشمْسِيَّةَ الّتي تَصِلُ إلى الأرض، هي سَبَبُ كُلِّ مَظاهِرِ الحياة فيها، ولولا الطَّاقَةُ الشَّمسِيَّةُ لَبَرَدَتْ، وَجَمَدَت، ولمَا كَانَتْ صَالِحَةً لِظُهُورِ الحيَاة عَلَيْهَا.

ولَا شَكَّ أنَّ كُلّاً مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَر مُسَخَّرٌ بِرَحْمَةِ اللهِ وعنايَتهِ لمصالح الأحياء على الأرض.

● ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾: أي: وقَدَّرَ فَلَكَ الْقَمَرِ الَّذي يَسِير فيه سابحاً فجعَلَهُ مَنَازِلَ، ضُمِّنَ فِعلُ «قَدَّر» معنى فعل «جَعَلَ» فنَصَبَ لفظ «مَنَازِلَ» فأغْنَتِ الجملةُ عن جُمْلَتَيْن، وحُذِفَ بهذا الإجراء مفْعُولُ «قَدَّرَ» وأُثْبِتَ مفْعُول «جَعَل».

وقد درس علماء الفَلَكِ حَرَكَة الْقَمَر في دَوْرَتِهِ الشَّهْرِيَّة حول الأرض فاكْتَشَفُوا مَنَازِلَهُ في فَلَكِهِ في السماء، ورأوا أنَّها نظام ثابتٌ مُحْكَمٌ بِتَقْدِير الله.

منازل القمر عند علماء الفلك:

قالوا: منازل الْقَمَرِ صُوَر نُجُوم تَتَخَلَّلُ الْبُرُوج، وكُلُّ بُرْجٍ يَحْوِي مَنْزِلَتَيْنِ وَثُلُثاً، ويَتَنَقَّلُ الْقَمَرُ بَيْنَ هٰذِهِ النجوم بِدِقَّةٍ بمقدار (١٢,٨) درجة على وجْهِ التقريب، أي: هو يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ في مَنْزِلَةٍ مِنْ هٰذِهِ المنَازِل، ويَعُودُ إلى مَوْقِعه الأصْلِيّ بَعْدَ (٢٨) منزلَة، ثم يَسْتَتِرُ ليلة (٢٨) إذا كان الشهر (٢٩) يوماً، أو يَسْتَتِرُ ليلَةَ (٢٩) إذَا كان الشّهْر (٣٠) يوماً.

وقد سمَّى الْعَرَبُ هذه المنازل بأسماء(١)، وهي:

١ ـ الشَّرطَان
٢ ـ الْبُطَيْن
٣ ـ الثريَّا
٤ ـ الدَّبَران
٥ ـ الهَقْعَة
٦ ـ الْهَنْعَة
٧ ـ الذّرَاع
٨ ـ النَّثْرَة
٩ ـ الطَّرْف
١٠ ـ الجبهة
١١ ـ الزُّبْرَة
١٢ ـ الصِّرْفة
١٣ ـ الْعَوَّا
١٤ ـ السِّمَاك
١٥ ـ الْغَفْر
١٦ ـ الزُّبَّانا
١٧ ـ الإكليل
١٨ ـ القلْب
١٩ ـ الشَّوْلَة
٢٠ ـ النَّعائم
٢١ ـ الْبَلَدَة
٢٢ ـ سعد الذابح
٢٣ ـ سَعْد بُلَع
٢٤ ـ سَعد السُّعُودِ
٢٥ ـ سَعْد الأخْبِية
٢٦ ـ الفَرْغُ المقدّم
٢٧ ـ الْفَرْغُ المؤخّر
٢٨ ـ الرِّشاء

والوجْهُ المواجهُ للشَّمْسِ من القمر في دورتِه الشَّهْرِيَّة حوْل الأرض، يُعطي من النور بمقدار ما يَرىٰ سُكَّانُ الأرض من هٰذا الوجه، وبهذا تظْهَر الأهِلَّة التكامليّة حتَّىٰ يَصِيرَ الْقَمَرُ بَدْراً في منْتَصَفِ الشَّهْرِ، ثم تظهر الأهلّة التّناقصيَّةُ حتَّىٰ ليلَةِ المَحَاق، التي لا يَرَى فِيها سُكَّانُ الأرض شيئاً من وَجْهِ الْقَمر المواجه للشمس، ويكونُ القمرُ بين الشَّمْس والأرض تماماً.

ويَدُور الْقَمرُ حَوْلَ الأرض في مَدَارٍ بَيْضِيّ.

---

(١) انظر الموسوعة العربية (التقويم الهجري).

وهذا التقدير المتقَنُ المحكَمُ البديع هو من عجائب صُنْعِ الله في كَوْنه، ومن عِنَايَتِهِ الجليلَةِ بِعِبَادِهِ.

- ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾: أي: إنَّ توالي اللَّيْل والنهار متداوِلَيْن من فوائده عِلْمُ عَدَدِ السّنِينَ الْقَمَريّة والشمسيَّة، إذ نظام تداول اللَّيل والنهار له ارْتباطان سبَق بيانهما لدى تدبر الآية (١٢) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وكذلك سبق فيه بيان الحساب.

- ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾: المشارُ إِلَيْهِ باسم الإشارة «ذَلِكَ» كلُّ ما جاء في الآيات (٣) و(٤) و(٥) من مظاهر صُنْعِه وإتقانِهِ في كَوْنِه.

والمعنى: ما خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ في كَوْنِهِ عملاً بَاطِلاً لَيْسَ لَهُ غاياتٌ حكيماتٌ، وما خَلَقَهُ عَبَثاً مِنَ الْعبث، بَلْ خَلَقَهُ مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ الذي هو ضِدُّ الباطِلِ والْعَبَث.

ونُدْرِكُ مِنْ هٰذَا الْحَقِّ اشْتِمَالَ مَا خَلَقَ اللهُ على صفاتٍ دالَّاتٍ عَلَى صِفَاتِ الخالِقِ الْجَلِيلَةِ، ومِنْهَا عِلْمُهُ، واختيارُهُ الحكِيمُ، وقُدْرَتُهُ الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا مَا يَشَاءُ ويختار، وإتْقَانُهُ الباهِر لِمَا يَخْلُقُ ، وإبْدَاعُهُ لما يَخْلُقُ على غَيْرِ مِثَالٍ سَبَق، إلى سائر صفاتِ رُبُوبِيَّتِهِ ووحدانِيَّتِهِ فيها، الَّتي يلْزَمُ عَنْهَا وحْدَانِيَّتُه في إلٰهِيَّتِهِ.

فَهِيَ آياتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ الْحقَائِقِ الإِيمَانِيَّةِ، الَّتِي كَلَّفَ اللهُ عباده الَّذِينَ وَضَعَهُمْ فِي الْحيَاةِ الدنيا موضع الامتحان أَنْ يُؤْمِنُوا بها، ووضْعُ هٰذه الآياتِ في الكَوْنِ هُوَ مِنَ الحَقِّ الَّذِي لا بَاطِلَ فِيهِ ولا عَبَث.

- ﴿.. يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ في هٰذِه الْفِقْرة يُبيّن الله عزَّ وجلَّ أَنَّ تَنْبِيهَهُ عَلَىٰ آثارِ صفَاتِهِ في كَوْنِهِ بِصُورَةٍ مفصَّلَةٍ ومنها حديثه عن الشمسِ وضيائها، والقمر ونوره ومنازِله، مُوَجَّهٌ لِقَوْمٍ لَدَيْهم دافِعٌ أَنْ يَعْلَمُوا أَسْرَارَ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، وعظيم إتْقَانِهِ لما خَلَق، رغْبَةً في إدْرَاكِهِمْ الحقَّ

الّذي يُكَلِّفُهُم اللهُ أن يُؤْمِنُوا بِهِ، فإذَا آمَنُوا إيماناً صادقاً أسْلَمُوا لَهُ، واجْتَهَدُوا في اتِّباعِ أوامره ونواهيه ووصَايَاهُ، والْعَمَلِ بشرائِعِهِ، على مقادير استِطَاعَاتِهِم، وتغلُّبِهِمْ عَلَى أهوائِهم وشهواتِهم وغرائِزهم الضاغِطَةِ على إراداتهم.

قوله الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦﴾.

اختلافُ اللَّيل والنَّهار هو تَضَادُّهما في الظُّلْمَةِ والضِّياءِ، وفي كُلٍّ من هٰذَيْنِ المتضادَّين منافِعُ جَلِيلَةٌ لِسُكَّانِ الأَرْضِ، يُدْرِكُهَا كُلُّ ذِي فِكْرٍ يتعاقَبُ في حياتِهِ اللَّيْلُ النَّهار، إذْ يَنْتَفِعُ فِي ضِيَاءِ النَّهَارِ بِمَنَافِعَ لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ الانْتِفَاعُ بِهَا فِي اللَّيْلِ، وَيَنْتَفِعُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ بمنافع لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ الانتفاع بها في النهار.

ففي عبارة: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضافَةُ تَفْصِيلٍ إِلَىٰ مَا سَبَقَ تَفْصِيلُهُ من آيات الله في الكَوْن.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وفي كُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ في السَّمَاوَاتِ، مَهْمَا امْتَدَّتْ أبْعَادُها، ممَّا يَسْتَطِيعُ المخْلُوقُونَ في الأرض إدْراكه، وفي كُلّ ما خَلَقَ اللهُ في الأرض كذَٰلِكَ.

﴿.. لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦﴾: أي: لَعَلَامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى عَظِيم قُدْرَةِ الله جَلَّ جَلالُه، وعلَىٰ عظيم عَدْله، وهٰذه الآيات يَنْتَفِعُ بدَلَالَاتِهَا الْعُقَلاءُ، الَّذِينَ يَسْتَبْصِرُونَ الأشياءَ الَّتي تَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا عُقُوباتٌ رَبَّانِيَّةٌ مُؤلِماتٌ مُوجِعَاتٌ، فَيَتَّقُونَها، ويَجْتَنِبُونها، مَخَافَةَ أَنْ تُسَبِّبَ لَهُمْ عُقُوبَاتِ رَبِّهم، الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلى اقترافهم لها، لما فيها من مَعْصِيَةٍ للهِ جَالِبَةٍ لِسَخَطِه وَنِقْمَتِهِ وعُقُوبَتِهِ.

قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ⑦ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ⑧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ⑨ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ⑩﴾.

في هذه الآياتِ بيانُ لقْطَة عامَّةٍ من جَزاءِ الَّذِينَ كَفرُوا، ولقَطاتٍ من جزاء الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات، وفي كُلٍّ مِنْهُما مُتابَعَةٌ لِمَا جَاءَ في الآية الرَّابعَةِ، بَعْدَ فَاصِلِ عَرَضَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيه بَعْضَ آياتِه في كَوْنه، ويَدُلُّنا هٰذَا الإجراء على أَنَّ مِنَ الحِكْمَةِ الدَّعَوِيَّةِ التَّنَقُّلَ التراوُحِيّ بَيْنَ الإقْنَاعِ الفكريِّ بِالْحَقِّ، والتَّرْغِيبِ والترهيبِ لاسْتِثَارة مِحْوَرَي الطَّمَعِ والْخَوْفِ داخِلَ النفس.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾: أي: إنَّ الَّذِينَ لا يَتَوَقَّعُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ يَوْم الدِّين لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء بالثواب أو بالعقاب.

الرَّجاء: هو مُطْلَقُ التَّوَقُّعِ للمرغُوبِ فيه، أو للمخوف منه.

وسَبَبُ عَدَمِ تَوَقُّعِ هٰؤُلاء لقاءَ رَبِّهِمْ شِدَّةُ تَعَلُّقِهِمْ بالحَيَاةِ الدُّنيا، مع تَكذِيبِهِمْ بنبأ الجزاءِ الرَّبَّاني يَوْمَ الدِّين، الَّذي أنبأَتْ بِهِ نُصُوصُ كِتَابِ اللهِ المجيد، وأقوالُ رَسُولِهِ الكريم ذي الخُلُق العظيم، وتتابعَتْ على بيانه رسالات الأنبياء والمرسلين.

- ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي: واكْتفَوْا لمطالب نُفُوسِهِمْ بمَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا، فلَمْ تَرْتَقِ إلَى التَّعَلُّقِ بالسَّعَادَةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

- ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾: أي: وكانُوا في غايَةِ السُّكُونِ والارتياح والخُلُوِّ

مِنَ الْقَلَقِ والاضْطِرابِ لما يُصِيبُونَهُ من مَتَاعِ الحياة الدنيا ولذَّاتِهَا وزيناتها.

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾: أي: وكانَ مِنْ تأثِير عَدَم تَوَقُّعِهِم لقاءَنَا يَوْمَ الدين، ورِضَاهُمْ بالحياة الدُّنيا، واطْمِئْنَانِهِم بها، أَنْ غَفَلُوا غفْلَةً تَامَّةً عَنْ إدْراكِ آيَاتِنَا الكَوْنِيَّة، وآياتِنا الإعجازِيَّة، وآياتِنا الجزَائِيَّة، وآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّة الَّتي أنْزَلْنَاهَا فِي كِتَابِنَا.

وهُنَا يَكْتَشِفُ المتَدَبِّرُ مَطْوِيّاً هو نَتِيجَةُ هٰذِهِ الأمُور، وهو أَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَكْفُرُوا بِرَبِّهِمْ، ويَجْحَدُوا الحقَّ الَّذِي كَلَّفَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به، وأَنْ تَكُونَ مُكْتَسَبَاتُهُمْ الإرَادِيَّة فِي الحياة الدُّنيا عَلَى خلاف أوامر الله ونواهيه ووَصَايَاهُ لعباده، وشرائِعِه الَّتي أنْزَلَهَا لبيان مواد ابتلائهم في ظروف امتحانهم في الحياة الدنيا.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾: أي: أولئك البُعَدَاء عَنْ رَحَمَاتِ اللهِ المتَسَفِّلُون، سَوْفَ يَكُونُ مَكَانُهُمْ وَمَنْزِلُهُمْ الَّذِي يأْوُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ بالقضاء الرَّبَّانِي دَارَ العذاب النّار، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنْ جَرَائِمَ كُبْرَىٰ وَآثَامٍ، في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا.

أُشِيرَ إِلَيْهِمْ باسم الإشارة الموضوع للبعيدين، للدَّلَالَةِ على أَنَّهُمْ بُعَدَاءُ عن رَحْمَةِ اللهِ في أَوْدِيَةِ الانْحِطَاطِ العميق، في اتِّجَاهِ سَحِيق أَسْفَلِ سافِلِينَ.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: جاء البيان عن الذينَ آمَنُوا مَفْصُولاً غَيْر معطوفٍ بالواو للإشعارِ بكمال الانقطاع بَيْنَهُمْ وبين الذين كَفرُوا، ولَوْ كَانَ عُنْوانُ الجزاءِ عُنْواناً عَامّاً شاملاً للجزاء بالثواب والجزاء بالْعقاب. وأُخِّرَ بيان ثَوابِهِمْ هُنَا على عَكْسِ مَا جَاءَ في الآية (٤) للتَّنْوِيعِ في التَّرْتِيب، ولختم الدَّرْس بالترغيب.

أي: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً صَادقاً، وعَبَّرُوا عن إيمانهم الصحيح الصادِقِ، بأَعْمالٍ إرادِيَّة صالِحَةٍ فِي السُّلُوك النَّفْسِيِّ وفي السُّلُوكِ

الْجَسَدِيّ الظَّاهِرِ. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: وعملوا المكتَسَبَاتِ الصالحاتِ بإرادتهم.

• ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾: أي: يَحْكُمْ لَهُمْ رَبُّهُمْ يَوْمَ الدِّينَ في مَحْكَمَةِ الحسَابِ وفَصْلِ القضاء، بأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الحياةِ الدُّنيا مَهْدِيّين بِإِرَادَاتِهِمُ الحرَّة، وذٰلِكَ بِسَبَبِ إيمانِهِم الإرادِيِّ الصَّحِيحِ الصَّادِق، الَّذِي عَبَّرُوا عَنْ صِدْقِهِمْ فِيهِ بأعْمَالٍ صَالحة.

• ﴿.. تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ⑨﴾ قَدَّمَ هٰذا البَيَانُ لَقْطَةً تَصْوِيرِيَّةً مِنْ لَقَطاتِ ثَوَابِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ وهُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعيم، أي: إنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي قُصُورِهِمْ أو عَلَى شُرُفَاتِهَا، مُنَعَّمِينَ بِمَا هُوَ فَوْقَ أمانِيهِم، وتَجْرِي مِنْ تَحْتِ قُصُورِهِمْ أنواعُ الأنْهَارِ الَّتِي جَاء وَصْفُها فِي غَيْرِ هٰذَا النَّصِّ.

جُمِعَتِ «الْجَنَّاتُ» نظراً إلىٰ الأَجزاءِ الْعُظْمَىٰ الّتي تَشْتَمِلُ عليها دار المتَّقِين يوم الدّينِ، والأقْسَامِ الّتي يُطْلَقُ على كُلّ قِسْمٍ منها «جَنَّة» إذْ هو مسْتَوْفٍ لكُلِّ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ الموجُود في كُلِّ الدّار.

وأطْلِقَ لَفْظُ «النَّعِيم» لأنّ هذا اللّفظ هو المخَصَّصُ لِلَذَّاتِ يَوْمَ الدِّين، أمّا ما في الدُّنيا من لذَّاتٍ على اختلافها فاللفظ المخصَّصُ لها «متاع» لأنَّ المتاع هو مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مُؤَقّتاً وَمَصِيرُهُ إلى الزّوال.

• ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾: **دَعْوَاهُم**: أي: دُعَاؤُهم، الدَّعْوَىٰ مَصْدَرٌ كالدُّعاء وهو النداء. **سُبْحَانَكَ اللّهُمَّ**: أي: تَنْزِيهاً لَكَ يَا أللّهُ من كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَنابِكَ وعظيم سُلْطَانِكَ وكمالِ صِفَاتِكَ.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾: أي: والتَّحِيَّةُ الّتي يُحَيَّوْن بها من قِبَلِ الملائكةِ والوِلْدَانِ المخلّدين وغيرِهم من أهْلِ الجَنَّةِ عِبارَةُ «سَلَام». أي: لَكُمُ الأَمْنُ

الدَّائِمُ فِي كُلِّ مَا تُحِبُّونَ وَتَتَمَنَّوْنَ وَتَشْتَهُونَ وَتَتَنَعَّمُونَ به، مع السَّلامَةِ من كل مَا تَكْرَهُونَ وَلَوْ أَدْنَىٰ كراهِيَة.

- ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾:

أي: وآخِرُ دُعَائِهِم الّذي يَدْعُونَهُ رَبَّهُمْ أَنْ يَقُولوا: الحمدُ للهِ رَبّ العالَمِينَ.

وقد سَبَقَ تَحْلِيلُ عبارة الحمْدِ هٰذهِ مَرَّاتٍ.

الدُّعاء: يُطْلَقُ في الْقُرْآنِ عَلَىٰ كُلِّ ذِكْرٍ وَتَسْبِيحٍ للهِ عزَّ وجلَّ، ولو لَمْ يَقْتَرِنْ بِطَلَبٍ وسُؤَالِ حاجَة، لأنَّ مَنْ شَغلَهُ ذِكْرُ اللهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ، أَعْطَاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ أَفْضَلَ مَا يُعْطِي السَّائِلِينَ، وأَهْلُ الْجَنَّةِ يَأْتِيهِمْ مَا يَتَمَنَّونَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْأَلُوا، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَذْكُرُوا اللهَ مُسَبِّحِينَ حَامِدِينَ بأَعْظَمِ عِبارَاتِ الحمد.

«أَنْ» في عِبارَةِ ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَفْسِيرِيَّة، أَوْ هي المخفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَة. كِلَا الاحْتِمَالَيْنِ جائِزَانِ نَحوِيّاً، ومَقْبُولان فِكْرِيّاً.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأول من دُروس سورة (يونس).

والحمدُ لله على معونَتِه ومَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (يونس) وهو الآية (١١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١﴾.

وفي قراءة ابن عامر: [لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ] الفاعل ضمير يَعُود على لفظ الجلالة، وقراءة الجمهور بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه.

والقراءتان متكافِئتان، وهما من التَّفَنُّنِ في التعبير.

في هذه الآية متابَعَةٌ لما جاء في الآية (١١) من سُورَة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهي قول اللهِ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

وسبَقَ أَنْ ظَهَرَ بالتَّدبُّر أنَّ معنَىٰ هٰذِهِ الآية هو كما يلي:

ويَدْعُو الإنْسَانُ بِالشَّرِّ فِي حقيقَةِ الأمْرِ الْخَافِيَةِ عَلَيْه، دُعَاءَهُ بالْخَيْرِ الَّذِي يَتَهَيَّأُ لهُ بِتَعَجُّلِهِ وَقِصَرِ نَظَرِهِ وَعَدَمِ شُمُولِ مَعْرِفَتِهِ، والسَّبَبُ كَوْنُهُ عَجُولاً يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ وَشَهَوَاتِهِ فَيُلْقِي ذَلِكَ غِشَاوَةً عَلَى بَصِيرَتِهِ.

وسَبَقَ التحليلُ الإعرابيُّ لهذا التعبير الَّذِي جاء فِي هٰذه الآية.

وجاءَتِ المتابَعَةُ في آيَةِ هٰذا الدَّرْسِ من دُرُوسِ سورة (يونس/ ٥١ نزول) ببيان الحكمة من عَدَمِ تَلْبِيَةِ اللهِ دُعَاءَ الإنْسَانِ مَا يَدْعُو بِهِ مِنْ شَرٍّ فِي حَقِيقَةِ الأمْرِ وَهُوَ يَحْسَبُهُ خَيْراً عَظِيماً لَهُ.

فالمعنى الَّذِي يَحْسُنُ أَنْ نَفْهَمَهُ مِن هٰذِهِ الآية هو كما يلي:

إِنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالَهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُه ـ لا يَسْتَجِيبُ للنَّاسِ كُلَّ مَا يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ مِنْ مَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُسْتَعْجِلِين فِيهَا حظوظَهُم من اللَّذَّاتِ ومُرْضِيَاتِ الأَهْوَاءِ والشَّهواتِ والْغَرَائز، وحُبِّ التكاثُر والتَّفَاخُر والْعُلُوِّ فِي الأَرْض، لأَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ ما هو شرٌّ لَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ، إِذْ طَبَائِعُ نُفُوسِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا سَتَجْعَلُهُمْ يَطْغَوْنَ وَيَبْغُوْنَ فِي الأرض، إِذَا نَالُوا كلَّ مَطَالِبِ نُفُوسِهم فيها.

ولَوْ يُعَجِّلُ اللهُ للنَّاسِ هٰذِهِ الحظُوظَ الَّتِي هِيَ شَرٌّ لَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الأمْرِ وهم يَحْسَبُونَها خَيْراً، لَطَغَوْا وبَغَوْا في الأرْضِ ولأَفْسَدُوا إفْسَاداً عَرِيضاً جدّاً، وعِنْدَئِذٍ تَقْضِي الْحِكمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ أَنْ يُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً شامِلاً عامّاً، قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ أَجَلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لابْتِلائِه في رِحْلَةِ امْتِحانِهِ، وهو الأجَلُ المقدَّرُ له، وعِنْدَئِذٍ يُنْهَىٰ إلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فِي الحياة الدُّنيا بقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَكِيمَيْن، إذْ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَاب.

لكِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَا يُعَجِّلُ للنَّاس كُلَّ مَا يَطْلُبُونَ من مَتَاعِ الحياةِ الدنيا وزينَاتِها، بَلْ يَسْتَجِيبُ مِنْ مَطَالِبِهِمْ عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بما فَطَرَ عَلَيْه كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، ويُعَامِلُهُمْ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (الإسراء/ ٥٠ نزول):

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

أمّا مَنْ يُعَجِّلُ اللهُ لَهُمْ وافراً مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنْيا وزِيناتِها، بحَسَبِ عِلْمِهِ بطبائِعِ نُفُوسِهِمْ، وحِكْمَتِهِ فِي ابْتِلائِهم، فالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ مِنْهُمْ لِقَاءَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، فإنَّ الله ـ جَلَّتْ حِكْمَتُه ـ يَتْرُكُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ بِمَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنْيا وَزِينَاتِها يَعْمَهُونَ.

الْعَمَهُ: انْطِمَاسٌ فِي الْبَصِيرَة، مُنَاظِرٌ لِلْعَمَىٰ فِي الْبَصَرِ.

وقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ القرآنية على أنّ كُلَّ اخْتِيَارَاتِ اللهِ وتصارِيفهُ في كونِه حكيمة، وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُرُوس سورة (يونس).

والحمد لله على مَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دُروس سورة (يونس) وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى [رُسْلَهُمْ] بإسْكان السين، وهما لغتان عربيتان.

تمهيد:

في هذه الآيات متابَعَةٌ ذَاتُ إضافَات لِمَا جاء في الآيات من (٦٧ - ٦٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهي قول الله عزَّ وجلَّ فيها خطاباً للناس:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

والإضَافَاتُ التي جاءت في آيات سورة (يونس/ ٥١ نزول) تَصِفُ حَالَ الإنسان إذا مَسَّهُ الضرّ، إِذْ يَدْعُو رَبَّهُ في أيَّة حالة يكون عَلَيْها، فإذَا كَشَفَ اللهُ عَنْهُ ضُرَّهُ أَعْرَضَ عَنْ رَبِّهِ، ونَسِيَ حَالَتَهُ السابقة معه، وجاءت فيها المعالجة للكافِرِينَ بالتَّلْويحِ بإنذارِهِمْ بالإهْلَاكِ العام الشَّامِلِ، كما

أَهْلَكَ اللهُ كُفَّارَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمَّا ظَلَمُوا، وبِبَيَانِ أَنّ سُنَّتَهُ تعالَى ثَابِتَةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ المجرمين.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ⑫﴾.

الْمَسُّ: اللَّمْسُ بالْيَد، ويُطْلَقُ على وُصُولِ سَطْحِ الشيء، إلَى سَطْحِ الشيءِ الآخر، دون الدُّخُولِ في شيء تَحْتَ السَّطْح.

الإنسان: المراد به هُنَا الإنْسَانُ الْمُسْرِفُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بارْتكاب المعاصي، بدَليل قوله تعالىٰ في آخِرِ الآية: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ويَنْطَبِقُ على فِئَةٍ من المشركين المعنيين بالمعالجة والخطاب.

الضُّرُّ: سُوءُ الحالِ في الْبَدَنِ أَوِ المالِ أو الولَدِ والأهل، ونَحْو ذلك، و(ال) للجنس، أي: ضرٌّ ما.

دَعَانَا: أي: سَأَلَنَا مُتَذَلِّلاً لِنَكْشِفَ عَنْهُ مَا مَسَّهُ من ضرّ.

لِجَنْبِهِ: أي: حَالَة كَوْنِهِ مُلْزِماً لجَنْبِهِ فِرَاشَهُ من ضُرٍّ نَزَلَ بِهِ.

الْجَنْبُ: من الإنسان شِقُّهُ الأيْمَنُ أو الأيْسَر، والمضطجعُ يجعلُه على الأرضِ أو الفراشِ لراحَتِه، جاء الْبَدْءُ بهذا لأَنَّهُ أشَدُّ الأحْوال.

أو قاعداً: أي: أو حالَة كَوْنِهِ قاعداً، غَيْرَ مُحْتَاج لأَنْ يضطجع.

أو قائماً: أي: أو حالَة كَوْنِهِ قَائماً لأَنَّ ضُرَّهُ قَدْ لَا يكون متعلقاً بجَسده فيُقْعِدَه أو يُضْجِعَهُ.

فَلَمَّا: أي: فَحِينَ، وهي ظرفية، وتختص بالماضي، وتحتاج جواباً لما فيها من معنى الشرط.

كَشَفْنَا عَنْهُ: أي: أَزَلْنَا عَنْهُ، بِضَميرِ المتكَلِّمِ العظيم، **كَشْفُ الضَّرِّ**: رُفْعُه وإزالَته.

زُيِّنَ: التزيينُ: التحْسِين والتجميل.

للمُسْرِفِين: أي: للمتَجَاوِزِينَ حَدَّ الحقّ، أو الحِكْمَةِ، أو ما يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ الرَّاجِح.

المعنى: وإِذَا مَسَّ الإنْسَانَ ذَا الإسْرَافِ عَلى نَفْسِهِ من دركة أخف الشرك ضُرٌّ ما بقضاء الله وقَدَرِه، دَعَا رَبَّه في مختلِفِ أَحْوَالِهِ، مُؤْمِناً بأَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضُّرَّ عَنْهُ إلَّا هُوَ، سَوَاءٌ أكان قَدْ أَضْجعَهُ الضُّرُّ، فَجَعَلَهُ يُلْزِمُ جَنْبَهُ فِرَاشَه، أو أَقْعَدَهُ، أو كان ضُرّاً غَيْرَ مُضْجِعٍ وَلَا مُقْعِد، بَلْ يَجْعَلُ الإنْسَانَ قَائِماً يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ مُتَضَرّعاً يَقُولُ: يَا رَبّ يَا رَبُّ، سائلاً أَنْ يَكْشِفَ اللهُ عَنْهُ مَا مَسَّهُ مِنْ ضُرٍّ، فكَيْفَ بِهِ لَوْ كَان الضُّرُّ داخِلاً إِلىٰ عُمْقِه ومُنْزِلاً بِهِ أَلَماً شَديداً؟!

وعَقِبَ أَنْ يَسْتَجِيبَ الله دُعَاءَهُ بعظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَيَكْشِفَ عَنْهُ مَا مَسَّهُ من الضُّرّ، يُعْرِضُ عَنْ رَبِّهِ، وَيَمُرُّ في حَيَاتِهِ لقضاءِ شهواته ولَذّاتِهِ وَمَصالِحِه ومَنافِعِه ومَتَاعَاتِهِ مِنْ دُنْيَاهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ دَعَا رَبَّهُ إِلَىٰ كَشْفِ ضُرٍّ قَدْ مَسَّهُ.

إِنَّهُ يَرَىٰ بِسُوءِ تَقْدِيرِهِ، واستجابَتِهِ لِوَسَاوس الشيطان، أنَّ اهتمامه بنفسه فقط وانْشغَالَهُ بِمَتَاعِهِ مِن الحياة الدُّنيا أَمْرٌ حَسَنٌ جميلٌ، يُحقِّقُ لَهُ لَذَّاتِهِ وما يَهْوَىٰ مِنْ دُنْياه، مَعَ أَنَّ عَمَلَهُ بَالِغُ القُبْحِ لِمَا فِيهِ من اسْتِهَانَةٍ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِن حَمْدٍ وَشُكْرٍ لِرَبِّهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنْ فَضْلِهِ، ولما فِيه مِنْ إِعْرَاضٍ عَنه، وقد كان قد التجأ إليه في حالة الضرّ الّذي مسّه.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ⑫﴾ ونَظِيرُ دَاءِ تَزْيِينِ الْقَبِيحِ الَّذِي يُصَابُ بِهِ هذا الإِنْسَان في نَفْسه، يَكُونُ لسائِرِ المسْرِفِين المتجاوزين حُدُودَ الحقّ والخير والفضيلة، في مفْهُومَاتِهِمْ وفي جميع أنواع مُكْتَسَبَاتِهِمُ الإراديّةِ من أعمال نَفْسِيَّة وَجَسَدِيَّةٍ، إذْ تُزَيِّنُها وَتُحَسِّنُهَا لَهُمْ أهْوَاؤُهُمْ وَوَسَاوِسُ شياطِينهم.

وَبَعْدَ وَصْفِ هذا الصِّنْفِ المَعْنِيّ بالْبَيَانِ، اقْتَضَتِ الحكْمَةُ مُعَالَجَةَ نُفُوسِهِمْ بالتَّلْوِيحِ بالْعِقَابِ المُعَجَّل، كما أهْلَكَ اللهُ ظَالمي الْقُرُونِ السَّابقة. فقال الله تعالى مُخَاطِباً لهم:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ⑬ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ⑭﴾.

يؤكِّدُ اللهُ لَهُمْ بعِبارَة «لَقَدْ» أنَّهُ أَهْلَكَ بعظمة رُبوبيّته الّتي دَلَّ عليها ضَمِيرُ المتكلّم العظيم، إهْلاكاً عَامّاً شاملاً الْقُرُونَ من الناس الَّذِين ظَلَمُوا وأصَرُّوا عَلَى ظُلْمِهِمْ، بِكُفْرِهِمْ وطغيانهم وإفْسادِهم في الأرض، وقد جاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ من رَبّهم مَصْحُوبِينَ بالْبَيِّنَاتِ الجليّات، الشَّامِلَاتِ لِبَيِّنَاتِ إثْبَاتِ نُبُوَّاتِهِمْ ورسَالاَتهم، وللحجَج والبراهين بشَأن الْقَاعِدَةِ الإيمانية، والتطبيقاتِ الإسلاميَّة، والشامِلَةِ للنُّصُوصِ الكلاميَّةِ المنزَّلَةِ من رَبِّهِمْ والمطلُوبِ مِنْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بما جَاءَ فيها وَيتَّبِعُوا تَعْلِيمَاتِها.

وَمَا كَانُوا مُسْتَعِدِّين لِأَنْ يُؤْمِنُوا بإراداتهم الحرَّة مَهْمَا أُمْهِلُوا، لانطِمَاسِ بَصَائِرِهِم بما أَلْهَاهُمْ عَن الحقِّ والْهُدَىٰ من التعلُّق الكامل بزيناتِ الحياة الدنيا، وأَهْوَائِهِمْ وشهواتهم منها، فانْحَدَرُوا بذَلِكَ إلى الدَّرَكَةِ الَّتي يُوصَفُ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَيْهَا بأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ.

ولَمَّا كَانت سُنَّةُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في عبادِه وَاحِدَةً، فما أجْرَاهُ لِلْمُجْرِمِينَ

السَّابقين من إهلاكٍ شَامِلٍ سَيُجْرِي نظيره لِكُلّ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ يَتَتَابعُونَ في الْعُصُورِ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

وخاطبهم اللهُ عزَّ وجلَّ بعد هذا التَّلْوِيح بالإهلاك بقوله:

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾.

خَلاَئِف: جمع «خَلِيفَة» يكون بمعْنَىٰ «فاعل» ويكون بمعنى «مفعول» وهو مَنْ يَخْلُفُ غَيْرَهُ فيَحُلُّ مَحَلَّه، إذا كان بمعنى اسم الفاعل، ومَن يَخْلُفُهُ غَيْرُه فيَحُلُّ محلَّه إذا كان بمعنى اسْم المفعول.

أي: ثمَّ بَعْدَ حينٍ من الزّمن توالَدَتْ أجيالٌ وَجَعَلْناكُمْ حالّين في أماكِنِ المهْلَكِين السَّابقين، فَصِرْتُمْ بِجَعْلِنَا لَكُمْ خَلاَئِفَ في الأرض من بَعْدِهم، لِتَقْضُوا رِحْلَةَ امتِحَانِكُمْ بِحَسَبِ آجالِكُمْ المقدّرَةِ لكم، وخِلاَلَ مُدَّةِ امْتِحَانِكُمْ نَنْظُرُ كَيْفَ تَعمَلُونَ، وَنُسَجِّلُ عليكم أعمالَكُمْ، لِنُحَاسِبَكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الدّينِ، وَلِنَقْضِيَ بَيْنَكُمْ، ولنُجَازِيَكُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ بِحَسَبِ قَضَائِنَا فِيكُمْ عَادِلِينَ أَوْ مُتَفَضِّلِينَ.

﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾: أي: لنَنْظُرَ أعْمَالَكُمْ علىٰ أيِّ حالٍ تكُونُ في دَرَجَاتِ الخير أَوْ دَرَكَاتِ الشّر.

وجاء في العبارة استعمال فِعْل «نَنْظُر» للدَّلاَلَةِ على أَقْوَى وسائل الإدْرَاكِ الحسِّي الشُّهُودِيّ، وهُوَ الإدْرَاكُ بالرُّؤْيَةِ البصريّة، ويُحْمَلُ فِعْلُ «نَنْظُر» أيضاً على الإدْرَاكِ العِلْميّ، فيكون الفِعْلُ شاملاً للمُشَاهَدَةِ البصريّة، والإدْرَاك العِلْميّ، كإدْراك النّياتِ والأفكار وحَرَكَاتِ النفوس الإرادِيَّة.

وبهذا يتمُّ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دروس سورة (يونس).

والحمد لله على معونته ومدَدِه وفتحه وتوفيقه.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (يونس) وهو الآيات من (١٥ ـ ١٧)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ﴾ بالنفي، وقرأ البزّي عن ابن كثير [**وَلَأَدْرَاكُمْ بِهِ**] بالإثبات، وبَيْنَ القراءتَيْن تكاملٌ في أداء المعنىٰ المراد، سيأتي إن شاء الله لدى التدبُّر بيانه.

تمهيد:

في هذا الدرس مُتابَعَةٌ لِمَا جاءَ في الآية (٧٣) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهي قول الله عزَّ وجلَّ فيها خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

وفي هذه المتابعة يُعَلِّم اللهُ عزَّ وجلّ رسُولَهُ، مَا يَرُدُّ به عَلى الَّذِينَ يُطَالِبُونَهُ بِأَنْ يأْتِي بقرآنٍ آخرَ يُوافِقُ أهواءَهُمْ غَيْرِ هٰذَا القرآن الَّذِي يَتْلُو من آياتِهِ عَلَيهِمْ، إذْ يَتَعَرَّضُ لِشِرْكِيَّاتِهم وقبائحهم بِبَيَانِ أنّها باطِلٌ، وَيَتَعَرَّضُ لِتَلْوِيمِهِمْ وتَثْرِيبِهِمْ عَلَىٰ تَمسُّكِهِمْ بِالْبَاطِلِ، فِي مُعْتَقَدَاتِهِمْ، وبما فِيهِ ظُلْمٌ وَبَغْيٌ وَطُغْيَانٌ وَفِسْقٌ وَفُحْشٌ في أَعْمَالهم واختياراتِهِمْ السُّلُوكِيَّة.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ... ⑮﴾.

أي: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَى المبَلَّغِينَ في بيئَةِ الرَّسُول ﷺ، وهِيَ البيئَةُ الْمَكِّيَّةُ يَوْمَئِذٍ آياتُ الرَّبِّ الْجَلِيل العظيم، حَالَةَ كَوْنِهَا بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ جَلِيَّاتٍ، هادِيَاتٍ إلى الحقّ والخير والرُّشْد، وأدْرَكَ الَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَ عِقَابَ اللهِ يَوْمَ الدِّين لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّعُونَ لِقَاءَه، ولَا مُحَاسَبَته لَهُمْ، وفَصْلَ قَضَائِهِ فِيهم، ومُعَاقَبَتَهُ لهم، ما فيها من تثريب لَهُمْ، وَتَقْبِيحٍ لشركيَّاتِهم ولَوَازِمِهَا في سُلُوكِهِمْ النفسيِّ والْجَسَدِيّ، قالُوا للرَّسُول ﷺ: ائْتِ بقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا الْقُرْآن، أَوْ بَدِّلِ الآيات الَّتِي تَسُوؤُنا بآيَاتٍ أُخْرَى غَيْرِها.

ومُرَادُهم أنْ يأتِيَ بقرآنٍ يوافِقُ أهْوَاءَهُمْ، أَو يُبَدِّلَ مَا يَسُوؤُهم من آياتِه بآياتٍ تُرْضِيهِمْ إذْ تُوافِقُ أهْوَاءَهم ومُعْتَقَدَاتِهم وأنْوَاعَ سُلُوكهم الباطل، أَوْلَا تَتَعَرَّضُ لِمَا يَسُوؤُهُم، فيأتي بحكايات وقصصٍ تسلّيهم وتُمْتِعُهُمْ بغرائبها وآدابها.

فقال الله لرسوله ﷺ:

- ﴿..... قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑮﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ إنَّ هٰذَا القرآن مِنْ كلام رَبِّي، ولَيْسَ شيءٌ هو مِنْهُ مِن عِنْدِي ولا من تأليفي ولا من صُنْعي ولا مِنْ قَوْلِي، فَلَيْسَ باسْتِطَاعَتِي أَنْ أُبَدِّلَ مَا أَتْلُوهُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِي، لِأَنَّ رَبِّي لَا يُمَكِّنُنِي مِنْ ذلِكَ، فَهُوَ لَا يُوجَدُ فِي الْوَاقِع، أَنَا مَا أَتَّبِعُ في تِلَاوَةِ الْقُرآنِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ قِبَلِ رَبِّي، ولَوْ حَاوَلْتُ تَبْدِيلَ شيءٍ مِنْهُ أكُونُ عَاصِياً لِرَبِّي، لِأَنَّهُ لَمْ يأْذَنْ لِي

بذلك، وإنّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْم عَظيم، لأنّ هذا التبديلَ افتراءٌ عَلَيْهِ، وهو من الجرائم العُظْمَى الّتِي لَا تُغْفَر، إذْ هُو مِنْ أشدّ أنواع الظُّلم.

• ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾: أي: ما يَحْصُل لي هذا التَّبْدِيلُ من جِهَةِ نَفْسِي، لأنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُهُ، فأنَا غَيْرُ مُمَكَّنٍ مِنْهُ، وَمَا لَسْتُ مُمَكَّناً مِنْهُ لَا يَكُونُ فِي الواقع.

التِّلْقَاء: مَصْدَرٌ كَاللِّقَاءِ، أو اسم مَصْدَرٍ لِلِّقَاءِ، كما قال ابْنُ سِيدَه.

وتوسَّع العربُ في استعمال كلمة «تِلْقَاء» فاستَعْمَلُوهَا ظَرْفَ مكان بمَعْنَىٰ جِهَةِ اللِّقاء والمقابلَة، ونَصبُوها عَلَىٰ الظّرْفِيَّة.

• ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾: أي: ما اتَّبِعْ في تِلَاوتِي لِآيَاتِ القرْآن إلَّا يُوحِيهِ رَبِّي إلَيَّ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ ولا حَرْفٌ واحِدٌ هُوَ مِنْ عِنْدِي.

ولَمْ يأْذَنْ لِي رَبِّي أَنْ أُضِيفَ أَوْ أَحْذِفَ أَوْ أُبدِّلَ شَيْئاً من كلماتِهِ أو حُرُوفِهِ، بلْ حَرَّمَ عَلَيَّ ذَلِكَ تَحْرِيماً مُشَدَّداً، وَجَعَلَهُ مِنَ الجرائم العظمىٰ. في هذه العبارة قَصْرٌ بالنفي والاستثناء، وهو من قبيل القصر الإضافي.

• ﴿.. إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ⑮﴾: أي: إنّي أخاف إنْ عَصَيْتُ رَبِّي بالإضافَةِ أو الحذف أو التَّبْدِيل في آيات كتابه عَذَابَ يَوْم عظيم، هو عذابُ يوم الدِّين، فاعْلَمُوا أنَّهُ لَنْ تَكُونَ مِنِّي هذه المعصية العظمَىٰ، بدَلَالةِ استعمال حَرْفِ «إنْ» الشرطيّة.

روي عن مجاهد، أنَّ مِن الذين قالُوا للرسول ﷺ ما ذَكَرَهُ القرآن ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ عبْدَ اللهِ بْنَ أُمَيَّة، والْوَلِيدَ بْنَ المغيرَة، وَمِكْرَز بْنَ حَفْص، وعَمْرَو بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي قَيْسٍ، والْعَاصَ بْنَ عَامر، وأنَّهم قالوا للنبيِّ ﷺ: ائْتِ بقرآن لَيْسَ فيه تَرْكُ عبادة الأصنام، اللَّاتِ، والْعُزَّى، ومَنَاة، وهُبَل، ولَيْسَ فيه عَيْبُها.

وقال الله عزّ وجلّ لرَسُوله أيضاً:

- ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦﴾:

وفي قراءة البزّي عن ابن كثير في إحْدىٰ رِوايَتَيْنِ عنه [**وَلأَدْرَاكُمْ بِهِ**] بالإثبات.

في هٰذِهِ الآية مُتابَعَةٌ لِمَا جَاء في الآية (١٥) من تعليم الرَّسُول ﷺ وُجُوهَ الرُّدُودِ الإقناعيَّةِ لمطالَبَتِهِم بِتَبْدِيلِ القرآن.

الْمَعْنَى: لَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ لا أَتْلُوَهُ عَلَيْكُم لَمَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيَّ، وَلَمَا أَمَرَني بتَبْلِيغِهِ وتِلَاوَتِهِ عَلىٰ النَّاس، فَمَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَلَا أَعْلَمَكُمْ بِهِ بِوَسِيلَةِ تَبْلِيغي، بِمُقْتَضَىٰ قِرَاءَة الْجُمْهُورِ: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾.

ولَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْلَمَكُمْ بِهِ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ وَسِيلَةِ تَبْلِيغِي، فالكِتَابُ كِتَابُهُ وَالْأَمْرُ أَمْرُه، دَلَّتْ عَلى هٰذا الْمَعْنَىٰ رِوَايَةُ الْبَزِّي عَنِ ابْن كثير: [**وَلأَدْرَاكُمْ بِهِ**] ولِلْبَزِّي رِوَايَةٌ أُخْرى كقراءة الجمهور. فبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعنيَيْنِ.

ويَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تلاوَتي للقرآن مِنْ وَحْي رَبِّي وَتَكْلِيفِي أَنْ أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ، أنّي لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً قَضَيْتُ فِيهِ شَبَابي، وأكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سنواتٍ من كُهُولَتِي، دُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنِّي بَيَانٌ قولِيٌّ أُوَجِّهُهُ للنَّاس، ولا سيما بيانٌ بَليغٌ فيه نُصْحٌ وإرشاد وحِكْمَةٌ وَتَعْلِيم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! أي: أفلا تُدْرِكُونَ بِعُقُولِكُمْ إدْراكاً عِلْمِيّاً أَنَّهُ لا يُمْكِنُ لِإِنسَانٍ مَوْهُوبٍ قُدْراتٍ بَيَانِيَّةٍ بِفِطْرَتِهِ أَنْ يَعِيش شبابَهُ وكُهُولَتَهُ حَتَّى شيخُوخَتِهِ، دُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ مَا يُعبِّرُ بِهِ عَن أفكاره وأحَاسِيسِهِ وَمَشَاعِرِهِ، ببيان يَشْعُرُ بأنَّه يُعْجِبُ أَهْلَ البيان.

وأَفَلَا تَعْقِلُونَ أَهْوَاءَكُمْ عَنِ الجنُوحِ الَّذِي جَعْلَكُمْ تُكَذِّبُونَ بِكِتَابِ الله المعْجِز، الَّذِي يُوحِي بِهِ إِلىٰ عَبْدٍ من عباده، وقد كانَ يجب عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِنُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ، استِدْلَالاً بما يَتْلُوهُ مِنْ كِتَابِ رَبِّكُمْ الحقِّ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَالَّذِي لَو اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجنُّ على أَنْ يأْتُوا بِمِثْلِهِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

العقل: عَقْلان: عَقْلٌ عِلْمِيّ، وعَقْلٌ إراديّ.

لَبِثْتُ فِيكم: أي: أَقَمْتُ فِيكُمْ تُشَاهِدُونَ نَشْأَتِي وَكُلَّ تَصرّفَاتِي.

وَلاَ أَدْراكم: أي: وَلَا أَعْلَمَكُمْ، يُقَالُ لغة: «أَدْرَاهُ بالشيء» أي: أَعْلَمَهُ بِهِ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ افْتِرَاءَ الكَذِبَ عَلَيْهِ الَّذِي يطالِبُ به الَّذين كَفَرُوا رَسُولَ ربّهم، وأَنَّ التَّكْذِيب بآيَاتِهِ المنَزَّلَاتِ مُتَسَاوِيَان في كَوْنِهِمَا ظُلْماً عَظِيماً مِنْ دركَةِ الإجْرَامِ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ مُرْتَكِبُوهُ عَذَابَ الْحَرِيق بالنار، فقال تعالى:

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾؟؟

استفهام يرادُ به النفي، أي: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هٰذَيْنِ الفريقين:

(١) الفريق الَّذي يَفْتَرِي على اللهِ كَذِباً، فَيَقُول: هٰذا مِنْ كَلَامِ اللهِ وهو ليس من كلامِهِ، أو يقول: هذا حُكْمُ الله، وهو لا يَمْلِكُ دَلِيلاً صحيحاً على أَنَّهُ حُكْمُ الله، أو نحو ذلك من افتراءٍ على الله.

(٢) وَالفريق الذي يُكَذِّبُ بآيَاتِ اللهِ مع قيام البرهان العقليّ على أَنَّها آيَاتُ الله.

قَدْ يُشَارِكُهما في دَرَكَةِ الظُّلْم آخرُونَ، ولَكِنْ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنْهُما، ودَرَكَتُهُمَا هِيَ الدَّرَكَةُ الّتي يَحْتَلُّها المجْرِمُونَ.

الظُّلْم: تجاوز الحدّ، ووَضْعُ الشيءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

الافتراء: اختلاق الكذب، واصْطِنَاعُهُ عَنْ عَمْد.

الْمُجْرِم: في المفهوم القرآني هو المعتدي بِذَنْبٍ كبير يستحقُّ عَلَيْهِ الْخُلُود في عذَابِ النّار.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أي: إنّ الشأن العظيم هو لا يظفر المجرمون بما يريدون ولا يَفُوزُون بجنَّات النعيم، الفلاح والإفلاح الظفر بالمراد المطموع فيه.

وبهذا تمّ تدبر الدرس الرابع من دروسِ سورة (يونس).

والحمْدُ لله على توفيقه ومعونته ومَدَدِه وفتحه.

* * *

(٨)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُرُوس سورة (يونس)

الآيتان: (١٨ و١٩)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ⑱ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ⑲﴾.

وفي القراءة الأخرى [**عَمَّا تُشْرِكُونَ**] بأسْلوب الخطاب، وبين القراءتَيْنِ تكامل في الأداء البياني، إحداهما بأسْلُوب الحديث عن المشركين بضمير الغائبين، فالكلام مُوجَّهٌ لغيرهم، والأخرىٰ بضمير المخاطَبين، فالْكَلام مُوجَّهٌ لَهُم.

تمهيد:

البيان في هذا الدَّرْس يُتابع مُعَالَجة أئمة الكافِرين من مشركي مكَّة إبَّان التّنْزِيل.

وبمراجَعَةِ السُّور الَّتي نزلَتْ قبل سورة (يونس/ ٥١ نزول) لا نَجِدُ فيها حَدِيثاً يَدُلُّ علىٰ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يقُولُونَ إِنَّ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها تَشْفَعُ لهم عِنْدَ رَبِّهِمْ، فيما لَوْ صَدَقَ نَبَأُ الْبَعْثِ ويَوْمِ الدِّين، بلْ هُم يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَيَوْمَ الدّين.

ونفهم من هٰذا أَنَّهُمْ لَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِم التَّلْوِيمُ والتثريب والتوبيخ، بأَنَّهم يَعْبُدون مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهم، دُونَ أَنْ يَجِدُوا حُجَّةً تُثْبِتُ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ، لَجؤُوا إلى ادِّعاء أَنَّ آلهتهم تَشفَعُ لَهُمْ عِنْدَ رَبّهم، فِيمَا لَوْ كَانَ نَبَأُ الْبَعْثِ وَيَوْم الدِّينِ حَقّاً وَصِدْقاً، فَصَارُوا يَقُولُون مُكَرِّرِينَ مَقَالَتَهُمْ: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله، لإقناع جماهيرهم التابعين لهم الَّذين يُقَلِّدُونَهم، بِفَائِدَة عبادَتِهِمْ لآلِهَتِهم الّتي جعَلُوا لها رُموزاً أوثاناً يَعْبُدُونها.

ورُوِي أنّ أحَد المشركين واسْمُه النضر بن الحارث قال ذلك، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: قال النَّضْر: إذا كانَ يَوْمُ القيامة شَفَعَتْ لِي اللّات، والْعُزَّىٰ.

وعبارة: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تُفِيدُ أَنَّها صارَتْ مقالَةً دَائِرَةً على أَلْسِنَةِ المشركين، إذْ صاروا يَتَذرَّعُونَ بها، لئلَّا يُعَيَّرُوا بأَنَّهم يَعْبُدُون آلِهَةً لا تَضُرُّهم ولَا تَنْفعُهُم.

وجاء في هذا النَّصّ تَقْدِيم عبارة: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على عبارة ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ للتَّنْويع المتكافئ، ففي الآية (٥٥) من سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) جاء البيان على عكْسِ هذا الترتيب، وكذلك جاء في الآية (١٠٦) من سورة (يونس/ ٥١ نزول) وكذلك جاء في الآية (٦٦) من سورة (الأنبياء/

٧٣ نزول) وفي الآية (٧١) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) وفي الآية (٧٣) من سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) أمّا في الآية (١٢) من سورة (الحج/ ١٠٣ نزول) فقد جاء فيها الترتيب على ما جاء في الآية (١٨) من سورة (يونس/ ٥١ نزول).

ومن هٰذا يظهر لنا أنَّ تَقْدِيم نَفْي نَفْع آلِهَةِ المشركين على نَفْي ضَرَرِها قد جاء في القرآن خمس مرّات، أمّا عَكْسُهُ فقد جاء مَرَّتَيْنِ فقط، ومَعْلُومٌ أَنَّ رَجاءَ النَّفْعَ مِنْ عِبادَتِهَا هو الَّذِي يَقُوم فِي أَذْهَانِ عابِدِيهَا، بِنِسْبَةٍ أكبر من نِسْبَةِ خَوْفِهِمْ مِنْ ضَرِرِهَا لَهُمْ أو طَمَعِهم بِأَنْ تَضُرَّ أَعْدَاءَهم، فلا دَاعِيَ لَتكَلُّفِ التَّعْلِيلاتِ في النُّصُوصِ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ... ⑱﴾:

أي: ويَعْبُدُ المشركون مَعْبُودَاتٍ هي بطبيعتِها تقع دونَ الله عزّ وجلّ، في مقابل اتصافه بالْفَوْقِيَّةِ المطلَقَةِ، فهو سُبْحَانَهُ العليُّ الأَعْلَىٰ، وهذه المعبوداتُ لَا تَضُرُّهُم شيئاً حَتَّىٰ يَدْفعُوا عن أنفسهم بِعبادَتِها ضَرَرَها، وَلَا تَنْفَعُهُم بِشَيْءٍ حَتَّىٰ يَجْلُبُوا لأنْفُسِهِمْ بعبادَتِها نَفْعَها.

قوله تعالى:

﴿.. وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ... ⑱﴾:

أي: وصاروا يُرَدِّدُونَ هٰذِهِ المقالة، وبالتأمُّل التحليلي الّذي سَبَقَ في التمهيد، مع مُراجَعة السّور التي نزلَتْ قبل سورة (يونس/ ٥١ نزول) يَظْهَرُ للمتدبّر أنَّ هٰذِهِ المقالة ظَهرَتْ إبَّانَ نُزُول هذه السُّورَة، لِيَدْفَعَ المشركون عن أنْفُسِهم مَعَرَّةَ عبادَتِهِمْ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ، الَّتي شَنَّعَ عَلَيْهِمْ بها الْقُرآنُ فيما نزلَ مِنْهُ قبل سورة (يونس/ ٥١ نزول).

وبهٰذِهِ المقالَةِ أحَالَ المشركُونَ نَفْعَ عبادتهم لآلِهَتِهِمْ عَلى أَمْرٍ غَيْبِيٍّ مُسْتَقْبَلِيّ في الحياةِ الدُّنْيا، أَوْ مُسْتَقْبَلِيّ في الحيَاةِ الأخرى، إنْ كَانَ الْبَعْثُ وَيَوْمُ الدِّينِ حَقّاً وَصِدْقا.

وَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هٰذِهِ الْفِرْيَةِ الَّتِي افْتَرَوهَا عَلَىٰ رَبّهم فَقَالَ لَهُ:

﴿. . قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ . . ﴿١٨﴾﴾:

أي: أَتُخْبِرُونَ اللهَ الْعَلِيمَ بكلِّ شيءٍ بخَبَرٍ باطِلٍ هُو لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ نَبأٌ حَقٌّ، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّهُ نَبأٌ كَذِبٌ بَاطِلٌ، لأنَّهُ ـ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لم يَجْعَلْ لِآلِهَتِهِمْ شِفَاعَةً عِنْدَه، فَلَوْ شَفَعُوا لِأَحدٍ لَمْ يَقْبَلْ شفاعَتَهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَنْ يَشْفَعُوا، إِذْ لا يُمَكِّنُهُمُ اللهُ من الشفاعة للمشركين ولَوْ كان من يَعْبُدُونَهُمْ من الملائِكة أو المرسَلِينَ من أُولي الْعَزْم.

ومن عجيبِ البيان في هٰذه العبارة بيانُ أنَّ النَّبأَ الْكَذِبَ لَا يَعْلَمُهُ اللهُ، أي: لَا يَعْلَمُ اللهُ كَوْنَهُ حَقّاً وَصِدْقاً، وَبَدَهِيٌّ أَنَّ مَا لَا يَعْلَمُ اللهُ كَوْنَهُ حَقّاً وَصِدْقاً وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَاطِلاً وَكَذِباً، وهذا من أَبْدع الأساليب غير المباشرة، وهو يعْتَمِدُ على إثباتِ النقيض بأسْلُوبِ نَفْي نَقِيضِهِ.

النَّبأ: الخَبَرُ الْبارز ذو الأهميَّة، وبُروز النبأ هُنا كونُهُ ظاهِرَ الْبُطْلَانِ وظاهِرَ كَوْنِهِ افْتِراءً عَلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وختم الله الآية بقوله:

﴿. . . سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: تَنَزَّه اللهُ جلَّ جَلالُه، وَتَسَامَىٰ عَنِ افتراءاتِ المشركين، باختلاقِ الآلِهَةِ الشركاء، وبادّعاء أَنَّها تَشْفَعُ لعَابِدِيها عنْدَه.

قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ . . . ⑲﴾:

جاء هذا البيانُ لإثباتِ أَنَّ العقائد الشِّرْكِيَّةَ عقائِدُ طَارِئَةٌ على النّاس، ولم تَكُنْ مَوجُودَة في أجيال البشريَّة الأولى، فقد كان المجتمع البشري في الأَجيالِ الأولَى مُجْتَمعاً مُوَحِّداً لِلَّهِ في رُبُوبيَّتِهِ وَفِي إلٰهِيَّتِهِ، مُؤْمِناً إيماناً صَادِقاً، ومُسْلِماً إسْلاماً صَحِيحاً، الْتِزاماً بما تَلَقَّوا مِنْ تَعْلِيمَاتِ دِين اللهِ الحقِّ، الَّذِي أَمْلَاهُ عليهم آدمُ عليه السلام.

فَدَخَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيهِمُ الشِّرْكُ فاخْتَلَفُوا، إذ ثَبَتَ فريقٌ مِنْهُم على إيمانِهِ وإسْلامِهِ الصحيحين، ودَخَلَتْ على آخَرين عقائِدُ شِرْكِيَّةٌ باطِلَةٌ مُخْتَلِفَة.

هذا هو الحَقُّ، وما يَذْكُرُهُ مُلاحِدَةُ عُلَمَاء الاجْتِمَاع ممَّا هو مخالفٌ لهذا الحقّ، باطِلٌ لَا شَكَّ فِي بُطْلَانِهِ، وهو من الافتراء على التاريخ الْبَشَرِيِّ، تَذَرُّعاً بأوْهَامٍ اصْطَنَعُوهَا.

قول الله تعالى:

- ﴿. . . وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ⑲﴾:

أي: ولَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ، أَتَمَّ اللهُ بِها قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ بِتَأْجِيلِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ القضاءِ وتنفيذِ الجزاء إلَىٰ يَوْم الدِّين، يَوْم الجزاء الأَكْبَر، الَّذِي تَكُونُ فِيهِ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْل الرَّبَّانِيَّة شامِلَةً لِكُلِّ الَّذِينَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضع الامْتِحَانِ فِي ظروفِ الحياة الدنيا، لَكَانَ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا عَنِ خطِّ الوَحْدَةِ البشريَّةِ على دِينَ اللهِ الَّذِي تَلَقَّوْهُ عَنِ أَبِيهِمْ آدَمَ، مُسْتَحِقِّينَ أَنْ يَقْضِيَ اللهُ بهم قَضَاءَهُ بالْعَدْلِ بَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ، وأَنْ يُنَفِّذَ فيهم مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ جَزَاءٍ، وهكذا أَمْثَالُهُمْ من بَعْدِهِمْ.

لَكِنَّ خُطَّةَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ قَبلَ بَدْءِ الْخَلْقِ قَضَتْ بِأَنْ تَكُونَ حَياةٌ أُولَىٰ قَصيرة يَجْرِي فِيها الامتحان، وأَنْ تَكُونَ حَياةٌ أُخْرَىٰ أَبَدِيَّةٌ يَجْرِي فِيهَا الحساب، وَفَصْلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء، وما تَقَرَّرَ في هٰذِهِ الْخُطَّةِ هُو الْأَحْكَمُ فِي تَدْبِيراتِ الْخَلْقِ.

على أنَّ الميّتَ فِي عَهْدِ آدَمَ، وآخِرَ مَيِّتٍ من الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، يَكُونُ حالُهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ بالنِّسْبَةِ إلى شُعُورِهِمْ بِمُرُورِ الزَّمَنَ سَوَاءً، لِأَنَّ إِحْسَاسَ الأَرْوَاحِ أَو النُّفُوس بَيْنَ الموتِ والْبَعْثِ بِمُرُورِ الزَّمَنِ يَكُونُ مُنْعَدِماً، والْمَبْعُوثُونَ لَا يَشْعُرُونَ عند الْبَعْثِ إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي نَوْمَةٍ من نَوْمَاتِ الضُّحَىٰ، أو نَوْمَةٍ من نَوْمات العشِيِّ، مع كُلّ مَا مَرَّ عَلَيْهِمْ من نَعِيمٍ أو عذابٍ في مُدَّةَ الْبَرْزَخ.

وهذا البيان قَدْ جَاءَ نظيرُه في القرآن خَمْسَ مَرَّاتٍ، وكلُّها تَدُلُّ على المَعْنَىٰ الذي دَلَّ عليه هذا النص من سورة (يونس) مع اختلاف في المناسَبات.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرس الخامس من دُرُوس سورة (يونس).

والحمد لله على توفيقه ومَدَدِه ومَعُونَتِه وفتحه.

* * *

(٩)

التدبّر التحليليّ للدرس السادس من دُروس سورة (يونس)

الآية (٢٠)

قال اللهُ عزَّ وجل:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

تمهيد:

في هذه الآية مُتَابَعَةٌ لِمَا جَاءَ في الآيات من (٩٠ ـ ٩٣) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) إذْ جاء فيها تَعْلِيقُ أَئِمَّةِ المشركين في مكة إيمانَهُمْ بالرَّسُول على أَنْ يأتِيَهُمْ بآياتٍ مادِّيَّةٍ يَقْتَرِحُونَها، وهم في ذَلِكَ مُتَعَنِّتُونَ كَاذِبُون.

ودلَّتْ هذه الآيَةُ مِنْ سُورَةِ (يونس/ ٥١ نزول) عَلَىٰ أَنَّهُمْ جَعَلُوا يُكَرِّرُونَ مطالبة الرَّسُولِ بآيَةٍ مَادِّيَّةٍ عَلَى وَفْقِ مُقْتَرَحَاتِهم، وأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا عَدَمَ اسْتِجَابَةِ الرَّسُولِ لِمُقْتَرَحَاتِهِمْ ذَرِيعَةً لاتِّهَامِهِ بأَنَّهُ لَيْسَ رَسُولاً مُرْسلاً مِنْ رَبّ الْعَالمين، ويُشَيِّعُونَ في جُمْهُورِ المشركين لإبْعَادِهم عن الاستجابَةِ لِدَعْوَته قائلين: هَلَّا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ من رَبِّهِ كَمَا طَلَبْنَا منه، لو كان رَسُولاً من رَبِّهِ حَقّاً وَصِدْقاً لَأُنْزِلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، فكانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُعَلِّمَ اللهُ رَسُولَهُ مَا يَرُدُّ بِه عَلَيْهِمْ، إذْ كانت هٰذه الإشَاعَةُ الإعلاميَّة تتَرَدَّدُ إبَّانَ نزول سورة (يونس).

التدبُّر التحليلي:

- ﴿وَيَقُولُونَ﴾: أي: ويَقُول أئِمَّةُ مُشْرِكي مَكَّة، ويُرَدِّدُها تأَثُّراً بهم بَعْضُ أتباعهم تَرْدِيداً بَبَّغاوِيّاً، أخذاً من استعمال الفعل المضارع: «يَقُولُون» الّذي يُفيد التكرارَ والتجدُّد.

- ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ من رَبِّهِ كَمَا اقْتَرَحْنَا عَلَيْهِ، مثل عصا موسى، وناقة صالح.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أبان اللهُ عزّ وجَلَّ الْحِكْمَةَ مِنْ عَدَمِ إرسَالِ الآيات الَّتِي يَتَعَنَّتُ بالمطالَبَةِ بِإرْسَالِها الَّذِينَ كَفَرُوا، في الآية (٥٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) فقال اللهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هٰذِهِ الآيَة في مَوْقِعها من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول).

وجاءت هنا في الآية (٢٠) من سورة (يونس/ ٥١ نزول) إضَافَةُ بيانٍ بأسْلُوبٍ تَعْليمِيٍّ من اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ ما يَقُولُهُ لهم:

﴿.. فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

أيْ: فَقُل لَهُمْ: إنَّ الإِتْيَانَ بآياتٍ خَوارِقَ لَا تَكُونُ أَسْبَابُهَا إلَّا غَيْبِيَّة دَاخِلَةً فِي عَالِمِ الْغَيْبِ، وَالْغَيْبُ كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ للهِ وَحْدَهُ، هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِيهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء، فإنِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لمقْتَرَحَاتِكُمْ بإنْزَال الآيَات الْخَوارِقِ الَّتِي ذَكَرْتُمُوهَا أَنْزَلَها، وإذا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ لَا يَسْتَجِيبَ لمُقْتَرَحَاتِكُمْ لِعِلْمِهِ بأنَّهُ لَوْ أَنْزَلَهَا كَمَا اقْتَرَحْتُمْ، لَمَا آمَنتُم، وَلأَصْرَرْتُمْ عَلَى مَوْقِفِ الكُفْرِ كَمَا أَصَرَّتْ ثَمُودُ إذِ اسْتَجابَ لِطَلَبِهِمُ الناقَةَ كَما وَصَفُوا، مِنْ صَخْرَةٍ عَيَّنُوها، فَعَقَرُوها فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ إهلاكاً جماعيّاً شامِلاً، باستثناء الذين آمَنُوا بصالِح عليه السَّلامُ واتَّبَعُوهُ.

وبما أَنَّ الآياتِ الخوارِقَ تَأْتِي مِنْ عالم الْغَيْبِ الَّذِي استأثر الله به لنَفْسِهِ، وهٰذا الْغَيْبُ يَخْضَعُ لأمْرِ التكْوِينِ الرَّبَّانِي، وَلَيْسَ يَخْضَعُ لنظام الأسباب والمسبَّبات الَّتِي مَكَّنَ اللهُ عباده منها بحَسَبِ تفاضُلِ عِلْمِهِمْ وقُدْرَاتهم، فما عَلَيْنَا جَمِيعاً إلَّا أن نَنْتَظِرَ ما تَجْرِي به حِكْمَتُهُ إرْسالاً للآيَاتِ أو عَدَمَ إرسالٍ لها، وأنا فِي هٰذا مِثْلُكُمْ فانْتَظِرُوا إنّي مَعَكُمْ من المنتظِرينَ، وقَدْ عَلِمَ اللهُ طَلَبَكُمْ الآيات المادّيات الخارقات لنظام الأسباب والمسببات.

وبهذا تمّ تدبّر الدرس السادس والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته.

* * *

(١٠)

التّدبر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (يونس)
الآيات من (٢١ ـ ٢٣)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

القراءات:

(٢١) ● قُرِئَ: **[رُسْلَنَا]** بإسْكان السين. وقرأ الجمهور ﴿رُسُلَنَا﴾ بضمّ السّين.

وقُرِئ: **[مَا يَمْكُرُونَ]** بضمير الغائبين. وقرأ الجمهور ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ بضمير المخاطبين.

(٢٢) ● قرئ: **[يَنْشُرُكُمْ]** من فعل «نَشَرَ» وقرأها الجمهور ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من فعل «سَيَّرَ».

تمهيد:

هذا الدَّرْسُ مُتَّصِلُ بالدَّرس الثالث من دُرُوس السّورة الآيات من (١٢ ـ ١٤) وهي الآيات التي جاءت فيها مُتابَعَةٌ ذاتُ إضافات لما جاء في الآيات من (٦٧ ـ ٦٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) على طَرِيقَة

القرآنِ في تَوْزِيعِ عناصر الموضوع الواحد في السّورة الواحدة، أو في عَدَدٍ من السُّور.

وفي هذه الآيات من (٢١ ـ ٢٣) إضافاتٌ لم تَأْتِ في النَّصَّيْن السابقين، كما سيأتي في التدبّر إن شاء الله.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

من آيات الله التَّذْكيريَّة لعِبادِه في تصاريف الكون، أَنْ يُنْزِلَ بهم البأساءَ والضَّرَّاءَ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتذَكَّرُوا رَبَّهُمْ الَّذِي بِيَدِهِ تَدْبيرُ أمُورِ الكون وَتَصاريفُها، فيتضَرَّعُوا لَهُ داعِين خاضِعين، ثم يُبَدِّلُ اللهُ أَحْوالَهُمْ فَيَجْعَلُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحسَنَةَ، لِيَنْظُرَ أَحْوالَهُمْ، هل أفادَهُم التذكيرُ بالبأساء والضَّرَّاء استقامَةً على طاعة اللهِ والخضوع له في أحوال السَّرَّاء، أَمْ عادُوا إِلَىٰ ما كانُوا عليْهِ قَبْلَ التَّذْكير عِصْياناً وبَغْياً في الأرْض وعدواناً وظلْماً، أو كُفْراً وجُحُوداً.

جاء بيان هذهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّة الّتي هي من آياته التذكيريّة، فيما سَبَقَ أَنْ أنزل في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

الْبأْساء: الجوع والمشقة والفقر وضَنْك العيش، والحرب.

الضَّرّاء: الشّدّة وكلُّ حالة تَضُرُّ في الأموال أو الأنفس.

السَّرّاء: النِّعْمَةُ والرَّخاءُ والمسَرَّة.

هذه سنَّةُ الله في عباده بالنسبة إلى آياته التذكيرية، الّتي يُذَكِّر بها عباده.

وقد سبق تدبُّرُ هَاتَيْن الآيتين في مَوْضعهما من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول).

فما هي أحوال الناسِ بالنسْبَةِ إلى آيات اللهِ التذكيريَّة؟.

(١) أمّا الكافرون بالرَّب الخالق مِنَ الذّراري، فَيَقُولُونَ: ظاهِرَاتٌ طَبيعيَّةٌ تَتَقَلَّبُ بها أَحْوالُ الكَوْنِ بَيْنَ الضَّرَّاءِ والسَّرَّاء، ولَيْسَ وراءَهَا قَصْدٌ تَذْكِيريٌّ من رَبّ خالِقٍ يُصَرِّفُ أحْدَاثَ الكَوْنِ وَتَغَيُّرَاته بِحِكْمَتهِ، وهؤلاء هم الَّذِينَ جاء البيان بشَأْنِهم في نَصِّ سورة (الأعراف).

(٢) وأمَّا المشرِكُون وَمَنْ هم على حافَّةِ الشِّرْك من المسْرِفين بكَثْرَةِ المعاصِي، فقد سَبَقَ في الآية (١٢) من سورة (يونس/ ٥١ نزول) الّتي نتدَبَّرُها بيَانُ أنَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ إلَىٰ اللهِ إذا مَسَّهُمُ الضُّرُّ، وعَقِبَ أنْ يَكْشِفَ اللهُ عَنْهُمُ الضُّرَّ يُعْرِضُونَ عَنْ واجباتهم تُجاهَهُ، ويَسْتغْرِقُونَ في أهوائهم وشهواتهم، ولذَّاتِهِمْ من زِينَةِ الحياة الدُّنيا مُسْرِفين، وهي قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدَبُّر هذِهِ الآيَةِ بمقدار ما فتح الله.

(٣) وَأمَّا غُلاةُ أَهْلِ الكُفرِ الْمُجْرِمُونَ الشَّياطين، الَّذِين يَتّخِذُون ما

يَسْتَطِيعُون مِنْ وَسَائِلَ لإِضْلال الناس، فإنَّهم يَسْتَخْدِمُون ما يَهَبُهُم اللهُ مِنْ سَعَةٍ في الرِّزْقِ وَتَمْكِينٍ في الأرضِ بمَكْرٍ شَدِيدٍ لحَمْلِ النّاسِ على الكُفْرِ باللهِ، وإبْعَادِهم عن صراطِهِ المسْتَقِيم، وقَدْ كانُوا قَبْلَ هذِهِ السَّعَةِ والتَّمْكِينِ في ضَرَّاءَ يَتَمَنَّونَ الْخَلاصَ مِنْها.

وباستطاعَةِ المتدبّر إدْرَاكُ أنَّ هؤلاءِ هم المعنيُّون بقول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (يونس/ ٥١ نزول):

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

يَظْهَرُ أنَّ الْمُرَادَ بلَفْظِ «الناس» في هذه الآيَة هم الَّذِين يَمْكُرُونَ بآيَاتِ الله، إذَا أَذَاقَهُمُ اللهُ آثارَ رَحْمَتِهِ من بَعْدِ ضرَّاء مَسَّتْهُمْ، وهذا يَنْطَبِقُ على دُعَاةِ الضَّلالِ، شياطِينِ الْفَسَادِ والإفساد في الأرْضِ مِنَ النّاس.

وَجاء اسْتِعْمالُ فِعْلِ: ﴿أَذَقۡنَا﴾ للدَّلالَة على معنى «مَتَّعْنا» فأصْلُ الذَّوْقِ للطَّعام، وعُمِّمَ في الاسْتِعمال القرآني ليشْمَلَ الإحسَاسَ باللَّذّاتِ وبالآلام، من أيّ طريق من طُرُق الإحْسَاس، وهو في الأصل استعارةٌ قَائِمةٌ على تَشبيهِ الإحْسَاسَات المختلفة بِذَوْقِ الطعام ما كان منْهُ طيّباً مُسْتَسَاغاً، وما كان منْهُ كريهاً مُرّاً، أو هو من قبيلِ التوسُّعِ في الدَّلالَة من حَاسَّةٍ إلى سَائر الحواسّ.

وأُطْلِقَ لفْظُ «رَحْمَة» والمرادُ أثَرُها، فَرَحْمَةُ اللهِ صِفَةٌ من صفاتِهِ جَلَّ جَلَالُه، من آثارِها الإنْعامُ والإكرامُ وكُلُّ عطاءٍ فيه نَفْعٌ وخَيْرٌ للعِبَاد.

والمرادُ بالْمَسِّ مَا يُحْدِثُهُ الْتِصَاقُ سَطْح الماسِّ بسَطْحِ الممْسُوسِ من أثَرٍ فيه لذَّةٌ أَوْ أَلَمٌ.

الْمَكْرُ: تَدْبيرُ أَمْرٍ في خَفَاءٍ عَنِ الممْكُورِ بِهِ، بخير أو بشرّ.

- ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾: «إذا» هذه فجائية، و«إذا» الأولى في الآية ظرفية شَرْطية.

والمعنى: وحِينَ نُنْعِمُ عليهم فنُوَسِّعُ لهم مِمَّا يُحِبُّون من زيناتِ الحياة الدنْيا ووسائل متاعِهِمْ فيها، يُفاجِئُونَ بأن يَمْكِرُوا في آياتِ الله.

ومَكْرُهُمْ في آيات الله يكون بِتَدْبيراتٍ خفيَّاتٍ يُحَرِّفُونَ بها فيما تدلُّ عَلَيْهِ مِنْ صفاتِ اللهِ، وحِكْمَتِه في تصاريفِ كَوْنه، فيُفَسّرُونَ مثلاً آياتِهِ الكونية الْعُظْمَىٰ بأنَّها من آثار حَرَكَةِ ذرَّاتِ الكَوْنِ الطبيعِيَّة، دُون الحاجَةِ إلى خالقٍ مُدبِّر مُتْقِنٍ حَكيم قَدِيرٍ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ويختار، ويُعَلِّلُون آياتِهِ الجزائيَّة بأنَّها ظَواهِرُ طبيعيَّة جاءت على سبيل المصادفة، ولَيْسَتْ آثار قَصْدٍ جَزائيّ مِنْ خالِقٍ رَبٍّ عَلِيم حكيم قدير، يُصَرِّف أحْدَاث الكَوْنِ عَلَى وَفْقِ حِكْمَتِه، ويُرَوِّجُونَ مقالاتهم هذه بين الجماهير الّتي تنطَلِي عَلَيْها حِيَلُ الأخْبَاثِ، وتضليلات الشياطين من الناس، الّذين يُضِلُّون في الأرْض، لتحقيق منافع لهم من إضلالِ مَنْ يَسْتَجِيبُون لَهُمْ مِنَ الّذين لا يُعْمِلُونَ عقولهم في الْبَحْث العلمي، والبراهِينِ العقليَّة. ويُحَرِّفُونَ في آيات الله البيانِيَّة المنزَّلَة، فيُفسِّرُونها تفسيراتٍ بَاطِلَاتٍ فاسِدَاتٍ مُوافقاتٍ لأهوائهم، ثُمَّ يَسْعَوْن لاستثمار مَكْرِهِمْ في تحقيقِ مصالحهم المُرْضِيَات لأهوائهم وشهواتهم ولَذَّاتهم وأنواع متاعهم من زِيناتِ الحياة الدنيا.

وقد عَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ فكُلَّ داعٍ إلَى اللهِ مِنْ أُمَّتِه أنْ يَقُولَ لهذا الفريق المضِلّ مِنْ شياطين الإنْسِ: إنَّكُمْ تَمْكُرُونَ في آياتِ الله، واللهُ أسْرَعُ مِنْكُمْ مَكْراً، إذْ يُدَبِّرُ تَدْبيراتٍ يُحْبِطُ بِهَا وَسَائِلكُمُ المكْرِيَّة، فتكُونُونَ خَائِبينَ فِي مَساعِيكُمْ، لَا تحقّقُونَ بها مقاصِدَكُمُ الشّرِّيرَةَ، إلَّا فيمَنْ يَسْتَجِيبون لكُمْ لأَنَّ أهواءَهم مُشَابِهَةٌ لأهْوَائِكُمْ، فأنْتُمْ وإيَّاهم إلى الجحيم صائِرُون، وفي عَذاب اللهِ خالِدُون، واعْلَمُوا أنَّ رُسُلَ اللهِ من الملائكةِ الكاتِبين المراقبين

لأعمالكم، يَكْتبُونَ كلَّ صغيرة وكبيرةٍ ممَّا تَمْكُرُون، وسَوْفَ يُحَاسِبُكُمْ اللهُ عَلَيْها يَوْمَ الدِّين، ويَقْضِي علَيْكُمْ بقَضَائِه العادلِ، ويُدْخِلُكُمْ خالِدِين مجرمين، في الدَّرْك الأسْفَل من الجحيم.

وضَرَبَ اللهُ عزَّ وجَلَّ مَثَلاً من السُّلُوك الشخصي لفريق مِنْ هٰؤُلاءِ المضلّين، أَنَّهُمْ إذا رَكِبُوا الْفُلْكَ لِيَنْتَقِلُوا جَرْياً عَلَىٰ الماء من مكانٍ إلىٰ مكانٍ، أو لتَحْقِيقِ مَنَافِعَ وَمَصَالِحَ لَهُمْ في الْبَحْرِ، عَلَىٰ عَادَةِ رُكَّابِ السُّفُنِ في البحار، فقد تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُجْرِيَ لَهُمُ الْفُلْكَ جَرْياً سارّاً آمِناً مُسْعِداً مُرِيحاً في ابتِدَاءِ الأمرِ، بريحٍ طَيّبةٍ مُوافِقَةٍ لِجَرْيِ الْفُلْكِ عَلَىٰ مَا يُرَادُ مِنْها، امْتِحاناً لَهُمْ، هَلْ يَحْمَدُونَ رَبَّهُمْ وَيَشْكُرُونَه أم لاَ؟ وَقَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ الْبَحْرِ رِيحاً شَدِيدَةً تَعْصِفُ عَصْفاً، فَتَهُزُّ لَهُمْ فُلْكَهُمْ هزّاً عنيفاً مُخِيفاً، وتجْعَلُ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ ثَائِرَةً مُضْطَرِبَةً، تَضْرِبُ كُلَّ جِهَاتِها، يَمِينَها وَشِمَالَها وَأَمَامَها وَخَلْفَها، وَتَرْفَعُها وَتَخْفِضُها، فَيَغْلِبُ عَلَىٰ ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ، وَتَنْقَطِعُ مطامِعُهُم مِنْ كُلِّ أَسْبَابِ النَّجاةِ الكَوْنِيَّة.

عندئذٍ يَجِدُون أَنَّهُمْ مضطرّون إلى الالْتِجَاءِ إِلَىٰ رَبِّهم الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ، وهو القدير على مَا يَشَاء، لَا يُعْجِزُهُ إسْكَانُ البحارِ مَهْمَا كَانتْ في أَوْجِ ثَوْرَتِها وهِياجِها، ولا تَهْدِئَةُ الرِّيحِ مَهْمَا كَانَتْ فِي أَوْجِ قُوَّتِها وسُرْعَتِها وعُنْفِها، فَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ فِي دُعَائِهِمْ لَهُ شَيْئاً وَلَا أَحداً، وَيَعِدُونَ رَبَّهُمْ قائِلين: رَبَّنَا لَئِنْ خَلَّصْتَنَا مِنْ هٰذِهِ الْمُرْهِبَةِ الشَّدِيدَةِ المحيطَةِ بالْمُهْلِكَاتِ لَنَكُونَنَّ لَكَ مِنَ الْحَامِدِينَ الشَّاكِرِينَ، الْقَائِمِينَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْنَا تُجاهَكَ من طَاعَةٍ وعبادة.

وقَدْ تَقتضي حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ بَلَاءٍ، لِيَمْتَحِنَ صِدْقَهُمْ فِيما عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، إذْ دَعَوْهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّين، فَيُسَكِّنُ

الْأَمْوَاجَ الثَّائِرَةَ والرِّيحَ الْعَاصِفَ، وَيُعِيدُ حَالَةَ الْفُلْكِ إلى مِثْلِ مَا كَانَت علَيْهِ جارِيَةً بِرِيحٍ طيِّبةٍ.

لَكِنَّهُمْ حِينَ يَصِلُونَ إِلى الْبَرِّ نَاجِينَ بقضاء اللهِ وقَدَرِهِ، واستجابَةً لِدُعَائِهِم، يَعُودُونَ إلى مَا كَانُو عَلَيْهِ مِنْ بَغْيٍ فِي الْأَرْضِ بغير الحق، وفَسَادٍ وإفْسَادٍ، وَضَلَالٍ وإضْلال، وتَمَرُّدٍ عَلَىٰ طاعَةِ رَبِّ العباد.

فَهَلْ يُثْمِرُ لَهُمْ بَغْيُهُمْ فِي الحياة الدُّنيا الَّتِي يَسْتَمْتِعُونَ بها مَتَاعاً قليلاً زَائِلاً، سَعَادَةً أَبَدِيَّةً أَمْ شقاءً خالِدِينَ فِيه؟!

إنَّ الواقِعَ الَّذِي سَوْفَ يكونُ يَوْمَ الدِّين، يُثْبِتُ لهم أَنَّ بَغْيَهُمْ فِي الحياة الدُّنيا قَدْ صَارَ وَبَالاً علَيْهم، وعَذَاباً خالداً في دار الْعَذاب النَّارِ يَوْمَ الجزاء الأكبر، وكانَ عليهم أَنْ يُدْرِكُوا هٰذِهِ الحَقِيقَةَ، بِما آتاهُمْ مِنْ قُدْرَاتِ تَفْكِيرٍ وفَهْمٍ لِظَاهِرَاتِ الكَوْنِ، وما تَدُلّ عَلَيْهِ من صِفَاتِ بَارِئِها وَمُدَبِّرِ أحْدَاثِها بِحِكْمَتِهِ، وَبِتَصْدِيقِ مَا جَاءَ فِي بَيَانَاتِ اللهِ عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، وبِمُلاحَظَةِ آياتِ اللهِ الجزائيَّةِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا الْوَقائع التارِيخيَّة، لأَنَّها نَمَاذِجُ وأَمْثِلَةٌ مِنْ قانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّاني.

لكنَّهُمْ طَغَتْ عَلَيهِمْ أهواؤُهم وشَهَواتُهُمْ ولَذَّاتُهُمْ من الحياةِ الدُّنْيا، وأَحَبُّوا العاجِلَةَ فَتَعَلَّقُوا بها، فَغَشَّتْ عَلَى بصائِرِهمُ الْأَوْهَام، فاسْتَحْذَتْ إرادَاتُهُمْ، وصَارَتْ أُلْعُوبَةً بأيْدِي أَهْوَائِهم وشهواتهم، بَدَلَ أَنْ تَكُونَ مَهْدِيَّةً رَاشِدَةً تَتَّبِعُ هَدْيَ الْعَقْلِ الرَّشِيد، وهَدْيَ كتابِ اللهِ المجيد.

مع فقرات النّص في التدبّر.

قول الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ . . . ﴿٢٢﴾﴾ يبدأ النَّصُّ بِعَرْضِ فِقْرَةٍ مِنْ فِقَراتِ الْقَاعِدَةِ الإيمانيَّة، وهِيَ أَنَّ تَسْيِيرَ النَّاسِ في الْبَرِّ والْبَحْرِ مِنْ آثَارِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لعبادِه، خلْقاً وإمداداً، وتَدْبيراً، وتهيئَةً للأسْبابِ، ومُتَابَعَةً بالْعِلْم

والمراقَبَة، وتَوْفِيقاً، ودَفعاً للمَوانِع، وامْتِحَاناً للإرادات في اختياراتها، وإلى غير ذلك من صفاتِ رُبُوبيَّتِه ذاتِ العلاقة في كُلِّ حَرَكةٍ وسَكَنَةٍ في الأكْوان.

ويُقاسُ على التَّسْيِير في البرّ والْبَحْر التَّسْيِيرُ في الْجَوِّ، بَلْ هُو أولَى، لأنَّ للتَّسْيِيرِ في الجوِّ شُرُوطاً أكْثَرَ وأدَقَّ، فهو أَحْوَجُ إلى رُبُوبيَّةِ الرَّبّ للتَّمْكِينِ مِنْهُ، وللحفظ والحماية والرِّعَايَةِ الدَّائِمَةِ، ضِمْنَ سُنَنِ اللهِ السَّبَبِيَّة.

ولمَّا كان التَّسْييرُ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَنْتَشِرُ بِحَسَبِ مَصَالِحِ الناسِ في كُلِّ الأبعادِ، انْطِلَاقاً مِنْ مَرَاكِزِ دَوائِر التَّحَرُّكِ، ولاَ يَتَّبِعَ خطّاً واحداً، كَانَ من الحِكْمَةِ في البيان التَّنْبيه على أنَّ اللهَ هُوَ الذي يَنْشُرُهُمْ أيْضاً كما أنَّهُ يُسَيِّرُهم، فجاءت القراءة الأخرى: [**هُوَ الَّذِي يَنْشُرُكُمْ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ**].

النَّشْر: من معانيه التفريق والْبَثُّ والتوزيعُ، وهو المرادُ هُنَا، وسبب انتشار النَّاسِ في مُخْتَلِفِ الأمَاكِنِ اخْتِلَافُ مصالِحِهِمْ ومُرَادَاتِهِمْ الّتِي جَعَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ تحْقِيقَهَا في أمَاكِنَ شَتَّىٰ من الْبَرِّ والْبَحْرِ، وهُو جلَّ جَلَالُهُ الَّذِي يَجْعَلُ للنُّفُوسِ مطالب، ويَجعَلُ فيها الرَّغبات لتَحْقِيقِها، ويُلْهِمُ عُقُولَ النَّاسِ وَيعَلِّمُها أمَاكِنَ وُجُودِها ووسائِلَ الوصول إلَيْها، ويَمْنَحُها الْقُوىٰ، ويُقْدِرُها على اتِّخَاذِ الأسْبَاب، ويَدْفَعُ عَنْها العوائق والموانع، ويُذَلِّلُ لَهَا العقبات.

قول اللهِ تَعالى:

- ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ ... ﴿٢٢﴾﴾: أي: وتكونون في تسْيير اللهِ ونَشْرِهِ لَكُم فِي أمَاكِنَ شَتَّىٰ مِنَ الْبَرِّ والْبَحْرِ، ومن احْتِمَالاتِ سَيْرِكُمْ وانتِشَارِكم أنْ تكُونُوا رَاكِبِينَ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لبَعْضِ مصالحكم، ويَكُونُ هٰذا غَايَةً سَبَبِيَّةً مِنْ غايات مَقَاصِدِكُمْ، أَوْ غايَةً ذَاتِيَّة إذْ تُرِيدُونَ الاسْتِمْتَاعَ برُكُوبِ الْفُلْكِ في البحر. دَلَّ على هٰذ لفظ «حتَّى».

الْفُلْك: مَرْكَبُ الْبَحْر، يُطْلَقُ علَىٰ الواحِد والاثنين، والجمع. ويجوز تَذْكيرُه وتأْنيثُه، فتَقُول: هو الْفُلْك، وهي الْفُلك.

والـخِطَابُ بهٰذِهِ العِبَارَة مُوجَّهٌ لِكُلِّ صَالحٍ للخطابِ من الناس، يَتَعَرَّضُ لمِثْل مَا جَاءَ في الآيَةِ مِنْ أحْدَاث.

قول اللهِ تعالى:

- ﴿... وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا ... ﴿٢٢﴾﴾:

الْتفَتَ النَّصُّ عَنْ مُواجَهَةِ المخاطَبينَ لِأَنَّهُمْ عُمُومُ النَّاسِ، وفيهم مَنْ لَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ وَصْفُ الْبَغْي بَعْدِ النجاةِ ممَّا أحَاطَ بهم من أسْبَابٍ مُرْعِبَةٍ لَهُمْ بأَنَّهُمْ هالِكُونَ لَا مَحالَةَ مَا لَمْ يَتَدَخَّلْ قَضاءُ الله وَقَدَرُهُ بنجاتهم، فجاء الحديثُ عن المقصودين بالبيان بضمير الغائبين.

أي: والْفُلْكُ جَرَيْنَ بِهِمْ بريحٍ طَيِّبَةٍ مُلَائِمَةٍ لتَسْيِيرِها تَسْيِيراً سارّاً مُرِيحاً مُفْرِحاً، فَفرِحُوا بها.

جاء وصْفُ الْفُلْكِ بالْجَمْع المؤنَّثِ، إشَارَةً إلى أَنَّ هٰذا الحَدثَ من مُكَرَّراتِ الأحْدَاثِ في تَصارِيف اللهِ لأحْدَاث الكَوْنِ وتَغَيُّرَاته.

الطيِّب: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ علَىٰ كُلِّ شيءٍ مُفِيدٍ نَافعٍ لَا ضَرَرَ فيه ولا خَبَث.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿... جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ ... ﴿٢٢﴾﴾: أي: جاءتها رِيحٌ من نوعِ الرِّيح العاصِف، وهي الّتي إذَا هَبَّتْ بِشدَّةٍ حَمَلَتِ الْعَصْفَ، وهو ما على وَجْهِ الأرْضِ من نباتٍ يَابِسٍ، وأوراقٍ وأعواد، فتَدُورُ بِهِ وتَرْمِيهِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ.

يقال لغةً: ريحٌ عاصِفٌ، وريحٌ عاصِفَةٌ، بالتذكير والتَّأنيث.

قول الله تعالى:

- ﴿... وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ .. ﴿٢٢﴾﴾ أي: وَجاءَ فُلْكَهُمْ الْمَوْجُ من كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَهَا، يَضْرِبُها عَنْ يَمِينها، وعَنْ شمالِهَا، ومن أَمَامِها ومِنْ خَلْفِها، ويَرْفَعُهَا ويَخْفِضُهَا مِنْ تَحْتِها.

لفظ ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يُرادُ به كُلُّ مَكَانٍ حَوْلَ الْفُلْكَ، وهذا الْقَيْدُ يُفْهَمُ ذِهْناً وَلَوْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ في اللَّفْظ، فَهُو مِنَ الْعُمُومِ المُقَيَّدِ بِمُحِيطٍ خاصّ يُدْرَكُ عَقْلاً، وهو من أَمْثِلَةِ تَخْصِيصِ الْعُموم بالعقل.

قول الله تعالى:

- ﴿... وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ... ﴿٢٢﴾﴾: أي: وظَنُّوا ظَنّاً رَاجِحاً أَنَّهُم هالِكُونَ، إذْ أحَاطَتْ أَسْبَابُ إهْلاَكِهِمْ إحَاطَةً كامِلَةً بفُلْكِهِمْ.

يُقَال لغة: «أحَاطَ الشيءُ بالشَّيْءِ يُحِيطُ إحاطَةً» أي: الْتَفَّ حَوْلَهُ من كُلِّ جِهَاتِه.

أَصْلُ الإحاطَةِ بالشَّيْء الْقُدْرَةُ على الْقَبْضِ عَلَيْهِ، أَوْ تَحقيقُ المراد بِهِ مِنْ كُلِّ جهاتِه وجَوانبه. يقالُ لغة: «أحَاطَ الْجَيْشُ بالْبَلَدِ» أي: صَارَ مِثْلَ السّوار حَوْلَ بُنْيَانِها.

واسْتُعْمِلَت الإحَاطَةُ بمعْنَى الْعِلْم بالشيءِ عِلْماً شامِلاً كُلَّ نواحيه وجوانبه.

ولَمْ يَجْزِمُوا بأَنَّهم هالِكونَ لَا محالَة، لأَنَّهُم قَدْ بقي لدَيهم احْتِمالُ أَنْ ينجيَهُم رَبُّهُمْ، إذَا دَعَوْهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدُّعاء الّذِي هو مُخُّ العِبَادَة في دين اللهِ لِعبادِه، فَلَا يُشْرِكُونَ أَحَداً مع رَبِّهِمْ في دُعائهم له، وعزَمُوا عَلَىٰ إجراء تَجْرِبَةِ دُعَاءِ اللهِ أن يُنْجِيَهُمْ، وأَنْ يُعَاهِدُوه علَى أن يَكُونوا مِنَ الشَّاكِرِينَ.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿.. دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: حتَّىٰ إذا كانَ ما سبَقَ بيانُهُ وظَنُّوا ظنّاً رَاجحاً أَنَّهُمْ هالِكُونَ، دَعُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدّين.

الإخْلَاصُ للهِ فِي الدّين: هو عبادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَريكَ لَه، والدُّعَاءُ مُخُّ العبادة ومِنْ أَوائِلها الكُبْرَىٰ.

وقالوا في دُعَائِهِمْ رَبَّهُمْ: رَبَّنَا لَئِنْ أَنْجيتَنا مِنْ هذِهِ الأَحْدَاثِ المُرْعِبَةِ لَنا، والَّتي ظَنَنَّا ظَنّاً رَاجحاً أنَّها مُهْلِكَةٌ لَنا، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْحَامِدِينَ الشَّاكِرِينَ لَكَ.

اللّام في ﴿لَئِنۡ﴾ وَاقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ، ويُسمّيها النحاةُ مُوَطِّئَةً لِلْقَسَم.

﴿أَنجَيۡتَنَا﴾: أيْ: خَلَّصْتَنَا.

﴿مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾: أي: من هذِهِ الأَحْدَاثِ الْمُحِيطَةِ الْمُرْهِبَةِ المهلكةِ إذا لَمْ تُنْجِنَا أَنْتَ بأَلْطَافِكَ رَبَّنَا.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: أي: نُعَاهِدُكَ رَبَّنا إنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذِهِ أَنْ نَكُونَ مِنَ الحامِدِينَ الشَّاكِرِينَ لَك.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إنْعَامِ المنْعِم بما يُرْضِيهِ مِنْ عَمَلٍ، وقَدْ يَدْخُلُ فِي عُمُومِه الْحَمْد، باعتباره عَملاً من أعْمالِ اللِّسَان، إلَّا أَنَّ الْحَمْدَ يَخْتَصُّ بالثَّناء، ولا يَشْمَلُ كُلَّ عَنَاصِرِ الشُّكر الّتي يُطَالِبُ اللهُ بها عبادَه المكلّفين في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا.

قول اللهِ تعالى:

- ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ... ﴿٢٣﴾﴾: أي: فَحِينَ أَنْجَىٰ اللهُ جلَّ جَلالُهُ بِحِكْمَتِه هَؤلَاء المعنيّين بالبيان، الّذِين عاهدوه بأنْ يكونوا من الحامِدِينَ الشَّاكِرِين، فاجَؤُوا بأَنَّهُم يَنْقُضُون عَهْدَهُمْ الّذِي عاهَدُوه رَبَّهُمْ، وفَاجَؤُوا بأَنَّهُمْ يَبْغُونَ في الأَرْضِ بَغْياً بِغَيْرِ الحق.

الْبَغْي: تجاوز الحدّ المأْذُونِ به في السُّلُوكِ الإرادي، وإذا كان هذا التجاوز عَنِ الحدِّ في النّظام العامّ عِقَاباً للْبُغاة بالْعَدْلِ كَانَ تَجاوُزاً بالحقّ، ولَا يُلامُ عَلَيْه المتجاوز، فكانَ مِنَ الحكْمةِ في البيان إثباتُ قَيْدِ: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ ولَا عِبْرَةَ بكَثْرَةِ اسْتِعْمال «الْبَغْي» في الدَّلَالَةِ علَى ما يَكُونُ بغيرِ الحقّ، فالدّقّةُ في البيان تَلْتَزِمُ بالْوَضْعِ اللُّغوِيّ لِلْكَلِمَة ومَا تَقْتَضِيه من قُيُود إبْعَاداً للاحْتمالَاتِ غير المرادات.

وبَعْدَ أَنْ وَصَفَ اللهُ عزّ وجلّ هؤلاء المعنيِّين بالبيان، خاطَبَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ بقوله:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: يا أيُّها النَّاسُ الْبُغَاةُ الْكَافِرُونَ بأنْعُم الله عليكُم، النَّاقِضُونَ لمَا عَاهَدْتُم رَبّكُمْ عَلَيْه، مَا بَغْيُكُمْ بِغَيْرِ الحقّ إلَّا أَنْتُم مُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ عقاباً أليماً عنْدَ رَبّكم يَوْمَ الجزاء الأكْبر، وبهذا يَكُونُ بَغْيُكُمْ وَبالاً عليكم، ويكُونُ مَا تُصِيبُونَهُ من مُرْضِيَاتِ أهْوَائكم وشهواتِكُمْ بِبَغْيِكُمْ مَتَاعاً قلِيلاً زَائلاً من أَنْواع متاع الحياة الدُّنيا.

والعبارة على تقدير: إنَّما بَغْيُكُمْ مُسْتَمْتِعينَ بِهِ مَتَاعَ الحياة الدُّنيا وبَالٌ عَلَىٰ أنْفُسِكُمْ إذْ تَجْنُونَ علَيْها جِنَايَةً عَظِيمةً تجْلُبُ لَكُمْ عذاباً أليماً عنْدَ رَبِّكُم، فَبَعْد اسْتِمْتَاعِكُمْ متاعَ الحياة الدنيا، تموتُون ثُمَّ إلَىٰ رَبّكُمْ تُرْجعُون بَعْدَ البعث، لمحاسبتكُمْ، وفَصْلِ قضائِهِ بَيْنَكُمْ، وتنفيذِ جزائِه.

عبارة: ﴿.. فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣﴾ تقتضي لوازِمَ يَدُلُّ عَلَيْها الفِكْر، وتَدُلُّ عَلَيْها النُّصُوص، فهِيَ كِنَايَةٌ عَنْها، وهذه اللّوازم يَدْخُلَ فيها الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾: أي: فَنُخْبِرُكُم، **النبأ**: الخبر البارز المهمّ.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما كُنْتُمْ في رِحْلَةِ امتحانِكُمْ في الحياة الدنيا تَعْمَلُونَ بإراداتِكُم الحرَّة، من أعمال إراديَّة نَفْسِيَّةٍ كالكُفر، والنيَّات، والحَسَد، وتَدْبِير مُخَطَّطاتِ إضْلال عباد الله، ومُقَاوَمَةِ دعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانيّة، ومن أعمالٍ جَسَدِيَّةٍ كعبادة غَيْرِ الله، وارتكاب محرَّمات الْقَتْل، وأكْلِ أموال النَّاس بالبَاطِلِ، والفواحِش، إلى غير ذلك.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس السابع من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على مَدَدِه ومَعُونتِه وفَتْحِه.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٢٤ ـ ٣٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

القراءات:

(٢٥) لفظة ﴿صِرَٰطٍ﴾: فيها قراءة أخرى بالسّين «سراط».

(٢٧) لفظة ﴿قِطَعًا﴾ فيها قراءة أخْرَىٰ بإسكان الطاء «قِطْعاً».

(٣٠) لفظة [**تَبْلُو**] فيها قراءة أخرَىٰ وهي [**تَتْلُو**].

تمهيد:

في هذه الآيات إقناعٌ بواقعِ الحياة الدّنْيا، وأنّها حيَاةُ فَناءٍ، ولَيْسَتْ حياة بقاء، أمَّا حياة البقاء فهي الحياة الأخرى بَعْدَ الموت والبعث، وفيها داران، دارُ نعيمٍ خالد، ودار عذَاب بالْعَدْل، ومن العدْلِ جَعْلُ الكافِرين المجرِمين خالِدين فيها.

التدبّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

ضرَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هذهِ الآيةِ مَثَلاً لكُلِّ الحَياةِ الدُّنيا بفَصْلٍ من فُصُولها الزّراعِيَّة، في سَنَةٍ مِنْ سَنَواتِها، واختير في هذا الْفَصْل أنْ يكُونَ من الْفُصُولِ البَهِيجَةِ الّتي تَنْمُو زُرُوعُها نَماءً عَظِيماً يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ، مُزَخْرَفاً بأَزْهَارِهِ الرَّائِعَة، المنْثُورَةِ علَىٰ خُضْرَتِه المالِئَةِ سَطْحَ الأَرْض.

لكِنَّ هذا الْفَصْل الزّراعيّ الرائع أَتَتْهُ بتقدير اللهِ وقضائه عواصِفُ وقواصِفُ وَوَسَائِلُ مُدَمِّرَةٌ مُهْلِكَةٌ أُخرَىٰ، فَجَعَلَتْ كلَّ مَا عَلَى الأرْضِ من نباتات هالِكَةً تَالِفَةً مُبَدَّدَةً، وصَارَتِ الأرض جَرْدَاءَ لَا زهْرَ فيها ولا ثَمر ولَا نَبَات، كأَنَّها لَمْ تَكُنْ ذَاتَ نباتٍ وَخُضْرَة وزهْرٍ وثَمرٍ ونُضْرَةٍ ورَوْنَقٍ وزُخْرُف.

وهكذا تَنْتَهِي الحَياةُ الدُّنيا كُلُّها، ثُمَّ تَكُونُ بَعْدَها أحْدَاثُ الحياة الأخرىٰ، الَّتي هي حَياةُ البقاء، وفيها يكُونُ الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء بِعَدْلِ اللهِ أو بِفَضْلِه، بِحَسَبِ واقع حالِ المقْضِيّ لَهُ، أو المقضيّ عَلَيْه.

- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ..﴾ «إنَّما» أَداة حَصْرٍ وقَصْر، قَصَرَ الله عزّ وجلّ بِهِ مَثَلَ الْحياةِ الدُّنْيا كلِّها علَىٰ مَا جاء تَفْصِيلٌ لَهُ في بِقيّة الآية، وهُوَ قَصْرٌ إضَافيٌّ، أي: بالإضافَةِ إلى صِفَتَي الْفَنَاءِ والْبَقاء، والصُّورَةُ الّتي جاءَتْ فِي المثَلِ صُورَةٌ مُنْتَهِيَةٌ بِفَناءٍ مفاجِئٍ.

- ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ... ﴿٢٤﴾﴾:

كَانَ من الممكِنِ أَنْ يُؤْتَىٰ بِتَعْبِير أخْصَرَ مِن هذا، مِثْل: «كَحدَائِقَ ذَات بَهْجَةٍ» أو «كَفَصْلٍ زراعيّ نفيس النّبات».

لكِنَّ التَّفْصِيلَ الّذي جاء في العبارة القرآنيَّة قَدْ أَدمَجَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ إتْقَانِ صُنْعِ اللهِ في تَصارِيفه، ومِنَّتِهِ العظيمة على عباده بما يأكُلُونَ، وبما تأكُلُ أنْعامُهُم.

فاللهُ عزّ وجلَّ هو الَّذي يُنْزِلُ الماء من السَّحَابِ، بتَدْبِيره لأحْدَاثٍ سَبَبِيَّةٍ في كَوْنه، وهو الذي يَجْعَلُ الماءَ بتَقديره يَخْتَلِطُ بِهِ نباتُ الأرض، فَيَنْمُو، ويُزْهِرُ ويُثْمِر، وهو الَّذِي يَجْعَلُ أصْنَافاً من النبات صالِحةً لغذاء الناس، فَهُمْ يأكُلونَ مِنْهُ، وأصنافاً أخْرَىٰ صالِحَةً لغذاء الأنعام فَهِي تَأْكُلُ مِنه.

ودَلَّتْ عِبَارَة: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ عَلَىٰ أنَّ الماء يَدْخُلُ في كُلِّ خلَايا النَّبَاتات حَتَّىٰ يكُونَ مخْتَلِطاً فيها اختلاطَ الذّرّات بالذَّرّاتِ، لِتَتِمَّ بِذلِكَ عَجَائِبُ النَّماءِ على وَفْقِ خَصَائِصِ كلِّ نَوْعٍ وكُلِّ صِنْفٍ وكُلِّ فَرْدٍ من أفْرادِ النَّبَاتَاتِ والأزهار والثّمار.

الأنعام: هي الأموال الراعية، وهي الإبل والبقر والغنم، ولفظ «الأنْعَام» يُذَكّر ويُؤَنّث.

- ﴿.. حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ... ﴿٢٤﴾﴾: أي: وأَخذَ نَباتُ الأرضِ يَنْمُو بقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ وخَلْقِه تِباعاً مَعَ الوحداتِ الزَّمَنِيَّة الصُّغْرَىٰ، حتَّىٰ أَخذَتِ الأرْضُ بما نَمَا فيها من نباتٍ زُخْرُفَها، وازَّيَّنَتْ بخُضْرَتها ونُضْرَتِها وَشَجَرِها وَأَزْهارِها وثمَرَاتها.

الزُّخْرُف: كَمَالُ حُسْنِ الشيء، ويُطْلَقُ علَىٰ الذَّهب، ويُطْلَقُ على الزينَة، والمعنَىٰ الأوّل هو الملائم هُنا في الآية.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾: أصْلها: تزينت، قلبت تاءها زاياً وأُدغمت بالزاي.

﴿.. وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ..﴾: أي: وظَنَّ أهْلُ الأَرْضِ ظَنّاً رَاجحاً أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ الانْتِفَاعِ بِكُلّ ما أَنْبَتَتْ مِنْ نَباتٍ نافعٍ بَهِيجٍ، وَلَيْسَ بَيْنَهُم وبَيْنَ الانتِفاع به إلَّا أن يَحْصُدوا زَرْعَهُ ويَقْطِفُوا زَهْرَهُ، وَيَجْمَعُوا ثَمراتِه.

﴿. . أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ . .﴾ أي: أَتاهَا أثَرُ أَمْرِ اللهِ بإهْلاَكِها وَإبادَةِ كُلِّ مَا نبتَ فِيها، فَجَعلها اللهُ هالِكَةً مُبَدَّدَةً لا أثَرَ لِشَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ عَلَيْها.

الْحَصِيد: هو المحْصُود من الزَّرْعِ بالمنْجَل، ويأتي الْحَصْدُ بمعنى الاستئصال، يقال لغة: «حَصَدَ الْقَوْمَ بالسَّيْفِ» أي: قَتلَهُمْ واسْتَأْصَلَهُمْ، وهذا المعنَىٰ هُو الملائم هُنا.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾: أي: كأنَّها لَمْ تَكُنْ عامِرَةً بالخيرات قَبْلَ يَوْمِ إهلاكها، وإبادَةِ مَا كانَ عَلَيْها، إذْ صارت قاحِلَةً جرْداء.

﴿. . كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: أبَنَّا للمتفكّرين بالتَّفصيل الكَلاَمِيّ ولوازم دَلالاَتِهِ الْفِكْرِيَّة، كَيْفَ تكونُ نهايَةُ الحَياةِ الدُّنْيا، رغْبَةً في أنْ لا تَأْسِرَهم بزيناتها ومتَاعِها الزائل، كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ في كُلِّ مَوْضوعٍ دِينيٍّ لِقَوْمٍ يَتفكَّرُون، فيَهديهِمْ تفكُّرُهُمْ إلَىٰ الحقّ، فإذا عَقَلُوا الْتَزَمُوا صِراطَه المستقيم.

التفصيل: التَّبْيين، وكَشْفُ حُدُودِ الأجزاء المتلاصِقَةِ في الظاهر، بإظْهَارِ مَا بيْنَها من انْفِصَالٍ وَلَوْ لم يَكُنْ مَرْئِيّاً، لتمييز بعْضِها عن بَعْضٍ في الإدْرَاكِ الفِكْرِي.

قول الله تعالى:

- ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾:

دارُ السَّلام: هي الجنَّة يَوْمَ الدِّين، إذْ جَعَلَها اللهُ عزَّ وجَلَّ آمِنَةً خالِيَةً من كُلِّ مَكْرُوهٍ يُخافُ حُصُولُه، فَلاَ أكْدَارَ فيها ولاَ منغِّصات، ولا مُسْتَقْذَرات ولَا خبائث، بل كُلُّها نَقاءٌ وطهارَةٌ وأمْنٌ، حتَّىٰ تَحِيَّةُ أهْلِ الجنَّةِ في الجنَّة «سَلامٌ».

بَعْدَ أنْ أبَانَ اللهُ عزّ وجلَّ مَثَلَ الحياة الدُّنيا، وتَضَمَّنَ هذا البيان الدَّعْوَةَ إلَى عَدَم التعلُّقِ بها تَعَلُّقاً صَارِفاً عَن الْعَمَل للآخِرَة الخالِدَةِ الَّتي لا مَوْتَ فيها ولا فناء، وفيها دارٌ عظيمةٌ هي دار سَلام ونَعِيم خالد، وكانَ هذا البيان يَتَضَمَّن معنى قول الله تعالى: لَا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا، جَاءَ عطْفُ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ على هذا المعْنَىٰ المسْتَفادِ ذِهْناً من جُمْلَةِ الْمَثل.

المعنى: اللهُ يَدْعُوكم أيّها الموضُوعُونَ في الحَياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ إلى أَنْ لَا تَغُرَّكُمُ الحياةُ الدُّنْيا، لأنّها حَياة فانِيَةٌ سَرِيعةُ الزّوال، ويَدْعُوكم إلى دار السَّلام الجنَّةِ، الَّتِي لَا تخافونَ فيها مَرَضاً ولَا مَوْتاً ولا جُوعاً ولا ظمأً ولَا شيئاً مِمَّا تَكْرَهون.

يَدْعُو: أي: يَطْلُبُ مُرَغِّباً حاثّاً، وهذا أحَدُ معاني هذا الفعل.

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: واللهُ يَهْدِي من يشاءُ الهدَايَة الموصلَةَ إلَى دَارِ السَّلام، إذْ آمَنَ بما أوْجَبَ اللهُ على عباده المكلَّفِين أَنْ يُؤْمِنُوا بِه، إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم مُشْتَمِلٍ على التْكاليفِ العمليَّةِ، النَّفْسِيَّةِ والجَسَدِيَّة، مُوصِلٍ إلى دَارِ السَّلام الّتي دَعَا اللهُ إلَيْها، ففاعِلُ المشيئَةِ بمقْتَضَىٰ هذا الْفَهْمِ هُو الإنسانُ المؤمِن.

وإذَا اعتَبَرْنَا أَنَّ فَاعِلَ المشيئَةِ ضَمِيرٌ يعُودُ على اللهِ عزّ وجلّ، فالمعْنَى: ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ اللهُ هِدَايَتَهُ لأنَّهُ آمَنَ إيماناً صَحِيحاً صادقاً، إلى صراطٍ عمليٍّ مُسْتَقِيم يُوصِلُهُ إلى دَارِ السَّلام، ثم تكُونُ دَرَجاتُهُ فيها بحَسَب سَعْيِهِ ومُجَاهَدَتِهِ لمطالِبِ نَفْسِه، واقْتِحامِهِ عَقَباتِها، وهذِهِ الْهِدَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ لَهُ هِيَ دَلَالَةٌ وتَوْفِيقٌ ومَعُونَة، وليْسَتْ هِدَايَةَ جَبْرٍ لِمَسْلُوبِ الإرادة، ومن لَوَازِم دلَالة هذه الهداية وجُود فريقين: مَهْدِيٌّ وغير مَهْدِيّ.

ونَحْنُ نَعْلَم أنَّ مَشِيئَةَ اللهِ عزَّ وجلّ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، ولَا تتناقَضُ

ولَا تَتعارَضُ مع مَشِيئةِ التَّخْيِيرِ الّذِي مَنحَهُ عبادَهُ المكلَّفِين، إذْ لَا جَبْرَ مَعَ التَّخْيِيرِ للتَّنَاقُضِ بيْنَهُمَا. وتعقيباً على وُجود مَهْدِيين وغير مَهْدِيّين جاء:

قول الله تعالى:

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بَيانُ بَعْضِ تَفْصِيلٍ لجزاءِ الَّذِين أحَسنُوا في رحلَةِ امتحانهم، وجزاءِ الّذِين كَسَبُوا السَّيِّئات، وهذا الجزاء يَنالُونَهُ يوْمَ الدّين، ومَا جاء فيهما مُنْسَجِمٌ مع مَنْهَج الْقُرْآنِ في تَجْزِئَة عَناصِرِ الترغيب والترهيب، وتوزيعها في مواضِعَ كثيرة من القرآن المجيد، لأنّ العلاج الدوائيّ يَحْتَاجُ إلى هذِهِ التجزئة.

- ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾: أي: للذِّينَ فَعلُوا أفعالاً حَسَنَةً في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا. يقال لغة: «أَحْسَنَ فُلَانٌ» أي: فَعَلَ مَا هُوَ حَسَنٌ، والْمُرَادُ هُنَا الفِعْلُ الْحَسَنُ الّذِي يَرْضَاهُ اللهُ عزّ وجلَّ، واسم الموصول وصِلَتُه خَبَرٌ مُقَدَّم.

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾: مُبْتَدأ متَأَخّر ومعطوفٌ عليه. والمرادُ بالحسنَىٰ الجنَّةُ دَارُ السَّلام. **الْحُسْنَىٰ**: مُؤَنَّثُ «الأحْسَن» ومعلومٌ أنّ الجنَّةَ أَفْضَلُ دارٍ مُسْعِدَةٍ، أعَدَّها الله لسُكْنَىٰ المؤمنين المتَّقِين يوْمَ الدِّينَ خَالِدِينَ فيها.

وثَبتَ في الصحيح أن المرادَ بالزِّيَادَةِ النَّظَرُ إلى وَجْهِ اللهِ الكريم، على ما رواه مُسْلِمٌ والإمام أَحْمَدُ وغيرهما، أنّ رسُول الله ﷺ تلا قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ الآية وقال:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الجَنَّةَ وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَىٰ مُنادٍ: يَا أَهْلَ

الْجَنَّةِ إنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً يُرِيدُ أنْ يِنْجِزَكُمُوهُ، فيقولُون: وَمَا هُوَ؟. أَلَمْ يُثْقِلْ مَوازِينَنا؟؟. أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنا وَيُدْخِلْنا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النار؟؟. قال: فَيُكْشَفُ لَهُمُ الحجابُ فَيَنْظُرُونَ إلَيْه، فوَاللهِ مَا أعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلَيْهِ، وَلَا أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ».

وروى ٱبْن جَرِير عن أبي مُوسَىٰ الأشْعَرِيّ عَن رَسُول اللهِ ﷺ أَنَّهُ قال:

«إنَّ اللهَ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مُنَادِياً يُنَادِي: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ـ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَوَّلَهُمْ وآخِرَهُمْ ـ إنَّ اللهَ وَعَدَكُمُ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَة، فالْحُسْنَىٰ الْجَنَّةُ، والزيادَةُ النَّظَرُ إلى وَجْهِ الرَّحْمٰنِ عزّ وجلّ».

• ﴿.. وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ .. ﴿٢٦﴾﴾: أي: ولا يَغْشَىٰ وَلَا يَعْلُو وُجُوهَهُمْ ذَرَّاتٌ سَوْداء كالدُّخان، ولا عَلامات ذِلَّةٍ يَشْعُرُونَ بها فِي نُفُوسهم.

يُقَالُ لغةً: «رَهِقَ الشَّيْءُ الرَّجُلَ، يَرْهَقُهُ، رَهْقاً» أي: غَشِيَهُ وعَلَاه.

الْقَتَر: لَوْنُ غُبارٍ ضَارِبٍ إلى السَّواد، كالّذِي يُشَاهَدُ على وجُوهِ الْعُمَّالِ الّذِين يَعْمَلُونَ بِتَنْظِيفِ الآلَاتِ الحدِيدِيَّةِ المتَّسِخَةِ بأوْسَاخ من غُبَارٍ أسْوَد.

الذِّلَّة: الشُّعُورُ بالضَّعْفِ والْهَوَانِ في عُمْقِ النَّفْسِ، ولَهُ آثارٌ تَغْشَىٰ الْوُجُوه، والمرادُ هٰذِهِ الآثار.

• ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أشار الله عزّ وجلّ إلى الذين أحْسَنُوا في رحلة امتحانهم إيماناً وعملاً باسم الإشارة الموضوع للبعيدين، للدّلَالَةِ على بُعْدِ مَنْزِلَتِهِم ارْتفاعاً.

أَصْحَابُ الجنَّة: أي: مُلازموها دَواماً لَا يَخْرُجُونَ مِنْها، فالصاحِبُ ملازم، وصَاحِبُ الشَّيْءِ المختَصُّ بالانْتِفاع بما فيه من مَنافِع، فهو كالمالِكِ لَهُ.

وَأَكَّدَ اللهُ عَزّ وجَلَّ دَوَامَ مَلازمَتِهِم للْجَنَّةِ وَنَعِيمها بِقَوْلِهِ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ومَعْنَى الخُلُودِ في الجنَّةِ الْبَقَاءُ الّذي لَا نِهَايَةَ له.

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ .. ﴿٢٧﴾﴾: كَسْبُ الشيء فِعْله، وكَسْبُ الإثْمِ تَحمُّله باخْتِيار الكاسب.

ومعْنَىٰ: كَسَبُوا السَّيئات، كَسَبُوا الْفَعَلاتِ والمكْسُوبات السّيِّئاتِ من أعمال نَفْسِيَّةٍ أَوْ جَسَدِيَّة، حتَّىٰ دَرَكَةِ ما لا يَغْفِرُهُ الله.

السّيِّئة: الفَعْلَةُ القَبِيحَةُ المكْروهة، والْخَصْلَةُ المكروهة، وكُلُّ نَازلَةٍ مَكْرُوهَةٍ هي سَيِّئَةٌ في اللُّغَة.

وفِعْلُ السّيئاتِ هو فِعْلُ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ في الدِّين الذي اصطفاه لعباده، وهو يَشْمَلُ تَرْكَ مَا أَمَرَ اللهُ بفِعْله، فالتَّرْكُ فِعْلٌ مُضَادٌّ للفعل المأمُور به، إذَا كان تَرْكاً إراديّاً.

واسم الموصول وصلتُه مُبتَدأ، وخَبَرُه الجملَةُ التالية:

- ﴿.. جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا .. ﴿٢٧﴾﴾:

أي: يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ قَانُونُ الْعَدْلِ الرَّبَّانيّ، وهو أَنَّ جَزَاءَ كُلِّ سَيِّئَةٍ كَسَبُوها كائِنٌ بِمثْلِهَا، إِذَا لَمْ يَعْفُ اللهُ عَنهَا بِفَضْلِهِ عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَته، وَقَدْ يَجْزِي بأقَلَّ مِنْ مِثْلِها تجاوزاً أو صفحاً، ولكِنْ لَا يَجزي السّيِّئة بأكْثَرَ من مِثْلِها، فاللهُ جلَّ جَلالُهُ لَا يَظْلِمُ أحداً شيئاً.

- ﴿.. وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ..﴾: أي: وتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمْ وَسَائِرَ جُسُومِهِمْ آثار مشَاعِرِ ضَعْفٍ وَهوانٍ في نفوسهم.

• ﴿.. مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ ..﴾: أي: مَالَهُمْ من حَامٍ يَحْمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ بالْعَدْل.

«من الله» متعلّق بـ«عاصِم» و«مِنْ» في: ﴿مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ لتَوْكيد عُمُوم النفي والتَّنْصِيصِ عليْه.

• ﴿.. كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ ... ﴿٢٧﴾﴾: أي: تَكُونُ وُجُوهُهُمْ سَوْداءَ مُظْلِمَةً، كأنَّما غَطَّتْ جُلُودَهَا قِطَعٌ مِنَ اللَّيْلِ، حَالَةَ كوْنِهِ مظْلِماً ظلاماً دَامساً لَا تختلط به أنوار قَمَرٍ ولَا نُجُومٍ، وهذا يكون حينَما تكُونُ السّماء محجوبَةً بسُحُبٍ كثيفَةٍ مُظْلِمَة.

لَفْظُ ﴿قِطَعٗا﴾ جَمْعُ قِطْعَة، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كأنَّما غَشَّتْ وَجْهَهُ قِطْعَةٌ من لَيْلٍ مُظْلِم.

وجاء في الْقِرَاءَة الأخْرَى: **[قِطْعاً]** بإسْكان الطاء. **«القِطْعُ»** اسم لِلجُزْءِ مِن زَمَنِ لَيْلٍ مُظْلمٍ، ونفهم مِنْ هذه القراءة أنَّهُمْ حِينَ يُحْشَرُونَ وتَلْتَصِقُ أجْسَادُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ يَكُونُ مَنْظَرُهُم مُجْتَمِعِينَ كَجُزْءٍ مِنْ لَيْلٍ مُظْلِمٍ باعتبار أنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ كأنَّما غَشِيَتْهُ قِطْعَةٌ من لَيْلٍ مظْلِمٍ لا نور فيه.

• ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

أشار اللهُ عزّ وجَلَّ إلى الّذينَ كَسَبُوا السّيِّئَاتِ حتَّىٰ دَرَكَةِ مَا لا يَغْفِرُهُ الله، وهو الشِّرْكُ فما هو أَقْبَحُ مِنْه في رِحْلَةِ امتحانهم، باسم الإشارة الْمَوْضُوعِ للمشار إليهم الْبَعِيدِينَ، للدَّلَالَةِ على بُعْدِهم عن مَهَابط رَحَمَاتِ الله، تَسَفُّلاً في الدَّرَكات وانْحِطَاطاً في اتِّجاه مَكَانِ أسْفَلِ سافِلين.

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾: أي: ملازمُوها دَواماً، لا يَخْرُجُونَ منها، فالصاحِبُ ملازم، وقَدْ جُوزوا بهذِهِ الملازَمَةِ لعذابِ النَّار لاستحقاقِهِم لها، بسَبَبِ كُفرِهم، ومَا كَسَبُوا من كُبْرَيَاتِ المعاصِي والفساد والإفساد في الأرْض.

قول اللهِ تعالى:

- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

في هذِهِ الآياتِ بيانُ لقَطاتٍ من مَشْهَدٍ من مَشاهِدِ يَوْمِ القِيامة، وفيه سَبْعُ لقَطات:

اللَّقْطةُ الأولَى: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: أي: وحِينَ نَحْشُرُ الّذِينَ كانُوا مَوْضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحان حالةَ كونِهِم جَمِيعاً.

الحشْر: السَّوْقُ والجمع.

وكلمة «يَوْم» مستَعْمَلَةٌ بمَعْنَىٰ «حِين» الدَّالّ على زَمَنٍ ما من يوم القيامة، ومثل هذا الاستعمال متكرّر في القرآن المجيد.

أي: وضَعْ أيُّها المتَلَقِّي في ذَاكِرَتِكَ حِينَ نَسُوقُ ونَجْمَعُ كُلَّ الَّذِينَ كانوا مَوْضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، بَعْدَ البَعْثِ إلى الحياة الأخرىٰ.

فلَفْظُ «يَوْمَ» مفْعُولٌ فيه لفِعْلٍ محذوفٍ تَقْديره: «اذْكُر» أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِك.

اللَّقْطة الثانية: دَلَّ عليها قول اللهِ عزّ وجَلّ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ من حَشْرِهِمْ جَمِيعاً نَنْقُلُ غَيْرَ الْمُشْرِكينَ وشُرَكائِهِمْ إلى مَكَانٍ آخر، ونَقُولُ للَّذِينَ أشْرَكُوا: الْزَمُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ.

لفظ «مَكَانَكُمْ» منْصُوبٌ بفِعْلٍ مطوِيٍّ تقدِيرُه: «الْزَمُوا» ومثل هذا شائِعٌ في كلام العرب.

اللَّقْطَةُ الثالثة: دَلَّ عليها قول اللهِ عزّ وَجَلّ: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: أي: فَفَصَلْنَا وَفَرَّقْنَا بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وشُرَكَائِهِمْ.

التَّزْيِيلُ: هو في اللُّغَةِ الْفَصْلُ والتَّفْرِيقُ بَيْنَ المختَلِطِين.

اللَّقْطَةُ الرابعة: دَلَّ عليها قَوْلُ الله عزّ وجل: ﴿.. وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨﴾:

تُشْعِرُ هذهِ العبارة بِأنَّ المشركين قالُوا لشركائِهِم، أنْقِذُونا من وَرْطَتِنا العظْمَى، فَقَدْ كُنَّا فِي الحياةِ الدُّنْيا نَعْبُدُكُمْ، ونَتَّخِذُكُمْ شُرَكَاءَ للهِ من دُونِه، ويُجِيبُهُم شرَكاؤهم بقولهم لَهُمْ: ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدون.

أفهم من هذا الحوار أنَّ آلِهَةَ المشركين الّذِينَ يُحْشَرُونَ مَعَهُمْ، بَشَرٌ أو مَلَائكَةٌ أَوْ جِنّ، وأَنَّ الأَوْثَانَ كَانَتْ صُوراً أو رُمُوزاً لهم، وأَنَّهُمْ بعبادَةِ الصُّوَرِ والرُّمُوز كانوا يَعْبُدونَ في الحقِيقَةِ الأحياء، أو الّذِينَ كَانُوا أَحْيَاء وكانوا صُلَحاء، أو موهوبينَ قُوىً مُتَفَوِّقَة على نُظَرَائهم في حيواتهم، فعَبَدَهُمْ عابِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ الله، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ لَهُمْ قُوىً فَائِقَةً هي من عناصر رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ الخالق، واتَّخذُوا لَهُمْ صُوراً أَوْ رُمُوزاً، وتوهَّمُوا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بِعِبَادَتِهِمْ لهم، فيَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ مَا يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ، وقلَّدَتْهُمْ أجيالُهُمْ في ذلك.

لَكِنَّ مَعْبُودِيهِمْ كَانوا لَا يَشْعُرُونَ بِعِبَادَةِ عابديهم، والأَحْيَاءُ من الملائكةِ كانوا عَنْ عبادتِهِمْ غافِلينَ، وهذِهِ الْغَفْلَةُ هي أَحْسَنُ أحوالِ المعْبُودِين.

ولكِنْ ما مَعْنَىٰ قَوْلِ شُرَكَائِهِم لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُون؟!.

الَّذِي أَفْهَمُهُ مِنْ هَذا أَنَّ مَعْبُودِيهِمْ يَقُولُونَ لهم: إنّكُمْ مَا كُنْتُمْ في الحقيقَةِ تَعْبُدُونَنا، بَلْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَهْوَاءَكُمْ وشَهَوَاتِكُمْ وتَعْبُدُونَ الشيطان بطَاعَتِهِ فيما يأمُرُكُمْ بِهِ من فِعْلِ الشَّرّ، وفيمَا يَنْهاكُمْ عَنْهُ من الإيمان

الصّحيح باللهِ رَبّكُمْ وَبما أَمَرَكُم أَنْ تُؤْمِنُوا به، ومن فِعْلِ الصَّالحاتِ الَّتِي أَمَرَكُمْ رَبُّكُم بفِعْلِها، وَمِنْ عِبادَتِكُمْ للشَّيْطَانِ بطَاعَتِهِ طَاعَتُكُمْ لَهُ في اتّخَاذِنَا آلِهَةً مِنْ دُونِ الله، ونَحْنُ لا عِلْمَ لَنَا بِذَلِكَ ولَمْ نَأْمُرْكُمْ به.

وَيجادِلُ المشرِكُونَ شُرَكَاءَهُمْ، حِرْصاً مِنْهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَحْمِلَ شُرَكَاؤُهم مَعَهُمْ شَيْئاً من الْعَذَابِ الّذِي يَسْتَحِقُّهُ المشركون، وهُنَا تَأْتي اللّقْطَةُ الخامِسَةُ من المشهد.

اللّقْطَةُ الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ عزّ وَجلَّ: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فإنْ كُنْتُمْ أَيُّهَا المشْرِكُونَ لَا تُصَدِّقُونَنَا، فاللهُ يَشْهَدُ لَنَا بأَنَّنَا لَمْ نَدْعُكُمْ إلَى عِبادَتِنَا، وَلَمْ نَطْلُبْ مِنْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُونا آلِهَةً شُركاءَ للهِ من دُونه، ولَمْ يَكُنْ لَنَا عِلْمٌ بِأَنّكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ دون الله، وَأَدْنَىٰ أَحْوَالِنَا أَنَّنَا كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَنَا لَغَافِلِينَ، لَا نُدْرِكُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ في الحياة الدُّنْيا، لأَنَّنَا كُنَّا مُنْصَرِفِين انْصِرَافاً كُلِيّاً إلى ما نَحْنُ مَشْغُولُونَ بِهِ من أُمُورِنا.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: أي: فكَفَىٰ اللهُ، والباء مَزِيدَةٌ للتوكيد، ومعنى «كَفَى» أغْنَى.

﴿شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: أي: عالماً بِنا وَبِكُمْ عِلْمَ شُهُودٍ، فَهُوَ يَشْهَدُ لَنَا بِأَنّنا بُرَءَاءُ من دَعْوَتِكُمْ لعِبادَتِنا، وَيَشْهَدُ لَنَا بأَنّنا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ بأَنّكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنا، ولفظ ﴿شَهِيدًۢا﴾ تمييز.

﴿.. إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾: «إنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، واسْمُها ضمير الشأنِ واجب الحذف. واللام في: ﴿لَغَـٰفِلِينَ﴾ هي الفارقَةُ بَيْن «إنْ» المخفَّفَة من الثقيلة، وبين «إنْ» النافية.

اللّقطة السادسة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ .. ﴿٣٠﴾﴾:

أي: هُنَالِكَ في المكان البعيد وهو الْمَحْشَرُ، تَكْشِفُ كُلَّ نَفْسٍ كانت مَوْضُوعَةً في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، مَا أَسْلَفَتْ من كِسْبٍ نَفْسِيٍّ أَوْ جَسَدِيّ.

﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾: أي: مَا سَبَقَ أَنْ عَمِلَتْ في الحياة الدُّنْيَا في رحلة امتحانها.

وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**تتْلُو**] أي: تَتْبَعُ، وقَدْ يَكُونُ المرادُ تَتَبُّعَهَا في كتابِ أَعْمَالِها مَا سَبَقَ في رَحْلَة امْتِحَانِهَا أَنْ عَمِلَتْ في الحياةِ الدُّنيا، وهذا التَّتَبُّعُ يُؤَدِّي إلى الكشْفِ الّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ قراءة: ﴿تَبۡلُواْ﴾.

اللّقطة السَّابعة: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجل: ﴿.. وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾:

أي: وبَعْدَ الحشْرِ والْفَصْلِ بَيْنَ المشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهم، وكَشْفِ الَّذِينَ كَسَبُوا السّيِّئَاتِ مُفْرَداتِ سَيِّئاتِهِم في صُحُفِ أعْمَالِهِمْ، يُرَدُّونَ إلى مَوْقِفِ مُحَاسَبَتِهِمْ، والقضاء بشأْنِهم في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة، وحينئذٍ يَجِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ ضَاعَ مِنْهُمْ كُلُّ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ من باطِلٍ بِشِرْكِيَّاتِهِمْ وَلَوازِمِهَا في السُّلُوك النفسيّ والجسَدِيّ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الثامن من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (يونس)

الآيات من (٣١ ـ ٣٦)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا

تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ
﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلۡ هَلۡ
مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ
﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى
ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا
يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا
يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

القراءات:

(٣١) • قرأ ٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عامِرٍ، وشُعْبَةُ: **[الْمَيْت]** بإسكان الياء دون تشديد في الموضعَيْن. وقرأهُما باقي القراء العشرة بتشديد الياء مكْسُورة، وهما لُغتانِ متكافئتَان للكلمة.

(٣٣) • قرأ نافع وابْنُ عَامِرٍ، وأبُو جَعْفَر: **[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** بالجمعِ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالإفراد.

ومؤدّى القراءتَيْن واحد، فالمفرد المضاف إلى المعرفة يَعُمّ فهو كالجمع.

(٣٥) • في: ﴿لَّا يَهِدِّيٓ﴾ وُجُوهٌ من القراءات سبَق بيانُها في حاشية نَصِّ السُّورَة، ومعظمها وُجُوهُ من الأداء، مع بعض اختلافٍ تكامليّ في أداء المعنى المراد بَيْنَ «يَهْدِي» و«يَهْتَدِي» وهو ظاهر.

تَمْهيد:

في هذه الآيات تَعْلِيمٌ من اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُوله ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمّتِهِ، فِقَراتٍ جِدَالِيَّةً للمشْرِكين، حَوْلَ تفصيلاتٍ منْ رُبُوبِيَّةِ اللهِ

لكَوْنِه، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا شَرِيكَ له في رُبوبيّتِه، باعْتِبَارِ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ للهِ يَلْزَمُ عَنْهُ عَقْلاً لُزُوماً مُباشراً توحِيدُ الإِلٰهِيَّةِ له، إذ الإِلٰهِيَّةُ حَقُّ مَنْ هُوَ رَبٌّ، ولا إِلٰهِيَّة بِبُرْهَانِ الْعَقْلِ إِلَّا لِمَنْ هُوَ الرَّبُّ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، أو لِمَنْ يَأْمُرُ هُوَ بِعِبادَتِهِ، ولكِنَّ اللهَ عزّ وجلّ مع بُرْهَانِ الْعَقْل نَهَىٰ عَنْ عِبادَةِ غَيْرِه، وَجَعَلَ عِبادَةَ غَيْرِهِ إِشْراكاً بِهِ، وكُفْراً لَا يَغْفِرُهُ، مع احْتِمَال أَنْ يَغْفِرَ مَا دُونَهُ مِنَ المعاصِي لِمَنْ يَشاء.

وفي هذه الآيات مُتَابَعَةٌ لِمَا جاءَ في الدرس الخامس من دُروس سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهو الآية (١٢) منها.

وقد سبق أن عرفْنَا أَنَّ سُورَة (يونس/ ٥١ نزول) قَد اشْتَمَلَت على مُتَابَعَات فيها إِضافاتٌ وشَرْحٌ وَتَفْصِيلٌ لقضايا اشْتَمَلَتْ عليها سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) فكَأَنَّها امْتِدَادٌ لها.

التدبّر التحليلي:

قول الله تَعالى لِرَسُولِه فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ مُعَلِّماً فقراتٍ جداليَّة للمشركين:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أَنْكَرَ المشرِكُون المعنيُّونَ بالمعالجةِ في مَسِيرَةِ الدَّعْوَةِ المكيَّة أَنْ يكُونَ اللهُ هُو الرَّحْمٰن، أي: أَنْكَرُوا اتّصافَهُ بالرَّحْمَةِ، وإنكارُهُم رَحْمَتَهُ يَتَضَمَّنُ إِنْكَارَهُم أَنْ يَكُونَ رَازِقاً، فَهُمْ يَلْتَمِسُونَ أَرْزَاقَهُمْ مِنْ آلِهَتِهِمْ ومن عباداتِهم لها، إذْ يَجْعَلُونَ مع اللهِ شُرَكَاءَ أَرْبَاباً، فِي بَعْضِ عناصِرِ الرُّبُوبيَّة ومِنْها الرِّزْق، أمّا خَلْقُ السَّمَاواتِ والأرض، فيؤْمِنُونَ بأنَّه للهِ وحْدَه، لا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ في هذِهِ الرُّبُوبيَّة.

وقَدْ سَبَقَ في سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) في الآيتَيْن (٦١ و٦٢) بَيَانُ ما يَدُلُّ على أنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ رَحْمَانٌ ورَحِيمٌ بِعِبادِه، كما ظَهر لدى تَدَبُّرِهِما في مَوْضِعِهما.

ويعالج الجِدَالُ هُنَا إثْبَاتَ رُبُوبيَّةِ اللهِ في الرِّزْقِ بِصُورَةٍ صَرِيحة، وإثْبَاتَ رُبُوبيَّةِ اللهِ في أنَّهُ هُو وَحْدَهُ الَّذِي يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ مَنْحاً وسَلْباً، وفي أنَّهُ هو وَحْدَهُ الَّذي يُخرِجُ الْحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الْحَيّ، وفي أنَّهُ هُو وَحْدَهُ الَّذِي يُدَبِّرَ الأَمْرَ كُلَّهُ في الأكْوانِ مِنْ أقْرب كائنٍ إلَيْنَا إلى أبْعَدِ كائِنٍ مَخْلُوقٍ في الوجُودِ كُلّه، فَهِيَ أَرْبَعُ قَضَايَا يُثِيرُ المناظر المحَاوِرُ المؤمِنُ الدَّاعِي إلَى اللهِ جِدَالاً حَوْلَها بالَّتِي هي أحْسَنُ مع المشركين، ويُقَدِّمُ مُنَاظَرَتَهُ بأسْلُوب طَرْح السُّؤَال لاستخراج ما عند المشركِ من إجابَةٍ حوْلَ سُؤَالِهِ، فإنِ ادَّعَىٰ أنَّ الآلِهَةَ الَّتِي يَعْبُدُها مِنْ دُونِ الله هي الّتي تَرْزُق، وهي الّتي تَمْلِكُ السَّمْعَ والأبْصار، وهي الّتي تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتَخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الْحَيّ، وهي الّتي تُدبِّر أَمْرَ الكَوْنَ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لادِّعَاءٍ يَكُونُ هُو الخَاسِرَ المغْلُوبَ لَدَى مُنَاظَرَتِهِ حَوْلَها، إذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدْ جواباً يَدَّعِيهِ فقَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ بِسَمَاعِ بَرَاهِينِ الدَّاعِي إلَى اللهِ، ثُمَّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الاعْتِرَافِ بالْحَقِّ إذا قَامَتْ عَلَيْهِ الحجَّةُ الْبُرْهَانِيَّة، فإنَّهُ سيقول: إنَّ الرَّبَّ الّذِي يَفْعَلُ ويَمْلِكُ كُلَّ ذَلِكَ هُوَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانه، وعندئذٍ يَصِلُ الداعي إلى اللهِ إلَى مَا يَرُومُ مِن الإقناع بالحق، ويَتَسنَّىٰ له أَنْ يَقُولَ للّذِينَ يُنَاظِرُهم من المشركين: كَيْفَ تَعْبُدُونَ من دُونِ اللهِ رَبِّكُمْ مَنْ لَيْسَ له من الرُّبوبيَّةِ شيءٌ، أفَلَا تخافُونَ من عقاب اللهِ لَكُمْ في دَارِ العذاب النَّار يوْمَ الدّين، فَتَتَّقُونَ ذَلِكَ بنَبْذِ الشّرْكِ كُلِّه، وبالإيمان بأنَّ الله واحِدٌ في رُبوبيّته وواحدٌ في إِلَهِيَّتِه.

- **فالْحِوارُ حَوْلَ القضيّة الأولى**: أَعْطَىٰ اللهُ عزّ وجلَّ مِفْتَاحَهُ بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴿٣١﴾﴾؟.

من المعْلُومِ المشاهَدِ أنَّ رِزْقَ الأَحْيَاءِ كُلّها مُرْتَبِطٌ بِمَا تُنْبتُ الأرض، ومَا تُنْبِتُ الأَرْضُ لَا يَكُونُ بحَسَبِ أنْظِمَةِ الكَوْنِ السَبَبِيَّةِ إلَّا بالماء وحَرَارَة ضِياء الشَّمْس، والماء الصالِحُ لإنْبَاتِ الزُّرُوع وسُقْيَا الأحْيَاء يَنْزِلُ مطراً مِنَ السَّحَاب، وأمْرُ تَبَخُّرِه بالْحرارة وتجميعهِ سُحُباً وإِنْزَالِهِ مطَراً خَاضِعٌ لِرَبٍّ واحِدٍ مُهَيْمِنٍ عَلَى الكون.

فَهَلْ يَدَّعِي أحَدٌ مِنَ المشْرِكِينَ أنَّ إنبات الزُّرُوع في الأَرْضِ ومَدَّ الأرْضِ بحرارة الشَّمْسِ الَّتِي هي في السَّمَاءِ، وإنْزَالَ المطرِ مِنَ السَّحَابِ بَعْدَ تَبْخِيْرِهِ وجَعْلِهِ غَمَاماً هو من صُنْعِ آلِهتِهِمُ الَّتي يَعْبُدونَها مِنْ دُونِ اللهِ؟.

إنّ عقائد المشركين في آلِهتِهِمْ لَمْ تكُنْ تَصِلُ إلى هذا الادّعاء، فَلَا سَبِيلَ لَهُمْ بَعْدَ حِوارٍ جَدَلِيٍّ بالّتِي هِيَ أحْسَنُ إلّا أنْ يُفْحَمُوا، فَلا يَحيروا جواباً، أو أَنْ يَعْتَرِفُوا بأنّ اللهَ هو الرّبُّ الّذِي يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْض، ولكِنَّ هذا الاعْتِرافَ لَا يأتي عَقِبَ السؤال مباشَرَة، بل بَعْدَ فِقراتِ حوارٍ جَدَلي يطُول أو يقصر.

والتعبير الملائم لزَمَنِ اعترافهم هو: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: هو الله.

- **والحِوارُ حَوْل الْقَضِيَّة الثّانِيَة:** أعطى اللهُ عزّ وجَلَّ مفتاحَهُ بِقَوْله تعالى: ﴿.. أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ .. ﴿٣١﴾﴾؟

[السمع]: مَصْدَرُ «سَمِعَ يَسْمَعُ سَمْعاً» فالمراد به هنَا الحدَثُ وَهُوَ سَمْعُ الأَصْوَاتِ وإدْرَاكُها في مَنَاطِقِ إدْرَاكِها في الدّماغ.

الأَبْصارُ: جَمْعُ «الْبَصَر» والمرادُ به أداةُ الإِبْصَارِ، ولِهَذَا جاء مَجْمُوعاً لِيَعُمَّ كُلَّ عُيُونِ الْمُبْصِرين.

وبالتأمُّل نقيس على «السَّمْعِ» الّذِي هو الحدَث «الْبَصَرَ» الّذي هو الحدَثُ أيضاً، ونَقِيسُ على «الأبْصَارِ» الّتي هي الْعُيُونُ أدَواتُ الإبْصار «الآذَانَ» الّتِي هي أدوات تَوْصِيلِ الأصوات إلى مراكز السَّمْعِ فِي الدِّماغ،

فيكُونُ المعنَىٰ: أمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأسْمَاعَ، والْبَصَرَ والأَبْصَار، وقد اكْتَفَى النَّصُّ بمَلْفُوظِهِ بواحِدٍ من الحدَثِ والأَدَاة، اعْتِمَاداً على الفِكْرِ القياسِيّ الّذِي يَسْتَخْرِجُ المطْوِيّ بالقِياس، وهذا من الإيجاز الذي له نظائر كثيرة في القرآن.

«أم» من عبارة [أَمَّنْ] هي «أم» المنْقَطِعَة، وهي بمَعْنَى «بَلْ» مع استفهام مُسْتَأْنَف، وفي «أَمْ» هنا مَعْنَى الإضراب الانتقالي، من استفهام سابِقٍ عن الرّزْقِ، إلى استِفْهَام عَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأسْمَاع، والْبَصَرَ والأَبْصَار.

والمرادُ بِمَلْكِهَا مَلْكُ إيجادِها ابْتِدَاءً، وإمْدَادِها بالبقاء إلى آجالِها، وسَلْبِهَا إذا اقتضَتْ حِكْمَةُ مَانِحِها سَلْبَها، وكُلِّ تَغْيِيرٍ فيها زيادَةً وَنَقْصاً في ذَواتِها وصِفَاتها.

إنَّ المتفكِّر المتأمِّلَ لَا بُدَّ أَنْ يُدْرِك أَنَّ السَّمْعَ والأَسْمَاع، والْبَصَرَ والأَبْصَارَ لَا يَمْلِكُ ما سَبَقَ بيانُهُ بِشَأْنِها إلَّا رَبُّ السَّمَاواتِ والأَرْضِ، خالِقُ كُلِّ شيءٍ ومُتْقِنُ كُلِّ شيءٍ صُنْعاً، ولا أحدَ مِنْ آلِهَةِ المشرِكين يَمْلِكُ مِنْ ذَلِكَ شيئاً، وكذلِكَ سَائِرُ المخلُوقين.

أمّا رِجالُ البَحْث الْعِلْمِيّ الَّذِينَ دَرَسُوا خَصَائِصَ وصفاتِ السَّمْعِ والأَسْمَاع، والْبصَرِ والأَبْصَارِ، فَمُنْصِفُوهُمْ يَشْهَدُون أَنَّهُ لَا رَبَّ إلَّا الله، فَلا إِلَهَ إِلَّا هو.

ولـمّا كان مِلْكُ السَّمْعِ والأَسْمَاعِ والْبَصَرِ والأَبْصارِ بِحَسَبِ الْمَفْهُومِ السَّابِقِ، لَمْ يَكُنِ المشركُونَ يَعْتَقِدُونَهُ لآلِهَتِهِم فلا سبيل لَهُمْ بَعْدَ حِوارٍ جَدَلِيٍّ بالَّتي هِيَ أحْسَن، إلَّا أنْ يُفْحَمُوا فَلَا يحيروا جواباً، أو أَنْ يَعْتَرِفُوا بأَنَّ الله هُوَ الرَّبُّ الّذِي يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَسْمَاعَ والْبَصَر والأَبصار، ولَكِنَّ هذا الاعْتِرافَ لَا يأتي عَقِبَ السؤال مباشَرَةَ، بَلْ بَعْدَ حِوارٍ جدَلِيّ يَطُولُ أو يَقْصُرُ.

والتعبير الملائم لزمن اعترافهم هو: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: هو الله.

- **والحِوارُ حَوْلَ القضيَّة الثالِثَة**: أعطىٰ اللهُ عزّ وجل مفتاحَهُ بقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿. . وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ . . ﴿٣١﴾﴾؟:

- إنَّ إخراجَ الْحَيّ من الميّت لَهُ ظَوَاهِرُ في الكَوْنِ كثيرة جدّاً:

(١) فالحياة النباتِيَّة تَكُونُ من الْبُزُور الّتي لَا حَيَاةَ فِيها، فإذا أَحَاطَ بِهَا الماءُ في تُرْبَةٍ صَالِحَةٍ للإمْدَادِ بالعناصر الغذائيَّةِ الصالحَةِ لإنباتِ الزُّرُوع، دَبَتِ الحياةُ النباتيَّة فيها، وأخَذَتْ تَنْمُو حتَّىٰ تَتَحوَّلَ الأَرْضُ من أَرْضٍ جَرْدَاءَ إلَى أَرْضٍ خَضِرَةٍ نَضِرَةٍ مُزْهِرَةٍ مُثْمِرَةٍ، بما ظهر فيها من حياة نباتيَّةٍ بَهِيجَة.

(٢) والحياة الحيوانيَّةُ تَكُونُ من الأَغْذِيَةِ الَّتي لَا حَيَاةَ فيها، وَبخَلْقِ اللهِ لها في الأَجْسَادِ الحَيَّةِ تَكُونُ مِنْهَا نُطَفٌ تَحْتَوي علَى كائِنَاتٍ صُغْرَىٰ ذَاتِ حَيَاةٍ، ومِنْ بَعْضِها تَنْعَقِدُ الأَجِنَّة، ثُمَّ تَخْرُجُ أحياءٌ مُخْتَلِفَة الأَشْكَالِ والصِّفَاتِ والمقاديرِ والخصائِص، وتَنْتَشِرُ في الكَوْنِ أَحْيَاءٌ لَا يُحْصِي أعدادَها إلَّا رَبُّها الخالِقُ لها، وإيجادُها هو مِنْ أَمْثِلَةِ إخْرَاجِ الحيِّ من المَيّت.

وكانُوا يُمَثِّلُونَ بإخْرَاج فِراخ الطَّيْرِ والحشراتِ من بُيُوضها، وهذا مِنْ تَقْرِيب الأَمْثِلَةِ للعامّة.

والمُتفكِّرُ في الكَوْنِ يَجِدُ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ في الْوُجُودِ قَدْ أَخْرَجَهُ اللهُ من مَيّتٍ لا حياة فيه، وهذا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يفْعَله، إذْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ في كَوْنِهِ أسْباباً لإخراج الحيِّ من الميّت، والقرار النهائي لعلماء الأحياء أنَّ الحياة لَا تَكُونُ إلَّا اشْتقاقاً مِنَ الأحياء السابقة، وتناسلاً مِنها، أمّا تَحْويلُ المادّةِ الَّتي لا حياة فيها إلى خَلِيَّة ذَاتِ حياة، أو مَخْلُوقٍ حَيّ، فَهُو أمْرٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْه إلَّا اللهُ رَبّ السماواتِ والأرضِ، جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

- وإنَّ إخراج الميّتِ مِنَ الحيِّ لَهُ أيْضاً ظَوَاهِرُ كَوْنِيَّةٌ كَثِيرَة:

(١) يَقُولُ عُلَماءُ الكونيّات، إنَّ ثَلاثَة بلَايين خَلِيَّة تَمُوتُ في كُلِّ دَقِيقَةٍ دَاخِلَ جِسْمِ الإنْسَانِ الحيّ، وهذا من إخراج الميّتِ من الحيّ، وتَتَوَلَّدُ في الدَّقيقة نَفْسِهَا ثَلَاثَةُ بَلايين خَلِيَّة جَدِيدَة بالانْقِسَامِ الْخَلَوي، عِوَضاً عن الْخَلَايَا الميّتة.

ويَقُولون: إنَّ خَلَايَا الجِلْدِ الميّتَةَ تَتَقَشّر، بَيْنَما تَمُرُّ الخَلَايَا الميّتة مِنْ خَلَايا الأعْضَاءِ الدَّاخِلِيَّةِ إلَىٰ خَارِجِ الْجِسْمِ مع الْفَضَلات.

(٢) وفي المُشَاهدات الدائمة نُشَاهِدُ بأبْصَارِنا الأحياءَ تَمُوتُ إذا جاءَتْ آجال مَوْتها، فيَتَحَوَّلُ الْجِسْمُ الْحَيُّ إلَى جِسْمٍ مَيِّتٍ لا حياة لَهُ بأَقَلَّ مِنْ ثَانِيَة، وهَذَا مِنْ أمْثِلَةِ إخراجِ الميّتِ من الحيّ.

ويخرجُ المِسْكُ الَّذِي لَا حياة فيه، من غُدَّةٍ مِنْ غُدَدِ غَزَالِ المسْكِ الذَّكر، وتَقَعُ هذِهِ الغُدَّة تَحْتَ جِلْدِ بطْنِ هذا الغزال.

ويَخْرُجُ العَنْبر من حوت يُعْرف باسم «حُوتِ العنبر».

ويَخْرُجُ اللّبَنُ (الحليب) من الحيواناتِ الإنَاثِ اللّبُون.

وكلُّ ذَلِكَ من إخراج الميّتِ من الحيّ، والفاعل لذلِكَ والقادر عليه رَبُّ السَّمَاواتِ والأرض.

ولم يَكُنِ المشركُونَ يَعْتَقِدُونَ أنَّ هذِهِ الإخراجَاتِ من فِعْلِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدونَها مِنْ دُونِ الله ولكنّهم قَدْ يعْتَقِدونَ أنّها ظواهر طبيعية، أو أن لآلِهَتِهِمْ تأثيراً فيها.

ويكونُ حَالُهُمْ مع هذا السؤال كحالِهِم مع السُّؤالَيْن الأوّل والثاني.

والتعبير الملائم لزَمَنِ اعْتَرافِهِمْ بأنَّ الله هُو الذي يُخْرِجُ الحيَّ من الميّتِ، وهو الّذي يُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الْحيّ، إذا اعْتَرفوا، هو: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: هُو الله.

● **والحِوَارُ حَوْلَ القضية الرابعة:** أعطىٰ اللهُ عزّ وجلّ مِفْتاحه بقَوْله تَعَالى: ﴿.. وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ .. (٣١)﴾:

هذا السُّؤالُ يَتعلَّقُ بتَدْبير أمْرِ الكَوْنِ كُلِّهِ أَرْضِهِ وسَمَواته، وهذا التدبير يَشْمَلُ قَضاء اللهِ وقَدَرَهُ لكُلِّ شيء، ويَشْمَلُ تصارِيفَهُ لحركاتِ وتَغيُّرَاتِ كُلِّ صَغِير وكَبيرٍ فيه.

إنَّ مُراقبة التَّدْبيرِ المتعَلّقِ بجُزْءٍ صَغِيرٍ من أجْزَاءِ أَجْسَادِنَا، كالْعَيْنِ، أوِ الأُذُنِ، أو الْقَلْب، أو الكَبِدِ، أو جانِبٍ من الدّماغ، يُذْهِلُنَا، ويَجْعَلُ أهْلَ الإنْصافِ يُؤْمِنُونَ فَوْراً بأنَ تَدْبيرَاتِ الكَوْنِ لَا تَكُونُ إلَّا مِنَ اللهِ الرَّبّ الخالِقِ الذي بيَدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير.

وهذا التَّدْبير الشَّاملُ لِلْكَوْنِ لَا يَدَّعِيهِ المشركون لآلِهَتِهِم الّتي يَعْبُدُونَها من دُون الله، إلَّا أنَّهُمْ قَدْ يَتفكَّرُون حتَّى يُدْرِكُوه، ويُدْرِكُوا عظمَتَهُ، ويُدْرِكوا عَجْز غَيْرِ الله الرَّب عَنِ الْقِيَام به، والمنْصِفُون مِنْهم يقولُون بَعْدَ حوارٍ جدليّ يَطُول أو يَقْصُر، لا يُدَبّر أمْرَ الكَوْنِ كُلّه إلّا اللهُ الرَّبُّ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

فالتعبير الملائم لزَمَن اعترافهم بأنّ اللهَ هو الذي يُدبر الأمر إذَا اعْتَرَفُوا هو: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: هو الله.

ولِكُلِّ مَا سَبَقَ جاء التعقيب الرَّبّاني في آخر بيان مفاتيح الحوار الّجَدَليّ ذي المراحِلِ الأَرْبع، بقول الله عزّ وجل:

[فَسَيقُولُونَ الله] وهُنَا يُعلّمُ اللهُ عزّ وجلّ الدَّاعِي أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكين الْمُصِرِّينَ على عَقِيدَتِهِم الشِّرْكيّة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟! أي: أفَتُصِرُّون عَلَىٰ مَوْقِفِكُم الْبَاطِلِ الذي لا حُجَّة لَكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ يوم القيامَة، فَلَا تَجْعَلُونَ بَيْنَكُمْ وَبيْنَ عَذَابِ رَبّكُمُ الأبديّ، وِقَايَةً تَقِيكُمْ، وهذِهِ الوِقَايَة سَهْلَةٌ عليكم، إنَّها تكُونَ بأن تَنبِذُوا عقائِدكُم الشركيَّة، وتُؤْمِنُوا بأنَّهُ لَا رَبَّ في الوجود كلِّهِ إلَّا الله، فلا إِلَهَ إلَّا هو وحْدَه لَا شريكَ له.

قول الله عزّ وجل:

● ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

فَصَلَ الله عزّ وجَلّ بهاتَيْنِ الآيَتَيْن المرحلة الأولى من مراحل التعليم الجدلي عن التالية لها: أمّا الآية الأولىٰ منهما فَمُوَجَّهَةٌ للمشْركين المقْصُودينَ بالمعالَجَةِ الإقناعيّة والترهيبيّة - وأمَّا الآيَةُ الثانيَةُ مِنْهُما فَمُوجَّهَةٌ لكُلّ صَالحٍ للخطاب ببيانٍ رَبّاني.

وبَعْدَهُمَا يأتي تَعْلِيمٌ حِواريٌّ جَدَلِيٌّ لِمَجْلِسٍ حواريٍّ جَدَلِيّ آخَرَ، يَدُورَ الحِوَارُ الجداليُّ فيه حول آلِهَةِ المشركين التي يَعْبُدونها من دُونِ الله رَبّ السماواتِ والأرضِ وربّ كُلِّ شيء.

● ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ أي: العَظِيمُ الْجَلِيلُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى الّذي يَرْزُقُكُمْ من السَّمَاءِ والأرض، ويَمْلِكُ السَّمْعَ والْأَسْمَاع، والْبَصَرَ والْأَبْصَار، ويُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ المِيّتِ، ويُخْرِجُ الْمَيّتَ مِنَ الْحَيّ، ويُدَبّرُ كُلَّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الكَوْن تَقْدِيراً وقضاءً، وَتَصارِيفَ مَعَ وَحَداتِ الزّمَنِ الصُّغْرىٰ، واللّحَظَاتِ والآنات.

● ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الَّذِي يَجِبُ عليكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِأَنَّهُ الرَّبُّ الأَحَدُ في كَوْنِه، استدلَالاً من آيات رُبُوبيّته في كُلِّ شَيْءٍ، وأَنْ تُؤْمِنُوا بأنَّه هو وَحْدَهُ المسْتَحِقُّ للعبادَة بمُقْتَضىٰ تَفَرُّدِهِ في الرُّبوبيَّةِ، فلَا تَعْبُدوا مِنْ دُونه أحداً، إذْ لَا إلَه في الوجود بحَقٍّ إلّا الله الّذي هو ربّكُمُ الْحَقّ.

● ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ...﴾؟ أي: فَمَا الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ مَوْقِعِ الْحَقِّ الّذِي هُوَ كُلُّ الحقّ في مَوْضُوعِهِ، إلّا الضَّلَالُ والضَّيَاعُ عَنْه، والباطِلُ المباينُ له مُبَايَنَةَ النَّقِيضِ للنّقِيضِ؟!.

«مَاذَا» استفهامٌ مُمْتَزِجٌ باسْم الموصول «ذَا».

وجواب هذا الاستفهام: لَيسَ بَعْدَ الحقِّ الذي هو كُلُّ الحقّ في موضوعه إلَّا الضلالُ والضَّياعُ والباطِلُ المباينُ لَهُ مُبَايَنَةَ النقيض للنقيض.

هنا يأتي تَوْبِيخُ المشركين على انْصِرافِهِمْ عَنْ هٰذا الحقِّ العظيم المتعلِّق بربِّهِمْ وهذا الانْصِرَافُ يَجُرُّهُمْ على وُجُوهِهِم إلى الخُلُودِ في عذاب النار فقال الله تعالى لهم: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾؟ أي: فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ هذا الحقِّ الجليِّ الواضحِ بِبَرَاهِينِهِ، إلى مذاهِب الشِّرْكِ بالله الَّتِي قامَتِ البراهينُ علىٰ بُطْلانِها، وأنَّها ضَلَالٌ مُبِين؟

«أنَّىٰ» هُنَا اسْتِفْهامِيَّةٌ بمعْنَىٰ «كَيْفَ»؟

تُصْرَفُون: أي: تُرَدُّونَ وَتُبْعَدُون، والْمُرَادُ رَدُّهُمْ وإبْعَادُهُمْ عن الأخْذِ بالحقِّ المتعَلِّقِ بِرَبِّهِم، والإلْتِزَام به.

وجاء الفِعْلُ مَبْنِيّاً لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ للإشعار بأَنَّ أصْلَ فِطْرَتِهِمْ أنْ يُؤْمِنُوا بالحقّ ويَلْتَزِمُوا به، فَكَيْفَ اسْتَجابُوا لِما يَصْرِفُهُمْ عَنْهُ وَهُوَ يُتابعُ تأثِيرَهُ فِيهِم آناً فآنا؟

لَدَىٰ تَحلِيلِ طبائع النُّفُوسِ نُلَاحِظُ أنَّ الصّارفَ لِهم عن هذا الحقِّ العظيم المبين عَوَامِلُ من دَاخِلِ نُفُوسِهُمْ هي الأَهْوَاءُ، والشَّهوات، ورَغباتُ الْفُجُورِ، والتَّقَالِيدُ العَمْيَاء، وعوامِلُ خارِجيَّةٌ تُؤَثِّرُ فِيهِمْ بالتَّزيين والتّحْسِين مِنْ وَسَاوِسِ شياطين الجنّ والإنْس، وإطماعاتهم التَّسويليَّة بالْبَاطِل، الَّتِي تُحَبِّبُ لَهُمْ التعلُّقَ بالْعَاجِلَةِ وَتَرْكَ الآخِرَة، مع الزُّيُوفِ الفكْرِيَّةِ الَّتي يَصْطَنِعُهَا حَمَلَةُ أَلْوِيَةِ الضَّلَالِ في الأرضِ، ويُقَدِّمُونَها بزُخْرُفٍ مِنَ الْقَوْلِ القائم على المغالطاتِ وسَتْرِ مَوَاقِعِ الحقّ بالأكاذيب والظُّلُماتِ وأنواع الغشاوات المُزَيَّنَاتِ بالألْوانِ والأَصْبَاغ الزّاهيات، ولَيْسَ فيها من الحقّ شيْء.

وتَوجَّهَ الله عزّ وجلَّ بَعْدَ مُخاطَبَتِه للمشركين مخاطَبَةً تَثْرِيبيَّة وتوبيخيّة، لِكُلِّ صالحٍ للخطاب ذي فِكْرٍ بأسْلُوب الْخِطَاب الإفرادِيّ، لتحْمِيلِهِ مَسْؤُولِيَّة تَدبُّر الخطاب، فقال تعالى له:

- ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

- ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: أي: ثبتَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أيُّها المتلَقِّي المتفكِّرُ الرَّشيد، بمُقْتَضىٰ سُنَنِه السَّبَبِيَّة.

- ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾: أي: عَلَىٰ الّذين خَرَجُوا بإراداتٍ جازماتٍ، وعِنَادٍ بِحُمْقٍ وإصْرَارٍ على الباطل، عَنْ كُلّ مَا تقتضيه براهينُ الحقّ، ومواعِظُ الترغيب والترهيب.

- ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: أَنَّهُم لَنْ يُؤْمِنُوا مستَقْبلاً، مَهْمَا أُمْهِلُوا، ومَهْما قُدِّمَتْ لَهُمْ من أدِلَّةٍ بُرْهَانيَّةٍ، ومَوَاعِظَ تَرْغيبَّةٍ وتَرهِيبيَّة، إذْ مَا سَبَقَ أَنْ قُدِّمَ لَهُمْ كافٍ لاستجابَةِ مَنْ لَدَيْهِ أَقَلُّ مِقْدارٍ مِنَ الاستِعْداد لِقَبُول الحقِّ واتّباعِه ولو بنِسْبَةٍ دُنْيا.

فالمعنى: كذَلِكَ الحقّ الَّذي دَلَّتْ عليه آياتٌ من آياتِ الله في كَوْنِه، مِن أنَّهُ لا رَبَّ في الْوُجودِ إلَّا الله، فَلا إلَه إلَّا هُو، حَقَّتْ وثَبَتَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ بمُقْتَضىٰ سُنَنِه السَّبَبيةِ في كَوْنِهِ، أنَّ الَّذين فَسقُوا خارِجين باراداتِهم الحرَّةِ، مُعَانِدِين، ومُصِرِّينَ علَىٰ الباطل، مَعَ عِلْمِهِمْ بأنَّهُ بَاطِلٌ، وبَعْدَ مَعْرِفَتِهِم الحقَّ بِبَرَاهِينه الْجَلِيَّة، وبَعْدَ تَرْغيبهم بِجنَّاتِ النَّعِيم، وتَرْهِيبِهِمْ من الْخُلُودِ في العذاب الأَلِيم، لَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلاً بأنَّهُ لا إلَه إلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوات والأرض، ولَنْ يُؤْمِنُوا بالدِّينِ الحقّ الذي جاءَهم به الرَّسُول بلاغاً عن رَبّهم، فَمَا سَبَقَ أَنْ عُولجوُا به من إقناع فِكْرِيّ بِبَرَاهِينَ جَلِيَّة، ومواعظ تَرْغِيبيَّةٍ وتَرْهِيبيَّة، يَكْفِي لاستجابَةِ مَنْ لَدَيْهِ أَقَلّ مِقْدارٍ من الاسْتِعْداد لِقَبُول الحقّ واتّباعِهِ، ولو بِنِسْبَةٍ دُنْيا تُنْجيهِ من الْخُلُودِ في عذاب النار.

والمعْنيُّونَ بهذا بَعْضُ أئمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة، الَّذِين ظَهَرَ فيما بَعْدُ أَنَّهُمْ مَاتُوا علَىٰ شِرْكِهِمْ، وتَكْذِيبهمْ رَسُولَ رَبّهم، إذْ كانت نُفُوسُهُمْ

مُوقِنَةٌ إلَّا أنَّهُمْ كانوا جاحِدِين الحقَّ مع عِلْمِهِمْ بأنّه حَقٌّ.

ويُفْهَمْ مِنْ هَذا تَوْجِيه الدَّاعي إلى اللهِ للإعْراض عن دَعْوَةِ هذا الصِّنْف المعاند المكابرِ بالباطل، وتوجيه الطاقات لمجاهدة الّذين لم يَنْقَطِعَ الأمَلُ من استجابَتِهم.

قول الله عزّ وجل:

- ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟:

تضمَّنَتْ هاتانِ الآيتان توجِيه الداعي إلى الله أنْ يَعْقِدَ مَجْلِسَ مناظرة مع المشركين، غَيْرَ المجْلِسَ السَّابِق الذي وَجَّهَتْ لِعَقْدِه الآيَة (٣١) من هذا الدَّرْس مِن دُرُوس السورة.

ومفتاحُ هٰذِه المناظَرَةِ سؤالُ الداعي إلى اللهِ المشركينَ عَنْ آلِهَتِهِمْ، هل يَسْتطيعُ واحِدٌ مِنْهُمْ أنْ يخلق شيئاً ثُمَّ يُعِيدَهُ إلى مِثْلِ مَا كانَ علَيْهِ بَعْدَ أَنْ يَفْنَىٰ، هَلْ يُوجَدُ واحِدٌ مِنْهُمْ يَهْدِي إلى الْحَقِّ ويَدُلُّ عَلَيْه.

والمراد بآلِهَةِ المشركين هُنَا الصُّوَرُ والرُّمُوزُ الوثنيَّةُ الَّتِي اتَّخَذُوها آلِهَةً يَعْبُدُونها منْ دُونِ الله.

- **فالسُّؤَالُ الأوَّل من أسْئِلَة هٰذِهِ المناظَرَة:** دَلَّ عليه قول اللهِ عزّ وجل: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ . .﴾؟.

أي: هلْ بعْضُ آلِهَتِكُمْ الَّتِي جعَلْتُمُوها شُرَكَاءَ للهِ في رُبُوبيّتِهِ، فاستحقَّت في تَوَهُّمِكُمْ أَنْ تَجْعَلُوهَا شُرَكَاءَ للهِ في إلَهِيَّتِه، مَنْ يَخْلُقُ خَلْقاً ما، ثُمَّ يُعِيدُه إلى مِثْلِ ما كانَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ يَفْنَىٰ؟؟.

إنَّ المشْرِكين لا يَسْتطيعُونَ أَنْ يَدَّعُوا أَنَّ بَعْضَ إلهَتِهِم الوثنيَّةِ تَفْعَلُ ذَلك، ولا بُدَّ أَنْ يَعْجِزُوا عَنْ الإجابَةِ بالإيجاب، مع اقترانِ إجابَتِهِمْ بدَليلِ الإثبات.

عندئذٍ يقول الدّاعي إلى الله مَا جاء في التعليم الرَّبّاني: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: أي: اللهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ العظيمة الْجَلِيلَةِ يَبْدأ خَلْقَ مَا يَشَاءُ من خَلْق، ثم هو قادر على أَنْ يُعِيدَهُ إلى مِثْلِ مَا كانَ عَلَيْهِ بَعْدَ فَنَائِهِ وَتفَتُّتِ أجْزَائِه.

قَد يقولُ المشركون: وَمَا الدَّلِيلُ علىٰ هذا الَّذِي تَدَّعيه أَيُّها الداعي إلى الله.

وهُنَا يَعْرِضُ الدَّاعي إلى اللهِ ظَاهِرَةَ إنْبَاتِ الزُّرُوعِ والْأَشجار، وإعادَتِها إلى مِثْلِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، ممَّا أَوْدَعَ الرَّبُّ الخَالِقُ في نَوَيَاتِ البزور الصُّغرىٰ «الجيناتِ» الوراثيَّةَ الَّتي تَنْمُو النباتاتُ على وَفْقِ خرائِطها، فَتَعُودُ إلى مِثْلِ ما كانت عَلَيْهِ بَعْدَ فَنَائِها بتَحطّمِها وَتَفَتُّتِ ذَرّاتها.

ولا بُدَّ أَنْ يَسْكُتَ المشْرِكُونَ الْعُقَلاءُ عَن الاعْتِرَاضِ على هذا الجواب، وعَنْدَئذٍ يَقُولُ لهم الدَّاعي إلى الله مَا جَاءَ في التَّعْلِيمِ الرَّباني: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ فَتُرَدُّونَ وَتُبْعَدُونَ عن الحقِّ المتعلّق بِرَبّكُمْ والالْتزَام به، وهُنا يأتي البَيَانُ الَّذِي سبَقَ آنفاً لدَىٰ تَدبُّر ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

● **والسُّؤال الثاني من أسْئِلَة هٰذِهِ المناظَرَة**: دَلَّ عَلَيْهِ قولُ الله عزّ وجلِ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ... ﴿٣٥﴾﴾؟؟: أي: هَـلْ بَعْـضُ آلِهَتِكُمُ الْوَثَنِيَّة الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا شَرَكَاءَ للهِ في إلَهيَّته، مَنْ يَنْطِقُ أو يُبِينُ أو يَعْمَلُ عَملاً فَيهْدِي ببيَانِهِ أَوْ عَمَلِهِ لِلْحَقّ.

إنَّ أوْثَانَ المشركينَ لَا تُبِينُ شيئاً وَلَا تَدُلَّ عَلَىٰ شيءٍ حَقّاً كَانَ أَمْ

باطِلاً، وهُنَا يُلاحِظُ المتدبّر أنَّ الله عزّ وجلَّ ذَكَرَ في التَّعْلِيم الْهِدَايَةَ لِلْحَقِّ، للدَّلَالَة علَىٰ أنَّ العِنَايَةَ الرَّبَّانِيَّة في الْهِدَايَةِ مُوَجَّهَةٌ دَواماً لِلْحَقِّ، فلا يُقَدِّمُ اللهُ عزّ وجَلَّ من الاحْتِمالاَت إلَّا مَا هُوَ دَاخِلٌ في مجالاَتِ عنايَتِهِ جلَّ جلالُهُ وَسَمَتْ حكْمَتُه.

ولا بُدَّ أنْ يَسْكُتَ المشركون إذ لَا يَسْتَطيعُونَ أَنْ يَدَّعُوا أَنَّ أوثانهم تَهْدِي لشيء.

عندئِذٍ يقولُ الدَّاعي إلى الله ما جاء في التَّعْلِيم الرَّبَّاني: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّۗ . .﴾ فَمَا جَاءَ في كتابِهِ الْمُنزَّلِ، وعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِن الْهِدَايَةِ لِلْحَقِّ، واستعمل هنا حَرْف الجرّ اللّام، أمَّا بالنِّسْبَةِ إلى المشركين فاسْتُعْمِلَ حَرْف الجرّ «إلى» لإعْطائهم مُدَّةً أطْوَلَ وَإمكانياتٍ سَبَبيَّةً أكْثَرَ، وفي هذا تَعْجيزٌ أكْثَرُ لآلِهَتِهِم.

وبَعْدَ إثباتِ هٰذِهِ الحقيقة يَقُولُ الداعي إلىٰ الله للمشركين ما جاء في التعليم الرَّبَّاني: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟؟.

﴿لَّا يَهِدِّىٓ﴾: أي: لَا يَهْتَدِي. وكذلِكَ «لَا يَهَدِّي» بفتح الهاء. أي: أَفَمَنْ يَهْدِي إلَىٰ الْحَقِّ وهُوَ الله ورَسُولُهُ المبلّغ عَنْهُ أكْثَرُ بحُكْم الْعَقْلِ الرشيدِ استحقاقاً أَنْ يُتَّبَعَ، أمْ مَنْ لَا يَهْتَدِي لِشَيْءٍ إلَّا أَنْ تُخْلَقَ لَهُ الْهِدَايَة، أو تُصْنَعَ فِيهِ الْهِدايَةُ مِنْ قادِرٍ عليها، والمراد بالّذي لَا يهتَدِي آلِهَةُ المشْرِكينَ الوثَنِيَّة الّتِي يَتّبِعُونها ويَعْبُدُونها من دون الله.

وعُبِّرَ عنها بلفظ «مَنْ» الموضوع لذى الْعِلْم مخاطَبَةً للمشركين بحَسَب اعتقادهم في أوثانِهِم، مع ملاحظَةِ مَنْ تَرْمُزُ إليهم هٰذِهِ الأَوْثَانُ من ذوي حياةٍ وعِلْم.

وإذا كانَ حُكْمُ الْعَقْلِ الرَّشِيدِ يَفْرِضُ عَلَىٰ ذوي الْعَقْلِ والرُّشْدِ

اتِّبَاعَ اللهِ، وَمَا جَاءَ عن الله بلاغاً على لسَانِ رُسُوله، فأيّ شَيْءٍ هو لَكُمْ أيّهَا المشركون من حُجَّةٍ تَحْتَجُّونَ بِها عند رَبّكُمْ، في اتّباعِكُمْ أوثاناً لَا تَهْتَدِي إلى شيءٍ إلَّا أنْ تُهْدَىٰ؟ كَيْفَ تَحْكُمُونَ بِصِحّةِ اتّباعِها وقَدْ منَحكُمُ رَبُّكُمْ عُقُولاً تُفَكِّرُونَ بها، وتُدْرِكُونَ بِهَا الحقّ والباطل، والخير والشّر.

وهُنَا جاء التعليق الرَّبَّاني على ما أبانَ عزَّ وجلَّ في المناظَرةِ التعليميَّة بقَوْله تَعالى:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

في هذا التعليق الرَّبَّانيّ بيان ثلاثِ قضايَا:

القضيَّة الأولى: دلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجلَّ في الآية: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: أي: ومَا يتَّبعُ أكْثَر المشركين الَّذِينَ سبَقَ في الآيات تعْلِيم الداعي إلى اللهِ بَعْض طرائِقِ مُناظرَتِهم في شِرْكِيَّاتِهِمْ، إلَّا ظنّاً ضَعِيفاً توَهُّمِيّاً، لا يَصِحُّ الاعْتِمَادُ علَيْهِ في أيٍّ أمْرٍ من أمُور تَصرُّفاتِ الإنْسَان في حياته، مَهْمَا كانَ غَيْرَ ذِي قِيمَةٍ في نَفْسِهِ، فضلاً عن أن يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ في قَضِيَّةِ عُظْمَىٰ يُفْضِي بِهِ اعتمادُهُ علَيْها إلَىٰ الكُفْرِ بِرَبِّهِ، فإلَىٰ الْخُلُودِ في عذابِ النار يوم الدّين.

دلَّ تَنْكِيرُ كَلمةِ ﴿ظَنًّا﴾ على تحقير هذا النوْع من الظّنِّ وتَقْلِيل قيمَته، مع قَرينَة اليقينِ الْبرهانيِّ على توحيد الله في رُبوبيّته وإلَهيّته الذي سبق بيَانُ الْبُرْهانِ عَلَيْه في جَوْلَاتَ المناظرتين.

الظَّنُّ: في اللُّغةِ يُسْتَعْمَل فيما هُو دُونَ اليَقِينِ من الإدْراكِ الْمَعْرِفي، وتنازُلاً في الدَّرجاتِ حتَّىٰ دَرَجَةِ الظَّنِّ التَوهُّمِيِّ الدُّنْيا وتُعْطَىٰ كُلُّ دَرَجَةٍ من دَرَجاتِهِ بِحَسَبِ قِيمَتِها في مَنْحِ الْإدْراكَ الذِّهْنِيّ للفِكْرَةِ المقَدَّمَةِ بِهِ قُوَّةً وَضَعْفاً، ولَا يُقْبَلُ من الظَّنّ ما يُخَالِفُ الْيَقِينَ حَتْماً، ولَا يُقْبَلُ من الظَّنّ ما

يَتَرَدَّدُ بَيْنَ احْتِمَالَيْنِ مُتَكافِئَيْن، ولا ما هو ظنٌّ مَرْجُوح، وأدْنَىٰ الظُّنُونِ المرجُوحَةِ الظَّنونُ التَّوَهُّمِيَّة، كظُنُونِ المشركين في آلهتهم.

وقد اسْتَقْرَأْتُ اسْتِعْمالَاتِ الظَّنِّ ومُشْتقَّاتِه في الْقُرْآنِ المجيد، فوجَدْتُها كلَّها مُوافِقَةً لمعْنَىٰ الظّنِّ في اللُّغَةِ بحَسَبِ دَرَجاتِهِ قُوَّةً وضَعْفاً، وأنَّهُ لَا يَصِلُ إلىٰ دَرَجَةِ العلْم الْيَقينيّ حَتْماً على خلاف المشهور عند العلماء⁽¹⁾. أخذاً بظواهر بعض النصوص، الَّتي بدا لي بالتحلِيلِ أنَّ الظَّنَّ فيها ليس مستعملاً بمعنَىٰ اليقين، بل هو مستعمل فيما هو دونَهُ.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ في الآية: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾: أي: إنَّ الظَّنَّ الَّذي هو من هذا النوع من الظَّنِّ الّذي يَتّبِعُهُ المشْرِكُون، والّذي يَتْرُكُ البراهِينَ المثبتَةَ أنَّ الله واحِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّته وَلَا في آلِهيَّتِهِ، لَا يَكْفِي شيئاً مِنْ مطْلُوبِ الحقّ ولا سيمَا الحقُّ الرَّبَّانيُّ في قضايا الإيمان الكبرى، ذَاتِ الأدِلَّة الْبُرْهَانِيَّة الَّتي هِيَ في مُتَنَاوَلِ كلِّ ذي فِكْرٍ سليم.

فَعُموم العبارة هنا مُخَصَّصٌ بِقرائن السِّبَاقِ، إذ الموضوع يتَعلَّقُ بتوحيد رُبوبيَّةِ اللهِ وإلٰهِيَّتِهِ، وما يُناقِضُهُ من شركياتِ المشْرِكين.

لاَ يُغْنِي: أي: لا يكفي.

من الْحَقّ: أي: من مطْلُوب الحقِّ من الأدِلّة التي تُثْبِتُه.

وهذا لا يَتَنَافَىٰ مع وجوب الْعَمَلِ بالظّنِّ الرَّاجح حينَ لَا يُسْتَطاعُ الوصُولُ إلىٰ الْيَقين، وبناء على الظّنّ الرَّاجِح يجتَهِدُ المجتَهِدُونَ في استِنْبَاطِ أحكام الشريعة العمليّة، الّتي يتَوَصَّلُ إلَيْها الفُقَهاء المجتهدون.

---

(1) انظر القاعدة (١٦) من كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ» كلمة (الظن).

القضيّة الثالِثَة: دلّ عَلَيْها قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: إنَّ اللهَ عَلَيمٌ بما يفْعَلُ المشركُونَ وسَيُحَاسِبُهُمْ على كفْرِهِمْ وجَرَائمهم وَسيُجازِيهِمْ إذا ماتُوا على شِرْكهم بالْخُلُودِ في عذابِ النار، كما أبَانَ في نُصُوصِ كَثِيرَةٍ نَزَلَتْ قَبْلَ هٰذِهِ الآية في سُوَر القرآنِ المجيد.

عَلِيم: أي: بالِغُ علْمُهُ الاستغراقَ الشّامِلَ لكلّ صغيرة وكبيرة ممَّا يَفْعَلُونَ، إذْ هو ـ جلَّ جلالُهُ ـ مُحِيطٌ بكُلِّ شيءٍ علماً.

وبهذا تَمَّ تَدَبّر الدّرس التاسع من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحة ومَدَدِه وتوفيقه ومعونته.

* * *

(١٣)

التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس سورة (يونس) الآيات من (٣٧ ـ ٤١)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

القراءات:

(٣٩) • قرأ رُوَيس: [**يَأْتِيهُمْ**] بضَمّ هَاء الضمير، وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْر هٰذِهِ الهاء. وهما لغتان عَرَبيّتان.

تمهيد:

في هذا الدرس مُتَابَعَةٌ لمعالجة المكذبين بالقرآن، لإقناعِهِمْ بأنَّه مُنَزَّلٌ حَقّاً من عند الله عزّ وجلَّ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ إنْسٍ ولا جنّ.

وهذه المتابعة موصولة بالآيتَيْنِ الأولى والثانية من السورة، والآيات من (١٥ ـ ١٧) منها.

وموصولة بالآية (٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) والآيتين (٤٥ و٤٦) والآية (٧٣) والآية (٨٢) والآيتين (٨٨ و٨٩) والآيتين (١٠٥ و١٠٦) منها أيضاً.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

اشتملت الآية (٣٧) وهي الأولى في هذا الدرس على بيان خمس قضايا:

القضيّة الأولى: دلّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

العطف في أوّل هٰذه الجملة هو من قَبيلِ عَطْفِ الْقَضَايا بَعْضِهَا على

بَعْضٍ، دُون مُلَاحظةِ ترابُطٍ في الْجُزْئيَاتِ اللَّاتي تَشْتَمِلُ عَلَيْها، وهذا من الأساليب القرآنيَّة الّتِي نُلَاحِظُها في السُّور.

ولامُ الجحود بَعْدَ الكَوْنِ المنْفِيّ محذوفَةٌ لفظاً مُقَدَّرَةٌ ذِهْناً قبل ﴿أَن﴾ المصدريَّة النَّاصِبة.

المعنى: وَمَا كان هَذَا القرآنُ بصِفَاته الإعجازيَّةِ ذَا إمْكَانٍ لِأَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ الله، أي: لِأَنْ يُبْدِعَهُ أو يُؤَلِّفَهُ أَوْ يَقُولَهُ كُلُّ مَنْ هُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، إنْسٌ أَوْجِنٌّ أَوْ مَلَائِكَة، فادَّعَاءُ المشْركين أنَّ مُحمَّداً افْتراه علَىٰ رَبِّه، أي: صَنَعَهُ وزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ قَدْ أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ، ادّعَاءٌ ظَاهِرُ البُطْلانِ، لِأَنَّ الْقُرْآن لا يُمْكِنُ لِكُلِّ مَنْ هُمْ دُونَ اللهِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ بالنَّظَرِ إلى صِفَاتِهِ الْإعجازِيَّةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْها، والَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرُ اللهِ المحيط بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، الحكيم الخبير، أَنْ يصْطَنِعُوه أَوْ يَصْطَنِعُوا مِثْله.

الافتراء: اخْتِلَاقُ الكذِب واصْطِناعُهُ عن تَعَمُّد، والمرادُ هنا اصطناع القول، ونسبَتُهُ إلى غَيْرِ قَائله.

أمّا جوانب إعجاز القرآن فكثيرة، ذكر البلاغيّون مِنْها الإعجاز البلاغي، وذكر الباحِثُونَ في حَقَائِقِهِ إعجازَ مُطَابَقَتِهِ لِلْحَقِّ في كلِّ ما أبانَهُ من حقائق، فلا يأتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه. وَذَكَرَ الباحِثُونَ في أحكامه وشرائِعِه إعْجَازَ مَطَابَقَتِها لمصالح العباد، بخلاف كلّ ما يضَعُهُ الْبَشَرُ من أَحْكَامٍ وَتَشْرِيعاتٍ، وذَكَرَ الباحِثُونَ فيما جاء في القرآن من بياناتٍ عن حقائِقَ كَوْنِيَّة في ما أسْمَوْهُ الإعجازَ الْعِلْمِيّ، مطابقةَ ما جاء فيه لِمَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الباحِثُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الكُوْنِيَّاتِ من حَقَائِقَ قالَ الْعُلَمَاءُ فيها كَلِمَتَهُمُ الْأَخِيرَة.

إلى غير ما سبَقَ مِنْ جوانِبَ إعجازيَّةٍ ظَهَرَ بَعْضُهَا، وسَيَظْهَرُ في المستَقْبَلِ مِنْها مَا يُدْهِشُ الْعُلَماء البَاحِثِين، فالله ـ جلَّ جلالُه ـ سَيُرِي

الناسَ آياتِهِ في الْآفَاقِ وَفِي أنْفُسِهِمْ حتَّى يَتبَيَّن لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ من الله رَبِّ العالَمِين العليم الحكيم الخبير الْعَزِيز الرَّحْمٰنِ الرحيم.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: مِنْ كُلِّ مَنْ هُمْ غَيْرُ اللهِ إذْ هُمْ دُونَهُ جلَّ جَلالُهُ وَعَظُم سُلْطَانُه، فَهُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ.

القضيَّة الثانيةُ: دَلَّ علَيْها قَوْلُ اللهِ عزَّ وَجلَّ: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾:

أي: لَمْ يَكُنْ مُمْكِناً أَنْ يُفْتَرَىٰ مَصْنُوعاً مِنْ دُونِ اللهِ، ولكِنْ كَانَ تَنْزِيلَ رَبِّ العالَمِين، وممَّا دَلَّ على هٰذِهِ الحقيقَة أَنَّهُ كَانَ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْه، إذْ جاء في الكُتُب الرَّبَّانِيَّة السَّابِقَةِ لَهُ بِشَارَاتٌ به وبالرَّسُولِ الّذِي يَنْطِقُ بِهِ مُبَلّغاً إيَّاهُ عَنْ ربِّهِ الّذِي يُوحي بِهِ إلَيْهِ.

فَواقِعُ حال القرآنِ المجيد تَصديقُ مَا جَاءَ من بِشاراتٍ عَنْهُ وَعَنِ الرَّسُول الذي يُبلِّغُهُ عَنْ رَبِّه.

﴿تَصۡدِيقَ﴾ منصوبٌ على أنَّه خبر «كانَ» المحذوفة هي واسمها. ولفظ «تصْدِيق» مَصْدَرُ «صَدَّقَه، يُصَدِّقُهُ» والمصْدَرُ قَدْ يُسْتعملُ بمعنىٰ اسْم الفاعل، أي: هو مُصَدِّقٌ، وقد يُسْتَعْمَلُ بمعنى اسم المُفْعُولِ، أي: هُوَ مُصَدَّقٌ، والظاهر أنَّ هذا المعنى هو المراد هُنَا، والمصْدَرُ هنا مُضَافُ إلى الْمُصَدِّقِ للقرآن، والموصوفُ بأَنَّهُ مُصَدَّقٌ هُوَ القرآن، فالْمَعْنَى أَنَّ القرآنَ مصَدَّقٌ أنَّهُ حَقٌّ من عند الله، ومُصَدِّقُهَ ما جاء مِنْ بَشائر في الكُتُب التي أُنْزِلَتْ من قَبْلِهِ، وهذا مَا يَدُلُّ عَلَيْه السِّبَاقُ والسِّياق.

أمّا كَوْنُ القرآنِ مُصدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ فقد جاء بيانُه في نُصُوصٍ مُتَعَدِّدة أخرى، منها قول الله عزّ وجل في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾﴾:

وبهذا تتكَامَلُ النُّصُوصُ في دَلَالَاتِها، ضِمْنَ طَرِيقَةِ القرآن في تَوْزِيع الأفْكَارِ المرادِ بيَانُها على النُّصُوص.

القضيَّة الثالثة: دَلَّ عَليْهَا قولُ الله عزّ وجلَّ: ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: وهو معطوف على ﴿تَصۡدِيقَ﴾.

من الظاهر أنَّ المراد بالكِتَابِ جِنسُ الكُتُبِ السَّابقَةِ الَّتِي أنْزَلَها الله على رُسُلِهِ السَّابقِين لبِعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ.

وكُوْنُ ما جَاءَ في القرآن تفصيلاً لهَا يَدُلُّ عَلَى أنَّ الكُتُبَ السَّابقَةَ فيها مجملاتٌ جَاءَ في القرآن تفصيلٌ لها، وفيها نُصوصٌ غامِضةُ الدَّلَالَاتِ أو مُتَشَابِهَاتٌ، وَجاء في القرآن بيانٌ وَتَوْضِيحٌ لمَا اشْتَمَلَتْ علَيْهِ من المعاني.

التفصيل: التَّبْيين، والتوضيح، وكَشْفُ حُدُودِ الأجزاء المتلاصِقَةِ في الظاهر، بإظهار مَا بَيْنَها من انفصال ولو لم يكُنْ مَرْئيّاً، لتمْيِيزِ بَعْضِها عَنْ بَعْضٍ في الإدْرَاكِ الفكريّ.

ومن التفْصيل: كليّاتٌ جاءَتْ في الكُتُب السَّابِقَةِ، وجاء في القرآن المجيد بيان جزئياتٍ لها، مثل كليَّةِ تَحْريم أكْلِ أموال الناس بالباطل، ومن تفصيل هذِه الكليَّة بيانُ تَحْرِيم السَّرِقَة، وتَحْرِيمِ السَّلْبِ ظُلْماً وعُدْواناً، وتَحْرِيمِ الغِشِّ في الْبَيْعِ والشراء، وتحريمِ الاحتكارات الظالمات، وتَحْرِيم الْغَرَر، إلى غير ذلك من تفصيلات، بَعْضُها جاء صريحاً في القرآن، وبعْضُها جاء في بيَانَاتِ الرَّسُول ﷺ، وبَعْضُها جاء في القرآن التوجيه الإلْزاميُّ لِقِياسِهَا علَىٰ مَا جاء في القرآن.

القضية الرابعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾:

الرَّيْبُ: هو في اللُّغَةِ الشّكّ، ونفيُ الشَّكّ عن القرآن يَنْصَبُّ على مَا زَعَمَهُ المكذِّبُونَ بِهِ من أنَّ محمّداً اصْطَنَعَهُ وافْتَراهُ على رَبِّهِ، إذْ نَسَبَهُ إلَيْه.

أي: لَا شَكَّ في أَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ من عند اللهِ أَوْحَىٰ الله بِهِ إلى رسُوله مُحمَّد ﷺ.

القضيّة الخامسة: دلَّ علَيْها قَوْل الله عزّ وجل: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هو مُنَزَّلٌ ومُوحىً بِهِ من لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمين، فَهُوَ من كلامِهِ عزَّ وجلَّ، ولَيْسَ مِنْ كلام جِبْرِيلَ الَّذي كانَ رسولَ تبليغِهِ للرَّسُول محمّد ﷺ، ولا من كلامِ محمّد، ولَا مِنْ كلَامٍ وَاحِدٍ، ولَا أَكْثَرَ مِنْ دون الله.

لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يراد به هُنَا كُلُّ مَا سِوَىٰ اللهِ، جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسمَتْ حكمتُه.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

يُبَيّنُ الله عزَّ وَجلّ في هذِهِ الآيَةِ ادّعَاءَ المشركين الَّذِينَ كَذَّبُوا بالقرآن زاعِمينَ أَنَّ محمّداً ﷺ تَقوَّلَهُ علَىٰ رَبِّهِ، فَلَيْسَ هُوَ مِنْ كَلامِ ربِّهِ، بَلْ هُو من كلامِهِ، أو أعانَهُ عَلَيْهِ إِنْسٌ أو جنٌّ، ونَسَبَهُ إلى الله افتراءً عَلَيْه. ويُعَلِّمُ فيها رَسُولَهُ الرَّدَّ عليْهِم بمَا يَفْضَحُ ادّعَاءَهُمُ الكاذِبَ، ويَجْعَلُهُمْ يَنْقَطِعُونَ وَلَا يَجِدُون جواباً.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ؟: في هٰذِه العِبارَةِ استفهامٌ إنكاريٌّ تَعْجيبيٌّ من مَقُولَة المكذبين بالقرآن أَنَّ محمّداً افتراه على رَبّه، وهذا الاستفهام مُمْتَزِج بمَعْنَىٰ الذي الإضرابِ تَدُلُّ عليه «بل» وهو إضرابٌ انتقالي

«أَمْ» هي بمَعْنَىٰ «بَلْ» مع استفهام مقدّر معها، والاستفهام هنا استفهام انكاريٌّ تَعْجيبي. فمِنْ خصائص «أم» أنها تَعطِفُ استفهاماً مقدّراً، فهي بقُوّةِ «بلْ» مع استفهام.

أي: بل. أَيقُولُ المكَذِّبُون مُحَمَّدٌ افْتَرَىٰ القرآن ونسَبَهُ إلى ربِّهِ؟! إنّ كلامَهُمْ هذا باطِلٌ ظَاهِرُ البُطْلَان، وكلامُهُمْ يَتَّضَمَّنُ ادّعَاءَ أنَّ محمّداً أو غَيْرَهُ مِنَ الْبَشَر لو اجْتَمَعُوا قادرون على أَنْ يأتُوا بمِثْلِ هذا القرآن الْمُعْجِز، وهُمْ غَيْر صَادِقين في هذا الادّعاء، بَلْ هم كَاذِبُونَ، وقَدْ يكُونُ بَعْضُهُمْ واهِمين.

والرَّدُ المفْحِمُ لهذا الإدّعاء، هُو تَحَدِّيهِمْ بأَنْ يأتُوا بِمِثْلِهِ أو بِسُورَة مِثْلِه، وأَنْ يَسْتَعِينُوا بِمَنْ يَسْتَطِيعُون الاسْتِعَانَةَ بِهِ مِنْ دُون الله، إنْ كانُوا صَادِقينَ في زَعْمِهِمْ قُدْرَةَ غَيْرِ اللهِ علَىٰ الإتيان بمِثْلِه، فقال اللهُ عزّ وجلّ لرسوله:

﴿... قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾:

هذا أحَدُ الأجْوِبَة الَّتِي علّمَ اللهُ رسُولَهُ أَنْ يُجيبَ بها على هٰذَا الإدّعاء من أدّعاءاتهم الّتِي كَرَّرُوها في مقالاتهم الإعْلاميّة الظالمة.

وقد أنزل الله عزّ وجلّ قبل هذا في سورة [الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وجاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وخَاطَبَ الله عزّ وجلّ المُرْتَابِينَ مِنْ ما نَزَّل اللهُ على رسوله من قرآن. في أوَّلِ سُورة مَدَنِيَّةٍ، فقال عزّ وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/

٨٧ نـــزول): ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

فجاء في هَذِهِ النُّصوص التحدِّي بالإتيان بمثْلِ القرآنِ كُلّه، وجاء فيها التحدِّي بالإتيان بسُورَةٍ مِثْلِه، وجاء فيها التحدِّي بالْإتْيان بعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِه. ولكن جاءَ فيها التحدِّي بالإتيان بعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ بَعْدَ التَّحَدِّي بالْإتيان بسُورَةٍ مِثْلِهِ في تَرْتِيب النُّزُول، إذْ جاء هٰذا في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بَعْدَ التَّحدِّي بالإتيان بسُورَةٍ مثله في سورة (يونس/ ٥١ نزول) على خلاف المتبادِر من التحدِّي بالْأَقَلِّ بَعْدَ التحدِّي بالْأَكْثر.

فما الْحِكْمَةُ مِنْ هذا الإجراء؟

أقول:

لمَّا جاء التحدّي بالقرآن عموماً في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) كان وقْعُهُ على المكذِّبين بأنَّهُ كلامُ الله مُثيراً لاعتراضهم بأنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَأْتِ بالقرآن جُمْلَةً واحِدَةً، حتَّىٰ يتحدَّانابه، إنَّما يأتينا به مُفَرَّقاً نَجْماً بَعْدَ نَجْم، ولَمْ يَسْتَكْمِلْ بَعْدُ قُرْآنَهُ حتَّىٰ يَتَحدَّانابِهِ، ولَسْنَا نَدْرِي مَاذا سَيأتِينا به ممَّا يَذْكُرُ أنَّهُ قُرْآن.

فأنْزَل الله عزّ وجَلَّ في سُورَة (يونس/ ٥١ نزول) تَحَدِّيَهُمْ بأن يأتُوا بسُورَةٍ مِثله مُسْتَعينين بِمَنْ يَسْتطيعون الاستعانة به من دُون الله، مع العِلْم بأن السّور القريبة التنْزيل مِن سورَة (يونس/ ٥١ نزول) هي ما يلي:

- سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهي (١١١) آية.
- سورة (القصص/ ٤٩ نزول) وهي (٨٨) آية.
- سورة (النمل/ ٤٨ نزول) وهي (٩٣) آية.
- سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) وهي (٢٢٧) آية.

- سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول) وهي (٩٦) آية.
- سورة (طٰه/ ٤٥ نزول) وهي (١٣٥) آية.
- سورة (مَرْيم/ ٤٤ نزول) وهي (٩٨) آية.
- سورة (فاطر/ ٤٣ نزول) وهي (٤٥) آية.
- سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) وهي (٧٧) آية.

فهي ونحوها المَعْنِيَّاتُ بالتحدّي.

ولعَلَّ بعْض المكذبين تَساءَلَ بلِسَانِهِ أَوْ بنَفْسه: أيتَحَدَّانَا محمّد بأنْ نأتي بسُورَةٍ ممَّا جاءَنا بِهِ مِنْ قِصَارِ السُّوَر، كَسُورَتي (الفلق) و(الناس) وسورة (قريش) وسورة (الكافرون) وسورة (المسَد)؟! إنَّنا سَنَأْتِي بِمِثْلِ سُورَةٍ من هذه السُّوَر وأشباهها.

وقطعاً لِلْجَدَلِ فيما يُمْكِنُ أنْ يَتَحَدَّوا بهِ من قَوْلٍ مُمَاثِلٍ لِبَعْضِ قصار السُّور فيما يَزْعُمُون، أنزل اللهُ عزّ وجلّ في سورة (هود/ ٥٢ نزول) تَحَدِّيَهُمْ بأن يأتُوا بعَشْرِ سُوَر مُمَاثلات لعشْر سُورٍ من قِصَار سُوَر القرآن، الَّتِي ظَنُّوا أنّ بإمْكَانِهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ واحِدَةٍ منْها، وأَنْ يُثِيرُوا بِهِ جَدَلاً حَوْلَ المماثَلَةِ أَوْ عَدَمِهَا.

ثُمَّ أَنْزَل اللهُ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوّل سورة مَدَنيّة تَحَدِّيَ المُرْتَابين بالقرآن بأَنْ يأتُوا بسُورَةٍ من مِثْلِه (أي: من غير قصار السُّور).

علىٰ أَنَّهُمْ لَنْ يسْتَطِيعُوا أَنْ يأتُوا بسُورَةٍ من مِثْلِ قِصارِ سُوَر القرآن ضِمْنَ الأَبْعَادِ الواسِعَة لتدبُّرِها، ولكنْ عَلَّمَ الله رَسُولَهُ أنْ يتحدّاهم بِمِثْلِ عشر سُوَر من قصار السُّوَرِ قَطْعاً لِجَدَلِيَّاتِهِمْ، لأنّهم إذا أمكنَهُمْ أنْ يجادِلُوا بشَأْنْ ما يُمَاثِلُ سُورَةً قَصِيرَةً واحِدَة، فإنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يُجَادِلُوا بما يَزْعُمُونَ مماثلَتَهُ لِعَشْرِ سُوَرٍ قِصار.

وهذا من الأسالِيب الجَداليَّة التي يُرْشِدُنا اللهُ عزّ وجل إليها، كما فعَلَ سَيِّدُنا إبراهيم عليه السَّلام في مناظَرَتِهِ لِنُمْرُود، وهو ما جاء بيانُه في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نُزُول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

انتقل إبراهيمُ علَيْهِ السّلامُ في مُناظَرَتِهِ مِنْ مِثَالٍ اسْتطاع نمرود أن يُغَالِطَ فيه، إلى مِثَالٍ لا يَسْتَطِيعُ أن يُغالِطَ فيه، وهذا من البراعَة في أساليب المناظرات.

قوْلُ الله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: لَيْسُوا صَادِقِينَ مع أنْفُسِهِمْ في ادّعاءِ قُدْرَةِ الذين هُمْ من دُون الله علَىٰ أن يأتُوا بِمِثْلِ هَذا القرآن، الّذي يَتْلُوهُ الرَّسُولُ محمّد ﷺ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ فحرْف «بل» يَعْطِفُ على مَطْوِيٍّ من السَّهْلِ إدْراكُهُ مِنْ تَدَبّرِ السِّباق، الإحاطَةُ بالشيء: الالْتِفَافُ حَوْلَهُ من كُلِّ جِهَاتِهِ وَكُلّ جَوانِبِه، كالكُرَةِ المجَوَّفَةِ المحِيطَةِ بما هو في داخِلها، والإحاطَةُ بالشَّيْءِ عِلْماً تكُونُ بِمَعْرِفَةِ كُلِّ عناصِرِه وصفاته، والإحاطَة بالكلام عِلْماً تكُونُ بمعْرِفَة كُلِّ دَلالَاتِهِ الّتِي تُفْهَمُ من صريح اللّفْظ، ومن اللّوازم الفكريَّةِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا صَرِيحُ اللّفظ، أو يُدْرِكُهَا الْفِكْرُ اسْتِنْباطاً من لوازم المعانِي، ومِنَ القرائِن السَّابِقَةِ واللّاحِقَة، وهذِهِ الإحاطَةُ العلميَّة هي الَّتِي يَسْعَىٰ للوصول إلَيْها المتدبّرُونَ لِكلام الله عزّ وجلّ.

ففي هذه العبارة حَثٌّ ضمنيٌّ على أن يتدَبَّرُوا القرآن ليُدْرِكوا أنَّهُ كَلَامُ الله.

المعنى: إنَّهُمْ لَمْ يَتَدَبَّرُوا الْقُرآن كَما يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَدَبَّرُوه، فَلَمْ يُحِيطُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أن يُحِيطُوا بِهِ من المعاني الَّتِي يَدُلّ عليها، والَّتِي يُدْرِكونَ بها أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ، فكذَّبُوا بِأَنَّهُ كَلامُ اللهِ، ووَحْيٌ أوحَىٰ الله عزّ وجلَّ بهِ إلَىٰ مُحَمّدٍ، وهَذا يَكفِيهِمْ شاهداً على أنَّ محمّداً رَسُولُ رَبِّه حقّاً وصِدْقاً، وأنَّهُ يُبَلِّغُ عَنْ رَبّه مَا يأمُرُه بأنْ يُبَلِّغَهُ.

إنَّهُمْ لو تَدَبَّرُوا القرآن فأحاطُوا بدَلَالَاتِهِ علماً، لوَجَدُوا في وِجْدَانَاتِهِمْ ما يُوَبِّخُهُمْ على التّكْذِيب بأنَّهُ كلامُ الله، ووحيٌ يُوحِي به اللهُ إلى رسولِه محمّد ﷺ، إلَّا أنَّهُمْ اسْتَمَعُوا إليه استماعاً سَرِيعاً، فوجُدوا في معانِيهِ ما يُنَاقِضُ اعتِقاداتِهِم بشأن شِرْكياتِهِم الباطلات، وبشأن بَعْضِ أعمالهم الّتي يُحِبُّونَ ممارَسَتَها في حياتهم، فأطْلَقُوا عِبارَاتِ التكذيب به، وادّعاءَ أنّ محمّداً يَنْسُبُهُ إلى رَبِّهِ افتراءً عليه.

- ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾:

التأويل: يأتي بمعنى الإرْجاع، ويأتي بمعنَىٰ التصْيِير، وهذا المعنى الثاني هو المراد هنا. يُقَال لغة: «أوَّلَ فُلَانٌ الشيْءَ إلى كذا تأويلاً» أي صَيَّرَهُ إلَيْه. والْخَبرُ والوعْدُ الّذي يتضمَّن الحديثَ عمَّا سيَكُونُ في المستقبل، تأْوِيلُهُ يَكُونُ بِتَحْقِيقِهِ وإيقاعِهِ على الْوَجْهِ الّذِي جَاء في الْوَعد.

وقد جاء في القرآن إنْذَارُ المكذِّبين المعانِدِين الجاحِدين بعقوبات مُعَجَّلاتٍ في الدُّنيا غيرِ الْعُقُوبَات المؤخَّراتِ إلى يَوْم الدّين، وقد جاء في هٰذِهِ العبارَةِ إشعارُهُمْ باقْتِرابِ تَصْيِيرِهَا أمْراً واقعاً محقَّقاً،

﴿لَمَّا﴾: من جوازم الفعل المضارع، وهو حرف نفي، وجزْم، وقَلْبٍ لمعنى الفعل المضارع وجعْلِهِ ماضِياً، وقد تُسْتَعْمَلُ لِتَوَقُّعِ قُرْبِ وقُوع ما نَفَتْهُ، مثل: صَلّيْنا الفَجْرَ ولمّا تَطْلُعِ الشَمْسُ.

فالمعنى: واقْتَرَبَ تَصْيِيرُ ما أُنْذِروا به من عُقُوبَاتٍ معجَّلاتٍ فِي الدنيا أمْراً واقِعاً مُتَحقِّقاً، فَلْيَحْذَرُوا وُقُوعَ ما أُنْذِرُوا به، إنْ كانوا من أولي الألْبَاب.

لقد جاء هذا الإنْذارُ بَعْد بيان أنَّهُ يجبُ عليهم أوّلاً أن يَتَدَبَّرُوا القرآن بوعْيٍ وتفكير سليم.

- ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: كَذَلِكَ التكْذِيب الضّالّ عن الحقِّ ضَلَالاً بَعِيداً جدّاً، الَّذي كذَّبَهُ كُبَرَاءُ مُشْرِكي مَكَّةَ، إذْ كَذَّبُوا بالقرآن فظَلَمُوا، كذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ مُكَذّبي القُرُونِ الْأُولَى بِكُتُبِ رَبِهِم الّتي أوحَىٰ بها إلى رُسُلِهِ لِيُبَلِّغُوهُمْ إيّاها، فأنْزَلَ رَبُّهُمْ بِهِمْ عُقُوبَاتٍ سَاحِقَاتٍ مَاحِقَاتٍ، فانْظُرْ أيُّهَا المتَلَقّي الدَّرَّاكُ المتفَكِّرُ بعَيْنِ بَصَرِكَ إلى آثَار الدَّمَار الَّذِي أنْزَلَهُ بقُرَاهُمْ ومُدُنِهِمْ، وانْظُرْ بِعَيْنِ بَصِيرَتِكَ إلى آثار قَانُون الجزاء الرَّبَّاني، وأنَّ سُنَّةَ اللهِ فِيه لَا تَبْدِيلَ فِيها ولَا تَحْويلَ لها.

جاء هذا البيانُ كاشفاً للمراد بعبارة: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾.

قول الله تعالى:

- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أَبَانَ الله عزَّ وجلَّ بهذه الآيَة حِكْمَتَهُ في عَدَمِ إنْزَالِ الْعِقَاب الْمُعَجّل بالكُفَّارِ المكَذِّبينَ بأنَّ القرآن كلامُ الله يُوحِي به إلى رُسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ، وهي أنَّهُ قَدْ عَلِمَ أنَّ فِي نُفُوسِ بَعْضِهِمُ مَيْلاً إلى الإيمان، واسْتِعْداداً لِأَنْ يُؤْمِنَ بإرادَةٍ حُرَّةٍ إيمَاناً صَادِقاً، لَوْ أُمْهِلَ وَتُوبِعَ بالإقناع والترغيب والترهيب، وَعَلِمَ أَنَّ آخَرين مِنْهم قَدْ وصَلُوا إلى حالَةٍ ميؤوسٍ مِنْ إصْلاحِهِم معها عن طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة، ولهذا فلَيْس من الحكمةِ أَنْ يُنْزِلَ بهم عِقَاباً جَمَاعيّاً شاملاً مُهْلِكاً، بل الحكمة تقتضي إمهالَهُمْ، ومُعَاقَبَة

الميْؤُوسِ مِنْهُم بِعُقُوبَاتٍ إفراديَّة، أو مُجزَّأةٍ على جَمَاعَةٍ فجمَاعَة.

- ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾: أي: ومِنْ هؤلاء المكذِّبين مَنْ لَدَيْهِمُ الاستِعْدادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا به مسْتَقْبلاً، إذْ عَلِمَ الله في قُلُوبِهِمْ خيراً يَجْعلُهُمْ يُؤْمنُونَ بالْحَقِّ ولَوْ بَعْدَ حين.

- ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾: أي: ومِنْهُمْ مَنْ ليْسَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْداد لِأَنْ يُؤْمِنُوا مستقْبلاً به، مَهْما أُمْهِلُوا، إذْ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ في قُلُوبِهِمْ خَيْرٌ يَجْعَلُهم يُؤمِنُون بالْحَقِّ ولَوْ بَعْدَ حِين.

- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ٤٠﴾: أي: وهؤلاء الذين لا خَيْرَ في قُلُوبهم يَدْفعُهُمْ إلى الإيمان مستقبلاً، رَبُّكَ أيّها المتَلَقِّي الرَّشيد أعْلَمُ مِنْ كلِّ ذي عِلْمٍ بِما في نُفُوسِهم وقُلُوبِهِمْ من شرّ، وبِأَنَّهُمْ فاسِدُونَ مُفْسِدُون.

إنَّهُمْ إذا كانُوا مُفْسِدِين دُعَاةً للضَّلالِ فَلابُدَّ أَنْ يَكُونُوا فاسِدِين، وهؤلاء يستَحِقُّونَ أَنْ تنزلَ بِهِمْ مُهْلِكاتٌ خَاصَّةٌ، وقَدْ حَصَل هذا بمَقْتَلِهِم أذِلَّاءَ مُهانِينَ في غُزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، وأهْلَكَ اللهُ بَعْضَهُمْ قبل ذٰلِك وهُمُ الذين عناهم اللهُ عزّ وجل بقوله في سُورَةِ (الحجر/ ٥٤ نزول).

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ٩٥﴾.

وقد جَاءَت العبارة عَامَّةً لإثبات شُمُولِ عِلْمِ اللهِ بما في نُفُوسِ الناس، وأنَّهُ أعْلَمُ مِنْ كلِّ عَلِيمٍ بها، ومَعْلُومٌ أنَّ الْمَقْصُودِينَ بالبَيان يَدْخُلُونَ فِي هذا الْعُموم بداهَةً.

وقَدْ ترَجَّحَ لديّ هذا الْفَهْمُ لِلْآيَة، لِأَنَّ الإيمان في التَّعْبيراتِ القرآنيَّة يُرادُ بِهِ التَّصْدِيقُ الإراديُّ الْقَلْبِيُّ، وهٰذا لَا بُدَّ أَنْ يكُونَ مِنْ أَثَرِهِ الاعْتِرافُ باللِّسَان، وهو مُنافٍ لِلْوَصْفِ الحالِيِّ بأَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ وظالِمُونَ، وبَدَهِيٌّ أَنَّ النَّقِيضَيْنِ لَا يَجْتَمِعَان، فَلَا يكُونُونَ مُكَذِّبينَ بما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِه، ومُؤْمِنِينَ مَعاً، وجِهة التكذيب والإيمان واحِدَةٌ، وهي القرآن وكَوْنُهُ كلَاماً مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ الله رَبِّ العالمين.

ومن المعلوم أنَّ الفعلَ المضارع يُسْتَعْمل في الحال والاستقبال، وهُنَا قَد اسْتُعْمِلَ في الاستِقْبال، فَلا إشكال.

قول الله تعالى خطاباً لرسولِه ﷺ:

- ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾:

دَلَّ قول الله لرسوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ باسْتِعْمالِ «إنْ» الَّتي تُسْتَعْمَلُ فيما هو غَيْرُ واقع، أو في المشكُوكِ فيه، على أنَّهم مَا كَذَّبُوا الرَّسُولَ فيما بَلَّغَهُمْ عَنْ رَبِّه، ولكنَّهُم جَحَدُوا بآياتِ الله مَعَ عِلْمِهِمْ بأنَّها حَقٌّ، وقَدْ جاء التصريح بهٰذِهِ الحقيقة في قَوْلِ اللهِ عزّ وجَلَّ لِرَسُوله في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿قَدْ﴾ حرفٌ معناه التحقيق. أيْ: نُحقِّقُ لَكَ أَنَّنا نَعْلَمُ إنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُه بشأْنِكَ الَّذين كذَّبُوك فِيمَا تُبلِّغُهُ عن رَبِّك، فكُنْ عَلَىٰ عِلْم بأنَّهُمْ فِي الحقيقة لا يُكَذِّبُونَكَ، بَلْ يَعْلَمُونَ صِدْقَكَ، ولكنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بآياتِ الله ظُلْماً وعِنَاداً بغَيْر حَقٍّ، وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّها آياتُ الله، ويتّبِعُونَ أهْوَاءَهُمْ وَشَهَواتِهم ومطالِبَهُمْ من الحياة الدّنيا.

وَقَدْ عَلَّمَ الله رَسُولَهُ في آيَةِ (يُونُسَ) أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهم بقوله:

﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: أَنَا وإيَّاكُمْ خَاضِعُونَ لِمُرَاقَبَةِ اللهِ وَمُحَاسَبَتِه وفَصْلِ قضائِهِ ومُجازاتِهِ على أعمالِنَا.

والمسؤوليَّة عِنْدَ اللهِ مسؤوليَّةٌ فَرْدِيَّة، أَنَا يكونُ لي أثَرُ عَمَلِي خيراً

كان أَمْ شَرّاً، فإنْ كُنْتُ كاذِباً أَفْتَرِي علىٰ رَبِّي فأنا وحْدِي الّذِي أنالُ عِقَابَ افْتِرَائي علَيْه، وأنْتُمْ بَرِيئُونَ مِنْ مسؤوليَّةِ ما أعْمَل، ومن الْجَزاءِ علَيْهِ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ لَهُ أَثَرُ عَمَلِهِ خيراً كَانَ أمْ شرّاً، فإذَا كذَّبَ بآيَاتِ الله وهُوَ يَعْلَمُ أنَّهَا حقٌّ فَهُو وحْدَهُ الّذي ينَالُ عنْدَ رَبِّه عِقَابَ تَكْذِيبِهِ بالحقِّ، وكُفْرِه بالْحَقّ، وأَنَا بَرِيءٌ مِنْ مَسْؤُوليّةِ ظُلْمِه، ومن الجزاء عَلَيْه.

فاعْمَلُوا مَا شئْتُمْ فإنَّكُمْ مُلاقُونَ جزاءَ أعْمَالِكُم، وأنَا أعْمَلُ مَا أشَاءُ فإنّي مُلاقٍ جزَاءَ عَمَلِي، لَا أُلْزِمُكُمْ بشَيْءٍ أَنْتُمْ لَهُ كارِهُون، وعليكُمْ أنْ لا تُلْزِمُوني أو تُلْزِمُوا أحداً مِمَّنْ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني بشيء نَحْنُ لَهُ كارِهُونَ. إنَّهُ لَا إكْراهَ في الدِّين.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس العاشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته ومَدَدِه.

* * *

(١٤)

التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (يونس) الآيتان: (٤٢ و٤٣)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

تمهيد:

أبان الله عزّ وجلَّ في هَاتَيْنِ الآيتَيْن أحْوَالَ الكَفرَةِ المكَذِّبِينَ بالقرآن، من كفَّارِ مَكَّة إبَّانَ التنزيلِ، بالنِّسْبَةِ إلى تلاوتِهِ الْقُرْآن، وإلى بيانَاتِهِ الإقناعيَّة والترغِيبِيَّة والترهيبيَّة، ودَلَّ هذا البيان على أنَّهُم ثَلاثَةُ أقْسَامٍ:

القِسْمُ الأول: مُدْبِرُونَ لَا يَسْتَمِعُون إلَىٰ أقوالِ الرسُولِ ولو كانوا لا يُواجِهُونَهُ ولَا يَنْظُرُونَ إلَيْه، وهذا القِسْمُ مطْوِيٌّ في النّصِّ غَيْرُ مُصَرَّحٍ به، ولكِنْ يُفْهَمُ باللُّزُوم ٱلعَقْلِيّ من ذِكْرِ الْقِسْمَيْن الآخَرَيْن.

الْقِسْمُ الثانِي: قِسْمٌ يَسْتَمعُونَ إلَىٰ أَقْوالِ الرَّسُولِ مُقَابِلينَ له، أَوْ مُعْرِضين عَنْ يمينهِ، أو مُعْرِضِينَ عَنْ شِمَالِهِ، أو مُدْبِرِينَ عَنْه، وَتَصِلُ إلَىٰ آذانِهِمْ أَصْوَاتُ أقوالِهِ وتِلَاوَاتِهِ لَآيَات كِتَاب الله، لكِنَّهُمْ في الْحَقِيقَةِ لَا تَصِلُ إلى جهاز الإدراك السَّمعيّ لَدِيْهِمْ في أدْمِغَتِهِمْ تِلَاوَاتُهُ ولا أقواله فَلا يتدبّرونها.

القِسْمُ الثالث: قِسْمٌ يَجْلِسُونَ في مجلسِ الرَّسُولِ ويَنْظُرُونَ بأعْيُنِهِمْ إلَيه، وهم بالنسبة إلى الاستماع يَسْتَمِعُون إلى تلاواتِه وأقوالِه، كأهل القسم الثاني، وَلَكِنَّ بَصِيرَتَهُمْ بَصِيرَةٌ عَمْيَاءُ لَا تَنْفُذُ إلى داخِلِها الإشْرَاقَاتُ النَّبَويَّةُ، ولَا تأثيراتُها في الّذِينَ لدَيْهم الاستعداد لاستقبال أنوار الْهِدَايَة، فَهُمْ مَحْجُوبُونَ دَاخِلِيّاً بِحجَابٍ كثِيفٍ من أهواء نفوسهم، وشَهَواتِهِمْ، وتعَلُّقِهِمْ بالحياة الدّنيا وإيثارهِمْ لها على الآخرة، فأنَّىٰ أَنْ تُؤَثر فيهم البيانات الرَّبّانيَّة، والإشراقات النبوية.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى خِطاباً لِرَسُوله ﷺ، ويشملُ بإرْشاده كلّ داعٍ إلى الله من أمَّته.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: وَمِنَ الكَفَرَةِ المكَذِّبينَ ٱلْمَعْنِيِّينَ بالمعَالجَةِ في السّورَةِ، مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ وهُمْ يُواجِهُونَكَ، أوهم مُعْرِضُونَ عَنْكَ مِنْ ذَاتِ الْيَمِين أو من ذَاتِ الشَّمَالِ أو من وَرَائِكَ، ويَصلُ صَوْتُكَ إلَى آذَانِهم، ولَكِنَّ مَا يَسْمَعُونَهُ لَا يَصِلُ إلىٰ أَذْهَانهم وعُقُولهم، فَهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِما يَسْمَعُونَ،

وَلَا يَتَدَبَّرُونَ مَا تَتْلُوهُ عليهم، ولَا يَفْهَمُونَهُ فهماً حَسناً بِعُقُولهم، وَلَا يَعْقِلُونه مُسْتَذْكِرِينَ له.

إنَّ مَراكِزَ الإدْراكِ الواعي في أَدْمِغَتِهِمْ صَمَّاءُ عَنْ إدْراك الحقِّ والْهُدَىٰ، مُغَلَّفَةٌ بأغْشِيَةٍ من الأهواء والشهوات والتقاليد العمياء، وإراداتُهُمُ الحرَّةُ رَافِضَةٌ ابْتِداءً قَبُولَ الحقِّ ولو أدْركوه، ولَا تَسْتَجيب للهدَايَة ولو فَهِمُوا دَلالَات البيان الرَّبَّانِيّ الّذي يَدُلُّ عليها.

لَقَدْ طُوِيَ في النَّصِّ التَّصْريحُ بِعَدَمِ إدْراكِهِم الإدْراكَ النافِعَ لما يَسْمَعُون، وجَاءَت الكِنايَةُ عَنْهُ بُقَوْلِ اللهِ لِرَسُوله:

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٢﴾؟!.

أي: لَا تَطْمَعْ باسْمَاعِهِم إسْماعاً مؤثراً نافعاً لهم، لأنَّهم بمثَابَةِ الصُّمِّ في مَراكِزِ الإدْراكِ الواعِي دَاخِلَ نُفوسِهِمْ عن سماع الحقِّ والهُدَىٰ، إذْ هِيَ مَحْجُوبَةٌ بالرَّفْضِ ابْتِدَاءً مِنْ قبل السَّماع، وهم لَا يَعْقِلُونَ عقْلاً إراديّاً أهْوَاءَهم وشهَواتِهم ورَغباتِهِم الجامحاتِ الجانحات عَنْ صِرَاطِ الْهُدَىٰ، بكَفِّها ومنعها عن المزالِقِ والمهاوي.

إنَّ المطْمُوعَ بإسْمَاعِهِمْ هم الّذين لا يكونُونَ ذَوِي صَمَمٍ داخِلِيٍّ بحُجُبٍ من الأهواء والشهواتِ والرَّغباتِ الجامحاتِ الجانحات، ويَمْلكُونَ إرادَاتٍ قَوِيَّاتٍ تَعْقِلُ هٰذِهِ الثَّائِرَاتِ في نفوسهم، وَتَضْبِطُهَا عَنِ الجنُوحِ الظَّالم الآثِم إلى مَوَاقِعِ الكُفْرِ والْفُجُور فالْمَهالِكِ فالْعَذاب الْأَليم الأبَدِيّ.

والْغَرَضُ من الاستفهام في العبارة النَّفي، **والمعنى**: أيَشْتَدُّ حِرْصُكَ، يا مُحمَّدُ على إسْمَاعِهِمْ إسْمَاعاً واصِلاً إلى عُمْقِ مداركِهم الوَاعِيَة الّتي تُؤَثِّرُ فيهم تأثيراً هَادِياً، طامعاً بذلك، إنَّهُمْ صُمٌّ صَمماً نَفْسِيّاً عن اسْتِماعِ بيَاناتِ الحقّ والْهُدَىٰ، وهم لَا يَعْقِلُونَ دَوافِعَ نُفُوسِهِمْ عَنْ شَرٍّ وإثم، فَلَا تَطْمَعْ فيما أنت حريصٌ عليه، فأنْتَ بَشَرٌ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ، ولا سيما الّذين لا يَعْقِلُون.

العقل: عقلان: عَقْلٌ عِلْمِيّ يَفْهَمُ ويعِي ويَحْفَظ، وعَقْلٌ إرادي يَضْبِطُ ويْمنعُ عن المزالق والمهاوي.

قول الله تعالى خطاباً لرسوله ﷺ ويشْمَلُ بإرشاده كلّ داعٍ إلى الله من أُمّته:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ومِنَ الكَفَرَةِ المكَذِّبينَ بالْقُرْآن المعنيِّينَ بالمعالجَةِ في السّورَة، مَنْ يُنْظُرُ إِلَيْكَ حَاضِراً مَجْلِسَك أَوْ مَوْقِفَكَ الَّذي تَتْلُو فِيه آياتِ القرآنِ، أو تُحَدِّثُ فِيه داعياً إلى رَبِّك بالحكمة والموعِظَةِ الحسَنَة، لَكِنْ لَا تَصِلُ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ إشراقاتُ النَّبوَّةِ ذَاتِ التأْثِيرِ في قُلُوب الَّذينَ لَدَيْهِمْ استعدادٌ لاستقبال أنوار الهداية النُّبويَّة، فَهُمْ بِمَثابَةِ الْعُمْي الّذِينَ لَا يرَوْن، لِأَنَّ بصائِرَهُمْ مَحْجُوبَةٌ بِحِجَابٍ كثيفٍ من أهَواء نُفُوسِهم وشهواتِهم وتقالِيدهم العمياء، ولأنَّ إراداتهمُ الحرَّةَ رافِضَةٌ ابْتِدَاءً تَلَقِّيَ إشراقاتِ النبوّة.

فَهُمْ مَعَ المسْتَمِعِين لَا يَسْمَعُونَ، ومَعَ النَّاظِرِينَ لَا يُبْصِرُونَ.

والغرض من الاستفهام في العبارة هنا النفي، كالاستفهام في العبارة السَّابقة.

والمعنى: أَيَشْتَدُّ حِرْصُكَ يا مُحَمَّد علىٰ أَنْ تَصِلَ إلى قُلُوبِهِمْ إشراقَاتِ النُّبُوّة، فَتُؤَثِّر فيها تأثيراً هادِياً، طامعاً بِأَنْ يَسْتَجِيبوا لدَعْوَتِك.

إنّ بَصَائِرَهم بَصَائِرُ مَحْجُوبَةٌ عَنْ تَلَقِّي أنوار الْهِدَايَة، فَهُمْ يَنْظُرون إِلَيْكَ وَلكِنَّهُمْ لَايُبْصِرُون، فَلَا تَطْمَعْ فيما أَنْتَ حَرِيصٌ عَلَيْه، فأَنْتَ بَشَر لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَهْديَ عُمْيَ الْبَصائِر.

إنَّ هَؤلَاءِ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ في الظاهِرِ وهُمْ صُمُّ أَجْهِزَةِ الإدْراكِ الواعِي دَاخِلَ نُفُوسهم، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْكَ في الظاهِرِ وَهُمْ عُمْيُ الْبَصائِرِ، فَلَا تُؤَثِّرُ في

دَاخِلِهِمُ الْأَقْوالُ الهادية الَّتِي تُحَدِّثُهُمْ بها، ولَا الْإِشْرَاقَاتُ النَّبَوِيَّةُ التي تؤثّر في الَّذِين لَدَيهم الاسْتِعْداد. لِتَلَقِي الإِشْرَاقَاتِ النَّبَوِيَّةِ والانْتِفَاعِ بها.

لم يأْتِ التَّصريحُ في هٰذه العبارة باسْتِماعِهِمْ، اكتفاءً بَدَلَالَة حُضُورِهم مَجَالِسَ الرَّسُولِ أَوْ مَوَاقِفَ دَعْوَتِه، وَنَظَرِهِمْ إِلَيْهِ، فإِنَّ الحاضِرَ الناظرَ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَمِعَ مَا لَمْ يَكُنْ أَصَمَّ في أُذُنَيْهِ، فهو دَاخِلٌ في قِسْمِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾.

ورُوعي في هذا القِسْم المسْتَمِع معنى «مَنْ» الجمعيّ، ورُوعي في القسم الثاني معنى لفظ «مَنْ» الإفرادي، فجرَىٰ التنويع التَّفَنُّني مع مُلَاحَظَةِ أَنَّ المستمعين يُمَثِّلُونَ جماعات من الجهات الأَرْبَعَ للمحدّث، أمّا النَّاظِرُون فيمثّلونَ المواجِهين لِوَجْهِهِ فقط.

وبهذا تمّ تدبر الدرس الحادي عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على مَدَدِه ومعونته وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (يونس) الآيات من (٤٤ ـ ٥٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا
يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا
يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ
تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ
تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ
﴿٥٣﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ
ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

القراءات:

(٤٤) ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: **[وَلَكِنِ النَّاسُ]** «لَكِنْ» هُنا حَرْف ابْتداءٍ لإفادة الاستدراك، وتأتي بَعْدَهُ جُمْلَةٌ، وهو غير عامل.

وقرأها باقِي القِرّاء العشرة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ «لَكِنَّ» هُنَا من أخواتِ «إنّ» الَّتي تَنْصِبُ الاسْمَ وَتَرْفع الخبر، وتفيد الاسْتِدراك، مثل «لَكِنْ».

ومؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

(٤٥) ● قرأ حفص ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ بضمير الغائب، أي: يحشُرُهم الله تعالى.

وقرأها باقي العشرة: **[وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ]** بضَمِير المتكلّم العظيم.

ومؤدّى القراءتين واحد، وهما من التّفنُّن في التعبير، وفي قراءة الجمهور تربية المهابة من الربّ العظيم.

(٥٣) ● قرأ أبو جَعْفر: **[وَيَسْتَنْبُونَكَ]** بحذف الهمزة وضمّ الباء مراعَاةً للواو الساكنة بَعْدَها.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف، وله التسهيل والإبدالُ ياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ على الأصل.

والقراءتان من اللّهجات العربية.

(٥٣) • قرأ نافعٌ، وأبو عَمْرو، وأَبو جَعْفر: **[وَرَبِيَ إِنَّهُ]** بفَتْح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

فتح ياء المتكلّم وإسكانُها لغتان عَرَبيّتان.

تمهيد:

يتناول هذا الدّرْس بيَان حقائق من موضوع الجزاء الرَّبَّانيّ المؤجَّلِ إلى يوم الدين، والمعجَّل في الدّنيا إذا اقتضت حكمَةُ الله إنْزَالَ عذابٍ مُعَجّل في قَوْمٍ أو بعضِ قوم.

ويُعَلِّم الله عزَّ وجلَّ رسُولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته، مَا يجيب به السائلين عن وَقْتِ مَا أُنْذِرُوا به مِنْ عذاب، أو عَنْ كوْنِهِ حقّاً.

وذِكْرُ هذه الحقائق في هذا الدرسِ عن الجزاء المؤجّل والمعجَّل، مع ما فيه من تعليم إجابةِ السَّائلين إبَّانَ التنزيل عَنْ وقْتِهِ أو عَنْ كوْنِه حقّاً، يتضَمَّنُ تَرْهيباً شديداً للشّاكّين أو المكذّبين، ولكن بأسْلُوبٍ بَدِيعٍ غَيْرِ مُبَاشر.

التدبّر التحليلي:

قال الله تعالى:

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

دلَّتْ هٰذِهِ الْآيَةُ علىٰ الحقِيقَةِ العامَّةِ الكُبْرىٰ لقَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِيّ للعبادِ الموضوعين مَوْضعَ الامتحان والتكليف.

إنَّ جزاءَ اللهِ بالعقابِ قاعِدَتُهُ الْعَدْلُ وقَدْ يكُونُ الْعَدْلُ مصْحُوباً بالفضلِ والتَّجاوز عَنْ بَعْضِ الخطايا وعدم المعاقبة عليها.

وإنَّ جزاء اللهِ بالثواب قاعِدَتُهُ الْفَضْلُ بمُضاعَفَةِ العَمل، وبِمُضاعَفةِ الثَّوَاب عليه، ومن هذا الفَضْلِ غُفرانُ اللهِ وَعَفْوُهُ عمَّا يَشَاءُ مِنْ ذُنوبِ المؤمنين.

وبناءً على قاعِدَتي الْفَضْلِ والْعَدْلِ فإنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النّاسَ شيئاً مَهْما كان صَغِيراً، فلا يُعَاقِبُ مستحقّاً للعقابِ بأكْثَرَ من استحقاقه ولو بمثْقَالِ ذَرَّة، بلْ قد يكونُ أقلَّ من استحقاقه بالعفو والتجاوز عن كثير من الخطايا، وقد أكّدَ اللهُ عزّ وجل هذه الحقيقة بقوله:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾: في هذه العبارة توكيد بالمؤكدين «إنّ ـ والجملة الاسمية» والقضيّة المؤكّدَة أنَّ اللهَ لَا يظلم الناسَ شيئاً في أيّ حالٍ من الأحوال، ولا سيما في التكليف والحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

- ﴿. . وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: ولكِنَّ النَّاسَ لَا يَظْلِمُونَ بِكُفْرِهم وَمَعْصِيَتِهم رَبَّهُمْ إلّا أَنْفُسَهُم، إذْ يُعَرِّضُونَها بِمَا كَسَبُوا من آثامٍ وَجرائم لِعُقُوباتِ رَبِّهم لَهُمْ جزاءً وِفَاقاً.

استفيد الْقَصْرُ من تقديم المفْعُولِ به ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ على الْفِعْلِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ كما يقولُ البلاغيون، أي: ولكِنَّ النَّاسَ لَا يَظْلِمُونَ إلَّا أَنْفُسَهُمْ.

قول اللهِ تعالى:

- ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ بضَمِيرِ المتكَلّم العظيم.

أي: ويومَ يحْشُر اللهُ عزّ وجلّ العِبَادَ بَعْدَ الْبَعْثِ للحياة الأخْرى،

حَياةِ الحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفيذِ الجزاءِ، يَكُونُ من أحْدَاثِه في العبادِ المحشُورين ثلاثَةُ أحْدَاث:

الحدث الأول: شُعُورُهُم بأنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا في البَرْزَخ بَيْنَ الموت والْبَعْثِ إلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ المعْهُودِ لدَيْهِم في الحياة الدُّنيا، دَلَّ عَلَىٰ هٰذا الحدَثِ قول اللهِ عزَّ وجلَّ في الآية: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾:

﴿كَأَن﴾: هي المخفَّفةُ من الثقيلَة «كَأَنَّ» وهي حرف تشبيه، واسْمُها محذوف تقديره: كَأَنَّهم.

﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾: أي: لَمْ يُقِيمُوا في قُبورِهِمْ وَمَدَافِنِ أجْسَادِهِمْ فِي الأرض، طَوال مُدَّةِ البرْزخ بيْنَ الموتِ والبعْثِ.

﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: أي: إلَّا سَاعَةً مِنْ أَرْبَعِ وعشرِينَ ساعَةً من النَّهارِ الْمَعْهُودِ لَدَيْهِمْ في الحياة الدنيا.

«ال» في لفْظِ ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ عَهْدِيَّة.

والمعنى: أنَّ إدْراكَ نُفُوسِهِمْ للزَّمَنِ الّذِي مَرَّ عَلَيْهِمْ مُنْذُ مَوْتِهِم حتَّىٰ بَعْثِهِمْ يُشْبِهُ إدْراكَ نُفُوسِهِمْ لِمُرور ساعَةٍ واحِدَةٍ من النهار المعهود لهم في الحياة الدّنيا، ولَوْ كَانَ الزَّمَنُ الّذِي مَرَّ عليهم أكْثَرَ من مليارات السنين، ونُدْرِكُ هُنَا أنَّ مِقْياسَ الزّمَنِ يُعْتَبَرُ بحَسَبِ الإحْسَاسِ النفسيّ به لا بحَسَبِ الواقِعِ الكَوْني، فمَنْ ماتَ في عَصْرِ آدم عليه السَّلام، يكُونُ إحْسَاسُه بالزَّمَنِ الذي قضَاهُ في البرزخ عند البعث، مماثلاً لإحْسَاس آخِرِ مَيِّتٍ من الناس في الحياة الدُّنيا، وهذا لا يَتَنافىٰ مع مَشاعر اللَّذَّاتِ والآلام النفسيَّةِ في مُدَّة البرزَخ، فيما يُعْرَفُ بنَعِيم الْقَبْرِ وعَذَابه، لأنَّ الإحْسَاسَ بالزَّمَنِ يُلْغَىٰ في الإدْراكِ الحسّيّ النَّفْسِيّ لَدَىٰ الموتَىٰ، لكِنْ لَا يُلْغَىٰ الإحْسَاس بالنعيم والعذاب.

الحدث الثاني: أنَّ المبْعُوثين المحْشُورين في أرْضِ المحشر يَتَعَارَفُونَ

بَيْنَهُمْ، دَلَّ على هذا الحدَث قولُ اللهِ عزّ وجلَّ في الآية: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ أي: يَحْصُلُ بَيْنَهُمْ تعارُف، فالّذين كَانَ بَعْضُهُمْ يَعْرِفُ بعْضاً في الحياة الدُّنْيَا يَتَذَكَّرُونَ سَابِقَ مَعْرِفَتِهم، ويتحادَثُونَ بِشَأْنها.

وَيَبْحَثُ الأتْباع عَنْ قادَتِهِمْ في الدُّنيا، ولو كانُوا لَا يَعْرِفُونَ أشخاصهم وصُوَرَهُم، حتَّىٰ يَرَوْهُمْ وَيَعْرِفُوهُمْ، كأَتباعِ أَئِمَّةِ المتَّقين، وأَئِمَّةِ الْفُجَّار.

ويَعْرِف المسْلِمُونَ رَسُولَهُمْ وأصْحَابَهُ، ويَعْرِفُ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ رُسُلَهُمْ وَحَوَارِيِّيهم، وتتَّسِعُ دَوائر التَّعَارُفِ بِحَسَبِ اهْتِمَامِ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ يومَئذٍ، فقد يَبْحَثُ عن أُصُولِهِ وفُروعه وسائِرِ رَحِمِهِ لِيَتَعَرَّفَ عليهم، فيتَيَسَّرُ له ذَلِك.

إن عموم لفظ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ يَشْمَلُ كُلَّ ذَلِكَ وغيره.

الحدث الثالث: أنَّ الّذِينَ كانُوا في الحياة قَدْ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ يَوْمَ الدّين، يتَحقَّقُونَ أنَّهُمْ قَدْ خَسِرُوا كُلَّ شيءٍ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، خَسِرُوا السَّعَادَةَ في دار النعيم، وخَسِرُوا رَاحَتَهُمْ وخَلَاصَهُمْ مِنَ العذاب الأليم الَّذِي يُلاقُونَهُ في الجحيم، دار عذاب الكافرين المجرمين. وَيَتَحَقَّقُونَ أنَّهُمْ مَا كانُوا مُهْتَدِين في الحياة الدُّنيا، بل كانوا ضالّين ضلالاً بَعِيداً، دَلَّ علَىٰ هذا الحدث قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في الآية:

﴿.. قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: قَدْ خَسِرَ الّذِينَ كانوا في الحياة الدُّنيا قَدْ كَذَّبُوا بالْبَعْثِ وبِيَوْمِ الدّين، وبِلِقَاءِ اللهِ للْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، تمهيداً لتحقيق الجزاء. وهم يُدْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ خَاسِرُونَ، وأَنَّهُمْ لم يكُونُوا في الحياة الدُّنيا مُهْتَدِين، بَلْ كانُوا ضَالِّين بِكُفْرِهم ضَلَالاً مُبيناً وبَعِيداً عن صراط الْحَقّ.

قول اللهِ تعالى خِطاباً لِرَسُولِه ﷺ:

- ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَإِمَّا﴾: «إمَّا» كلمةٌ مُركَّبةٌ من «إِنْ» الشرطِيَّة، و«مَا» المؤكّدة للتعْليقِ الشرطيّ.

﴿نُرِيَنَّكَ﴾: فعل الشرط مجزوم بـ«إنْ» ومؤكَّدٌ بِنُونِ التوكيد الثقيلة.

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾: أي: هو العذاب المعجَّلُ عِقَاباً لإصرارهم على الكفر والتكذيب. وجواب الشرط مطويٌّ تقديره: فأنت تراه. وقد أراه عزّ وجل مصارع أئمتهم في بَدْرٍ بعد حين.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: أي: قَبْلَ أنْ نُرِيكَ بعضَ الّذي نَعِدُهم.

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: أي: فإلينا مَرجِعُهُمْ يَوْمَ الدِّين، إذْ نَبْعَثُهُمْ بَعْدَ البرزَخ إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، ويَومَئِذٍ تَرَىٰ ما وَعدْنَاهُمْ من الجزاء الأكبر. وهذه الجملة جواب الشرط في: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

- ﴿.. ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

الشّهيدُ: الحاضِرُ المراقِبُ العالِمُ بمَا شَهِدَه. ويأتي بمعنىٰ المخْبِرِ بما عَلِمَهُ عَنْ شُهُود، والصيغة صيغَةُ مبالغة، فَهُوَ جلَّ جَلالُه يَعْلَمُ كُلَّ صغيرةٍ وكبيرة عِلْمَ شُهودٍ لا تَخْفَىٰ عليه خافية.

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَقيبٌ شَهِيدٌ عَلِيمٌ بكُلِّ مَا يَعْمَلُ المقْصُودُون بالْبَيان والمعالَجَة. وشَهِيدٌ مُخْبِرٌ يَوْمَ الدّين بما كانوا يَعْمَلُون. ورُوعي في الجملة معنى الإخبار يوم الدّين بما كانوا يَعْمَلُونَ في الدنيا، فَجِيءَ بِحَرْف الْعَطْفِ «ثُمَّ» الذي يَدُلُّ على التراخي. ورُوعي فيها مَعْنَىٰ الحضورِ والمراقبةِ والْعِلْمِ التّامّ مع تَوالِي الوَحَدات الزمنيَّةِ، فجيء بالْفِعْلِ المضارع في ﴿مَا يَفْعَلُونَ﴾

الدَّال علَىٰ التجدُّدِ التتابُعِيِّ مع توالي أَزْمَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

وأَصْلُ العبارة: واللهُ شهِيدٌ في الحياة الدُّنيا على ما يَفْعَلُونَ مع توالي الأَزْمان، ثُمَّ هُوَ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ يوْمَ الدِّين يُخْبِرُهم بما كانوا يَعْمَلُونَ في الحياة الدُّنيا، فيخْبِرُهم عِنْدَ مُحاسَبَتِهِمْ بِجَرَائِمِهم الَّتي كانوا قد اكْتَسَبُوها في الحياة الدنيا، فَعَلْتُمْ كذا وفَعلْتُمْ كذا. ولا يُشْتَرَط في شَهادَتِهِ عليهم الاستقصاء.

ودَمْجُ هاتين العبارَتَيْن بعبارةٍ واحِدَةٍ مِنْ بدائع الإيجاز في القرآن المجيد. هذا ما فتح الله به عليَّ من فَهْمٍ في هذه العبارة.

قول الله تعالى:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ نبيٌّ رسُولٌ قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ أَنْ يُرْسِلَهُ إِلَيْها، لِيُبَلِّغَها مَا فَرَضَ اللهُ على كُلِّ مُكَلَّفٍ فيها مِنْ إيمانٍ وعملٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم في الحياة الدنيا.

فإذا جاء رَسُولُهُم علىٰ وَفْقِ مَا قَدَّرَ اللهُ وقضَىٰ، وبَلَّغَهُمْ مَا فَرَضَ اللهُ على مكَلَّفِيهم الموضوعين موضِعَ الامتحان، آمَنَ بِهِ وبِمَا جاء بِهِ عَنْ رَبِّهِ مَنْ آمَنَ، وَكَفَر بِهِ وبما جاء بِهِ عَنْ رَبِّهِ مَنْ كَفر، وقاوَمَ كُفَّارُ أُمَّتِهِ دَعْوَتَهُ، وعَادَوْه وعَادَوْا مَنْ آمَنُوا بِهِ، ورُبَّما دَبَّرُوا خُطَط الخلاص مِنْهم، كما دَلَّتْ عَلَىٰ هذا نُصُوصٌ قُرآنية كثيرة. فاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ عزّ وجلَّ بِمُقْتَضَىٰ قواعِدِ وسُنَنِ جزائِهِ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمْ بالْقِسْط، في أَنْ يُنْجِيَ المؤمنين، ويُهْلِكَ الكَفَرَةَ الْمُجْرِمِينَ الظَّالمين، وأَنْفَذَ اللهُ بِهِمْ قَضَاءَهُ، وحِينَ أَنْفَذَ بِهِمْ قَضَاءَهُ وقَدَرَه، كَانُوا لَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً، بَلْ كَانُوا يُعَامَلُونَ بالْعَدْلِ أَوْ بالْفَضْلِ.

القسط: العدل.

وقد دلّت نُصُوصٌ قُرْآنِيَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ على أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ قَدْ أرْسَلَ إلَىٰ كُلِّ أُمَّةٍ سَلَفَتْ نَبِيّاً رَسُولاً.

- فمنها قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: وَمَا مِنْ أمَّةٍ سَلفَتْ إلّا سَلَفَ فِيها نَذِيرٌ أنْذَرَها عِقَابَ رَبّها إذا كَفَرَت وعَصَتْ، بَعْدَ أَنْ بَلَّغَهَا مَا يَجِبُ علَىٰ مكلّفِيها تجاهَهُ جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

- ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: إنَّ عاقبة المكذّبين السَّابقين إهْلاَكٌ شَامِلٌ، وَدَمَارٌ لِمُدُنهم وقراهم ولكلِّ مَا كانوا يَمْلِكُونَ.

الأمّة: تُطْلَقُ في الاستعمال القرآنيّ على كُلّ مجموعَةٍ تجمَعُها صفاتٌ أو خصائصُ أو روابط مُتميِّزة.

وكلُّ أُمَّةٍ أُرْسِلَ إليها رسُولٌ مِنْ رَبِّها، فهِيَ أُمَّةُ بلاَغِ ذلك الرسول. ومن أجابَهُ منهم فهم أُمَّة الإجابَة، ومن قام بواجب الدَّعْوَةِ إلى اللهِ منهم فَهُمْ أُمَّةُ الدَّعْوَة، ومن قامَ بواجب الجهاد في سبيل الله منهم فَهُمْ أُمَّةُ الجهاد، والفقهاء منهم أمَّة الاستنباط والْفتوىٰ.

قول اللهِ تعالى:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

دلَّتْ هاتان الآيتان على أنّ المكذّبين منْ أئِمَّةِ الكُفْر إبَّانَ التنزيل، المعنيِّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَة، كانُوا يُكرِّرُون مَقَالَتَهُمْ للرَّسُول وللمؤمِنين تَعْلِيقاً على ما أُنْذِرُوا به من عذابِ اللهِ الْمُعَجَّلِ في الدُّنيا لهم إذا أصَرُّوا على كفرهم وتكذيبهم ومعانَدَتِهم للحقّ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ أي: في أيِّ وقْتٍ يَتَحَقَّقُ الموعُودُ بِهِ مِنْ عَذَابِنَا؟ أَخْبِرُونَا إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ بأنَّ عَذَابَ اللهِ سَيَنْزِلُ بنا، كما نزل بعادٍ وثمود وقَوْمِ شعيب وقوم لوط.

يُطْلَقُ الوعْدُ على الإخبار بما سيَكُونُ من خَيْرٍ أَوْ شرّ، والمراد به هُنَا الإخبار بما سينْزِلُ بِهِمْ ممَّا يسوؤُهم ويُؤْلمهم ويُهْلِكُ مَنْ يُهْلِكُ مِنهم.

وأُطْلِقُ لفظ «الوَعْدِ» على الموعُودِ به، وفي العبارة محذوف يَسْهُلُ اسْتِخْرَاجه، أي: متى زَمَنُ تَحْقِيق هذا الموعُودِ بِهِ؟ وجواب الشرط مطويٌّ في العبارة: أي: إن كنتم صادقين فأخبرُونا.

وبعد عرض مقولتهم الّتي صاروا يكرّرُونها علّم الله رسُولَهُ ما يجيبهم به على إلحاحهم بهذا السؤال التَّعنُّتِيِّ الذي لا يَسْأَلُهُ عاقِلٌ رَشيد، وقد اشتمل التعليم على فِقْرَتين:

الفِقْرَةُ الأولى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ . .﴾:

أي: لَسْتَ أَنَا الَّذِي أُنْزِلُ بِكُمْ عذابَ رَبِّكم، ولَمْ أَكُنْ إلَّا مُبلِّغ وعْدِ اللهِ لكم علىٰ مَا أَوْحَىٰ إليَّ بِهِ، ولَمْ يُعْلِمْني بالوقت الّذِي سَيُنْزِلُ فيه بِكُم عقابَه. وإنِّي بَيْنَ يَدَيْ ربّي مِثْلُكُمْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي دَفْعَ وَلَا رَفْعَ ضَرٍّ،

وَلَا جَلْبَ نَفْعٍ إلَّا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَنِي أَمْلِكُه، فكَيفَ أخبركم بما لم يُعْلِمْنِي به الله؟!

هذه الفقرة دَلَّتْ عَنْ طَرِيقِ الأسْلُوبِ الكِنَائي علَىٰ ما أَوْضَحْتُهُ في التَّدَبُّر.

الفِقْرة الثانية: ﴿.. لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: لِكُلِّ أمَّةٍ أنْذَرَهَا اللهُ بِعِقَابٍ مُعَجَّل، لأَنَّهَا كَفَرَت وكذَّبَتْ رَسُولَ رَبِّها وبما جاء به عنه، أجَلٌ عِنْدَ اللهِ مَعْلُومٌ له وقد لا يُعْلِمُ به رَسُولَه، فإذا جَاءَ أجَلُهُمْ (وهُو وَقْتُ إنْزَالِ عقابِهِ فيهم) فإنَّهم لَا يَسْتَطِيعُونَ تَأْخيرَ إنزالِهِ سَاعَةً زَمَنِيَّةً مهْمَا كانت قَلِيلَةَ المقدار (المراد بالسَّاعَةِ هُنَا مِقْدَارٌ زَمَنِيٌّ مَا وإِنْ قَلّ) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ تقديم عمَلٍ صالحٍ كالإيمان بما كانوا بِهِ يكْفُرون، إذْ فَاتَ وقْتُ قَبُول التوبَةِ والإيمان وأيّ عمل صالح عند بَدْءِ نزول بوادر العقاب الرَّبَّانيّ، فشأنُ بوادر نزول عذاب الله كشأنِ الغرغرة عند حضور الموت، يقفل معها باب التوبة.

قول الله تعالى متابعاً تعليم رسوله ما يجيب به المعنيّين بالمعالجة:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾:

﴿بَيَٰتًا﴾: أي: في اللّيل، وهو مَصدرُ «بَاتَ يَبِيت، وَيَبَاتُ، بَيْتاً، وبيَاتاً، ومَبيتاً» أي: أدْركه اللّيل نَامَ أوْ لم يَنَم، وهو منصوبٌ على الظرفية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا ...﴾؟ أي: قُلْ لهم: إنّ سُؤالكم بإلْحاحٍ وتكرارٍ عَنْ وَقتِ إنْزالِ ما وَعدَكُمْ اللهُ بِهِ من عذابٍ إذا أصْرَرْتُمْ على كفرِكم وتكْذيبكم رسُولَ ربّكم، ومعاداتِه ومُعَادَاةِ الّذِينَ آمَنُوا

بِهِ واتَّبَعُوه، يَسْتَحِثُّ رَبَّكُمْ على أَنْ يُعَجِّلَ لَكُمْ عذَابَه، دُونَ أَنْ يُعْلِمَكُمْ بوَقْتِه، بل يأتيكُم بِهِ مُبَاغَتَةً.

أَخْبِرُوني بَعْدَ أَنْ تَتفَكَّرُوا وَتَتَّضِحَ لَكُمُ الرُّؤْيَةُ الفكريّة، إنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ رَبِّكُمْ مُبَاغَتَةً، لَيْلاً أَوْ نهاراً بتَدْبِيرٍ مُحْكَمٍ، فمَاذا يكُونُ من تَصَرُّفِكم؟!

جوابُ الشرط في ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ مَطْوِيٌّ ومِنَ السَّهْلِ اسْتِخْرَاجُهُ، وهو: فَمَاذا يكُونُ مِنْ تَصَرُّفِكُمْ؟ أَتَسْتَقْبِلُونَهُ بمَسَرَّةٍ وَتَرْحَاب؟ أَمْ بخوفٍ وهَلَعٍ وَتَوْبَةٍ وَإيمانٍ وَنَدَمٍ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْكُمْ.

اعْلَمُوا أَنَّ عَذَابَ اللهِ المعَجَّلَ لَا يأْتِيكُمْ إلّا بَغْتَةً، فَلا تُكَذِّبُوا به مُتَذَرِّعِينَ بالسُّؤال عَنْ وَقْتِ إنْزَالِه.

بَعْدَ هذا التعليم تَحَدَّثَ اللهُ عزّ وجلَّ عَنِ المعنيّينَ بالمعالَجَةِ، دُونَ أَنْ يُواجِهَهُم بالخِطَاب فقال تَعالَى:

﴿.. مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟! أي: مَا الَّذي يَسْتَعْجِلُ مِنْ عذابِنَا هؤُلَاءِ الكفرَةُ المكذِّبُونَ الْمُجْرِمُونَ بالإِثْمِ العظيم؟

المجْرِمُون: المجْرِم: هو في اللّغَةِ المتعدِّي بذَنْبٍ كبير، وجاء لفظ «المجرمين» في القرآن عُنْواناً مقابلاً لِلْمُسْلِمِين، ووصفاً للكافرينَ الّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ في الدُّنيا، ووَصْفاً للمعَذَّبِينَ في النار، فالمجرمُون في الاصْطِلَاحِ القرآنيّ هم مستحِقُّو الْخُلُودِ في عذاب النار يَوْم الدين.

والتصريحُ بوَصْفِ المعنيّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ بأنَّهم مُجْرِمُونَ، جيء به للدّلَالَة على أنَّ مَا هم فيه يَجْعَلُهُم من المستحقّين الخلُودَ في عذاب النار يوم الدّين.

وطرحُ الاستفهام عَنِ الّذي يستَعْجِلُونَه يَدُلُّ على أنَّ أنواعَ عذابِ اللهِ لمستحقيه كثيرَةٌ، ومِنْهُ:

- عذابُ الأوْجَاعِ والآلَامِ بأمْرَاضٍ مُضْنِيَةٍ.
- عذابُ الْجُوعِ والخوْفِ والتَّشْرِيد في الأرضِ مع الْفَقْرِ والذِّلَّة.
- عَذَابُ الجوائحِ المدَمِّرَةِ المتْلِفَةِ والقاتلة.
- عذابُ الإهلاكاتِ الفرْدِيَّة.
- عَذَابُ الانْكِسَارِ والْهَزِيمَةِ فِي الْحَرْبِ وَخَسَارَةِ الممتلكاتِ والأسْرِ والْقَتْل.
- عذَابُ الإهْلَاكِ والتَّدمِيرِ العامِّ الشَّامِلِ السَّاحِقِ الماحِق، كما حَصَل لقوم نوح، وعادٍ وثَمُود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعَوْنَ وجنُودِه ومَلَئِه.

فما الَّذي يَسْتَعْجِلُونَهُ مِنْ هٰذه الأنواع وأشْبَاهِهَا من أنواعِ عذاب رَبّهم؟ إنَّ كلَّ نوعٍ مِنْهَا مخيفٌ مُثِيرٌ للهَلَعِ كرِيه، إنَّ هٰذا هُوَ ما يقْتَضِيه إلحاحُهُمْ بالسُّؤَالِ عَن وَقْتِ تَحقِيقِ ما وَعَدَهُمْ بِهِ رَبُّهم من عَذَابٍ على جرائمهم.

وبَعْدَ هٰذا الْتفَتَ البيانُ الرَّبَّانِيُّ إلى مُخَاطَبَتِهِمْ لإثَارَة انتبَاهِهِم، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ لَهُمْ:

﴿.. أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ... ﴿٥١﴾﴾: أي: أَبَعْدَ إمْهَالٍ لَكُمْ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، رَغْبَةً في أَنْ تُؤْمِنُوا تَائِبينَ، إذَا وَقَعَ بِكُمُ العذابُ الّذِي قَدَّرْنا وقَضَيْنَا أَنْ نُنْزِلَهُ بِكُمْ مُبَاغَتَةً أعْلَنْتُم إيمانَكُمْ به، الدَّالَّ علىٰ إيمانِكُمْ بربّكُمْ وَبِرَسُولِه وبما بلَّغَكُمْ عَنْه. ولكِنْ لَا يَنْفَعُكُمْ، سَاعَتَئِذٍ إيمانُكُمْ، فَقَدِ انْتَهَىٰ أجَلُ امْتِحَانِكُمْ، وَجَاءَ زَمَنُ مُحَاسَبَتِكُمْ وَمُجَازَاتِكُمْ عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتُمْ في الأيّام الخالية.

وَيُقَالُ لَكُمْ وأَنْتُمْ تُعَذَّبُونَ رَدّاً على إعلانِكُمْ إيمانَكُمْ وتَوْبَتِكُمْ وَنَدَمِكُمْ:

﴿.. ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾؟! أي: أَأَلآنَ آمَنْتُمْ بِصِدْقِ وَعْدِ رَبِّكُمْ بَعْدَ أنْ وَقَعَ بِكُمْ وَذُقْتُمْ آلامَه. إنَّ المقبولَ عند رَبِّكُمْ هو الإيمانُ بالْغَيْب بِبُرْهَانِ العَقْل، لا الإيمانُ عن شُهُودٍ بالْحَواسِّ الجسَدِيَّة، فَهَذا إيمانٌ تَسْتَجِيبُ لِدَواعِيهِ البهائم والحشرات، والمطْلُوبُ من ذوي العقول أنْ يُؤْمِنُوا بما وَهَبَهُمُ اللهُ من قُدُرَاتٍ على إدْراكِ أَرْكانِ الإيمان بعقُولهم، لَا أَنْ يَتْرُكوا الْبَرَاهِينَ العقلِيّة، ويَجْحَدُوها، فَلَا يُؤْمِنُوا حتَّىٰ يُشَاهِدُوا ويُدْرِكُوا بِحَوَاسِّهِمْ الْجسَدِيَّة، مَا أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

الجار والمجرور في: ﴿بِهِۦ﴾ معمولٌ للفعل في: ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قُدِّم مُرَاعاةً لرُؤوسِ الآيات.

وسيأتي في الآيَتَيْنِ (٩٠ و٩١) من هذه السّورة بيانُ أنَّ فِرْعَوْنَ لم يَنْفَعْهُ إيمانُهُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، وقيلَ لَهُ: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ البَعْثِ والحسابِ وفَصْلِ الْقَضاء وتَنْفِيذِ الجزاء بإدْخَالِهم جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجرمينَ الظّالِمين، إذَا سألُوا استئنافَ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم، أَوْ تخفيفَ يَوْمٍ مِن الْعَذَابِ عَنْهُمْ قيل لهم: ذوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إلَّا بِمُسَاوِي مَا كُنْتُمْ تكْسِبُونَ في الحياة الدُّنيا، إذْ كُنْتُمْ فيها مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ وتكْسِبونَ مُكْتَسَبَاتِكُمْ بإرادَةٍ حُرَّةٍ مُخْتَارَةٍ، وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فَرَضَ اللهُ عليكُمْ، وقَدْ أُنْبِئْتُمْ بهذا المصِيرِ الذي أَنتم فِيه إذا كَفَرْتُمْ وكَذَّبْتُمْ رسُولَ رَبِّكُمْ فيما أَوْعَدَكُمْ به من الخلُودِ في العذاب الأليم.

وُصِفُوا بالْمُجْرِمين في الآية (٥٠) وهنا في الآية (٥٢) وُصِفُوا بأنَّهم

كانُوا ظالِمِين، إذْ هُمْ مُجْرِمُون باعتبار، وظَالِمُونَ باعتبار آخر، ولَهُم صفاتٌ أخْرَىٰ خسِيسَةٌ قبيحةٌ باعتباراتٍ أخرى، يَصِفُهُمْ بها البيانُ القرآني، وقد يَضَعُ الوصْفَ في مَوْقِعِ الضَّمِير الّذِي يَعُودُ عليهم، لبيان اتِّصافِهِمْ به.

وهذا من أساليب القرآن البيانيَّة الإيجازيَّةِ النفيسة.

الْخُلْد: الْبَقَاءُ الدَّائمُ الّذِي لَا نهاية له، وهو مَصْدَر «خَلَدَ، يخْلُد» وإضافَة لفظ «عذاب» إلَىٰ «الْخُلْد» هي علَىٰ تَقْدِير اللّام الّتي تفيد الاختصاص، أي: العذابَ المختصَّ بالْخُلْد.

وجاء إطْلاقُ فِعْلِ «ذُوقُوا» على سبيل الاستعارة، تشبيهاً للإحساسِ بالأَلَم بذَوْقِ الطَّعَامِ باللّسَان، وظاهرٌ أَنَّ الذّوْق نَوْعٌ من أنواعِ الإحساس بِشَكْلٍ عامٍّ.

والباء في ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ سببيّة، أي: بسَبَبِ ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ في الحياة الدّنيا من جرائم وآثام. أو هي للتَّعْدِية إذا فَهِمْنَا العبارة على معنَىٰ: تُجْزَوْنَ بِمُسَاوي مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ، طُوِي لفظ «مُساوي» واكْتُفِي باسْم الموصول «مَا» على اعتبار أنّ عَيْنَ الشَّيْءِ يَقَعُ مَوْقع مُساويه.

والاسْتفهامُ مُسْتَعْمَلٌ بمعْنَىٰ «النفي»، أيْ: لَا تُجْزَوْنَ إلّا بما كُنْتُم تَعْمَلُونَ.

قول اللهِ تعالى خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾:

مقالَةُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي: الوعْدُ بالعذَابِ المعَجَّلِ إذَا أصَرُّوا على مَوْقِفِهِم العنادِي، إمَّا أنْ تَكُونَ مَقَالَةَ بَعْضٍ من المعنِيّين بالمعالجة، وإمّا أنْ تكونَ أسْلُوباً من أسَالِيبِ المرَاوغاتِ الجدَليّةِ اتَّفَقَ المكذّبُونَ على طَرْحِها.

ومهما يكُنْ من أمْرٍ فالْجَوَابُ في كِلْتَا الْحالَتَيْن هو مَا جاء في التَّعْلِيم الرَّبّاني للرسول ﷺ.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾: أي: وَيَسْتخبِرُونَكَ، بمعنىٰ: يطْلُبُونَ منْكَ يَا مُحَمَّدُ أنْ تُخبِرَهُمْ. الطّالبُونَ هُمُ المعنيُّونَ بالمعالجة في السُّورَة، وفيهم من قَسَتْ قُلُوبُهم فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسْوَةً، وفيهم من في قُلُوبِهِمْ قابلِيَّةٌ أَنْ يُؤْمِنُوا إذَا أُمْهِلُوا وَعُولجوا.

﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾: أي: أحَقٌّ مَا جَاءَ في الْوَعْدِ بالْعَذَابِ المعَجَّل، أَمْ هو أسْلُوبٌ مِنْ أسَالِيبِ التخويف الّتِي لَا يُرَادُ بها تحْقيقُ الموْعُودِ بِهِ في الواقع. ويَترَجَّحُ لدَيَّ أنّ مَنْ طَرَحَ هٰذا السُّؤال هم من الذين فِي قُلُوبِهِمْ قابليَّةٌ لأنْ يُؤْمِنُوا إذَا أُمْهِلُوا وعُولجوا بأناةٍ وحكمة.

ومنَ البدَهِيّ أنْ يكونَ جوابُ هذا السؤال إيجاباً مؤكّداً بالمؤكدات، فقال الله تعالىٰ مُعلِّماً:

- ﴿.. قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾:

﴿إِى﴾: حَرْفُ جواب بمعنى «نعم» ولا تَقَعُ إلّا قَبْلَ الْقَسَم.

﴿وَرَبِّىٓ﴾: الواو هي «واو الْقَسَم» والمقْسَمُ به «رَبّي».

﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾: أي: إنَّ وَعْدَ اللهِ لكُمْ بالعذاب المعجَّل وَعْدٌ حَقٌّ، وليس مُجَرَّدَ وَعْدٍ تَخْويفيٍّ حتّىٰ تَسْتَهِينُوا به.

اشتَمَلَتْ جُمْلَةُ الجواب على المؤكّدات التاليات: «القسم ـ إنّ ـ الجملةِ الاسميّة ـ اللّامُ المزَحْلَقَة».

لمَّا كانَ السُّؤال استِنْبَاءً عَنْ جدِّيَّةِ الوَعْدِ بالعذاب المعَجَّل، وعَنْ كوْنِه حقّاً، لم يكُنِ المناسِبُ في الجواب إلّا الإيجاب، مع التأْكِيدِ بأقْوَىٰ مُؤَكِّداتِ الأخبار، وهي ما جاء في التعليم الرَّبَّاني.

واشْتَمَلَ الجوابُ إضافَةً تُلائِمُ حَال المراوغين، والّذِينَ لَيسَتْ في قُلُوبهم قابليَّةٌ لأنْ يُؤْمِنُوا مَهمَا أُمْهِلُوا وَعُولِجُوا، وهي عبارة:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾: أي: وَمَا أَنْتُمْ بِقَادِرِينَ على الإفْلاتِ مِنْ عذاب رَبِّكُمْ، إذا شَاءَ إنْزَالَهُ بكُم. يقالُ لُغَةً: «أعْجَزَ فُلانٌ» أي: سبَقَ فلَمْ يُدْرَكْ، ويقال: «أعْجَزَ فُلانٌ فُلاناً» أي: فَاتَهُ فلَمْ يُدْرِكْه.

قول اللهِ تَعالى:

- ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾:

تَصِفُ هٰذه الآيَةُ حَالَةَ المجرمين الَّذين سبَقَ أنْ أُنْذِرُوا بعَذَاب اللهِ، فَكَذَّبُوا بالنُّذُرِ، وأصَرُّوا عَلَىٰ مواقِفِهِم الإجراميَّة الظالمة، حينَ يَرَوْنَ مُقَدِّمَاتِ عَذَابِ اللهِ مُقْبِلَةً علَيْهِم، أو بَدَأَتْ أوائِلُها تَنْزِلُ عَلَىٰ أَرْضِهِمْ وَمَساكِنِهِم ومُمْتلكاتهم.

والوصْفُ في هذه الآية يكْشِفُ أمْرَين:

الأمْرُ الأول: أنَّهم يكونُون مستَعِدّينَ لِأَنْ يَبْذُلُوا كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ فِداءً، لإنْقَاذِ أنْفُسِهِمْ من الْعَذَابِ المرتَقَب نُزُولُهُ فيهم بَعْدَ لحظَاتٍ أَوْ سَاعات، فلَوْ أَنَّ لكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا في الأرْضِ كُلِّها، أو مِثْلَ مَا في الأرْضِ كُلّها من أموالٍ ومُمْتَلَكَاتٍ، وأُذِنَ لَهُ بأنْ يفتدي نَفْسَهُ من العذاب، لقَدَّمَ كُلَّ ما يَمْلِكُ فِداءً لإنقاذ نفسه من الْعَذاب، لكنْ لا يُقْبَلُ عند اللهِ فداءٌ ما ساعَتَئِذٍ.

ما قيمة امتلاك الإنْسانِ كُلَّ مَا في الدُّنيا، إذا كانَ خاسراً نَفْسَهُ بعْدَ لحظات أو ساعات، أو مُصاباً بعذابٍ وشقاء أبدِيَّيْن. إنَّهُ عِنْدَئِذٍ يُدْرِكُ أَنَّ نَفْسَه وخَلاصَهُ من العذاب أغْلَىٰ عِنْدَهُ مِن كلِّ مُمْتَلَكَاتِ الوجود.

دلَّ علىٰ هذا الأمر قولُ الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾: أي: حِينَ تَرَىٰ بَوادِرَ وَسَائِلِ التعذيب الرَّبَّاني للظالمين، وهي مِنهم.

﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦٓۗ﴾: أي: لقَدَّمَتْهُ فِدْيَةً لإنقاذِها وحِمَايَتِها من عذابِ الله، لَوْ كَانَ ذَلِكَ يُقْبَلُ مِنْهَا عِنْدَ رَبّها.

يُقَال لغة: «افْتَدَىٰ فُلَانٌ» أي: قَدَّمَ الفِدْيَةَ عَنْ نَفْسِه، ليسْتَنْقِذَهَا مِمَّا قُضِيَ أَنْ يَنْزِلَ بها من عذابٍ، أو مَكْرُوهٍ تَخْشَاه. ويقال: «افْتَدَىٰ فُلَانٌ بكذا» أي: قَدَّمَهُ فِدْيَةً.

الأمر الثاني: أَنَّهُمْ يُسِرُّونَ في أَنْفُسِهِمُ النَّدَامَةَ، دَلَّ عَلَيْهِ قول الله عزّ وجلّ في الآيَة: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾. أي: حينَ رَأَوْا بَوَادِرَ وَسَائلَ العذاب الرَّبَّاني لهم جزاء ظلمهم.

أَسَرَّ الشيءَ: أي: كتَمَهُ في نَفْسِه، ولَمْ يُعْلِنْه للآخرين.

نَدامَة الإنسان: حُزْنُهُ وأَسَفُهُ علَىٰ مَا كَانَ قَدْ كَسَبَهُ بإرادته الحرَّة دُون إكراهٍ ولا إجبار، وتَمَنِّيهِ أَنْ لا يكون قَدْ كسبه، مع تلويمه نفسه.

دَلَّ إسْرَارُهُم النَّدامَةَ على أَنَّهُمْ كُبَرَاءُ قَوْمِهِمْ، وأئِمَّتُهُمْ، فَهُمْ لا يُرِيدُون أَنْ يفْتَضِحُوا أَمَامَ أَتْبَاعِهِمْ بأَنَّهُمْ نادِمُون، إذْ ما زال الكِبْرُ يَعْمَلُ في صُدُورِهِم أعْمَاله.

ولكِنْ لا فداء، ولا يَنْفَعُهُمْ نَدَمُهُمْ، وقَضَىٰ اللهُ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ جرائمهم بالْعَدْل، وهُمْ لَا يُظْلَمُونَ عِنْدَ إنْزَالِ الْعَذَاب المعجل فيهم، ولا يُظْلَمُونَ بعد ذلك يَوْمَ الدِّين، دَلَّ على هذا قول الله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٥٤﴾.

وبهذا تمّ تدبر الدرس الثاني عشر من دروس سورة (يونس).

والحمد لله على مدَده ومعونته وتوفيقه وفتحِه.

(١٦)

التدبّر التحليليّ للدرس الثالث عشر من دُروس سورة (يونس) الآيتان (٥٥ و٥٦)

قال الله عزّ وجل:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

القراءات:

(٥٦) ● قَرَأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلوم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، أي: تُرْجَعُونَ بإرْجاع اللهِ لَكُمْ، فَأَنْتُمْ تَرْجِعُونَ مُطاوِعينَ بالْقَهْر.

تَمْهِيد:

في هذا الدرْس تنبيهٌ شَدِيدٌ على عناصر من القاعدة الإيمَانِيَّة، وتذكيرٌ بها، وتَوْكيدٌ وإرْسَاخٌ لها، بَعْدَ أنْ سَبَقَ في السُّورة ما يَقْتَضِي التنبيهَ علَيْها، وتوكيدَها وإرْسَاخَها، وهذه العناصر هي:

(١) أنّ كُلَّ ما في السَّماوَاتِ والأرض مِلْكٌ لِلَّهِ جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سلطانُه.

(٢) أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، فَهُو عزّ وجلّ لا يُخْلِفُ الميعاد، ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقيقة، فهُمْ إمَّا كافِرُون باللّهِ أو بِبَعْضِ صفاته، أو غافِلُونَ لَاهُونَ بما هم فيه من الحياة الدُّنيا.

(٣) أنّ اللهَ هُو الّذي يُحْيِي ويُمِيت، أي: يُدْخِلُ الرُّوحَ في الجسَد فيكُونُ الْجسَدُ حَيّاً، وَيَفْصِلُ الرُّوحَ عن الْجَسَدِ فيكُونُ الجسَدُ مَيّتاً.

(٤) أنّ الناسَ جَمِيعاً يَرْجِعُونَ إلى الحياةِ الأخرىٰ بَعْدَ مَوْتهم وبعثهم لملاقاة ربّهم، ومحاسَبَتِهم، وفَصْلِ القضاء بينهم، ومجازاتهم علَىٰ ما كَسَبُوا بإرَادَاتِهِمْ الحرَّة في الحياة الدُّنيا، حياة الابتلاء.

التدبّر التحليلي:

﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح وَتَنبيهٍ وتحقيق، إذْ هي مركَّبَةٌ من همزة الاستفهام و«لَا» النافية. وهمزةُ الاستفهام إذَا دخَلَتْ على النَّفْي أفادَت التحقيق. ويتَعَيَّنُ كَسْر همْزَة «إِنَّ» بَعْدَ «أَلَا».

- ﴿.. إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ .. ﴿٥٥﴾﴾: اللّام في: ﴿لِلَّهِ﴾ هي لِلْملْك. و«مَا» من أَلْفَاظ العموم.

والمعنى: انْتَبِهُوا وَتَحَقَّقُوا وأَرْسِخُوا في قُلُوبِكُمْ مِنْ عَنَاصِرِ القَاعِدَة الإيمانيةِ مَا أُبَيّنُهُ لَكُمْ وأُذَكّرُكم به: إنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاواتِ والأرض مِلْكٌ لِلَّه، إذْ هو مَخْلُوقٌ له.

ومَا في السَّمَاوات والأرض يَشْمَلُ كُلَّ مَوْجُودٍ سوَىٰ الله، إذ الموجوداتُ إمَّا أَنْ تَكُونَ في الأرضِ، وإِمَّا أَنْ تَكُونَ في غَيْرِ الأرض، ومَا هُوَ في غَيْرِ الأرض هُو في السَّمَاواتِ حَوْلَها، فيَشْمَلُ كُلَّ الموجوداتِ في كلِّ شيءٍ عَلَا علَىٰ الأرض، أي: كان في جهة الْعُلُوّ بالنسْبَةِ إليها.

- ﴿.. أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

جاء في هذه العبارة إعادَةُ ذِكْر أداة الاستفتاح والتنْبيهِ والتحقيق ﴿أَلَآ﴾ اهْتِمَاماً بإرْسَاخ العنْصُرِ الثاني من عناصِرِ القاعدة الإيمانيَّة، الّتي اشتمل عليها هذا الدّرْس، وهُو:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: هذا التوكيد موصُولٌ بما جاء في الآية (٤٨) والآية (٥٣) بشأن وعْدِ الله للمكذّبين الكفرة، بالجزاء المعجّلِ والمؤجل إذا لم يتوبُوا ويُؤْمِنُوا ويُصْلِحُوا.

إي: إنَّ كُلَّ وعْدٍ يَعِدُهُ الله عبادَهُ بالخير أو بالشّرِّ هُو وَعْدٌ حَقٌّ، أي: هو صِدْقٌ مُطابقٌ لمَا قَدَّرَهُ اللهُ وقَضَىٰ أَنْ يفْعَلَهُ في المستقبل، والله لَا يُخْلِفُ الميعاد، فهو مطابق لما سيكون حتماً.

القولُ الحقّ: هو الْمُطابِقُ للواقع الّذِي كَانَ، أو هو كائِنٌ، أو سيكون.

والوعْدُ الحقّ: هو الخبر الصِّدْق الّذِي سيَكُونُ الواقِعُ على وَفْقِهِ تماماً بِلا خِلاف.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: ولكِنَّ أكْثَر النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقّ، لِأَنَّهُمْ كافِرُونَ بصفاتِهِ أو بِبَعْضِ صِفَاته، أَوْ غَافِلُونَ عَنْها، أَوْ لا يُقَدِّرُونَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه، إذْ لَمْ يَبْحَثُوا عَنْ أدلَّةِ كمالِ صِفَاتِهِ وتَنَزُّهِهِ عَنْ أن يَعِدَ بِمَا لَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ، أَوْ أَنْ يُخْلِفَ المِيعَاد.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ... ﴿٥٦﴾﴾: لَمْ يأْتِ في هذه العبارة ما يَدُلُّ على أنّ الإحياء والإماتَة مَقْصُوران على اللهِ عزَّ وجلَّ، إذْ لَا أحَدَ في الوجود يُحْيِي ويُمِيتُ إمَاتَةً حقيقيةً غيرُه، لكِنْ جاء في القرآن عِبَارات مماثلات لهٰذه العبارة وفيها مَا يَدُلُّ على القصر، إذْ جاء فيها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: دَلَّ علَىٰ القَصْرِ فيها تَعْرِيفُ طَرَفي الإسْنادِ.

وقُدِّمَ بيانُ الإحياء على بيان الإماتة، لأنّ الجنينَ في أوّلِ أمْره يَكُونُ غير ذِي حياة إنسانِيَّةٍ، حتَّىٰ يأْمُرَ اللهُ الْمَلَكَ المكلّفَ أن يَنْفُخَ الرُّوحَ الإنسانيّةَ فيه، فينْفُخُ فيه الرُّوح فَيُحْيِيهِ اللهُ. ثمَّ هو الّذي يأمُرُ الملَكَ المكلَّفَ أنْ يَقْبِضَ رُوحُه، فيقْبِضُهَا، فَيُمِيتُهُ الله.

أمّا اتّخاذُ الأسْبَابِ الّتي جعَلَها اللهُ أسْباباً يَحْدُث بها المَوْتُ، فَقَدْ

مَكَّنَ مِنْهَا عِباده، ولكن لَا يَتمُّ الأمْرُ إلّا بمَشيئتِه أو إذْنِه، ولا تتحقَّقُ الإماتَةُ إلّا بخَلْقِه.

وقد سبَق أَنْ عَلِمْنَا أَنَّ الْإحياء يكونُ بالتَّزْويج بين الرُّوح والجسَدِ، المخْلُوقِ بكيفيَّةٍ مُقَدَّرَةٍ بمقادير صَالِحَةٍ لظُهُورِ الحياة فيه، ضمْن نظام اللهِ في خَلْقه. وأنّ الإماتَة تكونُ بفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الجَسَد.

وسبَقَ أَنْ عَلِمْنَا أَنَّ الرُّوح تُخْلَقُ بأمْرِ التكوينِ الرَّبّاني مباشرةً، دُونَ اسْتِخْدَامِ شيءٍ مَخْلُوقٍ سابقٍ لها في عناصر الكون، بخِلَاف جَسدِ الإنسان مثلاً، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ من الطِّين، أمّا رُوحُهُ فتأتي من أمْرِ اللهِ التكوينيّ مباشرةً، فإذَا نُفِخَتْ في الْجَسَدِ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ من عناصِرَ سابقةٍ له، صار الجسَدُ كائناً حيّاً.

هذا هو نظام اللهِ في الخلْق، ولو شاء نظاماً آخَرَ لفَعل.

وجاءت عبارة ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ التذكيرية تمهيداً لِلْقَوْلِ التذكيري في آخر الدّرس:

﴿.. وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: **[وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ]**: أي: وإلى حساب رَبّكم، وفَصْلِ قضائِهِ، وَتَنْفِيذِ جزائِه، أيُّها الناس الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، تُرْجَعُونَ بِخَلْقِهِ، فَتَرْجِعُونَ مطاوِعين بالْجَبْر، بَعْدَ بَعْثِكُمْ وإخْراجِكُمْ من خَلِيَّةٍ مَحْفُوظَةٍ في الأرضِ من بقايا أجْسَادِكُمْ، وهي الموجودَةُ داخِلَ عَجْبِ الذَّنب، إذْ صَحَّ عَنِ الرَّسُول ﷺ أَنَّ كُلَّ شيءٍ يَفْنَىٰ في الإنْسَانِ إلّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، وهو جُزَيءٌ في أصْلِ الذَّنب، عنْدَ رَأْسِ الْعُصْعُص.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثالث عشر من دُرُوس سورة (يُونس).

والحَمْدُ للهِ على معونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

(١٧)

التدبر التحليلي للدرس الرابع عشر من دُروس سورة (يونس) الآية (٥٧)

قال الله عزّ وجَلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾.

تمهيد:

هذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بما جَاءَ في السُّورَةِ بِشَأْنِ القرآن، في الآية (١) والآيات من (١٥ ـ ١٧) والآيات من (٣٧ ـ ٤٠).

وموصُولٌ أيضاً بما جاء بشأن القرآن في سُورَةِ (الإسْراء/ ٥٠ نزول) النازلَة قبل سورة (يونس/ ٥١ نزول) إذْ قَدْ ظَهَرَ بالتدبّر أَنَّ مَوْضوعَ سورة (يُونس) امتدادٌ لمَوْضُوع سورة (الإسْراء) والله أعلم.

التدبّر التحليلي:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: خطابٌ مُوَجَّهٌ مِنَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ للنَّاسِ جَميعاً.

- ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم﴾: أي: قَدْ وَصَلَتْ إليكُمْ في آياتِ القرآن المجيد، بَعْدَ أَنْ جَاءَ بها جِبْرِيلُ رَسُولُ الوحْيِ من رَبّكم، وأوْحَىٰ بها إلى الرسول مُحَمَّد ﷺ، وبَلَّغَهَا كَمَا تَلَقَّاهَا مِن الْوَحْي، وَصَارَتْ حاضِرَةً عِنْدَكم والمطلوبُ أَنْ تَتَدَبَّرُوها بأَمْرِ رَبّكم.

وهٰذه الَّتِي جاءَتْكُمْ في آيات القرآن المجيد هي:

(١) ﴿مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: أي: بيانٌ فيه تَرْغيبٌ وَتَرْهِيب.

الموعِظَة: مَا يكونُ به الوعْظُ من قَوْل أو فِعْل.

والوعْظ: هو النُّصْحُ بالفِعْل أو بالتَّرْك المقرونُ بما يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أو الرَّهْبَةَ في النفس، للانتفاع بالنُّصْحِ، واتّباع ما هدَىٰ إلَيْهِ فِعْلاً أو تَرْكاً. قال ٱبْنُ سِيدَه: هُو تَذْكِيرُكَ للإنْسَانِ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ مِنْ ثوابٍ وعِقَاب.

من المعلوم أنَّ النَّفْس الإنسانِيَّة تَتَأَثَّرُ بِحَرَكَتَينِ دَائِرَتَيْنِ تدوران فيها، إِحْدَاهُمَا على مِحْوَرِ الْخَوْفِ، والأُخْرَىٰ على مِحْوَرِ الطَّمَع، وتَحْرِيكُهما علَىٰ هٰذَيْنِ الْمِحْوَرَيْنِ للاسْتِفَادَةِ من تأثيرِهِمَا في النَّفْس هُوَ الوَعْظُ.

وقَدْ اشْتَمَلَ القرآنُ الْمَجِيدُ على نُصُوصٍ كثِيرَةٍ فيها مواعِظُ بالترغيب والتَّرْهِيب، بالإضافَةِ إلى نُصُوصِ الإِقناعِ الفكريِّ بالإيضاح والتحليل، وبالجدالِ بالّتي هي أحْسَنُ.

وجاءَتْ عبارَةُ: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في خطابِ النَّاسِ، للدَّلاَلَة علَىٰ عِظَمِ مِقْدَارِ هٰذِهِ الموعظة، لمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ من التحْذير من الخلود في عذاب النار، والترغيبِ في الخلُودِ في جنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدين.

أي: إنَّ رَبَّكُم الخالِقَ لَكُمْ والخالِقَ لجميعِ الأكوان الدُّنيويَّة والأُخْرَوِيَّة، هو الّذِي يُوَجِّهُ لَكُمْ فِي آياتِ كتابِهِ الموعِظَةَ رَغْبَةً في أَنْ تَتعِظُوا فَتَنَالُوا سَعَادَةَ الدَّارَيْن.

(٢) ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾: أي: وجاءَكُمْ في آيات القرآنِ الْمَجيد شفاءٌ لما في الصُّدُور من أمْرَاضٍ.

أُطْلِقَ المرَضُ في القرآن على الكُفْر بالحقّ، وعلى النفاق فما دُونه، وعلى حُبِّ معْصِيَةِ الله، وعلى أمراض الحسَدِ والحِقْدِ وابْتِغاءِ الشّرّ، وعَلَىٰ المَيْلِ إلى الشهواتِ المحرّمة.

وأُطْلِقَ على الأمراض الجسَدِيَّةِ بحسَبِ الوضع اللُّغوي.

فيَنْبَغِي أنْ نفهم أنَّ الشِّفَاءَ المرادَ بهذه العبارة شامِلٌ للشفاء من الأمْرَاضِ المعنويَّة ومن الْأَمْرَاضِ المادِّيَّةِ الَّتِي تَصِلُ إصَابَتُها إلى الصُّدُور، وهي الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ في الإنْسَانِ الواقِعَةُ بَعْدَ طبَقَةِ سطْحِ النفس، وبَعْدَها طَبَقَةُ الْقَلْبِ فالْفُؤَادِ، وإطْلَاقُ الصَّدْرِ يَشْمَلُ طبقَتَي الْقَلْبِ والْفُؤَاد.

إنَّ حقَائِقَ الْقُرآن الاعتقاديَّةِ تَشْفِي من الْجَهْلِ بالخالق الربِّ، والغاية من الخلْقِ، والمصير بَعْدَ رِحْلَةِ الحياة الدنيا، وتشفِي من العقائد الباطلة الشركيّة والإلحادية، وكُلِّ صُوَرِ الكُفْرِ بالحقّ أو جحودِهِ بالنسبة إلى هذه القضايا الكبرىٰ.

وإنَّ قضايا القرآن الأخلاقيَّة تَشفِي من الرّذائل الْخُلُقِيَّةِ، ومن أنواع السُّلُوك الّتِي هي تعبيراتٌ عمليّة عنها.

وإنَّ كثيراً من الوصايا القرآنية تَشْفي من الأمراض النفسيَّة ومن عُقَدِها.

وَإنَّ أحْكامَ القرآن المنَظِّمَة للعلاقات الاجتماعيَّة، تَشْفِي المجتَمَعَ الْبَشَرِيَّ من الشحناء والبغضاء والْعَدَاوَاتِ والشِّقَاق والتقاتُلِ.

وشفاءُ ما في الصُّدور يُخَلِّصُ الناسَ من الأمراضِ الدَّاخليّة ذاتِ الآثار السيِّئة القبيحة في السُّلُوكِ الْعَمَلِيّ النَّفْسِيِّ والْجَسَدِي.

إنّ شفاء ما في الصُّدور هو السَّبَبُ الأعظم لصلاح الأفراد والمجتمعات.

(٣) ﴿وَهُدًى﴾: **الْهُدَى**: هو الرشاد، والدَّلالة على الخير، وهو ضِدُّ الضلال. وفي القرآن دَلَالَةٌ للأفراد والجماعات، إلى مَا فيه صلاح دُنياهم، وسعادتُهُمْ في آخِرتهم.

ولفظ «الْهُدَى» مصْدَرُ «هَدَاهُ يَهْدِيه» أُطْلِقَ على القرآن، للدّلالَةِ علَىٰ

أنّ كلَّ شَيْءٍ في القرآنِ يَهْدِي إلى الحقِّ والخير وفضائل الأعمال، فَهُو بمثابَةِ عَيْنِ الْهُدَىٰ.

(٤) ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: **الرَّحْمَةُ**: صفَةٌ نَفْسِيَّةٌ من آثارها إرادَةُ الْخَيْرِ لِلْمَرْحُوم. والقرآن أثَرٌ من آثار رَحْمَةِ الله بعِبادِه، وفي آياتِهِ عَطَاءٌ ثَرٌّ من عطاءات الخير للناس أجمعين، بما فيها من دَلالاتٍ على كلِّ مَا فيه صَلاحُ دُنيا النّاس، وسعادة آخِرَتهم.

وبهذا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفُ بأنَّهُ رَحْمَةٌ، وهٰذا من إطلاق اسم الشَّيْء على آثاره، فهو من المجاز المرسل.

ولمَّا كانَ المؤمنُون هم الّذِينَ يَسْتَفِيدُون من الرَّحْمَةِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عليها آيات القرآن المجيد، كَانَ من الحكمة في البيان تقييدُ رحْمَتِهِ بأنَّها خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمنين، فقال تَعالَىٰ: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَمَنْ آمَنَ بأَنَّ القرآنَ كلامُ الله، وآمَنَ بِصِفَاتِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، ومِنْهَا أنَّهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيم، أَدْرَكَ أَنَّ آياتِ كِتَابِ اللهِ هي من آثار رَحْمَتِهِ بِعِبَادِه، فَهُو يَتَّبِعُ مَا تَهْدِي إِلَيْهِ، لِيَنَالَ خَيْرِي الدُّنيا والآخرة.

وهذه العبارة تُبَيِّنُ لأولي الألباب المتدبِّرين لآيات كتاب الله، قِيمةَ الإيمانِ الصَّحِيح الصادق في حياة الإنسان، وفي اختياراتِه السُّلُوكِيَّة النفسيَّة والْجَسَدِيَّة.

وبهذا انتهىٰ تَدبُّر الدرس الرابع عشر من دُروس سورة (يونس).
والحمد لله على توفيقه ومعونته ومَدَدِه وفتحه.

(١٨)

التدبّر التحليليّ للدرس الخامس عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٥٨ ـ ٦١)

قال الله عزّ وجل خطاباً للرسول ﷺ فلكلّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ

أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾.

القراءات:

(٥٨) ● قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: **[فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ]**.

وقرأها رُوَيس: **[فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

ومؤدّىٰ هٰذِه القراءات واحِد، وهي من التفنُّن بين الخطاب والغيبة. وبعضها اقتضاه التوجيه التعليميّ بالحديث عن الغائبين، وبتعليمهم مخاطبة المدعوّيين.

(٦١) ● قرأ السُّوسي، وأبو جَعْفر: **[شَان]** بإبْدال الهمزة ألفاً. وقرأها حمزَة كذلِك في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿شَأْنٍ﴾ بحسب الأصل.

(٦١) ● قَرأ الكِسَائي: **[وَمَا يَعْزِبُ]** بكسر الزاي.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ بضَمّ الزاي.

والقراءتان وجهان عربيان في النطق.

(٦١) ● قرأ حمزة، ويعقوب، وخلف: **[وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ]** برفع «أَصْغَرُ» و«أَكْبَرُ».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ بفتح «أصْغَرَ» و«أكْبَرَ».

وهما وَجهان عَرَبيان جائزان، فرفعهما لُوحظ فيه عطفهما على مَحَلِّ «مِثْقَال» إذ هو فاعلٌ في المعنى لـ ﴿يَعْزُبُ﴾ مجرُورٌ لفظاً بحرْف الجرّ الزائد لتوكيد العموم والتّنصيص عليه. وفتْحُهما لوحظ فيهما أنهما معطوفان على ﴿ذَرَّةٍ﴾ وهما مَمْنُوعان من الصّرف فَيُجَرَّانِ بالفتحة ولا يُنَوَّنان.

تَمْهيد:

في هذا الدَّرْس يُعلّم اللهُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إلى الله مِنْ أُمَّتِه، تَوْجيهَ دَعْوَةٍ إقناعِيَّةٍ بِشَأْن القرآن ومَا جاء فيه من موعظة من رَبّهم، وشفاءٍ لمَا في الصُّدُور، وهُدىً ورحْمَة، رَغْبَةً في استجابة غير المستجيبينَ بَعْدُ من الناس، وتَثْبيتاً للمُستجيبين، وإعلاماً لَهُمْ بما يُخَفِّفُ تعَلُّقَهُمْ بِالدُّنيا، ويَرْبِطُ قُلُوبَهُمْ بفَضْلِ اللهِ المُدَّخَرِ للمتّقين والأبْرار والمحسنين. وَأَنْ يُبيّنَ للمشركين عُدْوانَهُمْ على رُبوبيَّة اللهِ في التَّحْرِيم والتحليل، دُونَ إذْنٍ مِنْهُ جلَّ جلاله، بل هم فيه يَفْتَرُونَ علَيْهِ في إصدار أحكامٍ دِينيَّة لَمْ يُنْزِلْها ولم يأذَنْ لَهُمْ بأنْ يضَعُوها مِنْ عِنْدِ أنفسهم.

وفيه وعيدٌ للّذين يفْتَرُونَ على الله الكَذِبَ، ومِنْهُ إصْدار أحكام لَمْ يُنْزِلْها، ولَمْ يأْذَن بوَضْعِها، إذْ هِيَ من خصائِصِ رُبُوبيّته.

وفيه بيانُ مُراقبةِ اللهِ لعبادِه دَواماً مُراقَبَةَ شُهُود، فَلَا يَبْعُدُ عَنْهُ ولا يَخْفَىٰ عليه مقدارُ ذَرَّةٍ ولا أصْغَرُ من ذَرَّةٍ ولَا أَكْبَرُ، إذْ هو مَعْلُوم لَهُ تبارك وتعالى، ومُسَجَّلٌ عِنْدَهُ في كتابٍ، ثم هو يُحَاسِب عليه، ويقْضِي بشأنه، ويجازي على وَفْقِ قضائه.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله ﷺ فلكلّ داعٍ إلى الله من أمته:

﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾.

أي: قُلْ للنَّاسِ أيُّهَا الدَّاعي إلىٰ اللهِ مُبيّناً وَمُقْنِعاً: إذَا كُنْتُمْ تُرِيدُونَ تحقيقَ مصَالحِ دُنْياكم، والظَّفَرَ بالسّعادة في أُخْرَاكُم، والْفَرَحَ بما يُرْضيكم، فاتّبِعُوا وَاسْتَمْسِكُوا بما جاءَكُم مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ فَضْلٍ فِي آيَاتِ كِتَابِهِ المجيد، ومن آثارِ رَحْمَتِه، إذِ اشْتَمَلَ كتابُه على مَوْعِظَةٍ لكم منه، وشفاءٍ لِمَا في الصُّدور وَرَحْمَةٍ عظيمة.

وَإذَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ بِشَيْءٍ فيه خَيْرٌ عظيمٌ لَكُمْ، في عاجلِ أمْرِكُمْ وآجِلِهِ، فَبِذَلِكَ الّذِي جَاءَكُمْ مِنْ رَبّكُمْ في كِتَابِهِ الْمَجِيدِ فافْرَحُوا. إنَّكُمْ تَفْرَحُونَ بِمَا تَجْمَعُونَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وبِمَا يُمْتِعُكُمْ مِنْهَا مَتَاعاً فانِياً سَرِيعَ الزَّوَالِ، وَلَوْ أَبْصَرْتُمُ الحقِيقَةَ الباقيةَ الخالِدَة، لأَدْرَكْتُمْ أنَّ اتِّبَاعَكُمْ واسْتِمْساكَكُمْ بما جاءكم مِنْ رَبّكُمْ في كِتَابِهِ الْمَجِيدِ هُوَ خَيْرٌ وأجَلُّ وأعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا تَجْمَعُونَ مِمَّا زُيّنَ للنَّاسِ من الحياة الدُّنيا.

فالمعنى: ﴿قُلۡ﴾: اسْتَمْسِكُوا ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ ممَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ آياتُ كتابِهِ، واتَّبِعُوا مَا هَدَاكُمْ رَبّكُمْ إلَيْهِ لِتَظْفَرُوا بِخَيْرَي الدُّنْيا والآخرة، اللَّذَيْن يُفْرِحَانِكُمْ فَرَحاً حَقِيقِيّاً مُمْتَداً إِلَىٰ الأبَد، وإنْ كُنْتُمْ حَرِيصِينَ علىٰ أَنْ تَفْرَحُوا فَرَحاً حَقِيقِيّاً ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الّذي جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وبالْحِرْصِ على الاسْتِمْسَاكِ به واتباع ما جاء فِيهِ من وَصَايا ربّكُمْ **[فَلْتَفْرَحُوا]** واعْلَمُوا أَنَّ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكُمْ فيما لَوْ اسْتَمْسَكْتُمْ به واتّبَعْتُمْ وَصَاياه ﴿هُوَ خَيۡرٞ﴾ لكُمْ **[مِنْ]** كُلّ **[مَا]** تَجْمَعُونَ مِنْ فانيات الْحَيَاةِ الدُّنيا، ومن كُلِّ ما تَسْتَمتِعُونَ به منها.

قول اللهِ عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله ﷺ فلكُلّ دَاعٍ إلى اللهِ من أمّته:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

في هذا البيان يُعَلِّم اللهُ عزَّ وجلَّ الدَّاعِيَ إلى الله أسلوباً من أساليب إقناعِ الّذِينَ يَفْتَرُون علَىٰ اللهِ، فيما هُو من خصائِصِ رُبُوبيَّةِ اللهِ وإلَٰهيَّتِهِ لِعِبَاده، وهي أَحْكَامُ التحريم والتحليل، فَيُحَرِّمُونَ مَا لَمْ يُحَرِّمْه الله عزّ وجلّ، وقَدْ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَهُ اللهُ، فَيُحَرِّمُونَ بأحكامِ جاهليَّة مِنَ الْأَنْعَام ومِنَ المآكل مَا لم يُحَرِّمْهُ اللهُ، كتَحْرِيم أهل الجاهليَّةِ الْبَحِيرةَ، والسَّائبةَ، والْوَصِيلَة، والْحاميَ، وكتَحْرِيمهم على الّذين كانُوا يطوفون بالبيتِ عراةً الوَدَك (وهو الدَّسَمُ والدُّهن) مَا أقامُوا في المؤسِمِ، وكتَحْلِيلِهِمْ أكْلَ الْمَيْتَةِ والدَّمِ.

وكانَ أوَّلُ ما نَزَلَ بِشأْنِ أحْكامِ التَّحريم والتّحليلِ الجاهليّة فِي القرآن المجيد، قولُ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لرسوله، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هذا النَّصّ في مكانِهِ من سورة (الأعراف).

ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ الآيَتَيْن (٥٩ و٦٠) من سورة (يُونس/ ٥١ نزول) الّتي نتدبَّرُها.

ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ عزّ وجَلَّ الآيات من (١٣٨ ـ ١٤٠) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وقَدْ جاء فيها بَعْضُ تفصيل لأحكام الجاهلية في تحريم بَعْضِ الأنْعَام وبَعْضِ الحرْث، ضِمْنَ صِفَاتٍ وحُدُودٍ افترائيَّةٍ حَدَّدُوها، وزَعَمُوا أَنَّها أَحْكَامٌ رَبَّانيَّةٌ تَعَبُّدِيَّة افتراءً علَىٰ الله.

ثم أَنْزَلَ اللهُ عزّ وجَلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) الآيَة (١٠٣) وفيها ذكْرٌ تَفْصِيليٌّ لِلْأَنْعَامِ الَّتي حَرَّمَها أهْلُ الجاهلية، فجاء فيها ذِكْرُ البحيرة والسَّائِبَةِ والْوَصِيلَةِ والْحَامي⁽¹⁾.

وأقتصر هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ مَا جَاءَ في سورة (يونس) الجارِي تَدَبُّرُ آياتها بما يفْتَحُ الله.

قول اللهِ تعالى لرسوله ﷺ فلكلّ داعٍ إلى اللهِ من أمَّته:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا . . ﴿٥٩﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ تَعْلِيمُ أُسْلُوبٍ إقْنَاعِيٍّ من الله عزّ وجلّ، كي يُوَجِّهَهُ الرَّسُول ﷺ فالدَّاعي إلى دينِ اللهِ من أمَّته، للمشركين وأمْثَالِهم، الّذين يُشَارِكُونَ اللهَ جلَّ جلالُهُ فيما هُو من خَصَائِصِ إلٰهيَّتِهِ لِعِبَادِهِ، الَّذين يُفِيضُ علَيْهِمْ مِنْ عطاءاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، ولَوْلاها لَمْ يَكُونُوا شيئاً، أَوْ لم يَبْقَوْا لحظَةً واحدةً في الوجود إنْ قَطَعَها عنهم، وهٰذه المشارَكَةُ للهِ فِي إلٰهيَّتِهِ تظْهَرُ في أُمُورٍ شتَّىٰ، ومِنْها إصْدَارُ أحكام التَّحْرِيمِ والتحليلِ من عِنْدِ أنْفُسِهِمْ، أو من قادَتِهِم الزَّمَنِيّين، أو مِنْ سَدَنَةِ أَوْثَانِهِمْ، دُون إذْنٍ من اللهِ، أو افْتِرَاءً عَلَيْهِ بِادِّعَاءِ أَنَّها أحْكَامُ اللهِ، أو عُدْواناً علَىٰ حَقِّ إلٰهيّتِهِ لَهُم زاعِمين أنَّ للبَشَر حقّاً في إصْدَار أحكام التحريم والتحليل.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ ممّا يُؤْكل، ويُشْرَبُ، ويُلْبَسُ، ويُتَداوَى به، وقَدْ يُطْلَقُ على ما هو سَبَبٌ لذلك مجازاً. وقَدْ يُعَمَّمُ فَيَشْمَلُ كُلَّ عطاءٍ رَبَّانيّ، مثل عطاء الذُّرّيّة، وعَطاء العلم، وغير ذلك.

● ﴿. . قُلْ أَرَءَيْتُم . .﴾: أي: أتفكَّرْتُمْ تَفَكُّراً سَلِيماً فرأيْتُمْ بعُقُولكُم

---

(١) انظر هَذا الْبَحث في كتاب «بصائر للمسلم المعاصر» تحت عنوان «الغُلُوّ في الأحكام الشرعِيَّة» الصفحات من (٣٢٦ ـ ٣٣٢) للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

مِثْلَمَا تَرَوْنَ بأعينكُمْ وأبْصَارِكم. إذا كُنْتُمْ لَمْ تَتَفَكَّرُوا هذا التفكُّرَ السَّلِيمَ، فافْعَلُوه لِتَرَوْا.

● ﴿.. مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ..﴾: أي: مَا خَلَقَ اللهُ رَبُّكُمْ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ وأَسْبَابِهِ وَوَسَائِله.

أُطْلِقَ لفظ **[أَنْزَلَ]** بمعنىٰ «خَلَقَ» لأنَّ كُلَّ خَلْقِ اللهِ وصُنْعِهِ ولوْ كان في الأرض ومِنَ الأرْض هو إنْزَالٌ، فاللهُ عزّ وجلَّ هو الْعَلِيُّ الأعْلَىٰ، وأوامرُ خَلْقِهِ تَنْزِلُ إلَىٰ مواقِعِها في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ مِنْ صِفَاتِهِ العليَّةِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهَا في عُلُوِّها ذُو عُلُوٍّ مَهْمَا سَمَا وعلا، فخَلْقُهُ إنْزَال، وعَطاءاتُهُ لِخَلْقِه إنْزَال.

● ﴿.. فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ..﴾: أي: فَجَعَلْتُمْ بأوْضَاع مِنْكُمْ قِسْماً ممّا أحَلّ اللهُ مِنْهُ حَراماً، وبَعْضاً مِنْهُ مِمَّا حَرَّمَ عليكم أَنْ تَأْكُلُوه أَوْ تَشْرَبُوه حَلالاً، مع أنَّهُ رِزْقٌ يُنْتَفَعُ بِهِ في غير الأكْلِ والشُّرْبِ، كأنْ يَكُونَ سماداً للأرْض تمتَصُّ مِنْهُ النباتاتُ عناصِرَ تكُونُ لكُمْ فيما بَعْدُ رِزْقاً حلالاً طيّباً، وثمراتٍ نافعات، فَهُوَ رِزْقٌ بِوَجْهٍ عامٍّ، وهي أحْكام الجاهليّة الّتي سبَقَ ذِكْرُ بَعْضِها.

وقَدْ طُوِيَ في النَّصِّ هُنَا بيانُ تَقْرِير الَّذِينَ يُوَجَّهُ لهم الإقْنَاعُ، بشأنِ أحكامهم الجاهليَّةِ في الأنْعَام والحرْث، لِبنَاءِ الإقْنَاعِ التالي عليه:

﴿.. قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾؟:

أي: قل لَهُمْ: أَنْتُمْ بَيْنَ احْتِمَالَيْن:

الاحْتِمَالُ الأول: أنْ تَدَّعُوا أَنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ بأَنْ تُصْدِرُوا أحْكامَ تَحْرِيمٍ وتَحْلِيلٍ على ما يَبْدُو لكم، وهي أحكامٌ خاصَّةٌ بإلَهِيَّةِ اللهِ الرَّبّ لعباده، إذْ هي من عناصِرِ عبادتِهِمْ لَه، جل جلالُهُ وعظم سلطانه.

أَفَأَذِنَ اللهُ الرَّبُّ لكُم بهَذا وهو صاحِبُ الحقِّ دُونَ غيرِه في أحكام التحريم والتحليل التَّعَبُّدِيّة؟!

قُدِّمَ في العبارة لفظ الجلالةِ «الله» للتَّنْبيه على أنَّ اللهَ هو وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ حَقُّ الإِذْنِ لِبَعْضِ عباده بإصْدَارِ أحكام التحريم والتحليل التَّعَبُّدية.

دلّ على هذا الاحتمال قولُ الله تعالَىٰ: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾؟

الاحتمال الثاني: أَنْ تَكُونُوا في هذه الأحكام تَفْتَرونَ على اللهِ إِذْ تَدَّعُون أَنَّها أَحْكَامٌ رَبَّانِيَّة، أو تَفْتَرون على الله في ادّعاء أَنَّ من حَقِّكُمْ أَنْ تُصدِرُوهَا دُونَ إِذْن مِنْهُ، ودون أَنْ تَكُونَ أحكاماً مُنَزَّلَةً من لَدُنه جلَّ جلاله.

دَلَّ على هذا الاحتِمال بشقَّيْهِ قول اللهِ تعالَىٰ: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟ أي: بَلْ. أعَلَىٰ اللهِ تَفْتَرُون، إِذْ لَمْ يَأْذَنِ اللهُ لَكُمْ، وهذا الافتراء له وجْهان:

الوجْهُ الأَوَّل: أَنْ تَزْعُمُوا أَنَّها أَحْكامٌ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْد الله.

الوجه الثاني: أَنْ تَزْعُموا أَنَّ مِنْ حَقِّكُمْ أَنْ تُصْدِرُوا أحكام تحريم وتحليل للناس على مَا تَرَوْنَ بِعُقُولكم وأهوائكم.

- والرَّدُّ على الاحتمال الأوّل يكون بمطالَبَتِهِمْ بالدَّليل على أنّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى قَدْ أَذِنَ لَهُمْ، ولَنْ يَجِدُوا دَليلاً غير الادّعَاءِ الكاذب، وهذا ساقط بداهة.

- والرَّدُّ على الوجه الأول من الاحتمال الثاني يكونُ بمطالَبَتِهِمْ بالدّليلِ على أنّها مُنَزَّلَةٌ مِنْ عند الله، ولَنْ يَجِدُوا أيضاً دَليلاً غير الادّعَاءِ الكاذب، وهٰذا ساقط بداهة.

- والرَّدُّ على الوجْهِ الثاني من الاحتمال الثاني يكون بإثبات أَنَّ أحكام التحريم والتحليل من خصائص إلَهِيَّة الرَّبّ لعباده، فَلَيْسَ لأحدٍ أَنْ

يُشَارِكَ اللهَ في إلَهيّتِه، إذْ لَيْسَ لأحَدٍ من دون الله مشاركَةٌ للهِ في رُبُوبيَّتِه. وفي هذا ترهيبٌ شديدٌ للَّذِينَ يَتَجرَّؤُون على الفتاوَىٰ في دين الله بالتحريم والتحليلِ دُونَ دَليل شَرْعِيٍّ أَذِنَ اللهُ بالاستناد إلَيْهِ دَليلاً.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

هذا البيان يَصْلُحُ أَنْ يكُونَ مِنْ توابعِ التعليم الإقناعي، ويَصْلُحُ أنْ يكونَ بياناً مُوجّهاً لكُلِّ مُتَلَقٍّ حَرِيصٍ على الانتفاعِ بما يُبَيِّنُهُ اللهُ مِنْ قضايا، وهذا الثاني هو الأظهر، وعلى الأوّل يَفْهَمُ منه الدَّاعي إلى دين الله أسلوباً إقناعيّاً فيه تهديدٌ ضِمْنِيٌّ بعقوبَةِ الّذِينَ يفترون على الله يوم الدين، مقرونٌ ببيان قضيتين ذواتي شأن.

وفي هذا البيان ذكر موجَزاتِ ثلاث قضايا:

القضيّة الأولى: دلّ عليْها قولُ اللهِ عزَّ وَجلَّ في الآية:

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ . .﴾؟ أي: وَمَا هُو ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على اللهِ الْحُكْمَ أو الْقَوْلَ الْكَذِبَ؟. يُقَالُ لُغَةً: «افْتَرَىٰ الكَذِبَ، وافْتَرَىٰ الْقَوْلَ» أي: اخْتَلَقَهُ، فلَفْظُ: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ في الآيةِ مَفْعُولٌ به لفعل ﴿يَفْتَرُونَ﴾.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أَيْ: وما ظَنُّهُمْ فِي جَزاءِ اللهِ يَوْمَ القيامة؟! أيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مَبْعُوثِينَ فلَا جزاء؟!. أيَظُنُّونَ أنَّ الله ـ إنْ بَعَثَهُم يَوْم القيامة ـ فَإنَّهُ لَا يجازيهم بالعذاب الأليمِ لافترائهم عليه، والافتراءُ عليه جلَّ جلالُهُ من أقْبَحِ أنواع الظلم؟!

وحولَ هٰذَيْنِ الظَّنَّيْنِ تَدُور مقالاتُ الكافرين بشأن يَوْم القيامة، وقد

أبانَ اللهُ عزّ وجلّ هٰذَا بقوله في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) يَعْرِضُ مقالَةَ الكافر:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ بشأن الكافر صاحِبِ الجنّتَيْنِ وهُو يُحاوِرُ صَاحِبَهُ المؤمِنَ، في قصّتِهِما الّتي ذَكرها تبارَكَ وتعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

القضيّة الثانيةُ: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

دلَّتْ هذه العبارة مع السِّباقِ الّذي جاءَ قَبْلَها، عَلَىٰ أَنَّ الله يَتفضَّلُ على عباده ومِنْهُمُ الّذينَ يفْتَرُونَ علَيْهِ الكَذِبَ، فَلَا يُعَجِّلُ لَهُمُ الْعُقُوبَة، بَلْ يُمْهِلُهُمْ، ويُطوّلُ لَهُمْ أجلَ امتحانهم، رَغْبَةً في أَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا وَيُصْلِحُوا ليتُوبَ علَيْهِم ويَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُم وَكُفْرِيَّاتِهم.

الفضل: هو في الأصْلِ الزّيادة، والبقيَّةُ منَ الشيء، واستُعْمِل بمَعْنى الابْتِدَاء بالإحْسَانِ والْعَطَاءِ من الخير، مادّيّاً كانَ أم معنويّاً، واشْتَهَرَ بهذا المعنى وهو المراد هُنا.

والمتأمِّلُ في عطاءاتِ اللهِ لِعِبَادِهِ يُدْرِكُ بِيَقِينٍ أنَّ كُلَّ عَطَاءٍ يُعْطِيهِ هُو فَضْلٌ مِنْهُ، أي: ابْتِدَاءٌ بالإحْسَان.

أمّا الابْتِلَاء بالمصَائِب فَهُوَ إحْدَىٰ وَسَائِلِ اختِبَارَاتِ اللهِ لعباده الموضُوعِينَ في الحياة الدُّنيا موضِعَ الابْتِلاء.

وأمّا الْعُقُوبَاتُ فَهِيَ نَتَائِجُ عَدْلِيَّةٌ لاخْتِيارَاتِ الموضوعين مَوْضع الامْتِحَان، وهُمُ الجانُون بِها علَىٰ نُفُوسِهِمْ، وهُمُ الظالمون لها، واللهُ جلَّ جلالُهُ لَا يَظْلِمُ أحَداً شيْئاً، مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فمَا دُونَها، بَلْ يَعْفُو عَنْ كثير.

وقد جاء توكيد العبارة بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة».

وجاء تنكير ﴿فَضْلٍ﴾ للدَّلَالَة على أنَّهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ جدّاً.

القضيّة الثالثة: دَلَّ علَيْها قول اللهِ عزّ وجلَّ في الآيَة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾:

أي: ومَعَ أَنَّ اللهَ ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلطانُه ـ لَذُو فَضْلٍ عظيم على النَّاس، ومِنْهُ فَضْلُ الإمْهَالِ الطويلِ، رَغْبَةً في إيمانِهِم بإراداتِهِم الحرَّة، لَكِنَّ أكْثَرَهُمْ كافِرُونَ، لَا يَشْكُرُونَ اللهَ رَبَّهُمْ عَلَىٰ فَضْلِهِ العظيم عليهم، أَدْنَى شُكْرٍ، بإيمانٍ إراديٍّ صَادِقٍ بما أَوْجَبَ عَلَيْهم أَنْ يُؤْمِنُوا بِه، وإعْلَانِهِمْ هذا الإيمان.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ الْحَسَنِ الَّذِي فيه إنْعَامٌ وَتَفَضُّلٌ عَلَىٰ مَنْ يَجِبُ عليه الشُّكر بما يُرْضِي المنْعِمَ المتفضل، ويَدْخُلُ في عُمُومِهِ الْحَمْدُ، وهُوَ الثناء بالجميل.

قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

﴿شَأْنٍ﴾: كَلِمَةٌ عَامَّةٌ تُطلَقُ علىٰ أيّ حالٍ يَكُونُ فيها أو علَيْها الكائن، وهي كالأمْر.

﴿شُهُودًا﴾: جمع «شاهد» وهو الحاضر المراقب.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾: أي: إذْ تَنْدفِعُونَ فيه بِهِمَّةٍ وقُوَّة. «أَفَاضَ يُفِيضُ إِفَاضَةً» أي: انْدَفَعَ بِهِمَّةٍ وقُوَّة.

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾: أي: وما يَبْعُدُ وَمَا يَخْفَىٰ، يقال لغة: «عَزَبَ يَعْزُبُ وَيَعْزِبُ عُزُوباً» أي: بعُدَ وخَفِي.

﴿مِن مِّثۡقَالِ﴾: مِثْقَالُ الشَّيْءِ: مِثْلُهُ في وَزْنِه.

في هذه الآية يُوجِّهُ الله عزّ وجلّ خطابَهُ للرَّسُولِ ﷺ، فَلِأَصْحَابِهِ المجاهِدِين في سبيلِ نَشْرِ دِينِهِ، لإشعارهم بأنَّ اللهَ مَعَهُمْ مُؤَيِّدُهم وَنَاصِرُهم، وسَيَجْزِيهِمْ في الدُّنيا عِزّاً وتَمْكِيناً، كما وعَدَهم، وسَوْف يَجْزِيهم في الآخِرَة مَا يُرْضيهم وفَوْقَ مَا يُرْضِيهِمْ، ممَّا لَا يَقَعُ في أمانيهم، كما وَعَدَهُمْ أيضاً.

وفي هٰذا حَثٌّ لَهُمْ علَىٰ مُتَابَعَةِ مجاهَدَتِهِم في سبيلِ ربّهم.

- ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ . . ﴿٦١﴾﴾:

الخطابُ هُنَا مُوَجَّهٌ للرَّسُول ﷺ، وهو في مَضْمُونِهِ مُوَجَّهٌ أيضاً لِأَصْحَابِهِ التَّابِعِينَ له، والدَّاعِينَ بِدَعْوَته.

وأرَىٰ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي: ﴿مِنۡهُ﴾ يَعُودُ على كِتَاب اللهِ الّذي دَلَّتْ عليه الآية (٥٧):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: وما تَكُونُ في شَأنٍ ما أيِّ شَأْنٍ، خَاصٍّ بِكَ، أو غير خاصٍّ بكَ، كالدَّعْوَةِ إلى دِينِ رَبِّكَ بالحكمة والموعِظَةِ الحسنة، وما تَتْلُو مِنْ كِتَاب رَبِّكَ مِنْ قُرْآنٍ.

القرآنُ هنا: مَصْدَرُ قَرَأَ، وهو مُسْتَعْمَلٌ بمَعْنَى اسْم المفعول، أي: من مَقْرُوءٍ.

التِّلاوَة: هِيَ مُتَابَعَةُ المتْلُوِّ من الكِتَابِ بالقراءة حَرْفاً بحَرْف، وكَلِمةً بِكَلِمَةٍ، وآيَةً بآيَةٍ.

والْتَفتَ البيان بِتَوجيهِ الخِطَابِ للرَّسُول ومَعَهُ أصْحَابُهُ المجاهِدُونَ معَهُ في سبيل رَبِّهم فقال الله تعالى:

- ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ..﴾:

أي: وَلَا تَعْمَلُون مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ تَدْعُون فيه إلَىٰ دِينِ رَبّكُم، وتَتَحَمَّلُون فيه أذَى أَعْدَاءِ دَعْوَتِكُمْ الْمُشَاقِّين لكم، والّذِينَ يَكِيدُونَكُمْ بما يَسْتَطِيعُونَ من كيد، إلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً حَاضِرِينَ مُرَاقِبِينَ كُلَّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَة تَصْدُرُ عَنْكُم أَوْ تُوَجَّهُ ضِدَّكم مِنْ أعدائِكُمْ، حِينَ تَنْدَفِعُونَ بِهِمَّةٍ ونَشَاطٍ وَقُوّةٍ وَتَضْحِيَة، في سبيل الدَّعْوَةِ إلى دين الله، ونَصْرِ الرَّسُول في جهاده.

جاء استعمال ضميرِ المتكلّم العظيم في ﴿كُنَّا﴾ وناسَبَهُ استعمال الجمع الدّالّ على عظَمَةِ المراد به ﴿شُهُودًا﴾.

وجاءت عِبَارَةُ: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أي: إذْ تَنْدَفِعُونَ في عَمَلِكُم بهمة وقُوّةٍ ونَشَاطٍ مجاهِدِين في سبيل رَبّكم، لإشْعَارِهِمْ بأنَّ اللهَ يُثْنِي عَلَيْهِمْ بهذا الانْدِفاع، وهو رَاضٍ عَنْ جهادهم. فَهِمْتُ هذا لأنَّ الله عزّ وجلّ شاهِدٌ مُرَاقِبٌ كُلَّ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ، أفَاضُوا فِيه أمْ لم يُفِيضُوا، فَذِكْرُ إِذْ تُفِيضُونَ فِيه إضافَةٌ تَحْمِلُ مَعْنَىٰ الثَّناء عليهم بهٰذِهِ الإفَاضَة، ورضا الله عَنْهُم بها.

- ﴿.. وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ .. ﴿٦١﴾﴾:

الْتفَتَ الْخِطَابُ هُنَا إلى أسْلُوبِ الخِطَابِ الإفرادِي لكُلِّ فَرْدٍ مُتَلَقٍّ له صَالحٍ للخطاب.

أي: وَمَا يَبْعُدُ عَنْ رَبِّكَ وَلَا يَخْفَىٰ عليه شيءٌ في الْوُجُود كُلِّه، صَغِيراً كَانَ أَمْ كبيراً، إذِ اللهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً.

- ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾: أي: مِنْ مِثْلِ وزْنِ ذَرَّة. «مِنْ» زيدَت لتوكيد العموم والتنصيص عليه، وهي داخلَةٌ على فاعل «يَعْزُب» وهو «مِثْقَال» مجرور لفظاً مَرْفوعٌ محلّاً.

- ﴿.. فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ .. ٦١﴾: أي: في كُلِّ الْوُجود، إذْ يَنْقَسِمُ الْوُجُودُ إلَىٰ أَرْضٍ وَمَا حَوْلَ الْأَرْضِ، وَمَا حَوْلَ الأرْضِ كُلُّهُ سَمَاءٌ لَهَا مَهْمَا امْتَدَتِ الْأَبْعَادُ حتَّىٰ المنْتَهَىٰ بَعْدَ السَّمَاواتِ السَّبْعِ والكُرْسِيِّ والْعَرْش. فَكُلُّ مَا عَلَا سُكَّانَ الْأَرْضِ فَهُو سماء.

- ﴿.. وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ .. ٦١﴾: أي: ولَا أصْغَر مِنْ مِثْلِ وَزْنِ ذَرَّةٍ حتَّىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ في الْوُجُودِ غَيْرِ قَابِلٍ للانْقِسَام، ولَا أَكْبَرَ حَتَّىٰ أعْظَمِ مقْدَارٍ في الوجود.

وسبَقَ بيانُ القراءتين في «أصغر» و«أكبر» وتوجيههما نحويّاً.

قولُهُ تعالى في آخِر هذه الآية: ﴿.. إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ .. ٦١﴾:

الّذي أراه أنَّ هٰذا الاسْتِثْنَاءَ هُو اسْتِثْناء من مطويٍّ مَحْذُوفٍ لفظاً مُلَاحظٍ تقديراً، ويُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ من الْبَيَانِ الّذِي جَاءَ في الآية قَبْلَه، وتَقْدِيرُه: وَلَا شيْءَ في الوجود كُلِّهِ من الذَّوَاتِ والصِّفاتِ والْأَحْدَاثِ إلَّا هُو مُسَجَّلٌ فِي كِتَابٍ لَا يُغادِرُ صَغِيرَةً ولَا كَبِيرَةً إلَّا أَحْصَاها.

ومِثْلُ هٰذا الحذْفِ كثيرٌ في القرآنِ المجيد، والْمُتَأَمِّلُ المتَدبِّرُ للمَعَانِي يَكْشِفُ من المطويّاتِ مَا لَوْ صُرّح بِهِ لكانَ المصْحَفُ مجلَّدَاتٍ لَا يَسْتَطِيعُ الناس استيعابَها ولا حِفْظَها.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدَّرْس الخامس عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحه ومَدَدِه وتوفيقه ومعونته.

(١٩)

التدبّر التحليلي للدرس السادس عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٦٢ ـ ٦٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

القراءات:

(٦٢) • قرأ يَعْقُوب: [**لاَ خَوْفَ عَلَيْهُمْ**] بفتح «خَوْفَ» وضَمِّ هاء «عَلَيْهُمْ». وَفَتْحُ «خَوْفَ» على أنّه مبنيٌّ في مَحَلِّ نَصْب اسم «لَا» النافية للجنس.

وقرأها حمزة: [**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهُمْ**] بِرَفْع «خَوْفٌ» وضَمّ هاء «عَلَيْهُمْ» والرفع أحد الوجوه الجائزة إذا تكرَرَت «لا» النافية للجنس.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ برفع «خَوْفٌ» وكَسْرِ هَاء «عَلَيْهِمْ».

وهي وُجُوه عَرَبِيَّة جائزة، كما سبق بيانه بالنسبة إلى «لا» النافية للجنس التي تعمل عمل «إنّ».

تمهيد:

أشعرت الآية الأخيرة من الدَّرْس السابق «الخامس عشر» بأنّ اللهَ يُثْني على رَسُولِهِ والمجاهِدِين في سبيله بالدَّعْوة إلى دينهِ الحقّ، وأنّ هٰذا

يؤهِّلُهُمْ لأنْ يكُونُوا أوْلياءَه المستحقِّين لنُصْرَتِهِ، وحِمَايته، وتأييده، ومعونتِه، وتوفيقه، ومنْحِهم العزَّة والتمكينَ في الأرْض، ولَوْ كَرِهَ المشركُون وسَائِرُ الكافِرين، ولَوْ كانَتْ قُواهُمْ هِيَ الْأَكْثَر، ولَوْ كانُوا مُمَتَّعين بِسُلْطانٍ لا يَسْتَطِيعُ المؤمنُون أن يَغْلِبُوه بحَسَب الظاهر، فجاء هذا الدرس «السادس عشر» مبيّناً بعْض ثَوَاب أَوْلِياءِ الله، وصِفَتَيْن أولَيَيْنِ مِنْ صِفاتهم.

التدبّر التحليليّ:

قول الله تعالى:

- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

- ﴿أَلَآ﴾: أداة اسْتِفْتاح وتنبيهٍ وتحقيق، إذْ هي مركَّبَةٌ مِنْ همزة الاستفهام و«لَا» النافية، وهمزة الاستفهام إذا دخَلَتْ على النَّفْي أفادتِ التحقيق، ويتعيَّنُ كَسْرُ «إنَّ» بَعْدَ «ألَا».

﴿إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: **أَوْلِياء**: جمع وَلِيّ. **والْوَلِيُّ**: يأتي للدلَالَةِ على معانٍ كثيرة، منها: النّاصِر، والمحِبّ، والْعَبْد، والتابع، والّذي يَلِي عَلَيْكَ أَمْرَكَ وَيَتَوَلَّاه، وغيرها.

بعض هٰذِهِ المعاني خاصَّةٌ بالعباد، وَبَعْضُهَا خاصَّةٌ باللهِ في هذا الْبَيان، وَبَعْضُهَا مُشْتَرَكة.

فالْوَلِيُّ بِمَعْنَىٰ النّاصِر والمحبّ، من المعاني المشْتَرَكة، فأَوْلِيَاءُ اللهِ تعالى الَّذِينَ يَنْصُرُونَهُ بمَعْنَىٰ يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ نُصْرَةِ دينِهِ، يَنْصُرُهُمُ الله بِعِزَّتِه، كما قال اللهُ عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نُزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾﴾.

وأَوْلِياءُ اللهِ تَعالَىٰ الّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، يُحِبُّهُمُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

والوليُّ بمعنى الْعَبْدِ المتحقِّق بِعُبُوديَّتِه، وبمعْنَىٰ التابعِ بإرادتِه الحرَّةِ، من خَصَائِصِ العباد المؤمنين المتقين.

والْوَلِيُّ بِمَعْنَىٰ الَّذي يَلِي أُمُورَ عبادِه المؤمنين المتَّقين، ويَتَوَلَّاهم، وقَدْ يَمْنَحُهُمْ بَعْضَ عَطَاءَاتِهِ عَلَىٰ خِلَافِ مَجْرَىٰ العاداتِ، من المعاني الخاصَّةِ باللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

وهذا المعنى هو المعنى الذي يَسْتَغِلُّهُ مُدَّعُو الكراماتِ لتَحْقِيقِ مطالِبَ دُنْيويَّةٍ لَهُمْ، لدَىٰ الَّذين يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلياء اللهِ ذوي الكراماتِ، المُسْتَجَابِي الدَّعَوات، الّذِينَ يُتَقَرَّبُ إلَىٰ اللهِ بإكْرامِهِمْ وتَعْظِيمِهِمْ وَمَنْحِهِمْ مَا يُرْضِيهم، وهذا الاستغلال من كبائر الإثم الّتِي يَقْتَرِفُهَا مُدَّعُو الكرامات.

حتَّىٰ الَّذِينَ يُكْرِمُهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ بِبَعْضِ خوارِقِ العاداتِ، يَجِبُ عَلَيْهِمْ أنْ لَا يَسْتَغِلُّوها لِتَحْقِيقِ مطالِبَ دُنْيَوِيَّةٍ لهم، فإنْ فَعَلُوا ذَلِكَ سَلَبَهُمُ اللهُ مَا تَوَلَّاهم بِهِ مِنْ مَعُونَةٍ وتَوفيقٍ وإكرام، لكِنَّهُمْ إذا نَصَرُوا بها دين الله، فإنَّ اللهَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، ومن إكْرامَاتِه، وحينئذٍ يكونُونَ أَوْلياءَ اللهِ حقّاً، بِشَرْط أَنْ يَكُونُوا مؤمنين متّقِين.

﴿.. لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أرَىٰ أَنَّ هٰذا مِنْ ثوابِ اللهِ لهم يَوْمَ القيامَة. فَهُمْ يَوْمَئِذٍ لا يُسَلَّطُ عليْهِمْ ما يُخِيفُهُمْ مِنْ نُزُولِ عَذَابِ اللهِ فيهم، بَلْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ مطمَئِنِّين، راضِينَ رَبَّهُمْ، وَمَرْضِيِّينَ بعَطَاءَاتِهِ، ومُبَشَّرِينَ بأَنَّهُمْ من أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيم، فَهُمْ سُعَداء بذلك. ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ علَىٰ شَيْءٍ فَاتَهُمْ من دُنْيَاهُمْ، إذْ يَجِدُونَ التَّعْوِيض العظيم بما

أعَدَّ اللهُ لَهُمْ مِنْ أجْرٍ جَزِيلٍ يَصِلُ إلَىٰ سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ فإلى أضعافٍ كَثيرةٍ أُخْرَىٰ يَنالونَها من فَيْض عطاءات ربِّهم الذي لَا تَنْقُصُ خزائِنُهُ مَهْما أفاضَ مِنْها على عباده.

الخوف: مشاعر نفسيّة فيها ألَمٌ وَقَلَق، من تَوَقُّعِ حُلُولِ مَكْرُوه، أو فوات مَحْبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه. يقال لغة: «خاف مِنْ كذا ـ وخَاف على كذا ـ وخافَ كذَا على نَفْسِه أو غَيْرِه».

الْحُزْن: مَشاعِرُ أَلَمٍ في النَّفْسِ طَوِيلِ الأمَدِ، بسبب مَحْبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه قد فات، أوٍ بسَبَبِ مَكْرُوهٍ نَازِلٍ أَوْ مُتَوَقَّعِ النُّزُول، كالحُزْنِ على محكومٍ عليه بالقتل، وهُوَ قَرِيب أو حبيب.

وهو ضِدُّ الفرح والسُّرُور، يُقال: «حزَنَهُ الأمْرُ حُزْناً، وأحْزَنَهُ إحْزَاناً». قال الجوهري: حزَنَهُ لغَةُ قُرَيش، وأَحْزَنَهُ لُغَةُ تميم.

قولُ الله عزّ وجلّ في وَصْفِ أوليائه:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

ذكَرَ اللهُ عزّ وَجلَّ في هٰذِه الآيَةِ وَصْفَيْنِ أَسَاسَيْنِ هُمَا أَدْنَىٰ أَوْصَافِهِمْ، وهُمَا مِنْ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ التّقْوى، وكُلَّما ارْتَقَتْ دَرَجَاتُهُمْ في مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، فَمَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، زادَتْ وِلَايَةُ اللهِ لهم، وزادَتْ عِنَايَتُهُ بِهِمْ، وَإِكْرَامَاتُهُ لَهُمْ مِنْ فُيُوضِ عَطَاءَاتِه المعنويّة، وَتَأييدِه ونَصْرِهِ المبينِ.

الْوَصْفُ الأوّل: أَنَّهُمْ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً مُسْتَوْفِياً كُلَّ عناصِرِ الْإيمان، المطلُوبِ مِنَ الناسِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، ولَاقَوْا رَبَّهُمْ وَهُمْ كَذَلِكَ.

الوصْفُ الثاني: أَنَّهُمْ كانُوا في أعمالهم النَّفْسِيَّة والْجَسَدِيَّة يَتَّقُونَ عُقُوباتِ الله المقرَّراتِ عَلَىٰ المعَاصِي والمخالفات، وهٰذِهِ التَّقْوىٰ تكُونُ

بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَمْرَ إلْزام، وباجْتِنَابِ ما نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم، ولَاقَوْا رَبَّهُمْ وهُمْ مُتَّقُون.

قول الله تعالَىٰ مُبيّناً مَا يُطَمْئِنُهُمْ اللهُ بِهِ حتَّىٰ لَا يخافُوا وَلَا يَحْزَنُوا:

- ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾:

البُشْرى: اسْم يُطْلَقُ على الشيء السّارّ المفرِحِ الّذي يأتي به الْخَبَرُ أو الْعِلْم.

أي: تُوَجَّهُ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ في الحياة الدُّنيا بما يلي:

(١) بالنُّصُوصِ القرآنيّة الكثيرة الّتي فيها تَبْشِيرُ الّذين آمَنُوا واتَّقُوا بِجنَّاتِ النعيم التي أعدَّها الله لهم، إذْ يَدْخُلُونَها يَوْم الدِّين خَالِدِين.

(٢) بالبِشَارات الَّتي تُبَشِّرُهم بها الملَائِكَةُ قُبَيْلَ قَبْضِ أرْواحِهِمْ وهُمْ يُحْتَضَرُونَ، كما ثَبَتَ هٰذا فِي الصحيح عَن النبي ﷺ.

وتُوجَّهُ لهم أيضاً الْبُشْرَىٰ فِي الآخِرَة بمُشَاهَدةِ مَنَازِلهم في الجنَّة، وبِبشَارَات الملائكة لهم بَعْدَ الموت، وعِنْدَ الْبَعْث، وفي مَوْقف الحشر، وَبَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْل القضاء.

وقد سبَقَ بيانُ هذا الموضوع بتفصيل لدَىٰ تَدبُّر الآية (٢٢) من سُورَةِ (الفرقان/ ٤٢ نزول)(١).

- ﴿.. لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ .. ﴿٦٤﴾﴾: أيْ: هٰذِهِ الْبُشْرَىٰ لأولياء اللهِ سَوف يتحقَّقُ وُقُوعُها، إذْ هِيَ جُزْءٌ مِنْ كَلِمَاتِ اللهِ الَّتي وَعَدَ اللهُ بها عبادَه المؤمِنينَ المتّقِينَ، وهيَ مُعبّراتٌ عَنْ عِلْمِهِ، المستَنِد إلى تَقْدِيرِهِ وقضائِه، المُتَعَلِّق بجزَائِهِ لِعبادِهِ المؤْمنين المتقين.

---

(١) انظر الصفحات من (٤٤٤ ـ ٤٥٢) من المجلّد السّادِس المشتمل على تدبر سورتي (يٓس/ ٤١) و(الفرقان/ ٤٢).

- ﴿.. ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾:

الفَوْزُ: يأْتي بمَعْنَىٰ النجاةِ من الشرِّ، وبمَعْنَىٰ الظَّفَرِ بما فيه ربح وسعادة.

أي: ذلِكَ الّذي يَتَحقق لَهُمْ مِمَّا بُشِّرُوا بِهِ هُو الْفَوْزُ العظيم الرفيع المنزلة.

وبهذا تم تدبر الدرس السادس عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على توفيقه ومدَدِه ومَعُونَتِه وفتحه.

* * *

(٢٠)

التدبّر التحليلي للدرس السابع عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٦٥ ـ ٧٠)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

القراءات:

(٦٥) • قرأ نَافع: [وَلاَ يُحْزِنْكَ] مِنْ فِعْلِ «أَحْزَنَه».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ من فعل «حَزَنَه».

قال الجوهري: «حَزَنَه» لغة قُريش، وأحْزَنَهُ لغة «تَمِيم».

تمهيد:

دلَّت الآيَةُ الأولَىٰ مِنْ هٰذا الدرس وهي (٦٥) على أنَّ كُبرَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ كانُوا يُوَجِّهُونَ للرَّسُول ﷺ أقوالاً تُحْزِنُهُ، وأنَّها أقوالٌ يَسْتَهْزِئون فيها بضَعْفِ قوَّتِه وقُوَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، عَنْ دَفْعِ اضطهاداتهم، وهو يقُول: إنَّ اللهَ العزيز الّذي بِيَدِه مَلَكُوتُ السَّماوات والأرض مُؤَيِّدُه وناصِرُه.

فكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَرْبِيَتُهُ وتَرْبِيَةُ الّذِين يَشْعُرُون بِمِثْلِ مَشَاعِرِهِ من أصْحَابه، وقَدْ يَسْتَعْجِلُونَ تأييد اللهِ وَنَصْرَه.

فأوصَىٰ اللهُ رَسُولَهُ بأنْ لَا تَحزُنَهُ أقْوالُهم مهما اشْتدَّت وخَزاتُها، وما تَشْتَمِلُ عليه من استهزاء بقوَّتِهِ وقُوَّة أصحابه.

وأبَانَ لَهُ أنَّ الْقُوَّةَ الغالِبَةَ فِي الْوُجود كُلِّهِ للهِ جميعاً، وأنَّهُ سَمِيعٌ لما يَدْعُو بِهِ هُو وأصْحَابُه، عَلِيمٌ بما يَتَعَرَّضُونَ له من اضطهاد، ولَكِنْ لم تَقْضِ حِكْمَتُهُ بإنْزَالِ نِقْمَتِهِ بِمَنْ يضْطهدهم ويُعادِيهم.

وَأَبَانَ لَهُ أَنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاواتِ والأرْضِ مِلكُهُ، ومَشْمُولُونَ بِسُلْطَانِ عِزَّتِهِ وقَهْرِه، فحينما تقتضي حِكْمَتُهُ إنْزَالَ نِقْمَتِه بالظالِمينَ الْمُجْرِمين أنْزَلَهَا بِهِمْ علَىٰ وَفْقِ مَشيئَتِه الحكيمة، وبالمقدار الحكيم.

وانْتَقَلَ الدَّرْسُ إلى بَيَانِ بَاطِلِ المشركين، لإشْعَارِ الرَّسُولِ والدُّعَاةِ من أصْحَابِهِ، بأنَّ رِسَالَةَ الإقْنَاعِ الْفِكْرِيّ لَمْ تَنْتَهِ بَعْدُ في مَكَّة، بشَأْنِ تَهْدِيم

عَقِيدَةِ الشِّرْكِ عِنْدَ كَثِيرٍ من أتْباعِ أئِمَّةِ الشِّرْك فيها، أي؛ إنَّ أئِمَّة الشِّرْكِ إذَا وَصَلُوا إلىٰ حالَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها من إيمانِهِمْ عن طَرِيقِ إراداتهم الحرَّة، فإنَّ أكْثَرَ أتْبَاعِهِم فيها لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لأنْ يُؤْمِنُوا، مَتَىٰ تَخَلَّصُوا مِنَ المؤثّراتِ الاجْتِماعيَّةِ الضاغطة عليهم، فَمُتَابَعَةُ هؤلاءِ بالْإِقْنَاع مُتَابَعَةٌ مُجْدِيَة، والصَّبْرُ عليهم مما تُوجِبُه الحكمة في الدَّعْوة.

فجاء في الدَّرْسِ التَّوْجيهُ الإقناعِيُّ لِهَدْم شِرْكيَّاتِ المشركين، وبيان بُطْلَانِ مُعْتَقَداتِهِم بالْأَدِلَّةِ الكاشِفَةِ، وبيان أَنَّ المشركين لَا يَتَّبِعُون إلَّا الظنونَ التَّوَهُّمِيَّة، الَّتي لَا تَثْبُتُ أمَام أصْغَرِ ضَرْبَةٍ مِنْ ضَرَباتِ الحقِّ، في صراع الجدالِ بالَّتِي هي أحْسَن.

وجاء في الدَّرْس مَوْعظة الكَفَرَةِ المشركين بالتَّرْهِيب بعذاب اللهِ الشديد يوم الدين.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى لرسوله ﷺ:

- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

الحزْنُ: ضدّ الفرَح والسُّرور، وهو مشاعِرُ ألم في النَّفْسِ طَوِيلِ الأمدِ، ومن أسبابِهِ مَكْرُوهٌ حَصَل، قَدْ مسَّ النَّفْسَ بألَم.

الْعِزَّة: هي القوَّةُ الغالبة.

السّمِيعُ: صيغَةُ مبالَغةٍ للسّامع، وهو من أسماء اللهِ الحسْنَى، ويَدُلُّ على أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَسْمَعُ دَواماً في الوجود كُلِّه، كُلَّ شَيءٍ قابلٍ لأَنْ يُسْمَع، مَهْمَا كَانَ ضئيلاً أو عظيماً.

العليم: صيغة مبالَغةٍ للْعَالم، وهو من أسماء الله الحسنىٰ، ويَدُلُّ على أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ يَعْلَم دَواماً كُلَّ شيءٍ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ في الواقع.

وقول الله لِرَسُوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يَدُلُّ علىٰ أنَّ كُبرَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ كَانُوا إبَّانَ التَّنزيلِ يُطْلِقُونَ وَيُردِّدُونَ وَيُشيعُونَ أقوالاً تُحْزِنُ الرَّسُولَ ﷺ.

ودَلَّ قولُ اللهِ عزّ وجلَّ عَقِبَهُ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ علىٰ أنَّ الأقوال الّتي كانت تُحْزِنُهُ قُبَيْلَ نُزُولِ سورة (يُونس) وعِنْدَ نُزُولها، تتعلَّقُ بِضَعْفِهِ وضَعْفِ الّذينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ عَنْ مواجَهَةِ عِزَّةِ الكَفَرَةِ الَّتي يَعْتَزُّون بها وَيَضطهِدُونَ بها المؤمنين، ورُبما قالُوا: لَوْ كان صادقاً في أنَّه نبيٌّ نبَّأَهُ الله، ورسُولٌ أرْسَلَهُ لَنصَرَهُ، ونَصرَ الّذين آمَنُوا به واتَّبعُوه، ولَمَا مَكَّنَ الكافِرينَ بما جاءَ به من اضطهادهم وتَعْذِيبهم.

فقال الله عزّ وجلّ لرسوله وللمؤمنين وللكافرينَ ولكُلِّ الناس:

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: أي: إنَّ الْقُوَّةَ الْغَالِبَةَ فِي الْوُجُودِ كُلِّه حتَّىٰ مَا كَانَ مِنْهَا في مِلْكِ عبادِهِ بتَمْلِيكِ اللهِ لَهُمْ شيئاً مِنْ قُوَّتِه ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هِيَ مِلْكٌ لِلَّهِ يَتَصرَّفُ بِها كَيْفَ يَشَاءُ ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِه، ومِنْ تَصرُّفه الحكيم تَمْلِيكُ الكَفَرَةِ والظَّالمين، بَعْضَ الْقُوَىٰ في حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، لِيَمْتَحِنَ النَّاسَ فيما آتاهم، ولِيُمَحِّصَ المؤمِنِينَ، ويُمَيِّزَ الصَّادِقين. ولفظ ﴿جَمِيعًا﴾ حَالٌ للعزّة.

وبما أَنَّ اللهَ عزّ وجلَّ سَمِيعٌ لما يَقُولُه الكافِرونَ ويُشيّعُونه ضِدَّ الرَّسُول وضدَّ الَّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وعليم بمكْرِهم وكيْدِهم وتَدْبيراتِهم الظالمات الآثِمَات، وسَمِيعٌ لما يَقُولُهُ الرَّسُولُ والمؤمِنُون، وعَلِيمٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ وَمَشَاعِرِهم، خَتَمَ اللهُ عزّ وجلّ الآية بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥﴾ مُتَّصِلاً بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فاللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ هو السَّمِيعُ دواماً لكُلّ مَا هو قابلٌ لأَنْ يُسْمَعُ في الْوُجُودِ كُلِّه، الْعَلِيم بكُلِّ شيءٍ.

قول اللهِ تعالى:

- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ .. ﴿٦٦﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾: أداةُ استفتاحٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَحقِيق، وسبَقَ قَرِيباً تَتِمَّةُ الْكَلام حوْلَها.

أي: انْتَبِهُوا واعْلَمُوا متحقِّقينَ أَنَّ كُلَّ مَنْ في السَّمَاواتِ مِنَ مَلائِكَة، وأَنَّ كُلَّ مَنْ في الأرْضِ من ملائكة وإنْسٍ وجِنٍّ، هُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ وعبيدٌ لَهُ، لأنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خلْقِهِ، ولا بقاء لهم إلَّا بإمدادٍ مِنْهُ لهم بالبقاء، فلا تَشُكُّوا في حِكْمَةِ اللهِ رَبِّكُمْ بإمْهَالِ أعْدَاءِ دَعْوَةِ الحقّ، التي بعَث اللهُ بها رسُولَهُ.

«مَنْ» اسم موصول مَوْضوع في الأصل لذي الْعِلْم، وهو مِنْ أَلْفَاظِ الْعُمُوم.

والَّذِين نَعْلَمُ أَنَّهُمْ في السَّمَاوات هم الملائكة، والّذين نَعْلَمُ أَنَّهُمْ في الأرض من ذوي العِلْم هم ملائكة وجِنٌّ وإنْس.

قول اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿.. وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

بَعْدَ البيان السَّابِقِ الّذي ظهر أنّ المقصودَ بِهِ طَمْأَنَةُ الرسولِ ﷺ وأصحابه، وتَسْلِيَتُهُمْ، اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ حضَّ الرَّسول وأصحابهِ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ مُجَاهَدَةِ الكافرين، رجاءَ إقناعِهِم ببُطْلَانِ مذاهِبِهِمُ الشِّرْكيَّةِ، إذْ جَمَاهِيرُ أتْبَاعِ أئمَّتِهِمْ لَمْ يَصِلُوا إلَىٰ حَالَةٍ ميؤوسٍ مَعَها من إيمانِهِمْ عَنْ طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة، بَلْ لَدَيْهِم الاسْتِعْدَادُ الْقَلْبِيُّ لأنْ يُؤْمِنوا، وهذا ما تحقَّقَ في السَّنَواتِ اللّاحِقات، وَعِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ دَخَلَ معظمهم في الإسلام، بَعْدَ أنْ أهْلَكَ اللهُ أئِمَّةَ الكُفْرِ والْفُجُور والطُّغيان في مكّة.

فأَبَانَ اللهُ عزّ وجلَّ ثلاثَ قَضَايَا، هي ثَلَاثَةُ وُجُوهٍ لحقيقةٍ واحِدَة،

مفَادُهَا إبْطَالُ شِرْكِ المشركين، وبيانُ أنَّهُ لَا حَقِيقَة لَهُ ولَا شبهة حقيقة.

القضيَّة الأولى: دَلَّ عليها قول اللهِ عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾:

أي: إنَّ الّذينَ يَعْبُدون آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، مَا يَتَّبِعُونَ فِي عبادَتهم شُرَكَاءَ للهِ عزّ وجَلَّ، لَا في رُبُوبيَّتِهِ ولَا فِي إلَهيَّته.

﴿يَدْعُونَ﴾: أصل الدُّعاء في اللُّغَةِ النّداء، ويأتي بمعنَىٰ الرَّغْبَةِ إلَىٰ اللهِ والطلَب منْهُ لِأُمُورِ الدُّنيا أو الْآخِرَة، ويأتِي بِمَعْنَىٰ مُطْلَقِ الْعِبَادَة، والظاهر أنَّ هذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ﴾.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من أشياء غير الله هي بطبيعَتِها تقَعُ دُونه، في مقابل اتّصافه ـ جلَّ جلالُهُ ـ بالْفَوْقِيَّةِ المطلقة، إذْ هو الْعَلِيُّ الأعلى.

﴿شُرَكَآءَ﴾: أي: شُرَكَاءَ لِلّهِ في رُبُوبيّتِه، أو في إلَهيَّته.

القضيَّة الثانية: دَلَّ علَيْها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: أي: مَا يَتَّبِعُونَ في عبادَتِهم لآلِهَتِهم من دُون اللهِ إلّا الظَّنَّ التَّوَهُّمِيَّ السَّاقِط، الَّذي تَرْفُضُ العقولُ السَّلِيمةُ الاعتماد علَيْه، لإثباتِ قضيَّةٍ ما، وهذا الظَّنُّ التَّوَهُّمِيُّ هو أضعف الظنُون.

ودَلَّ علىٰ أنَّهُ ظنٌّ تَوَهُّمِيٌّ أَنَّ المشركين لم يُقَدِّمُوا دَليلاً طَوالَ دَمْغِهِمْ بالبراهين السَّوَاطِع، إلَّا أنْ يَقُولُوا إنَّا وَجَدْنا آباءَنَا يَعْبُدُونَ هٰذِه الآلِهة فَعَبَدْنَاها، وظاهِرٌ أَنَّ هذا تَقْلِيدٌ أعمَىٰ، وهُوَ يَعْتَمِدُ على ظَنٍّ تَوَهُّمِيٍّ، وهو أضعفُ الظنُون السَّاقِطَةِ في موازينِ العقول.

«إنْ» حَرْف نفي مثل «ما».

القضيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عزّ وجل: ﴿.. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: وَمَا هُمْ إلَّا يَكْذِبُون في ادّعَاءاتهم أَنَّهُمْ يَنْتَفِعُونَ

بعباداتِهِم لآلِهَتِهم، في مصالح دُنياهم، كقضايا الرِّزق، والصِّحَّةِ والسَّلَامَة، والنَّصْرِ على الأعْداء، وإنجاب الذُّرِّيَّة، ونَحْوِ ذلِكَ، فادّعاءاتُهُمْ في كُلِّ ذلِكَ ادّعاءاتٌ كاذِبَات، لا أَسَاسَ لَهَا من الصِّحَّة، يَفْتَرِيهَا سَدَنَةُ أَوْثَانِهِم، والدُّعَاةُ المنْتَفِعُونَ من شِرْكِيَّاتِ المشْرِكين.

الْخَرْصُ: هو في اللُّغَةِ الكذِب. يقال لغة: «خَرَصَ يَخْرُصُ» أي: كذَب. وكُلُّ مَا جاء في القرآن من مادّة «خَرَصَ» فَهُوَ بمَعْنَى «الكذب».

وقَدْ يأتي الْخَرْصُ في اللُّغَةِ بِمَعْنَى التَّقْدِير بالظَّنّ، كَخَرْصِ مقدارِ الثَّمَرِ وهو علَىٰ شجَرِه، وكَخَرْصِ مِقْدَار حَبِّ الزَّرْع قَبْلَ حصاده، ولم يأت في القرآن المجيد بهذا المعنى، بل جاء بمعْنى الكَذِبِ المفترىٰ به على الحقيقة.

قول الله عزّ وجل خطاباً للنّاس جمِيعاً ومنهم المشركون المعنيّونَ بالمعالجة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

سبق أنْ أنزل الله عزّ وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قولَهُ بشأن آيَتي اللَّيْل والنهار من آياتِ الله الإنْعاميّة على عباده في كونِه:

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدَبُّرُ هٰذِه الآية في موضعِها من سُورَة النمل، ويُلاحظُ المتدبِّرُ المتأنِّي أنَّ بيْنَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تكامُلاً في الأُسْلُوب البياني وَتكامُلاً فِكْرِيّاً.

فآيَةُ سُورَةِ (النمل) بدأَتْ بالاسْتفهامِ التَّعْجِيبي من أمْرِ الكافِرِينَ الّذِينَ

لم يَسْتَفِيدُوا من آيَتي اللَّيْلِ والنَّهارِ في دَلاَلَتِهِمَا على توحيدِ رُبُوبِيَّة اللهِ في كونه، المسْتَلْزِم عَقْلاً تَوحِيدَهُ في إلٰهيّته.

أمّا آية سُورَة (يونس) فجاءت بأسْلُوب بيان هٰذِهِ الحقيقة بياناً إخْبارِيّاً، وهذا من التنويع الْبَديع في الأسْلُوبِ البيانيّ حوْلَ قضيَّةٍ واحِدَة.

وآيَةُ سُورَةِ (النمل) أبانَتْ أَنَّ في اللَّيْلِ والنّهارِ آياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون، أي: لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إذَا تَفَكَّرُوا وَتَدَبَّرُوا، وهذا يُناسِبُ حَال الّذِينَ توجَدُ لَدَيهم دوافع ذَاتية للبحث التفكُّرِي دُون تعليم.

أمّا آية سورة (يونُس) فقد أبانت أنّ في اللَّيْل والنهار آياتٍ لقومٍ يَسْمَعُون، أي: لَدَيْهِمُ الاستعداد لأنْ يُصْغُوا إلَىٰ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ يُحَدِّثُهم، ولأنْ يُوصِلُوا مَا سَمِعُوهُ بآذانِهم إلى مَرَاكِزِ سَمْعِهِم دَاخِلَ نُفُوسِهِم، ويُحَاكِمُوهُ بموازينِ عُقُولهم، فَيُؤْمِنوا بأنّه حق، وهذا يُنَاسِبُ حَال الّذِين يَحْتَاجُونَ إلَىٰ مَنْ يُسْمِعُهُمْ أدِلّة الحقّ، وهم الّذِينَ لا تُوجَدُ لَدَيهم دَوَافع ذَاتِيَّة للبحث التفكُّرِيِّ دون تعليم، فَهُمْ يَحْتَاجُون إلى مَنْ يُسْمِعُهُمْ شَرْحاً مُفَصّلاً لِآيَاتِ اللهِ في كونه، ويُبَيِّنُ لهم أدِلَّة هٰذِهِ الآيَات على صفاتِهِ الجليلةِ، وإنعاماتِه على عباده.

فالمعنىٰ: اللهُ هُو الَّذي جَعَلَ لَكُمْ بِتَقْدِيرِهِ الحكيم وقضائِه وخَلْقِه، اللَّيْلَ الّذِي يكُونُ بِغِياب الشَّمْسِ وغيابِ امْتِدَادِ أشِعَّتِهَا عمّا غابَتْ عنه من الأرض، لِتَسْكُنُوا فيه عَنْ حَرَكَةِ الْعَمَل والكَدْحِ لِكَسْبِ أَرْزَاقِكُمْ وتحقيقِ مصالحَ كثيرةٍ لَكُمْ مِنْ فَضْلِ رَبّكم، ومن السُّكُونِ مَنَامُكُمْ فيه، وهُو الّذِي جَعَلَ لَكُمُ بتَقْدِيرِه الحكيم وقضائِه وخَلْقِهِ النَّهارَ مُبْصِراً لَكُمْ بِضِيَائه، كاشفاً لكم الأشياءَ الَّتي تُرِيدونَ إبْصارَها بأعْيُنِكُمْ، فهو بضيائه يَجْعَلُكُمْ تُبْصِرُون.

وفي استعمال فعلِ «جَعَلَ» إشارَةٌ إلَىٰ أَنَّ خَلْقَ المجموعَة الشَّمْسِيَّةِ قد كان أوّلاً، ثُمَّ جعل الله عزّ وجلّ بتدبيره الحكيم الأرضَ المظلِمَةَ تَدُورُ

حَوْلَ نَفْسِها باتّجاه الشَّمْسِ ضِمْنَ نِظَامٍ مُعَيَّن، وبِحَرَكَةِ الدَّوَرانِ هٰذِهِ تَحقَّق وُجُودُ اللَّيْلِ والنّهار بنظامٍ تَعَاقُبِيٍّ حَكِيم.

ولعلماء الكون بحوثٌ علميّة دقيقة تكشفُ حكمةَ الله في جعله الليل والنهار نظاماً متقناً ملائماً لما فطر الناس عليه.

إنَّ فِي بيانِ ذَلِكَ وَشَرْحِهِ، وتَحْلِيلِهِ تَحْلِيلاً عِلميَّاً، وبيانِ عنايةِ اللهِ بعباده فيه، من قِبَلِ الدُّعَاةِ الشارحِينَ، لآيَاتٍ دَالَّاتٍ على عظيم صفاتِ اللهِ وعظيم رحْمَتِه بعباده، ودَالَّاتٍ على أَنَّهُ واحِدٌ في رُبُوبيّتِه للكَوْنِ لَا شَرِيكَ لَه، فَهُو واحِدٌ في إلَٰهيَّتِهِ للعَابِدِينَ لَا شريكَ لَهُ فِي إلَٰهيَّتِهِ الحقّ، وَهٰذِهِ الدَّلَالَاتُ يَنْتَفِعُ بها الَّذِين هُمْ مُسْتَعِدُّون لأَنْ يَسْتَمِعُوا إلَىٰ شَرْح وبيانات الدُّعَاةِ إلَىٰ الله، ويُوصِلُوا مَا سَمِعَتْهُ آذانُهُمْ إلى مَرَاكِزِ السَّمْعِ الواعي المتَفَهِّم دَاخلَ أدْمِغَتِهِم، ويَنْقُلوها إلى قُلُوبهم فَيُؤْمِنُوا بما وَعَوْا مِمّا يجب عليهم أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ من أَرْكان العقيدة الإيمانيّة في الدّين الّذي اصطفاه اللهُ لعباده.

قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلّ يَحْكِي بَعْضَ افتراءات المشركين على رَبّهم، بادّعاء أنَّهُ اتَّخذَ ولداً، مَعَ الرَّدّ عليه:

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَـٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

سبَق لَدَىٰ تَدَبُّر الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) من سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) بيانُ اتّخاذ بَعْضِ المشركين بَعْضَ الملائِكة آلِهَةً من دُونِ اللهِ، فَهُمْ يَعْبُدونَهُمْ ليكونُوا شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ الله، وبيان اعتقادِ بَعْضِهِم الباطلِ أَنَّ الملائكة بناتُ اللهِ، وَسَبَقَ تَدَبُّر ما جاءَ فيها من رَدٍّ لِأَوْهامهم، وإبطالها بالأدِلَّةِ الكافية للإبطال.

وجاء هنا في الآية (٦٨) من سورة (يونس) تَوسُّعٌ في الرَّدِّ على

الّذين كانُوا إبَّان التَّنْزيل يَزْعُمُونَ أَنَّ الملائكَةَ بَنَاتُ اللهِ، يُلائِمُ حالَةَ إصرارِهِمْ على باطِلِهِمْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ مِنَ القرآنِ المجيد خمسونَ سُورَةٍ، فيها من المفهومات ما يَكْفِي لتصحيح المقاييس الفكريَّةِ لدَىٰ المبْطِلِين، إذْ جَاءَتْ فيها حِوَارَاتٌ كافياتٌ من الجدالِ بالَّتي هي أحْسَن لتَصْحِيح المقاييس الفكريَّة لدى المناظرين.

- ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: أي: قَالَ طَائِفَةٌ من المشركين: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وتشعر كلمة «اتّخذَ» باحْتِمَالِ أنْ يكونَ قد اتّخذَ ولَداً بالتبني ممّا خَلق.

كَلِمَةُ: «وَلَد» تُطْلَقُ في اللُّغَة على كُلِّ مَوْلُودٍ، ذكراً كان أمْ أنْثىٰ، وتُطْلَقُ على الواحد، والمثَنَّىٰ، والْجَمْع.

- ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾: أيْ: تَنَزَّهَ عَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً، إذْ هُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِه وصِفَاتِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاه، فَهُو لَا تَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مُعَاشَرَتِها كالإنْسِ والجنّ، ولَا يَحْتَاجُ أَنْ يُنْجِبَ مِنْ ذَاتِهِ وَلَداً يُرْضِي عَاطِفَتَهُ نَحْوَ ذُرِّيَّةٍ تَنْفَصِلُ جُرْثُمتُها عَنْ ذَاتِهِ، أو يَسْتَعِينُ بها فِي رُبُوبيَّتِهِ وَتَصاريفه لكونه، ولَا أَنْ يَتَبَنَّىٰ مَخْلُوقاً من مَخْلُوقاته في السماوات والأرض، بَلْ كُلُّ مَا خَلَقَ مِلْكُهُ، وذَوُو العلم منهم عَبِيدُه.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾: **التسبيح**: التنزيه والتقديس عن كُلِّ ما لا يَلِيقُ باللهِ عزّ وجلّ من صفات النقص، الّتي تتنافى مع أزليَّتِهِ، فالتَّسْبِيحُ تَمْجِيدٌ للهِ بالصفاتِ السَّلبيّة، وهو عكْسُ التوقير الذي هو تمجيد للهِ بالصّفات الوجوديّة.

قال النحاة: «**سُبْحان**»: اسم علَمُ لمعنى البراءة والتنزيه.

ورَوَىٰ الأزْهَري بإسناده: أنَّ ابْنَ الكَوّا سأل عليّاً رضوان الله عليه، عن «**سُبْحانَ الله**» فقال: كلمَةٌ رَضِيَها اللهُ لِنَفْسِه فأوصَىٰ بها.

• ﴿.. لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ .. ﴿٦٨﴾﴾: أي: كُلُّ مَا في السَّمَاواتِ والأرض مِنْ أشياء وأحْيَاء ولَوْ كانُوا مِنْ ذوي الْعِلْم مَمْلُوكُونَ لَهُ، إذْ كُلُّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَهُمْ مِلْكُهُ، وَلَا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ المَخْلُوقُ الممْلُوكُ لخالِقِهِ وَلَداً لَهُ، بل هو عَبْدٌ مِنْ عَباده إذا كان ذا حياةٍ وعِلْم، إنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ الذَّاتِ مُنْفَصِلٌ عَنْها، واللهُ أحَدٌ، لم يَلِدْ ولم يُولَد، أمّا مَخْلُوقاتُ اللهِ فقَدْ وُجِدَتْ مِنَ الْعَدَمِ بأمْرِ التَّكْوين، فَهِيَ أثَرُ الْأَمْرِ التَّكْويني لِمَا قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ أنْ يَخْلُقَه.

وَتَوَجَّهَ الله عزّ وجلّ للقائِلِينَ اتَّخَذَ اللهُ وَلداً فقالَ لَهُم:

• ﴿.. إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ .. ﴿٦٨﴾﴾: أي: مَا عِنْدَكُم مِنْ حُجَّةٍ تَحْتَجُّونَ بِهَا تُسَوِّغُ لكُمْ ادّعَاءَ أَنَّ اللهَ اتَّخَذَ وَلداً نَسبيّاً، أَوْ وَلَداً بالتَّبَنِّي.

«إِنْ» حرْفُ نَفْيٍ بمعنى «ما» النافية. «سُلْطان»: أي: حُجَّة وبرهان. وهذا هو المعنى المراد هنا. ويأتي السُّلْطان بمعْنَىٰ الْقُوَّةِ والْقَهر.

و«مِنْ» في ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ مزيدَة لتوكِيد عموم النفي والتنصيص عليه.

• ﴿.. أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾؟! استفهامٌ فيه معنَىٰ التثْريب والتّوبيخ لهم، إذْ قالوا بِدُونِ عِلْم: إنَّ اللهَ اتَّخذَ ولداً، وهو جلَّ جلالُهُ مُنزَّهٌ عن أنْ يتَّخِذَ ولَداً بالوِلَادة، أو بالتبنِّي، فَقَوْلُهُم الباطِل كذِبٌ مفْتَرَىٰ افتَرَوْهُ علَىٰ اللهِ ربِّهم، وهو أحَدُ وجُوه الكفر به، تبارَكَ وَتعَالَىٰ عمَّا يقُولُونَ عُلُوّاً كبيراً.

وبَعْدَ أَنْ واجَهَهُم اللهُ عزّ وجَلَّ بالخطاب، أعْرضَ عَنْهم، وأمَرَ رَسُولَهُ أنْ يقول لهم محذّراً ومُنْذِراً لَهُمْ بعَذَابٍ أليم:

• ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى

ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

- ﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾: أي: يَخْتَلِقُونَ الكَذِبَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم اخْتِلَاقاً، ويَقْذِفُون بِهِ على الله الْعَلِيّ الأعْلَىٰ بارِئِهِم ومُصَوِّرهم ومُمِدِّهِم دواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَيَصِفُونَ اللهَ بِما يَسْتَحِيلُ عقْلاً أنْ يَتَّصِفَ به، أو يَتَقَوَّلُونَ عَلَيْهِ أقْوالاً لَمْ يقُلْها، ويَزْعُمُونَ أَنَّها من أقوال الله، أَوْ يَضَعُونَ مِنْ عِنْدِهِمْ أحْكَاماً مِنَ الْحَرامِ والْحَلالِ، ويَزْعُمُونَ أَنَّهَا أَحْكَامٌ مِنْ أَحْكَامِ اللهِ في دينِه لعباده.

«الكَذب» مَفْعُول به لِيَفْتَرُون.

- ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾: أي: لَا يَظْفَرُونَ بما يُرِيدُون، من نجاة من العذاب، وفَوْزٍ بما يُسْعِدُهم. يقالُ لُغَةً: «فَلَحَ يَفْلَحُ فَلَاحاً» و«أَفْلَحَ يُفْلِحُ إِفْلَاحاً» أي: ظَفِرَ بِمَا يُرِيد، ويُرادُ به في الاسْتِعْمَالِ القرآنِيّ النجاةُ من عذابِ الله، والفوزُ بنَعِيم الجنَّةِ يَوْم الدّين.

﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: أي: مَا يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ ممَّا يَطِيبُ لَهُمْ ويَلَذُّ لَهُمْ، هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ضَئِيلٌ زَائِلٌ في الدنيا. لفظ «متاع» خبر مبتدأ محذوف، تقديره: ما هم فيه متاعٌ في الدنيا.

المتاع: هو ما يُنْتَفَعُ بِهِ قَلِيلاً، ومَصِيرُهُ إِلَىٰ الزَّوالِ والفناء، ولَا بقَاءَ لِنَوْعِهِ ولا لِجِنْسِهِ.

- ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾: أي: وَفِي نِهَايَةِ رِحْلَتِهِمْ في الحياة الدنيا يَمُوتُونَ كما هُمْ يَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِين، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ الَّتِي تَكُونُ إِقَامَتُهُمْ في مدافِنِهم خلالَهَا مَهْما طَالَتْ، بِمَثَابَةِ زِيَارَةٍ لَا بَقَاءَ لَهَا بقاءً دائماً، نَبْعَثُهُمْ فنُحْيِيهم الحياةَ الأخرى، لِيَكُونَ مَرْجِعُهُمْ إِلَىٰ سُلْطَانِنَا القاهر، إذْ نُحَاسِبُهُم ونَفْصِلُ الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ، وَنَحْكُمُ عَلَيْهِم يَوْمَئِذٍ بأَنَّهُمْ كَانُوا كافِرين

في رِحْلَةِ امتحانهم، ونَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ نُذِيقَهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ في دَارِ عَذَابِ الكافِرِينَ المجْرِمين.

﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾:

أي: ثُمَّ نُنَفِّذُ فيهم مَا حَكَمْنَا عَلَيْهِم بِهِ من العذاب الشّدِيد، بِسَبَبِ ما كانُوا يَكْفُرُونَ كُفراً إراديّاً بما أَوْجَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، دُونَ أَنْ يكُونَ لَهُمْ عُذْرٌ ما بِكُفْرهم.

فيأمُرُ اللهُ عزَّ وَجلَّ الْمَلَائِكَةَ المكلِّفِين بِسَوْقِهِمْ إلى جَهَنَّم، وإلقائهم فيها كَبّاً على وُجُوهِهِمْ، فَيَهْوُونَ فِي هَاوِيتها، حَتَّىٰ يَصِلَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَىٰ دَرَكَتِهِ الملائِمَةِ لمَا أسْلَفَ مِنْ جرائمَ في الحياة الدُّنيا.

فاشتمل هذا التعليم الرَّبَّاني للرسُول ﷺ، ويُلْحَقُ به الدُّعاة إلى اللهِ من أُمَّتِهِ، عَلَىٰ بيانِ وَشَرْح أربع قضايا:

القضيّة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

القضيّة الثانية: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يتمتعون به.

القضيّة الثالثة: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

القضيّة الرابعة: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السابع عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحه ومَدَدِه وتَوفيقه ومَعُونته.

* * *

(٢١)

التدبّر التحليلي للدرس الثامن عشر من دُروس سورة (يونس)

الآيات من (٧١ ـ ٩٣)

وفيه ثَلَاثَةُ فصول:

الفصل الأول

لقطات من قصّةِ نُوح عليه السّلام وَقَوْمه

الآيات من (٧١ ـ ٧٣)

قال اللهُ عزّ وجل خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

القراءات:

(٧١) • قرأ رُوَيْس: **[فَاجْمَعُوا]** مِنْ فِعْلِ «جَمَعَ يَجْمَعُ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ مِنْ فعل «أَجْمَعَ يُجْمِعُ».

ومؤدّى القراءَتَيْنِ واحد، يقالُ لُغَة «جَمَعَ فُلَانٌ أمْرَه» أي: جمَعَ المتفرّق منه، وضمّ بعْضَهُ إِلَىٰ بعض، وعزَمَ عليه، ويقال: «جَمَعَ القَوْمُ لأعدائهم» أي: حَشَدوا مقاتِليهم وقُواهم لقتال أعدائهم.

ويقال لغة: «أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ» أي: قومُوا بعملكُمْ مجتمعين غير متفرّقين.

فالمعنى من القراءتين: اجْمَعُوا المتفرِّقَ مِنْ أَمْرِكُم واحْشُدُوا مَا شئتم، وقُومُوا بِعَمَلِكُمْ ضدِّي مجتمعين غير مُتَفَرِّقين.

(٧١) • قرأ يَعْقُوبُ: **[وَشُرَكَاؤُكُمْ]** بالرَّفْع عطفاً علَىٰ ضمير ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ أي: ولْيُجْمِعْ شُرَكَاؤُكم الّذِين اتَّخَذْتُموهم آلِهةً من دُونِ اللهِ أَمْرَهم أيضاً.

وقَرَأها باقي القرّاءِ العشرة بالنَّصْبِ: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ علىٰ تقديرِ: وادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ، أَوْ على أنَّ الواو هي واو المعيّة.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

(٧١) • قرأ يَعْقُوب: **[تُنْظِرُونِي]** بإثبات ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بحذف ياء المتكلم، ومثْلُ هذا الحذف كثير في القرآن، وهُوَ من أساليب العربيَّةِ في الإيجاز.

(٧٢) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامِر، وحفْصٌ، وأبُو جَعْفَر: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا﴾ بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

فتح ياء المتكلّم وإسكانُها وَجْهانِ عَرَبيان.

تَمْهيد:

اتْباعاً لِمَا جَاءَ في الآية (٦٥) الَّتي قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

عَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَتْلُو علَىٰ أئِمَّةِ المشْرِكينَ المعتزّينَ بِقُوَّتهم، والمستهزئين المحْتَقِرِين لِقُوَّةِ الرَّسُول والَّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وعَدَمِ

قُدْرَتِهِمْ علَىٰ الدِّفاعِ عَنْ نُفُوسِهِمْ ضدَّ مَا يُواجِهُونَ من اضطهاد المشركين، لقطاتٍ من قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام وقومه، جاءَ فيها بَيَانُ مَوْقِفِه تُجاهَ تَحَدِّيَاتِ قَوْمِهِ لَهُ، بأَن يَرْجُموه، فقال لهم نوحٌ عليه السَّلام أجْمِعُوا أمْرَكم، واحْشُدُوا من الجنود والْقوىٰ مَا شئتم وَلا تُمْهِلُوني.

فَنصَرَهُ اللهُ، فأنجاه والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بأنْ رَكِبُوا فِي السَّفِينَة الَّتِي أمَرَهُ اللهُ أَنْ يَصْنَعَهَا، وأغْرَقَ كُفَّارَ قَوْمِهِ جَمِيعاً، بالطوفان العظيم الّذِي أغْرَقَ بِهِ الْأَرْض.

وفي هذا البيان تحذيرٌ واضِحٌ لمشركي مَكَّةَ، بأَنَّهُمْ إذا وَصَلُوا إلى مِثْلِ الحالَةِ الّتي وصَلَ إلَيْهَا قَوْمُ نُوحٍ، أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ بِهِمْ عذاباً مُهْلِكاً مُسْتَأْصِلاً.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجل لرسوله ﷺ:

- ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾:

أي: تابعْ يَا مُحمّد تَأْدِيَةَ وَظيفَتِكَ الدَّعَوِيَّةِ فِي جُمْهُورِ مُشْرِكي قَوْمِكَ في مَكَّة، كَمَا أبَنَّا لَكَ في السُّورَةِ قَبْلَ هٰذا النَّصّ، ولَوِّحْ لِأَئِمَّتِهم وكُبرائِهم بأَنَّهُمْ اقْتَرَبُوا بِاعْتِزازِهِمْ بِقُوَّتِهم وتَحدِّيك وَتَحَدِّي الّذين آمَنُوا بكَ واتَّبعُوكَ، إلَىٰ حَالَةٍ مُشَابِهَةٍ لحالَةِ قَوْم نُوحٍ الّذينَ أنْذَرُوهُ وتوَعَّدُوهُ بالْقَتْل، فَلَمْ يَعْبَأْ بِهِمْ، ، بَلْ تَحَدَّاهُمْ بأنْ يُدَبِّروا مَا يَشَاؤُون، وبأنْ يَفْعَلُوا للتَّخلُّص مِنْهُ ومن الّذينَ آمَنُوا بِهِ مَا يَشَاؤُون، وَلا يُمْهِلُوه، وأعْلَنَ لَهُمْ أَنَّهُ عَلَىٰ اللهِ الَّذي أَرْسَلَهُ إليهم رَسُولاً قَدْ تَوَكَّلَ، فكانَتِ النتيجة أنْ أنجاه اللهُ وَنَصَرَهُ، وأَهْلَكَ كُفَّارَ قَوْمِه بالطُّوفان.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾: الْواوُ عاطفة على ما جاء في الآية (٦٩) والتي بَعْدَها.

التلاوة: النُّطْقُ بألْفَاظِ مَا أمَرَهُ اللهُ بأنْ يَتْلُوه، تَتَبُّعاً لِحُرُوف وكَلِمَات مَا أوْحَىٰ اللهُ بِهِ إلَيْهِ وأمَرَه بتِلَاوَتِه.

أصل مَعْنى فعل «تلا يَتْلُو تُلوّاً» تبعَ. واسْتُعْمِلَ بمعْنَىٰ النُّطقِ بِآيات القرآن مع التَّتَبُّع الكامل لحرُوفه وكلماته وآياته.

والضمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ يَعُودُ على المعْنِيِّينَ بالمعالجة في السورة، وهُمْ أئِمَّةُ الشِّرْك والتكذيب في مكَّة، الَّذين يَعْتَزُّون بِقُوَّتهم الغالِبَة، وَيَهْزَؤون ويَسْخَرُونَ مِنْ ضَعْفِ الرَّسُولِ وأتْباعه المؤمنين.

- ﴿نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾: أي: خَبَرَ نوح ذَا الشَّأْنِ العظيم الكائنَ حينَ قالَ لِقَوْمِه الّذِينَ تَوَعَّدُوه بأنْ يَقْتُلُوه رَجْماً بالحجارة إنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللهِ بَيْنَهُمْ، ومُقَاوَمَةِ شِرْكِيَّاتِهم الباطلات.

- ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ . . ﴿٧١﴾﴾.

يُقال لغة: «كَبُرَ، يَكْبُرُ، كِبَراً، وَكَبَارَةً» أي: عَظُمَ وَجسُم. ويُقَالُ: «كَبُرَ الأَمْرُ» أيْ: عظُمَ عِظَماً مَعْنوِيّاً.

مَقامِي: يُطْلَقُ «الْمَقَامُ» عَلَىٰ مَكانِ القِيَام، وهو موضع القَدَمَيْن، ويُطْلَقُ على المجْلِس، ويُطْلَقُ على الْجَماعَةِ مِنَ النَّاس.

ويُطْلَقُ بالتوسُّعِ عَلَىٰ الْمَقام المعْنوِيِّ، مَحْبُوباً كَانَ أَوْ مَكْرُوهاً.

والْمُرَادُ بِكِبَرِ مَقامِهِ عَلَيْهِم، ثِقَلُ وُجُودِهِ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ، داعِياً إلَىٰ دِينِ اللهِ، ومُبَيِّناً بُطْلَانَ مَا هُمْ فِيهِ مِن شِرْكيَّاتٍ وظُلْمٍ وعُدْوان، فَهُمْ بِسَبَبِ انْزِعاجِهِمْ مِنْ وُجُودِهِ، وتَغَيُّظِهِمْ مِنْ قيامِه بوظائف رِسالَةِ رَبِّهِ إلَيْهِم، يُرِيدُونَ التخلُّصَ مِنْهُ بِقَتْلِهِ رَجْماً بالحِجَارَة.

- ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: دَلَّتْ هٰذِهِ العبارة على أَنَّ نُوحاً عليه السَّلام، كانَ يُبلِّغُ قَوْمَهُ آياتِ رَبِّهِ الْبَيانِيَّة أوّلاً، ويُكَرِّرُ تَذْكِيرَهم بها حِيناً فَحِيناً، ولا يَسْأَمُ مِنْ ذَلِكَ.

- ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾: أي: فعَلَىٰ اللهِ وحْدَهُ توَكَّلْتُ، اسْتفيد الْقَصْرُ من تقديم المعمول ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ﴾ على عامِلِهِ ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾.

التَّوكّل على الله: التسليم إليه، وتفويضُ تَدْبير الأُمُور وتَحْقِيقِ مَا يَرْجُو المتّكلُ إليه، مع القيام بالأَسْبَاب المستطاعة المادّيّة، والمعْنَوِيَّة طَاعَةً لِأَمْرِه ونَهْيه.

يُقال: تَوَكَّلَ الْعَبْدُ علَىٰ الله، أي: اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ، اعْتِمَاداً صَادِقاً، مُسْتَسْلِماً لما يَخْتَارُهُ لَهُ مِن أَمْر، مع قيامه بالأَسْبَابِ الكَوْنيّة، التي أمَر أَوْ أَذِنَ اللهُ باتِّخاذِها، دُونَ تَفْرِيطٍ بشَيْءٍ مِنْها.

- ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾: أيْ: فَأَحْكِمُوا كُلَّ أَمْرِكُمْ الَّذِي تَسْتَطِيعُونَ تَدْبِيرَهُ وَإِحْكَامَهُ، باتِّفَاقٍ عَامٍّ تُجْمِعُونَ عَلَيْه، واجْمَعُوا كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُونَ جَمْعَهُ مِنْ قُوى، وَادْعُوا كُلَّ شُرَكَائِكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لِمُؤَازَرَتِكُمْ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوىً مَعْنَوِيَّةٍ غَيْبِيَّة، إنْ كانَ لَدَيْهِم شيءٌ من ذَلِكَ عَلَىٰ مَا تَعْتَقِدُونَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدَ باطِلَة، لَا حَقِيقَةَ لَها.

- ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾: **الْغُمَّة**: الأَمْرُ الْمُبْهَمُ. والكَرْبُ الضَّاغِطُ عَلَىٰ الصُّدُور.

أي: ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمُ الّذِي تُجْمِعُونَ عَلَيْهِ، وتُعِدُّونَ لَهُ مَا تَسْتَطِيعُونَ مِنْ قُوىٰ، لِلتخلُّصِ منِّي تَدْبيراً مُبْهماً، لَا تَعْرِفُونَ كَيْفَ تُنَفِّذونَه، ولا يَكُنْ أَمْرُكم تُجاهِي كَرْباً ضاغِطاً على صُدُوركم، لَا تَعْرِفُونَ كَيْفَ تُنَفِّسُونَه، فإنِّي أُعْلِنُ لَكُمْ هٰذَا التَّحدِّي، لِتُوَاجِهُونِي بِمَا تُدَبِّرُونَ مِنْ كَيْدٍ ضِدِّي صَرَاحَةً وَعَلانِيَةً، وبِذَلِكَ تَخْرُجُونَ مِنْ غُمَّة الحيْرَة والتَّرَدُّد.

- ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾: أي: وبَعْدَ أَنْ تُجْمِعُوا أمْرَكُمْ، وَتَجْمَعُوا كُلَّ قُواكم، وتُدَبِّرُوا كُلَّ مكايِدكُمْ، وتتأكَّدُوا مِنْ أَنَّكم قادِرُونَ على التخلُّصِ مِنِّي دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضُوا لِأَيَّةِ مُشْكِلَات، اقْضُوا وَأَمْضُوا مَا دَبَّرْتُم من أَمْرٍ قاتلٍ مُوصلٍ إلى مَقَاتِلي في زَعْمِكُم.

- ﴿.. وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾: أيْ: ولَا تُمْهِلُوني لحظةً واحدة، مَهْمَا ظَهَرَتْ لديكُمْ دَواعٍ لإمهالي.. وهذا غاية في التَّحَدِّي من نُوحٍ لِقَوْمِه.

وهذا يتضَمَّنُ بطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ تَحَدِّياً لِأَئِمَّة الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة، مُمَاثلاً لِتَحَدِّي نُوحٍ لِقَوْمه، فَمَنْ كانَ مِثْلَ نوحٍ عليه السّلام مُتَوَكِّلاً علىٰ اللهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وهو يُؤَدِّي رسَالَةَ رَبِّه الَّتِي كلَّفَهُ أَنْ يُؤَدِيَها، فإنَّهُ ضَامِنٌ مِنْ رَبِّه بِتَوَكُّلِهِ عليه، وتَحَدِّيهِ لِقَوْمِهِ، أَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ ولَا يَخْذُلَه، وأَنْ يَرُدَّ كَيْدَ أَعْدَائِه إلَىٰ نُحُورِهم، وأَنْ يُعِيذَهُ مِنْ شُرُورِهم.

وعَلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ رسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لهم أيضاً كما قَالَ نُوحٌ عليه السلام لقَوْمه:

- ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٧٢﴾:

التولّي: الإدْبارُ والابتعاد، ويحْتمل هنا التولي عن الاستجابة لدعوته، والتولي عن قتله الذي كانوا قَدْ عَزَمُوا عليه، وعلىٰ كُلٍّ من الاحتمالين، فقد تابَعَ نُوحٌ عليه السَّلام تأدِيَةَ الملائِمِ من وظائف رسالته في قومِه تجاهَهُما.

أي: فإنْ تولَّيْتُم عن الاستجابة لما دَعَوْتُكُمْ إلَيْهِ مِنْ نَبْذِ الشِّرْكِ الَّذي تلازمُونَه، والإيمان باللهِ وحْدَه، لا شَرِيك له في رُبُوبيّته وإلَهيَّته، فأدْبَرْتم وأدَرْتُمْ لبَلَاغاتي ظُهُورَكم وابْتَعَدْتم، وتوَلَّيْتُمْ أيْضاً عن إجْماعِ أمْرِكُمْ للتَّخَلُّصِ مِنِّي بالْقَتْلِ، فإنّي أعْلِمُكم بما يلي:

أوّلاً: اعْلَمُوا أَنّي مَا سَأَلْتُكُمْ على الْخَيْرِ العظيم الَّذِي حَمَلْتُهُ لكُمْ وبَلَّغْتُكُمْ إيَّاه عَنْ رَبّي مِنْ أجْرٍ، حَتَّىٰ يَكُونَ تَوَلّيكُمْ ونُفُورُكُم مِنّي، بِسَبَب اتّهامِكُمْ لي بمَصْلَحَةٍ شخصِيَّةٍ دُنْيَويَّةٍ لي عندكم، فأنْتُمْ تتخلَّصُونَ من بَذْلِ الأجْرِ لي، أَوْ تحقيقِ مصْلَحَةٍ دُنيويَّةٍ لي مِنْ قِبَلِكُمْ، بتَكْذِيبي، وعدم الاستجابة لدعوتي، إنّي أعْرِضُ عَلَيْكُمُ الحقَّ بلَاغاً عن رَبّي، والواجِبُ عليكم تُجاهَ رَبّكُمْ أَنْ تَسْتَجيبُوا له.

كلمة «مِنْ» في: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ زِيدَتْ داخِلَةً على المفعولِ به لتوكيد عموم النَّفي في: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ وللتنصِيص عليه.

ثانياً: واعْلَموا: أنَّهُ مَا أجْرِي على مُجاهَدَتي لَكُمْ في تَبْلِيغ رِسَالَةِ رَبِّي، داعياً هادياً نَاصِحاً ومُذَكّراً، وصابراً على أذاكُمْ ووعِيدِكم لي بالْقَتلِ رَجْماً بالحجارة، إلَّا على اللهِ رَبِّي وربّكُمْ الَّذِي جعَلَني نبِيّاً رَسُولاً، وأرْسَلَنِي إليكم لِأُبلّغَكُمْ رِسَالَاته.

حرف «إنْ» في: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ حرف نَفْي، مثل «ما» النافية. وفي هذه العبارة قَصْرٌ بالنّفْي والاستثناء، وهو قَصْرٌ حقِيقيٌّ من قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصُوف. أي: مَا أجري إلَّا على الله.

ثالثاً: واعْلَموا: أَنّي مِثْلُكُمْ مَأْمُورٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّي أَنْ أكُونَ واحداً من المسْلِمِينَ. فعَلَيَّ فَرْضُ الإيمان بما فَرَضَ عَلَىٰ سائرِ المكلّفين أنْ يُؤْمِنُوا به، وعَلَيَّ فَرْضُ الطاعَةِ لأوامره ونواهيه الإلْزَامِيّة، وعَلَيَّ فَرْضُ الإسلام لَهُ في أَمْرِي كُلِّه مَعَ الإخْلَاصِ لَهُ في العمل.

فلَسْتُ مُجَرَّدَ مُبَلّغٍ رِسالاتِ رَبّه فقط، مع إعفائه من تكاليف ما أمَرَهُ بتَبليغه، بَلْ أنا في هٰذا مِثْلُ أيِّ فَرْدٍ مُكَلَّفٍ مُبلَّغ، وأنَا مَأْمُورٌ بِأَنْ أَكُونَ واحِداً مِنَ المُسْلِمين للهِ رَبِّي ورَبِّكُمْ وَرَبِّ كُلِّ مَا سِوَاهُ مِنْ كائنات.

ويَلْزَمُ عَقلاً من أنْ يكونَ مُسْلِماً أَنْ يكون مؤمناً، مُعْلِناً طاعَتَهُ لِرَبِّهِ،

وعبادَتَهُ لَهُ وحْدَه، إذْ لا يَصِحُّ إسْلَامٌ دُونَ إيمانٍ صادقٍ صحيح، ودون طاعَةٍ لله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه، ودُونَ إخْلَاصٍ لَهُ في العمل.

قول اللهِ عزَّ وجلّ بشأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام وقومه:

- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: فكان آخِرُ أَمْرِ قَوْمِ نُوحٍ مَعَهُ أَنْ كَذَّبُوهُ تَكْذِيباً غَيْرَ مَطْمُوعٍ في رُجُوعِهِمْ عَنْهُ، مَهْمَا أُمْهِلُوا هُمْ وذَرارِيهم، فَكَانَ من الْحِكْمَةِ إِهْلَاكُهُمْ، إذْ أَنْهَوْا بِمَا وَصَلُوا إلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وعِنَادٍ وإصْرَارٍ علَىٰ الباطلِ امْتِحَانَهُمْ، فَلَا جَدْوَىٰ مِنْ إبقائِهِمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدّنيا، الّتي خَلَقَهَا اللهُ للابْتلاء، إذْ سَيُتَابِعُونَ كُفْراً وَفَساداً وإفْساداً وَشَرّاً وشَنَاراً، وَلَا يَلِدُوا إلّا مَنْ يَكْتَسِبُ مِنْهُم صِفَاتِهِمْ حَتَّىٰ يكونَ فاجراً كَفَّاراً، إذْ جَعَلُوا بيئَتَهُمْ مَحْصُورَةً مُغْلَقَةً، لَا تُعْتَقَدُ فيها إلّا شِرْكيَّاتُهُمْ، ولَا تُكْتَسَبُ فِيها إلّا قبائحهم.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾: أي: فأمَرْنَا نُوحاً بأَنْ يَصْنَعَ الْفُلْكَ، ويَقْطَعَ رَجَاءَهُ من إيمانِ من لم يُؤْمِنْ بَعْدُ من قومه، ويُنْذِرَهم بإهْلَاكٍ شَامِلٍ لَا يُبْقي على الأرْضِ مِنْهُمْ دَيَّاراً، وَتَمَّ أَمْرُنَا الحكيم بالطُّوفان، وأمَرْنَا نُوحاً بأنْ يَرْكَبَ في الْفُلْكِ هو والّذِين آمَنوا بِهِ واتَّبَعُوه، وأنْ يَحْمِلَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ من الحيوانات زَوْجين، وأن يَحْمِلَ في الْفُلْكِ أرْزَاقَهُمْ، وَأَمَرْنَا السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ، وفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً، فأجْرينا الْفُلْكَ على الماء بعِنايَتِنَا.

- ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ﴾: أي: فَخَلَّصْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، وهُمْ رَاكِبُونَ في الْفُلْكِ، مِنْ شُرُورِ كُفّارِ قَوْمِهِ، ومِنَ الطُّوفانِ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ لإهْلَاكِهِم.

- ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾: أي: وَجعلْناهُم بَعْدَ ذَلِكَ أقواماً وأُمَماً، كانوا في الأرْضِ خَلاَئِفَ لِمَنْ أَهْلَكْنَاهم.

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: جَمْعُ خَلِيفَة. **الْخَلِيفَةُ**: هو مَنْ يَخْلُفُ غَيْرَه، فَيَحُلُّ مَحلَّهُ إذَا كان بمعْنَىٰ اسْمِ الفاعل كما هو المرادُ به هُنَا.

- ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: أي: وأغْرقْنَا بالطُّوفانِ الشّامِلِ، الّذِينَ كَذَّبوا بآياتِنَا الإعجازِيَّة، وآياتِنَا الْبيَانِيَّة، وآياتِنا الْكَوْنِيّة، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْذَرْنَاهم بِعِقَابِنَا المُعَجَّلِ على لِسَانِ رَسُولِنا نُوحٍ، وأنَّ هٰذا العقابَ سيَكُونُ إهْلاَكاً شَامِلاً.

- ﴿.. فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: فانظر أيُّها المُتفكِّرُ المتدبّر المعْتَبِرُ بِتَصارِيفِنا في عبادِنا، عَلَىٰ أيِّ حَالَةٍ وَخِيمَةٍ كانَتْ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ، الَّذِينَ أَنْذَرْناهم بِعِقَابِنَا الشّدِيد المعَجَّلِ على لِسَان رَسُولِنَا نُوحٍ.

والْمَعْنَىٰ: فاعْتَبِرْ أيُّها المتفكِّرُ المتَدَبِّر الْحَرِيصُ عَلَىٰ نجاته وسعادته.

جاء في هذه الآية (٧٣) استعمال ضميرِ المتكلِّمِ العظيم، إذْ تضمَّنَتْ بيَاناً عَنْ عظمة رُبُوبيَّة الله ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه ـ في تصاريفه.

وهي ترمي إلى عدّة أهداف.

الهدف الأول: تَحْذِيرُ كُفّار مَكَّةَ يَوْمئذٍ من أنْ يَتَعَرَّضوا لمثل ما تَعَرَّض له قوم نوح عليه السلام.

الهدف الثاني: توجيه الرَّسُول ﷺ لأنَّ باستطاعته أَنْ يَتَحَدَّىٰ قومه، كما تحدّىٰ نوحٌ عليه السلام قومه.

الهدف الثالث: طَمْأَنَةُ قلوب المؤمنين بأَنَّ عاقبة أَمْرِهم أنْ يَنْصُرَهُم الله، وينتَقِمَ مِنْ مضطّهِدِيهم.

الفصل الثاني

بيان عامٌّ بشَأْنِ رُسُلٍ أَرْسَلَهُمُ الله عزَّ وجلَّ إلى أقوامهم بعد نوح عليه السلام

وهو الآية (٧٤)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

تمهيد:

في هذا الفصل حديثٌ إجماليٌّ عامٌّ عَنِ الرُّسُلِ الّذِين أَرْسَلَهُمُ اللهُ إلَىٰ أقوامِهِمْ مَا بَيْنَ نُوحٍ عليه السلام، وموسَىٰ وأخِيهِ هارُونَ عَلَيْهما السلام.

وقد سبَق أن أنْزَل اللهُ في التَّفْصيلات القرآنيّة بَياناً عن هود عليه السّلام وقومه عاد، وصالح عليه السلام وقومِهِ ثَمُود، وأصْحَابِ الرَّسِّ، وإبراهيم عليه السلام وقَوْمِه، ولُوطٍ عليه السلام وقومِهِ أهلِ قُرىٰ سَدُوم، وشُعَيْبٍ عليه السلام وقومه أهلِ مَدْين وأصحابِ الأيكة. ورُسُلٍ آخَرِينَ لم يَقُصَّ اللهُ علَيْنا قِصَصَهُمْ، كما أبانَ الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بقولِهِ بَعْدَ ذكْرِ طائفة من الرسل:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾:

التدبّر التحليلي:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ . .﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَنِ، وُجِدَ في الأقوام الخلائِفِ خُرُوجُ عن صراط اللهِ الاعْتِقَادِيّ والسُّلُوكي، فاقْتَضَتْ أحوالُهُمْ إرْسَالَ رُسُلٍ إلَيْهِمْ، مُبَلِّغِينَ وَمُبَشِّرينَ وَمُنْذِرين.

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: أي: من بَعْدِ نوحٍ مُباشرةً، إذ اقتضت أحْوالُ الأقوام من بعد قومه إرْسَالَ رُسُلٍ إلَيْهِمْ. وجِيءَ بهذه العبارة لِئَلَّا يُفْهَمَ من: ﴿ثُمَّ﴾ أنَّ بَعْثَ الرُّسُلِ قَدْ كَانَ مُتَأَخِّراً عن حاجَةِ أقوامٍ فَسَدَتْ وانْحَرَفَتْ عن صِرَاطِ اللهِ، بَلْ كانَ مُباشَرَةً مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وقَوْمِه، إذْ دَخَلَ الانحرافُ إلى خلَائِفِهم من بَعْدِهم، فبَعَثَ إلَىٰ أقوامِهِمْ رُسُلاً.

﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾: أُفْرِدَ لَفْظُ الْقَوْمِ وهم أَقْوَامٌ مُتَعَدِّدُونَ، لأنَّ لَفْظَ «قَوْم» اسْمُ جنْسٍ، فهو يُطْلَقُ عَلَىٰ أقوامٍ مُتَعَدِّدين، ولأنَّ أقوامَ رُسُلِ اللهِ جَمِيعاً هم بمثابَةِ أُمَّةٍ واحِدَة، كما قال اللهُ عزّ وجلَّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً للرُّسل:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾.

وهٰذِهِ الدَّلَالَة هيَ الأجْدَرُ بالْفَهْمِ التَّدَبُّرِيّ من مُجَرَّدِ بيان الجواز اللُّغوي.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي: فجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالْبَيِّنَاتِ المخْتَلِفَاتِ الكافِياتِ لإِقْنَاعِهِمْ بالحقِّ، وإقَامَةِ الْحُجَجِ الْبُرْهانيَّة عليهم.

البيِّنات: جَمْعُ «الْبَيِّنَة» صِفَةٌ لموصُوف محذوف، يُفْهَمُ المرادُ به من السِّباق والسِّيَاق. ومعنى «البَيِّنَة» الواضِحَةُ الظاهرة، الَّتِي لَا شَكَّ فيها، ولَا غُمُوضَ، ولَا غَبَشَ عليها.

وقد أُطْلِقَتِ الْبَيِّنَةُ في القرآن علَىٰ الآيَاتِ والمعجزاتِ الواضحات الجليّات، وعلى البراهين الواضحة القاطعة، وعلى الصُّحُفِ والكُتُبِ المُنَزَّلَةِ من عِنْدِ الله، وعَلَىٰ الرُّسُل الذين تَدُلُّ صفاتُهُمْ على أَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً، وكُلُّ هٰذِهِ المعاني صالحة لأنْ تكونَ مُرَادَةً هُنا.

- ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾:

دلَّتْ هٰذه العبارَةُ علَىٰ كلام مطويٍّ قَبْلَها يكْشِفُهُ حُسْنُ التدبُّر، إذ المعْنَىٰ: فجاءتْهُم رُسُلُهُمْ بالبَيِّناتِ، وبَلَّغُوهُمْ مطْلُوبَ اللهِ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ، فَكَذَّبُوهم، فَتابَعُوا تذكِيرَهُمْ وإقْناعَهُم، وتَبْشِيرَ مَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ بالسَّعادَةِ الأبدِيَّة، وإنْذارَ مَنْ يكْفُرُ مِنْهُمْ بالعذابِ الأَبَدِيِّ مِنْ رَبِّهِم، وصَبَرُوا عَلَيْهِمْ صَبْراً طَوِيلاً، كَشَأْنِ الرُّسُلِ الَّذِينَ فَصَّلَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ في القرآنِ مجاهَدَتَهُمْ لِأَقْوامهم، حتَّىٰ وَصَلَتْ أقوامُهُمْ إلى حالاتٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها مِنْ إيمانِهِمْ عَنْ طَرِيق إرَادَاتِهِم الحرَّة، واستَحْجَرَتْ قُلُوبُهُم، ووَصَلَتْ بأسْبابِهِمُ الإرَادِيَّةِ إلى مِثْلِ بُيُوتٍ مُظْلِمَةٍ أُقْفِلَتْ أبْوابُها الْحَجَرِية، وَوُضِعَ عَلَىٰ أقْفالِهَا الْخَتْمُ إشعاراً بالمنْعِ مِنْ فتْحِهَا، وَطُبِعَ علىٰ الْخَتْمِ بِطَابَعِ أَصْحَابِهَا أو بطابَعٍ شيطاني، إيذَاناً بأنَّ فَتْحها صَارَ أمْراً ميْؤُوساً مِنْه، مَهْمَا أُمْهِلُوا وَتُوبِعُوا بالتَّذْكِير، والإِطْماعِ والتحذير، والإِقْنَاعِ الدّامغِ، والموعِظَةِ الحسَنَةِ.

- ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُۚ﴾: أيْ: فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ مَصِيرِهم الذي صَارُوا إليه أنْ يكونَ لدَيْهم أيُّ اسْتِعْدَادٍ لأنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة، بما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ طَوالَ سيرَةِ رُسُلِهِم بَيْنَهُمْ داعِين ومُبَلِّغين ومبشرين ومُحذِّرين ومُذَكِّرِين، ومُتَّخِذِين كُلَّ الْوَسَائِلِ المُمْكِنَةِ رَغْبَةً في استجابَتِهِمْ لِرَبّهم فيما دَعَاهُمْ إليه، عن طريق بلاغاتِ رُسُله المؤيَّدِين بالمعجزات من لَدُنه.

وتَعْلَمُ من سُنَّةِ الله عزّ وجَلَّ أَنَّ مَنْ وَصَلَ من الأقوام إلى مِثْلِ هٰذِه الحالَة أَهْلَكَهُمُ اللهُ إهلاكاً عامّاً شاملاً، إذْ لا فائدة مِنْ إبْقَائِهم في مختبر الابتلاء، وهذا كَطَرْدِ الأشقياء المفْسِدِين، من المدارس أثناء المراحل الدراسيَّة، وقبْلَ انْتِهاء المدَّةِ المقرّرَةِ لها بصِفَةٍ عامَّة.

قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ في آيَةِ هذا الدَّرْس:

- ﴿.. كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: إنَّ أنْظِمَتَنَا السَّبَبِيَّةَ في كَوْنِنَا، تَقْضِي بأنَّ مَنْ عُولِجَ من أصحاب الإرَاداتِ الْحُرَّةِ الْمَوْضُوعِينَ في الحيَاة الدّنيا موضِعَ الامتحان، مُعَالَجَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مُحَاصِرَاتٍ لَهُ مِنْ كُلّ المداخِلِ إلى نَفْسِه. الشاملة لفكْرِه، وأهوائه وشهواته ووجْدَاناتِه ومَطَالِبِهِ ورَغَبَاتِه العاجلات والآجلات، وهٰذِهِ المعالجات تكفِي لإيمان الذين لدَيْهِم أقَلُّ استِعْدَادٍ للاستجابَة لِلْحَقِّ، أنْ تتراكَبَ علىٰ قُلوبهم النُّكَتُ السَّوْداءُ نُكْتَةً فَنُكْتَة، حتَّىٰ تَنْطَمِسَ بَصَائِرُهُم انْطِمَاساً كُلّيّاً، وَعِنْدَئِذٍ تُقْفَلُ كُلُّ المنافِذِ الَّتِي يَنْفُذُ مِنْهَا الضَّوْءُ أو النُّورُ إلَىٰ داخِلِها، وتُغْلَقُ أبوابُها إغلَاقاً كُلِّيّاً، وتُوضَعُ عَلَيْها الأقْفالُ، وَتُوضَعُ علَىٰ الأَقْفَالِ الأخْتَام، ويُطْبَعُ عَلَى هٰذِه الْأَخْتام طابَعُ المنْعِ مِنْ فَتْحِها.

كُلُّ هذا على سبيل الاستعارَةِ التمثيليَّة، إذْ شُبِّهَ ما يَجْرِي في الْقُلُوب بما يَجْرِي في الْبُيُوتِ المظْلِمَةِ المغلَقَة الأبواب والمقْفُولَةِ بالأقفال، والمختومة، والمطبوع على خِتَامِها.

ولمّا كان ما يَجْرِي من أسْبابٍ فِي أنْظِمَةِ الكَوْن، إنَّما تتحقَّقَ نتائجُها بخَلْقِ اللهِ وَتَقْدِيرِه ضِمْنَ أنْظِمَتِهِ السببيَّة، نَسَبَ اللهُ إلَىٰ نَفْسِهِ أنَّهُ هو الّذِي يطْبَعُ على قُلُوبِ الكافِرِين، وقَدْ عَلِمْنَا مِنَ التحليل السَّابقِ أنَّ الْكَافِرِين هُمُ الَّذِين اختارُوا لنفوسهم الأسْبَابَ الّتي تُوصِلُهُمْ إلى هذا الطَّبْع الذي يكون بخلق اللهِ على قلوبهم، كالَّذِي يُدْخِلُ يَدَهُ في النار فيُحْرِقُها اللهُ له.

فمعنى العبارة: مثل ذلِكَ الطّبْعِ الّذي وَصَلَتْ إليه أقوامُ الرُّسُلِ السّابقين، الّذين استحقوا بتكذيبهم رُسُلَ رَبهم الإهلاك الشامل، يَطْبَعُ الله على قُلُوب كُلّ الكافرين، في كُلِّ عصر، وكلّ أُمّة.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومَدَدِه ومَعُونته.

الفصل الثالث

عرض لقطات من قصة موسى وهارون عليهما السلام ملائماتٍ لمعالجة المعنيّين بالعلاج في السورة

وهو الآيات من (٧٥ - ٩٣)

قال الله عزّ وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟
وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦)
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ (٧٧) قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا
بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ
وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣)
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا۟ عَلَى
ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟
بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ
ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا
ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ
قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) ۞
وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ
ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ
(٩٠) ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

القراءات:

(٧٩) • أبدل ورش، والسّوسي، وكذلك أبو جعفر في الوصل الهمزة الساكنة واواً مَدّيّة في: **[فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي]** فقالُوا: فِرْعَوْنُ وتُوني.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالتحقيق.

(٧٩) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[بكُلِّ سَحَّارٍ]** مبالغة «سَاحِر». وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ وبين القراءتين تكامُل في أداء المعنى المراد، إذْ دلَّت القراءتان على أنَّ فِرْعَوْنَ طَلَبَ أوّلاً كُلَّ سَحَّارٍ، ثم طلَبَ كلّ ساحر.

(٨١) • قرأ أبو عَمْرو، وأبو جعْفر: **[بِهِ آلسِّحْرُ]** بزِيادَة همزة قبل همزة الوصْل.

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾.

فدَلَّت القراءتان على أنَّ موسَىٰ عليه السلام قال لَهُمْ أوّلاً مُسْتَفْهِماً فقالُوا له نعم. وعند المباراة قال لهم مُثْبتاً غيْرَ مُسْتَفْهِم.

(٨٧) • قرأ ورش، وأبو عمْرو، وحفص، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: ﴿بُيُوتًا﴾ ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ بضَمِّ الباء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الباء. وهما لُغتان عَربيّتان.

(٨٨) • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ من فعل «أَضَلَّ».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[لِيَضِلُّوا]** من فعل «ضَلَّ».

فَدَلَّتِ القراءتان على أنّ موسى عليه السلام قال في دُعائِهِ لِرَبِّه: لِيَضِلُّوا، وقال أيضاً: لِيُضِلُّوا.

(٨٩) ● قرأ ابْنُ ذَكْوان: **[وَلاَ تَتْبَعَانِ]** بِكَسْرِ النون دون تشديد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ بِكَسْرِ النُّونِ مع التشديد.

ودَلَّت القراءتان على أنَّ الله عزّ وجل أكّدَ لموسى وهارون عليهما السّلام تَوْكِيداً مخفَّفاً، ثُمّ أكَّدَ لهما النَّهْيَ تَوْكيداً مُشَدّداً.

(٩٠) ● قرأ حَمْزَةُ، والكِسَائي، وخَلَف: **[آمَنْتُ إِنَّهُ]** بكَسْر همزة «إِنَّهُ» على أنَّ الجملة مسْتَأْنفة.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ بفَتْحِ همزة «أَنَّهُ» على تقدير: آمَنْتُ بأَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا الذي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيل.

فَدَلَّتِ القراءتان على أنَّ فِرْعَونَ قَال أولاً ما تَدُلُّ عليه عبارة: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إلَه إلَّا الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيل حين أدْرَكَهُ الْغرق، وقال بَعْدَها: آمَنْت ـ إِنَّهُ لَا إلَه إلّا الّذي آمَنَتْ به بنو إسرائيل.

(٩٢) ● قرأ يَعْقُوب: **[نُنْجِيكَ]** مِنْ فعل «أَنْجىٰ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من فعل «نَجَّىٰ».

والقراءتان متكافئتان، لأن الفعل المهمز أخُو الفعل المضعّف.

تمهيد:

في هذا الفصل بيان لقطات من قصة موسى وهارون عليهما السلام، وهٰذه اللّقطات مُلَائمَاتٌ للمواقِف الَّتي كانَ علَيْها المعنيّون بالمعالجة في السُّورَةِ من أئمَّةِ المكذِّبينَ الكافِرين المعانِدين في مَكّة إبَّانَ نُزُولِ السّورة.

ففيه بيانُ اسْتِكْبَارِ فرعَوْنَ ومَلَئِهِ وإجْرَامِهِمْ، وادّعاءِ أَنَّ ما جاء به

مُوسَىٰ وهارون من آيات بيّناتٍ ومعجزاتٍ باهراتٍ هي من السِّحْر، وليست حَقًّا مُنزَّلاً مِنْ لَدُن رَبّ العالَمِين، وإصرارِهم على تقالِيدِهم العمياء، واتهامِهِمْ لموسى وهارون بأنّ هَدَفَهُما من دعوتهما التَّوصُّلُ إلَىٰ حُكْم مِصْرَ بَدَلَ حُكامِها وأصْحَابِ السُّلْطانِ فيها، وهذا مُشَابِهٌ لما كان عليه أئمة الشرك والكفر في مَكَّة إبّانَ تنزيل السُّورة.

وفيه بيان حَالِ المؤمنين بموسى وهارون من بني إسرائيل في مِصْر، ومَا كَانُوا يُعَانونَهُ من اضطهاد، وهٰذَا الحالُ يُشْبِهُهُ حَالُ المؤمنين فِي مَكَّة إِبَّانَ نُزُولِ السُّورة.

وفيه بيانُ الْحَالِ الذي وصَلَ إلَيْه مُوسى عليه السّلام، ويُشْبِهُهُ الحال الذي وصل إليه رسُولُ اللهِ محمّد ﷺ إبَّانَ نُزُول السّورَة.

وفيه بيانُ العقاب الرَّبَّاني الّذي عاقب اللهُ بهِ فِرْعَوْنَ ومَلَاءَهُ وجُنُودَه، وفي هذا البيان تَلْوِيحٌ تَهْدِيديٌّ للمعنِيّين بالْمُعَالَجة في السُّورَةِ من أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة، وهذا التَّهْدِيدُ يُلَائِمُ أحوالهم الّتي وصَلُوا إِلَيْهَا إبَّانَ نُزول السورة.

وفي تدَبُّرٍ سَابقٍ للقَطَاتٍ من قِصَّةِ مُوسَى وهارون في سُوَرٍ سابقاتِ التَّنْزيل، بَعْضُ نَظَراتٍ تكامُليَّة بَيْنَها وبَيْنَ مَا جَاءَ في هذا الفصل، وأسْأَلُ اللهَ عزّ وجلَّ أَنْ يُيَسِّرَ لي دِرَاسَةً تكامُليَّة لكلِّ النصوص القرآنيَّة المتعلّقَة بموسى وهارون، وفرعون وقومِه، وبني إسرائيل، وأقتصر هنا على تَدَبُّر فقراتِ هذا الفصل.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

- ﴿ثُمَّ﴾: أي: وبعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ مِنَ الزَّمَن.

- ﴿بَعَثْنَا﴾: **الْبعْثُ**: الإرْسَالُ، يقال لغة: «بَعَثَهُ، يَبْعَثُهُ، بَعْثاً، وبِعْثَةً» أي: أَرْسَلَهُ، ولَا يكونُ الإرْسَالُ غالباً إلَّا لأداء وظيفةٍ يُريدُ الْمُرسِلُ تحْقِيقها. وجاء في هذه الآية استعمال ضمير المتكلم العظيم الملائم لِرُبُوبيَّة الله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

- ﴿مِنۢ بَعۡدِهِم﴾: أي: من بَعْدِ مَنْ أشارتْ إليهم آيَةُ الْفَصْل الثاني.

فموسَىٰ وهارونُ بُعِثَا بَعْدَ آخِرِ المشار إليهم، وهو شُعَيْبٌ عَلَيْه السلام.

- ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾: سبَق التعريف بهما مَرَّاتٍ عَلَيْهما السّلام، وسَبَقَ بَيَانُ قِصَّةِ بَعْثهما.

- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: أي: إلىٰ مَلِكِ مِصْرَ في عَهْدِ موسى عليه السلام(١). ومَلَؤُهُ هُمْ وُزَراؤُه، ومَجْلِسُ مسْتَشَارِيه، وكِبَارُ أَرْكان مُلْكِه.

ويُطْلَقُ علَىٰ الأعيانِ وكبراء القوم لفظ «مَلأ» لأنَّهُمْ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العامَّة.

- ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: بآياتنا البيانيّة، وآيَاتِنَا الاعجازيَّة التِّسْعِ، وأُولَاها آيَةُ الْعَصَا فآيَةُ الْيَد.

- ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: أي: فبالَغُوا واشْتَدُّوا في كِبْرِهم واسْتِعْلائهم رَافِضين الاستجابة لدعوة الحقّ الرَّبَّانيَّة الّتي جاءهم بها موسَىٰ وهارُون عليهما السلام.

- ﴿.. وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝٧٥﴾: استعمل فِعْلُ «كان» هُنَا بمعنَىٰ

---

(١) ذُكِرَ أنّ فِرْعَوْنَ مصر يومَئِذٍ «منفتاح الثاني» أحد فراعنة العائلة التاسعة عشرة، من الأُسَر التي مَلَكَتْ بِلَادَ مِصر.

الصَّيْرُورة، أي: وكانَتْ صِفَتُهمُ الْتِي صَاروا إلَيْها بَعْدَ مَسِيرَة موسىٰ وهارون الدعويَّةِ الطّويلَةِ في مِصْرَ، أَنَّهُمْ قَوْمٌ مُجْرِمُون، أي: مُرْتَكِبُو أقْبحِ وأَخَسِّ وأرْذَلِ الذُّنوب، فكَفَرُوا كُفْرَ حُجُودٍ وَعِنادٍ بالحقِّ الواضح الجلِيّ، الذي جاءهم من رَبِّهم، مع لوازم هذا الكُفْرِ من جرائم وظُلْمٍ وعدوان، وَبَغْيٍ وطُغيان.

المجْرِمُونَ في المصطلح القرآني هُمْ مُسْتَحِقُّو الخلُود في عذاب النار يوم الدّين.

هذه الآيَةُ تحدَّثَتْ بصِفَةٍ إجمالِيَةٍ عَن وَصْفِهِمُ العامّ، وبَعْدها أبَانَ اللهُ عزّ وجَلَّ بَعْضَ تَفْصِيلَاتٍ من قِصَّةِ فِرْعَوْنَ وملئه.

قول اللهِ تعالى:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: فَحِينَ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَتا الْعَصَا والْيد، مِنْ عِنْدِ قُدْرَتِنَا العظيمة الَّتِي نَفْعَلُ بها مَا نَشاءُ، وخَلَعَتْ قُلُوبَهُمْ آيَةُ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ ثُعْبَاناً عَظِيماً مُرْهِباً، كابَرُوا وعانَدُوا وقالوا: إنَّ هَذَا لسِحْرٌ مُبِينٌ، ولَيْسَ مِنْ آياتِ اللهِ رَبِّ السَّماواتِ والأرض، شَهَادةً مِنْهُ لموسَىٰ وهَارُون بأنَّهُما نبيّانِ ورَسُولان صادقان.

وأكَّدُوا قولهم بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلَقَة» على سبيل الإعلام الدعائي، تضليلاً لجماهير المصريِّين، وإمعاناً في إبطالِ الحق.

قول الله تعالى:

- ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾؟؟

في هذا البيان مطويٌّ في المثَانِي يَسْهُلُ اسْتخراجه، أي: قال لهم موسى متعجِّباً مِنْ كلامهم ومستنكراً بأسلوب الاستفهام التعجُّبيّ الإنكاري:

أتقُولُونَ قولاً مُوَجّهاً لِلحَقِّ: هٰذا سِحْر، وهو حَقٌّ جَلِيٌّ واضِحٌ مُبِينٌ، اعْتَرَفَ كُلُّ سَحَرَتِكُمْ بأنَّهُ حَقٌّ، فآمَنُوا وسَجَدُوا للهِ رَبِّ العالمين، وسألُوه أنْ يَغْفِرَ لهم ذنوبهم، ولا سيما أعْمَالُهُم السّحْرِيَّةُ الشّرْكيّة.

وبَعْدَ هذا قال لهم مستنكراً مُتَعَجّباً: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؟! وهو انْقِلَابُ الْعَصَا حيَّةً حَقِيقِيَّةً ابْتَلَعَتْ ابتلاعاً حَقيقيّاً كُلَّ ما صَنَعَ سَحَرَةُ مِصْرَ مجتمعين، وآيَةُ الْيَدِ، ثمّ جاءَتْ بَعْدَهُمَا سائر الآياتِ التِّسْعِ الَّتِي أجْرَاها اللهُ لموسَىٰ وهارون في مِصْر، وكانُوا مع كلّ آية مِنْها يَعِدُونَ باسْتِجابَةِ مَا دَعَاهُمْ مُوسَىٰ عليه السلام إليه، إذا رفَعَ عَنْهُمْ ما أنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِمَّا يكْرَهُون، ثُمَّ يَنْكُثُونَ وَيَنْقُضّونَ عَهْدَهم، ويُصرُّونَ على كُفْرِهِم، وفي كُلِّ هٰذِهِ الآيَات كَانَ مُوسَىٰ وهارون يَظْفَرانِ بالحجَّةِ الْبُرْهَانية، وَكَانَ فِرْعَوْنُ وملَؤُهُ يَخِيبُونَ، ولَا يَمْلِكُونَ إلَّا تَرْوِيجَ الدِّعايات الكاذِبَاتِ المفترِيَات.

ومَا كانَ يَظْفَرُ بِهِ مُوسَىٰ وهارُونُ قد كَانَ فَلَاحاً حَقِيقيّاً، ولو كان مَا جاءا بِه سِحْراً مَا أفْلَحا، إذْ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ، مَهْمَا أحْكَمُوا وَسَائِلَهُمْ، دلَّ على هذا قَوْلُ مُوسى لهم: ﴿.. وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾.

ونَفْهَمُ من هٰذا البيانِ الّذي قالَهُ مُوسَىٰ عليه السَّلام، أنَّ مِنْ سُنَنِ الله الدَّائمة الّتِي لا تَتخلَّفُ فِي كَوْنه: أنَّ السَّاحِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ، مَهْما اتَّخذُوا من وَسَائِلَ، ومَهْما أحْكَمُوا مِنْ أسْبَاب، إذْ يقْضِي اللهُ عَلَيْهم بالخيبَة.

الْفَلَاح: هو في اللُّغَةِ الظّفَرُ والنَّجاح.

قول اللهِ تعالىٰ حكايةً لمَا قالَهُ فِرْعَوْنُ وَمَلؤه لموسَىٰ عليه السّلام:

- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾:

- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾: أي: أجئتنا وَمَعكَ العجائب.

- ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: أي: لِتَلْوِيَنا وتصرِف اتّجاهَنا عَنْ عَقَائِدِنا، ونظامِ حياتنا، يُقَال لغة: «لَفَتَ الشَّيْءَ يَلْفِتُهُ لَفْتاً» أي: لواه على غَير وجْهِهِ وَصَرَفَهُ إلىٰ ذَاتِ اليَمِين، أو ذاتِ الشمال.

واجَهُوا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام بالْخِطَاب، لأنَّهُ هُوَ الحَامِلُ الْأَوَّلُ للرِّسالَة، وهارون وزيرُهُ ومُعِينُه، وقَرَنُوا بِهِ أخَاهُ لَدَى اتّهامِهما بأنَّ غَرَضَهُما انْتِزَاعُ مُلْكِ مِصْرَ من أصْحَابِهِ وَذَوِي السُّلْطانِ فيه.

والاستفهام في قولهم لموسَىٰ: ﴿أَجِئْتَنَا﴾؟؟ استفهامٌ إنكارِيٌّ أرادوا بِه سَتْرَ الْحَقِّ، وتَرْوِيجَ إشاعَةٍ إعلامِيَّةٍ كاذِبَة مُؤَلَّفَةٍ من ذِكْرِ الْوَسِيلَةِ والْهَدَفِ مِنْها.

أمّا الْوَسِيلَة: فَقَدْ عَبَّرُوا عنها بما دَلَّ على معناه قول اللهِ تعالَىٰ حكايَةً لقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾؟؟.

أي: أجِئْتَنَا وَمَعَكَ العجائِبُ السِّحْرِيَّةُ لِتَصْرِفَ اتْجاهَنا عَنْ عَقَائِدِنا ونُظُم حَيَاتنا الَّتِي وَرِثْنَاهَا عَنْ آبائِنَا، وتَجْعَلَنَا نُؤْمِنُ بِعَقَائِدَ أنْتَ تُمْلِيهَا عَلَيْنَا، ونَعْمَلَ بنُظُمٍ أنْتَ تَضَعُها لَنَا.

وأمّا الْهَدَفُ مِنْها: فَقَدْ عَبَّرُوا عَنْهُ بما دَلَّ عَلَىٰ معْناه قَوْل الله تعالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

أي: وَلِتَكُونَ لَكُمَا السُّلْطَةُ الْعُلْيا في مِصْر، بَدَلَ فرعون ووُزَرائِه وأعْوَانه، وتَجْعَلَا بَنِي إسْرَائيل هم المسْتَعْلِينَ علَىٰ المصريِّين أصْحَاب الْبِلَادِ الأَصْلِيّين.

الكِبْرِياء: المُلْك ـ العظمة والتَّجبُّر والتَّرفُّع عَنِ الانْقِيَاد.

والمراد بعِبارَةِ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضُ مِصْرَ، فـ «ال» عَهْدِيَّة.

وبَعْدَ هٰذا القول أيْأَسُوهُمَا من الإيمان بِهما والإسلام لهما، فقالُوا:

﴿.. وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾: أي: وَمَا نَحْنُ بمُؤْمِنِينَ بِكُما، ولا بِمُسْلِمين لَكُما. ضُمِّن لفظ «مُؤْمِنين» مَعْنَىٰ لفظ «مُسْلِمينَ» فَعُدِّي تَعْدِيَتَه، فأغْنَت الجملة عن جُمْلَتَين.

زيدت «الباء» في عبارة: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لتوكيد عموم النَّفْي والتنْصِيصِ عَلَيه.

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً ما فَعَلَ فِرْعَوْنُ ضِدَّ آيَةِ عَصَا مُوسَىٰ المدهشَةِ الْمُرْعبَة:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩﴾ وفي القراءة الأخرى: **[بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيم]** أي: عظيم السِّحْر شَدِيد المهارة فيه، فَدَلَّتِ القراءتان على أنَّهُ طَلَبَ إحْضارِ كُلِّ «سَحَّارٍ» عليم أوّلاً، وبَعْدَ ذلِكَ طَلَبَ إحْضَار كُلِّ «سَاحِرٍ» عَلِيمٍ بالسِّحْر.

والْغَرَضُ من الإتيان بِسَحرَةِ مِصْرَ في زمَانِه أن يُجْرِيَ بَيْنَهُم وبَيْنَ مُوسَىٰ مباراةً بالسِّحْرِ، رَاجياً أَنْ يَغْلِبَ سِحْرُ سَحَرَتِهِ مَا جاء بِهِ مُوسَىٰ عليه السلام، وَقَدْ سَبَقَ فِيمَا نَزَلَ مِنْ سُوَرٍ تَفْصِيلُ أَحْدَاثِ هٰذِهِ المباراة، إعداداً وإجراءً. واكْتَفَىٰ الْبَيَانُ هُنَا بِذِكْرِ لَقْطَةٍ من لَقَطاتِ سَاعَةِ إجراءِ المبارَاةِ.

قول اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾:

أي: فحِينَ جاء السَّحَرَة مِنَ الأقاليم المصريَّةِ ومُدُنها وقُراها، واجْتَمع بهم فرعَوْنُ، وعَرَضَ عَلَيْهِمْ الْأَمْرَ الَّذِي دَعاهم إليه، وَوَعَدَهُمْ بالْأَجْرِ الكبير المجْزِي، وبأنْ تكونَ لَهُمْ حُظْوَةٌ عِنْدَه، وأَعَدُّوا عُدَّتَهُمْ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِيما سبَقَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ مِنْ سُوَر،

وَحَضَرُوا مَكَانَ المباراةِ الَّذِي تَمَّ تَحْدِيدُهُ بتفاوضٍ سابقٍ بَيْنَ فِرْعَوْنَ ومُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام، وَقَالَ السَّحَرَة: إمَّا أَنْ تُلْقِي وإمَّا نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من أدواتكم ووسائلكم السِّحْرِيَّةِ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ مَا أَلْقَوْهُ وسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ واسْتَرْهَبُوهم ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ واثِقاً بِنُصْرَةِ اللهِ لَهُ وفَاتّاً في عَضُدِهم ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ﴾ الَّذِي يُخَيِّلُ لِأَعْيُنِ الناسِ تَخْيِيلاً، ولَا يَقْلِبُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ بما آتاني من آيَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، يَقْلِبُ بِهَا الْعَصَا فيَجْعَلُها بِخَلْقِه ثُعْباناً حَقِيقِيّاً، ذَا حَيَاةٍ وقُدْراتٍ وأفعالٍ حَقِيقِيَّةٍ غَيْرِ صُورِيَّةٍ، إِنَّكُمْ بِسِحْرِكُمْ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْض، مَعَ سَيِّدِكُمْ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وَجُنُودِه، وَ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ فَلَا يَجْعَلُهُ عملاً صَالحاً مُؤَدِّياً نتيجَةً نافِعَةً صالحة، لِأَنَّ غايَةَ المفْسِدِينَ مِنْهُ الإفساد لَا الإصلاح.

وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ مُشيراً إلىٰ انْتصَارِ آيَةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، على كُلِّ سِحْرِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ في المباراة بَيْنَهُمَا: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: وأحَقَّ اللهُ الْحَقَّ الّذِي أَرْسَلَ بِه مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، فَنَصَرَهُ وَجَعَلَهُ هُوَ الثابتُ، وأَبْطَلَ سِحْرَ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ فجَعَلَهُ زَاهِقاً، وانْقَلَبَ السَّحَرَةُ علَىٰ سَيِّدِهم فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهِ، وأَعْلَنُوا إيمَانَهُمْ بِرَبِّ مُوسَىٰ وَهارون، وخَرُّوا سَاجِدِينَ للهِ رَبِّ العالمِين، وَكانَ هٰذا تَطْبيقاً لِجُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ سُنَّةِ اللهِ فِي كَوْنِه، وهِيَ أَنَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ التَّكْوينية الَّتِي يَقُولُ فيها للشيء الَّذي أرادَهُ وتَمَّ بِهِ قضاؤه: كُنْ، فَهُوَ يكُونُ فوراً على مرادِه جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه، ومن إحْقَاقِهِ لِلْحَقِّ نُصْرَةُ رُسُلِهِ وتأييدُهُمْ في رِسَالاتِهِم الحقّ الَّتِي أَرْسَلَهُمْ بها.

قول اللهِ تعالى:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ هٰذِهِ الآيةَ تتحدَّثُ عَنِ المراحِلِ الأَخِيرَةِ، لمَسِيرَةِ مُوسَىٰ الدَّعوِيَّةِ في مِصْرَ لِدِينِ اللهِ الحقّ الّذِي أَمرَه بِتَبْلِيغِهِ لِلْمِصْرِيِّينَ، وَلِبَنِي إِسْرَائيلَ قَوْمِهِ عِرْقاً ونَسباً فِيها.

- ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾: أي: فَمَا آمَنَ بِه رَسُولاً مُسْلِماً لَهُ ومتّبعاً، ضُمِّنَ فِعْلُ «آمَنَ» مَعْنَىٰ فِعْل «أَسْلَم» فَعُدِّي تَعْدِيته، فاغنت الجملةُ عن جُمْلَتَيْن.

- ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: أي: إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ يشْتَرِكُ مَعَهُمْ في السُّلالَةِ الواصِلَةِ إِلَىٰ يَعْقُوبَ وإسحاقَ وَإِبْراهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلام.

أَمَّا مَنْ آمَنَ بِه كامرأة فرعون، ومَاشِطَةِ ابْنَتِه، وامرأةِ خازِنِه، ومُؤْمِنِ آل فِرْعَوْنِ، فإِنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ مُسْلِمِينَ لَهُ، إِذْ منَعَهُمْ خَوْفُهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وجَبَرُوتِهِ مِنْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ مناصِرِينَ له، ومُسْلِمين له.

وعبارَةُ: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ تُشْعِرُ بأَنَّ كثيراً مِنْ مَلأ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وهُمْ من أَعْيَانِهِمْ وَكُبَرَائِهِم لَمْ يُؤْمِنُوا لِمُوسَىٰ وهَارُون عليهما السّلام إيماناً دِينيّاً، مع خضوعِهِمْ لَهُمَا خُضُوعاً قوميّاً.

الذُّرِّيَّة: النَّسْلُ مِنَ الذُّكُورِ والإِناث، أَصْلُها «ذُرِّيئَة» سُهِّلَتِ الهمزة، وأدْغِمَتْ بالياء قَبْلَها، وتُجْمَعُ عَلَىٰ «ذَراري».

- ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾: أي: آمَنَ هؤلاءِ الذُّرِّيَةُ مِنْ بَنِي إسرائيل لموسَىٰ، حالَةَ كَوْنِ نُفُوسِهِمْ مضْطَرِبَةً على قلقٍ وخَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَبَطْشِه وَجَبَرُوته، وخوْفٍ من تَثْرِيبِ مِلَئِهِمْ من بني إسرائيل لهم، إِذْ يُحَذِّرُونَهُمْ من نِقْمَةِ فِرْعَوْنَ وتَسَلُّطِهِ علىٰ كُلِّ بني إسرائيل بِسَبَبِ إيمانِ شبانِهِمْ وَذَرارِيهم بموسَىٰ وَهارون وإِسْلامِهِمْ لَهُما.

- ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: أي: علَىٰ خَوْفٍ مِنْ فرعَوْنَ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُم، مُعَذِّباً لهم.

الفِتْنَة: تأتي بمَعْنَىٰ التَّعْذِيب، وهذا المعنى هو المرادُ هُنا.

- ﴿.. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

أبانَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بهٰذِه العبارة وَصْفَيْن ذَمِيمَيْن من أَوْصَافِ الْجَبَابِرَة في الْأَرْض، وهُمَا:

الْأَوّل: كونُ فرعَوْنَ مُسْتَعْلِياً في الأَرْضِ، أي: واضِعاً نَفْسَه مَوْضِعَ الْعُلُوِّ، والمراد أنَّهُ عَاتٍ مُتكبِّرٌ جَبَّار.

الثاني: أَنَّهُ مِنَ المسْرِفين، أي: من المتجاوزينَ حُدُودَ آثَامِ الملُوكِ وطُغْيَانِهِم، حتَّىٰ صَار من الطُّغَاةِ الجبابِرَة العتاةِ الْبُغَاةِ المستَعْبِدِين لشُعُوبِهم، فهو من هذه الفئة.

الإسْرَاف: هو في اللُّغَة تَجَاوُزُ الْحَدِّ المأْلُوفِ في النَّاس عَدَمُ تجاوزه، فالمعاصي والمخالَفَاتُ لِلْحَقّ أَو الْوَاجِبِ أو الحكمةِ في التَّصَرُّفِ، إذا زَادَتْ عمَّا يَرْتَكِبُهُ مُعظَمُ النَّاسِ عادَةً كانَتْ إِسْرافاً.

قول الله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

دلَّ هذا البيان على أنَّ الّذِينَ آمَنُوا بموسَىٰ وبما جاء به عن ربّه، وأسْلَمُوا إسلاماً صَحِيحاً، وكانوا على خوف مِنْ فِرْعَوْن وخَوْفٍ من مَلَئِهِم الإسرائيليين، أَنْ يُعَذِّبَ الجميعَ فِرْعونُ، شَكَوْا لِمُوسَىٰ عليه السَّلام تَخَوُّفَهُم، أو رأىٰ في سُلُوكِهِم آثار هٰذا الْخَوْف، فأمَرَهُمْ بأنْ يَشُدُّوا

عزائِمَهُمْ مُتوكّلِين على اللهِ، ويَعْمَلُوا بما يَقْتَضِيهِ مِنْهُمْ إسلامُهُم غَيْرَ هيَّابِينَ وَلَا وَجِلِين، فاسْتَجابوا له وقالُوا: عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا. ودَعَوْا رَبَّهُمْ أَنْ لا يُمَكِّنَ الظَّالِمِينَ من تَعْذِيبِهم، وأَنْ يُنْجِيَهُمْ من الْقَوْمِ الكافِرِينَ.

أي: وقال مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ للذُّرِّيَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا لَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائيل: يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، وأَسْلَمْتُمْ لَهُ مُطِيعين لأوامره وَنواهِيهِ، فَعَلَيْهِ وَحْدَهُ تَوكَّلُوا في الثَّباتِ والمجاهَدَةَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، واعْمَلُوا بما يجبُ عليكم أَنْ تَعْمَلُوهُ، صَابِرِينَ طَالِبِين الأَجْرَ والْمَعُونَةَ وقُوَّةَ العزيمةِ والثبات على الحقِّ مِنْه جَلَّ جلاله.

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾: أي: فعَلَيْهِ وَحْدَه تَوكَّلُوا، اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ من تقديم المعمول على عَامِلِه، فالمعنى: لا تَتَوكَّلُوا إلَّا عَلَيْه وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ مِنْ قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصُوف.

أمّا الإيمان الصَّحِيحُ الصادقُ فثَمَرَتُهُ في السُّلُوكِ النّفسيِّ صِدْقُ التوكُّلِ علَىٰ اللهِ، لطَرْدِ القلَقِ وتحْقِيق الطُّمَأْنينة الداخِليَّة.

وأمّا الإسْلَامُ الصّحِيحُ الصَّادِقُ فالتوكُّلُ على اللهِ يُمِدُّ صَاحبَهُ بِقُوَّةِ العزيمة، والصَّبْرِ عَلَىٰ المجاهَدَة، والقيام بالتكاليف الإسلامِيَّةِ بثباتٍ وإتقانِ عَمَلٍ، دُون خوفٍ ولَا وَجَلٍ.

وللدَّلَالَة عَلَىٰ الفرْقِ بيْنَ كَوْنِ التوكُّلِ أثراً من آثار الإيمان في السُّلُوك النفسِيِّ، ومُمِدّاً بالْقُوَّةِ والْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ لَدَىٰ التطبيقاتِ الإسلاميَّة، جاءت العبارة: ﴿.. يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

- ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: أي: فاسْتَجابُوا لِمَا أمَرَهُمْ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، فأعْلَنُوا توكُّلَهُمْ علىٰ الله.

- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

الفِتْنَة: اسْمٌ يُطْلَقُ على: «الاختبار، والتَعْذِيب، والتضليل، والإغراء للإغواء، والبَلْبَلَة والاضطراب، وأصْلُ معنى الفتنة الصَّهْرُ بالنار للمعدنِ لاختبارِه، فيُطْلَقُ على الإحْراقِ بالنّارِ والتَّعْذِيب بها.

فَدُعَاؤُهُمْ: ﴿.. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ معناهُ فيما يَظْهَرُ: رَبَّنَا لَا تَجعَلْنَا مَوَاقِعَ فِتْنَةٍ لِلقَوْمِ الظَّالِمين، أي: لَا تُمكِّنْهُمْ مِنْ فِتْنَتِنَا فِي دِينِنَا بإغراءاتِهِمْ، وتضليلاتِهِمْ، وتَعْذِيبهم لَنَا.

فإنّنا إنْ فُتِنَّا في دِينِنَا وَنَحْنُ طلِيعَةُ المؤمنين المسلمين، صِرْنَا وسِيلَةَ فَتْنَةٍ لِلآخَرِين، إذْ يَتَأَثَّرُونَ بفِتْنَتِنَا عَنْ دِيننا فَيُتَابِعُونَنَا، فَنَكُونَ نَحْنُ بِذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ.

فَدُعَاؤُهُمْ هذا له لازِمَان: أَوَّلُهُما حِمايَتُهُمْ مِنْ أَنْ يُفْتَنُوا، ويكونُ هذا بتَثْبيتهم على الحقّ، وثَانِيهمَا حِمَايَةُ غَيْرِهِمْ من أَنْ يُفْتَتَنُوا بِهِمْ تَأَثُّراً بِهِمْ، فيما لَوْ ضَعُفُوا فَفُتِنُوا بتأثير وسَائِلِ الظَّالمِينَ الكَيْدِيَّة.

وفي وَصْفِ مُسَلِّطِي أدَواتِ الفِتْنَةِ بأنَّهُمْ ظالمِون، إشْعَارٌ بِمَا يَتَّخِذُونَهُ مِنْ ظُلْمٍ مَادِّيٍّ، وَظُلْمٍ مَعْنَوِيٍّ نَفْسِيٍّ وفِكْرِيّ.

ودُعَاؤُهُمْ: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ دَلَّ علىٰ أنَّهُمْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يُخَلِّصَهُمْ بِرَحْمَتِهِ، مِمَّا هُمْ مُحَاطُونَ بِهِ مِنْ قُوَىٰ الْبَغْيِ والطَّغْيَانِ الْفِرعَوْنِيَّةِ الإكْرَاهِيَّة عَلىٰ الْكُفْر.

فَأَضَافُوا في هٰذا الدُّعاء وصْفَ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهِ، بأَنَّهُمْ قَوْمٌ كافِرُونَ بِمَا يَجبُ علىٰ كُلِّ العبادِ المكلَّفِين أَنْ يُؤْمِنُوا به، إذْ هُوَ حَقُّ رَبِّهِمْ عَلَيْهم.

قول الله تعالى:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

- ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾: أي: وأوصلنا أمراً بطريق الوحي الخاصّ بالأنبياء والْمُرْسَلين، إلى مُوسَىٰ رَسُولنا وأخِيهِ هَارُونَ.

- ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾: «أَنْ» تفسيريَّة، وهي حَرْفٌ لتَفْسِيرِ مَضْمُونِ الْوَحْيِ الَّذِي أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إلى مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام.

تَبوَّءَ المكانَ وبه: أي: نزلَهُ وأقام به، والمعْنَى: اختَارَا وعَيِّنَا لكُما ولِقَوْمِكُما الإسرائِيلِيّين بِمصْرَ مَكَانَ بُيوتٍ ثَابتَةٍ يَبْنُونَها قُرًى، غَيْرَ الْبُيُوتِ التَّنَقُّلِيَّةِ الَّتي يَتَّخِذُها رُعَاةُ الْأَنْعَامِ، إذْ ما زَالَ الإسْرائِيلِيُّونَ فيما أَرَىٰ يَسْكُنُونَ الخِيَامَ في أَرْضِ «جَاسَان» الخِصْبَة، مُنْذُ مَنَحها لآبائِهِمْ فِرْعَوْنُ الّذي وَلَّىٰ يُوسُفَ علَيْهِ السَّلام علىٰ مَمْلَكَةِ مِصْرَ مِنْ دُونه، وأطْلَقَ يَدَهُ في تَصْرِيف أمُورِ مِصْرَ وشَعْبِها، فَبنُو إسْرائيلَ مَازَالُوا يَسْكُنُونَ الخيام، مُنْذُ قَدِمُوا إلى مِصْرَ في عَهْدِ يُوسُفَ عليه السّلام، لِأَنَّ مُعْظَمَ معايِشِهِمْ كانَتْ تَعْتَمِدُ على تَرْبِيَةِ الْأَنْعَام، مع ما مَهَرُوه مِنْ صناعات، وتَرْبيةُ الأنْعَام تَعتَمِدُ علىٰ التّنَقُّلِ تَتَبُّعاً لمواقِعِ الكَلأ الجيِّدِ الّذي تَرْعَاهُ المواشي.

- ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾: أي: واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ في الأرضِ الّتِي تختارانِها لِبناءِ البيُوتِ السَّكَنيَّةِ الثَّابِتَةِ ذَاتَ قِبْلَةٍ.

القِبْلَة: في اللُّغَةِ الْجِهَةُ، وتُطْلَقُ علَىٰ الكعْبَةِ المشَرَّفَةِ لِأَنَّ المسلِمين يَتَّجهون إلَيْها في صَلَواتِهم. وكانَتْ قِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ بَيْتَ المقْدِسِ قَبْلَ أنْ يُحَوِّلَهُمْ الله إلى الكَعْبَةِ المشَرَّفَة.

فمعاني هٰذِهِ العبارة تدور حوْلَ ثَلاثَة احْتِمالات.

الاحْتِمال الأوّل: واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ذَاتَ جهة واحِدَة، إذْ تَكُونُ أبوابُها ومَدَاخِلُها وَمَخَارِجُها مُتَّجِهَةً لَهَا.

الاحْتِمال الثاني: واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ذَاتَ قِبْلَةٍ، مُتَّجهَةٍ جِهَةَ بَيْتِ

المقْدِس، ويُؤَيّد هذا الاحتمال أنْ قِبْلَةَ اليهود بَيْتُ المقْدِس.

الاحْتِمَال الثالث: واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ذَاتَ قِبْلَةٍ مُتَّجِهَةٍ جِهَةَ الكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ في مَكَّة.

وقد يُؤيّدُ هذا الاحتمال ما رُوِي عن ٱبْن عباسٍ من أنّ الكَعْبَةَ كانت قِبْلَة مُوسَىٰ علَيْهِ السلام، وما رُوِي عن الْحَسَن من أنَّ الكعْبَةَ كانَتْ قِبْلَةَ كُلِّ الْأَنْبِياء، ولَكِنْ لَا تَقْوىٰ هاتانِ الرِّوايَتَانِ علَىٰ إثباتِ أنَّهُمْ جعَلُوا بُيُوتَهُمْ مُتَّجِهَةً لجِهَةِ الكعبَةِ المشرَّفَةِ.

- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ مُوسَىٰ وهارُون عليهما السلام وسَائِرَ المؤمنينَ المسْلِمينَ مِنْ بني إسرائيل بإقامة الصَّلاة.

والمراد بإقامَةِ الصَّلاة المداوَمَةُ والمواظبَةُ عليها في أوقاتها، وأداؤها على الوْجهِ الشّرْعيّ المطلوب فيها، أي: جَعْلُها مستقيمة.

يقال لغة: «أقام الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أدامه وواظب عليه، وأدّاهُ مُوفِياً حَقَّه.

وهذا التكليف يدُلُّ علَىٰ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعبَادِه في كُلِّ رِسَالَاتِهِ لَهُمْ، يَشْتَمِلُ علَىٰ رُكْنِ الصَّلاة، وأنَّهُ أوَّلُ أَرْكان الإسلام في الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّة، بَعْدَ إعْلَانِ الدُّخول في الدّين والمبايَعَةِ علَىٰ السَّمْعِ والطَّاعَة.

والصَّلاةُ الَّتي أَمَرَ اللهُ بِها بَنِي إسرائيل هي امْتِدَادٌ للصَّلاةِ الَّتِي كانَ إبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام يُؤَدّيها، وفيها قيامٌ ورُكُوعٌ وسُجُود، والدَّليل على هذا قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿.. وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

- ﴿.. وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾: أي: وأَمَرْنا كُلّاً مِنْ مُوسَىٰ وهارُونَ بأَنْ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنين بالسَّعادَة الأَبدِيَّةِ في جَنَّاتِ النعيم يوم الدِّين، وبحياة طَيّبَةٍ مُعَجَّلَةٍ في الدُّنيا، مع تأييدٍ ونَصْرٍ من الله.

قول اللهِ تَعالى:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى **[لِيَضِلُّوا]** من فعل «ضَلّ» أي: لِيَضِلُّوا وَيُضِلُّوا.

الزِّينَة: كُلُّ مَا يُتَزَيَّنُ ويُتَجَمَّلُ بِهِ من مَتَاعِ الحياة الدُّنْيا، ممَّا يُلْبَسُ أو يُرْكَبُ أو يُسْكَنُ أو يُوضَعُ في المساكِنِ والطرقاتِ منْ مُعَلَّقَاتٍ ونُصُبٍ وأَصْبَاغ ونَفَائِسَ وجواهِرَ وحُلِيٍّ، وأَدَواتٍ فاخراتٍ تُسْتَعْمَلُ فِي الطَّعَام والشَّراب، وحَدَائِق ذاتِ بِهْجَةٍ، حتَّىٰ ما تُزَيَّنُ بِهِ الْخُيُولُ والجِمَالُ والبِغَالُ والحمير، إلى غَيْرِ ذَلِكَ ممَّا يَعْسُرُ حَصْرُه.

والمعنى الذي ظهر لي من دُعاء مُوسَىٰ وأخيه بدليل قول الله عزَّ وجَلَّ في الآية التالية (٨٩): ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ هو ما يلي: كانَ هٰذا الدُّعَاءُ في أَوَاخِرِ مَسِيرَةِ مُوسَىٰ وَهارُونَ الدَّعَوِيَّة فِي مِصْرَ لِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وسَائِرِ قَوْمِهما من المصريّين، ورأَيا أَنَّ الابتلاء الاختباريَّ لِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهم قَدْ بَلَغَ غايَتَه، وَوَصَلَ فِرْعَوْنُ ومَلَؤُهُ إِلَىٰ حالَةٍ ميؤوسٍ من صلاحِهِمْ مَعَها عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِمُ الْحُرَّةِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِنْزالُ الْعَذَابِ الأَلِيمِ بِهِمْ الَّذِي يَجْعَلُهم إذا أحَسُّوا بِهِ يُؤْمِنُون، ولكِنْ لَا فائِدَة مِنْ إيمانِهِمْ سَاعَتَئِذٍ إذْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُم، فإهْلَاكُهُمْ، وطَرْدُهُمْ مِنْ حَياةِ الابْتِلَاء هُوَ الأَمْرُ الْحَكِيمُ، وبإهْلَاكهم يَتَوَقَّفُ إضْلَالُهُمْ لسَائِرِ الْمصريين ولمَنْ يَسْتَطِيعُونَ إِضْلَالَهُ مِنَ النَّاس بوسَائلهم الإغرائِيَّةِ، أو الْقَهْرِيَّة.

شَرْح فِقَرَاتِ الدُّعاء:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ وهم وزراؤهُ ومستشارُوه وأعْيَانُ مَمْلَكَتِهِ المناصِرُونَ له، والمؤيّدون لجبَرُوته ﴿زِينَةً﴾ مِنْ زُخْرُفِ الحياة الدُّنيا ومَباهِجِها وحُلِيّها ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ من الذهب والفِضَّةِ والجواهِرِ يَكْنِزُونَها، ومن الأنْعام والأَراضِي الّتِي تُنْتِجُ الحبَّ وثمرات الأَشْجار ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الّتي هِيَ حَياةُ الابْتِلَاءِ، الَّتي تَبْتَلِي فيها الموضوعِينَ مَوْضِعَ الابتلاء بما يُلائِمُ نُفُوسَهُمْ، وَيَكْشِفُ مَا فيها مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وقَدْ جَعَلْتَ مَادَّةَ امْتِحَانِ هٰؤلَاءِ بَحَسَبِ خَصَائِصِ نُفُوسِهِمْ مَا مَنَحْتَهُمْ إِيَّاهُ من سُلْطانٍ وَزِينَةٍ وأمْوالٍ، وَسَبَقَ أَنْ عَلِمْتَ الشَّرَّ الذي في نُفُوسهم وقُلُوبِهِمْ، وأنَّ امْتِحَانَهُمْ سَيَكْشِفُ مَا فِيهَا مِنْ ضَلَالٍ عَنْ سَبِيلِكَ وإضْلَالٍ عَنْ سَبِيلِك.

﴿رَبَّنَا﴾ لَقَد امْتَحَنْتَهُمْ وَأَمْهَلْتَهُمْ إِمْهَالاً طَويلاً [لِـ] تَكْشِفَ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ أَنَّ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةَ الَّتي مَنَحْتَهُمْ إِيَّاهَا لاختِبَارِهم لَا تَعْزِمُ إِلَّا عَلَىٰ أَن [**يَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ**] وَإِلَّا على أَنْ [**يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ**] وَصَارَ صَلاحُهُمْ وإيمانُهُمْ بالحقِّ أمراً مَيْؤوساً منه، وَنَرَىٰ قياساً عَلَى مَا أَجْرَيْتَ رَبَّنَا في المهْلَكِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ وصَلُوا إلى غَايَةِ زَمَنِ الإمْهَالِ الطَّوِيلِ الّذِي تُمْهِلُ بِهِ عِبَادَكَ، ثم تُنْزِلُ بِهِمْ عذابك.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ بالْمَحْوِ والإزالَة (طَمَسَ الشَّيْءَ وَطَمَسَ عَلَيْهِ» أي: مَحَاهُ وأزالَهُ أو دَفَنَهُ وعَفَّىٰ أثَرَه) كما تُعفِّي الرّيح آثارَ الأشياء بما تَجْعَلُ فَوْقَها مِن رُكامَاتِ تُرابٍ ورَمْل ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: واضغَطْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ضَغْطَ إيلامٍ لَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم شديد ﴿.. فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ وَهَذا مَا أبانَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ شَأْنِ فِرْعَوْنَ إذْ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ وَأَيْقَنَ بالْهَلَاك.

ذكرُوا وجُوهاً لحذف نون الرَّفْعِ من ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾ والّذي أراه أَنَّ «لَا»

مِنْ ﴿فَلَا﴾ نُزِّلَتْ مَنْزِلَةَ «لَنْ» لأنَّها حملَتْ مَعْنَاها التوكيدي، بدلالَةِ الواقع، فَعمِلَتْ مِثْلَ عَمَلِها فَنصَبَتِ الفِعْلَ المضارِعَ بَعْدَها، وأصْلُ عَبارَة الدُّعَاء: «فَلَا يُؤْمِنُون» وقال الله: «لَنْ يُؤْمِنُوا» وبِتَحْمِيل «لَا» معْنَىٰ «لَنْ» وَدَمَجِ الجملَتَيْن، صَارَتِ العبارَةُ ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ واللهُ أعْلَم، وهَذا يَدْخُلُ تَحْتَ قَاعِدَة التَّضْمين بِوَجْهِ عامّ، وهُوَ من مُبْتَكَراتِ القرآنِ الإيجازِيَّة.

- ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: حتَّى يَرَوْا بأعْيُنِهِمْ وَسَائِلَهُ مُقْبِلَةً إليهم، أوْ حَتَّى يَذُوقُوا أوائلَه.

قول الله تعالى:

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

مَا جاء في هَذِهِ الآيَةِ دَلَّ عَلَىٰ الْفَهْمِ الّذي فَتَحَ اللهُ عليَّ بِهِ للآيَةِ السَّابقة (٨٨).

أي: قالَ اللهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ وهارونَ عَلَيْهِما السَّلام ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ بشَأْنِ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه، أيْ: فَسَنُعَذِّبُهُمْ ونُهْلِكُهُمْ مَعَ جُنُودِهم، ونُنْهِي وُجُودَهُمْ فِي حَيَاةِ الابتلاء، وَنَطْمِسُ عَلَىٰ أمْوالِهِمْ الَّتي كَنَزُوهَا، وَنَضْغَطُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ضَغْطَ تَعْذِيبٍ وإِيلَام، ونُخْرِجُهُمْ مِن قُصُورِهِمْ وَجَنَّاتٍ وعُيُونٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وكُلِّ زِينَةٍ لَهُمْ في مِصْر، ونُغْرِقُهُمْ في بَحْرِ «سُوف».

وبهذا تنتهي وظيفتُكُمَا في مصر.

- ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾: في سُلُوكِكُما وَفي قيادتِكُمَا لِبَنِي إِسْرَائيلَ عَلَىٰ صِراطِ رَبِّكُما طَاعَةً لِأَوامِره، واجْتِناباً لِنَوَاهِيه.

الاسْتِقَامَةُ: هي الاعْتِدَالُ والاسْتِواءُ، وعَدَمُ الاعْوِجاج والانحراف. ولَمَّا كانَ صِرَاطُ اللهِ مُسْتَقِيماً مُعْتَدِلاً لَا عِوَجَ فيه، كَانَ المطْلُوبُ من سَالِكِيه أن يَسْتَقِيموا علَىٰ سَوَائِه، وأوّل المكلّفِينَ بذلك الرُّسُلُ عليهم السَّلَام.

﴿.. وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وفي القراءة الأخرى:

- **[وَلاَ تَتَّبِعَانِ]** بنون مكْسُورَةٍ غَيْرِ مُشَدَّدَة، وهي نون التوكيد الخفيفة جاءت بَعْدَ النهي، أمّا قراءة الجمهور فبنون التَّوكيد الثَّقِيلَةِ.

وقد أجاز يونس والفراء⁽¹⁾ وقُوعَ نون التوكيد الخفيفة بعد الألف، وهو الأَصْوَبُ فيما أرىٰ، لأَنَّ المعنى في الآيَةِ على القراءتين يُلَائمهُ النَّهْي، ولَا حاجَة لاعْتَبارِ «لَا» نَافِيةً، وتَكَلُّفِ التخريجاتِ الفكريَّةِ عليها، التزاماً بعَدَم جواز وقوع نون التوكيدِ الْخَفِيفَةِ بَعْد الألفِ.

- ﴿.. سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: واحْذَرا بشِدَّةٍ من اتِّباعِ سَبِيلِ الْجَهلَةِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ صِراط اللهِ الحقّ، من قَوْمِكُمَا الإسرائيليّينَ، بَعْدَ أَنْ أنْجيكُمْ بِقُدْرَتِي، وأهْلِكَ عَدُوَّكُمْ، فَستَلْقَوْن من قَوْمِكُمَا بني إِسْرَائِيلَ جُمْهُوراً جَهَلَةً لَا يَعْلَمُونَ، يَتخِذُونَ سُبُلاً فيها ضَلَالٌ مُبينٌ، وَيَضغَطُونَ عَلَيْكُما بغَوْغائِيَّاتِهِمْ أَنْ تَتَّبِعُوهم أَوْ توافِقُوهم، كَما حَصَلَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ عبادتِهِم العِجْلَ، وَرَفْضِهِمْ أَنْ يأَخُذُوا تَعْلِيمَاتِ كتابِ اللهِ بقُوَّةٍ وطاعَةٍ وعَزْم.

قول الله عزّ وجل:

- ﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

---

(١) يَرَىٰ سيبويه والكسائي عَدَم جواز مجيء نون التوكيد الخفيفة بعد الألف، وما جاء في هذه الآية يَدُلُّ على الجواز نظراً إلى المعنىٰ.

● ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾: فعل «جَاوَزَ» مثل فعل «جَازَ» يَتعدَّىٰ إلى مفْعولٍ واحد، تقول لغة: «جُزْتُ الطَّرِيق وجاوَزْتُه» إذا سَلَكْتَهُ وَمَشيْت فيه حتَّىٰ انْتَهيْتَ مِنْهُ، وابْتَعَدْتَ عَنْ آخرِ جُزْءٍ مِنه.

﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: الباء الجارَّة هُنَا مَعْنَاها المصاحَبَة.

يُحدِّثُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ عَنْ نَفْسِهِ بضَمِيرِ المتكلّم العظيم، فيبيّنُ لَنا أَنَّهُ كان مُصَاحِباً بني إسْرائيلَ بِقُدْرَتِهِ العظيمَةِ الْجَلِيلَةِ، حِينَ أَمَرهُمْ بِعُبُورِ الْبَحْرِ حتَّىٰ جعَلَهُمْ يُجاوِزُون مكان الْفَلْقِ مِنَ الْبَحْرِ، ويَصِلُونَ إلىٰ الْبرِّ بَعِيداً عَنْ سَاحِلِ الْبَحْر.

أَسْنَدَ اللهُ عزّ وجلَّ إلى نَفْسِهِ الْمُجاوَزَةَ مُصَاحِباً مَعَهُ كُلَّ بَنِي إسْرائيل بقيادة مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، والمرادُ أَنَّهُ كانَ يجْتازُ مَعَهُم بِعِنَايَتِه، ومَعُونَتِهِ، وحفظِهِ لهم، مع كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا كُلُّ فَرْدٍ مِنْهم، هُوَ وَرِكَائِبُهُ وَمَاشِيَتُهُ.

أي: وسِرْنَا بالعِنَايَةِ والحفظ والمعونة مصاحِبينَ بَنِي إسرائيل، الطَّرِيق الْيَبَسَ الّذِي فَلَقْنَا الْبَحْرَ عَنْه، حتَّىٰ قَطَعْنَاهُ، وخَرَجْنَا مِنْهُ إلىٰ الْبَرِّ وأَوْصَلْنَاهُمْ آمِنِينَ.

هذا التعبير البديعُ دَلَّ على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ، مَنَحَ بَنِي إسْرَائِيل بِقِيَادَةِ مُوسَىٰ ووَزِيرِه هَارُون عَلَيْهِما السَّلامُ، حِينَ عُبُورِ الطَّرِيق في الْبَحْرِ، شَرَفَ الْمَعِيَّةِ الرَّبَّانِيَّة لَهُمْ، مُعْتَنِياً بِهِمْ، وحافِظاً لَهُمْ ومُعِيناً.

وهذا المعنى المطابِقُ لما جاءَ فِي كتُب اللّغَة مِنْ معنى كلمة «جَاوَزَ» أولَىٰ فيما أرى من اعتبار الباء في: ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ للتَّعْدِيَةِ إلىٰ المفْعُولِ الثانِي، وأن يكُونَ المعْنَى: وأقْطعْنَا بَني إسْرائيل الْبَحْرَ، أَوْ وَجعَلْنَاهُمْ مُجاوِزِينَ الْبَحْرَ حتَّىٰ بَلَغُوا الشَّطّ.

● ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾: **[أتْبعهُمْ]** بُمعْنَى: «تَبِعَهُمْ» يُقَالُ لغة: «تبعَ الشّيْءَ، تبعاً، وتَباعاً، وتُبوعاً» أي: سَارَ مُتَابعاً أثَرَهُ لِيَلْحَق

بِهِ. ويقال أيضاً: «أَتْبَعَهُ، واتَّبَعَهُ» قال الفراء: «أَتْبَعَ» أَحْسَنُ من «اتَّبَعَ».

﴿بَغْيًا﴾: أي: ظُلْماً وَتجاوزاً لِحُدُود الْحَقّ.

﴿وَعَدْوًا﴾: أي: وَجَرَىٰ وَرَاءَهُمْ هُوَ وَجُنُودُهُ جَرْياً بِسُرْعَةٍ لِيُدْرِكَهُمْ، لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ فَارَقُوا منازِلَهُمْ فِي مِصْرَ قَبْلَ أَنْ يُعِدَّ فِرْعَوْنُ جَيْشَهُ بأَيَّام، فَهُوَ بحَاجَةٍ إلى أَنْ يَعْدُوَ مُسْرِعاً لِيَلْحَقَ بِهِمْ، يقالُ لُغَةً: «عَدَا، يَعْدُو، عَدْواً، وعُدُوّاً، وتَعْدَاءً، وَعَدْواناً» أي: جَرَىٰ.

هذا الْفَهْمُ أوْلَىٰ فيما أرى من اعْتِبَارِ «عَدْواً» بمُعْنَىٰ «ظُلْماً» إذْ هذا المعنى مساوٍ لمعنَىٰ «بَغْياً» والتأسِيسُ بالدَّلالَة علَىٰ معْنًى آخر، أوْلَىٰ مِنْ تَوكيد المعْنَىٰ السَّابق بتَعْبِيرٍ مُسَاوٍ معْطُوفٍ عليه.

- ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾: أي: حَالَة كَوْنِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِه بَاغِين وَعادِينَ على تأويل المصْدَرِ بالمشْتَق، وهو كثير.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

قَبْلَ هٰذا البيانِ، وبَعْد: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ كَلَامٌ طَوِيلٌ مَطْوِيٌّ، أبانَتْهُ نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ مُتعَدِّدَة، ومنها ما جاء في الآيات من (٥٧ ـ ٦٦) من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وقَدْ سبَقَ تَدَبُّرُها، وَالتَّدَبُّرُ التكامُلِيُّ للنُّصُوصِ القرآنيَّةِ حَوْلَ مَوْضوعٍ واحدٍ يَكْشِفُ المطويات.

أي: واقْتَرَبَ جَيْشُ فِرْعَونَ مِنْ بني إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَوْقَفَهُمْ عَنه التَّقَدُّم بَحْرُ سُوف، وَتَرَأَىٰ الْجَمْعَان، وقال الإِسْرَائيليون لموسَىٰ عليه السَّلَام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فقال لهم موسَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾. فَأَوْحَىٰ اللهُ عزّ وجَلَّ إلَىٰ مُوسَىٰ أن يَضْرِبَ بعَصَاهُ الْبَحْر، فانْفَلَقَ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشمال، فصار كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم، وجَعَلَ اللهُ لبني إِسْرَائيل طَرِيقاً في الْبَحْرِ يبساً، فَمَشَوْا فِيه، وأَعْمَىٰ اللهُ بَصائِرَ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وَجَيْشه، فتَبِعُوا

بَني إسْرائيلَ في الطَّريقِ وسَطَ الْبَحْرِ المفْلُوق، وحِينَ خَرَجَ آخِرُ خارِجٍ من بني إسْرَائيلَ مَعَ رِكابِهِ إلىٰ الشَّطِّ الآخر، وَسَارَ آخِرُ مُرافِقٍ لِجَيْشِ فِرْعَوْنَ في طَرِيق الْبَحْر، حتَّىٰ إذا تَوَسَّطُوا أو اقْتَربُوا مِنَ الشَّطِّ الآخر، أَمَرَ اللهُ عَزَّ وجلّ مُوسَىٰ أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بعصاهُ، ليَلْتَئِمَ الماءان على فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجنودِهِ، فضَرَبَ موسى عليه السلام البحر بعصاهُ فانْضمَّت مياه الْبَحْرِ فأغْرَقَتْ الْجَيْشَ الْفِرْعَوْنيَّ كُلَّه.

وَكَانَ مِنْ أمْرِ فِرْعَوْنَ ساعَتَئِذٍ أَنَّهُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ أي: بَلَغَهُ ونَاله:

﴿... قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فأعْلَنَ إيمانَهُ وَإسْلامَهُ، في اللّحظاتِ الَّتي لَا يُقْبَلُ فيها إيمانٌ ولا إسْلامٌ مِمَّنْ كَانَ كافراً قَبْلَها، إذْ يكون زَمَنُ الامْتِحانِ قَدِ انْتَهىٰ.

فَقِيلَ لَهُ عَقِبَ ذَلِك:

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾:

وَيَظْهَرُ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَو الملَكَ المأمُور بِقَبْضِ رُوحِهِ قَالَ لَهُ هَذَا الْقَوْل، وليْسَ مِنْ شَأْنِ مِثْلِهِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ أوْ يَنْظُر إليه.

هٰذه العبارة مُقْتطعَةٌ مِنَ الحدَثِ علىٰ طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي الاقْتطاع مِنْ مَاضِي الأَحْدَاثِ، أو ممَّا سَيأْتي أو سَوْفَ يأتي في أحْداثِ المستَقْبَل.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾: أي: أَأَلآنَ تُؤْمِنُ وَتُسْلِمُ وَقَد انْتَهىٰ زَمَنُ امْتِحَانِكَ، إنَّ إيمَانَكَ لَا يُقْبَلُ مِنْكَ الآنَ فَقَدْ دَخلْتَ عَتَبَةَ الدَّار الآخرة.

﴿.. وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾: أي: والحال أَنَّكَ قَدْ عصَيْتَ بالكفر والتكذيب قبل أن يُدْرِكَكَ الغرقُ فَينَالَكَ بالتعْذِيب والإهلاك، وكُنْتَ قَبْلُ فِي حَيَاتِكَ السُّلْطَانيَّةِ القاهرة، مَلِكاً مُفْسِداً لقَوْمِكَ من الملُوكِ الطُّغاةِ الْمُفْسِدين.

المفْسِدُ: الّذي يَعْمَلُ في إتْلافِ الأَشْيَاءِ والأَحْيَاءِ، وتَحْويلِها من

كَوْنِها صالحةً نَافِعَةً إلى كوْنِها غير صالحة ولا نافِعَة، أوْ إلَىٰ ضارَّةٍ وكَرِيهَةٍ تَنْقُلُ إلَىٰ غَيْرِها الْفَسَادَ بالْعَدْوىٰ، أو بالأعمال الْمَقْصودة.

ومنَ الإفساد نَشْرُ الكُفْرِ والْإلحاد والوثَنِيَّةِ في الأرض، وإخراج النفوس عن فِطَرِها السَّوِيَّةِ التي فَطَرَها اللهُ عَلَيْها، ونَشْرُ الفِسْقِ والفجورِ والْإباحيَّاتِ في النَّاس، ونَشْرُ الظُّلمُ، والْعُدْوانِ في المجتمع البشري، وإفْسَادُ الضَّمائِرِ السَّوِيَّةِ الَّتِي فَطَرَهَا اللهُ على حُبِّ الْحَقِّ والْخَيْر، وكراهِيَةِ الْبَاطِلِ والشَّرّ.

قول الله تَعالَىٰ خِطَاباً لفرعَوْنَ بالْأَمْرِ التَّكْويني:

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ... ﴿٩٢﴾﴾:

أي: تَمَّ الْقَضاءُ بأنْ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ، فصَدَرَ الْأَمْرُ التكويني بذلِكَ، فأخْرَجْنَا جِسْمَكَ الميّتَ بالْغَرَقِ من الْبَحْر، ولم نأْذَنْ للحِيتَانِ بأَنْ تَأْكُله، ورَمَتْكَ أمْوَاجُ الْبَحْرِ علَىٰ الشَّاطِئ، وَجَعَلْنَاكَ عَلىٰ نَجْوَةٍ يُشَاهِدُكَ فِيها النَّاسُ مَيِّتاً حقيراً لَا قِيمَةَ لَكَ.

ولا مَانِعَ من أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ هٰذَا الْقَوْلِ، قَدْ أوصَلَهُ ملَكٌ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ إِلَىٰ نَفْسِ فِرْعَوْنَ الْمُدْرِكَةِ، الَّتِي انْفَصلَتْ عَنْهَا رُوحُ الحياة الْجَسَدِيَّة، بأمْرِ الله.

يُقَال لغة: «نَجَّىٰ فُلَانٌ الشيْءَ» أي: تَرَكَهُ بَنَجْوة مِنَ الْأَرْض.

النَّجْوَة: المرتفِعُ مِنَ الْأَرْض.

أي: نُوصِلُ جَسَدَكَ إلى النَّجْوة ونَتْرُكُك عَلَيْهَا لِيَشْهَدَكَ النَّاس، فَيَرَىٰ الإسْرَائِيليُّون كَيْفَ فَعَلَ الله بفِرْعَونِ مِصْرَ، الَّذِي يُؤَلِّهُهُ المصريُّون، فَرَمَاهُ علَىٰ نَجْوَةٍ من الْأَرْضِ كسَائِر الْغَرْقَىٰ من جُنْدِه، إذْ كانَ رَمْيُهُ مِنْ جِهَةِ شَاطِئِ الْخُرُوجِ لا مِنْ جهة شاطئ الْعُبُورِ ولِيَرَىٰ الْمِصْرِيُّونَ كيف فَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِمَنِ ادَّعَىٰ أنَّهُ إلَهُهُمْ، ثُمَّ ادَّعَىٰ أَنَّهُ رَبُّهُمُ الْأَعْلَىٰ.

﴿بِبَدَنِكَ﴾: أي: مَصْحُوباً بِبَدَنِك.

ما المراد بالْبَدَنِ هُنَا؟ إذا كان المرادُ بِهِ جَسَدَ فِرْعَوْنَ، فَقَدْ دَلَّ عليه كافُ الخطاب في عبارة: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ إذْ حياتُه لَمْ تَنْجُ من المَوْتِ غَرَقاً، فَلَمْ يَبْقَ لِلتَّنْجِيَةِ إِلَّا جَسَدُه، وَأَمَامَنَا لِفَهْمِ عبارة: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ احْتِمَالَان:

الاحْتمال الأوّل: أنْ يكُونَ المعْنَىٰ: مَصْحُوباً بِكُلِّ بَدَنِك، لم يأْكُلِ السَّمَكُ مِنْهُ يَداً ولَا رِجلاً وَلَا شيئاً آخر.

الاحتمال الثاني: ما ذَكَرَهُ بَعْضُ المفَسِّرين من أنَّ المرادَ بالْبَدَنِ الدِّرْعُ النَّفيسُ الّذِي كَانَ يَلْبَسُهُ إذا خَرَجَ مَعَ جَيْشِهِ في الحرب، فَمِنْ مَعَاني الْبَدَنِ في اللُّغَةِ الدِّرْع، ولَهُ شَاهِدٌ من كلام كَعْبِ بْنِ مَالك، وتَنْجِيَةُ دِرْعِهِ معَهُ عَلَامَةٌ علَىٰ أنّه هُوَ فِرْعَوْن، إذَا غَيَّرَ الْمَوْتُ غَرَقاً بعْضَ صِفَاتِ جَسَدِه.

أقول: لا مَانِعَ مِنْ إرادة المعْنَيَيْنِ معاً، على طَرِيقَة القرآنِ الإيجازية، وهو مذهب معظم الفقهاء وعلماء أصول الفقه.

- ﴿.. لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ..﴾: أي: لِتَصِيرَ بِرَمْيِ جَسدِكَ على نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ قَتيلاً غَرِقاً، عَلَامَةً دَالَّةً مَنْ يَأْتِي خَلْفَكَ مِنَ الملُوك على أَنَّ مَن يَدَّعِي الإلَـٰهِيَةِ أَو الرُّبُوبيَّةَ يَنْتَقِمُ الله مِنْهُ ومن ملَئِه وأنصاره وجُنُودِه انتقاماً مُهيناً فيه إبادَةٌ وتَعْذِيب.

- ﴿.. وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾: فِي هٰذِه العبارة بيانٌ مِنَ الله عزَّ وجَلّ يتحدَّثُ بِهِ عَنْ أحوالِ الناسِ تُجاهَ آياته في كُونِه، فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ غافِلُونَ عنْها، مُنْصرِفُون لأمُور دُنياهم، مَعَ أن الله عزّ وجَلَّ قَدْ كَرَّمَ الإنسانَ، فَهو يُخاطِبُ فِكْرَهُ وأدواتِ الْمَعْرِفَةِ لَدَيْهِ عَنْ طَرِيق آياتِهِ فِي كَوْنه، فَيَنْصَرِفُ الكثِيرُ من النَّاسِ عَنْ مُلاحَظَةِ آياتِه، انْشِغَالاً بالحسِّيَّاتِ كما تَنْشَغِلُ الأنْعَام أكْلاً وشُرْباً وسِفَاداً.

الْغَفْلَة: انصرافُ الذِّهْن عَنْ مُلاحَظَةِ مَا تَجِبُ مُلاحَظتُهُ وَمُرَاقَبَتُه، مع

وُجُودِه في مجال الإدْراكِ أَوْ وُجُودِ أدِلَّتِه، وإمكان إِدْرَاكه لَوْ لَا وُجُود الصَّارف أو السَّهْوِ عَنْه.

ممّا ورَدَ في السُّنَّة بشَأْنِ فرعون وهو يَغْرَقُ:

(١) عن ابْن عبَّاسٍ رضي اللهُ عَنْهُما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:

«أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ فقالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ⁽¹⁾، فَأَدُسُّهُ في فِيهِ، مخافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ».

رواه أحمد، والترمذيُّ وحَسَّنَهُ، وٱبْنُ جَرِير، وٱبْنُ المنْذِر، وٱبْنُ أَبِي حَاتم، والطبراني، وٱبْنُ مَرْدويه، وصحَّحَهُ الحاكم.

(٢) وعَنْ أبي هُرَيرَة رضي اللهُ عنْهُ، عِنِ النبي ﷺ قال: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ: مَا كَانَ عَلَىٰ الْأَرْضِ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِليَّ مِنْ فِرْعونَ، فَلَمَّا آمَنَ جَعَلْتُ أَحْشُو فَاهُ حَمْأَةً وَأَنَا أَغُطُّهُ⁽²⁾، خَشْيَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ».

رواه الطبرانيُّ في الْأَوْسط، وأخْرَج أبو الشيخ عن أبي أمامَةَ نَحْوَه مَرْفُوعاً.

وجاء حَدِيث ابن عباس من عدَّة طُرُق، قال الترمِذِيّ في بَعْضِها: حديث حسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيب.

وأخْرَجَ حديثَ أَبِي هُرَيرة مَرْفوعاً ٱبْنُ جرير، والبيهقي.

وأخرَج ٱبْنُ مَرْدَوَيْهِ عَن ٱبْن عُمَر نَحْوَه مَرْفوعاً.

أقول: لَمْ يَفْعَلْ جِبْرِيلُ عليه السّلام مَا فَعَلَ لو لَمْ يَكُنْ مَأذُوناً مِنْ

---

(١) **مِنْ حَالِ الْبَحْر**: مِنْ طِينِهِ الْأَسْودِ. يُطْلَقُ لفظ «الْحَالِ» في اللُّغة على الطين الأسْوَدِ والْحَمْأة، ضِمْن مَعَانٍ كثيرة يُطْلَقُ عليها.

(٢) **الْحَمأة**: القِطْعَةُ مِن الطِّين الأسْود. **أغُطُّهُ**: أي: أغْمِسُهُ في الماء، وأَضْغَطُ عَلَيْهِ.

رَبّه، وهِي حَرَكَةُ غَيْظٍ دَلَّتْ على ما في نَفْسِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَم مِنْ بُغْضٍ لِفِرْعَوْن، علَىٰ أنَّهُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْهَا لَمَا قَبِلَ اللهُ إيمانَهُ وَإِسْلامَهُ وهُوَ يُصَارِعُ الْمَوْتَ غَرَقاً، فَقَدِ انْتَهىٰ زَمَنُ ابْتِلَائِهِ، ودَخَلَ عَتَبَةَ الْآخِرَةِ، وشَاهَدَ مَا يَشْهَدُ الـمحْتَضَرُونَ في لَحظَاتِ الْمَوْتِ، وهَذَا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوص المتَعَدِّدَةُ، فَمَنْ تَوَجَّهَتْ لَهُمْ مقدماتُ نُذُرِ عَذَابِ اللهِ لَهُمْ، وأيْقَنُوا أَنَّهُم هَالِكُونَ لا مَحالَة، لَمْ يَنْفَعْهُمْ إيمانُهُمْ ساعَتَئِذٍ، ولَمْ تَنْفَعْهُمْ تَوْبَتُهُمْ، ولَوْ لَمْ تَمَسَّ أجْسَادَهُم المعَذِّبَاتُ الْقَوَاتل.

قَوْلُ اللهِ عزَّ وجَلَّ مُتَحَدِّثاً عَنْ تَحْقِيقِ مَا وَعَدَ الله آبَاءَ بَنِي إِسْرائيلَ إبْراهِيمَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، فِي أَرْضِ فِلَسْطِينَ، بَعْدَ وَفَاةِ هَارون وَمُوسَىٰ عليْهِما السَّلام، وَظُهورِ مُلْكِ طَالُوتَ فَداوُدَ فَسُلَيْمان:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٩٣﴾:

يَنْتَقِلُ البيان القرآنيُّ في هٰذه الآيَةِ مِنْ فَصْلِ عُبُورِ بني إسرائيل من طَرِيق الْفَلْقِ في الْبَحْرِ، وهَلاكِ فرعَوْنَ وملَئِهِ، وكُلّ الجنُود الَّذِين كانوا مَعَهُ غَرقاً فِي بَحْرِ «سُوف» إلَىٰ فَصْلٍ مُتَأَخِّرٍ من تَاريخ بني إسرائيل، وهُوَ الْفَصْلُ الّذي ملَّكَهُم اللهُ فِيهِ مَا مَلَّكَهُمْ من الأرضِ الّتي بَارَكَ فيها مِنْ فِلِسْطِين وبِلَادِ الشَّام تَنْفِيذاً لِمَا كَانَ قَدْ وَعَدَهُ إبْراهيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوب عليهم السّلام، وليَضَعَ بني إسْرَائيلَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بالْمَجْدِ والْمُلْكِ والثَّرَوَاتِ، والْعُيُونِ والجنَّاتِ والمقَامِ الكَرِيم، بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي الذُّلِّ والْعُبُودِيَّةِ والْهَوانِ في مِصر تَحْتَ سُلْطَانِ فرعونَ ومَلَئِه وأنْصَارِه وجُنُودِه.

واخْتِيرَ هٰذا الْبَيَانُ لما فِيهِ من عَرْضِ صُورَتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْن بَيْنِ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ والّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنْ عُلُوّ في الأَرْضِ، وَجَبَرُوتٍ وسُلْطَانٍ وزِينَة، وما انْتَهَوْا إلَيْهِ بِكُفْرِهِمْ وطُغْيَانِهِمْ وفسادِهِمْ وإفْسادِهِمْ، مِنْ إذْلَالٍ

وتَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ مُسْتَأْصِل، وبَيْنَ ما كَانَ عَلَيْهِ بَنُو إسرائيل في مِصْرَ مِنْ ذُلٍ ومَهانَةٍ واسْتِعْبَادٍ وتَسْخِيرٍ، وما انْتَهَوْا إلَيْهِ بإيمَانِهِمْ، ورَغْبَةِ صُلَحَائِهِمْ في الْعَمَلِ الصَّادِقِ بِدِينِ اللهِ وَنَشْرِهِ، مِنْ مَجْدٍ وسُلْطَانٍ وتَمْكِينٍ في الْأَرْضِ، ومَتَاعٍ طَيّبٍ حَسَنٍ، ورِزْقٍ وافِرٍ من الطّيّبات، ومَقَامٍ كَرِيم.

لكِنَّهُمْ لَمَّا كَفَرُوا وطَغَوْا وبَغَوْا وَفَسَدُوا وأفْسَدُوا في الْأرض، سَلَبَهُمْ اللهُ مَا مَكَّنَهُمْ فيه، وضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّة والمسْكَنَة والشَّتَاتَ في الأرض، إلَّا بَحبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ من الناس.

- ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: كانَ هٰذا أيَّامَ طَالُوت ودَاوُد، وسُلَيْمان، وذُيُول الْعُهُودِ الزاهِرَةِ لِهؤلاء.

﴿بَوَّأْنَا﴾: أي: أنْزَلْنا وَأسْكَنّا. يُقَالُ لغة: «بَوَّأَ فُلانٌ فُلاناً المَكَانَ» أي: أنْزَلَهُ فيه، ويُقَالُ أيضاً «أبَاءَهُ المنزل».

﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: **الْمُبَوَّأُ**: المنْزِلُ الَّذِي مَنَحَهُمُ الله إيَّاهُ وأنْزَلَهُمْ فِيهِ، في الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فيها. ومَعْنَىٰ ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: مُبَوَّءٌ نِعْمَ هُوَ مَنْزِلاً حَسَناً يفِيضُ بالخَيْرات والمتاعِ الطّيب.

هذا التعبير هو من إضافَةِ الموصُوف إلى صفته، وأصْلُهُ: مُبَوَّأٌ صِدْقٌ، أيْ: حقَّقَ الموصُوف في الواقِعِ كُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ من كمال صفاته، فاسْتَحَقَّ الثَّناء والْمَدْحَ بما يَدُلُّ علَىٰ كَمال المطابَقَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصُّورَةِ المثْلَىٰ لنَوْعه، وذٰلِكَ هُو الصِّدْقُ حَقّاً.

ونظيره قول العرب: «رَجُلُ صِدْقٍ» و«امْرَأَةُ صِدْقٍ» هذه صيغَةٌ عَرَبيَّة مِنْ صِيغ الثَّنَاء والْمَدْح. وقد جاء في القرآن على مَنْهجها: «قَدَم صِدْق ـ مَقْعَد صِدْق ـ لِسَانُ صِدْقٍ ـ مُدْخَل صِدق ـ مُخْرَجَ صِدْق ـ مُبَوَّأ صِدْق».

- ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أي: ورَزَقْنَاهُمْ فِي بِلَادِ الشَّامِ مِنْ أنواع الطيبَاتِ الكثيرات، مِنْ مآكِلَ ومَشَارِبَ ومَلابِسَ وَمَنَاكِحَ وغيرها. ومَعْلُومٌ

أَنَّ بِلَادَ الشَّام تَفِيضُ بالثَّمراتِ والزُّروعِ الكثيرة والمراعِي الخِصْبَةِ، وتَكْثُرُ فيها الأَمَاكِنُ الصَّالِحَةُ لبِناءِ المساكِن الطَّيِّبة.

- ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: الفاءُ في: ﴿فَمَا﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف. أي: فجاءَهُمُ الْعِلْمُ الدِّينيُّ الرَّبَّانِيُّ بِبَلَاغاتِ مُوسَىٰ وَهارُونَ والأنبياء والرُّسُل من بَعْدِهما عليهم السَّلام، واتَّبَعَ أَحْكامَ دِينِ الله بَعْضُهُمْ، وخَالَفَهُمْ آخَرُونَ مِنْهُم، إذْ جَاءَ بَعْدَ صَالِحيهِمْ خَلْفٌ فَاسِدٌ، وَرِثُوا الكتابَ الرَّبَّاني ولَمْ يَعْمَلُوا بأحْكامه، وحَرَّفُوا في دِينِ اللهِ فغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا ووضَعُوا أحْكاماً جَاهِلِيَّةً مِنْ عِنْدِهم افتراءً عَلَىٰ الله.

وتَدُلُّ هٰذه العبارَةُ مَعَ النَّظَرِ إلَى تَاريخِ بَنِي إسْرائيلَ على أَنَّ الله عزّ وجَلَّ سَلبَهُمْ مَا بَوَّأَهُم إِيَّاهُ مِنْ مُبَوَّءٍ صِدْق، بِسَبَبِ كَثْرَةِ انْحِرَافِهِمْ عَنْ صِرَاطِ الله، وفَسَادِهِمْ وإفسادِهِمْ في الأَرْض، ودُخولِ الشِّرْكِ والْوَثَنيَّاتِ إلى مجْتَمعَاتِهِم، وبسَبَبِ ظُلْمِهم وطُغْيانهم وعُدْوانِهِمْ على عباد الله بغَيْرِ حَقّ.

- ﴿.. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: وَلَا يَقْتَصِرُ الجزاءُ علىٰ مَا عَاقَبْنَاهُمْ بِهِ في الحياة الدّنيا، فإنَّ رَبَّكَ أيُّهَا المتلَقِّي لآيَاتِ الْقُرْآنِ المُجِيدِ، والمتَفَهِّمُ لما تَدُلُّ عليه سوف يَقْضِي يَوْم الْقِيَامَة بَيْنَ بَنِي إسْرَائِيلَ في كُلِّ مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فِي حياة الإبْتِلَاء، من حَقٍّ وباطلٍ، وخَيْرٍ وشَرٍّ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، وأفْعَالٍ حَسَنَةٍ وأفعالٍ قَبيحه، وبَعْدَ قَضَائِهِ بَيْنَهُمْ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بحَسَبِهِ، ضِمْنَ قاعِدَتي الْفَضْلِ للْمُحْسِنين، والْعَدْلِ للمسيئين.

ونَحْنُ نعْلَمُ مِنْ نُصُوصِ القرآنِ المجيد أَنَّ كُلَّ الموضوعين موضع الابْتِلَاءِ في الحياة الدُّنْيا، سَوْفَ يَقْضِي اللهُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فيما كَانُوا فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ، وسَوْفَ يُجَازِي كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِ مَا كَسَبَ أو اكْتَسَبَ فِي رِحْلَةِ امتحانِهِ في الحياة الدنيا.

وبهذا تَمَّ تدبُّر الدَّرْس الثامن عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحه وتيسيره وتوفيقه ومدده ومعونته.

* * *

(٣٢)

التدبّر التحليليّ للدرس التاسع عشر من دُروس سورة (يونس)
الآيات من (٩٤ ـ ٩٨)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾.

القراءات:

(٩٤) ● قرأ ابن كثير، والكِسَائي، وخَلَف: **[فَسَلْ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[فَاسْأَلْ]**.

هاتان القراءتان لغتان عَرَبيّتانِ لفعل الأمْرِ من «سَأَلَ».

(٩٦) ● قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وأبو جَعْفر: **[كَلِمَاتُ]** بالْجَمْع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[كَلِمَتُ]** بالإفراد.

ومؤدّى القراءتين: **[كَلِمَتُ رَبِّكَ]** و**[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** واحد، فالمفرد المضاف إلى مَعْرِفَةٍ يَعُمُّ.

تمهيد:

ظاهِرُ الْآيتيْنِ الأُولَيَيْنِ مِنْ هَـٰذا الدَّرْسِ يَدُلُّ عَلىٰ أنّهما موجَّهتان للرَّسُولِ محمّد ﷺ، ولكِنّ التّدبُّرَ الْمُتَأنِّي يَكْشِفُ أنَّهما مُوَجَّهتّان للرَّسُولِ ظاهراً، والمقْصُودُ إسْمَاعُ الشَّاكّين في الأخبار الّتِي سبَقَ بَيانُها عَنْ مُوسَىٰ وبَني إسْرائِيلَ وفِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ، في الدَّرْسِ الثَّامِنَ عشر السّابِقِ.

وهي آيَاتٌ مَدَنِيَّةُ التَّنْزيلِ، ضُمَّتْ بأمْرِ الْوَحْي إلى مَوْقِعِها مِنْ سُورَةِ (يُونس/ ٥١ نزول) المكيّة. ولعَلَّ بَعْض الَّذِينَ أسْلَمُوا فِي المَدِينَةِ ولمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِهِم، ممَّنْ لهُمْ صِلَةٌ سابِقَةٌ بِيَهُودِ المدِينَةِ، دَارَتْ فِي خَوَاطِرِهِمْ أفْكارٌ، وتَحرَّكَتْ فِي نُفُوسِهِمْ رَغَبَاتٌ في أنْ يَسْألُوا أَحْبَارَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، عَمَّا وَرَدَ عَنْ بَنِي إسرائيلَ في الْقُرْآن، دُونَ أنْ يُفْصِحُوا عَنْ ذَلِكَ بألْسِنَتِهِمْ، وعَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَا تَحرَّكَتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ، فأنْزَلَ قُرْآناً خاطَبَ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ بقولِهِ له: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: بِشَأْنِ بَنِي إسْرائِيلَ وَالرَّسُولِ مُوسَىٰ عليه السَّلام ﴿فَسْـَٔلِ﴾ أي: الْيَهُودَ ﴿ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أيْ: التوراة وسَائِرَ كُتُبِ الْعَهْدِ القديم ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أي: ففي كتُبِهِمْ مَا يَتَّفِقُ مَعَ مَا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ مِنْ قِصَصٍ تَتَعلَّق بِمُوسَىٰ وما جَرَىٰ لَهُ وَتَتعلَّقُ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَبِبَنِي إسرائيل، بصورة عامّة.

إنَّ هَـٰذَا الأُسْلُوبَ الَّذِي خاطَبَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ، من أَفْعَلِ الأساليبِ لِمَسْحِ الخواطِرِ التشكيكِيَّةِ، والأحاديثِ النَّفْسِيّةِ الّتِي قَدْ تَدُور في نُفُوسِ بَعْضِ حَدِيثي الإسْلَامِ في المدينَةِ، دُونَ أَنْ يُعبِّرُوا عَنْهَا بألْسِنَتهم، فالرَّسُول محمَّدٌ ﷺ لَمْ يَشُكَّ وَلَمْ يَسْأَل، ومُنْذُ نَزَلَتْ سُورَةُ (يُونُس) في الْعَهْدِ المَكيِّ كَانَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ على كمال الإيمانِ وَالْيَقِينِ بِكُلّ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ، لَا يَعْتَرِي نَفْسَهُ بِشَأنِهِ أَدْنَى شَكٍ، إلّا أَنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ يُخَاطِبُ أُمَّةَ الرَّسُولِ بأُسْلُوبِ مُخَاطَبَتِهِ للرَّسولِ ﷺ في كثيرٍ من النصوص.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالىٰ:

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

• ﴿فِى شَكٍّ﴾: أي: ساقِطاً في مَزْلَقِ شَكّ. **الشَّكُّ لُغَةً**: الظَّنُّ الضَّعيفُ الَّذي لم يَقْتَرِنْ بِدَلِيلٍ يُوقِعُ في الْحَيْرَةِ والتَّرَدُّد. وهذا غير الشَّك في اصْطَلاح الأُصُولِيّين وعُلَمَاء المنْطِق، الّذِي هُوَ التَّرَدُّدُ بَيْنَ احْتِمَالَيْنِ مُتَكَافِئَيْنِ في الْقُوَّةِ، ومَعْلُومٌ أنَّ المعَانِيَ اللُّغَوِيَة هي الَّتي يَجِبُ أَنْ تُفْهَم في ضَوْئها الكلماتُ القرآنيَّة.

• ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي: ممَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ قُرْآنٍ بِشَأْنِ مُوسَىٰ وبني إسْرَائيلَ، وفِرْعَوْنَ وَقَوْمِه.

• ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾: أي: فاسْأَلْ أحْبَارَ الْيَهُودِ وعُلَمَاءَهُمْ، الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ فِي كُتُبِهِمْ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فيها عَنْ مُوسَىٰ وَبَنِي إِسْرَائِيل، وفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، لِيُطْلِعُوكَ إذا صَدَقُوا عَمَّا كُتِبَ فِيهَا مِنْ أَخْبَارٍ مُدوَّنَةٍ لَدَيْهِم.

وقَدْ قرأْتُ مَا جَاءَ في إصْحَاحَاتِ سِفْرِ الْخُروج المعتمدة الآنَ عِنْدَهُمْ، فَوَجَدْت أَنَّهُمْ يُفَصِّلُونَ الأَحْدَاثَ المشَارَ إلَيْهَا تَفْصِيلَاتٍ كَثِيراتٍ، قَدْ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ مُجْمَلاتٍ مُحرَّرَات، خالياتٍ مِنْ تَزَيُّدَاتِ كُتَّابِ كُتُبِهِمْ، أو نَاقِلِي قِصَصِها.

سَبَقَ في التمهيد أنَّ هذا التوجيه للرَّسُولِ ﷺ في الظاهر، ليس هو المقصود به، بل المقصودُونَ بِهِ بَعْضُ حَدِيثي الإسْلَامِ في المدينَةِ، الّذِينَ دَارَتْ في خَوَاطِرِهِمْ، واعْتَلَجَتْ في نُفُوسِهِمْ تَسَاؤلَاتٌ بِشَأْنِ أخْبَارٍ مُفصَّلَةٍ

جاءَتْ في القرآن المجيد، عن موسَىٰ وهارونَ وبَنِي إسرائيل، وفِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ، وكَانَ لِهؤُلاءِ صِلَةٌ بِيَهُودِ المدِينَةِ قَبْلَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إليها، ودُخُولِهِمْ فِي الإسْلام، وإِذْ عَلِمَ اللهُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ دُونَ أَنْ يُعْرِبُوا عَنْهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مَا لَوْ أَعْرَبُوا عَنْهُ بأَلْسِنَتِهِمْ، لَكَانَ الكَلَامُ مُوَجَّهاً لَهُمْ، وللإشْعَارِ بهذا لَمْ يَضَعِ اللهُ هذا الْبَيَانَ في سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ مع أَنَّهُ مَدَنِيُّ التّنْزِيل، بَلْ وَضَعَهُ فِي سُورَةٍ مَكِيَّةٍ، وَلَوْ أَنَّ الرَّسُولَ حَدَثَ في نَفْسِهِ شَكٌّ ما، لأنْزَلَ الله عَزَّ وجَلَّ هَـٰذا البيان مع إنْزَالِهِ سُورَةَ (يُونُس) أو غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ المَكِّيَّة، ولم يُؤَخِّرْ إِنْزَالَهُ إِلَىٰ الْعَهْدِ المَدَنِي، وَقَدْ وَضَعَهُ فِي سُورَةٍ مَكيّةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَوَّلِ سُورَةٍ مَدَنِيَّة هي سورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) من السُّوَر المكيّة (٣٥) سورة.

وللإشعار بأنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ لَمْ يَشُكَّ مُطْلَقاً جاء في أول البيان استعمال حَرْف «إِنْ» الشَّرْطِيَّة الَّتِي تُسْتَعْمَلَ فيما لَمْ يَقَعْ، أو فيما هو مستَبْعَدُ الوقوع، مِثْل قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

ومَعْلُومُ عَقْلاً وَنصًّا، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ولَنْ يَكُونَ للهِ جَلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَلَدٌ مَا.

- ﴿... لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

جاء الْبَيَان مُصَدَّراً بالتَّوكِيدِ والتحقيقِ بِعبارَة **[لَقَدْ]**.

- ﴿جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أي: جاءَكَ الْخَبَرُ الصَّادِقُ الْحَقُّ الْمُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ تَمَاماً، مِنْ رَبِّكَ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً.
- ﴿... فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾: أي: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِّين. يقالُ لغة: «امْتَرَىٰ في الشّيْءِ» أي: شَكَّ فِيهِ.

- ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ نَهْيٌ لِلْمَقْصُودِ حقيقَةً بِتَوْجِيهِ البيانِ لَهُ، وهُوَ بَعْضُ حَدِيثِي الإسلامِ فِي المدينَةِ، إذْ بدأ يَتَسَلَّلُ إلَىٰ حديثي الإسلام فِيها النِّفَاقُ بالمكْرِ الْيَهُودِيّ فيها، ويُلْحَقُ بِهِ نُظَراؤه دواماً.

أي: وَلَا تَكُونَنَّ أيُّها المتلَقِّي لِلْبَيَانِ القرآنِيِّ الَّذِي تَعْتَلج في نَفْسِهِ تَسَاؤُلَاتٌ مِمَّا سَبَقَ بَيانُهُ آنِفاً، مِنْ فِئَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ اللهِ الْبَيَانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ في القرآنِ، فالشَّكُّ قَدْ يَكْبُرُ في النَّفْسِ بَتَراكُمَاتِ الأَوْهَام، حَتَّىٰ يَكُونَ فِيها بِقُوَّةِ الأمْرِ الْمَعْلُوم بأدِلَّةٍ صَحِيحَةٍ، وعِنْدَئذٍ يَكُونُ الشَّاكُّ فِي بدايةِ الحَرَكَةِ النَّفْسِيَّةِ مِنَ المكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، السَّاقِطِينَ في أَرْجَاسِ الكُفْرِ في مَصِيرِها الأخِيرِ.

فإذا وَصَلْتَ إلى دَرَكَةِ التَّكْذِيب بآيَاتِ اللهِ البيانيّة المنَزَّلَةِ في كِتَابِهِ، فإنَّكَ تَكُونُ مِنَ الخَاسِرِينَ لِكُلِّ شيءٍ، وأعْظَمُ خَسَارَةٍ تَخْسَرُهَا هِيَ خَسَارَتُكَ لِنَفْسِكَ، إذْ تَقْذِفُ بِهَا إلَىٰ عذابٍ أبَدِيٍّ في نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: **[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** مُؤَدَّىٰ **[كَلِمَتُ رَبِّكَ]** وَ **[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** واحد كَمَا سَبَقَ بيانه.

إنَّ عبارة ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أو **[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** وأشْبَاهُهُمَا مِثْل **[حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ]** قد جاءَتْ في الْقُرْآنِ المجيد بمَعْنَىٰ تَحَقُّقِ كَلِمَةِ اللهِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ تَعْذِيبَهُمْ أو إهْلاكَهُمْ واسْتِئْصالَهُمْ، إذْ أَصَرُّوا عَلَىٰ الكُفْرِ والْفَسَادِ والإفسادِ في الأَرْضِ، والظُّلْم وَالْبَغْي والْعُدْوان، وَمُعَانَدَةِ الحقِّ، بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُمُ اللهُ في امْتِحَانِهِمْ كُلَّ مَا تَقْضِي الحكْمَةُ باتِّخَاذِهِ لابْتلائِهِم

الْأَمْثَلَ، وَبَعْدَ أَنْ أَمْهَلَهُمْ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إمْهَالاً طَوِيلاً كافِياً، فَلَو اسْتَمَرُّوا في الحياة الدُّنيا إلى الْأَبَدِ، لاسْتَمَرُّوا كَافِرِينَ ظالمين مُعَانِدِينَ إلى الأبَدِ.

وَجَاءَت كلمة «عَلَىٰ» مُنَاسِبَةً لِقَرار الْعِقَابِ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ مُوجِعاً مُؤْلِماً مُسْتَعْلِياً ضاغِطاً مُتَمكِّناً.

فالمعنى: إنَّ الَّذِينَ حقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهلاكهم إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، أو كَلِمَةُ رَبِّكَ بِتَعْذِيبهم تَعْذيباً أبَدِيًّا في نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، لَا يُوجَدُ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ مَا لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، مَهْمَا أُمْهِلُوا وَذُكِّرُوا وَعُولِجُوا بالموعِظَةِ تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً، ومَهْمَا جُودِلُوا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ بَيَانِيَّةٍ، أَوْ كَوْنِيَّةٍ، أَوْ إعْجَازِيَّة.

إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَرَوْا بِأَعْيُنِ رُؤُوسِهِمْ مَقَاعِدَ عَذَابِهِمْ في نَارِ جهَنَّمَ، وَهَٰذا يَكُونُ بَعْدَ مَوْتِهِم، أَوْ حَتَّىٰ يَرَوْا الْوَسَائِلَ الرَّبَّانِيَّةَ الْقَادِمَةَ إلى دِيارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وقُرَاهُمْ، وَفِيها مَا يُعَذِّبُهُمْ، وَيُهْلِكُهُمْ وَيُبِيدُهُمْ، كَمَا حَصَلَ لِعَادٍ وَثَمُودَ وقَوْم لُوطٍ، وقَوْم شُعَيْب، أَوْ حَتَّىٰ يُطْبِقَ عَلَيْهِمْ مَا يَكُونَ بِهِ تَعْذِيبُهُمْ وَإِهْلَاكُهُمْ كَمَا أَطْبَقَ مَاءُ الْبَحْرِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهِ، إطباقاً مُغْرِقاً مُعَذِّباً مُهْلِكاً مُسْتَأْصِلاً.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾:

أي: إنَّ سُنَّةَ اللهِ في إهْلَاكِ الْقُرَىٰ الْكَافِرَةِ الظالِمةِ لَمْ تَخْتَلِفْ، فَمَا أَهْلَكَ اللهُ قَرْيَةً إهْلَاكَ اسْتئصالٍ شَامِلٍ، إلَّا بَعْدَ أَنْ عَلِمَ أَنَّ الموضُوعِين فيها مَوْضِعَ الامْتِحَانِ لَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، مَهْمَا أمْهِلُوا، ومَهْما عُولِجُوا بالْإِقْنَاعِ والترغيبِ والتَّرْهِيبِ، أَمَّا إيمانُهُمْ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا عَذابَ اللهِ الْأَلِيمَ فَلَمْ يَكُنْ نَافعاً لَهُمْ، لأنَّ اللهَ لَمْ يَقْبَلْ إيمانَهُمْ ساعَتَئِذٍ، فَلَمْ يَرْفَعْ عَنْهُمُ الْعَذَاب.

وَمَنْ تَوَهَّمَ خِلَافَ هٰذا، فَزَعَمَ أَنَّ اللهَ يَرْفَعُ الْعَذَابَ بَعْدَ إِنْزَالِ أَوَائِلِهِ في أَهْلِ قَرْيَةٍ، فَهَلَّا جاءَ بِمَثَلٍ وَاحِدٍ عَنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ أَوْ كَلِمَاتُهُ، وبَدَأَت أَوَائِلُ وَسائل تَعْذِيبهِمْ وَإِهْلَاكِهِم تَنْزِلُ عليهم، فَآمَنُوا حينئذٍ، فَنَفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ، فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الإِهْلَاكِ والاسْتِئْصَالِ.

إِنَّ أَحداً لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِي بِمِثَالٍ واحدٍ من واقع حَالِ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، أو مِنَ الْبَاقِينَ مُثْبِتاً أَنَّ اللهَ تعالىٰ كَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، إِذْ آمَنُوا بَعْدَ أَنْ رَأَوْا بَوَادِرَ إِهْلَاكِهِمْ.

إِنَّهَا سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ لَا تَتَخَلَّف، فَلَا يَطْمَعَنَّ كُفَّارُ قُرَيشٍ أو غَيْرُهُمْ، بِأَنْ يُؤَخِّرُوا إيمَانَهُمْ إِلَىٰ سَاعَةِ رُؤْيَتِهِمْ بَوَادِرَ عَذَابِ اللهِ المسْتَأْصِلِ قَدْ شَرَعَتْ تَنْزِلُ عَلَيْهِم.

لَكِنَّ قَوْمَ يُونُسَ قَدْ كَشَفَ اللهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ رَسُولُهُمْ يُونُس بِهِ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ مَرْحَلَةِ الْيَأْسِ الْكَامِلِ مِنْ إِيمانِهِمْ إِذَا أُمْهِلُوا وَعُولِجُوا بالإقناع والترغيب والتَّرْهِيبِ والتَّذْكِيرِ والمجادَلَةِ بالَّتِي هِي أَحْسَن.

وقَدْ تَصَرَّفَ يُونُسُ باجْتِهَادٍ مِنْهُ فَخَرَجَ مُغَاضِباً لَهُمْ، دُونَ إِذْنٍ مِنَ اللهِ لَهُ بالخروج، ظَانًّا ظَنًّا اجْتِهَادِيًّا أَنَّ اللهَ لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ إِذَا خَرَجَ مُغَاضِباً لِقَوْمِهِ وَمُنْصَرِفاً عَنْهُمْ ومُنْذِراً لَهُمْ بِعَذَابِ الله، دُونَ أَمْرٍ صَرِيحٍ أَوْ إِذْنٍ من اللهِ لَهُ بِذَلِكَ، وَكَانَ الواجِبُ عَلَيْهِ بِوَصْفِهِ رَسُولاً أَنْ لَا يَعْمَلَ باجْتِهَادٍ مِنْهُ في هٰذا الأَمْرِ الْخَطِيرِ، فَصَدَّقَ اللهُ إِنْذَارَهُ بإجْرَاءِ الْعَلَامَاتِ الأُولَىٰ، فآمَنَ الْقَوْمُ، فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُم عَذَابَ الْخِزْيِ في الحياة الدُّنيا.

أَمّا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَآخَذَهُ اللهُ عَلَىٰ خُرُوجِهِ مُغَاضِباً بِغَيْرِ أَمْرٍ أَوْ إِذْنٍ لَهُ مِن رَبِّهِ، فَأَجْرَىٰ تَدْبِيرَهُ الخَفِيَّ، حَتَّىٰ جَعَلَ الحوتَ العظيم في

الْبَحْرِ يَلْتقِمُهُ وَيكُونُ فِي فَمِهِ سَجِيناً، فَدَعَا رَبَّهُ واعْتَرَفَ بِخَطيئَتِهِ فَرَمَاهُ الْحُوتُ بأمْرِ اللهِ عَلَىٰ الشَّاطِئِ سَقِيماً، ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ قَوْمِهِ وَأَعْلَمه بِأَنَّهُمْ آمَنُوا.

وَلَدىٰ التَّدْقِيق في أحْوال قَوْمِ يُونُس، وهُمْ أَهْلُ نِينَوىٰ، نُلاحِظُ أَنَّهُمْ غَيْر مُسْتَثْنَيْنِ مِنْ سُنَّةِ اللهِ في إهْلَاكِ الْأُمَم، إِذْ لَمْ يَصِلُوا عِنْدَ إِنْذَارِ يُونُس لَهُمْ بِعَذَابِ اللهِ وانْصِرَافِهِ عَنْهُمْ إِلَىٰ حَالَة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ بل كانت الحكمة تقضي بإمْهَالِهِمْ ومُتَابعَةِ إقْنَاعهم، وتذكيرِهِمْ، وتَرْغيبِهِمْ وتَرْهِيبِهِمْ، فاجتهاد يونُسَ عليه السلام قَدْ كان اجتهاداً مجانِباً للصَّوَاب، ولَمْ يُجَارِهِ اللهُ عَلَيْهِ، بَلْ عَامَلَ قَوْمَهُ عَلَىٰ وَفْقِ سُنَّتِهِ في كُلِّ الْأَقْوام.

- ﴿فَلَوْلَا﴾: أي: فَهَلَّا، ومَعْنَاهَا التَّحَدِّي الإعْجَازي لِلّذِين يَتوهَّمُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ يَنْفَعُ أَصْحَابَهُ الكَافِرِين إِذَا آمَنُوا بَعْدَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ أَوَائِلُ التَّعْذِيب، فَهٰذا فِرْعَوْنُ لَمْ يَنْفَعْهُ إيمانُهُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَق.

- ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾: أي: فَهَلَّا جَاءَ مُتَوهِّمُو أَنَّ الإيمانَ يَنْفَعُ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ بِتَعْذِيبهم، بِمِثَالٍ تَارِيخيٍّ واحِدٍ، يخالفُ مَا أَبانَهُ الله عَزَّ وجَلَّ مِنْ سُنَّتِهِ في عباده، وجاء هذا تمهيداً للبيان التالي عَنْ قوم يونس عليه السلام:

- ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

أي: لَكِنْ وَاقِعُ حَالِ قَوْمِ يُونُسَ يُوهِمُ أَنَّ سُنَّةَ اللهِ قَدْ خُولِفَتْ في إِهْلَاكِهِمْ، إِذْ كَشَفَ اللهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْي في الحياة الدُّنيا، ومُسْتَبْصِرُ أَمْرِهِمْ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ حَالَةٍ ميؤوسٍ مَعَها مِن اصلاحِهِمَ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّة، وأَنَّ الأمْرَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِم يَرْجِعُ إلى اجْتِهَادِ رَسُولِهِم يونس

عليه السلام الّذي لم يَكُنْ مَأْذُوناً به، كَمَا سَبَقَ إيضاحُه، فَهُمْ مَشْمُولُونَ بِسُنَّةِ اللهِ العامَّةِ في أمْثَالهم.

وبهذا تمّ تَدَبُّر الدرس التاسع عشر من دُرُوس سورة (يونس).

والحمد لله على فَتْحِهِ ومَدَدِه وتَوْفيقه ومعونته.

* * *

(٢٣)

التدبّر التحليلي للدّرْسِ العشرين من دروس سورة (يونس) الآيات من (٩٩ ـ ١٠٩) آخر السورة

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟
مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا
يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم
مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
(١٠٣) قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ
أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ
فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ
فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ (١٠٩)﴾.

القراءات:

(١٠٠) ● قرأ شعبة: **[وَنَجْعَلُ]** بنون المتكلم العظيم.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[ويَجْعَلُ]** بضَمِير الْغَائب الذي يَعُودُ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جلاله.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

(١٠١) ● قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: **[قُلِ انْظُرُوا]** بكسر اللام.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[قُلُ انْظُرُوا]** بضم اللّام.

والقراءتان وجهان عَرَبيان في النطق، وفي الضم مراعاةُ ضمّ الظاء.

(١٠٣) ● قرأ أَبُو عَمْرو: **[نُنَجِّي رُسْلَنَا]** مِنْ فِعْلِ «نَجَّىٰ» وبإسكان السين من «رُسْلَنا».

وقرأها يعقوب: **[نُنْجِي رُسُلَنَا]** مِنْ فعل «أَنْجَىٰ» وبضمّ السّين من «رُسُلَنا».

وقرأها باقي العشرة: **[نُنَجِّي رُسُلَنَا]** مِنْ فِعْلِ «نَجَّىٰ» وبضمّ السين من «رُسُلَنَا».

وهي قراءاتٌ متكافئاتٌ لغة.

(١٠٣) ● قرأ حفْصٌ عَنْ عاصم، والكِسَائي، ويعقوب: **[نُنْجِ المؤمِنِينَ]** مِنْ فِعل «أَنْجَىٰ».

وقرأها باقي القرَّاء العشرة: **[نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ]** مِنْ فعل «نَجَّىٰ».

القراءتان متكافئتان لغة.

ووقف يَعْقُوب بالياء في «نُنَجِّي». وحذَفَ باقي القرَّاء العشرة هٰذِهِ الْيَاء وصْلاً ووَقْفاً.

تمهيد:

في هذا الدَّرْس الأخير من دُروس السّورة، تربيةٌ من اللهِ للرسُول ﷺ وللمؤمنين وتَعْلِيمٌ بِشأنِ عِدَّةِ قَضَايَا ذاتِ قيمَةٍ عَقَدِيَّةٍ وَدَعَوِيَّة، وفيه توجيهٌ غيرُ مباشر من اللهِ للمعنيّين بالمُعالَجَةِ في السُّورة، إذْ جاء بأسْلُوب تَعْلِيم الرَّسُولِ فَكُلِّ داعٍ إلى دِينِ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يَقُول لهم ما جاء بيانُه في التعليم.

التدبُّر التحليلي:

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾:

اللهُ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ قَدْ خَلَقَ الجِنَّ والإنْسَ في الْأَرْضِ لِيَضَعَ المؤهَّلِينَ مِنْهُمْ للتَّكْلِيفِ مَوْضِعَ الامْتِحان، والامْتِحَانُ يَقْتَضِي مَنْحَ الإرَادَةِ الحرَّة، لِيُرِيدَ الممتَحَنُ لِنَفْسِهِ مَا يَشَاءُ دُونَ إجبارٍ وَلَا إكْراهٍ بِشأْنِ أيِّ شَيْءٍ هُوَ مُمْتَحَنٌ فِيه بَيْنَ مُرادَيْنِ فأكْثر، مُتَنَاقِضَيْنِ، أَوْ مُتَضَادَيْنِ أَوْ مُتَخالِفَيْن، لِيَجْرِي حسابُهُ وفَصْلُ القضاء بِشَأْنِهِ وَمُجازَاتُهُ عَلَىٰ وَفْقِ مَا تَحَقَّقَتْ بِهِ إرَادَاتُهُ مِنْ خيرٍ أَوْ شَرٍّ، مِنْ حَسَنٍ أَوْ قَبِيحٍ، من صَالحٍ أَوْ غَيْرِ صالح، من إيمانٍ أو كُفر، من طاعَةٍ أو مَعْصِيَةٍ.

وهَـٰذا الأمْرُ الحكيم في الامْتِحَانِ، يَتَنافَىٰ مَعَهُ تَنافِياً تامًّا إرادَةُ إكْرَاهِ الْمُمْتَحَنِ عَلَىٰ خِلافِ مَا تَوَجَّهَتْ لَهُ إرادَتُهُ الجازِمَة، فَلَيْسَ للدَّاعِي إلَىٰ اللهِ، وَلَا لِذِي سُلْطَانٍ من المسْلِمِينَ، أَنْ يُكْرِهَ أحداً من النَّاسِ على أنْ يكونَ مُؤْمِناً بِمَا أَمَرَ اللهُ بالإيمانِ به.

على أنَّ الإيمانَ حَرَكَةٌ إراديَّةٌ قَلْبِيَّةٌ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ غير الرَّبِّ الخالِقِ

أَنْ يَجْعَلَهَا مَجْبُورَةً، وَيَسْلُبَها حُرِّيَّتَها، ولَيْسَ مِنَ المعقُولِ إكْراهُهَا، إذِ الإكْراهُ لَا يُتَصَوَّرُ إلّا في الأعمال الظّاهِرَةِ والسُّلُوكِ الْجَسَدِي، أمّا الأعْمَالُ الْقَلْبِيَّةُ والنَّفْسِيَّةِ فَخفِيَّةٌ لَا يَكُونُ فيها إكراه، قَدْ يَتظَاهَرُ الإنْسَانُ كاذباً بأنَّهُ مُؤمِنُ ويكونُ فِي بَاطِنِهِ كافراً، كما قد يَتظاهَرُ الإنْسَانُ بالحبِّ، وهو كَارِهٌ مُبْغِض، وكما قَدْ يَتظَاهَرُ بالتَّمنُّع، وهُوَ شَدِيدُ الرَّغبة.

ولتَثْبِيتِ حَقِيقَةِ حُرِّيَّةِ إرَادَاتِ الموضُوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامْتِحَانِ، وبَيَانِ أَنَّ إكْرَاهَهُمْ عَلَى الْإيمانِ إكراهٌ مُسْتَنكَرٌ في قواعِدِ الدِّينِ وَأُسُسِهِ. وَغَيْرُ مَقبُولٍ وَلَا مَعْقُول، جَاءَ الْبَيانُ في هَـٰذِهِ الْآية، خطاباً للرسُولِ ﷺ فلكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّته:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ...﴾:

أي: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَسَلَبَ كُلَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ الْمَوْضُوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ إراداتِهِم الحرَّة، فَجعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ غَيْرَ مُخيَّرِين، وعندئذٍ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ مُؤْمِنِينَ مُجْتَمِعينَ عَلَىٰ الإيمانِ كما جَعَلَ الملائِكَةَ، وَلَكِنْ تتعطَّلُ حينئذٍ غايةُ وضْعِهِمْ مَوْضِعَ الامْتِحان، إذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا مُمْتَحنين وَمَجْبُورِين، هَـٰذا تَنَاقُضٌ، وإراداتُ اللهِ لا تتناقضُ، فَلَمْ يَشَأْ رَبُّكَ أَنْ يُؤْمِنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً، إذْ شَاءَ تَخْيِيرَهُمْ بِمَنْحِهِمْ إراداتٍ حُرَّةً، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهُمْ.

ولَيْسَ المرادُ من عَدَم مَشِيئَتِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا كلّهم جَمِيعاً، أَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الإيمان، ويَجْعَلَ بَعْضَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الكُفْر، تَنزَّهَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ عَنْ هَـٰذا الْعَبَث، بَلْ شَاءَ الاحْتِمَالَ الثَّالث، وهُوَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ ذَوِي إرادَاتٍ حُرَّة لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم.

وَجَاءَ التوكيدُ بعبارتَيْ: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ للتنصِيص عَلَىٰ عُمُومِ ﴿مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ورفع احْتِمَال التخصيص، أو العُموم غير الشامل لكلّ الأفراد.

• ﴿... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ استفهامُ فِيهِ تَلْوِيم الداعي إِلَىٰ اللهِ الّذِي يحاولُ اتّخاذَ وَسَائل إِكْرَاهِيَّة لإِكْرَاه غير المؤمنين على الإيمان، فهذا أَمْرٌ لَم يَشأْهُ اللهُ مع قَدْرَتِهِ عليه بالجبْر...

وهذا المعنى الَّذي دَلَّ عليه هَـٰذا البيان، جاء في نصوص قرآنية مُتَعَدِّدَةٍ، لإِبْعَادِ الدُّعاةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ عَنْ أيِّ تَصَوُّرٍ يَدْفَعُ بِهِمْ إِلَىٰ محاولَةِ إِكْرَاهِ غَيْرِ المؤمِنِينَ عَلَىٰ الإيمانِ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ اتّخاذُ وَسَائِلِ الإقْناع الفكري، والموْعِظَةِ بالترغيب والترهيب، والمجادَلَة بالَّتِي هِيَ أَحْسَن للإِقْناع أَوِ الإِلْزَامِ أو الإِفْحَام، فمن هذه النصوص ما يلي:

استعراض سائر النصوص القرآنية حول ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾:

(١) قول الله عَزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

أي: ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لسَلَبَ النَّاسَ إرادَاتِهِم الحرَّة، فجَعَلَهُمْ مَجْبُورينَ، وحِينَئِذٍ يَجْعَلُهُمْ أُمَّةً واحِدَةً مُؤْمِنَةً، لا يُوجَدُ فيهم كافِرٌ واحد، إذْ لَا يُجْبِرُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَحَداً على الكُفْرِ ثُمَّ يُحَاسِبُهُ عليه، إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَىٰ جَدُّهُ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفر.

وبما أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ النَّاسِ ذَوِي إِرَادَاتٍ حُرَّة، فَلَا بُدَّ أَنْ تَخْتَلِفَ إرادَاتُهُمْ بحَسَبِ مَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنْ طَبِيعَةٍ حُرَّةٍ، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ بسَبَبِ ذَلِكَ، مَا دَامَ لَهُمْ تَنَاسُلٌ في الأَرْضِ الَّتِي وَضَعَهُمُ اللهُ فِيهَا مَوْضِعَ الامْتحان.

(٢) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فلكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ

سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وإنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ، فَثَقُلَ عَلَىٰ نَفْسِكَ وآلَمَكَ، إعْرَاضُ أَهْلِكَ وَعَشِيرَتِكَ، وقَوْمِكَ في مَكَّة عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوتِكَ، وكذلِكَ إدْبَارُ مَنْ أَدْبَر مِنْهُمْ وتوَلَّىٰ، ومُعَادَاةُ مَنْ عَادَاكَ مِنْهُمْ، ومشَاقَّةُ مَنْ شَاقَّكَ وَفَكَّرَ بأن يُعِدَّ لِحَرْبِكَ وحَرْبِ مَنْ آمَنَ بك (ذُكِرَ في البيانِ الإعْرَاضُ اسْتِغناءً بدَلَالَتِه عَمَّا هُوَ أَشَدَّ مِنْهُ وهو الإدْبارُ والتَّوَلِّي والمشاقَةُ والإعْدادُ للحْربِ) فَاصْنَعْ مَا تَسْتَطِيعُ من أمرٍ غَيْرَ الصَّبْر الّذِي أَمرَكَ رَبُّكَ به، واعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَفِيدَ مِمَّا تَصْنَعُ لِنَفْسِكَ ولِلْمُؤْمِنين في هَـٰذِهِ المرحلَة شيئاً، فَلَا تَتَطَّلَّعْ نَفْسُكَ لإجراءِ آيَةٍ مادِّيَّةٍ خَارِقَةٍ، لَا يَشاءُ رَبُّكَ بِحِكْمَتِهِ إجْراءَها لِقَوْمِكَ في مَكَّة.

ولـمَّا كـانَ بَعْضُ أصْحَاب الرَّسُولِ ﷺ في هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ، تَشْتَدُّ حَرَكَاتُ نُفُوسِهِمْ لِأَنْ يُجْرِيَ اللهُ لِرَسُولِهِ آيَةً مادِّيَّةً خَارِقَةً، أَوْ يَنْصُرَهُ بِمُعْجِزَة، كَانَ من الْحِكْمَةِ أَنْ يُوَجِّهَ اللهُ لِرَسُولِهِ خِطَاباً فِيهِ شِدَّةٌ، والمقْصُودُ بِهَا بَعْضُ أصْحَابِ الرَّسُول ﷺ الَّذِينَ تَشْتَدُّ حرَكَاتُ نُفُوسهم لإجراء آيَةٍ مادِّيةٍ خَارِقَةٍ، يُؤَيِّد اللهُ بها رسُولَه، أو يَنْصُرُهُ بها على خُصُومِه وأَعْداءِ دَعْوَتِهِ، فقال الله عَزَّ وجَلَّ لرسُوله:

﴿... فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ...﴾.

﴿أَن تَبْتَغِىَ﴾: أيْ: أَنْ تُرِيدَ وتَطْلُبَ، ومَعْلُومٌ أَنْ مَنْ أراد الشَّيْءَ وَطَلَبَهُ سَعَىٰ في تَحْقِيقِه، فالمراد فاتَّخِذْ إن اسْتَطَعْتَ نَفَقاً في الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّماء فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خارِقَةٍ تُكْرِهُهُمْ بِهَا علىٰ أَنْ يُؤْمِنُوا، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ [وَ] اعْلَمْ أَنَّهُ [**لَوْ شَاءَ الله**] لَسَلَبَهُمْ إرادَاتِهِمْ الحرَّة، و﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ مجبورين كَمَا خَلَقَ الْمَلائِكَةَ مُجْبُورِين.

﴿... فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ قادرون بوسائِلِهِم أنْ يُكْرِهُوا ذوي الإرادات الحرَّةِ حتَّىٰ يَكُونوا مؤمنين وقد خَلَقَهُمُ اللهُ لِيَبْلُوهُمْ فَمَنَحَهُمْ إراداتٍ حُرَّةً غَيْرَ مَجْبُورَة.

(٣) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الشّورَى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: ولَوْ شَاءَ اللهُ لسَلَبَ الناسَ إراداتِهِم الْحُرَّةَ فجعلَهُمْ مَجْبُورِين، ولَجَعَلَهُمْ حِينئذٍ أُمَّةً واحِدَةً مؤمِنَةً مَهْدِيَّة، فاللهُ لَا يَرْضَىٰ لعباده الكُفر، فَلا يُجْبِرُهم عليه.

ولكن لم يَشَأْ ذَلِكَ، بلْ شَاءَ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتحان لِيَبْلُوهُمْ فيما آتاهم، ثم ليحاسِبَهم ويُجَازِيَهُمْ يوم القيامَةِ بحَسَب مَا كَسَبُوا أو اكْتَسَبُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدنيا، فَيُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي جنَّته، لأنَّهَا مَكَانُ فيوضات رَحْمَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ لَا تُفارِقُ حِكْمَتَه، فَهُو يُدْخِلُ في جَنَّتِهِ المؤمنين.

وأمَّا الظَّالِمُونَ الْكَافِرُونَ فَيُدْخِلُهُمْ في دَارِ عَذَابِهِ خالِدِينَ، وَمَا لَهُمْ يَوْمَئِذٍ مِنْ وَلِيٍّ يَتَوَلَّاهم فيشْفَعُ لَهم عنْد ربّهم، لِيُعْفِيَهُمْ من العذاب الّذِي يَسْتَحِقُّونه بِكُفْرِهم، ومَا لَهُمْ من نَصِيرٍ يَنْصُرهم فَيَدْفَعُ أوْ يَرْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ رَبّهم:

(٤) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: ولو شاء الله أَنْ يَجْعلكم أمَّةً واحدةً لسَلبَكُمْ إراداتِكُمْ الحرَّة فجعلكم أمَّةً مُؤْمِنَةً مَهْدِية، ولكِنْ لم يُرِدْ ذلِكَ، بَلْ أَرَادَ أَنْ يَضَعَكُمْ مَوضع الامْتِحان فَمَنَحَكُمْ إراداتٍ حَرّة، ليَبْلُوكم فيما آتاكُمْ، ونتيجة لابتلائكم سيَكُونُ فيكم ضالُّون، وآخَرُونَ مُهْتَدُونَ، أمَّا الضَّالُونَ فيَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بالضَّلالة بمشيئته الحكيمة، وأمَّا المهتدون فيَحْكُمُ الله لَهُمْ بالهدايَةِ بمَشيئَتِهِ الحكيمة أيضاً.

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عِنْدَ مُحَاسَبَتِكم، وفَصْلِ قَضائِهِ ثُمَّ تكون مجازاتُكُمْ بحَسَبِ مَا قَدَّمْتُمْ في رِحْلَةِ ابْتِلائِكُمْ.

(٥) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٤٨﴾:

أي: ولَوْ شَاء اللهُ لجَعَلَكُمْ أيها النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً مؤمنَة مُسْلِمَةً، غَيْرَ مُخْتَلِفِينَ في طرائِقكُمْ الَّتِي سَلَكْتُمُوهَا بإراداتِكُمْ، ويكُونُ ذَلِكَ بأَنْ يَسْلُبَكُمْ إرَادَاتِكُمْ وَيَجْعَلَكُمْ مَجْبُورِين، ولكِنْ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، وَإِنَّما شَاءَ أَنْ يجعلكُمْ ذوي إراداتٍ حُرَّةٍ، ليَبْلُوكُم مُخْتبراً لكُمْ فيما آتَاكُمْ، في أجسادكم وفي نُفُوسِكُمْ وفي الكوْنِ من حَوْلِكُمْ، ومكَّنَكُمْ مِنِ الاخْتِيار الْحُرّ، ويَخْلُقُ لَكُمْ مَا تَخْتَارُونَ، إِذَا تَوَجهَتْ إراداتكُمْ لمَا تَعْمَلُونَ، مَا لَمْ يُعَارِضْ ذلِكَ قضاءً وقَدَراً سَابِقَيْنِ له.

وإِذْ مَنَحَكُمْ إراداتٍ حُرَّةً، وَمَكَّنَكُمْ من الاسْتِبَاقِ التنافُسِيّ في فِعْلِ الخيرات، لتنالُوا الدَّرجَاتِ الرَّفيعاتِ في جَنّاتِ النَّعِيم، فاسْتَبِقُوا متنافسينَ إلىٰ مَقاصِدِكم فاعِلينَ الخيرات.

ومَا تَكْسِبُونَهُ أو تكتسبونَهُ في الحياة الدّنيا حياة امتحانكم، يُسَجَّلُ لكم أو عَلَيكم، وبَعْدَ مَوْتكُمْ تُبْعَثُونَ إلى حياة الجزاء، وتُرْجعُون إلىٰ رَبِّكُمْ جَمِيعاً، فيُنبئكُمْ بِكُلِّ أعْمالِكُمْ النَّفْسيَّة والْجَسدِيَّة الّتي اخْتَلَفْتُمْ فيها نتيجةَ

اختلافِ إرَاداتَكُمْ في حياة امتحانكم، لمحاسبتكم وفصْلِ القضاء بينكم ومجازاتكم.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ١٠٠﴾.

- وفي القراءة الأخرىٰ: **[وَنَجْعَلُ]** بضمير المتكلم العظيم.

بَعْدَ إثْبَاتِ الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ للنَّاس الموضوعين في الحياة الدنيا موضِعَ الابتلاء، كانَ لَا بُدَّ في البيان من دَفْعِ تَوَهُّم أنّ هؤلاء مَتْرُوكُونَ لأنْفُسِهِمْ دُونَ مُتَابعَةٍ ومُرَاقَبَةٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، مُدَبِّر كُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ في الكَوْنِ.

أَمَّا الكائناتُ الَّتي لَيْسَ لَهَا إرَادَاتٌ حُرَّةٌ، فَاللهُ بِخَلْقِهِ المتتابعِ هُوَ الَّذِي يُجْرِي كُلَّ حرَكَاتِهَا وَتَغَيُّرَاتِهَا وَتَصارِيفها.

وَأَمَّا الكائنَات الَّتِي مَنَحَهَا اللهُ إرَادَاتٍ حُرَّةً، فَلَا تَتَّجِهُ إراداتُهَا الحُرَّةُ لِأَيِّ شَيْءٍ إلَّا بإذْنِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَـٰذا الْجَبْرُ في اختياراتِها لِمُرَادَاتِها، بل يَدُلُّ عَلَىٰ الْحُضُورِ والشهُودِ التَّامّ وشُمُولِ الْعِلم، فلا يَجْرِي شَيْءٌ في الوُجُودِ مِنْ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الحرَّةِ، إلَّا بإذْنِهِ وتَمْكِينِهِ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُهُ ـ حَتَّىٰ الإيمانُ والكُفر.

إِنَّنا قَدْ نُسَلِّمُ أطْفالَنا ألْعاباً ليَلْعَبُوا بِهَا، وقَدْ نَجْعَلُهُمْ تَحْتَ إشْرَافِنا وَمُرَاقَبتِنَا، وقَدْ نَتْرُكهمْ يُخَرِّبُونَهَا ونَحْنُ نُشَاهِدُ ذَلِكَ، وهَـٰذا مِنَّا إذْنٌ وَتَمْكِينٌ، وَقَدْ يَكُونُ لمحاسَبَتِهِمْ ومُجَازَاتِهِمْ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا بإراداتِهِمْ الحرَّةِ.

فإذا أَخَذَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لُعْبَتَهُ الثَّقِيلَةَ، وأَرَادَ أَنْ يَضْرِبَ بها وَجْهَ أَخِيهِ،

أَوْ يَكْسِرَ بِها شَيْئاً نَحْرِصُ على سَلامَتِهِ مِنَ الكَسْرِ، مَنَعْنَاهُ ولَمْ نَأْذَنْ لَه.

فالإِذْنُ يَكُونُ بِتَرْكِ الْعَامِلِ المختارِ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، ولكِنْ قَدْ يَكُونُ مَصْحُوباً بِالْمُرَاقَبَةِ التَّامَّةِ والشُّهُودِ لِكُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ من اخْتِياراته.

فالمعنى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ ذَاتِ إرادَةٍ حُرَّةٍ مَوْضُوعَةٍ في الحياة الدُّنْيا مَوْضع الامْتِحَان، مُمَكَّنَةٍ مِنَ الإيمان والكُفْرِ بحُرّيَّةٍ تامَّةٍ، أَنْ تُؤْمِنَ أَوْ أَنْ تَكْفُرَ إِلَّا هِيَ مَصْحُوبَةٌ فِيما تَخْتَارُ بإِذْنٍ وَتَمْكِينٍ من اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، دُونَ أَنْ تَكُونَ مَجْبُورَةً عَلَىٰ إيمانٍ أَوْ كُفرٍ، بَلْ هِيَ مُحَاطَةٌ بالشُّهُودِ والمراقَبَةِ والْعِلْمِ الشَّامِلِ، ومُمَكَّنَةٌ مِنْ أَنْ تُرِيدَ مُرَادَاتِها بُحرِّيَّةٍ تامَّة.

جاء في الآيةِ الاسْتِغْنَاءُ بِذِكْرِ ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾ عَنْ ذِكْرِ «أو تَكْفُرَ» والمَعْنَىٰ مُلَاحَظٌ فِيهِ هَٰذا المَطْوِيّ.

﴿... وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: ويَجْعَلُ اللهُ رِجْسَ الحكْمِ بالكُفْرِ ولوازمِهِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ بإرادَاتِهِمْ الحرَّةِ أهْوَاءَهُمْ، وكِبْرَهُمْ، وشَهَوَاتِهِم، وَرَغَبَاتِهِمْ فِي الْفُجُورِ، فلا يَضْبِطُونَها، بَلْ يَتَّبِعُونَها مُنْحَدِرِين إلى أَسْفَلِ سَافِلِين، حَيْثُ تَجْتَمِعُ كُلُّ الأَرْجَاسِ المصحوبَة بالعذاب الأَلِيم للّذِينَ هُمْ مُنْغَمِسُونَ فيها.

الرِّجْسُ: هو في الأصل القذر والنَّجَسُ، ثُمَّ حصَلَ تَوَسُّعٌ في إطْلاق اللَّفْظِ، فصَارَ يُطْلَقُ على الرَّذَائِل والقبائح المعنويّة، من العقائد والأفكار والنيَّات والأعمال الظاهرة والباطنة، ثُمَّ عَلَىٰ مَنْ تَجْتَمِعُ فيه هذه الرّذَائل والقبائح، فالمشركونَ وسَائر الكافِرين رِجْسٌ ونَجَسٌ.

العقل: يُطْلَقُ في التعبيرات القرآنيَّة على معنَيَيْن:

المعنى الأول: العقلُ العلمي، وبه تُدْرَكُ مسائل المعرفة، وتحفَظُ معقولةً في الذّاكِرَة.

المعنى الثاني: العقل الإرادي، وبه تُضْبَطُ النَّفْسُ عن اتّباع الأهواء والشهوات، والنّزعاتِ والنزغاتِ الجانحاتِ المؤدِّيات إلى عقاب الله وعذابه.

قول اللهُ تعالى:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾:

تعليم مِنَ اللهِ عَزَّ وجلَّ لِرَسُولِه ﷺ فلكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه، أَنْ يُتَابعَ مُعَالَجَةَ المعْنِّيينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ، مَعَ سَائِرِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ مِنْ مُشْرِكي مَكَّةَ، بِلَفْتِ أنظارِهِمْ إِلَىٰ آيَاتِ اللهِ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وهي آيَاتٌ كثيراتٌ سَبَقَ ذِكْرُ كثيرٍ مِنْها بالتَّفْصِيل، فِيمَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ مِنْ سُوَر، وقَدْ جَاءَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ بعُنْوانٍ إجماليٍّ عامٍّ لا تَفْصِيلَ فيه، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾؟؟:

﴿ٱنظُرُواْ﴾: أي: انْظُرُوا نَظَرَ تفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ وبَحْثٍ عِلْمِيّ يُوصِلُكُم إِلَىٰ عِلْمٍ يُشْبِهُ الْمُشَاهَدَ بالأَعْيُن.

﴿مَاذَا﴾: أي: مَا الَّذِي.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾: أي: مَا الَّذِي في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ من آياتٍ تَكْوِينِيَّةٍ، دَالَّاتٍ عَلَىٰ صِفَاتِ الرَّبّ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ وهذه الصفات تَدُلُّ على وُجُودِ الذّات، وهي ذاتُ الله تَبارَكَ وتَعَالَىٰ.

والمعنى: فإذَا نَظَرْتُم هَـٰذا النّظر التدبُّرِيَّ تحقَّقْتُم من صِدْقِ رَسُولِكُمْ بما جاءكم بِهِ عَنْ ربكم.

وَبَعْدَ هَـٰذا التوجيه التَّكْلِيفيّ، أَبَانَ اللهُ عَزَّ وجلَّ لرَسُولِهِ فلكُلِّ دَاعٍ إِلىٰ اللهِ من أُمَّتِهِ، أَنَّ الميؤوسَ مِنْ إيمانهم عن طريق إراداتهم الحرَّةِ، بَعْدَ

تَجْرِبَتِهِمُ الطَّوِيلَةِ الَّتي كَشَفَتْ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أُمْهِلُوا وَعُولِجُوا يَحْسُنُ الإعْرَاضُ عَنْهُمْ، لأَنَّ الآيَاتِ وَالْإِنْذَارَاتِ الكَثِيراتِ لَا تُغْنِي صَارِفَةً الكُفْرَ عَنْ قَوْمٍ لَيْسَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لأنْ يُؤْمِنُوا، بسبب عنادهم وتحجُّر قُلُوبهم. ضُمِّنَ فِعْل [تُغْنِي] بمَعْنَى «تَكْفِي» معنى فعل «تَصْرف» فَعُدِّيَ تَعْدِيته.

فصار المعنى: لا تَكْفِي فتصرف عنهم، أي: الكفر المستقر في أعماقهم.

فقال تعالى: ﴿... وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

الآيات: العلامات، والمراد بها هُنَا الآيَاتُ الكونيَّةُ الرَّبَّانيّة، والآياتُ الجزائيَّة الّتي تَدُلُّ عَلَيْها الآثار.

النُّذُر: أي: الإنْذَارات، وهي الأخبارُ بعواقب غير سَارّة، وَمِنْها الأخبارُ بالعقوبات الجزائية الرَّبَّانيّة على المكتسبات الإراديَّةِ للموضُوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لَيسَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أُمْهِلُوا وَعُولِجُوا بالإقناع والترغيب والترهيب والمجادلة بالَّتِي هِيَ أَحْسَن، فلا مَطْمَعَ في إيمانهم مُسْتَقْبلاً.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾؟:

يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِهَـٰذِهِ الآيَةِ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أَصْحَابِهِ، بِشَأْنِ المعنيّين الأوّلِينَ بالمعَالَجَةِ في السُّورَةِ وَهُمْ أَئِمَّةُ المشْرِكين، الميْؤُوسُ من إصْلاحِهِمْ عَنْ طَرِيق إِرَادَاتِهِمْ الحرَّة.

أي: إنْ كَانَ هَؤلاَءِ يَنْتَظِرُونَ شيئاً، كالتَّخَلُّصِ مِنَ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ وَمِنْ دَعْوَتِهِ، ومِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، بِمَوْتِهِ أو بِمُحَارَبَتِهِ وَقَتْلِهِ وَقَتْلِ كُبَراء المؤمِنِينَ به، فإنَّهُمْ في الحقيقَةِ لَا يَنْتَظِرُونَ تَحْقِيقَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ اللهَ خَاذِلُهُمْ ونَاصِرٌ رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبعُوه.

وَإِنْ كانُوا يَنْتَظِرُونَ شَيْئاً يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لَهُمْ مُسْتَقْبَلاً، فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا يَوْماً يَكُونُ فِيهِ تَعْذِيبُهُمْ وإهْلاكُهُمْ، مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قبلهم، قَوْمِ نُوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقَوْم شُعَيب، عَلَيْهِمُ السَّلام، أَوْ فِرْعَوْنَ وجُنودِهِ؟!.

يُرَادُ بالاستفهام في العبارة تَيْئِيسُهُمْ من انْتِظَارِ مَا يَطْمَعُونَ فيه، مَعَ التَّلْويح بإنْذَارهم بعذاب رَبَّانِيّ يَسْتَأْصِلُهُمْ اللهُ به، والمعنى: ما ينتظرون في الحقيقة إلَّا إهلاكهم وتَعْذيبهم إذا لم يؤمنوا.

﴿خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾: أي: مَضَوْا مِنَ الأَقوام مِنْ قبْلِهم، وهُمْ من جاء ذِكْرُهُمْ آنفاً.

﴿... قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: أي: قُلْ لهم: إنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بما جاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، فَانْتَظِرُوا أنْ لا يَتحقَّقَ لَكُمْ ما تَنْتَظِرُونه، إنِّي مَعَكُمْ مِنَ المنتَظِرينَ أَنْ يَنْصُرَني رَبِّي، ويَنْصُرَ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني عَلَيْكُمْ، ويَخْذُلَكُمْ ويُحْبِطَ كُلّ مَكَايِدِكُمْ وَتَدْبيراتِكُمْ، ويَرُدَّ سِهَامَكُمْ إلَىٰ نُحُورِكم.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ الانْتِظَارِ نُنْزِل بِكُمُ الْعِقَابَ الّذِي تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُنَا، وَنُنَجِّي مِنْكُمْ وَمِنْ شُرُورِكُمْ وَمَكَايِدِكُمْ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، عَمَلاً بِسُنَّتِنَا الثَابِتَةِ، الّتي نُهلِكُ فيها الذينَ كَفَرُوا مُعَانِدِينَ طاغِين باغين، وَنُنَجِّي رُسَلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا، وبمقْتَضاها أهلكْنَا الظَّالِمِينَ السّابقينَ.

كذٰلِكَ نَفْعَلُ بِمَنْ سَيأْتِي مِن الأَجْيَالِ اللّاحِقَةِ، الَّتي يُؤَدّي فيها الدُّعَاةُ وَظائِفَ الرَّسُول، فَإِنَّنَا نُنَجِّيهِمْ وَنُنَجِّي الَّذِينَ اتَّبَعُوهم مؤمنين، من شُرُورِ الكافِرِينَ الطُّغَاةِ وَمَكَايِدِهِمْ العظمىٰ، وكَما كان حَقًّا عَلَيْنَا نَصرُ الرُّسُلِ والمؤمنين مَعَهُمْ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين الصادقين، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ رَسُولُ رَبِّهِم بَيْنَهُمْ دَاعِيًا وهادياً وقَائداً. فاطْمَئِنُوا لنَصْرِ الله أيها المؤمنون، إذَا تَحَقَّقْتُمْ بالشروط الَّتي أبَانَهَا لتَأْيِيدِه ونَصْرِهِ.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ حرف ﴿ثُمَّ﴾ عطف على مطويٍّ مُقَدَّرٍ يَكْشِفُهُ التَّدبُّرُ المتأنِّي، والتَّقدير: لَقَدْ كَانَتْ سُنَّتُنَا أَنْ نُمْهِلَ الكُفَّارَ الظَّالِمينَ حتَّىٰ يَصِلُوا إلَىٰ دَرَكَةِ الميؤوس من صَلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيق إرَاداتهم الحرَّة. ثمَّ إذَا بَلَغُوهَا فإنَّنَا نُهْلِكُهُمْ مُعَذَّبين، وَنُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا، دلَّ على هذا استعمال: [**رُسُلَنَا**] بالجَمْعِ.

وَمَا زَالَتْ هَـٰذِهِ سُنَّتُنَا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ رَسُولِنَا مُحمَّدٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نُجْرِي سُنَّتَنَا هَـٰذِهِ في الأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ بَعْدَ خَاتَم الْمُرْسَلِينَ، ولو لم يكُنْ بَيْنَهُمْ رَسُولٌ يَعيشُ بَيْنَهُمْ، فَنُنْجِي الْمُؤْمِنِين مِثْلَ ذَلِكَ الإنْجاء.

﴿... حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾: أي: نَحْنُ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ إنْجاءً حَقًّا عَلَيْنا، ﴿حَقًّا﴾ نائب مَفْعُولٍ مُطْلقٍ، على أَنَّهُ صِفَتُه، وُصِفَ الإِنْجاءُ بأَنَّهُ حَقٌّ، أيْ: ثابتٌ، لِأَنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ أَوْجَبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فجَعَلَهُ أمْراً حَقًّا ثَابِتاً، وسُنَّةً مِنْ سُنَنِه.

قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لرَسُولِه:

- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

أي: قُلْ يا مُحمَّد للمشركين الَّذِينَ يَعْبُدُون آلِهَةً مِنْ دُون اللهِ رَبِّ العالمين: إنْ كُنْتُمْ مُنْغَمِسين في أَوْهَامِ شَكٍّ نافِرٍ مِنْ دِينِي، فَأَنَا مُتَحَقِّقٌ مِنْ بُطْلَانِ دِينِكُمْ، ومِنْ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَىٰ شيء، وَمُتَحَقِّقٌ مِنْ أَنَّ دِينِي هُو الحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَا تَشُوبُهُ شائِبَةٌ مَا، فأنَا لَا أعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله، لأنَّ آلِهَتَكُمْ بَاطِلَةٌ بيَقِين، وَلَكِنْ أَعْبُدُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَرَبَّ العالَمين جميعاً الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، في آجالِكُمْ الَّتِي قَدَّرَ وَقَضَىٰ أَنْ يَتَوَفَاكُمْ فيها.

﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾: أي: يُمِيتُكم بِقَبْضِ أَرْوَاحِكُمْ وَفَصْلِهَا عَنْ نُفُوسِكُم.

ومعنىٰ تَوَفِّي المَيِّت: استِيفَاءُ مُدَّتِهِ الَّتِي وُفِّيَتْ لَهُ، وهِيَ عَدَدُ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الصُّغْرَىٰ المقَدَّرَةِ لحيَاتِهِ في الدُّنيا.

واخْتِيرَ في هَٰذا الْبَيَانِ هَٰذِهِ الظَّاهِرَة مِنْ ظواهِرِ أفْعَالِ اللهِ في الْعِبَادِ، لِمَا فيها مِنْ مَعْنَىٰ الْقَهْرِ الَّذِي لَا تَمْلِكُ النُّفُوسُ مُعَانَدَتَهُ، وهَٰذِهِ الظَّاهِرَة تُلائِم الحالَة النفْسِيَّةَ للْمعَالَجِين في السُّورَةِ، الَّذِينَ اشْتَدَّ كُفْرُهُمْ ومُعَانَدَتُهم لِلْحَقّ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِم الْقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ بِالْمَوْتِ الَّذِي لا يَمْلِكُ النَّاسُ كُلُّهُمْ دَفْعَه.

- ﴿... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

أي: واعْلَمُوا أَنِي أُمِرْتُ مِنْ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَرَبِّ جميع العالَمِين، أنْ أَكُونَ مُؤْمِناً بما أَمَرَ بالإيمانِ بِهِ، وَواحداً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا إعْفَاءَ لِي مِنَ الْإيمان وَلَوْ كُنْت نبيًّا وَرَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ لَدُنْهُ للنَّاسِ أَجْمَعِين، فإنْ لَمْ أُؤمِنْ، فَأَنَا مُعَرَّضٌ لعقابِهِ يَوْمَ الدِّينِ كَسَائِرِ الكافِرِين، فَلَنْ أَسْتَجِيبَ لَكُمْ إِذَا دَعَوْتُمُونِي إِلَىٰ عبادَة آلِهَتِكُمْ، والكُفْرِ بما جاءَني عَنْ رَبِّي فأَوْقِفُوا كُلَّ مُحَاوَلَاتِكُم وَعُرُوضِكُمْ وإغْرَاءَاتكُمْ في هَٰذا المجال.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾»:

أي: واعْلَمُوا أَيُّها النَّاسُ أَنَّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَرَبَّ جَمِيعِ العالمين، أَوْحَىٰ إليَّ الْقَضَايَا الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا هَـٰذِهِ الآيات من (١٠٥ ـ ١٠٧).

وهي سَبْعُ قضايا تُشْعِرُ بأَنَّ المشركين كانوا يُتَابِعُونَ الرَّسُولَ ﷺ بالمفاوضة والمراوضةِ أَنْ يَشَارِكَهُم في عِبادةِ آلهتهم لِيُشارِكوهُ في عبادةِ رَبِّ العالمين، فشدَّد الله على رسوله لقطع الطريق عليهم.

القضية الأولىٰ: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تعالىٰ خطاباً لرسُوله: «وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا» أي: أَمَرَني رَبِّي بأَنْ أُقِيم وَجْهِي للدِّين، حالَةَ كَوْني مائِلاً عَنْ كُلِّ ما سِوَاهُ مِنَ الخارِجَاتِ عَنِ اسْتِقَامَتِهِ، وأن أَجْعَلَ اتّجاهَهُ مُلْتَزِماً دَواماً صِرَاطَ دِينِ اللهِ المستقيم.

إقامة الشيء لغةً تأتي بمَعْنَىٰ المواظَبَةِ والمداوَمَةِ عليه، مع إيفائِهِ حَقَّهُ لَدَىٰ أدائه. وتأتي بمعنَىٰ تَعْدِيل الشَّيْءِ وجَعْلِهُ مُسْتقيماً لَا عِوَجَ فيه.

الوَجْهُ: يُطْلَقُ في اللّغة على ما يواجهك من الرأس وفيه العينان والأنف والفم، ويُطلَقُ على الجهةِ والناحية، ويُطْلَقُ على السَّنَنِ والطريقة. ويطلق على القصد.

ونَفْهَمُ مِنْ هَـٰذا التكليفِ الرَّبَّاني للرَّسُولِ، أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَمَرَ رَسُولَهُ بِأَنْ يَجْعَلَ اتّجاهَهُ في كُلِّ حياتِهِ مُلازماً الطَّاعة لأوامِرِ الدِّينِ وَنَوَاهِيهِ في سُلوكه الشَّخْصِيِّ مع المواظبة والمداومة، وَأَنْ يُوَجِّهَ طاقَاتِه لِنَشْرِ دينِ اللهِ وَتَبْلِغيهِ للنَّاسِ، مع المتابعَةِ بالتَّذْكِير، والإقناع، والترغيب والترهيب، ما اسْتَطاعَ إلى ذَلِكَ سَبيلاً فمعنى «أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» اجْعَلْ اتّجاه حركَةِ حَياتِكَ ملازماً لأداء واجبات الدين وَنَشْرِهِ والدّعوّةِ إليه.

﴿حَنِيفًا﴾: **الحنيفُ**: في المفهوم الديني هو المائل عن كلّ الأدْيانِ والمذاهب الباطلة، وهذا لَا يَكُونُ إلّا بالاستقامةِ على دينِ الله الحقّ، ذي الصراط المستقيم، لأنّ كُلَّ الأدْيان والْمِلَلِ الباطلة مائِلَةٌ عَنْهُ إلى جهاتٍ مختلفات، مائِلَاتٍ السَّاحاتِ اللّواتي لَيْسَتْ على الصراط المستقيم.

فالمَيْلُ عَنْها جَميعاً لا يكون إلّا بالاستقامَةِ على صراطِ اللهِ المستقيم، إيماناً وعملاً، وسُلُوكاً ظاهراً وباطناً، جَسَدِيًّا ونَفْسِيًّا.

وَيَسْتَغِلُّ مُحَرفُو النُّصُوصِ كَلِمَةَ «حَنِيف» استغلالاً خَبيثاً، للتلاعُبِ في مَفْهومَاتِ الدّين، أخْذاً من مَعْنَىٰ الْمَيْلِ اللُّغَويّ لدلالَةِ الكلمة.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ غير الرسول مأمُورٌ بأَنْ يُقيم وَجْهَهُ للدّينِ حَنيفاً كالرَّسول ﷺ، كلٌّ بحسَب استطاعته ومؤهّلاته.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عليها قَوْل الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿... وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾: أي: وَلَا تكونَنَّ مُشْرِكاً بِرُبُوبيَّةِ اللهِ ولا بإِلهيَّتِهِ مِنْ فِئَةِ المشْرِكين.

جاء توكيد النّهْي في هَـٰذِهِ العِبارَة بِنُونِ التَّوْكيد الثقيلة، تَشْدِيداً في النَّهْي، وَإعْلاماً لِغَيْرِ الرَّسُولِ ﷺ بأَنَّ رسُولَ اللهِ أَوَّلُ مَنْ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ التَّحْذِيرُ مِنَ الشِّرْك، باعْتِبارِهِ أَوَّلَ المطالَبِينَ بالإيمان والإسلام.

ومعلوم أنَّ غير الرسُول مَنْهِيٌّ عن أن يكون من المشركين كالرَّسُول ﷺ.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

أي: ولا تَعْبُدْ مِنْ دُونِ اللهِ بالدُّعاءِ أو بغَيْرِهِ من الْعِبادَاتِ، إلَهاً أو آلِهةً لَا تَنْفَعُكَ فَتَرْجُو بِعِبادَتِها نَفْعَها، وَلَا تَضُرُّكَ فَتَرْجُو بعبادَتِها دَفْعَ

ضَرَرِها، ومَعْلُومٌ أنَّ كُلَّ إلَٰهٍ يُتَّخذُ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يُحَقِّقُ لعابِدِه نَفْعاً، وَلَا يَدْفَعُ عَنْ عابِدِه ضَرَراً.

النَّهْيُ عَنْ عبادة أَحَدٍ مِنْ دُونِ الله هو نَهْيٌ عَنِ الشِّرْكِ، وقَدْ سَبَقَ هذا في القضيَّة الثانية: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فَمَا فَائِدَةُ إعادَةِ النَّهْي عن الشِّرْكِ بِعِبَارَةٍ أُخْرَىٰ؟.

أقول: لَقَدِ اقْتَرَنَتْ هَـٰذِهِ الإعادة بِبَيَانِ عِلَّةِ النَّهْي عَنْ دُعَاءِ غَيْرِ الله، وهي أنَّ أيَّ إلَٰهٍ أو آلِهَةٍ تُعْبَدُ مِنْ دُون اللهِ، لا تَمْلِكُ لعابِدِهَا نَفْعاً فَتَنْفَعُهُ به، وَلَا تَمْلِكُ ضَرّاً فَتَكُفُّهُ عَنْه.

واقْتَرَنَتْ بِبَيَانِ أَنَّهُ إنْ فَعَلَ ذَٰلِكَ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وتَعَرَّضَ لعقاب اللهِ الَّذي أعَدَّهُ للظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الشِّرْك.

● ﴿... فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾: أي: فإنْ فَعَلْتَ مَا نَهاكَ رَبُّكَ عَنْهُ، فَعَبَدْتَ مِنْ دُون اللهِ بالدُّعاءِ أو بِغَيْرِهِ مِن العبادات، مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ من آلِهَةٍ، فإنَّكَ تَصِيرُ مِنَ الظَالِمين ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الشِّرْكِ إذَن، فتستَحِقُّ العقاب الأبَدِيَّ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ المشْرِكون.

جاء في العبارة استعمال حرف «إنْ» الشَّرْطِيَّة للدَّلَالَة علىٰ أنَّ الرَّسُول ﷺ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المشركين، فهو لَنْ يَفْعَلَ شيئاً مِنْ شِرْكِيَّاتِ المشركين.

﴿فَإِنَّكَ﴾ جوابُ الشَّرْطِ فِي: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾.

﴿إِذًا﴾ هي «إذَنْ» وهي حَرْفُ جوابٍ تَوَسَّطَ بيْنَ اسْمِ «إنَّ» وخَبَرِها، ورُتْبَتُهَا التَّأخِير عَنِ الخبرَ، وإنَّما وُسِّطَتْ مراعَاةً للفاصِلَةِ في الآية.

﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بمحْذُوفِ خَبَرِ «إنَّ».

الظُّلْمُ: تَجاوُزُ الحدِّ، وَوَضْعُ الشيءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه، واسْتُعْمِلَ

الظُّلْمُ في الْقُرآن للدَّلالَة على أشَدِّ المعاصي المكفِّرَة، ومِنْهَا الشّرْكُ بالله، واسْتُعْمِلَ فيما دُونَ ذَلِكَ مِنَ الكَبائِرِ.

والمراد بعبارة: ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الظُّلْم مِنَ دَرَكَة الكُفْرِ بالشِّرْك.

ومعلوم أنَّ حال غير الرسول في هذا كحال الرسول ﷺ.

القضيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ ... ﴿١٠٧﴾﴾:

المسّ: اللَّمْسُ بالْيَد، ويُطْلَقُ علَىٰ وُصُول سَطح الشَّيْء إلى سَطْحِ الشَّيْءِ الْآخرِ، دُونَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ تَحْتَ السَّطْح.

أمّا إصابَةُ الشيء فَقَدْ تَمَسُّهُ، وَقَدْ تَدْخُلُ في الْعُمْقِ وَرَاءَ السطح، واسْتُعْمِلَتِ الإِصَابَةُ للدَّلالَةِ على عَطاءٍ في القضية السادِسة الآتية:

الضُّرُّ: سُوءُ الحَال في البدنِ أو المال، أو الأهل أو الولد، ونحو ذلك.

الكَشْف: يأتي بمعنى رفْع الغطاء عن الشيء، ويأتي كشْفُ الشَّيْءِ بمعْنَىٰ إظهاره، وكَشْفُ الضُّرِّ أو السُّوء يأتي بمَعْنَىٰ إزالَتِهِ، وهذا هو المراد بقوله تَعالَىٰ: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾.

واخْتِيرَ لَفْظُ «الْمَسِّ» في التَّعْبيرِ عَنِ الضُّرِّ الّذِي يُؤْلِمُ الإنْسَانَ، لِأَنَّ أكْثَرَ المؤْلِمَاتِ يَصِلُ الإحسَاسُ بآلَامِهَا إلىٰ عُمْقِ النَّفْسِ بِمُجَرَّدِ المسّ، أمَّا الْمُفْرِحَاتُ والسَّارَّاتُ فَتَحتَاجُ مُعْظَمُها إلىٰ إصَابَةٍ ذَاتِ نُفُوذٍ إلَىٰ ما وَرَاءَ السَّطْحِ، حتَّىٰ يَشْعُرَ الإنْسَانُ بِلَذَّاتِهَا والسَّعَادَةِ بِهَا.

فالمعنى: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ رَبُّكَ بِضُرٍّ لِحِكْمَةٍ مِنْ حِكَمِهِ العَظِيمة، فآلَمَكَ هَـٰذَا الضُّرُّ، وَطَلَبْتَ إزالَتَهُ، فلَا صَارِفَ ولا مُزِيلَ وَلَا كاشِفَ لَهُ إلَّا اللهُ رَبُّكَ، فَلَا تَطْلُبْ مِنْ غَيْرِهِ إزالَةَ مَا نَزَلَ بِكَ مِنْ ضُرٍّ، مَعَ اتِّخاذِكَ

الْأَسْبَابَ الَّتِي جعَلَهَا رَبُّكَ في كَوْنِهِ أَسْبَاباً، لإزَالَةِ الضُّرِّ الَّذِي مَسَّكَ وَنَزَلَ بِكَ وآلَمكَ.

ومعلوم أنّ حَالَ غير الرسول في هذا كحالِ الرَّسُول ﷺ.

القضيَّةُ الخامسة: دَلّ عليها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾:

الإرَادة: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ النفْسِيَّة، وبِهَا يَتِمُّ تَخْصِيصُ الْمُمْكِنِ بواحِدٍ مِن احْتِمَالَيْهِ أو احْتِمَالَاتِهِ، وَالْجَزْمُ بِهَا هُوَ الْقَضَاءُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ الْخَلْقُ في الْوَقْتِ المحَدَّدِ بالإرَادَةِ وبالْقَضَاء.

أَطْلِقَ الفِعْل في ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ اكْتِفَاءً بِذِكْرِ الإرادة، عن ذِكْرِ القَضَاءِ، والْخَلق، لأنَّ مَا يُرِيدُهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَقْضِيهِ إمضاءً لَهُ، وَيَخْلُقُهُ في الوقْتِ المُقَدَّرِ له.

هذا هُوَ القدر والقضاءُ المُسْتَتْبَعَانِ بالْخَلْق.

﴿بِخَيْرٍ﴾: المرادُ بالخير هنا ما يَرَىٰ فيه الناسُ نَفْعاً وحُسْناً ومُحَقّقاً لمَا تُحِبُّهُ النفوسُ، وتلَذُّهُ الحَواسُّ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا.

﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾: أي: فَلَا مَانِعَ وَلَا صَارِفَ لمَا يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ عَطَاءِ مَا تُحِبُّ مِنْ خَيْر.

الرَّدُّ: المنْعُ والصَّرْف، والإرجاع، يقال لغة: «رَدَّهُ، يَرُدُّهُ، رَدّاً، وَتَرْدَاداً، وَرِدَّةً» أي: منَعَهُ وصَرَفَه ـ أو أرْجَعَه.

الفضل: هو في الأصْلِ الزيادة، والبقيَّة من الشيء، واسْتُعْمِل «الفضل» بمعْنَىٰ الابتداء بالإحْسَانِ، والعطاء من الخير، ماديًّا كَانَ أمْ معنويًّا، واشْتَهر بهذا المعنى.

فالْمَعْنَىٰ: وَإِنْ يُرِدْكَ رَبُّكَ مُمَتَّعاً بِخَيْرٍ مِنْ حُظُوظِ الحياة الدنيَا، أنْفَذَ

رَبُّكَ مُرَادَهُ فيك، فقضاهُ ومَنَحكَ إيَّاهُ فَضْلاً مِنْهُ، وَلَا أحَدَ في الْوُجُودِ قادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَرُدَّ فَضْلَهُ فيَمْنَعَ وُصُولَهُ إلَيْكَ أَوْ يَصْرِفَهُ عَنْكَ، ولَوِ اجْتَمَعَتِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ ضِدَّكَ حَرِيصِينَ على رَدِّ فَضْلِ اللهِ رَبِّ العالَمين عَنْكَ.

ومعلومٌ أنَّ حَالَ غَيْرِ الرَّسُولِ في هَـٰذا مِثْلُ حَالِ الرَّسُولِ ﷺ.

يُلاحَظُ في القضيَّتَيْنِ «الرابعة» و«الخامِسَة» أنَّ الضُّرَّ اسْتُعْمِلَ لَهُ الْمَسُّ، وهَوَ خَلْقٌ مَسْبُوقٌ بقَضَاءٍ وقَدَرٍ هُما أَثَرُ إرادَةٍ جازِمَة. وأنَّ الخَيْرَ اسْتُعْمِلَتْ لَهُ الإرادةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا قَدَرٌ وَقَضَاءٌ ثُمَّ خَلْقٌ بأمْرٍ تَكْوِيني في الوقْتِ المحَدَّدِ بالْقَدَرِ والقضاء.

ويَخْطُر لي أَنَّ الحِكْمَةَ مِنْ هَـٰذا الإجْرَاءِ، مع التَّنْوِيعِ الْبَيَانِيِّ الرَّائِع، كَوْنُ مَا يُكْتَبُ في صُحُفِ مَلَائِكَةِ التَّنْفِيذِ مِنْ مَسِّ الضُّرِّ مُعَرَّضاً للمحْوِ بإرَادَةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ كما قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الرَّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

ويأتي المحْو استجابَةً لدُعَاءٍ، أو ثواباً على عَمَلٍ صَالحٍ قَامَ بِهِ الْعَبْد، أو لحِكْمَةٍ أُخْرَىٰ.

أَمَّا إذَا أرَادَ اللهُ عَبْدَهُ بِخَيْرٍ فَمُرَادُهُ مقْضِيٌّ، ونافِذٌ بالْخَلْقِ في الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لَهُ، ولَا رَادَّ لِفَضْلِ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِه.

القضية السادسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ...﴾: أي: يُصِيبُ اللهُ بالْخَيْر مَنْ يَشَاءُ إصَابَتَهُ بِهِ من عباده.

اسْتُعملَ هُنَا فِعْلُ ﴿يُصِيبُ﴾ لِلْحِكْمَةِ الَّتِي سَبقَتِ الإشارَةُ إلَيْهَا، في التَّفْرِيق بَيْنَ «المسِّ» و«الإصَابَة» على ما ظهر لي.

وأُؤَكِّدُ هُنا أَنَّ مَشيئَةَ اللهِ مُقْتَرِنَةٌ بِحِكْمَتِهِ دَواماً، فَمَشِيئَاتُه كُلُّها حَكِيمَة، ومِنْهَا مَشِيئاتُهُ في عَطَائِهِ، وفِي مَنْعِه.

القضيَّة السّابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

الْغَفُور: أي: الكَثِيرُ والعظيم المغفِرَة. **المغْفِرَةُ**: سَتْرُ الذَّنْبِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ المذْنِبُ مِنْ عِبَادِ الله. أَصْلُ الْغَفْرِ في اللُّغَةِ السَّتْر.

الرَّحِيمُ: أي: الكثير والعظيم الرَّحْمَة. وسبَقَ البيان المفَصَّلُ في أَوَائِلِ المجلَّدِ الأَوَّل لدَىٰ تَدَبُّرِ «بِسْمِ اللهِ الرحْمٰنِ الرَّحيم».

جاء بيان هٰذِهِ القضيَّةِ جواباً عَلَىٰ سؤالٍ قَدْ تُثِيرُهُ الْقَضِيَّةُ السَّادِسة المتضمّنَة أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ «يُصِيبُ بالْخَيْرِ الْعَظِيم مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده» والسؤال هُو: نُلاحِظُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قَدْ يُصِيبُ بالْخَيْرِ الْعَظِيم مَنْ نَعْلَمُ مِنْ أحْوَالِهم أَنَّهُمْ عُصاةٌ مُذْنِبُونَ، وَقَدْ يَكُونُونَ مِنْ مُرْتَكِبِي الكَبَائِرِ مِنَ المسْلِمِين، فَمَا تَفْسِيرُ هٰذِهِ الظاهِرَة؟!.

فجاء الجواب: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ خَيْرٍ إيمَانِيّ، وإِرَادَةِ خَيْرٍ للإسلام والمسْلمين، وبِهِ يَسْتَحِقُّون مَا يُصِيبُهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ خَيْر عظيم، ويَعْلَمُ شِدَّةَ ضَعْفِهِمْ تُجَاهُ ما فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ شَهَوَاتٍ وأهْوَاءٍ بَالِغَةِ الْعُنْفِ، فيَرْحَمُهُمْ ويَغْفِرُ لهم، إذا لجؤُوا إِلَيْهِ مُسْتَغْفِرِينَ مُتَضَرِّعِين.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

أَمَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ بِأَنْ يُخاطِبَ النَّاسَ جَمِيعاً، وفي مقدِّمتهم

أَهْلُهُ وعَشِيرَتُهُ وَقَوْمُهُ النَّاطِقُونَ بِلِسَانِهِ الْعَرَبِيّ، مُبيّناً لهم قَضِيَّتَيْنِ جَذْرِيَّتَيْن، أُولاهُمَا تَتَعَلَّقُ بِمَضْمُونِ الدِّين عَقِيدَةً وعَمَلاً، والأُخْرَىٰ تَتَعَلَّقُ بالْجَزَاءِ عَلَىٰ ما يَكْسِبُونَ مِنْ صَالِحَاتٍ، وعلَىٰ مَا يَكْتَسِبُونَ مِنْ سَيِّئَاتٍ.

القضية الأُولى: دَلَّ عَلَيْها الفِقرَةُ الأُولَىٰ مِنَ التعليم الرَّبَّانِيّ الذي أَمَرَ الله به رسوله أَنْ يُخَاطِبَ الناس به: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي: قَدْ جاءَكُم الدِّينُ الَّذِي هُوَ حَقٌّ مِنْ رَبِّكُمْ.

الْحَقُّ: هُوَ الأَمْرُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، ولَا غَبَشَ عَلَيْهِ، ولَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِمَّا سَبَقَ بَيْنَ يَدَيْهِ، ولَا يَأْتِيه الباطِلُ ممَّا سَيأْتِي مُسْتَقْبلاً مِنْ خَلْفِهِ، وهَـٰذَا يَشْمَلُ مَا يُصَاحِبُهُ في الْأَزْمَانِ المتتابعَة، إذْ كانَتْ مُسْتَقْبَلاً فصَارَتْ حَالاً مصاحِباً، فحَقائِقُ الدّينِ مُسْتَمِرَّةُ الْبَيانِ المتَجدِّد.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي: من اللهِ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، ومِنْهَا رِزْقُكُمْ وَإِمْدَادُكُمْ بالْبَقَاء، وَنَفْعُكُمْ وضُرُّكُمْ، وصِحّتُكُم وَمَرَضُكُمْ، وَحَيَاتُكُمْ ومَوْتُكُمْ، وَثَوَابُكُمْ، وعِقَابُكُمْ، إِلَىٰ كُلِّ ثابتٍ وَمُتَغيِّرٍ مِنْ أُمُورِكم.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها الفقرة الثانية من التَّعْلِيم الرَّبَّاني الذي أمر الله به رسوله أن يُخاطب الناس به: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾:

أي: وَيَتَضَمَّنُ الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي جاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، دَعْوتَكُمْ إِلَىٰ أَنْ تَهْتَدُوا بِهُداه، وَتَحْذِيرَكُمْ مِنْ عَدَمِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، لِأَنّ عَدَمَ اسْتِجابَتِكُمْ لَهَا تَسْتَنْزِلُكُم إِلَىٰ أَوْدِيَةِ الْمَهالِك، وتَسْتَدْرِجكُمْ إلى سُبُلِ الضَّلَالِ وَمَسالِكِه، فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُم فَلَنْ تَنفَعُوا اللهَ شَيْئاً، وإِنْ ضَلَلْتُم فَلَنْ تَضُرُّوا اللهَ شيئاً.

فمن اهْتَدَىٰ بإرادتِهِ الحرَّةِ، فاستَجَابَ لِدَعْوَةِ رَبِّهِ، وَاتَّبَعَ هُدَاهُ الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، وَأَبَانَهُ رَسُولُه، فَإِنَّما يَهْتَدِي لمنْفَعَةِ نَفْسِهِ وَخَيْرِهَا وَسَعادَتِها الْأَبَدِيَّة الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النعيم.

ومنْ لَمْ يَسْتَجِب بإرَادَتِهِ الحرَّةِ لِدَعْوَةِ رَبِّهِ، فَضَلَّ مُتَبِّعاً هَوَاهُ ووسَاوِسَ شياطينِ الإنْسِ والجنِّ، وسلَكَ مسَالِكَ الضّلالِ، فإنَّما يَضِلُّ جَانِياً على نَفْسِهِ، إذْ يَجْلُبُ لَهَا مَا لَا يَسُرُّهُ مِنْ اكتِئَابٍ، وَضِيقِ صَدْرٍ، وقَلَقٍ، وَضَنْكٍ في الحياة الدُّنيا، ويَجْلُبُ لَهَا عَذاباً أليماً، وشَقَاءً أبَدِيًّا، فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِين يَوْمَ الدّين.

واعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ وَكِيلاً ذَا هَيْمَنَةٍ وَسُلْطَانٍ عَلَيْكُمْ، ولَسْتُ مُجْبراً لَكُمْ أَنْ تَسْتَجِيبُوا لما أَدْعُوكُمْ إلَيْهِ، كَالْوَكِيلِ علَىٰ رِعَايَةِ الْأَنْعَامِ، إذْ يَرْعَاهَا ويَمْنَعُهَا مِنَ التَّعَرُّضِ للضُّرِّ والْأَذىٰ، ويُهَيِّئُ لَهَا مَا تَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ مَرْعَىٰ وسُقْيَا وَمَأْوَىٰ، ويَحْمِيهَا مِنَ الذِّئَابِ وَمَنَازِلِ الْهَلاك. بَلْ أَنَا مُبلِّغٌ وَمُذَكِّرٌ، ومُبَيِّنٌ للحقِّ والباطل، والخير والشّرّ، والفساد والصَّلاح، والْهُدَىٰ والضلال، ومُبَشِّرٌ مَنْ أطَاعَ بالثواب العظيم من رَبّ العالمين، ومُنْذِرٌ مَنْ عَصَىٰ وكفَرَ بالعذاب الأليم من رَبّ العالمين، يَوْمَ الدِّين.

لقد أعْطَاكُمُ اللهُ قُدْرَاتٍ ذِهْنِيّةً دُرَّاكة، وإرَادَاتٍ حُرَّةً، فأَنْتُمُ المسؤولُونَ عَنْ أنْفُسِكُمْ، وأَنْتُمُ الَّذِينَ تَجْلُبُونَ لَهَا خيراً وسَعَادَةً، أَوْ شَرّاً وشقَاءً، باختياراتِكُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في دُنياكم، بإراداتٍ حرَّةٍ تختارُونَ بها غَيْرَ مجْبُورِين مَا تَشَاءُون، إذْ لَا تَتَحَرَّكُونَ بالْجَبْر، ولَا تُسَاقُونَ بِالْإِكْرَاهِ والْقَهْر.

قول اللهِ عَزَّ وجلَّ لِرَسُوله ﷺ في آخِرِ آيَةٍ من السُّورَة:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾:

أي: واتَّبعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ آناً فآناً مَعَ تَوَالِي الْأَزْمَان، فَمَا يَطْلُبُ مِنْكَ فِعْلَهُ أَوْ تَركَهُ وَحياً فأدِّه عَلَىٰ وَجْهِهِ، وَمَا يَطْلُبُ مِنْكَ تَبْلِيغَهُ فَبَلِّغْه، وإِذَا طَلَبَ مِنْكَ أَنْ تَكُفَّ عَنْ مُقَاتَلَةِ الكافِرِين المُشَاقِّيْنَ لَكَ وللمؤمنين فكُفَّ، وإذا طَلَبَ مِنْكَ أَنْ تُعْرِضَ عن الميْؤُوس مِنْ استجابَتِهِمْ

بإراداتهم الحرَّة، فأعْرِضْ عَنْهم، إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ من تَعْلِيماتٍ يُوحىٰ بِها إلَيْكَ.

والْزَمْ خُلُقَ الصَّبْر علىٰ أَذىٰ قَوْمِكَ لَكَ، والصَّبْرِ عَلَىٰ كَفِّ رَغَباتِكَ في أنْ تأتِي قَوْمَكَ بآيَةٍ عَظِيمَةٍ تُخِيفُهُم فَتُخْضِعُهُمْ، وَعَلَىٰ كَفِّ رَغَباتِكَ وَرَغَباتِ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ بإنْزَالِ عَذَابٍ مُهْلِكٍ لجَبارَةِ كُفَّارِ قَوْمِكَ الميؤوس مِنْهُمْ، فَرَبُّكَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ حَكِيم.

واسْتَمِرَّ مُتَحَلِّياً بالصَّبْر حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بِنَصْرِكَ وَنَصْرِ المؤمنين، وَفْقَ الْوَجْهِ الَّذِي يُرِيد، وحَتَّىٰ يُهْلِكَ مَنْ يَشَاءُ إهْلاكَهُمْ مِنْ مُشَاقِّيكَ الَّذِينَ يَكِيدُونَ وَيُدَبِّرونَ للخلاصِ مِنْكَ ومن الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوك.

واللهُ رَبُّكَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، إذْ يَحْكُمُ بما يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الخير لَكَ وَلِدَعْوَتِكَ فِي رِسَالَتِك، وللمؤمنين، ولِمُسْتَقْبَلِ هذا الدِّين، والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ويَعْمَلُونَ على نَشْرِهِ في العالمين.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر سُورَة (يُونُس).

والحمْدُ للهِ على فتحه وتوفيقه ومَعُونَتِهِ ومَدَدِه.

* * *

(٢٤)

ملحق

حول مستخرجات بَلاغيّة من سورة (يونس)

في سورة (يونس/ ٥١ نزول) نفائس بلاغيّة كثيرة، فتَحَ اللهُ عليَّ باسْتِخْراجِ ما يَلِي منها:

أوّلاً: الكناية

الكناية: هي اللّفظ المستَعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصطلاحٍ يَكُونُ به

التخاطب، للدَّلاَلَة بِهِ على معنىً آخر، لازمٍ له، أو مصاحبٍ لَه، أو يُشَارُ بِهِ عَادَةً إلَيْه، لما بيْنَهُما من الملابَسَةِ بوَجْهٍ من الوجوه.

والتعبيرات الكنائيَّة في هذه السورة كثيرة، أثناء الآيات، أو في أواخِرِها، ومنها في السورة ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

جاءت عبارة: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دَالَّةً بأسْلوب الكِنَايَةِ على الحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء يَوْمَ الدّين، فإنْبَاءُ النَّاسِ بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِقَرَةٌ من فِقَرَاتِ الْحِسَابِ، فهي باللُّزوم الذِّهْنِيّ تَدُلُّ عَلَيْه، والحسَابُ يَسْتَلْزِمُ فَصْلَ القضاء الذي يأتي بَعْدَهُ تَنْفِيذُ الجزاء.

وظهر أنَّ الكناية من الْأساليب غير المباشرةِ للإعْلام بالمقْصُودِ الأعظم من الخطاب، وهو هنا الإعلامُ بالجزاء يوم الدّين.

(٢) قول الله عَزَّ وجلَّ بشأن كُفَّار قريشٍ إبَّانَ التَّنْزِيل:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ومنْهم مَنْ يَستمعُونَ إليكَ بآذانِهم، ولَكِنْ لَا يَصِلُ مَا يَسْمَعُونَ بها إلى أدمِغَتِهِمْ ومَرَاكِزِ الوعْي والتفكير في داخلهم، فَهُمْ في داخِلِهِمْ بمثابَةِ الصُّمّ الّذين لَا يَعْقِلُونَ.

ومِنْهُمْ مِنْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ بحدَقَات أَعْيُنهِمْ، ولكن لا يَصَلُ مَا يَنْطَبِعُ فيها إلى أَدْمِغَتِهِمْ وَمَرَاكِزِ الوعْي والتفكير في دَاخِلِهم، فهم في دَاخلهم بمَثَابَةِ الْعُمْي.

جاءت في هذا النصّ عبارة: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وعبارة: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ دالَّتَيْنِ بأسْلُوب الكِنَايَة علَىٰ أنَّ مراكز سَمْعِهِم في داخِلِهِمْ مَحْجُوبَةٌ عن إدْرَاكِ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ قضايا الدّين، ومَرَاكِزَ إدْرَاكِهِمْ للمَرْئيَاتِ مِنْ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ مَحْجُوبَةٌ عن إدْرَاك مَا تَنْظُرُهُ حَدَقاتُ أعْيُنِهم ممَّا يتعلَّقُ بقَضَايَا الدِّين.

وجَاءَتْ هَـٰذِهِ الكِنَايَةُ بأُسْلُوبِ الاستفهام الَّذِي يُرَادُ به نَفْيُ قَدْرَةِ الْبَشَرِ على إسْمَاع الصُّم، أَوْ هِدَايَةِ الْعُمْي عن طَرِيقِ أبْصَارِهم إلَىٰ الصِّراطِ السَّوِيِّ.

ولا يخْفَىٰ علَىٰ الْبَلِيغِ الأديب ما فِي هاتَيْنِ الكنايتَيْنِ من إبْدَاعٍ نَفِيسٍ مُعْجب.

ثانياً: فَنُّ الاستقطاع من الأحداثِ الماضيَة أو الّتي سَتَحْدُث

من الإبداعات البلاغيّة التي اشتمل عليها القرآن ولم تكن معروفَةً لَدَىٰ الْبُلَغاء قبل القرآن، فَنُّ اسْتقطاع عِبارَةٍ أَوْ مَشْهَدٍ ممَّا كان أو سيكونُ في المستقبل، وتقديمُهُ كأنَّهُ حَدَثٌ يَجْرِي الآن.

وفي القرآن من هذا الاستقطاع أمْثِلَةٌ كثيرة، ومِنْها في هـٰذِهِ السّورة، قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ فِرْعَوْنَ حِينَ أدْرَكَهُ الغرق:

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾:

الآية (٩١) جاءَتْ مُسْتَقْطَعَةً مِنَ الْحَدَثِ لم تُسْبَقْ بتعبير مَلْفُوظٍ يَدُلُّ على أنَّها قِيلَتْ لَهُ وَهُو يُصَارِعُ الْغَرقَ بَعْدَ أَنْ أعْلَنَ إيمانَهُ وإسْلامَه.

والتعبير عن هذا الفنّ بالاستقطاع، أولَىٰ فيما أَرَىٰ مِنْ تَقْدِير: فَقِيلَ له: آلْآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ مِنَ المفْسِدِين.

ثالثاً: الإيجاز

من إيجاز الحذف الّذي يكونُ قِصَرُ الكلام فيه بسَبَبِ اسْتِخْدَام حذْفِ بَعْضِ الكلام إكتفاءً بدلالَةِ القرائنِ علَىٰ ما حُذِف، نَجِدُ في هَٰذِهِ السُّورَةِ مَا فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فيها يَحْكي حواراً جَرَىٰ بَيْنَ مُوسَىٰ علَيْه السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ وَمَلَئِه:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ هَٰذا سِحْرٌ. حُذِفَ في النَّصِّ قَوْلُهم: «هَٰذا سِحْرٌ» إيجازاً، وقد دَلَّ على المحْذُوفِ قَوْلُهُ لهم: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ وظاهِرٌ أنَّهُ لَيْسَ من الْعَسِير على مُتَدبِّر النَّصِّ اسْتِخْرَاج هذا المطويّ في النص، فالْقَرِينَة الدَّالَّةُ عليه واضِحةٌ جَلِيَّة، لا تحتاج تأمُّلاً طويلاً.

* * *

رابعاً: ذكر القواعد الكليّة بَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ أفرادِها

من روائع القرآن المجيد إيراد الْجُمَلِ الكلّيّة، بَعْدَ الحديثِ عَنْ بَعْضِ أفرادِها، إيجازاً في التعبير، وتَنبيهاً علىٰ أنَّ مَا ذُكِرَ مِنْ أفرادِهَا مَشْمُولٌ بِقاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ تَنْطَبِقُ على كثيرين.

ومن الأمثلة علىٰ هذا في سورة (يونس) ما يلي:

(١) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

دلَّتِ القضيَّة الكلّيّة ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في آخر

الآيَةِ عَلَىٰ أنَّ الّذي مَسَّهُ الضُّرُّ فدعَا رَبَّهُ، فَلَمَّا كَشَفَ اللهُ عَنْهُ الضُّرَّ أَعْرَضَ عَنِ الْعَمَلِ بواجِبَاتِهِ تُجاه رَبِّه، يَدْخُلُ في عموم المُسْرِفين الّذين زُيِّنَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُون.

(٢) قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾:

دلَّتِ العَبارَةِ الكُلّيَّة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ على أنَّ المهْلَكِينَ السَّابِقَيْن داخِلُونَ في عُمُومِ الْمُجْرِمين.

(٣) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾:

دَلَّت القاعدة الكليّة الّتي خُتِمَتْ بها الآية، على دُخُولِ من افترى على اللهِ كذِباً أوْ كذَّب بآياته في عُمومِها.

(٤) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

دَلَّت هَٰذه القاعِدَةُ الكُلّيَةِ على أنَّ مَا جاء من بيان في الآية قَبْلَها يَدْخُلُ تَحتَ قاعِدَةٍ كُليَّة، هي تفصيل الله الآياتِ لِقَوْم يتفكَّرُون.

(٥) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: وأحَقَّ اللهُ الحقَّ بكلماته فنصر موسَىٰ عليه السلام على سَحَرَةِ فِرْعون، تطبيقاً لسُنَّةِ اللهِ في كونه وهي أنَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ولَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ.

* * *

خامساً: من الخروج عن مقتضىٰ الظَّاهر (الالْتِفَات)

ذكر البلاغيّون من فصول علم المعاني الخروجَ عن مقتضى الظاهر، وقَسَّمُوه إلى أنواع، ومنها «الالْتِفَات».

وهو التحويل في التعبير الكلاميّ من اتّجاه إلى آخر من طُرق الكلام الثلاث: «التكلم ـ والخطاب ـ والغيبة» مع أنَّ الظاهر يقتضي الاستمرار على الطريقة المختارة أوّلاً، وأضاف السَّكَّاكيّ التعبير ابتداءً بواحِدَةٍ من هذه الطُّرُق إذا كان على خلاف مقتضى الظاهر.

وأرى إضافَة التَّنَقُّل مِنْ خِطَاب مُخَاطَبٍ أو أكْثر، إلَىٰ مُخَاطَبٍ آخَرَ أَوْ أَكْثَرَ، دُونَ تَصْرِيحٍ بما يَدُلُّ على الانتقالِ كما سيأتي في المثال الثاني.

فمن الالتفات في هذه السّورة مَا يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!:

كَانَ الظّاهر أَنْ يُقَالَ: مَاذَا تَسْتَعْجِلُونَ من عَذَابِ رَبّكم. فالْتَفَتَ النَّصُّ عَنِ الْأسْلُوب المختار أوَّلاً، لِحِكْمَةِ وَصْفِهِمْ بأَنَّهُم مُجْرِمُونَ، وأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ المعجَّل واستئصَالَهُمْ به.

(٢) قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لِرَسُوله، فلِلْمُؤْمنين، فَلِكُلِّ صَالِحٍ للخطاب:

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

- كان الخطابُ مُوَجَّهاً للرسول ﷺ بقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾.

- فالتفتَ النَّصُّ إلى خِطاب المؤمنين: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

- فالْتَفَتَ النصُّ إلى خِطابِ كُلِّ صَالِحٍ للخطابِ بأسْلُوبِ الخِطَاب الإفرادي ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

* * *

سادساً: مِنْ خروج الاستفهام عن أصل دَلاَلَتِهِ إلىٰ معانٍ أُخرى

ذكر البلاغيون من فصول علم المعاني خروج الاستفهام عن دَلالته الأصليّة، وهي طلَبُ الإفهام، إلى معانٍ أخرى كثيرة، لدواعٍ بَلاغيَّةٍ إذ يَبْتَعِدُ البليغ عن التعبير المباشر للدلالة عليها، فيُقَدِّمُ الكَلاَم بأسْلُوب الاستفهام، ومنه في السورة الأمثلة التالية:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴿٢﴾﴾.

ليس الاستفهام في هذا البيان لطلَب الإفهام، وإنَّما هو للتعجيب مِنْ أَمْرِ مُنْكِري رسالة الرسُول ﷺ، والإنكار عليهم.

(٢) قول الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لكُفَّارِ قُرَيش ثُمَّ مَنْ كَانَ علىٰ شاكِلتهم:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾؟.

الاستفهام في: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾؟ يُرادُ بِهِ الحضُّ على التَّذكُّر،

والتَّلْويم علىٰ عَدَمِ التَّذكُّر. أي: أتَسْتَمِرُّونَ على عَدَمِ التَّذَكُّر الَّذِي يَجُرُّ لَكُمْ عذاباً أليماً خالداً؟ تذَكَّرُوا فهو خَيْرٌ لكم.

(٣) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾:

الاستفهام في هٰذِهِ الآيَةِ يُراد بهِ النفي، أي: لا أحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هٰذَيْنِ الْمُجْرِمَيْن، ولكن قد يُشارِكُهما في هٰذِهِ الدَّرَكَةِ ظالِمُونَ آخرون.

(٤) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾؟:

الاستفهام في: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ يراد به الحثّ على التقوىٰ مع التلويم على عدم التقوىٰ.

(٥) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾؟.

﴿... فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟:

- يرادُ بالاستفهام الأوّل بيانُ أنّه لا يوجد بَعْدَ الحقّ إلّا الضَّلال.
- ويُرادُ باستفهامَيْن آخر الآية (٣٢) وآخر الآية (٣٥) التلويم والتوبيخ مع التعجيب مِنْ أمْرِهم.

(٦) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾؟:

يراد بالاستفهام هنا النفي، أي: لَا تُجْزَوْنَ إلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُون.

(٧) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟؟:

- الاستفهاماتُ الثلاثةُ يُرادُ بها التلويمُ والتثريب.
- وفي ﴿أَرَءَيْتُم﴾؟ معنى الحثّ على أَنْ يَتَفَكَّرُوا لِيَرَوْا سُوء افترائهم على الله.

(٨) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿. . . أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾:

يراد بالاستفهام هنا التوبيخ والتثريب.

(٩) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

يراد بالاستفهام هنا الإرشاد إلَىٰ ما هو الصَّواب.

(١٠) قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن كبراء مشركي مكّة إبَّانَ التنزيل:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

يُرادُ بالاستفهام في هَـٰذِهِ الآيَةِ النفي، أي: لَا يَنْتَظِرُونَ في الواقع الذي سيجْري بقضاء اللهِ، إلّا مِثْلَ أيَّام الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِم، وهي الأيَّام الّتِي عُذِّبَ فيها المجْرِمُونَ واسْتُؤصِلُوا.

* * *

سابعاً: من المجاز المرسَل

المجاز المرسل: هو المجاز الَّذي تكُونُ الْعَلاقَةُ فِيهِ بَيْنَ المعنَىٰ الحقيقي والمعْنَىٰ المجازيّ الَّذِي استُعْمِلَ اللَّفْظُ للدَّلالَةِ بِهِ عَلَيْهِ أَمْراً غَيْرَ المشابَهَة، أو قائماً علىٰ التَّوسُّع في اللُّغَةِ دُونَ ضَابِطٍ مُعيَّن.

ومن المجاز المرسل في السورة قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن القرآن:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾:

- أُطْلِقَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ الْقُرآنِ أنَّهُ شِفَاءٌ لمَا في الصُّدُور، وهو من إطلاق السَّبَب علىٰ المسبَّب، وهذا من المجاز المرسل.
- وأُطْلِقَ على القرآنِ أنَّهُ رَحْمَة لِلْمُؤْمِنِينَ، أي: هو أثَرٌ مِنْ آثار رَحْمَةِ اللهِ بعِبَادِه المؤمنين، وهو من إطلاق اسْمِ الشَّيءِ على آثاره، وهذا من المجاز المرسل.

ثامناً: مِنْ دَواعي اختيار اسْم الإشارة دون غَيْرِه من البدائل

ذكر عُلَماء عِلْم المعاني أنّ لاختيار اسم الإشارة دون غيره من البدائِل عِدَّةَ دواعٍ بَلاغيَّةٍ، وباستطاعة المتدبّر أَنْ يستفيد ممَّا ذَكَرُوه لِفَهْمِ الاختياراتِ لبَعْضِ أسماء الإشارة في سورة (يونس) ومنها الأَمْثِلَةُ التالية:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾:

استعمل في هَـٰذه الآيَة اسْمُ الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾ الموضُوع للمشار إليها البعيدة مع قُرْبها إذْ هي آياتُ القرآن الذي يُتْلَىٰ، للدَّلالَةِ على ارتفاع مَنْزِلَتِهَا وَمَكَانَتِها المعْنَوِيَّة.

(٢) وقَول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ الكافِرينَ المكذِّبينَ بِيَوْم الدّين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ⑧﴾:

اسْتُعْمِلَ في هَـٰذِهِ الآية اسْمُ الإشَارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع للمشار إليهم الْبَعيدين مع قُرْبِ الحديث عنهم، للدَّلالَةِ على انْحطَاطِ مَنْزلتِهِمْ انحطاطاً بَعِيداً في اتِّجاه أسْفَلِ سَافِلِين.

(٣) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بَشَأْنِ المؤمنين من أَهْل مَرْتَبَةِ الإحْسَان:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ㉖﴾:

اسْتَعْمل في هَـٰذِهِ الآيَةِ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع للمشار إلَيْهم الْبَعِيدِين، مع قُرْبِ الحديث عَنْهُمْ بأنَّهُمْ مُحْسِنُونَ، للدَّلالَةِ على ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ في اتِّجاه الْفِرْدَوس الأعْلَىٰ في جَنَّات النعيم.

(٤) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشَأْنِ الْفوزِ الَّذي يَنالُهُ أَوْلِيَاءُ الله:

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٤)﴾:

جاء في هذه الآية الإشارة إلى مضمون الْبُشْرَىٰ الّتي يُبَشَّرُ بها أولياءُ الله، والمتحدَّثُ عنها في الآية باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمُشار إليه الْبَعِيدِ مع قُرْبِ الحديث عن هذا المضمون، للدّلالة على ارْتفاعِ هذا المضْمُونِ وَعِظمِ مَنْزِلَته عند الله رَبِّ العالمين.

* * *

ثامناً: من الْقَصر

عقَدَ عُلماءُ المعاني باباً خاصّاً للقَصْر، وهو تخصيص شيءٍ بِشَيْءٍ بعِبارَةٍ كلامِيَّةٍ تَدُلُّ عليْه.

وَيُقَالُ فِي تَعْرِيفه: جَعْلُ شيءٍ مقصوراً على شيءٍ آخَرَ بواحِدٍ من طُرُق مخصوصَةٍ من طُرُق القوْلِ المفيد للقَصْر.

وهو قَصْرٌ حَقيقيٌّ وقَصْرٌ إضافي، وفي سورة (يونس) أمْثِلَةٌ كثيرة من أمْثِلَة الْقَصْر، منها ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ ... ③﴾.

في هذه العبارة قَصْرٌ حقيقيٌّ دَلَّ عليه النفيُ والاستثناء. وهو من قَصْر صِفَةٍ على مَوْصُوف، أي: لَا تُوجَدُ شفاعَةٌ مقبولَةٌ عِنْدَ اللهِ لشَفِيع مَا، إلَّا شفاعَةُ مأْذُونِ لَهُ بأَنْ يَشْفَعَ بِشَرْط أَنْ يَرْضَىٰ اللهُ لَهُ قَوْلاً.

(٢) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ .. ④﴾:

أي: إِلَيْهِ وَحْدَهُ تَرْجِعُونَ بَعْدَ بَعْثِكُمْ للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء. استُفِيدَ القصر من تقديم المعمول: ﴿إِلَيۡهِ﴾ عَلَىٰ عامِلِه. ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾. وهو قَصْرٌ حقيقي من قصر صفة رجوع النّاس بعد الموت أنّه رُجُوعٌ إلى الله.

(٣) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ⑤﴾:

في هذه الآية قَصْران:

الأوّل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ وهو قَصْرٌ حقيقي من قَصْرِ صِفَةٍ على موصوف.

وأداة القصر فيه تَعْرِيف طرفَي الإسناد المبتدأ والخبر.

الثاني: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهو قَصْرٌ حَقِيقي من قَصْرِ صِفَة الْخَلْقِ عَلَىٰ كَوْنِها مُقْتَرِنَةً بالْحَقّ.

وأداة القصر فيه النَّفْيُ والاسْتِثْنَاء.

(٤) قول الله عَزَّ وجَلَّ خِطاباً لرسُوله بشَأْنِ القرآن:

﴿... قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ... ⑮﴾.

في عبارة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ...﴾ قَصْرٌ إضافِيّ، أي: ما أَتَّبعُ في تِلَاوَتِي لِلْقُرْآنِ إلَّا مَا يُوحَىٰ إلَيَّ. وهو من قَصْر صفَة على مَوْصُوف، إذْ صِفَةُ اتّباعِهِ في التلاوة مقصورة على مَا يُوحَىٰ إليه من قرآن.

وأداة القصر فيه النفيُ والاستثناء.

(٥) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ ... ㉒﴾:

أي: اللهُ وحْدَهُ هُو الذي يُسَيِّرُكم في البرّ والْبَحْر، في هذه العبارة قَصْرُ صفة التسْيير على الله رَبّ العالمين، وهو قصْرٌ حقيقيّ، أداتُهُ تَعْريفُ طَرَفَي الإسناد.

(٦) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ ... ㉓﴾:

أي: مَا تَبْغُونَ إلَّا جَانِينَ علَىٰ أنفُسِكُمْ إذْ تُسَبّبُونَ لأنْفُسِكُم بِبَغْيِكُم عذابَ رَبّكم. وفيه قَصْرُ صِفَةِ الْبَغْي على أنْفُسِهِم المبْغِيِّ عَلَيْها. وهو قَصْرٌ حقِيقيّ.

وجاء في هذه الآية أيضاً: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ... ㉓﴾ ففي هذه

العبارة قَصْرٌ حقيقي، من قَصْر صفةٍ على موصوف، وقَدِ استفيد القصر من تقديم المعمول: ﴿إِلَيْنَا﴾ علَىٰ عامِلِه: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾.

(٧) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ . . . ﴿٢٤﴾﴾:

أي: ما مَثَلُ الحياة الدُّنيا إلَّا كَمْوسِمٍ مِن المواسِم الزّراعيَّة.

والقصر في هذا التعبير قَصْرٌ إضافي، من قَصْرِ صِفَةِ الحياة الدُّنيا على الممثَّلِ بِهِ.

وأداة القصر فِيهِ: «إنّما».

(٨) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ . . . ﴿٢٦﴾﴾:

في هذه العبارة قَصْرُ مَا يكُونُ للّذينَ أحْسَنُوا في الحياة الدُّنيا على الحسنى وزيادة يوم الدّين.

وقد استفيد القصر من تقديم الخبر (الذي هو مُسْنَد) على المبتدأ (الذي هو مُسْنَدٌ إلَيْه) مع مُساعَدَةِ القرائنِ.

(٩) قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن المشركين:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

في هذه الآية قصْرٌ إضافي، أداته النفي والاستثناء، وهو من قصر صفة اتّباعهم على الظنّ.

(١٠) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: ولكن الناسَ لا يَظْلِمُونَ إلَّا أنْفُسَهُمْ، بِتَعْرِيضها لعذاب اللهِ الأليم يَوْم الدِّين، مع احْتِمال إنزال عذابٍ معجل فيهم.

استفيد الْقَصْر مِنْ تقديم المعمول: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على عامِلِهِ: ﴿يَظْلِمُونَ﴾.

(١١) قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن المشركين:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ ... ﴿٦٧﴾﴾:

يوجَدُ القَصْر في ثَلاثَة مَوَاضِعَ مِنْ هَـٰذا النّصّ:

- ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ قَصْرٌ بالنفي والاسْتثناء، وهو قَصْرٌ إضافِي، أي بِشَأْنِ إثبات شركاء للهِ سبحانَهُ وتعالى.
- ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: وما هم إلَّا يكذبون، قَصْرٌ بالنفي والاستثناء، وهو قَصْرٌ إضافِيٌّ أيضاً.
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ...﴾ قَصْرٌ دَلَّ عليه تَعْريف طَرَفي الإسناد: (المبتدأ والخبر) وهو قصرٌ حقيقي.

(١١) قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةَ لقول نوحٍ لِقَوْمِهِ:

﴿... فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ... ﴿٧١﴾﴾ - ﴿... إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ... ﴿٧٢﴾﴾:

- استفيد القصر في العبارة الأولى من تقديم المعمول على عامله.
- ودَلَّ على القصر في العبارة الثانية النَّفْيُ والاسْتِثْناء.

وتوجد في السورة أَمْثِلَة أخرى من القصر يَسْهُل على البلاغيّ استخراجها، قياساً على هذه الأمثلة.

تاسعاً: التوكيد لدواعٍ بلاَغيّة

ذَكَرَ البلاغيون أنَّ الأصْلَ في توجيه الكلام أَنْ يكونَ خالياً مِنَ المؤكِّدات، وإنَّما يُؤَكَّدُ الكلام لداعٍ من الدواعي البلاغيّة، كأنْ يكون المخاطب بِهِ مُنْكِراً أَوْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ عَلاماتُ الإنكار، أو شاكّاً أو تَظْهَرُ عليه علاماتُ الشَّكّ.

أقول: أو يكونُ المتكلّم في حالَةٍ نَفْسِيَّةٍ يُلائِمُهَا التعبير المؤكّدُ عمَّا في النَّفْسِ وَلَوْ كان المخاطَب عليماً خبيراً، وهو شبيه بتأوُّه الحزين، الّذِي يُؤَكّدهُ بالتكرير، أو بمتابعة البكاء أمام العليم الخبير بحزْنه، ومِنْه توكيد الداعي رَبَّهُ عباراته الّتي يَدْعُوه بها، واللهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بما يشْكُو منه.

والأمْثِلَة الّتي جاء فيها التوكيد في السورة لدواعٍ بلاغيَّةٍ كثيرة، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول كبراء المشركين بشأن الرسول ﷺ:

﴿... قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾:

أَكَّدَ الكافِرُون قولهم عن الرَّسُول بالمؤكدات: «إنَّ - والجملة الاسمية - واللَّام المزحلقة» لشعورهم بأنّ المؤمنين مُكذّبُونَ لهم، وبأنّ جماهيرهم شاكُّونَ في اتّهامهم الرَّسُول ﷺ بأنَّهُ ساحر.

(٢) قول الله عزّ وجلّ مخاطِباً المشركين:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ۝٣﴾:

أَكَّدَ اللهُ لهم هذا البيان مُراعَاة لحالَةِ إنكارهم بالمؤكدَيْن: «إنَّ - الجملة الاسمية».

(٣) قول الله عزّ وجلّ مُؤكّداً البيان للمشركين المكذبين بيوم الدين:

﴿... إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ... ﴿٤﴾﴾:

بمؤكّدين هما: «إنّ - والجملة الاسمية».

(٤) قول الله عَزَّ وجَلَّ مؤكّداً البيان للكافرين والشاكين:

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾:

بالمؤكدات: «إنَّ - الجملة الاسمية - اللّام المزحلَقة».

(٥) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ... ﴿٢٧﴾﴾:

جاء في عبارة: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ تَوكيد عموم النفْي والتنصيص علَيْه بحرف «مِنْ» المزيدة الداخلة على «عاصِم» مراعاة لحالِ المكذبين بيوم الدّين.

(٦) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسوله ﷺ بشأن المكذّبين بالجزاء الرّبّانِي:

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

جاء في عبارة: ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ التوكيد بالمؤكدات: «القسم - إنّ - الجملة الاسميَّة - اللّام المزحْلَقة».

(٧) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

جاء التوكيدُ في كُلٍّ مِنَ الجملَتين الأُولَيَيْنِ في هذه الآية بالمؤكدات:

«ألا - إنَّ - الجملَة الاسميّة» مراعاة لأحوال المكذبين والشاكين.

(٨) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾:

جاء التوكيد بالمؤكدات: «إن - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة» مراعاة لأحوال غير الشاكرين.

(٩) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

زيدَت «من» في: ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ لتوكيد عموم النفي والتنصيص عليه.

(١٠) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

في كُلٍّ من الجملَتَيْن في هَـٰذا النّصّ التوكيد بالمؤكدات: «إنّ - الجملة الاسمية - اللّام المزحْلَقَة» جواباً للسّائِلينَ عن الحكمة مِنْ إغراقه وإغراقِ جنوده الآتي بيانُهُ في السورة.

(١١) قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِدُعاء مُوسَى عليه السّلام:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾:

أكّدَ مُوسَىٰ في دُعائه لربِّهِ بمؤكّدَيْن: «إنَّ - والجملة الاسمية» مَعَ أَنَّ اللهَ جلَّ جلالُهُ عليم خبير، تعبيراً عَنْ حالَتِه وحالَة قَوْمِهِ النفسيّة، تجاه

تَفوُّقِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه بمتاعِ الحياة الدُّنيا وَزِيناتها، مع استخدام ما آتاه الله في الصَّدِّ عن سبيل اللهِ، والضلال والإضْلَال، ويُشْعِرُ هذا التأكيدُ بشيءٍ من الإلحاح في الطّلَب أنْ يَطْمِسَ اللهُ على أموال فرعون وَمَلَئِه وأنْ يَشُدَّ على قُلُوبِهِمْ بما يُؤلمهم ويُعَذِّبُهم.

وفي السورةِ أمْثِلَةٌ أخرىٰ من السَّهْلِ على دَارِس علم البلاغة أنْ يَسْتَخْرِجَها، ومن السَّهْلِ على غَيْرِ الدارِسِ أَنْ يَقيسَ على الأمْثِلَةِ الّتي اسْتُخْرِجت في هذه الفقرة.

وبهذا تمّ هذا الملحق، والحمد لله على معونته ومَدَدِه وفتحه.

* * *

سورة هود

١١ مصحف ٥٢ نزول

وهي سورة مكيّة

قال ابن عباس وقتادة إلّا آية:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ
(١) أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ (٢) وَأَنِ
ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى
وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ
يَوۡمٖ كَبِيرٍ (٣) إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٤)
أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ
ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
(٥) ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ
مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ (٦) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ
لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ

---

١ ـ ● سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة (ألف) (لَامْ) (ر).
وقرأ باقي القرّاء العشرة بالوصْل.

٣ ـ ● قرأ البزّي: **[وَإِنْ تَّوَلَّوْا]** بتشديد التاء.
وقرأها باقي القراء العشرة **[وَإِنْ تَوَلَّوْا]** دون تَشْدِيد التاء.

٣ ـ ● قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[فَإِنِّيَ أخافُ]** بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ
﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا
يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ
نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ
بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ
فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم
مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ
جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ
﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ

---

٧ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[ساحِرٌ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[سِحْرٌ]**. القراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.

٨ ـ • قرأ يعقوب: **[يأْتِيهُمْ]** بضم هاء الضمير.
وقرأها ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر: **[ياتِيهِمْ]** بإبْدال الهمزة ألفاً مع كَسْرِ هاء الضمير.
وقرأها باقي القرّاء العشرة **[يأْتِيهِمْ]**.

٨ ـ • قرأ أبو جعفر: **[يَسْتهْزُونَ]**. وكذلك قرأها حمزة في الوقف، ولَهُ التسهيل والإبدال.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَسْتَهْزِءُونَ]**.

١٠ ـ • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[عَنِّيَ إِنَّهُ]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكان ياء المتكلم.

وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾
فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا
وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ
فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن
رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا
وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ
فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ
ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ
ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ
عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا
عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ

---

١٥ ـ ● قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيۡهُمۡ] بضمّ هاءِ الضّمير.
وقرأها باقي القراء العشرة: [إِلَيۡهِمۡ] بكسر هاء الضمير. وهما لغتان عربيّتان.

٢٠ ـ ● قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [يُضَعَّفُ] من فعل: «ضَعَّفَ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة [يُضَاعَفُ] من فعل: «ضاعَفَ».
ومؤدّى القراءتين واحد، وهما من التفنّن في التعبير.

ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ
﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ
وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا
تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾
فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا

---

٢٤ - • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**تَذَكَّرُونَ**].
وَقَرَأَهَا باقي القرّاء العشرة: [**تَذَّكَّرُونَ**] أصلُها: تَتَذَكَّرُون. أُدْغِمَتِ التاء بالذّال فصارت تَذَّكَّرُون.

٢٥ - • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: [**إِنِّي لَكُمْ**] بكسر همزة «إِنّي».
وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح همزة «أنّي».
وهما وجهان عربيان جائزان، فالكَسْرُ على تقدير: فقال: إنّي. والفتح على تقدير: بأنّي.

٢٥ - • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر [**إِنِّيَ أَخَافُ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٢٧ - • قرأ الدُّوري عن أبي عمْرو: [**بَادِىءَ الرَّأْيِ**].
وقرأها السّوسي: [**بَادِيءَ الرَّايِ**].
وقرأها أبو جعفر: [**بَادِيَ الرَّايِ**]. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بَادِيَ الرَّأْيِ**].
وهي وجوه من الأداء متكافئة.

نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ
يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ
فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ
أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ
﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ
أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ
ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ

---

٢٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: **[فَعُمِّيَتْ]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[فَعَمِيَتْ]**.
ومؤدّى القراءتين واحد.

٢٩ ـ • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وابْن عامر، وحفص، وأبو جعفر: **[إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٢٩ ـ • قرأ نافع، والبَزّي، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[وَلَكِنِّيَ أَراكُمْ]** بفتْحِ ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٣٠ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: **[تَذَكَّرُونَ]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[تَذَّكَّرُونَ]** أصلُها، تَتَذَكَّرُون أُدْغِمَتِ التاء بالذّال.

٣١ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: **[إِنِّيَ إذاً]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ
لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ
﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠
بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ
مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾
وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ
إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن
قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا
تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ
عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا
ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ
ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ

---

٣٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: **[نُصْحِيَ إِنْ]** بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٣٤ ـ • قَرأ يَعْقُوب: **[تَرْجِعُونَ]** بالبناء لما سُمِّي فاعله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تُرْجَعُونَ]** بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءتين تكامل: أي إنّ الله عَزَّ وجَلَّ يُرْجِعُهُم فهُمْ يَرْجِعُونَ بالخلق الرَّبّانِيّ مَجْبُورِين.

٤٠ ـ • قرأ حفص: **[مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ]** بتنوين لفظ «كُلّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة **[مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ]** دون تنوين لفظ «كُلّ».

ومؤدّى القراءتين واحد.

ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ
وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا
عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ
فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ
أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا
لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ
أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ
إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ

---

٤١ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[مَجْرِيهَا]** بالإمالة مع فتح الميم.
وقرأها أبو عمرٍو **[مُجْرِيها]** بالإمالة مع ضمّ الميم.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[مُجْراها]** بالفتح مع ضم الميم. ومؤدى هذه القراءات واحد.

٤٢ ـ • قرأ قالُون، والبصري، والكسائي، وأبو جعفر: **[وَهْيَ]** بإسْكان هاء الضمير
وقرأها باقي القرّاء العشرة **[وَهِيَ]** بكسر هاء الضمير وهما نطقان عربيّان.

٤٢ ـ • قَرأ عاصم: **[يا بُنَيَّ]** بفتح الياء المشَدَّدة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَا بُنَيِّ]** بِكَسْرِ الياء المشدّدة.
والقراءتان نطقانِ عربيان لهذه الياء.

٤٦ ـ • قرأ الكسائي، ويعقوب: **[إنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ]**.
وقرأها باقي القراءِ العشرة: **[إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالحٍ]**.
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ، فابْنُ نوح عَمِلَ عملاً غَيْرَ صَالحٍ كانَ فيه مُسْرفاً، حتّى صَارَ هو كلُّهُ بمثابَةِ العمل غير الصالح.

٤٦ ـ • قَرأ قالُون، وابن عامر: **[فَلا تَسْأَلَنِّ]** بنون التوكيد الثقيلة مع حذف ياء المتكلم.

بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِى بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِى
وَتَرۡحَمۡنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٍ
مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ
يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ
إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ
ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ
ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ
﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى
فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ

= وقرأها وَرْش، وأبو جعفر: **[فَلَا تَسْأَلَنِّي]** بنون التوكيد الثقيلة، وبإثبات ياء المتكلم وصلاً وحَذْفها وقفاً.

وقرأها ابن كثير: **[فَلَا تَسْأَلَنَّ]** وصلاً ووقفاً.

وقرأها أبو عمْرو: **[فَلَا تَسْأَلْنِي]** بإثبات الْياء وصلاً وحَذْفِها وقفاً.

وكذلك قرأها يعقوب وصَلاً ووقفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة **[فَلَا تَسْأَلْنِ]** وصلاً ووقفاً.

٤٦ و٤٧ ـ ● قرأ نافع، وأبْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[إِنِّي أعِظُكَ]** ـ و**[إِنِّي أَعُوذُ بِكَ]** بفتح ياء المتكلّم فيهما.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة بإسْكانِ ياء المتكلم.

٥٠ ـ ● قرأ الكِسائي، وأبُو جَعْفر: **[مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ]** بجرّ غيره.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِرَفع: **[غَيْرُهُ]** مراعاة لمحلّ لفظ **[إِلَه]**.

٥١ ـ ● قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبْنُ عامر، وحفص، وأبو جَعْفَر: **[إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ]** بفتح ياء المتكلم. وقرأ نافع، والبزّي، وأبو جعفر: **[فَطَرَنِيَ أَفَلا]** بفتح ياء المتكلم. وقرأهُمَا باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ
قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا
بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ
بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ
إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ
فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي
وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ
وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ
بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾
وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ
أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ

---

٥٤ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ أُشْهِدُ الله**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان.

٥٥ ـ • قرأ يَعْقُوب: [**ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِي**] بإثبات ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ**] بحذف ياء المتكلم في الحالين.

٥٧ ـ • قرأ البزّي: [**فَإِنْ تَّوَلَّوْا**] بتَشْدِيد التاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**فَإِنْ تَوَلَّوْا**] دون تشديد التاء.

قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ
ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ
مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ
أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ
مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي
وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا
تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ
ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ
عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ
أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا
صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ
أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدۡ

---

٦١ - ● قرأ الكِسائي، وأبو جعفر: **[مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ]** بجرّ غيرِه، وقرأها باقي القرّاء العشرة برفع **[غَيْرُهُ]** مُراعاةً لمحلِّ لفظ **[إِلَه]**.

٦٦ - ● قرأ نافع، والكسائي، وأبو جعفر: **[وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ]** بفتح الميم من «يومَئذٍ» على أنها حركة بناء لإضافته إلى غير مُتمكن.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ]** بجرٍّ لفظ «يومِ» علىٰ أنّه مُضاف إليه.

٦٨ - ● قرأ حفص، وحمزة، ويعقوب: **[أَلَا إِنَّ ثَمُودَ]** عَلَىٰ أنّ ثَمودَ ممنوعٌ من الصرف لا يُنوّن، باعتبار أنّه اسم للقبيلة.

جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ
أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ
نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ
قَوۡمِ لُوطٖ (٧٠) وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن
وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ (٧١) قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا
بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ (٧٢) قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ
أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ
(٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي
قَوۡمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ (٧٥) يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ
أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ
مَرۡدُودٖ (٧٦) وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ

= وقرأها باقي القراء العشرة مصروفةً منونة **[ألا إنَّ ثموداً]** على اعتبار أن ثموداً اسم لجدّ القبيلة فيصرف.

٦٨ ـ • قرأ الكسائي: **[ألاَ بُعْداً لِثَمُودٍ]**. وقرأها باقي القراء العشرة: **[ألاَ بُعْداً لِثَمُودَ]** على أن لفظ «ثمود» ممنوع من الصرف.

والتخريج النحوي سبق بيانه.

٦٩ ـ • قرأ أبو عَمْرو: **[رُسْلُنَا]** بإسكان السين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[رُسُلُنَا]** بضم السين.

والقراءتان نطقان عربيّان.

٦٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: **[قَالَ سِلْمٌ]** بمعنى «سَلاَمٌ» فهما لغتان.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قال سَلاَمٌ]**.

٧١ ـ • قرأ حفص، وحمزة، وابْنُ عامر: **[يَعْقُوبَ]** عطفاً على بإسحاق.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَعْقُوبُ]** على أنه مبتدأ متأخر.

٧٧ ـ • قرأ أبو عمْرو: **[رُسْلُنَا]** بإسكان السّين.

ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ
وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ
أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ
رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ
لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ
شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ
بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ
إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ

= وقرأها باقي القراء العشرة **[رُسُلُنَا]** بضمّ السّين.

٧٧ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر، ورُويس: بإشمام كَسْرَة السِّينَ من **[سِيٓءَ]** الضمّ.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالكَسْرة الخالصة دون إشمام.

٧٨ ـ • قرأ أبو عمْرو، وأبو جعفر: **[وَلاَ تُخْزُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم في الوصل.
وكذلك يعقوب في الحالَيْن.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَلاَ تُخْزُونِ]** بحَذْفِ ياء المتكلم في الوصل والوقف.

٧٨ ـ • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[ضَيْفِيَ أَلَيسَ]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٨١ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: **[فَاْسْرِ]** مِنْ فعل «سَرَىٰ».
وقرأها باقي القراء العشرة: **[فَأَسْرِ]** من فِعْل «أَسْرَىٰ» «سَرى به» و«أَسْرَى به» لغتان عربيّتان.

٨١ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: **[إلاَّ ٱمْرَأَتُكَ]** بالرَّفْع على أنه بَدلُ من **[أَحَدٌ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إلا ٱمْرَأَتَكَ]** بالنّصب على أنّه مستثنىٰ من **[بأَهْلِكَ]** أو من **[أَحَدٌ]** لأنّها إنْ سَرت مَعَهُمْ أو لم تَسْرِ، أو ٱلْتفَتَتْ أو لم تلْتفت، فمَحْكُومٌ عليها بأنْ يُصِيبَهَا مَا يُصِيبَ قومَها من عذابٍ وإهلاك.

بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا
عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ
وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ
شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا
تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ
وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ
أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ
أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ
أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ

---

٨٤ ـ • قرأ الكَسائي، وأبو جعفر: [**مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**].

٨٤ ـ • قرأ نافع، والبَزّي، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [**وإِنِّيَ أَراكُمْ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكان.

٨٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**وإِنِّيَ أَخافُ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٨٧ ـ • قرأ حفْص، وحمزة، والكِسائي، وخلف: [**أَصَلاتُكَ**] بالإفراد.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَصَلَواتُكَ**] بالجمع.
ومؤدّىٰ القراءتين واحد.

وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا
ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ
﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى
رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا
بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى

---

٨٨ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وٱبْنُ عامر، وأبو جعفر: [**وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلاَّ**] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكانها.

٨٩ - • قرأ نافع، وٱبْن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**شِقَاقِيَ أَنْ**] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٩٢ - • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ كثير، وأبو جعفر، وٱبن ذَكْوان: [**أَرَهْطِيَ أَعَزُّ**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٩٣ - • قرأ شعبة: [**مَكَانَاتِكُمْ**] بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**مَكَانَتِكُمْ**] بالإفراد.

ومؤدّى القراءتين واحد.

مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى
دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا
بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ
﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ
فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ
عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآيِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ
شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ
يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ
إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ

---

١٠٤ ـ ● قرأ ورش، وأبو جعفر: **[وَمَا نُوَخِّرُهُ]** بإبْدال الهمزة واواً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَمَا نُؤَخِّرُهُ]**.

١٠٥ ـ ● قرأ ورش، والسوسي، وأبو جعفر: **[يَوْمَ يَاتِ]** بإبْدَال الهمزة ألفاً وصلاً ووقفاً. وحمزة في الوقف فقط.
وأثبت الياء في: [يَأْتِي] وصلاً نافع، وأبُو جعفر، وأبو عمْرو، والكسائي.
وأثبتها في الوصْلِ والوقْف: ابن كثير، ويَعْقوب.

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا
زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ
مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ
وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ
رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ
وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا

= وحَذَفَها باقي القراء العشرة.

١٠٥ ـ • شدَّدَ البزّي التاء من **[لاتَّكَلَّمُ]** في الوصل مع المدّ الطويل.
وخففها باقي القراء العشرة.

١٠٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[سُعِدُوا]** بضمّ السّين.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[سَعِدُوا]** بفتح السّين.
وبين القراءتَيْن تكامل، أي: يُسْعِدُهم الله فيَسْعَدُون.

١١١ ـ • قرأ نافع، وابن كثير: **[وَإِنْ كُلًّا لَمَا]** بتخفيف «إنْ» و«لَمَا» وقرأها أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب، وخلف في اختياره: **[وَإِنَّ كُلًّا لَمَا]** بتَشْدِيد «إنَّ» وَتخفيف «لَمَا».

وقرأها شعبة: **[وَإِنْ كُلًّا لَمَّا]** بتخفيف «إنْ» وتشديد «لمَّا». وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا]** بتشديدِ «إنّ» وتشديد «لمَّا».

ولهذه القراءات تخريجات تنظر في كتاب «الدّر المصون» للسَّمين الحلبي.

تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ
ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ
لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾
فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا
كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾
وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۙ
﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ

---

١١٤ ـ ● قرأ أبو جعفر: [زُلُفًا] بضم اللام.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [زُلَفًا] بفتح اللام.
كلاهما جمع «زُلْفَة» وضَمُّ اللام للاتباع. أي: وفي أوقات من الليل تتقرَّب فيها إلى الله بالصلاة.

١١٦ ـ ● قرأ ٱبْنُ جَمَّازٍ: [بِقْيَةٍ] بكسر الباء وإسكان القاف وفتح الياء دون تشديد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بَقِيَّةٍ].
ولعلّ قراءة ابن جماز لغة في بَقِيَّة، وإن لم تثبتها المعاجم اللغوية.

١٢١ ـ ● قرأ شعبة: [مَكَانَاتِكُمْ] بالجمع.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ».

= وقرأها باقي القراء: [مَكَانَتِكُمْ] بالإفراد.

١٢٣ ـ ● قرأ نافع، وحفص: [يُرْجَعُ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَرْجِعُ].

١٢٣ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [عَمَّا تَعْمَلُونَ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

(٢)
مما جاء في السُّنة بشأن سورة (هود)

(١) روى الترمذي عن ابن عباس، قال: قال أبو بكرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ شِبْتَ، قال:

«شيَّبَتْنِي هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». إسناده حسن.

وجاء في رِوَايةٍ أَنَّهُ قال: «شيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا».

(٢) وروى أبو يَعْلَىٰ، عن عِكْرِمة قَالَ: قالَ أبو بكر: سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ: مَا شَيَّبَكَ؟. قال:

«شَيَّبَتْنِي هُودٌ، والوَاقِعَةُ، وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وإذا الشَّمْسُ كُوِّرتْ».

(٣)
موضوع سورة (هود)

بالتأمُّلِ المتأنّي في آياتِ سورة (هود) يُلاحظُ المتدبِّر أنَّ مَوْضُوعَها يَتَناوَلُ مُتابَعَةَ مُعَالجةٍ دَعوِيَّةٍ، للَّذينَ لم يَصِلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ معها من

استجابتهم لدَعْوَة الحقّ عَنْ طَرِيق إراداتهم الحرّة ومُتابَعَة توجيهاتٍ تَرْبَوِيَّة للرسول ﷺ وللمؤمنين ولا سيَّما حملةُ رِسالَةِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ منهم، وفي بَعْضِها يُقْصَدُ الدُّعاة من المؤمنين، ولو كَانَ الخطابُ في الظاهر مُوَجّهاً للرَّسُولِ صلوات الله عليه وسلامه.

وتتضمَّنُ السُّورَةُ خِطابَاتٍ بَيَانِيَّةً دَعوِيَّةً مُوَجَّهاتٍ لِلَّذِين لم يُؤْمِنُوا بَعْد، وفيها مُتَابَعَاتٌ لبَيَانِ قضَايَا سَبَقَ بَيَانُها في بَعْضِ السور النازلة قبل سورة (هود).

لكنّ هذه المتابعات تشتمل على إضَافَاتٍ، وتنويعٍ وتغييرٍ في الأساليب، تكشف جوانب رائعةً من إعجاز القرآن المجيد البياني.

وقد جاء في القرآن التعبير عن هذا التنويع والتغيير في العبارات والأساليب بعبارة «صَرَّفْنَا» أي: نَوَّعْنَا وغَيَّرْنَا، ومنها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

وكذلك في الآية (١١٣) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وفي الآية (٥٠) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٤)

دروس سورة (هود)

نَظَرْتُ مُتَأَمِّلاً في آياتِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ فظَهَر لِي أَنْ أُقسِّمَها إلَىٰ سَبْعَةِ دُروس.

الدّرس الأوّل: وهو الآية الأولى منها.

وفيها بيان عن القرآن بأنَّهُ أُحكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ.

الدرس الثاني: وهو الآيات من (٢ ـ ٤).

وهو درسٌ تَعْلِيميٌّ مُوجَّهٌ من اللهِ لرَسُوله، وفيه بَيَانُ بَعْضِ ما يَجِبُ عليه أنْ يَقُولَهُ في دَعْوَتِهِ النَّاس إلى دينِ اللهِ الحقِّ.

الدرس الثالث: وهو الآيات من (٥ ـ ١١).

وفيه بيانُ أمارة لَدَىٰ المُستَعِدِّين للاستجابة مُسْتَقْبلاً، وتوجيه إقناعٍ لهم ابتداءً مِنْها، فانْطِلَاقاً منها إلى بَعْضِ مظاهر رُبوبيَّة اللهِ في كونه، وبيانُ حكمته من خلْق الناس في الحياة الدُّنيا، وإمْهالِهِ الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان، وما يقولُه الذين كفَرُوا بشأن نبأ البعث، واستهزائهم من تأخير تعْذيبهم تعذيبَ استئصال، إنكاراً له.

وفيه بيان واقع حالِ الإنسان غير المؤمن الذي يعمل الصَّالحات، تُجَاهَ مَا يَنْزِلُ بِهِ مِمَّا يَسُوؤُه، أو يَسُرُّه، إذ يكون في الضرّاء يؤوساً كفوراً، وفي السَّرَّاءِ فَرِحاً فَخُوراً، بَعِيداً عن إدْرَاك حِكْمَةِ اللهِ في ابتلاءاته.

الدّرس الرابع: وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤).

وفيه تَرْبية للرَّسُول ﷺ بشأن القرآن، وتعليمٌ له أنْ يَتَحَدَّىٰ المكَذِّبينَ بِهِ بأنْ يأتُوا بعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيات.

الدرس الخامس: وهو الآيات من (١٥ ـ ٢٤).

وهو يتضمن وعيداً لمريدي الحياة الدنيا فقط، المكذبين للرسول وبما جاء به عن ربّه، وللذين يفترون على اللهِ الكَذِب.

وفيه ضَرْبُ مَثَلٍ للمؤمنين وللمكذبين.

الدرس السادس: وهو الآيات من (٢٥ ـ ١٠٨).

وفيه لقطات تكمِيليّاتٌ لما سَبَقَ أنْ أُنْزِل في السور قبل سورة (هود) من قصص الرسل الآتية أسماؤهم عليهم السلام، أضعها في فصول:

الفصل الأول: لقطات من قصّة نوحٍ وقومه من (٢٥ ـ ٤٩).

الفصل الثاني: لقطاتٌ من قصّة هود وقومه عاد، من (٥٠ ـ ٦٠).

الفصل الثالث: لقطات من قصة صالح وقومه ثمود، من (٦١ ـ ٦٨).

الفصل الرابع: لقطاتٌ من قصة إبراهيم ولوط من (٦٩ ـ ٨٣).

الفصل الخامس: لقطات من قصّة شعيب وقومه من (٨٤ ـ ٩٥).

الفصل السادس: لقطات من قصّة موسى وفرعون من (٩٦ ـ ٩٩).

الفصل السابع: ختام تذييليّ فيه موعظة مع التذكير بالآخِرَة وما فيها من جزاء، من (١٠٠ ـ ١٠٨).

الدرس السابع: وهو الآيات من (١٠٩ ـ ١٢٣).

وهو درس تربويٌّ للرَّسُول ﷺ فللمؤمنين ولا سيما الدعاة إلى دين الله منهم.

(٥)

التدبّر التحليليّ للدرس الأوّل من دُروس سورة (هود) وهو الآية (١)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①﴾.

- ﴿الٓرۚ﴾: هذه من الحروف المقطّعة الَّتي بدأ اللهُ بها بعض السُّور، وقد سبَقَ بيان مَا يكْفِي بشأنها في تَدَبُّر أوّل سورة (القلم/ ٤ نزول).

- ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾: أي: هذا القرآن كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ أوّلاً، ثُمَّ فُصِّلَتْ عِنْدَ الله، وحِينَ أنْزِلَ المحكَمُ منه مع المفصَّل.

الإحكام في اللّغة الإتقانُ التَّامُّ، بوضْعِ كلِّ شيء في موضعِهِ، دُونَ زيادَةٍ، ولَا نَقْصٍ، ولا تَغْيِيرٍ في الصفاتِ المطلوبَةِ لكَمَالِه.

وعَلَىٰ هَـٰذا يَكُونُ الإحكام في البَيَانِ الكَلامِيّ، جَعْلُهُ مطابقاً للمَعْنىٰ الْمُرَادِ مُطَابَقَةً تَامَّةً، فَهُو لَا يَحْتَمِلُ إلَّا المعنَىٰ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ.

أمّا التفصيلُ وهو التَّبْيين والشَّرح، فَيَدْخُلُ فِيهِ التعبيراتُ المجازيَّة، والتَّشْبِيهَاتُ، والاستعاراتُ، والاعتمادُ على اللّوازم الفكريَّة، وعلى المحاذِيف والمطويّاتِ في المثاني، وضَرْبِ الأمْثَالِ، والإتْيان ببَعْضِ الجزْئِيَّاتِ لتُقَاسَ عَلَيْها أمثالُها، وهنا مَيْدَانٌ فَسِيحٌ جدّاً للتعبيرات الأدبيَّةِ، ذواتِ الأساليب والفُنُون الكثيرة، وباستطاعَةِ أهْلِ الزَّيْغِ أَنْ يتلاعَبُوا بدَلَالَاتِها، وَيُؤَوِّلُوهَا تأويلَاتٍ تتنافَىٰ مع الآيَاتِ المحكماتِ الّتي هي أمُّ الكتاب.

وقَدْ أبانَ اللهُ عزّ وجلَّ في أوائِلِ سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) أنَّ القرآن بَعْضَه آياتٌ مُحْكَمَات، وبَعْضُهُ آياتٌ مُتشَابِهات، يتَّبِعُها الّذِين في قُلوبِهِمْ زَيغٌ عن الحقِّ المُنَزَّلِ مِنْ رَبِّ العالمين ليفتِنُوا الناس عَنْ دِينِهِ، بِتَأْوِيلاتٍ يَخْدَعُونَ بها، مُسْتَغِلِّينَ الأهواء والشهواتِ لدى ضُعفاء الإيمان وضعفاء القُلوب، فقال الله عَزَّ وجَلَّ فيها خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾﴾.

فالراسِخُونَ في العِلْم يَرُدُّون المتشابِهَ إلَىٰ المُحْكَم، باعتبار أنَّ الآياتِ المحكمات هُنَّ أُمُّ الكِتابِ الَّتِي يَجِبُ الرُّجُوعُ إليها.

والَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَتَعامَوْن عن الآياتِ المحكمات، ويتلاعَبُون بتَأوِيلِ الآياتِ المتَشَابِهَاتِ، وإخْرَاجِهَا عن الدّلَالَات المتَّفِقاتِ مَعَ الآياتِ المحْكَماتِ.

فقول الله عَزَّ وجَلَّ مثلاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ آيةٌ مُحْكَمَة، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ الحَمْدِ هو مُسْتَحَقٌّ للهِ المتَصَرِّفِ دَواماً في كُلِّ العَالَمِينَ، (أي: في كُلِّ مَا سِوَىٰ الله) بصِفَاتِ رُبُوبيّته.

هذه آيَةٌ مِنْ أُمِّ الكِتَابِ، وهي مُحْكَمَةٌ غَيْرُ قَابِلَةٍ لتَلاعُبِ أَهْلِ الزَّيْغِ بتأْويلاتِهِمُ الباطلات.

أمّا قول الله عَزَّ وجَلَّ للملائكة بِشَأْنِ قَضَائِهِ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ من الآية (٣٠) من سورة البقرة، فقد تَأَوَّلَهَا أَهْلُ الأهْواءِ بأنّ آدَمَ خَلِيفَةٌ عن اللهِ في أرْضِهِ، وَأَلْحَقُوا بِهِ ذُرِّيتَهُ، وأعْجَبَتْ هَٰذِهِ المقولَةُ الَّذِينَ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بأرْكانِ العقيدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، فحَمَلُوها وَرَوَّجُوا لَها، وأعْطَوْا للإنسانِ بَعْضَ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ في كَوْنِهِ، وهُمْ غافِلُونَ عن أنَّ هذا مِنَ الشِّرْكِ، إذْ لم يُحَلِّلُوا عناصِرَ هذه المقولَة، وأعجبهم أن يكونوا خلفاءَ عن الله في أرْضه⁽¹⁾.

- ﴿... مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾:

لَدُنْ: ظرف زمانِيٌّ ومكانِيٌّ بمنزلة «عِنْد» إلَّا أنَّهُ أقرب من «عند» وأخصّ منه. ولفظ« لَدُنْ» ملازم للإضافة التي تجرُّ ما بعْدها بالإضافة.

حكِيم: الحكيم اسْمٌ من أسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ. ومعنى لفظ «الحكيم» الذي يَضَعُ الأشياء في مواضعها، ويختارُ أفضل الأشياء وأتْقَنَهَا وأحْسَنَهَا من الأمور المخْتَلِفَة لما يُعْطِيَ أحْسَنَ النّتائج.

خَبِير: الخبير اسم من أسماء الله الحسْنَىٰ. ومعنى لفظ «الخبير» العليم بالشيء على سبيل الشهود والحضور المُصَاحِب لكلّ أجزاء العمل

---

(١) اقرأ رسالةً للمؤلف بعنوان: «لا يَصِحُّ أن يقال الإنسان خليفة عن الله في أرضِه فهي مقولَةٌ باطلة».

ظواهره وبواطنه. والخبيرُ بعَمَلِ نَفْسِهِ هو الّذي يمارِسُه فيجْمَعُ عَلَيْه لَدَىٰ ممارسَتِهِ لَهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ من صفاته.

قال أهل اللّغة: الخبير هو العالم بالأمر أو الشيْءِ عن تَجْرِبَةٍ ومُمَارَسَةٍ.

فالمعنى: هذا كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْ حَكِيم بالِغٍ غَايَةَ أبْعَادِ الحِكْمَة، خَبِيرٍ بَالِغٍ غايَة العِلْمِ المستَنِد إلَىٰ خِبْرَةٍ بِكُلِّ شيء.

ولَدَىٰ تَدبُّرِ ما جاء في القرآن عن القرآن، لا بُدَّ مِنْ جَمْعِ كُلِّ النّصوص القرآنيّة المتعَلِّقَةِ بالقرآن وَفْقَ تَرْتيبِ نُزُولِها، وتَدَبُّرِها تَدبُّراً تكامُلِيًّا مُتَأَنياً، وعسَىٰ أَنْ يَكُونَ هذا في أواخِرِ ما نَزَلَ بِشَأْنِ القرآن، إذا فتح اللهُ وَأَمَدَّ بِمَعُونَتِهِ، وَقَدَّرَ وَقَضَىٰ، إِنَّهُ الوَهَّابُ المنَّان.

وبهذا انتهى تَدبُّر الدرس الأول من دُروس سورة (هود).

والحمد لله على معونته وَمَدَدِه وفتحه.

* * *

(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (هود)

الآيات من (٢ ـ ٤)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤)﴾.

القراءات:

فتح ياء المتكلم مِنْ [فَإِنِّيَ أَخَافُ] نافع، وٱبن كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر، وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

تمهيد:

يُكلّفُ اللهُ عَزَّ وجلَّ رَسُولَهُ، أَنْ يُعِيدَ علَىٰ مسامِعِ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكَةِ الميؤوس من اسْتِجَابَتِهِم عن طريق إرَادَاتِهِم الحرَّةِ، الكُلِّياتِ العُظْمَىٰ للدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللهِ الحقّ.

ويُلاحَظُ أَنَّ هَـٰذا التكليفَ لم يُسْبَقْ بما يَدُلُّ لفظاً عَلَيْهِ، بَلْ جَاءَ عَقِبَ وَصْفِ القرآن بأَنَّهُ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، بيانُ مَضْمُونِ التكليفِ الدَّعَوِيِّ، ودَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الأَمْرَ التكليفيَّ مُلاحَظٌ ذِهْناً، ما جاء في الآيَةِ الأولى منه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾. فمِثْلُ هذا لَا يَصْدُرُ إلَّا عَن الرَّسُولِ ﷺ، فهو تعْلِيمٌ من اللهِ جلّ جلالُهُ لِرَسُولِهِ أَنْ يَدْعُو بمضْمُونِ هذا التعليم.

وإِذْ جَاءَ في نُصُوصٍ متَعدّدَةٍ سابقةٍ تَوصِيَةُ اللهِ رَسُولَه أَنْ يُعْرِضَ عن دَعْوة من بَلَغُوا إلى دَرَكَةِ المَيْؤُوسِ من استجابتهم عن طريق إراداتهم، فَلَا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ المقْصُودِينَ بإعادَة دَعْوَتِهِم هم الّذِين لم يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكَةِ الميؤوس من استجابتهم باختيارهم.

ويُؤَكِّدُ هذا الفَهْم بَعْضُ ما جاء في الدَّرْس الثالث الآتي إن شاء الله.

هذا الأُسْلُوبُ البيانيُّ المفاجِئ الَّذِي لَمْ يَأْتِ قَبْلَهُ ما يَدُلُّ على أَمْرِ اللهِ رَسُوله أَوْ تَكليفه، هو من الإبداعات القرآنيَّةِ الإيجازيّة، التي يُدْرِكها الفُطَنَاءُ دُونَ عَنَاء، ويُدْرِكُهَا المتَدَبِّرُونَ بالتأمُّل.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾:

أي: أعِدْ يا مُحمَّدُ علَىٰ مَسَامِعِ المطْمُوعِ فِي اسْتِجَابَتِهِمْ ولَوْ ضِمْنَ حُدُودٍ دُنْيا، بَيَاناً دَعَوِيًّا تَفْسِيرُهُ ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ...﴾ إلَىٰ آخِرِ آياتِ هذا الدَّرْس.

فلفظ «أَنْ» من [أَلاَّ] تَفْسِيرِيَّة لِمَطْوِيّ في النَّصّ، من السَّهْلِ اسْتِخْرَاجُهُ، وهو نَحْو ما أوضَحْتُ آنفاً.

أي: أنْ لَا تجْعَلُوا أيَّ عِبادَةٍ من عِبَادَاتِكُمْ مُوَجَّهَةً لِغَيْر الله.

العبادة: هي الخضوع والطاعَةُ والقِيَامُ بِمَا يُرْضي المعبود، وتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ فِعْلُه، ورَأْسُ العِبَادَةِ الدُّعاءُ بالْغَيْب لتحقيق مطالِبِ الدُّنيا والآخِرَة، والعِبَادَةُ حَقٌّ للرَّبِّ جلَّ جلالُهُ وحْدَهُ لا شريك له، فَمَنْ عَبَدَ مَعَ اللهِ غَيْرَه أَوْ عَبَدَ مَعْبُوداً غَيْرَه، كَانَ بِربِّهِ كافِراً، واسْتحقَّ الخُلُودَ يَوْمَ الدِّينِ في عَذَابِ النَّار.

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾: أي: إنَّنِي رَسُولٌ لَكُمْ مُرْسَلٌ مِنْهُ (أي: من الله) نَذِيرٌ لِمَنْ عَصَىٰ فَكَفَر بالخلود في عذاب النارِ يوْمَ الدِّين، وبَشِيرٌ بِجنَّاتِ النَّعِيم يوم الدّين خالداً فيها أبداً لِمَنْ آمَنَ وأطَاعَ.

النّذير: المُنْذر، وهو المخْبِرُ بعواقب غير سَارَّة، كَشَرٍّ قادم، أو عقوبَةٍ على مُكْتَسَبٍ إراديّ، من قَول، أو عملٍ، أو اعْتِقَادٍ، وكذلك التحذير من مَخُوفٍ مِنْهُ ماديٍّ أو مَعْنَوِيّ.

البشير: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ، وهو بمعنى «مُبَشِّر» من فعل «بَشَّرَهُ» أي: أَخْبَرَهُ بما يَسُرُّهُ ويُفْرِحه، وقد يُسْتَعْمَلُ التبشير بمعنى الإخبار بما يَسُوءُ مع قَرِينَةٍ علىٰ سبيلِ التهكُّم.

قول الله تعالى:

- ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③﴾:

- ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾: «أَنْ» هذه تفسيريَّةٌ أيضاً مثل «أَنْ» في ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ وهَٰذِهِ الجملة معْطُوفَةٌ على الجملة السّابقة.

الاسْتِغفار: طَلَبُ المغفرة من اللهِ، وهي مصْدَرُ «غفَرَ الشَّيْءَ» أي: سَتَرَهُ، والمرادُ بِطَلَبِ المغفرة من الله طَلَبُ التّغَاضِي عَنِ المعاقَبَةِ على الذُّنُوبِ الماضِيَة مع سَتْرِها عَنِ النّاس.

والاسْتِغْفَارُ من التخْلِيَةِ فجاء البَدْءُ به.

واختيارُ اسْمِ الرَّبِّ هُنَا من أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يُهَيمِنُ على عباده بصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ، ومِنْها الخلْقُ والْعَطَاءُ، والمنع والابتلاء والمحاسَبَةُ والجزاء.

- ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: أيْ: ثُمَّ ارْجِعُوا إلى طَاعَتِهِ، إِيمَاناً وعَمَلاً في السُّلوك النَّفْسِيِّ والسُّلوكِ الظاهر، مع استدامَةِ الرُّجُوعِ إليه آناً فآناً.

التوبة: هي في اللُّغَة الرُّجُوع، والمراد بالتوبة هُنَا بَعْدَ الإيمان والاستغفار، الرُّجُوعُ العَمَلِيُّ إلى الطاعَةِ، بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه.

- ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: يُمَتِّعْكُمْ في الحياة الدُّنيا بِمَعَايِشِكُمُ مَتَاعاً حَسَناً، إلى انْتِهَاءِ أَجَلِ كُلٍّ مِنْكُمْ المقدَّرِ لَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحانه، إذ يَمُوتُ عندئذٍ، ويَدْخل في الوجود البرزخيِّ حتى يَوْمِ البعث.

جُزمَ فِعْل [**يُمَتِّعْكُمْ**] على أنه جواب الطلب.

المتاع: كل ما يُنْتَفَعُ به إلى حينٍ، ثُمَّ يَنْتَهي ويَزُول، وقَدْ خصَّ اللهُ

عَزَّ وجَلَّ لفظ «المتَاعِ» لكُلِّ ما في الحياة الدُّنيا من لَذَّات وتحقِيقِ رغبات.

ووصَفَ الله عَزَّ وجَلَّ حَيَاةَ المحظوظين في دُنْيَاهُمْ بما يَسُرُّهم ويُرْضيهم بأنَّهَا حياةٌ طيِّبَةٌ، فقال عَزَّ وجَلَّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول):

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

ولا يُشْتَرَطُ فِي الحياة الطيِّبَةِ في الدُّنيا أَنْ تَكُونَ خالِيَةً مِنَ الأَمراضِ والأَكْدَارِ وما لا يَسُرُّ أحْيَاناً، بل يَكْفِي فيها أَنْ تكُونَ حالَةُ الْعَبْدِ النفسيَّة في رضاً عَنْ رَبّه، وهَـٰذه لَا تَكونُ إلَّا لِأَهْلِ الإيمان والطاعَةِ لَهُ، جلّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

- ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾: أي: وَيُعْطِي كُلَّ ذِي زيادَةٍ من إيمانٍ وعَمَلٍ صالحٍ وقُرُباتٍ، فَضْلَهُ جلَّ جَلَالُهُ الَّذي يُلائِمُ عظَمَةَ الرَّبِّ وجُودَهُ وكَرَمه.

أمّا في الآخِرَةِ فَيُؤْتِيهِ مَا يَتَمَنَّىٰ وَفَوْقَ مَا يتَمَنَّىٰ، وأمَّا في الدُّنْيَا فَيَزِيدُهُ عَلَىٰ مَنْ دونَهُ في الْفَضْل، بهِبَاتٍ ومِنَنٍ وعَطَايَا أهَمُّها السَّعَادة القَلْبيَّةُ والنّفسيَّةُ، مع إكراماتٍ أخرىٰ تُرْضِيهِ من حياةٍ طيّبةٍ ومَجْدٍ ومَكَانَةٍ اجتماعيَّة في الناس ذَاتِ شأنٍ رفيع.

الفضل: هو في الأصل الزيادة، والبقية من الشيء، واستُعْمل الفضل واشْتَهَرَ بمعنى الابتداء بالإحْسَان والعطاءِ من الخير ماديّاً كانَ أَمْ معنويًا.

- ﴿... وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾:

أي: وإنْ تُدِيروا ظهُورَكُمْ كافِرِينَ غَيْرَ مُسْتَجِيبينَ لِمَا أَدْعُوكم إليه مُبْتَعِدِين عَنْ صراط الله المستقيم، وعَنْ مواطِنِ تَنَزُّلَاتِ رَحمَاتِ اللهِ، فإنّي

أخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كبيرٍ، هو عَذَابُ يَوْمِ الدِّين، في الجَحيم دَارِ عَذَاب الكافرين المجرمين.

- ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾:

أي: إلَىٰ حِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قضَائِهِ، وتَنْفِيذِ جَزَائِهِ، مَرْجِعُكُمْ بَعْدَ البَعْث.

مَرْجِعُكُمْ: أي: رُجُوعُكُمْ، ومَكَانُ رُجُوعِكُم، وزَمَانُه. **مَرْجِع** مصدر ميمي، واسْم مكان، واسم زمان، وكُلُّها مرادَةٌ هُنَا.

﴿وَهُوَ﴾ أيْ: واللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه ـ قَدِيرٌ.

قَدِير: صيغة مبالغة لقادر، وهو اسم من أسماء اللهِ الحسنى، وهُو يَدُلُّ علىٰ كمال قُدْرَةِ اللهِ على خَلْقِ وإيجَادِ أيِّ مُمْكِنٍ من الممكنات العَقْلِيَّة مِن العَدَمِ المطْلَق، وعلَىٰ كمال قُدْرَتِهِ على إعْدَامِ أيِّ موجود من الموجوداتِ الممكِنَةِ غير واجِبَةِ الوجود عقلاً، إعْداماً مُطْلَقاً كامِلاً.

وبيان هَـٰذا مِنْ أُسُس القاعِدَةِ الإيمانيَّة، يُهَوِّنُ على ذِي الفِكْرِ السَّلِيمِ الإِيمانَ بالبَعْثِ بَعْدَ الموت، الَّذِي يكُونُ بَعْدَهُ مَرْجِعُ النَّاسِ إِلَىٰ حِسَاب رَبِّهِمْ، وَفَصْلِ قَضائه، وتنفِيذِ جزائه، على مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدُّنيا، من كَسْبٍ إرادِيٍّ لم يَكُونُوا فِيه مَجْبُورِين، بَلْ كانوافيه ذَوي إراداتٍ حُرَّةٍ، مَعَ إدْرَاكٍ وَاعٍ لما أُنْذِروا به، ولِمَا بُشِّرُوا به، ولِمَا هُو مَطْلُوب اللهِ مِنْهُمْ في رِحلَةِ امْتِحَانهم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (هود).

والحمد لله على معونته ومدَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (هود)

الآيات من (٥ ـ ١١)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا
يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ
﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ
فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

القراءات:

(٧) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[إلاَّ سَاحِرٌ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[إلاَّ سِحْرٌ]**.

القراءتان متكامِلَتان في أداء المعنى المراد، أي: ما هو إلَّا سَاحِرٌ، وما جاء به سِحْرٌ.

(٨) • قرأ يعقوب: **[يَأْتِيهُمْ]** بضمّ هاء الضمير.

وقرأها ورش، والسّوسي، وأبو جعفر: **[يَاتِيهِمْ]** بإبدال الهمزة ألفاً، مع كَسْرِ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَأْتِيهِمْ]** بإثبات الهمزة ساكنة وكَسْرِ هاء الضمير.

(٩) ● قرأ أبو جعفر: **[يَسْتَهْزُونَ]** وكذلك قرأها حمزة في الوقف، وله التّسْهيل، والإبْدال.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَسْتَهْزِءُونَ]**.

(١٠) ● قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفر: **[عَنِّيَ إِنَّهُ]** بَفَتْحِ يَاء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكان ياء المتكلم.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ إلماحٌ للرَّسُولِ ﷺ، ولكُلّ داعٍ إلى اللهِ من أصْحابه، بأنَّهُ يُوجَدُ في المشركين الّذِين قَدْ يَبْدُو من إصْرارهم على الكُفْرِ أَنَّهُمْ انْحَطُّوا إلَىٰ دَركةِ اليأْسِ من اسْتِجابَتِهِمْ، عن طريق إرادَاتِهم الحرَّة، لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانيَّة، لكِنَّهُمْ في واقِع حَالِ نُفُوسهم لم يَبْلُغُوا درَكَة الْيَأْسِ من اسْتِجابتهم، بَلْ لَدَيْهم استِعْدادٌ ما للاستجابة لدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، ومِنَ الأمَارَاتِ الدَّالّاتِ علىٰ هَـٰذا أَنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ في حَرَكَةِ اسْتِخْفَاءٍ حِينَ يُعْرِضُونَ عن الاستجابةِ لدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، ولَا يُواجِهُونَ دَعْوَةَ الرَّسُول ﷺ بِوَقَاحَةٍ واسْتِكْبَارٍ، رَافِضِينَ لَهَا، ومُعْلِنين تَكْذِيبَ الرَّسُولِ واتّهامَهُ بالافتراء علَىٰ رَبّه، فهؤلَاء تَحْسُنُ مُتابَعَةُ معالجَتهم بِبيانَاتٍ دَعوِيَّة، تَذْكِيرِيَّة، مع تنويع الأساليب الإقْنَاعِيَّة، والتَّرْغِيبِيَّةِ والتَّرْهِيبِيَّة، ومع اسْتِدْراجِهِمْ للمُجادَلَةِ بالّتي هي أحْسَن، رَجَاءَ أَنْ يَتَأَثَّرُوا فَيَسْتَجيبُوا.

واشْتَمَلَ هذا الدَّرْسُ عَلَىٰ لقَطاتٍ مِنْ مُعالَجَةِ هؤلاءِ فيها حِكْمَةٌ، وفيها إلْماحٌ للرّسُولِ ﷺ وللدُّعاةِ من أصحابه، أَنْ يَعْتَنُوا بهؤُلاء، إذْ في

داخل نُفُوسِهم جُذُورُ اسْتِعْدَادٍ للاسْتِجابة لدَعْوَةِ الحقّ والخيْرِ الرَّبّانية، ما دَامَ لَدَيْهِمْ حياءٌ يجعلهم يَثْنُونَ صُدُورهُمْ لِيَسْتَخْفُوا، ولا يَرْفُضُون دَعْوَةَ الحقّ بوَقَاحَةٍ واسْتِكْبَار، ومُجَاهَرَةٍ بالشِّقَاقِ.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾:

- ﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاحٍ وتَنْبيهٍ وتحْقيق، إذْ هِيَ مُرَكَّبةٌ مِنْ همزة الاستفهام، و«لا» النافية، وهمْزَة الاستفهام إذا دخَلَتْ على النفي أفادت التحقِيقَ، ويتعَيَّنُ كسْرُ همزةِ «إنَّ» بعد «ألا».

- ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾: أي: يَعْطِفُونَها ويَلْوونَها، يُقَال لُغَةً: «ثَنَىٰ الشَّيْءَ يَثْنِيهِ ثَنْياً» أي: عطفَهُ ولَوَاه.

- ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾: أي: لِيَسْتَتِرُوا وَيَتَوارَوْا بحَرَكَةٍ مُتْقَنةٍ تُخْفِيهِمْ عَنْ أَنْ يَشْهَدَ الرَّسُولُ إعراضَهُمْ عَنْ دَعْوَتِهِ في مَجْلِسٍ أو مَوقْفٍ مِنْ مواقِفهِ، وهم ضِمْنَ جَمْعٍ يَسْتَمِعُونَ إليه، حياءً من الرَّسُول ﷺ، أوْ مُدَاراةً لَه.

- ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾: ﴿أَلَا﴾ كَسابِقَتِها، حِينَ يَسْتُرونَ أجْسَادَهُمْ بثِيَابِهِمْ ويُغَطُّونَها بها، لئلَّا يَرَىٰ الرسُول ﷺ إعراضَهُم عن دَعْوَتِه وبلاغاته آياتِ ربّه.

يُقالُ لُغة: «اسْتَغْشَىٰ ثوبَهُ، واسْتَغْشَىٰ بِثَوْبِهِ» أي: تغطَّىٰ بهِ ليَسْتُرَ جِسْمَهُ بِهِ. وفي السّين والتاء معنى المبالغة والعناية الشديدة في السّتر.

- ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾: أي: يَعْلَمُ اللهُ رَبُّهُمْ العَلِيمُ كُلَّ ما يُسِرُّونَهُ وَمَا يُعْلِنُونَهُ، وإذَا شاءَ أَعْلَمَ رَسُولَهُ بما فَعَلُوا وبما يَفْعَلُون.

- ﴿... إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾: أي: إِنَّـهُ ـ جَـلَّ جَـلَالُـهُ وأَحَاطَ عِلْمُهُ بكلِّ شيْءٍ ـ عَلِيمٌ بِصَاحِبَةِ الصُّدُور الَّتي تكُونُ مَكْنُونَةً فيهَا، مُسْتَخْفِيَةً دَاخِلَها، كالنِّيَّاتِ وسَائِرِ أَعْمَالِ الْقُلُوب وحَرَكاتِها وخَوَاطِرِها.

ما دلَّتْ علَيْه هذه الآية:

بعْد أَنْ أوصَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ والدُّعاةَ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه، بالإعْرَاضِ عَن الميْؤوسِ من استجابَتِهِمْ لدَعْوَة الحقّ بإراداتِهِمُ الحرَّة، لتوجيه طاقاتِ مُجاهَدَاتِهِمْ لِغَيْر الميؤُوس من استجاباتهم، وكان هذا في آياتٍ واضحاتِ الدَّلالات في سُورَةِ (يونس/ ٥١ نُزُول).

وجاءَ في الدَّرْس الثّاني منْ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول) تَعْلِيمُ الرسول ﷺ مَنْهجاً دَعوِيّاً فِي آياتٍ ذَاتِ رِفْقٍ دَعوِيّ، ولِبَيان المقْصُودِين بهذا الْعِلَاجِ الدَّعوِي في البيئَةِ المكِّيَّة، أَرْشَدَتِ الآية (٥) الَّتي أَسْتَعِينُ بِالله عَلَىٰ تَدبُّرها تَدبُّراً مطابقاً للمرادِ بها، إِلَىٰ أَنَّ المقْصُودِينَ بهَـٰذَا الْعِلَاجِ أُنَاسٌ غَيْرُ ميْؤُوس من استجابتِهِمْ، ولهم أَمَارَاتٌ تَبْدُو في سُلُوكِهِمْ عِنْدَ وُجُودِهم في مجالِسِ أو مَوَاقِفِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وتِلَاوَتِهِ بَعْضَ آياتِ القرآن المجيد.

ومن هـذه الأمَارَاتِ أَنَّهُم لا يُدْبِرُونَ مُسْتَكْبِرِينَ، وَلَا يُواجِهُونَ الرَّسُولَ ﷺ بمايكْرَهُ من أَقْوالٍ أو أعمال، بَلْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ثَنْيَ المحتاج إلى تَحْريكِ جَسَدِه، وهو يَسْتَخْفِي بهَـٰذِهِ الحَرَكَةِ مِنْ أن يَشْهَدَ الرَّسُول ﷺ إعراضَهُ، ولا يكونُ هذا السُّلُوكُ إلَّا من إنسان فيه حياء، أو في قَلْبِهِ جَذْرُ خَيْرٍ، وهذا الجَذْرُ يَحْتَاجُ تَغْذِيَةً وَتَنْمِيةً وَمُدَاراةً، وحُسْنَ تَعَهُّدٍ بِرِفْقٍ، فَهُو يَدْخُلُ ضِمْنَ المطْمُوعِ في اسْتِجَابَتِهِمْ.

ولهذا جاء في الدرس الثاني من السورة تعليم الرسول ﷺ أسْلُوباً دَعوِيًّا رَفِيقاً لا عُنْفَ فيه.

فالمعنى: إنَّ الَّذِينَ أَوْصَيْنَاكَ بِأَنْ تَدْعُوَهُمْ بِرِفْقٍ في الآيات من (٢ ـ ٥)

حتَّىٰ كأنَّكَ تدعوهم لأوَّلِ مرَّة، هُمْ أُناسٌ لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ المَيْؤُوسِ من استجابَتِهِم بإراداتِهِمُ الْحُرَّة، بَلْ في قُلُوبِهِمْ جُذور خَيْرٍ قابلةٌ لِأَنْ تَدْفَعَهُمْ إلى الاستجابَةِ إلى الإيمان والإسْلام بَعْدَ حِينٍ قَدْ يَطُولُ أوْ يَقْصُر، ومن الأَمَارَاتِ الدَّالَّاتِ على مَا في قُلُوبِهِمْ من قابليَّةٍ للاسْتِجَابَةِ أَنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ثَنْياً يُشْعِرُ بأنَّهُ ناشئٌ عَنْ حَاجَةٍ جَسَدِيَّةٍ، لِيَسْتَخْفُوا بِهِ عَنْ أَنْ تُشاهِدَ إعْراضَهُمْ عَنْ دَعْوَتِكَ، أي: ومثلُ هَـٰذا يكونُ في العادة عن حياءٍ أو مُدَارَاةٍ، أوْ جُذُورِ خير كامِنَةٍ في الْقَلْب، وهَـٰذِهِ مُرَشِّحات دالَّاتٌ علَىٰ أَنَّهُمْ مَطْمُوعٌ في اسْتِجَابتهم لدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِية، فَلْتُسْتَأْنَفْ دَعْوَتُهُمْ بِرِفْقٍ آناً فآناً، مع الاستفادة من أحوالِ إقْبالِهِم.

ووجَّه الله عَزَّ وجَلَّ لَهُمْ إِقْنَاعاً غَيْرَ مُبَاشِرٍ، بأَنَّهُمْ لَوْ سَتَرُوا أجسادَهم بِثِيَابِهِمْ وَلَمْ يَكْتَفُوا بأَنْ يَثْنُوا صُدُورَهم، فإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّون وَمَا يُعْلِنُونَ، وهو جلَّ جلالُهُ عَلِيمٌ بصاحِبَةِ الصُّدُورِ من نيَّاتٍ وخواطِرَ وحَرَكَاتٍ إِرَادِيَّةٍ نفسيَّةٍ وغَيْرِ إرادِيَّة.

هذا ما ظهر لي في تَدَبُّر هَـٰذِهِ الآية، واللهُ أعْلَمُ بمُرَادِه.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٦﴾:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ زيدت «مِنْ» بَعْدَ «مَا» النافِيَة لتَوْكِيد العُموم والتَّنْصِيص علَيْهِ. «دَابَّة» مبتدأٌ مَجْرُورٌ لَفْظاً بحرف الجرّ الزائِد مرفوعٌ مَحَلًّا.

والدَّابَّة: هِي كُلُّ ذِي حَيَاةٍ يَدِبُّ في الأَرْضِ، من أَكْبَرِ حَيَوانٍ يَدِبُّ فيها حتَّىٰ أصْغَرِ حيوانٍ كالفيروسات ومَا هِيَ أَصْغَرُ مِنْها، والدَّبُّ المشْيُ بِهُدُوءٍ رُوَيداً رُوَيداً، وهَـٰذا يَشْمَلُ كُلّ ذي حياة، فالقادر منها علَىٰ السُّرْعَة لَهُ مشْيٌ بِهُدُوءٍ.

واخْتير لفظ: «في الأَرْضِ» دُونَ «على الأرض» ليشمل التَّعبيرُ ما يَدِبُّ في باطِنِ تراب الأرضِ وصُخُورِها مِنْ كلّ ذِي حياة.

- ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾: أي: إلَّا أَوْجَبَ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَرْزُقَهَا بِوَسِيلَةٍ ما مِنْ وسائِلِهِ الَّتِي يَخْتارُها.

«عَلَىٰ اللهِ» خَبَرٌ مُقَدَّمٌ على المبتَدأ في «رِزْقُهَا» لإفادة القَصْر، أي: لَا أَحَدَ يَرْزُقُها حتَّىٰ غايَةِ أَجلِ حَيَاتِهَا إلَّا اللهُ جلّ جلالُه وعظم سلطانه.

وفي النفي بـ «ما» النافية والاستثناء بأداة الاستثناء «إلَّا» دَلالَةٌ عَلَىٰ قَصْرِ وجُوبِ رِزْقِها عَلَىٰ اللهِ بمَا أَوْجَبَ اللهُ تَبارَكَ وتَعَالَىٰ على نفسه.

الرِّزْقُ: كُلُّ ما يَحْتَاجُهُ أَوْ يَنْتَفِعُ بِهِ الحيُّ في حَيَاتِهِ، كالغذاء والماء والهواء والدّواء والكِسَاء.

وتَدلُّ عبارة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ باللُّزُوم العَقْلِيّ عَلَىٰ إحاطَةِ عِلْم اللهِ بِكُلِّ دَابَّةٍ وبالرّزْقِ الّذِي تحْتَاجُ إِلَيْهِ أَوْ يكونُ لَهَا بِهِ نَفْعٌ ما، ويُهَيِّئُهُ اللهُ لَهَا، ويُقْدِرُهَا عَلَىٰ الانتفاع به.

وجاءَتْ هَـٰذِهِ العبارة اسْتِكْمالاً لقضيَّةِ شُمُولِ عِلْم اللهِ الّذي دلَّتْ عليه الآية (٥) من أنَّ الله يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ ومَا يُعْلِنُون، وعَلِيمٌ بذات الصُّدُور.

وزاد البيان اسْتِكْمالاً دَالًّا على شُمُولِ عِلْم اللهِ دَقَائِقَ أَشَدَّ صِغراً مِنْ أصْغَرِ دَابَّةٍ وَرِزْقِهَا، فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ في الآية (٦) الجاري تَدبُّرها:

﴿... وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾:

المُسْتَقَرُّ: المكان الذي يكونُ فِيه الاسْتِقْرَارُ والثُّبُوتُ والدوام الطويل.

المُسْتَوْدَع: المكان الذي تُوضَعُ فيه الوَدِيعَةُ مُدَّةً ما من الزَّمَن.

ويصلح كلٌّ منهما أن يكون اسم زَمَان، ومَصْدراً مِيمِيًّا.

والذي أفهمه من عبارة: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾ هو ما يلي:

واللهُ يَعْلَمُ اسْتِقْرَارَهَا، ومكانَ اسْتِقْرَارِها وَزَمَانَهُ في أَصْلَابِ الأُصُولِ الذُّكور، ويَعْلَمُ اسْتِيدَاعَها، ومَكَانَ اسْتِيداعِهَا، وزَمَانَهُ في أرحامِ الأُمَّهات.

حَمْلُ «المسْتَقَرِّ» على مكانِ الاستِقْرار وزمانِه وعلى الاستقرار فيهما، يَدُلُّ عليه ما صَحَّ من أنّ اللهَ عزَّ وجَلَّ مَسَحَ على ظَهْرِ آدَمَ، فاسْتَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ ذُرِّيَاتِهِ وأشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ قائِلاً لَهُمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بلى شَهِدْنا(١). فَنواةُ كُلِّ مَنْ قَدَّرَ اللهُ وَقضَىٰ أَنْ يَكُونَ ذَا حَيَاةٍ فهو بها يَدِبُّ في الأرض، قد جَعَلَ اللهُ لَهَا اسْتِقْرَاراً في أصْلَاب أُصُولِهَا الذُّكور، وَقَدْ يَطُولُ هَـٰذا الاستقرار بدْءاً من أوّل مَخْلُوقٍ من نوعِ الحيِّ، حتَّىٰ آخِرِ مَوْلُودٍ مِنْهُ.

وفي المقابلِ يَكُونُ «المسْتَوْدَعُ» أَرْحَامَ الأمَّهاتِ، إذْ يكُونُ وُجُودُ نَواةِ الأحْيَاءِ فيها وُجُوداً قَصِيراً جدّاً، بالنِّسْبَةِ إلى الاسْتِقْرَار الطَّوِيلِ الَّذي تَكُونُ فيه في أصْلَاب أُصُولها، على أنَّ كلاًّ من أصلاب الذكور وأرحام الإناث يصلحُ أن يقال بشأنه: مستقرٌّ ومستودع.

هذا ما وضحَ لي وترجّح في فهم المستَقَرِّ والمستَوْدَع، والله أعلم.

● ﴿... كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾: أي: ولا يَقْتَصِرُ الأمْرُ على شُمُولِ عِلْمِ اللهِ وإحَاطَتِهِ بكُلِّ ما سَبَقَ بَيَانُهُ في الآيَة، بلْ هو مَسْبُوقٌ بِقَدَرٍ مِنْهُ وَقَضَاءٍ، ومُسَجَّلٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، هُوَ اللَّوْحُ المحفوظ، دلَّت على المطويَّاتِ مِنْ هَـٰذا التدبُّر العبارة القرآنيَّة: ﴿كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ إذْ لَا تُسَجَّلُ في الكِتَابِ المُبِينِ الَّذي هُوَ اللَّوْحُ المحْفُوظ، ما لَمْ تَكُنْ مَسْبُوقَةً بقضاءٍ وقَدَرٍ من الرَّبِّ الخالِقِ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

---

(١) انظر تدَبّر الآية (١٧٢) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في أوّل المجلد الخامس من هذا الكتاب، ففيه تفصيل موسَّعٌ يفيد متدبر الآية (٦) من سورة (هود/ ٥٢ نزول).

وجاء إيثارُ الفصل في عِبارَةِ ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فَلَمْ تُعْطَفْ على ما جاءَ قَبْلَها لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصال، إذْ ما قَبْلَها يُثير سُؤالاً، وَهو: هَلْ يَقْتَصِرُ الأمْرُ على شُمولِ عِلْمِ اللهِ لأطْوَارِ كُلِّ دابَّةٍ، ومُسْتَقَرِّهَا ومُسْتَوْدَعِهَا؟. فجاء الجواب: «كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» أي: بلْ يَزِيدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُدَوَّنٌ أيضاً في كتاب مبين.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦﴾:

أي: والله هُوَ الّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أحْقابٍ زَمَنِيَّة، سمَّاها اللهُ أيَّاماً، وهو أعْلَمُ بمقْدارِ كُلِّ يَوْمٍ مِنْها.

- ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: أي: وكانَ عَرْشُ اللهِ قَبْلَ خَلْقِهِ السَّماوَاتِ والأَرْضَ عَلَىٰ الماء.

العَرْش: مَخْلُوقٌ أعْظَمُ فَوْقَ السَّماوَاتِ السَّبعِ ومُحِيطٌ بِها.

- ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾: أي: وخَلَقَكُمْ أَيُّها النـاسُ في الأرض ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا لِيَمْتَحِنَكُمْ، وبالامْتِحانِ تظْهَرُ دَرجَاتُ وَدرَكَاتُ الموضوعينَ مِنْكُمْ مَوْضِعَ الامتِحان في اختياراتِهِمْ لأعمالِهِم الجسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ الإرادِيَّة، وبِهَـٰذا يَنكَشِفُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، فأحْسَنُ عَملاً في الدَّرجاتِ الصاعِدَاتِ في الحسْن، وفي المقابل المطويّ في النّصِّ يَنْكَشِفُ أَيُّكُمْ أَسْوَأُ عَمَلاً فأسْوَأُ عملاً، في الدَّرَكَاتِ المنْحَطَّاتِ في السُّوءِ.

ونَعْلَمُ من مَفْهُومَاتِ نُصُوصٍ أُخرَىٰ أَنَّ مَنْ بَلَغَ أَسْمَىٰ الدَّرَجاتِ، كانَ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ أَهْلِ الفِرْدَوْسِ الأَعْلَىٰ في جَنَّاتِ النَّعيم، وأَنَّ من انْحطَّ

إلَىٰ أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ، كان يَوْمَ الدِّين من أهْلِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ من جَهَنَّمَ دَارِ المجرمين، وبين الفردوس الأعْلَىٰ في الجنَّةِ، والدَّرْكِ الأَسْفَلِ في النار دَرَجَاتٌ وَدَركات، لها من زُمَرِ النَّاسِ أصْحَابٌ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ عَمَلٍ في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدنيا.

وخاطبَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بَعْدَ هذا البيان بقوله له:

- ﴿... وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾:

أي: وَنُؤَكِّدُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ إِنْ قُلْتَ لِمَنْ تَدْعُوهُمْ إلى الإيمان والإسلام: إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الموتِ للحساب، وفصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وأَبَنْتَ لَهُمْ مَا فِي الآخِرَةِ من دَارٍ للنعيم ودَارٍ للعذاب، لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً جُحُودِيًّا إِنَّ مُحَمّداً لَمِنَ المسَحَّرِينَ الَّذِينَ أثَّرَ السِّحْرُ على تَصَوُّرَاتِهِمْ وقُواهُمُ الإدْرَاكِيَّة، فَصَارُوا يَقُولُونَ دُونَ وعْيٍ مِنْهُمْ أقْوَالاً تَخْرِيفِيَّةً هي مِنَ الأباطيل، فمَا هذا الذي يَقُولُهُ عَنِ البَعْثِ إِلَّا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ السِّحْر ظاهِرٌ واضِح في أقواله.

﴿مُّبِينٌ﴾: من فعلِ «أَبَانَ» اللازم، أي: ظَاهِر واضح.

في هذه المرحَلَةِ مِنْ مَرَاحِلِ الرَّسُول ﷺ الدَّعَوِيَّة، سقَطَتْ ذَرَائِعِهُمُ الَّتِي كانُوا يَتّهِمُونَهُ فيها بالجنُونِ، أو بالكذب، وبَقِيتْ لَدَيهم ذَرِيعَةُ اتِّهَامِهِ بأَنَّهُ مَسْحُورٌ سحْراً شَدِيداً جَعَلَهُ يتحدَّثُ عن غَيْبِيَّاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّاتٍ باطلات.

والغَرض من التوكيد المُشدَّد للرسُول إسْمَاع الذين كَفَرُوا بما سيقولون إذا قال لهم: إنكم مبعوثون، لإعلامهم بأنّ الله عليم بما في نفوسهم من تكذيب بالحق.

قول الله عز وجل:

- ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾:

- ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾: أي: إلىٰ نِهَايَةِ مُدَّة مَعْدُودَةِ الأيّام والسَّاعَاتِ والثواني ومَا دُونها. يُطْلَقُ لفظ «الأمّةِ» على المدّة الزَّمَنِيَّة، والحينِ، والوقْتِ، وهو المرادُ هنا.

والمعنى: ولَئِنْ أخَّرنَا عن الّذين كَفَرُوا العَذَابَ الّذي يسْتَحِقُّونَهُ في الدُّنيا، والَّذِي أنْذِرُوا بِهِ، إمْهَالاً لَهُمْ ورَحْمَةً بهم، ولقَطْع كُلِّ أعْذَارِهم، إلى نِهَايَةِ مُدَّةٍ مَعْدُودَةِ الأجْزاءِ الزَّمَنِيَّة، لَيقُولُنَّ مُكذِّبينَ بالوَعْدِ ومُسْتَهْزِئين به: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾؟ أي: مَا هو الشَّيْءُ الّذِي يَمْنَعُ إنْزالَهُ، غَيْرَ مُقَدِّرِينَ إمْهَالَ اللهِ لَهُمْ، رَغبَةً في أَنْ يَتُوبَ مِنْهُمْ تائِبُون، ويُؤْمِنَ مِنْهُمْ مُؤْمِنُون، وغَيْرَ مُلاحِظِينَ في تَصوُّراتِهِمْ رَحْمَةَ اللهِ لهم، وإعطاءَهُمْ أوْسَعَ زَمَنٍ يَقْطَعُ بِهِ أعْذَارَهم.

- ﴿أَلَا﴾: أداةُ اسْتِفْتَاحٍ وتَنْبِيهٍ وتَحْقِيق.

- ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: أي: تَنَبَّهْ وَتَحقَّقْ أَيُّهَا المتَلَقِّي هٰذا الخطاب، أنَّ عَذَابَ اللهِ إذا صَدَرَ أمْرُهُ بإنْزالِهِ، فإنَّهُ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَا تُوجَدُ قُوَّةٌ في الكَوْنِ من دُونِ اللهِ تَصرِفُهُ عَنْهُمْ، ويَكُونُ حِينئِذٍ أَمْرُ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ نَافِذاً فِيهِمْ حَتْماً، لَا تَبْدِيلَ فِيهِ ولَا تَحْوِيل.

- ﴿... وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾:

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: وأَصَابَهُمْ وأَحَاطَ بهم، يُقَالُ لغة: «حَاقَ بِهِ الأَمْرُ يَحِيقُ، حَيْقاً، وَحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً» أي: لَزِمَهُ وَوَجَبَ عليْهِ وأحَاطَ به.

وَدَلَّت عبارة: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ على أَنَّ قَوْلَهُم: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾؟ قَوْلٌ يَقْصِدُونَ بِهِ الاسْتِهْزَاءَ، فهو من قبيل الاستفهام الّذي خَرَجَ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ إِلَىٰ إِرَادَةِ الاسْتِهْزَاءِ بِهِ، والمسْتَهْزَأُ بِهِ الوَعْدُ الإِنْذَارِيُّ بإِنْزَال العَذَابِ المعُجَّلِ بهم.

والمعنيُّونَ بِهَـٰذَا البيان المطْمُوعُ بإيمانِهِمْ الّذين وَصَفَتْهُمُ الآيَة (٥) بأنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ وهُمْ في مَوْقِعِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِيَسْتَخْفُوا مِنه.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾:

هذه الآياتُ تَكْشِفُ بَعْضَ صِفَاتِ الإنْسَانِ الَّذي لَمْ تُقَوِّمْ مَسِيرَةَ سُلُوكِهِ فِي الحياة الدُّنيا، قاعِدَةُ الإيمانِ باللهِ وبرسُولِهِ وبكتابه وباليَوْم الآخر.

وبَيَانُ هَـٰذِهِ الصِّفات للإنْسَانِ يُنَاسِبُ تَكْلِيفَ الرَّسُولِ ﷺ أنْ يُتَابعَ دَعْوَتَهُ لِغَيْرِ الميؤوسِ مِنَ استجابَتِهِمْ.

وهَـٰذا البيان عن الإنسان مَوْصُولٌ بخَطِّ الحديث عن صِفَاتِهِ في السُّوَر الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (هود/ ٥٢) وجاء فيها حديثٌ عن صِفَاته.

جاء التوكيد بالقسم في ﴿وَلَئِنْ﴾ مَرَّتَيْنِ في هذا النّصّ، فاللَّام موطّئةٌ للقسم كما يقول النحاة.

﴿أَذَقْنَا﴾: أطْلِق فِعْلُ الذَّوْقِ الّذِي يكُونُ باللّسان، والمراد بِه كُلُّ إحْسَاسٍ يُحِسُّ بِهِ، ممَّا لَهُ به لَذَّةٌ تُمْتِعُه، أو أَلَمٌ يَكْرَهُهْ، وقَدْ تَكرَّرَ في القُرآن هَـٰذا الإطْلاق، وهُوَ مِنْ تَعْمِيمِ الإحْسَاسِ الّذِي يَكُونُ باللّسان علَىٰ كُلِّ إحْسَاسٍ يكون في أيِّ موضعٍ من مواضِع الجِسْمِ.

يَؤوسٌ: أي عَظِيم اليَأس، وهو انْقِطَاعُ الأَمَل والطّمع في المطلوب السَّارِ الممتع. يَؤُوس: صيغَةُ مبالغةٍ لاسم الفاعل «يَائس».

كَفُور: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «كافر» أي: عَظِيمُ الكُفْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ عليه الّتي كان يَسْتَمْتِعُ بها قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْه، ولَا يَلْجأُ إلى اللهِ يَسْأَلُهُ مُتضَرِّعاً أَنْ يُعِيد إليه النِّعْمَةَ الَّتِي نَزَعَهَا مِنْه، لِأَنَّهُ كَفُورٌ بِرَبِّهِ.

﴿رَحۡمَةً﴾: الرَّحْمَةُ صِفَةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجلالِهِ وعَظِيم سُلْطانه، والمراد بها هُنَا آثَارُهَا المُمْتِعَةُ السَّارَّةُ للإنْسَان المتحدَّثِ عنه.

النَّعْمَاء: السَّعَةُ ممَّا يُمْتِعُ النُّفُوسَ وَيَسُرُّها وَيَلَذُّها، وجَمْعُها: «أَنْعُم».

الضَّرَّاءُ: الشِّدَّةُ، وكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ في الأموال والأنفس.

الفَرِحُ: البَطِر المسْتَكْبِر المتَبَخْتِرُ المتعالِي على الناس.

الفَخُور: المتَباهِي بِمَا لَدَيْهِ من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، أو بما فيه من صفاتٍ ذَاتِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ.

المعنى: إنَّ الإنْسَانَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ باللهِ وَلَا بِاليَوْمِ الآخِرِ، ولَا يُؤْمِنُ بأنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ النّاسَ بِرَحْمَتِهِ مَا يُمْتِعُهم وَيَسُرُّهُمْ وَيَلَذُّهم، مِنْ مَتَاع الحياةِ الدُّنيا، لِيَبْلُوَهُمْ به، وهُوَ الَّذِي قَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَنْزِعَ مِنْهُمْ مَا كَانَ قَدْ وَهَبَهُمْ، وهو الّذي يَمْتَحِنُ بَعْضَ عِبادِه بالضَّرَّاء، ثُم قَدْ يَرْفَعُ عَنْهُمُ الضَّرَّاءَ، ويَمْتَحِنُهُمْ بالسَّرَّاءِ، تَدُورُ مَفْهُومَاتُهُ فِي الحَياةِ حَوْلَ الظَّواهِرِ السَّبَبِيَّة، فمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ فِيها مِمَّا يُحِبُّ ومِمَّا يَكْرَه، يَرْبِطُهُ بالأَسْباب، غَيْرَ مُؤْمِنٍ بأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُوَ الخَلَّاقُ مِنْ قَنَواتِ الأَسْبابِ، على وَفْقِ مَا تَمَّ بِهِ قَدَرُه وقَضَاؤه بإرادَتِه الحكيمة، جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

ومن آثارِ هذا التعلُّقِ بالأسباب، مع عَزْلِ الإيمان باللهِ ومقاديره وأقْضِيَتِهِ الحكيمة عَنِ التَّصَوُّرِ كُفْراً بِهَا، أو عدَمَ اكتِرَاثٍ لَهَا، أَنْ يَكُونَ من صِفَاتِ الإِنْسَانِ ما يَلِي:

أوّلاً: إذَا أصَاب مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا مَا طَابَ لَهُ، وذَاقَ لَذَّاتِها، ومَرَّتْ عَلَيْهِ مُدَّةٌ وَهُوَ يَستَمْتِعُ بالسَّرَّاء، وَتَوَهَّمَ أَنَّهَا مُسْتَمِرَّةٌ لا تَنْقَطِعُ مَا دَامَ حيًّا، وَجَاءَتْ بَعْدَ ذَلِكَ أَسْبابٌ سلَبَتْهُ مَا كَانَ يَسْتَمْتِعُ بِهِ، فإنَّهُ حِينَئذٍ يَكُونُ يَؤُوساً كَفُوراً.

أمَّا شِدَّةُ يَأْسِهِ فَلأَنَّهُ لَا يَرَىٰ فِي المنْظُورِ القَرِيبِ أسْبَاباً تُعِيدُ له مَا نُزِعَ مِنْه، مِمَّا كَانَ قَدْ جَمعَهُ بأَسْبَابٍ مختَلِفَةٍ فِي زَمَنٍ طَوِيلٍ مِنْ شَبَابِهِ وكُهُولَتِهِ، إذْ كَانَ ذَا قُوَّةٍ وهِمَّةٍ وحيلَةٍ وَنَشَاطٍ فِي العَمل.

وأمَّا شِدَّةُ كُفْرِهِ، فَلِأَنَّهُ لَا يَتَضَرَّعُ إلى ربِّهِ مُتَذَلّلاً داعياً، مُؤْمِناً بأَنَّهُ هُوَ الَّذي سَبَقَ أنْ وَهَبَهُ مَا يُحِبُّ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا لِيَبْلُوَه، وهو الَّذي نَزَعَ مِنْه مَا كَانَ قَدْ وَهَبَهُ، لِيَتَضَرَّعَ إلَيه دَاعياً مستَغْفِراً تائباً مُؤْمناً بأَنَّهُ هو الواهِبُ والسَّالِبُ، وهو المعطي والمانع، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير، فإذا شَاءَ أَنْ يُجَدِّدَ لَهُ عَطَايا مِنْ فَضْلِه يُمَتِّعُهُ بها، يَسَّرَ لَهُ أسْبَاباً تجلُبُ لَهُ مِنْ مِتاعَاتِ الحياة الدُّنيا مَا يُحِبّ، حَتَّىٰ يَعُودَ إلى مِثْلِ مَا كان عَلَيْهِ قَبْلَ السَّلْبِ أَوْ أَكْثَر، واللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لَا يُعْجِزُهُ شَيء.

هذا الَّذي نَفْهَمُه مِنْ قول اللهِ عزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ⑨﴾:

جاء في هذه الآية والتي بَعْدَها استعمالُ ضَمِير المتكلّم العظيم في: **[أَذَقْنا ـ مِنَّا ـ نَزَعْنَاها]**.

وجاء التَّوْكيد بالقسم أولاً، وبالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحلَقة» آخراً.

والمعنيُّ بالتوكيد الإنسانُ نَفْسُه، لأنَّهُ في حالة النعماء لا يَعْتَرِفُ بأنَّهُ يَؤُوسٌ، ولا يَعْتَرِفُ دواماً بأنَّهُ كَفُورٌ بِربِّه.

ثانياً: إذَا أَصَابَ هذا الإنْسَانُ نَعْمَاءَ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ سَبَقَ أَنْ مَسَّتْهُ، لَمْ يُلاحِظْ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُوَ الَّذِي كَشَفَ عَنْهُ الضَّرَّاء، وهُو الَّذِي مَنَحَهُ مَا هُوَ فِيه من نَعْمَاء لِيَبْلُوَهُ.

أَمَّا انْكِشَافُ الضَّرَّاءِ عَنْه فَيَقُولُ بِشَأْنِهِ ذَهَبَ السَّيئَاتُ عَنِّي، لَمْ توضَعْ تاء التأنيث في ﴿ذَهَبَ﴾ لِأَنَّ «السّيئات» مجازيَّة التأنيث.

إِنَّهُ مَادّيٌّ سَبَبيٌّ لَا يُؤْمِنُ بِخُطَّةِ خَالقٍ رَبٍّ حكيم يُقَدِّرُ ويَقْضِي بِحِكْمَتِهِ، كُلَّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ مِنْ شُؤونِ عِبادِه. وقَدْ يَنْسُبُ ما جَرَىٰ لَهُ إلى المصَادَفَه.

وحين يَسْتَقِرُّ في النَّعْمَاءِ تَظْهَرُ في سُلُوكه آفتان:

الآفَةُ الأُولى: الفَرَحُ، أي: البَطَرُ والاسْتِكْبَارُ والتبخْتُرُ والتعالي على الناس، ولوازم هذه الآفة في السُّلوك.

الآفة الثانية: شِدَّةُ الفَخْر، ومِنْ مَظَاهر هَـٰذِهِ الآفَة أَنْ يَتَحَدَّث بأمْجادِهِ، وَعَبْقَريّتِهِ، وصِفَاتِهِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بها، وبأَنَّهُ بها اسْتَطَاعَ أنْ يَجْلُبَ لِنَفْسِهِ مَا هُوَ فيه من نَعْماء، ويَصْرِف عَنْها مَا كَانَ فِيهِ مِنْ أشياءَ مَكْرُوهَةٍ كانَتْ تَسُوؤُه.

واستَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنَ عُمُومِ الإنْسَانِ الَّذِي أبانَت الآيتانِ (٩) و(١٠) صِفاته تُجاهَ النِّعَم والمصَائِبِ وتَقَلُّبَاتِهِمَا وُجُوداً فِيهِ وعَدَماً، المؤمنينَ الصَّابِرينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات، فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

أي: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا واتَّقَوْا وَصَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات، فالصَّبْرُ على المكاره، والصَّبْرُ عَلَىٰ الطّاعَات، والصَّبْرُ عن المعاصِي،

وعَمَلُ الصَّالحات، إنَّما هِيَ ثَمَرَاتُ إيمانٍ صَحِيحٍ، وإسْلَام صادقٍ، وتَقْوَىٰ في السُّلُوك، وهَـٰذِهِ مَطْوِيَّةٌ فِي النَّصّ، إذْ يَدُلُّ عَلَيْهَا اللُّزُومُ العَقْلِيُّ.

فَهؤُلَاء لَا يُصَابُونَ بآفاتِ اليأسِ والكُفُور، والاسْتِكْبَارِ والفخر، لِأَنَّ عقائِدَهُمُ الإيمانِيَّةَ تَحْمِيهِمْ مِنها.

وأبَانَ الله عَزَّ وجَلَّ ارْتِفَاعَ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَهُ بالإشارة إليهم باسم الإشارة الموضوعِ للْبَعِيدِين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وأبانَ أنّ لَهُمْ عِنْدَهُ مَغْفِرَةً لِذُنُوبهم، وأَنَّ لهم أَجْراً كبيراً، وهذا الأجْرُ الكبيرُ ينالُونَهُ يَوْمَ الدِّين في جنَّاتِ النعيم.

وبهذا انْتَهىٰ تدبّر الدرس الثالث من دُروس سورة (هود).

والحمد للهِ على معونته ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الرّابع من دُروس سورة (هود)

الآيات من (١٢ ـ ١٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ (١٢) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٣) فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٤)﴾.

تمهيد:

هذا الدَّرْس مَوصُولٌ بما سَبَقَ أنْ نَزلَ قبل سورة (هُود) من سُور، بشأن القرآن وَحالِ الرسُول ﷺ تُجاهَ مَواقِف كُبَرَاءِ مُشْرِكي قريْشٍ، مِنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِيه ممَّا يُخَالِفُ شِرْكيَّاتِهِم ولوَازِمَها في السُّلُوك، وتُجَاهَ مُطَالَبَتِهِم الرَّسُولَ بمطالِبَ تَعنُّتِيَّةٍ، مِنْها مَا يتعلَّقُ بتَبْدِيل ما يُخالف معتقداتهم من آيات القرآن، ومِنْها مَا يَتَعلَّقُ بخوارقَ مَاديَّةٍ، أو إِنْزَالِ كَنْزٍ عَلَيْهِ بآيَةٍ خارِقَةٍ، أوْ بَعْثِ مَلَكٍ مُصَاحِبٍ له يَشْهَدُ لَهُ بأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ العالمين.

فمنها مَا جاء في الآيات من (١٥ ـ ١٧) من سورة (يونس/ ٥١ نزول). وفي الآيَتَيْنِ (٣٧) و(٣٨) منها أيضاً. وفي الآيات من (٨٦ ـ ٨٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول). وفي الآيَتَيْنِ (٨٦) و(٨٧) من سورة (القصص/ ٤٩ نزول) إلى سَائِرِ ما جَاءَ في السُّورِ قبل ذلِكَ.

ومُتَدَبِّر الآيات التي سَبَقَ أنْ نَزلَتْ بأناة، يُلاحِظُ أنَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ من مُعَالجاتٍ وَتَرْبياتٍ رَبَّانِيَّه، مُتَّسِقٌ اتّسَاقاً مُلائِماً لِتَرْتيب نُزُولِ السُّور الَّتِي هِيَ مِنْها، وهذا يَتَطَلَّبُ دِرَاسَةً تَدبُّرِيَّة خاصَّةً شَامِلَة، أَسْأَلُ اللهَ الوَهَّاب أَنْ يَفْتَحَ عَلَيّ بذلك في بحْثٍ مُسْتَقِلّ.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ لرسوله ﷺ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾:

جاء في سورة (يونس/ ٥١ نزول) توصيةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ بأن لا يَعْبأ بِطَلَبِ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكةَ المكابرينَ المعانِدِين، أنْ يَأْتي بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا

القُرْآن أو يُبَدِّلَ مَا لَا يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْهُ، وَعَلَّمَهُ مَا يُجِيبُهُمْ به، انظر تدبُّر الآيات من (١٥ ـ ١٧) منها.

وَلَكِنْ بَقِي احْتِمالُ أَنْ يَتْرُكَ تَبْلِيغَ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ، مُدَارَاةً لكبراء قَوْمه، ولَوْ بِتَأْخِيرِ التَّبْليغ إِلَىٰ وَقْتٍ آخَر، ورُبَّما يَرَىٰ الرَّسُول ﷺ أَنَّهُ لَا حَرَجَ عليه في هذا التّأخير، فَكَانَ من الحكْمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ أَنْ يُبادِرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ بِكَفِّهِ عَنْ أَنْ يَخْطُرَ لَهُ مِثْلُ هَـٰذا الخَاطِرِ الَّذِي يَخْطُرُ على أذْهَانِ البَشَرِ عادَةً، ولَوْ كَانُوا أَفْضَلَ خَلْقِ الله، فاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، ولَا يُنْزِلُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ تِباعاً إِلَّا مَا تَقْتَضِيهِ حكمَتُه، ولَيْسَ مِمّا يُباحُ أو يُؤْذن بِهِ للرَّسُولِ أَنْ يَتْركَ مؤقَّتاً تَبلِيغَ ما أَنْزَلَ رَبُّهُ إِلَيْه وأمَرَهُ بِتَبليغِهِ، فضلاً عَنْ أَنْ يَتْرُكَ تَبْلِيغَهُ تَرْكاً كلِّيّاً.

وجاءَتْ هَـٰذِهِ المُبَادَرةُ التربويَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ، بِطَرْحِ احْتِمَالِ أَنْ يَتْرُكَ الرسُولُ تَبْليغَ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَلَوْ تَرْكاً مُؤَقَّتاً، اجْتِهاداً مِنْهُ إِذْ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ مَأْذُونٌ به، فقال الله عَزَّ وجَلَّ لَهُ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ . . . ⑫﴾:

أي: إِذَا خَطَرَ لَكَ مِثْلُ هَـٰذا الخاطِرِ يا مُحَمَّد، فاعْلَمْ أَنَّكَ غَيْرُ مأذُونٍ به، ولا يُقْبَلُ فيه اجْتِهادُكَ، وإِنْ وَجَدْتَ أَنَّ صَدْرَكَ يَضِيقُ بِتَبليغِهِ إذَا بَلَّغْتَهُ، وأَنْتَ حَرِيصٌ على مُدَارَاةِ كُبَراءِ قَوْمِكَ رَجاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا، لِيُنْقِذُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عذاب النَّارِ يَوْم الدِّينِ، وتَرَىٰ أَنَّكَ إذا بَلَّغْتَهُمْ كُلَّ مَا يُوحِي بِهِ إِليكَ رَبُّكَ زِدْتَهُمْ نُفُوراً مِنْ دَعْوَتِكَ، وَمِنَ الاسْتِجابَةِ لَكَ، وَجَعَلْتَهُمْ يُتَابِعُونَ تَكْذِيبَكَ في نُبُوَّتِكَ وَرِسَالَتِكَ مُكَرِّرِينَ آناً فَآناً مَقالَتَهُمُ الإعْلَامِيَّةَ السَّابِقَة: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾: أي: هَلَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ كَنْزٌ مِنْ رَبِّهِ يُغْنِيهِ لَوْ كَانَ رَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ رَبِّهِ حقًّا، أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ يَشْهَدُ لَهُ بأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، جَاعِلِينَ هَـٰذا شَرْطاً لازِماً لِتَصْدِيقِهِ بأَنَّهُ نبيُّ اللهِ وَرَسُوله.

فالمعنى: إذَا خَطَرَ لَكَ أَنْ تَتْرُكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إلَيْكَ وَلَوْ تَرْكاً مُؤَقَّتاً، إذْ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِتَبْلِيغِهِ لِكُبَرَاءِ قَوْمِكَ الَّذِينَ تُدارِيهم حِرْصاً مِنْكَ عَلَىٰ إيمانِهِم وإسْلامِهِمْ، ولِئَلَّا يُرَوِّجُوا مَقُولَتَهُمُ الإعلاميّة الَّتِي يُقْنِعُونَ بِهَا جَمَاهِيرَ قَوْمِكَ: لَوْ كَانَ رَسُولاً مِنْ رَبِّهِ حَقًّا، فَهَلَّا أُنْزِلَ إلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ يَشْهَدُ له بِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ.

«**لَعَلَّ**» أصْلُها للتَّرجي، وَتُسْتَعْمَلُ اسْتِفْهامِيَّة، وهذا المَعْنَىٰ هُوَ الراجح هنا، أي: هَلْ أَنْتَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إليك، أو ضَائِقٌ به صَدْرُك، وتَوجيه هذا الاستفام يَدُلُّ على أنّ المستفهم عنه احتمالٌ من الاحتمالَاتِ الّتي قَدْ تخْطُرُ للرّسول أو تَحْدُثُ له.

﴿تَارِكُۢ﴾ اسم فاعِل من فعل «تَرَكَ» والمراد هنا المفهوم من النّص تَرْكُ التَّبْلِيغ، وهو أخفُّ من قول المشركين السابق له: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ في الآية (١٥) من سورة (يونس/ ٥١ نزول).

واسْمُ الفاعل هُنَا مُسْتَعْمَلٌ في الدَّلَالَةَ على المستقبل، لأنّه بمَنْزِلَةِ الفِعْل المضارع، أي: أَتَتْرُكُ مُسْتَقْبلاً بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ اجْتِهاداً مِنْكَ؟.

﴿وَضَآئِقُۢ﴾: اسم فاعل من فعل «ضَاقَ يَضِيقُ» وهو كسابقه، والمعنى أيَضِيقُ صَدْرُكَ مُسْتَقْبلاً لَدَىٰ تَبْلِيغك بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ لِكُبَرَاء قَوْمِكَ؟.

- ﴿... أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ ... ⑫﴾:

أي: أَتَتْرُكُ تَبْلِيغَ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إليكَ، مَنْعَ أَنْ يُرَوّجُوا ضِدَّكَ هَـٰذِهِ المقُولَةَ الإعْلَامِيَّةَ الَّتِي تَتَأَثَّرُ بِها جَماهِيرُهُمْ؟.

«**لَوْلاَ**»: هي هُنَا حَرْفُ تَحْضِيضٍ بِمَعْنَىٰ «هَلَّا».

- ﴿... إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ ... ⑫﴾: أي: مَا أَنْتَ بالنِّسْبَة إلَىٰ هَـٰؤلَاء الَّذِينَ يُهِمَّكَ أَمْرُهُمْ إلّا مُنْذِرٌ لَهُمْ بِعَذَابِ رَبِّهِم، لأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا

دَرَكَةً مَيْؤُوساً مَعَهَا مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِكَ بِإرَادَاتِهِمُ الحُرَّة، إذْ هُمْ مُسْتَيْقِنُونَ جَاحِدُونَ، لَا تُجْدِي مَعَهُمْ بيانَاتٌ وَلَا تَلْبِيَةُ طَلَبَاتٍ، فالحِكْمَةُ تَقْضِي بِعَدَم الاستجابَةِ لطلباتهم.

• ﴿... وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾: أي: ولَستَ وَكيلاً عَلَيْهِمْ مُطَالَباً بِتَحْوِيلِهِمْ مِنَ الكُفْرِ إلَىٰ الإيمان، إذْ هُمْ ذَوُو إراداتٍ حُرَّة، ولَا تَتَعَدَّىٰ وَظيفَتُكَ وَاجِبَ التَّبْليغ والبَيانِ والتّذكيرِ والنُّصْح، فإنْ لم يَسْتَجيبوا لَكَ فَعَلَيْهِمْ أن يَتَحَمَّلُوا عُقُوبَاتِ رَفْضِهِمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، الّتِي دَمَغَتْهُمْ براهِينُها.

أمّا القادِرُ عَلَىٰ تَحْوِيلهم بِسَلْبِهِمْ إراداتِهِمُ الحرَّة، وَجَعْلِهِمْ مجبورِينَ علَى الإيمان والإسْلَام، فَهُو اللهُ عَزَّ وجلَّ، إذْ هو ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ وَكِيلٌ، فهُو بِسُلْطَانِهِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَا يَشَاء، لَكِنْ لَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنْ يَجْعَلَ عَبَاده الموضوعين مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مجْبُورِينَ غَيْرَ مُخَيَّرِين، للتناقُضِ بَيْنَ الإرادة الحرَّةِ الَّتِي هي من شُرُوطِ الامْتِحَانِ وبَيْنَ الجَبْر الَّذِي يَقْتَضِي سَلْبَ الإرادَة الحرَّة.

قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن القرآنِ والرَّسُول ﷺ أيضاً:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾:

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي: بَلْ يَقُولُ الّذِينَ كَفَرُوا: افْتَرَىٰ محمَّدٌ القُرْآنَ عَلَىٰ رَبِّه، وَيُكَرِّرُون هَـٰذِهِ المقالَةَ، ويَجْعَلُونها إشاعَةً إعْلَامِيَّة. فـ «أَمْ» هُنَا. بمعنى «بل» للإضراب الانتقالي.

افتراه: أي: صنَعَهُ ونَسَبَهُ إلى رَبِّهِ.

هَـٰذِهِ دَعْوَىٰ تَتَضَمَّنُ أَنَّ البَشَرَ قَادِرُونَ على أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذا

القرآن، لِأَنَّ مُحمّداً الَّذي افْتَرَىٰ بِزَعْمِهِمُ القرآن بَشَرٌ من البَشَر، فاقْتَضَتْ هَـٰذِهِ الدَّعْوَىٰ تَحدِّيَهُمْ بأَنْ يأتُوا بِمِثْلِ ما نزل مِنْه، أو بِمِثْلِ سُورَةٍ مِنْ سُوَرِهِ، ولَكِنَّ تَحَدِّيَهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ سُورةٍ منهُ، وهو ما جاء في الآية (٣٨) من سُورَةِ (يُونُس/٥١ نزول) أغْرَىٰ بَعْضَهُمْ بِأَنْ يأتِيَ بِمِثْلِ سُورَةِ من قصار سُوَرِ القرآن، كسُورَة «المسَد» أو سُورَة «النَاس» أو سُورَة «الفيل» ويزْعُمَ مَعَ قبيلٍ من الغوغائيّين أنّ مَا جاءَ بِهِ مُمّاثل لِسُورَةٍ قَصِيرَةٍ من سُوَرِ القرآن، كما حُكِيَ أنَّ مُسَيْلِمَة الكذاب صنَعَ سُورَةً قال فيها: «يَا ضِفدَعُ يا بِنْتَ ضِفْدِعين، نُقّي مَهْمَا تَنُقِّين، لَا الماءَ تُعكِّرين، وَلَا الشَّارِبَ تمْنَعِين».

وقَطعاً لِلْجدَلِ بِشَأْنِ صِحَّةِ المُمَاثَلَةِ وعَدَم صِحَّتِها، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ نَقْلُ التَّحَدِّي إلىٰ الإِتْيَانِ بعَشْرِ سُورٍ مِثْلِ القرآن مُفْتَرَيَاتٍ، وهذا نظيرُ مَا فَعَلَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السّلام مع نُمْرُود، إذْ قَالَ إبراهيمُ لَهُ: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فقال نمرُود: أنَا أُحْيِي وأُمِيتُ، عَلَى سبيل المغالَطَة، فَقَطَعَ إبراهِيمُ عليه السَّلامُ التَّحدِّيَ بما يَسْتَطِيعُ أنْ يُغَالِطَ فيه ويجادِل، وقال له: إنَّ اللهَ يأتِي بالشَّمْسِ من المشْرِقِ فأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ، فَبُهِتَ نُمْرودُ الكافِرُ بِرَبّه، ولم يَجِدْ جواباً.

وفي هَـٰذا تَعْلِيمٌ جَدَلِيٌّ للدُّعَاةِ إلى دِينِ اللهِ من أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بأنْ يَتْرُكُوا مَا يَحْتَمِلُ الجدال وَمُرَاوغَة الخَصْم، ويَنْتَقِلُوا إِلَىٰ مَا لَا يَحْتَمِلُ جِدَالَهُ وَمُرَاوَغَتَهُ.

ولهذا عَلَّمَ اللهُ عَزَّ وجلَّ رَسُولَهُ وَكُلَّ دَاعٍ إِلَى اللهِ مِنْ أُمّتِهِ مَا يُجِيبُ بِهِ الكافِرِين الَّذِينَ يقُولُون: إنَّ محمّداً هو الّذِي يَصْنَعُ القُرْآنَ وَيَنْسُبُهُ إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ افْتِرَاءً، فقال تبارك وتعالى: ﴿... قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: واسْتَعِينُوا بِمَنْ تَسْتَطِيعُونَ الاسْتعانَةَ بِهِ من دُون اللهِ، لِصِنَاعَةِ

عَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ تَفْتَرُونَهَا على الله، إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بأَنَّ القرآنَ قَوْلُ البَشَر، وأنَّ البَشَرَ قَادِرُونَ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، ويَدْخُلُ فِيمَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَعْبُدونها.

والمعنى: إنَّكُمْ كَذَّابُونَ مُرَاوِغُونَ غَيْرُ صَادِقِين، إذْ أَنْتُمْ في قُلُوبِكُم مُسْتَيْقِنُونَ عَالِمُونَ بأنَّ القرآن مُنَزَّلٌ على محمَّدٍ من ربّه، وَلَيْسَ مِنْ صُنْعِه، ولم يَفْتَرِه على رَبّه افتراء، لِكنَّكُمْ لَا تُرِيدُون أنْ تُؤْمِنُوا به وتَتَّبِعُوهُ تعالِياً واسْتِكْبَاراً، فأنْتُمْ تَجْحَدُونَ الحقَّ مكابَرَةً وعِناداً وَاتِّبَاعاً للهوى.

قول الله عَزَّ وجَلَّ :

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾؟ :

هذا البيان من توابِعِ التعليم الرَّبّانيّ من اللهِ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه.

وَالفاء في ﴿فَإِن﴾ جاءَتْ تفريعاً عَلَىٰ عبارة: ﴿. . . وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

المعنى: وقل لهم: فإنْ عَجَزْتُم، وَلَمْ يَسْتَجِبْ لكم مَنْ تَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وفيهِمْ آلِهَتُكُمْ، للإتْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِ القرآن مُفْتَرياتٍ، فَاعْلَمُوا يَا مَنْ زَعَمْتُمْ أنَّ مُحَمّداً يَصْنَعُ القرآنَ ويَنْسُبُهُ إلَىٰ رَبِّهِ افْتِراءً عليه، أَنَّمَا أُنْزِلَ القرآنُ مُحاطاً ومُقْتَرِناً ومَقُولاً بِعِلْمِ اللهِ، أَلْفَاظاً، ومَضَامِينَ، وَوَسِيلَةَ تَنْزِيلٍ، وَتَبْليغاً لِلرَّسُولِ محَمَّدٍ ﷺ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ خَارِجاً عن إحَاطَةِ عِلْمِ اللهِ ـ جلَّ جَلالُه ـ به، وهذا يَدُلُّ أُولي الألْبَابِ عَلَىٰ أَنَّهُ كلامُ اللهِ حقّاً وَصِدْقاً.

وٱعْلَمُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأَنَّ آلِهَتَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونها مِنْ دُونه آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ لَمْ تُسْعِفْكُمْ بأَنْ تَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِ القرآنِ مُفْتَرَيَات.

وبَعْدَ أَنِ انكَشَفَ لَكُمْ عَجْزُكُمْ عَنِ الإتْيَانِ بعَشْرِ سُوَرٍ مثل القرآن، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟. أي: وَمُؤْمِنُونَ لِأَنَّهُ لَا يَكُون الإسْلام صَحِيحاً، ما لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقاً بإيمانٍ صحيح صَادِق.

جاءت الدَّعْوَةُ إلى الدُّخول في الإسلام بأسْلُوب العرض بالاستفهام، تلَطُّفاً بهم، ومُدَارَةً لهم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الرابع من دُرُوس سورة (هود).

والحمد لله على فتحه ومعونته ومَدَدِه وتوفيقه.

* * *

(٩)

التدبّر التحليليّ للدّرسِ الخامس من دُروس سورة (هود) الآيات من (١٥ ـ ٢٤)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا
يُبۡخَسُونَ (١٥) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا
وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٦) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ
وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ
ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (١٧) وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ
يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ
ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ
هُمۡ كَٰفِرُونَ (١٩) أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ
أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ (٢٠)

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾».

القراءات:

(١٥) ● قرأ حمزة، ويَعْقوب: **[إِلَيْهُمْ]** بضَمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر هاء الضمير **[إِلَيْهِمْ]**.

والقراءتان لغتان عربيّتان.

(٢٠) ● قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو جَعْفر، ويعقوب: **[يُضَعَّفُ]** من فعل «ضَعَّفَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يُضَاعَفُ]** من فعل: «ضَاعَفَ». ومؤدّىٰ القراءتَيْن واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

(٢٤) ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائيّ، وخلف: **[أَفَلَا تَذَكَّرُونَ]** من فِعْل «تَذَكَّرَ، يَتَذَكّر».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ]** أصْلُهَا «تتَذَكَّرُون» أُدْغِمَتْ التَّاءُ بالذّال فصارت «تَذَّكَّرُون» وهذه القراءة تُلائم حَالَ مَنْ يُطْلَبُ مِنْهُمُ التَّذَكُّرُ بتكَلُّفٍ، لِأَنَّهُمْ في تَصَوُّراتِهِمْ بَعِيدُونَ عَن التَّذَكُّر، انْشِغَالاً بِمَتَاعَاتِهِمْ من الحياة الدُّنيا.

فبَيْن القراءَتَيْن تَكَامُلٌ في البيان.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ سُنَّتَهُ في عِبادِهِ كُفَّارِهم ومُؤْمِنِيهم في الحياة الدُّنيا وفي الآخِرَة.

وجاءَ التّعْبير عن الكافرين بأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَهَا، أي: فقط، فَلَا يَعْبَؤُون بالآخرة، ولا يَعْمَلُونَ لَهَا، إذْ هم لا يؤمنون بها.

وَجَاءَ فيه طَرْحُ مُقارَنَةٍ بَيْنَ الفَرِيقَيْن، وأنّ مِنْ فريقِ الكافرين، فَرِيقاً يَفْتَرُونَ على اللهِ كَذِباً، كالمشركين، وكالّذِينَ زعموا أنّ للهِ وَلَداً سُبْحانه، وكالّذِينَ يَصِفُونَ الله عَزَّ وجَلَّ بما هو مُنَزَّهٌ عَنْه.

وجاء فيه وَصْفُ الكافِرين بأَنَّهُمْ عُمْيٌ وَصُمٌّ في بَصائِرِهِم، أمَّا المؤمِنُونَ فَهُمُ البَصِيرُون السَّمِيعون فيها، وبَيانُ أَنَّ الفَرِيقَيْنِ لَا يَسْتَوْونَ في مُكْتَسَباتِهِم الإرَادِيَّةِ في رِحْلَةِ امتحانهم، فَهُمْ عند الله لَا يَسْتَوُونَ حُكْماً وَلَا جَزَاءً، وَلا دَارَ إقَامَةٍ في حَيَاةِ البقاء، فلِلْكَافِرِينَ دَارُ عَذابٍ سَيَخْلُدون فيها، وللمؤمنين دارُ نَعِيمٍ سَيَخْلُدُونَ فيها.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

توجد نصوص ثلاثة أخرىٰ حول موضوع هاتين الآيَتَيْن يَحْسُنُ تَدَبُّرُها معه تدبّراً تكامُليًّا.

تَدَبُّرٌ تكامُلِيٌّ للنُّصُوص القرآنيّة الواردة حول موضوع هاتين الآيتين:

جاءت في القرآن أربعة نُصُوص متكاملة فيما بَيْنَها في دَلَالاتها، وهي في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وفي سورة (هود/ ٥٢ نزول) وفي سورة (آل عمران/ ٨٩ نزول) وفي سورة (النساء/ ٩٢ نزول) وفيما يلي تَدَبُّرُها تَدَبُّراً تكامُلِيّاً:

أولاً: مَا جاء في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهوقول الله عَزَّ وجَلَّ فيها:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّر هذا النصّ في مكانه من سورة الإسْراء، وخلاصَتُه ما يلي:

مَنْ كان من الموضُوعينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا يُريد باسْتمرارٍ حتَّىٰ نِهَايَةِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ لَذَّاتِهِ وأَنْواعَ مَتَاعِهِ مِنَ الحياة الدنيا العَاجِلَةِ، كَافِراً بالآخِرَة، ولَا يَسْعَىٰ للنّعِيم فيها سَعْيًاما، قَدَّمْنَا لَهُ عُجَالَةً مِنْ مَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنيا، بمَشيئَتِنَا المقْتَرِنَةِ بحِكْمَتِنَا وَعِلْمِنَا بِعَبْدنا الَّذي نُعَجِّلُ لَهُ، لَكِنْ لَاحَظَّ لَهُ يَوْمَ الدِّينِ بِشَيْءٍ مِن نَعِيمِ الجَنَّة، بَلْ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابِ المجْرمينَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْتَرِقُ بِنَارِها حَالَةَ كَوْنِهِ مَذْمُوماً مَلوماً مَطْرُوداً بِعُنْفٍ وشِدَّةٍ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِنا.

وَمَنْ أراد الآخِرَة مع إرَادَتِهِ حُظُوظَهُ المقَدَّرَةَ لَهُ من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، وسَعَىٰ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ السَّعْيَ المطلوبَ مِنْهُ للظفر بنَعِيم جنَّاتِ النّعِيم في الآخِرَةِ، وهُوَ مُؤْمِنٌ بعَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانيَّةِ في الإسلام، شَكَرَ اللهُ لَهُ إيمانَهُ وَسَعْيَه، وَأَنَالَهُ في الجنَّةِ الدَّرَجَةَ المستَحَقَّة لَهُ بفَضْلِ اللهِ، والمُلائمَةَ لمَا قَدَّمَ مِنْ إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

ثانياً: ثم أنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ٥٢ نزول) الآيَتَيْنِ (١٥) و(١٦)، فَأَضَافَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيهما إلى ما جاء في سورة (الإسراء) بَيَانَ أنَّ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا بِتَجَدُّدٍ حَتَّىٰ غايَةِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، كافِراً بالآخرة وبما أعَدَّ اللهُ فيها للمحسنين والمُسِيئِين، واجْتَهَدَ في كَسْبِ

مَطَالِبِهِ من الدُّنيا بالأَسْبَابِ الَّتِي جعَلَهَا اللهُ فِي كَوْنِهِ ضِمْنَ أَنْظِمَتِهِ السَّبَبِيّة، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يمنَحُهُ نَتائِجَ أَسْبَابِهِ وَافِيَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ، فَيُصِيبُ من لَذَّاتِهِ وَمُتَعِهِ مِن دنياه مَا قَضَاهُ اللهُ لَهُ، متلائماً مَعَ مَا يتَّخِذُ مِنْ أَسْبابِها الموصِلَةِ إلى مَطْلُوبِهِ، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السّببيَّة، فإذَا أَخْطأَ السَّبَبَ أَوْ قَصَّرَ فيه أو لم يَسْتَوْفِ شُرُوطَهُ، لَمْ يَنَلْ مَطْلُوبَهُ وافياً.

أمثلة:

(١) مَنْ بَنىٰ ضِمْنَ شُرُوط البِنَاءِ المطْلُوب، واتَّخذَ الأَسْبَابَ اللّازمَةَ لَهُ ضِمْنَ أنظِمَةِ اللهِ السّببِيَّة، وَفَّىٰ اللهُ إلَيْهِ نَتيجَةَ عَمَلِه، فأعانَهُ على إقامَةِ الصَّرْحِ الّذِي أرادَ، ولَوْ كَانَ مِنْ أشَدِّ النَّاسِ كُفْراً بِرَبِّهِ.

(٢) وَمَن سَعَىٰ في صُنْعِ آلَةٍ كَطَائِرَةٍ تَطِيرُ في السَّمَاء، واتَّخذَ الأسْبابَ اللّازمة لصُنْعِها، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّببِيَّة، وفَّىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إلَيْهِ نَتِيجَةَ عَمَلِه، فأعَانَهُ على صُنْعِ آلَتِه الَّتي أرادَ صُنْعَها، لكِنَّهُ إذا أخْطَأَ أَوْ أَخَلَّ أَوْ قَصَّرَ في الشُّرُوطِ أو في الأَسْبابِ فإنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يَنْقُصُ لَهُ مِنْ مَصْنُوعِهِ بِمقْدَار خَطَئِه، أو إخْلالِه، أَوْ تَقْصِيرِه، ولَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ والتَّقْوىٰ.

(٣) وَمَنْ اجْتَهَدَ فِي حَرْثٍ ليجنِيَ ثَمراتِ زَرْعٍ، واتَّخذَ الأَسْبَابَ اللّازمَةَ لِحَرْثِهِ، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّبَبِيَّة، وَفَّىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إلَيْهِ عَمَلَهُ في حَرْثِهِ، عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا اتَّخَذَ مِنْ أَسْبَاب.

فَلَوْ كَانَ صَاحِبَا حَرْثٍ مُتَجاوِرَيْنِ، عَلَىٰ أَرْضٍ مُتَماثِلَةٍ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا مُؤْمِناً، وَكَانَ الآخَرُ كافراً.

أَمَّا الكَافِرُ فاتَّخذَ الأَسْبابَ اللَّازِمَة لِحَرْثِهِ، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّببِيَّة، لَمْ يُخطِئْ وَلَمْ يُخِلَّ وَلَمْ يُقَصِّرْ في شيءٍ مِنْها، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُوَفِّي لَهُ عَمَلَهُ في حَرْثِهِ علىٰ مِقْدَارِ مَا اتَّخَذَ مِنْ أسْبابٍ، لَا يَنْقُصه من الثّمَراتِ شيئاً.

وأمّا المؤمنُ بِربِّه فَلَمْ يَتَّخِذْ كامِلَ الأَسْبَابِ اللّازِمَةِ لِحَرْثِه، على وَفْقِ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّببيَّة، بَلْ أخْطأ، أَوْ أَخَلَّ، أوْ قَصَّرَ، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَا يُعْطِيهِ مَطْلُوبَهُ مِنْ حَرْثِه، بَلْ يُوَفِّيهِ مِنْ مَطْلوبه على مِقْدار عَمَلِه، وَقَدْ يَحْرِمُهُ مِنْ كُلِّ مَطْلُوبه إذا كانَ إخْلَالُهُ وَتقصيرُه يُفْضِي إلى الحِرْمان، ضِمْنَ أَنظِمةِ اللهِ السَّببِيَّة.

هَـٰذِهِ هي سُنَّةُ اللهِ في ظُرُوف الحياة الدُّنيا حياة الامْتحان، الشّامِلَةُ لِكُلِّ الموضُوعِينَ فِي الحياة الدنيا موضع الابتلاء، ولَكِنْ قَدْ يزيدُ المؤمِنين المتّقين مَعُونَة وَتَوْفِيقاً، لأَنَّهُمْ أَضَافُوا إلى الأَسْبَاب الماديَّة أَسْباباً مَعْنَوِيَّةً تَعَبُّدِيَّة، قد جَعَلَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَسْبَاباً جالِبَةً لِمَعُونَاتٍ غيبيَّة داخلةٍ ضِمْنَ عُمُومِ أَنْظِمَةِ اللهِ السّببيَّة.

التدبّر التحليلي لآيتَيْ سُورَة (هود):

قول الله تعالى:

- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾:

- ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم يَجْزِمُ فِعْلَين.

- ﴿كَانَ﴾: أرىٰ أنّها زائِدَةٌ لِتَوْكيدِ الدَّوام فِي فعل: ﴿يُرِيدُ﴾ أي: مَنْ يَكُنْ باسْتِمْرارٍ يُرِيدُ. وأَصْلُ الكلام: مَنْ يُرِدْ بالكَيْنُونَةِ المسْتَمِرَّةِ الحَيَاةَ الدُّنْيا وزِينَتَها فَقَطْ، بدليل العقوبة المقرَّرة لهم.

- ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا﴾: أي: نُعْطِهِمْ نَتَائِجَ أَعْمَالِهِم السَّببيَّة وافِيَةً تَامَّةً، بِحَسَبِ أَنْظِمَتِنا السَّبَبِيَّة. يُقَالُ لغة: «وَفَّىٰ الحقَّ أو الكَيْلَ وَأَوْفَاهُ» أي: جَعَلَهُ تَامّاً.

- ﴿. . . وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾: أي: وهم فيها لا يُنْقَصُون مِنْ

نَتَائِجِ أَسْبَابِهِمْ شَيْئاً، فإذا قَدَّمُوا أَسْبابَهُمْ وافيَةً أَعْطَاهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ النتائج وافِيَةً، وإذا نَقَصُوا مِنْها أعْطَاهُمُ اللهُ بحَسب مَا قَدَّمُوهُ من أَسْباب.

البَخْسُ: النقص، يقال لغة: «بَخَسَهُ حقَّهُ» أي: نَقَصَ مِنْهُ.

قول الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: أولَئِكَ البَعِيدُونَ عَنْ مَهابِطِ رَحَماتِ اللهِ بِسَبَبِ كُفْرِهم، إذْ كَانُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ لا يُرِيدُون إلّا الحَياةَ الدُّنْيا وزينَتَها، لِعَدَم إيمانِهِمْ بالآخِرَة، ومَا فيها من جزاء عَلَىٰ ما يُقَدِّمُ النَّاسُ مِنْ مَكْسُوباتٍ في حَياةِ الابتلاء، أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إلّا عَذَابُ النَّارِ الَّتِي يَكُونُون فيها خالِدين.

- ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾: «**حَبِطَ**»: أي: بَطَلَ. فالمعْنَىٰ: ومَا كانُوا قَدْ صَنَعُوا في الحياة الدُّنيا مِنْ صَالِحَاتٍ، يَبْطُلُ يَوْم الدين، فَلَا ينالُونَ عَلَيْهِ ثواباً، لأَنَّهُمْ كانُوا كافِرينَ باللهِ وبرسولِهِ وبكتابِهِ وباليَوْمِ الآخِرِ، فَهُمْ لم يَصْنَعُوا مَا صَنَعُوا مِنْ صالحات في الحياة الدُّنيا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله، فَلَا يَسْتَحِقُّونَ ثواباً عَلَيْهِ عنده.

- ﴿... وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾: أيْ: ولَيْسَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ في الدنيا ممَّا كانُوا يُحْمَدُونَ عَلَيْهِ مِنْ ثواب مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، يُثِيبُهُمْ به رَبُّهُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهم، وأَنَّهُمْ لم يكُونوا يَعْمَلُونَ ابْتِغَاء مَرْضَاةِ رَبِّهم، ونَيْلِ ثوابه، وما ينالُونَهُ من حظوظ دنْيَوِيَّة يَدْخُل ضِمْنَ أنظمة الله السَّببية الكوْنية العَامَّة لِلْحياةِ الدُّنيا.

ثالثاً: ثم أنْزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ قوْلَهُ في سُورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

فأفادَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ أنَّ سُنَّةَ اللهِ بِوَجْهٍ عَامٍّ للمؤمِنين والكافِرين، بالنِّسْبَةِ إلىٰ مكْسُوباتهم الإراديَّة، ذاتُ ثلاثَة بنود:

البند الأول: مَنْ يُرِيدُ بما يُقَدِّمُ مِنْ عَمَلٍ صالحٍ كافراً كان أَمْ مؤمِناً ثَوَابَ الحياة الدُّنيا، يُؤْتِيهِ اللهُ ثَوابَهُ مِنْها على مِقْدار عَمَلِه.

وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ مِنَ المؤْمِنين مَنْ يَعْمَلون الصَّالحاتِ وهم يُرِيدونَ بها ثوابَ الحَياةِ الدُّنيا، كالمَالِ، والمجْدِ، والثَّناءِ الحسَنِ، وحُبِّ الناس له، والعظمة والمناصِب والمراتب العليّة، «المراد بالثواب الحظوظ».

وهذا مُضافٌ إلىٰ ما اشتمل عليه النّصّان اللّذان سبَق تَنْزِيلهما في سُورتي (الإسْراء/ ٥٠ نزول) و(هود/ ٥٢ نزول).

البَنْدُ الثّاني: مَنْ يُرِيدُ بما يُقدِّم مِنْ عَمَلٍ صالح ثوابَ الآخرة، وهذا خاصٌّ بالمؤمِنين لأنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يبْتغُونَ ثَوابَ الآخرة، يُؤْتِيهِ اللهُ ثَوَابَهُ مِنها.

البَنْدُ الثالث: مَنْ يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ الصَّالِحَةَ من أَهْلِ الإيمان، مُلاحِظاً بِعَمَلِهِ لَهَا أَنَّهُ يَشْكُرُ رَبَّهُ علَى مَا أَوْلَاهُ من نِعَم، وأنَّهُ مَهْمَا عَمِلَ فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْكُرَ رَبَّهُ عَلَىٰ آلائِهِ وَمَا تفضَّلَ وَيَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْهِ، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ سَيُعْطِيهِ ثَوابَهُ كَطَالِبِي ثواب الآخرة، وسَيْجزِيهِ ثواباً أكْبَرَ وأعْظَمَ مُقَابِلَ كَوْنِهِ من الشَّاكِرِين.

وهذا مضافٌ أيضاً إلى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّصَّانِ اللّذان سبَقَ إِنْزَالُهما.

* * *

رابعاً: ثمّ أنْزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قوْلَه:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾:

في هَٰذِهِ الآيَةِ تَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ في أنْ يَبْتَغُوا بأعمالِهِم الصَّالِحَةِ ثَوَابَ الآخِرَةِ، ولو كانَتْ مَطامِعُ نُفُوسِهِمْ متعلّقَةً بثَوَابِ الدُّنيا، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ ذُو فَضْلٍ، إذَا طَلَبُوا ثوابَ الآخِرَةِ لَمْ يَحْرِمْهُمْ مِنْ ثواب الدُّنيا، بَلْ يَجْمَعُهُما لَهُمْ، أشار إلى هذا قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ﴾.

ولمَّا كانت المكْسُوبَاتُ الصَّالحات تَنْقَسِمُ إلَىٰ أقوالٍ وأفْعَالٍ جَسَدِيَّةٍ أو نَفْسِيَّة، كانَ مِنَ المناسِب أَنْ يَخْتِمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ الآية بقوله: ﴿... وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾: أي: واللهُ بالكَيْنُونَةِ الدائِمَةِ الأزليّة الأبَدِيَةِ، سَمِيعٌ لكُلِّ مَا يُمْكِنُ عقلاً سَمْعُه، بَصِيرٌ لكُلِّ ما يُمْكِنُ عَقْلاً رُؤْيَتُه، لا يخفَىٰ عليه من المَسْمُوعَاتِ ولا من المرئيات شيء.

وفي هَٰذا الختام للآيةِ تَذْكِيرٌ بعُنْصُرٍ عظيمٍ من عناصر القاعدَة الإيمانيَّة في الدّين الّذي اصْطَفاه اللهُ لعباده.

وظاهر أنَّ ما جاء في هذه الآية لم يأتِ نظيره في الآيات السابقات.

* * *

أتابع تدبّر ما جاء في الدرس الخامس من سورة (هود):

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾:

البيّنَة: هي الواضحة الظَّاهِرَةُ الَّتِي لَا شَكَّ فيها ولا غُمُوضَ ولَا غَبَشَ عليها، من «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَاناً» أي: اتَّضَحَ وظَهَرَ، فَهُو «بَيِّنٌ» وهِيَ بَيِّنَةٌ. وأُطْلِقَتِ «البَيِّنَةُ» في القرآن على الرِّسَالَةِ الرَّبَّانيَّة الواضِحَة، وعلى الرَّسول، والصُّحُفِ والكُتُبِ المُنزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وعَلَىٰ الآيَاتِ المعْجزَاتِ الواضِحَاتِ الجَلِيَّات، وعلى البَرَاهِينِ الواضِحَة القَاطِعَة، وعلَىٰ الحقائِقِ الواضِحَةِ الجَلِيَّةِ الَّتِي تَشْهَدُ لَهَا قواطِعُ الحُجَج والبَرَاهِين.

ولفظ «بَيِّنَة» أو «البَيِّنَة» قَدْ يأتي صِفَةً لموصُوفٍ مَحْذُوفٍ، ويُقَدَّرُ في كُلِّ مَوْضُوعٍ مَا يُنَاسِبُهُ.

- ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾: أي: ويَتْبَعُهُ مَا يَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ ومَا يَدْعُو إلَيْه ويُخْبِرُ بِهِ حَقٌّ.

يقالُ لغة: «تَلَاهُ، يَتْلُوهُ، تُلُوّاً» أي: تَبِعَهُ، فَهُو «تَالٍ» له.

والمرادُ بالشاهد هنا القرآن، بدَليلِ عَطْفِ التوراة كتاب موسىٰ عَلَيْه.

﴿إِمَامًا﴾: **الإمام**: مَا يُؤْتَمُّ بِهِ، وَمَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، أي: يُتَّبَعُ.

﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: أطْلَقَ اللهُ عزَّ وجَلَّ في القرآن لفظ «الأحْزَاب» بالجَمْعِ على أحْزَاب الكافرين: «قوم نوح، وعادٍ، وثَمُود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهم، وكُفَّارِ العَرَبِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ الله محمّداً ﷺ» وأطْلَقَ عَلَيْهِم جميعاً أَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطان.

أَمَّا المؤمِنُونَ مِنْ كُلِّ أَتْباع الرُّسُل فَهُمْ أُمَّةٌ واحِدَة، وهُمْ حِزْبُ الله.

الحِزْبُ: الجماعَةُ المتَّفِقَةُ المتناصِرَةُ على أمْر، والجماعَةُ الّذِينَ تَشَاكَلَتْ مبادِئُهُمْ وأهْوَاؤُهُمْ، واتَّفَقَتْ أَعْمَالُهُمْ.

المَوْعِدُ: يُطْلَقُ على الوَعْد، وعَلَىٰ مَكَانِ الموعود به، وعلى زَمَانِه، والملائم منها في هذه الآية: «الوَعْدُ» و«مَكَانُ الموعُود به» وهي دَارُ عذاب المجرمينَ يَوْمَ الدّين.

- ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: أي: فَلَا تَكُ في شَكٍّ مِنْهُ.

المعنى الّذي ظَهَرَ لي بفتح من الله الَّذِي دَلَّت عَلَيْهِ فِقَرَاتُ هَـٰذِهِ الآيَة، هو مَا يلي:

المؤمنُ الصادقُ هو عَلَىٰ حَقَائِقَ وَاضِحَةٍ ظَاهِرَةٍ، مُؤيَّدَةٍ بِبَرَاهِينهَا وأدِلَّتِهَا الجَلِيَّة، وهيَ مَمْنُوحَةٌ لمَدَارِكِهِ الفِكْرِيَّةِ والعَقْلِيَّةِ مِنْ رَبِّهِ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالقَاعِدَةِ الإيمانيَّةِ والمَفْهُومَاتِ الدِّينيَّةِ الصَّحِيحَة، وَيَتْبَعُهُ شَاهِدٌ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ القُرْآنُ مع الرَّسُولِ المُؤَيَّدِ بالمعجزاتِ البَاهِرَاتِ، وَشَهَادَةُ هَـٰذا الشّاهِدِ مُطَابِقَةٌ لِلْبَيِّنَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْها مِنْ رَبِّهِ بِاسْتِعْلَاءِ تَمكُّنٍ وَتَثَبُّتٍ من أَنَّهَا حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وهَـٰذا الشَّاهِدُ مَسْبُوقٌ بِشَاهِدٍ نَظِيرِهِ وهُوَ التَّوْرَاة الكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ على مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وَفِيهِ بِشَأْنِ القَاعِدَةِ الإيمانيَّةِ وَنِظَام السُّلُوكِ الإسلاميّ مِثْلُ مَا فِي القرآن، حَوْلَ أَرْكَانِ الإيمانِ، وَنَظِيرُ قَوَاعِدِهِ الكلّيَةِ العَامَّةِ النَاظِمَةِ للسُّلُوكِ الإنْسَانِيِّ السَّوِيِّ.

أفَهذَا المؤمِنُ الَّذِي هُوَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ يَتَخَبَّطُ في الضَّلالاتِ ويَتِيهُ فِي العَمَايَاتِ مِن أَحْزَابِ الكُفْرِ؟.

إنَّهُمَا لا يَسْتَوِيَان، بَلِ المُؤْمِنُ مَوْعِدُهُ جَنَّاتُ النَّعِيم، وَمَنْ يَكْفُرْ بهذا الحَقِّ الرَّبَّاني مِنَ الأَحْزَابِ الَّتِي تَجْتَمِعُ تَحْتَ رعايَةِ حِزْب الشَّيْطان فالنَّارُ مَوْعِدُه.

فَلَا تَكُ أيُّهَا المؤمن فِي شَكٍّ مِمَّا أنتَ عَلَيْهِ، إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَاثْبُتْ عَلَيْهِ، وَلَا تَعْبأْ بأَكْثَرِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُون، اتّباعاً لِأَهْوائهم وشَهَوَاتِهِمْ، وانْسِياقاً وَرَاء الشّياطين وضلالاتهم وظُلُماتِهِم، وشُبُهَاتِهِم، وزُخْرُفِ دِعَايَاتهم، وزُيُوف مذاهبهم.

تَدَبُّر فِقرَاتِ الآية:

- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟: أي: أفَمَنْ هُو مُسْتَقِرٌّ ثابِتٌ مُتمكِّنٌ عَلَىٰ حَقَائِقَ بَيِّنَةٍ ظَاهِرَةٍ، هِيَ مِنْ قَضايَا الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ العُقُولَ والنُّفُوسَ عَلَيها، وفي مُقَدِّمَتِهَا الإيمان باللهِ وكمال صفاته، وتنزُّهِهِ عمَّا لَا يليق به، ووَحْدَانِيَّتُهُ في رُبوبيَّته وفي إلَهيَّته، إلى سائرِ العقائد الإيمانيَّة، ومنها كمال حِكْمَةِ اللهِ في تصاريفه، كوَضْع الناس في الحياة الدُّنيا موضع الابتلاء، وإرْسَالِ الرُّسُل، وإنْزَالِ الكُتُب.

- ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: أي: وَيَتْبَعُهُ شاهِدٌ مِنْ رَبِّه، يَشْهَدُ لَهُ بِصِحَّةِ الحقائِقِ البيِّنَة الظاهِرَةِ، الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا بحجج العقل وبراهِينه، وهَـٰذا الشَّاهِدُ هُوَ القُرآنُ الَّذِي يُبَلِّغُهُ رَسُولٌ مُؤَيَّدٌ من رَبِّهِ بالآياتِ المعجزَاتِ البيِّنات.

- ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: أي: ومِنْ قَبْلِ نُزُولِ القرآن نَزَلَ شَاهِدٌ آخَرُ مِنْ رَبّه، وهو التوراةُ الكِتَاب الَّذِي أنْزَلَهُ على مُوسَىٰ، حَالَةَ كَوْنِهِ إمَاماً يُؤْتَمُّ بِهِ فِي مَعْرِفَةِ الحقائق الإيمانيَّة الكُبْرىٰ وكُلِّيَّاتِ الدِّين، وَحَالَةَ كَوْنِهِ أَثَرَ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لعباده، بما فيه من حَقٍّ وهِدَايَةٍ وخَيْر.

كُلُّ هَـٰذِهِ العباراتِ مُسَلَّطٌ عَلَيْها الاسْتِفْهامُ الَّذِي صُدِّرَتْ بِهِ جُمْلَة: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ ومُعَادِلُ هذا المسْتَفْهَم عنه مطويٌّ في المثانِي، ويُمْكِنُ اسْتِنْباطُهُ ذِهْناً، وتَقْدِيره: كَمَنْ يَتَخَبَّطُ في الضَّلالَاتِ، والمتاهَات الفكْرِيَّةِ، وتجْتَالُهُ شياطِينُ الإنْسِ والجِنّ، وتَسُوقُهُ أوْ تَقُودُهُ إلى شَقَائِهِ الأبَدِي في عذاب النار؟.

إنَّ بَيْنَهما من الفرق كما بَيْنَ الجنَّةِ السَّامِيَةِ وسَواءِ الجحيم.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: أي: أُولَئِكَ رَفِيعُو المنزلَةِ الفضلاء العُقَلاءُ

يُؤْمِنُونَ بالقرآن، وإيمانُهُمْ بالقرآن يَسْتَلْزِم إيمانَهُمْ بالرَّسُول الَّذِي يَتْلُوه بَلاغاً عن رَبّه.

جاءت الإشارة باسْم الإشارة الذي يُشَار به إلى الجماعَة، مُراعاةً لمعنى «مَنْ» في: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ إذ لفظ «مَنْ» يَصِحُّ أَنْ يُعَامَلَ مُعَاملَةَ المفرد باعتبار لفظه، ويصِحُّ أَنْ يُعَامَلَ مُعَاملة الجمْعِ باعتبار مَعْنَاه، وقَدْ رُوعي في هذه الآية الاعتباران.

● ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾: أي: ومَنْ يَكْفُرْ بالقرآنِ وبالرَّسُول الَّذِي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ، مِنَ الأحْزاب المضادّةِ لِحِزْب الله، والَّتِي تَتبعُ خُطُواتِ الشَّيْطان، فعِقَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّين عذَابُ النَّار، ودَارُ العَذَاب النَّارُ هِي المكان الَّذِي يَتحَقَّقُ فِيه العَذَابُ الموعُود به.

● ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: أي: فيا مَنْ أَنْت عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّك، لَا تَكُنْ في شَكٍّ مِنْ أَنَّ القُرآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ الله، وَلَا تَكُنْ في شَكٍّ مِنْ أنَّ المبَلِّغَ لَهُ عَنْ رَبِّهِ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حقًّا وَصِدْقاً، إِذْ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ القرآنِ مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ أَنْ يَكُونَ المبَلِّغُ لَهُ عَنْ رَبّه صَادِقاً في دَعْوَىٰ أَنَّهُ نبيُّ اللهِ ورسُوله.

● ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أي: كُنْ علَىٰ يَقينٍ لَا شَكَّ يُخَالِطُهُ، بأنَّ القُرْآنَ هُوَ الحقُّ بالنِّسْبَةِ إلىٰ كُلِّ الاحتِمالَات المضادّاتِ لَهُ، وَكُنْ عَلَىٰ يَقِينٍ بأنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ رَبِّ العالمين.

● ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ١٧﴾: أي: وعلى الناس جميعاً أَنْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا، لاقْتِرَانِهِ بالحجَجِ الواضِحَةِ السَّاطِعة، والبَراهين القاطِعَةِ، وَمَقاييس الفِطَرِ السَّليمة، ولَكِنَّ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ، أي: لأَنَّهُمْ لَا يَسْتَجيبُونَ لِدَعْوَة الحَقِّ الّتِي تُخَالِفُ أَهْوَاءهم وشهواتهم ومطالِبَهُمْ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا العَاجِلَة، بَلْ يَتَبِعُونَ ضَلَالَاتِ الشَّيْطانِ

وَوَسَاوِسَهُ، وتَلْبِيسَاتِهِ، وتَسْوِيلاته إذْ يُطْمِعُ مُتَّبِعي خُطُواته بالباطِلِ، فيَقُودُهم إلى عذاب السَّعِير، ويَتَّبِعُونَ الأَئِمَّةَ المضلّين جُنُودَ إبليسَ من الناس.

قول الله عزّ وجل:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

دَلَّت هَاتَانِ الآيَتَانِ عَلَىٰ أئِمَةِ الإِغْرَاءِ والإغواء والضَّلَالِ مِن الناسِ، الَّذِينَ يَتَّبِعُهُمْ أكْثَرُ النَّاسِ، فَلَا يُؤْمِنُونَ بِالحَقِّ الَّذِي يأتِيهِمْ مِنْ رَبّهم.

وَهؤلَاءِ الأَئِمَّةُ المُضِلُّونَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ أكَاذِيبَ، جُحُوداً باللهِ، أو إشْرَاكاً فِي رُبُوبِيَّتِهِ أوْ في إلَهيَّته، أو إصْدَاراً لأحْكام باطِلَةٍ فيها تَحْلِيلُ مَا حَرَّمَ اللهُ، أَوْ تَحْرِيمُ مَا أحَلَّ، وفيها وضْعُ قوانِينَ وَأَنْظِمَةٍ لَمْ يَأْذَنْ بها اللهُ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

هـٰؤلَاءِ الـمُفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنهم، وقَدْ يُوجَدُ مَنْ يُشَارِكُهُمْ في دَرَكَةِ الظُّلْم.

تَدَبُّر فقَرَاتِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ مَنْ هُوَ أشَدُّ ظُلْماً مِنَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ كذِباً.

افْتَرَىٰ الكَذِبَ: أي: اخْتَلَقَهُ وافْتَعَلَهُ عَامِداً وَهُوَ يَعْلَمُ أنَّه كَذِب.

أي: لَا أحَدَ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً، إذْ هُوَ يَتَلاعَبُ بأقْدَسِ المقَدَّسَاتِ الَّتِي اصْطَفَاهَا اللهُ دِيناً لعباده في حياة الابتلاء، فَيُفْسِدُ عقائِدَ الناسِ، ومَفْهُومَاتِهِم في الحياة، وَيُضِلُّهُمْ عَنْ سَبِيل الله الحقّ، سبيلِ الهُدَىٰ والرَّشادِ والخير الموصل إلى جنات النعيم.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أُولئِكَ البُعَدَاءُ المنحطُّونَ إلى أسْفَل سَافِلِينَ، يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَوْمَ القيامة؛ لمحاسَبَتِهِمْ على كُفْرِهِمْ وافْتِرَاءَاتِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وفصلِ القَضَاء بِشَأْنِهِمْ.

- ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾:

﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: أيْ: الشُّهُود، جَمْعُ «الشَّهِيد» وهم الَّذِينَ يُسْتَدْعَوْنَ لِتَقْدِيم شَهادَاتِهِمْ عَلَىٰ الَّذِينَ عَلِمُوا في الدُّنْيا أَنَّهُمْ افترَوْا عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ، من الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ وأَعْوَانِهِمُ المشارِكِينَ لهم في الإغْراء والإغْوَاءِ والإضْلَالِ والمنَافِعِ الدُّنيويَّة.

أيْ: فَيُقَدِّمُ هَـٰؤُلَاءِ الأَشْهَادُ شهادَاتِهِمْ قائِلِين: هَـٰؤُلَاءِ الّذِين كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ فِي الحياة الدُّنْيا، لِيُضِلُّوا النَّاس عن صراطه المستقيم، وفي مُقَدِّمةِ هؤلاء الأشهاد من كانوا في الدُّنْيا شاهدين أحوالهم من الملائكة، ثمّ من الناس.

- ﴿... أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾: أي: وَيحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ ظالِمُونَ مِنْ أخسِّ دَرَكَات الظُّلْم، وأنّهم مِنْ أهْلِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، عِنْدَئِذٍ يَقُولُ الأَشْهادُ وَحَاضِرُوا مَجْلِس المحاكَمةِ من غَيْرِهم: أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ.

- ﴿أَلَآ﴾: أداة اسْتِفْتَاحٍ وَتَنْبيهٍ وتَحْقِيقٍ.

اللَّعْنَة من الله: الطَّرْدُ والإبعاد عن مهابط تنزُّلات رحْمَتِهِ إلى مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ نِقْمَتِهِ وغَضَبِهِ وعَذَابه.

واسْتُعْمِل حرْفُ «عَلَىٰ» للدّلالَةِ علَىٰ نُزُولِ عَذَابِ اللهِ من فَوْقِهِمْ، لأنَّ لَعْنَةَ اللهِ مَصْحُوبَةٌ بِتَعْذِيبه لَهُم، والتَّعْذِيبُ من شَأْنِهِ أن يكون مُسَلَّطاً عليهم من فوقهم.

هذا اللّعْن هو غير اللّعْن الذي يؤَذّنُ به المؤذّنُ بَيْنَ أصْحاب الجنَّة وأصْحابِ النّار، الّذِي جاء في الآية (٤٤) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) لاختلاف الموقعين.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾:

﴿يَصُدُّونَ﴾: أي: يَمْنَعُونَ ويَصْرِفُون.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: عن الطّرِيقِ المُوصِلِ إلى مَرْضَاةِ اللهِ ونَوَالِ آثارِ رَحْمَتِهِ في جنّاتِ النعيم، ومعلوم أنّ سبيل الله مُسْتَقِيمةٌ لا عِوَجَ فيها.

﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾: أي: يُرِيدُونها ويَطْلُبُونَها.

﴿عِوَجًا﴾: **العِوَجُ**: بكسرِ العَيْنِ، هو عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ في الأشياء المعنوية. أي: ويُرِيدُونَ سَبِيلَهُمْ سَبيلاً عِوَجاً، لا اسْتِقَامَةَ لَهَا، على خلاف سبيل اللهِ المستقيمة.

أُعِيد الضمير علَى مَا أرى في: ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ عَلَىٰ مُطْلَقِ السَّبيلِ المفهومِ من عِبارَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: الَّذِينَ يَمْنَعُونَ وَيصْرِفُونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ المستَقِيمَةِ الّتِي تُخَالِفُ أهواءَهُمْ، وَمَا يَحرِصُونَ عَلَىٰ تَحْقِيقِهِ من مَطَالِبِهِمْ من الحياةِ الدُّنيا، وَيُرِيدُونَ سَبِيلَهُمُ الَّتِي يَسْلُكُونَها وَيَدْفَعُونَ الّذِين يَسْتَجِيبونَ لهم إلى سُلُوكِهَا، أنْ تَكونَ سَبيلاً عِوَجاً، لأنَّ أهْوَاءَهُمْ ومَصَالِحَهُمْ مِنَ الحياةِ الدُّنْيا لَا تَتَحقَّقُ إلَّا بالسُّبُلِ غَيْرِ المسْتَقِيمة، أمَّا الآخِرَةُ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، فَهُمْ لا يَعْبَؤُونَ بها وَلَا يَكْتَرِثون لَها، دَلَّ على هذا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بشَأْنِهِم:

- ﴿... وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾: جاء التَّوكِيدُ بضمير الفَصْلِ في ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ إصْرارِهِم بِعِنَادٍ على الكُفْرِ بالآخِرَة. ودَلَّ

تقْدِيمُ المعْمُولِ: ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾ على عامله: ﴿كَفِرُونَ﴾ على تخْصِيصهم الآخِرَةَ بكُفرٍ زائدٍ لإبْعاد تَصوُّراتِ الجزاء عَنْ أذْهَانِهِمْ إبعاداً كُلّيًّا، وحَصْرِ كُلِّ هَمِّهِمْ وإرادَاتِهِمْ وعَزَائِمِهم بمَطَالِبِهِمْ من الحَيَاةِ الدُّنيا ولَذَّاتِهِمْ وشَهَوَاتِهِمْ مِنْها.

هَـٰذِهِ الآيَةُ يَصِفُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِها وَاقِعَ حَالِ الأَئِمَّةِ الّذِينَ يَفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ، مع حَالِ أنْصَارِهم المُضِلّينَ، وهُمْ في الحياةِ الدُّنيا حَيَاةِ الابْتِلَاء، ولَيْسَتْ من تَوابِعِ المشْهَدِ الذي هو من مشاهِدِ يَوْم الدِّينِ، الّذِي تَحدَّثَتِ الآية السابِقَةُ (١٨) عنه.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

يَعُود البَيَانُ في هَـٰذِهِ الآيَاتِ إلَىٰ أجْواءِ يَوْم الدِّين، بالحديث عَنِ الّذين كانُوا في الدُّنْيَا يفترون على اللهِ الكَذِبَ، ويَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ وَيَبْغُونها عِوَجاً، على سَبيلِ التَّنَقُّلِ بَيْنَ الأزْمان، إذْ هِيَ كُلُّها بالنِّسْبَةِ إلَىٰ اللهِ عَزَّ وجَلَّ كالحَاضر.

- ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أولئك الّذين كانوا يَفْتَرُونَ على اللهِ الكذِبَ في الدُّنيا، لَمْ يَكُونُوا قادِرين على أن يَفْلَتُوا مِنَ القَبْضِ عَلَيْهم، وإنْزَالِ عُقُوبَةِ رَبِّهِمْ بهم، إلّا أنَّ ظُرُوفَ الحَيَاةِ الدنيا قَدْ كَانَتْ ظُرُوفَ امْتِحَانٍ، والحِكْمَةُ فِي امْتِحَانِ الممتَحَنِ تقتضي تَمْكِينَهُ مِنْ حُرِّيَّةِ التَّحرُّك، وتأْخِيرَ مُجَازَاتِهِ إلىٰ يوم الدِّين، باستثناء بَعْضِ جزاءات تَقْتَضِي الحِكْمَةُ تَعْجِيلَهَا، أَمْثِلَةً لقانُونِ اللهِ في الجزاءِ، أوْ لِأَنَّ الطَّاغِينَ

المفْسِدِينَ قَدْ سَبَّبَ طغْيَانُهُمْ العظيمُ مَنْعَ مُعْظَمِ جَمَاهِيرِ النَّاسِ في بِيئَتِهِمْ مِنَ الإيمان بدينِ اللهِ واتّباعِ وصَاياه.

﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾: أي لَمْ يَكُونُوا قادِرينَ على الهَرَب إفْلَاتاً من القَبْضِ عليهم ومُعَاقَبَتِهِم. يُقَالُ لغة: «أعْجَزَ فُلانٌ» أي: سَبَقَ فلَمْ يُدْرَكْ، ويُقَالُ: «أعْجَزَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: فَاتَهُ وَلَمْ يُدْرِكْه.

- ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: أي: وما كان لَهُمْ في الحياة الدُّنْيا مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ نُصَراءَ يَنْصُرُونَهُمْ، ويَحْمُونَهُمْ من عذابِ اللهِ لَوْ شَاءَ إنْزالَ عَذَابِهِ المعجَّلِ فيهم، ومَعْلُومٌ أنَّ كُلَّ مَنْ هُمْ سِوىٰ اللهِ هم مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ شيئاً لَمْ يُمَلِّكْهُمُ اللهُ إيَّاه، أو لَمْ يَأْذَنْ بِتَمَلُّكِهِمْ إيَّاه.

«مِنْ» فِي: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ زِيدَتْ لتَوْكِيدِ نَفْيِ وُجُودِ كُلِّ وَلِيٍّ لَهُ قُدْرَةٌ ما عَلَىٰ نُصْرَتِهِم.

- ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: أيْ: يُزَادُ لَهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيامَة، إلَىٰ مِثْلَيْهِ أَوْ أَكْثر، يُقَال لغةً: «ضَاعَفَ الشيْءَ، وضَعَّفَهُ، وَأَضْعَفَهُ» أي: زادَ عَلَيْه، وجَعَلَهُ مِثْلَيْهِ أَوْ أَكْثَرَ.

والسَّبَبُ في مُضَاعَفَةِ العَذَابِ لَهُمْ أَنَّهُمْ ضَالُّون في نُفُوسِهِمْ، وعَامِلُونَ على إضْلَالِ غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ بالإغْرَاءِ والإغْوَاء واتِّخاذِ مُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الإضْلَالِ والإفْساد.

- ﴿. . . مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: لَقَدْ كَانَتْ مَرَاكِزُ سَمْعِهِمْ ومَرَاكِزُ إبْصَارِهِمْ في داخِلِهِمْ، في الحياة الدنيا حَيَاةِ الابتلاءِ، مَحْجُوبَةً بِحُجُبٍ كَثِيفَةٍ طَاغِيَةٍ تَحْجُبُ مَا تَتَلَقَّاهُ آذانُهُمْ مِنْ بَيانَاتٍ رَبَّانِيَّة، وتَحْجُبُ مَا تَتَلَقَّاهُ أَعْيُنُهُمْ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، فَلَا تَصِلُ إلَيْهَا حَتَّىٰ يُدْرِكُوها بِوَعْي.

ولَا بُدَّ أَنْ تكُونَ هَـٰذِهِ الحُجُب أطْبَاقاً مِنْ أهواء النفس، وشَهَواتِها، ومَطَالِبِهَا مِنَ الحياةِ الدُّنْيا العَاجِلَةِ، وقناعاتٍ زُخْرُفِيّاتٍ باطِلَاتٍ بأنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الحياة الدُّنيا حَياةٌ أُخْرَىٰ، يُجازِي اللهُ فِيها عِبادَه عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا، وتقاليدَ عَمْيَاءَ، وكِبْرٍ، وَرَغْبَةٍ فِي الفُجُور، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُجُبٍ هِيَ أَطْبَاقٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْض.

- ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢﴾:

البيان الرَّبّاني يُتابعُ الحديثَ عَنِ المضِلّين عن صراط الله، وهم الذين يفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ، ويَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله، فيَصِفُهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، إذْ جَلَبُوا لَهَا عَذَاباً أَبديًّا خالِداً في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النَّارِ، وأيُّ خُسْرَانٍ أعْظَمُ مِنْ أنْ يَخْسَرَ الإنْسَانُ نَفْسَهُ وهو حَيٌّ مُدْرك، ولِهَـٰذا جاء في البيان أَنَّهُمُ الأَخْسَرُونَ، أي: هُمْ أَكْثَرُ الخاسِرِينَ خُسْرَاناً.

ومَا كانُوا يَفْتَرُونَهُ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ أَكاذِيبَ يَزْعُمُونَ بِهَا أَنَّهُ لا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ ولا جَزَاءَ، أوْ يَزْعُمونَ بِهَا أَنَّ شُرَكَاءَهُم يَنْصُرُونَهُمْ، فَيَحْمُونَهُمْ مِنْ عذاب اللهِ، أو يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ الله، تَضِلُّ عَنْهُمْ وَتَضِيعُ، فَلَا يَجِدُونَ لَهَا أثراً، عندئذٍ يَنْدَمُونَ، ولَكِنْ لَا يُجْدِيهم نَدَمُهُمْ شيئاً.

جاء لفظ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بِصِيغَةِ جَمْعِ القِلَّةِ، لِأَنَّ المُضِلِّينَ الأَئِمَّةَ في كُلّ أُمَّةٍ يَكُونُونَ في العَادة أفراداً مَعْدُودِين قَلِيلِينَ.

﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكيدِ الكلام وَتَوْثيقه، وقد تَحْمِلُ معنى القَسَم، فهي بمنْزِلَةِ: «حَقًّا ـ لَا بُدَّ ـ لَا شَكَّ ـ لا مَحالَة».

أصل معنى الجرْمِ القَطْعُ، ويأتي بمَعْنَىٰ اكْتِسَابِ الذَّنْب.

أقول: فكَأَنَّ المعنى: لَا جَرم جَارِمٌ مَا أقولُ بِرَأْيٍ مُخَالِفٍ له. ثُمَّ حَصَل الاكتفاء بِعبارَة: «لَا جَرَمَ».

قول اللهِ تعالى بشأْنِ فَرِيق المؤمنين أصحاب الجنَّة:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٣﴾

﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: اطْمَأَنُّوا وخَشَعُوا وتَواضَعُوا. يُقَالَ لُغَةً: «أَخْبَتَ إِلَيْهِ» أي: اطْمَأَنَّ إِلَيْه. و«خَبَتَ المكانُ» أي: اطْمَأَنَّ وانْخَفَض.

فالمعنى: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بأرْكانِ القاعِدَةِ الإيمانيَّةِ إيماناً صَحِيحاً صَادقاً بإرادَةٍ حُرَّةٍ، وعَبَّرُوا عنْ صِدْقِ إيمانِهِمْ بأعْمالٍ صالِحَةٍ مِنْ مَرَاضِي الله، يَبْتَغُونَ بهَا رضوانَ اللهِ وثوابَهُ، واطْمَأَنُّوا خاشِعِينَ مُتَواضِعِينَ مُتَذَلِّلِين إلى رَبِّهم غَيْرَ مُستكْبِرِينَ عَنْ عبادَتِه، هُمْ أصْحَابُ مَنَازِلَ رَفِيعَةٍ عند الله، وهُمْ أصْحَابُ الجنَّةِ هُمْ فيها خالِدُونَ خُلُوداً أبَدِيًّا.

قول الله عَزَّ وجَلَّ يُبيّن مَثَلَ كِلَا الفريقين وأنَّهما لَا يَسْتَوِيان:

﴿۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾؟.

أي: وَصْفُ الفريقِ الذي يَفْتَرِي عَلَىٰ اللهِ كالأَعْمَىٰ والأَصَمّ، وَوَصْفُ فَرِيقِ أصحاب الجنَّةِ كالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، فمن لا يَرىٰ آياتِ اللهِ الدّالَّات على قانون الجزاء الرَّبَّانِيّ، هُوَ كالأعْمَىٰ، ومَنْ لا يَسْمَعُ بَيانَاتِ اللهِ الحقّ في آياته المنزّلَاتِ هو كالأصم، بخِلافِ مَنْ يَرَىٰ ويَسْمَعُ فيُؤْمِنُ ويَسْتَجِيبُ لدَعْوَة الحقّ، وتوزيعُ وصْفَي العَمَىٰ والصمم وضدّهما على الفريقين ظاهِرٌ بداهَةً، وبَدَهِيٌّ أنَّ الفَرِيقَيْنِ لَا يَسْتَويان، وعَدم اسْتِوائهما عقلاً يَدُلُّ على أنّهما لا يُمْكِنُ أنْ يَسْتَويا جزاءً، بحَسَب حِكْمَةِ اللهِ الذي يقُومُ جزاؤه لعباده على العَدْلِ والفضل جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

- ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥﴾؟ خطابٌ مُوجَّهٌ لكُلِّ مُتَلَقٍّ أو تَالٍ لآياتِ الله بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الّذي يُرَادُ به الحضُّ عَلَى التَّذَكُّرِ، للمُسْتَعِدِّينَ له، والتَّلْوِيمُ عَلَىٰ عَدَمِ التَّذَكُّر للمتهاوِنِينَ به.

أي: أفلا تَضَعُونَ هذه الحقائِقَ في ذَاكِرَاتِكُمْ، لِتَدْفَعَكُمْ إِلَىٰ العَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا في سلُوكِكُم النَّفْسِيّ والجَسَدِيّ، لِتَغْنَمُوا مَرْضَاة رَبّكم، وتَظْفَرُوا بالخُلُودِ في جَنَّاتِ النَّعِيم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الخَامِسِ من دُروس سورة (هود).

والحمد لله على معونَتِه وتَوفيقِهِ ومَدَدِه وفَتْحِه.

* * *

(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السّادس من دُروس سورة (هود) الآيات من (٢٥ ـ ١٠٨)

وفيه لقطات تكمِيليَّاتٌ لما سبَقَ أَنْ أُنْزِلَ في السُّوَرِ قبل سورة (هُود) مِنْ قِصَص (نُوحٍ، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشُعَيب، وَمُوسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ» مع ختام تَذْييليّ فيه موعظةٌ وتذكير بالآخرة وما فيها من جزاء.

وَقد اخْتَرْتُ أنْ أُقَسِّمَ هذا الدَّرس إلى سبْعة فصول:

الفصل الأول: لقطات من قِصَّة نوح وقومه، وهو الآيَاتُ من (٢٥ ـ ٤٩).

الفصل الثاني: لقطات من قصة هود وقومه، وهو الآيات من (٥٠ ـ ٦٠).

الفصل الثالث: لقطات من قصة صالح وقومه، وهو الآيات من (٦١ ـ ٦٨).

الفصل الرابع: لقطات من قصة إبراهيم ولوط، وهو الآيات من (٦٩ ـ ٨٣).

الفصل الخامس: لقطات من قصة شعيب وقومه، وهو الآيات من (٨٤ـ٩٥).

الفصل السادس: لقطات من قصة موسَىٰ وفرعون، وهو الآيات من (٩٦ ـ ٩٩).

الفصل السابع: خِتامٌ تذييلي فيه موعظة وتذكِيرٌ بالآخرة وما فيها من جزاء، وهو الآيات من (١٠٠ ـ ١٠٨).

الفصل الأول من الدرس السادس

لقَطات من قِصَّة نوح عليه السلام وقومه

الآيات مِنْ (٢٥ ـ ٤٩)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلِۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ

ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ
رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ
يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا
ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ
ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ
رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ
يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ
أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى
بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ
بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا
قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾:

تمهيد:

هذا هو النّصّ الحادي عشر من أَصْلِ (٢٨) نَصًّا جاءت في القرآن بشَأْن نوحٍ وقومه.

وقَدْ تَدَبَّرْتُ بمَعُونَةِ اللهِ هَـٰذِهِ النُّصُوص فِي كتابي «نوح عليه السَّلام وقوْمُهُ في القرآن المجيد» ورأيْتُ أنّها مُتكامِلَةٌ فيما بيْنَها.

ويُلاحظُ في الآيَةِ (٣٥) مِنْ هَـٰذا النَّصّ أنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ عَرَضَ قَضِيَّةً تَتَعَلَّقُ بالرَّسُولِ محمَّد ﷺ، وهي ادّعاءُ مُشْركي مَكّةَ أنَّهُ افْتَرَىٰ القرآنَ ونَسبَهُ إِلَىٰ الله، وأنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فقالَ اللهُ عَزَّ وجلَّ في أَثْنَاءِ آياتٍ تَتَعلَّقُ بِقِصَّةِ نوح عليه السّلام، يُعَلِّمُ رَسُولَهُ محمّداً الرَّدّ الذي يَحْسُنُ أن يَرُدَّ به عَلَىٰ المشركين:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

فَدَلَّ إِدْخَالُ هَـٰذِهِ الآيَةِ في غُضُونِ آياتٍ تَحْكي لَقَطَاتٍ من قصّة نوحٍ عليه السّلام مع قومه، وردّه على مَقَالَاتهم على ما يلي:

(١) التعريض لِمُكذّبي الرَّسُول محمد ﷺ بأَنْ يَأْخُذُوا الرَّدَّ علَىٰ مَقَالَاتِهِم المُشابِهَات لمقالَاتِ قَوْمِ نوح، ممَّا أجابَ بِهِ نُوحٌ قَوْمه.

(٢) الإِلْمَاحُ إِلَىٰ أَنَّ قُلُوبَهُمْ وأَسَالِيبَ تَفْكِيرِهِمْ وإِدْرَاكِهِمْ لِلأُمُور، أَخَذَتْ تَتَشَابَهُ مَعَ قُلُوبِ قَوْمِ نوح عليه السلام، وأساليب تفكيرِهِمْ وإِدْراكهم للأمور، فقُلُوبُهُمْ أَخَذَتْ تَتَحَجَّرُ، وبَصَائِرُهُمْ أخذَتْ تَنْطَمِسُ.

(٣) إِشعارُ كُبَراءِ مُشْرِكي قُرَيْشٍ المُكَذِّبين بالحقِّ جُحوداً وعِناداً، بأَنَّهُمْ قَارَبُوا أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ حَالَةٍ مُشَابِهَةٍ لحالَةِ قومِ نُوحٍ، الَّتي اسْتَحَقُّوا أَنْ يُعَاقِبَهُمُ اللهُ عِقاباً مُعَجَّلاً بالإِهْلَاكِ العامّ، فَعَلَيْهِمْ إِذَا عَقَلُوا أَنْ يَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ مِنْ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِهِمُ العِقاب المعَجَّلَ في الحياة الدُّنْيا، كَمَا أَنْزَلَ عِقَابَهُ الشَّامِلَ بِكُفَّارِ قَوْم نُوحٍ عليه السلام، وفي هذا تَلْوِيحٌ ظَاهِرٌ بالتَّهْدِيدِ والوَعِيد.

وأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ فقرات آيات هذا الفَصْل، وأُحِيلُ القارئَ المتدبِّر على كتابي «نُوح عليه السلام وقومُهُ في القرآن المجيد»،

التدبّر التحليلي:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾:

هَـٰذِهِ اللّقطاتُ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السّلام مَعْطُوفَةٌ علَىٰ مَا جَاءَ من بَيَانَاتٍ بِشَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرِسَالَتِهِ وَدَعْوَتِهِ فِي قَوْمِهِ.

أي: وَكَمَا أَرْسَلْنَا مُحَمّداً بِرِسَالَةٍ ذَاتِ قَاعِدَةٍ إيمانيَّةٍ، وذَاتِ نِظَامٍ سُلُوكِيٍّ، أرْسَلْنَا نُوحاً فِي القُرُونِ الأُولَىٰ إلَىٰ قَوْمِهِ بِمِثْلِ هَـٰذا، ومِنْ قِصَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ المُشَابِهَةِ لِقِصَّةِ مُحَمَّدٍ مع قَوْمِهِ في مَكَّة مَا سَيأْتِي في الآيَاتِ التاليات.

جاء في أوّلِ هذا البيان الرّبّانيّ التوكِيدُ بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾ ويَرَى المُعربُونَ أنَّ حَرْفَ اللّام واقع في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ، تقديرُهُ «أُقْسِمُ لَقَدْ» ولفظ «قد» حَرْف تحقيق، فَهُو مُؤَكِّد آخر، وهذا التوكيد يَنْسَحِبُ على كُلِّ مَا عَرَضَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في هَـٰذا النّصّ مِنْ قِصَّةِ نوحٍ، من الآية (٢٥ وحتّى غاية الآية ٤٨)، والمقْصُودُون بالتوكِيدِ المكذِّبُون برسالة محمّد إبّان التنزيلِ.

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ . . . ﴿٢٥﴾﴾:

أي: ونُؤَكِدُّ لَكُمْ أيُّها المكَذِّبُونَ برِسَالَةِ مُحمّدٍ أنَّ محمَّداً لَيْس بِدْعاً في تاريخ النَّاس، فَلَقْد أَرْسَلْنا قَبْلَهُ أنبِيَاءَ مُرْسَلِينَ لِأَقْوام كَثِيرينَ سَابِقِين، ومِنْهُمْ في القُرُونِ الأُولىٰ النبي الرسول نُوحٌ، فَقَدْ أَرْسَلْناهُ إلَىٰ قَوْمِه.

جاء التعْبير بضمِيرِ المتكلّم العظيم، لإشعار المكذبين بأنَّ المُرْسِلَ قادِرٌ على حمايَةِ رسُولِهِ محمّدٍ ونَصْرِه، وعقابِ مُكَذِّبِيهِ، وهو حكيم في تصاريفه.

- ﴿. . . إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿إِنِّي﴾ الأولى فيها قراءتان: إحداهما بِكَسْرِ الهمزة على تَقْدِير: فقال: إنِّي. والأُخرَىٰ بفتح الهمْزَةِ عَلَىٰ تَقدير حَرْفِ جرٍّ مَحْذُوفٍ: بأَنّي. وياء المتكلم في ﴿إِنِّيٓ﴾ الثانية فيها قراءتان: فتح الياءِ وَإِسْكَانُها.

جاء في هذا البيان الموجز ذكْرُ ثَلاثَةِ عُنوانَاتٍ لمقالَاتٍ ثلاثٍ

مُسْتَفِيضَاتٍ وَجَّهَها نوحٌ عليه السَّلام لقَوْمِه، هي أُمَّهاتُ مضْمُونِ رِسالَتِه:

المقالة الأُولَىٰ: عنوانُها: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾:

نَذِيرٌ: أي: مُنْذِرٌ بعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين لِمَنْ كَفَرَ وَكذَّبَ رَسُولَ رَبِّه، وكذَّبَ بآيَاتِه.

الإِنْذَارُ: التحْذيرُ والتَّخْويف، وهو الإعْلَامُ بما هُوَ مَخُوفٌ مِنْهُ مستقبلاً.

والمنذر: هو المخوِّفُ المحذِّر المخْبِرُ بخَطَرٍ داهِم، أو مَكْروهٍ قادِم، وهو اسْمُ فاعل مِنْ فِعْلِ: «أَنْذَرَ، يُنْذِرُ، إنْذاراً».

مُبِينٌ: مِنْ فِعْلِ: «أَبَانَ» بمَعْنَىٰ «وضَحَ وظَهرَ» أي: فأنا واضِحٌ ظَاهر. ومِنْ فِعْلِ «أَبَانَ» المتَعدِّي، يُقال لُغةً: «أَبَانَ المتَحدِّثُ القَضِيَّةَ» مثلاً، أي: أوضَحها وأظْهرَها، أي: فأنا مُوضِحٌ مُظْهِرٌ لَكُمْ دِينَ اللهِ لِعِبادِهِ في حياة الامتحان.

جاء في هذه الجملة التوكيد بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية» وقُدّمَ فيها المعْمُول ﴿لَكُمْ﴾ على عَامِله ﴿نَذِيرٌ﴾ للدَّلَالَةِ على معنَىٰ التخصيص، أي: إنِّي لَكُمْ لَا لِغيْرِكُمْ رَسُولٌ نَذيرٌ مُبينٌ واضِحٌ فِي رِسالَتِي مُوَضِّحٌ لَهَا بَلَاغاً عَنْ رَبِّي، وَرَبِّكُمْ، وَربِّ العَالَمِين.

المقالة الثانية: عُنْوَانُها: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: أي: أدْعُوكُمْ إلى أَنْ لَا تَعْبُدوا إلَّا اللهَ، أو آمُرُكُم بتَكْليفٍ مِنَ الله الّذي أرْسَلَنِي إليكُمْ، بِأَنْ لَا تَعْبُدُوا إلَّا الله، وَلَا تُشْركوا بعبادته أحداً.

ولَا بُدَّ أَنْ يَكونَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ شَرحَ لَهُمْ، أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُو الرَّبُّ الواحِدُ الّذِي لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وأَنَّ العِبادَةَ حَقُّ الرَّبِّ وَحْدَهُ، وأَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِهِ ولَوْ مَعَ عبادَتِه كُفْرٌ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ.

هذه العبارة تَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ قَوْمَ نوحٍ كانوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدونَ آلِهَةً مِنْ دُون اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

وجاءَ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) في الآية (٢٣) منها بيانُ أنَّ آلِهَةَ قَوْمِ نُوحٍ الَّتِي اتَّخَذُوا لَهَا أوثاناً هيَ: «وَدّ ـ سُوَاع ـ يَغُوث ـ يَعُوق ـ نَسْر».

المقالة الثالثة: عُنْوَانُهَا: ﴿. . . إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الجُمْلَة مَعَ لَوَازِمها الفكرية على أنَّ نُوحاً عليه السَّلَامُ، قَدْ أَبَانَ لِقَوْمِهِ حَقَائِقَ عَن الدُّنْيَا رِحْلَةِ الامْتِحَانِ، وعَنِ الآخِرَةِ حَيَاةِ الجَزَاءِ الخالِدَة، وأَنَّهُ أبَانَ لَهُمْ إشْفَاقَهُ عَلَيْهِمْ من الكُفْر باللهِ جُحوداً أوْ شِرْكاً، لِأَنَّهُم سَوْفَ يكونُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خَالِدِينَ أبداً فِي عَذَابِ النار عِقَاباً لَهُمْ عَلَىٰ كُفرِهِمْ بِرَبِّهِمْ.

ومِمَّا يُمْكِنُ فَهْمُهُ مِنْ لوازِم هَـٰذِهِ العبارة، أَنَّ نُوحاً عليْهِ السَّلام قد أَبَانَ لِقَوْمِهِ قَائِلاً لهم: إنَّ اللهَ رَبَّكُمْ واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيّتِه، وهُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ مُمْتَحَنِينَ فِي هَـٰذِهِ الحَياة الدُّنيا، وهُوَ الَّذِي كَلَّفَكُمُ الإيمانَ والطَّاعَةَ والإسْلَامَ، وأنْ تَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ، فأنتُمْ مَسْؤُولُونَ تُجاهَهُ عَمَّا أَمَرَكُمْ بِهِ، وعمَّا نَهَاكُمْ عَنْه، وسَوْفَ يَبْعَثُكُمْ بَعْدَ المَوْتِ إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، لِيُحَاسِبَكُم على ما قَدَّمْتُمْ في رحلة امْتِحانكم، وليْفصِلَ القضاء بَيْنَكُمْ، وليُجازِيكُمْ عَلَىٰ السَّيِّئاتِ بِمِثْلِهَا عَدْلاً، وعلَىٰ الحَسَنَاتِ بِمُضَاعَفَتِهَا إلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَة جُوداً مِنْهُ وَفَضْلاً. وإِنّي بدافع الرحْمَةِ بِكُمْ، والشَّفَقَةِ عليْكُم أخَافُ عَلَيْكُمْ إنْ كَفَرْتُم وَعَصَيْتُمْ أَوَامِرَ رَبكم ونَواهِيَهُ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيم، بِمَعْنَىٰ «مُؤْلم» مِنْ فِعْلَ «آلَمَهُ، يُؤْلِمُه، إيلَاماً».

وَوَصْفُ اليَوْمِ بأنَّهُ أَلِيمٌ هو من إطْلَاقِ الزَّمَنِ عَلَىٰ مَا يَجْرِي فِيه، وهذا مِنْ قبيل المجاز المرسَلِ، فالعذابُ فيه هو المؤلم، ولكِنَّ اسْتِمْرارِيَّةَ

العَذَابِ فيه تُشْعِرُ بأَنَّ اليَوْمَ الّذِي هُو الزّمَانُ هُوَ المؤلِم، إذْ لَا يَشْعُرُ المعذّبُ فيهِ بأزْمَانٍ دَاخِلَهُ فيها راحةٌ، حَتّىٰ يُفرِّقَ بَيْنَ اليَوْمِ وبَيْنَ وَسَائِلِ التَّعْذِيب فيه، فَيُحِسُّ بأَنَّ اليَوْمَ نَفْسَهُ هُو المؤلِم، إنَّ التَّعْبِيرَ عَنْ هَـٰذا الشُّعُورِ بإضَافَةِ وَصْفِ الإيلَام إلىٰ اليَوْمِ هُوَ مِنَ الصِّدْقِ الفَنِّيِّ البَدِيع.

هَـٰذِهِ العنوانَاتُ الثلاثة قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلى تَلْخِيصٍ مُوجزٍ لِرَسَالةِ نُوْحٍ عليه السلام، ونظيرُهَا رِسَالَاتُ سَائِرِ المُرْسَلِين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إنها كُلّياتٌ كُبْرَىٰ ذَواتُ لَوَازِمَ فِكْرِيَّة، وبَيْنَ مَثَانِيها مَطْوِيَاتٌ، وَلَهَا تَفْصِيلَاتٌ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا سَائرُ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ في الإسْلام.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

اشْتَمَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ تَلْخِيصٍ مُوجَزٍ للرَّدِّ الَّذِي رَدَّ بِهِ مَلَأُ قَوْمِ نُوحٍ عَلَى نُوحٍ وفُضَلَاءِ أصحابِهِ الذينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ.

الملأ: أشْرافُ القَوْمِ وَأعْيَانُهُمُ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العَامّة.

هَـٰذا الرَّدُّ قَدِ اشْتَمَلَ عَلىٰ بَيَانِ أَرْبَعِ قَضَايَا:

القضيّة الأولَىٰ: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُهُمُ الَّذِي جاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ في الآية: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: أي: والبَشَرُ لا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يَكُونوا أنْبِيَاءَ يُوحِي اللهُ إلَيْهِمْ، وَرُسُلاً يُرْسِلُهُمْ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِهِ للنّاس، زاعِمِينَ أنَّ البَشَرِيَّة تَمْنَعُ مِنَ الاتِّصالِ بِرَبِّ العَالَمِينَ، لِتَلَقِّي رِسَالَةٍ مِنْه، وتَمْنَعُ مِنَ الاتِّصَالِ بأمِينِ الوَحْيْ من الملائكة، لِتَلَقِّي رِسَالَةِ اللهِ عَنْه.

القضيّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُهُمْ الّذِي جاء التعبير عنه في الآية: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾:

في ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ عِدَّةُ قراءَاتٍ هِيَ وُجُوهٌ متكافِئَةٌ من الأداء، سبَق ذكرها في حَاشيَةِ نصِّ السُّورَة.

أي: وَلَوْ كُنْتَ يا نُوحُ عَلَىٰ حَقٍّ لَاتَّبعَكَ العُقَلَاءُ وأَهْلُ الرَّأي السَّدِيدِ والمفكِّرونَ منَّا، لَا أَرَاذِلُنَا السُّفَهَاءُ نَاقِصُو العُقُولِ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أيَّ دَاعٍ يَخْدَعُهُمْ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ولَا عَقْلٍ ولَا تَفْكِيرٍ، بَلْ يَنْدَفِعُونَ مَع بَادِئِ الرَّأْي الّذي يَظْهَرُ لَهُمْ، دُونَ تأمُّلٍ ومُتَابَعَةٍ وتَمْحِيص، بَادِئُ الرَّأْي هُو أَوَّلُهُ، وتُبْدَلُ الهَمْزَةُ في الأداء يَاءً، فتصير «بَادِي».

[بَادِي ـ بَادِئَ] مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الظَّرْفِيّةِ على تقدير حرف «في» أي: في بَادِي الرأْي، أصْلها عِنْدَ بادِي الرأي، حُذِفَ الظَّرْفُ المضاف، وأُنِيبَ المضاف إليه «بَادِي» منابَهُ، فانْتَصَبَ عَلَىٰ تَقْدِير الظرفيَّة.

وطَوىٰ النَّصُّ مقالَةً قَالُوها، فَحْوَاهَا: فإنْ أَرَدْتَ أَنْ نَتْبعَكَ فاطْرُدْ هؤلَاء الأَرَاذِلَ عَنْ مَجَالِسِكَ وَجَمَاعَتِكَ، واجْعَلْ لَكَ جَمَاعَةً مِنْ كُبَرَاءِ القَوْمِ وَمَلئِهِمْ، بِدَلِيلِ الرَّدّ الَّذِي رَدّ بِهِ نُوحٌ عليه السلام، إذْ جاء ضِمْنَ رَدِّهِ علَيْهم قَوْلُهُ:

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

الأَرَاذِل: جَمْعُ «الأرْذَل» وهُوَ الدُّونُ الخَسِيسُ، والرَّدِيء مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

القَضِيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُهُم الّذِي جاء التَّعْبيرُ عَنْهُ في الآيَة: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾:

أي: وَمَا نَرىٰ لَكَ وَلِمَنْ يُؤَازِرُكَ في دَعْوَتِكَ من الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وبرِسَالَتِكَ وَاتَّبعُوكَ مِنْ فَضْلِ ما تَمْتَازُون بِهِ عَلَيْنا، من مالٍ، أَوْ جَاهٍ، أَوْ مَكَانَةٍ اجتماعيَّةٍ، أو قُصورٍ وجَنَّاتٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَا يَعْتَبِرُونَهُ فَضْلاً بحَسَبِ مَفْهُومَاتِهِمُ الدُّنْيويَّة.

أصْلُ الفضل الزِّيادَةُ مِمَّا يُحْمَدُ غالباً، مِنْهُ الزِّيادَةُ في الكمالات والمحاسن، والتَّفوُّقُ فِي الصِّفَاتِ الفِطْرِيَّة أو الكسْبِيَّة.

والمراد: وَمَا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ تَسْتَحِقُّونَ بِهِ أَنْ نَنْتَمِيَ إِلَيْكُمْ، ونَتّبعَ طَرِيقَتَكُمْ، ونَتْرُكَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، وَمَا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فِي فَهْمٍ أَوْ عِلْمٍ أو مُعْجِزاتٍ وخوارِقِ عادات.

جاء في العبارة زيادَة حرف «مِنْ» لِتَوْكِيدِ عُمُوم النَّفْي والتَّنْصِيصِ عليه، أصل العبارة: وما نرى لكم علينا فضلاً.

القضيَّةُ الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُمُ الَّذِي جاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ في الآية:
﴿... بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

لَقَدِ ارْتَقَوْا مِنَ الظَّنّ التَّوهُّمِيِّ بأَنَّهُ لَيْسَ نبيًّا ولا رَسُولاً حقًّا مُرْسَلاً مِنْ رَبِّهِ، إِلَىٰ ظَنٍّ زَعَمُوهُ ظَنًّا قَوِيًّا، بِسَبَبِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي أَوْرَدُوها في القضايا الثلاث السَّابِقَةِ.

ومع أَنَّ هذه الشُّبُهَاتِ لَا يَلْزَمُ مِنْها عَقْلاً أَنْ يَكُونَ نُوحُ والدُّعَاةُ إلى الله من الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه كاذِبِينَ، لكِنَّهُمُ اتَّخَذُوهَا ذَرائِعَ لإِعْلَانِ ظَنِّهِمْ بأَنَّ نُوحاً والدُّعاةَ إلى دينِهِ من أصْحَابِهِ كاذِبُونَ، لَا واهِمُونَ، يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ علَىٰ حَقٍّ إِذْ تَهَيَّأَتْ لَهُمْ أُمورٌ زَعَمُوا بِهَا أَنَّهُمْ يَدْعُونَ دَعْوَةَ حَقٍّ، أي: وَمَا نَظُنُّكُمْ وَاهِمِينَ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبين.

ومِنَ اللّوازِمِ الفِكْرِيَّةِ لِهَذَا الاتِّهَام، الإشْعَارُ بأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ سُفَهَاءَ مَحْرُومِينَ مِنَ العَقْلِ والبَصِيرَةِ لو آمَنُوا بِنُوحٍ وأَسْلَمُوا لَه واتَّبَعُوه.

ومِنْ لوازِمِهِ الفكريَّةِ أيْضاً اتّهامُهُمْ نوحاً عليه السلام، والذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ بالمصْلَحَةِ الشخصِيَّةِ الدُّنيويَّة، كالمال والسُّلْطانِ.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مبيِّناً مَا رَدَّ به نوحٌ عليه السَّلامُ عَلَىٰ مقالات قَوْمِه السَّابِقات:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١)﴾:

- قرأ حَفْصٌ، وحَمْزَةُ، والكِسَائي، وَخلَف: [**فعُمِّيَتْ**] أي: فأُخْفِيَتْ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [**فَعَمِيَتْ**] أي: فَخَفِيَتْ عليكم والتبَسَتْ.

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تكامُلٌ فِي بَيَانِ المرادِ، فالقَادَةُ تخْفَىٰ عَلَيْهم، والأتباعُ تُعَمَّىٰ عَلَيْهِم.

- في يَاءِ المتكلّم الفتح والإسْكان من [**إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ**] و[**وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ**] و[**إِنِّي إِذاً**].

- قرأ حفْصٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**تذكَّرُونَ**].

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: [**تَذَّكَّرُونَ**] أصْلُها تَتَذَكَّرُونَ، أُدْغِمَتِ التّاءُ بالذّال، وهذه القراءَةُ تُناسِبُ دَفْعَ بَعْضِ المخاطَبِين لتَكَلُّفِ التذكر.

التدبُّر التحليلي:

أبانَتْ هَٰذِهِ الآيَاتُ مَا أجَابَ بِهِ نُوحٌ علَيْه السَّلامُ، على القَضَايَا الأرْبَعِ الَّتِي طَرَحُوها، بإجَابَاتٍ مُقْنِعَاتٍ مُفْحِمَاتٍ:

ويُمكنُ تَفْصِيلُ إجَابَاتِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام إلى عشْرِ قضايا:

القضية الأولىٰ: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعْنى بَعْضِ مَارَدَّ بِهِ نوحٌ عليه السّلام علىٰ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ له:

- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾:

أيْ قالَ نوحٌ عليه السَّلامُ: يَا قَوْمِ الَّذِينَ أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنّي، أفكَّرْتُمْ فِي احْتِمَالِ أَنْ أَكُونَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ جَلِيَّةٍ مِنْ رَبِّي تَشْهَدُ لِي بِأَنِّي صَادِق فِيمَا أُبَلِّغُ عَنْه، أَفَتُصَدِّقُونَنِي؟. فَكِّرُوا وَأَخْبِرُونِي؟.

أفكَّرْتُمْ في احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ رَبِّي قَدْ آتَانِي رَحْمَةً لَكُمْ مِن عِنْدِه، وهِيَ الدِّينُ وَمَا فِيهِ من قاعِدَةٍ إيمانيَّة وتَعالِيمَ وَوَصَايَا تَتَضَمَّنُ سَعَادَتَكُمْ ونَجَاتَكم، وفي هَـٰذِهِ رَحْمَةٌ عظْمَىٰ لَكُمْ. أي: أفكَّرْتُم في مَضْمُونِ هَـٰذه الرِّسَالَةِ الَّتِي جِئْتُكُمْ بها، والَّتِي هِيَ رَحْمَةٌ عظيمةٌ لكم؟ فَكِّرُوا وأَخْبِرُوني.

أَفَكَّرْتُمْ فِي احْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ رِسَالَتِي بِدَلَائِلِها قَدْ خَفِيَتْ وعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ يا كُبَرَاءَ قَومي وملأهم وسَادَتهم؟ تَفَكَّرُوا وأخبِرُوني؟.

أفكَّرْتُم في احْتِمَالِ أنْ تَكُونَ صِحَّةُ رِسَالَتِي قَدْ أُخْفِيَتْ وعُميت عليكُمْ، يا جماهير قومي بِتأْثِيرِ إغْوَاءاتِ مُضَلِّلِيكُمْ؟ تَفَكَّرُوا وأَخْبِرُوني.

إذَا كُنْتُمْ لَا تُرِيدُونَ أنْ تُؤْمِنُوا بِي، وَبالدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَنِي بِهِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ لِأُبَلِّغَكُمْ إِيَّاه، وهُوَ رَحْمَةٌ عظيمَةٌ من اللهِ لَكُمْ، فَنَحْنُ لَا نُكْرِهُكُمْ علَىٰ الدُّخولِ فيها والالْتِزام بتَعاليمها وأحْكَامِها، وإِنَّما نَدْعُوكُمْ إلىٰ الاستجابَةِ لِقَبُولِ ذلِكَ بكَامِلِ حُرِّيَاتكم.

أَنُلْزِمُكُمُوهَا بأُسْلُوب قَسْرِيٍّ وأَنْتُم لَهَا كارِهُونَ؟؟!

إنَّ هذا يَتَنافَىٰ مَعَ حِكْمَةِ اللهِ في وضْعِكُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان. ومِنْ كُبْرَيَاتِ قواعِدِ الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ أنَّهُ لا إكراهَ في الدِّينِ الّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ وتَسْلِيمٌ وَخُضوعٌ إرادِيٌّ قَلْبِي.

الإلْزَامُ: الإيجابُ على سَبِيلِ الإكْراهِ والقَسْرِ، يقال لغة: «أَلْزَمَ فُلَاناً الشَّيْءَ» أي: أوجبَهُ عَلَيْه إكْراهاً وقَسْراً وهو كارِه.

أنَا وَمَنْ مَعِي نَدْعُوكُمْ إلى أَنْ تُؤْمِنُوا وَتُسْلِمُوا باخْتِيارِكُمْ الحرّ، عَنِ اقتناع بما نَدْعُوكُمْ إلَيْه، ورَغْبَةٍ فيه، لَا عَنْ إلْزَامٍ وَإكْرَاهٍ وَكَرَاهِيَة. فالدِّينُ إيمانٌ وطاعَةٌ وإسْلامٌ واتّباعٌ اخْتِيَارِيٌّ، ناشِىءٌ عَنْ رَغْبَةٍ وإقْبَالٍ إرادِيٍّ طَوْعِيٍّ.

إنَّهُ إذا قَوِيَتْ إرادَةُ الإنْسَان، واشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُ، كَانَ إقْبالُهُ إلى ما رَغِبَ فيه مَصْحُوباً بحُبٍّ وشَوْقٍ.

بهذا العَرْضِ الرائع أَبَانَ نُوحٌ عليه السّلام لِقَوْمِهِ أَنَّهم لَيْسُوا مُكْرَهِينَ عَلَىٰ الإيمانِ بِهِ واتِّبَاعِه، ولَكِنْ عَلَيْهِمْ إذا لم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ أَنْ يَتَحَمَّلُوا عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ عِنْدَ رَبِّهم.

البَيِّنَة: هي الواضِحَةُ الظَّاهِرَة الّتي لَا شَكَّ فيها ولَا غُمُوض ولَا غَبَشَ عليها، من فعل: «بَانَ الشَّيْءُ، يَبِينُ، بَيَاناً» أي: اتّضح وظهر، فهو «بَيِّنٌ» وهي «بَيِّنَة».

ولفظ «بَيِّنَة» في الآيَةِ صِفَةٌ لموصوفٍ محذوف، وقَدْ أُطْلِقَتِ «البَيِّنَةُ» في القرآن، على الرّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّة الواضحة، وعلى الرَّسُول، وعلى الصُّحُفِ والكُتُب المنزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ الله، وعلى الآيَاتِ المعْجِزَاتِ الواضحات الجَليَّات، وعلَىٰ البراهينِ الواضِحَة القَاطِعَة.

القضية الثانية: دلَّ عليْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكاية لمعْنَىٰ بَعْضِ ما رَدَّ به نوح عليه السَّلامُ على مَقَالَاتِ قَوْمِهِ له:

- ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ . . . ﴿٢٩﴾﴾:

يَرُدُّ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ بهٰذا البَيَانِ علَىٰ مَا يُشْعِرُ به قولُهُم:

﴿. . . بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ من اتِّهَامِهِ بالمصْلَحَةِ الشخصيَّة لَدَيْهِم، وكانَ المالُ هو الشيءُ الّذي يُطْمَعُ فِيهِ في مجْتَمَعِهِم.

فبيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ على ما يُجَاهِدُهُمْ بِهِ أَيَّ أَجْرٍ مَالِيٍّ حتَّىٰ يَظُنُّوا بِهِ الكَذِبَ، وحتَّىٰ يَصُدَّهُمْ ذَلِكَ عَنِ الإِيمانِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ الله.

وَلَكِنْ لا يَدُلُّ ذَلِكَ علَىٰ أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ أَجْراً مَا مِنْ أَحَدٍ، ولا يَحْصُلُ على أجْرٍ مَا مِنْ أَحَدٍ، بَلْ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ.

إنَّ عَدَمَ طَلَبِ الأَجْرِ مُطْلَقاً مِثالِيَّةٌ خَيالِيَّة، لَا تَتَنَاسَبُ مَعَ طَبيعَةِ الإِنْسَانِ وَحَاجَاتِهِ، وفِطْرَتِهِ الَّتي فَطَرَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْها، ولَوْ كَانَ مِنَ المُرْسَلِينَ أُولِي العزم.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعْنَىٰ بَعْضِ ما رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ على مَقَالَات قَوْمِهِ لَه:

﴿... وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

زيدَت الباء في [**بِطَارِد**] لتوكيد عموم النفي.

دلَّ هذا الرَّدُّ مِنْ نوح عليه السلام علَىٰ مَلأِ قَوْمِهِ، أَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ عَنْ مَجَالِسِهِ، أَوْ عَنْ جَمَاعَتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، مَنْ سَمَّوْهُمْ أَرَاذِلَهُمْ، حَتَّىٰ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، أَوْ حَتَّىٰ تَكُونَ هَـٰذه الاسْتِجَابَةُ مَرْجُوَّةً لَيْسَ أَمَامَهَا عقَبَةُ وُجُودِ طَبَقَةٍ مِنَ النَّاسِ هُمْ أَرَاذِلُ قَوْمِهِم.

فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِهَـٰذا القول، وهُو يَتَضَمَّنُ رَفْضَ طَلَبِهِم أَنْ يَطْرُدَ من سَمَّوْهُمْ أراذِلَهُمْ، وذكَرَهُمْ عليه السَّلامُ بِوَصْفِ الَّذِينَ آمَنُوا، لَا بالوَصْفِ الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ قَوْمُهُم، لإرادة التعميم، ولبيان الدّاعي الّذي يوجِبُ عليه أنْ لا يَطْرُدَهُم، وهُو وَصْفُ الإيمان، أي: هُمْ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، ممتَحَنُونَ في الحياة الدّنيا مِثْلَمَا أَنَّكُمْ مُمْتَحَنُونَ، وهُمْ مَسْؤُولُونَ عَنِ الإيمانِ والطَّاعَةِ والإِسْلامِ والعَمَلِ الصَّالِحِ مثْلكُمْ، وهُمْ مَبْعُوثُونَ بَعْدَ الموْتِ للحِسَابِ،

وفَصْلِ القضاء، وتَحْقيقِ الجزاء، وهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ مِثْلُكُمْ، فَكَيْفَ أَطْرُدُهُمْ وأَنَا مُكَلَّفٌ مِنْ رَبِّي أَنْ أَدْعُوَهُمْ إِلَى دِينِ الله، وأَنْ أُبَلِّغَهُمْ أَحْكَامَ شَرِيعَتِهِ لِعِبادِه، وهَـٰذِهِ من اللَّوَازِمِ الفكريَّة لِقولِهِ عليه السلام: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ وتَتَسَلْسَلُ اللَّوازِمُ الفكريَّةُ حتَّىٰ سائِرِ عناصِرِ مَوْضُوعِ امْتِحَانِ النَّاسِ في الحياة الدُّنيا.

وَقَوْلُهُ لَهُم: ﴿... وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فيه رَدٌّ عَلَى مَا تضمَّنَهُ قولُهُمْ مِنْ وَصْفِهِمْ أنْفُسَهُمْ بأنَّهُمْ أهْلُ رأْيٍ وفِكْرٍ وعَقْلٍ وتبصُّرٍ بِبَوَاطِنِ الأُمُورِ وَحَقَائِقِها.

أي: أَنْتُم تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أهلُ العَقْلِ والرُّشْدِ والتَّبصُّر، وتَتَّهِمُونَ مَنِ اتَّبَعَني بأَنَّهُمُ اتَّبعُوني عِنْدَ بَادِي الرَّأْي، دُونَ تَعَمُّقٍ في التَّفْكِيرِ وَلَا تَبَصُّرٍ، وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تُتَابِعُونَ خُطُواتِكُمْ الفِكْرِيَّة إلَىٰ مَوَاطِنِ الجَهْلِ، لَا إِلَىٰ مَوَاطِنِ المعْرِفَةِ والعِلْم الصَّحِيح. إنَّكُمْ كلَّما وَصلْتُمْ إلَىٰ رَأي جَدِيدٍ قَدَّمْتُمُوهُ، كَانَ ذَلِكَ الرأْيُ الجَدِيدُ والقَوْلُ المُعَبِّرُ عَنْه جَهْلاً جديداً.

دلَّ على هذا الفَهْم قولُهُ لهم: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ بصِيغَةِ الفِعْلِ المضارع الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ التكرار والتَّجدُّدِ، ولو كان المرادُ وصْفَهم بالجَهْلِ لَكَانَ المناسِبُ أَنْ يَكُونَ التعبير: ولَكِنِّي أَراكم قوماً جَاهِلين.

أَصْلُ الجَهْلِ مأخُوذٌ مِنْ قَوْلِ العرب: «جَهِلَتِ القِدْرُ تَجْهَلُ جَهْلاً» أي: اشْتَدَّ غلَيَانُها. وهو ضِدُّ: «تحلَّمَتْ». ويُقالُ: «جَهِلَ فُلَانٌ على غَيْرِهِ» أي: جَفَا وَتَسَافَه، وهَـٰذا المعْنَىٰ يُنَاسِبُ اتِّهامَهُمْ للَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبعُوهُ بِأَنَّهُمْ أراذِلُ قَوْمِهِمْ.

ويُطْلَقُ الجَهْلُ بِمَعْنَىٰ عَدَمِ العِلْمِ بالشَّيْءِ.

وإذا سَأَلَ سَائِلٌ: فيماذا يَجْهَلُونَ بتَكْرَار بِشَأْنِ القضايا الفكريَّةِ المتعلّقَةِ بالدِّينِ الَّذي يَدْعُوهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ للاستجابَة لِدَعْوَتِهِ؟

فإنَّ المتَدَبِّرَ يُجيب بأَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ في أُمُورٍ كثيرَة قَدَّمُوهَا، لِرَفْضِ الاستجابَةِ لِدَعْوَةِ الحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، ومِنْها ما يلي:

(١) يَجْهَلُونَ خَصَائِصَ الرُّبُوبِيَّةِ والإلَهِيَّة.

(٢) ويَجْهَلُونَ قُدْرَة اللهِ على الوَحْي لبشَرٍ مِثْلِهم، وبَعْث مَنْ أوحى إلَيْهِ رَسُولاً لقَوْمِهِ، أو للنَّاسِ أجْمَعِينَ.

(٣) ويَجْهَلُونَ وَظِيفَتَهُمْ في الحياةِ الدُّنيا، وأَنَّهُمْ مُمْتَحَنُونَ فيها.

(٤) ويَجْهَلُونَ مَسْؤولِيَّتَهُمْ تُجاهَ رَبِّهِمْ المهيْمِنِ عَلَيْهِمْ بصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، والَّذِي وَضَعَهُمْ في الحَيَاة الدُّنْيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء.

(٥) وَيَجْهَلُونَ أَنَّ الرَّسُولَ مُكَلَّفٌ مِثْلُهم، فَهُوَ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ مَا يَأْمُرُهُ بِتَبْلِيغِهِ، ومُطَالَبٌ بالإيمان والعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا هُمْ مُطالَبُونَ.

(٦) وَيَجْهَلُونَ أَنَّ هؤلَاءِ الَّذِينَ يَرَوْنَهُمْ سُفَهاءَ وَأَرَاذِلَ قَوْمِهِمْ، هُمْ مِثْلُهُمْ في الإنْسَانِيَّةِ، والامْتِحَانِ، والتكْلِيف مِنْ قِبَلِ رَبّهم.

(٧) ويَجْهَلُونَ أَنَّ الرَّسُولَ عليهِ السَّلام لَا يَمْلِكُ أَنْ يَنْتَقِي أَتْبَاعَهُ انْتِقاءً.

إلى غير ذلك ممَّا هُمْ يجْهَلُونَهُ من أمُور حيَاتِهم، وسُلُوكِهِمْ فيها الجَسَدِيّ والنفْسِيّ، الفَرْدِيّ والجماعِيّ.

القضية الرابعة: دَلَّ علَيْها قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ حكايَة لمعْنَىٰ بَعْضِ مَا رَدَّ بِهِ نوح علَيْه السَّلامُ علىٰ مَقَالاتِ قومِه له:

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ . . . ﴿٣٠﴾﴾:

يُبَيّنُ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلام بِهَٰذ العبارَةِ لِقَوْمه أَنَّهُ إذَا طَرَدَ هَٰؤلَاء الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، اسْتِجَابَةً لِطَلَبِ مَلأِ قَوْمِهِ، لِأَنَّهُمْ فِي نَظَرِهِمْ سُفَهَاءُ يَنْدَفِعُونَ مَعَ بَادِي الرأْي، وأراذِلُ قَوْمِهِمْ، فإنَّهُ يَكُونُ تَحْتَ طَائِلَةِ العقاب

من اللهِ عَزَّ وجلَّ الَّذِي نَبَّأَهُ وبَعَثَهُ رَسُولاً إِلَىٰ قَوْمِهِ، مَهْمَا كانَتِ الدَّوَاعِي لِهَـٰذا الطَّرْدِ، حتَّىٰ وَلَوْ كَانَ طَرْدُهُمْ يُمَهِّدُ السَّبِيلَ أَمَامَ كُبرَاءِ قَوْمِهِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَتِه، ويَتَّبِعُوا الحقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِ، لِأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَيْه، ولأَنَّهُ يكُونُ بذَلِكَ غيرَ مُؤَهَّلٍ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ.

وَيُبَيِّنُ لهم أَنَّهُ إذا طَرَدَ المُؤْمِنينَ بِهِ، فاسْتَحَقَّ عِقَابَ اللهِ وعَذَابَهُ، فَهَلْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُ، فَيَحْمِيهِ ويُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ؟

استفهامٌ يُرادُ به النَّفْي، أي: لَا يُوجَدُ في الوجود كُلِّهِ ناصِرٌ يَنْصُرُنِي فيحْمِيني وَيَقِيني مِنْ عَذَابِ الله، وأَنَا مَسْؤُولٌ عِنْدَ الله عَنْ دَعْوَتِهِمْ إلى دينِه، وتَبْلِيغِهِمْ مَطَالبَ هَـٰذا الدِّينِ مِنْهُم، في رِحْلَةِ امتحانِ اللهِ لَهُمْ في الحياة الدنيا.

القضية الخامسة: دلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِمَعْنَىٰ بعْض ما رَدَّ به نوحٌ عليه السّلام على مقالَاتِ قومه له:

﴿. . . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: أفَلَا تَضعُونَ ما سَبَقَ أَنْ بَيَّنْتُهُ لَكُمْ مِنْ حَقَائِقِ الدِّين في ذَاكِراتِكُمْ، لِتَكُونَ دَافِعاً لَكُمْ إِلَىٰ الإيمان بالحقّ الذي جاءكم من ربّكم، والإسلامِ له، وطاعَتِه فيما أَمَرَكم بِهِ ونهاكم عنه.

أَصْلُ «تَذَكَّرُون تَتَذَكَّرُونَ» وهمزة الاستفهام في ﴿أَفَلَا﴾ للاستفهام الإنْكارِي، بمعنىٰ استِنْكار عدَمِ تَذَكّرُهم، قال علماء العربية: هَـٰذِهِ الهمزة هي على نِيَّةِ التأخير عَنِ الفاء العاطفة، إذْ أصلُ الكلام: «فَأَلَا تَتذَكَّرُونَ» لَكِنَّ الاسْتِفْهَام في العربيَّةِ لَهُ الصدارة فَقُدِّم.

إنَّ نوحاً عليه السلام يُنْكر على مُكذِّبيه من قَوْمِهِ عَدَمَ تَذَكُّرِهم الحقائق الّتِي سبَقَ أَنْ أبانَها فِي مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة، مع أَنَّهُمْ قَدْ كان الواجب عليهم أن يَضعوها في ذاكرتهم دَواماً، ولَا يَتْرُكُوا تَذَكُّرَها إهمالاً فَتُمْحَىٰ

مِنْ ذَاكراتهم. وَلَوْ أَنَّهُمْ حافَظُوا عَلَيْها فِي ذَاكِرَاتِهِم لكانَتْ مَانِعَةً لَهُمْ مِن اجْتِرار الأفكار الَّتِي سبَقَ دَفْعُهَا وَإِسْقَاطُهَا بالحجج السَّاطِعَة، والبراهين القاطعة، ولكانت مُحَرِّضَةً لهم عَلَىٰ اتّباع الحقّ، ومانِعَةً لهم من رفْضِه بدافع الكِبْرِ الطَّبَقِيّ، أو بأيّ دافِعٍ آخر، وحتَّىٰ تكُونَ دَافِعَةً لهم إلى حِمَايَةِ نُفُوسِهِمْ من عَذَاب اللهِ الأبَدِيّ.

إنَّ مُدَاوَمَة تَذَكُّرِ الحقائِقِ، ذَاتُ حَرَكَةٍ فَاعِلَةٍ مُحَرِّضَةٍ عَلَىٰ التَّبَصُّرِ بالأُمُور، فالتَّأَثُّر بالنَّصائِح والوَصَايا، والاتِّعَاظ بالآيات الواعِظَاتِ الكونيَّة والبيَانيَّة.

القضية السادسة: دَلَّ علَيْها قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعنىٰ بَعْضِ ما ردَّ به نوحٌ عليه السّلامِ على مَقَالاتِ قَوْمِهِ له:

- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ . . . ﴿٣١﴾﴾:

دَلَّ هذا الرَّدُّ علىٰ أَنَّ كُبَراء قَوْمِ نُوحٍ عليه السّلام قَدْ طَلَبُوا مِنْهُ مطالِبَ تَعْتَمِدُ على الخوارِقِ والمعجزات، نَظِيرَ طَلَب كُبَراءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ من الرَّسُولِ محمّد ﷺ، ومِنْها أنْ يُلْقَىٰ إلَيْهِ كَنْزٌ، أو أنْ يُفَجِّرَ لَهُمْ مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً، أو تكونَ له جَنَّةٌ مِنْ نخيلٍ وعِنَبٍ، فيُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَهَا تَفْجيراً، أَوْ يَكُونَ لَهُ بيتٌ من زُخْرُفٍ، أي: مُزَيَّنٌ بالذَّهَب، أَوْ يُوَسِّعَ لَهُمُ الأَرْضَ فَيُزِيحَ عَنْ أَرْضِ مَكَّة جبالَها، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنْ مَطَالب تَعَنّتِيَّة.

فَمِنْ طَبِيعَةِ النَّاسِ أَنْ يَتَصَوَّرُوا أَنَّ الرَّسُولَ المُتَّصِلَ باللهِ القادِرِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ التمكِينِ مَا يَسْتَطِيعُ بِهِ صُنْعَ الخوارِقِ على مَا يُرِيدِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُلَبِّيَ تَشَهِّيَاتِ قَوْمِهِ، مِنْ كُلِّ مَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ مِنْ خَوَارِقَ وَمُعْجِزَات.

لَكِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَا يُعْطِي رُسلَهُ مِنَ الآياتِ الخوارِقِ إلَّا بِمِقْدارِ ما يَكْفِي لِلإِقْنَاعِ بأَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللهِ بالمعجزة، ويَكُونُ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ سُبْحَانَهُ، لَا حَسَبَ تَشَهِّيَاتِ الأقوام.

فخزائِنُ اللهِ في كَوْنِهِ لَا يُعْطِي مَفَاتِيحَها لِرُسُلِه، حتَّىٰ يَتَصَرَّفُوا فيها كما يُرِيدُون، أَوْ كَما يُرِيدُ أَقْوَامُهُمْ، علَىٰ خِلَافِ قوانِينِ الكَوْنِ ونُظُمِهِ السَّبَبِيَّةِ وسُنَنِهِ الثابتة. إنَّمَا يُنْزِلُ مِنْهَا بِحِكْمَتِهِ عَلَىٰ مِقْدَارِ حاجَةِ النَّاسِ للاقْتِنَاعِ بِصِدْقِ الرَّسُولِ، وحاجَةِ المؤمنين للتَّثْبِيت، أَوْ لِلْإِكْرام، ويُعْطِي الرَّسُولَ مِنْهَا مِقْدَاراً مُحَدَّداً، بُرْهَاناً عَلَىٰ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً، أَمَّا سُنَنُ الكَوْنِ فتَظَلُّ ثَابتَةً، باسْتِثْنَاءِ الحدَثِ الَّذِي تَجْرِي فِيه الآيَةُ أَو الكرامَة بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

لهذا كان رَدُّ نوحٍ عليه السّلامُ على مَطَالِبِ كُبَرَاءِ قومِهِ التّعنُّتِيَّة بقوله لهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾: أي: بَلْ أقولُ لكُم: إنِّي رَسُولُ الله، أُبَلِّغُ عَنْهُ رِسَالَاتِهِ، إنَّما أنَا بَشَرٌ رَسُولٌ مَحْدُودُ الهِبَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بالوَحْيِ إِلَيَّ، وبِبَعْثي رَسُولاً، وأنا مُكَلَّفٌ أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي، ومَا يُعْطِينِي من آيَةٍ خارِقَةٍ يَخُصُّنِي بِها، فإنّنِي أُقَدِّمُها علَىٰ مُرَادِه، فَلَا تُطَالِبُونِي بِشَيْءٍ لَا أَمْلِكُه.

القضيّة السّابعة: دلَّ عليها قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعْنَىٰ بَعْضِ مَا رَدّ به نوح عَليه السَّلام على مَقَالاتِ قَوْمِهِ له:

﴿... وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ... ﴿٣١﴾﴾:

أي: وَلَا أقولُ لَكُمْ إنِّي أعْلَمُ الغَيْبَ كُلَّهُ، بَلْ أَعْلَمُ مِنْهُ مَا يُعَلِّمُنِي اللهُ عَزَّ وجَلَّ.

دلَّ هٰذا الرَّدُّ علَىٰ أَنَّهُمْ صَارُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ أُمُورٍ هِي مِنَ المغيَّباتِ، يَتعَنَّتُونَ بِسُؤَالِهِ عنْهَا، فَهُوَ بِهٰذا الرَّدِّ يَقْطَعُ مُحَاولاتِهِمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ مَسَائِلَ مِنَ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُها، مثل: متَىٰ تَقُومُ السَّاعَة؟ أَوْ عَنْ مَسَائِلَ مِنْ أُمُورِ دُنياهُمْ المُتَعَلِّقَةِ بالأَرْزاقِ، أو الأَوْلاد، أو غير ذلك، رَغْبَةً في أَنْ يَسْتَكْثِرُوا مِنَ الخير، وأن لا يَمسَّهُم السُّوءُ ممَّا يَكْرَهُونَ مِنْ أُمُورِ الدُّنيا.

القضيَّة الثامِنَة: دلَّ عليها قولُ الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعنىٰ بعْضِ ما رَدَّ بِهِ نُوحٌ عليه السَّلَامُ عَلَىٰ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ لَه:

﴿... وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ... (٣١)﴾:

لمَّا كانَ مِنِ اعْتِرَاضَاتِ مَلأ قَوْم نُوح عَلَيْهِ السّلام، اعْتراضُهُمْ عَلَىٰ بَشَرِيّتِهِ، أَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ كَانَ بإمْكَانِهِ أَنْ يَقُولَ لهم، إنَّهُ مَلَكٌ، وَأَنْ يُلَبِّسَ عَلَيْهم، لكِنَّ صِدْقَ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ، لأنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ النَّبِيّ أَنْ يَكْذِبَ في كبِيرَةٍ وَلَا صغِيرَةٍ، فقالَ لَهُمْ: وَلَا أقُولُ لَكُمْ إِنّي مَلَك، أي: وَلَوْ قُلْتُ لَكُم: إنَّنِي ملكٌ، لأَمْكَنَنِي أَنْ أُلَبِّسَ عليكم الأَمْرَ، وأخَادِعَكُمْ بِذَلِك. لكِنَّنِي بَشَرٌ رَسُولٌ مُوحىً إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ من عنْدِ الله، ولَيْسَ مِنْ شأْنِ الرَّسُولِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ الكذِبَ ولَوْ لِتَأْيِيدِ دِينِ الله، فأنَا لَا أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي مَلَكٌ، بَلْ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَلَكِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ، فَأَنَا نَبِيٌّ من أَنْبِياء الله، ورسُولٌ من رُسُلِهِ الَّذِينَ هم بَشَرٌ مثلكم.

القضيّة التاسعة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعنَى بَعْضِ ما رَدَّ بِهِ نُوحٌ عليه السَّلامُ علَىٰ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ له:

﴿... وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ ... (٣١)﴾:

سبق في القضية الثالثة بيان أنَّ نوحاً عليه السلام قال لملأ قومِهِ المكذّبين له، بِشَأْن من سمَّوْهم أراذلهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ ... (٢٩)﴾.

ويَظْهَرُ أَنَّ مَلأَ قَوْمِهِ قالُوا بشَأْنِهِمْ أيْضاً: هؤلاءِ لا خَيْرَ فيهم، فَلا يُرْجَىٰ مِنْهُمْ خير، ولَنْ يَنَالُوا خيراً، وأَنَّهُمْ حَاوَلُوا اسْتدراجَهُ إلى أن يقول عَنْهم، هؤلاءِ طبقَةٌ منْبُوذَةٌ، خارجَةٌ عَنْ دائِرَة البشَرِيَّةِ الراقيَةِ المكلَّفَةِ، وإنَّما خُلِقُوا ليكُونُوا خُدَّاماً وعبيداً للْبَشَر، وهُمْ علَىٰ صُورَةِ البَشَرِ، وأنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكُونُوا أفْضَل مِنْ ذَلِكَ عند الله، ويظهر أنّ هَـٰذِهِ النَّظْرَةَ

الطبقيَّةَ المقيتَةَ قَدْ تَكَرَّرَتْ في المجتمعات البَشَرية، فهِيَ تَظْهَرُ بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ في كلِّ الناس.

فأضافَ نُوحٌ عليه السَّلامُ إلى مقالَتِهِ السَّابِقَةِ هَـٰذِهِ المقالَة بشأنهم.

اللّام في ﴿لِلَّذِينَ﴾ هِيَ بمعْنَىٰ «عَنْ» كما يَقُولُ النُّحاةُ، ولا أرى مانعاً مِنْ تَقْدِير ما يُنَاسِبُ اللّام بَعْدَ فِعْل: ﴿أَقُولُ﴾ على أنّ اللّام هُنا للتَّقْوِيةِ، مِثْل: وَلَا أقولُ مُزْدَرِياً مِثْلَكُمْ لهؤلَاء الذين آمَنُوا وعَمِلُوا صَالحاً: لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خيراً عِنْده، كَيْف يصِحُّ لي أنْ أقولَ مِثْلَ هَـٰذا القَوْلِ الَّذِي لَا بُرْهَانَ لِي عليه، فأنَا لَا أعْلَمُ مَا في أنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ أحْكُمَ عَلَيْهِمْ أو أحْكُمَ لَهُمْ.

ويُمْكِنُ أن نعتبر اللّام للتعدِيَة علَىٰ أصْلِها، وأنّ الخطابَ موجَّهٌ للَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُهُمْ، ولكن حَصَلَ الالْتِفَاتُ عنْهُمْ في جُمْلَةِ: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ وأصْلُ الكلام: ولَا أقولُ للّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنكُمْ لَنْ يُؤْتِيَكُمُ اللهُ خيراً، ولكن آثَرَ نُوحٌ عليه السّلامُ الالْتِفَات إلَىٰ ضمير الغائبين مبالغةً في تكريمهم، ولو في مَعْرِضِ رفْضِ أنْ يقول لَهُمْ هَـٰذه المقالة.

ونظيره في استعمالاتنا: أنَا لَا أَقُولُ لشيخي التَّقِيّ الصَّادِقِ هو كذَّاب. وهَـٰذا الاحْتِمالُ هُوَ مَا أراهُ الأجدر بالاعتماد، والله أعلم.

ومعلومٌ أنَّ الالْتِفَاتَ من الفنونِ البلاغيَّة المسْتَعْمَلَةِ في القرآنِ بكَثْرَة، والغرضُ الفنيُّ الأدبيُّ واضِحٌ هُنَا.

- ﴿تَزْدَرِيٓ﴾: أيْ: تَحْتَقِرُ وتَعِيب. أصلها «تَزْتَري» أُبْدِلَتْ تاء الافتعال دالاً بعد الزاي، وهو مطردّ.

- ﴿... ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾: أي: كَيْفَ أَقُولُ بِشَأْنِهِمْ: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ وَأتَجَنَّىٰ عَلَيْهِمْ بهذا القول، مَعَ أنَّ الصِّدْقَ فِي الإيمانِ والطَّاعَةِ والعَمَل هُوَ مِنْ أعْمَالِ القُلُوب والنفوسِ، وَمَا فِي القُلُوبِ

والنُّفُوسِ لَا نَعْلَمُهُ نَحْنُ البشر، واللهُ أَعْلَمُ مِنْ كلّ ذِي عِلْم بما فِي أَنْفُسِهم، وهُو ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ الّذِي يُحاسِبُهُمْ ويُجَازِيهِمْ على ما في أَنْفُسِهِمْ مِنْ خَيْر أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

كَيْفَ أَحْكُمُ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ خيراً؟ إنَّ هَـٰذا افْتِآتٌ عَلَىٰ اللهِ، فالحُكْمُ علَىٰ النَّاسِ من خصَائِصِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، الَّذِي يَعْلَمُ ما في النُّفُوسِ من خَيْرٍ أَوْ شَرّ، ويُجازِي على مقادِير مَا فِيها مِنْ ذَلِكَ، إنْ خَيراً فَخَيْرٌ، وإِنْ شَرّاً فَشَرٌّ.

القضية العاشرة: دلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعنَىٰ بَعْضِ مَا رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ له:

﴿. . . إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

﴿إِذًا﴾ يراها النحويّونَ في مِثْلِ هَـٰذا الموضِع زائِدَةً غَيْرَ مُضيفَةٍ معنًى ما إلى العبارة، وأراهَا ظَرْفِيَّةً بمعنى «حِينَئِذٍ» واللهُ أَعْلَمُ.

وجاء توكيدُ الجمْلَةِ بـ «إنّ ـ والجملَةِ الاسميَّة ـ واللّام المزحْلَقة» مُرَاعَاة لِحَالِ كُبرَاءِ قَوْمِهِ المكذّبين له.

والمعنى: إنّي إذَا طَرَدْتُ هَـٰؤُلاء الَّذِينَ وَصَفْتُمُوهُمْ بأنّهم أَرَاذِلُكُمْ، أوْ قُلْتُ: عِنْدِي خَزَائِنُ الله، أَوْ قُلْتُ: إنّي أَعْلَمُ الغيب، أو قُلْتُ: إنِّي مَلَكٌ، أَوْ قُلْتُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً، فَإِنّي حِنَئِذٍ أَكُونُ ظالماً مِنَ الظَّالمِين الّذِين يَسْتَحِقُّونَ عِقَابَ اللهِ وعَذَابه، وإِنّي لَا أُعَرِّضُ نَفْسِي لِعِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي أَنْ أَسْتَجِيبَ لَكُمْ فِي شيءٍ مِنْ ذَلِكَ أتجاوَزُ بِهِ حُدُود طاعَتِي لربِّي ظالماً آثماً.

وبهَـٰذِهِ القضايا العَشْرِ الّتي فصَّلَهَا وَشَرحَهَا نُوحٌ عليه السَّلامُ لِمَلأَ قومِهِ نُلاحِظُ أَنَّهُ قَدْ أَلْزَمَهُمْ وأَفْحَمَهُمْ وَدمَغَهُمْ بِرُدُودِهِ وجَدلِيَّاتِهِ وَمُرَاجَعَاتِهِ الدَّافعات، المقْرُونَاتِ بحُجَجِهَا وبَراهينها، وبِسَبَبِ ذَلِكَ انْقَطَعُوا عَنْ طَرحِ

الشُّبُهاتِ ومُتَابعَةِ الجَدَلِيَّات، فلَجؤُوا إلىٰ تَحدِّيهِ بأَنْ يأْتِيَهُمْ بعَذَابِ اللهِ الذي كَانَ يَعِدُهُم بِهِ آناً فآنا.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾: أي: قَدْ نَاظَرْتَنَا وَحَاوَرْتَنَا، وَصَارَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ في الأقوال، ما يُشْبِهُ المصَارَعَةَ والمغالَبَةَ بالقُوَى الجَسَدِيَّة.

أَصْلُ المجادَلَةِ في اللُّغَةِ المصارَعَة، يُقَالُ لُغَةً: «جَادَلَهُ فَجَدَلَهُ» أي: غالَبَهُ وصَارَعَهُ فصَرَعَهُ وغَلَبَهُ، وقَدْ يَتَكَافَأُ المتصارعان. ثُمَّ أُطْلِقَتِ المُجادَلَةُ عَلَىٰ المخاصَمَةِ الكلاميَّةِ، وعلى المحاورة حَوْلَ فِكْرَةٍ ما، لإثباتِها أو نَفْيها.

«قد»: حَرْف تحقيق.

﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾: لم يَعْتَرِفُوا بأَنَّهُ قَدْ صَرَعَهُمْ فِكْرِيًّا، وغَلَبَهُمْ فِي حَلَبَاتِ المناظَرَات، ولَكِنِ اعْتَرفُوا بأنَّ نُوحاً عليه السَّلامُ كانَ أطْوَلَ نَفَساً مِنْهُمْ مُجْتَمِعِين في مُغَالَبَتِهِمْ في الفِكْرِ، حَوْلَ قَضَايا الدِّينِ الّذي جاءَهُمْ به، حَتَّىٰ ضَاقُوا ذَرْعاً بِمُنَاظراتِهِ ومُحَاوراتِه ومُجادَلاتِه، فَقَرَّرُوا الكَفَّ عَنْ مُتَابعَةِ مُجادَلَتِه، وتَحَدَّوْه بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابِ رَبِّهِمْ الَّذي يُنْذِرُهُم به حِيناً فَحِيناً، إذا أصَرُّوا عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ، والكُفْرِ بما جاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ رَبِّ العالمين.

- ﴿... فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

هَٰذِهِ عِبَارَةُ تَحَدٍّ مِنْ كُبَراءِ قَوْمِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ لَه، بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بما كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ إهْلَاكٍ رَبَّانِيٍّ شَامِلٍ لَهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا، غَيرِ العَذَابِ الَّذي سَوْفَ يُلاقُونَهُ يَوْمَ الدِّين.

إنَّهُمْ بِهَـٰذا التَّحدِّي كانُوا يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ، فيما يَعِدُهُمْ بِهِ بَلَاغاً عَنْ رَبِّهِ، وغَيْرُ صَادِقٍ فِي أَنَّهُ نَبيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، لِطُولِ الإمْهَالِ الرَّبَّانِيِّ لَهُمْ.

الوَعدُ: يكُونُ في الإخبار بأمْرٍ مُسْتَقْبَلِيّ تَمَّ العَزْمُ عَلَىٰ تَنْفِيذِهِ بِشُرُوطِه، خيراً كَانَ أَمْ شرّاً، نفعاً كانَ أم ضُرّاً.

وهُنَا لَا بُدَّ أَنْ نُلَاحِظَ أَنَّ أَحداً مِنَ النَّاس ـ مَهْمَا كَانَ كَافراً عَنِيداً ـ مِنَ المستَبْعَدِ جدًّا أَنْ يَطْلُبَ عَلَىٰ وَجْهِ الحقيقةِ مِمَّنْ يَقُولُ: «إِنَّهُ رَسُولُ الله» أَنْ يُنْزِلَ بِهِ عَذَابَ الله.

إنَّمَا يَقُولُ هَـٰذا عَلَىٰ سَبِيلِ التَّحدِّي، للإشْعَارِ بَأَنَّ مَا يُنْذِرُ بِهِ مِنْ عِقَابِ اللهِ، هُوَ بِهِ كاذب، أَوْ هُو عَاجِزٌ عَنْ تَحْقِيقه.

فَكُلُّ مَا جَاءَ مِنْ طَلَب أقْوامِ الرُّسُلِ مِنْ رُسُلِهِمْ إنْزَالَ عَذَابِ اللهِ عليهم، أَوْ تَعْجِيلَ العَذَاب لَهُمْ، يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ هَـٰذا الفَهْم، لَا عَلَىٰ أَنَّهم طَلَبُوا إِنْزَالَ العَذَابِ بِهِمْ حَقِيقَةً، فإنَّ أيَّ ذِي حَيَاةٍ لَهُ فِكْرٌ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ.

لكِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ خَاطَبَ مُسْتَعْجِلِي عَذَابِ اللهِ الَّذِي أنْذَرَهُمْ به رُسُلُهم، بِحَسَبِ مَا ظَهَرَ مِنْ أقوالِهِمْ وَتَحدِّيَاتِهم تهَكُّماً بِهِمْ وسُخْرِيَةً مِنْهم، ومُجَارَاةً مِنْهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لِظَاهِرِ أَقْوالِهم.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِمَا رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ قَوْمِهِ:

- ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

اشْتَمَلَ رَدُّ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ تَحدِّي مَلأ قَوْمِهِ له، علىٰ بَيَانِ خَمْسِ قَضَايَا:

القَضِيَّةُ الأُوْلَى: دَلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾:

أي: لسْتُ أَنَا الَّذِي آتِيكُمْ بِمَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ رَبّكُم، إِنَّمَا يأتِيكُمْ به اللهُ إنْ شَاءَ هُوَ لَا إِنْ شِئْتُ أنا، ولا إِنْ شِئْتُمْ أنتم، أَمَّا أَنَا فَوَظِيفَتِي من اللهِ مَحْدُودَة، إِنِّي رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ مَا يأْمُرُنِي بتَبْلِيغِهِ، ممَّا يُوحِي بِهِ إِلَيَّ.

القَضِيَّةُ الثانِيَة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارَةُ: ﴿... وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: وَمَا أَنْتُمْ بقَادِرِينَ عَلى الإفْلاتِ مِنْ عَذَاب اللهِ إنْ شَاءَ أَنْ يُنْزِلَهُ بِكُمْ، إِنَّكُمْ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَفِرُّوا مِنْه، ولَنْ تَسْتَطِيعوا أَنْ تُعْجِزُوا جُنُودَ الله عن طَلَبِكُمْ وَإِدْرَاكِكُمْ بالعِقَاب.

تَقُولُ لُغَة: «أَعْجَزَنِي فُلانٌ» أي: عَجَزْتَ وَضَعُفْتَ عَنْ طَلَبِهِ وإدْرَاكِه، فأفْلَتَ مِنْكَ وَفَاتَكَ.

جاءت هذه العبارة جواباً على ما يَجُولُ في نُفُوسِهِمْ مِنْ تَكْذِيبٍ وتَحَدٍّ مُشْعِرٍ بأنَّ نُوحاً عليه السّلام عاجِزٌ عَنْ أَنْ يُحَقِّقَ مَا تَوَعَّدَهُمْ به.

القضِيَّة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ... ﴿٣٤﴾﴾:

النُّصْحُ: إِرَادَةُ الخَيْرِ للمَنْصُوحِ.

- ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: أي: إنْ أَرَادَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْكُمْ بالغَوَايَةِ حُكْماً مُبْرَماً، وأَنْ يُنْزِلَ بِكُم عِقَاباً مُعَجَّلاً عَلَىٰ ضَلَالِكُمْ.

أي: وحِينَ يَقْضِي اللهُ عَلَيْكُم بالْعَذَابِ، بَعْدَ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْكُم بالغَوَاية، فإنّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمْ عَذَابَ رَبِّي، ومَهْمَا أَرَدْتُ أَنْ

أنْصَحَ لَكُمْ مُرِيدا لَكُمُ الخَيْرَ فإنَّ نُصْحِي لَنْ يَنْفَعَكُمْ حِينَئِذٍ، لِأَنَّنِي لَا أَمْلِكُ مِنْ رَبِّي رَفْعَ حُكْمِهِ عَلَيْكُمْ بالغَوَايَةِ، وَقَضَائِهِ عَلَيْكُمْ بالعَذَابُ والإهْلاك، إذْ تَكُونُ مُدَّةُ امْتِحانِكُمْ قَدِ انْتَهَتْ، وَجَاءَ وَقْتُ عِقَابِكُمْ.

إنّنِي مَهْمَا حَاوَلْتُ حِينَئذٍ أنْ أتَّخِذَ وَسِيلَةً أدْفَعُ بِهَا عَنْكُمْ عَذَابَ اللهِ فإنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُكُمْ بشيءٍ، وكما أنَّنِي لَا أَمْلِكُ أنْ آتِيَكُمْ بِالعَذَاب الّذِي أنْذَرْتُكُمْ به بَلَاغاً عَنِ الله، إنْ لَمْ يَشأِ اللهُ أنْ يَأْتِيَكُمْ بِهِ، فإنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ أيُّ عَمَلٍ أعْمَلُهُ ابْتِغَاءَ الخير لَكُمْ، وَدَفْعَ عَذَابِ اللهِ عَنْكُمْ، نُصْحاً لَكُم عَلَىٰ افْتِرَاضِ أَنَّنِي أَرَدْتُ أنْ أنْصَحَ لَكُمْ شفَقَةً عَليكمْ، إنْ شَاءَ اللهُ أنْ يُغْوِيَكُمْ بالحُكْمِ عَلَيْكُمْ بالغَوَايَةِ، وحَقَّ عليكم بسَبَبِ ذٰلِكَ إنْزَالُ وَعِيدِ اللهِ فِيكُمْ، وعِقَابُهُ لَكُمْ في الدُّنيا وفي الآخِرَة.

القضيّة الرّابِعَة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾:

أي: هو الّذي خَلَقَكُمْ ضِمْنَ نِظَامِ التَّرْبِيَةِ المتصاعِد، ويَخْلُقُكُمْ دواماً خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ تَرْقِيَةً أو تَنْكِيساً، ويُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ دواماً بصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ الشَّامِلَةِ لمعظَمِ أسْمَائِهِ الحسْنَىٰ. فهو الذي يَرْزُقُكُمْ، وهو الَّذِي أحْيَاكُمْ، وهو المُمْتَحِنُ لَكُمْ في الحياة الدُّنيا، وهو الذي يُميتكُمْ، وهو الذي يُحَاسِبُكُمْ يوْمَ الدّين، ويَفْصِلُ القضاء بيْنَكُمْ، ثُمَّ يُجازيكُمْ بحَسَبِ مَا قَدَّمْتُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ في الحياة الدنيا.

القضيّةُ الخامِسَةُ: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: **[وَإِلَيْهِ تَرجِعُونَ]** بالبناء للمعْلُوم:

أي: وإلَىٰ حِسَابِ رَبِّكُمْ، وفَصْلِ قضائِهِ بيْنَكُمْ، وتنفيذ جَزَائِهِ الّذي يُجَازيكُمْ بِهِ، تُرْجَعُونَ بالخَلْقِ الجبْرِي، فَترْجِعُونَ مُطَاوِعِينَ، لَا تَمْلِكُونَ باخْتِيارِكُمْ شَيْئاً، بَعْدَ أنْ يَبْعَثَكُمْ إلَىٰ الحَياةِ الأُخْرَىٰ مِنْ مَدَافِنِكُمْ، هو الَّذِي أحْيَاكُمْ وهُوَ الَّذِي يُمِيتُكُمْ، وهو الَّذِي يُحْيِيكُمْ تَارَةً أخرىٰ يَوْمَ الدّينِ.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بشَأْنِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ واتّهامِهِمُ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بأنهُ افْتَرىٰ القرآنَ وَنَسبَهُ إلى رَبِّهِ كَذِباً عليه:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

جاءَتْ هٰذِهِ الآيَةُ مُعْتَرِضَةً ضِمْنَ عَرْضِ لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السلام مَعَ قَوْمِهِ، لِبَيانِ أَنَّ ما تَعرَّضَ لَهُ محمَّدٌ ﷺ من كُبراء قَوْمِهِ في مَكَّة، مَسْبُوقٌ بِنَظائِرَ تَعرَّضَ لَها نُوحٌ مِنْ مَلأِ قَوْمِهِ، فَقَدْ كَذَّبُوهُ فِي رِسَالَتِهِ، واتَّهمُوهُ بالمَصْلَحةِ الشَّخْصِيَّةِ الدُّنْيوِيَّةِ فِيهِمْ، وَتَعَنَّتُوا عَلَيْهِ بِمَطالِبَ مِنَ الخَوارِقِ، وطَالَبُوهُ بِطَرْدِ الضُّعفاءِ وَالمَساكِينِ عَنْ جَماعَةِ المؤمِنِينَ بِهِ، وتَحدَّوْهُ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بما يَعِدُهُمْ بِهِ، وهٰذِهِ كُلُّها قَدْ فَعلَ كُبراءُ مُشْرِكي مَكَّةَ نَظائِرَها، ومنها مُتابَعَةُ إصْرارِهم علىٰ اتِّهام الرَّسُول مُحمَّدٍ ﷺ بأنَّهُ اخْتلَقَ القرآنَ وافْتَراهُ عَلَىٰ الله، والّذِي سَبَقَ في الآية (١٣) من هذه السّورَة بَيانُه.

وإِذْ سَبَقَ فِي مراحِلِ التَّنْزِيلِ إقَامَةُ الحجَجِ المُتعدِّدَةِ عَلَيْهِمْ، بأنَّ القُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين، وأنّه لَيْسَ بإمْكَان البَشَرِ أَنْ يفْترُوهُ أَوْ يَفْتَرُوا مِثْلَهُ، وسبَقَ أَنْ تَحدَّاهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، أو بِمِثْلِ سُورَةٍ واحِدَةٍ من السُّوَرِ ذَواتِ الصفحات المتعدِّدَاتِ، فإنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِقَطْعِ هٰذا الإِصْرَارِ العَنيدِ، الَّذي لَيْس فِيهِ غَيْرُ المُكابَرَةِ بِحَماقَةٍ وَتَجاهُلٍ لِسَوابِقِ الجَدلِيَّاتِ المُلْزِمَاتِ والمُفْحِمات والمُقْنِعَات، لم يَبْقَ أَمامَ الرَّسُولِ ﷺ إلّا أَنْ يقُولَ لَهُمْ: إنِ افْترَيْتُهُ فإنّي أكُونُ مُجْرِماً، وعَلَيَّ يَنْزِلُ عِقابُ إجْرامِي، وإذَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ تكَذِّبُونَ بالحَقِّ الَّذِي جاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عِناداً وَجُحُوداً، فإنَّكُمْ تَكُونُونَ مُجْرِمِينَ إجْراماً كَبِيراً بِحَقِّ اللهِ رَبِّكُمْ عليكم، وتَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ عِقابَ الكافِرِينَ خُلُوداً في عَذَابِ النَّارِ، وَيَقَعُ عَلَيْكُمْ هٰذا العَذاب، وَأَكُونُ أَنَا بَرِيئاً مِمَّا تُجْرِمُونَ، إذْ لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ.

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: «أَمْ» بِمَعْنَىٰ «بلْ» للإضراب الانتقالِي، أي: بَلْ يَقُولُ كبراء مُشْرِكي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ عَنِ القرآنِ المجيد: إنَّ مُحمّداً افتراهُ عَلَىٰ الله، أي: اخْتَلَقَهُ كَذِباً.

الفِرْية: هي في اللُّغَةِ الكَذِبُ، والكلامُ المصْطَنَعُ المكْذُوبُ عَلَىٰ مَنْ نُسِبَ إِلَيْه، عَنْ قَصْدٍ وَتَعَمُّدٍ وَعِلْم.

- ﴿... قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

«إنْ» تُسْتَعْمَلُ بَلاغيًّا لِلأَمْرِ غَيْرِ الواقِع أوْ للمشْكُوكِ فِي وُقُوعه، والمرادُ بها هنا الأوّل.

أي: إنْ كُنْتُ افْتَرَيْتُ هَـٰذا القرآنَ عَلَىٰ رَبّي فافترائي لَهُ إجْرَامٌ عظيم، إذْ هُوَ كَذِبٌ عَلَىٰ اللهِ، والكَذِبُ عَلَىٰ اللهِ مِمَّنْ يَقُولُ: أَنَا رَسُولُ اللهِ وَيُؤَيِّدُهُ اللهُ بالآيَاتِ مِنْ أشَدِّ الجرائم الَّتِي لَا يُؤَخِّرُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عُقُوبَتَها، حِمَايَةً للنَّاسِ مِن الافْتِتَانِ به، وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيَّ عِقَابُ إجْرَامِي هَـٰذا، وَلَا يُشَارِكُنِي فِيه أَحَدٌ.

وَقَدْ جَاءَ البَيَانُ الصَّرِيحُ عَنْ هَـٰذا في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

الوَتِينُ: الشِّرْيَانُ الرئيسُ الَّذِي يُغَذِّي جِسْمَ الإنْسَانِ بالدَّمِ النَّقِيِّ الخارِجِ مِنَ القَلْب، ويُجْمَعُ عَلَىٰ «وُتْنٍ» و«أَوْتِنَة».

وَإِذْ لم يَنْزِلْ بالرَّسُولِ عِقَابٌ مَا مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهُوَ يُبَلِّغُ القرآنَ عَنْهُ تِبَاعاً، فَهُوَ إذاً غَيْرُ مُجْرِمٍ، وهُوَ إذاً غَيْرُ مُفْتَرٍ للقرآن، وكُلُّ هَـٰذِهِ البيانَاتِ لوَازِمُ للنَّصِّ قَرِيبَةٌ أَوْ بَعِيدَة، وَبَعْضُهَا يُفْهَمُ مِنْهُ بِقُوَّةٍ، وبَعْضُهَا يُفْهَمُ

صَرَاحَةً ممَّا نَزَلَ قَبْلَهُ في نُجُومِ التَّنْزِيل، وبَعْضُها يُفْهَمُ صَرَاحَةً مِمَّا نَزَلَ بَعْدَهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيل.

علىٰ أنَّ موضُوعَ اتِّهَامِ كُبَراءِ كُفَّارِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ مُحمّداً ﷺ، بأَنَّهُ قَدِ افْتَرَىٰ القرآنَ علىٰ رَبِّهِ مِنْ عِنْدِهِ، قَدْ جَاءَ الرَّدُّ عَلَيْهِ فِي القُرآنِ مُجزَّأً فِي بناءٍ فِكْرِيٍّ، سَبَقَ هَـٰذا النَّصَّ بَعْضُهُ في نُجُومِ التَّنْزِيل، ونَزَلَ بَعْدَهُ نُجُومٌ أُخْرَىٰ أتَمَّتْ عناصر الرَّدِ القرآنِيّ وافِياً بحَسَبِ الشُّبُهَاتِ الّتي كَانُوا يَطْرَحُونها أو تَخْطُرُ علىٰ أَذْهانِهم.

وقد سبَق هذا النَّصّ الذي جاء في الآية (٣٥) من سورة (هود/ ٥٢ نزول) الآيات من (٤ ـ ٦) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) والآيتان (٣٧ و٣٨) من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) والآية (١٣) من سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) الجاري تَدَبُّرُهَا.

ونَزَلَتْ بَعْدَه عِدَّة نصوص، وهي الآية (١١١) من سورة (يوسف/ ١٢ مصحف ٥٣ نزول) والآية (٤٣) من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) والآية (٢٤) من سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) والآية (٨) من سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) والآيات من (١٠١ ـ ١٠٣) من سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) والآية (٥) من سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) والآية (٣) من سورة السّجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول).

والدراسة التدبريَّة التكاملية لهذه النصوص تحتاج بحْثاً مُسْتِقلاً، أرْجُو أن يفتح اللهُ عليّ به مستقبلاً.

قول الله عَزَّ وجَلَّ مُتابعاً عَرْضَ اللّقَطاتِ المختاراتِ من قصّة نوحٍ عَلَيْهِ السلام وقَوْمِهِ في سورة (هود) بَعْدَ الآية الاعْتِراضيّة (٣٥):

- ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

دلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أيْأَس نُوحاً عَلَيْهِ السلام، من إيمانِ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِهِ غَيْرِ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ آمَنُوا بِه، وكَانَ هَـٰذا بَعْدَ أنْ لَبِثَ فِيهِمْ قُروناً يَدْعُوهم إلى اللهِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ الَّذِي كانُوا يُصِرُّون عليه عِناداً، والتزاماً بالتقليد الأعْمَىٰ، وبَعْدَ أَنْ صَبَرَ عَلَيْهِمْ صَبْراً طَوِيلاً، مَرَّ عَلَيْهِ فِيه أَجْيَالٌ كَثِيرَةٌ مِنهم.

وفِي هذا دَلالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ من الحكمة أَنْ يَهْجُرَهُمْ، وَيتوَقَّف عَنْ دَعْوَتِهِمْ، ودَلالَةٌ عَلَىٰ أنَّ الحِكْمَةَ تَقْتَضِي إِنْهاءَ إِبْقَائِهِمْ أَحْيَاءَ فِي هَـٰذِهِ الدَّار، دَارِ الابْتِلَاء، فقد انتهت المدّة المناسبة لابتلائهم.

- ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: أي: فَلَا تَحْزَنْ، وَلَا تَكُنْ في غَمٍّ وَضِيق.
- ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ضِدَّكَ مِنْ مُؤْذِيَاتٍ تَكْرَهُهَا، وَلَا بِمَا تَوَعَّدُوكَ بِهِ مِنْ رَجْمٍ إذا لَمْ تَنْتَهِ عن مُتَابَعَةِ دَعْوَتِكَ.

وظاهِرٌ أنَّ هَـٰذا البَيانَ الرَّبَّانِيَّ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، يَتَضَمَّنُ الإشَارَةَ إِلَىٰ الحُكْم عَلَيْهِم بالإهْلَاكِ الشَّامِل، فَالتَّيْئِيس مِنْ إيمَانِ أحدٍ مِنْهُمْ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الحكْمَةَ تقضِي بِعَدَم إمْهالهم، إذ الغَايَةُ الابْتِلَائِيَّةُ قد استَنْفَدَتْ كُلَّ مَا يَلْزَمُ لها، وصَارَ إِبْقَاؤهم في الحياة الدُّنيا خالِياً مِنَ الحكمة، والعقابُ الشَّامِلُ لَهُمْ قَدْ صَارَ هو الأمْرَ الحكيم، كما صَارَتْ مُتَابَعَةُ دَعْوَتِهِمْ غَيْرَ مُجْدِيَة.

والمعنىٰ الّذِي دَلَّ عليه ظاهر العبارة: فَلَا يَكُنْ فِي قَلْبِكَ حُزْنٌ وضِيقٌ بسَبَبِ مَا كانُوا يَفْعَلُونَ مَعَكَ مِنْ سُخْرِيَةٍ واسْتِهْزَاء، ومَا يُواجِهونَكَ بِهِ مِنْ شَتَائِم.

وهذا يَتَضَمَّنُ الوعدَ بأَنَّهُ مَنْصُورٌ عَلَيْهِمْ، وبأَنَّهُ سيَتَخَلَّصُ من كُلِّ مُضَايَقَاتِهِم وإيذَاءَاتِهِمْ بإهْلَاكِ اللهِ لهم.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بَيَاناً لِمَا كَانَ أَوْحَىٰ بِهِ إلى نوح عَلَيْهِ السلام بَعْدَ مَا سَبَقَ:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

دَلَّ قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لنوح عَلَيْهِ السَّلام: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ عَلَىٰ أنَّ وَسِيلَةَ النَّجاةِ مِنَ الغرَقِ بالمَاءِ الَّذِي يُهْلِكُ به كُفَّارَ قَوْمِهِ إهلاكاً شَاملاً، مَرْكَبَةٌ مَائِيَّةٌ تَقُومُ عَلَىٰ المَاءِ وتَجْرِي فِيه، وأَنَّ الماء الَّذِي سَيَنْزِلُ وَيتَفجَّرُ سَيغْمُرُ رُؤُوسَ الجِبَال، فَاتِّخَاذُ مَعَاقِلَ فيها لَا يَعْصِمُ مِنَ الغرَقِ في المَاء، فَلَا فَائِدَةَ مِنَ التفكِيرِ في اتِّخَاذ وسِيلَةٍ أُخرَىٰ غَيْرِ ذلِكَ.

فكان من روائع البيان الإيجازي الّذي يَعْتَمِدُ على لوازم الأفكار الاكْتِفاءُ بِجُمْلَةِ ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ للدَّلالَةِ عَلَىٰ كُلِّ هَـٰذِهِ المعاني الَّتي يَسْتَدْعِيها فِكْرُ النَّبيهِ الفَطِنِ لُزُوماً.

ودَلَّ قَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ علىٰ أنَّ التَّنْفِيذَ، وخُطَّةَ العَمَل، وهَنْدَسَةَ بناءِ السَّفِينَةِ، وتَحْدِيدَ الموادّ الَّتي تُصْنَعُ مِنها، وطَرِيقَةَ التَّنْفِيذ، أمُورٌ مَسْبُوقَةٌ بالوَحْي، ومَحْفُوفَةٌ بالعِنَايةِ والمُراقبَةِ التَّوجيهيَّة، والتَّسْدِيدِ المُتَتابع، حتَّىٰ تَبْلُغَ الفُلْكُ الغايَةَ المقْصُودَةَ مِنْ إحْكَامِ الصُّنْع للأمْرِ الَّذي تُهيّأُ له، كُلُّ هَـٰذا ضِمْنَ إمْكَانَاتِ نُوحٍ عَلَيْهِ السلام المُتَاحَةِ لَهُ في زمانه.

الفُلْك: مَرْكَبُ البَحْر، يُطْلَقُ علَىٰ الواحِدِ والاثْنَين والجَمْع، ويُذَكَّرُ وَيُؤَنَّث، فيُقَالُ: هيَ الفُلْكُ، وهو الفُلْك.

وفي كتابي «نوح عليه السلام وقومه في القرآن» بيان الحكمة من تَقْدِيم عبارة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ علَى عبارة ﴿وَوَحْيِنَا﴾.

- ﴿... وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

أي: وَلَا تُخاطِبْني في إمْهَالِهِمْ، وَعَدم إهْلَاكِهِمْ، فَقَدْ صَارَ إِهْلَاكُهُمْ غَرَقاً، بِطُوفَانٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِمَايَةَ نُفُوسِهِمْ مِنْهُ قضَاءً مُبْرَماً.

وقَدْ أدَّتْ عبارةُ: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ عدَّةَ أغْرَاض:

الأوّل: أنَّ الأَمْرَ بِصُنْع سَفِينَةٍ في بَرٍّ لَا بَحْرَ فِيه، دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ الماءَ سَيَصِلُ إلَيْها، وَيَعُمُّ وَيَطِمُّ، ويَرْفَعُهَا وهِيَ في مكانِهَا، فتجْرِي بِرُكَّابِهَا علَىٰ الماء، حتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ أَمْرَ إهلاكِ القوْمِ، ونجاةَ نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ، وَيَغِيضَ الماءُ، وَتَسْتَوِي السَّفِينَة عَلَىٰ أَرْضٍ يَابِسَة.

الثاني: أنَّ الإهْلَاكَ لكُلِّ الكافِرِينَ، أئِمَّتِهِمْ وَأتْباعِهِمْ، سَيَكُونُ بالغَرَقِ بالماء.

الثالث: التأكيدُ عَلَىٰ أنَّ الأَمْرَ قَدْ صَارَ أَمْراً مُبْرَماً مُقدَّراً ومَقْضِيًّا، إِنَّمَا يَنْتَظِرُ الوَقْتَ الَّذِي قَضَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُغْرِقَهُمْ فِيه.

قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ يَصِفُ لَقَطاتٍ مِنْ مَشاهِدِ صُنْعِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام الفُلْكَ الّتِي أَوْحَىٰ اللهُ إلَيْهِ بأنْ يَصْنَعَها:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾:

المَلأُ: وجُوهُ القَوْمِ وَأعْيَانُهُمْ ورُؤسَاؤهم، لأنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العَامَّة.

﴿يُخْزِيهِ﴾: **الخِزْيُ** الوُقُوعُ في الشَّرِّ والعذاب والمصائب والبلايا، والذُّلِّ والهَوَان، والافْتِضَاحُ بالقَبَائِحِ والسَّيِّئَات والآثام المخْجِلَةِ خَجَلاً شَدِيداً.

- ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾: في هَـٰذِهِ العبَارَةِ حِكَايَةُ أعْمَالٍ صِنَاعِيَّةٍ قَائِمَةٍ مُقْتَطَعَةٍ مِنَ الماضِي، ومُقَدَّمَةٍ في التَّعْبِيرِ علىٰ أنَّها مَشْهَدٌ مِنْ مَشَاهِدِ بِنَاء السُّفُن، وَيَسْتَدْعِي ذِهْنُ اللَّبِيبِ مِنْ خِلَالِ هَـٰذا العَرْضِ مُخْتَلَفَ الأَعْمَالِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا بناءُ سَفِينَةٍ بَحْرِيَّة.

دَلَّ الفِعْلُ المضارع في ﴿وَيَصۡنَعُ﴾ عَلَىٰ الحَرَكَةِ المتَجَدِّدَةِ في تَصْوِيرِ المشْهَدِ بعِبَارَةٍ كلامِيَّة، ويَنْطَلِقُ الذِّهْنُ إلَىٰ تَصوُّرِ زَمَنٍ قَدْ يَبْلُغُ قُرابَةَ سَنَةٍ فَأكْثَر، ونوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْنَعُ فِيهِ الفُلْكَ مَعَ مُعَاوِنِينَ لَهُ من المؤمِنين، والفِعْل معطوف على مطويٍّ مقدّر: أي: فنفَّذ نوحٌ أمرَ رَبّه وصَارَ يَصْنَعُ الفلك.

- ﴿... وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ ...﴾.

لفظ «كُلَّما» هو «كُلُّ» دَخلَتْ عليه «مَا» المصدريَّة الظَّرْفيّة، ولا تَدْخُلُ «كُلَّمَا» إلَّا علَىٰ الفِعْلِ الماضي، وهيَ مَبْنِيَّةٌ علَىٰ الفَتْح في مَحلّ نَصْبٍ عَلَىٰ الظرفية، والعامِلَ فيها جوابُها، وهو هنا فعل ﴿سَخِرُواْ﴾ وهي تفيد التكرار.

- ﴿مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾: أي: مَرُّوا مُسْتَكْبِرين مُسْتَعْلِينَ عَلَيْهِ، ورُبَّما كان نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ يَصْنَعُ الفُلْكَ في مُنْخَفِضٍ من الأرض شبهِ وادٍ، لِيُسَنِّدَ مَا يَصْنَعُ من ذاتِ اليَمِينِ ومِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ، على سطحَيْن مُنْفَرِجَيْن من الأرض، مُلَائِمَيْنِ لانْفِرَاجِ جَانِبَي الفُلْك، فإذا مَرَّ مَلأٌ من قومه مَرُّوا مِنْ أعْلَىٰ، ولهٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ أوْ لِأَحَدِهِمَا جاءَ التَّعْبير: ﴿مَرَّ عَلَيۡهِ﴾ بخِلافِ التَّعْبيرِ في: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ (المطفّفِين) إذْ لَيْسَ في واقِعِ هٰؤلَاءِ استعلاءٌ ماديٌّ أو مَعْنَوي.

﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾: أي: هَزِئُوا به، يقال لغةً: «سَخِرَ مِنْهُ، وسَخِرَ بِهِ، يَسْخَرُ، سَخْراً وسَخَراً، وسُخْراً، وسُخْرِيَةً، وسُخْرِيَّةً» أي: هزئ به.

ويظْهَرُ أنَّهُمْ كَانُوا يُوَاجِهُونَهُ عَلَيْه السَّلَامُ بعِبَارَاتِ السُّخْرِيَةِ، وأَنَّهُمْ كانوا يَفْعَلُونَ ذلِكَ مِراراً وتَكْراراً مُتَعَجِّبِينَ ممَّا يَصْنَعُ ومُسْتَهْزِئين به، ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتداعَوْنَ لمشاهَدَةِ مَا يَصْنَعُ هٰذا النَّجَّارُ الّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ رَبِّ العالمين.

• ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾:

لَمَّا تَضَجَّرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ سُخْرِيَاتِهِمُ المتكَرِّرَاتِ، قَال لهم مُتَحدِّثاً عَنْ نَفْسِهِ وعَنِ العامِلِينَ مَعَهُ مِنَ المؤمنين: «إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا» أي: بِسَبَبِ جَهْلِكُم بِمَا نَصْنَعُ، وَجَهْلِكُمْ بالغايةِ منه «فَإِنَّنا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ» مُقَابَلَةً لَكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِكُمْ فقط، أي: لِعِلْمِنَا بِأَنَّكُمْ هالِكُون غَرَقاً بَعْدَ حِينٍ لَيْسَ بالبَعِيد، ولِعِلْمِنَا بأَنَّ رَبَّنَا سَيُنْجِينا مِنْكُمْ ومن الغَرَقِ في المَاءِ، بالمَرْكَبَةِ الّتِي تَحْمِلُنا وتَجْرِي بِنَا سَالِمِينَ بعِنايةِ اللهِ وحفظه.

جواب الشرط في ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ جاء ذا شِقَّين:

الشِّقُّ الأول: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وهَـٰذا مَحْمُولٌ علىٰ الحال، أي: فإنَّا الآنَ نَسْخَرُ مِنْ جَهْلِكُمْ وسَفَاهَتِكُمْ وتعاليكُم بِحَمَاقَةٍ وغُرُور، إِذْ نَعْلَمُ أنكُمْ هالكون غرقاً، وفي التشبيه معنى المماثلة.

الشِّقُّ الثاني: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾:

في هَـٰذِهِ العبارة تَعْرِيضٌ بأنَّ كُفّارَ قومِهِ هُمُ الَّذِينَ سَوْفَ يأتيهِمْ عذابٌ يُخْزِيهِمْ ويَحِلُّ عَلَيْهِمْ عذابٌ مُقيم.

أي: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ إِذْلالاً وَإِهَانَةً وافتضَاحاً، أمَامَ الخَلَائِقِ قَبْلَ دُخُولِ دارِ العذاب النّارِ، ومَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ فِي جَهَنَّمَ عَذابٌ مُقِيمٌ دَائِمٌ لَا انقطاع له.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: أي: ويَنْزِلُ عَلَيْهِ حَالًّا عَلَىٰ كُلِّ جُزءٍ مِنْهُ، كَحُلُولِ النَّازِلِ بِالمكانِ للإِقَامَةِ والاستقرار الدّائم، عذاب مقيم إقامة دائمة.

يقالُ لغةً: «حَلَّ المكانَ، وحَلَّ بِهِ، يَحِلُّ، حُلُولاً» أي: نَزَلَ به. وتَقُولُ: «حَلَلْتُ القَوْمَ، وَحَلَلْتُ بِهِمْ، وحَلَلْتُ عَلَيْهِمْ» أي: نزَلْتَ بأَرْضِهِمْ نُزُولَ مُتَمَكِّنٍ مُقِيمٍ.

مُقِيمٌ: أي: ثابِتٌ مُسْتَقِرٌّ، من قولهم: «أقَامَ بالمكان» أي: لَبِثَ فيه واتَّخَذَهُ وطَناً.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾:

قرأ حَفْصٌ: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ بتَنْوِين «كلٍّ» على حَذْفِ المضاف إليه، أي: مِنْ كُلّ حيوان.

وقرأَهَا باقي القُرّاء العشرّة: **[مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ]** دون تَنْوِين عَلَىٰ أنَّ «كُلِّ» مضَافَةٌ إلىٰ «زَوْجَيْن».

أي: وانْتَهَىٰ نوحٌ عليه السَّلامُ مِنْ صُنْعِ الفُلْكِ بِوَحْيٍ من اللهِ ومُرَاقَبَةٍ محفوفَةٍ بالعِنَاية.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي هنا الابتدائِيَّة وَهِيَ حَرْفٌ تَبْتَدئُ بَعْدَهُ الجُمَلُ الاسميَّة والفعْلِيّة. وفيها معنى الغايةِ، بتقدير: حتّىٰ انتهىٰ وقت الإمْهَالِ وجاء وقت تنفيذ الإهلاكِ.

والمعنى: حتَّىٰ إذا جاء وقْتُ تَوْجِيهِ الأمْرِ بِتَنْفِيذِ القضاء بإهْلاكِ كفّار قَوْمِ نوح عليه السلام، والمرادُ بِمَجِيءِ الوَقْتِ اقترابُ مَجِيئِهِ، أو مَجِيءُ بوادِره.

وجاء التعبير بمَجِيءِ الأمْر عن توجيه الأمْرِ التنفيذي، وعن مجيء أوائل الأسْبَابِ الّتي هي من عناصر التنْفِيذ. وجاء التعبير بكلمة «إذا» التي

هي ظرف للمستقبل، باعتبار أنَّ مجيء الأمْرِ قَدْ كان بَعْدَ مُدَّةِ الإمْهَال.

- ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: أي: وفَارَ التَّنُّور بالماء الّذِي تَفَجَّرَ مِنْ عيونٍ في أَرْضِهِ.

التنوُّر: هو الفُرْنُ الّذي يُخْبَزُ بِهِ، ورُوِي عن عليِّ بْنِ أبي طَالِبٍ كرَّمَ اللهُ وجْهَهُ أنَّ التَّنُّور وجْهُ الأرض. ويُقَالُ لُغَةً لِكُلِّ مَفْجرِ مَاءٍ: تَنُّور. ويُمْكِنُ حَمْلُ اللَّفْظ عَلَىٰ كُلِّ هَـٰذِهِ المعَاني.

يُقَال لغة: «فَارَ المَاءُ، يَفُورُ، فوراً، وفَوَرَاناً» أي: خرج من الأرض وجرَىٰ مُتَدَفِّقاً، فَهُوَ فَوَّار.

أي: وَفَارَتِ الأَرْضُ مِنَ الأَمْكِنَةِ الّتِي لَمْ تَكُنْ تَتَفَجَّرُ فيها عُيُونُ الماء، حتَّىٰ المخابِزُ البَعِيدَةِ عَنِ احْتِمَالَات تَفَجُّرِ الماء فيها، فَكَيْفَ بالعُيُونِ التي كَانَ المَاءُ يَتَفَجَّرُ مِنْها، فإنَّ الذِّهْنَ يُدْرِكُ أنَّها زَادتْ تَفَجُّراً.

ويَدُلُّ عَلى أنّ المرادَ وجْهُ الأَرْضِ عُموماً كَما قالَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالب رضي الله عنه، قولُ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (القَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾(١).

- ﴿... قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ... ﴿٤٠﴾﴾:

أي: قُلْنَا لِنُوح: احْمِلْ في الفُلْكِ مِنْ كُلّ أَنْوَاع البهائِم فِي بيئَتِكَ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذَكَرٍ وأُنْثَىٰ. لفظ **[كُلّ]** مقطوع عن الإضافة، والتقدير من كلِّ نوع.

---

(١) انظر تدبُّر هَـٰذِهِ الآية في سورة (القمر/ ٣٧ نزول) المجلد الثالث ص (٣٦٦).

وجَاءَ التَّقْيِيدُ بلَفْظِ ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ لِئَلَّا يَحْمِلَ أكْثَرَ مِنْ ذَكَرٍ وأنْثَىٰ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ.

الزَّوْج: كُلُّ وَاحِدٍ مَعَهُ آخَرُ مِنْ جِنْسِهِ. **الزَّوْجَانِ**: الذَّكَرُ والأنْثَىٰ.

وعلى قراءة الجُمْهُورِ: **[مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ]** علَىٰ الإضافَةِ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ المرادُ أرْبَعَةَ أفرادٍ، ذكَرٍ وأُنْثَىٰ، وذَكَرٍ وأُنْثَىٰ، لأنَهُ أحْوَطُ للتَّنَاسُلِ، إذْ قَدْ يُصَادِفُ أَنْ يكُونَ أحَدُ الزَّوْجَيْنِ عقيماً.

- ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾: أي: واحْمِلْ في الفُلْكِ كُلَّ أَهْلِكَ باستِثْنَاءِ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ الرَّبَّانِيُّ بِأَنَّهُ مِنَ المغْرَقِينَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ، بَلْ بَقِي علَىٰ دِينِ قَوْمِهِ مُشْرِكاً.

وكان هذا الاستثناءُ مُطْلَقاً لَمْ يُبَيَّنْ فِيه مَنْ هُوَ الَّذِي سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ، وَيُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَىٰ واحِدٍ مِنْ قَرابَتِهِ.

أَهْل نُوحٍ عليه السلام: هُمْ كُلُّ مَنْ هُو لَاحِقٌ به، مِنْ زَوْجَةٍ وَوَلَدٍ وأقارِبَ وعَشِيرَةٍ ذَاتِ قرابَةٍ وأزْواجهم وذُرِّيَّاتهم.

دَلَّ هذا البيانُ علَىٰ أنَّ أهْلَهُ قَدْ آمَنُوا بِهِ إلَّا مَنْ سَبَقَ عليه القَوْلُ بأنَّهُ كافِرٌ مِنَ المغْرَقِين.

- ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾: أي: واحْمِلْ في الفُلْكِ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِكَ من غَيْرِ أهْلِكَ.

- ﴿... وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾: أيْ: وَمَا آمَنَ باللهِ وَبما أَنْزَلَ اللهُ، مع نُوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ إلّا قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِهِ.

جاء هذا البيانُ الرَّبَّاني مُوَجَّهاً لِمُتَلَقِّي القرآنِ من أمَّةِ محمَّد ﷺ، على سبِيل الاعْتِرَاضِ، ضِمْنَ حِكَايَةِ قِصَّةِ نوح عليه السّلام وقومه، لإفادَتِهِمْ أمْراً يُهِمُّ الدُّعَاة وَيَنْفَعُهُمْ، ويُفِيدُ البَاحِثِينَ في الظَّاهِرَاتِ الاجْتِمَاعِيَّة، ويُفِيدُ مُسْتَبْصِري حِكْمَةِ اللهِ في عُقُوبَاتِهِ العَامَّة.

أي: فَحَمَل نُوحٌ عليه السلام في الفُلْك مَا أَمَرَهُ اللهُ بحَمْلِهِ مع أرزاقِهم وأدواتهم، وهذا مطويٌّ في النصّ ويُفْهم ذِهْناً.

قول الله تعالى:

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾:

سَبَقَ بَيَانُ أنّ في ﴿مَجْرٜىٰهَا﴾ قراءات بالإمالَة مع فتح الميم، وبالإمالة مع ضمّ الميم، وبفتح الميم دُون إمالة، ومؤدّاها واحد، ضم الميم على أنه من فعل «أجرى».

أي: وبَعْدَ أَنْ حَمَل عليه السلام أزْوَاجَ البَهَائِم والأَرْزاق والأدوات، قال للناس الذين مَعَهُ: ارْكَبُوا فِي داخِلِ السَّفينة.

وبَعْدَ أَنْ أَحَاطَ بِهَا المَاءُ وارْتَفَعَتْ عليه مُبْتَعِدَةً عَن الأرض وَبدأت تَتَحرَّكُ، قال نوحٌ عَلَيْه السَّلامُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

مَجْرِيها: في قراءة حفْص، وحمْزَة، والكسائي، وخَلَف، مَصْدَر ميمي مِنْ فِعْل: «جَرَىٰ» أي: باسْمِ اللهِ جَرْيُها.

مُجْرِيها: في القراءة الأخرىٰ، مصدر ميمي من فعلِ: «أَجْرَىٰ» أي: باسم اللهِ إجْرَاؤها.

مُرْسَاها: مصْدَر مِيمي من فِعْل «أرْسَىٰ» اللّازم، ومن فِعْلِ «أَرْسَىٰ» المتَعَدِّي، أي: باسم اللهِ رُسُوُّها، وباسم الله إرْساؤها.

فتكامَلَتِ القراءات في الدّلالَةِ على الجرْي والإجراء، والرُّسُوِّ والإرْسَاء.

والمعنى: نَسْتَعِينُ باسْمِ اللهِ في إجرائها بالمُوَجِّهَاتِ، ونَسْتَعِين باللهِ

فِي جَرْيِهَا علىٰ الماء، ونَسْتَعِين باسم اللهِ في إرْسَائِها بإلْقَاءِ المراسِي أو بغير ذلك، ونَسْتَعِين باسم اللهِ في رُسُوِّها.

يُقَالُ لُغَةً: «رَسَتِ السَّفِينَةُ» وكَذَلِكَ: «أَرْسَتِ السَّفينةُ» أي: وقفَتْ عَنِ السَّيْر.

وَتَكَامُلُ القراءَتَيْنِ في الدَّلَالَةِ على الجرْي والإجْرَاءِ والرُّسُوّ والإرْسَاءِ، هُوَ مِنْ بَدِيعِ التَّكَامُلِ في الأَدَاءِ البَيَانِيّ.

وإذْ لَاحَظَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، حينَ دَعَا أَهْلَهُ والمؤمنين مِنْ قومِهِ أَنْ يَرْكَبُوا في السَّفِينَةِ، وَاقِعَ حَالِ الخَطِيئَةِ الَّتي لا يَخْلُو مِنْها ٱبْنُ آدم، وَمَطْلَبَ السَّلَامَةِ، قَالَ فِي دُعَائِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأثنىٰ على رَبِّهِ باسْمِهِ «الغفُورِ» طالِباً بأُسْلُوب الكِنايَةِ أنْ يَغْفِرَ لِمَنْ مَعَهُ خطاياهم، وأثنىٰ عليْهِ باسْمِهِ «الرَّحيم» طالِباً بأسْلُوب الكِنَايَةِ أنْ يَرْحَمَهُمْ فَيُسَلِّمَ وَيُنْجِي كُلَّ راكِبي الفُلْك.

وَلَمْ يُلاحِظْ عِنْدَ هٰذا الدُّعاءِ ما سَيَنْزِل مِنْ عَذَاب على سائِرِ قومه، حتّىٰ يَذْكُرَ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ مثل: «العَزيز ـ الجبَّار ـ المنتقم ـ القاهر ـ الحكيم ـ القدير».

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَهِىَ﴾ فيها قراءتان، كَسرُ الهاء وإسْكانها، وهُمَا وجْهان عربيان في النُّطق.

[يا بُنَيَّ]: قرأ عاصِمٌ بفَتْحِ اليَاءِ المشَدَّدَة، وقرأها باقي القراء بِكَسْرِ اليَاءِ المشدَّدةِ، والقراءَتان نطقَانِ عربيّان لِهَذِهِ الياء.

﴿فِي مَعْـزِلٍ﴾: أي: فِي مَكَانِ عُزْلَةٍ وانْفِرَادٍ، بعيداً عن القوم.

قـالـوا: اسْـمُ هـذا الـوَلـد «يام» وهـو رابـعُ أبْنـائِـهِ مـن زَوْجَـةٍ اسْـمُـهَـا «واعِلَةِ» كانت كافِرَة مع كفار قومها.

- ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾: انْتَقَلَ البَيَانُ إلى تَقدِيم صُورة بَدْءِ جَرْيِ الفُلْكِ فِي الماء العظيم، الّذي صَارَ الموجُ فيه كالجبالِ الصُّغْرَىٰ شكلاً وارْتِفَاعاً، ولَا تَكُونُ الأمْوَاجُ في البَحْرِ مُتعَالِيَةً بحَسَب السُّنَّةِ المعتادة، إلَّا إذَا كَانَتِ الرِّيَاحُ العَاتِيَاتُ تُحرّكُها، فَوَصْفُ الموج بأنَّه كالجبالِ أغْنَىٰ عَنْ ذِكْرِ الرِّياحِ العاتِيَاتِ في الصُّورَة، لأنَّ الذّهْنَ يَسْتَدْعِيها في التَّصوُّر.

المَوْج: اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيّ، واحِدُهُ «مَوْجَة» ويُجْمَعُ عَلَىٰ «أمْواج».

ويُدْرِكُ الذِّهْنُ أنَّ المياه مازَالَتْ دُونَ مُسْتَوىٰ الجِبَالِ العالِيَة، ولَعَلَّهَا غَمَرَتِ الوِديانَ، وبَدَأَتْ تَرْتَفِعُ حَتَّىٰ وَصَلَتْ إلى المساكِنِ العالية في أَوَاسِطِ الجِبَالِ أَوْ قَرِيباً مِنها، واقْتَرَبَتِ السَّفِينَةَ تَدْفَعُها المياهُ، أو تُوَجِّهُها مُوَجِّهَاتُها إلى المساكِنِ المرتَفِعَة في الجبل، بَعِيداً عن البَلَدِ الَّتِي أدْرَكَها الغَرَق.

وكان لِنُوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ٱبْنٌ قَدِ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ مَكَاناً مُنْعَزِلاً عَنْ أَبِيهِ وَقَوْمِه، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ في الجبل، فلَمَّا اقْتَربَتِ السَّفِينَةُ من مَنْزِلِهِ وَرآهُ أَبُوهُ نُوحٌ عليه السلام، نَادَاه من داخِلِ السَّفِينَة، كما أبانَ اللهُ عزّ وجلّ.

﴿... وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

دلَّتْ عبارة: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يَقُلْ لَهُ: «من الكافِرين» علَىٰ

أنَّ نوحاً علَيْهِ السَّلامُ لَمْ يكنْ يَعْلَمُ أَنَّ ابْنَهُ هَـٰذا قَدْ كَان كافراً، إذْ كَانَ فِي مَعْزِلٍ عَنْه، ويَظْهرُ أَنَّهُ قد كانَ كاتماً كُفْرَهُ غَيْرَ مُتَظاهر به، عَصَبِيَّةً لِأبيه، إلَّا أَنَّهُ كَانَ في باطِنِهِ مع عَقيدَةِ قَوْمِهِ الشِّرْكِيَّة، ولَعَلَّ اعْتِزَالَهُ قَدْ كَانَ اعْتِزَالاً تَوْفِيقِيًّا، فَهُو لا يُرِيدُ أَنْ يَنْصُرَ قَوْمَهُ علىٰ أَبيهِ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُتَابعَ أَبَاهُ وَيَنْصُرَهُ ضِدَّ قَوْمِهِ، وقَدْ تَكُونُ لَهُ قَبائِحُ خَاصَّةٌ يُمَارِسُهَا فِي عُزْلَتِهِ مُتَخَفِياً عَنْ عُيُونِ أَبيهِ وإِخْوَتِهِ المؤمنين.

ولَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نوحٌ علَيْهِ السَّلامُ قَدْ دَعَا ٱبْنَهُ هَـٰذا إلى الرُّكُوب مَعَهُ في الفُلْكِ بِشَرْطِ أَنْ يُعْلِنَ إيمَانَهُ وإسْلَامه، لكنَّ هَـٰذا الابْنَ اسْتَمَرَّ كَاتِماً كُفْرَهُ عَنْ أَبيهِ حَتَّىٰ هَـٰذِهِ اللَّحْظَةِ، فَذكَرَ لِأَبيه أَنَّهُ سَيَجدُ لِنَفْسِهِ وَسِيلَةً تَعْصِمُهُ مِن الماء، غَيْرَ وَسِيلَةِ الرُّكُوبِ مع أَبِيهِ في الفُلْك، فأجَابَ أَبَاهُ بِمَا أبانَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِقَوْلِه:

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ... ﴿٤٣﴾﴾:

﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ﴾: أي: سَأَلْجأُ إلى جَبلٍ، يقال لُغةً: «أَوَىٰ إلى كَذَا، وآوَىٰ إلَيْهِ» أيْ: لَجأَ إلَيْهِ لِيَحْمِيَه.

﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: أي: يَحْفَظُنِي وَيَقِينِي من الماء أَنْ أغْرَقَ فِيه، يُقَالُ لغة: «عَصَمَ الشَّيْءُ فُلاناً عِصْمَةً» أي: حَفِظَهُ ووَقَاهُ وحَماه.

المعْنَىٰ: سَأَلْجأُ إلَىٰ جَبَلٍ عَالٍ ذِي ذِرْوَةٍ رَفِيعَةٍ، أَصْعَدُ إلَيْهَا فتَعْصِمُنِي من الغَرَقِ بالماء.

لَكِنَّ نُوحاً علَيْهِ السَّلام كان علَىٰ عِلْم مِنْ رَبِّه بِأَنَّ المياه سَتَغْمُرُ رُؤُوس شواهِقِ جِبَالِ أَرْض قَوْمه، وأنَّ وَسِيلَةَ النَّجاةِ الوحِيدَة هِيَ سَفِينَتُهُ فَأَبَانَ لابْنِهِ ذلك، والحَالُ لا يَسْمَحُ بالتَّرَيُّثِ وطُولِ الحِوَار والانتظار.

- ﴿... قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ... ﴿٤٣﴾﴾:

أي: لَا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ بِالطُّوفَانِ العَامِّ الشامِلِ، إلّا عَاصِمُ مَنْ رَحِمَهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَجَعَلَ لَهُ السَّفِينَةَ وَسِيلَةَ النَّجَاةِ الوَحِيدَة.

لَكِنَّ ٱبْنَ نُوحٍ لَمْ يَسْتَغِلَّ هَـٰذِهِ الفُرْصَةَ الأَخِيرَةَ له، إذْ كَانَ كافراً يَكْتُمُ كُفْرَه، ولَمْ يَطُلِ الحِوَارُ بَيْنَ الأَبِ النبيّ الرَّسُولِ والابْنِ الّذي لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ أبيه، ولَمْ يَعْلَمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن ابْنِهِ مَوْقِفَهُ مِنْ قَضِيَّةِ الإيمان، إذْ حَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَقَطَعَ حوارهما، وأَخَذَ المَوْجُ الفُلْكَ بَعِيداً إِلَىٰ العُبَاب، ولم يَسْتَطِعِ الابْنُ أَنْ يُسْرِعَ إلى جَبَلٍ شَاهِقٍ، فَقَدْ دَاهَمَهُ الماءُ مُنْصَبًّا مِنَ الأَعْلَى وصَاعِداً مِنَ الأَدْنَىٰ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجَلَّ:

- ﴿... وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: فكانَ مِنَ المغْرَقِينَ، لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الكافِرِينَ، وقَدْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ الرَّبَّانِيُّ المُبْرَمُ بِأَنْ يَهْلِكَ بالإغراق، مع كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام.

لكنَّ نُوحاً عليه السَّلام قَدِ اخْتَفَىٰ عَلَيْهِ المنظر، فَلَمْ يَعْلَمْ مَاذا جَرَىٰ لابْنِه، وشَغَلَهُ الهَمُّ الَّذي هُوَ فِيه عَنْه.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

دلَّ البيانُ في هَـٰذِهِ الآيَةِ علَىٰ مَطْوِيّاتٍ تُفْهَمُ باللُّزُومِ الذِّهْنِي، ومِنْها ما يلي:

(١) لَقَدَ تَمَّ تَنْفِيذُ أَمْرِ اللهِ بإغْرَاقِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام.

(٢) لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ نوحٌ عَلَيْهِ السلام والَّذينَ مَعَهُ في الفُلْكِ، كَيْفَ يَكُونُ الاتِّجاهُ؟ وَلَا أَيْنَ يَكُونُ الرُّسُوُّ؟.

(٣) لَقَدْ كانَتْ عِنايَةُ اللهِ تُجْرِي الفُلْكَ إلَىٰ جَبَلِ الجُودِيّ، حيْثُ تَرْسُو عَلَيْهِ إذَا غَاضَ الماء.

وإذْ تَمَّ الإغراق المقدَّرُ المقضيُّ علَى مَا أراد اللهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ـ كانَ مِنَ الحكْمَةِ في البيانِ الإشارَةُ إلى ذَلِكَ إشارةً خفيفةً بهٰذِهِ الآية (٤٤).

لَقَدْ تَركَتِ الآيَةُ لِلْخيالِ اسْتِكْمالَ رسْم مَشَاهِدِ جَرْيِ الفُلْكِ براكِبيها، بَعْدَ أن ارتَفَعَ المَاءُ إلَىٰ مَا فَوْقَ رُؤُوس الجِبالِ الشواهِقِ، وبَعْدَ أَنْ تَمَّ إغْراقُ الكافِرِين، وكُلّ ذِي حَياةٍ لَا يَعِيشُ في الماء، في كُلّ الأرضِ الّتِي غَمرَتْهَا المِياهُ النَّابِعَةُ مِنَ الأَرْض، والمنْصَبَّةُ مِن السَّماءِ.

وجاء فيها الانتقالُ إلى تَصْوِير لَقَطاتٍ مِنْ فَصْلِ نِهايَةِ مَسِيرة الفُلْكِ واسْتِوَائِهِ عَلَى اليابِسَة، وعلَىٰ مُوجَزٍ لِمَشَاهِد هٰذا الفَصْلِ بِأَوْجَزِ تَعْبِيرٍ وأَدقِّهِ وأَتْقَنِهِ.

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾: جاء التعبير بعبارة ﴿قِيلَ﴾ بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ مَعَ العِلْمِ بأنَّ صَاحِبَ هٰذا الأمرِ التكويني هُو اللهُ عَزَّ وجَلَّ، لإعْطاءِ النَّصِّ فَنِّيَّةً بَدِيعَةً في الأداء، منها التَّنْوِيعُ في الأسْلُوبِ البيانيّ، ومِنْها الإيجاز، ومِنْهَا الإثَارَةُ ولَفْتُ الانْتِباهِ، وشَغْلُ الذِّهْنِ بالبَحْثِ عَنِ الفَاعِلِ الّذِي يُدْرِكُهُ بِأَدْنَىٰ تأمُّل.

وفي عبارة: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ نِداءٌ مُوجَّهٌ لِلأَرْضِ وللسَّماءِ الَّتِي تَتجمَّعُ فيها السُّحُبُ فَوْقَ الأَرض، إذْ أُنْزِلَتا مَنْزِلَةَ مَنْ يُخاطَبُ وَيفْعَلُ بإرادَتِه، وهُوَ في الواقِعِ أَمْرٌ مِنْ أَوَامِرِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيّةِ، الَّتي لا يَسْتَطِيعُ مَأمُورٌ بواحد مِنْهَا مَعْصِيَةَ الأمْر، لأَنَّهُ صادِرٌ عَنِ الرَّبِّ الخَلّاق الّذي هو على كُلِّ شيءٍ قدير، ومَعْلُومٌ أَنَّهُ إذَا أرادَ شَيْئاً فَإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ على وَفْقِ مَا قَدَّره اللهُ وقضاه.

وجاء نِدَاء الأرض سابقاً لِنِدَاء السَّمَاء لأنَّ المطلُوبَ منها وظيفتان:

الأولى: تَوَقُّفُ عُيُونِهَا عَنِ الإمْدَادِ بِتَدَفُّقِ المياه.

الثانية: ابتلاع مياهِهَا الّتِي كانت قد فاضَتْ بها، ليتَنَاقَصَ الماء، وتَسْتَوِي الفُلْكُ على اليابِسَة.

أمّا المطلوبُ من السَّمَاء فوظيفةٌ واحِدَةٌ هِي الإقْلَاعُ عن هُطُولِ الأمطار.

وأغْنَىٰ فِعْل ﴿ٱبْلَعِى﴾ عن أمْرِها بالتَّوقُّفِ عَنْ تَفَجُّرِ عُيُونها، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ هَـٰذا البَلْعُ إلَّا بَعْدَ التَّوَقُّف، فَأَطَاعَتِ الأَرْضُ بِالأَمْرِ التكويني فَتَوَقَّفَتْ فَوْراً عَنِ التَّفَجُّر، وأخذَتْ تَبْلَعُ مَاءَهَا الَّذِي كانَتْ قَدْ دَفَعَتْ بِهِ إلَىٰ سَطْحِها، وَفْقَ نِظَامِ البَلْعِ الَّذِي يَحْدُثُ فِي الأَرْضِ للمياه.

- ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾: أي: ويا سَمَاءُ كُفّي وَأَمْسِكِي عَنْ إنْزَالِ الأَمْطَار، يُقَال لغة: «أقْلَعَ عَنِ الأَمْرِ» أيْ: كَفَّ عَنْهُ وتَركَه، و«أَقْلَعَ السَّحَابُ» أي: انكشف وانصرف.

فَكَفَّتِ السَّمَاءُ وأمْسَكَتْ فَوْراً عَنِ الأمْطار، وانْقَشَعَتِ الغيوم. وصَارَتِ السَّمَاءُ صَحْواً لَا غُيُومَ فيها.

- ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾: أي: ونقَصَ اللهُ المَاءَ عَنْ وجْهِ الأَرْضِ، وجَعَلَهُ يَتَغَلْغَلَ فِي مَسَارِبِهَا وتجاويفها، وفراغاتِهَا دَاخِلَها.

يُقَال لغة: «غَاضَ اللهُ المَاءَ» أيْ: نَقَصَهُ. والمبنيُّ لما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ: «غِيض» فالماء «مَغِيض».

ويقالُ أيضاً: «غَاضَ الماءُ، يَغِيضُ، غَيضاً، ومَغَاضاً، ومَغِيضاً» أي: نزل في الأرض، وغابَ فيها.

ويظْهَرُ أَنَّ هَـٰذا الغَيْضَ زَائِدٌ على ابتلاع الأَرْضِ مَاءَهَا فَهُوَ نَقْصٌ مِمَّا

نَزَل مِنَ السُّحُبِ مِنْ أَمْطارٍ غزيرَة، ولَوْلا إرادَةُ هذا المعنى لكانت عبارة: ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ كَافِيَةً، لأنَّ لازِمَ دَلالَتِها ابْتِلاعُ الأرْض ماءها، فجاءت عبارة: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ لإضافَةِ فِكْرَةٍ جدِيدَةٍ، هي نَقْصُ الماءِ فَوْقَ الذي حصَلَ بابْتِلاعِ الأرض ماءَها.

- ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي: وأمْضَىٰ اللهُ أَمْرَهُ وأنْهَاهُ بإهْلَاكِ الكافِرينَ، ونَجاةِ مَنْ أَمَرَ بِنَجاتِه.

- ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾: أي: واسْتَوَتِ الفُلْكُ على جَبَلٍ اسْمُهُ الجُودِيّ، والمرادُ أنَّها تَوَقَّفَتْ عَنِ الجَرْي، واسْتَقَرَّتْ علىٰ اليابِسَةِ اسْتِقْراراً مُسْتَوِياً، غَيْرَ مائِلَةٍ ذَاتَ اليَمِينِ، ولا ذَاتَ الشِّمَالِ، ولَا إلَىٰ جِهَةِ مُقَدَّمِها، ولَا إلَىٰ جِهَةِ مُؤَخِّرِها، وكَانَ كُلّ ذَلِكَ بعِنَايَةِ اللهِ وحِفْظِهِ ورِعَايَتِهِ التَّامَّات.

- ﴿... وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾: جاء التعبيرُ بِعِبَارة ﴿قِيلَ﴾ بصِيغَة الفِعْل الذي لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ، كَنَظائِرِهِ في الآية، والقائلُ هو اللهُ عَزَّ وجَلَّ أوّلاً، ثُمَّ كُلُّ مَلَكٍ مَأْمُورٍ بأَنْ يَقولَ هذا القول.

بُعْداً لِلْقَوْم الظَّالِمِينَ: أي: طَرْداً لِلْقَوْم الظَّالِمِينَ عَنِ الحياة الدُّنيا، طَرْداً جماعِيًّا، وإبْعَاداً لَهُمْ عَنْ مَهَابِطِ رَحْمَةِ اللهِ، بِسَبَبِ اسْتِجْماعِهِمْ لِكُبْرَيَاتِ أَوْصَافِ الظَّالِمِينَ، حتَّىٰ اسْتَحَقُّوا أَنْ يُعَرَّفُوا بأَنَّهُمُ القَوْمُ الظَّالِمُونَ.

بُعْداً: مَفْعُول مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف، أي: بَعُدُوا بُعْداً عَنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَطُرِدُوا طَرْداً.

ما في هذه الآية (٤٤) مِنْ إبْداعٍ بلاغيّ أَدَبيّ:

في هذه الآية إبداعات أدبيات رائعات منها ما يلي:

الأوّل: «المناسَبَةُ» التامَّةُ بَيْنَ: «ابْلَعِي» و«أَقْلِعِي» فبينَهُمَا تَنَاسُبٌ

بَدِيعٌ، وتَلَاؤُمٌ في اللَّفْظ، وهَـٰذا يَدْخُلُ فِيمَا يُسَمَّىٰ عنْدَ عُلَمَاءِ البديعِ: «ائْتِلَافَ اللَّفْظِ مَعَ اللَّفظِ، وائْتِلَاف اللَّفْظِ مَعَ المَعْنَىٰ».

الثاني: «الطِّبَاق» بَين جُمْلَتَي: «ابْلَعِي» و«أقْلِعِي» فَهُمَا مِنْ جِهَةِ المعْنَىٰ مُتَضَادّان، إِذَ البَلْعُ أَخْذٌ، والإقْلَاعُ إمْسَاكٌ.

الثالث: «الاسْتِعَارَة» باسْتِعْمَالِ البَلْعِ الَّذِي هُوَ لِلْأَحْيَاءِ ذَواتِ الحُلُوقِ الَّتِي تَبْلَعُ السَّوَائل، للدَّلَالَةِ عَلى انْسِيَاب الماء في مَسارِبِ الأرْضِ وَتجاويفِها، ضِمْنَ نِظام السُّيُولَة والجاذِبِيَّةِ والفراغ.

و«الاستعَارَة» باسْتِعْمَالِ الإقْلَاعِ الَّذِي هُو الكَفُّ الإراديُّ، للدَّلَالَةِ علىٰ المعاني السَّبَبِيَّة الَّتي يَتَوَقَّفُ بِهَا نُزُولِ الأمطار.

الرابع: «الطِّبَاق» بَيْنَ الأرض والسَّماء، في: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ﴾ ﴿وَيَـٰسَمَآءُ﴾ فإذا جَمَعْنَا الطباقَيْنِ هذا والسّابِق ظَهَرَ لنا ما يُسَمَّىٰ عند علماء البَدِيع «المُقَابَلَة» بين: «يا أَرْضُ ابْلَعِي، ويَا سَمَاءُ أقْلِعي».

الخامس: «الإشارة» في قول الله تَعالَى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ إلَىٰ أنَّ الأَرْضَ قَدْ تَمَّ فِيها أَمْرُ البَلْعِ، فبَلَعَتْ مَاءَها، وأنَّ السَّمَاءَ قَدْ تَمَّ فِيها أَمْرُ الإقْلَاعِ، فَأقْلَعَتْ عَنِ الإمْطار، لِأنَّ الماء لَا يَغِيضُ إلَّا إذَا تَمَّ ذَلِكَ.

و«الإشارَة» إلى انْكِشَافِ بَعْضِ مَا انْغَمَرَ بالمَاء مِنَ الأرْضِ وَمَا عَلَيْهَا من شجر، وبَعْضِ جبالٍ.

وقد ذكر البلاغِيُّونَ مِنْ ضُرُوبِ البَدِيعِ «الإشارَة».

السَّادِس: «الإرْدَاف» في قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾.

الإرْدَاف: أن يُرِيدَ المتكلّم معنًى، فَلا يُعَبِّرَ عَنْهُ بِلَفْظِهِ الموضوعِ له، ولا يُعَبِّرَ عَنْهُ بدَلَالَةِ الإشارة، بَلْ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِلَفْظٍ مُرادِفٍ له، لتحقيق أغْرَاضٍ بيانِيةٍ لَا تتحقَّقُ باللَّفْظ الموضوعِ له.

وبيان الإرْداف في قول الله تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ هو أَنَّ الأَصْلَ أَنْ يَأْتِي التَّعْبِيرُ بِنَحْوِ: «وهَلَكَ مَنْ قَضَىٰ اللهُ إِهْلَاكهُمْ، ونَجا مَنْ قَضَىٰ اللهُ نَجاتَهُمْ» ولكِنْ لَمْ يَأْتِ التَّعْبِيرُ كَذٰلِكَ، بَلْ عُدِلَ عَنْهُ إلى مَا يُؤَدِّي المعْنَىٰ نَفْسَهُ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، يَدُلُّ بِعُمُومِهِ على المراد، مع غايَة الإيجاز، ومَعَ إِضَافَةِ مَعانٍ أُخْرَىٰ لَمْ يَكُنْ لِيَدُلَّ عَلَيْهَا التَّعْبِيرُ الأَصْلِيُّ المباشر، ومن هٰذِهِ المعاني أَنَّ هَلَاكَ الهالِكِينَ ونَجاةَ النَّاجِينَ قَدْ كانَا تَنْفِيذاً لِلْقَضَاءِ وَالأَمْرِ الرَّبَّانِيَّيْن، لِرَبْطِ الظَّاهِرَة بِجَذْرِهَا الاعْتِقَادِي، وهوَ أَنَّ قَضَاءَ اللهِ وأَمْرَ اللهِ التَّكْوِينيَّانِ نَافِذَانِ حَتْماً لَا يَتَخَلَّفَان.

وبيانُ الإرْداف في قول اللهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ هُوأَنَّ النَّصَّ اخْتِير فِيهِ التعبير بِلَفْظِ «اسْتَوَت» بَعْد أَنْ كانت الفُلْكُ تَجْرِي جَرْياً مُسْتَوِياً عَلَىٰ الماء، وكَانَ المتبادر أن يكُونَ التّعْبير: «وتَوَقَّفَتْ عَنِ الجَرْي، واسْتَقَرَّتْ عَلَىٰ الجُودي». ولَكِنْ جاءت عبارة: «واسْتَوَتْ» عَقِبَ قول الله تَعالَىٰ: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ لِيَكُونَ فِي هٰذا التَّعْبِير المخْتَارِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ قَضَىٰ للسفينَةِ بعِنَايَتِهِ، أَنْ يُوصِلَها إِلَىٰ مَكان مِنْ جَبَلِ الجُودِي صالحٍ لِأَنْ تَسْتَقِرَّ عَلَيهِ مُسْتَوِيَةً، غَيْرَ مائِلَةٍ، وَلَا مُصْفَحَةٍ، وَلَا مُنْكَفِئَةٍ، أي: فالمكانُ الّذِي اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ غَيْرُ مُضَرَّسٍ، ولا مُحَدَّبٍ، ولا مُنْحدِرٍ. ويَظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ شَقًّا عَلَىٰ قَدْرِها، ضَامّاً لَهَا، وكان تَوْقِيتُ وصُولِهَا إِلَيْهِ بالعنايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، مع تَنَاقُصِ الماء الّذِي يَجْعَلُهَا في الشّقِّ مُلاصِقَةً لِلْأَرْضِ، ومُحْتَبِسَةً في المكان المناسِبِ لاسْتِقْرارِهَا مُسْتَوِيَةً قَائمة.

أفَلَدَيْنا كَلامٌ مُرادِفٌ يَدُلُّ على هٰذِهِ المعاني أَقَلُّ وأَدَقُّ وأَلْيَنُ لفظاً مِنَ التَّعْبِيرِ بِما جاء به: ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾؟!. ما أعْجَبَ البَيان القرآنيّ؟!!.

السابع: «الإشارة» الاحْتراسِيَّة، في قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إلى أنَّ المُهْلَكِينَ بالْغَرَقِ المَطْرُودِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ هُمُ الظَّالِمُون

فقط، دُونَ غَيْرِهِمْ ولَوْ أُهْلِكُوا مَعَهُمْ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِين، مع الدَّلَالَةِ علَىٰ أنَّ الكُفْرَ والإِفْسَادَ والْعِنَادَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أُغْرِقُوا تَدْخُلُ فِي عُمُومِ الظُّلْم، بَلْ هِيَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ اسْتَحَقُّوا عَلَيْهِ هٰذا الإِهْلاكَ، واسْتَحَقُّوا عَلَيْهِ الطَّرْدَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

الثامن: «التَّنَاظُر» بَيْنَ صَدْرِ الآيَةِ: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ وَبَيْنَ آخِرِها: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

التاسع: الانْسِيَابِيَّةُ، وحُسْنُ الرَّصْفِ، وحُسْنُ انتقاء الكلماتِ، والطَلاوَةُ الْجَمِيلة في مَقَايِيس الْجُمَل، إِذْ تَسِيرُ عَلَى أَمْوَاجٍ فيها كمالُ التَّلَاؤُم، والْخُلُوُّ مِنْ أيَّةِ حَرَكَةٍ ناشِزَة.

فَلْنُلَاحِظْ ذلك في أمْواجِهَا الصَّوْتِيّة، وفي مَحَطَّتِهَا الْخِتامِيَّة، الَّتِي تَمْتَدُّ كَطَائِرٍ عِنْدَ الْهُبُوطِ، يأخُذُ حَرَكَةً مائِلَةً قَلِيلاً قَلِيلاً، ومُمْتَدَّةً بِتَبَاطُؤٍ، حتَّىٰ يَصِلَ إلىٰ الأرض، ولَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ السُّكُونِ إلَّا أنْ يُلامِسَ الأرض.

فمنْ عُنْف الأمْرِ في: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ إلى تناقُصِ الماءِ رُوَيداً رُوَيداً في: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ إلى سُكُونِ اسْتواءِ السَّفِينَة فِي: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ إلىٰ رصيف الْهُبُوط المنْسَابِ دُونَ عُنْفٍ بَعْدَ طَلْعَةٍ غَائِرَةٍ عَلَىٰ الْعُدُوّ نَاجِحَةٍ في: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾:

إنّ رِحْلَةَ النَّجاةِ فِي بَحْرٍ لُجّيٍّ ضِمْنَ أَمْواجٍ كالجِبالِ، وأَمْطارٍ تَصُبُّ

صَبًّا كالجداولِ، إِذْ فَتَحتِ السَّماءُ أَبْوابَها، قَدْ أَنْسَتْ نُوحاً حَالَ ابْنِهِ الَّذِي حَالَ الْمَوْجُ بَيْنَهُما.

لقَدْ صَرَفَتْه عَنْهُ أهْوَالُ الرِّحْلَةِ الْمُخِيفَةِ الْقَاسِيَةِ، فَلَمَّا حَطَّتِ السَّفِينَةُ علَى الجُودِي مُسْتَوِيَةً مُسْتَقِرَّةً، وذَهَبَ الرَّوْعُ والْقَلَقُ الصَّارِفُ لِلأَفْكَارِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الانْشِغَالُ بأحْدَاثِ الْوَضْعِ الْقَائم، عنْدَئِذٍ تواردَتْ عَلَىٰ نُوحٍ ذِكْرَيَاتُ أَرْضِهِ وَبَلَدِهِ وقَوْمِهِ، وَذِكْرَىٰ ابْنِهِ الَّذِي لَمْ يَدْرِ مَاذَا حَصَلَ لَهُ، فتفجَّرَتْ عَاطِفَةُ الْأُبُوَّةِ الَّتِي فَطَرَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِي قُلُوبِ الآبَاءِ، فالْتَجَأ إِلى رَبِّهِ مُنَادِياً:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾: أي: ونَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ نداءَ اسْتِغَاثَةٍ مَقْرُونَةٍ بانْفِعَالِ الخضوعِ والتَّضَرُّعِ والتَّذَلُّل. دَلَّ على هٰذا كلمة [نَادَىٰ] إِذْ لَوْ كَانَ مَا قَالَهُ سُؤَالاً عَادِيّاً هَادِئاً لكانَ المناسِبُ التَّعْبير بنَحْوِ «وَدعا» لكِنَّ الأَمْرَ كان نِداءً، فَهُو يَحْملُ معْنَىٰ التَّلَهُّفِ، وهو من رَسُولٍ حَلِيم، فَلا بُدَّ أَنْ يَقْتَرِنَ بالْخُضُوعِ والتَّضَرُّعِ والتَّذَلُّل. فقال في ندائه القَلْبيّ: «رَبِّ» أي: يَا رَبِّ، ولَمْ يَذْكُرْ أَدَاةَ النداء في لفظه، لِأَنَّ الأَصْلَ في دُعَاءِ الرَّبِّ عَدَمُ استعمال أداة النّداء، إذ اللهُ عَزَّ وجَلَّ قَرِيبٌ مِنْ عباده قُرْباً لَا يُحْتَاجُ مَعَه إلى أداة نداء، باستثناء أحوال خاصَّةٍ تَدُلُّ فيها الأداةُ على الاستغاثة من أجْلِ الدّين.

- ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: أي: إنَّ ٱبني من أَهْلِي الَّذِينَ وَعَدْتَنِي أَنْ تُنْجِيَهُمْ، وإِنَّ وَعْدَكَ هُوَ الْوَعْدُ الْحَقُّ الّذي لا يُمْكِنُ أَنْ يُخَالِفَهُ الْوَاقِعُ.

ولَعَلَّهُ ظَنَّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ رُبَّما يَكُونُ قَدْ أَنْجَاهُ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ غَيرِ الرُّكُوبِ مَعَهُ في السَّفِينَةِ.

- ﴿... وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: وإِنْ كُنْت أَنْجَيْتَهُ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ، أو كُنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَهُ مع المغْرِقِينَ، فَأَنْتَ أَحْكَمُ الحاكِمينَ، لا

تَحْكُمُ إلَّا بما هو الحقُّ والخيْرُ، لأنَّكَ عَلِيمٌ بعِبادِكَ، لا تَخْفَىٰ عَلَيْكَ مِنْهُمْ خَافِية.

لنَا أنْ نَفْهَمَ مِنْ هَـٰذا النصِّ هَـٰذا الّذِي سبَقَ أنْ شَرَحْتُه، لأنَّه لم يَسْبِقْ في دَلَالَتِهِ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ سَبَقَ لَهُ عِلْمٌ بأنَّ ابْنَهُ هَـٰذا قَدْ كَانَ مَحْكُوماً عَلَيْهِ بأنَّهُ مِن المغْرَقِين، أَوْ بأنَّهُ قَدْ كانَ من الكافِرِينَ، بَلْ جَاءَ في سَوابقِهِ بَيَانُ أَنَّهُ كَانَ في مَعْزِلٍ، أي: هُو مَسْتُورُ الحال، ورُبَّما كانَ قَدْ تَسَتَّرَ بحالِهِ عَنْ أبيهِ وقومه، ولَمْ يُخْبِرْهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ في باطِنه، فَوَقَعَ في نَفْسِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الكافِرِينَ، فالْوَعْدُ بالنَّجاةِ ضِمْنَ أَهْلِهِ النَّاجِينَ يَشْمَلُهُ، وَيَبْدُو أَنَّه لمَّا كَانَ فِي بَعْضِ أَهْلِهِ مَنْ هُمْ مُجاهِرُونَ بِكُفْرِهِمْ كَزَوْجَتِهِ الَّتِي قيل: إنَّها أمُّ «يَام» الَّذِي كانَ كافراً، حَمَلَ الاسْتِثْنَاءَ عَلَيْهِمْ، ولَمْ يَسْأَلِ اللهَ بِشَأْنِهِم شيئاً.

هنا أعْلَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ نُوحاً عليه السلام بحَقِيقَة حال ٱبْنِهِ هَـٰذا، وأَبانَ لَهُ أَنَّهُ كانَ كافراً، وأَنَّ عَمَلَهُ كانَ عملاً غَيْرَ صَالحٍ، فَهُوَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُغْرَقين:

- ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: قال الله عَزَّ وجَلَّ: يا نُوحُ إنَّ ٱبْنَكَ هَـٰذا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الَّذِينَ وعَدْتُكَ بنجاتهم، أَوْ لَيْسَ مِنْ أهْلِكَ مُطْلَقاً، لأَنَّهُ بِكُفْرِهِ الإراديّ قَدْ قَطَعَ صِلَتَهُ بِكَ، فأَخْرَجَ نَفْسَهُ باختيارِهِ من دَائِرَةِ أَهْلِكَ.

وَهَـٰذا يَدُلُّ علىٰ أَنَّ الكُفْرَ يَقْطَعُ حُقُوقَ الصِّلاتِ النَّسَبِيَّة، فَلَا يَكُون لِلْكَافِرِ مِنْ قرابَتِهِ المؤمنينَ حِمَايَةٌ، ولَا نَفَقَةٌ واجِبَةٌ، ولا ميراثٌ، وَلَا نحو ذلِكَ مِنْ حقُوق.

- قرأ جمهور القرّاءِ الْعشَرَة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ﴾: أي: هُوَ كُلُّهُ

بِسَبَبِ كُفْرِهِ عَمَلٌ غَيْرُ صالح، وهَـٰذا يَدُلُّ علَىٰ أَنَّ الكُفْرَ الْإرادِيَّ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ فاسِدٌ، وهُو لَا يَنْتُجُ عَنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ مُعْتَبَرٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فَمَنْ فَسَدَ قَلْبُهُ وفَسَدَ اعْتِقَادُهُ فَسَدَ سَائِرُه، ثُمَّ يَفْسدُ كُلُّ عَمَلِهِ.

- وقرأ الكسائيُّ ويَعْقُوب: [**إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ**]: أي: إِنَّهُ عَمِلَ في الحياة الدُّنْيَا عملاً غَيْرَ صَالِحٍ، وذَلِكَ مَا كان يَرْتَكِبُهُ فِي عُزْلَتِه مِنْ قَبَائِحَ ورَذَائِلَ مع كُفْرِهِ.

فَدلَّتِ القراءتانِ بالتكامُلِ الدّلاليّ بيْنَهُمَا على فَسَادِ اعتقاده، وفساد سُلُوكه، وهذا من الإيجاز في القرآن المجيد.

ودَلَّ هَـٰذا البيانُ باللُّزُوم الفِكْريّ على أنَّ ٱبْنَ نوح هَـٰذا قد شمِلَهُ الغرقُ، فكان من الهالكين، لأنَّهُ كان من الكَافِرِينَ ومِنَ الفاسِقين في حقيقة أمره.

ونَهَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ نوحاً عليه السلام في هَـٰذِهِ الآيَةِ عَنْ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ مُسْتَقْبلاً عمَّا يَجْرِي في تَصَارِيفِ اللهِ مِنْ أُمُور يَجْهَلُ نُوحٌ بواطِنَها، فالله عَزَّ وجَلَّ عَلِيم ببواطِنِ وظواهِرِ الأمور كُلّها، حَكِيمٌ في أَمْرِهِ كُلِّه، وكان هذا زِيادَةً تَعْلِيميَّةً لِنُوحٍ دَعَتْ إليها المناسبة، وهي تَعْلِيميَّةٌ لكلِّ مُتَلَقٍّ للقرآن المجيد أيضاً.

أي: إذا كُنْتَ لَا تَعْلَمُ بواطِنَ الْأُمُور، وقَدْ رأيْتَ مِنْ تَصَارِيفِ رَبّكَ شيئاً علَىٰ خِلافِ مَا تَرْغَبُ فيه، بحَسَبِ رَغبات نَفْسِك وعَواطِفك، فَكُنْ علَىٰ ثِقَةٍ تَامَّةٍ بأنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حكيمٌ، وأنَّ تصاريفَهُ تَجْري علَىٰ وَفْقِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

- ﴿... إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: أُؤكِّدُ لَكَ يَا نُوحُ التوجيهَ والنُّصْحَ بهَـٰذِهِ الموعِظَةِ الَّتِي تَضَمَّنَها قَوْلِي لَكَ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فَدَلَّ هَـٰذا علَىٰ أنَّ النَّهْي نَهْيُ مَوْعِظَةٍ وإِرْشَادٍ للمسْتَقْبل، لَا نَهْيُ تَأْنِيبٍ على مَا مَضَىٰ.

والمعنى: إنّي أعِظُكَ دَفْعَ أَنْ تَكُونَ في المستَقْبَلِ مِنَ الجاهِلِينَ بهَـٰذِهِ الحقِيقةِ، فَتَسْأَلَنِي مُستقْبلاً سُؤالاً تُطَالِبُنِي فِيه بأمْرٍ على خِلَافِ مُقْتَضَىٰ عِلْمِي وحِكْمَتِي وَعَدْلِي، مَهْمَا كَانَتْ دَوافِعُكَ الْعَاطِفِيَّة.

أوْ إِنِّي أعِظُكَ نَاهِياً لَكَ عَنْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجاهِلِين، هذا الوجْهُ على تَضْمِينِ فعل ﴿أَعِظُكَ﴾ معْنَىٰ فِعْلِ «أنْهَاكَ».

إنَّ هَـٰذا البيان الرَّبَّانِيَّ يَتَضَمَّنُ التَّوْجِيهَ للرِّضَا التَّامِّ عَنِ اللهِ عزَّ وجَلَّ فيما تَجرِي به مَقَادِيرُهُ وأحْكَامُهُ، مَهْما كانَتْ صَادرَةً ضِدَّ أَقْرَبِ الناسِ رَحِماً.

عنْدئذٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ نُوحٍ عليه السَّلام إلَّا أنْ قَالَ لرَبِّهِ مَا جَاءَ بيانُهُ في الآيَةِ التالية:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: قالَ نوحٌ عليه السَّلامُ لِرَبِّهِ: رَبِّ إنِّي ألْجَأُ إلَيْكَ عَائِذاً بِكَ مِنْ أَنْ أَنْدَفِعَ في المسْتَقْبَلِ مَعَ عَوَاطِفِي فَأَسْأَلَكَ سُؤَالَ مُتَسَرِّعٍ فِي أيِّ أَمْرٍ لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، أُخَالِفُ فِيهِ مقْتَضَىٰ عِلْمِكَ وحِكْمَتِكَ، بَلْ أَدَعُ مَا أَجْهَلُهُ لِعِلْمِكَ وَحِكْمَتِكَ، وأَنْتَ سُبْحَانَكَ تَقْضِي بالْخَيرِ الَّذِي أَنْتَ تَعْلَمُه.

وهَـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَنْبَغِي للمؤمِنِ أَنْ لَا يَسْأَلَ رَبَّهُ أمْراً يَجْهَلُ هَلْ هُو خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ؟.

فالإنْسَانُ قَدْ يَدعو بالشَّرِّ أَوْ بالضُّرِّ، أو بما يُنافِي الْحِكْمَةَ والْعَدْلَ ظَانًّا أَنَّهُ يَدْعُو بالخير أو بالنَّفْع، أو بما فيه للهِ عَزَّ وجَلَّ رِضاً، وذلِكَ مِنْ قُصُورِ عِلْمِه، ومِنْ جَهْلِهِ بِبَواطِنِ الأُمُور وعواقِبها. ودافِعُهُ إلى ذَلِكَ رَغْبَةٌ

عَمْيَاء، وَعَجَلَةٌ هَوْجاء، تُوَجِّهَانِ إرادَتَهُ إلى طَلَب مَا لَا خَيْرَ لَهُ فِيه، كما قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الإسْراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا (١١)﴾.

وَلَمَّا كَانَ نِداءُ نوح عليه السَّلامُ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ فِيهِ تَسَرُّعٌ مَبْنِيٌّ على غَيْرِ عِلْم بِحَقِيقَةِ حَالِ ٱبْنِهِ، فَقَدْ رَأَىٰ نَفْسَهُ بِهَـٰذا التَّسَرُّعِ في الدُّعاءِ مُرْتَكِباً مَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَغْفِرَ الله مِنْهُ، قَالَ عَلَيْهِ السَّـلَامُ لِـرَبِّـهِ: ﴿. . . وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ (٤٧)﴾: أي: وَإِنْ تُحَاسِبْنِي عَلَىٰ خَطِيئَتِي هَـٰذِهِ وسَائِرِ خَطِيئاتي، وَإِنْ لَا تَغْفِرْ لِي مُتَجَاوِزاً عَنِّي، وَلَا ترحمْنِي بِرَحْمَتِكَ، أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِي يَخْسَرُونَ بَعْضَ مَنَازِلَ رَفِيعَةٍ يَسْتَحِقُّهَا أَهْلُ الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُولِي الْعَزْمِ.

وقَدْ عَلَّمَنَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ بهذا كَيْفَ يَكُونُ أدَبُ الْمُرْسَلِينَ مع رَبِّهِم، لِنَتَّخِذَهُمْ أُسْوَةً لَنا.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّنا مَرْحَلَةَ الْهُبُوطِ من السَّفِينَةِ إِلَىٰ اليابِسَة:

- ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾:

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَرَّ زَمَنٌ مَا والْفُلْكُ واقِفَةٌ ثَابِتَةٌ بِشَكْلٍ مُسْتَوٍ عَلَىٰ المكان الَّذِي احْتَضَنَها مِنْ جَبَلِ الْجُودِي، والماء يَتَنَاقَصُ مِنْ حَوْلِها شَيْئاً فَشَيْئاً، حَتَّىٰ انْكَشَفَ مِنَ الْأَرْضِ مَا يصلُحُ لِلْهُبُوطِ عَلَيْهِ، وصَارَ جَافًّا يَابِساً لَا وَحلاً وَلَا زَلَقاً، عِنْدَئِذٍ جَاءَ الأمرُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِنُوحٍ بالْهُبُوطِ مِنَ الْفُلْكِ إِلَىٰ المكانِ الَّذِي جَفَّ مِنْ ظَهْرِ الْجُودِي.

والمعنَىٰ: قِيلَ لِنُوح مِنْ قِبَلِ الْوَحْي: ﴿يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ . . . (٤٨)﴾: أي: يا نُوحُ اهْبِطْ مِنَ الْفُلْكِ إِلَىٰ الْأَرْضِ اليابسَة، أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، وَمَا مَعَك من البهائم، مَصْحُوبِين

بِسَلَامٍ نَحْنُ نُسَلِّمُكُمْ بِهِ فَضْلاً مِنَّا، فَلَا تَجِدُونَ مَا تكرَهُونَ، مِمَّا يُعَكِّرُ صَفْوَ أَمْنِكُمْ، ومَصْحُوبِين بِبَرَكَاتٍ مُتَنَوِّعَاتِ الخيراتِ، مِمَّا نَمُنُّ بِهِ عَلَيْكَ، وَعَلَىٰ أُمَمٍ سَتَتَنَاسَلُ مِمَّنْ مَعَكَ، هي أُمَمٌ صَالِحَةٌ مُؤْمِنَةٌ مُسْلِمَة.

الباءُ في: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ لِلْمُصَاحَبَة، وحُذِفَ لفْظُ «عَلَيْكَ» من العبارة الأولى: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ وَحُذِف لَفْظُ «مِنَّا» في العبارة الثَّانِية ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ لِدَلَالَةِ مَا فِي كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَىٰ المحْذُوفِ فِي الْأُخْرَىٰ، وهـذا النوع من الحَذْفِ يُسَمَّىٰ عِندَ الْبَلاغِيينَ «الاحْتِبَاك».

ومعنى: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ بأمْنٍ مِنَّا، وهَـٰذا الْأَمْنُ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُطْلَب فيه الأمْنُ، كالْأَمْنِ مِنَ المُهْلِكَاتِ، وَمِنْ كُلِّ ذِي شرّ، وكالْأمْنِ من الْمَوتِ جُوعاً أَوْ عَطَشاً، والْأَمْنِ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ الْقَاتِلِ، وشِدَّة الحرِّ القاتل، ونحو ذلك.

﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾: دَلَّ الْجَمْعُ عَلَىٰ أنْواعٍ من الْبَرَكَات، والبركَةُ هِي الزِّيادَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ عَنْ قَدْرِ الحاجَةِ وَالضَّرُورة، فَتَشْمَلُ الْبَرَكَاتُ الزِّيَادَة فِي خَيْرَاتِ الْأَرْضِ مِنَ الزُّرُوعِ والثمار، والزِّيَادَة مِنْ خيراتِ مَطَاعِمِ صَيْدِ الْبَرِّ والْبَحْر، وغيرَ ذَلِكَ ممَّا يَسْتَمْتِعُ بِهِ النَّاسُ في الحياة الدُّنيا، حتّىٰ الصِّحَّة النَّفْسِيَّة، وطُمَأْنِينَةَ الْقَلْبِ وسَعَادته.

وحَرْفُ «عَلَىٰ» يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ السَّلامَ والبَرَكَاتِ فَيْضٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مَحْفُوفٌ بِعِنَايَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَدْخُلُ مَنْ مَعَهُ في عُمُومِ خِطَابِ الله لهُ بعِبَارَة: ﴿عَلَيْكَ﴾ أوْ في العبارة مَحْذُوف مُقَدَّرٌ، تَقْدِيرُهُ: «وَعَلَىٰ مَنْ مَعَكَ» بِدَلِيلِ قَوْلِ اللهِ عَقِبَ ذَلِكَ: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾: أي: وعَلَىٰ أُمَمٍ تَتَفَرَّعُ وَتَتَوَزَّعُ في الْأَرْضِ هُمْ سُلالَاتٌ مِمَّنْ مَعَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، لِأَنَّ اللهَ جَعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ الطُّوفان، ولَكِنَّ هَـٰذِهِ الْأُمَمَ الَّتِي سَتَأْتِي سُلالاتٍ من الّذِينَ مَعَهُ، لَيْسوا كُلَّ سُلالاتِ الّذِين مَعَهُ، بَلْ هُمْ بَعْضُها،

لهذا جاء اللّفْظ مُنْكَّراً: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ وقَدْ دَلَّ التّاريخ المستَقْبَليُّ عَلَىٰ أنَّهُمْ أتباعُ رُسُلِ رَبِّهِم، الّذِين آمَنوا باللهِ وبِرُسُلِهِ، واتَّبعوا مَا أَنْزَلَ اللهُ لَهُمْ.

أمّا أُمَمُ أُخْرَىٰ مِنْ ذُرِّيّاتِهِ، فَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بقَوْلِهِ:

﴿... وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وأمَمٌ أُخرَىٰ هُمْ أيضاً سُلالاتٌ مِمَّنْ مَعكَ، لَا يَشْمَلُهُمْ فَضْلُ السَّلَامِ والبركاتِ، ولَكِنْ سَنُمتِّعُهُمْ قَلِيلاً مَتاعاً دُنْيَوِيًّا مُعَجَّلاً، على مَقَادِيرِ أزْمِنَةِ ابْتِلَائِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهُمْ مَهْمَا أصابُوا مِنْها فهُو قَلِيلٌ ضَئيلٌ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الآخِرَةِ، وبَعْدَ هَـٰذا المتاعِ الْقَلِيل الضئيل في الحياة الدُّنيا، تَأْتِيهِمْ مَنَايَاهم، ثُمَّ يُلاقُونَ يَوْمَ الدِّين حسابَهُمْ بالْعَدْلِ علَىٰ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وبَعْدَ حِسَابِهِمْ وفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، يُنَفَّذُ بأمْرِ اللهِ عِقَابُهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشُرُورِهِمْ الَّتي قَدَّمُوها في الحياة الدُّنيا، وعِنْدَئِذٍ يَمَسُّهُمْ مِنَ اللهِ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْأَخِيرَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

وبَعْدَ أَن انْتَهَىٰ فَصْلُ اللَّقَطاتِ المختاراتِ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ في سُورَة (هود) خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِقَولِهِ:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: تِلْكَ أنْباءٌ عَنْ نُوح وَقَوْمِهِ هِيَ مِنْ أنْباءِ الْغَيْبِ عَنْكَ يَا مُحَمَّدُ نُوحِيهَا إلَيْكَ، وَقَدْ سمَّاها اللهُ عَزَّ وجَلَّ أنْباءً لِأَنَّها ذاتُ شَأْنٍ، فهي تَبْرُزُ عَلَىٰ غَيْرِها من أنْباءٍ لَيْسَ لَهَا مِنَ الشَّأْنِ الخطير مِثْلُ مالها.

وهَـٰذِهِ الأنباء ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُوحِيها إلَيْكَ، لِأَنَّهَا لَيْستْ مِنَ الأخْبارِ الَّتي كان الْعَرَبُ عَلَىٰ عِلْمٍ بها، إذْ لَوْ كانُوا على عِلْمٍ بها لَتَداوَلُوهَا بَيْنهم.

أمَّا عِظَةُ هَـٰذِهِ القِصَّةِ للرَّسُولِ وَلِقَوْمِهِ الّذِينَ كَفَروا بِهِ وكذَّبُوهُ وآذَوْهُ وَيُدَبِّرونَ لَهُ المكايِدَ، ويَضطهدون الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَقَدْ أبانها اللهُ عزَّ وجَلَّ بِقَولِهِ لِرَسولِهِ وَيُلْحَقُ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه: ﴿... فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَـٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: فاصْبِرْ يَا مُحمَّدُ عَلَىٰ أذى قَوْمِكَ، ولْيَصْبِرِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ، فالْعَاقِبَةُ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ والتمكينِ في الأرض للمتقين، وكَذَٰلِكَ الْعَاقِبَةُ يَوْمَ الدِّين بِدُخُولِ جَنَّاتِ النعيم، خالِدِينَ فيها أبداً هي للمتّقين أيضاً، وجاء الاستِغْنَاءُ بِذِكْرِ المتقين أصْحَابِ الْمَرْتَبَةِ الدُّنيا، عن ذِكْر الأبرار والمحسنين، لِأَنَّ الأبرار والمحسنين، هُمْ مُتَّقُونَ وزِيادَةٌ مِنْ مَرْتَبَةِ الأبرار، فَمَرْتَبَةِ المحسنين.

والْوَعْدُ بالْعَاقِبَةِ الحسْنَىٰ للمتَّقِين، يَتَضَمَّنُ الْوَعِيدَ لِأَعدائِهِمُ الكافِرين، إذْ يَحِلُّ بهم الخذلَانُ والْخَيْبَةُ والذُّلُّ والمهانَةُ فِي الدُّنيا، ثُمَّ يَحِلُّ بِهِمُ الخِزْيُ وَالصَّغارُ، وعَذَابُ النار، يَوْمَ الدِّينِ فِي جَهَنَّمَ وبِئْسَ الْمَصِير.

وبهذا انْتَهَىٰ هذا الْفَصْلُ الْأَوَّلُ مِنْ فُصُولِ الدَّرس السادس من دُرُوس سورة (هود).

والحمد لله على مَدَدِه وتوفيقه ومَعُونتِهِ وفَتْحه.

* * *

الفصل الثاني من الدرس السادس

لقطات من قصة (هود عليه السّلام وقومه)

الآيات من (٥٠ ـ ٦٠)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي

فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٥١) وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ (٥٢) قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ (٥٨) وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ (٥٩) وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ (٦٠)﴾.

تمهيد:

هذا هو النصّ الثامن من النصوص الّتي جاءت في القرآن بشأن عادٍ قوم النبيّ الرَّسُول هود عليه السلام من أصل (٢٠) نصًّا جاءت في سور القرآن المجيد، ودراستُها دراسَةً تكامليَّة تدبُّريَّةً تَحْتَاجُ بَحْثاً مُسْتَقِلًّا(١).

وأقْتصر هُنَا على تدبّر فقراتِ هذا النصّ مستعيناً بالعزيز الفتّاحِ الوهّاب.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ (٥٠)﴾:

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملحقي تدبر هذه السورة.

• قرأ الكِسَائي، وأبو جَعْفر: **[مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ]** بِجَرِّ لفظ «غَيْرِه» مُرَاعَاةً للَفْظِ «إلَهٍ» المجرُور بحَرْف الجرّ الزائد لتوكيد عُمُوم النفي.

وقرأها بَاقِي الْقُرّاء العشَرَة **[غَيْرُهُ]** بالرَّفْع مراعاة لمحَلِّ لفظ ﴿إِلَٰهٍ﴾ الذِّي هو الرَّفْعُ لأَنَّهُ مُبْتدأ.

عَاد: قَوْمٌ مِنَ الْعَرَب كانت مساكِنُهُمْ في أرْضِ «الأحْقَافِ» من جنوب شِبْهِ الجزيرَةِ العربيَّة، وهيَ تَقَعُ في شَمال «حضْرَمَوت» ويَقَعُ في شَمَالِ الأحْقَافِ مَا يُسَمَّىٰ «الرّبْع الخالي» وفي شَرْقِها «عُمان»، وموضع بلادِهِمُ الآنَ رِمَالٌ قَاحِلَةٌ لَا أنيسَ فيها ولا دَيَّار.

وقد أرْسَلَ اللهُ إلَيْهِم رسُولاً مِنْهُمْ، هو «هُودٌ» عليه السّلام بْنُ عبد الله بْنِ رَبَاحِ بْنِ الْخُلُودِ بن «عادٍ» جَدّ هؤلاء القوم، على ما يَذْكُرُ أهْلُ التّاريخ، وينْتَهِي نَسَبُهُمْ إلى «سَام» بن «نوح» عليه السلام.

وتُعْتَبَرُ «عادٌ» من الْعَرَب البائِدَة، باسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهم، وأنجاهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ مَعَ رَسُولِهِمْ من الْهَلَاكِ الشّامِلِ الذي نَزَلَ بِكُفَّارِ قومهم.

وكانوا أشداء أقْوياء ممَّنْ زَادَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بَسْطَةً في الْخَلْق، وكانوا مُتْرَفين، وكانوا أهْلَ بَطْشٍ جَبَّارِين، وكانت لهم أوثان يَعْبُدونها من دون الله هي: «صَدَاء ـ صَمُود ـ الْهَبَاء» على ما روى الطبري.

وكانوا يُنْكِرُون الدّار الآخِرَة ويقولون: إنْ هي إلَّا حياتُنا الدنيا نموتُ ونَحْيا وما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ.

• ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾: أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلَىٰ «عَادٍ» أخاهُمْ «هُوداً» نبيّاً وَرَسُولاً، وقد كانَ «هودٌ» عليه السلام مِنْهُمْ نَسَباً ولُغَةً وَمَوْطِناً.

هذه العبارة معطوفَةٌ على مَا جاء في أوّلِ قصّة نوحٍ في السورة، وهو

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥)﴾.

- ﴿... قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ... (٥٠)﴾:

أي: قَالَ هُود عليه السّلام مُتَلَطِّفاً بِقَوْمِه، ومُنَادِياً لَهُمْ بِصَوْتٍ جَهِيرٍ: يَا قَوْمِ (أَصْلُهَا: يَا قَوْمِي، حُذِفَتْ مِنْهَا ياء المتكلّم وهَـٰذا جَائِزٌ في العربيَّة).

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: اعْبُدُوه وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحداً ولَا شيئاً، إِذْ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ حَقٍّ هُوَ رَبٌّ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَأْذَنِ اللهُ رَبُّكُم بأَنْ تَعْبُدوا مِنْ دُونِهِ أَحداً، وَجَعَلَ عِبَادَةَ غَيْرِهِ مِن دُونِهِ شِرْكاً به، وهَـٰذا كُفْرٌ يَسْتَوْجِبُ الْخُلُودَ في عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

العِبَادَةُ: هي الخضُوعُ والطَّاعَةُ وَالْقِيَامُ بِمَا يُرْضِي المعْبُود، وتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ، ورأسُ العبادَةِ الدُّعَاءُ بالغيْبِ لمطالِبِ الدنيا والآخرة، وأَبَانَ دينُ اللهِ للنَّاسِ أعْمَالاً تَعَبُّدِيَّةً خاصَّةً بِعِبَادَةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه ـ مِنْهَا الصَّلاة، والزَّكاة، والصِّيام، ومناسِكُ الحجّ والعمرة، إلى غير ذَلِكَ ممَّا لَا يُوَجَّهُ إلَّا للهِ عَزَّ وجَلَّ.

- ﴿... إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠)﴾: أي: مَا أَنْتُم بِعِبَادَتِكُمْ أَشْيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ اتَّخَذْتُموا آلِهَةً لَكُمْ، لِتُحَقِّقَ لَكُم مَطَالِبَ مِنْ دُنياكُمْ، إلَّا مُفْتَرُونَ علَىٰ حَقِّ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ. فاتِّخَاذُ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الافْتِراءِ على اللهِ.

الافْتِرَاء: اخْتِلَاقُ الكَذِب، واصْطِنَاعُهُ عَنْ تَعَمُّدٍ، يُقَالُ لغة: «افْتَرَىٰ الحديث يَفْتَرِيهِ افْتراءً» أي: اختلَقَهُ كذِباً عنْ عَمْد، والاسْمُ منه «الفِرْيَةُ» وجَمْعُها «الْفِرَىٰ» وأَصْلُ مَعْنَىٰ الْفَرْيِ قَطْعُ الْجِلْدِ، ومِنْهُ سُمِّيَ قَطَّاعُ الْجُلُودِ فَرَّاءً.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُتَابِعاً بَيَانَ لَقَطَاتٍ ممّا قالَ هود عليه السَّلامُ لِقَوْمه:

- ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

إِضَافَةً إِلَىٰ الْقَضِيَّةِ الَّتِي جَاءَت في الآيَة (٥٠) السَّابِقَةِ، وَهِيَ الأمْرُ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، جَاءَ في هاتين الآيتين (٥١) و(٥٢) بَيَانُ أَنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ لِقَوْمِهِ في دَعْوَتِهِ لَهُمْ إلى دِينِ اللهِ الحقّ، سِتَّ قَضَايا:

القضيَّةُ الأُولَىٰ: بيان هود عليه السلام لقومه أنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ أجراً على دَعْوَتِهِ، لَا حَالاً وَلَا مُسْتَقْبلاً، حتَىٰ يَنْفِرُوا مِنْ دَعْوَتِهِ ويَتَّهِمُوهُ بالمصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّة الدُّنْيَوِيَّة، إنَّمَا يَبْتَغِي أجْرَهُ مِنَ اللهِ الَّذِي فَطَره، دَلَّ على هَٰذِهِ القَضِيَّة: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ﴾:

يَظْهَرُ أنّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ شَعَرَ مِنْ بَعْضِ أقْوَالِ مَلأ قومِهِ وكُبَرائِهِمْ، أنَّهُمْ يَتَّهِمُونَهُ بأنَّهُ يَسْعَىٰ إلى مَصَالِحَ شَخْصِيَّةٍ في قَوْمِهِ مِنْ وَرَاءِ دَعْوَتِهِ، فأبَانَ لَهُمْ أنَّهُ على خِلَافِ ذَلِك، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُتَجَرِّدٍ تَمَاماً مِنْ طَلَبِ الْأَجْرِ، إلّا أَنَّ الْأَجْرَ الَّذِي يَطْلُبُهُ لَا يَطْلُبُهُ إلَّا مِنْ رَبِّهِ الَّذِي فَطَرَهُ، وهو الَّذِي اصْطَفَاهُ نَبِيًّا وَرَسُولاً إلَىٰ قَوْمِهِ عَاد، وكَلَّفَهُ تبليغَ رِسالَاتِهِ لَهُمْ.

«إنْ» في ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ حرف نفي مثل «ما»: أي: ما أَجْرِيَ إلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي.

فَطَرَني: أي: خَلَقَنِي على نِظَامِ الْفَطْرِ، وهو الشّقُّ وإبْدَاعُ الشيْءِ مِنَ الْعُمْقِ، لِأَنَّ النُّقْطَةَ الْقُصْوىٰ في عُمْقِ الأشياء هي الْعَدَمُ، واللهُ وَحْدَهُ جَلَّ جَلَالُهُ هُو الخالِقُ مِنَ العَدَم.

في ياء المتكلّم من ﴿أَجْرِىَ﴾ ومن ﴿فَطَرَنِىٓ﴾ قراءتان الفتح والإسكان.

القضيَّة الثانية: حَثُّ هُودٍ عَلَيْهِ السّلام قومَهُ على أنْ يَعْقِلُوا بأسْلُوب الاستفهام، مع تَلْوِيمِهِمْ عَلَىٰ أنَّهُم لَا يَعْقِلُونَ، دَلَّ على هذه القضية من النّصّ: ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾: أي: اعْقِلُوا ولَا تُجَانِبُوا مَنْهَجَ الْفَهْم السَّدِيد، والْعَقْلِ الرَّشيد.

الْعَقْلُ: عَقْلان: عَقْلٌ علمي، وعَقْلٌ إرادي، وكلاهُمَا مأخوذَان من الرَّبْط.

فالْعَقْل الْعِلْمِيّ: يكون باسْتِخْدام قُوى الْإدْراكِ والْفَهْم في مَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْأُمُور فَهْماً صَحِيحاً مُطَابِقاً لما هِيَ عَلَيْهِ في الواقِع، وعَقْلِها في الذَّاكِرَة، لِتَكُونَ دَافِعَةً إلى السُّلُوكِ الْقَوِيم المؤدّي إلى النتائج الْفُضْلَىٰ.

والْعَقْلُ الإرَادِيُّ: يَكُونُ باسْتِخْدامِ الإرَادَةِ الْحُرَّةِ الَّتِي وَهَبَهَا اللهُ للإنْسَان، فِي عَقْلِ أهوائِهِ وشَهَوَاتِهِ وَرَغَبَاتِ نَفْسِه، عَنِ الانْحرافِ والخروج عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم عَقِيدَةً وعَمَلاً.

القضيَّة الثالثة: دَعْوَةُ هُودٍ عَلَيْه السلام قَوْمَهُ إلَىٰ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ مِمَّا سَلَفَ مِنْهم من شِرْكٍ، باتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً يَعْبُدُونها مِنْ دُونِ الله، ومِنْ أنواع سُلُوكٍ هي من لوازم عَقِيدَةِ الشِّرْك، كالفِسْق والفجور، والظُّلْم والْعُدْوانِ وأكْلِ أَمْوالِ النَّاسِ بِغَيْرِ حَقّ.

الاسْتِغْفَارُ: طَلَبُ سَتْرِ الذُّنُوبِ والمعاصِي السَّابِقَةِ، سَتْراً يَقْتَضِي التجاوُزَ عَنْها، وعَدَمَ المؤاخَذَة عليها.

والدَّعْوَةُ إلى الاسْتِغْفار مِنَ الذُّنُوب تَتَضَمَّنُ باللُّزُوم الْفِكْرِي الكَفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ الْوُقُوعِ بِمِثْلِها، وإلَّا لَمْ يَكُنْ للاسْتِغْفار معْنًى ولا جدْوىٰ.

دلَّ على هذه القضية مِنَ النّصّ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾.

القضية الرابعة: دَعْوَة هُود علَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ إلَىٰ أَنْ يَتُوبُوا إلَىٰ رَبِّهِمْ،

بالرُّجُوعِ الْفِعْلِيّ إِلَيْه، يَعْبُدُونَهُ لَا يُشْرِكُونَ بعِبَادَتِهِ أحداً ولَا شيئاً، وبطَاعَتِهِ في أوامره وفي نواهيه. دلّ على هذه القضيَّة من النّصّ: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾:

التوبَةُ: هِيَ الرُّجُوع، يُقَالُ لغة: «تَابَ، يَتُوبُ، تَوْباً، وتَوْبَةً، ومَتَابَةً، وتَابَةً» أي: رَجَعَ، وَيقال: «تاب الْعَبْدُ إلى رَبِّه» أي: رَجَعَ إلىٰ الطاعة والاستقامة بَعْدَ المعْصِية.

ودَلّ العطف بحرف العطف «ثُمَّ» علَىٰ أنَّ المرادَ الرُّجُوعُ الْعَمَلِيُّ الْفِعْلِيّ بتَجْدِيدِ الإيمانِ الصَّحِيحِ، ومُتَابَعَةِ تأدِيَةِ الأعْمَالِ الصَّالِحَة.

القضيَّة الرابعة: وَعْدُ هُودٍ عليه السَّلامُ قَوْمَهُ بأنَّهُم إِذَا استغْفَرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تَابُوا إِلَيْهِ بِتَجْدِيد الإيمان دَواماً، وبالمواظَبَةِ على الأعمال الصَّالِحَةِ الَّتي تُرْضِيهِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُرْسِلُ لَهُمْ أمْطَارَ السَّمَاءِ النافِعَة بِغَزَارَةٍ لإنْبَاتِ زُرُوعِهِمْ، وإكْثَار الخيرات لَهُمْ مِنَ الثمراتِ المختَلِفَات الأنواع والأصْنَاف. دلَّ على هذه القضيَّة مِنَ النّصّ: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾:

مِدْراراً: أي: كَثِيرَة الدَّرِّ، يقال لغة: «سَحَابٌ مِدْرار» أي: كَثِيرُ السَّحِّ من المطر. ويقال: «عَيْنُ مِدْرَار» أي: كَثِيرَةُ الدَّمْع. **مِدْرار**: تُقَال «للذكر والأنْثى» هو مِدْرار، وهي مِدْرار.

يُرَادبالسَّمَاء السُّحُبُ في جَوّ الْأَرْض، وفي فِعْلِ «يُرْسِل» مَعْنَىٰ الْبَعْثِ لِلقِيَام بِوَظَائِفَ نَافِعَةٍ مُفِيدَةٍ للنّاس، وهو مجزوم على أنه جواب الطلب.

القضيَّة الخامِسَة: وَعْدُ هُود عليه السَّلام قومَهُ بأنهم إذا اسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تَابُوا إليه، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَزِيدُهُمْ قُوَّةً مُضَافَةً إلَىٰ قُوَّتِهِمْ المتَفَوِّقَة، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ القضيَّة مِنَ النَّصّ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ الفِعْلُ ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ مَجزُومٌ لِأَنَّهُ مَعْطُوف على المجْزوم **[يُرْسِلْ]**.

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ القضيَّة على أنَّ عَاداً كانُوا أشِدّاء أقْوياء، فَإذا آمَنُوا واتَّقَوْا زَادَهُمُ اللهُ قُوَّةً وتَمْكِيناً.

القضيَّةُ السادسَة: نَهْيُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلامُ قَوْمَهُ عَنْ أنْ يَتَوَلَّوْا عَنْ دَعْوَتِهِ، مُدِيرينَ ظُهُورَهم ومبْتَعِدِينَ عن الإيمان والإسلام وطاعَةِ اللهِ في أوامره ونواهيه، فإذا فَعَلُوا ذَلِكَ كانُوا مُجْرِمين، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ مِنَ النَّصِّ: ﴿... وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾: أي: وَلَا تَتَوَلَّوْا حَالَةَ كَوْنِكُم بتَوَلِّيكُمْ عَنْ دَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّكُمْ إلَىٰ دِينَ اللهِ الحقّ مُجْرِمِين.

التَّوَلِّي: الْإِدْبارُ، وَقَدْ يَكُونُ مَصْحُوباً بابتِعَادٍ وَنَأْي.

المجْرِم: المتَعَدِّي بِذَنْبِ كبير، والْمُجرمُونَ في الاصْطِلَاحِ القرآني الكافِرون، الّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ في عَذَابِ النار يَوْمَ الدّين.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكايَةً لِمَعْنَىٰ بَعْضِ مَا رَدَّ بِهِ قَوْمُ هُودٍ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ لَهُمْ إلَىٰ دِين اللهِ الحقّ:

- ﴿قَالُوا يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ... ۝٥٤﴾:

اشتمَلَ هَـٰذا الرّدُّ علَىٰ أربع قَضايَا، هي عُنْوانَاتُ مَقَالَاتِ مُفَرَّقَاتٍ واجَهُوهُ بها.

الْقَضِيَّةُ الأُولى: قَوْلُهُمْ لَهُ: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: أي: مَا جِئْتَنا بآيَةٍ بَيِّنَةٍ خارِقَةٍ مِمَّا طَلَبْنا مِنْكَ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ، ولَعَلَّ مَقالَتَهُمْ هَـٰذِهِ كانَتْ فِي بِدَايَاتِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُمْ بآيَةٍ مُعْجِزَةٍ جَحَدُوهَا كَمَا جَحَدَ كُفَّارُ جَمِيعِ الْأَقْوَامِ مُعْجِزَاتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ السِّحْر.

الْبَيِّنَة: تَأْتِي بمعْنَىٰ الحجَّة، وبمعنى الرّسالَةِ الرَّبَّانِيَّة الواضحة، وتُطْلَقُ علىٰ الرَّسُول، وعَلَىٰ الصُّحُفِ والكُتُبِ المنزّلَة، وعلىٰ الآية الخارقة المعْجِزَة، وهذا المعنىٰ هو المرادُ هُنَا فيما يَظْهر.

القضيّة الثانية: قولهم له: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾:

سبق في تدبّر الآية (٥٠) أنَّهُمْ كانوا يَعْبُدونَ آلهة من الأوثان هي: «صَدَاء ـ وصَمُود ـ والْهَبَاء» على ما روى الطبري.

أي: وَمَا نَحْنُ بتاركي عبادة آلِهَتِنَا مِنَ الْأَوْثان، حَالَة كَوْنِنَا مُلَازِمِين الإعْرَاضَ عَنْ قَوْلِكَ غَيْرَ مُتَأَثِّرِينَ به، مَهْمَا حَاوَلْتَ إِقْنَاعَنَا وإِقَامَةَ الحجج علينا.

أو: وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهتِنَا تَرْكاً صَادِراً عَنْ تَأَثُّرِنَا بِقَوْلِكَ.

أو: وما نَحْنُ بتارِكِي آلِهتِنَا رِضاً مِنَّا عَنْ قَوْلِكَ، فَقَوْلُكَ لَا يُرْضينا ولا يؤثِّرُ فينا.

القضية الثالثة: قولُهُمْ لَه: ﴿... وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾: أي: وما نَحْنُ بمُؤْمِنِينَ بِكَ نَبيًّا وَرَسُولاً، ومَا نَحْنُ بِمُسْلِمِينَ لك، مَهْمَا حَاوَلْتَ وَاجْتَهَدْتَ في دَعْوَتِنا وإقناعنا.

جاءت الباء في ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ زائدة في الْخَبَرِ لتَوْكِيد نَفْي إيمانهم به.

ضُمِّنَ لَفْظُ: «مُؤْمِنِينَ» معنى «مُسْلِمِينَ» فجاءت التعدية باللَّام في ﴿لَكَ﴾.

القضية الرابعة: قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾:

﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾: أي: أَصَابكَ، يُقَالُ لغة: «عَرَىٰ، واعْتَرىٰ، الدَّاءُ فَلَاناً» أي: أَصَابَهُ وأَلَمَّ به.

دَلَّتْ هذه العبارة على أنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ نَزَلَ بِهِ مَكْرُوهٌ سَاءَهُ، كَعَارِضَةِ مَرَضٍ، أو مُصِيبَةٍ في مَالٍ، أو نحو ذلك، فقال كُبَرَاءُ كُفَّارِ قومِهِ له: مَا نَقُولُ بِشَأْنِ مَا نزلَ بِكَ إلَّا أَصَابَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ، أي: ولو اجْتَمَعَ كُلُّ آلِهَتِنَا علىٰ ضُرِّكَ لَأَهْلَكُوكَ، أو لَأَنْزَلُوا بِكَ مِنَ المصَائِبِ أَكْثَرَ مِمَّا أَنْزَلَ بِكَ بَعْضُهُم.

﴿إن﴾ حرف نفي مثل «ما». وفي العبارة قَصْرٌ بالنفي والاستثناء، وهو قَصْرٌ إضافيّ، أيْ: مَا نَقُولُ بِشَأْن مَا نَزَلَ بِكَ ممَّا تكْرَهُ إلَّا أَصَابَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بسُوء.

السُّوء: كُلُّ ما هُوَ قَبِيحٌ، أو مَكْرُوهٌ يُحْدِثُ في النَّفْسِ كراهيةً وألماً.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّناً عُنْوَانَاتِ الْقَضَايَا الَّتِي رَدَّ بِهَا هُودٌ عَلَيْه السّلام على مَقَالَاتِ كُفَّارِ قَوْمِهِ له:

﴿... قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾:

- ياء المتكلم في: **[إنيَ أُشْهِدُ]** فيها قراءتان الفتح والإسْكان.

- في **[لا تنظرون]** قراءتان حَذْف ياء المتكلّم، وإثباتُها وهي قراءة يعقوب.

اشتمَلَ هَـٰذا الرَّدُّ الَّذِي رَدّ بِهِ هود عليه السَّلَامُ عَلَىٰ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ له، عَلَىٰ عنوانَاتِ تِسْعِ مَقَالَاتٍ شَرَحَها لهم:

المقالة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ...﴾.

﴿أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾: أي: أسْأَلُ اللهَ أَنْ يَشْهَدَ لِي بِمَا يَعْلَمُ مِنْ أَنّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ.

﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾: أي: واعْلَمُوا عِلْمَ حضور وشُهُودٍ لا شَكَّ فيه ولا شبهة، فإذا استدعيتُمْ للشهادةِ فاشْهَدُوا لِي بهذا عند ربي.

﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: أيْ: أَنّي بَعِيدٌ كُلَّ الْبُعْدِ، طاهِرٌ غايَةَ الطَّهارَةِ مِنْ رِجْسِ مَا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ الله.

فأعْلَنَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكُفَّارِ قَوْمِهِ أَنَّهُ يَتَبَرَّأُ مِنْ شِرْكِهِمْ ومِنْ شُرَكائِهِم، وطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَشهدُوا هَـٰذا شَهادَةَ حَاضِرٍ عَلِيم، ولم يُدَارِهِمْ وَلَمْ يُجَامِلْهُمْ بإعْلَان هَـٰذِهِ الحقيقة، لأنَّ تبرُّأَهُ هذا مِنْ كُبْرَيَاتِ عَنَاصِرِ الإيمانِ بما جاءَ بِهِ عَنْ رَبِّه، وهُو أمْرٌ لَا يُسْكَتُ عَنْه، فعِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هي أُولَىٰ مَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ وأَمَرَهُمْ به.

المقالَة الثانية: دلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾:

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾: أي: فَدَبِّرُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ تَدْبيرَهُ ضِدِّي، مِن أذًى أَوْ ضُرٍّ أَوْ إهْلاكٍ، أنتم وآلِهَتُكُمْ مُجْتَمِعِين.

الكيْد: التَّدْبير الخفي أو الظَّاهر بحَقٍّ أو بباطلٍ، وفيه مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه.

﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: أي: ثُمَّ لَا تُمْهِلُوني، ولَا تُؤَخِّرُوا تنفيذ ما تُدَبِّرونَهُ ضدِّي.

لَقَدْ أَدْرَكَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلامُ إلْمَاحَهُمْ بتَهْدِيدِه بِضُرٍّ يَنْزِلُ بِهِ مِنْ قِبَلِ آلِهَتِهِم، إذْ قَالُوا لَهُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ كما سَبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّرِ هَـٰذا الْقَوْل، أَخذاً مِنْ قَوْلِهِمْ: [**بعْض**] أي: لَا كُلّ آلِهَتِنا، فَتَحَدَّاهُم بِأَنْ يَكِيدُوهُ هُمْ مع آلِهَتِهِمْ جَمِيعاً، وأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ لَا يَعْبَأُ بِهِمْ، وَلَا بِكَيْدِهِم ثِقَةً بِرَبِّهِ الَّذِي لَا يَجْرِي شَيْءٌ في الكَوْنِ إلَّا بِقَضَائِهِ وقَدَرِه، أَوْ بإذْنِهِ، جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

المقالة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾: جاءَتْ هَـٰذِهِ المقالَةُ لِبَيانِ سَبَبِ عَدَمِ مُبالَاتِهِ بِكَيْدِهم مع آلِهَتِهم،

أي: لِأَنَّهُ قد تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي هُوَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ، المهَيْمِنُ على الكَوْنِ كلِّه بصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِه الشَّامِلَةِ لِمُعْظَمِ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إِلَيْه، وَتَفْوِيضُ تَدْبير الأمُور وتَحْقِيق ما يَرْجُو المتَوَكِّلُ إِلَيْه، مع القِيامِ بالأَسْباب الَّتِي أَمَرَ اللهُ بالقيام بها.

وبما أَنَّ اللهَ عَلِيمٌ بكُلِّ شَيء، وقَدِيرٌ عَلَىٰ كُلِّ شيء، وبِيَدِهِ مَفاتِحُ كُلِّ شيء، فإِنَّهُ لَا يَجْرِي شيءٌ في الوجودِ كُلِّه إِلَّا بِقَدَرِه وقضائِهِ، أو بِعِلْمِه وإِذْنِه، ولَنْ يَخْذُلَ اللهُ رُسُلَهُ ولَا أَوْلِيَاءَه، ولَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْعَاقِبَةُ الحسْنَىٰ لَهُمْ.

المقالَة الرَّابِعَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾: جاءَتْ هَـٰذِهِ المقالَة لبَيَان سَبَبِ ثِقَتِهِ بِرَبِّهِ الَّذِي تَوَكَّل عليه.

النَّاصِيَة: مُقَدَّمُ الرَّأْس، وشَعر مُقَدَّم الرأسِ إذا طال.

ذُكِرَت النَّاصِيَةُ والْمُرَادُ بِهَا كُلُّ الكائِنِ الْحَيّ، وهذا من إطلاق الجُزْءِ وإرادة الكُلِّ، فَهُوَ مِنَ المَجَازِ المرسَل، والأَخْذُ بالناصِيَةِ القبض عليها.

والمعْنَىٰ: مَا مِنْ دابةٍ تَدِبُّ ذَاتِ حَيَاةٍ وَلَهَا قُدْرَةٌ بَحرَكَتِهَا عَلَىٰ ضُرٍّ أو نَفْعٍ إِلَّا هِيَ واقِعَةٌ تَحتَ سُلْطَانِ الأَخْذِ والْقَبْضِ الرَّبَّانِيّ لها، فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً، ولَوْ كَانَتْ ذَات إِرادَةٍ حُرَّةٍ، إِلَّا بإِذْنِ الله خالِقِهَا والْقَابِضِ عَلَيْها قَبْض إحاطَة، وَلَا يأْذَنُ اللهُ بِشَيْءٍ إِلَّا مَقْروناً إِذْنُهُ بِحِكْمَتِهِ.

أي: فَلا دَاعِي لأَنْ أبَالِي بِكَيْدِكُمْ وَكَيْدِ آلِهَتِكُمْ.

المقالة الخامِسَةُ: دَلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾:

أي: وإِنّي على ثِقَةٍ بأَنَّ رَبّي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْصُرَ في آخِرِ حَرَكَاتِ

الكَيْد أعْدَاءَهُ على أَوْلِيائِهِ حَقًّا، لأنَّهُ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ في تَدْبيره لِكَوْنه، وَتَصاريفِهِ لِشُؤُونِ عِبَادِه عَلِيمٌ حَكِيمٌ خَبيرٌ، يُجْرِىٰ مقاديرَهُ، وما يَقْضِي به، وَمَا يأذَنُ بِهِ، مُحافِظاً فِيها عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، هو صِرَاطُ الْحَقِّ والْعَدْلِ والحِكْمَةِ واختِيَارِ أفْضَل الأمُور وأحْسَنِها.

الصّراط المسْتَقِيمُ: هو الطّرِيقُ الواضِحُ الْجَلِيُّ الواسِعُ الممَهَّدُ الّذِي لا عِوَجَ فِيهِ وَلَا مُعْثِرات، أُطْلِقَ عَلَىٰ تَعْلِيمَاتِ الحقّ والْعَدْلِ والإحْسَانِ والْخَيْر وفَضَائِلِ السُّلُوكِ وَمَكَارِمِ الأخْلَاق.

المقالة السّادسة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾: أي: فإنْ تَتَوَلَّوْا «حُذِفَت إحدَى التّاءَيْنِ تَخفِيفاً» فَقَدْ أَدَّيْتُ ما أَوْجبَ عَلَيَّ ربّي، وهُوَ أَنْ أبلِّغَكُمْ ما أرسلَني بِهِ لِأُبلّغكُمْ إِيَّاهُ، فَأَبْلَغْتُكُموهُ، دُونَ زِيادَةٍ وَلَا نَقْصٍ وَلَا تَحْرِيف؛ وعَلَيْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَتَحمَّلُوا نَتَائِجَ اخْتِيَارَاتِكُمْ عِنْدَ ربكُمْ.

التَّولّي: الْإِدْبَارُ، وقَدْ يَكُونُ مَصْحُوباً بالنَّأْي والابْتِعَادِ.

المقالَة السَّابِعَة: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: أي: وَإِذَا أَصْرَرْتُم عَلَىٰ الكُفرِ عِناداً واسْتِكْبَاراً وجُحُوداً، فإنَّ رَبّي سَيُهْلِكُكُمْ مُعذِّباً لَكُمْ، وعِنْدَئِذٍ يَسْتَخْلِفُ قَوْماً غَيْرَكُم في الأرْضِ، يَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بَعْدَكُمْ، إذْ أَثْبَتّم بالاختبار أنَّهُ لَا فَائِدَةَ تُرجَىٰ مِنْ إمْهَالِكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا أمْهَلَكُمْ، وفي هَـٰذا تحْقِيق لسنَّته في عِبادِه، على تتابُعِ أجْيَالهم.

المقالة الثامنَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْل اللهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾: أي: واعْلَمُوا أَنَّكُم بِكُفْرِكُمْ، ومَعْصِيَتِكُمْ أوامِرَ رَبِّكُمْ ونواهِيَهُ، وفِسْقِكُمْ وفُجُورِكم، وظُلْمِكُمْ وعُدْوانِكُمْ، وَتَجبُّرِكُمْ علىٰ عِبَادِ اللهِ، لَا تَضُرُّونَ اللهَ رَبَّكُمْ شَيْئاً ما، لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ إيمانِ كلِّ عِبادِه به، وغَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِهِمْ لَه، إِنَّما تَضُرُّونَ نُفُوسَكُمْ بِتَعْرِيضِها لِلْعِقَاب الرَّبَّانِي، إذْ يَجْعَلُكُمْ يَوْمَ الدّينِ خالِدِينَ في عَذَاب النار أبداً.

المقالة التاسعة: دَلَّ عَلَيْها قولُ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾:

حَفِيظ: صيغة مبالغة لـ «حَافِظ» **حِفْظُ الشَّيْءِ**: يكُونُ بِحِرَاسَتِهِ وَصِيَانَته، والمواظبة علىٰ رِعَايَتِهِ، ومُرَاقَبَتِهِ والْهَيْمَنَةِ عليه.

فالحفيظ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُهَيْمِناً وَدَائِمَ الْمُرَاقَبَةِ لِمَا يَحفَظُهُ.

الْمَعْنَىٰ: إنَّ رَبِّي مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ، مُرَاقِبٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، حَفِيظٌ لِكُلِّ شَيْءٍ يُرِيدُ حِفْظَهُ، فَلَا تَسْتَطِيعُ قُوَّةٌ مَا مِنْ دُونِ قُوَّة الله أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً ما مَهمَا قَلَّ وَكَانَ ضَئِيلاً، إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِحِكْمَةٍ مِنْ حِكَمِهِ السَّنِيَّة، ولا يَسْتَطِيعُ كائِنٌ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْ يَفْلَتَ مِنْ قَبْضَةِ سُلْطَانِهِ، أَوْ يَخْرُجَ عَنْ مَدىٰ هَيْمَنَتِهِ وَلَوْ مَلَكَ من الْقُوىٰ مَا يَدُكُّ بِهِ الْجِبَالَ العظمىٰ، أَوْ يَنْسِفُها نَسْفاً.

ويَبْدُو لِي أَنَّ هَـٰذِهِ الْمَقَالَةَ مُوجَّهَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، حَتَّىٰ يَطْمَئِنُّوا إِلَىٰ أَنَّهم مَحْفُوظُونَ بِحِفْظِ اللهِ، مَحْمِيُّونَ بِحِمَايَتِهِ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ وَمَكايدِهم.

قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ مُبيِّناً فِقرَةَ خِتَام قِصَّةِ هُودٍ وَقَوْمِهِ، بِتَنْجِيَة هُودٍ عليه السَّلام والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه، وَإِهْلَاكِ كُفَّارِ عَادٍ، وَإِتْباعِهِمْ بِلَعْنَةٍ في الدُّنيا، ولَعْنَةٍ عُظْمَىٰ يَوْم الدين:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي وحِين جاء وقْتُ تَوْجِيهِ أمْرِنا بِتنفيذِ القضاء الَّذِي قضيْنَاهُ بإهْلَاكِ كُفَّارِ عَادٍ قَوْم هُودَ عليه السلام، والمرادُ بمجيء الوقْتِ اقْتِرَابُ مجيئه، أو مَجيءُ بوادره.

- ﴿. . . نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: وحِينَ اقْتَرَبَ وَقْتُ إهلاكِنَا كُفَّارَ عَادٍ، أَمَرْنَا هوداً والَّذِينَ آمَنُوا مَعهُ بالابْتِعَادِ عَنْ الْأَرْضِ المقَدَّر أَنْ يَكُونَ داخِلَ حُدُودها إهْلَاكُ الكافرين من قومه، فابتعدوا فنجيناهم مصحوبين ومشمولين بآثار رحمةٍ مِنَّا فِي الدُّنيا، وَقَضَيْنَا بِتَنْجِيَتِهِمْ يَوْمَ الدِّين مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ، بِسَبَبِ إيمَانِهِمْ واتِّبَاعِهِمْ رَسُولَ رَبِّهم.

والمرادُ بالْأَمْرِ: الأمْرُ الْتَّكوينيُّ التَّنْفِيذِيُّ، المسْبُوقُ بقَدَرٍ وَقَضاء.

ولمَّا كَانَ عَذَابُ الآخِرَةِ عَذَاباً شَدِيداً صَعْباً جاءَ وَصْفُهُ بأنَّهُ عَذابٌ غَلِيظٌ، يُقالُ لغة: «عَذَابٌ غَلِيظٌ» أي: شَدِيد الإيلام.

والغليظ في المادِّيَّاتِ هو ضِدُّ الرَّقِيقِ، فالعصا الغليظة هي ضِدُّ الْعَصَا الرقيقة الخفيفة، والثوبُ الْغَلِيظ هو ضِدُّ الثَّوْبِ الرَّقيق النَّاعِم.

- ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَاتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾:

- ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أشَارَ إلى جَمَاعَةِ عاد باسْمِ الإشَارَةِ الموضوع للجماعَةِ البعيدة، للدَّلالَةِ على هُبُوطِ مَنْزِلَتِهِمْ إِلَىٰ أسْفَلِ سَافِلِين.

- ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: أي: أَنْكَرُوا آيات رَبِّهِمُ الْإِعْجَازِيَة، والكَوْنِيّة، والجزائيَّة، والبيانيَّة، مَعَ عِلْمِهِمْ واسْتِيقَانِهِمْ بأنَّها حَقٌّ.

يُقال لغة: «جَحَدَ الأمْرَ، وجَحَدَ بِهِ، يَجْحَدُ جَحْداً، وجُحُوداً» أي: أنْكَرَهُ مَعَ عِلْمِهِ بِهِ، واسْتيقانه في نَفْسِه بأنَّهُ حَقٌّ.

- ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾: أي: وَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ هُوداً، وَرُسُلاً أرسَلَهُمُ اللهُ من قَبْلِه إلَيْهِم، وربما كان لهم وجُودٌ في بدايات دعوة هود لهم. هذا ما ظهر لي في هذا وأمثاله في القرآن.

يُقالُ لغة: «عَصَاهُ، يَعْصِيهِ، مَعْصِيَةً، وعِصْيَاناً، فهو عَاصٍ، وعَصَّاءٌ، وَعَصِيٌّ» أي: خَرَجَ من دَائِرَة طاعَتِه، وخالَفَ أَمْرَهُ، أَوْ نَهْيَهُ.

- ﴿... وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝٥٩﴾: أي: واتَّبعَ جُمْهُورُ قَوْمِ عَادٍ مُطِيعِينَ أَمْرَ، ومُلْتَزِمِينَ شَأْنَ، كُلِّ جبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ أئِمَّتِهِمْ وَقَادَتِهِم مِنْهم.

الأَمْرُ: الطَّلَبُ بإلْزام، والشَّأْنُ الشَّامِلُ لِلأَفكارِ والعقائِدِ والسُّلُوك.

الْجبَّارُ: الْمُتَعَالِي المتكبِّر، والقاهِرُ الْعَاتِي المتسَلِّط الّذي يُكْرِه النَّاسَ بالْقُوَّةِ والْعُنْفِ على مَا يُرِيد بِغَيْرِ حَقّ.

الْعَنِيدُ: هو مَنْ كَانَ شَدِيدَ الرَّفْضِ لِلْحقِّ، وإنْ ظَهَرَ لَهُ بالْبُرْهَانِ السَّاطِع، وشَدِيدَ الإصْرار على رَأْيِهِ أو اعْتِقَادِه، أو سُلُوكِهِ، أَوْ مَذْهَبه، وإِنْ ظَهَرَ لَهُ بُطْلَانُه.

يُقَالُ لغة: «عَنَدَ فُلَانٌ، يَعْنِدُ، عَنْداً، وَعُنُوداً، فَهُوَ عَانِدٌ، وعَنُودٌ، وَعَنِيدٌ».

- ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠﴾:

- ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾: بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، كَانَ مِنْ فَنِّيَّةِ الاختِيَار الْبَيَانِي أَنْ يُخْتَارَ مِنَ البدائِلِ فِعْلُ «أُتْبِعُوا» أي: اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ والشَّرّ والإثْم فَأُتْبِعُوا لَعْنَةً في هَـٰذِهِ الدنيا، ويَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعِدُهُم عن كُلِّ مَهَابِطِ رحمَاتِ اللهِ لَعْنَةٌ أشَدُّ وأبْقَىٰ.

أُتبِعُوا لَعْنَةً: أيْ: جَعَلَ الله عَزَّ وجلَّ لَعْنَةً خَاصَّةً مُخْزِيَةً تَتَوالَىٰ عَلَيْهِمْ طَارِدَةً لَهُمْ مِنْ كُلِّ مَوَاقِعِ رَحمَاتِهِ.

اللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإبْعَادُ مِنْ كُلِّ خَيْر.

- ﴿أَلَآ﴾: أَدَاةُ اسْتِفْتَاحٍ وتَنْبِيهٍ وتَحْقِيقٍ.

- ﴿إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾: أي: كَفَرُوا جَاحِدِينَ رَبَّهُمْ، وسَاتِرِينَ

الأدِلَّةَ الَّتِي تُثْبِتُ حَقَّ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُم، وأنَّهُ هو الإِلَٰهُ الَّذِي لَا إلَٰه في الْوُجُودِ كُلِّهِ لَهُ حَقُّ الإلَٰهِيَّةِ غَيْرُه، وكُلُّ إلَٰهٍ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِهِ تَعَالَىٰ باطِلٌ، أَوْ وَهْمٌ لَا حَقِيقَةَ له.

- ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾: أي: أَلَا طَرْداً لِعَادٍ عنِ الحياة الدُّنيا، بَعْدَ أن قَضتِ الحِكْمَةُ بأنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ إبْقَائِهِمْ أحْيَاءَ في حِيَاةِ الامْتِحَانِ، كما حَصَلَ لَدَىٰ إهْلَاكِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام.

وَجاء وَصْفُ «عَادٍ» بأنَّهُمْ قَوْمُ هُود نَبِيِّ اللهِ وَرَسُولِهِ لتحقيق غَرَضَيْن:

الغرض الأول: مُراعَاةِ فواصل الآيات.

الغَرَضُ الثاني: بيان أنَّ المطرودينَ هُم عَادٌ الأولى قومُ هُودٍ عليه السلام، للدّلَالَة على أنه توجد عاد ثانية، وهُمْ ثَمُود قوم صالح عليه السّلام.

وهَٰذا من الإطناب المفيد لَفْظاً ومعْنَىٰ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الْفَصْلِ الثاني: «هود عليه السلام» من الدَّرْسِ السادس من دُرُوسِ سورة (هود).

والْحَمْد للهِ على مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

الفصل الثالث من الدرس السادس

لقَطاتٌ مِنْ قِصَّة «صالح عليه السلام وقومه ثمود»

الآيات من (٦١ ـ ٦٨)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ

(٦١) قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا
وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٦٢) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ
مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ
تَخۡسِيرٖ (٦٣) وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (٦٦)
وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ
أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ (٦٨)».

تمهيد:

جاء في آيات هذا الفصل ذكر لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ صالح عَلَيْهِ السَّلام وقَوْمِهِ ثمود، وهَـٰذه اللَّقَطاتُ تُعالِجُ كُبَراءَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وأتباعَهُمْ إبّانَ نُزُولِ سُورَة (هود/ ٥٢ نزول) بِحَسَبِ مَوْقِفِهِم الْعِنَادِي الّذي ما زَالُوا يُصِرُّونَ عَلَيْه، رافِضِينَ دَعْوَةَ الرَّسُول محمّدٍ ﷺ، ومُكذبينَ لَهُ، ومُكَذِّبين بالقرآن، ومُلِحِّينَ في طَلَبِ الآيات الخوارِقِ علَىٰ ما يَتَشَهَّوْنَ.

وهذا هو النّصّ (١٣) بحسَب تَرْتيب النزول، من النصوص القرآنيّة المتعلّقة بهود عليه السلام وقومه ثمود.

وقد سبَقَ تَدَبُّره تَدبُّراً تكامُلِيًّا مع سائر النصوص القرآنية حول موضوعه، في «الملحق الثالث» من ملاحق تَدَبّر سُورَةِ (النمل/ ٤٨ نزول).

ولهـٰذا فإني أقتَصِرُ هُنا عَلَى تَدبُّرِ فِقَراتِ هذا النصّ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

- «۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾:

• قرأ الكسائي، وأبو جَعْفَر: **[مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غيرِه]** بِجَرِّ لفظ «غَيْرِهِ» مُرَاعَاةً لِلَفْظِ «إله» المجرور بحَرْف الجرّ الزائد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِرَفع «غَيْرُهُ» مُرَاعَاةً لمحلِّ لفظ «إله» وهو الابتداء.

• ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾: أي: وَلَقَدْ أرسَلْنَا إلَىٰ قَبِيلَةِ ثَمُود أَخَاهُمْ صالحاً نبيّاً ورَسُولاً عَلَيْهِ السّلام، وهذه الجملة مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ قِصَّةِ هُودِ المعْطوفَةِ على قِصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِمَا السّلام.

وقد كان صالح عليه السلام مِنْ قومه ثمود نَسَباً ولُغَةً ومَوْطِناً، أخْذاً مِمَّا هو مَعْرُوف من تاريخه، فعبارَةُ «أَخَاهُمْ» لَا تُفِيدُ كونَهُ مِنْهُمْ نَسَباً، إذ اسْتُعْمِلَ نَظِيرُهَا في نسبَةِ «لُوطٍ» عَلَيْهِ السّلامُ إلى قومه في القرآن، مع أَنَّهُ لم يَكُنْ مِنْهُمْ نَسَباً، وإنَّما كانَ صِهْراً لهم، ومُتكلّماً بِلُغَتِهم، ومقيماً في أَرْضِهِم.

وقد اشْتَمَلَ بَيَانُ صَالحٍ لِقَوْمِهِ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هَـٰذِهِ الآية، على سِتِّ قَضَايا:

القضيّة الأولى: دلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايةً لمعْنَىٰ ما قالَهُ صالحٌ عَلَيْه السّلام لقومه في أوائل دَعْوَتِهِ لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: **يا قَوْمِ**: بِحَذْفِ ياء المتكلّم وإبقاء الكَسْرَةِ دَليلاً عَلَيْها، وفي هَـٰذا النداءِ اسْتِعْطَافٌ بِرفق.

فكَانَت بِدايَةُ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ مُمَاثِلَةً لِبدَاياتِ دَعواتِ سائِرِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ

السَّلامُ لِأَقوامِهِم، وهي الدَّعْوَةُ إلى عبادة اللهِ عَزَّ وجَلَّ وحْدَهُ، دُونَ أَنْ يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحَداً مَا، أو شيْئاً ما.

لقد بدأهُمْ بالْأَمْرِ بعِبَادَة اللهِ وَحْدَه، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كانُوا مُشْرِكينَ يَعْبُدونَ أَوْثَاناً.

ومَعْلُومٌ أنَّ عِبَادَةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ هُو الوَاجِبُ الْأَوَّلُ بَعْدَ الإيمانِ بِهِ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَزَلِيًّا أَبَدِيًّا، وَبَعْدَ إعْلَانِ الإسْلَامِ له، وإعْلَان الحِرْصِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ.

وأَوَّلُ العبادَةِ للهِ ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ تَكُونُ بطَاعَتِهِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ بِفِعْلِهِ، وتَرْكِ مَا نَهىٰ عَنْه، وتَكُونُ بِدُعَائِهِ لِتَحْقِيق المطَالِب مِنْ أُمُورِ الدُّنيا وأمُور الآخِرَة، ثُمَّ بالتَّقَرُّب إِلَيْهِ بمَحَابِّهِ مِن فِعْلِ مَا يُرْضِيهِ فِعْلُه، وتَرْكِ مَا يُرْضِيهِ تَرْكُهُ.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: أي: لَيسَ لَكُمْ في الواقِعِ والحقيقَةِ إلَهٌ حَقٌّ يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُعْبَدَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ، إذْ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوُجُودِ سِوَاه.

والعبادة مِنَ الْعَبْدِ لَا تَجُوزُ أَنْ تَكُونَ إلَّا لِمَنْ هُوَ رَبُّهُ حَقًّا، وَرُبُوبِيَّتُه الدَّائِمَةُ المتَصَرِّفَةُ فِيه تُوجِبُ عَلَيْهِ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ.

أمَّا عبادةُ غَيْرِ مَنْ هُوَ رَبٌّ حَقًّا فَهِيَ شِرْكٌ به، وهذا الشِّرْكُ في إلَهيَّتِهِ أَوَّلُ دَرَكَاتِ الكُفْرِ به، وأحَطُّ وأخَسُّ مِنْها دَرَكَة الإشْرَاكِ بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحانه، ثُمَّ دَرَكَةُ جُحُودِ الرَّبِّ جُحُوداً كُلِّيًا، وتَزْدَادُ الدَّرَكَاتُ تَسَفُّلاً بارْتِكابِ جرائِم الْبَغْي والظُّلْم والْعُدْوانِ، والفِسْقِ والْفُجُورِ والْفَسَادِ والإفسادِ والنِّفَاق، والدَّعْوَةِ إِلَىٰ الكُفْرِ وارْتِكاب الجرائم، حتَّىٰ تُوصِلَ أَصْحَابَها إلىٰ الدَّرْك الأسْفَلِ من النّار.

القضية الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعْنَىٰ ما قالَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾:

الإنْشَاءُ: الإحْدَاثُ المصْحُوب بالتَّكَامُلِ المتَدَرّج غَالِباً، يُقَال لغة: «أنْشَأَ الشَّيْءَ إِنْشَاءً» أي: أَحْدَثَهُ إحْدَاثاً مَصْحُوباً بالتَّكَامُلِ المتدرِّجِ. ويُقَالُ لغة: «نَشَأَ الشَّيْءُ نَشْأً، ونُشُوءاً، ونَشْأَةً» أي: حَدَثَ وتَجَدَّدَ.

فأبَانَ صَالحٌ عليه السَّلامُ لِقَوْمِهِ بهَـٰذا مَظْهَراً مِنْ مَظَاهِرِ رُبُوبيَّةِ اللهِ لهم، وهُو إنْشَاؤُهُم مِنَ الأَرْضِ.

أمَّا خَلْقُ آدَمَ أبي الْبَشَرِ فَقَدْ كَانَ مِنْ طِين «تُرابٍ وماءٍ» وهَـٰذِهِ مَعْلُومَةٌ مَوْرُوثَةٌ فِي النّاسِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السّلام.

وأمَّا ذُرِّيَّتُهُ مِنْ بَعْدِه فَمِنَ المعْلُوم لَدَىٰ كُلّ النَّاسِ أنَّ المادَّةَ الّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الأجِنَّةُ مَخْلُوقَةٌ فِي الذُّكُور والإِنَاثِ من الدِّماء، والدِّمَاءُ مَخْلُوقَةٌ مِنَ الْغِذَاءِ النَّبَاتِيّ أو الحيواني، وَكُلُّ ذَلِكَ مَنْشؤُهُ مِن الماء والتُّرَابِ، وهُمَا مِنْ عَنَاصِرِ الأَرْضِ.

وبِمَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُو الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ الأَرْضِ إنْشَاءً مُتَدَرِّجاً فَهُوَ رَبُّهُم، أيْ: هُو خَالِقُهُمْ وَفْقَ نِظَامِ التَّرْبِيَةِ الَّتي هِيَ الإنْشَاءُ المتَدَرِّج، وهُوَ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ أطْوَارِ وُجُودِهِم المسْتَمِرَّةِ والمتَجَدِّدَة.

القضيَّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعنَىٰ ما قالَهُ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِهِ: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أي: واسْتَعْمَرَكُم في الْأَرْضِ، بِأنْ جَعَلَ فِي نُفُوسِكُمْ وَقُدْرَاتِكُمُ الْفِكْرِيّةِ والْجَسَدِيَّةِ، مَا يَسْتَحِثُّكُمْ وَيَحُضُّكُمْ عَلَىٰ إِعْمَارِ الْأَرْضِ، بِبِنَاءِ مَسَاكِنِها، واسْتِنْبَاتِ زُرُوعِها وَأَشْجَارِها، وإِنْشَاءِ جَنَّاتِها وَمَصَانِعِها وَسَائِرِ المنْشآتِ النَّافِعَاتِ فِيها، وَهَيَّأَ لَكُمُ الْأَرْضَ لِهَـٰذا الإعْمَارِ، ومَكَّنَكُمْ وهَدَاكُمْ لاتخاذ وسَائِلِ إعْمارِها، لأنَّ مصالحكم وَمَنَافِعَكُمْ في الحياة الدُّنيا مُرْتَبِطَةٌ بإعْمَارِها. وكذَلِكَ جَعَلَكُمْ تَعْمُرُونَها بأشْخَاصِكُمْ إذْ تُقِيمُونَ فيها.

يُقَالُ لُغَةَ: «اسْتَعْمَرَهُ فِي الْمَكَانِ» أيْ: جَعَلَهُ يَعْمُرُه، بالأمْرِ أو بالتمكين والْهِدَايَةِ وَتَهْيِئَةِ الشُّرُوطِ والوسائل، أو بالإيجاد فيها.

ويقال: «عَمَّرَ الْأَرْضَ» أي: بَنَىٰ عَلَيْهَا وَأَهَّلَهَا.

الْقَضِيَّةُ الرَّابِعَة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِمَعْنَىٰ مَا قَالَهُ صالحٌ عَلَيْهِ السّلام لِقَوْمِهِ: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾: أي: فإذَا آمَنْتُمْ باللهِ رَبِّكُمْ، وآمَنْتُم بأنَّهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ الّذِي لَا إلَه إلّا هُو، وعَلِمْتُمْ أنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمِدُّكُم دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِه في الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلَكُمْ تُقِيمُونَ فيها، وتَنْتَفِعُون مِنْ خَيْرَاتِها، وتُنْشِئُونَ مُنْشَآتِكم عليها، فاسْأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُم ذُنُوبَكُم وَخَطَايَاكُمْ، مِنْ شِرْكٍ وَظُلْمٍ وَعُدْوانٍ وكبائِرَ وَجَرَائِمَ وآثَام.

غَفَرَ الذَّنْبَ: أي: سَتَرَه، وهَـٰذا يَسْتَلْزِمُ بِفَضْلِ اللهِ التجاوُزَ عَنِ المؤاخَذَةِ عَلَيْهِ.

تقولُ لغة: «غَفَرَ الشَّيْءَ، يَغْفِرُهُ، غَفْراً، وغُفْراناً، ومَغْفِرَةً» أي: سَتَرَه.

القضيَّة الخامِسَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾:

يُقَالُ لغة: «تَابَ، يَتُوبُ، تَوْباً، وتَوْبَةً، وَمَتَابَةً، وَتَابَةً». أي: رَجَع. وتَابَ الْعَبْدُ إلَىٰ ربِّهِ، أي: عَزَمَ عَلَىٰ الرُّجُوع إلَىٰ الطاعَةِ والاسْتقامَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ. وَيُقَالُ: «تَابَ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ» أي: قَبِلَ تَوْبَتَهُ وَرَجْعَته، فَرَجَعَ عَلَيْهِ بالْغُفْرَانِ والْعَفْوِ وفَضْل العطاء.

فالمعنى: ثُمَّ بَعْدَ الاستِغْفَارِ الَّذِي تَكُونُ به التَّخْلِيَةُ من قَاذُورات الآثَام، ارْجِعُوا إلَىٰ رَبّكم الّذِي كنْتُمْ قَدِ ابتعدتم بمَعَاصِيكُمُ الكُبْرَىٰ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِه، فَلَازِمُوا طَاعَتَهُ، بِفِعْلِ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، فَبِهَـٰذِهِ التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ إلَيْهِ تَكُونُونَ قَدْ تَحَلَّيْتُمْ بِحِلْيَةِ عِبَادِ اللهِ المؤمنين المتقين.

دلَّ الْعَطْفُ بحرْف الْعَطْفِ «ثُمَّ» عَلَى أنَّ المراد الرُّجُوعُ الْعَمَلِيُّ

الفِعْلِيّ، بِتَجْدِيدِ الإيمانِ وَإِنْمَائِهِ آناً فَآناً، وبِمُتَابَعَةِ تأدِيَةِ الأَعْمَالِ الصالِحَة.

القَضِيَّةُ السَّادِسَةُ: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِمَعْنَىٰ مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾: أي: إنَّ رَبّي الَّذِي بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولاً، والَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ كان أو هو كائِنٌ أَوْ سَيَكُونُ، وهو الله ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ عِبادِه، بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَفْعَالِه، مُجِيبٌ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ مُسْتَغْفِراً تَائِباً إِلَيْه، عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ.

هَـٰذِهِ القَضِيَّةُ جَاءَتْ بِمَثَابَةِ التعلِيلِ لِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

وجاء وَضْعُ عِبارَةِ ﴿رَبِّى﴾ مَقامَ الضَّمِير «إِنَّهُ» للدَّلالَةِ على صِفَاتِ رُبُوبِيَّته الَّتِي مِنْها الغُفْرَانُ واسْتِجابَةُ الدُّعاء، وقَبُولُ الأعمالِ الصالِحة الَّتِي يُبْتَغَىٰ بها وجْهُه.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِمَا رَدَّ بِهِ بَعْضُ قَوْمِهِ ثمود:

- ﴿قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾:

دلَّت هَـٰذه الآيَة عَلَىٰ أَنَّ صَالحاً عَلَيه السَّلامُ لَمَّا رَفَضَ الاستجابَةَ لِدَعْوَتِهِ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ وَمَلَؤُهم، وَنَفَرُوا مِنْها وَصَدُّوا عَنْها، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ مُحَاوَلَاتِهِ المتَعَدِّدَاتِ بِأَسَالِيبَ مُخْتَلِفَاتٍ، وجَّهَ عِنَايَتَهُ لِدَعْوَةِ شُبَّانِ قَوْمِه، وأَحْدَاثِ الأَسْنَانِ فيهم، رَجَاءَ أَنْ يَكُونوا أقربَ إلى الاسْتِجابَةِ لِدَعْوَتِهِ مِن شُيُوخِ قَومِهِ، وذوي الأَسْنَانِ فيهم.

ففي عبارة ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فيها دَلالَتان:

الأولَىٰ: دَلالَةُ قَوْلِهِمْ: ﴿يَعْبُدُ﴾ إِذْ هُوَ فِعْلٌ مُضارِعٌ يَدُلُّ عَلَىٰ الحالِ

والاسْتِقْبَال، مع التكرار والتجدُّد، وَمِثْلُ هذا التَّعْبِير إنَّما يَكُونُ لِلدَّلَالَةِ علىٰ أمْرٍ مُتَكَرِّرٍ مُتَجَدِّدٍ في آبائهم، فَلا بُدَّ أنْ يَكُونُوا أحياءً.

الثانية: قَوْلُهُمْ: ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ إذْ لَمْ يَقُولُوا: آباؤُونَا الْأَوَّلُون، كما هُو حَالُ الْأُمَمِ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُون عَن آبائِهِم الموتَىٰ السَّابقين.

فَدَلَّ هَـٰذان الْأَمْرَانِ عَلَىٰ أنَّ صَالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَجَّهَ فِي دَعْوَتِهِ لِلشُّبَّانِ وَأَحْدَاثِ الْأَسْنَانِ الْبَالِغِين، رَجاءَ أَنْ يَكُونُوا أَقْرَبَ للاسْتِجَابَةِ من آبائهم، الَّذِينَ مَارَسُوا كُفْرَهُمْ وَقَبَائِحَ عَادَاتِهِم عُمْراً مَدِيداً، فَتَصَلَّبَتْ قُلُوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ على ذلِكَ.

- ﴿قَالُواْ يَصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾:

﴿مَرْجُوًّا﴾: الرَّجاءُ في اللُّغَةِ تَوَقُّعُ مَرْغُوبٍ فِيه، أَوْ مَخُوفٍ مِنْه، والسِّيَاقُ في هَـٰذا الْقَوْلِ يَدُلُّ عَلَىٰ تَوَقُّعِ ما هو مَرْغُوبٌ فيه.

أي: كُنَّا قَبْلَ أنْ تَدْعُونَا إلَىٰ هَـٰذا الدِّينِ الْجَدِيدِ نَتَوَقَّعُ أَنْ تَكُونَ قائداً لَنا، وَسَيِّداً مِنْ سَاداتِ قَوْمِنا، لِمَا تَتَّصِفُ بِهِ مِنْ عَقْلٍ وَحِكْمَةٍ، وَفَضَائِلِ أخْلَاقٍ وَمَحَاسِنِ شِيَم.

- ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: أي: أَتَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَعْبُدَ الْأَوْثَانَ الَّتِي يَعْبُدُهَا آبَاؤُنَا الَّذِينَ هُمْ قَدْوَتُنَا في حياتنا، وَهُمْ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ فينا؟!

الاسْتِفْهَامُ في هَـٰذِهِ العبارةِ اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ فِيهِ مَعْنَىٰ الاسْتِنْكار.

- ﴿. . . وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾: أي: وإنَّـنـا لَـفِـي شَكٍّ ممَّا تَدْعُونا إلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَتَرْكِ عبادَةِ ما يَعْبُدُ آباؤنا، إذْ لَمْ نَصِلْ بَعْدُ إلَىٰ الاقْتِناع بأنَّ مَا تَدْعُونا إلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، وهَـٰذا الشَّكُّ يُوقِعُنَا فِي الرَّيْبِ مِنْ غايَتِكَ النَّفْسِيَّةِ، إذْ تَدْعُونا إلَىٰ خِلافِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ

في تَقَالِيدِنا الدِّينِيَّة، ومَوْرُوثَاتِنَا مِنْ أَعْمَالٍ وَعَادَاتٍ، ومَا عَلَيْهِ آبَاؤنا، وَشَكُّنَا هَـٰذا يَجْعَلُنَا نَرْتَابُ في أَنَّكَ تُرِيدُ مُلْكاً أَوْ إمَارَةً، أَوْ زَعَامةً، أَوْ رِيَاسَةً فِي قَوْمِنَا، وهَـٰذا أَمْرٌ يُقْلِقُنَا وَيُزْعِجُنا.

يُقَالُ لُغَةً: «أَرَابَ الْأَمْرُ فُلَاناً» أي: أَقْلَقَهُ وأَزْعَجَهُ، وأَوْقَعَهُ فِي الشَّكِّ والرِّيب.

الرَّيْبُ: الشَّكُّ، والظَّنُّ، والتُّهَمَة، والرَّيْبُ يَجْعَلُ صَاحِبَهُ يَتَرَدَّدُ مُحْتَاراً.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا رَدَّ بِهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾؟

- ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؟. يُرَادُ بالاسْتِفْهَام في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؟ الْأَمْرُ بأَنْ يَتفَكَّرُوا لِيَرَوْا، أي: يَا قَوْم تَفَكَّرُوا لِتَرَوْا بِعُقُولِكُمْ وَاقِعَ أَمْرِي مَعَ رَبّي. تَفَكَّرُوا فِي أَنّي إنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيّنَةٍ وَاضِحَةٍ مِنْ رَبِّي بِأَنّي نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مُكَلَّفٌ مِنْهُ أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ، أَفَأَمْلِكُ أَنْ أَعْصِيَ رَبِّي فأخالِفَ مَا أَمرَنِي بِهِ مِنْ تَبْلِيغ رِسَالَتِهِ.

- ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾: أي: وآتاني مِنْ فَضْلِهِ رَحْمَةً عَظِيمةً.

وَنَفْهَمُ هُنَا أَنَّ الرحْمَةَ الَّتِي اختصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بها صالحاً عليه السلام دُونَ سائر قومه في عَصْرِه، هِيَ النُّبُوَّةُ والرِّسَالَةُ والْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْه، والصِّفَاتُ الشَّخْصِيَّةُ الفِكْرِيَّةُ والنَّفْسِيَّةُ الَّتِي فَضَّلَهُ بها.

وهذه الرَّحْمَةُ تَتَضَمَّنُ تكْلِيفَهُ أَنْ يَقُومَ فِي قَوْمِهِ بوظَائِفِ رِسَالَةِ رَبِّه.

- ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾؟! اسْتِفَهامٌ يُرادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ نَاصِرٍ يَنْصُرُه.

وقَدْ دَلَّتْ هَـٰذِهِ العِبارَةُ بِاللُّزومِ الذِّهْنِي، عَلَىٰ أَنَّ شُيُوخَ قَوْمِهِ وَشُبَّانَهُمْ، قَدْ طَالَبُوهُ بِأَنْ يَكُفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ الدَّعْوَةِ إلى الدِّينِ الَّذِي جاءَهُم به.

فقالَ لهم: أَنَا مَأْمُورٌ مِنْ رَبِّي أَمْرَ إِلْزَامٍ مِنَ الدَّرَجَةِ الْقُصْوىٰ، بأَنْ أَقُومَ بِوَظَائِفِ رِسَالَةِ رَبِّي الَّتِي حَمَّلَنِي تكالِيفَها، وفي مُقدّمَتِها دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ الدِّينِ الَّذِي أَمَرَنِي بِتَبْلِيغِهِ لِقَوْمِي، مع مُتَابَعَةٍ وَتَوْكِيدٍ وَتَذْكِيرٍ.

وهَـٰذا الدِّينُ يَتَضَمَّنُ أَنْ تَتْرُكُوا شِرْكِيَّاتكُمْ، وضَلَالَاتِكُمْ، وأَنْ تُؤْمِنُوا باللهِ، وَبِرَسُولِهِ، وبِكِتَابِهِ، وأَنْ تَتَّبِعُوا أَحْكَامَ الدِّينِ الَّذِي جِئْتُكُمْ به مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، فما أَنَا إِلَّا مُبَلِّغٌ دِينَ رَبِّي الَّذِي اصْطَفاني نَبِيًّا وَرَسُولاً.

وَإِنْ لَمْ أَقُمْ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ، بَعْدَ أَنِ اصْطَفَانِي بالنُّبُوَّةِ، واجْتَبَانِي لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَكُونُ عَاصِياً لِرَبّي مَعْصِيَةً عُظْمَىٰ أَسْتَحِقُّ عَلَيها الْعِقَابَ الشّدِيدَ. وعِنْدَئِذٍ فَمَنْ هَـٰذا الّذِي يَنْصُرُني فَيَحْمِينِي مِنْ عَذاب اللهِ رَبّ العالَمِين؟!!.

جاء في العبارة اسْتِعْمَالُ حَرْفِ «إِنْ» في: ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ لِيُشْعِرَهُمْ بأَنَّهُ عَازِمٌ عَزْماً لَا لِينَ فيه على أنْ يُطِيعَ رَبَّهُ وَلَا يَعْصِيَهُ.

وضُمِّنَ الفِعْلُ في: ﴿يَنصُرُنِي﴾ مَعْنَىٰ الْفِعْل في «يَحْمِينِي» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بَحَرْفِ «مِنْ» أي: فَمَنْ يَنْصُرُني فَيَحْمِيني مِنْ عَذَاب اللهِ؟!.

- ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾: أي: فإنْ عَصَيْتُ رَبّي مُسْتَجِيباً لِمَا تُطالِبُونَنِي به، فإنْ زِدْتُمُوني شَيْئاً لإنْقَاذِي وحِمَايَتِي وَنُصْرَتي بَعْدَ مَعْصِيَتِي لِرَبِّي، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ إضَافَةِ خَسَارَةٍ إلى خَسَارَتِي الَّتِي تُسَبِّبُها لي مَعْصِيَتِي.

﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾؛ أي: غَيْرَ نُقْصَانٍ وإِبْعَادٍ لي من الخير، يُقَال لُغَةً: «خَسَّرَ فُلَانٌ فُلَاناً، يُخَسِّرُهُ، تَخْسِيراً» أيْ: نَقَصَهُ ـ أبعدَهُ مِنَ الْخَيْرِ ـ أَهْلَكَهُ.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُتَابعاً بَعْضَ أقوال صالحٍ عليه السلام لِقَوْمِه بَشأْنِ آيَةِ النَّاقَة:

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾﴾:

هاتان الآيَتَانِ تُبيِّنَانِ بإيجاز آيَةَ النَّاقَةِ الْمُعْجزَةِ الّتي آتاهَا اللهُ عزَّ وجَلَّ صَالِحاً عَلَيْهِ السّلام، تَلْبيَةً لِطَلَب قَوْمِهِ، ولَكِنْ أخْلَفَ مُعْظَمُ قَوْمِهِ وَعْدَهم فَلَمْ يُؤْمِنُوا عَلىٰ الرُّغْمِ مِنْ أنَّهَا جاءَتْ عَلىٰ وَفْقِ طَلَبِهِمْ تَماماً.

وجَعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لِحَياتِهَا فيهم شُرُوطاً في طَعَامِها وشَرَابها، وحَذَّرَهم مِنْ أنْ يَمَسُّوهَا بسُوءٍ، مَهْمَا ضايقَهُمْ وُجُودُها بَيْنَهُمْ.

لكِنَّهُمْ لم يَصْبِرُوا عَلَىٰ شُرُوطِ حياتِهَا بَيْنهم، فَعَقَرُوها، فَأَنْذَرَهُمْ صالح عَلَيْهِ السَّلامُ بأنَّ هَلاكَهُمْ سَيَكُونُ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ، وحَقَّقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إنْذارَ رَسُولِهِ صالحٍ لَهُمْ فأَهْلَكَهُمْ في الْيَوْمِ الموعُود.

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾: أي: وَيَا قَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ أَخْرَجَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَكُمْ كَمَا طَلَبْتُمْ وَوَصَفْتُم وعَيَّنْتُمْ.

ولَمَّا كانَتْ هَـٰذِهِ الناقَةُ آيَةً خارِقَةً من اللهِ لهم، سَمَّاهَا صالح عَلَيْهِ السَّلامُ: «نَاقَةَ اللهِ» أي: نَاقَةَ آيَةِ اللهِ الخارِقَةِ المعْجزَة.

وَإذْ أخْرَجَها اللهُ لهم طِبْقاً لِطَلَبِهِمْ، كانَ مِنْ حِكْمَةِ ابْتِلائِهِمَ أَنْ يُلْزِمَهُمْ بواجباتٍ تُجاهَها، سَواءٌ آمَنُوا بِرَسُولِهِمْ أَمْ لم يُؤْمِنُوا. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ هَـٰذِهِ التكاليفَ مَادَّةً مِنْ موادّ ابْتِلائِهِمْ وفِتْنَتِهِمْ بِمَا يَسُوؤُهم ويُضايِقُهُمْ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَيَّنُوا الآيَة، ولَمْ يُفَوِّضُوا لله عَزَّ وجَلَّ بأَنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ ما، تَشهد لصالح عليه السَّلامُ بأنَّهُ رَسُول اللهِ حَقًّا.

والواجباتُ الّتِي أُلْزِمُوا بِهَا وَجَاءَ بَيَانُها في مُخْتَلِفِ النصوص هي ما يلي:

(١) أَنْ يَتْرُكُوهَا تَأْكُلُ في أَرْضِ اللهِ عَلَىٰ مَا تَشاء.

(٢) أَنْ يَكُونَ مَاءُ ثَمُودَ قِسْمَةً بَيْنَ ثَمُودَ وَبَيْنَ النَّاقة مُنَاصَفَةً.

(٣) أَنْ لَا يَمَسُّوهَا مَسًّا مَا بِسُوءٍ يَسُوؤهَا مِمَّا يُؤْذِيها.

دَلَّ على وَاجِبَيْنِ مِنْها في سورة (هود):

- ﴿... فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾: فأبانَ صالح عليه السَّلامُ أنَّهُم إِذَا مَسُّوها بِسُوءٍ قَبَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، لَا تَأْخِيرَ فيه ولَا تَأْجِيل.

- ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾:

أي فكان آخِرُ أمْرهِمْ أَنْ ضَاقَ صَدْرُهُمْ مِنْ وُجُودِ النَاقَةِ الآيَةِ بَيْنَهُمْ بواجِبَاتِها، فَتآمَرَ بَعْضُهُمْ علَىٰ عَقْرِها، ورَضيَ بهذا سَائِرُهُمْ. فَعَقَرُوها.

العَقْر: في اللُّغة يأتي بمعْنَىٰ قَطْعِ إِحْدَى قوائم البَعِيرِ لِيَسْقُطَ علىٰ الأرض، وَيَتَمَكَّنَ الْعَاقِرُ مِنْ نَحْرِه. ويُقَالُ أيْضاً: «عَقَرَ الْحَيَوَانَ» أي: ذَبَحَه.

وعَقِبَ عَقْرِ ثمود نَاقَةَ اللهِ بِزَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ جَرَىٰ فيه تَدبيرُ أشقيائِهم قَتْلَ رَسُولِهِم صالح وأهله، وجَرَىٰ فِيهِ إهْلَاكُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أشقياء ثمود التِسعة، قال صالحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِهِ: تَمَتَّعُوا في دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّام، وفي الْيَوْمِ الرَّابعِ يَكُونُ إنزالُ عَذَابِ اللهِ الأَلِيمِ الْمُهْلِكِ، الذي يَسْتَأْصِلُكُمْ بِهِ اسْتِئْصَالاً شَامِلاً.

- ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾: أي: انْتَفِعُوا في دَارِكُمْ بما فيها من أمْنٍ وَرَخَاء.

المتاع: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ والْفَنَاءُ يَأْتِي عَلَيْهِ في الدنيا. أَمَّا النَّعِيمُ فقد خَصَّهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في القرآنِ بما يكُونُ في الْجَنَّةِ يَوْم الدين من لَذَّاتٍ وسَعَادَاتٍ، والدُّنيا لَا نَعِيمَ فيها، وإنَّمَا فِيهَا تَمَتُّعُ زَائِلٌ مَشُوبٌ بالمنَغِّصات.

● ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾: أي: ثَلاثَةَ أيَّام بِلَيَالِيهَا فَقَطْ، وفي اليوم الرابعِ بَدْأً مِنْ أوَّلِهِ يَنْتَهِي اسْتِمْتَاعُكُمْ، وَيَأْتِي وَقْتُ عَذابِكُمْ.

● ﴿... ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾: أي: ذَلِكَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ العظيمُ الْمُهْلِكُ لَكُم الّذِي سَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مَعَ بَدْءِ الْيَوْمِ الرابعِ، وَعْدٌ صَادِقٌ حقًّا.

جاءَتِ الإشارَةُ باسم الإشارة الموضُوعِ للمشَارِ إلَيْهِ الْبَعِيد، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ عِظَمِ الْعَذَابِ الموعُودِ به، وشِدَّةِ إيلامِهِ لِلْمُعَذَّبِينَ به.

﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أي: غَيْرُ مَوْعُودٍ وَعْداً كَذِباً، يُقَالُ لُغةً: «مَا كَذَبَ الرَّسُولُ قَوْمَهُ وَعْدَهُ» فَوَعْدُهُ غَيْرُ مَكْذُوب. ويُقَالُ: «كَذَبَ إبْلِيسَ آدَمَ حَدِيثَهُ» فَحَدِيثُهُ مَكْذُوبٌ.

فلا حَاجَةَ مَعَ هَـٰذا إلى تَقْدِيرِ مَعْمُولٍ مَحْذُوفٍ، كأنْ نَقُول: مَكْذُوبٍ فيه.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيّناً تَنْجِيَةَ صالح عليه السّلامُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وإهْلَاكَ كُفَّارِ قَوْمِهِم.

● ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾:

القراءات:

- قرأ نافع والكِسَائِي، وأبُو جَعْفَر: **[وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ]** بفَتْحِ الميم مِن «يَوْمَئِذٍ» علىٰ أنَّها حَرَكَةُ بناءٍ لإضَافَتِهِ إلى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَةِ بجَرِّ لَفْظِ «يَوْمِ» عَلَىٰ أنَّهُ مُضَافُ إلَيْهِ.

- قرأ حفص، وحمزة، ويَعْقُوب: **[ألاَ إنَّ ثَمُودَ]** بفَتْحِ الدَّال، على أنَّ ثَمودَ مَمْنُوعٌ من الصَّرْف لَا يُنوَّن، باعْتِبار أنَّهُ اسْمٌ للقبيلَة.

وقرأها باقي القراء العشرة مَصْرُوفَةً مُنوَّنَة: **[ألاَ إنَّ ثَمُوداً]** باعْتِبَارِ أَنَّ ثَموداً اسْمٌ لجدِّ القبيلَة فيُصْرَف.

- قرأ الكِسَائيُّ: **[لِثَمُودٍ]** مَصْروفَة. وَقرأها الباقونَ **[لِثَمُودَ]** مَمْنُوعَةً مِنَ الصَّرْف.

التدبُّر التحليلي:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: أي: فَلَمَّا جاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أَمْرِنا الَّذي قَضيناهُ بتَنْجِيَةِ صَالِحٍ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه، وإهْلَاكِ سَائِرِ ثَمُود بسَبَبِ ظُلْمهم.

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾:

النّجاة: الْخَلَاصُ مِنَ المكْرُوه.

أي: خَلَّصْنا الَّذينَ قَضَيْنَا أنْ نُخَلِّصَهُمْ مِنَ الإهْلَاكِ، وهُمْ صَالِحٌ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بوَسِيلَةٍ هي مِنْ آثارِ رَحْمَتِنَا، وخَلَّصْنَاهُمْ مِنَ الْخِزِي الَّذي نَزَل بِكُفَّارِ ثَمودَ يَوْمَئِذٍ قَبْلَ إمَاتَتِهِمْ، إذْ سَبَقَ إمَاتَتَهُمْ إذْلَالُهُمْ، وإسْقَاطُهُمْ على رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، خَزَايَا، مُهَانِينَ، مُحْتَقَرِينَ، وتَعْذِيبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً.

الْخِزْيُ: الْوُقُوعُ فِي الشّرِّ والْعَذَاب والْبَلَايَا، والذُّلُّ والْهَوَانُ، والافْتِضَاحُ بالْقَبَائح.

فَدَلَّ هَـٰذا البيانُ على أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَمَرَ صَالحاً عَلَيْهِ السلامُ بأن يَبْتَعِدَ هُوَ وَالذِينَ آمَنُوا مَعَهُ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلِ الْعَذَابِ قَبْلَ الْمَوْعِدِ المحَدَّدِ لإنْزَالِه، وأنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ أَرْضِ ثَمُودَ، وابْتَعَدُوا عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلِ الْعَذَابِ كَمَا أَمَرَ اللهُ، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ حَمَىٰ بِرَحْمَتِهِ الْمَكَانَ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ أنْ يُصِيبَهُ شيءٌ مِمَّا نَزَلَ بالْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ المهْلَكِينَ، فَلَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ خِزْيٌ وَلَا هَلاك.

- ﴿... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾: جاء في هذه العبارَةِ تَمْجِيدٌ للهِ بِقُوَّتِهِ وَعِزَّته.

﴿ٱلْقَوِيُّ﴾: أي: ذُو الْقُوَّةِ العظيمَةِ الكُبْرَىٰ، الَّتي يَفْعَلُ بِهَا مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، مَهْمَا احْتَاجَ الأَمْرُ الَّذِي يَفْعَلُهُ مِنْ قُوَّةٍ عَظِيمَةً.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ الْقُوَىٰ.

وَأَرَىٰ في هَـٰذا البيانِ عَقِبَ بَيَانِ تَنْجِيَةِ صَالح عَلَيْهِ السَّلامُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّ تنجيتَهُمْ قَدْ كانَتْ ذَاتَ ظُرُوفٍ تَحْتَاجُ قُوَّةً عَظِيمَةً وعِزَّةً غالِبَةً.

فَهَلْ نَجَّاهُمُ اللهُ إِذْ كَانَ كُفَّارُ ثَمُودَ يُلاحِقُونَهُمْ لِيقْتُلُوهم؟ أو نَجَّاهُمْ مَعَ أَنَّ أَمْكِنَةَ وُجُودِهِم قَدْ كَانَتْ فِي مُحِيطِ تَنَزُّلَاتِ وَسَائِلِ تَعْذِيبِ كُفَّارِ ثَمُودَ وإِهْلَاكِهِمْ؟ اللهُ أعْلَم.

- ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾: أي: وَقَبضَتِ الصَّيْحَةُ على الَّذِينَ ظَلَمُوا وَهُمْ كُفَّارُ ثَمُودَ، قَبْضَةَ تَعْذِيبٍ وَإِخْزَاءٍ وإهْلَاكٍ مُسْتَأْصِل:

الصَّيْحَةُ: صَوْتٌ عَظِيمٌ مُمِيت.

اخْتِيرَتْ عِبَارَةُ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ للإشْعَارِ بِأَنَّ ظُلْمَهُم قَدْ كَانَ هُوَ السَّببَ في تَعْذِيبِهِمْ وإخْزائِهِمْ وإهْلاكِهِم.

- ﴿... فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿فَأَصْبَحُواْ﴾: أي: فَدخَلُوا في صَباحِ الْيَوْمِ المقرَّرِ لإهْلاكِهِم فيه.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لَاصِقِينَ بالْأَرْضِ عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، مُلَازِمِينَ أمْكِنَتَهُمْ هلْكَىٰ، بَعْدَ أَنْ ذَاقُوا عَذَاباً أليماً وَخِزْياً ذَلَّتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَنَالَهَا صَغَارٌ وَمَهانَةٌ، جَزَاءَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ تَعالٍ واسْتِكْبارٍ على بارِئِهِمْ وَرَسُوله.

- ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾: أي: فَصَارَتْ حَالَتُهُمْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَا نزلَ، تُشْبه حَالَةَ الَّذِينَ لَمْ تكُنْ لَهُمْ إقَامَةٌ مُطْلَقاً فِي دَارِهِمْ، وَهَـٰذا يَدُلُّ على استِئْصَالِ وُجُودِ أجْسَادِهِمْ الهلْكَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ، وَطَمْسِ كُلِّ آثَارٍ لَهُمْ فِيها.

يُقَالُ لُغَةً: «غَنِيَ بالْمَكَانِ، يَغْنَىٰ، غِنًى، وَغَناءً» أي: أقام فيه. و«غَنِيَ الْقَوْمُ بِالْمَكَانِ» أي: طَالَ مُقَامُهُمْ فِيه.

والْمَغْنَىٰ: المنْزِلُ الَّذِي غَنِي بِهِ أَهْلُهُ، وجَمْعُهُ «الْمَغَانِي».

- ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾:

﴿أَلَآ﴾: أَداةُ اسْتِفْتَاحٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَحْقِيقٍ.

﴿إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾: أي: إنَّ ثَمودَ كَفَرُوا جاحِدِينَ رَبّهم، وَسَاتِرِينَ الْأَدِلَّة الَّتِي تُثْبِتُ حَقَّ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ، وأَنَّهُ هُوَ الإِلَٰهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ لَهُ حَقُّ الْإِلَٰهِيَّةِ غَيْرُهُ، وكُلُّ إِلَٰهٍ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِهِ جَلَّ وعَلَا بَاطِلٌ، أَوْ وَهْمٌ لَا حَقِيقَةَ له.

﴿... أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾: أي: أَلَا طَرْداً لِكُفَّارِ ثَمُودَ، مِنْ كُلِّ

مَوَاقِعِ نُزُولِ آثارِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ التي تَعُمّ كُلُّ شَيْءٍ، والسَّبَبُ فِي هذا أَنَّهُمْ أبْعَدُوا نُفُوسَهُمْ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلاتِ رَحماتِ الرَّحْمٰنِ، فاسْتَحَقُّوا الحكْمَ عَلَيْهِمْ بالإبْعَادِ والطّرْدِ.

وَنُصِبَ لَفْظُ «بُعْداً» عَلَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الثالث من فُصُولِ الدَّرْسِ السّادِسِ من دُروس سورة (هود).

والحمد للهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَفَتْحِهِ وَتَوْفِيقِهِ.

* * *

الفصل الرابع من الدرس السادس

لقطات من قِصَّةِ إبْرَاهِيم ولوط عليهما السلام وقوم لوطٍ أهل سَدُوم

الآيات من (٦٩ ـ ٨٣)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن
جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ
خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ (٧٠) وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ
فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ (٧١) قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا
بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ (٧٢) قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ
ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ (٧٥) يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ
عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ (٧٦) وَلَمَّا جَآءَتۡ
رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ (٧٧) وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ
يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ

لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ
عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ
ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ
بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ
أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا
عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ
رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾.

تمهيد:

فِي آيَاتِ هَـٰذا الفصل عَرْضُ لقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السلام وقومه أهل سَدُوم، وفي أوّلِهَا لَقَطاتٌ عَنْ إبراهيم عليه السَّلامُ، باعْتِبَارِ أنَّ رِسَالَةَ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلامُ امْتِدادٌ لِرَسَالَتِه في بلاد الشَّام، فَقَدْ كَانَ أحَدَ المؤمنين بِهِ والتابِعِين لَهُ، ثُمَّ اصْطَفَاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ نبيًّا ورَسُولاً وأَرْسَلَهُ إلَىٰ أَهْلِ سَدُوم، وكانُوا في خَمْسِ قُرىً تَقَعُ في الأرض الَّتِي قَلَبَهَا اللهُ عليهم، وجَعَلَ عَالِيَها سَافِلَها، وهِيَ الآنَ في قَاعِ الْبَحْرِ الميِّت.

وقَدْ سَبَقَ في المَلْحَقِ الخامس من ملاحق تدبُّر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) دِرَاسَة تكامُلِيّة لكُلّ النُّصُوصِ القرآنيَّة المتَعلِّقَةِ بشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلامُ وقَوْمِهِ، وَمِنْهَا آيَات هذا الفصل من فصول سورة (هود/ ٥٢ نزول)(١).

ولهذا أقتصِرُ هُنَا على تَدَبُّرِ آياتِ هذا الْفَصْل.

---

(١) انظر هذا الملحق الخامس في الصفحات من (٢٨٧ ـ ٣٥١) من المجلّد الخامس من هذا الكتاب.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾:

- ﴿وَلَقَدْ﴾ يُؤَكِّدُ اللهُ عزَّ وجلَّ الأَحْدَاث الَّتِي جاءت في هذا الفصلِ، باللَّام الّتي يَرَىٰ النحاة أنها واقِعَةٌ في جواب قَسَم مَنْوِيّ، وبلفظ «قَدْ» الّتي هي للتحقيق؛ لأنَ الْمَعْنِيِّينَ بالْعِلاج هُمْ كُبَراء كُفَّارِ قُرَيْشٍ إبَّانَ التنزيل وأتباعُهم.

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: وَقرأ أبو عمرو **[رُسْلنا]** بإسْكان السّين، والقراءتان لغتان.

فعل «جاء» يُسْتَعْمَلُ لازماً، مثل «جَاءَ الرَّجُل» ومُتَعَدِّياً مِثْل: «جَاءَ النَّبأُ الرَّجُلَ» وعلى هذا اسْتُعْمِلَ هُنا فِعْل: «جَاءَت» وفاعله «رُسُلُنا» ونُصِب لَفْظُ «إبْرَاهِيمَ» على أنَّهُ مَفْعُولٌ به.

ولفظ «الْبُشْرَىٰ» اسْمٌ للتَّبْشِير، وهو الإخْبارُ بِمَا يَسُر، وجاء بيان المراد بها في الآية (٧١).

والمرادُ بعبارة: ﴿رُسُلُنَا﴾ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِين أَرْسَلَهُمُ اللهُ لِتَبشيرِ إبْرَاهِيم وَزَوْجَتِهِ العقيم سَارَة، بوَلَدٍ مِنْهُمَا اسْمُهُ «إسْحَاق» ولإعْلامِهِ بأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بإهْلاَكِ قَوْم لَوْطٍ، بَعْدَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ عِنْدِهِ، وَيَحِينَ وقتُ إنْزَالِ الْعَذَابِ المهْلِك عَلَيْهِم.

فالمعنى: ولقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا الّذينَ أَرْسَلْناهُمْ مِنَ الْمَلائِكَة إبراهيمَ نَبِيَّنا وَرَسُولَنَا مَصْحُوبين بالْبُشْرَىٰ، بأنَّ اللهَ سَيَهَبُهُ وَزَوجَتَهُ «سَارَة» ولَداً مِنْهُما مَعَ كَوْنِها عَجُوزاً عَقِيماً.

وقد جاءُوه على صُوَرِ رِجالٍ بَشرٍ لَا يَعْرِفُهُم[1].

- ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾: بَدؤُوهُ بِالتَّحِيَّةِ قائِلِينَ لَه: «سَلاماً» أي: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سَلاماً، فَلَفْظ: «سَلاماً» مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

﴿قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾: أي: تَحِيَّتِي لَكُمْ سَلامٌ. قال البلاغيُّون: «سَلَامٌ» جُمْلَةٌ اسْمِيَّة مع المُبْتَدأ المحْذُوف المقدّر ذِهْناً، و«سَلاماً» جمْلَة فِعْلِيَّةٌ مع العاملِ المحذوف، والْجُمْلَةُ الاسمِيَّةُ أَقْوَىٰ وَآكَدُ مِنَ الجملة الْفِعْلِيَّة؛ لِأَنّ في خَبَرِها ضَمِيراً يَعُودُ على الْمُبْتدَأ، ففيها إسنادان، وعلى هَـٰذا فقد رَدَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا.

- ﴿... فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾﴾: أي: فَذَهَبَ بِخِفَّةٍ وَسُرْعَةٍ لِضِيافَتِهِمْ وَهُوَ يَجْهَلُ كَوْنَهُمْ مَلائِكَةً، ولَمْ يُظْهِرْ بحَرَكَتِهِ علامَاتِ إرادَةِ إكْرامِهِمْ، فَمَا أبْطَأَ عَنْ مَجِيئِهِ بِعِجْلٍ مَشْوِيٍّ بالدَّس في النَّارِ، أَوْ في حِجارَةٍ مُحمَّاةٍ بالنَّار.

الْمُرادُ بِنَفْي اللُّبْث هُنَا عَدمُ الإبْطاءِ، حتَّىٰ كأنَّهُ لَمْ يَلْبثْ مُطْلقاً مِنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ إحْضارِهِ ضِيافَته.

اللُّبْثُ: هُو في اللُّغَةِ الإقامَةُ بالمكان.

حَنِيذٍ: أي: مَشْوِيّ بالدَّسِّ في النَّار، أو في حِجارَةٍ مُحمَّاةٍ بالنّار.

- ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ ... ﴿٧٠﴾﴾:

---

(١) جاء في الإصحاح (١٨) من سِفْر التكوين أنهم كانوا ثلاثة رجال، وجاء في الإصحاح (١٩) مِنْهُ أنّ مَنْ ذَهَبَ مِنهم إلى إهْلَاكِ قوم لوط في سَدُوم كانوا مَلَاكَيْن.

أي: فَلَمَّا رَآهُمْ لَا يَأْكُلُونَ مِنَ العِجْلِ السَّمِينِ الْحَنِيذِ الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِم، إِذْ رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَمْتَدُّ إِلَى الطَّعَامِ حَتَّىٰ تَصِلَ إليه (جاء التعبير بأَحَدِ لوازِمِ عَدَمِ الأَكْلِ على سَبِيلِ الْكِنَايَة) اسْتَنْكَرَ تَصَرُّفَهُمُ الَّذِي هُوَ عَلَىٰ غَيْرِ عَادَةِ الضُّيُوفِ، بَلْ هُوَ عَادَةُ الَّذِينَ يَأْتُونَ بِشَرٍّ، وَلَمْ يَخْطُرْ في بالِهِ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، إِذْ كَانَ مَظْهَرُهُمْ لَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ.

﴿نَكِرَهُمْ﴾: أي: اسْتَنْكَرَ تَصَرُّفَهُمْ.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي: وَأَحَسَّ فِي نَفْسِهِ خَوْفاً مِنْ غَرَضِهِمُ الَّذِي جَاءُوا بِهِ، إِذْ هُمْ بَشَرٌ بِحَسَبِ الظَّاهر.

- ﴿... قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ...﴾:

أي: قالُوا لَهُ: لَا تَخَفْ، وأَكَّدُوا لَهُ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ أَرْسَلَهُمُ اللهُ إلى إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ.

وطُوِيَ في النَّصِّ: وأَنَّهُمْ مَرُّوا بِهِ لِيُبَشِّرُوه بِمَوْلُودٍ غُلَامٍ مِن زَوجَتِهِ «سارَة» دَلَّ على هذا المطوي: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾: أي: وامْرَأَتُه سَارَة قائِمَةٌ مِنْ وراءِ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحِوَارَ فَضَحِكَتْ لَمَّا عَلِمَتْ مَا جاء في الْبُشْرَىٰ، وجاءَ فِي سُورَة (الذَّاريات) أنَّها أقْبَلَتْ في صَجَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْها وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهَا خافَتْ أَنْ يَكُونَ الْغُلَامُ الْمُبَشَّرُ بِهِ مِنْ زَوْجَةٍ غَيْرِهَا يَتَزَوَّجُها إبراهيم عليه السَّلام.

- ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾:

- قرأ حفص، وحَمْزَةُ، وابْنُ عامر: [يَعْقُوبَ] بفَتْحِ الباء نَصْباً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَعْقُوبُ] بضَمِّ الباء رَفعاً، على أَنَّهُ مُبْتَدأ، وعبارة: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾ خَبَرٌ مُقَدَّم.

أَمَّا النَّصْبُ فهو على تقدير «فِعْلٍ» أي: وَوَهَبْنَاهَا مِنْ وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، وأَبَانَ الواقِعُ أَنَّ يَعْقُوبَ جَاءَ ابْناً لإِسْحَاق عليهما السلام.

﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا﴾: هَـٰذا كلامٌ صَادِرٌ عَنِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، اسْتُعْمِلَ فِيه ضَمِيرُ المتكلِّم العظيم الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاء، ويَخْلُقُ ما يُرِيد، للإشْعَارِ بأنَّ بِشَارَةَ المَلَائِكَةِ لَهَا إِنَّمَا كَانَتْ بِأَمْرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، فَهِيَ بِشَارَةٌ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، إِذِ الْقَضَاءُ قَضَاؤُه، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ.

- ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾:

[يَا وَيْلَتَا] أَصْلُهَا: يَا وَيْلَتِي، قُلِبَتْ كَسْرَةُ التَّاءِ فَتْحَةً، وقُلِبَتِ الْيَاءُ أَلِفاً، وهَـٰذا أَحَدُ وُجُوهٍ عَرَبِيَّةٍ في المنادَىٰ المضَافِ لياء المتكلّم.

الويل: كَلِمَةُ عَذَاب، وتُسْتَعْمَلُ في التَّفَجُّع، والنُّدْبَة، والتَّحْذِير، والتَّهْدِيد، والإخْبَارِ بالْعِقَاب المقرَّر.

وقد تَصْدُر عبارَة: «يَا وَيْلَتي» أو «يَا وَيْلَتَا» عن أفواه النّساء، إذا طَرَأَ عَلَيْهِنَّ مَا يَعْجَبْنَ مِنْهُ أَشَدّ الْعَجب، ولا يَقْصِدْنَ وُقُوعَ العذاب، ولا الخوفَ منه، ولا شيئاً ممَّا تُسْتَعْمَلُ لَهُ العبارة، وعلى هذا قالت «سارة» في تَعَجُّبِها: **[يَا وَيْلَتَا]** أي: يَا عَجَباً عظيماً.

- ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ﴾؟!! الاسْتِفْهَامُ في هَـٰذِهِ العبارة استفهامٌ تَعَجُّبيّ.

﴿عَجُوزٌ﴾: أي: كبيرة السِّنِّ هرِمَةٌ، يُقَالُ: رَجُلٌ عَجُوزٌ، وامْرأة عَجوز، فَهُم «عُجُز» وهُنَّ «عُجُز» وَ «عَجَائِز».

وجُمْلَةُ: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ حَالِيَّةٌ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحال.

﴿شَيْخًا ۖ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ حَال، والعامل فيه ما في لفظ اسم الإشارة ﴿هَـٰذَا﴾ مِنْ مَعْنَىٰ الفعل على ما يَقُولُ النَّحْوِيُّون.

الشَّيْخُ: هو في اللُّغة مَنْ بلَغ سِنَّ الشَّيْخُوخَة، وهو فَوْقَ الكَهْلِ، ودُونَ الْهَرِمِ، والْهَرِمُ هُوَ الَّذِي يَبْلُغُ أَقْصَىٰ الْكِبر.

- ﴿... إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾: أي: إنَّ حُدُوثَ مِثْلِ هَـٰذا الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يُشَاهَدْ لَهُ نَظِيرٌ في النَّاسِ لَشَيْءٌ عجيب. جاء توكيد هذه العبارة بالمؤكّدات: «إن ـ والْجُمْلَة الاسمية ـ واللّام المزحْلَقة».

- ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾:

- ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾: أي: قَالَ الرُّسُل من الملائكة الذين جاءُوا إبراهيمَ بالْبُشْرَىٰ لامْرأته «سارة»: هَـٰذا القول بصيغة الاستفهام الذي فيه معنَىٰ العتاب.

والمعْنَىٰ: أنت امرأةٌ فَاضِلَة، وزَوْجَةُ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ، وعِشْتِ في بَيْتِ نُبُوَّةٍ زَمَناً مَدِيداً، وتَلَقَّيْتِ مَفاهِيمَ الإيمان طَوَال هَـٰذِهِ المدَّة، فَكَيْفَ تَعْجَبِينَ مِنْ حُدُوثِ شيءٍ هو مِنْ شأْنِ الله، قَدَّرَهُ وَقَضاهُ، وأصْدَرَ بِهِ أَمْرَهُ، علىٰ أَنْ يُنَفَّذَ في حِينِهِ، وأنْتِ تُؤْمِنِينَ بأَنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ إذا أَرَادَ شَيْئاً فإنَّما يقول له: «كُنْ» فَهُوَ يَكُونُ علىٰ وَفْقِ أَمْرِ اللهِ التَّكْوِيني.

إنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَكِ لَا يَلِيقُ به أَنْ يَعْجَبَ مِنْ أَمْرِ الله، بَعْدَ أَنْ عَلِمْتِ أَنَّ اللهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ، وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ يُبَشِّرُكِ بِوَلَدٍ لَكِ مِنْ زَوْجِكِ إبْرَاهِيم اسْمُهُ إسْحاق.

- ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾: في هَـٰذه العبارة بَيَانٌ لِلْحِكْمَةِ مِنْ خَرْقِ اللهِ سُنَّتَهُ لِسَارَةَ الْعَجُوز الْعَقِيم، زَوْجَةِ شَيْخِ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ مِنْ بَعْدِهِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام.

وهِيَ أَنَّكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ إبْرَاهِيم قَدْ خَصَّكُمُ اللهُ فَأَفَاضَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَرَكَاتِهِ إكْرَاماً لَهُ، ولِجِهَادِهِ وصَبْرِه، ومَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ.

﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ الجليلَةِ على ما يليقُ به، مِنْ آثارِهَا الْعَطَاءُ، والمعونَةُ والتَّوْفِيقُ، وإزالَةُ الْبُؤْسِ، والإمْدَادُ بِمَا يَسُرُّ ويُسَكِّنُ النَّفْسَ، ويُطَمْئِنُ الْقَلْبَ، ويُمْتِعُ ذَا الحياةِ بِمَا يَطِيبُ لَدَيْهِ، وَيَهَبُهُ مَا يُلَبِّي حَاجَتَهُ، ويَكُفُّ عَنْهُ الشَّرَّ والضُّرَّ والأَذىٰ، ويَهْدِيهِ إِلَىٰ مَا فِيهِ خَيْرُهُ وسَعَادَتُهُ في عَاجِلِ أَمْرِه وَآجِلِهِ، ويُبَيِّن لَهُ مَا فِيهِ شَرٌّ لَهُ وضُرٌّ وأذى، ونَحْو كُلِّ ذلِكَ.

﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾: أي: وزياداتُه الكثيراتُ مِنْ كُلِّ خَيْر. **الْبَرَكَةُ**: هي الكَثْرَةُ مِنْ كُلّ خَيْر، وجُمِعَتِ الْبَرَكَةُ على «بَرَكَات» للدَّلَالَةِ على اخْتِلَافِ الْأَنْواعِ والْأَصْناف.

﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: أي: هَاطِلَةً عَلَيْكُمْ كَالْغَيْث، وَمُظَلِّلَةً لَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ كَالْخَيْمَة، فَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ ومُظَلَّلُونَ بِرَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَرَكاته.

﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾: أي: يا أَهْلَ بَيْتِ إبراهيم، بحَذْفِ أَداة النِّداءِ «يا».

﴿... إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾: في هَـٰذه العبارة ثناء على اللهِ جَلَّ جَلَالُه بِصِفَتَيْنِ مُلَائِمَتَيْنِ لِفُيُوض عَطاءاتِ رَحْمَتِه، وما يَمْنَحُهُ لِبَعْضِ عباده من زِيَادَاتِ الخير.

﴿حَمِيدٞ﴾: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعل «حامِد» أي: كَثِيرُ الحَمْدِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بمحابِّهِ. أو لاسم المَفْعُولِ «محمود» أي: المَحْمُودُ بصِفَاتِ ذَاتِه وَبِصِفَاتِ أَفْعَالِهِ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ حمْداً كثيراً، إذِ الْحَمْدُ كُلُّهُ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وقد كان إبراهيمُ عليه السّلام كثيرَ الْحَمْدِ للهِ عَزَّ وجَلَّ، فاللهُ يكافِئُهُ بالْحَمْدِ الكثير، ويَزِيدُهُ وَيَزِيدُ أهلَ بَيْتِهِ مِنْ فُيُوضِ رَحْمَتِه.

﴿مَّجِيدٞ﴾: صيغَة مبالغة لاسم الفاعل «مَاجد». **الْمَجِيدُ** في اللّغة: هو الرَّفِيع العالِي الشريفُ العظيمُ ذو الْخَيْرِ الكَثِير. **والْمَجْدُ**: الكَرَمُ والشَّرَفُ والْعُلُوُّ والرِّفْعَةُ المعْنَوِيَّة.

قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿ٱلرَّوْعُ﴾: الْفَزَعُ، وهُوَ الْخَوْفُ الَّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثَارُ نُفُورٍ فِي حَرَكَاتِ الْجِسْمِ، واسْتِعْدَادٌ لِدَفْعِ المفْزُوعِ مِنْه.

أي: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهِيمَ الْفَزَعُ الَّذِي أَثَارَهُ أَنَّ ضُيُوفَهُ لَمْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِ، وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ هُو وَزَوْجَتُهُ بإسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إسْحَاقَ يَعْقُوبَ، وتَلَقَّىٰ نَبَأَ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ وتَعْذِيبِهِمْ، وكَانَتْ نَفْسُهُ قَدْ هَدَأَتْ واطْمَأَنَّتْ، شَرَعَ يُجَادِلُ رُسُلَنَا فِي قَوْمِ لَوْطٍ، لِرَفْعِ الْعَذَابِ والإهْلَاكِ عنهم ولو إلىٰ حين.

الَّذِي دعا إلى تقدير فعل «شَرَعَ» أو نَحْوه، أَنَّ جوابَ لمَّا يَكُونُ فِعلاً مَاضِياً لَا مُضَارِعاً، والمتدبّر لِكِتَاب الله عَزَّ وجَلَّ يُلاحِظُ كَثْرَةَ حَذْفِ مَا يُعْلَمُ وَيَسْهُلُ تَقْدِيرُه، ومِنْهُ في هَـٰذا النّصّ أيْضاً عبارة مَطْوِيَّةٌ مُفَادُهَا: وَتَلَقَّىٰ نَبَأَ تَعْذِيب قَوْمِ لُوطٍ وإهْلَاكِهِمْ.

لقَدْ سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ حِوَارَ إبراهيمَ عليه السلام مع الرُّسُلِ من الْمَلَائِكَةِ الْمُرْسَلِينَ لإهْلَاكِ قَوْمِ لوطٍ مُجادلَةً لَهُ سُبْحانه، لأنَّه هو ـ جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ الَّذِي أَرْسَلَهُمْ وَكَلَّفَهُمُ الْقِيَامَ بإهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، وَهُمْ مَلَائِكَةٌ كِرَامٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون، ولَا نَعْلَمُ عَنِ الْمَعْصُوم كَيْف كانَتْ مُجادَلَةُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ للرُّسُل من الملائِكَة.

ورُوِي عَنِ قَتَادَة تَفْصِيلٌ لِمُجْمَلِ هَـٰذِهِ المجادلَة، ولكِنَّهَا غَيْرُ مَرْفُوعة إلى الرَّسُولِ ﷺ.

لَقَدْ رَجَا إبراهيم عليه السَّلَامُ بحِواره الَّذِي سمَّاه اللهُ مُجادَلَةً لَهُ، أَنْ

يَصْرِفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ الشّامِلَ المهْلِكَ لَهُمْ جَمِيعاً، أَوْ يُؤَخِّرَهُ إلَىٰ أجَلٍ آخر، لعَلَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ يَتُوبُونَ ويَسْتَغْفِرون، ويُؤْمِنُونَ، ويُقْلِعُونَ عَنْ فَوَاحِشِهِمْ، وَكَبائِرِ مُنْكَرَاتهم.

وقَبْلَ أَنْ يُعْلِمَنَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ بأنَّهُ أَوْحَى إلَى إبراهِيْمَ أَمْرَهُ لَهُ بِأَنْ يُعْرِضَ عَنْ هذا الذي شرَعَ يُجَادِلُ فيه، أَثْنَىٰ عليه بِثَلاثِ صِفَاتٍ جَلِيلَات فقال تبارَكَ وَتَعالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ مُؤَكِّداً هَـٰذا البيان بمؤكدات ثلاثة: «إنَّ ـ والْجُمْلَة الاسمِية ـ واللّام المزحْلَقَة».

﴿لَحَلِيمٌ﴾: **الْحليم**: ذُو الْأَنَاة، القادر على ضَبْطِ نَفْسه عِنْدَ الْغَضَب، أوْ عِنْدَ حُلُولِ مَكْرُوه، والَّذِي يَعْقِلُ بإرادةٍ قَوِيَّةٍ نَوازِعَ نَفْسِهِ، والَّذِي يَعْفُو ويَصْفَحُ.

﴿أَوَّٰهٌ﴾: **الْأَوَّاه**: الرَّحِيمُ، الرَّقِيقُ الْقَلْب، الكَثِيرُ الحزْن، الَّذي يَتَأَوَّهُ كَثِيراً من الشفقة، أو عِنْدَ الْفرَقِ، ويُلَازِمُ هَـٰذِهِ الصِّفَاتِ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ للهِ، والْمُحافَظَةِ عَلَى طَاعَتِه.

﴿مُّنِيبٌ﴾: أي: ذُو رُجُوعٍ إلَىٰ اللهِ دَواماً بِقَلْبِهِ ونَفْسِهِ وفِكْرِهِ، وهو اسم فاعل مِنْ فِعْلِ «أَنَابَ» يقال لغة: «أَنابَ فُلَانٌ إلى الشَّيْءِ» أي: رَجَعَ إِلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. ويُقَالُ أيْضاً: «نَابَ إلَىٰ الشيءِ» أي: رجعَ إلَيْهِ واعْتَادَه.

- ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾:

مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ هَـٰذا قَوْلُ الرُّسُلِ مِنَ الملائِكَةِ لإبْراهِيمَ عَلَيه السّلام، وهو مُسْتَقْطَعٌ مِنَ الْحَدَثِ الماضِي، ومُقَدَّمٌ بِنَصِّهِ دُون حِكَايَةٍ، وهَـٰذا مِنَ الإبْدَاعَاتِ الْجَمِيلَةِ في الْقُرْآنِ المجيدِ.

أي: يا إبْرَاهيمُ أعْطِ لِهَذَا الأمْرِ الذي تَوَجَّهَتْ نَفْسُكَ لَهُ شَفَقَةً عَلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ عارِضَكَ (= جَانِبَ وَجْهِكَ) فَشَفَاعَتُك فِيهم غَيْرُ مُسْتَجابَة.

الإعْراض: وَسَطٌ بَيْنَ الْمُواجَهَةِ والإدْبار.

ونُؤَكِّدُ لَكَ أنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ لَنا بِتَنْفِيذِ التَّعْذِيبِ والإهْلاكِ، فَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ إلَّا تَنْفِيذَ أَمْرِ رَبِّكَ، فَدَعْ مُجادَلَتَك لَنا، وأعْرِضْ عَنْ هَـٰذا الْأَمْرِ إعْراضاً كامِلاً، فَقَوْمُ لُوطٍ لَا بُدَّ أَنْ يُعَذَّبُوا وأنْ يُهْلَكُوا، وإنَّهُمْ سَيأْتِيهِمْ فِي الْأَجَلِ المعَيَّنِ المبَيَّنِ لَنا بِالْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ عَذَابٌ قَدَّرَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ وقَضاهُ، وهَـٰذا الْعَذابُ نازِلٌ بِهِمْ حَتْماً، وَهُوَ غَيْرُ مَرْدُودٍ، إذْ لَا رَادَّ لِقَضَاءِ اللهِ المبْرَم.

«آتٍ» من عبارة: ﴿ءَاتِيهِمْ﴾ اسم فاعلٍ كالفعل المضارع يَصْلُح للحَالِ والاستِقْبَالِ، وهو هُنَا مَحْمُولٌ علَىٰ الاستقبال.

﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: أي: غَيْرُ مَمْنُوعٍ وَلَا مَصْرُوفٍ وَلَا مُرْجَعٍ. أصْل مَعْنَىٰ الرَّدِّ: الإرْجَاعُ والإعَادَة، وَلَا يَكُونُ صرف العذاب إلَّا إذا رُدَّ الْأَمْرُ بِهِ إلى الآمِر، وهَـٰذا لَنْ يَكُونَ.

إنَّ أَمْرَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِتَعْذِيب قَوْمِ لوطٍ وإهْلاكِهِمْ قَدْ كَانَ أَمْراً مُبْرَماً وَحَكِيماً، وقَضاءً مُسْتَنِداً إلى عِلْمِهِ تبارَكَ وَتَعالَىٰ بِحَقِيقَةِ أحْوالِهِمْ، وَمَا فِي قُلُوبِهِمْ ونُفُوسِهِمْ، وإلَىٰ عِلْمِهِ بأنَّ صَلَاحَهُمْ عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِمُ الْحُرَّةِ قَدْ صَارَ مَيْؤُوساً مِنْهُ، فَمُتَابَعَةُ الاشْتِغَالِ بِدَعْوَتِهِمْ إلى سَبيلِ اللهِ مِنَ الْعَبَثِ الَّذِي لَا جَدْوَىٰ مِنْه، وَبَقَاؤُهُمْ في الْأَرْضِ هُوَ بِمَثَابَةِ بَقَاءِ بُؤْرَةٍ وَبَائِيَّةٍ تَنْشُرُ الْفَسَادَ في الناس، فَمِنَ الْحِكْمَةِ إبادَتُهُمْ كَمَا أَبَادَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَوْمَ نُوحٍ عليه السلام، وَقَوْمَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام، وقَوْمَ صَالحٍ عَلَيْه السَّلام.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ

رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾:

القراءات:

- قرأ أبو عَمْرو: [رُسْلَنَا] بإسْكانِ السين، وقَرأَها بَاقِي الْقُرَّاء الْعَشَرَةِ بِضَمِّ السّين.
- كَلِمَةُ: [سِيءَ] فيها قراءتان: الأولى بإشمام كَسْرَة السّين الضّمّ. والأخرى بالكَسْرَةِ الخالِصَةِ دُون إشْمام.
- وفي عبارة [وَلاَ تُخْزُونِ] قراءتان: بِحَذْفِ ياءِ المتكلّم وبإثباتها.
- وفي عبارة [ضَيْفِي أَلَيْس] قراءتان: بإسْكانِ يَاء المتكلم وفتْحها.

التدبُّر التحليلي:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾:

فعل «جاء» من: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾: من المتعدّي فلفْظُ «لُوطاً» مفْعُولٌ به.

﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾: أي: سَاءَهُ مجيئُهُم إليه، يقالُ لغة: «سَاءَهُ الأمرُ يَسُوؤُه» أي: أنْزَل بِه مَا يَكْرَهُ، وأحْدَثَ فِي نَفْسِهِ مَسَاءَةً.

«سِيءَ»: فِعْلٌ ماضٍ مَبْنِيّ لمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهْ، أَصْلُهُ «سُوِءَ» قُلِبَتِ الواو يَاءً وَكُسِرَتِ السّينُ لِتَنْسَجِمَ مع الياء. ﴿بِهِمْ﴾ نائب فَاعِلِ «سِيءَ».

- ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: أي: اشْتَدَّ عَلَيْهِ الأمْرُ وثَقُلَ بِسَبَبِهِم، وَهُو على سبيل الكِنَاية، والأَصْلُ في هَـٰذِهِ الْعِبارَةِ أَنَّ الْبَعِيرَ إِذَا حُمِّلَ أَكْثَر مِنْ طَاقَتِهِ ضَاقَ ذَرْعُهُ، أيْ: ضَاقَتْ مَسافَةُ مدِّهِ لِذِراعِهِ؛ لِأَنَّ أَرْجُلَهُ الثَّلَاثَة لَا تَسْتَطِيعُ الثَّبَاتَ طَوِيلاً إِذَا رَفَعَ الرَّابِعَةَ في الْخَطْو.

ويُقَالُ أيْضاً: «ضَاقَ بالْأَمْرِ ذَرْعاً» أي: لَمْ يُطِقْهُ وَلَمْ يَقْوَ عَلَىٰ تَحَمُّلِهِ. وأَصْلُ الذَّرْعِ بَسْطُ الْيَدِ، فَمَنْ لَمْ يَنَلِ الشَّيْءَ مَعَ بَسْطِ يَدِهِ إلَيْهِ يَكُونُ قَدْ ضَاقَ ذَرْعُهُ عَنْه، أي: عَجِزَ عَنْ تَنَاوُلِهِ وَتَحَمُّله.

ومَهْمَا يَكُنْ أَصْلُ العبارة فَقَدْ صَارَتْ عِبَارَةً يُكَنَّىٰ بِهَا عَنِ الْعَجْزِ عَنْ تَحَمُّلِ الْأَمْرِ الثَّقِيل، أَو الشّديد الصَّعْب.

- ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾: أَيْ: يوم شديدُ المكارِه والمتَاعِب.
- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ... ﴿٧٨﴾﴾:

دَلَّ هَـٰذا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ خَبَرَ اسْتِضَافَةِ لُوطٍ في مَنْزِلِهِ شباباً مُرْداً حِسَاناً غُرَبَاءَ قَدِ انْتَشَرَ في المدينة، فجاءَهُ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ الْفَاسِقُونَ يُهْرَعُونَ إلَيْهِ، رَغْبَةً فِي فِعْلِ الفاحِشَةِ الشَّاذَّة فِيهم ومَعَهُمْ جُمْهُورٌ مِنْ أتباعِهِمْ وأنْصَارِهِم.

عبارة: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ المرادُ بِقَوْمِهِ كُبَرَاءَهُمْ فَهُمْ أصْحَابُ الْكَلِمةِ المطاعَةِ فِيهِم وَمَعَهُمْ أتباعُهُمْ وأنْصارُهم، ولَيْسَ مِنَ المعقول أنْ يَكونَ كُلُّ شَعْبِ سَدُوم قَدْ حَضَرُوا إلَىٰ بَابِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلامُ، كما جاء في الإصْحَاحِ (١٩) من سِفْرِ التكوين.

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: أي: يَمْشُونَ أَوْ يَعْدُونَ فِي سُرْعَةٍ واضْطِرَاب، يُقَالُ لُغَةً: «هُرِعَ الرَّجُلُ» أي: مَشَىٰ أوْ عَدَا فِي اضطرابٍ وَسُرْعَةٍ، وَرُبَما كانَتْ هَـٰذِهِ الحركَةُ بَيْنَ المشيْ والْعَدْو.

لَقَدْ أَسْرَعُوا باضْطِرابٍ تتحلَّبُ أشْدَاقُهُمْ يبتَغون الْفُجُورَ بالْمُرْدِ الْحِسَانِ.

- ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ... ﴿٧٨﴾﴾: أي: ومِنْ قَبْلِ مَجِيئِهِمْ هَـٰذا إلَىٰ دَارِ لُوطٍ عَلَيْهِ السّلام، كانُوا في نَادِيهِمْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ،

فَلَمَّا بَلَغَهُمْ نَبأَ ضُيُوفِ لُوطٍ الْحِسَان، تَرَكُوا مَا هُمْ فِيه مِنْ سَيِّئَاتٍ كَانُوا يَعْمَلُونَها عَلَىٰ عَادَاتِهِمْ، سَعْياً لِلْحُصُولِ علىٰ لَذَّةِ مُمَارَسَةِ الْفَاحِشَةِ فِي شَبَابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ، هِيَ أَحَبُّ إليهم من السَّيِّئَاتِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونها.

لفظ السَّيِّئَاتِ يُطْلَقُ غالباً علىٰ مَا دُونَ الكبائر.

- ﴿... قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: قال لُوطٌ عليْهِ السّلام لَهُمْ مُسْتَعْطِفاً يا قَوْمِ، أي: ومِنْ حَقِّ الإِنْسَانِ على قَوْمِهِ أَنْ لَا يَفْضَحُوهُ وَلَا يُخْزُوهُ بَيْنَ النّاس.

- ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: إنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ مُحْرَجاً، وَعاجزاً عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ، وغَيْرَ مُسْتَعِدٍّ لِأَن يُمَكِّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ، وَكَانَ يَعْلَمُ مِنْ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، أَنَّهُمْ لَا يَعْتَدُونَ علىٰ نِسَاءٍ لَا حَقَّ لَهُمْ بِمُعَاشَرَتِهِنَّ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الزَّواجِ حِفَاظاً عَلَىٰ أَنْسَابِهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُحْرِجَهُمْ بِعَرْضِ بَنَاتِهِ عَلَيْهِم، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا بذَلِكَ، وَلَوْ فَعَلُوا لافْتَضَحُوا وَسَقَطُوا مِنْ أَعْيُنِ قَوْمِهِمْ وَنِسائهم، وَلَفَجَرَتْ نِسَاؤُهُمْ نِكَايَةً بِهِمْ.

لكِنَّ عَادَةَ إِتْيَانِ الذُّكُورِ لَمْ تَكُنْ تُثِيرُ غَيْرَةَ نِسَائِهِمْ إثَارَة كَبِيرَة، وكَانَت في نظرِهِمْ جَمِيعاً بِمَثَابَةِ الْأُمُورِ الْعَادِيَّة، كالطَّعَامِ والشَّرَابِ واللَّهْوِ واللَّعِب، ونحو ذلك.

وعَرْضُ لُوطٍ بناتِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ هَـٰذا الْعَرضَ كَمَنْ يَقُولُ لِمَنْ يُرِيدُ قَتْلَ مَنْ هُوَ فِي حِمَايَتِهِ وَجَواره: اقْتُلْنِي أو اقْتُلْ وَلَدِي بَدَلَهُ وَلَا تَقْتُلْهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَقْتُلَهُ، وَلَنْ يَقْتُلَ وَلَدَه.

- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي: فاتَّقُوا أَنْ يُنزِلَ اللهُ بِكُمْ عِقَابَهُ، إذا أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ دُخُولِ دَارِي عَنْوَةً، وفِعْلِ مَا تَطْلُبُونَ فِي ضُيُوفي.

- ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾: في هٰذِهِ العبارة يَسْتَعْطِفُهُمْ بأَنْ لَا يُخْزُوهُ في ضُيُوفه، فالضَّيْفُ لَهُ حُرْمَةٌ عظيمَة، وقَدْ كانَتْ أقْوام عَصْرِهِمْ يَرَوْنَ للضَّيْفِ هٰذِهِ الْحُرْمَة، فَمَنْ تعَرَّضَ ضَيْفُهُ لِسُوءٍ وَهُوَ عِنْدَهُ نَالَهُ مِنَ النَّاسِ خِزْيٌ عظيمٌ، وَنَزَلَ به ذُلٌّ وَهَوَان.

الضَيف: النازلُ عند غيره، يستوي فيه الْمفرد والمذكرُ وغيرهما. وقد يجمع ويُثنّىٰ ويؤنث.

- ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾:؟ أي: أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ فِيهِ رُشْدٌ وعَقْلٌ، يَمْنَعُكُم عَمَّا تَجمَّعْتُمْ عَلَيَّ مِنْ أَجْلِهِ؟؟.

اسْتِفْهَامٌ يَتَضَمَّنُ وَصْفَهُمْ بِالسَّفَاهَةِ وَخِفَّةِ الْعَقْلِ وانْعِدَامِ الرُّشْدِ، بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ.

- ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾:

أي: قَالُوا لَهُ: إنَّكَ تَعرِضُ عَلَيْنَا أَمْراً تَعْلَمُ أَنَّنَا لَا نَقْبَلُهُ فِي أَعْرَافِنَا وَتَقَالِيدِنَا؛ لِأَنَّنَا لَا نَأْتِي نِسَاءَنَا إلَّا بحَقِّ الزَّوَاجِ، لكنَّنَا نَأْتِي الذُّكُور عَلَىٰ سَبِيلِ الشُّيُوعِ دُونَ عُقُودٍ وَلَا ضَوابط.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾: أي: قَالَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلام هٰذا القول.

«لَوْ» فيها معْنَىٰ الشَّرْط والتَّمنِّي، أي: أتَمَنَّىٰ لَوْ أَنَّ لِي بِصَدِّكُمْ ودَفْعِكُمْ عَنْ ضَيْفِي قُوَّةً، لَصَدَدْتكمْ ولَقَاتَلْتُكُمْ حِمَايَةً لِضَيْفِي وَشَرَفِي، أَوْ لَوْ كَانَ لَدَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ مِنْ عَشِيرَتِي وأنْصَارِي يَحْمِينِي وَيَحْمِي أَهْلِي لَآوَيْتُ إِلَيْهِ، واعْتَصَمْتُ به، إِنَّهُ بهٰذا يُعْلِنُ لَهُمْ عَزْمَهُ الشَّدِيدَ عَلَىٰ حِمَايَةِ ضُيُوفِهِ، ومُرادُهُ أنْ يَقول لهم: جِئتُمُونِي بِمُصِيبَةٍ وَبَلَاءٍ عَظِيم، وأنا لا أَسْتَسْلِمُ مهما كَلَّفَنِي الأمر.

[آوي إليه]: أي: أَلْجَأُ إِلَيْهِ لِيَنْصُرَني.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾:

رأى الرُّسُلُ مِنَ الملائكة القادِمينَ إلى لُوطٍ عليه السّلام على صُورَةِ شبابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ، مَا وَصَلَ إِلَيْهِ لُوطٌ مِنَ الشِّدَّةِ والقَلَقِ والاضْطِراب، والْخَوْفِ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَعْتَدُوا عَلَىٰ ضَيُوفِهِ فَكَشَفُوا عَنْ حَقِيقَتِهِمْ، وهي أَنَّهُمْ رُسُلٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ أَرْسَلَهُمُ اللهُ لِأَدَاءِ وَظِيفَةٍ عَظِيمَةٍ.

﴿قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾: أي: فَلَا تَخْشَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْنَا فإِنَّا قادِرُونَ عَلَىٰ إِهْلاَكِهِمْ جَمِيعاً.

ويَظْهَرُ أَنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ أغْلَقَ بَابَ دَارِهِ وأَوْصَدَهُ وأحْكَمَ تَثْبيتَهُ، وصَارَ التَّخاطُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كُبراء قَوْمِهِ مِنْ ورائِه، دلَّ عَلَىٰ هَـٰذا عبارَةُ: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ أي: فبينَهُمْ وبَيْنَهُ في ذٰلِكَ الْوَقْتِ حِجَابٌ، وهُو سُورُ الدار، والباب الموصود.

هُنا لَا بُدَّ أَنْ يَغْضَبَ قَوْمُهُ ويَعْمَلُوا علَىٰ اتّخاذ وَسِيلَةٍ لِكَسْرِ باب داره، واقْتِحَامِهَا عَنْوَةً.

وفي هَـٰذِهِ الأثناء تَابَعَ الرُّسُلُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ بَيَانَ الوظيفة الَّتي جاءوا لِتَنفيذِها بأَمْرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وَبَيانَ خُطَّةِ إِنْقَاذِ لُوطٍ وأَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ، من أَرْضِ سَدُوم الَّتِي سَيَنْزِلُ عَلَيْها الْعَذابُ الشَّامِلُ الْمُدَمِّر، وقالُوا له:

- ﴿... فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾:

- وقرأ نافع، وٱبْن كَثِيرٍ وأبُو جَعْفَر: **[فَاسْرِ]** بهمزة وْصلٍ من فعل «سَرَىٰ».

- ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾: أي: فَسِرْ فَوْراً بِأَهْلِكَ لَيْلاً مُبْتَعِداً بِهِمْ عَنْ أَرْضِ سَدُوم. يُقَالُ لغة: «سَرَىٰ اللَّيْلَ، وأَسْرَىٰ به» أي: قَطَعَهُ بالسَّيْر. ويُقال: «سَرَىٰ بِفُلَانٍ لَيلاً، وأسْرَىٰ بِهِ» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ فيه.

- ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: بِطَائِفَةٍ مِنَ اللَّيْلِ تَكْفي لاجتيازِكُمْ الْأَرْضَ الَّتِي سَيَنْزِلُ عَلَيْهَا الْعَذَابُ الْمُهْلِك. «الْقِطْعُ من اللَّيلِ» الطَّائِفَةُ مِنْه.

- ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: أي: وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ لِيَنْظُرَ مَا سَيَحُلُّ بأرْض سَدُوم.

- ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾: قَرَأ ابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو: **[إِلاَّ امْرَأَتُكَ]** بالرَّفْع. وقَرَأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: **[إِلاَّ امْرَأَتَكَ]**: بالنَّصْب.

فقِرَاءَةُ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنَّصْبِ دَلَّتْ على اسْتِثْنَائِهَا مِنْ أَمْرِ السَّرَيانِ بأهْلِهِ، أي: دَعْهَا في أرْضِ قَوْمِها، وَلَا تَسْرِبها.

وقِرَاءَة **[إِلاَّ امْرَأَتُكَ]** بالرَّفْعِ دَلَّتْ علىٰ أنَّ امْرَأَتَكَ إذا تَبِعَتْكُمْ دُونَ أَنْ تَدْعُوَها لِتَسْرِيَ بها، فَسَتَلْتَفِتُ وسَيُصِيبُها مَا أَصَابَ قَوْمَهَا مِنْ قَبْلِها فِي أَرْضِهِمْ.

وجاء عند الإسْرَائِيلِيِّين في الإصْحَاح (١٩) من سِفْرِ التكوين، أنَّ امْرَأة لوطٍ خَرَجَتْ مَعَ مَنْ خَرَج، وأَنَّها الْتَفَتَتْ وَنَظَرَتْ مَا وَرَاءَهَا، فَنَزَلَ عَلَيْها مَا جَعَلَهَا عَمُودَ مِلْحٍ.

- ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾: أي: إنَّ الشَّأْنَ مُصِيبُها (أي: سَيُصِيبُها)

إذَا الْتَفَتَتْ مَا أصَابَ قَوْمَهَا قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ رِجْزٍ وَعَذَابٍ وَهَلَاكٍ.

- ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ﴾: أي: إنَّ مَوْعِدَ إنْزَالِ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ عَلَيْهِم هو وَقْتُ الصُّبْحِ.

- ﴿... أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾: في هذه العبارة حَثٌّ لَهُ عَلَىٰ أَنْ يُهَيِّىءَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ إلّا امْرَأَتَهُ لِلرَّحِيلِ، بِقِطْعٍ من اللَّيْلِ، حَتَّىٰ يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنْ أَرْضِ الْعَذَاب قَبْلَ الصُّبْحِ.

وجاء في سورة (القمر/٣٧ نزول) بيان أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ طَمَسَ أعْيُنَهُمْ.

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: فَلَمَّا جاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أَمْرِنَا بتَعْذِيب قَوْم لُوطٍ وإِهْلَاكِهِم.

- ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: أي: رَفَعْنَا أَرْضَهُمُ الَّتِي عَلَيْهَا قُراهُمْ في الْجوّ، وَقَلَبْناهَا حَتَّى صَارَ أَعْلَاهَا أَسْفَلَها، وَصَارَ أَسْفَلُهَا أَعْلَاهَا. فَتَصَوَّرْ أَيُّهَا المتَدَبِّرُ كَيْفَ صَارَ حَالُ الْقَوْمِ بَعْدَ هَٰذا الْحَدَثِ الْجَسِيم.

- ﴿... وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ ...﴾.

التَّرْتِيبُ الَّذِي يُفْهَمُ ذِهْناً، يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ حَدَثَ إمْطَارِ الْحِجَارَةِ عَلَىٰ قَوْم لُوطٍ سَابِقٌ لِحَدَثِ قَلْبِ أرْضِهِمْ وَدَفْنِهِمْ في الْأَعْمَاقِ. ولَكِنَّ فَنِّيَّةَ بَيَانِ الْحَدَثِ الْخَالِعِ لِلْقُلُوب، تَقْتَضِي الْبَدْءَ بِأَشَدِّ عَنَاصِرِهِ، وهو هنا حَدَثُ قَلْب الأرض، وبَعْدَهُ يأتي عرْضُ تَفْصِيلَاتٍ سابِقَةٍ له، ولهذا جاء عطف: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ بالواو الّتي هي لمطْلَقِ الجمع، لَا تُفِيدُ تَرْتيباً وَلَا تَعْقِيباً.

وَجاء التعبير بإنْزال الحجارةِ عَلَيْهِمْ بعِبَارَةِ: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ للدَّلالَةِ على أنَّ الحجارَةَ الَّتِي نَزلَتْ عَلَيْهِمْ تُشْبِهُ نُزُولَ الْمَطرِ حِينَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ الْأَرْضِ فَيَعُمُّ مَا نَزلَتْ عَلَيْه.

- ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: أي: حِجَارَةً أصْلُها طِينٌ تَحَجَّرَ، ورُبَّمَا كانَ للنَّارِ أثرٌ في جَعْلِهِ مُتَحجّراً.

- ﴿... مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾: أي: قَد انْضَمَّ بَعْضُهُ إِلَىٰ بَعْضٍ باتّسَاقٍ وَتراصُفٍ مُنْتَظِم، ونَزَلَ عَلَيْهِمْ كَطَلَقَاتِ رَصَاصِ الْمِدْفَعِ الرَّشَّاش.

- ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِها مُعَلَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ بِعَلَامَاتٍ تَخُصُّ مُجْرِمي قَوْمِ لُوطٍ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا مُرْسَلَةٌ بِقَصْدٍ لإهْلاكِ قَوْمِ لُوط.

- ﴿... وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي: ليستِ الحجارَةُ هَٰذِهِ مِنْ ظالِمِي قَوْمِ لُوطٍ بِمَكانٍ بَعِيدٍ عنهم، وَمَا هَٰذِهِ الحجارَةُ الْمُسَوَّمَةُ مِنْ كُلِّ الظَّالِمِينَ الّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْإِهْلَاكَ بها بِمَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْهُمْ في كُلِّ أُمَّةٍ وفي كُلِّ عَصْر.

وبِهٰذَا تَمَّ تَدَبّر الفصل الرابع من فُصُول الدرس السادس من دُرُوس سورة (هود).

والْحمد لله على معونَته ومَدَدِه وتَوْفيقه وفَتْحه.

* * *

الفصل الخامس من الدرس السادس

لقَطات مِنْ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السّلام وقومه

الآيات مِنْ (٨٤ ـ ٩٥)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم

مُؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا
تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي
دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾:

تمهيد:

جَاءَ في آياتِ هَـٰذا الفصل الخامس ذكر لقطات مِنْ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عليه السلام وقومِهِ، وهَـٰذِهِ اللَّقَطاتُ تُعالِجُ كُبَراءَ كُفَّارِ قُرَيشٍ وأتباعَهُمْ، إبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول) بِحَسَب مَوْقِفِهِم العناديّ الّذي ما زالُوا يُصِرُّون عَلَيْهِ، رافِضِينَ دَعْوَةَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ومُكَذِّبين لَهُ، ومُكَذِّبينَ بالْقُرْآنِ، ويأْبَوْنَ تَرْكَ قَبائِحِهِمْ الَّتي يُمارِسُونَها، ويَظْلِمُونَ بها النَّاسَ الَّذينَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَظْلِمُوهم، ويَعْمَلُونَ أَعْمالاً شَبِيهَةً بأعْمالِ قوم شُعَيبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ.

وهَـٰذا هو النّصُّ الخامس بحَسَبِ تَرْتِيب النُّزُول، من النُّصُوص القرآنية المتعلِّقَةِ بِشُعَيْبٍ عَلَيه السَّلامُ وَقَوْمِهِ، وجَميعُها تِسْعَةُ نُصُوصٍ مُوَزَّعَة في تِسْعِ سُور من القرآن المجيد.

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هَـٰذا النَّصّ مع تَدَبّر سَائر النصوص التسعة تَدَبُّراً تَكامُلِيًّا، في الملْحَق السادس مِن مَلَاحِقِ تَدَبُّر سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول)[1].

ولهَـٰذا فَإنّي أقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ فَقَرَاتِ هذا الفصل.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تَعَالى:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾: أي: وَلَـقَـدْ أَرْسَـلْـنَـا إلـى الـقَـوْم الـمعروفين باسم «مَدْيَنَ»، إذْ أُطْلِقَ عَلَيْهِم اسْمُ جَدِّهِم، النَّبِيَّ الرَّسُول أخَاهُمْ نَسَباً ولُغَةً وَمَوْطِناً «شُعَيْباً» عَلَيْه السلام.

كانَ هؤلاء القوم قوماً عَرَباً، وكانت مواطِنُهُمْ مَا بَيْنَ الحِجَازِ وخَلِيجِ الْعَقَبَةِ بِقُرْبِ سَاحِلِ الْبَحْرِ الأحمر، شَمَالِيَّ الحجاز، وجَنُوب فلسْطِينَ، وقاعِدَةُ أَرْضِهِمْ تَقَعُ مَا بَيْنَ «مَعَان» إلى «الْعَقَبَة» فـ «تَبُوك» وتَمْتَدُّ جبال مَدْيَنَ في الحجاز امْتِدَاداً طَوِيلاً.

و«مَدْين» جَدُّ هؤلَاءِ القوم هو ابْنُ إبراهيم الخليل عليه السلام، من زَوْجَته «قَطُّورَة» الَّتي تَزَوَّجَهَا بَعْدَ مَوْتِ زَوْجَتِهِ «سَارَة».

وذكَرُوا أَنَّ إبراهيم عليه السّلَامُ أسْكَنَ «مَدْيَنَ» في دِيَارِهِم الواقعة وَسَطاً بَيْنَ مَساكِنِ ابْنه إسْمَاعِيلَ وَذُرِّيَّتِهِ في الحجاز، ومَسَاكِنِ ابْنِهِ إسْحَاقَ وَذُرِّيَّتِهِ فِي فِلسطين.

وظَهَرَ النَّبيُّ الرَّسُولُ «شُعَيْبٌ» عليه السّلام مِنْ ذُرّيّةِ مَدْيَنَ بْنِ إبراهيم عليه السلام، وكانَ لِسَانُهُ ولِسَانُ قَوْمِهِ الْعَرَبِيَّة.

---

[1] انظر الملحق السادس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول): «دراسة تكامليّة للنصوص بشأن «شعيب عليه السلام وقومه» في الصفحات من (٣٥١ ـ ٤٢٩) من المجلّد الخامس من هذا الكتاب.

- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ . . . ﴿٨٤﴾﴾:

- قرأ الكِسَائِي، وأبُو جَعْفَر: **[مَا لَكُمْ مِّن إِلَٰهٍ غَيْرِهِ]** بِكَسْرِ الرّاء، مُرَاعَاةً لِلَفْظِ «إِلَٰهٍ» الْمَجْرُور بَحَرْفِ الجرّ الزائد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِضَمّ الراء مُرَاعاة لمحَلِّ لفظ «إلَه» وهو الرَّفع.

- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ بحَذفِ يَاءِ المتكلّم وإبقاءِ الكَسْرَةِ دَلِيلاً عَلَيها. وفي هذا النداء اسْتِعْطَافٌ بِرِفْق.

- ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾: يَظْهَرُ أَنَّ هَـٰذا كانَ في بدايَةِ دَعوتِهِ لِقَوْمِه، وهو مُمَاثِلٌ لِبدَايَاتِ دَعَوَاتِ سَائِرِ الرُّسُلِ عَلَيهِمُ السَّلام لأقوامهم.

لَقَدْ بَدَأهم بالْأَمْرِ بعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وهي الْفَرِيضَةُ الرَّبَّانِيَّةُ الْأُولَىٰ بَعْدَ الإيمانِ به رَبّاً لا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّتِهِ أَزَلِيًّا أبَدِيًّا، وبَعْدَ إعْلَانِ الإِسْلَامِ له، وإعْلَانِ الْحِرْصِ على طَاعَته.

ومعنى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾: لَيسَ لَكُمْ في الواقِعِ والحقيقة إلَهٌ حَقٌّ يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْ هُو الرَّبُّ الَّذي لا رَبَّ فِي الْوُجُودِ سِوَاه، وهَـٰذِهِ العبارة قَدْ وَجَّهَهَا كُلُّ الرُّسُلِ لِأَقْوَامِهِم.

وَدَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارةُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ لَهُمْ عبادات شِرْكِيَّةٌ لِغَيْرِ اللهِ عَزَّ وجلَّ، وَتَدُلُّ عَنْ طَرِيقِ اللُّزُوم الذِّهْنِيّ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ في اللَّفْظِ مُلَاحَظٍ في الذِّهْنِ بَعْدَ عبارَة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: اعْبُدُوا اللهَ وَوَحِّدُوهُ في العبادة، ولَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً؛ لأَنَّهُ مَا لَكُمْ في الواقعِ والحقِيقَةِ مِنْ مَعْبُودٍ حَقٍّ يَصِحُّ أَنْ يُعْبَدَ سِوَاه.

- ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ . . . ﴿٨٤﴾﴾:

﴿الْمِكْيَالَ﴾ ويُجْمَعُ عَلَىٰ «مَكَايِيل» وِعاءٌ خَاصٌّ يَتَعارَفُ النَّاسُ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا يَسْتَوْعِبُ فِي فَرَاغِهِ، تُكَالُ بِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوضَعُ فِيهِ، لمعْرِفَةِ مَقَادِيرِ جُحُومِها، جَامِدَةً كَانَتْ أَمْ سَائِلَةً. وَقَدْ يُرَادُ بالمِكْيَالِ الكَيْلُ.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾: وَيُجْمَعُ على «مَوَازِين» آلَةٌ تُوزَنُ بِهَا الْأَشْيَاءُ لِمَعْرِفَةِ مَقَادِير ثِقَلِها. وَقَدْ يُرَادُ بالميزانِ الْوَزْن.

ويُطْلَقُ لفظ «المِيزَان» أيضاً على الواحِدِ من «السِّنْج» الَّتِي تُوضَعُ بإِحْدَىٰ كِفَّتَيْهِ، لِيُوزَنَ عَلَىٰ مِقْدَارها في الْكِفَّةِ الأُخْرَىٰ.

دَلَّ نَهْيُ شُعَيْبٍ عَلَيْه السَّلَامُ قَوْمَهُ عَنْ نَقْصِ المكيالِ والْمِيزان، عَلَىٰ أَنَّهُمْ كانُوا يَنْقُصُونَ فِي مَعَايِيرِ مَكَايِيلِهِمْ وَمَوازِينهم، فَيَجْعَلُونَ مِكْيَالاً نَاقِصاً يَكِيلُونَ بِهِ للنَّاسِ، وهُوَ مُشَابِهٌ فِي الصُّورَةِ لِلْمِكْيَالِ الصَّحِيحِ الوافي، الَّذِي يَكِيلُونَ بِهِ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَمْوال الناس، وقد يَكِيلُونَ لِأَنْفُسِهِم بمكَايِيلَ زَائِدَةٍ عَلَىٰ المكاييل الصحيحة المُتَعَارَف عليها. ويَجْعَلُونَ مَوازِين تَنْقُصُ مِنْ مِقْدَارِ الحقّ الَّذِي للنَّاس، وَمَوازِينَ أخرىٰ وَافية أو زائِدَة يَزِنُون بِها لِأَنْفُسِهِمْ، هي مُشَابِهَةٌ في الصُّورَةِ لِلْمَوازين الصَّحِيحَة.

ولَمَّا كانَتْ أَعْمَالُهُمْ هَـٰذِهِ مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ، كَانَ مِنْ عَنَاصِرِ نُصْحِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دَعْوَتِهِ لهم، أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنِ النَّقْصِ فِي المكيال، وعَنِ النَّقْصِ في الميزان.

- ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾: أي: وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَرَاكُمْ بِسَعَةٍ وَنِعْمَةٍ وَوَفْرَةٍ مِنَ الرِّزْقِ، فَلَا دَافِعَ لَكُمْ لِتَأْكُلُوا أَمْوَالَ النّاسِ بالباطل إلّا الطّمعُ في الثّراءِ الْواسِعِ مِنْ أَمْوَالِ الضُّعفَاءِ، وأَهْلِ السَّذَاجَة الّذِينَ لا يَكْتَشِفُونَ حِيَلَ المتَحايِلِينَ، ولا تَلاعُبَاتِ المتلاعِبين.

وهؤلاء المُتَحايِلُون المطَفِّفُونَ يَسْتَهِينُون بِظُلْم عِبادِ اللهِ والعُدْوانِ عَلَىٰ حُقُوقِهِم. في ياء المتكلّم هنا قراءتان: الإسكان والفتح.

- ﴿... وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۝٨٤﴾:

عَذَابُ هَـٰذا اليومِ الْمُحِيط، إمَّا أَنْ يكونَ عَذَابَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنيا، كَالْأَيَّامِ الَّتِي عَذَّبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ وَأَهْلَكَ فيها مُجْرِمِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ المرادُ بِهِ عَذَابَ يَوْمِ الدِّين، بَعْدَ الْبَعْثِ للحساب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الجزاء.

وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ العِبَارَةِ عَلَى هَـٰذَيْنِ المعْنَيين معاً، واللهُ أعْلم.

وقَدْ جَاءَ في هَـٰذِهِ العبارة وَصْفُ هَـٰذا الْيَوْم بالإحَاطَةِ، لإعلامِهِمْ بأنَّهُ يَوْمٌ لَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بالْعَذَابِ، إِذْ أَزْمَانُ ذَلِكَ الْيَوْم المحِيطِ بِهِمْ مَمْلُوءَةٌ بِأَحْدَاثِ تَعْذِيبِهِمْ، وبِوَسَائل تَعْذِيبهم، وَزَمَانُهُ جارٍ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَا مَحَالَةَ.

بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَتِ الإحَاطَةُ وَصْفاً لِلعَذَابِ، فَقَدْ يُتَوَهَّمُ مَعَهَا أَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي يُحِيطُ بالْقَوْمِ قَدْ لَا يُصِيبُ بَعْضَ أفرادِهِمْ المتخلِّلِينَ فِي الْوَسط.

فوَصْفُ يَوْمِ الْعَذَاب بالْإحَاطَةِ بِهِم أَبْلَغُ فِي الدَّلَالَةِ على أَنَّهُ لا يَنْجُو مِنْهُمْ أَحَدٌ.

في ياء المتكلّم في هذه العبارة قراءتان: الإسكانُ، والفتح.

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾:

- ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾: أي: أتِمُّوا الْمِكْيالَ والْمِيزَانَ وافِيَيْن، يُقَالُ لُغَةً: «أَوْفَىٰ الشَّيْءَ يُوفِيهِ إِيفَاءً» أي: أَتَمَّهُ وافِياً كامِلاً غَيْرَ مَنْقُوص، وكذَلِكَ «وَفَّىٰ».

- ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: أي: بالْعَدْلِ، وهو التَّسَاوِي بَيْنَ حَقِّ صَاحِبِ الحقّ، وبَيْنَ مَا يُؤَدَّىٰ إليه. **العَدْلُ**: هو إعْطَاءُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ.

- ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: أي: وَلَا تَنْقُصُوا النَّاسَ أشياءَهم، سَوَاءٌ أكان ذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الكَيْلِ أم المِكْيَال، أم عَنْ طَرِيق الْوَزْنِ أمِ الْمِيزان، أَمْ عَنْ طَرِيقٍ آخر، ففي هَـٰذِهِ العبارة تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيص.

الْبَخْسُ: النقْصُ، وفعل «بَخَسَ» مِثْلُ فعل «نَقَصَ» يتَعَدَّىٰ إلى مَفْعُولَيْنِ، يُقَالُ لُغَةً: «بَخَس فُلَانٌ فُلَاناً حَقَّهُ» أي: نَقَصَهُ حَقَّهُ.

والنقْصُ عَنِ الحقِّ مع الْعِلْم لَا يَكُونُ إلَّا بِظُلْمٍ، وقَدْ تُسْتَخْدَمُ فِيهِ وَسَائِلُ الاحْتِيَالِ والْكَذِبِ والْمُخَادَعَة.

- ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾: **الْعُثُوُّ**: أشَدُّ الْفَسَادِ، يقالُ لغة: «عَثِيَ، يَعْثَىٰ، عَثْوّاً» أي: أفْسَدَ إفْساداً شَدِيداً كثيراً.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها.

الفَسَادُ: هو في اللُّغَةِ التَّلَفُ والْعَطَبُ، وتَحَوُّلُ الشيءِ مِنْ كَوْنِهِ صالحاً نَافِعاً إلى كوْنِهِ غَيْرَ صَالحٍ وَلَا نافع، بَلْ رُبَّما يَصِيرُ ضارّاً كرِيهاً مُفْسِداً لِلْأَشْيَاءِ الصَّالِحَة.

والإفْسَاد: الإتْلَافُ وتَحْوِيلُ الشيْء عن صَلاحِهِ، وَقَدْ يَصِلُ إلَىٰ جَعْلِ الشيْءِ ضَارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلْأَشْيَاءِ الصَّالِحَة.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارة علَىٰ أنَّ قَوْمَ شُعَيْبٍ كانُوا مِنَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ أشَدَّ الفساد بأعْمَالِهِمُ الْإِجْرَامِيَّةِ الظالِمَةِ الجائِرَة.

ويَشْمَلُ النَّهْيُ عن الإفْسَاد في الْأَرْض بِعُمومِهِ، النَّهْيَ عَنْ كُلِّ الْمُمَارَسَاتِ الظَّالِمَات الجائراتِ، ذَواتِ الْعُدْوَانِ على عباد الله، الَّتي كانَ قَوْمُ شُعَيْبٍ يُمَارِسُونَها بانْتِشَارٍ عَامٍّ فِيهِم، ومِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ المطَفِّفِينَ،

إِذَا كَالُوا لِلنَّاسِ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ، فَيَنْقُصُونَ المكيالَ وَالْمِيزان، وينْقُصُونَ في الكَيْلِ والْوَزْنِ، ويَبْخَسُونَ النَّاسَ أشْيَاءَهُم، أي: يَنْقُصُونَ قِيمَتَهَا فَلَا يُعْطُونَهُمْ حُقُوقَهُمْ بِالْعَدْل.

- ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾﴾:

الْبَقِيَّةُ: مَا يَبْقَىٰ مِنَ الشيء، وبَقِيَّةُ اللهِ هِي مَا يُبْقِيهِ اللهُ عزَّ وجلَّ لِعَبْدِهِ مِنْ خَيْرٍ عاجلٍ أَوْ آجلٍ، فالعاجل هو ما يَنْتَفِعُ به الإنْسَانُ في الحياة الدُّنيا، والآجلُ لِيَوْم الدّين هو ما ادَّخَرَهُ اللهُ الكريم المنَّانُ وأبْقَاهُ لِعِبَادِهِ المؤمِنين المتّقين، يَنَالُونَهُ فِي جَنَّاتِ النّعِيم خالداً، غَيْرَ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوع.

دَلَّ هَـٰذا المُوجَزُ القرآنيُّ عَلَىٰ أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدَّم بَيَاناً إقْنَاعِيًّا لِقَوْمِهِ، بِأَنَّ مَا يُبْقِيهِ اللهُ لهم مِنْ رِبْحٍ أذِنَ لَهُمْ بِهِ في تجاراتهم، وبَيْعِهِمْ وشرائِهم، وسائر مجالاتِ اكْتِسَاب أَرْزَاقهم، ومَا يُبْقِيهِ لهم مِنْ ثوابٍ جزيلٍ على طاعَتِهِمْ لِرَبِّهِم، والْتِزَامِهِمْ صراطَهُ المسْتَقِيمَ، خَيْرٌ لَهُمْ في الدُّنيا والآخِرَة.

أَمَّا مَا يأْكُلُونَهُ مِنْ أمْوالِ الناس بالباطل. بوسَائل التّطفيف في المكاييل والموازين، وبَخْسِ النّاسِ أشْيَاءَهم، والْعُثُوِّ في الْأَرْضِ مُفْسِدِين، فَسَيَمْحَقُهُ اللهُ، ويَمْحَقُ مَعَهُ بَعْضَ حَلَالِ أمْوالِهم، مَعَ مَا يُلاقونَهُ من عذابٍ بِهِ فِي الحياة الدُّنيا، ثُمَّ مِنْ عَذَابٍ على مَعْصِيَةِ اللهِ فيه بالْعَدْلِ يَوْمَ الدّين.

- ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بما أَدْعُوكُمْ إلى الإيمانِ بِهِ، وتَعْمَلُونَ بما يُوجِبُهُ عَلَيْكُمْ إيمانُكُمْ.

فإنْ لم تُؤْمِنوا فإنَّ نُصْحِي لَنْ يَنْفَعَكُمْ بِشَيْءٍ، وسَتَسْتَمِرُّونَ عَلَىٰ ظُلْمِكُمْ وَعُدْوانِكُمْ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وعَلَىٰ قَبَائِحِكُمْ ومنكَرَاتِكُمْ.

- ﴿... وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾﴾: **الحَفِيظ**: هو القائِمُ بِعِنَايَةٍ عَلَىٰ حِرَاسَةٍ وصِيَانَةِ ما هُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ حِفْظِه، والْقَائِمُ بأداءِ حُقُوقِهِ بأمَانَةٍ،

دُونَ خِيانَةٍ ما، والْمُواظِبُ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِرِعَايَتِهِ وَفِعْلِ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ، وَاجْتِنَابِ مَا يَجِبُ تَرْكُهُ، مِنْ كُلِّ ما يَقْتَضِي حِفْظَهُ سَالِماً، لَا يَتَعَرَّضُ لِضُرٍّ أَوْ أذىً، ممَّا يَمْلِكُ رَدَّهُ أو دَفْعَهُ أَوْ تَحْوِيلَهُ.

كَحَارِسِ قَطِيعِ الْأَغْنَام أو الأبقارِ الْقَائِمِ بِصِيانَتِها، وعَمَلِ كُلِّ مَا يَقْتَضِي سَلَامَتَها، وَلَوْ بإكراهِهَا، وَسَوْقِهَا بِشِدَّةٍ وَعُنْفٍ إِلَىٰ مَوَاطِنِ سَلَامَتِها وَحِفْظِها مِنْ كُلِّ مَكْرُوه.

فالحفيظ مُكْرِهٌ مُجْبِرٌ سَائِقٌ أَوْ قَائِدٌ، يَصُونُ وَيَحْمِي، وَيُؤَدِّي وَظَائِفَ حِفْظِ مَا يَرْعَاهُ بِكُلِّ أَمَانَةٍ، وعَلَىٰ مِقْدار مَا يَسْتَطِيع.

فالمعنى: وَمَا أَنَا مُرْسَلٌ إليكُمْ لِأَكُونَ مُسَيْطِراً عَلَيْكُمْ، أَحْفَظُكُمْ بِسُلْطَانِ الْجَبْرِ والإكْراه، من عذابِ رَبِّكُمُ العاجلِ والآجلِ، إنَّما أنا مُبَلِّغٌ فقط رِسَالَةَ رَبِّي إِلَيْكُمْ.

وهذه العبارةُ تَحْمِلُ دَلَالَةً أُخرىٰ، وَهِيَ أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلْمَحَ إِلَىٰ قَوْمِهِ ضِمْناً، أَنَّهُ مَهْمَا كانَ رَحِيماً بِهِمْ، حَرِيصاً عَلَىٰ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ، وفيهم عَشِيرَتُهُ وَرَحِمُهُ، وَهُوَ واحِدٌ مِنْهُمْ نَسَباً وَلُغَةً وَمَوْطِناً، وَمَهْمَا كانتْ لَهُمْ في قَلْبِهِ مكانَةٌ، ومَهْمَا كانَتْ لَهُ دَالَّةٌ عَلَىٰ رَبِّه، فإنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ حَفِيظاً عليهم، يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، إِذَا أَرادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ أَنْ يُعاقِبَهُمْ، ويُنْزِلَ بِهِمْ نِقْمَتَهُ وَعَذَابه.

إِنَّمَا يَقِيهِمْ مِنْ عَذَاب اللهِ إيمانُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِرَبِّهم، واتِّبَاعُهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾؟!

- قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِيّ، وخلف: **[أَصَلاَتُكَ]** بالإفراد.

وقرأها باقي القراء العشرة بالجمع: **[أَصلَوَاتُك]**.

ومُؤَدّىٰ القراءتَيْنِ واحد، فلفظ «صَلَاة» بالإفراد اسْمُ جنْس، وهُوَ مُضَافٌ إلى ضَمِير المخاطَب، فَهُو يَعُمُّ كُلَّ صَلَوَاته.

في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَلْخِيصٌ لِثَلاثِ مَقُولَاتٍ جَدَلِيَّة وَجَّهَهَا قَوْمُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ له:

المقُولَةُ الأولىٰ: دَلَّتْ عَلَيْها عبارَةُ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؟!.

لفظ «الصّلاة» هُنَا مسْتَعْمَلٌ فيما هو مَعْرُوفٌ في كلِّ الرِّسَالاتِ الرَّبَّانِيَّة، والشُّعُوب الَّتِي فيها بقَايَا مِنْ دِينٍ رَبَّانِيٍّ، وهي الصَّلاةُ ذَاتُ الْقِيَام، والرُّكُوع، والسُّجود، والتّلاوَاتِ، والأَذْكَارِ، والأدْعِيَةِ، فهِيَ عبادةٌ مَحْمُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ الشُّعُوبِ، حَتَّىٰ الشُّعُوبِ الْوَثَنِيَّة، وفي موروثاتِهِم عن إبراهيم عليه السلام هذه الصلاة.

فَلَيْسَتْ عبارَةُ قَوْمِ شُعَيْبٍ هَـٰذِه لَهُ عبارَةَ اسْتِهْزَاءٍ به، وَلَيْسَتْ بِمَعْنَىٰ مُطْلَق القراءة، ولَيْسَتْ بِمَعْنَىٰ الدِّين، ولا غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَأْوِيلَاتٍ مَذْكُورَاتٍ في كُتُب التفْسِيرِ.

والاستفهامُ في هذهِ العبارة اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ إنْكارِيٌّ مِنْهُم، أنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْمُحافَظَةِ عَلَىٰ عبادَةِ رَبِّهِ بالصَّلاةِ، وأَنْ يَنْهَىٰ مَعَ ذلِكَ قَوْمَهُ عَن عبادَاتٍ هِيَ مِنَ الْمَوْرُثَاتِ لَدَيْهم، الَّتِي يَرَوْنَ أَنَّهَا حَقٌّ ونافِعَةٌ لَهُمْ، فَآبَاؤُهُمْ كِبَارُ السِّنِّ الْهَرِمُونَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، وَهُمْ قَدْ وَرِثُوا هَـٰذِهِ الْعِبَادَاتِ عَنِ الَّذِينَ مَاتُوا مِنْ آبائِهِمْ، أَفَيُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ هَـٰذِهِ العِبَادَاتُ الْمَوْرُثَاتُ عِبادَاتٍ بَاطِلَاتٍ، وآبَاؤُهُمُ الشُّيُوخُ والْهَرِمُونَ يَعْبُدُونها، وَكَانَ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ، وهُمْ قَدْ وَرِثُوا الدِّينَ عَنْ جَدِّهِمِ الأَعْلَىٰ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ المقولَةُ عَلَىٰ أَنَّ مُوَجِّهِيهَا هم الشُّبَّانُ وَبَعْضُ الكُهُولِ مِنْ قَوْمِهِ، إِذْ تَحَدَّثُوا عَنْ آبَائِهِمُ الَّذِينَ مَا زَالُوا أَحْيَاءً. ودَلَّتْ عَنْ طَرِيق اللُّزُوم الذِّهْنِيِّ عَلَىٰ أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَام تَوَجَّهَ لِلشُّبَّانِ وأحداثِ الأَسْنَانِ ورُبَّمَا لِصِغَارِ الكُهُولِ، في دَعْوَتِهِ مُعْتَنِياً بإقْنَاعِهِمْ، بَعْدَ أَنْ وَجَدَ مِنْ شُيُوخِهِمْ وَذَوِي الأَسْنَانِ فيهم إعْرَاضاً أَوْ إِدْبَاراً، شُعُوراً مِنْهُ بأَنَّ الشُّبَّانَ وأَحْدَاثَ الأَسْنَانِ أَلْيَنُ عَرِيكَةً لِقَبُولِ الْحَقِّ والاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ.

فَلَمْ يَسْتَجِبِ الشُّبَّانُ لَهُ، وأجابُوه بِهَـٰذِهِ العبارة الَّتِي دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ، والاقتداء بهم، مُعْتَبِرِينَ عِبَادَةَ آبَائِهِمْ لآلِهَةٍ من دُونِ اللهِ حُجَّةً يَصِحُّ أَنْ يَحْتَجَ بها الْعُقَّلاء، مَعَ أَنَّ هَـٰذِهِ الْحُجَّةَ بَاطِلَةٌ سَاقِطَةٌ؛ لِأَنَّ أَفْعَالَ النَّاسِ وَتقالِيدَهُمْ مَهْمَا تَوَاطَؤُوا عَلَيْها، لَيْسَتْ في الواقِعِ الْبَشَرِي حُجَّةً عَلَىٰ الحقيقَةِ الَّتِي تُثْبِتُهَا الْبَرَاهِينُ الْعَقْلِيَّةِ.

فَقَدْ يَكُونُ النَّاسُ قَدْ تَأَثَّرُوا بِضَلالَاتِ المُضلِّين، الَّذِينَ زَيَّنُوا لَهُمُ الباطِلَ فَرَأَوْه حَقًّا، أَوْ تَأَثَّرُوا بأَوْهَامٍ لَا حَقِيقَة لها، لِقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وانْتِشَارِ الْجَهْلِ بَيْنَهُمْ، فَهُمْ بذلك لَا يَهْتَدُونَ إلى الحقّ والصَّوَاب، فَيَقَعُونَ في ضَلَالَاتٍ فِكْرِيَّةٍ اعتقادِيَّة، أو ضلالاتٍ سُلُوكِيَّة، ثُمَّ تَكُونُ مَوَارِيثَ فِي قَوْمِهِمْ. أَوْ دَعَتْهُمْ إلى مُمَارَسَاتِهِمُ الْبَاطِلَاتِ الفاسِدَاتِ الْمُفْسِدَاتِ أَهْوَاؤهم وشَهَوَاتُهُمْ، وَرَغَبَاتُهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا، ثُمَّ كانَتْ مَوارِيثَ فِي قَوْمِهِم، وَعَادَاتٍ مُسْتَحْكِمَاتٍ في سُلُوكهم.

المقولَة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْها عبارَةُ: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ﴾؟!

أي: أَوَ صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَفْعَل في أموالِنَا مَا نَشَاءُ، مُعْتَمِدِينَ عَلَىٰ مَهَارَاتِنَا فِي خِدَاعِ النَّاسِ والاحْتِيَالِ عَلَيْهِم؟!.

والمعنى: إِنَّنَا حِينَمَا نُبَادِلُ الناسَ في مُعَامَلَاتِنَا، فإِنَّنَا نَأْخُذُ مِنْهُمْ ونُعْطِيهِمْ بِحَسَبِ مَا لَدَىٰ كُلٍّ مِنَّا مِنْ مَهَارَاتٍ واحْتِيَالَات، فَنَحْنُ نَتَصَرَّفُ

مَعَهُمْ بِحَسَبِ قُدْراتِنَا وَمَهارَاتِنَا واحْتِيالاتنا، وهُمْ يَتصَرَّفُونَ مَعَنَا في تَعامُلَاتِهِمْ بِحَسَبِ قُدْراتِهِمْ وَمَهارَاتِهِمْ واحْتِيَالَاتِهِمْ.

إِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ فِي أَمْوالِهِمْ مَا يَشَاءُونَ، وَنَحْنُ نَفْعَلُ في أَمْوالِنَا ما نَشاءُ، فَكَيْفَ تَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنَا مَا نَشَاءُ؟!!

أَلَيْسَ هَـٰذا أمْراً عَجباً يَتَنافَىٰ مَعَ مُقْتَضيَاتِ صَلَوَاتِكَ الَّتِي تُصَلِّيها لِرَبِّكَ؟!.

المقولةُ الثَّالِثَة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿... إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾؟!.

أَرَى أَنَّ هَـٰذه العبارة هي على الاستِفْهَامِ الإنْكارِيّ، بِحَذْفِ أَدَاةِ الاسْتِفْهَام. أي: أَإِنَّكَ المعْرُوفُ فينا قَبْلَ أنْ تَدَّعِيَ أَنَّك نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ لنَا، بأَنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ في قَوْمِنا؟!.

فَكَيْفَ تُشَدِّدُ عَلَيْنا فِي النَّهْيِ عَنْ عِبادَةِ ما يَعْبُدُ آباؤُنَا الوارِثُون لِهَـٰذِهِ العباداتِ عَنْ آبائِهِمْ، وكَيْفَ تُشَدِّدُ عَلَيْنَا فِي الإنكار، وتُكَرِّرُ نَهْيَنا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أموالِنَا مَا نَشَاءُ؟!.

إنّ هذا يَتَنافَىٰ مع مَا عُرِفَ عَنْكَ في قَوْمِكَ بأنَّكَ المتفرِّدُ مِنْ بَيْنِنَا بِصِفَتَيْنِ جَلِيلَتَين:

- صِفَةِ الْحِلْم مِنْ أعَلَىٰ الدَّرَجاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا الْبَشَر.
- وَصِفَة الرُّشْدِ مِنْ أَعْلَىٰ الدَّرجاتِ أيضاً. **الرُّشْدُ**: والرَّشاد: هو السُّلُوكُ الفِكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ، والْعَمَلِيُّ، الموافِقُ لِلْحَقِّ والصَّواب، أو لِمَا هو الأَفْضَلُ والأَحْسَنُ والأَكْثَرُ نَفْعاً، والأبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

لَقَدْ عُرِفْتَ يا شُعَيْبُ بهاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ الجليلَتَيْنِ، حَتَّىٰ صَارَ يُقَالُ لَكَ: إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ، المتميِّزُ الأَوْحَدُ بِغَايَةِ صِفَتَي الْحِلْم والرُّشْدِ.

أي: فَمَا الَّذِي جَرَى لَكَ حَتَّىٰ صِرْتَ تَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَاتٍ لَيْسَ فِيها حِلْمٌ وَلَا رُشْدٌ؟؟!!

مَا بَالُ شَخْصِيَّتِكَ النفْسِيَّةِ قَدْ تبَدَّلَتْ وَتَغيَّرتْ، حتَّىٰ صِرْتَ غَيْرَ حَلِيم وَلَا رَشِيدٍ، وانْفَرَدْتَ بِمَفْهُومَاتٍ وَأَقْوالٍ خاصَّةٍ، مُنَاقِضَةٍ لِمَفْهُومَاتِ عُقَلَاءِ قَوْمِكَ وأقْوالِهِمْ وَأَعْمَالِهِم؟!

لَا بُدَّ أن تكونَ هَـٰذِه المَقُولَاتُ مِنْهُمْ صَادِرَةً عَلَىٰ سَبِيلِ المغالَطَةِ والمُخَادَعَةِ لِأَتْبَاعِهِم، حَتَّىٰ يَتَأَثَّرُوا بأقوالِهِم الْجَدَلِيَّة. أوْ أَنْ تَكُونَ بَصَائِرُهُمْ مُنْطَمِسَةً بِتَأْثِيرِ اتِّبَاعِهِم أهواءَهُمْ، وشَهَوَاتهِم، وشَرَهِهِمْ للإِثْرَاء، ولَوْ بالظُّلْم والْعُدْوانِ عَلَىٰ عباد الله، وبتَأْثِيرِ المُحافظة العَصَبِيَّةِ عَلَىٰ تَقْلِيدِهِمْ الأعْمَىٰ لِآبَائِهِمْ وأجْدَادهِم.

وقالُوا لشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ مَقُولَاتٍ ثلاثاً أُخرَىٰ مَطْوِيَاتٍ في مَثَانِي النَّصّ، يُمْكِنُ كَشْفُهَا واسْتِخْرَاجُها بالنَّظَرِ التَّأَمُّلِيِّ فِي إجابَاتِهِ الآتي ذِكْرُها وَتَدَبُّرُها، بَعْدَ ذِكْرِ المقولَاتِ المطويات:

المقولةُ المطويَّة الأولىٰ: إنَّكَ يَا شُعَيْبُ ذُو مالٍ كَثِيرٍ، فَكَيْفَ جَمَعْتَه؟. لَا بُدَّ أنَّكَ مِنَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ أمْوَالَهُمُ الكَثِيرَةَ سِرّاً بالوَسَائِلِ الَّتِي تَنْهَانَا عَنْها.

والمقولَةُ المطوية الثانية: وَإِنَّكَ يَا شُعَيْبُ تُرِيدُ بِدَعْوَتِكَ الَّتِي جِئْتَنا بها، أَنْ تَكُونَ سَيِّداً ذَا سُلْطَانٍ عَلَيْنَا، تُلْزِمُنَا بِمَا تَشَاءُ بِأَوامِرِكَ وَنواهِيكَ، وتُكْرِهُنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ.

والمقولَةُ المطوية الثالِثَة: وَهَلْ أَنْتَ يا شُعَيْبُ ضَامِنٌ أَنْ تُحقّقَ مَا تُرِيدُ بخِطَابَاتِكَ، وَأَحَادِيثِكَ، وجَدَلِيَّاتِكَ، وَأَنْتَ فِينا ضَعِيفٌ لَا تَمْلِكُ قُوَّةً تَسْتَطِيعُ بها أَنْ تُلْزِمَنَا بِمَا تُرِيدُ مِنَّا، ونَحْنُ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَنَا بِهِ؟.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّناً مَا أجابَ بِهِ شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ على مَقُولَاتِ قَوْمِهِ له المصَرَّحِ بها والمطويَّةِ فِي مَثَانِي النَّصّ:

● ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ
وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا
تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن
يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم
بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾:

يُلاحِظُ المتدبِّر المتأنِّي في هَٰذِهِ الآياتِ أنَّ شُعَيْباً عليه السَّلامُ قَدْ أجابَ قَوْمَهُ عَلَىٰ مَقُولَاتِهِم المصَرَّح بِها في الآية (٨٧) والمطويّة في ثناياها ببَيَانَاتٍ مُحْكَمَاتٍ قاطِعَاتٍ لِجَدليَّاتِهِمْ واتِّهاماتِهِمْ وتَثبيطاتِهِمْ، وزادَ عليها بَيَانَاتٍ تُعَرِّفُ بموقِفِه ثابتاً على القيام بوظائِفِ رسالَتِه، وبياناتٍ دَعَوِيَّةً إقناعِيَّةً وَتَرْهيبِيَّةً، ونُصْحِيَّةً، وقَدْ فصَّلْتُها إلىٰ ستَّةِ بَيَاناتٍ:

البيان الأول: دَلّ عليه قول الله عَزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي . . . ﴿٨٨﴾﴾؟!.

أي: قال لهم: يَا قَوْم أفكَّرْتُم وتَدَبَّرْتُمْ وَوَضَعْتُمْ فِي رُؤْيَتِكُم الْفِكْرِيَّةِ احْتِمَال أنّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، معْتَصِمٌ بها، ومُسْتَمِسِكٌ بالاعْتِمَادِ عَلَيْها؟.

فإذا ثَبتَ لَدَيْكُمْ هَٰذا الاحْتِمَالُ الّذِي تُنْكِرُونَهُ الْآنَ، أَوْ تَشُكُّونَ فِيهِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ فِيما آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا تُشْرِكُونَ بِهِ مَعْبُوداً آخرَ؟. أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ فيما أَنْهاكُمْ عَنْهُ مِنَ التَّطْفِيفِ في الكَيْلِ والْوَزْنِ، ومِنْ بَخْسِ النَّاسِ أشْيَاءَهُمْ، ومِن اتِّخاذِ الْحِيَلِ لِتَأْكُلُوا أَمْوال النَّاسِ بالباطل، وفيما أنْهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الْعُدْوَانِ علىٰ الناس، ومِنْ الْعُثُوِّ في الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ؟.

أَخْبِرُوني مَا هُوَ مَوْقِفُكُمْ مِنْ هَٰذا الاحْتِمَالِ، أَلَيْسَ هُوَ احْتِمالاً مُمْكِناً أَنْ يَكُونَ؟؟.

ضَعُوا هَٰذا الاحْتِمَالَ في أذْهَانِكُمْ، وفَكِّرُوا فيما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ

بِمَقَايِيس الْعَقْل، لَا بِمَقَايِيسِ التَّقْلِيدِ الأَعْمَىٰ، والمَصْلَحَةِ الدُّنيويَّةِ العاجِلَةِ الفانِيَةِ، دُونَ بَصِيرَةٍ فِكْرِيَّةٍ.

فَإِذَا قَبِلْتُمْ بِرُؤْيَتِكُمُ الْفِكْرِيَّةِ إِمْكَانَ وُجُودِ هَـٰذا الاحْتِمَالِ، فاسْأَلُوني عَنِ البيّنَةِ الَّتِي أنا مُعْتَمِدٌ عَلَيْها، وَمُتَمَكِّنٌ مِنْهَا أُجِبْكُمْ، حَتَّىٰ أُثْبِتَ لَكُمْ بالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَة أَنَّ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وآمُرُكُمْ بِهِ، هُوَ الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، وهُوَ الخيْرُ لَكُمْ في عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وآجِلِهِ، وهُوَ مَا يقتضِيهِ الْعَقْلُ السّلِيمُ، والمَصْلَحَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ للجميع.

وإذا شِئْتُمْ مُعْجِزَةً خَارِقَةً تَكُونُ بِمَثَابَةِ شَهَادَةٍ من اللهِ لي بأنِّي نبيٌّ ورَسُولٌ صادق مُرْسَلٌ مِنْهُ إليكم، فإنِّي أسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَشْهَدَ لِي بأنّي رَسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقاً، بإجْرَاءِ مُعْجِزَةٍ خَارِقَةٍ كما أَجْرَىٰ لِغَيْرِي مِنَ الْمُرْسَلِين.

الْبَيّنَةُ: هي هُنَا البراهِينُ الْجَلِيَّةُ الواضِحَةُ، أَوِ الْآيَةُ والمعجزة الباهِرة.

لَقَدْ عَرَضَ شُعَيْبُ عَلَيْهِ السَّلامُ علىٰ قَوْمِهِ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ بَيّنَةٍ وَاضِحَةٍ مِنْ رَبِّهِ، واسْتِعْدَادَهُ التَّامَّ لِأَنْ يُقَدِّمَ لَهُمْ هَـٰذِهِ الْبيّنَة، إِذَا كَانَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِقَبُولها، علَىٰ الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ هُوَ مِنَ الْأُمُور الّتِي تُدْرِكُ الْعقُولُ صِحَّتَهَا، وأَنَّها حَقٌّ وَخَيْرٌ بالْبَدَاهَةِ الفِكْرِيَّة، أَوْ مَعَ تَفْكِيرٍ قَلِيلٍ لَيْسَ فِيهِ إجْهَادٌ لِلأَذْهَان.

البيان الثاني: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قالَهُ شعَيْبٌ لِقَوْمِهِ: ﴿. . . وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُ . . . ﴿٨٨﴾﴾:

دَلَّ هذا البيان علَىٰ أَنَّهُ يَرُدُّ علىٰ إتِّهامِهِمْ لَهُ بأنَّهُ جَمَعَ أَمْوالَهُ الكَثِيرَة بالْوَسَائِلِ الّتِي يَنْهَاهُمْ عَنْها، وَلَكِنَّهُ يُخْفِي عَنْهُمُ الطَّرَائِقَ الَّتي يَجْمَعُها بها، فهو يُبيِّنُ لَهُمْ أَنَّ ما عِنْدَهُ مِنْ أَمْوالٍ رِزْقٌ حَسَنٌ مَوافِقٌ لِشَرْعِ اللهِ، رَزَقَهُ اللهُ إيّاهُ.

أي: لَمْ أتجاوزْ في كَسْبِ مَا لَدَيَّ مِنْ أَمْوَالٍ حُدُودَ مَا أَذِنَ رَبِّي جَلَّ جَلَالُهُ فِي اكْتِسَابِهِ، فَمَا رَزَقَنِي مِنْهُ كُلُّهُ رِزْقٌ حَسَنٌ لا مَعْصِيَةَ للهِ فِيهِ، وَلَا عُدْوَانَ فِيهِ علَىٰ أَحَدٍ، وكُلُّهُ حَلَالٌ طَيِّبٌ قَدْ بَارَكَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِيهِ، فَلَمْ أَعْمَلْ فِيما سَبَقَ عَمَلاً نَهَيْتُكُمْ أو أنْهَاكُمْ عَنْه.

وَمَا أُرِيدُ الآنَ وَلَا مُسْتَقْبَلاً أَنْ أَقْصِدَ الشَّيْءَ الَّذِي أَدْعُوكُم إلى اجْتِنَابِهِ فأَفْعَلَهُ.

يُقَالُ لُغَةً: «خَالَفَكَ فُلَانٌ إِلَىٰ كَذَا» أيْ: قَصَدَهُ وأَنْتَ مُنْصَرِفٌ ومُتَوَلٍّ عَنْه. ويُقال: «خَالَفَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ إِلَىٰ مَكَانِ كَذَا» أيْ: قَصَدَ هَـٰذا المكانَ بَعْدَ أنِ انْصَرَفَ صَاحِبُهُ عَنْه.

قال الزَّمَخْشَرِي: يَلْقَاكَ الرَّجُلُ صَادِراً عَنِ الماء، فَتَسْأَلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ؟ فَيَقُولُ: خَالَفَنِي إلىٰ الماء، يُرِيدُ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ وارِداً، وَأنا ذَاهِبٌ عَنْهُ صَادِراً.

أقول: إذَا كَانَتْ وَفْرَةُ المالِ الَّذِي عِنْدَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الأَنْعَام، فإِنَّ تَرْبِيَةَ الأَنْعَام الَّتِي تَأْكُلُ مِنَ الكَلأ المباحِ، قَابِلَةٌ لِأَنْ تَجْعَلَ مَالِكَها ذَا ثَرَاءٍ وَاسِعٍ جِدًّا بِنَحْوِ عَقْدٍ فَأَكْثَرَ مِنَ السِّنِينَ، إِذَا بَارَكَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِمَوَالِيدِهَا وَأَصْوَافِهَا وَأَوبَارِها وأَشْعَارِها.

وَإِذَا كَانَتْ وَفْرَةُ الْمَالِ الَّذِي عِنْدَهُ مِنَ الزِّرَاعَةِ، فَمِنْ سُنَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي عَطَاءَاتِهِ لِبَعْضِ عبادِهِ، أَنْ يُبارِكَ لَهُمْ بِهَا، حَتَّىٰ يُنْبِتَ مِنَ الْحَبَّةِ الْوَاحِدَةِ سَبْعَ سَنَابِلَ، ويَجْعَلَ فِي كُلِّ سُنْبَلَةٍ مِئَةَ حَبَّةٍ، وبِسَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ يَكُونُ الَّذِي بَارَكَ اللهُ لَهُ بِزِرَاعَتِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ مَالاً، دُونَ أَنْ يَلْجَأَ إِلَىٰ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

إلى غير ذَلِكَ مِنْ طُرُقٍ وأَسْبَابٍ يُبَارِكُ اللهُ بِهَا على بَعْضِ عِبَادِهِ في الرِّزْقِ الْحَلَالِ الطيِّبِ.

البيانُ الثالث: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِمَعنَىٰ مَا قَالَهُ شُعَيْبٌ لِقَوْمِهِ: ﴿... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ... ﴿٨٨﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارَةُ عَلَىٰ أنَّ قَوْمَهُ اتَّهَمُوهُ بأنَّهُ يُرِيدُ بِدَعْوَتِهِ أنْ يَكُونَ سَيِّداً فِي قَوْمِهِ، ذَا سُلْطَانٍ عَلَيْهِم. يُلْزِمُهُمْ بِمَا يَشَاءُ بأوامِرِهِ ونَوَاهِيهِ، ويُكْرِهُهُمْ علَىٰ طَاعَتِه، فأبَانَ لَهُمْ بهَـٰذِهِ العبارة مُرَادَه، رَدّاً علَىٰ اتّهامِهِمْ له.

أي: مَا أُريدُ بما أدْعُوكُمْ إلَيْه، وأكَرِّرُ عَلَيْكُمْ بِهِ نَصَائِحي سِيَادَةً عَلَيْكُمْ وَلَا سُلْطاناً، إنَّما أُرِيدُ لَكُمُ الإصْلَاحَ، والْخَلاصَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ غَارِقُونَ، مَا اسْتَطَعْتُ إلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً عَنْ طَرِيقِ الإقْنَاعِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، والمجادَلَةِ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، مِنْ غَيْرِ جَبْرٍ وَلَا إكْرَاه.

البيانُ الرابع: دَلَّ عَلَيْهِ قَولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَة لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السّلامُ لِقَوْمِه: ﴿... وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾:

التَّوْفِيقُ مِنَ اللهِ لِعَبْدِه: يَكُونُ بإلْهَامِهِ الصَّوَاب، وبإعَانَتِه، وَتَيْسِيرِ السُّبُلِ لَهُ، لِلْعَمَلِ بما يُحقِّقُ لَهُ النتيجَةَ الَّتِي تُرْضِيهِ، فيما يَسْعَىٰ لَهُ ممَّا هُوَ له خَيْرٌ، مَعَ تَسْدِيدِه في خُطُواتِ سَعْيه.

أي: وَمَا إصَابَتِي الرُّشْدَ في قَوْلي وفي عَمَلِي إلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ وعطائِهِ وَتَسْدِيدِهِ.

- ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: عَلَىٰ اللهِ وَحدَهُ تَوَكَّلْتُ في أمْرِي كُلّه؛ اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ تقديم المعمول: ﴿عَلَيْهِ﴾ على عامِلِهِ في: ﴿تَوَكَّلْتُ﴾.

التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ: هو الاسْتِسْلَامُ إلَيْه، والاعْتِمَادُ علَيْه، وَتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ إلَيْهِ، لتَحْقِيقِ مَا يَرْجُو المتوكِّلُ، مع قِيَامِهِ بالْأَسْبَاب المُسْتَطَاعَةِ له المادِّيَّةِ والمعْنَوِيَّةِ طَاعَةً لِأَوَامِرِ الله ونَوَاهِيه.

- ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾: أي: وإلَيْهِ أَرْجِعُ في أُمُورِي كُلِّها. يُقَالُ لغةً: «أَنَابَ فُلَانٌ إلَىٰ الشيء» أي: رَجَعَ إلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، فهو مُنِيب.

والمنِيبُ إلَىٰ اللهِ، هو ذو الرُّجُوعِ إلَيْهِ دَواماً بِقَلْبِهِ ونَفْسِهِ وفِكْرِه.

فالمعنى: وَمَا تَسْدِيدي في خُطواتِ سَعْيِي لِتَبْلِيغ رِسَالَةِ رَبِّي إلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ وإلْهَامِهِ وتَقْدِيرِه وَقضائه، فإذا قَدَّر ذَلِكَ وَقَضَاهُ حَقَّقَ لِي مَا عَزَمَتْ عَلَيْهِ إرادَتي، وحَقَّقَ لِي الْغَايَةَ الَّتِي أرْجُوها، وإلَّا فَلَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ في العطاء والمنْعِ، وهو الْعَلِيمُ الحكيم.

وإنِّي فِي قِيَامِي بوَظَائِفِ رِسَالَتِي الَّتِي كَلَّفَنِيهَا رَبِّي مُسْتَسْلِمٌ لَهُ، وَمُفَوِّضٌ تَدْبيرَ أُمُورِي إليه، مَعَ قِيَامِي بالْأَسْبَابِ المادِّيَّةِ والمعْنَوِيَّةِ الّتي أَسْتَطِيعُها.

وَإني أَرْجِعُ إلَيْهِ دواماً فِي كُلِّ أُمُورِي مَهْمَا جَدَّ فيها جَدِيدٌ، عَلَىٰ توالِي الْأَزْمَانِ الْمُتَتابِعَة.

البيان الخامس: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾:

- ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: أي: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ، وفي اخْتِيَار هَـٰذا الفِعْلِ رَائِحَةُ اكْتِسَابِ جُرْمٍ، فاخْتِيرَ في العبارة اخْتِياراً مُلائماً، وجاء تأْكِيدُ الفِعْلِ بنُونِ التوكيد الثقيلة.

﴿شِقَاقِيٓ﴾: أي: خِلافُكُمْ وعداؤُكُم لي. **الشِّقَاقُ**: الْخِلَافُ، والْعِدَاءُ الَّذي يَكُونُ مَعَهُ الْمُعَادِي فِي شِقٍّ مُضادٍّ لِشِقِّ عَدُوِّه، وفي جِهَةٍ وَنَاحِيَةٍ مُبَايِنَةٍ لِجِهَتِهِ وَنَاحِيَتِه.

دلَّ البيانُ في هَـٰذه الآيةِ على أنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلامُ رأىٰ أَنَّ قَوْمَهُ

يُصَعِّدُون مِنْ مَوَاقِفِ عِدَائِهِمْ لَهُ، ولِلَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فوَجَّهَ لهم التَّحْذِيرَ مِنْ أنْ تَحْمِلَهُمْ مُعَادَاتُهُمْ ومُشَاقَّتُهُمْ له على الإصْرار على شِرْكِيَّاتِهِمْ، وارْتِكَابِ جَرَائِمِهم الاجتماعِيَّةِ الْعُدْوانيَّةِ الظَّالِمَةِ، الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِها الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ، الَّذِي أصَابَ الْأقوامَ الَّذِينَ أهْلَكَهُمْ اللهُ مِنْ قَبْلِهِم إهلاكاً جَمَاعِيًّا اسْتَأْصَلَهُمْ به.

أي: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا فِي نُفوسِكُمْ مِنْ مُخَالَفَتِي وَمُعَاداتِي، حَتَّىٰ ظَهَرَ في أعْمَالِكُمْ الاسْتِعْدَادُ والتَّهَيُّؤُ للانْتِقَامِ مِنِّي ومِنَ الَّذِين آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي، عَلَىٰ الإصرارِ عَلَىٰ الْبَاطِلِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ، والإصْرَارِ عَلَىٰ الجرائِمِ الَّتِي تَرْتَكِبُونَها، والْقِيَامِ بأعْمَالٍ إجْرَامِيَّةٍ ضِدَّنا، فَهَـٰذا الإصْرَارُ سَيُسَبِّبُ لَكُمُ اسْتِحْقَاقَ الإِهْلَاكِ الشَّامِلِ، الَّذِي اسْتَحَقَّهُ الْمُهْلَكُونَ السَّابِقُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَيُصِيبكُمْ مِثْلُ العذاب والْهَلَاكِ الجماعِيّ الَّذِي أصَابَ قَوْمَ نُوحٍ، أو قَوْمَ هُود، أو قَوْمَ صَالِحٍ، أوْ قَوْمَ لُوطٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ بِبَعِيدِينَ مِنْكُمْ زَمَاناً في الماضي، ولا مَكَاناً فِي الأرض.

جاءت كلمة «بَعِيدٍ» في خبر «قوم لوط» بَدَل بَعِيدِين، معامَلَةً لوزن «فعِيلٍ بمعنى فاعل» معامَلَةَ مَا يَسْتَوِي فِيه المفرد والمثنىٰ والْجَمْعُ والمذكر والمؤنّث، إذا كان بمَعْنَىٰ اسْمِ المفعول، مثل «جَرِيح» وقَدْ جَاءَ في القرآن المجيد نَظِيرُ هذا الاسْتعمال في كَلِمَاتٍ مِنها: «قليل، وكثير، وظهير، ورفيق، وشَدِيد، ووكيل، وصَدِيق، وفَرِيق»⁽¹⁾.

والمعنى: فاحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أصَابَ قَوْمَ نُوحٍ مِن إغْرَاقٍ شَامِلٍ أَهْلَكَهُمُ اللهُ به، أَوْ أَنْ يُصِيبَكُم مِثْلُ مَا أصَابَ قَوْمَ هُودٍ الَّذِينَ

---

(١) يَبْدو لِي أنَّ شَرْط النحاة في هذا شرطٌ أغْلَبِيٌّ، وليس شرطاً لازماً دواماً، إذْ هَـٰذا العدد من الكلمات القرآنِيَّة الَّتي استوى فيها المفرد والمذكر وغيرهما مع أنَّها بمعنى اسم الفاعل، يَدُلُّ على أنَّ شرطهم غير لازم.

أهْلَكَهُم الله بِرِيح صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، أَوْ أَنْ يُصِيبكُمْ مِثْلُ مَا أَصابَ قَوْمَ صَالِح الَّذِينَ أهْلَكَهُمُ اللهُ بالصَّيْحَةِ الَّتِي رَافقَتْها زَلْزَلَةٌ وصَاعِقَةٌ، أَوْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ الْقَوْمَ الْقَرِيبِينَ مِنْكُمْ زَمَاناً وَمَكَاناً، الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، وبِصَيْحَةٍ، وَبِبُرْكانٍ قَلَبَ بِهِ أرْضَهُمْ، فَجَعَلَ عَالِيهَا سَافِلَهَا، وهم قوم لوط.

البيان السادس: دَلَّ عَلَيْهِ قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِمَا قَالَهُ شُعَيب عليه السلام لِقَوْمِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾:

- ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: أي: وادْعُوا رَبَّكُمْ طَالِبِينَ مِنه أنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ما سَبَقَ أنِ ارْتَكَبْتُمْ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ وَجَرائِمَ وآثام.

الْغَفْرُ: السَّتْرُ، ويَلْزَمُ مِنْ طَلَبِ سَتْرِ الذُّنُوب طَلَبُ التجاوُزِ عَنِ المؤاخَذَةِ عَلَيْها.

- ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ الاسْتِغْفَارِ الصادِقِ الَّذِي تَطْمَئِنُّ إلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، جاهِدُوا أنْفُسَكُمْ جِهَاداً شَاقًّا في زَمَنٍ طَوِيلٍ، حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إلى رَبِّكُمْ، بِالْقِيَامِ بالأَعْمَالِ الصَّالِحَة، وبِتَرْكِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ المُتَأَصِّلَةِ فِي عَادَاتِكُمْ، شيئاً فشَيْئاً، مُتَحَمِّلِينَ مَشَقَاتِ مُخَالَفَةِ عَاداتِكُمْ، ومُصَارَعَةِ أهْوائِكُمْ وَشَهَواتِكُمْ، والتَّغَلُّبِ عَلَىٰ عَقَبَاتِ نُفُوسِكُمْ واقْتِحَامِها.

- ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: في هَٰذِهِ الْجُمْلَةِ المتَضَمِّنَةِ الثَّنَاءَ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بأنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ، إطْماعٌ لَهُمْ بألَّا يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ مَهْمَا أسْرَفُوا عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ قَبلَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا وَيَتُوبُوا، وَبِأَنْ لَا يَقْنَطُوا مِنْ أَنْ يُحِيطَهُمُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ بِوُدِّهِ، إِذَا اسْتَغْفَرُوهُ ثُمَّ تَابُوا إِلَيْهِ شيئاً فَشَيْئاً، حَتَّىٰ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الاستقامَةِ عَلَىٰ صِرَاطِهِ الّذي أَبَانَهُ لِعِبادِه، فِيما أَنْزَلَ عَلَىٰ رُسُلِهِ.

﴿رَحِيمٌ﴾: صِيغَةُ تَكْثِيرٍ لاسم الفاعل «رَاحِم» أي: ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ بَالِغَةٍ الْغَايَة.

الرَّحْمَةُ: صِفَةٌ نَفسِيَّةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، نُثْبِتُهَا لَهُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيم سُلْطَانه، ومن آثارها: الْغُفْرَانُ والْعَفْوُ، والعطاءُ والمعُونَة، والتَّوْفِيقُ في الْأُمور، وإِزَالَةُ الْبُؤْسِ والمَكارِه، والإمْدَادُ بمَا يَسُرُّ، وبمَا تَسْكُنُ به النَّفس، ويَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْب، ويُمْتِعُ ذَا الحياةِ بمَا يَطِيبُ لَدَيْهِ، ويَهَبُهُ مَا يُلَبِّي حَاجَاتِه، ويَكُفُّ عَنْهُ الشَّرَّ والضُّرَّ والسُّوءَ والْأَذَىٰ، ويَهْدِيهِ إلى ما فيه خَيْرُهُ وسَعَادَتُهُ في عاجِلِ أمْرِهِ وعَاجِلِهِ، ويُبَيِّنُ لَهُ مَا فِيهِ شَرٌّ لَهُ وضُرٌّ وَأذىً لِيَجْتَنِبَهُ، ونحو ذلك.

- ﴿وَدُودٌ﴾: صِيغَةُ تَكْثِيرٍ لاسْمِ الفاعِلِ مِنْ فِعْل «وَدَّ».

الْوُدُّ: نَوْعٌ مِنَ الْحُبِّ الْهَادِئِ الثابِتِ النَّافع. **والْوَدُود**: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، فَمَنْ وَدَّهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَفَاضَ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِهِ بِحَسَبِ حِكْمَتِه، وادَّخَرَ لَهُ السَّعَادَةَ الْعُظْمَىٰ إلَىٰ يَوْمِ الدين.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّناً لقَطَاتٍ مِنْ مَرْحَلَةِ تَهْدِيدِ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ له:

- ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾:

- في يَاءَ المتكلّم مِنْ: ﴿أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ﴾ قراءتان: فَتْحُ هَـٰذِهِ الياء، وإسكانُهَا مَعَ المدّ في الوصل.

- وفي: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ قراءَتَان: بالإفراد، وبالجمع [**مَكَانَاتِكُمْ**] ومُؤَدَّىٰ

القراءتين واحد؛ لأنَّ اسْمَ الْجِنْسِ إِذَا أُضِيفَ إِلى مَعْرِفَةٍ كَانَ بِقُوَّةِ الْجَمْعِ.

أَحسَّ قَوْمُ شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ بالْعَجْزِ الكامِلِ عَنْ مُقَابَلَةِ حُجَجِهِ الْقَوِيَّةِ، بِمَا يَقِفُ مَعَهَا مَوْقِفَ النِّدِّ، ولَوْ في جَوْلَةٍ واحِدَةٍ مِنْ جَوْلَاتِ الصِّرَاعِ الْفِكْرِيّ، فَلَجَؤُوا إِلَىٰ تَهْدِيدِه بالْقَتْلِ رَجْماً بالحجارة، لَكِنَّ لَهُ رَهْطاً مِنْ عَشِيرتِهِ لَا يُرِيدُون إسْخَاطَهُمْ، وهُمْ عَلَىٰ مِلَّتِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ بِحَسَبِ عَادَاتِهِم الْعَشَائِرِيَّة يَنْصُرُونَ شُعَيْباً نُصْرَةً عَصَبِيَّةً جاهِلِيَّة، فَهُمْ يَحْفَظُونَ لِعَشِيرَتِهِ كرامَتَهُمْ.

لَقَدْ أَوْقَفُوا المناظَرَةَ القائِمَةَ عَلَىٰ الْفِكْرِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِهِمْ شُعَيْب عليه السلام، مُتَّهِمِينَ إيَّاهُ بِأَنَّهُ يَقُولُ كَلاماً لَا يَفْقَهُونَ كَثِيراً مِنْهُ، فَلَا فَائِدَةَ مِنْ مُتَابَعَةِ المناظرات الفِكْرِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَه.

وفي الآيَةِ (٩١) إيجازٌ لِأَرْبَعِ مَقُولَاتٍ وَجَّهُوهَا له:

المقولَةُ الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾:

أي: مَا نَفْهَمُ كثيراً مِنْ أقوالِكَ الَّتي تَقُولُها لَنا، فَلَا فَائِدَةَ مِنْ مُتابَعَةِ الحديث الجدَلِيِّ مَعَكَ، فاقْطَعْ كَلَامَكَ مَعَنا. ﴿نَفْقَهُ﴾ هنا هي بمَعْنَى «نَفْهم». وهذا الْقَوْلُ يَدُلُّ دَلالَةً صَرِيحَةً عَلَىٰ هُرُوبِهِمْ مِنْ الْمَعْرَكَة الْفِكْرِيَّةِ، بادِّعَاء أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ كثيراً ممَّا يَقولُ فِي مُنَاظَرَاتِهِ لهم.

إِنَّهُمْ فِي الحقيقَةِ قَدْ هُزِمُوا في معارِكِ الْفِكْرِ والمناظَرَةِ والْبَيان، وَلِهَذا تَحوَّلُوا إِلَىٰ مَعْرَكَةِ الْقُوىٰ المادّيَّةِ الَّتي يَمْلِكُونَ مِنْهَا ما لَا يَمْلِكُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

المقولَة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾:

هَـٰذِهِ الجملة فيها توكيد بثَلاثَةِ مُؤَكِّدات: «إنَّ ـ الْجُمْلَة الاسمية ـ اللَّامُ المزَحْلَقة إلىٰ الخبر».

أي: نُؤَكِّدُ لَكَ يا شُعَيْبُ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّكَ ضَعِيفٌ فِينا، فَلَا قُوَّة لَكَ تَسْتَطِيعُ بِها مُواجَهَةَ قُوانَا، إذَا أَرَدْنَا قَتْلَكَ رَجْماً بالحجَارَةِ، لنتَخَلَّصَ مِنْكَ وَمِنْ دَعْوَتِكَ، فَقَدْ وَصَلَ أَمْرُكَ مَعَنَا إِلَىٰ أقْصَىٰ مَا نَحْتَمِلُ مِنْكَ، ولَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْكَ بِوَسِيلَةٍ مَا.

وفي هَـٰذا تَهْدِيدٌ قَوِيٌّ لَهُ بِأَنَّهُم قَدْ بَدَؤُوا يُفَكِّرُونَ تَفْكِيراً جِدِّيًّا باسْتِخْدَام الْقُوَّةِ لإيقَافِ دَعْوَتِهِ، خَوْفاً مِنِ انْتِشَارِهَا بَيْنَ جماهِيرِهم.

المقولَة الثالثة: دَلَّت عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾:

﴿رَهْطُكَ﴾: رَهْطُ الرَّجُلِ عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ في قَوْمِهِ، وهَـٰذا هُو المرادُ هنا، وقَدْ يُرادُ برَهْطِ الرَّجُلِ قبيلَتُه، وقَدْ يُراد بهم قَوْمُه.

﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾: أي: لَقَتَلْنَاكَ رَجْماً بالحجارة، وهَـٰذِهِ عَادَةُ الشُّعُوبِ قَدِيماً إذَا خَرَجَ خَارِجٌ عَلَىٰ قَوْمِهِ رَجَمُوهُ بالْحِجَارَةِ حَتَّىٰ الموْت.

في هَـٰذِهِ العبارة إعْلَانُ غايَةِ الْعِدَاء، إذْ فيها دَلَالَةٌ علىٰ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ بِنَظَرِهِمْ إلى حالَةٍ يَسْتَحِقُّ فِيهَا أَنْ يُقْتَلَ رَجْماً بالحجارَةِ، تَنْكِيلاً به، وعِقَاباً له، لَوْلَا أَنَّ لَهُ عَشِيرَةً عَزِيزَةً على نُفُوسِهِمْ، وهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يُسْخِطُوهُمْ مُثِيرِينَ فِيهِمْ عَصَبِيَّتَهُمُ الْقَبَلِيَّة، ولَوْ كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِرِسَالَتِه، ولَا بمَا جاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، إذْ مِنْ عَادَةِ القبائِلِ والْعَشَائِرِ أَنْ تَحْمِيَ الرَّجُلَ مِنْهَا بِدَافِعِ الْعَصَبِيَّة، ولَوْ خَرَجَ عَنْ مِلَّتِهَا وَلَمْ يَلْتَزِم طَرِيقَتَهَا.

المقولَةُ الرّابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارَة: ﴿. . . وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾﴾:

أي: وَمَا أَنْتَ بذِي كَرَامَةٍ تَسْتَحِقُّهَا عَلَيْنَا حَتَّىٰ نُكْرِمَكَ عَنِ الرَّجْم مِنْ أجْلِهَا، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْكَ مِنْ خُرُوجٍ عَنْ مِلَّتِنَا، ومُخَالَفَةٍ لِطَرِيقَتِنا، واتِّخاذِ دِينٍ يُعَارِضُ دِينَنَا، وتَجَمُّعُ عَلَيْهِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ مِنْ قَوْمِنَا، حَتَّىٰ يكونُوا خارِجين علينا.

لَكِنَّ رَهْطَكَ وهُمْ عَشِيرَتُكَ الْأَقْرَبُونَ أعِزَّاءُ عَلَيْنَا، ذَوُو كرامَةٍ بَيْنَنا، ونَحْنُ حَرِيصُونَ عَلَىٰ أَنْ لا نَجرَحَ كَرامَتَهُمْ بَيْنَنَا، وَلَا نُؤْذِيَ مَشاعِرَهُمْ، ولَا أَنْ نُهِينَهُمْ بقَتْلِكَ.

العزيز: يأتي في اللّغة بمعنى القَويّ الغالِبِ الَّذِي لَا يُغْلَبُ. تقولُ الْعَرَبُ: «مَنْ عَزَّ بَزَّ» أي: مَنْ غَلَبَ سَلَب.

ويأتي بمَعْنَىٰ ذي الكرامَةِ الَّذِي لَا يَصِحُّ أنْ تُهانَ كَرَامَتُهُ، وهذا المعنى هو المراد هنا.

فأجاب شُعيبٌ عليه السَّلام على مَقُولات قومِهِ الأرْبَعِ بِتِسْعِ مَقُولَاتٍ جاء إيجازُها في الآيَتَيْنِ (٩٢) و(٩٣).

لم يَكْتَرِثْ شُعَيبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِتَهْدِيدَاتِ كُبَرَاء قَوْمِهِ وَوَعِيدِهِم، بل اسْتَمَرَّ يُوَاجِهُهُمْ بِمَقُولَاتِهِ الإقْنَاعِيَّة، لَكِنَّهُ ارْتَقَىٰ بِها إلى أسْلُوب التَّثْرِيبِ والتَّلْوِيمِ والتَّعْنِيفِ، واتَّخَذَ مَعَهُمْ مَوْقِفَ الْمُتَحَدِّي المنْذِر، الْمُتَرَقِّبِ الصَّامِدِ المتَوَكِّل عَلَىٰ رَبِّه.

وفيما يَلي تَدَبُّرٌ لِمَقُولَاتِهِ التِّسْعِ لهم:

المقولَةُ الأُولَىٰ: دَلَّتْ عَلَيْها عبارَة: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟!.

أي: أعَشِيرَتِي الْأَقْرَبُونَ الَّذِينَ هُمْ عَبِيدٌ للهِ مِثْلُكُمْ، وخَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، أكْرَمُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ رَبِّكُمْ، الَّذي يُمِدُّكُمْ دواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبيّته، والّذي أَرْسَلَنِي رَسُولاً إلَيْكُمْ، فَهُوَ يَحْمِينِي وَيَصُونُنِي وَيُنْجِينِي مِنْ شُرُورِكُم؟!!.

إنَّ هَـٰذا مِنْكُمْ لَأَمْرٌ يَسْتَدْعِي أشَدَّ الْعَجب، لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَفْرُوضِ فيكُمْ وأنْتُمْ تَدَّعُونَ الْعَقْلَ والرُّشْدَ والْحِكْمَة، وَتَزْعُمونَ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَ

مَوْرُوثَاتِكُمُ الدِّينِيَّةَ الْبَاقِيَةَ فِيكُمْ مِنْ مِلَّةِ جَدِّكُمْ مَدْيَنَ بْنِ إبراهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السَّلام، أَنْ يَكُونَ اللهُ جَلَّ جَلاَلُهُ أَعَزَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَنُفُوسِكُمْ مِنْ كُلِّ عَزِيزٍ، وأَكْرَمَ عِنْدَكُمْ مِنْ كُلِّ ذي كرامَة، فَمَا أَنَا إلَّا رَسُولٌ مِنْكُمْ، أَدْعُوكُمْ إلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، وأَدْعُوكُمْ إلَىٰ طَاعَتِهِ، واجْتِنَابِ ظُلْم الْعِبَادِ، فَمَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَصِحُّ في الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ أَنْ تُنْكِرُوهُ مِنْ دَعْوَتِي.

الْمَقُولَةُ الثَّانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارَة: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾:

أي: واتَّخَذْتُمْ دِينَ اللهِ وَأَوامِرَهُ وَشَرَائِعَهُ وَمَطَالِبَهُ مِنْكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ وَرءاَكم، فَجَعَلْتُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ظِهْرِيًّا، أي: مَنْبُوذاً مَنْسِيًّا مَتْرُوكاً وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ.

الظِّهْرِيُّ: هو في اللُّغة الشَّيْءُ المُحْتَقَرُ المَنْبُوذُ وَرَاءَ الظَّهْرِ، المتْرُوكُ المنْسِيُّ المسْتَهَانُ به.

والْيَاءُ في كلمة «ظِهرِيّ» هي يَاءَ النَّسَب، فالظِّهْرِيُّ هُوَ المنْسُوبُ إلَىٰ الظَّهْرِ، وكَسْرُ الظَّاءِ جَاءَ مِنْ تَغْيِيرات النَّسَبِ الَّذِي يرِدُ عَلَىٰ غَيْرِ قياسٍ، كَمَا قَالُوا فِي النَّسَبِ إلىٰ «دَهْرٍ» دُهْرِيّ بضَمّ الدَّال، وفي النِّسْبَةِ إلَىٰ «أَمْسِ» إمْسِيٌّ، بِكَسْرِ الْهَمْزَة.

المقولَة الثالِثَة: دَلَّتْ عَلَيْها عِبارَة: ﴿... إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾:

أي: إنَّ مَا تَعْمَلُونَهُ مِمَّا يُسْخِطُ رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ، وَمَا تَعْمَلُونَهُ مِنْ تَدْبيراتٍ لِقَمْعِ رَسُولِهِ، ولِقَمْعِ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ ونَصَرُوهُ، وللتَّنْكِيلِ بِهِمْ، وَمَا تَعْمَلُونَهُ لإيقافِ امْتِدَادِ الاسْتِجَابَةِ لِدِينِهِ، أَعْمَالٌ يُحِيطُ بها اللهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ ـ إِحَاطَةً تَامَّةً، بِعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَسَائِرِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

إنَّ الدّينَ دِينُهُ، وإنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لَهُ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ،

وَالْمُؤْمِنُونَ بِي مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَنَحْنُ جَمِيعاً نُفَوِّضُ أُمورَنَا إِلَيْهِ، وهو حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكيل.

المقولَةُ الرابعَة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾:

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: عَلَىٰ مَوْضِعِكُمْ وَجِهَتِكُم وَنَاحِيَتِكُمْ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا لِنُفُوسِكُم، المشَاقَّةِ والْمُعَادِيَةِ لِي وَلِدِينِي وللَّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي.

المكانَةُ: مُؤَنَّثُ المكَانِ، تُطْلَقُ عَلَىٰ الموضِعِ المادّيّ أوْ الْمَعْنَوِيّ، وتُطْلَقُ عَلَىٰ المنزلَة، والمرادُ هُنَا الموضع.

والمعنى: ويَا قَوْمِ اعْمَلُوا وأَنْتُمْ على مَوضِعِكُمْ وجِهَتِكُمْ ونَاحِيَتِكُمْ الْمُشَاقَّةِ لِي، والنَّائِيَةِ عَنْ مَوضِعِ الحقِّ، وهِيَ المكانَةُ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا لِنُفُوسِكم.

اعْمَلُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ عَمَلَهُ ضِدِّي، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِي، وضِدَّ رِسَالَةِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ.

ولا يَخْفَىٰ مَا فِي هَـٰذِهِ المَقُولَةِ مِنْ تَحَدٍّ لَهُمْ أنْ يَفْعَلُوا مَا يَشَاءُونَ غَيْرَ عَابِئٍ بِتَدْبِيرَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

المقولة السادسة: دَلَّت عَلَيْها عبارَة: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾:

أي: إنِّي مُتَابِعٌ القِيامَ بِعَمَلِي، علىٰ وفْقِ مَا أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي، وَعَلَىٰ وفْقِ مَا تَقْتَضِيهِ مِنِّي رِسَالَتِي، فَلَا أَتَوَقَّفُ، مع مُلَازَمَةِ مَكَانَتِي المضَادَّةِ والمُشَاقَّةِ لِمَكَانَتِكُمْ، حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

ولا يَخْفَىٰ أَيْضاً مَا فِي هَـٰذِهِ المقولَةِ مِنْ أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَتَحَدَّىٰ كُبَرَاءَ كُفَّارِ قَوْمِهِ، بِأَنَّهُ لَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ دَعْوَتِهِ، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ كُلِّ تَهْدِيداتِهِمْ وَتَدْبِيراتِهِم الكَيْدِيَّة.

المقولَةُ السابعَة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾:

من الظاهِرِ في هَـٰذِهِ المقُولَةِ أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلامُ يُنْذِرُ كُفَّارَ قَوْمِهِ بأسْلُوبِ التَّلْوِيحِ لَا التَّصْرِيحِ، بأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِين سَوْفَ يَنْزِلُ بِهِمْ الْعَذَابُ الَّذِي يُخْزِيهِمْ، عِقَاباً لَهُمْ مِنْ رَبّهِم.

الْخِزْيُ: الذُّلُّ والْهَوَانُ، والافْتِضَاحُ بالقبائِحِ والآثامِ المخْجِلَةِ الَّتِي تَجْلُبُ العقوبات الْمُهِينَاتِ المُذِلَّاتِ.

ويُطْلَقُ الخِزْيُ عَلَىٰ الوقُوعِ في الشّرِّ والْعَذاب، والْبَلَايَا والنَّكَبَاتِ المصحوباتِ بِذُلٍّ وهوان.

اسْتِعْمَالُ شُعَيْب عليه السلام حرْف «سَوْف» دون حرف «السّين» احتياطٌ ذَكِيٌّ مِنْه، إذْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ عِلْمٌ بِقُرْبِ وقْتِ وقُوع الْعَذاب الْمُخْزِي بِقَومِهِ، الذي سَيَأْتِيهِمْ مِنْ رَبّهم.

أكثر مَا يُسْتَعْمَلُ حَرْفُ «سَوْف» في القرآن المجيد، لِلدَّلَالَة عَلَىٰ مَا سَوْفَ يَكُونُ يَوْم الدّين، أو في المستقبل البعيد جدًّا.

المقولة الثامنةُ: دَلَّتْ عَلْيها عبارة: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾:

أي: وسَوْفَ تَعْلَمُونَ حِينَما يَنْزِلُ عليكم عَذَابُ اللهِ المخْزِي، مَنْ هُوَ كَاذِبٌ في ادِّعَاءِ أَنَّهُ عَلىٰ حَقٍّ، وأَنَّهُ يَنْصُرُ دِينَ اللهِ بِحَقٍّ وصِدْق.

هَـٰذا الْبَيَانُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قَوْمَ شعَيْب عليه السَّلامُ، كانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ الحقّ، وأَنَّهُمْ يَنْصُرُونَ دِينَ اللهِ الموروُث عَنْ آبائِهِمْ، إِلَىٰ جَدِّهِمْ مَدْيَنَ بْنِ إبراهيم عَلَيْهِ السلام.

وفي هَـٰذا الْبَيَانِ تَلْوِيحٌ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ.

المقولَةُ التاسعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿... وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: وانْتَظِرُوا انْتِظارَ الْمُراقِبِ بِكُلِّ حَواسِّهِ، لِكُلِّ ما تَأْتِي بِهِ أحْداثُ المستَقْبَلِ، إنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ لِهَـٰذِهِ الأحداثِ.

إنَّهُ لَا يَتَحَدَّىٰ مِثْلَ هَـٰذا التَّحَدِّي إلَّا مَنْ كَانَ عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ رَبِّهِ بأنَّهُ سَيَنْصُرُهُ، وسَيَخْذُلُ وَيُخْزِي عَدُوَّهُ بالْعَذَابِ الأَلِيمِ الْمُهِين.

وَلَقَدْ وَجَّهَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَقُولَاتِهِ هَـٰذِهِ لِكُبَرَاءِ كُفَّارِ قَوْمِهِ، وَذَوِي السُّلْطَةِ الإدَارِيَّةِ فِيهِم، بِقَلْبٍ ثَابِتٍ شُجَاعٍ، ونفْسٍ مُطْمَئِنَّة واثِقَةٍ بِنَصْرِ اللهِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَىٰ، الحَكِيمِ الْقَدِيرِ، المنْتَقِمِ الْجَبَّارِ.

قول الله عَزَّ وجَلَّ مُبيِّناً تَنْجِيَةَ شُعَيْبٍ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِهِ، وإهلاكَ كُفَّارَ قَوْمِهِ:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: ولمَّا جاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أمْرِنَا الَّذِي قَضَيْنَاهُ بَتَنْجِيَةِ شُعَيْبٍ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وبإهْلَاكِ سائر قَوْمِهِ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ.

- ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾:

النَّجَاةُ: الْخَلَاصُ مِنَ الْمَكْرُوه.

أي: خَلَّصْنَا الَّذِينَ قَضَيْنَا أَنْ نُخَلِّصَهُمْ مِنَ الإهْلَاك، وهُمْ شُعَيْبٌ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بِوَسِيلَةٍ هِيَ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِنَا.

- ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾: أي: وقَبَضَتِ الصَّيْحَةُ عَلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا، وهُمْ كُفَّارُ قَوْمِ شُعَيْبٍ عليه السلام، قَبْضَةَ تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ.

الصَّيْحَةُ: صَوْتٌ عَظِيمٌ مُمِيت.

اخْتِيرَتْ عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ ظُلْمَهُمْ كَانَ هُوَ السَّبَبَ فِي تَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِهِمْ.

- ﴿... فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿فَأَصْبَحُواْ﴾: أي: فَدَخلُوا في صَباحِ الْيَوْمِ الْمُقَرَّر أنْ يُهْلِكَهُمْ اللهُ فيه.

﴿فِي دِيَٰرِهِمْ﴾: أي: في قُراهُمْ وأمَاكِنِ تَجمُّعِهِمُ المتَعَدِّدَةِ المتفَرِّقَة.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لَاصِقِينَ بالْأَرْضِ عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، مُلَازِمينَ أمْكِنَتَهُمْ هَلْكَىٰ، بَعْدَ أَنْ ذَاقُوا عَذاباً أَليماً، جَزَاءَ مَا كَانُوا فِيه مِنْ تَعَالٍ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِن اسْتِكْبَارٍ عَلَىٰ بَارِئِهِمْ وَرَسُولِهِ.

- ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾:

أي: فَصارَتْ حَالَتُهُمْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَا نَزَلَ، تُشبِهُ حَالَةَ الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ إِقَامَةٌ ما فِي دِيَارِهِمْ، وهَـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ اسْتِئْصَالِ وُجُودِ أَجْسَادِهِمُ الْهَلْكَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ، وَطَمْسِ كُلِّ آثَارٍ لَهُمْ فيها.

يُقَالُ لُغة: «غَنِيَ بالمكانِ، يَغْنَىٰ، غِنًى، وغَنَاءً» أيْ: أقَامَ فِيه. ويُقَالُ: «غَنِيَ الْقَوْمُ بالْمَكَانِ» أيْ: طَالَ مُقَامُهُمْ فِيه.

والمغْنَىٰ: الْمَنْزِلُ الَّذِي غَنِيَ بِهِ أَهْلُهُ، وجَمْعُه: «المغاني».

- ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿أَلَا﴾ أداةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتنبيهٍ، وتَحْقِيق.

والْمَعْنَىٰ: ألا طَرْداً لِكُفَّارِ مَدْيَنَ، مِنْ كُلِّ مَوَاقِعِ نُزُول آثار الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَعُمُّ كُلَّ شَيْءٍ صَالحٍ لِتَلَقِّي آثار رَحْمَةِ اللهِ، والسَّبَبُ في هَـٰذا أَنَّهُمْ أبْعَدُوا نُفُوسَهُمْ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ رَحمات الرَّحْمٰنِ، بإرادَاتِهِمُ الحرَّة، فاسْتَحَقُّوا الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ بالْإِبْعَادِ والطَّرْدِ.

لفظ «بُعْداً» مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

يُقَالُ لُغَةً: «بَعِدَ، يَبْعَدُ بَعْداً» ضِدُّ قَرُبَ، ويأتِي بِمَعْنَىٰ: «هَلَكَ» ويُقَال أيضاً: «بَعُدَ، يَبْعُدُ، بُعْداً».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الخامس، من الدرس السادس من دُرُوس سورة (هُود).

والحمد للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وفَتْحِهِ وَتَوْفِيقه.

* * *

الفصل السادس من الدرس السادس من دُرُوس سورة (هود)
لقطات مُوجَزات من قصّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ وفِرْعَوْن
الآيات من (٩٦ ـ ٩٩)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾:

تمهيد:

في هَـٰذِهِ الآياتِ الأربع لقطاتٌ مُوجَزاتٌ جِدًّا مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَفِرْعَوْنَ فِي مِصر، جاء تَفْصِيلُها في نُصُوصٍ كثيرة مُوزَّعَةٍ في سُوَر القرآن الْمَجِيد، والْغَرَضُ مِن إيرادِهَا مُوجَزَةً في هَـٰذِهِ السُّورَةِ، تَذْكِيرُ المقْصُودِينَ بالْمُعَالَجَةِ بالتَّرْهِيب، وهُمْ كُبَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيشٍ، ضَغْطاً عَلَىٰ نوازِعِ الكِبْرِ فِيهِمْ، الّذِي لَمْ يَبْلُغُوا فِيهِ مَبْلَغَ فِرْعَوْنَ، ولَيْسَ لَهُمْ فِي الْعَرَبِ مِثْلُ ما كانَ لِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ مِنْ قُوَّةٍ وجَبَرُوتٍ وَسُلْطَانٍ ومُلْكٍ كَبِيرٍ، فَلَمْ

يُغْنِهِمْ كُلُّ ذَلِكَ شيئاً حِينَ جَاءَ أَمْرُ اللهِ بإهْلاكِهِمْ غَرَقاً، ثُمَّ مَا سَيَنَالُونَهُ يَوْم الْقِيَامَةِ مِنْ عذابٍ أليمٍ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها، مَلْعُونينَ مَطْرُودين مِنْ كُلِّ مَوَاقِعِ رَحمَاتِ اللهِ الَّتِي تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يَتعَرَّضُ لَهَا بإرادَتِهِ الْحُرَّة، وَلَا يُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنْها بِكُفْرِهِ وكِبْرِهِ وجرائِمه الكُبْرَىٰ، ومعانَدَتِهِ لِرَبّه، ومَعْصِيَتِهِ له، ومُحَادَّةِ رُسُلِهِ وأَوْلِيَائِهِ مِنَ المؤمنين.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾: اللام واقعة في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ كَمَا يَقُولُ النحاة، وحرف «قَدْ» للتحقيق، وجاء البيانُ مُؤَكّداً لِأَنَّهُ مُوَجَّهٌ لمعالَجَةِ أَئِمَّةِ مُشْرِكِي مَكَّة.

- ﴿... أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾:

الآيات: تُطْلَقُ عَلَىٰ الآياتِ الكونية، والآياتِ الإعجازيّةِ، والآياتِ الجزائِيَّة، والآيَاتِ الْبَيانِيَّة. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: مَصْحُوباً بآياتنا.

السُّلْطَانُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْحُجَّةِ الدَّامِغَة الَّتِي لَا دَفْعَ لها، ويُطْلَقُ على الْقُوَّةِ الْقَاهِرَة، وتَدْخُلُ الآياتُ الإعجازِيَّةُ في عُمُومِ الْقُوَّةِ القاهِرَة.

لفظ «مُبين»: يأتي بمَعْنَىٰ الواضِح الجليّ في ذاته، ويأتي بِمَعْنَىٰ الْمُبِينِ الموضِحِ لغَيْرِه. ويَصْلُحُ اللَّفْظُ هُنَا للدَّلَالَة على المعنَيَيْن فَيُحْمَلُ عَلَيْهما.

وقَدْ دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ قَدْ أرسَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام مصحوباً بالآياتِ الْبَيَانِيَّةِ، وبالآيات الإعْجازِية، وبِسُلْطَانٍ مُبِينٍ مِنَ الحجج والْبَرَاهِينِ الكاشِفَةِ لِلْحَقِّ، وبِخَوارِقَ إعْجازِيَّةٍ ذَوَاتِ قُوىً قاهِرَة. ومنها آية العصا.

- ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾:

أي إلى فِرْعونَ الَّذي كان مَلِكَ مِصْرَ حِينَ كَلَّمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مُوسَىٰ، واصْطَفَاهُ نَبيّاً وَرَسُولاً، وآتَاهُ آياتٍ من لَدُنْهُ وسُلْطَاناً مُبيناً، وإلى مَلَئِهِ، وهُمْ أعْيَانُ قَوْمِهِ وسَاداتُهُمْ وأشْرَافُهُمُ الّذِين يَمْلَؤُونَ عُيونَ العَامَّة.

فاتَّبعَ الْمَلأُ أمْرَ سَيِّدِهِمُ الْمَلِكِ فِرْعَوْنَ، وتَبِعَهُمْ مِنْ ورائِهِمْ المصريُّونَ طائِعِينَ، إذْ كَانُوا ذَوِي خُضُوعٍ كامِلٍ لِسُلْطَانِ فِرْعَوْن.

أمْرُ فِرْعَوْن: شَأْنُهُ، وتَكْلِيفُهُ فِيمَا يأمُرُ به، أَوْ يَنْهَىٰ عَنْهُ، فَقَدْ كانُوا عَلَىٰ دِينِهِ، ويَعْمَلُونَ مِثْلَ أعْمالِهِ اتِّباعاً تَقْلِيديًّا، وكانُوا يُنَفِّذُونَ أَوَامِرَهُ ونواهِيَهُ طاعَةً لَهُ.

الْأَمْرُ التكليفيُّ يَشْمَلُ النَّهْيَ؛ لأنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بضِدِّهِ.

﴿... وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾: أي: وَمَا شَأْنُهُ فِي دِينِهِ وأنواعِ سُلُوكِه، وَمَا أَمْرُهُ التَّكْلِيفِي بأمْرٍ مَوافِقٍ لِلْحَقِّ والْخَيْرِ والفضيلة والصَّواب والْهُدَىٰ.

﴿بِرَشِيدٍ﴾ الباء زيدَت لتوكيد عموم النفي. **رَشِيد**: أي: ذي رُشْدٍ.

الرُّشْدُ: السُّلُوكُ الفكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ، والْعَمَلِيُّ، الموافِقَ لِلْحَقِّ والصَّواب، أو لِمَا هُو الْأَفْضَلُ والْأَحْسَنُ والْأَكْثَرُ نفعاً وتَحقيقاً للمَصَالِحِ الَّتي لَا شَرَّ فيها ولَا ضُرَّ، والْأَبْعَدُ عَن الضّرَرِ والفسادِ والإفسادِ في الأرض.

قول الله عَزَّ وجَلَّ يَصِفُ لَقْطَةً مِمَّا سَوْفَ يَكُون لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ يَوْم الدِّينِ:

- ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾:

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: أي: يَأْتِي فِرْعَوْنُ يَوْمَ الدِّين مُتقدِّماً عَلَىٰ قَوْمِهِ، كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيا مُتقدِّماً عَلَيْهِمْ رِيَاسَةً ومُلْكاً وَفي الْمَسِيرات.

يُقَالُ لغة: «قَدِمَ فلانٌ، يَقْدُمُ الْقَوْمَ، قَدْماً، وقُدُوماً» أي: سَبَقَهُمْ فَصَارَ قُدَّامَهُمْ.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾: أي: فَكَانَ بِمَثَابَةِ قَائِدٍ لَهُمْ يُحْضِرُهُمْ دَارَ الْعَذَابِ النَّارَ، لفظ «النار» هو على معنَىٰ: فأوردَهُمْ «مكَانَ النّارِ» منصوبٌ على أنه ظرف مكان.

قال الْجَوْهَرِي: «أَوْرَدَ فُلَانٌ غَيْرَهُ» أي: أَحْضَرَهُ.

وفي حَدِيث أبي بَكْرٍ رضي اللهُ عنه، أنَّهُ أخذَ بِلِسَانِهِ، وقال: «هَـٰذا الَّذِي أورَدَنِي الموارد» أي: أورَدَني الموارد الْمُهْلِكَة، واحِدَتُها «مَوْرِدَة».

وقَدْ يَكُونُ المعنىٰ مأخُوذاً مِنْ وُرُودِ المَاء، يُقَالُ لغة: «أَوْرَدَ الرَّاعِي إبلَهُ الْمَاءَ» أي: جَعَلَ إبلَهُ تَصِلُ إِلَىٰ الْمَاءِ لِتَرِدَ مِنْهُ.

وهَـٰذا الاسْتِعْمَالُ الْقُرآنِيُّ هو على سبيل التهكُّم، نُزِّلَ إيرادُهُمْ إِلَىٰ دَارِ العذاب النار مُشَاةً عِطَاشاً، مَنْزِلَةَ الإبلِ الَّتِي يُورِدُهَا رَاعِيهَا الماء، لكِنَّهُمْ لَا يَرِدُونَ مَاءً يُطْفِيءُ ظَمَأَهُمْ، إنَّما يَرِدُون نَاراً مُحْرِقَةً، وَحَمِيماً فيها يُقَطِّعُ أَمْعَاءَهُمْ. **الوِرْدُ**: الماءُ الَّذِي يَرِدُ عَلَيْهِ قاصِدُه.

- ﴿. . . وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾:

﴿بِئْسَ﴾: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشَاءِ الذَّم عَلَىٰ سَبِيلِ المبالَغَة.

﴿ٱلْوِرْدُ﴾: فَاعِلُ «بِئْسَ». والمَخْصُوصُ بِالذَّمّ مَحْذُوفٌ مُلاحَظٌ تَقْدِيراً، تقديرُه: «وِرْدُهُمْ».

﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾: أي: الَّذِي سَوْفَ يَرِدُونَهُ حَتْماً يَوْم الدِّينِ، عقُوبَةً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَجَرائِمِهم.

اسْتُعْمِلَ الفِعْلُ الْمَاضِي في: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ بَعْدَ اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ المضارع في: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ عَلَىٰ سَبِيلِ الاستِقْطَاعِ مِنَ الْحَدثِ

الّذي سَوْفَ يَكُونَ لا مَحالَةَ يَوْمَ القيامَةِ، وتَقْدِيمِهِ كَأنَّهُ حَدَثٌ جَرَىٰ وصَارَتْ لَهُ صُورةٌ مشْهُورَة.

قول الله عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أيضاً:

- ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾:

﴿ٱلرِّفْدُ﴾: الْعَطاءُ والصِّلَة، أطْلِقَ عَلَىٰ مَا يُعْطَوْنَهُ مِنْ عَذَابٍ رِفْداً على سبيل التهكُّم.

أي: وَأُتْبِعَ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ الكافِرُونَ في هَـٰذِهِ الحياةِ الدُّنْيا لعنَةً عَظِيمَةً، جَعلَتْهُمْ يَذُوقُونَ الْعَذَابَ وهُمْ يَغْرَقُونَ في الْبَحْرِ، ويُطْرَدُونَ طَرْداً جَماعِيًّا مِنَ الحياة الدُّنيا أذِلاَءَ مُهانِين مَنْبُوذين خَزايا.

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ لَهُمْ نُزُلٌ في جَهَنَّمَ يُعْطَوْنَ فِيه عَطاءَ عَذَابٍ أليم، يَنالُونَهُ حَتْماً، ويُقَالُ لَهُمْ تَهكُّماً هَـٰذا رِفْدُكُمْ عند ربكم الّذِي كَفَرْتُمْ به.

وبهذا انتهىٰ تدبر الفصل السادس من الدرس السادس من دُرُوس السورة، والحمْدُ للهِ على مَعونته وتوفيقه ومَدَدِهِ وفتحه.

* * *

الفصل السَّابع من فُصول الدرس السادس

ختامٌ تَذييلي فيه مَوْعِظَةٌ وَتَذْكير بالآخِرَة وما فيها مِنْ جزاء

الآيات من (١٠٠ـ١٠٨)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

تمهيد:

اقتضَىٰ ذِكْرُ الْفُصُولِ السِّتة المتعلِّقَة بنوحٍ عليه السلام وقومِه، وهود عليه السلام وقومه، وصَالحٍ عليه السَّلام وقومِهِ، ولوطٍ عليه السلام وقومه، وشُعَيْبٍ علَيْهِ السَّلامُ وقَوْمِه، ومُوسَىٰ عليه السلام وفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ، أنْ يُعقِّبَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْها بتعقِيبٍ تَذْييليٍّ مُوَجَّهٍ أوَّلاً للمعنيّين بالْعِلَاج في السُّورَةِ، وهُمْ كُبَرَاءُ مُشْرِكي قُرَيشٍ وأتْباعُهم إبَّانَ التنزيل، ثُمَّ إلىٰ سَائِرِ الكَفَرَةِ المعانِدِينَ الْمُجْرِمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِ مَوْضوعٍ في الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عَزَّ وجَلَّ خَطاباً للرسُول ﷺ، فلِكُلِّ متلقٍّ للقرآن المجيد من بَعْدِه:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾:

- ﴿ذَٰلِكَ﴾: الـمُشَارُ باسم الإشارة هُوَ مَا سَبَقَ أَنْ قَصَّهُ اللهُ في السّورة مِن قصص نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم ولُوط، وشُعَيْبٍ ومُوسَىٰ عليهم السَّلام، والأقوام الَّذِين أُرْسِلُوا إليهم.

- ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾: أي: بَعْضٌ مِنْ أنباء الْقُرَىٰ الَّتي أَهْلَكَ اللهُ كُفَّارَها. **الْقُرَىٰ**: جمع «الْقَرْيَة» وهي كلُّ مُجَمَّعٍ سَكَنِيٍّ صغيراً كانَ أمْ كبيراً، ولَوْ كَانَ مَدِينَةً عظيمة جدًّا.

- ﴿نَقُصُّهُۥ﴾: أي: نُحَدِّثُك بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ المطابقِ للواقعِ تَماماً. يُقَالُ لغة: «قَصَّ الشَّيْءَ» أي: تَتَبَّعَ أَثَرَهُ شَيْئاً بَعْدَ شيء «قَصّاً وقَصَصاً».

- ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾: بَعْضُهَا كَنباتٍ قائمٍ عَلَىٰ سُوقِهِ، لَمْ تَمْحُهُ أحْدَاثُ إهْلَاكِ الأقوام الَّذِينَ كانُوا يَسْكُنُونَها. وهذا من التشبيه البليغ.

- ﴿وَحَصِيدٞ﴾: أي: ومِنْهَا كَنبَاتٍ مَحْصُودٍ بالمنْجَلِ سَاقِطٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ، أوْ تَالِفٍ تَذْرُوه الرِّياح أو ذَرَتْهُ ولَمْ تُبْقِ لَهُ أثراً. **الْحَصِيد**: النبات المحصود بالمنجل، وهذا من التشبيه البليغ أيْضاً.

المعنى: ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ في السُّورَةِ هُوَ بَعْضُ أنْبَاءِ الْقُرَىٰ الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا في الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، نَقُصُّهَا عَلَيْك، وَمَبَانِي هَـٰذِهِ الْقُرَىٰ الَّتِي أَهْلَكْنَا كُفَّارَهَا تُشْبِهُ زَرْعاً على أَرْضٍ، وهذا الزَّرْعُ قِسْمٌ مِنه قَائِمٌ عَلَىٰ سُوقه، وقِسْم مَحْصُودٌ سَاقِطٌ عَلَىٰ الأرْضِ، أوْ تَالِفٌ تَذْرُوهُ الرياحُ أو ذَرَتْهُ ولَمْ تُبْقِ لَهُ أثراً.

قول الله تعالى:

- ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾﴾:

- ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ يَتَحدَّثُ رَبُّنا بِضَمير المتكلّم العظيم الْقَدير عَلَىٰ ما يَشاءُ، فَيَقُولُ بشأنِ الَّذِينَ أهْلَكَهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ لِبعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ، ومُجْرِميها، أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مَا ظَلَمَهُمْ ظُلْماً ما فِيمَا أنْزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وإهْلَاك.

- ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾: نُزِّلَتْ كُلُّ أُمَّةٍ مُهْلَكَةٍ مُجْتَمِعَةٍ عَلَىٰ كُفْرِيَاتٍ وَجَرَائِمَ مُتَماثِلَة، مَنْزَلَةَ نَفْسٍ واحِدَة، فناسَبَ هَٰذا أَنْ يأتِي الْجَمْعُ جَمْعَ قِلَّة في: ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ إذِ الأمَمُ الَّذِينَ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في السّورة لقطات مِنْ قِصَصِهِمْ كَانُوا سِتَّ أُمَمٍ، وهَٰذا الْعَدَدُ يُلائِمُهُ جَمْعُ الْقِلَّة، لا جَمْعُ الكثرة: «نفوسهم».

والسَّبَبُ في أَنَّهُم ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، أَنَّهُم كَانُوا قَدْ أُنْذِرُوا بالتَّعْذِيبِ والْإِهْلَاكِ، إذا اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِيَّاتِهِمْ وَجرائِمِهِمْ ومَعْصِيَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وعلى تَمادِيهِمْ في الْغيّ، أبْلَغَهُمْ ذَلِكَ رُسُلُ رَبِّهِمْ المؤيَّدُونَ مِنْهُ بالآيَاتِ البيّنات والمعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، فاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ مَا نُهُوا عَنْه، فأوْقَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِيما أُنْذِرُوا به.

وحَالُهُمْ هذا يُشْبِهُ حَال مَنْ دَخَلَ فِي نَفقٍ مُظْلِم، وَجَدَ فِيهِ بَعْضَ لذَّاتٍ واسْتِمْتَاعَاتٍ تَسُرُّهُ وتُفْرِحُهُ، وأهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ يَنْصَحُونَهُ بأنْ لَا يَدْخُلَهُ؛ لِأَنَّ الدَّاخِلَ فِيهِ سَتُفاجِئُهُ الْمُهْلِكَاتُ والنّكَباتُ الْمُعَذِّبَاتُ عَذَاباً شَدِيداً، ثُمَّ يُشْوَىٰ بِجَسِدِه عَلَىٰ الْجَمْرِ، وَكُلَّمَا تَوَغَّلَ خُطْوَةً فِي النَّفَقِ، سَمِعَ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والتَّجْرِبَةِ يَنْصَحُونَهُ بالْخُرُوجِ، ويُحَذِّرُونَهُ مِنَ الْعَوَاقِبِ الْوَخِيمَة المؤلِمَةِ ومِنَ الْعَذَاب الشَّدِيدِ إذا لم يَخْرُج. لٰكِنَّهُ لَمْ يَعْبَأْ بِنُصْح النَّاصِحِينَ، ولا بتَحْذِيراتِ الْمُحَذِّرِينَ الرُّحَمَاءِ، واسْتَمَرَّ مُتَوَغِّلاً في النَّفَقِ، حتَّىٰ فَاجَأَهُ مَا سَبَقَ أَنْ أُنْذِرَ بِهِ، أَفَلَا يَكُونُ قَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ؟!.

مَنْ يُقَالُ لَهُ: هَٰذِهِ نَارٌ مُحْرِقَةٌ، فَلَا تَدْخُلْ فيها، وعالَجَهُ الرُّحَماءُ بِمُخْتَلَفِ الوَسَائِلِ غَيْرِ الجبْرِيَّةِ أَنْ لا يَدْخُلَها، فعَانَدَ، وَدَخلَها، فاحْتَرَقَ، أفلا يكون قَدْ ظَلَمَ نفسه؟!.

- ﴿... فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ ... ﴿١٠١﴾﴾:

أَصْلُ معنى: «أَغْنَاهُ» كَفَاهُ. والكِفَايَةُ عِنْدَ الحاجَةِ إلى مَا يَدْفَعُ المكْرُوهَ تَتَضَمَّنُ معْنَىٰ الْكَفِّ والصَّرْفِ، أي: كَفَاهُ فَصَرَفَ عَنْهُ ما يَكْرَه، فَضُمِّنَ فِعْل: «أَغْنَىٰ» مَعْنَىٰ فِعْل: «صَرَفَ» فَعُدِّي تَعْدِيَتَهُ بِحَرْفِ الجرّ «عَنْ». ورُوِيَ أَنَّ «عَلِيًّا» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بَعَثَ إِلَىٰ «عُثْمَانَ» رضيَ اللهُ عَنْهُ بِصَحِيفَة، فقال «عُثْمَانُ» للرَّسُولِ: «أَغْنِهَا عَنِّي» أي: اصْرِفْهَا عَني.

المعنى: فَمَا كَفَتْهُمْ صَارِفَةً عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ بالدُّعَاءِ وغَيْرِهِ، مِنْ شَيْءٍ مِمَّا يَكْرَهون، حِينَ جَاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أَمْرِ رَبِّكَ، المسْبُوقِ بِتَقْدِيره وقضائِهِ، والْقَاضي بإنْزَال العذابِ بِهِمْ، وإهْلَاكِهِمْ إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ في الحياة الدّنيا، ولَهُمْ يَوْمَ الدّينِ خُلُودٌ في عَذَابِ الجحيم.

حرَف الجرّ «مِنْ» في: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ زيد لتوكيد عموم النفي والتَّنْصِيص عليه.

● ﴿... وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾: أي: وَمَا زَادَهُمْ مَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ غَيْرَ خَسَارَةٍ وإِهْلَاكٍ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ.

والمعنى: إنْ كانُوا يتوَهَّمُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمُ الَّذِينَ كانوا يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، يَنْقُصُونَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئاً، فإِنَّهُمْ لَمْ يَنْقُصُوهم شيئاً، بَلْ زَادَهُمْ إيمَانُهُمْ بِهِمْ تَعْذِيباً وخَسَارَةً وهَلَاكاً.

نُسِبَتِ الزِّيادَةُ إلى آلِهَتِهِمْ، وهِيَ إِلَىٰ إيمانِ المشركين بهم، وهَـٰذا مِنَ الْمَجَازِ المرسَلِ، مِنْ إِطْلَاقِ الشَّيْءِ وإرادة مَا يَتَعَلَّقُ به.

التَّتْبِيبُ: الْإِهْلَاكُ، والنَّقْصُ مِنَ الخير، وإلْحَاقُ الْخَسَارَةِ بالمتَبَّب. يُقَالُ لغة: «تَبَّبَهُ، يُتَبِّبُهُ، تَتْبِيباً»: أي: أَهْلَكَهُ، ونَقَصَهُ حَقَّهُ، وأَلْحَقَ بِهِ خَسَارَة.

وظاهِرٌ مَا فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ مِنْ إقْنَاعٍ للمشْرِكِين بأنَّ آلِهَتَهُمْ لَنْ تَنْفَعَهُمْ شيئاً، حِينَما يأْمُرُ اللهُ عَزَّ وجلَّ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلاكِهِم.

قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: ومثْل ذَلِكَ الأَخْذِ التَّعْذِيبِيِّ الإهْلاَكِيّ، الَّذِي أخَذَ بِهِ اللهُ أهْلَ الْقُرَىٰ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ قَصَّ الله عَزَّ وجَلَّ بَعْضَ أحْدَاثِ إهْلاَكِهِمْ في السّورَة، يَكُونُ أخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ أهْلَ الْقُرَىٰ حَالَةَ كَوْنِهِمْ ظَالِمِينَ، إنَّ أَخْذَهُ لِلْكفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ أَخْذٌ مُؤْلِمٌ لَهُمْ، وشَدِيدٌ عَلَيْهِمْ.

أُطْلِقَ لَفْظُ «الْقُرَىٰ» وأُرِيدُ أَهْلُهَا، وهو مَجَازٌ مُرْسَلٌ مِن إطْلاَقِ الْمَحَلّ وإرَادَةِ الحالّ بِهِ.

وأصلُ «الأَخْذِ» الْقَبْضُ علىٰ الشيء، وبالتوسُّع فيه صَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ معنَىٰ مَا يُؤْخَذُ لَهُ الشَّيْء، فإذا كَانَ الأَخْذُ للتَّعْذِيب والإهلاك، كان المرادُ بِهِ التَّعْذِيبَ والإهْلاَكَ.

قولُ الله تَعالَىٰ مبيّناً أنَّ عِقابَ الله المُعَجَّلَ في الدنيا آيَةٌ دَالَّةٌ على عقابِهِ المُؤَجَّل إلى يوم الدّين، ومُبَيّناً بَعْضَ أمورٍ عَنْ يوْم الدّينِ ومَا يَجْرِي فيه.

- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآياتِ بَيانُ ثَماني قضَايا تَتَعلّقُ بجَزَاءِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِعِبادِهِ في الآخِرَةِ يَوْمَ الدّين:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ . . . (١٠٣)﴾:

أيْ: إنَّ في ذَلِكَ الَّذِي قَصَّهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مِنْ إهْلَاكِ كُفَّارِ ومُجْرِمِي الْقُرُونِ السَّالفَة، لَآيَةً دَالَّةً عَلَىٰ صِدْقِ مَا أَنْذَرَ عِبادَهُ به، أو بَشَّرهُمْ به مِنْ جَزَاءٍ بِالْعِقَابِ، أو جَزَاءٍ بالثَّوَابِ، في الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ بَعْثِ الموْتَىٰ من أَجْدَاثِهِم، وهَـٰذِهِ الآيَةُ واعِظَةٌ ونافِعَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَة، إدْراكاً مِنْهُ بِأَنَّ مَا تَحقَّقَ في الدُّنيا مِنْ تَنْفِيذِ الإنْذَارِ بالْعِقَابِ المُعَجَّل، يُقَاسُ عَلَيْهِ الإنْذَارُ المؤجَّلُ إلَىٰ الحياة الآخِرَةِ يَوْمَ الدِّين، فَهُو بعَقْلِهِ ورُشْدِهِ وبَصِيرَتِهِ يخافُ عَذَاب الآخِرَة.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾:

دَلَّ ذِكْرُ الآخِرَة، أي: الحياة الآخِرَةِ في الْقَضِيَّةِ الْأُولَىٰ، عَلَىٰ الْيَوْمِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ هَـٰذِهِ الحياة، وهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، فَأَشَارَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إلَيْه باسْمِ الْإِشَارَةِ في عبارَة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ بأسْلُوب الخطاب الإفرادِيّ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ للقرآن المجيد.

أي: ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الحياةُ الآخِرَة يَوْمٌ مَجْمُوعٌ فِيهِ النَّاسُ، لِيُلَاقُوا فِيهِ حِسابَهُمْ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، وتَنْفِيذَ الْجَزَاءِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مِنْ ثوابٍ بحَسَبِ أعمالِ المؤمنين المتَّقين، أو عِقَابٍ لمستَحِقِّيهِ الكافِرين المجرمين، والْعُصَاةِ المذْنِبين.

القضيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿. . . وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣)﴾:

معنى: ﴿مَّشْهُودٌ﴾ مَحْضُور. أمَّا حُضُورُ النَّاسِ فِيهِ فقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ القَضِيَّةُ الثانِية، فَحَمْلُ «مَشْهود» عَلَيْهم لَا يُنَاسِبُ كمال القرآن، ويُقاسُ عَلَىٰ الناس الجنّ لِأَنَّهُم كانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامتحان، فَهُمْ سَيُحْضَرُونَ للحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

بَقِيَ أنْ نَفْهَمَ أَنَّهُ مَحْضُورٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ والملائكَةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الفَجْر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾:

وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾. وقرأ أبو جعفر: **[والْمَلاَئِكَةِ]** بالجرّ.

وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾:

القضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهاقول الله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾:

أي: وَمَا نُؤَخِّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ المشْهُودَ الَّذِي يُجْمَعُ النَّاسُ فِيهِ للحساب، وفَصْلِ الْقَضَاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، إلَّا لِأَجَلٍ مُحَدَّدٍ مَعْلُوم، مَعْدُودِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي يَنْتَهِي عِنْدَ انْتِهائِها، وَتَبْدأ بَعْدَهَا أزْمَانُ ذَلِكَ الْيَوْم.

الأجل: يأتي بِمَعْنَىٰ أوَّلِ حُصُولِ شَيْء ما. وبِمَعْنَىٰ آخِرِ زَمَنِ بَقَاءِ شيءٍ ما، ويأتي بِمَعْنَى المدَّةِ الْمَحْصُورَةِ بَيْنَ أَوَّلِ وآخِرِ زَمَنِ شيْءٍ ما.

فالساعة السادسة صَبَاحاً أجَلُ طُلُوعِ الشَّمْسِ مَثَلاً، والسَّاعَةُ السَّادِسَةُ مَسَاءً أَجَلُ غُرُوبِ الشَّمْس مَثلاً، واثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةَ أجَلُ بَقَاءِ الشَّمْسِ طَالِعَةً في نَهَارِ يَوْم كذا. وأبْدَلَ ورشٌ، وأبو جعفر همزة **[نُوَخِّرُه]** واواً.

والصّالحُ مِنْ هَـٰذِهِ المعاني لِفَهْمِ عبارة: ﴿لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ هُوَ آخِرُ

أَزْمَانِ مَا قَبْلَ بَدْءِ أَوَّلِ زَمَنِ يَوْمِ الدِّينِ، فهذا هو الْأَجَلُ الَّذي تُعَدُّ أجزاؤُهُ الزَّمنِيَّةُ بِعِلْمِ اللهِ، إِنَّهُ تبارَكَ وتَعَالَىٰ سَرِيعُ الحِسَابِ، وَمُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

القضيَّة الخامسة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ... ﴿١٠٥﴾﴾: وَأَثْبَتَ يَاءَ [**يأْتِي**] فِي الوَصْلِ والْوَقْفِ ابن كثير، ويَعْقُوب، وأثبتَها في الوَصْلِ فقط نافع، وأبو جعفر، وأبو عمرو، والكسائي.

أي: حِينَ يأْتي ذَلِكَ الْيَوْمُ، أو حِينَ يَأْتِي اللهُ في ذَلِكَ الْيَوم لِحِسَاب أهلِ المحْشَر وفَصْلِ القضاءِ بَيْنَهُمْ، لَا تَتكَلَّمُ نَفْسٌ مَا إِلَّا بإِذْنِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه، نَفْسُ مَلك أو رَسُولٍ أَوْ أَحَدٍ من الْخَلَائِقِ جَمِيعاً.

الْقَضِيَّةُ السَّادِسة: دلَّ عَلَيْها قَولُ اللهِ تعالى: ﴿... فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾:

أي: فبَعْضُ الْمَجْمُوعِينَ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ مِنَ النَّاسِ شَقِيٌّ، تُظْهِرُ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة أَنَّهُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ بالشَّقَاءِ الْأَبَدِي؛ لِأَنَّ مَا قَدَّمَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدنيا مِنْ كُفْرِيَاتٍ وجرائِم بإِرادَتِهِ الحرَّة، يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّار.

الشَّقِيُّ: التّعِسُ ذُو الْحَالَةِ السَّيِّئَةِ الواقِعُ في الشَّقَاءِ بِما يَنْزِلُ بِهِ مِنْ عَذَاب الله.

وبعْضُ الْمَجْمُوعينَ سَعِيدٌ، تُظْهِرُ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّة أَنَّهُ مَحْكُومٌ لَهُ بِالسَّعَادَةِ الْأَبدِيَّة؛ لأنَّ مَا قَدَّمَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدّنيا مِنْ إيمان وعَمَلٍ صَالح، يَسْتَحِقُ مَعَ فَضْلِ اللهِ عَلَيْه أَنْ يَكُونَ سَعِيداً في جنَّاتِ النَّعِيم خالداً فِيها أَبداً.

السَّعِيدُ: ذُو الحالة الحسنة، الموفّقُ لِمَا يُحِبُّه وَيَرْضَاه، والسَّعِيدُ في الآخِرَة: المنعَّمُ بِنَعِيم الجنَّة.

القضية السابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾:

الزَّفِيرُ: دَفْعُ النَّفَسِ بِقُوَّةٍ حَتَّىٰ الغايَةِ، وإخْراجُهُ من الصَّدْر.

الشَّهِيقُ: أَخْذُ النَّفَسِ بِقُوَّةٍ إلى دَاخِلِ الصَّدْر، حَتَّىٰ امْتِلَاءِ الرِّئَتَيْنِ به.

دلَّ البيانُ في هذه القضيَّةِ علىٰ أَنَّ الَّذِينَ يَحْكُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الدِّينِ بالشَّقَاءِ الأَبَدِي، لِكُفْرِيَاتِهِم وَمَا يَنْتُجُ عَنْها مِنْ جرائم، سَوْفَ يَكُونُونَ في دَارِ الْعَذاب النَّار.

وقَدَّمَ البيانُ هُنا لَقْطَةً مَشْهَدِيَّةً مِنْ أَحْوَالِهِمْ في النَّارِ معَذَّبين، هي أَنَّهُمْ يَتَنَفَّسُونَ دَواماً مَا بَيْنَ زَفِيرٍ يَدْفَعُونَ به أَنْفَاسَهُمُ الحارَّةَ مِنْ رِئَاتِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِ مَا فِيها، وَشَهِيقٍ يَجْذِبُونَ به السَّمُومَ الْحَارَّ إِلَىٰ أَعْمَاقِ رِئَاتِهِم، إِذْ يَجِدُونَ نُفُوسَهُمْ مُضْطَرِّينَ إِلَىٰ كُلٍّ مِنَ الزَّفير والشَّهيق، ولا هواء في النار إِلَّا السَّمُومُ الحارّ.

وَقَدَّمَ البيانُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي دَارِ العذاب النار ما دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، أي: مَا دَامَ الكَوْنُ مَوْجُوداً، إِذِ الكَوْنُ المادِّيُّ لَا يَخْلُو مِنْ أَرْضٍ تَكُونُ مَكَاناً في النَّارِ للمعذّبين، وأَرْضٍ تَكُونُ مَكاناً في الجَنَّةِ للمنَعَّمِين، وَلَا يَخْلُو مِنْ سَمَاوَاتٍ فَوْقَ هَٰذِهِ الأَرْضِ وهذه الأَرْضِ.

أَمَّا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾:

فَهُوَ استثناءٌ مِنْ عُمُوم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الشامل لمعاني الخلود وللأفراد الخالِدِين.

أي: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ أنْ يَسْتَثْنِيَهُ بِحِكْمَتِهِ مِنْ عُمُوم القضاءِ المبْرَم بالْخُلُودِ، فيمَا لَوْ يَشاءُ أَنْ يُقَدِّرَهُ وَيَقْضِيَهُ مُسْتَقْبلاً، إِذْ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ جَلالُهُ أَنَّهُ يَمْحُو مَا يشاءُ مَحْوَهُ وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ إثْباتَه، وعِنْدَهُ أُمُّ الكتاب، وَلَيْسَ

مِنَ التَدبُّرِ السَّليم أنَّ نُفكّرَ في تعْيينِ مَا يُمْكِنُ أن يَسْتَثْنِيَهُ مُسْتقبلاً؛ لأنَّ الاستِثْناءَ لَمْ يَتَناوَلْهُ بَعْدُ، بِدَلِيلِ اسْتِعْمالِ الفِعْلِ المضارع في قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. فَمِنْ هذا نَفْهَمُ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ احْتَفَظَ لِنَفْسِهِ ضِمْنَ قَضاءِ الْخُلُودِ بأنْ يَفْعَلَ مَا يُرِيدُ في مَدَىٰ الآبَادِ فيما لَوْ يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ شَيئاً يُخالِفُ في ظاهِرِهِ دَلالَةَ عُموم الْخُلُودِ في كُلِّ الأَجْزاءِ الزَّمَنِيَّةِ المتَوالِيَةِ بِغَيْرِ نِهايَة، ولكلِّ الخالِدين.

وبهذا الْفَهْم أَسْتَبْعِد كُلَّ الآراء الّتِي طَرحها المفَسِّرُونَ بشَأْنِ تعْيينِ المستَثْنَىٰ في قول اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ إذ المعنىٰ: خالِدِينَ فيها خلوداً بقضاءٍ من رَبِّكَ مُبْرَمٍ، لَا تَعْرُوهُ مَشِيئة مُعَدِّلَةً مِنْ أحَدٍ، إلَّا مَشيئةُ رَبِّك؛ لِأَنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد، و«ما» على هذا مَصْدَرِية.

القضية الثامنة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

- قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخَلَفُ: **[سُعِدُوا]** بضَمِّ السِّينِ علىٰ البِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِله.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[سَعِدُوا]** بفَتْحِ السِّين على أنَّ الفعل مَبْنِيٌّ لِلْمَعْلُوم.

وبَيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ، أي: يُسْعِدُهُم اللهُ، فَهُمْ يَسْعَدُون.

﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: أي: غَيْرُ مَقْطُوعٍ، يُقَالُ لُغَةً: «جَذَّهُ، يَجُذُّهُ، جَذًّا» أي: قَطَعَهُ.

المعنى: وأمَّا الَّذينَ سُعِدُوا بفَضْلِ حُكْمِ اللهِ لَهُمْ بأنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ في الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّين خَالِدِينَ فيها، فإنَّهُمْ يَكُونُونَ في الْجَنَّةِ خالِدِين فيها، وإنَّهُمْ يُعْطَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسْبَابِ النَّعِيمِ الْمُسْعِدِ عَطاءً غَيْرَ مَقْطُوع.

وتَحْلِيل قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ نَظِير التحليل التدبُّرِي الذي سَبَق للنّظِير الّذي جاء في الآية (١٠٧).

وبهذا انتهىٰ تَدبُّر الْفَصْلِ السَّابِعِ من الدَّرْسِ السادس من دُرُوسِ سُورَةِ (هود) وبه انتهىٰ أيضاً تَدبُّر الدَّرْس السادس.

والْحَمْدُ للهِ على مَدَدِه وتَوفيقه ومَعُونته وفتحه.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس سورة (هود) الآيات من (١٠٩ ـ ١٢٣) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن
قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ
فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)
وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَٱسْتَقِمْ كَمَآ
أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ
(١١٣) وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ
ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٤) وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ
مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ
أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا
كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

تمهيد:

في هذا الدَّرْس بيانٌ تَرْبويٌّ من اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِلْمُؤْمِنين وَلَا سيما الدُّعَاةُ إلى اللهِ وإلى دينِهِ مِنْهم.

وبهذا يَتَبَيَّنُ لَنا أَنَّ السُّورَةَ اشْتَمَلَتْ علىٰ عُنْصُرَيْنِ أَسَاسَيْنِ:

العنصرُ الأوّل: مُتابَعَةُ مُعالَجَةِ أئِمَّةِ المشْرِكِينَ وأَتْبَاعِهِمْ إبَّانَ التَّنْزِيلِ، بمَا يَتَلَاءَمُ مع مَوَاقِفِهِم المسْتَمِرَّةِ والطَّارِئة قُبَيْل نُزُول سورة (هود).

العنصر الثاني: تَرْبِيَةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لرسُوله ﷺ، فَلِلْمُؤْمِنِينَ الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ ولَا سِيَّما الدُّعَاةُ إلى اللهِ وإلى دِينِهِ منهم، بِمَا يَتَلَاءَم مَعَ الْمَرْحَلَةِ الدَّعَوِيَّةِ الَّتِي وَصَلُوا إِلَيْهَا إبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة، والحالَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي كانُوا عَلَيْها، والْمَفْهُومَاتِ الدِّينِيَّة الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنُوا بها، وَيَتَصَرَّفُوا فِي مَسِيرَاتِهِم الدَّعَوِيَّةِ عَلَىٰ وفْقِها.

التدبُّر التحليلي:

قَوْل الله تعالى:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾:

الخطابُ في هَٰذه الآيَة مُوجَّهٌ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ لِلْقُرْآنِ أَوْ تَالٍ لَهُ بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفْرادِيّ، لِيُعَالِجَ ما لَدَىٰ بَعْضِ حَدِيثي الإسْلَامِ مِنْ شَكٍّ مَهما

كان ضعيفاً ضَئِيلاً، بِشَأْنِ مَا كَانَ يَعْبُدُ مَع قَوْمِهِ المشْرِكِينَ قَبْلَ إِسْلامِهِ، مِنِ احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ نَفْعٌ مَا، أَوْ ضُرٌّ ما.

- ﴿فَلَا تَكُ﴾: أي: فَلَا تَكُنْ أَيُّهَا المتَلَقِّي لبياناتِ رَبِّكَ، حُذِفَتِ النون إيجَازاً في النُّطق، وهذا من المواضِع الّتي يجوزُ فيها حَذْف نون المضارع مِنْ «كان».

- ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾: أي: في شَكٍّ، يُقَال لغة: «امْتَرَىٰ في الشيء امْتِرَاءً» أي: شَكَّ فيه. والمعنىٰ: فلا تكُنْ شاكًّا.

- ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: ممَّا يَعْبُدُ مِنْ آلِهَةٍ هؤلَاءِ المشْرِكُون، مُتَوَهِّماً أَنَّها آلِهَةٌ تَنْفَعُ أو تَضرُّ، أَوْ لَهَا أقَلُّ مِقدارٍ مِنَ الإلَهيَّة.

- ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾: أي: لَا يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ عَنْ دَلِيلٍ مَا، إنّما يَعْبُدونَهُمْ تَقْليداً لِمَا كانَ يَعْبُدُ آباؤُهُم مِن قَبْلهِمْ، وهذا تَقْلِيدٌ أَعْمَىٰ لَا تُصَاحِبُهُ حُجَّةٌ مَا، ومَعْلُومٌ أَنَّ التَّقْلِيدَ الّذي لَا تُؤَيِّدُهُ حُجَّةٌ عَمَلٌ سَاقِطٌ بَاطِلٌ لَا يَقْبَلُهُ ذُو عَقْلٍ سَلِيم، فَكَمْ يُقَلِّدُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً في أَعْمَالٍ بَاطِلَةٍ، أو ضارَةٍ، أو فَاسِدَةٍ مُفْسِدَة، ولَا بَاعِثَ لَهُمْ فِيها إلَّا التَّقْلِيدُ، وقَدْ يُصَاحِبُهُ هوىً، أو اسْتِمتَاعٌ بِبَعْضِ الشهوات.

- ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾:

أي: وإنَّا لَمُعْطُوهُمْ حُظُوظَهُمْ الّتي سَبَقَ أَنْ قَدَّرْنَاها وقَضَيْنَاها لَهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، مِنْ المحَابِّ وَالمكارِهِ وافِياً تاماً، غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أَجْلِ إصْرَارِهِمْ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ وكُفْرِيَّاتِهِمْ وَلَوَازِمِهَا فِي السُّلُوك، إنَّهُمْ مَا دَامُوا في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فَمِنَ الحكْمَةِ إعْطَاؤُهُم حُظُوظَهُم مِنْ مَتَاعَاتِ الحيَاةِ الدُّنيا فيها، فإذا جاء وقْتُ الجزَاءِ جَازَيْنَاهُم بِمَا يَسْتَحِقُّونَ بالْعَدْل.

- ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾: يُقَالُ لغة: «وَفَّىٰ الْحَقَّ أو الكَيْلَ، وأَوْفَاهُ» أي: جَعَلَهُ تامًّا لَا نَقْصَ فِيه.

- ﴿نَصِيبَهُمْ﴾: **النَّصِيبُ**: الحظُّ مِنْ كُلِّ شيءٍ، واستُعْمِلَ في الْخَيْرِ والشَّرِّ، والجمع: «أَنْصِبَةٌ، وأَنْصِباءُ، وَنُصُبٌ» أي: نُوَفِّي كُلَّ واحِدٍ منهم نَصِيبَهُ.

- ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾: جاءَتْ هَـٰذِهِ الْعِبارَةُ حَالاً مُؤَكِّدَةً لمعْنَىٰ تَوْفِيَتِهِم أَنْصِبَتَهُمْ الّتِي قَدَّرْنَا وَقَضَيْنَا أَنْ نُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الْحَيَاة الدُّنيا، فَلَا نَنْقُصُ شَيْئاً مِنْهَا بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ وكُفْرِيّاتِهِم ولوازِمِها في السُّلُوكُ.

قولُ الله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾:

جاء في هَـٰذِهِ الآيَةِ، بَيَانٌ لِسُنَّةِ اللهِ في تَوْفِيَةِ النَّاسِ أَنْصِبَتَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَياةِ الدُّنيا غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ، بِتَقْدِيم مَثَلٍ تَاريخيٍّ يَتَعلَّقُ بالتَّوْراةِ الكتاب الّذي آتاه اللهُ عَزَّ وجلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، إِذِ اخْتُلِفَ فِيهِ، فآمَنَ بِهِ فَرِيقٌ، وكَفَرَ بِهِ فَرِيق، والَّذِينَ كَفُروا بِهِ لَمْ يُعَجِّلِ اللهُ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الحياة الدُّنيا، ولَمْ يَقْضِ بَيْنَ المختَلِفِينَ فِيهِ، إِذْ سَبَقَتْ كَلِمَةُ اللهِ الدَّالَّةُ على تقدِيرِه وقضائِهِ، بأَنْ يَجْعَلَ الحَياة الدّنيا حَيَاةَ ابْتِلَاءٍ يُوَفَّىٰ فِيهَا كُلُّ مُمْتَحَنٍ نَصِيبَهُ علىٰ وفْقِ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه بِشَأْنِهِ، وبأَنْ يَجْعَلَ الحياةَ الأُخْرىٰ بَعْدَ الْبَعْثِ هِيَ حَياةَ الجزاءِ، مَا لَمْ تَقْتَضِ الحِكْمَةُ تَعْجِيلَ شَيْءٍ مِنَ الْجَزَاءِ في الْحَياةِ الدُّنيا، منْعاً لتَفاقُمِ الشّرِّ وطُغيانه، أو دَلِيلاً عَلَىٰ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِيّ.

فالمعْنَىٰ: ونُؤَكِّدُ لَكَ أَيُّها المتَلَقِّي لبيَانَاتِ الْقُرآن، مُقْسِمِينَ: لَقَدْ آتَيْنا مُوسَىٰ نبيَّنَا ورسُولَنَا كِتَابَ التوراة، فَاخْتُلِفَ فِيهِ، فآمن بِهِ مُؤمِنُونَ، وكَفَرَ بِهِ كَافِرُونَ، فَمَا قَضَيْنَا بَيْنَهُمْ في الحياة الدُّنيا، بَلْ أَجَّلْنَا جَزَاءَ الكافِرِينَ بِهِ إِلَىٰ

يَوْمِ الدِّين، وَوَفَّيْنَا كُلَّ وَاحِدٍ نَصِيبَهُ المقَدَّرَ المقضيَّ لَهُ في الْحَيَاةِ الدنيا مِمَّا يُحِبُّ ومِمَّا يكْرَهُ لابْتِلَائِه، وكَانَ هَذَا تَنفِيذاً لِكَلِمَةٍ سَبقَتْ بِأَنْ تَكُونَ الحياة الدُّنيا حياةَ ابْتَلَاءٍ أمْثَلَ، وأَنْ تَكُونَ الحياةُ الْأُخْرَىٰ حياةَ جَزَاءٍ أمْثل، ولَوْلَا هَـٰذِهِ الكَلِمَةُ الَّتِي سَبقَتْ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ في الحياة الدّنيا، بثوابِ المؤمنين وعِقَابِ الكافِرين، وكذلك الحال بالنّسْبَةِ إِلَىٰ المؤمِنِينَ والكافِرِينَ إبَّانَ تَنْزِيل السُّورَة: ﴿**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**﴾ وهي كَلِمَة تأجيل الحسَاب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاءِ إلى يَوْمِ القِيامة، وَمَا زَالَ عَامَّةُ مُشركي مكة دُونَ أئمتهم يَحْتَاجُونَ مُتَابَعَةَ عِلَاجٍ: ﴿... **وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ** ١١٠﴾ أي: وإنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِن كَوْنِ الْقُرآنِ كِتَاباً مُنَزَّلاً مِنْ لَدُنَّا، وهَـٰذا الشَّكُّ أوْقَعَهُمْ في الرَّيْبِ بِشَأْنِ صِدْقِ الرَّسُولِ واتِّهامِه بأنَّه ذُو غايَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتِهِ، كالسِّيَادَةِ والسُّلْطَانِ والْمَالِ ونحو ذلِكَ مِنْ مطالِبِ النَّاس في الْحَيَاةِ الدنيا.

قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿**وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ١١١﴾:

وقرأ نافع، وابْنُ كَثِيرٍ: [**وَإِنْ كُلًّا لَمَا**] وقرأ أبو عَمْرو، والكسائي ويَعْقُوب، وخلف باختياره: [**وَإِنَّ كُلًّا لَمَا**] وقرأ شُعْبَة: [**وَإِنْ كُلًّا لَمَّا**].

فَمَنْ قرأ [**إِنْ**] سَاكِنَةً دُونَ تَشْدِيد، فَتُفْهَمُ عَلَىٰ أَنَّها «إِنْ» المخفَّفَة مِنَ الثقيلة، فهي في المعنى مِثْلُ [**إِنَّ**] وقَدْ أجاز الخليلُ وسيبويه والْبَصْرِيُّونَ إعمالَها مخفَّفَةً، فيكونُ لفظ [**كُلًّا**] اسْمَهَا منصوباً بها، والتنوينُ فيهِ عِوَضٌ عَنِ المضافِ إِلَيْهِ المحذوف، والتقدير: وإنَّ كلَّ المختلِفين في الإيمان والكُفْرِ، السَّابِقِينَ والْحَاضِرِينَ والآتِينَ، لَا بُدَّ أَنْ يُوَفِّيَهُمْ رَبُّكَ أعْمالَهُمْ، إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ وإِنْ شَرّاً فَشَرّ.

﴿**لَمَّا**﴾ لَهَا فِي هَـٰذا الموضِع عِنْدَ النُّحَاةِ تَخْرِيجَاتٌ مُتَعَدِّدَاتٌ

مُتَكَلَّفَاتٌ، والَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ مَعْنَىٰ النَّصِّ أنها حَرْفٌ زِيدَ لِتَشْدِيدِ التَّوْكِيدِ في العِبارة.

والمعنىٰ: وَإنّ كُلَّ الموضُوعِينَ في الْحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، لَا بُدَّ لَيُحَاسِبَنَّهُمْ رَبُّك حِسَاباً يُوَفِّيهِمْ بِهِ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ تَوْفِيَةً مُطَابِقَةً لِأَعْمَالِهِم الَّتِي قَدَّمُوهَا في رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ، خَيْرِهَا وشَرِّها.

وأثْبَتَتِ النُّصُوصُ الكثيرة في القرآن، أنَّ المؤمنين المتَّقِينَ يَزِيدُهُم اللهُ من فضْلِهِ زِيَادَاتٍ كَثِيراتٍ مُدْهِشَاتٍ. وأنَّ الْعُصَاةَ قَدْ يَغْفِرُ اللهُ لَهُمْ أَوْ يَعْفُو عَنْ كثير مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فالتَّوْفِيَةُ الوارِدَةُ هُنَا في هَـٰذِهِ الآيَةِ لَيْسَ المرادُ بِهَا جَعْلَ الْجَزَاءِ الْفِعْلِيّ مُطابِقاً للأعمالِ الَّتِي قَدَّمُوها؛ لِأَنَّ الجزاءَ بِفَضْلِ اللهِ على الصَّالحات يكُونُ أكْثَرَ مِنْ أعمال العبادِ كَثْرَةً لَا يَسْتَطِيعُونَ تخيُّلَها؛ ولأنَّ الجزاء بالعقاب قَدْ يَكُونُ أقَلَّ مِنْ مَعَاصِي العِبادِ، إذْ قَدْ يَتَفضَّلُ اللهُ عَلَيْهِمْ بالْغُفْرَانِ أو بالْعَفْو عَنْ كَثِيرٍ مِنها.

التَّوْفِيَةُ: إعطاء الحقِّ وَافِياً تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوص.

- ﴿... إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾: أي: إنَّ رَبَّكَ بِكُلِّ مَا يَعْمَلُونَ تِباعاً مِنْ عَمَلٍ نَفْسِيٍّ أَوْ جَسَدِيٍّ، ظاهِرٍ أو بَاطِنٍ، خَبِيرٌ، فَهُوَ يُوفِّيهِمْ حِسَابَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَعْلَمُ مِنْ أعْمَالِهِمْ عِلْمَ خِبْرَة.

الخبير: هو الذي يَعْلَمُ الأشْياء عِلْمَ شُهُودٍ وحُضُورٍ مُصَاحِبٍ لكلّ أجزائها الظَّاهِرَة والباطِنَة.

قولُ الله عَزَّ وجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ إمَامٍ من أئِمَّةِ المتَّقِين من أُمَّته:

- ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ثَلاثُ وَصَايا لِلْمُؤْمِنِين، أوصَاهُمُ اللهُ بِها، مِنْ خِلَالِ خِطَابِ اللهِ لِرَسُولِه:

الوصِيَّةُ الأولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾:

الاسْتقامة: الاعْتِدَالُ والاسْتواء، ويَكُونُ بِعَدَمِ الاعْوِجَاجِ والالْتِوَاء.

﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾: أي: اسْتَقِمْ اسْتِقَامَةً مُمَاثِلَةً لِمَا أُمِرْتَ بِهِ، إذْ كُلِّفْتَ أَنْ تَلْتَزِمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ صِرَاطَ رَبِّكَ المسْتَقِيم، وعَلَّمَك أنْ تَدْعُوَهُ فِي صَلَوَاتِكَ بِقَوْلِكَ كَمَا جَاء في سورة (الفاتحة/١ مصحف/٥ نزول):

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ . . .﴾.

إنَّ صِرَاطَ اللهِ المستقيم يَشْمَلُ كُلَّ أَوَامِرِ اللهِ ونواهِيهِ لعباده، الَّتِي تَتَعلَّقُ بِسُلُوكِهِمْ النَّفْسِيّ والْفِكْرِيِّ والْجَسَدِيّ، والْتِزامُ هٰذا الصِّرَاطِ يَكُونُ بَعَدَمِ الْخُرُوجِ عَنْهُ مِنْ جِهَةِ حَدِّهِ الْأَيْمَنِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ حَدِهِ الْأَيْسَر، عَلَىٰ تَوالِي أزْمَانِ مَسِيرَةِ الإنْسَانِ في حَيَاتِهِ، وهَـٰذَا الالْتِزَامُ هو أسْمَى دَرَجَاتِ التقوى، الَّتِي يَبْرَأ بِهَا المتَّقِي من كُلِّ مَعْصِيَةٍ للهِ عَزَّ وجَلَّ.

هَـٰذِهِ الاستقامَةُ دَواماً أشَقُّ على السَّالِكِين في الحياة مِنْ طَفْراتٍ وانْدِفاعَاتِ أعْمَالِ الْبِرِّ وأعْمَالِ الإحْسَانِ، كَبَذْلِ أَمْوَالٍ طائِلَةٍ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ مِنْ غَيْرِ الواجبات، وكالاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، في بَعْضِ أحْوالِ الإنْسَانِ الانْدِفَاعِيَّةِ لِفِعْلِ الْخير العظيم، فهَـٰذِهِ قَدْ تَسْهُلُ عَلَىٰ العُصَاة، ولكِنْ يَصْعُبُ على الإنْسَانِ الالْتِزَامُ عَلَىٰ طاعَة الله طَوال حَيَاتِه.

ولعل هذه الاستقامة هي التي جَعَلَتِ الرسول ﷺ يقول: «شَيَّبَتْنِي هُودُ وأَخَواتُها».

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: أي: وَمَنْ تَابَ مِنْ كُفْرِهِ وشِرْكِهِ السَّابِقِ، وسَارَ على صِرَاطِ اللهِ المستقيم مَعَك.

الوصية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾: هٰذا الخطاب مُوَجَّهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، نَهَاهُمْ فِيهِ الله عَنِ الطَّغْيانِ.

الطُّغْيَان: تجاوُزُ الحدِّ الطَّبيعيّ المقبولِ إلَىٰ مَوَاقِعِ الضَّرَرِ والفساد والإفساد. والطُّغْيَانُ في الدِّينِ يَكُونُ بِتَعَدِّي حُدُودِ اللهِ في أَوَامِرِهِ ونَواهِيهِ وَوَاجِبَاتِ شرائِعِهِ في شُرُوطِهَا وأَرْكانِهَا وَمَقَادِيرِها.

ويَدْخُلُ في الطُّغْيَانِ: الْغُلُوّ في الدِّين بإيجاب ما لم يُوجِبْهِ اللهُ إذْ لَمْ يَقُمْ على إيجابه دلِيلٌ صَحِيحٍ، وبِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ، إذْ لَمْ يَقُمْ عَلَىٰ تَحْرِيمِهِ دَلِيلٌ صَحِيح.

ومن الطغيان في الدّين: الاسْتِهَانَةُ بأحكام اللهِ في أوامِرِهِ ونواهِيه، ووصاياه، واستباحَتُها، وعَدَمُ الاكْتراث لها، والْعُدْوانُ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ في أنْفُسِهِمْ، أو أموالهم، أو أعراضِهِمْ، أو في شَيْءٍ يَخُصُّهُمْ.

﴿... إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: أي: إنَّ اللهَ رَبَّكُمْ بَصِيرٌ دَواماً، بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ فِي حَيَاتِكُمْ تِبَاعاً، زَمَناً فَزَمَناً. وَلَازِمُ هٰذا البيانِ أنّه ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ سَيُعَاقِبُ الطَّاغِينَ مِنْكُمْ بَعَدْلِهِ وَلَوْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ مُعْلِنِينَ إسْلَامَكُمْ لِرَبِّكُمْ، فهٰذا لَا يُعْفِيكُمْ مِنَ الْعِقَابِ إذَا طَغَيْتُمْ، مُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ الله.

يُقَالُ لغةً: «طَغَىٰ، طَغْياً، وطُغْيَاناً» أي: جاوز الحدَّ المقبول، وصَارَ ضارّاً، أو مُفْسِداً، أوْ ظَالماً جائراً، أو مُعْتَدِياً.

الوصِيَّة الثالثة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

- ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أي: وَلَا تَمِيلُوا إلى بَعْضِ إغْرَاءَاتِ

وتضليلاتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا بِكُفْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ أَوْ نِفَاقِهِمْ سَاكِنِينَ إِلَيْهِمْ ومُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِم.

يقال لُغَةً: «رَكَنَ فُلَانٌ إِلَىٰ فُلَانٍ، يَرْكَنُ، رَكْناً، وَرُكُوناً. وَرَكِنَ إِلَيْهِ يَرْكَنُ» أي: مَالَ إِلَيْهِ وسَكَنَ، واعْتَمَدَ عَلَيْهِ.

- ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: فيَنْزِلُ بِكُمْ عَذَابٌ يُشْبِهُ مَسَّ النَّار، إذا رَكَنْتُمْ إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا سَاكِنِينَ إِلَيْهِمْ، ومُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي مَسِّ النّارِ عَذَاباً أليماً.

- ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: أيْ: فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَالْحالُ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ الَّذِي يَقْضِي بِتَعْذِيبِكُمْ مِنْ نُصَرَاءَ يَنْصُرُونَكُمْ، فَيَدْفَعُونَ أَوْ يَرْفَعُونَ عَنْكُمْ عَذَابَ اللهِ الَّذِي يُسَبِّبُهُ رُكُونُكُمْ للّذِينَ ظَلَمُوا سَاكنِينَ إِلَيْهِمْ ومُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِمْ.

- ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: أي: وَإِذَا طَمِعْتُمْ بأَنْ تَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ لِيَنْصُرُوكُمْ، واسْتَجَابَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ سَيَنْصُرونَكُمْ، وَاتَّخَذَ هَـٰؤُلَاءِ أَسْبَاباً لِرَفْعِ الْعَذَابِ الّذِي يُشْبِهُ مَسَّ النَّارِ عَنْكُمْ، فَإِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ رَفْعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وبَعْدَ مُجَاهَدَاتِهِمُ الطَّوِيلَةِ لِنُصْرَتِكُمْ، تَعْلَمُونَ أَنّكُمْ لَا تُنْصَرُونَ، فَقَدْ نَزَلَ بِكم العذابُ بتَقْدِيرٍ وقَضَاءٍ مِنَ اللهِ عُقُوبَةً لَكُمْ، وعُقُوبَاتُ اللهِ لَا رَادَّ لَها، وَلَا حَامِيَ مِنْها، وَلَا رَافِعَ لَهَا إِذَا نَزَلَتْ إِلَّا اللهُ الَّذِي أَنْزَلها، بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِه.

وهَـٰذَا مُجَرَّبٌ في تاريخ المؤمنينَ وَذَوِي السُّلْطَانِ فيهم، فإِنَّهُمْ مَا رَكَنُوا إِلَىٰ الكَفَرَةِ الظَّالِمِينَ إِلَّا كَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ عذاباً أليماً يُشْبِهُ مَسَّ النار، ثُمَّ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ غير مَنْصُورين.

قول الله عَزَّ وجلَّ:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّـٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

- وقَرأ أبو جَعفر: **[وزُلُفاً]** بِضَمِّ اللَّام. **الزُّلَف**: جَمْعُ الزُّلْفَة، وهي الطَّائِفَةُ مِنْ أوّلِ اللَّيْلِ، وَكَذٰلِكَ الزُّلُف بِضَمّ اللّام، وقد تكونُ جمع زَلِيف.

والظاهِرُ أَنَّ الْمُرادَ بِطَرَفِي النَّهارِ: وَقْتُ صَلاةِ الْفَجْرِ، وهٰذا هُوَ الطَّرَفُ الْأَوّلُ، وَوَقْتُ صَلَاتِي الظُّهْرِ والْعَصْرِ، وهذا هو الطَّرَفُ الثاني، والزَّوالُ هُوَ الْوَسَطُ بَيْنَ طَرَفَي النّهار.

أَمّا الزُّلَفُ مِنَ اللَّيْلِ وَهِيَ الطَّائِفَةُ مِنْ أَوَّلِ سَاعَاتِ اللَّيل ففي مُقَدِّمَتها وقْتُ صَلاةِ المغرب، وبَعْدَهُ يَدْخُلُ وَقْتُ صَلاةِ الْعِشَاء.

والبيانُ في هٰذِهِ الآيَةِ للصَّلَوَاتِ وأوقاتِها بَيَانٌ مُجمَلٌ، وَلَكِنْ جاءَتِ السُّنَّةُ النَّبوِيَّةُ مُفَصِّلَةً بِوُضُوحٍ للصَّلَوَاتِ الخمس، وأعداد رَكعاتِ كُلٍّ مِنْها، ولِأَوْقَاتِهَا، وهٰذا مِمَّا تَرَكَهُ القرآنُ الْمَجِيدُ لِلْبَيَانِ النَّبوي، وفي جَعْلِ صَلَاتِي الظُّهْرِ والْعَصْرِ في طَرفِ النَّهارِ الثاني، وجَعْلِ صَلاتِي المغْرِبِ والْعِشَاءِ في زُلَفٍ مِنَ اللَّيْلِ، فُسْحَةٌ لِأَحْكَامِ الْجَمْعِ بَيْنَ صَلاتِي الظّهر والْعَصْر، والْجَمْعِ بَيْنَ صَلاتَي المغْرِبِ والْعِشَاءِ، في حَالَاتِ الْعُذْرِ، عَلَىٰ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي السُّنَّةِ.

- ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الأمْرُ في هٰذِهِ الْعِبارَةِ هُوَ أَمْرُ إيجابٍ وإلْزامٍ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ، بِشَرْطِ إيمانِهِ وإسْلَامه، والمرادُ بإقَامَتِها المحافَظَةُ على أدائِهَا دَواماً في أوقاتِها، على الوجْهِ الشَّرْعِيّ المطْلُوبِ فيها، عَلَى وَفْقِ بَيَانَاتِ السُّنَّةِ النَّبويَّة.

أَقامَ الشَّيْءَ: أي: جَعلَهُ مُسْتَقِيماً، **وأَقامَ الْعَمَلَ**: أي: أَدامَهُ وَوَاظَبَ عَلَيْه في الأَوْقَاتِ المحدَّدَةِ له.

وَدلَّت عبارة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عَلَىٰ أَنَّ إقَامَةَ الصَّلاةِ المفْرُوضَة، هِيَ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتي يَعْمَلُها الموضوعُ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، وأَنَّ اللهَ يَمْحُو بِها السَّيِّئَاتِ الَّتِي يَفْعَلُهَا في النهار أو في

الليل، إذا كانَتْ مِنِ الصَّغائِرِ. وقَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ هَـٰذا بياناتٌ مُتَعدِّداتٌ في القرآنِ الكريم، والسُّنَّةِ الشَّريفة.

فَمِنَ القرآن قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً للّذين آمَنُوا:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

ومِنَ السُّنَّةِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ مسعود رضي اللهُ عنه قال:

جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ الله، إنّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أقْصَىٰ الْمَدِينَةِ، وَإِنّي أصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّها، فَأَنَا هَـٰذا، فاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قالَ؛ فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شيئاً. فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً دَعَاهُ، وتَلا عَليه هذه الآيَة:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَـٰذا لَهُ خَاصَّةً؟ قال: «بَلْ لِلنَّاسِ كافَّةً».

﴿... ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

﴿ذِكْرَىٰ﴾: اسم للتَّذْكِير. وتأتي اسْماً للتَّذْكِرَة، وهي الوسِيلَةُ الَّتِي تُتَّخَذُ أداةَ للتَّذَكُّر، كالرَّتيمة، وكبِطَاقَةٍ خاصَّة تُذَكِّرُ بموعدٍ ما.

فالمعنى: ذلِكَ الْبَيانُ بِشَأْن المحافَظَةِ والمواظَبَةِ على الصَّلَوَاتِ الخمس المفروضَة في كلِّ يَوْم ولَيْلَةٍ، أنْزَلَ اللهُ بِهِ نصّاً قرآنيًّا لِيَكُونَ مُذَكِّراً وبِمَثَابَةِ تَذْكِرَةٍ لِمَنْ هُمْ حَرِيصُونَ على أنْ يَتذَكَّرُوا ما فِيهِ طاعَةٌ لِربِّهم،

والْتِزَامٌ بِفِعْلٍ أَمَرَ بِهِ، وتَرْكٍ نَهَىٰ عِنْه، عند كُلِّ زَمَنٍ أو حَدَثٍ يَدْعُو إلىٰ تَذَكُّرِ مَطْلُوبِ اللهِ من عِبَادِه.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾:

إنَّ أَوَامِرَ الله عَزَّ وجَلَّ ونَواهِيَهُ الصَّريحَةَ والمطْوِيَّةَ فِي ثَنَايَا الآياتِ مِنْ هَـٰذا الدَّرْسِ السَّابعِ، يَحْتَاجُ الالْتِزامُ بِهَا مَشَقَّاتٍ نَفْسِيَّةً وَجسَدِيةً، وَتَحمُّل هَـٰذِهِ المشقَّاتِ يتَطَلَّبُ صَبْراً مِنْ مُسْتَوىٰ مَرْتَبَةِ الإحْسان، فَجاءَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ الأمْرُ بالصَّبْرِ، ودَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ صَبْرٌ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ الْوَعْدُ بأن الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ المحْسِنِين، بَلْ يُعْطِيهِمْ هَـٰذا الْأَجْرَ الْعَظِيم في الحياة الدنيا نَصْراً مُبِيناً، ومَجْداً عَظِيماً، وحظوظاً وافِرة، ويُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ في الآخِرَةِ مَنازِلَ رَفِيعَةً جدّاً في جَنَّاتِ النعيم، بِحَسَبِ مَقَادِير صَبْرِهِم.

وَالْأَمْرُ بالصَّبْرِ في هَـٰذِهِ الآيَةِ مُوجَّهُ للرَّسُولِ ﷺ أوّلاً، فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ، فالدُّعاةُ إِلَىٰ اللهِ عزَّ وجَلَّ وإلى دينِهِ الّذي اصْطَفَاهُ لعباده، هُمُ الّذينَ يَتَعَرَّضُونَ للمؤذِيَاتِ في مجْتَمَعاتِهم، وهُمُ المرَشَّحُونَ لِأَنْ يَكُونوا مِنَ المحْسِنِينَ أصْحَابِ الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا مِنْ مَراتِب المؤمِنِين، ودُونَها مَرْتَبَةُ الأبرار، ودُونَ هَـٰذِهِ مَرْتَبَةُ المتَّقِين.

الصَّبْر: قُوةٌ خُلُقِيَّةٌ مِنْ قُوىٰ الإرادة، تُمكِّن الإنْسَانَ مِنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ لتَحمُّلِ المتاعِبِ والمشقَّاتِ والآلام، وضَبْطِها عَنِ الانْدِفاع بعَوامِلِ الضَّجَرِ والْجَزَعِ والسَّأَمِ والمَلَلِ والْعَجَلَةِ، والرُّعُونَةِ والْغَضَبِ والطَّيْش، والْخَوْفِ والطَّمَعِ، والأهواءِ والشهَواتِ والْغَرائِز.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ

مُجۡرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

قَرَأَ ابْنُ جَمَّازٍ [بِقْيَةٍ] بِكَسْرِ الباء وإسكان القاف وفَتْح الْيَاءِ دون تَشْدِيد، ولَا بُدَّ أنْ تكون لُغَةً بِمَعْنَىٰ [بَقِيَّةٍ] ولكِنْ لَمْ تُدَوِّنْها مَعَاجِمُ اللُّغَة.

﴿فَلَوۡلَا﴾: بِمَعْنَىٰ: «فَهلَّا» فلَفْظ «لَوْلَا» حَرْفُ تَحْضِيض.

﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾: أي: مَا وُسِّعَ عليهم فيه من أَرْزَاقٍ وأمْوَالٍ كانوا بها مُتَرَفِّهِينَ رَفَاهِيَةً زَائِدَة، جَعلَتْهُمْ مُسْتَكْبِرين بَطِرِينَ.

يقال لغة: «أَتْرَفَتِ النِّعْمَةُ فُلَاناً» أي: أَبْطَرَتْهُ.

المعنَىٰ: فاحْرِصُوا أَيُّهَا المؤمِنُونَ المسْلِمُونَ، أَنْ تَكُونَ مِنْكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ الْخَيْرِ، وَيأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَر، مَا توالَتِ الْقُرُونُ، وَأَنْ تَكُونَ هَـٰذِهِ الْأُمَّةُ ذَاتَ تَأْثِيرٍ في بَقَاءِ ظُهُورٍ إِسْلَامِيٍّ يُعْلِنُ شِعَارَ الْإِسْلَام، وَيَحْرِصُ عَلَىٰ الاعْتِزَازِ بِهِ والدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَلَا تَكُونُوا كَأَهْلِ الْقُرونِ السابِقَةِ الَّتِي اسْتَحقَّتِ الْإِهْلَاكَ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَمْ تَبْقَ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ صَالِحَةٌ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا أَفْراداً قَلِيلِينَ، لَمْ تَكُنْ لهم قُوَّةُ تَأْثِيرٍ عَلَىٰ جماهِيرِهِمُ الْمُفْسِدِين، وكانَ هؤلَاءِ مِنَ الَّذِينَ أَنْجَيْنَاهُمْ مِنَ الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ الذي أنْزَلْنَاهُ بأَقْوَامِهِمْ، أمَّا الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَقَدْ كَانُوا ظَالِمِينَ، واتَّبَعُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانوا مُجْرِمِينَ، ولو كانوا قابلين لأَنْ يكون منهم إصْلَاحٌ ما لِفَسَادِهِم بِتَأْثِيرِ الَّذِينَ يَدْعُونَهم، ويأْمُرُونَهم بالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَهُمْ عن المنكر والفساد لَمَا أَهْلَكْنَاهُمْ، فمن سُنَّةِ رَبِّكَ أَنَّهُ مَا كَانَ لِيُهْلِكَ أَهْلَ الْقُرَىٰ، بِسَبَبِ ظُلْمٍ كَبِيرٍ مِنْهُمْ، والْحَالُ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي أفرادهِمْ تَحَوُّلٌ بِإرَادَاتِهِمُ الحرَّةِ مِنَ الفساد والإفسادِ إلى الصَّلاح والإصْلاح.

- ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ . . . ﴿١١٦﴾﴾:

أي: فتفْرِيعاً عَلَىٰ تَوصِيَتِنَا لَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ بأنْ يَسْتَمِرَّ فيكُمْ مُصْلِحُونَ، أخْذاً مِنْ إيحاءَاتِ الآيَاتِ السَّابِقَاتِ، ولا سِيَما مَا جَاءَ فِي الآية (١١٣).

نَقُولُ لَكُمْ: هَلَّا كَانَ مِنَ الْقُرُونَ الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا مِنْ قَبْلِكُمْ أَصْحَابُ بَقِيَّةٍ من الخير الّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ، ذُوُو دِينٍ وعِلْمٍ بِمَسائِلِه، ومُجَاهَدَةٍ صادِقَةٍ في تَعْلِيم الدِّينِ، والأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْي عن المنكر وعَنِ الْفَسادِ في الأرْضِ، حَتَّىٰ لَا تَقْتَضِيَ الحِكْمَةُ إهْلاكَهُمْ، فَلَا نَحْكُمَ عَلَيْهِمْ بالإهْلاكِ الشَّامل.

لكنَّهُمْ قَدْ خَلَوْا مِنْ أَولي بَقِيَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ الَّذي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ.

- ﴿... إِلَّا قَلِيلًا ...﴾ أي: إلّا نَزْراً يَسِيراً لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَأْثِيرٌ مَا فِي أَقْوامِهِمْ.

- ﴿... مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾: أيْ: وهَـٰذا النَّزْرُ الْيَسِيرُ الْقَلِيلُ قَدْ أَنْجَيْنَاه مَعَ مَنْ أنْجَيْنَا مِنْ مُؤْمِنِي أقْوامِهِمُ المهْلَكِينَ إهْلاكاً جَمَاعِيًّا شَامِلاً.

- ﴿... وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ...﴾: أي: واتَّبَعَ الْمُهْلَكُونَ الَّذينَ ظَلَمُوا فِي حياتِهِمْ قَبْلَ أَنْ نُهْلِكَهُمْ، الاسْتِمْتَاعَ بما أتْرِفُوا فيه ظَالِمينَ مُسْتَكْبِرينَ مُفْسِدِينَ.

- ﴿... وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾: أي: وكانُوا كافِرين مُرْتَكِبينَ كُبْرَيَاتِ المعَاصِي والآثام، والْبَغْي والْعُدْوان.

- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾: أي: وَمَا كَانَ أمْرُ رَبِّكَ المسْبُوقُ بِقَضَائِهِ وقَدَرِه لِيُوَجّهَهُ لِتَنْفِيذِ إهْلاكِ أَهْلِ الْقُرَىٰ بِسَبَبِ ظُلْمِهِم الكَبِير، والْحَالُ أَنَّ لَدَىٰ كَثِيرٍ مِنْ أفْرادِهم الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَتَحوَّلُواعَنْ طَرِيق إراداتِهِمُ الحرَّةِ إلى الصَّلاح، بإصْلَاحٍ مِنْهُمْ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ فَسَادٍ وإفْسَادٍ، فَهَـٰذِهِ مِن سُنَّةِ رَبّك الدَّائِمَة في

عباده، فاحْذَرُوا يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَنْ تَصِلُوا إلى هَـٰذِهِ الدَّرَكة المهلِكَةِ السَّاحِقَةِ الماحِقَة.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

أي: ولَوْ شاء رَبُّكَ أيُّها المتَلَقِّي للقرآنِ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، لَسَلَبَهُمْ إرادَاتِهِم الحرَّةَ، ولَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ، وحِينَئِذٍ يَجْعَلُهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الْإِيمانِ والْإِسْلَام بالفِطْرَةِ الَّتِي يَفْطُرُهُمْ عَلَيْها؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَا يَرْضَىٰ لِعِبادِهِ الْكُفْرَ، ولَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنْ يَخْلُقَ مَخْلُوقاً مَجْبُوراً عَلَىٰ الْكُفْرِ، ثُمَّ يُعَاقِبَهُ عَلَىٰ كُفْرِهِ الَّذِي لَا كَسْبَ لَهُ فِيهِ بإرادةٍ حُرَّةٍ.

لكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ ذَوِي إرادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ، ومِنْ شَأْنِ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ في مُرَادَاتِهِم واخْتِيَارَاتِهِمْ، وَمَا دَامُوا ذَوِي إرادَاتٍ حُرَّةٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدنيا، فإنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين، ومِنْ مَظَاهِرِ اخْتِلَافِهِمْ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضُهُمُ الْإِيمانَ والإِسْلَامَ والطاعَةَ لِرَبِّهِ، وأَنْ يُرِيدَ بَعْضُهُمُ الكُفْرَ والْفُسُوقَ والْعِصْيَان.

لَكِنْ مَنْ يَخْتَارُ الْإِيمانَ بِصِدْقٍ وإِرَادَةٍ جَازِمَةٍ، يَشْرَحُ رَبُّكَ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وتَطْبِيقَاتِهِ في السُّلُوكِ النَّفْسِيّ والظَّاهر، بِرَحْمَتِهِ وتوفِيقِهِ ومَعُونَتِهِ له.

- ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾: أيْ: وَخَلَقَهُمْ رَبُّكَ ذَوِي إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَكْشِفَ بالامْتِحَانِ اخْتِلَافَهُمْ في مُرَدَاتِهِمْ وأعْمَالِهِمْ، مِنَ الْحَقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيرِ والشَّرّ، والإيمَانِ والكُفْرِ، والطَّاعَةِ والْعِصْيَانِ، والرَّحْمَةِ والْعُدْوان،

لِيَجْزِيَهُمْ يَوْمَ الدِّين بَعْدَ الْبَعْثِ، على مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، مِنْ صَالِحَاتٍ وسَيِّئَاتٍ.

والْجِنُّ فِي هَـٰذا كالإنْسِ في وضْعِهِمْ في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، ذَوِي إرَاداتٍ حُرَّةٍ، ينْجُمُ عَنْهَا الاختِلافُ في الْمُرَادَات، بَيْنَ المتناقِضَات والأضْدَاد والمخْتَلِفَات، الَّتي تَقْتَضِي الثوابَ أو الْعِقَاب، بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ اللهِ أوْ فَضْلِهِ.

﴿... وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

أي: وإذْ عَلِمَ رَبُّكَ أيُّهَا المتَلَقِّي لآيَاتِ القرآنِ أنَّ أكْثَرَ الإنْسِ والْجِنِّ، سَيُرِيدُونَ بإراداتِهِم الحرَّةِ الكُفْرَ دُونَ الإيمانِ، والْجُحُودَ والْعِصْيَانَ، دُون الطَّاعَةِ والْإِذْعان، في رِحْلَةِ الامْتِحَان، فَقَدْ تَمَّتْ كَلِمَتُهُ فِي الْحُكْم علىٰ الْعِبَادِ بأَنْ يَمْلأَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ مُجْرِمِي الْجِنَّةِ ومِنْ مُجْرِمِي النَّاسِ، الكافِرِينَ كُفْراً إرادِيًّا بِجُحُودٍ، وهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَه.

وجاءَ في بيانَاتِ السُّنَّةِ النَّبوِيَّة أنَّ الْجَبَّار يَضَعُ قَدَمَهُ عَلَىٰ النَّارِ، الَّتي تَطْلُبُ المزيدَ مِنْ أجْسَادِ الكُفَّار، فينْضَمُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وحِينَئِذٍ تَقُولُ: قَط، قَط، أي: امْتَلأْت، امْتَلأْت.

قولُ الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسُوله ﷺ:

- ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

أي: وتَدَبَّرْ كُلَّ نبأٍ نَقُصُّ عَلَيك مِنْ أنْبَاءِ الرُّسُلِ مع أقْوامِهِمْ، مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، إذْ نُبَيِّنُ لَكَ فيما نَقُصُّ ما لَاقَاهُ الرُّسُل مِنْ مُجْرِمي أقوامِهِمْ مِنْ مُؤْذِياتٍ مُحْزِنَاتٍ لَهُمْ، وكيْفَ نَصَرْنَاهُمْ نَصْراً مُبِيناً، فيكُونُ بِذَلِكَ تَثْبِيتٌ لِفُؤَادِكَ، عَلَىٰ مُتابَعَةِ مَسِيرَتِكَ الدَّعَوِيَّةِ بِقُوَّةٍ وَثَبَاتٍ وَصَبْرٍ ومُصَابَرَة، ثِقَةً مِنْكَ بأنَّكَ مُؤَيَّدٌ وَمَنْصُورٌ مِنْ رَبِّكَ لا مَحالَة.

التّنْوين في: ﴿وَكُلًّا﴾ تنوينُ عِوَضٍ عَنِ المضافِ إلَيْه، والتقدير: «وكُلَّ نبأٍ» وهو مَفْعُولٌ بِه لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ فيما أرىٰ، تقديرُهُ «تَدَبَّرْ» أي: وتَدَبَّرْ كُلَّ نَبَأٍ نَقُصُّ عَلَيْكَ مُدْرِكاً مَا نُثَبِّتُ به فُؤَادَكَ مِنْ أنباءِ الرُّسل.

الْمرادُ بالْفُؤَادِ عُمْقُ الْقَلْب، إذْ إنَّ كُلَّ أَرْكان الإنسانِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ تَثْبُتُ بِقُوَّةٍ وشَجَاعَةٍ، إذَا ثَبَتَ عُمْقُ الْقَلْب.

وَجَاءَ فِعْلُ ﴿نَقُصُّ﴾ فِعْلاً مُضَارِعاً للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الاسْتِقْبَال، وهو ما سَيأتِي قَصُّهُ في السُّوَرِ الّتِي سَتَنْزِلُ بَعْدَ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول).

- ﴿... وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

أي: وَجَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ في هَـٰذِهِ السُّورَةِ مِنْ أنْباءِ الرُّسُلِ مع أقْوامِهِمْ، الْحَقُّ المتضَمِّنُ مَا يَثْبُتُ بِهِ فُؤادُكَ، وهُوَ أيْضاً مَوْعِظَةٌ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَتَعِظَ مِنْ غَيْرِ المؤمنِينَ، بِمَا عَاقَبَ اللهُ بِهِ مُجْرِمِي الْقُرُونِ الماضِية، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤمِنِينَ تُبَصِّرُهُمْ بِتَأْيِيدِ اللهِ وَنَصْرِهِ لِأَوْلِيَائِه، وخِذْلَانِه لأعدائه.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾: اسْمٌ للتَّذْكِير، وتَأْتِي اسْماً لِلتَّذْكِرَةِ، كَمَا سَبَقَ بيانُهُ في الآية (١١٤).

أي: فالمؤمِنُونَ يَتَذَكَّرُونَ مَا جَاءَ في هَـٰذه القِصَصِ الَّتِي جاء بيانُهَا في هَـٰذه السُّورَةِ، فَيَصْبِرُونَ عَلَىٰ مَا يُلَاقُونَهُ مِن اضْطِهادٍ وأذىً، من قِبَلِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِين، ويُتَابِعُونَ نُصْرَةَ دِينِ اللهِ، ونُصْرَةَ رَسُولِهِ، واثِقِينَ بأنَّ الْعَاقِبَةَ الْحُسْنَىٰ لِلْمُؤْمِنِيْنَ المتَّقِين، المُجاهِدِينَ الصَّابِرِين الصَّادِقين، وأنَّ الْعَاقِبَةَ الْوَخِيمَةَ سَتَكُونُ لمُضْطَهِدِيهم أعْداء اللهِ وَرَسُوله، أمَّا الدُّعَاةُ مِنْهُمْ فَيَتَأَسَّوْنَ بالرَّسُولِ ﷺ في جِهَادِهِ وصَبْرِهِ، وَمُتَابعَةِ مَسِيرَاتِهِم الدَّعَوِيَّةِ صَابِرِين مُحْتَسِبِينَ أُجُورَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فاللهُ لَا يُضِيعُ أجْرَ الصَّابِرِينَ المجاهِدِينَ في سَبِيلِهِ.

قول الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾: وقُرِئ: [**مكاناتكم**]﴾ بالْجَمْعِ، والمؤدَّىٰ واحد.

المكانة: مُؤَنَّثُ المكان، والمرادُ مَكَانَتُهُمُ الاعْتِقَادِيَة والسُّلوكية والعدائيَّة.

أي: وقُلْ يا مُحَمَّدُ للَّذينَ لَيْسَ لَدَيهِمْ اسْتِعْدَادٌ، لِأَنْ يُؤْمِنُوا بِكَ ولا بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعْمَلُوهُ، مِنْ مَكَايِدَ وأَنْوَاعِ مَكْرٍ سَيِّىءٍ وَتَدْبِيرَاتٍ لِقَمْعِي وقَمْعِ دَعْوَتِي واضطِّهادِ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُونِي، حَالَةَ كَوْنِكُمْ ثَابِتِينَ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمُ الكُفْرِيَّةِ الشِّرْكِيَّةِ الإجْرَامِيَّة.

إنَّا عَامِلُونَ بِما يُرْضِي رَبَّنَا مِنَّا، ثَابِتُونَ عَلَىٰ مَوْقِعِ إيمانِنَا وإسْلامِنَا وجِهَادِنَا ومُجَاهَدَتِنَا وَصَبْرِنَا وَمُصَابَرَتِنَا في ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ رَبِّنا.

وانْتَظِرُوا نَتَائجَ أَعْمَالِكُمُ الكُفْرِيَّةِ الشِّرْكِيَّةِ الإجْرَامِيَّةِ الوخِيمَةِ المخْزِيَةِ المؤلِمة لَكُمْ والمهلِكَة في الدنيا، ثم مَا يُجازيكُمْ بِهِ يَوْمَ الدِّين من عَذَابٍ خالدٍ في الجحيم.

إِنَّا مُنْتَظِرُونَ تَأْيِيدَ اللهِ وَنَصْرَهُ لَنا، وتَمْكِينَهُ لَنَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَهَبُنَا مِنْ عِزَّةٍ ومَجْدٍ وَرِزْقٍ حَسَنٍ فِي الدُّنْيا، ثُمَّ مَا يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ يَوْمَ الدِّين، فِي مَنَازِلِ الْجَنَّة خَالِدِينَ فيها بلا نِهَايَة.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

وقُرِئ: [**يَرْجِعُ**] بالبناء للمعلوم. وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في البيان، أي: يُرْجِعُ اللهُ كُلَّ الْأَمْرِ إلَيْه، فَهُوَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ بالْجَبْرِ طائعاً.

وقُرِئَ: [**عَمَّا يَعْمَلُونَ**] بِضَمِير الغائبين، وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في

الْأَدَاءِ الْبَيَانِي، فالمُتلقُّونَ يُقَالُ لهم: «عَمَّا تعْمَلُونَ» وغير المُتلقِّين يُقَالُ بِشَأْنِهِمْ: «عَمَّا يعْمَلُون».

في هَـٰذِهِ الآيَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ آياتِ السُّورَةِ رَبْطٌ وَتَذْكِيرٌ بخمْسِ كُلِّيَّاتٍ كُبْرَىٰ مِنْ كُلِّيَّاتِ الدِّين:

الْكُلِّيَّة الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛

أي: وَللهِ وَحْدَهُ عِلْمُ كُلِّ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ الَّذِي يَخْفَىٰ عَلَىٰ كُلِّ خَلْقِ اللهِ، مِنْ مَلَائِكَةٍ وإِنْسٍ وَجِنٍّ وغَيْرِهِمْ مِنْ ذَواتِ الإِدْراكِ، ويَلْزَمُ مِنْ عِلْمِهِ الْغُيُوبَ كُلَّهَا عِلْمُهُ بِمَا يَعْلَمُهُ خَلْقُهُ مِمَّا هُوَ مَشْهُودٌ لَهُمْ أَوْ مَشْهُودٌ لِبَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ، فهَـٰذا مِنْ بابِ أولَىٰ، وَجَاءَ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلماً، مِن الْوَاجِبَات العقليَّةِ، والمستحيلاتِ الْعَقْلِيَّةِ، والجائِزَاتِ العقليَّةِ، ومَا كانَ وَمَا هُو كَائِنٌ وَمَا سَيَكُون، وتأتِي التَّعْبِيراتُ عَنْ هَـٰذِهِ الحقيقَةِ في القرآنِ بأفانِينَ مِنَ الْقَوْل.

الْكُلِّيَّةُ الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ ـ [**وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ**] في القراءة الأخرى.

أي: وَإِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعظُمَ سُلْطَانُهُ يَرْجِعُ شَأْنُ كُلِّ شَيْءٍ في الوجود كُلِّه إيجاداً وإعداماً وتَصَارِيفَ. وإِلَيْهِ يَرْجِعُ الأَمْرُ التَّكْوِينِيُّ في إيجاد أيِّ شَيْءٍ، أَوْ إعْدَامِه، أو التَّصْرِيفِ فيه، والأَمْرُ التكليفي، والأَمْرُ الَّذِي يَأْذَنُ بِهِ لَذِوي الإِرَادَاتِ الحرَّةِ أَنْ يَتَصَرَّفُوا به ضِمْنَ سُنَنِهِ فِي كَوْنِهِ، ثُمَّ هُوَ الخالِقُ لِمَا يُرِيدُونَهُ مِنْ مُرَادَات.

وإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ والشَّأْنُ كُلُّهُ يَوْمَ القِيامَةِ، فيُحَاسِبُ العبادَ الذين كانُوا فِي الحياةِ الدُّنْيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان، ويَقْضِي بِشَأْنِ كلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ على وَفْقِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِمَا كَسَبَ أَوِ اكْتَسَبَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ،

ويَكُونُ قَضَاؤُه بِعَدْلِهِ أو بِفَضْلِهِ، ثُمَّ يُجَازِي كلَّ فَرْدٍ بِحَسَبِ الْقَضَاء الّذي قضاهُ بِشَأْنه.

الكُلّيّة الثَّالِثَة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾:

خِطَابٌ بأسْلُوبِ الخطاب الإفرادِيِّ، مُوَجَّهٌ لِكُلِّ مَوْضُوعٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، إذْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَلَقَّىٰ خِطَابَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ويَعْمَلَ بما يأمُرُهُ به. فَهُو مُكَلَّفٌ بالْأَمْرِ الرَّبَّانِيّ أنْ يَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ أحداً.

وعبادة اللهِ عَزَّ وجَلَّ تَكُونُ بِطَاعَتِهِ في أَوَامِرِهِ ونَواهِيهِ، والتَّقَرُّب إلَيْهِ بما يُحِبُّ مِنْ عَبْده، مِنْ أفْعَالٍ لِمَا يُرْضِيه فِعْلُهَا أَوْ يُحبُّهُ ويُثيبُ عَلَيْهِ، وتَرْك لِأَشْيَاءَ يُرْضِيهِ تَرْكُهَا أَوْ يُحِبُّه ويُثِيبُ عليه.

وهي تَشْمَلُ الالْتِزَامَ بِكُلِّ أحْكَامِ الدِّينِ وشَرائعه.

الْكُلّيّة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾:

أي: وسَلِّمْ أيُّهَا الْعَبْدُ كُلَّ أُمُورِكَ بِقَلْبِكَ إلَيْهِ، مع قيامِكَ بالأسْبابِ المستطاعَةِ المادّيَّةِ والمعْنَويَّة، طَاعَةً لِأَمْرِهِ، وطَاعَةً لنَهْيِهِ، فالتوكُّل على اللهِ وَظِيفةٌ قَلْبِيَّةٌ ونَفْسِيةٌ، ولَيْسَ وَظيفَةً جَسَدِيَّةً تَقْتَضِي تَرْكَ الْأَسْبَاب، فالقيام بالأسْباب من شريعةِ الله لعبادِهِ.

والمُخْطِئُونَ فِي تَصَوُّرَاتِهم، والمضَلِّلُونَ المفْسِدُونَ مَفَاهِيمَ النَّاسِ لِدِينِهِمْ، يَجْعَلُونَ التَّوَكُّلَ من الوظائِفِ الْجَسَدِيَّةِ الَّتي يَتْرُكُونَ بِها اتِّخَاذَ الْأَسْبَابِ، الَّتي جعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ تَحْقِيقَ المطالِبِ مُرْتَبِطاً بِهَا، لِأُمُورِ الدُّنيا ولِأُمُور الآخِرَة.

الْكُلِّيَّةُ الْخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿. . . وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾:

أي: هو جَلَّ جَلَالُهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ أعْمَالِ عبادِهِ الْجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ والْقَلْبِيَّة، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْها خَافِيَة مَا.

الغَفْلَةُ: انْصِرَافُ قُدْرَاتِ الْعِلْمِ عَنْ مُتَابَعَةِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَمَ، ولَوْ كانَ انْصِرَافاً يَسِيراً في أقَلِّ مِقْدَارٍ من الزَّمَن، واللهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، بل شهودُه العَلْمِيُّ لكلّ شيءٍ شُهُودٌ دائم.

وبهذا تمّ تَدبُّر سورة (هود/ ٥٢ نزول) والحَمْدُ للهِ على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٢)

الملحق الأول

حول مستخرجات بلاغيّة من السورة

لم أُثْبِتْ في هذا الملحق كلَّ ما يُمْكِنُ لي اسْتِخْرَاجُهُ مِنْ بلاغيّاتٍ في سورة (هود) وإنّما اقْتَصَرْتُ على اسْتِخْرَاجِ بَعْضِ الأمْثِلَة، لتعويد القارئ علىٰ الاستخراج، مستفيداً مِمَّا سبَقَ أنِ اسْتَخْرَجْتُهُ من بلاغياتِ السُّور الّتي سَبَقَ تَدبُّرُهَا.

أوّلاً: من الإطْنَابِ المفيد في السُّورَة ما يلي

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿... أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

جاء في هَـٰذِهِ العبارة وصْفُ «عادٍ» بِأَنَّهُمْ قَوْمُ هُودٍ، مع الْعِلْم من سِيَاقِ القِصَّةِ أَنَّهُمْ قومُ هودٍ، والغرضُ مِنْ هذا الإطْناب تَحْقِيقُ غَرَضَيْن:

الغَرَض الأوّل: مراعاة فواصل الآيات.

الْغَرَضُ الثاني: الدَّلَالَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ تُوجَدُ عَادٌ أُخْرَىٰ غَيْرُ قَوْمِ هُودٍ عليه السّلام، وهُمْ ثَمُودُ قَوْمُ صالحٍ عليه السّلام، إذْ هُمْ خلائِفُ مَنْ أَنْجاهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ قَوْمِ عاد بإيمانهم.

هذا إطنابٌ، وهو من الإطنابِ المفيد لفظاً ومعنًى.

ثانياً من القصر في السورة ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ... ⑥﴾:

في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ قَصْرُ صِفَةٍ على موصُوفٍ، وهو قَصْرٌ حقيقي. والأدَاةُ المستعملَةُ فيه النفي بـ «ما» والاستثناء بـ «إلّا».

(٢) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لما يقولُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِشَأْن نبأ الْبَعْث:

﴿... وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦﴾:

في عبارة الّذين كفروا: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قَصْرُ مَوْصُوفٍ وهو نَبأُ الْبَعْثِ، على صِفَةٍ وهي كَوْنُهُ مَظْهراً من مظاهِرِ أقوالٍ سِحْرِيَّة، وهُوَ قَصْرٌ إضَافي، أي: بالإضافَةِ إلى كَوْنِهِ حَقًّا أَوْ كَذِباً مَصْنُوعاً بأسَالِيبَ بَلِيغَةٍ ساحِرَةٍ.

والأدَاةُ المسْتَعْمَلَةُ فيه النَّفيُ بِحَرْفِ النفي «إنْ» والاستثناء بحرف: «إلّا»:

ثالثاً: مِنَ المجاز المرْسَل في السّورة ما يلي:

(١) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لقول نوحٍ لقومه:

﴿... إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾:

جاء في هٰذه العبارة وَصْفُ الْيَوْمِ بأنَّه أَلِيمٌ، وهُوَ مِنْ إطْلَاقِ الزَّمَنِ على مَا يَجْرِي فيه، وهذا من المجاز المرسَل، فالْعَذَابُ فِيهِ هُوَ المؤلم، ولَكِنَّ اسْتِمْرَارِيَّة الْعَذَاب فيه تُشْعِرُ بأنَّ الْيَوْمَ الَّذِي هو الزَّمانُ هو المؤْلِمُ، إذْ لَا يَشْعُرُ المعذَّبُ بأزْمَانٍ داخِلَهُ فيها راحَةٌ حتَّىٰ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْيَوْم وبَيْنَ وَسَائِلِ التَّعْذِيب فيه، فَيُحِسُّ بأنَّ الْيَوْمَ نَفْسَهُ هو المؤْلِمُ، وهَـٰذا مِنَ الصِّدْق الْفَنِّيِّ الْبَدِيع.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن المشركين:

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾:

في عبارة: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ مَجازٌ مُرْسَلٌ، إذ المعْنَىٰ: وَمَا زَادَتْهُمْ عَقِيدَتُهُمْ بآلِهَتِهِمْ غَيْرَ خَسَارَةٍ، نُسِبَتْ زِيَادَةُ الْخَسَارَةِ إلىٰ آلِهَتِهِمْ وهِيَ إلَىٰ الإيمانِ بآلِهَتِهِمْ، وهَـٰذا مِنَ المجاز المرْسَلِ، وهُوَ مِنْ إطْلَاقِ الشَّيْءِ وإرادَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

(٣) وقولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾:

أُطْلِقَ في هَـٰذِهِ الآية لفظ «الْقُرَىٰ» وأرِيدَ أَهْلُهَا، وهُوَ مَجازٌ مُرْسَلٌ مِن إطْلَاقِ المحَلِّ وإرادَةِ الْحَالِّ بِهِ.

ووُصِفَ فيها الْأَخْذُ بِأَنَّهُ أَلِيمٌ، والمرادُ لَازِمُ الْأَخْذِ وهو ما تَبِعَهُ مِنْ وَسَائِلِ تَعْذِيبٍ مُؤْلِمٍ، وهو أيضاً من المجاز المرسل.

رابعاً: مِنْ باب الوَصْلِ والْفَصْلِ في السُّورة ما يلي:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾:

اخْتِيرَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ فَصْلُ جُمْلَةِ: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فَلَمْ تُعْطَفْ بحَرْفِ العطف «الواو» على مَا جَاءَ قَبْلِهَا، لمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شِبْهِ كَمَالِ الاتِّصَال، إذْ مَا قَبْلهَا يُثِيرُ سُؤَالاً، وهو: هل يَقْتَصِرُ الأمْرُ على شُمُول عِلْمِ اللهِ لِأَطْوَارِ كُلِّ دابَّة؟

فجاء الجواب: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: أي: بَلْ يَزِيدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ أيضاً في كتابٍ مُبين.

خامساً: مِنَ التشبيه الْبَلِيغ في السورة ما يلي:

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾:

جاءَ في هذه الآيَةِ تَشْبِيهُ الْقُرَىٰ الَّتِي أهْلَكَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أهْلَها بأنَّ قِسْماً مِنْهَا يُشْبِهُ زَرْعاً قائماً، وأَنَّ قِسْماً آخَرَ مِنْها يُشْبِهُ زَرْعاً مَحْصُوداً بالمِنْجل.

أي: بَعْضُها كزَرْعٍ قَائِمٍ عَلَىٰ سُوقِهِ، لَمْ تَمْحُهُ أَحْدَاثُ إهْلَاكِ الأقوام الّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونها.

وبَعْضُها كَزَرْعٍ مَحْصُودٍ بالمِنْجَلِ سَاقِطٍ على الْأَرْض، وقَدْ مَرَّتْ عليه القرون فصَارَ أطْلَالاً، أَوْ عَفَتْ آثارُهُ.

وفي كُلٍّ من هَـٰذَيْنِ التَّشْبِيهَيْنِ قَدْ حُذِفَتْ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ وَوَجْهُ الشَّبَه، فَهُوَ مِنَ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغ.

سادساً: مِنَ الكِنَايَة في السورة ما يلي:

(١) قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ إبراهيم عليه السَّلَام وضُيُوفِهِ الملائكة الذين لم يكن يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَلَائِكَة:

﴿... فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ ... (٧٠)﴾:

جاء في عبارَة: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ التَّعْبيرُ بأَحَدِ لوازِمِ عَدَمِ الْأَكْلِ مِنَ العِجْلِ الْحنيذِ الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ إبراهيم عليه السَّلامُ عَلَىٰ سَبِيل الكِنَايَة، والكِنَايَةُ مِنْ بَدِيعِ الْقَوْلِ غَيْرِ المباشر.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام والرُّسُلِ من الملائكة الَّذِين جاءُوهُ ضُيوفاً وهو لَا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَلَائِكة إذْ جاءوا على صُوَرِ شباب مُرْدٍ حِسَانٍ.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ (٧٧)﴾:

عبارة: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ كِنَايَة عن ثِقَلِ أَمْرِ مَجيئهِمْ ضُيُوفاً عَلَيْه، عَلىٰ نَفْسِهِ وقَلْبِهِ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ فِسْقِ قَوْمِه، وخَوْفِ أَنْ يَفْضَحُوهُ فِي ضَيْفِهِ.

أَصْل هذه العبارة: أَنَّ الْبَعِيرَ إِذَا حُمِّلَ أَكْثَرَ مِنْ طَاقَتِهِ ضَاقَ ذَرْعُهُ، أي: ضَاقَتْ مَسَافَةُ مَدِّهِ لِذِرَاعِهِ، فاسْتِعْمَالُ ضِيقِ الذَّرْعِ بِمَعْنَى ثِقَلِ الْأَمْرِ كِنَايَةٌ ذَاتُ دَلَالَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، وهي مِنَ الْكِنَايَاتِ الْجَمِيلَة.

سابعاً: من الإشارة إلى القريب باسْم الإشارة الموضوع للبعيد

يُشَارُ إلى القَرِيب باسم الإشارة الموضوع لِلْبَعِيد لداعٍ بلاغيّ، ومن الدواعي البلاغية الدَّلَالَةُ عَلى ارتفاع مَنْزِلَةِ المشار البعيد، أو انْحِطَاطِ مَنْزِلَتِهِ وَتَسَفُّلِها، أو عِظَمِ المشار إلَيْه، ومِنْها فِي السُّورَةِ ما يلي:

(١) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْن فُضَلَاءِ المؤمنين:

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ ... (١٧)﴾.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِهِمْ أَيْضاً:

﴿... أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

(٣) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشأْنِ الكافرينَ المجرمين:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴿٢٠﴾﴾.

(٤) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشأنهم أيضاً:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

(٥) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بِشأن عِظَمِ العذاب الذي وُعِدَ بِهِ قَوْمُ لوط:

﴿... ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: ذَلِكَ العذابُ الموعودون به عذابٌ عَظيم شَدِيدُ الإيلام لهم.

ثامِناً: من خروج الاستفهام عن أصْلِ دَلالَتِهِ الَّتِي هي طَلَبُ الإفْهام ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَة لبعض مَا قَالَ نُوحٌ عليه السلام لِقَوْمه:

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؟ أي: فَكِّرُوا لِتَرَوْا.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾؟: أي: لَا نُجْبِرُكُمْ عَلَيْها.

(٢): وقول الله عَزَّ وجَلَّ في حكاية الحوار بين الرُّسُلِ من الملائكة و«سارة» زَوْجَةِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السلام:

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ... ﴿٧٣﴾﴾:

أي: لَا تَعْجَبي مِنْ أَمْرِ الله.

(٣) وقول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لما قال لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِفُسَّاقِ قَوْمِه:

﴿... أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾:

استفهام يتضَمَّنُ وَصْفَهُمْ بالسَّفَاهَةِ وخِفَّةِ الْعَقْلِ وانْعِدامِ الرُّشْدِ بأسْلُوبٍ غير مُبَاشِر.

أي: لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشيد.

تاسعاً: من توكيد الجُمَلِ الخبريَّة لَدَواعٍ بَلاغية مَا يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ بياناً دَعَوِيًّا لِغَيْرِ المؤمنين:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾:

الداعي للتوكيد أنَّ المدْعُويين مُنْكِرُون، وفي العبارة مؤكّدان: «إنّ ـ والجملة الاسْمِيّة».

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ أيضاً معلّماً:

﴿... وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾:

كالمثال السَّابق.

(٣) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بياناً لمَا سَيقُولُهُ مُنْكِرُو الْبَعْث إذَا أُنْبئُوا به:

﴿... وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾:

في عبارة ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ التوكيد بمُؤَكِّدين: (إنَّ ـ والجملة الاسمية).

وفي عبارة ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ التوكيد بالقسم وبنُون التوكيد الثقيلة، والغرض إسماع الّذين كَفَرُوا بما سيقولون، لإعلامهم بأنَّ الله عَلِيمٌ بما في نفوسهم مِنْ تكْذِيب بالحقّ.

ونظيره في الآيتين (٩) و(١٠).

(٤) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشأنِ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيل اللهِ ويَبْغُونَها عِوَجاً.

﴿... وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾:

ففي هَـٰذِهِ الآية التوكيد بِضَمير الفصل في: ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ للدَّلَالَة على إصْرارِهِمْ بعِنَادٍ عَلَىٰ الْكُفْرِ بالآخِرَة.

وأكْتَفِي بهَـٰذِهِ المستخرجات البلاغية من هذه السورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوفيقه.

* * *

(١٣)

الملحق الثاني

دِرَاسة تكامليّة للنصوص القرآنية بِشأنِ هود عليه السلام وقومه عاد

جاء ذكر «هود» عَلَيْهِ السّلام وقومِهِ عاد في عِشرينَ نَصًّا في القرآن المجيد، من (١٩) سورة، وجاء في معظمها ذكْرُ لقطاتٍ مِنْ قصَّتِهِ مع قَوْمِهِ متكاملاتٍ فيما بَيْنَها.

ومِنْ شأْنِ التَّدَبُّر المتأنِّي دِرَاسَةُ هَـٰذِهِ النُّصُوصِ دِرَاسَةً واعِيَةً بِنَظْرَةٍ شُمُولِيَّةٍ تَكْشِفُ التَّكَامُلَ فيما بَيْنَها.

وأنْقُلُ هَـٰذِهِ النُّصُوصَ مِنَ المصْحَفِ أوّلاً، مُرَتَّبَةً وَفْقَ تَرْتِيبِ نُزُول سُوَرِها، وبَعْدَ ذَلِكَ أشْرَعُ إنْ شَاءَ الله بِتَدَبُّر مَا جَاءَ فيها تَدَبُّراً تكامُلِيًّا علَىٰ مَا يَفْتَحُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ به.

النص الأول:

قولُ الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ (٧) ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ (٨) وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ (١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ (١١) فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ (١٤)﴾.

النّصُّ الثاني:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١)﴾.

النّصُّ الثالث:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾.

النّصّ الرابع:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الْقَمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول).

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٨) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٢١)﴾.

النّصّ الخامس:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)﴾.

النَّصّ السَّادِس:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الْأَعْرَاف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾.

النصّ السابع:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾.

النصّ الثامن:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الشّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
(١٢٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ
(١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا
بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢)
أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)
قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠)﴾.

النصّ التاسع:

قول الله عزَّ وجلَّ في سُورَة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول).

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى
فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا۟ يَـٰهُودُ
مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)
إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى
وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن
تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ
إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟
رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ
إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾.

النصّ العاشر:

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) أيْضاً حِكَايَةً لقول شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ (٨٩)﴾.

النص الحادي عشر:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول) حكايَةً لِقَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ يَنْصَحُ عَشِيرَتَهُ الأقْرَبين:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ (٣٠) مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ (٣١)﴾.

النّصّ الثَّاني عشر:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (فُصِّلَتْ/٤١ مصحف/٦١ نُزُول):

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ (١٣) إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ (١٥) فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ (١٦)﴾:

النصّ الثالث عشر:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الأحْقاف/٤٦ مصحف/٦٦ نزول):

﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ

وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦)﴾:

النصّ الرابع عشر:

قول الله عَزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الذَّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢)﴾.

النّصّ الخامس عشر:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)﴾.

النص السادس عشر:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بَعْدَ الْحَدِيث عَنْ قَوْمِ نُوحٍ، وهُمْ عَادٌ:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)﴾ .

النصّ السابع عشر :

قول الله عَزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ (٨)﴾ .

النَّصّ الثامن عشر :

قولُ اللهِ عَزَّ وجلَّ في سُورَة (العَنْكبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾ .

النَّصّ التَّاسع عشر :

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نُزُول) خطاباً لرسوله ﷺ :

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

النص العشرون:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (التوبة/٩ مصحف/١١٣) تحذيراً للمنافقين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

مقدمة

تدبُّر هذه النصوص (٢٠) في مواضِعها مِنْ سُورِها بَعدَ النَّظرِ في سَوابِقِها ولَواحِقِها يَكْشِفُ للمتدبّر أَنَّ إيراد كُلِّ نَصٍّ مِنْها فِي السُّورَةِ الَّتِي وَرَدَ فيها، قَدَ اسْتَدْعَتْهُ مُناسَبَةٌ داعِيَةٌ لإِيرادِه فيها.

وعَسَىٰ أنْ نَكْتَشِفَ بَعْدَ تَدَبُّرِهَا أَنَّها متكامِلَةٌ فيما بَيْنَها، ولَمْ يُكَرَّرْ فيها إلَّا مَا يَقْتَضِيهِ إيرادُ القِصَّة، وَحَلْقَاتُ الرَّبْطِ، وفِقَرَاتُ الإِنْذَارِ وَتَوْجِيهِ العِظَة، وَمَا كَان هُود عَلَيْهِ السَّلام يُكَرِّرُهُ على قومه «عاد».

عَادٌ وَرَسُولُهُمْ هودٌ عليه السّلام:

عادٌ: قومٌ مِنَ العرب، كَانَتْ مَسَاكِنُهُمْ في أرْضِ «الأحْقَاف» مِن جَنُوبِ شِبْهِ الْجزيرَةِ الْعَرَبِيَّة، وهي تَقَعُ في شَمالِ «حَضْرَموت». وَيَقَعُ في شَمَالِ «الأحْقَافِ» مَا يُسَمَّىٰ «الربع الخالي» وفي شَرْقها «عُمَان» وَمَوْضِعُ بِلادِهِم الْيَومَ رِمَالٌ قَاحِلَةٌ لَا أَنِيس فِيها وَلَا دَيَّار، وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ هو «هُودٌ» عليه السّلام.

نسب هود عليه السلام: هو على مَا ذَكَرَ المؤرّخون «هُود» بْنُ عبد اللهِ بْنِ رَبَاح بْنِ الْخُلُودِ بن «عَاد» جدّ هؤلاَ القوم، وينْتَهِي نَسَبُهُمْ إلَىٰ «سَام» بن «نوح» عليه السّلام.

وتُعْتَبَرُ «عَادٌ» عنْدَ المؤرّخين من الْعَرب البائدة، أي: باستِثْناء الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ، وأنجاهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مع رَسُولِهِمْ من الْهَلاَكِ الشَّامِلِ الَّذِي نَزَل بِكُفَّارِهِمْ.

وكانَ هؤلاء القومُ أشِدّاءَ أقْوِيَاءَ مِمَّنْ زَادَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بَسْطَةً في الْخَلْق، وكانُوا مُتْرَفِينَ فِي الحياة الدُّنيا بالنِّسْبَةِ إلى أَهْلِ زَمَانِهِمْ، فَقَدْ أمَدَّهُمُ اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ بِأَنْعَام وَبَنِين، وجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وأَلْهَمَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا مَصَانِعَ وهي المنشآتُ المدنيّةُ والْعَسْكرِية كالقصور والقلاع والمباني، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ التَّرَفِ بِحَسَبِ أزْمَانِهِمْ، وضِمْنَ حُدُودِ تَقَدُّمِ النَّاسِ الحضارِيِّ حِينَئِذٍ، ومِنْها مَصَانِعُ لجمع المياه.

وَكَانُوا أَهْلَ بَطْشٍ، فإذا بَطَشُوا بَطَشُوا جَبَّارِينَ، وكَانُوا أصْحَابَ آلِهَةٍ مِنَ الأوثانِ يَعْبُدُونَها مِنْ دُون الله.

وعن ٱبْن إسْحَاق أنَّ أصْنَامَهُمْ: «صَدَاء - صَمُود - الْهَبَاء» كَمَا رَوَىٰ الطَّبَري.

وكانُوا يُنْكِرُونَ الدّارَ الآخِرَةَ، والْبَعْثَ للحِسَاب، وفَصْلِ القضاء وتنفِيذِ الجزاء، دَلَّ على هذا قول الله عَزَّ وجَلَّ عنهم في سُورَة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) حَاكِياً قَوْلَهُمْ:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

وكانَ كُفْرُهُمْ بآياتِ رَبِّهِمْ وَبِرَسُولهم «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلام كُفْرَ جُحُودٍ، مع أَنَّهُمْ مُسْتَيقِنُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، ومُسْتَبْصِرُونَ الْحقّ بِبَرَاهِينِهِ، إلّا أَنَّ اسْتِكْبَارَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ مَنَعَهُمْ مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَتَّبِعُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَيَتْرُكُوا ما هُمْ فِيه مِنْ قَبَائِحَ وَجَرَائِمَ وطُغْيَانٍ في الْأَرْض.

والنَّظَرُ التكاملي للنصوص الواردة بشَأْنِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام وقَوْمِهِ يأتي في سِتَّةِ فصول:

* * *

الفصل الأول

لقطات من مجريات دعوة هود عليه السّلام لقومه عاد

أوّلاً:

بداياتُ دَعْوَةِ هود عليه السَّلامُ لِقَوْمِهِ قد كانت مُمَاثِلَةً لبدايَات سائِرِ رُسُلِ اللهِ في دَعَوَاتِهِمْ لِأَقْوامهم، وتَتَلَخَّصُ بما يلي:

(١) الدَّعْوَة إلى عبادة اللهِ وَحْدَهُ لَا شريكَ له.

(٢) الدَّعْوَةُ إلى اتِّقَاءِ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ، بِنَبْذِ الشِّرْكِ، وطاعَةِ اللهِ باتِّبَاع مَا أنْزَلَ اللهُ لعبادِه من وصَايا وشرائع.

(٣) بَيانُ الرَّسُولِ لِقَوْمِهِ أَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ ومُجَاهَدَتِهِ لَهُمْ أَجْراً، وأنَّ أجْرَهُ على رَبّ العالَمِينَ الَّذِي أَرْسَلَهُ.

(٤) بَيانُ أنَّ الْآلِهَةَ الَّتِي اتَّخذَهَا قَوْمُهُ، والَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُون الله آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ، لَيْسَ لَهَا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ شَيْءٌ، فَلَيْسَ لها من الإلَهِيَّةِ شيءٌ، وأنَّ اتّخاذَهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ افتراءٌ علَىٰ الله.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ البدايات في النُّصُوص مَا يلي:

(أ) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾:

أي: كذَّبتْ عادُ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللهُ إلَيْهِمْ، وَكَانَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلامُ آخِرَهُمْ، فجَحَدُوا رِسَالَاتِهِمْ، وكذَّبُوهُمْ بِما جاءُوهُمْ بِهِ بَلاغاً عَنْ رَبِّهِمْ.

وكان هودٌ عَلَيه السَّلَامُ أخاً لَهُم نَسَباً وإقامَةً ولُغَةً.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ عَرْضٌ رَفيق بأداةِ العَرْض «ألا» وهي تُسْتَعْمَلُ لِلْعَرْض، والتحضيض، والاستفتاح، والتَّنْبِيه.

والذي عرضه هُودٌ عليه السلامُ على قَومِهِ أنْ يتقوا عِقَابَ اللهِ وعذابه المؤجَّلَ إلى يَوْمِ الدِّين، مع مَا قَدْ يَنْزِلُ بِهِمْ من عقاب مُعَجَّلٍ في الدنيا، وقد تحقَّقَ بإهْلَاكِهِمْ بالرِّيحِ العقيم مع ما رافقَها مِنْ مُعَذِّبَاتٍ مُهْلِكَات.

﴿تَتَّقُونَ﴾: مضارع فعل «اتَّقَىٰ» أي: جعَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَا يَحْذَرُ وِقَايَةً تَحْمِيهِ، مِنْ ضُرٍّ أَوْ أذىً أوْ عُقُوبَة، والوقاية مِنْ عُقُوبَةِ اللهِ تكُونُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إلْزام، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ نَهْيَ إلْزَام، ومعلوم أنّ الإيمان الصَّحِيحَ الصَّادِقَ أَوَّلُ مَأمُورٍ به في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لعباده، وأَنَّ الكُفْرَ وَأَدناهُ الشِّرْكُ أَوَّلُ مَنْهِيٍّ عَنْهُ في الدِّين الّذِي اصْطفاهُ اللهُ لعباده في رِحْلَةِ امتحانِهِمْ في الحياة الدنيا. والفعل المضارع ﴿تَتَّقُونَ﴾ يَقْتَضِي المداوَمَة المتكرّرة.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧﴾: أي: إنّي نَبِيٌّ وَرَسُولٌ لَكُمْ مُتَّصفٌ بِخُلْقِ الأمانة بوجْهٍ عامّ، وأمِينٌ عَلَىٰ رِسَالَاتِ رَبِّي، أُبَلِّغُها لَكُم كما أتَلَقَّاهَا بالْوَحْي عَنْهُ، لَا أَزِيدُ فيها شَيئاً مِنْ عِنْدِي، ولَا أَنْقُصُ مِنْها شَيْئاً.

وبما أنّي رَسُولٌ لَكُمْ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: أي: فاتَّقُوا عَذَابَ اللهِ بالْعَمَلِ بما يأمُرُكُمْ بِهِ، وباجْتِنَابِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْه، وأطِيعُوني فيما أَدْعُوكُمْ إلَيه، لِأَنَّكم إذا لَمْ

تُطيعُوني فيما أَدْعُوكُم إِلَيهِ وأنَا فيكُمْ رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ رَبِّكم، كُنْتُمْ مُسْتَحِقِينَ لِعِقَابِهِ وعَذَابِهِ، فَلَيْسَتِ القضيَّةُ قَضِيَّتِي الخاصَّة بي، وإنما هِيَ قَضِيَّةُ اللهِ رَبّي، وَرَبِّكُمْ، وَلَهَا عَلَاقَةٌ بِي وبكُمْ معاً.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾:

إنَّ أَوَّلَ مَا يَتَبَادَرُ إِلَىٰ أَذْهَانِ الأَقْوَام المدْعُوِّينَ مِنْ قِبَلِ أيّ داعٍ من الدُّعَاةِ إِلَىٰ مَبْدإٍ، أو فِكْرَةٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ جَمَاعَةٍ، أَنْ يَتَّهِمُوهُ بأَنَّ لَهُ مصلحة شخصيَّةً مِنْهُمْ، يَحْصُلُ عَلَيْهَا مِنْ جرّاءِ اتِّبَاعِهِمْ لَهُ فيما يَدْعُوهُمْ إلَيْه، فَكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ في الدَّعْوَةِ أَنْ يُعْلِنَ الرَّسُولُ تَجَرُّدَهُ مِنْ أَيَّةِ مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ يَحْصُلُ عَلَيْها مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ إلى دِينِ الله رَبِّهِ وَرَبّهم.

وَلَكِنْ لَيسَ مَعْنَىٰ هَـٰذا أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ أجْراً ما مطْلقاً، فهَـٰذِهِ مِثَالِيَّةٌ خياليَّةٌ بالنِّسْبَةِ إلى البشر، فقال هودٌ لِقَوْمِهِ:

﴿... إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾: أي: ما أَجْرِي الذي أستحقُّهُ إلَّا عَلَىٰ كفَالَةِ رَبِّ الْعَالَمِين الَّذِي كَلَّفَنِي أَنْ أبلِّغَكُمْ رِسَالَاتِهِ، وأُجَاهِدَكُمْ لإقْنَاعِكُمْ بالْحَقّ.

(ب) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إلىٰ قَبِيلَةِ «عَادٍ» أو القوم المعروفين باسم «عاد» النبيَّ الرَّسُولَ «هُوداً» وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ نَسَباً ولُغَةً ومَوْطناً.

وقَامَ هُودٌ بِدَعْوَةِ قوْمِهِ إلىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، قَالَ لَهُمْ مُسْتعْطِفاً مُتَرَفِّقاً: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ ويَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعبُدُوه إلَّا هُوَ.

واعْلَمُوا أنَّكُم إذَا عَبَدْتُم مِنْ دُونِهِ إلَهاً أَوْ آلِهَةً أَسْخَطتُّمْ عليكم اللهَ رَبَّكُمْ، فأنْزَلَ بِكُمْ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، ألا تَعْقِلُونَ فَتَتَّقُونَ عَذَابَ رَبِّكم يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يُعَجِّلُ لَكُمْ مِنْ عِقَاب في الدُّنيا إذا عانَدْتُمْ وكنْتُمْ مُفْسِدِينَ مُجْرِمينَ.

هذه الفكرة جاءَت مضافة في هذا النص على سَابقه، فَهِمْنَاهَا من ذكر الفاء في ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟.

جـ ـ وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

فَأَضَافَ هَـٰذا النّصّ أَنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلام ذكَر لَهُمْ في بيانٍ لاحِقٍ للبيانَيْنِ السَّابِقَيْن، أَنَّ اتّخاذَهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ هُوَ مِنَ الافتراء عَلَىٰ اللهِ، بِقَوْلِهِ لهم: ﴿... إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾: أي: مَا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ عَلَىٰ اللهِ، إِذْ تَجْعَلُونَ للهِ شَرِيكاً فِي إلَهِيَّتِهِ، الَّتِي تَسْتَلْزِمُ أَنَّكُمْ تَجْعَلُونَ للهِ شَرِيكاً في رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِعِبَادَة غيره، وَكُلٌّ مِنْهُمَا باطِلٌ.

وَأَضَافَ هَـٰذا النّصُّ أَنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلامُ، أبانَ لِقَوْمِهِ أَنَّ اللهَ الَّذِي يَطْلُبُ مِنْهُ أَجْرَهُ على قِيَامِهِ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِهِ، هُوَ الَّذِي فَطَرَهُ، فَقَالَ لَهم: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟.

فطرني: أي: خَلَقَنِي عَلَىٰ نِظَام الْفَطْر، وهُوَ الشَّقُّ، وإبْدَاعُ الشَّيْءِ مِنَ الْعُمْقِ، لِأَنَّ النُّقْطَةَ الْقُصْوَىٰ فِي عُمْقِ الأَشْيَاءِ هي الْعَدَمُ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أي: أَلَا تُفَكِّرُونَ فتَعْقِلُونَ، هذا حَثٌّ على أنْ يَعْقِلُوا بأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ، مع تَلْوِيمِهِمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لا يَعْقِلُونَ.

والمعنىٰ: اعْقِلُوا وَلَا تُجَانِبُوا مَنْهَجَ الْفَهْمِ السَّدِيدِ، والْعَقْلِ الرَّشِيد.

ثانياً:

ثُمَّ وَسَّعَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلامُ دَائِرَةَ شَرْحِهِ لِعَنَاصِرِ دَعْوَتِهِ، فَدَعَاهم إلَىٰ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ، ثُمَّ يَتُوبُوا إلَيْه، فإنْ فعلُوا ذَلِكَ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَمْطَارَ السَّمَاءِ مِدْرَاراً، وزَادَهُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّوَلِّي عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْخُطْوَةِ الدَّعَوِيَّةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢﴾:

دعَا هُودٌ عَلَيْهِ السَّلامُ قَوْمَهُ إلىٰ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ مِمَّا سَلَفَ مِنْهُمْ مِن شِرْكٍ، باتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً يَعْبُدُونَها مِنْ دُون الله، ومن أنواع سُلُوكٍ هي من لوازم عَقِيدَةِ الشِّرْك، كالْفِسْقِ والفجور، والظُّلْم والْعُدْوان، وأكْلِ أمْوالِ النَّاسِ بالباطل.

والدَّعْوَة إلى الاستغفار تتضَمَّنُ باللُّزُومِ الفِكْرِيّ الكَفَّ عن مُتَابَعَةِ الوقُوعِ بالمعاصِي والمخالفات.

الاستغفارُ طَلَبُ سَتْرِ الذُّنُوبِ والمعاصي السَّابقة سَتْراً يَقْتَضِي التجاوُزَ عَنْها، وعَدَم المؤاخَذَةِ عليها:

- ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: أي: ثم ارْجِعُوا إلى رَبّكم رُجُوعاً عَمَلِيًّا بالْتِزَامِ طاعَتِهِ، في فِعْلِ مَا أَمرَكُمْ بِهِ، وتَرْكِ مَا نَهاكُمْ عَنْه.

- ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾: أي: فإن اسْتَغْفَرْتُمْ رَبَّكُمْ مِنْ سَابِقِ كُفْرِكُمْ وَذُنُوبِكُمْ، وواظَبْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ على طَاعَتِهِ، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ

يُرْسِلُ أمْطَارَ السَّمَاءِ النافعة عَلَيْكُمْ بِغَزَارَةٍ لإنْباتِ زُرُوعِكُمْ، ولإكْثَارِ الثمراتِ المختلفاتِ الْأَنْواعِ والْأَصْنَافِ.

﴿مِّدۡرَارٗا﴾: أي: كثيرَة الدَّرِّ مِنَ الْأَمْطار. يُقَالُ لغة: «سَحَابٌ مِدْرارٌ» أي: كثير السَّحِّ من المطر، يقال «للذكر والأنثىٰ» هو مِدْرار، وهي مِدْرار.

- ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾: الْفِعلُ في ﴿وَيَزِدۡكُمۡ﴾ مَعْطُوفٌ على فِعْلِ [**يُرْسِلْ**] المجزوم على أنَّهُ جواب الطَّلَب.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الجملةِ علىٰ أنّ عَاداً كَانُوا أشِدّاءَ أقْوِياء، فإنْ آمَنُوا واتَّقَوْا وَوَاظَبُوا على طَاعَةِ رَبِّهِمْ زَادَهُمُ اللهُ قُوَّةً وتَمْكِيناً.

- ﴿... وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢﴾: أي: ولا تُدِيرُوا ظُهُورَكُمْ لِدَعْوَتِي، مُبْتَعِدِينَ عَنِ الإيمان والإسْلام وطَاعَةِ رَبِّكُمْ في أوامِره ونواهِيهِ، حالَةَ كَوْنِكُمْ مُجْرِمِينَ بهذا التَّوَلِّي.

التَّوَلّي: الإدْبَارُ، وقَدْ يكونُ مصحوباً بابْتِعَادٍ وَنَأْيٍ.

الْمُجْرِم: المتعدِّي بذَنْب كبير، والمجْرِمُونَ في الاصْطِلَاحِ القرآني هم الكافِرُون الّذِين يَسْتَحِقُّون الْخُلُودَ في عَذَابِ النار يَوْمَ الدِّينِ.

ثالثاً:

ثُمَّ وسَّعَ هُودٌ عليه السَّلامُ دائِرَةَ وَعْظِهِ لِقَوْمِهِ «عادٍ» فأبانَ لَهُمْ نِعَمَ اللهِ الكثيرَةَ الَّتِي أنْعَمَ بها عليهم، الَّتِي يَجِبُ علَيْهِم أنْ يَشْكُرُوهُ عَلَيْها، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ عِقَاب اللهِ الشَّدِيد قائلاً لَهُمْ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾:

دَلَّ على هذا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّناً لَقْطَةً ممَّا قَالَهُ هُودٌ لِقَوْمِهِ أخْذاً مِمَّا جَاءَ مِنْ قِصَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ في سُورَةِ (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ۝١٢٩

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾:

- ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾: اسْتِفْهَامٌ فِيهِ مَعْنَىٰ الإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، والتَّلْوِيم لهم، لاتِّهَامِهِ إيَّاهُمْ بالْعَبَثِ، وَلَوْ كَانَ مَا يَبْنُونَهُ لِتَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أَوْ أُخْرَوِيةٍ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَلُمْهُمْ.

﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾: أي: بكُلِّ طَرِيقٍ. **الرِّيْعُ**: السَّبِيلُ سُلِكَ أمْ لم يُسْلَكْ ـ والطَّرِيق المنْفرِجُ بَيْنَ الْجَبَل. والظاهر أنّ لفظ «كُلِّ» لإفادَةِ الكَثْرَة، لا للاسْتِغْرَاق.

﴿ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾: أي: عَلامَةً مُرْتَفِعَةً لَا مَصْلَحَةَ لَكُمْ فيها، ولا نَفْعَ فيها، فالاشْتِغَالُ بِبنَائِها، وإنْفَاقُ الْأَمْوَالِ الطَّائِلَة فيها عَبَثٌ لَا فَائِدَةَ فيه.

وهذا يَدُلُّ على أنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بِنَاءٍ حضاريّ، وأنّهم كانُوا يَتَفَاخَرُونَ ببناء الآيات المرتفعات، كالتماثيلِ الّتي يَضَعُها بَعْضُ المُلُوكِ والرُّؤسَاءِ لِأَنْفُسِهِمْ، ويَنْصِبُونَها فِي مَوَاضِعَ بارزَةً مِنَ الطُّرُقِ والميَادِينِ، لِيَشْهَدَهَا الْغَادُونَ والرَّائِحُونَ، وكالمِسَلَّاتِ الَّتِي كَانَ قُدَمَاءُ المصْرِيِّينَ يَنْصِبُونَهَا للتَّفَاخُرِ بِسُلْطَانِهِمْ، وعَظَمَةِ مُلْكِهِمْ.

إنَّها لَوْ كَانَتْ أبْنِيَةً حَضَارِيَّةً نَافِعَةً، لما لَامَهُمْ عليها رسُولُهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السلام، بل كانت أبْنِيَةً لِمُجَرَّدِ التَّفَاخُر والتعاظم، فهِي عَبَثٌ لَا نَفْع فيه.

الْعَبَثُ: هو الْعَمَلُ فيما لَيسَ لَهُ فَائِدَةٌ تُرْجَىٰ مِنْهُ، فَتَضِيعُ الطَّاقَةُ المبْذُولَةُ فِيه دُونَ تحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ تُقْصَدُ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ.

- ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾: أَرَىٰ أَنَّ الكَلَامَ هُنَا مُسْتَأْنَفٌ، ولَيْسَ الاسْتِفْهَامُ الإنكارِيُّ التَّلْوِيميُّ مُسَلّطاً عليها، لِأَنَّ اتّخَاذَ

المصَانِع الَّتِي اتَّخذُوها لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْعَبَث، بل فيها مصالح للحياة الدُّنيا. أي: وأنْتُمْ تَتَّخِذون مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخلُدُون.

المصانع: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «المصنَعَة» و«المصْنَع» وهِيَ كُلُّ مَا يُصْنَعُ من أبْنيةٍ، وقُصُورٍ، وحُصُونٍ، وأحواضِ مياه، ونَحْوِها.

قَال الْأَصْمَعِيّ: العربُ تُسَمِّي الْقُرَىٰ «مصانع» واحِدَتُها «مَصْنَعَة».

فالمعنى: وَأَنْتُمْ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عليكم نِعَماً كثِيرَةً وفِيرَة، مِنْ مظاهِرِها أنّكُمْ تَبْنُونَ مُدُناً وقُرىٰ وقُصُوراً وَحُصُوناً وَأحْواضَ مِياه، وهَـٰذِهِ أنْسَتْكُمُ الموْتَ والدَّار الآخِرَةَ بَعْدَ الْبعْثِ، فَترَكْتُمُ الْعَمَلَ فِيما يَقِيكُم عَذَابَ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، وكانَ الواجبُ علَيْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُم بالْإيمان الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، وبالإسْلَامِ لَهُ والعَمَلِ بمراضِيه، لَا أَنْ تَسْتَخدِمُوا نِعَمَ اللهِ عليكم في مَعْصِيَتِهِ.

وعبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أكَّدَتْ فِكْرَةَ زِيادَةِ نِعَم اللهِ عَلَيْهم، الَّتي جَعَلَتْهُمْ يُبَالِغُونَ فِي إنْشَاءِ المنْشآتِ الحضَارِيَّة الَّتِي تَفوَّقُوا فِيها عَلَىٰ الْأَقْوَام مِنْ حَوْلِهِمْ، حتَّىٰ صَارُوا يَبْنُونَ المباني الْعَبَثِيَّة للتَّفاخُرِ، غُلُوّاً في الدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أغْنِيَاءُ مُتْرَفُونَ، وَتَدُلُّ مَظاهِرُهُم علَىٰ أنَّهُمْ نَسُوا الموْتَ، وَتوَهَّمُوا أنَّهُمْ خَالِدُونَ، فجاءَتْ عِبارَةُ هودٍ عليه السَّلام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ بمَثَابَةِ قَوْلِهِ: أَلَعَلَّكُمْ صِرْتُمْ تَتَوَهَّمونَ أَنَّكُمْ تَخلُدُونَ في هَـٰذِهِ الْحَياةِ الدُّنيا، الَّتِي تُبَالِغُونَ في اتِّخَاذِ مَا يُتْرِفُكُمْ فيها، نَاسِينَ الموْتَ، والْبَعْث، ويَوْمَ الدّين.

كلمة «لعَلّ» تَدُلُّ علىٰ معْنَىٰ التَّوقُّع، وسِيقَتْ هُنَا مَسَاقَ الشَّيْءِ المسْتَفْهَمِ عَنْهُ.

- ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾: أي: وقد أنْعَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْكُمْ بالْقُوَّةِ المتفوّقَةِ عَلَىٰ كُلِّ الأَقْوَامِ مِنْ حَوْلِكُمْ، حتَّىٰ صِرْتم بامْتِلَاكِكُمْ

لِلْقُوىٰ الَّتِي سَبَقْتُمْ بِها مَنْ حَوْلَكُمْ جَبَّارِينَ في الْأَرْضِ، فإذا بَطَشْتُمْ بأعْدَائِكُمْ أَوْ بِخُصُومِكُمْ بَطَشْتُمْ حَالَةَ كَوْنِكُمْ جَبَّارِينَ ظالِمِينَ طُغَاةً بُغَاةً بِغَيْرِ حَقٍّ.

الْبَطْشُ: «التَّنَاوُلُ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَة ـ الْأَخْذُ الشَّدِيدُ ـ السَّطْوُ في سُرْعَة».

الْجَبَّار: «مَنْ يُكْرِه النّاسَ بالقُوَّة والعنف على ما يُرِيدُ بغير حقّ ـ المكْرِهُ الْمُجْبِرُ بِسُلْطَانه ـ المتكبِّر ـ الْعَاتِي المتَسلّط بِقُوَّة».

فالمعنى: وقَدْ كَانَ الواجب عليكُمْ إذْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكُمْ بالْقُوَّةِ السابقَة المتَفوِّقَه. أنْ تُقِيمُوا الحقَّ والعَدْلَ، لَا أَنْ تَكُونُوا مُسْتَكْبِرِينَ عُتَاةً، تَتَسلَّطُونَ عَلىٰ النَّاسِ بالْقُوَّة، وتُكْرِهُونَ النَّاسَ على مَا تُرِيدُون بِغَيْرِ حَقٍّ، وتَبْطِشُونَ جَبَّارِينَ.

- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾: أي فَاتَّقُوا عِقَابَ اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم وَرَبّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، بِعَدَمِ اسْتِخْدَام مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِمَّا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ، ومِنْ قُوىً مُتَفَوِّقَة، في مَعْصِيَتِهِ، وفي ظُلْم عباد الله، والْعُتُوّ والطُّغْيانِ في الْأَرْض، وأَطِيعُوني فِيما أُوصِيكُمْ به بلاغاً عَنْ رَبكم، لِتَنْجُوا مِنْ عَذاب اللهِ، ولتَظْفَرُوا بالْفَوْزِ العظيم.

- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾:

أي: إذَا كُنْتُمْ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا اتَّخَذْتُمُوهُ مِنْ أَبْنِيَةٍ وَوَسائِلِ قُوَّةٍ وَتَرَفٍ هو مِنْ صُنْعِكُمْ، وتجْهَلُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُوَ الَّذِي أَمَدَّكُم بِكُلِّ ذٰلِكَ، لِيَبْلُوكُمْ فِيما آتاكُمْ، فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَا أَمَدَّكُمْ بِهِ مِمَّا تَعْلَمُونَ يَقِيناً أَنَّهُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكُمْ لَكُمْ، فَقَدْ أَمَدَّكُمْ بأنْعَام، وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ وَتُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ مِنْ عَطَاءِ اللهِ لكم، وأَمَدَّكُم بِبَنِينَ، وَأنتم تَعْلَمُونَ أيضاً وتُوقِنُونَ بأَنَّهُ مِنْ

فَضْلِ اللهِ عليكم، وأمَدَّكُمْ بِجَنَّاتٍ وعُيُونِ مَاءٍ، وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذَلِك. فَلا تُقَابِلُوا نِعَمَ اللهِ عليكم الَّتِي أمَدَّكُمْ بها، وجَعَلَها وَافِرَةً كَثِيرَةً عِنْدَكُمْ بالكُفْرِ والْجُحُودِ والعِصْيان.

إنّي أخافُ عليكم، وأَنْتُمْ قَوْمِي وعَشِيرَتي عَذَابَ يَوْم عَظِيمٍ هو يَوْمُ الدِّين، يَوْم الجزاءِ الأكْبَرِ، مع مَا قَدْ يُعَجِّلُ اللهُ لَكُمْ في الدُّنيا مِنْ عِقَاب، إذَا كانَ هذا البيَان صَادِراً مِنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام بَعْدَ أَنْ أنْذَرهُمْ بِعِقَابٍ مُعَجَّل.

الفصل الثاني

الجدليّات بَيْنَ «عاد» ورسُولهم «هود» عَلَيْهِ السلام

أوّلاً:

اتَّهَم كُبَرَاءُ «عادٍ» رَسُول رَبِّهِمْ «هوداً» عَليه السلام بالسَّفَاهَةِ، وبأنَّهُمْ يَظُنُّونَهُ كاذِباً، لأنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، ولَيْسَ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكة.

فَرَدَّ «هُودٌ» عَلَيْهِمْ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، دلَّ عَلَىٰ هَـٰذا قولُ اللهِ عَزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

مَلأُ الْقَوْم: هُمْ كُبَرَاؤُهم، وسَرَاتُهُمْ، وَذَوُو الْوَجَاهَةِ فِيهِمْ، الَّذِينَ يَمْلَؤُون عُيُونَ العامَّة.

دَلَّت عبارة: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ عَلَىٰ أنَّ بَعْضَ مَلأ

قَوْمِهِ قَدْ آمَنُوا بِهِ، فعبارة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَصْفٌ تَقْيِيدِيٌّ يُخْرِجَ الـمَلأَ الَّذِينَ لَمْ يَكْفُروا.

لَقَدْ وَاجَه هَـٰؤلَاء المَلأُ الكافِرُونَ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ بشَتيمَتَيْنِ:

الشتِيمَةُ الأُولى: دَلَّتْ عَلَيْها عِبَارَةُ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾:

السَّفَاهَةُ: هِيَ الخِفَّةُ والطَّيْشُ مِنْ نَقْصِ الْعَقْل، وهي ضِدُّ الرُّشْد. وأَكَّدُوا مَقُولَتَهُمْ بـ «إنَّ - والجملة الاسميَّة - واللَّام المزحْلَقَةِ - والرُّؤْيَةِ الجماعِيَّةُ».

أي: إنَّنَا نَعْتَقِدُ اعْتِقَاداً جَمَاعِيًّا جَازِماً، أَنَّكَ مُنْغَمِسٌ فِي سَفَاهَةٍ.

لَقَدْ قَابَلُوا دَعْوَة رَسُولِهِمْ المستَنِدَةِ إِلَىٰ مَنْطِقِ الْعَقْلِ وَحُجَجِهِ وبَراهِينِه، بالطَّعْنِ والتَّجْرِيحِ وَالشَّتِيمَةِ، مع أنَّ هَـٰذِهِ المقابلَة لَا يَفْعَلُها عَاقِلٌ مُنْصِفٌ طَالِبُ حَقّ.

الشَّتِيمَةُ الثَّانية: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾:

أَكَّدُوا هَـٰذِهِ الشّتِيمَةَ الثَّانِيَةَ بِمِثْلِ مَا أَكَّدُوا بِهِ الشَّتِيمَةَ الأُولى، لكِنَّ اتِّهَامَهُمْ لَهُ بأَنَّهُ كَاذِبٌ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَدِ اعْتَمَدُوا فِيه على الظَّنّ، إذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ صَالِحَةٌ يُقَدِّمُونَها لإثْبَاتِ بُطْلَانِ مَا جَاءَهُمْ به، وإثباتِ صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْك.

وظَنُّهُمْ لَا يَعْدُو أنْ يكُونَ مِنْ قبيلِ الْأَوْهَامِ السَّاقِطَة، أو الادّعَاءِ الكاذب.

فرَدَّ عليهم هودٌ عَلَيْهِ السَّلام بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، رَدّاً يُمْكِنُ تَفْصِيلُهُ إلَى تِسْعِ مقَالَات:

المقالَةُ الأُولى: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾: أي: لَا تُوجَدُ بي سَفَاهَةٌ مَا مَهْمَا كانَتْ قَلِيلَةً ضَئِيلَةً.

فَدَفَعَ شتِيمَتَهُمْ لَهُ بالنَّفْي المجرَّدِ، ولم يَرُدَّ عَلَىٰ الشتيمَةِ بِمِثْلِها وَلَا بأقلّ منها، وهذا مِنْ كَمَالِ التَّهذِيبِ والأدَبِ الرَّفيع.

إنَّ رَدَّ الشَّتَائِم بِمِثْلِهَا أَوْ بأَشَدَّ مِنْها، يُحَوِّلُ سَاحَةَ الدَّعْوَةِ الحكيمَةِ إِلَىٰ الله، إلى سَاحَةِ سُفَهَاءَ يَتَقَاذَفُونَ بالشَّتَائِم.

المقالَةُ الثانية: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧﴾: أي: ولَكِنَّ ما أُبَلِّغُكُمْ إيَّاهُ مِمَّا يُخَالِفُ مُعْتَادَكُمْ، ويُخَالِفُ تَقَالِيدَكُمْ لِآبائِكُم، إنَّمَا هُو بِسَبَبِ كَوْنِي نَبيًّا رَسُولاً مَبْعُوثاً إِلَيْكُم مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً.

المقالَةُ الثالِثة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾: أي: وبما أَنِّي نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، فأنَا أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِهِ إلَيْكُمْ، الَّتي يُنَزِّلُهَا علىٰ وَفْقِ سُنَّةِ التَّدرُّجِ نَجماً فَنَجماً.

المقالَةُ الرَّابعَة: ﴿. . . وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾: أبَانَ هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه في هذه المقالَة صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ الَّتي لا بُدَّ أَنْ يتَّصِفَ بها كُلُّ رَسُولٍ، هما: النُّصْحُ، والْأَمَانَة.

النُّصْحُ: إرَادَةُ الخير للمنْصُوح، وعَدَمُ غِشِّه فِي شيء.

الأمانَةُ: صِفَةٌ يَتَحقَّقُ بها تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ كمَا تَحمَلَهَا الرَّسُولُ، دُونَ زيادَةٍ عَلَيْها، ولَا نَقْصٍ مِنْها.

المقالَةُ الخامسة: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾: **ذِكر**: أي: كتَابٌ مُنَزَّلٌ من رَبِّهم لهدايتهم ويجب عليكم أَنْ تذكُروه.

دلَّتْ هَٰذِهِ الْعِبارَةُ عَلَىٰ تَعَلُّلِ قَوْمِ هود بِبَشَرِيَّتِهِ لِرَفْضِ رِسَالَتِهِ، ولَيْسَ لَهُمْ مِنْ حُجَّةٍ غَيْرُ التعجُّب والاسْتِغْرَاب.

فكان الرَّدُّ الحكيم يَقْتَضِي أن يُرَدَّ التّعجُّبُ بِمِثْلِهِ، مَعَ توجيه مَا يُشْعِرُ باسْتِنْكار تَعَجُّبِهِمْ.

فجاءت عبارة هود بأسْلُوب الاستفهام التَعَجُّبيّ.

المقالَة السَّادِسة: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾:

أي: وضَعُوا في ذَاكِرَاتكم دَواماً أنَّكُمْ سُلاَلَةُ الْقَوْم الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوح عَلَيْهِ السَّلام، وأنجاهُمُ الله بالْفُلْكِ المشْحُونِ، حِينَ أَهْلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ وَكَفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ، فَلَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِقَابٍ مُشَابِهٍ للعقاب الّذي عَاقَبَ اللهُ بِهِ كُفَّارَ قَوْم نُوح.

المقالَةُ السَّابِعَة: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: أي: وقَدْ امْتَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَزَادَكُمْ فِي خَلْقِهِ لِأَجْسَادِكُمْ سَعَةً، فأَنْتُمْ أَكْثَرُ طُولاً وَعَرْضاً مِنْ قَوْم نُوح عليه السلام، وهذه المنّة تَسْتَدْعِي مِنْكُمْ أنْ تَشْكُرُوا رَبَّكُمْ عَلَىٰ مَا أَوْلَاكُمْ مِنْ نِعَمٍ، فَتُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ، وَتَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلياء.

المقالة الثامنة: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: أي: وإذْ زَادكُمْ في الْخَلْقِ بَسْطَةً، وآتاكُمْ نِعماً كَثِيرَةً، فَاذْكَرُوا آلَاءَ اللهِ عَلَيْكُمْ، أي: اذْكُروا دَواماً نِعَمَهُ عَلَيْكُمْ، لِيَكُونَ ذِكْرُكُمْ لَهَا دَافِعاً وَمُحَرِّضاً على أنْ تَحْمَدُوه وَتَشْكُرُوه على مَا أَوْلَاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، فَتَعْبُدوهُ وَحْدَهُ وَلَا تُشرِكُوا بعِبَادَتِهِ شيئاً، وتُطِيعُوه بِفِعل مَا أَمَرَكُمْ به، وتَرْكِ مَا نَهَاكُمْ عَنْه.

الآلاء: هي النِّعَم، واحِدُها: «أَلْيٌ» و«إِلْيٌ» أي: نِعْمة.

المقالَةُ التاسعة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي: رَاجِينَ بِالإيمان والطاعَةِ أَنْ تُفْلِحُوا.

الفلاح: النجاة، والْفَوْزُ بحَياةٍ طَيّبَةٍ في الدُّنيا، وسَعَادَةٍ عظيمةٍ خالِدَةٍ في الآخِرَة. **وأصْلُ الفلاح:** البقاءُ في النَّعِيمِ والْخَيْر.

ثانياً:

طالَبَتْ «عادٌ» رسُولَهُمْ «هوداً» عَلَيْهِ السلام بأنْ يأتِيَهُمْ بِبيّنَةٍ تَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ رَسُولُ اللهِ حقّاً، غيْرَ مَضْمُونِ رِسَالَتِهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المطَالَبَةِ قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

- ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: أيْ مَا جِئتَنا بِبيِّنَةٍ خَارِقَةٍ، ويَظْهَرُ أَنَّ مَقالَتَهُمْ هَـٰذِهِ كانَتْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ مُعْجِزَةٍ تَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رسُولُ رَبِّهِ حَقًّا وَصِدْقاً.

ثُمَّ لَمَّا جاءَهُمْ بآيَةٍ مُعْجِزَةٍ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ المتَّبَعَةِ فِي كُلِّ رُسُلِهِ جَحَدُوهَا، كَمَا جَحَدَ كُفَّارُ جَمِيعِ الْأَقْوام مُعْجِزَاتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، زَاعِمين أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ.

- ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾: أي: وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي عِبادَةِ آلِهَتِنَا مِنَ الْأَوْثانِ، حَالَةَ كَوْنِنَا مُلازِمِينَ الإعْراضَ عَنْ قَوْلِكَ غَيْرَ مُتأثِّرِينَ بِهِ، مَهْمَا حَاوَلْتَ إقْناعَنَا وَإقَامَةَ الحجَجِ علينا.

أَوْ ومَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا تَرْكاً صَادِراً عَنْ تَأَثُّرِنَا بِقَوْلِكَ.

أَوْ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا رِضاً مِنَّا عَنْ قَوْلِكَ، فَقَوْلُكَ لَا يُرْضِينَا، وَلَا يُؤَثِّرُ فِينَا.

- ﴿. . . وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾: أي: وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ بِكَ نَبيًّا وَرَسُولاً، وَمَا نَحْنُ بِمُسْلِمِينَ لَكَ، مَهْمَا حَاوَلْتَ واجْتَهَدْتَ فِي دَعْوَتِنَا وإِقْنَاعِنَا.

زيدت الباء في ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لِتَوْكيد نَفْيِ إيمانِهِمْ به.

وضُمِّنَ لَفْظُ: «مُؤْمِنين» معنى: «مُسْلِمِينَ» فجاءت التعدية باللّام في ﴿لَكَ﴾ مُراعاةً لِمُسْلِمين.

ثالثاً:

ثُمَّ وَجَّهَتْ «عَادٌ» لِرَسُولهم «هُودٍ» عليه السَّلام عباراتٍ يَقْطَعُونَ بِهَا أمَلَهُ بأَنْ يُؤْمِنُوا، لِيَكُفَّ عَنِ الْقِيَامِ بِدَعْوَتِهِ، ويَيْأَس مِنْ تَأْثِيرِ دَعْوَتِهِ فِيهِمْ.

دلَّ على هذا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكايَةً لِقَوْلِهِمْ لَهُ:

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨)﴾:

﴿سَوَآءٌ﴾ هَـٰذِهِ بِمَعْنَىٰ التَّسْوِيَة، وتَأْتِي بَعْدَهَا هَمْزَةُ التَّسْوِيَة الَّتِي يُؤَوَّلُ مَا بَعْدَهَا بِمَصْدَرٍ، والتقدير هُنَا: وَعْظُكَ وَعَدَمُهُ سواءٌ عَلَيْنا. وبَعْدَ هَمْزَةِ التَّسْوِيَةِ تَأْتِي «أَمْ» كما في الآية.

الْوَعْظُ: النُّصْحُ بالْفِعْلِ أوْ بالتَّرْكِ، المقْرُونُ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أو الرَّهْبَةَ فِي النَّفْسِ، للانْتِفَاعِ بالنُّصْحِ، واتِّباعِ مَا هَدَىٰ إِلَيْهِ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

قال ٱبْنُ سِيدَةَ: الوَعْظُ تَذْكِيرُكَ للإنْسَانِ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ مِنْ ثَوابٍ وعِقَاب.

والْمَوْعِظَةُ: مَا يَكُونُ بِهِ الْوَعْظُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْل.

والْمَعْنَىٰ: لَنْ تُؤَثِّرَ عَلَيْنا يَا هُودُ بِوَعْظِكَ، فَكُفَّ عَنه، ويَدُلُّ هذا علىٰ أنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ أَكْثَرَ مِنْ وَعْظه لهم، ومِنْ تَخْوِيفِهِمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ، إذا اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيه مِنْ كُفْرٍ وعِنَادٍ وإصْرَارٍ على الْتِزام البَاطِلِ، واتِّبَاعِهِمْ أهواءَهم وشَهَواتِهِمُ في مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

- ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾: أي: مَا نَحْنُ فِيهِ إِلَّا عَادَةُ الأَوَّلِينَ مِنْ آبائِنا وَأَجْدادِنَا، ونحْنُ علىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ، وَلَمْ يُهْلِكِ اللهُ آباءَنَا، وَلَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ مِثْلَ مَا تُنْذِرُنَا بِهِ.
- ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾: أي: لَمْ يُعَذَّبْ آباؤنَا مِنْ قَبْلُ حَتَّىٰ نُعَذَّبَ نَحْنُ، وإِذْ نَرىٰ أَنَّ مَا تُنْذِرُنَا بِهِ اخْتِلَاقٌ وَكَذِبٌ، فَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ في الدُّنيا وَلَا في الآخِرَة.

رَابعاً:

ويظْهَرُ أَنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعرَّضَ لِمَا يَسُوؤُهُ في نَفْسِهِ أَوْ مالِهِ أَوْ نحو ذلك، فقالَ لَهُ قَوْمُهُ: إِنَّ مَا نَزَلَ بِكَ هُوَ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ آلهتنا الَّتِي تَدَّعِي أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَأَنَّها لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ.

فَرَدَّ عَلَيْهِمْ مُتَحَدِّياً أَنْ يَكِيدُوهُ هُمْ وآلِهَتُهُمْ جَمِيعاً بما يَسْتَطِيعُونَ، وَأَبَانَ لَهُمْ تَوكُّلَهُ عَلَىٰ اللهِ، وأعْلَنَ لَهُمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمْ رِسالَاتِ رَبِّهِ، وأَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُهْلِكَهُمْ وَيَسْتَخْلِفَ قَوْماً غَيرَهُمْ، وأَنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً، وَأَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ حَفيظ.

دَلَّ على هَـٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) مُبَيِّناً قَوْلَ عَادٍ لِرَسُولِهِمْ هُود، ومَا رَدَّ بِهِ عليهم:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾:

تَصَيَّدَ المتَحدّثُونَ باسْمِ «عَادٍ» عَارِضَ السُّوءِ الَّذي أصَابَ هوداً عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالُوا لَهُ:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ... (٥٤)﴾:

﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾: أي: أصابَكَ وألَمَّ بِكَ ﴿بِسُوٓءٍ﴾: أي: بما يَسُوؤُكَ من مَكْرُوه. ولَفْظُ «إنْ» حرف نفي بمعنى «ما».

والمعْنَىٰ: مَا نَقُولُ بِشَأْنِ ما نَزَلَ بِكَ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ آلِهَتِنَا قَدْ أَصَابَكَ بِسُوءٍ، لِأَنَّكَ تَكْفُرُ بها وَتَدْعُو قَوْمَكَ إلى نَبْذِ عبادَتِها، وإِلَىٰ عِبَادة الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

أي: ولو اجْتَمَعَ كُلُّ آلِهَتِنَا عَلَىٰ ضُرِّكَ لِأَهْلَكُوكَ، أو لأنْزَلُوا بِكَ من المصائبِ أَكْثَرَ مِمَّا أَنْزَلَ بِكَ بَعْضُهُمْ.

فَرَدَّ عَلَيْهِم رَسُولُهُم هودٌ عَلَيْهِ السلام بما يلي:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥)﴾:

أي: أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَشْهَدَ لِي بِمَا يَعْلَمُ أَنّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلِهَةٍ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ.

واعْلَمُوا أَنْتُمْ عِلْمَ حُضُورٍ وَشُهُودٍ لَا شَكَّ فِيهِ ولَا شُبْهَة، فإذا اسْتُدْعِيتُمْ للشَّهَادَةِ عِنْدَ رَبِّي، فاشْهَدُوا لِي بأنّي بَعِيدٌ كُلَّ الْبُعْدِ، طَاهِرٌ غَايَةَ الطَّهَارَةِ مِنْ رِجْسِ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ من دُونَ الله.

وأَنَا أَتَحَدَّاكم أَنْتُمْ وآلِهَتُكُمْ جَمِيعاً أَنْ تَكِيدُوني لإهلاكي، أو الإضرار بي ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: أي: فَدَبّرُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ تَدْبِيرَهُ ضِدِّي، وَلَا تُمْهِلُونِي في التَّدْبِير، وَلَا فِي تَنْفِيذِ مَا تُدَبِّرُونَه.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ رَبِّهِ فِي تَحَدِّيهِ لَهُمْ، فقال عليه السَّلام:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾: أي: فَهُوَ الَّذي يُحْبِطُ كَيْدَكُمْ وَيَنْصُرُني.

وقال لهم: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾:

الناصِيَة: مُقَدَّمُ الرَّأس، وشَعَرُ مُقَدَّمِ الرَّأسِ إذا طَال، ذُكِرَتِ الناصِيَة والمرادُ كُلُّ الكائِنِ الحيّ، والأَخْذُ بالنَّاصِيَةِ هو القبضُ عليها.

أي: مَا مِنْ دَابَّةٍ تَدِبُّ ذَاتِ حياة، ولَهَا قُدْرَةٌ بحَرَكَتِها عَلَىٰ ضُرٍّ أَوْ نَفْعٍ، إِلَّا هِيَ وَاقِعَةٌ تَحْتَ سُلْطَانِ الْأَخْذِ والْقَبْضِ الرَّبَّانِيّ لها، فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ شيئاً، ولو كانت ذَاتَ إرادةٍ حُرَّةٍ، إِلَّا بإِذْنِ اللهِ خالِقِهَا والْقَابِضِ عَلَيْها قَبْضَ إحاطَة، وَلَا يَأْذَنُ لَهَا بِشَيْءٍ إِلَّا مَقْرُوناً إِذْنُهُ بِحِكْمَتِهِ، فَلَا دَاعِيَ لِأَنْ أبالِيَ بِكَيْدِكُمْ وَكَيْدِ آلِهَتِكُمْ.

وقال لهم أيضاً: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

أي: وإِنِّي عَلَىٰ ثِقَةٍ بِأَنَّ رَبِّي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْصُرَ في آخِرِ حَرَكَاتِ الكَيْدِ أَعْدَاءَهُ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ حَقًّا، لِأَنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - فِي تَدْبِيرِهِ لِكَوْنِهِ، وفي تَصَارِيفِهِ لِشُؤُونِ عِبَادِه عَلِيمٌ خَبِيرٌ حَكِيمٌ، يُجْرِي مَقَادِيرَهُ وَمَا يَقْضِي بِهِ، وَمَا يأْذَنُ بِهِ، مُحافِظاً فِيها على صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، هُوَ صِرَاطُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ والْحِكْمَةِ واخْتِيَارِ أفْضَلِ الأُمُورِ وأَحْسَنِها.

وقال لَهُمْ أيضاً: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾: أي: فَإِنْ تَتَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مُبْتَعِدِينَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِي، فَقَدْ أَدَّيْتُ مَا أَوْجَبَ عَلَيَّ رَبِّي، وهو أَنْ أُبَلِّغَكُمْ مَا أرسَلَنِي بِهِ لِأُبَلِّغَكُمْ إِيَّاه، وقَدْ فَعَلْتُ مَا أَمَرَنِي به، دُونَ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ وَلَا تَحْرِيفٍ، وعَلَيْكُمْ بَعْدَ ذلِكَ أَنْ تَتَحَمَّلُوا نَتَائِجَ اخْتِيَارَاتِكُم عِنْدَ رَبِّكُمْ.

وقال لهم أيضاً: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: أي: وَإِذَا أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ الكُفْرِ عِناداً واسْتِكْبَاراً وَجُحُوداً، فَإِنَّ رَبِّي سَيُعَذِّبُكُمْ ويُهْلِكُكُمْ، وَعِنْدَئِذٍ يَسْتَخْلِفُ فِي الْأَرْضِ قَوْماً غَيْرَكُمْ، يَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامتحانِ بَعْدَكُمْ، إِذْ أَثْبَتُّمْ بالاخْتِبَارِ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنْ إِمْهَالِكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا أَمْهَلَكُمْ، وفي هَٰذا تَحْقِيقٌ لِسُنَّتِهِ فِي عِبادِهِ على تَتَابُعِ أَجْيَالِهِم.

وقال لهم أيضاً: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾: أي: واعلَمُوا أَنَّكُمْ بِكُفْرِكُمْ، ومَعْصِيَتِكُمْ أَوَامِرَ رَبِّكُمْ وَنَوَاهِيَهُ، لَا تَضُرُّونَهُ شيئاً؛ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ إيمانِ كُلِّ عبادِهِ بِهِ، وغَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِهِمْ له، إِنَّمَا تَضُرُّون نُفُوسَكُمْ، بِتَعْرِيضها لِعِقَابِ رَبِّكُمْ، إِذْ يَجْعَلُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ خالِدِينَ في عَذَابِ الجحيم أبداً.

وَقال لهم أَيْضاً: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾: أَي: إِنَّ رَبّي مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ كُلّ شيءٍ، مُرَاقِبٌ لِكُلِّ شيءٍ، حفيظٌ لِكُلِّ شيْءٍ يُرِيدُ حِفْظَهُ، فَلَا تَسْتَطِيعُ قُوَّةٌ مَا مِنْ دُون قُوَّة اللهِ أَنْ تَفْعَلَ شيئاً ما إِلَّا بإِذْنِهِ، لِحِكْمَةٍ مِنْ حِكَمِهِ السَّنِيَّة، ولا يَسْتَطِيعُ أحَدٌ أنْ يَفْلَتَ من سُلْطانه.

الفصل الثالث

تَوجُّهُ كُبَراء قَومِ هُودٍ لتَضْلِيلِ جَمَاهِيرِهِمْ مَخَافَة أنْ يُؤْمِنُوا بِهِ

تُوحي قصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأَنَّهُ حِينَ يَئِسَ مِن اسْتِجَابَةِ كُبَرَاءِ قومِهِ لِدَعْوَتِهِ، وَجَّهَ عِنَايَتَهُ لِدَعْوَةِ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ وَعَامَّتِهِمْ.

فَخَافَ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ أَنْ يَجِدَ لَدَىٰ الْعَامَّةِ والجماهير أعْدَاداً كَثِيرةً تَسْتَجِيبُ لَهُ، فَوَجَّهُوا نَشَاطاً دِعَائِيًّا إِقْنَاعِيًّا لِصَدِّهِمْ عَنْ أنْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ.

ورَكَّزُوا في إِقْنَاعَاتِهِمُ التَّضْلِيلِيَّةِ عَلَىٰ كَوْنِهِ بَشراً مِثْلَهُمْ، وعلى قَضِيَّة الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ الَّتِي يَدْعُو إِلَىٰ الإيمان بها، وأَنَّ اللهَ سيُجَازِي النَّاسَ في الحياة الآخِرَة، وهَـٰذِهِ قَضِيَّةٌ لا تَقْبَلُهَا العقول.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المرحَلَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (المؤمنُون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بِشَأْنِ الْقَوْم الّذِينَ أَنْشَأَهُمْ بَعْدَ إهلاك قَوْمِ نُوح، وهم قَوْمُ عَادٍ، ورسُولُهُمْ المعنيُّ بالْأَحْدَاث هو «هود» عليه السلام فيما يظهر:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ

ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ (٣٧) إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ (٣٨)﴾:

قول الله تعالى:

- ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢)﴾:

أي: فأرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ هُو «هُودٌ عَليْهِ السلام» بِرِسَالَةٍ مضْمُونها «أنِ اعْبَدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُه أفَلَا تَتقُونَ» وقَدْ سَبَقَ كثيراً تَحْلِيلُ مِثْلِ هذه العبارة.

قولُ الله تعالَىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ...﴾:

الواو في ﴿وَقَالَ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف، هَـٰذا المحذوف هُو كُلُّ مَا قَالُوه فِي قِصَّتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِمْ، وَرَفْضِهِمُ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ، قَبْلَ أَنْ يَتَوَجَّهُوا لجماهِيرِهِم بُغْيَةَ صَدِّهِمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَة هُود.

وفَاعِلُ «قَالَ» هُمْ كُبَرَاءُ قَوْمِ هُودٍ وَسَادَتُهُمْ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِثَلَاثِ صفات:

الصفة الأولى: أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ هود عليه السلام.

الصفة الثانية: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الحياة الآخرة بَعْدَ الْبَعْث، وزَعَمُوا أَنَّهَا أُكْذُوبَةٌ كَذَبَهَا هُودٌ وافْتَراها عَلَىٰ الله.

الصِّفَة الثالِثَة: أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ قَدْ أتْرفَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا. أيْ:

أَكْثَرَ لَهُمْ ووسَّعَ عَلَيْهِم في الرِّزْقِ والمال، فَكَانُوا بِهِ ذَوِي رَفَاهِيَةٍ زائدة.

فقالوا لجماهيرهم:

﴿... مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: تَشْرَبُونَ مِنه.

أي: قَالَ الملأُ مِنْ عَادٍ لجماهِيرِهِمْ: مَا هَٰذا الَّذي يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّكُمْ وَيَأْتِيكُمْ بِبَلَاغَاتٍ عَنْه، إِلَّا بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ مِنْ طَعَام، ويَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ مِنْهُ مِنْ شراب، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَسُولاً يَتَلَقَّىٰ عَنِ اللهِ الأوامرَ والنواهي والتعليماتِ، إِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ مَلَكاً مِنَ الملائِكَة.

هذه مَقْولَةٌ تَضْلِيلِيَّة كاذِبَة، بل الحكمة تقتضي أن يكون الرَّسُولُ إلى البشر بشراً مِثْلَهُمْ.

وقَالُوا لجماهِيرِهم أيضاً:

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: ونُقْسِمُ لَكُمْ بأَنَّكُمْ أَيُّهَا الجماهِيرُ إِنْ أطَعْتُمْ واتَّبَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ يَدْعُوكُم إِلَىٰ نَبْذِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آباؤكُمْ وَأَجْدادُكُمْ، مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ، وتَرْكِ عَادَاتِكُمْ وَتَقَالِيدِكُمُ الْمَوْرُوثَةِ، إِنَّكُمْ حِينَئِذٍ لَخَاسِرُونَ.

عبَاراتٌ مَشْحُوناتٌ بالمؤكِّداتِ بُغْيَةَ الإقْناعِ بالباطِلِ الَّذي يُرِيدُ كبراء عَادٍ إِقْنَاعَ جماهِيرِهِمْ بِهِ.

وقالُوا لجماهِيرِهِمْ أيْضاً بأسْلُوبِ الاستفهامِ الإنْكَارِيِّ الاسْتِهْزَائي بوَعْدِ هُودٍ بشأن البعْثِ والحياة الآخِرَة:

- ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ

هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ﴾: أي: مُخْرجُونَ مِنَ الْأَرْضِ إلىٰ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ أنْ صِرْتُم تُرَاباً وعِظَاماً.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾: **هيهات**: اسم فعل ماضٍ بمعنى «بَعُدَ» أي: مَا تُوعَدُونَهُ مِنَ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ أمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ لَا تُصَدِّقُهُ الْعُقُول.

وبعْدَ هذا الاستِبْعَاد الَّذِي لَا يَقْتَرِنُ بِحُجَّة عَقْلِيَّة، تَصَوَّرُوا أنَّ جَمَاهِيرَهُمُ اقْتَنَعُوا، فَقَالُوا لَهُمْ جَازِمِين: مَا هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا يَمُوتُ مَنْ يَمُوتُ فيها، ويَحْيَا مَنْ يَحْيَا فِيهَا فقط، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إلَىٰ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ.

وَشَعرَ الكُبراءُ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْوَذُوا عَلَىٰ نُفُوس جَمَاهِيرهم، فَقَالُوا لَهُمْ بِشَأْنِ الرَّسُول هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: مَا هُوَ إلَّا رَجُلٌ كاذبٌ في ادّعائِهِ أنَّهُ رَسُولُ الله وما نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ به، وما نَحْنُ بِمُسْلِمِينَ له.

الفصل الرابع

الْمَرَاحلُ الْأخِيرة مِنْ مَسيرَةِ دَعْوَةِ هُودٍ الَّتِي انْتَهَت بإهْلاك كُفّار قَوْمِهِ

تُشْعِرُ النُّصُوصُ بِأَنَّ هُوداً عليه السَّلَامُ قَدْ أَنْذَرَ كُفَّار قَوْمِه بإهْلَاكٍ عَامٍّ شَامِلٍ.

فأعْلَنُوا إصْرَارَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَتَحَدَّوْهُ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بمَا أنْذَرَهُمْ بِهِ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِيما يَعِدُهُمْ بِهِ.

ونَجدُ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ هذا فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ.

(١) فَمِنْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الْأَحْقَافِ/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ مِنَ المكلّفين الممتَحَنِين:

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾:

أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ أَيُّها المتلَقِّي لهَذا الْبَيانِ الْقُرْآنِيّ الرَّبَّانِيّ، عن رَسُولِنَا «هودٍ» أخي «عَادٍ» أحداثاً جرَتْ إذْ أَنْذَر قَوْمَهُ الذين كانوا مُقِيمِينَ بأرْضِ الْأَحْقَاف، والْحَالُ أَنَّهُ قَدْ مَضتِ النُّذُرِ مِنْ قَبْلِ بِعْثَتِهِ، وَمَضَتْ النُّذُرُ في القرونِ الّتِي جاءَتْ فِي الأزمَان بَعْدَه، قائلاً لِقَوْمِهِ «عَادٍ»: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ، فإِذَا لَمْ تَسْتَجِيبُوا لي، وَقَد أَقَمْتُ فيكُمْ زَمَناً مَدِيداً أُبَلّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبّي، فإِنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يَكُونُ فِيهِ هَلَاكُكُمْ هَلَاكاً جماعِيًّا سَاحِقاً مَاحِقاً.

قَالُوا له: أجِئْتَنَا لِتَصْرِفَنَا عَنْ آلِهتِنَا، فاعْلَمْ أَنَّنا لَنْ نَسْتَجِيب لِدَعْوَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّنَا نُكَذِّبُكَ بِبَلَاغَاتِكَ وَبِإِنْذَارَاتِكَ، فأتِنَا بِمَا تَعِدُنَا بِهِ مُنْذِراً مُتَوعّداً إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، وأعْلِمْنَا عَنِ الْوَقْتِ الّذِي يأتي فيه هَـٰذا الْيَوْمُ الْعَظِيمُ، الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّ هَلَاكَنَا يَكُونُ فِيهِ.

قَالَ لَهُمْ: مَا الْعِلْمُ كُلُّهُ إِلَّا عِنْدَ الله، وأنَا لَا أَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ، إنَّني لا أَعْلَمُ إلَّا مَا يُعْلِمُنِي اللهُ بِهِ، وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وأَمَرَنِي رَبِّي أَنْ

أُبَلِّغُكُمْ إِيَّاه، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ أُولي أَلْبَابٍ تُعَالِجُونَ الْقَضَايا بِعَقْلٍ وَرُشْدٍ، ولَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَسْتَجِيبُونَ لانْفِعَالاتِ غَضَبِكُمْ آناً فَآناً، وَقَدْ عَطَّلْتُمْ مَوَازِينَ عُقُولِكُمُ الَّتِي فَطَرَكُمْ اللهُ عَلَيْهَا.

﴿تَجْهَلُونَ﴾: أَصْلُ الجهل مأخوذٌ مِنْ قَولِ العرب: «جَهِلَتِ الْقِدْرُ تَجْهَلُ جَهْلاً» أي: اشتَدَّ غَلَيَانُها، ضِدُّ تَحَلَّمَتْ، فالجهل تَعْبِيرٌ عَنْ ثَوَرَانِ الْغَضَبِ فِي النَّفْسِ وهِيَاجِهِ، والعاقِلُ الرَّصِينُ لَا يَجْهَل.

وَلَمْ يَطُلْ بِهِمُ الزَّمَانُ حَتَّىٰ رَأَوْا عَارِضاً (أي: سَحَاباً قَادِماً) مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ فَظَنُّوه سَحَاباً قادِماً بِغَيْثٍ، فَقَالُوا: هذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا مَطراً نَافِعاً.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ لَمْ يَجِدُوه سَحَاباً مُمْطِراً، بَلْ وَجَدُوا وَسَائِلَ العذاب الَّذي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السّلام، وهو مَا تَحَدَّوْهُ أَنْ يأْتِيَهُمْ بِهِ مُسْتَعْجِلِينَ مُسْتَهْزِئين. إِنَّها رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ فِيها عَذَابٌ أَلِيمٌ لَهُم، فيها قُدْرَةٌ عجيبَةٌ على أَنْ تُدَمِّرَ كُلَّ شيءٍ بأَمْرِ رَبِّها.

فأَهْلَكَهُمُ اللهُ بها، فأَصْبَحُوا لَا تُرَىٰ فِي أَرْضِهِمْ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ، أَمَّا الْأَحْيَاءُ فيها باسْتِثْناء المؤمنين الذين أنجاهم اللهُ فَقَدْ هَلَكُوا جَمِيعاً.

بِمِثْلِ هذا الجزاء العقابيّ يَجْزِي اللهُ كلَّ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مبيّناً رَدَّ مَلإِ قَوْم هُود عليه السلام على دَعْوَتِهِ لهم إلىٰ عبادة الله وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له: ويظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ هَـٰذا بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بعِقَاب الله المعجّل، وفي أَوَاخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة بَيْنَهُم:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَـٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ

مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾»:

إنَّ النِّسْبَةَ الغالِبَةَ من قوم هُودٍ عليه السَّلام قَدْ كَذَّبُوهُ، وكَذَّبُوا بالذِّكْرِ الَّذِي أُنْزِلَ إلَيْهِم من رَبِّهم، ولَمْ يَكْتَرِثُوا لِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ فَلاحٍ إذا اسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ واتَّبَعُوه، واسْتَهَانُوا بِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّينِ، فِي جَهَنَّمَ دَارِ الْمُجْرِمِينَ، وبِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنْ إهْلاكٍ مُعَجَّل، نظير الإهْلاكِ الَّذِي عَاقَبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِهِ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِهِم، وتَنَاسَوْا أَنَّهُمْ سُلالَةُ أَوْلادِ نُوحٍ النَّاجِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْك، بِسَبَبِ إيمانِهِمْ بما جاء بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْ رَبِّهِ، واتّباعهم له.

لَقَدِ اسْتَنْكَرَ كُفَّارُ عَادٍ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ لَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَه، وَيَتْرُكُوا مَا كَانَ يَعْبُد آباؤُهُمْ مِنْ أَوْثَانٍ اتَّخذُوها شُرَكَاءَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا أَشْرَكُوا.

وتَحَدُّوا رَسُولَهُمْ بأَنْ يأتِيَهُمْ بِمَا كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ إهْلاكٍ عَامٍّ شَامِلٍ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ فِي أَنَّ مَا يُنْذِرُهُمْ بِهِ هو إنْذَارٌ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وأَنَّ هُوداً كَانَ مُبَلِّغاً لَهُ عَنْ اللهِ جلَّ جَلالُهُ.

- «قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا»؟!!

استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى الاستهزاء بما يَدْعُوهُمْ هُودٌ عليه السَّلامُ إلَيْه، من عبادة اللهِ وَحْدَه، وتَرْكِ عبادة ما كان يَعْبُدُ آباؤهُمْ مِنْ شُرَكَاء.

- «... فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾»:

إنَّهُمْ قَدْ تَحدَّوْه بأنْ يأتِيَهُمْ بِمَا كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابٍ مُعَجَّلٍ يَسْتَأْصِلُهُمْ، إذْ كَانُوا يَجْزِمُونَ بأَنَّه رَجُلٌ كاذِبٌ غَيْرُ صَادِقٍ فِيما يُخْبِر عَنِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، وَغَيْرُ صَادِقٍ في ادِّعَاءِ أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ إليهم.

لَقَدْ غَشَّتْ أهواؤهم وَتَقَالِيدُهُمُ الْعَمْياءُ عَلَىٰ بَصائِرِهِمْ، فَجَعَلَتْهُمْ لا

يَسْتَبْصِرُونَ بَراهِينَ الْحَقّ، ويَرَوْنَ آيَاتِ اللهِ الإعجازِيَّةَ غَيْرَ دَالَّاتٍ علَىٰ أَنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلامُ نبيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حقّاً.

فأجابَهُمْ هُودٌ عليه السَّلامُ بما دَلَّ عَلَيْهِ البيانُ التالي:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: قَدْ قَضَىٰ اللهُ بأَنْ يُوقِعَ عَلَيْكُمْ عِقَابَهُ بإهْلَاكِكُمْ إهْلَاكاً عَامًّا شَامِلاً، بَعْدَ أَنْ قَدَّرَ ذَلِكَ بِمُقْتَضَىٰ عَلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، فَانْتَظِرُوا عِقَابَ اللهِ لَكُمْ إنِّي مَعَكُمْ مِنَ المنْتَظِرين.

الرِّجْسُ: يُطْلَقُ عَلَى العقاب والعذاب، وهذا هُو المرادُ هُنَا.

الغَضَبُ: ضِدُّ الرِّضا، ومِنْ لوازِمِه تَوَجُّهُ الإرادة للانتقام.

وأبَانَ لَهُمْ هُودٌ عليه السلام أنَّ آلِهَتَهُمْ الَّتِي يَعْبُدُونها مِنْ دُونِ اللهِ، لَيْسَتْ أكْثَرَ مِنْ أسْمَاءٍ تُلْفَظُ بالْأَلْسِنَة، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا فِي الواقِعِ حَقِيقَةٌ ذَاتُ أثَرٍ مَا فِي نَفْعٍ أَوْ ضُرّ، مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلطان.

السُّلْطان: هُنَا الحُجَّةُ الملْزِمَة.

وتَحقَّقَ بَعْدَ هَـٰذا البيانِ الْأَخِيرِ إنْزَالُ عِقَابِ اللهِ السَّاحِقِ الماحِقِ لكُفَّارِ «عاد» وأنْجَىٰ اللهُ هوداً عليه السلام والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ، وقَطَعَ آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ.

دَلَّ على هذا قولُ اللهُ تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

يُقَالُ لغة: «قَطَعَ اللهُ دَابِرَ الْقَوْمِ، أي: قَطَعَ آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُم، فَأَهْلَكَهُ معَهُمْ. **والدَّابِرُ**: في اللُّغَةِ التَّابِع.

﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾: أي: ولَمْ يَكُنْ كُفَّارُ عَادٍ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلاً مَهْمَا أُمْهِلُوا، فكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ إِنْهَاءُ ظُرُوف امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا إِهْلَاكاً جَماعِيًّا شَاملاً.

(٣) وَقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) حَكَاية لما دَعَا به هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)﴾:

أي: قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة لِقَوْمِهِ، بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنْ إيمانهم واسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، رَبِّ انْصُرْنِي بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لِي.

فقال اللهُ لَهُ وَحْياً: عَمَّا قَلِيلٍ (أي: من الزمَان) لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ، إِذْ يَأْتِيَهِمْ عذَابُنَا فِي الصَّبَاحِ.

وَنَزَلَ بِهِمْ عِقَابُ اللهِ في الْوَقْتِ المقَدَّرِ لإهْلاكِهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ مَعَ الرِّياحِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَىٰ أَرْضِهِمْ، الصَّيْحَةُ الْعُظْمَىٰ، وهِيَ صَوْتٌ عَظِيمٌ مُهْلِك، وتُطْلَقُ الصَّيْحَةُ عَلَىٰ العَذَاب، وَكَانَ أَخْذُهَا لَهُمْ مِنَ الحياة أَخْذاً بالْحَقِّ، إِذْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ﴾: أي: فَجعَلْنَاهُمْ بَعْدَ إهْلَاكِهِمْ مِثْلَ الْغُثَاءِ، وهُو مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ رَغْوَةٍ، ومِنْ فُتَاتِ الْقُمَامَاتِ والْأَشْيَاء الَّتِي عَلىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ.

﴿... فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)﴾: أي: فَطَرْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ مِنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلَاتِ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ.

(٤) وَقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي

يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ⑲ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ⑳ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ㉑﴾:

في هذا النصّ بيانٌ مُوجزٌ جدًّا لِوَسِيلَةِ إهْلَاكِ كُفَّارِ «عَاد» مع إلماحٍ سَرِيعٍ لمشَهَدِ إهْلَاكِهِمْ، بإبْرازِ لَقْطَةٍ تَصْوِيرِيَّةٍ مِنْهُ، تكَرَّرَتْ طَوالَ يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ عَلَيْهم.

الرِّيحُ الصَّرْصَر: هي الرّيحُ الشّدِيدَةُ الْبُرُودَةِ، الْقَوِيَّةُ السَّرِيعَة، الَّتِي تَصْطَدِمُ بالْأَشْيَاءِ، فَتَنْطَلِقُ بِها أَصْوَاتٌ يَتَوَاتَرُ فيها ما يُشْبِهُ حَرْفَي الصَّادِ والرَّاء، فَسُمِّيَتْ صَرْصراً.

﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾: أي: فِي يَوْمِ جَهْدٍ وَضُرٍّ وَعَذَابٍ وَشِدَّةٍ وآلام.

﴿مُّسۡتَمِرٌّ﴾: أي: شَدِيدٍ وَقَوِيّ، تَتَكَرَّرُ فِيهِ نوازِلُ النَّحْسِ بِتَتَابُعٍ وَتَلَاحُقٍ، حَتَّىٰ تَحقّقَ إهْلَاكُ الْقَوْمِ جَمِيعاً.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: أي: تَقْتَلِعُ النَّاسَ اقْتِلَاعاً شَدِيداً مَهْمَا اسْتَمْسَكُوا بِثَوابِتَ فِي الْأَرْضِ، فإذا انْتَزَعَتْهُمْ بِعُنْفٍ، وَرَفَعَتْهُمْ، طَرَحَتْهُمْ صَرْعَىٰ، أي: هَلْكَىٰ مَقْتُولِينَ مَطْرُوحِينَ.

﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ⑳﴾: أي: فيكُونُونَ بَعْدَ انْتِزاعِهِمْ وَطَرْحِهم مُتَنَاثِرِينَ صَرْعَىٰ، كأسافِلِ نَخْلٍ مُنْقَلِعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، ومُنْقَلِبَةٍ وَمَطْرُوحَةٍ عَلَيْها، وَقَدْ عَدَتْ عَلَيْها الْأَوَاكِلُ فأَكَلَتْ بُطُونَهَا فَجَوَّفَتْها.

يُوصَفُ «النَّخْلُ» باعتباره اسْمَ جِنْسٍ بالتَّذْكِيرِ وبالتَّأْنِيث، فيقال: نَخْلٌ مُنْقَعِرٌ، ونَخْلٌ مُنْقَعِرَة.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ㉑﴾: أي: فانْظُرْ أَيُّها المتفكِّرُ المتدبِّرُ. عَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ كانَ عَذَابِي لكُفَّارِ «عَادٍ» قَوْمِ هودٍ، وكيْفَ كَانَتْ نُذُري لَهُمْ التي بلَّغَها لَهُمْ رَسُولي. «نُذُري» أي: إنْذاراتي بالعقاب الأليم.

أضاف هٰذا النّصّ إضافَاتٍ لَمْ تأتِ في النُّصُوص السابقة.

(٥) وَقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الشُّعَرَاء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بِشَأْنِ هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾:

جاءَ في هذا النّصِّ إضَافَةُ أنَّ فِي أهْلاكِ كُفَّارِ «عَادٍ» آيةً تَدُلُّ عَلَىٰ سُنَّةِ اللهِ فِي عِقَابِهِ لِعِبادِه الْمُجْرِمِينَ، لِيَعْتَبِرَ بِها المعتَبِرُونَ. وجاءَ فيه بَيانُ أنَّ أكْثَرَهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ للإيمان مَهْمَا أُمْهِلُوا فَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُهْلِكَهُمْ. وَمَعَ قُدْرَةِ اللهِ الْغَالِبَةِ فَهُو رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ..

(٦) وَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: وحينَ جاء وقْتُ تَوْجِيهِ أمْرنا بِتَنْفِيذِ الْقَضَاء الَّذِي قَضَيْنَاهُ بإهْلَاكِ كُفَّارِ «عاد» قوم «هود» عَلَيْهِ السَّلام، والمراد بمجيء الوقْتِ اقترابُ مجيئِه، أَوْ مَجيءُ بوادره، أمَرْنَا «هُوداً» والَّذِينَ آمَنُوا معه، بالابْتِعَاد عَنِ الأرض المقدَّر أَنْ يكونَ دَاخِلَ حُدُودِها إهْلَاكُ كُفَّارِ قَوْمِهِ، فابْتَعَدُوا فَنَجَّيْنَاهُمْ مَصْحُوبِينَ ومَشْمُولِينَ بآثارِ رَحْمَةٍ مِنَّا فِي الدُّنيا، وقَضَيْنَا بِتَنْجِيتِهِمْ يَوْمَ الدّينِ مِنْ عذابٍ غَلِيظٍ، بِسَبَبِ إيمانِهِمْ واتِّبَاعِهِم رسُولَ رَبِّهِم.

يُقَالُ لغة: «عَذابٌ غليظ» أي: شديدُ الْإِيلَام. والغليظ في المادّيّات هو ضدّ الرقيق.

والمرادُ بالْأَمْر في: ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ الْأَمْرُ التكوينيّ التَّنْفِيذِيُّ المسْبُوقُ بقَدَرٍ وقضاء.

وتِلْكَ الْبَعِيدَة مِن قبيلَةِ عادٍ إلى أَسْفَلِ سافِلِينَ جَحَدُوا بآياتِ رَبِّهم الإعجازية، والكونيّة، والجزائيّة، والبيانيّة، مع عِلْمِهِمْ واسْتِيقَانِهِمْ بأنها حقٌّ، وعَصَوْا رُسُلَهُ هُوداً والَّذِينَ جَاءُوا قَبْلَه إلَيْهِمْ، واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ مُتَعَالٍ مُتَكَبِّرٍ فيهم، عَنيدٍ شَدِيد الرَّفْضِ للحقِّ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ بالبرهانِ أَنَّهُ حقٌّ.

وجَعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَعْنَةً مُخْزِيَةً تتوالَىٰ عَلَيْهِمْ طَارِدَةً لَهُمْ مِنْ كُلِّ مَوَاقع آثَارِ رَحَمَاتِهِ في الدنيا وفي الآخِرَةِ.

والسَّبَبُ في ذلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا جاحِدِين رَبَّهم، وسَاتِرِينَ الأدِلَّةَ الَّتِي تُثْبِتُ حَقَّ رُبُوبيّتِهِ لهم.

أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ إلى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من الجحيم.

(٧) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

الْجُحُودُ: إنْكَارُ الشَّيْءِ والتكْذِيبُ بهِ مع العلم بأنَّهُ حَقٌّ.

﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي: في أيَّامٍ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ فيها أَنْوَاع الْعَذَابِ والضُّرِّ والشِّدَّةِ والمؤلِمَاتِ الْقَاسِيَاتِ.

وسبَقَ بَيَانُ مَا جاء في سورة (القمر) وهو قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾﴾.

وجاء في سورة (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) قول اللهِ تَعَالى:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾:

ومن تَدَبُّرِ هَـٰذه النُّصُوصِ مجْتَمِعَةً نُدْرِكُ أَنَّ يَوْمَ النَّحْسِ الأول قَدْ تَمَّ بِهِ إهْلَاكُ عَامَّةِ الْقَوْمِ الكافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، فَأَصْبَحُوا لَا تُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ. وأَنَّ سَائِرَ الْأَيَّام النَّحِسَاتِ الَّتي كانتْ مع الأوّلِ سَبْعَ لَيَالٍ وثَمَانِيَةَ أيَّامٍ، بدأَت مَعَ فَجْرِ الْيَوْمِ الْأَولِ، وانْتَهَتْ مَعَ غُرُوبِ شَمْسِ نَهَارِ الْيَوْمِ الثامِنِ، وفِي هَـٰذِهِ الأيَّامِ بَعْدَ الْيَوْم الْأَوَّل دُمِّرتْ مَسَاكِنُهُمْ وَكُلُّ مُنْشآتِهِمْ، وَمَاتَ كُلُّ ذِي حَيَاةٍ فِيها، وَتَحَوَّلَتْ جَمِيعُ أرْضِهِمْ بالتفْتِيتِ أكْوَاماً مِن الرَّمْلِ النَّاعم، مَنْ دخَلَ إِلَيْهَا غاصَ فيها.

أَطْلِقَ الْيَوْمُ وَأُرِيدَ بِهِ النهار.

﴿حُسُومًا﴾: أي: مُتَتَابِعَةً مُتَوالِيَةً في الشَّرِّ والتَّعْذِيب، من شأنِهَا أنْ تَحْسِمَ مَادَّتَهُمْ وَتَسْتَأْصِلَهُمْ، وأَصْلُ الْحَسْمِ الْقَطْعُ، يُقَالُ لُغَةً: «حَسَمَ الْعِرْقَ» أي: قَطعَهُ وَكَوَاه، لئلَّا يَسِيلَ الدَّمُ مِنْه.

ولفظ «حُسُوم» جَمْعُ «حَاسِم» مثل «شاهد» و«شُهُود».

صَرْعَىٰ: أيْ: هَلْكَىٰ، مقْتُولِينَ، مَطْرُوحِين.

الْخِزْيُ: الوقُوعُ في الشّرّ والعذاب والنكَبات ـ الذّلُّ والهوان ـ الافْتِضاح بالقبائحِ المخجلة خجلاً شَدِيداً.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ... ﴿٨﴾﴾ أي: فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ في أَرْضِهِمْ مِنْ آثَارٍ بَاقِيَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِه على النَّاسِ، لَقَدْ صَارَ كُلُّهُ مُتبرّاً تَتْبِيراً.

فالتكامُلُ في هٰـذِهِ النُّصُوصِ واضِحٌ، ضِمْنَ تَكْرِيرِ تَوْجِيهِ الأنْظَارِ لِقَضِيَّةِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ بِالْعِقَابِ، الَّذِي تحقَّقَتْ أمْثِلَتُهُ الكثيرةُ فِي الواقِعِ رَغْبَةً فِي أَنْ يَعْتَبِرَ بِهَا أُولو الأَلْبَاب.

ومَزِيدٌ مِنَ التَّأمُّلِ التَّدَبُّرِي يَكْشِفُ أَنَّ كُلَّ النُّصُوصِ القرآنِيَّة الوارِدَة حَوْلَ مَوْضُوعٍ واحِدٍ، هِي مُتَكَامِلَةٌ فيما بيْنَها، ولَيْسَ فِيها تكْرِيرٌ تَطابُقِيّ، باسْتِثْنَاءِ تَرْسِيخِ قضايا الْإيمَانِ، وقضايا الجزاء، وَمَا يَسْتَدْعِيهِ الْعِلَاجُ الدَّوائِيّ.

وجاء في سورة (الذَّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول): وَصْفُ الرِّيح الَّتِي أهْلَكَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بها عاداً، فقال تعالَىٰ فيها:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾: أي: الرِّيحَ الَّتِي لَا تَأْتِي بالْـمَطَرِ، بَلْ قَدْ تَأْتِي بالْعَذَابِ والإهْلَاكِ والتَّدْمير.

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾: أي: كالْبَالِي الْمُتَفَتِّتِ مِن كُلِّ شيءٍ، وقَدْ أتَتْ هٰـذِهِ الرّيحُ عَلَىٰ أرْضِ «عاد» وكُلِّ مَا فِيهَا فجعَلَتْهَا رِمالاً قاحِلَة.

الفصل الخامس

نصوص خاصّةٌ بِتَوْجِيهِ الكافِرين برسالة محمّدٍ ﷺ للاتّعاظِ بما جَرَىٰ للكافرينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَة

تُوجَدُ في القرآن الْمَجيد نُصُوصٌ مُوجَزَةٌ جدًّا، لَيْسَ فِيها تَفْصِيلٌ متَعَدِّدٌ لِأَحْدَاثِ الكافِرِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أُهلِكُوا، والْغَرَضُ مِنْها التوجِيهُ للاتِّعاظ بما جَرَىٰ للمُجْرمين السَّابِقِين مِنْ جَزاءٍ مُعجَّلٍ في الدُّنْيا، بإهْلَاكٍ شَامِلٍ، دالٍّ عَلَىٰ الجزاء المؤجَّلِ إلى يَوْمِ الدِّين، على أنَّ هٰـذا الْغَرَضَ

مُتَحَقِّقٌ مِنْ إيرادِ النُّصُوصِ الَّتِي فِيها تَفْصِيلٌ مُوَسَّعٌ أَوْ مُتَوَسِّطٌ بِحَسَبِ المناسَبَةِ الدَّاعِيَةِ في السُّورة.

وقد ظهر لي من النصوص الموجزَة جدًّا والّتي فيها ذكر عَادٍ ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ الْفَجْر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ (٧)﴾:

﴿إِرَمَ﴾: اسم بلاد «عاد» وهو في الأصل اسم جَدّ عَادَ.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾: في هذه العبارة دَلَالَةٌ على أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ مَسَاكِنَهُمْ عَلَىٰ أَعْمِدَة، ولم يَكْشِفِ الآثارِيُّون حَتَّىٰ الآن المطْمُور بالرِّمال من أَرْضِهِمْ.

(٢) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) في الحديث عن اللهِ، وقُدْرَتِهِ وَجزائه:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١)﴾:

﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: قَوْمَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام، وأَمَّا عَادٌ الثَّانِية فالغالِبُ أَنَّهُمْ «ثَمودٌ» لِأَنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ عاد أيضاً.

(٣) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عَنْ مُشْرِكي قُرَيش:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾:

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾: أي: فتحَقَّقَ في الواقع التَّطْبِيقِي وَعِيدِي الَّذِي كُنْتُ أَوْعَدْتُهُمْ إِيَّاه، فَكَانُوا بِهِ مِنَ المعذَّبِينَ المهْلَكِينَ.

(٤) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (صَ/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾:

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي: فَتَحقَّقَ في الواقِعِ التطبيقي عِقَابِي لهؤلاء الْمُجْرِمينَ.

(٥) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الْفُرْقَان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) في مَعْرِضِ إنْذارِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ بِعِقَابٍ مُمَاثِلٍ لِلْعِقَاب الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ بِكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةَ:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وَكُلَّ قَوْم مِنْ هَـٰؤلَاءِ الأقوام وَصَفْنَا لَهُ أحْوَالَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي أهْلَكْنَاهَا، لِيَتَّعِظَ بها وَيَعْتَبِر، وَكُلًّا مِنْهُمْ أهْلَكْنَاهُ إهْلاكاً فيه تَحْطِيمٌ وَتَفْتِيتٌ وإِهْلَاك.

(٦) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (إبْراهِيمَ/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) فِي مَعْرِض مُعالَجَةِ كُفَّارِ مَكَّة بالخطاب المباشر:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾:

أي: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبأُ إِهْلَاكِ الأقْوام السَّابِقَةِ، الّذِين لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعَوَاتِ رُسُل رَبِّهِمْ، بل أَسْكَتُوهم رَادّين أيْدِيَهُمْ الَّتي يُشيرُونَ بها عِنْدَ الحديث، وَجاعِلينهَا في أفواهِهِم.

(٧) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) في مَعْرِضِ بَيَانِ إِهْلَاكِ عَدَدٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَة خطاباً للكافرين:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾:

أي: وَكَانُوا عَالِمِينَ بالْحقِّ وَمُدْرِكِينَ لَهُ، لَكَنَّهُمْ كَانُوا رَافِضِينَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ جُحُوداً.

(٨) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) مُبيِّناً سُنَّتَهُ الحكيمَة فِي إمْهَالِ الكافرين، ومُخَاطِباً رَسُولَهُ ﷺ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾:

أي: فَكَيْفَ كَانَ إنكارِي، الّذي نَتجَ عَنْهُ عِقَابِي وانتقامي، بَعْدَ أَنْ أَمْهَلْتُهُمْ إمْهَالاً طويلاً.

(٩) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) يُنْذِرُ المنافِقِينَ بِعِقَابٍ مُمَاثِلٍ لِعِقَاب المهْلَكِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الكافِرِين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)﴾:

المؤتفكَات: أي: الْمُنْقَلِبات، وهي قُرَىٰ قَوْمِ «لُوط» عَلَيْهِ السَّلام.

وجَّهَ اللهُ في هذا النَّصِّ تَحْذِيراً خَاصّاً بالمنافِقِينَ وإنْ كانُوا دَاخِلِينَ في عُمُومِ الْكَافِرِينَ، لِكَيْلَا يَتَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ بِنِفاقِهِمْ يَنْجُونَ مِنْ عِقَابِ اللهِ المعَجَّلِ في الدُّنيا.

الفصل السَّادس

تحْذِير الرُّسُلِ أَوْ بَعْضِ المؤمِنِينَ أقْوَامَهُمْ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِثْلُ مَا نَزَلَ بالمهْلَكِينَ السَّابقين

(١) كَانَ لَدَىٰ أَهْلِ مَدْينَ عِلْمٌ بِإِهْلَاكِ كُفَّارِ قوم نُوحٍ، وقوم هود، وقوم صالحٍ، وقَوْمِ لُوطٍ، فقالَ لَهم رَسُولُهُم شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلام، ما أَبَانَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بِقَوْلِهِ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَلَا يَحمِلَنَّكُمْ خِلَافُكُمْ وَعِدَاؤُكُمْ لِي على الإصْرَارِ عَلَىٰ الباطِلِ الَّذي تُؤْمِنُونَ بِهِ، والإصْرَارِ عَلىٰ الجرائِم الَّتي تَرْتَكِبُونَها، فهذا الإصرار سَيُسَبِّبُ لَكُمُ اسْتِحقَاقَ الإهْلاكِ الشَّامِلِ، الَّذي اسْتَحقَّتْهُ الأَقْوَامُ الْمُهْلَكَةُ مِنْ قبلكم، فَيُصِيبكُمْ مِثْلُ ما أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ، أو قَوْمَ هُودٍ، أو قَوْمَ صَالحٍ، أو قَوْمَ لُوطٍ، فأحداث إهْلَاكِ قومِ لُوطٍ قَرِيبٌ مِنْكُمْ زَماناً وَمَكَاناً.

(٢) وَكَانَ لَدَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَآلِهِ عِلْمٌ بإهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ وعَادٍ وثمودَ وَالَّذينَ مِنْ بَعْدهمْ، فَنَصَحهُمْ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ سُنَّةُ اللهِ بالمُجرِمين، فَقَالَ لَهُمْ مَا أبانَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سُورَةِ (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ . . .﴾: أي: مِثْلَ سُنَّةِ اللهِ الَّتي جرَتْ في قوم نوحٍ وعَادٍ وثمودَ والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم، إذْ أَهْلَكَ اللهُ هؤلَاء الأحْزَابَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ

وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، عِقَاباً لَهُمْ بالْعَدْلِ، ومِنْ صِفَةِ اللهِ الدَّائِمَةِ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَاد، بَلْ يَجْزِيهِمْ بِحَسَبِ أعْمَالِهِمْ، فَلَا يَظْلِمُ أحداً مثقالَ ذَرَّة.

(٣) وَكَانَ لَدَىٰ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَسائِرِ الْعَرَبِ عِلْمٌ بإهْلَاكِ اللهِ كُفَّارَ الْقُرُونِ الْأُولى الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، فَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِقَوْمِهِ، مَا جَاء بَيَانُهُ فِي سُورَة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيها لرسُولِهِ ﷺ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (١٤)﴾:

﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾: المرادُ بالصَّاعِقَةِ الْعَذَابُ المهْلِكُ، الَّذِي يَصْعَقُ بِهِ (أي: يَمُوتُ) مَنْ يَنْزِلُ عَلَيْهِ.

- ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ وُجُودِهِمْ وهُمُ الرُّسُلُ الَّذِين جَاءُوا لِلْأَقْوَام قَبْلَهُمْ، ومِنْ بَعْدِ وُجُودِهِمْ وَهُمُ الرُّسُلُ الّذِينَ جَاءُوا إلَيْهِمْ، فَهُودٌ ومَنْ جَاءَ قَبْلَهُ فِي عَادٍ قد جَاءُوا مِنْ بَعْدِ أَنْ صَارَ لِعَادٍ شأنٌ يُذْكَرُ بَيْنَ الْأَقْوام، فَهُمْ جَاءُوا مِنْ خَلْفِهِمْ وَعَاشُوا فِيهم وأَنْذَرُوهُمْ، وكذلك ثمود.

- ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾: أي: قَالُوا: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا أَنْ يُرْسِلَ رُسُلاً إلَيْنَا لَأَنْزَلَ مَلَائكة، وبناءً عَلَىٰ هَـٰذِهِ التّعِلَّة الباطِلَةِ قَالُوا لِرُسُلِهِمْ: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. وفي آخِرِ مَسِيرَةِ دَعْوَةِ رُسُلِهِمْ، أَنْزَلَ الله عَلَيهم عَذَاباً صَعِقُوا بِهِ فصارُوا هَلْكَىٰ بسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وإفسادهم في الأرض.

وبهذا تَمَّ الملحق الثاني من مَلاحِقِ سُورَة (هود) وفيه دِرَاسَةٌ تَكَامُلِيَّةٌ فِيها شيءٌ مِنَ التَّدَبُّر التحليلي.

والحمد للهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتوفِيقِه وفَتْحِهِ.

* * *

سورة يوسف

١٢ مصحف ٥٣ نزول

الراجح أنها مكّيّة كُلُّها

وقيل إلّا الآيات من (١ ـ ٣) والآية (٧) فهي مَدَنية

(١)

نصُّ السّورة وما فيها من فَرْش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ
ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ
عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ
يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ
وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ
يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ
لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا

---

١ ـ ● سكت أبو جعفر على الحروف الثلاثة من **[الٓر]** سكتة لطيفة بدُونِ تنفُّس.

٤ ـ ● قرأ ابنُ عامِرٍ، وأبو جَعْفر: **[يَا أَبَتَ]** بفتح التاء. وقرأها باقي القراء العشرة بكسْرِ التاء.

٤ ـ ● قرأ أبو جعفر: **[أَحَدَ عْشَرَ]** بإسكان العين. وقرأها باقي القرّاء العَشَرَة بفتح الْعَيْن.

٥ ـ ● قرأ حفص: **[يَا بُنَيَّ]** بفتح ياء المتكلم. وقرِأها باقي القراء العشرة بالكَسْر: **[يَا بُنَيِّ]**.

٧ ـ ● قرأ ابن كثير: **[ءَايَةٌ]** بالإفراد. وقرأها الباقون بالجمع.

وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ
ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا
صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي
غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾
قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾
أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ
إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ
عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ
إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي
غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا

---

١٠ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[غيَابَات]** بالْجمع. وقرأها الباقون بالإفراد.

١٢ ـ • قرأ نافع، وأبو جَعْفَر: **[يرْتَع ويلْعَبْ]** من فعل: «ارتَعَىٰ» وبالياء. وقرأهما ابْنُ كثير: **[نَرْتَع ونَلْعَبُ]** من فعل «ارتَعَىٰ» وبالنون.
وقرأهما أبو عَمْرو، وابْنُ عامر: **[نَرْتَعْ ونَلْعَبْ]** من الرَّتْع، وبالنون.
وقَرأها باقي القراء العشرة **[يَرْتَعْ ويَلْعَبْ]**. وبين هَٰذِهِ القراءات تكامُلٌ في بيان أقوالهم.

١٣ ـ • قرأ نَافِعٌ: **[لَيُحْزِنُني]** مِنْ فِعْل: «أَحْزَنَهُ يُحْزِنُهُ».
وقرأها باقي القراء العشرة: **[لَيَحْزُنُني]** من فعل: «حَزَنَهُ يَحْزُنُهُ».
حَزَنه وأَحْزَنَهُ وجهان عربيان.

١٣ و١٤ ـ • قَلَبَ همزة «الذئب» ياءً ورش، والسّوسي، والكسائي وأبو جَعْفر.
وخلف في اختياره. وحمزة في الوقف.
ونطقها الباقون بالهمزة.

١٥ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[غيَابَاتِ]** بالجمع.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[غَيَابَةِ]** بالإفراد.
ومؤدى القراءتين واحد.

يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ
إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ
ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو
عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ
فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ
سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ
بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ
دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي
ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ
أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ
مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن
نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ

---

١٩ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [يَا بُشْرَىٰ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَا بُشْرَايَ] بإضافة ياء المتكلم المفتوحة.

٢٣ ـ ● قرأ نافع، وابن ذكوان، وأبو جعفر: [هِيتَ لَكَ].
وقرأها هشام [هِئْتَ لَكَ]
وقرأها ابن كثير: [هَيْتُ لَكَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [هَيْتَ لَكَ].

إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ
هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ
لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾
وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا
ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ
مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن
كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ
وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ
نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ
شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ

---

٢٣ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [**رَبِّيَ أَحْسَنَ**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٢٤ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وابْنُ عَامِرٍ، ويَعْقُوبُ: [**المخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللّام.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**المخْلَصِينَ**] بفتح اللّام.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٢٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [**الْخَاطِينَ**] وكذلِكَ حمزة في الوقف، وله التسهيل أيضاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**الْخَاطِئِينَ**].

أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا
وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ
مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي
لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ
ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ
إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن
مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ
لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ
أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ

---

٣١ ـ • قرأ أبو جَعْفر: **[مُتَّكاً]** بحذف الهمزة، وإبقاء التنوين.
وقرأها باقي القراء العشرة **[مُتَّكأً]** بإثبات الهمزة والتنوين.

٣١ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: **[وَقالَتِ اخْرُجْ]** بكَسْرِ التاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[وقالَتُ اخْرُجْ]** بضم التاء.
وهما وجهان عربيّان.

٣١ ـ • قرأ أبو عمْرو في الوصْلِ **[حَاشَىٰ لله]** بإثبات الألف بعد الشين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[حَاشَ لله]** بحذف الألف بعد الشين وقفاً ووصلاً.

٣٣ ـ • قرأ يعقوب هنا خاصّة: **[السَّجْنُ]** بفتح السّين، مصْدر «سَجَنَ».
وقرأا باقي القراءُ العشرة: **[السِّجْنُ]** على أنه اسْمُ المكان الذي يُسْجَنُ فيه.

٣٦ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[إِنِّيَ أَرانِي]** بفتح ياء المتكلم من «إنّي» في الموضعين.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٣٦ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم من **[أَرانيَ أَعْصِرُ]** و**[أَرانيَ أَحْمِلُ]**. وقرأهما باقي القراء العشرة بالإسكان.

فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ
قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ
مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ
بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ
مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ
ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ

---

٣٦ - • أَبْدَلَ الهمزة ألفاً مِنْ **[راسِي]** السوسي، وأبو جعفر، وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة **[رَأْسِي]** بإثبات الهمزة.

٣٦ - • أَبْدَلَ الهمزة ياء مِنْ **[نَبِّينا]** أبو جعفر، وقرأها الباقون: **[نَبِّئْنا]**.

٣٧ - • قرأ ابْنُ وِرْدان: **[تُرْزَقانِهِ إلاَّ]** بِكَسْرِ الهاءِ من غيرِ صِلَة، والباقون بالكسر مع الصِّلَة.

٣٧ - • قرأ السُّوسِي، وأبو جَعْفَر: **[نَبَّاتُكُما]** بإبدال الهمزة ألفاً، وكذلِكَ حمزة في الوقف.

وقرأها الباقون **[نَبَّأْتُكُمَا]** بإثبات الهمزة ساكنة.

٣٧ - • فتح ياء المتكلّم من: **[رَبِّيَ إنّي]** نافع، وأبُو عَمْرو، وأبو جعفر.

وأسْكنها باقي القرّاء العشرة.

٣٨ - • فتح ياء المتكلّم من **[آبائِيَ إبْراهِيمَ]** نافِع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعفر. وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ
فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ
﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ
فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ
سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ
يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾
قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ
﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ
يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ
لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ

---

٤١ ـ • أبدل الهمزة ألفاً من [راسِهِ] السّوسي، وأبو جعفر. وقرأها الباقون [**رأْسِهِ**].

٤٣ ـ • فتح ياء المتكلم مِنْ [**إِنِّي أَرَىٰ**] نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبُو جعفر. وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

٤٣ ـ • قرأ السُّوسي: [**رُويَايَ**] و[**لِلرُّويَا**] وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأهما أبو جعفر: [**رُيَّايَ**] و[**لِلرُّيَّا**].
وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [**رُءْيَايَ**] و[**لِلرُّؤْيَا**].

٤٥ ـ • قرأ نافع، وأبو جَعْفر بِمَدِّ ألف «أنا» مِن [**أَنَا أُنَبِّئُكُمْ**].
وقرأها باقي القرّاء العَشَرَة بفَتْح النون دُون ألف.

٤٥ ـ • قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلّم وصْلاً ووقفاً مِنْ: [**فَأَرْسِلُونِي**]. وحَذَفها باقي القُرّاء العشَرَة.

٤٦ ـ • فتح ياء المتكلّم مِنْ [**لَعِلِّي أَرْجِعُ**] نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابْنُ عامِرٍ، وگبو جعفر، وأسْكَنَها باقي القراء العشرة.

سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ
﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ
ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ
ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ
أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ
يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ
قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ
وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ
ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ

---

٤٧ - • قرأ السّوسي، وأبو جعفر: **[دَاباً]** بإبْدالِ الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها حَفْصٌ: **[دَأَباً]** بإثبات الهمزة وفَتْحها.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[دَأْباً]** بإثْباتِ الهمزة وإسكانها.

٤٩ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف **[تَعْصِرُونَ]** بتاء المخاطبين.
وقرأها الباقون بياء الغائبين: **[يَعْصِرُونْ]**.

٥٠ - • قرأ ابْنُ كثير، والكِسائي، وخَلَفٌ في اختياره **[فَسَلْهُ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فاسْأَلْهُ]**.

٥١ - • قرأ أبو عَمْرو في الوصْلُ: **[حَاشَىٰ لِلهِ]** بإثبات الألف بعد الشين.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[حَاشَ لِلهِ]** بَحذْفِ هذه الألف.

٥١ - • قرأ ورْشٌ، وابن وِرْدان: **[الْعَزِيزِلاَنَ]** بنَقْلِ حركة الهمزة إلى اللّام مع حذف الهمزة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[الْعَزِيزِ الْآنَ]**.

٥٣ - • فتح ياء المتكلم من: **[نَفْسِيَ إِنَّ]** و**[رَبِّيَ إِنَّ]** نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ
إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ
ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا
نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ
وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ
لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ
﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾
قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟
بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ

---

٥٦ ـ • قرأ ابن كثير: [**حَيْثُ نَشَاءُ**] بضمير المتكلم العظيم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**حَيْثُ يَشَاءُ**]: أي: يوسُف عليه السلام.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنىٰ المراد.

٥٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [**أَنِّيَ أُوفي**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٦٠ ـ • أثبت ياء المتكلّم في: [**تقْرَبُوني**] يَعْقُوب.
وَحذَفَها باقي القرّاء العشرة.

٦١ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِي، وخلف: [**لِفِتْيَانِهِ**].
وقرأها الباقون: [**لِفِتْيَتِهِ**]. والمؤدّى واحد.

مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ
﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ
مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ
هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ
كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ
حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ
ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا
تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي
عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ
وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ
أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي

---

٦٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: **[يكْتَلْ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نكْتَلْ]**.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٦٤ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلَف: **[حَافِظاً]**. وقَرأَهَا باقي القرّاءَ العشرة: **[حِفْظاً]**.

٦٦ ـ • قرأ ورْش: **[تُوتُونِ]** وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها دُوري أبي عمرو وصْلاً: **[تُؤْتُونِي]**.
وقرأها السُّوسي، وأبو جعفر وصلاً: **[تُوتُونِي]**.
وقرأها ابن كثير، ويعقوب في الوصل والوقف: **[تُؤْتُونِي]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة في الوصْل والوقف: **[تُؤْتُونِ]**.

نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ
ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ
فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾
قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ
ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ
تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ
كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي

---

٦٩ ـ • فتح ياء المتكلم منْ: **[إِنِّيَ أَنَا]** نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر. وقرأها الباقون بالإسكان.

٦٩ ـ • أثبت نافع، وأبو جعفر ألف «أَنَا» ممدودةً من: **[أَنَآ أخوك]**.
وحَذفَها باقِي القُرَّاء العشرة.

٧٠ ـ • قرأ ورش، وأبُو جعفر: **[مُوَذِّنٌ]** وكذلك حمزة في الوقف بإبدال الهمزة واواً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مُؤَذِّنٌ]**.

٧٦ ـ • قرأ يعقوب: **[يَرْفَعُ درجاتٍ مَنْ يَشَاءُ]**: وقرأها نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وابنُ عامر، وأبو جعفر: **[تَرْفَعُ درجاتِ مَنْ نَشاءُ]** وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَرْفَعُ دَرجاتٍ مَنْ نَشاءُ]**.

عِلۡمٍ عَلِيمٞ (٧٦) ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ
مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ
أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُواْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ
إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن
وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ
مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ
أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ
فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلۡحَٰكِمِينَ (٨٠) ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ
سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ
(٨١) وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ
جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ

---

٨٠ - • قرأ البزي بخُلْفٍ عنه: **[فَلَمَّا اسْتَايَسُوا]** وقرأها باقي القراء العشرة: **[فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا]** وهو الوجه الثاني للبزّي.

٨٠ - • فتح ياء المتكلم مِنْ **[لِيَ أَبِي]** نافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر وأسكنها باقي القراء العشرة.

٨٠ - • فتح ياء المتكلم مِنْ **[أَبِيَ أَوْ]** نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

٨٢ - • قرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: **[وَسَلِ الْقَرْيَةَ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[واسْأَلِ الْقَرْيَةَ]**.

ٱلۡحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ
عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ (٨٤) قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ
تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ
ٱلۡهَٰلِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيَ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ
مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٨٦) يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن
يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن
رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا
ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلۡ
عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ (٨٩) قَالُوٓاْ
أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ
ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٩٠) قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن

---

٨٦ ـ ● فَتح ياء المتكلّم من [**وَحُزْنِيَ إِلَى اللهِ**] نافع، وأبو عمر، وابن عامر، وأبو جعفر.
وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

٨٧ ـ ● قرأ البزّي بخُلْفٍ عَنْه: [**وَلا تَايَسُوا**] و[**لاَ يَايَسُ**]. وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [**وَلاَ تَيْأَسُوا**] و[**لاَ يَيْأَسُ**]. وهو الوجه الثاني للبزّي.

٩٠ ـ ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو جعفر: [**قَالُوا إِنَّكَ**].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**قَالُوا أَإِنَّكَ**].

٩٠ ـ ● قرأ قُنْبُل: [**يَتَّقِي**] في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**يَتَّقِ**].

كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ
ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا
فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ
﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ
يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ
ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ
بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ
﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾
قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ
مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ
وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ
جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ

---

٩٤ ـ • أثبت ياء المتكلم في: **[لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِي]** يعقوبُ في الوصل والوقف.
ولَمْ يُثْبِتْهَا باقِي القرّاء العشرة: فقالُوا: **[لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ]**.

٩٦ ـ • فتح ياء المتكلم من: **[إنّيَ أعْلَمُ]** نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.
وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

٩٨ ـ • فتَح ياءَ المتكلم من: **[رَبِّيَ إِنَّهُ]** نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.
وأسْكنها باقي القرّاء العشرة.

١٠٠ ـ • قرأ ابْنُ عامر: **[يا أَبَتَ]** وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: **[يا أَبَتِ]** بكَسْرِ التاء.

١٠٠ ـ • فتح ياء المتكلم من: **[بِيَ إِذْ]** نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.
وأسْكَنَهَا باقي القراء العشرة.

بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ
إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (١٠٠) ۞
رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا
وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ
وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ (١٠٢) وَمَآ
أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ
عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنۡ
ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ
(١٠٥) وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوٓاْ
أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ (١٠٧) قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ
أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٠٨) وَمَآ
أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ

---

١٠٠ ـ • فتح ياء المتكلم من: [إِخْوَتِيَ إِنَّ] ورش وأبو جعفر.
وأَسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

١٠٨ ـ • فتح ياء المتكلم من: [سَبِيلِيَ أَدْعُو]: نافع، وأبو جعفر: وأسْكَنَهَا باقي القراء العشرة.

١٠٩ ـ • قرأ حفص: [نُوحِيَ إِلَيْهِمْ].
وقرأها حَمْزَةُ، ويعقوب: [يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ] وقرأها باقي القراء العشرة: [يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ].

يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (١٠٩)
حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ
نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (١١٠)
لَقَدۡ كَانَ فِى قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا
يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ
شَىۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (١١١) ﴾.

---

١٠٩ ـ ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**أفَلا يعْقِلُونَ**]؟
وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَفَلا تعْقِلُونَ**]؟.

١١٠ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابْنُ عامر، ويعقوب: [**قَدْ كُذِّبُوا**].
وقرأها الباقون: [**قَدْ كُذِبُوا**].

١١٠ ـ ● قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، ويعقوب: [**فَنُجِّيَ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**فَنُنْجِي**].

(٢)

موضوع سورة (يوسف)

تشتمل سورة (يُوسُف) على مقدمة تمهيديَّة تتعلَّقُ بالقرآن، وبما قَصَّ اللهُ عَزَّ وجلَّ فيه مِن قَصَصٍ هو أحْسَنُ الْقَصَص، للدُّخُولِ إلى قِصَّةِ يُوسُف عليه السلام، الرائعةِ، مع أبيه يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإخْوَتِهِ مِنْ أبيهِ الَّذِينَ كادُوه ليتخَلَّصُوا مِنْه، ومَا جَرَىٰ له بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّىٰ صارَ ذَا الكَلِمَةِ الْأُولَىٰ بَعْدَ الْمَلِكِ في مِصْرَ، وكيْفَ حَقَّقَ اللهُ عَزَّ وجلَّ رُؤْياهُ الَّتِي رآهَا في صِغرِه، وقَصَّها على أبيه، وطلب منه أبُوهُ أَنْ لَا يَقُصَّها على إخْوَتِه.

وتشتمل على خاتمه تُبَيِّنُ أنَّ إنزال هَـٰذِهِ الْقِصَّةِ على مُحمَّدٍ ﷺ من

الشَّوَاهِد على نُبُوَّتِه ورِسَالَتِهِ للذين لم يسْتَجِيبوا بَعْدُ لَدَعْوَتِهِ مِن المشركين المعنيّين بالمعالجة، وفي هذه الخاتمة ما يلي:

(١) توجيهٌ للرسول ﷺ وللدُّعاة إلى اللهِ من أمَّتِهِ بشأن الدعوة إلى الله.

(٢) ومُتَابَعَةُ معالَجَةٍ للذّين لم يَسْتجيبوا بَعْدُ للدَّعْوَة.

(٣) وبشارَة للرَّسول ﷺ وللمؤمنين بأنَّ النَّصْرَ قَادِمٌ لَا محالَةَ، ولو نَفَدَت طاقَةُ الصَّبْرِ والانتظار.

(٤) وبيانٌ ختامي يَتَعلَّقُ بما في القَصَصِ الَّتِي يَقُصُّها الله عَزَّ وجَلَّ في كتابه مِنْ عِبْرَةٍ يَعْتَبِرُ بها أولو الألباب.

(٥) وبيانٌ يتعلَّقُ بالقرآن وأنَّهُ مَا كان حَدِيثاً يُفْتَرىٰ عَلىٰ اللهِ جلَّ جلاله، أي: ما يستطيع أحَدٌ أَنْ يَفْتَرِيه، بَلْ هُو تصْدِيق الذي سبقه من كتُب وصُحُفٍ رَبَّانِيَّة، وتفصيل كلِّ شيءٍ يتعلَّقُ بأصُولِ الدّينِ وكُلّيَّاتِهِ، وهُدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ لَدَيْهِمْ الاستِعْدَادُ الْقَلْبِيُّ والنَّفْسِيُّ لأَنْ يُؤْمِنُوا، إِذْ يُحِبُّونَ الْحَقَّ والْخَيْرَ والفَضِيلَةَ ومَا هُو الأحْسَنُ والْأَكْمل، ويَحْرِصُونَ عَلَىٰ الالْتِزَامِ بما يُرْضِي اللهَ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ وإحْسَانه ـ وبما يَنالُونَ بِهِ الجزَاءَ الكَرِيمَ في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين.

فموضوع السورة متابَعَةُ معالجةِ الذين كفَرُوا بالرَّسُول وكذّبوا بالقرآن، وقصَّةُ يوسف على طولها من عناصِرِ هذه المعالجة، ومع هذه المعالجة توجيهات وتربيات للرسول وللمؤمنين.

(٣)

دُروس سورة (يوسف)

يَسْهلُ على المتدبّر أن يقسم سورة (يوسف) إلى ثلاثة دُروس:

الدّرس الأول: الآيات من (١ ـ ٣).

وهو درسٌ يشتمل على مُقَدِّمَةٍ تمهيديّة للدُّخول إلىٰ ذكْرِ المختار عرضُهُ من قِصَّةِ يُوسُف عليه السَّلام، مُنْذُ صِباهُ حتَّىٰ بُلُوغِهِ مَنْزِلَةً سُلْطانِيَّةً في مِصْر، كانَ فيها صاحِبَ الكَلِمَةِ الأولَىٰ بَعْدَ الْمَلِك، وحتَّىٰ أواخِرِ حياتِه المجيَدةِ فيها.

الدَّرْسُ الثاني: الآيات من (٤ ـ ١٠١).

وهو يشْتَمِلُ على قِصَّةِ يوسُف مع أبيه يعقوبَ عليهما السلام، ومع إخوته الَّذِينَ كادُوه، ووصولِهِ إلى مِصْرَ غُلَاماً رقيقاً، إلى سائِرِ المختاراتِ لِلبَيَان ممَّا جَرَىٰ لَهُ في مصر، وحتَّىٰ أواخِرِ حياته.

وقد رأيْتُ تقسيم هذا الدَّرْس إلى (١٣) فَصْلاً:

الفصل الأول: الآيات من (٤ ـ ٦).

وهو فصل يَتَعَلَّقُ بالرُّؤيا الَّتِي رآها «يوسف» في صِغَرِه، وقَصَّهَا على أبيه «يعقوب» عليهما السلام.

الفصل الثاني: وهو الآيات من (٧ ـ ١٠).

وهو فصل يتضمّن بَيَانَ حَسَدِ إخْوَةِ يوسُفَ مِنْ أبيه له، وتآمُرُهُمْ عليه، للتخلّص مِنْهُ بقَتْلِهِ أو إبْعادِه.

الفصل الثالث: الآيات من (١١ ـ ١٤).

وهو فصل يتضمَّنُ طَلَبَ إخْوَتِهِ مِنْ أبِيهِمْ أَنْ يُرْسَلَهُ مَعَهُمْ إلى المراعي، حَيْثُ يَرْعَوْنَ أنْعَامَهُمْ، لِيُنَفِّذُوا مَا اتَّفَقُوا عليه، وما جرى من حوارٍ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أبِيهم.

الفصل الرابع: الآيات من (١٥ ـ ١٨).

وهو فصل يتضمَّنُ موافقة يعقوبَ عليه السلام على طَلَبِ إخوته، وخُرُوجَهُمْ بِهِ، وإلقاءَهم إيَّاهُ في جُبٍّ يَقَعُ على طريقِ المسافِرِينَ إلى مصر،

وَعَوْدَتَهُمْ إلى أبيهم عِشَاءً يَبْكُونَ بُكاءً مصطنعاً، مُدَّعِين أَنَّ الذِّئب قَدْ أكَلَه، وفَعَلُوا بِهَـٰذِهِ الأكْذُوبَة الشيْءَ الَّذي كانَ أبوهم يعقوبُ عليه السلام قد خافَهُ إذْ قال لهم: وأخافُ أَنْ يأْكُلَهُ الذِّئْبُ.

الفصل الخامس: الآيات من (١٩ ـ ٢١).

وهو فصل يتضَمَّنُ بيانَ التقاط بعض السَّيَّارَة المسافِرينَ للغُلَامِ يوسف، إذْ رَكِبَ الدَّلْوَ الَّذي أرْسَلَهُ وارِدُهُمْ في الجبّ واسْتَخْرَجَهُ ثَقِيلاً، وفَرِحَ بِهِ الرَّكْبُ وأخْفَوْه لِيَبِيعُوه عَبْداً رَقِيقاً في مِصْر، وباعوه بثَمَنٍ بخْسٍ، فأنْزَلَهُ مَنِ اشتراه وكانَ ذَا مَكَانَةٍ إدَارِيَّة مَرْمُوقَة مَنْزِلاً كرِيماً.

الفصل السادس: الآيات من (٢٢ ـ ٢٩).

وهو فصل تَضَمَّنَ بيانَ بلُوغِ «يوسف» عليه السلام أشُدَّهُ، ومُرَاوِدَةَ امرأة العزِيز لَهُ عَنْ نفسه، وما رافقها من أحداث.

الفصل السابع: الآيات من (٣٠ ـ ٣٥).

وهو فصل يتضمَّن بيانَ انتشارِ خَبَر مُرَاوَدَةِ امْرَأةِ العزيز لَهُ بَيْنَ عِلْيَةِ نساء مِصر، والتّشْنيع عليها في أحاديثهنّ، ومَا صَنَعَتْ لإسْكاتِ شَائِعَاتِهِنَّ، والحكْمِ عَلَيْهِ بالسِّجْنِ لسَتْرِ أمْرِها.

الفصل الثامن: الآيات من (٣٦ ـ ٤٢).

وفيه بيان أحداثٍ ذَاتِ شَأْنٍ جَرَتْ لَهُ في السِّجْن.

الفصل التاسع: الآيات من (٤٣ ـ ٤٩).

وفيه بيانُ حُلْم مَلِكِ مِصْرَ الَّذي رآهُ في منامِهِ، وسُؤالُهُ المعبّرِينَ عَنْ تَأْوِيلِهِ، وتذَكُّرُ الَّذي يَسْقِي الْمَلِكَ الشّرَابَ أَنَّ يُوسُفَ في السِّجْن يُعبّر الْأَحْلَام، وطَلَبُهُ من الْمَلِكِ أَنْ يَذْهَبَ إلَيْهِ لِيَسْتَفْتِيَه، وتعْبِيرُ يوسُف عليه السَّلام رُؤيَا الملك.

الفصل العاشر: الآيات من (٥٠ ـ ٥٧).

وهو فصلٌ يتَضَمَّنُ طَلَبَ الْمَلِكِ مِنْ رِجَالِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِيُوسُفَ مِنَ السِّجْن، لَكِنَّ يوسُفَ عليه السَّلام طَلَبَ إعادَةَ النظر في قضِيَّة سجْنِهِ لِرَدِّ اعتباره، ودَفْع كُلِّ تُهَمَةٍ عَنْهُ.

ويتضَمّن بيان استخلاصِ الملك يوسُفَ لنفسه وَجَعْلِهِ ذا وِلايَةٍ على خَزَائِنِ الأرض.

الفصل الحادي عشر: الآيات من (٥٨ ـ ٦٧).

وهو يتَضَمَّنُ أحْدَاثاً بارزَةً خِلَالَ سَنَوَاتِ الْجَدْب، ومنها مجيء أخْوَتِهِ من الشّام إلى مِصْرَ، لِشراء الحُبوب من الدَّوْلَةِ المصرِيّة، والأحْدَاثُ المرافقة، والمكيدَة الّتي كادَها يوسف عليْه السَّلام إذْ طلَبَ من إخْوَتِهِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَنْ هُو، أنْ يَأْتُوه بأخٍ لهم من أبيهم، وهو شقِيقُهُ بَنْيامين، إذْ حَدَّثُوهُ عَنْهُ وَعَنْ أبيهم.

الفصل الثاني عشر: الآيات من (٦٨ ـ ٩٣).

وهو يَتَضَمَّنُ الأحْدَاث الَّتِي انْتَهَتْ بِكَشْفِ يُوسُفَ نَفْسَهُ لِأَخْوَتِهِ، وإِعْلَانَهُمْ أَنَّهُم كانوا خاطِئِينَ، وعَفْوَهُ عنهم، ودُعَاءَهُ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لهم.

الفصل الثالث عشر: الآيات من (٩٤ ـ ١٠١).

وهو يتضمن الأحْدَاثَ ذَاتَ الشَّأْنِ الّتِي انْتَهَتْ بإحْضَارِ أبيه وسَائِرِ أَهْلِهِ إلى مِصْرَ، وإسْكانِهِمْ فيها مُعَزَّزِينَ مُكَرَّمِين.

الدَّرْسُ الثالث: الآيات من (١٠٢ ـ ١١١) آخر السورة.

وهو دَرْسٌ يتضَمَّنَ الخاتِمَة للسُّورة، وفيها توجيهٌ وتربيَةٌ للرَّسُولِ ﷺ وأصحابه، ولا سيما الدُّعاة إلى اللهِ منهم.

وفيها مُتَابَعَةُ عِلَاجٍ للذّين لم يَسْتَجِيبُوا للرسُولِ ﷺ، ولم يَصِلُوا إلى

دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا من الاسْتِجَابة لدعوة الحقِّ الرَّبَّانِية، الَّتِي كَلَّفَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ والمؤهَّلِينَ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يُبَلِّغُوها للنَّاس.

(٤)

التدبر التحليلي للدَّرْس الأوّل مِنْ دُرُوس سورة (يوسف) وهو الآيات من (١ ـ ٣)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾:

تمهيد:

في هَـٰذِهِ الآياتِ تَمْهيدٌ للدُّخول إلى ذِكْرِ المختارِ عَرْضُهُ مِنْ قِصَّةِ «يوسف عليه السلام»، منْذُ صِباهِ، حَتَّىٰ بُلُوغِهِ مَنْزِلَةً سُلْطَانِيَّة في مِصْرَ، كَانَ فيها صاحِبَ الكَلِمَةِ الأولَىٰ بَعْدَ الملِك، وحتَّىٰ أواخِرِ حياتِهِ المجيدة.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾:

الخطابُ هنا مُوجَّهُ لِعُموم الْعَرب لِأَنَّهُم أَهْلُ اللِّسَانِ العربي، رغبة في أنْ يَعْقِلُوهُ ويُبَلِّغُوه.

- ﴿الٓرۚ﴾ هذه من الحروف المقطَّعَة الَّتي بدأ الله عَزَّ وجَلَّ بها بعْضَ السُّور، وقد سَبَقَ بيانُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِها في تَدَبُّرِ أول سورة (القلم/ ٤ نزول).

• ﴿... تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ①﴾: جاء في أول سورة (يونس/ ٥١ نزول): قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾ فوَصَفَ كتابَهُ بأنَّهُ حَكِيمٌ، أي: مُحْكَم، والمحكَمُ هو الَّذي وُضِعَ فيهِ كُلُّ شيْءٍ في أَفْضَلِ المواضِعِ وأحْسَنِهَا وأتْقَنِهَا مِنْهُ، واخْتِيرَ لَهُ أفْضَلُ الْأَشْياءِ وأتْقَنُهَا وأحْسَنُهَا مِنْ كُلِّ الْبَدَائِلِ الْقَابلَةِ للاختيار.

وهُنَا في سُورَة (يوسف/ ٥٣ نزول) وصَفَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ كِتَابَهُ بأنَّهُ مُبِينٌ، أي: هو واضِحُ الدَّلالَاتِ الَّتِي يُرَادُ إعْلَامُ المكلَّفين بها من فِعْلِ «أَبَانَ يُبِينُ» بمَعْنَىٰ وَضَحَ وظَهر. ومُبِينٌ أَيْضاً مِنْ فِعْلِ «أَبَانَ الشَّيْءَ» أي: أَوْضَحَهُ وَأَظْهَرَه، والمعْنَىٰ علَىٰ هَٰذا: مُوضِحٌ مُظْهِرٌ بِبيَاناتِهِ المتكامِلَةِ المتَعَاضِدَة في النُّصُوصِ المختَلِفَة، مَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُبَيِّنَهُ لعباده، وإنَّمَا يَسْتَبِينُهُ المؤهَّلُونَ لِلْبَحْثِ والاسْتِنْبَاطِ وتَتَبُّعِ الْمَعَارِفِ الدَّقِيقَةِ بِمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الْمَعْرِفَة.

وجاءت الإشارةُ إلى آيات القرآن باسم الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ البعيد، للدَّلَالَةِ على ارْتِفاعِ مكانَتِها في بلاغَتِها، وفي المعانِي السَّامِيَة الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا دَلَالَاتُ جُمَلِها.

ويُرْجَعُ في باقي التَّدبُّرِ إلَىٰ مَا جاء في الآيَةِ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَة (يُونس).

قول الله تعالَىٰ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ②﴾:

يتحدَّثُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِضَمِيرِ المتَكلِّمِ العظِيم؛ لأنَّ القرآنَ بإعجازه البيانيِّ، وبإعجازه في مضامِينِهِ، ودَلَالَاتِهِ، وحَقَائِقِهِ، وعُلومه، وهِدَايتِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُرَ إلَّا مِنَ الرَّبِّ العظيم، فالملائِمُ لإعجازه أنْ يقول اللهُ عَزَّ

وجَلَّ بِشَأْنِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ والضمير المنصوبُ في: «أنْزَلْنَاهُ» يَعُودُ على الْكِتَابِ في الآيةِ الأولى.

﴿قُرْءَٰنًا﴾: أَصْل كلمة: «قُرْآن» مَصْدَرُ فعل: «قرأ» يُقَالُ لغة: «قَرأَ الكِتَابَ، يقْرَؤُه، قِراءَةً، وقُرْآناً» أي: تتَبَّعَ كلمَاتِهِ نظراً ونطَقَ بها.

وإذْ جَاءَ في الآيةِ الأولىٰ ذِكْرُهُ بعُنوانِ «الكِتَاب» إشارَةً إلَىٰ وُجُوبِ كِتَابَتِهِ وَتَدْوينِهِ، وهو مَا تَحقَّقَ عَقِبَ إنْزَالِ كُلِّ نَجْم مِنْه، كانَ من المناسِبِ بيانُ أَنَّهُ قُرْآنٌ يُقْرَأُ مِنَ المكْتُوبِ مِنْه، بتَتَبُّعِ كَلِمَاتِهِ نَظَراً والنُّطْقِ بها.

ونُصِبَ لفظ «قُرْآناً» علَىٰ أَنَّهُ «حَالٌ» فالمعْنَىٰ: إنَّا أَنْزَلْنَاهُ حَالَةَ كَوْنِهِ قُرْآناً، أي: يُكْتَبُ ويُقرأُ المكْتُوبُ مِنه، وفي هذا التوجيه الرَّبَّانِيّ إلْزَامٌ بِكِتَابَةِ كُلِّ مَا يَنْزِلُ مِنْ آياتِهِ، وجَعْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ كِتَاباً مُحَرَّراً يَرْجِعُونَ إلَيْهِ، وَيقْرَؤُونَه، مَحْمِيًّا من التَّحْرِيفِ والتغيير، بالزّيادة، أو النَّقْصِ، أو التَّبْدِيل.

﴿عَرَبِيًّا﴾: أي: وأنْزَلْنَاهُ عَرَبيًّا، فِي حُرُوفِهِ، وكَلِمَاتِهِ، وجُمَلِهِ، وتَرَاكِيبِهِ، وأَسَالِيب فُصَحَاءِ الْعَرب وبُلَغَائِهم، في الدَّلَالَةِ علىٰ مَا يَقْصِدُونَ الدَّلَالَةَ عليْه من المعاني، بِصَرِيحِ العبارات، أَوْ كِنايَاتِها، أَوْ تَشْبِيهاتها، أو حَقَائِقها ومجازاتها، أو غَيْرِ ذَلِكَ من أساليب البيان لَدَىٰ فُصَحاءِ الْعَرَبِ وبُلَغائهم.

والعَرَب هُمْ عُمُومُ أَهْل اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ علىٰ حواضِرِهِم الأخْلَاطُ غَيْرُ الْعَرَبِيّة، فَتُغَيِّرَ مِنْ لِسَانِ سُكَّانِها، اللِّسَانِ الْعَرَبِّي الْقُحِّ المورُوثِ، الْخَالِي من الخليطِ الدَّخيل المغيِّر لجَوْهَرِه.

وقَدْ اخْتار اللهُ عَزَّ وجَلَّ اللِّسَانَ الْعَرَبِيّ، لِيُنْزِلَ بِهِ خاتِمَةَ كُتُبِهِ للنّاسِ أجْمَعِين؛ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرب أفْصَحُ اللُّغَات، وأكْثَرُهَا بياناً لدَقَائِقِ المعاني الإنْسَانِيّة، وأَوْسَعُها مُفْرَدَاتٍ إبّانَ التَّنْزِيل؛ ولأَنَّ لِسَانَ خاتَمَ رُسُلِهِ للناس أَجْمَعِين هو اللِّسانُ الْعَرَبِيُّ الْقُحّ، ولأنَّهُ أفْصَحُ النَّاسِ وأبْلَغُهُمْ بَيَاناً، وأفْضَلُ خَلْقِ اللهِ أجْمَعِين.

قال ابن كثير في تفسيره: أُنْزِلَ أَشْرَفُ الكُتُبِ، بأَشْرَفِ اللُّغَاتِ، على أَشْرَفِ الرُّسُلِ، بِسِفَارَةِ أَشْرَفِ الْمَلَائِكة، وَكَانَ ذَلِكَ في أَشْرَفِ بقاعِ الْأَرْضِ، وابْتُدِئَ إِنْزَالُهُ في أَشْرَفِ شُهُورِ السَّنَةِ وهو رمضان.

أقول: وفي أَشْرَفِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيه، وهِي ليلَةُ القدر، فاخْتِيرَ لَهُ الكمالُ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ مَعَ كَمَالِهِ الذَّاتِيِّ.

- ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أن تَعْقِلُوهُ أَيُّهَا الْعَرَب، وتُبَلِّغُوهُ للنَّاس أجْمَعِين، إِذْ رِسَالَةُ هَـٰذا الدِّين رِسَالَةٌ عَامَّةٌ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

«لعَلَّ» أَصْلُ معْنَاهَا التَّرَجِّي وهُو التَّوَقُّع، وهذا المعْنَىٰ لَا يَلِيقُ بالرَّبِّ الْعَلِيم بكُلِّ شيءٍ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كائِنٌ ومَا سَيكُون، ولكِنْ يَلْزَمُ مِنْ تَوَقُّعِ مَا هُوَ مَرْغُوبٌ فيه الرَّغْبَةُ فِيه، فَيُحْمَلُ لفْظُ «لَعَلَّ» علىٰ هذا.

فالْمَعْنَىٰ: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا رَاغِبِينَ أَنْ تَعْقِلُوهُ فتُبَلِّغُوه للناس، فَعقْلُهُ وَتَبْلِيغُهُ ممَّا يُرْضِي رَبَّكُمْ عَنْكُمْ.

والمرادُ بعقْلِهِ إمْسَاكُهُ حِفظاً في الذَّاكِرَة، وتَدَبُّرُ مَعَانِيهِ وعَقْلُها، والْعَمَلُ بأحْكَامِهِ الَّذِي يَتَحقَّقُ بِعقْلِ أهْواءِ النفوس وشَهَوَاتِها ونزعَاتها بإرادةٍ قَوِيَّةٍ عَنْ مُخَالَفَةِ أوامِرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ونواهيه.

قول الله تعالى:

- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾:

يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بضمير المتكلّم العظيم؛ لِأَنَّ مَا يَقُصُّهُ جَلَّ جَلالُهُ يَتَنَاسَبُ معَ عَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ اخْتِياراً للمضْمُون، وبَلِيغِ الْبيانِ، وأَسَالِيبِهِ الرائعة.

﴿نَقُصُّ﴾: تقولُ لغة: «قَصصْتُ الشَّيْءَ» إِذَا تَتَبَّعْتَ أَثَرَهُ شَيْئاً فَشيئاً.

ويقال: «قَصَّ عَلَيْه الْخبَرَ يَقُصُّهُ قَصّاً وقَصَصاً» أي: حَدَّثه بِهِ على وجْهِهِ، مُتَتَبِّعاً ما يَعْلَمُ مِنْ أجْزَائِهِ جُزْءاً فَجُزْءاً. و«الْقَصَصُ» بفَتْحِ القافِ مَصْدَرُ «قَصَّ» بمعنَىٰ تَتَبَّعَ أجْزاءَ الشَّيْءِ المقْصُوص. ومنهُ رِوَايَةُ الْخَبرِ، وقد يأتي بِمَعْنَىٰ الْخَبرِ الْمَقْصُوصِ، وبمعنى الأثَر، مِنْ إطلاق المصْدَرِ عَلَىٰ اسْمِ المفْعُول.

أمَّا «القِصَصُ» بِكَسْرِ القَافِ فهي جمْعُ «الْقِصَّةِ» وهي الحكايَة التي تُرْوَىٰ بِتَتَبُّعِ الْحَاكِي مَا يَعْلَمُ مِنْ أجْزَائِها وتَفْصِلَاتِها.

﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾: أي: أحْسَنَ الْقَصِّ، بانْتِقَاءِ أَحْسَنِ الأَنْبَاءِ النَّافِعَةِ المفِيدَةِ ذَوَاتِ الْعِبر، واخْتِيارِ أفْصَحِ وأبْلَغِ الْعَبَاراتِ، وأحْسَنِ وسَائِلِ البيانِ ذي التأثير في نُفُوسِ أُولى الْأَلْبَاب.

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: أي: بَوحْيِنا إلَيْكَ هَـٰذا الْقُرآنَ «مَا» مَصْدَرِيَّة تُؤَوِّلُ مَا بَعْدَهَا بِمَصْدَر. «هَـٰذا الْقُرْآن» مَفْعُول به وبَيَانُه، لِفِعْل «أَوْحَيْنَا». يُقَالُ لُغة: «أوْحَىٰ فُلَانٌ إلَىٰ فُلَانٍ الْكَلَامَ» أي: أَلْقَاهُ إِلَيْهِ.

و«الباء» في ﴿بِمَآ﴾ أَرَىٰ أَنَّها ظَرْفِية بمعْنَىٰ «في» وهذا أَحَدُ معانِي «الباء» الجارّة.

فالْمَعْنَىٰ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ أَحْسَنَ الْقَصَصِ الّذِي نَنْتَقِي فيه أَنْفَعَ الْأَنْباء، ونَخْتَارُ لَهُ أفْصَحَ وأَبْلَغَ الْبَيَانِ، وأحْسَنَ الوسائِلِ ذاتِ التَّأْثِير في نفوس المعْتَبِرينَ ذَوِي الألباب، الّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ، ويَتَلَقَّوْنَ بيَانَاتِ رَبِّهِم بِقَبُولٍ حَسَن.

وهَـٰذا الْقَصَصُ يأتي في ضِمْنِ وَحْينَا إلَيْكَ هَـٰذا الْقُرْآن، آناً فآناً بحَسَبِ نُجُوم التنزيل الَّتِي نُنَزِّلُها عَلَيْك، ومِنْهُ مَا سَنَقُصُّهُ عَلَيْكَ فِي هَـٰذِهِ السُّورَةِ مِنْ قِصَّةِ عَبْدِنَا يُوسُف.

- ﴿... وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ③﴾:

أي: والْحَالُ قَدْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُوحِيَ إِلَيْكَ الْقُرْآنَ من الجاهِلِينَ، الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِمَسَائِلِ الدِّينِ الَّتِي أَنْزَلْنَاها وَنُنْزِلُهَا في هَـٰذا القرآن، ولَا بالْقِصَصِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْها، ولَكِنَّ جَهْلَكَ جَهْلُ غَفْلَةٍ لَا جَهْلُ نُفُورٍ وابْتِعَادٍ عَنْ إدْرَاكِ المعارفِ الدِّينيَّة، وعِلْمِ بِقِصَصِ السَّابقين، وهَـٰذا نَظِيرُ قَوْلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ لَهُ فِي سورة (الضُّحى/ ١١ نزول): ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ أي: وَوَجَدَكَ جاهِلاً فَعلَّمَكَ. وعُذْرُ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ أُمِّيٌّ مِنْ قَومٍ أُمِّيّين.

الْغَفْلَةُ: هِي انْصِرَافُ الذِّهْنِ عَنِ الشَّيْءِ مَعَ وُجُودِهِ في مجالِ الإدْراكِ، أَوْ وُجُودِ أدِلَّتِهِ وإمْكانِ إدْرَاكِهِ، لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِفِ.

«إنْ» في: ﴿وَإِن كُنتَ﴾ هي المخفَّفَةُ مِنَ الثقيلة، وتفيد تَوْكِيدَ الْجُمْلَة.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الأول من دُروس السورة.

والحمْدُ للهِ على معونتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفَتْحِهِ.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الثاني من دُروس سورة (يوسف) وهو الآيات من (٤ ـ ١٠١)

وفيه (١٣) فصلاً.

الفصل الأول

مِنْ قِصَّةِ يوسُف عليه السَّلام

الآيات من (٤ ـ ٦)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ

كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾:

القراءات:

(٤) ● قرأ ابْنُ عامر، وأبو جعفر: [**يا أبَتَ**] بِفَتْح التاء، وقرأها باقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَا أَبتِ**] بِكَسْرِ التاء، وهُمَا نُطْقَانِ عربيان.

(٤) ● قرأ أبو جعفر: [**أَحَدَ عْشَرَ**] بإسْكانِ العين، وقرأها بَاقي القرّاء الْعَشَرَة بِفَتْحِ الْعَيْن: [**أَحَدَ عشَر**] إسْكانُ الْعَيْنِ مِنْ نُطْقِ بَعْضِ قَبَائِلِ العرب.

(٥) ● قَرأ حفْصٌ عَنْ عَاصم: [**يَا بُنَيَّ**] بفتح الياء. وقرأها باقي القرّاء العشَرَة: [**يَا بُنَيِّ**] بِكَسْرِ الياء، فتح هَـٰذِهِ الياء في قراءة حَفْصٍ دليلٌ على أنّ المحذُوف بالتّصغير غير ياء المتكلم، وأصلها يا بُنَيِّيَ، والغرض من التصغير التحبُّب.

تمهيد:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ بَيَانُ ما يَتَعَلَّقُ مِنْ قِصَّةِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، بالرُّؤيا الّتِي رآها في مَنامِهِ وهو غُلَام، وذِكْرِها لِأَبِيهِ «يَعْقُوب» عَلَيْهِ السَّلام، ومَا أَوصَاهُ بِهِ أَبُوه.

جاء عند الإسرائيليين في سفر التكوين أنَّ يعقوب (= إسرائيل) عليه السّلام خَطَبَ من خاله «لَابَان» ابْنَتَهُ الصُّغرىٰ «رَاحِيل» فوافق خالُهُ على أَنْ يَخْدُمَهُ سبْعَ سِنين صَدَاقاً لابنته، ففعل يعقوب، فزوَّجَهُ بِنْتَهُ الكُبْرَىٰ «لِيْئَة» ولم تكن مثل «راحيل» حُسْناً، فَدَخَلَ بها مَساءً وهو يظنُّهَا «راحيل» وفي الصباح اكتشف الحقيقة، فقال لخاله: ألم أَخْدِمْك سبع سنين مقابل أَنْ

تُزَوّجَنِي راحيل، لماذا خَدَعْتَنِي، فاعْتَذَرَ خالُهُ بأنَّه ليس من عادَتِهِمْ تَزْويج الصُّغرى قبل الكبرى، وقال له: أُعْطِيكَ «رَاحِيل» أيْضاً على أَنْ تخدُمني سبع سِنِينَ أخْرَىٰ، وأُدْخِلُكَ عليها بَعْدَ أسْبُوع، وأعطَىٰ «لابان» ابْنَتَهُ «لَيْئَة» جاريةً اسْمُها «زِلْفَة» وأعْطَىٰ ابْنَتَهُ الصُّغْرَىٰ «راحِيلَ» جارِيَةً اسْمُها «بِلْهَة» ودَبَّتِ الغيرَةُ بين الْأُخْتَيْن بسبب المواليدِ، فوهَبَتْ كُلٌّ مِنْهُمَا جارِيتَها لِزَوْجِها لِيُنجب مِنْها أولاداً، وكانَ قضاءُ اللهِ أَنْ يَتَأَخَّرَ إنجاب «رَاحيل» وبسبب ذلك وهبته جاريتها لِيُنْجِب مِنْها أولاداً.

أمَّا «لَيْئَة» فقد وهَبَهَا اللهُ من الأولاد من زَوْجها «يعقوب» ما يلي:

١ ـ رأُوبين ٢ ـ شِمْعُون ٣ ـ لَاوي ـ ٤ ـ يَهُوذا ٥ ـ يَسَّاكَرَ ٦ـ زَبُولُون ٧ ـ وولَدَت ابْنَةً سمَّتها: دِينَة.

وأمّا «بِلْهَة» جاريةُ «رَاحِيل» فقد وهبها اللهُ من يعقوب ولَدَيْن:

١ ـ دَان ٢ ـ نَفْتَالي.

وأمَّا «زِلْفَة» جارية «لَيْئَة» فقد وهبها الله من يعقوب ولَدَين:

١ ـ جاد ٢ ـ أَشِير.

وأما «رَاحِيل» فقد وهبها الله عزَّ وجَلَّ أخيراً ولَدَيْن، هما:

١ ـ يُوسُف، ومعناه يَزيد ٢ ـ بَنْيَامِين.

فيوسُف عليه السَّلام هو الذكر الحادي عشر بحسب تَرْتيب الأولاد الذكور من «يعقوب = إسرائيل» عليه السلام، وبعده «بَنْيَامِين» شقيقه من أبيه وأمّه، وكانا أصْغَر أولاد أبيهما.

ومجموع أولاد «يعقوب = إسرائيل» الذكور (١٢) ذكراً. سِتَّةٌ من «لَيْئَة» واثنان من «بِلْهَة» جارية «راحيل» الّتي وهبتها لزوجها. وابْنَان من

«زِلْفَة» جارية «لَيْئَةَ» الّتي وَهَبَتْها لزوجها. وأخيراً ابْنَانِ من «رَاحيل» الَّتي تأخَّرَ إنجابُها كثيراً، أكبَرُهما «يوسف» عليْهِ السَّلام.

أمَّا قِصَّةُ «يُوسف» عليه السّلام فالْمَرْجِعُ الصَّحِيحُ الْمُهَيْمِنُ فيها هو ما جاء في السُّورَة المسَمَّاةِ باسْمه.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى لرسوله فلكُلٍّ متلَقٍّ لكلام الله:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ۝٤﴾:

أي: تَلَقَّ وتَدَبَّرْ وَضَعْ في ذَاكِرَاتِكَ، للاسْتدعَاءِ عِنْدَ المناسَبَات الداعِيَاتِ، الأَحْدَاثَ الَّتي بَدَأَ أَوَّلُهَا إِذْ قَالَ يُوسُفُ وهُو غُلَامٌ لأبيه «يَعْقُوب = إسْرائيل» عليه السَّلام يا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ في المنام حُلْماً، أحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً مِنْ كَوَاكِب السَّماءِ والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ عَلَىٰ شَكْلِ سُجُودِ الْبَشَرِ لعظيم مِنْ عُظَمَاءِ النَّاسِ.

فَفَهِمَ الأَبُ النبيُّ الرَّسُولُ تَعْبِيرَ هَـٰذِهِ الرُّؤْيا، إِذْ أَدْرَكَ أَنَّ ابْنَهُ يُوسُفَ سَيَكُونُ لَهُ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ مَجْدٌ كَبِيرٌ، يَسْجُدُ لَهُ وهو فيه إخْوَتُهُ الأَحَدَ عَشَرَ وأبَواه، أو أَبُوهُ ومَنْ هِيَ بِمَثَابَةِ أُمِّهِ.

﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ أو **[يا أَبتِ]** التّاء عوضٌ عَنْ ياء المتكلم عَلَىٰ ما ذكَرَ النُّحاة، وهَـٰذِهِ تُكْسَر وتُفْتح، ويَرَىٰ النُّحاةُ أنَّها تَاءُ التَّأْنِيث.

وهذا الإجْرَاء خاص بكلمَتي «أب» و«أمّ» في النداء.

وأرَىٰ أنَّ هَـٰذِهِ التّاء يُرادُ بها الاستعطاف، إذْ يُؤْتَىٰ بها عوضاً عَنْ ياء المتكلّم.

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: يُرادُ بالكَوْكب النَّجْم، أي: أحَدَ عَشَرَ نجماً.

أمّا الكواكب عند علماء الفَلَك فهي توابع الشَّمْس المشابهةُ للأرض، والَّتِي تُنِيرُ بانْعكاسِ ضَوْءِ الشَّمْسِ عنها.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾: يظْهَرُ أَنَّ يُوسُفَ عليه السَّلام رأىٰ الكواكِبَ والشَّمْسَ والْقَمَرَ على صُوَرِ سَاجِدِينَ كسُجُودِ الْبَشَرِ، فجاء التعبيرُ بِصيغة جَمْعِ المذكر السَّالم، ومعلومٌ أَنَّ الْأَحْلَامَ لها مَفْهُومَاتُها الرَّمْزِيَّة فيما تُقَدِّمُهُ من صُوَر وأشْكَالٍ وصِفَاتٍ وأحْوالٍ وجَمْعِ المختلفاتِ والْأضْدَاد.

قول الله تعالىٰ حكاية لما قَالَ «يَعْقُوبُ = إسرائيل» عَلَيه السلام لابنه:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾:

أي: قال يا ابْنِي الْحَبِيب لَا تَذْكُرْ رُؤْيَاكَ هَـٰذِهِ لإخْوتِكَ قَاصّاً لَهَا عَلَيْهِم، فَيُدَبِّرُوا في الخَفَاء كَيْداً يُسَدِّدُونَ بِهِ لَكَ سَهْمَ مُصِيبَةٍ للتَّخَلُّص مِنْك، فإنَّكَ إذا قَصَصْتَها عليهمْ فَهِمُوا مِنْها أنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ سَيَرْفَعُ مَقَامَكَ، وسَيَجْعَلُ جَمِيعَ إخْوَتِكَ يَسْجُدُونَ خاضِعِينَ لَكَ مَعَ أَبِيكَ وَأُمِّكَ أو مَنْ هِي بِمَثَابَةِ أُمِّكَ، وهَـٰذا أمْرٌ يُثِيرُ حَسَدَهُمْ، فتَغْشَىٰ بَصَائِرُهُمْ بِدُخَانِ نَارِ الْغَضَبِ، فيُدَبِّرُونَ مِنْ كَبَائِرِ الإثْم مَا يَتَخَلَّصُونَ بِهِ مِنْك.

﴿لَا تَقْصُصْ﴾: أي: لَا تَذْكُرْ ولَا تُحَدِّث.

﴿رُءْيَاكَ﴾: أكثر مَا تُسْتَعْمَلُ «الرُّؤيا» لمَا يُرَىٰ في المنام من حُلْم.

الكيد: التدبير الخفيُّ أو الظّاهر، وفيه مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه. يُقالُ لغةً: «كَادَ فُلَانٌ فُلَاناً كَيْداً» أي: دَبَّرَ ضِدَّهُ أَمْراً يَسُوؤُه. ويُطْلَقُ الكيدُ على الحرْب ووسَائِلِه.

وضُمِّنَ فعل: «يَكِيدُ» معْنَىٰ فِعْلٍ يَتَعَدَّىٰ باللّام مُلَائِمٍ لما يُنْزِلُ بالْمَكِيد

مُصِيبَةً، فَعُدِّي فعل «يَكِيدُ» تَعْدِيته، وممّا يُلَائِمُ هُنَا فِعْلُ «يُسَدِّدُ» فالمصيبَةُ في الكَيْدِ تُسَدَّدُ كما يُسَدَّدُ السَّهْمُ مِن قِبَلِ الرَّامِي لِيُصيبَ مَقْتلاً مِنْ مَقَاتِلِ الْمَكِيدِ.

[كيدا] أي: كَيْداً شَدِيداً فيه مَكْرُوهٌ كَبِيرٌ لَكَ.

كان «يَعْقُوبُ = إسرائيل» عَلَيْهِ السَّلام يَعْلَمُ ما في نُفُوسِ أَبْنائِهِ العشَرَة مِنْ حَسَدٍ شَدِيد لِأَخِيهم من أبيهم «يُوسُف» لأنَّ أباهُمْ يُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيداً، ولأَنَّهُ أجْمَلُ مِنْهُمْ صُورَةً، فَقَدْ آتَاهُ اللهُ شَطْرَ الْحُسْن، فإذَا سَمِعُوا رُؤْيَاه وأدْرَكُوا تَعْبِيرَهَا تَوَقَّدَتْ نِيرانُ حَسَدِهِم.

- ﴿... إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾:

أعْلَمَ «إسْرَائيلُ» عليه السلام ابْنَه «يُوسف» عليه السَّلام، بأنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي إلَىٰ مَغَامِزِ العِلَل في نَفْسِ الإِنْسَان، فيَضْغَطُ عليها لإثارَتِها وَتفجير ما فيها، لإيقاع العداوة بَيْنَ النَّاس، والإفْسَادِ بَيْنَهُمْ وَتَقْطِيعِ أَوْصَالِهِم، حَتَّىٰ يُوصِلَهُمْ إلى الْقَتْلِ، أو التقاتل، ولَوْ كانُوا إخْوَةً أشقاء. **والحسَدُ**: مِن أقوىٰ عواملِ الإفْسادِ بَيْنَ الْأَقْرَبِينَ.

وصحّ في الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عند البخاري ومسلم وغيرِهما، أنَّهُ قَال:

«إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنِ ٱبْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّم».

ودَلَّتْ عبارة «يعقوب = إسرائيل» عليه السلام هَٰذِهِ عَلَىٰ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أعْلَمَ بَنِي آدَمَ في الرِّسَالَاتِ السَّابِقَاتِ بعَدَاوة الشَّيْطَانِ لَهُمْ، وبأنَّ عداوَتَهُ مُبِينَةٌ ظَاهِرَةٌ مُنْذُ أخْرَجَ آدَمَ وَحَوَّاءَ مِن الجنَّةِ، إذْ جَعَلَهما بِوَسَاوِسِهِ وتَسْوِيلاتِهِ يَعْصِيَانِ رَبَّهمَا، فيَسْتَحِقَّانِ أَنْ يُهْبِطَهُما رَبُّهُما مِنَ الجنَّة إلىٰ الْأَرْض:

«**الشَّيْطان**»: اسْم جنْسٍ يَقعُ على كلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ، من الجنِّ والإنْس، وإبليسُ إمَامُ الشَّياطين وَرَئيسُهُمْ.

قـول الله تَعَالَىٰ مُتابِعاً بَيَانَ مَا قَالَهُ «يعقوب = إسْرائيل» لابْنِهِ «يُوسُفَ» عَلَيْهما السّلام:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾:

أرىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ بَيْنَها وَبَيْنَ الآيَةِ السَّابقة لَهَا، وَهَـٰذا المطْوِيُّ يَتَعَلَّقُ بِتعبيرٍ للرُّؤَيا بَشَّرَ به الْأَبُ الرَّسُولُ ابْنَهُ، مَضْمُونُهُ، سيُعْطِيكَ اللهُ مَجْداً يا بُنَيَّ يَجْعلُكَ به ذا رِئَاسَةٍ عَظِيمَةٍ يَخْضَعُ لَكَ بِهَا النَّاسُ حَتَّىٰ إِخْوَتُكَ وأبُوكَ وأُمُّكَ أو مَنْ هِي بِمَثَابَةِ أُمِّكَ.

وعلَىٰ هَـٰذا المطْوِي جاء الْعَطْفُ بِعِبارَة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وَكَذلِكَ الَّذِي سَيَمُنُّ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ سَيَمُنُّ عليك أيْضاً بما يلي:

﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: أي: يَصْطَفِيكَ فَيجْعلُكَ نَبِيًّا وَرَسُولاً، ومثلُ هذا الخبر وما يَلِيه في الآيَة، لا يُخْبِرُ بِهِ «يَعْقُوبُ = إسرائيلُ» عليه السَّلَامُ ما لَمْ يَكُنْ قَدْ أُوحِي بِهِ إِلَيْهِ حِينَئِذٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: أي: ويُعَلِّمُكَ بَعْضَ تَأْوِيلِ الْأَحْلَام. تَأْويلُ الأحلام هُوَ مَا تَؤُولُ إِلَيْهِ أي: ترجع إِلَيْه دَلَالَاتُها الرَّمْزِيَّةُ أو الصَّريحة أَحْيَاناً، ممَّا كانَ، أَوْ هُوَ كائِنٌ، أَو سَيَكُون.

وجاء إطلاق لفظ: ﴿ٱلْأَحَادِيثِ﴾ عَلَىٰ «الأحْلام» لأنَّ المرادَ الأَحْلَامُ الَّتِي هِيَ مِنْ نَوْعِ الأَحَادِيثِ الرَّمْزِيَّةِ أو الصَّرِيحَة، الَّتِي تُلْقَى إِلَىٰ النَّفْسِ مِنْ عَالَم الْغَيْب، وقَدْ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ مَلَكٍ يُكَلِّفُهُ اللهُ عَزَّ وجلَّ أَنْ يُحَدِّثَ النَّفْسَ الَّتِي شَاءَ اللهُ أَنْ يُحَدِّثَهَا بِهَا، وهَـٰذِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّادِقَةَ الَّتِي تَأْتِي بِهَا

الْأَحْلَامُ، شَوَاهِدُ مُتَكرّرَةٌ في الْبَشَرِ عَلَىٰ عِلْمِ اللهِ الشَّامِلِ لِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ المتَعَلِّقِ بأحْدَاثِ المسْتَقْبَلِ.

ويَذْكُرُ عُلَمَاءُ تَعْبِير الأحْلام أن اسْمَ الملَكِ المكلَّف أنْ يُلْقِي رُمُوز أحاديثِ الأحلام «صِدِّيقُون» واللهُ أعْلَم.

﴿... وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾:

أي: وَسَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ أَبِيكَ يَعْقُوبَ، بِهِبَاتِهِ مِنْ خَيْرَي الدُّنيا والْآخِرَة إِتّماماً مِثْلَ إتْمَامِهِ نِعْمَتَهُ عَلَىٰ أبوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ، إذْ أَتَمَّ عَلَيْهِمَا نِعْمَتَهُ، فَوَهَبَهُما مِنْ خَيرِ الدُّنْيَا مَا أرْضَاهُمَا به، وقَضَىٰ بأنْ يَهَبَهُمَا مِنْ خَيْرِ الآخِرَةِ مَا يَجْعَلُهُمَا مِن أَهْلِ الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

وأَثْنَىٰ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بأنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، إشَارَةً إلى أنَّ هِبَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ يَقْتَضِيها عِلْمُهُ بِعِبَادِه، وتَقْتَضِيها حِكْمَتُهُ الَّتي يَخْتَارُ بِهَا الجزاءَ الْحَكِيم، ويَضَعُ بها كُلَّ شيءٍ في مَوْضِعِهِ الملائِمِ له.

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ﴾ هُمَا عطْفُ بَيَانٍ عَلَىٰ «أَبَوَيْكَ».

و«آل يَعْقُوبَ» هم الصَّالِحُونَ الْفُضَلاءُ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، لَا الَّذِينَ كانُوا فَاسِقِينَ كَفَرَةً فاسِدِين ومُفْسِدِينَ في الأرض، الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِ رَبِّهم وكَذَّبُوا بآيَاته، ولا الَّذِينَ كانوا عُصَاةً مُسْرِفين فِي مَعَاصِيهم.

أنْواعُ الأحْلَام:

جاءَ في بيانات الرَّسُول ﷺ مَا يَدُلُّ على أنَّ الأحْلامَ عِدّة أنواع، وقَدْ قَسَّمها ابْنُ حَجر في الفتح إلى سَبْعَةِ أنواع.

النوع الأول: الرُّؤيا الحقُّ، وهي الّتِي تَكُونُ مِنَ اللهِ تبارَكَ وَتَعالَىٰ،

وجاءَ وَصْفُها في بَيان الرَّسُول ﷺ بأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً من النُّبُوَّة، وبأَنَّها الرُّؤْيَا الصالِحَة، وَبأنّها بُشْرَىٰ مِنَ اللهِ.

وهذه هِيَ الَّتِي سمَّاهَا يَعْقُوب عليه السَّلام «أَحاديثَ» كما سَبَقَ في تَدَبُّر الآيَة (٦) وهي الّتِي لَهَا تَأْوِيلَاتٌ فِي عِلْم تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا.

النَّوْعُ الثَّانِي: الرُّؤْيا الَّتِي يُحدِّثُ بِهَا الإنْسَانُ نَفْسَه، وهِيَ من نَوْعِ مَا يُسَمَّىٰ أَحْلَامَ الْيَقَظَة، ولَكِنَّهَا تَكُونُ فِي المنام.

النَّوْعُ الثالث: الرُّؤيا الَّتِي هِيَ حُلْمٌ، وفيها تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطان، وَتُنْذِرُ بِشَرّ، والسُّنَّةُ تُرْشِدُ الْمُسْلِمَ أنْ يَتَعَوَّذَ باللهِ مِنْ شَرِّها، ومِنْ شَرِّ الشَّيْطَان، إذَا رَأَىٰ شيئاً مِنها، وأَنْ يَتْفُلَ ثَلاثاً عَنْ شِمَالِهِ، وَأَنْ لَا يُحَدِّث بِهَا أَحداً.

النَّوْعُ الرَّابعُ: مَا يَهُمُّ بِهِ الإنْسَانُ فِي يَقَظَتِهِ، فَيَرَاهُ فِي مَنَامِه.

النوع الخامس: تَلاعُبٌ يَتَلَاعَبُهُ الشَّيْطَانُ بالْإنْسَان، وهُو لا دَلَالَة له، والسُّنَّةُ أَنْ لَا يُحدِّثَ الْمُسْلِمُ بِهَا أَحَداً.

النوع السَّادِس: رُؤيا مَا يَعْتَادُهُ الرَّائِي فِي الْيَقَظَة.

النوع السّابع: رُؤيا الأضغاث.

وأرَىٰ أَنّ بَعْضَ هَـٰذِهِ الْأَنواع الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ حَجَرٍ قَدْ تَتَدَاخل، فتكونُ أَقَلَّ مِنْ سَبْعَة.

أقول: وقَدْ عَرَفَتِ الشُّعُوبُ كُلُّها الْقَدِيمَةُ والحديثَةُ الأحْلَامَ ومَا لِبَعْضِهَا مِنْ تَعْبِيراتٍ صادقات.

والرُّؤَىٰ الَّتِي تُنْبِىءُ عَنْ أُمُورٍ سَتَحْدُثُ، ثُمَّ تَقَعُ بَعْدَ ذَلِكَ، هِي بمَثَابَةِ بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عَلَىٰ سَابِقِ قَضَائِهِ وَقَدَرِه فِي عِبَاده، وعَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِهِ، وهِيَ تَدُلُّ على أَنَّ عالَمَ الْغَيْب حَقِيقَة.

وقَدْ أثْبَتَ الْقُرْآنُ المجيد هَـٰذِهِ الرُّؤَىٰ فِي نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَة، فَمَنْ أنْكَرَهَا فَهُوَ في حُكْمِ الإسْلَام كافِرٌ حَتْماً، لإنكاره ما هُو ثابتٌ بِيَقينٍ في كلامِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

وقَدْ رَوَىٰ البخاريّ في صحيحه، عَنْ عائشَةَ رَضي اللهُ عَنْها أَنَّها قالَت:

«أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْم، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ».

ممّا جَاءَ في السُّنَّة حول الرُؤىٰ المنامِيّة:

(١) رَوَىٰ الْبُخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلَّا الْمُبَشِّرَات».

قالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قال:

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَة».

(٢) وروىٰ الإمام مالِكٌ، عن عطاء بْنِ يَسَارٍ أَنَّ النبي ﷺ قَالَ جَوَاباً لِسُؤَالِهِمْ:

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ».

(٣) ورَوىٰ البخاري ومُسْلم عَنْ أبي قَتَادَة قال: قال رسول الله ﷺ:

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ، والْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فإذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلا يُحَدِّث بِهِ إلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهِا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، ولْيَتْفُلْ ثَلاثاً، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَداً، فإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ».

(٤) وروى البخاري ومسلم عن أبي هُرَيرَة قال: قال رسُولُ الله ﷺ:

«إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ يَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا المؤمِنِ، وَرُؤيا المؤمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّة، وَمَا كَانَ مِنَ النُّبُوَّةِ فإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ».

قال مُحَمَّدُ بن سِيرين: وأنَا أقُولُ: الرُّؤْيَا ثَلاثٌ: حَدِيثُ النَّفْس، وتَخْوِيف الشَّيْطان، وبُشْرَىٰ مِنَ الله، فَمَنْ رَأَىٰ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلَا يَقُصَّهُ على أَحَدٍ، ولْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ.

ويَتَرَجَّحُ لَدَيَّ وُجُودُ علاقَةٍ بين الْعَدَدِ (١/ ٤٦) جزءاً مِن النبوّة، الّذي ذَكَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي الحديث لِرُؤْيَا المؤمِنِ، وبين عَدَد «كرُو مُوسُومات» الإنْسَانِ الّتي هي (٤٦) كما يُقَرِّرُ عُلَمَاءُ الأَحْياء، وأنَّ الاسْتِعْدَادَ الَّذِي يَجْعَلُ الإنْسَانَ المؤمنَ مؤهَّلاً لاسْتِقْبَالِ الرُّؤْيَا الصالِحَةِ الَّتِي هِيَ مِنَ الله، هو مِنْ جِهَةِ «كُرُومُوسُوم» واحِدٍ مِنْ «كُرُومُوسُومَاته» الَّتِي هي (٤٦) أمَّا النبيُّ فاسْتِعْدَادُهُ الفِطْرِيُّ يَكُونُ مِنْ كُلِّ «كُرُومُوسُومَاتِه» أو مِنْ عَدَدٍ كثيرٍ مِنْها، والله أعْلَم.

(٥) وروى مُسْلِمٌ عَنْ جَابر قال: جاء رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِي ﷺ فقال: رأَيْتُ في المنَام كَأَنَّ رَأسِي قُطِعُ. قَالَ: فَضَحِكَ النبيُّ ﷺ فقال:

«إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحَدِكُمْ فِي مَنَامِهِ فَلَا يُحَدِّث بِهِ النَّاسَ».

(٦) ورَوىٰ البخاريُّ عن ابْنِ عُمَر، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «مِنْ أَفْرَىٰ الْفِرَىٰ أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا».

أي: مِنْ أَكْذَبِ الكَذِب المفتَرَىٰ أَنْ يَدَّعِيَ الإنسانُ أَنَّهُ رَأَىٰ فِي مَنَامِهِ شَيْئاً، وهُوَ لَمْ يَرَ ذَلِكَ.

(٧) وروى الإمام أحْمَد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَين، ولَنْ يَفْعَلَ».

وفي رواية عند أحْمَد: «عُذِّبَ حَتَّىٰ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ عَاقِداً».

أي: كَانَ عَذَابُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَنْ يُكَلَّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ عُذِّبَ، وهُوَ لَنْ يَسْتَطِيعَ ذَلِكَ، والسَّبَبُ في ذَلِكَ أنَّ الْكَذِبَ في الرُّؤىٰ المنامِيَّة فِيه طَرَفٌ من الكذِب عَلَىٰ اللهِ.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الفصل الأول من قصة يوسف الدّرْس الثاني من دُرُوس السورة.

والحمْدُ للهِ على توفيقه ومَدَدِه ومَعُونَتِه وفتحه.

* * *

التدبر التحليلي للفصل الثاني مِنْ قصة يوسف
الآيات من (٧ ـ ١٠)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ⑦ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ⑧ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ⑨ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ⑩﴾:

القراءات:

(٧) • قرأ ابْنُ كَثِير: [آيَةٌ] بالإفراد.

وقرأَها باقِي الْقُرَّاء العشرة: [آياتٌ] بالجمع.

فالإفْرَادُ هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ كَوْنِ كُلِّ قِصَّةِ يوسف عَلامَةً تَدُلُّ على أشْيَاءَ كَثِيرَة، والجمْعُ هُوَ عَلَىٰ معْنَىٰ كَوْنِ قِصَّة يوسُفَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ آيَات هي عَلامَات تدلُّ على معارف يَسْتفيدُها المتدبّرون.

(١٠) • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[غَيَابَاتِ]** بالجمع. وقرأها باقي القراء العشرة بالإفراد، ومؤدّي القراءتين واحد.

تمهيد:

في هـٰذا الْفَصْل مُقَدّمَةٌ تُبيِّنُ الْغرَضَ مِنْ ذِكْرِ قِصَّةِ يُوسفَ وإِنْزَالِ قُرآنٍ بها يُتلَىٰ، وهي في الآية (٧).

وفِيه بَيَانُ مُلْتَقى الْحَسَدِ الَّذِي اجْتَمَعَ عَلَيْه إخْوَةُ يُوسُفَ مِنْ أبيه الْعَشَرَة، وتآمُرُهُمْ على التخلُّصِ مِنْهُ، إذْ رَأَوْا أنَّ أبَاهُمْ يُؤْثِرُهُ وأخَاهُ «بَنْيَامِينَ» بِالْحُبِّ الْأَكْبرِ، وبالْعَطْفِ الأَكْثَرِ، وتَوَهَّمُوا أنَّهُمْ إذَا تخلَّصُوا من يوسُفَ صَارَ حُبُّ أبِيهِمْ مُتَعَلِّقاً بِهِمْ، لَا يُنَازِعُهُمْ عَلَيْهِ يُوسُف، أَمَّا شَقِيقُهُ «بَنْيَامين» فَقَدْ كان الأصْغَر، ولَمْ تكُنْ لَهُ عِنْدَ أبيه الحظوةُ العُظْمَىٰ الَّتِي هي ليُوسُفَ، بِحَسَبِ مَا كانُوا يَرَوْن، وإنْ كان يُفَضِّلُهُ عليهم بالحبّ.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

- ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ للمتَلَقِّينَ بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ الَّتي يَرَىٰ النحويّون أنَّ اللّام فيها جوابُ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ. و«قَدْ» للتحْقيق. ﴿كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾: أي: مَوْجُودٌ في قصّتهم الّتي نحدّثك بها:

- ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: أي: عَلامَاتٌ نَافِعَاتٌ مُفِيدَاتٌ لِطَالِبِي الْمَعْرِفَةِ بوَسَائِلِها وَمِنْ مَظَانِّها. وذَلِكَ لِأَنَّ طَالِبَ المعْرِفَةِ لقضيَّةٍ مَا، إذْ هُوَ يَجْهَلُ حَقِيقَتَها أَوْ بَعْضَ صِفَاتِهَا يَسْأَلُ أَهْلَ الْعِلْم بِهَا، فإنْ لَمْ يَجِدْ بَحثَ عَنْهَا فِي كِتَابٍ شَارِحٍ، فَهُو بمثَابَةِ سَائِلٍ لِلْعَالِمِ الَّذي كَتَبَ الكِتَابَ، فإنْ لَمْ تَكُنْ مُدَوَّنَةً فِي كِتَابٍ اسْتَخْدَمَ وَسَائِلَ الْمَعْرِفَةِ الكَوَاشِفَ، فَكَانَ بِمثَابَةِ سَائِلٍ

لَهَا: هَلْ عِنْدكِ الجوابُ الحقُّ؟ ويَتَنَقَّلُ فِي الْوَسَائِلِ حَتَّىٰ يَصِلَ إلى الجواب الّذِي يُرْضِيه.

أمْثِلَة:

(١) الطبيبُ الْبَاحِثُ عَنِ الْعِلَّةِ فِي صَدْرِ المريضِ الَّذِي يُعَالِجُهُ، يَسْأَلُ جِهَازَ الْأَشِعَّةِ لِيُقَدِّمَ لَهُ صُورَةً كَاشِفَةً لحالَةِ صَدْرِهِ من الدَّاخل، فَتَدُلُّهُ الصُّورَةُ بِرُمُوزِها على الْعِلَّةِ في صَدْرِ المريض.

(٢) وكذلِكَ الْأَطباءُ يَسْأَلُونَ فاحِصي دِمَاءِ المرضَىٰ، لِتُجيبَهُمُ الْكَوَاشِفُ المخْبَرِيَّةُ عَنِ الْخَلَلِ الْحَادِثِ فيها، بُغْيَةَ وَصْفِ الْعِلَاجِ الْمُلَائِمِ لِلْمَرَض.

(٣) ومُسْتَنْبِتُ الزُّروعِ في أَرْضٍ ما، يَسْأَلُ عَنْ طَرِيقِ تَحْلِيلِ التُّرْبَة، أو عَنْ طَرِيق تَجْرِبَةٍ صَغِيرَةٍ، هَلْ تُصْلُحُ هَـٰذِهِ الْأَرْض لِأَسْتَنْبِتَ فِيهَا هَـٰذا النَّوْعَ أو هَـٰذا الصِّنْفَ من الزُّروعِ أو مِنَ الْأَشْجَار، ويأْتِيهِ الْجَوَابُ بالْإثبات أو بالنَّفْي، والعاقلُ الرَّشيدُ يَسْتَفِيدُ مِمَّا قَدَّمَ لَهُ التحليلُ أو قَدَّمَتْ لَهُ التّجْرِبَة مِنْ جوابٍ علىٰ سؤالِهِ الْعَمَلِي.

وكذلك أحوال كلّ الْبَاحِثِين عَنِ المعارف، إنَّهم يَسْأَلُونَ أسْئِلَةً بِأَلْسِنَتِهِمْ، أَوْ أسْئِلَةً بأعمالهم عَنْ طَرِيقِ الوسَائِلِ الكَوْنِيَّة الكواشف أو عَنْ طَرِيقِ التجارِبِ الخاضِعَةِ للصَّوَابِ والْخَطأ، حَتَّىٰ يَصِلُوا إلى الجوابِ الصَّحِيح.

وبهذا نُدْرِكُ حِكْمَةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي اخْتِيَارِ كلمة «السَّائِلين».

فالمعنى: نُؤَكّد لَكَ أيُّهَا المتَلَقِّي لِآيَاتِ هَـٰذه السُّورَة، أَنَّه يُوجَدُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وإخْوَتِهِ الَّتِي نُحَدِّثُك بِها في هَـٰذِهِ السُّورَة، عَلَامَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ مَعَارِفَ مُفِيدَةٍ لِلْمُتَدبِّرِينَ الباحِثِينَ عَنِ الْمَعْرِفَةِ، الّذِين يَتَتَبَّعُونَ سَائِلِينَ

بألْسِنَتِهِمْ، أو بأعْمَالِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْوَسَائِلِ الْكَوْنِيَّةِ الكَوَاشِف، أو عَنْ طَرِيق التجارِبِ، بِغْيَةَ الْوُصُولِ إلى الأَجْوِبَةِ الصَّحِيحَةِ النَّافِعَةِ.

أي: فتلَقَّ، وتَدَبَّرْ، واعْلَمْ كثيراً مِنَ المعَارِفِ، وانْتَفِعْ بها.

قول اللهِ تعالى:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾:

دَلَّت هَـٰذِهِ الآيَاتُ عَلَىٰ مُلْتَقَىٰ الْحَسَدِ التَّآمُرِيّ الكيديّ، الَّذي اجْتَمَعَ فيه إخْوَةُ يُوسُفَ مِنْ أبيهِ الْعَشَرَةُ عَلَىٰ التخلُّصِ مِنْه، ومَا جَرَىٰ بَيْنَهُمْ مِنْ شَكْوَىٰ وَتَفَاوُضٍ في الطَّرِيقَةِ الَّتِي يتخلَّصُونَ بها مِنْه، بالقتل، أَوْ بأنْ يَطْرَحُوهُ فِي أرْضٍ بَعِيدَةٍ مَهْجُورَةٍ، لَا يَسْتَطِيعُ وهو غُلَامٌ أنْ يَهْتَدِيَ فِيها إلى الرُّجُوعِ إلى أبيه، وكَانَ اقْتِرَاحُ أكْثَرِهِمْ بُعْداً عَنِ ارْتِكَابِ جريمَةِ الْقَتْلِ، أَنْ يُلْقُوهُ فِي جُبٍّ تُدَلَّى فِيهِ دِلَاءُ القوافِلِ السَّيَّارَة، فَيَتَعَلَّقُ بواحِدٍ مِنْها، فَيلْتَقِطُهُ أصْحَابُها فَرِحِينَ بِهِ، ويَتّخُذونَهُ رَقِيقاً بحَسَب عَادَاتِ النَّاسِ حينئذٍ.

- فالشَّكْوَىٰ مِنْ أبيهم «يعقوب = إسرائيل» عليه السلام، دلَّ عليها قوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِمَقَالَتِهِمْ:

- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾:

﴿وَأَخُوهُ﴾: أَيْ: وأَخوهُ الشَّقِيقُ «بِنْيَامِينُ» وأُمُّهُمَا «رَاحِيلُ» الَّتِي خَطَبَهَا يَعْقُوبُ مِنْ خاله «لَابَان» وَخَدَمَهُ سَبْعَ سِنِينَ لِيُدْخِلَهُ عليها زَوْجَةً لَهُ، فَخَدَعَهُ وأَدْخَلَهُ عَلَىٰ أخْتِهَا الكُبْرَىٰ «لَيْئَة». ثُمَّ وافَقَ عَلَىٰ تَزْوِيجه الصُّغْرَىٰ الّتِي أَحَبَّهَا وَخَطَبَهَا، ووافق أن يُدْخله عليها بَعْدَ أسْبُوع، على أَنْ يَخْدُمَهُ سَبْعَ سِنِينَ أُخْرَىٰ، كما سَبَقَ بيانه.

الْعُصْبَة: الجماعَةُ مِنَ الناس، وهو اسْمُ جَمْعٍ لَا واحِدَ لَهُ مِنْ لفظه. قالَ أكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَة: تُطْلَقُ الْعُصْبَةُ على الجماعَةِ مِنْ عَشَرَةٍ إلَىٰ أرْبَعِين. ورُوِيَ عن ابْن عبَّاسٍ أنّها مِنْ ثَلاثَةٍ إلى عَشَرَة، وإلى هذا ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَة.

أي: كَيْفَ يُحِبُّ أَبُونَا أخَوَيْنا الصَّغِيرَيْنِ أكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لَنا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ عَشَرَة، ونَحْنُ أَهْلُ الكَسْبِ والْعَمَلِ والْحِمَايَةِ والْقُوَّةِ؟!

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي: إنَّ أَبَانَا لخَارِجٌ في هَـٰذا عَنْ صِراط الحقِّ والرُّشْدِ، ضَالٌّ عمَّا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ عَدْلٍ بالحبِّ بَيْنَ الْأَوْلَادِ وَضلالُهُ مبينٌ واضح.

لقدْ أعْشَىٰ الحَسَدُ بَصائِرَهُمْ عَنْ إدْراك أَنَّ الْحُبَّ قَدَرٌ رَبَّانِيٌّ جَبْرِيٌّ، لَا يَمْلِكُ الإنْسَانُ بإرَادَتِهِ دَفْعَهُ وَلَا رَفْعَهُ، وأنّ الإنْسَانَ وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا رَسُولاً لَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْعَدْلُ فِي الحبّ.

ولِهَـٰذا قال الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ بالنِّسْبَةِ إلى زَوْجَاته:

«اللَّهُمَّ هَـٰذا قَسْمِي فيما أَمْلِكُ، فَلَا تُؤَاخِذْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِك» يَعْنِي الحبَّ وَتعلُّقَ الْقَلْب، فَقَدْ كانَتْ «عائِشَةُ» رضي الله عَنْها أحَبَّ إلَىٰ قَلْبِهِ مِنْ سَائِر زَوْجَاتِه.

جاء في عبارتهم توكيد الجملتين فيها:

فالجملة الأولى: جاء توكيدها بلام الابتداء والجملة الاسمية: ﴿لَيُوسُفُ﴾. والجملة الثانية جاء توكيدها بالمؤكّدات: «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحْلَقة»: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

- والتفاوُضُ الكَيْدِيُّ في الطّرِيقَةِ الّتِي يَتَخَلَّصُونَ بِهَا مِنْ يُوسُفَ قَدْ كَانَ أوّلاً بِطَرْحِ احْتِمَالَيْن:

الاحْتمالُ الأول: أَنْ يقْتُلوه، ولَوْ كَانَ قَتْلُهُ مِنَ الكبائِرِ العظمَىٰ.

الاحْتِمَالُ الثاني: أَنْ يَطْرَحُوهُ فِي أَرْضٍ مَتاهَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ وهُو فِيها أَنْ يَهْتَدِي إلى الرُّجُوع إلى أبيه، وبهَـٰذا الطَّرْحِ إمَّا أنْ تَأْكُلَهُ الذِّئَابُ وإمَّا أنْ يَسْتَرِقَّهُ بَعْضُ مَنْ يَظْفَرُ به.

- ﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾: أي: اطْرَحُوهُ في أرضٍ، فلَفْظُ ﴿أَرْضًا﴾ منْصُوبٌ عَلَىٰ أنّهُ ظرْفُ مَكانٍ. ودَلَّ التنكير علَىٰ إرادةِ أَرْضٍ مَهْلَكَةٍ أو مَتَاهَةٍ يَضِلُّ فيها، فَلَا يَسْتَطيع الْعَوْدَةَ مِنْها إلَىٰ أبيه.

- ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: أي: يَكُنْ مَكَانُ اتِّجاهِ وجْهِ أبيكُمْ، الَّذي فيه عَيْنَاهُ النَّاظِرَتَانِ، خالياً مِنْ يُوسُفَ الَّذي سَيْطَرَ حُبُّهُ عَلَىٰ قَلْبِه، فَلَا يَرَىٰ أَمَامَهُ غَيْرَكُمْ، فَتَحُلُّوا أَنْتُمْ مَحَلَّهُ.

- ﴿... وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾: أي: وَتَصِيرُوا مِنْ بَعْدِ ذَنْبِكُمُ الْعَظِيم قَوْماً صالِحِينَ بالاسْتِغفار، والتَّوْبَةِ، وفِعْلِ الصَّالِحَاتِ، يَغْفِرِ اللهُ ذَنْبَكُمْ، ويَقْبَلْ تَوْبَتَكُمْ.

«يَخْلُ» مجْزُومٌ بحذف حرف الْعِلَّة على أنَّهُ جواب الطَّلَب ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ مَعْطُوفٌ عليه بالجزْم أيضاً.

- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾: **[في غياباتِ الْجُبِّ]** في القراءة الأخرىٰ.

- ﴿وَأَلْقُوهُ﴾: أيْ: وَاطْرَحُوهُ، أوْ وضَعُوهُ. إلْقاءُ الشيء يأتي بمعنى طَرْحِهِ، وبِمَعْنَىٰ وضْعِهِ، وبمَعْنَىٰ قَذْفِهِ ورَمْيِه، لَكِنَّ اسْتِعْمَالَ حرف «في» بعبارة: ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ يُشْعِرُ بأنَّ صاحِبَ الاقتراح من إخْوَتِهِ أرادَ إنْزالَهُ بِرِفْقٍ، ووَضْعَهُ فِي أسْفَلِ الْجُبِّ بمكانٍ صالِحٍ يَتَمَكَّنُ وهو فِيه مِنْ رُكُوبِ دَلْوِ مَاءٍ يُنْزِلُهُ وَارِدٌ ويَمْتَحُهُ فَيُخْرِجُهُ مِن الْبِئْر.

غَيابَةُ الْجُبّ: أي: أسْفَلُ مَكانٍ فِيهِ. وتُطْلَقُ الْغَيابَةُ على كُلِّ شَيْءٍ غَابَ عَنِ الْبَصر. **الْجُبُّ**: الْبئْرُ الواسِعَةُ الّتي لَمْ تُطْوَ بِالْبِنَاءِ دَائِرَتُها.

ويَظْهَرُ أن «ال» فِي الْجب عَهْدِيَّة، إذْ هي بِئْرٌ يَعْرِفُونَها، ويَنْزِلُون إلىٰ أسْفَلِها بالحبال، وفي أطْرَافِ الْمَاءِ الّذِي فِيهَا مجالِسُ جَافَةٌ مِنْ عِدَّةِ جَوانب، وعَلَيْهَا تُحْمَلُ قِراءَةُ **[غَيَابَاتِ]** ويُؤَكِّدُ هَـٰذا الْفَهْمَ قَوْلُهُ: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾.

الالْتِقَاط: أخْذُ شيءٍ عُثِرَ عَلَيْهِ علَىٰ سَبِيلِ المصَادَفَةِ، دُونَ سَابِقِ تَوقُّعٍ، وقَدْ يَكُون ضائِعاً مِنْ أصْحَابِهِ.

السَّيَّارَة: الْقَافِلَةُ الّتِي تَسِيرُ مُسافِرَةً مِنْ مكانٍ إلى مَكَانٍ آخَرَ، وهُمْ رُفْقَةٌ مُسَافِرُون ومَعَهُمْ دَوَابُّهُمْ وَزَادُهم.

ويَظْهَرُ أَنَّ الْغُلَامَ الضَّائِعَ الملْتَقَط قَدْ كَانَ يُسْتَرَقُّ، ويُبَاعُ عَبْداً.

- ﴿... إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ⑩﴾ أي: إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ فِعْلاً ما، تُرِيدُونَ بِهِ التَّخَلُّصَ مِنه. وفي اسْتِعْمَالِ حَرْفِ «إنْ» إشْعَارٌ مِنْهُ بِأنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يفْعَلُوا شَيْئاً للتَّخلُّصِ مِنْ يُوسفَ وَيُرِيدُ مِنْهُم أنْ يَسْتَبْعِدُوا هَـٰذا الأَمْرِ عَنْ تَصوُّرَاتِهِمْ، لكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وإنَّما وَافَقوهُ على اقتراحِهِ بإلْقَائِهِ فِي الْجُبّ المعْهُودِ لَهُمْ.

جاء في الإصحاح (٣٧) من سِفْر التكوين عِنْدَ الإسْرَائيليين، أنَّ الَّذِي نَهاهُمْ عَنْ قَتْلِهِ، واقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ إلْقَاءَهُ في الْجُبِّ هو أخُوهُ الأَكْبَرُ «رَأُوبين» ولَكِنَّ فِي الْقِصَّةِ عِنْدَهُمْ تَحْرِيفاً كثيراً.

وبهذا انتهىٰ تَدبُّر الفصل الثاني من قصة يوسف والحمد لله على مَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

التدبر التحليلي للفصل الثالث من قصة يوسف

الآيات من (١١ ـ ١٤)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قَالُوا يَـٰأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

القراءات:

(١٢) ● قرأ نافع، وأبو جَعْفر: **[يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ]** من فِعْل: «ارْتَعَىٰ» وبالياء في الفعلَيْن.

وقرأهُمَا ابْنُ كثير: **[نَرْتَعِ وَنَلْعَبْ]** من فِعْل: «ارْتَعَىٰ» وبالنُّونِ في الفِعْلَيْن.

وقرأَهُمَا أبُو عَمْرو، وابْنُ عامر: **[نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ]** من «الرَّتْع» وبالنُّون في الفِعْلَيْن.

وقرأهُمَا باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ]** من «الرَّتْع» وبالياء في الفعلين.

وفي هذه القراءات تَفَنُّنٌ وتكامل. يُقال لغة: «ارْتَعَىٰ» أي: رَعَىٰ كَيْفَ يَشَاءُ في سعَة. ويقال: «رَتَعَتِ الْمَاشِيَةُ رَتْعاً» أي: رَعَتْ كَيْفَ شَاءَتْ في خِصْب وَسَعَةٍ. ويقال: «خَرَجْنَا نَرْتَعُ ونَلْعَبُ» أي: نَنْعَمُ وَنُحَرِّكُ أجْسَامَنَا باللَّعِبِ النّافِعِ رِيَاضَةً لها.

(١٣) ● قرأ نافِعٌ: **[لَيُحْزِنُنِي]** من فِعْل «أَحْزَنَه» وقرأها باقي القرّاء العشَرَة: **[لَيَحْزُنُنِي]** من فعل «حَزَنَهُ».

يُقَال لغة: «حَزَنَهُ الْأَمْرُ حُزْناً» ويُقَال: «أَحْزَنَهُ الْأَمْرُ إحْزَاناً» قال الْجَوْهَرِيّ: «حَزَنَهُ» لُغَةُ قُرَيش، و«أَحْزَنَهُ» لُغَةُ تميمٍ.

- وقَلَبَ همزة الذّئب ياءً وَرْشٌ، والسُّوسي، والكِسَائي، وأبُو جَعْفَر، وخلف في اختياره، وحمزة في الوقف، ونطَقَها الباقون بالهمزة.

تمهيد:

في هذه الآيات بَيَانُ مُطالَبَةِ إخوَةِ يُوسُفَ أبَاهُمْ بأنْ يُرْسِلَ مَعَهُمْ يُوسُفَ إلىٰ المرَاعِي إذْ كانُوا رُعَاةَ أغْنَام، مَعَ عِتَابِهِم لأبيهِمْ علىٰ أنَّهُ لَا يَأْمَنُهُمْ عَلَيْهِ وَهُمْ إخْوَتُهُ، وهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ وَحَافِظُون. وبَيَانُ مَا جَرَىٰ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أبيهِمْ مِنْ حِوَارٍ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالَىٰ مبيّناً معْنَىٰ ما قالَهُ إخوة يوسف لأبيهم، ليأْذَنَ لَهُمْ بأنْ يأْخُذُوا مَعَهُمْ أَخَاهُمْ يوسُفَ إلىٰ المراعي التي يُرعُونَ بها أغنامهم، وَغَرَضُهُمْ تَنْفِيذُ مَا دَبَّرُوا مِنْ كَيْدٍ للتَّخَلُّصِ مِنْه:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾:

نَادَوْهُ بِنِدَاءِ الْبَعيد: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ لإشْعَارِه بأنَّهُمْ عَاتِبُونَ عَلَيْه في ابْتِعَادِه عَنِ الثِّقَةِ بِهِمْ، إذْ لَا يَأْمَنُهُمْ على أخِيهِمْ يُوسُف، فَلَا يأذَنُ لَهُمْ بِأَنْ يُخْرِجُوهُ إلى المراعي مَعَهُم.

- ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؟: أي: أيُّ عُذْرٍ أَوْ أَيُّ بَاعِثٍ كائنٌ لَكَ حَالَةَ كَوْنِكَ لَا تَأْمَنُنَا عَلىٰ يُوسُفَ، وَقَدْ طَلَبْنَا مِنْكَ أَنْ يَخْرُجَ مَعَنا إلى المرَاعِي عِدَّة مَرَّات، وهذا يُفْهَمُ ذِهْناً مِنْ توجيه العتاب.

﴿تَأْمَ۫نَّا﴾ أصْلُها «تَأْمَنُنا» أُدْغِمَتِ النُّونُ بالنّون فصارانا نُوناً مشَدَّدَة.

وفي ﴿تَأۡمَنَّا﴾ عِدَّةُ قراءَاتٍ في الْأَدَاءِ يَعْرِفُهَا عُلَمَاءُ القراءات.

يُقَالُ لُغَةً: «أَمِنَ فُلَانٌ فُلَاناً عَلَىٰ كَذَا، يَأْمَنُهُ، أَمْناً، وأَمَاناً، وأَمَانَةً، وأَمَناً، وأَمَنَةً» أي وَثِقَ بِهِ، واطْمَأَنَّ إلَيْه.

- ﴿... وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ⑪﴾: أي: وإنّا لَنُرِيدُ لَهُ الخيْرَ والنَّفْعَ، ولَا نُضْمِرُ لَهُ غِشًّا. **النُّصْحُ**: الْخُلُوصُ من الشَّوَائب. وقد جاء في هذه العبارة التوكيد بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة». وهم بهَٰذا كاذِبُونَ مُخَادِعُون.

- ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⑫﴾:

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾: **الإرْسَالُ**: التوجيهُ لأداء مُهِمَّةٍ مَا بِتُؤَدَةٍ وتَرَفُّقٍ وَأَنَاةٍ وَتَعَقُّلٍ وحِكْمَة. **الْغَدُ**: الْيَوْمُ الَّذِي بَعْدَ يَوْمِكَ.

«مَعَنَا» أي: مُصَاحِباً لَنَا. «مَع» ظَرْفٌ يُفيدُ المصاحَبَةَ واجْتِمَاعَ شَيْئَيْنِ في مكانٍ واحدٍ أو زَمَانٍ واحد.

- ﴿يَرۡتَعۡ﴾: أي: يَتَّسِعْ في خِصْبِ المأكَلِ، مأخوذٌ من قَوْلِ الْعَرَب «رَتَعَ الإنْسَانُ أَوِ الْبَعِير» أي: أَكَلَ كَيْفَ شاءَ. وكُلُّ مخصِبٍ راتع.

- ﴿وَيَلۡعَبۡ﴾: أيْ: وَيُمَارِسْ رِيَاضَةً نَافِعَةً في المراعي والْهَوَاءِ الطَّلْقِ والْأَرْضِ الواسِعَة، فالْمُرادُ باللَّعِب هُنَا اللَّعِبُ النَّافِعُ المفيد، وهُوَ يَسُرُّ «يَعْقُوبَ» عَلَيْهِ السَّلام، ويَرَاهُ مَطْلُوباً مِنْ مَطالِب تَقْوِيَةِ الْأَجْسَاد ونَمَائِها وصِحَّتها.

- ﴿... وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⑫﴾: أيْ: وإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ مِمَّا يُؤْذِيهِ وَيسُوؤه. **حِفْظُ الشيء**: يكونُ بحراسَتِه وصِيَانَتِهِ. وبأداءِ حُقُوقِهِ بأمَانَة، وبعَدَمِ الخيانةِ فيه، وبالمواظبَةِ على القيام برِعَايَتِه، وفِعْلِ مَا يَجِبُ فِعْلُه، وتَرْكِ مَا يَجِبُ تَرْكُهُ بالنسْبَةِ إلَيْه.

وهذه الجملةُ جاءَتْ مُؤَكَّدَةً كَسابِقَتِها.

قول الله تَعالىٰ مَبَيّناً مَا أَجابَ بِهِ «يعقوبُ» عَلَيه السلام أبناءَهُ العشرة:

- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣﴾:

أَبَانَ «يَعْقُوبُ» عَلَيه السَّلامُ لِأَبْنَائِهِ سَبَبَيْنِ كَانَا يَجْعَلَانِهِ لا يَأْذَنُ بِخُرُوجِ يُوسُفَ مع إِخْوَتِهِ إِلَىٰ المراعِي.

السَّبَبُ الْأَوَّل: أَنَّهُ يَحْزُنُهُ مُسْتَقْبَلاً غِيابُهُ عَنْ نَاظِرَيْهِ، ولَوْ في نَهَارٍ واحِدٍ، لِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ به. ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ ولَعَلَّهُ طَوىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ في بيان هَٰذا السَّبَبِ، تَخَوُّفَهُ مِنْ أَنْ يَكِيدُوه فَيَفْعَلُوا بِهِ مَكْرُوهاً، يَدْفَعُهُمْ إِلَيْهِ حَسَدُهُمْ لَه، ولَا سِيمَا إذا بلَغَهُمْ بوَسِيلَةٍ مَا حُلْمُهُ الّذِي رَآه الدَّالُّ عَلَىٰ مَا سَيَخُصُّهُ اللهُ بِهِ مِنْ مَجْدٍ عظيم يأتيه مُسْتَقْبلاً.

لام الابتداء في ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ دَخَلَتْ عَلَىٰ فعل مُضارع يُرادُ به المستَقْبَلُ، على خِلَافِ مَا يَرىٰ النحاة مِنْ أَنَّها تجعَلُ المضارع خالصاً للحال، فيظهَرُ أنها كذلِك في الغالب⁽¹⁾.

أَكَّدَ «يَعْقُوبُ عليه السلام» جُمْلَتَه بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحْلقة».

﴿أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾: أي: ذَهابُكُمْ به. «أَنْ» مَصْدَرِيَّة ناصِبَة.

السَّبَبُ الثَّاني: أَنَّهُ يَخافُ عَلَيْهِ الْهَلَاكَ مِنْ ذِئْبٍ يَفْتَرِسُهُ وهُمْ عَنْهُ

---

(١) وأَسْتَبْعِدُ أن يكُون المعنى: إِنَّهُ لَيَحْزُنُني الآنَ شُعُورِي بأن تَذْهَبُوا به غداً، على مَذْهَبِ قَولِ الشاعِرِ الأَنْدَلُسِي:

كُـلَّـمَـا فَـكَّـرَ بـالْـبَـيْـنِ بَـكَـىٰ　　ويْـحَـهُ يَـبْـكِـي لِـمَـا لَـمْ يَـقَـعِ

غَافِلُونَ، مُنْشَغِلُونَ فِي أُمُورِهِمْ الْخَاصَّةِ بِهِم ﴿... وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ⑬﴾: أي: وأخَافُ أَنْ تَغْفُلُوا عَنْهُ، إذْ تَتْرُكُونَه عِنْدَ مَتاعِكُمْ فَيأْتِيهِ الذِّئْبُ الضَّارِي الجائِعُ فَيفْتَرِسَهُ وَيأْكُله، إذْ يَجِدْهُ غُلاماً لا يَسْتَطِيعُ أنْ يُدافِعَ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَعَلَّ أمْكِنَةَ مَراعِيهم كَانَتْ مَعْرُوفَةً بِذِئْبٍ ضَارٍ يَفْترسُ الْمَوَاشِي، وَقَدْ يَسْطُو عَلَىٰ بَعْضِ ضُعَفَاءِ النَّاسِ، وَقَدْ يَكُونُ هَـٰذا هو السَّبَب في تَعْرِيفِ الذِّئْبِ بِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ «ال» وبهذا الفهم تكُونُ «الْ» عَهْدِيَة، واللهُ أعْلم.

قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً مَا رَدَّ بِهِ أَبْنَاؤُهُ على السَّبَبِ الثَّاني غَيْرَ عابِئِينَ بالإجَابَةِ عَلَىٰ السَّبَبِ الأَوَّلِ إذْ هُوَ مُثِيرُ حَسَدِهِمْ:

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ⑭﴾:

الْعُصْبَة: سَبَق بَيانُ مَعْنَاهَا اللُّغَوِي لَدَىٰ تَدبُّر الآية (٨).

اللّام في ﴿لَئِنْ﴾ واقِعَةٌ فِي جوابِ قَسَمٍ مَنْوي، وتُسَمَّىٰ الموطّئة لِلْقَسَم.

أي: نُقْسِمُ لَكَ يا أَبَانَا لَئِنْ أكَلَهُ الذِّئْبُ الَّذِي تَخَافُ مِنْهُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ عَشَرَةُ رِجَالٍ أشِدَّاء إنَّا حِينَئِذٍ لَخاسِرُونَ.

﴿إِذًا﴾ يَرَىٰ النُّحاةُ أَنَّها إذا افْتَقَرَ ما قَبْلَهَا إلى مَا وَقَعَ بَعْدَهَا فَهِيَ لَغْوٌ، أي: مَزِيدَةٌ لمجرَّدِ التوكيد، كَقَوْلِ الشَّاعر:

وَمَا أَنَا بالسَّاعِي إلَىٰ أُمِّ عَاصِمٍ ... لِأَضْرِبَهَا إنِّي إذاً لَجَهُولُ

والَّذِي أَراه أَنَّها بِمَعْنَىٰ حِينَئذٍ، وأَنَّ التنوينَ فيها تَنْوِينُ الْعِوَضِ عَنْ جُمْلَةٍ بَعْدَهَا كما قالوا في نحو: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ⑧④﴾ أي: حِينَ إذْ بَلَغَتِ الرُّوحُ الْحُلْقُوم.

والتقدير هنا: إنَّا حِينَ يَأْكُلُهُ الذِّئْبُ ونَحْنُ عُصْبَةٌ لَخاسِرُونَ.

﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾: **الخاسِرُ**: يأتي في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ؛ المغْبُونِ في تجارَتِه الّذي نَقَصَ مَالُه. وبمعْنَىٰ: الْهَالِك. وبِمَعْنَىٰ الضَّالّ. والْمَعْنَىٰ الملائِمُ هُنَا الضَّالُّون، أي: إنَّا نكُونُ حِينَئذٍ ضالِّينَ بَعِيدِينَ عَنِ المنْهَجِ الْقَويم الَّذي يَسْلُكُهُ الْعُقَلَاءُ الرَّاشِدُون مِنْ حِمَايَةِ الصّغار وحفظِهِم مِنْ كلّ ضُرٍّ وأذى.

أَكَّدُوا كلامَهُمْ بالْقَسَم وبَعْدَهُ بالمؤكِّداتِ: «إنَّ ـ وَالْجُملة الاسمية ـ واللّام المزَحْلَقَة» لِيُشْعِرُوا أَبَاهُمْ بأَنَّهُمْ بَعِيدُونَ جِدًّا عَنْ إرادَةِ التخَلُّصِ مِنْهُ، ليخْلُوَ لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الفصل الثالث مِنْ قِصَّة يوسف من الدّرْس الثاني من دُروس السورة.

والْحَمْدُ لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفَتْحه.

* * *

التدبّر التحليلي للفصل الرابع من قصة يوسف

الآيات من (١٥ ـ ١٨)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ⑮ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ⑯ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ⑰ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ⑱﴾:

القراءات:

(١٥) ● قرأ نَافِع، وأبو جعفر: [**غَيَابَاتِ**] بالْجمع. وقرأَها باقي القراء العشرة بالإفراد [**غَيَابَةِ**] بالإفراد. وقَدْ سبَق في تَدَبُّر الآية (١٠) بيانُ وَتَوجِيهُ هاتَينِ القراءتين.

تمهيد:

فِي هَـٰذِهِ الآيات بيانُ مَا يَدُلُّ على موافَقَةِ الأَبِ «يَعقُوبَ» عليه السَّلام، علىٰ أنْ يَذْهَبَ أبْنَاؤُهُ العَشَرَةُ بأخِيهِمْ يُوسُفَ مَعَهُمْ إلى المراعي لِيَرْتَعَ وَيَلْعَبَ كَمَا طَلَبُوا مُلِحِّين وعَاتبين.

وفيها بيانُ تَنْفِيذِ مَا دَبَّرُوهِ مِنْ إلقائِهِ فِي غَيَابَةِ الْجُبّ، وبَيَانُ الْحِيلَةِ والْفِرْيَةِ الَّتِي اصْطَنَعُوهُمَا لِأبيهم، ومَا أَجَابَهُمْ به عَلَيْهِ السَّلام.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تَعَالى:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وهُوَ غُلَامٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَذْهَبَ وَحْدَهُ إلى المراعي النائية⁽¹⁾، وأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَعْمَلُوا بِرَأْيِ كَبيرهم «رَأوبين» الَّذِي اقْتَرَحَهُ عَلَيْهِمْ سَابِقاً، وهُوَ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ كما سَبَقَ بيانُهُ في تَدبُّرِ الآيَةِ (١٠).

وجوابُ «لمَّا» الحينيَّةِ هَـٰذِهِ مَطْوِيٌّ مَحْذُوفٌ مِنَ اللَّفْظِ تَقْدِيرُهُ: نَفَّذُوا مَكِيدَتَهُمُ الَّتِي أَجْمَعُوا عَلَيْهَا وَهِيَ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْبِئْرِ الَّتِي تَسْتَقِي مِنْها الْقَوافِلُ السَّيَّارَةُ عَادَةً.

وأَوْحَىٰ اللهُ إلَيْهِ وَحْياً إلْهَامِيًّا فِي ذَلِكَ الْحِينِ، كَمَا أَوْحَىٰ إلَىٰ أمّ مُوسَى عليه السلام بأنْ تَضَعَهُ فِي التابُوتِ وتَقْذِفَهُ فِي الْيَم. ومَضْمُونُ هَـٰذا الْوَحْي إلىٰ يُوسُف أخذاً مِن صَرِيح اللَّفْظِ وَمِنَ المطْوِيَّاتِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا:

---

(١) حرَّف الإسرائيلّيون في الإصحاح (٣٧) من سَفر التكوين في هذا، فزعَمُوا أَنَّ يعقوب هو الذي أُرْسَله وحْدَه وراءهم، وأنَّ عُمُره كان سَبْعَ عشرة سنة.

لَنُنْجِيَنَّك، ولَنُنْزِلَنَّكَ مَنْزِلاً كَرِيماً، ولَنَمُنَّنَ عَلَيْكَ بالْوُصُولِ إلى مَجْدٍ عَظِيم، ولَيَأْتِينَّ إلَيْكَ إخوتُكَ خَاضِعِينَ، طَالِبِينَ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ وأَنْتَ فِي مَقَامٍ رَفِيعٍ، ولَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمْرِهِمْ هَـٰذا الَّذِي فَعلُوهُ فِيكَ إذْ وَضَعُوكَ فِي الْجُبِّ لِيُبْعِدُوكَ عَنْ أبيكَ الَّذِي يُؤْثِرَكَ عَلَيْهِمْ بالْحُبّ، وهُمْ حِينَئِذٍ لا يَشْعُرُونَ أَدْنَىٰ شُعُورٍ بأَنَّكَ أخُوهُمْ يُوسُف.

الشُّعُور بالشيء: الْعِلْمُ به ولَوْ مِنْ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الإحساسِ به، وهو أوَّلُ مراحِلِ إدْرَاكه، ولعَلَّهُ مأخُوذٌ في اللُّغَة من الشَّيء يلامِسُ الشَّعَرَ، فَيُحِسُّ بِهِ الإنْسَانُ إحْسَاساً خَفِيفاً، ثُمَّ انْتَقلَ تَوَسُّعاً إلى الإدْرَاكَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْأُولَىٰ الْخَفِيفَة.

قول الله تَعَالَىٰ:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ . . .﴾:

الْعِشَاءُ: أَوَّلُ ظلَامِ اللَّيْلِ، وفيه تَضْعُفُ رُؤيةُ الأعْيُنِ للأشياء، وهو في الغالِبِ الْوَقْتُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ المغْرِبِ والْعِشاء.

﴿يَبْكُونَ﴾: أي: يَبْكُونَ بُكاءً كَذِباً لِيُخْفُوا بِهِ جَرِيمَتَهُمْ ضِدَّ أَخِيهِمْ يُوسف.

- ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾: أي: نَتَنَافَسُ في السِّبَاق. **الاسْتِبَاق**: يكُونُ في الْعَدْو علىٰ الأرجل، أو علَىٰ ظُهورِ الخيل. ويكُونُ فِي رَمْي السِّهَام، وهو المسَمَّىٰ «التَّنَاضُل» يُقَال لغة: «انْتَضلَ الْقَوْمُ، وتَنَاضَلُوا» أي: اسْتَبَقُوا في الرَّمْي. **الاسْتِبَاق**: كالتَّسَابُق يأتي بمعْنَىٰ المشاركة في المسابقة.

- ﴿عِندَ مَتَـٰعِنَا﴾: أي: عِنْدَ طعَامِنَا وشرابنا وفُرُشِنَا وأَدَوَاتِنَا. **المتاعُ**: يُطْلَقُ على كلِّ هَـٰذِهِ الأشياء. وأَصْلُهُ: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ ويُرْغَبُ في اقتنائِهِ ومَصِيرُهُ الزَّوالُ والفناء.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾: أي: وما أنْتَ بمُؤْمِنٍ بِقَوْلِنا وَلَا بِمُصَدِّقٍ لنَا فِيهِ ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾: أي: وَجَاءُوا مُمَوِّهِينَ عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَم كَذِبٍ، زَاعِمِينَ أَنَّ الدَّمَ الَّذِي على القَمِيصِ دَمُ يُوسُفَ الذي أَكَلَهُ الذِّئبُ.

جاء في الإصحاح (٣٧) من سفر التكوين: «أَنّ إِخْوَةَ يُوسُفَ خَلَعُوا عَنْهُ قَميصَهُ، الْقَمِيصَ الْمُلَوَّنَ الَّذي عَلَيْه» وجاء فيه: «أَنَّهُمْ أَخَذُوا قَمِيصَ يُوسُفَ، وذَبَحُوا تَيْساً مِنَ الْمِعْزَىٰ، وغَمَسُوا الْقَمِيصَ بالدَّم. وأَرْسَلُوا القميصَ المُلوَّنَ وأحْضَرُوهُ إلَىٰ أَبِيهِم. وقَالُوا وَجَدْنَا هذا. حَقِّقْ أَقَمِيصُ ابْنِكَ هَـٰذا أَمْ لَا؟».

وجاء عند المفسّرين أنَّ يَعْقُوبَ عليه السَّلامُ كَذَّبَ أبْنَاءَهُ فِي ادِّعَائِهِمْ، وقَال لهم: مَتَىٰ كَانَ هَـٰذا الذِّئْبُ حَكِيماً يَأْكُلُ يُوسُفَ وَلَا يَخْرِقُ الْقَمِيصَ؟.

أي: انْكَشَفَ تَمْوِيهُهُم الكاذبُ، إذْ جَاءُوا بالْقَمِيصِ سَلِيماً مَغْمُوساً بِدَمِ تَيْسٍ ذَبَحُوه.

ووُصِفَ الدَّمُ بأَنَّهُ كَذِبٌ علَىٰ معْنىٰ جَعْلِ الكَذِبِ في الأَعْمَالِ كالْكَذِبِ في الأَقْوَال، فَعِنَاقُ الإنْسَانِ وتَقْبِيلُهُ مَنْ يُبْغِض، مِثْلُ قَوْلِهِ لَهُ: أَنَا أُحِبُّكَ، هَـٰذا كذِبٌ بالْقَوْل، والْعِنَاقُ والتَّقْبِيلُ كَذِبٌ بالْعَمَل، كُلٌّ مِنْهُمَا فيه ادّعَاءُ الحبّ، وكُلٌّ مِنْهُمَا مُخَالِفٌ للحَقِيقَةِ والْوَاقِع، فهَـٰذا كَذِبٌ وهَـٰذا كَذِب.

هَـٰذا الْفَهْمُ أَوْلَىٰ في نَظَري مِن تَأْوِيلِ الكَذِبِ بِأَنَّهُ مَكْذُوبٌ فيه، وأَوْلَىٰ مِنْ تَقْدِيرِ اللُّغويين: بدَمٍ ذِي كَذِب.

ومِنْهُ مَا رُوِيَ أَنَّ النَّبيّ ﷺ قَالَ للّتِي جَعَلَتْ تُوهِمُ أَنَّهَا تَقْتُلُ الصِّبْيَانَ من رَأْسٍ بأَنامِلِهَا: هَـٰذا مِنْ كَذِبِ الأَنَامِلِ.

إنَّهُمْ بتَقْدِيم ثَوْب يوسُفَ لِأَبيهِمْ مَغْمُوساً بِدَمِ تَيْسٍ مِعْزَىٰ، يَدَّعُونَ ادِّعَاءً كاذِباً أَنَّهُ دَمُ يُوسُف، وهَـٰذا ادّعاءٌ عَمَلِيٌّ كَذِب.

وأمَّا الْبُكَاءُ وَلَوْ كَانَ مَصْحُوباً بدُمُوعٍ فَهُوَ لَا يَدُلُّ على صِدْقِ الْحُزْن، لأنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ يَتَصَنَّعُونَ الْبُكَاءَ ويَتَبَاكَوْنَ وَهُمْ كاذِبُونَ مُخادِعُون، وبَعْضُهُمْ قَدْ يكُونُ قادِراً على أنْ تَفِيضَ دُمُوعُهُ تَصَنُّعاً.

المعنى: وَجاءَ إخْوةُ يُوسُفَ الْعَشَرَةُ عِنْدَ أَوَّلِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مَعَ غياب الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ يَبْكُونَ بكَاءَ مُصْطَنَعاً، هُمْ كاذِبُونَ فِيه، وحِينَ سَأَلَهُمْ أَبُوهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ سَبَبِ بُكَائِهِم؟ قالُوا لَهُ صَارِخين: يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَتَنَافَسُ فِي رِيَاضَةِ السِّبَاقِ، وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا مَجْمَعِ طَعَامِنَا وَشَرَابِنَا وَفُرُشِنَا وَأَدَوَاتِنَا، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الذِّئبُ فَقَتَلَهُ وَأَكَلَهُ، وما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ بِنا وَلَا مُصَدِّقٍ لَنَا، لِأَنَّكَ كُنْتَ تَشُكُّ فِينَا وتَخْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَّا، فَلا تأذَنُ لَنا بأَنْ نَأْخُذَهُ مَعَنا إِلَىٰ الْمَرَاعِي، حتَّىٰ أَلْححنا عَلَيْكَ بذَلِكَ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُنا؟ إِنَّكَ لَا تُصَدِّقُ مَا نَقُولُ لَكَ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِين حَقًّا، فَلا فَائِدَةَ مِنْ مُحَاوَلَتِنَا إِقْنَاعَكَ بِصِدْقِنَا، وَهَـٰذا قَمِيصُهُ مُلَطَّخٌ بِدَمِ الذِّئْبِ الَّذِي أكله، فَعَلَيْكَ أَنْ تَقْبَلَ هَـٰذا الواقِعَ، سَوَاءٌ أصَدَّقْتَنَا أَمْ لَمْ تُصَدِّقْنَا.

قَوْلُ الله تعالَىٰ حكايَةَ لمعْنَىٰ ما رَدَّ به يَعْقُوب عليه السَّلَامُ على أبنائه:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾:

- ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: **التَّسْوِيلُ**: التَّحْسِينُ والتَّزْيين، والإغْرَاءُ والتَّسْهِيلُ، والإطْمَاعُ بالباطِل.

أَمْراً: أي: أمْراً كَيْدِيًّا كِدْتُمْ بِهِ أَخَاكُمْ حَسَداً لَهُ، ولَمْ يُعْلِم اللهُ نَبِيَّهُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلام تَفْصِيلَ مَكِيدَتِهِمْ ابْتلاءً لَهُ بأحَبِّ النَّاسِ إلى قَلْبِهِ.

- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: أيْ: فَأَمْرِي الَّذِي أعْتَصِمُ بِهِ تُجاهَ مَكِيدَتِكُمْ، هُوَ صَبْرٌ جَمِيلٌ عَلَىٰ حُزْنِي الَّذِي لَا أُبْدِي فِيهِ تَضَجُّراً وَلَا جَزَعاً، ولَا أَقُولُ فِيه إلَّا مَا يُرْضِي رَبِّي.

- ﴿... وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ⑱﴾: أي: واللهُ وَحْدَهُ الَّذِي أسْأَلُهُ أَنْ يُعِينَنِي علَىٰ تَحَمُّلِ مَا تَصِفُونَ في ادِّعَائِكُمْ أكْلَ الذِّئبِ لولَدِي الحبيب، تَبْغُونَ إلقَاءَ الْيَأْسِ في قَلْبِي مِنْ طَلَبِهِ والْبَحْثِ عَنْه.

المسْتعانُ: أي: المطْلُوبُ مِنْهُ الْعَوْنَ.

مَا تَصِفُونَ: أي: مَا تَذْكُرُونَ مِنْ وَصْفِ الْحَدَثِ الَّذِي افْتَرَيْتُمُوهُ وَأَنْتُم قَدْ صَنَعْتُم غَيْرَه.

المعنى: قَالَ يَعْقُوبُ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا وَصَفْتُمْ فيما زَعَمْتُمْ، بَلْ حَسَّنَتْ وزيَّنَتْ وسَهَّلَتْ لكُمْ أنفُسُكُمُ الحاسِدَةُ لِأَخِيكُمْ أمراً آخَرَ غَيْرَ الَّذِي ذَكَرْتُمْ ووصَفْتُمْ، وهُو مَا كِدْتُمُوهُ أخَاكُمْ يُوسُفَ، وَلَا قُدْرَةَ لِي عَلَىٰ مَعْرِفَةِ الحقِيقَةِ إذَا لَمْ يُعْلِمْنِي اللهُ بها، وَلَا قُدْرَةَ لِي عَلَىٰ رَدِّ وَلَدِي الَّذِي أَحْزَنْتُمونِي بِمَا صَنَعْتُمْ بِهِ، فأَمْرِي الَّذِي أمْلِكُهُ صَبْرٌ جَمِيلٌ أعْتَصِمُ بِهِ تُجاهُ مَكِيدَتِكُمْ، وهو صَبْرٌ لَا أُبْدِي فِيهِ جَزَعاً وَلَا تَضَجُّراً، لِأَنِّي أعْلَمُ أَنَّ اللهَ الرَّبَّ الحكيم ابْتَلاني بِهِ، وأَسْأَلُ اللهُ وَحْدَهُ أَنْ يُعِينَنِي عَلَىٰ تَحَمُّلِ مَا تَصِفُونَ فِي حَدِيثِكُمُ المفترىٰ، بشأنِ وَلَدِي يُوسف.

وبهذا انتهى تَدبر الفصل الرابع من قصَّة يوسف من الدرس الثاني من دُروس السورة.

والحمد لله عَلَىٰ معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

التدبّر التحليلي للفصل الخامس مِنْ قِصة يوسف
الآيات من (١٩ ـ ٢١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾:

القراءات:

(١٩) ● قرأ عَاصِم، وحمْزَةُ، والكِسَائِيُّ، وخَلَف: **[يَا بُشْرَىٰ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاء العشرة: **[يَا بُشْرَايَ]** بإضافة ياء المتكلِّمِ المفْتُوحَة.

وتُفِيدُ القراءتَانِ أَنَّ وَارِدَ الْقَافِلَةِ السَّيَّارَة قَالَ: يَا بُشْرَايَ، ثُمَّ لَمَّا خَاطَبَ رِجَالَ القافِلَةِ قَال: يَا بُشْرَىٰ، لأنَّها بَشَارَةٌ لَهُ وَلَهُمْ معاً، ولَيْسَ الْغُلَامُ مِلْكاً لَهُ وَحْدَهُ، بَلْ هُو لِسَائِرِ رِجالِ القافِلة:

تمهيد:

اشْتَمَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَاتُ الثَّلَاثُ على فَضْلِ الْتِقاطِ القَافِلَةِ لِيُوسُفَ مِنَ الْجُبِّ، وَبَيْعِهِ فِي مِصْرَ عَبْداً رَقِيقاً، وبيانِ مَا امْتَنَّ بِهِ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ تَكْرِيم مَكانِ إقامَته، والتَّمْكِينِ لَه، ومَنْحِهِ أَسْبَابَ تعَلُّمِهِ تَأْوِيلَ الأحْلامِ الصَّادِقَةِ الَّتِي هِي مِنْ قَبِيلِ الْأَحَادِيثِ والَّتِي هِي من اللهِ عَزَّ وجلَّ، ولَيْسَتْ أَضْغَاثَ أَحْلَام، ولَا هِيَ مِنْ قَبِيلِ أحاديث النَّفْسِ للنَّفْسِ، مَعَ تَعْلِيقٍ رَبَّانِيّ مُلَائِمٍ لِأَحْدَاثِ هَـٰذا الفصل.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

بدأ هَـٰذا الْفَصْلُ بالعطف على الْفَصْل السَّابق من فُصُول قِصَّةِ يوسف عَلَيهِ السَّلام، وكانَ الْفَصْلُ السَّابِقُ قَدْ وصَفَ جَعْلَ إِخْوَتِهِ لَهُ فِي غَيابَةِ الْجُبّ، وعَودَتَهُمْ إلىٰ أبيهِمْ عَشَاءً مُتَباكِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الذِّئبَ الضَّارِيَ قَدْ أَكَلَه، ومَعَهُمْ حِيلَةٌ مُفْتَراةٌ وهِيَ تَلْطِيخُهُمْ قَمِيصَهُ المتميّز بدَمِ تَيْسِ مِعْزَىٰ ذَبَحُوه.

وهُنَا يَرِدُ سُؤَالٌ: فَمَاذا كَانَ مِنْ أمْرِ يُوسُفَ بَعْدَ ذَلِك؟ وجاء الْجَوَابُ في هذا الفصل.

- ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾: أي: وجَاءَتْ قَافِلَةٌ سَيَّارَةٌ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الَّتِي يَقَعُ الْجُبُّ قَرِيباً مِنْها، ومِنْ عَادَةِ القوافِلِ أَنْ تَسْتَقِيَ من الماء الّذي هُوَ في قَعْرِها، ولَيْسَ الْجُبُّ بَعِيداً عَنْ مَسَالِكَ الطُّرُقُ، بدليلِ قولِ أخيهِم صَاحِب اقتراح وضْعِهِ في الْجُبّ: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾.

- ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾: **الوارِدُ**: السَّابِقُ الّذِي يَرِدُ الْمَاءَ لِيَسْتَقِيَ لِرِفَاقِهِ، أو جَمَاعَتِهِ، أَوْ أَهْلِهِ.

أي: وَجَاءَتْ قَافِلَةٌ سَيَّارَةٌ مُحْتَاجَةٌ لاسْتِقَاءِ الماءِ مِنَ الْجُبِّ، فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ لِيَسْتَقِيَ لهم مِنْ مَائِها.

- ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾: أي: لِيَمْتَح بِهِ مَاءً مِنَ الْجُبّ. **الدَّلْوُ**: ظَرْفٌ يُرْبَطُ الرِّشَاءُ بِهِ لإدْلَائِهِ فِي الْبِئْرِ واسْتِخْرَاجِ الماءِ به، ولفْظُهُ مؤنَّث، وقَدْ يُذَكَّرُ.

- ﴿قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ **[يَا بُشْرَايَ]** وقَدْ سبَقَ بَيَانُ التكامُلِ بيْن القراءَتَيْنِ.

أي: فَمَتَحَ دَلْوَهُ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدِ امْتَلأَ مَاءً، وإنْ كَانَتْ حُمولَتُهُ أَثْقَلَ مِمَّا يَحْتَوِي الدَّلْوُ مِنْ مَاء، فَلَمَّا رَأَىٰ يوسُفَ رَاكِباً الدَّلْوَ ومُسْتَمْسِكاً بالرِّشَاءِ، قَالَ: [يا بشراي هذا غلام] أي: أَتَّخِذُهُ عبداً رَقيقاً وأَبِيعُهُ، وبَعْدَ ذَلِكَ أَدْرَكَ أَنَّهُ وَارِد رِفَاقِهِ فَهُوَ لَهُ وَلَهُمْ، فَقَالَ: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌۚ﴾: أي: يَا بُشْرَىٰ لِي وَلَكُمْ أَيُّها الرِّفَاقُ، هَذَا غُلَامٌ نَسْتَرِقُّهُ، ويَدُلُّ عَلَىٰ هَـٰذا مَا سَيَأْتِي من أَنَّهُمْ أَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وبَاعُوهُ بثَمَنٍ بخسٍ.

الْبُشْرَىٰ: اسْمٌ للشَّيْءِ الَّذِي يُبَشَّرُ بِهِ.

الْغُلَامُ: الصَّبِيُّ مُنْذُ وِلَادَتِهِ وحَتَّىٰ سِنِّ الْبُلُوغ، ويَظْهَرُ أَنَّ يُوسَفَ كَانَ عُمْرُهُ مِنْ (١٠ ـ ١٤) سنة، ودُونَ البلُوغ.

والنّدَاء بحرف النِّدَاء «يا» هُنَا، هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: يَا فَرْحَةُ ويَا مَسَرَّةُ احْضُرِي لاسْتِقْبَالِ بُشْرَىٰ، هَـٰذا غُلَامٌ نَسْتَرِقُّهُ، إِذْ هُوَ مُلْتَقَطُهُمْ مِنَ الْجبِّ.

- ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةًۚ﴾: أي: وأَخْفَاهُ أَصْحَاب الْقَافِلَةِ حَتَّىٰ لَا يَكْتَشِفَهُ أَهْلُهُ في تِلْكَ الْأَرْضِ فَيُطَالِبُوا بِهِ، واعْتَبَرُوهُ بِضَاعَةً مِنَ الْبَضَائِعِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا للاتِّجار بها[1]. **بضاعةً**: منْصُوبَةٌ على أَنَّها حَال.

الْبِضَاعَةُ: مَا يُتَّجَرُ بِهِ، وجَمْعُها «الْبَضَائِعُ».

- ﴿... وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ⑲﴾: تَدُلُّ هَـٰذِهِ الجملَةُ بأسْلُوب كنائِيٍّ على أنَّ الله ـ جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُتَابِعُ بِتَدْبِيراتِه مَا يَعْمَلُهُ الَّذِينَ أَخْفَوْا يُوسُفَ على أَنَّهُ بِضَاعَةٌ مُعَدَّةٌ للبيع، لِيُوصِلَهُ إِلَىٰ مِصْرَ، ويُنْزِلَهُ

---

(١) جاء عند الإسرائيليّين في الإصحاح (٣٧) من سفر التكوين: «واجْتَازَ رِجالٌ مِدْيَانِيُّونَ تُجَّار ـ فَسَحَبُوا يُوسُفَ وأَصْعَدُوهُ مِنَ الْبِئر وباعُوا يُوسُفَ لِلْإسْمَاعِيلِيِّين بِعِشْرِينَ من الفضّة. فأتوا بِيُوسُفَ إلى مِصْر (٢٩).
وفيه قبل هذا: «وإِذَا قَافِلَةُ إِسْمَاعِلِيينَ مُقْبِلَةٌ مِنْ جِلْعَادَ، وجِمَالُهُمْ حَامِلَةٌ كَثِيراء وبلسَاناً ولَاذَناً ذاهبين لِيَنْزِلُوا بها إلى مِصْرَ.

فِيهَا مَنْزِلاً كرِيماً، ثُمَّ لِيَجْعَلَهُ صَاحِبَ الْكَلِمَةِ الأولىٰ مِنْ دُون مَلِكِهَا، آمراً وناهِياً وَمُتَصَرِّفاً.

قول الله تعالى:

- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

فعل «شَرَاهُ» يأتي بمعنَىٰ «بَاعَهُ» يُقَالُ لغة: «شراهُ، يَشْرِيهِ، شِرىً» أي: باعَهُ، ويأتي بمعنَىٰ: أخَذَهُ بثَمَن، وهَـٰذا المعْنَىٰ يُقَالُ فِيهِ: «اشْتَرَاهُ».

أي: وَبَاعَهُ رِجالُ الْقَافِلَةِ فِي مِصْرَ بِثَمَنٍ بِخْس، أي: بِثَمَنٍ نَاقِصٍ عَمَّا يُبَاعُ بِهِ نَظِيرُهُ من الأَرِقَّاءِ حِينَ بَاعُوهُ، وفِي المكان الّذِي بَاعُوهُ فِيه، فالثَّمَنُ الّذِي بَاعُوهُ بِهِ دَرَاهِمُ مَعْدودَة.

- ﴿... وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وكانُوا غَيْرَ رَاغِبِينَ في الاحْتِفَاظِ بِهِ، وغَيْرَ مُقَدِّرِينَ لِقِيمَتِهِ الّتي يُشْتَرَىٰ مِثْلُهُ بِمِثْلِهَا.

يُقَالُ لُغَةً: «زَهِدَ فُلانٌ فِي الشَّيْءِ» أي: تَرَكَهُ عازفاً عَنْهُ، مُحْتَقِراً له، لَا يَرَىٰ لَهُ قِيمَةً جدِيْرَةً بالاحْتِفَاظِ به. ورُبَّما كان هَـٰذا لأَنَّ رِجالَ الْقَافِلَةِ التِّجَارِيَّةِ شُرَكَاءُ فيه، أو لا يَعْرِفُونَ قيمَة أمْثالِهِ، ورُبّما لم يُظْهِرْ يُوسفُ من نَفْسِهِ مَا يُرَغِّبُ في الاحْتِفَاظِ به، أَوْ يَدُلُّ علىٰ نَجابَتِهِ ليتَخلَّصَ منهم.

قول الله تعالَىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾:

جاء في الإصْحاح (٣٩) من سفر التكوين عِنْدَ الإسْرائيلِيِّين أَنَّ الّذي اشْتَرَىٰ يُوسُفَ فِي مِصْرَ مِنْ قَافِلَةِ الإسْمَاعِيلِيِّين رَئِيسُ الشُّرَطِ، واسْمُهُ «فُوطِيفَار» وجاء في هذه السُّورَةِ وصْفُهُ بالعَزِيز، أي: صاحِبُ القوّة الغالبة، وهذا الوصف يلائم رئيس الشرطة.

أي: وقال الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِزَوْجَتِهِ: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾: أي: اجْعَلِي مَكَانَ إقامَتِهِ مَكاناً كَرِيماً.

المثْوَىٰ: مَكَانُ الإقامَةِ. يُقَالُ لغةً: «ثَوىٰ بِالْمَكَانِ، يَثْوِي، ثَوَاءً، وثُوِيًّا»، أي: أَقَامَ بِهِ واسْتَقَرَّ.

والمثْوَىٰ الكَرِيم: هُوَ الجامعُ لأحْسن صِفاتِ أَمْكِنَةِ الإقامَةِ في دار السَّكن، وهو بلوازِمِهِ يَشْمَلُ الْمُعَامَلَةَ الكريمَةِ كمُعَامَلَةِ الْأُمِّ لِوَلَدِها.

• ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: أي: فإذَا أكْرَمْتِ مَثْواهُ وأحْسَنْتِ تَعَامُلَكِ مَعَهُ، فإنَّنَا نَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنَا مَنافع حَسَنَةً، بما وَهَبَهُ اللهُ مِنْ أَمَارَاتِ النَّجَابَةِ والصِّفاتِ الخُلُقِيَّةِ الفاضِلَة، أو نَتَّخِذَهُ ولَداً لَنَا بالتَّبنِّي، ويَظْهَرُ أَنَّهُمَا لَمْ يُنْجِبَا، فَهُمَا يُرِيدَانِ وَلَداً لهما بالتَّبنِّي يكُون نَجِيباً وَبَارّاً بهما، وقَدْ كانَ التَّبَنِّي أمراً مَقْبُولاً ونِظَامِيًّا عُرفاً، لَكِنْ جاء الإسْلَامُ فَأَلْغَاهُ.

• ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أيْ: وكَذَلِكَ التَّكْرِيم الَّذِي تَحقّقَ لَهُ في بَيْتِ الَّذِي اشْتَرَاهُ، مَكَّنَ اللهُ لَهُ بَعْدَ سِنِينَ في أَرْضِ مِصْرَ، ويَظْهَرُ أَنَّ هَـٰذا بِسَبَبِ عِلْمِ الناسِ، بمالَهُ من حُظْوَةٍ وَتَمَكُّنٍ لَدَىٰ رَئِيسِ الشُّرْطَةِ عَزِيزِ مِصْرَ، وهَـٰذا تَعْوِيضٌ لَهُ عَمَّا فَعَلَ بِهِ إخْوَتُهُ.

التَّمكِين: الإقْدَارُ عَلَىٰ التَّصرُّفِ الْمُوصِلِ إلَىٰ تَحْقِيقِ المطْلُوب، مَعَ التَّثبيتِ في المكانِ المعْنوِيّ، والْقُدْرَةِ علىٰ التَّحرُّكِ فِيه بِحُرِّيَّة.

• ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: أي: ولِنُعلِّمَهُ بِسَبَبِ التَّمكِينِ الَّذِي مَكَّنَّا لَهُ فِي مِصْرَ بَعْضاً مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحْلَام الصَّادِقَةِ الَّتِي هي مِنْ نَوْعِ الْأَحَادِيثِ الرَّبَّانِيَّة، الَّتِي قَدْ يُلْقِيهَا أو يَرْمُزُ إلَيهَا مَلَكٌ مُكَلَّفٌ بإلْقَاءِ أَحَادِيثِ الْأَحْلَام في النفوس الإنْسَانِيّة، حِينَ يَكُونُ الإنْسَانُ نَائِماً، إنَّ التَّمْكِينَ الَّذِي وهَبَهُ اللهُ إيَّاهُ بسَبَبِ كَوْنِهِ ذَا حُظْوَةٍ عِنْدَ عَزِيزِ مِصْرَ، جعَلَهُ يَسْتَمِعُ إلَىٰ ما يَراهُ عِلْيَةُ الْقَوْمِ في أَحْلامِهِمْ، ويُرَاقِبُ بِذَكَائِهِ مَا يَتَحَقَّقُ لَهُمْ بَعْدَها، أو

يتحقَّقُ للمعنِيِّينَ بها، ويَرْبط بَيْنَ مَا تَحقَّقَ وبَيْنَ رُمُوزِ الأحْلَامِ، لاكْتِشَافِ دَلَالَاتِها الرَّمْزِيَّة، وَفتَحَ اللهُ بَصِيرَتَهُ، حَتَّىٰ صَارَ يُدْرِكُ كثيراً من رُمُوزِ الأحْلَامِ ودَلَالَاتِها، وبالفتح الرَّبَّانِيّ مَع دِقَّةِ الملاحَظَةِ الَّتِي وَهَبَهُ اللهُ إيَّاهَا فِي فِطْرَتِهِ علَّمَهُ مِقْداراً وَافِراً من تأْويلِ الأحاديث.

التَّأْوِيلُ: بَيَانُ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ الشَّيْءُ، أي: يَرْجِعُ أو يَصِير.

- ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾: أي: واللهُ عَزَّ وجَلَّ غَالِبٌ كُلَّ مُغَالِبٍ لِمَقَادِيرِه، قَدِيرٌ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ وأصْدَرَ بِهِ أمْرَ التنفيذ.

الْغَالِبُ: هُوَ الْقَدِيرُ عَلَىٰ إحْبَاطِ كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ مُعَانِدُ مُرَادِه.

وأَمْرُ الله: هو أَمْرُهُ التَّنْفِيذيُّ لقضاءٍ مسْبُوقٍ بتَقْدِير، ومن أصُولِ الإيمان باللهِ، الإيمانُ بالحقيقةِ التاليَة: إِنَّما أَمْرُه إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُول لَهُ: كُنْ فَهُو يَكُونُ. ولَوْ عَارَضَ كُلُّ أصْحَابِ الْقُدْرَاتِ تنفِيذَ أمْرِه.

فالمعنى: واللهُ غالِبٌ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ تَنْفِيذِ أَمْرِهِ كُلَّ مُعَانِدٍ ومُعَارِض ومُغَالِبٍ لَا يُرِيدُ مَا أراده الله.

جاءَ هَـٰذا الْبَيَانُ فِي أواسِط ذِكْرِ قِصَّةِ يُوسُف، الَّتِي أَجْرَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيها مَقَادِيرَهُ، لِيُحقِّقَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا الْحَقُّ الَّتِي رَآهَا يُوسُف، وَكَانَ هَـٰذا مِنْ خِلَالِ تَدْبِيرِ إِخْوَتِهِ العشَرَةِ أمْرَ إِبْعَادِه عَنْ أبيهِ، حَتَّىٰ لَا تَكُونَ لَهُ السِّيَادَةُ والرِّيَاسَةُ عَلَيْهِم، فَعَنْ طَرِيقِ الْبِئْرِ الَّذي طَرَحُوهُ فِيه لِيَخْلُوَ لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ، أَوْصَلَهُ اللهُ بألْطَافه إلى بَيْتِ عَزِيزِ مِصْرَ، ومكَّنَ لَهُ فِي أرْضِ مِصْرَ بِظِلِّ الْعَزِيزِ، وسَيُوصِلُهُ إِلَىٰ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ بَعْدَ كُرْسِيِّ مَلِكِ مِصْرَ، وَلَمْ يَنْسَ أَبُوهُمْ وَلَدَهُ يُوسُفَ، ولَمْ تَخلُ لَهُمْ قُبَالَةُ وَجْهِهِ، وحقق اللهُ مُرَادَهُ، وغَلَبَ بِقُدْرَتِهِ علَىٰ تَنْفِيذِ مُرَادِه، فأحْبَطَ مَا صَنَعَهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ مِنْ تَدْبير.

فَمِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ: أَنَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أمْرِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ أي: لَا يَعْلَمُونَ هَٰذِهِ الحقيقة فَيُعَانِدُونَ سُنَنَ اللهِ، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ بَيَانَاتُهُ الصَّرِيحَةُ أو الرَّمْزِيَّة، فَيُحَاوِلُونَ بِتَدْبِيرَاتِهِمْ ومَكَايِدِهِمْ تحْقِيقَ مُرَادَاتِهِمْ، كَأَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَىٰ إِحْبَاطِ تَدْبِيرات الله لتحقيق مراده وتنفيذ أمْره.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّرُ الفصل الخامس من قصة يوسف.

والحمدُ لله على معونَتِهِ ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

التدبر التَّحْليليّ للفصل السادس من قصة يوسف
الآيات من (٢٢ ـ ٢٩)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ (٢٩)﴾:

القراءات:

(٢٣) • قرأ نَافع، وَابْنُ ذَكْوَانَ، وأَبُو جَعْفر: **[هِيتَ لَكَ]** بفتح التاء.

وقَرَأَها هِشام: [**هِئْتَ لَكَ**] بالهمزة الساكنة وفَتْحِ التاء، أي: تَهَيَّأْتُ لَكَ.

وقَرَأها ٱبْنُ كثير: [**هِيْتُ لَكَ**] بالياء المدّيّة وضَمِّ التّاء.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَةِ: [**هَيْتَ لَكَ**] بِفَتْحِ الهاءِ وإسْكان الياء وفتح التاء.

ومُؤَدَّى القراءات هذه ما عَدَا: [**هِئْتُ لَكَ**] واحِدٌ، لِأَنَّهَا لُغَاتٌ بِمَعْنَىٰ: هَلُمَّ. تَعَالَ. وهي اسْمُ فِعْلٍ بهذا المعْنَىٰ. أما «هِئْتُ لَكَ» فَهِي بمعنى: تَهَيَّأت لك.

(٢٣) ● قَرَأَ نَافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جَعفر: [**رَبِّيَ أَحْسَنُ**] بفَتْحِ يَاءَ المتكلّم. وقرأهَا باقي القرّاء العشرة بالإسْكَان.

(٢٤) ● قرأ ٱبْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وٱبْنُ عَامِرٍ، ويَعْقُوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللام، اسْم فاعل، وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**المخْلَصِينَ**] بفَتْح اللّام، اسْم مَفْعُول. وبيْنَ القراءتَيْن تَكَامُلٌ فِي أَدَاء المعْنَىٰ المراد.

(٢٩) ● قرأ أَبُو جَعْفر: [**الْخَاطِينَ**] بحَذْف الهمزة بعد الطاء، وهو لُغَة.

وقرأها بَاقي القرّاء العشَرَةِ: [**الْخَاطِئِينَ**] بإثبات الْهَمزَةِ بَعْدَ الطَّاء.

تمهيد:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ وهي الفصل السادس من قصَّة يوسف عليه السلام، بَيَانٌ لِحَدَثٍ ذِي شَأْنٍ تَعرَّضَ لَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ، واكْتَمَلَتْ رُجُولَته، وَهُوَ مُراوَدَةُ زَوْجَةِ الْعَزِيزِ الَّذِي اشْتَرَاهُ رَقِيقاً، عَنْ نَفْسِهِ لِيُعَاشِرَهَا بالْجِمَاعِ، فَقَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، وأرادَتْ أَنْ تُلْزِمَهُ

بِالْعُنْفِ فَفَرَّ مِنْهَا إلى جِهَةِ الْبَابِ، وَشَدَّتْهُ مِنْ قَمِيصِهِ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ شَدّاً عَنِيفاً تَمَزَّقَ بِهِ الْقَمِيصُ، وعِنْدَ بُلُوغِهِ الْبَابَ كَانَ سَيِّدُهَا الْعزِيزُ قَدْ حَضَرَ بِقَضاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فَبَادَرَتْ واتَّهَمَتْ يُوسُفَ بأَنَّهُ أَرَادَ بِهَا سُوءاً، فَكَشَفَ يُوسُفُ الحقيقَةَ، وعَرَفَ سَيِّدُها أَنَّهَا هِيَ المذْنِبَة فَطَلَبَ مِنْ يُوسُفَ أَنْ يُعْرِضَ عَنْ هَـٰذا الْأَمْرِ الَّذِي جَرَىٰ، وطَلَبَ مِنْ زَوْجَتِهِ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِذَنْبِهَا وَأَبَانَ لَهَا أَنَّها مِنَ الْخَاطِئِينَ خطأً لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا الرِّجَال، أَمَّا النِّسَاءُ فَتمْنَعُهُنَّ أُنوثَتُهُنَّ عَنْ أَنْ يَصِلْنَ إِلَىٰ مِثْلِ هَـٰذا الَّذِي وَصَلَتْ إليه.

التدبُّر التحليلي:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾: أي: وحِينَ بَلَغَ دَرَجَةَ اكْتِمَالِهِ المقدَّرِ لَهُ، بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْها، ونَضِجَتْ رُجُولَتُهُ.

الْأَشُدُّ: الاكْتِمَال، وأَشُدُّ كُلِّ شَيْءٍ اكْتِمَالُ تَنامِيهِ بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الْقَابِلَة للاكْتِمَالِ، فَاكْتِمَالُ كُلِّ شيءٍ يَكُونُ بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الْقَابِلَةِ للتنامي. والاكْتِمَالُ في النُّمُوِّ الْبَشَرِيِّ يَتَنَاوَلُ مُخْتَلِفَ الْقُوَىٰ والصِّفَاتِ الْجَسَدِيَّةِ، والْفِكْرِيَّةِ، والنفْسِيَّة، عَلَىٰ وَفْقِ الْهِبَاتِ الفِطْرِيَّةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ كُلَّ نَفْسٍ عَلَيْها.

- ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾: **الْحُكْم**: فِقْهُ الأُمُور، ومَعْرِفَةُ الْحَقِّ والْبَاطِلِ وَحُدُودِهِما، ومَعْرِفَةُ الْخَيْرِ والشَّرِّ وحُدُودِهِمَا، والْحَسَنِ والسَّيِّءِ وَحُدُودِهِما، والْجَمِيلِ والْقَبِيحِ وَحُدُودِهِما.

وبناءً عَلَىٰ فِقْهِ الأُمُورِ يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أَحْكَامَهُ الْعِلْمِيَّةَ، وَأَحْكَامَهُ الْقَضَائِيَة، مُطَابِقَةً لِلْحَقِّ والْعَدْلِ والْخَيْرِ والْأَحْسَنِ والأفْضَلِ، بِمِقْدَارِ اسْتِطَاعَتِهِ الْبَشَرِيَّة.

فالمعنىٰ: آتيْناهُ بِفَضْلٍ مِنَّا فِقْهاً في الْأُمُورِ يُمكِّنُهُ مِنْ إصْدار الْأَحْكَام الْعِلْمِيَّةِ والْقَضائِيَة بِدرجةٍ مُمْتَازَة. وَآتَيْنَاهُ عِلْماً فَضَّلْنَاهُ بِهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِنا.

- ﴿... وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾: أي: آتينا يوسف حُكماً وَعِلْماً لِأَنّهُ كَانَ مُحْسِناً، قَدِ ارْتَقَىٰ في عِبَادَاتِه إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، فَجزَيْنَاهُ عَلَىٰ إحْسَانِهِ جَزَاءً مُعَجَّلاً بِأَنْ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً، وَكَذٰلِكَ الْجَزَاءِ الْمُعَجَّلِ الَّذِي جَزَيْنَاهُ إِيَّاهُ، نَجْزِي كُلَّ الْمُحْسِنِين مَا تَوالَتِ الْعُصُور، وتَتَابعَتِ الْأَجْيَالُ.

قول اللهُ تعَالَىٰ:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

- ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾: **المراوَدَةُ**: طَلَبُ الرَّجُلِ مِنَ المرأَةِ أَنْ يَفْجُرَ بِهَا، أَوْ طَلَبُ المرأةِ مِنَ الرَّجُلِ ذَلِكَ، وقَدْ يَكُونُ الطَّلَبُ بالحركَاتِ الإغْرائِيَّة. يُقَالُ لُغَةً: «رَاوَدَهُ، يُراوِدُهُ، مُراودَةً، ورِوَاداً، عَنِ الْأَمْرِ، وعَلَىٰ الأمْر» أي: طَلَبَ مِنْهُ فِعْلَه.

واخْتِيرَ التعبيرُ بعبارة: ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ دُون سائر البدائل للإشعار بأنها ذَاتُ أمْرٍ يَنْبَغِي أنْ يطاعَ مَعَ مَا للمخالَطةِ من إثارَةٍ، وإزالةٍ للحواجز النفسية.

عَنْ نَفْسِهِ: أي: عَنْ أن يَفْعَلَ هُو نَفْسُهُ مَعَها فاحِشَةَ الجمَاع لعِشْقها له.

- ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾: أيْ: وَشَدَّدَتْ فِي إحْكَام إغْلاقِ الْأَبْوَابِ المتَعَدِّدَةِ حَوْلَ الْحُجْرَةِ أو الْغُرْفَةِ الَّتِي هَيَّأَتْها للمُضاجعَةِ والْمُجامَعَة.

- ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾: أي: وقَالَتْ بِصَرِيحِ العبارَةِ الكلامِيَّةِ هَلُمَّ تَعَالَ إليّ، ورُبَما كانَتْ قَدِ اضطَّجَعَتْ وَكَشَفَتْ عَنْ مَفَاتِنِها. وقالَتْ لَهُ أيْضاً: [**هِئْتُ لَكَ**]: أيْ تَهَيَّأْتُ لَكَ تَهَيُّؤَ الْأُنْثىٰ لِمُعَاشِرِهَا الذَّكر.

- ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾: أي: عِياذاً بِاللهِ وَلُجُوءاً إِلَيْهِ، واعْتِصَاماً به لحمايَتِي ووقايَتِي من الوقُوعِ بهذا الإثْمِ العظيم.

وإضافة «مَعَاذ» إلى لفظ الجلالَة، هو على معنَىٰ: أَطْلُبُ إعاذَةَ اللهِ لي، والنَّصْبُ في «مَعَاذَ» على أنَّهُ مفعولٌ مطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ تقْديره: أَعُوذُ مَعَاذَ اللهِ.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾: يَظْهَرُ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ بِعِبَارَتِهِ مَعْنَيَيْنِ مَعاً: **أَوَّلُهُمَا**: يَتَعَلَّقُ بِاللهِ رَبِّهِ الَّذِي أَحْسَنَ إِقَامَتَهُ في بَيْتِ عزيزِ مِصر، بَعْدَ أَنْ خَلَّصَهُ مِنْ وَرْطَةِ الْبِئْر. **وثَانِيهِما**: يَتَعَلَّقُ بِالْعَزِيزِ رَبِّ الْبَيْتِ، فَهُوَ رَبُّهُ، أَيْ: مَالِكُهُ بِمُقْتَضَىٰ الاسْتِرْقَاق، فَقَدْ أَحْسَنَ مَثْوَاهُ فِي بَيْتِهِ، يُشِيرُ بهذا إلىٰ قَوْله لامْرَأتِهِ حِينَ قَدِمَ بِهِ إِلَيْهَا رَقِيقاً: ﴿**أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ**﴾.

ولَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ يوسُفُ قد قالَ نَظِيرَ هَـٰذِهِ العبارةِ ذات المعْنَيْين باللّغة الّتي كان المِصْرِيُّونَ يَتَكَلَّمُونَ بها في ذلِك الزّمَان، ورُبَّما كانت تعْبِيراً قرآنيًّا مُوجزاً، أَوْجَزَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ به عبارَتَيْنِ قالَهُما يوسف في عبارة واحدَة، مِثل: إنَّ الله أحْسَنَ مَثواي، وإنَّ العزيز أحْسَنَ مثواي.

- ﴿... إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾: أي: إِنَّهُ لَا يَظْفَرُ ولا يَفُوزُ بِسَعَادَاتِهِمُ الظَّالِمُونَ المتجاوِزُونَ حُدُودَ رَبِّ الْعَالَمِين، والمتجاوزون حُدُودَ الْحَقِّ والْوَاجِب.

الْفَلاحُ: الظَفَرُ والْفَوْزُ في عَاقِبَةِ الْأَمْر.

الظُّلْمُ: تَجاوُزُ الْحَدِّ الّذِي يَجِبُ عَقْلاً أَو دِيناً عَدَمُ تجاوُزِه.

فأبانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لامْرَأَةِ الْعَزِيزِ أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي تَدْعُوهُ إِلَيْهِ ظُلْمٌ كبيرٌ عُقُوبَتُهُ الْحِرْمَانُ مِنَ الْفَلاح.

وأَبَانَ لَهَا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لِأَنْ يَقَعَ بهذا الظُّلْم، مَهْمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ شبقُهُ.

واسم امْرأة الْعَزِيزِ هَـٰذِهِ في كُتب الْعَرَبِ: «زَلِيخَا» وعِنْدَ الإسْرَائيليّين «رَاعِيل».

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي الْقِرَاءة الْأُخْرَىٰ: [**إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا الْمُخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللَّام.

فأثْبَتَتِ الْقِرَاءَتَان أَنَّهُ مُخْلِصٌ لِرَبِّهِ صَادِقُ الإخْلَاصِ في تَصرُّفَاتِه ومَكْسُوبَاتِهِ يَبْتَغِي بِهَا رِضْوَانَ اللهِ وَثَوَابَهُ الجزيلَ الْكَرِيمَ، وهُوَ مُخْلَصٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ، صَفَّاهُ اللهُ وَنَقَّاهُ من الشوائب، واخْتَارَهُ واصْطَفَاهُ نَبِيًّا رَسُولاً.

- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ...﴾:

الْهَمُّ بالْعَمَلِ: رَغْبَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَمْ تَصِلْ إلى مُسْتَوَىٰ الإرادة الجازمة، يُقَالُ لُغَةً: «هَمَّ فُلَانٌ بِأَنْ يَفْعَلَ كَذَا» أي: رَغِبَ بِقُوَّةٍ في أَنْ يَفْعَلَهُ، لَكِنْ لَمْ تَصِلْ إِرَادَتُهُ الْجَازِمَةُ إلىٰ مُسْتوىٰ التَّنْفِيذ.

فالْهَمُّ حَرَكَةٌ نَفْسِيَّة فَوْقَ تَوجُّهِ النَّفْسِ ورَغْبَتِها السَّاكِنَةِ، ودُونَ الإرَادَةِ الجازِمَةِ الباعِثَةِ عَلَىٰ التَّنفِيذِ.

نَظَرْتُ في الاسْتِعْمالَات القرآنيَّة والحدِيثيَّة لمَادَّة: «هَمَّ بالأمْر، يَهُمُّ، هَمًّا» فَوَجَدْتُ أَنَّ هَـٰذه المادَّةَ تَدُورُ حَوْل معْنَىٰ تَوَجُّهِ النَّفْسِ لعَمَلٍ مَا دُونَ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ إرادَةٍ جَازِمَةٍ مُقْتَرِنَةٍ بالتَّنْفِيذ مَعَ عَدَم وجُودِ عَقَبَةٍ مَانِعَة، فَدَلَّنِي هذا عَلَىٰ أَنَّ الهَمَّ بشَيْءٍ ما هُوَ دُونَ الإرَادَةِ الجازِمَةِ الَّتِي هي مَنَاطُ المسؤوليَّة في الإسْلام.

وتَأَمَّلْتُ في عِبارَةِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ فَرَأَيْتُ أَنَّ المرادَ بِهَا أَمْرٌ غَيْرُ رَغْبَتِهَا فِي أَنْ يُعَاشِرَها بالجماع؛ لِأَنَّ هَـٰذِهِ الرَّغْبَةَ قَدْ بَلَغَتْ عِنْدِهَا مَبْلَغاً هُوَ فَوْقَ الإِرادَةِ الجازِمَةِ العادِيَّة، إِذْ بَلَغَتْ مَبْلَغَ الْعَزْمِ الّذِي يَتَحَدَّىٰ الْعقبَاتِ الَّتِي يَصْعُبُ اقْتِحامُها، إِذْ دَعَتْهُ بإغْراءاتِها، وبِصَرِيح اللَّفْظِ: «هَيْتَ لَكَ» و«هِئْتُ لَكَ».

وتأمَّلْتُ فِي عبارة: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ فرأيْتُ أَنَّ المرادَ بِهَا أَمْرٌ غَيْرُ انْدِفَاع نَفْسِهِ لمُعَاشَرَتِها بالجماع، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ قَالَ لَهَا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ وسَيأْتِي أَنَّهُ فَرَّ مِنْها مُتَّجِهاً شَطْرَ الْبَاب الْخَارِجيِّ؛ لِئَلَّا يَتَصارَعَ مَعَهَا وَهِيَ أَنْثَىٰ، وأَنَّها جَذَبَتْ ثَوْبَهُ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ فَقَدَّتْهُ: أيْ: شَقَّتْهُ طُولاً، غَضَباً وَثأْراً لِكَرَامَتِها؛ ولأنَّها سيِّدَتُهُ ويجِبُ عَلَيْه طاعَتُها عُرْفاً.

فالَّذي كانَ مِنْها بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَوضُوعِ مُراوَدَتِها لَهُ، أَقْوَىٰ مِنْ إرادَةٍ جازِمَةٍ عَادِيَّة، إِذْ كَانَ عَزِيمةً شَدِيدَةً فِيها تَحَدٍّ لِلْعَقبَاتِ، فلا يُلائمه التعبير عنه بالْهَمِّ.

والذي كان منه بالنّسْبَةِ إلى مَوْضُوعِ مُرَاوَدَتِهَا لَهُ لَمْ يَصِلْ إلى مُسْتَوَىٰ الْهَمِّ، إذْ كان مستعيذاً باللهِ بعزيمَةٍ قويّةٍ، ولا يُلَائم هذا أنْ يقال بشأنه: همَّ بالفاحشة.

ونظَرْتُ في قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في الْآيَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ فَرَأَيْتُ أَنَّ السُّوءَ الَّذِي صَرَفَهُ اللهُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ غَيْرُ الْفَحْشاءِ الَّتِي تَكُونُ بالزِّنى. وأنَّ السُّوءَ مُسْتَعْمَلٌ في القرآن للدَّلَالَة على ما يَسُوءُ، والأَصْلُ في العطف التغايُرُ لَا الترادُف⁽¹⁾. وقد اتَّهَمَت امرأة العزيز يوسُفَ أَمَام زوجها بأَنَّهُ أراد بها سوءاً، ولم تتَّهِمْهُ بأنّهُ أرادَ أن يفجُرَ بها ويفعل الفاحشة.

---

(١) وجاء في سورة (البقرة) بَيَانُ أَنَّ الشيطان يأمُرُ بالسُّوءِ والفحشاء (الآية ١٦٩) فالسُّوءُ شيءٌ، والفحْشَاءُ شيْءٌ آخر.

لكلِّ هَـٰذا رَأَيْتُ أَنَّ الصَّوابَ في التّدبُّر، هُو أنّها هَمَّتْ بِضَرْبِهِ وأَنَّهُ هَمَّ بِضَرْبِها، فَكُلٌّ مِنْهُمَا يَدْخُلُ في عُمُومِ لَفْظِ «السُّوء» وهُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.

- ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾: أي: لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَاناً جَلِيًّا مِنْ رَبِّهِ، مَنَعَهُ مِنْ ضَرْبِهَا لَضَرَبَهَا لِيَمْنَعَ عَنْ نَفْسِهِ مُحَاوَلَاتها الإِلْزَامِيَّة، فجواب لَوْلَا مَحْذُوفٌ مَطْوِيٌّ يَسْهُلُ تقديرُه متَّىٰ أَدْرَكَ المتدبّر المرادَ بالْهَمِّ.

ولَمْ يَرِدْ عَنِ المَعْصُومِ بَيَانُ هَـٰذا الْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ الَّذِي رَآه والصادِرِ عَنْ أَمْرِ رَبّه، فالواجِبُ فِي التدبُّرِ السَّلِيم عَدَمُ تَعْيِينِهِ، والأَقْوالُ في هَـٰذا مِنَ التكهُّنَاتِ الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْها، والاحْتِمالَاتُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهَا بُرْهَاناً جَلِيًّا كَثِيرَةٌ جدّاً، وتَعْيِينُ وَاحِدٍ مِنْها بلا دَلِيلٍ من الْكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ؛ لِأَنَّهُ بُرْهَانٌ مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانَه.

- ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: أي: مِثْلَ ذَلِكَ الَّذِي كانَ مِنْهُ مِنْ عِفَّةٍ عَنِ الْفَحْشَاءِ مَعَ دَوَاعِي اكْتِمَالِ أَشُدِّهِ ورُجُولَتِهِ، وإمْسَاكِ نَفْسِهِ عَنْ مُقَاوَمَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بِمَا يُؤْذِيها ضَرْباً ودَفْعاً وهيَ سَيِّدَتُهُ، ولُجُوئِهِ إِلَىٰ الْهَرَبِ، كَانَ مِنَّا لَهُ عَوْنٌ وتَثْبِيتٌ وتَقْوِيَةٌ لِعَزِيمَتِهِ، لِنَصْرِفَ عَنْهُ الْوُقُوعَ بالسُّوءِ الَّذِي يُدَانُ بِهِ فِيمَا لَوْ ضَرَبَها، أو دَفَعَهَا عَنْهُ بِعُنْفٍ قَدْ يُؤْذِيها بِه، فيَكُون دَلِيلاً ضِدَّه، ولِنَصْرِفَ عَنْهُ الْوُقُوعَ بالْفَحْشَاءِ الَّتِي هي مِنْ كبائِرِ الإِثْمِ.

﴿... إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ والمخْلِصِينَ، لَقَدْ أَخْلَصَ في عِبَادَتِهِ لَنَا، فَاصْطَفَيْنَاهُ وَجعَلْنَاهُ مِنْ عِبَادِنَا المخْلَصِين.

تَحْرِير معنىٰ مادّة (الْهَمّ) في النُّصوص:

ظهر لي بالتَّتَبُّع للنُّصُوصِ القرآنيَّةِ والْحَدِيثيَّة أَنَّ مادَّة «هَمَّ بالأَمْرِ، يَهُمُّ، هَمًّا» تَدُلُّ عَلَىٰ تَوَجُّهِ النَّفْسِ لِعَمَلٍ ما، دون أَنْ يَصِلَ هَـٰذا التَّوَجُّهُ

إلى إرادةٍ جازِمَةٍ دافِعَةٍ إلىٰ التَّنْفيذِ، مَعَ عَدَم وُجُودِ عقبَةٍ تَمْنَعُ مِنْه.

يأْتِي الْهَمُّ بالأَمْرِ فَوْقَ مُسْتَوىٰ الرَّغْبَةِ المجرَّدَة، فَهُوَ أَوَّلُ الحَرَكَةِ النفسيَّةِ لِتَقْرِيرِ تَنْفِيذِ مَا اتَّجَهَتِ الرَّغْبَةُ لَهُ، ويَبْدُو أَنَّهُ دُونَ مُسْتَوىٰ القرار الإرَادِي الجازم، فهو وسَطٌ بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَتَوَجُّهِ الإرادَةِ الجازمة، ولهذا كَانَ الْهَمُّ الَّذِي لم يَصِلْ إلى مُسْتَوىٰ الإرادة الجازمة مَعْفُوّاً عَنْهُ في حَالَةِ الْهَمِّ بالْمَعْصِيَة، أمَّا في حالة الْهَمِّ بِفِعْلِ الحسَنَةِ دُونَ التَّنْفِيذِ، فإنَّ الله عزَّ وجَلَّ يَثِيب عليه بقُوَّةِ حَسَنَةٍ وَاحِدَة، دُونَ مُضاعَفَةٍ إلىٰ عَشْر حَسَنَاتٍ، أَمَّا عِنْدَ التنفيذِ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُضاعِفُهَا إلى عَشْرِ حَسَنَاتٍ، وكُلُّ هَـٰذا مِنْ فَضْلِ اللهِ تعالى.

أدلَّةٌ من القرآن:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ . . .﴾:

في بيانِ حَادِثَةِ هَـٰذا الْهَمّ ذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ عدَّة أقوال، مِنْها: محاوَلَةُ اليهود اغْتِيالَ الرسُول ﷺ. وقِيلَ: نَزَلَت فِي كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ وَأَصْحَابِهِ حِينَ هَمُّوا بأَنْ يَغْدُرُوا بمحمد ﷺ وبأَصْحَابِهِ فِي دَارِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ.

وظاهِرٌ أَنَّ هَـٰذا الْهَمَّ لَمْ يَصِلْ إلى مُسْتَوىٰ الْقَرَارِ الجازِم، وأَنَّ الله عَزَّ وجَلَّ قَدْ صَرَفَهُ بأَلْطَافِه.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

هٰـذا النصّ يُشِيرُ إلىٰ مَوْقِعَةِ أُحُدٍ كَمَا ذَكَرَ جُمْهُور المفسّرين، أمَّا الطَّائِفَتَان اللَّتَانِ هَمَّتَا بالفَشَل، فَقَدْ روىٰ الْبُخاري عن عُمَر، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله يَقُول: فِينَا نَزَلَت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآيِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ...﴾ الآية. قال: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ «بنُو حارثة» و«بَنُو سَلَمة» وَمَا يَسُرُّنِي أنَّها لم تَنْزِلْ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

فَهاتَانِ الطَّائفتَان قَدْ هَمَّتَا أَنْ تَفْشَلَا، أي: هَمَّتَا بِعَمَلٍ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إلى الْفَشَلِ، ولَكِنَّ هَمَّهُمَا لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ مُسْتَوىٰ الْقَرار الإرادِيِّ الجازم، فَلَمْ يَتَخَلَّ اللهُ عَنْ وِلَايَتِهِمَا.

(٣) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول)

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ... ۝٥﴾.

أي: وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بأَنْ يَأْخُذُوا رَسُولَهم ويَقْتُلُوه، ولَكِنَّ هَمَّهُمْ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ مُسْتَوَىٰ القرار الجازم، إلَّا في أَمْثِلَةٍ مَعْدُودَةٍ، ومِنْ قِبَلِ بَعْضِ الْأَفْراد، ولكِنَّهُ كَانَ نُزُوعاً قَوِيًّا بَلَغَ دَرَجَةَ أَوَّلِ الحركاتِ النفسيَّة المتَّجِهَةِ لتحقيقِ مَا رَغِبُوا فِيه.

(٤) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ مُشْرِكِي مَكَّةَ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ... ۝١٣﴾:

من المعْروفِ في أَخبار السِّيرةِ النبويَّةِ أَنَّ فَرِيقاً مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ قَد دَبَّرُوا مَكِيدَةَ قَتْلِ الرَّسُولِ ﷺ، لَكِنَّ مُعْظَمَ المشْرِكِينَ قَدْ حَصَلَ في نُفُوسِهِمْ هَمٌّ بإخْراجِهِ مِنْ مَكَّةَ ولَمْ يَفْعَلُوا، إذْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إرادَةٌ جازِمَةٌ بَلَغَتْ مَبْلَغَ أَمْرِهِ بأن يَخْرُجَ، فكَانَ خُرُوجُهُ ﷺ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي حَاوَلَ فِيها مُدبِّرُو قَتْلِهِ تَنْفِيذَ مَكِيدَتِهِم.

أدِلَّةٌ مِنَ السُّنَّة:

(١) روىٰ البخاري ومُسْلمٌ عن عبد اللهِ بْنِ عباس، عن الرَّسُول ﷺ، فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ، قال:

«إنَّ اللهَ تَعالَىٰ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَات، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ تَعالَىٰ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشَرَ حَسَنَاتٍ إلى سَبْعمائَةِ ضِعْفٍ، إلَىٰ أضْعَافٍ كَثيرة، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً واحِدَةً».

فَدَلَّ هَـٰذا الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ الْهَمَّ بِفِعْلِ الحَسَنَةِ أَوْ بِفِعْلِ السَّيِّئَة قَدْ لَا يَصِلُ إلى مُسْتَوىٰ الإرادَةِ الجازمَة، فَلَا يَقْتَرِنُ بالتَّنْفِيذ، لَكِنْ تَفَضَّل اللهُ عَلَىٰ عبادِهِ المؤمنين فَجَعَلَ الْهَمَّ بفِعْل حَسَنَةٍ مَأْجُوراً بِقُوَّةِ حَسَنَةٍ وَاحِدَة، لَكِنْ إذا فَعَلَهَا بإرادَةٍ جَازِمَةٍ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَكْتُبُهَا عِنْدَهُ بِقُوَّةِ عَشْرِ حَسَنَاتٍ إلَىٰ سَبْعمائَةِ ضِعْفٍ إلَىٰ أضْعَافٍ كثيرة. وجَعَلَ الْهَمَّ بِفِعْلِ سَيِّئَةٍ أَمْراً مَعْفُوّاً عَنْهُ؛ لِأَنَّ الْهَمَّ لَمْ يَصِلْ إلى مسْتَوَىٰ الإرادة الجازِمَة، لَكِنْ إذا فَعَلَهَا بإرادَةٍ جازِمَة فإنّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَكْتُبُهَا عِنْدَه بِقُوَّةِ سَيِّئَةٍ واحِدَةٍ فقط.

(٢) وروى البيهقيُّ في سُنَنه الكبرى بسنَدِهِ عن أبي وائلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَة قَالَ: جَلَسْتُ إلَىٰ شَيْبَةَ بْنِ عثمان في المسْجِدِ الحرامِ فَقَالَ لي جَلَسَ إلَيَّ عُمَرُ بن الخطّاب رضي اللهُ عنْهُ مَجْلِسكَ هَـٰذا فَقَالَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتْرُكَ صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إلَّا قَسَمْتُهَا «يَعْنِي الكعْبَةَ» قالَ شَيْبَةُ فَقُلْتُ إنَّهُ كَانَ لَكَ صَاحِبَانِ فَلَمْ يَفْعَلاهُ: رَسُولُ اللهِ ﷺ وأبو بَكر رضي الله عنه، فقال عُمَرُ هُمَا المرْءَانِ اقْتَدي بِهِمَا.

وأَخْرَجَهُ الْبُخَارِي في الصحيح مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثوري.

فاسْتَعْمَلَ فِعْلَ «هَمَمْتُ» فيما لَمْ يَصِلْ عِنْدَهُ إلى دَرَجَةِ الإرادة الجازِمَة.

(٣) وروى مسلم، وأحمد وغيرُهُما، عن عُرْوَة، عن عَائِشَة، عن حذامَة بنت وهب أخْتِ عكاشة قالت: حَضَرْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ في ناسٍ وَهُو يَقُولُ:

«لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أنْهىٰ عَنِ الغِيلَةِ، فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ، فإذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ وَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئاً».

يُقَالُ لغة: «غالَتْ، وأغَالَتِ المرأةُ وَلَدَهَا» أي: أرضَعَتْهُ الْغَيْل، وهو اللّبَنُ الَّذي تُرْضِعُهُ المرأةُ وهي حامل.

فجاء في هذا الحديث استعمالُ فعل «هَمَمْتُ» فيما هو دون الإرادة الجازمَة.

وهكذا كُلُّ ما وَرَدَ من الأحاديث التي فيها فِعْلُ: «هَمَّ، يَهُمُّ».

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾:

- ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾: أي: وأَسْرَعَ كُلٌّ مِنْ يُوسُفَ وَزَوْجَةِ الْعَزِيزِ في سِبَاقٍ بَيْنَهُمَا قَاصِدَيْنِ الْبَاب، أَمَّا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ يُرِيدُ أنْ يَفْتَح الْبَابَ ويَفِرَّ، وأمَّا امرأةُ الْعَزِيز فَهِيَ تُرِيدُ أن تَحْجُزَ بَيْنَهُ وبَيْنَ البَاب لِتَمْنَعَهُ مِنَ الخروج.

- ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾: أي: وشَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ فَشَقَّتْهُ طُولاً. **الْقَدُّ**: القَطْعُ أَوِ الشَّقُّ طُولاً. أَمَّا القَطْعُ عَرْضاً فَهُو القَطُّ. **من دُبُرٍ**: أي: مِنْ جِهَةِ الظهر. **الدُّبُر**: عَقِبُ كُلِّ شيءٍ وآخِرُه.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ العِبَارَةُ عَلَىٰ أَنَّ يُوسُفَ كَانَ أَسْبَقَ مِنْهَا إلى جِهَةِ الباب، وَكَانَتْ هِيَ مِنْ وَرَائِهِ، فَأَمْسَكَتْ بِثَوْبِهِ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ، وشَدَّتْهُ بِعُنْفٍ لِتَمْنَعَهُ

مِنْ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ ويَفِرَّ، فَشَقَّتْهُ بِجَذْبَتِهَا طُولاً، مِنْ مَكَانِ قَبْضَتِهَا ويَتَّجِهُ الشَّقُّ إِلَىٰ أَسْفَلَ فَأَسْفَلَ حَتَّىٰ الْحَدِّ الَّذِي انْتَهَىٰ إِليه.

- ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾: أي: وَقَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ أَنْ يُصَادِفَا سَيِّدَهَا الّذِي هُو زَوْجُها لَدَىٰ الْبَابِ، يَفْتَحُهُ لِيَدْخُلَ إلى سَاحَةِ الْقَصْرِ، فَوَجَدَهُمَا فِي حَالَةٍ مُرِيبَة.

أَلْفَىٰ فُلانٌ الشيءَ: أيْ: وَجَدَهُ، ويأتي بمَعْنَىٰ وجَدَهُ مُصَادَفَة.

وأُطْلِقَ عَلَىٰ زَوْجِهَا لَقَبُ «سَيِّدِها» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الزَّوْجَ في ذَلِكَ الزَّمَانِ كَانَ يُقَالُ لَهُ «سَيِّد» على سَبِيلِ الاحْترامِ، ولأَنَّهُ الآمِرُ ذُو الْقِوَامَة في أعرافِهِمْ ونُظُمِهِمْ.

لَدَىٰ: ظَرْفُ مَكَانٍ بِمَعْنَىٰ عِنْد: وقَدْ تُسْتَعْمَلُ في الزَّمان، وهي اسم جامد، وإذا أُضِيفَتْ إِلَىٰ ضمِير قُلِبَتْ أَلِفُهَا يَاءً، مثل: «لَدَيْهِ ولَدَيْها».

- ﴿... قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾:

أَسْرَعَتِ امْرأَةُ الْعَزِيزِ لِتَسْتُرَ الْمَوْقِفَ الْمُرِيبَ الَّذِي شَاهَدَهُ عِنْدَ الْبَاب مِنْ زَوْجَتِهِ وفَتَاهُ الرَّقِيقِ يُوسُف، فَشَكَتْهُ بِأَنَّهُ أَرَادَ بِهَا سُوءاً، أي: ضَرْباً وإِيْذاءً كما سَبَقَ بَيَانُ هَـٰذا، بِسَبَبِ تَمْكِينِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي قَصْرِهِ، وعَرَضَتْ عَلَىٰ زَوْجِهَا اقْتِراحاً بِأَنْ يَسْجُنَهُ أَوْ يُعَذِّبَهُ عَذاباً أَلِيماً.

أي: قَالَتْ: لَيْسَ جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ ضَرْباً وإيذاءً إِلَّا أَنْ يُودَعَ فِي السِّجْنِ، أَوْ يُعَذَّبَ عَذاباً أَلِيماً، ولَمْ تَتَّهِمْهُ بِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ الفاحِشَة مَعَهَا؛ لِأَنَّها هِيَ طَالِبَةُ ذَلِكَ والْحَرِيصَةُ عَلَيْهِ، وما زَالَتْ حَرِيصَةً عَلَيْهِ وَتُرِيدُ إِكْرَاهَهُ عَنْ طَرِيقِ التَّهْدِيدِ بما ذَكَرَتْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهَا لِلْنِّسْوَةِ اللَّائي لُمْنَهَا وَدَعَتْهُنَّ لِإِبْداءِ عُذْرِهَا كَمَا سَيَأْتِي في الآيَة (٣٢): ﴿... وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢)﴾

قول الله تعالَىٰ:

- ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾:

- ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ﴾: أي: قَالَ يُوسُفُ لِزَوْجِهَا أَنا لَمْ أُرِدْ جَازِماً إيذَاءَهَا بِضَرْبٍ ولاَ غَيْرِه، ولَكِنْ هِيَ طَلَبَتْ مِنِّي أَنْ أُضَاجِعَهَا وَأُعاشِرَهَا مُعَاشَرَةَ الرَّجُلِ لِزَوْجَتِهِ، فآثَرْتُ الْفِرارَ إلى جِهَةِ الْبَابِ، فَلَحِقَتْنِي وَجَذَبَتْنِي لِإِكْرَاهِي علَىٰ الرُّجُوع.

لم يَفْهَمْ يُوسُفُ أَنَّ امْرأة الْعَزِيزِ تَتَّهِمُهُ بأنَّه رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِها، من قولها لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ وَلَوْ أَنَّهُ فَهِمَ هَـٰذا الْفَهْمَ لَقَالَ: «هِي الَّتِي رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي» لِيَرُدَّ عَلَيْها الاتِّهام، إنَّمَا قَالَ: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ﴾ أي: فأبَيْتُ، فأرَادَتْ أَنْ تُكْرِهَنِي لِأَنَّهَا صاحِبَةُ الأَمْرِ والنَّهْي، فآثَرْتُ الفرار عَلَىٰ المقاومَة.

- ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾: أيْ بأنَّها هِيَ الَّتِي كانَتْ تُلاحِقُهُ فِي سَاحَةِ الْقَصْرِ وَهُوَ هارِبٌ مِنْهَا إِلَىٰ جِهَةِ الْبَابِ الْخَارِجِي، فَدَلَّ هَـٰذا عَلَىٰ أَنَّهُ فَتَحَ بَاباً دَاخِلِيًّا مِنَ الأَبْوَاب الَّتِي غَلَّقَتْها وَخَرَجَ مِنْهُ إِلَىٰ سَاحَةِ الْقَصْرِ، وهيَ سَاحَةٌ مُعَرَّضَةٌ لِأَنْ يُوجَدَ فِيها بَعْضُ سُكانِ الْقَصْرِ وَمُرْتَادِيه.

أهل الإنسان: أَقارِبُهُ وعشيرتُهُ وأَصْحَابُهُ، وقَدْ يَشْمَلُ الْخَدَم.

وَهُنَا لَا بُدَّ أَنْ تُكَذِّبَ المرْأَةُ الشَّاهِدَ، وتَعْكِسَ الْقَضِيَّةَ، وتَزْعُمَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يُلَاحِقُهَا، فَقَالَ الشَّاهِد:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن

كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: دَعُوا شَهَادَتِي، وَخُذُوا بأَدِلَّةِ آثَارِ الواقِعَةِ، فَمِنْ آثَارِهَا أَنَّ ثَوْبَ يُوسُفَ قَدْ قُدَّ عِنْدَ اسْتِبَاقِهِمَا الْبَابَ، فإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي لَحِقَهَا وَهِيَ فَارَّةٌ مِنْهُ وَأَدْرَكَهَا عِنْدَ الْبَابِ فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ قَدْ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ، أي: مِنْ جِهَةِ صَدْرِهِ، إِذْ تَدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهَا، وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الَّتِي لَحِقَتْهُ وَهُوَ فَارٌّ مِنْهَا فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَجْذِبَ ثَوْبَه مِنْ جِهَةِ ظَهرِهِ، فَيَكُونَ قَدُّهُ مِنْ دُبُرٍ.

وسَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا أَنَّ **الْقَدَّ** هُوَ الْقَطْعُ أَو الشَّقُّ طُولاً.

فإِنْ كانَ الْقَدُّ مِنْ قُبُلٍ كَانَ دَلِيلاً عَلَى صِدْقِها، ودَلِيلاً عَلَىٰ أَنَّهُ كَاذِبٌ في ادِّعَائِهِ مِنَ الكاذبين. وإِنْ كَانَ الْقَدُّ مِنْ دُبُرٍ كَانَ دَلِيلاً على صِدْقِهِ، ودَلِيلاً عَلى أَنَّهَا كَاذِبَةٌ فِي ادِّعَائِها.

المرادُ بالْقَمِيص: الثَّوْبُ الذي يَشْتَمِلُ على الْجَسَدِ كُلِّهِ، ويُطْلَقُ على الشِّعَار وهُو يكون تَحْتَ الدِّثار.

- ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: نَظَرَ زَوْجُهَا الْعَزِيزُ فِي قَمِيصِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، فرأَىٰ أَنَّهُ قُدَّ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ لَا مِنْ جِهَةِ صَدْرِهِ، فَأَدْرَكَ صِحَّةَ شَهَادَةِ الشَّاهِدِ، وأَنَّهَا هِيَ الَّتِي كانَتْ تُلاحِقُه، وأَدْرَكَ صِدْق قَوْلِ يُوسُفَ: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

فَوَجَّهَ كلامَهُ لِزَوْجَتِه:

﴿... قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾: أي: إِنَّ اتِّهَامَكِ لِيُوسُفَ بِأَنَّهُ أَرَادَ بِكِ سُوءاً مِنْ ضَرْبٍ ونَحْوِهِ هو كَيْدٌ مِنْكِ، وهو مِنْ صِنْفِ كَيْدِكُنَّ أَيَّتُها النِّسَاءُ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ.

الكَيْد: تَدْبِيرُ أَمْرٍ فِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه. ويُطْلَقُ على الْحِيلَةِ. ويَكُونُ بالحقِّ أو بالْبَاطِلِ، وَبالْخَيْرِ أَوْ بالشَّرّ.

وأرَادَ الْعَزِيزُ بإدَارَتِهِ الحكيمَةِ طَيَّ الْحَادِثَةِ وَعَدَمَ إشَاعَتِها فَقَالَ:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: أعْطِهِ عَارِضَكَ وَتَجَاهَلْهُ كَأَنَّهُ لم يَكُن.
- ﴿... وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: والْتَفَتَ إلى زَوْجَتِهِ فَقَالَ لَهَا هَٰذا الْقَوْل.

الاسْتِغْفَار: طَلَبُ سَتْرِ الذَّنْبِ، ويَلْزَمُ مِنْهُ عَدَمُ المؤاخَذَةِ عَلَيْه.

الْخَاطِىءُ: هُوَ المذْنِبُ عَنْ عَمْدٍ.

وذَكَرَ أَنَّهَا من الْخَاطِئِينَ وهو جَمْعُ مُذَكَّرٍ سَالِم، للدَّلَالَةَ عَلَىٰ أَنَّ جُرْأَتَهَا فِي المراوَدَةِ الصَّرِيحَةِ إِنَّما يَفْعَلُهَا الرِّجَالُ، أَمَّا النِّسَاءُ فَيَقْتَصِرْنَ عَلَىٰ الإغْرَاءَاتِ بالحركات والزِّينَةِ والتخضُّعِ فِي الْقَوْلِ وإبْدَاءِ المفاتِن.

ولَا نَمْلِكُ دَلِيلاً عَلَى أنَّ المصْرِيين يومَئِذٍ كَانَ لَدَيْهِمْ دِينٌ رَبَّانِيٌّ، يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الزِّنا، وَيَسْتَغْفِرُونَ رَبَّهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ في الفواحِش أو من الاتِّهَام بالباطل، أو غيرِ ذلِكَ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الْفَصْل السّادس من قصّةِ يوسف.

والحمد لله على مَدَدِهِ وتوفيقه ومَعُونَتِه وفَتْحِهِ.

* * *

التدبّر التحليليّ للفصل السابع من قصة يوسف

الآيات من (٣٠ ـ ٣٥)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ

وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾:

القراءات:

(٣١) ● قرأ أبو جعفر: **[مُتَّكاً]** بحَذْفِ الْهَمْزَةِ وإِبْقَاءِ التَّنْوين.

وقرأها باقِي القرّاء العشرة: **[مُتَّكأً]** بإثْبَاتِ الْهَمْزَةِ والتَّنْوين.

(٣١) ● قرأ أَبو عَمْرو، وعَاصِم، وحمزة، ويَعْقُوب: **[وَقَالَتِ اخْرُجْ]** بِكَسْرِ التاء. وقرأهَا بَاقِي القراء العشرة: **[وَقَالَتُ اخْرُجْ]** بِضَمّ التَّاء. وهما وجْهَان عَرَبِيَّان.

(٣١) ● قَرأ أبو عَمْروٍ فِي الْوَصْلِ: **[حَاشَىٰ لله]** بإثْبَاتِ الْألف بَعْدَ الشّين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[حَاشَ لله]** بحذْفِ الألف بَعْدَ الشِّين وقفاً ووصْلاً.

(٣٣) ● قرأ يعْقُوبُ هُنَا خاصَّةً **[السَّجْنُ]** وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[السِّجْنُ]** على أنّه اسْمُ المكانِ الّذِي يُسْجَنُ فيه.

تمهيد:

في هَـٰذا الْفَصْل بَيانُ أَبْرَزِ أَحْدَاثِ انْتِشَارِ خَبَرِ حُبِّ امْرأَةِ الْعَزِيز، لِفَتَاهَا الرَّقِيقِ «الْعِبْرَانِيّ» في عِلْيَةِ الْقَوْمِ ولَا سيما بَيْنَ نِسَائِهِمْ.

وَمَا فَعَلَتْهُ امْرأَةُ الْعَزِيزِ لإسْكَاتِ أَلْسِنَةِ النِّسْوَةِ اللَّائِي لُمْنَها.

وَمَا بَدَا لِلْعَزِيزِ وأَهْلِ مَشُورَتِهِ مِنْ سَجْنِ يُوسُفَ لِسَتْرِ الْوَرْطَةِ الَّتِي سَقَطَتْ فيها زَوْجَتُهُ، وإيقَافِ انْتِشَارِها في المجتمع المصْرِي حِينَئذٍ، حَتَّىٰ إِذَا نُسِيَتِ الحادِثَةُ وسَكَتَ النَّاسُ عَنِ الْحَدِيثِ فيها أخْرجُوه سِرّاً.

التدبُّر التحليلي:

قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ الشَّاهِدَ الَّذِي شَهِدَ لِيُوسُفَ مِنْ أَهْلِ امْرَأَةِ الْعَزِيز، أو مَنْ كَانَ مَعَهُ، قَدْ نَقَلَ الْخَبَرَ لِبَعْضِ خَاصَّتِهِ واسْتَكْتَمَهُ إِيَّاهُ، لَكِنَّ هَـٰذا قَدْ تَحَدَّثَ بِهِ لِبَعْضِ خَاصَّتِهِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ فِي المجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ أَنَّ كُلَّ سِرٍّ جَاوَزَ الاثْنَيْنِ شَاعَ.

وَوَصَلَ النَّبَأُ إِلَىٰ نِسْوَةِ عِلْيَةِ الْقَوْمِ، فَعَظُمَ عِنْدَهُنَّ أَنْ تَعْشَقَ امْرأَةُ الْعَزِيزِ فَتَاهَا الْعَبْدَ الرَّقِيقَ عِنْدَها، فِصِرْنَ يَتَحَدَّثْنَ بِأَمْرِهَا لَائِمَاتٍ لَهَا عَلَىٰ مَا سَقَطَتْ فِيهِ، وَيُعْلِنَّ أَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ بِحَسَبِ مَا يَرَيْنَ، إِذْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ مِثْلِهَا وَهِيَ امْرَأَةُ عَزِيزِ مِصْرَ أَنْ تَعْشَقَ عَبْداً رَقِيقاً خَاضِعاً لِسُلْطَتِهَا فِي قَصْرِهَا، هَـٰذا أَمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ غَيْرُ مَعْهُودٍ لَدَىٰ نِسَاءِ عِلْيَةِ الْقَوْمِ وسَرَاتِهِمْ.

نِسْوَة: عَلَىٰ صِيغَةِ جَمْعٍ مِنْ جُمُوعِ الْقِلَّة، وهي «فِعْلَة» وهَـٰذا الْجَمْعُ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ مثل «نِسَاء».

[تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ]: يَظْهَرُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكَرِّمُونَ خَاصَّةَ عَبِيدِ كِبَارِ القوم، فيقولُون: هُوَ فَتَاهُمْ. ومعنى الفَتَىٰ في اللُّغَةِ الشَّابُّ.

وجاء اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ المضارع ﴿تُرَٰوِدُ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهَا ما زَالَتْ تَدْعُوه إِلَىٰ مُضَاجَعَتِهَا ومُعَاشَرَتِهَا مُعَاشَرَةَ الأزواج.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾: أي: أصابَ قَلْبَها حُبُّهُ: «**حُبًّا**»: تَمْييز مُحَوَّلٌ عَنْ فَاعِل.

الشَّغافُ: غِلافُ الْقَلْبِ، أَوْ سُوَيْداؤُهُ وَحَبَّتُه، وجَمْعه «شُغُف».

﴿... إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾: أكَّدْنَ ضَلالَها الواضِحَ عَمَّا يَجِبُ لِأَمْثالِهَا فِيما يَرَيْنَ، بالمؤكّداتِ: «إنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ واللام المزَحْلَقَة».

ويَظْهَرُ أَنَّهُنَّ جعَلْنَ يُشِعْنَ النَّبأَ لِتَشْوِيهِ سُمْعَتِها فِي المدينة، وَذُكِرَ أَنَّها مَدِينَةُ «مَنْفِيس» قاعِدَةِ مِصْرَ السُّفْلَىٰ.

قول الله تَعالَىٰ:

● ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾:

● ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: أي: فحِينَ سَمِعَتْ كلامَ مَنْ أَخْبرَهَا، بأنَّ النِّسْوَة اللَّواتِي تَعرِفُهُنَّ يَلُمْنَها مُتحدِّثاتٍ بأنَّ امْرَأَة الْعَزيزِ ما زَالَتْ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ، وَهَٰذا أَمْرٌ مُسْتَهْجَنٌ مِنْها جدًّا، إذْ لَا يَلِيقُ بِمِثْلِهَا وَهِي زَوْجَةُ عَزيزِ مِصْرَ، أَنْ تَعْشَقَ عَبْداً هُوَ فِي بَيْتِها وَتَحت سُلْطَانِ أَمْرِهَا وَنَهْيِها، هَلَّا عَشِقَتْ شَاباً مِنْ أَبْنَاءِ سَرَاةِ المصْرِيِّينَ وَذَوِي السُّلْطَانِ فِيهم.

وهَٰذا مِنْهُنَّ مَكْرٌ يُرِدْنَ بِهِ التَّشْهِيرَ بِسُمْعَةٍ سَيِّئَةٍ لها.

فَلَمَّا سَمِعَتِ الْخبرَ بِمكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ تَدْعُوهُنَّ إِلَىٰ طَعَامٍ عِنْدَها، غَداءٍ أَوْ عَشاءٍ.

● ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾:

وأعْتَدَتْ: أي: وأعَدَّتْ وَهيَّأت بعِنايَةٍ.

مُتَّكأً: أيْ: مَا يَتكِئْنَ عَلَيْهِ عِنْدَ جُلُوسِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ وشَرَابِهِنَّ، ويَظْهَرُ أَنَّهُ كانَ مَقْعَداً طَوِيلاً ذَا حَشَايَا صَالحاً لِأنْ يَتَّكِئْنَ عَلَيْها، فأُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظ «مُتَّكأ» بالإفْراد.

وتَهْيِئَةُ المتَّكأِ فِي دَعْوَةٍ إلَىٰ طَعَامٍ وشَرَابٍ يَسْتَدْعِي أَنْ تَضَعَ خِوَاناً أَمَامَهُ، لِتَجْعَلَ مَا أَعْتَدَتْ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ عَلَيْه.

- ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾: أي: لِتَقْشِيرِ أَوْ تَقْطِيعِ الْفَاكِهَةِ، ولَعَلَّهَا جعَلَتْهَا حَادَّةَ الشَّفَرَاتِ، لتكُونَ سَرِيعَةَ الْقَطْع.

- ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾: أي: وقَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ حِينَ بَدَأْنَ يُقَطِّعْنَ الْفَاكِهَةَ لِيَأْكُلْنَ مِنْهَا، اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، وظَاهِرٌ أَنَّهَا لَا تَأْمُره بأَنْ يَخْرُجَ مِنْ غُرْفَتِهِ إلَىٰ مَكَانِ مُتَّكَئِهِنَّ، إلَّا إذَا كَانَ فِي أَحْسَنِ زِينَةِ الشَّبَابِ المكْتَمِل.

- ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: أي: فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَعْظَمْنَهُ، وَدَهِشْنَ مِنْ فَرْطِ حُسْنِهِ، فَقَدْ آتَاهُ اللهُ شَطْرَ الْحُسْنِ، مَعَ رُجُولَةٍ مُكْتَمِلَةٍ مَلَكَتْ قُلُوبَهُنَّ، فَجَرَتْ سَكَاكِينُهُنَّ مِنْ تَقْطِيعِ الْفَاكِهَةِ الَّتِي في أَيْدِيهِنَّ، إلىٰ تَجْرِيحٍ لِأَيْدِيهِنَّ وَهُنَّ لَا يَشْعُرْنَ مِنْ شِدَّةِ دَهْشَتِهِنَّ بِمَا رَأَيْنَ.

- ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وسَالَتْ دِمَاءُ جِرَاحَاتِهِنَّ، ولَعَلَّهُنَّ أَخَذْنَ يُعَالِجْنها، مَسْحاً وَضَغْطاً ولَفّاً بِالْمَنَادِيلِ.

- ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ وفي القراءة الأخْرَىٰ: **[حَاشَىٰ لله]**:

جاءَ في لِسَانِ الْعَرَب لابْنِ منظور: «حَاشَىٰ للهِ، وحَاشَ للهِ» أي: «بَرَاءَةً للهِ، ومَعَاذاً للهِ» والمعْنَىٰ: نَبْرَأ إلى الله مِنْ قُدْرَتِنَا عَلَىٰ مُقَاومَةِ هَـٰذا الْجَمَالِ والشَّبَابِ المكْتَمِلِ، دُونَ أَنْ تَتَأَثَّر أنْفُسُنَا وقُلُوبُنَا بِعِشْقِهِ والتَّعَلُّقِ

الشَّدِيدِ بِهِ. ولُجُوءاً للهِ لِيُعِيذَنَا مِنْ تَأْثِيرِ هَـٰذا الْحُسْنِ الَّذِي لَمْ نَشْهَدْ نَظِيرَهُ وَلَا قَرِيباً مِنْهُ على أفْئِدَتنا.

- ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾: «ما» هنا عَامِلَةٌ عَمَلَ «لَيْسَ» على لُغَةِ أَهْلِ الحجاز إبَّانَ التنزيل. و«هَـٰذا» اسْمُها. و«بَشَراً» خَبرُها.

قُلْنَ هذا لِأَنَّهُنَّ لَمْ يَسْبِقْ لَهُنَّ أَنْ شَهِدْنَ بَشَراً على مِثْلِ هَـٰذا الْجَمَالِ الْبَدِيعِ الرَّائع الَّذِي يَمْتَلِكُ عَوَاطِفَ الْقُلُوب.

﴿... إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾: إنَّ النَّاسَ يتَخَيَّلُون أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْكِرَامَ حِسَانُ الْوُجُوهِ والأجْسَام حُسْناً فَائِقاً، فتبَادَرَ لِأَذْهَانِهِنَّ أنْ يَصِفْنَهُ بِأَنَّهُ كَمَلَكٍ كَرِيمٍ، أيْ: جَامِعٍ لِأَكْمَلِ صِفَاتِ الْحُسْنِ وأَسْنَاها.

بِخِلَافِ الْجِنِّ والشَّيَاطِينَ، إذْ يَتَخَيَّلُهُمُ النَّاسُ قَبِيحِينَ، مُخِيفِينَ، مُرْعِبين.

عِنْدَئِذٍ اسْتَغَلَّتِ امْرَأَةُ الْعَزِيز دَهْشَتَهُنَّ مِنْ حُسْنِهِ، وتَقْطِيعَهُنَّ أَيْدِيَهُنَّ.

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾:

أي: فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي في حُبِّهِ الَّذِي دَخَلَ إلىٰ سُوَيْدَاءِ قَلْبِي وَأَنْتُنَّ لَمْ تَرَيْنَهُ، هُوَ هَـٰذا الَّذِي أَدْهَشَكُنَّ لَمَّا رَأَيْتُنَّهُ، وَقَطَّعْتُنَّ أَيْدِيكُنَّ ذَاهِلَاتٍ وأَنْتُنَّ تُقَطِّعْنَ الْفَاكِهَةَ، أَفَأُلَامُ عَلَىٰ أَنَّهُ شَغَفَنِي حُبًّا.

عِنْدَئِذٍ لَا بُدَّ أَنْ يَقُلْنَ لَهَا جَمِيعاً: لَا لَوْمَ عَلَيْكِ فِي أَنْ تُحِبِّيهِ حُبًّا يَمْلِكُ بِقُوَّةٍ نَفْسَكِ وَقَلْبَكِ، وَلَا لَوْمَ عَلَيْكِ فِي أَنْ تُرَاوِدِيهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَوْ كُنَّا بَدَلَكِ لَفَعَلْنَا مِثْلَمَا فَعَلْتِ، وكانَتْ تَعْلَمُ صِفَاتِ نِسَاءِ مُجْتَمَعِهَا، فَقَالَتْ لَهُنَّ لِيُعِنَّهَا عَلَىٰ إِقْنَاعِهِ وإِخْضَاعِهِ لِطَلَبِهَا:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾: أي: فاشْتَدَّ فِي عِفَّتِهِ وَعِصْمَةِ نَفْسِهِ

عَنِ الْوُقُوعِ في الْخَطِيئَة، دَلَّتِ السِّينُ والتَّاءُ عَلَىٰ الشِّدَّةِ فِي عِصْمَةِ نَفْسِهِ وامْتِنَاعِهِ عن الاستجابَةِ لِمُرَاوَدتها له.

ويَظْهَرُ أَنَّهُنَّ تَعاطَفْنَ مَعها، فَجعَلْنَ يُعَطِّفْنَهُ عَلَيْها لِيُلَبِّيَ طَلَبَها، حَتَّىٰ لَا يُؤَثِّر حُبُّهَا الشَّدِيدُ لَهُ عَلَىٰ عَقْلِهَا فَتُجنَّ، فَلَمَّا رَأَتْ مِنْهُنَّ هَـٰذا الْعَطْفَ عَلَيْها، قَالت:

- ﴿... وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أيْ: بِـــــهِ ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

أَقْسَمَتْ أمَامَ صَوَاحِبِها النِّسْوَةِ وَبِحَضْرَةِ يُوسُف، أنْ تَعْمَلَ على سَجْنِهِ وإِذْلَالِهِ وإِهَانَتِه، إِنْ لَمْ يُطِعْهَا فِيما تَأْمُرُهُ بِه.

اللَّام في ﴿لَئِنْ﴾ وَاقِعَةٌ في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بنُونِ التَّوْكيد الثَّقِيلَةِ. ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بِنُونِ التَّوْكِيدِ الْخَفِيفَةِ، ويُوقَفُ عَلَيْهَا بالْألف.

الصَّاغر: الذليل الوضيع المهان.

ولمَّا سَمِعَ يُوسُفُ هَـٰذا التَّهْدِيدَ، وَرَأَىٰ أَنَّ النِّسْوَةَ اللَّائِي كُنَّ لَائِمَاتٍ لَها، صِرْنَ مُحَرِّضَاتٍ لَهُ عَلَىٰ الاسْتِجَابَةِ لِطَلَبِها، تَوَجَّهَ لِرَبِّهِ دَاعِياً:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

لَقَدْ آثَرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ السِّجْنَ «وَفِي القراءة الأُخْرَى: السَّجْنَ، مَصْدَرُ: سَجَنَهُ سَجْناً» عَلَىٰ الْوُقُوعِ في فَاحِشَةِ الزِّنى الَّتي تُطَالِبُهُ بِهَا امْرَأَةُ الْعَزيز، وَيُؤَازِرُهَا فِي الْحَثِّ والْإِقْنَاعِ صَوَاحِبُهَا النِّسْوَة.

فَقَالَ: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْوُقُوعِ في كَبِيرةِ الزِّنى الَّذِي يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَقَدْ كَثُرَ الضَّغْطُ عَلَيَّ، وَإِنْ لَمْ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ، باتِّخَاذِهِنَّ مُخْتَلِفَ الْوَسَائِلِ والْحِيَلِ والضُّغُوطِ النَّفْسِيَّة، لإِغْرَائي وإِقْنَاعِي

واسْتِثَارَةِ شَفَقَتِي، فَإِنَّنِي أَمِيلُ إلى الاسْتِجَابَةِ لَهُنَّ فأَقَعُ في مَعْصِيَتِكَ، وأَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ، الَّذِينَ تَشْتَدُّ فِيهِمْ حَرَارَةُ الشَّهْوَةِ، فَيَقَعُونَ فِي الإِثْمِ.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: مِنْ فِعْلِ «صَبَا، يَصْبُو، صَبْواً، وصَبْوَةً» أي: مَالَ إِلَىٰ اللَّهْوِ، والصَّبْوَةُ إِلَيْهِنَّ هُو الْمَيْلُ إلى الاسْتِمْتَاعِ بما حَرَّمْتَهُ من ارتكاب فاحِشَةِ الزِّنى. وفعل ﴿أَصْبُ﴾ مجزُومٌ على أَنَّهُ جوابُ الشَّرْطِ وجزاؤه.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾: أَصْلُ الْجَهْلِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ جَهْلاً، أي: اشْتَدَّ غَلَيَانُها، وهُوَ ضِدُّ تَحَلَّمَتْ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ الرِّجَالِ مكْتَمِلِي الرُّجُولَة، مَا للشَّهْوَةِ إِلَىٰ النِّسَاءِ مِنْ غَلَيَانٍ شَدِيدٍ دَافِعٍ إلى مُعَاشَرَتِهِنَّ.

ويُطْلَقُ الجهْلُ عَلَىٰ الغضب، والسَّفَهِ، وعلى عَدَمِ الْعِلْم بالشيء.

قول الله تعالى:

- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: فعَجَّلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَهُ إِجَابَةَ دُعَائِهِ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَ امرأة الْعَزِيز، وكَيْدَ صَوَاحِبهَا النِّسْوَةِ اللَّائي حَاوَلْنَ بِوَسَائِلِهِنَّ الضَّغْطَ عَلَيْهِ، لِيُلَبِّيَ طَلَبَ امْرَأَةِ الْعَزِيز.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: إِنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ صَوْتٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعَ في الْوُجُودِ كُلِّه، وَهُوَ وَحْدَهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شيء.

وفي ذِكْرِ هَـٰذا تَذْكِيرٌ بِبَعْضِ عَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانِيَّة، وتَرْسِيخٌ لَهَا في قُلُوبِ المؤمِنِينَ، وَرَبْطٌ لظَاهِرَةِ اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ بما يُلائِمُهَا مِنَ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة، مَعَ إِسْمَاعِ الْكَافِرِينَ والشَّاكِّينَ بما جاء في هَـٰذا البيان.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ نِسْبِيًّا أَخَذَتْ أَنْبَاءُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَفَتَاهَا تَشِيعُ وتَفْشُو، وهَـٰذا مِمَّا يُشَوِّهُ سُمْعَةَ الْعَزِيز رَئِيس الشُّرْطَةِ فِي مِصْر، واسْتَمَرَّ فِيها يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَام مُسْتَعْصِماً، بَدَا لِلْعَزِيز وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَنْصَارِهِ وأَهْلِ مَشُورَتِهِ أَنْ يَسْجُنُوا يُوسُفَ، لِيُلْصِقُوا بِهِ التُّهمَة، وَيُوقِفُوا فُشُوَّ النَّبَأ، عَلَىٰ الرُّغْم من أَنَّهُمْ رَأَوْا آيَاتِ براءَةِ يوسف، وإدانة امرأَةِ العزيز.

فأَقْسَمُوا لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ، يَكُونُ فِيه النَّبَأُ قَدْ نُسِيَ، وسَكَتَتْ عَنْ تَنَاقُلِهِ الْأَلْسِنَةُ والْأَسْمَاعُ، فَسَجَنُوهُ.

فَاعِلُ ﴿بَدَا﴾ مَطْوِيٌّ يُفْهَمُ مِنَ السِّياق. أي: بَدَا لهم أن يَسْجُنُوهُ والـلَّامُ في ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ واقِعَةٌ في جواب قَسْمٍ مَنْوِي، أي: وأقْسَمُوا لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِين.

وفي الْعِبَارَةِ مَطْوِيٌّ ثَالِثٌ وهُو: فَسَجَنُوهُ.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الفصل السابع من قِصَّةِ يوسف.

والحمْدُ لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

التدبّر التحليلي للفصل الثامن من قِصَّةِ يوسف
الآيات من (٣٦ ـ ٤٢)

قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ
وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ
﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ
ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾:

القراءات:

(٣٦) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[إِنِّيَ أَرانِي]** بفتح ياء المتكلّم من «إِنِّي» في الموضعين، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

(٣٦) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر بفتح ياء المتكلّم من **[أَرانِيَ أَعْصِرُ]** و**[أَرانِيَ أَحْمِلُ]**. وقرأهما باقي القراء العشرة بالإسكان.

(٣٦) • أبْدَلَ الهمزة أَلِفاً من: **[رَاسِي]** السُّوسي، وأبو جعفر، وكذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[رَأْسِي]** بإِثْبَاتِ الهمزة.

(٣٦) • أبْدَلَ الْهمزة ياءً مِنْ: **[نَبِّينا]** أبو جعفر. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَبِّئْنَا]**.

(٣٧) • قرأ ابْن وِرْدان: **[تُرْزَقَانِه إلاّ]** بِكَسْرِ الْهَاءِ مِنْ غَيْرِ صِلَة.

وقرأها باقي القرّاء العشرَة بالكَسْرِ مَعَ الصِّلَة.

(٣٧) • قرأ السُّوسِي، وأبو جَعْفر: **[نَبَّاتُكُما]** بإِبْدالِ الْهَمْزَةِ أَلِفاً، وكذلِكَ حَمْزَةُ في الوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَبَّأْتُكُما]** بإِثْبَاتِ الهمزة سَاكِنَة.

(٣٧) • فَتَح ياء المتكلّم مِن: [رَبِّيَ إِنِّي] نَافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر. وأَسْكَنَهَا بَاقي القرّاءِ العشرة.

(٣٨) • فتح ياء المتكلّم من: [آبَائِيَ إِبْرَاهِيمَ] نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامِر، وأبُو جَعْفر. وأَسْكَنَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ العشرة.

(٤١) • أبْدَلَ الْهَمْزَة ألفاً مِن: [رَاسِهِ] السّوسي، وأبو جعفر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رَأْسِهِ].

تمهيد:

في آيات هَـٰذا الْفَصْل بيانُ الأحْدَاثِ ذَاتِ الشَّأْنِ من قصَّة يوسف، خلالَ وُجُودِه في السِّجْنِ الَّذي لَبِثَ فِيهِ بِضْعَ سِنِينَ. (**البِضْع**: من ثلاث إلى عشرة).

التدبُّر التحليلي:

قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾:

الفَتَىٰ: الشّابّ أَوّلَ شبابِه، فَوْقَ المراهَقَةِ ودُونَ الرجولة، يُثَنَّىٰ على «فتَيَان» و«فتَوَان»، ويجمع على «فِتْيَان» و«فِتْيَة».

هَـٰذان الفَتَيان كانَ أَحدُهما رئِيسَ سُقَاةِ المَلِكِ، وَكَانَ الآخَرُ رئيس خَبَازِي قَصْره، فأذْنَبَا فَسَخِطَ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِما، فأمَرَ بسَجْنِهِما، فاجْتَمَعَا فِي السِّجْنِ مع يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، على ما ذكر الإسرائيلِيُّون.

وعُرِفَ يُوسُف بَيْنَ السُّجَنَاءِ بأنَّهُ يُعَبِّرُ الأحْلَام، فَيَجْرِي الْوَاقِعُ عَلَىٰ وَفْقِ تَعْبِيرِه.

فَرأىٰ رَئِيس سُقَاةِ الْمَلِكِ في حُلْمِهِ أَنَّهُ يَعْصِرُ الْعِنَب ويَصْنَعُ مِنْهُ خَمْراً. ورأىٰ رَئِيس خَبَّازِي قَصْرِ الْمَلِكِ أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خُبزاً وأَنَّ الطَّيْرَ تَأْكُلُ مِنْه، فَقَصَّ كُلٌّ مِنْهُمَا رؤيَاهُ عَلىٰ يُوسُفَ، وطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُنَبِّئَهُ بِتَأْويله. وأَثْنَيا عَلَيْهِ بِأَنَّهُمَا يَرَيَانِهِ مِنَ الْمُحْسِنِين.

- ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ في هذه العبارة مَجازٌ مُرْسَلٌ، أي: أعْصِرُ عِنَباً يَؤُولُ أمْرُهُ إلى أَنْ يَكُونَ خَمْراً، أُطْلِقَ عَلَىٰ المعْصُورِ اسْمُ مَا يَؤُولُ إليه، باعتبار أَنَّ الغرض مِنْ عَصرِهِ أَنْ يُتْرَكَ حَتَّىٰ يَكُونَ خَمْراً.

- ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾: أي: أَخْبِرْنَا بِمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ مَا رَأَيْنَا، أَيْ: يَرْجِعُ أو يَصِيرُ إليه، بِحَسَبِ مَا تَرَىٰ مِنْ دَلَالَتِهِ الرَّمْزِيَّة.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: أي: مِنَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ في أَقْوَالِهِمْ وأفعالِهِم، ومِنَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ في تَعْبِير الرُّؤَىٰ، وأَكَّدُوا عبارتهم بـ «إنَّ - والجملة الاسمية».

الإحْسَانُ: أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ السُّلُوكِ الإنْسَانِي الاخْتِيَارِيّ.

لَكِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام لَمْ يَذْكُرْ لَهُمَا تَأْوِيلَ مَا رَأىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي حُلْمِهِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَامَ بِوَظِيفَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، مُمَهّداً بِمَا وَهَبَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ عِلْمِ مَا سَيَأْتِيهِمَا مِنْ طَعَامٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمَا.

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ . . . ٣٧﴾.

ويَظْهَرُ أَنَّهُ تركَهُمَا مُدَّةً صَارَ يُخْبِرُهُمَا فِيها عمَّا سَيأْتِيهِمَا مِنْ طَعَامٍ، مِنْ أهْلِهِمَا، أَوْ مِنَ الدائرَةِ المُكلَّفَة في الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيّ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُمَا أَرْزَاقَهُمَا مِنْ مَأْكُولٍ ومَشْرُوبٍ؛ لأَنَّهُمَا سَجِينَانِ من سُجَنَاءِ موظفي الْقَصْر، ولَمّا كان وَقْتُ مَجيءِ الرِّزْقِ مَعْلُوماً، كَانَ الإخْبارُ عَنْهُ قَبْلَ مَجِيئِهِ من التأويل، أي: ممَّا سَيؤُولُ إلَيْهِ الواقع مطابقاً للنبأ.

وَكَانَا يَتَعَجَّبانِ مِنْ أمرِهِ، كَيْفَ يُخْبِرُهُما عَمَّا سَيأْتِيهِمَا مِنْ طَعَامٍ وهُوَ سَجِينٌ مَعَهُمَا فِي السِّجْنِ، ولا يَأْتِيهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُخْبِرُهُ؟!

ويَظْهَرُ أَنَّهُمَا سَأَلَاهُ كَيْفَ تَعْرِفُ هَـٰذا الَّذي صِرْتَ تُخْبِرُنَا بِهِ دَاوماً يَوْماً فَيَوْماً، وَوَقْتاً فَوقتاً بالتَّتابُعِ، إِنَّ هَـٰذا لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ على سَبِيلِ المصَادَفَةِ؟ فقال لَهُمَا:

- ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾: أي: ذلِكُما الإِخْبارُ التَّتابُعِيُّ طَوالَ هَـٰذِهِ الْمُدَّةِ الَّتِي مَرَّتْ، هُو بَعْضُ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي.

ومِنَ مُقْتَضَىٰ طَبيعَةِ النُّفُوسِ هُنَا أنْ يَسْأَلَاهُ: أَلَسْتَ عَلَىٰ دِينِ قَوْمِنَا؟ أَلَكَ رَبٌّ غَيْرُ الرَّبِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ الشَّعْبُ المصْرِي؟.

قَالَ: نَعَمْ.

- ﴿... إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

أيْ: قَوْمُكُمَا المصْرِيُّونَ لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ رَبِّ كُلِّ شيءٍ في الْوُجُودِ سِواهُ، وخَلَقَ النَّاسَ لِيَبْلُوهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، ثُمَّ لِيُجازِيَهُمْ عَلَىٰ مَا كَسَبُوا أَوِ اكْتَسَبُوا فِي رِحْلَة امْتِحَانهم، وهَـٰذا الجزاء يكُونُ في الحياة الْآخِرَةِ، الَّتِي قَدَّرَهَا وقَضَاهَا في خُطَّةِ التكْوين. وقَوْمُكُما هُمْ بالحَياةِ الآخرة هَـٰذِهِ هُمْ كافِرُونَ، وسَيُلَاقُونَ مَصِيرَهُمْ حتماً في عذاب جَهَنَّمَ دَارِ تَعْذِيبِ الكافِرِينَ المجْرِمين؛ لأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم ولم يَسْتَجِيبُوا لدعوتهم.

س: إذاً فَمَاذَا اتَّبعْتَ مِنْ دِينٍ غَيْرِ دِينِ قَوْمِنَا؟. ج: تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمِكُمْ.

- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: **المِلَّة**: الدِّين والشريعة.

ويَقتضِي الحوارُ هُنَا أَنْ يَسْأَلَاهُ عَنْ آبائِهِ: إبْرَاهِيمَ وإسْحَاق ويَعْقُوبَ، وأنْ يَشْرَحَ لَهُمْ قِصَصَهُمُ المتعَلِّقَةَ بالدِّين، وترجَمَةً عَنْ صِفَاتِهِمْ، ومُجَاهَداتِهِمْ في سَبيلِ الدَّعوةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، ومَا لَاقَوْهُ من الْكَافِرِينَ المجْرِمين، وأَنَّ دِينَهُمْ قَائِمٌ عَلَىٰ تَوحِيد اللهِ في رُبُوبيَّتِهِ وفي إلٰهيَّته. وبَدَأَ بجَدِّه إبْرَاهِيمَ لأَنَّهُ أبُو الأنبياء والمرسلين من بَعْدِه، والحكمة تقتضي في مَثْلِ هذا المقام البدْءَ بالأصْلِ فَفُرُوعه.

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: أي: مَا وُجِدَ وَلَا يُوجَدُ وَلَنْ يُوجَدَ لَنا عُذْرٌ، نَحْنُ وَلَا سَائِرُ عِبَادِ اللهِ، في أَنْ نُشْرِكَ باللهِ مِنْ شيءٍ مَا.

اللّام في ﴿لَنَآ﴾ هي لَامُ الجحود، إذْ جَاءَتْ بَعْدَ كَوْنٍ مَنْفِيّ، وهَٰذه الصِّيغَةُ من أبْلَغِ صِيَغِ النَّفْي.

وحرْفُ الْجَرِّ «مِنْ» في ﴿مِن شَيْءٍ﴾ زِيدَ لتوكيد عُمُومِ كلِّ شيءٍ.

● ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي: ذَلِكَ الَّذِي هُوَ مَضْمُونُ مِلَّةِ آبَائِي فَضْلُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ النَّاسِ جَمِيعاً، إذْ بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ لِكُلِّ الْأُمَم، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ إلَّا بَعَثَ اللهُ لها رسُولاً بَلَّغَهَا رِسَالَةَ رَبِّها لِعِبَادِه، وهِي رِسَالَةُ تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبوبيَّتِهِ وفي إلٰهيَّتِهِ، وَأَنْ لَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.

● ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ مِنْذُ الْأَجْيَالِ الْبَشَرِيَّةِ الْأُولَىٰ وإلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعة، لَا يَكُونُ مِنْهُمْ شُكْرٌ لِرَبِّهِمْ عَلَى مَا يُفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ، بالإيمانِ اعْترافاً بأنَّهُ وَاحِدٌ في رُبُوبيّتِهِ، وبأنَّهُ وَاحِدٌ فِي إلٰهيَّتِهِ، وبِعِبادَةٍ مَا يُعَبِّرُونَ بها عَنْ صِدْقِ إيمانِهِمْ، وهَٰذا أدْنَىٰ دَرَجَاتِ الشُّكْرِ، بَلْ هُمْ يَكْفُرُونَ، فَيَتَّخِذُونَ لِأَنْفُسِهِمْ افْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ شُرَكَاءَ للهِ مِنْ دُونه فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ فِي إلٰهيَّتِهِ.

وصَارَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُتَابِعُ دَعْوَةَ هَٰذَيْنِ السَّجِينَيْنِ معه إلى دِينِ اللهِ الْحَقِّ، بدْءاً مِنْ عَنَاصِرِ قاعِدَةِ الإيمان الأُولَىٰ، فقال لهما فِي بَعْضِ مَجَالِسِ الدَّعْوَةِ لهما:

• ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾: أي: يَا صَاحِبَيْنِ فِي السِّجْنِ لِي، اللَّذَيْنِ أنِسْتُ فِي السِّجْنِ الْمُوحِشِ بِصُحْبَتِهِمَا، وبِمُحَادَثَتِهِمَا، وَعَرَفَا مِنْ أَمْرِي شَيْئاً مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، أُوَجِّهُ الدَّعْوَة لكُمَا إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ، بأسْلُوب الإِقْنَاعِ الْقَائِمِ عَلَىٰ مَنْطِقِ الْحَقِّ، فَأُسَائِلُكُمَا:

• ﴿... ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾:

دلَّ هَـٰذا السُّؤَالُ عَلَىٰ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ فِي زَمَانِهِ، حُكَّامَ الْأَرْضِ الَّتِي هُوَ فيها، وَجَمَاهِيرَ سُكَّانِها، يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ أَرْبَابٍ مُتَفَرِّقِين، ويَتَّخِذُونَ لَهُمْ أَوْثَاناً يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله.

فَبَدَأَهُمَا مِنْ جَذْرِ انْحِرَافِهِمَا وَانْحِرَافِ قَوْمِهِمَا عَنِ الحقِّ، وهُوَ إيمَانُهُمْ بِتَعَدُّدِ الْأَرْبَابِ.

إِنَّ سُؤَالَهُ عَنْ تَعَدُّدِ الأَرْبَاب فِي مُقَابِلِ الإِيمان بِرَبٍّ واحِدٍ لِلْكَوْنِ كُلِّهِ، يَفْتَحُ بَابَ مُنَاظَرَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ عِمَادُهَا النَّظَرُ فِي هذا الْكَوْنِ الكَبِير، هَلْ يَخْضَعُ لِنِظَامٍ وَاحِدٍ مُتَكَامِلِ الْأَجْزَاءِ، أم يَخْضَعُ لِأَنْظِمَةٍ مُتَعَدِّدَة؟.

فإذَا ظَهَرَ بالتَّأَمُّلِ وَبِالْبَحْثِ الْعِلْمِيّ، أَنَّهُ يَخْضَعُ لِنظَام واحِدٍ مُتَكامِلِ الْأَجْزَاءِ، فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ لَهُ خَالِقاً واحداً، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ الْمَهَيْمِنُ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً رَبّاً واحِداً.

إِذْ لو كَانَ لَهُ أَرْبَابٌ مُتَعَدِّدُون، لتَعارَضَتْ إِرَادَاتُهُمْ في تَصْرِيفِ أَحْداثِهِ المتَجَدِّدَةِ، وتَعَارُضُهَا يُؤَدِّي إلى التَّنَازُع والتخاصُم والتصادُم في المرادات، وهُوَ يُؤَدّي إِلَىٰ الْفَسَادِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ اخْتِلَالُ النظامَ والاضطرابُ والدَّمَارُ حتْماً.

وبما أَنَّ هَـٰذا الْفَسَادَ لَمْ يَحْصُل، وبما أَنَّ هذا الكَوْنَ الْفَسِيحَ جدًّا مُسْتَمِرٌّ مِلْيَارَاتِ السِّنِينَ ضِمْنَ نِظام واحِدٍ مُتَماسِكٍ مِنْ أَقْصَىٰ الْكَوْنِ إِلَىٰ أَقْصَاهُ، فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ المُهَيْمِنُ عَلَيْهِ واحداً.

وبَعْدَ هَـٰذا الْبُرْهَانِ الْعَقْلِي يُقَالُ لِذَوِي المدارِكِ السَّطْحِيَّة: أَيُّهُمَا خَيْرٌ لَكُمْ وأفْضَلُ وأَكْرَمُ: أَنْ تَكُونُوا عَبِيدَ رَبٍّ وَاحدٍ عَظِيم هُوَ المتصَرِّفُ الْأَوْحَدُ بالْكَوْنِ كُلِّه؟ أمْ أَنْ تَكُونُوا عَبيداً لِأَرْبَابٍ مُتَعَدِّدِينَ، يَتَشَاكَسُونَ فيما بَيْنَهُمْ، ويَتَنَازَعُونَ فِي رُبُوبِيتِهِمْ لَكُمْ، وكُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ يَطْلُبُ مِنْكُمْ مَطَالِبَ مُخَالِفَةً لِمَطَالِبِ الْآخَرِينَ؟.

والجوابُ: لَا رَيْبَ أَنَّ الرَّبَّ الواحِدَ خَيْرٌ وأفْضَلُ وأكْرَم.

إنَّ هَـٰذا الرَّبَ هو اللهُ الواحِدُ الْقَهَّار، الَّذِي لَا يُوجَدُ شَيْءٌ في الكَوْنِ إلَّا هُو واقِعٌ تَحتَ سُلْطَانِ قَهْرِهِ، يَفْعَلُ بِهِ مَا يَشَاءُ إيجاداً وإعداماً، وإعطاءً ومَنْعاً، وَنَفْعاً وَضُرّاً، وحَرَكَةً وسُكُوناً، إلى غيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّصارِيف في الذَّاتِ وفي الصِّفَات.

الْقَهَّارُ: الغالِبُ الَّذِي لا يَحُدُّ غَلَبَته شيء، الْمُجْبِرُ على ما يُرِيد. وهو اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الله الحسنى.

وكان للمصْرِيين على ما ذكر المؤرِّخُونَ نحو ثلاثينَ رَبًّا، أكْبَرُهم عِنْدَهم «آمُونَ رُع» ودُونَهُ: «أوزُوريس» و«أَزِيس» و«هُورُوس».

وكانُوا يَعْبُدونَ هَـٰذِهِ الأَرْبَابَ، ويَتَّخِذُونَ لَهَا رُمُوزاً، كَشأْنِ سَائِرِ المشْرِكِينَ، فَوَجَّه يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ لصَاحِبَيْه في السِّجْنِ الدَّعْوَة إلى نَبْذِ عبادَةِ هَـٰذِهِ الْأَرْبَابِ المتعَدِّدَةِ المتفرقَة فَقَال:

- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ . . .﴾:

أي: مَا تعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ الواحِدِ الْقَهَّارِ الّذِي لا رَبَّ في الوجُودِ غَيْرُهُ، فَلا إلَه سِوَاهُ، مَا تَعْبُدُونَ إلَّا أَسْمَاءً لَا رُبُوبيَّةَ لَهَا فَلا إلَهِيَّةَ لَهَا، فَهي أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وآبَاؤُكُمْ، وجَعَلْتُموها أرْباباً وآلِهَةً، ورُبَّما كانَتْ هَـٰذِهِ الأَسْمَاءُ غَيْرَ ذَوَاتِ مُسَمَّيَاتٍ مُطْلقاً، فأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بأوْهَامٍ، وتَعْبُدُون أَوْهاماً.

- ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾: أي: مَا أَنْـزَلَ اللهُ رَبُّ الْـعَـالَـمِـيـنَ بالْإِذْنِ بِعِبَادَتِها حُجَّةً وَلَا بُرْهَاناً، فِي بَيَانٍ كَلامِيٍّ أَنْزَلَهُ على رسُولٍ مِنْ رُسُلِه، ولَا في آيَاتٍ كَوْنِيَّةٍ دَالَّاتٍ عَلَيْه، ولا في مَقَايِيسَ فِكْرِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ تَهْدِي إلَيْه، فَكُلُّ ذَلِك يُقَالُ بِشَأْنِه: «إنْزَال» إذْ خَلْقُ اللهِ وَعَطَاؤُهُ وبَيَانَاتُهُ كُلُّها إنْزَالٌ؛ لأَنَّهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ دَواماً فكُلُّ تَصَارِيفِهِ إنْزَال.

السُّلْطان: هُنَا، الحجَّةُ والْبُرْهَانُ، وأدواتُ الحجَّةِ والْبُرْهان.

- ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾: أي: التَّصَرُّفُ المسْبُوقُ بتَقْدِيرٍ حَكِيم وقَضَاءٍ حَكِيمٍ في الْوجود كُلِّهِ لَيسَ لِأَحَدٍ إلَّا للهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لأنّه هو الرَّبُّ وحْدَه.

الْحُكْمُ: الْقَضَاءُ الّذِي يأتِي التَّنْفِيذُ عَلَىٰ وَفْقِهِ، ومِنَ الْحُكْم تَوْجِيهُ أَوَامِرِ التَّكلِيفِ.

- ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾: أي: وَجَّهَ أَمْرَهُ التَّكْلِيفِيَّ لِكُلِّ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الْحياةِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فَقَالَ لهم مخاطِباً: لَا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّايَ. أيْ: لِأَنَّني أَنَا رَبُّكُم فَلا ربَّ لَكُمْ غَيْرِي، ومَنْ لَهُ الْخَلْقُ فَلَهُ الْأَمْرُ، فاعْبُدُوني، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبادَتي شيئاً، وبِمَا أَنَّكُمْ عَبِيدِي وإمَائي، فَتَجِبُ عَلَيْكُمْ طَاعَتِي، وإذا عَصَيْتُمُوني فإنَّكُمْ تَسْتَحِقُّونَ عَذَابِي.

- ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: أي: ذَلِكَ الَّذِي حَدَّثْتُكُمَا عَنْهُ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبيّتِهِ، وَفِي إلَهِيَّتِهِ، وأَنَّ الْحُكْمَ للهِ وَحْدَهُ فِي الْوُجُودِ كُلِّه، وَأَنَّهُ أَمَرَ

كُلَّ الَّذِينَ وضَعَهُمْ في الحياة مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُونَ بعِبَادَتِهِ شَيْئاً، هُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.

الْقَيِّمُ: أي: المسْتَقِيم الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ عَنِ الحقّ، والخيْرِ، ومَحَاسِنِ السُّلُوك.

- ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا تِباعاً حَقَائِقَ دِينِ اللهِ الْقَيِّم، لئَلَّا يُؤَثِّر الْعِلْمُ بِهَا عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ، فيُدْرِكُوا أَنَّهَا حَقّ، فتكُونَ بمَثَابَةِ غُصَّةٍ تَمْنَعُهُمْ مِن الانْطِلَاق الْفَاجِرِ، لتَحْقِيقِ أهْوَائِهِم وشَهَوَاتِهم ورَغَبَاتِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنيا، فِسْقاً، وظُلْماً، وعُدْواناً وطُغْيَاناً، أو هُمْ لَا يُوجّهون إرَادَاتِهِم لِلْعِلْمِ بها، انْشِغَالاً بمَا هُمْ فِيه مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، وعَدَمَ مُبالَاةٍ بِها، ولا اكْتِرَاثٍ لها.

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً تَعْبِيرَ يُوسف عليه السلام لصاحِبَيْه في السِّجْنِ حُلْمَهُما، بَعْدَ أَنْ دَعاهُمَا إلى الدِّين الْقَيِّم، قائلاً لهما:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾: أي: يا صَاحِبَيْنِ لي في السِّجن، الإضافة على تقدير: «في».

- ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ﴾: أي: أَمَّا أَحدُكُما الَّذِي رأىٰ أَنَّهُ يَعْصِرُ خمْراً، فإِنَّهُ يَخْرج مِنَ السِّجْنِ، ويَعُودُ إلى عَمَلِهِ فِي قَصْرِ فِرْعونَ، فَيسْقِي رَبَّهُ (أي: سَيِّدَهُ الْمَلِكَ) خَمْراً كَمَا كَانَ يَسْقِيه.

- ﴿وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ﴾: أي: وأمَّا خَبَّازُ الْمَلِكِ الَّذِي رأىٰ أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خُبزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنه، فإِنَّهُ يُحْكَم

عَلَيْهِ بالْقَتْلِ، فَيُسْتَدْعَىٰ لِتَنْفِيذِ الحكم بِقَتْلِهِ، فَيُصْلَبُ وَيُتْرَكُ مَصْلُوباً حَتَّىٰ تَأْتِي الطَّيْرُ فَتَأْكُلَ لَحْماً مِنْ رَأْسِهِ.

الرّأس من الإنْسان: مِنَ الرَّقَبَةِ فَمَا فَوْق.

● ﴿... قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾: أي: أُنْهِيَ تَعْبِيرُ الْأَمْرِ «وهُمَا حُلْمَاكُما» الَّذِي تَطْلُبَانِ مِنِّي أَنْ أُفْتِيَكُمَا فِيهِ، وهذا ما عِنْدِي فيه.

الاسْتِفْتَاءُ: طَلَبُ بَيَانِ مَا يُشْكِلُ فِي المسائِلِ. والْأَحْلَامُ فِي مُعْظَمِها ذَواتُ دَلَالَاتٍ رَمْزِيَّة، فَهِيَ مِنَ الْمُشْكِلَات الَّتي لا يُفْتِي فيها إلَّا مَوْهُوبٌ يَتفَرَّسُ في دَلَالَاتِ الرُّمُوز، وتَعْبِيرُها يَعْتَمِدُ عَلَىٰ الظَّنّ.

● ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: وقَالَ يوسف عليه السلام بظنٍ راجح اعتمد فيه على تَعْبيره للرُّؤيا، لِلَّذِي أفْتَاهُ بأنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنَ السِّجْنِ، وَيَعُودُ إلى عَمَلِهِ فِي قَصْرِ فِرْعَوْنَ، فَيَسْقِيهِ خَمْراً، ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أيْ: اذْكُرْ مَا شَهِدْتَ مِنِّي عِنْدَ سَيِّدِكَ فِرْعَوْن، وفي نَفْسِ يُوسُفَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سَبباً فِي تَذَكُّرِ فِرْعَوْنَ أَمْرَ يُوسُفَ الَّذِي يَعْلَمُ بَرَاءَتَهُ، فيَأْمُرَ بإخْرَاجِهِ مِنَ السِّجْن.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: ظَاهِرُ الْعِبارَة وَمَا فيها من التَّرْتِيب بحَرْفِ العَطْفِ «الفاء» يُفِيدُ أَنَّ الَّذِي نَسِيَ ذِكْرَ رَبِّهِ هُو سَاقِي الملِك، وهو الّذِي أَوْصَاهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ رَبِّهِ سَيِّدِه فِرْعَوْن.

﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: أي: تَذْكِيرَ رَبِّهِ بِهِ، على جَعْلِ الذّكْر بمعنى التَّذْكير. أو ذِكْرَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، أُقِيم المضاف إليه مَقَامَ المحذُوفَيْن، وعَمَلُ يُوسف عليه السلام كان مِن قبيل اتِّخاذ الأسباب، ولَيس فيه ما يُلَامَ عليه به أو يُعَاتب.

ولكِنْ جاءَ عِنْدَ المفسِّرين عن ٱبْن عباس، قال: قال رَسُول الله ﷺ:

«لَوْ لَمْ يَقُلْ يُوسُفُ الْكَلِمَةَ الَّتِي قَالَهَا (أي: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾) مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ حَيْثُ يَبْتَغِي الْفَرَجَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله». وفي مَعْنَىٰ هذا الحديث عدَّة مراسِيل. واللهُ أعْلَمُ، فالنَّصُّ القرآنيُّ يُفِيدُ أَنَّ النِّسْيَانَ حصَلَ بَعْدَ قولِهِ: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لَا قَبْلَهُ.

وجاء عند الإسْرائيليين في الإصحاح (٤٠) من سفر التكوين، ما يلي:

«٢٣ ولَكِنْ لم يَذْكُرْ رَئِيسُ السُّقَاةِ يُوسُفَ بَلْ نَسِيَهُ».

- ﴿... فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: فأقام في السِّجْنِ بَعْدَ خُرُوج صَاحِبَيْهِ مِنْهُ بِضْعَ سِنِين.

البِضْعُ: هو من الثلاثَةِ إلى العشرة، ويُشْعِرُ مَا جاء عِنْدَ الإسرائيليين في الإصحاح (٤١) من سفر التكوين، أَنَّهُ لَبِثَ فِي السِّجْنِ أَكْثَرَ مِنْ سَنَتَيْنِ بَعْدَ خُروجِ صاحِبَيْهِ مِنْهُ.

واللهُ أعلم.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الفصل الثامن من قِصَّةِ يوسف.

والحمدُ لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه وفتحه.

* * *

التدبر التحليلي للفصل التاسع من قِصَّة يوسُف عليه السلام
الآيات من (٤٣ ـ ٤٩)

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ

أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

القراءات:

(٤٣) ● فتح ياء المتكلم من: **[إِنِّيَ أَرَىٰ]** نَافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر، وأسْكَنَها باقي القُرَّاء العشرة.

(٤٣) ● قرأ السّوسي: **[رُويايَ]** و**[لِلرُّويَا]** وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأهُما أبُو جعفر: **[رُيَّايَ]** و**[لِلرُّيَّا]**.

وقرأهما باقي القراء العشرة: **[رُؤْيَايَ]** و**[لِلرُّؤْيَا]**.

(٤٥) ● قرأ نافع، وأبو جَعْفر: **[أَنَا أُنَبِّئُكُمْ]** بِمَدِّ أَلِفِ «أنَا».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: بفتح النون دُون ألف، وهما لغتان عربيتان.

(٤٥) ● قرأ يعَقوب بإثباتِ ياء المتكلم وصلاً ووقفاً من: **[فَأَرْسِلُونِي]**.

وحَذَفَها باقي القراء العشر، وحذف ياء المتكلم من لغة العرب، وهي مقدّرة ذهناً.

(٤٦) ● فتح ياء المتكلّم من: **[لَعَلِّيَ أَرْجِعُ]** نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

(٤٧) ● قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: **[دَاباً]** بإبْدال الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها حفْصٌ: [دَأَباً] بإثْبَاتِ الهمزَةِ وفَتْحِها.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [دَأْباً] بإثبات الهمزة وإسْكانها.

(٤٩) ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [**تَعْصِرُونَ**] بتَاءِ المخاطَبِينَ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**يَعْصِرُونَ**] بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

تمهيد:

في آيات هذا الفصْل بَيَانُ رُؤيا فرْعَون مَلِكِ مصْرَ في أيّام يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام وهُو في السِّجْن، وطَلَب الْمَلِكِ مِنْ مَلَئِهِ ووزرائِهِ وأهْلِ مَشُورَتِهِ أَنْ يُفْتُوهُ فِي رُؤْياه، ورَدِّهِمْ عَلَيْه بأنّها أضْغَاثُ أحْلَام، وبأنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تأويلَ الأحلام، وَبيانِ تَذَكُّرِ رَئِيس سُقَاةِ الْمَلِكِ الَّذي خَرَجَ من السِّجْنِ وعَادَ إلَىٰ عَمَلِهِ في قَصْرِهِ، يُوسُفَ وأَنَّهُ ذُو عِلْمٍ بِتَعْبِيرِ الْأَحْلَام، وطَلَبِهِ مِنَ الملكِ أَنْ يُرْسِلَهُ إلى السِّجْنِ لِيَسْأَلَ يُوسُفَ فيُفْتِيَهُ فيما رأَىٰ الملِكُ، فَأَفْتَاهُ يُوسُف، وعَادَ الرَّجُلُ إلى الْمَلِكِ بالْفَتْوَىٰ الَّتِي سَمِعَها مِنْه، وأَخْبَرَ الْمَلِكَ بما أفْتَاهُ بِهِ يُوسُفُ عليه السلام.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

سِمَان: جمع «سَمِينَة» وهي كثيرة اللّحم والشّحم.

عِجَاف: جمع «عَجْفَاء» وهي الهزيلةُ قَليلةُ اللّحم والشّحْم.

تَعْبُرُونَ: أي: تَحسِنُونَ تَفْسِيرَ رُمُوزِ الأحلام. يُقَالُ لُغَةً: «عَبَرَ فُلَانٌ الرُّؤْيَا عَبْراً، وعِبَارَةً» أي: فَسَّرَ رُمُوزها. وكذلك «عَبَّرَهَا».

العطف في أوَّل هَـٰذِهِ الآية هو من عَطْفِ الأحْدَاثِ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْض، إذْ لَهَا تَعَلُّقٌ بِقِصَّةِ يُوسُفَ العامّة.

وجاء عند الإسْرَائيليّين في الإصْحَاحِ (٤١) من سفر التكوين: أَنَّ السَّنَابِلَ السَّبْعَ اليابِسَةَ الرَّقيقَةَ الْمَلفُوحَة بالرِّيحِ الشرقيَّةِ ابْتَلَعَتِ السَّنَابِلَ الحسَنَةَ.

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ﴾: **الْـمَـلأُ**: أشرافُ الْقَوم وسراتُـهُـمْ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العامَّة، وهُمْ ورزاؤُهُ، وأهْلُ مَشُورَتِهِ فِي قَصْرِهِ وَعِلْيَةُ الْقَوْم، ورُبَّمَا دَعَا الكهَنَةَ والسَّحَرَة، ليَقُصَّ عليهم رؤياه، عَسَىٰ أَنْ يَجِدَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ مَنْ يُؤَوِّلُ لَهُ رُموزَ رُؤْياه، إذْ أَهَمَّهُ أَمْرُها.

أي: يا أيُّها المَلأُ أبِينُوا دَلاَلاتِ رُمُوزِ رُؤيَاي.

- ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ تُحسِنُونَ تَفْسِيرَ رُمُوزِ الْأَحْلَام. اللام في: ﴿لِلرُّءْيَا﴾ هي لام التقوية لتقدُّم المعمول على عامله: ﴿تَعْبُرُونَ﴾.

فأجابه الملأ قائلين:

- ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

أَضْغَاثُ الْأَحْلَام: مَا كَانَ من الأحْلام مُلْتَبِساً مُخْتَلِطاً يَصْعُبُ تَعْبِيرُهُ وتَأْوِيلُهُ. أصْلُ **الضِّغْث**: كُلُّ مَا جُمِعَ وقُبِضَ عَلَيْهِ بِجُمْعِ الكَفّ، كَحَشِيشٍ، وأعوادٍ مخْتَلَطَة ولو لم تكُنْ مُتجانِسَةَ.

أي: قالُوا لَهُ هَـٰذِهِ الرُّؤْيا الَّتِي رَأَيْتَها هِي مِنْ نَوْعِ أضْغَاثِ الأحلَام، الَّتِي لَا تَعْبِيرَ لها. وَمَا نَحْنُ بِتأْوِيلِ الْأَحْلَامِ ذَوَاتِ الدَّلَالَةِ بِعَالِمِينَ.

﴿بِتَأْوِيلِ﴾ مُتَعَلِّقٌ باسْم الفاعل «عَالِمِين» مُتَقَدِّمٌ عليه. والباء في: ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ زائِدَةٌ لِلتَّوْكِيدِ.

فأظْهَرَ المسْؤولُونَ الَّذِينَ جَمَعَهُمُ الملِكُ واسْتَفْتَاهُمْ جَهْلَهُمْ بتأْويل الْأَحْلَام ذَوَاتِ الدَّلالات، الَّتِي لَيْسَتْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ أضْغَاثِ الْأَحْلام.

عندئذٍ تذكر رَئِيسُ سُقَاةِ الملِك أَحَدُ صَاحِبَي يوسُفَ في السِّجْن، مَا كَانَ أوصَاهُ به يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام، إذْ قَالَ له: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فقال الله تَعَالَىٰ بِشَأْنه:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾:

الَّذِي نَجا مِنَ الْقَتْلِ مِنْ صاحِبَيْ يوسُفَ في السِّجْنِ هو الَّذِي رأَىٰ فِي حُلْمِهِ وَهُوَ في السِّجْنِ أَنَّهُ يَعْصِرُ خمراً، فَعَبَّرَهُ يُوسفُ عليه السَّلام بأنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ السِّجْنِ، ويُعَادُ إلَىٰ عَمَلِهِ في قَصْرِ الملِكِ كَبِير سُقَاةِ الملك.

﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: أي: وتَذَكَّرَ وَصِيَّة يُوسُفَ لَهُ بَعْدَ حِينٍ من الزَّمن. لفظ: «أُمَّة» يأتي بمَعْنَىٰ المدَّةِ مِنَ الزّمن، والحِينِ والْوَقْت.

ولَفْظُ «ادَّكَرَ» أَصْلُهُ «اذْتَكَر» بإضافة تاء «افْتَعَلَ» إلَىٰ فعل «ذَكَرَ» وقُلِبَتْ التاء دالاً والذال دالاً، وادْغِمَتَا دَالاً مُشَدَّدَة، فصار الفعل «ادَّكَرَ».

قال لِلْمَلِكِ ومَلؤُهُ حَوْلَهُ إذْ رَأَىٰ عَجزَ الْمَسؤُولِينَ عَنْ تَعبير رُؤْيا الملك، أَنَا آتِيكُمْ بنَبَأ تَأْوِيلِ الرُّؤْيا، إذْ أَسْتَفْتِي فِيهَا السَّجينَ الْعِبْرَانيَّ الَّذي كُنْتُ مُصَاحِباً له فِي سِجْنِ رَئِيس الشُّرْطَة، فَهُوَ ذو عِلْمٍ بِتَعْبِيرِ الأحْلامِ، فَأَرْسِلُونِي إِلَيْهِ لِأَسْتَفْتِيَهُ، وآتِيكُمْ بِمَا يَذْكُرُ مِنْ تَأْوِيل.

جاء اختِصَارُ هَـٰذا كُلِّه بِعِبَارَة: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ ففي طَيِّ هَـٰذِهِ العبارة كُلُّ ما سَبَقَ بيانُهُ تَفْصِيلاً.

فأمَرَ الْملِكُ بإرْسَالِهِ إلى يُوسُفَ سَجِينِ رَئِيسِ الشُّرْطَة، فأرْسَلُوهُ إِلَيْه، فلَمَّا وَصلَ إلَيْهِ قَال له:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

هَـٰذِهِ الآيَةُ جَاءَتْ مُخْتَزَلَةً، وفِي طَيِّهَا أَنَّ سَاقِي الْمَلِكِ هَـٰذا جاء إِلَىٰ يُوسُفَ، واعْتَذَرَ لَهُ بأَنَّهُ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ، وأَنَّ الْمَلِكَ رَأَىٰ رُؤْيَا أَهَمَّتْهُ، وَسَأَلَ عَنْ تَعْبِيرِها، فَلَمْ يُنْبِئْهُ أَحَدٌ مِنَ الَّذِينَ اسْتَفْتَاهُمْ بِتَأْوِيلِها. وقَصَّ عَلَيْهِ رُؤْيَا الملِك، بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾.

الصِّدِّيق: أي: الْعَظِيمُ الصِّدْقْ، على وَزْنِ «فِعِّيل» وهو من صِيَغِ التكثير والمبالغة، ولَهُ في الْعَرَبِيَّة نظَائِرُ قَلِيلَةٌ لا يُقَاسُ علَيْها.

﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾: أيْ: أَرجو أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ الْمَلِكِ وَمَلَئِهِ بِمَا تَرَىٰ مِنْ تَأْوِيلٍ لرُؤْيَاهُ، (ال) في «النَّاس» هنا عَهْدِية.

﴿. . . لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: إِذَا رَجَعْتُ إِلَىٰ النَّاسِ بِتَأْوِيلِكَ أَرْجُو أَنْ يَعْلَمُوا تَأْوِيلَها، فَيَعْمَلُوا بما يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلُوه، إِذَا كَانَتْ ذَاتَ دَلَالَةٍ على عَمَلٍ مَا، يَجْلُبُ للنَّاسِ خَيْراً، ويَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

فَأَجَابَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيا، وأَبَانَ لَهُ التَّدْبِيرَ الَّذِي يَجِبُ اتِّخَاذُهُ، لِحِمَايَةِ النَّاسِ ومَوَاشِيهِمْ في مِصْرَ مِن مَجَاعَةٍ عَظِيمَة قَادِمَة:

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿دَأَبًا﴾: أيْ: دَائِبِينَ جَادِّين ملازِمِينَ الْعَمَلَ من غَيْرِ فُتُور. يقال لغَةً: «دَأَبَ فُلانٌ فِي عَمَلٍ ما، أو أَمْرٍ ما، يَدْأَبُ، دَأْباً، ودَأَباً، ودُؤوباً» أي: جَدَّ فِيهِ واجْتَهَدَ بِهِمَّةٍ وَنَشَاط، ويقال: «دَأَبَ الشيْءَ» أي: لازَمَهُ واعْتَادَهُ مِنْ غَيْرِ فتور.

﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾: أي: سَبْعُ سَنَواتٍ صِعَابٍ على النَّاسِ، لِمَا يَحْدُثُ فِيها مِنْ جَدْبٍ وقَحْطٍ وانْقِطَاعِ أمْطار، وتَوَقُّفِ الْأَرْضِ عَنِ الإنْبَات.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾: أي: يأكُلُ النَّاسُ وتأكُلُ مَواشيهم فيها، ما زَرَعْتُم وادَّخَرْتُم لَهُنَّ في سَنَواتِ الْخِصْبِ.

أُسْنِدَ الْأَكْلُ إلى سَنَواتِ الْقَحْطِ مَعَ أَنَّ الأكْلَ لِلْأَحْيَاءِ الآكِلَةِ فِيهَا، وهو ممَّا يُسَمَّى عِنْدَ البلاغيّينَ المجاز العقلي⁽١⁾.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾: أي: إلَّا قَليلاً مِمَّا تَحْفَظُونَهُ وَتَدَّخِرُونَهُ وتَمْنَعُونَ مَدَّ الأيْدِي إلَيْهِ، احْتِيَاطاً للطَّوارِئِ المُلْجِئَة، والحاجاتِ الشَّدِيدات، الَّتِي قَدْ يُسْمَحُ فِيها بالأخْذِ من الاحْتِيَاطِيّ بمقادير الضرورة.

إحْصَانُ الشيء لغة: مَنْعُهُ وَصِيَانَتُه.

جاء في هَٰذه الآيَاتِ بَيَانُ مَا يجبُ اتّخَاذُهُ مِنْ تَدْبيراتٍ، مُدْمَجاً فيها بيانُ رُموزِ رُؤْيَا الْمَلِك.

فالبقرات السَّبْعُ السِّمَانُ رَمْزُ سَبْعِ سَنَواتٍ فِيها خِصْبٌ كثِير، والبَقَراتُ السَّبْعُ الْعِجَافُ رَمْزُ سَبْعِ سَنَوَاتِ فيها قَحْطٌ وجَدْبٌ وشِدَّة.

وأكْلُ العِجَافِ للسِّمَانِ، فِيهِ إرْشَادٌ إلى وجُوب ادِّخار الْأَقْوَاتِ النّاتِجَات في سَنَوَاتِ الخِصْب، بالمقدار الَّذِي يَكْفِي لِميرَةِ النَّاسِ في سَنَواتِ الجدْب، مع زياداتٍ احتياطِيَّة للطوارئ غَيْرِ المرتَقَبَة.

وبَعْدَ سنواتِ القحْط تَعُودُ الأحوال العامَّة إلى مِثْلِ ما كانت عليه قبل سنوات الخِصْب الزائد.

فجاء في الآيَاتِ المفاجأةُ بِبَيانِ مَا يَجِبُ تَدْبِيرُه.

---

(١) الإسناد العقلي: هو إسْنادُ الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، لعلاقَةٍ من علاقات المجاز، وهي هنا الظرف الزمانيّ وأهله.

- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: قَالَ: يَجِبُ على الملِكِ وَوُزَرَائِهِ، أَنْ يُكَلِّفُوا الشَّعْبَ المصْرِيَّ زِرَاعَةَ مَا يُنْتِجُ الْأَقْوَاتَ، كَالْقَمْحِ والشَّعِيرِ طَوالَ سَبْعِ سِنِي الْخِصْبِ، دائِبِينَ جَادِّينَ مُجْتَهِدِينَ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ.

فَمَا حَصَدُوا مِنْ هَـٰذِهِ الأَقْوَاتِ فلا يَفْصِلُوا حَبَّهُ عَنْ سَنَابِلِهِ، بَلْ عَلَيهِمْ أنْ يَدَعُوهُ فِيها حِمَايَةً لَهُ مِنَ السُّوسِ، إلَّا قَلِيلاً مِنْ بَعْضِ مَا يَأْكُلُ النَّاسُ مُقْتَصِدِينَ، لمصْلَحَةِ ادِّخَارِ الْأَقْوَاتِ لِسَنواتِ الجدْبِ والقَحْطِ، وعلىٰ الإدَارَةِ الملكيَّةِ أَنْ تَعْمَلَ عَلَىٰ جَمْعِ المحاصِيلِ وادِّخَارِهَا فِي أَمَاكِنَ صَالِحَةٍ للحفظ والادِّخَارِ دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضَ للتَّلَفِ، وأَنْ تَكُونَ مَحْمِيَّةً مِمَّنْ يَعْتَدِي عَلَيْهَا، وأَنْ تَكُونَ مِلْكاً للدَّوْلَةِ، بُغْيَةَ تَأْمِينِ أقْوَاتِ النَّاسِ فِي سَنَوَاتِ الجَدْبِ والقحط.

كُلُّ هَـٰذا يُفْهَمْ مِنَ المطْوِيَّاتِ فِي البيان الرَّبَّاني.

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: ثُمَّ يَأْتِي بعدَ الدَّأَبِ فِي زِرَاعَةِ الأقواتِ وادِّخارِهَا فِي سَنابِلِها، طَوَالَ سَنَواتِ الخِصْبِ سَبْعُ سَنَواتٍ شِدَادٍ صِعَابٍ، يَحْتَاجُ الشَّعْبُ فِيها أَنْ يَأْكُلَ مِنْ مَخْزُونِ الدَّوْلَةِ المدَّخَرِ، وعَلَىٰ الْإِدَارَةِ حِينَئِذٍ أَنْ تُحْسِنَ تَلْبِيَةَ مَطَالِبِ النَّاسِ مِنَ الأقوات المدَّخَرَةِ، بِحَسَبِ حَاجَاتِهِمْ دُونَ إِسْرَافٍ وبِمِقْدَارِ مَا يَكْفِي، ليكفِي المدَّخَرُ مَا بَقِيَ من زَمَنِ القحط.

وحاجاتُ النَّاسِ المقدَّرَةُ فِي سَنَوَاتِ القَحْطِ تَسْتَهْلِكُ المخزُونَ المدَّخَرَ مِنَ الْأَقْواتِ، الَّتِي سَبَقَ أَنْ قَدَّمَهَا الْعَامِلُونَ، وادَّخَرَهَا المشْرِفُونَ عَلَىٰ التَّمْوِين، لإطْعَامِ الناسِ مِنْهَا فِي سَنَوَاتِ القَحْطِ والجدْبِ، إلَّا قَلِيلاً

مِمَّا تَمْنَعُونَ الاقْتِرَابَ مِنْهُ وتَحْمُونَهُ، وتَجْعَلُونَهُ احْتِيَاطِيًّا للضرورات، ومُحْصَناً محفوظاً.

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:
- ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾: أي: فِيهِ تَنْزِلُ الأمْطَارُ النَّافِعَةُ الَّتِي يُنْبِتُ اللهُ بِها الزُّرُوعَ، ويُخْرِجُ بِهَا الثمراتِ على اخْتِلافِ أنواعِهَا.

يُقَالُ لغة: «غَاثَ اللهُ الْبِلَادَ، يَغِيثُها، غَيْثاً، وغِيَاثاً» أيْ: أنْزَلَ بها الغيثَ، وهو المطَرُ النّافع.

- ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾: أي: وفيهِ يَعْصِرُونَ الْعِنَبَ لِيَكُونَ خَمْراً، ويَعْصِرُونَ مَا يَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ الدُّهْنَ، كالسِّمْسِم، والزَّيتُونِ، وَسَائِرِ الحُبُوبِ الَّتِي يُسْتَخْرَجُ مِنْها دُهْنٌ نَافِعٌ، بالْعَصْرِ ضَغْطاً وتَثْقِيلاً عَلَيْهِ بالْأَثْقَال. وفي القراءة الأُخرىٰ: [وَفِيهِ تَعْصِرُونَ].

أيْ: ثُمَّ تَعُودُ الْبِلَادُ إلَىٰ سَابقِ عَهْدِهَا، قَبْلَ سَنَوَاتِ الْخِصْبِ الكثيرِ والْقَحْطِ الشّدِيد، فيأْتِي بَعْدَ سَنَوَاتِ الْقَحْط السَّبْعِ عَامٌ مِثْلُ سَائِرِ الْأَعْوَامِ المعْتَادَةِ في الْبِلَادِ قَبْلَ السَّبْعِين، وفي هَـٰذا الْعَام يُغَاثُ النَّاس بالْأَمْطَارِ عَلَىٰ وَفْقِ سَابِقِ عَهْدِهِم، وَفِيهِ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ عَصْرِ مَا يَسْتَخْرِجُونَ بِهِ مِنْ شَرَابٍ أو دُهْنٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ممَّا لَهُمْ بِهِ مَنَافِعُ فِي حَيَوَاتِهِمْ.

وبهَـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الْفَصْل التاسِعِ مِنْ فُصُولِ قِصَّةِ يوسف.

والحَمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.

* * *

التدبر التحليلي للفصل العاشر من قِصَّة يوسف عليه السلام
الآيات من (٥٠ ـ ٥٧)

قال الله عَزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ

رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ
أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ
ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى
بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى
عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ
مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾»:

القراءات:

(٥٠) ● قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائي، وخَلَفٌ في اختياره: [**فَسَلْهُ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**فَاسْأَلْهُ**].

القراءتان لغتان عَرَبِيَّتان.

(٥١) ● قرأ أبو عَمْرو في الوصْلِ: [**حَاشَىٰ لِلّهِ**] بإثباتِ الألْف بعد الشِّينِ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**حَاشَ لِلّهِ**] بحذف الألف بعد الشين.

حَاشَ، وحَاشَىٰ لغتان عَرَبِيّتَان.

(٥١) ● قرأ ورشٌ، وابن وْردَانَ: [**العزيزلاَنَ**] بِنَقْلِ حَرَكَةِ الهمزة إلى اللاَّم.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**الْعَزِيزِالآنَ**].

(٥٣) ● فتح ياء المتكلم من: [**نَفْسِيَ إِنَّ**] ومن [**رَبِّيَ إِنَّ**] نافع، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر. وأسْكنَهَا باقي القرّاء العشرة.

(٥٦) • قرأ ابْنُ كثير: [**حَيْثُ نَشَاءُ**] بِضَمِيرِ المتكَلِّمِ العظيم.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: [**حَيْثُ يَشَاءُ**] أي: يُوسُف علَيه السَّلام.

وبَيْنَ القراءَتَيْن تَكامُلٌ في أدَاء المعنىٰ المراد، فمَا يَشَاؤُهُ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ بإرَادَتِهِ الحرَّة، لَا يتحقَّقُ لَهُ فِي الواقِعِ إلَّا إذا شَاءَهُ اللهُ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعظُمَ سُلْطَانُه، وهكذَا كُلُّ مَشيئاتِ الْعِباد.

تَمْهيد:

طُوِيَ بَيْنَ هَـٰذا الْفَصْلِ والَّذِي قَبْلَهُ أحْدَاثُ عَوْدَةِ رَسُولِ الملِكِ إلَىٰ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، واسْتِفْتَائِهِ عَنْ رُؤيا الْمَلِكِ، وَإخْبَارِهِ الْمَلِكَ بما أفْتَىٰ بِهِ يُوسُفُ، فأعَجَبَتْهُ فَتْوَاهُ.

عِنْدَئِذٍ طَلَبَ الْمَلِكَ أَنْ يَأْتُوهُ بِيُوسُفَ، فأرسَلَ رَسُولاً يَدْعُوهُ إلَىٰ مُقَابَلَةِ الْمَلِكِ، فأبَىٰ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنْ يَسْتَجِيبَ للطَّلَبِ حَتَّىٰ يَرُدَّ اعْتِبَارَهُ بِشَأْنِ التُّهَمَةِ الَّتِي أُلْصِقَتْ بِهِ، وأَنْ تُسْتَدْعَىٰ امْرأَةُ الْعَزِيزَ والنِّسْوَةُ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيهِنَّ، ويُعَادَ التحْقِيقُ في قَضِيَّةِ سِجْنِهِ.

فاسْتَجَابَ الْمَلِكُ لِطَلَبِهِ، وثَبَتَتْ براءَتُهُ وَاعْتَرفَتِ امرأَةُ الْعَزِيزِ بِذَنْبها، واعْتَرَفَ النِّسْوَةُ بِبَرَاءَتِهِ ممَّا اتُّهِمَ به.

عِندئِذٍ فَرِحَ يُوسُفُ بما جَرَىٰ فارْتَاحَ قَلْبُه وَسَكَنَتْ نَفْسُهُ.

واسْتَدْعَاهُ الملِكُ لِيَسْتَخْلِصَهُ لِنَفْسِهِ، فاستجابَ لِدَعْوَتِهِ حِينَئِذٍ، وقالَ الْمَلِكُ لَهُ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ مَا تُرِيدُ أَنْ نُسْنِدَ إِلَيْكَ مِنْ عَمَلٍ يُلائِمُكَ؟ ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

وجاء فيه تَعْليقٌ رَبَّانِيٌّ يُلائِمُ ما وَصَلَ إلَيْهِ يُوسُفُ بفَضْلِ اللهِ، جَزَاءَ إحْسَانِهِ في اخْتِيَارَاتِهِ وأعْمَالِهِ الصالحة الظاهرةَ والْبَاطِنة، مع وَعْدِهِ بالأجْرِ العظيم يَوْمَ الدِّين.

التدبُّر التَّحْليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾: **مَا بَالُ**: أي: مَا شأْنُ.

أي: عَلِمَ الْمَلِكُ بتَعْبيرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام للرُّؤْيا، ومَا أَشَارَ بِهِ مِنْ تَدْبير اقتصَادِيٍّ لِحِمايَةِ الشَّعْبِ من الْجُوعِ في سَنَواتِ الْجَدْبِ والْقَحْط، فأعْجَبَهُ التَّأْويلُ والتَّدْبير، وقال للَّذِينَ يُوجِّهُ لَهُمْ الأَمْرَ مِنْ حَاشِيَتِهِ في العادَة: ائتُوني بِيُوسُفَ مِنَ السِّجْن.

فأَرْسَلُوا إِلَيْهِ رَسُولاً لِيُحْضِرَهُ، فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ وأخْبَرَهُ بأَنَّ الْمَلِكَ يَطْلُبُ حُضُورَهُ إِلَيْهِ، قَالَ للرَّسُولِ ارْجِعْ إلى رَبِّكَ، أيْ: إِلَىٰ سَيِّدِكَ الْمَلِكِ، فَأَبْلِغْهُ عَنِّي السُّؤَالَ التَّالِي: مَا شَأْنُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ لَمَّا رَأَيْنَنِي انْبِهاراً بِمَا رَأَيْنَ من الْحُسْنِ الَّذِي آتاني اللهُ إِيَّاهُ، وشَهِدْنَ ضِدِّي بأَنِّي أَرَدْتُ إِنْزَالَ سُوءٍ وَأَذىً كَضَرْبٍ وَدَفْعٍ ونَحْوِهِما بِزَوْجَةِ الْعَزِيزِ؛ لِأَنَّنِي أَبَيْتُ أَنْ أَسْتَجِيبَ لِمُرَاوَدَتِها لي عَنْ نَفْسِي، فَنَصَرْنَها ضِدِّي بِكَيْدٍ افْتَرَيْنَهُ عَلَيَّ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَكْشِفَ كَيْدَهُنَّ، ويَقِيَنِي شَرَّهُ.

الكيد: تَدْبيرُ أَمْرٍ فيه مَكْرُوه لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه.

فَاستجاب الملِكُ لِطَلَبِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فاسْتَدْعَىٰ النِّسْوَةَ وَزَوْجَةَ الْعَزيز، وأَعادَ التَّحْقِيقَ في الأَمْرِ الَّذِي اتُّهِمَ بِهِ، وأُودِعَ مِنْ أَجْلِهِ فِي سِجْنِ رَئِيسِ الشُّرْطَة، وخَاطَبَهُنَّ:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾:

- ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾: أي: مَا شَأْنُكُنَّ وَحَالُكُنَّ مَعَ يُوسُفَ، حِينَ مُرَاوَدَتِكُنَّ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ، هَلْ حَاوَلَ إيذاءَ سَيِّدَتِهِ امْرَأةِ الْعَزِيزِ بِضَرْبٍ أَوْ نَحْوِهِ؟.

الْخَطْبُ: الأمْرُ والشَّأْنُ والحَالُ الَّتِي تَجْرِي بِهِ المخاطَبَة.

- ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ وفي الْقِرَاءَةِ الأخرى: [**حَاشَىٰ لِلَّهِ**]: جاء في لسان العرب لابْن منظور: «حَاشَىٰ للهِ، وحَاشَ للهِ» أي: بَرَاءَةً للهِ وَمَعَاذاً للهِ. والمعْنَىٰ هنا، نَبْرأُ إلَىٰ اللهِ مِنِ اتِّهَامِهِ بسُوءٍ، وَنَعُوذُ باللهِ مِن اتِّهامِهِ؛ لِأَنَّنَا مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ سُوءاً.

- ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾: أي: الآنَ ظَهَرَ الحقُّ. يُقَالُ لُغَةً: «حَصْحَصَ الشَّيْءُ» أي: ظَهَرَ بَعْدَ خَفَاءٍ.

المعنى: قَالَ الْمَلِكُ لِلنِّسْوَةِ صَوَاحِبِ امْرَأةِ العَزِيزِ وهِيَ مَعَهُنَّ بَعْدَ أَنِ اسْتَدْعَاهُنَّ للتَّحْقِيقِ مَعَهُنَّ فِي أمْرِ يوسف: مَا شَأْنُكُنَّ حِينَ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ، هَلْ حَاوَلَ إيذاءَ امْرَأةِ الْعَزِيز هَـٰذِهِ بِضَرْبٍ أَوْ نَحْوِهِ، حَتَّىٰ اسْتَحَقَّ أَنْ يُسْجَنَ بِمَا فَعَلَ؟.

قُلْنَ: نَبْرَأُ إِلَى اللهِ وَنَعُوذُ بِهِ مِن اتِّهَامِهِ بِشَيْءٍ مِن ذَلِكَ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء.

عِنْدَئِذٍ قَالَتِ امْرَأةُ الْعَزِيز: الْآنَ ظَهَرَ الْحَقُّ، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لي، وإنَّهُ فَرَّ مِنِّي فَلَحِقْتُهُ، ولَمَّا أَدْرَكْتُهُ شَدَدْتُهُ مِنْ قَمِيصِهِ فانْشَقَّ طُولاً، وَإِنَّهُ لَصَادِقٌ مِنَ الصَّادِقِين.

عنْدَئِذٍ قال يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ، لَمَّا بَلَغَتْهُ نَتِيجَةُ تَحْقِيقِ المَلِكِ مع النِّسْوَةِ وامْرَأةِ الْعَزيز، وأَنَّ بَرَاءَتَهُ ظَهَرَتْ لِرِجَالِ الْقَصْرِ ولِكُلِّ مَنْ يُهِمُّهُ الأمْرُ مِنْ خَارِجِ الْقَصْرِ الفرعَوْني.

- ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾:

- ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَشَارَ بِهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ إلى طَلَبِهِ إِعَادَةَ التَّحْقِيقِ فِي قَضِيَّةِ اتِّهَامِهِ.

﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: أي: لِيَعْلَمَ عَزِيزُ مِصْرَ الَّذِي اسْتَأْمَنَنِي على قَصْرِهِ وأَهْله أَنَّني لَمْ أَخُنْهُ بِشَيءٍ وهُوَ غَائِب، وليَعْلَمَ أَنَّ اللهَ لا بُدَّ أَنْ يَكْشِفَ كَيْدَ الخائِنين، فَهُوَ لا يَدَعُ كَيْدَ الْخَائِنِينَ سَاتِراً لخيانَاتِهِمْ وَمُلْصِقاً التُّهْمَةَ بالْبَرِيئين، وفي هَـٰذا تَعْرِيضٌ بِمَا كَشَفَهُ تَحْقِيقُ الْمِلك، وتَبْرِئَةُ النِّسْوَةِ لَه، واعْتِرافُ امْرَأَةِ الْعَزِيز بأَنَّهَا هِيَ الَّتِي رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِه.

- ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾: أي: ومَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي مِنَ الْهَمِّ بِدَفْعِ امرأةِ الْعَزِيزِ عَنِّي بالْقُوَّةِ، وَلَوْ نَتَجَ عَنْهُ إيذاءٌ لها، إلَّا أَنَّ هَـٰذا الْهَمَّ لَمْ يَصِلْ إلَىٰ مُسْتَوَىٰ الإرَادَةِ الَّتِي يَنْجُمُ عَنْهَا التَّنْفِيذ.

- ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾: أي: إنَّ النُّفُوسَ لَأَمَّارَةٌ فِي حَالَةِ الْغَضَبِ أَو الدِّفَاعِ بِفِعْلِ سُوءٍ يَكُونُ بِهِ دَفْعٌ لمَكْرُوه، أَوْ في أحوالٍ مُشَابِهَةٍ لحالَةِ الْغَضَبِ والدِّفَاع، أَرادَ بالنَّفْسِ الجنْسَ، فاللفظ بِقُوَّةِ الجمع.

- ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾: أي: إلَّا نَفْساً رَحِمَهَا ربِّي، فَصَرفَ عَنْهَا أَنْ تَأْمُرَ صَاحِبَهَا بِالسُّوءِ أَمْراً يَصِلُ إلى حَدِّ الْإِرَادَة الجازِمَة، ويظْهَرُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنَّهُ ذُو نَفْسٍ رَحِمَهَا الله، فتَوَقَّفَتْ عِنْدَ حُدُودِ الْهَمِّ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾.

- ﴿... إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ جاءَ بهذه العِبارة كنايَةً عَنِ الدُّعاءِ بِأَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُ هَمَّهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُؤَاخذاً عَلَيْهِ، إِذْ يَرَىٰ أَنَّ نبيًّا مِثْلَهُ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَهُمَّ بالسُّوءِ وَلَوْ لَمْ يَصِلْ إلى مُسْتَوىٰ الإرادَةِ الجازِمَة.

قول الله تَعالَىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾:

- ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾: أي: اخْتارُهُ وأصطَفِيهِ لِنَفْسي، وأجْعَلُهُ فِي مملَكَتِي مُخْتَصّاً بِي.

- ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾: أيْ: فجاءُوا بِهِ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ وَرَأَىٰ ذَكَاءَهُ النَّادِرَ، وعَقْلَهُ الرَّصِينَ الْحَصِيفَ الرَّاجِحَ.

- ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أي: قال لـه: إنَّـكَ فـي أَقْـرَبِ الْقُرْبِ مِنَّا ذُو مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ عَالِيَةٍ ثَابِتَة، مَأمُونٌ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ.

المعْنَىٰ: وَلَمَّا رَأَىٰ الْمَلِكُ صِدْقَهُ، وأَمَانَتَهُ، وعِفَّتَهُ، وفَائِقَ ذَكَائِهِ ورجَاحَةَ عَقْلِهِ، وَحُسْنَ بَيَانِهِ قَالَ: ٱئتُونِي بِهِ أَجْعَلْهُ خَالِصاً مصطفىً لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ زَادَ إعْجَابُهُ بِهِ، وقَالَ لَهُ إِنَّكَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِين.

لَدَينا: مثل عندنا، إلّا أنّ «لَدىٰ» أكثر دلالة على كثرة القرب من «عند».

جاء عِنْدَ الإسْرَائِيلِيّين: «أنّ فِرْعَوْن مِصْرَ حينئذٍ قَالَ لعَبِيدِهِ: هَلْ نَجِدُ رَجُلاً مِثْلَ يُوسُفَ فِيهِ رُوحُ الله. ثُمَّ قال فرعَوْنُ لِيُوسُفَ: بَعْدَمَا أَعْلَمَكَ اللهُ كُلَّ هَـٰذا لَيْسَ بَصِيرٌ وحَكِيمٌ مِثْلَكَ. أنْتَ تَكُونَ عَلَىٰ بَيْتِي، وعَلَىٰ فَمِكَ يُقَبِّلُ جَمِيعُ شَعْبِي. إلّا أنَّ الْكُرْسِيَّ أَكُونُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْكَ. ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: انْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُكَ عَلَىٰ كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. وخَلَعَ فِرْعَوْنُ خاتَمَهُ مِنْ يَدِه وجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُف. . .

وقال فِرْعَوْنُ ليُوسف: أَنَا فِرْعَوْنُ، فَبِدُونِكَ لَا يَرْفَعُ إِنْسَانٌ يَدَهُ وَلَا رِجْلَهُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْر».

أمَّا البيانُ الْقُرْآنِيُّ فَقَدْ جاءَ فِيهِ مَا يَلِي حكايَةً لما قَالَ يُوسُفُ لفرعون:

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: اجْعَلْنِي صَاحِبَ السُّلْطَةِ العامَّ على التَّمْوِينِ ووسَائِلِهِ في أرضِ مَمْلَكَتِكَ كُلِّهَا بِمِصْر، ووصَفَ نَفْسَهُ بِصِفَتَيْنِ تُؤَهِّلانِهِ لِهٰذا المنصب، هُمَا الحفظُ والْعِلْم، فقال لَهُ: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حَفِيظٌ للأقْوات، عَلِيم بأسْبَابِ تَهْيئَتِها وَحَمْلِ الشَّعْب عَلَىٰ اتِّخَاذِ مَا يَلْزَمُ لِزراعَتِها، وحَصَادِهَا، وَجَمْعِها بِسَنابِلِهَا، وَتَخْزِينِها تَخْزيناً مَصُوناً، وعَلِيمٌ بِتَوْزِيعِ الأَقْوَاتِ على الشَّعْبِ في سَنَوَاتِ الجدْبِ والْقَحْطِ بِمَقَادِيْر حَكِيمَةٍ، يَجْرِي فيها تَوْزِيعُ المخْزُونِ بأثْمَانِهِ مُقسَّماً عَلَىٰ سَبْعِ سَنَوَات، حَتَّىٰ لا يُسْتَهْلَكَ كُلُّ المخزُونِ قَبْلَ مَجِيء سَنَةِ الخِصْبِ الثامِنَة، وعَلِيمٌ بِعَزْلِ احْتِيَاطِيٍّ لِلضَّرُورَات المفاجِئات.

حَفِيظ: أي: كثير الحِفْظِ، صِيغَةُ «فَعِيل» من صِيَغِ المبالَغَةِ، والتَّكْثير.

عَلِيم: أي: كثير العِلْمِ المؤهِّلِ للقيام بهٰذا المنْصِبِ الخطير.

وطُوِي في النَّصِّ بيانُ أَنَّ الْمَلِكَ اسْتَجابَ لِطَلَبِ يُوسُفَ، فجعَلَهُ صَاحِبَ السُّلْطَانِ المطْلَقِ عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ في مَمْلَكَتِهِ.

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أي: وَكَذٰلِكَ المنْصِبَ الْخَطِيرِ الَّذي مَنَنَّا عَلَيْهِ بِهِ ضِمْنَ

مَجَارِي أَلْطَافِنَا، إِذْ جَعَلْنَاهُ صَاحِبَ السُّلْطَةِ الْعَامَّ عَلَىٰ خَزَائِنِ أَرْضِ مِصْرَ بِأَمْرِ الْمَلِكِ، مكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، يَخْتَارُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ لِبِنَاءِ قُصُورِهِ، وَإِقَامَاتِهِ الدَّائِمَةِ أو المؤقَّتَةِ، بِحَسَبِ مقتَضيَاتِ إِدَارَتِهِ لقضايا التَّمْوِينِ فِي الْأَقَالِيمِ، والمراكِزِ الإدارِيَّةِ لِعُمُومِ الْمَمْلَكَة.

﴿يَتَبَوَّأُ﴾: أيْ: يَنْزِلُ وَيُقِيمُ إِقَامَةً طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَة. يُقَالُ لغة: «تَبَوَّأَ المَكَانَ، وتَبَوَّأَ بِهِ» أي: نَزَلَهُ وأقام به.

المبَاءَةُ: المنْزِلُ.

- ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: في أيِّ مَكَانٍ يَشَاءُ أَنْ يَتَّخِذَهُ مَنْزِلاً يُقِيمُ فِيهِ إِقَامَةً طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَة، بِشَرْطِ أَنْ يَشَاءَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ أخذاً من القراءة الأخرىٰ: **[نَشاءُ]**.

«**حَيْثُ**»: ظَرْفُ مَكَانٍ مبنيٌّ على الضمّ، ويَلْزَمُ الإضافَةَ إلى جُمْلَةٍ فِعْلِيَّة أو اسْمِيَّة، والغالبُ فيه أَنْ يَكُونَ في مَحلِّ نَصْبٍ ظَرْفَ مكان، كما جَاءَ هُنَا فِي الآيَة.

- ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾: أي: نُعْطِي مِنْ آثَارِ رَحْمَتِنَا عَطَايَانَا الَّتِي نُوصِلُهَا فَتُصِيبُ مَنْ نَشَاءُ أَنْ نَمُنَّ عَلَيْه، لِيَسْتَمْتِعَ بِهَا فِي الدُّنْيَا مَتَاعاً حَسَناً.

- ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: فِي هَـٰذِهِ العبارة كِنَايَةٌ عَلَىٰ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، الَّذِينَ يُعَجَّلُ لَهُمْ ثَوَابٌ مَا فِي الدُّنيا، فَمَا مَنَنَّا بِهِ عَلَىٰ يُوسُفَ مِنْ مَنْصِبٍ خَطِيرٍ في مِصْرَ، وَتَمْكِينٍ لَهُ فِي أَرْضِهَا يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، هُوَ مِنَ الْأَجْرِ المعجَّلِ لَهُ فِي الدُّنيا، لِأَنَّهُ فِي اختِيَارَاتِهِ وأعْمَالِهِ الْبَاطِنَةِ والظَّاهِرَةِ مِنَ المحسنين.

- ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾:

أي: وَمَا نَمْنَحُهُ بَعْضَ عبادِنا مِنْ أجْرٍ مُعَجَّلٍ فِي الحياة الدُّنيا لَا يُؤَثِّرُ علَىٰ أَجْرِ الآخِرَة، ويُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنَّ أجْرَ الآخِرَةَ خَيْرٌ كَمًّا وَكَيْفاً مِنْ أَجْرِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، وهُمْ أهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ عَلَىٰ دَرَجَاتِها، أي: فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، وأهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، ومنْهُمْ يوسُفُ عليه السّلام.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّرُ الفَصْل العاشر من فصول قِصَّةِ يوسف عليه السلام.

والحمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

التدبر التحليليّ للفصل الحادي عشر مِن قِصَّةِ يوسُفَ علَيه السلام
الآيات من (٥٨ ـ ٦٧)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِىۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

القراءات:

(٥٩) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [**أَنِّيَ أُوفي**] بفتح ياء المتكلم وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

(٦٠) • أثبت ياء المتكلّم في [**تَقْرِبُونِي**] يعقوب. وحذفها باقي القراء العشرة.

(٦١) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**لِفِتْيَانِهِ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**لِفِتْيَتِهِ**].

ومُؤَدَّى القراءتين واحد.

(٦٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**يَكْتَلْ**].

وقرأها باقِي القرَّء العشرة: [**نَكْتَلْ**].

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تكاملٌ في أَدَاءِ المعنَىٰ المراد.

(٦٤) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**حَافِظاً**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**حِفْظاً**].

ومؤدّى القراءتين واحد.

(٦٦) • قرأ وَرْش: [**تُوتُونِ**] وكَذَلِكَ حَمْزَة في الوقف.

وقرأها دُوري أبي عَمْرو وَصْلاً: [**تُؤْتُونِي**].

وقرأها السُّوسِي، وأبو جعْفر وصْلاً: [**تُوتُونِي**].

وقرأها ابْنُ كثير، ويعقوب في الوصل والوقف: [**تُؤْتُونِي**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة في الوصل والوقف: [**تُؤْتُونِ**].

تمهيد:

طُوِيَ بَيْن هذا الْفَصْلِ وَبَيْنَ الَّذِي قَبْلَهُ بَيانُ أَحْدَاثِ السَّنَوَاتِ السَّبْعِ

الْخَصِيبَاتِ، وَمَا قَامَ بِهِ يُوسُفُ عليه السَّلاَم من إدارةٍ حَكِيمَةٍ فِي جَمْعِ ما يَحْتَاجُ الشَّعْبُ مِنْ أَقْوَاتٍ خِلَالَ سَنَواتِ الْقَحْطِ الَّتِي تَأْتِيَ بَعْدَهَا، وتجاوزَهَا لأنَّ الذّهْنَ يُدْرِكُ أَنَّهَا جرَتْ على أحْسَنِ وجه وأحْكمه.

وعَرَضَ مَجِيءَ إخْوَةِ يوسُفَ الْعَشَرَةِ إِلَىٰ مِصْرَ مِنْ أرْضِ كَنْعَانَ، لِشرَاءِ أقواتٍ لَهُمْ ولِأَبِيهم وسَائِر أَهْلِهِمْ مِنْ صَاحِبِ سُلْطَانِ التَّمْوِينِ فِي مِصْرَ، ودُخولَهُمْ عَلَيْهِ وَمَعْرِفَتَهُ لَهُمْ دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّهُ أخُوهُمْ يُوسُفَ، وَمَا دَبَّرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تَدْبِيراتٍ لِيَأتُوا بأخِيهم «بِنْيَامِينَ» الَّذِي لَمْ يأَتِ مَعَهم؛ لأنَّ أبَاهُمْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلام لا يَسْمَحُ لَهُ بِأَنْ يَذْهَبَ مَعَهُمْ بَعْدَ أنْ فَقَدَ يُوسُفَ لمَّا أَخَذوهُ مَعَهُمْ إِلَىٰ المرَاعِي، وزعَمُوا أَنَّ الذِّئبَ قَدْ أكَلَه.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾:

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾: أي: لَمْ يَعْرِفُوا أَنَّه أَخُوهُمْ يُوسُف.

تَدُلُّ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ الوافِدِينَ لشِرَاءِ الْقُوتِ مِنْ غَيْرِ المصريّين، لَا بُدَّ أَنْ يُوافِقَ ذُو السُّلْطَانِ الْأَعْلَىٰ، يُوسُفُ، وقَدْ سَمَّاه فرعون كما ذكر الْإِسْرائِيلِيُّون: «صَفْنَات فَعْنِيح» عَلَىٰ طَلَبِهِمْ؛ لأَنَّ الْأَقْوَاتَ المدَّخَرَة خاصَّةٌ نِظَاماً بِالْمِصْرِيّين.

وتَدُلُّ الْقَرَائِنُ عَلَىٰ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَهُمْ عَنْ تَحَمُّلِهِمْ مَشَقَّةَ السَّفَرِ مِنْ أَرْضِ كنعانَ إِلَىٰ مِصْرَ لشرَاء الْقُوتِ وهُمْ لَيْسُوا بِمِصْرِيّين، فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُمْ غُربَاءُ أيْضاً فِي أرْض كنْعَانَ، هاجَرَ إِلَيْهَا جَدُّهُمْ مِنَ الْعِرَاقِ فراراً بِدِينِهِ، وَأَنَّ لَهُمْ أباً شَيخاً كبيراً غَيْرَ قَادِرٍ عَلَىٰ الْعَمل، وسألَهُمْ: هَلْ لَهُمْ مِنْ أَبِيهِمْ إِخْوَةٌ ذُكُور غَيْرُهم، فذكرُوا لَهُ أَنَّ لَهُمْ أخاً غَائِباً اسْمُهُ

يُوسُف لا يَعْرِفُونَ مَصِيرَه، وأَنَّ لَهُمْ أَخاً آخَرَ مِنْ أَبِيهِمْ يَحْتَفِظُ أَبُوهُ بِه وَلَا يَسْمَحُ لَهُ بِأَنْ يَخْرُجَ مَعَهُم.

فَوافَقَ عَلَىٰ بَيْعِهِمْ مَا طَلَبُوا مِنَ الْقُوتِ، وأَمَرَ عُمَّالَهُ بِأَنْ يَكِيلُوا لَهُمْ، وبأَنْ يُوفُوا لَهُمُ الكَيْلَ.

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾:

- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾: يُقَالُ لُغَةً: «جَهَّزَ فُلَانٌ المسافِرَ مثلاً» أي: أعَدَّ وهَيَّأَ لَهُ جِهَازَه. **الجهاز**: بفتح الجيم وكَسْرِهَا كُلُّ ما يُحْتَاجُ إليهِ، فجهاز المسافر، مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ في سَفَرِهِ، وجِهَازُ الْعَرُوسِ، مَا تَحتَاجُ إِلَيْهِ لَدَىٰ انْتِقَالِهَا إلى بَيْتِ زَوْجِها، وَهَكَذَا.

أي: ولَمَّا أعْطاهُمْ مَا طَلَبُوا مِنَ الأقوات، ومَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ في عَوْدَتِهِم إلى أرْضِ كنْعَان، وكَانَ قَدْ أَنْزَلَهُمْ مَنْزِلاً كَرِيماً، وأحْسَنَ ضِيَافَتَهُمْ مُدَّة إقَامَتِهِمْ عِنْدَهُ فِي مِصْر، وَصَارُوا عَلَىٰ وشَكِ الارْتِحَال مُسَافِرِين.

- ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾:

أي: اعْمَلُوا عَلَىٰ إقْناع أبيكُمْ بأَنْ يَبْعَثَ مَعَكُمْ في المرَّةِ الْقَادِمَةِ أخَاكُمْ، حَتَّىٰ أَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا ذَكَرْتُمْ، فإِنَّنِي سَأُوفي لَكُم ولَهُ الكَيْلَ، وأُنْزِلُكُمْ جَميعاً في ضِيَافَتِي مَنْزِلاً كَرِيماً. أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ فَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئاً، وَأُنْزِلُ ضُيُوفِي خَيْرَ مَنْزِلٍ إيواءً وإطْعَاماً وشَرَاباً وتَكْرِيماً، وأَنَا خَيْرُ المنزلين، أي: في مِصْرَ لِكُلِّ ضُيُوفِي، ولَيْسَ لَكُم فقط.

وقال لهم أيضاً:

- ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠)﴾:

أي: فإنْ لَمْ تَأْتُوني بأخِيكُمْ مِنْ أَبِيكُمُ الَّذِي ذَكَرْتُموهُ لِي، ظَهَرَ لِي أَنَّكُمْ كَاذِبُونَ، فعِنْدَئِذٍ لَا أبيعُكُمْ مَا تَطْلُبُونَ مِنْ مِيرَةٍ؛ لأنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ رَعَايَا مَمْلَكَتِنا، وَلَا تَقْرَبُوني مَهْمَا حاوَلْتُمْ ذِكْرَ أعْذَارٍ؛ لأنني لَا أستقبلكم.

- ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١)﴾:

أي: سَنُحَاوِلُ إقْنَاعَ أَبِيهِ بمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ ليوافِقَ عَلَىٰ طَلَبِ إرْسَالِهِ مَعَنَا، وسَنُبَيِّنُ لَهُ أَنَّ صَاحِبَ سُلْطَانِ الْمِيرَةِ فِي مِصْرَ طَلَبَ مِنَّا هَٰذا، وأَنْذَرَنا بأَنَّنَا إذَا لَمْ نَأْتِ بِهِ فإِنَّهُ سَيَرْفُضُ طَلَبَنا الْمِيرَة، ونَهانَا عَنْ أنْ نَقْرَبَهُ لِأَنَّنَا لسْنَا مِنْ رَعَايَا مَمْلَكَتِهِ.

وأَكَّدُوا لَهُ أَنَّهُمْ سَيَفْعَلُونَ مَا فِي وُسْعِهِمْ، وأَنَّ أَبَاهُمْ سَيُوافِقُ إذَا طَمْأَنُوهُ بالْأَيْمَانِ والْمَوَاثِيقِ أَنْ يَحْفَظُوهُ مِنْ كُلِّ سوء.

وَوَدَّعُوا صَاحِبَ سُلْطَانِ الْمِيرَة عَائِدِين إلى أَرْضِ كَنْعَانَ مِنْ بِلادَ الشّام، ومَعَهُمْ ما اشْتَرَوْا مِنْ مِيرَةٍ فَرِحِين، تَحْمِلُهَا جِمَالُهُمْ.

قول الله تعالَىٰ:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾: وفي القراءة الأخرى:

- **[لِفِتْيَتِهِ]**: فِتْيَان، وفِتْيَةٍ، جمعان للفظ «فَتَىٰ» وهو الْخَادِم. ويطلق على العبْد الرقيقِ، وكان الأرقاء كَثِيرِينَ، فقد كان الاسترقاق نظاماً منتشراً في الأمم.

- ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾: **بضاعَتَهُم**: هي الأَثْمَانُ الَّتِي اشْتَرَوا بِها الْقَمْحَ ونَحْوَه. **ورِحَال**: جَمْعُ: «رَحْل» وهو ما يُوضَعُ على ظهر البعيرِ من وعاءٍ للمتاعِ وغَيْرِهِ، كالْخُرْجِ والْعِدْلِ.

وجاء عند الإسرائيليين أنَّ البضاعَة التي اشْتَرَوا بِها الْقَمْحَ كَانَتِ فِضَّةً، وأَنَّها وُضِعَتْ في أفْواهِ الْعُدُولِ الْمَمْلُوءَةِ بالْقَمْح. (٤٢ تكوين فقرة ٢٦).

- ﴿... لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: لعلَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا هِي فِضَّتُهُمُ الَّتِي اشْتَرَوْا بِهَا، إذا رَجَعُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ وَفَتَحُوا عُدُولَهُمْ، ولَيْسَتْ داخِلَةً فِي عُدُولِ الْقَمْحِ خطأً مِنَ الكَيَّالِينَ الَّذِينَ يَكِيلُونَ للشّارِينَ، ويَضَعُونَ الأَثْمَانَ بالْقُرْبِ مِنْ صُبَرِ الْقَمْحِ.

فإذا عَرَفُوا أَنَّهَا فِضَّتُهُمْ فَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، لِيَعْرِفُوا سَبَبَ وضْعِها في أفْواه عُدُولهم، فإنْ كَانَ على سبيل الخطَأ رَدُّوها، وبهٰذا يَظْهَرُ أَنَّهُمْ أُمَنَاء، وإنْ كان أمْراً مَقْصُوداً فالرَّجُلُ اختصَّنَا بمزيد إكْرام، ويظْهَرُ أَنَّ يُوسُفَ عليه السّلام خَافَ أن لا يَعُودُوا اكتفاءً بما أخذُوا، فتنقطعَ صِلَتُهُ بأهْلِهِ في أرض كنعَان، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ بِنَفْسِهِ قَبْلَ أن يسْتَدْرِجَهُمْ إلى مَعْرِفَتِهِ بِحِيلَةٍ ما يَضْغَطُ بِها على نفوسهم ومَشَاعِرهم.

قول الله تعالَىٰ:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: **[يَكْتَلْ]** أي: نَكْتَل ويَكْتَل، فبيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعْنَىٰ المراد:

أي: فلمَّا رَجعُوا إلى أبيهم «يعقوب = إسرائيل» عَلَيْهِ السَّلام، بَادَرُوهُ بأَنْ قَصُّوا عَلَيْهِ قِصَّتَهُمْ مع صَاحِب سُلْطانِ التَّمْوِينِ فِي مِصْرَ بالتَّفْصِيلِ، إذْ سَأَلَهُمْ عَنْ أَبِيهِمْ وَعَنْ جَمِيعِ أَوْلادِه، وعَرفَ أَنَّ لَهُمْ أخاً صَغِيراً مِنْ أبيهِم اسْمُهُ «بِنْيَامِين» وأنَّ أَبَاهُ لَا يأذَنُ لَهُ بالخروج والسَّفرِ مَعَ إِخْوَتِهِ خَوْفاً عَلَيْهِ مِنْ أنْ يُصِيبَهُ أذىً، أو ضُرٌّ، إلى سَائِرِ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَأَجَابُوهُ عَلَيْهِ بِصِدْق.

وقالوا لأبيهِمْ: فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ لَنَا أَخاً صَغِيراً مِنْ أَبِينا قَالَ لَنَا ائْتُوني

بِهِ، فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي، وَلَا آذَنُ لَكُمْ بِأَنْ تَقْرَبُوا مِنِّي لَتَطْلُبُوا مِنِّي شِرَاءَ مِيرَتِكُمْ، ويَظْهَر أَنَّ طَلَبَهُ إِحْضارَ أَخيهم «بِنْيَامِين» قد كان لِيُعَرِّفَهُ بنَفْسِهِ، ولِيُشْعِرَ أَبَاهُ من طَرْفٍ خفِيّ بأنه يوسف، مع قرينَةِ رَدّ فضتهم إليهم.

وقالوا لأبيهم: فإذا شئت أن نكتال قَمْحاً بِثَمَنِهِ في الرِّحْلَةِ الْقَادِمَة، فأرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وإِنَّا لَهُ لحافِظُونَ، مُؤَكِّدين اجْتِهَادَهُمْ بِحِفْظِه بـ «إن ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة».

- ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾: أي: حُرِمْنَا الكَيْلَ مُسْتَقْبلاً، يُقَالُ لُغَةً: «مَنَعَهُ الشيْءَ، ومَنَعَهُ مِنْهُ، يَمْنَعُهُ، مَنْعاً» أي: حَرَمَهُ إيَّاه.

فأجابَهُمْ أبوهُمْ بما يلي:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: أنتم لسْتُمْ أُمَناءَ على أخيكم، لكن الأمْر الذي ذكَرْتُموهُ مع حاجتنا إلى الميرَة لحَياتِنا قَدْ يُلْجِئُنِي إِلَىٰ الْمُوافقَةِ على إرْسَالِ ٱبْنِي «بَنْيامين» مَعَكُمْ تَلْبِيَةً لطلَب سُلْطانِ التموينِ في مِصْرَ، ولَكِنْ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أخيهِ الشَّقيقِ يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ، إنَّ مَا جَرَىٰ مِنْكُمْ لِيُوسُفَ يَجْعَلُنِي لَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ «بَنْيامين» ولَكِنْ مَاذَا أَفْعَلُ إذا كَانَتِ الضَّرُورَةُ مُلْجِئَةً، فأَنْتُمْ تَقُولُونَ: لَنْ يَكُون لَكُمْ كَيْلٌ مَا لَمْ تَأْخُذُوا «بَنْيامِينَ» مَعَكُمْ، وأنا لا أستطيع أنْ أسَافر معكم.

- ﴿... فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: وَإِذَا أَرْسَلْتُهُ مَعَكُمْ فإنَّني أسْأَلُ اللهَ أَنْ يَحْفَظَهُ، وَأَنْ يَرْحَمَهُ ويَرْحَمَنِي، فاللهُ خيْرٌ حَافِظاً مِنْ كُلِّ حَافِظٍ، وهو أرْحَمُ الراحِمين.

وفي القراءة الأخرى: [فَاللهُ خَيْرٌ حِفْظاً].

حَافِظاً: حالٌ من لفظ الجلالة. **حِفْظاً**: تَمْييز لرفع إبهام أفعل التفضيل «خَيْر».

ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد، وهما من التَّفَنُّنِ في التعبير.

قول الله تعالى:

● ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: ولمَّا فَتَحُوا أوْعِيَتَهُمْ الَّتِي فِيهَا الْقَمْحُ الَّذِي جَلَبُوهُ مِنْ مِصْرَ، وجَدُوا فِضَّتَهُمْ الَّتِي اشْتَرَوْهُ بها في أفْوَاهِهَا.

● ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾: أي: أُعِيدَتْ إلَيْهِمْ عَنْ قَصْدٍ لاعَنْ خَطأ، فَهِيَ في صُرَرِهِمْ في أفواه عُدُولِهِمْ.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾؟ على الاستفهام أوْ عَلَىٰ النَّفْي، أَيْ: أَيَّ شَيْءٍ نَطْلُب أكْثَرَ مِمَّا أكْرَمَنَا بِهِ سَيِّدُ أَرْضِ مَصْرَ، إذْ أوفَىٰ لَنَا الكَيْلَ فَمَلأَ لَنَا عُدُولَنَا، وأنْزَلَنَا ضُيُوفاً عِنْدَهُ فَكَانَ خَيْرَ المنزلِينَ مِنَ النَّاسِ إيواءً، وطَعَاماً وشراباً، وَرَدَّ إِلَيْنَا فِضَّتَنَا؛ لِنُسْرِعَ الرَّجْعَةَ إِلَيْهِ مَصْحُوبِينَ بأخِينا الصَّغِيرِ حَتَّىٰ يَزِيدَ في إكْرَامِنَا؟؟.

وعلى النَّفْي: يكُونُ المعنى: لسْنَا نَبْغِي أي: لَسْنَا نَطْلُبُ أَكْثَرَ مِنْ هَٰذا، والمؤدَّىٰ واحد.

هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا «أي: فِضَّتُنَا» رُدَّتْ إلَيْنَا إكراماً من سَيِّدِ أَرْضِ مِصْر، ورَدُّها إلَيْنَا يَحُثُّنَا عَلَىٰ سُرْعَةِ الرَّجْعَةِ إِلَيْه، مَصْحُوبِينَ بأَخِينَا الصَّغِير الَّذِي طَلَبَ مِنَّا إحْضَارَهُ مَعَنَا، وجَعَلَ إحْضَارَهُ شَرْطاً لمواجَهَتِهِ والموافَقَةِ على مَا نَطْلُبُ مِنَ المِيرَة.

- ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: أي: ونَجْلُبُ لِأَهْلِنَا الْمِيرَة، أي: القوت.

يقال لغة: «مَارَ فُلانٌ أَهْلَهُ، يَمِيرُهُم، مَيْراً» أي: جلَبَ لَهُمُ الطَّعَامَ، وهَيَّأَهُ لهم. **المِيرَة**: مَا يُجمَعُ مِنَ الأَقْوَاتِ والطَّعام.

- ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾: أدخَلُوا هَـٰذِهِ الْجُمْلَةَ فِي كلامِهِمْ لِطَمْأَنَةِ أَبِيهِمْ عَلَيْهِ، وهي لَيْسَت مِنَ الدَّواعِي المحَرِّضَةِ عَلَىٰ السَّفَرِ به.

- ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۢ﴾: أي: وَنَزْدَادُ بأَخْذِ أَخِينَا مَعَنَا كيلاً مِنَ الْقَمْحِ بمِقْدَارِ حِمْلِ بَعِير. وهَـٰذِهِ الزيادة دافِعَةٌ لَنَا حَتَّىٰ يَشْتَدَّ حِرْصُنَا على حفظ أَخِينَا.

فَدَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارَةُ عَلَىٰ أَنَّ قَافِلَتَهُمْ هِيَ من الجمال، ورُبَّمَا يكُونُ مَعَهُمْ حَمِيرٌ وغَيْرُهَا من الدَّواب لِرُكُوبِهِمْ، وحَمْلِ أزْوادِهِمْ وعَليقِ دَوابّهِمْ.

وتَدُلُّ عَلَى أنَّ الوافِدَ إلى مِصْرَ لَا يُسْمَحُ لَهُ بأَنْ يَشْتَرِيَ أَكْثَرَ مِنْ حِمْلِ بَعِيرٍ واحِدٍ.

- ﴿... ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾: أي: ذَلِكَ الكَيْلُ الَّذِي جلَبْنَاهُ في رِحْلَتِنَا، كَيْلٌ قَلِيلٌ بالنِّسْبَةِ إلى حَاجَاتِنَا وَحَاجَاتِ أهْلِينَا مِنَ الْقَمْحِ، فَنَحْتَاجُ مَزِيداً مِنْه.

كلمة «يَسِير» تأتي بمعنى «قَلِيل» وهذا هو المناسِبُ هنا. وتأتي بمعنى: «سَهْل» و«حقير» و«هَيِّن».

قول الله تعالى مُبَيِّناً رَدَّ يعْقُوبَ على أبنائِهِ العشرة:

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

- ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾:

الْإِيتَاءُ وَالْإِعْطاء والْأَخْذُ: أَلْفَاظٌ عُمِّمَت في الاسْتِعْمَال، فصَارَتْ تَدُلُّ عَلَىٰ الحسِّيَّاتِ الْجَسَدِيَّة، والمَعْنويَّاتِ الْفِكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، فتُطْلَقُ على إعطاء الْعَهْدِ والْوَعْدِ والْمَوْثِق، وأَخْذِ الْعَهْدِ والْوَعْدِ والْمَوْثق.

وهذا شأْنُ كثيرٍ من الحسِّيَّاتِ، إِذْ جَرَىٰ في اللُّغَةِ تَعْمِيمُها على المعْنَوِيَات، وهَـٰذا من التوسُّع اللُّغوي، وقَدْ يكُونُ أَصْلُهُ قائماً على التَّشْبِيهِ والاستعارة أو المجاز المرسل، ولكِنْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ مُتَدبِّر آياتِ القرآن إلا أَنْ يَنْظُرَ فيما انْتَهَىٰ إِلَيْهِ الاسْتِعْمَالُ اللُّغَوِيُّ، ودَرَجَ على الأَلْسِنَة.

الْمَوْثِقُ: الْعَهْدُ المؤكَّدُ الْمُحْكَمُ المثبَّتُ بِمَا يَمْنَعُهُ مِن التفلُّت، أو الْإِفْلاتِ مِنْه.

- ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مَوْثِقاً مَرْبُوطاً بِوِثَاقٍ «= حَبْلٍ» مِنَ اللهِ. والْوِثَاقُ مِنَ اللهِ هُوَ الْيَمِينُ المشَدَّدُ فيها.

- ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾: هَـٰذا تَفْسِيرُ الْمَوْثِقِ مِنَ الله، أَيْ: نُقْسِم لَكَ يا أبانا لَنأْتِيَنَّكَ بِأَخِينَا «بنْيامِين» ولَنَكُونَنَّ لَهُ لَحافِظِين.

فاللَّامُ في: ﴿لَتَأْتُنَّنِى﴾ واقِعَةٌ في جوابِ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ مُلاحَظٍ ذِهْناً.

- ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾: أي: أَسْتَثْنِي حَالَةَ إِحَاطَةِ عَدُوٍّ بِكُمْ فَلَا تَسْتَطِيعُونَ التَّغَلُّبَ عَلَيْهِ وَلَا دَفْعَهُ عَنْكُم. ولَكُمْ أَنْ تَسْتَثْنُوهَا في قَسَمِكُمْ.

يُقَال لغة: «أُحِيطَ بِهِ» أي: دَنَا هَلَاكُه، وأَصْلُ الْعِبَارَةِ من إِحَاطَةِ الْعَدُوِّ بِعَدُوِّه، وإِحَاطَةِ الْمُهْلِكَاتِ بالشيء.

- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾: أَيْ: فَلَمَّا عَاهَدُوهُ، وَوَثَّقُوا عَهْدَهُمْ بِوِثَاقٍ مِنَ اللهِ، وهُوَ الْقَسَمُ باللهِ، مَعَ تَوْكِيدِه والتَّشْدِيدِ فيه.

- ﴿... قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾: أي: قَالَ أَبُوهُمْ يَعْقُوبُ عليه السلام بَعْدَ أَنْ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ الَّذِي وَثَّقُوهُ بالْقَسَمِ، اللهُ عَلَىٰ مَا أقولُ وَتَقُولُونَ وَكيل.

الْوَكيل: هو الَّذِي يُسَلَّمُ إِلَيْهِ أَمْرٌ مَا تَسْلِيماً كاملاً، أيْ: فَأَنَا أفَوّضُ للهِ أمْرِي، وأكِلُ إِلَيْهِ أمْرَ مَنْ يَنْقُضُ ميثَاقَهُ ويَخُونُ مَا اسْتُؤْمِنَ عليه، ثِقَةً بِعَهْدِهِ الَّذِي وَثَّقَهُ بِقَسَمِهِ باللهِ، فَجَعل اللهَ رَقيباً عَلَيْهِ ومُحَاسِباً ومُجازِياً، وكفَىٰ باللهِ وَكيلاً.

وأذِنَ يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلامُ لابْنِهِ «بِنْيَامِينَ» بالسَّفَرِ مع إخْوَتِهِ إِلَىٰ مِصْرَ، استجابَةً لِطَلَبِ سَيِّدِ الْأَرْضِ فيها، المُتصرِّفِ في شُؤُونِ التَّموِين، وَوَجَّهَ لَهُمْ وَصِيَّةً بأَنَّهُمْ إذَا وَصَلُوا إِلَىٰ مِصْرَ، فَلَا يَدْخُلُوا مِنْ بابٍ وَاحِدٍ، وأَمَرَهُمْ بأَنْ يَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتفَرِّقَةٍ:

- ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: وقال يَعْقُوبُ لِأَوْلَادِه جميعاً حِينَ عزَمُوا على الرَّحِيلَ إلى مَصْرَ لِجَلْبِ أقواتِهِمْ مِنها: يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلوا مِنْ بَابٍ واحِدٍ وادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتفَرِّقَةٍ، فَهَلْ هِي أَبْوابُ المدينَةِ يومَئذٍ، كما ذكَرَ بعْضُ المفَسِّرين؟ أمْ هِي أبْوَابُ قَصْرِ التَّموينِ؟ لَمْ أَجِدْ مَا يُفِيدُ تَعْيينَ أَحدِهِمَا، واللهُ أَعْلَمُ.

وفي سَبَبِ وَصِيَّةِ «يعقُوبَ» عَلَيْهِ السَّلامُ أوْلادَهُ بأنْ لا يَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ واحِدٍ عِدَّة احْتِمالات:

الاحتمال الأول: خوفُهُ عَلَيْهِمْ مِن أَعْيُنِ الحاسِدِين، إذْ كَانُوا ذوي جَمَالٍ، وهَيْئَةٍ حَسَنَةٍ، ومَنْظَرِ رُجولَةٍ مَهيبَةٍ، وألْبِسَةٍ فاخِرَةٍ، وهذا مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ، وقال به محمد بْنُ كَعْب، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادَة، والسُّدِّي، وغيرهم. ومَعْلُومٌ أَنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ.

ولَكِنْ لَمْ يُوصِهِمْ هَـٰذِهِ الوصِيَّة في الرِّحْلَةِ الأولى، حِينَ لم يَكُنْ «بَنْيَامِين» مَعَهُمْ، ورُبَّما دَفَعَهُ لهذا حرصه الشديد علَيْه وخوفه من أن يتعرَّض لأذىً.

الاحْتِمَال الثاني: خَوْفُهُ من أنْ يَلْفِتَ دُخُولُهُمْ مِنْ بَابٍ واحِدٍ أنْظَارَ الشُّرْطَةِ والحرَّاس، فَيظُنّوا أَنَّهُمْ جَواسِيسُ يُرِيدُونَ بالْمَمْلَكَةِ شرًّا، كالإطلاع علىٰ عَوْراتِها لصالح دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ طامعةٍ بها.

وهذا الاحتمال يُقَال فيه مَا يُقَالُ بشأن الاحتمالِ الأوّل.

الاحْتِمَال الثالث: أنَّ يَعْقُوب عليه السَّلامُ ظَنَّ ولَوْ ظَنًّا ضَعِيفاً، أَنَّ رَدَّ الْفِضَّةِ في أفواه عُدُولِ الْقَمْحِ في الرِّحْلَةِ السَّابِقَة، مَعَ إصْرَارِ سَيِّدِ أَرْضِ مِصْرَ عَلَىٰ أَبْنَائِهِ بأَنْ يَأْتُوا بأَخِيهم الأصْغَر «بَنْيَامِين» هُوَ مِنْ تَدْبير ٱبْنِهِ يُوسُفَ الغائب عَنْهُ من نحو عشرين سَنَة، فأرادَ أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، لعلَّ يوسُفَ يَرَىٰ بَنْيَامِينَ مُنْفَرِداً فيَخْلُوَ بِهِ وَيُعَرِّفَهُ بِنَفْسِهِ، ويُبْعِدُ هذا الاحتمال قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

وقَدْ يُرَشِّحُ هذا الاحْتِمَالَ مَا جَاءَ في الآية (٨٧) إذْ قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ:

﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

أقول: لا مانع من أن يكون يعقوب عليه السَّلام قَدْ قَصَدَ الاحتمالات الثلاثة معاً.

وقال يعقوب عليه السلام لأبْنَائِهِ:

- ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾: أي: وَمَا أَصْرِفُ عَنْكُمْ بِوَصِيَّتِي لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتفَرِّقَةٍ شَيْئاً مِنْ أثَرِ حُكْمٍ آتٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

- ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾: أي: مَا الْحُكْمُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ تَنْفِيذُ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، إِلَّا للهِ وَحْدَهُ.

هذا البيانُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المؤمِنَ مَأْمُورٌ بواجِبَيْن:

الواجب الأول: هو الواجِبُ السَّبَبِيّ الَّذِي يُكَلَّفُ المؤْمِنُ أَنْ يَتَّخِذَهُ في أُمُورِهِ كُلِّهَا، فَكُلُّ مَا جَعَلَ اللهُ لَهُ سَبباً كَوْنِيًّا فَعَلَىٰ المؤمِنِ أَنْ يَقُومَ بِهِ تَحْقِيقاً لمطْلُوبٍ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ، أَوْ دَفْعاً لِمَكْرُوهٍ يُخْشَىٰ مِنْ حُصُولِهِ.

الواجب الثّاني: هو الْوَاجِبُ الإيمانِيُّ الْقَلْبِي، الَّذِي لَا يَقْتَضِي أَنْ يَنْقُصَ المؤمِنُ من اتِّخاذِ الأسْبَابِ الْعَمَلِيَّةِ شَيْئاً، وهو إيمَانُهُ بأَنَّ حُكْمَ اللهِ في قضائِهِ المبْرَمِ نَافِذٌ لَا مَحالَة، سَوَاءٌ أَكَانَ مُسَايِراً لِلْأَسْبَابِ المتَّخذَةِ، وهُو الأمْرُ الْغَالِبُ فِي تَقْدِير اللهِ وقَضَائِهِ وحُكْمِهِ، أم كَانَ مُخَالفاً لِمَسِيرَةِ الأسْبَابِ، إِذْ يتَحقَّقُ في النهايَةِ حُكْمُ الله، وَتَنْقَطِعُ الأسْبَابُ فَلَا تَتحقَّقُ النَّتَائِجُ الْمَرْجُوَّة بها.

- ﴿... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: فَمَعَ مُطَالَبتِي باتّخاذِ الْأَسْبَابِ، وَإِيمَانِي بِأَنَّهَا لَا تَصْرِفُ مِنْ تقدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وحُكْمِهِ شَيْئاً، فإِنَّنِي أَتوكَّلُ عَلَيْهِ داعِياً لِيُحَقِّقَ مَا أُحِبُّ، وَيَصْرِفَ مَا أَكْرَه.

وعَلَيْهِ وَحْدَهُ فَلْيَتَوَكَّلِ المتَوَكِّلُونَ، مع قِيامِهِمْ بالْأَسْبَابِ الكَوْنِيَّةِ، الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ أَسْبَاباً تَجْرِي مِنْ قَنواتِها أَوَامِرُ اللهِ المنَفِّذَةُ لِأَحْكَامِهِ فِي كَوْنِهِ.

التوكُّلُ عَلَىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إِلَيْهِ، وتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الأمُورِ وتَحْقِيقِ مَا يَطْلُبُ المتَوَكِّلُ إِلَيْهِ، مَعَ القيام بالأسْبَابِ المستطاعَةِ الماديَّةِ والمعْنَوِيَّةِ طَاعَةً لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ» أي: اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ اعْتِمَاداً صَادِقاً،

مُسْتَسْلِماً لِمَا يَخْتَارُهُ لَهُ وَيُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنْ أَمْرٍ، مَعَ قيامِهِ بالْأَسْبَابِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي لَمْ يُحَرِّمِ اللهُ اتّخاذَها، دُونَ تَفْرِيطٍ بشَيْءٍ مُسْتَطَاعٍ مِنْها.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الحادي عشر من قصَّةِ يوسف عليه السلام.

والحمْدُ للهِ على معونته، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

التدبّر التحليليّ للفصل الثاني عشر مِنْ قِصَّة يوسف عليه السَّلام

الآيات من (٦٨ - ٩٣)

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ (٧٠) قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ (٧٣) قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ (٧٤) قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا

مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ
كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا
فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا
بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ
ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ
وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ
تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾
قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا
وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي
ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾
قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ
مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ
ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ
يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ
وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ۞ :

القراءات:

(٦٩) ● فتح ياء المتكلم من: **[إِنِّي أَنا]** نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

(٦٩) ● أثبت نافع، وأبو جعفر ألف «أَنَا» مَمْدُودةً من: **[أَنَا أَخُوكَ]**. وحَذَفَها باقي القرّاء العشرة.

(٧٠) ● قرأ ورْشٌ، وأبو جعفر: **[مُوَذِّنٌ]** بإبدال الهمزة واواً، وكذلِكَ حمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: **[مُؤَذِّنٌ]**.

(٧٦) ● قرأ يعقوب: **[يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ يَشَاءُ]**. وقرأها نَافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْن عامر، وأبو جَعْفَر: **[تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاء]**.

وفي هذا القراءات تكامل فكري في بعضها، وتكامل في الأداءِ البياني في بَعْضها. ففي «يَرْفَعُ» و«يَشَاء» يَعُود الضمير على لفظ الجلالة. وفي «نَرْفَعُ» و«نَشَاءُ» فيهما ضَمِيرُ المتكلّم العظيم. وفي «تَرْفَعُ» و«نَشَاءُ» خطابٌ مِنَ اللهِ لِعَبْدِه في: «تَرْفَعُ» وحَدِيثٌ بضمير المتكلّم العظيم في: «نَشَاءُ».

(٨٠) ● قرأ البزّي بخُلْفٍ عنه: **[فلَمَّا اسْتَايَسُوا]** بإبْدَالِ الهمزة ألفاً من اسْتَأْيَسَ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا]** مِن فعل «اسْتَيْأَس»، ودون إبدال. وهو الوجه الثاني للبَزّي.

(٨٠) ● فتح ياء المتكلّم مِنْ «لِيَ» في: **[لِيَ أَبِي]** نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

وَمِنْ: **[أَبِيَ أَوْ]** نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، وأسْكَنَهُمَا باقي القرّاء الْعَشَرَة فيهما.

(٨٢) ● قرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: **[وَسَلِ الْقَرْيَةَ]**. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[واسْأَلِ الْقَرْيَةَ]**.

(٨٦) ● فتح ياء المتكلّم من: **[وَحُزْنِيَ إِلَىٰ اللهِ]** نافع، وأبو عَمْرو، وٱبْن عامر، وأبو جعفر. وأسْكنها باقي القرّاء العشرة.

(٨٧) ● قرأ البزّي بخُلْفٍ عنه: **[وَلاَ تَايَسُوا]** و**[لاَ يَايَسُ]**. وقرأهما باقي القرّاء العشرة: **[وَلاَ تَيْأَسُوا]** و**[لاَ يَيْأَسُ]** وهو الوجه الثاني للبزي.

(٩٠) ● قرأ ابن كثير، وأبو جعفر: **[قَالُوا إِنَّكَ]** دون همزة استفهام، وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قَالُوا أَإِنَّكَ]** بإثبات همزة استفهام.

(٩٠) ● قرأ قُنْبُل: **[يَتَّقِي]** بإثبات الياء الأخيرة في الوصل والوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَتّقِ]** بحَذْفِها للجزم.

تمهيد:

في آيات هذا الفصل عَرْضُ ما اتَّخذَهُ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِن تَدْبِيرٍ ليَحْتَفِظَ بأخِيه «بِنْيَامِينَ» عِنْدَه، دُونَ أَنْ يَعْلَمَ سَائِرُ إِخْوَتِهِ بأنَّهُ أخُوهُمْ يُوسُف، ولِيَرَىٰ مَاذَا يَصْنَعُونَ، وهَلْ مَا زَالُوا يَحْمِلُونَ حَسَداً في قُلُوبِهِمْ ضِدَّ يُوسُفَ وبِنْيَامِينَ شَقِيقِهِ؛ لأنَّ أَبَاهُمْ يُحِبُّهُمَا أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ أَبْنَائِهِ؟ وَلِيَضْغَطَ بَعْضَ الضَّغْطِ عَلَىٰ قُلُوبهم قَبْلَ أَنْ يَكْشِفَ نَفْسَهُ لهم، وَيَأْمُرَهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِأَبِيهِمْ وَجَمِيعِ أَهْلِهِمْ إِلَىٰ مِصْر، لِيَعِيشُوا فِي خَيْرَاتِها وَفِي أَخْصَبِ أَرْضِهَا، مُمَكَّنين فِيها بِعِزٍّ ومَنَعَةٍ ونَعْمَةٍ وسَعَةٍ في الرِّزْقِ ومَطَالِبَ مُسْتَجابَة.

ويَبْدأُ هَـٰذا الْفَصْلُ مِنْ حَدَثِ دُخُولِهِمْ ومَعَهُمْ أَخُوهُم الأصْغَرُ «بِنْيامِينَ» لِلْوُصُولِ إلى صَاحِبِ سُلْطَانِ التَّمْوينِ في مِصْرَ، وهُوَ في الحقيقَةِ أخُوهُمْ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام، ويَنْتَهِي بِقَوْلِهِ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوه وعَفَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانَ مِنْهُمْ إذْ طَرَحُوهُ في الْجُبِّ، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ إخوة يوسف:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: ورَحَلَ إخْوَةُ يُوسُفَ وَمَعَهُمْ «بَنْيَامِين» مِنْ أرْضِ كَنْعَانَ مُتَّجِهِينَ لِمِصْرَ لجلْبِ الميرَةِ، ولمَّا دَخلُوا المدينَةَ، أَوْ قَصْرَ التَّمْوينِ في مِصْرَ، مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أبُوهُمْ، أيْ: مِنْ أبْوابٍ مُتَفرِّقَةٍ.

«حَيْثُ» ظرف مَكانٍ مبنيٌّ على الضمّ، وقَدْ سَبَقَ مَا يَتعَلَّقُ به لدى تدبر الآية (٥٦).

وأكَّدَ اللهُ صِحَّةَ مَا قَالَهُ يعقوب لأبنائِهِ: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فَقَالَ تعَالَىٰ:

- ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ سَبَقَ تَدَبُّر عبارة يعْقُوب المناظِرَة لِهَـٰذِهِ العبارة، وَقَدْ فَهِمْنَا مِنْهَا وُجُوبَ اتّخاذِ الأسْبَاب، مَعَ الإيمانِ بأنَّهُ لَا يَجْرِي في الكَوْنِ شَيْءٌ إلَّا بِقَضَاء اللهِ وَقَدَرِهِ، أو بإذْنِهِ.

أي: مَا كَانَ يَعْقُوبُ بأمره لأبنائِهِ باتِّخَاذِ الاحْتِيَاطِ السَّبَبِيّ، لِيَصْرِفَ عَنْهُمْ شيْئاً مِنْ أثَر حُكْمٍ آتٍ مِنَ اللهِ يَقْضِي بِتَنْفِيذِ مَا تَمَّ بِهِ تقدير اللهِ وقضاؤُه.

«مِنْ» في: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ زِيدَت لتوكيد عُمُوم لفظِ «شيءٍ» المنفي بحرف «ما».

- ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾: أي: لَـكِـنْ أَوْصَـىٰ أَبْـنَـاءَهُ بِـمَـا أَوْصَاهُمْ بِهِ لِيَقْضِيَ حَاجَةً فِي نَفْسِهِ، وهِيَ أَنْ يُبيِّنَ لَهُمْ مَا يَجِبُ عَلَىٰ المؤمِنِ من اتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ الْعَمَلِيَّةِ، لتَحْقِيقِ مُسَبَّبَاتِها، مَعَ إيمَانِهِ بأنَّهُ لا يَتحَقَّقُ شَيْءٌ فِي الْكَوْنِ إلّا مَا قَدَّرَهُ اللهُ وقَضَاهُ، أَوْ أَذِنَ بِهِ، ومَعَ صِدْقِ التَّوَكُّلِ الْقَلْبِيِّ عَلَىٰ اللهِ لِتَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ لِصَرْفِ مَكْرُوهٍ فِيهِ ضُرٌّ أَوْ أذىً.

وهَـٰذِهِ الحاجَةُ الَّتِي في نَفْسِهِ قَضَاهَا بِبَيَانِهِ، ونَالَ بِقَضَائِهَا تَسْجِيلَ الْأَجْرِ الْعَظِيم عِنْدَ رَبِّهِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ فُضْلَيَاتِ الطَّاعَات.

وأَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَىٰ يَعْقُوبَ بِقَوْلِهِ:

- ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾: أي: وإِنَّهُ لَصَاحِبُ عِلْمٍ بالحقَائِقِ الدِّينِيَّةِ الكُبْرَىٰ الَّتِي عَلَّمْنَاهُ إِيَّاهَا، ومَنْها الإيمانُ بأَنَّهُ لَا يُوجَدُ شيءٌ أو يُعْدَمُ إِلَّا بتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ، أَوْ إِذْنِهِ، وأَنَّ عَلَىٰ المؤمِنِ أَنْ يَتَّخِذَ الأَسْبَابَ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ في نِظَامِهِ لِكَوْنِهِ مُحَقِّقَةً في الظَّاهِرِ لمُسَبَّبَاتِها، وأَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ في أُمُورِهِ كُلِّهَا، لينالَ بِتَوَكُّلِهِ ثوابَ المتوكّلينَ، ولِيُمِدَّه اللهُ بمعونَتِهِ وتَوْفِيقِهِ وتَسْدِيدِهِ وتحقيق ما يَرْغَبُ فيه.

وجاءت عبارة ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْعِلْمَ المطَابِقَ لِلْحَقِّ هو من تَعْلِيم اللهِ، سواءٌ أكان عن طَرِيقِ الوَحْي، أَوْ عَنْ طَرِيق الْفَهْمِ بِوَسَائِلِ المعرِفَةِ الَّتِي آتاهَا اللهُ لِعَبْدِه. كُلُّ ذَلِكَ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ، وللرُّسُلِ تَعْلِيمٌ اخْتَصَّهُمُ اللهُ بِهِ، وهُو مَا كَانَ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ الْجَلِيّ، أو التكليم مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ، أَوْ طَرِيق إرْسَالِ رَسُولٍ مِنَ الْمَلَائِكَة، ومَعْلُومٌ أَنَّ أَمِينَ الوحِي للأنبياء والمرْسَلِينَ هو جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام.

- ﴿. . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾: أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ الْقَضَايَا الدِّينيَّة، إذْ لَمْ يُوجِّهُوا أَدَوَاتِ الْمَعْرِفَةِ لَدَيْهِمْ لاسْتِقْبَالِ وَارِدَاتِهَا الرَّبَّانِيَّةِ، بَلْ وَجَّهُوهَا لِمَعْرِفَةِ مَا يَرْغَبُونَ فِيهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا وَزِيناتِهَا وشَهَوَاتِهِمْ وأهوائِهِمْ مِنْها.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ وَهُو فِي مَجْلِسِهِ السُّلْطَانِيّ رَحَّبَ بِهِمْ، وأَنْزَلَهُمْ مُكَرِّماً لَهُمْ فِي حُجُرَاتٍ.

ولَيْسَ بِبَعِيدٍ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهُ أَنْزَلَ كُلَّ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ في حُجْرَة، وَأَخَّرَ «بَنْيَامِينَ» فَأَنْزَلَهُ مَعَهُ في الْحُجْرَةِ الْخَاصَةِ به.

- ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾: أي: ضَمَّ إِلَيْهِ أخاه، تَقُولُ لُغَةً: «أَوَيْتُ فُلاناً، وآوَيْتُهُ إليَّ» أي: ضَمَمْتَهُ إِلَيْكَ وَأحطْتَهُ بِعِنَايَتِك، وأَنْزَلْتَهُ عِنْدَك مَنْزِلاً يُرْضِيه.

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾: أي: وَلَمَّا آوَىٰ إِلَيْهِ أخاهُ قالَ لَهُ: إِنِّي أَنا أَخُوكَ يُوسُف.

- ﴿... فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٩﴾: أي: فَلا تَكْتَئِبْ وَلا تَحْزَنْ بِمَا كَانَ إِخوَتُنا مِنْ أبينا يَعْمَلُونَ بِنَا، حَسَداً لَنَا لِأَنَّ أَبَانَا يُؤْثِرُنا بمَزِيد من الحبّ، فَقَدْ أكْرَمنا اللهُ بما يُفْرِحُنَا مِنْ مَجْدٍ عظيم، وسُلْطَانٍ كبير في مِصْرَ.

وتدل هذه العبارة على أنّهم قد كانت لَهُم أعْمالٌ كبيرة تَنِمُّ عَنْ حَسَدِهِمْ، غير حادثة التخلّص من يوسف بطرحه في البئر.

ولا بُدَّ أَنْ يكونَ «يُوسُفُ» قَدْ قَصَّ عَلَىٰ أخيهِ «بَنْيَامِينَ» قِصَّتَهُ، بَدْأً مِنْ طَرْحِ إِخْوَتِهِ لَهُ في الْجُبِّ، حَتَّىٰ وُصُولِهِ إِلَىٰ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانٍ ومَجْدٍ عَظِيمٍ في مِصْر.

وَزَادَ يُوسُفُ في تَكْرِيم إخْوَتِهِ ضُيُوفاً عِنْدَه، وكَانَ كَمَا جَاءَ في مَكْتُوبَاتِ الإسْرَائِيلِيّين يَزِيدُ «بَنْيَامِينَ» إكْراماً فِي الطَّعَام والشَّراب، ولَعَلَّهُ كَانَ يَقْصِدُ أَنْ يُدْرِكُوا بأنْفُسِهِمْ أَنَّهُ يُوسُف، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَبْعِدُونَ هَـٰذا التّصوّر.

قول اللهِ تَعالَىٰ:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا

ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾:

جاءَتْ نِسْبَةُ التَّجْهِيزِ إِلَىٰ يُوسُفَ عَليه السَّلام لِأَنَّهُ الآمِرُ، والمُرَادُ خُدَّامُهُ وعَبِيدُهُ، وهذا من المجاز المرسل.

أي: فَلَمَّا هيَّؤُوا جهَازَ أَبْنَاءِ يَعْقُوب. **الْجِهازَ**: بِفَتْحِ الجيم وكَسْرِها كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْه. فجهاز المسافِرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهِ مَعَ أَحْمَالِهِ الَّتِي اشْتَرَىٰ مَا فِيهَا لِيَنْقُلَهَا.

- ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾: الإناءُ الَّذِي يُسْقَىٰ بِهِ. ويُسَمَّىٰ أيضاً «صُوَاعا».

- ﴿فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾: **الرَّحْل**: مَا يُوضَعُ عَلَىٰ ظَهْرِ الْبَعِيرِ مِنْ وِعَاءٍ للمتاعِ وغيره، كالْخُرْجِ، والْعِدْل ونحوهما.

أي: فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجهازِهِمْ وَدَسَّ إِنَاءَ شَرابِهِ في رَحْلِ أخِيهِ «بِنْيَامِين» وجاء عند الإسْرَائِيلِيِّينَ أَنَّهُ طَاسٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مُتَجِهِينَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ في أَرْضِ كنْعَان «فِلَسْطِينَ» وبَعْدَ أَنْ قَطَعُوا مَسافَةً خارِجَ حُدُودِ الْمَدِينَةِ، تَبِعَهُم جُنُودُ وَلِيِّ التَّموِينِ فِي مِصْر وسَيِّدِهِ الْأَوَّل، ولَمَّا اقتَرَبُوا مِنْهُمْ نَادَىٰ مِنْهُمْ مُنَادٍ في الرَّكْبِ، وهو ما جاء بيانُهُ في قوله تَعالَىٰ:

- ﴿... ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

الْعِيرُ: مَا جُلِبَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ مِنْ قَوَافِلِ الْإِبلِ والْبِغَالِ والحمير. أُطْلِقَ لَفْظُ «الْعِيرِ» وأُرِيدَ أصْحَابُ الْعِير.

أي: وبَعْدَ أَنْ قَطَعُوا مَسَافَةً مُتَجِهِينَ إِلَىٰ أَرْضِهِم تَبِعَهُمْ جُنُودٌ، ونَادَىٰ مُنَادِي الْجُنُودِ قائِلاً: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُون.

﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: أي: نَادَىٰ مُنَادٍ يُعْلِمُ بأمْرٍ ما.

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ يُوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَعْلَمَ أَخَاهُ «بِنْيَامِينَ» بالمَكِيدَةِ الَّتِي اصْطَنَعَهَا، لِيَحْتَفِظَ بِهِ عِنْدَهُ، إِذْ لَا يُسْمَحُ لَهُ بِحَسَبِ الْقَانُون الْفِرْعَوْنِي بِأَنْ يَحْتَفِظَ بِغَرِيبٍ فِي مَمْلَكَتِهِ إِلَّا بِذَنْبٍ، ومِنَ الذُّنُوب الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنَ الاحْتِفَاظِ بِهِ أَنْ يَكُونَ سَارِقاً، ولِيَضْغَطَ ضَغْطاً مَا عَلَىٰ قُلُوبِ إِخْوَتِهِ، ويَكْشِفَ مَا فِي نُفُوسِهِمْ.

- ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١﴾:

أي: قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَنْ بُعْدٍ، وأَقْبَلُوا عَلَىٰ الْجُنْدِ المنَادِينَ الَّذِينَ يَتَّهِمُونَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَارِقُون: مَاذَا تَفْقِدُونَ؟.

- ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾.

وقال رَئِيسُ الرَّهْطِ مِنَ الْجُنْدِ: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾:

زَعِيم: أي: كَفِيل.

أي: قَالَ الْجُنْدُ بِلِسَانِ رَئِيسِهِمْ نَفْقِدُ إِنَاءَ شَرَابِ الْمَلِكِ، وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ مُكَافَأَةٌ، هِيَ حِمْلُ بَعِيرٍ مِن القَمْحِ إذا جَاءَ بِهِ قبل التفْتِيش، وقَالَ رَئِيسُهُمْ وأَنَا كَفِيلٌ بمَنْحِهِ هٰذِهِ الجائِزَة.

وفي إضَافَةِ «صُواع» إلى «الْمَلِك» دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ مَا يُوجَدُ في قُصور ودَوائِرِ الدَّوْلَةِ هِيَ مِلْكٌ لِلْمَلِكِ، ففي سَرِقَتِهِ جَنَايَةٌ عَلَىٰ حَقِّ الْمَلِكِ، وهٰذِهِ جِنَايَةٌ خَطِيرَة.

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣﴾:

- ﴿قَالُواْ﴾: قال المتحَدِّثُ مِنْ أَبْنَاءِ «يَعْقُوب = إسرائيل» مع مُوافَقَةِ سائرهم.

• ﴿تَاللَّهِ﴾: **التاءُ** هي تَاءُ القسم، والصَّحِيح أنَّ الْعَرَبَ لَا يُدْخِلُون تَاءَ القسم في غير الله. والغالِبُ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ ذي الخطر.

• ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أي: مِنْ رِحْلَتِنَا السَّابِقَة.

• ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: مَا جِئْنَا جَواسِيسَ لِصَالِحِ دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ، ولَا لِنَسْرِقَ، فَجَعَلُوا السَّرِقَةَ مِنَ الْفَسَادِ في الْأَرْضِ.

• ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾: أي: وَمَا كُنَّا فِي حَيَاتِنَا كُلِّها مُنْذُ نَشْأَتِنَا سَارِقِينَ، إذْ نَحْنُ أُسْرَةُ أَمَانَةٍ واسْتِقَامَةٍ ودِينٍ، وقَدْ جِئْنَاكُم ببضاعَتِنا الَّتِي وَجَدْنَاهَا في متاعنا.

• ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾؟ أي: فَمَا جَزَاءُ سَارِقِهِ إنْ ظَهَرَ بِتَفْتِيشِ أوْعِيَتِكُمْ وُجُودُ صُواع الْمَلِكِ فِي وَاحِدٍ مِنْها، وبِهَٰذا يَظْهَرُ أَنَّكُمْ كَاذِبُونَ في ادِّعَاءِ أَنَّكُمْ جَمِيعاً لَسْتُمْ سَارِقِينَ.

إنَّ وجُودَ سَارِقٍ واحِدٍ فِيهِمْ يَكْفِي لِجَعْلِهِمْ كاذِبِينَ في قَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾: أي: لَيْسَ أيُّ وَاحِدٍ مِنَّا سَارِقاً.

• ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: أيْ: قَالَ المتَحَدِّثُ مِنْ رَكْبِ أبْنَاءِ يَعْقُوب: جَزاءُ السّارق في نظام بَلَدِنا، أوفي شريعَةِ أسْرَتِنَا، هو ما يلي: مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ وظَهَرَ أَنَّهُ سارقٌ فَهُو جزَاؤُه، أيْ: يَكُونُ هُوَ عَبْداً مُسْتَرَقّاً عقُوبَةً لَهُ، وَرُبَّما كَانَ ذَلِكَ مُدَّةً من الزَّمَنِ بِحَسَبِ نَوْعِ المسْرُوقِ وقِيمَتِهِ، وقَدْ تَصِلُ المدَّة إلى سَنَة.

كذلك نَحْنُ في بلادنا أو في شرِيعَتِنَا نَجْزِي الظَالِمِينَ بالسَّرقة.

وأقَرَّ سَائِرُ الإِخْوَةِ مَا ذَكَرَهُ المتَحدِّثُ بِلِسَانِهِمْ، وقَدْ يَكُونُ كبيرَهُم «رأُوبِين».

وسَكَتَ «بَنْيَامِين» وهُوَ يَعْلَمُ مَا دَبَّرَهُ أَخُوهُ يُوسُف لِيَحْتَفِظَ بِهِ عِنْدَه.

وجاء عند المفسرين أنّ استرقاق السارق لمدّة ما شريعة عند يعقوب والله أعلم.

- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: فأمَرَ رَئِيسُ الْجُنْدِ فِتْيَانَهُ بأنْ يَبْدَؤوا بِتَفْتِيش أَوْعِيَةِ الكِبَارِ قَبْلَ تَفْتِيش أوعِيَةِ أصْغَرِهِمْ، وهو «بَنْيَامِين» شقيقُ يوسُف. ثُمَّ بَعْدَ أَنِ انْتَهَوْا مِنْ تَفْتِيشِ أَوْعِيَةِ الكِبَارِ وَلَمْ يَجِدُوا صُوَاعَ الْمَلِكِ فيها، أَمَرَ رَئِيسُ الْجُنْدِ بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَةِ «بَنْيَامِين» فَوَجَدُوا صُوَاعَ الْمَلِكِ في بَعْضِهَا فاسْتَخْرَجُوه مِنْه.

الْوِعَاء: كُلُّ ظَرْفٍ يُنْقَلُ يُوضَعُ فِيهِ شيءٌ ما، جَمْعُهُ «الأوعِيَة»، مِنْ جِلْدٍ، أو قُمَاشٍ، أو مَعْدِنٍ، أو فخَّارٍ، أو زُجَاجٍ، أو غَيْرِ ذلِكَ، صَغيراً كانَ أمْ كبيراً

وقال الله تعالى عمَّا دَبَّرَ:

- ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾: كَمَا أَلْهَمْنَا يُوسُفَ تَدْبِيرَ مَكِيدَةِ صُوَاعِ الْمَلِكِ، ودَسِّهِ في بَعْضِ أَوْعِيَةِ «بَنْيَامِينَ» لِيَحْتَفِظَ بِهِ، كِدْنَا لِتَحْقِيقِ مُرَادِ يُوسُفَ كَيْداً آخَرَ أتْمَمْنَا بِهِ تَحْقِيقَ مُرَادِه، فَأَلْهَمْنَا إِخْوَتَهُ أَنْ يَذْكُرُوا نِظَامَهُمْ في عُقُوبَةِ السَّارِقِ، وهِيَ اسْتِرْقَاقُهُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وبهذا تَسَنَّىٰ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُقَرِّرَ مُعَامَلَةَ سارِقِهِمْ عَلَىٰ وَفْقِ نِظَامِهِمْ، على خِلَافِ نِظَامِ الدَّوْلَةِ المِصْرِيَّةِ الفِرْعَوْنِيَّةِ الَّذِي يَدِينُ لَهُ فِرْعَون، وهِيَ أَنْ يُضْرَبَ السَّارِقُ وَيُغْرَّمَ ضِعْفَ مَا سَرَقَ، عَلَىٰ مَا جَاءَ عِنْدَ المفسِّرِينَ، واللهُ أعلم.

الكَيْدُ: تَدْبِيرُ أَمْرٍ فِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّهُ، ظاهِرٍ أَوْ خَفِيٍّ، وقَدْ يَكُونُ تَدْبيراً بالحقِّ والعَدْلِ.

واللّام الجارَّة في ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: كِدْناً كيداً لِتحقيقِ مُرادِ يُوسُفَ من الاحْتِفَاظ بأخيه، وأصْلُ فعل «كادَ» يَتعدَّىٰ بنفسه، يُقَالُ لغة: «كادَهُ، يَكِيدُهُ، كَيْداً، وَمَكِيدَةً» أي: خَدعَهُ وَمكَرَ بِهِ.

- ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾:

أي: مَا كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَسْمُوحاً لَهُ في النِّظَامِ الْعَامِّ الَّذِي يَقْضِي بِهِ الْمَلِكُ، أَنْ يَسْتَرِقَّ السَّارِقَ أَوْ يَحْتَفِظَ بِهِ مَسْجُوناً وَلَوْ إِلَىٰ مُدَّةٍ مَحْدُودَة. لَكِنْ لَهُ أَنْ يُعَامِلَ رَعَايَا دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ بِحَسَبِ الْأَنْظِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ لَدَيْهَا، ضِمْنَ نِظَامِ المعامَلَةِ بِالْمِثْلِ، فَأَجْرَىٰ اللهُ لَهُ التَّدْبِيرَ الَّذِي يُمَكِّنُهُ مِنَ الاحْتِفَاظِ بأخِيهِ، مُعَامَلَةً لِرَعَايا دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ بِمِثْلِ مَا تُعَامِلُ بِهِ رَعَايَاها، وهَٰذِهِ حِيلَةٌ نِظَامِيَّة.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: أي: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ تَدْبِيراً آخَرَ، فَإِنَّهُ قَدِيرٌ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشاءُ، ومِنْهُ أَنْ يَجْعَلَ يُوسُفَ هُو الْمَلِكَ المسَلَّط عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وعنْدَئِذٍ لَا يَكُونُ مُلْزماً بالتَّقيُّدِ بِنظَامِ الْمَلِك، واحْتِمَالَاتُ مَشِيئَاتِ اللهِ لَا حَصْرَ لَهَا.

- ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: يَقُولُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ بِضَمِيرِ المتكَلِّم الْعَظِيم: نَرْفَعُ مَنْ نَشَاءُ رَفْعَهُ دَرَجَاتٍ قَلِيلَاتٍ أَوْ كَثِيراتٍ، مِنْ دَرَجَاتِ الدُّنيا أو الآخِرَة، فَنُعْطِي مَثَلاً السُّلْطانَ أو الْمُلْكَ فِي الدُّنيا، وجَنَّاتِ عَدْنٍ أَوِ الْفِرْدَوسَ الأعلىٰ في الآخِرَةِ، مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنا.

والْمُؤْمِنُونَ أُولُو الْأَلْبَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّ مشيئَاتِ اللهِ مَهْمَا كَانَتْ لَا تُفارِقُ حِكْمَته، فَكُلُّ مَشيئَةٍ يَتِمُّ بِهَا قَضَاؤُهُ أَمْرٌ حَكِيمٌ لَا مَحالَة.

- ﴿... وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾: فِي هَٰذِهِ العِبَارَةِ إِشْعَارٌ بأَنَّ مِمَّنْ يَرْفَعُهم اللهُ دَرجَاتٍ، يَرْفَعُهُمْ بِسَبَبِ تَفَوُّقِهِمْ فِي الْعِلْم النافِع، ولَا سِيمَا مَا يَتعلَّقُ بِحَقَائِقِ الْعِلْمِ الْكُبْرَىٰ، الَّتِي يُدْرِكُ الْعلِيمُ بِهَا عظيم

صِفَاتِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وعَظِيمَ آثَارِهَا فِي كَوْنِهِ وفي تَصَارِيفِهِ لَهُ، عَبْرَ مَجْرَيَاتِ الأَحْدَاث.

قول الله تَعَالَىٰ:

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ إخْوَةَ يُوسُفَ رَجَعُوا بأَحْمَالِهِمْ إِلَىٰ مِصْرَ مَعَ الْجُنُود، وَأَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَىٰ يوسُفَ يَسْتَرْضُونَهُ وهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ أَخُوهُمْ.

وأَنَّهُـمْ أَرَادُوا أَنْ يتَبَرَّؤُوا مِنْ سَرِقَةِ أَخِيهِـمْ مِنْ أَبِيهِـم «بَنْيَامِينَ» ويَتَحَامَلُوا عَلَىٰ وَلَدَي زَوْجَتِهِ «رَاحِيلَ» مُشْعِرِين مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ بِعَتَبِهِم علىٰ أَبِيهِمْ إذْ يُؤْثِرُهُمَا بِحُبِّه.

وَيَظْهَرُ أَنَّ يُوسُفَ سَأَلَهُمْ: كَيْفَ حَصَلَتْ هَـٰذِهِ السَّرِقَةُ فِيكُمْ وَأَنْتُمْ أَوْلَادُ شَيْخٍ فاضل. ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

جاء عند ابن كثير بالنِّسبَةِ إلى السَّرِقَةِ الَّتِي أَلْمَحُوا إليها روايتان:

الأولى: عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر عَنْ قتادة قال: كَانَ يُوسُفُ قَدْ سَرَقَ صَنَماً لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ فَكَسَره. وظاهِرٌ أَنَّ هَـٰذِهِ السَّرِقَةَ يُشْكَرُ عليها وتعتبر من فضائله.

الثانية: عَنْ مُجَاهِد فيما رَوىٰ محمَّدُ بْنُ إسحاق، أَنَّ عَمَّتَهُ ابْنَةَ إِسْحَاق وكانت أَكْبَرَ أولاد إِسْحَاق، كانت عِنْدَهَا مِنْطَقَةُ إِسْحَاق، وأَنَّهُمْ كَانُوا يَتوارَثُونها بالكِبَر، وكانَ مَنِ اخْتَبأَهَا مِمَّنْ وَلِيَهَا كَانَ لَهُ سَلَماً (أيْ: أسِيراً لَهُ) لَا يُنَازَعُ فيه، فهو يَصْنَعُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، وَكَانَ يَعْقُوبُ حِينَ وُلِدَ لَهُ يُوسُفُ قَدْ حَضَنَتْهُ عَمَّتُهُ، وَكَانَتْ وَلُوعَةً بِهِ، فَلَمْ تُحِبَّ أَحَداً حُبَّها إِيَّاهُ، حَتَّىٰ إذا تَرَعْرَعَ وبَلَغَ سَنَوَاتٍ تَاقَتْ إِلَيْهِ نَفْسُ أَبِيهِ يَعْقُوب عَلَيْه السلام،

فأتَاهَا فقالَ لَهَا: يَا أُخيَّةُ، سَلِّمِي إِليَّ يُوسُف، فَوَاللهِ مَا أَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَغيبَ عَنِّي سَاعَةً، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا أَنَا بتَارِكَتِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: فَدَعْهُ عِنْدِي أَيَّاماً أَنْظُرْ إِلَيْهِ وأَسْكُنْ عَنْهُ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُسَلِّينِي عَنْهُ، فَلَمَّا خَرجَ مِنْ عِنْدِها أَخُوها يعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلام، عَمدَتْ إِلَىٰ مِنْطَقَةِ إِسْحاقَ، فَحزَمَتْهَا عَلَىٰ يُوسُفَ مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: فَقَدْتُ مِنطَقَةَ أَبِي إِسْحاقَ، فانْظُرُوا مَنْ أَخذَها، ومَنْ أَصابَها؟.

فالْتُمِسَتْ فَلَمْ يَجِدُوها، ثُمَّ قَالَتْ: اكْشِفُوا أَهْلَ الْبيتِ، فَكَشَفُوهم، فَوجدُوهَا مَعَ يُوسُف، فَقَالَتْ: واللهِ إِنَّهُ لِي لَسَلَمٌ (أي: هُوَ لأَسِيرٌ لي) أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ، فَأَتَاهَا يَعْقُوب، فأَخْبَرَتْهُ الْخبَرَ، فقال لَهَا: أَنْتِ وذَاكِ إِنْ كَانَ فَعلَ ذَلِكَ فَهُوَ سَلَمٌ لَكِ (أي: هُو أسِيرٌ لَكِ) مَا أَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَأَمْسَكَتْهُ عَمَّته، فَمَا قَدَرَ على أَخْذِهِ أَبُوهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلامُ حتَّىٰ ماتت.

وظاهِرٌ أَنَّ هَـٰذِهِ مَكِيدَةٌ مِنْ عَمَّتِهِ لتَحْتَفِظَ بِهِ، ولَيْسَتْ سَرِقَةً مِنْ يُوسُفَ، ومَا كَانَ لإِخْوتِهِ أَنْ يُشِيرُوا إِلَيْهَا، لَكِنْ مَا زَالَ فِي نُفُوسِهِمْ حَسَدٌ لِيُوسُفَ ولبَنْيَامِين.

- ﴿... فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾:

أفهم مِنْ هَـٰذِهِ العبارة أنّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَسَرَّ في نَفْسِهِ مَقُولَتَهُمُ الظَّالِمَةَ بِشَأْنِهِ، وَلَمْ يُبْدِ لَهُمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَعْنُونَهُ بها، لِأَنَّهُ لَمْ يَكْشِفْ بَعْدُ لَهُمْ أَنَّهُ أَخُوهُمْ يُوسُف، ولَمْ يَسْأَلْهُمْ عن اتّهامِهِمْ أخاهم الغائب بالسَّرِقةِ، وكيف كانت سَرِقَتُهُ.

ورُبَّمَا قَالَ في نَفْسِهِ دُونَ أَنْ يُسْمِعَهُمْ، أو أَسْمَعَهُمْ وهو الْأَرْجَحُ رَجاءَ أَنْ يُدْرِكُوا بأَنفُسِهِمْ أَنَّهُ أَخُوهُمْ يُوسف: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ﴾: أي أَنْزَلَ وأَحَطَّ مَكَاناً مِنْ «بَنْيامِينَ» ومِنْ أَخِيهِ الْغَائِبِ الَّذِي ذَكَرْتُمْ أَنَّهُ سَرَقَ مِنْ قَبْل.

ويظهر أن يوسف عليه السلام أراد أن يَسْتثِيرهُمْ ليَسْأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ شَتِيمَتِهِ هَـٰذِهِ لَهُم فَلَمْ يَسْأَلُوهُ، وقال أيْضاً: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: أي: واللهُ أعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيم بِمَا تَصِفُونَ بِهِ أَخَاكُمُ الْغَائِبَ بأنَّهُ قَدْ سَرَقَ، وَتَذْكُرُونَه بِغَيْبَتِهِ بِمَا يَجْرح أَمَانَتَهُ، فهَـٰذا مِنْكُمْ طَعْنٌ لَهُ وهُوَ غائِب، ولَيْس لَدَيكُمْ بيِّنَةٌ تُثْبتُونَ بها إدَانَته، أي: فَلَسْتُ أُصَدِّقكُمْ في قولكم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: وهو أخوه الشقيقُ يوسف هَـٰذا ما ظَهر لِي واللهُ أعْلَمُ.

عِنْدَئِذٍ لَجَؤُوا إلَى الاسْتِعْطَافِ لِيُفْرجَ عَنْ «بَنْيَامِينَ».

- ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: نَادَوْهُ نِدَاءَ المتَلَهِّفِ المستَغِيثِ: يا أَيُّها الْعَزِيزُ، أيْ: يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي يَمْلِكُ فِي مِصْرَ الْقُوَّةَ الْغَالِبَةَ مِنْ بَعْدِ الْمَلِك، أعْطِنا أخانَا «بَنْيَامِينَ» الَّذِي لَا يَصْبِرُ عَلَىٰ فراقِهِ أبُونَا الشّيخُ الكبير، فَقَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِهِ تعَلُّقاً شَدِيداً، وَإِذَا لَمْ يَرْجِعْ مَعَنَا رُبَّمَا نَزَلَ بِهِ حُزْنٌ مُهْلِكٌ له.

وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعِقَابِ فَخُذْ أَحَدَنَا وَضَعْهُ مَكَانَهُ. إنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، فَقَدْ أَوْفَيْتَ لَنَا الكَيْلَ مَرَّتَيْنِ، وَأَحْسَنْتَ إِلَيْنَا بِرَدِّ بِضَاعَتِنَا مِنَ الْفِضَةِ إِلَيْنَا، وَوَضَعْتَهَا في أَفْوَاهِ عُدُولِنَا.

- ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أي: عِيَاذاً باللهِ، ولُجُوءاً إلَيْهِ، واعْتِصَاماً به، لِحمَايَتِنَا وَوِقَايَتِنَا مِنْ أَنْ نَأْخُذَ الْبَرِيءَ الَّذِي لَمْ يَسْرِق، ونَضَعهُ مَكَانَ الَّذِي وَجَدْنا مَتَاعَنَا وهُو صُوَاع الْمَلِك عِنْدَهُ فِي وِعَائِهِ، إنَّا حِينئذٍ لَنَكُونُ ظَالِمِينَ. «مَعَاذَ» مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ بفِعل محذوف.

ولا أرىٰ هُنا: ﴿إِذًا﴾ كَما يَقولُ النُّحاةُ لَغواً لِأنَّ ما قَبْلَها يَفْتَقِرُ لِما بَعْدَها، بَلْ هِيَ بمَنْزِلَةِ «حِينَئِذٍ» في المعنىٰ، أي: إنّا حِينَئِذْ نَأْخُذُ مَنْ لَمْ نَجِدْ مَتاعَنا عِنْدَهُ، ونَضَعُهُ فِي مَكانِ مَنْ وَجَدْنَاهُ عِنْدَهُ، نَكُونُ ظالِمين.

- ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي: فَلَمَّا يَئِسُوا يأْساً بالِغاً أَقْصاهُ مِنْ تَلْبِيَةِ العزيز لمَطْلَبِهِمْ انفردُوا مُتناجِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

يُقالُ لغة: «خَلَصَ فُلَانٌ مِنَ الْقَوْمِ يَخْلُصُ خُلُوصاً وَخِلَاصاً» أي: اعْتَزَلَهُمْ وانْفَرَدَ عَنْهم.

﴿نَجِيًّا﴾ النّجيُّ المنَاجِي، وهو الْمُحادِثُ سِرًّا، قالَ الأخفش: وَقَدْ يكونُ النِّجيُّ جماعَةً، مِثْلَ: «الصَّدِيق» قال تَعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ قال الفرّاء: وقَدْ يكونُ النّجِيُّ اسْماً ومَصْدراً⁽¹⁾.

أقول: وَمَا ذَكَرَهُ الأَخْفَشُ يَدُلُّ عَلَىٰ المعنَىٰ بِلَا تأويل، فالمعْنَىٰ اعْتَزَلُوا وانْفَرَدُوا حَالَةَ كَوْنِهِمْ مُتناجِين، يَتَشَاوَرُونَ سِرّاً، بِشَأْنِ هَـٰذه الْوَرْطَةِ الَّتِي سَقَطُوا فِيها، بَيْنَ أبيهِمْ الَّذِي أعْطَوْهُ مَوْثِقاً مِن اللهِ أَنْ يُرْجِعُوا مَعَهُمْ «بَنْيَامِين»، وبين عَزِيزِ مِصْرَ الَّذِي أبىٰ أنْ يأخُذَ أحداً مِنْهُمْ وَيَضَعَهُ مَكانَهُ.

- ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ رَأُوبِين ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟: أي: لَقَدْ عَلِمْتُمْ أنّ أباكُمْ أخذَ عليْكُمْ عهداً مُوثّقاً بالأَيْمانِ المغلَّظَةِ المشَدَّدَة ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾؟ أي: وعَلِمْتُمْ تَفْرِيطَكُمْ فِي يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ إِذْ طَرَحْتُمُوهُ فِي الْجُبِّ وكُنْتُمْ تُرِيدُونَ قَتْلَهُ، وَكَذَبْتُمْ على أبِيكُمْ زَاعِمِينَ أَنَّ الذِّئبَ قَدْ قَتَلَهُ، وَجِئْتُمُوهُ بقَمِيصِهِ مُلَطَّخاً بِدَمِ ذَبِيحَةٍ ذَبَحْتُمُوهَا تَمْوِيهاً وَكَذِباً، وَلَمْ يُصَدِّقْ أبُوكُمْ كَذِبَكُمْ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: فَلَنْ أَتْرُكَ أَرْضَ مِصْرَ وَلَنْ أُغَادِرَها ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ أي:

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور.

حَتَّىٰ يُبِيحَ لِي أَبِي بِأَنْ أَرْجِعَ إِلَيْهِ ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ أي: أو يَقْضِيَ اللهُ لِي بِأمْرٍ آخَرَ يُخَلِّصُنِي مِنْ هَـٰذِهِ الْوَرْطَة ﴿. . . وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨٠﴾ أي: وهُوَ خَيْرُ الْقَاضِينَ بالأَمْرِ الحَكِيم ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ﴾ أي: «بِنْيَامِين» ﴿سَرَقَ﴾ أي فَاحْتَفَظَ به عَزِيزُ مِصْرَ عُقُوبَةً لَهُ عَلَىٰ سَرِقَتِهِ ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ﴾ أي: عَلَىٰ أَنَّهُ سَرَقَ ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ إِذْ كَشَفَ جُنُودُ عَزِيزِ مِصْرَ صُواعَ الْمَلِكِ فِي وِعَائِهِ، فأخَذُوهُ إلى الْعَزِيز عَلَىٰ أَنَّهُ هُو السَّارِقُ، واسْتَحَقَّ أَنْ يُؤْخَذَ مُسْتَرَقًّا بالسَّرِقة، وقُلْنَا للعزيز خُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ فأَبَىٰ، هَـٰذا مَا شَهِدْنَاه بحَسَب الظَّاهر ﴿. . . وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١﴾ أي: وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حُرّاساً وَلَا مُشَاهِدِينَ حَتَّىٰ نَعْلَمَ صِحَّةَ اتِّهَامِهِ بالسَّرِقَةِ، لمُجَرَّدِ وُجُودِ صُواعِ الْمَلِكِ في مَتَاعِهِ، فَقَدْ سَبَقَ وُجُودُ بِضَاعَتِنَا مِنَ الفِضَّةِ فِي أَفْوَاهِ عُدُولِنَا، وَلَمْ نَكُنْ سَارِقِينَ، فلَعَلَّ لِوُجُودِ صُوَاعِ الْمَلِكِ فِي مَتَاعِ أخينا «بِنْيَامِينَ» سِرًّا لَمْ نُدْرِكْهُ بَعْدُ ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي: الَّتِي كُنَّا قَدْ وَصَلْنَا إِلَيْهَا قَافِلِينَ، حِينَ نَادَانَا جُنُودُ الْعَزِيزِ مُتَّهِمِينَ لَنَا بالسَّرِقَةِ، فالأمْرُ قَدْ كَانَ أمْراً مُعْلَناً عَلَىٰ الْأَشْهَادِ، ولم يَكُنْ سِرّا بَيْنَ الْجُدْرَان، واسْأَلِ [**الْعِيْرَ**] أي: واسْأَلْ أَصْحَابَ الْقَوَافِلِ ﴿ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا﴾ أي: قَافِلِين ونَحْنُ ﴿فِيهَاۖ﴾ أي: ضِمْنَها، وهي عَدَدٌ مِنَ الْقَوَافِلَ الرَّاجِعَةِ مَعَنَا مِنْ مصر ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢﴾ أي: ونُؤَكِّدُ لَكَ يا أبانا أَنَّنَا لَصَادِقُونَ في كُلِّ مَا أَخْبَرْنَاك به.

وارْتَحَلَ الإِخْوَةُ باسْتِثْنَاءِ «رأُوبين» أكْبَرِ الإخْوَة، فَقَدْ بَقِيَ فِي مِصْر، وباستثناء «بِنْيَامِينَ» الَّذِي أَمْسَكَ العزيزُ بِهِ بِتُهْمَةِ السَّرِقة، ولَمَّا وَصَلُوا إلى أبِيهِمْ قَالُوا لَهُ كَمَا أَوْصَاهُمْ أكْبَرُهُمْ «رأوبين».

﴿قَالَ﴾ أي يَعْقُوب عليه السلام لأبنائه، أَنْتُمْ لَسْتُمْ صادِقِين ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ أي: بَلْ زَيَّنَتْ وَحَسَّنَتْ ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ تَخَلَّصْتُمْ بِهِ مِنْ «بِنْيَامِينَ» كَمَا تَخَلَّصْتُمْ قَبْلُ مِنْ يُوسف ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ أي: فَصَبْرِي عَلَىٰ

المصيبةِ الَّتِي نَزَلَتْ صَبْرٌ جميلٌ، لَا أتضجَّرُ فِيهِ، وَلَا أَعْمَلُ عَمَلاً لَا يَرْضَىٰ عَنْهُ رَبِّي، ثُمَّ تواردَتْ عَلَىٰ قَلْبِهِ ظُنُونٌ رَجَا فِيها أَنْ يَكُونَ مَا جَرَىٰ تَمْهيداً لِرَدِّ جَمِيعِ أَبْنَائِهِ الْغَائِبينَ إليه وفيهم يوسُفُ. فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ وأثْنَىٰ عَلَىٰ الله ثَنَاءً فِيه مَعْنَىٰ الاسْتِجْدَاء والاسْتِعْطَاف قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ أي: إنَّهُ هو العليم بحالي ومَا أنا فيه مِنْ حُزنٍ، والْعَلِيم بكُلِّ شيء، وهُو الحكيم في تَصاريفهِ في كونه، وفي عباده، مُخْتارٌ دواماً مَا هو الأحْكَمُ والأصلح.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: أي: وابتعَدَ «يعقوبُ = إسرائيل» عليه السلام عن أولاده، وأدار ظَهْرَهُ إليهم، واعْتَزَلَ ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: أي: يا حُزْنِي الشَّدِيد عَلَىٰ يُوسف دُمْ، وصَارَ يَبْكِي بُكاءً كثيراً علىٰ يوسُفَ وعلى بَنْيَامِين شقيقِهِ، الألف في «أسفَا» بَدَلٌ مِنْ ياء المتكلّم في النّداء ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي: انْقَلَبَ سَوادُ عَيْنَيْهِ بَياضاً مِنْ كثرةِ البكاء، حَتَّىٰ ضَعُفَ بَصَرُهُ جدًّا، وتُعْرَفُ هَـٰذِهِ الحالَة عند الأطباء بالماء الأبيض (السَّاد = الكتاراكْت) وبها تضْعُفُ الرُّؤْيَةُ في الْعَيْنِ ضَعْفاً شَدِيداً، قَدْ تَصِلُ أحياناً إلى انْعِدام الرُّؤية: ﴿... فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي: فهو مَغْمُومٌ مَكْرُوبٌ مُمْتَلِىءٌ حُزْناً في نَفْسِهِ وهو لَا يَبُثُّهُ، بَلْ يُمْسِكُ بِهِ دَاخِلَ نَفْسِهِ، كاظِماً لَهُ، ولا يَتَنَافَىٰ هَـٰذا الحزْنُ مع الرِّضا بقضاء اللهِ وَقَدَرِهِ؛ لأنَّهُ أَلَمٌ نَفْسِيٌّ غَيْر إراديّ لَا يَمْلِكُ الإنسانُ دَفْعَهُ ولَا رَفْعَه، لَكِنْ يَمْلِكُ أَنْ لَا يَعْمَلَ أو يَقُولَ مَا لَا يُرْضِي اللهَ عزَّ وجلَّ، فَهُوَ مُطَالَبٌ بِمَا يَمْلِكُ، وَلَا يُؤَاخَذُ عَلَىٰ شيءٍ غَيْرِ خاضِعٍ لإرَادَتِهِ، ولِهَذا قال الرَّسُول محمّد ﷺ لمّا مات ولَدُه إبراهيم: «إنَّ الْعَيْنَ لَتَدمَعُ، وإنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنا، إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَإنَّا عَلَيْكَ يا إبراهِيمُ لمَحْزُونُونَ».

وسَمِعَهُ أَبْنَاؤُهُ يَذْكُرُ يُوسُفَ بَعْدَ أَنَّ مَرَّ عَلى فِراقِهِ قُرابَةُ عِشْرِينَ سَنَة، فَلَامُوه علىٰ ذلك:

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾:

﴿تَاللَّهِ﴾: «**التَّاءُ**»: تَاءُ القسم، والصَّحِيحُ أنَّ العَرَبَ لَا يُدْخِلُونَ تَاءَ القَسَمِ فِي غَيْرِ اللهِ، والغالِبُ اسْتِعْمالُها في المقْسَمِ عليه ذي الخطر.

﴿تَفْتَؤُاْ﴾: أي: قالُوا تَاللهِ لَا تَزَالُ تَذْكُرُ يوسف، يُقَالُ لُغَةً: «ما فَتِىءَ يَفْعَلُ كَذَا ولا يَفْتَأُ يَفْعَلُ كذا» أي: ما زال ولا يَزالُ يفْعَلُ كذا. والنفي بَعْدَ الْقَسم في ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ ملحوظ ذِهْناً وإنْ لم يُذْكر لفظاً.

- ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾: أي: حَتَّىٰ تكُونَ شَدِيدَ المرَضِ مُشْرِفاً عَلَىٰ الْهلاك.

«**الْحَرَضُ**»: هو في اللُّغَةِ الشَّدِيدُ المرض. وهو من الوصف بالمصْدَر، يقالُ لغة: «حَرِضَ فُلانٌ يَحْرَضُ، حَرَضاً» أي أذابَهُ الْهَمُّ والحزْنُ حَتَّىٰ أشرف على الهلاك.

- ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾: أي: أو تكُونَ مِنَ الموتَىٰ بِسَبَبِ شِدَّةِ حُزْنِكَ.

فَرَدَ عَلَيْهم أبُوهم «يَعْقُوبُ = إسرائيل» عَلَيْه السلام:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾:

﴿بَثِّي﴾: **الْبَثُّ**: الْحَالُ، والْمَرَضُ الشَّدِيدُ الَّذِي هو فَوْقَ الاحْتمال، **والْبَثُّ** الشَّكْوَىٰ الَّتِي يُصَرِّحُ بِها الشَّاكِي بِلِسَانِهِ عَنْ أَوْجَاعِهِ وآلَامِهِ المادّيَّة أو المعنويَّة.

﴿وَحُزْنِيٓ﴾: **الْحُزْنُ**: الْغَمُّ، وألَمٌ في النَّفْسِ يَحْدُثُ بِسَبَبِ حُصُولِ أَمْرٍ مَكْرُوه، أو بسبب فَوَات مَحْبُوب.

وعَطْفُ الْحُزْنِ على الْبَثِّ يَقْتَضِي المغايَرَة، فالمعْنَىٰ: مَا أَشْكُو حالي وضَعْفِي وَمَرَضِي وحُزْنِي إِلَّا إلىٰ الله بَيْنِي وبَيْنَهُ، ولَا أَشْكُو لِأَحَدٍ سِوَاه، وهَـٰذِهِ الشَّكْوَى لِرَبِّي لَا أُلَامُ عَلَيها؛ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الدُّعَاءِ للهِ بأنْ يَرْفَعَ عَنِّي أَسْبَابَ بَثِّي وحُزْنِي.

﴿... وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾: أي: وإنْ كُنْتُم تَلُومُونَنِي على شَكْوَايَ لِرَبِّي بالدُّعَاءِ والالْتِجَاء، أَوْ عَلَىٰ حَالِي الَّتِي لَا أَمْلِكُ التَّغْيِيرَ فِيها، أَوْ عَلَىٰ حُزْنِي الَّذِي لَا أَمْلِكُ صَرْفَهُ، فَإِنِّي أَعْلَمُ عِلْماً يأتِينِي مِنَ اللهِ بما يَلِيقُ بِي أَوْ لَا يَلِيقُ مَا لَا تَعْلَمُونَهُ أَنْتُمْ، أَنَا رَاضٍ عَنِ اللهِ بِكُلِّ مَا تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُه، وَحَالِي الَّتِي أَنَا فيها مِنْ قَضَائِهِ وقَدَرِهِ، والْحُزْنُ الَّذِي يُلَازِمُنِي مِنْ قَضَائِهِ وَقَدَره، وشَكْوَايَ لَهُ دُعَاءٌ يُرْضِيهِ؛ لأَنَّهُ مِنَ العبادَةِ، فَمَا لَكُمْ وَلِي، دَعُونِي فيما أنا فيه.

يُضَافُ إِلَىٰ هَـٰذا أَنَّهُ مَا زَالَ يَتَرَقَّبُ تَحْقِيقَ رُؤيا يُوسُف، وَمَا سَيَصِيرُ إِلَيْهِ مِنْ مَجْدٍ عظيم يَسْجُدُ لَهُ وهو فيه إخْوَتُهُ وأبُوه وَمَنْ هِيَ بِمَنْزِلَةِ أُمِّه، وإِلْهَامَاتٌ بأَنَّ الأَحْدَاثَ الَّتِي تَجْرِي تُشْعِرُ باقتراب الفرج.

وإِذْ وَضَحَ في قَلْبِهِ هَـٰذا الإِحْسَاسُ الَّذِي كادَ أَنْ يَصِيرَ وَحْياً، وأَنَّ يُوسُفَ أَحَدُ أركان هَـٰذِهِ الأحداثِ، وأَنَّهُ عِلْمٌ يَأْتِيهِ مِنَ اللهِ، قَالَ لِأَبْنَائِهِ:

- ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

- ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾: أي: فَتَتَبَّعُوا بِكُلِّ حواسِّكُمْ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُحِسُّوا بها، لِتَتَعَرَّفُوا.

- ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: أي: مُتَلَقِّطِين بِتَحَسُّسِكُمْ مِنْ أَخْبَارِ يُوسُفَ وَأَخِيهِ، مَا يَكْشِفُ لَكُمْ أُمُوراً يَقْضِي اللهُ بها الْفَرَجَ الَّذِي أَطْمَعُ فيه.

ضُمِّنَ الفِعْلُ في ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ مَعْنَىٰ الفِعْل في [**التقطوا**] وحُذِف

الْمَعْمُولُ مِنْ كليهما، والتقدير: «مِنْ أَخْبَارِ» فصَارَ المعْنَىٰ: فَتَحسَّسُوا مُلْتَقِطِينَ مِنْ أَخْبَارِ يُوسُفَ وأَخِيهِ بَنْيَامِينَ مَا تَسْتَطِيعُونَ التقاطه.

- ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾: **الرَّوْح**: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على نَسِيمِ الرِّيحِ، وعلى الرَّاحَة، وعلَىٰ الرَّحْمَة. وأَجْمَعُ هَـٰذِهِ معنَىٰ «الرَّحْمَة» إذْ تأتي الرَّحْمَةُ بِالرَّاحَةِ من عَنَاءِ الكَرْبِ والْغَمِّ والحزْن، وتَأتي بالنَّسِيمِ المريح.

فالمعْنَىٰ: وَلَا تَنْقَطِعْ آمَالُكُمْ وَمَا تَرْجُونَ مِنْ فَرَجٍ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، فَرَحْمَةُ اللهِ مُسْعِفَةٌ لِلّذِينَ يلْجؤُونَ إلَيْهِ، ويَتَوَكَّلُونَ عَلَيْه.

- ﴿... إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: أمَّا المؤمِنُون فإنَّهُم يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ رَحِيمٌ بِعِبادِه، وأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فإذَا لَجؤُوا إلَيْه، وَتوكَّلُوا عَلَيْهِ، وَدَعَوْهُ مُخْلِصِينَ، رَحِمَهُمْ فأَغَاثَهُمْ وأسْعَفَهُمْ بالْفَرَجِ مِنْ لَدُنْه.

وجاء في سُورَة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قَولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأن الكافِرِين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

ونفهم من هذه الآيَة أنّ المرادَ بِرَوْحِ اللهِ رَحْمَتُهُ.

وَذَهَبَ إخْوَةُ يُوسُفَ التِّسْعَة إلَىٰ مِصْرَ اسْتجابَةً لِطَلَب أبِيهِمْ، وفي أنْفُسِهِمْ أَنْ يَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأخِيه، ووَصَلُوا إلى قَصْرِ الْعَزِيزِ (وهو يُوسُفُ) في حَقِيقَةِ الأمْر، وعزَمُوا عَلَىٰ أنْ يَدْخُلُوا عليه مُسْتغِيثِينَ مُسْتَجْدِينَ عَطْفَهُ.

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

- ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾: أي: مَسَّنَا وَمَسَّ أَهْلَنَا سُوءُ الْحَالِ من شِدَّةِ الحاجَةِ إِلَىٰ الْقُوتِ، وابْيَضَّتْ عَيْنا أبينَا من الحزْنِ حتى كاد أن يكون أعْمَىٰ.

- ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾: أي: وَأَحْضَرْنَا مَعَنَا لشراء الْقَمْحِ بِضَاعَةً من الْفِضَّةِ قَلِيلَة.

- ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾: أي: فَأَعْطِنَا كَيْلاً وافِياً لَا نَقْصَ فيه عَمَّا كُنْتَ أوفَيْتَ لَنَا سَابِقاً.

- ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾: أي: وَأَعْطِنَا فَوْقَ إيفَاءِ الكَيْلِ صَدَقَةً زائدَةً مِنْ عِنْدِكَ، وفي هَـٰذا الطَّلبِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُم يَطْلُبُونَ الْمنَّ على أخِيهِمْ «بَنْيَامِينَ» بِالعتقِ مِنَ الاسْتِرْقَاقِ الَّذِي ظَنُّوا أَنَّهُ اسْتَحَقَّهُ، إِذِ انْطَلَتْ عَلَيْهِمْ مُكيدةُ صُواعِ الْمَلِكِ الَّذِي دُس في وِعَاءٍ مِنْ أوعيَتِه.

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يَظْهَرُ أَنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَنَّ هَـٰذا الْعَزِيز مُؤْمِنٌ باللهِ وبالْيَوْمِ الآخِر، ومُؤْمِنٌ بالْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، فخَاطَبُوهُ بِمَا يُؤْمِنُ بِهِ تَذْكِيراً، واسْتَثَارُوا فِيهِ، الرَّغْبَةَ فِي الْجَزَاءِ الْحَسَنِ الَّذِي يَجْزِيهِ اللهُ المتصَدِّقين.

عِنْدَئِذٍ رَأَىٰ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّ وَسَائِلَهُ الإشاريّة الإيمائِيَّة لَمْ يَفْهَمُوا مِنْهَا أَنَّهُ هُو أَخُوهُمْ يُوسُف، واشْتَدَّتْ فِيهِ عَاطِفَتُهُ نَحْوَ أبيهِ الْحَزِينِ، ورأىٰ أَنَّ مَا أَجْرَاهُ يَكْفِي للضَّغْطِ عَلَىٰ نُفُوس إخْوَتِهِ بِشَيْءٍ يُوجِعُهُمْ، فَأَرَادَ أَنْ يَكْشِفَ لَهُمْ نَفْسَهُ، فَسَأَلَهُمْ:

- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

الاسْتِفْهَامُ في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيري، أي: قَدْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُم بأخَوَيْكُمْ يُوسُفَ وبَنْيَامِين، مِنْ مَكَايِدَ للتَّخَلُّصِ مِنْهُمَا وإبْعَادِهِمَا عَنْ أَبِيكُمْ، وَلَوْ بالْقَتْلِ، والْحَالُ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ، أي: غاضِبُونَ ثائِرُونَ بِدَافِعِ الْحَسَدِ، إِذْ رَأَيْتُمْ أَنَّ أَبَاكُمْ يُفَضِّلُهُمَا عَلَيْكُمْ بالْحُبِّ، وَأَرَدْتُمْ أَنْ يَخْلُوَ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ، فَيَمْنَحكُمْ كُلَّ حُبِّهِ الّذِي يُحِبُّهُ أَبْنَاءَهُ.

هُنَا اسْتَجْمَعَ الْإِخْوَةُ الْأَحْدَاثَ، مَعَ مَا يَقُولُهُ الْعَزِيزُ لَهُمْ فِي هَـٰذا اللِّقَاءِ، وتَفَرَّسُوا فِي وَجْهِهِ فَرَأَوْهُ مُخَالِفاً فِي بَيَاضِهِ وَقَسَمَاتِهِ سَائِرَ الْمِصْرِيِّين، فغَلَبَ عَلَىٰ ظَنِّهِمْ أَنَّهُ أخُوهُمْ يوسف:

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ ... ﴿٩٠﴾﴾ بالاستفهام، وفي القراءة الأخْرَىٰ [**قالُوا إنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ**] بالإثباتِ.

فَدَلَّتْ القراءتانِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ أَوَّلاً مُسْتَفْهِمِينَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ وبَعْدَ ذَلِكَ قَالُوا كُلُّهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ مُثْبِتِين: [**إنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ**] مُؤَكِّدِين بـ (إنّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللّام المزحْلَقَة).

هُنَا أعْلَنَ يُوسُف عَلَيْهِ السلام أَنَّهُ هُو يُوسُف، وأَنَّ بَنْيَامِينَ أَخُوهُ الشَّقِيقُ.

- ﴿... قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

- ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ أي: قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا، يقال لغة: «مَنَّ عَلَيْهِ، يَمُنُّ، مَنًّا» أي: أَنْعَمَ عَلَيْهِ نِعْمَةً طَيِّبَةً، وأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِعَطِيَّة.

وَأَبَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام أَنَّ مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِ وعلَىٰ أَخِيهِ قَدْ كَانَتْ بِسَبَبِ الْتِزَامِهِمَا بِتَقْوَىٰ اللهِ، وبِسَبَبِ إِحْسَانِهِما بالصَّبْرِ علَىٰ مَا نَالَهُمَا مِنْ أَذىً جَلَبَهُ لَهُمَا حَسَدُ إِخْوَتِهِمَا لَهُمَا، وأبانَ لَهُمْ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ اللهِ الجزائِيَّةِ فِي عِبَاده، فقال لَهُمْ: إِنَّ الشَّأْنَ ذا الْخَطَرِ الَّذِي يَجِبُ وَضْعُهُ في الْحُسْبَانِ هو مَا يلي: مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ يَجْزِهِ اللهُ جَزاءَ الإحْسَانِ؛ لأَنَّ الصَّبْرَ الكثير من مَرْتَبَةِ الإحْسَان، ومِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنَّهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنين.

فَلَمَا سَمِعَ إِخْوَةُ يُوسُفَ الْعَشَرَة هَـٰذا الكَلامَ مِن أَخِيهِمْ يُوسُف.

- ﴿قَالُوا۟﴾ لَهُ: ﴿تَاللَّهِ﴾ مُقْسِمينَ وَمُؤَكِّدِين ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فَضَّلَكَ اللهُ عَلَيْنَا، واعْتَرَفُوا بِمَا كَانُوا قَدْ فَعَلُوهُ مِنْ قَبْلُ ضِدَّه وضِدَّ أخِيهِ بَنْيَامين فقالوا: ﴿... وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: ولَقَدْ كُنَّا لمذْنِبين. «إنْ» هي المخفَّفَةُ مِن الثقيلَة، وهي مُهْمَلَةٌ عَنِ العَمَلِ لِدُخولها على الْفِعْل، على مَا ذَكَرَ النحاة.

ولمَّا اعْتَرَفُوا عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ بأنَّهُم كانُوا مُذْنِبين، طَمْأَنَهُمْ يُوسُفُ بالْعَفْوِ عَنْهُمْ:

- ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾:
- ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾: أي: لَا لَوْمَ يَقْتَضِي إنْزَال عِقَابٍ عَلَيْكُمُ اليوم. ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: هَـٰذا دُعَاءٌ دَعَا يُوسُفُ به الله أَنْ يَغْفِرَ لَهُم خطايَاهُمْ، وأثنىٰ على اللهِ بقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ رجاءَ أنْ يَسْتَجِيب اللهُ دُعَاءَهُ فيغْفِر لإخْوَتِهِ.

هكذا شَأْن عظماء الرِّجَال يَعْفُونَ عِنْدَ المَقْدِرَةِ، ومن روائع الأمْثِلَة ما فَعَلَهُ الرَّسُولُ محمّدُ ﷺ لمَّا دَخَلَ مَكَّة فاتحاً مُنْتَصِراً، قَالَ لِأَهْلِ مَكَّة الّذِين آذَوْهُ وقاتلُوه: «اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاءُ».

وَجَاء عند الإسْرَائيليين في الإصحاح (٤٥) من سِفْر التكوين:

«والآنَ لَا تَتَأَسَّفُوا... لأنَّهُ لاسْتِبْقَاءِ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِي اللهُ قُدَّامَكُمْ. ٦ لأنَّ لِلْجُوعِ في الأرض الآن سَنَتَيْن. وخَمْسُ سِنِينَ أَيْضاً لا تكون فيها فلاحَةٌ ولَا حَصَاد. ٧ فقد أَرْسَلَنِي اللهُ قُدَّامَكُمْ لِيَجْعَلَ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي الأرض ولِيَسْتَبْقِي لَكُمْ نَجَاةً عَظِيمَةً. ٨ فالآن لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُوني إلَىٰ هُنَا بَلِ اللهُ. وقَدْ جَعَلَنِي أباً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطاً على كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٩ أَسْرِعُوا واصْعَدُوا إلَىٰ أَبِي وقولُوا لَهُ هَـٰكَذَا يَقُولُ ابْنُكَ يُوسُف. قَدْ جَعَلَنِي اللهُ سَيِّداً لِكُلِّ مِصْر. انْزِلْ إلَيَّ. لَا تَقِفْ».

نُلَاحِظ بهذا أَنَّ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام تجاوز عَنْ إِسَاءَةِ إِخْوَتِهِ لَهُ، وَنَظَرَ إلى تَدْبِيرِ اللهِ مِنْ خِلَالِ إِسَاءَتِهِم، وأنَّ اللهَ هو الذي جاء به رَقِيقاً إلى مِصْر، لِيَبْتَلِيَهُ، فَأَظْهَرَ تَقْواهُ وإِحْسَانَهُ، وآتاهُ حِكْمَةً وَعِلْماً، وآتاهُ عِلْمَ تَعْبيرِ الأحْلَام الَّتِي هي من قَبِيلِ الْأَحَادِيثِ الرَّبَّانِية، وأَوْصَلَهُ إِلَىٰ المكانَةِ الَّتِي وصَلَ إِلَيْهَا فِي مِصْرَ، وجَعَلَهُ سَبَباً لِنَقْلِ أَبِيهِ وإخْوَتِهِ وسَائِرِ أَهْلِهِمْ لِيَظْفَرُوا بِنِعْمَةٍ وَرَخَاءٍ وأَرْضٍ طَيِّبَةٍ فِي مِصْرَ.

وللهِ في تَدَابِيرِهِ أَلْطَافٌ عجيبَةٌ، ومِنْهَا أَنَّهُ أَوْصَلَ يُوسُفَ إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ سَيِّداً فِي كُلِّ مِصْرَ، عَنْ طَرِيقِ طَرْحِهِ ذَلِيلاً حَزِيناً فِي الْجُبِّ، وبَيْعِهِ رَقِيقاً لِرَئِيس الشُّرْطَةِ فِي مِصْر، إلى آخِرِ الأَحْداثِ الَّتِي جَرَتْ لَهُ فيها.

وبَعْدَ أَنْ طَمْأَنَ إِخْوَتَهُ بِأَنَّهُ لَنْ يُعَاقِبَهُمْ، بَلْ سَيُكْرِمُهُمْ وَيُوَسِّعُ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ، ويَمْنَحُهمْ أَخْصَبَ أَرْضٍ وأَحْسَنَهَا لِرَعْي أَنْعَامِهم، وَسَيُمَكِّنُ لَهُمْ فِي مِصْرَ، قَالَ لَهُم:

- ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾: أي: يَصِرْ بَصِيراً. وحَسَّنَ اسْتِعْمَالَ «يأتِ» بمعنى يصِير، لتكون في مقابل: «اذهبوا».

وهَلْ تَأْثِيرُ إِلْقَاءِ قَمِيصِ يُوسف على وَجْهِ أَبِيهِ يعقوب، بِسَبَبٍ غَيْبِيّ نَزَلَ بِهِ وَحْيٌ لِيُوسُفَ؟.

أو بسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الكَوْنِيَّةِ، كأنْ يَكُونَ لِعَرَقِ جِسْمِ يُوسُفَ تَأْثِيرٌ فِي شِفَاءِ عَيْنَيْ أبيه؛ لِأَنّ الْمَاءَ الْأَبْيَضَ الَّذِي أَصَابَهما قَدْ كَانَ بِسَبَبِ حُزْنِهِ عَلَىٰ فِرَاقِهِ، وهُوَ يَعْلَمُ رِيحَ وَلَدِهِ يُوسُفَ، ويُسْعِدُهُ أَنْ يَشُمَّهُ؟.

وكُنْتُ قرأت بَحْثاً لطبيب مِصْرِيّ اكتَشَفَ عَلَاقَةً عِلاجِيَّةً شِفَائِيَّةً، بَيْنَ عَرَقِ جِسْمِ الْغَائِبِ الْحَبِيب، وَبَيْنَ بَيَاضِ الْعَيْنِ بِسَبَبِ الْحُزْن.

اللهُ أعْلَمُ، لَكِنَّ تأْثِيرَ رَائِحَةِ الْعَرَقِ في شِفَاءِ الْعَيْنِ مِنَ البياضِ الَّذِي يُصِيبُهَا يَحْتَاجُ إثباتُهُ إِلَىٰ تكْرِيرِ التّجْرِبَةِ وتكْرارِ حُدُوثِ الشّفَاءِ.

فيبقىٰ تأثير السَّبب الْغَيْبِيّ هو الأمْرَ الراجح، حَتَّىٰ يتحقَّقَ الأمْرُ الآخر.

وبهذا تمّ تدبُّر الفصل الثاني عشر من فصول قصة يوسف.

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

التدبّر التحليليّ للفصل الثالث عشر من قصة يوسف عليه السلام

الآيات من (٩٤ ـ ١٠١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾:

القراءات:

(٩٤) • أثبت ياء المتكلّم في: **[تُفَنِّدُونِي]** يعقوب في الوصل والوقف.

ولم يُثْبِتْها باقي القرّاء العشرة بل قرؤها: **[تُفَنِّدُونِ]**.

(٩٦) • فتح ياء المتكلم من: **[إِنِّيَ أَعْلَمُ]** نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَها باقي القراء العشرة.

(٩٨) • فتح ياء المتكلم من: **[رَبِّيَ إِنَّهُ]** نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي القراء العشرة: **[رَبِّي إِنَّهُ]**.

(١٠٠) • قرأ ابْنُ عامر: **[يَا أَبَتَ]** بفتح التاء وهو وجْهُ عَرَبّي.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَا أَبَتِ]** بِكَسْرِ التاء.

(١٠٠) • فتح ياء المتكلم مِنْ: **[بِيَ إِذْ]** نَافع، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفر. وأسْكَنَها باقي القراء العشرة.

(١٠٠) • فَتَحَ ياء المتكلّم من **[إِخْوَتِيَ إِنَّ]**. ورش وأبو جعفر وأسْكَنَهَا باقِي القرّاء العشرة.

تَمْهيد:

هذا الفَصْلُ هو الفَصْلُ الأخير مِنْ قِصَّةِ يُوسُف في السُّورة، وهو يَشْتَمِلُ علَىٰ أبْرَزِ أحْدَاثِ عَوْدَةِ إخوةِ يُوسُف إلى أَرْضِ كنْعَانَ، لِلْقُدُوم بأبِيهِمْ وجَمِيعِ أهْلِهِمْ إلىٰ مِصْرَ، كما طَلَبَ أخُوهُمْ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام، وفيه بيانُ قُدُومِهِمْ جَمِيعاً إلى مِصْر، واحْتِفَاءِ يُوسُفَ بِهِمْ احْتِفَاءً كَرِيماً، وأَنَّهُمْ خَرُّوا لَهُ سُجّداً، وتحَقَّقَتْ رُؤيا يُوسُفَ الَّتي رَآها قَبْلَ نَحْوِ رُبْعِ قَرْنٍ. وفيه بَيَانُ دُعَاءِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام، ومَا سَأَلَ رَبَّهُ مِنْ أَنْ يَخْتِمَ لَهُ بالحسْنَىٰ.

وقد كان السجود عادة تعظيم الناس لملوكهم أو من هم بمثابة المُلوكِ ولم يكن قد نزل به تحريم ديني.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾:

- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾: أي: ولَمَّا خَرَجَتْ قافِلَةُ إخْوَةِ يُوسُفَ مِنْ مِصْر، مُنْفَصِلَةً عَنْ حُدُودِ الْمَدِينَةِ وَتوابعها.

يُقال لُغةً: «فَصَلَ الْقَوْمُ عَنِ الْبَلَد» أي: خَرَجُوا مُنْفَصِلينَ عَنْ حُدُودِها. **والْعِيرُ**: ما جُلِبَ عليه الطعام من قوافِلِ الإبلِ والبِغال والْحَمِير، والمرادُ الْعِيرُ ومَعَ الْعِيرِ أصحابُ العير.

- ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾: أي: «يعقُوبُ = إسْرائيل» عَلَيْهِ السَّلَام، وهُوَ في مَنْزِلِهِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَان، والرَّكْبُ مَا زَالَ في أَرْضِ مِصْرَ، والمسافَةُ بَيْنَهُمَا بَعِيدَةٌ جدًّا.

- ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾: أَكَّدَ لَهُمْ بالمؤكّدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزَحْلَقَة» أي: بما يُسَاوِيهَا فِي لُغَتِهِ، أَنَّ رِيحَ ابْنِي يُوسُفَ قَدْ وَصَلَتْ إلىٰ حَاسَّةِ الشَّمّ عِنْدِي، وهي رَائِحَةُ عَرَقِ بَدِنِه.

- ﴿... لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾: أي: لَوْلَا أَنْ تَتَّهِمُونِي بِضَعْفِ الرَّأْيِ والتفكير من الخرف الّذي يُصَابُ به الْهَرِمُونَ، لَقُلْتُ لَكُمْ: إنَّ يُوسُفَ قَادِمٌ إليَّ، أَوْ أَثَرٌ مِنْ آثَارِهِ. هذا الجواب محذوفٌ ومن السَّهْلِ استخراجُهُ ذِهْناً.

يُقَالُ لُغَةً: «فَنِدَ، يَفْنَدُ، فَنَداً» أي: ضَعُفَ رَأْيُهُ مِنَ الْهَرَم، وأتىٰ

بالباطل. ويُقَال: «فَنَّدَ فُلانٌ فُلاناً، وأفْنَدَه» أي: نَسَبَهُ إلى ضَعْفِ الرَّأْيِ مِنَ الْهَرَمِ، وَاتَّهَمَهُ بأَنَّهُ يَأْتي بالباطل.

قال يعقوبُ عليه السَّلام هذا الكلامَ لِمَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِهِ وهُم أَوْلَادُ أَوْلَادِه ونِسَاؤُهُمْ، فَكَانَ جَوابُهُمْ ما يلي:

- ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾:

سَبَقَ أنْ قال أبْنَاؤُهُ العشرة:

﴿... لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

ويظهر أنَّ هَـٰذا الكلامَ قَدْ سَمِعَهُ أوْلَادُهُم مِنْهُمْ، واسْتَقَرَّ في ذَاكِراتِهِمْ، فَلَمَّا وَجدُوا جَدَّهُمْ يَقُولُ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ قَالُوا لَهُ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: نُقْسِمُ عَلَىٰ أَنَّكَ مَا زِلْتَ تُفَضِّلُ يُوسُفَ وأخَاهُ علَىٰ سَائِرِ أَبْنَائِكَ، وهَـٰذا خُرُوجٌ مِنْكَ عَن طَرِيقِ الحقّ، وما زِلْتَ تَعِيشُ في ذِكْرَىٰ يُوسُفَ وَتَطْمَعُ في عَوْدَته، وقَدْ مَضَى على غِيابِهِ نَحْو رُبْع قَرْن، إنَّكَ تَشْغَلُ فِكْرَكَ وَنَفْسكَ بِأَوْهامٍ وأباطِيل.

لقَدْ تَربَّىٰ أحْفادُهُ عَلَىٰ الْجفَاءِ وقِلَّةِ الأَدَبِ مَعَ جَدِّهِم، أَخْذاً مِنْ آبائِهِمْ.

ومَرَّتِ المدَّةُ الَّتِي تَقْطَعُهَا الْقَافِلَةُ العائِدَةُ مِنْ مِصْرَ إلى أرض كَنْعَانَ مِنْ بِلَادِ الشَّام، وَوصَلَتْ إِلَىٰ مَنَازِلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فيها، وبَعَثَ أَبْنَاؤُهُ مَنْ يُبَشِّرُ أباهُمْ بيُوسُفَ وَبنْيامِينَ، ويُلْقِي عَلَىٰ وَجْهِهِ قَمِيص يُوسُف.

- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ... ﴿٩٦﴾﴾:

﴿أَن﴾: مَزِيدَةٌ للتوكيد. ﴿ٱلْبَشِيرُ﴾. أيْ: الْمُبَشِّرُ بِمَا يَسُرَّ يَعْقُوب.

﴿أَلْقَىٰهُ﴾: أي: أَلْقَىٰ قَمِيص يُوسُفَ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: على وَجْهِ

يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾: أي: فَرَجَعَ حَادَّ الْبَصَرِ، بَعْدَ أنْ صَارَ كَلِيلاً بِسَبَبِ الماء الأبْيَضِ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ عَيْنَيْهِ مِنْ أَثَرِ الْحُزْنِ على فِراقِ يُوسُفَ وَأخِيهِ بَنْيَامِين.

عندئذٍ قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السلام للذِّينَ قَالُوا لَهُ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾:

- ﴿... قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

يُشِيرُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ هَـٰذا إلى مَا سَبَقَ أَنْ قَالَهُ لِبَنِيه حينما لَامُوهُ عَلَىٰ أَنَّهُ مَا يفتأ يَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ يكُونَ حَرَضاً أو يكُونَ مِنَ الْهَالِكِين: ﴿... إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فَدَلَّ بِهَـٰذا عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِأَنَّ يُوسُفَ حَيٌّ، وأَنَّهُ سَيَلْقَاهُ، وأنّ هَـٰذا الْعِلْمَ قَدْ أَتَىٰ إِلَيْهِ من الله، ولَكِنَّهُ كَانَ حَزِيناً على فِرَاقِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ امْتَحَنَهُ بِشِدَّةِ حُبِّهِ لَهُ، وتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِهِ.

ولَمَّا وَصَلَ أَبْنَاؤُهُ الْعَشَرَةُ الَّذِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا للتَّخَلُّصِ مِنْ يُوسف، وَدَخَلُوا عَلَيْه:

- ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾:

- ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾: اسْتِعْطَافٌ بِحَرْفِ النداءِ الَّذِي يُنَادَىٰ بِهِ الْبَعِيدُ عَادَةً، فكأنهم يَتَخَضَّعُونَ مُبْعِدِينَ في التضَرُّعِ، وبِاجْتِمَاعِهِمْ جَمِيعاً على مُنَاداتِهِ بِصِفَةِ أُبُوَّتِهِ لَهُمْ.

- ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾: أي: اسْأَلِ الله أَنْ يَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا فِيما مَضَىٰ مِنْ عُمْرِنا.

- ﴿إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾: أي: إنَّا كُنَّا مُذْنِبِينَ، فَأَكَّدُوا اعْترافَهُمْ بِذَنْبِهِم بما يُمَاثِلُ التوكيد بـ «إنّ ـ والْجُمْلَة الاسميَّة».

يُقَال لغة: «خَطِئَ، يَخْطَأُ، خَطَأً، وخَطْأً، فَهُوَ خَاطِئٌ» أي: أذْنَبَ عَنْ عَمْدٍ.

فَأَجَابَهُمْ «يَعْقُوبُ = إسْرائيل» عَلَيْهِ السَّلام:

- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾:

وَعَدَهُمْ وَعْداً أبْعَدَ أجلَ تَنْفِيذِه، بَحَرْفِ التَّنْفِيس «سَوْفَ» الّذِي يُسْتَعْمَلُ للدَّلالَةِ عَلَىٰ المؤجَّلِ الْبَعِيدِ التَّحقُّقِ بُعْداً يَتَنَاسَبُ مَعَ حَياة المتكلِّم، وأغْلَبُ الْوَعْدِ بحرف «سَوْفَ» مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ يَكُونُ تَحْقِيقُهُ يَوْمَ الدِّين.

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾: أيْ: سَوْفَ أَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ، أي: بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَنِي اللهُ بِيُوسُفَ وأخِيهِ بَنْيَامِينَ، وَأَجِدَ فِيكُمُ الاستِقَامَةَ والصَّلاحَ والإصْلاحَ، والتَّخلُّصَ مِنْ دَاءِ الْحَسَدِ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: فِي هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ ثَنَاءٌ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُؤَكَّدٌ بأدَاوتٍ من التوكيد مَعَ الحصْرِ بتَعْرِيفِ طَرَفِي الإسْنَاد، «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ وضمير الفصل».

الْغَفُورُ: الكثِيرُ الْمَغْفِرَةِ للذُّنوب بِسَتْرِها المستَلْزِمِ عَدَمَ المؤاخَذَةِ عَلَيْها.

الرَّحِيمُ: العظيم الرَّحْمَةِ، ذاتِ الآثارِ الْجَلِيلَةِ في الْغُفْرَانِ والْعَفْو، وفُيوضِ عَطَاءَاتِهِ وإنْعَامَاته، بِمَنْحِ الْخَيْرَاتِ والْمَحَابِّ، ودَفْعِ السَّيِّئاتِ، ورَفْعِ المكارِه.

وهُنَا طَوَىٰ النَّصُّ في السُّورَةِ ذِكْرَ ارْتِحَالِ يَعْقُوب وأبْنَائِهِ وجَمِيعِ أَهْلِهِمْ، وجَمِيعِ مَا يَسْتَطِيعُونَ نَقْلَهُ مِنْ مُمْتَلَكَاتِهِمْ، إلَىٰ يُوسُفَ فِي مِصْر. وقَدَّمَ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشْهَدِ دُخُولِهِمْ عَلَىٰ يُوسُفَ فِي مِصْرَ:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠)﴾:

- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: أي: وصَلُوا إِلَىٰ مِصْرَ بَعْدَ مَسِيرِهِم إِلَيْهَا مِنْ أرْضِ كَنْعَان، فَلَمَّا دَخلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ وهُوَ في قَصْرِهِ.

- ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾: أي: أَنْزَلَ أَبَوَيْهِ عِنْدَهُ فِي قَصْرِهِ الخاصِّ بِهِ، وَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ وأحاطَهُمَا بِعِنَايَته.

أَمَّا أَبُوهُ يَعْقُوبُ فظاهِر، وأمَّا أُمُّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ «رَاحِيلِ» فكانَتْ قَدْ مَاتَتْ مُنْذُ سِنِينَ، بَعْدَ أَنْ أَنْجبَتْ «بَنْيَامِينَ» والظَّاهِرُ أَنَّ المرادَ خَالَتُهُ «لَيْئَةُ» الَّتِي كانَتْ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ بِمَنْزِلَةِ أُمِّهِ.

ويُقَالُ عَنِ الأبِ والْأمِّ مَعًا فِي المثَنَّىٰ: «أَبَوَان» على سبيل التغليب، كما يُقَالُ عَنِ الشَّمْسِ والْقَمَر: «القمران».

- ﴿... وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩)﴾:

أي: وقال لإخْوَتِهِ وأَبْنَائِهِمْ وجميع أَهْلِهم، ادْخُلُوا مَا تَخْتَارُونَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فإنِّي أَعْمَلُ عَلَىٰ تَمْلِيكِكُم أَفْضَلَ أَرْضٍ تُلائِمُكُمْ فيها، حَالَةَ كَوْنِكُمْ آمِنِينَ لَا تَخافُوْنَ أَنْ تَتَعَرَّضُوا لِسُوءٍ من أَحَدٍ فِيها إِنْ شَاءَ الله، وقَدَّم التَّعْلِيقَ عَلَىٰ مَشِيئة اللهِ قَبْلَ الْوَعْدِ بتأمِينهم في كلِّ مِصْر، تَشْرِيفاً لحقّ اللهِ في التَّعْلِيق عَلَىٰ مَشِيئَتِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذا لَمْ يَشَأْ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ لَمْ يَكُنْ لمشِيئاتِ الْعِباد آثَارٌ تَطْبِيقِيَّةٌ في الْوَاقع.

وَكَانَ الْمِصْرِيُّونَ قَدْ اشْتَرَوْا بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَرْضٍ أَقْواتَهُمْ، ممَّا اخْتَزَنَ يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ مِنْ أَقْواتٍ فِي سَنَوَاتِ الخِصْبِ، ادّخاراً لِسَنَوات

الجدْبِ والْقَحْط، حَسَبَ دَلَالَةِ رُمُوزِ رُؤيَاه، فصارت أَرْضُ مِصْرَ حينَئِذٍ مِلْكاً لِفِرْعَوْن.

وجاء في الإصحاح (٤٦) من سفر التكوين أنَّ أَبْنَاءَ وأحفاد يعقوب الَّذين جاءوا إلى مصر مع يوسُف وابْنَيْه كانوا (٧٠) ولم يَذْكُرِ كتَّابُ الإصحاحِ الزُّوجات والبنات.

وجاء في الإصحاح (٤٧) من سفر التكوين ما يلي:

«١ فَأَتَىٰ يُوسُفُ وَأَخبَرَ فِرْعَوْنَ وقَالَ أبِي وإِخْوَتِي وغَنَمُهُمْ وَبَقَرُهُمْ وكُلُّ مَا لَهُمْ جَاءُوا مِنْ أَرْضِ كنْعان. وهُوَذَا هُمْ فِي أَرْضِ جَاسَان[1].

٢ وأَخَذَ مِنْ جُمْلَةِ إخْوَتِهِ خَمْسَ رِجالٍ وأوقفَهُمْ أمَامَ فِرْعَون.

٣ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لإِخْوَتِهِ: مَا صِنَاعَتُكُمْ؟ فقالُوا لِفِرْعَوْنَ: عَبِيدُكَ رُعَاةُ غَنَمٍ نَحْنُ وآبَاؤُنَا جَمِيعاً. ٤ وَقَالُوا لِفِرْعَوْن: جِئْنَا لِنَتَغرَّبَ في الأرض. إِذْ لَيْسَ لِغَنَم عَبِيدِكَ مَرْعَىٰ. لأنَّ الْجُوعَ شَدِيدٌ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. فَالْآنَ لِيَسْكُنْ عَبِيدُكَ فِي أَرْض جَاسَان.

٥ فكلَّمَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ قَائِلاً: أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ جَاءُوا إِلَيْكَ.

٦ أَرْضُ مِصْرَ قُدَّامَكَ. فِي أَفْضَلِ الْأَرْضِ أَسْكِنْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ. لِيَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جاسَان. وإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يُوجَدُ بَيْنَهُمْ ذَوُو قُدْرَةٍ فاجْعَلْهُمْ رُؤَسَاءَ مَوَاشٍ علىٰ الَّتِي لي».

فأقام بنو إسْرَائيل في أرضِ جاسَان نحو (٢٠٠) سنة حتَّىٰ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ فِي عَهْدِ مُوسَىٰ عَلَيْه السَّلام.

---

[1] (١) **جَاسَان**: منطقة خصيبةٌ في مصر، كثيرة المرعَىٰ للقطعان والمواشي، واقعة شرق الدَّلْتَا. وهي المعروفة الآن بالشرقية الممتدّة من جوار أبي زعْبَل إلى البحر، ومِنْ بَرّيَّة جعفر إلى وادِي توميلات. وهي جزءٌ من أرض «رعمسيس».

وَيَبْدُو لي أنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَقَامَ فِي قَصْرِه فِي مِصْرَ حَفْلاً تَكْرِيميًّا لأبيهِ وإخْوَتِهِ، احْتِفَاءً بِمَقْدَمِهِمْ مِنْ أَرْضِ كنْعَانَ، مُهاجِرِينَ إِلَىٰ مِصْر، وَدَعَا إِلَيْهِ عِلْيَةَ الْمِصْرِيين، وفي هَـٰذا الاحْتِفَالِ أعْلَنَ تَكْرِيمَهُ لِأَهْلِهِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ.

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: أيْ: ورفَعَ أَبَاهُ وخَالَتَهُ أُخْتَ أُمِّهِ، وأجْلَسَهُمَا عَلَىٰ الْعَرْش الموضُوعِ في صَدْرِ المجْلِسِ.

الْعَرْشُ: سَرِيرٌ وَاسِعٌ يُتَّخَذُ عَادَةً لِجُلُوسِ الْمُلُوكِ عَلَيْه، فِي مَجَالِسِهِمْ الَّتِي يَسْتَقْبِلُونَ فيها مَنْ يَأْذَنُونَ لَهُمْ بالمثُولِ لَدَيهم، وَيكُونُ مَلأُ الْمَلِكِ عَلَىٰ مَقَاعِدِهِمْ ذَاتِ الارتفاع المنخفض عَنِ ارْتِفَاعِ سَرِيرِه، مِنْ ذَاتِ الْيَمِين ومِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ.

واعْتَادَ الْمُلُوكُ أَنْ يُزَيِّنُوا عُرُوشَهُمْ بالجواهِرِ الكَرِيمَةِ، وبالْفُرُشِ الْوَثِيرَة. ورُبَّمَا اتَّخَذَ يُوسُفُ عَرْشاً مجاوراً لِلْعَرْش الذي أجْلَسَ عليه أبويه.

- ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾: أيْ: وَخَرَّ إخْوَةُ يُوسُفَ لَهُ سُجداً عِنْدَ الدُّخُولِ عليه وهو على عرْشه.

كَانَ هَـٰذا السُّجُودُ تَحِيَّةً مُتعَارَفاً عَلَيْهَا لَدَىٰ الْقُدُوم عَلَىٰ عَظِيم، مَلِكٍ، أو ذي سُلْطَانٍ كبير. ولَم يَكُنْ قَدْ نَزَلَ تَشْرِيعٌ بِتَحْرِيمِهِ، وبِجَعْلِهِ خاصًّا بِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وجلَّ. **الْخُرُورُ**: سُقُوطٌ مُتَتابعٌ بِلَا تَوَقُّف، ومنْهُ خرور الماء.

وتَدُلُّ الرُّؤيَا عَلَىٰ أَنَّ أبويْهِ سَجدا لَهُ، فَرُبَّما كَانَ هَـٰذا عِنْدَ وُصُولِهِمَا إِلَىٰ مِصْرَ، وقَبْلَ أَنْ يُقِيمَ يُوسُفُ هَـٰذا الاحْتِفَالَ وَيرْفَعَ أبوَيْهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ تكريماً لَهما. والله أعلم.

وبَعْدَ أن انْتَهَىٰ الاحْتِفَالُ التكريميُّ البهيج قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ لِأَبِيهِ «يَعْقُوبَ = إسرائيل» عَلَيْهِ السّلام خَمْسَ مَقَالَاتٍ اسْتَدْعَتْها ذاكِرَتُهُ

لِلأَحْدَاثِ الَّتِي جَرت لَهُ في حياتِه، مُنْذُ كَوْنِهِ غُلاماً، عَبْرَ أَيَّامِ مِحْنَتِهِ، وحَتَّىٰ بُلُوغِهِ مَرْكَزَ السُّلْطَانِ الأَوَّلِ مِنْ بَعْدِ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْر.

المقالَة الأولى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ الله تَعالَىٰ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾: أيْ: هَـٰذا التَّأْوِيلُ الْوَاقِعِيُّ لِرُؤْيايَ الَّتِي رَأَيْتُهَا مِنْ قَبْلُ إِذْ كُنْتُ غُلاماً، الَّتِي رَأَيْتُ فِيهَا أَحَدَ عَشَر كَوْكَباً والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ.

فقَدْ سَجَدَ لِي وَأَنَا في هَـٰذا الْمَرَكَزِ العظيم في مِصْرَ إخْوتِي الأَحَدَ عشَر، وسَجَدَ لِي مَنْ كانَ رَمْزُهُمَا فِي الرُّؤْيا الشَّمْسُ والْقَمَر.

وقَدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ هَـٰذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي قَدَّمَتْ لَنا تَعْبِيراً ظَنِّيًّا بِرُمُوزِها، حَقًّا واقِعاً مَشْهُوداً.

المقالَةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾:

أي: وقَدْ فَعَلَ مَا هُوَ حَسَنٌ بِي إِذْ أخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ، يُقالُ لُغَةً: «أَحْسَنَ بِهِ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ» أي: فَعَلَ مَا هُوَ حَسَنٌ.

ومِنْ أَدَبِ يُوسُفَ مع رَبِّهِ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ مَا تَعَرَّض لَهُ مِنْ رِقٍّ، وما اتُّهِم بِهِ فِي بَيْتِ الْعَزيزِ، وَمَا ابْتُلِيَ بِهِ فِي السِّجْنِ، وإنَّما ذَكَرَ ما تَفَضَّلَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ إِذْ أَخْرَجَهُ مِنَ السِّجْن.

وَكَانَ إِخْرَاجُهُ مِنَ السِّجْنِ مَصْحُوباً بِبَراءَتِهِ، وبِمَجْدٍ عظيم نَالَهُ، إِذْ عَبَّرَ لِفِرْعَوْنَ رُؤْيَاهُ تَعْبِيراً نَالَ اسْتِحْسَانَهُ، وطَابَقَ الواقِعَ فِيما بَعْدُ.

المقالَة الثالثَة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعنى ما قالَهُ يوسف عليه السلام: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾:

﴿ٱلْبَدْوِ﴾: أهْلُ البادِيَة، وهي الْفَضَاءُ الواسِعُ الّذِي فيه المرعَىٰ والماء للماشية، وسُكّانُ البادِيَة تكُونُ بُيُوتُهُمْ مِنْ الخيام، ويَغْلِبُ عَلَيْهِمُ التَنَقُّلُ والتّرْحَالُ، طَلَباً لِلْكَلأِ والماء.

﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: **نَزْغُ الشَّيْطَانِ**: وساوسه وتسويلاتُه الَّتي يَحْمِلُ بها الإنْسَانَ على المعاصِي وارْتكاب الآثام والذُّنوب.

ويقال لغة: «نَزَغَ فُلانٌ بَيْنَ الْقَوْمِ» أي: أفْسَدَ بَيْنَهُمْ وحَمَلَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْض.

والنَّزْغ: الكلامُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ الإغْرَاءُ والإفْسَادُ بَيْنَ النَّاسِ.

والنَّزْغُ في الحسِّيَات: النَّخْسُ، والْغَرْزُ بإبْرَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، للإثَارَة والدَّفْع لأمْرٍ مَا. ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾: أي: نَزَغَ الشَّيْطانُ مُتَرَصّداً في المكان الواقع بَيْنِي وبَيْنَ إخْوَتي، فيُبْرِزُ لَهُمْ مِنْ جِهَتي تفضيل أبي لي بالحب، ويَنْخَسُ فيهم الْحَسَدَ لِيُثِيرَهُ ويُعْظِمَ فيهم أُوَارَه.

المعنىٰ: وأحْسَنَ بِي وَبِكُمْ، إذْ تَلَطَّفَ بِنَا جَمِيعاً، فَجَاءَ بِكُمْ مِنْ جَمَاعَاتِ الْبَدْوِ، إلَىٰ المراكِزِ الْحَضَرِيَّةِ فِي مِصْرِ، وَهَيَّأَ لَكُمْ وَسَائِلَ الْعَيْشِ الطَّيِّبِ الرَّغْدِ بألْطَافه الخفيَّة، مِنْ بَعْدِ الْأَحْدَاثِ غَيْرِ السَّارَّة، الَّتِي كَانَ سَبَبُها نَزْغَ الشَّيْطَانِ الَّذِي نَزَغَهُ بَيْنِي وَبَيْنَ إخْوَتِي، إذْ اسْتَثَارَ حَسَدَهُمْ اسْتِثَارَةً شَدِيدَةً، جَعَلَتْهُمْ يَعْمَلُونَ عَلَىٰ إبْعَادِي عَنْ أَبِي وَلَوْ بِقَتْلِي، ولَكِنَّ الله حَمَانِي بألْطَافِهِ الخفيّة.

المقالة الرابعة: دَلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايةً لمعنى ما قَالَهُ يوسف عَلَيْهِ السَّلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾:

اللُّطْفُ: الرِّفْقُ، والرِّقَّة، **فاللَّطِيفُ**: هُوَ الَّذِي يُجْرِي تَدَابِيرَهُ وأعمالَهُ بِرِفْقٍ لَا عُنْفَ فِيهِ ولَا خُشُونَة. **واللَّطِيفُ**: هُو الَّذِي يَدْخُلُ ويَخْرُجُ بِرِقَّة دُونَ أنْ يُحَسَّ بِهِ، ومِنَ الْأَجْسَادِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي تَكُونُ مَعَنَا وَلَا نُحِسُّ بها الملائكة.

ومِمَّا يُجْرِيه اللهُ مِنْ أُمُورٍ وَتَدْبِيرَاتٍ، قَدْ تَكُونُ مِنَ اللُّطْفِ بِحَيْثُ تَكُونُ أعْمَالُ مُرِيدِي الضُّرِّ والْأَذَىٰ، هِيَ الموصِلَةَ لِلْخَيْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي شاءَ اللهُ إِيْصَالَهُ، لِلْفَرْدِ أو الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ يَكِيدُهُمْ حَاسِدُوهم، أَوْ أعداؤهم، وَدَبَّرُوا لَهُمْ كَيْداً، لِيُوقِعُوا بِهِمْ شرّاً، فَيُوقِعُ اللهُ بِهِ خيراً لِلْمكيدين.

وَمِنْ هذا مَا حَصَلَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ أَوْصَلَهُ اللهُ إلى المجْدِ الْعَظِيم في مِصْر، مِنْ خِلَالِ طَرْحِ إِخْوَتِهِ لَهُ في الجبِّ، وَاسْتِرْقَاقِهِ، ثُمَّ سَجْنِهِ، إِلَىٰ آخِرِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي جَعَلَتْهُ الرَّجُلَ الثَّانِي فِي مِصْرَ بَعْدَ الْمَلِك.

وَمِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ اسْمُ «اللَّطِيف» وهو عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرِّفْق، وَعَلَىٰ معنى أَنَّ أعْمَالَهُ تَجْرِي دُونَ أَنْ تُدْرَكَ بإحْسَاسٍ، حتَّىٰ تَظْهَرَ نَتَائجها، وقد تجري عَلَىٰ خلافِ المظْنُونِ من الأسْباب.

المقالة الخامسة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ يُوسُفُ عليه السلام: ﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾: في هَٰذه العبارة ثناءٌ مِنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام عَلَىٰ رَبِّهِ مؤكَّدٌ بـ «إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيّة ـ وضَمِيرِ الْفَصْل» مع الْحَصْر بِتَعْرِيف طَرَفَي الإسْناد.

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: أي: الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً. ولفظ «الْعَلِيم» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: أي: الَّذِي يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها، ويَخْتَارُ أَفْضَلَ الأشياء وأَتْقَنَها وأَحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ المخْتَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائج.

وَلَمَّا كَانَتِ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْحَكِيمُ ذَا عِلْمٍ بِكُلِّ الاحْتِمَالَاتِ الْمُمْكِنَاتِ، حَتَّىٰ يَخْتَارَ مِنْهَا مَا هُوَ الْأَحْكَمُ، كَانَ اخْتِيَارُ ذِكْرِ الْعَلِيمِ الْحَكِيم مَعاً اخْتِيَاراً كَامِلَ التَّلَاؤُم، مَعَ التَّكَامُلِ الْفِكْرِيِّ بَيْنَهُمَا، في الثَّنَاءِ عَلَىٰ التَّصَارِيفِ الرَّبَّانِيَّة فِي الكَوْنِ بصُورَةٍ عَامَّةٍ، وفي العبادِ ذوي الإراداتِ الْحُرَّة بِصُورَةٍ خاصَّة.

وفي آخِرِ فقَرَاتِ قِصَّةِ يُوسُفَ في السُّورَةِ، ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ دُعَاءً دَعَا بِهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ دَعَاهُ عِنْدَ اقْتِرابَ انْتِهاءِ أَجَلِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، ولَيْسَ مِنْ تَوابعِ الكَلَامِ الَّذِي قَالَهُ لِأَبِيهِ في الآية (١٠٠) من السُّورة، إذْ قَالَ فِي دُعَائِهِ:

- ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾:

حَمِدَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ فِي هَـٰذا الدُّعَاء أوّلاً، وأَتْبَعَ الْحَمْدَ بِبَيَانِ مَا يَرْجُو مِنْ رَبِّهِ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَتفضَّلَ عَلَيْهِ بِهِ.

- أَمَّا الْحَمْدُ فَقَدْ لَخَّصَهُ بِثَلاثِ عِبَارَات:

الْعِبَارَة الْأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾: أَيْ: أَحْمَدُكَ رَبِّ عَلَىٰ مَا قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ، إذْ آتاهُ اللهُ قِسْماً كَبِيراً مِنْ مُلْكِ فِرْعَوْنِ مِصْرَ، كَانَ فِيهِ ذَا السُّلْطَانِ الأوّلِ بَعْدَ فِرْعَوْن.

جاء في الإصْحاح (٤١) من سِفْرِ التكوين، بَعْدَ بَيَانِ تَعْبِيرِ يُوسُفَ لِحُلْمِ فِرْعَوْن، ما يلي:

«٣٧ فَحَسُنَ الْكَلَامُ فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ جَمِيعِ عَبِيدِهِ. ٣٨ فقالَ فِرْعَوْنُ لِعَبِيدِه: هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هَـٰذا رَجُلاً فِيهِ رُوحُ الله. ٣٩ ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفُ: بَعْدَمَا أَعْلَمَكَ اللهُ كُلَّ هَـٰذا لَيْس بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ مِثْلَكَ. ٤٠ أَنْتَ تكُونُ عَلَىٰ بَيْتِي وَعَلَىٰ فَمِكَ يُقَبِّلُ جَمِيعُ شَعْبِي. إلَّا أَنَّ الْكُرْسِيَّ أَكُونُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْكَ. ٤١ ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: انْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُكَ عَلَىٰ كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٤٢ وَخَلَعَ فِرْعَوْنُ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِه، وجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ. . . .».

وجاء في الإصحاح (٤٥) من سِفر التّكوين، بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهُ كَشَفَ نَفْسَهُ لِإخْوَتِهِ وَقَالَ لَهُمْ أَنَا يُوسُفُ أخُوكم، وقال لهم أيضاً ما يلي:

«٨ فالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُوني إلَىٰ هُنَا، بَلِ اللهُ. . . وَهُوَ قَدْ جعَلَني أباً لِفِرْعَوْنَ (أي: بِمَثابَةِ الْأَب) وَسَيِّداً لِكُلّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطاً عَلَىٰ كُلِّ أَرْضِ مِصْر.».

الْعِبَارَة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾: أَيْ: وأَحْمَدُكَ رَبِّ عَلَىٰ مَا عَلَّمْتَني مِنْ بَعْضِ عِلْم يَتَعَلَّقُ بتَأويل الْأَحْلَام الَّتي هِيَ مِنْ قَبيلِ الْأَحَادِيثِ. وَهِي الأَحَادِيثُ الرَّمْزِيَّةُ أو الصَّرِيحَةُ، الَّتي تُلْقَىٰ إلَىٰ النَّفْسِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، وقَدْ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ مَلَكٍ يُكَلِّفُهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُحدِّثَ النَّفْسَ الَّتي شَاءَ اللهُ أَنْ يُحَدِّثَهَا بِهَا، وهي الأحاديث الصادقَةُ الَّتي تأْتي بِهَا الأحْلَام.

العبارة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعنى مَا قَالَهُ يوسُفُ عليه السلام: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: وأحْمَدُكَ يا خَالِقَ السَّمَاواتِ والأَرْضِ ضِمْنَ نِظَام الْفَطْرِ، الَّذي هُوَ الشَّقُّ، الَّذي يكُونُ بِهِ الإيجادُ مِنْ نُقْطَةِ الْعُمْقِ، وَهِيَ الْعَدَمُ.

وهَـٰذا الْحَمْدُ يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً الثَّنَاءَ عَلَىٰ الله بالصِّفَاتِ الَّتي يَقْتَضِيهَا الْخَلْقُ الْبَدِيعُ، ومِنْهَا الْقُدْرَةُ الْعَظِيمة، والإرادة الحكيمة، والْعِلْمُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شيء، إلَىٰ سَائِرِ الصِّفَاتِ الَّتي يَقْتَضِيهَا الْخَلْقُ المتْقَنُ الْبَدِيع.

- وأمَّا ما رَجاهُ يُوسُفُ مِنْ رَبِّهِ وسَأَلَهُ إيَّاه فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فَقَدْ جَمعَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في مَطْلَبَيْن:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّل: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَلِيَّهُ فِي الدُّنْيَا والْآخِرَة، يَتَوَلَىٰ بِفَضْلِهِ

كُلَّ أمُورِهِ، اخْتِيَاراً، وإلْهَاماً، وَتَوْفِيقاً لِلْعَمَلِ بمَا يُحَقِّقُ لَهُ المعيشَةَ الطيِّبَةَ فِيما بَقِيَ لَهُ مِنْ حَيَاةٍ فِي الدُّنيا، وَبِمَا يُحَقِّقُ لَهُ رِضوانَ الله، وبما يُحَقِّقُ لَهُ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةِ في الآخِرَةِ في المنازِلِ الرَّفِيعَة فِي جَنَّاتِ النَّعِيم. وأَنْ يَكونَ لَهُ نَاصِراً ومُؤَيِّداً ومُعِيناً، ومُمِدّاً بِمُخْتَلِفِ الْقُوىٰ.

دلَّتْ عَلَىٰ هَـٰذا المطلب عبارة: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ الصِّيغَة صِيغَة خبر، والمرادُ بها الإنْشَاء، أي: رَبِّ كُنْ أَنْتَ ولِيِّيَ في الدُّنيا والآخِرَة.

المطْلَبُ الثاني: دَلَّتْ عليه عبارة: ﴿... تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾:

أي: رَبِّ تَوَفَّنِي عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِي في الحياة الدنيا مُؤْمِناً مُسْلِماً، فالإسلام المقْبُولُ عِنْدَ اللهِ لَا بُدَّ أَنْ يكُونَ أثراً مِنْ آثَارِ إِيمَانٍ صَحِيحٍ كامِلٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ الله. وأَلْحِقْنِي رَبِّ بالصَّالِحِينَ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمْ قَبْلِي، وفي مُقَدِّمَتِهِمُ الرُّسُلُ والْأنبياء، أي: فاجْعَلْ مَنْزِلَتِي في الفِرْدُوسِ الأعْلَى مِثْلَ مَنَازِلهم.

جاء في القرآن وصْفُ إبْرَاهيمَ ولوطٍ وإسحاقَ ويَعْقُوبَ ومجموعة من الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ بأَنَّهُمْ مِنَ الصَّالحين. وتوفي يوسف عليه السلام وقد بلغ من العمر (١١٠) سنة.

وبهذا تمَّ تدبر الفصل الثالث عشر من قصة يوسف عليه السلام، وهو الفصل الأخير منها.

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دُرُوس سورة (يوسف) الآيات من (١٠٢ - ١١١) آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ (١٠٢) وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١٠٧) قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٠٨) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (١١٠) لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (١١١)﴾:

القراءات:

(١٠٨) ● فتح ياء المتكلّم من: [**سَبِيلِيَ أَدْعُو**] نافع، وأبو جعفر. وأسْكَنَها باقي القرّاءِ الْعَشَرَة.

(١٠٩) ● قرأ حَفْصٌ: [**نُوْحِي إِلَيْهِمْ**]. وَقرأها حمزةُ، ويعقوبُ: [**يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ**] وقرأها بَاقي القراء العشرة: [**يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ**] والمؤدَّىٰ وَاحد.

(١٠٩) ● قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وحمْزَة، والكِسَائِي، وخَلَف: [**أَفَلا يَعْقِلُونَ**]؟ وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَفَلا تَعْقِلُونَ**]؟.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ فِي الأداء البياني.

(١١٠) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبُو عَمْرو، وابْنُ عامر، ويَعْقُوب: **[قَدْ كُذِّبُوا]**.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَة: **[قَدْ كُذِبُوا]**.

(١١٠) ● قرأ ابْنُ عَامر، وعاصم، ويَعْقُوبُ: **[فَنُجّيَ]**.

وقرأهَا باقِي القُراءِ العشرة: **[فَنُنْجِي]**.

تَمْهيد:

في هَـٰذا الدَّرْس الثالِث من دُرُوس السُّورة، مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ مُنكِري أنّ الْقُرْآن تَنْزِيلٌ مِنْ عِنْدَ اللهِ، بَدِليلِ الْقِصَّةِ المفَصَّلَةِ الرائِعَةِ بِشأْنِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ دَقَائِقَ تَفْصِيلِيَّة لَمْ يَكُنْ لِلرَّسُولِ محمّد ﷺ عِلْمٌ بها، ولَمْ يَقْرَأهَا فِي كِتَابٍ إذْ هو أُمّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، ولا قَرَأهَا أَحَدٌ عليه، وفيها تَفَاصِيلُ دقِيقَةٌ تُصَحِّحُ مَا لَدَىٰ أَهْلِ الكِتَابِ بِشَأْنِهَا، ولا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِها مَا لَمْ يَأْتِ وحْيٌ مِنَ اللهِ الْعَلِيم مُبيِّناً لَها.

وهذه المعالجة مَوصُولَةٌ بِمَا جَاءَ في الدَّرْسِ الأوّل من دُرُوسِ السُّورَةِ بِشأْنِ القرآن.

وفيه مُتَابَعَةُ مُعالَجَةٍ للرَّسُولِ ﷺ فَلِحَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَبْنِيَّةٍ عَلَىٰ مَا جَاءَ مِنْ مُعَالَجَاتٍ في السُّوَرِ قَبْلَ سُورَةِ يوسُف، وقَدْ أُدْمِجَ فِيها مُعالَجَةُ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَبَيَانٌ لواقِعِ حَالهِم، وإنْذَارٌ لَهُمْ بعاقِبَةٍ وَخِيمَةٍ كَعَاقِبَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا وعَانَدُوا وأَجْرَمُوا مِنْ قَبْلهم.

وفيه طَمْأَنَةٌ لِلرَّسُولِ ولِلْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ الله، عِنْدَ آخِرِ نُقْطَةِ صَبْرٍ يَصْبِرُونَها عَلَىٰ مكايدِ الكَفَرَةِ المجْرِمِين، ضِدَّ دَعْوَةِ الْحَقّ الرَّبَّانِيَّة، وضِدَّ حَمَلَتِها الدُّعَاةِ إلى اللهِ وإلى صِرَاطِهِ المستقيم، فالأمْثِلَةُ التاريخيَّةِ في هَـٰذا

كثِيرَة، وهِيَ كاشِفَاتٌ لِسُنَّةِ اللهِ في إمْهَالِ عِبادِه، حتَّىٰ يَقْطَعَ أَعْذَارَهُمْ، وَيُعْطِيَهُمْ غَايَةَ الزَّمَنِ الْمُوسَّعِ لابْتِلَائِهِم.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تَعَالَىٰ يتحَدَّثُ بضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾:

أي: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وفَصَّلْنَاهُ بِشَأْنِ قِصَّةِ يُوسُف بْنِ يَعْقُوبَ بنِ إسْحَاقَ بْنِ إبراهيم، مَعَ كَثِيرٍ مِنْ دَقَائِقِ الأحْدَاثِ المتعلِّقَةِ بِيُوسُف، هو بَعْضُ أنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إلَيْكَ تِباعاً فِيمَا نُنْزِلُ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ مِنْ نُجُومِ التَّنْزِيلِ، لِنَشْهَدَ لَكَ بِهِ أَنَّكَ رَسُولٌ حَقًّا، تُبَلِّغُ عِنْ رَبِّك مَا يُوحِي بِهِ إِلَيْكَ، ويأْمُرُكَ بِتَبْلِيغِهِ للنَّاسِ، ولِيَسْتَفِيدَ مَنْ شَاءَ مِنْ أَهْلِ الْفِكْرِ ممَّا نُوحِيه إلَيْكَ مِنْ عُلُومٍ وَعِبَر، والمسْتَفيدونَ هُمْ أُولُو الأَلْبَاب.

أَنْبَاء: جمع «نَبَأ» والنَّبأُ هو الخبَرُ الْبَارِزُ ذُو المضْمُونِ النافع المفيد.

الْغَيْبُ: كُلُّ مَا غَابَ مِنْ أَحْدَاثٍ وأَشْيَاءَ وحَقَائِقَ عَمَّنْ غَابَ عَنْه، وهُو ذُو دَوَائِرَ مُخْتَلِفَةٍ، فَمَا هُوَ غَائِبٌ عَنْ بَعْضِ الْخَلَائِقَ قَدْ يَكُونُ مَشْهُوداً أو مَعْلُوماً عِنْدَ بَعْضِهِمُ الآخِر، فَبَعْضُ مَا هُوَ مَشْهُودٌ أو مَعْلُومٌ لِلْمَلائِكَةِ أو لِلْجِنِّ هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إلى الإِنْس. وعِلْمُ كُلِّ الْغَيْبِ مِمَّا اخْتَصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِهِ، لَا يُشارِكُهُ فِيه أَحَدٌ، ولَيْسَ كُلُّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ غَيْبٌ هو ممَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله عَزَّ وجَلَّ.

﴿نُوحِيهِ﴾ **الوحْيُ**: في المفْهُوم الدِّينيّ الخاص، هو إعْلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ رسُولاً مِنْ رُسُلِهِ، أَوْ نَبيًّا مِنْ أنبيائه، مَا يَشاءُ مِنْ كلامٍ أَوْ مَعْنًى، بوسيلَةٍ أو طَرِيقَة تفيد العِلْمَ اليقينيَّ الْقَاطِعَ بما أَعْلَمَهُ اللهُ به.

- ﴿... وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: وَمَا جَاءَكَ عَنِ الماكِرين في قِصَّةِ يُوسُفَ خَبَرٌ مَوْثُوقٌ بِهِ تعْتَمِدُ عَلَيْه قَبْلَ وَحْينَا إِلَيْكَ يَا مُحمَّد، ومَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ حَاضراً شَاهِداً، حِينَ اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنْ يَقُوموا بِتَنْفِيذِ مَا مَكَرُوه مُجْتَمِعينَ غَيْرَ مُتفَرِّقين.

الْمَكْر: تَدْبيرُ أَمْرٍ في خَفَاء، بخَيْرٍ أو بِشَرّ.

﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾: أي: حِينَ اتَّفَقُوا على مَا مَكَرُوه بِيُوسُفَ، وحِينَ نَفَّذُوهُ مُجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتفَرِّقِين.

والّذِينَ مَكَرُوا بِيُوسُف فِي قِصَّتِهِ، ونَفَّذُوا مَكْرَهُمْ مجْتَمِعِينَ، هم:

(١) إِخْوَتُهُ مِنْ أَبِيهِ إِذْ طَرَحُوهُ في الجب.

(٢) عَزِيزُ مِصْرَ وأَصْحَابُ مَشُورَتِهِ، وامْرَأَتُهُ وصَوَاحِبُها، إِذْ لَفَّقُوا لَهُ تُهْمَة إرادَةِ السُّوءِ بامْرَأَةِ العزيزِ، وعَمِلُوا على سَجْنِهِ، لِإيقَافِ انْتِشَارِ أَنَّ امْرأَةَ الْعَزيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ.

أي: وأَنْبَاءُ الْغَيْب هَـٰذِهِ الَّتِي نُوحِيهَا إِلَيْكَ، شَاهِدٌ عَلَىٰ أَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، وَشَاهِدٌ على أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً.

وفي هَـٰذا حُجَّةٌ عَلَىٰ المكَذّبين، وَدَلِيلٌ هَادٍ لِلّذِينَ لَديهم اسْتِعْدَادٌ لقَبُولِ الحقِّ والاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، حِرْصاً عَلَىٰ نَجاتهم والظَّفر بالسَّعادَة فِي جَنَّاتِ النعيم.

قول اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ فلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

- ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: وبمناسَبَةِ مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْب بِشَأْنِ قِصَّةِ يوسف، ومَا فِيهَا من حُجَّةٍ بُرْهَانيَّةٍ تَدُلُّ على أَنَّ القرآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبّك، وأَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رسُولُ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً، نُعْلِمُكَ بِحَقِيقَةٍ مِنْ حَقَائِقِ المجْتَمَعِ

الْبَشَرِيّ، مُسْتَنِدَةٍ إِلَىٰ عِلْمِنَا بالنَّاسِ وبِحَرَكاتِ نُفُوسِهِم الإرَادِيَّة، وهي: مَا أَكْثَرُ النَّاسِ بِمُؤْمِنِينَ إيماناً صَحيحاً كامِلاً، ولَوَ حَرَصْتَ على إيمانِهِمْ، واسْتَخْدَمْتَ كُلَّ وَسِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ لإقْنَاعِهِمْ بالْحَقِّ الرَّبَّانِي الذي يَجِبُ عَليهم أَنْ يُؤْمِنُوا به لِيَسْعَدُوا، فَإِنْ لَمْ يُؤمِنُوا كَانُوا في الشَّقَاءِ خَالِدِينَ يَوْم الدِّين، أَمَّا الإيمانُ الّذِي لا يَسْتوفي عَنَاصِرَهُ الواجبة فهو غير مقبول عند الله.

فَقُمْ بوَظائِفِكَ الدَّعوِيَّةِ التَّبْلِيغيَّة، ولا تَحْمِلْ هَمَّ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكَ؛ لِأَنَّ لِكُلّ مَوْضُوع في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان إرَادَةً حُرَّةً لَا يَجْعَلُهَا مَجْبُورَةً إلَّا خَالِقُها، وخالِقُهَا قد مَنَحها الإرادَةَ الحرَّة لِيَبْلُوهَا فَهُوَ لا يُجْبِرُهَا، إِذْ إجْبارُهَا يَقْتَضِي سَلْبَها إرادَتها الحرَّة، وهذا السَّلْبُ يَقْتَضِي رَفْعَهَا مِنْ دَائِرَةِ الامْتِحانِ، فَيَعُودُ عَلَىٰ أَصْلِ الغايَةِ من خَلْقِهَا لابْتِلَائِها بالنَّقْض، ومَعْلُومٌ أَنَّ إرادَاتِ اللهِ لَا تَتَنَاقَضُ فِيما بَيْنَها.

وَقَدْ أَبَانَ اللهُ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ، لِعِلْمِهِ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ، لَكِنَّ الْأَقَلَّ مِنْهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، فالْحِرْصُ عَلَىٰ إيمانِهِمْ جَمِيعاً لَا جَدْوَىٰ مِنْه، والْعَمَلُ فِيهِ عَمَلٌ ضَائِعٌ غَيْرَ رَشِيد.

يُقَالُ لغةً: «حَرِصَ عَلَىٰ الشَّيْءِ، يَحْرِصُ، حِرْصاً» أي: اشْتَدَتْ رَغْبَتُهُ فِيهِ. «وَحَرِصَ عَلَىٰ إنْسَانٍ مَا» أي: أَشْفَقَ عَلَيْهِ، وجَدَّ في نَفْعِهِ وَهِدَايَتِهِ.

والباء في ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ مَزِيدَة لِلتَّوْكِيد.

فَعَلَىٰ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَعْرِفُوا مَنْهَجَهُمُ السَّوِيَّ فِي دَعْوَتِهِم، وفي المجاهَدَةِ لِلْقِيَامِ بِوَظَائِفِهِمُ الدَّعَوِيَّة.

قول اللهِ تَعالَىٰ يَشْهَدُ لِرَسُولِهِ بِأَنَّهُ مَا سَأَلَ وَلَا يَسْأَلُ الَّذِينَ يَدْعُوهم إِلَىٰ دِينِ رَبِّهِ أجراً مَا، مَادِّيًا أَوْ مَعْنَوِيًا، ومُبَيّناً أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ جميعاً، وَلَيْسَ لِلْعَرَبِ فقط:

- ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ١٠٤﴾:

أي: فَمَا هُوَ المنفِّرُ لَكُمْ مِنَ الْقُرْآن أَيُّهَا المدْعُوُّونَ المكَذِّبُونَ به، وَرَسُولُنا لَمْ يَسْأَلْكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ تَعْلِيمِكُمْ كِتَابَ رَبِّكُمْ، وَمُجَاهَدَتِكُمْ بِهِ لِهِدَايَتِكُمْ بُغْيَةَ نجاتكُمْ وَفَوْزِكُمْ بالسَّعَادَةِ العظمىٰ يَوْمَ الدِّين أَجْراً ما؟؟ إنَّهُ يُجَاهِدُكُمْ مِنْ أَجْلِكُمْ، لا لِمَصْلَحَةٍ يَبْتَغِيهَا عِنْدَكُمْ.

واعْلَمُوا أَنَّ الْقُرْآن لَيْسَ هُوَ ذِكْراً لَكُمْ وَحْدَكُمْ، بَلْ هُو ذِكْرٌ لِلْعَالِمِينَ كُلِّ الْعَالَمِينَ الموضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: مَا هُوَ إِلَّا بَلَاغٌ للعالمينَ مِنْ رَبّهم، فيهِ هدايَتُهُمْ لنَجاتِهِمْ وفوْزِهم، ويُطْلَبُ مِنْهُمْ أَنْ يَتبلَّغوهُ، وَيَتَدَبَّرُوا مَعَانِيَهُ، ويَحْفَظُوهُ فِي ذَاكِرَاتِهِمْ، وَيَذْكُرُوا مِنْهُ عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يُلَائِمُهَا مِنْ حَقَائِقِهِ وعُلُومِهِ، وَمِنْ أحكامِهِ وشرائِعه، ومِنْ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْهُمْ فِي أوامِرِهِ ونواهيه، وما يُلائِمُهَا مِنْ زَوَاجِره ونُذُرِهِ.

وبهذا يَكُونُ ذِكْراً لَهُمْ، يَهْدِيهِمْ إلَىٰ ما فِيهِ خَيْرُهُمْ، ويُحَذِّرُهُمْ مِمَّا فِيهِ شَرُّهُمْ.

أُطْلِقَ الذِّكْرُ، وهُوَ حَلْقَةٌ من حَلقَاتِ سِلْسلَةٍ تَسْبِقُهَا حَلْقَةُ التَّبَلُّغِ، فَحلْقَةُ التَّدبُّرِ، فَحَلْقَةُ الْحِفْظِ، وبَعْدَ الذّكرِ يَأْتِي التطبيقُ النَّظَرِيُّ أو الْعَمَلِيّ، واسْتِجْمَاعُ هَـٰذِهِ الْحَلْقَات هُوَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ تَدَبُّرَ لَفْظَةِ «الذِّكْر». وبهذا نَفْهَمُ أَبْعَادَ تَسْمِيَةِ اللهِ لِلْقُرْآنِ بأنَّهُ ذِكْرٌ، وَوَصْفِهِ بأنَّهُ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين.

وَلَيْسَ المرادُ مُجَرَّدَ الذِّكْرِ باللِّسَانِ. ولفظ «الْعَالَمِين» يَشْمَلُ الْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ في الحياة الدُّنيا من الإنْسِ والجنّ.

قول اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحدَّثُ عَنِ المعنيّين بالمعالَجَةِ إبَّانَ التَّنْزِيلِ، ويُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَشْبَاهُهُمْ في كلّ عصر:

- ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

﴿وَكَأَيِّن﴾: أي: وَكَمْ، عَلَىٰ مَعْنَىٰ التكْثير، فالمعنى: وَكَثِيرٌ. قال النحويّون: «كَأَيِّنْ = كَأَيٍّ» بإثبات نُونٍ أو تنوين، اسْمٌ مَرَكَّبٌ مِنْ كاف التشبيه، ولفظ «أيٍّ» المنوَّن، وهي بمعنَىٰ «كَمْ» وتوافِقُها في خَمْسَةِ أُمُور: ١ ـ الإبهام ٢ ـ الافتقار إلى التمييز ٣ ـ البناء ٤ ـ لُزُوم التَّصْدير في الكلام ٥ ـ إفَادَة التكثير، وهو الغالِبُ فِيها.

وخبر «كأين» يكون جملة.

﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾: تمْييز لكَلَمِةِ «كَأَيِّنْ» مَجْرُورٌ بحرف «مِنْ» والْمُرَادُ بالآيَةِ مَا بَثَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ عَلامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ وُجُودِهِ، وَعَظِيم صِفَاتِهِ، ومَظاهِرِ جزائه لعباده في الكون.

فالمعنى: وآياتٌ كثيراتٌ مُنْبَثَّاتٌ في السَّمَاواتِ والْأَرْضِ مِنْ الآيَاتِ الدَّالَّاتِ على وجُود اللهِ، وعَلَىٰ عظيم صفاته، وعَلَىٰ قَانُون جزائِهِ لِعبَادِه، يَمُرُّ عَلَيْها المعْنِيُّونَ بالمعالَجَةِ، والْحَالُ أَنَّهُم عَنْهَا مُعْرِضُونَ.

الإعْرَاض: إعْطَاءُ الْعَارِض، وهو وَسَطٌ بَيْنَ الإقْبَالِ بالْوَجْهِ والإدْبَارِ، ويَدُلُّ على عَدَم الإكتراث، وعَدَم المبالَاتِ.

والسَّبَبُ في هَـٰذا انْصِرَافُهُمْ إلى شهواتِهِمْ وأهوائِهِم ومَطَالِبِ أجْسَادِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ مِن مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، وحُبُّهُمْ لِلْعَاجِلَةِ، وَتَرْكُهُمْ للآخِرَةِ اسْتِبْعَاداً لها.

ولَوْ عَقَلُوا لَدَلَّتْهُمْ آيَاتُ اللهِ في كَوْنِهِ عَلَىٰ خالِقِ الكَوْنِ ومُتْقِنِهِ، وعَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَة، وعَلَىٰ الحقّ الَّذِي جَاءَ فِي كِتَابِهِ، وبَلَّغَهُ رَسُولُهُ، ولكانُوا مُؤْمِنِينَ وَمُسْلِمِينَ حَقّاً.

وآيَاتُ اللهِ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ لَا يَسْتَطِيعُ إحْصَاءَهَا إلَّا اللهُ خالِقُ الكَوْن، ففي كُلِّ شَيْءٍ ممَّا خَلَقَ صَغِيراً أم كبيراً آيَاتٌ كثيرات.

وآيات اللهِ الجزائيَّة ظَاهِرَةٌ فِي آثَارِ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ، الَّتِي أَهْلَكَهَا اللهُ إِهْلَاكاً جَمَاعِيًّا بِسَبَبِ كُفْرِهَا وَجَرَائِمِهَا.

قول اللهِ تعالَىٰ بِشَأْنِ هَـٰؤُلَاءِ المعنِّيين بالْمُعَالَجَةِ أَيْضاً:

- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾:

أي: وَحِينَ تَرَىٰ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ عِبَارَاتٍ إِيمانِيَّةً، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي الدُّعاء: اللَّهُمَّ مَنْ كَانَ أَقْطَعَنَا لِلرَّحِمِ، وأَكْثَرَنَا تَفْرِيقاً لِقَوْمِنَا، فَاجْعَلْهُ الْقَتِيلَ الْمَغْلُوبَ عِنْدَ النِّزَال في الْحَرْب، فَإِنَّ إِيمَانَهُ باللهِ مَمْزُوجٌ بِشِرْكٍ وثَنِيٍّ شَنِيع، إِذْ هُوَ مُنْغَمِسٌ بأَوْحَالِ تَقَالِيدِه الاعْتِقَادِيَّةِ الشِّرْكِيَّةِ، لَا يَنْفَكُّ عَنْ إيمانِهِ بِالْأَوْثَانِ، وَلَا يَنْفَكُّ عَنْ مُحَارَبَتِهِ لِقَضِيَّةِ وَحْدَةِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ، ولِقَضِيَّة وَحْدَةِ اللهِ في إلَهِيَّتِهِ، ولا يَنْفَكُّ عَنْ تَكْذِيبِهِ بِكِتَابِ اللهِ المنزَّلِ، وتَكْذِيبِهِ لِنَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ.

المعنَىٰ: فَلَا تَطْمَعْ باسْتجابَةِ هَـٰؤُلَاءِ المعانِدِينَ المكابِرِينَ الجاحِدِين لِدَعْوَتِكَ، إِذَا سَمِعْتَ مِنْهُمْ أَقْوَالاً تُشْعِرُ بأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ باللهِ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُون باللهِ إِيمَاناً صَحِيحاً، بلْ إِيمانُهُمْ مَشُوبٌ بِشِرْكٍ لَا يَنْفَكُّونَ عَنْه، وهم مُصِرُّونَ على التمسُّكِ بِه.

قول اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ هَـٰؤُلَاءِ المعنِّيِّنَ بالمعالجة أَيْضاً يُلَوِّح بإِنْذارِهِم وسيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ بالْوَعِيد لَهُمْ ولغيرهم الذين يُؤَثِّر فيهم الوعيد:

- ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾:

- ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾؟ أي: أَفَحَاصِلٌ لَدَيْهِم أَمْنٌ فَهُمْ لَا يَخافُونَ، والاستفهامُ إِنْكَارِيٌّ وَتَعْجِيبِيٌّ مِنْ طُمَأْنِينَتِهِمْ وَعَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنْ مُفَاجَاءَاتِ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ، فِي عَاجِلِ أَمْرِهِمْ أَوْ آجِلِهِ.

يُقَالُ لغة: «أمِنَ، يَأْمَنُ، أَمْناً، وَأَمَاناً، وَأَمْناً، وأَمَنَةً»: أي: اطْمَأَنَّ وَلَمْ يَخَفْ.

- ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾: **الغاشية**: النّازِلَةُ الَّتي تُغَطّي وتُجَلِّلُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شرّ.

المعنى: أفَحصَلَ لَدَيْهِمْ أَمْنٌ مِنْ أَنْ تَأْتِيهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ نَازِلَةٌ مُجَلِّلَةٌ، تَغْشَاهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، فَتَعُمُّهُمْ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ فِرَاراً مِنْهَا، وَلَا نَجَاةً مِنْ مُؤْلِمَاتِهَا وَمُهْلِكاتها، أَوْ تَأْتِيَهُمْ السَّاعةُ فَجْأَةً وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمُقَدِّمَاتٍ لَهَا.

بَغْتَةً: أيْ: فَجْأَةً، أُطْلِقَ الْمَصْدَرُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ اسم «الفاعل» أي: أو أنْ تَأتِيَهُمُ السَّاعَةُ مُفَاجِئَةً.

الشُّعُور: هو أَدْنَىٰ الإدْراك الْعِلْمِي لشَيْءٍ ما.

والمرادُ بالسَّاعَةِ الزَّمَنُ الَّذي يُنْهِي اللهُ بِهِ نِظَام الحياةِ الدُّنيا، ولكُلِّ إنْسَانٍ سَاعَتُهُ الَّتي تَنْتَهِي عَنْدَها حَيَاتُهُ الدُّنيا.

وبَعْدَ السَّاعَةِ يكونُ عِنْدَ اللهِ حِسَابُ كُلِّ إنْسَانٍ موضوعٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامتحان، وفَصْلُ القضَاء بشأنِه، ثُمَّ تَنْفِيذُ جزائِهِ بحَسَب ما قضىٰ اللهُ بِشَأْنِهِ.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ خطاباً لِرَسُوله فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ مُعَلِّماً الْعُنْوانَ الْعَامَّ لِلدَّعْوَةِ الإسْلَامِيَّة:

- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: قُلْ لِمَنْ تَدْعُوهُمْ للاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِكَ: هَـٰذِهِ سَبِيلي الَّتي أَسْلُكُهَا فِي دَعْوَتي، أُلَخِّصُهَا لَكُمْ بِثَلَاثِ عِبَارَاتٍ، وهي:

العبارة الأولى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾: أي: نَحْنُ حَمَلَةُ رِسَالَةِ دَعْوَةٍ إِلَىٰ اللهِ، فَلَسْنَا مُجْبِرِينَ وَلَا مُكْرِهِينَ، إِنَّمَا نَحْنُ دُعَاةٌ فَقَطْ، فَلَا نُكْرِهُ كافراً عَلَىٰ الإيمان، ولَا نَقْتُلُ كافِراً مِنْ أَجْلِ كُفْره، إِذْ قَدَّرَ اللهُ لَهُ عُمْراً يَمْتَحِنُهُ فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا ضِمْنَ حُدُودِهِ، فَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَنْقُصَ مِنْ عُمُرِهِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ وقضاه، ما لم يَعْمَلْ عَمَلاً يَمْنَعُ بِهِ مَسِيرَةَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، أَوْ يَعْتَدِي بِهِ عُدْواناً يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْقَتْل.

ونحن نَبْنِي دَعْوَتَنا عَلَىٰ بَصِيرَة، أيْ: عَلَىٰ عِلْمٍ صَحِيحٍ، وَحُجَجٍ بُرْهَانِيَّة قَاطِعَةٍ.

الْبَصِيرَة: الْعِلْمُ الصَّحِيحُ، والحجَّةُ الْكَافِيَةُ للإقْنَاعِ، وللإجابَةِ عَلَىٰ كُلِّ أَسْئَلَةِ الشَّكّ، وَحَلِّ المشْكِلات.

وتَدُلُّ عِبَارَةُ ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ على إلْزام المسْلِمينَ أتْبَاع مُحَمَّدٍ ﷺ بالْقِيَامِ بالدَّعْوَةِ إلى اللهِ على بَصِيرَة، فَلَا يَجُوزُ لَهُمْ نُصْرَةُ الحقِّ الرَّبَانِيِّ بِالْبَاطِلِ والأكاذيب والضَّلَالاتِ والتمويهاتِ المزِّيفَاتِ السَّاتِرَاتِ للمفتَرَيَاتِ، فَمَنْ لَمْ يَلْتَزِم بهذا فَهُوَ لَيْسَ من أتْبَاع محمّد.

العبارة الثانية: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: أي: وَأُنَزِّهُ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي اللهَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالَاتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

ومِنْ تَنْزِيهِهِ عَدَمُ مُشَابَهَتِهِ لِلْحَوادِثِ، وَعَدَمُ نِسْبَةِ الزَّوجَةِ أو الوَلَد له، فَهُو أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ، ولم يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحدٌ، ومِنْ تَنْزِيهِهِ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ.

العبارة الثالثة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: أي: وَمَا أَنَا وَلَا كُلُّ مَنِ اتَّبَعَنِي اتِّبَاعاً صَحِيحاً مَقْبُولاً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ المشْرِكين.

فَنَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِرُبُوبِيَّةِ الله أحَداً وَلَا شَيْئاً، ونعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَجْرِي فِي الكَوْنِ، إِنَّمَا يَجْرِي بَخَلْقِ اللهِ تَنْفِيذاً لِقَدَرِهِ وقَضَائِهِ، أو تَنفِيذاً لِمَا

أَذِنَ بِهِ لِعِبادِهِ المخَيَّرِينَ المُمْتَحَنِينَ أَنْ يَخْتَارُوهُ بإرادَاتِهِمُ الْحُرَّة، لِيَبْلُوهُمْ فِيما آتاهم.

ونَحْنُ لَا نُشْرِك بإلَهِيَّتِهِ أحَداً وَلَا شيئاً، فلا نَعْبُدُ إلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا نُشْرِكُ بعِبادَتِهِ شَيْئاً مِنْ مَطَالِب الحياة الدُّنيا، بَلْ نَجْعَلُ عباداتِنا خَالِصَةً للهِ وَحْدَه.

قول الله تَعالَىٰ رَدّاً على الَّذِينَ مَا زَالُوا إبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (يوسف) يَعْتَرِضُونَ عَلَىٰ كَوْنِ الرَّسُولِ مُحَمّدٍ ﷺ إنْسَاناً بَشَراً مِنَ الْبَشَرِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مَلَكاً، وبهذا التَّعَلُّلِ الباطِلِ يُكَذِّبُونَ بِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالته، ولا يُصَدِّقُونَهُ فيما يُبَلِّغ عَنْ رَبه، ويُوجِّهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ الخِطَابَ لِرَسُولِهِ مَعْرِضاً عَنِ المكَذِبين، لِيَسْمَعُوا دُونَ مُوَاجَهَتِهِمْ بالْخِطاب:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾؟ وفي القراءة الأخرى: **[أفلا يعقِلونَ]**؟.

أي: إنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بإبْراهِيمَ وإسْمَاعِيل نَبِيَّيْنِ رَسُولين، ويُؤْمِنُونَ بموسَىٰ وَهارُونَ كذلِكَ ويُؤْمِنُونَ بِعِيسىٰ، وَهَـٰؤُلَاء بَشَرٌ مِنَ الْبَشَر، فَكَيْفَ يَجْحَدُونَ نُبُوَّةَ ورِسَالَةَ مُحَمّدٍ بِعِلَّةِ بَشَرِيَّتِهِ، هَـٰذا تَنَاقُضٌ مِنْهُمْ، يَجْعَلُ اعْتِرَاضَهُمْ عَلَىٰ بَشَرِيَّتِكَ يا مُحَمَّدُ اعْتِراضاً سَاقِطاً حَتَّى مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِهِمْ.

وَفَوْقَ هَـٰذا نَقُولُ لَكَ يا مُحَمَّدُ: مَا أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مُنْذُ أَوَّلِ نَشْأَةِ النَّاسِ في الأرْضِ حَتَّىٰ بِعْثَتِكَ الْخَاتِمَةِ، إلَّا رِجالاً، وطَرِيقَتُنَا فِي إرْسَالِهِمْ أَنَّنَا نُوحِي إلَيْهِم، وهؤلاءِ الرِّجَالُ الَّذِينَ نَصْطَفِيهِمْ وَنُوحِي إلَيْهِمْ، هُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ الَّتِي نُرْسِلُهُمْ فِيها، وأَهْلُ الْقُرَىٰ يعرِفُونَ آبَاءَهُمْ وأمَّهاتِهِمْ، وَأَزْمَانَ وِلَادَاتِهِمْ، وَنَشَأَتَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَلا لَبْسَ في أمْرِهِمْ.

وَمِنْ حَقِّ ذَوِي الْعَجَبِ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَعْجَبُوا مِنْ عِنَادِهِم وإصْرارِهِم

علَىٰ تَكْذِيبِكَ، وَكُفْرِهِمْ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ، دُونَ أَنْ يَخَافُوا أَنْ نُنْزِلَ بِهِمْ عِقَاباً عَامًّا سَاحِقاً مَاحِقاً، مع أَنَّهُمْ سَارُوا فِي الأَرْضِ، وشَاهَدُوا بأَعْيُنِهِمْ أَثَارَ الْمُهْلَكِينَ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وأدْرَكُوا بعُقُولهم عَاقِبَةَ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مُعَانِدِينَ، ومُقَاوِمِينَ لِدَعَواتِهِمْ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ . . .﴾: اسْتِفْهَامٌ إنْكارِيٌّ لَهُمْ، وتَعْجِيبٌ مِنْ أَمْرِهِمْ: والمعنى لَقَدْ سَاروا في الْأَرْض، وَنَظَرُوا بأَعْيُنهِمْ آثَارَ المهْلَكِين السابِقين، وَنَظَرُوا بأفْكَارِهِمْ عَاقِبَةَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أفلَيْسَتْ حَالَتُهُمْ هَـٰذِهِ تَدْمَغُهُمْ بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُون.

وبِمَا أَنَّ إهْلَاكَ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ أمْرٌ مُحقَّقٌ مَشْهُودُ الآثَارِ، فَهُوَ دَلِيلٌ بُرْهَانِيٌّ واضِحٌ عَلَىٰ صِدْقِ الْوَعِيدِ الّذي سَوْفَ يَكُونُ في الدار الآخِرَة يَوْمَ الدّين.

والْتَفتَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لِلْمُكَذِّبينَ قَائِلاً لهم:

﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ﴾: أي: مِنْ كُلِّ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا الّتي تَصْرِفُكُمْ عَنْ أَنْ تَتَّقُوا عَذَابَ اللهِ وَنِقْمَتَهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ عَقْلاً عِلْمِيًّا، وَعَقْلاً إرَادِياً، فَتَحْجُزُوا أَنْفُسَكُمْ عن الكُفْرِ وَمَعْصِيَةِ الله.

وَخَاطَبَ الرَّسُولَ في الْقِرَاءَة الْأُخْرَىٰ بقَوْلِهِ تَعَالَىٰ لَهُ: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ وفي هذه القراءة خطابٌ لَهم تَعْرِيضاً لَا بأسْلُوب المواجَهة.

وَيَتَسَاءَلُ المتسائِلُ هُنَا: هَلْ كَانَ عِقَابُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِمُجْرِمِي الْقُرُونَ الْأُولَى، عقِبَ ظُهورِ كُفْرِهِمْ، أَمْ كَانَ بَعْدَ إمْهَالٍ طَوِيلٍ وَصَلَ بِهِ المؤمِنُونَ إلى قَرِيبٍ مِنْ حَدِّ الْيَأْسِ مِنْ نَصْرِ اللهِ لَهُمْ؟؟.

ويأتي الجوابُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ هذا، فقال اللهُ تَعالَىٰ:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾: أي: حَتَّىٰ إِذَا صَارَ الرُّسُلُ واجِمِينَ حَيارَىٰ، كَالْيَائِسينَ مِنْ تَحْقِيقِ مَا أَنْذَرُوا مُجْرِمِي أَقْوَامِهِمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَمَا طَمْأَنُوا بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ مِنْ تَأْيِيدِ اللهِ وَنَصْرِهِ. ولم يَصِيرُوا يَائِسِينَ حَقِيقَةً.

صِيغَةُ «اسْتَفْعَلَ» تَأْتِي للدَّلَالَةِ على مَعَانٍ مُتَعَدِّدَة، مِنْهَا صَيْرُورَةُ الشيء مُشَابهاً بِبَعْضِ صفاتِهِ للشَّيْءِ الآخَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ أَصْلُ الفِعْل، مِثْلُ: «اسْتَحْجَرَ الطِّينُ» أي: صَارَ في قَسَاوَتِهِ كالْحَجَرِ ولم يَصِرْ حَجراً. وَ«اسْتَنْوَقَ الْجَمَل» أي: صَارَ في بعض صِفَاتِهِ كالنَّاقَةِ، ولم يَصِرْ ناقَةً في الحَقِيقَةِ. و«اسْتَنْسَرَ الْبُغَاثُ» أي: صَارَ الْبُغَاثُ كالنَّسْرِ في الاستِعْلاء، ولم يَصِرْ نَسْراً في الحقِيقةِ.

الْبُغَاثُ: طَائِرٌ أَصْغَرُ مِنَ الرَّخَمِ، بَطِيءُ الطَّيرانِ.

لَجأْتُ إِلَىٰ هَـٰذا الْمَعْنَى لأَنَّ الرُّسُلَ لَا يَيْأَسُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَلَا مِنْ تَحْقِيقِ وَعْدِهِ وَوَعِيده، ولكِنْ قَدْ يَصِلُونَ أَمَامَ ضَغْطِ أَتْبَاعِهِم المؤمنينَ بهم إِلىٰ حَالَةٍ مِنَ الْوُجُوم والحَيْرَةِ تُشْبِهُ حَالَةَ الْيَائِسِ، وَلَيْسُوا بِيائِسين، لكِنَّ طَاقَاتِ الصَّبْرِ عِنْدَهُمْ قَارَبَتِ الانْتِهاءَ وَلَمْ تَنْتَهِ بَعْدُ.

- ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ وَفِي الْقِراءةِ الْأُخْرَىٰ **[كُذِّبُوا]**.

- أَمَّا قِراءَةُ **[كُذِّبوا]** فظَاهِرَةٌ، أي: وَظَنُّوا أَنَّ بَعْضَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبعوهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ الشُّعُورِ بأَنَّ رُسُلَهُمْ قَدْ كَذَبُوا عَلَيْهِمْ، إِذْ وَعَدُوهُمْ بِنَصْرِ الله، وبإِنْزَالِ عِقَابِهِ بِالمجْرِمين، إِذْ تَقَاطَرَتْ آخِرُ قَطَرَاتِ صَبْرِهِمْ مِنْ نُفُوسِهِمْ، وهذا ظَنٌّ مِنَ الرُّسُلِ لم يَصِلْ إِلىٰ الْعِلْم.

- وأَمَّا قِرَاءَة: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ بتخفيف الذَّال، فَضَمِيرُ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ لا يَصِحُّ أَنْ يَعُودَ عَلَىٰ الرُّسُل؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ لا يَقَعُ فِي ظَنِّهِمْ أَنَّ

الْوَحْيَ كَذَبَهُمْ فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ وَعْدٍ وَوَعِيد. لَكِنْ قَدْ يَقَعُ في نُفُوسِ بَعْضِ أَتْبَاعِهِمِ مِنْ ضُعَفَاءِ الإيمانِ، شَكٌّ في أَنَّ مَا وَصَلَ إِلَىٰ الرُّسُل مِن بَيَانَاتِ الْوَعْدِ والْوَعِيد قَدْ يَكُونُ كَاذِباً غَيْرَ مُطَابِقٍ للواقع، ومِنْهُ احْتِمَالُ الْخطأ فِي التَّلَقِّي لأخبار الْوَعْدِ والْوَعِيد، ومِثْلُ هَـٰذِهِ الظُّنُونِ قَدْ تَقَعُ فِي نُفُوسِ ضُعَفَاءِ الإيمان إذا نَفَدَ صَبْرُهم.

وبناءً عَلَىٰ هَـٰذا الْفَهْمِ فَلَا إِشْكَالَ فِي هَـٰذِهِ القراءة.

- ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾: أي: جَاءَ الرُّسُل والَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم نَصْرُنَا بإهْلَاكِ الْمُجْرِمِينَ، وتَنْجِيَةِ المؤمِنِينَ، وكانَ ذَلِكَ بإرْسَالِ وسائِلِ التَّعْذِيبِ والإهْلَاك.

- ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾: أي: فَنُجِّيَ مِنَ العذاب والْإِهْلَاكِ بأمْرٍ مَنَّا مِنْ نَشَاءُ تَنْجِيَتَهُ، وهُمُ المؤمِنُونَ الصَّادِقُونَ بإيمانِهِمْ.

ومن المعْلُوم أنْ مَشِيئَاتِ اللهِ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، فَهِي حَكِيمَاتٌ دَوَاماً.

وفي القراءة الْأُخرى: [**فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ**]: أي: فَنَحْنُ نُنْجِي مِنَ العَذاب والْهَلَاكِ مَنْ نَشَاء، فَدَلَّتْ هَـٰذِهِ القراءةُ على أَنَّ الْفِعْلَ الحقيقيَّ هُوَ مِنَ اللهِ عَزَّ وجلَّ، ولكِنَّ اللهَ يَتَّخِذُ لِتَنْفِيذ مَقَادِيره وَأَقْضِيَتِهِ أَسْبَاباً، وهُوَ الْفَعَّالُ مِنْ خِلَالِ قَنَوَاتِ الأسْباب.

- ﴿... وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾: أي: وَنُنْزِلُ بأسَنا بالْقَوْم الْمُجْرِمِينَ، فَنُعَذِّبُهُمْ وَنُهْلِكُهُمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أحَدٌ أنْ يَرُدَّ بَأْسَنَا عَنْهُمْ، أو أَنْ يَحْمِيَهُمْ بِوَسِيلَةٍ ما، فبَأْسُ اللهِ لا رَادَّ له إلَّا هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه.

البأس: العذابُ الشَّدِيد.

الْمُجْرِمُونَ: الكَفرَةُ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ الله.

وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وجلَّ السُّورَةَ بِبَيَانٍ عَنِ القرآنِ، مُلْحَقٍ بِالْبَيانِ الَّذِي جَاءَ في أَوَّلِ السُّورَةِ عَنْهُ.

قول الله تَعَالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾:

في هَٰذِهِ الآيَةِ الخِتَامِيَّةِ للسُّورَةِ سِتَّةُ بَيَانَاتٍ عَنِ القرآن:

البَيَانُ الْأَوَّلُ: أَنَّ في الْقَصَصِ الْقُرْآنِيّ عِبْرَةً لِأُولي الْأَلْبَابِ، دلَّ على هَٰذا الْبَيَان قولُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

أي: نُؤَكِّدُ بِعِبَارَة ﴿لَقَدْ﴾ أَنَّهُ يُوجدُ في الْقَصِّ الَّذِي قَصَصْنَاهُ وَنَقُصُّهُ فِي القرآن عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَاب.

القَصَصُ: بفتح القاف مَصْدَرُ «قَصَّ» بمعْنَىٰ: تَتَبُّع أجْزَاءَ الشَّيْءِ المقْصُوصِ، ومِنْهُ رِوَايَةُ الخبر.

الْعِبَرَةُ: الاتِّعَاظُ والاعْتبار بما مَضَىٰ الخاضِع لِسُنَنِ اللهِ في كَوْنِهِ، وأصْلُ العِبْرَة: الانْتِقَالُ عُبُوراً مِنْ حَادِثَةٍ جرَتْ، إِلَىٰ حَادِثَةٍ لم تَجْرِ، أَوْ مِنْ قَضِيَّةٍ إِلَىٰ قَضِيَّةٍ مُشَابِهَةٍ، بِقِيَاسِهَا عَلَيْها، والحكُم عَلَيْها بأَنَّها سَتَحْدُثُ مِثْلَ الماضِيَةِ، إِذَا تَمَاثَلَتِ الصِّفَاتُ والأسْباب. أو الحكْمُ عَلَيْها بِمِثْلِ حكم القضِيَّةِ المقِيسِ عَلَيْها، ومَرْجِعُ هَٰذا القياسِ ثَبَاتُ سُنَنِ اللهِ فِي كَوْنِهِ.

أولُو الأَلْبَاب: أي: أَهْلُ الْعُقُولِ الْحَصِيفَةِ النَّظِيفَة. **الأَلْبَابُ**: هي الْعُقُولُ الواعِيَةُ الدَّرَّاكَةُ، الَّتِي تَعْقِلُ المعارِفَ فَتُمْسِكُ بها، وتَعْقِلُ النفوسَ

عَنِ اتّباع الْهَوَىٰ، والشهوَاتِ المحرَّمَات الجالبات للشَّرِّ والضُّرّ.

الْبَيَانُ الثّاني: أَنَّ القرآن لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثاً قَابِلاً بِلَفْظِهِ وَلَا بِمَضْمُونِهِ لِأَنْ يُفْتَرَىٰ، أي: لِأَنْ يُوضَعَ وَضْعاً بَشَرِيًّا، وَيُدَّعَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا الْبَيان قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في الآية: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾: أي: لَيْسَ مِنْ شَأْنِ صِفَاتِهِ اللَّفْظِيَّةِ أَوِ المعْنَوِيَّةِ أَنْ يَكُونَ حَدِيثاً قابِلاً لِأَنْ يُفْتَرىٰ علَىٰ اللهِ.

يُقَالُ لغة: «افْتَرَىٰ الْحَدِيثَ افْتِرَاءً» أي: اختلَقَهُ كذِباً عَنْ عَمْدٍ. والاسم مِنْه «الْفِرْية» وجَمْعُها «الفِرَىٰ».

الْبَيانُ الثالث: أنَّ الْقُرْآنَ مُصدِّقٌ الَّذِي سَبَقَهُ مِنْ كُتب اللهِ، كالتوراة، والزَّبُور، والإنْجيلِ، وصُحُفِ إبراهيم، الَّتِي لَمْ يَدْخُلْ فيها تَحْرِيفٌ عَمَّا أُنْزِلَتْ علَىٰ رُسُلِ اللهِ السَّابقِين.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا البيان قول اللهِ تعالى في الآية: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: لَمْ يَكُنْ حَدِيثاً قَابِلاً لِأَنْ يُفْتَرَىٰ، وَلَكِنْ كَانَ حَدِيثاً مُصدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه مِنْ كُتُبِ الله. الاسْتِدْرَاكُ هُنَا فيه تأكِيدُ كَوْنِهِ حَدِيثاً غَيْرَ قَابِلٍ لِأَنْ يُفْتَرَىٰ، فهو مِنْ تأكِيدِ الشَّيْءِ بما يُوهم خِلَافه.

- ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: **تَصْدِيقُ الشَّيْءِ**: **والتَّصْدِيقُ بِهِ**: بَيَانُ أَنَّهُ حَقٌّ وصِدْقٌ.

الَّذي بَيْنَ يَدَيْه: أي: الَّذِي سَبَقَهُ مِنْ كُتُب اللهِ المنزَّلَةِ عَلَىٰ رُسُلِهِ.

البيان الرابع: أَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ تَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ قَضَايَا العقائد الإيمانِيَّة، وأُمَّهَاتِ قَضَايا السُّلُوكِ الإنْسَانِيِّ الّتِي هِيَ مَطْلُوب اللهِ مِنْ عباده، في رِحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدنيا.

دَلَّ على هذا البيان قول الله عزَّ وجلَّ في الآية: ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

تفصِيلُ الأشياء: هو تمييزُ بَعْضِها عن بَعْضٍ لإبراز حُدود كلٍّ منها. **فالتفصيل**: هو التَّبْيِينُ، وكشْفُ حُدودِ الْأَجْزَاءِ المتلاصِقَةِ في الظاهر، بإظهار مَا بَيْنَها مِنِ انْفِصَالٍ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مَرْئِيًّا، لِتَمْيِيزِ بَعْضِها عَنْ بَعْضٍ فِي الإِدْرَاكِ الفكريّ.

والمرادُ بعبارة: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كُلُّ شيءٍ من قضايا العقائِدِ الإيمانيَّة الَّتِي يَجِبُ الإيمانُ بها، وأمَّهاتِ قضَايا السُّلُوكِ الإنسانيّ الَّتِي هي مَطْلُوبُ اللهِ مِنْ عبادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهم.

البيانُ الخامِسَ: أنَّ الْقُرْآنَ هُدىً. **الْهُدَى**: الرَّشَادُ، والدلالةُ علَى الخَيْرِ، وهُو ضِدُّ الضَّلَال، وفي القرآن دَلَالَةٌ لِلْأَفْرَادِ والجماعات، إلى مَا فِيهِ صَلاحُ دُنْياهُمْ، وسَعَادَتُهُم في آخِرَتِهم، دَلّ عليه عبارة ﴿وَهُدَى﴾.

ولفظ «الْهُدَىٰ» مَصْدَرُ «هَدَاهُ يَهْدِيه، هُدىً» أُطْلِقَ عَلَىٰ القرآن للدَّلالَة عَلَىٰ أنَّ كُلَّ شيءٍ فِيهِ يَهْدِي إلى الحقّ، والخير، وفضائل الأعْمال الظاهِرَةِ والباطِنَة، فَهُوَ بِمَثابَةِ عَيْنِ الْهُدَىٰ.

وقَدْ تَكَرَّرَ في القرآن وَصْفُ القرآن بأنَّهُ هُدىً، لعظيم قيمة هَـٰذه الْوَظِيفَةِ مِنْ وَظَائِفه.

البيان السادس: أنَّ القرآنَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمِنَات: دَلَّ عليه في الآية عبارة: ﴿... وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾:

الرَّحْمَة: صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ، من آثارِهَا إرادة الخير للمرْحُوم.

والقرآنُ أثَرٌ مِنْ آثار رَحْمَةِ اللهِ بعِبادِه، وفي آياتِهِ عَطاءٌ ثَرٌّ مِنْ عَطاءَاتِ الْخَيْر للنَّاسِ أجْمَعِينَ، بما فيها من دَلالاتٍ علَىٰ كلِّ مَا فِيهِ

صَلَاحُ دُنيا النّاس، وَسَعَادَتُهُمْ في آخِرَتِهِمْ، وبهذا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بأنَّهُ رَحْمَةٌ، وهذا مِنْ إطْلَاقِ اسْمِ الشَّيْءِ عَلَىٰ آثاره، فَهُو مَجَازٌ مُرْسَل.

ولَمَّا كان المؤمنون هم الّذِينَ يَسْتَفِيدُون من الرَّحْمَةِ الّتِي تَشْتَمِلُ عليها آيات القرآن المجيد، كانَ من الحكْمَةِ في البيان تقييد رَحْمَتِهِ بأنها خَاصَّةٌ بالقوم الذين يُتَابِعُونَ مَا يَتلَقَّوْنَ مِنْ آياته بالإيمان الدافع للعَمَلِ الصَّالح.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر سُورَةِ يُوسف، والحمد لله على معونته، وتوفيقه وَمَدَدِه المتواصِلِ وفتَحْه.

* * *

(٧)

ملحق

حول مستخرجات بلاغية من سورة «يوسف»

توجَد في سورة «يوسف» اختيارات بلاغيّاتٌ نفيسات، اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا مَا يلي:

أولاً:

من النفائِسِ في القرآن المحاذِيفُ المطْوِيَّةُ في المثانِي، الّتِي تَدُلُّ عَلَيها دَلَالاتٌ لَفْظِيَّةٌ أَوْ فِكْرِيَّة.

ومن النصوص التي تُوجدُ محاذيف في مَثَانيها في هذه السورة، ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ حكَايَةً لقول «يعقوب = إسرائيل» لابْنِهِ «يوسف» عليهما السلام:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾:

فعل «كَادَ، يَكيدُ» يَتعَدَّىٰ بِنَفْسِه، يقال لغة: «كَادَهُ، يَكِيدُهُ» ولَكِنْ ضُمِّنَ في الآيَةِ فِعْلُ «يَكيْدُ» مَعْنَىٰ فِعْلِ «يَتعدَّىٰ» بحَرْفِ «اللّام» مِثْلَ «يُسَدِّدُ».

فالمعنى: فَيَكِيدُونَكَ مُسَدِّدِينَ لَكَ سَهْمَ ضُرٍّ أَوْ أَذًى.

(٢) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُتَابِعاً حكايَةَ قَوْلِ «يَعْقُوب» «لِيُوسُف» عليهما السَّلام:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾:

أي: وَكَذَلِكَ الْمَجْد الَّذِي يَهَبُهُ اللهُ لَكَ حِينَ يَتَحقَّقُ في الواقع تَعْبِيرُ رُؤياك، إذْ يَجْعَلُكَ فِيهِ ذَا رِياسَةٍ عَظِيمة، يَخْضَعُ لَكَ بها الناسُ حَتَّىٰ إخْوَتُكَ وَأبُوكَ وَزَوْجَتُهُ، يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ بالنُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تأْوِيلِ الْأَحادِيثِ.

(٣) قول الله عَزَّ وجَلَّ حَكَايَةً لِمُفَاوَضَةِ الكَيْدِ الَّذِي كَادَهُ إخْوَة يُوسُفَ مِنْ أبيه بغية إبعاده عَنْ أبيه:

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾:

أي: يَصِيرُ مَكَانُ اتِّجاهِ وَجْهِ أَبِيكُمْ خَالِياً مِنْ يُوسُف، فَلا يَرَىٰ غَيْرَكُمْ، فَتَحُلُّوا أَنْتُمْ مَحلَّه.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ يَحْكِي قِصَّةَ ذَهَابِ إخْوَةِ يُوسف بِهِ إلى المراعي:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

جوابُ «لَمَّا» الحينيّة مَطْوِيٌّ محذوف مِن اللّفْظِ، ومن السَّهْلِ إدْراكُه

ومُلَاحظتُهُ ذهْناً، والتقدير: نَفَّذُوا مَكِيدَتَهُمْ الّتي أجْمعُوا عَلَيْها، فوضَعُوهُ في غيابَةِ الْجُبِّ، ليلْتَقِطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ حِينما يُرِيدُونَ اسْتِخْرَاجَ مَاءٍ مِنْهُ.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ لَنُنْجينَّكَ، ولَنُنْزِلَنَّكَ مَنْزِلاً كَرِيماً، ولَنَمُنَّنَّ عَلَيْكَ بالْوُصُولِ إلَىٰ مَجْدٍ عَظِيمٍ، ولَيأْتِينَّكَ إخْوتُكَ خَاضِعِينَ، طالِبِينَ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ فِي مَقَام رَفِيع و﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ الّذي فَعَلُوهُ فِيكَ إذْ وَضَعُوكَ فِي الْجُبِّ لِيُبْعِدُوكَ عن أبِيك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يومَئذٍ أنّكَ أخُوهُمْ يوسف.

(٥) قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: ﴿قَالَ﴾ أبوهم يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائِهِ العشرة: لَسْتُمْ صَادِقِين فِيما ادَّعَيْتُمْ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فَأَمْرِي الَّذِي أَعْتَصِمُ بِهِ ﴿صَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لَا أُعْلِنُ فِيهِ تَضَجُّراً وَلَا أَقُولُ فِيهِ إلَّا مَا يُرْضِي رَبِّي.

(٦) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بشَأْنِ يوسُفَ عليه السَّلام:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يُوسُفُ ﴿أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ جزَاءَ إحْسَانِهِ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ، إذْ كَانَتْ أعْمالُهُ واخْتِيَارَاتُهُ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحْسان، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ سَائِرَ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مِنْ عبادِنَا الموضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان.

(٧) قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بشأن يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ وامْرَأةِ العزيزِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن

نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧)﴾:

أي: وأرادَ أنْ يَفْلَتَ مِنْ مُرَاوَدَتِها، ففتح باباً مِنْ أبوابِ مَخْدَعِها وخرج هارباً إلى ساحة القصر، واتّجه بِسُرْعَةٍ قَاصِداً البَابَ الخارجيّ ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ وَكَانَ أَسْبَقَ مِنها إلى جِهَةِ الْبَابِ الْخَارِجِيّ، وشَدَّتْ قَمِيصَهُ لِمَنْعِهِ من الْفِرَارِ ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ فَلَمَّا رَآهُمَا الْعَزِيزُ ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾ فَكَذَّبَتْهُ، وَزَعَمَتْ أَنَّهُ لَحِقَها لِيَضْرِبَها، وأنَّها هَرَبَتْ مِنْهُ إلى جِهَةِ الْبَاب ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ بأنَّه رَآهُ هارباً مِنْها وأنَّها هِي الَّتِي لَحِقَتْهُ، وَجَذَبَتْهُ مِنْ ثَوْبه، فَكَذَّبَتِ الشاهِدَ مِنْ أَهْلِها قَرِيباً أَوْ عَامِلاً مِنْ عُمَّالِ الْقَصْرِ، فَقَالَ الشَّاهِدُ: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧)﴾.

(٨) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجلَّ بِشَأْنِ رُؤْيَا الْمَلِكِ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)﴾:

أي: وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ تَبْلَعُهُنَّ سبعُ سُنْبُلاتٍ أُخَرَ يَابِسَاتٍ.

(٩) وقول اللهِ عَزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا . . .﴾:

أي: أنَا آتِيكُمْ بِنَبأ تَأْوِيلِ رُؤيَا الْمَلِكِ، إذْ أَسْتَفْتِي فيها السَّجِينَ الْعِبْراني، الّذِي كنْتُ مُصَاحِباً لَهُ فِي السِّجْنِ ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إِلَيْهِ لأَسْتَفْتِيَهُ وآتِيكُم

بِمَا يَذْكُرُ مِنْ تَأْوِيلِهِ، فَأَرْسَلُوهُ إِلَىٰ يُوسُفَ وهُوَ في السِّجْنِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ قَالَ له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾.

(١٠) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾:

أي: فَارْتَحلُوا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ هُمْ وَأَهْلُهُمْ وَمَنْقُولاَتُهُمْ، وَوَصَلُوا إِلَىٰ مِصْرَ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ في قَصْرِهِ الْخَاصِّ ﴿أَبَوَيْهِ وَقَالَ﴾ لأَخْوَتِهِ وَأَهْلِهِمْ جَمِيعاً: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

ثانياً: من المجاز المرْسَل:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في الحديثِ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ . . . ﴿٣٦﴾﴾:

أي: إِنِّي أَرَاني أَعْصِرُ عِنباً يَؤُولُ أَمْرُهُ إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ خَمْراً، وهَـٰذا مِنْ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ باعْتِبَارِ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ الْوَاقِعُ.

ثالثاً: من المجازِ الْعَقْلِي:

المجاز العقلي: إِسْنادُ الفِعْلِ أو مَا في معناه إلى غَيْرِ مَا هُو لَهُ لعلاقَةٍ مِن عَلاقَاتِ المجاز. ومِنْهُ في السُّورَةِ قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أُسْنِدَ الأَكْلُ إِلَىٰ السِّنينَ، وهو للنَّاسِ الَّذين يَعِيشُونَ فِي مِصْرَ فِي

هَـٰذِهِ السِّنِين، التي هي سَنَواتُ الْجَدْبِ، مَا سَبَقَ أَنِ ادُّخِرَ مِنْ أَقْوَاتٍ في سَنَواتِ الْخِصْب.

رابعاً:

المفاجَأة بالنَّصِيحَةِ التَّدْبِيرِيَّةِ مُدْمَجاً فيها تَعْبِيرُ الرُّؤْيا، ويَدخل هذا فيما يُسَمَّىٰ عِنْدَ الْبَلاغِيّين «الإدْماج».

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: سَتَأْتِي سَبْعُ سَنواتٍ خَصِيبَاتٍ، والتدبيرُ الواجبُ فيها أن تَزْرَعُوا أقْواتَكُمْ فيها دَأَباً، وأَنْ تَذَرُوا ماحَصَدْتُمْ فِي سُنْبُلِهِ إلَّا قَلِيلاً ممَّا تأْكُلُونَ، وأَنْ تَدَّخِرُوهُ. ثم يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ سَنواتٍ مُجْدِبَاتٍ شِدَادٍ يأكلُ النَّاسُ فِيها ممَّا ادَّخَرتُم في السَّنَوات الْخَصِيبَات. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ تَرْجِعُ فيه تَصارِيفُ الكَوْنِ إلَىٰ مِثْلِ ما كانَتْ عَلَيْهِ قَبْل أَرْبَع عَشْرَةَ سَنَة، وفيه يُغَاثُ النَّاسُ، وفيه يتهَيَّأُ لَهُمْ أَنْ يَعْصِرُوا مَا يَعْصِرُونَ مِنْ ثمرات.

خامساً: الحكمة في اخْتيارِ الْبَدَائِل عن الأصل المتبادر للتعبير عن المراد:

ضِمْنَ هذا الْفَنِّ الْكُلِّيّ الَّذِي تَقْتَضِيه دَواعٍ بَلَاغِيَّةٌ مُخْتَلِفَة، نَجِدُ في السُّورَةِ أَمْثِلَةً مُتَعَدِّدَةً:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي الحدِيثِ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ . . . ﴿٢٣﴾﴾:

جاء اخْتِيارُ ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ بدَلَ المُتَبادِرِ التَّعْبِيرُ بِهِ، وهو: «امْرَأَةُ الْعَزِيزِ» لتوجيه مَزِيدٍ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ عِفَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام؛ لأنَّ

عِفَّة مُسْتَرَقٍ خادمٍ يكُونُ فِي بَيْتِ سيِّدَتِهِ يُخَالِطُهَا وتُخَالِطُهُ، ويرَىٰ مَفَاتِنَهَا، وَقَدْ زَالَتْ مِنْ بَيْنِهِمَا الْحواجزُ، وهُوَ في عنْفُوانِ رُجُولَتِهِ المكْتَمِلَةِ، ثُمَّ تتزَيَّنُ لَهُ أَحْسَنَ زِينَتِها، وتَدْعُوهُ إلَىٰ نَفْسِها، فَيعِفُّ، ويَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يَعْصِمَهُ، ويتمَنَّعُ بِقُوَّةٍ، عَلَىٰ الرَّغْمِ من الإلْحَاحِ الشَّبِيهِ بالإكْرَاه، هو من أعْظَمِ عِفَّةِ الرِّجالِ عمَّا لَمْ يَأْذَنِ اللهُ بِهِ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لما قَالَهُ الْعَزِيزُ لِيُوسُفَ ولزَوْجَتِهِ:

﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾:

جاء اختيار لفظ ﴿ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ وهو جَمْعُ مُذَكَّرٍ سالم، بَدَلَ الأَصْلِ المتبادر وهو: «الْخَاطِئَات» للدّلالَة على أنَّ الْجُرْأَةَ عَلَىٰ المُرَاوَدَةِ والطَلَبِ الصَّرِيحِ لَا تَكُونُ عَادَةً مِنَ النِّسَاء، بَلْ يَقْتَصِرْنَ على الإغراء والحركات، إنَّما تكُونُ هَـٰذِهِ المُراوَدَةُ المُقْتَرِنَةُ بالطَّلَب الصَّرِيحِ من الرِّجالِ الْخاطِئينَ، فَاخْتِيرَ في التَّعْبيرِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّها كانت مِنَ الخاطِئين.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ يُوسُفَ لِأَبِيهِ بِشَأْنِ الرُّؤْيا الَّتِي رَآها:

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾:

جاء في هذه الآيَة اختيارُ لفظ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ وهو جَمْعُ مُذَكّرٍ سالم، بدَل الأصل المتبادِر، وهو: «سَاجِدَةً» أو: «ساجدات» مراعَاةً لواقِعِ حَالِ السُّجُودِ الإراديّ الَّذي يَكُونُ مِنَ الأحْيَاءِ العالِمِينَ.

المثال الرابع: قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾.

جاء في هـٰذِهِ الآيَةِ اخْتِيارُ اسْم الْإشَارَةِ للمشارِ إليها الْبَعِيدَة، مع أنَّ المشَارَ إليها وهِيَ: «آياتُ الكِتَابِ» قَرِيبةٌ، للدَّلَالَةَ عَلَىٰ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهَا ارْتِفَاعاً بَعِيداً عن مُسْتَوىٰ كَلَامِ النَّاسِ.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ إخْوَةِ يُوسُفَ العشرةِ لأبيهم «يعقوب = إسْرَائيل» عليه السَّلام:

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ⑪﴾:

نَادَوا أباهُمْ بِحَرْفِ النداء الموضوع للمنادَىٰ الْبَعِيدِ، لِيُشْعِرُوهُ بأنَّهُم عَاتِبُونَ عَلَيْهِ، إذْ يُبْعِدُهُمْ عَنْهُ نَفسِيًّا، وَيُقَرِّبَ «يُوسُفَ» وَشَقِيقَهُ «بَنْيَامِين».

المثال السادس: قول الله عَزَّ وجَلَّ حِكايَةً لِقَوْلِهِمْ أيضاً:

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ㊼﴾:

نَادَوْا أَبَاهُمْ بِحَرْفِ النِّدَاءِ الموضُوعِ للمنادَىٰ الْبَعِيد، للإشْعَارِ بالتَّخضُّعِ والتَّذَلُّلِ والانْخِفَاضِ الْبَعِيدِ، بُغْيَةَ الاسْتِعْطَافِ، ورَجَاءَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ.

سادساً: التوكيد بالمؤكداتِ لدَواعٍ بلاغِيَّة:

أذْكُرُ في هـٰذ الفِقَرةِ طائِفَةً من النُّصُوص الَّتِي فيها التوكيد، دُونَ تحليل، اعتماداً على نَظَائِرِها الكثيرة المشْرُوحَةِ في المستخرجات البلاغيّة من السُّوَرِ التي سبَقَ تَدَبُّرُها:

(١) ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ⑤﴾.

(٢) ﴿... إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ⑧﴾.

(٣) ﴿... وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ⑪﴾.

(٤) ﴿... وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾.

(٥) ﴿... إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ... ١٣﴾.

(٦) ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾.

(٧) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾.

(٨) ﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾.

(٩) ﴿... إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾.

(١٠) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ ... ١١١﴾.

وأكْتَفِي بِهَٰذِهِ المستخرجات والحمد لله على مَدَدِه ومعونته وتوفِيقِهِ وفَتْحِه.

* * *

خاتمة المجلّد العاشر

هذا ما فتح اللهُ به علَيَّ في تَدَبُّر المجلد العاشر مِنْ كتاب «معارج التفكّر ودَقائق التدبُّر» المشتمل على تدبّر ما يلي:

(١) سورة (يونس/٥١ نزول) وملحق مستخرجات بلاغية مِنْها.

(٢) وسورة (هود/٥٢ نزول) وملْحَق مستَخْرَجات بلاغِيَّة مِنها، ومُلْحَقُ دِراسَة تكامُلِيَّة للنُّصُوصِ بِشَأْنِ هُود عليه السلام وقومه عاد في القرآن المجيد.

(٣) وسورة (يوسف/٥٣ نزول) ومُلْحَق مستَخْرَجَات بلاغِيَّة مِنْهَا.

وقد انْتَهَيْتُ مِنْ تَسْطِيرِ هذا المجلّدِ في الْيَوْمِ الأخِيرِ مِنْ شَهْرِ رمضانَ لسنة ١٤٢٢ هجريّة، وأَسْأَلُ اللهَ الْعَلِيم الحكيمَ الْوَهَّاب أَنْ يَكْتُبَ لَهُ الْقَبُولَ الحسَنَ، وأَنْ يَنْفَعَ بِهِ نَفعاً كثيراً واسعاً، وأَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي فِيهِ خالصاً لِوَجْهِهِ الْكَرِيم.

وقَدِ اجْتَهَدْتُ في الالْتِزَامِ بالقواعِدِ الأرْبعين الّتي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا كتابي «قواعد التَّدَبُّر الأمْثَلِ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ».

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ مَا أَوْلَيْتَ وَتفَضَلْتَ وأعْطَيْتَ، تبارَكَ اسْمُكَ، وتَعَالَىٰ جَدُّكَ، وتقدَّسَتْ صِفَاتُكَ.

رَبِّ أَوْزِعْنِي وَوَفِّقْنِي واقْضِ لي أَنْ أكُونَ لَكَ عَبْداً شَكُوراً، ما أبقيتَنِي في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا حتَّىٰ آخِرِ نَفَسٍ مِنْ أنفَاسِي، وأَنْ أكُونَ عِنْدَكَ يَوْمَ الدِّينِ مِنَ المحسنين الأبْرَارِ المتقين.

وآخر دَعْوَانا أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وسَلامٌ على عِبادِهِ الّذِينَ اصْطَفَىٰ، والصلاة والسَّلَامُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا محمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إلَىٰ يَوْم الدِّين.

مكة المكرمة في ٣٠ رمضان ١٤٢٢ هجرية
عبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني
و١٥/١٢/٢٠٠١ ميلادية

الفهرس

الموضوع الصفحة

سورة يونس

١٠ مصحف/ ٥١ نزول

(١) نصُّ السورة وما فيها مِنْ فَرْش القراءات ٧
(٢) موضوع سورة (يونس) ٢٤
(٣) دُرُوس سورة (يونس) ٢٤
(٤) **التدبُّر التَّحليليّ للدَّرسِ الأوَّل من دُرُوس السّورَة** وهو الآيات من (١ ـ ١٠) ٢٩
- **تمهيد** ٣٠
- **التدبّر التحليلي** ٣١
- ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ (١)﴾ ٣١
- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ . . . (٢)﴾ ٣٤
- ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ . . . (٢)﴾ ٣٥
- ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ (٢)﴾ ٣٦
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ ٣٧
- ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ (٤)﴾ ٤٢
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (٥)﴾ ٤٦
- ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ (٦)﴾ ٥٠
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ (٧)﴾ ٥١

الموضوع **الصفحة**

• ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾ ٥٢

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . .﴾ ٥٢

• ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ . ٥٣

• ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ . . .﴾ ٥٣

• ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ ٥٤

(٥) التَّدَبُّرُ التحليلي للدَّرْس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآية (١١) ٥٤

• ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)﴾ ٥٤

(٦) التَّدبُّر التَّحْلِيليّ للدّرْس الثالث من دُروس سّورة (يونس) الآيات من (١٢ ـ ١٤) ٥٧

ـ تمهيد ٥٧

ـ التدبّر التحليلي ٥٨

• ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)﴾ ٥٨

• ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ ٦٠

(٧) التَّدبُّر التَّحلِيليّ للدّرْس الرابع من دُروس سورة (يونس) الآيات من (١٥ ـ ١٧) ٦٢

ـ تمهيد ٦٢

ـ التدبّر التحليلي ٦٣

• ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ . . . (١٥)﴾ ٦٣

• ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ ٦٣

• ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ ٦٥

• ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾ ٦٦

الموضوع **الصفحة**

(٨) **التَّدبُّر التَّحلِيلِيّ للدّرْس الخامس من دُروس سورة (يونس)** وهو الآيتان (١٨ و١٩) ٦٧
- **تمهيد** ٦٨
- **التدبّر التحليلي** ٦٩
- ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ... (١٨)﴾ ٦٩
- ﴿... وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ... (١٨)﴾ ٦٩
- ﴿... قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ... (١٨)﴾ . ٧٠
- ﴿... سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (١٨)﴾ ٧٠
- ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ ... (١٩)﴾ ٧١
- ﴿... وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ (١٩)﴾ ٧١

(٩) **التَّدبُّر التَّحلِيلِيّ للدّرْس السادس من دُروس سورة (يُونُسْ)** وهو الآية (٢٠) .. ٧٢
- **تمهيد** ٧٣
- **التدبّر التحليلي** ٧٣
- ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ ...﴾ ٧٣
- ﴿... فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾ ٧٤

(١٠) **التَّدبُّر التَّحلِيلِيّ للدّرْس السَّابع من دُروس سورة (يُونُسْ)** وهو الآيات من (٢١ ـ ٢٣) ٧٥
- **القراءات** ٧٥
- **تمهيد** ٧٥
- **التدبّر التحليلي** ٧٦
- ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ (٢١)﴾ ٧٦
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ ... (٢٢)﴾ ٨١
- ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ... (٢٢)﴾ ٨٢
- ﴿... وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا ... (٢٢)﴾ ٨٣
- ﴿... جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ ...﴾ ٨٣
- ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ ...﴾ ٨٤
- ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢)﴾ ٨٥

الموضوع **الصفحة**

• ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾ ٨٦

(١١) **التَّدَبُّر التَّحْلِيلِيّ للدَّرْس الثامِنْ مِنْ دُروس سورة (يُونُسْ)** وهو الآيات من (٢٤ ـ ٣٠) ٨٧

ـ **القراءات** ٨٨

ـ **تمهيد** ٨٨

ـ **التدبر التحليلي** ٨٨

• ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ ٨٨

• ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)﴾ ٩١

• ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٦) وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧)﴾ ٩٣

• ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾ ٩٧

(١٢) **التَّدَبُّر التَّحْلِيلِيّ للدَّرْس التاسِع مِنْ دُروس سُورَةِ (يونس)** الآيات من (٣١ ـ ٣٦) ١٠٠

ـ **القراءات** ١٠١

ـ **تمهيد** ١٠١

ـ **التدبر التحليلي** ١٠٢

• ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢)﴾ ١٠٢

الموضوع **الصفحة**

- ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٣٣)﴾ ١١١
- ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (٣٤) قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (٣٥)﴾ ١١٢
- ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ (٣٦)﴾ ١١٥

(١٣) التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس العاشِر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٣٧ ـ ٤١) ١١٧

- **ـ القراءات** ١١٨
- **ـ تمهيد** ١١٨
- **ـ التدبّر التحليلي** ١١٨
- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٧) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٣٨)﴾ ١١٨
- ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٩)﴾ ١٢٦
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ (٤٠)﴾ ١٢٨
- ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ (٤١)﴾ ١٣٠

(١٤) التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس الحادي عشر من دُروس سورة (يونس) وهو الآيتان (٤٢ ـ ٤٣) ١٣١

- **ـ تمهيد** ١٣١
- **ـ التدبر التحليلي** ١٣٢
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ (٤٢)﴾ ١٣٤
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ (٤٣)﴾ ١٣٤

(١٥) التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس الثاني عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٤٤ ـ ٥٤) ١٣٥

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ١٣٦
- تمهيد ١٣٧
- التدبر التحليلي ١٣٧
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ ١٣٧
- ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾ ١٣٨
- ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ٤٦﴾ ١٤١
- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٤٧﴾ ١٤٢
- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٤٩﴾ ١٤٤
- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾ ١٤٥
- ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٥٢﴾ ١٤٨
- ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ . ١٤٩
- ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾ ١٥١

(١٦) **التَّدَبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس الثالث عشر من دُروس سورة (يونس) الآيتان (٥٥ و٥٦)** ١٥٣
- القراءات ١٥٣
- تمهيد ١٥٣
- التدبّر التحليلي ١٥٤
- ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ ١٥٤
- ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ . . .﴾ ١٥٥
- ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾ ١٥٦

(١٧) **التَّدَبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس الرابع عشر من دُروس سورة (يونس) الآية (٥٧)** ... ١٥٧
- تمهيد ١٥٧

الموضوع **الصفحة**

- التدبر التحليلي ١٥٧
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ ١٥٧

(١٨) **التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس الخامِس عشر من دُروس سورة (يونس)** الآيات
من (٥٨ ـ ٦١) ١٦٠
- القراءات ١٦١
- تمهيد ١٦٢
- التدبّر التحليلي ١٦٣
- ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ١٦٣
- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ
أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ١٦٤
- ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا
عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ ١٧٠

(١٩) **التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس السادس عشر من دُروس سورة (يونس)** الآيات
من (٦٢ ـ ٦٤) ١٧٤
- القراءات ١٧٤
- تمهيد ١٧٤
- التدبر التحليلي ١٧٥
- ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ١٧٥
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ١٧٧
- ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ ١٧٨

(٢٠) **التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس السَّابع عشر من دُروس سورة (يونس)** الآيات من
(٦٥ ـ ٧٠) ١٧٩
- القراءات ١٨٠
- تمهيد ١٨٠
- التدبر التحليلي ١٨١
- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ ١٨١

الموضوع الصفحة

• ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ . . . (٦٦)﴾ ١٨٣
• ﴿. . . وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾ ١٨٣
• ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)﴾ ١٨٥
• ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾ ١٨٧
• ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَٰعٌ فِي
ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ
يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ ١٨٩
(٢١) التَّدبُّر التَّحلِيليّ للدّرْس الثامن عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من
(٧١ ـ ٩٣) وفيه ثَلاثَةُ فُصُول: ١٩٢
الفصل الأول: لَقَطات مِن قصةِ نُوح عَلَيْهِ السَّلام وقَوْمه الآيات من (٧١ ـ ٧٣) ١٩٢
ـ القراءات ١٩٢
ـ تمهيد ١٩٣
ـ التدبر التحليلي ١٩٤
• ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي
وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١)﴾ ١٩٤
• ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ
مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ ١٩٧
• ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾ ١٩٩
الفصل الثاني: بَيانٌ عامٌ بشأن رُسُل أرسلهم الله إلى أقوامهم بَعْدَ نوح وهو الآية (٧٤) ٢٠١
ـ تمهيد ٢٠١
ـ التدبر التحليلي ٢٠١
• ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا
كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾ ٢٠١
**الفصل الثالث: عَرْضُ لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عليهما السلام مُلائمات
لمعالَجة المعنيين بالعلاج في السورة** وهو الآيات من (٧٥ ـ ٩٣) ٢٠٥

الموضوع **الصفحة**

- **القراءات** ٢٠٦
- **تمهيد** ٢٠٧
- **التدبر التحليلي** ٢٠٨

• ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟
وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥)﴾ ٢٠٨

• ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦)﴾ ٢١٠

• ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ (٧٧)﴾ . ٢١٠

• ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا
نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾ ٢١١

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩)﴾ ٢١٣

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١)
وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢)﴾ ٢١٣

• ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن
يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣)﴾ ٢١٥

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)
فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٦)﴾ ٢١٦

• ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧)﴾ ٢١٨

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ
يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٨٨)﴾ ٢٢١

• ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾ ... ٢٢٣

• ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ
(٩٠) ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ
لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (٩٢)﴾ ٢٢٤

• ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ
جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)﴾ ٢٣١

الموضوع الصفحة

(٢٢) التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس التاسع عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٩٤ ـ ٩٨) ٢٣٤
ـ القراءات ٢٣٤
ـ تمهيد ٢٣٥
ـ التدبر التحليلي ٢٣٦
• ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٩٥)﴾ ٢٣٦
• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ (٩٦) وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (٩٧)﴾ ٢٣٨
• ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ (٩٨)﴾ ٢٣٩
(٢٣) التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس العشرين من دُروس سُورَةِ (يونس) الآيات من (٩٩ ـ ١٠٩) ٢٤٢
ـ القراءات ٢٤٣
ـ تمهيد ٢٤٤
ـ التدبر التحليلي ٢٤٤
• ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ (٩٩)﴾ ٢٤٤
ـ استعْراض سائر النصوص القرآنية حول ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ٢٤٦
• ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ (١٠٠)﴾ ٢٥٠
• ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ (١٠١)﴾ ٢٥٢
• ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ (١٠٢)﴾؟ ٢٥٣
• ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠٣)﴾ ٢٥٤
• ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٠٤)﴾ ٢٥٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧)﴾ ٢٥٧
- ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ (١٠٨)﴾ ٢٦٣
- ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (١٠٩)﴾ ٢٦٥

(٢٤) مُلْحَق حَوْل مُسْتَخْرَجَاتٍ بلاغية من سورة (يونس) ٢٦٦

سورة هود

١١ مصحف ٥٢ نزول٢٦٦

(١) نصّ السّورة وَما فيها مِنْ فَرْشِ القراءات ٢٨٧
(٢) ممَّا جاء في السُّنَّة بِشَأْن سورة (هود) ٣٠٤
(٣) موضوع سُورَة (هود) ٣٠٤
(٤) دُرُوسَ سُورَة (هود) ٣٠٥
(٥) **التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس الأوّل من دُروس سورة (هود)** وهو الآية (١) ٣٠٧
- ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)﴾ ٣٠٧

(٦) **التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس الثاني من دُروس سورة (هود)** الآيات من (٢ ـ ٤) ... ٣١٠
- **القراءات** ٣١١
- **تمهيد** ٣١١
- **التدبر التحليلي** ٣١٢
- ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ (٢)﴾ ٣١٢
- ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ (٣)﴾ ٣١٣
- ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٤)﴾ ٣١٥

(٧) **التَّدبُّر التَّحْلِيلِيّ للدّرْس الثالث من دُروس سورة (هود)** الآيات من (٥ ـ ١١) ٣١٦
- **القراءات** ٣١٦
- **تمهيد** ٣١٧
- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٥)﴾ ٣١٨

الموضوع **الصفحة**

- ما دَلَّت عليه هَـٰذِهِ الآية ٣١٩

• ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٦﴾ ٣٢٠

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧﴾ ٣٢٣

• ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٨﴾ ٣٢٥

• ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١١﴾ ٣٢٦

(٨) التَّدبُّر التَّحليليّ للدَّرس الرَّابع من دُروس سورة (هود) الآيات من (١٢ ـ ١٤) ٣٣٠

- **تمهيد** ٣٣١

- **التدبر التحليلي** ٣٣١

• ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ١٢﴾ ٣٣١

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٤﴾ ٣٣٤

(٩) التَّدبُّر التَّحليليّ للدَّرس الخامس من دُروس سورة (هود) الآيات من (١٥ ـ ٢٤) ٣٣٧

- **القراءات** ٣٣٨

- **تمهيد** ٣٣٨

- **التدبر التحليلي** ٣٣٩

• ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٦﴾ ٣٣٩

تدبُّر تكامُليٌّ للنُّصوصِ القرآنيّة الواردة حول موضوع هَاتين الآيَتَيْن ٣٣٩

التدبّر التحليلي لآيتي سورة (هود) (١٥ و١٦) ٣٤٢

الموضوع الصفحة

• ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا
تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)﴾ .. ٣٤٥

• ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٨)
ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (١٩)﴾ ٣٥٠

• ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ
يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ (٢٠) أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾ ٣٥٣

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٣)﴾ ٣٥٦

• ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾ ٣٥٦

(١٠) التَّدبُّر التَّحلِيلِيّ للدّرس السَّادِس مِنْ دُروس سورة (هود) الآيات من (٢٥ ـ
١٠٨) وفيه سبعُ فصول ٣٥٧

الفصل الأول: لقطاتٌ مِن قِصَّة نوحٍ عليه السلام وقومِه الآيات من (٢٥ ـ ٤٩) .. ٣٥٨

ـ تمهيد ٣٥٩

ـ التدبّر التحليلي ٣٦٠

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا
ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)﴾ ٣٦٠

• ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ
ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ
نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ (٢٧)﴾ ٣٦٤

• الآيات من (٢٨ ـ ٣١) ٣٦٧

ـ القراءات ٣٦٧

ـ التدبر التحليلي ٣٦٧

• ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ
عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨)﴾ ٣٦٨

• ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ . . .﴾ ٣٦٩

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩)﴾ ٣٧٠
- ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ... (٣٠)﴾ ٣٧٢
- ﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)﴾ ٣٧٣
- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ... (٣١)﴾ ٣٧٤
- ﴿... وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ... (٣١)﴾ ٣٧٥
- ﴿... وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ... (٣١)﴾ ٣٧٦
- ﴿... إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٣١)﴾ ٣٧٨
- ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣٢)﴾ ٣٧٩
- ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾ ٣٨٠
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾ ٣٨٣
- ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ ٣٨٥
- ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾ ٣٨٧
- ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾ ٣٨٨
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)﴾ ٣٩١
- ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١)﴾ ٣٩٤
- ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ ٣٩٥

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٤٤)﴾ ٣٩٨

ما في هـٰذه الآية (٤٤) من إبداع بلاغيّ أدبي ٤٠١

• ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٤٧)﴾ ٤٠٤

• ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٨)﴾ ٤٠٩

• ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ (٤٩)﴾ ٤١١

الفصل الثاني: لقطاتٌ مِنْ قِصَّةِ هود عليه السلام وقومه الآيات من (٥٠ ـ ٦٠) ... ٤١٢

ـ تمهيد ٤١٣

ـ التدبر التحليلي ٤١٣

• ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ (٥٠)﴾ ٤١٣

• ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٥١) وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ (٥٢)﴾ ٤١٦

• ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ . . . (٥٤)﴾ ٤١٩

• ﴿. . . قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ (٥٧)﴾ ٤٢١

• ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ (٥٨) وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ (٥٩) وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ (٦٠)﴾ ٤٢٥

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثالث: لقطاتٌ مِنْ قصّة صالح عليه السلام وقَومِهِ ثمود الآيات من (٦١ ـ ٦٨) ٤٢٨

ـ **تمهيد** ٤٢٩

ـ **التدبر التحليلي** ٤٢٩

• ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾ ٤٣٠

• ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)﴾ ٤٣٤

• ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)﴾ ٤٣٦

• ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾ ٤٣٨

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾ ٤٤٠

الفصل الرابع: لقطات مِنْ قِصَّةِ إبراهيم ولوطٍ عليهما السَّلام الآيات من (٦٩ ـ ٨٣) ٤٤٤

ـ **تمهيد** ٤٤٥

ـ **التدبر التحليلي** ٤٤٦

• ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾ ٤٤٦

• ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾ ٤٥٢

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ (٧٧) وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ (٧٨) قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ (٨٠)﴾ ٤٥٥

• ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ (٨١) فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ (٨٣)﴾ . ٤٥٩

الفصل الخامس: لقطات مِنْ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عليه السلام وقومِهِ الآيات من (٨٤ ـ ٩٥) ٤٦٢

ـ **تمهيد** ٤٦٣

ـ **التدبر التحليلي** ٤٦٤

• ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ . . .﴾ ٤٦٤

• ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ . . . (٨٤)﴾ ٤٦٥

• ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ . . . (٨٤)﴾ ٤٦٥

• ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ . . .﴾ ٤٦٦

• ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ (٨٤)﴾ ٤٦٧

• ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٨٥)﴾ ٤٦٧

• ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ (٨٦)﴾ ... ٤٦٩

• ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧)﴾ ٤٧٠

• ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي . . . (٨٨)﴾ ٤٧٥

• ﴿. . . وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ . . . (٨٨)﴾ ٤٧٦

• ﴿. . . إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ . . . (٨٨)﴾ ٤٧٨

• ﴿. . . وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ ٤٧٨

• ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ (٨٩)﴾ ٤٧٩

• ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ (٩٠)﴾ ٤٨١

الموضوع — الصفحة

- ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾ ٤٨٢
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ ٤٨٩

الفصل السادس: لقطات مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ عليه السلام وفرعَوْن الآيات من (٩٦ ـ ٩٩) ٤٩١

ـ **تمهيد** ٤٩١

ـ **التدبر التحليلي** ٤٩٢

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٩٦)﴾ ٤٩٢
- ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧)﴾ ٤٩٣
- ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ ٤٩٣
- ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ (٩٩)﴾ ٤٩٥

الفصل السابع: خِتامٌ تَذْيِيلِيّ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَتذكير بالآخرة وَجزائِها الآيات من (١٠٠ ـ ١٠٨) ٤٩٥

ـ **تمهيد** ٤٩٦

ـ **التدبر التحليلي** ٤٩٦

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠)﴾ ٤٩٦
- ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾ ٤٩٧
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ . ٥٠٠
- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ . . . (١٠٣)﴾ ٥٠١
- ﴿. . . ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ . . . (١٠٣)﴾ ٥٠١
- ﴿. . . وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣)﴾ ٥٠١
- ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤)﴾ ٥٠٢
- ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ . . . (١٠٥)﴾ ٥٠٣
- ﴿. . . فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ ٥٠٣

الموضوع **الصفحة**

- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ ٥٠٤
- ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ ٥٠٥

(١١) **التَّدبُّر التَّحْليليّ للدّرْس السابع من دُروس سورة (هود)** الآيات من (١٠٩ ـ ١٢٣) آخر السورة ٥٠٦

ـ **تمهيد** ٥٠٧

ـ **التدبر التحليلي** ٥٠٧

- ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ ٥٠٧
- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ ٥٠٩
- ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ ٥١٠
- ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ٥١١
- ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ ٥١٤
- ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ ٥١٧
- ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ ٥١٧
- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ٥٢٠
- ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ٥٢١
- ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ٥٢٣

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (١٢٣)﴾ ٥٢٣

(١٢) **الملْحَقُ الأَول: حَوْل مُسْتَخْرَجاتٍ بَلاغِيَّةٍ من السورة** ٥٢٦

(١٣) **الملحقُ الثاني: دراسة تكامُلِيَّة للنُّصُوص القرآنيَّة بِشأن هُودٍ عَلَيْهِ السَّلامُ وَقَوْمِهِ عَاد** ٥٣٣

سُورَة يوسف

١٢ مصحف ٥٣ نزول

(١) نصّ السّورَة ومَا فيها مِن فَرْشِ القراءات ٥٨١

(٢) مَوْضُوع سورة (يوسف) ٥٩٦

(٣) دُروس سورة (يوسف) ٥٩٧

(٤) **التدبر التحليلي للدّرس الأوّل من دُروس سورة (يوسف)** الآيات من (١ ـ ٣) ٦٠١

ـ **تمهيد** ٦٠١

ـ **التدبر التحليلي** ٦٠١

• ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (٢)﴾ ٦٠١

• ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ (٣)﴾ ٦٠٤

(٥) **التَّدَبُّر التَّحْليلِيّ للدّرْس الثاني من دُروس سورة (يوسف)** وهو الآيات من (٤ ـ ١٠١) وفيه ثلاثة عشر فصلاً ٦٠٦

الفصل الأول: (من قصة يوسف عليه السلام) الآيات من (٤ ـ ٦) ٦٠٦

ـ **القراءات** ٦٠٧

ـ **تمهيد** ٦٠٧

ـ **التدبر التحليلي** ٦٠٩

• ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ (٤)﴾ ٦٠٩

• ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (٥)﴾ ٦١٠

• ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٦)﴾ ٦١٢

الموضوع **الصفحة**

- أنواع الأحلام ٦١٣
- ممَّا جاءَ في السُّنَّةِ حَوْلَ الرُّؤىٰ المناميّة ٦١٥

الفصل الثاني: مِنْ قصَّة يوسف عليه السلام الآيات مِنْ (٧ ـ ١٠) ٦١٧

- **القراءات** ٦١٧
- **تمهيد** ٦١٨
- ﴿۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ (٧)﴾ ٦١٨
- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨) ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ (٩) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (١٠)﴾ ٦٢٠

الفصل الثالث: مِنْ قصَّةِ يوسُفَ عَلَيْهِ السلام الآيات من (١١ ـ ١٤) ٦٢٤

- **القراءات** ٦٢٤
- **تمهيد** ٦٢٥
- **التدبر التحليلي** ٦٢٥
- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (١٢)﴾ ٦٢٥
- ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ (١٣)﴾ ٦٢٧
- ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (١٤)﴾ ٦٢٨

الفصل الرابع: مِنْ قصّة يُوسف عليه السلام الآيات من (١٥ ـ ١٨) ٦٢٩

- **القراءات** ٦٢٩
- **تمهيد** ٦٣٠
- **التدبر التحليلي** ٦٣٠
- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)﴾ ٦٣٠
- ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ (١٧) وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ . . .﴾ ٦٣١
- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾ ٦٣٣

الفصل الخامس: مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السلام الآيات من (١٩ ـ ٢١) ٦٣٥

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ٦٣٥
- تمهيد ٦٣٥
- التدبر التحليلي ٦٣٦
• ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩)﴾ ٦٣٦
• ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ (٢٠)﴾ ... ٦٣٨
• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ ٦٣٨
الفصل السادس: مِنْ قصّة يوسف عَلَيْهِ السلام الآيات من (٢٢ ـ ٢٩) ٦٤١
- القراءات ٦٤١
- تمهيد ٦٤٢
- التدبر التحليلي ٦٤٣
• ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾ ٦٤٣
• ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣)﴾ ٦٤٤
• ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾ ٦٤٦
- **تَحْرِيرُ مَعْنَىٰ مَادَّةِ الْهَمِّ في النُّصُوصِ** ٦٤٨
- **أدِلَّةٌ من القرآن** ٦٤٩
- **أدِلَّةٌ مِن السُّنَّة** ٦٥١
• ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾ ٦٥٢
• ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ (٢٩)﴾ ٦٥٤
الفصل السابع: مِنْ قصّة يوسف عَلَيْهِ السلام الآيات من (٣٠ ـ ٣٥) ٦٥٦
- القراءات ٦٥٧

الموضوع **الصفحة**

- تمهيد ٦٥٧
- التدبر التحليلي ٦٥٨
- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾ ٦٥٨
- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ ٦٥٩
- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢)﴾ ٦٦١
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣)﴾ ٦٦٢
- ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤)﴾ ٦٦٣
- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)﴾ ٦٦٣

الفصل الثامن: مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام الآيات من (٣٦ ـ ٤٢) ٦٦٤
- القراءات ٦٦٥
- تمهيد ٦٦٦
- التدبر التحليلي ٦٦٦
- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ ٦٦٦
- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا . . . (٣٧)﴾ ٦٦٧
- ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧)﴾ ٦٦٨
- ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾ ٦٦٨
- ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾ ٦٧٠

الموضوع **الصفحة**

• ﴿يَٰصَىٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ (٤٢)﴾ ٦٧٣

الفصل التاسع: مِن قِصَّة يُوسف عَلَيْهِ السَّلام الآيات من (٤٣ ـ ٤٩) ٦٧٥

ـ **القراءات** ٦٧٦

ـ **تمهيد** ٦٧٧

ـ **التدبر التحليلي** ٦٧٧

• ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ (٤٣)﴾ ٦٧٧

• ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤)﴾ ٦٧٨

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ (٤٥)﴾ ٦٧٩

• ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ (٤٦)﴾ ٦٨٠

• ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ (٤٩)﴾ ٦٨٠

الفصل العَاشِرُ: مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الآيات من (٥٠ ـ ٥٧) ٦٨٣

ـ **القراءات** ٦٨٤

ـ **تمهيد** ٦٨٥

ـ **التدبر التحليلي** ٦٨٦

• ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ (٥٠)﴾ ٦٨٦

• ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١)﴾ ٦٨٦

• ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ (٥٢) ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥٣)﴾ .. ٦٨٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ (٥٤)﴾ ٦٨٩
- ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ (٥٥)﴾ ٦٩٠
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٥٧)﴾ .. ٦٩٠

الفصل الحادي عشر: من قصة يوسف عَلَيْهِ السلام الآيات من (٥٨ ـ ٦٧) ٦٩٢
ـ **القراءات** ٦٩٣
ـ **تمهيد** ٦٩٣
ـ **التدبر التحليلي** ٦٩٤
- ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٨)﴾ ٦٩٤
- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ (٦٠) قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١)﴾ ٦٩٥
- ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (٦٢)﴾ ٦٩٦
- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٦٣)﴾ ٦٩٧
- ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٦٤)﴾ ٦٩٨
- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ (٦٥)﴾ ٦٩٩
- ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ (٦٦) وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾ ٧٠٠

الفصل الثاني عشر: مِنْ قِصَّةِ يُوسف عليه السلام الآيات من (٦٨ ـ ٩٣) ٧٠٥
ـ **القراءات** ٧٠٦
ـ **تمهيد** ٧٠٨
ـ **التدبر التحليلي** ٧٠٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾ ٧٠٩
- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٦٩)﴾ ٧١٠
- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ (٧٠) قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ (٧٣) قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ (٧٤) قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٥)﴾ ٧١٢
- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ ٧١٥
- ﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾ ٧١٧
- ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٧٨)﴾ ٧١٩
- ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ (٧٩)﴾. ٧١٩
- ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ . . .﴾ ٧٢٠
- ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٠) ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ (٨١) وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٨٢)﴾ ٧٢١
- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ . . .﴾ ٧٢١
- ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٨٣)﴾ ٧٢٢
- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)﴾ ٧٢٢
- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ (٨٥)﴾ ٧٢٣

الموضوع **الصفحة**

• ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ ٧٢٣

• ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٧)﴾ ٧٢٤

• ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾ ٧٢٥

• ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ (٨٩)﴾ ٧٢٦

• ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾ ٧٢٧

• ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ (٩١)﴾ ٧٢٨

• ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢)﴾ . ٧٢٨

• ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)﴾ ٧٢٩

الفصل الثالث عشر: **من قصة يوسف عليه السلام** الآيات من (٩٤ ـ ١٠١) ٧٣٠

ـ **القراءات** ٧٣١

ـ **تمهيد** ٧٣١

ـ **التدبر التحليلي** ٧٣٢

• ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤)﴾ ٧٣٢

• ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ (٩٥)﴾ ٧٣٣

• ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ . . . (٩٦)﴾ ٧٣٣

• ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦)﴾ ٧٣٤

• ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ (٩٧)﴾ ٧٣٤

• ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٩٨)﴾ ٧٣٥

• ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ ٧٣٦

الموضوع الصفحة

• ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ ٧٤٢

(٦) **التَّدبُّر التَّحْليليّ للدّرْس الثالث من دُروس سورة يوسف** الآيات من (١٠٢ ـ ١١١) آخر السورة ٧٤٥

ـ **القراءات** ٧٤٥

ـ **تمهيد** ٧٤٦

ـ **التدبر التحليلي** ٧٤٧

• ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ ٧٤٧

• ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ ٧٤٨

• ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ ٧٤٩

• ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ ٧٥٠

• ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ ٧٥٢

• ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾ ٧٥٢

• ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ ٧٥٣

• ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ ٧٥٥

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ ٧٥٧

• ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ ٧٥٩

(٧) **مُلْحَق**: حَوْل مُسْتَخْرَجات بَلاغيّة من سورة يوسف ٧٦٢

خاتمة المجلد العاشر من كتاب «معارج التفكّر ودقَائق التدبّر» ٧٧١

الفهرس ٧٧٢

* * *

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرٌ تَدَبُّرِيٌّ لِلقُرْآنِ الكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ
وِفْقَ مَنْهَجِ كِتَابِ «قَوَاعِدِ التَّدَبُّرِ الأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»

المجلد الحادي عشر

تَفْسِيرُ السُّوَرِ التَّالِيَةِ:
الحجر/٥٤ وَالأنعام/٥٥ وَالصَّافات/٥٦ وَلقمان/٥٧

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

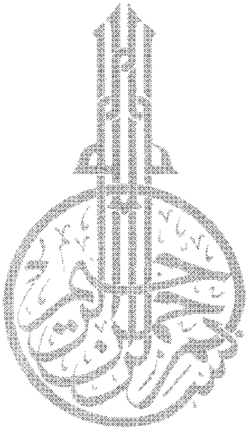
بسم الله الرحمن الرحيم

معارج التفكر ودقائق التدبر

١١

دار القلم
دمشق

أسّسها:
محمّد علي دولة
سنة ١٩٦٧م

الطّبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

سورة الحِجْر

١٥ مصحف ٥٤ نزول

وهي مكيّة كُلُّها

وقيل إلَّا الآية (٨٧) فمَدَنِية

وسُمّيت سورة «الحجر» لانفرادها
بذكر لفظة الحِجْر فيها وهي أرضُ ثمود

(١)

نص السورة ومَا فيها مِن فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ (٢) ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ
وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (٣) وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا
وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ (٤) مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسۡتَـٔۡخِرُونَ (٥) وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ
لَمَجۡنُونٞ (٦) لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
(٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ (٨)

---

١ - • سَكتَ أبو جعفر على الحروف الثلاثة من: (الٓر) سَكْتَةً لطيفة من دون تنفس.

٢ - • قرأ نَافع، وعاصم، وأبو جعفر: **[رُبَمَا]** بفتح الباء دُونَ تَشْدِيد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة **[رُبَّمَا]** بتشديد الباء مفتوحة.

٣ - • قرأ أبو عمرو، ورَوْح: **[وَيُلْهِهِمِ الأَمَلُ]** بِكَسْرِ هاء الضمير وَميم الجمع وصْلاً.
وقرأها حَمْزَة، والكسائي، ورُويس، وخلف: **[وَيُلْهِهُمُ الأَمَلُ]** بضمِّهِمَا وصْلاً.
وقرأها بَاقي القرّاء العشرة بِكَسْر الْهَاءِ وضمّ الميم وصلاً.
أمَّا عند الوقف فرُوَيْس وحْدَهُ بِضَمِّ الهاء وسكُونِ الميم، والباقون بكَسْرِ الهَاءِ وسكون الميم.

٨ - • قرأ شُعْبَة: **[مَا تُنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ]**. وقرأها حفصٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ]**. وقرأها الْبَزّي: **[مَآ تَّنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ]** بتشديد التاء مع المدّ المشبع.
=

إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن
قَبۡلِكَ فِى شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ
بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾
لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم
بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَۙ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ
أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِى ٱلسَّمَآءِ
بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ
﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ
مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىۡءٖ مَّوۡزُونٖ
﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن
مِّن شَىۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾
وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ
أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ
﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾

= وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَة: [**مَا تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ**] .
وبَيْنَ هذه القراءات تكامُلٌ، والمؤدّىٰ واحد.

١٥ ـ ● قرأ ٱبْنُ كثير: [**سُكِرَتْ**] بكسر الكاف دون تَشْدِيد.
وقرأها باقي القرّاءَ [**سُكِّرَتْ**] بِكَسْرِ الكاف مع التشديد.

٢٢ ـ ● قرأ حمزة وخلف: [**الرِّيحَ**] بالإفراد.
وقرأها بَاقي القراء العشرة: [**الرِّيَاحَ**] بالجمع.
وبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعنى المراد.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ
مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن
صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن
رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ
﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ
مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ
خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ
فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾
إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ
﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٞ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ
عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

---

٤٠ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْر اللام.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**الْمُخْلَصِينَ**] بفتح اللّام.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ فكري.

٤١ ـ • قرأ يعقوب: [**عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ**] وقرأها باقي القراء العشرة: [**عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**].

وبَيْنَ القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ
مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ
سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا
بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ
إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ
﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ
أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ

---

٤٤ ـ • قرأ شُعْبَةُ: [جُزُءٌ] بضم الزّاي.
وقرأها أبو جَعْفَر: [جُزٌّ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [جُزْءٌ].

٤٥ ـ • قرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونٍ] بكسر العين.
وقرأها الباقون: [وَعُيُونٍ] بضم العين.

٤٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [نَبِّيْ] وكذلك حمزة وهشام في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [نَبِّئْ] بالهمزة المحققة.

٤٩ ـ • فتح ياء المتكلِّم نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، من [عِبَادِيَ]
ومِنْ [أَنِّيَ أَنَا]: [عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا].
وقرأهما باقي القراء العشرة بالإسْكَان. [عِبَادِي أَنِّي أَنَا].

٥٣ ـ • قرأ حَمْزَة: [إِنَّا نَبْشُرُكَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنَّا نُبَشِّرُكَ].
والقراءتان لغتان عربيَّتان.

٥٤ ـ • قرأ نافع: [تُبَشِّرُونِ].
وقرأها ابنُ كثير: [تُبَشِّرُونِّ] مع المدّ المشبع في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [تُبَشِّرُونَ] بفتح النون. ومؤدّى القراءات واحد.

بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن
رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ
﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمۡ
قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ
﴿٦٣﴾ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ
مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ
تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ
مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾

---

٥٦ ـ • قرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[يَقْنِطُ]** بكَسْرِ النون.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَقْنَطُ]** بفَتْحِ النون.
والقراءتان لغتان عَربيَّتان.

٥٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[لَمنْجُوهُمْ]** مِنْ فعل «أَنْجَى».
وقرأها باقي القراء العشرة: **[لَمُنَجُّوهُمْ]** من فعل «نَجَّىٰ».
وهما لغتان عربيَّتان متكافئتان.

٦٠ ـ • قرأ شعبة: **[قَدَرْنَا]** وقرأها باقي القرّاء العشرة **[قَدَّرْنا]**. وهما لغتان عَرَبِيَّتَان بمعنى تَحْدِيد مقادير عناصِرِ الأشياء.

٦٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: **[فَاسْرِ]** من فعل: «سَرَى». وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَأَسْرِ]** من فعل: «أَسْرَىٰ». وهما لغتان عربيّتان.

٦٨ و٦٩ ـ • أثبت ياء المتكلّم في: **[فَلَا تَفْضَحُونِي]** وفي: **[وَلَا تُخْزُونِي]** يعقوب في الوصل والوقف.
وحَذَفها باقي القراء العشرة في الوصل والوقف أيضاً: **[فَلَا تَفْضَحُونِ]** و**[وَلَا تُخْزُونِ]**.

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن
كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (٧٢)
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا
عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ
(٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ
(٧٧) وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ (٧٨) فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ
وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ (٧٩) وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ
(٨٠) وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ (٨١) وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ
ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ (٨٣) فَمَآ
أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (٨٤) وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ
ٱلۡجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ
سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا
مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ

---

٧١ ـ ● فتح ياء المتكلم من: [**بَنَاتِيَ إِنْ**] نافع، وأبو جَعْفَرُ. وأسْكَنَها باقي القراء العشرة.

٨٢ ـ ● قرأ ورْش، وأبو عَمْرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**بُيُوتاً**] بضم الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**بِيُوتاً**] بكَسْر الباء.

والقراءتان لغتان عربيتان.

لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا
عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١)
فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَٱصْدَعْ
بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥)
ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ
نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن
مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩)

---

٨٩ ـ ● فتح ياء المتكلّم من: [**إِنِّيَ أَنَا**] نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر. وأسْكَنَها باقي القراء العشرة.

٩٤ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، ورُوَيس، وخلف بإشمام الصاد زاياً في [**فَاصْدَعْ**]. وقرأها باقي القراء العشرة بالصَّادِ الخالصة.

٩٥ ـ ● قرأ أبو جعفر: [**الْمُسْتَهْزِين**] بحذف الهمزة. وقرأها باقي القراء العشرة: [**المستهزِئين**] بإثبات الهمزة.

(٢)

موضوع سورة (الحِجْر)

يَدُور موضُوع هذه السورة حول مُتَابعة معالجة مشركي مكّة، ولا سيما أئمتُهم وكُبَراؤهم المعانِدُون، حول قضيّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ هُما:

الأولَىٰ: تكْذيبهُم رَسُولَ رَبِّهم محمّداً ﷺ، وما يَلْزَمُ عن هٰذا التكذيب من تصرُّفات.

الثَّانية: تكذِيبُهمْ بالقرآن الَّذي يُبَلِّغُهم الرَّسُول ﷺ آياتِ نُجُومِهِ المُنزَّلات، ويُبَيِّنُ لهم أنَّهُ ذِكْرٌ للنَّاسِ أَجْمَعِين من رَبِّ العالمين.

وهٰذِه المُعَالَجَةُ تُوجِّهُ الْعِنَايَةَ للطَّوْر الَّذِي وصَلُوا إِلَيْهِ إبَّانَ نُزُولِ هٰذِه

السورة، وللموقفِ العناديّ الكُفْرِيِّ الإجْرَامِيِّ المُتَفَاقِمِ الَّذِي كَانُوا عليه.

ويَدُور موضوع السورة أيضاً حَوْلَ مُتابعَةِ تَرْبيَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ ويُلْحَقُ بِهِ الدُّعَاةُ إلَىٰ اللهِ مِن أمَّتِهِ ﷺ، ثُمَّ سائر المؤمنين.

ومن لوازم تكذِيبهم العنادي الْوَقِح ما يلي:

(١) إعلانُهُمْ تكذيب الرسُول بما يُنْذِرُهم بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ المُؤَجَّلِ إلى يوم القيامة، والمُعَجَّلِ في الدنيا، الأمْرِ الَّذِي جعَلَهُمْ يطْلُبُونَ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّحدِّي أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِمُ العَذَابَ المُعَجَّل، وهو ما جاء بيانُهُ في الآية (٩٢) من سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾.

مُسْقِطِين مِنْ تَصَوّرِهِم أنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ يُمْهِلُهُمْ ويُمْلي لَهُمْ، لِيَمْنَحَهم أطْوَلَ مُدَّةٍ يُرَاجِعُونَ فيها اختِيَارَاتِهم، ورَغْبَةً في أنْ يُؤْمِنَ ويُسْلِمَ من لَدَيهم اسْتِعْدادٌ مَا لأنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا مِنْ عَامَّتِهِم وخاصَّتِهم طَلَباً للنجاة والفوز العظيم.

(٢) مُواجَهتُهُم الصَّرِيحة للرَّسُولِ ﷺ بِشَتِيمة يُكَذِّبُ مضمونَها الواقِعُ الَّذِي صَارَ مَشْهُوداً للجميع، إذْ قَالُوا له، كما جاء في السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾.

وغَرَضُهُمْ مِنْ هٰذِه الشتِيمَةِ التي وَاجَهُوهُ بِهَا، أَنْ يُغْضِبُوهُ غَضباً يُنْزِلُ بِهِ عِلَّةً تمْنَعُهُ مِنْ مُتَابَعَةِ تَأْدِيَةِ رِسَالَةِ رَبِّهِ.

(٣) مُطالبتُهُمْ لَهُ بتخصِيصٍ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بالملائِكَةِ إنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقين، أي: فإذا لَمْ تَأْتِنا بالْمَلاَئِكَةِ فأنْتَ كَاذِبٌ مِنَ الكاذِبين.

وَتأْتِي البيانَات والمُعَالَجاتُ الرَّبَّانِيَّةُ في السُّورَةِ مُلَائِمَةً لِهَذَا الطَّوْرِ العِنَادِيِّ الإجْرَامِيِّ الْوَقِح، المُتَصَلِّبِ على الباطِلِ الْبَيِّنِ الْبُطْلان.

وتَأْتِي تَرْبِيَةُ اللهِ وَوَصَايَاهُ في السُّورَةِ لِرَسُولِهِ، ولحَمَلةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، ولِسَائِرِ المؤمنينَ، مُلَائِمَةً لهذا الطَّوْرِ الذي وَصَلَ إِلَيْهِ مَلأُ مُشْرِكِي مَكَّة.

(٣)

دُرُوسُ سُورَةِ (الحِجْر)

يمكن تقسيم سورة (الحِجْر) إلى سبعة دُروس، وهي ما يلي:

الدَّرْس الأوّلُ: الآيات من (١ ـ ١٥).

وفي هٰذا الدَّرس مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ أئِمَّة الكُفْرِ في مكَّةَ وَأتْبَاعِهِم إبَّانَ تَنْزيل هٰذِه السُّورَة، تُجاهَ تَكْذِيبِهِمْ بالْقُرْآنِ، وتَكْذِيبهم الرَّسُول محمّداً ﷺ، وتُجاهَ حَضِّهِم إيَّاهُ عَلَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بالملائكة، حَتَّىٰ يُصَدِّقُوهُ فِي نُبُوَّته وَرِسَالَتِهِ وبلاغاتِهِ عَنْ رَبِّه، وَتُجاهَ حَضِّهِم إيَّاهُ عَلَى أنْ يأتِيَهُمْ بالمَلَائِكَةِ حَتَّى يُصَدِّقُوهُ فِي نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ وَبَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، وتُجاهَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِمَا يُنْذِرهم بِهِ من إهلاكٍ مُمَاثِلٍ لإهْلاك اللهِ كُفَّارَ القُرُونِ السّالفة، وبِمَا بَلَّغَهُمْ إيَّاهُ مِنْ أَنَّ القرآنَ ذِكْرٌ للْعَالَمِينَ كُلِّ العالِمينَ حَتَّىٰ آخِرِ وُجُودِ النَّاسِ على الأرض، مُتَوَهِّمين أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُهْمَلَ ويُنْسَىٰ بَعْدَ وَفَاةِ محمَّد والمهْتَمِّينَ بِهِ مِن الّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، ثُمَّ لَا يَتَهَيَّأُ لَهُ الحِفْظُ الدَّائمُ حتَّىٰ آخِرِ حَيَاةِ الناس في الأرض.

وفِيهِ بَيَانُ مَكَابَرتِهم وعِنَادِهِمْ وجُحودِهِمُ الحقَّ الجليَّ، وإصرارِهم على الْبَاطِلِ، ولَوْ أجْرَىٰ اللهُ لَهُمْ آيَةً خارِقَةً تَجْعَلُهُمْ يَعْرُجُونَ فِي السَّماءِ وَيُشَاهِدُونَ مِن آيات اللهِ فيها ما يُشَاهِدُون، إذْ يَزْعمون أَنَّ أَبْصَارَهُمْ حِينَئِذٍ مَحْجُوبَةٌ لَا تَرَىٰ أشْيَاءَ مِنْ واقِعٍ تُشَاهِدُه الأبْصار حَقًّا، وَيَزْعُمُونَ عقِبَ هٰذَا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ قَدْ أَثَّرَ فِيهِم سِحْرُ الرَّسُول فَجَعَلَهُمْ يرَوْنَ أَنَّهُمْ يَعْرُجونَ فِي السَّماء، وَيُشَاهِدُونَ فيها ما يُشَاهِدُونَ، إمْعَاناً مِنْهُمْ في المكابَرَةِ والْعِنَاد.

الدّرْس الثاني: الآيات من (١٦ ـ ٢٥).

وفي هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِه، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ طائِفَةٍ مِن صِفَاتِهِ الجليلةِ الهاديَةِ إلى تَوْحِيد اللهِ فِي رُبوبِيَّتِهِ، وتوحِيدِهِ في إلَهيَّتِهِ، وأَنَّهُ هُو الَّذي يُحْيِي ويُمِيتُ، وأَنَّهُ هو الْعَلِيمُ بالسّابِقين من النَّاس في القرونِ الْخَوالي، والْعَلِيمُ باللَّاحقِين، وَأَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوَهُمْ، ثُمّ لِيُجَازيهم يوْمَ الدّين عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا باخْتِيَاراتِهِم في الحياة الدُّنيا مِنْ خيرٍ أو شرّ.

الدَّرس الثالث: الآيات من (٢٦ ـ ٤٤).

وفي هَـٰذَا الدَّرْس عَرْضُ لَقَطاتٍ مِنْ قصَّة خَلْقِ آدم وما رافَقَهَا من أحْدَاث، وَفيها دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الإنسان مَخْلُوقٌ لِيُوضَعَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، الذي يَسْتَلْزِمُ في حكمة الله الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذَ الجزاءِ يوم الدّين.

الدّرْس الرابع: الآيات من (٤٥ ـ ٥٠).

وفي هَـٰذَا الدَّرْس بيانُ لَقَطاتٍ من جَزَاءِ الْمُتَّقين يوْمَ الدين، مع بيان أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الغفورُ الرَّحيم، وأَنَّ عَذَابَهُ هو العذابُ الأليم. ولا يَبْعُد أنْ يكون هذا الدرس من توابع الدّرْس الثالث.

الدرس الخامس: الآيات من (٥١ ـ ٧٧).

وفي هَـٰذَا الدَّرْس عَرْضُ لَقَطاتِ مِنْ قِصَّةِ إبراهيم عليه السَّلام، وقصَّة لوط عليه السَّلام مَعَ قومِه، وما أَنْزَلَ اللهُ بقومِه من تَعْذِيب وإهْلاك شامِلَيْنِ، ليَعْتَبِر بهما المعَالَجُونَ المكابِرُونَ المعانِدُونَ.

الدرس السادس: الآيات من (٧٨ ـ ٨٤).

وفي هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرضٌ مُوجَزٌ لإهْلَاكِ أصْحَاب الْأَيْكَةِ قَوْمِ الرسُولِ

شُعَيْب عليه السَّلام، لِيَعْتبرَ به المعَالَجُونَ، ولأصحاب الحِجْرِ قَوْم الرَّسُول صالح عليه السَّلام، وهم قَبيلَةُ «ثمود».

الدَّرسُ السابع: الآيات من (٨٥ ـ ٩٩) آخر السورة.

وفي هَـٰذَا الدَّرس تَرْبيةٌ بوصَايا للرَّسُولِ محمد ﷺ، وفيه طَمْأَنَةٌ لَهُ وَتَسْلِيَةٌ، وَتَكْليف لَهُ بأنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ ويكونَ مع السَّاجِدِين، وبأنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ بِمَحَابِّهِ الشَّامِلَةِ لقيامِهِ بوظائفِ رِسَالَتِهِ حتَّىٰ يأتِيَهُ يَقِينُ الموت.

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي للدَّرس الأوّل من دُرُوس سورة (الحِجْر) الآيات من (١ ـ ١٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٥) وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾.

القراءات:

(١) • سكَتَ أبو جعفر على الحروف الثلاثة من: (الٓر) سكْتَةً لطيفَةً مِنْ دُونَ تَنَفُّس.

(٢) • قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر: **[رُبَمَا]** بِفَتْحِ الباء دون تَشْدِيد. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[رُبَّمَا]** بِتَشْدِيد الباء مفْتُوحة.

(٣) • قرأ أبو عمْرو، ورَوْح: **[وَيُلْهِهِمِ الْأَمَلُ]** بكَسْرِ هاء الضميرِ وميم الجمع وصْلاً.

وقرأها حمْزة، والكسائي، ورُوَيْس، وخلف: **[وَيُلْهِهُمُ الْأَمَلُ]** بضَمِّهما وصْلاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم وصلاً **[وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ]**.

أما عند الوقف فقرأ رُويْس وحْدَهُ بضَمّ هاء الضمير وسكون الميم، وقرأها الباقون بكسْرِ الهاء وسكون الميم وهي وُجُوهٌ من النُّطْق عَرَبيَّة.

(٨) • قرأ شعبة: **[مَا تُنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ]** بالمبني لما لم يُسَمَّ فَاعلُه، و«الملائكة» نائبُ فاعل.

وقَرأها حفْصٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: **[مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ]** بالمبني للمعْلُوم، و«الملائكة» مفعول به، والفاعل المتكلم العظيم جلّ جلاله.

وقرأها البزّي: **[مَآ تَّنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ]** بِتَشْدِيد التَاءِ مع المدّ المشبع، أصْلُها: «ما تَتنَزَلُ» أدْغمت التاء بالتاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مَا تَنَزَّلُ الملَائِكَةُ]** بحذف إحدى تاءَي «تتنَزَّلُ».

وكُلُّها وُجُوهُ عَربية، وبَيْنَ المبني للمعلوم، والمبني لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ تَكَامُلٌ في الأداء البياني، فالملائكة يُنَزِّلُهَا اللهُ، وهِيَ تُنَزَّلُ، وهِي تَتَنَزَّل طاعةً لأمر الله.

(١٥) • قرأ ابْن كثير: [**سُكِرَتْ**] بِكَسْرِ الْكَاف دُونَ تَشْدِيد، أي: سُدَّتْ فَحُجِبتْ عَنْ الرُّؤيَةِ الحقّ.

وقرأها باقِي القرّاء العشرة: [**سُكِّرَتْ**] بِكَسْرِ الكافِ مع التشديد، أي: سُدَّتْ سَدّاً شدِيداً.

ودلَّت القراءتان على أنّ بَعْضَهُمْ يَقُولُونَ: «سُكِرَتْ» وآخرون يقُولون: «سُكِّرَتْ» بِحَسَبِ اختلافِهم في نسبة جُحُودِهم.

تمهيد:

بدأ هَـٰذَا الدَّرس بالتَّنْويهِ بِمَجْدِ القرآنِ الدَّالِّ على صِدْق مبلّغِهِ عَنْ رَبّه، رسُولِ اللهِ محمّد ﷺ، توطئَةً لِمُعَالَجَةِ الْكافِرين المكذّبين للرَّسُول، والمُكذّبينِ بالقرآن أنَّهُ تَنْزِيلٌ من رَبّ العالمينِ.

وجاء فيه تَوْصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بأنْ يَذَرَ الْكَافِرينَ المعانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ الْجُحُود، بَعْد أَنْ وَصَلُوا إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤوسٍ مَعَها من أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ بِإِرَادَاتِهِم الْحُرَّة، فَقَدْ بَلَّغَهُمُ الرَّسُولُ، وَبَيَّنَ لَهُمْ، وَأَطْمَعَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ، وَقَدَّم لَهُمْ كُلَّ وَسَائِلِ الإقْنَاعِ المُمْكِنَةِ وكُلَّ أَسَالِيب الترغِيب والتَّرْهِيب، فلَمْ يَسْتَجِبُوا مع إدْرَاكِهِمْ أنَّ القرآن حَقٌّ، وأنَّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ صَادِقٌ فيما يَدْعُوهُمْ إليه.

وجاء فيه بَيَانُ مُوَاجَهَتِهِمُ الْوَقِحَةِ للرَّسُولِ بأنَّهُ لَمَجْنُون، ومطالَبَتُهُمْ لَهُ بَتَحْضِيضٍ أَنْ يَأتِيَهُمْ بِالْمَلاَئِكَةِ.

وجاء فيه الإجابَةُ عَلَىٰ مَقُولَةٍ مَطْوِيَّةٍ قَالَهَا أئِمَّةُ الكُفْرِ وَالْجُحود فِي

مَكَّة، مُفَادُهَا: أَنَّ مُحمّداً يَزْعُمُ أَنَّ القرآن الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْنَا هو ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ حَتَّىٰ آخِرِ أَجْيَالِ النَّاسِ في الْأَرْضِ، فَهَلْ هُوَ يَمْلِكُ إِذَا مَاتَ أَنْ يَحْفَظَ هَـٰذَا القرآن مِنْ بَعْدِهِ، دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ للضَّيَاعِ، أو النِّسْيَانِ، أو التغيير والتّبدِيل، فَأَجَابَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ مُنْزِلُ القرآنِ عَلَى هَـٰذَا التَّشْكِيكِ بِقَوْلِهِ في هَـٰذَا الدَّرْس:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي: إِنَّ مُنَزِّلَهُ الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ هُو الَّذِي جَعَلَهُ ذِكراً لِلْعَالَمِينَ جَمِيعاً، وهو الَّذِي تَكَفَّلَ بِحِفْظِهِ، وقَدْ تَحَقَّقَ هَـٰذَا مُنْذُ زَمَنِ تَنْزِيلِهِ، حَتَّىٰ يَوْمِنَا هَذا، وسَيَبْقَىٰ مُتَحَقِّقاً كَمَا وَعَدَ الله جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ الْمُجْرِمُونَ المُعانِدُون الْمُصِرُّونَ على الباطل.

وَجاء في هَـٰذَا الدَّرْسِ مُعالَجَةٌ لِلْمُعَانِدِينَ بالْوَعِيد، مع ضَرْب المثَلِ بالمُهْلَكِينَ السَّابقين مِنْ كُفَّارِ أَهْلِ الْقُرَىٰ أمْثَالِهِم، الَّذِينَ واجهُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ وَمَا جَاءوهُمْ بِهِ عَنْهُ، بالكُفْرِ والاستهزاء.

وجاء فيه بَيَانُ أَنَّ أئِمَّةَ الكُفْرِ المُكابِرِينَ المُعَانِدِين في مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، قَدْ بَلَغُوا حَضِيضَ الكفر العناديّ الإجرامِيّ، فلَوْ فَتَحَ اللهُ لَهُمْ مِنْ آياتِهِ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ، وَجَعَلَ لَهُمْ مِعْرَاجاً فَظَلُّوا طَوال نهارِهم يَعْرُجُونَ فِيهِ، وهُمْ يَشْهَدُونَ في عُرُوجِهِمْ آياتِ الله، لَقَالُوا: إِنَّمَا سُدَّتْ أَبْصَارُنَا، فَنَحْنُ لَا نَرَىٰ إلَّا أوهَاماً وخيالَاتٍ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُون.

التّدبّر التحليلي:

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾.
- ﴿الٓرۚ﴾: هَـٰذِهِ مِنَ الْحُرُوفِ المقَطَّعَةِ الَّتِي بَدَأَ اللهُ بِهَا بعْضَ

السُّوَر، وقَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا فِي تَدَبُّرِ أَوَّلِ سُورَةِ (القلم/ ٤ نزول).

- ﴿... تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ①﴾:

جاءت الإشارة إلى آياتِ القرآن باسم الإشارة في: ﴿تِلْكَ﴾ الموضوعة للمشارة إِلَيْها البعيدة مع قُرْبها، لِغَرَضِ الدَّلالَةِ على ارْتفاعِ مَكَانَتِها فِي بلاغَتِهَا، وفي المعاني السَّامِية الَّتي اشْتَمَلَتْ عليها دَلالَاتُ جُمَلِها، وارْتفاعُ مكانتها يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، وأنَّ كُلَّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِها، وهو ما جاء مُصَرَّحاً بِهِ فِي نُصُوصٍ أخرى.

وسُمِّيَتْ أجْزاءُ السُّورَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بفَاصِلاتِها «آيَات» لأنّ فيها عَلاماتٍ دالَّاتٍ علىٰ كَوْنِهَا مُنَزَّلَاتٍ من عند الله، ولَيْسَتْ مِنْ كلام إنْسٍ وَلَا جِنٍّ وَلَا غَيْرِهِمَا مِنْ خَلْقِ الله.

الآية: في اللُّغَةِ هي الْعَلَامَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ شَيءٍ ما، مُدْرَكٍ بالحواسّ أو غير مُدْرَكٍ بها، كالفكْرِيَّاتِ والْوِجْدَانِيَّات.

وأُطْلِقَ عَلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ على مُحَمَّدٍ مِنْ بيانٍ كَلَامِيّ لَفْظُ «الكتاب» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ وُجُوبِ تَدْوِينِهِ بالكِتَابَةِ، وجَعْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ كِتَاباً مُحَرَّراً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، مَحْمِيًّا مِنَ التَّحْرِيف والتغيير بالزِّيادة، أو النقص، أو التَّبْدِيل، و«ال» في لفظ «الكتاب» للكمال.

وأطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظُ «قُرْآنٍ» و«الْقُرآن» للدّلَالَةِ عَلَىٰ وُجُوبِ ضَبْطِهِ، قِرَاءَةً لِمَا كُتِبَ مِنْهُ مُنْضَبِطاً، وللدَّلَالَةِ عَلَىٰ أنّه يجبُ أَنْ تَكُونَ تِلَاوَةُ المحْفُوظِ مِنْهُ مَطَابِقَةً لِقَرَاءَةِ مَا كُتِبَ في الصُّحُفِ مِنْهُ.

لفظ «قُرآن» مصدر لفعل «قَرَأ». يقال لغة: «قَرَأَ الكِتَاب، يَقْرَؤه، قِرَاءَةً، وقُرْآناً» أي: تَتَبَّعَ كَلِمَاتِهِ نَظراً وَنَطَقَ بها.

وشاعَ في الاسْتِعْمَالِ إطْلاقُ قِراءَةِ القرآنِ على تِلَاوَةِ المحفوظ مِنْهُ، ولَوْ لَمْ يُصَاحِبْ ذَلِكَ تَتَبُّعُ المكْتُوبِ مِنْهُ في الصُّحُف.

وَجَاءَ فِي الآيَةِ عَطْفُ ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ باعْتِبَارِ اخْتِلَافِ الْوَصْفِ.

- ﴿مُّبِينٖ﴾: أي: جَلِيٌّ وَاضِح مِنْ فِعْلِ «أَبَانَ» اللّازم. ومُبِينٍ للمعارِفِ، والْعُلُومِ، والحقَائِقِ، والتكالِيف، الَّتِي شَاءَ الله إعْلَامَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَتَها، للإيمان بها، وطَاعَةِ أوامر اللهِ وَنَواهِيهِ فيها، مِنْ فعل «أبَانَ» المُتعدّي.

يقال لغةً: «أَبَانَ الشيْءُ» أي: وَضَحَ وظهر، فهو «مُبين» ويقال: «أبان نورُ المِصْباحِ جُدْرَانَ الْغُرْفَةِ» أي: أظْهَرها وَأَوْضَحها.

جاء تَصْدِيرُ السُّورَةِ بِهَـٰذِهِ الآيَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ قَضِيَّتَيْن:

القضيَّة الأولى: أنَّ القرآنَ كَلَامُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

القضيَّة الثانِيّة: أنَّ مُحَمَّدَ بن عبد اللهِ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حَقًّا وصِدْقاً، إذْ لا يَسْتَطِيعُ إنْسٌ وَلَا جِنٌّ أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآن.

وَقَدْ كَفَرَ كُبَراءُ مُشْرِكي مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ بهاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْنِ كُفْراً عِنادِيًّا جُحودِيًّا، مَعَ وُضُوح الْحَقِّ لهم، وجَاءَتْ مُعَالَجَتَهُمْ وَتَوصِيَةُ الرسُولِ ﷺ بِشَأْنِهِمْ مُلَاحَظاً فيهما كُفْرُهُمْ بِهَاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْن معانِدِينَ مُكَابِرِين جَاحِدِين.

وَقَد جَاء في الْقُرآنِ تَصْدِيرُ بَعْضِ السُّور بما يُشْبهُ هَـٰذِهِ الآيَة:

(١) ففي أوّل سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال الله تعالى:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾.

(٢) وفي أوّل سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قَالَ الله تَعَالَىٰ:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾.

(٣) وفي أول سورة القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) قال اللهُ تعالَىٰ:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾.

(٤) وفي أول سورة (يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول) قال الله تعالَى.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾.

(٥) وفي أول سورة (يوسف/١٢ مصحف/٥٣ نزول) قال الله تعالَى.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾.

(٦) وفي أول سورة (الْحِجْر/١٥ مصحف/٥٤ نزول) الَّتي بدأت تَدَبُّرَهَا قال الله تعالَى.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾.

(٧) وفي أول سورة (لقمان/٣١ مصحف/٥٧ نزول):

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾.

ونُدْرِكُ مِنْ هَـٰذِهِ التَّصْدِيرَاتِ أَنَّ السُّوَرَ الَّتِي صُدِّرَتْ بِهَا تَتَضَمَّنُ بَيَانَاتٍ تَتَعَلَّقُ بالقرآنِ الكِتاب الْمُبِينِ الْحَكِيم.

- قول اللهِ تَعَالَىٰ:
- ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾:

«رُبَما» بتَخْفيف الباء وتَشْديدِها، هي «رُبَّ» وهي حَرْفُ جَرٍّ لَا يَجُرُّ إِلَّا النَّكرة، وقد لَحِقَتْهَا هُنَا «مَا» الزَّائِدَة فَكَفَّتْهَا عَن الْعَمل، والغالِبُ على «رُبَّ» المكْفُوفَةِ بـ «ما» عن العمل أَنْ تَدْخُلَ على فعْل ماضٍ، وقد تَدخل

على فِعْلٍ مُضَارِعٍ تنزيلاً لَهُ مَنْزِلَةَ الماضِي للإشْعَارِ بأنَّهُ سَيَتَحَقَّقُ وُقُوعُهُ. ومعناها التكْثِير هنا:

- ﴿يَوَدُّ﴾: أي: يَرْغَبُ بِشِدَّةٍ وقُوَّةٍ.
- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هُمُ الْمَعْنِيُّونَ بالمعَالَجَةِ فِي السُّورَةِ إبَّانَ التَّنْزِيل، وهُمْ أئِمَّةُ الكُفْرِ الْعِنَادِيّ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ باطِلِهِم، وتَكذِيب الرَّسُولِ، وجُحُودِهِم القرآنِ الّذي يَتْلُوهُ عَلَيْهِم بَلَاغاً عن اللهِ العزيز الحكيم، مع اسْتِيقَانِ نُفُوسِهِمْ أنَّهُ كَلَامُ اللهِ ولَيْسَ كلامَ إنْسٍ ولا جِنّ.

فالمعْنَىٰ: سَيَأْتِي زَمَنٌ لَيسَ بالْبَعِيد يَكْثُرُ فِيهِ أنْ يَوَدَّ هَـٰؤُلاءِ الْكَافِرُونَ المعانِدُونَ المصِرُّون على بَاطِلِهِمْ، لَوْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ الزَّمَنِ مُسْلِمِينَ مِنْ أتباعِ مُحَمَّدٍ المناصِرِينَ لِدَعْوَتِه، إذْ يُحَقِّقُ اللهُ لِرَسُولِهِ ولأتْبَاعِهِ الْمُسْلِمِينَ النَّصْرَ الْمُؤَزَّرَ عَلَىٰ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكَّةَ وَغَيْرِهِم.

وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ عزَّ وجلَّ هَـٰذَا النَّصْرَ العظيم في غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، وتَمَنَّىٰ كَثِيرٌ مِن الْمَعْنِيِّين بالبيانِ يَوْمَئِذٍ لَوْ أنَّهُمْ كانُوا مُسْلِمِين، لِيَحْمُوا أنفسهم مِن الهزيمَة الشَّنِيعَةِ الَّتِي أنْزَلَهَا اللهُ بِهِمْ، وقُتِلَ فيها معظم أَئِمَّتِهِم وصَنَادِيدِهِمْ، وأُسِرَ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنْهم.

أَمَّا تَمَنِّيهِم عِنْدَ الموْتِ، أَوْ بَعْدَهُ، أَوْ بَعْدَ الْبَعْث، وعلى أَبْوَابِ جَهَنَّم، أو بَعدَ دُخُولِهِمْ فِيها، لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، فَهَذَا أَمْرٌ مَقْطُوعٌ بِهِ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِم، وقَدْ جَاءَتْ بِهِ نُصُوصٌ قرآنِيَّةٌ صَرِيحَة، وهَـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الآيَةَ هُنَا الْمَبْدُوءَة بعبارَة: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ يُقْصَدُ بِهَا مَا تَحقَّقَ وُقُوعُهُ في الْمَعارِكِ الَّتِي انْتَصَرَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ الكافِرِين، وظَفِرُوا بالْغَنَائِمِ الوفِيرةِ، ولهَـٰذَا اخْتِيرَ في الآيَةِ عِبَارة: ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾. أَمَّا بَعْدَ الموْتِ فإنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ جَمِيعاً لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِين، إذ الْمُسْلِمُونَ قَدْ يَدْخَلُ فِيهِم الَّذِينَ أسْلَمُوا وَلَمَّا يَدْخُل الإيمانُ فِي قُلُوبِهِمْ، والمنافِقُون الَّذِينَ أعْلَنُوا إسْلَامَهُمْ وهُمْ كافِرُون.

ولا يَخْفَىٰ مَا في هذه الآية من إلْماحٍ يُشْعِرُ بوَعْدٍ فِيهِ طمأنَةٌ لِلْمُسْلِمين بِالنَّصْرِ عَلَىٰ الكافِرين، وفيه إِنْذارٌ لِلْكَافِرين بأنَّهم سيُغْلَبُون وسَيَوَدُّ كَثيرٌ مِنْهُم لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، حَتَّىٰ يَظْفَرُوا مَعَهُمْ بالنَّصر، ولا يكونُوا هُمُ المهْزُومِينَ المغْلُوبِين.

- قول اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُوله فِي وصِيَّةٍ تَرْبَوِيَّة تتعلَّقُ بهؤلَاء الأئمة المعانِدِينَ:

- ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾:

أي: وبِمَا أَنَّ هٰؤُلَاءِ الْمُكَابِرِينَ الْمُعَانِدِين قد أَصَرُّوا عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وصَارَتِ اسْتِجَابَتُهُمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ بِإِرَادَاتِهِم الحُرَّةِ مَيْؤُوساً مِنْها، فَنُوصِيكَ بأَنْ تَتْرُكَهُمْ مُوَجِّهاً هَمَّكَ وَهِمَّتَكَ لِدَعْوَةِ غَيْرِهِم مِن الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ الْيَأْسِ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ، وَلَا تُضِعْ جَهْدَكَ وَوَقْتَكَ بهؤلَاءِ وَهُمْ غَيْرُ مَطْمُوعٍ في اسْتِجَابَتِهِمْ.

فإذا تَرَكْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ يَأْكلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَام، ويَتَمَتَّعُونَ بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيا كَمَا تَتَمَتَّعُ الْأَنْعَامُ وَالْبَهائِمُ الْعَجْمَاوات، وإِنَّهُمْ يُلْهِيهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِم أَنْ يَعْمَلُوهُ لِنَجاتِهِمْ وَفَوْزِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، الْأَمَلُ الَّذِي لَا يَتَحَقَّقُ لَهُمْ مِنْهُ شيءٌ، إِذْ يَجِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ خَسِرُوا رَأْسَ مَالِهِمْ كُلَّهُ، وخَسِرُوا نُفُوسَهُمْ، وَقَذَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِاخْتِيَارَاتِهِمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ بَعْدَ أَنْ يَجِدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي دَارِ العذاب، يَذُوقون الْحَرِيقَ، أَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ، وَكَانُوا ظَالِمِينَ لِنُفُوسِهِمْ بِمَا قَدَّمُوا لآخِرَتِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ.

- ﴿ذَرْهُمْ﴾: أي: اتْرُكْهُم، أَمَاتَ العربُ مَاضِيَ هذا الفِعْل ومَصْدَرَهُ، ولم يُبْقُوا مِنْهُ إلَّا المضارعَ والْأَمْرَ مِنْه.

- ﴿وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾: أي: وَيَنْتَفِعُوا بِمَتَاعَاتِ الحياة الدّنيا. **المتاع**: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ والفناء يأتي عَلَيْهِ فِي الدنيا.

- ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾: أي: ويَشْغَلُهُمْ فيَسْتَهْلِكُ أوقاتَهُم وَطاقَاتِهِمُ الْأَمَلُ الَّذي لَيْسَ لَهُ واقعٌ مَطْمُوعٌ فِيهِ، بَلْ هُوَ أَوْهَامٌ وَتَصوُّرَاتٌ ذِهْنِيَّةٌ ضَائِعاتٌ.

قول اللهِ تعالَىٰ:

- ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾:

تَدُلُّ هَاتَانِ الآيَتانِ عَلَىٰ أَنَّ المعْنِيِّينَ بِالْبَيانِ، قَدْ طَالَبُوا الرَّسُول بأنْ يُحقِّقَ اللهُ مَا أَنْذَرهُمْ بِهِ، مِنْ إهْلاكٍ مُمَاثِلٍ لإهْلاكِ كُفَّار القرونِ السَّالِفَة، وهُمْ لَا يَقْصِدُونَ في الحقِيقَةِ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ، ولَكِنْ يُعْلِنُونَ بهَـٰذَا أَنَّ الرَّسُولَ محمّداً غَيْرُ صَادِقٍ فِي إنْذَارِهِ لَهُمْ، مُغْتَرِّينَ بِإِمْهَالِ اللهِ لَهُمْ.

فأبَانَ اللهُ لَهُم أَنَّ مَقَادِيرَهُ ذَوَاتُ آجَالٍ، وأنَّ هَـٰذِهِ الآجَالَ مُحَدَّدَةٌ، وَمَكْتُوبَةٌ مُدَوَّنَةٌ، وَمَعْلُومَةٌ دواماً، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ تَسْبِقُ أجلَهَا المقدَّرَ لَهَا، في أيِّ شيءٍ تَمَّ بِهِ قَضَاءُ رَبِّها، وَمَا مِنْ أُمَّةٍ تَمْلِكُ تَأْخِيرَ أجلِهَا المقدَّرِ لَهَا، فِي أيِّ شَيءٍ تَمَّ بِهِ قضاءُ رَبِّها.

- ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾: أي: إلَّا قُدِّر وقُضِيَ لإهْلاكِهَا أَجلٌ، ولَهَا فِي ذَلِكَ كِتَابٌ مَعْلُومٌ لله.

ومِنْ ذَلِكَ تَعْجيلُ عِقَابِ مسْتَحِقّي الْعِقَاب عَنْ أَجلِهِ المقدّر المقْضِي له، أو تَأْخِيرُه، وتَعْجيلُ إهْلَاك مُسْتَحِقّي الإهْلَاكِ أو تَأْخِيرُه، عَنْ أَجلِهِ المقَدَّرِ المقْضِيّ له.

فالمعنى: وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ كَافِرِينَ كَانُوا يَسْتَحِقُّونَ التَّعْذِيبَ والإهْلَاكَ، إلَّا في أَجلَهِم الْمُقَدَّرِ الْمَقْضِيِّ لِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهِم، وهَـٰذَا الأَجَلُ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ، وَمَعْلُومٌ للهِ عزَّ وجلَّ، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ مِنْهَا سَبَقَ تَعْذِيبُها وإهْلَاكُهَا الْأَجَلَ الْمُقَدَّرَ لَهَا، وَمَا مِنْ أُمَّةٍ مِنْها تَأَخَّرَ تَعْذِيبُهَا

وإهْلَاكُهَا عَنِ الْأَجَلِ المقدَّرِ المقضيِّ لَها. وكَذَلِكَ الْحَالُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ يَسْبِقُ مُسْتَقْبلاً تَعْذِيبُها وإهْلَاكُهَا الْأَجَلَ المقدَّرَ المقْضِيَّ لها، أُسْنِدَ السَّبْقُ لِلْأُمَّةِ وَالْمُرَادُ سَبْقُ تَعْذِيبها وإهْلَاكها. ومَا مِنْ أُمَّةٍ تَسْتَطِيعُ بِكُلِّ وَسَائِلِها أَنْ تَسْتَأْخِرَ تَعْذِيبهَا وَإِهْلَاكَها، عَنِ الْأَجَلِ الْمُقَدَّرِ المقْضِيِّ لها.

الْأَجَل: يأتي في اللُّغَةِ للدَّلالَةِ علَىٰ ثَلاثَةِ مَعَانٍ:

(١) غايَة الوقْت المحَدَّدِ لشَيْءٍ ما، أو المأذونِ بِهِ لشيءٍ ما.

(٢) الوقْت المحدّد أو المناسب لحصُولِ شيءٍ ما وابْتداء زَمَانه.

(٣) المدَّة المحدَّدَة لشَيْءٍ ما، والمحصورة بَيْنَ أوَّلٍ وآخِر.

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي: وَمَا يَسْتَطِيعُونَ تَأْخِيرَ أَجَلِ تَعْذِيبِهِمْ وَإهْلَاكِهِم. يُقَالُ لغةً: «اسْتَأْخَرَ» أي: «تَأَخَّرَ».

وأرى: أَنَّ السِّينَ والتَّاء للدَّلَالَةِ عَلَىٰ عَمَلِ أمْرٍ مَا فِيه تَأْخِيرُ أَجَلهم، وهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ التَّأْخِيرَ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ يحاولُونَ اسْتِخْدَامَها، لأَنَّ مَقَادِيرَ اللهِ وَأَقْضِيَتَهُ نَافِذَةٌ فِي أَوْقَاتِها حَتْماً، دُونَ تَعْجِيلٍ أَوْ تَأْجِيل، فلا رَادَّ لقضاءِ اللهِ وَحُكْمِهِ في أيِّ أَمْر مِن الْأُمُور، لَا بالسَّبْقِ ولا بالتَّأْخِيرِ عن أَجْلِهِ، ولا بالتغيير والتَّبْديلِ في شَيْءٍ مِنه.

قول اللهِ تعالَىٰ:

- ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾:

سبق في نجوم التنزيل بيانُ أنَّ القرآنَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، أي: لِكُلِّ الْعَالَمِينَ حَتَّىٰ آخِر مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ فِي الحياة الدُّنيا، مُنْذُ تَنْزِيلِ القرآن، فيجب عليهم أن يؤمِنُوا به ويَتَفَهَّمُوا معانِيه، ويَضَعُوا مَا هُو مطلوبٌ منهم فيه في ذاكراتهم ويَتذَكَّرُوه عند كل مناسبة داعية للتذكُّرِ.

(١) فجاء في آخر سورة (القلم/٦٨ مصحف/ ٤ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ بشأن القرآن.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾:

(٢) وَجَاء في أواخِرِ سُورَة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ بشأنِ القرآن أيضاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧﴾.

(٣) وجاء في آخِرِ سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ بِشأنِه أيضاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾.

(٤) وَجَاءَ في سورة (يُوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِ خطاباً لرَسُوله:

- ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٤﴾.

فَكَبُرَ عَلَىٰ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكَّة أَنَّ يَكُونَ الْقُرْآنُ ذِكراً لِكُلِّ الْعَالَمِين، وَأَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ رَسُولاً للنَّاسِ أَجْمَعِينَ في عَصْرِهِ وَبَعْدَهُ حَتَّىٰ قيامِ السَّاعَة، فواجَهُوهُ بالشتمية قَائِلِينَ لَهُ:

﴿... يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾:

أي: أَلَمْ يَكْفِكَ أَنْ تَكُونَ رَسُولاً لِأَهْلِ الحجاز وأَنْ يَكُونَ كِتَابُكَ ذِكْراً لَهم؟!. أَلَمْ يَكْفِكَ أَنْ تَكُونَ رَسُولاً للْعَرَبِ؟!. أَلَمْ يَكْفِكَ أن تَكُونَ رَسُولاً لِأَهْلِ عَصْرِكَ في بلاد الدُّنيا، وأَنْ يَكُونَ كِتَابُكَ ذِكْراً لَهُم؟!

مَا هَـٰذِهِ الدَّعْوَىٰ الْعَرِيضَةِ الَّتِي تَزْعُمُ فِيها أَنَّكَ رَسُولٌ للعالَمِينَ، كُلِّ الْعَالَمِينَ، وأَنَّ كِتَابَكَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، كُلِّ الْعَالَمِين، إِنَّ هَـٰذِهِ الدَّعْوَىٰ لَا يَدَّعِيهَا إِلَّا مَجْنُونٌ، فالرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ لَمْ يَدَّعُوهَا.

هَلَّا تَأْتِينَا بالْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ بِأَنَّكَ صَادِقٌ فيما تَدَّعِيه، إنْ كُنْتَ حَقًّا مِن الصَّادِقِين. دلَّت على هَـٰذَا مَقُولَتُهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾.

﴿لَّوْ مَا﴾ حَرْفُ تَحْضِيضٍ، مثل «هَلَّا» ومِثْلُهُمَا «لَوْلَا».

فمن الظَّاهر أنّ مقالَتَهُمْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ لَا تَتَضمنُ اعْتَرافاً مِنْهُمْ بأنّ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنْ قرآنٍ هو مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ العالَمِين، وَهُوَ ذِكْرٌ للعالَمِين، بَل هُمْ يُرَدِّدُون على سَبيلِ الاسْتهزاء مَا جَاءَ فِي بَيانَاتِهِ لَهُمْ مِنْ أنَّهُ تَنْزِيلٌ مِن رَبِّ العالَمِينَ، وَذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِمْ لَهُ بَعْدَها: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ مُؤكِّدِينَ بـ «إنَّ، والجملة الاسْمِيَّة، واللَّام المزحْلقَة».

■ فرَدَّ اللهُ عَلَىٰ قولهم له: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾ بقولِهِ تَعالَى:

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾.

أي: لَدَيْكُمْ مِنَ الآياتِ والْبَراهِينِ مَا يَكْفِي لإقْنَاعِكُمْ بأَنَّ محمّداً رَسُولُ رَبِّكُمْ حقًّا وَصِدْقاً، وأنْتُمْ مُسْتَيْقِنُونَ فِي نُفُوسِكُمْ مِنْ صِدْقِهِ وَصِدْقِ مَا يُبَلِّغُكُمْ عَنْ رَبِّه، فَمُطالَبَتُكُمْ إيَّاهُ بأَنْ يَأْتِيكُمْ بِالْمَلائِكَة أَمْرٌ بَاطِلٌ ليس لَهُ وَجْهُ حقٍّ، واللهُ رَبُّكُمْ لا يُنَزِّلُ الملائِكَةَ مِنْ مَوَاقِعِهَا فِي السَّمَاءِ إِلَىٰ الأرْضِ إلَّا تَنْزِيلاً مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ الَّذِي يَقْتَضِي الأَمْرُ الحَكِيمُ تَنْزِيلَها، وإذْ كَانَ طَلَبُكُمْ أَمْراً باطِلاً فاللهُ لَا يُنَزِّلُهَا وَلَا يَأْتِي بِهَا إليكم، فأبان الله عزَّ وجلَّ ذَلِكَ بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

• ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾: أي: وإنْ أَنْزَلْنَا الملائكةَ اسْتِجَابَةً لِطَلَبِهِمْ، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا وهو الذي سَيَكُونُ مِنْهُمْ، إذْ طَلَبُهُمْ طَلَبُ المُتَعَنِّتِ، لَا طَلَبُ الْبَاحِثِ عَنْ دَلِيلٍ يُقْنِعُهُ بِصِدْقِ الرَّسول، فإنَّ رَبَّهُمْ سَيُعَذِّبُهُمْ حِينَئِذٍ

فَوْراً ويُهْلِكُهُمْ، وَلَا يُمْهِلُهُمْ ولَا يُؤَخِّرُ أجَلَ إهْلَاكِهِمْ، وَيَكُونُ حَالُهُمْ كحال كُفَّارِ ثَمُودَ قَوْمِ الرَّسُولِ صَالحٍ عَلَيْهِ السَّلام، إذْ طَلَبُوا آيَةَ النَّاقَةِ فَلَمَّا آتاهُمُ اللهُ آيَةَ النَاقَةِ أصَرُّوا على كُفْرِهم.

- ﴿إِذَا﴾ يَرى النَّحْوِيُّونَ أنَّها لَا تَدُلُّ عَلَىٰ معنى إذا افْتَقَرَ مَا قَبْلَهَا إلَىٰ مَا بَعْدَهَا. وأرَىٰ أنَّها بِمَعْنَىٰ «حِينَئِذٍ» بالنَّظَر إلَىٰ جُمْلَةِ المعنى.

- ﴿مُّنظَرِينَ﴾: أي: مُمْهَلِينَ مُؤَخَّرِينَ.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ⑨﴾:

دلَّت هَـٰذِهِ الآيَةُ أَخْذاً مِنْ إيحاءات الآيَةِ السَّادسةِ، أنَّ المعْنِيّين بالبيانِ قَالُوا لِلرَّسُولِ محمّدٍ ﷺ: أنْتَ تَزْعُمُ أنَّ هَـٰذَا القرآنَ الَّذِي تَتْلُوهُ هُوَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ حَتَّىٰ آخِرِ إنْسَانٍ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، فهَلْ أنْتَ ضَامِنٌ بَعْد مَوْتِكَ، أَنْ يَبْقَىٰ هَـٰذَا القرآنُ مَحْفُوظاً مِنَ النِّسْيَانِ والتَّغْيير والتَّبْدِيلِ والتَّحْرِيفِ، ما دَامَ فِي الْأَرْضِ بَشَرٌ، مَهْمَا تَتَابَعَتِ الأجْيَالُ وَتوَالَتِ الْقُرُونُ وَالْأَحْقَاب؟! وَمَا هِي وَسِيلَتُكَ لحِفْظِهِ وأنْتَ بَيْنَ الموتَىٰ؟!

فَرَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِمْ بَهَـٰذِهِ الْآيَةِ مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلم العظيم:

أي: لَيْسَ مُحَمَّدٌ هو الَّذِي جاء بالْقُرآنِ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّىٰ يَحْفَظَهُ فِي النَّاسِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَانْقِطَاعِ عَمَلِهِ فيهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لا غَيْرُنَا ﴿نَزَّلْنَا﴾ هَـٰذَا الْكِتَابَ الَّذِي جعَلْنَاهُ ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ لِلْعَالَمِين حَتَّىٰ آخِرِ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ فِيهِمْ، وَكَلَّفْنَاهُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ ذِكْراً ﴿وَإِنَّآ﴾ فِي الْوُجُودِ أَزَلاً بِلَا بِدَايَةٍ وَأَبَداً بِلَا نِهَايَةٍ ﴿لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ المتكَفِّلونَ بِحِفْظِهِ، والضَّامِنُونَ لَه.

إنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لمَّا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا الدِّينُ

خَاتِمَةَ رِسَالاَتِهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِين، جَعَلَ رَسُولَهُ مُحَمّداً خَاتمَ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ، وجَعَلَ كِتَابَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ خَاتِمَةَ كُتُبِهِ للنَّاسِ أَجْمَعِين، وإِذْ كَانَ هَـٰذَا الكتاب آخِرَ كُتُبِهِ للنَّاسِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ السَّامِيَةِ أَنْ يَحْفَظَهُ مِن النِّسيان والتَّغْيير والتَّحْرِيف والتَّبْديل والزِّيَادَةِ والنَّقْصِ، فَتَدَخَّلَ قَضَاؤُهُ وَقَدَرُه بِتَهْيئَةِ وَسَائِلِ حِفْظِهِ بَيْنَ النَّاسِ، ولو عَنْ طَرِيقِ إِرادَاتِ عبادِهِ المؤمنين، ولَمْ يَفْعَلْ مِثْلَ هَـٰذَا الحِفْظِ في النَّاسِ لكُتُبِهِ السَّابِقَةِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَجْعَلَهَا ذِكْراً لِلنَّاسِ أَجْمَعِين، حَتَّىٰ آخِرِ أَجْيَالِ النَّاسِ في الْأَرْض.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُوله:

● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾:

● ﴿شِيَعِ﴾: جَمْعُ «شِيعَة» وهم القوم أو الجماعَةُ مِن الناسِ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ أَمْرٍ ما ـ وكُلُّ قَوْمٍ أَوْ جَماعَةٍ لَهُمْ أَمْرٌ واحِدٌ هُمْ متَّفِقون عليه، أَوْ لَهُمْ مَذْهَبٌ وَاحِدٌ يَسِيرُونَ عَلَيْهِ، أَوْ لَهُمْ طَرِيقَةٌ واحِدَةٌ يَتَّبِعُونَها، ولو لم يُنَاصِرْ بَعْضُهُمْ بعضاً، ولَوْ لَمْ يكُونُوا فِي زَمَنٍ واحِدٍ.

والمرادُ بعِبَارَة: ﴿شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جَمَاعَاتُ الكُفْرِ والشِّرْكِ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللهُ لَهُمْ رُسُلاً مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، فاسْتَهْزؤُوا بهم.

في هٰاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ محمّد ﷺ، في مُقَابِلِ مَا لَقِيَهُ مِن اسْتِهْزَاءِ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، إِذْ كَبُرَ في نُفُوسِهِمْ أَنْ يَكُونَ رَسُولاً لِكُلِّ الْعَالَمِينَ، وأَنْ يَكُونَ كِتَابُهُ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ ذِكْراً لِكُلِّ العالَمِينَ حَتَّىٰ آخِرِ أجيال الناسِ في الأرْضِ.

فأبانَ اللهُ لَهُ أَنَّهُ ما مِنْ رَسُولٍ مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا كَانَ كُفَّارُ قَوْمِهِ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَبِدَعْوَتِهِ، فَهَـٰذَا هُوَ سُلُوكُ كُفَّارِ النَّاسِ جَمِيعاً مَع رُسُلِ رَبِّهِمْ.

قول اللهِ تعالَىٰ:

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾:

﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾: أي: نُدْخِلُه. **السُّلُوكُ فِي شَيْءٍ**: هُو الدُّخُول فيه.

وقَدْ ظَهَرَ لي أنَّ الضَّمِيرَ فِي نَسْلُكُه يَعُودُ عَلَىٰ «رسُول» مِن آيَةِ ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١﴾.

فالْمَعْنَىٰ: مِثْل ذَلِكَ الدُّخُولِ الَّذِي دَخَلَهُ كُلُّ رَسُولٍ سابقٍ فِي قُلُوبِ مُجْرِمِي قَوْمِهِ، فقَابَلُوا عِلْمَهُمْ بِدَعْوَتِهِ وَبَلاغاتِهِ بالكُفْرِ والتَّكْذِيب والجُحُودِ والاسْتِهزاء، نَسْلُكُ رَسُولَنَا الْخَاتِمَ فِي قُلُوبِ سَائِرِ المُجْرِمين، فَيُكَذِّبُونَهُ ويَكْفُرُونَ بِهِ ويَجْحَدُونَ نُبُوّتَهُ وَرِسَالَتَهُ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مَهْمَا قَدَّمَ لَهُمْ مِنْ آيَاتِ صِدْقِهِ.

﴿. . . وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾: أي: وقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم فِي مُجْرِمِي الأَوَّلِين، وهِي سُنَّتُهُ فِي تَعْذِيبِهِم وإهْلاكِهِمْ، وَسُنَّتُهُ فِي نُصْرَةِ رُسُلِهِ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، وفي تَنْجِيَتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ والْهَلَاكِ الْعَامّ الشَّامِلِ الَّذِي أَنْزَلَهُ تَبارَكَ وَتعَالَىٰ بالْمُجْرِمين.

وفي هَـٰذَا تَسْلِيَةٌ وَطَمْأَنَةٌ وَوَعْدٌ بالنَّصْرِ والتَّأْيِيد للرَّسُولِ ﷺ، ولِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبعُوه، فسُنَّةُ اللهِ الّتِي خَلَتْ في الأوّلِين سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ لِأَنَّها مُطابِقَةٌ لاختيارِهِ الحكيم، فمَا أجْرَاهُ ـ جلَّ جلَالُهُ ـ فِي الأوّلِين، يُجْرِي نَظِيرَهُ في الآخِرين. وَلَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِهِ تَحْوِيلاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المعنيّين بالْبَيانِ وهُمْ كُبراءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ المكابِرُونَ الجاحِدُون المعاندون:

• ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ۝١٥﴾:

- ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: باباً مِنْ أَبْوابِ مَعارِجِ الْعُروجِ في السماء، آيَةً مِنْ آياتِ اللهِ الخوارق، لتشْهَدَ للرَّسول بأنَّهُ رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ حَقًّا وَصِدْقاً.

- ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾: أي: فَصارُوا يَعْرُجُونَ فِيهِ طَوال نَهارِهِم عَلَىٰ تَوالِي الدَّقائِقِ والآناء. «لَا يُقال: ظَلَّ يَفْعَلُ كَذا» إلَّا كانَ يَفْعَلُهُ فِي النَّهار. واختِيرَ فِعْلُ «ظَلَّ» هُنَا للدَّلَالَةِ عَلَىٰ وضوح مُشاهَدَتِهِمْ لِعُرُوجِهِمْ، ولِمَا يَمُرُّونَ بِهِ مِنْ آياتِ اللهِ فِي حَالَةِ الْعُرُوج، لِأَنَّ النَّهارَ كاشِفٌ بِضَوْئِهِ للأشْياء.

الْعُرُوجُ: الارتِفاعُ والصُّعود.

- ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ و[**سُكِرَتْ**] في القراءة الأُخْرَىٰ. أي: إنَّما سُدَّتْ فَحُجِبَتْ عَنْ رُؤْيَةِ الْأَشْياء، أَوْ حُجِبَتْ بِرُؤْيَةِ صُوَرٍ وَخيالاتٍ لا حَقِيقَةَ لها، إذْ هِي مِنْ أَوْهَامِ مُخيِّلاتِنا.

- ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾: أي: بَلْ ما نَراهُ مِنْ عُرُوج، وما نَراهُ مِنْ أشْياءَ عَجِيبَةٍ عَظِيمَةٍ فِيهِ هُوَ أَثَرٌ مِن آثارِ السِّحْر الَّذي سَحَرَنَا بِهِ مُحَمَّد، وَلَيْسَ آيَةً حَقِيقِيَّةً خَارِقَةً مُعْجِزَةً تَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ الله حَقًّا وَصِدْقاً، وبأنَّ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْنا كَلامٌ مُنَزَّلٌ مِن لَدُنْ رَبِّ الْعالَمِينَ.

فالْمَعنَىٰ: إنَّ هؤلاءِ المعنيِّين بالْبَيانِ قَوْمٌ مُتَعَنِّتونَ مُكابِرون، يُعانِدُونَ الْحقَّ الَّذِي هُمْ مُسْتَيْقِنُونَ فِي نُفُوسِهِم بأنَّهُ حَقٌّ، ويُطالِبُونَ بالْآياتِ الْخَوارِقِ عَلَىٰ سَبِيلِ المُجادَلَةِ بالْباطِلِ، وَلَوْ اسْتَجَبْنا لمطالِبِهِمْ فَخَرَقْنا سُنَّةً مِن سُنَنِنا الكَوْنِيَّةِ، لَمَا آمَنُوا، ولَزَعَمُوا أَنَّهُم لَمْ يَشْهَدُوا شَيْئاً، فإنْ أُلْزِمُوا بِشُهُودِ الْخارِقِ العظيم قَالُوا: هَـٰذَا مَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ السِّحْرِ فَنَحْنُ مَسْحُورُون، ولَيْسَ لِمَا نَشْهَدُهُ حَقِيقَةٌ فِي الْواقِع.

ومِنْ أمْثِلَةِ ذلِك: لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنْ أبواب مَعارِج العروج في

السّماءِ، آيَةً مِنْ آياتِنا الْخارِقَاتِ لِسُنَّتِنَا فِي كَوْنِنَا، لِنَشْهَدَ لِرَسُولنا مُحَمَّدٍ بأنَّهُ نَبِيُّنَا وَرَسُولُنَا حَقًّا وَصِدْقاً، فَظَلُّوا طَوالَ نَهارِهِمْ فِيهِ يَعْرُجُونَ، ويُشاهِدُونَ مِنْ آياتِنا فِي السَّماءِ مَا يُشاهِدُونَ مِنْ عَجائِبِ خَلْقِنا، لَقالُوا مُعانِدِينَ مُكَذِّبِينَ أَبْصارَهُمْ فِيما شَهِدَتْ: لَمْ نَشْهَدْ شَيْئاً، وَمَا حَصَلَ لَنا إلَّا أَنَّ أَبْصارَنَا قَدْ سُدَّتْ فَحُجِبَتْ عَنْ رُؤْيَةِ الْأَشْياء، وحِينَ تَبْهَرُهُمُ المشاهِدُ الْمُدْهِشَةُ يَسْتَدْرِكُونَ فَيَقُولُونَ: بَلْ نَحْنُ مَسْحُورُونَ، فَمَا نُشاهِدُهُ هُوَ أَخْيِلَةٌ إيهامِيَّةٌ تَحْدُثُ لِلْأَبْصارِ مِنْ أَثَرِ السِّحْر.

إذن: فَلا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنَ الاسْتِجابَةِ لِطَلَبِهِمُ الآياتِ الخارِقَاتِ المعجِزاتِ، وإجراؤنا لِهَٰذِهِ الآياتِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ هَؤُلاءِ عَمَلٌ باطِلٌ، لا نَفْعَلُهُ بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَتِنا فِي اختِيَارَاتِنَا لِتَصارِيفِ الْأُمُورِ فِي كَوْنِنا الَّذي أَتْقَنَّا فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأوّل مِن دُرُوس سورة (الحِجْر).

والْحَمْدُ للهِ عَلىٰ مَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدّرْس الثاني من دُرُوس سورة (الحِجْر)

الآيات من (١٦ ـ ٢٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ

بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

القراءات:

(٢٢) • قَرَأَ حَمْزَةُ، وَخَلَفٌ [**الرِّيحَ**] بالإفراد.

وقَرَأَهَا بَاقِي القرّاء العشرة [**الرِّيَاحَ**] بالجمْع.

وبيْن القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد، إذْ يُرْسِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ أحْيَاناً الرِّيحَ ذاتَ أجْزَاءٍ لَوَاقِحَ، ويُرْسِلُ الرِّيَاحَ أحْيَاناً أخْرَىٰ لَوَاقِح، فالرِّياحُ أنْواعٌ مُخْتَلِفَة، وليْسَتْ نوعاً واحداً.

تمهيد:

في هَـٰذَا الدَّرْس عَرْضٌ لِطَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الـهادِيَةِ إلَىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَاحِدٌ في رُبُوبيَّتِهِ، وواحِدٌ فِي إلَهِيَّتِهِ، مَعَ بيان شُمُولِ عِلْمِهِ كُلَّ شيءٍ، وكَمَالِ حِكْمَتِهِ فِي قضائِهِ وقَدَرِه.

التّدبُّر التَّحليلي:

- قول اللهِ تعالَىٰ:

• ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾:

• ﴿بُرُوجًا﴾: أصل معنى البروج في اللّغة القصور العالية المشرفة الظَّاهِرَةُ المتطاولَةُ في السّماء، ويقال لغة: «بَرَجَ الشَّيْءُ يَبْرُجُ بُرُوجاً» أي: ارتفَعَ وَظَهر. ويقال: «تبَرَّجَتِ السَّمَاءُ» أي: ازّيَّنَتْ بالكواكب.

وأُطْلِقَت البروج على مَنَازِلِ الكواكِبِ والنُّجُوم السَّيّارة.

وأطْلَقَ الْعَربُ كَلِمَةَ «بُروج» على مواقع أو منازل في السَّماءِ تخيَّلُوا

أنَّها مَنَازِلُ للشمس، وجَعَلُوها اثْنَيْ عَشَرَ مَوْقِعاً، بِعَدَدِ شُهُور السَّنَةِ الشَّمْسِيَّة، إذْ تَعُودُ في نهايَةِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ تُرَىٰ الشَّمْسُ في الموقِع الأَوَّلِ الذي رصَدُوه في أَوَّلِها، وأطْلَقُوا على المسافَةِ الَّتِي تُخَالُ الشَّمْسُ قَدِ اجْتازَتْهَا فِي السَّنَةِ «دائِرَةَ الْبُرُوج» والْحَقِيقَةُ أنَّ ذَلِكَ نَاتِجٌ عَنْ حَرَكَةِ الْأَرْضِ لَا عَنْ سَيْرِ الشَّمْس عَلَى دَائِرَةٍ ذَاتِ مَواقِعَ سَمَّوْهَا الْبُرُوج.

وسَمَّوا هَـٰذِهِ الْبُرُوج كَمَا يلي على الترتيب بدْءاً مِنْ بُرْجِ أوَّلِ فصل الرَّبيع.

(١) الحمل (٢) الثور (٣) الجوْزاء (٤) السَّرَطان (٥) الأسَد (٦) السُّنْبُلَة (٧) الميزان (٨) العقرب (٩) القوس (١٠) الْجَدْي (١١) الدَّلْو (١٢) الحوت.

أطْلَقُوا هَـٰذِهِ الأَسْمَاء أخْذاً مِنَ الصُّورَة الَّتِي ظَهَرَتْ لَهُمْ عند الرَّصْدِ، مِنْ مجتمع النجوم في السَّماء عند تَحْديد كلّ بُرْجٍ من هذه البروج.

- ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: أي: شِهَابٌ ظاهِرٌ تَراه الأبصار. **الشِّهَاب:** هو الشُّعْلَةُ السَّاطِعَةُ من النَّار. ويُطْلَقُ عَلَىٰ النجم الْمُضيء اللاّمع.

ويُطْلَقُ على جِرْمٍ سماويّ يَسْبح في الفضاء فإذَا دَخَلَ في جَوِّ الْأَرْضِ انْجذَبَ إِلَيْهَا فاشْتَعَل وصار بعد ذلِكَ رَماداً.

- ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: يَدُلُّنا اللهُ عزَّ وجلَّ بِهَـٰذِهِ العبارة، على أنّ مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّات عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِهِ، وجَلِيلِ حِكْمَتِهِ وَإِتْقَانِهِ لصُنْعِهِ فِي كَوْنِه، وَوَحْدَتِهِ فِي رُبُوبيَّته، أنَّهُ أَتْقَنَ حَرَكَةَ الْأَرْضِ في مُقَابِلِ مَوَاقِعِ النُّجُومِ في السَّمَاء، إتْقَاناً بَدِيعاً عَجِيباً، يَتَمكَّنُ بِهِ النَّاسُ فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْدِيد مَنَازِلَ في السَّمَاءِ تَظْهَرُ فِيهَا الشَّمْسُ، ويَعْرِفُونَ بِها بَدْءَ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ وَنِهَايَتِها، وَأقْسَامَ شُهُورِهَا وَفُصُولِهَا الْأَرْبَعة.

هَـٰذَا الإتقانُ العجيب لَا يَكُونُ إلَّا مِمَّنْ لَهُ الرُّبُوبيَّةُ وحْدَهُ في الكَوْنِ كلّه، وهو العليم الحكيم المتقِنُ الْقَدِيرُ على مَا يَشَاء.

أي: وَمَنْ لَهُ هَـٰذِهِ الصِّفَاتُ العظيمات الْجَلِيلات، لَا يُمْكِنُ عَقْلاً أنْ يَخْلُقَ النَّاسَ بِصِفَاتِهِمْ الَّتِي اخْتَارَ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُمْ عَبَثاً، دُونَ أَنْ يضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، ويَبْعَثَ لَهُمْ رُسُلاً، وَيُنْزِلَ لِهِدَايَتِهِمْ كُتُباً، ويُكَلِّفَهُمْ تَكالِيفَ حَكِيمةً تُلَائِمُ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْه، ويُتْبِعَ ذَلِكَ بالحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، عَلَىٰ مَا اخْتَارُوا وَقَدَّمُوا فِي رِحْلَة امْتِحَانِهِم.

ويُؤكد الله الجملة بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ للتَنْبِيه على مضمُون الدلالاتِ.

- ﴿... وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾: **التَّزْيِينُ**: التَّحْسِينُ والتَّجْمِيلُ.

وهذا التَّزْيِينُ ظاهِرٌ لِكُلِّ ذِي نَظَرٍ يَرَىٰ بِهِ السَّمَاء.

أَمَّا التَّزيينُ بِالنُّجُومِ فَمِنَ المعْلُوم عِلْمِيًّا أنَّ نُجُومَ السَّمَاءِ الموزّعَةَ في مَجَرَّتِنا، وَفي المجرَّاتِ فَوْقَها، لَا تَظْهَرُ زِينَتُها لِأَعْيُنِ النَّاظرينَ فِي الْأَرْضِ، إلَّا بوسَاطَةِ الْخَصَائِص الَّتي خَلَقَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ فِي الغِلَافِ الْغَازِي حَوْلَ الْأَرْضِ، ولولاه لَمْ تَكُنْ زِينَةً للناظِرِين.

وهَـٰذَا التَّزْيِينُ مِنْ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ الَّتِي رُوعيَ فيها إمْتَاعُ النَّاسِ فِي الأَرْضِ، لدَىٰ سَبْحِ أبْصَارِهِم في أَبْعَادِ السَّمَاءِ، إذْ يُشَاهِدُون الطُّيُورَ، والسُّحُبَ، والزُّرْقَةَ الهادئة، والنُّجومَ البَدِيعَةِ الْمُوَزَّعَة فِي السَّمَاءِ بالْمِلْيَارَاتِ.

- ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾:

الشَّيْطَانُ: اسْمُ جنْسٍ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ، مِنَ الجنّ والإنْس، وإبْلِيسُ إمَامُ كُلّ الشَّيَاطِين ورَئِيسُهُمْ، والَّذِينَ كانوا يسترقون السَمْعَ من الشياطين هم من شياطين الجِنِّ.

الرَّجيم: المَلْعُونُ المطرُود، والْأَصْلُ فِيهِ أَنَّ المطْرُودَ يُرْجَمُ بالحجارة، أي: يُرْمَىٰ بها.

﴿ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾: أَي: اتَّخَذَ مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ وَسِيلَةٍ لِيَسْرِقَ الأَقْوالَ بِسَمْعِهِ. وكانَ الشَّيَاطِين يَسْتَرِقُونَ بِمَسَامِعِهِمْ مَا تَتَحَادَثُ بِهِ الْمَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ، أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِم مِنْ أَوَامِرَ وَأَنْبَاء، فَمُنِعُوا مِنْ ذَلِك بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالشُّهُب، كما سَبَقَ إِيْضَاحُهُ لَدَىٰ تَدبُّرِ سُورَةِ (الْجِنّ/ ٤٠ نزول).

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾: أي: فَتَبِعَهُ بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ، فقَتَلَهُ، أَوْ مَسَّهُ بِحَرِيقٍ وَأَنْزَلَ بِهِ ضُرّاً.

جاءَ هَـٰذَا البيانُ إضَافَةً ذَاتَ فَائِدَةٍ جَلِيلَةٍ، دَالَّةٍ عَلَىٰ عِنَايَةِ اللهِ الخاصَةِ بهذا الدّينِ الّذِي تَكَفَّلَ اللهُ لَهُ بِحِفْظِ كِتَابِهِ، وعِصْمَةِ رَسُولِهِ مِنَ النَّاسِ.

لقد حفظ اللهُ عزَّ وجلَّ السَّمَاءَ بَدْءاً مِنْ نِهَايَاتِ الغلاف الغازي، الذي جَعَلَه مُحِيطاً بالأَرْضِ، من كُلِّ شَيْطانٍ مَرْجُوم مَطْرُودٍ، فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ مِن مَلاَئِكَةِ السَّمَاءِ، لَدَىٰ تَبْلِيغِهِمْ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ لِمَلاَئِكَةِ الأَرْضِ، لِيَقُومَ هَـٰذَا الشَّيْطَانُ بِتَبلِيغِهِ لِوَلِيِّهِ الشَّيْطَانِ مِنَ الإِنْس.

وحِينَ يَسْتَرِقُ بَعْضُهُمْ بالتَّصَنُّتِ مَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَسْمَعَهُ، إِذْ يَخْطَفُ شَيْئاً مِمَّا يُقَالُ بِحِيلَتِهِ وَسُرْعَتِهِ، فإنَّ شِهَاباً مُبيناً واضحاً يَتْبَعُهُ بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، فَيُحْرِقُهُ فَيُمِيتُهُ، أَوْ يُعَطِّلُ أجْهِزَتَهُ، فَيَجْعَلُهُ غَيْر قَادِرٍ عَلَىٰ نَقْلِ مَا اخْتَطَفَهُ، وغَيْرَ قَادِرٍ عَلَىٰ تَبْلِيغِهِ، أَوْ يَجْعَلُهُ يَتَقَلَّبُ فِي عَذَابٍ أليم⁽¹⁾.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ مُتَابَعَةٌ لِعَرْضِ بَعْضِ آياتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وفيها ثلاثُ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الأُوْلَىٰ: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾: أي:

---

(١) بقيَّة هذا الموضوع مَوجودةٌ في تَدَبُّرِ سُورَةِ (الجنّ/ ٤٠ نزول).

جَعَلْنَاهَا ذَاتَ امْتِدَادٍ فِي بُعْدَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ مِنْها، كَتَمَدُّدِ السِّقَاءِ، وهُوَ ظَرْفُ الْمَاءِ المتَّخَذِ منَ الْجِلْد، وهو ما يُسَمَّىٰ بالْقِرْبَة.

ويُقَالُ لُغَةً: تَمَدَّدَ الرَّجُل، أَيْ: تَمَطَّىٰ وَتَطَاوَلَ.

وأَصْلُ المدِّ في اللُّغَةِ: الْجَذْبُ.

وقَدْ يكونُ المرادُ بِمَدِّ الأَرْضِ مَدَّها بالخيراتِ، والمعادن، وموادِّ الْخِصْب، والعناصِرِ النَّافِعة للعباد. تقول لُغة: «مَدَدْتُ الأَرْضَ مَدّاً» إذا زِدْتَ فيها تُراباً أو سَماداً مِنْ غَيْرِها، ليكُونَ أعْمَرَ لَها، وأكثَرَ رَيعاً لزَرْعِها.

ويقال للرِّمَالِ والسَّمَادِ: مِدَادُ الأَرْضِ.

وفهم المدّ على معْنَيْيهِ المشهودَيْن هو من التدبُّر الأمثل.

هَـٰذِهِ الآيَةُ مِنْ آيات اللهِ في الأرض، مِنْ مَظَاهِرِ عِنَايَةِ اللهِ بالناس عليها، رِزْقاً لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ، وَنَفْعاً وخيراً عظيماً.

القضيّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾:

أي: وأَلْقَيْنَا فِي الأَرْضِ جِبالاً رَوَاسِيَ ثَوابِتَ رَوَاسِخَ تُثَبِّتُ قِشْرَتَها، حَتَّىٰ لَا تَمِيدَ، أيْ: حَتَّىٰ لَا تَتَحَرَّكَ وَتضطرب بِسَبَبِ الضغط الغازي الذي في داخِلها.

يُقَالُ لغة: «رَسَا الشَّيْءُ يَرْسُو رَسْواً ورُسُوّاً» أي: ثَبَتَ، ويُقَال: «رَسَا الْجَبَلُ» أي: ثَبتَ أَصْلُهُ فِي بَاطِنِ الأَرْضِ.

كلمة «رواسي» هي في الأصْلِ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوف، هي الجبال، ولِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهَا صِفَةً للجبال اسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِ الموصوف، ونُزِّلَتِ الصِّفَةُ مَنْزِلَتَهُ فِي أَصْلِ الدَّلالَةِ، مع زِيَادَةِ مَعْنَىٰ الرُّسوخ والثبوت.

ولعلّ في كَوْنِ الجبالِ مُلْقَاةً إِلْقَاءً إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّ الأَرْضَ كَانَتْ مُمَدَّدَةً

كالسِّقَاءِ، ثُمَّ حَصلَتْ فيها تَفجُّرَاتٌ بُرْكانِيَّة، نَجَمَ عَنْهَا ترامِي حُمَم بُرْكانِيَّةٍ في الْجوّ، وأُلْقِيَتْ هَـٰذِهِ الْحُمَمُ فِي الفجوات الَّتِي أَحْدَثَتْها الْبَراكِينُ العظمَىٰ، فكانَتِ الجبالُ الرَّواسي.

وقَدْ تَكَرَّرَ التَّنْبِيهُ في القرآن على امْتِنَانِ اللهِ عَلَى عبادِهِ بالجبال الرَّواسي في (١١) نصّاً سَبَقَ عَرْضُهَا مَعَ شيءٍ من التدبّر، لَدَىٰ تَدَبُّرِ سورة (ق/ ٣٤ نزول)⁽¹⁾.

القضية الثالثة: دَلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾: أي: وأنبتْنَا فِي الْأَرْضِ نَبَاتاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ذي مِقْدَارٍ قابِلٍ لِأَنْ يُوزَنَ، فالصِّفَةُ الجامِعَةُ لنَباتَاتِ الْأَرْضِ كُلِّهَا، مَا كانَ مِنْها غِذَاءً، وما كَانَ مِنْهَا دَواءً، وَمَا كَانَ مِنْهَا صالحاً للصِّناعات الْمُخْتَلِفَاتِ، حَتَّىٰ مَا تَحْتَوي مِن الغازَاتِ والرَّوائِحِ الطيِّبَةِ والكَرِيهَةِ، أَنَّهَا ذَوَاتُ مَقَادِيرَ قَابِلَةٍ لِأَنْ تُوزَنَ بمَوازِينَ.

وفي هَـٰذَا الْبَيَانِ مِفْتَاحٌ يَهْدِي عُلَمَاءَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ لِصِنَاعَةِ الموازِينِ الدَّقِيقَةِ، التّي تَزِنَ كُلَّ شيءٍ تُنْبِتُهُ الأرْضُ، أَوْ يَخْرُجُ مِنْ نَبَاتِها، حَتَّىٰ مَقَادِيرَ الغازَاتِ والرَّوائِحِ والطَّاقَاتِ، مَهْمَا قَلَّتْ.

وهَـٰذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ الإتْقَانِيَّة فِي كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ على طائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَاتِ العظيمات.

قول اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً للنّاس:

- ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾:

﴿مَعَٰيِشَ﴾: جمع «مَعِيشَة» وهي ما يُعَاش به. قال الأزهري: «يَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ «مَعَايش» مَا يَعِيشُونَ بِهِ، ويحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْوُصْلَةَ إلى مَا يَعِيشُونَ بِهِ». **الْعَيْشُ**: الحياة.

---

(١) انظر الصفحات من (٥١ ـ ٥٦) من المجلّد الثالث من هذا الكتاب.

فمن مِنَنِ اللهِ وَنِعَمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ما يَعِيشُونَ به فيها، من مختلِفِ الأجناسِ، والأنواع، والأصْنافِ، بحَسَبِ اختلاف الحاجات.

﴿... وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَنْ تُحِبُّونَ أَنْ يَكُونُوا لَكُمْ، مَمْلُوكِينَ، أَوْ تَابِعِينَ، مِنْ أَوْلَادٍ أَوْ أزْواجٍ أو خَدَم تجبُ عَلَيْكُمُ النَّفَقَةُ عَلَيْهِم، إِلَّا أَنَّكُمْ لَسْتُمْ لَهُمْ بِرازِقِينَ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ نَرْزُقُهُمْ، مَارّاً هَـٰذَا الرِّزْقُ عَنْ طَرِيقِكُمْ، فَلَا تَتَصَوَّرُوا أَنَّكُمْ بِإنْفَاقِكُمْ عَلَيْهِم مَعَايِشَهُمْ تَرْزُقُونَهُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ، وَنَرْزُقُهُمْ عَنْ طَرِيقِكُمْ، لِنَمْتَحِنَكُمْ فِيما آتَيْنَاكُمْ، مِمَّنْ تُحِبُّونَ أَنْ يَكُونُوا لَكُمْ، ومِمَّا تُحِبُّونَ مِنْ أَمْوَالٍ هِي وَسَائِلُ لِلْمَعَايش.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

- ● ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾:

خزائن: جمع «خِزَانَة» وهي مَكَانُ الْخَزْنِ للحِفْظِ.

أي: وَمَا مِنْ شيءٍ في الكَوْنِ كُلِّهِ قَابلٍ لِأَنْ يُوضَعَ في خِزَانَةٍ مَا، إلَّا هُوَ مِلْكٌ للهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وعِنْدَ اللهِ وَتَحْتَ سُلْطَانِهِ خَزَائِنُهُ الْمُوَزَّعَةُ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ، أَجْنَاساً، وأنْوَاعاً، وأَصْنَافاً، وأفْرَاداً، ومِنْهَا الْقُوَىٰ المَخْزُونَةُ في الأشياء كالكهرباء.

وَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ الَّذِي يُنَزِّلُ مِنْ أفْرَادِ الأشياء، أَوْ أَصْنَافِهَا، أَوْ أَنْوَاعِهَا، أو أجْنَاسِها، للنَّاسِ وَلِسَائِرِ الأَحْيَاءِ مِنْ خَلْقِه، مَا تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَمْنَحَهُمْ إِيَّاهُ، وَلَا يَكُونُ تَنْزِيلُه لِأَيِّ شيءٍ جُزَافاً، دُونَ تَقْدِيرٍ حَكِيم، إِنَّهُ لَا يُنَزِّلُ شَيْئاً مَا مِنْ خَزَائِنِهِ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ لَهُ، ضِمْنَ تَصَارِيفِهِ الحَكِيمَةِ، الَّتِي هي آثارُ قَدَرِهِ وَقَضَائِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، صَغِيراً كَانَ أَمْ كَبِيراً، جَلِيلاً كَانَ أَمْ حَقِيراً.

وكُلُّ مَا يُخرِجُهُ اللهُ مِنْ خزَائِنِهِ فِي تَصارِيفِهِ المخْتَلِفَةِ خيْراً كَانَ أَمْ شرّاً هُوَ تَنْزِيلٌ، ولَوْ كَانَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، لأَنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ فِي الْمَقَامِ الْعَلِيِّ الأعْلَىٰ، وكُلُّ تَصارِيفِهِ في خَلْقِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهُ، إِذِ الأَمْرُ أَمْرُهُ، والْخَلْقُ خَلْقُه.

- قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

الإِرْسَال: هُوَ التوجيهُ لأداءِ رِسَالَةٍ مَا بتُؤَدَةٍ وَترَفُّقٍ وحِكْمَة، فإرسَالُ الرِّياح يتَضَمَّنُ أداءَ وَظِيفَةٍ مَا مِنْ الْوَظَائِفِ الكَوْنِية.

الرِّيَاح: جمع «الرِّيح» وهو الهواء إذا تَحرَّكَ، و«الرِّيحُ» اسم جنْسٍ، وقد جاء بالإفراد في قراءة حمزة، وخلف، وهو يعمُّ أنواع الرِّياح، فالقراءتان متكافئتان، وهما مِنَ التّنويع في البيان، أو متكامِلَتان إذا حَمَلْنا الجمْعَ على الأنواع.

لَوَاقِح: جمْعُ «لَاقِح» وهي: حامِلَةُ اللّقَاح الَّذي يَدْخُلُ في الشَّيْءِ فيكُونُ لَهُ أَثَرُ إِخْصَابٍ فِي الْأَحْيَاءِ والنَّبَاتَاتِ، وأَثَرُ تكاثفٍ لبخارِ الماء الَّذي يَنْزِلُ مِنَ السَّحَاب مطراً أَوْ ثَلْجاً أَوْ بَرَداً.

وفي كوْنِ الرِّياحِ لَوَاقِحَ للسُّحُب إذْ يَتَسَبَّبُ تَلْقِيحهَا لَهَا فِي إنْزَالِ الأمْطارِ، نَجِدُ لَدَىٰ عُلَمَاءِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ للظَّاهرات الكونيّة مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الرِّيَاحَ تَحْمِلُ إِلَىٰ بُخار الماء في السُّحُبِ جُسَيْمَاتٍ صَغِيرَاتٍ تُسَمَّىٰ «نَوَيَاتِ التَّكَاثف» وتَتَأَلَّفُ هذه النَّوَيَاتِ من الغبار، وأمْلَاح البحار، وبعض الموادِّ الكيمائيّة المُنبعثة مِنَ المصانع وعوادِمِ السَّيَّارات، وعنْد تكاثُفِ بخار الماء تَنْطَلِقُ حرارةٌ تَجْعَلُ السُّحُبَ سَاخِنَةً، ويُسَاعِدُ هَـٰذَا التَّسخينُ علىٰ رَفْعِ السُّحبِ إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ، وبهذا تَصِيرُ أَكْثَرَ بُرُودَةً، وقَدْ فُسِّرَ تَكَوُّنُ قَطَراتِ

الأمْطار في مِثْلِ هَـٰذِهِ السُّحُب بنظَرِيّة الانْدِماج ونظرِيَّة البلُّورَاتِ الثلجيَّة⁽¹⁾.

ويُسَمَّىٰ الْهَوَاءُ حوْلَ الأرضِ الغلافَ الغازِيّ، ويبقَىٰ حول الأرض بِفِعْلِ جَاذِبيَّتِها له، وهو يتألّف من (٧٨٪) من «غاز النّيتْرُوجِين» و«٢١٪» من «غاز الأكسجين» و«١٪» من «غاز الأرْجون وغيره من الغازات». ويخْتَلِطُ بهذا الغلاف الغازي ممّا ليس منه ذَرَّاتٌ من بخار الماء الّذي يتبخَّرُ مِنَ المحيطات والْبُحَيْرَات والأنْهار ومن التربة الرَّطْبَة ومن النباتات، وكُلِّ مَاءٍ يجفُّ مِنَ الأشياء على الأرض.

ويحملُ هذا الغِلَافُ الغازيّ «الْهَبَاءَ الْجَوِّيَّ» وهو جسيمات صُلْبَة صَغِيرَةٌ جدًّا لَا تُرَىٰ بالأعينِ، إلّا في مَكان مظلم نَفَذَتْ إلَيْهِ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ مِنْ كَوَّةٍ مثلاً فَيُرَى بَعْضُه يتطايرُ في الهواء.

وهذا الغلاف الغازيّ، وما يَخْتَلِطُ بِهِ مِنْ بُخارِ الماء، وما يَحْمِلُهُ مِنْ دَقائق الْجُسَيْماتِ الصُّلْبَةِ، ذُو وَظَائِفَ مُتَعَدِّدَةٍ للحياة، باستثناء الملَوِّثَات الَّتِي يُضِيفها النّاسُ إلى الجوّ، وهَـٰذِهِ الملوّثات تُضِرُّ بصِحَّةِ الإنسان وتُؤْذِي النباتات والحيواناتِ وتُدَمِّر مواد البناء⁽²⁾.

ومن هذه الملوّثات عوادم السّيّارات، وما يَنْبَعِث في الجوّ من المصانِع والحرائق وغيرها.

وهذا التلوُّثُ مِنَ الْفَسَادِ الّذِي ظهَرَ في البرّ والبحْرِ والجوّ بما كَسَبَتْ أَيْدي الناس، وأشَدُّه ضَرَراً آثارُ التَّفْجِيرَاتِ الذَّرِّيَّة، والأشِعَّةُ الذَّرِّيَّة، وما تَخلِفُهُ أسْلِحَةُ الدَّمَارِ الشَّامل.

وجاءت عِبَارَة ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بَعْدَ بيان إرْسَالِ الرِّياحِ لَوَاقِحَ

---

(١) انظر الموسوعة العربيّة العالمية، المجلد (٢٣) صفحة (٤١٧): أسباب سقوط المطر (الطبعة الثانية).

(٢) انظر المرجع السابق المجلد (٢٦) صفحة (٢١٧ ـ ٢١٨).

بحرف «الفاء» الدّالّة على الترتيب مع التعقيب، للدَّلالَة على أَنَّ الرِّياحَ بما تَحْمِلُ مِنْ جُسَيْمَاتٍ صُلْبَةٍ صَغِيرَةٍ جدًّا، تكونُ بِمَثَابَةِ التَّلْقِيح لِبُخَارِ الماء في السَّحَابِ بوسَاطَةِ الجسيمات، إذْ تَتَكَوَّنُ حَوْلَهَا حَبَّاتُ المطَرِ أو الثَّلْجِ أو الْبَرَدِ، وعَقِبَ ذَلِكَ يَنْزِلُ الماء من السماء، وكُلُّ ذَلِكَ بتَدْبِيرِ اللهِ الحكِيمِ وفِعْلِهِ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه، وأحَاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً.

- ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: يخاطِبُ اللهُ النَّاسَ بضَمِيرِ المتكلِّم العظيم، ويُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ هُو الّذِي أسْقَاهُمُ الْمَاءَ الْحُلْو الْعَذْبَ السائغ للشَّارِبينَ بتَدْبِيراتِه الحكيمَاتِ، إذْ جَعَلَ الْبُخَارَ يَتَصَاعَدُ في الْجَوِّ بِفِعْلِ الحَرارةِ الَّتِي تُمِدُّ بها أشِعَّةُ الشَّمس، ويتَكَوَّنُ سُحُباً، وأَرْسَلَ الرِّيَاحَ حَامِلَاتٍ لِجُسَيمَاتِ اللَّقَاح، فاجْتَمَعَتْ حَوْلَهَا حَبَّاتُ المطَرِ أو الثلْج أو الْبرَدِ، فثقُلَتْ بالتَّكاثُفِ، فَقَوِيَتْ جاذبِيَّةُ الأَرْضِ عَلَىٰ اجْتِذَابِها إلَيْها، فَنَزَلَتْ مَاءً عَذْباً سَائِغاً للشَّارِبِينَ والشَّارِبَات، مِنَ الْإنْسَانِ والحيوَانِ والنَّبات، وجَرَتْ بهِ السُّيُول والأنْهَار، واخْتُزِنَ الكَثِيرُ مِنْهُ في باطِنِ الأرضِ وَتَجَوْيفاتها.

- ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾: أي: وخَزَنَّاهُ فِي مَخَازِنَ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ وتجاوِيفِها، وجَعَلْنَا بَيْنَهُ وبَيْنَ الماء الْمَالِحِ حَاجزاً حتَّىٰ لَا يخْتَلِطَ بِهِ، وَجَعَلْنَاهُ يَنْبَعُ مِنَ الْعُيُونِ ويَجْرِي سَوَاقِيَ وأنْهَاراً، وَمَا أنْتُمْ أَيُّهَا الناسُ بخازِنينَ لَهُ فِي مَخَازِنِهِ من الأرض، بل نَحْنُ سَلَكْنَاهُ في مَسَالِكِهِ إلى مَخَازِنِهِ، وحَفِظْنَاهُ فيها، ونُخْرِجُ مِنْهُ لِمَنَافِعِكُمْ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِنَا في ابْتِلَائِكُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَياةِ الدُّنيا، بَسْطاً أَوْ قَبْضاً.

- ■ قول اللهِ تَعَالى يتحدَّث بضمير المتكلّم العظيم:

- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: وَإِنَّا لَنَحْنُ لا أَحَدٌ غَيْرُنَا في الْوُجُودِ كُلِّهِ نُحْيي مَنْ نَشَاءُ وَمَا نَشَاءُ أَنْ نَجْعَلَهُ ذَا حَيَاةٍ، ونُميتُ مَنْ نَشَاءُ وَمَا نَشَاءُ أَنْ نُمِيتَهُ مِنَ الأَحْيَاءِ.

أَمَّا الْقَتِيلُ مِنْ قِبَلِ ذِي إرادَةٍ بِقَتْلِهِ فإنْ كَانَ أجَلُ حَيَاتِهِ قَدِ انْتَهىٰ، مَكَّنَ اللهُ مُرِيدَ قَتْلِهِ مِنِ اتِّخَاذِ الأسْبَابِ الْقَاتِلَةِ، ثُمَّ لا يَكُونُ مَوْتُهُ إلَّا بإمَاتَةِ اللهِ لَهُ، وإذَا كَانَ الْقَاتِلُ مُعْتَدِياً ظالماً عَاقَبه اللهُ على اتِّخَاذِهِ أسْبَابَ الْقَتْلِ، لِأَنَّهُ اتَّخَذَهَا بإرَادَتِهِ الحرَّةِ، وأرَادَ حُرًّا مُخْتَاراً أنْ يَكُونَ قَاتِلاً ظُلْماً وَعُدْواناً لِحَاجَةٍ فِي نَفْسِهِ.

وإنَّا لَنَحْنُ نُمَلِّكُ ذَا الحياةِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي حَيَاتِهِ، أَوْ مَا لَهُ بِهِ حاجَةٌ أَوْ رَغْبَةٌ، فإذَا أمَتْنَاهُ لَمْ تَبْقَ لَهُ مِلْكِيَّةٌ لِشَيْءٍ، وَعِنْدئذٍ يَظْهَرُ أَنَّ اللهَ هو المالِكُ لِمَا كَانَ يَمْلِك الْعَبْدُ مِنْ مُمْتَلَكَاتٍ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، وَلَمَّا كَانَ مآلُ أمْلَاكِ الْمَوْتَىٰ إلَىٰ اللهِ، وَهُوَ يُوَزِّعُها على بَعْضِ الأحْيَاءِ بِحِكْمَتِهِ، أطْلَقَ على نَفْسِهِ وَصْفَ «الوارِثِ» إذِ الْوَارِثُ هُوَ الَّذِي لَهُ حَقٌّ في امْتِلَاكِ مِقْدَارٍ مَا مِنْ مَالِ مُوَرِّثِهِ. واللهُ عزَّ وجلَّ هُو المالِكَ لِكُلِّ شيْءٍ بَدْءاً، وَوَسَطاً وَخِتَاماً، وهو المالِكُ لذَوَاتِ الْمَالِكِين.

الإحياء: يَكُونُ بِتَزْوِيجِ الأرْوَاحِ للنفوس التي لم تكن لها حياة.

الإمَاتَة: تكونُ بِفَصْلِ الأرْواحِ عَن النفوس الحيَّة.

وكِلَاهُمَا مِنْ أفْعَالِ الله وَحْدَهُ فِي كَوْنِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ.

جاء هذا البيان في هَـٰذِهِ الآية مؤكَّداً بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحلقة» ومَقْصُوراً بِتَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ، وهما اسم «إنَّ» أي: «نَا» وخَبَرُهَا أي: «نَحنُ» وكذلِكَ في جُمْلَةِ: «ونَحْنُ الْوارثون».

قول الله عزَّ وجلَّ يتحدَّثُ بِضَمِير المتكلّم العظيم أيضاً:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

المسْتَقْدِمُون: هُمُ الّذِينَ تَقَدَّموا إلَىٰ الْمَوْتِ قَبْلَ الْمُخَاطَبِين.

المسْتَأْخِرُونَ: هُمُ الَّذِين لَمْ يَمُوتُوا بَعْدُ سَوَاءٌ أكَانُوا في الْحَيَاة، أمْ

لَمْ يَأْتُوا إلى ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا بَعْدُ، وَسَيأْتُونَ إِلَيْهَا بِمقْتَضَىٰ تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ السَّابِقِ لِجَمِيعِ النَّاسِ إلى آخِرِ حَيَاةِ النَّاسِ في الْأَرْضِ.

ويُؤَكِّدُ اللهُ عزَّ وجلَّ بعبارة: ﴿وَلَقَدْ﴾ أنَّ عِلْمَهُ شَامِلٌ للّذِينَ عَاشُوا الحياة الدُّنيا وَتَقَدَّمُوا إِلَىٰ الآخِرَةِ بالمْوتِ، وللّذِينَ هُمْ يَعِيشُونَ فِي ظُرُوفها ولِلَّذِينَ سَيَعِيشُونَ فيها وبَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ الموتُ طَوْراً مِنْ أطْوارِ وُجُودِهِمْ، الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ بَعْدَهُ الْبَعْثُ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجَزاء.

وعِلْمُهُ تَعَالَىٰ شَامِلٌ لِذَوَاتِهِمْ وأعْمَالِهِمْ واخْتِيَارَاتِهِم فِي رِحْلَةِ الحياةِ الدُّنيا حَياة الابْتِلَاء.

اسْتَقْدَمَ: بِمَعْنَىٰ «تَقَدَّم» **واسْتَأْخَرَ:** بِمَعْنَىٰ «تَأَخَّرَ». السِّينُ والتَّاءُ فيهما لتوكيد تَحقُّقِ الوصْفِ بالتَّقدُّمِ والتَّأخُّر، مَعَ مَا فِي الصِّيغَةِ مِن وقْعٍ حَسَنٍ على السَّمْعِ.

والفِعْلُ فيهما فيه معْنَىٰ المطاوعة الْجَبْرِيَّةِ، أي: قَدَّمَهُمُ الخالِقُ البارئ فاسْتَقْدَمُوا، وأَخَّرَهُمُ الْخَالِقُ الْبَارِئ فاسْتَأْخَرُوا.

وجاء البيانُ في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَوْطِئَةً للبيان الآتي عن الآخِرَة في الآيَةِ التّالِيَةِ، وَمَا جاء قَبْلَها كَانَ تَوْطِئَةً للبيانِ فيها، يَظْهَرُ هذا بالتَّأَمُّل، فآياتُ هَـٰذَا الدَّرْسِ السَّابِقَاتِ قَدَّمَتِ الدَّلِيل على وَحْدَانِيَّة اللهِ عزَّ وجلَّ في رُبُوبِيَّتِهِ، الَّتِي يَلْزَمُ عَنْهَا وَحْدَانِيَّتُهُ في إِلَهِيَّتِهِ، وَيَلْزَمُ عَنْهُمَا أنَّ اللهَ قَدِيرٌ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لَمْ يَخْلُقِ النَّاسَ في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا عَبَثاً، وإِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَيَلْزَمُ عقلاً عن الابْتِلَاءِ وُجُودُ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ يَكُونُ فيها الحِسَابُ وفَصْلُ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذُ الجزاء.

- قول اللهِ عزَّ وجلَّ خِطَاباً لِلرَّسُولِ ولِكُلِّ صَالحٍ للخطاب:

- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾:

خُتِمَ هَـٰذَا الدَّرْسُ بِهَـٰذِهِ الآيَةِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَىٰ الغايَةِ مِنْ خَلْقِ الإِنْسَانِ في الحياة الدُّنيا، وهي محاسَبَتُهُ على مَا قَدّم في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدنيا من خَيْرٍ أوْ شَرٍّ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، وَتَنْفِيذُ مُجَازَاتِهِ يَوْمَ الدِّينِ.

واخْتِيرَ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْم الدِّينِ حَدَثُ حَشْرِ الْخَلائِقِ في المَحْشَرِ، وهُوَ يَسْتَلْزِمُ فِكْراً الأحْدَاثَ الَّتِي تَكُونُ قَبْلَهُ والّتِي جاء بيانُها في مَوَاضِعَ أُخْرَىٰ مِنَ القرآن، ويَسْتَلْزِمُ فِكْراً الأَحْدَاثَ الَّتِي تَكونُ بَعْدَهُ، والَّتِي جَاءَ بَيَانُها في مَوَاضِعَ أُخْرَىٰ مِن القرآن المجيد.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ يَتَضَمَّنُ دَلِيلاً على يَوْمِ الدِّينِ يَوْمِ الجزاء الأكْبَرِ وَمَا يَجْرِي فِيهِ، مِن حساب وفصل قضاء وجزاء، إِذِ الحكيم لَا يَخْلُقُ الناسَ بِصِفَاتِهم الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا دُونَ أنْ يكون قَدْ أَعَدَّ فِي خُطَّةِ التكوين ذلك.

وذِكْر وَصْفِ أَنَّهُ تَعالَى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يَدُلُّ على أنَّ أحْكَامَهُ بِعِبَادِهِ يَوْمَ الدِّين تَكُونُ دَائِرَةً حَوْلَ الْعَدْلِ والْفَضْلِ، ولا تَكُونَ جُزَافاً غَيْرَ مَبْنِيَّةٍ عَلَىٰ عِلْمٍ شامل.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرْس الثاني من دُرُوس سورة (الحجر).

والحمدُ لله على مَدَدِهِ وتَوفِيقه ومعونته وفتحه.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الحِجْر)

الآيات من (٢٦ ـ ٤٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ

ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن
صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ
عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ
﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ
مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

القراءات:

(٤٠) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامِر، ويَعْقُوب: [**المخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللّام. وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**المخْلَصِينَ**] بفتح اللّام.

وبين القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِكْرِي، أي: هم أخْلَصُوا للهِ عباداتِهِمْ فجعَلَهُمْ اللهُ مِنَ المُخْلَصِينَ عِنْدَه.

(٤١) • قرأ يَعْقُوب: [**هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ**] أي: هو في أعْلَىٰ مَنْزِلَةٍ، وهُو مُسْتَقِيمٌ.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**] أي: هَـٰذَا صراطٌ عَلَيَّ بَيَانُهُ، وعَلَيَّ المكافَأةُ على الالْتِزَامِ بِسُلُوكِهِ، وهو مُسْتَقِيمٌ.

فَبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أَدَاءِ المعْنَىٰ المراد.

(٤٤) • قرأ شُعْبَة: [**جُزُءٌ**]. وقرأها أبُو جَعْفَر: [**جُزٌّ**] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ [**جُزْءٌ**].

وهَـٰذِهِ القراءات لُغَاتٌ عَرَبِيَّة للكلمة.

تمهيد:

هذا الدّرس موصولٌ بخطّ المُعَالَجِينَ في السُّورَةِ، وهم أئِمَّةُ المُشركين في مَكَّة وأتباعُهُم المتأثّرون بهم، وهذه الصّلةُ تَتَّضِحُ مِنْ خلال عَرْض قِصّةِ خلْق آدم، ورَفْضِ إبْليس أن يَسْجُدَ له طاعةً لِربِّه جاحِداً إلٰهيَّتَهُ.

وفي هَـٰذَا الدرسِ بَيَانُ لقطاتٍ مِنْ قِصَّةِ خَلْقِ الإنسان الأوَّلِ أبينا آدم عليه السَّلام، وهَـٰذَا النَّصُّ واحِدٌ مِنْ سِتَّة نُصُوصٍ مُطَوَّلَةٍ جَاءَتْ في سِتِّ سُورٍ مِن القرآن المجيد، عَدَا مُتفرِّقاتٍ قَصِيرات. وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هَـٰذِهِ النصوص السّتَّة مع بعض المتفرِّقَاتِ في دِرَاسَةٍ تَكَامُلِيَّة، في الملحقِ الرابع مِنْ مَلَاحِق تَدَبُّر سُورة (ص/٣٨ نزول) في المجلّد الثالث(١)، ولِذَا فإنّي أَقْتَصِرُ هُنَا على تَدَبُّرِ فِقرَاتِ هذا النَّصِّ دُونَ توجِيهِ الْعِنَايَةِ للتكامُلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النُّصُوصِ الأُخْرَىٰ.

التّدبّر التحليلي:

- قَوْلُ الله تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ أَحَدِ الأطْوَارِ الَّتِي خَلَق اللهُ بِهَا جَسَدَ آدَمَ، الإنْسَانِ الْأَوَّلِ الَّذِي اشتَقَّ اللهُ مِنْهُ زَوْجَتَهُ حَوَّاء، وَبَعْدَ ذَلِكَ جَعَلَ كُلَّ النَّاسِ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِما، ونَسْلاً لَهُمَا.

الصَّلْصَال: الطِّينُ اليابِسُ الَّذِي إِذَا نُقِرَ بِشَيْءٍ أَعْطَىٰ صَوْتاً فِيهِ تَرْجِيع.

---

(١) انظر الصفحات من (٦٦٨ ـ ٧٢٩) من المجلّد الثالث «قصة خَلْقِ آدم وما رَافقه من أحداث».

الْحَمأ: الطِّين الأسْوَدُ الْمُنْتِن.

المسْنُونُ: المصْقُولُ المُملَّسُ.

في هَـٰذَا الطَّوْر كانَتْ قَدْ تَحوَّلَتْ طِينَةُ جَسَدِ آدم عليه السَّلام بخَلْقِ اللهِ ـ جلَّ جلالُه ـ فَصَارَتْ حَمأً مَسْنُوناً، ثُمَّ جَفَّتْ فَصَارَتْ صَلْصَالاً. واقْتَصَرَ النَّصُّ هُنَا عَلَى بَيَانِ هَـٰذَا الطَّوْر، وهُوَ واحِدٌ مِن أطْوَارٍ كثِيرَةٍ، أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآن بَعْضاً مِنْها، وفِيها دَلَالَةٌ باللُّزُوم الْفِكْرِيّ على مَا يَهْتَدِي الْفِكْرُ أو البحثُ الْعِلْميُّ إلَيْهِ، وإذْ خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ آدَمَ مِنْ طِينٍ فذُرِّيَّاتُهُ كَذَلِكَ، لأنَّهُمْ مِنْ نَسْلِهِ.

- ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾:

الْجَانُّ: هُوَ أَبُو الجنّ، وإبْلِيسُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

نَار السَّمُوم: هِيَ النَّارُ الَّتِي تُحْدِثُهَا الرِّيحُ الحارَّة.

فأبَانَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ أنَّ اللهَ قَدْ خَلَقَ أجْسَادَ الْجنِّ مِنْ نارِ السَّمُوم، إذْ خَلَقَ أَبَاهُمُ الْأَوَّلَ مِنْ نَارِ السَّمُوم، فَذُرِّيَّاتُهُ كذلِكَ لِأَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِهِ.

وَأبَانَتْ أنَّ الْجَانَّ وَبَعْضَ ذُرِّيَّاتِهِ مَخْلُوقُونَ مِنْ قَبْلِ الإنسانِ الأوَّل آدَمَ عَلَيْهِ السَّلام.

■ قول الله تَعَالَى خطاباً للرَّسُولِ ﷺ فَلِكُلِّ صَالِحٍ للخطاب بأسْلُوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي مَا نَقُصُّ عَلَيْك مِنْ أَحْدَاث تَتَعَلَّقُ بخَلْقِ الإنْسَانِ الْأَوَّلِ، الَّتِي جرَتْ فِي وقْتِ أطْوَارِ خَلْقه، ومنها ما يلي:

قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ، والْمُرَادُ الْمَلأُ الأَعْلَىٰ مِنَ الملائكة، أخذاً من دَلَالَة الآيـة (٦٩) مِنْ سُورَة (صۤ/٣٨ نزول): إِنِّي سَأَخْلُقُ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، وَكَانَ مُنْدَسّاً فِيهِمْ إِبْلِيسُ الّذِي هُوَ مِنَ الجنّ وَلَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مُتَسَتِّراً بأعْمَالِ المنافِقِينَ، مُبْتَغِياً الْعُلُوَّ في صُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ بِعَوَامِلِ مَا نَفْسِهِ من كِبْرٍ وعُجْبٍ بالنَّفْسِ، وأغْرَاهُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُلَبِّسَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَة بِعِبَادَاتِهِ للتَّشَابُهِ الْجَسَدِيّ القابِلِ للتَّشَكُّلِ كالْمَلَائِكَة.

- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أي: فإذَا أتْمَمْتُ تَقْوِيمَهُ وَتَعْدِيلَ خَلْقِهِ، حتَّىٰ صَارَ سَوِيًّا مُكْتَمِلاً لِلْغَايَةِ المخْلُوقِ لها، وهِيَ الصُّورَةُ الْبَشَرِيَّةُ الْكَامِلة.

يُقَالُ لُغة: «سَوَّى فُلَانٌ الشَّيْءَ»: أي: قَوَّمَهُ وَعَدَلَ بَيْنَ أجْزَائِهِ فَجَعَلَهُ سَوِيًّا، ويُقَالُ لِلْغُلَامِ إذَا تَمَّ شَبابُهُ: قد اسْتَوَىٰ.

- ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: أي: وَنفَخْتُ فِيهِ رُوحاً مِنْ جِنْسِ الرُّوحِ الَّذِي هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي، وَمِلْكٌ مِنْ مِلْكِي.

إضافَةُ الرُّوحِ إلَىٰ يَاء المتكلّم الواحِدِ الأحَدِ هِي عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْمِلْكِ، إذ كُلُّ مَا خَلَقَ هُوَ مِلْكُهُ، وَنَظِيرُهُ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ و﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ و﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾.

الرُّوح: خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، يَكُونُ وُجُودُه بأمْرِ التكْوِينِ المبَاشِر، دُونَ وِسَاطَةِ أسْبَابٍ مِنْ مَخْلُوقٍ سَابِقٍ له، فإذَا نُفِخَتْ ذَرَّةٌ مِنْهُ في شَيْءٍ صَارَ حَيًّا وَفْقَ التكْوِينِ الّذي خُلِقَ له.

- ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: الوقُوعُ والسُّقُوط والْخُرُور، يُرَادُ بها سُرْعَةُ الهُبُوطِ والنزُولِ، حتَّىٰ يكُونُوا سَاجِدِينَ.

وهذا السُّجُودُ هُوَ طَاعَةٌ لِأَمْرِ اللهِ، وتَكْرِيمٌ وَتَوْقِيرٌ لآدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَكْفِيرٌ عمَّا كَانُوا كَتَمُوهُ مِنْ أَنَّهُمْ أفْضَلُ مِنْ هٰذَا المخْلُوقِ

الجَدِيدِ، حِينَ أخْبَرَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّ هذا المخْلُوقَ الْبَشَر، سَتَكُونُ لَهُ ذُرِّيَّةٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُونَ الدِّماء، وقالُوا في نُفُوسِهِمْ: مَا الدَّاعِي لِخَلْقِهِ.

السُّجُود: هو الخضوعُ والانْحِنَاء والتَّطامُن، وغايَتُهُ وَضْعُ الجبهة عَلَىٰ الْأَرْض. والسُّجُودُ في الاصْطِلَاحِ الشَّرْعِي يكُونُ بِوَضْعِ السَّاجِدِ للهِ جَبْهَتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، مَعَ الكَفَّيْنِ، والرُّكْبَتَيْنِ والْقَدَمَيْن، لِقَوْلِ الرَّسُول ﷺ:

«أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أعْظُمٍ».

وأَبَانَ كَيْفِيَّتَهُ بِسُجُودٍ قَلَّدَهُ أصْحَابُهُ فِيه، وَتَوَارَثَهُ بَعْدَ ذلِكَ الْمُسْلِمُونَ تَقْلِيداً عَمَلِيًّا، وبياناً قولياً.

﴿سَٰجِدِينَ﴾: مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ حال.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: إنَّ الْمَلائِكَةَ المأمُورِينَ بالسُّجُودِ لآدم قَدْ سَجَدُوا كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ، فَلَمْ يتخلَّفْ مِنْهُمْ أحَدٌ، وَسَجَدُوا فِي وَقْتٍ واحِدٍ، إلَّا أَنَّ إبْلِيسَ الَّذِي كَانَ مُنْدَساً بَيْنَهُمْ، وَقَدْ وَجَّهَ اللهُ له الأمْرَ بالسُّجُودِ لآدَمَ مَعَهُمْ، باعْتِبَارِهِ مُنْدَساً فِيهِمْ، ويَعْتَبِرُ نَفْسَهُ وَاحِداً مِنْهُمْ، أَبىٰ أَنْ يَسْجُدَ لآدَمَ طَاعَةً لِأَمْرِ الله لَهُ، واسْتَكْبَرَ أَنْ يَكُونَ سَاجِداً مَعَ السَّاجِدِينَ من مَلَائِكَةِ الملأ الأعلى.

دَلَّتْ: ﴿كُلُّهُمْ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يتخلَّفْ عَن السُجودِ منهم أَحَدٌ. وَدَلَّتْ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ على سُجودهُمْ في وقت واحد على رأي الزمخشري.

ودَلَّتْ عِبارة: ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ الْمَلائِكَةِ،

وأَنَّهُ كَانَ مَأْمُوراً بِأَنْ يَسْجُدَ مَعَهُمْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِهِمْ، وَظَاهِرٌ أَنَّهُ أَبَىٰ أَنْ يَسْجُدَ اسْتِكْبَاراً، واخْتَارَ أَنْ يَعْصِيَ رَبَّهُ فيما أَمَرَهُ بِهِ، وانْفَرَدَ وَحْدَهُ بِعَدَمِ السُّجُودِ، رافضاً أن يكون ساجداً مَعَ المأمُورِينَ مِن الْمَلَائِكَةِ بالسُّجُودِ، إذا اعْتَبَرَ نَفْسَهُ نِفَاقاً واحداً مِنْهُمْ.

■ قول اللهِ تَعَالَى:

● ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾:

في هَٰذِهِ الآيات بيانُ خُلَاصَةِ الجلْسَةِ الأولَىٰ مِنْ جَلْسَاتِ محاكَمَةِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لإبْلِيسَ عَلىٰ رَفْضِهِ طَاعَةَ أَمْرِ رَبِّهِ بالسُّجُودِ لآدَم.

● ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾: أي: قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لإبْلِيسَ مُتَرَفِّقاً بِمُسَاءَلَتِهِ، ومُخَاطِباً لَهُ باسْمِهِ المعروف بِهِ بَيْنَ الْملَائِكَةِ، والْمَعْرُوفِ بِهِ بَيْنَ الجِنّ: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: أيْ: أيُّ عُذْرٍ لَكَ حَمَلَكَ عَلىٰ أَنْ لَا تَكُونَ سَاجِداً مَعَ السَّاجِدِينَ مِنْ مَلَائِكَةِ الملأ الْأَعْلَىٰ، وقَدْ تَسَلَّلْتَ فِي صُفُوفِ الملائِكَةِ مُتَرَقّياً، حَتَّىٰ اعْتَبَرْتَ نَفْسَكَ واحِداً مِنْهُمْ، حَرِيصاً عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنَ الْفَضْلِ والمنزلَةِ الرَّفِيعَةِ عِنْدِي مِثْلُ ما لَهُمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عُنْصُرُكَ من الملائِكَةِ المخْلُوقِينَ مِنْ نُورٍ، بَلْ أَنْتَ مِنَ الجِنِّ المخْلُوقِينَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَيْضاً أَنَّ الْأَمْرَ بالسُّجُودِ لآدَمَ مُوَجَّهٌ مِنْ رَبِّكَ لَكَ كَمَا هُوَ مُوَجَّهٌ لِلْمَلَائِكَة، نظراً إِلَىٰ أَنَّكَ اعْتَبَرْتَ نَفْسَكَ وَاحِداً مِنْهُم.

فَلَمْ يُخْفِ إبْلِيسُ فِي جَوابِه احْتِقَارَهُ لآدَمَ، نَاظِراً إلى أَحَدِ أَطْوَارِ خَلْقِ جَسَدِهِ، وإِلَىٰ كَوْنِهِ بَشَراً.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾:

فأبَانَ إبْلِيسُ أنَّ آدم بَشَرٌ شَبِيهٌ بأجْسَادِ حَيَوَانَاتِ الأرض، فِي عَدَمِ قُدْرَتِهِ على اخْتِرَاقِ الأجْوَاءِ الْعُلْيَا، والوصُولِ إلىٰ السَّمَاوَاتِ، كالْمَلائِكَةِ وَبَعْضِ الجنِّ، وذَكَرَ الْمَرْحلَة الْأَخِيرَة مِنْ أطْوَارِ خَلْقِ جَسَدِه، وهِيَ مَرْحَلَةُ: ﴿صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

هذا الرَّدُّ مِنْ إبْلِيسَ يُعَبِّرُ عَنِ اسْتِكْبَارِهِ. وتَرَفُّعِهِ واسْتِنْكَافِهِ عَنْ أَنْ يَسْجُدَ لِمَنْ يَعْتَبِرُهُ دُونَهُ فِي الْخَلْق، ويُعَبِّرُ عَنْ شَكِّهِ فِي حِكْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فِي تَوْجِيهِ الْأَمْرِ بالسُّجُودِ لآدم، واعْتِرَاضِهِ عَلَيْهِ، ويُعَبِّرُ عَن جُحُودِهِ لإلَٰهِيَّةِ اللهِ الرَّبِّ.

إنَّ إبْلِيسَ لَمْ يَذْكُرْ لِنَفْسِهِ عُذْراً حَقِيقِيًّا، بَلْ أَجَابَ بِمَا يَكْشِفُ عَنْ كِبْرِهِ وَوَقَاحَتِهِ فِي مُخَاطَبَةِ رَبِّه.

فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ إصْدَارِ الْحُكْم عَلَيْهِ بالإخْرَاجِ مِنْ مَنَازِلِ المَلأِ الْأَعْلَىٰ مِنَ المَلَائِكَة، وبالرَّجْمِ للطَّرْدِ والإبْعَادِ، مَعَ صَبِّ اللَّعْنَة عَلَيهِ، فجاء في النّص:

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾:

رَجِيم: أي: مَرْجُوم بالحجارة ونَحْوِها، والمراد الطَّرْدُ مِن منازل الملأ الأعلى.

أي: وفي يَوْمِ الدِّين يَجْرِي حِسَابُكَ عَلَىٰ كُفْرِكَ بإلَٰهِيَّةِ رَبِّكَ لَكَ، ويَجْرِي إصْدَارُ الحكْم عَلَيْكَ بِمَا تَسْتَحِقُّ مِنْ عَذَابٍ.

- ■ فَوَضَعَ إبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ خُطَّةَ إغْوَاءِ بَنِي آدم.

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: قَالَ إبْليسُ مُعْتَرِفاً للهِ عزَّ وجلَّ بِرُبُوبيَّتِهِ: رَبِّ بما أنَّكَ حَكَمْتَ عَلَيَّ بالْإِخْرَاجِ والرَّجْمِ واللَّعْنَةِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّين، فَأَمْهِلْنِي حَيًّا إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، وقَدْ كَانَ يَوْمُ الْبَعْثِ للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاءِ، مَعْلُوماً لِلْجِنِّ والْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ آدم، لأنّ الجنَّ مَخْلُوقُونَ مُمْتَحَنِينَ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيا قَبْلَ الإنْسِ، ويَعْلَمُونَ أَنَّ الجزاء يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ مِنْه، ومن اللَّوازِمِ الَّتِي تُدْرَكُ بالْعَقْلِ أَنَّ الجَزَاءَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بالْحِسَابِ وبِفَصْلِ القضاء.

■ فأَعْطَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ إِبْلِيسَ بَعْضَ طَلَبِهِ، ووعَدَهُ بِأَنْ يُنْظِرَهُ إِلَىٰ سَاعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وإِمَاتَةِ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ فِيها، وجَعَلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ المنْظَرِينَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْوَقْتِ المعلوم لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، لا إلى يومِ الْبَعْث.

● ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٣٨)﴾:

أي: قَالَ اللهُ لَه: بَعْضُ مَا طَلَبْتَهُ مُجابٌ، فَإِنَّكَ مِنَ الأحْيَاءِ المنْظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوم، كَجِبْرِيلَ، وإِسْرَافِيل، وميكَائِيل.

■ ولَمَّا اسْتَوْثَقَ إِبْلِيسُ مِنْ إِمْهَالِ اللهِ لَهُ فِي الحياة الْأُولى إِلَىٰ ساعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِها، أَعْلَنَ عَزْمَهُ عَلَىٰ أَنْ يَعْمَلَ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ وَسَائِلِ إِغْوَاءٍ وَإِغْرَاءٍ وَتَزْيِينٍ، لإِغْوَاءِ آدَمَ وَمَنْ يُخْرِجُ اللهُ مِنْهُ مِنْ نَسْلٍ حَتَّىٰ قِيامِ السَّاعَةِ، إِلَّا مَنْ كَانَ مُخْلِصاً أَوْ مُخْلَصاً للهِ.

● ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾:

قُرِئَ: [**الْمُخْلَصِينَ**] بِفَتْحِ اللَّام، أي: الَّذينَ تَسْتَخْلِصُهُمْ وَتَصْطَفِيهِمْ، فَتَعْصِمُهُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ، بِسَبَبِ مَا فَطَرْتَهُمْ عَلَيْهِ مِن الكمالِ، لِتُؤَهِّلَهُمْ لِلنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، أو للنُّبُوَّةِ فقط.

وقُرِئ: [**المخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللام، أي: الَّذِينَ يُخْلِصُونَ لَكَ الإيمانَ والْعَمَلَ، فأنْتَ تَحْمِيهِمْ مِنَ الْغَوَايَةِ بِسَبَبِ إخلاصِهِم لَكَ.

- ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: فَبِسَبَبِ مَا حَكَمْتَ عَليَّ بِهِ مِنَ الْغَوَايَة.
- ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: لَأُحَسِّنَنَّ لَهُمْ مَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا تَزْيِيناً أُدلِّيهِمْ به إلَىٰ مَعْصِيَتِكَ وَمُخَالَفَةِ أَوَامِرِكَ وَنَوَاهِيكَ، حَتَّىٰ دَرَكَةِ الكُفْرِ بِإلَهِيَتِكَ وَرُبُوبِيَّتِكَ.
- ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي: وَلَأُوقِعَنَّهُمْ فِي الْغَوَايَةِ، وهِيَ الإمْعَانُ فِي الضَّلَالِ والْبُعْدِ عَنْ صِراطِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ، أَجْمَعِينَ.
- ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ و ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ بِكَسْرِ اللّام. فَهؤُلَاءِ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُغْوِيَهُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾ وفي قراءة يَعْقُوب: [**صِراطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ**].

أي: قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لإبليسَ اللّعين: إنّي قَدَّرْتُ وَقَضَيْتُ لِمَنْ أَضَعُهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، صِرَاطاً اعْتِقَادِيًّا وعَمَلِيًّا آمُرُهُمْ أَنْ يَسْلُكُوهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَهَذَا المشار إِلَيْهِ المطويُّ هو صِرَاطٌ عَلِيٌّ رَفِيعٌ عَلَىٰ قِمَّةٍ، وَدُونَهُ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشِّمَالِ سُبُلُ الضَّلَالَةِ والْغَوَايَة، وَهِيَ مُنْحَدِرَةٌ إلَىٰ أَوْحَالِ الْعَذَابِ، وَمُوصِلَةٌ مَنْ تَابَعَ سُلُوكَهَا إلى عذاب جَهَنَّم خَالِداً فِيهَا مُخَلَّداً. وهَـٰذَا الصِّرَاطُ عَلَيَّ بَيانُهُ لِكُلِّ الَّذِينَ أَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، فِيمَا أُنْزِلُ عَلَىٰ رُسُلِي، وهُو صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ على قِمَّة.

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ لإبْلِيسَ: إنَّ عِبَادِي الَّذِينَ هُمْ خَلْقِي وَمِلْكِي لَا أجْعَلُ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً تُؤَثِّرُ عَلَيْهِمْ بِهِ، تَأْثِيراً جَبْرِيًّا تُلْغِي بِهِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّةَ، فَهُمْ مَحْمِيُّونَ مِنْكَ ومِنْ جُنُودِكَ بِحِمَايَتِي لَهُمْ، إلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ بإرَادَاتِهِم الحرَّةِ غَيْرِ المجْبُورَة، فَهؤُلَاءِ لَا أَتَوَلَّىٰ حِمَايَتَهُمْ مِنْكَ وَمِنْ جُنُودِكَ، وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُ هٰؤلَاءِ الْغَاوِينَ الكافِرِينَ يَجْتَمِعُونَ فِيه وَيَذُوقُونَ الْعَذَابَ فِيهِ أجْمَعِينَ.

﴿لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾: أي: لَهِيَ الْمَكَانُ الْمَوْعُودُونَ بالعذاب فِيهِ أَجْمَعِينَ.

ووَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ جهَنَّمَ بأنَّ لَهَا سَبْعَةَ أبْوابٍ، بِحَسَبِ أنواع الجرائم الْعُظْمَى الَّتِي كانَ الْغَاوُونَ قَدِ ارْتَكَبُوهَا فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، فَلِكُلِّ بابٍ مِنْ أبْوابِ جَهَنَّمَ جُزْءٌ مِنْهُمْ مَقْسُومٌ لَهُ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهُمْ يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ المخَصَّصِ لَهُ مِنْ أَبْوابِها السَّبْعَة.

ولم يُصَرِّح اللهُ عزَّ وجلَّ لإبْلِيسَ فِي هَـٰذِهِ الْجَلْسَةِ مِنْ جَلَسَاتِ محاكَمَتِهِ بأنَّهُ سَيَكُونُ في جهَنَّمَ مَعَ الغاوِينَ، إلّا أنَّهُ قَدْ يُفْهَمُ من النَّصِّ باللُّزُوم الْعَقْلِيِّ، وَقَدْ جَاءَ التَّصْرِيحُ بِهِ فِي نُصُوصٍ أخْرَىٰ:

جَهَنَّم: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أسْمَاءِ دَار الْعَذَابِ الَّتِي أعْتَدَهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ فِيهَا الكافِرِينَ المُجْرِمِينَ والْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّين. ولفظ «جهَنَّمَ» مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ للعَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيثِ.

ويُقَالُ لِلْقَعْرِ الْبَعِيدِ: «جَهَنَّمَ». ويُقَالُ: «بِئْرٌ جَهَنَّم» أي: بَعِيدَة الْقَعْرِ.

وبهذا تَمَّ تدبُّر الدَّرسِ الثالث من دُروس سورة (الحِجْر).

والحمدُ لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوفِيقه وفتحه.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الحِجْر) الآيات من (٤٥ ـ ٥٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾:

القراءات:

(٤٥) • قرأ ٱبْنُ كثير، وٱبْنُ ذَكْوَان، وشُعْبَة، وحَمْزة، والكِسَائي: **[وَعِيُونٍ]** بِكَسْرِ الْعَيْن.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَة: **[وَعُيُونٍ]** بِضَمّ الْعَيْن.

القراءتَانِ لُغَتَانِ عَربيتان.

(٤٩) • قرأ أبُو جَعْفر: **[نَبِّي]** بالياء السَّاكِنَةِ بَدَلَ الهمزة الساكنة في الْوَقْفِ والوصْل، وَكَذَلِكَ حَمْزَةُ وَهِشَام في الوقف فَقَطْ.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَة: **[نَبِّئْ]** بالْهَمْزَةِ السَّاكِنَة في الوصل والوقف.

(٤٩) • فَتَحَ ياء المتكلم مِنْ: **[عِبَادِيَ]** وَمِنْ: **[أَنِّي أَنَا]** في عبارة: **[عِبَادِي أَنِّي أَنَا]**. نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

وقرأهُمَا باقي القرّاء العشرة بالإسْكَان.

فَتْحُ ياءِ المتكلّم وإسْكَانُها لُغَتَانِ عَربيَّتَان.

تَمْهيد:

جاء البيان في هذا الدَّرْسِ بشَأْنِ ثَوابِ المتقينَ يوم الدِّين في جَنَّاتِ النعيم، في مُقَابِلِ مَا جَاءَ مِنْ جَزَاء الغاوِينَ في عذَاب جَهَنَّم، الَّذِي عَرَضَ الدَّرسُ الثالثُ لَقْطَةً مُوجَزَةً مِنْه. وفي هذا الدَّرْسِ لَقَطاتٌ مِنْ أحْوَال أهْل الجنة، وتوجيه للرَّسُولِ، فلِكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ بِأَنْ يُبَشِّرَ بأَنَّ اللهَ غفورٌ رَحِيمٌ وأنّ عَذَابَهُ هو العذابُ الأليم.

التّدبّر التحليلي:

- قول اللهِ تعالَىٰ:

• ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾: أي: إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا الْخُلُود في عَذَابِ جهنَّمَ، بالإيمان الصّحِيح وعَمَلٍ صَالِحٍ يَدُلُّ عليه، فَمَنْ هُمْ أعْلَىٰ دَرَجَةً أَوْ أَعْلَى مَرْتَبَةً، يَكُونُونَ يَوْمَ الدِّين فِي جَنَّاتٍ وعُيُون.

﴿جَنَّٰتٍ﴾: جَمْعُ جَنَّة، وهِي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أشجار وثمار وزُرُوعٍ وأنْهَارٍ وقُصُور وتوابِعِها، مع كُلّ ما تَشْتَهِيه الأنْفُسُ وتَلَذُّ الأَعْيُن.

وجاء لفظ «جَنّاتٍ» مجموعاً لأنَّ دَار النعيم يَوْم الدِّينِ فِيها جِنَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ باعْتِبَار أقْسَامِها، ويَجْمَعُها جميعاً اسْمُ «جَنَّة» باعْتِبَارِ أَنَّها كُلَّها بِمَثَابَةِ دَارٍ للنعِيم، كَشأنِ دَارِ الحياة الدُّنيا بِكُلِّ مَا فِيها.

﴿وَعُيُونٍ﴾: أي: وَعُيونٍ تَجرِي أَنْهاراً عُظْمَىٰ وَدُونَ ذَلِك، وَجَاء بيانُ أنْهار الجنَّة بأَنَّها مِنْ مَاءٍ كامِلِ الْعُذُوبَةِ والصَّفاء، وعَسَلٍ مصفًّى يَجْري، ولَبَنٍ يَجْرِي لَا يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ كامِلِ الصِّفَاتِ، وَخَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ لَا يَسْكَرُ الشَّارِبُونَ مِنها.

- قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾: عِبَارَةٌ مُقْتَطَعَةٌ مِمَّا سَيَجْرِي مِن

اسْتِقْبَالٍ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ عِنْدَ دُخُولِها، إذْ تَقُولُ الملائِكَةُ لَهُمْ: ادْخُلُوهَا مَصْحُوبِينَ بَسَلَامٍ تَحِيَّةٍ تَكْرِيمِيَّةٍ لَكُمْ، وَحَالَةَ كَوْنِكُمْ آمِنِينَ دَوَاماً بَعْدَ دُخُولِهَا مِنْ كُلِّ مَا يُخَافُ مِنْهُ، حَتَّىٰ النَّقْصِ مِنْ بَعْضِ مَا تُحِبُّونَ مِنْ لَذّاتٍ ونَعِيمٍ مُتَجَدِّدٍ لَا يَنْقَطِعُ، وَلَا تَنْفَدُ وَسَائِلُهُ أَبَداً بلا نهايَةٍ.

- قول الله تَعَالَىٰ بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿وَنَزَعْنَا﴾: **النَّزْعُ**: جَذْبُ الشَّيْءِ واقْتِلَاعُهُ مِنْ مَكَانِهِ، فإنْ كَانَ لَهُ جُذُورٌ مُتَغَلْغِلَة، فَنَزْعُهُ اقْتِلَاعُهُ مِنْ جُذُوره.

﴿مِّنْ غِلٍّ﴾: الْغِلُّ كُلُّ مَا يَدْخُلُ في الصُّدُورِ مِنْ عَدَاوَةٍ، وَضِغْنٍ، وحِقْدٍ، وحَسَدٍ، وغِشٍّ، ونحو ذلك. ومَادَّةُ الكَلِمَةِ تَدُورُ حَوْلَ الدُّخُولِ في الْأَشْيَاءِ مِنْ مَادِّيَّاتٍ وَمَعْنَوِيَّات.

• ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾: أي: ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ حَالَةَ كَوْنِهِمْ إِخْوَاناً مُتآخِينَ مُتَوَادِّينَ مُتَحَابِّينَ في الْجَنَّةِ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَيَتَذَاكَرُونَ وَيَتَحَادَثُونَ بِمَا يَسُرُّهُمْ وَيَزِيدُ مِنْ نَعِيمِهِمْ.

التقابُل: هُوَ مُوَاجَهَةُ الْوُجُوهِ لِلْوُجُوه، بِخِلَافِ التَّدَابُر.

• ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: أي: لَا يُلَامِسُ أَجْهِزَةَ الإحْسَاسِ فِيهِم تَعَبٌ ما، لِأَنَّهُمْ لَا يَكْدَحُونَ فِيها لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَطَالِبِهِمْ، بَلْ تَأْتِيهِمْ عَفْواً صَفْواً، وَمَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوىً يُحَقِّقُونَ بِهِ لَذَّاتِهِمْ وأنواعَ نَعِيمِهِمُ المتَجَدِّدِ بِلَا انْقِطَاع.

النَّصَبُ: التَّعَبُ النَّاشِئُ عَنْ بَذْلِ الطَّاقَاتِ حَتَّىٰ الْجَهْد.

• ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾: أي: وأَهْلُ الجنَّةِ في الْجَنَّة يَكُونُون خَالِدِينَ فيها أبداً، فَلَا يُخْرَجُونَ مِنْها أبداً.

جَاءَ التَّعْبِيرُ هُنَا بِعَدَمِ الْإِخْرَاجِ مِن الجنَّةِ كِنَايَةً عَنِ الْخُلُودِ الأَبَدِيِّ فِيها.

- قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى دين اللهِ الحقِّ مِنْ أُمَّتِه:

- ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾:

هاتان الآيتان ملائمتَانِ لِمَا جَاءَ قَبْلَهُمَا مِنْ وَعِيدٍ بِعَذَابِ جَهَنَّمَ فِي آخِرِ الدَّرْسِ الثالث، وتبشيرٍ للمُتَّقِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ في آياتِ الدَّرْسِ الرَّابِعِ قَبْلَهُمَا.

وَجَاءَا بِأُسْلُوبِ تَكْلِيفِ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ بالإِنْبَاءِ بِمَا جَاءَ فِيهما، وهو أَنَّ اللهَ هُو وَحْدَهُ الْغَفُورُ لِكُلِّ الذُّنُوبِ الرَّحِيمُ بِعِبَادِه، وأَنَّ عَذَابَهُ هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ، لِتَعْلِيمِهِ أُسْلُوباً مِنْ أَسَالِيبِ الدَّعْوَةِ، وهُوَ الأُسْلُوبُ الْقَائِمُ عَلَىٰ الإِطْمَاعِ بِغُفْرَانِ اللهِ لِذُنُوب مَنِ اسْتَغْفَرَهُ وَتَابَ إِلَيْهِ وبأَنَّهُ رَحِيمٌ به، المقرُون بالتَّحْذِيرِ مِنْ عَذَابِ اللهِ الَّذِي لَا يُوجَدُ أَشَدُّ مِنْهُ إِيلَاماً، حَتَّىٰ لَا يَيْأَسَ المذْنِبُونَ مِنْ مَغْفِرَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَا يَسْتَهِينُوا بِعَذَابِهِ الأَلِيم، فَيَتَمَادَوْا فِي مَعَاصِيهِمْ وَانْحِرَافِهِمْ عَنْ صِرَاط اللهِ المستقيم.

نَبِّئْ: أي: أَخْبِرْ وأَعْلِمْ، ويُسْتَعْمَلُ النَّبأُ كثيراً في الخبر ذي الخطَر والشأنِ البارز.

الْغَفُور: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «غافِر» وهو السّاتِرُ للمعاصِي والذُّنوب، ومِمَّا يُدْرَكُ عَقْلاً أنّ سَتْرَ الذُّنُوبِ يَجُرُّ وراءَهُ عَدَمَ المؤاخَذَةِ عَلَيْها، وفي العبارة توكيدٌ وقَصْر.

الرَّحِيم: صِيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «راحِم» ووصْفُ اللهِ بهذا الْوَصْفِ مَعَ قَصْرِهِ عليه يَدُلُّ على أنّه لَا يُوجَدُ ذو رَحْمَةٍ تُعادِلُ أو تُقارِبُ رَحْمَتُهُ رَحْمَةَ اللهِ بعباده.

وفي كلٍّ مِنَ الآيَتَيْن توكيد بـ «أنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ وضَمِير الْفَصْلِ) وقَصْرٌ بِتَعْرِيف طَرَفَي الإسْنادِ: «أَنَا الْغَفُور الرَّحيم» و«هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيم».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الرابع من دُرُوس سورة (الحجر).

والحمدُ لله على معونَتِه ومَدَدِهِ وتَوفِيقه وفَتْحِه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس من دُروس سورة (الحِجْر)

الآيات من (٥١ ـ ٧٧)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ
وَجِلُونَ (٥٢) قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن
مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥)
قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ
(٥٧) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ
أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ
ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ
يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ
وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ
ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)
قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓاْ أَوَلَمْ
نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى
سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

القراءات:

(٥٣) ● قرأ حمزة: **[إِنَّا نَبْشُرُكَ]** مِنْ فِعْل: «بَشَرَهُ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِنَّا نُبَشِّرُكَ]** من فعل: «بَشَّرَهُ». والقراءتان لغتان عَربيَّتان.

(٥٤) ● قرأ نَافِع: **[تُبَشِّرُونِ]**. وقرأها ابن كثير: **[تُبَشِّرُونِّ]** بِتَشْدِيدِ النون، مع المدّ المشبع في الوصْلِ والوقف، أصلها تُبَشِّرُونَنِي وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تُبَشِّرُونَ]** بِفَتْحِ النون.

كَسْرُ النون مُشَدَّدَةً وغَيْرَ مُشَدَّدَةٍ هو على تقدير يَاء المتكلّم المحذوفة إيجازاً لفظِيًّا.

(٥٦) ● قرأ أبو عمرو، والكِسَائيّ، ويعقوبُ، وخَلَف: **[يَقْنِطُ]** بِكَسْرِ النُّون.

وقرأها بَاقِي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[يَقْنَطُ]** بفَتْح النُّون.

والقراءتَانِ لُغَتَانِ عَربِيَّتَانِ.

(٥٩) ● قرأ حَمْزَة، والكِسَائي، ويَعْقُوبُ، وخَلَفٌ: **[لَمُنْجُوهُمْ]** مِنْ فِعْل «أَنْجَىٰ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَمُنَجُّوهُمْ]** مِنْ فعل: «نَجَّىٰ».

والقراءتان لغتان عَربِيَّتَان مُتَكافِئتان، فالمهموز أخو المضعَّف.

(٦٠) ● قرأ شُعْبة: **[قَدَرْنَا]**. وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: **[قَدَّرْنَا]**. والقراءتان لغتان عَربيّتان.

(٦٥) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جَعْفَر: **[فَاسْرِ]** مِنْ فعل: «سَرَىٰ».

وقرأها بَاقِي القرّاءِ العشَرَةِ: **[فَأَسْرِ]** مِنْ فِعْلِ: «أَسْرَىٰ».

والقراءتان لغتان عَرَبيّتان لمعنى واحد، وهُو السَّفَرُ ليلاً.

(٦٨ و٦٩) ● أثْبَتَ يَاءَ المتكلّم في: **[فَلَا تَفْضَحُونِي]** وفي: **[وَلَا تُخْزُونِي]** يَعْقُوبُ في الوصْلِ والْوَقف.

وَحَذَفَهَا بَاقِي القرّاء العشرة في الوصْل والوقف أيضاً: **[فَلَا تَفْضَحُونِ]** و**[وَلَا تُخْزُونِ]** وهي مع الحذف ملاحظَةٌ ذِهْناً.

(٧١) ● فتح ياء المتكلّم مِنْ: **[بَنَاتِي إِنْ]** نَافع، وأبو جَعْفر. وأسْكَنَها بَاقِي الْقُرّاء العشرة.

تمهيد:

في هذا الدَّرس يُكَلّف اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يُنَبِّئَ المعالَجين فِي السُّورة مِنْ مُشْرِكي مكَّة، نَبأَ الْمَلَائِكَةَ الّذِينَ جَاءُوا إلى إبراهِيمَ أوّلاً فَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ هُوَ إسْحَاقُ عليه السَّلام مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الْعَجُوزِ الْعَقِيم، وأخْبَرُوه بأنّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَرْسَلَهُمْ لإهْلَاكِ قَوْمِ لُوط.

والْغَرَضُ مِنْ إِنْبَاءِ الرَّسُول محمَّد ﷺ قَوْمَهُ بِهَـٰذِهِ الْقِصَّةِ، تَحْذِيرُهُمْ مِنْ عِقَابٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ يَنْزِلُ بِهِمْ، فيُهْلِكُهُمْ بِهِ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا شَامِلاً كَمَا أهْلَكَ اللهُ قَوْمَ لُوطٍ، ولا يُشْتَرَطُ أَنْ تكُونَ وَسِيلَةُ الإهْلَاكِ مُمَاثِلَةً لِلْوَسِيلَةِ الّتِي أهْلَكَ اللهُ بِهَا قَوْمَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام.

فهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ مَوْضُوعِيًّا بالدُّرُوسِ السَّابِقَةِ لَهُ في السُّورَة.

وَمَا جَاءَ في هَـٰذَا الدَّرْسِ قَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُه تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا، مع سَائِرِ النُّصُوصِ المتعلّقَة بِلُوطٍ عليه السَّلَام وقومِهِ في المَلْحَقِ الخامس مِنْ

مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورَة (الأعراف/ ٣٩ نزول)⁽¹⁾. ولِذَا فإنّي أقْتَصِرُ هُنَا على تَدَبُّر فِقَراتِ هٰذَا النَّصّ، دُونَ تَوْجِيه العنايَةِ للتكامُلِ بَيْنَهُ وبَيْنَ سَائِرِ النُّصُوص حول هذا الموضوع.

التّدبّر التحليلي:

- ■ قول الله تَعَالَىٰ يُكَلّفُ رَسُولَهُ أنْ يُنَبِّئ مُشْرِكي مَكّة المتَعَنِّتين:

- ● ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: وَأخْبِرْهُمْ يا مُحَمَّدُ النَّبَأَ الَّذِي نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، الصَّادِرَ عنْ قِصَّةِ ضَيْفِ إبراهيم عليه السلام، وقَدْ كَانُوا رُسُلاً مِنَ المَلَائِكَةِ، جاءُوا إِلَيْهِ عَلَىٰ صُوَرِ بَشَرٍ حِسَانٍ.

الضَّيْفُ: الّذي يَنْزِلُ عِنْدَ غَيْرِهِ «يَسْتَوِي فِيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، والمفرد والمثنّىٰ والجمع» ويُجْمَعُ على: «أَضْيَافٍ، وضُيُوفٍ، وضِيَاف، وَضِيفان».

- ■ قول الله تَعَالَىٰ:

- ● ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: ونَبِّئْهُمْ عَنْ قِصَّةِ ضَيْف إبْرَاهِيمَ الكائِنَةِ وَقْت دُخُولِهِمْ عَلَيْه فَقَالُوا له: سَلَاماً. ﴿إِذْ﴾ ظرفيّة بمَعْنَىٰ «حين».

وجاءَ في غير هٰذَا النَّصّ أنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

- ● ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: أي إنّا مِنْكُمْ خَائِفُونَ، يُقَالُ لُغَةً: «وجِلَ، يَوْجَلُ، وَجلاً، وَمَوْجَلاً»: أي: خَافَ وفَزِعَ، وذَلِكَ لأنهم لم يأْكُلُوا من طعامِهِ الذي قرَّبَهُ إليهم.

---

(١) انظر الملحق الخامس «دراسة تكامليَّة للنصوص بشأن لوط عليه السلام وقومه في القرآن المجيد» في الصفحات من (٢٧٩ ـ ٣٥١) من المجلّد الخامس.

■ قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾:

أَيْ: قَالَ الرُّسُلُ مِنَ الملائِكَةِ لإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَهُوَ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُمْ ضَيْفٌ من الْبَشَرِ، لَا تَخَفْ مِنَّا، إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَام عَلِيم سَيأْتِيكَ مِنْ زَوْجِكَ «سَارَة» فَنَحْنُ مَلَائِكَةٌ رُسُلٌ مُرْسَلُونَ مِنْ رَبّك، لِنُقَدِّمَ لَكَ هَـٰذِهِ الْبِشَارَة.

■ قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾:

الاستفهام في: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ فِيه مَعْنَىٰ التَّعَجُّبِ مِنْ أَمْرِ هَـٰذِهِ البِشَارَة.

• ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: أي: أَبَشَّرْتُموني مع أنْ مَسَّنِي الكِبَرُ والشَّيْخُوخَةُ المضْعِفَةُ عَادَة عن الإنْجابِ. «علىٰ» هنا بمعنى «مع».

«أَنْ» مَصْدَرِيَّة تُؤَوّل مع ما بَعْدَها بِمَصْدَر، أي: مع مَسِّ الكِبَرِ لي.

المعنى: أبَشَّرْتُموني وقد صَارَ بَيْني وبَيْنَ الكِبَرِ تَماسٌّ، ولَمْ يَقُلْ عليه السَّلام: أصابَنِي الكِبَرُ، أَوْ نَزَلَ بِي الكِبَرُ، لِيَكُونَ صادقاً فِي عِبارَته، إذْ مَا زَالَتْ لَدَيْهِ قُوَّةٌ وَقُدْرَةٌ على الإنجاب، فقد تَزَوّج بَعْدَ «سَارَة» امرأةً اسْمُها «قطورة» وأنجب مِنْها سِتّ بنين.

ويظهر أنّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام لَمْ يُرِدْ أَنْ يَجْرَحَ مَشَاعِرَ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الواقِفَة مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحِوار، بأنَّ السَّبَبَ فِي عَدَمِ الإنجاب هُوَ مِنْها لا مِنْهُ، فَهُوَ مَا زَالَ قَادِراً على الإنجاب ضِمْنَ نظام الأسْبَابِ الرَّبَّانِيَّة المعْرُوفَة، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وسَكَتَ عَنِ الْعِلَّةِ الموجودَةِ لَدَىٰ زَوْجَتِهِ «سَارَة» العَجُوز العقيم، فقَدْ كَانَتْ طَوالَ مَا قَبْلَ سِنِّ الْيَأْسِ عَقِيماً، ثُمَّ شَاخَتْ وصَارَتْ عَجُوزاً.

ورُبما وَقَعَ في ظَنِّ إبراهيم عليه السّلام، أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سيَأْمُرُهُ بأنْ يَتزوَّجَ امْرَأَةً ذَاتَ اسْتِعْدَادٍ للإنجاب، ومِثْلُ هَـٰذَا الظّنِّ وقع في نَفْسِ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الواقفة من وراء حجابٍ تتسَمَّعُ الحوارِ.

- ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟ أي: فَبِأَيِّ سَبَبٍ لَدَيَّ أَمْلِكُهُ يَكُونُ مِنْ آثارِه أَنْ أُنْجِبَ وَلَداً فأنْتُم تُبَشِّرُونَنِي به.

لقد كانَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مُلْتَزِماً بأَنْظِمَةِ اللهِ السببيَّةِ في كُلِّ مَا يَخُصُّه، ومُتَأَدِّباً مع رَبِّهِ بِشَأْنِها، غَيْرَ حَرِيصٍ على أنْ يَسْأَلَ اللهَ عزَّ وجلَّ خَرْقَها مِنْ أَجْلِ وَلَدٍ يَأْتِيه مِنْ «سَارَة» زوجته.

- ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: بَشَّرْنَاك بخَبَرٍ عَنِ اللهِ مُتَّصِفٍ بالْحَقِّ الَّذِي سَيَتَحَقَّقُ حَتْماً، فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِين الْيَائِسِينَ.

الْقُنُوطُ: هو في اللُّغة الْيَأْس.

لم يجيبُوه عَنِ السَّبَبِ، وإنَّما أجابُوهُ على ظَاهِرِ عبارَتِه، لَا عَلَىٰ مُرَادِهِ مِنها.

- ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾؟:

استفهامٌ يُريدُ به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْيَ قُنُوطِهِ، أي: لَا أَحَدَ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إلَّا الضَّالُّونَ الجاهِلُونَ بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء، فأنَا لَمْ أشْعُرْ بالْقُنُوط، ولَمْ يخْطُر على بَالِي حَتَّىٰ تَنْهَوْنِي عَنْه، وأشْعَرَهُمْ بِهَـٰذَا أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُهُمْ عَنِ السَّبَبِ فقط، حِينَ قَالَ لهم: ﴿... فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟.

وجاءت تتمّات في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ ذَكَرْتُها في الملحق الخامس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) وهو «دراسَةٌ تكامُلِيَّة للنصوص بشأنِ لوطٍ عليه السَّلام وقومه».

▪ وأحَسَّ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنَ الرُّسُلِ الملائِكَةِ عِنْدَهُ، حَرَكَاتٍ أَوْ تَهَامُساً دَلَّهُ عَلَىٰ أنَّهُمْ فِي عَجلَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَأَنَّ لَدَيْهِمْ أَمْراً خَطِيراً يُرِيدُونَ تَنْفِيذَ أَمْرِ اللهِ لَهُمْ فِيهِ، وقد يكُونُ قَدْ فَهِمْ مِنْ بَعْضِ عباراتِهم شيئاً، فسألهم:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾؟: أي: فَمَا أَمْرُكُمْ وَمَا شَأْنُكُمْ الَّذِي تَتَخَاطَبُونَ فيه.

الْخَطْب: هُو في اللُّغَةِ الْأَمْرُ والشَّأْنُ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ المخاطَبَة.

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾: أي: فَهُمْ بسَبَبِ كَوْنِهِمْ قَدْ بَلَغُوا حَضِيضَ الإجْرَامِ يَسْتَحِقُّونَ الْإِهْلَاكَ الشَّامِلِ واسْتَثْنَوْا آلَ لُوطٍ، فقالُوا:

- ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩﴾: أي: إلَّا لُوطاً وَآلَهُ، فإنَّنَا لَا نُهْلِكُهُمْ بَلْ نُنَجِّيهِمْ أَجْمَعِينَ مِن الْهَلَاك والْعَذَاب الذي نُنْزِلُهُ بِقَوْمِهِ الْمُجْرِمين.

وقَدْ يَكُونُ هَـٰذَا الاستثناء بَياناً قُرْآنِيًّا صَادِراً عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويُؤَيّدُ هَـٰذَا الْفَهْمَ قَوْل الله بَعْدَهُ:

- ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٦٠﴾ وفي القراءة الأخْرَىٰ: **[قَدَرْنَا]**: أي: بِسَبَبِ كَوْنها كافِرَة، وكَانَ هَوَاهَا مَعَ قومِها في فواحِشِهم، لَا مَعَ زَوْجِهَا لوط عليه السلام.

والمعنى: قَدَّرْنَا وَقَضَيْنَا أَنْ تَكُونَ امرأتُهُ مِنَ الغابِرِينَ الْمُهْلَكِين مع قومها.

تَقْدِيرُ مَقَادِيرِ الأشياء سَابِقٌ لقضاء الله بِها، ثُمَّ يَكُونُ التنفِيذُ عَلَىٰ وفْقِ التَّقْدِير والقضاء.

هذا بيانٌ صادِرٌ عن الله ـ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه ـ إذِ التقديرُ لَا يكون من الرُّسُل من الملائكة، بَلْ هم أدواتُ تنفِيذٍ لِقَدَرِ اللهِ وَقضائه.

﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: كلمة «**الغابر**» تأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَيْين:

الأول: الماكِثُ الّذي لَا يَتحوَّل.

الثاني: الذاهِبُ الماضِي الّذي لم يَبْقَ لَهُ وجُود.

وكلا هـٰذَيْنِ المعنَيَيْنِ ينطبقَانِ على امْرأة لوط عليه السلام، فَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ تَمْكُثُ فِي أَرْضِ قَوْمِها، بإهْلَاكِها قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنها وَتُفارِقَ حُدُودَها، وأهْلَكَهَا اللهُ مَع قَوْمِها فَذَهَبَتْ مَعَ الذاهبين منهم بالإهْلَاكِ الرَّبَّانِي، ومَضَتْ مَعَ الماضِين، ولَمْ يَبْقَ لَهَا فِي أَرْضِهَا وُجُودٌ حَيٌّ.

وهَـٰذَا من اسْتِعْمالِ اللَّفْظِ في مَعْنَيَيْه، وهو مَذْهَبُ جُمهور علماء أصُولِ الفقه، وَتَشْهَدُ لَهُ نُصُوصٌ قرآنِيَّةٌ مُتعَدّدة، وهو مظهر من مظاهر الإيجازِ في القرآن المجيد.

قول الله تَعالَىٰ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

دَلَّ هَـٰذَا البيان على أنَّ الرُّسُلَ مِنَ الملائكَةِ الَّذين جَاءُوا عَلَىٰ صُوَرِ شَبَابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ، مَرُّوا بآلِ لُوطٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْه، وَعَنْ طَرِيقِهِمْ طَلَبُوا مُوَاجَهتَهُ، فأذِنَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلامُ بأنْ يَدْخُلُوا إِلَيْه، وَعَصَىٰ بذلِكَ أَوَامِرَ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ، إِذْ سَبَقَ أَنْ عَزَلُوهُ عَزْلاً اجْتِمَاعِيًّا، وَنَهَوْهُ عَنْ أَنْ يَلْقَىٰ أَحَداً مِن العالَمين.

لقد عزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرْفُضَ اسْتِقْبَال ضُيُوفٍ مِنْ غَيْرِ قَوْمِهِ نَزَلُوا بِسَاحَتِه، وطَلَبُوا الاجْتِمَاعَ به.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَتَفحَّصَ وُجُوهَهُمْ وَأَلْبِسَتَهُمْ لم يَعْرِفْ مِنْ أيِّ قَوْمٍ

هُمْ، فَقَال لهم: ﴿. . . إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: أي: إِنَّكُمْ مَجْهُولُونَ بالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، لَا أعْرِفُ أشْخَاصَكُمْ وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أيِّ قَوْمٍ أَنْتُمْ.

ورأىٰ أَنَّهُم شُبَّانٌ مُرْدٌ حِسَانٌ، وأَدْرَكَ أَنَّ قَوْمَهُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا قَدْ عَلِمُوا بِمَقْدَمِهِمْ إليه، فتَعَاظَمَ لَدَيْهِ تَصَوُّرُ مَا سَيَحْدُثُ لَهُ مِن مُصِيبَةٍ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ، الَّذِينَ سَيَأْتُونَ إِلَيْهِ طَالِبِينَ مِنْهُ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ مُمَارَسَةِ الفاحِشَةِ في هؤلَاءِ الشُّبَّان، كعَادَتِهِمْ مع كُلّ غَرِيب شَابٍّ ذِي وَسَامَةٍ، فَسَاءَه مَقْدَمُهُمْ إليه، ونُزُولُهُمْ ضُيُوفاً عِنْدَه.

■ لَكِنْ طَوىٰ هَـٰذَا النَّصُّ أحْدَاثاً جَرَتْ بَيْنَ لُوطٍ وَقَوْمِهِ، واقتصَرَ عَلَىٰ بَيَانِ مَا يَلِي جَوَاباً عَلَىٰ سُؤالِهِ لَهُمْ مُسْتَوْثِقاً مِنْ أَنَّهُمْ رُسُلُ رَبِّهِ حَقًّا وصِدْقاً، وأَنَّهُمْ جَاءُوا لتَعْذِيب قومِهِ وإهْلَاكِهِمْ.

● ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: جِئْنَاكَ بِتَعْذِيبِ قَوْمِكِ وإهْلَاكِهِم، وهُو الْأَمْرُ الَّذِي كانُوا يَشُكُّونَ فِيه حِينَما كُنْتَ تُنْذِرُهُمْ وَتُحَذِّرُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ لَهُمْ، وإهْلَاكٍ شَامِلٍ يَعُمُّ كُلَّ قُرَاهُمْ وَكُلَّ أحْيَائهم.

﴿يَمْتَرُونَ﴾: أي: يَشُكُّونَ ويُجادِلُون مُكَذِّبين.

■ وقالُوا لَهُ أيضاً:

﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ شَدِيدَ الْقَلَقِ خائِفاً مِنْ مُصِيبَةٍ تَحُلُّ بِهِ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ فُجُورِهم وَمَجَانَتِهِمْ وَوَقَاحَتِهِم، وإقْبَالِهِمْ لِقَضاءِ أَوْطَارِهِمْ بِعُنْفٍ وإكْرَاهٍ وظُلْمٍ وَعُدْوانٍ، فكانَتْ حَالَتُهُ النَّفْسِيَّة مُحْتَاجَةً لِهَذَا البيان المؤكد.

فالمعنى: وأَتَيْنَاكَ بالنَّبَأ الْحَقِّ، وإنَّا لصَادِقُون في كُلِّ مَا نَقُول لَكَ.

▪ وبَعْدَ أَنْ هَدَّؤُوا قَلَقَهُ، وَسَكَّنُوا خَوْفَه، وجَّهُوا لَهُ تَعْلِيماتِ الرَّحِيلِ عَنْ أَرْضِ قَوْمِهِ، قائِلِينَ لَه:

- ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: فَسِرْ بأهْلِكَ لَيْلاً، مُبْتَعِداً بِهِمْ عَن أَرْضِ سَدُوم. يُقَالُ لغة: «سَرَىٰ اللَّيْلَ، وسَرَىٰ بِهِ» أي: قَطعَهُ بالسَّيْر. ويُقال: «سَرَىٰ بِفُلَانٍ لَيْلاً، وأسْرَىٰ به» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ بِهِ.

- ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: بِطَائِفَةٍ مِن اللَّيْلِ تَكْفِي لاجتيازِكُم الْأَرْض الَّتِي سَيَنْزِلُ عَلَيْها عَذَابُ اللهِ، وَوَسَائِلُ إهْلَاكِه لِأَهْلِ سَدُوم.

القِطْعَ مِنَ اللَّيْل: الطَّائِفَةُ مِنه.

- ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾: أي: وامْشِ أنْتَ وَرَاءَ أَهْلِكَ لِتَسُوقَهُمْ، وَلَا تَمْشِ أَمَامَهُمْ.

- ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: أي: وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أحَدٌ لِيَنْظُرَ مَا سَيَحُلُّ بِأَرْضِ سَدُوم.

وَلَمْ يَأْتِ في هَـٰذَا النَّصّ استثناءُ امْرَأتِهِ اكْتِفَاءً بِمَا جَاءَ في نَصِّ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول) السَّابقِ نزولاً.

- ﴿... وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾: تَدُلُّ هَـٰذِهِ العبارة على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قَدْ خَصَّصَ لَهُمْ دَلِيلاً من الملائكة يَدُلُّهُمْ فيأْمُرُهُمْ بأنْ يَسِيرُوا في الطُّرُقَات، وإلَىٰ الجهاتِ الَّتِي يُعَيِّنُها لَهُم.

الفِعْل في: ﴿تُؤْمَرُونَ﴾ بصيغةِ المضارع يَدُلُّ على أنَّ آمراً سَيُوجِّهُ لَهُم الْأَمْرَ بالسَّيْرِ في الطُّرُقَاتِ، وإلَىٰ الجهات آناً فآنا.

▪ قول الله تَعالَىٰ:

- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾: أي: وأمْضَيْنا وأنْهَيْنا إلَىٰ لُوطٍ عَنْ طَرِيق الْوَحْي إلَيْه، وهَـٰذَا بيانٌ مِنَ اللهِ تبارَكَ وتَعالَىٰ.

- ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾: أي: ذَلِكَ الأَمْرَ الْجَلِيلَ العظيمَ المهُولَ الْخَطِير.

«ذَلِكَ» مفعولٌ بِه لفِعْل «قَضَيْنا». «الأمْرَ» بَدَلٌ من «ذَلِكَ» أو عَطْفُ بَيان.

جاء في هَـٰذِهِ العبارة اسْتِعْمالُ اسْمِ الإشَارَة الموْضوع للبعيد، للدَّلالَةِ عَلَىٰ أنّ الأَمْرَ الْعظيم الْفَظِيعَ الَّذي كَانَ مستبعداً جدًّا، قَدْ تَمَّ بِهِ القضاء الرَّبَّانيّ، وصارَ حَقِيقَةً وَشِيكَةَ الْوُقوع.

- ﴿... أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾: هَـٰذِهِ العبارةُ بَدَلٌ مِنْ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ لتفسِيره، وَرَفْعِ إبْهامِهِ الَّذي جاءَ بأسْلُوبٍ فِيهِ تَهْويلٌ وَتَعْظِيمٌ. وهو بَدَلُ كُلٍّ مِنْ كُلٍّ.

دابِرُ الشَّيْء: أي: تَابِعُهُ وآخِرُه.

والمراد باسم الإشارَةِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قَوْمُ لُوطٍ، وكُلُّ مَا يَتْبَعُهُمْ من أحْيَاءٍ وأشياء.

- ﴿مَقْطُوعٌ﴾ أي: مقْطُوعٌ بالإهْلَاكِ والتَّتْبير والتَّفْتِيت، فَهُوَ مَقْطُوعٌ عَن البقاء في الْوُجُودِ بأوْصَافِهِ وَأشكالِهِ وَهَيْئَاتِهِ مِنْ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

جاء الاكْتِفَاءُ بالتَّعْبِيرِ بالْقَطع، والمرادُ الْقَطْعُ عَنِ الْوجود في ظُرُوف الحياة الدُّنيا.

أصْلُ الْقَطع: الْبَتْرُ لفَصْلِ الشَّيْءِ عَمَّا هُوَ مَوْصُولٌ بِهِ، فَقَطْعُ الحيِّ عن الحياة يكُونُ بإهْلَاكِهِ وإمَاتَتِه، وقَطْعُ الأبْنِيَةِ والْقُرَىٰ يكُونُ بتدْمِيرِها وَإزالَة كُلِّ أثَرٍ لَهَا، وَقَطْعُ الشيءِ عَنِ الْوُجُودِ يَكُونُ بإعْدَامِه.

- ﴿مُصْبِحِينَ﴾: أي: حَالَة كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي وَقْتِ الصَّبَاح. يقال لغة: «أَصْبَحَ فَلَانٌ» أي: دَخَلَ فِي وَقْتِ الصَّبَاح، وهُوَ أوَّلُ النَّهار عنْدَ الصُّبْح.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيات بيانٌ مُوجزٌ لِمَا كَانَ يَتَخَوَّفُ مِنْهُ لُوطٌ عليه السَّلام، إذا عَلِمَ قَوْمُه باسْتِضَافَتِهِ في دَارِهِ لشُبَّانٍ مُرْدٍ حِسَان.

- ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أَرَىٰ أنَّ المرادَ بأهْلِ الْمَدِينَةِ كُبَرَاؤُهَا وَأَصْحَابُ الأمْرِ المطاعِ فيها، ومَعَهُمْ أتباعُهُمْ وأَنْصارُهم.

- ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي: يَتَجَدَّدُ لَدَيْهِمْ الْفَرَحُ والسُّرُور والابْتِهاجُ بِوُجُودِ شُبَّانٍ مُرْدٍ حِسَانٍ غُرَبَاء في دار لوط، ويُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِهَـٰذِهِ الْغَنِيمَةِ السَّهْلَةِ، سَعْياً لِلَذَّةِ الشَّاذَّةِ الْفَاجِرَة، ولَعَلَّ الحادِثَةَ تَكُون سَبباً للتَّخلُّصِ مِنْ لُوطٍ وأَهْلِهِ، إذْ كَانُوا قَدْ نَهَوْهُ عَنْ أنْ يَلْتَقِيَ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ.

يقالُ لغة: «اسْتَبْشَرَ» أي: فَرِحَ وسُرَّ. ويقال لغةً: «اسْتَبْشَرَ فُلَانٌ فُلاناً» أي: بَشَّرَهُ بما يُفْرِحُهُ وَيَسُرُّه.

- ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: وَلَمَّا وَصَلَ أَهْلُ المدينَةِ إِلَىٰ دَارِهِ واجْتَمَعُوا حَوْلَهَا، وَأَلَحُّوا عَلَيْهِ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ، وأَخَذُوا يُرَاوِدُونَهُ عَنْ ضُيُوفِه، فاسْتَعْصَمَ عَلَيْهِ السَّلام، وأَبَىٰ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِن ضُيوفِهِ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلا

تَفْضَحُونِي بَيْنَ النَّاسَ، إذْ يُشَاعُ بَيْنَ النَّاسِ في الحواضِرِ والْبَوَادِي أنَّ «لوطاً» مَكَّنَ كُبَرَاءَ فُسَّاقِ سَدُوم من فِعْلِ الفاحِشَةِ في ضُيُوفِه المرْدِ الْحِسَان.

وقال لهم: اتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِي بَيْنَ النَّاس، أي: وَلَا تُوقِعُونِي في الذُّلِّ والْهَوَانِ، وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَرَفِي وَطَهَارَتِي وَمَكَانَتِي في نُفُوسِ كُلِّ الْأَقْوَامِ مِنْ حَوْلِكُمْ.

- ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾: أي: أَلَمْ نَعْزِلْكَ؟ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنْ أَنْ تَلْتَقِي أَحَداً مِنَ النَّاسِ، من قَوْمِنَا أَمْ مِنَ الْغُرباء؟ فَكَيْفَ تَسْتَقْبِلُ فِي دَارِكَ ضُيُوفاً غُرَبَاء؟ الاستفهام إنكاريٌّ توبيخي.

اتَّخَذُوا هَـٰذَا ذَرِيعَةً لإِخْرَاجِهِ، أَوْ تَوْطِئَةً لإِخْرَاجِهِ مِنْ أَرْضِهِمْ، بِسَبَبِ مَعْصِيَتِهِ لِأَوَامِرِهِمْ وَنَوَاهِيهِم، بَعْدَ أَنْ عَزَلُوهُ عَزْلاً اجْتِمَاعِيًّا.

- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾:

إنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ مُحْرَجاً، وَعَاجِزاً عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ، وغَيْرَ مُسْتَعِدٍّ لِأَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ، وَكَانَ يَعْلَمُ مِنْ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْتَدُونَ عَلَىٰ نِسَاءٍ لَا حَقَّ لَهُمْ بِمُعَاشَرَتِهِنَّ إلَّا عَنْ طَرِيق الزَّواج، حِفَاظاً عَلَىٰ أنْسَابِهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُحْرِجَهُمْ بِعَرْضِ بَنَاتِهِ عَلَيْهِمْ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا ذلِكَ، وَلَوْ فَعَلُوا لافْتَضَحُوا وَسَقَطُوا مِنْ أَعْيُنِ قَوْمِهِمْ وَنِسَائِهِم، وَلَفَجَرَتْ نِسَاؤُهُمْ نِكَايَةً بِهِمْ.

لَكِنَّ عَادَةَ إتْيَانِ الذُّكُورِ لَمْ تَكُنْ تُثِيرُ غَيْرَةَ نِسَائِهِمْ إثَارَةً كبيرَة، وكَانَتْ فِي نَظَرِهِمْ جَمِيعاً بِمَثَابَةِ الأمُور العادِيَّة، كالطَّعَامِ والشراب، وقَضَاءِ الحَاجَات الطبيعيَّة، واللَّهْوِ واللَّعِب، ونَحْوِ ذَلِكَ.

ودَلَّتْ عبارة: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ باسْتِخْدَام حَرْفِ الشرْطِ «إنْ» عَلَىٰ أَنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ عَلَىٰ عِلْمٍ بأنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا عَرْضَه، لِأَنَّ حَرْفَ

الشَّرْط «إنْ» يُقْصَدُ اسْتِعْمَالُهُ فِي الأمْرِ المشْكُوكِ فِيه، أَوْ فِيما لَا يُنْتَظَرُ وُقُوعه، باستثناء حالَاتِ الشَّرْطِ العامّ.

فأعْرَضُوا عَنْ عَرْضه، وقالُوا لَهُ مَا جاء بيانُهُ فِي سُورَة (هود/ ٥٢ نزول):

﴿. . . لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

- قول اللهِ تعالى خطاباً لِرَسُوله ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ مُتَلَقٍّ مِنْ بَعْدِه:

- ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿لَعَمْرُكَ﴾: قَسَمٌ بالْعُمْر. **العَمْرُ، والْعُمُرُ، والْعُمْرُ**: الحياة. وفي الْقَسَم يُسْتَعْمَلُ بفَتْحِ الْعَيْن لَا غير.

اللَّام لَامُ القسم «عَمْرُك» مُبْتَدأٌ مُضَافٌ إلى ضمير المخاطب، والخَبَرُ محْذُوفٌ تقدِيرُهُ: «قَسَمِي» أو «يَمِينِي» وهو لازم الحذف.

والمقْسَمُ عَلَيْه جُمْلَةُ: «إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ».

السَّكْرَةُ: الْمَرَّةُ من السُّكْرِ، وهُوَ غَيْبُوبَةُ الْعَقْلِ بسَبَبِ الشَّرابِ المسْكِر، أو الْغَضَبِ، أو الشَّهْوَةِ الْعَارِمَةِ الطَّاغِيَةِ، أَوْ نَحْو ذَلِكَ.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أيْ: يَتَحَيَّرُونَ وَيَتَرَدَّدُون مُنْطَمِسي الْبَصَائِرِ. **الْعَمَهُ في البصيرة**: كالْعَمَىٰ فِي الْبَصَر.

فأبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّ قَوْمَ لُوطٍ عليه السَّلام كانُوا سَاعَتَئِذٍ غائِبِي الْعَقْلِ كالسُّكَارَىٰ، مُنْطَمِسي البصائِرِ عُمْيَ الْقُلُوب.

فكان تَعْذِيبهُمْ وإهْلَاكُهُمْ أَمْراً حَكِيماً لتَخْلِيص المجتَمع الْبَشَرِيّ مِنْ شُرُورِهم.

■ قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

جاء في هَـٰذِهِ الآياتِ بَيانٌ يَتعَلَّقُ بإهْلاكِ قَوْم لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، وأنَّ فِي آثارِ دِيَارِهِم الْمُدَمَّرَةِ آياتٍ لأولي الألْبَابِ، ولِلَّذِينَ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا.

• ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾: أي: فَأَخَذَتْ أرْوَاحَهُمْ من الحياةِ الدُّنيا صَيْحَةٌ صَوْتِيَّةٌ عُظْمَى بَعْدَ إشْرَاقِ الشَّمسْ.

وَكَانَ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِجْزَ عَذَابٍ عِنْدَ الصُّبْحِ قَبْلَ إمَاتَتِهِمْ، واسْتَقَرَّ فِيهم، حَتَّىٰ جَاءتْهُمُ الصَّيْحَةُ الْمُهْلِكَةُ الْمُمِيتَةُ بَعْدَ شُرُوق الشَّمْس، أخذاً مِنْ دَلالَاتِ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

• ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: فَقَلَبْنَا أَرْضَهُمْ، فَجَعَلْنَا عَالِيَها سَافِلَها، وَسَافِلَهَا عَالِيْها، وأَمْطَرْنَا مَطراً مِنْ حِجارَةٍ عَلَيْهِمْ، وَهَـٰذِهِ الحجارَةُ مِنْ سَجِّيل، أي: أَصْلُها طِينٌ تَحجَّر، وَرُبَّمَا كَانَ للنَّارِ أَثرٌ في جَعْلِهِ مُتَحَجِّراً.

يَتحدَّثُ الرَّبُّ بضمير المتكلّم العظيم لإرْهابِ الكافِرين المعانِدِينَ المتَمَادِينَ في غيّهم، جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه.

• ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: أي: إنَّ فِي ذَلِكَ العِقَابِ الباقِيَةِ آثارُهُ في أَرْضِهِمْ، وهِي أَرْضُ الْبَحْرِ الميّتِ، لآياتٍ مُتعدِّدَاتٍ لِلْمُتَفَكِّرِينَ بِتَعمُّقٍ، اسْتِدْلَالاً بِسِمَاتِ الأشياء ذواتِ الدَّلالَاتِ على

الأحْدَاث، أو على مَا وَرَاءَهَا مِنْ خفَايا. **الآياتُ**: العلامَاتُ الدَّالَّاتُ على أشياء غير ظاهرات.

التَّوَسُّمُ: هو النَّظَرُ الفِكْرِيُّ بِتَعمُّقٍ فِي سِمَاتِ الْأَشْيَاءِ وَصِفَاتِها، لِمَعْرِفَةِ دَلَالَاتِها. قَالَ أَبُو عُبَيْدَة: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾: أي: لِلْمُتَبَصِّرِين. وقالَ ثَعْلَب: الواسِمُ النَّاظِرُ إِلَيْكَ مِنْ قَرْنِكَ إِلَىٰ قَدَمِكَ.

- ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦﴾: أي: وإنَّ قُرَىٰ قَوْم لُوطٍ عليه السَّلام، الَّتِي غَمرَهَا الْبَحْرُ الميّتُ لَبِطَرِيقٍ واضِحٍ مُقِيم ثَابِتٍ غَيْرِ مُتَغَيِّر، يُشَاهِدُ مَوَاقِعَها مَنْ يَزُورُ أَرض سَدُوم، أَوْ يَصِلُ إِلى البحْرِ الميِّتِ ويُشَاهِدُه.

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾: أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الْحَدَثِ العظيم، الَّذِي جَرَىٰ لِقَوْمِ لُوطٍ ولِقُرَاهم، لآيَةً مِنْ آياتِ اللهِ الجزَائِيَّةِ الْعِقَابِيَّة، وهِي دَالَّةٌ عَلَىٰ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبادِهِ الْمُجْرِمين. هذه الآيَةُ يَنْتَفِعُ بِدَلَالَتِها الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لأَنْ يُؤْمِنُوا.

اسم الفاعِلِ فِي عبارة: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بِقُوَّةِ الفِعْلِ المضارِع يَصْلُحُ لأنْ يَقَعَ على الحالِ وعلى الاسْتِقْبَال بِحَسَبِ الْوَضْعِ اللُّغَوِي.

يُلَاحَظُ أنَّ الْجُمَلَ في الآيات: «٧٥ و٧٦ و٧٧» مؤكَّدَاتٌ بـ «إنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ واللَّام المزحْلَقَة لِلْخبَر» لأنَّ معظم المتلَقِّين يَغْفُلُون عَنْ التَّبَصُّر بمضامِينها، فهم بحاجَةٍ إلى التوكيد المشَدَّد، لِتَحْرِيضِ أفْكَارِهِمْ عَلَىٰ دِقَّةِ التَّأَمُّلِ وحُسْنِ التبصُّر.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر آيات الدَّرْس الخامس من دُرُوس سورة (الحجر).

والحمدُ لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوفِيقِهِ وفَتْحِه.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرْس السادس من دُروس سورة (الحِجْر)

الآيات من (٧٨ ـ ٨٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ (٧٨) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾:

القراءات:

(٨٢) • قرأ وَرْشٌ، وأبُو عَمْرو، وحفْصٌ، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: ﴿بُيُوتًا﴾ بِضَمِّ الباء.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ ﴿بِيُوتاً﴾ بِكَسْرِ الباء.

والقراءتان لُغَتان عَربِيَّتان.

تمهيد:

في هَـٰذَا الدَّرْس عَرْضٌ مُوجَزٌ جدًّا لِإِهْلَاكِ أصْحَابِ الْأَيْكَة، قَوْمِ الرَّسُول شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام، رَغْبَةً في أَنْ يَعْتَبِرَ بِهِ الْمُعَالَجُونَ، ولِإِهْلَاكِ أَصْحَابِ الحِجْر، وهم «ثمود» قَوْمُ الرَّسُول صالح عليه السلام، رَغْبَةً أيضاً في أنْ يَعْتَبِرَ بِه الْمُعَالَجُونَ.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ (٧٨) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩)﴾:

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾: هم مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلام، وقَدَ سَبَقَ في سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) التعريفُ بِهِم.

الْأَيْكَة: الشجر الكثيف الكثير الملْتف، وقد كان لهؤلاء الْقَوْم غَيضَةٌ ذَاتُ شَجَرٍ كَثيفٍ كثير مُلْتَفٍّ، عُرِفُوا بها، فاشْتَهَرُوا بأَنَّهم أصْحَابُ الْأَيْكَة.

- ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾:

«إنْ» هي المخَفَّفة مِنَ الثَّقِيلَةِ، وهي هُنَا مُهْمَلَةٌ عَنِ الْعَمَل. فصار مَعْنَاهَا مُشَابهاً لمعنى «قد». واللَّام الدَّاخِلَةُ علَىٰ «ظالِمينَ» هي اللَّام الفارقة بين المُخَفَّفَةِ من الثقيلة وبَيْن «إِنْ» النَّافِية، وتُفِيدُ التوكيد.

﴿لَظَٰلِمِينَ﴾: أي: لَظَالِمينَ بكُفْرِهِمْ وجرائِمهم الكبرىٰ غير الكُفر، فالمرادُ بالظُّلْم هُنَا الْكُفْرُ الإرادِيُّ العِنَاديُّ وَلوازِمُهُ فِي السُّلُوك، وبِسَبَبِ ظُلْمِهِم الشَّنيع اسْتَحَقُّوا التَّعْذِيب والْإهلاك.

- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ...﴾: **الانتقام**: المعاقبة على الذَّنْب.

يتحدّث اللهُ جلَّ جلالُهُ بضمير المتكلّم العظيم، أيْ: فَعَاقَبْنَاهُمْ علَىٰ ظُلْمِهِمُ الشَّدِيدِ الشَّنِيعِ بالتَّعْذِيبِ والإهلاك.

- ﴿... وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾: وَإِنَّ الْأيْكَةَ الَّتِي كَانَ أَصْحَابُهَا قَوْمَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلام، وإِنَّ أَصْحَابَهَا الْمُهْلَكِينَ، لَتُوجدُ آثارهم فِي طَرِيقٍ واضحٍ، ويظهر أَنَّ مَكَانَ قَرْيَتِهِمْ قَدْ كَانَ مُغَايراً لمكان غَيْضَتِهِمْ.

لفظ: «إِمَامٍ» يُطْلَقُ عَلَىٰ الطَّرِيق لأَنَّهُ يُؤْتَمُّ بِهِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ الغايَةِ المقصودَةِ، وهذا الطَّرِيقُ يَمُرُّ بِجَانِبِ غَيْضَتِهِمْ وبجانب قَرْيَتِهِم، فَهُما يُشَاهَدَانِ بِجَانِبِ طَرِيقٍ مُبين، وقد كَانَتْ هذه الآثار ظاهِرَةً إِبَّانَ تَنْزِيلِ القرآنِ، يَعْرِفُهَا السَّالِكُونَ إلى مِصْرَ، والعائِدُونَ مِنها إلى مَوَاطِنِهِمْ.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيات بيانٌ مُوجَزٌ جدّاً لإهْلاكِ كُفَّارِ ثَمود قوم النبيّ الرَّسُول صالح عَلَيْه السلام، مَعَ تَعْريفٍ مُوجزٍ جدًّا بِهِمْ، وإلْمَاحٍ مُوجَزٍ لسَبَبِ إهْلاكِهم، وهُو إعراضُهُمْ عَنْ آياتِ رَبِّهِمْ، وعَدَمُ استِجابَتِهم لِدَعْوَةِ رَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلام.

والغرضُ تَحْذِيرُ الكَفَرَةِ الْمُعَانِدِينَ الَّذِين تُعَالِجُهُمْ سُورَةُ الحِجْرِ ببَيَانَاتِها(١).

- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

الحِجْر: أرْضٌ بيْن المدِينَةِ والشَّام، تُعْرَفُ باسم «وادِي الْقُرَىٰ» وتَقَعُ على الطَّريقِ مِنْ خيبر إلىٰ تَبُوك، وفيها بقايا مِنْ آثار «ثَمُودٍ» ويُطْلَقُ عَلَيْها الآن: «مَدَائِنُ صالح».

جاء هذا البيان مُؤَكَّداً بـ [**لَقَدْ**]: وَيَرَى الـمُعْرِبُونَ أَنَّ اللّام واقعةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِي، و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيق.

أفادَ هَـٰذَا الْبَيَانُ أَنَّ ثموداً كَذَّبُوا الْمُرْسَلِين، وقد ظَهَرَ لِي أنّ لفظ «المرْسلِين» يُرَاد بِهِ أَنَّهُمْ كذَّبوا عَدَداً مِنَ المرسَلين بَعَثَهُمُ اللهُ إليهم، وأنَّ آخِرَهُمْ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام، وهو الّذِي حَصَلَ إهْلاكُهُمْ فِي آخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ فِيهم.

وتَكْذِيبُ ثَمُودَ «لصالح» وَمَنْ سَبَقَهُ من رُسُلِ الله، كان تَكْذِيباً لِنُبُّواتِهِمْ

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (النمل/٤٨ نزول) وهو «دراسة تكامليّة للنصوص بشأن صالح عليه السلام وقومه ثمود».

ورِسَالاَتِهِم، وتَكْذِيباً لِمَا جاؤُوا بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ مِنْ بيانَاتٍ دِينيَّة، وآياتٍ إعجازيَّة.

• ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾:

يتحدثُ رَبُّنَا بضَمِير المتكلّم العظيم، للإشعار بعِظَم الآيات الَّتِي آتاها ثموداً. وهي الآياتُ الإعجازيَّة والبيانيَّة، فالإعجازِية قَدْ كانت لإثْبَاتِ صِدْقِ الرُّسُل في نُبُوَّتِهِمْ ورِسالاَتِهم، والْبَيَانِيَّة لِتَعْرِيفِهِمْ بِوَاجباتِهِمْ تُجَاهَ رَبِّهم عَقِيدَةً وسُلُوكاً في ابْتِلائِهِمْ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا.

﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: أي: فاسْتَقَر مِنْ أَمْرِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِ رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ أَنَّهُم أعْرَضُوا عَنْ آياتِنا الإعجازِيَّة والبيانيَّةِ فَلَمْ يَكْتَرِثُوا لها وَلَمْ يَعْبَؤُوا بها، ولَمْ يَعْمَلُوا بما تَقْتَضِيهِ مِنْهُم.

الإعْرَاض: مَنْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبار، وأصل الإعراض إعطاء الجانب، فعَارِضَا الإنسان صَفْحَتَا خَدَّيه.

والمراد: أَنَّهُمْ لم يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهم، وَأَدْنَىٰ مَا كَانَ مِنْ بَعْضِهم الْإِعْرَاضُ، وأَشَدُّ مِنْهُ الإدْبَارُ والتولِّي الَّذِي كَانَ مِنْ عُتَاتِهم، وَكَانَ الْإِعْرَاضُ كَافِياً لِإِهْلاَكِهِمْ جَمِيعاً، ثُمَّ يُجَازَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَة بِحَسَبِ جَرَائِمِهِم.

• ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾: أي: وكانُوا أهْلَ حَضَارَةٍ عِمْرَانيَّة، بِحَسَبِ مُسْتَوَىٰ أَهْل أَزْمَانِهِمْ، وبَلَغ من أمْرِهِمْ فِي الْعِمْرَانِ أَنَّهُم كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً لِيَسْكُنُوها آمِنِينَ، مِنْ غَارَاتِ الْمُغِيرِينَ، ومِنْ حَوادث السُّيُولِ ونحوها.

في العبارة حَذْفٌ مِن السَّهْل إدْرَاكُهُ، تَقْدِيرُه: ﴿يَنْحِتُونَ﴾ مَسَاكِنَ في ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ لِيَسْكُنُوهَا ﴿ءَامِنِينَ﴾.

● ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: فأخذت أرْواحَهُمْ مِنْ أجْسَادِهِم الصَّيْحَةُ الصَّوْتِيَّةُ الْعَظِيمَةُ المهْلِكَةُ حالَةَ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي الصَّبَاح، والمرادُ أنَّ الصَّيْحَةِ كانت سبباً فِي أخْذِ أرواحهم.

يُقَالُ لغة: «أصْبَحَ الرَّجل» أي: دَخَلَ في الصَّبَاحِ، وهو أوّل النهار.

● ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾: أي: فَمَا كَفَاهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ وإهْلَاكهُ لَهُمْ، مَا كَانُوا يَكْسِبُون فِي حَيَواتِهِم مِنْ وَسَائِلِ قُوَّةٍ وَدِفَاعٍ وَأَمْنٍ، لِأَنَّ مَا يُقَدِّرُهُ اللهُ وَيَقْضِيهِ نَافِذٌ حَتْماً، وَلَا يَصْرِفُهُ شيءٌ مَا في الوُجُودِ كُلِّه، إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيكون، بِيَدِه مَفَاتِيحُ كلِّ شيءٍ، وهو الْعَلِيم الحَكِيم الخبيرُ القديرُ عَلَىٰ مَا يَشَاءَ، لَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا حَاجِزَ دُونَ تَنْفِيذِ قَضَائِه.

ضُمِّنَ فعلُ «أغْنَىٰ» بمَعْنَىٰ «كَفَىٰ» مَعْنَىٰ فِعْلِ «صَرَفَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرف الجرّ «عَنْ» فأغْنَىٰ الفِعْلُ عَنْ فِعْلَيْن، وَأغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن، وهذا من الْإيجازِ الْبَدِيع في القرآنِ المجيد.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السادس من دُرُوس سورة (الحجر).

والحمدُ لله على مَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ وتَوفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدّرْس السابع من دُروس سورة (الحِجْر) الآيات من (٨٥ ـ ٩٩) آخر السورة

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا

تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾.

القراءات:

(٨٩) • فَتَحَ يَاءَ المتكلّم مِنْ: **[إِنِّيَ أَنَا]** نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَها باقي الْقُرَّاءِ العشرة.

(٩٤) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، ورُوَيس، وخلف بإشْمَام الصاد زاياً في **[فَاصْدَعْ]**. وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ بالصّاد الخالصة.

(٩٥) • قرأ أَبُو جعفر: **[المسْتَهْزِينَ]** بحذف الهمزة.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: **[المسْتَهْزِئينَ]** بإثبات الهمزة على الأصل.

تمهيد:

في هَـٰذَا الدَّرْس توجيهٌ تَرْبَوِيٌّ لِلرَّسُول ﷺ، يتَعَلَّقُ بِمَسِيرَتِهِ الدَّعَويَّة، وَبِبَعْضِ مَا هو مطلوبٌ مِنْه فيها، وَيُلْحَقُ بالرَّسُولِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ من أُمَّتِهِ.

والوصايا الرَّبَّانِيَّة الَّتِي اشْتَمَلَ عليها هَـٰذَا الدرس المُوَجَّهَةُ للرّسول ﷺ فلكل حَمَلَةِ رِسالته من أمتّه تِسْعُ وَصَايا:

الوصيّة الأولى: أَنْ يصْفَحَ الصَّفْحَ الجميل.

الوصيـة الثانيـة: أن لا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إلى مَا مَتَّعَ اللهُ بِهِ أَصْنَافاً مِنَ النَّاسِ.

الوصية الثالثة: أنْ لَا يَحْزَنَ عَلَىٰ الّذِينَ اختاروا لِأَنْفُسِهم الكُفْرَ، الذي يَنْتَهِي بِهِمْ إلى العذابِ الأبَدِيّ في الجحيم.

الوصيّة الرَّابعة: أنْ يَخْفِضَ جناحَهُ للمؤمنين تأنيساً لهم ورحْمَةً بهم، وتواضعاً مُؤَلّفاً لقلوبهم.

الوصية الخامسة: أن يقول للمعانِدِينَ: ﴿إِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: بعذاب الله.

الوصِيَّةُ السَّادسة: أنْ يَصْدَعَ بِمَا يُؤْمَرُ أَنْ يُبَلِّغَهُ للنَّاسِ تِباعاً، دُونَ تَوانٍ وَلَا تَقْصِير.

الوصيّة السّابعة: أَنْ يُعْرِضَ عَنِ المشْرِكين المعانِدِين المصِرّينَ على شركهم، ويهْتَمَ بِدَعْوَة الّذين لم يَصِلُوا إلى دَرَكَة اليأسِ من استجابتهم لدعْوَة الحق الرَّبَّانِيَّة.

الوصِيَّةُ الثامنة: أَنْ يُسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّهِ وَيَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ لَهُ.

الوصِيَّةُ التَّاسِعَةُ: أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ بِكُلِّ مَا أَمَرَهُ أَنْ يَعْبُدَهُ به، وَلَا سِيمَا قِيامُهُ بوظائِفِ رِسالَتِهِ التَّبْليغِيَّة والدَّعوِية، حتىٰ يأتِيَهُ الْيَقِينُ وهُوَ الموْتُ الَّذي تَنْتَهِي بِهِ حَيَاتُهُ.

وفي أَثْنَاءِ هَـٰذِهِ الْوَصَايَا النَّفِيسَةِ لحامِلِ رِسالَة الدَّعْوَةِ إلى رَبِّهِ، جَاءَتْ بيانَات رَبَّانِيَّةٌ ملائماتٌ لَهَا تَعْقِيباً، أو تمهيداً.

هَـٰذِهِ الوصايا قد جاء في السورة مَا يقتضي توجيهها للرسول ﷺ، فقد كان موقف أئمّة المشركين إبَّانَ نُزُول سورة (الحِجْر) مُواجَهَتُهُمْ للرسول بأذِيَّتَيْنِ كُبْرَيَيْن:

الأذيَّةُ الأولى: شَتِيمَتُهم لَهُ بوَقَاحَةٍ بأَنَّهُ لَمَجْنون، وغَرضُهُمْ صَدُّ جماهِيرِهم عَنِ الاسْتِماع إلَيْه وعن اتّباعه، مع تَصوُّرِهِمْ أَنَّ هَـٰذِهِ الشتِيمَة قَدْ

تَجْعَل محمّداً يُخَفِّفُ مِن نَشَاطِهِ في دَعْوَتِهِ، بِمَا يَنْزِلُ بِه مِن حُزْنٍ وغَضَبٍ، فقد جاء في أوائل السُّورَةِ بيانُ هَـٰذَا في قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾.

لقد وصَلُوا في الوقاحَةِ إلى دَرَكَةِ مُواجهة الرَّسُول بالشتيمة، مؤكِّدِينَ فيها أَنَّهُ لَمَجنُون، بالمؤكدات: «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللّام المزحْلَقة».

الأذِيَّة الثّانية: الاسْتِهزاء بِهِ عَلَناً فِي المحَافِلِ والمجامِع العامَّة، بُغْيَة صَدِّه عن دَعْوَتِهِمْ إلى دِينِ الله الحق، وعن دَعْوَةِ جماهِيرِهِم الَّذِينَ يَتَأَثَّرُون بِهِمْ، أو بُغْيَةَ اسْتِثارَةِ غَضَبِهِ إزْعَاجاً وإيلاماً، وَرُبَّما قَابَلَ شَتَائِمَهُمْ بِمِثْلِهَا، فَتكُونُ هَـٰذِهِ المقابَلَةُ بِمَثَابَةِ الشَّاهِدِ على صِحَّةِ اتِّهامِهِم لَهُ بِالجنُون، وَرُبَّما كَانَ التَّشَاتُمُ مِفْتَاحاً لِصِرَاعٍ جَسَدِيّ، هُمْ فِيه حِينَئِذٍ أَكْثَرُ قُدْرَةً عَلَيْهِ، وأَكْثَرُ أنْصاراً.

مع مَا فِي الاسْتِهْزَاءِ من صَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عَن الاسْتِماع إِلَيْهِ وعن اتِّباعِه، لِمَا فِي الاسْتِهْزَاءِ العامّ مِنْ إيحاءٍ خبيثٍ في نُفُوسِ الجماهِير، يُشْعِرُهُمْ بِأَنَّ مَنْ يُوَجَّهُ الاسْتِهْزَاءُ ضِدَّهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يُسْتَهْزَأَ بِهِ.

فَقَدْ جَاءَ في أوائِلِ السُّورَةِ بَيَانُ اسْتِهْزَائِهِم هَـٰذَا في قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾:

أي: فاسْتِهْزَاءُ هؤلاء بِكَ لَهُ نَظَائِرُ في كُفَّارِ الأوَّلين بِرُسُلِ رَبِّهِم، فاصْبِرْ كما صَبَرُوا، وَلَا تَكْتَرِث لاسْتِهْزَائِهِمْ ولا تَعْبَأْ بِهِ.

التّدبّر التحليلي:

- قول الله تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بِضَمِير المتَكَلِّم العظيم المنَزَّهِ عن العبث والفعل الباطل:

- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَمَا خَلَقْنَا النَّاسَ في الْأَرْضِ وسَخَّرْنَا لَهُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ عَبَثاً، بَلْ خَلَقْنَا كُلَّ ذَلِكَ مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيه ولا عَبَث، وهُوَ أَنْ نَجْعَل الحياة الدُّنيا مَرْحَلَةً لامْتِحانِ الَّذِينَ نَضَعُهُمْ فيها موضِعَ الامْتِحَانِ، مِنَ الْإِنْسِ والجنّ، وكُلُّ مُمْتَحَنٍ في هَٰذِهِ المرحَلة نُؤْتيهِ بِحِكْمَتِنَا مَا يُلائِمُ امْتِحانَهُ بِحَسَبِ الفِطْرَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي فَطرناهُ عليها.

وَإِنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا يَوْمُ الدِّين لآتِيَةٌ حَتْماً، إذْ نَبْعَثُ الموتَىٰ للحياة الأُخرىٰ، الَّتِي يكونُ فيها الحسابُ، وفَصْلُ القضاء، وتنفِيذُ الجزاء، بالنّعيم المقيم، أو بالعذاب الأليم.

واعْلَمْ أنَّ رِحْلَةَ الحياة الدُّنيا رِحْلَةٌ قَصِيرَةٌ جدًّا فِي جَنْبِ الآخِرَة، فإذَا أُوذِيتَ فِي اللهِ وأنْتَ تُؤَدِّي وَظَائِفَ رِسَالَةِ رَبِّكَ، فَلَا تَحْزَنْ وَلَا تُقَابِلِ الْأَذِيَّةَ بِمِثْلِهَا، بَلِ اصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيل، وهذه هي الوصية الأولى.

الصَّفْحُ الجميلُ: يكونُ بالإعْرَاضِ عَنْ مُقَابَلَةِ مَنْ يُؤْذِيكَ بِمِثْلِ أَذِيَّتِهِ، وعَدَمِ الاشتِغَالِ بِدَفْعِ أذاهُ عَنْكَ، فإعْرَاضُكَ عَنْهُ يُحْبِطُ أذِيَّتَهُ عن أَنْ تكونَ لها آثارٌ ضَارَّةٌ لَكَ أو لِدَعْوَتِكَ.

أَصْلُ الصَّفْحِ في اللُّغَةِ: الْجَنْبُ، فَصَفْحُ كُلِّ شَيْءٍ جانِبُهُ. ويُقالُ: صَفَحَ فُلَانٌ عَنِ المذْنِبِ، أي: أَعْرَضَ عَنْ ذَنْبِهِ، فلَمْ يُؤَاخِذْهُ عَلَيْهِ، ولم يُقَابِلْهُ بِمِثْلِهِ، وهذا المعنىٰ مأخُوذٌ من أَنَّهُ أَعْطَاهُ جانِبَهُ مُعْرِضاً عَنْهُ، غَيْرَ مُوَاجِهٍ لَهُ بِالْعِقَاب.

والجمالُ في هَـٰذَا الصَّفح يَكُونُ بإبْقَاءِ الْوَجْهِ طَلْقاً سَمْحاً لَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ علاماتُ الْغَضَب أو الغيظ والكراهِيَة، وبإبقاء الكَلَام عادِيًّا لَا تَظْهَرُ فِيهِ أماراتُ الاضطراب، أو الإلماحات المُسْتَخْفَيات، ويكونُ أَيْضاً بِعَدَمِ شَغْلِ الْقَلْبِ بِرَغَبَاتِ الانتقام.

- قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾: في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَمْهِيدٌ لما سَيُوصِي اللهُ بِهِ رَسُولَهُ بَعْدَه، وهُو يَتَعَلَّقُ بِبَيَانِ كمالِ صِفَاتِه.

أي: إنَّ رَبَّكَ الَّذِي يُمِدُّكَ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وقد اصْطَفَاكَ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَة، وهُوَ يَحْمِيكَ ويَرْعَاكَ، هُوَ الْخَلَّاقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَوَاتٍ وَصِفَاتٍ وأَحْوَالٍ وَتَصارِيف. وهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيء، والْعَلِيمُ بِمَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبادَهُ، والْعَلِيمُ بِمَا يُلائِمُ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ مِنْ عَطَاءٍ وَمَنْع، ومِنْ نَصْرٍ وخذْلان، إلَىٰ غَيْر ذلِكَ مِنْ مُتَنَاقِضَاتٍ ومُتَضَادَّاتٍ ومُخْتَلِفَات، فهو حَكِيمٌ فيما يَخْلُق.

الْخَلَّاق: صِيغَة مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعل: «خالِق» أي: هو خالِقُ كُلِّ ذَاتٍ وَكُلِّ حَدَثٍ، حتَّىٰ مَا يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ بإراداتِهِمُ الحرَّة، دُونَ إلْغَاءِ إرَادَاتِهِم الحرَّةِ الَّتِي هِيَ مَنَاطُ ابتلائِهِمْ في ظُرُوفِ الحياة الدنيا، إذْ ما يُرِيدُونَهُ جَازِمِينَ يَخْلُقُهُ لهم، ما لم يُعَارِضْ ما سَبَقَ في قضَائه وقدَره.

العليم: صيغَةُ مُبالَغَةٍ لاسم الفاعل «عالم» أي: هو الْمُحِيطُ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً جلّ جَلالُهُ وتباركَتْ أسْماؤُهُ وصِفَاتِه:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾:

وفي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَمْهِيدٌ آخَرُ يَتَعَلَّقُ بِبَيَان بَعْضِ مَا امْتَنَّ اللهُ بِهِ على رَسُولِهِ باصطفائِهِ بالنبوَّةِ وبالرسالة الخاتمة، وبإنْزَالِ نَفَائِسَ مِنَ الْقُرْآن المجيدِ عَلَيْهِ، ممَّا لَمْ يُؤْتِهِ غَيْرَهُ مِن عِبَادِهِ حتى أولي الْعَزْمِ من الرُّسل.

الْمَثَانِي: جَمْع «مَثْنَاة». وهي الطيَّةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي تُثْنَى، من قولهم: «ثَنَىٰ الشَّيْءَ يَثْنِيهِ» أي: رَدَّ بَعْضَهُ علىٰ بَعْضٍ، فالقُمَاشُ الّذِي يُثْنَىٰ بَعْضُهُ على بَعْضٍ بِصِفَة مُتَوَالِيَةٍ تُسَمَّىٰ طَيَّاتُهُ «مَثَانِيَ».

وقَدْ وَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ القرآن كُلَّهُ بأنَّه «مَثَانِي» فقال تعالى في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: ومَنْ يَحكم اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ لِأَنَّهُ ضَلَّ بإرَادَتِهِ الْحُرَّة، فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ لَهُ بالْهِدَايَة، إنِ الحكْمُ إلَّا للهِ.

وقد ذَكَرَ أَهْلُ التأويلِ وُجُوهاً مُتَعَدِّدَةً لِتَفْسِير كَوْنِ القرآن مَثَانِي، وهِيَ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَا فِي لفظ «مَثَانِي» مِنْ مَعْنَىٰ التكرير، كتَكْرِير آياتِ سُورَةِ «الْفَاتِحَةِ» في رَكَعَاتِ الصَّلَوات.

والَّذِي ظَهَرَ لي بَعْدَ النَّظَرِ الطَّوِيل في تَدَبُّر آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، أَنّ المرادَ بوصْفِ القرآن بِأَنَّهُ مَثَانِي أَنَّ لَهُ سُطُوحاً ظَاهِرَةً، وهِيَ مَا يُدْرَكُ مِنَ الْكَلِمَاتِ المقْرُوءَاتِ فِي ظَهْرِ كُلِّ مَثْنَاة مِنْه، وأنَّ فِيهِ مَطْويَاتٍ فِي بَاطِنِ الثَّنْيَاتِ هِي مَحْذُوفَاتٌ لَفْظاً، ويمكن إدْرَاكُهَا ذِهْناً، عَنْ طَرِيقِ اللَّوازِمِ الفِكْرِية، أوِ الدَّلالَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، كحرف جرّ، أو حرف عَطْفٍ، أو تَعْدِيَةِ الفِعْلِ لِغَيْرِ مَا يَتَعَدَّىٰ به لُغَةً، إلى غير ذَلِكَ من أُمُورٍ كثيرة تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا المحاذيف، كالعطف على محذوف بما يُسَمَّىٰ الفاء الفصيحة، وقَدْ رَأَيْتُ

أَنَّ كُلَّ حُرُوف الْعَطْفِ قَدْ تَعْطِفُ فِي القرآن على محذوفٍ مطويّ، وكَمَلْءِ فراغَاتِ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، إذْ تَبْدُو في الظَّاهِرِ أَنَّها مُكَرَّراتٌ، وهِيَ فِي الحقيقةِ مُتكامِلاتٌ فيما بينها، يَتَداخَلُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، فَيُكَمِّلُ بَعْضُهَا الظَّاهِرُ هُنَا الْبَعْضَ المطْويَّ في مَثَانِي النّصِّ أو النُّصُوص الْأُخْرَى، وكالحذْف من الأوائل لِدَلَالَةِ مَا فِي الأواخرِ، والْحذْفِ من الأواخرِ لِدَلَالَةِ مَا فِي الْأَوَائِلِ من النصّ. وكُلُّ ذلكَ من الإعْجَازِ الإيجازِيّ فِي الْقُرْآن المجيد.

وأَفْضَلُ تَعْبِيرٍ عَنْ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ فِي القرآنِ المجيدِ أَنْ يُوصَفَ بأَنَّهُ مَثَاني، فَهُو كِتَابٌ مُتَشَابِهٌ فِي الْحُسْن والْكَمالِ، وَمَثَانِي تَظْهَرُ فِي السُّطُوح المقْرُوءَةِ من مثَانِيهِ جُمَلٌ وَكَلِمَات، وتُوجَدُ مَطْويَاتٌ داخِلَ المثانِي تُسْتَخْرَجُ بالتَّأَمُّلِ الدَّقِيقِ، وبالاسْتِنْبَاطِ الْعَمِيق، ضِمْنَ ضَوابِطِ الفِكْرِ، وَقواعِدِ الاسْتِعمال اللُّغَوِيّ وأماراتِه، إمَّا عَنْ طَرِيق الحقيقة، أو عَنْ طَرِيق المجاز.

وأَفْضَلُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَثَانِي مَا جَاءَ في سُورَة(الفاتِحَةِ) إذْ هِي جَامِعَةٌ لكلّيّاتٍ كُبْرَىٰ، هِيَ بمَثَابَةِ عُنْوَانَاتٍ عَامَّاتٍ للدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده، الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوهم فِي ظُرُوف الحياة الدُّنيا، ولِتَارِيخِهِمْ تُجَاهَهُ مُنْذُ أَوَّلِ نَشَأْتِهِمْ إلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَة، وقَدْ أَبَنْتُ هَـٰذَا لَدَىٰ تَدَبُّر سُورَةِ (الفاتِحَة) في المجلّد الأول مِنْ هَـٰذَا الكتاب.

وقَدْ صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ محمّدٍ ﷺ أنَّ «الْفَاتِحَة» هِيَ السَّبْعُ المثانِي وهِي القرآنُ الْعَظِيمُ، فَلا عُدُول عَنْ هذا الَّذِي صَحَّ عن الرَّسُول.

روى البخاريّ، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، مِنْ حَدِيث سَعِيدِ بْن المعَلّىٰ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَال له:

«لَأُعَلِّمَنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أنْ تَخرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ».

قال: فَأَخَذَ بِيدِي، فَلَمَّا أرادَ أَنْ يُخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، قُلْتُ: يا

رَسُولَ اللهِ، إنَّكَ قُلْتَ: لَأُعَلِّمَنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، قال: «نَعَمْ. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، والقرآنُ الْعَظِيمُ الّذِي أُوتِيتُه».

فالفاتِحَةُ هِي سَبْعُ آيَاتٍ مِنَ الْمَثَانِي الْقُرْآنِيَّة، إذ القرآنُ كُلُّهُ مَثَانِي، وهِي الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَى رسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ، فَلَمْ يَنْزِلْ في التوراة، ولَا فِي الإنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُور، ولَا فِي القرآن مِثْلُها، وَقَدْ صَحَّ هَـٰذَا أيْضاً عَنِ النبيّ ﷺ.

- قول الله تَعَالَىٰ لرسوله ﷺ في الوصيّة الثانية:

- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ . . . ۝٨٨﴾:

جاء في هَـٰذِهِ العبارة بَيانُ الْوَصِيَّةِ الثّانِيَةِ مِنْ وَصَايَا اللهِ جلّ جلالُهُ لِرَسُوله.

أي: لَا تَنْظُرْ نَظَرَ تَشَهٍ إلَىٰ مَا أَمْدَدْنَا بِهِ أصْنَافاً مِن المشركين وسائِرِ الكافِرِينَ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا لامْتِحَانِهِمْ واخْتِبَارِهِمْ بِها، فاختبارُهُم بِهَا هُوَ الملائِمُ لِمَا فَطَرَتْ نُفُوسَهُمْ عَلَيْه.

أَزْوَاجاً مِنْهُمْ: أي: أصْنَافاً مِنَ النَّاسِ وَلَوْ كَانُوا كَافِرين. يُطْلَقُ في اللّغَة لفظ «الزَّوْج» على الصِّنْفِ مِنْ كُلِّ شيءٍ.

وجاء التعبير بِمَدِّ الْعَيْنِ بَدَلَ النظَرِ، لبيان أنَّ نَظَرَ التَّشَهِّي والطَّلَبِ يَخْتَلِفُ عن النظر العادِيِّ العابر. فنظر التَّشَهِّي يَقْتَرِنُ بدَوَافِع تَمْتَدُّ آثارُها مِنْ دَاخِلِ النَّفْس، وَسَائِرَةً عَلَىٰ خُطُوطِ الْأَشِعَّةِ الواصِلَةِ إلَىٰ النظر، لتتَنَاوَلَ المشْتَهَىٰ وَتَمْتَلِكَهُ، حَتَّىٰ كَأنَّ الْعَيْنَيْنِ يَدَانِ مُمْتَدَّتَانِ تَبْتَغِيَانِ أَخْذَ ما اشْتَهَتْهُ النَّفْسُ، لِتَسْتَوْلِيَ عليه وتَمْتلِكَهُ.

وفي هَـٰذَا معنَىٰ الاعتراض على حكمة الله في عطائه ومنعه، وفي

التوسعة على بعض عباده، والتضييقِ على آخَرينَ مِنهم، لِيَبْلُو كُلًّا مِنْهُمْ بما يُلَائِمُ فِطْرَتَهُ الَّتِي فَطرَهُ عَلَيْها.

﴿مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾: أي: جَعلْنَا مَنْ آتَيْنَاهُ سَعَةً مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، يَنْتَفِعُ به انْتِفاعاً مُؤَقَّتاً صائراً إلى الزَّوال.

المتاع: مَا يُنْتَفَعُ بِهِ ومَصِيرُهُ إلى الزوال والفناء.

وجاء في سُورَة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في آيَةٍ مَدَنيَّةٍ مَضْمُومَةٍ إلى سورة مكيَّة قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ والمقصود كُلُّ حَامِلٍ لِرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ من أُمَّتِهِ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ شَرْحُ هَـٰذِهِ الآيَةِ لَدَىٰ تَدبُّر سُورَةِ (طه/ ٤٥ نزول).

■ قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ في الوصيَّة الثالثة:

• ﴿... وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ...﴾: أي: وَلَا تَحْزَنَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ المكابرينَ المعانِدين بِسَبَبِ تَعْرِيضِهِمْ أَنْفُسَهُمْ لعذاب جهنَّمَ خالِدينَ فيها.

فقد كان الرَّسُول ﷺ شَدِيدَ الشَّفَقَةِ علىٰ قَوْمِهِ، ولا سيما عَشِيرَتُه الأقربُون، شَدِيدَ الرَّحْمَةِ بِهِمْ، حَرِيصاً علىٰ أنْ يُؤْمِنُوا لِيَنْجُو مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْم الدِّين، ولِيَظْفَرُوا بالسَّعَادَةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النعيم.

فإصْرَارُهُمْ عَلَىٰ ما هُمْ فِيه من شِرْكٍ وَكُفْرٍ برِسَالَته، وبما جاء بِهِ عَنْ رَبّه، فِي مُقَابِلِ شَفَقَتِهِ عَلَيْهِم، ورَحْمَتِهِ بِهِمْ، أَمْرٌ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْزِنَهُ، لِأَنَّ مَنْ يُحْرَمُ ممّا هو شَدِيدُ الحِرْص عليه يَحْزَنُ لِفَواته، بِمُقْتَضىٰ طبيعَتِهِ الْبَشَرِيَّة، وهَـٰذَا الحُزْنُ يُؤَثِّرُ على نَفْسِه، وَقَدْ يُثَبِّطُ مِنْ نَشَاطِهِ فِي مَجَالِ تَأْدِيَةِ رِسَالَتِه المأْمُورِ بِأَنْ يَبْذُلَ فيها قُصَارَىٰ مَا يَمْلِكُ مِنْ جَهْدٍ وَمُجَاهَدَةٍ لتوصِيلها للناس.

فالحُزنُ يشْغَلُ الْحَزِينَ عن القيامِ بالْأَعْمَالِ الجهادِيَّة الَّتِي تَتَطَلَّبُ الرَّجَاء والتَّفَاؤُل.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ إرادة اللهِ الحكيمَةَ قَدْ قَضَتْ بأنْ يَضَعَ النَّاسَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وأَنَّ عَلَىٰ كُلِّ مُمْتَحَنٍ مُكلّفٍ أَنْ يَخْتَار بنَفْسِهِ مَصِيرَه، بَعْدَ البيانِ الكافِي له.

فَمَن اخْتَارَ لِنَفْسِهِ طَرِيق جهنّمَ وَهُو كامل الأَهْلِيَّةِ الفِكْرِيَّة والإرَادِيَّة، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ من أَجْلِهِ، إنَّهُ إذا لَمْ يَشْفَقْ هو على نَفْسه، وهِيَ أَحَبُّ شيءٍ إِلَيْه، أَفَيَسْتَّحِقُّ أَنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ مِنْ أَجْلِهِ؟!

- قول الله تَعَالَىٰ لرسوله في الوصية الرابعة:

- ﴿... وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

أي: تواضِعْ للْمُؤْمِنين، وأَحِطْهُمْ بالحَنانِ والرَّحْمَةِ والرِّعاية والحِفظ. وقَدْ جاء في هذه العبارة استعارة خفض الجناح للدّلَالَة على هَـٰذِهِ الْأُمور، أخذاً من حَركة الطائِر حينَما يخفض جَنَاحَهُ تواضُعاً لطائِرٍ آخر، وحينما يَخْفِضُ جناحَهُ لِيُحِيطَ فِراخَهُ الصِّغَارَ ويَضُمَّها إلى دِفْءِ صَدْرِه ويُجَلِّلَها بريشه، رحْمَةً بها، وحَنَاناً عليها، ورعايةً وحمايةً وحِفْظاً.

ومثل هَـٰذَا التعبير يُسَمَّىٰ عنْدَ البلاغيّين اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً، إذْ حُذِفَ المُستعارُ الذي هو في الأصْلِ مشَبَّهٌ بِهِ، وهو الطَّائر، واسْتُخْدِمَ في اللّفظ بَعْضُ لوازمه.

- قول الله تَعَالَىٰ لرسُولِهِ فِي الوصية الخامسة:

- ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَقُلْ يا مُحَمَّدُ لِلْمُعَانِدِينَ المصِرّينَ عَلَىٰ باطِلِهِمْ، الّذِينَ بلَغُوا دَرَكَة الميؤُوس من استجابتهم لِدَعْوَةِ الحقّ، عَنْ طَرِيق إراداتِهِمْ ذَوَاتِ

الْحُرِّيَّة فيما تُرِيدُ وتَخْتَارُ، إنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِين، أي: وصَلَتْ رسالَتِي مَعَكُم إلى غايَةِ فِقَراتها وهي إنْذَارِكُمْ بعَذَاب اللهِ الخالِدِ في جَهَنّمَ يَوْمَ الدِّين، مع ما قَدْ يُنْزِل بِكُمْ مِنْ عَذابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدُّنيا قَدْ يأتي مَعَهُ أَوْ عَقِبَه إهلاكُكُمْ، إذا اقتضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ.

الإنْذَار: الإخْبَارُ بمَكْرُوهٍ قَادِم.

الْمُبِين: أي: الْمُوضِحُ لَكُمْ مَا أُنْذِرُكُمْ بِهِ بجَلاءٍ، لا عَنْ طَرِيق الرُّمُوزِ والإشارات والإلْمَحاتِ الخِفيَّات.

وقَدْ جاءت العبارة بهَـٰذِهِ الوصِيَّةِ تَحْمِلُ إعلاناً مُؤَكَّداً بِشدَّةٍ بالمؤكّدات: «إن ـ الجملة الاسميّة ـ ضمير الفصل ـ تعريف طَرفي الاسْنَاد».

- قول الله تَعالَىٰ تَعْقِيباً علىٰ الوصيَّةِ الخامسة:

● ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ بَيَانٌ لِسُنَّةِ اللهِ فِي إِنْذَارِ الكافِرِينَ السَّابِقِينَ واللَّاحقين، ومِنْهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا أو يُؤْمِنُون بِبَعْضِ كِتَابِ الله المنَزَّل لَهُمْ ويَكْفُرُونَ بِبَعْض، فَيُجَزِّئُونَ كِتَابَ الله، فَيُثْبِتُونَ مِنْهُ مَا يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، ويَحْذِفُونَ أَوْ يُخْفُونَ مِنْهُ مَا لَا يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الكِتَابِ الْيَهُودُ والنصارىٰ، فيما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ مِنْ كتاب، وقَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ هَـٰؤُلَاءِ الْمُجَزِّئِينَ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ خَالِدٍ في جَهَنَّم يَوْمَ الدِّين، وقَدْ سَبَقَ بيانُ أَنَّ عُتَاةُ مُشْرِكي مَكَّة وَأَئِمَّةُ الْكُفْرِ فِيهِمْ، قَدْ طَالَبُوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بأنْ يَأْتِي بِقُرآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا الْقُرْآن، أَوْ يُبَدِّلَ مَا لَا يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ وَعَقَائِدَهُمْ وَتَقَالِيدَهُمْ مِنْهُ، وهَـٰذِهِ تَجزئَة مُمَاثِلَةٌ لِمَا فَعَلَ أَهْلُ الكِتَابِ فِيما أَنْزَلَ الله إِلَيْهِم في التوراة والإنْجِيل، فالإنْذارُ الَّذي سَبَقَ أَنْ وَجَّهَهُ اللهُ

لِأُولَئِكَ الْمُجَزِّئِينَ، يُوَجِّهُ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ إِنْذَاراً مُمَاثِلاً لِأَئِمَةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، ولِكُلِّ أَمْثَالِهِمْ وأَشْبَاهِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ في الحياة الدُّنيا.

وفي بَيَانِ مَطْلَبِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ من الرَّسُولِ ﷺ، أَنْ يُبَدِّلَ مِنَ القرآنِ مَا لَا يُوَافِقُ أَهْواءهم، قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ٥١ نزول):

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾:

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هَٰذِهِ الآيَةِ لَدَىٰ تَدَبُّر سُورَةِ (يونس/ ٥١ نزول). ويَظْهَرُ أَنَّ أَئِمَّةَ مُشْرِكِي مكَّةَ ما زَالُوا إِبَّانَ نُزُول سُورَةِ (الحجْر/ ٥٤ نزول) يُطَالِبُون الرَّسُول بأَنْ يُبَدِّل مَا لَا يُوافِقُ هَوٰاهُم مِنَ القرآن، ويَأْتِي بما يُوافِقُ هَوَاهُمْ، وَهَٰذَا من التجزئةِ فِي كِتَابِ اللهِ، وهو يُشَابِهُ مَا فعل اليهود والنَّصارَىٰ في كتاب رَبِّهم، فاسْتَحَقَّ مُشْرِكُو مَكَّةَ أَنْ يُنْذَرُوا بِعَذَاب اللهِ يَوْمَ الدِّينِ كَمَا أُنْذِرَ المجزِّئُونَ من اليهود والنَّصارَىٰ لِكِتَابِ رَبِّهِم.

وبَعْدَ هَٰذَا البيان يُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ بوضوح فقراتِ هَٰذِهِ الآياتِ التَّعْقِيبيَّة لِلْوصِيَّة الخامِسة.

- ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾: **المقتسمون:** هُمُ المتعمِّدونَ المتكلِّفُونَ تَقْسِيمَ الشَّيْء وتَجْزِئتِهِ. والْمُرَادُ بِهِمْ أهل الكِتَابِ من الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ، الَّذِينَ آمَنُوا ببعض كِتَابِ رَبِّهم وَكَفَرُوا ببَعْضٍ عَلَىٰ وفق أهوائهم، فحَذَفُوا مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ أهواءَهُمْ أَو أَخْفَوهُ، ونَشَرُوا مَا وافق أهواءَهم.

- ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾: أي: جَعَلُوا كتابَ رَبِّهِمْ قِطعاً

وأجْزَاءً، فأثْبَتُوا مِنْهُ ما وافق أهواءهم، وحَذَفوا أَوْ أَخْفَوْا مَا لَمْ يُوافِقْ أهواءَهم.

عِضِين: جَمْعُ «عِضَة» وهِيَ القِطْعَة، جُمِعَ جَمْعَ المذكّر السَّالِم لُغَةً على خِلَاف القياس.

والمعنى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِأَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ المعانِدِينَ بالْبَاطل: إنّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ لَكُم أُنْذِرُكُم بعَذَابِ اللهِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الدِّين فِي نارِ جَهَنَّمَ إنْذَاراً مُمَاثِلاً لِمَا أَنْزَلَ مِنْ إنْذَارٍ عَلَىٰ المقْتَسِمِينَ، من الْيَهُودِ والنصارى، الَّذِينَ جَزَّؤُوا كِتَابَهُ فَقَبِلُوا مِنْهُ مَا وَافَقَ أَهْوَاءَهُمْ، وحَذَفُوا أَوْ أَخْفَوْا منهُ مَا خَالَفَ أهواءَهم.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ في مَوْقف الحسابِ يَوم القِيامَةِ.

﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾: في الحياة الدُّنيا، وبَعْدَ سُؤَالِهِم ومُحَاسَبَتِهِمْ نَقْضِي بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ، ثُمَّ نَأْمُرُ بِتَنفِيذِ أحكامِنَا فيهم، عذاباً في جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها، وهَـٰذَا يُفْهَمُ باللّزُومِ الفكري.

يَسْتَوِي في هذا المقتَسِمُونَ من أَهْلِ الكِتَابِ، والمقْتَسِمُونَ بَعْدَ بِعْثَتِكَ، فَسُنَّتُنَا فِي عِبَادِنا واحدة.

أطْلِقَ عَلَىٰ مَا أُنزِلَ على أهل الكتاب لفظ «الْقُرآن» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كَلَّفَهُمْ أَنْ يَكْتُبُوه حمايَةً لَهُ وحِفْظاً، وأَمَرَهُمْ بأَنْ يَقْرَؤُوهُ ليتدَبَّروا مَعَانِيَه مِنَ النَّصّ المكتوب.

الخطابُ مُوجَّهُ للرَّسُولِ ﷺ ويُرَادُ بِهِ إسماع المعنِّيين بالمعالَجَةِ بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِر.

- ■ قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ في الْوَصِيَّة السَّادِسة:
- ● ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ...﴾:

أي: فارْفَعْ صَوْتَكَ يَا مُحَمَّدُ بما تُؤْمَرُ بِتبلِيغِهِ مُتَابعاً لِمَا نُنَزِّل عَلَيْكَ، وأعْلِنْهُ إعْلَاناً عَامًّا، وَلَا تَقْتَصِرْ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ الإفرادِيَّةِ في آذان الْمَدْعُوِّين.

في الصَّدْع معنَىٰ تَوجِيهِ الدَّعْوَةِ الصَّرِيحَةِ الْعَلَنِيَّةِ بِقُوَّةٍ تَجْعَلُ النُّفُوسَ المتحجِّرَة المتَصَلِّبَة تَنْصَدِعُ، كَمَا تَنْصَدِعُ الأواني الزُّجاجِيَّةُ، أو كما تَنْصَدِعُ الْحِجَارَةُ فَتَتَشَقَّقُ مُتَأَثِرَةً بِقُوَّةِ مَا يصْطَدِمُ بها، لَكِنَّها تَبْقَىٰ مُتَمَاسِكَةَ الاتِّصَالِ فَلَا تَنْكَسِر.

والصَّدْعُ بهٰذَا المعَنَىٰ كِنَايَةٌ عَنْ قُوَّةِ الْجَهْرِ بالْبَيان الْمَقرونِ بالْحُجَّةِ المؤثِّرَةِ فِي النفوس والْقُلُوبِ.

الصَّدْع: هُو في اللُّغَةِ أَصْلُهُ الشَّقُّ فِي الشَّيْءِ الصُّلْبِ، كالصَّخْرِ، والزُّجاج، والأرض، ويأتِي الصَّدْعُ بمَعْنَىٰ الْجَهْرِ والإعْلَانِ.

■ قول الله تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ في الوصِيَّةِ السَّابِعَةِ:

● ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

أي: وأعْطِ عَارِضَكَ لِلْمُشْرِكينَ المعانِدِينَ المكابِرِين المصرّينَ على بَاطِلِهِم، الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ اليأْسِ مِن اسْتِجابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، واكْتَشَفْتَ هذا فِيهِمْ بَعْدَ مُعَالَجَاتٍ كثيراتٍ طَوَالَ سِنِي دَعْوَتِكَ مُنْذُ بِعْثَتِك حَتَّىٰ نُزُول سُورَةِ (الحِجْر/ ٥٤ نزول) وَوَجِّهْ عِنَايَتَكَ لآخَرِينَ غَيْرِ مَيْؤُوسٍ من اسْتِجَابَتِهِمْ.

■ وقد اتْبَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ هٰذِهِ الْوَصِيَّةَ بِمِنَّةٍ امْتَنَّ بها عَلَيْهِ، فقال تَعالَىٰ لَه:

● ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

جاء عند مُحَمَّدِ بن إسْحاق فيما ذَكَرَ ابنُ كثير، أَنَّ عُظَماءَ المُسْتَهزِئين بالرَّسُولِ ﷺ خَمْسَةُ نَفَر، وكانُوا ذَوِي أَسْنَانٍ وشَرَفٍ فِي قَوْمِهِم، وهم:

(١) ـ «الأَسْوَدُ بْنُ أَبِي زَمْعَة» وهُو مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ بن قُصَيّ.

رُوِيَ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ دَعَا عَلَيْهِ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُ مِنْ أذَاهُ واسْتِهْزَائِه، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أعْم بَصرَهُ، وأثْكِلْهُ وَلَدَهُ».

(٢) ـ «الأسْوَدُ بْنُ عَبْد يَغُوث» مِنْ بَنِي زُهْرَة.

(٣) ـ «الوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة» مِنْ بَنِي مَخْزوم، وكَانَ رَأسَ المسْتَهزِئين، وهو الّذي جَمَعَهُمْ.

(٤) ـ «الْعَاصُ بْنُ وَائل» مِنْ بَنِي سَهْم.

(٥) ـ «الْحَارِثُ بْنُ الطُّلَاطِلَة» مِنْ خُزَاعَة. ورُوِيَ أنَّهُ «الْحَارِثُ بْنُ قَيْس» وأنَّهُ عَيْطَلَة، أَوْ عَيْطل.

رَوَىٰ ابْنُ إسْحاق، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْر، أوْ غَيْرِهِ من العلماء، أنَّ جبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أتَىٰ رَسُولَ الله ﷺ وهُوَ يَطُوفُ بالْبَيْتِ، فَقَامَ وَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَىٰ جَنْبِهِ:

- فَمَرَّ به الأسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوث فأشَارَ إلَىٰ بَطْنِهِ فَاسْتَسْقَىٰ(١) بَطْنُه، فمَات مِنْهُ.
- ومَرَّ به «الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة» فَأشَارَ إلى أثَرِ جِرَاحٍ بأسْفَلِ كَعْبِ رِجْلِهِ، وَكَانَ أصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْن، وهُو يَجُرُّ إزارَه، وذَلِكَ أنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ خُزَاعَةَ يَرِيشُ نَبْلاً لَهُ(٢)، فَتَعَلَّقَ سَهْمٌ مِنْ نَبْلِهِ بإزارِهِ، فَخَدَشَ رِجْلَهُ ذَلِكَ الْخَدْشَ، ولَيْسَ بِشَيْءٍ، فانْتَقَضَ بِهِ فَقَتَلَهُ.
- ومَرَّ بِهِ «الْعَاصُ بْنُ وَائل» فَأشَارَ إلَىٰ أخْمصِ قَدَمِهِ، فَخَرَجَ على حِمَارٍ لَهُ يُرِيدُ الطَّائف، فَرَبَضَ (أي: الحِمَارُ) عَلَىٰ شِبْرِقَةٍ، فَدَخَلَتْ في أخْمَصِ قَدَمِهِ (أي: العاص) فَقتَلَهُ(٣).

---

(١) يقال لغة: «سَقَىٰ بَطْنُهُ، واسْتَسْقَىٰ، وأسْقَاهُ الله» إذا اجْتَمَعَ فيه ماءٌ أصْفر، وهو مَرَضٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الأطِبَّاءِ بداء الاسْتِسْقاء.

(٢) يَرِيش نَبْلاً له: أي: يَضَعُ لَهُ الرِّيشَ.

(٣) **الرُّبوض** للدّواب كالْبُروكِ للإبل. **والشِّبْرِق**: نَبْتٌ حِجازِيٌّ يُؤْكَلُ ولَهُ شَوْك، وَإذَا يَبِسَ سُمِّيَ: «**الضَّرِيعَ**».

ومَرَّ بِهِ «الْحَارِثُ بْنُ الطُّلاَطِلَة» فأشَارَ إلَىٰ رَأسِهِ فامْتَخَطَ قَيْحاً فقتله. انتهى.

فَكَفَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ هـٰؤلاَءِ الـمُسْتَهْزِئِينَ الكِبَارَ مِنْ قَوْمِهِ بَعاهَاتٍ خَاصَّةٍ أهْلَكَهُمْ بها، وامْتَنَّ عَلَىٰ رَسُولِهِ بِذَلِكَ، إذْ كانوا يُزْعِجُونَهُ وَيُحْزِنُونَهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنِ اسْتِهْزَاءَاتِهِمْ ذَوَاتِ الْأَثَرِ الصَّادّ عَنْهُ وَعَنْ دَعْوَتِهِ، على أنَّ كثيراً من المشركين ما زَالُوا يَسْتَهْزِئُونَ به.

وأَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ كُفْرَهم الشِّرْكيَّ بأنَّهُمْ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلَـٰهاً آخر، افْتِرَاءً عَلَيْهِ، وضَلاَلاً مُبيناً، وتَوَعَدَهُمْ بِمَا سَوْف يُلاقُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ، مِنْ عَذَابٍ أَلِيم جَزَاءَ كُفْرِهِمْ واسْتِهْزَائِهِمْ بِرَسُوله، في نار جهنَّم، بقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ صِدْقَ إنْذَارَاتِ الرَّسُول لهم.

- قَوْلُ اللهِ تعالى لِرَسُولِهِ في الوصيَّة الثامِنَة مَعَ التَّوْطِئَةِ لَها:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بعِبَارَةِ ﴿لَقَدْ﴾ مع مخاطَبَتِهِ لَهُ بِضَمِير المتكلّم الْعَظِيم، أنَّه جَلَّ جَلاَلُهُ وَأحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، يَعْلَمُ حَتَّى مَا يَحْدُثُ في صُدُورِ عبادِه مِن انْقِبَاضٍ نَفْسِيٍّ وَضِيقٍ بأيّ سَبَبٍ من الْأَسْبَابِ، ومِنْهَا مَا يَقُولُ النَّاسُ من مُزْعِجاتٍ وأقوالٍ غَيْرِ مُسْتَحبَّاتٍ في نفْسِ مَنْ قِيلَتْ فيه، لمَا فِيها مِنْ غَمْزٍ أو لَمْزٍ أَوْ تَجْرِيح.

فأوصَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ بوَصِيَّة فيها دَوَاءٌ دِينيٌّ يَشْتَمِلُ على أمْرَيْن:

الأَمْرُ الأول: أن يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبّه، أي: أنْ يُرَدِّدَ في ذِكْرِه لِرَبِّهِ عبارة: «سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِه» وهي اختصارٌ لعبارة: أُسَبِّحُ سُبْحانَ اللهِ، وأَحْمَدُ اللهَ بِحَمْدِهِ لِنَفْسِه: أي: أنَا لاَ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَسْتَوْفِيَ حَقَّ اللهِ مِنَ التَّسْبِيحِ، وأَنَا مَهْمَا حَمِدْتُ اللهَ فَلاَ أَسْتَطِيعُ أن أُحْصِيَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِمَا يَسْتَحِقُّ، فأُسَبِّحُ سُبْحَانَ اللهِ لِنَفْسِهِ، وأحْمَدُهُ بما أَثْنَىٰ بِهِ على نَفْسِهِ.

تَسْبِيحُ الله: هو تَنْزِيهُ اللهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وعظيم سُلْطانه.

والْحَمْدُ لله: هو الثناء على اللهِ بصِفَاتِ كماله، على وفْقِ المحامِدِ الَّتِي يَحْمَدُ اللهُ بها ذَاته وَصِفَاتِهِ على مَا يَعْلَمُ مِنْ كمالَاتِه.

الأمر الثاني: أَنْ يَكُونَ سَاجِداً لِرَبِّهِ، مِنْ فِئَةِ السَّاجِدِينَ الْكَامِلِينَ، المؤدِّينَ غايَةَ الْخُضُوع والذُّلِ لَهُ، والتَّضَرُّعِ فِي دُعَائِهِ له.

(ال) في لفظ ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ للكمال.

إِنَّه باسْتِعْمَال هذا الدّواءِ التَّعَبُّدِيّ للهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ يَشْرَحُ اللهُ لَهُ صَدْرَه، ويَصْرِفُ عَنْهُ مَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنْ ضِيقٍ، بِسَبَبِ إيذاءَاتِ الكَفَرَةِ المشْرِكين له.

قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ فِي الوصِيَّةِ التاسِعَة:

- ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾:

أي: وَتَابِعْ عِبَادَتَك لِرَبِّكَ، ومِنْهَا قِيَامُكَ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِكَ الَّتِي حَمَّلَكَ رَبُّكَ أعْبَاءَهَا واصْطَفَاكَ لَهَا مِنْ دُونِ سَائِرِ خَلْقِهِ، حَتَّىٰ آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ عُمْرِكَ في هَٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

فأنت مُكَلَّفٌ أَنْ تَسْتَمِرَّ في عبادَتِكَ لِرَبِّكَ بمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ وأَصْنَافِ العباداتِ المطْلُوبَةِ مِنْكَ، ومِنْهَا أَنْ تَسْتَمِرَّ في أداء وظَائِفِ رِسَالَتِكَ تَبْلِيغاً وتعليماً وتَرْبِيَةً ونُصْحاً وإرْشاداً، وأمراً بالمعروف ونهياً عَنِ المنكر، وقِيَادَة حَكِيمَةً لِلْمُؤْمِنينَ. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾: أي: حتَّى يأتِيكَ الموت الذي لَا يَشُكُّ فيه شَاكٌّ من عُقَلاء الأَحْيَاء.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر سورة (الحجر/ ٥٤ نزول).

والحمدُ لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوفِيقه وفتحه.

* * *

(١١)

ملحق: حَوْلَ مستخرجات بلاغيَّة من سورة (الحجر/٥٤ نزول)

تَشتَمِلُ هذه السُّورَةُ عَلَىٰ رَوَائِعَ بَلاغيَّة كثيرة، وأكْتَفِي باسْتِخْرَاج ما يلي منها:

أولاً: مِنَ الكِنَايَاتِ في السُّورَة:

(١) قول الله تعالَىٰ بِشَأْنِ أهْلِ الجنَّةِ فِي الجنَّة:

- ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

في هذ الآية كِنَايَتَان:

الأولَىٰ: في عبارة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: أي: هُمْ لَا يَكْدَحُونَ لِكَسْبِ أرْزاقِهِمْ وَمَا يَشْتَهُونَ، بَلْ يَأْتِيهِمْ مَا يَطْلُبُونَ مِنْها عَفْواً صَفْواً.

الثانية: في عبارة ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾. أي: هم خَالِدُونَ مُنَعَّمُونَ بِنَعِيمِهَا أبداً بِلَا نِهَايَة.

(٢) قول الله تعَالَىٰ حِكَايَةً لِمَقَالَةِ الرُّسُلِ مِن الملائكة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلام:

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: هُمْ مُرْسَلُونَ إلى إهْلَاكِ قَوْم مُجْرِمِينَ وَتَعْذِيبهم، ففِي وصْفِهِمْ لِقَوْم لُوطٍ عَلَيْه السَّلامُ بأنَّهُمْ قَوْمٌ مُجْرِمُون، مَعَ قَرِينَةِ إرْسَالِهِمْ مِنَ اللهِ لَهُمْ، كِنايَةٌ عَنْ أنَّهُمْ يَحْمِلُونَ رِسَالَةَ تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ لَهم.

ثانياً: مِنَ الإيجاز بالحذف في السّورة:

قولُ اللهِ تَعالى في وصْف «ثمود» قوم النبيِّ الرسول صالح عليه السلام:

- ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ﴾ صُخُوراً ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ ويَتَّخِذُونَ مِنْهَا مَسَاكِنَ لِيَسْكُنُوها ﴿ءَامِنِينَ﴾.

ثالثاً: مِنَ التَّضْمِين في السورة:

قول الله تَعَالَىٰ بشَأْنِ إهْلَاكِ ثمود قوم صالح عليه السَّلام:

- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: فَمَا كَفَاهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ لهم وإهْلَاكَهُ لهم، ما كانوا يَكْسِبُونَ مِنْ وَسَائل قُوَّةٍ وَدِفَاعٍ وأمْن.

ضُمِّنَ فِعْل «أغْنَىٰ» مَعْنَىٰ فِعل «صَرَفَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَه بحَرْفِ الجرِّ «عَنْ» فَأغْنَىٰ الفِعْلُ عَنْ فِعْلَيْن، وأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن.

رابعاً: من استِعْمَال اللَّفْظِ في مَعْنَيَيه فأكْثَر:

(١) قَوْل اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ استِثْنَاءِ امْرَأَةِ لُوطٍ من النَّاجِين من أهله:

- ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

الغابر: الماكِثُ الّذي لَا يُغَادِر. والذّاهِبُ الماضِي الَّذِي لم يَبْقَ لَهُ وَجُود.

هذان المعنيان يَنْطَبِقَانِ عَلَىٰ امْرأة لُوطٍ علَيه السلام، فهي لم تَسْتَطِعْ مغادَرَةَ أَرْضِ الْقَوْمِ مَعَ زَوْجِها وابْنَتَيْها، ولَمْ يَبْقَ لَها وُجُودٌ حَيٌّ في الأرض، بَلْ هَلَكَتْ مَعَ الهالِكِين، وذَهَبَتْ من الحياة الدُّنيا مع الذاهبين.

(٢) وقول اللهِ تَعالَىٰ في وصْف قوم لوطٍ إذْ جاءُوا إلى دَارِهِ حينَ عَلِمُوا باسْتِضَافَتِهِ شُبَّاناً مُرْداً حِسَاناً، وهُمْ في الحقيقة رُسُلُ إهْلَاكِهِمْ مِن الملائكة، يَبْتَغُونَ الفاحِشَة فِيهم:

- ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾:

أي: يَفْرَحُون بما سَيُصِيبُونَ مِنِ استِمتَاعٍ يُحِبُّونَه، ويُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بعضاً بما يُفْرِحُهُمْ.

يُقَال لغة: «اسْتَبْشَرَ» أي: فَرِحَ وسُرَّ. ويقال: «اسْتَبْشَرَ فُلَانُ فُلَاناً» أي: بَشَّرَهُ بِمَا يُفْرِحُهُ وَيَسُرُّه.

خامساً: مِنَ القصر في السورة ما يلي:

(١) قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْرُ إهْلَاكِ كُلِّ قَرْيَةٍ أُهْلِكَت عَلَىٰ كَوْنِ إهْلَاكِها مُسَجَّلاً فِي كِتَابٍ مَعْلُومٍ قَبْلَ إهْلَاكِها.

وهو قَصْرٌ إضافِيٌّ مِنْ قَصْرِ موصُوفٍ علىٰ صِفَةٍ، أَيْ بالإضافَةِ إلَىٰ كَوْنِ إهْلَاكِها الحاصِلِ عَمَلاً مُرْتَجلاً غيْرَ مَسْبُوقٍ بِتَقْدِيرٍ وقَضَاءٍ وتَسْجِيلٍ في كتاب.

وأداة الْقَصْرِ فيها النفي والاستثناء.

(٢) وقولُ الله تَعالَىٰ بشأن كُفَّارِ الأوَّلين:

- ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْرُ كُفَّارِ الأوّلينَ على صِفَةِ اسْتِهْزَائِهِمْ بِرُسُلِ رَبِّهِمْ.

وهُو قَصْرٌ إضَافِي من قَصْرِ مَوْصُوفٍ على صِفَة، أي: بالإضافَةِ إلى كونِهِمْ لَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرُسُلِ رَبّهم.

وأداةُ الْقَصْرِ فيها النَّفْيُ الاستثناء.

(٣) وقول الله تعالَىٰ:

- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٢٣﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْران: قَصْرُ الإحياء والإماتة على الله عزَّ وجلَّ. وقَصْرُ وِرَاثَةِ كُلِّ شَيْءٍ على الله عزَّ وجلَّ، بمَعْنَىٰ ظُهُورِ ملكِيَّةِ اللهِ لكلِّ شَيْءٍ في الأكوان، لأنَّ الله إذا أمَاتَ كلَّ الأحياء ظَهَرَ انْفِرَادُه في المُلْكِ، وسَقَطَتِ المِلْكِيَّاتُ الصُّوريّة الَّتي كان قَدْ مَنَحَها لعباده.

وهو في الجملَتَيْنِ قَصْرٌ حقيقي، من قَصْر صفةٍ على موصوف.

وأداة القصر فيهما تَعْرِيف طَرَفَي الإسناد.

(٤) قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لِرَسُوله:

- ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ٥٠﴾:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ قصران:

الأول: قَصْرُ صِفَتَي الْغفُورِ الرَّحِيمِ علَىٰ اللهِ، فَلَا يَتَّصِفُ بكمالِ هاتَيْنِ الصفتين إلّا اللهُ وحده.

وهو قَصْرٌ حقيقي من قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف.

الثاني: قصر صِفَةِ الْعَذَاب الأَلِيم الْبَالِغِ غايَةَ الإِيلامِ على عَذَاب الله جلّ جلالُهُ وعظُمَتْ قُدْرَته.

وهو قَصْرٌ حقيقي من قَصْر الصِّفَة على الموصوف.

وأداة القصر فيهما تعريف طَرَفي الإسْنَاد.

(٥) قول الله تعالى بضمير المتكلّم العظيم:

- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ ٥٨﴾:

في هذا البيان قَصْرُ خَلْقِ اللهِ السموات والأرض وما بَيْنَهما على

كوْنِهِ مُتَّصفاً بالْحَقِّ، لِرَدّ فِكْرَةِ العبث التي هي باطلٌ لَا يَكُونُ مِن الله جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

وهو قَصْرٌ إضَافي لِدَفْعِ تَصَوُّرَاتِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالجزاء الرَّبَّاني، ولا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّين.

وأداة القصر فيه النفيُ والاسْتِثناء.

(٦) وقَوْلُ الله تعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾:

في هذه الآية قَصْرُ صِفَتَي الْخَلَّاق العليم على اللهِ تبارك وتعالى.

وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌّ مِنْ قَصْر صِفَةٍ على مَوْصُوف.

وأداة القصر فيه تَعْرِيف طَرَفَي الإسناد.

(٧) وقول الله تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُوله:

- ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْرُ كَوْنِ الرَّسُولِ بالنِّسْبَةِ إلى المصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهم وعِنَادِهِمْ، عَلَىٰ أَنَّهُ النَّذِيرُ المبين لهم.

وهُوَ قَصْرٌ إِضَافِي، أي: بالإضَافَةِ إلى ما يُؤَدِّي لِهَؤُلَاءِ مِنْ وظائِفِ رِسَالَته. وهو من قَصْرِ مَوْصُوفٍ على صِفَة.

وأداةُ الْقَصْرِ فِيه تَعْريف طَرَفَي الإسْناد.

سادساً: مِن الإشارةِ إلَىٰ الْقَرِيب باسْمِ الإشارة الموضوعِ للبعيدِ لدواعٍ بلاغيّةٍ، في السورة:

(١) قول الله تعالى:

- ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾:

جاءَتْ الإشَارَةُ إلَىٰ آياتِ القرآن الْقَريبَةِ المتْلُوَّةِ باسم الإشارة في ﴿تِلْكَ﴾ الموضوع للْبَعِيدِ، للدَّلَالَةَ على ارْتِفاعِ مَنْزِلَتِهَا وَعُلُوِّ شأْنها، بلاغة وَمَضَامِينَ فِكْرِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ وتَرْبَوِيَّةٍ وغيرهما.

(٢) وقول الله عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ قَوْمِ لُوطٍ وإخْبَارِه بأنَّ إهلاكهم صار أمْراً مَقْضِيًّا لَا بُدَّ من تَنْفِيذِه:

- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

جاءَتِ الإشَارَةُ إلَىٰ أَمْرِ إهْلَاكِهم القريب الْوُقُوعِ باسم الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، للدَّلَالَةِ علَىٰ أَنَّ الْأَمْرَ الْعَظِيم الْفَظِيعَ الَّذِي كان مُسْتَبْعداً جدًّا، قَدْ تَمَّ بِهِ القضاءُ الرَّبَّانِيُّ وصَارَ حَقِيقَةً وَشِيكَةَ الوقوع.

سابعاً: من التوكِيد بالمؤكّداتِ في السُّورَةِ لِوجُود الداعِي إليه:

أُورِدُ هُنَا النُّصُوص الَّتِي اسْتَخْرَجْتَها دُونَ بيانٍ وتَحْلِيل، إذْ قَدْ سَبَقَ فِي المسْتَخْرَجَات البلاغِيَّةِ مِنَ السُّوَرِ الَّتِي سَبَقَ تَدَبُّرُها أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ يُمْكِنُ القياسُ عليها بسُهُولَةٍ وَيُسْر.

(١) قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

(٢) وقول الله تعالى:

- ﴿... وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ... ﴿٨٥﴾﴾.

(٣) وقول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾:

(٤) وقول الله تَعَالَىٰ لِرَسُوله:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧)﴾:

(٥) وقول الله تعالى:

- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢)﴾:

(٦) وقول اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله:

- ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥)﴾:

(٧) وقول الله تعالى له أيضاً:

- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)﴾:

وبهذا تَمَّ هَـٰذَا الملحق والحمد لله على معونته وتوفيقه ومَدَدِهِ وفتحه.

* * *

سورة الأنعام

٦ مصحف ٥٥ نزول

وهي سورة مكيَّة كلّها

في أصح الأقوال

وعدد آياتها ١٦٥

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ
ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن
طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾
وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا
تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟
عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ
أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم
مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ
وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى

---

٤ ـ ● قرأ ورْش، والسوسي، وأبو جعفر: **[وَمَا تَاتِيهِمْ]** بإبدال الهمزة ألفاً، وكسْر الهاء.
وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأ يعقوب: **[وَمَا تَأْتِيهُمْ]** بالهمزة دون إبدال وبضمّ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَمَا تَأْتِيهِمْ]** بالهمزة وكَسْرِ الهاء.

٦ ـ ● قرأ السّوسي، وأبو جعفر: **[وَأَنْشَانَا]** بإبدال الهمزة بعد الشين ألفاً.
وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَأَنْشَأْنَا]** بالهمزة دون إبدال.

قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ
﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ
ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا
وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن
قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا
يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ
مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ

---

٧ - ● قرأ يَعْقوب: [**بِأَيْدِيهُمْ**] بضمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بِأَيْدِيهِمْ**] بكسر هاء الضمير.

١٠ - ● قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: [**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ**] بكسر دال «لقد» في الوصل، وبالهمزة.

وقرأها أبو جعفر: [**وَلَقَدُ اسْتُهْزِيَ**] بضم الدال، وإبدال الهمزة ياءً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ**] بضَمِّ الدال وبالهمزة.

١٤ - ● فتح نافع، وأبو جعفر ياء المتكلّم من [**إِنِّي أُمِرْتُ**]. وأسْكَنها باقي القرّاء العشرة.

١٥ - ● فتح نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، يَاءَ المتكلّم من: [**إِنِّي أَخَافُ**]. وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ
فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ
فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾
قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ
نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ

---

١٦ ـ ● قرأ شُعْبَة، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف: [**مَنْ يَصْرِفْ**] بالفعل المبني للمعلوم، أي: مَنْ يَصْرِفِ اللهُ عنه.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَة: [**مَنْ يُصْرَفْ**] بالفعل المبني لمَا لم يُسَمَّ فَاعِلُه.

وبينَ الْقِراءَتَيْن تكامُلٌ فِي الأداء البياني.

١٩ ـ ● قرأ ابن كثير: [**الْقُرَانُ**] بحذف الهمزة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**الْقُرْءَانُ**] بإثبات الهمزة.

٢٢ ـ ● قرأ يَعْقُوب: [**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ**] بالْيَاءِ في الفعلين، أي: يَحشرُهم الله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ**] بالنون في الفعلين، والفاعل ضمير المتكلّم العظيم.

وبين القراءتين تفنُّنٌ بياني.

تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ
يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن
يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا
نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم
مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ
﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ

---

٢٣ - ● قرأ نافع، وأبو عمْرو، وشعبة، وأبو جعفر، وخلَف: [ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ] بتاء المضارعة، وبنصب «فِتنَةَ».

وقرأها ابن كثير، وابْنُ عامر، وحفص: [ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ] بتاء المضارعة، وبرفع «فتنة».

وقرأها باقي القراء العشرة: [ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتَهُمْ] بياء المضارعة، وبنصبِ «فتنة» وهي وجوه عربيّة جائزة، ومتكافئة من جهة المعنى.

٢٣ - ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وَاللهِ رَبَّنَا] أي: يا ربَّنا، وقرأها باقي القراء العشرة: [واللهِ رَبِّنا] بالجرّ.

٢٧ - ● قرأ حفصٌ، وحمزة، ويعْقُوب: [وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا ونَكُونَ] بنَصْبِ الفِعْلَيْن.

وقرأها ابْنُ عامر: [وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ] برفع الفِعْل الأوّل ونصب الفعل التالي.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: برَفْع الفِعْلَيْن.

بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدۡ خَسِرَ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ
يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ
أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ
وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدۡ نَعۡلَمُ
إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ
فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ
ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ
إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي
ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ

---

٣٢ ـ • قرأ ابْن عامر: **[وَلَدَارُ الْآخِرَةِ]** أي: وَلَدَار الْحَياةِ الآخرة.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَلَلدَّارُ الْأَخِرَةُ]** على أن «الآخرة» وصف للدّار.
وبين القراءتين تفنُّنٌ في البيان، والمؤدّىٰ واحد.

٣٢ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: **[أَفَلَا تَعْقِلُونَ]** بتاء المخاطبين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَفَلَا يَعْقِلُونَ]** بياء الغائبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٣٣ ـ • قرأ نافع: **[لَيُحْزِنُكَ]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[لَيَحْزُنُكَ]**. أحزنَهُ وحزنَهُ لغتان عربيتان.

٣٣ ـ • قرأ نافع، والكسائي: **[لَا يُكْذِبُونَكَ]** من فعل: «أَكْذَبَهُ».
وقرأها باقي القراء العشرة: **[لَا يُكَذِّبُونَكَ]** من فعل: «كَذَّبَهُ».
والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ
ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ
يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ
فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ
ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ
تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ
﴿٤١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن

---

٣٦ ـ • قرأ يعقوب: **[يَرْجِعُونَ]** بالبناء للمعلوم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يُرْجَعُونَ]** بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.
وبين القراءتين تكامل، أي: يُرجِعُهُمُ الله فَيَرْجِعُونَ مُطاوِعين بالجبر.

٣٧ ـ • قرأ ابن كثير: **[يُنْزِلَ]** من فعل: «أنزل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يُنَزِّلَ]** مِنْ فعل: «نَزَّلَ».
والقراءتان متكافئتان، لأنَّ الهمز أخو التضعيف.

٣٩ ـ • قرأ أبو جعفر: **[وَمَنْ يَشَا يَجْعَلْهُ]** بإبدال الهمزة ألفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ]** بالهمزة الساكنة.

٣٩ ـ • أشَمَّ صَادَ **[صِرَاطٍ]** صَوْتَ الزاي قنبل، ورُوَيس، وخلَفٌ عن حمزة.
وقرأها باقي القراء العشرة: صاداً خالصة.

٤٢ و٤٣ ـ • قرأ أبو جعفر، والسُّوسي: **[بِالْبَاسَاءِ]** و**[بَاسُنَا]** بإبدال الهمزة ألفاً فيهما. وهذا الإبدال من اللهجات العربية.
وقرأهما باقي القرّاءِ العشرة: **[بِالْبَأْسَاءِ]** و**[بَأْسُنَا]** بالهمزة على الأصل.

قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾
فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ
غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ
يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ
جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ
ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ
ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ
إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ

---

٤٤ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس: **[فَتَّحْنَا]** بتَشْدِيد التاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَتَحْنَا]** بتخفيف التاء.
وبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعنى المراد، وهما يَدُلّان علىٰ أنّ بَعْض الأقوام يَفْتَحَ الله لَهُمْ فَتْحاً عاديًا، وأنَّ آخرينَ يُفَتِّحُ لَهُمْ أبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ بتوسِعَةٍ زائدة على الفتح المعتاد، بِحَسَبِ ما تقتضيه حكْمَتُه السَّنِيَّة.

٤٦ ـ • أشم الصاد صوت الزاي في: **[يَصْدِفُونَ]** حمزة، والكسائي، وخلف، ورُوَيس. وقرأها باقي القرّاء العشرة: بالصّاد الخالصة.

لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا
تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا
عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن
شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا
بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ
ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا
فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ
عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

---

٥٢ ـ • قرأ ابن عامر: [**بِالْغُدْوَةِ**] وقرأها باقي القراء العَشرة: [**بِالْغَدَاةِ**].
الْغُدْوَةُ، والْغَدَاةُ لغتان عربيَّتَان لمعنىً واحد، وهو ما بين الفجر وطُلُوع الشمس.

٥٤ ـ • قرأ نَافِع، وأبو جَعْفر، بفتح همزة: [**أَنَّهُ مَنْ**] وكَسْرِ همزة: [**فَإِنَّهُ**].
وقرأهُمَا ابن عامر، وعاصم، ويَعْقُوب، بفتح الهمزتين.
وقرأهُمَا باقي القراء العشرة، بِكَسْرِ الهمزتين.
وهي وجوه جائزة عَرَبيًّا.

٥٥ ـ • قرأ نَافع، وأبو جعفر: [**وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ**] بنصب «سبيل».
وقرأهُما شعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِين**] بياء المضارعة وبرفع «سبيل».
وقَرَأَهُمَا باقي القرّاء العشرة: [**وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**] بتاء المضارعة وبرفع «سَبِيلُ».

ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا
عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞
وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى
ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ
يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ
وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا
وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ
ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ

---

٥٧ ـ • قَرأ نافع، وابْنُ كثير، وعاصم، وأبو جعفر: **[يَقُصُّ الْحَقَّ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَقْضِ الْحَقَّ]**.
وبين القراءتَيْن تكاملٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

٦١ ـ • قرأ حمزة: **[توَفَّاهُ]** مع الإمالة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[توفَّتْهُ]**. وهما وجهان عربيان جائزان.

٦١ ـ • قرأ أبو عمرو: **[رُسْلُنَا]** بإسكان السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[رُسُلُنَا]** بضم السّين.
وهما لغتان عَرَبيّتان.

٦٣ ـ • قرأ يعقوب: **[قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ]** من فعل «أنْجَىٰ». =

وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ
تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ
أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ
ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ
قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ
وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ
عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ]** من فِعل: «نَجَّىٰ».
والقراءتان متكافئتان.

٦٣ ـ ● قرأ شعبة: **[وخِفْيَةً]** بكسر الخاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وخُفْيَةً]** بضمّ الخاء.
«خِفْيَة وخُفْيَة» لغتان عربيتان.

٦٣ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[لَئِنْ أَنْجانا]**.
قرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَئِنْ أنْجيتَنا]**.
وبين القراءتان تكامل، إذْ بعض الناس يخاطِبُونَ رَبَّهم بهذا، وآخرون يقولون: لَئِنْ أنجانا.

٦٤ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن ذكوان، ويَعْقُوب: **[قُلِ اللهُ يُنْجِيكُمْ]** من فعل «أنْجَىٰ» المهموز.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ]** من فعل «نَجَّىٰ» المضعف.

٦٥ ـ ● قرأ السّوسي، وأبو جعفر: **[بَاسَ]** بإبدال الهمزة ألفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بَأْسَ]** بالهمزة الساكنة.

٦٥ ـ ● قرأ أبو عمرو، وابن ذكوان، وعاصم، وحمزة بكَسْر تَنْوين: **[بَعْضٍ انْظُر]** في الوصل.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: بضم تَنْوين: **[بَعْضٌ انْظُرْ]** في الوصل.

٦٨ ـ ● قرأ ابن عامر: **[يُنَسِّيَنَّكَ]** من فعل «نَسَّىٰ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يُنْسِيَنَّكَ]** من فعل «أنسىٰ» والقراءتان متكافئتان.

بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ
مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ
مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا
ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ
يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ
وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ
ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ
لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ

---

٧١ ـ ● قرأ حمزة: [اسْتَهْوَاهُ] مع الإمالة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [اسْتَهْوَتْهُ].
وهما وجهان عربيان جائزان.

٧٤ ـ ● قرأ يعقوب: [ءَازَرُ] بالضم على أنه علم مُنَادَىٰ. =

مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ
هَٰذَا رَبِّىۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا
ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّىۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِى رَبِّى
لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ
هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّى بَرِىٓءٞ مِّمَّا
تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهۡتُ وَجۡهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ
قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: [ءَازَرَ] بالفتح على أنه بدلٌ أو عطف بيان مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف.

٧٤ - • فتح نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر يَاء المتكلم في: [**إِنِّيَ أَرَاكَ**].

وأسكَنها باقي القرّاء العشرة.

٧٩ - • فتح نافع، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر ياء المتكلم من: [**وَجْهِيَ لِلَّذِي**].

وأسكنها باقي القرّاء العشرة.

٨٠ - • قرأ نافع، وابنُ عامر، بخُلْفٍ عن هشام، وأبو جعفر: [**أَتُحَاجُونِي**] بكسر النون دُون تَشديد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: بالتشْدِيد: [**أَتُحَاجُّونِّي**] أصلها «أتُحَاجُّونَنِي». وهو الوجه الثاني لابن عامر برواية هشام.

٨٠ - • أثبت ياء المتكلّم في: [**وَقَدْ هَدَانِي**] يعقوب في الوصل والوقف. وأثبتها أبو عمْرو، وأبو جعفر في الوصل فقط.

ولم يُثْبِتْها باقي القرّاء العشرة، وهي مُلاحَظَةٌ ذهْناً دَلَّت عليها الكسْرَة على النون.

إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۖ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۖ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ
أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ
ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ
يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾
وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن
نَّشَآءُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَۖ كُلًّا هَدَيۡنَاۖ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ
دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا
فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ

---

٨١ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويَعقُوب: **[مَا لَمْ يُنْزِلْ]** من فعل: «أَنْزَلَ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مَا لَمْ يُنَزِّلْ]** من فعل: «نَزَّلَ».
والقراءتان متكافئتان، فالهَمزُ أخو التضعيف.

٨٣ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[درَجَاتٍ مَنْ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[دَرَجَاتِ مَنْ]** على الإضافة.
القراءتان مِنَ التفنُّن في التعبير.

٨٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[وَزَكَرِيَّا]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[وزكرياءَ]** بإثبات الهمزة.
وهما نُطْقَان مستعملان لهذا الاسم.

٨٦ ـ • قَرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: **[وَاللَّيْسَعَ]**.

=

وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ
يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ
فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ
﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ
أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا
قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ
مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ
قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ
ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ

= وقرأهُ باقي القرّاء العشرة: **[والْيَسَعَ]**.

وهما نطقان لهذا الاسم.

٨٧ - ● قرأ قُنْبُل، ورُويس: **[سِرَاطٍ]** بالسّين. وقرأها خلف عن حمزة بالإشمام.

وقرأها الباقون بالصّاد: **[صِرَاطٍ]**.

٨٩ - ● قرأ نافع: **[وَالنُّبُوءَةَ]**. وقرأها باقي القراء العشرة: **[والنُّبُوَّةَ]**.

٩٠ - ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وعاصم، وأبو جعفر: **[اقْتَدِهْ]** بإثبات هاء السَّكْت في الوصل والوقف. وكذلك قرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف، وابن عامر في الوقف فقط.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[اقْتَدِ]** في الوصل.

وقرأها هشام: **[اقْتَدِهِ]** في الوصل بكَسْرةٍ للهاء دُون إشباع لمدّ الهاء.

وقرأها ابنُ ذَكوان مثل هشام في الوصل مع إشباع كسْرَةِ الهاء.

٩١ - ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: **[يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَها وَيُخْفُونَ]** بياء المضارعة الّتي تُستعمل للغائبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: بتاء المخاطبين: **[تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ]**.

أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ
أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟
أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا
كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ
﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا
خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ
أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ
ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

---

٩٢ ـ • قرأ شعبة: [وَلِيُنْذِرَ] بياء الغائب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلِتُنْذِرَ] بتاء المخاطب. وهو الرسول ﷺ.

وبَيْنَ القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٩٣ ـ • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير، وهو لغة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: بكَسْرِ هاء الضمير.

٩٤ ـ • قرأ نافع، وحفص، والكسائي، وأبو جعفر: [تقَطَّعَ بَيْنَكُمْ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تقَطَّعَ بَيْنُكُمْ].

ومؤدّىٰ القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

٩٥ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، وشعبة: [الْمَيْتِ] بإسكان الياء في الموضِعَيْن.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [الْمَيِّتِ] بِتَشْدِيد الياء المكسورة. =

فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ
تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ
لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ
وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ
خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ
دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ
ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ
وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ

---

٩٥ - • قرأ ورش، والسوسي، وأبو جعفر، [**تُوفَكُونَ**] بإبدال الهمزة واواً مَدِّيَّة، وهو من اللهجات العربية.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**تُؤْفَكُونَ**].

٩٦ - • قَرَأ عاصم، وحمزة، والكسائيُّ، وخلف: [**وَجَعَلَ اللَّيلَ**] بالفعل الماضي: ونصب «الليل».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَجَاعِلُ اللَّيْلِ**] باسم الفاعل وجرّ اللّيل.

٩٨ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورَوْح: [**فَمُسْتَقِرٌّ**] بِكَسْرِ القاف، اسم فاعل من «استقرّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**فَمُسْتَقَرٌّ**] اسم مكان.

٩٩ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [**إِلَىٰ ثُمُرِهِ**]. وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**إِلَىٰ ثَمَرِهِ**]: «ثُمر» و«ثَمر» جَمْعُ «ثَمَرَة» فالمعنى واحد.

١٠٠ - • قرأ نافع، وأبو جَعْفَر: [**وَخَرَّقُوا**] بِتَشْدِيدِ الرَّاء، أي: بالغوا بالافتراء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَخَرَقُوا**] براء مفتوحة دُون تَشْدِيد.

=

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ
كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ
وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ
أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا
جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ
ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ
كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ
ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ

= والقراءتان تُعبِّرانِ عَن حَالَيْنِ لِفَرِيقَيْنِ من الكافرين المفترين علىٰ الله.

١٠٥ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو: **[دَارَسْتَ]**.

وقرأ ابن عامر، ويعقوب: **[دَرَسَتْ]**.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[دَرَسْتَ]**.

١٠٨ ـ ● قَرأ يَعقُوبُ: **[عُدُوّاً]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[عَدْواً]**.

١٠٩ ـ ● قرأ أبو عَمْرو: **[وَمَا يُشْعِرْكُمْ]** بجزم الرَّاء. وله وجْهُ آخر عن الدُّوري، وهو اختلاسُ ضمَّة الراء. =

إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ
يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞
وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ
شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ
يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ
وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ
رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَمَا يُشْعِرُكُمْ]** بالرَّفع.

١٠٩ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ويعقوب، وخلف، وهو وجه لشعبة: **[إِنَّهَا إذا]** بِكَسْرِ همزة «إِنَّ» وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَنَّهَا إِذَا]** بفتح همزة «أَنَّ» وهو الوجه الثاني لشعبة.

١٠٩ ـ ●قرأ ابن عامر، وحمزة: **[لا تُؤْمِنُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: بياء الغائبين: **[لَا يُؤْمِنُون]**.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

١١١ ـ ● قرأ أبو عمْرو: **[إِلَيْهِمِ الْمَلَائِكَةَ]** بكسر هاء الضمير وميم الجمع.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوبُ. وخلَف: **[إِلَيْهُمُ الْمَلَائِكَةَ]** بضمّ هاء الضمير وميم الجمع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: بكَسْرِ هاء الضمير وضمّ ميم الجمع: **[إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ]** وكُلُّها لغاتٌ عربية.

١١١ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: **[قِبَلاً]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قُبُلاً]**.

القراءتان لغتان بمعنى المقابَلَة والمواجهة والمعاينة.

١١٢ ـ ● قرأ نافع: **[لِكُلِّ نَبِيءٍ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لكُلِّ نَبِيٍّ]**.

مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ
مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ
﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ
﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ
فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا
لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ

---

١١٤ ـ • قرأ ابن عامر، وحفص: [**مُنَزَّلٌ**] بفتح النون وتشديد الزاي المفتوحة، من فعل: «نَزَّل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**مُنْزَلٌ**] مِنَ فعل: «أنْزَل».

١١٥ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ**] بالإفراد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: بالجمع: [**وَتَمَّتْ كَلِماتُ**].
والمعنى فيهما واحد، لأنّ المفْرَدَ المضافَ إلَىٰ المعرفة بحكْم الجمع.

١١٩ ـ • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ**].
وقرأ شعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ**].
وقرأها باقي القرّاء العشرة [**وقَدْ فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ**].
ومؤدّىٰ هذه القراءات واحد، وهي من التفنُّن في التعبير.

١١٩ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**لَيُضِلُّونَ**] أي: ليُضِلُّونَ غيرَهُمْ.
وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**لَيَضِلُّونَ**].
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: هُمْ يَضِلُّونَ عَنْ صِراطِ الحقّ بأهوائهم، ويُضِلُّونَ غيْرَهم.

(١١٩) وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ
ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ
لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) أَوَمَن كَانَ مَيْتًا
فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى
ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ
مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ
مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ
ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟
يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ
وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

---

١٢٢ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب: **[أَوَ مَنْ كَانَ مَيِّتاً]** بتشْدِيدِ الياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً]** بإسكان الياء. «مَيْت» و«مَيِّت» لغتان بمعنىٰ واحد.

١٢٤ ـ • قرأ ابن كثير، وحفص: **[يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ]** بالإفراد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالجمع: **[يَجْعَلُ رِسالَاتِهِ]**.
والمعنىٰ فيهما واحد، لأنّ المفرد المضاف إلى المعرفة بحكم الجمع.
ويُضَاف إلى هذا أنَّ بَعْضَ رُسُلِ اللهِ أنْزَل اللهُ عَلَيْهِم رِسَالَةً وَاحِدَةً دُفْعَةً واحِدَة، وأنَّ آخرين أنزل الله عَلَيْهِمْ رِسَالَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ نَجماً بَعْدَ نَجْمٍ، مثل مُوسَىٰ عليه السَّلام.

١٢٥ ـ • قرأ ابن كثير: **[ضَيْقاً]**.

=

يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ
وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا
يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ
ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ
قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[ضَيِّقاً]**. ومؤدّى القراءتين واحد.

١٢٥ ـ ● قرأ نافع، وشعبة، وأبو جعفر: **[حَرِجاً]** بكسر الراء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[حَرَجاً]** بفتح الراء.
ومؤدّى القراءتين واحد.
«حَرِج» صفة مشبَّهة باسم الفاعل.
«حَرَج» مصدر وُصِفَ به علىٰ سبيل المبالغة.

١٢٥ ـ ● قرأ ابْنُ كثير: **[يَصْعَدُ]** وقرأها شعبة: **[يَصَّاعَدُ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَصَّعَّدُ]**. أصْلُها «يَتَصَعَّدُ».
في قراءتي «يَصَّاعَد» و«يَصَّعَّدُ» معنى التكلُّف، فبينهما وبيْنَ «يَصْعَدُ» تكامل رُوعي فيه أحوال النَّاس في حَالَاتِ صُعُودِهم.

١٢٦ ـ ● قرأ قُنْبُل، ورُوَيس: **[سِرَاطُ]** بالسين. وقرأها خَلَفٌ عن حمزة بالإشمام.
وقرأها باقي القراء العشرة بالصاد الخالصة: **[صِرَاطُ]**.

١٢٨ ـ ● قرأ حفص، ورَوْح: **[وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ]** بياء المضارعة، أي يحْشُرُهم الله.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ]** بضمير المتكلّم العظيم.
ومؤدّى القراءتَيْنِ واحد.

يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا
عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ
كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ
بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا
رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ
أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ
لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ
ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ
مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ
بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا

---

١٣٢ ـ ● قرأ ابن عامر: **[عَمَّا تَعْمَلُونَ]** بتاء المخاطبين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[عَمَّا يَعْمَلُونَ]** بضَمِيرِ الغائبين. وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

١٣٣ ـ ● قرأ أبو جعفر: **[إِنْ يَشَا]** بإبدال الهمزة أَلِفاً في: «يَشا».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِنْ يَشَأْ]** بالهمزة.

١٣٥ ـ ● قرأ شعبة: **[عَلَى مَكَانَاتِهِمْ]** بالجمع.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإفراد: **[عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ]**.

١٣٥ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[مَنْ يَكُونُ]** بالياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مَنْ تَكُونُ]**. بالتاء.

١٣٦ ـ ● قرأ الكسائي: **[بِزُعْمِهِمْ]**. وقرأها باقي القراء العشرة: **[بَزَعْمِهِمْ]** وهما لغتان.

يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ
شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ
مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ
وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ
وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا
يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا
وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا
كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ
خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ

---

١٣٧ ـ • قرأ ابنُ عامر: [**وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المشرِكِينَ قَتْلُ أَوْلادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ**].

وفي قراءة ابن عامر إثباتُ وَجْهٍ عَرَبِيٍّ جائز. والمؤدّىٰ في القراءتَيْنِ واحد.

قراءةُ ابْنِ عامِرٍ فيها الفصل بَيْنَ المضاف: «قَتْلُ» والمضاف إِلَيْهِ «شُرَكَائِهِمْ» بِمَفْعُولِ «قَتْل» وهو «أَوْلَادَهُمْ» أي: زُيِّنَ لِكَثِيرٍ من المشرِكينَ أَنْ يَقْتُلَ شُرَكَاؤُهُمْ أَوْلَادَهُمْ، إِمَّا بَتَسْلِيمِهِمْ إلى سَدَنَةِ الأَصْنَامِ لِقَتْلِهِمْ، وإِمَّا بِقَبُولِ حُكْمِهِمْ فِي أَنْ يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ.

١٣٨ ـ • قرأ الكسائي: [**بِزُعْمِهِمْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بِزَعْمِهِمْ**]. وهما لُغتان عربيّتان.

١٣٨ و١٣٩ ـ • قرأ يعقوب: [**سَيَجْزِيهُمْ**] بضم هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**سَيَجْزِيهِمْ**] بكسر هاء الضمير.

١٣٩ ـ • قرأ ابن عامر: [**وإنْ تَكُنْ مَيْتَةٌ**]. وأبو جعفر: [**مَيِّتَةٌ**]. وشُعْبَة: [**مَيْتَةً**] مع التاء في «تَكُنْ».

=

فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ
﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا
كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ
مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ
وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ
إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ
كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ

= وقرأ ابن كثير: [وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةٌ]. وباقي القراء العشرة: [مَيْتَةٌ] مع الياء في «يكن».

١٤٠ ـ • قرأ ابن كثير، وابن عامر: [الَّذِينَ قَتَّلُوا] بتَشْدِيد التاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الَّذِينَ قَتَلُوا] بتخفيف التاء.

رُوعي بالتشديد الذين أكثروا القتل، وبالتخفيف الذين كان مِنْهُم قَتْلٌ ما.

١٤١ ـ • قرأ نَافع، وابْن كثير، [أُكْلُهُ]. وقرأها باقي القراء العشرة: [أُكُلُهُ] «الأُكُلُ» و«الأُكْلُ» لغتان بمعنى الثمر.

١٤١ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [مِنْ ثُمُرِهِ] بضم الثاء والميم. وقرأها باقي القراء العشرة: [مِنْ ثَمَرِه] بفتح الثاء والميم. وهما لغتان عربيتان جمع «ثَمَرَة».

١٤١ ـ • قرأ أبو عَمْرو، وابن عامر، وعاصِم، ويعقوب [حَصَادِهِ] بفتح الحاء وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [حِصَادِه] بكسر الحاء وهما لغتان عربيتان.

١٤٢ ـ • قرأ نافع، والبزّي، وأبو عَمْرو، وشعبة، وحمزة، وخلف: [خُطْوَاتِ] بإسكان الطاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [خُطُوَاتِ] بضم الطاء. وهما لغتان عربيتان.

عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ
ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ
عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ
ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ
شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ
يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ
خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ
غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ

---

١٤٣ ـ ● قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: **[الضَّانِ]** بإبدال الهمزة ألفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[الضَّأْنِ]** بالهمزة على الأصل.

١٤٣ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر: **[الْمَعَزِ]** بفتح العين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[الْمَعْزِ]** بإسكان العين.
وهما لغتان عربيتان.

١٤٣ ـ ● قرأ أبو جعفر: **[نَبُّوني]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَبِّئُوني]**.

١٤٥ ـ ● قرأ ابْنُ عامر: **[إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَيْتَةٌ]**. وقرأها أبو جعفر: **[إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَيِّتَةٌ]**.
وقرأها ابن كثير، وحمزة: **[إِلَّا أَنْ تكونَ مَيْتَةً]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً]**.

١٤٥ ـ ● قرأ أبو عمْرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: **[فَمَنِ اضْطُرَّ]**.
وقرأها أبو جعفر: **[فَمَنُ اضْطِرَّ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَمَنُ اضْطُرَّ]**.
وهي لغاتٌ عربيّة.

هَٰادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا
عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا
ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن
كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ
ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ
أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ
عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا
تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ
﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ
فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ
﴿١٥٠﴾ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا
تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ
إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ

---

١٤٧ و١٤٨ ـ ● قرأ السوسي، وأبو جعفر: [**بَاسُهُ**] و[**بَاسَنَا**] بإبدال الهمزة فيهما ألفاً.

وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [**بَأْسُهُ**] وَ [**بَأْسَنَا**] بالهمزة على الأصل دون إبدال.

مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ
ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ
فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ
وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا
فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ
وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ
فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ
عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

---

١٥٢ ـ ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَذَكَّرُونَ]** بتخفيف الذال.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تَذَّكَّرُونَ]** بتشديد الذال، أصلها: «تتذَكَّرُونَ».

١٥٣ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[وَإِنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي]** بكسر همزة «إِنَّ»
ولخلف عن حمزة إشْمَامُ الصاد صوت الزاي.
وقرأها ابن عامر: **[وَأَنْ هَـٰذَا صِرَاطِيَ مُسْتَقِيماً]** بفتح ياء المتكلم في الوصل، وبـ «أنْ».
وقرأها رَوح: **[وَأَنْ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً]**.
وقرأها قنبل: **[وَأَنْ هَـٰذَا سِرَاطِي مُسْتَقِيماً]** بالسين بدل الصاد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً]**.

١٥٣ ـ ● قرأ البزّي: **[فَتَّفرَّقَ]** بتشديد التاء، أصلها «فتَتَفرَّقَ» وقرأها بَاقِي القراء العشرة: **[فَتَفرَّقَ]** بحذف إحدى التاءين.

أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ
جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن
كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ
ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ
أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ
يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن
قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ
أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ
بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا
مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

---

١٥٧ ـ ● قرأ حَمْزة، والكسائي، وخَلف، ورُويس: [**يَصْدِفُونَ**] بإشْمَام الصّادِ زاياً في الموضعين. وقرأها باقي القراء العشرة بالصاد الخالصة.

١٥٨ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ**].

وقرأ وَرْش، والسوسي، وأبو جعفر: [**إِلَّا أَنْ تَاتِيَهُمْ**] بالتاء وإبدال الهمزة ألفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ**] بالتاء، وبالهمزة دون إبدال.

١٥٩ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي: [**فَارَقُوا**] من المفارقة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**فَرَّقُوا**] من التفريق.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

١٦٠ ـ ● قرأ يعقوب: [**فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالُهَا**] وقرأها باقي القراء العشرة: [**فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**]. والمؤدّى واحد، وهما من التفنن في التعبير.

١٦١ ـ ● فتح ياء المتكلم من: [**رَبِّي إِلَىٰ**] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر وأسكنها الباقون.

=

مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ
إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ
لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ
كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ
فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

---

١٦١ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: **[دِيناً قَيِّماً]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[دِيناً قِيماً]**.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

١٦١ ـ ● قرأ هشام: **[إبراهَام]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِبْرَاهِيم]**.

١٦٢ ـ ● قرأ قَالُون، وأبو جَعْفر: **[ومَحْيَايْ]** بإسْكان الياء الثانيةِ وصْلاً ووقفاً وحينئذٍ تَمُدَّان مدًّا مشبعاً لأجل السَّاكنين، وهو وجهٌ لورش.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَمَحْيَايَ]** وهو الوجهُ الثاني لورش، ولا مَدَّ حينئذٍ.

١٦٣ ـ ● أثبت ألف «أنا» مِنْ **[وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ]** في الوصل نافع، وأبو جعفر.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف الألف وصلاً.
ولا خلاف عندهم في إثباتها في الوقف.

(٢)

مما جاء في السُّنّة بشأن سورة (الأنعام)

سورة (الأنعام) ذَاتُ عِنَايَةٍ جَلِيلَةٍ مِنَ العليم العلَّام، فَقَدْ صَحِبَتْ نُزُولَها مَوَاكِبُ مِنَ الملائكة، يَجْأَرُونَ بتسبيح اللهِ وتَحْمِيدِهِ، في زَجَلٍ تَطْرِيبي، وقَدْ جاء بيانُ عنايَةِ اللهِ بها في أحاديث عن النبيّ ﷺ، منها الصحيح، ومنها دونَ ذلِكَ:

(١) رَوىٰ الحاكم في «مستَدْرِكِهِ» بسَندِهِ عن جابر قال: لمَّا نزلَتْ سُورَة (الأنعام) سبَّحَ رَسُول الله ﷺ ثُمَّ قال:

«لَقَدْ شَيَّعَ هَـٰذِهِ السُّورَةَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مَا سَدَّ الْأُفق».

ثم قال الحاكم: صَحِيحٌ علىٰ شَرْطِ مسلم.

(٢) ورویٰ أبو بكر بن مَرْدَوَيْهِ بسنَدِه عن أنس بن مالك قال: قال رَسُولُ الله ﷺ:

«نَزَلَتْ سورة (الأنعام) مَعَهَا مَوْكِبٌ مِنَ الملائكة سدَّ ما بَيْنَ الخافِقَيْن[1]، لهم زَجَلٌ[2] بالتَّسْبِيحِ، والْأَرْضُ بِهِمْ تَرْتَجُّ».

ورَسُول اللهِ يقول: «سبحان الله العظيمِ، سُبْحانَ اللهِ الْعَظِيم».

(٣) ورویٰ ابْن مَرْدَوَيْهِ عَنِ الطبراني، بسَندِهِ عن ٱبْن عُمَر، قالَ: قال رسُول الله ﷺ:

«نَزَلَتْ سُورَة (الأنعام) جُمْلَةً واحِدَةً، وشَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفاً مِنَ الْمَلائِكَةِ، لهم زَجَلٌ بالتَّسْبِيحِ والتَّحْمِيدِ».

(٤) ورَوىٰ الطبرانيّ بسَنَدِهِ عن ابن عباس قال: «نَزَلَتِ الْأَنْعَامُ بمكَّةَ لَيْلاً جُمْلَةً وَاحِدَةً حَوْلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْأَرُونَ حَوْلَهَا بالتَّسْبِيحِ».

(٣)

موضوع سورة (الأنعام)

يدُور موضوعُ شجرة سورة (الأنعام) حول معالَجَةِ الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَة الحقِّ الرَّبَّانِيَّة إِبَّانَ تَنْزِيلِ السورة.

---

[1] **الخافِقَان**: أُفُقُ المشْرِقِ والمغْرِبِ.

[2] **الزَّجَل**: رَفع الصَّوْتِ بِتَطْرِيب.

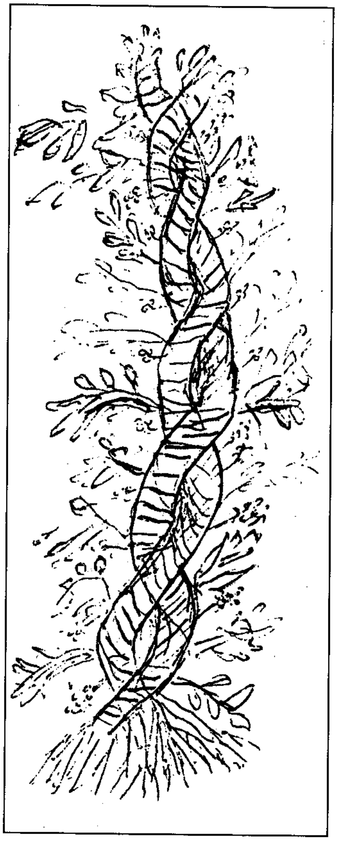

ولهٰذِهِ الشَّجَرَةِ سَاقَانِ مُمْتَدَّانِ مِنْ جَذْرِها حَتَّىٰ رَأسِهَا، وقَدِ الْتَفَّ كُلٌّ مِنْهُمَا علىٰ الآخر، وتَفَرَّعَتْ فُرُوعُها وَأفْنَانُهَا وأوراقها وثمراتُها الظّاهِرَةُ مِنْ مَنْطُوقِ ألْفَاظِها مِنَ الملْتَفِّ الظَّاهِرِ من هٰذَيْنِ السَّاقَيْن.

السَّاقُ الأول: تَفَرَّعَتْ مِنْهُ بَيانَاتٌ دَعَوِيَّاتٌ مُبَاشِرَاتٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، كاشفاتٌ لحقائق عَقَدِيَّة وسُلُوكِيّة، وجَدَلِيَّاتٌ للكافِرِينَ، ومواعظُ تَرْغيبيَّة وتَرْهيبيَّة مُوَجَّهاتٌ مباشرة لهم، بحَسَبِ الطَّوْرِ الذي هم علَيْهِ إبَّانَ تنزيلِ السُّورَة، مع تَوصِياتٍ تَرْبَوِيَّةٍ من اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، مُلائماتٍ للطَّوْرِ الَّذِي كانَ عَلَيْهِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَته، ومُعَالَجَاتٍ لِما فِي نَفْسِهِ في ذَلِكَ الطَّوْر، ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ كُلُّ حَامِلٍ لِرسَالَتِهِ من أمَّتِه، ثُمَّ سَائِرُ المؤمنين المُسْلِمين، ولكلٍّ مِنْهُمْ مَا يُلَائِمُ أحوالَهُ مِنْها.

السَّاق الثاني: تَفرَّعَتْ مِنْهُ تعليماتٌ دَعَوِيَّاتٌ عَقَدِيَّاتٌ وسُلوكيات، وتعليمات جَدَلِيَّاتٌ حَكِيمَاتٌ، يُكَلِّفُ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَقُوم بها ضِمْنَ وظائِفِ رِسالَتِه، مع وصايا تَرْبويَّة يُوصِي اللهُ عزَّ وجلَّ بها رسولَهُ محمّداً ﷺ، ويُلْحَقُ به فيها كُلُّ حاملٍ لرسالته من أُمَّتِه، ثَمَّ سائِرُ المؤمنين المسلمين، ولكُلٍّ مِنْهُمْ ما يُلائم أحواله منها.

ومَا جاء في هذه السُّورَة مِنْ كُلِّ ما سبَقَ، ونَظِيرُه ما جاء في سائر سُوَرِ القرآن، عِلْمٌ يُسْتَفادُ مِنْهُ حتَّىٰ آخر مُسْتَفِيدٍ من الأحياء في رِحْلَة الحَياةِ الدُّنيا.

(٤)

دروس سورة (الأنعام)

أخذاً من طيَّاتِ سَاقَيْ هَـٰذِهِ السُّورَةِ وفُرُوعها استطعت أَنْ أُقَسِّمَ هَـٰذِهِ السورة إلى (٣٣) درساً، وهي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ١٠) وهي من فروع الساق الأول.

ويتضمن ما يلي:

- الثناء على الله ببيان أنَّ الحَمْدَ كُلَّهُ لَهُ، مع التذكير ببعض مظاهر خلقه في كونه، وشُمُولِ عِلْمِهِ كُلَّ شَيْءٍ.
- الحديث عَنْ أئِمَّةِ الكفر والشرك في مكَّة إبَّانَ التنزيل، وعن عنادِهم للحقّ، مع وَعِيدِهم وتذكيرِهِمْ بالْمُهْلَكِينَ قَبْلَهُم من أُمَم الكُفْرِ والْعِناد، الذين كذّبوا رُسُلَ رَبّهم، واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَقَاوَمُوا دعوة الحق الربَّانِيَّة.
- خطابٌ من اللهِ لـرسُولِهِ بأنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ تَلْبِيَةِ مَطَالِبِ هؤلاءِ المعانِدِينَ المُصِرِّينَ عَلَىٰ باطلهم، بشأن إلْحَاحِهِمْ عَلَىٰ طَلَب آيَاتٍ خوارِقَ عَلَىٰ مَا يَشْتَهُون، لِأَنَّهُمْ مُتَعَنِّتُونَ يَعْرِفُونَ الحقَّ وَيَجْحَدُونه.
- بيانُ طَلَب هؤلاء المُعَانِدِين أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَلَكاً يُبَلِّغُهُمْ عن اللهِ، ويَشْهَدُ للرَّسُولِ بالصِّدْقِ، مع بيان أنَّ الْحِكْمَةَ تقتضي عَدَمَ الاستجابَةِ لَهُمْ في طَلَبِهِم.
- تسْلِيَةُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، للضِّيقِ الّذِي حصَلَ في صَدْرِهِ، مِن وخَزَاتِ اسْتِهْزَاءِ بَعْضِ كُبَرَاء كُفَّارِ قومه به.

الدَّرس الثاني: الآيتان (١١ و١٢) وهما من فُرُوعِ السَّاقِ الثاني.

ويتضمَّنُ فِقْرَةَ توجيهٍ تَعْلِيمِيّ دَعَوِيّ للرَّسُولِ ﷺ، فَلِكُلّ دَاعٍ إلى اللهِ من أمّته.

وفيها بيانُ بَعْضِ ما يَنْبَغِي أَنْ يُحَدِّثَ المشركين به، ويُحَاوِرَهُمْ بِشَأْنِهِ جدالاً بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

الدَّرس الثالث: الآية (١٣) وهي من فروع الساق الأول.

وفيها بيانٌ تكميليٌّ رَبَّانِيٌّ مُبَاشِرٌ موصولٌ فكريًّا بِبَعْضِ ما جاء في الدرس الثاني، يُبَيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها مِلْكِيَّتَهُ لِكُلِّ مَا يُرَىٰ أَنَّهُ قَدْ سَكَنَ في اللَّيلِ والنهار، أَيْ: في كُلِّ الأزْمان، ويُبَيِّنُ فيها أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ السَّمِيعُ لكُلّ صَوْت، الْعَلِيم بِكُلّ شيء.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (١٤ ـ ١٦) وهي من فروع الساق الثاني.

وفِيهِ فِقَرَةُ تَعْلِيم جِدَالِيٍّ حَكِيمٍ، وتَعْلِيمٍ دَعويٍّ من اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِه، كي يُوَجِّهَهُما لمشْرِكي قَوْمِه.

الدرس الخامس: الآيتان (١٧ و١٨) وهما من فروع الساق الأول.

وفِيهِ فِقْرةُ بيانٍ علاجِيٍّ رَبَّانيٍّ مباشر، مَوصول بالدَّرس الأول، يُخَاطِبُ الله عزَّ وجلَّ فِيهِ كُلَّ صَالِحٍ مُؤَهَّل للخطاب، يُبَيِّنُ اللهُ فيه سُلْطَانَهُ عَلَىٰ كُلِّ التَّصَارِيفِ في كَوْنِهِ، ضَارِّهَا وَنَافِعِهَا، خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَتِهِ، وأنَّهُ هُو القاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ الخبيرُ بهم.

الدرس السادس: الآية (١٩) وهي من فروع السَّاق الثاني.

وفيه فِقَرَةُ تَعْلِيمٍ جداليّ ودَعَوِيّ مِن اللهِ لرسوله، حول نبوة الرَّسُول، وحَوْلَ شِرْكِ المشْرِكِينَ وآلِهَتِهِمْ.

الدرس السابع: الآيات من (٢٠ ـ ٣٩) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بَيَانٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ بشأنِ نُبُوَّةِ الرَّسُول محمد ﷺ ورِسَالَتِهِ، وإنذارٌ مِنْهُ للمُفترين على الله وللمُكذِّبين بآياته، ولقطةٌ من مَشْهَدِ الحشر يوْمَ الدِّين، وتعجيبٌ من أمْرِ الكافِرينَ، ووَصْفٌ لِحَال بَعْضِهِمْ حين يسْتَمِعُونَ لدَعْوَة الرسُول وبياناته.

وفيه لقطةٌ أخْرى من مشاهِدِ يوْمِ الدِّين وتمنِّيهم الرَّجعة لحياة

الامتحان، وبعدها بيانُ عقيدتهم في البعث، فلقطَةٌ أخْرَىٰ مِنْ مشاهِدِ يوم الدين، وتعليقٌ عليها.

وفيه بَيَانٌ عن الحياة الدُّنيا مع المقارَنَةِ بَيْنَها وبيْنَ الآخِرَةِ وما فيها.

وفيه تسْلِيَةٌ للرَّسُولِ بشأن تَكْذِيبِ كُفَّارِ قَوْمِهِ له، وتوجيه له وتَرْبِيَةٌ، وبيانُ حقائِقَ تَكْوينِيَّة هي لوَازِمُ لِحُرِّيَّاتِ الناسِ في اخْتِيَارَاتِهم الإراديّة فِي حَيَاةِ الابتلاء.

الدَّرس الثامِن: الآيتان (٤٠ و٤١) وهما من فروع السَّاق الثاني. وفيه وَمْضَةُ تَعْلِيمٍ جِدَاليّ دَعَوِيّ من اللهِ لرَسُوله.

الدَّرْس التاسع: الآياتُ من (٤٢ ـ ٤٥) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بَيَانٌ من اللهِ لرسُوله بشَأْن كُفَّارِ الأُمَم السَّابِقة، وكَيْفَ أخَذَهُمْ بالبأسَاءِ والضَرَّاء رَغْبَةً في أَنْ يَتَضَرَّعُوا، لكنَّهم لم يفْعَلُوا، ففتح اللهُ لهم أبواب كُلِّ شيءٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أخَذَهُمْ بالتعذِيب والإهلاك بغْتَةً واسْتَأْصَلَهُم بِسَبَبِ أنَّهُمْ كانُوا ظالِمِينَ.

الدرس العاشر: الآيتَان: (٤٦ و٤٧) وهما من فروع الساق الثاني.

وفيه فِقَرَةُ تعليم عِلَاجِيٍّ بالإنْذَارِ بسَلْب الأَسْمَاعِ والأبْصَار، والختم على القلوب، أو بالعذاب والإهلاك.

الدرس الحادي عشر: الآيتان (٤٨ و٤٩) وهما من فروع الساق الأول. وفيه فقرة بيانٍ رَبَّانِيٍّ عِلَاجِيٍّ بالترغيب والترهيب.

الدرس الثاني عشر: الآيَات من (٥٠ ـ ٥٨) وهي من فروع الساق الثاني.

وفيه تعليمٌ دَعَوِيٌّ من اللهِ لرسوله، وتربيةٌ له بأنْ لَا يَطْرُد المؤمنين

المسْلِمِين مَهْمَا كانَتْ أحوالُهم الاجتماعيَّة مُتَدَنِيَةً، اسْتِجَابَةً لِكُبَرَاءِ قَوْمِهِ وطَمعاً في أَنْ يُؤْمِنُوا به ويَتَّبِعُوهُ، فإذا طَرَدَهُمْ كان من الظالمين، مع بيان حِكْمَةِ الله في هذا التَّعْلِيم التربوي.

وفيه تَعْلِيمُ أَسَالِيبَ تَرْبَوِيَّةٍ يُعامل بها الرَّسُولُ المؤمنين، وعناصِرَ دَعَوِيَّة يُوجِّهُهَا للمشْرِكينَ.

الدّرس الثالث عشر: الآيات من (٥٩ ـ ٦٢) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بيانٌ رَبَّاني مُبَاشِرٌ حَوْل إحاطَةِ عِلْم اللهِ بِكُلِّ شيء، وقد خَاطَبَ الناس بأَنَّهُ هو الّذي يتوفاهم بالنوم، ثُمَّ يَبْعَثُهم من نومِهِمْ، وأَنَّهُ هو الذي يُمِيتُ الناسَ ويبعثهم يوم القيامة، للحِسَابِ، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، بسلطان قَهْرِهِ، وبأَنَّهُ هُوَ الّذي يُرْسِلُ عليهم ملائكَةً حفظة، مع مُتَمِّمَاتٍ لهذا البيان.

الدرس الرابع عشر: الآيات من (٦٣ ـ ٦٦) وهو من فروع الساق الثاني.

وفيه تَعْلِيمُ حوارٍ جَدَلِيٍّ لانْتِزَاعِ اعْتِراف المشركين بأنَّ اللهَ وحْدَهُ هو الذي يُجِيبُ دُعَاءَ المضطرّ إذا دَعاه ويكشف السّوء، وبأنه هو القادِرُ على أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بما يَشَاءُ مِنْ صُنُوف العقاب، ولإعْلَامِهِمْ بأنَّ الرسُول لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ مِنْ عِقَاب اللهِ شيئاً إِذَا قَضَىٰ اللهُ مُعَاقَبَتَهُمْ، لأَنَّهُ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَيْهِم.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٦٧ ـ ٧٠) وهي من فروع السَّاق الأوّل.

وفيه بيان مُبَاشِرٌ من الله بأنَّ لِكُلِّ نبأٍ مُسْتَقَرًّا، وأمْرٌ بالإعْرَاضِ عن الّذِين يَنَالُونَ من آياتِ الله بِما لَمْ يأْذَنْ بِهِ اللهُ من طَعْنٍ وتجريح، مع متمّمات لهذا البيان.

الدرس السادس عشر: الآيات من (٧١ ـ ٧٣) وهي من فروع الساق الثاني.

وفيه تعليم حِوارٍ دَعَوِيٍّ حَوْلَ تَوْحِيدِ الله في رُبوبيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ، والْأَمْرِ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ، وتقوى الله مع التذكير بيوم الدين، ومع بيان قضايا عَقَدَية.

الدرس السابع عشر: الآيات من (٧٤ ـ ٨٢) وهي من فُروع السَّاق الأول وفيه عرضُ لقطات من دَعْوَةِ إبراهيم عليه السلام الجدَليّة لِقَوْمِه، وهي تَتَضَمَّنُ جدالاً لكُلِّ المشركين بأسْلُوب التَّعْرِيضِ لا بأسلوب المواجهة المباشرة، وتعليماً جداليًّا للرَّسُول وللدُّعاةِ إلى الله من أمّته.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٨٣ ـ ٩٠) وهي من فروع السَّاق الأوّل أيضاً، وفيه بيانٌ من الله عزَّ وجلَّ في الثناء على إبراهيم عليه السّلام وما آتاه من حُجَجٍ دَوَامغ وبراهين قواطع، وثناءٌ على طائفة من الرُّسُل عليهم السلام مع بيان أنّ الله آتاهم الكتاب والْحُكْمَ وَالنُّبُوَّة وإضافاتٌ في الأثناء ملائمات.

وختامٌ بتوجيه للرَّسُولِ ﷺ أنْ يقتدي بهم وأنْ يقول للمعْرِضِينَ عن دَعْوَتِهِ: لا أسألُكُمْ على تَعْلِيمِكُمْ كِتَاب رَبِّكُمْ أجراً، فهو ليس لكم وحْدَكُمْ إنْ هو إلَّا ذِكرٌ للعالَمِين جَمِيعاً من الإنْسِ والجنّ.

هذا الدرس كان من المقبُول اعتبارُهُ تابعاً للدَّرْسِ السابع عشر، إلَّا أَنَّنِي آثرتُ اعتباره درساً مُنْفصلاً لئلا يطول الدرس السابع عشر، ولأنّ مضمونه منَفصل عن جَدَليّات إبراهيم لقومه.

الدرس التاسع عشر: الآية (٩١) وهي من فروع السَّاق الثاني.

وفيه تعليمٌ جَدَليٌّ للرسول يُجادل به اليهود المنكرينَ إنْزال كِتَابٍ رَبَّانيّ على محمّد، وهُمْ يَزْعَمُونَ بتَعميمٍ كاذبٍ قائِلين: ما أنزل اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شيء.

الدرس العشرون: الآيات من (٩٢ ـ ٩٤) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بيان رَبَّانِي مُبَاشِر بشَأْنِ الْقُرْآنِ والرَّسُولِ محمّد ﷺ، وَبِشأْنِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على الله كَذِباً، أو يَزْعُمونَ اتِّصَالَهُمْ بالوحْي، وفيهِ وَعِيد للظَّالِمينَ.

الدرس الحادي والعشرون: الآيات من (٩٥ ـ ٩٩) وهي من فروع السّاق الأول أيضاً. وفيه عَرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّةِ على رُبوبيته فإلهيَّتِهِ.

الدرس الثاني والعشرون: الآيات من (١٠٠ ـ ١٠٣) وهي من فروع السّاق الأول أيضاً. وفيه عرض بعض عقائد المشركين من وثنِّيين، وأهلِ كتاب يَزْعُمُونَ أن لله ولداً، مع تعقيبٍ حَكيمٍ.

الدرس الثالث والعشرون: الآية (١٠٤) وهي من فروع السّاق الثاني.

وفيه تعليم من اللهِ لِرَسُوله بَيَاناً دَعَوِيًّا يقولُهُ لِقَوْمه.

الدرس الرابع والعشرون: الآيات من (١٠٥ ـ ١١٧) وهي من فروع السَّاقين.

وفيه بيانٌ مباشِرٌ لِلرَّسُولِ ﷺ فِيه تَعْلِيمٌ وتَرْبِيةٌ ووَمْضَةٌ دَعَوِيَّةٌ يَقُولُها لِطَالِبي الآيات الخوارق من قومه.

وفيه بيانٌ لِكُلِّ المؤمِنينَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَدْخُلُ الرَّسُولُ في عُمُومهم، بِشَأْنِ عَدَدٍ مِنَ القضايا ذَوَاتِ الشَّأْنِ في المفهومات الدِّينيَّةِ حَوْلَ الناسِ، وسُنَّةِ اللهِ فِي كونِه، وأسَالِيبِ الدَّعْوَةِ إلى الحقِّ الرَّبَّانِيِّ، وتوابعَ مَوْصُولَةٍ بها.

الدرس الخامس والعشرون: الآيات من (١١٨ - ١٢١) وهي من فروع السّاق الأول.

وفيه بيانٌ للمؤمنين حَوْلَ أَحْكام بَعْضِ مَا يُؤْكلُ مِن اللّحوم، على خلاف أحكام الجاهليّة فيها.

الدرس السادس والعشرون: الآياتُ من (١٢٢ - ١٢٥) وهي من فروع السّاق الأول أيضاً. وفيه بيان عن الإيمان والكُفْر مَع الْمُقَارَنَةِ بينهما، وحْولَ الكافِرِينَ المُعَاندين المُصِرِّينَ على عِنَادهم ومَكْرِهم وتَعَنُّتِهِم، وحَوْلَ سُنَّةِ اللهِ في طَبِيعَةِ النفس الإنسانية وسُلُوكِهَا الدَّاخِلِيّ.

الدرس السابع والعشرون: الآيات من (١٢٦ - ١٣٤) وهي من فروع السّاق الأول أيضاً.

وفيه بيانٌ عن ثواب مُتَّبِعي صِرَاطِ اللهِ المُستقيم يَوْمَ الدّين، وفيه عَرْضُ مَشْهَدٍ من مَشاهِدِ مُحَاسَبَةِ الكافرين مِنَ الإنس والجنِّ يوم الدِّين، وبيانٌ عَنْ سُنَّةِ اللهِ في إهْلَاكِ أهْلِ الْقُرَىٰ الظَّالِمَةِ، وبيانٌ عَنْ جَزَاءِ اللهِ يوم الدِّين القائم على نظام التفاضُل في الدّرَجَاتِ بحَسَب الأعمال التي قَدَّمَها الناسُ في رِحْلَةِ امْتِحَانهم. وبيَانٌ عن صِفَتيْنَ من صفَاته، وهما أنه الغنيُّ ذو الرَّحْمَة.

مع إنْذَارِ الكافِرينِ بأَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزينَ، فإِنْ يَشَأْ يُذْهِبْهُمْ ويأتِ بِغَيْرِهِم، ومع التوكِيدِ بأنَّ مَا يُوعَدُونَ مِنْ جزاءٍ آتٍ لَا مَحَالَة.

الدرس الثامن والعشرون: الآية (١٣٥) وهي من فروع السّاق الثاني.

وفيه تعليمٌ دَعَويٌّ من اللهِ عزَّ وجلَّ لرسوله، بِشأن أواخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ المُتعلِّقَةِ بالكافرين المُعانِدِينَ المصرّين على كُفْرِهِم ومُقَاوَمَتِهِمْ لدَعْوَتِهِ.

الدرس التاسع والعشرون: الآيات من (١٣٦ ـ ١٤٠) وهي من فروع الساق الأوّل.

وفيه بَعْضُ تفصيلٍ لأحْكَامِ الجاهِلِيَّة في المآكِل من الحرْث والأنعام افتراءً على اللهِ، وكيْفَ زَيَّنَ لَهُمْ شياطِينُهُمْ قَتْلَ أوْلادِهم، مع خِتامٍ بِبيانِ خَسَارَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِم يَوْمَ الدِّين.

الدرس الثلاثون: الآيات من (١٤١ ـ ١٤٧) وهي من فروع الساق الأول أيضاً.

وفيه بيانُ أحْكَامِ اللهِ في ما أنعم به على عباده ممَّا تُنْبِتُ الأرض، وفي الذي أنعم به عليهم من الأنعام، مع تَحْذِيرِهِمْ من اتّباع خُطُواتِ الشيطان في ذَلِكَ وفي غيره.

وفيه تَكْلِيفُ الله رسُولَهُ أَنْ يُبَيِّنَ للنَّاسِ ما أُوحِي إِلَيْهِ بِشَأْنِ المطاعم من أحكام، ومَا يقولُهُ لَهُمْ إِنْ كَذَّبَهُ الكافِرُونَ مِنْ إِنْذَارٍ بعقابه.

الدرس الحادي والثلاثون: الآيات من (١٤٨ ـ ١٥٣) وهي من فروع السّاق الثاني.

وفيه تعليم من الله لِرَسُولِهِ فِقَرَاتٍ جداليّة يُجَادِلُ بها المشركِين، وفِقَرَاتٍ دَعَوِيَّة يُبَيِّنُ فيها طائِفَةً مِنْ أحكام اللهِ وشرائِعِهِ.

مع خِتَامٍ بِبَيانِ أنَّ هذا صِرَاطُ اللهِ المسْتَقِيم، وأنَّهُ يَجِبُ عليهم أنْ يَتَّبِعُوهُ، وَلَا يَتَّبِعُوا السُّبُلَ الَّتِي تَتَفَرَّقُ بهم عن سبيله.

الدرس الثاني والثلاثون: الآيات من (١٥٤ ـ ١٦٠) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بيانٌ دَعَوِيٌّ مُبَاشِرٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ للأمَّةِ العربية، مع إنذارٍ بعواقب وخيمة إذا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ رَبهم.

وفيه بَيَانٌ لِلرَّسُول بشَأْنِ الكافِرين الذين فَرَّقُوا دِينهم وكانُوا شِيَعاً، يُبَيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ لَهُ فِيه انفصالَهُ التَّامَّ عَنْهُمْ فِي كُلِّ شيءٍ، وأنَّ عليه أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ.

الدرس الثالث والثلاثون: الآيات من (١٦١ ـ ١٦٥) آخر السورة، وهي من فروع السَّاقِ الثاني.

وفيه تكليفٌ للرَّسُول أنْ يُعْلِنَ لقومِهِ كُبْرَيَاتِ كليَّاتِ الدِّينَ الَّذي يُؤْمِنُ بِهِ عقيدة وسلوكاً، ويَلْتَزِمُ الْعَمَلَ بِهِ فِي حياته، وأَنَّهُ أَوّل الـمُسْلمين المطيعين للهِ في أَحْكَامِ دِينِهِ، وأَنَّهُ لَيْسَ مَسْؤُولاً عَنْ كُفْر مَنْ يَكْفُرُ منهم، وأنَّ مَرْجِعَهُمْ إلى اللهِ الذي سَوْفَ يُجَازِيهِم على مَا كَسَبُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدنيا، الّتي خَلَقَهُمْ فيها، ورفع بعضهم فوقَ بعض دَرَجات، لِيَبْلُوَهُمْ في ما آتاهم.

وبهذا تَنْتَهِي سُورَةُ (الأنْعَامِ) العجيبَة.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرْس الأول من دُروس سورة (الأنعام)

الآيات من (١ ـ ١٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا

مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ
وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا
لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم
مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

القراءات:

(٤) • قرأ ورشٌ، والسُّوسي، وأبو جعفر: **[وَمَا تَاتِيهِمْ]** بإبدالِ الهمزة ألفاً، وكَسْرِ الهاء. وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها يعقوب: **[وَمَا تَأْتِيَهُمْ]** بالهمزة دُون إبدال، وبضم الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَمَا تَأْتِيهِمْ]** بالهمزة وكسر الهاء.

(٦) • قرأ السوسي، وأبو جعفر: **[وَأَنْشَانَا]** بإبدال الهمزة بعد الشين ألفاً.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَأَنْشَأْنَا]** بالهمزة دون إبدال.

(٧) • قرأ يعقوب: **[بِأَيْدِيهُمْ]** بضَمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بِأَيْدِيهِمْ]** بِكَسْرِ هاء الضمير.

(١٠) • قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: **[وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ]** بِكَسْرِ الدال في الوصل، وبالهمزة.

وقرأها أبو جعفر: [**وَلَقَدُ اسْتُهْزِيَ**] بضمّ الدّال وإبدال الهمزة ياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَلقدُ اسْتُهْزِئَ**] بضم الدال وبالهمزة.

تمهيد:

في هذا الدَّرْس ثناءٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ بكمال الحمد له، مع التنبيه على بعض آياتِهِ في كونه، توطِئَةً لِلْحَدِيثِ عَنِ الكَفَرَةِ المعانِدِين الْمُصِرِّين على باطِلِهِمْ إبَّانَ التَّنْزِيل، والطَّوْرِ الَّذِي كانُوا عَلَيْهِ بَعْدَ مَسِيرَةِ الرَّسُول الدَّعَوِيَّةِ فِيهِمْ مُنْذُ بِعْثَتِهِ حَتَّىٰ نُزُولِ سُورة (الأنعام).

- فقد كَذَّبُوا بالحقِّ الرَّبانِي تَكْذِيباً عنادِيًّا، لا يُجْدِي مَعَهُمْ فيه أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَ السَّمَاءِ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ يَلمَسُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيقْرَؤُونه.

- وكَرَّرُوا مُطالَبَتَهُمْ بِإنْزَالِ مَلَكٍ على الرَّسُولِ يَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ نبيُّ اللهِ ورسُولُهُ حَقًّا، وهو صادقٌ فيما يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ.

- وَتَابَعَ كَثِيرٌ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ سِيَاسَةَ الاسْتِهْزَاءِ بالرَّسُولِ لِصَدِّ النّاس عَنْهُ، مع أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كَفَىٰ رَسُولَهُ كُبَراء المسْتَهْزِئين كما جاء بيانه فِي أواخِرِ سُورَةِ (الحِجْرِ/ ٥٤).

فَجَاءَ فِي هَـٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ رَبَّانِيٌّ يَتَعَلَّقُ بمواقِفِ مُشْرِكِي مَكَّةَ فِي هَـٰذَا الطَّوْرِ الَّذِي كانوا عليه إبَّانَ نُزُولِ سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول).

وجاء فيه وفي عُموم السُّورة حوارٌ وجِدالٌ وإنْذَار للمشركين، وعِلَاجٌ وَتَرْبِيَةٌ وتَسْلِيَةٌ للرّسول، وعلاجٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِين.

وآياتُ هذا الدَّرْس مِنْ فروع السّاق الأوّل من ساقَي شجرة السُّورَة الملتف بَعْضهما على بعض باختيارٍ رَبَّانِيٍّ بَدِيع.

التّدبّر التحليلي:

- قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: كُلُّ مَا يُعْلَمُ مِنْ ثَنَاءٍ حَسَنٍ على مُتَّصِفٍ بجميلٍ مَا، هو للهِ عزَّ وجلَّ بالاستِحْقَاقِ الذَّاتِيّ، لِأَنَّهُ مُتَّصِفٌ بكُلِّ صِفَاتِ الكمال، ومُنَزَّهٌ عَنْ كُل صفاتِ النَّقْص.

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أيْ: ومِنْ آثَارِ صِفَاتِهِ الَّتِي اسْتَغْرَقَتْ كُلَّ الْحَمْدِ والثَّنَاءِ بالْجَمِيل، أَنَّهُ خَلَقَ بِالإبْداع عَلَىٰ غير مِثالٍ سَبَقَ السَّمَاوَاتِ بكُلِّ ما فيها، والْأَرْضَ بِكُلِّ عَنَاصِرِها، وبِكُلِّ مَا فِيها وعَلَيْها، من مَادّيّاتٍ وغَيْرِ مَادِّيَّات.

ومِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ تَحْلِيلَ عَنَاصِرِ إبْدَاعِ اللهِ في خَلْقِهِ السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ، وإتْقَانِهِ صُنْعَهُمَا، لَا تَكْفِي لِتَدْوِينِهِ مِلْيَارَاتُ أَسْطوَانَاتِ التَّسجِيلِ بالكُومْبيُوتر، وهَـٰذَا الخلْقُ الْبَدِيعُ العجيبُ الْمُتْقَنُ بُرهَانٌ عَلَىٰ رُبوبيَّةِ اللهِ المُتَّصِف بكلّ صِفات الكمال والمنزَّه عَنْ كُلّ صِفَاتِ النقص، وعلى وَحْدَانِيّتِهِ في رُبُوبيّتِهِ، الَّتِي تَسْتَلْزِمُ عَقْلاً وَحْدَانِيَّتَهُ فِي إلَهِيّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيّتِهِ، ولا في إلَهِيَّتِهِ.

- ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾: أيْ: ومِنْ حِكْمَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ، وشَمَلَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْء، أَنَّهُ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ هِيَ الأَصْل في الأَكْوَان، وخَلَقَ المخْلُوقَاتِ المضيئَاتِ الَّتِي تَكْشِفُ بأنوارِهَا الكائِنَاتِ المظْلِمَاتِ.

ولا يَخْفَىٰ مَا فِي وُجُودِ الظُّلُمَاتِ والنُّور في الكَوْنِ من حِكَمٍ عَظِيمَةٍ، وَمَنَافِعَ جَلِيلَة.

ولعَلَّ في جَمْعِ «الظُّلُمَاتِ» إشارَةً إلى أنواعها القائِمَة على انْعِدَام النُّور منها، أمَّا «النُّورُ» فهُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله بَثَّهُ في المضيئات، وشَرَفُهُ مِنْ شَرَفِ نُورِ الله، فاللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْض.

وفي بيان أنَّ الظلماتِ والنُّورَ مِن جَعْلِ اللهِ في كَوْنِه إشارةٌ إلَىٰ فسادِ مَذْهَبِ المجوس، الّذِينَ يَعْبُدُونَ الظُّلْمَةَ والنُّورَ إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ.

- ﴿... ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ وُضُوح الرُّؤْيَةِ الفكريَّة بِبَرَاهِينِها الكَوْنِيَّة المشهُودَة، الدَّالَّة عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَا يُسَاوِيه ولا يَعْدِلُهُ شيءٌ في الوجودِ كُلِّه، في أيِّ صِفَةٍ من صفاتِهِ جَلَّ جلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه، يَجْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا آلِهَتَهُم مُعَادِلَةً مُسَاوِيَةً للهِ عزَّ وجلَّ، تَسْتَحِقُّ فِي تَصَوُّرِهِم الباطل أنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ الله.

يَعْدِلُونَ: أي: يُسَوُّونَ. فيجْعَلُونَ خَلْقاً من خَلْقِ اللهِ لا يَضُرُّ ولَا يَنْفَعُ، ولا حَوْلَ لَهُ ولا قُوَّة إلَّا بالله، أو أسماءً لَا حَقيقة لَهَا إلَّا في أوْهامِهِمْ، أَشْيَاءَ مُسَاوِيةً مُعَادِلَةً لِمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَات والأرض، وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنور.

هذا مِنْهُمْ ظُلْمٌ عَظِيمٌ شنيعٌ لِلْحَقِّ، وعُدْوانٌ على حقِّ اللهِ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، في رُبُوبيَّتِهِ ووحْدَانِيَّتِهَا، وفي إلهيَّتِهِ ووحْدَانِيَّتِها، وهو من عجيب الأمر الذي لا يَصْدُرُ عن ذِي عقل ورُشدٍ.

وفي هَـٰذِهِ الآية إيذانٌ بأنّ السّورَة الّتِي افتتحها اللهُ عزَّ وجلَّ بهَـٰذِهِ الآية، سَيَكُونُ فِيها مُعَالجةٌ للمشرِكين بما تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ الرَّبِّ الحكيم من إقناع، ومَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، وجدالٍ بالَّتِي هي أحسن.

- ■ قول الله تَعَالَىٰ خطاباً للمشركين بِهِ عَلَىٰ سَبيلِ الالْتفات:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ②﴾:

في هَـٰذِهِ الآية بَيَانٌ عُنْوانِيٌّ مُوجَزٌ لِأَرْبَعِ قضايا:

الْقَضِيَّةُ الأولَىٰ: دلَّ عَلَيْها قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي: من مَاءٍ وتُرابٍ علىٰ اختلافِ عَنَاصِرِهِ مِنَ الأَرْضِ.

أَمَّا خَلْقُ جَسَدِ آدَمَ من طين، فَقَدْ جَاءَت بشأنِهِ بيانَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ كَثِيرَةٌ، وهو من الأمُور المبيَّنَةِ في كُلِّ مَا أَنزلَ اللهُ من كُتُب، وعلى لسَان كلِّ المرسَلِينَ والأنبياء، مُنْذُ عَهْدِ آدم عليهم السلام، فلا يجحَدُهَا جاحِدٌ، والتذكيرُ بها يُرَادُ بِهِ الدَّلالَةَ علَىٰ عَظَمَةِ صِفَاتِ الخالق البَارِئ المصَوّر ذِي الأسْمَاء الحسنىٰ، الذي هو على مَا يشاء قَدِير، وهو الواحِدُ في رُبُوبيّتِهِ لكُلِّ ما سِوَاهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

وأمَّا خَلْقُ زوْجِهِ وَذُرِّيَّاتِهِمَا فَهُمْ مَخْلُوقُونَ أيضاً من طينٍ تَبَعاً له، ويُضَافُ إلى هَـٰذِهِ التَّبَعِيَّة، أَنَّ جَسَدَ كلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَخْلُوقٌ مِنْ طِينٍ تَحوَّلَ بِخَلْقِ اللهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ إلَىٰ غِذَاءٍ، فَدِمَاءٍ، فَنُطَفٍ، فَأَجِنَّةٍ، وكَانَ نَمَاؤُهَا وَبَقَاؤُهَا مُسْتَمِدّاً من الْغِذَاءِ الّذِي هُوَ طِينٌ مُتَحوِّلٌ، إذا حُلِّلَتْ عَنَاصِرُه، وعُزِلَ بعْضُها عَنْ بَعْضٍ عَادَ تُراباً وَمَاءً، والطِّينُ مَرْحَلَةٌ من مَرَاحِلِ التَّكْوِينِ التَّطوِيري.

فعِبَارَة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ عِبارَةٌ منطبقَةٌ عَلَىٰ الْوَاقِعِ دَواماً، مُنْذُ النَّشْأَةِ الأُولَىٰ للنَّاسِ، وحَتَّىٰ آخِرِ مَخْلُوقٍ مِنهم.

القضيَّة الثّانية: دلَّ عَلَيْها قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾: أَيْ: ثُمَّ أنْهَىٰ بالمْوتِ أَجلاً كَانَ قَدَّرَهُ وَأمْضَاهُ لحياةِ كُلِّ إنْسَانٍ سَبقَتْ لَهُ حياةٌ في هَـٰذِهِ الدُّنيا، وَهَـٰذَا الأَجَلُ كَانَ مُعَيَّناً مَعْلُوماً للرَّبِّ الْخَالِقِ، ويتحقَّقُ فيكُم نظيرُ مَا سَبَقَ للَّذِين مَاتُوا مِنْ قَبْلِكُمْ، وكذلِكَ فِيمَنْ سَيخْلُقُ مِنَ النَّاسِ من بَعْدِكُمْ، إلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَة، فَسُنَّة اللهِ في خَلْقِ النَّاسِ واحِدَة.

وجاء الْعَطْفُ بـ «ثُمَّ» للدَّلاَلَة علَىٰ مُدَّةِ أَجلِ حياةِ كُلِّ إنْسَانٍ في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيَا، حَيَاةِ الامْتِحان.

فعل: «قَضَى الشَّيءَ» هو في اللُّغة بِمْعَنىٰ: أَمْضَاه، وأَنْهَاهُ، وأتَمَّهُ، قَوْلاً كَانَ، أو فِعْلاً، أو إرادَةً، أو غَيْرَ ذَلِكَ.

الْقَضِيَّة الثالِثَة: دلَّ عَليها قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾:

أي: وأجَلٌ مَوْصُوفٌ بأنَّهُ مُحَدَّدٌ مُعَيَّنٌ مُسَمًّى بزَمَنِهِ، ضِمن خَطِّ الزَّمَنِ الْمُمْتَدِّ مُنْذُ بَدْءِ الخلْقِ إِلَىٰ مَا لَا نِهَايَةَ له، هُوَ عِنْدَ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ عِلْماً وتَسْجيلاً في كِتَابٍ، وَوَصْفُ أجلٍ بأنَّهُ مُسَمَّىٰ يُفيدُ تعمِيم كُلِّ أجلٍ قَدَّرَهُ الله وقَضَاهُ.

فلُكلِّ أَجلٍ لِأَمْرٍ ما، تَقْدِيرٌ وقضاءٌ وتعيينٌ باسْمِ الزَّمَن، ولِكُلِّ أَجَلٍ إِحَاطَةٌ بِعِلْمِ اللهِ دَوَاماً، ولِكُلِّ أَجلٍ كِتَابٌ هُو مُسَجَّلٌ فيه.

يُطْلَقُ الأجَلُ عَلَىٰ زَمَنِ الفِعل، أَوْ مُدَّةِ بقاء الشَّيْءِ، أَوْ زَمَنِ الإِنهاء.

القضيَّة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله تَعالَىٰ خطاباً للمشركين: ﴿... ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾؟:

﴿تَمْتَرُونَ﴾: أي: تَشُكُّونَ وتجادِلُون.

أي: مَعَ ظُهور حَقَائِقِ القضايَا الثَّلاثِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا في الآيَةِ، كَيْفَ صَحَّ في أَذْهَانِكُمْ واسْتَقَامَ فِي عُقُولِكُمْ، أَنْ تَجْعَلُوا لِرَبِّكُمُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْخَلْقِ، وَلَا مُسَاوِيَ لَهُ فِي شيءٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، شَرِيكاً مِنْ دُونِه أَوْ شُرَكَاء، تَعْبُدُونَهُمْ، وَتَدْعُونَهُمْ، وَتَرْجُونَ إِعَانَتَهُمْ لَكُمْ إِعَانَاتٍ من عَالَم الغيْبِ، وهم لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ وَلَا لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الرُّبوبيَّةِ شيءٌ وَلَا من الْإِلَهِيَّةِ شَيءٌ.

إنَّ هَـٰذَا الانْحِطَاطَ السَّحِيقَ لَا يَفْعَلُهُ ذُو فِكْرٍ سَلِيمٍ خَالٍ من الأهواءِ، والتقالِيدِ العمياء.

- قول الله تَعالَىٰ يُتَابعُ خِطَابَ المشْرِكين بِحَقَائِقَ هَادِيَةٍ لِكُلِّ ذي عَقْلَ وَرُشْد:

- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾:

أي: والرَّبُّ الخالقُ المتَّصِفُ بِكُلِّ صِفَاتِ الكَمَالِ، المنَزَّهُ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النقصان، المتفرِّدُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ، هو اللهُ في السَّمَاوَات، وفي الْأَرْضِ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ، ويَعْلَمُ جَهْرَكُمْ، ويَعْلَمُ كُلَّ مَا تكْسِبُونَ بإرَادَاتِكُمُ الحرَّةِ مِنْ مكتَسَبَاتٍ ظاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ، حتَّىٰ مَا تَكْسِبُونَ فِي نُفُوسِكُمْ مِنْ عَقَائِدَ وَنِيَّاتٍ وغَيْرِها مِنْ مكْتَسَبَاتِ النفوس.

السِّرُّ: ما يكْتُمُهُ الإنْسَانُ ويُخْفِيهِ.

الْجَهْرُ: مَا يُعلِنُهُ الإنسانُ ويُبْدِيهِ. يقالُ لغة: «جَهَرَ فُلَانٌ بكلامه» أي: رَفع به صَوْتَهُ، ويقال: «جَهَرَ الشَّيْءُ يَجْهَرُ جَهْراً» أي: عَلَنَ وظَهَرَ.

- ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾: أي: ويَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ. **الكَسْبُ**: العمل، وهو يَعُمُّ العَمَل الْجَسَدِيَّ، والفِكْرِيَّ، والنَّفْسِيَّ.

جُمِعَتِ السَّمَاوَاتُ لِتَعَدُّدِها، وأفْرِدَتِ الأَرْضُ لأَنَّهَا أَرْضٌ واحِدَة، وَيُرَادُ بكَلِمة «الأرضينَ» في بعض الأحاديث النبويَّة طبَقَاتٌ مِن الأرض.

■ قول الله تَعَالَىٰ مُتَحدِّثاً عَنْ عُتَاة المشْرِكِينَ وأَئِمَّتِهِمْ بِضَمِير الغائبين التفاتاً عنهم إلى خطاب الرَّسُول والمؤمنين:

- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾.

أي: وَمَا تَأْتِي هَٰؤُلَاءِ الْعُتَاة المصرِّينَ عَلَىٰ مَا هُمْ فِيه مِنْ بَاطِلٍ، آيَةٌ مَا مِنْ آياتِ رَبِّهِمُ الْبَيَانِيَّةِ أَوِ الخوارقِ، إلَّا أَعْرَضُوا عَنْها، ولَمْ يَعْبَؤُوا بها، وإذا كان فيها أنباءٌ عَنِ البعث وعذاب اللهِ يومَ الدِّين اسْتَهْزَؤوا بها. بدليل ما جاء في آخر الآية (٥) التالية:

﴿كَانُوا۟﴾ كانَ هنا مُسْتَعْمَلَةٌ بمثابَةِ الفعل المضارع، وَهَٰذَا أَحدُ

اسْتِعْمَالَاتها، ولو كان لفظها مَاضِياً، فهي تُسْتَعْمَلُ بمثابَةِ الفعل الماضي، وتُسْتَعْمَلُ بمَعْنَىٰ الصَّيْرُورَة، وبمعنى الحال، وبمَعْنَىٰ الاستقبال، وبمعنَىٰ اتصال الزَّمَانِ من غَيْر انقطاع، والقرائِنُ كَوَاشِفُ للمراد بها، وقَدْ تَأتِي زائدة للتوكيد.

الإعْرَاض: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبَار، وهذه الحالة كافِيَةٌ لوصفهم بالكفر، ومَنْ أَدْبَرَ مِنْهُم كانَ أشدَّ كُفْراً وعِنَاداً، وأخَسَّ دَرَكَةً في جهنَّمَ.

ويَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ هَـٰذَا هو وَصْفُهُمُ المسْتَقْبَلِيُّ، أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا بالْحَقِّ الرَّبَّانِي حِينَ جَاءَهُمْ علىٰ لِسَانِ رَسُولِ رَبِّهم وَعَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ، وَرَفَضُوا الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِمْ وَتَقَالِيدِهم الْعَمْيَاءِ.

فالفاء في: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾ سَبَبِيَّة، أي: فبسَبَبِ تَكْذِيبهم العنادِي السَّابِقِ مِنْهم الَّذِي لَا دَاعِيَ لَهُ مُطْلقاً إلَّا رَفْضُ الحقّ اتباعاً للْهوىٰ، فإنَّهُمْ سَيُعْرِضُونَ عن كُلِّ آيَةٍ تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَاتِ رَبِّهم، فواقِعُهُمُ النفْسِيُّ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إلَّا الإعْرَاضُ أَوْ مَا هو أَشَدُّ مِنْه.

لفظ «مِنْ» في عبارة ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أُدْخِلَتْ عَلَىٰ الفاعل لِتَوْكِيد عُمُوم النفي لكُلِّ الآياتِ البيانيَّة أو الإعجازيَّة.

- ﴿. . . فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾: أي: فَسَوْف يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الدِّينَ تَحْقِيقُ الْأَنْبَاءِ الَّتِي كَانُوا فِي الدُّنيا يَسْتَهْزِئونَ بها، حِينَ كانُوا يَسْمَعُونَ آياتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ، وفيها أنباءٌ عن الْبَعْثِ وعَذَابِ اللهِ في جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، ومَا يُلاقُونَهُ من أهوال في الحشْرِ والسَّوْقِ إلىٰ دَارِ العذاب.

■ قول الله تَعَالَىٰ خطاباً للرَّسُول وللمؤمنين، مُتَحَدِّثاً بضَمِيرِ المتكلّم العظيم الجبّار:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾: أي: أَلَمْ يَعْلَمُوا من أَخْبَارِ المهْلَكِينَ مِنْ كُفَّارِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، أعْدَاداً كَثِيرَةً أَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِم وَتكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَرَفْضِهِم الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ؟!

أَلَمْ يَرَوْا بأَعينهم آثَارَ كَثِيرٍ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ المهْلَكِينَ السَّابقين؟!.

الاسْتِفْهَامُ اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبيٌّ مِنْ أمْرِهِمْ، وَمِنْ مَبْلَغِ انْحِرَافِهِم الإجْرَامِيّ، وسُقُوطِهِمْ في أَوْحَالِ الْحَمَاقَةِ والْجَهَالَةِ واتّبَاعِ الْهَوَىٰ، على خِلَافِ مَا يَقْتَضِيه الرَّأْيُ السَّدِيدُ، والْعَقْلُ السَّلِيم.

﴿كَمْ﴾ هُنَا خَبَرِيَّةٌ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ مَعْمُولٍ أَوْ مَعْمُولَي الفِعل في: ﴿يَرَوْا﴾ و«كم» اسْمٌ مُبْهَمٌ يَحْتَاجُ تفسيراً بالتمييز، وهي تَدُلُّ على عَدَدٍ ما كثير.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾: يُطْلَقُ الْقَرْنُ ويُرَادُ بِهِ من النَّاسِ أَهْلُ زَمَانٍ واحدٍ، والْعِبَارَةُ هذه تَمْييزٌ لإبْهَامِ «كَمْ».

- ﴿... مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ...﴾:

التَّمكِينُ فِي الشيء: هو الإقدار على التصرُّفِ فِيهِ الموصِلِ إلى تحقيق المطلوب منه، مع التَّثْبِيتِ في مكانِهِ، والْقُدْرَةِ على التَّحرُّكِ فِيهِ بِحُرِّيَّة. وأَصْلُهُ مأخُوذٌ مِنَ الْمَكَانِ والثَّبَاتِ فِيهِ، فالتَّمْكِينُ في المكان إقدارٌ عليه وعلى الثباتِ فيه، مع مَنْح حُرِّيَّة التَّصرُّفِ فيه.

والخطابُ فِي: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ هو على سَبِيل الالتفات إلى خطاب المشركين، بَعْدَ الالْتِفَاتِ عَنْ خِطَابِهِمْ في الآيتين (٤) و(٥) وجُزْءٍ من الآية (٦) أَوْ هُوَ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وعُمُومِ العرَبِ إبَّانَ التنزيلِ بغْيَة

التَّعْجيب مِنْ أَحْوالِ المكابِرين المعانِدين من مُشْرِكِي أَهْلِ مكَّة، وهَـٰذَا هو الأَجْدَرُ بالفهم فيما أَرَى.

ومِنَ الَّذِينَ كانُوا مُمكَّنِينَ في الْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ تَمْكِينِ الْعَرَب إبَّانَ التنزيل، وأَهْلَكَهُم اللهُ إهلاكاً جماعيًّا بِذُنُوبِهم، فِرْعَوْنُ وملَؤُهُ وجُنُودُهُمْ، وقَوْمُ عادٍ، وقَوْمُ ثَمُود مِنْ قَبْلُ.

- ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾: أي: وأَطْلَقْنَا لهم مَاءَ السَّحَابِ يَنْزِلُ عَلَىٰ أَرْضِهِمْ غَيْثاً كثيراً غَزِيراً نافعاً، في أوقاتِ الحاجة. يأتي الإرسال بمعنى الإطلاق.

ذُكِرَ لَفْظُ «السَّمَاءِ» والمرادُ مَاءُ السَّمَاءِ بمعنى السَّحَاب. **مِدْراراً**: أي: كثيراً غَزِيراً، يقالُ لغة: «سَحَابٌ مِدْرَارٌ» أي: كثيرُ السَّحّ.

حِينَ يَكُونُ الْماءُ بُخاراً مُمْتَدًّا فِي السَّحَابِ يَكُونُ حَبيساً مُقَيّداً في الجوّ، فإذا شَاءَ اللهُ إِنْزَالَهُ أَطْلَقَهُ مِنْ قُيُودِهِ بِوَسِيلَةِ اللِّقَاحِ بِمَا تَحْمِلُ الرِّيَاحُ مِنْ جُسَيماتٍ صَغِيرَاتٍ، كما سَبَقَ بَيانُهُ لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآيَةِ (٢٢) من سُورَة (الحِجْر/ ٥٤ نزول).

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾: أَيْ: وأَجْرَينا لَهُمُ المِيَاهَ الْعَذْبَة فِي الْأَنْهَارِ بَعْدَ إِنْزَالِهَا مِنَ السَّمَاء، فَهِي تَجْرِي في مجارِيها مِنَ الأَرْضِ، وهَـٰذِهِ المجاري تَقَعُ بالطَّبْعِ تحت مُسْتَوىٰ سُطُوحِ الأَرْض الكائِنَةِ في شواطِئِهَا الَّتِي يَسْكُنُونَهَا وَيَبْنونَ عليها مَسَاكِنَهُمْ، فَهِيَ تَجْرِي بهذا المعنىٰ من تَحْتِهِمْ، لَا مِنْ فَوْقِهِمْ وَلَا مُحَاذِيَةً لمسْتَوَىٰ ارْتِفَاعِهِم إذَا كانُوا عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْضِ لَا في أَنْفَاقٍ مِنْها.

- ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: فَأَهْلَكْناهمْ بِسَبَبِ ذُنُوبهم العظْمَىٰ إذْ كَفَرُوا بآياتِ رَبِّهم، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وقَاوَمُوا دَعَوَاتِهِمْ، وَكَانَ إِهْلَاكُهُمْ إِهْلَاكاً جَمَاعِيًّا، بِخَوارِقَ دالَّاتٍ عَلَىٰ الْقَصْدِ مِنْ إهلاكِهِمْ عِقَاباً، لِيَتَّعِظ به أُولُوا الأَلْبَاب.

• ﴿. . . وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾: أي: وأنْشأْنا مِنْ بَعْدِ كُلِّ قَرْنٍ مِنْ قُرُونِ المهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، قَرْناً آخَرِينَ وُضِعُوا في الحياة الدُّنْيَا مَوْضع الامْتِحَانِ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ سِنَّ التكْلِيفِ والمسْؤُولِيَّةِ والْجَزَاء.

الإنْشاء: هُوَ الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكَامُلِ المتَدَرّج غالباً، ومَعْلُومٌ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الْخَلْقِ للْأَحْيَاءِ والنباتَاتِ وسَائِرِ الْأَكْوَانِ، تَسِيرُ عَلَىٰ وفْقِ الْإِحْدَاثِ والإيجَادِ المصْحُوبِ بالتَّكَامُلِ المتَدَرِّج شَيْئاً، فَشَيْئاً، أمَّا الْخَلْقُ دُفْعَةً واحِدَةً فيكونُ بخارقٍ إعجازِيٍّ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ المخالِفَاتِ لِسُنَّتِه، لِأَمْرٍ مَا اقتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ، جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَخْلُق الْأَكْوانَ كُلَّها دُفْعَةً واحِدَةً لَفَعلَ بأمْرِ التَّكْوين: «كُنْ».

■ قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ الْعِنَادِيِّ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِم، بِضَمِير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾:

• ﴿كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾: أي: كِتَاباً مِنْ لَدُنَّا كالقرآن، مَكْتُوباً فِي قِرْطَاسٍ أي: في صَحِيفَةٍ صَالِحَةٍ لِلْكِتَابَةِ عَلَيْها.

القِرْطَاس: مُثَلَّث القاف، هو في اللُّغَةِ الصَّحِيفَةُ، يُكْتَبُ فيها.

• ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: أي: فَرَأَوْهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهم، جاء التصريح بِلَمْسِ الْأَيْدِي، لِأَنَّ الْأَعْيُنَ قَدْ تَرَىٰ عَنْ طَرِيقِ السِّحْرِ مَا لَيْسَ لَهُ وُجُودٌ في الحقيقة، كما فَعَلَ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ إذْ سَحَرُوا أعْيُنَ الناس، ولكِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْحَرُوا مِنْهُمْ حَاسَّةَ اللَّمْس.

• ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: أي: لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً عِنَادِيًّا وإصراراً على بَاطِلِهِم اتباعاً لِأَهْوَائهم، مَعَ عِلْمِهِمْ بالحقّ.

• ﴿... إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾: أي: مَا هَـٰذَا الكِتَابُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فِي قِرْطَاسٍ، إِلَّا عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ السِّحْر الظَّاهِرَة المبينَةِ بأنَّها سِحْرٌ، وَلَيْسَ هُوَ كِتَاباً رَبَّانِيًّا، فَنَحْنُ لَا نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نُصَدِّقُ مُحمّداً فِي ادِّعَاءِ أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُه. **مُبِينٌ**: أي: ظاهرٌ واضِحٌ.

تَدُلُّ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَمْرَين:

الأَمْرُ الأوّل: تَيْئِيسُ الرَّسُول مِنَ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، ولَوْ جاءَهُمْ بما يَطْلُبُونَ مِنْ آيَاتٍ خَوارِق مَا زَالُوا يُلِحُّونَ بِطَلَبِهَا عَلَىٰ سَبِيلَ التَّشَهِّي والتَّعَنُّت.

الأَمْرُ الثاني: إعْلَامُ المعنيِّينَ بعِبَارَة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بأنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ وإصْرَارٍ عَلَىٰ الباطِلِ، وأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إِلَىٰ أدِلَّةٍ تُقْنِعُهُمْ بِصِدْقِ نُبُوَّةِ ورِسَالَةِ الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، وَصِدْق مَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، فالاسْتِجَابَةُ لِطَلَبِهِمْ الآياتِ الخوارِقَ عَبَثٌ لَا يَفْعَلُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ.

■ قول الله تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ بَعْضِ مَطَالِبِ الَّذِينَ كَفَرُوا العنادِيَّة التَّعَنُّتِيَّة:

• ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾:

دلَّ هَـٰذَا البيانُ على أنَّ المعنيّين به، ما زَالُوا يُرَدِّدُونَ طَلَب إنْزَالِ مَلَكٍ مِنَ السَّمَاءِ، عَلَىٰ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لِيتَّخِذُوا مِنْ عَدَم إنْزَالِ مَلَكٍ عَلَيْهِ تَعِلَّةً لِعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الحقّ.

فَقَدْ سَبَقَ أَنْ طَلَبُوا هَـٰذَا الطلب قَبْلَ نُزُولِ سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) فأبان الله عزَّ وجلَّ طلبهم هَـٰذَا في الآية (٧) منها وطلبوا أيضاً إنزال الملائكة عليهم كما جاء في الآية (٢١) منها.

وكرَّرُوا طَلَبَهُمْ هَـٰذَا قبل نزول سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) فأبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ طلبهم هذا وعلَّمَ رَسُولَهُ ما يَرُدُّ بِهِ عليهم في الآية (٩٥) مِنها.

وكرَّرُوا طَلَبَهُمْ هذا قبل نزول سورة (هود/ ٥٢ نزول) فأنْزَلَ اللهُ فيها تَعْلِيماً تَرْبويًّا لِرَسُولِهِ، يُبَيِّنُ لَهُ فِيهِ وظيفَتَهُ الإنذارِيَّةَ بالنِّسْبَةِ إلىٰ هؤلَاءِ المكابِرين المصِرِّينَ على باطلهم.

وكرَّرُوا طَلَبَهُمْ هذا قبل نزول سورة (الحجر/ ٥٤ نزول) مسبوقاً بشتِيمَتِهِم للرَّسُولِ بأنَّهُ لمجنُون، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بما يُومِئُ إلىٰ أنَّهُمْ مُكَابِرُونَ، فلو أنّ اللهَ أنزلَ إلَيْهِم مَلَائِكَةً لَمْ يُؤْمِنُوا، ولاسْتَمَرُّوا علىٰ كُفْرِهم وعِنَادِهِمْ ومُقَاوَمَتِهِمْ لدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانيَّة، وهو ما جاء في الآيتين (٧ و٨) منها.

وأخيراً كَرَّرُوا طَلَبَهُمْ هَـٰذَا قَبْلَ نزول سُورَةِ (الأنعام/ ٥٥ نزول) فأنْزَلَ الآيتينِ (٨ و٩) منها وأجَابَهُمْ بِمَا يُقْنِعُ طُلَّابَ الحق، وأنْزَلَ في الآية (١١١) مِنْها مَا يَكْشِفُ بصَراحَةٍ شَديدَةٍ لَا بأسْلُوبٍ إيمائي مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة، ولَوْ أنْزَلَ اللهُ لَهُمُ الملائكَةَ الَّتِي يَطْلُبُونَ إنزالَها، ولَوْ جَعَلَ الموتَىٰ تُكَلِّمُهُم، ولَوْ حَشَر عَلَيْهِمْ كُلَّ غَيْبِيٍّ فشَاهَدُوهُ.

وقد سبَقَ تَدَبُّرُ النُّصُوصِ الَّتِي جاءَتْ في سُور (الفرقان، والإسراء، وهُودٍ، والحِجْر) في مَوَاضِعِها مِن سُوَرِها.

وفيما يلي تَدَبُّر مَا جاء في سورة (الأنعام) الجاري تَدَبُّرُها.

- ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ ...﴾: أي: وقَالَ أئِمَّةُ الكُفْرِ المشركون الْمُعَانِدُونَ المكابِرُون المصِرُّونَ على بَاطِلِهم: هلَّا أنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ مَلَكٌ نُشاهِدُهُ ويُخاطِبُنا، وَيَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، ويُبَيِّنُ لَنا مَطْلُوبات اللهِ مِنَّا، إنَّ عَدَمَ إنْزَالِ مَلَكٍ عَلَيْهِ دَليلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ غَيْرُ صادقٍ فِي نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِه، وفي بَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّه.

فَرَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِمْ بإجَابَتَيْنِ في قوله تعالى:

- ﴿... وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾:

أي: إنَّهُمْ فِي طَلَبِهِمْ إنْزَالَ مَلَكٍ مُتَعَنِّتُونَ، غَيْرُ صَادِقِينَ في ادِّعَاءِ أَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ إذَا أَنْزَلَ اللهُ مَلَكاً كَما طَلَبُوا، إذْ هُمْ مُكَابِرُونَ يَعْلَمُونَ صِدْقَ الرَّسُولِ وَيَجْحَدُونَه، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً عَلَىٰ وفْقِ طَلَبِهِمْ، فَلَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ إلَّا الْعِنَادُ والإصْرَارُ عَلَىٰ الكُفْر، وحينَئِذٍ يكونُ مِنَ الحكْمَةِ إنْهاءُ مُدَّةِ إمْهَالِهِمْ فِي امْتِحَانِهِمْ، وَإِنْزَالُ العذابِ فِيهِمْ وإهْلَاكُهُم كَمَا حَصَلَ لثَمُودَ قَوْمِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ صالحٍ عليه السَّلام.

وبهذا أَرَىٰ أَنَّ الواو العاطفة في ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ يُمْكِنُ اسْتِنْبَاطُهُ بِالتَّأَمُّلِ الفِكرِي، فقَد صَحَّ عِنْدِي أَنَّ كُلَّ حُرُوفِ الْعَطْفِ قَدْ تكُونَ فَصِيحَةً كَمَا قَالَ النَّحْوِيُّونَ والمفسِّرُونَ في الفاء.

- ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي: لَأُنْهِيَ أَمْرُ إمْهَالِهِم فِي امْتِحَانِهِمْ، ولَقُضِيَ فِيهم بالعذاب والإهْلَاكِ الشَّامل.

- ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إصْدَارِ الْقَرَارِ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهِم، لَا يُؤَخَّرُ تَنْفِيذُ مَا تَمَّ بِهِ القضاءُ فَهُمْ لَا يُمْهَلُونَ.

الإنظار: الإمْهَالُ والتَّأْخِير.

هَـٰذِهِ هي الإجَابَةُ الأُولَىٰ، دَلَّ عليها قولُ اللهِ تعالى: ﴿... وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

أما الإجابَةُ الثَّانِيَةُ فَقد دَلَّ عليها قول اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾:

اللَّبسُ: خَلْطُ أمْرٍ بأمْرٍ، أو شيءٍ بشيءٍ، أو فِكْرَةٍ بِفِكْرَةٍ، وهذا

اللَّبْسُ ينجُمُ عَنْهُ جَهْلُ كُلٍّ مِنَ المخْتَلِطَيْن، أوْ جَهْلُ أَحَدِهِمَا، وَتَوَهُّمُ أَنَّهُ مِثْلُ المختلِطِ به، ومِنْهُ لَبْسُ الْحَقِّ بالباطل، للإيهام بأنَّ الباطل حقٌّ.

يقال لغة: «لَبِسَ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ الْأَمْرَ، يَلْبِسُهُ، لَبْساً» أي: خَلَطَهُ به لِكَيْ يُضَلِّلَهُ فَلَا يَعْرِف حَقِيقَته.

وهذا اللَّبْسُ مِنَ وَسَائِلِ المُضَلِّلينَ، الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ فِي تَضْلِيلَاتِهم عَلَىٰ المغالَطَاتِ والإيهَامَاتِ الكاذِبَات.

أي: ولَوْ جَعَلْنَا الرَّسُولَ الَّذِي نُرسِلُهُ إِلَيْهِمْ مَلَكاً مِنَ الْـمَلَائِكَة، لاقْتَضَىٰ وَضْعُهُمُ الَّذِي فُطِرُوا عَلَيْهِ، أَنْ نَجْعَلَهُ مُتَشَكِّلاً بِصُورَةِ رَجُلٍ من النَّاسِ، لأنَّ فِطَرَهُمْ لَا تُمَكِّنُهُمْ مِنْ رُؤْيَةِ الملائِكَةِ عَلَىٰ حَقِيقَةِ أَكْوَانِهَا النُّورَانِيَّة، مَا لَمْ تَتَشَكَّلْ بالْأَشْكَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ، وأَكْمَلُ مَا تَتَشَكَّلُ بِهِ صُورَةُ رَجُلٍ مِنَ الناس، لَا صُورة طَيْرٍ أَوْ دَابَّةٍ مِنْ دَوَابِّ الْأَرْضِ، وحِينَئِذٍ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، ويَقُولُونَ: هَـٰذَا بَشَرٌ وَلَيْس مَلَكاً، وَتَعُودُ مُشْكِلَتُهُمْ إِلَىٰ نُقْطَةِ بدايَتِها.

إذَنْ فَلَا فَائِدَةَ من الاسْتِجَابَةِ لِطَلَبِهِمْ على فَرْضِ صِدْقِهِمْ بِأَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ إِذَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مَلَكٌ.

إِنَّهُمْ في طَلَبِهِمْ يَلْبِسُونَ، فَيَخْلِطُونَ ظَاهِرَ اسْتِعْدَادِهِمْ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إِذَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مَلَكٌ، بِحَقِيقَةِ إِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الكُفْرِ جُحُوداً وعِنَاداً واتِّبَاعاً لِلْأَهْوَاءِ.

ولَوْ أَرْسَلَ اللهُ لَهُمْ مَلَكاً رَسُولاً عَلَىٰ شَكْلِ رَجُلٍ مِنَ النَّاسِ، لَلَبسَ عَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا يَلْبِسُونَ، ولَيْسَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ أَنْ يَلْبسَ عَلَىٰ عِبَادِهِ تَزْيِيفاً وَتَضْلِيلاً، أَوْ يَعْمَلَ عَمَلاً عَبَثاً لَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنْه.

■ قول الله تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ مُسَلِّياً، وَمُطْمْئِناً بِأَنَّه سَيَنْصُرُهُ، وَيَهْزِمُ وَيُخْزِي مُكَذِّبِيه:

- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: لَا تَهْتَمَّ يا مُحَمَّدُ وَلَا تَحْزَنْ مِنْ أَجْلِ اسْتِهزَاءِ مُكَذِّبِيكَ مِنْ قَوْمِكَ فيما تُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، فَلَقَدْ سَبَقَ فِي تاريخ الْأُمَمِ أَنَّ رُسُلاً كثيرينَ مِنْ قَبْلِكَ، قَد اسْتَهْزَأَتْ أَقْوَامُهُم بِمَا أَنْذَرُوهُمْ بِهِ، فَنَزَلَ بالمُسْتَهْزِئين السّاخِرِين ضِمْنَ سُنَّةِ رَبِّكَ - وَأَصَابَهُمْ وأحَاطَ بهم العذابُ والْهَلَاكُ الَّذِي كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئون، وَسُنَّةُ رَبِّكَ لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحويل.

يقال لغة: «حَاقَ بِهِ الأمْرُ» أي: أَصَابَه وأحَاطَ بِهِ، ولَزِمَهُ وَوَجَبَ عليه. «حَاق، يَحِيقُ، حَيْقاً، وحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأول من دُرُوس سورة (الأنعام).
والحمد لله على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الأنعام)
الآيتان (١١ و١٢)

قال الله عزَّ وجلَّ:

- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾:

تمهيد:

آيتا هذا الدّرْس من فروع السَّاقِ الثاني من ساقِي السورة، وفي هذا الدّرس فِقَرَةُ تَوجيهٍ تعليميٍّ دَعَوِيٍّ للرّسول ﷺ، فلكُلِّ داعٍ إِلَىٰ دين الله

الحقِّ مِن أمَّتِهِ. وفيه بيانُ بعضِ ما ينبغي أَنْ يُحَدِّثَ المشركين به، ويحاوِرَهُمْ بِشَأْنِهِ جِدَالاً بالَّتِي هِيَ أَحْسَن.

التّدبّر التّحْليليّ:

مكذِّبُو الرَّسُولِ ﷺ في نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ وَبَلاغاتِهِ عن رَبِّهِ، سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بعِقَابٍ قَدْ يُنْزِلُهُ اللهُ بِهِم إذا تَمادَوْا فِي كُفْرِهِمْ وَأصرُّوا عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ في الحياة الدُّنيا، فَيُهْلِكُهُمْ بِهِ، فلَمْ يَعْبَؤُوا بهذا الإِنْذَار، بل اسْتَهْزَؤوا بِهِ وَسَخِرُوا مِنه، فَكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يُرْشِدَهُمْ إِلَىٰ مُشَاهَدَةِ دَلِيلٍ مَادِّيٍّ مِنْ آثَارِ المُهْلَكِينَ المُكَذِّبين السَّابِقين لِرُسُلِ رَبِّهِم، وهي آثارٌ بَاقِيَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَاكِنِ كُفَّارِ الْقُرُونِ الماضِيَة، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً ما يَقُولُهُ لهم، لِيَحُثَّهُمْ عَلَىٰ السَّيْرِ في الأرْضِ حتَّىٰ يَصِلُوا إِلَىٰ آثار المهلَكِين السَّابِقين، لِيَنْظُرُوا بأعْيُنِهِمْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مُكَذِّبِي رُسُلِ رَبِّهِم السَّابِقِين:

- ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ⑪﴾:

إنَّ مُشَاهَدَةَ آثارِ المهْلَكِين مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ تَحْتَاجُ سَيْراً في الْأَرْضِ، أي: في جَوِّ الْأَرْضِ الملْحَقِ بِها، وهو بمثابَةِ جُزْءٍ مِنها، فالْمَشْيُ فيه مشَيٌ في الْأَرْضِ.

وجاء العطف بحرْفِ الْعَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالِّ علَىٰ التراخي في ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ لحكْمَتَيْن:

الْأُوْلَىٰ: أَنَّ الآثَارَ قَدْ تَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ المدْعُوِّينَ للسَّيْرِ فِي الأَرْضِ، كالآثار الفرعَوْنية، وآثار قَوْمِ لُوطٍ، وآثار قَوْم صالح، فَلا يَنْطَبِقُ عليها العطف بالفاء، بل العطف بـ «ثُمَّ» لتدلَّ على بُعْدِ المسافة، والمراد بالنظر نظر الأعين.

الثانية: أَنَّ مِنَ آثار المهْلَكِينَ السَّابِقين مَا هو مَدْفُون في بَاطِنِ

الْأَرْضِ، وكَشْفُهُ يَتَطَلَّبُ تَنْقِيباً وَحَفْرِيَّاتٍ يقُومُ بِها الباحِثُونَ عن الآثار، وهَـٰذَا يَحْتَاج أزْمَاناً يُلَائمُها التعبيرُ بـ «ثُمَّ».

﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾: أي: عَاقِبَةُ تكْذِيب المكَذِّبين، الَّذِينَ كذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهم، وكذَّبُوهُمْ بِمَا بَلَّغُوهُمْ عَنْهُ، فكَانُوا بِذَلِكَ كافِرِينَ كُفْراً عِنادِيًّا، فاسْتَحَقُّوا عِقَابَ اللهِ وَعذابَه، فَعَذَّبَهُمْ وأهْلَكَهُمْ إهْلَاكاً جماعيًّا، وَدَمَّرَ مُنْشَآتِهِمْ فِي دِيَارِهم.

عاقبة عَمَل العامل: الْجَزاءُ الّذِي يكُونُ بَعْدَهُ، ويأتي عَقِبه، ولَوْ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيّ.

■ وفي مُنَاظَرَةِ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ شِرْكِهِمْ فِي رُبُوبيَّةِ اللهِ أَوْ فِي إلَـٰهِيَّتِهِ، أَعْطَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى دينِ اللهِ الحقِّ من أُمَّتِهِ، تَعْلِيماً يَتَضَمَّنُ الْخُطْوَةَ الأولَىٰ لبَدْءِ المناظَرَةِ الَّتِي يُرادُ بها الإقْنَاعُ بالحقّ، وهَـٰذِهِ الخطوة تَسْتَدْعِي مَا وَرَاءَهَا مِنْ خُطُواتٍ تَتَّصِلُ بِها فِكْرِيًّا، فقال اللهُ له:

- ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾؟:

إنّ السُّؤال عمَّنْ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، يَسْتَلْزِمُ الْبَحْثَ في الْخَالِقِ البارئ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه.

وإِذَا ادَّعَىٰ المشركُونَ أَنَّ شُرَكَاءَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ تَمْلِكُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرض، أَوْ شَيْئاً ممَّا فيهما، فَلَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَأْتُوا بِدَلِيلٍ يُثْبتُ أَنَّها خَلَقَتْ شيئاً فيهما، حَتَّىٰ تَكُونَ مَالِكَةً لَهُ.

وَبالْعَجْزِ عَنِ الإتيانِ بالدَّلِيل، يَكُونُ ادِّعَاءُ رُبُوبِيَّتِها لِشَيْءٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وامْتِلَاكها لَهُ ادّعَاءً سَاقطاً لَا دَلِيل عليه، وإذا سَقَطَتْ رُبُوبيَّتُها سَقَطَتْ إِلَهِيَّتُها باللُّزُومِ الْعَقْلِيّ، لِأَنَّ الإلَهِيَّة حَقُّ الرُّبُوبِيَّة.

وبما أَنَّ المشْرِكِينَ يُؤْمِنُونَ باللهِ الرَّبِّ خَالِقاً مَالِكاً لِمَا خَلَقَ، فَعَلَىٰ مُنَاظِرِهِمْ أَنْ يَنْتَزِعَ عَنْ طَرِيق طَرْحِ الْأَسْئِلَةِ الإلْزامِيَّةِ، اعْتِرَافَهُمْ بأَنَّ اللهَ

خَالِقُ كُلِّ شيْءٍ في السَّماوَاتِ والأَرْضِ، وَرَبُّ كُلِّ شَيْء فيهما، فإذا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ لَزِمَهُمْ عَقْلاً بأَنْ يَعْتَرِفُوا بِمِلْكِيَّةِ اللهِ لِكُلِّ ما في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ.

ولمَّا كَانَ مِنْ بَدَهِيَّاتِ العُقُولِ أَنَّ المالِكَ هُوَ الَّذِي لَهُ حَقُّ التَّصرُّفِ فيما يَمْلِكُ، لَزِمَهُمْ أَنْ يُؤمِنُوا بأنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ يَتَصَرَّفُ في مِلْكِ اللهِ إلّا بِمَا أَذِنَ هُوَ به.

وَقَدْ جَاءَتِ الْبَيَانَاتُ عَنِ اللهِ بأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ حَقَّ التَّصَرُّفِ في كَوْنِهِ، إلَّا ضِمْنَ حُدُودِ الأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَسْتَوِي فيها الْخَلَائِقُ جَمِيعاً بِحَسَبِ الطَّاقَاتِ الممنوحَةِ لَهُمْ، أَوْ ضِمْنَ حُدُود الآياتِ الخوارِقِ الَّتِي يُؤَيِّدُ اللهُ بِها رُسُله بإِذْنٍ مِنْهُ، وأَوَامِرَ يَأْمُرهم بها، وَمَعَ ذَلِكَ يكُونُ الفِعْلُ فِعْلَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وحِينَ يُقِرُّ الْمُنَاظَرُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، بأَنَّ مَا فِي السَّمَاوَات والأَرْضِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ وَمِلْكٌ مِنْ مِلْكِهِ، فَعَلَىٰ المناظِرِ المؤمِنِ أَنْ يُعْلِنَ هَـٰذِهِ الحقيقة ويُثَبِّتَها، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في الآية له:

﴿قُل لِّلَّهِ﴾: أي: أَعْلِنْ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةَ وأَثْبِتْهَا.

وبَعْدَ إثْبَاتِ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةِ وَلَوَازِمِها، يَنْبَغِي للدَّاعِي إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ أَنْ يُتَابِعَ دَعْوَتَهُ لِلْمُشْرِكِينَ للدُّخُولِ في الإسْلام، فَجاء فِي التَّعْلِيمِ التَّوجِيهُ لِعَرْضِ ثَلَاثَةِ بَيَانَاتٍ دَعَوية:

البيان الأوّل: التَّبْشِيرُ بِرَحْمَةِ اللهِ الواسعة، وقَبُولِهِ توبَةَ التائبين من سَوابِق كُفْرِيَّاتِهِم، دَلَّ عليه قول الله تعالَىٰ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجب الله على نَفْسِهِ الرَّحْمَة وكَتَبَ هَـٰذَا في اللَّوحِ المحفوظ، ومِنْ رَحْمَتِهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - أَنَّ مَنْ كَانَ كافراً ومُرْتكباً مِنَ الآثام كبائِرَ كثيرةً، ثُمَّ آمَنَ وأسْلَمَ طَائِعاً مُخْتَاراً قَبْلَ أَنْ يُلامِسَ عَتَبَةَ الموت، فإنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، ويَغْفِرُ خَطَايَاهُ، فالإسْلامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ من الذُّنُوب.

وهذا من اللهِ إطماعٌ عظيم بوَعْدٍ كريم للكَفَرَةِ المجرمين بأنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِموا.

البيان الثاني: التذكير بيوْمِ الدِّينِ بَعْدَ البعْثِ من الموت، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء، وأنَّ ذَلِكَ حَقٌّ لَا شَكَّ فيه، دَلَّ عليه قول الله تعالى في التعليم: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: أأكّدُ لَكُمْ بالقسم: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ فاللّامُ واقِعةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ، أي: لِيَجْمَعَنَّكُمْ بَعْدَ الْبعْثِ ولِيَسُوقَنَّكُمْ، إلَىٰ مَوْقِف الحساب وفَضْلِ القضاء.

الجمع والسَّوقُ جاء التعبير عنهما في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ بالحشْرِ، فالحشْرُ في اللُّغَةِ هو الْجَمْعُ والسَّوقُ.

وفي العبارة هُنَا حَذْفٌ يَكْشِفُهُ مَا جاء في نُصُوصٍ أخرى: فالمعنى مع إبراز المحاذيف: ليجمَعَنَّكُمْ مَسُوقِينَ إلى مَوْقِفِ الحساب وفَصل القضاء يَوْمَ القيامَة، وكُلُّ ذَلِكَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ بِهِ بيانَاتٍ كثيراتٍ، وبلَّغَهُ رُسُل اللهِ لِأَقْوامِهِم.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: لَا شَكَّ فيه، **فالرَّيْبُ**: هو الشّك، ونفي الشَّكِّ يُفِيدُ يَقِينَ صِدْقِ الخبر.

البيانُ الثالث: التحذيرُ الشَّدِيدُ مِنْ خُسْرَانِ الْأَنْفُسِ كُلِّها لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا يَجِبُ الإيمان به في دِينِ اللهِ لعبادِهِ، دَلَّ عَلَيْهِ قول الله في التعليم: ﴿... ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾: أي: الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ أَنْفُسِهِمْ بِرُكُوبِهِمْ مَرْكَبَةَ أَهْوَائِهِم وشَهَواتِهِم وحُبِّهِمْ للعاجلة الفانِيَةِ، وتَرْكِهِمْ لِلآخِرَة، فَهِي تَجْرِي بِهِمْ حَتْماً إِلَىٰ عَذَابٍ خَالِدٍ فِي نَار جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِين، لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا يَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ مهما دَفَعَتْهم الحجج، وَوُجِّهَتْ لهم الموعِظ والإنْذَارات، فعرَّضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه.

قُصِدَ باسْم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رائِحَةُ مَعْنَىٰ الشرط، فجاءَتِ الفاء في جملة الخبر كأنها جواب الشرط.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني.

والحمد لله على معونَتِهِ ومَدَدِهِ وتوفيقِه وفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الأنعام) الآية (١٣)

قال الله عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾:

تمهيد:

هَـٰذِهِ الآية من فروع السَّاق الأوّل من سَاقَيْ شَجَرَة موضوعِ السورة، وفيها بيانٌ تَكميليٌّ رَبَّانيٌّ مُباشِرٌ مَوْصُولٌ فِكْرِيًّا بِبَعْضِ مَا جاء في الدرس الثاني، يُبَيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها مِلْكِيَّتَهُ لكُلِّ مَا يُرَىٰ أَنَّهُ سَاكِنٌ فِي اللَّيْلِ والنَّهارِ، وأَنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَع، والْعَلِيمُ بِكُلِّ مَا يُعْلَم، كَما أَنَّ لَهُ كُلَّ مَا تَحرَّكَ وهُوَ ما جاءَ بَيانُهُ مِنْ أَنَّ اللهَ مالِكُ كُلِّ شيءٍ في السَّمَاواتِ والأرض، وجاء هنا النصّ علىٰ السَّاكِنِ لدفعِ توهُّمِ أنّ السَّاكِنَاتِ خارجات عن مِلْكِ الله.

السُّكُونُ والْحَرَكَة:

دراسَةُ الْأَشْيَاءِ الْمَادِيَّةِ فِي الكَوْنِ دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ دائِمُ الحرَكَةِ، من نَوَاةِ الذَّرَّةِ وألكترونَاتِهَا حَتَّىٰ أعْظَم الْمَجَرَّاتِ.

وأَنَّ مَا يَبْدُو أَنَّهُ ساكِنٌ فِي الْكَوْنِ فَإِنَّ سُكُونَهُ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ، أي: هُوَ مُتَحَرِّكٌ في ذَاتِهِ، ويُرَىٰ أَنَّهُ سَاكِنٌ في الظَّاهِرِ، أو بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ حَرَكَةِ غَيْرِهِ فِي خِدَاعٍ بَصَرِيّ يُرَىٰ أَنَّهُ سَاكِن.

ومِنَ السُّكُونِ النِّسْبِيّ أَنْ يَتَوَقَّفَ الكائِنُ الحيُّ عَنِ الْحَرَكَةِ بأعضائِهِ لِينَالَ مَا يَطْلُبُهُ من دُنياه، فيَلْجأَ إلىٰ الرَّاحَةِ والنَّوْم، ومِنْهُ الموْتُ الَّذِي تَتَوَقَّفُ بِهِ حَرَكَةُ الحياة، دُونَ أنْ تَتَوَقَّفَ ذَرَّاتُ جَسَدِ المَيِّتِ عن حركاتِها الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ حَرَكاتِ ذَرَّاتِ المادِّيَّاتِ غَيْرِ الحيَّةِ.

ويَدُلُّ عَلَىٰ هَـٰذَا السُّكُونِ النِّسْبِيّ قَيْدُ ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ لِأَنَّ جَمِيعَ الكائِنَاتِ الْحَيَّةِ في الأرْضِ، تَحْتَاجُ إلى سُكُونٍ نِسْبِيٍّ لِتَأْخُذَ نَصِيبَهَا مِنَ الرّاحَةِ اللَّازِمَةِ لِحَيَاتِها، ومِنْهَا مَا يَسْكُنُ لَيلاً، ومِنْهَا مَا يَسْكُنُ نهاراً.

وهَـٰذِهِ جَمِيعُها مِلْكٌ للهِ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ ولَوْ كَانَتْ مِنَ الْأَحْيَاء الصُّغْرَىٰ الَّتِي لَا تُرَىٰ بأبصار الناس، كالأحياء المجهريَّة.

وبما أَنَّهَا مِلْكُهُ تبارَكَ وَتَعالَىٰ فَهُو يَرْعَىٰ أقْواتَها لِحَيَواتِها، ويُهَيِّئُ لَهَا مَطَالِبَهَا على وفْقِ حِكْمَتِهِ، وهو الذي أحْيَاها وهو الذي يُمِيتُها، وهو السَّمِيع لأصواتها، وهو العليم بكل أحْوَالِهَا الظَّاهِرَةِ والباطِنَة.

وهُنَا يَتّسِعُ إدْراكُنَا مَعَ العلُوم المعَاصِرَةِ، ليشْمَلَ المِكْرُوبات والفَيْرُوسَاتِ، ومَا يُمْكِنُ أَنْ يُكْتَشَفَ ممَّا هُو أصْغَرُ مِنَ الفيروسات.

كُلُّ ذَلِكَ هُوَ مَخْلُوقٌ للهِ وَمَمْلُوكٌ له، وهُوَ جَلَّ جَلالُهُ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ والمتَصَرِّفُ فِيهِ، إيجاداً وإعْدَاماً، ورِزْقاً وَتَسْيِيراً وحَيَاةً وَمَوْتاً، وحَرَكَةً وسُكُوناً، ونفعاً وضَرًّا، وغير ذلك.

وليْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يَكُونَ في عالَم الغيْبِ عَنّا أشيْاءُ هِيَ مَخْلُوقَةٌ للهِ وَمَمْلُوكَةٌ لَهُ، وهي ذَاتُ سُكُونٍ تَام، ونَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا، ولا نَعْلَمُ تَأْثِيراتٍ لها فِينا بقضاءِ اللهِ وَقَدَرِه، فكثِيرٌ مِنْ أُمورِ الْغَيْبِ لَمْ يُهَيِّئِ اللهُ لَنا وَسَائِلَ إِدْرَاكِها وَلَا الْعِلْمِ بها.

أَمَّا الأكْوانُ الَّتِي أعْطَانَا اللهُ عزَّ وجلَّ وَسَائِلَ الْعِلْم بها، فقَدْ دَلَّتْنَا وَسَائِلُ المعرفةِ الإنْسَانِيَّةِ عَلَىٰ أنَّها دائِمَةُ الْحَرَكَةِ، وأنَّ مَا يَسْكُنُ مِنْهَا فَهُوَ

ذُو بُطْءٍ نِسْبِيٍّ فِي حَرَكَتِهِ الْكُلِّيَّةِ، لا في حَرَكَاتِ خلاياهُ وذَرَّاته. واللهُ أعلم.

وبهذا أُتِمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتَوْفِيقه وفتحه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٤ ـ ١٦)

قال الله عزَّ وجلَّ:

● ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

القراءات:

(١٤) ● فتح ياء المتكلم من: **[إِنِّيَ أُمِرْتُ]** نَافع، وأبو جعفر.

وأسْكَنَها بَاقي القراء العشرة.

(١٥) ● فتح ياء المتكلم مِنْ: **[إِنِّيَ أَخَافُ]** نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

(١٦) ● قرأ شعبة، وحَمْزَةُ، والكِسَائي، ويَعقوب، وخَلَف: **[مَنْ يَصْرِفْ]** بالبناء للمعلوم، أي: مَنْ يَصْرِف رَبِّي عَنه العذاب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مَنْ يُصْرَفْ]** بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

تمهيد:

آيَاتُ هذا الدَّرْس مِنْ فروع السَّاق الثَّاني من سَاقَيْ شجرة موضُوع السّورة، وفيها فِقَرَةُ تَعْلِيم جداليّ، وتعليم دَعويٍّ من الله عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ، كَيْ يُوَجِّهَهُما لمشْركي قَوْمِهِ، وعلَىٰ كُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ وإلى دينِهِ الْحَق أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْهَا في دَعْوَته، وفي مُجَادلاته.

التّدبّر التحليلي:

مِنْ حكْمَةِ المناظر الداعي إلى اللهِ ودِينِهِ الحقِّ، أنْ يُقَدِّمَ بُرْهَانَهُ الّذي اهتَدَىٰ بِهِ إلَى الإيمان باللهِ وَحْدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، رَبًّا لا يُشَارِكُهُ في رُبُوبيّتِهِ أحَد، وإلَهاً مَعْبُوداً لَا يُشَارِكُهُ في إلَهِيّتِهِ أحد.

هَـٰذِهِ هي القاعِدَةُ الأسَاسُ في الفكْرِ الدينيِّ الحقِّ كُلّه، وعليها تبنَىٰ جَميعُ أَبْنِيَةِ الدِّينِ، وتَعْلِيمَاتِهِ، وشرائِعِهِ، وأحكامه.

فجاء في التعليم، قول الله تَبَارَكَ وتعالى:

- ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ . . . ﴿١٤﴾﴾.

عَرْضٌ بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ الإنكاري، أي: أيَصِحُّ ويجوزُ لِي عَقْلاً فِي مُحَاكَمَاتِ الْعَقْلِ السَّلِيم، أَنْ أَتَّخِذَ وَلِيًّا مَعْبُوداً لِي وهو مخلُوقٌ مِثْلِي مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ الكَثِيرَةِ، فاللهُ هُوَ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وكُلُّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللهِ هُوَ جُزْءٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ والأرض الَّتي فَطَرَهَا اللهُ؟؟.

كيْفَ يَسْتَقِيمُ لي أَنْ أَتْرُكَ الفاطِر، وأعْبُدَ المفْطُور، أَوْ أَنْ أَجْعَلَ المفْطُورَ شَرِيكاً لِلْفَاطِرِ في إلَهِيَّتِهِ، وهُوَ لَا يَمْلِكُ مِنَ الرُّبُوبيَّةِ شيئاً؟؟.

قُدِّمَ الْمَعْمُولُ، وسُلِّط عَلَيْهِ الاستفهام في عبارة: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ فَأَصْلُ تَرْتيب العبارة: «أأتّخِذُ وَلِيًّا غَيْرَ الله» لِلْبَدْءِ بالإِشْعَارِ، بِمَنَاطِ الاسْتِنْكَارِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ اللهِ مُتَّخذاً مَعْبُوداً، وَلَيْسَ الاستنكار مُوَجّهاً لاتخاذِ الْوَلِيّ المعبود.

فعْلُ «اتَّخَذَ» يَنْصِبُ مفْعُولَيْنِ، مثل فعل «جَعَلَ» وفي صِيغَة «اتَّخَذَ» معنَىٰ التصَنُّعِ والتَّكَلُّف، ويُحْمَل هنا على ما هُو منافٍ لموازينِ العقل بالقرائن.

﴿وَلِيًّا﴾: **الْوَلِيُّ**: يأتي في اللُّغَةِ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ معانٍ عَدِيدَة، مِنها الرَّبّ، والمعبودُ، والسّيدُ، والنَّصير، والمُلائم هُنَا: الإلَه الْمَعْبود.

﴿فَاطِرِ﴾: **الفاطر**: هو الخالِقُ عَلَىٰ نِظام الْفَطْرِ مِنَ الْعُمْقِ إلى الظَّاهِر، وجاء التعبير في القرآن بعبارَة «الْفَلْق» ومَعْنَاهُمَا: «الشَّقُّ».

ودَلَّتْ الظَّاهرات الكونيَّة والنصوص القرآنيّة على أنّ خَلْقَ اللهِ لِكَوْنِهِ قَائمٌ على نظام الْفَطْرِ والْفَلْق، لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شيءٍ هي الْعَدَم، واللهُ جلَّ جلالُهُ، وعَظُمَ سُلْطانه، وبَهَرَتْ قُدْرَتُهُ، هو الْمُوَجِدُ من الْعَدَمِ، لَا رَبَّ غَيْرُه، ولا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سواه.

ولَمَّا كان من الحَاجَاتِ الدائماتِ للنَّاسِ ولسائر الأحياء سُكّانِ الأرْضِ، أنْ يَطْعَمُوا طَعَاماً لإمْدَادِ حيواتِهِمْ بالغِذَاءِ إلى آجالِهِم المحددةِ بقضاء اللهِ وَقَدَرِهِ، وَكَان طَعَامُهُمْ لَا يَتحَقَّقُ إلَّا بِخَلْقِ اللهِ، فيما دَبَّرَ لَهُمْ مِنْ وَسَائِلَ وأَسْبَاب، وَلَمَّا كَانَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ صَمَداً يُطْعِمُ مَخْلُوقَاتِهِ، وهُوَ لَا يُطْعَمُ، ولَا يَحْتَاجُ لِمَنْ يُطْعِمُهُ، عَلَىٰ خِلَافِ آلِهَةِ المشركين، كَانَ مِنْ حِكْمَةِ الدَّاعِي إِلَىٰ عبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَنْ يُبَيِّنَ هَـٰذِهِ الصِّفَة من صِفَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهِيَ أَنَّهُ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، وَيَلْزَمُ عَنْ كَوْنِهِ لَا يُطْعَمُ أَنَّهُ لَا يَطْعَمُ، لِأَنَّهُ لَوِ احْتَاجَ طَعَاماً لَكَانَ مُطْعَماً مِنْ مَادَّةِ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ طَعَامُهُ.

وبهَـٰذَا الْعَرْضِ يُعْرِبُ المؤمِنُ عَنْ دَلِيلِهِ الْعَقْلِيِّ، الَّذِي اهْتَدَىٰ بِهِ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ في رُبُوبِيّتِهِ، وتَوْحِيدِهِ في إِلَٰهِيَّتِهِ.

وقد يَهْتَدِي بهذا الأُسْلُوبِ الَّذِي لَا يُباشِرُ بِهِ الدَّاعِي جِدالاً مَعَ المدْعُوّ، بَعْضُ النَّاسِ الّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ تَحَمُّلاً جَدَلِيًّا يَكُونُونَ فِيه مَهْزُومِين فِكْرِيًّا فِي نِهَايَةِ جَوْلَاتِ المجادَلَةِ والمناظَرَة.

ولِدَفْعِ شُكُوكِ الناسِ في الدُّعَاةِ، وأَنَّهُمْ قَدْ يَدْعُونَ النَّاسَ إلى مَا لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَلْتَزِمُوا بِهِ مِنْ تَكَالِيفَ، جَاءَ في التعليم الرَّبَّانِيِّ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿... قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ: إنِّي أُمِرْتُ بالْوَحْيِ مِنْ رَبِّي أَنْ أكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ لَهُ في هَـٰذِهِ الْأُمَّةِ، مُطِيعاً لِأَوامِرِهِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُني بِهِ، وَتَارِكاً لِكُلِّ مَا يَنْهَانِي عَنْهُ، فَأَنَا بإِسْلَامِي لِرَبِّي قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ لِسَائِرِ المسْلِمِينَ مِنْ أُمَّتِي.

وقُلْ يَا مُحَمَّدُ قَالَ لِي رَبِّي وحْياً: لَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين، فَنَهَانِي رَبِّي عَنِ الشِّركِ كُلِّه، كما أَمَرَنِي أن أبلِّغَكُمْ نَهْيَهُ لِي عَنِ الشِّرْكِ كُلّه، وأَمَرَنِي أن أنْهَاكُمْ عَنِ الشِّرْكِ كلّه.

فأَنَا أَوَّلُ المأْمُورين بالإسْلَام، وأَوَّلُ المنهيّينَ عن الشّرك، فأَنَا أَوَّلُ المسلمين، وأوّلُ الموحِّدِينَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين، أُومِنُ بأَنَّهُ لَا رَبَّ في الوجود غيره، ولا إلَهَ يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَدَ فِي الوجود سواه.

الإسلام: هو الانقيادُ والطَّاعَةُ لِلْأَوامِرِ والنَّواهِي، يقال لغة: «أَسْلَمَ، يُسْلِمُ، إِسْلَاماً» أي: انْقَادَ مُطِيعاً مُسْتَسْلِماً، لَا عَاصِياً ولَا مُعْتَرِضاً.

ولهذا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوَّلَ الْعَامِلِينَ بأحْكَام شَرِيعَةِ اللهِ لِعِبَادِهِ، في كُلِّ أُمُورِهِ، في الْأَفْعَالِ، والْأَقْوَالِ، والتُّرُوْكِ، وسائِرِ أَنْوَاعِ السُّلُوكِ الظَّاهِرِ والْبَاطِنِ، في الجوارح وفي داخِلِ النفس.

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

الأسْوَة: القُدْوَة، وهُوَ مَنْ يُتَأَسَّىٰ ويُقْتَدَىٰ به.

ولمَّا كَانَ الرَّسُولُ غَيْرَ مُعْفًى مِنَ المؤاخَذَةِ والْعَذَابِ بِسَبَبِ كَوْنِهِ رَسُولاً، فيمَا لَوْ عَصَىٰ رَبَّهُ، جاء في التعليم الرَّبَّانِي له قَوْلُ اللهِ لَهُ:

- ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ: أَنَا مِثْلُكُمْ عُرْضَةٌ لِعَذَابِ رَبِّي إنْ عَصَيْتُهُ فخالَفْتُ أوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، فأنَا أخافُ إنْ عَصَيْتُهُ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، هُوَ عَذَابُ يَوْمِ الدِّين، بَعْدَ البعْثِ للحياة الأخرى.

وأقُولُ لَكُمْ أيضاً نَاصِحاً وَمُبيّناً: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ عَذَابُ اللهِ في ذَلِكَ الْيَوْمِ العظيم فَقَدْ رَحِمَهُ رَبُّهُ بالْمغْفِرَةِ لِذُنُوبِهِ، لأنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ خطَّاؤون، وَخَيْرَ الخطَّائِينَ التَّوَّابُونَ المستغْفِرُونَ.

وَذَلِكَ الْأَمْرُ الرَّفِيعُ الشَّأْنِ، وَهُوَ صَرْفُ الْعَذَاب عَنِ المذنبِينَ يَوْمَ الدِّينِ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ الواضِحُ الْجَلِيّ، الذي يَسْتَلْزِمُ الظَّفَرَ بجنَّات النعيم.

الْفَوْز: النَّجاةُ من الشَّرّ، وحصولُ الرِّبح، يقال لغة: «فَازَ، يَفُوزُ، فَوْزاً، وَمَفَازاً، وَمَفَازَةً» أي: نَجا مِنَ الشرّ، ورَبِحَ.

وبهذا انتهىٰ تَدبُّر الدَّرْس الرابع من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمدُ لله على مَعُونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتْحه.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس من دُروس سورة (الأنعام)

الآيتان: (١٧ و١٨)

قال الله عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

تمهيد:

آيتا هذا الدرس من فروع السّاقِ الأوَّل من سَاقَيْ شجرةِ موضوع السورة، وفيهما فِقَرَةُ عِلاجٍ رَبَّانِيٍّ مباشر، يُخاطب اللهُ عزَّ وجلَّ بِهِ كُلَّ صالحٍ مُؤَهَّلٍ للخطاب، ويُبَيِّنُ فيه سُلْطانَهُ علَىٰ كلِّ التصارِيفِ في كَوْنِهِ، ضَارِّهَا وَنَافِعِها، خَيْرِها وشَرِّها، علىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ، وَيُبَيِّن فيه أَنَّهُ الْقَاهِرُ عَلَىٰ عِبادِهِ، يُجْرِي تَصارِيفَهُ الحكيمةَ فِيهِمْ بالْجَبْرِ، وأَنَّهُ الحكِيمُ في أَفْعَالِهِ، الخبيرُ بِعِبَادِهِ وبكُلِّ شيء، جَلَّ جَلَالُهُ وعظُمَ سُلْطانه.

التّدَبّر التحليلي:

المسُّ: وُصُولُ سَطْحِ شَيْءٍ ما إلى سَطْحِ شيءٍ آخر، دونَ الدُّخولِ فِي شيءٍ ما هُوَ تَحْتَ السَّطْحِ، ويَنْجُمُ عَنْهُ أَخَفُّ دَرَجاتِ الْإِحْسَاسِ أو التأثير، وأُطْلِقَ الْأَخَفُّ وهو المَسُّ هُنَا في النّصّ، لِيُفْهَمَ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ مِنْ بَابٍ أَوْلَىٰ.

الضُّرُّ: سُوءُ الحالِ في الْبَدَنِ، أو المالِ، أو الأهل، أو الْوَلَدَ، ونحو ذلك.

ومن سوء الحال شِدَّةُ الحاجَةِ إِلَىٰ الْقُوتِ، ويُطْلِقُ عليها الناسُ لَفْظَةَ شرٍّ ولَوْ كانت في حقيقةِ الْأَمْرِ خيراً.

الْخير: يُرادُ بِهِ هُنَا مَا تُحِبُّهُ النُّفُوسُ، ويَرَىٰ فيهِ الناس نَفْعاً وحُسْناً ولَذَّةً مِنْ مَتَاعِ الحياة الدّنيا، ولَوْ كان جَالِباً لآلَامٍ وأضرارٍ حَقِيقِيَّةٍ غيرِ مَنْظورَةٍ، أو غَير مُدْركَةٍ، أو في المستقبل، فهي في الحقيقة شَرٌّ.

● ولمَّا كَانَ المشْرِكون يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُم الَّتِي يَعْبُدُونها من دُون الله تَنْفَعُ وَتَضُرُّ، ومِنْ نَفْعِهَا أَنَّهَا تَكْشِفُ الضُّرَّ إِذَا نَزَلَ بعابِديها، وتَمْنَعُ الْخَيْرَ عَنِ المؤْمِنينَ الْمَوَحِّدِينَ الكافِرِينَ بها، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ فِي مُعَالَجَتِهِمْ بِالْبَيَانِ الرَّبَّانِيِّ أَنْ يُخَاطِبَ اللهُ عزَّ وجلَّ كُلَّ صَالحٍ لِلخِطَاب بِقَوْلِهِ:

● ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ المتَصرّفُ بِعِبَادِهِ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ في دُنْيَا الابْتِلَاءِ، مَسًّا خَفِيفاً بِشَيْءٍ تَكْرَهُهُ وَتَرَاهُ ضُرًّا، فَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ في الكَوْن يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْشِفَهُ عَنْكَ إِلَّا بإذْنِهِ وَتَمْكِينِهِ، وتقديره وقَضَائه، فَكَيْفَ لَوْ كَانَ إِصَابَةً دَاخِلَةً إِلَىٰ الْعُمْقِ؟!

كَشْفُ الضُّرِّ والسُّوءِ: إزالَتُه: **وأَصْلُ الكشْف**: رفع الغطاء عن الشَّيْء.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بما تُحِبُّ من الدُّنيا، وتراهُ خَيْراً لَكَ، فَلَا مُزِيلَ لَهُ إِلَّا هُوَ، فكَيْفَ لَوْ كَانَ إِصَابَةً دَاخِلَةً إلى الْعُمْق؟!

طُوي في العبارة الثانية جَوَاب الشَّرْطِ «إِنْ» لدَلَالَةِ العبارة الأولىٰ عَلَيْه، وأفصَحتْ عَنْ هذا المطويِّ الفاء في ﴿فَهُوَ﴾.

ودَلَّت عبارة: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: عَلَىٰ أَنَّ الله جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَا يُعْجِزُهُ إيجادُ شيءٍ يُريدُ إيجاده، ولا إعْدَامُ شيءٍ يُرِيدُ إعْدَامَهُ، ولَا التَّصرُّفُ بشَيْءٍ من الذَّواتِ أو الصِّفَاتِ يُرِيدُ فِيهِ مُرَاداً مَا، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُون.

قَدِير: صيغةُ مبالغة لاسم الفاعل «قادِر» ـ أي: هو مُتَّصِفٌ بالْقُدْرَةِ الْكَامِلَة الَّتِي يَخْلُقُ بِها مَا يَشَاءُ، ويَفْعَلُ بها ما يُرِيد، ولَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ مُرَادَاتِ اللهِ حَكِيمة.

• ولِدَفْعِ تَوَهُّم أَنَّ بَعْضَ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، لَهُمْ قُدْرَاتٌ مَحْدُوْداتٌ عَلَىٰ التصرُّفِ بشيْءٍ ما فِي الوجود على غَيْرِ مُرَادِ اللهِ وبغَيْرِ إِذْنِهِ، الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ يُسَوِّغُ للمشرِكِينَ أَنْ يَتعَلَّقُوا بِهِمْ، ويَلْتَمِسُوا عِنْدَهُمْ جَلْبَ نَفْعٍ أَوْ دَفْعَ ضُرٍّ، كانَ من الحِكْمَة في الْبَيَانِ الرَّبَّانِي المباشر، أَنْ يَقُولَ اللهُ عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

﴿ٱلْقَاهِرُ﴾: الآخِذُ الْغَالِبُ الْعَلِيُّ مِنْ غَيْرِ رِضَا المقْهُورِ المغْلُوبِ، فَفِي الْقَهْرِ مَعْنَىٰ الْجَبْرِ. **والْقَهَّارُ**: الغالِبُ المجْبِرُ على ما يريد، وهو من أسماءِ اللهِ الحسنى.

أي: واللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُجْرِي تَصارِيفَهُ الْجَبْرِيَّةَ بِعبادِهِ كُلِّهِمْ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ، بالْقَهْرِ والْغَلَبَةِ المستَعْلِيَةِ على كُلِّ فَرْدٍ مِنْهِم، فَلَا يُمَكِّنُ أحداً ذَا مَشيئَةٍ حُرَّةٍ مِنْ تَصرُّفٍ بِمَشيئَتِهِ وبِمَا وَهَبَهُ اللهُ من قُدْرَة، أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَمَنْ أَرَادَ شَيْئاً من ذلِكَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ التَّمْكِينَ بالْقَهْرِ والْجَبْرِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُحقِّقَ مُرَادَه، فاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عباده، لا يُشارِكُهُ في قَهْرِهِ أحد.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾: أي: وهو تَبارَكَ وتَعالَىٰ الحكِيمُ في كلِّ تَصارِيفِهِ فِي كَوْنه، ومِنْها تَصارِيفُه بِعِبَادِه. الْخَبِيرُ بِعِبَادِهِ وبما يُلائِمُ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ.

الحكيم: هو الذي يضَعُ الأشياءَ فِي مواضعِها، ويختارُ أفضلَ الأشياءِ وأتْقَنها وأحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ المختَلِفَةِ، لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النتائج،

حكيم: بمعنى مُحْكم، على وزْنِ مُفْعِل، من أحْكَمَ الشيء بمعنى أتْقَنَهُ وأحْسَنَهُ ووضع كلّ شيءٍ فيه في موضعه.

الخبير: هو العَليمُ بالْأَمْرِ أو بالشيءِ عَنْ تَجْرِبَةٍ وَمُمَارَسَة.

وقد دَلَّ تعريف طرفَي الإسناد على القصر في كِلَا الْجُمْلَتَيْنِ.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الخامس من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمدُ لله على معونته ومَدَدِهِ وتَوفِيقه وفتحه.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (الأنعام)

الآية (١٩)

قال الله عزَّ وجلَّ:

- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾:

القراءات:

قرأ ابْنُ كثير: [**الْقُرَانُ**] بِحَذْفِ الهمزة، وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**الْقُرْءَانُ**].

تمهيد:

آيةُ هَـٰذَا الدَّرْسِ مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الثاني من ساقَي شجرة مَوضوع السورة، وفيها فِقَرَةُ تَعْلِيم جَدَلِيٍّ وَدَعَوِيّ مُوجَّهٍ من اللهِ لِرَسُوله، حَوْلَ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ ﷺ، وحَوْلَ شِرْكِ المشرِكينَ وآلِهَتِهِم الباطلة.

التّدبّر التحليلي:

قول اللهِ تَعالى:

- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؟ أي: قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ في حِوَارٍ عَقْلِيٍّ هَادِئٍ: أَيُّ شَيْءٍ شَهَادَتُهُ في نُفُوسِكُمْ هي أَكْبَرُ شَهَادَةٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، تُرِيدُونَ أَنْ يَشْهَدَ لِي بأنّي نَبِيُّ اللهِ ورسُولُهُ، وَأَنِّي صَادِقٌ فيما أُبلّغ عنه؟؟

هذا السُّؤَالُ هُوَ مِفْتَاحُ الْحِوارِ، والْخُطْوَةُ الْأُولَىٰ مِنْ خُطْوَاتِهِ، ومن شأْنِ هذا السُّؤَالِ أَنْ يُلْجِئَ المنَاظَرَ الرَّشِيدَ إلى أَنْ يَقُولَ: اللهُ أَكْبَرُ شَهَادَةً مِنْ كُلِّ شَهِيدٍ.

أُطْلِقَ لَفْظُ شيءٍ، لإعْطَاءِ المسؤول حُرِّيَّةَ اخْتِيار مَا يرَىٰ أَنَّهُ صَالحٌ لِأَنَّ يُقَدِّمَ شَهَادَةً، مِنْ حَيٍّ يَشْهَدُ، أَوْ حَقِيقَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَشْهَدُ.

ونَظِيرُ هَـٰذَا قولُ الله تَعَالى في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هَـٰذَا الإطْلَاقُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ لِلْمُنَاظِرِ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ، أَنْ يَتْرُكَ لِلْمُنَاظِرِ مجَالَ التَّفْكِيرِ مَفْتُوحاً، وَلَوْ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُدْخِلَ فِي تَقْدِيراتِهِ الاحْتِمَالِيَّةِ كُلَّ شَيْءٍ يَخْطُرُ في بالِهِ، من أحياء أو حَقَائِقَ عقليّة، ولَيْسَ لِمُعْتَرِضٍ حَقٌّ فِي أَنْ يَقُولَ: لَا يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَىٰ اللهِ لفظ، «شيء» لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أسماء اللهِ الحسْنَىٰ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يُعَلِّمُنَا هَـٰذَا الأُسْلُوبَ في المنَاظَرَاتِ والمحاورات.

لفظ «شَيْء» من الأجناسِ الْعُلْيَا العامَّة، يُطْلَقُ عَلَىٰ مَا يُمْكِنُ لِلْفِكْرِ أَنْ يُدْرِكَه.

فإِذَا قَالَ مَنْ وُجِّهَ لَهُمُ السُّؤَالُ: اللهُ أَكْبَرُ شَهَادَةً مِن شَهَادَةِ كُلِّ

شَهيد، وهُم يُنْكِرُونَ نُبُوَّة مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتَه، فالْحِكْمَةُ الْحِوَارِيَّة تقتضي أَنْ يَقول الرَّسُولُ لَهُمْ مَا جاء في التعليم، وهُوَ قَول الله تَعَالى:

- ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾: أي: وقَدْ شَهِدَ لي عَنْ طَرِيقِ الآيَةِ الْبُرْهَانِيَّة الَّتِي شَقَّ لِي بِهَا الْقَمَرَ، وشَهِدَ لِي عَنْ طَرِيق الآيَةِ القرآنية الْمُعْجِزَةِ، وقَدْ تَحَدَّاكُمْ بِأَنْ تَأْتُوا بمثْلِ عَشْرِ سُوَرٍ مِنه، أَوْ بِمِثْلِ سُورَةٍ ذَاتِ طُولٍ يُسَاوي عَشْرَ سُوَرٍ مِنْ قِصَارِ السُّور، فَعَجَزْتُمْ فَكَانَ هَـٰذَا شَهَادَةً مِنْهُ بأَنَّهُ اصطفاني نبيًّا وَرسُولاً، لِأُبَلِّغَ عَنْهُ مَا أَرْسَلَنِي به.

أَلَا تكفيكُمْ هَـٰذِهِ الشهادةُ مِنَ الله؟! أَلَا يكفِيكُمْ أَنْ يَكُونَ اللهُ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ؟!

لفظ «بَيْن» ظَرْفٌ بمَعْنَىٰ التَّشْرِيكِ، وهو يضاف إلى أكْثَرَ مِنْ واحد، وإذا أُضِيفَ إلى واحِدٍ عُطِفَ عليْه بالْوَاو، ويَجِبُ تَكْرِيرُهَا مع المضْمَرِ، كمَا جاءَ في الآية هنا.

فإذا وَجَدَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الْحُجَّةَ قَدْ لَزِمَتْهُمْ، وجَّهَ دَعْوَتَهُ لَهُمْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِمَا جَاءَ فِي القرآنِ مِنْ بَيَانَات.

فإذا وَجَدَ أَنَّهُمْ مُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِيَّاتِهِم وَجَّهَ لَهُمْ مَا جَاءَ بيانُهُ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ التعليميَّة قَائلاً:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ... ﴿١٩﴾﴾:

الإنْذارُ بعقاب الله وَعذَابِهِ يأتي إلماحاً أَوْ غَيْرَ مُشَدَّدٍ مَعَ أوائِلِ الدَّعْوَةِ إلىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، ويأْتِي بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ مع أَوَاخِرِ الدَّعوَةِ، ويأْتِي فِقَرَةً خِتَامِيَّةً تُوَجَّهُ للمكابِرِينَ المعانِدِين المصِرِّينَ علىٰ باطِلِهِمْ، الَّذِينَ لَمْ تُجْدِ فيهِمْ وسائِلُ الإقْناع والهداية للَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، ووسائلُ الترغيب والترهيب بالموعِظَةِ الحسَنَةِ، ووسَائِلُ الجِدَالِ بالَّتِي هِي أحسن.

ويُشْعِرُ هذا الْبَيَانُ بأنَّ المعالَجِينَ قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَة المكابَرَةِ والعِنَاد والإصْرار على الباطل، ولهذا جاءَ فِيهِ التوجيه للإنْذَارِ بالقرآن، أي: بما جاءَ في القرآن مِنْ إنْذَارَاتٍ بأنْواعِ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، كما حَصَلَ لكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابقة، وبعَذَابٍ مُؤَجَّلٍ إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، يكُونُ في نار جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها أبداً بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِحَقِّ رَبِّهِمْ عليهم، وبِحَسَبِ جَرَائِمهم الَّتِي اكْتَسَبُوها في حياة الابْتِلَاءِ، ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

وَجاء عَطْفُ ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ على ضَمِير المخاطَبِينَ المعالَجِين، أي: ولِأُنْذِرَ بما جاءَ في القرآن من إنْذَارَاتِ عقابٍ وَعَذَابٍ، مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتِي، وَبَلَغَهُ مَا جَاءَ فِي القرآنِ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ الخاتِمِ لِرِسَالَاتِ اللهِ للنَّاس.

حُذِفَتْ مَعْمُولَاتُ فِعْل «بَلَغَ» لإمْكانِ إدْراكِها بالقرائن.

وبَعْدَ هَـٰذَا الْعِلَاجِ الْحِوَارِيِّ الدَّعَوِيّ، وَجَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ لمناظَرَتِهِمْ بشَأْنِ شِرْكِهِمْ وَشُرَكَائِهم، فجاء في التعليم في آية هذا الدَّرْسِ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

- ﴿... أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾:

في هذا البيان ثلاث فِقرات تَعْلِيميَّة:

الفِقَرَةُ الْأُولى: تتضَمَّنَ تَعْلِيمَ الرَّسُول ﷺ أَنْ يَطْرَحَ على المشركين المعالَجينَ السُّؤالَ التَّالي: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ﴾: أي: هَلْ لَدَيكُمْ مُشاهدَةٌ حِسِّيَّةٌ، أو بُرْهَانٌ عَقْلِيٌّ يَسْمَحُ لَكُم بِأَنْ تَشْهَدُوا شَهَادَةَ صِدْقٍ، بأنَّ مَعَ اللهِ في الْوُجُودِ أَرْبَاباً يُشَارِكُونَ اللهَ في الْخَلْقِ، حَتَّىٰ يَسْتَحِقُّوا بِرُبُوبِيَّاتِهِم أَنْ يَكُونُوا مَعَ اللهِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ مَعَهُ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِم لَكُمْ؟؟

سُؤالٌ لَا يَجِدُ مَعه المشْرِكُونَ مَا يَصْطَنِعُونَ من حُجَّةٍ مَهْمَا كَانُوا

أَذْكِيَاءَ فُطَنَاء، يُثْبِتُونَ بِهَا أَنَّ مَعَ اللهِ أَرْبَاباً تَسْتَحِقُّ أَنْ تكون آلِهة، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَهرَّبُوا مِنَ الإجابَةِ عَلَىٰ السُّؤَال، إِلَّا أقوالاً غَوْغائِيَّةً زُخْرُفيَّة، ومُغَالَطَاتٍ كاذِبَاتٍ إبهامِيَّات.

عِنْدَئِذٍ يأتي دَوْرُ إعْلَانِ الفِقْرَةِ الثانية:

الفِقَرةُ الثانية: قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ في التعليم: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُۚ﴾ أي: إنْ كَذَبْتُمْ فَشهدْتُمْ بالباطِلِ دُونَ بُرَهَانٍ تُقَدِّمُونَهُ، فإنّي لَا أشْهدُ، بَلْ أُعْلِنُ مُخَالَفَتِي لَكُمْ بِكُلِّ قُوَّة.

وعِنْدَئِذٍ يَأْتِي دَوْرُ إعْلَانِ الْفِقَرَةِ الثالِثَة، وهي فِقَرَةُ إعْلَانِ الإيمان بأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وإعْلَانِ الْبَرَاءَةِ مِمَّا يُشْرِكُ المشْرِكُونَ.

الفقرة الثالثة: قولُ اللهِ تعالَىٰ لرسُوله في التعليم: ﴿... قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ⑲﴾: أي: مَا المعبودُ الحقُّ إِلَّا إِلَهٌ واحِدٌ هُوَ اللهُ رَبُّ كُلِّ مَا سِوَاهُ مِنْ كائِنَاتٍ، وَأُأَكِّدُ لَكُمْ بصَراحَةٍ وقُوَّةٍ أَنَّنِي بَرِيءٌ مِنْ عِبادَةِ كُلِّ مَا تَجْعَلُونَهُ شَرِيكاً للهِ فِي رُبُوبِيّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ كائناً مَنْ كان، وكائناً مَا كان.

بَرِيءٌ: أي: مُبْتَعِدٌ ومُتَجافٍ عَنِ الشِّرْكِ وعَمَّا تُشْرِكُونَ، وخالِصٌ من رِجْس الشِّرْكِ ورِجْس الشياطين الدَّاعِينَ إلى الشّرك.

وبهذَا الإعْلانِ الإيمانِيّ المقطوع به تنتهي جَوْلَةُ هذا الْحِوار.

في عبارة ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قَصْرٌ حَقِيقي بأداة القصر إنما، وهو من قصر صفة على موصوف، وفي عبارة: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ توكيد بـ «إن ـ والجملة الاسمية».

وبهذا تمّ تدبّر الدرس السادس من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (الأنعام)

الآيات من (٢٠ ـ ٣٩)

قال الله عزّ وجلّ:

• ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٠) وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا
يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢١) وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ
تَزۡعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ (٢٣) ٱنظُرۡ
كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٢٤) وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ
وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمۡ
يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (٢٦) وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ
عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٢٧) بَلۡ بَدَا لَهُم
مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوٓاْ إِنۡ
هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ (٢٩) وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ
هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ (٣٠) قَدۡ خَسِرَ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا
وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا
لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٣٢) قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ
ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدۡ
كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ
فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (٣٥) ۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ

يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ
قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن
يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ۚ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾:

القراءات:

(٢٢) • قرأ يعقوب: **[وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ]** بالياء في الفعلين، أي: يَحْشُرُهُمُ اللهُ.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ]** بالنّون في الفعلين، والفاعل ضمير المتكلّم العظيم.

وبيّنَ القراءتَيْنِ تفنُّنٌ بياني.

(٢٣) • قرأ نافع، وأبُو عَمْرو، وشعبة، وأبو جعفر، وخلف: **[ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ]** بتاء المضارعة، وبالنصب في **[فِتْنَتَهُمْ]**.

وقرأها ابن كثير، وابن عامر، وحفص: **[ثُمَّ لَمْ تَكُنَّ فِتْنَتُهُمْ]** بتاء المضارعة، وبالرفع في **[فِتْنَتُهُمْ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتَهُمْ]** بياء المضارعة، وبالنصب في: **[فِتْنَتَهُمْ]**.

وهذه القراءات وجوه عربية جائزة ومتكافئة من جهة المعنى.

(٢٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[واللهِ رَبَّنَا]**: أي: يَا رَبَّنَا.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[واللهِ رَبِّنَا]** بالجرّ على البدلية.

(٢٧) • قرأ حفص، وحمزة، ويعقوب: **[وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ]** بنصْب الفعلين.

وقرأها ابن عامر: [**وَلَا نُكَذِّبُ بآياتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ**] برفع الفعل الأول، ونَصْبِ الفِعْلِ الثاني.

وقرأها باقي القرّاء العشرة [**وَلَا نُكَذِّبُ بآياتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ**] برفع الفِعْلَيْنِ.

وهذه القراءات وجوهٌ عَرَبِيَّةٌ جائزة.

(٣٢) ● قرأ ابْن عامر: [**وَلَدَارُ الْآخِرَةِ**] أي: وَلَدَارُ الحياة الآخرة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ**] على أنّ «الآخِرة» وصْفٌ للدار.

وبين القراءتين تَفَنُّنٌ في البيان، والمؤدّىٰ واحد.

(٣٢) ● قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**] بتاء المخاطَبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**] بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البيانيّ.

(٣٣) ● قرأ نافع: [**لَيُحْزِنُكَ**] مِنْ فِعل «أحْزَنَهُ» وهي لغة تميم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة [**لَيَحْزُنُكَ**] من فعل «حَزَنَهُ» وهي لغة قُرَيش.

(٣٣) ● قرأ نافع، والكسائي: [**لَا يُكْذِبُونَكَ**] من فعل «أَكْذَبَهُ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [**لَا يُكَذِّبُونَكَ**] من فعل «كَذَّبَهُ».

والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

(٣٦) ● قرأ يعقوب: [**يَرْجِعُونَ**] بالبناء للمعلوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**يُرْجَعُونَ**] بالبناء لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءتيْنِ تكامل، أي: يُرْجعُهم الله، فهُمْ يَرْجِعُونَ مطاوعين بالجبر.

(٣٧) ● قرأ ابن كثير: [**يُنْزِلَ**] من فعل: «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَة: [**يُنَزِّلَ**] من فعل: «نَزَّلَ».

والقراءتان متكافئتان، لأنّ الهمز أخو التضعيف.

(٣٩) ● قرأ أبو جعفر: [**وَمَنْ يَشا يَجْعَلْهُ**] بإبدال الهمزة ألفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ**] بالهمزة الساكنة دون إبدال.

(٣٩) ● أشَمَّ صَادَ [**صِرَاطٍ**] صَوْتَ الزَّاي قنبل، ورُويس، وخلف عن حمزة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة صاداً خالصة.

تمهيد:

آيات هذا الدرس السابع من فروع السّاق الأول من ساقَيْ شجرة موضوع السّورة. وفيه بيان مِن الله عزَّ وجلَّ بشأنِ نُبُوَّةِ الرسولِ محمّد ﷺ ورِسَالتِه، وفيه تَحْذِيرٌ منْهُ للمُفْتَرِينَ عَلَىٰ اللهِ وللمُكَذِّبين بآياته، وفيه لقْطَةٌ مِنْ مَشْهَدِ الحشْرِ يوم الدِّين، وَلَقْطَةٌ من مَشْهَدِ سُؤالِ المشركين عَنْ شركائهم، وفيه تعجيب من أَمْرِ الكافرين كَيْفَ يَضِيعُ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرُونَهُ في الحياة الدّنيا.

وفيه وصف لحال بعض الكافرين في الدنيا، وما بلغوه من انطماس بصائرهم بسبب عنادهم واتباعهم أهواءهم.

وفيه لقطة أُخْرَى من مشاهد يوم الدِّين، وتَمَنِّي الكافِرين الرَّجْعَةَ إلى

الحياة الدُّنيا حَيَاة الامْتِحان ليكونُوا مِنْ أَهْلِ الإيمان والطاعَةِ لرَبّهم.

وفيه بيانُ إنْكارِ الكافِرينَ الْبَعْثَ بَعْدَ الموتِ.

وفيه لقطة ثالثة مِنْ مَشَاهِدِ الكافرينَ يَوْمَ الدّينِ، حينَ يُوقَفُونَ على مَوْقِفِ حِسَاب رَبّهم لهم.

وفيه بيان عن الحياة الدُّنيا مُقَارَنَةَ بالآخِرَةِ وَمَا فيها.

وفيه تَسْلِيَةٌ للرَّسُول ﷺ بشأْنِ تَكْذِيب كُفَّارِ قومه له، وتوجيهٌ له وتربية، وبيانُ حَقَائِقَ تكوينيَّة هي لَوازم لحرّيَّاتِ الناس في اخْتِيَارَاتهم الإرادية في حياة الابتلاء.

التّدبّر التحليلي:

- ■ قول الله تَعَالَىٰ:

- ● ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يُبَيّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ في هَـٰذِهِ الآيَةِ لِمُشْرِكِي الْعَرب أَنَّ الَّذِينَ آتاهُمُ الكتابَ، وهُم عُلماء الْيَهُودِ والنَّصارَىٰ، يَعْرِفُونَ أَنَّ مُحَمَّداً نَبيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ وأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبياءِ والْمُرسَلِينَ، مِنَ الْبَشَائِرِ المذكُورَةِ في كُتُبِهِمْ، الَّتِي تُبَشِّرُ بِهِ، وفِيهَا بَيَانُ صِفَاتِهِ، وَمَكَان ظُهُورِهِ، وأُلُوفِ الْأَطْهَارِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ، وَيَنْشُرُونَ دَعْوَته، ويَحْمِلُونَ رِسَالَتَهُ، وجاءَ فِي الإنْجِيلِ ذِكْرُ اسْمِهِ، ونجدُ هَـٰذَا صَرِيحاً فِي الإنجيلِ المنْسُوبِ إِلَىٰ «بَرْنَابَا».

وجاء في سورة (الصّف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول) أَنَّ عيسىٰ عليه السَّلام أبَانَ لبني إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مُبَشِّرٌ بِرَسُولٍ سيأْتِي من بَعْدِهِ اسْمُهُ أحمد، قال اللهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ

مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

ومَعْرِفَةُ عُلَماءِ أَهْلِ الكِتَابِ بأنَّ محمَّداً هو الرَّسُولُ المبشَّرُ بِهِ في كُتُبِهِمْ، مَعْرِفَةٌ جَلِيَّةٌ واضِحَةٌ تُشْبِهُ مَعْرِفَتَهُمْ بأبْنَائِهِمْ، لِوُضُوحِ التَّطابُقِ بَيْنَ الْبَشَائِرِ المذكُورَةِ في كُتُبِهِمْ وَبَيْنَ وَاقِعِ حَالِ صِفَاتِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ الذَّاتِيَّة، وصِفَاتِ مَكَانِ بِعْثَتِهِ، وَصِفَاتِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي يُبَلِّغُهَا للنَّاسِ، مَعَ مَا آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ آياتٍ بيِّنَاتٍ خَوارقَ.

قوله تعالى:

- ﴿... ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ أَنْفُسِهِمْ باتِّباعِهِم أَهْوَاءَهُم وشَهَوَاتِهِم، وحُبِّهِمْ للعاجِلَةِ الفانية، وتَرْكِهِمْ للآخِرَة، فَعَرَّضُوهَا للعذاب الخالِدِ يَوْمَ الدِّين في نارِ جهنَّمَ، لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا يَدْفَعُهُمْ للإيمان بِرسُول اللهِ مُحَمَّد ﷺ، وتَصْدِيقِهِ فيما جاء به عَنْ رَبِّهِ، فهم لَا يُؤْمِنُونَ.

تَضَمَّنَ المبتدأ وهو اسْمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ معنى الشرط أَوْ رَائِحَةَ الشرط، فجاءت الفاء في خبره: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

■ قول الله تَعالَىٰ:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾؟!:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟: استفهامٌ يُرادُ بِهِ إِثْبَاتُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَشَدُّ ظُلْماً مِنْ فَرِيقَيْن:

الفريق الأوّل: «مَنِ افترى علىٰ اللهِ كَذِباً» أي: اخْتَلَقَ واصطَنَعَ الكَذِبَ على اللهِ عَنْ عَمْد، كأنْ يقُولَ عَنْ كَلامٍ: هَـٰذَا كَلامُ اللهِ، وهُوَ لَيْسَ بكَلامِ الله.

الفريق الثّاني: «مَنْ كَذَّبَ بآيَاتِ الله» مع إقامَةِ الحجَّةِ عَلَيْهِ بأنَّها آياتُ الله، كأنْ يُكَذِّبَ بالْقُرْآنِ المجيد أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْد الله، وقد صَحَّ عِنْدَهُ واسْتَيْقَنَتْ نَفْسُهُ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ جلّ جلالُهُ.

فجَمعَ هَـٰذا الْبَيانُ بيْنَ مَنْ يَدَّعي النبوَّةَ وهُو كاذِب، وبيْنَ مَنْ يُكَذِّبُ النَّبيَّ وهُوَ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللهِ بالآيات الخوارق، وهذا مِنْ تمام الْعَدْلِ في الْحِوَارِ وفي البيان الاحْتِجَاجِيِّ علَىٰ مُكَذِّبي الرَّسُول، بأنَّ كلا الْفَرِيقَين قد بَلَغَا حضيض الظلم.

﴿... إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾: أي: إنَّهُ لا يَظْفَرُ ولَا يَفُوزُ عِنْدَ الله الظَّالِمُونَ، والمرَادُ بالظَّالِمينَ هُنَا الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر.

الفلاح: النَّجاةُ والفوْزُ والظفر، **وأصْلُ الْفَلاح**: الْبَقَاءُ في النَّعِيمِ والخَيْرِ.

قالَ الأزْهَري: وإنَّما قيل لِأَهْل الجنَّةِ مُفْلِحُونَ لِفَوْزِهِمْ بِبَقَاءِ الْأَبَد.

■ قول الله تَعالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ فِي حِسَابِ المشركين:

- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: أَيْ: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّها المتَلَقِّي الرَّشِيدُ، مَا نَعْرِضُ عَلَيْكَ مِنْ مَشْهَدٍ سَوْفَ يكُونُ يَوْمَ القيامَةِ، إذْ نَحْشُرُ الْخَلَائِقَ جَمِيعاً، يَتَحدَّثُ رَبُّنَا بضَمِير المتكلّم العظيم.

- ﴿... ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

أيْ: ثُمَّ في آخِرِ أحْدَاثٍ تَكُونُ بَعْدَ الْحَشْر، مِنْهَا فَرْزُ أَهْلِ الإيمان

عَن أَهْلِ الكُفرِ، وَمُهْلَةُ انْتِظَارٍ قَبْلَ إِقَامَةِ محكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِية، تَجْرِي مُسَاءَلَةُ المشْرِكِينَ، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصلِ القَضَاءِ بِشأنِهِمْ.

الحشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْقُ.

عِنْدَئِذٍ يقولُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِلَّذِينَ كَانُوا قَدْ أشْرَكُوا باللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً، في الحياة الدُّنيا حَياةِ الابْتِلَاءِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أَنَّهُمْ شُرَكَائِي، فِي رُبُوبِيَّتِي، أَوْ فِي إِلَهِيَّتِي؟؟. أَحْضِرُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ إِحْضَارِهِمْ قادِرين.

﴿تَزْعُمُونَ﴾: أي: تفترونَهُمْ كاذِبين. يأْتِي الزَّعْمُ لُغَةً بمعنَىٰ الظّن، وبمعْنَىٰ الشَّكِّ والارْتِياب، وبمعنىٰ الكذِب، وَهَٰذَا المعنَىٰ هو الملائم هنا. وقَدْ يُرَادُ بالنِّسْبَةِ إلى بعضِ المشْرِكِينَ أَنَّهُمْ كانُوا يَظُنُّونَ إِلَهِيَّةَ شركائِهم ظَنًّا ضَعِيفاً، فاكْتَفَوْا بالظنِّ الضعيفِ اتّباعاً لأهْوَائِهِم، وتَركُوا الْحُجَجَ الْقَوِيَّةَ البرهانِيَّةَ الَّتِي تُثْبِتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ بحَقٍّ إِلَّا اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ.

- ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

جاء في القراءات ﴿تَكُن﴾ بالتأنيث، مُراعاة للّفظ في ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ وجاءَ فيها ﴿يَكُنْ﴾ بالتَّذْكير، لِأَنَّ لفظ «فِتْنَة» مجازي التأنيث، يجوز تَذكير الفعل وتأنيثهُ معه.

وَجاء في القراءات نَصْبُ ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ ورَفْعُها. أمَّا النَّصْبُ فَعلَىٰ اعتبار لفظ «فِتْنَة» خبَرَ فعل: ﴿تَكُن﴾ واسْمُها المصدر المؤوّل مِنْ ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وأمَّا الرَّفْعُ فعَلَىٰ اعتبار لفظ «فِتنة» هو اسم فعل: ﴿تَكُن﴾ وأَنَّ الْمَصْدَر المؤوّل هو الخبر.

وجاء في القراءات: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ بِجرّ ربّنَا، على أَنَّهُ وَصْف لاسْمِ الجلالَة، أو بدل منه:

وجاء فيها نَصْبُ ﴿رَبَّنَا﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنادَىٰ بحذف حَرْف النّداء.

﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: تُطْلَقُ الفِتْنَةِ وَيُرَادَ بها الْعِقَابُ والْعَذَابَ، وأرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا هُو المرادُ هُنَا، واللهُ أعْلَمُ.

فالمعْنَىٰ: ثُمَّ بَعْدَ الْحَشْرِ وَسُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ شُرَكَائِهِم الَّذِينَ كانُوا فِي حياةِ الابتلاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ للهِ، عُذِّبُوا عَذَاباً خاصًّا قَبْلَ أَخْذِهِمْ وَإِلْقَائِهِمْ فِي جَهَنَّم دَارِ عَذَابِهِمُ الخالد، لِأَنَّهُمْ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ إِذْ قَالُوا: «وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» لَكِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَكْشِفُ أَنَّهُم كَاذِبُونَ، إِذْ يَخْتِمُ اللهُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ويُنْطِقُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَجُلُودَهُمْ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِم بأَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ، إِضَافَةً إِلَىٰ صُحُفِ أعْمَالِهِم الَّتِي تَكْشِفُ بالصَّوْتِ والصُّورَةِ وَحَرَكَاتِ الْقُلُوب والنُّفُوسِ وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ عَقَائِدَ وَنيَّاتٍ وَخَوَاطِر.

وبَعْدَ أَنْ يُدَانُوا بِكَذِبِهِمْ فِي مَوْقِفِ سُؤالِهِمْ وحِسَابِهِم يُعَاقَبُونَ عَلَىٰ هَـٰذَا الكَذِبِ، وبهذا تكونُ فِتْنَتُهُمْ الَّتِي سَبَّبَهَا لَهُمْ كَذِبُهُم في سُؤَالِ رَبِّهِمْ لهم عَنْ شُرَكائِهِم.

- ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: انْظُر أَيُّهَا المتَلَقِّي لِنَبَأِ هَـٰؤلَاءِ المشركين، إِذْ يُنْكِرُونَ فِي مَوْقِفِ حِسَابِهِمْ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ، أَنَّهُمْ كانُوا مُشْرِكِينَ في الحياة الدُّنيا، ويَحْلِفُونَ باللهِ أَنَّهُمْ مَا كانوا في الحياة الدُّنيا مُشْرِكِينَ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ الأَيْمَانَ الكاذِبَةَ تُنْجِيهِمْ مِنْ جَرِيمَةِ الشِّرْكِ باللهِ، الّتِي كانت جَرِيمَتَهُمُ الكُبْرَىٰ في الحياةِ الدُّنيا، ويَغْفُلُونَ عَنْ أَنَّ اللهَ عَلِيمٌ بما في قُلُوبِهِمْ، فَعَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَذابٍ أليم عَلَىٰ أيْمَانِهِمُ الفَاجِرَةِ، قَبْلَ إِلْقَائِهِمْ في جَهَنَّمَ لِينَالُوا الْعَذابَ الدَّائِمَ الْخَالِدَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِيَّاتِهِم، وجرائِمِهِمُ الأخرىٰ الّتي قَدَّمُوهَا فِي الحياة الدُّنيا.

لفظ ﴿كَيْفَ﴾ ترَجَّح لَدَيَّ أَنَّهُ مفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلِ: ﴿انْظُرْ﴾ مَسْلُوباً مِنْها معنَىٰ الاسْتِفْهَام، وباقٍ فيها معنىٰ الوصْفِ الكَيْفِيّ.

وجاءَ في التعْبير: ﴿كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ﴾ مع عِلْمِهِمْ بأَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكين، لِأَنَّ كَذِبَهُمْ لَا يَكُونُ عَلَىٰ اللهِ، فاللهُ كاشِفُ سَرَائِرهم، عَلِيم بِكُلِّ مَا يُخْفُونَ فِي نُفُوسِهم. ويُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ إعْلَانَهُمُ الْجَمَاعِيَّ هُوَ مِنْ قَبِيلِ كَذِبِ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ، فكُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُخْفِي عَنِ الآخَرِينَ بِيَمِينِهِ أَنَّهُ كَانَ مُشْرِكاً، طَمَعاً في أَنْ يَتجاوَزَ اللهُ عَنْهُ وَيغْفِرَ لَهُ سَوَابِقَ شِرْكِهِ، واللهُ أَعْلَم. أو كَذَبُوا جَانِينَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ، وهُوَ على تَقْدِيرِ مُضَافٍ مَحْذُوف.

• ﴿... وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: وضَاعَ مُبْتَعِداً عَنْهُمْ ابْتِعَاداً لَا يَسْتَطِيعُونَ اجتِيَازَ مَسافَتِهِ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ على رَبِّهِمْ مِنْ شُرَكَاءَ، وَمَا يفْتَرُونَهُ مِنْ ضَلَالَاتٍ يَزْعُمُونَ أنها مِن الدِّينِ وَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ دِينِ اللهِ في شيءٍ.

﴿يَفْتَرُونَ﴾: أي: يختلِقُونَ وَيَصْطَنِعُونَ ادّعَاءاتٍ هُمْ فيها كاذبون.

■ قول اللهِ تَعالَىٰ مُخَاطِباً رَسُولَهُ بِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنَ المشركين، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وقُلُوبُهُمْ مُنْصَرِفَةٌ عَمَّا يَقُولُهُ لهم، أَوْ يَتْلُوهُ عَلَيْهِمُ انْصِرَافاً كُلِّيًّا، وَهَـٰذَا انْتِقَالٌ مِنْ مَشْهَدٍ من مَشَاهِدِ الآخِرَةِ إِلَىٰ بَيَانِ أحداثٍ هي من أَحْدَاثِ الدُّنيا:

• ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

• ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ﴾: أي: وبعْضُ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فيما يَظْهَرُ مِنْ أَحْوالهم، لَكِنَّهُمْ عازِمُونَ ابْتِدَاءً

عَلى رَفْضِ مَا تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ، وَمَا تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِن آيَاتِ القرآنِ الْمَجِيدِ المنزَّلِ عَلَيْكَ، فَهُمْ بمُقْتَضَىٰ نِظَامِ خَلْقِ اللهِ للنُّفُوسِ الإنْسَانِيَّةِ مَحْجُوبُونَ عَنْ إدْرَاكِ مَعْنَىٰ مَا يَصِلُ إلى آذَانِهِمْ مِنْ أقوالِكَ، وإِذَا أَدْرَكُوا مَعَانِي سَطْحِيَّةً فإنّهم مَحْجُوبُونَ عَنْ فِقْهِ مَا تَقُول فِقْهاً يُدْرِكُونَ به حَقَائِقَ الْمَعَانِي حَتَّىٰ تُؤَثِّرَ فيهم.

- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: وَجعَلْنا بِمُقْتَضَىٰ نِظَامِ التكْوينِ الْعَامّ لِكُلِّ النفوس الإنْسَانِيَّة، عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وهي مراكِزُ الْفَهْمِ في نُفُوسِهِمْ، حُجُباً كَثِيفَةً وأغْطِيَةً مَانِعَةً لَهُمْ مِنْ أنْ يَفْقَهُوهُ.

﴿أَكِنَّةً﴾: جَمْعُ «كِنٍّ» وهو البيْتُ، وكلُّ ما يقي ويَسْتُر، **والأكِنَّةُ**: الأغْطِيَةُ السَّاتِرَةُ الحاجِبَةُ.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: حُجباً مَانِعَةً لَهُمْ مِنْ أَنْ يَفْقَهُوهُ، بِسَبَبِ رَفْضِهِمُ الإصْغَاءَ لمَا يَسْمَعُونَهُ، ورَفْضِهِم الانتفاع به ابْتداءً.

الفقه: في اللُّغَةِ هو الْفَهْمُ والْفِطنة، واسْتُعْمِلَ للدلالة على العِلْمِ ببَواطِنِ الأُمُور وخَفَايَاهَا ودقَائِقها، وعلى البَحْثِ عَنْها للتوصل إلى مَعْرِفَتِها، فهو بهذا أخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ الْعِلم.

إنّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ ونِظَامِهِ التَّكْوِينيّ للنُّفُوسِ الإنْسَانِيَّةِ، أَنَّ مَنْ حَجَبَ نَفْسَهُ بِحُجُبٍ مِنَ الرَّفْضِ لِلْحَقِّ المخالِفِ لأهْوَاءِ النُّفُوسِ وَشَهَوَاتِهَا، لَمْ يَكُنْ لَدَىٰ قَلْبِهِ اسْتِعْدَادٌ لِفَهْمِ الأقْوَالِ الَّتي تَسْمَعُهَا أُذُناه فَهماً صَحِيحاً، يُدْرِكُ بِهِ دَلَالَاتِها الكاشفاتِ لِمَا وَرَاءَ الظَّواهِرِ اللَّفْظِيَّةِ مِنْ مَعَانٍ عَمِيقَةٍ أَوْ دَقِيقَةٍ، ولَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَهَا لَعَرَفَ الحقَّ، ومَيَّزَهُ عن البَاطِلِ، ولَعَرَفَ أَنَّ من الْخَيرِ الْعَظِيمِ لَهُ أَنْ يَنْبذَ الباطِلَ الَّذي يتَمَّسَكُ به، وأَنْ يَسْتَمْسِكَ بالْحَقِّ الَّذي يَرْفُضُه.

- ﴿... وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ...﴾: أي: وَجعَلْنَا في آذانِهِمْ صَمَماً،

أو ثِقلاً شَدِيداً في السَّمْعِ قَرِيباً مِنَ الصَّمَم، وَهٰذا يَكُون بحَسَبِ نِظَام اللهِ التكْوِيني، في الأحْوَالِ الَّتِي يَكُونُ الإنْسَانُ فِيها شَدِيدَ الرَّفْضِ ابْتِدَاءً للدَّعْوَةِ البيانيَّةِ الَّتِي تُوَجَّهُ له، فَهُوَ إمَّا أَنْ يَكُونَ حَاضِراً غَيْرَ سَامِعٍ كالْمُنَافِقِين شَدِيدي النِّفَاقِ، وإمَّا أَنْ يَكُونَ حَاضِراً يَسْمَعُ سَمْعاً قَلِيلاً بَعْضَ ما يُوَجَّهُ لَهُ مِنْ بيان.

والْقِسْمُ الثَّالِثُ أَنْ يَسْمَعَ الْأَقْوَال ويَفْهَمَ سُطُوحَ دَلَالَاتِها، لَكِنَّهُ مَحْجُوبٌ عَن فِقْهِها، وإِدْرَاكِ دَقَائِقِ دَلَالَاتِهَا.

وسَبَبُ كُلِّ ذَلِكَ رَفْضُ دَعْوَةِ الْحَقِّ ابْتِدَاءً، وتَخْتَلِفُ أَحْوَالُ الأفرادِ بِحَسَبِ مَقَادِيرِ شِدَّةِ الرَّفْضِ.

- ﴿... وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ...﴾: أي: وإنْ يَرَ هٰؤُلَاءِ الرَّافِضُونَ لِدَعْوَة الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ ابْتِدَاءً، المعانِدُونَ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ الكُفْرِ والتَّمَسُّكِ بِشْرِكِيَّاتِهِم وتقالِيدِهِم الباطِلَة، كُلَّ آيَةٍ خَارِقَةٍ يُطَالِبُونَ بإجْرائِهَا كَيْ يُؤْمِنُوا، فَإِنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، لَأَنَّ عَدَمَ إيمانِهِم اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُقْتَنِعِينَ بِأَنَّ مَا يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ إِلَيْهِ حَقٌّ، بَلْ لِأَنَّهُمْ رَافِضُونَ قَبولَ الْحَقِّ ابْتِدَاءً، وإِجْرَاءُ الآيَاتِ الْخَوَارِقِ لَا يَزِيدُ في قَنَاعَتِهِمْ شَيْئاً، فَتَلْبِيَةُ طَلَبِهِمْ لَهَا عَبَثٌ لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ الرَّبِّ الْحَكِيم أَنْ يَفْعَلَهُ، وهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَكُلِّ جوانبِ نُفُوسِهِم، الْخَبِيرُ بِكُلِّ أحْوَالِهِم الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، حتَّىٰ أَحَادِيثِ نُفُوسِهِم الَّتِي لا يَنْطِقُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هُنا ابْتِدَائِيَّة دَاخِلَةٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿إِذَا جَآءُوكَ﴾ وحتَّىٰ الابْتِدَائية لَيْسَ فيها معنىٰ الغايَة، بل الجملة بَعْدَهَا مُسْتَأْنَفَة.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ جملةٌ حَالِيَّة، أي: حتى إذا جاؤوكَ يا مُحمَّدُ مجادِلِين، وكانُوا قَد اسْتَمَعُوا إِلَيْكَ آياتٍ مِنَ القرآن، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْقَهُوا معانِيَ ما تَلَوْتَه

عَلَيْهِم، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ كانَتْ مَحْجُوبَةً عَنْ فِقْهِها بِسَبَبِ رَفْضِهِم ابْتِدَاءً الاسْتِجابَةَ لِدَعْوَتِكَ.

﴿... يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾: هذا البيان جَوابُ ﴿إِذَا﴾ الشَّرْطِيَّة.

أي: إِنَّهُمْ إِذَا جَاؤوك يَبْتَغُونَ مُجَادَلَتَكَ، وكانُوا محجوبين عَنْ فِقْهِ مَا سَبَقَ أَنِ اسْتَمَعُوهُ مِنْكَ مِنْ كتابِ رَبِّكَ القرآن، يَقُولُونَ في عباراتِهِم الْجَدَلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ انْطِمَاسِ بَصَائِرِهِمْ عَنْ فَهْمِ مَا كانُوا قَدِ اسْتَمَعُوه مِنْ قَبْلُ، وعَنْ فَهْمِ ما يَسْتَمِعُونَ إليه مِنْكَ بَعْدَ مَجِيئِهِمْ للمجادلَة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الَّذِي تَتْلُوهُ عَلَيْنَا إِلَّا مَكْتُوبَاتُ الْأَوَّلِينَ، أَوْ قِصَصُ وأحاديثُ الأَوَّلين الخرافيَّة.

هذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ حينَما اسْتَمَعُوا إِلَىٰ الرَّسُول، وهُوَ يَتْلُو عَلَيْهِمْ شيئاً مِنَ الْقُرآنِ سَابقاً، انْصَرَفُوا عَنْ مَكَانِ تِلاوَةِ الرسُول له، وتَشَاوَرُوا فيما بَيْنَهُمْ بِشَأْنِ المقالَةِ الَّتِي يَقُولُونَهَا لِلطَّعْنِ في الْقُرْآنِ، فاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَقُولُوا: مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِين. وإِذْ أَعْجَبَهُمْ هَـٰذَا الْقَوْلُ الْجَدَلِيُّ جَاؤوا إِلَىٰ الرسول ﷺ مَرَّةً أُخْرَىٰ، لِيقُولُوا لَهُ هَـٰذَا الْقَوْلَ، بَعْدَ أَنْ يَسْتَمِعُوا إِلَىٰ تِلاوَتِهِ القرآن.

ولَا يَخْفَىٰ مَا فِي هَـٰذِهِ المواجهة مِنْ وَقَاحَةٍ وَمكابَرَةٍ بالباطل، ورغْبَةٍ في صَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عن التأَثُّرِ بالْقُرْآن.

وقَدْ سَبَقَ أَنْ قَالُوا هَـٰذِهِ المقالَة قبل نُزُول سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول).

أَسَاطِير: تَأْتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَيَيْن:

- فتَأْتِي بِمَعْنَىٰ: أباطِيلَ، وأحاديثَ لَا نظامَ لها، واحِدَتُها. إِسْطَارٌ، وإِسْطَارَةٌ، وأُسْطُورَةٌ، وأُسْطُورٌ.

● وتأتِي بِمَعْنَىٰ: مَكْتُوبَاتِ الْأَوَّلِينَ، ومَسْطُوراتهم، قال أبو عبيدة: جُمِعَ «سَطْرٌ» على «أَسْطُرٍ» ثُمَّ جُمِعَ «أسْطُر» على «أسَاطير». أي فأساطير جَمْعُ جَمْعٍ.

ويظْهَرُ أَنَّ المعْنِيِّينَ بالْحَدِيث من الكافِرين، يَقْصِدُون تَرْويجَ كُلٍّ مِنْ مَعْنَىٰ الأباطيل، ومَعْنَىٰ المكتوبات. فما في القرآن مِنْ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ هِيَ مِنْ أباطِيلِ الْأَوَّلِينَ، وَمَا في القرآن من معارف فِكْرِيَّةٍ، هي مِنْ مَكْتُوبات الْأَوَّلين، أي: مأْخُوذَةٌ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الكتاب.

■ قول الله تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ صِفَاتِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرك إبَّانَ التنزيل:

● ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يَعُودُ بالنَّظَرِ إلَىٰ ما جاء في الآية السابقة (٢٥) إلىٰ الْقُرْآن، مع احْتِمَالِ أَنْ يَكُون إلَىٰ الرَّسُولِ أيضاً ﷺ.

فالمعْنَىٰ: وَهٰؤُلَاءِ المعْنِيُّونَ بالْبَيَانِ، يَنْهَوْنَ جَمَاهِيرَهُمْ وكُلَّ مَنْ يَسْتَمِعُ إلى أَقْوَالِهِمْ، عَنِ اسْتِمَاعِ مَا يُتْلَىٰ مِنَ الْقُرآنِ، وعَنِ الإيمانِ بأنَّهُ كلامٌ مُنَزَّلٌ مِن عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، وهُمْ يَنْأَوْنَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ مُتَابَعَةِ اسْتِمَاعِ آياتِ الْقُرْآن وعَنِ الإيمان به.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾: أي: يَبْتَعِدُونَ، يقال لغة: «نَأَىٰ فُلَانٌ عَنْ كَذا، يَنْأَىٰ، نَأْياً» أي: ابْتَعَدَ عَنْه. بيْن «يَنْهَوْنَ» و«ينأون» جناسٌ شبيهٌ بالتام، ويُسَمَّىٰ «المضارع»⁽¹⁾.

وهُمْ أيْضاً يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اسْتِمَاعِ بَيَانَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، وعن الإيمان بِهِ نَبِيًّا وَرَسُولاً، ويَنْأَوْنَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ مُتَابَعَةِ اسْتِماع بياناته، وعن الإيمان بِهِ نبيًّا وَرَسُولاً.

---

(١) انظر «الجناس» في كتاب «البلاغة العربيّة» للمؤلف.

وهُمْ بِكُلٍّ مِنَ النَّهْيِ الَّذِي يُوَجِّهُونَهُ لِلنَّاسِ، والنَّأْيِ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ، لَا يَجْلُبُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الْبَقَاءَ في سُلْطَانِهِمْ وسِيَادَتِهِمْ في قومِهِمْ، بَلْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْهَلَاكِ الْعِقَابِيِّ في الْحَيَاةِ الدُّنيا، قَبْلَ مُجَازَاتِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ بعَذَابٍ خالِدٍ في الجحيم، وإذَا قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ أَنْ يُهْلِكَ في الحياة الدُّنيا بَعْضَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، فإنَّهُ سَيَخُصُّ هَـٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةَ الضَّالِينَ الْمُضلِّينَ بالإهْلَاك، وَلَا يَكُونُ نَهْيُهُمْ وَنَأْيُهُمْ سَبَباً فِي إهْلَاكِ غَيْرِهِمْ، بَلْ سَيَقْتَصِرُ الإهْلَاكُ الْعِقَابِيُّ عَلَيْهِمْ، فَهُمْ بِعَمَلِهِم الإجْرَامِيِّ لَا يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وهُمْ مَا يَشْعُرُونَ حِينَ إهْلَاكِهِمْ أَنَّ إهْلَاكَهُمُ اقْتَصَرَ عَلَيْهِمْ، وَهَـٰذَا مَا حَصَلَ فِعْلاً بَعْدَ ذَلِكَ، وَظَهرَ جَلِيًّا فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، فَقَدْ أُهْلِكَ فِيهَا أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ، وحَمَىٰ اللهُ مَنْ فِي قُلُوبِهِمْ خَيْرٌ مَا مِنَ الإهْلَاكِ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ دَخَلَ في الإسْلَام يَوْمَ فَتْح مَكَّةَ مَنْ كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ خَيْرٌ مَا، حَتَّىٰ أبو سُفْيَانَ الَّذِي كَانَ مِنْ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ قَبْلَ الْفَتْح.

وَلِهَـٰذَا قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، بِشَأْنِ الْأَسْرَىٰ الَّذِينَ أُسِرُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ في غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، في سورة (الْأَنْفَال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾.

فَتَكَامَلَتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ المتعَلِّقَةُ بدَلَالَةِ قول اللهِ تَعالَىٰ فِي سورة (الأنعام/ ٥٥) الَّتِي يَجْرِي تَدَبُّرها: ﴿... وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٦﴾:

«إِنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بمعْنَىٰ «ما».

■ وَيَنْتَقِلُ الدَّرْسُ بعدَ بَيَانِ طَائِفَةٍ مِنْ جَرَائِمِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، إِلَىٰ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِد أَحْوَالِهِمْ يَوْمَ القِيامَة، وَقَدْ سَبَقَ في الآيَاتِ من (٢٢ ـ ٢٤) عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنَ المشَاهِدِ المتعلّقَةِ بِهِم، وهُوَ مَشْهَدٌ مُنْتَزَعٌ مِنْ مَوْقِفِ سُؤَالِهِمْ وَمُحَاسَبَتِهِمْ، أَمَّا المشْهَدُ التَّالِي فَهُوَ مُنْتَزَعٌ مِنْ أَحْدَاثِ إِيقَافِهِمْ عَلَىٰ أَبْوَابِ النَّارِ يَوْمَ القيامَة، بَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، فيقولُ اللهُ تَعالَىٰ:

● ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

سَبَقَ في الملْحق الثَامِنِ مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) دِرَاسَةٌ تَدَبُّرِيَّةٌ تَكامُلِيَّةٌ، للنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ المتَعلِّقَة بِرَغْبَةِ الكافِرِ يَوْمَ الدِّين، أَنْ يَقْضِيَ اللهُ لَهُ باسْتِئْنَافِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ حَتَّىٰ تَمَنِّيهِ أَنْ يَكُونَ تُراباً، وهِيَ عَشْرَةُ نُصُوصٍ تُعَبِّرُ عَنْ عَشَرَةِ مَوَاقِفَ سَوْفَ تَكُونُ يَوْم الدِّين، لَا عَنْ مَوْقِفٍ واحِدٍ.

وَهَٰذَا الَّذِي جَاءَ في سُورَةِ (الأنعام/ ٥٥ نزول) هُوَ الْمَوْقِفُ الْخَامِسُ مِنْ مَوَاقِفِهِم⁽١⁾.

جَاءَ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانُ تَمَنِّيهِمْ حينَما يُوقَفُونَ عِنْدَ أَبْوَابِ النَّارِ تَمْهيداً لِكَبْكَبَتِهِمْ فِي هَاوِيتها.

إِنَّهُمْ يُنَادُونَ مُتَمَنِّينَ أَنْ يُرَدُّوا إِلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ، وأَنْ لَا يُكَذِّبُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ، وأَنْ يَكُونُوا مِنَ المؤمنين.

---

(١) انظر هذا المحلق في المجلّد الخامس من هذا الكتاب، في الصّفَحات من (٤٨٨ ـ ٥١٤).

إِنَّهُمْ في هَـٰذَا الموقف يَقْتَصِرُونَ عَلَىٰ إِعْلَانِ تَمَنِّيهِمْ بِأسْلُوبِ النِّدَاءِ. دُونَ أَنْ يَدْعُوا رَبَّهُمْ أَنْ يُحَقِّقَ لَهُمْ أُمْنِيَّتَهُمْ، إِذْ سَبَقَ أَنْ سَأَلُوهُ رَدَّهُمْ إلى حَيَاةِ الامْتِحَانِ عِنْدَ الموْتِ، وفي مَوْقف الحساب، فَلَمْ يَسْتَجِبِ الله لهم، وهذا النِّدَاءُ يُعْلِنُونَ فِيهِ نَدَمَهُمْ وَحَسْرَتَهُمْ.

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

أي: وَلَوْ تَرَىٰ أَيُّهَا الرائي أيًّا كُنْتَ، أئِمَّةَ الكُفْرِ والشِّرْكِ الضَّالِّينَ المضلِّين، حِينَ وُقِفُوا عِنْدَ أَبْوابِ النَّار، قُبَيْلَ إِلْقَائِهِمْ في هَاوِيَتِها، لِيَسْتَقِرُّوا فِي مَوَاقِعِ عَذَابِهِم الْخَالِدِ دَاخِلَهَا.

اسْتُعْمِلَ الفِعْلُ الماضِي في ﴿وُقِفُوا۟﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ مسْتَقْبلاً يَوْمَ الدِّين، فَكَأَنَّهُ أَمْرٌ قَدْ وَقَعَ فِعْلاً.

والفعل في: ﴿وُقِفُوا۟﴾ فِعْلٌ مَاضٍ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، والمعْنَىٰ: وَقَفَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمَأْمُورُونَ بِسَوْقِهِمْ وَحَشْرِهِمْ عِنْدَ أبْواب دَارِ عَذَابِهِم، بِأَمْرِ رَبِّهِمُ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ وَالْحُكْمُ.

يُقَالُ لُغَةً: «وَقَفَ فُلَانٌ فُلَاناً يَقِفُهُ، وَقْفاً» أي: جَعَلَهُ يَقِف. ويقالُ: «وَقَفَهُ عَلَىٰ الْأَمْرِ» أي: أَطْلَعَهُ عَلَيْه.

﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أي: عَلَىٰ الْمَكَانِ المشْرِفِ عَلَىٰ هَاوِيَةِ النَّار، وهَـٰذَا يَكُونُ عِنْدَ أبوابها.

وبِهَـٰذَا الْوُقُوفِ يَشْهَدُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ فيها مَوَاقِعَهُمْ فِي داخِلِها، حَيْثُ تَكُونُ مَصَايِرُهُمُ الْأَبَدِيَّة.

وجواب ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٌ مُقَدَّرٌ، يُفَسِّرُهُ مَا جَاء في تَتِمَّةِ الآيَة:

- ﴿. . . فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: لَوْ تَرَى حِينَ يُوقَفُونَ عَلىٰ النَّارِ لَرَأَيْتَهُمْ يُنَادُونَ: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ . . .﴾ إِلَىٰ آخر الآية.

- ﴿يَٰلَيْتَنَا﴾ : عِبارَةُ تمنٍّ وَتحسُّرٍ وَندَمٍ وَتفَجُّعٍ، لِأَنَّ ما يَتَمَنَّونَهُ مِمَّا هُوَ بَعِيدٌ جِدًّا، أَوْ هُوَ مِنْ وَرَاءِ حُدُودِ الممكِنَات.

- ﴿نُرَدُّ﴾ : أي: نُرْجَعُ إِلَىٰ مِثْلِ حَياةِ الامْتِحَانِ الَّتي سَلَفَتْ فِي أَزْمَانِ الحياةِ الدُّنيا.

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ : بِنَصْبِ فعل: ﴿نُكَذِّبَ﴾ في قراءة حفص، وحمزة ويعقوب، وبنصب فعل: ﴿وَنَكُونَ﴾ المعْطُوفِ عليه.

وبِرَفْعِ الفِعْلَيْن في قراءة جُمْهُور القرّاءِ العشرة. وقرأ ابْنُ عامرٍ برَفْعِ الفعل الأوّل، وبِنَصْبِ الفِعْل الثّاني.

فالنَّصْبُ هُوَ بأَنْ مُضْمَرَةً بَعْدَ الواو، أي: وأَنْ لا نُكَذِّبَ. وَنكُونَ. وهذا تابعٌ للتَّمَنِّي.

والرَّفْعُ على الاسْتِئْنَافِ، أي: وَنَحْنُ إِذَا أُعِدْنَا إِلَىٰ حياةِ الامْتِحَانِ فإنَّنا لا نُكَذِّبُ بآياتِ رَبِّنا. وَسَنَكُونُ مِنْ المؤمِنِينَ، وهذا عَهْدٌ مِنْهُمْ يُقَدِّمُونه. وهُمْ بِهِ كاذِبُون.

وقراءة ابْنِ عامر برَفْع الفعل الأوّل وَنَصْب الفِعْل الثّاني، فرفع الأوّلِ عَلَىٰ الاستئناف، ونَصْبُ الثاني على تقدير «أَنْ» بَعْدَ الواو، والمعنى: يا لَيْتَنا نُرَدُّ ونَحْنُ لا نُكَذِّبُ بآياتِ رَبِّنا وَيا لَيْتَنا أَنْ نَكُونَ مِنَ المؤمنين.

- ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ . . .﴾:

﴿بَلْ﴾ هنا: حَرْف إضْرابِ انْتِقَالِي، أي: بَلْ بَدَا لَهُمْ أَنْ يُعْلِنُوا عَلَىٰ رُؤُوسِ الأشْهَادِ نَدَمَهُمْ وحَسْرَتَهُمْ، بَعْدَ أَنْ عَايَنُوا بأبْصارِهِم، وهُمْ واقِفُونَ مُشْرِفُونَ عَلَىٰ هَاوِيَةِ جهَنّم، وعِنْدَ أبوابها، مَواقِعَهُمْ فيها، فاشْتَدَّ ذُعْرُهم وَخَوْفُهم، ولعَلَّ فِي هَـٰذَا الإعْلانِ بأصْوَاتِهِمُ العالِيَةِ الجهيرَة اسْتِجْدَاءً لِلْعَطْفِ عَلَيْهم، والرَّحْمَةِ بِهِمْ، وكانت لواعج النَّدَمِ والتَّحَسُّرِ والاسْتِجْدَاءِ

أُمُوراً يُخْفُونَها فِي مَوَاقِفِهِمُ السَّابِقَةِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ مِنْ أَجْدَاثِهِم، واسْتَمَرُّوا فِي إخفائِها فيما بَيْنَهُمْ، أَوْ فِي صُدُورِهِمْ، حَتَّىٰ عَايَنُوا بأَبْصَارِهِم مَصَايِرَهُمْ، وهُمْ عِنْدَ أَبْوَاب جَهَنَّمَ خَائِفُونَ مَذْعُورُون، لَا يَمْلِكُون مَهْرباً وَلَا مَفَراً.

ولم يَتَنَبَّهِ المَفسِّرُونَ إلىٰ هَذَا المعنى، فكانَتْ لَهُمْ آراءٌ مُتكَلَّفَةٌ فيما أرَى، ولا يَحْتَمِلُ النَّصُّ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْها.

● ﴿... وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وَلَوْ رُدُّوا إلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، لَعَادُوا لِمِثْلِ الأمْرِ الَّذِي كانُوا عَلَيْهِ في الحياة الدُّنيا، وهُوَ الكُفْرُ والتَّكْذِيبُ بآيَاتِ اللهِ، والعِصْيَان لِرَبِّهِم بارْتِكَابِ الجرائم، وهو الأمْرُ الَّذِي كانُوا قَدْ نُهُوا عنه.

والسَّبَبُ في هذا أنَّ إعَادَةَ الامْتِحَانِ تستَلْزِمُ مَسْحَ كُلِّ مَشَاهِدِ الآخِرَةِ مِنْ ذَاكِرَاتِهِمْ، فَإِذَا أُعِيدُوا إلَىٰ ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ مُمَاثِلَةٍ لِحَيَاةِ الامْتِحَانِ الْأُولَىٰ، كانَتْ نُفُوسُهُمْ عَلَىٰ مِثْلِ الْحَالِ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهَا فِي أزْمَانِ الامْتِحَانِ الْأَوَّلِ لَمْ يَتَغَيَّرْ فِيها شَيْءٌ، فَخَرِيطَةُ نُفُوسِهِمْ تَبْقَىٰ مِثْلَ مَا كانت عَلَيْهِ في الحياة الدُّنيا، ولهذا فَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَعُودُوا إلَىٰ مِثْلِ سِيرَتِهِم الْأُوْلى حَتْماً بَعْدَ أَنْ مُسِحَتْ مِنْ ذَاكِرَاتِهِمْ مَشَاهِدُ يَوْمِ الدِّين.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾: أي: لكاذِبُونَ فِي ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ إذَا أُعِيدُوا إلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ، فَسَيَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، باعْتِبَارِ أَنَّ وَاقِعَ حَالِهِمْ سَيَكُونُ عَلَىٰ نَقِيضِ هذا.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ كاذِبُونَ في التَّعْبِيرِ عَنْ مَشاعِرهم الدَّاخِلِيَّةِ، لَدَىٰ تَقْدِيم وُعُودِهِم بأَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ ويَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، إذْ هِيَ مَشَاعِرُ قَدْ عَبَّرُوا عَنْهَا بِصِدْقٍ وَهُمْ عِنْدَ أبواب جهَنَّم، لَكِنَّهَا لَا تُطَابِقُ وَاقِعَ حَالِهِمْ حِينَمَا يُعَادُونَ إلى الامْتِحَانِ مَرَّةً أخرَىٰ، وَتَكُونُ صَفَحَاتِ ذَاكِرَاتِهِم بَيْضَاءَ لَيْسَ فِيهَا مِمَّا شَهِدُوا مِنْ أحداث وَوَقَائِعِ يَوْمِ الدِّينِ شيءٌ، ويكُونُونَ مِثْلَمَا كَانُوا فِي رِحْلَةِ الامْتِحانِ الْأُولَى.

■ وعَلَىٰ طَرِيقَةِ التَّنَقُّل بَيْنَ عَرْضِ مَشَاهِدَ مِنَ الحياةِ الأُخْرَىٰ يَوْمَ الدِّينِ، وَعَرضِ لقَطَاتٍ مِنْ وَاقِعِ حَالِ المعْنِيِّينَ بالبيان في الحياة الدُّنيا، بِفَنِّيَّةٍ بَيَانِيَّةٍ عجِيبَة، يَقُول اللهُ عزَّ وجلَّ مُبَيّناً عَقِيدَتَهُمْ في البَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين:

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

عَبَّرَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَنْ مَقَالَةِ المعْنِيِّينَ بالْبَيَانِ بِشَأْنِ الْبَعْثِ والحياةِ الأخْرى، وكُفْرِهِمْ بِهِما، وَهي مَقَالَةٌ تُعبِّرُ عَنْ أَوْهَام كُلِّ الكَافرين، الَّتِي صَارَتْ لَدَيْهِمْ عَقِيدَةً مُوجِّهَةً لسُلُوكِهم فِي الحياة الدُّنيا، فَجعلَتْهُمْ يُكَذِّبُونَ رُسُلَ رَبِّهِمْ، ويُكَذِّبُونَ بآيَاتِهِ، وهِيَ أَنَّ الحَياةَ مُقْتَصِرَةٌ عَلَىٰ الحياة الدُّنيا فقط، ولَا تُوجَدُ حَيَاةٌ أخْرَىٰ بَعْدَهَا فَلَا بَعْثَ، وَلَا حَشْرَ، وَلا حِسَابَ، ولَا فَصْلَ قضاءٍ رَبَّانِيّ، وَلَا جزاء.

«إنْ» هُنَا حَرْفُ نفي بمعنى «ما» النافِية. «هِيَ» ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَىٰ مُلَاحَظٍ ذِهْناً، وهو «حَياتُنَا» وهَـٰذَا الملاحَظُ في الذِّهْنِ مُفَسَّرٌ بما جاءَ بعد «إلا» أي: ما الحياة كلها التي هي لنا في الوجود كُلِّه إلا حياتنا الدنيا هَـٰذِهِ الَّتِي نَحْيَاهَا، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثينَ لِحياةٍ أُخْرَىٰ يَكُونُ فيها الحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الجزاء.

■ وبَعْدَ هَـٰذِهِ اللَّقْطَةِ البيانِيَّةِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَقِيدَة أَهْلِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في الْبَعْثِ، وهُمْ في الحياة الدُّنيا، يَنْتَقِلُ الدَّرْسُ إِلَىٰ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ وُقُوفِهِمْ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ يَسْأَلُهُمْ وَيُحَاسِبُهُمْ لِيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِمْ، على طَرِيقَةِ التَّنَقُّلِ بَيْنَ دُنْيا الابْتِلَاءِ، وآخِرَةِ الجزاء، فَيَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: ولو تَرَىٰ أَيُّهَا الرَّائِي المؤهَّلُ لِأَنْ تَرىٰ أَيًا كُنْتَ، المكَذِّبِينَ بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ وَأحداثِ يَوْمِ الدِّين، الَّتِي جاءَ بِهَا عَنِ اللهِ الخَبَرُ

اليقين، حِينَ وُقِفَ هٰؤلَاءِ عَلَىٰ مَوْقِفِ مُحَاكَمَةِ رَبِّهم لهم، لَرَأَيْتَ ذِلَّتَهُمْ واعْتِرَافَهُمْ بأَنَّ مَا كانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ فِي الدُّنيا حَقٌّ، ولرأيْتَ حَلفَهُمْ بِرَبِّهِمْ عَلَىٰ أَنَّهُ حَقٌّ، ولَرَأيْتَ الْحُكْمَ عليهم بأَنْ يَذُوقُوا العذابَ الأَبَدِيَّ في جَهَنَّم، بِسَبَبِ مَا كَانوا يَكْفُرُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحانهم.

جوابُ حَرْف الشرط «لَوْ» الذي جاء في صَدْرِ الآيةِ اسْتَخْرَجْتُهُ مِنْ طَيِّ مَثْنَاةٍ مِنْ مَثَانِيها، ودَلَّ عَلَيْهِ مَا جاء في سائر الآيَةِ.

وحُذِفَت أيْضاً عبارة: «مَوْقِفِ مُحَاكَمَةِ» بَيْن **[عَلَىٰ]** و**[رَبِّهِمْ]**.

وهذان الحذفان المدْرَكان ذهْناً من الإيجاز المعهود في القرآن المجيد.

وجاء التعبيرُ بالفعل الماضي ﴿وُقِفُواْ﴾ كالذي جاء في الآية (٢٧) ويقالُ هُنَا نظير الذي جاء في التدبُّر هناك.

- ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾؟: أي: قَالَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظم سُلْطَانُهُ ـ لِلَّذِينَ كانُوا كَافِرِينَ فِي الحياة الدُّنيا، مُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّين، وبأَحْدَاثِ يَوْم الدِّين الّتِي جاءَهُمْ بِهَا الْخَبَرُ اليقينُ، على لِسَانِ رَسُول رَبّهم الصادق الْأَمين، أَلَيْسَ هَٰذَا الذي كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ به، وتُكَذِّبُونَ به رَسُولَ رَبِّكُمْ بأمْرٍ وَاقِعٍ حَقٍّ لَا رَيْبَ فِيه؟؟

الباء في ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ مَزِيدَةٌ لِلتَّوكِيد، أي: أَلَيْسَ هَٰذَا حَقًّا مُؤَكّداً.

- ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾: أي: بَلَىٰ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَكَّدُوا اعْترافَهُمْ بالْقَسَمِ بِرَبِّهِمْ: ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾ تَذَلُّلاً واسْتِعْطَافاً.

لفظ «بَلَىٰ» حَرْفُ جواب، ويَخْتَصُّ بالنَّفي، ويُفِيدُ إبْطَالَهُ، وَإِبْطَالُ النَّفْي هُنَا مَعْنَاهُ إِثْبَاتُ أَنَّ هَٰذَا الّذِي يُشَاهِدُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ حَقٌّ، وفي هذا الاعْتِرَافِ حُكْمٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بأَنَّهُمْ كانُوا في الحياة الدُّنيا كافِرينَ بالْحَقِّ الّذِي جاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ بَلاغاً عَنْه.

- ﴿. . . قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ :

أي : ﴿قَالَ﴾ اللهُ عزَّ وجلَّ لَهُمْ : لَقَدْ حَكَمْنَا عَلَيْكُمْ بالْخُلُودِ في عذاب النار حُكْماً عادلاً ، عَلَىٰ وَفْقِ بَيانَاتِنا الّتِي بَلَّغَكُمْ إيَّاهَا رُسُلُنا ، وأَنْزَلْنَاهَا إِلَيْكُمْ ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا﴾ أَيْ : بِسَبَبِ مَا ﴿كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ جُحُوداً واسْتِكْبَاراً واتّباعاً لِلْأَهْوَاء .

الفاء في ﴿فَذُوقُواْ﴾ فَصِيحةٌ عَطَفَتْ على مَحْذُوفٍ يَسْهُلُ عَلَىٰ المتدبّر إدْراكُ مَعْنَاهُ .

على الْمُتَدَبِّر أَنْ يَلْحَظَ مَا فِي مَثَانِي هَـٰذِهِ العبارة مِنْ مَطْوِيَّاتٍ مَحْذُوفَاتٍ من مَنْطُوقِ اللَّفظ ، ولَيْسَ من الصَّعْبِ علىٰ المتدبّرِ اسْتِخْرَاجُ مَعَانِيها كَما سَبَقَ بَيانُه .

■ وَيَنْتَقِلُ الدَّرْسُ إلى بيانٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ نُصْحٍ غير مُبَاشِرٍ لِكُلِّ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ ، لِئلّا يقَعَ بِمِثْلِ الَّذِي وَقَعَ وَيَقَعُ بِهِ الكافِرُونَ المكذِّبُونَ بِيَوْم الدِّين ، وبحقائِقِ الدِّينِ الَّذي بَلَّغَهُ رُسُلُ الله الصادقون ، فقال الله عزَّ وجلَّ فيه :

- ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ :

وقُرِئ : ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عَلَىٰ الإضافة ، وهي من التَّفَنُّنِ في التعبير .

وقُرِئ : ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ بضمير الغائبين ، وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني ، إحْداهُما بالخطاب ، والأُخْرَىٰ بِالْحَدِيثِ عَنْهُمْ لغيرهم .

- ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ : أي : قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وكُلَّ

شيءٍ لَهُمْ، إذِ اختارُوا لِأَنْفُسِهِمْ سُلُوكَ الطَّرِيقِ الموصِلِ حَتْماً إلى الْخُلُودِ في عَذَابِ النَّارِ، بِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ بِيَوْمِ الدِّين.

والمرادُ: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ لِقاؤُهُ لسُؤَالِهِمْ عَمَّا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، ولمُحَاسَبَتِهِمْ، وَلِلْحُكْم عَلَيْهِم، والْأَمرِ بِتَنْفِيذِ جزائِهِم، بَعْدَ بَعْثِهِمْ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، وهَـٰذَا أَمْرٌ كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ وهُمْ في حَيَاةِ الامْتِحَانِ.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾: «حتَّىٰ» هُنَا حَرْفُ ابتداءٍ لَا عَمَلَ لَهُ، وَلَيْسَ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ الغايَة.

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: يُمْكِنُ حَمْلُ لفظِ «السَّاعَةِ» هُنَا على ساعَةِ مَوْتِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنهم، وعَلَىٰ سَاعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وعَلَىٰ سَاعَةِ الْبَعْثِ للحياة الْأُخْرَىٰ مِن الأجْدَاث.

﴿بَغۡتَةً﴾: أي: فَجْأَةً فَهِيَ بَاغِتَةٌ لَهُمْ. ولفظ «بَغْتَة» هُنَا مَصْدَرٌ في مَوْضِعِ الحال، أي: جاءتهم الساعَةُ مُبَاغِتَةً لهم.

﴿قَالُواْ يَـٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾: فِعْل: «قَالُوا» جواب الشَّرْطِ في: ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

- ﴿يَـٰحَسۡرَتَنَا﴾ عِبَارَةُ نِدَاءِ حَسْرَةٍ وَنَدَمٍ، يَقُولُهَا كُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ.

وهي تُعَبِّرُ عَنِ النَّدَم والتَّحسُّرِ والتَّفَجُّعِ. وَحَرْفُ النّداء «يا» يَدُلُّ عَلَىٰ شِدَّةِ انْدِفَاعِ مَشَاعِرِهِمْ لِإِيصَالِ تَحسُّرِهِمْ لِمَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَرْحَمَهُمْ وَيَعْطِفَ عَلَيْهِم.

- ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾: أي: عَلَىٰ مَا قَصَّرْنَا وَضَيَّعْنَا وَتَرَكْنَا فِي الحياة الدُّنيا، مِمَّا هُوَ سَبَبُ نَجاتِنَا وَسَعَادَتِنَا الأَبَدِيَّة يَوْم الدين.

يقال لغة: «فَرَّطَ الشيْءَ» و«فَرَّط فِيه» أي: قَصَّرَ فيه وضَيَّعَهُ حَتَّىٰ فَاتَ.

- ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾: أي: والحالُ أنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أحْمَالَهُمُ الثقِيلَةَ مِنَ المعاصِي والذُّنُوب والآثَام والجرائِم الكُبرَىٰ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ، كما تَحْمِلُ الْبِغَالُ والْحَمِيرُ الأَحْمَالَ الثقِيلَة عَلى ظُهُورِهَا.

الْوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثقيل، وأُطْلِقَ عَلَىٰ الذَّنْبِ تَشبيهاً للذَّنبِ بالْحِمْلِ الذي تَحْمِلُهُ الدَّابَةُ مِنْ أَشْيَاءَ ثَقِيلَةٍ، كَالْأَحْطَابِ والأَحْجَارِ. وجَمْعُ الْوِزْرِ «الْأَوْزار».

والمعنى: ونُفُوسُهُمْ تَشْعُرُ بِثِقَلِ مَا قَدَّمَتْ مِنْ مَعَاصٍ، وذُنُوبٍ وجَرائِمَ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، وهُمْ يَترَقَّبُونَ مُحاكَمَةَ اللهِ لَهُمْ، كَمَا يَشْعُرُ حَامِلُ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ بِثِقَلِ الْحِمْلِ عَلَيْه.

واخْتِيرَتْ عبارَةُ: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أشْبَاهُ الدَّواب الّتِي تَحْمِلُ الأَحْمَالَ عَلَىٰ ظُهُورِها، وَقَدْ كانُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيا مِثْلَ الْأَنْعَام وأضَلَّ سَبِيلاً.

- ﴿... أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾: «**أَلَا**» أداةُ استفتاحٍ وتَنْبِيهٍ وَتَحْقِيق. «**سَاءَ**» فعْلٌ يُقالُ في إنْشاء الذَّمِّ على سَبِيلِ المبالغة مثل: «بِئْسَ».

«**مَا يَزِرُونَ**»: أي: مَا يَحْمِلُونَ مِنْ آثَام وذُنوبٍ وجرائم. يقال لغة: «وَزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، وِزرَةً» أي: حَمَلَ مَا يُثْقِلُ ظَهْرَهُ مِنْ أَحْمَالٍ ثقيلَة.

■ قول الله تَعالَىٰ:

- ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٣٢﴾: أيْ: وَمَا الْعَمَلُ لِتَحْقِيق مَا يَطْلُبُ جميعُ النّاس من الحياة الدُّنيا إلَّا لَعِبٌ ولَهْوٌ، ونؤكِّدُ لَكُمْ أنَّ الْعَمَلَ لتحقيق السَّعادَة في دَار النعيم، التي هي الدّارُ الآخِرَة العظيمة، خيْرٌ للَّذِينَ يُطِيعُونَ أَوَامِرَ اللهِ ونواهِيَه، ويتقُونَ العقابَ على معصيته.

- ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ استفهامٌ يُرادُ بِهِ الحَثُّ عَلَىٰ الْعَقْلِ، بِمَعْنَىٰ العقلِ العلميّ وبمَعْنَى الْعَقْلِ الإرادِيّ.

جاء في القرآن المجيد وصْفُ الْعَمَلِ لتحقيق مَتَاعَاتِ الناس من الحياة الدُّنيا في أرْبَعَة نُصُوصٍ، هَـٰذَا أَوَّلُهَا بِحَسَبِ تَرْتِيب النُّزُل، وفيه قَصْرُ هَـٰذِهِ المتاعَاتِ عَلَىٰ اللّعِبِ واللَّهْو، بِتَقْدِيم اللّعِب عَلَىٰ اللّهْو.

■ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بَعْدَهُ في سورة (الْعَنْكَبُوتِ/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قولَهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾: وقُرِئَ بإسْكانِ الهاء من ﴿لَهْيَ﴾.

﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾: أي: لَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ، الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُسَمَّىٰ حَياةً خَالِيَةً مِنَ الْمُنَغِّصَاتِ والأَكْدَارِ والْمَوْتِ، والمرادُ حَيَاةُ المؤمنين المتَّقين فيها. ولفظ «الحيوان» مَصْدَرٌ لِفِعْل «حَيِيَ». يُقَالُ لُغَةً: «حَيِيَ، يَحْيَا، حَيَاةً، وحَيَواناً».

ولو كَانَ الناسُ يَعْلَمُونَ الحقيقةَ، لَعَلِمُوا أَنَّ الحيَاةَ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ هِيَ الحياة الحقيقيَّة الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهَا لَفْظُ «الحياة» الكامِلَةِ بالنِّسْبَةِ إلى الْخَلَائِق.

وجاء في هَـٰذَا النصّ تَقْدِيمُ اللَّهْوِ عَلَىٰ اللَّعِب، مَع الْحَصْرِ كالنَّصِّ السابق.

■ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الْحَدِيد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) خِطَاباً للنَّاس:

- ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ

حُطَٰمًاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾:

وقرأ شُعْبة: ﴿ورُضْوانٌ﴾ بِضَمّ الراء، وهي لُغَةٌ.

فجاء في هذا النّصّ تَقْدِيمُ اللّعِبِ علَىٰ اللَّهْوِ، وإضافة الزّينَةِ، والتَّفَاخُرِ، والتَّكَاثُر، مع الْحَصْر.

وجاء في هَـٰذَا النَّصِّ تَشْبِيهُ الحياةِ الدُّنيا بِفَصْلٍ من الْفُصُولِ الزِّراعيَّة، إذْ يَبْدَأُ بِالْغَيْثِ، ويكُونُ في أَوَاسِطِهِ نَباتاً مُعْجِباً للزَّارِعين، ثُمَّ يعرُضُ لَهُ التنكِيسُ، فَيَيْبَسُ وَيَصْفَرُّ، ثُمَّ يَتَحطَّمُ وَيَتكَسَّرُ، ثُمَّ يَضْمَحِلُّ وَيَعُودُ تُراباً.

أمَّا الآخِرَةُ فالنَّاسُ فِيها علَىٰ أحْوَالٍ ثَلاثَة بِحَسَبِ أقْسَامِهِمْ وما قَدَّمُوا.

(١) فالكافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ خَالِدٌ في دار العذاب النَّار، على دَرَكاتِهِمْ.

(٢) والمؤمِنُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ، وَلَوْ بَعْدَ أنْ يَنالَ مَنْ يُعَذَّبُ مِنْهُمْ مِقْداراً مِن الْعَذَابِ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ وآثَامِهِ، إذَا لَمْ تَشْمَله رَحْمَةُ اللهِ بالمغْفِرَةِ شُمُولاً كامِلاً، وهؤلَاءِ يَكُونُونَ مِنْ أهل مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، لَا يَرْتقون إلى مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، فَمَرْتَبَةِ الإحسان.

(٣) وَالْأَبْرارُ والْمُحْسِنُونَ، وهُمُ الَّذِينَ ارْتَقَوْا بأعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ فَوْقَ دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، وَسَابَقُوا إلَىٰ دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، فَدَرَجاتِ مَرْتَبة الإحْسَان، لَهُمْ مِنَ اللهِ رِضْوَان، أي: ثوابٌ عَظِيمٌ يُنَاسِبُ رِضَاهُ عَنْ مَسِيرَتِهِم في رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ عَبْرَ الحياة الدُّنيا، وَيَكُونُونَ فِي جَنَّات النَّعِيم بِحَسَبِ دَرَجاتِهِمُ الَّتِي يَتفضَّلُ عَلَيْهِمْ بِهَا، بِسَبَبِ صَالِحَاتِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

المتاع: ما يُنْتَفَعُ به مُؤَقَّتاً ومَصِيرُهُ إِلَىٰ الفناء.

الْغُرُور: مَصْدَرُ فِعْل «غَرَّهُ» بمَعْنَىٰ خَدَعَهُ وأَطْمَعهُ بالْبَاطِل.

يقال لغة: «غَرَّهُ، يَغُرُّهُ، غَرّاً، وَغُرُوراً، وغِرَّةً» أي: خَدَعَهُ وأَطْمعهُ بِالْبَاطِلِ.

فَمَنِ اسْتَحْوذَ عَلَيْهِ الْغُرُورُ دَاخِلَ نَفْسِهِ، أَعْطَىٰ كُلَّ نَفْسِهِ لِمَتَاعِ الحياة الدُّنْيَا، فكَانَتِ الدُّنْيَا هِيَ المسَيْطِرَةُ عَلَيْهِ، عَنْ طَرِيقِ غُرُورِهِ وانْخِدَاعِهِ وَطَمعهِ الَّذِي لَا يُحقِّقُ لَهُ السَّعَادَةَ الحقيقيَّة، فالدُّنيا مَتَاعُ غُرُوره.

أمّا المؤمِنُونَ المتَّقُونَ فَيَأْخُذُونَ مِنَ مَتَاعِ الدُّنْيَا ما أَحَلَّهُ اللهُ وأذِنَ بِهِ، عَنْ طَرِيقِ طَاعَتِهِمْ لِربِّهِمْ، ومَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَةِ الدُّنيا، دُونَ أَنْ تَخْدَعَهُمْ بِزِينَاتِها.

■ فأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (مُحَمَّدٍ/ ٤٧ مصحف/ ٩٥) في مَعْرِضِ الحديثِ عَنِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قَرِيبٌ من النفاق الخالص، مُعَالَجَةً لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَنفوسِهِمْ:

● ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾:

فجاء في هَـٰذَا النصّ تقديم اللَّعِبِ علَىٰ اللَّهوِ، وجاء فِيهِ الاقتصارُ عَلَيْهما مَعَ الْحَصْر.

ويجب تَدبُّرُ هَـٰذِهِ النُّصُوصِ الْأَرْبَعَةِ تَدبُّراً تَكامُلِيًّا:

اللَّعِبُ: هُوَ في اللُّغَةِ ضِدُّ الجِدّ. يُقَالُ لغة: «لَعِبَ، يَلْعَبُ، لَعِباً، ولَعْباً». ويُقَالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً لَا يَجْلُبُ لَهُ نَفْعاً: إِنَّمَا أَنْتَ لَاعِب.

ولَدَىٰ مُرَاقَبَةِ أَعْمَالِ النَّاسِ في الحياة الدُّنيا، وطَاقَاتِهِمُ الَّتِي يَبْذُلُونَهَا نَرَىٰ أَنَّهَا تُصَنَّفُ فِي قِسْمِ اللَّعِبِ، لَا فِي قِسْمِ الْجِدِّ النَّافِعِ حَتَّىٰ لمصالِحِ الحياة الدُّنيا.

إنَّ مِئَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ النَّاسِ يُضِيعُونَ أَوقَاتَهُمْ وَطَاقَاتِهِمْ، فِي مُشَاهَدَاتِ مُبَارَيَاتٍ رِيَاضِيَّةٍ قَدْ تَسْتَفِيدُ مِنْها أجْسَادُ بَعْضِ اللّاعِبِينَ، وهُمْ عَدَدٌ قَلِيلٌ جدّاً بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المُشَاهِدِين.

وَإِذَا أَحْصَيْنَا الْأَوْقَات والطَّاقَاتِ الَّتِي تُنْفَقُ فِي أَلْعَابِ الْوَرَقِ، وقِطَعِ النَّرْدِ، وَمَا يُسَمَّىٰ بالزَّهْرِ والطَّاوِلَةِ وأَشْبَاهِهَا، وَجَدْنَاهَا أَكْثَرَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُكْتَسَبُ بِها الْأَرْزَاقُ وَمَصَالِحُ الْعَيْشِ فِي الحياة الدُّنيا، وهَـٰذِهِ تُصَنَّفُ فِي قِسْمِ اللَّعِبِ.

فاللّعِبُ فِي الْحياةِ الدُّنيا يَسْتَهْلِكُ مِنَ النَّاسِ أَكْثَرَ أَزْمَانِ حَيَواتِ مُعْظَمِهِمْ، ولِهَـٰذَا جَاءَ في نُصُوصٍ ثَلَاثَة مِنَ النُّصُوصِ الْأَرْبَعَةِ تَقْدِيم اللَّعِبِ عَلَىٰ اللَّهْوِ.

اللَّهْو: هو كُلُّ عَمَلٍ أَوْ أَمْرٍ قَلِيلِ الْجَدْوَىٰ يَشْغَلُ وَيُلْهِي عَمَّا هُوَ الْأَحَقُّ وَالْأَجْدَرُ بتَوْجِيهِ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ.

يقال لُغَةً: «لَهَىٰ، يَلْهُو، لَهْواً». ويُقالُ: «الْتَهَىٰ، يَلْتَهِي، الْتِهَاءً».

ويُقَالُ: «أَلْهَاهُ، يُلْهِيهِ، إِلْهَاءً». أي: شَغَلَهُ. **والتَّلَهِّي**: التَّشَاغُلُ عَنِ الشيْءِ بِغَيْرِهِ.

فَمَنْ أنْفَقَ وَقْتَهُ وَبَذَلَ طَاقَاتِهِ فِي أَعْمَالٍ رِبْحُها قليلٌ ضئيلٌ، وكَانَ باسْتِطَاعَتِهِ أنْ يَعْمَلَ في الوقْتِ نَفْسِهِ وفي الطَّاقَاتِ نَفْسِهَا أعْمالاً أُخْرَىٰ ذَاتَ رِبْحٍ وَفِيرٍ وَمَكْسُوبٍ كثير، وهَـٰذِهِ الْأَعْمَالُ مُتَيَسِّرَةٌ لَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَخْتَرِ القِيَامَ بِها، لِأَنّ مَا اخْتَارَهُ مِنَ الأعْمالِ وافَقَ هَوَاه، يَقُول الْعُقَلَاءُ بِشَأْنِهِ: إِنَّهُ يَلْهُو؛ إذْ يَشْغَلُ نَفْسَهُ بأعْمَالٍ قَليلَةِ الْجَدْوَىٰ لأنَّها تُوَافِقُ هواه، ويَتْرُكُ أَعْمالاً مَيْسُورَةً لَهُ ذَاتَ جَدْوَىٰ عَظِيمَةٍ جَسِيمَةٍ، ورِبْحٍ وَفِير، لِأَنَّهُ لَا يَهْوَاهَا.

دُعِيَ عَالِمٌ فيزيَائِيٌّ لِيَكُونَ مُوَظَّفاً في مَعْمَلٍ تَعْتَمِدُ صِنَاعَتُهُ على عِلْم

الفيزيَاءِ، براتِبٍ شَهْرِيٍّ يُعَادِلُ ستّين دِيناراً ذَهبيًّا، وَكَانَ يَهْوَىٰ نَظْمَ الشِّعْرِ، فَرَفَضَ الْوَظِيفَةَ ذَاتَ الرّاتِبِ الشَّهْرِيّ العظيم، لِيَنْظِمَ قصائِدَ الشِّعْرِ الّتِي إنْ جَرَّتْ رِبحاً، فَلَا يَصِلُ المكْسُوبُ بها إلَىٰ ثَلاثِ دَنانِيرَ ذَهَبِيَّة في الشَّهْر. أفَلا يُقَالُ بِشَأْنِهِ: إنَّهُ يَلْهُو بنَظْمِ الشّعْر، ويُضِيعُ عَلَىٰ نَفْسِهِ عَمَلاً هُوَ مَدْعُوٌّ إِلَيْهِ، وَقَادِرٌ عَلَيْه، يَأْخُذُ عَلَيه رَاتِباً شَهْرِيًّا قَدْرُه سِتُّونَ دِيناراً ذَهَبِيًّا.

هُنَا يَظْهَرُ لَنَا أَنَّ أَعْمَالَ أَكْثَرِ النَّاسِ لِتَحْصِيلِ مَكْسُوبَاتٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيا، زَائِدَاتٍ عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَحَاجَاتِ أُسَرِهِمْ وَمَنْ هُمْ مَسْؤُولُونَ عن الْإِنفاقِ عَلَيْهِم، هِيَ مِنْ قَبِيلِ اللَّهْوِ، لِأَنَّهَا تَشْغَلُهُمْ عَنْ أعْمَالٍ ذَوَاتِ أَجْرٍ عَظِيمٍ خَالِدٍ في آخِرَتِهِمْ، لَا يُعَادِلُ كُلُّ مَا يَجْمَعُونَهُ مِنَ الدُّنيا ذَرَّةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ شِبْهِ ذَهَبٍ، فِي مُقَابِلِ جَبَلٍ عظيمٍ مِنْ ذَهَبٍ خالِصٍ من الشّوائب.

فالحياة الدُّنيا مُعْظَمُ أعْمَالِ النَّاسِ فيها لِتَحْصِيلِ مَتَاعَاتِهِمْ مِنْها لَعِبٌ وَلَهْو، وبَعْضُهُمْ ذُو جَدٍّ زائِدٍ لِتَحْصِيلِ وجَمْعِ مَكْسُوبَاتٍ مِنْ أموَالِ الدُّنيا، فتكُونَ أعْمَالُهُمْ مِنْ قَبِيلِ اللَّهْوِ أَكْثَرَ مِنَ اللَّعِبِ.

وهؤلَاء يُنَاسِبُ حَالَهُمْ أنْ يقال بشأنِهِمْ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ . . . ﴿٦٤﴾﴾ وهو ما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بتَقْدِيم اللَّهْوِ عَلَىٰ اللّعِب.

وبعْضُ النَّاسِ تزيدُ غَايَاتُ كَدْحِهِمْ لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِهِمْ مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيا، فيكْدَحُونَ للاستمتَاع بالزينة، أو للتفَاخُرِ على غيرهم، أو للتكَاثُرِ في الأموال والأولاد.

- فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ شَغُوفاً بِزِينَاتِ الحياة الدُّنيا، فَيَكْدَحُ لتَزْيينِ نَفْسِهِ، وأَهْلِهِ، وخَدَمِهِ، وجُنْدِهِ، وَدوَابِّهِ، وَمَرَاكِبِهِ، وَقَصْرِهِ، وَمَا يَمْتَلِكُ مِنْ مُنْشَآتٍ وَمُؤَسَّسَاتٍ، بزِينَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مِن زيناتِ الحياة الدُّنيا.

الزِّينة: كُلُّ مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ مِنْ ذِي منظرٍ ومَظْهَرٍ جميل.

- ومِنْهُمْ مَنْ يكُونُ شَغُوفاً بِما يَجْعَلُهُ بَيْنَ النَّاسِ أكْبَرَ وَأعْظَمَ مِنْ غيْرِه، بِحَسَبِ مَهْنَتِهِ ومستَوىٰ شَرِيحَتِهِ الاجْتِمَاعِيّة. فالْمَلِكُ يُحِبُّ أَنْ يكون أعْظَمَ الْمُلُوك. والتَّاجِرُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أعْظَمَ التُّجَّارِ وشَيْخَهُمْ. والأسْتَاذُ يُحِبُّ أَنْ يَكُون أعْظَمَ الْأَسَاتِذَةِ وَأكْبَرهُمْ لَقَباً. والمرأَةُ تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ أَجْمَلَ النِّسَاءِ وأَرْفَعَهُنَّ حَسَباً وَنَسَباً. والْقَوِيُّ فِي جِسْمِهِ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ بَطَلَ الْأَبطال. والصَّانِعُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أمْهَرَ الصُّنَّاعِ فِي مَهْنَتِهِ وأسْتَاذَهُمْ وإمَامَهم. والْخَطِيبُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أخْطَب الْخُطَباء. والشَّاعِرُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أشْعَرَ الشُّعَرَاء.

وَيَتَنَافَسُ النَّاسُ في مضامِيرِهِمْ لِينَالُوا السَّبْقَ كُلَّهُ أَوْ دَرَجَاتٍ مِنْهُ، وَهَٰذَا مِنَ التَّفَاخُرِ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ، ولَيْسَ سِمَةً لِكُلِّ النَّاس.

الْفَخْر: تَباهِي الإنْسَانِ بما لَهُ وبِمَا لِقَوْمِهِ مِنْ محاسِنَ.

والتَّفَاخُرُ: هُوَ التَّعَاظُمُ والتَّكَبُّرُ، والتَّبَاهِي بالتَّفَوُّقِ في المحَاسِنِ وأنْوَاعِ الفضل.

- ومِنْهُمْ مَنْ يَشْتَدُّ شَغَفُهُ بِأَنْ يَكُونَ أكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ أمْوَالاً وأوْلَاداً، فَيَكْدَحُ كَدْحاً شدِيداً لِيُحقِّقَ لِنَفْسِهِ هَٰذِهِ الكَثْرَةَ.

وهذه لَيْسَتْ سِمَةً لِكُلِّ النَّاسِ، بَلْ تَكُونُ سِمَةً لِبَعْضِهِمْ.

ومُرَاعَاةً لِأَحْوالِ هَٰؤُلاءِ الأقْسَامِ مِنَ الناس جاء في آية سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) إضافَةُ الزينَةِ، والتَّفاخُرِ، والتَّكاثُرِ، إِلَىٰ اللَّعِبِ، واللَّهْوِ. أَمَّا النُّصُوص الثّلاثَةُ الْأُخْرَىٰ فاقْتَصرَتْ عَلَىٰ ذِكْرِ اللَّعِبِ واللَّهْو، لِأَنَّهُمَا الأمْرَانِ اللَّذَانِ يَشْتَرِكُ النَّاسُ فِي كَدْحِهِمْ بِهِمَا.

وبهذا التَّدَبُّرِ التكامُلِيِّ فَهِمْنَا سِرَّ اخْتِلَافِ النُّصُوصِ حَوْلَ هَٰذَا الموضوع.

أَمَّا أعْمَالُ التَّقْوَىٰ والْبِرِّ والإحْسَانِ الَّتِي تُرْضِي الرَّحْمٰن، فَغَايَتُهَا تَحْقِيقُ السَّعَادَةِ فِي الْأُخْرَىٰ، وَلَا تُحْسَبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَكْدَحُ الإنْسَانُ فِيهَا لِدُنْيَاهُ، بَلْ لِأُخْرَاه.

■ ويَنْتَقِلُ الدَّرْسُ إلَىٰ مُعالَجَةِ نَفْسِ الرَّسُولِ ﷺ في هَـٰذَا الطَّوْرِ مِنْ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ لِقَوْمِهِ فِي مَكَّة إبَّانَ نُزُول سورة (الأنعام) فيقولُ اللهُ تَعالى خِطَاباً له:

- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

وفي قِراءَة يعقوب: **[يَرْجِعُونَ]** بالبناء للمَعْلُوم، وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، أي: يُرْجِعُهُمُ اللهُ لِلْحِسَابِ والْجَزاءِ يَوْم القيامة، فَيَرْجِعُونَ مُطاوِعِين بالْجَبْرِ.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَاتُ عَلَىٰ أَنَّ كُبَراءَ مُشْرِكِي مكَّة المُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، كانُوا قَدْ زَادُوا مِنْ أَقْوَالِهِم الَّتِي يُرَدِّدُونَهَا بِوُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ، وفِيهَا اتِّهَامٌ للرَّسُولِ بِأَنَّهُ مُفْتَرٍ كَذَّابٌ فِيمَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ في القرآن وفي البيانَاتِ الأُخْرَىٰ، وزادُوا فِي إيذائِهِمْ لَهُ، وأَنَّ ذَلِكَ كانَ يَحْزُنُه كُلَّما بَلَغَتْهُ اتِّهَامَاتُهُمْ لَهُ بالكَذِب، وَكُلَّما بَلَغَتْهُ إيذاءَاتُهُمْ له.

ودَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّهُم يُتَابِعُونَ مُطالَبَتَهُ بالآيَاتِ الْخَوارِقِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِهِ، وهُمْ كَاذِبُونَ، فَلَوْ أَنَّ اللهَ أَجْرَىٰ لهم مَا يَطْلُبُونَ مِنْ آياتٍ لَمْ يُؤْمِنُوا فاللهُ عَلِيمٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ.

ودَلَّتْ عَلى أنّ نَفْسَ الرَّسُولِ كَانَتْ تَتَشَوَّفُ لإنزالِ بعضِ الآياتِ استجابةً لإلْحَاحَاتهم.

وقد عَالَجَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ رَسُولَهُ فِي هَـٰذِهِ الآيَاتِ بِمُعَالَجاتٍ إقْنَاعِيَّةٍ وَتَرْبَوِيَّةٍ ثَمانٍ:

المعالَجَةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَول اللهِ تَعَالَى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾:

- ﴿قَدۡ﴾ هُنَا للتَّحْقِيقِ وَلَوْ دَخلَتْ على المضارِع، وفي التحقيقِ مَعْنَىٰ التوكيد.

- ﴿ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾: أي: الَّذي يَقُولُهُ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة، مُكَذِّبينَ لَكَ في أنَّكَ نَبيُّ اللهِ ورسُولُهُ، وفي أنَّ مَا تَتْلُو عليهم مِنْ آياتِ القرآنِ كَلامٌ مُنَزَّلٌ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

- ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾: أي: فإنَّهُمْ في حَقِيقَةِ الْأَمْرِ لا يُكَذِّبُونَكَ صَادِقِينَ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ، لاستيقانِهِمْ بِأَنَّكَ صَادِقٌ فِيمَا تُبَلِّغُ عَنْ رَبِّكَ، وَهُمْ يُخْفُونَ هَـٰذَا الاسْتِيقَانَ في أَنْفُسِهِمْ.

- ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾: وُضِعَ الاسْمُ الظَّاهِر وهُوَ لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِبَيَانِ اتِّصَافِهِمْ بالظُّلْمِ الشَّنِيعِ، ومِنْهُ جُحُودُهُمْ بآياتِ اللهِ مَعَ عِلْمِهِمْ بأنَّها آياتٌ مُنَزَّلاتٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

الْجُحُود: إنْكَارُ الحقِّ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ حَقٌّ. يقال لغة: «جَحَدَ الأمْرَ، وَجَحَدَ بِالْأَمْرِ، يَجْحَدُ، جَحْداً، وجُحُوداً»: أي: أَنْكَرَهُ وهو عَالِمٌ بِأَنَّهُ حَقٌّ. ويقال: «جَحَدَهُ حَقَّهُ، وجَحَدَهُ بِحَقِّهِ».

الظَّالِمُ: المتجاوزُ لِحُدُودِ الْحَقّ، الّذِي يُعَرِّضُ نَفْسَهُ للعقاب على تجاوُزِه.

فالمعْنَىٰ: لَا تَحْزَنْ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَجْلِ أَقْوَالِهِمُ الَّتِي يُكَذِّبُونَكَ بها، ويُؤْذُونَكَ بِها، فَإِنَّهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ لَا يُكَذِّبُونَكَ، وإِنَّهُمْ في حقيقةِ نُفُوسِهِمْ مُسْتَيْقِنُونَ بِأَنَّ مَا تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ من قرآنٍ هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَهَا جُحوداً، لَا شَكًّا فِي أَنَّهَا حَقٌّ وَصِدْق، فَلَا تَعْبأْ بِهِمْ وَلَا تَهْتَمَّ لِأَقْوَالِهِمْ، إِنَّهُمْ سَاقِطُونَ في أوحالِ الْجُحُودِ، ولَيْسُوا بِشَاكِّين.

المعالَجَةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ . . . ﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾: اللَّامُ وَاقِعَةٌ في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ. و«قَدْ» حَرْف تحقيق وفيه معْنَىٰ التوكِيد، لتخفيف الحالَةِ النَّفْسِيَّة لَدَىٰ الرَّسُول ﷺ.

أيْ: وَأُأَكِّدُ لَكَ تَوْكِيداً مُشَدَّداً يَا مُحَمَّدُ، أَنَّ رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ كُذِّبُوا وأُوذُوا وَهُمْ يُؤدُّونَ في أُمَمِهِمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، فَصَبَرُوا عَلَىٰ تَكْذِيبِ أُمَمِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ لَهُمْ، واسْتَمَرُّوا صَابِرِينَ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا.

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا، وَتَحَمَّلِ الْأَذَىٰ كَمَا تَحَمَّلُوا، حَتَّىٰ يأتِيكَ ويَأتِي الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ نَصْرُنا، وفي هذا وَعْدٌ ضِمْنِيٌّ لَهُ بالنَّصْرِ، بأسْلُوبِ حِكَايَةِ اللهِ نَصْرَهُ لِلرُّسُلِ السَّابقين، وهو من الكناياتِ النَّفِيسَةِ.

المعالجة الثالِثَة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾: أي: وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ الَّتِي تَمَّ بِهَا تَقْدِيرُهُ وَقَضَاؤُهُ السَّابقان. ومِنْ تَقديرِهِ وَقَضَائِهِ اللَّذَيْنِ قَالَ بِهِمَا كَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا مُبَدّلَ لها ما يلي:

(١) أَنَّ كُلَّ مَوْضُوعٍ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضعَ الامْتِحَانِ هو حُرُّ الإرادَةِ في اختياراتِهِ، ضِمْنَ مَجَالَاتِ ابْتِلَائِهِ، فلا يَسْلُبُ اللهُ النَّاسَ حُرِّيَاتِهِمْ ويَجْعَلُهُمْ مَجْبُورين.

(٢) أَنَّ اللهَ لَا يُجْرِي خوارِقَ آياتِهِ الإعجازِيَّة، على خِلَافِ سُنَنِهِ

التَّكْوِينيَّةِ، إذَا كَانَ إجْرَاؤهَا عَبَثاً، ومِنْ إنْزَالِهَا عَبَثاً إنْزَالُهَا لِقَوْمٍ لَا يَنْقُصُهُمُ الاسْتِيقَانُ بالْحَقِّ، إذ هُمْ مُسْتَيقِنُونَ في نفوسِهِمْ إلَّا أَنَّهُمْ جاحِدُونَ، فَلَو آتَاهُمُ اللهُ مَا طَلَبُوا مِنْ آياتٍ لَمْ يُؤْمِنُوا، ولَقَالُوا: إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مَسْحُورُون.

(٣) أَنَّ اللهَ لَا يُعَجِّلُ عِقَابَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدعَوَةِ رُسُلِهِ، بَلْ يُمْهِلُهُمْ حَتَّىٰ آخرِ زَمَنٍ، يُمْكِنُ أَنْ يَتَرَاجَعَ فِيهِ إِنْسَانٌ مَا عَنْ عِنَادِهِ، وإِصْرَارِهِ عَلَىٰ الْبَاطِلِ، تَرَاجُعاً باختِيَارِهِ الْحرِّ، وهُوَ مَا زَالَ في ظُرُوفِ حَيَاةِ الابتلاء. ظروفِ وجُوب الإيمان بالْغَيْب، لَمْ يَشْهَدْ مَشَاهِدَ من الْغَيْبِ، ولا آياتٍ عُظْمَىٰ هِي مِثْلُ مَشَاهِدِ عَالَمِ الْغَيْبِ كَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبها وظهُور الدابَّةِ الَّتِي تكلم الناس.

فَتَعْجِيلُ العقابِ قَبْلَ وَقْتِهِ الحكيم، مخالِفٌ لِكَلِمَاتِهِ التَّامَاتِ الَّتي لا مُبَدِّلَ لها، وَلَوْ أَحْزَنَ الكافِرُونَ رُسُلَهُ بِتَكْذيبِهِمْ وإيذاءاتِهِمْ لَهُمْ.

(٤) أَنَّ رُسُلَ اللهِ مَوْضُوعُونَ أيضاً فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ عَلَىٰ مَقَادِيرِهم، فَمِنْ ظُرُوفِ الحيَاةِ الدُّنيا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَ بَعْضَ النَّاسِ فِتْنَةً لِبعْضٍ، لِيَبْلُوَ مَنْ يَصْبِرُ، وَمَنْ يَضْجَرُ وَلَا يَصْبِرُ، ولِيَجْزِيَ كُلًّا بِحَسَبِهِ.

المعالَجَة الرَّابِعَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِی۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾: ﴿وَلَقَدْ﴾ هُنا كَسابِقَتِها في الآيَة: ﴿مِن﴾ للتبعيض.

أي: وَلَقَدْ جاءَكَ فِي بَيَانَاتِنَا السَّابِقَاتِ بَعْضُ نبأِ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ كَذَّبَتْهُمْ أممُهُمْ، أَو كذَّبَهُمُ الْمَلأُ مِنْ أممِهِمْ وَأئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وآذَوْهُمْ.

فَلَيْسَ مَا جرَىٰ لَكَ يَا مُحمَّدُ مِنْ قَوْمِكَ عَلَىٰ خِلافِ مَا جرَىٰ للرُّسُلِ السَّابِقِينَ مِنْ أُمَمِهِمْ وَأَقْوامِهِمْ.

إنَّ مِنْ لَوَازِمِ حُرِّيَّةِ الْإرَادَةِ في النَّاسِ الَّتِي مُنِحتْ لَهُمْ لابْتِلَائِهِمْ في

ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا، أَنْ يُوجَدَ فِيهِمْ مُؤْمِنُونَ وَكَافِرُونَ، وأَنْ يُكَذِّبَ الكافِرُونَ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وأَنْ يُوجَدَ في الكافِرينَ مَنْ يُعَادُون الرُّسُلَ وَيُؤْذُونَهُمْ، وقَدْ يَهُمُّونَ بِقَتْلِهِمْ، وقَدْ يَقْتُلُونَ بَعْضَ أَنْبِيَائِهِمْ إِذَا لَمْ يَعْصِمْهُمُ اللهُ مِنْهُمْ.

المعالَجَةُ الْخَامِسَةُ: دلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ . . . ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وإنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ الْهَمُّ والْحُزْنُ بِسَبَبِ إعْرَاضِ مَنْ تَحْرِصُ على إيمانِهِمْ وإسلامِهم، وبسبب عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِكَ، فَثَقُلَ عَلَىٰ مَا لَدَيكَ مِنْ احْتِمَالٍ وَصَبْرٍ، وأَرَدْتَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خَارِقَةٍ مُعْجِزَةٍ، تَلْبِيَةً لطلبَاتِهِم الْمُلِحَّةِ، وظَانًّا أَنَّكَ إِنْ جِئْتَهُمْ بآيَةٍ عَلَىٰ وفْقِ طَلَبِهِم سَيَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَتِكَ، فاصْنَعْ مَا تَسْتَطِيعُ صُنْعَهُ.

وأَبَانَ اللهُ لِرَسُولِهِ عَجْزَهُ عَنْ أن يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خَارِقَةٍ مُعْجِزَةٍ، لِيُسْمِعَ الْكَافِرِينَ أَنَّ مَا أَجْرَاهُ لَهُ مِنْ آيَةِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، والإسْرَاءِ إلى بيتِ المقدِسِ وَعَوْدَتِهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَوَصْفِهِ لِبَيْتِ المقْدِس كأَنَّهُ فِيهِ يُشَاهِدُه، لَمْ يَكن مِنْهُ، وإِنَّمَا أَجْرَاهُ اللهُ لَهُ بِخَلْقِهِ، لإقْنَاعِهِمْ بِصِدْقِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ.

وَجَاءَ هذا التَّعْجِيزُ بِأُسْلُوب: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: فافْعَلْ ولَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خَارِقَةٍ، لأَنَّ الآيَاتِ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يُجْرِيها إلَّا وَفْقَ حِكْمَتِهِ، فالإتْيَانُ بِهَا عَلَىٰ خِلَافِ الْحِكْمَةِ عَبَثٌ تَعَالَىٰ الرَّبُّ عَنْهُ، وَجَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُهُ.

﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾: أي: أَنْ تَطْلُبَ بِعَمِلِكَ وصُنْعِكَ.

المعالَجَةُ السَّادِسَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿. . . وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: ولَوْ شَاءَ اللهُ جَمْعَ النَّاسِ كُلِّهِمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ إيماناً وإسلاماً، لَسَلَبهُمْ إرادَاتِهِمُ الْحُرَّةَ، ولجَعلَهُمْ مَجْبُورِينَ، وحينئذٍ يَكُونُون مَهْدِيِّينَ بالْجبْرِ، لَكِنَّ اللهَ لَمْ يَشَأْ هَـٰذَا، بَلْ شَاءَ أَنْ يَمْتَحِنَهُمْ عَنْ طَرِيقِ اختيارهم الْحُرِّ، فَجبْرُهُمْ عَلَىٰ الإيمَانِ يَتَنَافَىٰ مَعَ تَخْيِيرِهِمْ لابْتِلَائِهِمْ، إنَّهُ لَا يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ الممتَحنُ المبْتَلَىٰ مَجْبُوراً، وَلَا يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ الْمَجْبُور مُمْتَحناً، هَـٰذَا تَنَاقُضٌ، وحِكْمَةُ اللهِ في الْخلْقِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَنَاقَضَ، لَا فِي الْأَشْيَاءِ وَلَا فِي لوازمِهَا الْعَقْلِيَّة.

فَمَنْ تَصَوَّرَ أَنَّ إرَادَةَ اللهِ يَصِحُّ أَنْ تَتَدَخَّلَ لِجَعْلِ إنْسَانٍ مَوْضُوعٍ مَوْضِعَ امْتِحَانِ إرَادَتِهِ، مَجْبُوراً عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مَهْدِيًّا مُؤْمِناً مُسْلِماً، فَهُوَ جَاهِلٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ، لَا يُدْرِكُ اسْتِحَالَةَ المتناقِضَات.

- **الْمُمْتَحَنُ الْمُبْتَلَىٰ**: هُو حُرُّ الإرادَةِ في اخْتِيَارَاتِهِ الَّتِي يَخْلُقُهَا اللهُ لَهُ.
- **الْمَجْبُورُ**: لَا تَكُونُ لَهُ إرَادَةٌ حُرَّةٌ تَخْتَارُ.
- **لَا يَكُونُ** المخْلُوقُ الواحِدُ، في الزَّمَنِ الواحِدِ، حُرَّ الإرادَةِ ومَجْبُوراً فِيمَا هو فيه حُرُّ الإرادَة، هذا تَنَاقُضٌ، وَلَا تَتَعَلَّقُ إرَادَةُ اللهِ بإيجادِ النقيضَيْنِ مَعاً في الشَّيْءِ الواحد، والزَّمَن الواحد.

ولَيْسَ من حِكْمَةِ اللهِ أَنْ يُكَلِّفَ الْمَجْبُورَ بأمْرٍ هُوَ مَجْبُورٌ عَلَىٰ نَقِيضِهِ، وقَدْ أَبَانَ اللهُ هَـٰذَا فِي نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

المعالجة السَّابعةُ: دلَّ عليها قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: أي: لَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّةِ، إلَّا الَّذين لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يَسْمَعُوا سَمَاعاً واعِياً، واصِلاً إلَىٰ مَدارِكِهِمْ الَّتي تَفْهَمُ ما يَصِلُ إلَيْهَا مِنْ بيانَاتٍ فَهْماً تَدبُّرِياً، أَمَّا الَّذِينَ هُمْ رَافِضُونَ ابْتِداءً أَنْ يَسْمَعُوا اتباعاً

لِأَهْوَائِهِمْ، فإنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، فَهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الحقّ.

إنَّ مِنْ شُرُوطِ الاسْتِجَابَةِ للدَّعْوَةِ حُصُولَ سَمَاعِ بَيَانَاتها، ومِنْ شروط سَمَاعِ بيَانَاتِ الدَّعْوَةِ عَدَم إقَامَةِ الْحُجُبِ بَيْنَهَا وبَيْنَ النَّفْسِ الْمُدْرِكة، ومِن أَسْبَابِ إقَامَةِ هذه الحُجُبِ الرَّفْضُ ابْتِدَاءً.

وَهَـٰؤلَاءِ الَّذِينَ يَحْزُنُكَ تَكْذِيبُهُمْ وإيذاءاتُهُمْ، لَا يَسْمَعُونَ سَمَاعاً واصِلاً إلى مَدَارِكِهِمُ الّتِي تَفْهَمُ وَتَعِي وتَتَدَبَّر، وقَدْ عَالَجْتَهُمْ طَوِيلاً فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا، فَلَا تَطْمَعْ باسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِكِ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة، وَرَبُّكَ لَا يُجْبِرُهُمْ لَانَّهُمْ فِي حياةِ الابتلاء، فَلا يَسْلُبُهُمْ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة، ليَكُونُوا مُسْتَجِيبينَ بالْجَبْر.

المعالَجة الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿. . . وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أَيْ وَمِنْ هَـٰؤلَاءِ الأئِمَةِ فِي الكُفْرِ والشِّرْكِ مَنْ هُمْ مَوْتَىٰ الْقُلُوبِ، فَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ فَاقِدِي السَّمْعِ، وسَيَسْتَمِرُّونَ عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمُوتُوا وتَنْتَهِيَ مُدَّةُ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وبَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ الَّتِي يَكُونُونَ فيها مَوتَىٰ قَدِ انْفَصَلَتْ أَرْوَاحُهُمْ عَنْ نُفُوسهم، يَبْعَثُهُمُ اللهُ إلَىٰ الحياة الأخرى، مَعَ سائِرِ الْأَحْيَاءِ، ثُمَّ بَعْدَ حَشْرِهِمْ، وَفَرْزِهِمْ بِحَسَبِ زُمَرِهِمْ مُؤْمِنِينَ وكافِرين، يَتَقَدَّم كُلُّ إمَامِ الزُّمْرَةِ التَّابِعَةَ لَهُ، يُسَاقُونَ إلَىٰ مَحْكَمَةِ الْعَدْل الرَّبَّانِيَّة، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وبَعْدَ فَصْلِ القضاء يأمُرُ اللهُ بِتَنفيذِ جزَاءِ كُلِّ مَنْ كَانَ في الحياة الدُّنيا مَوْضُوعاً مَوْضِع الامْتِحَانِ بِحَسَبِ مَا قَضَىٰ اللهُ بِشَأْنِهِ.

■ وبَعْدَ هَـٰذِهِ المعالَجَاتِ الثمان، أبان الله عزَّ وجلَّ أَنَّ أَبْرَزَ مَطَالِبِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ مراحِلِ الدَّعْوَةِ المَكيَّة مُطَالَبَتُهُمُ التحضيضيَّة بأَنْ يُنَزِّلَ اللهُ عَلَيْهِ آيَةً خَارِقَةً مِنَ الآياتِ الْمُعْجِزَاتِ، فقال اللهُ تَعالَى:

● ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿لَوْلَآ﴾: هُنَا بمعنَىٰ «هَلَّا» أداةٌ مِنْ أدواتِ التحضيض أي: وَقَالَ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ إبَّانَ نُزُولِ سُورَة (الأنعام/ ٥٥ نزول): هَلَّا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ آيَةٌ مِنَ الآياتِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ طَلَبْنَاهَا مِنْهُ، حَتَّىٰ نَسْتَيْقِنَ بِأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقاً.

وبما أنَّ هَـٰذَا الطَّلَبَ قَدْ سَبقَتْ مُعالَجَتُهُ بالبياناتِ الكافِياتِ، المقْنِعَاتِ لِمَنْ يُرِيدُ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ والاقْتِنَاعَ بِهِ، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ الاقْتِصَارُ فِي الرَّدِّ التَّعْلِيمِيّ عَلَىٰ قَوْلِ اللهِ لِرَسُولِه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ خَارِقَةً مِمَّا تَطْلُبُونَ ومِنْ غَيْرِ ما تَطْلُبُون.

وَأَبَانَ اللهُ لِرَسُولِهِ وَلِكُلِّ مُتَلَقٍّ للبَيَانِ فقالَ تَعالَى: ﴿. . . وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَرْفُضُونَ ابْتِداءً أَنْ يَعْلَمُوا مَهْمَا أُبِينَ لَهُمْ الحقُّ بِبَيَانَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

وبهذا يَظْهَرُ أَنَّ طَلَبَهُمْ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ تَكْرِيرٌ لِمَا سَبَقَ أَنْ طَلَبُوهُ، وأنْزَلَ اللهُ فِي بَيَانَاتِهِ أَنَّ طَلَبَهُمُ الآياتِ هُوَ مِنْ قَبِيل التَّشَهِّي، والرَّغْبَةِ فِي مُشَاهَدَةِ الْخَوَارِقِ، ولَوْ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَجْرَىٰ لَهُمْ كُلَّ آيَةٍ يَطْلُبُونَهَا فإنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُون، إِذْ لَا يَنْقُصُهُمُ الاقْتِنَاعُ والاسْتِيقانُ بِصِدْقِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ورِسَالَتِهِ، وبأنَّ القرآن كَلَامُ اللهِ حَقًّا وَصِدْقاً، فَهُمْ مُسْتَيْقِنُونَ، وَلَكِنَّهُمْ جَاحِدُونَ.

■ وَبَعْدَ الْبَيَانَاتِ السَّابِقَاتِ وَبِمناسَبَةِ الحديثِ عَنِ الْبَعْثِ لِيَوْمِ القيامَةِ، أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّ الْبَعْثَ إلى الحياة الْأُخْرَىٰ لَا يَقْتَصِرُ على الإنْسِ والْجِنِّ والْمَلَائِكَة، بَلْ يَشْمَلُ كُلَّ دَوَابِّ الْأَرْضِ وطُيُورِها فَهِيَ أُمَمٌ أَمْثَالُ الناس، وسَوْفَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ وإِلَيْهِ يُحْشَرُونَ، فقال الله تعالى:

● ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: **الدَّابَّةُ**: اسْمٌ لِمَا يَدِبُّ على الأرْضِ مِنَ الحيوان. يُقَالُ لغةً: دَبَّ، يَدِبُّ، دَبًّا، وَدَبِيباً» أي: مَشَىٰ علَىٰ تُؤَدَةٍ رُوَيداً رُوَيْداً، وكُلُّ مَاشٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ ذِي حَيَاةٍ دَابَّةٌ، وَدَبِيبٌ، وَيُجْمَعُ عَلَىٰ «دَوَابّ».

ولفظ «مِنْ» جارٌ مَزيدٌ لتوكيد عُمُومِ النفي.

ولفظ «الْأَرْض» أُطْلِقَ عَلَىٰ هَـٰذَا الكَوْكَبِ الّذِي نَسْكُنُهُ، وَمَا حَوْلَهُ مِنَ الغِلَافِ الغازِي التَّابِعِ لَهُ، ولهذا اسْتُعْمِلَ حَرْفُ «فِي» الدَّالّ عَلَىٰ الظَّرْفِيَّة المكَانِيَّةِ.

- ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾: أي: بِجَنَاحَيْهِ اللَّذَيْنِ هُمَا عِمَادُ طَيَرَانِهِ فَأَكْثَر، إِذْ يُوجَدُ في الطَّائِرَاتِ مِن الحَشَرَاتِ الَّتي هِيَ أَحْيَاءُ مِن خلق الله مَا لَهُ أَكْثَرُ مِنْ جَنَاحَيْنِ، لَكِنَّ الطَّيَرَانَ عِمَادُهُ الْأَكْبَرُ جَنَاحَانِ.

وذِكْرُ عِبَارَةِ: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ قَيْدٌ لَازِمٌ، لأنَّ أشْيَاءَ كَثِيرَةً تَطِيرُ طَيَرَاناً حِسّيًّا أَوْ مَعْنَويًّا لَيْسَتْ مِنْ صِنْفِ الْأَحْيَاءِ الَّتِي تَطِيرُ بِجَنَاحَيْن لها.

فالدُّخَانُ يَطِيرُ فِي جَوِّ الأرض، وَلَا يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ لَهُ، وبُخَارُ الْمَاء يَطِيرُ مُرْتَفِعاً في جَوّ الأرْضِ، وهو لَا يَطِيرُ بجَنَاحَيْن لَهُ. وأوْرَاقٌ وأشياءُ خَفِيفَةٌ تَحْمِلُهَا الرِّيَاحُ العاصِفَةُ تَطِيرُ مُرْتَفِعَةً فِي جَوِّ الْأَرْضِ، وهِيَ لَا تَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ لَها، والطَّائِرَاتُ الَّتِي هِيَ مِنْ صُنْعِ الإنْسَانِ تَطِيرُ في جَوِّ الْأَرْضِ بِقُوَّةِ الدَّفْعِ الحرَارِيّ، لَا بِحَركَةِ الجناحَيْنِ، وقَدْ تَكُونُ الْأَجْنِحَةُ مِنْ شُرُوطِ تَوَازُنِ مَسِيرِهَا في جَوِّ الْأَرْضِ، لَكِنْ لَا يَكُونُ طَيَرَانُهَا بِهَا.

وأطْلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَىٰ عَمَلِ الإنْسَانِ لفظ «طَائِر» عَلَىٰ مَعْنَىٰ انْطِلَاقِهِ مِنْهُ مُرْتَفِعاً، وَهُوَ لَا يَطِيرُ بجناحَيْنِ له.

فَمِنْ دِقَّةِ الْأَدَاءِ الْبَيَانِي ذِكْرُ عِبَارَةِ: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ مَع مَا فِيها مِنْ جَمَالٍ لَفْظِيٍّ يَتَلَقَّاهُ السَّمْعُ بارْتِيَاحٍ وعُذُوبَة.

● ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾: أي: إلَّا أُمَمٌ أشْباهُكُمْ، ذَوُو حَياةٍ، وخَرائِط نَفْسِيَّة، ونُظُمِ حَياةٍ، وَمَدَارِكَ عَلَىٰ مَقَادِيرِها.

الأُمَّة: تُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ النَّاسِ أو مِنَ الأحْيَاءِ الأخرىٰ، تَجْمَعُها صِفَاتٌ، أَوْ خَصَائِصُ، أَوْ رَوَابِطُ مُتَميِّزَة.

الناسُ كلُّهُمْ أُمَّة. والْعَرَبُ أمَّة. والْفُرْسُ أمَّة. والتُّرْكُ أُمَّة. وكُلُّ قبيلَةٍ أمَّة. والْيَهُودُ المتَّفِقُونَ عَلَىٰ عَقِيدَةٍ واحِدَةٍ أُمَّة. والنَّصارَىٰ المتفقُون على عقيدة واحِدَةٍ أُمَّة، وهكذا.

والنَّمْلُ أُمَّة. والنَّحْلُ أمَّة. والصُّقُورُ أُمَّة، والنُّسُورُ أُمَّة. والإبِلُ أمَّة. والْخَيْلُ أمَّة. والبقرُ أُمَّة. والجرادُ أُمَّة. وهكذا.

ولِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْ هَـٰذِهِ الأمَمِ إدْرَاكَاتٌ عَلَىٰ مَقَادِيرِهَا. أَعْلَاهَا إدْرَاكَاتُ النَّاس، فَخَصَّهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالتكاليفِ الاعْتِقَادِية والعمليَّة. بَعْدَ أَنْ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، وَكَذَلِكَ الجنّ.

وَتَتَنَازَلُ إدْرَاكَاتُ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ في الْأَرْضِ، وقَدْ ضَبَطَ اللهُ سُلُوكَهَا بِغَرَائِزَ تَسِيرُ عَلَىٰ خُطُوطِها، وجَعَلَهَا تُدْرِكُ مَعْنَىٰ الظُّلْم بَيْنَ أنْواعِهَا، وَتُدْرِكُ مَعْنَىٰ الْعِقَابِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهَا مِنْ ظُلْمٍ، وهَـٰذَا الإدْرَاكِ الْفِطْرِيّ، يُلَائِمُهُ مِنْ قَانُونِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيّ، أَنْ يُعَاقَبَ الظَّالِمُ مِنْهَا بِمِثْلِ مَا ظَلَمَ، وَلَا يُعْتَبَرُ مِنَ الظُّلْم مَا هُوَ مِنْ فِطَرِ الْغَرَائِز الَّتِي فَطَرَ اللهُ الْبَهَائِمَ عليها، فَلَا يُعَاقَبُ الْأَسَدُ إذا افْتَرَسَ فَرِيسَتَهُ لِيَأْكُلَها، لِأَنَّ هَـٰذَا مِنْ مُقْتَضَىٰ غَرِيزَتِهِ الَّتِي لَا تُعْتَبَرُ مُمَارَسَتُهُ لَها ظُلْماً، لَكِنْ يُعَاقَبُ الثَّوْرُ ذَا الْقُرُون إِذَا اعْتَدَىٰ عَلَىٰ ثَوْرٍ آخَرَ لَا قُرُونَ لَهُ فنَطَحَهُ، وكذلِكَ الشَّاةُ ذَاتُ القرون إِذَا نَطَحَت الشَّاة الَّتِي لَا قُرُونَ لَهَا ظُلْماً وَعُدْواناً.

هَـٰذَا مُقْتَضَىٰ كَمَالِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِي، ولِهَـٰذَا كانَ مِنَ الحكمة بَعْثُ أُمَمِ الْحَيَوَاناتِ كُلِّهَا إلى يوْمِ القيامَةِ وحَشْرُهَا، لإقَامَةِ الْعَدْلِ بَيْنَهَا، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ

مَوْضُوعَةً في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ والتكليف، وَهَـٰذَا مَا أَثْبَتَتْهُ البياناتُ النَّبويَّةُ، وَدَلَائِلُ بَعْضُ النُّصُوصِ القرآنِيَّة، ثم يُقَالُ لِهَـٰذِهِ الأمَمِ كُونِي تراباً، ويقول الكافر حينئذٍ: يا ليتني كُنْتُ تُرَاباً، كالحيوانات التي ماتَتْ وصارت تراباً.

ولِهَـٰذَا كانَ من الْحِكْمَةِ تَسْجِيلُ أعْمالِ أحْيَاءِ الأرْضِ الترابِيَّةِ كُلّها، في كتاب لا يُغادِرُ صغيرة وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أحْصَاهَا، وَدَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآية:

- ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾: أي: مَا ضَيَّعْنَا فِي كِتَابِ تَسْجِيلِ أَعْمَالِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا شَيْئاً، وَمَا نَقَصْنَا مِنْهَا شيئاً.

التَّفْرِيطُ: التَّضْيِيعُ والتَّقْصِيرُ.

لفظ «مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زِيدَ في المفْعُول بِهِ لتوكيد عُمُوم النفي.

واقْتَضَتِ الحكْمَةُ البيانيَّةُ إثباتَ حَشْرِ كُلِّ أُمَمِ الدَّوابِّ والطَّيْرِ، فقَالَ تعالَى في آخِرِ الْآيَةِ: ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: لإقامَةِ كَمَالِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ بَيْنَهَا، وجِيءَ بضمير الجمع الْخَاصِّ بذَوِي الْعِلْم من الأحياء، مُرَاعَاةً لِوَضِعَها مَوْضِعَ مَنْ يحاسَبُ ويُجازَىٰ، إذْ حُشِرَتْ لإقَامَةِ الْعَدْلِ بَيْنَها، وينْتَهِي بذلِكَ الْغَرَضُ مِنْ حَشْرِها، فيُقالُ لَهَا: كوني تُرَاباً، فتَموتُ وتكُونُ تراباً. **الحشر**: الْجَمْعُ والسَّوْق.

روىٰ مسلم، والإمام أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي، عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لَتُؤدُّونَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيامَة، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ من الشاة القَرْنَاءِ تَنْطَحُها».

يُقَادُ: أيْ: يُقْتَصّ. **الْجَلْحَاء**: الَّتِي لا قرون لها.

■ وخَتَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ هَـٰذَا الدَّرْسَ السّابِعَ، بآيَةٍ هِيَ بِمَثَابَةِ الْقُفْلِ

الذي يَرْبِطُ الآيَةَ الْأَخِيرَةَ مِنْهُ بالآيَةِ الْأُولَىٰ مِنْهُ لِلْمُلاءَمَةِ بَيْنَهُما:

فالآيَةُ الأولَىٰ مِنْهُ جاءَ فيها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

والآيَة الأخِيرَةُ قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ فِيها:

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾:

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: والَّذِين كَذَّبُوا بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آياتُنا التَّكوينِيَّة، وبما تدُلُّ عَلَيْهِ آياتُنا الإعْجازِيَّة، وكَذَّبُوا رُسُلَنا بِمَا أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ مِنْ آياتِنَا الْبَيانِيَّة كآياتِ القرآن المجيد.

- ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: أي: هُمْ كَالصُّمِّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ مَا يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ الْحَقِّ، وكالْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَنْطِقُونَ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ بالْحَقِّ وَلَا يُعْلِنُونَه، وَهُمْ مُقِيمُونَ فِي الظُّلَمَاتِ كالْعُمْيِ، لَا يَرَوْنَ أَنْوارَ الْحَقِّ الرَّبَّانِيّ، وظُلُماتُهُمْ هِيَ ظُلمات أَهْوائِهِمْ، وشَهَواتِهِمْ، وتَقَالِيدِهِمُ الْبَاطِلَةِ، وأَوْهَامِهِمُ الفاسِدَة، وسُتُورِ مُضَلِّلِيهم عَنْ صِراطِ اللهِ المستقيم بِزَخَارِفِ الأقوال الخادِعَة، مِنْ شَيَاطِينِ الإنْس والجنّ.

- ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾: أي: مَنْ يَشَإِ اللهُ الْحُكْمَ عَلَيْهِ بالضَّلالِ لِأَنَّهُ قَدْ ضَلَّ بِرَفْضِهِ الإيمانَ بِالحقِّ، والإسْلامَ للهِ فِي حَيَاتِهِ، يَحْكُمْ عَلَيْهِ بالضَّلالِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ لَا يَشَاءُ الْحُكْمَ بالضَّلالِ إِلَّا عَلَىٰ مَنْ كَانَ ضَالًّا.

ومَنْ يَشإِ اللهُ تَيْسِيرَ سُبُلِ الضَّلالِ لَهُ، لِأَنَّهُ كَفَرَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بالْحَقِّ، يَسَّرَ لَهُ ذَلِكَ، فَلَمْ يُقِمْ لَهُ العقبات، لِأَنَّهُ فِي حَياةِ الامْتِحان، فَلا بُدَّ مِنْ تَمْكِينِهِ لتحقيق اخْتِيارَاتِهِ.

• ﴿... وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾: أي: وَمَنْ يَشَأِ اللهُ الْحُكْمَ له بالهداية وأَنَّهُ سَار فِي حَياتِهِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، لِأَنَّهُ قَد اهْتَدَىٰ بالإيمان بالحقّ وبالإسلام للهِ في حياته، يَحْكُم لَهُ بِالْهِدَايَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ لا يَحْكُمُ بالهداية إلَّا لِمَنْ كانَ مُهْتَدِياً بإرادته.

ومَنْ يَشأِ اللهُ لَهُ تَيْسِيرَ السُّلُوكِ على صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، لِأَنَّهُ آمَنَ باللهِ وأَسْلَمَ لَهُ قِيَادَهُ، يَسَّرَ لَهُ سُلُوكَه، فأعَانَهُ بالتوفِيقِ، وأمَدَّهُ بالتسديد، لِتَحْقِيقِ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ، وجَعَلَهُ يَسِيرُ عَلَى صِرَاطٍ مستقيم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس السابع من دُرُوس سورة (الأنعام).
والحمد لله على معونته وَمَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٢)
التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دُروس سورة (الأنعام)
الآيتان: (٤٠ و٤١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾:

تَمْهيد.

هذا الدّرْسُ مِنْ فُروع السَّاقِ الثَّاني مِنْ سَاقَيْ شَجَرَةِ موضُوع السّورة، وفِيهِ وَمْضَةُ تَعْلِيمٍ جَدَلِيٍّ وَدَعَوِيٍّ مِنَ الله عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ.

التّدبّر التحليلي:

أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إلى اللهِ مِن أُمَّتِهِ لِمَنْ تُعالِجُ

إقْنَاعَهُمْ بِتَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَٰهِيَّتِهِ: أَخْبِرُونِي بَعْدَ أَنْ تَتَفَكَّرُوا تَفَكُّراً سَلِيماً، يُوصِلُكُمْ إِلَىٰ رُؤْيَةٍ فِكْرِيَّةٍ وَتَجْرِيبِيَّةٍ صَحِيحَةٍ لَا زَيْفَ فيها وَلَا بَاطِلَ، إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ، كَسَيْلٍ عَظِيمٍ قَادِمٍ، أو رِيَاحٍ عَاصِفَةٍ أَوْ قَاصِفَةٍ مُدَمِّرَة، أَوْ بَرَاكِينَ تَتَفَجَّرُ بِقَذَائِفَ مِنْ صَخْرٍ أَذَابَتْهُ النَّارُ، فَأَخَذَ يَسِيلُ نحوكُمْ فِي كُلِّ اتِّجاه، أَوْ بَرَدٍ عَظِيمٍ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ رَاجِماً مِنَ السَّمَاءِ كالْحِجَارَة، أو أَتَتْكُمْ مُقَدِّمَاتُ سَاعَةِ مَوْتِكُمْ وأَيْقَنْتُمْ أَنَّكُمْ مَيِّتُونَ لَا مَحالَة، أو مُقَدِّمَاتُ السَّاعَةِ الَّتِي يَنْتَهِي بِهَا نِظَامُ الحياة الدُّنيا، أغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ لِيَكْشِفَ عَنْكُم مَا اقْتَرَبَ مِنْكُمْ أَوْ نَزَلَ؟! أَخْبِرُونِي بالْحَقِّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين.

إِنَّكُمْ حِينَئِذٍ تَنْسَوْنَ تاركِينَ شُرَكَاءَكُمْ فَلَا تَدْعُونَهُمْ، وَلَا يَحْضُرُ في أَذْهَانِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ غَيْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ تَدْعُونَهُ، وَتَسْتَغِيثُونَ به، لِأَنَّهُ قد اسْتَقَرَّ في عُمْقِ قُلُوبِكُمْ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ إِلَّا اللهُ رَبُّكُمْ، وهَـٰذَا الْمُسْتَقِرُّ تَجْذِبُهُ إِلَىٰ سَاحَةِ التَّصَوُّرِ الْحَاضِرِ الْمُرعِبَاتُ الْمُخيفَاتُ خَوْفاً شَدِيداً، الَّتِي تُمْسَحُ عِنْدَهَا تَصَوُّرَاتُ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله، فإذَا كُنْتُمْ تَنْسَوْنَ آلِهَتَكُمْ عِنْدَ المَخَاوِفِ الشَّدِيدَةِ فَلَا تَدْعُونَهَا، أفَلَيْسَ مِنَ الواجِبِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْبِذُوهَا دَوَاماً، فَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ رَبَّكُمْ، الَّذِي هُوَ واحِدٌ أَحَدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَوَاحِدٌ أَحَدٌ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

إِنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاه وَيَكْشِفُ السُّوء، وهَـٰذَا مِنَ الْأَدِلَّةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا الرَّبُّ لِعِبادِهِ، عَلَىٰ أَنَّهُ هو الواحِدُ الأحَدُ في رُبوبيّتِهِ لِكَوْنه.

- ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: استفهامٌ يُرادُ بِهِ انْتِزاعُ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ الرَّبَّ القادِرَ عَلَىٰ كَشْفِ السُّوء هو اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْنْ فَهُوَ الإِلَٰهُ الواحِدُ الْأَحَدُ لا شريكَ له.

في هَـٰذِهِ الصِّيغَة نَجِدُ تاءَ خِطَابِ المفْرَد المُذَكَّر، وَكافَ الخطابِ، وهُمَا ضَمِيران، والميم الَّتِي هِيَ علَامَة الجمع.

وقَدْ نظَر النحاة في هذا التعبير الّذِي هُوَ من الصِّيغَ المستَعْمَلَةِ عِنْدَ الْعَرَب. فقَال الْبَصْرِيُّونَ: الكافُ والميم للخطاب، وهما حَرْفَانِ لَا حَظَّ لهما في الإعْرابِ. وقالَ الكِسَائِي والْفَرَّاءُ وَغَيْرُهما: الْكَافُ والْمِيمُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بِوُقُوعِ الرُّؤيَةِ عَلَيْهِمَا، وَالمعْنَىٰ: أَرَأَيْتُمُ أنْفُسَكُمْ. قال الزَّمَخْشَرِي في الكَشَّافِ: إنَّهُ لَا مَحَلَّ للضمير الثاني (أي: الكاف) مِنَ الإعْرَابِ، فَرَجَّحَ رَأيَ الْبَصْرِيين.

وَأَرَىٰ أَنَّ المعْنَىٰ: «أَرَأَيْتُم أَنفُسَكُمْ» ولمَّا قُدِّمَتْ كافُ الخطابِ عَلَى مِيم الْجَمْع، فَتحَ الْعَرَبِيُّ التَّاءَ لئَلَّا تَلْتَبِسَ بِتَاءِ المتكلِّم، فَهِيَ تَاءُ المخاطَبِينَ مَعَ لَفْظِ «كُمْ» فَمِيمُ الْجَمْعِ كافِيَة للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أنَّ المخاطَبِينَ جماعَة.

أمَّا عِبَارَة: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ الّتي جاءت في الآية (٦٢) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) فلا إشْكالَ فيها، والمعنى فيها. أرأيت نَفْسَك.

- ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: أرَىٰ حَمْل لفظة «السَّاعَةِ» هُنا عَلَىٰ قُرْب سَاعَةِ مَوْتِ كُلّ وَاحِدٍ مِنَ الْمخاطَبِينَ، مَعَ أَهْوَالِ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا كُلِّها.

- ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: أخْبِرُونِي بالحقيقَة الَّتِي تَكُونُونَ عليها، حينئذٍ إنْ كُنْتُمْ صادقين.

- ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾: أي: فإذَا قَالُوا: «نَدْعُو آلِهَتَنَا» كَانَ على الدَّاعِي إلىٰ اللهِ أنْ يَرُدَّ عليهم بقَوْلِهِ: لَا تَكْذِبوا، بَلْ تَخُصُّونَ اللهَ وَحْدَهُ بالدُّعَاء لعِلْمِكُمْ بأَنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغِيثُكُمْ وَلَا تُنْجِيكُمْ، بَلِ الَّذِي يُغِيثُكُمْ وَيُنْجِيكُمْ إنْ شَاءَ والْقَادِرُ عَلَى إغَاثَتِكُمْ وإنْجَائِكُمْ رَبُّكُم الخالِقُ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والأَرْض.

- ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾: أَيْ: فَيُزِيلُ مَا تَدْعُونَهُ إلىٰ كَشْفِهِ عَنْكُمْ إنْ شَاءَ سبحانه، وَمَشيئَتُهُ لَا تُفارِقُ حِكْمَتَهُ دواماً.

الكَشْف: يأتي بمَعْنَىٰ رَفع الغطاءِ عَنِ الشيء، وبمعنَىٰ الإزالَة.

● ﴿... وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾: أي: وَتَتْرُكُونَ آلِهَتَكُمُ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا شُرَكَاءَ للهِ في إلَهِيَّتِهِ.

أصل مَعْنَىٰ «النِّسْيَانِ» التَّركُ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ مَسْحِ الشيء مِنَ الذَّاكِرَةِ، لِأَنَّ تَرْكَ الشّيْءِ مُدَّةً طَوِيلَةً يَمْسَحُهُ مِنَ الذَّاكِرَةِ في كثير من الأحيان.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثامن من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمدُ للهِ على مَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ وَتَوفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

التدبّر التحليلي للدّرْس التاسع من دُروس سورة (الأنعام)

الآيات من (٤٢ ـ ٤٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٥)﴾:

القراءات:

(٤٢ و٤٣) ● قرأ أبو جَعْفر، والسُّوسي: [**بِالْبَاسَاءِ**] و[**بَاسُنَا**] بإبْدَالِ الْهَمْزَةِ ألفاً فيهما.

وقرأهما باقي القراء العشرة: [**بالبأساء**] و[**بأسنا**] بالهمزة.

(٤٤) • قرأ ابْنُ عَامر، وأبو جَعْفَر، ورُوَيس: **[فَتَّحْنَا]** بتَشْدِيدِ التَّاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[فَتَحْنَا]** بِتَخْفِيفِ التاء.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فَهُمَا يَدُلَّان عَلَىٰ أَنَّ بَعْضَ الْأَقوام يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ فَتْحاً عادياً، وأَنَّ آخرينَ يُفَتِّحُ اللهُ لَهُمْ أبْوابَ كُلِّ شيءٍ بتَوْسِعَةٍ زائِدَةٍ على الْفَتْحِ المعتاد، بحَسَبِ مَا تقتضيه حِكْمَتُهُ السَّنِيَّة.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْسِ التاسع من فروع السَّاقِ الْأَوَّلُ مِنْ سَاقَيْ شَجَرَة موضوع السُّورة، وفيها بَيَانٌ مِن اللهِ لِرسُوله ﷺ مع إسْمَاعِ كُلِّ صالح للخطاب، بِشأْنِ كُفَّارِ الأُمَم السَّالفة، وَكَيْفَ أخَذَهم ـ جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ بالبأسَاء والضَّرَّاء رغْبَةً في أَنْ يَتَضرَّعُوا، لكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَفَتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحيَاةِ الدُّنيا بحَسَبِ تَطَوُّرِهِم الحضاري، ثُمَّ أَخَذَهُمْ بالتعْذِيب والإهْلَاكِ بَغْتَةً، واسْتَأْصَلَهُمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كانوا ظالِمين ظُلْماً كبيراً تَقْتَضِي الحكمة الرَّبَّانِيَّةُ اسْتِئْصَالهم.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْس تدبُّراً تَكَامُلِيًّا مَعَ نَصٍّ آخَرَ من سُورَةِ (الْأَعْرَاف/ ٣٩ نزول) في الملْحَقِ السَّابع من ملاحِقِ تَدَبُّر سورة (الأعراف) لَدَىٰ شَرْح السُّنَّةِ السَّابِعَةِ مِنْ سُنَنِ اللهِ في الأمَمِ حَتَّىٰ اسْتِحْقَاقِهَا الْإِهْلَاكَ الشَّامِل⁽¹⁾.

التّدبّر التحليلي:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾: الواو عاطفة، وهُوَ مِن عَطْفِ

---

(١) انظر المجلّد الخامس من هذا الكتاب، الصفحات من (٤٥٧ ـ ٤٦١). «شَرحُ السُّنَّة السَّابعة».

جُمْلَةِ بَيَانٍ عَلَىٰ بيانٍ سابق، «لَقَدْ» اللَّامُ واقِعَةٌ في جَواب قَسَمٍ مَنْوِي، فهي للتوكيد. و«قَدْ» للتحقيق، وهو يتضَمَّنُ التوكيد.

أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَكَذَّبُوهُمْ وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِم.

يَتَحَدَّثُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بِضَميرِ المتكلّم العظيم.

- ﴿... فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أَصْلُ الْأَخذِ الْقَبْضُ على الشيء، وبالتوسُّعِ في المعْنَىٰ صَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ حِيَازَةِ الشَّيْء والحصُول عَلَيْهِ وَلَوْ دُونَ قَبْضٍ له، ثُمَّ صَارَ يُطْلَقُ الأَخْذُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ مَا يُؤْخَذُ لَهُ الشيْءُ، مِمَّا يَسُرُّ أَوْ مِمَّا يَسُوءُ.

الْبَأْسَاء: الجُوعُ، والمشقة، والْفَقْرُ، وضَنْكُ العيش، والْحَرْب.

الضَّرَّاء: الشَّدَّة، وكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ في الأَمْوَالِ أو في الْأَنْفُس.

والْغَرَضُ مِنْ هَـٰذَا الأخذِ تَذْكِيرُهُمْ بِرَبِّهِمْ، لِيَدْعُوهُ مُتَضَرِّعِينَ إِلَيْهِ، تَائِبين مُسْتَغْفِرين، سائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ ما نَزَلَ بِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ يَتَذَكَّرُوا رَبَّهُمْ، فَيَدْعُوهُ مُتَضَرِّعِينَ له، مُعْتَرِفِينَ بِذُنُوبِهِمْ، سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِم.

أو لِنَجْعَلَهُمْ فِي مَوْقِفٍ من شأنِهِ أَنْ يَدْفَعَهُمْ ـ إِذَا كَانَ لَدَيْهِمْ رُشْدٌ مَا ـ إِلَىٰ أَنْ يَتَذَلَّلُوا لِرَبِّهِمْ، ويَخْضَعُوا لَهُ تَائِبين، سائِلِينَ أَنْ يَرْفَعَ ويُزِيلَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِم، فإذا اسْتَجابَ لِدُعَائِهِم كَانَ ذَلِكَ مُذَكِّراً لَهُمْ دواماً بِرَبِّهِمْ، وَمُنْذِراً لَهُمْ بِنُزُولِ العذاب والإهْلَاكِ الشَّامِلِين، فإذَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ هَـٰذِهِ المقدّماتِ اسْتَحَقُّوا التَّعْذِيب والإهْلَاكَ الشَّامِلَيْن.

«لَعَلَّ» أَصْلُ مَعْنَاها اللُّغَوِي التَّرَجّي والتوقُّع، ولَمَّا كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلِيماً بما كان وبما هو كائِنٌ وبما سَيكُون، كان من الْفَهْمِ السَّدِيد اعتبار

كلمة «لَعَلَّ» دالّةً عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرَّغْبَةِ، فاللهُ يَرْضَىٰ لعبادِهِ الإيمان والطَّاعة وحُسْنَ الدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ، أو على لازِمٍ آخَرَ كَجَعْلِهِمْ في مَوْقِفٍ يَجِدُونَ فِيه مَا يَدْفَعُهُمْ للتَّضَرُّعِ.

التَّضَرُّعُ: التذَلُّلُ والخضوع، مأْخُوذٌ مِنْ خُضُوعِ وَلَدِ الْبَهِيمَةِ الرَّضِيعِ لِيَمْتَصَّ حَلِيبَ أُمِّهِ مِنْ ضَرْعِها.

- ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾: أي: فَهَلَّا تَضرَّعُوا حِينَ جَاءَهُمْ عَذَابُنَا التَّأْدِيبيُّ الْجُزْئِيُّ، الْمُنْذِرُ بالْعَذَابِ والإهْلاكِ الشَّامِلَيْنِ الْمُسْتَأْصِلَيْن.

الْبَأْسُ: الْعَذَابُ الشَّدِيد. ويُطْلَقُ عَلَىٰ الشّدَّةِ في الْحَرْب.

- ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أَيْ: وَلَكِنْ لَمْ يَتَضَرَّعُوا، ولم يَتُوبُوا، ولَمْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ، بَلْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، فَلَمْ تَلِنْ لِمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ تَأْدِيبِيٍّ إنْذَارِيٍّ.

- ﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وحَسَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ إبليسُ وَجُنُودُهُ مِن الجنّ والإنْس مَا كانوا يَعْمَلُونَ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ ولوازِمِهَا فِي السُّلُوك، وهِيَ الَّتِي اقتضَتْ أنْ يُنْزِلَ اللهُ بِهِم المصائِبَ وأنواعاً من البأْسَاءِ والضَّرَّاء، وأقْنَعَهُمْ بالتَّزْيينَ الزُّخْرُفيّ بأنَّ ما نَزَلَ بِهِمْ هُوَ مِنْ تَقَلُّبَاتِ الدَّهرِ، الّتي تَحْدُثُ بِصُورَةٍ طبيعيَّةٍ خالِيَةٍ مِنْ قَصْدٍ رَبَّانِيٍّ للتَّربِيَةِ والْجَزاءِ.

- ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾: أي: فَلَمَّا تَرَكُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ بِمُذَكِّرٍ مِنَ البأْسَاءِ والضَّرَّاء، وَمَا كَانُوا قَدْ ذُكِّرُوا بِهِ مِنْ قِبَلِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، أَوْ مِنْ قِبَلِ الدُّعاةِ مِنْ أتباعِ الرُّسُلِ، تَذكيراً بَيانيًّا بالنُّصْحِ والإرْشَادِ والموعِظَةِ الْحَسَنَةِ والإقْنَاعِ بالحقّ، وَلَمْ يكْترِثُوا لِكُلِّ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْبَؤُوا به.

- ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: وَسَّعْنَا لَهُمْ فِي الحياة الدُّنْيَا الأَرْزَاقَ، وَيَسَّرْنَا لَهُمُ الْمَسَالِكَ لِنَيْلِ مَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَتَاعِ الحياة

الدُّنيا، مِنْ كُلِّ شيءٍ تَتعلَّقُ بِهِ نُفوسُهُمْ، بِحَسَبِ مَا تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ فِي تَطَوُّرِهم الْحَضَارِي.

شُبِّهَ تَيْسِيرُ الْمَسَالِكِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مَا يَشْتَهُونَ بِفَتْحِ الأبواب، فاسْتُعِيرَ التَّعْبِيرُ: «بفَتْحِ الْأَبْوابِ» للدَّلَالَةِ على ذَلِكَ.

وفي التعبير بفَتْحِ الأبْواب مَعْنَىٰ أَنَّ خَزائِنَ اللهِ مَوْجُودَةٌ دَواماً في كَوْنِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، ويَفْتَحُ اللهُ لِعِبَادِهِ مِنْ أَبْوَابِها بحَسَبِ حِكْمَتِهِ، في رِحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

«حتَّىٰ» ابْتِدائِيَّة، وهي حَرْفٌ تَبْتَدِىءُ بَعْدَهُ الْجُمَلُ الاسْمِيَّةِ والفعلِيَّة.

- ﴿فَرِحُواْ﴾: هنا، بمعْنَىٰ بَطِرُوا واسْتَكْبَرُوا، وتَفَاخَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وتَعَالَوْا عَلَىٰ النَّاس، فَطَغَوْا وبَغَوْا.

- ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾: أَيْ: قَبَضْنَا عَلَيْهِمْ قَبْض تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ باسْتِئْصَالٍ مُبَاغِتِينَ لَهُمْ. **الْبَغْتَةُ**: المفَاجَأة.

- ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾: أي: فإذَا هُمْ سَاكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شيءٍ. يُقَالُ لُغَةً: أَبْلَسَ الرَّجُلُ، أي: قُطِعَ بِهِ، وسَكَتَ، ونَدِمَ. ويُقَال: «أَبْلَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» أي: يَئِسَ.

والمعنى: حَتَّىٰ إذا بَطِرُوا واسْتَكْبَرُوا وطَغَوْا وَبَغَوْا بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أبواب مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، أَخَذَهُمُ اللهُ بالعذاب والإهْلَاكِ الشَّامِلَيْنِ، بِصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ غَيْرِ مُرْتَقَبَة، فإذا هُمْ ساكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئاً يَقِيهِمْ شَيْئاً من عَذابِ اللهِ، ونَوازِلِ الإِهْلَاكِ الشَّامل.

- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾: أي: فَأُهْلِكُوا جميعاً، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ تَابِعٌ يَتْبَعُهُمْ. وُضِعَ الاسم الظَّاهر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مَوْضِعَ الضَّمير

لبيان سَبَبِ إهْلَاكِهِمْ بَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ، وهُوَ ظُلْمُهُمُ الْعَظِيمُ من دَرَكَةٍ تَقْتَضِي إهلاكهم باسْتِئْصَال.

الدَّابِرُ: التابع، وهُوَ مِنْ كُلِّ شيءٍ آخِرُهُ، وقَطْعُ الدَّابِرِ كِنَايَةٌ عَنِ الاسْتِئْصَالِ التَّامّ.

● ﴿... **وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴿٤٥﴾﴾: أيْ: وَكُلُّ الثَّنَاءِ عَلَىٰ مَا هُوَ في عِلْمِ الله، مُوَجَّهٌ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (= كُلّ مَا سَوَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ) الَّذِي خَلَّصَ المجتَمَعَ الْبَشَرِيَّ مِنْ قَوْمٍ ظَالِمِينَ، بَلَغُوا دَرَكَةَ الْيَأْسِ مِنْ أَنْ يَصْلُحُوا عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِم الحرَّة، في حياة الابتلاء والاختبار في ظُرُوفِ هَٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

إِنَّ إهْلَاكَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ صَارُوا بُؤْرَةَ فَسَادٍ وإفْسَادٍ في الأرض، وَطُغْيَانٍ وَبَغْيٍ وَعُدْوانٍ، نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ تَنْتَزِعُ مِنْ قُلُوبِ أُولِي الأَلْبَابِ الْحَمْدَ والثَّنَاءَ مِنْ دَرَجَةٍ قُصْوَىٰ، عَلَىٰ رَبِّ الْعِبَادِ الَّذِي رَحِمَهُم فَخَلَّصَهُمْ مِنْ وَبَاءٍ لَا سَبِيلَ إلى الْخَلَاصِ مِنْهُ إِلَّا بالاستِئْصَالِ التَّامّ، حَتَّىٰ لَا تَبْقَى مِنْهُمْ جُرْثُومَةٌ تَنْشُرُ شرّاً في دُنيا الناس.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس التاسِع مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الأنعام).

والحَمْدُ لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وَتَوفيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(١٤)

التدبّر التحليلي للدّرْس العاشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيتان من (٤٦ و٤٧)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

القراءات:

(٤٦) • أشَمَّ حمزة، والكسائيّ، وخلَف، ورُوَيْس، الصَّادَ صَوْت الزاي في: [**يَصْدِفُونَ**].

وقرأها باقي القراء العشرة بالصَّادِ الخالِصَة.

تمهيد:

آيتا هَـٰذَا الدَّرسِ مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الثاني مِنْ سَاقَيْ شجرَةِ موضوع السُّورَة، وفيهما فِقرَةُ تَعْلِيم أَسْلُوبٍ عِلَاجِيٍّ بالإنْذَارِ بِسَلْبِ الْأَسْمَاعِ والْأَبْصَارِ والْخَتْمِ عَلَىٰ الْقُلُوبِ، أو بالْعَذَابِ والإهْلَاكِ.

التّدبُّر التحليليّ:

• ﴿**قُلْ أَرَءَيْتُمْ** . . .﴾: أيْ: قُلْ - يا مُحَمَّدُ ويا كُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ - لِلْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ باطِلِهِمْ: تَفَكَّرُوا وَتَدَبَّرُوا، لِتَرَوْا رُؤيَةً فِكْرِيَّة صَحِيحَةً سَلِيمَة، فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ، ثُمَّ أَخْبِرُوني.

• ﴿. . . **إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ** . . . ﴿٤٦﴾﴾:

ممَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ التفكِيرُ السَّلِيمُ، أَنَّ أجلَّ أداوتِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي فَضَّلَ اللهُ بِهَا الإنْسَانَ، وَجَعَلَ بِسَبَبِهَا الملائكَةَ تَسْجُدُ لآدَمَ سُجُودَ احْترامٍ طَاعَةً لِأَمْرِ اللهِ ما يلي:

(١) **السَّمْعُ**: باعْتِبَارِه أَدَاةَ تَوْصِيلِ البيانَاتِ القَوْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَثِيرٍ من المعارف والعلوم.

(٢) **الْبَصَرُ**: باعْتِبَارِه أَدَاةَ تَوْصِيلِ الْمَرْئِيَّاتِ في الكَوْن، الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ آيَاتٍ دَالَّاتٍ على كثيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، وَدَالَّاتٍ عَلَىٰ مَعَارِفَ وعُلُومٍ كثيرةٍ تَهْدِي الْأَبْصَارُ إِلَىٰ إدْرَاكِهَا بِجِهَازِ الإدْرَاكِ الدَّاخِلِيِّ في الإنسان.

(٣) **الْقَلْبُ**: باعْتِبَارِهِ جِهَازَ إِدْرَاكِ الْمَعَارِفِ والْعُلُوم، واسْتِنْبَاطِ كثيرٍ مِنَ الْحقَائِق، بما وَهَبَهُ اللهُ مِنْ قُدْراتِ تَحْلِيلٍ وَتَرْكِيبٍ واسْتِنْتَاج، وبما وهبه من مقاييس.

والسَّمْعُ أداةٌ تُوصِلُ إِلَيْهِ المسْمُوعَاتِ لِيَعْقِلَهَا، ويُحَلِّلَ فِيهَا ويُرَكِّبَ وَيَسْتَنْبط. والْبَصَرُ أَدَاةُ تُوصِلُ إِلَيْهِ الْمَرْئيَّاتِ لِيَعْقِلَهَا، وَلِيُحَلِّلَ فيها ويُرَكِّبَ وَيَسْتَنْبِطَ.

فالْقَلْبُ هُوَ جِهَازُ الإِدْرَاكِ الْعِلْمِي، والْعَقْلِ الْعِلْمِيّ، والتّفَكُّر، والقياسِ والاسْتِنْبَاطِ، إِلَىٰ سَائِرِ الأعْمَالِ الْعِلْمِيَّة الَّتِي فَضَّلَ اللهُ بها الإِنْسَان.

وبما أَنّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، هو واهِبُ السَّمْعِ والْبَصرِ والْقَلْبِ العاقِلِ المفكِّرِ للإِنْسَانِ، فَهُو الْقَادِرُ إِنْ شَاءَ عَلَىٰ سَلْبِهِ هَـٰذِهِ الْأَجْهِزَةَ الْجَلِيلَةَ، وهُو القادِرُ عَلَىٰ جَعْلِهِ مَحْرُوماً مِنْها، وحينَئذٍ تَكُونُ الْبَهَائِمُ أفْضَلَ مِنْهُ، ولَنْ يُوجَدَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ غَيْرُ اللهِ أَحَدٌ يَرُدُّ لَهُ ما أَخَذَ اللهُ مِنْهُ.

ورَغْبَةً فِي إِيقاظ المشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ وبَعْثِهِمْ مِنْ سُبَاتِهِمْ، عَلَّمَ اللهُ الدَّاعِيَ إِلَىٰ رَبِّهِ الواحِدِ الْأَحَدِ، هَزَّ كِيَانِهِمْ باحْتِمَالِ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ رَبُّهُمْ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، فَيَسْلُبَهُمْ وَيَأْخُذَ مِنْهُمْ أَجلَّ مَا تَمْتَازُ بِهِ إِنْسَانِيَّتُهُمْ، وهِيَ أَدَوَاتُ سَمْعِهِمْ وإِبْصَارِهِمْ، وجِهَازُ الْعِلْم والْمَعْرِفَةِ فِي دَاخِلِ كِيَانهم، فَيَجْعَلَهُمْ أحْقَرَ مِنَ الْبَهَائِم وأخسَّ. وعِنْدَئِذٍ لَا يَجِدُونَ إِلَهاً غَيْرَ اللهِ يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ لِيَرُدَّ لَهُمْ سَمْعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وقُلُوبَهُمُ الدَّرَّاكَةَ الواعِيَةَ المفكِّرَةَ، إِنْ بَقِيَ لَدَيْهِمْ جِهازٌ صَالِحٌ للتفكير والْفَهْم.

جاء التعبير عن سَلْب السَّمْعِ والأبْصارِ بالْأَخْذ، أي: أَخْذِ قُدْرَةِ الأسْمَاع على السَّمْعِ، وأَخْذِ قُدْرَةِ الْأَبْصارِ على الْبَصَر.

وجاءَ التَّعْبير عَنْ سَلْبِ قُدْرَاتِ مَرَاكِزِ الْإِدْرَاكِ والْفَهْمِ والتفكِير والْعَقْلِ في داخِلِ النُّفُوسِ، بالْخَتْمِ عَلَىٰ الْقُلُوبِ.

أصْلُ الْخَتْمِ عَلَىٰ الشيْءِ: سَدُّ مَا يُنْفَذُ إِلَيْهِ سَدًّا مانعاً، يقال لغة: «خَتَمَ عَلَىٰ الإناءِ يَخْتِمُ خَتْماً»: أي: سَدَّ فُوَّهَتَهُ بِطِينٍ، أو شَمْعٍ، أو نَحْوِهما، حتَّىٰ لَا يَدْخُلَ إلى المخْتُومِ عَلَيْهِ شيْءٌ، وَلَا يَخْرُجَ مِنْهُ شيْءٌ.

وكذلِكَ يُقَال: «خَتَمَ على باب البيْتِ» أي: أَغْلَقَ الباب، وأقْفَلَهُ، وضَرَبَ علَىٰ الْقُفْل الطينَ أو الشَّمْعَ، وخَتَمَ عَلَيْه بخَاتَم مَنْقُوش، للدّلالَةِ على المنع التام. وكان السُّلْطان أو القاضي إذا أرادَ مَنْعَ الدُّخُولِ إلَىٰ بَيْتٍ، أمَرَ بِسَدِّ المَنافِذ إلَيْهِ، وبإغْلَاقِ بَابِهِ، وَوَضْعِ الْقُفْلِ المحْكَم عليه، وجَعْلِ قَبْضَةِ الطِّين الخاصّ أو الشَّمْع عَلَيْهِ، والْخَتْم عَلَيْهِ بالخاتَم المنْقُوشِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ المَنْع التَّامِّ مِنْ فَتْحِهِ، فَمَنْ فَتَحَهُ كانَ عِقَابُهُ مُشَدَّداً.

فجاء التعبيرُ عَنْ إحَاطَةِ الْقُلُوبِ بما يَمْنَعُ قُدْرَاتِها عَنِ اسْتقبالِ أيِّ إدْرَاكٍ مِنْ خارِجِها، وَعَنْ تَصْدِيرِ أيّ فَهْم سَلِيمٍ مِنْ دَاخِلِها، بالْخَتْمِ عَلَيْها، وهذا يَكُونُ بَعْدَ تَغْلِيفِهَا تَغْلِيفاً كَامِلاً بِحَواجِبَ وسُتُور.

ومَعْلُومٌ أَنَّ المرادَ بهذا الْخَتْمِ حَجْبُ قُدْرَاتِ مَرَاكِزِ الإدْرَاكِ والفهم في داخِلِ النُّفُوسِ حَجْباً شَاملاً، مانِعاً من الاسْتِيراد ومن التَّصْدِير.

- ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾؟ أي: مَنْ إلَٰهٌ مِمَّن تَعْبُدُونَ، أو مِمَّنْ يَعْبُدُ سَائِرُ المشركينَ، أو كانُوا يَعْبُدُونَ، غَيْرُ اللهِ الخالِقِ الرَّبّ الْعَلِيم الحكيم الْقَدِيرِ على مَا يَشَاءُ، يَأْتِيكُمْ بِمَا أخَذَ اللهُ مِنْ أسْمَاعِكُمْ وأَبْصَارِكُمْ وقُلُوبكُمْ.

الجواب: لَا أحَدَ غَيْرُ اللهِ يُعِيدُ للمخْلُوقِ مَا أخَذَ الخالِقُ مِنْهُ.

- ﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: انْظُرْ أَيُّهَا المتَلَقّي المتَفكِّر، كَيْفَ نُنَوِّعُ آياتِنَا البيانِيَّة، ونَعْرِضُها مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَة، وبأَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ، رَغْبَةً فِي اقْتِنَاع سَالِكي مَسالِكِ الضَّلَالِ، بِصِراط الحقِّ المستقيم، ورَغْبَةً في أَنْ يَسْلُكُوهُ لِيَفُوزُوا بجنَّاتِ النَعيم يوْمَ الدِّينِ.

ونُتَابعُ هَـٰذَا التَّنويعَ آناً فَآناً طَوالَ مُدَّةِ امْتِحَانِهِمْ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ يُعْرِضُون، ولَا يَعْبَؤُونَ بما نُبَيِّنُ لَهُمْ، ونَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ عظِيم.

التَّصْرِيفُ: هو التَّغْيِيرُ في الأعْمالِ، وفي الأشْيَاءِ، وفي الاتّجاهات، وفي الأسَالِيبِ، وَفِي وُجُوهِ الكَلَامِ، رغْبَةً فِي تَحْقِيقِ المقاصِدِ، أو في اسْتِجَابَةِ ذَوي الإراداتِ الحرَّةِ لِدَعْوَةِ الحقّ، إذا كان التصريف لإقناعهم.

يَصْدِفُون: أي: يُعْرِضُونَ مُنْصَرِفينَ، فلا يَكْتَرِثُونَ ولا يَعْبَؤُون بما يُنْصَحُونَ به، ولا بما يُوَجَّهُ لَهُمْ مِنْ بيان.

وفي هَـٰذَا تَعْجِيبٌ مِنْ أَمْرِهِمْ، وتَلْوِيمٌ لَهُمْ بأُسْلُوب الْحَديث عَنْهُمْ، لا بِأُسْلُوبِ مُوَاجَهَتِهِمْ بالخطاب.

وجاءَ لَفْظُ «السَّمْعِ» مُفْرَداً في الآيَةِ، ولَفْظُ «الْأَبْصَارِ» مجموعاً، وأرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا مِنْ قبيل الإيجازِ الاكْتِفائي، وأصْلُ الكلام: «قَلْ أرأَيْتُمْ إنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَسْمَاعَكُم، وَبَصَرَكُمْ وأَبْصارَكم» والمرادُ بالسَّمْعِ: الْقُدْرَةُ عَلَىٰ إدْراكِ المسْمُوعَاتِ، وبالْأَسْمَاعِ: الأجْهِزَةُ الّتِي يَحْصُل السَّمْعُ بها. والمرادُ بالْبَصْرِ: الْقُدْرَةُ على إدْرَاكِ المرْئيَّاتِ، وبالْأَبْصارِ: الْأَجْهِزَةُ الَّتِي يَحْصُلُ بِها الإبْصار.

- ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾:

بَغْتَةً: أي: فَجْأَةً بِدُونِ تَوَقُّعٍ سَابِق، وبِدُون مُقَدِّماتٍ واضحاتٍ أو إعْلان.

أَوْ جَهْرَةً: أي: ظَاهِراً غَيْرَ مُسْتَتِرٍ وَلَا مَحْجُوبٍ، بَلْ مَسْبُوقاً بإعلام، أو بِمُقَدِّمَاتٍ ذَوَاتِ دَلَالَاتٍ واضِحَاتٍ على أَنَّهُ عَذابٌ آتٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلّ.

جَاءَتْ مُقَابَلَةُ الْبَغْتَةِ بالْجَهْرَةِ، للدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّ المرادَ بالْبَغْتَةِ المفاجَأَةُ المقْتَرِنَةُ بالْخُفْيَة، وهَـٰذِهِ الْخُفْيَة تُقابِلُها الْجَهْرَة.

وجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا جاء في الآية السابقة (٤٦) وتَقْدِيرُهُ: مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَصْرِفُ عَنْكُمْ عَذَابَ اللهِ؟!

- ﴿... هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟!

أي: هَلْ يُهْلَكُ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا عَامًّا شَامِلاً، إلّا الْقَوْمُ الظالِمُونَ ظُلْماً شَنِيعاً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ المقْتَرِنِ بقبائحَ وَجَرَائِمَ سُلُوكيّة، أخْذاً مِنْ دَلَالَات نُصُوصٍ أخْرَىٰ.

والمرادُ بالاستفهام في هَـٰذِهِ العبارة النفْيُ، أي: لَا يُهْلَكُ بمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللهِ في عباده إهْلَاكاً جماعيًّا شاملاً إلَّا الْقَوْمُ الظالمون.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرس العاشر من دُروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتَوْفيقه وفتحه.

* * *

(١٥)

التدبر التحليلي للدَّرْس الحادي عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيتان: (٤٨ و٤٩)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

تمهيد:

آيتا هَـٰذَا الدّرس مِن فروع السَّاقِ الأول من ساقَي شجرة موضوع السُّورَة، وفيهما بيانٌ رَبَّانِيٌّ عِلَاجِيٌّ مُبَاشِرٌ لِلْمَدْعُوِّين إلَى دينِ اللهِ الحقّ، والْعِلَاجُ فيهما يَعْتَمِدُ عَلَىٰ المَوْعِظَةِ الحَسَنة بالترغيب والترهيب.

التّدبُّر التحليلي:

قول الله تعالىٰ خِطَاباً لكُلِّ مُتَلَقٍّ صَالِحٍ للخطاب بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم، ومبيّناً سُنَّةً من سُننه في عباده المكلفين:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ . . .﴾:

التَّبْشِيرُ: الوعْدُ بِعَاقِبَةٍ حَسَنَةٍ يَطْمَعُ في الظَّفرِ بها الموعُودُ بها.

الإنْذَارُ: الْوَعِيدُ بعاقِبَةٍ سيّئَةٍ يَحْذَرُها الموعُودُ بها، ويَكْرَهُ أنْ تَحِلَّ به.

وكُلٌّ مِنَ التَّبْشِيرِ والإنْذَارِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الموضوع مَوْضِعَ الامتحَانِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بِبيانَاتٍ بشأْنِ التكالِيفِ المطْلُوبَةِ مِنْهُ في امْتِحَانِهِ.

وقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ التكالِيفَ الدِّينِيَّةَ: جُذُورٌ اعْتِقَادِيَّةٌ إيمانِيَّةٌ، وفُرُوعٌ سُلُوكِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ وجَسَدِيَّة، تُبَيِّنُهَا الْأَوامِرُ والنواهِي الموجَّهَةُ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ المبلِّغِ عَنْ رَبِّ العالَمِينَ.

فَمَنْ آمَنَ وأَسْلَمَ وأطَاعَ، كَانَ مِن المبَشَّرِينَ بالعاقِبَةِ الحسنة، وبالثواب الجزيل، المبيَّنِ تَفْصِيلاً في نصوصٍ كثيرة من القرآن المجيد.

ومَنْ كَفَرَ وَكَذَّبَ رسُولَ رَبِّهِ، وبما جاء بِهِ رَسُولُ رَبِّهِ، كانَ مِنَ الْمُنْذَرِين بالعاقِبَةِ السّيئة، وبالجزاءِ بعذابٍ أَلِيم جاء تفصِيلُهُ في نُصُوصٍ كثيرة من القرآنِ المجيد.

- ﴿. . . فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: فَمَنْ آمَنَ إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، بما أَوْجَبَ اللهُ الإيمانَ بِهِ في الدِّينِ الّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لعباده، وَأَتَىٰ بما هُوَ عَمَلٌ صالحٌ نافِعٌ، وَتَرَكَ مَا هُوَ فَاسِدٌ أو مُفْسِدٌ، في سُلُوكِهِ النَّفْسِيّ، وفي سُلُوكه الْجَسَدِيّ، وأَصْلَحَ مِنْ نفسه وسُلُوكِهِ الفاسِدَ.

يُقَال لغة: «أَصْلَحَ فُلَانٌ» أي: أتَىٰ بِمَا هو صالحٌ. ويُقَالَ: «أَصْلَحَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: أَزَالَ فَسَادَه.

فَلَا خَوْفٌ يَخَافُونَهُ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، لِأَنَّهُمْ آمِنُونَ بِتَأْمِينِ اللهِ لَهُمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ علىٰ شَيءٍ فَاتَهُمْ بِسَبَبِ الْتِزَامِهِمْ بطاعَةِ رَبِّهِمْ في أوامِرِهِ ونواهِيهِ، وإصْلاحِهِمْ أعْمَالَهُمْ، وإصْلَاحِهِمُ الفسادَ الَّذِي كانُوا فِيهِ قَبْلَ الإيمانِ والإسلام.

رُوعِيَ في لفظ «مَنْ» معْنَىٰ الجمع، فجاء عَوْدُ الضمير عليه بالجمع في: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: والَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا الإعجازية والْبَيَانِيَّةِ المنَزَّلَةِ، فَلَمْ يَعْمَلُوا بِها، فَخَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ أوَامِرِنا ونَواهِينا فَاسِقِينَ، يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي أَنْذَرْنَاهُمْ بِهِ يَوْمَ الدِّين، بسَبَبِ مَا كانُوا فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ في الدُّنْيا يَفْسُقُونَ.

الْفِسْقُ: الْعِصْيَانُ، والخروجُ عَنْ صِرَاطِ الحقّ، وهو مصْطَلَحٌ إسْلَاميّ لم يكن مَعْروفاً عند العرب بهذا المعنى. ولكنهم يقولون إذا خَرَجَتِ الرُّطَبَةُ من قِشْرَتُها: فَسَقَتِ الرُّطَبَةِ. ومعْلُومٌ أَنَّهَا بخروجها تَفْسُدُ.

واسْتُعْمِلَ المسُّ مُرَاعَاةً لِحَالِ أقَلِّ الفاسِقِينَ فِسْقاً مِن الكافِرين، أمَّا كبار المجرمين فيدخل العذابُ إلى أعماقهم.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الحادي عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر مِنْ دُروس سورة (الأنعام)

الآيات من (٥٠ ـ ٥٨)

قال الله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

القراءات:

(٥٢) • قرأ ابن عَامِر [**بالْغُدْوَةِ**]. وقرأها باقي القراء العشرة: [**بِالْغَدَاة**]. الْغُدْوَةُ، والْغَدَاة، لغتان عَرَبيتان لمعنًى واحِدٍ، وهو ما بَيْنَ الفجر وطُلوعِ الشمس.

(٥٤) • قرأ نافع، وأبو جعفر بفتح همزة: [**أَنَّهُ مَنْ**] وكَسْرِ همزة: [**فَإِنَّهُ**] وقرأهما ابْنُ عامر، وعاصم، ويعقوب بفتح الهمزتَيْن.

وقرأهُما باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ الهمزتين.

وهي وُجُوهُ عَرَبِيَّة جَائِزَة.

(٥٥) ● قرأ نافع وأبو جَعْفر: **[وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ]** بِنَصْبِ لفظه «سَبِيلَ» أي: يَا أيُّها المتَلَقِّي المستَجِيب.

وقرأهما شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: **[وَلِيَستَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمين]** بياء المضارعة، وبرَفع لفظة «سَبِيل».

وقرأهما باقي القرّاء العشرة: **[وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمينَ]** بتَاءِ المضارعة، وبِرَفْعِ لفظه: «سبيل».

(٥٧) ● قرأ نافع وابن كثير، وعاصِم، وأبو جعفر: **[يَقُصُّ الْحَقَّ]**: أي: يَتَتَبَّعُهُ.

وقرأهَا بَاقي القرّاء العشرة: **[يَقْضِ الْحَقَّ]** من القضاء.

وبين القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنَى المراد.

تمهيد:

آيات هَـٰذَا الدَّرس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الثاني مِنْ سَاقي شَجَرَةِ مَوْضُوع السُّورة.

وفي هَـٰذِهِ الآيَاتِ تَعْلِيمٌ دَعَوِيٌّ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمْلَةُ رِسَالَتِهِ من أُمَّتِه، يَسْتَفِيدُونَ بالتفكّر مَا يُلائِمُ أحْوَالَهُمُ الدَّعَوِيَّة من دَلَالَاتها.

وفيها تَرْبِيَةٌ للرَّسُول ﷺ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِه، أَنْ لَا يَطْرُدَ المؤمِنِينَ المُسلمين، مَهْمَا كانت أحوالُهُم الاجْتِماعيَّةُ مُتَدَنِّيَّة، اسْتِجَابَةً لِكُبَرَاء قَوْمِهِ وَطَمعاً فِي أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا ويَعْمَلُوا صالحاً، فإذَا طَرَدَهُمْ

كَانَ مِنَ الظَّالمين، مع بيان حِكْمَةِ اللهِ فِي هَـٰذَا التَّعْلِيم التَّرْبَوي.

وفيها تَعليم أسَالِيبَ تَرْبويَّة يُعَامِلُ بِهَا حَامِلُ الرِّسالة المؤمنين. وفيها عناصِرُ دَعَوِيَّةٌ يُوَجِّهُهَا لِلْمُشْرِكين.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِه في تَعْلِيمٍ دَعَوِيٍّ:

● ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

كَرَّرَ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ مُطالَبَتَهُمْ لَهُ بأنْ يأتِيَهُم بآياتٍ خَوارِقَ، فعلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِمْ بِشأْنِ هَـٰذِهِ المطالِب، وتَصَوُّرَاتِهِم الفاسِدَاتِ حَوْلَ طَبيعَةِ رَسُولِ رَبِّ العالَمين.

إنَّ طَبيعَةَ الرَّسُولِ لَا تَتَجاوَزُ حُدُودَ إنْسَانٍ عَبْدٍ من عبادِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ اصْطَفَاهُ اللهُ لِيُبَلِّغَ عَنْهُ مَا يُوحِي بِهِ إلَيْه، ويُجْرِي اللهُ لَهُ بِحِكْمَتِهِ بَعْضَ الآيات الخوارِقِ لِيَشْهَدَ لَهُ بها أَنَّهُ صَادِقٌ أمين إذْ يَقُولُ للنَّاسِ: إنِّي نَبيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ لِأُبَلِّغَكُمْ مَا يُوحِي بِهِ اللهُ إليَّ.

فَمِنَ الرَّدِّ الحكِيم والإعْلَامِ بِحَقِيقَةِ الرَّسُولِ، أنْ يَقُولَ لَهُمْ:

١ ـ أنَا لا أدَّعي لَكُمْ أَنَّ اللهَ أعْطَانِي مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ، حتَّىٰ تُطَالِبُوني بأَنْ آتي بِكَنْزٍ ذَهَبِيٍّ وَأُوزِّعَ عَلَيْكُمْ مِنْه.

٢ ـ أنَا لَا أدّعِي لَكُمْ أَنَّ اللهَ أعْطَانِي عِلْمَ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، حَتَىٰ تُطَالِبُوني بإعْلامِكُمْ بِغَيْبِيَّاتٍ لَمْ يُعْلِمْنِي بها.

٣ ـ أنَا لَا أدَّعِي لَكُمْ أَنَّنِي مَلَكٌ مِنَ الملائِكَةِ، حتَّىٰ تُطَالِبُوني بأنْ أَرْقَىٰ في السَّمَاءِ كالملَائِكَة.

إِنَّ حُدُودَ رِسَالَتِي مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ أَنِّي أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِليَّ، فإنِ اسْتَجَبْتُم فَآمَنْتُمْ بِي نَبِيًّا وَرَسُولاً، أُبَلِّغُكُمْ مَا يَأْمُرُنِي رَبِّي أَنْ أبلِّغَكُمْ إِيَّاه، فَهُوَ لخيرِكُمْ وسَعَادَتِكُمْ، وإِنْ لَمْ تَسْتَجِيبوا فَقد أَنْذَرْتُكُمْ بالخُلودِ في عذاب النار يَوْمَ الدِّين، مع احْتِمَالِ أنْ يُعَذِّبَكم في الدُّنيا ويُهْلِككُم إذا اقتضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ.

فَلَا تُطَالِبُوني بِشَيْءٍ هُو خَارِجٌ عَنْ حُدُودِ رِسَالَتِي، فأَنَا لَا أقولُ لَكُمْ إلَّا أَنَّ رِسَالَتِي مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ أَنِّي اتَّبعُ مَا يُوحَىٰ إليّ.

وَمَا عَلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَه محمّداً ﷺ في هذه الآية سَبَقَ أن قَالَهُ نوح لِقَومِهِ، كما جاء بيانُهُ في الآيات من (٢٩ ـ ٣١) من سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول).

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ . . .﴾: أي: مَا قُلْتُ لَكُمْ سابقاً، ولَا أَقُولُ لكم في الحال ولا في الاستقبال: عِنْدِي خَزَائِنُ اللهُ فَأَنا أُخْرِجُ مِنْها مَا أَشَاءُ وأَحْبِسُ مَا أشاء، إِنَّ خَزَائِنَ اللهِ عند اللهِ، وبِيَدِهِ مَفَاتِيحُها، فَهُو يَتَصَرَّفُ بِها عَلَىٰ مَشِيئَتِهِ، ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِه.

الخزائن: جمع «خزانة» وهي المكان الذي يحفظ به الشيء، أو يُوضَعُ فيه بَعِيداً عَنِ الأنظار.

- ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾: أي: وَمَا قُلْتُ ولَا أقولُ لَكُمْ: إِنِّي أعْلَمُ كُلَّ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ والأرضِ، فهذا العِلْمُ مِنْ خَصَائِصِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

«ال» في «الغيب» هُنَا للاسْتِغْراق.

- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾: أي: وما قُلْتُ ولَا أَقُول لكُم: إِنِّي مَلَكٌ أَرْتَقِي في السَّمَاءِ كما تَرْتَقِي الملائكة، حتَّىٰ تُطَالِبُوني بأَنْ أَرْقَىٰ في السَّماء.

- ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾: أي: مَا اتَّبِعُ فِي أقوالِي وفي أفعالِي إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَبِّي، فِرِسَالَتِي مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ هذا.

- ﴿. . . قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾:

أي: قُلْ لهم يا مُحَمَّدُ: إِنَّكُمْ تَبْنُونَ مَطَالِبَكُمْ عَلَىٰ جَهْلٍ بِحَقِيقَةِ الرَّسُولِ وَوَظِيفَتِهِ، فَتَتَصَوَّرُونَ أنَّ لَهُ بَعْضَ قُدْراتِ الرَّبِّ فِي كَوْنِهِ، وَهَـٰذَا الْجَهْلُ يُشْبِهُ الْعَمَىٰ، فاعْرِفُوا الحقيقَةَ الَّتِي أَبَنْتُهَا لَكُمْ بِشَأْنِ رِسَالَتِي، وَتَفَكَّرُوا تَفَكُّراً سَلِيماً، لِتَكُونُوا أَهْلَ بَصِيرَةٍ تُدْرِكُ الحقائق.

وإِنِّي أقول لَكُمْ بأسْلُوبِ الاستفهام: هَلْ يَسْتَوِي الْجَاهِلُ الَّذِي يُشْبِهُ الْأَعْمَىٰ، والْعَالِمُ الَّذِي يُشْبِهُ الْبَصِير؟!

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ فِي حَقِيقَةِ مَفْهُوم كَلِمَة «النبيّ» ومَفْهُوم كَلِمَةِ «الرَّسُولِ» الذي يتَلَقَّىٰ وَحْياً مِنْ رَبِّهِ وَيَتَّبِعُهُ تَبْلِيغاً أَوْ عَمَلاً، تَفَكَّرُوا، وَكُفُّوا عَنِ التصرُّفَاتِ الَّتِي لَا يَفْعَلُها إِلَّا الجاهِلُونَ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ العميان.

الاستفهام الأوّل فيه معنى تَلْوِيمِهم وتأنيبهم على جَهْلِهِمْ. والاستفهام الثَّاني فيهِ مَعْنَىٰ حثِّهِمْ على التفكُّر السليم لإدْراك الحقيقة، إنْ كَانُوا جاهِلِينَ حَقًّا، غَيْرَ مُراوِغِينَ وَلَا مُجَادِلِينَ بالْبَاطِلِ.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ في مُتَابَعَةِ التَّعْلِيم الدَّعوِيّ:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾:

أي: وَأَنْذِرْ بِمَا جَاءَ في القرآنِ مِن إنْذَارَاتٍ بالْعِقَابِ الرَّبَّانِيّ، المؤجَّلِ والمعجَّلِ، الَّذِينَ تَجِدُ أَنَّهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يُبْعَثُوا يَوْمَ القِيَامَةِ، ويُجْمَعُوا وَيُسَاقُوا إِلَىٰ مَحْكَمَةِ رَبِّهِمْ، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وَفَصْلِ الْقَضَاء بِشَأْنِهِمْ، عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ

مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ يَتَوَلَّاهُمْ فَيَحْمِيهِمْ مِن عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَلَيْس لَهُمْ شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَه، لأنَّهُمْ كَانُوا فِي الحياة الدُّنيا كافِرِين.

وارْجُ حِينَ تُنْذِرُهُمْ أَنْ يَتَّقُوا بالإيمان والإسْلَام عِقَابَ رَبِّهِم، لِيَكُونَ إنْذَارُكَ حَارّاً مُقْتَرِناً بِرَجَاءِ أَمْرٍ مَطْمُوعٍ فِيهِ.

ونَحْنُ نَرْغَبُ وَنُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَتَّقُوا لِيَفُوزوا يَوْمَ الدِّين بالنّعيم المقيم الخالِدِ في دار السَّلام.

الإنْذار: الإعْلَامُ بِمَا هُوَ مخُوفٌ مِنْهُ.

الْحَشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْق، والمرادُ بِهِ هُنَا: الحشْرُ يَوْمَ القِيامة بَعْدَ الْبَعْثِ إلى الحياة الأخرى.

الْوَلِيّ: المراد بِهِ هُنَا الناصِرُ الَّذِي يَتَصَوَّرُ المشركون أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ فَيَحْمِيهِمْ مِنْ عَذَاب رَبّهم.

الشفيع: المرادُ به الذي يَتَصَوَّرُ المشْرِكُونَ أَنَّهُ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهم، فَيَرْفَعُ اللهُ بِشَفاعَتِهِ عَنْهُمْ قَضاءَه بِتَعْذِيبِهِمْ، أَوْ تَنفِيذَ مُجازَاتِهِمْ بالعذاب.

لَعَلَّ: أَصْلُ مَعْنَاهَا الترَّجِّي، وتَحْتَمِلُ هُنَا دَلَالَتَيْن:

الأولى: أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ في حَالَةِ رَجَاءِ أَنْ يَتَّقُوا، لِيَكُونَ إنْذَارُهُ لَهُمْ أَكْثَر تَأْثِيراً.

الثانية: أَنَّ اللهَ يَرْغَبُ وَيُحِبُّ أَنْ يَتَّقُوا لِيَفُوزوا يَوْمَ الدّين، لأنَّ معنَىٰ الرَّجاء لَا يَلِيقُ بِمَنْ هُوَ بِكُلِّ شيءٍ عليم، فَيُحْمَلُ عَلَىٰ لَازِمِ الرَّجاء، وهو الرغْبَةُ والْحُبُّ.

- ■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابِعاً تَعْلِيماتِهِ لِرَسُولِهِ وَيُلْحِقُ بِهِ كُلُّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِه:

- ● ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ

مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

رَوىٰ مسلمٌ عن سَعْدِ بْنِ أَبي وَقَّاصٍ قال: كُنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفرٍ، فَقالَ المشركُون لِلنَّبِيِّ: أَطْرُدْ هٰؤلاء لَا يَجْترِئُونَ عَلَيْنَا. قال: وَكُنْتُ أنَا وٱبْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيلٍ، وبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهما.

فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ الله ﷺ ما شَاءَ اللهُ أن يَقَعَ، فَحدَّثَ نَفْسَه، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ . . .﴾.

قال الواحدي: هم: صُهَيْب، وعمَّارُ بن يَاسِر، والمِقْداد بن الأسود، وخَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ، إضافةً إلىٰ سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ، وابْنِ مَسْعُود.

لكِنَّ سَعْداً ذَكَرَ بِلَالاً، وَرَجُلاً مِنْ هُذَيل.

ورَوىٰ البيهقيُّ أَنَّ رُؤسَاءَ قُرَيشٍ قالُوا لِرَسُولِ الله ﷺ: لَوْ طَرَدْتَ هٰؤلَاءِ الْأَعْبُدَ، وأَرْوَاحَ جِبَابِهِم(١)، جَلَسْنَا إِلَيْكَ، وحادثناكَ. فقال ﷺ:

«مَا أَنَا بِطَارِدِ المؤمِنِينَ».

قالُوا: فَأَقِمْهُمْ عَنَّا إذَا جِئْنَا، فإذَا قُمْنَا فَأَقْعِدْهُمْ مَعَكَ إنْ شِئْتَ.

فقال: «نَعَمْ» طَمعاً في إيمانِهِمْ، فأنْزَلَ اللهُ هٰذِهِ الآيَةِ.

وجاء عنْدَ ابْنِ إسْحَاقَ: أنَّ الَّذِينَ طَلَبَ كُبَرَاءُ المشركين من الرَّسُولِ ﷺ طَرْدَهُمْ، هم الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنَ المؤمنين: «خَبَّابُ بْنُ الأَرَتّ،

---

(١) أي: وَرَائِحَاتِ جِبَابِهِم (جَمْع: جُبَّة) وهي ثوبٌ سَابِغٌ، واسع الكمَّيْن، مَشْقُوق الْمُقَدَّمِ يُلْبَسُ فوقَ الثياب.

وَعَمَّارُ بْنُ ياسر، وأبو فُكَيْهَةُ يَسَارُ مَوْلَىٰ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ مُحَرِّثٍ، وصُهَيْبٌ، وأشباهُهُمْ، وأنَّ قَرَيشاً قالوا: «أَهٰؤلَاءِ الَّذِينَ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا».

أقول: الحادثَةُ وَقَعتْ، وكانَتْ سَبَبَ نُزُولِ الآيَةِ، ولَيْسَ مِنَ الْمُهِمِّ مَعْرِفَةُ كُلِّ أَسْمَاءِ المُسْتَضْعَفِينَ المَعنِّيينَ بالطَّرْدِ، وقَدْ سَبَقَ كُبَراءَ قُرَيْشٍ بِمِثْلِ هَـٰذَا مَلأُ قَوْمِ نُوحٍ، فقد جاء بشَأْنِهِمْ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول اللهِ تَعَالَىٰ حكاية للحوار بَيْنَهُمْ وبينَ نوح عليه السلام:

- ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾﴾:

وجاء بشَأْنِهِمْ أيضاً قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

لَقَدْ تَشابَهتْ قُلُوبُ مَلأ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، مع قُلوب أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّة.

- ﴿وَلَا تَطۡرُدِ﴾: **الطَّرْدُ**: إبْعادُ الْمَطْرُودِ مَعَ اسْتِهانَةٍ بِهِ واسْتِخْفافٍ له.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾: أي: الَّذِينَ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ. أصلُ الدُّعاء في اللُّغةِ: النداء، ويأْتي بمَعْنَىٰ الرَّغْبَةِ إلى اللهِ والطَّلَب مِنْهُ لِأُمُور الدُّنيا

والْآخِرَة. ويأتي الدُّعاءُ بِمَعْنَى مُطْلَقِ الْعِبادَة، وهَـٰذَا الْمَعْنَىٰ هُوَ الْمُلَائِمُ هُنَا.

- ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ **الغَدَاةُ**: مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْسِ.

والْعَشِيّ: الراجِحُ أَنَّهُ الْوَقْتُ مِنَ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمسِ.

وهَـٰذَانِ الْوَقْتَانِ قَدْ جَاءَ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ تَفْضِيلُ الذِّكْرِ والتَّسْبِيحِ فِيهِما، زِيَادَةً عَلَىٰ إِقامَةِ الصَّلَوات المفْرُوضَةِ في أَوْقَاتِها، وَعَلَىٰ قيام اللَّيل.

ولا أَرَىٰ دَاعِياً لِفَهْمِ أَنَّ المرادَ بالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ كُلُّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ والنَّهار، بَلْ هُمَا زَمَنَانِ مَعْرُوفَانِ لُغَةً، وعبادَةُ اللهِ بالذِّكْرِ والتَّسْبيحِ فِيهما عَلَامَةٌ دَالَّةٌ عَلَىٰ اجْتِهَادِ الْعَابِدِ، وَمُلَازَمَتِهِ للعِبادةِ فِي الْأَوْقَاتِ المفَضَّلَةِ عِنْدَ اللهِ لِذِكْرِهِ وتَسْبِيحِهِ.

- ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾: أي: يُرِيدُون رِضَا ذَاتِهِ ونَفْسِهِ عَنْهُمْ، يُطْلَقُ الْوَجْهُ وَيُرَادُ بِهِ الذَّاتُ كُلُّها، وهَـٰذَا هو المرادُ هُنَا، وأَصْلُ الْوَجْهِ من الإنسانِ لغةً: مَا يُواجِهُكَ مِنَ الرَّأسِ وفيه الْعَيْنَانِ والْفَمُّ، وكُلُّ مَا يُقْبِلُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، ويُطْلَقُ الْوَجْهُ عَلَىٰ الْقَصْدِ، وعَلَىٰ الْجِهَةِ والناحِيَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِطْلَاقَاتٍ، والقرائِن تَدُلُّ عَلى المراد.

- ﴿... مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

الحسَابُ: بَعْدَ السؤال، من مُقَدِّمَاتِ فَصْلِ القضاء في محكمة العدْلِ والفضل الرَّبَّانِيَّة يَوْمَ القيامة، ويأتِي الجزاءُ تَطْبيقاً لِمَا يَتِمُّ بِهِ قَضَاءُ اللهِ في أحكامِهِ عَلَىٰ العِبادِ الَّتِي قَدَّمُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدنيا.

وأرَىٰ أَنَّ الْحِسَابَ أُطْلِقَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ لِيَدُلَّ عَلَىٰ مَعْنَاهُ، وَعَلَىٰ مَا قَبْلَهُ مِنْ مُقْتَضِيَاتٍ لَهُ، مُنْذُ وُضِعَ النَّاسُ مَوْضِعَ الامْتِحانِ في الحياة الدُّنيا،

ولِيَدُلَّ عَلَىٰ مَا يَتْبَعُهُ مِنْ فَصْلِ قَضَاءٍ وَتَنْفِيذِ جزاء بالثواب أو بالعقاب.

ومن المعلُوم فِي المفْهُومَاتِ الدِّينِيَّةِ، أَنَّ كُلَّ إنْسَانٍ مَوْضوع مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، مَسْؤُولٌ عَنْ أعْمَالِهِ فقط وعن آثار أَعْمَالِهِ. وهُوَ يُحَاسَبُ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ أعْمَالِهِ فقط حَسَنِهَا وسَيِّئِهَا وعَنْ آثار أَعْمَالِهِ، ولَوْ كَانَ نبيًّا ولَوْ كَانَ رَسُولاً، فَهُوَ لَا يُحَاسَبُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ غَيْرُهُ مِنْ أَعْمالٍ حَسَنِهَا وسَيِّئِها، فَلَا يُثَابُ عَلَىٰ عَمَلِ غَيْرِهِ الصَّالِحِ، ما لَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْثِيرٌ ما فِيهِ بِعَمَلِهِ، كتَعْلِيم ونُصْحٍ وإرْشَادٍ وَتَرْبِيَةٍ، وَلَا يُعَاقَبُ عَلَىٰ عَمَلِ غَيْرِهِ السَّيِّئِ، مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْثِيرٌ مَا فِيهِ بِعَمَلِهِ، كإغْوَاءٍ وإِغْرَاءٍ وَتَضْلِيلٍ ونَحوِ ذلك.

إِنَّ مَسْؤُولِيَّةَ الْعِبَادِ عِنْدَ اللهِ مَسْؤُولِيَّةٌ شخْصِيَّة، وَلَيْسَتْ جَمَاعِيَّة حَتَّىٰ بَيْنَ خَلِيلَيْنِ وحَبِيبَيْن، وبَيْنَ زَوْجٍ وَزَوْجَتِهِ، وبَيْنَ أَب وابْنِهِ أو ابْنَتِهِ، فَلَا تُؤْجَرُ نَفْسٌ أَجْرَ نَفْسٍ أخْرَىٰ، ولَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، ولَا يَحْمِلُ رَسُولٌ مِنْ خَطَايَا أُمَّتِهِ شَيْئاً.

ومِنْ مُقْتَضَىٰ هَٰذِهِ المسْؤُولِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، أَنْ تَكُونَ لِكُلِّ إنْسَانٍ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ في هَٰذِهِ الحياةِ الدُّنيا حُرِّيَةُ اختِيَارِ مَا يَشَاءِ من الأمُور المتَضَادَّةِ الَّتِي هُوَ مُمْتَحَنٌ فها، وعُنْوانُ ذلِكَ: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ».

فَمِنْ حَقِّ هَٰذَا الْإِنْسَانِ أنْ لَا يُكْرَهَ عَلَىٰ الْإيمانِ إذَا اخْتَارَ هُوَ لِنَفْسِهِ الكُفْرَ، وَوَاجِبُ حَمَلَةِ رِسَالَةِ اللهِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ تَقْتَصِرُ عَلَىٰ التبليغ، والبيان والشِّرح، والإقناع بوسَائِلِهِ، والترغيب في ثواب اللهِ عزَّ وجلَّ، والتَّرهِيب من عقاب اللهِ عزَّ وجلَّ، ومِنْ حَقِّهِ أَن تُتْرَكَ لَهُ حُرِّيةُ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَتَّفِقُ مَعَ مَا يُؤْمِنُ به.

ومِنْ حَقِّ كُلِّ إنْسَانٍ أَنْ لَا يُكْرَهَ عَلَىٰ الكُفْرِ بِرَبِّه وَبِمَا جَاءَ عَنْهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُوله، إِذَا اخْتَارَ هُوَ لِنَفْسِهِ الْإيمانَ، ومِنْ حَقِّهِ أَنْ تُتْرَكَ لَهُ في

المجتَمَعَ الْبَشَرِيّ حُرِّيَّةُ مُمَارَسَتِهِ للعبادَاتِ الدِّينيَّة، دُونَ أَنْ يُمْنَعَ مِنْهَا أَوْ يُحْجَبَ عَنْها.

بَعْدَ هَـٰذِهِ الْمُقَدَّمَةِ يُمْكِنُ فَهْمُ قول اللهِ تَعَالَىٰ لرَسُولِهِ ﷺ بشأْنِ الَّذِينَ طَلَبَ أئمَّةُ الشِّرْكِ مِنْهُ طَرْدَهُمْ عَنْ مَجالِسِهِ، إطْمَاعاً لَهُ بأنْ يَحْضُرُوا هُمْ مَجَالِسَهُ الدَّعوِيَّة، ويَسْتَمِعُوا لِأَقْوالِهِ وتِلاواته:

- ﴿... مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَسْؤولٌ وَحْدَهُ عِنْدَ اللهِ عَنْ أَعْمَالِهِ واختياراته في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وهُوَ وَحْدَهُ يُحَاسَبُ ويُجَازَىٰ عَلَيْها، وأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ مَسْؤُولٌ وَحْدَكَ عِنْدَ رَبِّكَ، عَنْ أَعْمَالِكَ واخْتِيَارَاتِك الَّتِي اخْتَرْتَها في الحياة الدُّنيا، وتُجَازَىٰ عَلَيْهَا يَوْمَ الدِّين.

ومِنْ مُقْتَضَىٰ هَـٰذِهِ المسؤوليَّة الشَّخْصِيَّة أَنْ يَكُونَ الإنْسَانُ المبتَلَىٰ المُكَلَّفُ حُرّاً فِي مُمَارَسَةِ مَا يُرِيدُ بِهِ وَجْهَ رَبِّهِ، ويَبْتَغِي بِهِ رضوانَهُ وَثَوابَهُ الْعَظِيمَ يَوْمَ الدِّين، وأَنْ لَا يُحْرَمَ مِنْ حُضُورِ مجالِس الْعِلْم والْخَيْرِ والْعِبَادة، إبْعَاداً أَو طَرْداً، لانْحِطَاطِ طَبَقَتِهِ الاجْتِمَاعِيّة، أوْ لأَنَّ ذَوِي الكِبْرِ في المجتَمَعِ يَكْرَهُونَ حُضُورَهُ مَعَهُمْ اسْتِكْبَاراً عَلَيْهِ واسْتِهَانَةً بِهِ. لَكِنْ قَدْ يُطْلَبُ مِنْهُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي جَسَدِهِ أو ثَوْبِهِ مَا يُنَفِّرُ مِنْ قَذَارَاتٍ.

فَمَنْ طَرَدَ هَـٰؤلَاءِ المُسْتَضْعَفِينَ الفُقَراءَ عن مَجَالِسِ الْعِلْم النافِع، والخيرِ والعبادَةِ العامَّة، الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُتَاحَ حُضُورُهَا لكلِّ راغِبٍ فِيهِ مِنْ كُلِّ طبقاتِ المجتمع، على اختلاف مِهَنِهِمْ، للانتفاع بها، والاسْتِزادة مِنَ الخير، فَهُوَ ظَالِمٌ لِحقِّهِمْ الَّذي مَنَحَهُ الرَّبُّ لهم، بِمُقْتَضَىٰ كَوْنِهِم مُمْتَحَنِين فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وبِمُقْتَضَىٰ كَوْنِهِمْ مَسْؤُولِينَ مَسْؤُولِيَّةً شَخْصِيَّةً عَمَّا يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَعْمَال.

إنَّ الْحُرِّيَّةَ الشَّخْصِيَّة في مُمارَسَةِ الأعْمَالِ الدِّينِيَّةِ، وفي حُضُورِ مَجَالِسِ الْعِلْمِ والْخيرِ والْعِبادَة العامَّة، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَصُونَةً لِكُلِّ إنْسَانٍ ذي إرادةٍ حُرَّة، مَوْضوعٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، مِنْ أَدْنَىٰ النَّاسِ فِي مُجْتَمَعِهِ، حَتَّىٰ الْقَائِدِ الأعْلَىٰ، وَحَتَّىٰ النبيِّ والرَّسُولِ، فَلَا يَصِحُّ عقلاً لأحَدٍ الْعُدْوانُ عَلَيْها.

- قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

أي: وَكَذَلِكَ الامْتِحَانِ الَّذِي امْتَحَنَّا فِيهِ بَعْضَ النَّاسِ بِبَعْضٍ، إذِ امْتَحَنَّا الْأَغْنِيَاءَ بالْفُقَرَاءِ، والْفُقَرَاءَ بالْأَغْنِيَاء، وامْتَحَنَّا الْأَقْوِيَاءَ بِالضُّعَفَاءِ، وَبالْعَكْسِ، وامْتَحَنَّا الْحِسَانَ بِغَيْرِ الْحِسَانِ وبالعكْسِ، وامْتَحَنَّا كُلَّ إنْسَانٍ بِمَنْ يَتَعامل مَعَهُ في عَلَاقَةٍ مَالِيَّةٍ أو اجْتِمَاعِيَّة، قَرِيباً كَانَ أَمْ بَعِيداً، حاكِمين أَمْ محْكُومِين، امْتَحَنَّا كُبَرَاءَ مُشْرِكي مَكَّةَ بِضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، لِكَشْفِ كِبْرِهِمْ الصَّادِّ لَهُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، الَّتي فِيها نجاتُهُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، وَفَوْزُهم بالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النعيم، وكِبْرُهُمْ هَـٰذَا دفعهُمْ بِحَمَاقَةٍ لِيَقُولُوا مُحْتَقِرِينَ مُزْدَرِينَ ضُعَفَاءَ المؤمِنِينَ، أَهَـٰؤُلَاءِ الْعَبِيدُ والضُّعَفَاءُ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا، فَوَعَدَهُمْ بالثَّوابِ الْجَزيلِ والْأَجْرِ العظيم، وفَضَّلَهُمْ عَلَيْنَا، كَمَا يَتْلُو محمَّدٌ في الآيات الَّتِي يَقُولُ: إنَّهَا تَنْزِيلٌ مِنْ رَبّ العالمين.

- ﴿فَتَنَّا﴾ أي: امْتَحَنَّا وَبَلَوْنَا، وَهَـٰذَا المعْنَىٰ هُو الملائِمُ هُنَا من معاني الفتنة.

وَرَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَىٰ مَقُولَتِهِمْ هَـٰذِهِ بِقَوْلِهِ:

- ﴿... أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾؟!: أي: إنَّ الله مَنَّ عَلَىٰ

فُقَرَاءِ المؤمِنِينَ وَضُعَفَائِهِمْ، الَّذِينَ يَحْتَقِرُهُمْ وَيَزْدَرِيهِمْ كُبَرَاءُ الْمُشْرِكِين، بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ شَاكِرِينَ لَهُ بالإيمانِ والإسْلَام والطَّاعَة، أَمَّا الْمُسْتَكْبِرُونَ فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُسْلِموا وَلَمْ يُطِيعُوا، فَكَانُوا بِرَبِّهِم كافِرِينَ، فَلَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ رَبِّهِم التَّكْرِيمَ وَلَا الْوَعْدَ الكَرِيم، بَلْ يَسْتَحِقُّونَ الإهَانَةَ والْإِذْلَالَ والْوَعِيدَ بالْعَذَابِ الْأَلِيم.

قابَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ اسْتِفْهَامَهُمُ الازْدِرائِيَّ بِضُعَفَاءِ المؤمِنِينَ وفُقَرائِهِمْ، باسْتِفْهَام تَعْجِيبِيٍّ مِنْ بَالِغ جَهْلِهِمْ بِسَامِي حِكْمَتِهِ، وَإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِكُلِّ شيء، وَدَلَّ بِهَـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ مِنَنَهُ عَلَىٰ عِبَادِه بالتَّكْرِيم، وبِالْوَعْدِ الْكَرِيم، خَاصَّةٌ بالشَّاكِرِين، ولَا يَنَالُ مِنْها الكافِرون، وَجَاء فِي نُصُوصٍ أخرى مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ التَّفْضِيلَ فِي التكْرِيم عِنْدَ الله يَتَنَاسَبُ مَعَ ارْتِقَاءِ الشَّاكِرِينَ في دَرَجَاتِ التَّقْوىٰ، فالْبِرِّ، فالإحْسَان.

الباءُ في ﴿بِأَعْلَمَ﴾ مَزِيدَةٌ فِي خَبَرِ «لَيْسَ» للتوكيد.

وجواب هَـٰذَا السُّؤال في العبارة: بَلَىٰ، اللهُ أَعْلَمُ بالشَّاكِرِينَ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْم، لِأَنَّهُ مُحِيطٌ عِلْماً بِكُلِّ مَا فِي نُفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِم وأعمالهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ أَسْلُوباً تَعْلِيمِيًّا يُوَجِّهُهُ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ رَبِّهِمْ، بِشَأْنِ مَا قَدْ يَعْمَلُونَهُ مِنْ مَعَاصٍ، وفِيهِ إِطْمَاعٌ لَهُمْ بأنَّ الله يَغْفِرُ لَهُمْ ويَرْحَمُهُمْ، إذَا تَابُوا وَأَصْلَحُوا:

- ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾:

أي: وَإِذَا جَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِنَا المنَزَّلَاتِ في القرآن، وَأَحْسَسْتَ أَنَّهُمْ مُذْنِبُونَ خائِفُونَ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ فَحَيِّهِمْ بتَحِيَّةِ الإسْلام ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ﴾.

أي: أَنْتُمْ برحْمَةِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ سَالمونَ مِنْ عَذَابِهِ إِذَا تُبْتُمْ وَرَجَعْتُمْ إلى طَاعَةِ رَبِكُمْ، وأَصْلَحْتُمْ سُلُوكَكُمْ.

- ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: أي: فَرضَ وأوْجَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَرْحَمَ عِبادَهُ المذْنِبينَ، وَكَتَبَ ذَلِكَ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ، كَما حَرَّمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الظُّلْمَ وكَتَبَهُ، وهُوَ مَا جَاءَ بيانُهُ فِي حَدِيثٍ قُدْسِيّ.

وَمَضْمُونُ هَـٰذِهِ الرَّحْمَةِ الَّتِي كَتَبَهَا رَبُّكُم عَلَىٰ نَفْسِهِ:

- ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ أَيْ: أَنَّ الشَّأْنَ ذا الْخَطَر، مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ أيُّهَا المؤمِنُونَ بآيَاتِ رَبِّكُمْ سُوءاً عَصَيْتُمْ بِهِ أَوَامِرَهُ أَوْ نَوَاهِيَهُ، بدَافِعٍ مِنْ جَهَالَةٍ غَلَتْ مَرَاجِلُهَا فِي نُفُوسِكُمْ.

السُّوءُ: في اللُّغَةِ كُلُّ مَا يَقْبُحُ، ويُرَادُ بِهِ هُنَا الذَّنْبُ، فَهُوَ مِمَّا يَقْبُحُ أَنْ يَرْتَكِبَهُ المؤمِنُ المسْلِمُ.

الْجَهَالَةُ: حَالَةُ انْدِفَاعِ النَّفْسِ لِتَحْقِيقِ شَهْوَةٍ مِنَ شَهَوَاتِها، أَوْ مَطْلُوبٍ مِنْ مطالِبها، وفيها مَعْصِيَةٌ للهِ عزَّ وجلَّ.

أَصْلُ الْجَهْلِ والجهالَةِ مَأْخوذٌ مِنْ «جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ، جَهْلاً، وجَهَالَةً» أي: اشْتَدَّ غَلَيَانُها، وهُو ضِدَّ تَحَلَّمَتْ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّهْوَة الْقَوِيَّةَ فِي النَّفْسِ، والْهَوَىٰ الجامِحَ، لَهُمَا فِيها غَلَيَانٌ حَارٌّ يُشْبِهُ غَلَيَانَ مَا فِي الْقُدُور إِذَا أُوقِدَتِ النارُ تَحْتَها.

- ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

- ﴿تَابَ﴾: أي: رَجعَ إِلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِ مُسْتَغْفِراً نادِماً عَلَىٰ مَا فَعَلَ.

- ﴿وَأَصْلَحَ﴾: أي: وَعَمِلَ صَالحاً، وَأَصْلَحَ أَحْوالَ نَفْسِهِ الَّتِي مَسَّهَا الْفَسَادُ بالمعْصِيَة.

وجاءَ التعْبِيرُ بِحَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» لإِعْطاءِ المؤمِنِ الْعَاصِي مُهْلَةً لِتَوْبَتِهِ، دُونَ اشْتِرَاطِ الْفَوريَّةِ عَقِبَ الْمَعْصِية.

- ﴿... فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾: أي: فإنَّ الله يَرْحَمُهُ فيَغْفِرُ لَهُ ويَصْفَحُ عَنْهُ، لأنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

غَفُورٌ: كَثِيرُ الْغُفْرانِ وعظيمهُ.

رَحِيم: عَظِيمُ الرَّحمَةِ وواسِعُها.

■ قول اللهِ عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾:

أي: ومِثْلَ ذَلِكَ التَّفْصِيل الَّذِي فصَّلْنَاهُ في الآياتِ السَّابِقَاتِ تُفَصِّلُ الآيَاتِ في سُوَرِ القرآنِ، ونُجُوم التَّنْزِيلِ الَّتِي نُنْزِلُها، لِيَسْتَبِينَ وَيَظْهَرَ وَيَتَّضِحَ صِرَاطُ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِم، وَلِتَسْتَبِين وتَظْهَرَ وَتَتَّضِحَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ سَوْفَ يَكُونُونَ خالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ، وبهٰذِهِ الاسْتبانَة تَنْقَطِعُ أَعْذَارُهم.

تفصيلُ الأشياء: تمييز بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ لإبراز حُدُودِ كُلٍّ مِنها، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْمَعْرِفَةَ الصَّحِيحَةَ مِنْ شَرْطِهَا تَمْيِيزُ حُدُود عَنَاصِرِها.

والتفصيل: التَّبيين، وكَشْفُ حُدُودِ الأجزاء المتلاصِقَةِ في الظّاهر، بإظهارِ مَا بَيْنَها من انفصالٍ ولَوْ لم يَكُنْ مَرْئِيًّا، لتمييز بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ في الإدْراكِ الْفِكْرِي.

وِلِتَسْبِينَ: أي: ولِتَظْهَرَ وَلِتَتَّضِحَ، مِنْ فِعْلِ «اسْتَبَانَ» اللّازم، وهذا المعنى يناسِبُ قِرَاءة رفع «سَبيلُ».

وبمعنى «لِيَسْتَوْضِحَ، ولِيَعْرِف» من فعل «اسْتَبَانَ» المتَعدِّي، وهذا المعنى يُنَاسِبُ قراءة نَصْب «سَبِيلَ».

فبين القراءتين تكامُلُ فِي أداءِ المعْنَىٰ المراد.

وأَرَىٰ أَنَّ الواو في: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَى مَحْذُوف، وهُوَ مَا ذَكَرْتُهُ في البيان التَّدَبُّرِيّ عَقِبَ ذِكْرِ الآيَة.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فِقَرَاتٍ دَعَوِيَّةً وحِوَارِيَّةً لِأَئِمَّةِ المشْرِكِينَ المعنيِّينَ بالْعِلَاجِ.

● ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

وفي القراءة الأخرى: **[يَقْضِ الْحَقَّ]** مِنْ فِعْلِ «قَضَىٰ يَقْضِي».

■ عَلَىٰ الرَّسُولِ وَعَلَىٰ كُلِّ دَاعٍ إلى دِينِ اللهِ الحقِّ، أَنْ يُعْلِنَ لِمَنْ يَدْعُوهُمْ أَنَّهُ مَنْهِيٌّ مِنْ قِبَلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَنْ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، وَأَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ إِذَا حَاوَلُوا اسْتِنْزَالَهُ إِلَىٰ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، لِيَعْبُدُوا إِلَهَهُ رَبَّ الْعَالَمِين: إِنِّي نُهِيتُ عَنْ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ، فإذا عَبَدْتُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَكُونُ قَدْ ضَلَلْتُ حِينَئِذٍ، ومَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، وَبِهَٰذَا أُعَرِّضُ نَفْسِي إِلَىٰ مَا أُنْذِرُكُمْ بِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ خَالِدٍ، في دار العذاب النار يَوْمَ الدِّين. فَلَا تَطْمَعُوا فِي اسْتِنْزَالِي إِلَىٰ شِرْكِيَّاتِكُمْ، لِأَنَّنِي لَنْ أَسْتَجِيبَ لَكُمْ، وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَكُمْ، إِنَّكُمْ لا تَمْلِكُونَ فِي شِرْكِيَّاتِكُمْ حقًّا حَتَّىٰ أَتَّبِعَكُمْ فِيهِ، إِنَّمَا تَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَكُمُ الْمُضِلَّةَ لَكُمْ.

هَٰذَا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَة (٥٦) مِنْ هَٰذَا التَّعْلِيم:

● ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّد ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ مِنْ أُمَّتِهِ: يَا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، إِنِّي نُهِيتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي لاَ رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ عَنْ أنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ (أي: تَعْبُدُونَ) مِنْ دُونِ اللهِ. حَذْفُ الجار قبل «أنْ» قِياسٌ مُطّرِد.

قُلْ يا مُحَمَّد ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ: يا أيُّها المشْرِكُونَ، لَا أتَّبعُ أهْوَاءَكُمْ المضِلَّةَ.

إنّي إنْ عَبَدْتُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وإنِ اتَّبَعْتُ أهْوَاءَكُمْ، أكُونُ قَدْ ضَلَلْتُ إذاً، وَمَا أنا مِنَ المهْتَدِينَ، وأسْتَحِقُّ حِينَئِذٍ عِقَابَ الضَّالِّينَ ضَلَالاً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ باللهِ رَبِّ العالمين.

عبارة: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ جواب شَرْطٍ مَطْوِيٍّ بَيْنَ المثَاني هُوَ وأداةُ الشَّرط، تَقْدِيرُهُ: «إنْ عَبَدْتُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ واتَّبَعْتُ أهْوَاءَكُمْ» إذَنْ قَدْ ضَلَلَتْ وَمَا أنا مِنَ الْمُهْتَدِين. وقُدِّمَ «قَدْ ضَلَلْتُ» عَلَىٰ «إذَنْ» للتَّنْبِيهِ ابْتِداءً عَلَىٰ المحْذُورِ مِنْه، وهُوَ الضَّلَالُ المؤكَّدُ المحقّق، المؤدِّي إلى الخلود في عذاب اللهِ يَوْمَ الدِّين.

■ وَعَلَىٰ حَامِلِ الرِّسَالَة الدَّاعِي إلى دِينِ اللهِ الحقِّ أنْ يُعْلِنَ لِلَّذِينَ لم يَستَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، أَنَّهُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ بُرْهَانِيَّةٍ مِنْ رَبِّهِ بِأَنَّ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِهَـٰذَا الْحَقِّ الَّذِي أقَامَ لَهُمْ عَلَيْهِ الْبَرَاهِينَ اتّباعاً لِأَهْوَائِهِم، والْتِزاماً بالْبَاطِلِ الّذِي هُمْ عَلَيه، فجاء في البيان التعليميّ:

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ... ﴿٥٧﴾﴾:

البيّنةُ: الواضحة الجلية، وهي صفة موصوف محذوف.

أي: قل لِلّذِينَ لَم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِكَ: إنَّ مَا أدْعُوكُمْ إلَيْهِ هُوَ حَقٌّ مِنْ رَبّكُمْ، وَإنّي أمْلِكُ مِلْكَ تَمكُّنٍ واسْتِعْلَاء، بَيِّنَةً بُرْهَانِيَّةً مِنْ رَبِّي تُثْبِتُ أنَّ مَا أدْعُوكُمْ إلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ والْصِّدْق. وأنْتَمْ كَذَّبْتُمْ بِهِ دُونَ أنْ تَمْلِكُوا دَلِيلاً مَا تُعْذَرُونَ بِهِ فِي تَكْذِيبِكُمْ عِنْدَ رَبِّكُم، فَاعْلَمُوا أنَّ عَذَابَ اللهِ سَيَحُلُّ بِكُمْ لَا مَحَالَةَ، تَحْقيقاً لِمَا أنْذَرَكُمْ بِهِ في آياتِ كِتَابِهِ المجيد. وقد سبق في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بيان أن نوحاً وصالحاً وشعيباً قالُوا لأقوامهم نظير هَـٰذِهِ العبارة.

■ أمَّا مَا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ مِنْ إنْزَالِ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ والإهْلاكِ عَلَيْهِمْ، وهُو مَا جَاء بيانُهُ في الآية (٩٢) من سورة (الإسْرَاء/١٧ مصحف/٥٠ نزول).

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴿٩٢﴾﴾: وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُها. فَقَدْ جَاءَ في البيانِ التَّعْلِيميّ بِشَأْنِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿... مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

● ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾: أي وقل لهم: لَيْسَ عِنْدِي فِيمَا مَلَّكَنِي اللهُ مِنْ قُدْرَاتٍ، الْقُدْرَةُ عَلَىٰ إنْزَالِ الْعَذَابِ الَّذِي سَبَقَ أَنْ أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ بَلاغاً عَنْ رَبِّي، فَأَنْتُم تَسْتَعْجِلُونَنِي بِأَنْ أُنْزِلَ عَلَيكُمْ كِسَفاً مُهْلِكَةً لَكُمْ مِن السَّمَاءِ عَلَىٰ سَبيلِ التَّحَدِّي، مَعَ أَنِّي لَمْ يَسْبِقْ لِي أن قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا الَّذِي سَأُعَاقِبُكُمْ بالْعَذَابِ المُهْلِكِ، إذَا أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وارتِكَابِكُمْ لِجَرَائِمِكُمْ، إنَّمَا بَلَّغْتُكُمْ إنْذَارَاتِ اللهِ لَكُمْ، واللهُ لا يُجْرِي إنْذَاراتِهِ إلَّا في آجَالِهَا الحكيمَة.

فَمُطَالَبَتُكُمْ لي بِتَعْجِيلِ مَا أَنْذَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِهِ، مَرْفوضَةٌ فِي مَوَازِينِ الْعُقُول، ومَقَايِيسِها الصَّحِيحَة السَّلِيمَة.

● ﴿... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾: أي: وقُلْ لَهُمْ: مَا الْحُكْمُ في الكَوْنِ كُلِّهِ إيجاداً وإعْدَاماً، وتحويلاً وَتبديلاً، أو فعلاً لأمْرٍ ما، أَوْ إذْناً بِفعْل أَمْرٍ ما، إلَّا للهِ وَحْدَه.

المرادُ بالْحُكم هُنَا الْقَضَاءُ المسْبُوقُ بتَقْدِيرِ الْمَقَادِيرِ كُلّها، ومِنْهُ إنْزالُ الْعَذابِ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، وحُكْمُ اللهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مُتَّصِفٌ بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ، فَعِلْمُ اللهِ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، واخْتِيَارُ اللهِ لَا يَكُونُ إلَّا مُطَابقاً

لِأَفْضَلِ الاحْتِمَالَاتِ وَأَحْسَنِها، لِأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ:

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ﴾ وفي القراءة الْأُخْرَىٰ [**يَقْضِ الْحَقَّ**]:

- فالمعْنَىٰ على القراءة الْأُوْلَىٰ: أنَّ اللهَ تباركَ وتعالَىٰ يَتَتَبَّعُ الْحَقَّ تَتَبُّعاً مَصْحُوباً بِعِلْمِهِ الْمُحِيط بكُلِّ الأشياء والأجزاء صِغَارِهَا وكِبَارِها، فإذَا عَلِمَ سُبْحانَه أَنَّ الإمْهَالَ هُو الْأَحْكَمُ أَمْهَلَ، وحِينَ يَعْلَمُ أَنَّ إنْزَالَ الْعَذَاب الْعِقَابِيِّ الْمُهْلِكِ هو الأحْكَمُ أَنْزل، ولا يَسْتَطِيعُ العبادُ أنْ يُحِيطُوا بما يُحِيطُ بِهِ عِلْمُ الله، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُون اختيارَ مَا هو الأحْكم، والْوَاجِبُ علىٰ العباد التَّسْلِيمُ للهِ في اختياراته.

- والمعنىٰ على القراءة الثَّانِية: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقْضِي الْحَقَّ في كُلِّ أَمْرٍ يَقْضيه، بَعْدَ أَنْ يَخْتَارَهُ بِحِكْمَته.

يُقَال لغة: «قَضَىٰ اللهُ الشَّيْءَ»: أي: أَمْضَىٰ حُكْمَهُ بِتَنْفِيذه عَلَىٰ وَفْقِ المقادير الَّتِي أحْكَمَ تَقْدِيرهَا لِكُلِّ جُزْءٍ فيه ذاتاً وصِفَةً.

ويُقال: [**قَضَاهُ**]: أي: أنْهَىٰ تَنْفِيذَهُ عَمَلِيًّا.

فَبيْنِ القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في تَأْدِيَةِ المعْنَىٰ المراد، أي: يَتَتَبَّعُ الحقَّ الَّذِي يَكُونُ اخْتِيَارُهُ هُوَ الْأَحْكَم، فَيُنْهِيهِ بِقَضَائِهِ الْمُبْرَمِ حُكْماً، ثُمَّ يُنَفِّذُهُ في أَجَلِهِ، فَيُنْهِي تَنْفِيذَهُ عَمَلِيًّا.

- ﴿... وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾: أي: وهو جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ خَيْرُ الحاكمين وخَيْرُ الْقَاضِين.

يقال لُغَةً: «فَصَلَ الْقَاضِي أو الْحَاكِمُ الأَمْر» أي: قَضَاهُ، وأَبْرَمَهُ وبَتَّهُ.

- ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨﴾:

أي: قُلْ لهم يا مُحَمَّدُ، لَوْ أَنَّ رَبِّي مَلَّكَنِي الْقُدْرَةَ عَلَىٰ إنْزالِ ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ مِنْ عَذابٍ وَإهْلاَكٍ عَلَيْكُمْ، وأَعْطانِي التَّفْويضَ بِذَلِكَ، لَاخْتَرْتُ أَنْ أُلَبِّيَ طَلَبَكُمْ، بَعْدَ أَنْ نَفَدَ صَبْرِي عَلَيْكُمْ، ولَأَنْزَلْتُ عَلَيْكُمُ الْعَذابَ الْمُهْلِكَ، رَغْبَةً في الْخَلاصِ مِنْ شُرُورِكُمْ، وَمِنْ صَدِّ أَتْباعِكُمْ عَنْ صِراطِ اللهِ المستقيم.

وَلَكِنَّ اللهَ لَمْ يُعْطِنِي هَـٰذِهِ الْقُدْرَةَ، وَلَمْ يَمْنَحْنِي التَّفْويضَ باخْتِيَارِ تَعْذِيبِكُمْ وإهْلاَكِكُمْ؛ لِأَنِّي لا أَعْلَمُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ بَلَغُوا مِنْكُمْ فِي ظُلْمِهِم الشَّنِيعِ إِلَىٰ دَرَكَةِ اسْتِحْقَاقِ التَّعْذِيب والإهلاك الْمُعَجَّلِ دُونَ إمْهَالٍ.

فَالْأَمْرُ يجب أَنْ يَكُونَ مَتْروكاً للهِ، واللهُ أَعْلَمُ بالظَّالِمين من كل عليم.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الثاني عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٧)

التدبر التحليلي للدَّرْس الثالث عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٥٩ ـ ٦٢)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ

تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾:

القراءات:

(٦١) ● قرأ حَمْزَة: [**تَوَفَّاهُ**] مع الإمالَة.

وقرأهَا بَاقِي القُرَّاءِ العشرة: [**تَوَفَّتْهُ**].

والقراءتان وجهان عَرَبيان جائزان.

(٦١) ● قرأ أبو عُمْرو: [**رُسْلُنَا**] بإسْكَانِ السِّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**رُسُلُنَا**] بضمّ السّين. وهما لغتان عَربيتان.

تمهيد:

آياتُ هذا الدَّرْس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الْأَوَّلِ مِنْ سَاقَيْ شجرة مَوضُوع السّورة، وفيه بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ مُبَاشِرٌ حَوْلَ إحَاطَةِ عِلْمِ اللهِ بِكُلِّ شَيء، وقَدْ خَاطَبَ اللهُ فيه النَّاسَ بِأَنَّهُ هو الّذِي يتوفَّاهُمْ بالنَّوْم، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ مِنْ نَوْمِهِم، وأَنَّهُ هُوَ الّذِي يُمِيتُ النَّاسَ ويَبْعَثُهُمْ يَوْمَ القيامة، للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، بسُلْطَانِ قَهْرِهِ، وبِأَنَّهُ هو الذي يُرْسِلُ عَلَيْهِم مَلَائِكَةً حفَظَةً، مع تَتِمَّاتِ مُلَائِمات.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

● ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾:

«مَفَاتِح» و**«مَفَاتِيح»**: جمعٌ مُفردُهُ «مِفْتَح» و«مِفْتَاح» وهو آلَةٌ يُفْتَحُ بها مُغْلَقٌ مَا، من مكانٍ مُخصَّصٍ للإقْفَالِ والفتح.

ومِفْتَاح كُلِّ شيءٍ بِحَسَبِهِ، حتَّىٰ المعاني الْمُغْلَقَةُ لَهَا مَفَاتِيحُ، إذَا فُتِحَتْ بِهَا أقْفَالُ أَبْوَابِهَا، وفُتِحَتْ أبْوابُها عُرِفَتْ.

وجَرَىٰ تَعْمِيمُ لَفْظِ «المِفْتَاح» ولفظ «الْبَابِ» في الاسْتِعْمَالِ مِنَ المادِّيَاتِ إلَىٰ المعنَوياتِ.

وَمفَاتِحُ الْغَيْبِ، هِيَ مَا يُتوصَّلُ بِهِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حَقَائِقَ هِي من عَالَمِ الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الْخلائِق، قَبْلَ فَتْحِ مَغَالِيقِه.

أمْثِلة للمفاتيح المعنوية:

(١) توصَّل الأطباء إلى معْرِفَةِ حَالَةِ القَلْب بالنسبة إلى انتظام ضَرباته أو عَدَمِها، بآلَة رسْمِ أثَر ضَرَباتِ القَلْب.

هذا مِفْتاحٌ يمكن عَنْ طَريقِه مَعْرِفَةُ حَالَةِ القَلْبِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الجُزْئِيَّةِ مِنْ جُزْئِيَّاتِ المعْرَفَةِ.

(٢) توصَّلَ عُلَمَاءُ الأرْصَادِ الجوِّيَّةِ إلى مَعْرِفَةِ بَعْضِ أحوال الطَّقْس القادِمَةِ خِلَالَ يَوْمٍ أو أكْثَرَ مَعْرِفَةً ظَنِّيَّةً، عن طَريق أجْهِزَةٍ خاصَّة.

هذا الَّذي تَوَصَّلَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ الأرْصَادِ يُمْكِنُ أَنْ نَعْتَبِرَهُ مِفْتَاحَ هَـٰذِهِ المعْرِفَةِ لِهَـٰذِهِ الْجُزْئِيَّةِ مِنْ جُزْئِيَّاتِ المعرفة.

(٣) النَّظَرِيَّةُ «النِّسْبِيَّةُ» الَّتِي اكْتَشَفَهَا «أنِشْتَاين» كَانَتْ مِفْتَاحاً فَتَحَ اللهُ بِهِ أَبْواباً لِمَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلوم.

(٤) الطَّاقَةُ الكهْرُبَائِيَّة صَارَتْ بَعْدَ اكْتِشَافِها مِفْتَاحاً للتَّوصُّلِ إِلَىٰ كثير من المعارف الَّتِي كانَتْ فِي عالَمِ الْغَيْبِ، ومِنْهَا الألِكْتْرُونيات.

(٥) اللُّوغرِتْمَاتِ مِفْتَاحٌ للتَّوصُّلِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ من الأرْقَامِ الكبِيرة، في الحساباتِ الرِّيَاضِيَّةِ الْعَالِيَةِ الْمُعقَّدَةِ الصَّعْبَةِ.

وهكذَا إِلَىٰ أَمْثِلَةٍ كَثِيرَةٍ هِيَ مَفَاتِيحُ مَعْنَوِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ لِعُلُوم هِيَ مِنْ عَالَم الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ النَّاسِ، وبَعْدَ هَـٰذَا يُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ قول الله تعالى في الآيَةِ:

• ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ... ﴿٥٩﴾﴾: أي: وعِنْـدَ اللهِ وَحْدَهُ جَمِيعُ مَفَاتِحِ كُلِّ الْغَيْب، وهَـٰذِهِ المفاتِحُ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هو جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ، فَلَا يَعْلَمُها عِلْماً مُسْتَغْرِقاً لِكُلِّ أَفْرَادِها رَسُولٌ مُفَضَّلٌ، ولَا مَلَكٌ مُقَرَبٌ مَكِينٌ لَدَيْه.

ومَعْلُومٌ أَنَّ نَفْيَ عِلْم كُلِّ الْأَفْرَادِ لَا يَسْتَلْزِمُ وَلَا يَقْتَضِي نَفْيَ عِلْم بَعْضِها، فهَـٰذَا مِنْ سَلْبِ الْعُمُومِ لَا مِنْ عُمُومِ السَّلْب.

استفيد القصر من تقديم «عِنْدَهُ» على المبتدأ «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ». أي: وعِنْدَهُ وَحْدَهُ مِلْكُهَا، وامْتِلَاكُ الْفَتْحِ بِها، ولَا يَعْلَمُها كُلَّهَا إِلَّا هُو. ويُفْهَم مِنْ هَـٰذَا أَنَّهُ سبحانَهُ وتَعَالَىٰ إِنْ شَاءَ سَخَّرَ بَعْضَ هَـٰذِهِ المفاتِيحِ لِبَعضِ عباده، فيَتوَصَّلُونَ بِهَا إلى مَعْرِفَةِ بَعْضِ الْغَيْبِ الّذي لَا يُحِيطُ بِهِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ تبارَكَ وتَعَالَىٰ.

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: جملَة حَالِيَّة لـ ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

• ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: أي: وهو تبارَكَ وَتَعَالَىٰ يَعْلَمُ بالتَّفْصِيلِ الدَّقِيقِ كُلَ مَا فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ مِنْ أشياء وأحياء، حتَّىٰ بواطنَ الذّراتِ، وأصْغَرَ كُلِّ صَغِيرٍ مِنَ الأحْيَاءِ، وَأجزاءَ ذَاتِهِ مِنْ مَادِّيٍّ ومَعْنوِي، مَوْصُوفٍ وصِفَاتٍ.

• ﴿... وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: وَمَا كَائِنَةٌ تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَجَرٍ، إلّا يَعْلَمُهَا مُنْذُ بَدْءِ تَكْوِينها حَتَّىٰ إسْقَاطِهَا فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ الخالِقُ المتابعُ لِلْخَلْقِ بَدْءاً مِنْ أُولَىٰ مَرَاحِلِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ آخِرِ مَرْحَلَةٍ من مراحل وجودِهِ.

جاءَ ذِكْرُ سُقُوطِ وَرَقَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ، عُنْوَاناً دَالًّا عَلَىٰ مَاقَبْلَهُ، وعَلَىٰ ما بَعْدَهُ، فَكُلُّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ كُلِّ مَخْلُوقٍ لله هُوَ مَعْلُومٌ لَهُ ـ جلَّ جلالُهُ ـ عِلْماً شَامِلاً، وسُقُوطُ الْوَرَقَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ جُزْئِيَّةٌ يَسِيرَةٌ مِنْ جُزْئِيَّاتِ أَطْوَارِها، فإذا كَانَ عِلْمُهُ مُحِيطاً بهٰذِهِ الجزئيَّةِ الْيَسِيرَة فَهُوَ مُحِيطٌ بِمَا سِوَاهَا مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ.

وَمَا كائِنَةٌ مِنْ حَبَّةٍ خَلَقَهَا اللهُ، مَوْجُودَةٍ فِي ظُلْمَاتِ الأرض، وَمَا كَائِنٌ مِنْ رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ، مَهْمَا كانَ صَغِيراً أَمْ كَبِيراً، إلَّا هُوَ مَعْلُومٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمُسَجَّلٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، هو اللَّوْحُ المحْفُوظ، إذْ كُلُّ مَا هُوَ قَابِلٌ لِأَنْ يُعْلَمَ مِمَّا كَانَ، وَمِمَّا هُو كائِنٌ، ومِمَّا سَيَكُونُ، هُوَ مُسَجَّلٌ فِيهِ، بالدِّقَةِ التَّامَّةِ الَّتِي اخْتَارَ تَسْجِيلَ الْعِلْمِ بِها.

وقَدْ ألهم اللهُ النَّاسَ اكْتِشَافَ تَسْجِيلِ الْعُلُوم الكثيرة ألكترونيًّا في شرَائِحَ صغيرة جدًّا، وهذا يُقَرِّبُ للناسِ تَصَوُّرَ اللَّوْحِ المحفوظ.

- قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: مَادَّةُ: «تَوفَّىٰ، يَتَوفَّىٰ» تَدُور في اللُّغَةِ حَوْلَ معنَىٰ اسْتِيفَاءِ المِقْدار المحَدَّد، ويَحْصُلُ التَّوَفِّي بِبُلُوغ غَايَةِ أفرادِ الشَيْءِ المُقَدَّرة، أو أَجْزَائِهِ المقدَّرَة. ومِنْهُ تَوَفِّي أَجْزَاءِ الزَّمَنِ المقَدَّرِ أجلاً للكائِنِ الْحَيِّ.

وقد جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هٰذَا الفِعْلَ في كتابِهِ للدَّلَالَةِ عَلى معنًى كُلِّي ذي نَوْعَيْن:

النوع الأول: الْفَصْلُ الْكُلّيّ بَيْنَ الرُّوحِ، والنَّفْسِ الَّتِي هِيَ طَبْعَةُ الكائِنِ الحيّ وخَرِيطَةُ تَكْوِينه، وهَـٰذَا يكون بالموتَ.

النوع الثاني: الْفَصْلُ الْجُزئِيُّ بَيْنَ الرُّوحِ والنَّفْس، وهَـٰذَا يَكُونُ بالنوْم.

فقال اللهُ عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

نَفْهَمُ مِنْ هَـٰذِهِ الآيَةِ أَنَّ النَّوْمَ وَالْمَوْتَ ظَاهِرَتَانِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الرُّوحِ الْمُمِدَّةِ بالحياة، وبَيْنَ النَّفْسِ الَّتِي تَجْتَمِعُ فيها صِفَاتُ وخَصَائِصُ الكائِنِ القابِلِ لِلْحَيَاةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضائِهِ.

فإذا كان الْفَصْلُ فَصْلاً كُلّيًّا حَدَثَ الموتُ، فَذاقَتْ النَّفْسُ الموتَ، وإذَا كان الفَصْل فصلاً جُزْئِيًّا، مقتَصِراً علَىٰ سَلْبِ الْحَرَكَةِ الإراديَّةِ، حَدَثَ النَّوْم.

فالمعنى الذي نَفْهَمُه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ واللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ لَيْلاً، بالْفَصْلِ الْجُزْئِيّ بَيْنَ أَرْوَاحِكُمْ ونُفُوسِكُمْ الَّذِي يَكُونُ بِهِ نَوْمُكُمْ، طَوال رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ في الحياة الدنيا.

وجَاءَتْ عِبارَةُ: ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ للدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّ النَّوْمَ الطَّويلَ باللَّيْلِ هُوَ الأكْثَرُ مُلاءَمَةً لِنِظَام حَيَاةِ النَّاسِ، والأكْثَرُ راحَةً لِأَجْسَادِهِم وتَكْوِينِها الْفِطْرِيّ، ولَيْسَ قَيْداً لِحُصُولِ النَّوْمِ فيه، فالنَّوْمُ كُلُّهُ سَواءٌ أَكَانَ بِاللَّيْلِ أَمْ بِالنَّهارِ هُوَ مِنْ أَفْعَالِ اللهِ بِعِبادِهِ.

- ﴿... وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ...﴾: أي: ويَعْلَمُ ما كَسَبْتُمْ

بِالنَّهَارِ السَّابِقِ لِلَّيْلِ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِهِ، طَوال رِحْلَةِ امتحانكم في الحياة الدنيا.

جرَىٰ في الاسْتِعْمَال اللُّغَوِي فِعْلُ «جَرَحَ» ومُشتَقَّاتُهُ بِمَعْنَىٰ: «كَسَبَ» كَسْباً جَسَدِيًّا أو نَفْسِيًّا. **والجارِحَةُ**: الْعُضْوُ الْعَامِلُ من أعْضَاءِ الْجَسَدِ، كالْيَدِ والرِّجل، والجمعُ: «الجَوارحُ». وأصْلُ الاسْتِعْمَالِ مأخُوذٌ مِنْ كَوْنِ الْعُضْوِ جَارحاً، أيْ: شَاقًّا شقًّا فِي بَدَنٍ مَا. والمشْقُوقُ بَدَنُهُ يُقَالُ له: «جَرِيح». ومَا يَصِيدُ مِنَ الطَّيْرِ والسِّبَاعِ والْكِلَابِ يُسَمَّىٰ «جَارِحاً» والْجَمْعُ «جَوارِح».

وجاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْكَسْبَ الْأَفْضَلَ هُوَ مَا كَانَ بالنَّهَارِ، ليكونَ اللَّيْلُ للرَّاحَةِ والسُّكون، وهُوَ الموافِقُ الملائِمُ لِنِظَامِ حياة النَّاسِ، ومَا فَطَرَ اللهُ أجْسَادَهُمْ عَلَيْه.

- ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ نَوْم يَطُولُ أَوْ يَقْصُرُ يَبْعَثُكُمْ مِنْ نَوْمِكُمْ وأفْضَلُهُ مَا يكونُ في النَّهارِ الَّذي يَبْدَأُ مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، بإعَادَةِ الاتِّصَالِ التَّامّ بَيْنَ الرُّوحِ والنَّفْسِ، إذْ كَانَ بَيْنَهما انْفِصَالٌ جُزْئِيٌّ في حَالَةِ النَّوْمِ كَمَا سَبَقَ بيانُهُ في الْفَرْقِ بَيْنَ الموْتِ والنَّوْمِ.

وهكذا دَوَالَيْكُمْ تَسْتَمِرُّ ظَاهِرَتَا تَوَفِّيكُمْ وَبَعْثِكُمْ مِنْ نَوْمِكم طَوالَ رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدُّنيا.

- ﴿... لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى ...﴾: أي: لِيُنْهَىٰ أَجَلٌ مَعْلُومٌ مَسَمَّىٰ بِوَحَدَاتِهِ الزَّمَنِيَّةِ، حَتَّىٰ آخِرِ وَحْدَةٍ مِنْهُ الَّتي يَكُونُ بَعْدَهَا مَوْتُكُمْ.

المرَادُ بِالْأَجَلِ هُنَا مُدَّةُ حَيَاةِ كُلِّ إنْسَانٍ مُحَدَّدَةٍ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ.

- ﴿... ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ...﴾: أيْ: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ الَّتِي تَكُونُ فِيهِ أجْسَادُكُمْ تُراباً كَمَا كانَتْ قَبْلَ خَلْقِكُمْ، يَبْعَثُكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ مَوْتِكُمْ، فَيُنْبِتُ أَجْسَادَكُمْ، وَيَرُدُّ أَرْوَاحَكُمْ إلَىٰ نُفُوسِكُمْ، ويُرْجِعُكُمْ إلَىٰ الحياة مَرَّةً

أخْرَىٰ، لِتُحْشَرُوا إِلَىٰ جِهَةِ مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والْفَضْلِ التي يُقِيمُها لَكُمْ.

- ﴿... ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٦٠﴾: أيْ: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ تَكُونُونَ فِيها فِي مَوْقِفِ الحشْرِ، يُقِيمُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُم فِي مَحْكَمَتِهِ حِسَابَهُ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، لِيَكُونَ جَزَاؤُه بَعْدَ ذَلِكَ بالْعَدْلِ أو بالْفَضْلِ عَلَىٰ وَفْقِ قضائِهِ جلّ جلاله.

جَاء التَّعْبِيرُ عَنِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ القِضَاءِ، بِذِكْرِ بَعْضِ مَا يَجْرِي فِي المحاكَمة الرَّبَّانِية، وهُو إخْبَارُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ العباد بِمَا كَانَ يَعْمَلُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا حَيَاةِ الابْتِلاَءِ، وهَـٰذَا من الكِنَايَاتِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ نَظَائِرُهَا فِي القرآن الْمَجِيد، إذْ يُذْكَرُ بَعْضُ عَنَاصِرِ الْحَدَثِ، أَوْ بَعْضُ أجْزَائِهِ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ سَائِرِ الْعناصِرِ أو الْأَجْزَاء.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ٦٢﴾:

- ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ ...﴾: أي: واللهُ هُوَ وَحْدَهُ لا غَيْره. الْقَاهِرُ الْغَالِبُ بالْجَبْرِ في الْوُجُودِ كُلِّهِ لِمَا وَلِمَنْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُ مَجْبُوراً بالْقَهْرِ والْغَلَبَةِ عَلَىٰ أَمْرٍ مَا، كَالْإِمَاتَةِ والْإِحْياء، وكُلِّ مَا يَكُونُ الْكَائِنُ الْحَيُّ مَجْبُوراً فيه.

الْقَهْرُ: هُو في اللُّغَةِ الأخْذُ مِنْ فَوْق، **والمقْهُورُ**: هو المأخُوذُ مِنْ غَيْرِ رِضَاه، فَفِي الْقَهْرِ مَعْنَىٰ الْجبْرِ الّذِي يَكُونُ مَعَهُ الْمَجْبُور مَسْلُوبَ الإرَادَةِ، فيَجْرِي فِيهِ مُرادُ اللهِ راغِباً أَوْ كَارِهاً.

- ﴿... فَوْقَ عِبَادِهِۦ ...﴾: أي: للهِ الْفَوْقِيَّةُ الدَّائِمَةُ إذْ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ وَمَنْ سِوَاهُ دُونَهُ جَلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ. وعِبَادُ اللهِ

هُمُ المملُوكُونَ لَهُ بِمَقْتَضَىٰ خَلْقِهِ لَهُمْ، وَرُبُوبِيّتِهِ لَهُمْ دَاوماً، ويَدْخُلُ فِي عُمُومِ عِبَادِ اللهِ الْمَلاَئِكَةُ والإنْسُ والْجِنّ.

وجاء بيانُ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ مُناسِباً لِمَا جَاءَ قَبْلَهُ مِنْ بَيانِ التَّوَفّي بالنَّوْمِ أَوْ بِالْمَوْتِ، والْبَعْثِ بالإيقَاظِ أو بالإحْياءِ يَوْمَ القيامَةِ.

● ﴿... وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً ...﴾: أي: وَيُرْسِلُ اللهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ ـ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَلاَئِكَةً حَفَظَةً.

حَفَظَة: جمع «**حَافِظ**» وهُو الحارِسُ المراقِبُ القائِمُ بوظَائِفِ الحراسَةِ المأمُور بِها مِنْ قِبَلِ مَنْ جَعَلَهُ حَارِساً.

والْمَلاَئِكَةُ الْحَفَظَةُ: مِنْهُمْ مَنْ يُرَاقِبُونَ أعْمَالَ الْعِبَادِ وَيُسَجِّلُونَهَا في صُحُفِ أعمالِهِمْ، لِعَرْضِهَا عَلَيْهِمْ يَوْمَ الدِّين، ولا سِيمَا عند الحساب. ومِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُونَ النَّاسَ مِنَ الْمَخاطِرِ والمؤذِيَاتِ الكثيراتِ في الكَوْن، إلَّا مَا فِيه مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ قَضاءٌ وَقدَرٌ، وهَـٰذا من ضِمْنِ الْأَنْظِمَةِ السَّبَبِيَّةِ الَّتِي جَعَلَها اللهُ في كونِهِ.

والْجُمْلَةُ تُصْلُحُ للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ المعْنَيَيْن، وَإِنْ كانت عبارَةُ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ مُلاَئِمَةً لِمَعْنَىٰ مُرَاقَبَةِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الْمُمْتَحَنِينَ وتَسْجِيلِهَا، أَمَّا معنَىٰ الحِفْظِ مِنَ الْمَخاطِرِ الَّذِي تُوحِي الآيَةُ بأنَّهُ مُرادٌ أيْضاً، فَنُقَدِّرُ في العِبارَةِ ما يُلاَئِمُهُ، فنقول: وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ حفَظَة. أَوْ: وَيُرْسِلُ مَلاَئِكَةً تُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ بِمُرَاقَبَتِكُمْ وَتَسْجِيلِ أعْمَالِكُمْ، وبحمايَتِكُمْ وحِفْظِكُمْ مِن الْمَخاطِرِ والمؤذِيات المنْبَثَّةِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء.

● ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾:

أي: وَيَسْتَمِرُّ إرْسَالُ الحفظة عَلَىٰ كُلِّ واحِدٍ مِنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ حَتَّىٰ وَقْتِ مَجِيءِ تَنْفِيذِ إمَاتَتِهِ في أَجَلِهِ، حينَئِذٍ تَتَوَفَّاهُ رُسُلُنا الملائكَةُ الْمَأْمُورَة

بِفَصْلِ رُوحِهِ عَنْ نَفْسِهِ فَصْلاً كُلِّيًّا، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ بواجِبٍ أَوْجَبْنَاهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بأَحْدَاثِ إمَاتَتِهِ، والأَحْدَاثِ المرافِقَةِ لإِمَاتَتِهِ، فَلا يُقَصِّرُونَ بأَدَاءِ أَمْرٍ واجِبٍ ولَا يُضَيِّعُونه.

التَّفْرِيط: التقصِيرُ والتضييعُ.

والرُّسُلُ المكلَّفُونَ إمَاتَةَ النَّاسِ مِنَ الْمَلَائِكَة هُمْ غَيْرُ الحفظة.

وجاء في سُورَةِ (السَّجْدَة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

فَدَلَّ ظَاهِرُ الْآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ وَاحِدٌ، ولَكِنْ يُمكِنُ حَمْلُ لفظ «مَلَكُ الْمَوْتِ» عَلَىٰ فَرِيقٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ هَـٰذِهِ الْوَظِيفَة، وقَدْ جاء في أَكْثَرَ مِنْ آيَة إطْلَاقُ لَفْظِ «مَلَكٍ» عَلَىٰ فَرِيقٍ مِنْ الملائكة، كإطْلَاقِ المفرد النَّكِرَة علىٰ الجنْس، وعَلَىٰ هَـٰذَا فالمَعْنَىٰ مُطابقٌ لمَعْنَىٰ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وعَودُ الضمير عليه بالإفراد رُوعي فيه لفظه المفرد.

ورُوِيَ عن ٱبْنِ عباسٍ أنَّ لِمَلَكِ الموْتِ أعْوَاناً، ولم يَرِدْ فِي بَيَانٍ نَبوِيٍّ أَنَّ اسْمَهُ: «عزرائيل».

﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾: أي: كُلِّفَ بِقَبْضِ أَرْوَاحِكُمْ، فالمراد بالتوكيل هنا التكليف.

- ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ البرزَخ تُبْعَثُونَ إلى الحياة مَرَّةً أُخْرَىٰ، لِتُلَاقُوا حِسَابَ رَبِّكُمْ، وفَصْلَ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذ جزائه.

- ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ الْبَعْثِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الأخرَىٰ يوْمَ القيامَة، يُرَدُّ المبْعُوثون الّذِينَ كانُوا في الحياة الدُّنيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، إلَىٰ مُلَاقَاةِ اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ.

- ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾: أي: رَبِّهم الَّذي خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَشَمَلَهُمْ طَوَالَ وُجُودِهِمْ بِصِفَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ.

- ﴿ٱلْحَقِّ﴾: أي: الثابتِ الذي لَا شَكَّ فِيهِ، وهذا اللَّفْظ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، وهُو يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ اللهَ ثَابِتٌ لَا شَكَّ فِي ذاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ، فالبراهين الحقُّ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ وأَبَدِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ.

- ﴿أَلَآ﴾: أَدَاةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتَنْبِيهٍ، وتَحْقِيق.

- ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: أي: لَهُ القضاء في كُلِّ شيء، ومِنْهُ فَصْلُ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّين بَيْنَ الْعِبَادِ الذينَ كَانُوا في الحياة الدُّنيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان.

- ﴿... وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾: لَمَّا كَانَ الْحُكْمُ عَلَىٰ العِبَادِ يَوْمَ الدِّينِ يَقْتَضِي أنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بِمُحَاسَبَتِهِمْ عَلَىٰ أعْمَالهم، ولَمَّا كَانَ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ قد يَتوهَّمُونَ أنَّ مُحَاسَبَةَ النَّاسِ الَّذِينَ وُجِدُوا مِنْ عَهْدِ آدم حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ تَحْتَاجُ أَزْمَاناً طَوِيلَةً جدًّا، فَمَنْ تَأَخَّرَ مِنْهُمْ حِسابُهُ طَالَ دُونَ نُظَرائِهِ انْتِظَاره، كَانَ من المناسِبِ أنْ يَصِفَ اللهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ. فَهُوَ إِذَا شَاء حَاسَبَ عِبَادَهُ جَمِيعاً في سَاعَةٍ واحِدَة، كَمَا هُوَ مُهَيمنٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ كُلِّ ذَرَّةٍ فِي كَونِهِ عَلَىٰ تَوَالِي أَصْغَرِ الوَحَدَات الزَّمَنِيَّة تَسْيِيراً وَتَصْرِيفاً وإِمْدَاداً وغير ذلك.

وبهذا تَمَّ تدبُّر الدرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٨)

التدبّر التحليليّ للدّرس الرابع عشر من دُروس سورة (الأنعام)

الآيات من (٦٣ ـ ٦٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾.

القراءات:

(٦٣) • قرأ يعقوب: **[قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ]** مِنْ فعل: «أَنْجَىٰ يُنْجِي».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ]** من فعل: «نَجَّىٰ يُنَجِّي».

والقراءتَان متكافئتان، فالمهموز أخو المُضَعَّف.

(٦٣) • قرأ شُعْبَة: **[وَخِفْيَةً]** بِكَسْرِ الخاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَخُفْيَةً]** بِضَمِّ الخاء.

«خِفْيَة، وخُفْيَة» لُغتان عَرَبيَّتانِ.

(٦٣) • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: **[لَئِنْ أَنْجَانَا]**.

وَقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا]**.

وبين القراءتين تَكامل. إذْ بَعْض النَّاسِ يُخَاطِبُونَ رَبَّهم بهذا، وآخَرُونَ يقولُون: **[لَئِنْ أنجانا]**.

(٦٤) • قرأ نافع، وٱبنُ كثير، وأبو عَمْرو وابْنُ ذكوان، ويعقوب: **[قُلِ اللهُ يُنْجِيكُمْ]** من فعل: «أَنْجَىٰ، يُنْجِي».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ**] من فعل: «نَجَّىٰ، يُنَجِّي». والقراءتان متكافِئتَان.

(٦٥) • قرأ السُّوسِي، وأبو جعفر: [**بَاسَ**] بإبْدَال الهمزة ألفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بَأْسَ**] بالهمزة الساكنة.

(٦٥) • قرأ أبو عَمْرو، وٱبْنُ ذكْوان، وعاصم، وحمزة بِكَسْر تنوين: [**بَعْضٍ أنْظُر**] في الوصل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِضَمّ تنوينِ: [**بَعْضٌ ٱنْظُرْ**] في الوصل.

تمهيد:

آيات هذا الدَّرْس من فروع السَّاقِ الثاني من ساقَي شَجَرَةِ موضوع السُّورَة.

وفيها تَعْلِيمُ حِوارٍ جَدَلِيّ، لانْتِزَاعِ اعْتِرَافِ المشْرِكين بأنَّ اللهَ هو وَحْدَهُ الَّذِي يجيب دُعَاءَ المُضْطر إذا دَعَاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ.

وَبأَنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ وَحْدَهُ عَلَىٰ أَنْ يُعاقِبَهُمْ بِمَا يَشَاءُ من صُنُوفِ عِقَاب، ولإعْلَامِهِمْ بأنَّ الرَّسُولَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ شيئاً، إذا قَضَىٰ اللهُ أَنْ يُعاقِبَهُمْ، لِأَنَّهُ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَيْهِمْ.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ مُعلِّماً فِقَرَةً حِوارِيَّةً لِلْمشركين، ويُلْحَقُ بالرَّسُول كُلُّ حَمَلَةِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

• ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، لإقَامَةِ الحجَّةِ عَلَيْهِمْ بِدَلِيلٍ تَجْرِيبِيٍّ، ولانْتِزَاعِ اعْترافِهِمْ بالحقِّ:

مَنِ الَّذِي يُنَجِّيكُمْ مِنَ المخاوفِ الَّتِي تُحِيطُ بِكُمْ في ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ؟!.

إِنَّكُمْ لَا تَجِدُونَ حِينَئِذٍ إِلَّا اللهَ رَبَّكُمْ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً، قائِلِينَ: نُقْسِمُ لَئِنْ أَنْجَانَا رَبُّنَا. مِنْ هَـٰذِهِ الْكُرْبَةِ العظيمَةِ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لَهُ، بالإيمان بأَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ الواحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ له فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وبأَنَّهُ هُوَ الإلَـٰهُ الواحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ له في إِلَـٰهِيَّتِهِ، وبأعْمَال تُعَبِّرُ عَنْ صِدْقِ إيمانِنَا، وعَنْ صِدْقِ إِسْلَامِنَا له. وبحسب القراءة الأخرى: رَبَّنَا نقسم لئن أَنْجَيْتَنَا من هذه...

يُنَجِّيكُم ويُنْجِيكُم: أيْ: يُخَلِّصُكُمْ، ويَكْشِفُ عَنْكُمْ كُرْبَتَكُمْ.

- ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: أي: مِن كُرُبَاتٍ تُحِيطُ بِكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ. دَعَا إِلَىٰ إِبْرازِ هَـٰذِهِ المطْوِيَّاتِ في النَّصّ أَنَّ الظُّلُمَاتِ وَحْدَهَا لَا تُحْدِثُ الْكُرُبَاتِ الْعُظْمَىٰ مِنَ الْمُرْهِبَاتِ المخِيفَاتِ، مَا لَمْ تَكُنْ فيها هَـٰذِهِ الْمُرْهِبَاتُ المخيفاتُ.

- ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: أي: تَسْأَلُونَهُ حَالَةَ كَوْنِكُمْ مُتَضَرِّعِينَ لَهُ، وَفي خَفَاءٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، لِيَكُونَ دُعَاؤُكُمْ أَرْجَىٰ لاسْتِجَابَتِهِ.

التَّضَرُّعُ: التَّذَلُّلُ والخضوع، مأخُوذٌ مِنْ خُضُوعِ وَلَدِ الْبَهِيمَة، لِيَمْتَصَّ حَلِيبَ أُمِّهِ مِنْ ضَرْعِها.

والْخُفْيَةُ: مَصْدَرُ: «خَفِيَ الشَّيْءُ، يَخْفَىٰ، خَفَاءً، وَخُفْيَةً، وخِفْيَة، فَهُوَ خَفِيٌّ، وخافٍ» أي: اسْتَتَرَ فَلَمْ يَظْهَرْ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ سُؤَالَ اللهِ مِنْ عُمْقِ الْقُلُوبِ في الخفاء أَرْجَىٰ لاسْتِجَابَتِهِ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهَـٰذَا مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ في الدُّعَاء. أَمَّا الْجَهْرُ بالدُّعاء فَفِيه رائِحَةُ سُوءِ الظَّنِّ باللهِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَىٰ.

- ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: اللَّامُ في «لَئِنْ» واقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ.

﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾: أي: مِنْ هَـٰذِهِ الْكُرُبَاتِ الَّتِي نَحْنُ فِيها.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جَوَابُ الشَّرْطِ في: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾. والمرادُ بالشُّكْرِ هُنَا الإيمانُ الصَّحِيحُ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وإلَٰهِيَّتِهِ اللَّتَيْنِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي كُلٍّ مِنْهما، مع أَعْمَالٍ خَالِصَةٍ للهِ تُعَبِّرُ عَنْ صِحَّةِ الإيمانِ وصِدْقِهِ.

أَصْلُ مَعْنَىٰ الشُّكْر: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ الْحَسَنِ بِمَا يُرْضِي الْعَامل، واللهُ يُرْضِيهِ مِنْ عباده في مُقَابِلِ إِنْعَاماتِهِ عَلَيْهِم، أَنْ يُؤْمِنُوا به إِيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، وَيَحْمَدُوهُ، ويُعَبِّرُوا عَنْ صِدْقِ إيمانِهِمْ بِأَعْمَالٍ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ فيها، وبِتَرْكِ أَعْمَالٍ نَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ فيها.

- ■ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ في مُتَابَعَةِ التَّعْلِيمِ السَّابقِ:

- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ سَواءٌ اعْتَرَفُوا أَمْ لَمْ يَعْتَرِفُوا: اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْ هَـٰذِهِ الْكُرُبَاتِ الَّتِي قد تُحِيطُ بِكُمُ مَخَاوِفُهَا ومُرْهِبَاتُها، إذا دَعَوْتُمُوهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، ثُمَّ أَنْتُمْ بَعْدَ أَنْ يُنْجِيكُمْ وتَجِدُونَ أَنَّكُم آمِنُونَ مِنَ المخَاوِفِ الَّتِي كانَتْ قَدْ أَحَاطَتْ بِكُمْ، تَعُودُونَ إِلَىٰ شِرْكِيَّاتِكُمْ، وَتَنْسَوْنَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أَقْسَمْتُمْ لِرَبِّكُمْ بِأَنْ تَكُونُوا شَاكِرِينَ لَهُ، فَلَا تُشْرِكُوا بِرُبُوبِيَّتِهِ وَلَا بِإِلَٰهِيَّتِهِ شَيْئاً.

الكَرْب: الْغَمُّ الشَّدِيدُ الَّذِي يَأْخُذُ بالنَّفْسِ، كأَنَّ حَبْلاً ضَاغِطاً شُدَّ عليها. أَصْلُ اللَّفظِ مَأْخُوذٌ مِنْ كَرْبِ الحبْلِ، وهُو فَتْلُهُ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْفَتْلَ يَجْعَلُ الْأَجْزَاءَ تَتَضَاغَطُ فَتؤْلِمَ ذَا الحِسِّ إذَا كَانَ الْفَتْلُ فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ، أَوْ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ.

■ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً فِقَرَةً دَعَوِيَّةً يَشْرَحُهَا لِلْمُعَالَجِينَ من أهْلِ الكُفر، ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ كُلُّ حَمَلَةِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، والغرضُ منها الإنذارُ والتحذيرُ بأُسْلُوبِ الإخبار.

• ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾:

أي: قُلْ للمعالَجِينَ مِنْ أهْلِ الشِّرْكِ والكُفْر. اللهُ عزَّ وجلَّ وحْدَهُ هُوَ القادِرُ عَلَىٰ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ عَلَىٰ شِرْكِكُمْ وكُفْرِكُمْ، وجَرائِمِكُمْ، فَيَبْعَثَ عَلَيْكُمْ وَسَائِلَ عَذَابٍ لَكُمْ، لَكِنَّهُ يُمْهِلُكُمْ رَغْبَةً فِي أَنْ تَسْتَغْفِرُوهُ وَتَتُوبُوا إِلَيْهِ، وَتُؤْمِنُوا إيماناً صَحِيحاً، وتَعْمَلُوا عَمَلاً صَالحاً، فَيَجْعَلَكُمْ مِنَ النَّاجِينَ مِنْ عَذَاب النار يوم الدِّين، ومِنَ الفائِزِينَ فِي جَنَّاتِ النعيم.

وَوَسَائِلُ الْعَذَاب هذه:

• قَدْ تَأْتِيكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ، كَمَا أَمْطَرَ عَلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ حجَارَةً مِنْ سَجِّيل.

• وقَدْ تَأْتِيكُمْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ كَبُرْكَانَاتٍ يُفَجِّرُهَا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ، فَتَذُوقُونَ بِهَا عَذَاباً شَدِيداً، ويُهْلِكُكُمْ بِها.

• وَقَدْ يَجْعَلُكُمْ شِيَعاً مُتَعَادِيَةً مُتَقَاتِلَةً، قَدْ اخْتَلَط بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وبِذَلِكَ يَذُوقُ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، فَكُلُّ شِيعَةٍ مِنْكُمْ تَذُوق بأْساً مِنَ الشِّيعَةِ المضادَّةِ الْمُعَادِيَةِ لها.

الْبَعْثُ: الإرْسَالُ لِتَأْدِيَةِ مَطْلُوبٍ مَا لِلْبَاعِث.

• ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في هَـٰذَا التعبير معْنَىٰ التَّسْلِيطِ عُقُوبَةً وانْتِقَاماً.

• ﴿... عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ ...﴾: أي: وَسَـائِـلَ

تَعْذِيبٍ لَكُمْ، تُصَبُّ عَلَيْكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ، أَوْ تُفَجَّرُ عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ.

- ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ . . .﴾:

- ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾: أي: يَخْلِطَكُمْ. **اللَّبْسُ**: خَلْطُ شيءٍ بشيء، أَوْ أَمْرٍ بأمْر.

- ﴿شِيَعًا﴾: أي: حالَةَ كَوْنِكُمْ شِيَعاً مُتَضَادَّة، مُتَعادِيَةً، مُتَقَاتِلَة. الواحِدَة: «**شِيعَة**» وهي الجماعَة من الناس الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ أمْرٍ ما، والْغَالِبُ في الشيعَةِ أَنْ يُناصِرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فيما اجْتَمَعُوا عَلَيْه، ويُعَادُوا مُخَالِفيهم.

الْبَأْسُ: الْعَذَابُ الشديدُ، والشِّدَّةُ في الحرْب.

إنَّ ظَاهِرَةَ الشِّيَعِ الْبَشَرِيَّة، الَّتِي تَتَقَاتَلُ فِيما بَيْنَهَا، وَيَذُوقُ بَعْضُ المتقاتِلِينَ فيها بأْسَ بَعْضٍ، ظَاهِرَةٌ مُتَكَرِّرَةٍ في التَّاريخ الإنْسَانِيِّ، وهي من وَسَائِلِ الْعُقُوبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلْخَارِجِينَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم. ومِنْ أَمْثِلَتِهَا الْحُرُوبُ بَيْنَ الشُّعُوب والأقوامِ والدُّول، والْحُرُوبُ الأَهْلِيَّة ذُواتُ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ للأفرادِ والأُسَرِ والجماعات.

فَلَيْسَتْ كُلُّ عُقُوبَاتِ اللهِ عَوَاصِفَ وقَوَاصِفَ وَفَيَاضَانَاتٍ وزَلَازِلَ وَبَرَاكِين، بَلْ مِنْ عُقُوبَاتِ اللهِ أَيْضاً إغْرَاءُ بَعْضِ النَّاسِ للتَّسلُّطِ عَلَىٰ بَعْضٍ، بالْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّة، تَعْذِيباً، وإِذْلالاً، وسَلْباً وَنَهْباً، وقَتْلاً. وَلَوْ أَنَّهُمُ الْتَزَمُوا صِرَاطَ اللهِ المسْتَقِيمَ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، لَعَاشُوا في الحياة الدُّنْيَا آمِنِينَ، ولَدَخَلُوا في السِّلْمِ كافَّة.

- ﴿. . . ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥﴾: أي: انْظُرْ أَيُّهَا النَّاظِرُ المتفَكِّرُ كَيفَ نُنَوِّعُ آياتِنا الْبَيانِيَّة، إقْنَاعاً بالْحَقِّ، ومُجَادَلَةً بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، وَحِوَاراً هادِياً، وَتَرْغِيباً وَتَرْهِيباً، رَغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ يَفْقَهُوا تعالِيم

دِينِنَا الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبَادِنا، وَيفْقَهُوا الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِهِمْ، وَوَاجِبَهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، والدَّارَ الآخِرَة الْمُعَدَّةَ لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصْلِ القضاء بَيْنَهُمْ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

التَّصْرِيف: التنويعُ، واتخاذُ مُخْتَلِفِ الوجوه الممكنة لِقَطْعِ أعْذَارِ المتَعَلِّلِينَ بالتَّعِلَّات، الَّتِي يَتَخِذُونَها مَعَاذِيرَ لِسَتْرِ بَاطِلِهِم، ومجافاتِهِمْ لِلْحَقِّ والخير والْهُدَىٰ.

الفِقْهُ: يُسْتَعْمَلُ الفقه للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْعِلْمِ بِحَقَائِق الأمُور وبواطنها، وخَفَايَاها ودَقَائِقِها، والْبَحْثِ عَنْهَا للتَّوَصُّل إلى مَعْرِفَتِها.

ومعْلُومٌ أَنَّ مَنْ اسْتَطاعَ أَنْ يَفْقَهَ حَقَائِقَ دِينِ اللهِ لعبادِه، كَان أَقْرَبَ للاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، والْتِزَامِ صِرَاطِهِ المستقيم.

■ وقال اللهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً:

● ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: وَكَذَّبَ بالْقُرْآنِ، وَبِمَا جَاءَ في القرآنِ مِنْ إنْذَارٍ بِعَذَابِ اللهِ المعجَّلِ والْمُؤَجَّلِ، قَوْمُكَ يا مُحَمَّدُ، وهُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ وكَثِيرٌ مِنْ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ، الَّذِينَ تَحْرِصُ عَلَىٰ إيمَانِهِمْ، وتَحْزَنُ عَلَيْهِمْ، والْحَالُ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ.

وبِمَا أَنَّهُمْ مُسْتَيْقِنُونَ بِأَنَّهُ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ بآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ، فَقَدْ يَخْطُرُ فِي بَالِ بَعْضِهِمْ، أَنَّ الرَّسُولَ مُحمّداً سَيْدْرَأُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ، لِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ، بِدَافِعِ عَاطِفَةِ الْقَرَابَةِ والنَّسَبِ، فَجَاءَ فِي التَّعْلِيم: ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾: أي: فأنَا لا أَقِيكُمْ وَلَا أَحْمِيكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، الَّذِي تَسْتَحِقُّونَهُ بِشِرْكِكُمْ وكُفْرِكُمْ، وجَرَائِمِكُمْ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوَازِم الشِّرْكِ والكُفْر فِي السُّلُوكِ، لأنَّنِي لَسْتُ وَكِيلاً عَلَيْكُمْ، إنَّمَا أَنَا رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّي مَا يَأْمُرُنِي بِتبليغِهِ، وأنْتُم ذَوُو إرَادَاتٍ حُرَّةٍ مُخْتَارَةٍ، مَوْضُوعُونَ فِي

الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء، ولَسْتُمْ كَقَطِيعِ أَغْنَامٍ تُسَاقُونَ مِنْ قِبَلِ رَاعِيكُمْ الوكيلِ عَلَيْكُمْ، والمسْؤُولِ عنْ حِمَايَتِكُمْ وَطَعَامِكُمْ وشَرَابِكُم وحِمَايَتِكُمْ مِمَّا يَضُرُّكُمْ وَيُؤْذِيكُمْ، إنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ نَفْسِهِ مَسْؤُولِيَّةً شخصِيَّةً، فَلَا أَحْمِيكُمْ وَلَا أُجْبِرُكُمْ.

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس الرابع عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٩)

التدبر التحليلي للدَّرس الخامس عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٦٧ ـ ٧٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾:

القراءات:

(٦٨) • قرأ ابْن عامِر: [يُنَسِّيَنَّكَ] مِنْ فِعْل: «نَسَّىٰ يُنَسِّي» المضَعَّف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة [يُنْسِيَنَّكَ] من فعل: «أَنْسَىٰ يُنْسِي» المهموز.

والقراءتانِ مُتكافِئتَانِ، فالمضَعَّفُ أَخُو الْمَهْموز.

تَمْهيد:

آيَاتُ هَـٰذَا الدَّرْس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الأوَّل مِنْ سَاقَي شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة.

وفيها بيان مُبَاشِرٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ بشأنِ ما يلي:

(١) لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ.

(٢) يأمُرُ اللهُ عزَّ وجلَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ بأسْلُوب خِطاب الرَّسول بأنْ يُعْرِضَ عن الّذِينَ يَنَالُونَ مِنْ آياتِ اللهِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ تبارَكَ وتعالى من طَعْنٍ وتجريح، مع مُتَمِّمَاتٍ لهذا البيان.

(٣) الأمْر بِتَرْكِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً.

(٤) التَّذْكِيرُ بِمَا جاءَ في القرآن مِنْ إنْذاراتٍ بِعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدّين.

التّدبُّر التحليلي:

- قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

النَّبَأُ: الْخَبَرُ ذُو الشَّأْنِ والْخَطَر.

مُسْتَقَرٌّ: هَـٰذِهِ الصيغةِ تأتي اسْمَ زَمَان، واسْمَ مَكَانٍ، ومَصْدَراً مِيمِيًّا. ومَعْنَىٰ الاسْتِقْرَار: التَّحَقُّقُ والثُّبُوت. وأرَىٰ مِنْ حُسْنِ التدبُّرِ حَمْلَ لَفْظِ «مُسْتَقَرّ» عَلَىٰ هَـٰذِهِ المعاني الثَّلاثَة. وسوابقُ هَـٰذِهِ الآية تُشْعِرُ بأنَّ الأَنْبَاءَ هِيَ أَنْبَاءُ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدّين.

فالمعْنَىٰ: لِكُلِّ نَبَأٍ جَاءَ الإخْبَارُ بِهِ في القرآنِ، مِنَ الْأَنْبَاءِ المستَقْبَلِيَّة، ثُبُوتٌ وتحَقُّقٌ في زَمَانٍ وَمَكَانٍ مَعْلُومَيْنِ مُحَدَّدَيْنِ بتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ أيُّها المكَذِّبُونَ بِهَـٰذِهِ الْأَنْبَاءِ حِينَما تُشَاهِدُونَ تَحقُّقَهَا فِي الواقِعِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ لَا مَحَالَة.

- قول الله تَعالَىٰ خِطاباً لِكُلِّ مُسْلِمٍ بأُسْلُوبِ خِطابِ الرَّسُول ﷺ:

- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿يَخُوضُونَ﴾: أَصْلُ الخَوْضِ المَشْيُ فِي الْماءِ وتَحْرِيكُهُ، وَهَـٰذِهِ حَرَكَةٌ تَجْعَلُ الطِّينَ والمُتَرَسِّباتِ في أَسْفَلِ المَاءِ تَخْتَلِطُ فِيهِ، فَيَصِيرُ عَكِراً كَدِراً، والمطلوبُ في الماء لاستعمال الناس أنْ يكون صافياً.

ومن التوسُّع في اللُّغَةِ استعمال الخوض بمعنَىٰ اللَّبْسِ في الأمْر، وبمعنى التَّلَبُّسِ فيه، والتصرُّفِ فيه.

ويُقَال: خاضَ الشَّيءَ بالشَّيْءِ، أي: خَلَطَهُ به. والخوض من الكلام ما فيه الكذبُ والباطل.

واسْتُعْمِلَ التَّخَوُّضُ في مال اللهِ، بمعنى التَّصَرُّفِ فيه بما لا يرضاه الله.

ومعنى: ﴿يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: أي: يَطْعَنُونَ فيها، ويَسْخَرُونَ مِنهَا، ويَسْتَهْزِئُونَ بِها، مُعْلِنِينَ كُفْرَهُمْ بها.

فالمعْنَىٰ الّذي نَفْهَمُهُ مِنْ هَـٰذِهِ الآيَةِ، أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُخاطِبُ كُلَّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ إفْرادِيًا، بأُسْلُوبِ خِطَابِ الرَّسُولِ باعْتِبارِهِ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُسْلِمِينَ، ومَضْمُونُ الْخِطابِ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ، إِذَا رَأَى في مَجْلِسِهِ أو سَمِعَ قَوْماً يَكْفُرُونَ بآياتِ اللهِ وَيَسْتَهْزِئونَ بِها، أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ وَلَا يَجْلِسَ مَعَهُمْ، وَلَوْ مِنْ أَجْلِ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، حَتَّىٰ يَخوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانُوا يَخُوضُونَ فِيه كُفْراً بآيَاتِ اللهِ واسْتِهْزَاءً بِها. وَإِذَا وَجَدَ نَفْسَهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ أنْسَاهُ الْإِعْرَاضَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُدِرْ وَجْهَهُ وَلَمْ يُعْلِنْ كَرَاهِيَتَهُ لِحَدِيثِهِمْ بِصُورَةٍ عَمَلِيَّةٍ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَقْعُدَ بَعْدَ التَّذَكُّرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللهِ وَيَسْتَهْزِئُونَ بها.

الإِعْرَاض: هُوَ إِعْطَاءُ الْعَارِضِ وهُوَ الجانِبُ، إِعْلَاناً عَن الانْصِرَافِ النَّفْسِيِّ والكَرَاهِيَةِ، وهو وَسَطٌ بَيْنَ الإِقْبَالِ والإِدْبَارِ.

الذِّكْرَىٰ: اسْمٌ بِمَعْنَىٰ التَّذْكِيرِ، وبِمَعْنَىٰ التَّذَكُّر. والملائِمُ هُنَا المعَنَىٰ الثاني، وهُوَ التَّذَكُّرُ المقابِلُ للنِّسْيَان.

ووصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ الَّذِينَ يَخُوضُونَ في آياتِهِ بأَنَّهُمْ قَوْمٌ ظَالِمُونَ، أي: هُمْ ظَالِمُونَ ظُلْماً كَبِيراً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الإِجْرَامِيِّ الشَّنِيع.

وقَدْ جاء في الْعَهْدِ المَدَنِيِّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نُزُول) إحالَةٌ عَلَىٰ مَا جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيةِ، حِينَ ارْتَكَبَ بَعْضُ المسْلِمِينَ ظاهراً وأَكْثَرُهُمْ مِنَ المنافِقِينَ، مَعْصِيَةَ الْجُلُوسِ مع الكافِرِينَ مِنْ يَهود أو مشركين والاسْتِمَاعِ إِلَىٰ كُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللهِ القرآنيَّة، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾.

دَلَّتْ عِبَارَةُ: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ عَلَىٰ المرادِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ الْمُحَالِ عَلَيْه فِي سورة (الْأَنْعَام/ ٥٥ نزول) المكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ فالمراد بالخوض بالآيات: الكُفر والاستهزاءُ بها.

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ الإِحَالَةُ على أنَّ خِطَابَ الرَّسُولِ فِي سُورَةِ (الأنعام) هُو خِطَابٌ لِكُلِّ مُسْلِم، ونَقِيسُ عَلَىٰ هَـٰذَا النصِّ كلَّ خِطَابَاتِ الرَّسُول ما لَمْ تَكُنْ مِنْ خَصَائِصِه صَلَواتُ اللهِ عَلَيه.

ودَلَّ النصُّ في سُورَةِ (النساء/ ٩٢ نزول) على المطويِّ في نصِّ (الأنْعَامِ/ ٥٥ نزول).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾: أي: وإِذَا كُنْتَ قَاعِداً مع كَافِرِينَ، ورأَيْتَهُمْ يَتَحَادَثُونَ وسَمِعْتَهُمْ يَخُوضُونَ فِي آياتنا كُفْراً بِهَا واسْتِهْزَاءً بها.

- قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ تَتَحدَّثُ عَنِ الْوَجْهِ الثالِثِ مِنْ الْوُجوه المحْتَمَلَةِ المتْرُوكَةِ لاختيارَات المؤمِنِينَ المسلمين، الّذِينَ يَسْمَعُونَ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها، فِي مَجْلِسٍ ما:

الْوَجْهُ الأَوَّل: الإعراض الصَّرِيحُ الدَّالُّ عَلَىٰ الكَرَاهِيَةِ والاستنكار. وهذا أَخَفُّ أَحْوَالِ الإِنْكار.

الْوَجْهُ الثّاني: الانْسِحَابُ مِنَ المجْلِسِ بِمُفَارَقَتِهِ، مع الْإِشعار بِسَبَبِ المْفارقة.

الْوَجْهُ الثالث: الْمُعَارَضَةُ الصَّرِيحَةُ لِأَقْوَالِهِمْ وَخَوْضِهِمْ بالباطل، ومجاهَدَتُهُمْ دِفاعاً عن الحقِّ الرَّبَّاني، وهَـٰذَا مِنَ الجهاد في سبيل الله، وهذا الْوَجْهُ هُو أَشَدُّ الْوُجُوه وأَعْلَاهَا مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ.

وَبَيَاناً لِهَـٰذَا الْوَجْه جَاءَتْ هَـٰذِهِ الآيةُ (٦٩) فيما أَرَىٰ.

فالمَعْنَىٰ: ومَا عَلَىٰ الَّذِينَ يتَّقُونَ التَّأَثُّر بِخَوْضِهِمْ، ويَتَّقُونَ التُّهَمَةَ بالرِّضَا عَنْ كُفْرِهِمْ واسْتِهْزَائِهِمْ بآيَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ـ بأَسْلُوبِ المُشَارَكَة الصّامِتَة، فيَقُومُونَ بمجاهَدَتهِم بياناً لِلْحَقِّ، ودِفَاعاً عَنْ آيَاتِ اللهِ، ما عَلَيْهِمْ من عقوبَات الخائِضِينَ مِنْ شيء، لِأَنَّهُم أعْلَنُوا دِفَاعَهُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَزَادُوا بِدِفَاعِهِم ثَبَاتاً عَلَىٰ التَّمَسُّكِ بآيَاتِ اللهِ، ولو أن مُجَاهَدَتُهم البَيَانِيَّةُ للكافِرِينَ الْوَقِحِينَ، الَّذِينَ يَخُوضُونَ في آياتِ اللهِ، قَدْ لَا

تُجْدِي في رَدْعِهِمْ عَمَّا يَخُوضُونَ فيه، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ تذكيراً لَهُمْ بِمَا أَعْتَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ للكافِرِينَ المسْتَهْزِئِينَ بآيَاتِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم يَوْمَ الدِّين، مَعَ احْتِمَالِ تَعْذِيبِهِمْ وإهْلاكِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، مَقْرُوناً هذا التَّذْكِيرُ بِرَجَاءِ أَنْ يَتَّقُوا عذابَ رَبِّهِمْ فَيَكُفُّوا عَنْ خَوْضِهِمْ فِي آيَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ فهذا الرَّجَاء يُعْطِي نَفْسَ مُجَاهِدِهِمْ قُوَّةً وَحِكْمَةً في اخْتِيارِ الْأُسْلُوبِ الملائِمِ لإقناعهم، وتَرْغيبهم وتَرْهِيبِهِمْ.

أُطْلِقَتْ عبارة ﴿حِسَابِهِم﴾ الَّتِي هي فِقَرَة مِنْ مُقَدِّمَاتِ عِقَابهم يوْمَ الدِّين، لتَدِلَّ بأسْلُوبٍ كِنَائِيٍّ عَلَىٰ عِقَابِهم.

ولفْظُ «مِنْ» في: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ زِيدَت لتوكيد عُموم النفي في صَدْر الآية.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً للرَّسُولِ فَلِكُلِّ مُسْلِمٍ بأُسْلُوب الخطاب الإفرادي:

• ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

سَبَقَ في الملحق الرابع من ملاحِق تدبُّر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) دراسَة تكامُلِيَّة للنصوص القرآنية، المتعلّقة بالَّذِينَ اتَّخَذُوا الدّين لَهْواً ولَعِباً، وغَرَّتْهُمُ الحياة الدُّنيا(١).

اللَّعِبُ: هُو ضِدُّ الجدِّ، ويُقال لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عَملاً لَا يَجْلُبُ لَهُ نَفْعاً: إنَّما أنْتَ تَلْعَب.

---

(١) انظر هذا الملحق في المجلد الخامس في الصفحات من (٢٢٤ ـ ٢٧٩).

اللَّهْوُ: هو الاشْتِغَالُ بِشَيْءٍ ذي فَائِدَةٍ قَلِيلَةٍ، صَارِفٍ عَمَّا يَجِبُ تَوْجِيهُ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ، إذْ هُوَ ذُو قيمَةٍ وفَائِدَةٍ عَظِيمَتَيْنِ جَلِيلَتَيْن، كالاشتِغَالِ بما يَكْتَسِبُ بِهِ الْعَامِلُ فَلْساً واحداً، ويَصْرِفُهُ عَمَّا يَكْتَسِبُ بِهِ دَنَانِيرَ كثيرة وَفِيرَةً، وكالاشْتِغَالِ بِمَا يَجْلُبُ به الْعَامِلُ مَتاعاً ضَئِيلاً لِنَفْسِهِ مِنْ مَتاعات الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَيَصْرِفُهُ عَمَّا يَرْتَفِعُ بِهِ دَرَجَاتٍ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، أو يَصْرِفُهُ عَنْ دُخُولِ الجنَّة، ويَجْعَلُهُ مِنْ أصْحَابِ النَّار.

- ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾: أي: وَدَعِ الَّذِينَ خَدَعَتْهُمْ مَتَاعَاتُ الحياةِ الدُّنيا وزِينَاتُها، فَحَسِبُوا أَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ في وُجُودِهِم، وحَسِبُوا أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ هَـٰذِهِ الحياة حَيَاةٌ أُخْرَىٰ، يَكُونُ فيها الحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الجزاء، وَوَصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ وهُمْ فيها مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، عَنْ طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة.

فَلَا تَعْبَأْ بِهَـٰؤُلَاءِ، وَلَا تَكْتَرِثْ لَهُمْ، وَلَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمُجَاهَدَتِهِمْ، لِتَحْوِيلِهِمْ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإيمان، فَهُمْ مَاضُونَ هَائِمُونَ فِي غَيِّهِمْ، مُسْتَغْرِقُونَ فِي مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا الَّتِي غَرَّتْهُمْ بِزِيناتِها. فَمَلَكَتْ حَوَاسَّهُمُ الظَّاهِرَة، وَمَلَكَتْ نُفُوسَهُمْ وقُلُوبَهُمْ.

إِنَّ تَضْيِيعَ وَقْتِكَ بِهَـٰؤُلَاءِ مِنَ الْعَبَث، فَذَرْهُمْ، وابْذُلْ طَاقَاتِكَ بِمُجَاهَدَةِ غَيْرِهِمْ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ مِثْلِ هَـٰذِهِ الدَّرَكَة.

- ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾: أي: وَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ وَبِمَا جَاءَ فِيهِ، مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهُ وهُوَ فيها.

- ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: مُحَذِّراً بِتَذْكِيرِكَ بالقرآنِ وبما جاء فيه، مِنْ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ ما، كَانَتْ في الحياة الدُّنيا مُمْتَحَنَةً مُكَلَّفَة، بِمَا كَسَبَتْ مِنْ مَسَاخِطِ اللهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهَا في الحياة الدُّنيا.

ضُمِّنُ فِعْلُ: ﴿وَذَكِّرْ﴾ مَعْنَىٰ فِعْلِ: «حَذِّرْ» أو «أَنْذِرْ».

الإبْسالُ في اللُّغَةِ: جَعْلُ الشيْءِ مَرْهُوناً مَحْبُوساً، ومَعْلُومٌ أنَّ جهَنَّم يَوْمَ الدِّينِ سِجْنُ المعَذَّبِينَ فيها. **والإبْسَالُ**: الإسْلَام لِلْعَذَاب أو لِلْهَلَاك. يُقَالُ لغة: «أَبْسَلَ السَّلْطَانُ الْمُجْرِمَ» أيْ: رَهَنَهُ وسَجَنَه. ويقال: «أَبْسَلَهُ لِلْهَلَكَةِ» أي: أَسْلَمَهُ لها.

فالمعنى: وَذَكِّرْ مُحَذِّراً مُنْذِراً بالْقُرْآنِ وَبِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُ التحذير والإنْذَارِ والترهيب مِنْ بيانات، مِنْ أَنْ تُسْلَمَ نَفْسٌ ممتَحَنَةٌ مُكَلَّفَةٌ في الحياة الدُّنيا، للعذاب يَوْمَ القِيامَة، بِسَبَبِ مَا كَانَتْ قَدْ كَسَبَتْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهَا مِنْ كُفْرٍ وَجَرائِمَ وآثَامٍ، يُعاقِبُ عَلَيْهَا رَبُّ العالَمِين.

- لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌ وَلَا شَفِيعٌ أي: حَالَةَ كَوْنِ النَّفْسِ الكاسِبَةِ لِلجرائِمِ والآثَام لَيْسَ لها مِنْ دُونِ اللهِ يَوْمَ القيامَةِ وَلِيٌّ يَنْصُرُهَا وَيَحْمِيهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَلَيْسَ لَهَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهَا عِنْدَه، إذْ لَا يَشْفَعُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ عِنْدَهُ إلَّا بِإذْنِه، وهُو ـ جَلَّ جلالُهُ ـ لَا يَقْبَلُ شَفَاعَةَ أَحَدٍ لِمَنْ كَانَ كافراً بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحانه.

الْوَلي: يَدُلُّ في اللُّغَةِ عَلَىٰ مَعَانٍ كثيرة، والملائِمُ مِنها هُنَا معنَىٰ «النّصير».

- ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾: أي: وَإنْ تُقَدِّم النَّفْسُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهَا بالْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، أَيَّةَ فِدْيَةٍ تَرَاهَا مُعَادِلَةً مُكَافِئَةً لآثَامِهَا، لَا تُقْبَلْ مِنْها، وَلَا تُؤْخَذْ مِنْها.

يُقَالُ لُغةً: «عَدَلَ الْمِيزانَ» أي: سَوَّىٰ بَيْنَ كِفَّتَيْه. ويقالُ: «عَدَلَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ» أي: سَوَّاهُ به، وجَعَلَهُ مِثْلَهُ قَائِماً مَقَامَهُ.

والْعَدْل: الفِداء.

ضُمِّنَ فِعْلُ: ﴿تَعۡدِلۡ﴾ مَعْنِي فِعْل: «تُقَدِّمْ» فصار المعنى: وإِنْ تُقَدِّم النفسُ الآثِمَةُ المحكومُ عليها بالْعَذَابِ كُلَّ فِداءِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ أَوْ نَوْعٍ تَراهُ

مُسَاوِياً لآثَامِها الَّتِي اكْتَسَبَتْهَا فِي حَيَاةِ الابْتِلاء، لَا يُقْبَلْ مِنها ولَا يُؤْخَذْ مِنْها.

على أنَّ هَـٰذَا الاحْتِمَالَ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهُ: إذْ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ ما يَوْمَ الدِّينِ إلَّا مَا قَدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ في الحياة الدُّنيا حَياةِ الابتلاء، وَقَدْ جِيءَ بِهَـٰذَا الْبَيَانِ لِقَطْعِ تَوَهُّمَاتِ بَعْضِ أَهْلِ الجرائم، بأَنَّهُمْ سَوْفَ يَفْتَدُونَ أَنْفُسَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ بِبَعْضِ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ فِي الحياة الدُّنيا، نَظِيرَ اعْتِقَادِ بَعْضِ الْفَرَاعِنَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَجْعَلُونَ فِي مَدَافِنِهِمْ ذَهَباً وَمُمْتَلَكَاتٍ مِنْ أَمْوَالِ الحياة الدُّنيا، لِيَنْتَفِعُوا بِها إِذَا بُعِثُوا إلى الحياة مَرَّةً أُخْرَىٰ، مُتوهِّمِينَ أَنَّ الحياة الْأُخْرَىٰ ذَاتُ ظُرُوفٍ مُمَاثِلَةٍ للحياة الأولى. هذا إنْ صَحَّتْ أَنْبَاءُ الْبَعْثِ والحياة الأخرى، مع الْعِلْم بِأَنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً ولَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنيا، لا يُؤْمِنُونَ بِيَوْم الدِّينِ وَلَا بِالْجَزاء الرَّبَّانِي.

- ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾: أي: أُولَـٰئِكَ الكَفَرَةُ الْبُعَدَاءُ الْمُنْحَطُّونَ في اتِّجاهِ الدَّرْك الأَسْفَل، هُمُ الَّذِينَ حُبِسُوا مُعَذَّبِينَ فِي دار الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ بِمَا كَسَبُوا مِنْ جَرَائِمَ فِي الْحَياةِ الدُّنيا.

- ﴿... لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾:

أي: هذا يكُونَ لَهُمْ وَهُمْ فِي جَهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، الَّتِي يَخْلُدُ فيها الْكَافِرُون.

- ﴿شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾: أي: شرابٌ مِنْ مَاءٍ حَارٍ شَدِيدِ الحرارة.
- ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾: أي: وعِقَابٌ مُؤْلِمٌ لَهُمْ إيلَاماً شَدِيداً.
- ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾: أيْ: بِسَبَبِ كُفْرِهِم الَّذِي اكْتَسَبُوهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا.

وبهذا تَمَّ تدبُّر الدرس الخامس عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٠)

التدبر التحليلي للدَّرْس السَّادِس عشر من دُروس سورة (الأنعام)

الآيات من (٧١ ـ ٧٣)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

القراءات:

(٧١) ● قرأ حَمْزَة: [**اسْتَهْوَاهُ**] مع الإمَالَة.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**اسْتَهْوَتْهُ**].

والْقِراءَتَانِ وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جائِزَان، فالفاعل جَمْعٌ يجوزُ معه تَذْكير الْفِعْلِ وَتَأْنِيثُه.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْس مِنْ فُرُوع السَّاقِ الثّاني من ساقَيْ شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة. وفيها تَعْلِيمُ حِوَارٍ دَعَوِيٍّ حَوْلَ تَوحيد اللهِ عزَّ وجلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ، مَعَ الأمْرِ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ، والأمْرِ بِتَقْوَىٰ الله، والتَّذْكِيرِ بأنَّ الناس يُحْشَرُونَ يَوْمَ الدِّينِ إِلَيْهِ جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ اللهَ هُو الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرض بالْحَق، ولَمْ يَخْلُقْهُما لَعِباً وَلَا عَبَثاً، وبما أَنَّهُ خالِقُهما فَهُو مالِكُهما، ومَالِكُ كُلِّ شيءٍ

فيهما وكُلِّ ذِي حياة فيهما فالملائِكَةُ، والإنْسُ، والجنُّ عبيدُه. جَلَّ جَلالُه وَعَظُمَ سُلْطانه.

وخَلْقُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ بِالْحَقِّ، يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ النَّاسُ قَدْ خُلِقُوا بِصِفَاتِهِمْ الَّتِي اختارَهَا الخالِقُ لَهُمْ للابْتِلَاءِ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، والابْتِلاءُ يَسْتَلْزِمُ عَقلاً الْحِسَابَ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذَ الجزاء، وبما أَنَّ هٰذَا اللاّزمَ الْعَقْلِيَّ الْحَكِيمَ غَيْرُ مَوْجُودٍ في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ الْحَكِيمُ قَدْ قَدَّرَ وَقَضَىٰ حَيَاةً أُخْرَىٰ ذَاتَ ظُرُوفٍ غَيْرِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وفي تِلْكَ الحياة يَتَحَقَّقُ الحسابُ وفَصْلُ القضاء والجزاء، فجاء في آيَاتِ هذا الدَّرْسِ بَيَانٌ موجزٌ سَرِيعٌ عَنْ يَوْمَ القيامَةِ، وعَنْ مِلْكِ اللهِ لِكُلِّ شيءٍ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ لِبَعْثِ الموتىٰ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ.

وخَتَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ هٰـذَا الدَّرْسَ ببيانِ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ وأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، ذوَاتِ ارْتِبَاطٍ فِكْرِيٍّ بِمَضْمُونِ هٰـذَا الدَّرس.

التّدبُّر التحليلي:

- قولِ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِن أُمَّتِه:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

تَدُلُّ الآية (٧١) عَلَىٰ أَنَّ المشْرِكِينَ قَدْ تَوَجَّهَ دُعَاةٌ مِنْهُمْ لِدَعْوَةِ طَائِفَةٍ مِن المسْلِمِينَ لِعِبادَةِ آلِهَتِهِمْ، الَّتِي اتَّخَذُوها مِنْ دُونِ اللهِ افتراءً عَلَىٰ اللهِ، وَجَعَلُوا يزَيِّنُونَ عِبادَتَها بأَنَّها آلِهَةُ آبَائِهِمْ وأَجْدادِهِمْ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْد والتجارِبِ الطَّوِيلَة، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَعْلِيمُ الْمُسْلِمِينَ ولَا سِيَّمَا الدُّعَاةُ إلى اللهِ مِنْهُمْ حِواراً جَدَلِيًّا عَقْلِيًّا قَائِماً عَلَىٰ دَلِيلٍ بُرْهَانِيٍّ تَجْرِيبيّ. وَقَدْ جاء في روايات أسباب النزول ما يؤيّد هذا الفهم.

• **[أَنَدْعُو]**: أي: أَنعبُدُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الدُّعَاءَ بِمَعْنَىٰ السُّؤَالِ والطَّلَبِ لِدَفْعِ ضُرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ هُو مِنَ العبادة. وقَدْ تَكَرَّرَ في القرآنِ استعمالُ فعل «دَعَا، يَدْعُو» بِمَعْنَىٰ: العِبَادَة.

والاسْتفهامُ هُنَا اسْتِفْهَامُ تَعَجُّبٍ واسْتِنكارٍ مَقْرُونَيْنِ بِبَيَانٍ بُرْهَانِي، وهُوَ أَنَّ آلِهَتَكُمُ الَّتِي تَدْعُونَنَا لِعِبَادَتِها لَا تَنْفَعُنَا بِشَيْءٍ إِذَا عَبَدْنَاها، وَلَا تَضُرُّنَا بِشَيْءٍ إِذَا تَرَكْنَا عِبَادَتَها، فَهَلْ مِنَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ أَنْ نَعْبُدَهَا، وَهَـٰذَا حَالُها.

يُضَافُ إِلَىٰ هَـٰذَا أَنَّنَا إِذَا عَبَدْنَاهَا حَلَّ بِنَا ضَرَرٌ عَظِيمٌ، إِذْ نُرَدُّ بِهِ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا خائِبِينَ خاسِرِين، مُنْذَرِينَ بِعَذَابٍ خالِدٍ فِي الجحيم مِنْ قِبَلِ اللهِ رَبِّ الْعَالمين، بَعْدَ أَنْ سَلَكْنَا الصِّراطَ المستقيم الموصِلَ لنا إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعيم يَوْمَ الدِّينِ، حِينَ هَدَانَا اللهُ عَن طَرِيقِ دَعْوَةِ رَسُولِهِ بَلَاغاً عَنْهُ، وهَدَانَا بِبَيَانَاتِ آيَاتِ كتابه.

• ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾: **الْعَقِبُ**: عظْمُ مُؤَخَّرِ الْقَدَمِ، وهو أكْبَرُ عِظامها. وآخرُ كُلِّ شيء. **والرَّدُّ**: المنْعُ، والصَّرْف، والإِرْجاع. ويُقالُ: «رَدَّ فُلَانٌ فُلَاناً عَلَىٰ عَقِبِهِ» أي: دفعَهُ لِيَنْقَلِبَ رَأْسُهُ إِلَىٰ جِهَةِ عَقِبه. ويقال: «ارْتَدَّ عَلَىٰ عَقِبِهِ» أي: ارْتَدَّ مُنْقَلِباً عَلَىٰ عَقِبِهِ، وراجعاً إِلَىٰ خَيْبَةٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ سَائِراً إِلى مَا يَرْجُو مِنْهُ نَفْعاً وَخيراً. وقد تَكَرَّرَ في القرآن مِثْلُ هذا التعبير: ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ ـ ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ ـ ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ ـ ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾. ويَظْهَرُ لي أنَّ صِيغَة هَـٰذِهِ العبارَاتِ وأَمْثَالِها صَارَتْ بِمَثَابَةِ المثَلِ الدَّالّ عَلَىٰ الانْقِلَابِ من الحال الحسَنَةِ إلى الحال السَّيِّئَة، ومِنَ الخير إِلَىٰ الشَّرّ، ومن الارتقاء إِلَىٰ الانْتِكاس، ومِنَ الصَّلاح إِلَىٰ الفساد. فَرَدُّ الرَّأْسِ على الْعَقِب انْتِكَاسٌ قَدْ يَكُونُ مُهْلِكاً، وقَدْ يَكُونُ مُسْقِطاً فِي هَاوِيَةٍ سَحِيقَة، إِلَىٰ شَرٍّ وَعَذَابٍ أَلِيم.

- ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: أي: بَعْدَ وَقْتِ هِدَايَةِ اللهِ لَنَا دَعْوَةً عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهِ، وبآيَاتِ كِتَابِهِ الْمُبِينِ، وتَوْفِيقاً بتَحْبِيب الإيمان لَنَا وتَزْيِينِهِ فِي قُلُوبِنَا، وبِشَرْحِ صُدُورِنَا للإِسْلَامِ وتَطْبِيقَاتِهِ فِي السُّلُوك.

ودَلَّ الفِعْلُ في: ﴿وَنُرَدُّ﴾ بالْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، على أَنَّهُمْ يُشْعِرُونَ الدُّعَاةَ إِلَىٰ الشِّرْك، بِأَنَّهُمْ إِنْ اسْتَجَابُوا لَهُمْ مَكَّنُوهُمْ مِنْ أَنْ يَرُدُّوهُمْ عَلَىٰ أعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ هَاوِينَ إِلَىٰ الْحَضِيضِ والعذاب الأَلِيم. ويَقُولُونَ لَهُم كَمَا أَبَانَ اللهُ في الآيَةِ، وَنَكُونُ باسْتِجَابَتِنَا لِشِرْكِكُمْ وَعِبَادَةِ آلِهَتِكُمْ كما يلي:

- ﴿... كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ... ﴿٧١﴾﴾:

- ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: أيْ: اسْتَمَالَتْهُ شَيَاطِينُ الإِنْسِ والجِنِّ بِزُخْرُفِ أَقْوالِها، عَنْ طَرِيقِ تَهْييج أَهْوَائِهِ وَإِمْتَاعِهَا بِمَا تَسْتَلِذُّهُ، وَغَايَةُ اسْتِهْوَائِهَا لَهُ إِسْقَاطُهُ فِي عَذَابٍ أليمٍ وشَقَاءٍ أَبَدِيٍّ لَا خَلاصَ لَهُ مِنْهُ.

وباسْتِهْوَائِهِ مِنْ جِهَاتِ أَهْوَائِهِ المخْتَلِفَةِ الْمتَعَدِّدة السُّبُلِ يَسِيرُ في الأَرْضِ حَيْرَانَ، أَيَسِيرُ في سَبِيلِ طَلَبِ المال؟ أَمْ فِي طَلَبِ الْحُكْمِ والسُّلْطان؟ أَمْ في إِمْتَاعِ جَسَدِهِ بالشَّهَوَاتِ؟. أَيَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ المشركون؟ أم يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ المجوس؟ أم يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ الصَّابِئَة؟. أَمْ يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ النَّصارى؟.

إِنَّ الأَهْوَاء تَتَجَاذَبُهُ مِنْ كُلِّ جَانِب إِلَىٰ سُبُلِها، وهِيَ جَمِيعاً مُتَفَرِّقَةٌ مُجَافِيَةٌ لِصِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

ولَهُ أَصْحَابٌ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ كَانَ مَعَهُمْ على صِرَاطِ اللهِ المستقيم، قَبْلَ أَنْ تَسْتَهْوِيَهُ الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ مَسالِكِها، مُخْرِجَةً لَهُ عَنْ صِرَاطِ اللهِ وَمُبْعِدَةً لَهُ عَنْهُ، يَقُولُونَ لَهُ نَاصِحِينَ مُرْشِدِينَ دَاعِينَ إِيَّاهُ إِلَىٰ الْهُدَى: ائْتِنَا، واتْرُك

سُبُلَ الضَّلاَلَة، وَلاَ تَغْتَرَّ بِدِعَايَاتِ الشَّيَاطِينِ وَزُخْرُفِ أقوالهم.

ونَفْهَمُ مِنْ هَـٰذَا المثَلِ تَكْلِيفَ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ أنْ يَرْعَوْا مَنْ يَنْحَرِفُ مِنْهُمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ بالدَّعْوَةِ والنُّصْحِ والإرْشَادِ والتَّحْبيب بالْعَوْدَةِ إِلَىٰ صِرَاطِ الْهُدَىٰ والنَّجاةِ والْفوزِ العظيم، وبكلِّ مَا هو حكيمٌ من الْوَسَائِل.

• ﴿... قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾:

خطابٌ مُوجَّهٌ للرَّسُولِ فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ بأسْلُوبِ الخطابِ الإفرادي، بأَنْ يَقُولَ للكافِرِينَ، وَلاَ سِيمَا الدُّعَاةُ إِلَىٰ الكُفْرِ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ: إِنَّ هُدَىٰ اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ، بأسْلُوب الْحصْرِ بِتَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنَادِ، وَتَقْوِيَتِهِ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ، أي: لَا يُوجَدُ هُدىً حَقٌّ صَحِيحٌ صَادِقٌ إِلَّا هُدَىٰ اللهِ وَمَا تَطَابَقَ مَعَهُ، وَكُلُّ دَعْوَةٍ مُضَادَّةٍ لِهُدَىٰ اللهِ دَعْوَةٌ بَاطِلَةٌ، مَهْمَا طُلِيَتْ بالأَصْبَاغِ الْخَادِعَةِ، وَمَهْمَا زُيِّنَتْ بِزُخْرُفٍ مِنَ الْقَوْلِ. وبأَنْ يَقُولَ لَهُمْ أيْضاً بَعْدَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: وأُمِرْنَا بأوَامِرِ التكالِيفِ الدِّينِيَّةِ المخْتَلِفَةِ الشَّامِلَةِ لِأَوَامِرِ الْأَفْعَالِ، ولِأَوَامِرِ التُّروكِ، لِأَجْلِ أَنْ نُسْلِمَ قِيَادَةَ حَرَكَةِ حَيَاتِنَا النَّفْسِيَّةِ والْجَسَدِيَّةِ لِرَبِّنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْمُهَيْمِنِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ جَمِيعِ العالَمِينَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، الشّامِلَةِ للعطاء والمنْعِ، والضُّرِ والنَّفْعِ، والإحياء والابتلاء، والْبَعْثِ والْجزَاء، وبهذا الإسْلَامِ نُحَقِّقُ وَاجِبَاتِ عُبُودِيَّتِنَا لِرَبِّنَا الّذِي لَا إِلَٰهَ بِحَقٍّ سِوَاه.

فَنَحْنُ نُجاهِدُ نفوسَنَا لِنُحَقِّقَ عُبُودِيَّتِنَا لَهُ، كَيْ نَنَالَ رِضْوانَهُ والفوز بالدَّرجاتِ فِي جَنَاتِ النعيم.

• ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ أَنْ أَعْلَنَّا لَكُمْ مَا اخْتَرْنَاهُ لِنُفُوسِنَا، نَدْعُوكُمْ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَٰهِيَّتِهِ، فإذا اسْتَجَبْتُمْ لِدَعْوَتِنا، أَمَرْنَاكُمْ بأنْ

أَسْلِمُوا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا أَسْلَمْنَا طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ، وبِأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ كَمَا أَمَرَ اللهُ، فَإقَامَةُ الصَّلَاةِ هِيَ الْوَاجِبُ الْعَمَلِيُّ المتكَرِّرُ يَوْمِيًّا بَعْدَ إعْلَانِ الدُّخُولِ فِي دِينِ الإسلام.

والمرادُ بإقَامَةِ الصَّلاةِ المداوَمَةُ عَلَىٰ أدائِهَا في أَوْقَاتِها، وأَدَاؤُهَا علىٰ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ المطوب فِيهَا، فإقَامَةُ الشيء تكُونُ بِجَعْلِهِ مُسْتَقِيماً، وبالْمُدَاوِمَةِ والْمُوَاظَبَةِ عَلَيْهِ، وَتَوْفِيَتِهِ حَقَّهُ لَدَىٰ أَدائِهِ.

وإذَا أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وأَحْسَسْتُمْ بِلَذَّةِ عِبادَةِ رَبِّكُمْ والصِّلَةِ بِهِ، نَقُولُ لَكُم: اتَّقُوا عَذَابَ مَعْصِيَتِهِ فِي كُلِّ شُؤُونِ حَيَاتِكُمْ، في حَرَكَاتِكُمْ وَسَكَنَاتِكُمْ، وَنُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّهُ سَوْفَ يَجْزِيكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَىٰ مَا تُقَدِّمُونَ مِنْ مَكْسُوبَاتٍ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَنُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ يَوْمِ الدِّينِ، لِيُحَاسِبَكُمْ وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لِيَجْزِيكُمْ عَلَىٰ وَفْقِ قَضَائِهِ لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِسَعَادَةِ نَفْسِهِ سَعَىٰ، ومَنْ أَسَاءَ فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ.

مَا جَاءَ في هَـٰذَا التَّدبُّرِ مِنَ الْمَعَانِي الّتي لم يَدُلَّ عَلَيْهَا النَّصُّ بِمَنْطُوقِهِ، مُسْتَخْرَجَةٌ مِنَ المثَانِي الْمَطْوِيَّةِ بِهِ، واللهُ أَعْلَم، وَقَدْ دَلَّنِي عَلَيْهَا أَنَّ الدَّرْسَ دَرْسُ تَعْلِيمٍ جَدَلِيٍّ دَعَوِيّ، فَهُوَ ذُو لوازِمَ فِكْرِيَّةٍ تَحْتَاجُ اسْتِخْرَاجاً وَتَقْدِيرات، وَمَا جَاءَ في عِبَارَاتِ النَّصِّ مُخْتَزَلَاتٌ ذَوَاتُ رَوابِطَ فِكْرِيَّة، يُفْسِدُهَا التَّقَيُّدُ بالشَّكْلِيَّاتِ النحويّة، دون مُلاحَظَةٍ للمطويَّاتِ في المثاني.

■ ويُتَابِعُ حَامِلُ الرِّسَالَةِ بَيانَهُ الدَّعَوِيَّ الَّذِي جَاءَ إيجازُهُ فِي الآيَةِ (٧٣) التالية المشْتَمِلَةِ عَلَىٰ تَوْجِيهٍ تَعْلِيميٍّ دَعَوِي:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآية عُنْوانات خَمْس قضايا، هِي من عَنَاصر القاعدة الإيمانيّة في دِين الإسْلام الّذي اصْطَفاهُ الله عزَّ وجلَّ لعبادِه الممتحنين المكلّفِين في حياة الامتحانِ في الدُّنيا، وهي تابعةٌ للتَّوْجيه التَّعْلِيميّ الدَّعَويّ الَّذي جاءَ في الآيتَيْنِ السَّابِقَتَيْن مِنْ هَـٰذَا الدَّرْس.

القضيـة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾:

أي: رَبُّ الْعَالَمِين هو الّذي إلَيْهِ تُحْشَرُونَ، وهُوَ الَّذي خَلَق السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بالحقّ.

هَـٰذِهِ القضِيَّةُ تَتَضَمَّنُ بِلَوَازِمِهَا العقليّة دليلاً على يَوْم القيامة للحساب وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، الَّذي ذُكِرَ مِنْهُ الحشْرُ في الآية السَّابقة.

فعلى حامل الرسالة أنْ يَشْرَح هذا الدليل مستفيداً ممَّا سَبَقَ أن أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ نزول) وهو قول الله تعالى فيها:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

فَفِي هَـٰذَا الْقَوْلِ بيانُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مَا خَلَقَ السَّمَاءَ والْأَرْضَ وما بَيْنَهما باطلاً.

وفي الآية الَّتي نتدَبَّرُها من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) أبَانَ التعليمُ الرَّبَّانيُّ أنَّ اللهَ هُو الّذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرض بالْحَقّ.

الحق والباطل:

قبل شرح الدّليل الذي تَضَمَّنَتْهُ هَـٰذِهِ القضية الأولى يَحْسُنُ تقديم بيانٍ تحليليٍّ للحقّ والباطِلِ وَوُجُوهِهِما.

تعريف الحقِّ والباطل لغة: قال أهل اللُّغَة: الحقُّ هو الْأَمْرُ الثابِتُ الّذِي لَا شَكَّ فِيهِ المطابقُ للواقِعُ. وضِدُّه الباطِلُ، وهو الأمْرُ المخالِفُ للواقع.

وقَدْ جاء في القرآن المجيد اسْتِعْمَال الحقّ والباطل للدَّلَالَةِ على عِدَّةِ وجُوهِ تَرْجِعُ لَدَىٰ التحقيق بِتَعَمُّقٍ فِكْرِيٍّ إلى المعنى اللُّغَوِيّ لهما.

الوجه الأول: كلُّ أَمْرٍ ثَابِتٍ لَا شَكَّ فيه هو حقٌّ، وعلى هَـٰذَا فاللهُ حقٌّ، وهو الحقُّ الأزلِيُّ الْأَبَدِيُّ الْعَلِيُّ الْأعلى.

وكُلُّ أَمْرٍ غَيْرِ ثَابِتٍ مِنْ ذَاتٍ أَوْ صِفَةٍ أَو فِكْرَةٍ هو باطلٌ، وعلى هَـٰذَا فَوُجُودُ أو ادّعاءُ وجُودِ شَرِيكٍ للهِ في أزلِيَّتِهِ وأَبَدِيَّتِهِ، أَوْ في رُبُوبِيّتِهِ، أَوْ في إلَٰهِيَّتِهِ، بَاطِلٌ لَا شَكَّ في بُطْلَانه.

الوجه الثاني: كُلُّ خَبَرٍ عَنْ قَضِيَّةٍ مَا مُطَابِقٍ لما هُو ثابتٌ في الواقع، أو في الفكْرِ بِالْبُرْهَانِ العقلي، هو خَبَرٌ حَقٌّ.

وضِدُّه الباطل، فكلُّ خَبَرٍ عَنْ قَضِيَّةٍ ما، وهذا الخبر غير مطابقٍ لِمَا هُو ثَابِتٌ في الواقع، أو في الفكر بالْبُرْهَان الْعَقْلِيّ، هو خَبَرٌ باطل.

الوجه الثالث: كُلُّ حُكْمٍ مُطَابِقٍ لِمَا يَقْتَضِيهِ الحقّ، هو حُكْمٌ حَقٌّ. وضِدُّه الباطل، فكُلُّ حُكْمٍ مُضَادٍ لِمَا يَقْتَضِيه الحقُّ، هو حُكْمٌ بَاطِلٌ.

أمثلة:

(١) يَقْتَضِي الحقُّ إصدار حُكْمٍ بإدانَةِ الجاني، فالْحُكْمُ بِتَبْرِئَتِهِ باطل.

(٢) يقتضي الحقُّ تَبْرِئَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ إرادة السُّوءِ بِزَوْجَةِ عَزِيزِ مصر، فالْحُكْمُ بإدانَتِهِ بَاطِل.

(٣) يَقْتَضِي الحقُّ بأن هَـٰذَا الشَّكْلَ △ ذا الزوايا الثلاث مُثَلَّثٌ، فالحكم بأنَّهُ مُرَبَّعٌ أَوْ مستطيل حُكْمٌ باطل.

الوجْهُ الرابع: كُلُّ عَمَلٍ لَا يُحَقِّقُ نَتِيجَةً مَقْبُولَةً لَدَىٰ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ هو عَبَثٌ، وهُو عَمَلٌ بَاطل، لِأَنَ فِيهِ تَبْدِيداً وإِضَاعَةَ للطاقَةِ الثابتَةِ في الواقِع، دُون بَدِيلٍ لَهُ ثَبَاتٌ يَقْصِدُهُ أُولُو الألباب.

وضِدُّه عَمَلٌ حَقٌّ، وهو بَذْلُ الطَّاقَةِ الثَّابتَةِ في الواقع، لتحقيقِ بَدِيلٍ يَقْصِدُ الْعُقَلاءُ أولُوا الألْبَاب تَحْقِيقَه.

فالْحَرْثُ فِي الْبَحْرِ لإنْباتِ الزَّرْعِ عَمَلٌ بَاطِلٌ، والحرثُ في أَرْضٍ خِصْبَةٍ لِإِنْبَاتِ زَرْعٍ مُفيدٍ للأَحْيَاءِ عَمَلٌ حَقٌّ.

وإجراءُ امْتِحانٍ لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الطَّلَبَةِ، دُونَ تَقْوِيمِ أَوْرَاقِ امْتِحَانِهِمْ بالدَّرَجَاتِ الَّتِي تَسْتَحِقُّها، عَمَلٌ بَاطل.

وإجْراءُ مُصَارَعَةٍ بَيْنَ حيوانٍ وحيوانٍ آخَر لمجرَّدِ الاستمتاع بحركاتِهما، مع مَا فيها مِنْ إيذائِهما أو إيْذاءِ أَحَدِهما، عَمَلٌ بَاطل.

الوجْه الخامس: اخْتِيَارُ نظامٍ لمجتَمَعٍ بَشَرِيٍّ يُفْضِي تَطْبِيقُهُ إلى انْتِشَارِ الفوضَىٰ والفسادِ في ذَلِكَ المجتمع، اخْتيارٌ باطلٌ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مطابِقٍ لِمَا هُو ثابتٌ عَقْلاً أَنَّهُ نِظَامٌ نَافِعٌ ومُفِيدٌ وصالح لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَسِيرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ المجتَمَعُ مِنْ نِظَام.

وضِدُّه اختيارٌ حَقٌّ لِأَنَّ تَطْبِيقَهُ يُفْضِي إلى مَا هو نافع ومفيد وصالح للمجتمع.

وهكذا إلى وُجوهِ كثيرة.

بَعْدَ هَـٰذِهِ المقدمة نَسْتَطِيع أن نفهم معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾:

أي: والَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ هو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ خَلْقاً مُتَّصِفاً بأَنَّهُ حَقٌّ. فَكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ ذَوَاتِ الْأَشْيَاءِ وصِفَاتِهَا في

السَّماوَاتِ وَفي الْأَرْضِ هُوَ حَقٌّ ثابت، ولَا شيءَ ممَّا خَلَقَ اللهُ فِي كَوْنِهِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ. وكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ في كَوْنِهِ آياتٌ دَالَّاتٌ على ذاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهَـٰذَا حَقٌّ. وَمَا خَلَقَ الإنْسَ والْجِنَّ بصِفَاتِهِمُ الَّتي هُمْ عَلَيْها، إلَّا لِيَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحان فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثُمَّ لِيَجْزِيَهُمْ عَلَىٰ وَفْق أَعْمَالِهِم، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَره، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَال ذَرَّةٍ شَرّاً يَره، وَهَـٰذَا الجزاء يكونُ يَوْمَ القيامَةِ بَعْدَ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، والْخَلْقُ لِتَحْقِيقِ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ العظيمة خَلْقٌ مُتَّصِفٌ بالْحَقِّ، ولَوْلَا تحقيقُ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ السَّامِية لكان خَلْقُ الإنْسِ والْجِنِّ عَمَلاً بَاطلاً.

هل تَقْبَلُ العقولُ السَّلِيمَةُ أنْ يَخْلُقَ اللهُ الإنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيم، ويُسَخِّرَ لَهُ مَا فِي الْأَرْضِ والسَّماء، فَهُوَ يَتصرَّفُ بالْأَشْيَاءِ ضِمْنَ قَوَانِينِها وأَنْظِمَتِهَا باخْتِيَارِه الحرّ، وهَـٰذَا التَّصرُّفُ يَنْجُمُ عَنْهُ ظَالِمٌ وَمَظْلُوم، وذُو غِنىً ومَحْرُوم، ومُسِيءٌ ومُحْسِنٌ، وَكَافِرٌ ومُؤْمِنٌ، وتَقِيٌّ وَمُجْرِمٌ، ثُمَّ لَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ حِسَابٌ، وَلَا فَصْلُ قَضَاءٍ، وَلَا جزاءٌ؟؟!

إنَّه تَمْكِينٌ لِذَوِي الْقُوَّةِ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْبَاطِلُ هو العزيزَ الْفَائِقَ، وأن يكُونَ الحقُّ هُو الذَّليلَ الزَّاهِق، وهَـٰذَا عِنْدَ ذوي العقول السَّلِيمَةِ عَمَلٌ بَاطِلٌ، وكُلُّ مَا يُؤَدِّي إلى باطلٍ فَهُو باطلٌ.

إذا كانت الغايَةُ من الخَلْقِ هذا الأمْرَ البَاطِل، فإنَّ الخَلْقَ نَفْسَهُ عَمَلٌ بَاطلٌ، يُفْضِي إلىٰ تَمْكِينِ الْبَاطِلِ مِنْ إزْهَاقِ الحق.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا حِسَابٌ، ولا فَصْلُ قضاءٍ، ولَا تَنْفِيذُ جزاءٍ، لَزِمَهُ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ اللهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وعَظُمَتْ حِكْمَتُهُ، قَدْ خَلَق هَـٰذَا الْخَلْقَ بَاطلاً وعَبَثاً، وَهَـٰذَا جُحُودٌ لِكَمَالِ صِفَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَهُو مِنَ الكُفْرِ باللهِ. وإنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَـٰذَا مَا قَدرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إنَّهُمْ بهذا الزَّعْمِ لَيْسَ لَهُمْ إلَّا الْأَوْهَامُ الَّتِي هِيَ أضْعَفُ الظُّنُونِ السَّاقِطَةِ

بالْبَدَاهَة، وهِيَ أَوْهَامٌ زَيَّنَتْهَا لَهُمْ رَغَبَاتُهُمُ الفاجِرَاتُ بالتَّحَرُّرِ مِنْ قُيُودِ الحقِّ والْخَيْرِ والْفَضِيلَةِ، اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمُ الْعَمْيَاء(١).

القضيّة الثانية: دَل عَلَيْها قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ﴾:

جاء في الْعِبَارَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّة تَغْيِيرُ في أسْلُوب البيان، وهو على مَنْهَجِ الْقُرْآنِ المُخالِفِ لِأَسَالِيبِ النَّاسِ الَّتِي يَتَّبِعُونَ فيها النَّمَطِيَّةَ المتماثِلَة، والَّذِينَ لَا يَضَعُونَ فِي تَصَوُّرِهِمْ هَـٰذَا المَنْهَجَ الْقُرْآنِيَّ الْقَائِمَ على التغيير في الْأُسْلُوبِ قَدْ لَا يُحْسِنُونَ تَدَبُّرَ فِقَرَاتِهِ وجُمَلِهِ وآيَاته.

كانَت النَّمَطِيَّةُ المُتَمَاثِلَةُ يتَبَادَرُ فيها أَنْ يُقال: هُو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بالْحَقِّ في أحْدَاثِ يَوْم الْحَيَاةِ الدُّنيا، وسَوْفَ يَخْلُقُ فِي أحْدَاثِ الْيَوْمِ الْآخِرِ كُلَّ مَا قَدَّرَ وَقَضَىٰ أَنْ يَخْلُقَهُ بالْحَقِّ أَيْضاً، فَقَوْلُهُ الْحَقُّ دَوَاماً.

وإيْثاراً لِلتَّنْوِيعِ في الْأُسْلُوبِ، مع اخْتِيَارِ الْأَجْمَعِ للمَعَانِي، والأخْصَرِ في العبارة، قال اللهُ تَعالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ﴾: أي: وَقَوْلُهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ بَاطِلٌ أيضاً، يَوْمَ يَقُولُ في أحْدَاثِ الحياة الآخِرَة، الْمُعَدَّة فِي خُطَّةِ التكْوينِ لِلْحِساب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ وتنفيذِ الْجَزاءِ، لِكُلِّ شَيْءٍ تَمَّ بِهِ قَضَاؤُهُ: كُنْ فَهُوَ يَكُونُ بِمُقْتَضَىٰ أَمْرِ التَّكْوِين، وأَمْرُ التَّكْوِينِ لَيْسَ كَأَمْرِ التَّكْلِيفِ، إِذْ هُوَ يُوَجَّهُ للأشياء الْمَعْدُومَةِ الذَّواتِ أو الصِّفَاتِ وَالموْضوعَةِ بالقضاءِ والْقَدَرِ فِي خُطَّةِ التَّكْوين، فَتُوجَدُ بالْأَمْرِ، كَمَا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس/ ٤١ نزول) فالْمُرادُ للهِ مَعْلُومٌ لَهُ بِكُلِّ عَنَاصِرِ ذَاتِهِ وَصِفاته،

---

(١) انظر تتمّة هذا البحث في تدبّر الآيتين (٢٧ و٢٨) من سورة (ص/ ٣٨ نزول) المجلد الثالث. الصفحات من (٥٤٥ ـ ٥٥١).

وخَلْقُهُ يَكُونُ بأَمْرِ التَّكْوين، كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ بالْجَبْر، وهَـٰذَا مِنْ خَصَائِصِ أفْعَالِ الرَّبّ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

القضيَّة الثالثة: دلَّ عليها قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾:

الصُّور: مَخْلوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ كَهَيْئَةِ الْقَرْنِ، إحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّةٌ ضَيِّقَة، والأُخْرَىٰ فُتْحَةٌ واسِعَةٌ جدّاً، وباطِنُهُ فَارِغٌ يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فيه، فَيُصْدِرُ صَوْتاً بِحَسِب خَصَائِصِ تَكْوِينه.

والملَكُ المكلَّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيه هُو إسْرَافيل عَلَيْهِ السَّلام.

وقَدْ جاء في القرآن المجيد عشرةُ نُصُوصٍ فيها حَديث عَنِ النَّفْخِ في الصُّور، وهي فيما يظْهَرُ تَدُور حَوْلَ نَفْخَتَيْن:

النَّفخة الأولى: تَكُونُ بِها إمَاتَةُ مَنْ في السَّمَاوَاتِ وَمَنْ في الأرضِ إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَظْهَر أَنَّ كُلَّ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ أَحْيَاءٍ تَمُوتُ أيضاً. ويَدْخُلُ فِيمن اسْتَثْنَاهُمْ نَصُّ سورة (الزّمر/٥٩ نزول) في الآية (٦٨) إسْرَافيل، وجبريل، ومَلَكُ الموت عليهم السَّلام، ثم يقبض الله أرْواحَهُمْ.

النَّفخة الثانية: يَكُونُ بها بَعْثُ المَوْتَىٰ لِيَوْم الدين.

وفي حَدِيثٍ مُطَوَّل عَنِ الصُّور عنْدَ الطَّبراني في كتابه «المطَوَّلات» نَقَلَهُ ابْنُ كثير، وأشَارَ إلىٰ أَنَّهُ بِجُمْلَتِهِ لَا يُحْتَجُّ به، وقد جَاء فيه ذِكْرُ نَفْخَةٍ ثَالَثةٍ هِيَ نَفْخَةُ الْفَزَعِ، وأَنَّهَا تَكُونُ هِي النَّفخة الأولى، وبَعْدَهَا نَفْخَة الإمَاتة، ثُمَّ تَكُونُ النَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نفخة إحياء يَوْمَ الْبَعْث. واللهُ أَعْلم.

وسبق في تدَبُّر الآية (٥١) من سورة (يس/٤١ نزول) مَزِيدُ بيان عن الصُّورِ، وقَدْ جَاءَتْ في القرآن تَسْمِيَّتُه أَيْضاً باسْم النَّاقور.

القضيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ

﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِۚ﴾ أي: وَقل يا حامِلَ الرِّسالَةِ فِي بيانك الدَّعوِيّ: اللهُ هو عالم الغيب والشهادة.

الْغَيْبُ: كُلُّ مَا هُو مَحْجُوبٌ عَنْ مَخْلُوقٍ مَا مِنْ مَخْلوقاتِ اللهِ في كَوْنه، وهُو يخْتَلِفُ مِنْ مَخْلُوقٍ لآخرِ، فما هُو غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِ المخلوقات هُوَ مَشْهُودٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ بَعْضِهِمُ الآخر، وتُوجَدُ في الأكْوَانِ غُيُوبٌ عَنْ كُلّ مَخْلُوقَاتِ اللهِ لَا يَعْلَمُها إِلَّا اللهُ.

أَصْلُ لَفْظِ «الْغَيْبِ» مَصْدَرُ «غَابَ» وأطْلِقَ عَلَىٰ كُلّ غائب.

الشَّهادَة: كُلُّ مَا يُدْرِكُ بالحِسّ، وأصل لفظ «الشهادة» مَصْدَرُ «شَهِدَ الشيْءَ» أي: عايَنَهُ وأَدْرَكَهُ بِحِسِّهِ، وأُطلِقَ عَلَىٰ كُلِّ مَشْهُودٍ يُدْرَكُ بالْحِسِّ.

وقَدْ دَلَّتْ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عَالِمٌ بكُلّ مَا هُوَ غيبٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَخْلُوقَاتِهِ، وَعَالِمٌ بِكُلِّ مَا هو مَشْهُودٌ لمخْلُوقَاته.

وبيانُ هَـٰذِهِ القَضِيَةِ مِنْ عَنَاصِرِ القاعدة الإيمانيّة يُلائِمُ سَوَابِقَ البيان عن الحشر وَيَوْمِ الدِّينِ، الَّذِي أَعَدَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في خُطَّةِ الْخَلْقِ لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء.

القضيّة الخامسة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: وقُلْ يا حَامِلَ الرِّسالَةِ في بيانِكَ الدَّعوِيّ: واللهُ هُوَ الحكيم الخبير.

الحكيم: هُوَ الَّذِي يَضَعُ الْأَشياءَ في مَوَاضِعِها، وَيَخْتَارُ أفْضَلَ الْأَشياء وأتْقَنَهَا وَأحْسَنَهَا في الأمُور المختَلِفَة لِمَا يُعْطِي أحْسَنَ النتائج.

ولفظ «الحكيم» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، ومِنْ حِكْمَتِهِ جَلَّ جلالُهُ أَنْ لَا يَخْلُقَ النَّاسَ عَبَثاً، أَو لَعِباً، فَهُو يَتَنَافَىٰ مَعَ كَوْنِهِ عزَّ وجلَّ حَكِيماً.

الخبير: هو في اللُّغَةِ العالِمُ بِالْأَمْرِ أو الشيْءِ عَنْ تَجْرِبَةٍ وَمُمَارَسَة.

ولفظ «الخبير» اسمٌ مِن أسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، وذِكْرُ هَـٰذا الاسْمِ يُلائِمُ كَوْنَ النَّاسِ مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الْحَياة الدُّنيا، لِمُحَاسَبَتِهِمْ يَوْمَ الدِّين، وفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم.

وبهذا تَمَّ تدبر الدرس السّادِس عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢١)

التدبر التحليلي للدّرس السَّابع عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٧٤ ـ ٨٢)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

القراءات:

(٧٤) • قرأ يعقوبُ: **[ءازَرُ]** بالضمّ على أنَّه عَلَمٌ مُنَادَىٰ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[ءازَرَ]** بالفتح على أنه بدلٌ أو عطف بيان مجرور بالفتحة لأنَّه ممنوع من الصرف.

(٧٤) • فتح نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر يَاءَ المتكلّم في: **[إِنِّيَ أَرَاكَ]**. وأسْكَنَهَا باقي القرّاءُ العشرة.

(٧٩) • فتح نافع، وابْنُ عامر، وحفْص، وأبو جعفر ياء المتكلم في: **[وَجْهِيَ لِلَّذِي]**.

وأسكنها باقي القرّاء العشرة.

(٨٠) • قرأ نافع، وابْنُ عامر بخُلْفٍ عَنْ هِشام وأبُو جعفر: **[أَتُحَاجُونِي]** بكسر النون دُون تَشْدِيد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالتَّشْدِيد: **[أَتُحَاجُّونِّي]** أصْلُهَا: «أَتُحَاجُّونَنِي» وهو الوجه الثاني لابن عامر برواية هشام.

(٨٠) • أثبت يَاء المتكلّم في: **[وَقَدْ هَدَانِي]** يعقوبُ في الوصْلِ والوقف. وأثبتها أبو عمرو وأبو جَعْفَر في الوصل فقط.

ولم يُثْبِتْهَا باقِي القرّاء العشرة، وهي مُلَاحظَةٌ ذِهْناً تَدُلُّ عَلَيْهَا الكَسْرَة على النون.

(٨١) • قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عمرو، ويَعْقُوبُ: **[مَا لَمْ يُنْزِلْ]** مِنْ فِعْل: «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي الْقُرّاء العشرة: **[مَا لَمْ يُنَزِّلْ]** مِنْ فعل: «نَزَّلَ».

- والقراءتان متكافِئتَان، فالمهْمُوزُ أخو المضعَّف.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْس مِنْ فُرُوع السَّاقِ الْأَوَّلِ مِنْ سَاقَيْ شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة، وفيها عَرْضُ لقطاتٍ مِنْ دَعْوَةِ إبراهيم عَلَيْه السلام الجدليّة لِقَوْمه، وهي في الحقيقة تتضَمَّنُ جدالاً لِكُلّ المشركين بأسْلُوب التَّعْرِيض، لا بأُسْلُوبِ المواجهة المباشرة.

وتتضَمَّنُ أيْضاً تعليماً جداليًّا للرسُولِ ﷺ، ولِلدُّعَاةِ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه.

والمتأمِّلُ في جَدَلِيَّات إبراهيم عليه السَّلامُ لِقَوْمِهِ يُدْرِكُ مَا فيها مِنْ براعَةِ أسْلُوبٍ، وَقُوَّةِ حُجَّةٍ، وإعْلَانٍ صَرِيحٍ عَمَّا يُؤْمِنُ به، وإلْزَامٍ لَهُمْ بالحقّ.

قوم إبراهيم عليه السلام مِنَ الصَّابِئِين:

جاء عنْدَ مُؤرّخِي أدْيَانِ الأمم، أَنَّ قَوْم إبراهيم عليه السلام كانُوا مِنَ الصَّابِئِينَ الَّذِينَ كانُوا يَتَوَهَّمُون أنَّ بعض الكواكب والنجوم لَهَا تأثِيرُ رُبُوبيّةٍ في أحداثِ الأرض، فَيَتَّخِذُونَ أصْنَاماً عَلَىٰ هيئَاتٍ يتخَيَّلُونَهَا لها، ويَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ، ولهَـٰذَا كانَتْ دَعْوَةُ إبراهيمَ الجدلِيَّةُ ترتكزُ على إبطال رُبوبيَّةِ وإلَٰهِيَّةِ النُّجُوم والكواكب، وبَيَانِ سُقُوطِ عبادَةِ الأصْنَام سقوطاً فِكْرِيًّا فَاحِشاً مَرْفُوضاً لَدَىٰ كُلّ أهْلِ الْعَقْلِ والرُّشد، وسَارَ في مُحَاجَّتِهِ لَهُمْ عَلَىٰ مَقَادِيرِ مَا يَفْهَمُونَ، وعلى مَقَادِير مَا لَدَيْهِمْ مِنْ مَوَازِينَ عَقْلِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ لَدَيهم.

فَدَعَا أَبَاهُ إِلَىٰ نَبْذِ شِرْكِهِ الْقَائِم عَلَىٰ عِبادِهِ الْأَصْنَام، وَوجَّهُ لَهُ اسْتِنْكَارَهُ الشَّدِيدَ في هَـٰذِهِ الدَّعْوَة، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ تَلَطَّفَ بِهِ فِي دَعْوَةٍ سَابِقَةٍ جَاءَ بِيَانُهَا في الآيات من (٤١ ـ ٤٨) من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُها.

وَتَدَرَّجَ مَعَ قَوْمِهِ في إسْقَاطِ رُبُوبِيَّةِ أَيِّ كَوْكَبٍ أَوْ نَجْمٍ في السّماء، وإسْقَاطِ إلٰهِيَّتِهِ، وهُو يَتَحدَّثُ مَعهُمْ بَاحِثاً عَنْ الرَّبِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَعْبُدَهُ في كَوَاكِبِ السَّمَاءِ وَنُجُومِهَا، وبَعْدَ أَنْ أدْرَكَ عَدَمَ صَلاحِيَّةِ أَيِّ كَوْكَبٍ أَوْ نَجْمٍ لِأَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّبَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، أَعْلَنَ إيمانَهُ بِالْفَاطِرِ الْغَيْبِيِّ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَا تُحِسُّ بذاتِهِ الْحَواسُّ، الَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ، والَّذِي لَا يُشَارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ شَيْءٌ، فَلَا يُشَارِكُهُ في إلٰهِيَّتِهِ شَيءٌ، وأعْلَنَ انْعِطَافَهُ عَنِ اعْوِجَاجِ قَوْمِهِ عَنِ الحقّ، وَبِذَلك يَسْتقِيمُ عَلَىٰ صراط الله، وأَعْلَنَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ المشْرِكِينَ.

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ فيما تَوصَّلَ إِلَيْهِ مِنْ إيمانٍ بالحقّ الذي أَعْلَنَهُ لهم، وخَوَّفُوهُ مِنَ الضَّرَر الَّذِي سَتُنْزِلُهُ بِهِ آلِهَتُهُمْ الَّتِي أعْلَنَ كُفْرَهُ بها، فقَالَ لهم: أَتُحَاجُّونَنِي بِبَاطِلِكُمْ في اللهِ الحقِّ الَّذِي هَدَانِي بالدّليل البرهانيّ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوُجُودِ غَيْرُه، فلا إلٰه في الوجود سواه، فأنَا مُسْتَمْسِكٌ بِمَا هَدَانِي إلَيْهِ اللهُ.

وَلَا أَعْبَأُ لِمَا تُخَوِّفُونَنِي مِنْهُ، إذْ تَرَوْنَ أَنَّ آلِهَتَكُمْ سَتُنْزِلُ بِي ضُرّاً، لِأَنَّنِي كَفَرْتُ بأَنَّ لَهَا مُشَارَكَةً للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ في إلٰهِيَّتِهِ، وَإِنَّنِي عَلَىٰ يَقِينٍ بأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً لَمْ يَشَأْهُ اللهُ، فَالْأَمْرُ فِي كُلِّ الكوْنِ أَمْرُهُ، والسُّلْطَانُ سُلْطَانُهُ.

وَتَعَجَّبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تَخْوِيفِهِمْ لَهُ مِمَّا لَا يُخَافُ مِنْهُ، ومن عَدَمِ خَوْفِهِمْ هُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقَدْ أَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً، وقال لهم: فأيُّ الْفَرِيقَيْنِ أحَقُّ بالأَمْنِ؟ وشَرَحَ لَهُمْ بِأَنَّ الْأَمْنَ إنَّمَا يَسْتَحِقُّهُ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ رَبِّهِمْ، ولم يَخْلِطُوا إيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ به، وأبانَ لَهُمْ أَنَّ هٰؤلَاءِ هُمُ المهْتَدُون.

التّدبّر التحليلي:

- قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾:

ءازَرَ: ظَاهِرُ الآيَةِ أَنَّ اسْمَ أَبِي إِبْرَهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام لفظ «آزَرَ» ويَبْدُو أَنَّهُ كَانَ هُوَ المعْرُوف عِنْدَ الْعرب، وَجاءَ في كُتُب الْإِسْرَائِيلِيّين أَنَّ اسْمَ أَبِيهِ «تَارَح».

وَأَقْرَبُ احْتِمَالَاتِ الْجَمْعِ أَنَّ أَصْلَ اسْمِهِ: «تَارَح» ولُقِّبَ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَفْظِ «ءَازَر» ولَمَّا دَعَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَاهُ بما جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ، كَانَ اللَّفْظُ المشْهُورُ بِهِ بَيْنَ عَشِيرَتِهِ هو لفظ «ءَازَر» فاخْتَارَ اللهُ ذِكْرَهُ بِذَلك، ويُؤيِّدُ هَـٰذَا الْفَهْمُ قراءة يَعْقُوبَ: «ءَازَرُ» بِضَمِّ الرَّاء، على أَنَّهُ مُنَادَىٰ مُفردٌ عَلَمٌ.

ولا دَلِيلَ عَلَىٰ أَنَّ أَبَا الرَّسُولِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ كَافراً، لَكِنْ كَرَّمَ الرُّسُلَ فيمَا يَظْهَرُ عَنْ أَنْ يَكُونُوا أَبْنَاءَ سِفَاح.

والاسْتِفْهَامُ في قَوْلِ إِبْرَاهِيم عَليه السَّلَامُ لأَبِيهِ: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟! اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ فِيهِ شِدَّةٌ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بِدَايَةِ دَعْوَتِهِ لِأَبِيهِ، بَلْ سَبَقَتْهُ دَعْوَةٌ مُشْبَعَةٌ بالتَّلَطُّفِ والتَّحَبُّبِ وخَفْضِ الجناح، جاء بيانُها في سورة (مريم/ ٤٤ نزول) في الآيات من (٤١ ـ ٤٨).

أَصْنَام: جمع «صَنَم» وَهو تمثَالُ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ خَشَبٍ، أو مَعْدِنٍ، أو نحو ذلك، عَلَى صُورَةِ إِنسانٍ، أَوْ حَيوانٍ، أو مَا يَتَوَهَّمُ المشْرِكُونَ أَنَّهُ صُورَةُ مَا يُؤَلِّهُونَ مِنْ نُجومٍ وَكواكب، أو مَلَائِكَةٍ أو جِنّ، أَوْ غَيْرِ ذلِكَ.

فالمعنى: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقّي لآيَاتِ الْقُرآنِ المجيد، ما

أبَانَهُ إبراهِيمُ لِأَبيه، إذْ قَالَ له: أتَصْنَعُ أصْنَاماً بِيَدَيْكَ مُتَّخِذاً إيَاهَا آلِهَةً تَعْبُدُهَا أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ دُونِ الله، وتَجْعَلُونَهَا شُرَكَاءَ للهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ؟!!

إنَّ هَـٰذَا الْأَمْرُ مُسْتَنْكَرٌ جِدًّا، وَمُنَافٍ لموازينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ مِنَ الْخَلَلِ، المجافِيَةِ لِمزَالِقِ الزَّلَل.

إنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ المشرِكينَ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ تَائِهينَ في ضَلَالٍ وضَياع مُبينٍ وَاضِحٍ، لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ صحيح، ونَظَرٍ سليم.

الضَّلَال هُنَا: الضَّيَاعُ في المتاهَات، والمهالِك، والأعْمَالِ الْبَاطِلَة، وهُوَ يُوصِلُ الضَّالِّين إلى الْخُلُودِ في عذاب النار يوْمَ القيامة، لِأَنَّهُ ضَلَالٌ مِنْ دَرَكَةِ الكُفر.

مُبين: اسم فاعل من فعل: «أَبَانَ» اللّازم بمعَنَىٰ ظَهَرَ واتَّضَحَ.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾:

مَلَكُوت: صِيغَةٌ مِنَ الْمِلْكِ، وهي مَصْدَرٌ للدَّلَالَةِ على التَّعْظِيم والتفخيم، **والْمِلْكُ:** يَسْتَلْزِم السُّلْطَانَ والْعِزَّةَ والْقُدْرَةَ عَلَىٰ التَّصرُّفِ الكامل، ولصاحِبِهِ الْأَمْرُ والنَّهْيُ. وجاء على هَـٰذِهِ الصيغَة أَلْفاظ، مِنْها: رَهَبُوت، من الرَّهْبة. ورَحَمُوت، من الرَّحْمة. ورَغَبُوت، من الرغبة. وجَبَرُوت من الْجَبْر. وفِيها معنَىٰ كَمَالِ مَا تَدُلُّ عَلَيْه. ولا يُقَاسُ عليها.

الْمُوقِنُ: الْعَالِمُ بالشَّيْءِ عِلْماً لَا شَكَّ فِيهِ، وأدْنَىٰ مَرَاتِبهِ ما اعْتَمَدَ عَلَىٰ أدِلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ، أو خَبَرِيَّةٍ صَادِقَةٍ لَا يَعْتَرِيها شَكٌّ.

فالمعنى: وَكَذَلِكَ الْفَهم الَّذِي فَهَّمْنَاهُ إبْرَاهِيمَ بِشَأْنِ بُطْلَانِ عبادَة الْأَصْنَام، وَأَنَّ عَابِدِيها في ضَلَالٍ مُبِينٍ، كُنَّا نُري بِتَتَابُعٍ مُتَجَدِّدٍ إبراهِيمَ مِلْكَنَا الْعَظِيمَ لِكُلِّ عَنَاصِرِ وأجْزَاءِ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وسُلْطَانَنَا وعِزَّتَنَا

وَقُدْرَتنا عَلَىٰ التَّصرُّفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فيهما، لِيَكُونَ ذَا حُجَجٍ بُرْهَانِيَّة، يُثْبِتُ بِهَا أَنَّهُ لَا رُبُوبِيَّةَ في الكَوْنِ إلَّا لَنَا، وَلَا إِلَـٰهِيَّةَ فِي الكَوْنِ بحقٍّ إلَّا لَنا، ولِيَكُونَ هُوَ فِي ذَاتِهِ مِنَ الْمُوقِنِينَ بِذَلِكَ، العالِمِينَ عِلْماً لَا يُخَالِطُهُ وَلَا يَمَسُّهُ شَكٌّ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَـٰذِهِ الإراءَةَ لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ كَانَتْ إِرَاءَةً فِكْرِيَّةً عِلْمِيَّةً نَظَرِيَّةً، وَلَيْسَتْ إِرَاءَةً بَصرِيَّة، وهَـٰذِهِ الإراءَةُ الْعِلْمِيَّة كَشَفَتْ له أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الكَوْنِ خَاضِعٌ لِمِلْكِ اللهِ وسُلْطَانِهِ وَعِزَّتِهِ وَجَبرُوته ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فلا رُبوبيَّةَ لِشَيْءٍ في الْكَوْنِ إلَّا للهِ، وَلَا إِلَـٰهِيَّةَ لِشَيْءٍ في الْكَوْنِ إِلَّا للهِ.

تَدرُّج إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام لإِبطَالِ عِبادَةِ الكَوَاكِبِ والنجومِ في دَعْوَتِهِ:

- قول الله تَعالى مُحدِّثاً عَنْ أَسْلُوبِ إِبْرَاهِيمَ في دعوته:

- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦﴾:

- ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾: أي: فَحِينَما أَظْلَمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اللَّيْل. «جَنَّ اللَّيْلُ يَجُنُّ، جَنًّا، وجِنًّا» أي: أَظْلَم.

- ﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾: يَظْهرُ أَنَّهُ رَأَىٰ كَوْكَباً يَعْتَقِدُ قَوْمُهُ أَنَّ لَهُ رُبُوبِيَّةً مَا، فَيَعْبُدُونَهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَيَتَّخِذُونَ لَهُ صُورَةً مِنَ الأَوْثَانِ يَعْبُدُونها.

- ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾: أي: قَالَ عَلَىٰ سَبِيلِ الطَّرحِ الاحْتِمَالِي، لا عَلَىٰ سَبِيلِ الاعْتِقَادِ الجازِم: هذا خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَرَبُّهُمَا، فَهُوَ رَبِّي المهَيْمِنُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَيَّ وَعَلَىٰ سَائِرِ الكَوْن، فإذَا ثَبَتَتْ رُبُوبِيَّتُهُ، وَجَبَتْ عَلَيَّ عِبادَتُه.

- ﴿... فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦﴾: أي: فَحِينَما غَابَ النَّجْمُ الَّذي طَرحَ احْتِمَالَ كَوْنِهِ رَبًّا، قَالَ: لَا أُحِبُّ اتِّخَاذَ رَبٍّ هُوَ مِن

الْآفِلِينَ، الَّذِينَ يَظْهَرُونَ وَيَغِيبُونَ، ولَا أُحِبُّ عِبَادَةَ أَحَدٍ مِنْهم.

ذَكَرَهُمْ بِجَمْعِ الْعُقَلَاءِ، مُرَاعَاةً لِاعْتِقَادِ مُشْرِكي قَوْمِهِ، بأَنَّ آلِهَتَهُمْ أَرْبَابٌ عَالِمَةٌ حَيَّةٌ، تَتَصَرَّفُ بِأَحْدَاثٍ مَا في النّاس، وفي سَائِرِ الْأَحْدَاثِ في الْأَرْضِ.

يُقَالُ لغة: «أَفَلَ النَّجم، يَأْفِلُ، أَفْلاً، وأُفُولاً» أي: غابَ، فهو «آفِلٌ».

قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَلِيلاً عَلَىٰ عَدَم صِحَّةِ كَوْنِ شَيْءٍ مَا رَبًّا، أَنْ يَتعَرَّضَ بَعْدَ ظُهُورِهِ ومُشَاهَدَتِهِ لِلْأُفُول، وإِذَا لَم تَكُنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ فَلَا تَكُونُ لَهُ إِلَهِيَّةٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوجُوهِ، إِلَّا أَنْ يَأمُرَ الرَّبُّ الحقُّ بِعِبَادَتِهِ، وَهَـٰذَا لَم يَكُنْ في رِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ صَحِيحَةٍ.

وأَفْهَمُ من اسْتِدلال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام أَنَّه يقولُ لِقَوْمِهِ: إِنَّ مَنْ يَحْضُرُ فَيُرَىٰ ويَغِيبُ فَلَا يُرَىٰ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ حُضُورُهُ وغيابُهُ بإِرَادَتِه، وإِمَّا أَنْ يَكُونَا بِغَيْرِ إِرَادَتِه.

فإِذَا كَانَا بِإِرَادَتِهِ، فَهُوَ إِنَّمَا يَحْضُرُ لِيُصَرِّفَ أَحْوَالَ مَرْبُوبِيهِ ذَوِي الحاجَةِ الدَّائِمَةِ لِرُبُوبِيَّتِهِ، لَكِنَّهُ إِذَا غَابَ لَمْ يَكُنْ لِمَرْبُوبِيهِ حَظٌّ مِنْ تَصَارِيفِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَيَفْسُدُ بِذَلِكَ نِظَامُ الْخَلْق. فَدَلَّ هَـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي يَغِيبُ بَعْدَ حُضُورٍ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَبًّا، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ إِلَهاً مَعْبُوداً، وَلِهذَا فَأَنَا لَا أُحِبُّ أَنْ أَتَّخِذَ لِنَفْسِي رَبًّا إِلَهاً لَا يَصْلُحُ لِلرُّبُوبِيَّةِ وَلَا لِلْإِلَهِيَّة.

وَإِذَا كَانَ حُضُورُهُ وغِيَابِهِ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ فَهُوَ بِالْبَدَاهَةِ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا إِلَهاً، وَهَـٰذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ نِظَامُ الكَوَاكِبِ والنُّجُوم فِي السَّمَاءِ، إِنَّها جَمِيعاً تَحْضُرُ وَتَغِيبُ بِغَيْرِ إِرادَتها، فَهِيَ مَرْبُوبَةٌ لِرَبٍّ واحِدٍ يَخْضَعُ لِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ كُلُّ مَوْجُودٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْض.

هَـٰذَا الدَّلِيلُ نَفْسُه اسْتَخْدَمَهُ إبراهيم عَلَيْه السَّلام مع قَوْمِهِ، حِينَ انْتَقَلَ

بِهِمْ إِلَىٰ رُؤْيَةِ الْقَمر الْبَازِغ، فَرُؤْيَةِ الشَّمْسِ البازغة، لِأَنَّهُم كانُوا يَعْبُدُونَهُما، مُعْتَقِدينَ أَنَّ لَهُمَا رُبُوبِيَّةً ذَاتَ تَأْثِيرٍ في النَّاسِ وفي الأرض.

- قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾:

الْبَازِغ: الّذي بَدَأ طُلُوعُه، يُقَالُ لغة: «بَزَغَ الْقَمرُ، وَبَزَغَتِ الشَّمْسُ» أيْ: بَدأ طُلُوعُهما.

- ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أيْ: فحِينَما غَابَ الْقَمر، قَالَ مِثْلَما قَالَ حينما غاب الكَوْكَبُ الَّذِي رَآهُ في لَيْلَةٍ سَابِقَةٍ، وأَتْبَعَ هَـٰذَا بِقَوْلِهِ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِني رَبِّي إِلَىٰ الحقيقَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ أُؤمِنَ بها، لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ الضَّائِعِينَ عَنْ إِدْرَاكِ الحَقِّ بِشَأْنِ الرَّبّ الَّذِي يَجب عَلَيَّ أَنْ أُؤمِنَ بِهِ، وأَنْ أَعْبُدَهُ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ أَحداً وَلَا شيئاً، وهو عَلَيْهِ السَّلامُ يُرِيهِمْ أسْلُوبَ التدرُّجِ في مُتابعةِ الإستدلال.

- ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾: أي: فَحِينَما غَابَتِ الشَّمْسُ أَعْلَمَ قَوْمَهُ بأَنَّ كُلَّ مَعْبُودَاتِهِمْ مِنَ الْكَوَاكِب والنُّجُوم ومِنْها الْقَمَرُ والشَّمْسُ، لا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا إِلَهاً، وقَالَ لَهُمْ: يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَهُمْ شُرَكَاءَ للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

وأعْلَنَ لَهُمْ إِيمَانَهُ بِفَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَتَوَجُّه وَجْهِهِ لِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه، فَقَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ في الآيَة التالية:

- قول الله تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِمَا أَعْلَنَهُ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السّلام لِقَوْمِهِ:

- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾:

أي: أُأَكِّدُ لَكُمْ أَنِّي جَعَلْتُ وَجْهِي فِي إِيمَانِي وعِبَادَتِي للهِ الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهَا وَفَطَرَ الأَرْضَ، حَالَةَ كَوْنِي مَائِلاً عَنْ كُلِّ انْحِرَافَاتِ المشْرِكِينَ، إلى الالْتِزَام بِصِرَاطِ الحقِّ الْمُسْتَقِيم الْقَائِم عَلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وأقولُ لَكُمْ: مَا أَنَا مِنَ المشْرِكِينَ.

﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أي: أَوْجَدَهُمَا وَخَلَقَهُمَا عَلَىٰ نِظَام الْفَطْرِ والشَّقّ والْفَلْق، لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هِيَ الْعَدَم. واللهُ هُوَ الخالِقُ الموجِدُ مِنَ الْعَدَم بأَمْرِ التَّكْوين.

الحنيفُ: في اللُّغَةِ هو المائل، ولمَّا كَانَتِ الأدْيَانُ مُعْظَمُها بَاطِلَةً، كَانَ المَيْلُ عَنْها جَمِيعاً استقامَةً عَلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، ذي الصراط المستقيم، إذْ كُلُّ الأدْيانِ والمِلَلِ الباطِلَةِ مَائِلَاتٌ إلى جهاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وهي مَائِلَاتٌ السَّاحَاتِ اللَّوَاتِي لَيْسَتْ عَلَىٰ صِراطِ اللهِ المستقيم، فالميْلُ عَنْهَا جَمِيعاً لَا يَكُونُ إلَّا بِالاسْتِقَامَةِ على صراط اللهِ إيماناً وَعَمَلاً، وسلوكاً ظاهراً وباطناً.

وبَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومِهِ إيمانَهُ باللهِ رَبِّهِ رَبِّ العالمين، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيّتِهِ وَلَا فِي إلَهِيَّتِه، جَعَلَ قَوْمُهُ الَّذِينَ حَضَرُوا مَرَاحِلَ بَحْثِهِ، الَّتِي تَوَصَّلَ بِهَا إِلَىٰ إِبْطَالِ أَرْبَابِ قَوْمِهِ وَآلِهَتِهِمْ، وَإيمانِهِ بالَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ الرَّبِّ غَيْرِ المنْظُورِ في الأَكْوَانِ، وَإعلانِهِ تَوْجِيهَ وَجْهِهِ لَهُ فِي إيمانِهِ وإسْلَامِهِ وعبادته، بَدَأَ الْمُجَادِلُونَ مِنْ قَوْمِهِ يُجَادِلُونَهُ وَيُحَاجُّونَهُ رَغْبَةً فِي إِثْبَاتِ صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا مَا جَاء في الآيات الباقيات من هذا الدَّرْس، وهي من (٨٠ ـ ٨٢).

- ■ قول الله تَعَالَىٰ:

- • ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ... ﴿٨٠﴾﴾:

الْمُحَاجَّة: المجادَلَة، يُقَالُ لغة: «حَاجَّهُ، يُحَاجُّهُ، مُحَاجَّةً، وحِجَاجاً» أي: جَادَلَهُ.

فقال لهم إبراهيم عليه السَّلامُ: أَتُحَاجُّونِّي في اللهِ الَّذي تُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ بِهِ، ولكِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ به سُلْطاناً، وَقَدْ هَدَانِي بالدَّلِيلِ الْبُرْهَانِي إِلَىٰ أَنَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا في إِلَهِيَّتِهِ؟!!

إِنَّ مُحَاجَّتَكُمْ لَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ أدِلَّةٍ صَحِيحَةٍ مَقْبُولَةٍ في مَوازِينِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ.

فَلَجؤُوا إِلَىٰ تَخْوِيفِهِ مِنْ آلِهَتِهِمْ أَنْ يُنْزِلُوا بِهِ ضُرّاً، فَقَالَ لهم:

- ﴿... وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

أي: ومَهْمَا خَوَّفْتُمُونِي بِضُرٍّ يأتِينِي مِنْ آلِهَتِكُمْ، الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ، فَإِنَّنِي لا أخَافُ أَنْ يَأْتِيَنِي ضُرٌّ أَوْ أَذىً مِنْ جِهَتِهَا، إِنَّهُ لا يَأْتِينِي ضُرٌّ وَلا أذىً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبِّي شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَمَشِيئَتُهُ لا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَحِكْمَتُهُ يَخْتَارُ بها مِنَ الاحْتِمَالَاتِ مَا هُوَ الْأَحْكَمُ، وَقَدْ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شيءٍ عِلْماً فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ أمْرٌ.

- ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: أفلا يُؤَثِّرُ فِيكُمْ هَـٰذَا التذكِيرُ لَكُم بِالْحَقِّ الْمَوْجُودِ في أعْمَاقِ قُلُوبِكُمْ عَنِ اللهِ رَبِّكُمْ، فَيَدْفَعكُمْ إِلَىٰ نَبْذِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وَإِلَىٰ الْبُعْدِ عَنْ كُلِّ مُجَادَلَةٍ بالْبَاطِلِ، ويُحَرِّضكُمْ عَلَىٰ الْإِيمَانِ باللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَا ضَارَّ في الْوُجُودِ وَلا نَافِعَ إِلَّا هُوَ.

وَبَعْدَ أَنْ وَصَلَ إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام مَعَ مُجَادِلِيهِ مِنْ قَوْمِهِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ المحَطَّةِ مِنَ المناظَرَةِ الإِقْنَاعِيَّة، قالَ لَهُمْ مُتَعَجِّباً مِنْ تَخْوِيفهم لَهُ مِنْ ضُرٍّ

يَأْتِيهِ مِنْ آلِهَتِهِم الْبَاطِلَةِ، مَعَ عَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ الَّذِي أَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً، وَقَدْ أَعْتَدَ لِمَنْ يُشْرِكُ بِهِ خُلُوداً فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّين:

- ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ... ﴿٨١﴾﴾:

أي: وَفي أَيَّةِ حَالَةٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَخَافُ ضُرّاً أَوْ أَذىً يَأْتِينِي مِنْ قِبَلِ أَرْبَابٍ وآلِهَةٍ جَعَلْتُموهَا شُرَكَاءَ للهِ زُوراً وكَذِباً، وَهِي لَا حَقِيقَةَ لَها، وَأَنْتُمْ لَا تَخَافُونَ عَذَابَ اللهِ رَبِّكُمْ الَّذِي جَعَلْتُمْ لَهُ شُرَكَاءَ، دُونَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْكُمْ حُجَّةً تَحْتَجُّونَ بِها عِنْدَه، حِينَما يُحَاسِبُكُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ.

وَبَعْدَ هَـٰذَا الاستفهامِ التعجُّبِيِّ مِنْ أَمْرِهِمْ، قَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿... فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: أَخْبِرُونِي يَا قَوْم: أيُّ الْفَرِيقَيْن، أَنَا أَمْ أَنْتُمْ، أَكْثَرُ اسْتِحْقَاقاً لِلظَّفَرِ بالْأَمْنِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ من الأحقُّ بالأَمْنِ، أَوْ كُنْتُمْ حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمُوا الْحَقَّ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ بَاطِلِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ مُنْغَمِسُونَ فِيه.

وَأَخِيراً أَبَانَ إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَنَّ الَّذِينَ لَهُمُ الْأَمْنُ بِفَضْلِ اللهِ رَبِّهِمْ، هُمُ الْمُهْتَدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَخْلِطُوا إيمانَهُمْ بِشِرْكٍ، فقالَ لَهُمْ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً باللهِ رَبِّهم ذاتاً وصِفَاتٍ.

- ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾: أي: ولم يَخْلِطُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ من دَرَكَةِ الكُفرِ، كالشِّرْكِ باللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إلَهِيَّتِهِ، إذ الشِّرْكُ ظُلْمٌ عظيم، أَوْ مِنْ دَرَكَةِ الكَبَائِرِ مِنَ الْإِثم كَالْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقّ.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أَيْ: أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ رَفِيعُوا المَكَانَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ.
- ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾: أي: يَحْصُلُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ الأَمْنُ مِنْ مَخاوِفِ عَذَابِ النَّارِ، بِتَسْلِيمِ اللهِ لَهُمْ، وحِفْظِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ وَمَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِمْ، وَزَحْزَحَتِهِمْ عَنْ النَّارِ. وإدْخَالِهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ.
- ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾: أي: وأُولَئِكَ هُمْ مُهْتَدُونَ، مَحْكُومٌ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وتَنْتَهِي بهذا مَرْحَلَةٌ مِنْ مَرَاحِلِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ الدَّعَوِيَّةِ الجِدالِّيةِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس السابع عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٢)

التدبر التحليلي للدّرس الثامن عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٨٣ ـ ٩٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (٨٣) وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥) وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٨٨) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

القراءات:

(٨٣) • قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائِيّ، ويعقوبُ، وخَلَفٌ: [**دَرَجَاتٍ مَنْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**دَرَجَاتِ مَنْ**] عَلَىٰ الْإِضَافة، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في التعبير.

(٨٥) • قرأ حفصٌ، وحَمْزَةُ، والكِسَائي، وخلَف: [**وَزَكَرِيَّا**].

وقرأهُ باقي القرّاء العشرة: [**وَزَكَرِيَّاءَ**].

(٨٦) • قرأ حمزَةُ، والكِسَائِيُّ، وخَلَف: [**واللَّيْسَع**].

وقرأه باقي القراء العشرة: [والْيَسَعْ].

وهما نُطْقَانِ لهذا الاسم.

(٨٧) • قرأ قُنْبل، وَرُوَيس: [**سِرَاطٍ**] بالسين.

وقرأها خَلَف عن حمزة بالإشْمَام.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالصَّادِ الخالصة: [**صِرَاطٍ**].

(٨٩) • قرأ نافع: [**والنُّبُوءَةَ**]. وقرأها باقي القراء العشرة: [**والنُّبُوَّةَ**] وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبيان للكلمة.

(٩٠) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وعاصم، وأبو جعفر: [**اقْتَدِهْ**] بإثبات هَاء السَّكْت في الْوَصْلِ والوقف، وكذَلِكَ قرأها حَمْزَةُ، والكِسَائِي، ويعقوب، وخلف، وابْنُ عَامِر في الوقف فقط.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف: [**اقْتَدِ**] في الوصل.

وقرأها هِشَامُ: [**اقْتَدِهِ**] في الوصل بكسرةٍ للهاء، دون إشباعٍ لمدّ الهاء.

وقرأها ابن ذَكْوَان مثل هشام في الوصْل مع إشباعِ كَسْرَةِ الهاء.

تَمْهيد:

آيات هذا الدَّرْسِ من فُرُوع السَّاق الأوّل من سَاقَيْ شَجَرَة مَوْضُوع السُّورَة أيضاً، وفيها بيانٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الثناء على إبراهيم عليه السَّلام، ومَا آتاهُ مِنْ حُجَجٍ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي نَفْي الشِّرْكِ وإثباتِ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ.

وفيها ثناءٌ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مع بيانِ أَنَّ اللهَ تَعَالى آتاهُمُ الكِتَابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّة، ومع إضافاتٍ مُلائمات في الأثناء.

وفيها خِتَامٌ بتَوْجِيهٍ للرَّسُولِ محمّد ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بهم، وأَنْ يَقُولَ لِلْمُعْرِضِينَ عَنْ دَعْوَتِهِ: لَا أَسْأَلُكُمْ على تَعْلِيمِكُمْ كِتابَ رَبِّكُمْ أجراً، فَهُوَ لَيْسَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ، إِنْ هُو إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ جَمِيعاً مِنَ الإنْسِ والجنّ.

هذا الدَّرس قَدْ كانَ مِنَ المقْبُول اعْتِبَارُهُ تَابعاً للدَّرْسِ السابع عشر، إِلَّا أَنِّي آثَرْتُ اعْتِبَارَه دَرْساً مُنْفَصِلاً، لئلا يطولَ الدَّرْسُ السَّابع عشر، وَلِأَنَّ مَضْمُونَ هَـٰذِهِ مُنْفَصِلٌ عَنْ جَدَلِيَّاتِ إبراهيم عليه السَّلامُ وَدَعْوَتِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ.

التّدبّر التحليلي:

- قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: وتِلْكَ الْحُجَّةُ الَّتِي دَعَا بِهَا إبراهيمُ أَبَاهُ وقَوْمَهُ، وظَهَرَ بِهَا عَلَىٰ قَوْمِهِ وَعَلَىٰ حُجَجِهِم الَّتِي جادَلُوهُ بِها ظُهُورَ الغالِبِ المنتصر، وَلَوْ عَانَدُوا وأَصَرُّوا عَلَىٰ بَاطِلِهِم، هِيَ حُجَّتُنَا أَلْهَمْنَاهُ أَنْ يَحْتَجَّ بها، وفَهَّمْنَاهُ مَوَازِينَها الْفِكْرِيَّةَ، وطَرَائِقَ الاحْتِجَاجِ بها.

وفِي قَيْدِ: ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهَا فِي حُدُودِ مَعَارِفِ قَوْمِهِ، وَمَا كَانَ لَدَيْهِمْ مِنْ عِلْمٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَفَادَ مِنْهُ للاحْتِجَاجِ بِهِ عَلَيْهِم.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾: أي: نَرْفَعُ بِحُكْمِنَا الْمَبْنِيِّ عَلَىٰ عِلْمِنَا الشَّامِلِ، بِعِبَادِنَا وَمُكْتَسَبَاتِهِم الإِرَادِيَّاتِ الْفَاضِلَات، دَرَجَاتٍ مُلَائِمَاتٍ لِوَاقِعِ حَالِ ارْتِفاعِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُم، وَمَشِيئَتُنَا لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَنَا.

وفي القراءة الأخرىٰ: **[نَرْفَعُ دَرَجاتِ مَنْ نَشَاءُ]**: أي: نَرْفَعُ دَرَجاتِ مَنْ نَشَاءُ رَفْعَ دَرَجاتِه، في الدنيا وفي الآخرة وَمَشِيئَتُنَا لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَنَا، فَمَنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ بِفَضْلِنَا أَنْ نَرْفَعَ دَرَجَاتِهِ إلى مُسْتَوىً مَا، رَفَعْنَا دَرَجَاتِهِ على وَفْقِ مُقْتَضَيَاتِ حِكْمَتِنَا.

فَمُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في التعبير.

- ﴿... إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾: أي: إنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا المتلَقِّي حَكِيمٌ فِي عطائِهِ وَمَنْعِهِ لِعِبادِهِ، عَلِيمٌ بِهِمْ عِلْماً شامِلاً، فهو يَخْتَارُ بِمَشِيئَتِهِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه، ومِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ دَرَجاتٍ عِلْمِيَّة، وَدَرَجاتٍ في إقَامَةِ الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ، بِحَسَبِ مُقْتَضَىٰ حَالِ قومه ومُسْتَواهم المعْرِفيّ.

■ قول الله تَعالَىٰ:

- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾:

جاء في هَـٰذِهِ الآيَاتِ ذِكْرُ (١٧) نَبِيًّا رَسُولاً، كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، وأُوجِزُ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ فيما يلي:

(١) إسْحَاق عليه السَّلام:

هو إسْحَاقُ بْنُ إبراهيم عليهما السَّلام، ومعناه بالعِبْرِية «يَضْحَك» وأمُّه «سَارَة» وَلَمَّا وُلِدَ كان أَبُوه قَدْ بلَغَ مِن العمر (١٠٠) سنة، وكانت أمُّهُ قَدْ بَلَغَتْ مِن العمر (٩٠) سنة، وقد كانت عاقراً فَبَشَّرَهُمَا اللهُ به، وأصْلَحها فَجَعَلَها قَابِلَةً لِلْحَمْلِ بِهِ وهي عَجُوزٌ عَقِيم.

وَيَتَرَجَّحُ أَنَّهُ كان رَسُولاً في أَرْضِ الكَنْعَانِيّين «بلاد الشام في فلسطين»، وعَاش إسحاقُ عَلَيْهِ السَّلام (١٨٠) سنة، ومات في أَرْض الكَنْعَانِيّين، ودُفِنَ في الْخَلِيل «حَبْرُون» في المغارة الّتي دُفِنَ فيها أَبُوه إبراهيم عَلَيْهما السّلام.

(٢) يَعْقُوبُ عليه السلام (وهو إسرائيل):

هو يَعْقوب بْنُ إسْحَاقَ بْنِ إبراهيم عليهم السّلام. ومعنى لفظ «يعقوب» بالْعِبْرِيَّة: «يَعْقُبُ ـ يُمْسِكُ الْعَقِب ـ يَحُلُّ مَحَلَّ».

أُمُّه «رِفْقة» بنْت «بتُوئِيل» بْنِ نَاحُور (أخي إبراهيم عليه السَّلام) بن «آزر = تَارَح».

وسمَّاه الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك «إسرائيل» ومعناه بالعبرية «يُجَاهِدُ مَعَ اللهِ». وهو أَبُو الأسْبَاط الاثْنَي عشر، وإلَيْهِ يُنْسَبُ شَعْبُ بَنِي إسْرَائيل.

ذكر المؤرّخون أَنَّهُ وُلِدَ في مَهْجَرِ الأسْرَةِ الإبْراهِيميَّة في أَرْض الكَنْعَانيين «فِلَسْطِين»، وشَبَّ في كَنَفِ أبِيهِ إسْحَاق، ثُمَّ سَافَرَ إلى خاله «لابان بْن بَتُوئيل بن نَاحور» المقيم في «فدان آرام» من أَرْض بابل، وأقام عنده.

وكان عُمره حين توفَّاهُ الله في مصر (١٤٧) سنة، وكان قد أوْصَىٰ يعقوب ابْنَه يوسُفَ أنْ يَدْفِنَهُ مع أبيه إسحاق، ففعل يوسُفُ ذَلِكَ، وسَارَ بِهِ إلى الشَّام، ودَفَنَهُ عِنْدَ أبيهِ في المغارة بِحَبْرُون «مَدِينَة الْخَلِيل».

وقَدْ وَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هَـٰذَا النصّ الّذِي نتدبَّرُه إبراهيمَ وإسْحَاق ويَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلام بقَوْلِهِ: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾: أي: كُلَّ واحِدٍ من هَـٰؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ هَدَيْنا.

«كُلًّا» حُذِفَ المضافُ إلَيْهِ، وعُوِّضَ عَنْهُ التَّنوِينُ الذي يُسَمَّىٰ تَنْوِينَ الْعِوَض. وهو مَفْعولٌ بِهِ مُقَدَّمٌ على فِعْلِ «هَدَيْنَا» وهذا التَّقْدِيمُ يُفِيد تَخْصِيصَهُمْ بِنَوْعٍ من الْهِدَايَةِ، امتازُوا بِهِ عَنْ غيرهم، ومِنْهُ الاصْطِفَاءُ بِالنُّبُوَّة، وتَعْلِيمُهُمْ عُلُوماً دِينيَّةً، وعُلوماً هَادِيَةً إلى صِراطِ السَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ والْأُخْرَوِيَّةِ، لأنَّهُمْ مؤهَّلُونَ لِهذا الاصْطفاء.

(٣) نوح عليه السلام:

يذكر النَّسَّابون أنه: «نُوحٌ عليه السَّلام» بن لامل، بن مَتُوشَالح، بن «إدريس = أخْنُوخ عَلَيْه السلام» بن يارد، بن مَهْلَائيل، بن أَنُوش، بن «شِيث عليه السلام» بن «آدم عَلَيْهِ السلام» أبي البشر. واللهُ أعلم.

أرسَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى قَوْمٍ فَسَد حَالُهُمْ، ونَسُوا أُصُول شَرِيعَةِ الله الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَىٰ رُسُلِهِ السَّابقين، وصَارُوا يَعْبُدُونَ الأَوْثَان، وَأبان القرآن الكريم أنَّهم اتَّخذُوا خَمْسَة أَوثانٍ يُعَظِّمُونَها ويَعْبُدونها هي: «وَدّ ـ سُواع ـ يَغُوث ـ يَعُوق ـ نَسْر».

وقد أَفْرَدْتُ كِتاباً لِتَدبُّر النُّصُوصِ القرآنِيَّة الواردة بِشَأْنِ نوح وقَوْمِهِ في القرآن، بعنوان: «نوحٌ عليه السَّلام وقومه في القرآن المجيد» وظَهَرَ لِي أَنَّهَا مُتَكامِلَةٌ فيما بَيْنَها.

وجاء ذِكْرُ نوحٍ عليه السَّلام في هَـٰذَا النَّصِّ الذي نَتَدَبَّرُهُ بِقَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ﴾: أي: وَكُلًّا مِنْ إبراهيمَ وإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ هَدَينَا، وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ في تَارِيخِ الْأُمَم.

(٤) دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلام:

لفظ «داوود» اسم عِبْرِي معناه «مَحْبُوب». وذكَر الإسرائيليون نَسَبَهُ على الوجه التالي: «داود بن «يَسِّي = إيشا» بن عَوْبِيد، بن «بوعز = أَفْصَان» بن سلمون، بن نَحْشُون، بن عَمِّينَا دَاب، بن إرَام، بن حَصْرون، بن فَارِص، بنْ يَهُوذا، بن «يَعْقُوب = إسرائيل» عليه السَّلام.

وداود عليه السَّلام من الرُّسُل الَّذِين أرْسَلَهُمُ اللهُ إلى بني إسرائيل، وقد آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ والنبوَّة، وآتاهُ الزَّبُورَ كتاباً مُنَزَّلاً فيه أدْعِيَةٌ وابتهالَات.

وسبق في الملحق الثالث من ملاحق تدبّر سورة (ص/٣٨ نزول) تَدبُّر بقيةِ مَا جَاءَ في القرآن عن داود عليه السلام بنَظْرَة تكامُلِيَّة، مع ما جاء في السُّورَةِ مِنْ قِصَّتِهِ.

(٥) سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلام:

هو ابْنُ داوُد عليهما السلام، وقد آتاه اللهُ النُّبُوَّةَ والرِّسالَةَ والمُلْك مِثْلَ أبيه داود.

وسبق في سورة (ص/٣٨ نزول) تَدَبُّر مَا جَاء من قِصَّتِهِ فيها أَمَّا تَدَبُّرُ كُلِّ مَا جَاء في القرآن ممَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ عليه السَّلام، تَدَبُّراً تكامُلِيًّا فَيَتَطَلَّبُ دِرَاسَةً خَاصَّةً فِي مُلْحَقٍ أسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنِي عليه مُسْتَقبلاً.

(٦) أيُّوب عليه السَّلام:

كان أيُّوبُ عليه السَّلام رَجلاً من الرُّوم، ويتَّصِلُ نَسَبُهُ بعيص بن

إسْحَاق بن إبراهيم عليه السَّلام، وعيص هو أخو «يعقوب = إسرائيل» عليه السَّلام.

وأيوب عليه السَّلام كان نبيًّا ورسُولاً، فقد ذكره اللهُ عزَّ وجلَّ في عداد مجموعةٍ من الرَّسُلِ عليهم السلام.

وقد سبق لدى تَدَبُّر مَا جَاء من قِصَّتِهِ في سورة (ص/ ٣٨ نزول) في الآيات من (٤١ ـ ٤٤) بيانٌ كافٍ عمَّا جاء بشَأْنِهِ في القرآن الكريم، وعند المؤرّخين(١).

(٧) يوسُف عليه السَّلام:

قال رسولُ الله ﷺ بِشَأْنه:

«الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الكرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إسْحَاقَ بْنِ إبْرَاهِيم».

وقد ذكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في عدادِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ، عَلَيْهِم السّلام.

وسَبَقَ لَدَى تدبُّر سُورَةِ (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) بيانٌ كافٍ عنه.

(٨ و٩) مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام:

هما ابْنا عمران (عِمْرامْ بالْعِبْرِية) بْن قَاهَت (قَاهان) بن لاوي، بن يَعْقُوب، بن إسْحاق، ابْنِ إبراهيم خليل الرحْمٰن، على رُسُلِ اللهِ السّلام.

وقد سبق ذِكْرٌ لموسَىٰ وهَارُونَ وبيانات مُفَصَّلَاتٌ في عدة سُور، ومِنْها سورَة (طه/ ٤٥ نزول).

---

(١) انظر الصفحات من (٥٧٦ ـ ٥٨٦) من المجلد الثالث من هذا الكتاب.

وموسَىٰ عليه السَّلام من كِبَارِ أُولي العزم من الرُّسل.

وَجاء في النَّصِّ الذي نَتَدَبَّرُهُ من سورة (الأنعام) عَقِبَ ذِكْرِ دَاوُد، وسُلَيْمَانَ، وأَيُّوبَ، ويُوسُفَ، ومُوسَىٰ، وَهَارُونَ، قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٨﴾: وَأَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا التعْقِيب يَنْسَحِبُ أيْضاً على الرُّسُلِ الّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ في هذا الدَّرس، وهم: إبراهيم، وإسْحَاقُ، ويعقُوبُ، ونُوح، ويَشْمَلُ أَيْضاً كُلَّ الْمُرْسَلِينَ، فهم جَمِيعاً مُحْسِنُونَ من أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان.

فالمعنى: وَمِثْلَ ذَلِكَ الجزَاءِ الَّذِي مَنَنَّا بِهِ على هَـٰؤُلَاءِ المذْكُورِينَ من الرُّسُلِ، نَجْزِي سَائِرَ المحْسِنين، فَهَـٰذَا مِنْ سُنَنِ اللهِ في عباده.

وَلَمْ يُحَدَّدْ في النَّصِّ نَوْعُ الجزَاءِ، وَلَكِنْ قَدْ يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ فيه بِشَأْنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلام: ﴿... نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٣٨﴾: وَرَفْعُ الدَّرَجاتِ يَشْمَلُ كُلَّ عَطَاءٍ فِيهِ تَفْضِيلٌ.

(١٠ و١١) زَكَرِيَّا ويَحْيَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلام:

سَبَقَ الحديثُ عَنْ زَكَرِيَّا وابْنِهِ يَحْيَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلام لَدَىٰ تَدبُّرِ أَوَائِلِ سورة (مَرْيم/ ٤٤ نزول).

وهُمَا نبيَّان رَسُولَان من رُسُلِ بَنِي إِسْرَائِيل، وقد ذكرهما اللهُ عزَّ وجلَّ في عِدَادِ مَجْمُوعَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السلام، ولم يَذْكُرِ المؤرِّخُونَ لَهُمَا نَسَباً مُتَّصِلاً مَوْثُوقاً به، وَكَانَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلام ممَّن لَهُمْ شَرِكَةٌ في خِدْمَةِ الْهَيْكَلَ.

(١٢) عيسىٰ ابن مَرْيم عليه السلام:

هو آخر رُسُل بَنِي إسرائيل، وقد ذَكَرَهُ الله في عِدَادِ مجموعة الرسُل الَّذين قَصَّ عَلَيْنَا لَقَطَاتٍ مِنْ قَصَصِهِم عليهم السلام.

وقد سبق تَدَبُّر مَا جَاءَ عَنْهُ وَعَنْ أُمِّهِ في سورة (مريم/ ٤٤ نزول) في الآيات من (١٦ ـ ٣٧).

واسْمُه عند النصارى: «يَسُوَع» وهو اللّفظ العربي للاسم العِبْرِي «يَشُوع» ومعناه «يَهْوَه مخلّص» ولَقَبُه: «الْمَسِيح».

هو عيسى ابْنُ مريم ابنة عِمْران، ويتَّصِلُ نَسَبُ عمران بداود عليه السلام، فهو من سبط (يهوذا).

ودراسة كلّ مَا جاء في القرآن المجيد بشأن عيسىٰ عليه السَّلام يحتاج بَحْثاً مُسْتَقِلًّا، أَرْجُو أَنْ يُوَفِّقَنِي اللهُ لِذَلِكَ في تَدَبُّرٍ تكامُلِيّ.

(١٣) إلْياس عليه السَّلام:

ذَكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ضِمْنَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الْأَنْبياء والمرسَلِينَ. ولَمْ يتَّفق المؤرِّخون على نَسَبٍ منضبط له، وذكر الطبريُّ له النّسبَ التّالي: «هو إلياس بن يَاسِين بن فنحاص بن العيزار بن هارون» فهو على هذا من ذُرِّيَّة هارون عليه السلام، فهو من بني إسرائيل.

ويُسَمَّىٰ عِنْدَ الإسرائيليّين: «إِيلِيَّا» وهو اسم عِبْرِيّ معْنَاه: «إِلَهِي يَهْوَه» واسْمُهُ في اليونانية والعربيَّة «إلْيَاس» وله عند الإسرائيليّين عِدَّة أخبار.

وجاء في النّصِّ الَّذِي نَتَدَبَّرُه عقِبَ ذِكْرِ «زَكَرِيَّا، وَيَحْيَىٰ، وَعِيسَىٰ، وإلْيَاس» قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٨﴾: وأَرَىٰ أَنَّ هَٰذَا التَّعْقِيبَ يَنْسَحِبُ أيضاً على كُلِّ الرُّسُلِ الّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ فِي هَٰذَا الدَّرْس، فَهُمْ مُحْسِنُونَ، والْمُحْسِنُونَ كُلُّهُمْ صَالِحُون.

(١٤) إسْمَاعِيلُ عليه السَّلام:

هو ابْن إبراهيم عليهما السَّلام من قَرِينَته «هاجر» المصرية الَّتي أهداها فرعون مِصْر لزوجة إبراهيم «سَارَة» بَعْدَ أَنْ حَمَاهَا اللهُ منه بدعاء

إبراهيم عليه السلام، ثم أَهْدَتْهَا لَهُ فأنجب منها «إسماعيل» حين كان عمره (٨٦) سنة.

ومعنى «إسماعيل» بالعبرية «يَسْمَعُ الله» وجاء عند أبي البقاء أنّ معناه «مُطِيع اللهِ».

ويترجّح أنّ اللهُ عزَّ وجلَّ بَعَثَهُ رَسُولاً إلى القبائِلِ العربيَّةِ الَّتِي عاشَ عليه السَّلام في وَسطها، وذكر الْمُؤرخون أنَّ اللهَ أرْسَلَهُ إلَىٰ قبائِلِ الْيَمَنِ وإلى العماليق.

وقد قَصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآن جوانب من حَيَاتِهِ، مِنْهَا قِصَّةُ أَمْرِ اللهِ لأبيهِ بأنْ يَذْبَحَهُ، فاسْتَجَابَا، وحِينَ بَاشَرَ بِذَبْحِهِ فَدَاهُ اللهُ بِذِبْحٍ عَظِيم، ومِنْهَا مُشَارَكَتُهُ لِأَبِيهِ إبْرَاهِيمَ عليهما السَّلام في رَفْعِ القواعِدِ من البيت.

(١٥) الْيَسَع = اللَّيَسَع عَلَيْه السلام:

واسْمُهُ عند الإسْرَائِيلِيِّين «أَلِيشَع» ومَعْنَاهُ بالْعِبْرَانيّة: «اللهُ خَلاص». وهو ابْنُ «شَافَاط» من سِبْط «يَسَّاكر» فهو من بني إسرائيل.

أقام في «آبل مَحولَة» في وَادِي الْأُرْدن، آمَن بالرَّسُول «إلْيَاس = إيلِيّا» واتَّبَعَهُ، وصَاحَبَهُ مُدَّة حَيَاتِهِ في الأرض، ثُمّ أرْسَلَهُ اللهُ من بَعْدِه في بني إسرائيل، فَدَعَاهُمْ إلى نَبْذِ عبادة الأصنام، وإلَىٰ الاسْتِمْسَاكِ بِعِبَادَةِ اللهِ وحْدَهُ، كما كان يَفْعَلُ «إلياس» عليهما السلام.

وذكر الإسرائِيلِيُّون عِدَّة خوارق عادات أَجْرَاها اللهُ له.

(١٦) يونس بن متَّىٰ عليه السَّلام:

اسْمُهُ عِنْدَ الإسرائيليّين «يُونَان» بن أَمِنَايَ، من سِبْط «زَبُولون» أَحَدِ أَوْلَاد «يعقوب = إسرائيل» عليه السَّلام. وكَان مِنْ أَهَالِي «جت حافر» عَلَىٰ بُعْدِ ثَلاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ النَّاصِرة. وعند المؤرخين العرب أَنَّ نسبه يتصل بِبَنْيَامِين.

أرْسَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلَىٰ أَهْلِ «نِينَوىٰ» وهي مدينة كبيرَةٌ كانت تَقَعُ علىٰ نَهْرِ دَجْلَةَ أَوْ قَرِيباً مِنْه، تُجاه مَدِينَةِ الموصل من أَرْأشور (في القِسْمِ الشَّمَالِي من العِرَاق الحديث) وكان عَدَدُ سُكَّانِها مائة أَلْفٍ أو يَزِيدُون.

قالُوا: وَكَانَتْ «نِينَوىٰ» عَاصِمَةَ الإمْبَرَاطُورية الأَشْورية.

قال المؤرخون: وكان لِأَهل «نينوىٰ» صَنَمٌ يَعْبُدونَه اسْمُه «عَشْتَار».

ويُوجَدُ سِفْرٌ عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ بعنوان «يونان» من ثلاث صفحات ونِصْف، فيه قِصَّةُ إلقائه في الْبَحْر والْتِقَام الحوت له، لكِنْ فِيه أَنَّهُ عَصَىٰ ابْتداءً أَنْ يَذْهَبَ إلَىٰ أَهْل «نينوى» كما أَمَرَهُ الرَّب، وأراد أَنْ يَهْرُبَ إلَىٰ «تَرْشيش» من وَجْهِ الرَّب، وَهَـٰذَا مُخَالِفٌ لِمَا جَاءَ في القرآنِ عنه. ويظهر أَنَّ كاتِبَ السِّفْرِ كَتَبَهُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الشَّائِعَةِ الْمُحَرَّفَةِ في زَمَانِه.

والقرآن هو الْمُهَيْمن المطابق للْحَقّ.

والَّذي يظهر أَنَّ رسالَتَهُ عَلَيْه السلام كانت خلال القرن الثامن قبل مِيلاد المسيح عيسَىٰ عَلَيْهِ السلام.

(١٧) لُوط عَلَيْه السلام:

هو لوط بن هارون بن تارَح «= آزر» بن ناحور، فهو ابْنُ أَخِي إبراهيم عليه السَّلام، آمَنَ بِهِ وهَاجَرَ مَعَهُ من العراق، ثُمَّ أَرْسَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى أَهْلِ «سَدُوم» وكانَتْ لَهُمْ خمْسُ قُرىٰ، هي: «صَبْغَةُ ـ عَمْرَة ـ أَدْما ـ صَبُويم ـ بَالِع» وقَدْ قَلَبَ اللهُ بِلَادَهُمْ، وجَعَلَ عَالِيهَا سَافِلَها، فَهِي الآن في قاعِ الْبَحْرِ الميّت من أَرْضِ الشام.

وقد سبقت الدّراسة التَّكامُلِيَّة للنُّصُوصِ القرآنية الواردة في القرآن كُلِّهِ بِشَأْنِ لوط وقومه، في الملْحَقِ الخامس من مَلاحِقِ تَدبّر سورة (الْأَعْرَاف/ ٣٩ نزول)[١] مع ذِكْرِ جوانب مِنْ تاريخه.

---

[١] انظر الصفحات من (٢٧٩ ـ ٣٥١) من المجلد الخامس من هذا الكتاب.

وجاء في النّصّ الذي نَتَدَبَّرُهُ مِنْ سُورة (الأنعام) عَقِبَ ذِكْرِ: «إسْماعيل، والْيَسع، وَيُونُس، ولُوط» قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿... وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٨﴾﴾: أي: وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ، إِذْ وَجَدْنَاهُمْ مُسْتَحِقّينَ لهذا التفضيل، وهَـٰذَا التفضيلُ يَنْسَحِبُ عَلَىٰ كُلِّ الرُّسُلِ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ في هذا الدَّرْس، وعَلَىٰ سَائِرِ الرُّسُلِ إِذْ هُمْ جَمِيعاً مُفَضَّلُون على العَالَمِين من غير المرسَلِين، فَقَدِ اصْطَفَاهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَة.

ولِحِكْمَةٍ مَا ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الرُّسُلَ السَّبْعَةَ عَشَرَ الَّذِينَ سَبَقَ الحديث عَنْهُمْ في هَـٰذَا الدَّرْسِ مُقَسَّمِينَ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَام، وَوَصَفَ الْقِسْمَ الأَوَّلَ بأَنَّهُمْ مَهْدِيُّونَ، وأَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ، ووصَفَ الْقِسْمَ الثاني بأَنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَوَصَفَ الْقِسْمَ الثَّالِثَ بِأَنَّهُ فَضَّلَهُمْ عَلَىٰ العالمين، مَعَ أَنَّنَا نُدْرِكُ ذِهْناً أَنَّهُمْ جَمِيعاً مُتصِفُونَ بِكُلِّ هَـٰذِهِ الصِّفَاتِ، وكذَلِكَ سَائِرُ الْمُرْسَلِين.

وأقول: إنَّ هَـٰذَا التَّقْسِيمَ دعَتْ إِلَيْهِ فَنِّيَّةُ تَجْزِئَةِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي يُرَادُ ذِكْرُهَا عَلَىٰ التَّوَالِي، مَعَ تَوْزِيعِ الصِّفَاتِ عَلَىٰ الْأَقْسَام، التي يَشْتَرِكُون فِيها جَمِيعاً، لِيُتْرَكَ لِذِهْنِ المتدبِّر إِدْرَاكُ تَعْمِيمها عَلَىٰ الْجَمِيعِ قِيَاساً، وهذا أَحَدُ أَسَالِيبِ الْقُرآنِ الْفَنِّيَّةِ الجميلة.

- قول اللهِ تعالى يَتحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

- ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: وَبَعْضُ آبَاءِ مَنْ ذَكَرْنَا آنِفاً مِنَ الرُّسُلِ، وبَعْضُ ذُرِّيَاتِهِمْ وَبَعْضُ إِخْوَانِهِمْ، كَانُوا مُحْسِنِينَ، وَكَانُوا مِنَ الصَّالِحِينَ، وَوَجَدْنَاهم ذوي فَضْلٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ فَجعَلْنَاهُم نَبِيِّينَ ومُرْسَلِين، وَهَدَيْنَاهم إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، بما أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ شَرَائِعَ وَأَحكَامٍ، وَكَلَّفْنَاهُمْ أَنْ يُبَلِّغُوهَا لِأُمَمِهِمْ وَأَقْوَامِهِمْ.

ويَشْمَلُ هَـٰذَا الْبَيَانُ مَنْ لَمْ يَقْصُصِ اللهُ في القرآن على رَسُولِهِ وَعَلَىٰ أُمَّتِهِ مِنَ الرُّسُل، وأوضَحَ اللهُ هَـٰذَا المعنى وأكَّدَهُ بِقَولِهِ لِرَسُوله في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ ... ﴿٧٨﴾﴾:

- قول الله تَعالَىٰ:

- ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

ذَلِكَ الْهُدَىٰ الْعَظِيمُ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الرِّسَالاتُ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَىٰ رُسُلِنَا، والْهَادِيَة إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، هُو هُدَىٰ اللهِ، واللهُ يَهْدِي إِلَىٰ الحقّ وَإِلَى صراط مُسْتَقِيمٍ يُوصِلُ إلى السَّعَادَةِ الخالدة.

وهذا الْهُدَىٰ يَهْدِي به اللهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه، إِذْ يَصْطَفِيهِمْ فَيَجْعَلُهُمْ رُسُلاً يَتَلَقَّوْنَ عَنْهُ هُدَاهُ، ويُبَلِّغُونَهُ إِلَىٰ أُمَمِهِمْ وأقوامِهم كَمَا تَلَقَّوْهُ، واللهُ إِنّما يَصْطَفِيهِمْ بِحِكْمَتِهِ لِعِلْمِهِ بأَنَّهُمْ أَهْلٌ لِهَـٰذَا الاصطفاء.

وَلَوْ أشْرَكَ هَـٰؤُلَاءِ المصطَفوْنَ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ لَأَبْطَلَ اللهُ مُسْقِطاً عَن صَحَائِفِهِمْ سَوَابِقَ أعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ الَّتِي كانُوا يَعْمِلُونَهَا، وَلَسَلَبَهُمْ مَا فَضَّلَهُمْ بِهِ، واصْطَفَاهُمْ لِتَبْلِيغ رِسَالَاتِهِ، ولَعَاقَبَهُمْ على شِرْكهم. لَكِنَّهُمْ مَا أَشْرَكُوا، بَلْ كَانُوا جَمِيعاً مُؤَهَّلِينَ لِمَا اجْتَبَاهُمْ اللهُ لَهُ.

حَبِطَ الْعَمَل: أي: بَطَلَ فَلَمْ يُحقِّقِ الْغَايَةَ مِنه.

- قَول اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الرُّسُل في هَـٰذَا الدَّرْس:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: أُولَئِكَ الرُّسُلُ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ آنِفاً، رَفِيعُوا المكانَةِ، الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكتابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ وبَعَثْنَاهُمْ رُسُلاً إلى أُمَمِهِمْ، حَامِلِينَ رِسَالَاتِنَا للنَّاسِ، قَدْ بَلَّغُوا أقْوَامَهُمْ وأُمَمَهُمْ نَظِيرَ الرِّسَالَةِ الَّتِي أَرْسَلْنَاكَ بِهَا للنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

الكتاب: لفظٌ يَشْمَلُ النُّصُوصَ الدِّينيَّةِ التعليميّة والتكليفيَّة الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ علىٰ رُسُلِهِ.

الْحُكْم: فِقْه الأمور، ومَعْرِفَةُ الحقِّ والْبَاطِلِ وحُدُودِهما، ومَعْرِفَةُ الخير والشرّ وحُدُودِهما، والحسَنِ والسَّيِّئِ وحُدُودِهما، والْجَمِيلِ والْقَبِيحِ وحُدُودِهما. وبناءً على فِقْهِ الأُمور يُصْدِرُ مَنْ أُوْتِيَ الْحُكْمَ أحْكَامَهُ الْعِلْمِيَّةِ وأحْكَامَهُ القضائية.

النُّبُوة: هي اصطفاء اللهِ عَبْداً مِنْ عبادِه بِإِنْبَائِهِ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ مَا يَتعَلَّقُ بالدِّين الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبادِه، وغير ذَلِكَ مِمَّا تَقتضيه حِكْمَتُه.

- ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ﴾: أي: فإنْ يَكْفُرْ بِرِسَالَتِكَ يا مُحَمَّدُ كُبَرَاءُ قَوْمِكَ فِي مَكَّة، الَّذِينَ تَرْغَبُ فِي أَنْ يَحْمِلُوا رِسَالَتَكَ ويَكُونُوا وُكَلاءَكَ في تَبْلِيغِها للنَّاس، لأنَّهُمْ أهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ الأقْرَبُون.

- ﴿... فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾: أي: فَقَدْ وَكَّلْنَا عَنْكَ بِتَبْلِيغِها للنَّاسِ قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ، بَلْ هُمْ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ دُعَاةٌ إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ صِراطِهِ المسْتَقِيم، وهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا مِنْ أصْحَاب مُحَمّد، وَالَّذِينَ عَلِمَ اللهُ أنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ ويَسْلِمُونَ، ويَقُومُونَ بِتَبْلِيغ رِسَالَةِ الرَّسُول محمّد ﷺ إلى النَّاسِ أجْمَعِينَ عَبْرَ تاريخ النَّاسِ المسْتَقْبَلِيّ.

دلَّنِي على هذا اسْتِعْمَالُ فِعْل: ﴿وَكَّلْنَا﴾ مع قول الله عزّ وجلّ لِرَسُوله: في سُورَة (الإسراء/ ٥٠ نزول): ﴿... وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾:

فهٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ عبارة ﴿وَكَّلْنَا﴾ يرادُ بِهَا التوكيلُ عَنِ الرَّسُولِ بِتَبْلِيغِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ رِسَالَتُهُ للنَّاس. واللهُ أعْلَم.

قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُوله:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

اقْتَدِه: أي: تأسَّ واتَّبعْ، والهاء هي هاء السَّكْت.

أي: أُولَٰئِكَ الرُّسُلُ الَّذِينَ ذَكَرْنَا آنِفاً أَسْمَاءَهُمْ والَّذِينَ لَمْ نَذْكُرْ بالتفْصِيلِ أَسْمَاءَهُمْ بَلْ أَجْمَلْنَاهُمْ بعِبَارَة: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ﴾ هُمُ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ فَحَكَمْنَا لَهُم بالْهِدَايَةِ المثْلَىٰ بَعْدَ أَنْ وَجَدْنَاهُمْ بالتَّجْرِبَةِ مَهْدِيِّينَ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِ، لِأَنَّهُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لَكَ.

ومِنْ عَناصر اهتدائِكَ بهم أَنْ تَقُولَ لِقَوْمِكَ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ مَا أَقُومُ بِهِ مِنْ أَجْلِ نجاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ وتَبْلِيغكُمْ دِينَ رَبِّكُمْ وكِتَابَهُ أجْراً ما.

﴿... إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾: أي: مَا الَّذِي جِئتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ إِلَّا تَذْكِيرٌ لجميع العَالَمِينَ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ، فإنْ آمَنْتُمْ وَأَسْلَمْتُمْ فَهُو لخيركم، وَإِنْ كَفَرْتُمْ فَقَدْ أَعْتَدَ رَبُّكُمْ لَكُمْ عذاباً أَلِيماً في الجحيم يَوْمَ الدين.

ذِكْرَىٰ: اسم بمعنى التَّذْكِير، وبمَعْنَىٰ التَّذَكُّر، وبمعنى الوسيلة الَّتِي يُتَذَكَّرُ بها، أمَّا التَّذْكِير فَمَطْلُوبٌ مِنْ حَمَلَةِ رِسالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحق، وأَمَّا التَّذَكُّر فَهُو مَطْلُوبٌ مِنْ كُلِّ مَنْ عَلِمَ مِنْ دِينِ اللهِ وكِتَابِهِ شيئاً، وأَمَّا التَّذْكِرَةُ فالمطلوبُ بشَأْنِها أَنْ يَتَّخِذَهَا كُلُّ مَنْ تَلَقَّىٰ الْقُرْآن وسَائِرَ بيانات الرَّسُولِ ﷺ، بِمَثابَةِ بِطَاقَةِ تَذْكِيرٍ تُذَكِّرُهُ بِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْه فِعلاً أَوْ تَرْكاً.

وهَلْ يَدُلُّ أمْرُ اللهِ رَسُولَهُ بِأَنْ يَقْتَدِيَ بالرُّسْلِ مِنْ قَبْلِه على أنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا مِنَ الرُّسُلِ هُو شَرْعٌ لنا؟

أقول: ظاهِرُ النَّصّ يَدُلُّ عَلَىٰ تَكْلِيفِ الرَّسُولِ أَنْ يَقْتَدِي بالرُّسُلِ من قبله في مجال الدَّعْوَةِ، فيَصْبِرَ كَمَا صَبَرُوا، ويَتَبَرَّأَ مِنْ المصلَحَةِ الشخصية لدى قومه كما تَبَرَّؤوا، ونحو ذلك.

وأمّا بالنسبة إلىٰ أحْكام التكاليفِ الشرعِيَّةِ فأرْجَحُ أقوال الْفُقَهاء فِيما أَرَىٰ أَنَّ شرع من قبْلَنا شَرْعٌ لنا مَا لم يَأتِ في شَرْعِنَا مَا يُخَالِفُ شَرْعَ من قبْلَنا، واللهُ أعلم.

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس الثامن عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٣)

التدبر التحليلي للدّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآية (٩١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

القراءات:

قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو: [**يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَها وَيُخْفُونَ**] بياء الغائبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُونَ]** بتاء المخاطبين.

تمهيد:

هذا الدرس من فروع السَّاق الثاني من سَاقي شجرة موضوع السّورة.

وتَدُلُّ القراءَتَانِ على أَنَّ بَعْضَ كُبَراء مُشْرِكِي مَكَّة المعانِدِينَ، سَمِعُوا مِنْ بَعْضِ الكَذَّابِينَ المضِلِّين مِنْ أَحْبَارِ اليهود قولَهُمْ: مَا أَنْزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، فَرَدَّدُوا مَقَالَتَهُمْ.

فخاطَبَ اللهُ رَسُولَهُ بأَنْ يَقُول لمشركي مَكَّةَ بِحَسَبِ قراءَةِ ابْن كثير وأبي عَمْرو قائلاً لَهُ: **[قُلْ مَنْ أنزلَ الكِتَابَ الَّذي جاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدىً للنَّاسِ يَجْعَلونَه قَرَاطِيسَ تبدُونَهَا وتخفونَ كَثِيراً]**: أي: يجعله اليهود.

وخاطَبَهُ بأَنْ يَقُولَ لليهود بحَسَبِ قراءَة جمهور القراء قائلاً له:

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾: أي: وتخفونَ كثيراً مِنْها لئَلّا تكُونَ حُجَّةً عَلَيْكُمْ، وقد جاء في أَسْبَاب النزول ذِكْرُ اليهودي «فنحاص» واليهودي «مَالِك بن الصيف» وأنّهما مِمَّنْ قال هذه المقالَة، أو أوحَىٰ بها إلَىٰ بعض مُشْرِكي مكة.

التّدبّر التحليلي:

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ...﴾: أي: وما قَدَرُوا اللهَ حق قدره حِينَ قَالُوا هَـٰذَا القول.

يُقالُ لغة: «قَدَرَ الشَّيْءَ» أي: بَيَّنَ مِقْدَارَه، أَوْ عَلِمَ مِقْدَارَه، ومَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ عَلِمَ مِقْدَارَ الْعَظِيمِ الكَبِيرِ عَظَّمَهُ وَكَبَّرَهُ، علَىٰ مِقْدَارِ عِلْمِهِ بِعَظَمَتِهِ وَكِبَرِه.

فالَّذِينَ قَالُوا: مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شيءٍ، سَواءٌ أكانُوا مِنَ الْعَرَب أَمْ مِنَ الْيَهُودِ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، فَهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ يَقَعُونَ فِي كَبِيرَتَيْن مُكَفِّرَتين:

الكبيرَةُ الأولىٰ: اتّهامُ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بالْعَجْزِ عَنْ إنْزَالِ كُتُبٍ أَوْ صُحُفٍ وآيَاتٍ بَيَانِيَّةٍ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنَ الْبَشَرِ، وهُو الّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ سَائِرَ خَلْقِهِ مِنَ الْعَدَم، وهو على مَا يشاءُ قدير.

الكبيرةُ الثانية: الاسْتِهَانَةُ بعِقَابِ اللهِ على تَكْذِيب رُسُلِهِ فيما يُبَلِّغُونَ عَنْ رَبِّهِمْ، وهُمْ مُؤَيَّدُونَ مِنْهُ بالمعْجِزَاتِ الباهرات.

ولَوْ أَنَّهُمْ قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه لَعَلِمُوا أَنَّه قَدِيرٌ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، ولَعَلِمُوا أَنَّه يُعَاقِبُ مَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ الصَّادِقين بالْخُلُودِ فِي عَذَاب النَّارِ يَوْمَ الدِّين لِأَنَّهُمْ كافِرُونَ كُفْراً عِنَادِيًّا لَا عُذْرَ لَهُمْ فيه.

- ﴿. . . قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾:

كَانَ كُفَّارُ قُرَيشٍ يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّ التَّوْرَاةَ كِتَابٌ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَمِنَ الْحِكْمَةِ فِي المناظَرَةِ انْتِزَاعُ اعْترافِهِمْ بأنَّ اللهَ هُو الَّذِي أَنْزَلَهُ، أَوْ إفْحَامُهُمْ بذلِك، وهَـٰذَا يَنْقُضُ ادّعَاءَهُمْ في مَقُولَتِهِمْ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

نوراً: أي: عِلْماً بيّناً واضحاً كوُضُوح النور. **هدًى:** أي: هَادِياً إلى الحقِّ وصراطِ السَّعَادَة.

أَمَّا شياطِينُ الْيَهُودِ الّذِينَ أَوْحَوْا لَهُمْ بِهَـٰذِهِ الْمَقُولَةِ الافتِرَائِيَّة، فإنَّهُمْ يُعْلِنُونَ إيمانَهُمْ بالتوراة، فالْحُجَّةُ دَامِغَةٌ لَهُمْ وناقِضَةٌ لِمقُولَتِهِمْ بداهَة، ولَا يَجِدُونَ مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ افْتِرَاءَهُم.

وتُلَائِمُهُمْ قراءة جُمْهورِ الْقُرَّاءِ العشرة: **[تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا**

وَتُخْفُونَ كَثِيراً] بأسْلُوبِ الخطاب، أي: تَجْعَلُونَ كِتَابَ التوراة مَكْتُوباً فِي قراطِيسَ مُتَفَرِّقَة، تُبْدُونَ بَعْضِهَا بِحَسَبِ أَهْوَائِكُمْ، وتُخْفُونَ كثيراً مِنْهَا بِحَسَبِ أَهْوَائِكُمْ.

قَراطِيس: جمع «قرطاس» وهو الصحيفَةُ يُكْتَبُ فيها.

أمّا قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ، وأَبي عَمْرو: **[يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يَبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيراً]** حَدِيثاً عَنِ الْيَهُودِ الْغَائِبِين، فَهِيَ تُلَائِمُ أَصْحَابَ المقالَةِ الافترائِيَّة مِنْ مُشْرِكي مَكَّة، الَّذِينَ تَأَثَّرُوا بِمَا أَوْحَىٰ لَهُمْ بَعْضُ الْيَهُود.

- ﴿... **وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ** ....﴾ أي: وَعُلِّمْتُمْ عَنْ طَرِيقِ ما أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ مَا لَمْ تَعْلَمُوا قَبْلَ إِنْزَالِهِ أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَمَا بالُكُمْ تَجْحَدُونَ عِلْماً عَلَّمَكُمُوهُ رَبُّكُمْ بِمَا أَنْزَلَ وَحْياً لِرَسُوله، رَغْبَةً في إِنْكَارِ نُبُوَّةِ وَرِسَالَةِ رَسُولِ رَبِّكُمْ، وتَهَرُّباً مِنَ الإيمان بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ، ومِن الْعَمَلِ بأحْكَامِهِ.

وبَعْدَ أَنِ انْتَهَىٰ بيانُ الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ الَّتِي عَلَّمَهَا اللهُ رَسُولَهُ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّته، قَالَ الله عزَّ وجلَّ لَهُ:

- ﴿... **قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴿٩١﴾﴾: أي: إِذَا سَكَتُوا مُفْحَمِينَ، فَلَمْ يُجِيبوا على سُؤَالِكَ لَهُمْ: ﴿**مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ**﴾؟! فَقُلْ أَنْتَ مُقَرِّراً الجواب الْحَقَّ: اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ، وهَـٰذَا يَنْقُضُ افْتِرَاءَكُمْ: ﴿**مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ**﴾.

ثم بَعْدَ انْفِضَاضِ مَجْلِسِ المناظَرةِ، إِذَا رَأَيْتَهُمْ مُصِرِّينَ على باطِلِهِمْ وافْتِرَاءَاتِهِم السَّاقِطَاتِ الْمَرْفُوضَاتِ عِنْدَ كُلِّ ذِي فِكْرٍ سَلِيم، فَذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ، ولَا تَعْبَأْ بِعَبَثِهِمْ وَلَا تَهْتَمَّ لَهُ، فَسَتَسْقُطُ مَقَالَاتُهُمْ الافترائِيَّة، ولَا يَقْبَلُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الرأْي، أو أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْد.

﴿ذَرۡهُمۡ﴾: أي: دَعْهُمْ واتْرُكْهُمْ.

﴿فِي خَوۡضِهِمۡ﴾: أَصْلُ الْخَوْض: المشْيُ في الماء وتَحْرِيكُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعَاني التضليل، والطَّعْنِ، والسُّخْرِية، والاسْتِهْزَاءِ بآيَات الله والكُفْرِ بها، وفي الأَقْوالِ الكاذِبَةِ الباطلة.

﴿يَلۡعَبُونَ﴾: أي: يُضِيعُونَ أوقَاتَهُمْ فيما لَا خَيْر فيه، **اللَّعِبُ**: ضِدُّ الْجِدّ، والكَفَرَةُ يُضيعُونَ رَأسْمَالِهِمْ: أَعْمَارَهُمْ وطَاقَاتِهِمْ في أعْمَالٍ باطِلَةٍ لَا خَيْرَ فيها، ثُمَّ يُلَاقُونَ مَصِيرَهُمْ عَذَاباً في جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها وبِئْسَ المصير.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس التاسع عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٤)

التدبر التحليلي للدَّرْس العشرين من دُروس سورة (الأنعام)

الآيات من (٩٢ ـ ٩٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (٩٢) وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ (٩٤)﴾:

القراءات:

(٩٢) • قرأ شعبة: **[وَلِيُنْذِرَ]** بياء الغائب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَلِتُنْذِرَ]** بتاء المخاطب، وهو الرسول ﷺ وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

(٩٣) • قرأ يعْقُوب: **[أَيْدِيهُمْ]** بضَمّ هاء الضمير، وهو لغة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بكَسْر هاء الضمير.

(٩٤) • قرأ نَافع، وحفص، والكسائي، وأبو جعفر: **[تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تقَطَّعَ بَيْنُكُمْ]**.

ومؤدّى القراءتَيْن واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

تمهيد:

آيات هذا الدرس من فروع السَّاق الأوّل من ساقي شجرة موضوع السورة، وفيها بيانٌ رَبَّانِيٌّ مُبَاشرٌ بِشَأْنِ القرآن والرَّسُول مُحمَّدٍ ﷺ، وبِشَأْنِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ علىٰ اللهِ كَذِباً، أَوْ يَزْعُمون اتّصَالَهُمْ بالْوَحْي، مصحوب بوعيد للظَّالمين.

التّدبّر التحليلي:

قول الله تعالى خطاباً لِرَسُوله محمد ﷺ فلكُلِّ مُتَلَّقٍ له:

• ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

مِنَ الحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ بَعْدَ الحديثِ عَنِ التوْرَاةِ فِي الدَّرْسِ السَّابق، جاء في هَـٰذِهِ الآيَةِ الْحَدِيثُ عَنِ الْقُرْآنِ مَعْطُوفاً عَلَيْه، أي: وَهَـٰذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ كَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَىٰ، وإذْ أَفْحَمَتْكُمُ الحجَّةُ الناقضة لادّعَائِكُمْ فاعْلَمُوا أنّ هذا القرآن كتابٌ:

﴿مُبَارَكٌ﴾: أي: ذو بَرَكَة. **والْبَرَكَةُ**: هي النَّمَاءُ والزّيادة في الحِسّيَّاتِ، وفِي الْمَعْنويَّات، ورُوِيَ عَنِ ابن عبَّاسٍ: أنَّ الْبَرَكَةَ الكَثْرَة مِنْ كُلّ خير.

ويقال لغة: بارَكَ اللهُ الشيءَ، وبَارَك فيه، وبَارَكَ عَلَيْهِ، أي: وضَعَ فيه البَرَكَة.

ومعنَىٰ كَوْنِ القرآنِ مُبَارَكاً أنَّهُ لَا تَنْضَبُ فُيُوضُ مَعَانِيه، وأنَّهُ ذُو خَيْرَاتٍ كثيراتٍ جدّاً، فِكْرِيَّة، ونَفْسِيَّةٍ، وشفائية، وغير ذَلِك(١).

- ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: وَهَـٰذَا القرآنُ مُبارَكٌ وَمُصَدِّقُ الَّذِي أُنْزِلَ قَبْلَهُ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّة وَمِنْهَا التوراةُ والزَّبُور والإنجيل.

تَعْبِيرُ: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ السَّبْقِ الزَّمَنِيِّ هُنَا، وفي كثيرٍ مِنَ النُّصُوص، أمَّا المتأخِّرُ في الزَّمَنِ فيُقَالُ بِشَأْنِهِ: «مِنْ خَلْفِهِ» لأنَّ المستقْبَلَ غَيْرَ مَشْهُودٍ للناس.

وتَصْدِيقُ القرآن لِمَا أُنْزِلَ قَبْلَهُ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّة، هو الإعْلَامُ بأنَّهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، بالنَّظَرِ إلى أُصُولِهَا الصَّحِيحَةِ، ولَيْسَ مُصَدِّقاً لِمَا حَرَّفَ النَّاسُ مِنْها.

- ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أي: ولِتُنْذِرَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا جاء في الْقُرْآنِ مِنْ إِنْذَارَاتٍ مَنْ يَسْكُنُ أُمَّ الْقُرَىٰ (= مَكّة المكرمة) المكَلَّفِينَ وَمَنْ هُمْ سَاكِنُونَ حَوْلَهَا امْتِدَاداً مَعَ الْأَرْضِ حَتَّىٰ آخِرِ سَاكِنٍ فيها. فَيَشْمَلُ مَنْ حَوْلَ مَكَّةَ المكَرَّمَة النَّاسَ جَمِيعاً.

وَتَكْلِيفُ الرَّسُولِ هَـٰذَا الْإِنْذَارَ هُوَ تَكْلِيفٌ لِكُلِّ مُؤَهَّلٍ مِنْ أُمَّتِهِ أنْ

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملحقي تدبر سورة (ق/ ٣٤ نزول) حول «الوصف بالبركة في القرآن المجيد» الصفحات من (١٤٥ ـ ١٦٧) من المجلد الثالث من هذا الكتاب.

يَحْمِلَ رِسَالَتَهُ للنَّاس، أَوْ بَعْضاً مِنْهَا عَلَىٰ مِقْدَارِ أَهْلِيَّتِهِ، فالْوَظِيفَةُ الْأُولَىٰ للمُؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً أَنَّهُم أُمَّةُ دَعْوَة، مُكَلَّفُونَ أَنْ يُبَلِّغُوا النَّاسَ مَا تبَلَّغُوهُ مِن الرَّسُول ﷺ، ولَا سِيمَا كِتابُ الله الْقُرْآن المجيد، وسمّيَتْ أُمَّ القرى لأَنَّهَا أَوَّلُ مَا سُكِنَ مِنْ الْأَرْضِ، وفيها أوَّلُ بيت وُضع للناس لعبادة الله:

وجاء في القراءة الْأُخْرى: [**وَلِيُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَها**] بياء المضارعة:

أي: وَلِيُنْذِرَ الرَّسُولُ وَحَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ. ولِيُنْذِرَ القرآن بما فِيهِ من إنذارات أَهْلَ أُمِّ الْقُرَىٰ ومَنْ حَوْلَها.

فَبَيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ فِي أَداء المعْنَىٰ المراد.

- ﴿... وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْحَياةِ الآخِرَةِ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ الْبَعْث، ويُؤْمِنُونَ بِمَا فِيها مِنْ حِسَابِ، وَفَصْلِ قَضَاءِ، وتَنْفِيذِ جَزَاءٍ، بِدَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، وبِدَارِ النَّعِيم الْجَنَّةِ، تَأَثُّراً بِبَرَاهِينِ الْعَقْلِ، وصَادِقِ الأَخْبار عَنِ الْمُرْسَلِينَ المؤَيَّدِينَ بالْمُعْجزاتِ الباهراتِ من اللهِ رَبِّ العالمين، يَدْفَعُهُمْ الْخَوْفُ مِنْ عَذَابِ اللهِ خالِدِينَ في الجحيم، ويَدْفَعُهُم الطَّمَعُ في الْخُلُودِ بالنَّعِيم المقيم، إِلَىٰ الإيمانِ بالْقُرآنِ وبما جَاءَ فيه، وَإِلَىٰ المحافَظَةِ علَىٰ الصَّلَواتِ المفْرُوضَة، مُسْلِمِينَ للهِ عَابِدِينَ.

المحافظة على الصَّلَاةِ: القيامُ بأدائِها في أَوْقَاتِها، مُسْتَوْفِيَةَ الشروط والأَرْكانِ والواجبات.

هذا البيانُ عَنِ الصَّلاةِ يَتعلَّقُ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ المفروضة، إذْ سَبَقَ فِي سُورَةِ (الإسراء/ ٥٠ نزول) بيانُ فَرْضِيَّتِها وَعَدِدِها، لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِالرَّسُولِ ﷺ مِنَ المسْجِدِ الحرامِ إلى المسْجِدِ الْأَقْصَىٰ.

والصَّلَوَاتُ المفْرُوضَةُ أوّلُ الأرْكَان الَّتِي تَمَّ تَحْدِيدُ عَدَدِهَا وأَوْقَاتِهَا من أرْكَان الإسلام الْعَمَلِيَّةِ الْخَمْس، وَثَانِي الْأَرْكَانِ بَعْدَ رُكْنِ إِعْلَان الشَّهَادَتَيْنِ وهما: أشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وأشْهَدُ أَنَّ مُحمّداً رَسُولُ الله.

- قول الله تَعَالَىٰ:

● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

هَـٰذِهِ الآية تُعَالِجُ ثلاثَ قضايا كُفْرِيَّةٍ هي مِنْ أظْلَم الظُّلْم:

القضية الأولَىٰ: الافْتراءُ عَلَى الله بادّعَاء أَنَّ اللهَ قَالَ كَذَا، أوْ حَكَمَ بِكَذا، أَوْ أَنْزَلَ كَذَا، وهو لم يقلْ ولَمْ يَحْكُمْ وَلَمْ يُنْزِلْ ما ادّعاهُ المفتري.

الْقَضِيَّةُ الثانية: أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا، أَنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيْهِ شيئاً مَا مَعَ أَنَّ اللهَ لَمْ يُوحِ إِلَيْهِ مَا ادَّعَاه.

الْقَضِيَّة الثالِثَة: أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ مَا: أَنَا سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتابِهِ على مُحَمَّدٍ مِنْ آياتٍ، لِيُوهِمَ بِأَنَّ مَا يُبَلِّغُهُ مُحَمَّدٌ عَنْ رَبِّهِ وَضْعٌ بَشَرِيٌّ، ولَيْسَ مُنَزَّلاً مِن عِنْدِ الله، فمُحَمَّدٌ لَيسَ رَسُولاً من رُسُلِ الله.

● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ اسْتِفْهَامٌ يُرادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ الأكْثَرِ ظُلْماً، أي: ولَكِنْ قَدْ يُشَارِكُ هَـٰؤُلَاءِ فِي دَرَكَةِ الظُّلْم ظالِمُونَ آخَرُونَ، فَدَلَّ هَـٰذا عَلَىٰ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ مع ظالِمِينَ آخَرِينَ لَا يُوجَدُ أظْلَمُ مِنْهُم، ومِنْ شُرَكَاءِ هَؤُلَاءِ فِي دَرَكَةِ الظُّلْم مُكَذِّبوا الرُّسُلِ الصَّادِقين، وَجَاحِدُوا رُبُوبيَّةِ اللهِ وإلَهِيَّتِهِ، والمكذّبون بيَوْمِ الدّين.

وقَدْ أَبَانَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ لَقْطَةً مِنْ لَقَطاتِ عَذَابِهِمْ فقال اللهُ تعالى:

- ﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ...﴾:

غَمَرَات: جَمْعُ «**غَمْرَة**» وهِيَ الشِّدَّة. وغَمَرَاتُ الْمَوْتِ شَدَائِدُهُ وَمَكَارِهُهُ الغامِرَة الْمُحِيطَةُ كإحَاطَةِ الماءِ الكثير بالغريقِ فيه. **فالْغَمْرَة**: تَأْتِي بِمَعْنَىٰ الْماءِ الكثير الغامِر.

أي: وَلَوْ رَأَيْتَ أَيُّهَا الرَّائِي أَيًّا كُنْتَ إِذِ الظَّالِمُونَ غارِقُونَ فِي شَدَائِدِ الْمَوْتِ وَمَكَارِهِهِ لَرَأَيْتَ أمْراً مَهُولاً مُرْعِباً («لو» هَـٰذِهِ إذا ولِيَها مضارع أُوِّل بالمضِيِّ). وجواب «لو» مطويٌّ من السَّهْلِ إدْراكُه.

﴿... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ...﴾: أي: والحالُ أَنَّ الملائِكَة بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ لِتَعْذِيبِهِمْ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأَدْبارَهُم، وَهُو مَا أَكْمَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بَيانَهُ بِشَأْنِ الْكَافِرِين في قولِهِ في سُورَةِ (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾:

ونَظِيرُه بشأن المنافقين في قوله تعالى فِي سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول): ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧﴾.

أُطْلِقَ «بَسْطُ الْأَيْدِي» على معْنَىٰ بَسْطِهَا بالمكْرُوه، ونظيرُه في القرآن (إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيدِيَهُمْ ـ ويَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ ـ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي).

وتقول الملائكة لهم:

- ﴿... أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ...﴾: أي: أَخْرِجوا أنْفُسَكُمْ مِمَّا تُحَاوِلُ الاحْتِمَاءَ بِهِ فِي أَجْسَادِكُمْ خَوْفاً مِنْ نَزْعِ أَرْوَاحِكُمْ مِنْهَا، فَنَزْعُ أَرْوَاحِكُمْ بِشِدَّةٍ أَمْرٌ لَا تَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ، ولا الاخْتِبَاءَ مِنْهُ.

وتقول الملائكة لهم:

- ﴿... ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

الْهُونِ: الْخِزْيُ والذِّلَّة. **وَعَذَابُ الْهُونِ**: هو الْعَذَابُ المخْتَصُّ بالْخِزْي والذِّلَّةِ. وهو نَوْعُ عَذَابٍ شَدِيدٍ يَكُونُ لِمَنْ قَضَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ بأَنْ يَكُونُوا مُعَذَّبِين أَذِلَّاءَ خَزَايَا.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ كاذِبِينَ علىٰ اللهِ غَيْرَ الْحَقّ، ضُمّن الفعل في ﴿تَقُولُونَ﴾ مَعْنَىٰ الفِعْل في «تكْذِبُون» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتهُ بحَرْفِ الجرّ «عَلَىٰ». يقال لغة: «كَذَبَ فُلانٌ عَلَىٰ فُلانٍ» أي: أخبر عَنْهُ بما لَمْ يَكُنْ فيه، أو بما لَمْ يَقُلْه.

- ﴿... وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾: أي: وبِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ فِي حياة الابْتِلَاءِ تَسْتَكْبِرُونَ فِي نُفُوسِكُمْ، مُمْتَنِعِينَ عن امْتِثَالِ أوامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ، في سُلُوكِكُمُ النَّفْسِيِّ والظَّاهِر، إيماناً وعملاً.

جاءت تَعْدِيَةُ الْفِعْلِ فِي: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ بحَرْف الجرِّ «عَنْ» لِتَضْمِينِهِ معنى الفعل في «تَمْتَنِعُونَ» فأغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن وهذا من إيجازات القرآن الْبَدِيعَة المتكرِّرَة.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُحَدِّثُ عَنْ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الدِّين إذْ يَقِفُ هَٰؤُلاءِ الظَّالِمُونَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ فِي مَحْكَمَةِ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، فيقُولُ لهم:

- ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

أي: لَقَدْ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ، وَحقَّقْنَا مَا كُنَّا أَنبأْنَاكُمْ بِهِ، وظَهر

أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بالْحَقِّ الَّذِي جاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِكُمُ الَّذِي أيَّدْنَاهُ بالمعجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَأَنْزَلْنَا بِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي كِتَابِنَا الْمُعْجِزِ النَاطِقِ بالْحَقّ.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا بَعْدَ بَعْثِكُمْ لِمُلَاقَاتِ أحْدَاثِ يَوْمِ الجزاء الأكْبَر فُرَادَىٰ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يَنْصُرَ أحداً، أَوْ يَسْتَنْصِرَ بِأَحدٍ، وَهَـٰذَا مَا كُنْتُمْ تُنْكِرُونه في حَيَاةِ الابتلاءِ.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهَـٰذِهِ الحقيقة الَّتِي سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَاهَا لَكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا، بما أَنْزَلْنَا فِي آيات كِتَابِنَا.

﴿فُرَادَىٰ﴾: جمع «فَرْدَان» وهو الْفَرْد.

● ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ﴾: أي: وتَرَكْتُمْ مَا تفضَّلْنَا بِهِ عَلَيْكُمْ عَطَاءً مِنْ لَدُنَّا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ في الحياة الدُّنيا، غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تَجْلُبُوا مَعَكُمْ مِنْهُ شيئاً، مالاً، أَوْ قُصُوراً، أَوْ جُيُوشاً وأنْصاراً.

يقال لغة: «خَوَّلَ اللهُ عَبْدَهُ نِعْمَةً ما» أي: أَعْطَاهُ إيَّاهَا مُتَفضّلاً.

● ﴿... وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ ...﴾: أي: وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ آلِهَتَكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّكُمْ، زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ للهِ فِي أنْفُسِكُمْ باسْتِحْقَاقِ إلَهِيَّتِهِمْ لَكُمْ، وكُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُم شُفَعَاءُ لَكُم عِنْدَ رَبِّكُم، فَأَيْنَ شُرَكَاؤُكُم هَـٰؤُلَاء؟ هَلْ يَمْلِكُونَ أَنْ يَشْفَعُوا لَكُمْ؟ إنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ شيئاً، وهَـٰذَا خاصٌّ بِالَّذِينَ كانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ زاعِمِينَ أنهُمْ سَيَكُونُونَ شُفَعَاءَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم.

● ﴿... لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ...﴾ أيْ: لقدْ تَقَطَّعَ الْوَاصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آلِهَتِكُمْ مِنْ أَسْبَاب، فَلَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ تَعْبُدُونَهُمْ، وَلَاهُمْ يَمْلِكُونَ أَنْ يَشْفَعُوا لَكُمْ إذَا كَانَ لَهُمْ وُجُودٌ في الْوَاقِعِ والحقيقة.

وَجَاءَ في القِرَاءَة الأُخْرَىٰ:

- ﴿... لَقَد تَقَطَّعَ بينُكم ...﴾: بِضَمِّ النُّون، أي: لَقَدْ تَقَطَّعَ الْبَيْنُ نَفْسُهُ الواصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ شُرَكَائِكُمْ، فَصَارَ هَـٰذَا الْبَيْنُ الَّذِي كُنْتُمْ عَلَىٰ طَرَفٍ مِنْهُ، وكانَتْ آلِهَتُكُمْ عَلَىٰ طَرَفٍ آخَرَ مِنْهُ مُتَقَطّعاً سَاقِطاً، لَا وُجُودَ لَهُ بِسَبَبِ تَقَطُّعِهِ.

الْبَيْنُ: يُطلق في اللّغة على الصِّلَةِ والمودّة، وعلى القرابة.

- ﴿... وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾: أي: وَضاعَ مُبْتَعِداً عَنْكُمْ بُعْداً سَحِيقاً مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ بِشَأْنِ شُرَكَائِكُم، وبِشَأْنِ سَائِرِ عَقَائِدِكُمُ الْبَاطِلَات، فَلَا تَجِدُونَ شيئاً مِنْهَا أَمْراً حَقًّا وَوَاقعاً، بَلْ تَجِدُونَ نَقَائِضَهَا فِي الْوَاقِعِ المشْهُودِ، أَوْ في الْوَاقع المشْهُودِ الآثار.

وبهذا انتهى تدبر الدرس العشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٥)

التدبر التحليلي للدّرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٩٥ ـ ٩٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن

نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ
حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ
مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

القراءات:

(٩٥) ● قرأ ٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عَامر، وشُعبة. **[الْمَيْتِ]** بإسْكَانِ الياء في المَوْضِعَيْن.

وقرأهُمَا باقي القرّاء العشرة: **[الْمَيِّتِ]** بِتَشْدِيد الياء المكْسُورَة.

(٩٥) ● قرأ وَرْشٌ، والسُّوسي، وأبو جعفر: **[تُوفَكُونَ]** بإبدال الهمزة واواً مَدِّيَّة، وهو من اللَّهجاتِ العربيَّة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تُؤْفَكُونَ]**.

(٩٦) ● قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[وَجَعَلَ اللَّيْلَ]** بالفعل الماضي ونصب اللّيل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَجَاعِلُ اللَّيْلِ]** باسم الفاعل وجرّ اللّيل.

(٩٨) ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ورَوْح: **[فَمُسْتَقِرٌّ]** بِكَسْرِ القاف، اسم فاعل من فعل «استقرّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَمُسْتَقَرٌّ]** اسم مكان.

(٩٩) ● قَرأ حمزة، والكِسَائي، وخلَف: **[إِلَىٰ ثُمُرِه]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِلَىٰ ثَمَرِهِ]**.

«ثُمُر» و«ثَمَر» جَمْعُ «ثَمَرة» فالمعنى واحد.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدرس مَوصُولَةٌ بالسَّاقِ الأوَّل أيضاً مِنْ سَاقي شجرة مَوْضوع السُّورَة، وفِيهَا بَيَانُ بَعْضِ آياتِ اللهِ الكَوْنِيَّة، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ رُبُوبيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ، وأنَّهُ لَا شريكَ لَهُ فيها، ويَلْزَمُ عَقْلاً عَنْ تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبيَّتِهِ تَوْحِيدُهُ في إلَهِيَّتِهِ، فهو الرَّبُّ الواحِدُ الْأَحَدُ، والإلَهُ الواحِدُ الْأَحَدُ، الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إلَهِيته.

التّدبّر التحليلي:

في هَـٰذَا الدَّرْس تَنْبِيهٌ عَلَىٰ ثَمَانٍ مِنَ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةَ، مِنْ آيَاتِ اللهِ فِيمَا خَلَقَ دَاخِلَ هَـٰذَا الكَوْنِ مِمَّا هُوَ مَشْهُودٌ للنَّاس.

الآية الكونيّة الأولىٰ: آيَةُ فَلْقِ الْحَبِّ والنَّوىٰ، دلَّ عليها قول اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ... ﴿٩٥﴾﴾:

فَلْقُ الشَّيْءِ: شَقُّهُ، وإظْهَارُ مَا في باطِنِهِ.

الْحَبّ: اسْمُ جنْسٍ جَمْعِيٍّ، واحِدُهُ «حَبَّة» والحبُّ هُو مَا يَكُونُ في السُّنبُلِ والْأَكْمَام، كالقمحْ والشَّعِير، ويطلق على البزور، ومعلوم أنّ الحُبُوبَ والبزور تُلْقَىٰ في التراب، وتُسْقَىٰ بالماء، فَتَنْفَلِقُ وتَخْرُج منها الزُّرُوع والأشجار.

النَّوىٰ: عَجَم الثّمراتِ، الواحِدَة «نَواة» كنَوَاةِ التَّمْرَةِ، ونَوَاةِ الزَّيْتُونَة، وَكالنَّوَىٰ دَاخِلَ الزَّبِيبَة، ونحو ذلك.

إِنَّ مِنْ آياتِ خَلْقِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَفْلِقُ الْحَبَّ والنَّوىٰ، فَيُخْرِجُ مِنْهُمَا جُذُوراً تَمْتَصُّ مَا يُلَائِمُ الطَّبْعَةَ الَّتِي فَطَرَهَا عليها، من عناصِرِ الأَرْضِ مَعَ الْمَاء، وَيَنْبُتُ مِنْهَا نَبَاتٌ يَتصاعَدُ حَتَّىٰ يكُونَ زُرُوعاً وأَشْجَاراً، تَخْرُجُ مِنْهَا ثَمَرَاتٌ بِحَسَبِ الْخُطَّةِ الْمُقَدَّرَةِ المقضِيَّةِ لِكُلِّ صِنْفٍ وَنَوْعٍ وَجِنْسٍ مِنْها.

وهَـٰذِهِ ظَاهِرَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ، مَشْهُودَةٌ لِكُلِّ مَنْ يُشَاهِدُ نَباتَاتِ الْأَرْضِ، وَتنامِيها، مُنْذُ بَذْرِ بُزُورِهَا، حَتَّىٰ تكَامُلِها على وَفْقِ مَا قُدِّرَ وَقُضِيَ لَها.

هَلْ يَفْعَلُ هَـٰذَا أَحَدٌ في الوجُود غَيْرُ اللهِ؟ وهَلْ يُتَابعُ أَطْوَارَ النَّبَاتِ مُنْذُ فَلْقِ حَبِّهِ أَوْ نَوَاه حَتَّىٰ اكْتِمَالِهِ، أَحَدٌ غَيْرُ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْعَلِيم الحكيم الرَّحِيم جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه؟؟.

إِنَّهُ لَا رَبَّ غَيْرُ اللهِ، فَلا إِلَٰهَ إِلَّا هو، تبارَكَ اسْمُهُ، وَتَنَزَّهَتْ ذَاتُهُ وَصِفَاتُه.

الآية الكونيّة الثانية: آيَةُ إِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَإِخْرَاجِ الميّتِ من الحيّ، دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... **يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ** ... ﴿٩٥﴾﴾:

عَلِمْنَا فِي تَدَبُّرٍ سَابِقٍ أَنَّ الْحَيَاةَ في شَيْءٍ مَا بِحَسَبِ خُطَّةِ اللهِ التَّكْوِينِيَّة، تَكُونُ بِنَفْخِ نَسَمَةِ الرُّوح الَّتِي هِيَ مِنْ أَمْرِ اللهِ التّكوينيِّ مُبَاشَرَةً، في جَسَدٍ لَا حَيَاةَ فِيهِ، وَقَدْ أَحْكَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَلْقَهُ، فَجَعَلَ لِكُلِّ ما قَدَّرَ لَهُ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ حَيًّا طَبْعَةً خاصَّةً رَسَمَ فيها خَرِيطَةَ حَيَاتِهِ، نَماءً، وَحَرَكَةً، وصِفَاتٍ جَسَدِيَّةً وغيْرَ جَسَدِية، هي نَفْسُه.

فإذا تَمَّ نَفْخُ الرُّوحِ في النَّفْسِ ظَهَرَتِ الحَياةُ في الْجَسَدِ على وفْقِ خَرِيطَة النفس.

واللهُ عزَّ وجلَّ قَدِيرٌ بِأَمْرِ التكوينِ الواحِدِ، أَنْ يَجْعَلَ في المادَّةِ الْجَسَدِيَّة طَبْعَةً، هِيَ نَفْسُ الْكَائِنِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهُ حَيًّا، وأَنْ يَنْفخ فيها نَسَمَةَ الحياة، فتكونَ كَائِناً حَيًّا، كَمَا أَخْرَجَ نَاقَةَ صَالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن الصَّخْرَة، وكما أَخْرَج الحَيَّةَ مِنْ عَصَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَخْرَجَ ذَات الْعَصَا من الحيَّةِ بَعْدَ أَنْ لَقِفَتْ مَا أَفكَهُ سَحَرَةُ فِرْعَوْن.

فَمِنْ عَظيم قُدْرَةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ ذَاتِ المَيِّتِ،

فَيَجْعَلُ الميِّتَ حَيًّا بِنَفْخِ الرُّوحِ الَّتِي هِيَ نَسَمَةُ الحياة فيه، ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ ذَاتِ الْحَيّ، فَيَجْعَلُ الْحَيَّ مَيّتاً بِنَزْعِ نَسَمَةِ الحياةِ مِنْهُ وَهِيَ الرُّوح.

هَـٰذَا المعنَىٰ لَمْ يَخْطُرْ في بالِ أَهْلِ التَّفْسِير، إِذْ تَشَبَّثُوا بِإِخْرَاجِ كائنٍ حَيٍّ مِنْ كَائِنٍ آخر مَيِّتٍ، فَقَلَّتْ عِنْدَهُمُ الأَمْثِلَة، مع أَنَّهُ يُقَالُ: «أَخْرَجْتُ مِنْ طُلَّابٍ جَهَلَةٍ عُلَمَاءَ، أي: بالتَّعْلِيم ـ وأَخْرَجْتُ مِنْ قِنْطَارِ حَدِيدٍ سيَّارةً آلِيَّة، أي: عَنْ طَرِيق الصُّنْع ـ وأَخْرَجتُ مِنْ كِيسِ قَمْحٍ أَلْفَ رَغِيف، أي: بالطَّحْنِ والْعَجْنِ والْخَبْز» إلى غَيْرِ ذلِك من أَمْثِلَة.

فالإحياء يكونُ بإِدْخَالِ الرُّوحِ في النفس، والإِمَاتَةُ تَكُونُ بِفَصْلِ الرُّوح عَنِ النفس، وَكُلاهُمَا مِنْ أَفْعَالِ رُبُوبيَّة الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه، ولَا أَحَد في الوجُودِ غَيْرُ الرَّبِّ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ يَخْلُقُ حَيًّا مِنْ مَادَّةٍ مَيّتَةٍ لَا حَيَاةَ فيها. واتخاذُ الأَسْبَابِ الَّتِي يُحْيِي اللهُ بِهَا وَيُمِيتُ، لَا يَقْتَضِي عَقْلاً وَلَا وَاقِعاً أَنَّ مُتَّخِذَ الأَسْبَابِ هُوَ الَّذِي أَحْيَا وَأَمَات.

واسْتِخْدامُ اسْمِ الْفَاعِل «مُخْرِج» في مُقَابِلِ الفعل المضارع «يُخرج» مِنَ التفنُّنِ في التعبير، لأنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ يَدُلُّ عَلَىٰ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ المضارع مِنَ الْحَالِ والاستقبال والتَّجدُّدِ، هَـٰذَا مَا ظَهَرَ لي في نُصُوصِ القرآن المجيد الكثيرة.

ومُحَاوَلَات استخراج حِكَمٍ بَلاغيَّةٍ مِنْ هَـٰذَا يُفْضِي إلى ادّعَاءَات وتكلُّفَاتٍ لا دَاعِيَ لها.

وبَعْدَ التَّنْبِيهِ على هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ الكَوْنِيَّتَين قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ خِطَاباً لِلْمُشْرِكِين: ﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾: أي: ذَلِكُمُ العظيم الْجَلِيلُ، الْعَلِيمُ الحكيم الْقَدِيرُ، الَّذي تَدُلُّ عَلَىٰ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ آيتا فَلْقِ الحبِّ والنَّوىٰ، وإِخْرَاجِ الحيّ من الميّتِ والميّتِ من الحيّ، هُوَ اللهُ الَّذي لَا رَبَّ غَيْرُهُ، فلا إِلَٰهَ سِوَاه، فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ هَـٰذَا الحقِّ الْجَلِيِّ ذِي

الأدِلَّةِ الكَوْنِيَّة الدَّامِغَة، لِمُعْتَقَدَاتٍ بَاطِلَاتٍ تَجْعَلُكُمْ تَتَّخِذُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِهِ، لَا تَجْلُبُ لَكُمْ نَفْعاً وَلَا تَدْفَعُ عَنْكُمْ ضُرّاً.

«**أَنَّىٰ**» اسْتِفْهَامِيَّةٌ بِمَعْنَىٰ: «كَيْفَ» هُنَا.

«**تُؤْفَكُونَ**» أي تُصْرَفُونَ، يقال لغة: «أفَكَهُ، يَأْفِكُهُ» أي صَرَفَهُ.

والاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَىٰ التَّلْوِيمِ والتَّثْرِيب على انْصِرَافِهِمْ عن الحقِّ إلى الباطِلِ الوَاضِحِ الْبُطْلان.

الآية الكونيّة الثالِثَة: آيةُ فَلْقِ الإصْباح، دلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ . . . ﴿٩٦﴾﴾:

الإصْباح: أَوَّلُ النَّهَارِ عِنْد الْفَجر، **وفَلْقُهُ**: جَعْلُهُ يَنْشَقُّ ظَاهراً بَعْدَ لَيْلٍ مُظْلِم.

إنَّ جَعْلَ الإصْباحِ كأنَّ آخِرَ اللَّيْلِ يَنْفَلِقُ عَنْهُ، فَيَمْتَدُّ شَيْئاً شيئاً حَتَّىٰ يَمْتَدَّ ضِيَاءُ الشَّمْسِ على الأرْضِ، إنَّمَا يَتِمُّ يَوْماً فَيَوْماً بِتَقْدِيرٍ حَكِيم، وقُدْرَةٍ ضَابِطَةٍ لِحَرَكَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسَها باتِّجَاهِ الشَّمْسِ، دُونَ أَنْ تَخْتَلِفَ طَوَالَ مَلَايينِ الأحْقَاب، وهَـٰذَا التقديرُ الحكيمُ مع الْقُدْرَة الضَّابِطَةِ لِحَرَكَةِ الأرْضِ لَا تَكُونُ إلَّا مِنَ الرَّبِّ الواحِدِ الأحَدِ، الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ في إلَهِيَّتِهِ.

الآية الكونيّة الرَّابعة: آيةُ جَعْلِ اللَّيْلِ سَكَناً، دلَّ عَلَيْهَا قوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾: وجاءت العبارة في القراءة الأخرى: [**وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكناً**] وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد، فَقِرَاءَةُ «**جَعَلَ**» أبَانَتْ مَا فَعَلَ اللهُ في الماضي، وقراءَةُ «**جَاعِلُ**» أبَانَتْ مَا يَفْعَلُ اللهُ في الحالِ والاسْتِقْبَالِ لِأَنَّ اسْمَ الفاعِلِ بقُوَّةِ الفِعْلِ المضارع.

أي: وَجَعَلَ ويَجْعَلُ اللَّيْلَ زَمَاناً تَسْكُنُ إلَيْهِ نُفُوسُ النَّاسِ، وتَجِدُ فِيهِ

رَاحَةً وَأُنساً وَطُمَأْنِينَةً، وبِسُكُونِ النُّفُوس إِلَىٰ اللَّيْلِ يَأْتِي النَّوْمُ مُرِيحاً طَيِّباً مُؤَدِّياً لِوَظَائِفِهِ الطبيعيَّة، ومِنْها إعَادَةُ الطَّاقَةِ إلى الْجِسْمِ، ولا سيما إعادَتُها إلَى الدِّمَاغِ، وإِلَىٰ الجِهَازِ العَصَبيّ، وقَدْ يُسَاعِدُ النَّوْمُ عَلَىٰ بناء الْبُرُوتِين، واسْتِعَادَةِ تَحكُّم الدِّمَاغ والجِهاز الْعَصَبِي في الْعَضَلَاتِ والْغُدَد وأَجْهِزَة الْجِسْمِ الأخرى، وقَدْ يكُونُ للنَّوْمِ تأثيرٌ في الْحِفَاظِ على أَوْجُهِ النَّشَاطِ الْعَقْلي، والنَّفْسِي، وَمَا زَالَ الْعُلَمَاءُ الكَوْنِيُّون يَبْحَثُونَ فِي ظاهِرَةِ النَّوْم بِوَسَائِلِهِم الْكَاشفة، ولَعَلَّهُمُ الآن في أوَائِلِ طَرِيق الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ بِالنِّسْبَةِ إلى هَـٰذِهِ الظَّاهِرَة.

الآيَةُ الكونَيَّةُ الخامِسَة: آيَةُ جَعْلِ الشَّمْسِ والْقَمَرِ حُسْبَاناً، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآية قول اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ﴾ عَطْفَاً عَلىٰ: «وَجعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً».

الْحُسْبَان: مَصْدَرٌ كالْحِسَاب، ونظيره في المصْدَرِية: الغفران، والشُّكْرَان. يقال لغة: «حَسَبَ الْمَالَ ونحْوَهُ، يَحْسُبُهُ، حِسَاباً، وَحُسْباناً» أي: عدَّهُ، وأحْصَاهُ، وقَدَّره.

أي: وَمِنْ آيَاتِ اللهِ الكونية أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ جَعَلَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ مُقَدَّرَيْنِ في ذَواتهما وفي حَرَكَتَيْهِمَا ومَحْسُوبَيْن حِسَاباً بالِغَ الدِّقَّةِ والإتقان، فَجَعَلَ للشمْسِ مع مَجْمُوعَتِها مَسِيراً في مَجَرَّتها، وجَعَلَ الْقَمَر جِرْماً لَا ضِيَاء فيه، وجَعَلَهُ يَدُورُ حَوْلَ الأرض، إذْ يَعْكِسُ عَلَيْها نوراً نَاتجاً عَنِ انْصِبَابِ ضَوْءِ الشَّمْسِ عَلَيهِ، فالْوَجْهُ المواجِهُ للشّمْسِ مِنْهُ في دورته الشَّهْرِيَّة حول الأرض يُعْطِي من النور بمقدار مَا يَرَىٰ سُكَّانُ الأرضِ مِنْ هذا الْوَجْهِ، وبهذا تَظْهَرُ الأَهِلَّةُ التَّكامليَّة حتَّىٰ يَصِيرَ الْقَمَرُ بَدْراً في مُنْتَصَفِ الشَّهر، ثُمَّ تَظْهَرُ الأهِلَّةُ التَّنَاقُصِيَّةُ حَتَّىٰ لَيْلَةِ الْمَحَاقِ، الَّتِي لَا يَرَىٰ فِيهَا سُكَّانُ الأَرْضِ شَيْئاً مِنْ وجْهِ الْقَمَرِ المواجِهِ للشّمس، ويَكُونُ الْقَمَرُ بَيْنَ الشَّمْسِ والأَرْضِ تَماماً.

ويَدُور الْقَمَرُ حَوْلَ الأَرْضِ فِي مَدَارٍ بَيْضِيٍّ.

هذا التقدير الحسابيُّ البالِغُ الدِّقَّة، مع القدرة الضَّابِطَةِ للحركات في الأفْلاك لَا يُمْكِنُ أَنْ تكونَ إِلَّا مِن الرَّبِّ الواحِدِ الأحَدِ، الّذي لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ.

وجاء في النصّ تَعْقِيباً عَلَىٰ التَّنْبيه على الآياتِ الكونيَّة الثالِثةِ والرَّابعةِ والخامِسَة قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الأَمْرُ الْعَظِيمُ، الَّذي لَا يَسْتَطِيعُ تَقْدِيرَ عَنَاصِرِهِ وإيجادَهَا بإِتْقَانٍ، وَبَقَاءَهَا بِدَوَامٍ، أَحَدٌ في الوجودِ، إِلَّا الرَّبُّ الَّذي مِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ الْعَزِيزُ، الْعَلِيم.

والمشار إِلَيْهِ بعبارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ فَلْقُ الْإِصْبَاحِ، وَجَعْلُ اللَّيْلِ سَكَناً بالْمَوَاءَمَةِ الحكِيمَةِ بَيْنَ اللَّيْلِ وطَبَائِع النَّاسِ، وَجَعْلُ مَقَادِير الشَّمْسِ والْقَمَرِ وَصِفَاتِهِمَا وَحَرَكَاتِهِمَا، مع المواءمَةِ بينهما وبَيْنَ الأَرْضِ وسُكَّانِها.

الْعَزِيزُ: أي: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ قُوَّةٍ مُنَافِسَةٍ، أَوْ مُعَارِضَةٍ، أو مُقَاوِمَة، الْكَامِلُ في عِزَّتِهِ.

الْعَلِيم: أي: الْكَامِلُ فِي عِلْمِهِ، وهو الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

الآية الكونيَّةُ السّادِسَة: آيَةُ جَعْلِ النَّجُومِ في السَّمَاءِ ذَاتَ مَواضِعَ وحَرَكَاتٍ تَهْدِي النَّاسَ ليلاً في طُرُقَاتِهِمْ، لِبُلُوغ أمَاكِنَ كانُوا يَضِلُّونَ عَنْهَا لَولَا هِدَايَةُ النُّجوم لَهُمْ، ومن الْبَدَهِيِّ أَنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ السَّيْطَرَةَ عَلَىٰ النُّجُومِ في السَّمَاوَاتِ وَجَعْلَهَا هَادِيَةً للنَّاسِ حِينَما يَسِيرُونَ في طُرقَاتِهِمْ بَرّاً، وحِينَمَا يرْكَبُونَ مَرَاكِبَهُمْ بَحْراً وَيُوجِّهُونَها لِلْبِلَادِ الَّتِي يَبْغُونَ الْوُصُول إليها إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِين.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآيَةِ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ... ﴿٩٧﴾﴾:

أي: واللهُ هُوَ وَحده الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَيُّها النَّاسُ بِتَقْدِيره الحكِيم، وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشاءُ، النُّجُومَ الْهادِيَةَ لَكُم في ظُلُماتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ، بِمَوَاضِعَها وَحَرَكَاتِها، عِنَايَةً بِكُمْ لِتَهْتَدُوا مُسْتَخْدِمينَ مَا وَهَبَكُمْ من قُدْرَاتٍ فِكْرِيَّةٍ وَحسّيَّة. وجاء التعبير: ﴿فِي ظُلُمَٰتِ﴾ للدَّلالَة على أنَّ الظُّلُمات ذواتُ نِسَبٍ، ما بَيْنَ أشدِّهَا وأضْعَفِهَا، وإضافة الظلمات إلى البر والبحر لأدنىٰ ملابسة، أو على تقدير «في».

وأَتْبَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ التَّنْبيه على هَـٰذِهِ الآية مِنْ آياتِه الكوْنِيَّة في هذا الدَّرسِ بقوله: ﴿... قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾:

التَّفْصِيل: التَّبيين وكَشْفُ حُدود الأجزاء المتَلاصِقَةِ في الظَّاهِرِ، بإظْهَارِ مَا بَيْنَهَا مِن انْفِصَالٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَرْئِيًّا، لِتَمْييز بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ في الإدْرَاكِ الفكريّ.

وقَدْ فَصَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةَ فِي الْخَلْقِ، وَذَكَرَهَا مُفَصَّلَةً في البيانِ الْقُرآنِيّ، للتَّنْبِيهِ عَلَيْها وَاحِدَةً فَوَاحِدَة، وفي هَـٰذَا حِصَارٌ فِكْرِيٌّ بِذِكْرِ الآيَاتِ لَقَوْمٍ لَدَيْهِم الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَعْلَمُوا الحقائِقَ المتعلِّقَةَ بِصِفَاتِ الرَّبِّ ذَاتِ الآثارِ في كَوْنِهِ تباعاً، فَكُلَّمَا نُبِّهُوا عَلَىٰ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّةِ تَفَكَّرُوا فيها، وأدْرَكُوا أَنَّها دَالَّةٌ عَلَىٰ طَائِفَةٍ جَلِيلَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ ومع تَتَابُع هَـٰذِهِ الإدْرَاكَاتِ تَنْجَلي الْمَعْرِفَة، وَترْسَخُ، وتكُونُ لَهَا جُذُورٌ في أعْمَاقِ الْقَلْب، فَمَنِ اسْتَطَاعَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَضْبطَ بإرَادَتِهِ الْقَوِيَّةِ أَهْوَاءَهُ وشَهَواتِهِ، ويَنْبذَ تَقَالِيدَهُ الْبَاطِلَةَ، واتِّبَاعَهُ الْأَعْمَىٰ، كانَ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ والإسْلَامِ لَا مَحالَة.

اسْتُعْمِلَ الْفِعْلُ المضَارِعُ بعبارَة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ للدَّلالَة على أَنَّهُمْ يُتَابِعُون تَعَلُّمَ مَا يُنَبَّهُونَ عَلَيْهِ آناً فآناً، عَنْ طَرِيقِ إدْرَاكِ مَا يُوَجَّهُونَ لَهُ، والتَّفَكُّرِ فيه بأنَاةٍ وَتَحْلِيلٍ وَنَظَرٍ في الظَّوَاهِرِ وأَسْبَابِها.

وقد تكرَّرَ في الْقُرْآنِ الْمَجيد بَيَانُ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ قَدْ فَصَّلَ الآيَاتِ بِمُنَاسَبَاتٍ مختَلِفَاتٍ، نظراً إِلَىٰ قِيمَةِ التَفْصِيلِ فِي إِيْضَاحِ الْمَعَارِفِ وَتَرْسِيخِهَا في النُّفُوسِ الإِنْسَانِيَّة.

الآيَةُ الكونيَّةُ السَّابِعَةُ: آيَةُ إِنْشَاءِ اللهِ النَّاسَ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ، وَتَسَلْسُلِ الذَّرَارِي تَنَاسُلاً مِنْ ظُهُورِ الآبَاءِ إلى أَرْحَامِ الأُمَّهَات، فَخُرُوجاً إِلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، وَهِيَ آيَةٌ عَجِيبَةٌ ذَاتُ عَنَاصِرَ مُدْهِشَةٍ تُذْهِلُ عُقُولَ مَنْ يُدْرِكُونَ أَجْزَاءَهَا بِتَفْصِيل، ويَفْقَهُونَ بفَهْمٍ عَمِيقٍ عَظَمَةَ صِفَاتِ الرَّبِّ الخالِقِ المتْقِنِ لَها، والمتابع خَلْقَهَا مَع كُلِّ طَوْرٍ صَغِيرٍ مِنْ أَطْوَارِها، في تَوَالِي أَصْغَرِ الوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآيَةِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ . . . ﴿٩٨﴾﴾:

الإنْشاء: الإِحْدَاثُ المصْحُوب بالتكامُل المتدرِّجِ غالباً.

- ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾: هي نَفْسُ آدم أبي الْبَشَرِ عليه السلام.

﴿فَمُسۡتَقَرّٞ﴾ وفِي القراءة الأُخْرَىٰ: [فَمُسْتَقِرٌّ]: **المسْتَقَرُّ** بِفَتْحِ الْقَاف، هو المكان الّذِي يَكُونَ فيه الاسْتِقْرَارُ، أَي: القرارُ والثبوت. **والمُسْتَقِرُّ** بِكَسْرِ القاف هو اسْمُ فَاعلٍ من فِعْلِ «اسْتَقَرَّ» بمعنَىٰ تَمَكَّنَ في مكانه وسَكَن.

إنَّ الفِعْلَ في ﴿أَنشَأَكُم﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَطْوَارٍ في الْخَلْقِ الإِنْشَائِيِّ، ولَمَّا كَانَ إِنْشَاءُ كُلِّ إِنْسَانٍ يَمُرُّ في أَطْوَارٍ، وهَـٰذِهِ الأَطْوَارُ قَدْ يَكُونُ فِيهَا مُتَنَقِّلاً في أَمْكِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَعَدِّدَة، كَانَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ تُصَاحِبَهُ عِنَايَةٌ مِنَ اللهِ، تَجْعَلُهُ مُسْتَقِرًّا غَيْرَ مُضْطَرِبٍ ولَا قَلِقٍ فِي المُسْتَقَرِّ الَّذِي نَقَلَهُ اللهُ إِلَيْه، وهَـٰذَا المُسْتَقَرُّ هُوَ مُسْتَوْدَعٌ فِيهِ حَتَّىٰ يَحِينَ وَقْتُ نَقْلِهِ مِنْهُ إِلَىٰ مُسْتَقَرٍّ آخر، ضِمْنَ الأَطْوَارِ الَّتِي يَمُرُّ بِها، وَهَكَذَا يَتَنَقَّلُ إِنْشَاءُ الإِنْسَانِ فِي ظُهُورِ الآبَاءِ وبُطُونِ

الْأَمَّهَاتِ، مُسْتَقِرّاً فِي مُسْتَقَرَّاتٍ يُثَبِّتُهُ اللهُ بها، وَهَـٰذِهِ المسْتَقَرَّاتُ هِيَ مُسْتَوْدَعَاتٌ يَكُونُ وَدِيعَةً فِيها مُدَّة اسْتِيدَاعِهِ حَتَّىٰ يَحِينَ وَقْتُ نَقْلِهِ إِلَىٰ مُسْتَودَعٍ آخَرَ يَكُونُ فِيه مُسْتَقِرًّا أَيْضاً فَهُوَ مُسْتَقَرٌّ له.

هَـٰذَا مَا تَرَجَّحَ لَدَيَّ مِنْ فَهْمٍ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وفي القراءة الْأُخْرَىٰ: [فَمُسْتَقِرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ].

إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَبَانَ أَنَّهُ خَلَقَ النَّاسَ جَمِيعاً مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ نَفْسُ آدم، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَها، فحينَما كانَتْ مصَغَّرَاتُ أفراد الناس في ظَهْرِ آدم، كانَتْ مُسْتَقِرَّةً بِعِنَايَةِ اللهِ فِي مُسْتَقَرٍّ، وكانَتْ فِيهِ مُسْتَوْدَعَةً قَبْلَ أَنْ تَنْتَقِلَ عَنِ طَرِيق التناسُلِ إلى مُسْتَقرٍ آخرَ هُوَ مُسْتَوْدَعٌ أيضاً.

قال الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ⁽٦⁾﴾.

فدَلَّ الترتيب المتراخِي بحرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» عَلَىٰ مُدَّةٍ كَانَتْ فيها نَوَيَاتُ مُصَغَّرَاتِ النَّاسِ في ظَهْرِ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْتَقِرَّةً ثابتَةً فِي مُسْتَقَرٍّ هِيَ فيه وَدِيعَةٌ تَنْتَظِرُ نَقْلَهَا إِلَىٰ مُسْتَقَرٍّ آخَرَ في طَوْرٍ آخَرَ.

وأبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّهُ يُقِرُّ في الأرْحَامِ ما يَشَاءُ، فَقَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿... وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ... ⁽٥⁾﴾:

فَدَلَّ هَـٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أنَّ اللهَ يُقِرُّ (أي: يُثَبِّتُ) في الأرْحَام مِنَ الْأَجِنَّةِ مَا يَشَاءُ، فهَـٰذِهِ الْأَرْحَامُ مُسْتَقَرَّاتٌ لِلْأَجِنَّةِ فِي الطَّوْرِ الَّتِي تَكُونُ فيها، وهِيَ أَيْضاً مُسْتَودَعَاتٌ حَتَّىٰ يَحِينَ خُرُوجُ الأجِنَّة مِنها.

وَقَال اللهُ تَعَالَىٰ في سورة (المرسَلَات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

فَدَلَّ هَٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ رَحِمَ الْأُمِّ قَرارٌ مَكِينٌ، أي: مَكَانُ اسْتِقْرَارٍ وثُبُوتٍ مُلَائِمٍ لِنُمُوِّ الْجَنِينِ وثَبَاتِهِ حَتَّىٰ وِلَادَتِهِ.

وأَتْبَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ التَّنْبِيهَ عَلَىٰ هَٰذِهِ الآيَةِ السَّابعَة مِنْ آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّة بقوله تعالى: ﴿... قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

سَبَقَ تَدَبُّرُ شَبِيهِ هَٰذِهِ الْعِبَارَةِ في الآيَةِ السَّابِقَة، لَكِنْ جاء في هَٰذِهِ الآيَةِ عِبَارَة ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وَفي الآيَة السَّابِقَةِ. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. والسَّبَبُ في هَٰذَا التنويع فِي التَّعْبِيرِ أنَّ إدْراكَ مَا جاء في الآيَةِ السَّابعة يَتطَلَّبُ فِقْهاً، وهو أَخصُّ من مُطْلَقِ الْعِلْم.

الفِقْه: يسْتَعْملُ للدَّلَالَةِ على العلم ببواطن الأمور وخَفَايَاهَا ودَقائِقها.

- ﴿يَفْقَهُونَ﴾: أيْ: يُتَابِعُونَ الْبَحْثَ فِي بواطن الأُمُور وخَفَايَاهَا ودَقَائِقِهَا، بُغْيَةَ الْوُصُولِ إلى كمال الحقيقَةِ أَوْ أَكْثَرِ مِقْدَارٍ مُسْتَطَاعٍ مِنْها.

فالمعنى: واللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَفْقَ خُطَّةِ الإِنْشَاءِ المتَدَرِّجِ، إشْتِقَاقاً مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ هِيَ نَفْسُ آدَمَ، فَتَنَقَّلْتُم في أَطْوَارٍ كُلُّ طَوْرٍ لَكُمْ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ حَتَّىٰ خَرَجْتُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ، لِتَعِيشُوا في حَيَاةِ الابْتِلَاء، فَكَانَتِ الْأَرْضُ لَكُمْ مُسْتَقَرّاً وَمُسْتَوْدَعاً حَتَّىٰ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ فيها، فَكَانَ لأَجْسادِكم في باطِنِ الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ حَتَّىٰ سَاعَةِ القِيامَةِ، فَكَانَ لَكُمْ في أَرْضِ الْمَحْشرِ مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، فَمَنْ قَضَىٰ اللهُ لَهُ بالْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ، فالجَنَّةُ لَهُ هِيَ دَارُ القرار، ومَنْ قَضَىٰ اللهُ عليه بالْخُلُودِ في دَارِ الْعَذَابِ فَهِيَ مُسْتَقَرُّه الْأَبَدِيّ، ومَنْ قَضَىٰ اللهُ بأنْ يَدْخُلَهَا مُؤَقَّتاً لِينَالَ نَصِيبَهُ مِنَ العذاب، فهِي لَهُ مُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ ثُمَّ يُخْرِجُهُ اللهُ مِنْهَا لِتَكُونَ لَهُ الجِنَّةُ دَار الْقَرَار الأبدِي.

ويَفْقَهُ هَـٰذِهِ الحقيقَةَ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ الاسْتِعْدَادُ لمتابَعَةِ الْبَحْثِ في بواطِنِ الْأُمُورِ وخَفَايَاهَا وَدَقَائِقِها.

الآية الكونيّة الثامنَة: آيةُ إنْباتِ أنْواعِ النَّباتَاتِ، دَلَّ على هذه الآيَةُ الكَوْنِيَّةِ العجيبة، قول الله عزَّ وجلَّ في الآيَةِ الأخِيرَةِ مِنْ هَـٰذَا الدَّرْس:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾: أي: واللهُ هُو وحْدَهُ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ (أي: مِنَ السَّحاب) مَاءً، فَلَفْظُ السَّمَاءِ يُطْلَقُ لُغَةً عَلَىٰ كُلِّ مَا عَلا فأظَلَّ، والسَّحَابُ قد عَلا وأظَلَّ.

وقَدْ دَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبارَةُ عَلَىٰ أنّ الْماءَ الصَّالِحَ لإنْباتِ النَّبَاتَاتِ هُو مَا نَزَلَ مِنَ السُّحُبِ مَطراً، أَوْ بَرداً، أَوْ ثَلْجاً، فَسقَىٰ الأرْضَ مُبَاشَرة، أو جَرَىٰ أنْهراً، أوْ دَخلَ فِي مَداخِلَ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَجمَّعَ في جَوْفِهَا، وتفجَّرَ أَوْ نَبعَ عُيُوناً، أو حُفِرَتْ إِلَيْهِ آبار لاسْتِخْرَاجِهِ مِنْها.

وتعَلَّمَ النَّاسُ مِنْ تبَخُّرِ مِياهِ الْبِحَارِ وتَجمُّعِهَا سُحُباً، ونُزُولِهَا بَعْد ذَلِكَ مِياهً حُلْوَةً صَالِحَةً لِشُرْبِ الناس والدَّوَابِّ وصالحةً للإنْبَاتِ، طَرِيقَةَ تَحْلِيَةِ المياهِ المالِحَةِ، للانتفاع بها في هَـٰذِهِ الأغْرَاض.

● ﴿... فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ...﴾: الْتَفَتَ الْبَيانُ مِنَ الحديث بضمِير الغائب، إلى الْحَدِيثِ بِضَمِير المتكلِّم الْعَظِيم، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً، لِأَنَّ إخْراجَ النَّبَاتِ مِنْ آياتِ اللهِ العظْمَىٰ في كَوْنه، فَيُلائِمُهُ أَنْ يَقُول اللهُ بِشَأْنِهِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾.

أي: فَأَخْرَجْنا بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِنا الْعُظْمَىٰ بالماءِ الَّذِي أَنْزَلْناهُ مِن السَّماءِ

فَاخْتَلَطَ بِتُرَابِ الْأَرْضِ، نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ جَعَلْنَا فِيه طَبيعَةَ النُّمُوِّ النَّباتِي، من حَبٍّ ونَوَىٰ، وبُزُورٍ وجُذُور، إذا كان مُجَاوِراً أَوْ مُلْتصقاً بِتُرَابٍ مُبَلَّلٍ، مَع تَحَقُّقِ شُرُوط أُخْرَىٰ جَعَلْنَاهَا شُروطاً للنبات.

العُمُوم فِي عِبَارَةِ: ﴿... نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ...﴾ يُخَصِّصه الْوَاقِعُ بِكُلِّ شيءٍ لَهُ طَبِيعَةُ النُّمُوِّ النَّباتِي.

- ﴿... **فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا** ...﴾: أي: فأخرَجْنا مِنَ النباتِ زَرْعاً ناعماً رَطْباً أخْضَر.

الْخَضِرُ: الزَّرْع الناعم الْغَضُّ الرَّطْبُ الْأَخْضر، يقال لغة: «خَضِرَ الزَّرْعُ» أي: نَعِمَ وَاخْضَرَّ فَهُو «خَضِرٌ، وأخْضَر».

وهَـٰذِهِ ظاهِرَةٌ مَشْهُودَة في نباتاتِ الأرض.

- ﴿... **نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا** ...﴾: أيْ: حَالَةَ كَوْنِنَا نُخْرِجُ مِنَ الخَضِر بِخَلْقٍ بَعْدهُ خَلْقٌ حَبًّا يَرْكَبُ بَعْضُهُ بعضاً، على مَعْنَىٰ: مُتَلَاصِقاً يَعْلُو بَعْضُهُ بَعضاً، كَسَنَابِلِ الْقَمْح والشَّعِير، وغيرهما. شُبِّهَ هَـٰذَا التلاصُقُ مَعَ عُلُوِّ بَعْضِهِ عَلَىٰ بَعْضٍ بِأَشْيَاء مُتَعَدِّدَةِ ذَوَاتِ حَرَكَاتٍ إرَادِيَّةٍ، فَبَعْضُهَا يَرْكَبُ بَعْضاً بارْتِقَاءٍ، فَتَكُونُ بِمَجْمُوعِها مُتَرَاكِبَة، أي: رَاكِبَةٌ غَيْرَهَا، وَمَرْكُوبَةٌ مِنْ غَيْرِها.

- ﴿... **وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ** ...﴾:

طَلْعُ النَّخْل: غلافٌ يُشْبِهُ الكُوز، يَنْفَتِحُ عَنْ حَبٍّ مَنْضُود، فيه مادَّة إخصاب النَّخلَةِ. ويُطْلَقُ على كلِّ مَا يَطْلُعُ في الشَّجرِ مِنْ ثَمرٍ تَوَسُّعاً.

قِنْوان: جَمْعُ «قِنْو» وهو الْعِذْقُ الّذِي يكُونُ ثَمرُ النَّخْلِ نَابِتاً مِنْهُ، ومُتَعَلّقاً بِه.

أي: وَيَخْرُجُ مِنَ النَّخْلِ بِخَلْقِنَا مِنْ طَلْعِهَا قِنوانٌ ثَمرَاتُها مُنَضَّدَاتٌ

مُدَلَّيَاتٌ، قَرِيباتُ التَّنَاوُلِ دَانِيَاتٌ، حِينَ تَكُون نَخْلَاتُها قَصِيرات، وَلَيْسَتْ صَعْبَةَ التَّناوُل حِينَ تكونُ نَخْلاتُها شَامِخَات.

﴿... وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ...﴾: أي: ونُخْرِجُ أيضاً جَنَّاتٍ مِنْ أعْنَاب.

جَنَّات: جمع «جَنَّة» وهي مَا يَحْتَوِي على أشجار وثمارٍ وزُروع وأنْهارٍ.

أعْنَاب: جَمْعُ «عِنَب» وهُو ثَمَرُ الكَرْمِ وهُو طَرِيّ.

أي: ونُخْرِجُ جَنَّاتٍ مِنْ أَشْجَارِ أعْنَاب. وفي بيان هَـٰذَا ذِكْرٌ لِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في الإنْبَاتِ، مَعَ الامْتِنَانِ عَلَىٰ النَّاسِ بِهَـٰذِهِ الثَّمَرَةِ المباركَةِ النافِعَةِ غِذاءً ودَواءً.

- ﴿... وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ...﴾:

- ﴿مُشْتَبِهًا﴾: اسم فاعل من فِعْل «اشْتَبَهُ» بمعنَىٰ «اخْتَلَطَ» يُقال لغة: «اشْتَبَهَ الْأَمْرُ على فُلانٍ» أي: اخْتَلَطَ في تَصَوُّرِهِ بِغَيْرِهِ، لِكَثْرَةِ عَنَاصِرِ التَّمَاثُلِ بَيْنَهُمَا حَتَّىٰ كأنَّهُمَا مُتَمَاثِلَانِ تماثُلاً تَطَابُقِيًّا.

وتُؤَكِّدُ الملاحظة أنَّ الْأَشْجَارَ والثَّمَراتِ مِنْ صِنْفٍ واحِدٍ لَا يَتَحقَّقُ فيها التَّمَاثُلُ التَّطابُقِيُّ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ اخْتَارَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيتِهِ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ فِي كَوْنِهِ طَبْعَةً خَاصَّةً بِهِ، فَجَعَلَ لِكُلِّ شَجَرَةٍ مَعَ وَحَدَاتِ نَوْعِها طَبْعَةً خاصَّةً بِها، وَجَعَلَ لِكُلِّ وَرَقَةٍ وثَمرةٍ مِنْ شَجَرَةٍ واحِدَةٍ طَبْعَةً خاصَّةً بها، فالتَّمَاثُلُ المنْظُورُ فيها هُوَ مِنَ الاشتِباه، لَا مِنَ التَّمَاثُلِ التَّطابِقِيّ.

لِهَـٰذَا كانَ مِنَ الدِّقَّةِ في الْبَيانِ الرَّبَّانِي، أَنْ يُعَبَّرَ عَمَّا يَراهُ النَّاسُ مُتَماثِلاً بعِبَارَةِ: «مُشْتَبِه» أي: يَظُنَّ الرَّاؤون من النّاسِ أنَّهُ مُتَماثِلٌ تَماثُلاً تَطابُقِيًّا، مَع أَنَّهُ في حَقِيقَتِهِ مُتَقَارِبٌ في الصِّفَاتِ تَقارُباً يَقَعُ فِيهِ الاشتِبَاهُ،

وهُوَ الاختلاطُ الَّذي يَنْعَدِمُ فيه التميز بين المختلفات.

﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾: أي: وغيرَ مُتقَارِب الصّفَاتِ، فَلَا يَلْتَبِسُ على الناظِر الافتراق في الصفات، بَلْ يَسْتَطِيعُ التَّمْييز بَيْنَ الصِفَاتِ المختلفات في الأفراد بِسُهُولَةٍ وَيُسْر.

يُقَال لغة: «تَشَابَهَ الشَّيْئَانِ، فَهُمَا مُتَشَابِهَانِ» أي: أَشْبَهَ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخَرَ حَتَّىٰ الْتَبَسَا.

واخْتِيرَ التَّفْرِيقُ اللَّفْظِيُّ بَيْنَ التعْبِيرين: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ للتنويع، والدَّلَالَةِ عَلى أنَّ الاشْتِبَاهُ كالتَّشَابه، لأنَّ الاشتباه من طَرَفٍ يلزم عنه عقلاً التشابهُ مِن الطرفين، واختير في التعبير تأخير لفظ «مُتشابه» لأنَّهُ أَلْيَقُ بالوَقْفِ عَلَيْهِ إذا حَصَلَ الوَقْف، لما فِيهِ من الألِف المدِّيَّة قَبْلَ آخِرَيْهِ، ثُمَّ جاء التعبير في الآية (١٤١): ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ لِأن إدْراك تشابه الطرفينِ أَسْرَعُ إلى الذّهن.

والمعنى: وأخْرجْنا بِالْمَاءِ مُخْتَلِطاً بِتُرَاب الْأَرْضِ أشْجَارَ الزَّيتُونِ وأَشْجَارَ الرُّمَّانِ وثمَارَهُمَا. حُذِفَ المضافُ وَأنيب المضافُ إِلَيْهِ مَنابه.

واخْتِيرَ ذِكْرُ هَـٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْأَشجار لِمَا لَهُمَا مِنْ قِيَم نَفْعِيَّةٍ للنَّاسِ غِذَاءً، وفَاكِهَةً وَدوَاءً، وعِنْدَ عُلَمَاءِ النَّبَاتَاتِ والتَّغْذِيَةِ، وَعُلَمَاءِ التَّداوِي بِالنَّبَاتَاتِ بُحوثٌ مُطوَّلَةٌ لمن أَرَادَ مَعْرِفَةَ الفوائِدِ النَّفْعِيَّةِ لِهذَيْنِ النوعَيْن.

- ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾:

الْيَنْعُ: مَصْدَرُ «يَنَعَ الثَّمَرُ، يَيْنَعُ، يَنْعاً، ويُنْعاً، ويُنُوعاً» أي: نَضِجَ وَطَابَ، وحَانَ وَقْتُ قِطَافِهِ لِلْأَكْلِ مِنه.

ويقال لغة: «أَثْمَرَ الشَّجَرُ» أيْ: ظَهرَ ثَمرُه.

في هَـٰذِهِ الْعِبارَة دَعْوَةٌ مِنَ الرَّبِّ جلَّ جَلَالُهُ للنَّاس، أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ

ثَمرِ النَّبَاتِ إذَا أَثْمَرَ نَظَرَاتِ تَفكّرٍ في بَدِيعِ صُنْعِهِ في خَلْقِهِ للنَّبَاتِ مُتَنَقِّلاً في أَطْوَارٍ، وَإِلَىٰ عِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، إِذْ خَلَقَ لَهُمْ مَا فِيهِ غِذَاؤُهُمْ، وَفاكِهَتُهُمْ، وَدَوَاؤُهُمْ، وَأَنْوَاعُ مَتَاعٍ لَهُمْ فِي الحياة الدُّنيا، ومِنْهَا الاسْتِمَتَاعُ الْجَمَالِي فيما يُخرِجُ من نباتات.

- ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

أَرَىٰ أَنَّ اسم الإشارة في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يُشَارُ بِهِ إِلَىٰ مَا نَبَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِ مِن آياتِهِ الْكَوْنِيَّةِ الثَّمانِ في هَـٰذَا الدَّرْسِ.

واسْتُخْدِمَ اسْمُ الْإِشَارَةِ الَّذِي يُشَارُ بِهِ إلى المشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيد، للدَّلَالَةِ على عِظَمِ هَـٰذِهِ الآياتِ الكَوْنِيَّةِ، وارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِها.

﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لَعَلَامَاتٍ جَلِيَّاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ حَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ، هَادِيَةٍ إِلَىٰ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وسَمَتْ عِنَايَتُهُ بِعِبَادِهِ ـ فَمَنْ لَدَيْهِم الاسْتِعْدَادُ الإرَادِيُّ، الضَّابِطُ لأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، والنَّابِذُ للتقالِيدِ الباطِلَةِ، والاتِّبَاعِ الْأَعْمَىٰ، آمَنُوا بأَنَّ اللهَ هُوَ الْوَاحِدُ في رُبُوبِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، فَهُوَ الْوَاحِدُ في إِلَٰهِيَّتِهِ لِعِبَادِهِ، وَآمَنُوا بالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنْ جزاء بالثواب وبالْعِقَاب، وآمَنُوا بِرَسُولِهِ وبما بَلَّغَهُمْ إِيّاه عَنْ رَبِّهِ، فأَسْلَمُوا وعَبَّرُوا عَنْ إيمانِهِم الصَّادِقِ وإسْلَامِهِمْ لِرَبِّهِم، بأعْمَالٍ صَالِحةٍ تُرْضِيهِ، لِيَفُوزُوا بالْخُلُودِ يَوْمَ الدِّينِ بِجَنَّاتِ النَّعِيم.

فِعْلُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ اسْتُعْمِلَ هُنَا بِمَعْنَىٰ الاسْتِقْبَال، أي: لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، فَيَخْرُجُ الَّذِينَ لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْبَؤُونَ بِهَـٰذِهِ الآيَاتِ وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيها، فَهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بها.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس الحادي والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٦)

التدبّر التحليليّ للدَّرْس الثاني والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٠٠ ـ ١٠٣)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

القراءات:

(١٠٠) ● قرأ نافع، وأبو جَعْفر: **[وَخَرَّقُوا]** بِتَشْدِيدِ الراء، أي: بالَغُوا بالافتراء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَخَرَقُوا]** براء مَفْتُوحَةٍ دُونَ تَشْدِيد.

والقراءتان تُعبِّرَانِ عَنْ فَرِيقَيْنِ من الكافرين: أَحَدُهُمَا بالَغَ بالافتراء على الله، والآخَرُ لَمْ يُبَالِغْ بذلِك.

تمْهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الأوّل أيْضاً مِنْ سَاقَيْ شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السَّورَة.

وفيها عَرْضُ بَعْضِ عقَائِدِ المشْرِكِين من وَثَنِيِّينَ وأَهْلِ كِتَابٍ يَزْعُمُونَ أَنَّ للهِ وَلَداً، مَعَ تَعْقِيبٍ حَكِيمٍ مُلَائِم فيه بَيَانُ الحقِّ الرَّبَّانِي، وأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ في الكَوْنِ كُلِّه، فَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ له تُنْجِبُ لَهُ وَلَداً، لأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عن ذلك.

التّدبّر التحليلي:

- قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

السُّورَةُ تُعَالِجُ ضَلاَلاتِ الْمُشْرِكِين في مَكَّةَ وَمَا حوْلَها، وَقَدْ تُدْمِجُ فيها ضَلاَلاتٍ مُشَابِهَاتٍ مِنْ ضَلاَلاتِ الْيَهُودِ والنصارىٰ والْمَجُوس وغَيْرِهِمْ، تَمْهِيداً لإبْطَالِ ضَلاَلاتِ كُلِّ الْكَافِرِينَ، فِي نجوم التنزيلِ الَّتِي كانَ يَتَتَابَعُ تَنْزِيلُها، واسْتَمرَّ حَتَّىٰ أَوَاخِرِ التَّنْزِيلِ الْمَدَنِيّ.

وَذَكَرَتْ هَٰذِهِ الآيَةُ ضَلاَلَتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ مِنْ الضَلاَلاتِ المكَفِّرَاتِ المتعلِّقَاتِ بذاتِ اللهِ وَصِفَاته.

الضَّلاَلَةُ الْأُولى: اتِّخَاذُ المشْرِكِينَ الْجِنَّ شُرَكَاءَ للهِ فِي إلَهِيَّتِهِ، دَلَّ عَلى هَٰذِهِ الضَّلاَلَةِ المَكَفِّرَةِ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾: أي: فَعَبُدُوا الْجِنَّ مِنْ دُونِ اللهِ، وهَؤُلَاءِ الْجِنُّ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ هُمْ مِنَ الشَّيَاطِينَ، لَا مِنَ الْجِنِّ المؤْمِنِينَ، وَعِبادَتُهُمْ لَهُمْ كانَتْ بِطَاعَتِهِمْ فيما كانُوا يَأْمُرُونَهُمْ به، وفيما كانوا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ، وعِبَادَةُ المشْرِكِينَ الأوثَانَ قَدْ كانَتْ طَاعَةً مِنْهُمْ لِبَعْضِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ الشَّيَاطِين، وتَحْرِيمُ المشْرِكِينَ لِبَعْضِ مَا أَحَلَّ اللهُ، قَدْ كانَ طاعَةً مِنْهُمْ لِبَعْضِ مَا نَهَاهُم عنه الشياطين.

وتَدُلُّ عَلَىٰ هَٰذَا نُصُوصٌ قرآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، مِنْهَا النُّصُوصُ التالية:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول): بِشَأْنِ يَوْم الحساب:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾: **الشيطان:** اسم جنسٍ يشمل إبْلِيسَ وجنوده.

(٢) قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

إن الشَّيَاطِينَ مِنَ الْجِنِّ يَكْذِبُونَ عَلَىٰ قُرَنَائِهِمْ من الإنْس، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: إنَّهُمْ مَلَائِكَة، فَيُمَجِّدُونَهُم عَلَىٰ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ، ويُطِيعُونَهُمْ فيما يُمْلُون عَلَيْهِمْ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهِي، فيها شِرْكِيَّاتٌ وكُفْرِيَّات وَمَعَاصِي للهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

(٣) قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

الضَّلَالَةُ الثانِية: الافتراءُ عَلَىٰ اللهِ بِأَنَّ لَهُ بَنِينَ وَبَنَات.

دَلَّ على هَٰذِهِ الضَّلَالَة قول اللهِ تَعَالَىٰ في الآية: ﴿... **وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ** ... ﴿١٠٠﴾﴾.

- ﴿وَخَلَقَهُمْۖ﴾: أي: وخَلَقَهُمُ اللهُ رَبُّهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، وأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعَمٍ كثيرَةٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَهَا، وبقاؤهم في الوجود بنِعَمِهِ.

- ﴿وَخَرَقُواْ﴾: أي: وافْتَرُوا واخْتَلَقُوا كذِباً.

- ﴿لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ أي: واخْتَلَقُوا للهِ بَنِينَ وَبَنَاتٍ كَذِباً، زاعِمِينَ أَنَّ للهِ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، ومِنْهَا زَعْمُهُم أَنَّ الْملَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ.

- ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾: أي: واخْتَلَقُوا كَذِباً اخْتِلَاقاً غَيْرَ مُقْتَرِنٍ وَلَا مُؤَيَّدٍ وَلا مَصْحُوبٍ بأيِّ عِلْمٍ يَدُلُّ دَلَالَةً وَهْمِيَّةً عَلَىٰ أَنَّ للهِ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، إِنَّمَا هُوَ مَحْضُ افتراء على اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعظم سُلْطَانِهِ، ولعلّ بعض المشركين قد تأثَّروا بِبَعْضِ أَهْلِ الكِتَابِ فادَّعَوْا أَنَّ للهِ ابْناً أو بنين:

وقد أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ تَنَزُّهَهُ وَتَعَالِيَهُ عن أنْ يَكُونَ الجِنُّ أَوْ بَعْضٌ مِنْهُمْ شُرَكَاءَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أو في إِلَهِيَّتِهِ، وعن أَنْ يكونَ لَهُ أولادٌ بَنُونَ أَوْ بَنَات، فقال تَعالَى: ﴿... سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

- ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي: تَنْزِيهاً وَتَقْدِيساً لَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِهِ، مِنْ صِفَاتٍ لَا تَلِيقُ بأَزَلِيَّتِهِ وَأَبَدِيَّتِهِ وكَمَالَاتِهِ وَتَبَرُّئِهِ مِنَ الاحْتِيَاجِ لِشَيْءٍ، إذْ لَهُ الكمالُ المطْلَقُ في ذَاتِهِ وفِي كُلِّ صِفَاتِهِ.

«سُبْحان» هو في مَوْضع المصْدَر، والأَصْلُ فِيه: أُسَبِّحُ اللهَ تَسْبِيحاً، أي: أُنَزِّهُهُ تَنْزِيهاً. وهو اسْمُ عَلَمٌ لمعْنَىٰ الْبَرَاءَةِ والتَّنْزِيهِ، وفِيهِ زِيادَةُ الألِفِ والنّونِ، فهو لهذا لَا يُنَوَّنُ لأنّه ممنوعٌ من الصرف.

- ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: أيْ: وَتَسَامَىٰ تَسَامِياً مُطْلقاً بَعِيداً عَنْ صِفَاتِ الحادِثات كُلِّها.

- ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أيْ: تَنَزَّهَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُهُ هَـٰؤُلَاءِ المفْتَرُونَ الّذِينَ جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ مِنَ الجِنّ، والَّذِينَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْم.

بين: «خَلَقَ» و«خَرَقَ» من عِبَارَةِ: ﴿وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ﴾ جِنَاسٌ ناقص، مع التقارُب في النُّطق بَيْن اللّام والرَّاء، فهو شبيه بالجناس التام.

■ قول الله تَعالَىٰ:

- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾:

﴿بَدِيعُ﴾ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ بِمَعْنَىٰ «مُبْدِع» أيْ: مُوجِدٌ مُحْدِثٌ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ.

يقال لُغةً: «بَدَعَهُ، يَبْدَعُهُ، بَدْعاً» أي: أَنْشَأَهُ عَلى غَيْرِ مِثَالٍ سابق، فهو «بَدِيعٌ» يُقال لاسم الفاعل ولاسم المفعول.

- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ أي: اللهُ مُوجِدُ ومُحْدِثُ السَّماوَاتِ والأَرْضِ وَمَا فِيهما عَلَىٰ غَيْرِ مِثالٍ سَابِقٍ، إِذْ أَبْدَعَ كُلَّ مَا فِيهما عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابقٍ لَهُمَا، فالسَّماوَات والأَرْضُ وَجَمِيعُ مَا فِيهِمَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِبْدَاعٌ مِنْ إِبْدَاعِه.

- ﴿... أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ...﴾؟:

«أَنىٰ» تَأْتِي بمعنى «كَيْفَ» وتَأْتِي بمَعْنَىٰ «مِنْ أَيْن» وكلا المعنَيَيْنِ هُنَا صَالِحَان، وهي اسْتِفْهَامِيَّة.

فالمعْنَىٰ: كيف يَكُونُ لَهُ ولدٌ، ومِنْ أَيْنَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ قَبْلَ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا فِيهما، ولا بَعْدَ خَلْقِهِ لَهُمَا صَاحِبَةٌ، لِأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ حَاجَتِهِ لِصَاحِبَةٍ تَكُونُ زَوْجَةً لَهُ؟؟

إِنَّه اللهُ الأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد.

في هَـٰذَا بيانُ بُطْلَانِ مَقَالَاتِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْجَبَ وَلَداً، عَلَىٰ مَا يَعْهَدُونَ مِنَ التَّنَاسُلِ عَنْ طَرِيقِ الزَّوْجَاتِ، ومن هَـٰذَا تَوَهَّمُ بَعْضِهِمْ أَنَّ اللهَ تَزَوَّجَ نِسَاءً مِنْ سَرَواتِ الجنِّ فَوَلَدْنَ لَهُ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً.

والَّذِينَ كانوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ هم قُرَيش، وجُهَيْنَةَ، وبنو سَلِمَة، وخُزَاعة، وبَنُو مُلَيْح.

- ﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ...﴾: أي: واللهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في الْوُجُودِ سِوَاه، فَكَيْفَ يَكُونُ شَيْءٌ هُوَ خَلَقَهُ وَلَداً لَهُ مُشْتَقًّا مِنه؟ هَـٰذَا سَاقِطٌ بَدَاهَةً، فالمخْلُوقُ للخالِقِ لَا يَكُونُ وَلَداً لَهُ، والْوَلَدُ لِوَالِدٍ لَا يَكُونُ مَخْلُوقاً له، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ لِخَالِقٍ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

- ﴿... وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾: أيْ: واللهُ عَلِيمٌ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً شَامِلاً مُحِيطاً بِكُلِّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ فيه، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ

ولَا في إلَهِيَّته، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بَنِينَ لَهُ وَلَا بنات، فَهُو جَلَّ جَلَالُهُ يُخْبِرُ بِالْحَقِّ الَّذي يَعْلَمُهُ، وَلَوْ كان يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ شَرِيكاً مَا، أَوْ ولَداً ما لَأَخْبَرَ بِذَلِكَ ولَمْ يَكْتُمْهُ وَلَمْ يُبْطِلِ ادِّعَاءَ مُدَّعِيهِ.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾:

يُخَاطِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا المعْنِيِّين بِالمعالَجَةِ، ويُلْحِقُ بِهِمْ كُلَّ الْمَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاء.

• ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ . . .﴾: أي: ذَلِكُم العظيم الْجَلِيلُ الْمُنَزَّهُ عَنِ الشريكِ والوَلَدِ والصَّاحِبةِ، والَّذي هُوَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، والَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وُجِدَ أَوْ هُوَ مَوْجُود، والَّذي هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم، هو اللهُ رَبُّكُمْ المتَصَرِّفُ بِكُم بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً مُنْذُ أَوْجَدَكُمْ، والَّذِي يَتَصَرَّفُ بِكُمْ مَا دَامَ لَكُم وُجودٌ، فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِيما بَعْدَهَا.

• ﴿. . . لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾ أي: لَا مَعْبُودَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ، وكلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فإلَهِيَّتُهُ بَاطِلَةٌ، وعبادَتُهُ باطلة.

• ﴿. . . خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ . . .﴾: أَيْ: هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ يُوجَدُ مُسْتَقْبلاً، كَمَا خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وُجِدَ فِيمَا مَضَىٰ، فَلَا شَيْءَ قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ أو سَيَكُونُ أو سَوْفَ يَكُونُ إِلَّا هُوَ خَلَقَهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

• ﴿. . . فَٱعْبُدُوهُۚ . . .﴾: أي: فاعْبُدُوه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

العِبَادَةُ: هي الخضوعُ، والطَّاعَة، والقيامُ بمَا يُرْضِي المعبُودَ، وَتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيه، ورَأْسُ العبادة الدُّعَاءُ بالْغَيب، لتحقيق مطالِبِ الدُّنيا

والآخرة. وهذه العبادة الاختياريَّة لَا تكُونَ إلَّا للرَّبِّ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُم سُلْطانه ـ فهو وَحْدَه الَّذِي يَسْتَحِقُّها.

والعبادة بتعبير آخر: هي السُّلُوكُ الإرَادِيُّ الواعي، المحقِّقُ لمطْلُوبِ الرَّبِّ مِنْ عَبْدِهِ، ولِمَا يُرْضِيهِ مِنْهُ عَلَىٰ مَا شَرَعَ، مع قَصْدِ عبادَتِهِ له وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

- ﴿... **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴿١٠٢﴾﴾: أي: وهُـو ـ جَـلَّ جَلَالَهُ ـ مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ هَيْمَنَةَ إِمْدَادٍ بأَسْبَابِ البقاء وشُرُوطه، وهَيْمَنَةَ حِفْظٍ وَرَقَابَةٍ دَائِمَيْنِ، عَلَىٰ وَفْقِ خُطَّةِ تَكْوِينِ كُلِّ شَيْءٍ، تَرْقِيَةً إِلَىٰ كَمَالِ الشيءِ، أَوْ تنكِيساً له، حتَّىٰ إِنْهَاءِ مَا قُدِّرَ لَهُ مِنْ دَرَجَاتٍ صَاعِدَاتٍ، أَوْ دَرَكَاتٍ نازِلَات، أَوْ مُرَاقَبَةِ سُلُوكِهِ الإرَادِيّ إنْ كَانَ مِنْ ذَوِي الإرادات الْحَرَّةِ الموضوعين في الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاء، أَوْ مُراقَبَةِ تَأْدِيَةِ كُلِّ مُكَلَّفٍ وَظِيفَتَهُ الَّتِي كُلِّفَ القيامَ بِها، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تتطلَّبُهُ وَكَالَةُ الْوَكِيلِ على الشيءِ وهيْمَنَتُهُ عَلَيه.

- ﴿... **لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ** ...﴾: أي: لَيسَ لِأَبْصَارِ كُلِّ ذَوِي الأبْصَارِ مِنَ المخْلُوقِينَ قُدْرَةٌ عَلَىٰ إدْرَاكِ ذَاتِهِ جلَّ جَلَالُه إدْرَاكَ إحَاطَةٍ.

إدْرَاكُ الْبَصَرِ لِشَيْءٍ مَا: هُوَ رُؤْيَتُهُ عَلَىٰ سَبِيلِ الإحَاطَةِ، أو دُونَ إحَاطَة.

فإنْ كانَ المَنْفِيُّ إدْرَاكَ الْأَبْصَارِ لِذَاتِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِحَاطَةِ، فالعِبَارَة شَامِلَةٌ لِأَحْوَالِ الدُّنيا والآخرة، لِأَنَّ رُؤْيَةَ ذاتِ اللهِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِحَاطَةِ لَا تَمْلِكُ الخلائقُ الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ.

وإنْ كَانَ المَنْفِيُّ الإدْرَاكَ لَا عَلَىٰ سبيل الإحَاطة، فالعبارةُ خَاصَّةٌ بأحْوال الحياة الدنيا، أمَّا رُؤْيَةُ ذَاتِ اللهِ رُؤْيَةً ما لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الإحَاطَةِ في الآخِرة، فَهِيَ ثَابَتَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ المتواتِرَة الّتي لَا شَكَّ فِيها.

ومما جاء في السُّنَّةِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ صُهيْبٍ، عن النبي ﷺ، قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قالَ يَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنا الْجَنَّةَ وَتُنَجِنا مِنَ النَّار؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ».

زاد في رِوَايَةٍ: ثم تَلَا هَـٰذِهِ الآيَـةِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الآية/ ٢٦ من سورة (يونس/ ٥١ نزول).

وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ وغَيْرُهُما عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَال النَّاسُ: يا رسول الله، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القيامَة؟. قال: «تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قالُوا: لَا يا رَسُولَ الله. قال: «فَهَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْس دُونَهُ سَحَابٌ؟» قالوا: لَا يا رَسُولَ الله. قال: «فإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذِلك».

تُضَارُونَ: أيْ: يُصِيبُكُم ضَرَرٌ.

وَروى ٱبْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَنسِ بْنِ مالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولَ الله ﷺ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قَال: «يَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ بِلَا كَيْفِيَّةٍ، وَلَا حُدُودٍ، وَلَا صِفَةٍ مَعْلُومَة».

إلى غيرها من أَحَاديثَ وَرِوَايَاتٍ بَلَغَتْ عِنْدَ أَهْلِ الحديثِ مَبْلَغَ التواتر.

● ﴿... وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ...﴾: أي: وهُو جَلَّ جَلالُهُ يُدْرِكُ بِبَصَرِه كُلَّ أَبْصارِ الْخَلائِقِ كُلِّها مِنْ أَكْبَرِ مَخْلُوقٍ إلى أصغَرِ مَخْلُوقٍ ذي بَصَرٍ، وإدْرَاكُ اللهِ لِلأَبْصارِ يَشْمَلُ الحاسَّةَ الناقِلَةَ لِصُوَرِ المرْئيّات، وهي الْعَيْن، والأعْصَابَ مِنْ وَرَائِهَا الْمُوصِلَةَ إلى الدِّمَاغ، ومَرْكَزَ الإحْساسِ الْبَصَرِيّ فيه، وكَيْفَ يَحْدُثُ الإِبْصارِ لِلْمَرْئِيَّاتِ فيه، وهَـٰذا مِنْ كَمالاتِ ذاتِهِ وَصِفَاتِهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

وظاهِرٌ أَنَّ بَيانَ حَقِيقَةِ أَنَّ أَبْصارَ الْخَلاَئِقِ لَا تُدْرِكُهُ في الدُّنْيا، وَلَا تُحِيطُ بِإِدْرَاكِ ذَاتِهِ في الآخرة، كَانَ مُناسَبَةً لِبَيَانِ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ بَصَرِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وهُوَ أَنَّهُ يُدْرِكُ الْأَبْصار، وهَـٰذَا مِنَ الْقَاعِدَة الإيمانيَّة المتعَلِّقَةِ بذاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ.

- ﴿... وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾: هذان الوصْفَان يقتضِيهما ما جاء في الدرس قَبْلَهما.

اللَّطِيف: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاء اللهِ عزَّ وجلَّ، مأخُوذٌ من اللُّطْفِ، وهو يَدُور حَوْل مَعْنَىٰ الرِّفْقِ والرَّأْفَةِ، ومَعْنَىٰ الرِّقَةِ وإِمْكَانِيَّةِ النُّفُوذِ في الْفَرَاغَاتِ الصُغْرَىٰ الَّتِي قَدْ لَا تُدْرَكُ بالْأَبْصار. فالْهَوَاءُ جِسْمٌ لَطِيفٌ يَنفُذُ مِنْ أَصْغَرِ الفراغات، وَضَوْءُ الشَّمْسِ جِسْمٌ لَطِيفٌ يَنْفُذُ في المسامَاتِ، والْأَشِعَّةُ أَجْسَامٌ لَطِيفَةٌ تَدْخُلُ بَلَطَافَتِهَا دَاخِلَ أَجْسَام كثيفَةٍ وَتَنْفُذُ مِنْهَا، والملائكَة أَجْسَامٌ نُورَانيّة لَطِيفَةٌ لَا تَحْجُبُهَا عَنِ الدُّخُولِ إِلَىٰ الْأَمَاكِنِ الْجُدْرَانُ مَهْمَا كَانَتْ كَثِيفَة.

فَعَلَىٰ مَعْنَىٰ الرِّفْقِ والرَّأفة، نَفْهَمُ قَوْلَ اللهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾.

وعلى المعنىٰ الآخر نَفْهَمُ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بِصِفَاتِهِ يَنْفُذُ إِلَىٰ أَعْمَاقِ كُلِّ مَوْجُود، خَلْقاً، وإِمْدَاداً، وعِلْماً، وتَصَارِيفَ، عَلَىٰ مَا يُقَدِّرُ ويَقْضِي، لَا يَمْنَعُه مَانِعٌ كثيفٌ صُلْبٌ مَهْمَا كانت كَثَافَتُهُ وصَلَابَتُه.

الْخَبير: اسْمٌ من أسماء الله الحسنى، وهو الْعَلِيمُ بكُلِّ شَيءٍ عِلْماً شَاملاً. والخبير في اللُّغَة هو العالم بالأمْر أو بالشَّيْء عَنْ تَجْرِبَةٍ ومُمَارَسَةٍ يَتَّسِعُ بهما عِلْمُهُ بالدَّقَائِق.

وبهذا تمَّ تدبر الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٧)

التدبر التحليلي للدَّرْس الثالث والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآية (١٠٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝١٠٤﴾:

تمهيد:

آيَةُ هَـٰذَا الدَّرسِ مِنْ فروع السَّاقِ الثّاني مِنْ سَاقَي شَجَرَةِ موضوع السُّورَةِ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بَياناً دَعَوِيًّا يَقُولُهُ لِقَوْمِهِ، وَلَا سيما المعْنِيُّونَ الْأَوَّلُونَ بالمعالَجَةِ، وهُمُ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِم، الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَتِهِ حَتَّىٰ نُزُول هَـٰذِهِ السُّورَة.

التّدَبّر التحليلي:

- ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ﴾:
- ﴿بَصَآئِرُ﴾: جمع «بَصِيرَةُ» وهي الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ، والْعِلْمُ، والْخِبْرَةُ، والعِبْرَةُ. وتُطْلَقُ عَلَىٰ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الإدْراك.
- ﴿مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾: أي: مِنْ خَالِقِكُمْ الْمُهَيْمِن عَلَيْكُمْ دَواماً بِصِفَاتِ رُبُوبيَّته.

فالمعنىٰ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد يَا مَنْ أَرْسَلْنَاكَ رَسُولاً للعالمين، قَدْ جَاءَكُمْ فيما أُنْزِلَ عَلَيَّ عِلْمٌ حَقٌّ، مُقْتَرِنٌ بالْحُجَج الدَّامِغَة، والْبَراهِينِ السَّاطعة، وبالْعِبَرِ مِنْ قِصَصِ الْأُمَم السَّابقَةِ، وَهَـٰذَا الَّذِي جَاءَكُمْ هو من رَبِّكُمْ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ. إِنَّ إِيجادَهُ إِيَّاكُمْ وإِمْدَادَه لَكُمْ

بالْبَقَاء، وتَصَاريفَهُ فِيكم، ومُرَاقَبَتَهُ لَكُمْ، مُصَاحِبَاتٌ لَكُمْ فِي كُلِّ الْوَحداتِ الزَّمنيّة الصغرى الَّتِي تَمُرُّ عَلَيْكم، فَلَسْتُم خَارِجِينَ عَنْ مُحِيطِ رُبُوبِيَّتِهِ لَكُمْ، النَّافِذَةِ آثَارُهَا إِلَىٰ أعْمَاقِ كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِكُمْ.

فَمَنْ أَبْصَرَ مَا جَاءَكُم مِنْ رَبِّكُمْ، وآمَنَ به، وأسْلَمَ للهِ قِيَادَهُ، فأَطَاعَهُ عَامِلاً بِمَا أمَرَ بِفِعْلِهِ، وتَارِكاً مَا نَهىٰ عَنْ فِعْلِهِ، فَلِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ وَنَجَاتِهِ وَفَوْزِهِ عِنْدَهُ يَوْمَ الدِّينِ قَدْ أَبْصَرَ.

ومَنْ عَمِيَ باختِيَارِهِ الْحرِّ، فَلَمْ يَعْبَأْ بما جَاءَكم مِن رَبِّكُمْ، ولَمْ يُبْصِرْهُ، ولَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ ليظْفَرَ بنَجَاتِهِ وَفَوْزِهِ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ القيامة، فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ، إذْ دَفَعَ بِها إِلَىٰ الْخُلُودِ يَوْمَ الدِّينِ فِي عَذَابِ السَّعِير، وبِئْسَ ذَلِكَ المصير.

اسْتُعْمِلَ الْفِعْلُ ﴿أَبْصَرَ﴾ بمَعْنَىٰ فَهِمَ وَتفَكَّرَ واسْتَجَابَ لدعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانيَّة، لأنَّ هَـٰذِهِ لوازم الإبصار السَّلِيم لدى أهل العقل والرشد، وهو استعارة.

واسْتُعْمِلَ الْفِعْل ﴿عَمِيَ﴾ بمَعْنَىٰ أعْرضَ وأَدْبرَ فلَمْ يَتفَكَّرْ ولم يَفْهَمْ ولم يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِية، فَكَانَ بمَثَابَةِ الأَعْمَىٰ باختياره الحرّ، وهو استعارة.

وكلَّفَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبُوا لِدعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانية: ﴿. . . وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾﴾:

الْحَفِيظُ: الْحَارِسُ عَلَىٰ الشيء الْمُوكَّلُ بحِفْظِهِ ممَّا قَدْ يَتعَرَّضُ لَهُ مِن شرّ.

أي: أَرْسَلَنِي رَبِّي إلَيْكُمْ لِأُبَلِّغَكُمْ رِسَالَاتِه، ولَمْ يَرْسِلْنِي حَفِيظاً عليكم، حَتَّىٰ أُجْبرَكُمْ عَلَىٰ سُلُوكِ صِرَاط اللهِ المستقيم، وأحْمِيَكُمْ مِنْ شُرُورِ أنْفُسِكُمْ، فَأَنْتُمْ مَوْضُوعُونَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ،

ولَدَيكُمْ إرادَاتٌ حُرَّةٌ تختارُونَ بِهَا مَا تَشَاءُون، وعَلَيْكم أَنْ تَتحَمَّلُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ عِقَابَ اختِيَارِكُمُ الكُفْرَ والْعِصْيَان، إِذا كَفرْتم، وتمرَّدْتُمْ على طاعَتِهِ.

وبهذا تَم تدبر الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٨)

التدبر التحليلي للدَّرْس الرابع والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٠٥ ـ ١١٧)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١١٧)﴾:

القراءات:

(١٠٥) ● قرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرو: **[دَارَسْتَ]**.

وقرأ بْنُ عامر، ويعقوب: **[دَرَسَتْ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[دَرَسْتَ]**.

(١٠٨) ● قرأ يَعْقُوبُ: **[عُدُوًّا]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[عَدْواً]**. والقراءاتان بمعنى واحد.

(١٠٩) ● قَرأ أَبُو عَـمْرٍو: **[وَمَا يُشْعِرْكُمْ]** بإسْكان الراء، وله وجْهٌ آخر عَنِ الدُّوري، وهو اخْتِلَاسُ ضمّةِ الراء.

وقرأها بَاقي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[وَمَا يُشْعِرُكُمْ]** بالرَّفْع.

(١٠٩) ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وخلف، وهو وجْهٌ لشعبة: **[إِنَّهَا إِذَا]** بكَسْرِ هَمْزَة «إِنَّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَنَّهَا إِذَا]** بفَتْح هَمْزَةِ «أَنَّ». وهو الوجْهُ الثاني لشعبة.

(١٠٩) ● وقرأ ابن عامر، وحمزة: **[لا تُؤْمِنُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بياء الغائبين: **[لَا يُؤْمِنُون]**.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني.

(١١١) ● قرأ أبو عَمْرو: **[إِلَيْهِمِ الْمَلَائِكَةَ]** بِكَسْرِ هاء الضمير وميم الجمْع.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [**إِلَيْهُمُ الْمَلَائِكَةَ**] بضمّ هاء الضميرِ ومِيمِ الجمع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ هَاءِ الضمير وضمِّ مِيمِ الجمع: [**إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ**]. وكُلُّها لغات عَرَبية.

(١١١) ● قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [**قِبَلاً**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**قُبُلاً**].

القراءتان لغتان بمعنى المقابلة، والمواجهة، والمعاينة.

(١١٢) ● قرأ نافع: [**لِكُلِّ نَبِيءٍ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة [**لِكُلِّ نَبِيٍّ**].

وهما لُغَتَانِ عَرَبيَّتّان.

(١١٤) ● قرأ ابن عامر، وحفص: [**مُنَزَّلٌ**] بفتح النون وتشديد الزّاي المفتوحة، من فعل «نَزَّل».

وقرأها باقي القرّاء الْعَشْرَة: [**مُنْزَلٌ**] مِنْ فِعل «أَنْزَل» والقراءتان مُتَكافِئَتَان، فالمضعف أخو المهْمُوز.

(١١٥) ● قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ**] بالإفراد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالجْمع: [**وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ**].

والمعنى فيهما واحد، لأنَّ المفَرَدَ المضَافَ إِلَىٰ المعرفَةِ بِحُكْمِ الْجَمْع.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْسِ مِن فُروع سَاقَيْ شَجَرَة مَوْضُوع السُّورَة.

ففيها بَيَانٌ مُباشِرٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ للرَّسُول ﷺ، وفي هذا البيان تعليم وتَرْبيَةٌ، وومضَةٌ دَعَوِيَّة يَقُولُها لطالِبي الآيَاتِ الخوارق مِنْ قَوْمه.

وفيها بَيَانٌ لِكُلّ المؤمنين المسْلِمِينَ وَيَدْخُلُ الرَّسُول ﷺ في عمومهم، بشَأْنِ عَدَدٍ مِنَ القضايا ذوات الشَّأْنِ في المفهومَاتِ الدِّينيَّةِ حَوْلَ النَّاسِ، وسُنَّةِ اللهِ في كَوْنِهِ، وأسَالِيبِ الدَّعْوَةِ إلَىٰ الحقّ الرَّبَّانِي، وتوابعَ مَوْصُولَةٍ بها.

التّدبّر التحليلي:

- قول اللهِ تَعالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ ثلاثِ قَضَايا هِيَ مِنْ مَقَاصِدِ تَنْزِيلِ آياتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، مُتَّصِفَةً بِتَنْوِيعٍ كَثِيرٍ مُحَاصِرٍ حِصَاراً شَامِلاً لِلْأَفْكَار والنُّفُوس، هِدَايَةً لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَهْتَدِيَ، وَيَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، وَكَشْفاً لِلْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وشَهَواتِهِم وَمَطَالِبَهُمْ مِنَ الحياة الدُّنيا، ويَتَعَلَّلُونَ لِرَفْضِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ بِتَعِلَّاتٍ باطِلَاتٍ يَعْلَمُونَ هُمْ بُطْلَانَهَا، ولَكِنْ يَتخِذُونَهَا مَعَاذِيرَ لِسَتْرِ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ شَرٍّ وإثْم.

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ . . .﴾:

التَّصْرِيف: هُو التَّنْوِيعُ والتغييرُ واتِّخاذُ مُخْتَلِفِ الْوُجُوه والْأَسَالِيبِ والْوَسَائِلِ الممْكِنَةِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ الْغَايَة.

وَالمشَارُ إِلَيْهِ باسْم الإشَارَةِ في عِبَارة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هُوَ مَا جَاء في السُّورَةِ مِنْ آياتٍ فِيها إِقْنَاعَاتٌ، وجَدَلِيَّاتٌ مُبَاشِرَاتٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ للمعنيِّينَ بالْمُعَالَجة، وَتَعْلِيمَاتٌ جَدَلِيَّةٌ وَدَعَوِيَّة مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ولِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فَفِيها تَصْرِيفٌ وَتَنوِيع عجيبٌ مُحَاصِرٌ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ سَلِيم

غَيْرِ مَحْجُوب بالْأهواء، والشَّهواتِ، والتقالِيدِ الباطِلَة، والاتّباع الْأَعْمَىٰ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الآبَاءُ والأَجْداد.

وفي مَفْصِلٍ سَابق من هَـٰذِهِ السُّورَةِ قال اللهُ عزَّ وجلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ فلكُلِّ ذِي نَظرٍ فِكْرِيٍّ سَلِيم: ﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

وفي مَفْصِلٍ آخَرَ أيْضاً قالَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّر هَـٰذِينِ الْبَيانَيْنِ في السُّورَة.

الْقَضِيَّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ...﴾ أي: ولِنَكْشِف عِنادَهم وكُفْرَهُمْ بآياتِنا، وتَكْذِيبَهُمْ لَكَ يَا مُحَمَّد، حَتَّىٰ نُجْرِيَ عَدْلَنَا فِيهِمْ يَوْمَ الدِّين بِالْخُلودِ فِي عَذَابِ السَّعِير، فإنَّهُمْ الآنَ في رِحْلَةِ ابْتِلاءِ، والغايَةُ مِنَ ابْتِلَاءِ إراداتِهِمْ كَشْفُ مَا يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ إيمانٍ أَوْ كُفْرٍ، وطاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَة.

ومِنْ تَعْبِيرَاتِهِمُ الكُفْرِيَّةِ، الَّتِي يَتَّخِذُونَهَا تَعِلَّةً لتكْذِيبكَ يَا مُحَمَّدُ، فيما تُبَلِّغُهُمْ مِنْ آياتِ رَبِّهم المنزَّلَةِ عَلَيك، أَنْ يَقُولُوا لَكَ: إنَّ هَـٰذَا الَّذِي تَتْلُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ قَوْلٌ دَرَسْتَهُ مِنْ كُتُبِ الأَوَّلِينَ، وَلَسْتَ نَبِيًّا مُصْطَفًى لِلنُّبُوَّةِ، وَلَا رَسُولاً مُرْسلاً للنَّاسِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّك.

وَجَاءَ في قِرَاءَة ابن كَثِيرِ، وأبي عَمْرٍو: **[دَارَسْتَ]** أي: افْتَرَيْتَهُ مِنْ عِنْدِكَ بَعْدَ أَنْ دَارَسْتَ بَعْضَ أَهْلِ الكِتَابِ مُتَعَلِّماً مَا جَاءَ في كُتُبِهِمْ.

ونَفْهَمُ مِنْ هَاتَيْنِ القراءَتَيْنِ أَنَّ بَعْضَ مُكَذِّبِي الرَّسُول قالُوا: دَرَسَ مُحَمَّدٌ كُتُبَ أَهْلِ الكِتَاب، فَصَنَعَ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْنا، وزَعَمَ أَنَّ اللهِ يُوحِي بِهِ إِلَيْهِ، وَأَنَّ بَعْضَ مُكَذِّبِيهِ قالُوا: دَارَسَ مُحَمَّدٌ بَعْضَ عُلَمَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ في كُتُبِهِمْ، فَصَنَعَ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْنَا، وزَعَمَ أَنَّ اللهَ يُوحِي به إليه.

وأمَّا قِراءَةُ ٱبن عامرٍ، ويَعْقُوب: [**دَرَسَتْ**] فأقْرَبُ الاحْتِمَالَاتِ فيما أَرَىٰ أَنَّهُ تَعْبِيرٌ عَنْ قَوْلِ بَعْضِ مُكَذِّبي الرَّسُولِ، إِذْ قَالُوا: مَا يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ أَسَاطِيرُ قَدِيمَةٌ بَالِيَة، وأَقْوَالٌ دَرَسَتْ وَصَارَتْ كَأَطْلَالٍ دَارِسَةٍ عَفَتْ آثارُها، بَعْدَ أَنْ هَجَرَ أَهْلُهَا مَبَانِيهَا، فَلَا نَعْبَأُ بها.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

أي: وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ آياتِ الْقُرْآنِ لِنُبَيِّنَ كُلِّيَّاتِ قَضَاياه الدِّينيَّةِ، تَبْييناً جَلِيًّا يَدْفَعُ كُلَّ الشُّكُوكِ الَّتِي قَدْ يَطْرَحُهَا الْمُشَكِّكُونَ، ويَقْطَعُ أَعْذَارَهُمْ، وَهَـٰذَا التَّبْيينُ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ بأَدِلَّتِهِ وَبَرَاهِينِه.

- قول اللهِ عزَّ وجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

في هَـٰذَا الخطاب من اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بيان سِتِّ قضايا:

القضِيَّة الْأَوْلَىٰ: تَكْلِيفُ اللهِ رسُولَهُ أَنْ يَتَّبعَ مَا أُوحي إِلَيْهِ من رَبّه، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ القضيَّة قولُه تَعالَى له: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ . . .﴾: أي: وَلَا تَعْبَأْ باتِّهَام مُكَذِّبيك لَكَ، فَبَلِّغْ مَا أُمِرْتَ بِتَبْلِيغِهِ للنَّاسِ، وأعْمَلْ بِمَا جَاءَ في آياتِ رَبّك من أوامِرَ وَنَوَاهِيَ وَوَصَايَا وَأَحكام.

والدَّاعِي لِهَـٰذَا التوجيهِ الرَّبَّاني مَا جَاءَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ هَـٰذَا الدَّرْس، وَهو مَقَالَةُ المشْرِكِينَ لِلرَّسُولِ بِشَأْنِ آيَاتِ القرآن: [**دَرَسْتَ**] و[**دَارَسْتَ**] فَجِئتَنَا بكلَامٍ مِنْ عِنْدِكَ وَزَعْمتَ أَنَّ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْكَ.

ومَا جاءَ في الآية (٩١): ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴿٩١﴾﴾.

أي: فَلَا تُضْعِفْ عَزِيمَتَكَ هَـٰذِهِ المقالَاتُ عَنْ مُتَابَعَةِ تَأْدِيَةِ رِسَالَات رَبِّكَ، بل: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وَلَا تَتَأَثَّرْ بمزالِقِ أَئِمَّةِ الكفر.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: مَا دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿. . . لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾: أي: لَا مَعْبُودَ فِي الْوُجُودِ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والدَّاعِي لِإِيرَادِ هَـٰذَا التوجيهِ للرَّسُولِ هُنَا الرَّغْبَةُ فِي تَرْقِيَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَىٰ كَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ للهِ، الَّتِي لَا تَشُوبُهَا شَائِبَةُ التَّأَثُّرِ بِأَقْوَالِ أَهْلِ الكُفْرِ، وَلَوْ مِنْ جِهَةٍ خَفِيَّةٍ يَقْتَرِنُ بِهَا تَحْسِينٌ اجْتِهَادِيٌّ طَمعاً في إيمَانِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ.

إِنَّ كَمَالَ توحِيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ في إِلَهِيَّتِهِ يَقْتَضِي مِنَ الرَّسُول أَنْ يَتَّبِعَ مَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْه، وَلَا يُفَكِّرَ باجْتِهَادَاتٍ خَاصَّةٍ وَلَوْ كَانَتْ لمصلَحَةِ نَشْرِ دِينِ اللهِ بِحَسَبِ تَصَوُّرِهِ، فاللهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، ولا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خافِيَةٌ مِنَ الوسَائِلِ والْأَسَالِيبِ النَّافِعَةِ ذَاتِ التَّأْثِير في نَشْرِ دِينِهِ، واسْتِجَابَةِ الْمُخَالِفِينَ لِدَعْوَتِهِ.

الْقَضِيَّةُ الثالِثة: مَا دَلَّ عَلَيهِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِه: ﴿. . . وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

الْمُرَادُ بالمشْرِكِينَ هُنَا المِشْرِكُونَ الْمُعَانِدُونَ الْمُكَابِرُونَ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ بَاطِلِهِم، الَّذِينَ لَمْ يَتَأَثَّرُوا بِسَوَابِقِ هَـٰذَا النَّصِّ نُزُولاً، المشتملَة على إقناعٍ بالْحَقِّ، وتَرْغِيبٍ وتَرْهِيبٍ، وَمُجَادَلَةٍ بالَّتِي هِي أَحْسَنُ.

الإِعْرَاض: إِعْطَاءُ العارضِ، وهو الجانب، وإِعْطَاءُ العارض وَسَطٌ بَيْنَ الإِقْبَالِ والمواجَهةِ، وَبَيْنَ الإِدْبَارِ والتَّوَلِّي.

أي: وأعْطِ جَانِبَكَ لِهَـٰؤلَاءِ المشْرِكِين المعانِدِين، غَيْرَ مُبالٍ وَلَا عَابِئٍ بهم، فَقَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ يَسْتَحِقُّونَ مَعَها أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُمْ، وتُوَجِّهَ طاقَاتِ مُجَاهِدَتِكَ لِآخَرِينَ مَطْمُوعٍ في اسْتِجَابَتِهِمْ، أَوْ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَكَةَ الْيَأْسِ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِم الحرَّة.

القضيَّة الرابعة: مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْل اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ...﴾:

أي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ لَا يُشْرِكُوا لَسَلَبَهُمْ إِرَادَتِهِمُ الْحُرَّةِ، ولَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِين، وحِينَئِذٍ لَا يَخْتَارُ اللهُ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِين مُوَحِّدِين، لِأَنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ لعِبَادِهِ الكُفْرَ، ولكِنَّ هَـٰذَا يُلْغِي كونَّهُمْ مُمْتَحَنِين في ظُرُوفِ الْحَياة الدُّنيا، فالْمَجْبُورُ لَا يَكُونُ ممتَحناً، والمُمْتَحَنُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ إِرادةٌ حُرَّة يخْتَارُ بها مَا يَشَاءُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ خالِقاً لِمَا يَشَاء.

وَلَا تُفِيدُ عبارة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ أنَّ الله عزَّ وجلَّ شَاءَ أَنْ يُشْرِكُوا، كَمَا يَفْهَمُ بَعْضُ الْمُتَسرِّعِين الَّذِينَ لَا أَنَاةَ لَهُم لَدَىٰ تَدَبُّرِ النُّصُوصِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَوْضُوعَ لَهُ ثَلاثَةُ احْتِمَالَاتٍ لا احْتِمالَان اثنان.

الاحْتِمَالُ الأوّل: إجبارُهُم عَلَىٰ أنْ يَكُونوا مُؤْمِنِين مُوَحِّدِينَ، وهَـٰذَا احْتِمَالٌ لَمْ يَشَأْهُ اللهُ عزَّ وجلَّ.

الاحْتِمَالُ الثاني: إجْبارُهُم عَلَىٰ يكُونُوا مُشْرِكِينَ، وَهَـٰذَا احْتِمَالٌ لَمْ يَشَأْه اللهُ عزَّ وجلَّ أيْضاً.

الاحْتِمَالُ الثَّالِثُ: مَنْحُهُم الإرَادَةَ الْحُرَّةَ الَّتِي يَخْتَارُونَ بِهَا مَا يَشَاءُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتاهُمْ، وهَـٰذَا هو الاحْتِمَالُ الَّذِي شَاءَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لِكُلِّ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحان مِنْ الجنِّ والإنْسِ. ولَوْ شاءَ اللهُ إجْبَارَهُمْ لَجَعلَهُمْ مؤمنينَ بِالْجَبْرِ.

القضيّة الْخَامِسَةُ: مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرسوله: ﴿... وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ...﴾:

سبق في السورة أَنْ عَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلْمُعَالَجِينَ: ﴿... وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾: وكانَ هٰذا تعْلِيماً دعَوِيًّا.

وَلِلْمُطابَقَةِ بَيْنَ التَّعْلِيم الدَّعوِيّ وَبَيانِ وَظِيفَةِ الرَّسُولِ الَّتِي حَمَّلَهُ اللهُ مَسْؤُولِيَّاتِها، قالَ الله لَهُ هُنا: ﴿... وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ...﴾ أي: لَمْ نُعْطِكَ الْقُدْرَة عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ حَفِيظاً مُسَلَّطاً عَلَيْهِمْ تَكُفُّهُمْ بِالْإِلْزَامِ والْإِكْرَاهِ عَنِ اتِّباعِ أَهْوَائِهِمْ وَضَلَالَاتِهِمْ، وَتَحْمِيهِمْ مِنْ شُرُور أَنْفُسِهِمْ، وَتَقْسِرُهُمْ عَلَىٰ سُلُوكِ الصِّراطِ المسْتَقِيم، والْإِيمانِ بِالْحَقِّ الَّذِي جاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِم، بَلْ أَنْتَ مُبَلِّغُ رِسَالَاتِ رَبِّكَ الَّتِي يُوحِي بها إِلَيْك، ويُكَلِّفُكَ تَبْلِيغَها، فَلَا تَعْتَبِرْ نَفْسَكَ مُطَالِباً بِتَحْوِيلِهِمْ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الْإِيمانِ، ومِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ، فَهُمْ في مَرْحَلَةِ امْتِحَانٍ لَا فِي حَياةِ إِجْبَارٍ وَقَسْرٍ، والآخِرَةُ هِي دَارُ الجزاءِ الْجَبرِيّ.

القضيَّة السَّادِسة: ما دَلَّ عَلَيْهِ قول الله عزَّ وجلَّ لِرَسُوله: ﴿... وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾: سَبَقَ في السُّورَة أَنْ عَلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلْمُعَالَجِينَ: ﴿... لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾: وَكَانَ هٰذَا تَعْلِيماً دَعوِيًّا.

وللمطابَقَةِ بَيْنَ التَّعْلِيم الدَّعوِيّ وبَيْنَ بَيانِ وَظِيفَةِ الرَّسُول الَّتِي حَمَّلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مَسْؤُولِيَّاتِها، قالَ لَهُ هُنا: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾: أي: وَما أَنْتَ مُسَلَّطٌ عَلَيْهِمْ تَسْلِيط وَكِيلٍ عَنْ رَبِّكَ، إِنَّ كُلَّ أُمُورِهِمْ وُجُوداً، وبَقَاءً، وَتَكْلِيفاً، وَجَزَاءً، ورِزْقاً، وَحَيَاةً ومَوْتاً وسَائِرَ التَّصَارِيف، هِي تَحْتَ سُلْطَانِ إِرَادَتِنَا، وَقضائِنا، وَخَلْقِنا، لَمْ نُوَكِّل بِهَا أَحَداً مِنْ عِبَادِنا، فَلَا تَتَصَرَّفْ مَعَهُمْ تَصرُّفَ الْوَكِيلِ عَنَّا، إِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُكَلَّفٌ أَنْ تُؤَدِّيَ ما نَأْمُرُكَ بِتَأْدِيَتِه.

- قَولُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُخَاطِبُ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً، وفيهم

إمَامُهُمْ وقائِدُهم الرَّسُول ﷺ وَلَوْ كَانَ متحقِّقاً بالمطلوب في الخطاب:

- ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

- ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟﴾: أي: وَلَا تَشْتُمُوا يَا أَيُّهَا المؤْمِنُونَ شَتْماً خارِجاً عَنْ مُقْتَضَيَاتِ المناظَرَةِ العِلْمِيَّةِ لِبَيَانِ الحقّ، وخارجاً عَنْ آدابها.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: وَلَا تَسُبُّوا الآلِهَةَ الَّذِينَ يَعْبُدُوهُمُ المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. «**يَدْعونَ**»: أي: يَعْبُدُونهم.

﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ـ في قراءة يَعْقُوب: [**عُدُوّاً**]. «عَدْواً، وعُدُوّاً» مَصْدَرَان لفعل «عَدَا» بمعنَىٰ ظَلَمَ وتجاوَزَ الْحَدَّ، يُقالُ لُغَةً: «عَدَا عَلَيْهِ، يَعْدُو، عَدْواً، وعُدُوّاً، وعَدَاءً، وعُدْواناً» أي: ظَلَمَهُ وتجاوز الحَدَّ.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي: باندِفاعٍ غضبيٍّ غَيْرِ وَاعٍ، لِرَدّ الشَّتِيمَةِ بِمِثْلِهَا، وَقَدْ لَا يَفْعَلُونَ هَـٰذَا في غَيْرِ حَالَةِ الْغَضَب، لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بأنَّ اللهَ هُو الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ والأرض، ولَكِنْ يَجْعَلُونَ للهِ شُرَكاء في إلَهِيَّتِهِ، وفي بعض عَنَاصِرِ رُبُوبيَّتِهِ⁽¹⁾.

وهذا الحكْمُ الرَّبَّانيُّ أصْلٌ عظيم لقاعِدةِ «سَدّ الذَّرَائِعِ» إذ يَكْتَسِبُ السَّبَبُ حُكْمَ مَا يُؤَدِّي إليه، فما يُؤدِّي إلى حَرَامٍ يكون حَراماً.

- ﴿... كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ..﴾:

إنَّ الأعْمَالَ الَّتِي عَمِلَها المشْرِكُونَ، والَّتِي سَبَقَ بَيَانُ كثيرٍ مِنْهَا فِي هَـٰذِهِ السُّورَة، وفي السُّوَرِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَها، أعْمَالٌ مُزَيَّنَةٌ فِي نُفُوسِهِمْ بِزِينَاتٍ دَفَعَتْهُمْ إلَىٰ مَا عَمِلُوهُ مِنْ أَعْمَالٍ ظَالِمَةٍ آثِمَةٍ إجْرَامِيَّةٍ.

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (فاطر/ ٤٣ نزول) حول «توحيد الربوبيَّة وتوحيد الإلَهيَّة في الدلالات القرآنية».

وَهَـٰذَا التَّزْيِينُ خاضعٌ لِنَظَامٍ قَدَرِيٍّ رَبَّانِيّ عَامٍّ، مَشْرُوطٍ باتِّخَاذِ أَسْبَابِهِ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ بِإِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّة.

فَمَنْ جَحَدَ رُبُوبيَّةَ اللهِ أَوْ جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ جَحَدَ إِلَهِيَّةَ اللهِ، أَوْ جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي إِلَهِيَّتِهِ، زَيَّنَ اللهُ لَهُ ضِمْنَ نِظَامِهِ التَّكْوِينيّ الْعَامّ أَعْمَالَهُ الشِّرْكِيّة، فَصَارَ يَرَىٰ عِبَادَة مَنْ جَعَلَهُمْ شُرَكَاء للهِ أَمْراً حَسَناً.

ومَن اعْتَقَدَ أَنَّ النَّاسَ شُرَكَاءُ فِي الأَمْوَالِ وَفِي النِّسَاء، زَيَّنَ اللهُ لَه ضِمْنَ نِظَامِهِ التّكْوِينيّ الْعَامِّ أَنْ يَسْلُبَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ، وَأَنْ يُزَانِيَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ النِّسَاءِ دُونَ ضَابِطٍ وَلَا رَادِعٍ، وأَنْ يَعْتَبِرَ هَـٰذَا حقًّا مِنْ حُقُوقِهِ الشَّخْصِيَّة.

ولِكُلّ سُلُوكٍ إرادِيٍّ مُزَيَّنٍ لِلإِنْسَانِ أَصْلٌ فِكْرِيٌّ، فَمَنْ اعْتَقَدَ هَـٰذَا الأَصْلَ الفِكْرِيَّ كَانَ السُّلُوكُ الإرادِيُّ المتفَرِّعُ عَنْهُ مُزَيَّناً له، ضِمْنَ النظام التكْوِينيّ الرَّبَّانِيِّ الْعَام، وَقَدْ يَكُونَ هَـٰذَا الأَصْلُ الْفِكْرِيُّ بَاطلاً وَشرّاً، وَمُؤدِياً إِلَىٰ فَسَادٍ عَرِيضٍ، وَإِبادَةٍ لِلْأَحْيَاءِ، وتَدْمِيرٍ لِلْأَشْيَاء.

وَهَـٰذَا التَّزْيِين من لَوَازِمِ وَضْعِ النَّاسِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فَمَنْ صَحَّ إِيمانُهُ باللهِ وباليَوْمِ الآخِرِ، زَيَّنَ اللهُ لَهُ عِبَادَة رَبِّهِ والْعَمَلَ بِمَرَاضِيهِ، لِيَظْفَرَ بالسَّعَادَةِ فِي جَنَّاتِ النعيم.

ومَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ الْحَياةَ الدُّنْيَا هِيَ كُلُّ شَيْءٍ فِي وُجُودِ الإِنْسَانِ، زَيَّنَ اللهُ له أَنْ يَنْتَهِبَ اللَّذَاتِ انْتِهَاباً مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ، وَلَوْ كَانَ فِيها ظُلْمٌ وَعُدْوان، ومُخَالَفَةٌ ومَعْصِيَةٌ لِأَوَامِرِ وَنَوَاهِي الرَّبِّ الْجَلِيلِ الْقَهَّارِ الدَّيَّانِ.

فَمَعْنَىٰ الْعِبَارَةِ: وَكَذَٰلِكَ التَّزْيِينِ الَّذِي حَصَلَ للمشرِكِينَ، إِذْ زَيَّنا لَهُم أَعْمَالَهُمُ الباطِلَة الظَّالِمَةَ الآثِمَة، ضِمْنَ نِظَامِنَا التكويني العام، زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ذَاتِ عَقَائِدَ صَحِيحَةٍ، أَوْ بَاطِلَةٍ، أَعْمَالَهُمُ المتفرِّعَة عَمَّا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ جُذُور فِكْرِيَّةٍ اعْتِقَادِية، وبهذا يتحقَّقُ كَمالُ الْحِكْمَةِ فِي حَيَاةِ الابْتِلاءِ.

- ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ...﴾ أي: ثُمَّ إِلَىٰ اللهِ مَرْجِعُ كُلِّ أُمَّةٍ بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ في الحَياةِ الأُخْرَىٰ، لِتَحْقِيقِ نَتائِجِ الامْتِحَانِ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدنيا بالْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ، بِالثَّوَابِ، أَوْ بِالْعِقَابِ.

- ﴿... فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾: أي: فَيُعْلِمُهُمْ اللهُ فِي مَحْكَمَتِهِ يَوْمَ الدين، بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الْحَياةِ الدُّنيا.

وقَدْ أَبَانَتْ هَـٰذِهِ العبارَةُ فِقْرَةً مِنْ فِقْرَاتِ المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ القيامَةِ، كِنَايَةً عَنْ سَائِرِ الْفِقْرَاتِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا هَـٰذِهِ الْمَحْكَمَةُ، لِتَلازُمِها، إِذِ الْغَرَضُ مِنْها الْحُكْمُ بِالْعَدْلِ أَوْ بالْفَضلِ، وَمَا يَنْجُمُ عَنْهُ مِنْ تَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ مُطَالَبَةِ أئِمَّةِ المشْرِكِينَ بِأَنْ يَأْتِيهِمُ الرَّسُولُ بِآيَةٍ مِنَ الآيَاتِ المادِّيَّةِ الخوارِقِ كعَصَا مُوسَىٰ، وَنَاقَةِ صَالح، ومعجزاتِ عِيسَىٰ:

- ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

- ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ ...﴾:

أي: وحَلَفُوا باللهِ مُؤَكِّدِينَ حَلِفَهُمْ بأوثَقِ الأيْمَانِ وَأَغْلَظِهَا، قَائِلِينَ بَعْدَ قَسَمِهِمْ: لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ خارقةٌ مِنَ الآياتِ الَّتِي طَلَبُوهَا لِيُؤْمِنُنَّ بأنَّ مُحَمّداً نَبيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ وبِأَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، تَأَثُّراً بها، وَاقْتِنَاعاً بأَنَّهَا بُرْهَانٌ مِنَ اللهِ لِتَصْدِيقِ رَسُوله.

- ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ﴾: أي: غَايَةَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَيْمَانٍ مُؤَكَّدَةٍ مُشَدَّدَة. جَهْدُ الشَّيْءِ يأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ نِهَايَتِهِ وَغايَتِهِ، وبِمَعْنَىٰ وُسْعِهِ وطَاقَتِهِ.

اللّام في ﴿لَئِن﴾ واقِعَةٌ في جواب الْقَسَم، وتُسَمَّىٰ الموطّئة لِلْقسم عند النحاة، لأنَّ المقْسَم بِهِ مَنْوِيٌّ غَيْرُ مَذْكُورٍ بلَفْظه.

روى الطَّبَرِيُّ وغَيْرُه عَنْ مُجَاهِدٍ وعَنْ محمّد بن كَعْبٍ الْقُرَظي، وعَنِ الكَلْبِيّ، بِأَلْفَاظٍ مُتقاربة: أنَّ قُرَيشاً سَأَلُوا رسُول الله ﷺ آيَةً مِثْلَ آيَةِ مُوسَىٰ، أو مِثْلَ آيَةِ صالح، أو مِثْلَ آيَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِمْ السَّلام، وأَقْسَمُوا أَنَّـهُمْ إنْ جَاءَتْهُـمْ آيَةٌ كـمَا سَأَلُوا لِيُوقِنُنَّ أَجْمَعُونَ. وأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَأَلَ اللهَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ كَمَا سَأَلُوا، حِرْصاً مِنْهُ على أنْ يُؤْمِنُوا.

﴿... قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ....﴾: أي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إنَّ الآيَاتِ الخارِقَاتَ الْمُعْجِزاتِ لَيْسَتْ عِنْدِي، وَلَا أَمْلِكُ إِجْرَاءَهَا، إِنّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه، إِنَّمَا القَادِرُ عَلى إِجْرَاءِ الآيَاتِ الْخَارقاتِ المعْجِزَاتِ هُوَ اللهُ عزَّ وجلَّ، فإجْرَاؤُهَا عِنْدَهُ، وفي مِلْكِ قُدْرَتِهِ، وهو عَلِيمٌ حَكِيمٌ لَا يُجْرِي الآيَاتِ الْخَارِقَاتِ لِسُنَنِهِ الثَّابِتَةِ إلَّا إذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُه ذَلِكَ، فَلَا تُطَالِبُونِي بشَيْءٍ لَيْسَ عِنْدِي ولا أسْتَطِيعُ إجراءه، واللهُ عَلِيمٌ بِمَا في نُفُوسِكُمْ، فإنْ عَلِمَ أَنَّكُم بِحَاجَةٍ حَقِيقِيَّةٍ إِلَىٰ الاقتناع بالحقّ الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ أَجْرَاهَا لَكُمْ، وإِنْ عَلِمَ أَنَّكُمْ مُتَعَلِّلُونَ كاذِبُونَ لَمْ يُجْرِها لَكُمْ، وهُوَ أَحْكَمُ بِتَصارِيفِهِ مِنْ كُلِّ ذي تَصَوُّر.

- ﴿... وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

وفي قراءة أبي عمرو: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وكَسَرَ همزة [**إِنَّهَا**] عَدَدٌ مِنَ القُرّاء.

وقرأ ابْنُ عَامِرٍ، وَحَمْزَة: ﴿... لَا تُؤْمِنُونَ﴾ خِطَاباً للمشْرِكين.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾: الشُّعُورُ بالشيء الْعِلْمُ بِهِ وَلَوْ مِنْ أَدْنَىٰ دَرجَاتِ الإحْسَاسِ به، وَهُوَ أَوّلُ مَرَاحِلِ إدْرَاكِهِ، ولَعَلَّهُ مأخُوذٌ فِي اللُّغَةِ مِنَ الشَّيْءِ يُلامِسُ الشَّعَر، فَيُحِسُّ بِهِ الإنْسَانُ إحْسَاساً خَفِيفاً، ثُمَّ انْتَقَلَ تَوسُّعاً إلى الإدْرَاكَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْأُولى.

الخطابُ في هَـٰذَا البيان مُوجَّهٌ لِعُموم المؤمِنين، الَّذِينَ يَتَطَلَّعُونَ إلَىٰ أَنْ يُلَبِّيَ اللهُ عزَّ وجلَّ طَلَبَ أئِمَّةِ الشِّرْكِ مِنْ قُرَيشٍ آيَةً مِنَ الآياتِ الَّتِي طَلَبُوها، طَمَعاً في أَنْ يُؤْمِنُوا، هذا بِحَسَبِ قِرَاءَة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حَدِيثاً عَنِ المشْرِكين.

لكِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ، وَأَنَّهُمْ غَيرُ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، ولَوْ أجْرَىٰ اللهُ لَهُمْ آيَةً عُظْمَىٰ عَلَىٰ وَفْقِ طَلَبِهِمْ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أجْرَىٰ اللهُ آيَةَ إنْشِقَاقِ الْقَمَرِ فَقَالُوا بِشَأْنِهَا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ الآيَاتِ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَة (القمر/ ٣٧ نزول) قائلاً:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾.

وقال عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ في سُورَةِ (يس/ ٤١ نزول):

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

بيْدَ أَنَّ المؤمِنِينَ اغْتَرُّوا بالْأَيْمَانِ المُغَلَّظَةِ الَّتِي حَلَفَهَا أَئِمَّة المشركين مِنْ قُرَيش، عَلَىٰ أَنَّهُمْ إنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ تأثُّراً واقتناعاً بها، ولَمْ يَقَعْ في شُعُورِ الْمُؤْمِنِينَ احْتِمَالُ كَذِبِهِمْ، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم.

وَبناءً عَلَىٰ هَـٰذَا يَحْسُنُ أَنْ نَفْهَمَ عِبَارَةَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ مع اسْتِخْرَاجِ المطْوِيَاتِ فيها.

أي: أَنْتُمْ تَرْغَبُونَ فِي تَلْبِيَةِ طَلَبِهِمْ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ مُشْعِرٌ ما بِكَذِبِهِمْ، بَعْدَ أَنْ أقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ، وما يَخْطُرُ في بالِكُمْ أَنَّهُمْ إذَا جَاءَتْهُمُ الآيَةُ عَلَىٰ وَفْقِ طَلَبِهِمْ لا يُؤْمِنُونَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ نُلَبِّيَ طَلَبَهُمْ.

وَعلَىٰ قِرَاءَةِ كَسْرِ هَمْزَةِ ﴿إِنَّهَا﴾ يَكُونُ تَحْلِيلُ الْعِبَارة: وَمَا يُشْعِرُكُمْ

مُشْعِرٌ مَا بِكَذِبهم، بَعْدَ أَنْ أقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، وأقولُ لَكُم وأَنَا الْعَلِيمُ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ: إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ.

وعَلَىٰ قراءة ابن عامرٍ، وحَمْزَة: [**وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا تُؤْمِنُون**]خطاباً للمشرِكين طَالِبِي الآيَة، يَكُونُ تَحْلِيلُ العبارَةِ كَمَا يَلي:

ومَا يُشْعِرُكُمْ مُشْعِرٌ مَا بِصِدْقِكُمْ، أَنْتُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ بأَنَّهَا إِذَا جَاءَتْكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ، لِأَنَّكُمْ تَطْلُبُونَ الخوارقَ طَلَباً جَدَلِيًّا تَعَلُّلِيًّا، لَا طَلَباً حَقِيقيًّا.

وأمَّا قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرو: [**وَمَا يَشْعِرْكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ**] فأرَىٰ أَنَّ «مَا» شَرْطِيَّةٌ، و﴿يُشْعِرْكُمْ﴾ فِعْلُ الشَّرْطِ مَجْزُوم، وفَاعِلُه وَجوابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفَان، والتَّقْدِيرُ: وَمَا يُشْعِرْكُمْ مُشْعِرٌ ما بِصِدْقِهِمْ إِذْ أقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ، إِلَّا هُوَ مُخالِفٌ لِوَاقِعِ حالهم. إِنَّهَا إذا جاءت لا يُؤْمِنون، ونَحْنُ نَعْلَمُ هَـٰذَا مِنْ سَرَائِرِهم. أو الإسْكانُ تخفيفٌ لحركة الضم.

إِنَّ مُؤَدَّىٰ القراءاتِ في هَـٰذِهِ العبارَةِ واحد، وهِيَ من التفنُّنِ في التعبير، وبإبْرازِ المطويّاتِ أَخْذاً مِن السِّبَاقِ والسِّيَاقِ وإيحاءَاتِ النَّصِّ تَنْجَلِي العبارة، وَتَذْهَبُ الإشْكَالاتُ، والحمْدُ للهِ علَىٰ فَتْحِهِ.

- قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ بِشأْنِ المعنيّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَة:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

يَعْمَهُون: يتَحيّرونَ ويَتَرَدَّدُون في مَسَالِكِهم. **الْعَمَهُ**: التّحيُّرُ والتَّرَدُّدُ وانْطِمَاسُ البصيرة، وهو في البصيرة كالعَمَىٰ في البصر.

أي: ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ، وهِيَ مَرَاكِزُ التَّفْكِيرِ والْفَهْم لَدَيْهِمْ، عَلَىٰ مَوَاقِعَ فِكْرِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ لِيُدْرِكُوا بِهَا الأدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الْهَادِيَة، والْبَرَاهِينَ الْقَاطِعَةَ، عَلَىٰ صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَنْ رَبِّهِ، وصِدْقِ ما أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ آياتِ القرآن

المجيد، ونُقَلِّبُ أَبْصارَهم في آفاقِ السَّماءِ والأَرْضِ، لِيَرَوْا بِهَا مَظَاهِرَ آيَاتِنَا فِي كَوْنِنَا، وَعَجَائِبَ إتْقَانِنَا لِكلِّ شَيْءٍ خَلْقْنَاهُ، إعَانَةً لَهُمْ حَتَّىٰ يَهْتَدُوا إِلَىٰ الْحَقِّ الّذِي جاءَهُمْ به رَسُولُنَا، اهْتِدَاءً مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ، دُونَ أَنْ تَمْنَعَهُمْ عَقَبَةُ الكِبْرِ الطَّبَقِيِّ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ رَسُولنا، وأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَتَرْغِيبِهِ وَتَرْهِيبِه، والاهْتِدَاءُ الذَّاتِيُّ أَدْعَىٰ لِأَن يُؤْمِنُوا بالْحَقِّ.

لَكِنَّهُمْ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ وَمَعَ الاقْتِنَاع الذَّاتِي لَا يُؤْمِنُونَ، بَلْ يَسْتَمِرُّونَ عَلَىٰ مَوَاقِفِ كُفْرِهِمُ الْعِنَادِيّ، ويَبْقَوْنَ كَافِرِينَ بالْحَقِّ الَّذِي جاءَهُمْ بِهِ رَسُولُنَا كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، حينَما دَعَاهُمْ رَسُولُنَا إلى الإيمانِ والإسْلَامِ، وتَلَا عَلَيْهِمْ آياتِ كِتَابِنَا الْمَنَزَّلِ.

ونَذَرُهُمْ حِينَئذٍ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ مُتَحَيِّرِينَ، مُتَرَدِّدِينَ، مُنْطَمِسِي الْبَصِيرَة.

الطُغْيَان: تجاوز الْحَدِّ المقبول، إلى مواقع الضَّرَر، والإفْسَادِ، والظُّلْمِ، والجوْرِ، والْبَغْيِ والْعُدْوان.

الْعَمَهُ: هو في الْبَصِيرَةِ كالْعَمَىٰ في الْبَصَرِ، يقال لغة: «عَمِهَ، يَعْمَهُ، عَمَهاً، وَعَمَهاناً، وعُمُوهاً، فَهُو أَعْمَهُ» أي: تَحَيَّرَ، وَتَرَدَّدَ، كالْأَعْمَىٰ في طَرِيقِهِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ شيئاً مِنْ مَعَالِمِهِ.

إنَّ الآيَةَ قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ ثَلَاثِ جُمَلٍ بَيْنَهَا مَطْوِيَّاتٌ.

الجملَةُ الْأُولىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ ولَا يَسْتَقِيمُ عَقْلاً ولا مَع دَلَالاتِ النُّصوص القرآنيَّة الْأُخرَىٰ، أنْ يَكُونَ هَـٰذَا التَّقْلِيبُ إضْلالاً وَصَرْفاً عَنْ أدِلَّةِ الْحَقِّ، لِأَنَّ اللهَ لَا يَرْضىٰ لعباده الكُفر(١)، فَلَزِمَ عَقْلاً وانسِجَاماً مع دَلَالَاتِ النُّصوص القرآنيَّة الأُخْرَىٰ، أنْ يَكُونَ المرادُ بهذَا التَّقْلِيبِ

---

(١) وقد أخْطأ من فَهِمَ هذا الْفَهْمَ إِذْ هُو من لوازم الْعَقِيدَةِ الْجبْرِيَّة الْبَاطِلَة.

الْمُسَاعَدَةَ عَلَىٰ إِدْرَاكِ أَدِلَّةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ إِدْرَاكاً ذَاتِيًّا لِيَتَخَطَّوْا عَقَبَةَ الْكِبْرِ الطَّبَقِيِّ فِي نُفُوسِهِمْ، ولِقَطْعِ كُلِّ مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بِهِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

الْجُمْلَةُ الثَّانِيَة: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هَـٰذِهِ الْجُمْلَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ هُوَ الْمشَبَّهُ، وبالتَّأَمُّلِ نُدْرِكُ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بالحقِّ بَعْدَ تَقْلِيبِ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصارِهِم عَلَىٰ أَدِلَّتِهِ الْقَاطِعَةِ لِيَفْهَمُوهَا فَهْماً ذَاتِيًّا، كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ حِينَمَا جَاءَهُمْ بَلَاغاً عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ رَبِّهِمْ.

الْجُمْلَةُ الثَّالِثَة: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: أي: وَبَعْدَ أَنْ نَجِدَهُمْ مُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَتَقْلِيدِهم الْأَعْمَىٰ، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنَ الْبَيَانَاتِ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهَا رَسُولُنَا، وَمُسَاعَدَتِهِمْ علىٰ إِدْرَاكِهُمُ الْحَقَّ إِدْرَاكاً ذَاتِيًّا، نَتْرُكُهُمْ وَشَأْنَهُمْ يَعْمَهُونَ فِي طُغْيَانهم.

■ قول اللهِ تَعالَىٰ بشَأْنِ هَـٰؤُلَاءِ الْمُعَالَجِينَ أَنْفُسُهِمْ أيضاً ويُلْحِقُ بهم أَشْبَاهُمْ فِي كُلِّ المجتَمَعاتِ وكلِّ العصور:

● ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾:

جاء في أخبار السِّيرَة:

(١) رُوي عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ: أنّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَة، والعاصِيَ بْنَ وَائل، والأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ يَغُوث، والأَسْوَدَ بْنَ المطَّلب، والحَارِثَ بْنَ حَنْظَلَةَ، من أهْلِ مكة، أتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ في رَهْطٍ مِنْ أَهْلِ مكة، فقالوا: أَرِنَا الْمَلَائِكَة يَشْهَدُونَ لك، أو ابْعَثْ لَنَا بَعْضَ مَوْتَانَا فَنَسْأَلَهُمْ أَحَقٌّ ما تقول.

(٢) ورُوِيَ أَنَّ المشركين قالُوا للرسول ﷺ: لَا نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ يُحشَرَ قُصَيّ، فَيُخْبِرَنَا بِصِدْقِكَ، أَوِ ائْتِنَا باللهِ والملائكة قبيلاً. فَنَزَلَتْ الآية.

وسبَقَ في الآيات من (٩٠ ـ ٩٣) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) بَيَانُ عَدَدٍ مِنْ مَطَالِبِهِمْ التَّعَنُّتِيَّة الَّتِي لَا تَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ لَو اسْتَجابَ اللهُ لِمَطَالِبِهِمْ فيها.

فأبانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هَـٰذِهِ الآيَةِ، أَنَّهُ لَوْ نَزَّلَ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَة، وَلَوْ كَلَّمَهُمُ الموْتَىٰ بخارِقَةٍ أجْرَاهَا لَهُمْ، وَلَوْ جَمعَ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ طَلَبُوهُ مِنَ الخوارِقِ والآيَاتِ الْمُعْجِزَاتِ، مَا كانُوا لِيُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إرادَاتِهِمْ الحرّة، لِأَنَّهُم مُعَانِدُونَ مُكابِرُونَ مُسْتَيْقِنُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّ مُحَمّداً رَسُولُ اللهِ حَقّاً وَصِدْقاً، وأَنَّ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبّ العالمين، فَهُمْ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إلى اقْتِنَاعٍ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا.

- ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أَيْ: وَجَمَعْنَا مُرْسِلِينَ عَلَيْهِم، ضُمِّنَ الفِعْلُ في: «وَحَشَرْنَا» مَعْنَىٰ الفِعْلِ فِي: «وَأَرْسَلْنَا» فَعُدِّيَ تَعْدِيَته بحرف الجرّ «علَىٰ».
- ﴿كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ وَفي القراءة الأخْرَىٰ ﴿قِبَلًا﴾ أي: كُلَّ شيءٍ ممَّا طَلَبُوهُ مِنْ خوارِقَ وآياتِ حَالَةَ كَوْنِهِ مُقَابلاً مُواجِهاً لَهُمْ، وَمُعَايَناً بأعْيُنِهِمْ. القراءتان لغتان بمعنى المقابلة والمواجهةِ والمعاينة.
- ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ اللّامُ فِي: ﴿لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ تُسَمَّىٰ لَامَ الجحود، إذْ جَاءَتْ بَعْدَ كَوْنٍ مَنْفِي. وفِعْلُ «كَانَ» هُنَا بِمَعْنَىٰ الاستقبال، وهو أحَدُ استعمالات هذا الفعل.
- ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: أي: إلّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إيمانَهُمْ، فإنَّهُ يَسْلُبُهُمْ حِينَئِذٍ إرادَاتِهِم الحُرَّةُ، ويَجْعلُهُمْ مَجْبُورِينَ غَيْرَ مُخَيَّرِينَ، ولَكِنْ يُلْغَىٰ حِينئذٍ وَضْعُهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحانِ، فالْجَبْرُ يُنَافِي الابتلاء.
- ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾: أي: ولكِنَّ أكْثَرَ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ هَـٰذِهِ الحقيقة عَنْهم، فيَتَطَلَّعُونَ إلى تَلْبِيَةِ بَعْضِ مَطَالِبِهِمْ من الآيات، طَمعاً في إيمانهم، وَنَحْنُ نَعْلَمُ حَقِيقَتَهُمْ، وَمَا تُكِنُّه صُدُورُهُمْ، فَلَا نَسْتَجِيب لمطالِبِهِم التَّعَنُّتِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ أَعْدَاءِ النبيِّينَ مِنَ الإنْسِ والجنّ:

● ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

عِبَارَةُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ تُشِيرُ إِلَىٰ تَجَمُّعِ أَعْدَاءٍ لِلرَّسُولِ ﷺ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، من شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنّ، وأَنَّ هٰذَا التَّجَمُّعَ حَدَثَ نَظِيرُهُ لِكُلِّ نَبِيٍّ سَبَقَ أَنْ نَبَّأَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ نَبِيًّا رَسُولاً فَأَمْرُهُ عِنْدَ الشَّيَاطِينِ أعْظَمُ وأخْطَرُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عداؤُهُمْ لَهُ أبْلَغُ، وَتَدْبِيرُهُمُ المكايدَ ضِدَّهُ وضِدَّ دَعْوَتِهِ أشدّ.

وَنِسْبَةُ جَعْلِ أعْدَاءِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَىٰ اللهِ، هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ جَعْلِ النِّظَامِ الْعَامِّ لِمُجْتَمَعَاتِ الموضُوعِينَ فِي الحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مِنَ الإنْسِ والْجِنِّ، يَلْزَمُ عَنْهُ ظُهُورُ أَعْدَاءٍ كَفَرَةٍ مِنَ الإنْسِ والْجِنِّ، يُعَادُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَوَرَثَةَ الْأَنْبياء، لِأَنَّ دَعْوَةَ الْحَقِّ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا ويَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْها تُعَارِضُ مَصَالِحَ شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنِّ الدُّنْيَوِيَّة.

وإِذْ وَضَعَ اللهُ الإنْسَ والْجِنَّ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، فَلا بُدَّ أَنْ يُعْطِيَهُمْ حُرِّيَّةَ اخْتِيَارِ ما يَشَاءُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وأَنْ تَجْرِي فِيهِمْ سُنَنُهُ في تَحْقِيقِ اخْتِيَارَاتِهِمْ، مَا لَمْ يَتَعَارَضْ ذَلِكَ مَعَ قَوانِينِهِ الْعَامَّةِ وأَنْظِمَتِهِ الَّتِي لَا يَأْذَنُ بِتَغْييرها.

فالمؤمِنُ يُؤْمِنُ باختياره الحرّ، والكافِرُ يَكْفُرُ باختياره الحرّ، والعاصِي يَعْصِي باختياره الحرّ، والمطيعُ يُطِيعُ باختيارِهِ الحرّ.

والمعادي يُعَادِي باختياره الحرّ، والموالي يُوالِي باختياره الْحَرّ، وكُلُّ ذَلِكَ خَاضِعٌ لِلْجَعْلِ الرَّبَّانِيِّ الْعَامِّ، الَّذِي وَضَعَ بِهِ نِظَامَ حَيَاةِ الابْتلاء.

ولَيْسَ المرادُ أنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ شياطِينَ الإِنْسِ والجِنِّ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ مُعَادَاةِ النَّبِيِّينَ، بَلْ جَعْلُهُمْ مُخْتَارِينَ ويَلْزَمُ عَنِ ذَلِكَ أنْ يَكُونُوا أعْداءً للنبيّين.

• ﴿عَدُوًّا﴾ **الْعَدُوُّ**: هُوَ الَّذِي يَعْدُو بالمكْرُوه ويظلِم. مأخُوذٌ مِنْ عَدَا عَليه، إذا أقْبَلَ إِلَيْهِ يَعْدُو لِيُنْزِلَ بِهِ مَكْرُوهاً، أَوْ لِيَظْلِمَهُ. **والْعَدُوُّ** هُو الذي وَصَلَ بِهِ الحالُ إلى إِرَادَة النِّكَايَةِ بِخَصْمِهِ وإِنْزَال المكْرُوهِ فيه بأيِّ وَسِيلَة، ولَوْ بالقتالِ والْحَرْب. ويُطْلَقُ بالإفراد على المفرد والمثنىٰ والْجَمع والمذكّر والمؤنث، ويُسْتَعْمَلُ أيضاً على الأصل فيُثَنَّىٰ ويجْمَعُ ويُذَكَّرُ وَيُؤَنَّث.

• ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾: **شياطين**: جمع «شَيطان» وهو اسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ، وإِبْليسُ إِمَامُ الشَّيَاطِينِ وَرَئِيسُهم.

وَقُدِّمَ الإِنْسُ عَلَىٰ الْجِنِّ هُنَا لِأَنَّهُمْ هُمُ الظَّاهِرُونَ بِعِدَاءِ النَّبِيِّين، وَحَمَلَةِ رِسَالَاتِهِمْ مِنَ المؤمِنينَ.

• ﴿... يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ...﴾ أي: يُوحِي شياطينُ الْجِنِّ إِلَىٰ شَيَاطِينِ الإنْسِ زُخْرُفَ الْقَوْلِ الَّذِي يَتَّخِذُونَهُ وسِيلَةً للإِغْوَاءِ والإِغْرَاء والإِضْلَالِ عَنِ الحقِّ وَصِرَاطِ اللهِ المستقيم، لَدَىٰ مَنْ يُصْغِي إِلَيْهِمْ وَيَسْتَطِيعُونَ خِداعَهُ، وَهَـٰذَا الْقَوْلُ الذي يُضِلُّونَ بِهِ يَعْتَمِدُ على الكذِب والافتراء.

• ﴿غُرُورًا﴾: أي: خِدَاعاً وإِطْمَاعاً بالْبَاطل. يُقالُ لغة: «غَرَّهُ، يَغُرُّهُ، غَرّاً، وَغُروراً، وَغِرَّةً» أي: خَدَعَهُ وَأطْمَعَهُ بالْبَاطِل: «غُروراً» مفعول لأجله.

• ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾: أي: الْقَوْلَ الْمُزَخْرَفَ الْمُزَيَّنَ، وهو مِنْ إضافَةِ الصِّفَةِ إِلَىٰ الْمَوْصُوف. **الزُّخْرُف**: الزِّينَة، وكَمَالُ حُسْنِ الشيء، يُقَالُ لُغَةً: «زَخْرَفَهُ» أي: زَيَّنَهُ، وكَمَّلَ حُسْنَهُ.

ويُطْلَقُ الزُّخْرُف على الذَّهَب، لِأَنَّهُ يُتَزَيَّنُ به.

فالمعنى: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَحياً زُخْرُفَ الْقَوْلِ (فَهُوَ نائب مَفْعُول مُطْلَق): لِأَجْلِ التَّغْرِيرِ بِمَنْ يُصْغِي إِلَىٰ زُخْرُفِ الْقَول.

- ﴿... **وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ** ﴿١١٢﴾﴾: أي: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ يا مُحَمَّدُ أَنْ يَمْنَعَهُمْ من أنْ يُوحِيَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرف الْقَوْلِ، للإغراء والإغواء والتضليل، لَمَنَعَهُمْ فَمَا فَعَلُوه، لكنْ لم يَمْنَعْهُمْ إذْ حِكْمَةُ رَبِّك تَقْتَضِي أَنْ لَا يَمْنَعَهُمْ مَنْعاً جَبْرِيًّا، بَعْدَ أَنْ مَنَحَ حُرِّيَّةَ الْإِرادَةِ لِكُلِّ الموضُوعينَ في الْحَياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان مُؤْمِناً أَمْ كافراً، مُطِيعاً أَمْ عَاصِياً، ومِنْ مَوادّ الامْتِحَانِ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا امْتِحَانُ الأنبياء وأتْبَاعِهِم من المؤمِنين، بِشَيَاطِينِ الإنْسِ والجنّ وأتْبَاعِهِمْ من الكافرين. فَدَعْهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ، فَلَا تَسْأَلْنِي أَنْ أَمْنَعَهُمْ مَنْعاً جَبْرِيًّا، ولَكِنْ لَا تُقَصِّرْ أَنْتَ ومَنْ مَعَكَ الدُّعَاةُ إِلَىٰ الحقِّ مِنْ أُمَّتِكَ فِي مُقَاوَمَةِ باطِلِهِم بالحقّ، ومُقَاوَمَةِ افْتِرَاءَاتِهِمْ بالصِّدْق، وَكَشْفِ أَوْهَام تَزْيِنَاتِ أَقْوالِهم الزُّخْرُفِيَّة، بِزِينَاتِ الحقِّ وَمَنَافِعِهِ الثَّابِتَةِ الرَّاسِخَةِ، الَّتِي لَا يَزِيدُهَا التَّجْرِيبُ الْعَمَلِيُّ إِلَّا حُسْناً وَجَمَالاً، وبَهَاءً وَنُوراً.

﴿**فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ**﴾: أي: فَدَعْهُمْ وَما يَصْطَنِعُونَ مِنْ أكاذِيب.

وهُنَا مَوْقِعٌ من مَوَاقِع قَوْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣):

﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴿١٨﴾﴾.

وبَعْدَ الْبَيَانِ الاعْتِرَاضِيِّ الذي قال اللهُ عزَّ وجلَّ فيه: ﴿... **وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ** ﴿١١٢﴾﴾ تَابَعَ اللهُ بَيَانَ خُطَّةِ شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنِّ فِيما يَصْطَنِعُونَ مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ، لِتَرْوِيجِ بَاطلهم وضَلَالَاتِهِم بَيْنَ النَاس.

فالْخُطْوَةُ الشَّيْطَانِية الْأُولى: جَاءَ بَيَانُها بِكَلِمَة: ﴿غُرُورٗاۚ﴾ أي: للتَّغْرِير

والْخِدَاعِ والإطْمَاعِ بالْبَاطِلِ، ويُعْتَبَرُ هَـٰذَا مُقَدِّمَاتِ الدِّعَايَةِ الإعْلَامِيَّة الزُّخْرُفِيَّةِ لِلْباطل، ولسُلُوك مَسَالِكِ الشَّرِّ والإثْمِ والعِصْيَان، والْفُجُور والظُّلْمِ والْعُدْوان.

والْخُطْوَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ** ... ﴿١١٣﴾﴾:

أي: ولِتَمِيلَ إِلَىٰ قَوْلِ الشَّياطِينِ الْمُزَخْرَفِ أَعْمَاقُ قُلُوب الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، ولا بِمَا فيها مِنْ جزاءٍ بِالْعِقَاب في دار العذاب النار، ولا بما فيها مِنْ جَزَاءٍ بالثَّوابِ العظيم في دارِ النعيم الجنَّة، فَلَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا مَا يَرْجُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيا، وَالشَّياطِينُ يُزيِّنُونَ لَهُمْ هَـٰذِهِ المتاعَات، ويُحَرِّضُونَهُم عَلَىٰ انْتِهَابِ لَذَّاتِهِمْ مِنْها، لِيَتَّخِذُوهُم قُطْعَانَ مُمَارَسَةِ شَهَوَاتٍ، واتِّبَاعِ أهْوَاءٍ، وَغَرْقَىٰ أَوْحَالِ مَبَاءَاتٍ فاسِدَاتٍ. وعِنْدَئِذٍ يَجْعَلُونَهُمْ جُنُوداً أغْبِيَاءَ عُمْيَاناً لهم.

﴿**وَلِتَصۡغَىٰٓ**﴾: أي: وَلِتَمِيل. يُقَال لُغَةً: «صَغِيَ، يَصْغَىٰ، صَغًى» أي: مَال. ويقال أيضاً: «صَغَا، يَصْغُو، صَغْواً» أي مالَ. ومَا جَاء في الآية هنا مِنَ الْيَائِي.

الْخُطْوَةُ الشيطانيّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... **وَلِيَرۡضَوۡهُ** ...﴾:

أي: وَلِيَقَعَ زُخْرُفُ الْقَوْلِ الّذي يُلْقِيهِ شياطينُ الإنْسِ، مَوْقِعَ الرِّضَا من أَفْئِدَة الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَة، ومَعْلُومٌ أَنَّهُ مَتَىٰ كَانَ سُلُوكٌ ما وَاقِعاً مَوْقِعَ الرِّضَا فِي فُؤادِ إنْسَانٍ، إنْدَفَعَ هَـٰذَا الإنْسَانُ إِلَىٰ مُمَارسَتِهِ بِكُلِّ جُرْأَةٍ وَقُوَّةٍ، غَيْرَ عَابِئٍ بِنَقْدِ النَّاقِدِينَ، وَلَوْم اللَّائِمِين.

الْخُطْوَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ الرابعة: دَلَّ عليها قول اللهِ تعالى: ﴿... **وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ** ﴿١١٣﴾﴾: أي: وَلِيَكْتَسِبُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ والْجَرَائِمِ الَّتِي حَلَّتْ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ مَحَلَّ الاسْتِحْسَانِ والرِّضَا ما هم مُكْتَسِبُون.

هَـٰذِهِ الْخُطْوَةُ تَأْتِي تِلْقَائِيَّةً بَعْدَ الْخُطْوَةِ الثالِثَةِ، وَقَدْ تَحْتَاجُ من الشياطين المغْوِينَ المضِلّين شيئاً مِنَ الدَّفْعِ، أَوِ الْجَذْبِ، أو المصاحَبَةِ، أو تَهْيِئَةِ الْوَسائِلِ والأسْبابِ، أَو وَضْعِ الصَّيْدِ الْجَدِيدِ في الْمَكَانِ الْمُهَيَّأِ لاقْتِرَافِ السَّيِّئَاتِ والجرائم الَّتِي حَلَّتْ مِن الْفُؤَادِ مَحَلَّ الاسْتِحْسَانِ والرِّضا، وبَعْدَ الاقْتِرَافِ الأوَّلِ تَكُونُ الأفعال التالِيَة عَادِيَّةً، ثُمَّ تكونُ عَادَةً مُتمِكِّنَة.

الاقْتراف: الاكْتِسَابُ، يُقالُ لغة: «اقْتَرَفَ الذَّنْبَ» أي: افْتَعَلَهُ بإرَادَةٍ واعِيَة وتَكَلُّفٍ، ولم يَفْعَلْهُ عفواً كما يَذُبُّ الذُّبابَ عَنْ وَجْهِهِ.

- قول اللهِ عزَّ وجلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ أنْ يَقُول:

- ﴿**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾**﴾:

يَرَىٰ المفسِّرُون أَخْذاً مِنْ ظَوَاهِرِ سَوَابِقِ هَـٰذِهِ الآيَةِ أَنَّها مِنْ تَوابِعِ عِلَاجِ المشْرِكِين، والَّذِي ظَهر لي أَخْذاً ممَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَعْلِيم، أنَّها تَخُصُّ بعضَ الذينَ آمنُوا وأسلموا، الذينَ لم يَتَّضِحْ لهمْ بَعْدُ أَنَّ الإسْلَامَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَحْكَامِ الْفُرُوعِ، في المعامَلَاتِ والْعَلاقَات الماليَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ وغَيْرِها، ورُبَّمَا كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَىٰ مَنْ كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ الإسْلَام، وَلَمْ تَكُنْ أَحْكَامُ هَـٰذِهِ الْفُرُوعِ قَدْ نَزَلَتْ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَة، فاقتضَتِ الْحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّة القائِمَةُ على التَّدَرُّج، التَّمْهِيدَ بِبَيانِ أَنَّ كِتَابَ اللهِ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ مِنْهُ مَا أَنْزَلَ، وَسَيُنْزِلُ سَائِرَهُ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ تَفْصِيلٍ لِكُبْرَيَاتِ قَضَايَا الأحكام، وَأَحْكَامُهُ صَادِرَةٌ عَنْ أَحْكَمِ الحاكِمِينَ رَبِّ الْعَالَمِين.

- ﴿**أَبْتَغِى حَكَمًا**﴾: أي: أَطْلُبُ حَكَماً، **الْحَكَمُ**: هُوَ مَنْ يُخْتَارُ للقَضَاءِ، والْفَصْلِ بَيْنَ الخُصَمَاءِ. «وَحَكَمَ فُلانٌ في الأَمْر» أي: قَضَىٰ فيه.

لفظ «**الْحَكَم**» أخصُّ من لَفْظِ «الحاكِم» أي: ذُو دَرَجَةٍ رَفِيعَةٍ فِي دِقَّةِ القضاءِ بالْحَقِّ والْعَدْل. ولفظ «الْحَكَمِ» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسنى.

وذَكَرَ المخْتَصُّونَ بِعُلُوم القرآنِ أَنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ مَدَنِيَّة، فإِذَا صَحَّ أَنَّهَا مَدَنِيَّة فَمَضْمُونُهَا خَاصٌّ بالمؤمِنِينَ الْمُسْلِمِين حَتْماً، ويُوجَدُ في أَحْدَاثِ السِّيرَةِ الْمَدَنِيَّة مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَبباً لِنُزُول هَـٰذِهِ الآيَة، وَقَدْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَدِينَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ تَفْصِيلٌ لِأَحْكَامِ الْفُرُوعِ في المعامَلات، فَيُلَائِمُهُمُ الْبَيَانُ في هَـٰذِهِ الآيَة تَمَاماً.

والاسْتِفْهَامُ في عبارة: ﴿**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا**﴾ اسْتِفْهَامٌ إنكاريٌّ على مَنْ طَلَبَ من المسْلِمِينَ التَّحاكُمَ إِلَىٰ بَعْضِ حُكَّامِ أَهْلِ الجاهلية، وقَدْ يَكُونَ من المنافقين، أو من الذين في قُلُوبِهِم مَرَضٌ دون النفاق.

- ﴿... **وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا** ...﴾: أي: وهُـوَ الَّذِي أَنْزَلَ إليكم الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، مُشْتَمِلاً عَلَىٰ أُسُسِ أَحْكَامِ المعامَلاتِ، القائِمَةِ على الْحَقِّ والْعَدْلِ، وفيها تَفْصِيلٌ كَافٍ عَنْ طَرِيقِ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ، أَوْ عَنْ طَرِيق الْقِيَاسِ الْجَلِيّ وغَيْرِه.

- ﴿... **وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ**﴾: أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا الْبَيَانَ الرَّبَّانِيَّ، مُوجَّهٌ لِمَنْ خَطَرَ لَهُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ لِغَيْرِ الرَّسُولِ مِنْ حُكَّامِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وقُضَاتِهِم، لِمَرَضٍ في قَلْبِهِ جَعَلَهُ يَشُكُّ في القرآن، فقال اللهُ له:

والَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ وَهُمْ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ وأَحْبَارُهُمْ في المدينَة، يَعْلَمُونَ أَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ حَالَةَ كَوْنِهِ مُتَّصِفاً بالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين، أي: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِين في هَـٰذِهِ الحقيقة.

وَلَا أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا الخطابَ مُوَجَّهٌ للرَّسُول ﷺ.

والدَّاعِي لِوَضعِ هَـٰذِهِ الآيَة فِي سُورَةٍ هِيَ مِنَ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ، الإِشْعَارُ

بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ المؤمِنِينَ في مَكَّة، كانوا على عِلْم بأَنَّهم يجب عَلَيْهم أنْ يَرْجِعُوا في كُلّ الأَحْكَام المتعَلِّقَةِ بِمُعَامَلاتِهِمْ، إلى الرَّسُولِ ﷺ لِيَتلَقَّىٰ عن اللهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ مَا يَتعَلَّق بِمَا يَسْتَفْتُونَهُ فِيهِ، واللهُ أعلم.

- قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُبيِّنُ صِفَة كَلِمَاته:

● ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾: وَفي القراءة الأخرى: ﴿كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ وهُمَا متكافئتان لأنَّ المفرد المضاف إلى المعرفة بِحُكْمِ الْجمع، على أنّ الكَلِمَة قد يُقْصَدُ بها كَلِمَاتٌ كثيرات.

بنَظْرَةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ مُتعَمِّقَةٍ، يظْهَرُ لَنا أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطَانُهُ ـ تَرْجِعُ إلَىٰ وَاحِدَةٍ مِنْ أَرْبَعَةِ أُصول.

الأَصْلُ الأوّل: الكَلِمَاتُ الْخَبَرِيَّةُ عَنِ الأزليّات، الْوَاجِبَاتِ عَقْلاً والمسْتَحِيلَات عَقْلاً وَالجائِزَات عَقْلاً، وعَنِ الحادثاتِ الَّتِي كانَتْ، والّتي هي كائِنَة، والَّتي سَتَكُونُ أو سَوْفَ تكون.

وهذه كُلُّهَا كَلِمَاتُ صِدْقٍ، مُطَابِقَةٌ لِلْحَقِ والواقِعِ تَمَاماً.

ومعنَىٰ تَمَامِهَا أنّها تَحَدَّثَتْ عَنْ كلِّ شَيْءٍ يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُخبَر عَنْهُ بإيجابٍ أَوْ سَلْبٍ.

وهَـٰذِهِ الْكَلِمَاتُ مُدوَّنَاتٌ مُسَجَّلَاتٌ في اللَّوْحِ المحفوظ.

الأصل الثاني: الكَلِمَاتُ التَّكْوِينيَّة، وهِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها لِكُلِّ شيءٍ أرادَ أَنْ يَخْلُقَهُ: كُنْ، فَهُوَ بأمْرِ التكوينِ يَكُونُ عَلَىٰ وَفْقِ مَا أَمَرَ اللهُ تبارك وتَعَالَىٰ.

وهَـٰذِهِ كُلُّهَا كَلِمَاتُ عَدْل، لِأَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَمَّا قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْكَائِنَاتِ الْمُرَكَّبَاتِ مِنْ عَنَاصِرَ وَأجْزَاء، جَعَل لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْها مِقْداراً مُحَدَّداً مِنِ

الذَّاتِ والصِّفَات، وَهَـٰذِهِ الأجْزَاءُ تَتَفَاضَلُ فيما بَيْنَها تَفَاضُلاً كَبيراً جِدًّا، فَمِنْهَا مَثَلاً مَا يَحْتَاجُ مِلْيَارَ ذَرَّة، وِمِنْها ما يَحْتَاجُ ذَرَّةً وَاحِدَةِ.

والْعَدْلُ يَكُونُ بِأَنْ يَخْلُقَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ مِلْيَارَ ذَرَّةٍ لِمَا قَدَّرَ لَهُ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ أَنْ يَتَكَوَّنَ مِنْ مِلْيَارِ ذَرَّة، وأَنْ يَخْلَق ذَرَّةً واحِدَةً لِمَا قَدَّرَ لَهُ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ أَنْ يكُونَ ذَرَّةً واحِدَة.

ومَعْلُومٌ أَنَّ الْعَدْلَ هُو إعْطاءُ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، والمساوَاةُ مع التفاضُلِ ظُلْمٌ لِلْحُقُوق.

وكَلِمَاتُ التَّكْوينِ الرَّبَّانِيَّةُ تَخْلُقُ بالْعَدْلِ لِكُلِّ شيءٍ مقداراً مِنَ الذُّرَّاتِ بحَسَب مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّرَ لَهُ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ الحكيمة.

وتمامُها يكون بإيجاد المخلوقِ علَىٰ ما سَبَقَ به القضاءُ والْقَدَر.

الأصْلُ الثالث: الكلِماتُ التَّشْرِيعيَّة، وهِيَ الكلمات اللَّاتِي يُبَيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ بِهَا أَحْكَامَ شَرَائِعِهِ لِلْمَوْضُوعِينَ في الحياة مَوْضع الامْتِحَان.

وهَـٰذِهِ الكَلِمَاتُ دَائِرَاتٌ بَيْنَ الصِّدْقِ والْعَدْلِ:

- فالصِّدْق يَكُونُ بالمطابَقَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُرَادِ اللهِ في التَّشْرِيع، فَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الْعِبَادِ أَنْ يُؤَوِّلُوا النُّصُوصَ التَّشْرِيعيَّةِ، تَأَوِيلَاتٍ يُخْرِجُها عَنْ دَلَالَاتِها في اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلْت بها، وإلَّا كانُوا مُحَرِّفين، لِأَنَّهَا كَلِمَاتٌ صادقات.

- والْعَدْلُ يَكُونُ في أَنَّ اللهَ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يُكَلِّفُ نَفساً إلَّا وُسْعَها، وإلَّا مَا آتاها. ويكُونُ أيْضاً بإنْزَال الْأَحْكَامِ الْعدليَّةِ الَّتِي يَجِبُ علَىٰ الْقُضَاةِ أَنْ يَتَقيَّدُوا بها لَدَىٰ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ في الْقَضَاءِ.

والكلماتُ التَّشْرِيعيَّةُ تَامَّاتٌ غَيْرَ نَاقِصَات لِأَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَكْمَلَ لِلنَّاسِ دينَهُمْ، وأتَمَّهُ لهم.

الأصل الرَّابع: الكَلِمَاتُ الجَزَائِيَّة، وهِي الَّتِي يَقْضِي اللهُ بِهَا الجزاءَ على عبادِهِ ثواباً أو عِقاباً.

وهَـٰذِهِ الْكَلِمَاتُ دائراتٌ بَيْنَ الصِّدْقِ والْعَدْلِ:

- فالصِّدْقُ يَكُونُ بِتَحْقِيقِ وَعْدِ اللهِ السَّابِقِ بأنْ يُضَاعِفَ ثوابَ المحسنينَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ أَضْعَافاً كَثِيرَة، وأنْ يَشْمَلَ بَعْضَ عِبادِه بِعَفْوِهِ وغُفْرَانِهِ علىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ.

- والْعَدْل يَكُونُ في الجزاء بالْعِقاب عَلَىٰ قَدْرِ الذَّنْبِ إِذَا لَمْ يَعْفُ، فاللهُ لَا يَظْلِمُ أحداً مِثْقَالَ ذَرَّة.

- ﴿... **لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ** ...﴾: أي: وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً حَالَةَ أَنَّهُ لَا مُبَدِّلَ لِأَيِّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِهِ كُلِّهَا.

- فَكَلِمَاتُهُ الْخَبَرِيَّةُ حَتَّىٰ مَا كانَ مِنْهَا وَعْداً أَوْ وَعِيداً كَلِمَاتٌ صادقات، لَا مُبَدِّلَ لَهَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ.

- وكَلِمَاتُهُ التكْوِينيَّةُ نَافِذَاتٌ حَتْماً، لَا مُبَدِّلَ لَهَا مِنْ ذاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ.

- وَكَلِمَاتُهُ التَّشْرِيعِيَّةُ لَا مُبَدِّلَ لَهَا من ذَاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ، ضِمْنَ حُدُودِهَا الزَّمَنِيَّةِ المقَدَّرَةِ في خُطَّةِ التَّشْرِيعِ، وضِمْنَ حُدُودِ الْقَوْمِ الَّذِينَ شُرِعَتْ لهم، أو الْفَرْدِ الَّذِي شُرِعَتْ لَهُ، كَنَبِيٍّ أو رَسُول.

والنَّسْخُ لَيْسَ إبْطالاً لِحُكْم سَابِقٍ، وإنَّمَا هُوَ بَيَانُ انْتِهَاءِ وَقْتِ الْعَمَلِ بالْحُكْمِ السَّابِقِ، أَو التَّشْرِيعِ السَّابق، إذْ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ لَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ.

- وَكَلِمَاتُهُ الجزائِيَّةُ مَتَىٰ صَدَرَتْ فَلَا مُبَدِّلَ لها مِنْ ذَاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ نَفَاذِهَا ضِمْنَ حُدُودِ آجالِهَا المقَدَّرَةِ لَهَا فِي الْحُكْمِ

الْجَزَائِيِّ الرَّبَّانِيّ، الأَبَدِيّ، أو الْمُؤَقَّتِ، أو المطْلَقِ الْقَابِلِ للتَّقْييد لَاحقاً.

ومَحْوَ اللهِ مَا يَشَاء، وإثباتُ ما يشاء يكُونُ فيما هو مَشْرُوطٌ باختياراتِ العباد، وفي صُحُفِ الملائكةِ لا في كَلِمَاتِهِ الأصول.

- ﴿... **وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴿١١٥﴾﴾: أي: وهُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ ما هُوَ قَابِلٌ لِأَنْ يُسْمِعُ، وهو الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْء عِلْماً.

وقَدْ جاء في سَوابق آيات هَـٰذَا الدَّرْسِ مَا يُنَاسِبُ ذِكْرَ هَـٰذِين الاسْمَيْنِ من أسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، الَّتي هِيَ مِنْ عَنَاصِرِ القَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ.

■ قَول اللهِ عزَّ وجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ صَالِحٍ للخِطَاب بأُسْلُوب الْخِطَابِ الإفْرَادِيّ:

- ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** ﴿١١٦﴾ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ** ﴿١١٧﴾﴾:

أي: وإنْ تُطِعْ أيُّهَا الْحَرِيصُ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ مُهْتَدِياً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ سَعِيداً في آخِرَتِكَ، أكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الإنْسِ والْجِنِّ، يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ بِأقْوَالِهِمُ الزُّخْرُفِيَّةِ الْبَاطِلَةِ، الَّتِي يُزَيِّنُونَ بِهَا مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، والسَّعْيَ لِنَيْلِ أعْظَم قَدْرٍ مِنْها، مَهْمَا كانَ فِيها ضَلَالٌ بَعِيدٌ عَنْ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم، ولَوْ كَانَتْ ذَوات عَاقِبَاتٍ وَخِيمات.

﴿**وَإِن تُطِعْ**﴾: أي: وَإنْ تَنْقَدْ وَتَسْتَجِبْ وَتَتَّبِعْ، يقال لغة: «أَطَاعَ فُلَانٌ فُلَاناً يُطِيعُهُ» أي: انْقَادَ لَهُ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَه بِهِ، أو دَعَاهُ إلَيه، ويقال أيضاً: «طَاعَهُ، يَطُوعُهُ، طَوْعاً» أي: انقادَ له.

هَـٰذِهِ قاعِدَةٌ ثَمِينَةٌ جدًّا لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ عَاقِلاً رَشيداً، مِنْ قَوَاعِدِ الاجْتِماعِ الْبَشَرِيِّ، والنَّاسُ لا يَعْمَلُونَ بها وَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنها.

فالنّسْبَةُ الْعُظْمَىٰ مِنَ النَّاسِ في كُلِّ الْقُرُونِ الإنْسَانِيَّة، هُمْ ضَالُّون بَعِيدُونَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، وكَثِيرٌ مِنْهُمْ مُضِلُّونَ، مُغْوُونَ، مُلْحَقُونَ بِقِسْمِ الشَّيَاطِينِ من الإنْسِ والْجِنِّ.

وقَدْ أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّ تَكَرُّرَ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَةِ مِنْ ظَوَاهِرِ الاجْتِماعِ الْبَشَرِيّ، لَهُ سَبَبَانِ رَئِيسَان:

السَّبَبُ الأَوَّل: أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنِ، فَهُمْ لَا يَصْبِرُونَ حَتَّىٰ يَعْرِفُوا الْحَقَّ، أو الصَّوَاب، أَو الأَفْضَلَ، بِيَقِينٍ، بَلْ يَتَسَرَّعُون بِدَوافِعَ شَهْوِيَّة أو غَضَبِيَّة مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَيَجْزِمُونَ بالْبَوَادِرِ الَّتِي تَخْطُرُ لَهُمْ، وَيَجْعَلُونَهَا حَقَائِقَ، وَهِيَ ظُنُونٌ، وأَكْثَرُهَا ظُنُونٌ كَوَاذِبُ لَا تَصْلُحُ للاعْتِمَادِ عَلَيْهَا، وهي كَوَاذِبُ قَطْعاً إذا تَعَارَضَتْ مع مَا جَاءَ في دين الله الحق لعباده.

وفي بيانِ هَـٰذَا السَّبَبِ قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿... **إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ** ...﴾: أي: مَا يَتبِعُونَ في آرائِهِمُ الَّتِي يَجْزِمُونَ بِها إلَّا الظَّنّ.

الظَّنُّ: هُو مَا دُونَ الْيَقِينِ الْعِلْمِيّ، حَتَّىٰ أَضْعَفِ دَرَجَاتِ الظُّنُونِ التَّوَهُّمِيَّة، فَمَا تَجَاوَزَ مِنَ الظُّنُونِ الدَّرَجَةَ الْوُسْطَىٰ الَّتِي تَكُونُ فيها كِفَّتَا مِيزَان الاحْتِمَالَات الْمُتَضادَة مُتَسَاوِيَتَيْن، فَيَرْجَحُ أَحَدُ الاحْتِمَالَيْنِ على ضِدِّهِ يَكُونُ ظَنّاً رَاجحاً، ويَكُونُ مُقَابِلُهُ ظَنًّا مَرْجُوحاً، وقَدْ يَصِلُ الظَّنُّ المرجُوحُ إلى دَرَجَةِ التَّوَهُّم. وأَكْثَرُ النَّاس يَكْتَفُونَ في أَحْكَامِهِمْ بالظُّنُونِ الْمَرْجُوحَة، لتَبَادُرِهَا إِلَىٰ أَذْهَانِهِمْ، فَلَا يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمُ البحْثَ والتفكِيرَ والتَّأَمُّل، فيَسْقُطُونَ في أَوْحَالِ أَخْطَاءٍ شَنِيعَةٍ جدًّا، ذَاتِ مَصِيرٍ وَخِيمٍ لِمَنِ اعْتَمَدَ عَلَيْهَا وعَمِلَ بها، وَيغْتَرُّ مَنْ يَسْتَمْسِكُ بِهَا بِكَثْرَةِ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَهَا مِنَ الحقائق الَّتِي يَجِبُ الاسْتِمْسَاكُ بِهَا، والْعَمَلُ بِمَا تَدْعُو إِلَىٰ الْعَمَلِ به.

وأَكْثَرُ مَنْ فِي الأَرْضِ الموضُوعِينَ فيها مَوْضِعَ الامْتِحَانِ ضَالُّون عَن

سَبِيلِ اللهِ، فَمَنِ انْقَادَ لَهُمْ فِي عَقَائِدِهِمْ وَمَفْهُومَاتِهِمْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْأَكْثَرِيَّةِ الضَّالَّةِ عَنْ سَبِيلِ اللهِ قول اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُوله في سورة (يُوسف/ ٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾:

والمرادُ بِكَوْنِ أَكْثَرِ النَّاسِ يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ، أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الظُّنُونَ الضَّعِيفَةَ الَّتِي لَا يَصِحُّ عَقْلاً الاحْتِجَاجُ بها، ولَا الاعْتِمَادُ عَلَيْها، في قَضَايَا العقائِدِ الإيمَانِيَّة، وقَضَايا السُّلُوكِ الْإِنْسَانِي الْمَقْرُونِ بِالْأَهْوَاء والشَّهَوَاتِ والمصَالِحِ الْخَاصَّةِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَقَيَّدُوا بِمَنْهجِ الإسْلَامِ في الْعَمَلِ بالظُّنُونِ الرَّاجِحَةِ، حينَما لَا يَتَوَافَرُ الْيَقِينُ بالْأَدِلَةِ القَاطِعَة، أو البراهِينِ السَّاطِعَة.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ، وَلَا سِيمَا الْعُلَمَاءُ الْمُجْتَهِدُونَ مِنْهُمْ، فإِنَّهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَام، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ الظُّنُونِ الرَّاجِحَةِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ دَلِيلٌ يُفِيدُ يَقِيناً، وإِذَا لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ ظَنٌّ أَقْوَىٰ مِمَّا اعْتَمَدُوا عَلَيْهِ، والمؤمِنُونَ المسْلِمُونَ لَيْسُوا مِنْ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ.

والاعْتِمَادُ عَلَىٰ الظَّنِّ الرَّاجِحِ في أَحْكَام الْفُرُوعِ، وفي الْمَفْهُومَاتِ الإسْلَامِيَّةِ المختَلِفَةِ، مَأْذُونٌ بِهِ شَرْعاً، بأدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ وعَمَلِ الصَّحَابَةِ في عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ، وفي عَمَلِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهُوَ مِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُؤَهَّلُونَ للإجماعِ من الْمُسْلِمِينَ، لَا يُخَالِفُ فِي هَـٰذَا مَنْ يُعْتَدُّ بِخِلَافِهِ.

السَّبَبُ الثَّاني: أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَخْرُصُونَ، أي: يَكْذِبُونَ، لِتَرْويج آرائِهِم وَمَذَاهِبِهِمْ، بِسَبَب أَنَّهُمْ كَافِرُونَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِر، لَا يَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ وَعَذَابَهُ، عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَأَكَاذِيبِهِمْ وضَلَالَاتِهِم.

وفي بيان هـٰذا السَّبَبِ قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿... **وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا**

يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾: أي: يَكْذِبُونَ، فالْمُرَادُ بالخَرْصِ هُنَا الكَذِب، وهُوَ كَذٰلِكَ في كُلِّ القرآن. ويأتي الْخَرْصُ في اللُّغَةِ بِمَعَنَىٰ التقدير بالظَّنّ.

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾:

إنَّ الْحُكْمُ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ بأَنَّ أكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ ضَالُّون عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَمَنِ انْقَادَ إِلَيْهِمْ أضَلُّوه عَنْ سَبِيلِهِ، اسْتَدْعَىٰ أَنْ يُبَيِّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ بِكُلِّ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وأَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ بِكُلِّ الْمُهْتَدِين.

جاء في هَـٰذِهِ الآيَةِ عِبَارَةَ ﴿أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ والمعروف عند عُلَمَاءِ العربيّة أَنَّ أفْعَلَ التَّفْضِيلِ لَا يَتعَدَّىٰ إلىٰ المفْعُولِ بِهِ مُبَاشَرة، وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ: أَعْلَمُ بِمَنْ يَضِلُّ. كما جاء في آخِرِ الآيَةِ: ﴿أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ونظيره جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿... قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥﴾:

هَـٰذانِ النَّصَّانِ في القرآن خَرَجَا عَنِ القياسِ العربي، وقد اجْتَهَدَ المفسرون من أئمة اللُّغَةِ في تخريج هَـٰذَا التعبير.

- فرأىٰ بَعْضُهُمْ أنَّ العبارة فيها حَذْفٌ، وأصْلُهَا: أعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيم، يَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدَىٰ، ويَعْلَمُ مَنْ هُوَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ.
- ورأىٰ بَعْضَهُم أنَّ النَّصبَ جَاءَ بِنَزْعِ الخافض، وأصْلُ العبارة: أَعْلَمُ بِمَن.
- ورأىٰ بَعْضُهُمْ أَنَّ أفْعَلَ التَّفضِيلِ جَاءَ على غَيْرِ بَابِه، إذْ مَعْنَاهُ: يَعْلَم. إلَىٰ غَيْرِ هَـٰذِهِ مِنْ تَخْرِيجات.

وانْسِجاماً مَع مَنْهَجِ الحذْفِ والطّيِّ في القرآن، وهُو كثير، يَتَرَجَّحُ لَدَيَّ التخريج الأول. على أنَّ النَّصب بنَزْعِ الخافِضِ لَيْسَ مُسْتَبْعداً، لَكِنَّ الحذْفَ وَالطَّيَّ أكْثَرُ إثْرَاءً للمعاني.

وَلَا يَخْفَىٰ مَا فِي عِبَارَة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ مِنْ قَصْرِ المسْنَد، وهُو «الْأَعْلِمِيَّة» علَىٰ المسند إلَيْه، وهو «اللهُ رَبُّك».

وجاءَ اسْتِعْمَال الفِعْلِ المضارِع: ﴿يَضِلُّ﴾ واسم الفاعل «الْمُهْتَدِين» المكافئ لِلْفِعْل المضارع، لِلدَّلَالَة عَلَىٰ مُتابَعَةِ عِلْم اللهِ الشَّامِلِ الْمُحِيطِ لِحَرَكاتِ عِبَادِهِ مَعَ أَصْغَرِ الوحْدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي تَجْرِي فيها هَـٰذِهِ الحركات.

وبهذا تَمَّ تدبُّرَ الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٢٩)

التدبر التحليلي للدّرْس الخامس والعشرين
من دُروس سورة (الأنعام)
الآيات من (١١٨ ـ ١٢١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾.

القراءات:

(١١٩) • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ**] وقرأها شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلَف: [**وَقَدْ فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَقَدْ فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**].

وَمُؤَدَّى هَـٰذِهِ القراءات واحد، وهي من التَّفَنُّنِ في التعبير.

(١١٩) ● قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**لَيُضِلُّونَ**] أي: لِيُضِلُّونَ غَيْرَهم.

وقرأها باقي الْقُرَّاء العشرة: [**لَيَضِلُّونَ**].

وبَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: هُمْ يَضِلُّونَ عَنْ صِرَاطِ الحق بِأَهْوَائهم، ويُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ.

تمهيد:

آيات هَـٰذَا الدَّرْس من فروع السَّاق الأوّل من سَاقَي شَجَرَةِ موضوع السّورة، وفيها بَيَانٌ للمؤمِنِينَ حَوْلَ بَعْضِ مَا يُؤْكَلُ من اللَّحُوم، عَلَىٰ خِلَافِ أَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فيها.

التّدبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِلْمُؤْمِنِينَ المسلمين:

● ﴿**فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾**﴾:

بمناسَبَة بعض ما جاء في الدَّرْسَ السابق، ومنه: ﴿**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا**﴾ ـ ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ**﴾ ـ ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ**﴾ جاءَتْ عبارةُ ﴿**فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ**﴾ تَفْرِيعاً عَلَيْهِ بِبَيان أَحْكامٍ رَبَّانِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بالمطاعِمِ مِنَ

اللُّحُومِ، وَهَـٰذِهِ في نُجُومِ التَّنْزِيل أُولَىٰ أحْكَامِ الْفُرُوعِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، مع مُقَدِّمَاتٍ كُلِّيَّةٍ عَنِ الزكاة.

أي: واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ على ما تَذْبَحُونَ وَمَا تَصِيدُون، وكُلُوا مِنْهُ، ولَا تأْكُلُوا مِمَّا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللهِ، كالَّذِي يُذْبَحُ لِلْأَوْثَانِ ولِلْمَوْتَىٰ، لِأَنَّهُ شِرْكٌ بإلٰهِيَّةِ اللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وشركٌ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، فَرَبُّكُمْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ذلك، إذ هُوَ مِمَّا أَبَانَ لَكُمْ تَحْرِيمَ الأكْلِ منه في الآيَة (١٤٥) الَّتِي فَصَّلَتِ مَا حَرَّمَ اللهُ الْأَكْلَ مِنْهُ مِنَ الحَيوانات، وهو: «المَيْتَةُ ـ والدَّمُ المسْفُوحُ ـ ولَحْمُ الخِنْزِيرِ ـ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ».

والغرضُ من ذكر اسْم اللهِ عَلَىٰ مَا يُذْبَحُ من الحيواناتِ وعلَىٰ مَا يُصْطَادُ مِنْها، مُلَاحَظَةُ أَنَّ اللهَ الرَّبَّ خَالِقَهَا هُوَ الَّذِي أبَاحَ ذَبْحَهَا والْأَكْلَ مِنْها، مع الاستعانَةِ بِهِ عِنْدَ ذَبْحِها أو صَيْدِها.

رَوَىٰ الترمِذِيُّ وغَيْرُهُ عن ابْنِ عَبّاس قال: أَتَىٰ أُنَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ، فقالُوا: يا رَسُولَ الله، أَنَأْكُلُ مَا نَقْتُلُ، ولَا نَأْكُلُ مَا قَتَلَ الله؟ فأنزل الله تَـعَـالَـىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ...﴾ وحتى غاية الآية (١٢١).

وحينَما نُلاحِظُ أنَّ النَّاسَ بافْتِرَاءَاتِهِمْ عَلَىٰ اللهِ يأكُلُونَ الموْتَىٰ مِنَ الحَيوَانَات، ويَذْبَحُونَ ذَبَائِحَهُمْ باسْمِ آلِهَتِهِمْ مِنَ الْأَوْثَان، وأَنَّ بَعْضَ النّاسِ يُحَرِّمُونَ عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ ذَبْحَ الحيوانَاتِ والْأَكْلَ مِنْ لُحُومِها، شَفَقَةً عليها، فَكَانَ مِنْ بَيَانِ أحْكَام الدِّينِ الَّذي اصْطَفَاهُ اللهُ الرَّبُّ لِعِبَادِه، أَنْ يُعْلِمَ المؤمنين الْمُسْلِمِين بأَنَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ أَباح لَهُمْ أَنْ يَذْبحوا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ غَيْرِ الضَّارَةِ ولا المسْتَخْبَثَة، وأَنْ يَصِيدُوا مِنْ صَيْدِها، ذَاكِرِينَ اسْمَ اللهِ عِنْدَ ذَبْحِها أَوْ صَيْدِهَا، إِذْ أباحَهَا لَهُمْ وَهُوَ رَبُّهَا وَرَبُّهُمْ، وكَانَ مِنْ بيانِ أَحْكَام الدّينِ أنْ يُحَرِّمَ أكْلَ الْمَيْتَةِ، وأَكْلَ الدَّم المسفوح، وأكْل لَحم الخِنْزِيرِ،

كما سَيَأْتِي بَعْدَ خَمْسٍ وعشرين آيَة في السُّورَة، وأنْ لا يَنْسَاقُوا مَعَ أَوْهَامِ الَّذِينَ يَتَدَخَّلُونَ فِي رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ، فَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، فأمَرَهُمْ أَمْرَ إِبَاحَةٍ فَقَالَ لَهُمْ:

- ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أيْ: فَكُلُوا مِنْ ذبائِحِ الحيواناتِ المأذُون بِذَبْحِها، ومن الصَّيْدِ المأذون بصَيْدِهِ، ذاكِرين اسم الله عليه، وَلَا تَتَّبِعُوا افتراءات المفْتَرِينَ علىٰ الرَّبِّ خالِقِهِمْ وَخَالِقِ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ، والْمَالِكِ لحياةِ كُلِّ ذِي حَيَاة.

وإِنِّي أُوَجِّهُ لَكُمْ هَـٰذَا الْحُكْمَ مِنْ أحْكَام فُرُوعِ الدِّينِ، إِنْ كُنْتُمْ بآيَاتِ اللهِ الْبَيَانِيَّةِ فِي كِتَابِهِ مُؤْمِنِينَ، أي: تُتَابِعُونَ الإيمانَ بِكُلِّ مَا يُنَزَّلُ إليكُمْ مِنْ آيَاتٍ، وَتُسَلِّمُونَ إِلَيْها قِيَادَ حَرَكَاتِ حَيَاتِكُمْ تَسْلِيماً كامِلاً.

ويظْهَرُ لِي أنَّ شَرْطَ ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ شَرْطٌ تَحْرِيضي لِلْمُؤْمِنين على الْعَمَلِ بِمُقْتَضَىٰ إيمانِهِمْ، والتَّسْلِيم الْكَامِلِ لأَحْكَام رَبِّهِمْ وعَدَم الالْتِفَاتِ إِلَىٰ وَسَاوِسِ الموسْوِسِينَ، وضَلَالاتِ المضِلِّينَ، مِن شياطِينِ الإنْسِ والجنّ، الّذِينَ يُوحِي بعضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غروراً.

وخَاطَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ الَّذِينَ يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَبْحِ أَوْ صَيْدِ مَا أذِنَ اللهُ بذَبْحِهِ أو صَيْدِه من الحيوانات، ويَتَحَرَّجُونَ مِنَ الأكْلِ مِنْ أجْسَادِهَا، بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّلْويمي، فقال لهم:

- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ... ﴿١١٩﴾﴾:

أي: وَمَا المانِعُ لَكُمْ الَّذِي يمْنَعُكُمْ يا أيُّها المتَحَرِّجُونَ مِنْ أنْ تَذْبَحُوا أَوْ تَصِيدُوا ما أَذِنَ اللهُ لَكُمْ بِذَبْحِهِ أو أَذِنَ لَكُمْ بِصَيْدِهِ؟؟ وَمَا الدَّافِعُ لَكُمْ الَّذِي يَدْفَعُكُمْ إِلَىٰ أَنْ لا تَأْكُلُوا مِمَّا أباحَ اللهُ لَكُمْ وَذُكِرَ عَلَىٰ ذَبْحِهِ أَوْ

صَيْدِهِ اسْمُ اللهِ الرَّبِّ الَّذِي أَبَاحَ ذَلِكَ، وهُوَ الرَّبُّ ذُو الْحَقِّ الْأَوْحَدُ في التَّحْلِيلِ والتَّحْرِيم؟؟.

مَا هُو المانِعُ لَكُمْ، وَمَا هو الدافِعُ لَكُمْ، وقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ في هَـٰذِهِ السُّورةِ الَّتِي نَزَلَتْ جُمْلَةً واحِدَة⁽¹⁾، مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَكْلَهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ؟؟.

وهَـٰذَا التفصيل نَجِدُه في الآية (١٤٥) الآتية، والْإِحَالَةُ عَلَيْها لَا إشْكَالَ فيه، وَلَوْ كانَ تَرْتِيبها بَعْدَ نحو (٢٥) آيَةِ، لِأَنَّ السُّورَةِ نَزَلَتْ جُمْلَةً واحِدَة.

- ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾: أي: إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَىٰ الْأَكْلِ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عليكم، فَلَكُمْ أنْ تَأْكُلُوا مِنْهُ بمقْدَارِ الضَّرُورَة، كالْجُوعِ الشَّدِيدِ الَّذِي يُخْشَىٰ مِنْهُ أذىً شَدِيد، ولا يُوجَدُ مَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الأَكْلُ مِمَّا حَرَّمَ الله.

إِنَّهُ لَا يُوجَدُ مَا يَقْتَضِي أَلَّا تَأْكُلُوا ممّا أَبَاحَ اللهُ وذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه، إِلَّا الافْتِرَاءَ عَلَىٰ اللهِ، أو أَوْهَامَ شَفَقَةٍ لَا وَزْنَ لَهَا فِي مَقَايِيس الحقِّ والْعَدْلِ وفِعْلِ الْخَيْر، إنَّ اللهَ أَوْلَىٰ بِخَلْقِهِ جَمِيعاً مِن أَرْحَمِ الرُّحَماءِ بِهِمْ، وأَوْلَىٰ بِهِمْ مِنْ نفوسِهِمْ.

ولَمَّا كَانَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِغَيْرِ أَحْكَام اللهِ في الْحَلَالِ والْحَرَام، إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ أَوْ عَوَاطِفَهُمْ أَوْ مَصَالِحَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم حَقٍّ يَقْتَضِي ما حَكَمُوا بِه، فَهُمْ يَضِلُّونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ويُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، قال الله تعالى:

- ﴿... وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿لَّيَضِلُّونَ﴾.

ولَمَّا كانت أحْكَامُ النّاسِ في الْحَلَالِ والْحَرَام عُدْواناً عَلَىٰ حَقِّ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلَهِيَّتِهِ، وسَوْفَ يُجَازِيهِمُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلَىٰ عُدْوانِهِمْ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ:

---

(١) قيل باستثناء بعض آيات رُوي أنَّها مَدنية، وليس منها الآية (١٤٥) الآتية.

- ﴿... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾: في ذِكْرِ أَنَّ اللهَ أَعْلَمُ بالْمُعْتَدِينَ كِنَايَةٌ عَلَىٰ أنَّ اللهَ سَوْفَ يُجازِيهِمْ وَيُعاقِبُهُمْ عَلَىٰ عُدْوَانِهِمْ عَلَىٰ حَقِّ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطَاباً للمؤمنين:

- ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾:

الإِثْم: هُو في اللُّغَةِ الذنْبُ، وباسْتِقراء لفظة الإثْم في القرآن الكريم، وَجَدْتُ أَنَّهَا تُسْتَعْمَلُ للدّلالَةِ على جَمِيعِ المعاصِي الَّتِي نَهَىٰ اللهُ عَنْها كَبَائِرِها، وَمُتَوَسِّطَاتِها، وصَغائِرِها، ما هو ظاهِرٌ مِنْها كأكْلِ أمْوَالِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ، وأقوالِ الكُفْرِ، وَمَا هُوَ بَاطِنٌ مِنْها، كَكِتْمَانِ الشَّهادَةِ، فَهُوَ مِنَ الْإِثْمِ الباطِنِ لِأَنَّهُ سُكُوتٌ عَنِ الحقِّ، فَهُوَ مِنْ إِثْمِ الْقُلُوبِ.

فظاهر الإثم، مَا هُوَ مُعْلَنٌ مِنْه، وبَاطِن الإثْم مَا كَانَ مِنْهُ فِي السِّرّ، ويَدْخُلُ في عُمُومِ بَاطِنِ الإثْم مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ أعْمَالِ الْقُلُوبِ والنفوسِ الإراديَّةِ، كالنفاقِ، وبَعْضِ أنواع الشِّرْكِ الخفِيِّ الَّذِي يَكُونُ فِي الْقُلوبِ والنفوس، والرِّيَاءِ المحْبِطِ لِلْعَمَلِ، والنِّيَّاتِ الفاسِدات من وراء الأعمال، والْعَزْم عَلَىٰ المعْصِيَةِ الَّتِي مَنَع مِنْ فِعْلِهَا مَانِعٌ خَارِجِيٌّ، والْحسَدِ المنْهِيّ عَنْهُ شَرْعاً، وتَدْبير الخُطَطِ لِلْإضرار بأحكام الدّين، أو الإضرار بعباد اللهِ في أنْفُسِهم، أو أمْوالِهِم، أوْ أعْرَاضِهم.

والأثِيمُ: هو الْمُسْرِف الغالِي في ارْتِكَابِ الذُّنُوب، ويَخْتَصُّ بالْكَافِرِ الفاجر.

ومَا جاء في الأقْوالِ المأثورةِ عَنْ قُدَماءِ الْمُفَسِّرِينَ أقوالٌ قَاصِرَةٌ عَنْ دَلَالةِ هذا الاستقراء القرآنيّ لاسْتِعْمَالِ مَادّةِ الإثْمِ وَمُشْتَقَّاتها، ومَا دَلَّ عَلَيْهِ هذا الاستقراء هو الذي يَجِبُ اعْتمادُه.

فالمعْنَىٰ: واتْرُكُوا يا أَيُّهَا المؤمنُون كُلَّ مَا أَبَنَّا وَنُبَيِّنُ لَكُمْ أَنَّهُ إِثْمٌ، وكُلَّ مَا نَهَيْنَاكُمْ عَنْ فِعْلِهِ أَوْ عَن تَرْكِهِ نَهْيَ تَحْرِيم، مَا كَانَ مِنْهُ ظَاهِراً مُعْلَناً، وَمَا كَانَ مِنْهُ باطِناً غَيْرَ مُعْلَنٍ، ومِنْهُ أَعْمَالُ الْقُلُوبِ والنفوس.

إنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإثْمَ بِفِعْلِ مَا نُهُوا عَنْ فِعْلِهِ نَهْيَ تَحْرِيم، وتَرْكِ مَا أُمِرُوا بِفِعْلِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ، سَيُجْزُوْنَ في الدُّنْيَا أَوْ في الآخِرَةِ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ، أَيْ: يَكْتَسِبُونَ مِنْ إِثْم عَنْ إِرادَةٍ جَازِمَةٍ لِلْمَعْصِيَة، وقَصْدٍ غَيْرِ عَفْوِيٍّ لارْتِكابها، أخذاً مِنْ صِيغَةِ «يَفْتَعِل» الدَّالَّة علَىٰ الْقَصْدِ المقْرُونِ بِبَذْلِ طَاقَةٍ مَجْلُوبَةٍ جَلْباً إرادِيًّا.

والباء في ﴿بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ سَبَبِيَّة، أي: بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْتَسِبُونَ.

ولَمَّا كَانَ مِنْ ظَاهِرِ الإثْمِ أَكْلُ الميْتَةِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ الْأَكْلَ مِنْها، وَلَمَّا كانَ مِنْ بَاطِنِ الإِثْمِ أَكْلُ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، كالَّذِي أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ، وهُوَ الموضُوع الَّذِي يَدُورُ حَوْلَهُ البَيَانُ في هَـٰذَا الدَّرْس، خَاطَبَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا في الآية الأخيرة مِنْهُ بِقَوْلِهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

جاءَ فِي الآيَة (١٤٥) الَّتِي فَصَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ المطاعِمِ مِنَ الْحَيَوانَاتِ، قولُهُ تعالَىٰ: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: أي: أعْلَنَ ذَابِحُه أَنَّهُ يَذْبَحُهُ قُرْباناً لِغَيْرِ اللهِ، كَوَثَنٍ يَعْبُدُه، أَوْ مَيِّتٍ يَتَقَرَّبُ بِذَبِيحَتِهِ إليه.

أَصْلُ مَعْنَىٰ إِهْلَالِ الذَّابِحِ بِذَبِيحَتِهِ، أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ ذاكراً اسْمَ مَنْ يُقَدِّمُ ذَبيحَتَهُ قُرْبَاناً له.

ومن هَـٰذَا يَظْهَرُ أن الْمُرَادَ بما لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ بِرَفْعِ الصَّوْتِ عِنْدَ ذَبْحِهِ، ذاكراً ذَابِحُهُ اسْمَ مَنْ يُقَدِّمُ ذَبِيحَتَهُ قُرْبَاناً

لَهُ، وهُوَ غَيْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهَـٰذا مِنْ عباداتِ المشْرِكين، فَهُوَ مِنَ الشِّرْك، والْأَكْلُ مِنْهُ بالنِّسْبَةِ إلى المؤمنين الْمُسْلِمينَ فِسْقٌ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مُذَكًّى ذَكاةً شَرْعِيَّةً، فَهُوَ بِحُكْم المَيْتَة.

الْفِسْقُ: الْمَعْصِيَةُ عَلَىٰ تَفَاوُتِ دَرَكَاتِهَا تَسَفُّلاً.

- ﴿... وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

أي: وإنَّ شَيَاطِينَ الْجِنِّ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ، وإِنَّ شياطِينَ الإِنْسِ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَتَأَثَّرُونَ بِهِمْ، مُوَالِينَ لَهُمْ ومُنَاصِرِين، ضَلَالاتٍ مُغَلَّفَاتٍ بأقْوَالٍ زُخْرُفِيَّةٍ خَادِعَةٍ بزينَاتِها، لِيُجادِلُوكُمْ يا أَيُّها المؤمِنُونَ فِيمَا أَحلَّ اللهُ لَكُمْ وَفِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، كَأَنْ يَقولُوا لَكُم بِشَأْنِ الْأَكْلِ مِنَ الحيوانات: مَا قَتَلْتُمُوهُ أَنْتُمْ بالذَّبحِ أَحَلَّهُ لَكُمْ دِينُكُمْ، وَمَا قَتَلَهُ اللهُ فَأَمَاتَهُ حَرَّمَهُ عَلَيْكُمْ دِينكُمْ، وَهَـٰذَا مُخَالِفٌ لِمَنْطِقِ الْعَقْلِ، وَكَذَلِكَ يُزَخْرِفُونَ أَقْوَالاً مُشَابِهَةً فِي كَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لَكُمْ.

فَلا تَنْقَادُوا لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا تَتَأَثَّرُوا بزُيُوفِ جَدَلِيَّاتِهِمْ، لِيُزْلِقُوكُمْ فِي مَزَالِقِ كُفْرِيَّاتِهِم.

وإِنْ أَطَعْتُموهُمْ مُنْقَادِينَ لَهُمْ، ومُتَأَثِّرِينَ بِضَلَالَاتِهِمْ، أَخْرَجُوكُمْ عَنَّ طَاعَةِ اللهِ رَبِّكُمْ في أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَفِيمَا اصْطَفَىٰ لَكُمْ من الدِّينِ، الَّذِي جَعَلَهُ مَادَّةَ امْتِحَانِكُمْ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

وبِخُرُوجِكُمْ عَنْ طَاعَةِ اللهِ رَبِّكُمْ، تَكُونُونَ مُطِيعِينَ في الحقيقَةِ لإِمَامِ الشَّيَاطِينِ إِبْلِيسَ، الَّذِي أَوْحَىٰ إِلَىٰ أَوْلِيائِهِ بِهَـٰذِهِ الضَّلالاتِ، وطَاعَةُ إِبْلِيسَ الشَّيْطَانِ الأَكْبَر، وطَاعَةُ بَعْضِ جُنُدِهِ في أُمُورِ الدِّينِ، هِيَ مِنْ عِبَادَةِ الشَّيْطانِ.

وعِنْدَئِذٍ يَتَحقَّقُ فِيكُمْ أَنَّكُم مُشْرِكُونَ اتَّخذْتُمُ الشَّيْطَانَ مَعْبُوداً لَكُمْ، وَجَعَلْتُمُوهُ شَرِيكاً للهِ في إِلَهِيَّتِهِ.

وَيقُولُ اللهُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا جَاء بَيَانُهُ في سُورَةِ (يس/ ٤١ نزول):

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤﴾.

وبهذا تَمَّ تدبُّرَ الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٣٠)

التدبر التحليلي للدّرس السادس والعشرين من دُروس سورة (الأنعام)

الآيات من (١٢٢ ـ ١٢٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٢٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝١٢٣ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ۝١٢٤ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢٥﴾.

القراءات:

(١٢٢) ● قرأ نَافع، وأبو جَعْفَر، وَيَعْقُوب: **[أَوَ مَنْ كَانَ مَيِّتاً]** بتَشْدِيدِ الياء ـ وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً]** بإسْكانِ الياء.

«مَيْت» و«مَيِّت» لُغَتانِ بِمَعْنىً واحد.

(١٢٤) ● قرأ ابن كثير، وحفص: **[يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ]** بالإفراد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالجمع: **[يَجْعَلُ رِسَالَاته]**.

والمعنى فيهما واحد، لأنّ المفرد المضاف إلى المعرفةِ بحُكْم الجمع، ويُضافُ إلى هذا أَنَّ بَعْضَ الرُّسُل أنزل الله عَلَيْهِمُ الرّسَالَةَ دُفْعَةً واحدة، وأنّ آخَرِينَ أنْزَلَ عَلَيْهم رِسَالَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ نَجماً بَعْدَ نَجْم، فهي باعتبار تجزئتها رِسالات.

(١٢٥) ● قرأ ابن كثير: **[ضَيْقاً]**. وقرأها باقي القرّاء العشرة **[ضَيِّقاً]**.

الضَّيْقُ والضَّيِّقُ: مَصْدَرَان لفعل «ضاقَ، يَضِيقُ، ضَيْقاً، وضِيقاً» أي: لَمْ يَتَّسعْ لِمَا حَلَّ فِيهِ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الكَرْب، والألَم في النفس الضاغط عليها، مِنْ حُدُوثِ مَكْرُوه، أو تَخَوُّفِ حُدُوث مَكْرُوه. فهو «ضَائق، وضَيّقٌ».

فَمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحدٌ، وقراءة ابْنِ كثير من إطْلَاقِ المَصْدَرِ وإرادة اسْمِ الفاعل على سبيل المُبالغة.

(١٢٥) ● قرأ نافع، وشعبة، وأبُو جَعْفر: **[حَرِجاً]** بِكَسْرِ الرّاء.

وقرأها باقي القرّاء العَشَرة: **[حَرَجاً]** بفتح الرَّاء.

ومُؤَدّى القراءتَيْن واحد، «حَرِج» صِفَة مُشبَّهَةٌ باسم الفاعل. وحَرَجٌ مَصْدَرٌ وُصِفَ بِهِ على سبيلِ المبَالغة.

(١٢٥) • قرأ ابْنُ كثير: [**يَصْعَدُ**]. وقرأها شُعبة. [**يَصَّاعَدُ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**يَصَّعَّدُ**] أَصْلُها يَتَصَعَّد.

في قراءتي «يَصَّاعَدُ» و«يَصَّعَّدُ» مَعْنَىٰ التكَلُّفِ، فبينهما وبَيْنَ «يَصْعَدُ» تَكَامُلٌ رُوعِي فِيهِ أَحْوَالُ النَّاسِ الْمُخْتَلِفَةِ في حالَاتِ صُعُودِهم، فَمَنْهم مَنْ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ الشُّعُورَ بالاختناقِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ.

تمهيد:

آيات هذا الدَّرس من فروع السَّاقِ الأوَّلِ من سَاقِي شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة. وفيها بيانٌ عن الإيمان والكُفْر والمقارنَةِ بَيْنَهُمَا، وحَوْلَ الْكَافِرِينَ المعانِدِينَ الْمُصِرِّينَ على عنادِهم ومكْرِهِمْ وَتَعَنُّتِهم، وحُولَ سُنَّةٍ من سُنَنِ اللهِ فِي طَبِيعةِ النَّفْسِ الإنْسَانِيَّةِ وَسُلُوكِها الدَّاخِلِيّ.

التّدبّر التحليلي:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ الكافِرِ بالميّتِ، وَوَصْفِ المؤمِنِ بالْحَيِّ الذي أَحْيَاهُ اللهُ، وَجَعَلَ لَهُ نُوراً يَمْشِي به في الناس، بخلافِ الكافِرِ التائِهِ في الظُلمات.

• ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ العجيبَةِ تَشْبِيهانِ مُمْتَزِجَانِ للمؤْمِنِ، وآخَرانِ مُمْتَزِجَانِ لِلْكَافِرِ، تَعْقِيباً عَلَىٰ مَا جَاءَ في سَوَابِقِ الآيات في السّورَة الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنِ الْكَافِرِين والمؤمنين، وَطَالبت المؤمنين بالْتِزام أحكام الله والحذَر من طاعة الكافرين المضلّين من شياطين الإنس والجنّ.

فالكافِرُ كالميِّتِ وكالْأَعْمَىٰ الْمُحَاطِ بالظُّلُمَاتِ، والمؤمِنُ كالْحَيِّ

الْبَصِيرِ الذي يَحْمِلُ نُوراً يُنِيرُ لَهُ طَرِيقَهُ، ويَمْشِي بِهِ رَشِيداً فَخُوراً بِهِدَايَتِهِ في النَّاسِ، لَا يَتَعَثَّرُ في الوِهَادِ ولا الْمَهَاوِي، وَلَا يَصْطَدِمُ بِالْعَقَبَات.

وَجَاءَتِ الْعِبَارَةُ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ عَنِ التَّسَاوِي بَيْنَ هَـٰذَا وهَـٰذَا، مَوْصُوفاً كُلٌّ مِنْهُمَا بِالْوَصْفِ المطابِقِ لحالِهِ علَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، لانْتِزَاعِ الإجابَةِ مِنْ كُلِّ ذِي عَقْلٍ وَرُشْدٍ، وهِي عَدَمُ التَّسَاوِي بَيْنَهُمَا وأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا كالْفَرْقِ بَيْنَ جَنَّاتِ النَّعِيم وَقَاعِ الجحيم.

- ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾.

أي: أَوَ مَنْ كَانَ كالْمَيِّتِ قَبْلَ أَنْ يُؤْمِنَ وَيُسْلِمَ مُسْتجيباً لِدَعْوَةِ الحقّ، فَلَمَّا آمَنَ وأسْلَمَ أحْيَيْنَاهُ فَجعَلْنَاهُ كالْحَيِّ ذَا رُوحٍ وَفَهْمٍ وَرُشْدٍ وَتَصرُّفَاتٍ واعِيَاتٍ، وَجَعَلْنَا لَهُ شَرَائِعَ الإِسْلَام وَأحْكَامَهُ كالنُّورِ فَهُوَ يَمْشِي بِهِ في النَّاسِ مَهْدِيًّا رَشِيداً سَعِيداً فَخُوراً بِهِدَايَتِهِ.

اسْتُعِيرَ لَفْظُ «مَيْتٍ» لمَنْ هُو في الْجَهْلِ وعَدَمِ الْإيمانِ والإِسْلَامِ الَّتِي كانَ مُتَّصِفاً بها قَبْلَ أَنْ يُؤْمِنَ وَيُسْلِمَ.

واسْتُعِير «الْإِحْيَاءُ» لِمَا صَارَ إِلَيْهِ حَالُهُ بَعْدَ أَنْ آمَنَ وأَسْلَم، ومَعْلُومٌ أَنَّ الإِرَادَةَ مِنَ الْعَبْدِ الْمُمْتَحَنِ المخَيَّرِ بقضاء اللهِ وَقَدْرِهِ، وبالْخَلْقِ مِنَ اللهِ.

واسْتُعِيرَ لِشَرَائِعِ الإِسْلَامِ وأَحْكَامِهِ عِبَارَةُ ﴿نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾.

أَهَـٰذَا الْحَيُّ الرَّشِيدُ السَّعِيدُ ذُو النُّور الَّذِي يَهْدِيهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، كَمَنْ وَصْفُهُ أَنَّهُ كالْمَيِّتِ بِكُفْرِهِ، وَكَالأَعْمَىٰ بِجهلِهِ، إِذْ هُوَ غَارِقٌ في الظُّلُمَاتِ المتراكِبَاتِ الَّتِي يُحِيطُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَهُو لَا يَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ مِنْهَا مَا دَامَ عَلَىٰ كُفْرِهِ، رَافضاً الإيمان والإِسْلَام.

﴿مَثَلُهُۥ﴾: أي: وصْفُهُ.

اسْتُعِير لفْظ «مَيّت» المطْوِي في النصِّ بِدَلَالَةِ مقابِلِه، لِمَنْ هُوَ كَافِرٌ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الحقّ فَلَمْ يُؤْمِنْ وَلَمْ يُسْلِم.

واسْتُعِيرَتِ الظُّلُمَاتُ لِلْجهالَاتِ والضَّلالَاتِ والْعَمَايَاتِ الَّتِي يَكُونُ غارقاً فيها مَنْ لم يُؤْمِنْ وَلَمْ يُسْلِمْ، وَلَمْ يَهْتَدِ بأنْوَارِ شرائِعِ الإسْلام وأحْكامه، ويَسْتَمِرُّ غارِقاً فيها مَا دَامَ رَافِضاً الإيمانَ والإسلام.

هَلْ يَسْتَوِي الحيُّ والميِّتُ، هَلْ يَسْتَوِي الْبَصِيرُ والْأَعْمَىٰ، هَلْ يَسْتَوِي الْمَهْدِيُّ بالنُّورِ، والغارِقُ التائِهِ الْحَيْرَانُ في الظُّلُمات؟؟؟.

أَجِبْ أَيُّهَا المتَفكِّرُ الْعَاقِلُ الرَّشِيدُ، ذو الرأي السّليم، والْفَهْمِ المستقيم.

وإذا سَأَلْتَ: كَيْفَ يَرْضَىٰ إنْسَانٌ أَنْ يَكُونَ بمثابَةِ الميّت، والأَعْمَىٰ، والْغَارِقِ في الظُّلُمَاتِ، وهُو في رِحْلَةِ امْتِحَانٍ في هَـٰذِهِ الْحَياة؟!

فإِنَّا نَقُولُ لَكَ: ﴿... كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

أي: هَـٰؤُلَاءِ الكافِرُونَ الضَّالُّون، والْمُضِلُّونَ، قَدْ زُيِّنَتْ لَهُمْ أعْمَالُهُمْ بالأهواء والشهوات وَمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا الْعَاجِلَات، وبالتقاليدِ الْبَاطِلاتِ والاتِّباعِ الْأَعْمَىٰ، وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِسَائِرِ الْكَافِرِينَ السَّابِقين مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

وقَدْ سَبَقَ تَحْلِيلُ مَعْنَىٰ تَزْيِينِ أعْمَالِ كُلِّ أُمَّةٍ لَدَىٰ تَدبُّرِ الآية (١٠٨) مِنْ هَـٰذِهِ السُّورَةِ، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه، لِفَهْمِ هَـٰذِهِ العبارة فَهماً تَدبُّرِيًّا تَفْصِيلِيًّا.

▪ قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ المجتمع الْبَشَرِي، وهِيَ تَسَلُّطُ أكابِرِ مُجْرِمِي الْقُرَىٰ عَلَىٰ الْجَمَاهِير فيها، بالْمَكْرِ الَّذِي يَمْكُرُونَهُ، بمناسَبَةِ سَوَابِقِ الْحديثِ عَنِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ المضِّلين في الآية (١١٢):

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

تَشْبِيهاً بواقع حَالِ أكابِر مُجْرِمِي مَكَّة الَّذِينَ اشْتَمَلَتِ السُّورَةِ عَلَىٰ مِقْدَارٍ كَبِيرٍ مِنْ مُعَالَجَتِهِمْ، أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِي، وأَتْبَعَهَا بِبَيَان يَتَعَلَّقُ بأكابِرِ مُجْرِمِي مَكَّةَ وبَعْضِ مَطَالِبِهِم التَّعَنُّتِيَّة.

الْقَرْيَة: كُلُّ أَرْضٍ فيها بُيُوتٌ وَمَسَاكِنُ مُجْتَمِعَة صغيرةٍ أو كبيرةٍ ولَوْ بلَغَت مَدِينَةً عظيمةً.

أكابر: جمع «أكْبر» وهُو الأعظَم في قَوْمِهِ.

الْمُجْرِم: المتَعَدِّي بذَنْبٍ كبيرٍ، وخُصَّ في القرآنِ بالْكَافِرِ المسْتَحِقِّ الْخُلُودَ في عذاب النار يوم الدّين، لأنَّهُ مُرْتَكِبٌ مِنَ الذُّنُوبِ ما هو من مُسْتَوىٰ الكُفر.

الْمَكر: تَدْبيرُ أَمْرٍ في خَفَاءٍ ضِدَّ المَمْكُورِ به، وهو يَكُونُ في الخير، ويَكُونُ في الشَّرّ.

الصَّغَار: الذِّلَّةُ والْهَوَانُ، يقالُ لغة: «صَغُرَ، يَصْغُر، صَغَاراً» أي: رَضِي بِالذُّلِّ والضَّعَة، أو هو الواقِعُ في الذُّلِّ والضَّعَة.

إنَّ مِنْ سُنَنَ اللهِ فِي المجتَمعَاتِ البَشَرِيَّةِ، أَنَّ المجْتَمَعَ الَّذِي لَا تَسُودُهُ وَلَا تَحكُمُهُ شَرِيعَةُ اللهِ لِعِبادِهِ بإرادَة مُؤْمِنَةٍ مُسْلِمَةٍ، أن يَعْمَلَ أَكَابِرُ المجْرِمِينَ فيها حَتَّىٰ يَحْتَلُّوا مَرَاكِزَ الْقِيَادَةِ والتَّسَلُّط عَلَىٰ الْجَمَاهِير، وهَـٰذَا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ كَثيرةٍ لَهُمْ، بأنواعٍ كثيرَةٍ من المكْرِ، فَإِذَا ظَهَرَتْ دَعْوَةُ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةُ في مُجْتَمَعِهِمْ، خَافُوا عَلَىٰ مَكَانَاتِهِمْ فِي مُجْتَمَعِهِمْ، وعَلَىٰ مَصَالِحِهِمْ الكَثِيرَةِ أَنْ تَتَفَلَّتَ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَيَمْكُرُونَ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ مَكْرٍ للتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، ومِنْ دُعَاتِها، ولِلْعَمَلِ عَلَىٰ إِطْفَاءِ نُورِ اللهِ بأفْوَاهِهِم، أي: بِزُخْرُفِ أَقْوَالِهِم الزُّيوف، وهُمْ غافِلُونَ عَنْ عَدْلِ اللهِ الَّذِي يُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً شَدِيداً على مَكْرِهِمْ، ويُحْبِطُ مَكْرَهُمْ، فَهُمْ في الحقيقة إِنَّمَا يَمْكُرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، في حِينِ أَنَّهُمْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ يَمْكُرُونَ بدَعْوَةِ الْحَقِّ وَبِالرَّسُولِ وبالمؤمِنِين.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا . . .﴾:

أي: وَكَذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ فِي مَكَّةَ مِنْ قِبَلِ أئِمَّةِ الْكُفْرِ والشِّرْكِ فيها، مِنْ مَكْرٍ ضِدَّ الرَّسُولِ، وضِدَّ دَعْوَةِ الْحَقِّ الَّتِي جَاءَ بِهَا مِنْ رَبِّ العالمين، وضِدَ المؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ، جَعَلْنَا فِي النظام الْعَامِّ لِرِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا، من خِلَالِ تَفَاضُلَ النَّاسِ فِي صِفَاتِهِمُ الْجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، وضِمْنَ الإرَادَةِ الْحُرَّةِ الْمَمْنُوحَةِ لِكُلِّ مُمْتَحَنٍ، أَنْ يَظْهَرَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مُجْرِمُونَ أَذْكِيَاءُ، يَسْتَخْدِمُونَ ذَكَاءَهُمْ لِلْوُصُولِ فِي مُجْتَمَعِهِمْ إلَىٰ مَرَاكِزِ القِيادَةِ والتَّسَلُّطِ، بغْيَةَ الاسْتِكْبَارِ إرضَاءً لِأَهْوَائِهِم، وبُغْيَةَ تَحْقِيقِ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ كَثِيرَةٍ لأنْفُسِهِمْ عَنْ طَرِيقِ مَرَاكِزِهِمُ السُّلْطَوِيَّة، وَهؤُلَاءِ يَكُونُونَ ـ إلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ـ أعْدَاءً لِرُسُلِ اللهِ، ولِدِينِ اللهِ لِعِبادِه، ولِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِين الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعَوَاتِ الرُّسُل، وَيتَّبِعُونَهُمْ جُنُوداً لهم.

فالْجَعْلُ هُنَا جَعْلٌ لِلنِّظَامِ الْعَامّ الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ وُجُودُ مُجْرِمِين، يَعْمَلُونَ بِمَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ حِيلَةٍ وَذَكَاءٍ وَتَخْطِيطٍ لِيَمْكُرُوا فِي قَرْيَتِهِمْ، لاحْتِلَال مَرَاكِزِ القِيادَةِ فيها، ولتحقيق مَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ، ولِيَمْكُرُوا ضِدَّ رُسُلِ اللهِ، وبِمَا جَاؤُوا بِهِ مِن عِنْدِ اللهِ، وبالمُؤمنينَ الْمُسْلِمِينَ، خَوْفاً عَلَىٰ مَرَاكِزِهم الاجْتِماعِيَّةِ، وَمَنَافِعِهم، وَمَصَالِحهم الدُّنْيَوِيَّة.

- ﴿. . . وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

أي: وَبِمَا أَنَّ مَكْرَهُمْ بالرُّسُلِ وَبِأَتْبَاعِهِمْ، وَبِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة يُحْبِطُهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ ثُمَّ يَرُدُّهُ عَلَيْهِمْ ويُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ عِقَاباً شَدِيداً، فَهُمْ في الحقيقَةِ لَا يَمْكُرُونَ إلَّا بِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّهُمْ في أحْوَالِ كَدْحِهِمْ تَدْبِيراً وَمَكْراً كُبَّاراً مَدْفُوعُونَ بِطَمَعٍ شَدِيدٍ أَنَّهُمْ غالِبُون، ولَا يَشْعُرُونَ أَدْنَىٰ شُعُورٍ بِأَنّ مَكْرَهُمْ مَرْدُودٌ عليهم.

ومِنْ مَظاهِرِ كِبْرِهِمُ الطّبَقِيّ، وانْتِفَاخِ صُدُورِهِم بِمُنْتِنَاتِ إعْجَابِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وعِنَادِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ على رَبِّهِمْ، أَنْ يُطَالِبُوا بِأَنْ يُوحَىٰ إلَيْهِم، وأَنْ يُؤْتَوا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ، فقال تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِمْ:

- ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ . . . ﴿١٢٤﴾﴾:

الظَّاهِرُ أَنَّهُم إِذَا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قُرْآنِيَّةٌ مُنَزَّلَةٌ من عِنْدِ اللهِ علَىٰ رَسُولِهِ، وتَلاهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِم، وَدُعُوا إِلَىٰ الإيمَانِ باللهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ، قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِّ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ الله، أي: أَنْ نَكُونَ نَحْنُ رُسُلاً، أَوْ أَنْ نُبَلِّغَ مُبَاشَرَةً مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَبَلَّغُوهُ لِأَقْوامِهِم.

فأَبَانَ هٰذَا النَّصُّ أَنَّ كُلَّ أكابِرِ مُجْرِمِي الْقُرَىٰ جَعَلَهُمْ دَاء الكِبْرِ في نُفُوسِهِمْ يَقُولُونَ مِثْلَ مَقَالَةِ كُبَرَاءِ مُجْرِمِي مَكَّة.

ومِنْ أمْثِلَةِ مَا رُوِيَ مِنْ أَقْوَالِ مُجْرِمِي مكّة ما يلي:

(١) رُوِيَ عَنِ ٱبْنِ جُرَيج أَنَّهُ قال: قَالُوا لمحمَّدٍ حِينَ دَعَاهُمْ إِلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْه مِنَ الْحَقّ: لَوْ كَانَ هٰذَا حَقًّا لَكَانَ فِينَا مَنْ هُو أَحَقُّ أَنْ يُؤْتَىٰ بِهِ مِنْ مُحَمّد.

(٢) وَرُوي أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ المغيرة قَالَ للنَّبِيّ ﷺ: أَنَا أولَىٰ مِنْكَ بالنُّبُوّةِ، لِأَنِّي أَكْبَرُ مِنْكَ سِنًّا، وأَكْثَرُ مَالاً وَولَداً.

(٣) ورُوِيَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ (وهو مِنْ بَنِي مَخْزوم) قال: زاحَمَنَا بَنُو عَبْدِ مَنافٍ فِي الشَّرَفِ، حَتَّىٰ إِذَا صِرْنَا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، قالوا: مِنَّا نَبِيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْه، واللهِ لَا نَرْضَىٰ بِهِ، ولا نَتَّبِعُهُ أبداً، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَا وَحْيٌ كما يَأْتِيه.

(٤) وسَبَقَ أَنْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ في سورة (المدّثر/ ٤ نزول):

﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾﴾:

وَقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مُبَيِّناً حِكْمَتَهُ في اختياراتِهِ لِرُسُلِهِ، فقال تعالى:

- ﴿... ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بالِغُ الْحِكْمَةِ في اختيارَاتِهِ، وهُو أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيم بعِبَادِهِ، فَهُوَ أَعْلَمُ بالْمَكانِ الَّذِي يَجْعَلُ فِيهِ رِسَالَتَهُ، وَهُوَ فُؤَادُ الرَّسُولِ المجتَبَىٰ الصَّالِحُ لِتَلَقِّي رِسَالَةِ رَبِّه، وَلِتَأْدِيتِهَا كَمَا كَلَّفَهُ رَبُّهُ، وَلِلْعَمَلِ بِها، وَلَيْسَ كُلُّ إنْسَانٍ صَالحاً لِتَلَقِّي رِسالَةِ رَبِّهِ، وَحَمْلِهَا، وَتَأْدِيتِها بَلَاغاً صَادِقاً، والْعَمَلِ بها كَمَا أَمَرَ اللهُ. فالنُّبُوَّةُ اصْطِفَاءٌ رَبَّانِيٌّ، والرِّسَالَةُ اصْطِفَاء رَبَّانِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ إنْسَانٍ صَالحاً لِهَذَا الاصْطِفَاءِ، أَمَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ فَهُمْ مِنْ أَبْعَدِ خَلْقٍ عَنِ الاصْطِفَاءِ بِالنُّبُوَّةِ، إذْ هُمْ كَفَرَةٌ مُجْرِمُونَ شَيَاطِين، من أَهْلِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّار يَوْمَ الدِّين.

وتَوعَدَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالصَّغَارِ والْعَذَابِ الشَّدِيدِ يَوْمَ الدِّينَ فقال تَعَالَىٰ:

- ﴿... سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

الإصَابَةُ: الضَّرْبَةُ الدَّاخِلَةُ آثَارُها إِلَىٰ الْعُمْقِ لِتَكُونَ أَبْلَغَ فِي الإيلَام والتَّعْذِيب، كالسَّهْمِ الواصِلِ إلى الأَحْشَاءِ وَمَوَاطِنِ الألم في الْعُمْق.

والمعنىٰ: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أجْرَمُوا مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ وَكُفَّارِ سَائِرِ الْقُرَىٰ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمِنْ بَعْدِهِمْ، الْمُعَانِدين مِثْلَ عِنادِهِمْ، والمتعنِّتينَ مِثْلَ تَعَنُّتِهِمْ صَغَارٌ وَاصِلٌ إِلَىٰ أَعْمَاقِ أفئِدَتِهِمْ، وَعَذَابٌ شَدِيدٌ وَاصِلٌ إِلَىٰ أَكْثَر مَوَاقِعِ الإحْسَاس بالْأَلَم فيهم، بِسَبَبِ مَا كَانُوا في الحياة الدُّنيا يَمْكُرون بِدِينِ اللهِ، وبِرُسُلِهِ، وبالْمُؤْمِنِينَ.

■ قول الله تعالىٰ يُبَيِّنُ سُنَّتَهُ في مَعُونَتِهِ للمؤمنين بِشَرْحِ صُدُورِهِمْ لتَطْبِيقَاتِ شَرَائِعِ الإسْلام وأحْكَامِهِ في السُّلُوكِ، بِحَسَبِ قُوَّةِ إيمانهم، أَمَّا الكافِرُونَ الَّذِين لَمْ يُؤْمِنُوا فَيَجْعَلُ صُدُورَهُمْ ضَيِّقَةً حَرِجَةً كَارِهَةً تَطْبِيقَاتِ شَرَائِعِ الإسْلَام وأحْكَامِهِ في السُّلُوك.

• ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾:

﴿حَرَجًا﴾ **الْحَرَجُ**: أَضْيَقُ الضِّيق، قال ابن عباس: **الْحَرَجُ**: الموضِعُ الكَثيرُ الشَّجَرِ الّذي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ الرَّاعِية، قال: وَكَذَٰلِكَ صَدْرُ الكافِرِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْحِكْمَةُ. **الْحَرَج**: مَصْدَرُ «حَرِجَ الصَّدْرُ، يَحْرَجُ، حَرَجاً» أيْ: ضَاقَ، وَوُصِفَ بِهِ وَهُوَ مَصْدَرٌ على سَبِيلِ المبالغة.

وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[حَرِجاً]** صِفَةٌ مشبَّهَةٌ باسم الفاعل.

﴿ٱلرِّجْسَ﴾: الأصْلُ في «الرِّجْسِ» الْقَذَرُ والنَّجسُ، ثُمَّ حَصَلَ تَوَسُّعٌ في إطْلَاقِ اللَّفظ، فَصارَ يُطْلَقُ علىٰ جَميعِ الرَّذَائِلِ والقبائح المعنويَّة، مِن الأفكار، والعقائد، والنِّيَّات، والأعمال، ثُمَّ عَلَىٰ ما فيه، أَوْ تَجْتَمِعُ لَدَيْهِ هَـٰذِهِ الرَّذَائِلُ والقبائح، من أشياء وأحياء، وصَارَ يُطْلَقُ أيْضاً عَلَىٰ الْعِقَابِ والْعَذَابِ.

بما أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ الظاهِرَةَ والْبَاطِنَةَ الَّتِي يَخْتَارُونَها بإرادَاتِهِمْ الحرَّةِ المختَارةِ، إِنَّمَا تُوجَدُ بِخلْقِ اللهِ تَعالَىٰ، كانَ مِنْ مُقْتَضَىٰ التَّخْيير، أَنَّ مَنْ آمَنَ بإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، أَرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنْ يَهْدِيَهُ فِي مَسِيرَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ فِي حَيَاتِهِ، هِدَايَةَ مَعُونَةٍ وَتَوْفِيقٍ، لِيَحْكُمَ لَهُ بِالْهِدَايَةِ وَلِيُثِيبَهُ عَلَىٰ أَعْمَالِهِ الاختِيَارِيَّة بِفَضْلِهِ ثَوَاباً عظيماً وَجَزِيلاً يوم القيامة.

وكانَ مِنْ مُقْتَضَىٰ التَّخْيير، أَنَّ مَنْ كَفَرَ بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ بِمَا يَجب أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ أَرَادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنْ يُيَسِّرَهُ فِي مَسِيرَتِهِ الْعَمَلِيَّة في حَيَاتِهِ ضَالًّا كَمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ، لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ بِالضَّلَالَة، وَلِيُعَاقِبَهُ عَلى أَعْمَالِهِ الاخْتِيَارِيَّةِ بِعَدْلِهِ دُونَ أَنْ يَظْلِمَهُ مِثْقَالَ ذَرَّة.

هٰذا ما دلَّتْ عَلَيْه هٰذِهِ الآيَةُ بِإيجَازِهَا، وطَرِيقِ تَعْبِيرِهَا الرَّائع، الَّذِي فِيه الدَّلَالَةُ عَلَىٰ حُرِّيَّةِ إرادَاتِ الْعِبادِ الموضوعين في الْحَياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ في كَوْنِ اللهِ إلَّا بِخَلْقِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ مِنَ الْعِبَادِ طَرِيقَ الْهُدَىٰ باختيارِهِ الْحُرّ، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقَ الْهُدَىٰ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ، وَيَسَّرَهُ لَه، وخَلَقَ لَهُ مَا أَرَادَ، ومَنْ شَاءَ مِنَ الْعِبَادِ طَرِيقَ الضَّلَالَةِ باخْتِيَارِهِ الْحُرّ، سَهَّل اللهُ لَهُ طَرِيقَ الضَّلَالَة، وَيَسَّرَهُ لَهُ، وخَلَقَ لَهُ مَا أَرَادَ.

ويَتِمُّ بِذَلِكَ امْتِحَانُ إِرَادَاتِ الْعِبَادِ عَلَىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ وأَتَمِّهِ، وهي إرادات ذَوَاتُ حُرِّيَّةٍ تَامَّةٍ في اخْتِيَارَاتِها، وَلَا يَتَحَقَّقُ فِي كَوْنِ اللهِ إلَّا مَا يَخْلُقُ اللهُ بِمَشِيئَتِهِ، لِأَنَّ لَهُ الرُّبُوبِيَّةَ الْكَامِلَةَ التَّامَّة فِي كَوْنِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيها أَحَدٌ، فَكُلُّ مَا فِيهِ خَلْقُهُ.

- ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾: أي: فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ هِدَايَةَ مَعُونَةٍ وَتَوْفِيقٍ، في مَسِيرَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَة، على صِراطِ اللهِ الْعَمَلِيِّ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِه، لِأَنَّهُ آمَنَ إيماناً صحيحاً صَادِقاً، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِتَطْبِيقَاتِ الإسْلَامِ في سُلُوكِهِ، عَلَىٰ مِقْدَارِ قُوَّةِ إيمانِهِ.

شَرْحُ الصَّدْر: هو بَسْطُهُ وَتَوْسِعَتُهُ. وشَرْحُ الصَّدْرِ للإسْلام يَكُون بانْفِراجِهِ وسُرُورِهِ، وذَهَابِ ضِيقِ الْغَمِّ والْهَمِّ والْحَزَنِ عنه، ويكون بِجَعْلِهِ قَادِراً عَلَىٰ تَحَمُّلِ المزْعِجَاتِ والمكارِهِ بِصَبْرٍ وحِلْم، والقيام بالأَعْمَالِ الإسْلَامِيَّة بِرَغْبَةٍ وَهِمَّةٍ وَفَرَح وَمَسَرَّة، طَمعاً بِمَرْضَاةِ اللهِ واغْتِنَام ثَوَابِهِ الْعَظِيم فِي جَنَّاتِ النعيم، وكلُّ هٰذَا مِنْ ثَمَراتِ صِحَّةِ الإيمانِ في السُّلُوكِ.

- ﴿... وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢٥﴾:

أي: وَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُيَسِّرَ لَهُ سُبُلَ الضَّلَالِ، لأنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا أَمَرَ اللهُ الْمَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَمْ

يُؤْمِنْ بِجَدْوَىٰ الْأَعْمَالِ الإِسْلَامِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، الَّتِي هِيَ صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ، يَجْعلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً شَدِيدَ الضِّيقِ إذَا دُعِيَ إِلَىٰ تَطْبِيقِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، أَوْ أُمِرَ بِهَا، وإِذَا وَجَدَ نَفْسَهُ مُلْزَماً بِتَطْبِيقِهَا لِسَتْرِ نِفَاقِهِ بينَ الْمُؤْمِنِينَ المسْلِمين، أَصَابَهُ مِنَ القيام بِهَا مَا يُشْبِهُ الاخْتِنَاقَ التَّدْرِيجيّ الَّذِي يَحْصُلُ لِلَّذِي يَصْعَدُ، أَوْ يَتَصَعَّدُ، أَوْ يَتَصَاعَدُ، في السَّمَاءِ، ويَتَنَاقَصُ عَلَيْهِ أُكْسجِينُ الْهَواء. وهَـٰذَا تَشْبِيهٌ رَائِعٌ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً لِلنَّاسِ فِي عَصْرِ تَنْزِيلِ القرآن.

هَـٰذَا رِجْسٌ يُصَابُونَ بِهِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وعَدَمِ إيمانِهِمْ بالْحَقِّ الَّذِي أَمَرَهُمْ رَبُّ العالَمِينَ به، وَكَذَٰلِكَ الرِّجْسِ الَّذِي يَجْعَلُهُ اللهُ عَلَىٰ هَؤلَاءِ الكَفرَةِ، يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَىٰ كُلِّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ في المسْتَقْبَلِ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةِ.

دَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عَلَىٰ أَنَّ الكُفْرَ هُوَ السَّبَبُ في إرَادَةِ اللهِ تَيْسِيرَ سُبُلِ الضَّلَالِ لِبَعْضِ عباده، وأَنَّ الْإِيمَانَ هو السَّبَبُ في إرادَةِ هِدَايَةِ اللهِ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، إِلَىٰ التطبيقات الإسلامِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ، بِشَرْحِ صَدْرِهِمْ لِلْإِسْلَام.

وبهذا تَمَّ تدبر الدرس السادس والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه المبين.

* * *

(٣١)

التدبر التحليلي للدّرْس السابع والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٢٦ ـ ١٣٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾:

القراءات:

(١٢٦) ● قَرَأ قُنبل، ورُوَيْس: **[سِرَاطُ]** بالسّين، وقرأَها خَلَفٌ عَنْ حَمْزَة بالإشْمَام.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالصَّادِ الخالِصَة: **[صِرَاطُ]**.

(١٢٨) ● قرأ حفص، ورَوْح: **[وَيوْمَ يَحْشُرُهُمْ]** بياء المضارعَةِ، أي: يَحْشُرُهُمْ اللهُ عزَّ وجلَّ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَيوْمَ نَحْشُرُهُمْ]** بضمِير المتكلّم العظيم، ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، وفي قراءة الجمهور إضافة تَرْبية المهابة.

(١٣٢) ● قرأ ابن عامر: **[عَمَّا تَعْمَلُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[عَمَّا يَعْمَلُونَ]** بضمير الغائبين.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني.

(١٣٣) ● قرأ أبو جعفر: **[إِنْ يَشَا]** بإبْدَالِ الْهَمْزَةِ ألِفاً في «يَشَا».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِنْ يَشَأْ]** بالهمزة.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْس من فروع السَّاقِ الأوّل من ساقَيْ شجرة موضوع السّورة. وفيها بَيَانٌ عامٌّ عَنْ ثواب متَّبعي صراطِ اللهِ المُستقيم يوم الدِّين. وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ مُحَاسَبَةِ الْكَافِرينَ مِنَ الإنْسِ والجنِّ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَبَيَانُ عَدْلِ اللهِ في إِهْلَاكِ أَهْلِ الْقُرَىٰ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا شاملاً، وأنَّهُ إِنَّما يكون بِسَبَبِ ظُلْمِهِمُ الشّدِيدِ الَّذِي اقْتَضَىٰ إِهْلَاكَهم. وفِيها بَيَانٌ عَنْ جَزاءِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ الْقَائِم عَلَىٰ التفاضُلِ في الدرجاتِ صُعُوداً، والتنازُلِ في الدَّرَكَاتِ هُبوطاً، بحَسَبِ الأعْمالِ الَّتِي قَدَّمَها النَّاسُ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا.

وأخيراً فيها بيانٌ عَنْ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، هما صِفَتَا الغِنَىٰ والرَّحْمَة، مع إنذارِ الكافِرينَ الظالِمين بأنّ رَبَّهُمْ إنْ يَشَأْ يُذْهِبْهُمْ من الحياة إذْهاباً جماعيًّا شاملاً، ويَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِهِم ما يَشاءُ من أَحْيَاءٍ بَشَرِيَّةٍ وغَيْرِ بَشَرِيَّة كَمَا أنْشَأَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْم آخَرِين، ومَعَ تَوْكِيدِ أَنَّ مَا يُوعَدُونه مِنْ جَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ لآتٍ حتماً، وأَنَّهُمْ غَيْرُ مُفْلِتِيْنَ مِنْ تَنْفِيذِ عَدْلِ اللهِ فيهم، فاللهُ عزَّ وجلَّ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يُرِيدُه.

التّدبّر التحليلي:

- قول الله تَعالَىٰ:

- ﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

يُخَاطِبُ اللهُ كُلَّ مَوْضُوع في الْحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بأسْلُوبِ الْخِطَاب الإفرادي، لِأَنَّهُ هُو رَبُّهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَيقُولُ له:

﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾:

الْمُشَارُ إِلَيْهِ باسْمِ الإشَارَة «هَـٰذَا» مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مَا نَزَلَ من القرآنِ وَمَا سَيَنْزِلُ، مَعَ بَيَانَاتِ الرَّسُولِ الْقَوْلِية والعَمَلِيّة، مِنَ العَقَائِدِ الإيمانِيَّة، والشَّرَائِعِ والأحْكَامِ الإسْلامِيَّة، وأشِيرَ إِلَىٰ مَا لَمْ يَنْزِلْ مَعَ مَا نَزَلَ مِنْ ذَلِكَ باسْمِ الإشَارَةِ الموضوعِ للمشارِ إِلَيْهِ الْقَرِيبِ، على سَبِيلِ التَّبَعِ، ولِأَنَّهُ مُقَدَّرٌ وَمَقْضِيٌّ تَنْزِيلُهُ حَتْماً نَجْماً فَنَجْماً، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ الْمُعَلِّم في أَوَّلِ الْعَامِ الدِّرَاسِيِّ لِطُلَابِهِ:

هَـٰذَا عِلْمٌ سَأَشْرَحُ عَلَيْكُمْ مَسَائِلَهُ طَوَالَ الْعَامِ، وأَخْتَبِرُ فِي النِّهَايَةِ مَدَىٰ اسْتِيعَابِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ لِمَسَائِلِهِ وَقَضَايَاهُ، فالمشَارُ إِلَيْهِ مَا هُوَ حَاضِرٌ قَرِيبٌ فِي ذِهْنِهِ مِنْ مَسَائِلِ وَقَضَايَا الْعِلْمِ الَّذِي ذَكَرَ لَهُمْ عُنْوَانَهُ.

﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾: أَصْلُ مَعْنَى الصّراط الطّرِيق الواضِحُ الْجَلِيُّ الْمُمَهَّدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ تَعَرُّجَاتٌ وَلَا مُعْثِرَات. وأُطْلِقَ في الاصْطِلاح الدِّيني عَلَىٰ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ الشَّامِلِ للعقائد والشرائِعِ والأحْكام والْوَصَايَا الرَّبَّانِيّة والتَّعْلِيمَاتِ والسُّنَنِ النَّبَوِيَّة.

وأضِيفَ «صِرَاطُ» إلى «رَبِّكَ» لِأَنَّهُ هو الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِباده، كَيْ يَكُونَ مَادَّةَ امْتِحَانِهِمْ في رِحلَةِ الحياة الدُّنيا، وقد اصْطَفَاهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّته، وخَاطَبَ اللهُ كُلَّ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ، بِأُسْلُوبِ الْخِطَاب الإفرادي، لِيُشْعِرَهُ بِمَسْؤُولِيَّتِهِ الفرديَّة تُجَاهَ رَبِّهِ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ، والْمُمِدِّ لَهُ دَوَاماً بِعَطَايَاه.

﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حَالٌ هو في المَعْنَىٰ وَصْفٌ لِصِرَاطِ الله، والعامل فيه ما في اسْم الإشَارَة من معنى «أُشِير». ولا يَخْفَى أَنَّ الْحَالَ وَصْفٌ لِصَاحِبِهَا قَيْدٌ لِعَامِلِها.

وفي هَـٰذَا الْمُشَارِ إِلَيْهِ الَّذِي سَبَقَ بيانُه: ﴿... قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾:

- ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾: ءَ: قَدْ بَيَّنَا وَأَوْضَحْنَا الآياتِ المشْتَمِلَاتِ عَلَىٰ الْإِعْلَامِ بِعَنَاصِرِ الصِّراط المستقيم.

تفْصِيلُ الْأَشياء: تَمْييزُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، لإِبْرَازِ حُدُودِ كُلٍّ مِنْها، وإظْهَارِ مَا بَيْنَها مِن انْفِصَالٍ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَرْئيًّا، وبهذا يَتَمَيَّزُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ في الْإِدْرَاكِ الْفِكْرِيّ.

- ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي: لِقَوْم يَضَعُونَ حَقَائِقَ صِرَاطِ اللهِ في ذَاكِرَاتِهِمْ، وَيَسْتَدْعُونَ مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بها.

وَالمرادُ بالتَّذَكُّرِ الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِحُضُورِ المعْلُومَةِ في الذاكِرَة، اسْتِدْعَاءً لَهَا مِنْ خَزَائِنِ المعْرِفَةِ، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لَهَا مِنَ الخارِج، عَنْ طَرِيق بَيَانٍ وَارِدٍ، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيّ ذَاتِيّ، أَوْ بتَأْثِيرِ حَدَثٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ كَوْنِيّةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لِلْعَمَلِ بِالمطْلُوبِ الدِّيني فِيما جَاءَ بِهِ التَّذَكُّر.

فالأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ والسُّلُوكِيّ هُوَ المطْلُوبُ الدِّينيُّ مِنَ التَّذَكُّر.

وَقَدْ أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ بِإِجْمَالٍ ثَوَابَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

أَجْمَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ بَيَانَ قَضِيَّتَيْن كُلِّيَّتَيْنِ مِنْ ثَواب الْقَوْمِ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ، وَفْقَ المصْطَلَحِ القرآني للتَّذَكّر الّذِي سَبَقَ بَيَانُهُ آنِفاً.

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّ ثَوَابَهُمْ الْخُلُودُ في دَارِ السَّلَامِ يَوْمَ الدِّين، وهِيَ الْجنَّة، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ مِنْ أَسْمَائِهَا أَنَّها دَارُ السَّلَام.

السَّلَامُ: الْبَرَاءَةُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوه، ومِنْ كُلِّ نَقْص، والعافية، والْأَمْن. فَفِي الْجنَّةِ الْأَمْنُ الدَّائِم، والْعَافِيَةُ الدَّائِمة، والْخُلُوُّ مِنْ كُلِّ مَكْرُوه، ومِنْ كُلِّ أذىً، فَلَا نَصَبَ فِي الْجنَّةِ وَلَا وَصَب، وَلَا كَدْحَ وَلَا تَعَب، وأَهْلُ

الجنَّةِ لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتغوَّطُون، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَعَرَّضُونَ لِقَذىً، وقَذَاراتِ، ومُكَدِّرَات.

ومن الْأَمْنِ الأمْنُ الْغِذَائِي، والْأَمْنُ النَّفْسِي بِتَحْقِيقِ مَطَالِبِ النَّفْسِ وَحَاجَاتِهَا المادّيَّةِ والمعنويَّةِ كُلِّها.

القضيَّة الثّانية: وِلَايَةُ اللهِ الدَّائِمَةُ لَهُم، ومَنْ كَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ وَلِيَّهُ، كَانَ لَهُ حَامِياً وَمُعِيناً ومُسْعداً، وَمُلَبِّياً كُلَّ رَغَبَاتِهِ وَلَوْ كانَتْ خَاطِراتٍ لَمْ تَصِلْ إِلَىٰ مُسْتَوىٰ الطَّلَب.

هَاتَانِ الْقَضِيَّتَانِ اللَّتَانِ جَعَلَهُمَا اللهُ ثَوَابَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ، أَبَانَ اللهُ أَنَّهُ يُثِيبُهُمْ بهما بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا مِنْ صَالِحَاتٍ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿. . . بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

■ قول الله تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ حِسَابِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ، رَبْطاً بِمَا جَاءَ في الآية (١١٢) من آيات الدرس (٢٤):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾:

الْحَشْرُ: الجمْعُ والسَّوْق. **المعشر**: كُلُّ جَماعَةٍ أَمْرُهُمْ واحد.

أي: وَيَوْمَ يَحْشُرُ رَبُّكَ الْإِنْسَ والْجِنَّ جميعاً فِي الْمَحْشَر بَعْدَ الْبَعث، ويُوقِفُهُمْ مَوْقِفَ الْمُحَاسَبَةِ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ الحياة الدنيا، يَقُولُ للشَّيَاطِين من الجنّ بِشَأْنِ أَوْلِيائِهم الشياطين من الإنس: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ وَجَنَّدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ للإغْواء والْإِضْلَالِ عَنْ دِينِ رَبِّكُمْ وَصِراطِهِ الْمُسْتَقِيم، قَد اسْتَكْثَرْتُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ أَوْلِيَاءَ لَكُمْ، تُوحُونَ إِلَيْهِمْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ التَّفْصِيلِيِّ، لِيَقُومُوا هُمْ بِتَضْلِيلِ مَنْ يَسْتَطِيعُونَ تَضْلِيلَهُمْ مِن

الإنْس، فَيَعْتَرِفُ شَيَاطِين الْجِنِّ بِجَرائِمِهِمْ، وقَالَ أَوْلِيَاؤُهم مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْس: رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، فَكَانَ شَيَاطِينُ الْجِنِّ يَأْتُونَنا بِمَعْلُومَاتٍ تَنْفَعُنَا وَنَأْخُذ أَثْمَانَهَا مِنَ الإنْسِ، وكُنَّا نُطِيعُهُمْ بأَعْمَالٍ كُفْرِيَّةٍ شِرْكِيَّةٍ، فَيَرْضَىٰ بِهَا عَنْهُمْ إبْلِيسُ وَيَمْنَحُ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ إنْعَامَاتِهِ الَّتِي يَسْتَمْتِعُونَ بها بِحَسَبِ طَبَائِعِهم الْجِنِّيَّة.

جاءَ التعبير بالْفِعْل الماضِي ﴿وَقَالَ﴾ اسْتِقْطاعاً مِنَ الْحدَثِ المسْتَقْبَلِي، وللإِشْعَارِ بأَنَّهُ سَيتحقَّقُ حَتْماً، فكأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِعلاً.

وتابَعَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإنْسِ قائِلِينَ: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ﴾ أي: وانْتَهَتْ رِحْلَةُ امْتِحَانِنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْمَوتِ، الَّذِي انْتَهَتْ بِهِ كُلُّ حَرَكَاتِنَا وَتَصَرُّفَاتِنَا الإرادِيَّة، وَصِرْنَا خاضِعِينَ بالْجَبْرِ لِلْجزاء، وَنَحْنُ الآنَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، لَا نَمْلِكُ لِأَنْفُسِنا شَيْئاً، وَلَا حُجَّةَ لَنا فِيما أَجْرَمْنَا، وَلَا عُذْرَ لَنَا، إذْ كُنَّا نَتَّبِعُ أَهْوَاءَنا وَشَهَوَاتِنا، لِنَحْصُلَ عَلَىٰ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا الضَّئِيلَةِ الْقَلِيلَةِ الْفَانِيَة، شَاكِّينَ بِوَعِيدِكَ الَّذِي قَدَّرْتَ وَقَضَيْتَ وأَخبَرْتَ أَنَّهُ سَوْفَ يكونُ في هَـٰذَا الْيَوْم، وهُوَ يَوْمُ القيامَة.

وبَعْدَ أن انْقَطَعُوا وَلَمْ يَجِدُوا مَا يَعْتَذِرُونَ به ﴿قَالَ﴾ اللهُ عزَّ وجلَّ مُبَيِّناً حُكْمَهُ عَلَيْهِم: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾: أي: دَارُ الْعَذَاب النَّارُ هي مَكَانُ إقَامَتِكُمْ وَاسْتِقْرَارِكُمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾:

يُقَالُ لُغَةً: «ثَوَىٰ بِالْمَكَانِ يَثْوِي، ثَوَاءً، وَثُوِيًّا» أَيْ: أَقَامَ بِهِ واسْتَقَرَّ.

الْخُلُودُ: البقاء الدائم الذي لا نِهَايَةَ له في دلَالَات النصوص القرآنية.

عبارة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: بيانٌ اعْتِرَاضِي هو والآية(١٢٩) الآتي تَدَبُّرها.

والاستثناء في ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ سبَقَ نظيرُه في الآية (١٠٧) من

سورة (هود/ ٥٢ نزول) وسَبَق هُنَاكَ تَحْلِيلُ هذا الاستثناء لدَىٰ تَدَبُّرِ الآية. والمعنى الذي ظهر لي هو ما يلي: إلَّا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْتَثْنِيَهُ بِحِكْمَتِهِ مِنْ عُمُومِ القضاءِ الْمُبْرَمِ بالْخُلُودِ، فيما لو يَشَاءُ أَنْ يُقَدِّرَهُ ويَقْضِيَهُ مُسْتَقْبلاً، إذْ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ جَلاَلُهُ أَنَّهُ يَمْحُو مَا يَشَاءُ مَحْوَهُ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ إِثْبَاتَهُ، وعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ وهُوَ عِلْمُهُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَتَعَرَّضُ لِمَحْوٍ ولا تَغْيير، إذْ لا مُبَدِّل لكلماته، عَلَىٰ أنّه أَخْبَرَ جلَّ جَلاَلُهُ أَنَّهُ لا يخْرُج الكافِرونَ من النار.

ولَيْسَ مِنَ التَّدَبُّرِ السَّلِيم أَنْ نُفكِّرَ في تَعْيِينِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَثْنَيهُ مُسْتَقْبلاً، لأنَّ الاستثناءَ لَمْ يَتَنَاوَلْهُ بَعْدُ. وقَدِ احْتَفَظَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِنَفْسِهِ ضِمْنَ قَضَاءِ الْخُلُودِ بِأَنْ يَفْعَلَ مَا يُرِيدُ في مَدَى الآبَادِ، فيما لَوْ يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً يُخَالِفُ في ظَاهِرِهِ دَلاَلَةَ عُمُومِ الْخُلُودِ، في كُلِّ الْأَجْزَاءِ الزَّمَنِيَّةِ المتوالِيَة بِغَيْرِ نِهَايَةٍ، وَلِكُلِّ الخالدين، فهذا الاستثناء هو من كلماته التي لا مُبَدِّلَ لها.

وبهـٰذَا الْفَهْم أَسْتَبْعِدُ كُلَّ الْآرَاءِ الَّتِي طَرَحَهَا المفسِّرُونَ بِشَأْنِ تَعْيين المسْتَثْنَىٰ، إذ المعنى: خالِدِينَ فيها خُلُوداً بِقَضَاءٍ مِن اللهِ مُبْرَم، لَا تَعْرُوهُ مَشِيئَةٌ مُعَدِّلَةٌ مِنْ أَحَدٍ، إلَّا مَشيئَةُ اللهِ، لِأَنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، وهُوَ حَكِيمٌ فيما يُرِيدُ ويَخْتَارُ، وَعَلِيمٌ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَظْهَرُ لَهُ شيْءٌ لَمْ يَكُنْ مَعْلُوماً له. جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُه.

■ قَوْل اللهِ عزَّ وجلَّ في بيانٍ اعْتِرَاضِي، أَثْنَاءَ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ حِسَابِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإنْسِ يَوْمَ الدِّين:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ بيانُ سُنَّةٍ عَامَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ في المجْتَمَعِ الْبَشَرِي، يَقْتَضِيهَا النِّظَامُ الْعَامُّ الَّذِي تُوجَدُ أَحْدَاثُهُ ومُفْرَادتُهُ بِخَلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ،

وَهِي أَنَّ مَنْ اخْتَارَ بِإِرَادَاتِهِ الْحُرَّةِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَجَدَ دَوافِعَ نَفْسِهِ مُتَّجِهَةً لِمُصَاحَبَةِ الظَّالِمِينَ وَمُوالاَتِهِمْ، لِيَكُونَ بَعْضُهُمْ مُعِيناً لِبَعْضٍ، وَنَاصِراً لِبَعْضٍ، وَمُؤاخِياً لِبَعْضٍ، ومن الملاحظ في المجتمع البشرِيِّ أَنَّ اللُّصُوصَ يُكَوِّنُونَ مُجْتَمَعَاتٍ يوالي بَعْضُهُمْ فيها بعضاً، وأَنَّ أَهْلَ الْفُحْشِ يُكَوِّنُونَ مُجْتَمَعَاتٍ يوالي بَعْضُهُمْ فيها بَعْضاً، وأَنَّ أَحْزَابَ الشَّرِّ والْجَرِيمَةِ والإِثْم وَمُحَارَبَةِ الدِّينِ وَصِرَاطِ اللهِ المستقيم، تَتَأَلَّفُ مِنْ أَفْرَادٍ يُوالي كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أَفْرَادَ حِزْبِهِ، وقَدْ تَجْتَمِعُ هَـٰذِهِ الأَحْزَابُ مُتَنَاصِرِينَ لِقَمْعِ حِزْبِ اللهِ وَاضطهاده ومُقَاتَلَةِ أفراده. وَتَحْصُلُ هَـٰذِهِ الْوَلَاءَاتُ فيما بَيْنَهُمْ بِسَبَبِ اتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ أَعْمَالٍ ومُكْتَسَبَاتٍ مِنْ جِنْسٍ واحد، أَوْ مِنْ نَوْعٍ واحد، أو من صِنْفٍ واحِدٍ، أَوْ مِنْ شُذُوذٍ واحد.

فَمَعْنَىٰ الآية: وَكَذَلِكَ الَّذِي تَحَدَّثْنَا عَنْهُ، مِنِ اتِّخاذِ شياطِينِ الجنِّ أَوْلِياءَ لَهُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً فَهُمْ يَتَبَادَلُونَ فيما بَيْنَهُمُ التَّنَاصُرَ عَلَىٰ الشَّرِّ والإِثْم والتَّضْلِيل، ويَسْتَمْتِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ كما سَبَقَ بَيَانُه، نُوَلِّي ضِمْنَ النِّظام الْعامّ للمجْتَمِعِ الْبَشَرِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً مِنْ كُلِّ قَوْمٍ، وَكُلِّ أُمَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ مُجْتَمَعٍ في أَيِّ مَوْقِعٍ مِنَ الْأَرْضِ، بِسَبَبِ مَا يَشْتَرِكُونَ بِهِ مِنْ كَسْبٍ ظَالِمٍ آثِم، ومن ابْتِغَاءِ الشَّرِّ والْفَسَادِ في الأرض.

هذه سُنَّةٌ عامَّةٌ مِنْ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِي.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ مُتابِعاً بَيَانَ عَرْضِ المشْهَدِ مِنْ مَشَاهِدِ حِسَابِ شَيَاطِينِ الجِنِّ وَأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنس، يَوْمَ الدِّين:

● ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

المَعْشَرُ: كُلُّ جَمَاعَةٍ أَمْرُهُمْ واحِد، والمخاطَبُون هنا من الجنِّ وأوليائهم من الإنْسِ كُفَرَةٌ وَدُعَاةٌ إِلَىٰ الكُفر، فأمْرُهم واحد.

- ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾: أي: يُحَدِّثُونَكُمْ بآيَاتِي مُتَتَبِعِينَ كُلَّ مَا أَنْزَلْتُ من آياتٍ بَيَانِيَّةٍ عَلَيْهِمْ، لِتَبْلِيغِكُمْ إِيَّاهَا مع غَيْرِكُم من المبلِّغِينَ.

- ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾: أي: ويُخبِرُونَكُمْ إِذَا كَفَرْتُمْ بِعَذَابِي الشَّدِيدِ، يَوْمَ الدِّين، وبأنَّكُمْ سَتُلَاقُونَ يَوْمَكُم هَٰذَا بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، للحسابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، عَلَىٰ ما تُقَدِّمُونَ في رِحْلَةِ الابْتِلَاءِ باخْتِيَارِكُمْ الحرِّ.

الإِنْذَار: الإعْلَامُ بِمَا هُوَ مَخُوفٌ مِنه.

وقَدْ يُنْكِرُ مِنْهُمْ مِنْكِرُونَ، ويُخْتَمُ عَلَىٰ أفْوَاهِهِمْ، وتَشْهَدُ عَلَيهُمْ جوارِحُهُمْ، ويَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الشُّهُودُ الْعُدُولُ، وقَدْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ شَرِيطُ تَسْجِيلِ حَيَاتِهِمْ في رِحْلَةِ الحياةِ الدُّنيا، بِالصَّوْتِ، والصُّورَة، والخواطِرِ والأفكارِ والنِّيَّاتِ وحَرَكَاتِ الإرادات.

عِنْدَئِذٍ يَعْتَرِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ بأنَّ الشَّرِيطَ الَّذِي عُرِضَ عَلَيْهِ خَاصٌّ بِهِ، واعْتِرَافُهُمْ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهم.

ويُسَأَلُونَ: لِمَ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ هَٰذَا الّذِي عَرَضْنَاهُ عَلَيْكُمْ، وهُوَ سِجِلُّ حَيَاتِكُمْ؟!

فَيقُولُون: غَرَّتْنَا الحياة الدُّنْيَا وَزِينَاتُهَا وَمَتَاعَاتها.

فَيُقَالُ لَهُمْ: أَلَمْ تَكُونُوا كَافِرِينَ بِرَبِّكُمْ، وبِرُسُلِ رَبِّكُمْ، وبآيَاتِ رَبِّكُمْ الْبَيَانِيَّة الَّتي قَصُّوهَا عَلَيْكم؟!

فَيقُولُون: بَلَىٰ، لقَدْ كُنَّا كَافِرِينَ، وهذا الاعْتِرَافُ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ على أنفسهم.

هذا ما أَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿... قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

فالشهادةُ الأولىٰ هِي شهادةٌ عَلَىٰ أَنَّ الأشْرِطَة المسَجَّلَة الَّتي عُرِضَتْ عَلَيْهِمْ، هِي أَشْرِطَةُ حَياتِهِم المطابِقَةُ تَماماً لِمَا سَبَقَ أن اكْتَسَبُوه فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهم، لِأَنَّ كُلَّ إنْسانٍ يَتَذَكَّر يوم الدّين مَا سَبَقَ أن سَعَىٰ في الدُّنيا.

والشَّهَادَةُ الثانيةُ هِيَ اعْتِرَافُهُمْ بأَنَّهُمْ كَانُوا في الحياة الدُّنْيا كَافِرِينَ، فَهٰذَا الاعْتِرَافُ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ على أَنْفُسِهِمْ.

ومن الإبداع الْبَيَانِيِّ في الآيَةِ التَّنْويعُ في عَرْضِ اعْتِرَافَاتِهِمْ، وبَيَانِ سَبَبِ اكْتِسَابِهِمْ جرائِمَهُمْ.

فاعْترافهم الأوّل: جَاءَ بأسْلُوب: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ﴾.

وبيانُهُم السَّبَبَ: جَاءَ بعِبَارَة: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾.

واعْتِرَافُهُمُ الثَّاني: جاء بعبارة: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

ودَلَّ خِطَابُ اللهِ الجِنَّ والْإِنْسَ عَلَىٰ أَنَّهُ تَبارَكَ وتعالَىٰ قَدْ بَعَثَ إلى الجِنِّ رُسُلاً مِنْهُمْ، إِذْ مِنَ المعلوم الثابت أنّ الجِنَّ مَخْلُوقُونَ قَبْلَ الإنْس، وأَنَّهُمْ كانُوا مَوْضوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، فَهُمْ بحاجَةٍ إلى رُسُلٍ يَبَيِّنُونَ لَهُمْ مَسْؤُلِيَّاتِهِم، وَمَطْلُوبَ اللهِ مِنْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

وَيظْهَرُ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بَعْدَ خَلْقِ الْإِنْسِ، رُبَّمَا اخْتَارَ بَعْضَ رُسُلِهِ كَمُوسَىٰ وعيسَىٰ عليهما السلام أَنْ يَكُونُوا رُسُلاً لِلْجِنِّ، أَمَّا مُحمّدٌ ﷺ فَقَدْ ثَبَتَ قَطْعاً أَنَّهُ كَانَ رَسُولاً عَامّاً للإنَسِ والجِنِّ، كما سَبَقَ بيانُهُ لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الْجِنّ/ ٤٠ نزول) وفي مَوَاضِعَ أُخْرَىٰ.

▪ قول الله تَعالَىٰ في بَيانٍ اعْتِرَاضِيّ يَكْشِفُ فِيهِ مِنْ سُنَنِهِ أَنَّهُ لا يُهْلِكُ أَهْلَ الْقُرَىٰ الظَّالِمِينَ وهُمْ غَافِلُونَ عَنْ مَطْلُوب اللهِ منهم، بَلْ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يُرْسِلَ لَهُمْ رُسُلاً، كما أرسَلَ رُسُلاً لِلْجِنِّ، ورُسُلاً للإنْس، لِيَقْطَعَ أعْذارَهم:

• ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الَّذِي سَأَلْنا مَعْشَرَ الْجنِّ والْإِنْسِ عَنْهُ، وهُوَ قَوْلُنا لَهُمْ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ ... ﴿١٣٠﴾﴾: وَالَّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُنَا فِي عِبَادِنَا الموضوعين مَوْضِعَ الامْتِحَانِ أَنْ نُرْسِلَ لَهُمْ رُسُلاً، وأَنْ لا نُهْلِكَ الظَّالِمِينَ وَهُمْ غافِلُونَ، لَمْ تُبَيَّنْ لَهُمُ الواجِبَاتُ الَّتِي أَوْ جَبْنَاهَا عَلَىٰ مَنْ نَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَان.

فالشَّأْنُ الْعَظِيمُ أَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ أَهْلَ الْقُرَىٰ الظَّالِمِينَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفر، والحالُ أَنَّهُمْ غافِلُونَ عَنْ عَقَائِدِ الدِّينِ وشرائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ، بَلْ يُرْسِلُ لَهُمْ رُسُلاً يُبيِّنُونَ لَهُمْ وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْ غَفَلاتِهِمْ، فإذا عَانَدُوا وَكَفَرُوا عَلَىٰ الرُّغم مِنَ إدْرَاكِهِم الحقِّ فَقَدْ يُهْلِكُهُمْ إهْلاكاً عَامًّا.

ودَلَّ وَصْفُهُمْ بِالْغَفْلَةِ في قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ عَلَىٰ أَنَّ حَقَائِقَ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ مَوْجُودَةٌ فِي فِطَرِ النُّفُوسِ، إلَّا أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَكُونُونَ غَافِلين عَنْهَا، غَيْرَ مُهْتَمِينَ بالتَّفْكِيرِ فيها والتَّأَمُّلِ لإدْرَاكِها، لِأَنَّهُمْ مَشْغُولُونَ لَاهُونَ بأُمُور دُنْيَاهُمْ، وقَدْ تكونُ أهواؤهُمْ وشَهَوَاتُهُمْ حَاجِبَةً بَصَائِرَهُمْ بِحِجَاب شَدِيدِ الكَثَافَة.

الْغَفْلَةُ: انْصِرَافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَةِ الشَّيْءِ مَعَ وُجُودِهِ في مجال الإِدْرَاكِ، أَوْ وُجُودِ أَدِلَّتِهِ، وإمْكَانِ إدْرَاكِهِ لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِفِ أو السَّهْو.

▪ قَول اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً حِكْمَتَهُ فِي الْجَزَاءِ الَّذِي يَجْزِي بِهِ عِبَادَهُ يَوْمَ الدِّينِ، الْقَائِمَةَ على التفاضُل في الدَّرجَاتِ، والتَّنَازُلِ في الدَّرَكَاتِ، بِحَسَبِ

مَا كَسَبُوا أو اكْتَسَبُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ، وأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ غَيْرُ غافِلٍ عَنْ شيءٍ مِنه كبيراً كَانَ أم صغيراً:

- ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

الدَّرَجَاتُ تُلَائِمُ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْصَالِحَاتِ، ويَكْسِبُونَ الْحَسَنَات.

وتُقَابِلُهَا الدَّرَكَات الَّتِي تُلَائِمُ الْعُصَاةَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الْفَاسِدَاتِ، ويَكْتَسِبُونَ السّيِّئَات.

ومِنْ هَـٰذَا نُدْرِكَ أَنَّ فِي الآيَةِ مَطْوِيًّا يَسْهَلُ اسْتِخْرَاجُهُ، والتقدير:

وَلِكُلِّ مَوْضُوعٍ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان أَعْمَالٌ يَعْمَلُهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ ذَوُو الطَّاعَةِ لِرَبِّهِمْ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، ويَكْسِبُونَ الْحَسَنَاتِ، فَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ دَرجَاتٌ مِنَ الْأَجْرِ بِفَضْلِهِ عليه، عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا كَسَبَ مِنْ صَالحات وَحَسَنَات. وَأَمَّا الْعُصَاةُ مُرْتَكِبُو الآثَام، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الفاسِدَات، وَيَكْتَسِبُونَ السَّيِّئَاتِ، فَلِكُلٍّ واحِدٍ مِنْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ دَرَكَاتٌ مِنَ الْعِقَابِ بِعَدْلِهِ، عَلى مِقْدَار مَا اكْتَسَبَ من فَاسِدَاتٍ وَسَيِّئَات.

﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ أيُّهَا الْمُتَلِّقي ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بَلْ هُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مِمَّا يَعْمَلُونَ جَمِيعاً، إِذْ رَقَابَةُ اللهِ وَعِلْمُهُ مُحِيطَانِ بِكُلِّ شَيْءٍ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه وسَمَتْ حِكْمَتُه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُحَذِّراً الْكَافِرِينَ وَمُنْذِراً بِجزَائِهِ يَوْمِ الدِّين. مع احْتِمَالِ إِهْلَاكِهِمْ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا في الدُّنيا قَبْلَ يَوْم الدِّين، إذا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذلِكَ، وَوَصَلُوا إلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ أنْ يَخْرُجَ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ يَعْمَلُونَ الصَّالحات:

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَـَٔاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾:

خاطَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ كُلَّ فَرْدٍ من أفرادِ الْمُعَالَجِين في السُّورَة، وهُمْ أئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ، بأسْلُوب الخطاب الإفْرادِيِّ، لِيَضعَهُ بخِطَابِهِ أمَامَ المسؤولِيَّةِ التامَّة، فَقَالَ له:

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ . . .﴾: أي: الْغَنِيُّ عَنْ إيمانِ العباد، والْغَنِيُّ عَنْ طَاعَاتِهِمْ لَهُ، لَمْ يَأْمُرْهُمْ بالْإِيمانِ به وبما أَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، ولَمْ يَأْمُرْهُمْ بِطَاعَتِهِ، لحاجَةٍ في نَفْسِهِ إلَىٰ ذَلِكَ، ولَكِنْ كَمَا خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ تَكُونَ مَادَّة امْتِحَانِهِمْ تَدُورُ حَوْلَ الْإِيمانِ بِهِ وبِسَائِرِ أَرْكَانِ الإيمانِ إيماناً إرَادِيًّا لَا إيماناً جَبْرِيًّا، وَحَوْلَ طَاعَتِهِ فِي أُمُورٍ هِيَ لِخَيْرِهِمْ وَمَصْلَحَتِهِمْ، وهذا هو الإسلام لهُ.

فَحِينَ يتابعُ مُعَالَجَتَهُمْ، وإِقْنَاعَهُمْ، وَمُنَاظَرَتَهُمْ، وتَرْغيبهم وتَرْهِيبَهُمْ، لِيُؤمِنُوا وَلِيُسْلِمُوا، وَيَصْبِرُ عَلَيْهِمْ، ويُمْهِلُهُمْ إمْهَالاً طَوِيلاً، فَبِرَحْمَتِهِ بِهِمْ يَفْعَلُ ذَلِك، لِأَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ العُظْمَىٰ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ يُرِيدُ أَنْ يَأْوِيَ إِلَيْهَا وَيَسْتَدِرَّ عَطَاءَاتِها.

وَإِذْهَابُكُمْ مِنَ الْحَيَاةِ، وجَعْلُ غَيْرِكُمْ في أَرْضِكُمْ خُلَفَاءَ لَكُمْ فيها، أَمْرٌ يَسِيرٌ عَلَيْهِ، كَمَا أَنْشَأَكُمْ أَنْتُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخرِينَ، قَضَوْا آجالَهُمْ في الحياةِ الدُّنيا، وكُنْتُمْ خُلَفَاءَهم، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا:

- ﴿. . . إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

جَاءَ اسْتِعْمَالُ «مَا» في عبارة ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ بَدَلَ «مَنْ» لِلْإِشَارَةَ إِلَىٰ أَنَّ إذْهَابَهُمْ يَكُونُ بإهْلَاكٍ جَمَاعِيٍّ عَام، يَهْلِكُونَ فِيهِ هُمْ وَكُلُّ الأَحْيَاءِ في

أرْضِهِمْ مِنْ غَيرِ الناسِ، وَحِينَ اسْتِخْلَافِ غَيْرِهِمْ، يأْتِي بأحْيَاءٍ غير الأحْيَاءِ الَّتِي أَهْلَكَهَا مَعَهُمْ، وتَغْلِيباً لِلأَحْيَاءِ الأُخْرَىٰ الَّتِي تَكُونُ أَكْثَرَ مِنَ الناس عَادَة جاء استعمال «مَا» الَّتِي تُسْتَعْمَلُ لِغَيْر ذُوي الْعِلْم والْعَقْل، فقال تَعالَىٰ: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي: مَن بَعْدِ إهْلاكِكُمْ.

وللدَّلَالَةِ عَلى أنَّ الإهْلاكَ سَيَكُونُ خَاصًّا بالْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل، إنْ شَاءَ اللهُ ذَلِكَ، أبَانَ أَنَّ المسْتَخْلَفِينَ سَيَكُونُونَ مِن الذُّرِّيات الْبَشَرِيَّةِ الْمَوْجُودِينَ في الأَرْضِ، بِدَلَالَةِ التَّشْبيه في قولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

وخَتَمَ اللهُ الدَّرْسَ بِبَيَانِ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَة الإيمانية، وهُوَ الْيَوْمُ الآخر، وَمَا أَعَدَّ اللهُ فِيهِ، مِنْ حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيذِ جزاء، في النَّار دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمِينَ خَالِدِينَ فيها، وفِي الْجَنَّةِ دَارِ نَعِيمِ المؤمنين المتّقِينَ، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾:

مَا تُوعَدُونَ: أي: الحياةُ الأُخْرَىٰ بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، وَكُلُّ مَا فِي هَـٰذِهِ مِمَّا سَبَقَ أَنْ أنبأْنَاكُمْ وسَنُنْبِئُكُمْ به.

جاء تَوْكِيد الجملة، بـ «إنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ واللَّامُ المزحْلَقَة».

- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي: وَمَا أَنْتُمْ بِقَادِرِينَ عَلَىٰ الإفْلاتِ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْس السابع والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٣٢)

التدبر التحليلي للدّرس الثامن والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآية (١٣٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

القراءات:

قرأ شُعْبَة: [**عَلَىٰ مَكَانَاتِكُمْ**] بالجمع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**عَلَىٰ مَكَانَتَكُمْ**] بالإفراد.

ومؤدّىٰ القراءتين واحد، فالمفرد النكرة المضاف إلى معرفة بقوة الجمع.

- قرأ حمزة، والكسائي، وَخَلَف: [**مَنْ يَكُونُ**] بالياء.

وقرأها بَاقي القراء العشرة بالتاء [**مَنْ تَكُونُ**].

والقراءتان وجهان جائِزَان عَرَبيًّا.

تمهيد:

آيَة هذا الدَّرْس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الثَّانِي من ساقي شَجَرَة مَوْضوع السّورة، وفيها تَعْلِيمٌ دَعَوِيٌّ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، بِشأْنِ أواخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعوِيَّة، الْمُتَعلِّقَة بالْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِم، ومُقَاوَمتهم لدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، الَّذِينَ صارَت اسْتِجَابَتُهُمْ مَيْؤُوساً مِنْهَا عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِم الحرَّة، بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ الَّتِي تُثْبِتُهَا التجاربُ الْبَشَرِية المتكرِّرَة.

التّدبّر التحليلي:

يُخَاطِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ فَكُلَّ حَامِلٍ لِرَسَالَتِهِ بِشأْنِ الَّذِين مَرَدُوا عَلَىٰ الكُفْرِ، وصَارُوا ميْؤُوساً مِن اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إراداتهم الْحُرَّة، فَيأْمُرُهُ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ الأعْمَالِ الَّتِي يَقْتَضِيها كُفْرُكُمْ، عِبَادَةً لِغَيْرِ اللهِ، وفِسْقاً وفُجُوراً، وظُلْماً وعُدْواناً، وَبَغْياً في الأَرْضِ بِغَيرِ حَقٍّ، ثَابِتِينَ عَلَىٰ الْمَكَانَةِ الصَّغِيرة الحقيرَةِ الّتي أَنْتُمْ عليها، فَلَسْتُ أَجْبِرُكُمْ وَلَا أُكْرِهُكُمْ عَلَىٰ سُلُوكِ صِراط ربّي المستقيم.

الْمَكَانَةُ: مُؤَنَّثُ المكانِ، الموضِعُ الّذِي يكون فيه الشيء، إذْ يَحْتَلُّ فِيهِ فراغاً على مِقْداره. وقد يُطْلَقُ المكَانُ والمكانَةُ على المنزلَة المعنويَّةِ الَّتِي يَكُونُ فيها الْكَائِنُ، مُرْتَقِيَةً رَفيعةً، أو مُنْخَفِضَةً وضِيعَة.

إِنِّي عَامِلٌ وَفْقَ ما يَقْتَضِيهِ مِنِّي إيمانِي وإسْلَامِي لِرَبِّي، ولَيْسَ مِنْ حَقّكُمْ أَنْ تُكْرِهُونِي وَتُجْبِرُونِي عَلَىٰ تَرْكِ صِرَاطِ رَبِّي المستقيمِ، وَسُلُوكِ مَسَالِكِكُمْ وَسُبُلِكُمْ الضَّالَّةِ الَّتِي تُزْلِقُ إلى عِقَابِ اللهِ وعَذَابه.

فَسَوف تَعْلَمُونَ يَوْمَ القيامَة مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، وهِيَ الجنَّة الَّتِي أعدَّهَا اللهُ للمؤمِنِيْنِ الْمُسْلِمين، خَالِدِينَ فيها يَوْم الدِّين.

حيث وُجِدَ تَعْبِيرُ: «عَاقِبَة الدَّار» أو «عُقْبَىٰ الدَّارِ» فالمرادُ بِهِ الجنَّةُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ للمتقين.

وبما أَنَّكُمْ ظَالِمُونَ فَلَنْ تَنْجُوا مِنْ عَذَاب اللهِ فِي النَّارِ، ولَنْ تَفُوزوا بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيامة، لِأَنَّ ظُلْمَكُمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ.

- ﴿... إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

الْفَلَاح: النجاة، والفوْزُ، والظَّفَر. وأصْل الْفَلَاحِ الْبَقَاءُ في النَّعِيم والخيرِ، قال الأزهري: وإنَّمَا قِيلَ لِأَهْلِ الجنة مُفْلِحُونَ، لِفَوْزِهِمْ بِبَقَاءِ الدَّهْرِ.

وبهذا تَمَّ تدبر الدرس الثامِنِ والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

(٣٣)

التدبر التحليلي للدَّرْس التاسع والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٣٦ ـ ١٤٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾.

القراءات:

(١٣٦) ● قرأ الكِسائِيُّ: [**بِزُعْمِهِمْ**] بِضَمِّ الزَّاي.

وقرأَها باقي القرّاء العشرة [**بِزَعْمِهِمْ**] بفتح الزاي. وهُمَا لُغتَانِ عَرَبيّتَان.

(١٣٧) ● قرأ ابْنُ عامر: [**وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهِمْ شُرَكَائِهِمْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المشْرِكِين قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ**].

وفي قراءة ابْنِ عامر إثْبَاتُ وَجْهٍ عَرَبِيٍّ جائز، إذْ فيها الْفَصْلُ بَيْنَ المضاف: «قَتْلُ» والمضاف إلَيْهِ «شُرَكَائِهِمْ» بِمَفْعُولِ «قَتْل» وهو «أَوْلَادَهُمْ» أي: زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِين أنْ يَقْتُلَ شُرَكَاؤهم أَوْلَادَهُمْ، إمَّا بِتَسْلِيمِهِمْ إلَىٰ سَدَنَةِ الأصْنَام لِقَتْلِهِمْ، وإمَّا بِقَبُولِ حُكْمِهِمُ الظالم الآثِمِ فِي أَنْ يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ. ولعَلَّهُمْ إذَا دَفعُوا الْفِدْيَةَ للسَّدَنَةِ رَفعُوا عَنْهُمْ حُكْمَ الْقَتْلِ. وفي إثْبَاتِ هذا الْوَجْهِ عَلَىٰ نُدْرَتِهِ إشعارٌ بأنَّ القرآن قد ضَرَبَ اللهُ للنَّاسِ فيه من كُلِّ مثل من أمهات لغات العرب.

(١٣٨) ● قرأ الكِسَائي: [بِزُعْمِهِمْ] بِضَمِّ الزّاي نظير قراءتِهِ في الآية (١٣٦).

وقرأها باقي القرّاء العشرة [بِزَعْمِهِمْ] بِفَتْحِ الزَّاي. والقراءتان لغتان عربيتان.

(١٣٨ و١٣٩) ●قرأ يَعْقُوب: [سَيَجْزِيهُمْ] بِضَمّ هاء الضّمِير في الموضعَيْن.

وقرأها باقِي القرَّاء العشرة [سَيَجْزِيهِمْ] بِكَسْرِ هاء الضمير في الموضِعَيْن.

(١٣٩) ● قرأ ابْن عامر: [وَإِنْ تَكُنْ مَيْتَةٌ] أي: وإِنْ تُوجَدْ مَيْتَةٌ.

وقرأها أَبُو جَعْفَر: [وَإِنْ تَكُنْ مَيِّتَةٌ] بِتَشْدِيدِ الياء.

وقرأها شُعْبَةُ: [وَإِنْ تَكُنْ مَيْتَةً] أي: وإِنْ تَكُنْ الّتِي في بُطونِ الأنعام مَيْتَةً.

وقرأها ابْنُ كثير: [وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةٌ] بالياء في «يكن» وبرفع «مَيْتَةٌ».

وقرأها بَاقي القراء العشرة: [وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً] بِنَصْبِ «مَيْتَةً» وبالياء من «يكُن».

(١٤٠) ● قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ عَامر: [الَّذِينَ قَتَّلُوا] بِتَشْدِيد التاء.

وقرأها باقي القرَّاء العشرة: [الَّذِينَ قَتَلُوا] بتخفيف التاء.

رُوعي في التَّشْدِيد حَالُ الَّذِينَ أَكْثَرُوا القتل. ورُوعي في التخفيف حال الَّذِينَ كان مِنْهُمْ قَتْلٌ ما.

تمْهيد:

آيات هَـٰذَا الدَّرس من فروع السّاق الأول من ساقَيْ شجرة موضوع السورة، وفيها بَعْضُ تَفصِيل الأحكام الجاهِلِيَّةِ في المآكِلِ مِنَ الْحَرْثِ والأَنْعَام افتراءً عَلَىٰ اللهِ. وفيها بَيَانُ كَيْفَ زَيَّنَ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ، فِيمَا عُرِفَ بالْوَأْدِ. وفيها بيانُ خَسَارَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ.

التّدَبّر التحليلي:

■ قَول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ بَعْضِ شِرِكيَّاتِ المشركين الدِّينيَّةِ الجاهِلِيَّةِ، عَطْفاً على سوابقِ مَا ذُكِرَ مِنْ شِرْكِياتِهِم وأحكامهم الجاهِلِيَّةِ في السُّورة:

● ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ استعمل في القرآن فعْل «جَعَلَ» في أربعة مَعَانٍ:

المعنى الأول: الخلْقُ والتكوين، وعليه معظم الآيات.

المعنى الثاني: الْحُكْمُ الديني الرَّبَّاني.

المعنى الثالث: الحكمُ الإنْسَانيُّ حقًّا كَانَ أمْ باطلاً.

المعنى الرابع: الفعل ذو الأثر مِن أي كائن، سواءٌ أكان صادراً عن إرادة أم عن غَيْرِ إرادة.

والمعنى هنا في الآية يَدُورُ حول المعنى الثالث والرَّابع، فالمشْرِكُون جَعَلُوا مِنْ أَحْكَامِهِمْ الشَّرْكِيَّة بِشأْنِ مَا يَبْذُلُونَ مِنْ أموالِ حَرْثِهِمْ وأَنْعَامِهِمْ مِقْدَاراً للهِ وَمِقْدَاراً لآلِهَتِهِمْ الَّتِي جَعَلُوها شُرَكَاءَ للهِ في إلَهِيَّتِهِ. وجَعَلُوا كَذَلِكَ بِتَطْبِيقَاتِهِمُ التَّعَبُّدِيَّة مَعَ عَدَمِ الالتزام بما جَعَلُوه للهِ، ومع الالتزام بما جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ مِن الأوثان، والمسْتَفِيدُ مِنْهُ سَدَنَتُهَا.

﴿ذَرَأَ﴾: تأتي بمعنى «خَلَقَ». وتأْتِي بِمَعْنَىٰ «كَثَّرَ وَبَثَّ عَنْ طَرِيقِ الذُّرِّيَّة».

﴿الْحَرْثُ﴾: العمل في الأرض لاسْتِنْبَاتِ زَرْعِها، أو غَرْسِ شَجَرها. ويُطْلَقُ أيْضاً على الزَّرْعِ النَّابت كما ذَكَرَ الزَّجاج. قال الأزهري: الحرْثُ قَذْفُكَ الحبَّ في الأرض لازْدِراعٍ، والحرثُ الزّرْع، وشَقُّ تُراب الأَرْضِ بالمحاريث.

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: هي الأموال الراعِيَةُ، الإبِلُ والْبَقَرُ والْغَنَم. ولفظ «الأنعام» يذكَّرُ وَيُؤَنّث، فتقول: هي الأنعام، وتقول: هُو الأنْعام.

﴿نَصِيبًا﴾ **النّصِيبُ**: الْحَظُّ مِنْ كُلِّ شيء، يُسْتَعْمَلُ في الخير والشَّرِّ.

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ **الزَّعْمُ**: أخو الكَذِب، ويأتي بمعنَىٰ الظَّنّ. وأكْثَر ما يُسْتَعْمَلُ الزَّعْمُ فيما كان باطلاً، أو فيه ارْتياب، ويأتي بمعنَىٰ الاعْتِقادِ الباطل.

وفيه ثلاث لغات: «زَعْم» و«زُعْم» و«زِعْم».

﴿لِشُرَكَآئِهِمْ﴾: أي: لآلِهَتهِم الَّتِي جَعَلُوهَا شُرَكَاءَ للهِ افْتِرَاءً عَلَيْه.

فالمعنى: وجَعَل المشْرِكُونَ مِنْ أَحْكَامِهِمْ وأعْمَالِهِمُ الشِّرْكِيَّةِ التَّعَبُّدِيَّةِ، بَعْضَ مَا خَلَقَ اللهُ لَهُمْ مِنَ الزُّرُوعِ والثمرَاتِ، ومِنَ الْأَنْعَام، مِقْدَاراً يَبْذُلُونَهُ للهِ أي: في وُجُوهِ الخيرِ الّتِي يُتَقَرَّبُ بها إِلَىٰ اللهِ، ومِقْدَاراً يَبْذُلُونَهُ

لآلَهتِهِمْ، يَتسَلَّمُهُ سَدَنَةُ أَوْثَانِهِمْ، ولَكِنَّهُمْ لَدَىٰ التَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ يَبْذُلُونَ مَا جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ غَيْرَ مَنْقُوص، ولَا يَبْذُلُونَ مَا جَعَلُوهُ للهِ فِي وُجُوه الخير الّتي يُتقَرَّبُ بها إلى اللهِ، كالإنْفَاقِ على الفقراء والْمَسَاكِينِ والأيتام والضُّعفَاءِ الْمَحْرُومِين، بَلْ يُوَجِّهُونَهُ أيْضاً لآلِهَتِهِمْ مِنَ الْأَوْثَانِ، لِتَمْنَحهُم عَطَاءَاتِهَا، وتُيَسِّرَ لَهُمْ مَا يَطْلُبُونَ من شُؤون دُنْيَاهُمْ، فَهُمْ مُشْرِكُونَ وَيُؤثِرُونَ عِبَادَةَ آلِهَتِهم عَلَىٰ عبادةِ اللهِ، علَىٰ أنّ الله لا يَقبلُ مِنْهُمْ عباداتِهم لَهُ مَا دامُوا مُشْرِكِينَ، فهو أغْنَىٰ الشركاء عن الشرك.

• ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾: **سَاءَ:** فِعْلٌ يُقَالُ في إنْشَاءِ الذَّمّ على سبيل المبالَغَةِ، مثل «بِئْسَ» «مَا» نِكَرَةٌ في موضع نَصْبٍ على التّمييز، وهي موصوفة بالفِعْلِ بَعْدها، والمخْصُوصُ بالذَّم محذوف تَقْدِيرُهُ: ذَلِكَ الْحُكْمُ الَّذِي يَحْكُمُونه والفِعْلُ الَّذِي يَفْعَلُونه.

والمعنى: سَاءَ مَا يَحْكُمون حُكْمُهُمْ، وَسَاءَ مَا يَفْعَلُونَ فِعْلُهم، إذِ افْتَرَوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ فَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ في إلَهِيَّتِهِ، وجَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي بَعْضِ رُبُوبِيَّتِهِ.

■ قَوْلُ الله تَعالَىٰ يُبيِّنُ قَبِيحَةً أُخْرَىٰ مِنْ قَبَائِحِ المشْرِكِين، وهِي قَتْلُهُمْ أَوْلَادَهُمْ بِتَزْيِينِ سَدَنَةِ آلِهَتِهِمْ ذَلِكَ لَهُمْ:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أي: وكَذلِكَ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ في الآية (١٣٦) بِشَأْنِ أحْكَامِ المشْرِكِينَ وأفْعَالِهِمْ الشِّرْكِيّة.

• ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾:

أي: حَسَّنَ آلِهَةُ المشْرِكِينَ الّذِينَ اتَّخذُوهُمْ شُرَكَاء للهِ في إلَهِيَّتِهِ، عَنْ

طَرِيقِ إيحاءاتِهِم، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الَّذِينَ أَغْرَوْهُم بِعِبَادَتِهِمْ ومِنْهُمْ سَدَنَةُ الْأَوْثَانَ، لِكَثِير مِنَ المشْرِكِينَ أَنْ يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ، ومِنْ قَتْلِ الأَوْلَادِ وَأْدُهُمْ مِنَ الْفَقْرِ أَوْ مِنْ خَشْيَةِ حُدُوث الْفَقْرِ مُسْتَقْبلاً، ومِنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ وَأْدُ الْبَنَاتِ خَوْفَ الْعَارِ عِنْدَ الْغَزْوِ وَالسَّبْي.

التَّزيينُ: التجميل والتَّحسين، وهو جَعْلُ الشَّيْءِ مُلَائماً لِمَا تَسْتَحْسِنُهُ النُّفُوسُ أَوْ تُحِبُّهُ أَوْ تَشْتَهِيهِ، والإغراءُ بِحُسْنِ الشَّيْءِ، والتَّحْبيبُ به، وإِثَارَةُ النَّفْسِ للتَّعلُّقِ به بالوساوس والتسويلات القائِمَاتِ على الإطماع بالباطل، وهَـٰذَا مِنْ فِعْلِ شَيَاطِين الإِنْسِ والجنّ. وهذا المعْنَىٰ هو المُرَادُ هُنَا.

- ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: أي: لِيُسْقِطُوهُمْ في أَوْدِيَةِ الآثَام والجرائم، حَتَّىٰ يَنَالُوا سخَطَ اللهِ وعِقَابه، والخلودَ في عذاب النار.

- ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: اللَّبْسُ خَلْطُ أَمْرٍ بأمْرٍ، أَوْ شَيْءٍ بشيءٍ، أو فِكْرَةٍ بِفِكْرَةٍ أو أفكار، وهَـٰذَا اللَّبْس يَنْجُمُ عَنْهُ جَهْلُ كُلٍّ مِنَ المخْتَلِطَيْنِ، أَوْ أَحَدِهما، وتَوهُّمُ أَنَّهُ مِثْلُ الْمُخْتَلِطِ به، ومِنْهُ لَبْسُ الحقِّ بالْبَاطِلِ لْلإيهام بأنَّ الْبَاطِلَ حَقٌّ، فَكَانَ دُعَاةُ الشِّرْكِ يَخْلِطُون أَحْكَامَهُمْ بأحكام الدِّين الموروث عن إسماعيل عليه السلام.

والمعروف مِنْ قتلِ الأَوْلَادِ عِنْدِ مُشْرِكِي الْعَرب قَبْلَ الإِسْلام هُوَ هذا الْوَأْدِ، ولَمْ يَكُنْ عِنْدَ كُلِّ قبائِلِهم، ولَا عِنْدَ كُلِّ أفرادِ الْقَبَائِلِ الَّتِي كانَتْ تَفعَلُ ذلك، وربَّما كان عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَذْرُ قَتْلِ بَعْضِ أولادِهِ تَقَرُّباً إِلَىٰ اللهِ إِذَا أَكْرَمَهُ اللهُ بأمْرٍ عظيم يُحِبُّهُ، كَمَا فَعَلَ عَبْدُ المطَّلِب جَدُّ الرَّسُولِ ﷺ، فإنَّهُ نَذَرَ إِنْ رَزَقَهُ اللهُ عَشَرَة أَوْلَادٍ ذُكُورٍ، ثُمَّ بَلَغُوا مَعَهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنْ عَدُوِّه، لَيَنحَرَنَّ أَحَدَهُمْ عِنْدَ الكَعْبَة، وَقَدْ رَزَقَهُ اللهُ الذُّكُورَ العشرة، وعَزَمَ على الوفاء بِنَذْرِهِ.

فقالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: لَا تَذْبَحْهُ حَتَّىٰ تُعْذَرَ فِيه، فإِنْ كانَ لَهُ فِداءٌ فَدَيْنَاهُ.

فَكَانَ يُقَدِّمُ عَشَرَةً مِنَ الْإِبْلِ فَعَشْرَةَ، ويقْتَرِعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ قُرْعَةُ الذَّبْحِ، فَلَمَّا بَلَغَ الْفِدَاءُ مائَةً مِنَ الإِبل، وقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَىٰ الإِبلِ، فَنحرَهَا قُرْباناً لله، وأنْجَىٰ اللهُ عَبْدِ اللهِ وَالِدَ الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، فكَانَ ابْنَ الذَّبِيحَيْن، أَبِيهِ وَجَدِّهِ إسْماعِيلَ عَلَيْهِ السلام.

ورَوى البخاريُّ عَنْ أسْمَاءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ، قالت: «كَانَ زَيْدُ بْنُ عَمْرو بْنِ نُفَيْلٍ يُحيي الْمَوْؤُودَة، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أكْفِيكَ مؤُونتَهَا، فَيأْخُذُها، فإذا تَرعْرعَتْ قَال لِأَبيها: إنْ شِئْتَ دَفعْتُهَا إلَيْكَ، وإنْ شِئْت كَفيْتُكَ مؤُونتَهَا».

وَكَانَ جَدُّ الْفَرْزْدَقِ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ فافْتَخرَ بِشِعْرِهِ بما كان يَفْعَلُ جَدُّه.

- ﴿... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

أي: ولَوْ شَاءَ اللهُ ـ جَلَّ جلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه ـ أنْ لا يَفْعَلَ الشَّيَاطِينُ الشُّرَكَاءُ مَا زَيَّنُوهُ، وأَنْ لَا يَفْعَلَ المشْرِكُونَ مَا زُيِّنَ لَهُمْ مِنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ، لَسلَبَهُمْ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةَ ولَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِين، أو لَمنَعَهُمْ بالْإِكْرَاهِ فَمَا اسْتَطَاعُوا تَنْفِيذَ مَا أَرادُوا تَنْفِيذَهُ، وَلَكِنْ تَنْعَدِمُ بِهٰذَا الْحِكْمَةُ مِنْ وَضْعِ شَيَاطِينِهِم وَوَضْعِهِمْ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وَلَا يَكُونُ لِلْجَزَاءِ مُقْتَضٍ يَقْتَضِيهِ مِنْ إرادَاتِهِم الحرَّة.

وأَمَّا مَنْ يَقْتُلُونَهُمْ مِنْ أَوْلَادِهِمْ، فَقَدْ سَبَقَ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ تَحْدِيدُ انتهاءِ آجالِهِمْ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي قُتِلُوا فِيهِ.

فَاتْرُكْهُمْ يَا مُحَمَّدُ ويَا حَامِلَ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ وَمَا يَفْتَرُونَ مِن الكَذِبِ ومن الأَعْمَالِ الْمُبَايِنَةِ لِصِرَاطِ اللهِ المستقيم، مَا دَامُوا قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها من أَنْ يَسْتجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، وَلَمْ يخْضعُوا لِسُلْطَانِ حُكْمِ الْإِسْلَامِ، وسُلْطَانِ حَاكِمٍ مُسْلِمٍ مَأْمُورٍ بِتَطْبِيقِ أحْكَام الإسلام.

يفْتَرُون: أي: يَخْتلِقُونَ الْكَذِبَ ويَصْطَنِعُونَهُ عَنْ عَمْدٍ، ويَعْتَدُونَ عَلَىٰ حَقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ في رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إلَهِيَّتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُتابعُ بَيانَ بَعْضِ قَبائِحِ المشْرِكِينَ، في افْتِرائِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ بِأَحْكَامٍ تَشْرِيعِيَّةٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ:

● ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾:

في هذا النَّصّ بيانُ أحكَامٍ جَاهِلِيَّةٍ حَلَّلَ فِيها المشْرِكُونَ وَحَرَّمُوا مَا لَمْ يأذَنْ بِهِ اللهُ صَاحِبُ الحقِّ فِي التَّحْرِيم والتَّحْلِيلِ، ولَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُشَارِكَ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ في رُبُوبِيّتِهِ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

حِجْر: مَصْدَرُ «حَجَرَ الشَّيْءَ على نَفْسِهِ، يَحْجُرُهُ، حَجْراً» أي: مَنَعَ غَيْرَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيه. و«حَجَرَ عَلَيْهِ الأَمْرَ، يَحْجُرُهُ حَجْراً» أي: مَنَعَهُ مِنه.

ولفظ «حِجْر» هُنَا بِمَعْنَىٰ اسْمِ المفْعُول، أي: مَحْجُور، بمعْنَىٰ «مَمْنُوع» وهُوَ يُسَاوِي كَلِمَة «حَرَام».

فَحَرَّمُوا أَنْعَاماً، وَحَرَّمُوا حَرْثاً، وَجَعَلُوهَا لِأَصْنَامِهِمْ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِزَعْمِهِمْ إِلَّا مَنْ يَشَاءُون. وَلَهُمْ في ذَلِكَ أَحْكَامٌ جَاهِلِيَّةٌ كَانُوا يَفْتَرُونَها عَلَىٰ الله.

وَحَرَّمُوا رُكُوبَ بَعْضِ الْأَنْعَام، وكَانُوا يَذْبَحُونَ لِأَوْثَانِهِمْ أنْعاماً فَلَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْها، وإنَّمَا يَذْكُرُونَ عَلَىٰ ذَبْحِهَا أَسْمَاءَ أَوْثَانِهِمُ الَّتِي يَعْبُدونَهَا مِنْ دُونِ الله.

وَجَعَلُوا بَعْضَ مَا فِي بُطُونِ الأنْعَامِ مِنْ أَجِنَّةٍ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ حَلالاً للذُّكُور، وَحَرَاماً عَلَىٰ الإِنَاث، إِلَّا إِذَا كَانَ مَيْتَةً فَهُوَ حَلَالٌ لِلذُّكُورِ والإِنَاث.

- ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾: أي: أنْعَامٌ خالِصَةُ الْحِلِّ لِذُكُورِنَا، ومُحَرَّمٌ عَلَىٰ نِسَائِنا، لَفْظُ الأنعام يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، فَرُوعِي في ﴿خَالِصَةٌ﴾ تَأْنِيثُهُ، ورُوعي في ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ تَذْكِيرُه.

- ﴿... سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾: أي: سَيَجْزِيهُمُ اللهُ جَزَاءً عِقَابِيًّا بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ عَلَيْهِ، في أَحْكامِ الحلالِ والحرامِ الَّتي هِيَ حَقُّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

- ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾: أي: سَيَجْزِيهِم اللهُ جَزَاءً بالْعَدْلِ، مُطَابِقاً لِوَصْفِهِمُ الَّذِي كانُوا فِيهِ مُفْتَرِينَ عَلَىٰ حَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَحَقِّ إلَهِيَّتِه.

- ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾: أي: إنَّهُ بِحِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ يَضَعُ الجزاءَ بالْعَدْلِ في الموضِعِ الملائم تماماً لِوَضْعِهِ.

- ﴿عَلِيمٌ﴾: أي: كامِلُ الْعِلْم، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، فَلَا يَظْلِمُ أَحْداً فِي أَحْكامِه، ولَا فِيما يُجازِيه به.

وحَرَّمَ المشْرِكُونَ في الجاهِلِيَّةِ قَبْلَ الإسْلَام بَعْضَ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ مِنْ أَنْعَامِ افْتِرَاءً عَلَيه، وَقَدْ جاءَ تَفْصِيلٌ لِلأَنْعَام الَّتي حَرَّمُوهَا في سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) فَقَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ فِيها:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

الْبَحِيرَة:

هي مَشْقُوقَةُ الأُذُنِ مِنَ الأنْعَام، فَعِيلَةٌ بِمَعْنَىٰ «مَفْعُولَة» **الْبَحْرُ عِنْدَ الْعَرَب:** شَقُّ الأُذُن.

وفي الْبَحِيرَة الْمُحَرَّمَةِ عِنْدَ الْعَرَب ثَلَاثَةُ أقوال:

القول الأول: قال الشَّافِعِيُّ: كان الْعَرَبُ إذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ إنَاثاً، بَحَرُوا أُذنَها فحُرِّمَتْ.

الْقَوْلُ الثاني: كانُوا إذا نُتِجَتِ النَّاقَةُ خَمْسَةَ أبْطُن، فإنْ كانَ الْخَامِسُ ذَكَراً بَحَرُوا أُذُنَهُ، فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ والنِّسَاء، وإنْ كانَ الخامِسُ أنْثىٰ بَحَرُوا أُذُنها، وكانَتْ حَراماً عَلَىٰ النِّسَاءِ لَحْمُهَا وَلَبَنُها.

الْقَوْلُ الثَّالِث: كانُوا إذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ خَمْسَةَ أبْطُن، شَقُّوا أُذُنَهَا وَحَرَّمُوا رُكُوبَهَا وَحَرَّمُوا لَبَنها.

أقول: لَعَلَّ كُلَّ هَـٰذِهِ الصُّور كانَتْ عِنْدَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِن الْعَرَب.

السَّائِبَة:

هي الناقَةُ أَو الْبَعِيرُ تُسَيَّبُ بِنَذْرٍ يَنْذُرُهُ مَالِكُها، فَلَا تُحْبَسُ عَنْ رَعْيٍ وَلَا مَاءٍ، وَلَا يرْكَبُها أَحَد.

وقِيلَ: هِيَ النَّاقَةُ الَّتِي تُسَيَّبُ للهِ فَلَا قَيْدَ عَلَيْها، وَلَا رَاعِيَ لَهَا.

وقيل: هِيَ الَّتِي تَابعَتْ بَيْنَ عَشْرِ إنَاثٍ لَيْس بَيْنَهُنَّ ذَكر، فَعِنْدَ ذَلِكَ تُسَيَّبُ، فَلَا يُرْكَبُ ظَهْرُهَا، وَلَا يُجَزُّ وَبَرُها، وَلَا يَشْرَبُ لَبَنَهَا إلَّا ضَيْفٌ.

الْوَصِيلَة:

هي الناقَةُ إذَا وَلَدَتْ أنْثىٰ بَعْدَ أنْثىٰ. **وَقِيل**: هِيَ الشَّاةُ كَانَتْ إذَا وَلَدَتْ أنْثىٰ فَهِيَ لَهُمْ، وَإنْ وَلَدَتْ ذكراً فَهُوَ لآلِهَتِهِمْ، وإنْ وَلَدَتْ ذكراً وَأنْثىٰ قَالُوا: وَصَلَتْ أَخاهَا فَلَمْ يَذْبَحُوا الذَّكَرَ لآلِهَتِهِم.

إلىٰ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالٍ تَتَضَمَّنُ أحْكَاماً جاهِلِيَّةً ما أَنْزَلَ اللهُ بها مِنْ سُلْطان.

الحامي:

هُوَ الْفَحْلُ إذا رَكِبَ وَلَدَ وَلَدِه. **وقِيلَ**: هو الّذِي يُنْتَجُ مِنْ صُلْبِهِ عَشرة أَبْطُن. قَالوا: قَدْ حَمىٰ ظَهْرَهُ، فَلَا يُرْكَبُ، وَلَا يُمْنَعُ مِنْ كَلأ.

ومن هذا نُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ تَحْرِيم في المآكِلِ والمشارِب والْأَلْبِسَةِ والْمَسَاكِنِ دُونَ إِذْنٍ شَرْعِيٍّ، وَلَيْسَ لِلْمُحَرِّمِ فِيه بُرْهَانٌ مِنَ اللهِ، هو افْتراءٌ عَلَىٰ اللهِ، وافتئاتٌ في الدِّين، والتَّذرُّعُ بِبَعْضِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَة، أو الَّتِي لَا تَقْوَىٰ على إِثْبَاتِ حُكْمِ التَحْرِيم لَا يُغْنِي مِن الحقِّ شَيْئاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ في الآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ هَـٰذَا الدَّرْس، تَعْقِيباً عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِيهِ مِنْ أَحْكَامٍ وَأَعْمَالٍ جَاهِلِيَّةٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ بها مِنْ سُلْطَانٍ:

- ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾:

الخاسر: يَأْتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ المغْبُونِ في تِجَارَتِه، وبِمَعْنَىٰ الْهَالِكِ، وبِمَعْنَىٰ الضَّالِّ، وهَـٰذِهِ المعاني كُلُّها تَنْطَبِقُ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ المذْكُورِينَ في الآية.

﴿سَفَهًا﴾: **السَّفَهُ**: نُقْصَانُ العقل، والخِفَّة، والطَّيْشُ، ومُجَانَبَةُ الرُّشْدِ فِي الْقَوْلِ أو الْعَمل. ومِمَّا لَا شَكَّ فيه أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتُلُونَ أولَادَهُمْ مِنْ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بيَانُهُ قَدْ كَانُوا سُفَهاءَ، وَكَانَتْ تَصَرُّفَاتُهُمْ غَيْرَ مَبْنِيَّةٍ عَلَىٰ عِلْم. وَكَذَلِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ في الأَحْكَامِ، فَيُحَرِّمُونَ بَعْضَ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا أَحْكَامٌ إِلَهِيَّة.

فَهُمْ خَاسِرُونَ إِذْ عَرَّضُوا أَنْفُسَهُم لِعَذَابِ اللهِ، وَهُمْ سُفَهاءُ نَاقِصُوا الْعَقْلِ مُجَانِبُوا مَنْهَجِ الرُّشْدِ، وهُمْ ضَالُّونَ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: أي: وَمَا كَانَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَهْتَدُوا مُسْتَقْبلاً، إِذْ رَفَضُوا الحقّ مُعَانِدِين.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس التاسع والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٣٤)

التدبر التحليلي للدَّرْس الثلاثين مِنْ دُروس سورة (الأنعام)

الآيات من (١٤١ ـ ١٤٧)

قال اللهُ عزَّ وَجلّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾.

القراءات:

(١٤١) ● قرأ نافع، وابن كثير: **[أُكْلُهُ]** بإسْكان الكاف.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[أُكُلُهُ]** بضم الكاف.

وهما لغتان بمعنى الثمر.

(١٤١) ● قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[مِنْ ثُمُرِهِ]** بضَمّ الثاء والميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[مِنْ ثَمَرِهِ] بفتح الثاء والميم.**

وهما لغتان عربيّتان، جمع «ثَمَرة».

(١٤١) ● قرأ أبو عَمْرو، وابن عامر، وعَاصِم، ويَعْقُوب: **[حَصَادِهِ]** بفتح الحاء.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: **[حِصَادِهِ]** بكسر الحاء.

وهما لغتان عَربيّتان.

(١٤٢) ● قرأ نافع، والْبَزّي، وأبو عَمْرو، وشعبة، وحمزة، وخلف: **[خُطْوَاتِ]** بإسْكان الطاء.

وقرأها باقي القراء العشرة بِضَمّ الطّاء: **[خُطُوَاتِ]**.

وهما لغتان عَرَبيَّتَان.

(١٤٣) ● قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: **[الضَّانِ]** بإبدال الهمزة ألفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[الضَّأْنِ]** بالهمزة الساكنة على الأصل.

(١٤٣) ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر: **[الْمَعَزِ]** بفتح الْعَيْن.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان العين: **[المَعْزِ]**.

وهما لغتان عَربِيَّتَان.

(١٤٣) ● قرأ أبو جعفر: **[نَبُّونِي]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[نَبِّئُونِي]**.

وهما نُطْقَانِ عَرَبيَّان.

(١٤٥) ● قرأ ابن عامر: **[إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَيْتَةٌ]** على اعتبار فعل الكون تامًّا، وبتخفيف الياء مِنْ «مَيْتَة».

وقرأها أبو جَعْفَر: **[إِلَّا تَكُونَ مَيِّتَةٌ]** على اعتبار فعل الكون تامًّا، وبتَشْدِيد الياء من «مَيِّتَة».

وقرأها ابن كثير وَحَمْزة: **[إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَيْتَةً]** على اعتبار فعل الكون فعلاً ناقصاً، وبتخفف الياء من «مَيْتة».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً]** على اعتبار فعل الكون فعلاً ناقصاً، وبالياء بَدل التاء منه، وبتخفيف الياء من مَيْتَة. وهي وُجوه جائزة مُتَكَافِئَة.

(١٤٥) ● قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، ويَعْقُوب: **[فَمَنِ اضْطُرَّ]**.

وقرأها أبو جَعفر: **[فَمَنُ اضْطِرَّ]**.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: **[فَمَنُ اضْطُرَّ]**. وهِي لُغَاتٌ عَربيَّة.

(١٤٧) ● قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: **[بَاسَهُ]** بإبدال الهمزة أَلِفاً. وكذلِكَ حَمْزَةُ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بأْسَهُ]** بالهمزة السَّاكِنَة على الأصْل دُون إبْدَال.

تمهيد:

آيات هـٰذا الدَّرْس من فُروع السَّاقِ الْأَوَّلِ أيضاً مِنْ سَاقي شَجَرَةِ مَوْضُوع السُّورة. وفيها بيان أحكام اللهِ فيما أنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ عبادِه مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْض. وبيان مَا أنْعَمَ عليهم من الأنعام.

وفيها التّحْذِيرُ من اتّباع خُطُواتِ الشَّيْطَانِ بِتَحْرِيم مَا أحَلَّ اللهُ مِنْها، كما فَعَلَ أهْلُ الجاهِلِيَّة الَّذِين سبَقَ الحَديثُ عَنْهُم في الدرس السَّابق.

وفيها تكْلِيفُ اللهِ رَسُولَهُ أَنْ يُبيّنَ للنَّاسِ مَا سَبَقَ أن أُوحِيَ إليه بشَأْنِ المطاعم في رسالَتِهِ وما قَبْلَهَا من أحْكامٍ، وَمَا يَقُولُه لَهُمْ إِنْ كَذَّبَهُ الكافرون مِنْ إنْذارٍ بِعِقَابه.

التدبّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

قيل: إنَّ هـٰذِهِ الآيَةَ مَدَنِيَّة، وعلى هـٰذا يَكُونُ قولُهُ تَعالَىٰ فِيها: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ دَالّاً عَلَىٰ الزَّكَاةِ الَّتِي فُرِضَتْ في السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ.

والـرَّاجِـحُ عِـنْـدَ الْأَكْـثَـرِيـنَ أَنَّ هـٰذِهِ الْآيَـةَ مَـكِّـيَّـةٌ إِذْ رُوِيَ أَنَّ سُـورَة (الأنعام) نَزَلَتْ في مَكَّةَ جُمْلَةً واحِدَة، وَعلىٰ هَـٰذا يَكُونُ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعالَىٰ فيها: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾: وآتُوا الْحَقَّ الْمُتَعارَفَ لَدَيْكُم أَنْ تُؤَدُّوهُ لِلْمَسَاكِينَ والسَّائِلِينَ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ الْحَصَادَ يَوْمَ حَصادِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هـٰذا الْأَمْرُ أَمْرَ إيجابٍ قَبْلَ فَرْضِ الزَّكَاةِ ذَاتِ المقْدارِ الْمُحَدَّدِ، وأَنْ

يَكُونَ أَمْرَ نَدْبٍ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ اللهَ تَحَدَّثَ فِي الْعَهْدِ الْمَكِيِّ عَنِ الزَّكَاةِ في نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ سُوَرٍ مَكِّيَّةٍ، وَجعَلَهَا مُقَارِنَةً لِلصَّلاة، وهـٰذَا يُرَجِّحُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَوْجَبَ عَلَىٰ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَبْذُلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِين وَذَوِي الحاجات، مُنْذُ الْعَهْدِ المَكِّي، إِلَّا أَنَّ تَحْدِيدَ المقدار الَّذي يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنْفِقُوهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ قَدْ تَأَخَّرَ إِلَىٰ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعَهْدِ الْمَدَنِي، كَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ وَاجِبَةً عَلَىٰ الْمُسْلِمينَ مُنْذُ أوائِلِ الْعَهْدِ المكي، حتَّىٰ فَرَضَ اللهُ عَددَهَا وأَوْقَاتَها في لَيْلَةِ الإِسْرَاء، وَنَزلَتْ بِشَأْنِهِ أوائِلُ سُورَةِ (الإِسْرَاء/ ٥٠ نزول).

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾:

الإِنْشاء: الإِحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتكامُلِ المتَدرِّج غالباً.

جنّات: جَمْعُ «جَنَّة» وهي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أَشْجَارٍ وثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وَمِيَاهٍ، جَارِيَة.

مَعْرُوشَات: أي: قَدْ صُنِعَ لِأَغْصَانِ أَشْجَارِهَا عَرِيشٌ، تَمْتَدُّ عَلَيْهِ، فَتكُونُ مُظَلِّلةً لِمَا تحتها. يقال لغة: «عَرَشَ فُلاَنٌ، يَعْرُشُ، عَرْشاً» أي: بَنَىٰ عَرِيْشاً. **الْعَرِيشُ:** مَا يُسْتَظَلُّ به، ومَا عُرِشَ لِلْكَرْمِ، وَيقال لُغَةً: «عَرَشَ الْكَرْمَ يَعْرُشُهُ عَرْشاً، وَعُرُوشاً، فَهُو مَعْرُوشٌ» أي: رَفعَ أَغْصَانَهُ عَلَىٰ الْخَشَبِ، فَجعَلَهَا عَرِيشاً.

والمَعْنَىٰ: واللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَ ضِمْنَ نِظَامِ الإِنْشَاءِ المتدرِّج تَنَامِياً، بَسَاتِينَ للنَّاسِ، ذَوَاتِ أَشْجَارٍ مَعْرُوشاتٍ مُمْتَدَاتٍ عَلَىٰ الْعُرُشِ الَّتِي صُنِعَتْ لَهَا بِإِلْهَامِ اللهِ، وَغيْرَ مَعْرُوشَاتٍ لِأَنَّ سُوقَها قَادِرَةٌ عَلَىٰ رَفْعِ فُرُوعِها وَأَغْصَانِها الْمُمْتَدَّةِ في جَوِّ السَّماءِ، أَو لِأَنَّها تَمْتَدُّ فُرُوعها علىٰ الأَرْضِ كَالفصيلة القرعية.

- ﴿... وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ

مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

سبَقَ في الآية (٩٩) من هـٰذه السَّورَةِ بَيَانٌ يُشْبِهُ مَا جَاءَ في هـٰذِه الآية، إلَّا أَنَّ الآية (٩٩) جاءَتْ للتَّنبيهِ عَلَىٰ عَظِيم قُدْرَةِ اللهِ، وإتْقَانِ صُنْعِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ خَلَقه، وَلِبَيَانِ أَنَّهُ هُو وَحْدَهُ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوُجودِ غَيْرُهُ، فَلا إِلَه فِي الْوُجُودِ بِحَقٍّ إِلَّا هُو.

أَمَّا مَا جاءَ فِي هـٰذِه الآيَة (١٤١) فَقَدْ جَاء للتَّنْبيهِ على مِنَّةِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، فيما خَلَقَ لَهُمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ مَائِدَةِ كَوْنِهِ فِيمَا أَنْشَأَ لَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرَاتِ أَشْجَارِهَا وَزُرُوعِها، وأَمَرَهُمْ بِأَنْ يُؤْتُوا حَقَّ مَا أَخْرَجَ لَهُمْ يَوْمَ حَصادِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الإِسْرَافِ وَأَبَانَ لَهُم أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِين.

- ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾: سَبَقَ الْحَدِيث عَنِ النَّخْلِ في تَدَبُّرِ الآيَة (٩٩) من هـٰذِهِ السُّورةِ.

- ﴿وَٱلزَّرۡعَ﴾: هُوَ كُلُّ مَا يُزْرَعُ مِنَ الْحَبِّ ويُنْبِتُ خَضِراً وَحَبَّاً، وقَدْ غَلَبَ اسم «الزَّرْع» على الْبُرِّ والشَّعِير، وجَمْعُهُ «الزُّرُوع» والمرَادُ هُنَا نَبات كُلِّ شيء، فَالنَّبَاتَاتُ كُلُّها فيما نَعْلَمُ ذَوَاتُ حَبٍّ يُزْرَع.

- ﴿مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾: أي: حَالَةَ كَون كُلٍّ مِنْهُمَا مُخْتَلِفاً مَا يُؤْكَلُ مِنْهُ شَكلاً ولَوْناً وطَعْماً وَخَصَائص.

- ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾: سبَقَ الحديث عنهما في تَدَبُّر الآية (٩٩) من السورة.

- ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾: أي: مُتَقَارِبَ الصِّفاتِ دُونَ تَطَابق، وغَيْرَ مُتَقَارِبِ الصِّفَات، فَلا يَلْتَبِسُ عَلَىٰ الناظر والمجرِّبِ الافْتِرَاقُ في الصِّفَات، ولَوْ كان من نَوْعٍ واحد.

يُقال لغة: «تَشَابَهَ الشّيْئَانِ فَهُما مُتَشابِهَان» أي: أشْبَهَ كُلٌّ مِنْهُما الآخَرَ حَتَّىٰ الْتَبسَا عَلَىٰ مُدْرِكهما.

وبقيّة الْبَيانِ التَّدبُّرِيِّ يَجِدُهُ القارئ في تَدَبُّرِ الآية (٩٩) من السورة.

- ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾: دَعْوَةٌ تَكْرِيمِيَّةٌ مِنَ اللهِ الْجَوَادِ المنَّانِ، إلى الأَكْلِ مِنْ مَائِدَتِهِ الَّتِي نَشَرَهَا وَنَثَرَهَا في الْبَسَاتِين، أشجارِهَا وَزُرُوعها.

- ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾: أي: واعْلَمُوا أَنَّ عَلَيْكُمْ فِيمَا آتاكُمْ مِنَ الأَشْجَارِ والزُّرُوعِ الَّتِي أَنْشَأَهَا لَكُمْ، حَقّاً للْمَسَاكِينِ والفقراء وذَوِي الحَاجاتِ، ولِلْمُجْتَمِعِ الْإِسْلَامي وَلِنُصْرَةِ الإسلام والمسلمين، فَآتُوا هٰذا الْحَقَّ يَوْمَ حَصادِ ذَلِكَ الَّذِي أَنْشَأَهُ لَكُمْ.

الْحَصَاد: بفتح الحاء وكَسْرِهَا، قَطعُ الزَّرْعِ والنباتِ بالمنجل، أو بأي آلَةٍ صَالِحَةٍ لقَطْعِ الزُّرُوعِ.

- ﴿... وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

الإسْراف: تجاوز حَدِّ الحقِّ، أو الْحِكْمَةِ، أو الْعَقْلِ الراجح، وهو يكون في الأموال، وفِي الأعمال، مِنْهَا الأكْلُ والشُّرْبُ، والْقَوْلُ، والْقَتْلُ، وغَيْرُ ذلك.

أي: ولَا تُسْرِفُوا فيما أَنْشَأَ لَكُمْ ربُّكُمْ من أَشْجَارٍ وزُرُوعٍ وثِمَارٍ، بالأَكْلِ، أو الإنْفَاقِ أوِ الإِتْلَافِ أوْ وَضْعِهِ فيما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، فَالْإِسْرَافُ لَا يُحِبُّهُ اللهُ، فَهُو لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفين. ومَا لَا يُحِبُّهُ اللهُ لَا خَيْرَ فيه، وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللهُ يُبْعِدُهُ عن مَوَاطِنِ الْقُرْبِ مِنْه، ومَوَاضِعِ تَنَزُّلَاتِ عِنَايَاتِهِ بِعِبَادِهِ المحْبُوبِينَ لَدَيْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَ بَعْضِ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ مع ما يَتَعلَّقُ بها مِنْ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّة، ويَعْطِفُ على ما سَبَقَ بيانُهُ مِنْها:

- ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:
- ﴿حَمُولَةً﴾: الْحَمُولَةُ: مَا أَطَاقَ الْعَمَلَ والْحَمْلَ، كَالإبِلِ والْبَقَرِ.
- ﴿وَفَرْشًا﴾: **الْفَرْشُ**: مِنَ الأَنْعَامِ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ الْحَمْلَ والْعَمَلَ، كَالضَّأْنِ والمَعْزِ، وصِغارِ الإبلِ والْبَقَرِ. ويُطْلَقُ الْفَرْشُ عَلَىٰ مَا يُتَّخَذُ مِنَ الْأَنْعَامِ مِنَ فَرْشٍ، كجُلُودِها، ومَا يُنْسَجُ مِنْ أَصْوافِها، وأَشْعارِها، وأَوْبارِها.

في هٰذِهِ الآيات يمْتَنُّ الله على النَّاس بِالْأَنْعَامِ الَّتِي خَلَقَهَا لَهُمْ، فَمِنْهَا مَا يَكْدَحُ لَهُمْ بالْعَمَلِ كالْحَرْثِ والْجَرِّ، وبالْحَمْلِ رُكُوباً عَلَيْها، وَتَحْمِيلاً لِأَمْوالِهِمُ الَّتِي يَنْقُلُونَهَا عَلَىٰ ظُهُورِها.

وَيَدْعُو اللهُ عَزَّ وجَلَّ النَّاسَ لِأَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ مِنْ لُحُومِها ومِنْ شُحُومِها.

ويَنْهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ، فَيُحَرِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ الله، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ، الَّذِينَ حَرَّمُوا مِنَ الأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ مَا لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ بِهِ تَحْرِيماً، مُتَّبِعِينَ في ذَلِكَ خُطُوات الشيطان، وَمِنْهُ مَا سَبَقَ بَيانُهُ فِي الدَّرْسِ السَّابِقِ من دُرُوسِ السُّورَة.

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَهُ خُطُواتٌ فِي الإِضْلَالِ والإِغْوَاءِ، وهو يَنْقُلُ بِهَا فَرِيسَتَهُ دَرَكَةً فَدَرَكَةً، حَتَّىٰ يُوصِلَهُ إن اسْتَطَاعَ إِلَىٰ أَسْفَلِ سَافِلِينَ، ويَجْعَلَهُ مِنْ مُسْتَحِقِّي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

وَلَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ قَذْفَ فَرِيسَتِهِ دُفْعَةً واحِدَةً إلى أسْفَلِ سافِلِين، بَيْنَمَا هُو في دَرَجَةٍ مِنْ دَرجاتٍ مَرْتَبةِ المتقين.

ويُبَيِّنُ اللهُ فِيها للنَّاسِ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لَهُمْ وَاضِحُ الْعَدَاوَةِ، من خِلَالِ دَعْوَتِهِ إلَىٰ الْخُرُوج عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، الَّذِي تَدْعُوهُمْ إلى سُلُوكِهِ فِطَرُهُمْ، وَشَرَائِعُ رَبِّهِمْ لَهُمْ، إذَا كَانُوا سَالِكِينَ فِيهِ، أَوْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ سُلُوكِهِ والاقْتِرَابِ مِنْهُ، إذا لَمْ يَكُونُوا قَدْ سَلَكُوهُ بَعْدُ.

وَعَلَىٰ سَبِيلِ التَّفْصِيلِ فِي عَرْضِ اللهَ عزَّ وجَلَّ مِنَّتَهُ عَلَىٰ النَّاسِ، بِالْأَنْعَامِ، ذَكَرَ أَنَّها ثَمانِيَةُ أَزْوَاج.

الزَّوْجُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ واحِدٍ مِن اثْنَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ بِعَلَاقَةٍ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَهُما، كَالذَّكر والأنْثَىٰ مِنَ النَّوْعِ أَو الصِّنْفِ الْوَاحِد.

فالْأَزْوَاج الثَّمانِيَةُ مِنَ الأنْعام هِيَ مَا يَلِي:

(١) ذكَرٌ وأُنْثَىٰ مِنَ الضَّأْن.

(٢) ذكَرٌ وأُنْثَىٰ مِنَ المَعْز.

(٣) ذكَرٌ وَأُنْثَىٰ مِنَ الْإِبل.

(٤) ذكَرٌ وَأُنْثَىٰ مِنَ الْبقر.

وقد فَصَلَ اللهُ لَدَىٰ ذِكْرِ هٰذِهِ الْأَزْوَاجِ بِفَاصِلٍ أَمَرَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِأَهْلِ الضَّأْنِ والمَعْزِ:

﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟! وَأَنْ يَقُولَ نَظِيرَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الإِبِلِ وَالْبَقرِ.

والاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامُ تَلْوِيمٍ وَتَعْجِيبٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، إِذْ لَا دَلِيلَ عِنْدَهُمْ يُثْبِتُ أَنَّ اللهَ الرَّبَّ الْخَالِقَ حَرَّمَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، أَوْ بِدَلِيلٍ شَرْعِيٍّ مُنَزَّلٍ مِنْ عِنْدِ الله، وَبَلَّغَهُ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ الْمُؤَيَّدِينَ مِنْهُ بِالْخَوارِقِ الْمُعْجِزَةِ، والآياتِ الْبَيِّنَة.

أي: أَأَلذَّكَرَيْنِ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعْز، أَوْ مِنَ الإِبلِ والْبَقَرِ، أَم الْأُنْثَيَيْنِ مِنْ هَـٰذِهِ الأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةِ، حَرَّمَ اللهُ الْخَالِقُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُوا مِنْ لُحُومِهَا أَوْ شُحُومِهَا. أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ؟!

فَمَا لَكُمْ تَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ بالتَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ اتِّبَاعاً لِخُطواتِ الشَّيْطَانِ، وهِيَ أَحْكَامٌ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ؟!.

إِنَّكُمْ لَا تَمْلِكُونَ دَلِيلاً عَقْلِيّاً وَلَا دَلِيلاً شَرْعِيّاً يُثْبِتُ شَيْئاً مِنْ أَحْكَامِكُمْ الْجَاهِلِيَّة. نَبِّئُونِي نَبَأً مُؤَيّداً بِعِلْمٍ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين بِأَنَّ اللهَ حَرَّم شَيْئاً مِنْ ذٰلِك.

وَتَتَبُّعاً لِنَفْي كُلِّ الاحْتِمَالَاتِ، ذَكَرَ اللهُ احْتِمَالاً وَاضِحَ السُّقُوطِ، وَهُوَ احْتِمَال أَنَّهُمْ كَانُوا شُهَدَاءَ حَاضِرِينَ وَصِيَّةَ اللهِ لِعِبَادِهِ بِشَأْنِ الْأَنْعَامِ الَّتِي خَلَقَهَا لَهُم، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿... أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَاۚ ... ﴿١٤٤﴾﴾:

أي: بَلْ. أَكُنْتُمْ شُهَدَاءَ حَاضِرِينَ سَامِعِينَ، تَنْقُلُونَ عَنِ اللهِ مُبَاشَرَةً، حِينَ وَصَّىٰ اللهُ بِالْأَحْكَامِ الَّتِي زَعَمْتُمْ أَنَّهَا أَحْكَامٌ رَبَّانِيَّةٌ تَلْتَزِمُونَ بِهَا.

إِنَّكُمْ لا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَدَّعُوا هـٰذا، وإِلَّا افْتَضَحْتُمْ بِأَنَّكُمْ كَذَّابُون تَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ بِوَقَاحَةٍ وَشَنَاعَةٍ، وَلَا يُصَدِّقُكُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِكُمْ.

- ﴿... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ ... ﴿١٤٤﴾﴾؟

اسْتِفْهام يُرَادُ بِهِ النَّفي، أي: لا يُوجَدُ أَشدُّ ظُلْماً مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً، لِيُضِلَّ النَّاسَ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ يُضِلُّونَ بالبَاطِلِ، مُزَيَّناً بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ.

قَدْ يُوجَدُ مَنْ يُسَاوِيهِ فِي الظُّلْم، وَلَكِنْ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنْهُ إِضْلَالاً وَكُفْراً.

● ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤)﴾: أي: إنَّ اللهَ لَا يُجْبِرُ الظَّالِمِينَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا مَهْدِيين، وَإِنَّ اللهَ لَا يَحْكُمُ للظَّالِمِينَ بِأَنَّهُمْ مَهْدِيُّون، بَلْ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُم ظَالِمُون، وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ يَوْمَ الدِّين بِحَسَبِ دَرَكَةِ ظُلْمِهِمْ، فِي دَرَكَات جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ رَسُولَهُ بِأَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ المعنِيِّينَ بالمُعالَجَةِ إِبّانَ تَنْزِيل السُّورَةِ، وَهُوَ قَوْلٌ عَامٌّ لِكُلِّ النَّاس:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: لَا أَجِدُ فِي كُلِّ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً مِنَ مَطَاعِمِ اللُّحُومِ والشُّحُومِ الحيوانِيَّةِ، فِي الْإِسْلَام، وَفِي الرِّسالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ السَّابِقَةِ لِهَٰذِهِ الرِّسَالَةِ الَّتِي أَنَا مُكَلَّفٌ أَنْ أُبَلِّغَها لِلنَّاسِ، حَتَّىٰ إِنْزَالِ سورة (الأَنْعَام) إِلَّا مَا يَلِي:

(١) المِيْتَةُ الَّتِي تَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِهَا أو بِحَدَثٍ يَحْدُثُ لَهَا غَيْرِ الذَّكَاةِ، بِالذَّبْحِ أَوْ بِالنَّحْرِ الْمَعْرُوفَيْنِ الَّذِينَ يَخْرُجُ بِهِما دَمُ الْحَيَوَانِ مِنْ أَوْرِدَةِ رَقَبَتِهِ.

(٢) الدَّمُ الْمَسْفُوحُ السَّائِلُ، وَهُوَ غَيْرُ الْمُتَبَقِّي فِي لَحْمِ الْحَيَوَانِ بَعْدَ ذَبْحِهِ أَوْ نَحْرِهِ، وَغَيْرِ الْمُتَمَاسِكِ فِي الكَبِدِ والطَّحَال.

(٤) لَحْمُ الخَنْزِيرِ الشَّامِلُ لِشَحْمِهِ، فَهُوَ رِجْسٌ نَجِسٌ، وَلَا تُطَهِّرُهُ ذَكَاةٌ وَلَا وَسَائِلُ أُخْرَىٰ.

(٥) كُلُّ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ، وَهُوَ كُلُّ مَا أَعْلَنَ ذَابِحُهُ أو ناحِرُهُ أو صَائِدُهُ أَنَّهُ يُقَدِّمُهُ قُرْبَاناً لِغَيْرِ الله.

أَصْلُ مَعْنَىٰ إِهْلَالِ الذَّابِحِ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ ذَاكِراً اسْمَ مَنْ يُقَدِّمُ ذَبِيحَتَهُ قُرْبَاناً لَه.

لِأَنَّ الذَّبْحَ لاسْمِ غَيرِ اسْمِ اللهِ فِسْقٌ مِنْ دَرَكَةِ الشِّرْكِ بِاللهِ، والذَّبِيحَةُ المذْبُوحَةُ لِغَيْرِ اسْمِ اللهِ حُكْمُهَا كَحُكْمِ المَيْتَةِ، لِأَنَّ اللهَ الرَّبَ هَوَ مَالِكُ كُلِّ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي لَهُ الْحَقُّ فِي إِبَاحَةِ الْأَكْلِ مِنْها، وَقَدْ حَرَّمَ أَنْ يُذْبَحَ أَوْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنْهَا لِاسْمٍ غَيْرِ اسْمِهِ، وَحَرَّمَ أَنْ يُؤْكَلَ مِمَّا ذُبِحَ لِغَيْرِ اسْمِهِ.

وَأَتْبَعَ الله عَزَّ وجَلَّ بَيَانَ هٰذِهِ الَّتِي حَرَّمَ أَنْ يُؤْكَلَ مِنْهَا بِقَوْلِهِ:

- ﴿... فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾:

المضْطَرّ: ذُو الحاجَةِ البالِغَةِ الشِّدَّةِ، أَصْلُ الفعل: «اضْتُرَّ» قُلِبَتِ التاء طاءً، وفق القاعدة الْعَرَبية في قَلْب تَاء «افْتعل» المزيد بالتاء.

- ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾: أي: فمن اضطرّ إلى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ هٰذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدُّ مَا يَدْفَعُ ضَرُورَتَهُ إِلَّا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا.

- ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِ غَيْرَ بَاغٍ. **البَاغِي**: هُوَ المتجاوِزُ لِلْحدِّ المَأْذُون بِهِ شَرْعاً في سُلُوكِهِ الإِرَادِي.

- ﴿وَلَا عَادٍ﴾: أي: وحَالَةَ كَوْنِهِ غَيْرَ عَادٍ. **الْعَادِي**: الظَّالِمُ مُتَجَاوِزُ الْحَدِّ المَأْذُونِ شَرْعاً فِي سُلُوكِهِ الإِرَادِي.

ونَظَراً إِلى التَّقَارُبِ الشَّدِيدِ بَيْنَ مَعْنَى «الباغي» ومعْنَىٰ «الْعَادِي» فالَّذِي

أَرَاهُ **أَنَّ الْبَاغِي** يُرَادُ بِهِ الواحِدُ مِنَ الْبُغَاةِ، وهُمْ الخارجُون عَلَىٰ السُّلْطَةِ الإدارِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ لِسَلْبِ الْحُكْمِ مِنْ أَهْلِهِ، أو للسَّطْوِ عَلَىٰ النَّاسِ وَسَلْبِ أَمْوَالِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ. **أَمَّا العادي** فَيُرادُ بِهِ الَّذِي يَتَجاوَزُ حُدُودَ الله حِينَ يضطرّ أَنْ يَأْكُلَ مِمَّا حَرَّمَ الله، فَيَأْكُلُ بِنَهَمٍ وَإِسْرَافٍ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْفَعُ بِهِ ضَرُورَتَه.

فالْبَاغِي الخَارِجُ عَلَىٰ السُّلْطَةِ الْإِدَارِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالْقَائِمُ بِأَعْمَالِ السَّطْوِ الحَرام، لَا يُبَاحُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ الضَّرُورة مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ المَطَاعِمِ، لِأَنَّهُ عَاصٍ فِي خُرُوجِهِ الَّذِي أَفْضَىٰ بِهِ إِلَىٰ ضَرُورَتِهِ.

وَمَنْ يُبَاحُ لَهُ عِنْدَ الضَّرُورةِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ المَطَاعِمِ الْمُحَرَّمَةِ لَيْس لَهُ أَنْ يَسْتَزِيدَ مِنَ الْأَكْلِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْفَعُ الضَّرُورَةَ الَّتِي يُقَدِّرُهَا، وَهُوَ مُنْقَطِعٌ عَنِ الْمُبَاحَاتِ مِنَ المَآكِلِ مَحْرُومٌ مِنْهَا.

- ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾: جَاءَتْ هٰذِهِ العِبَارَةُ فِي آخِرِ الآيَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْمُضْطَرَّ قَدْ يَسْتَزِيدُ مِمَّا يَأْكُلُ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْفَعُ بِهِ ضَرُورَتَهُ، لِأَنَّهُ يَعْسُرَ عَلَيْهِ ضَبْطُ مِقْدَارِ مَا يَدْفَعُ بِهِ ضَرُورَتَهُ، أَو يَعْسُرُ عَلَيْهِ ضَبْطُ شَهْوَةِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْحَدِّ الْمَأْذُونِ بِهِ شَرْعاً، فَإِنَّ الله يَغْفِرُ لَهُ، لِأَنَّهُ غَفُورٌ، كَثِير الْغُفْرَانِ وَعَظِيمه، وَهٰذا مِنْ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، عَلَىٰ أَنَّ أَصْلَ حُكْمِ الإِبَاحَةِ عِنْدَ الضَّرُورَة أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وأَمَّا مَا خَصَّ اللهُ بِهِ الْيَهُودَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ زِيَادَةً عَلَىٰ الْمُحَرَّمَاتِ الْخَمْسَةِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا، فَقَدْ كَانَ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وَظُلْمِهِمْ مَعَ أَنَّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنْ يُحَرِّمَهَا فِي كُلِّ رِسَالَاتِهِ لِلنَّاسِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿هَادُواْ﴾: أي: صَارُوا يَهُوداً.

وَأَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سُورةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أَنَّهَا طَيِّبَاتٌ كَانَتْ حَلَالاً في أَصْلِ الشَّرِيعَةِ إِلَّا أَنَّ اللهَ حَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ جَرَائِمِهِم الكَثِيرَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

فأبانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في آيةِ (الْأَنْعَامِ) أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَىٰ الْيَهُودِ خَاصَّةً بِسَبَبِ بغْيِهِمْ، الَّذِي جَاءَ تَفْصِيلُهُ في نَصّ سورة (النساء) ما يلي:

(١) كُلَّ ذِي ظُفر، وَهُو العظم الَّذِي يكُونُ في مُنْتَهَىٰ أَصَابعِ الإنسانِ والحيوان، وَهُوَ يَشْمَلُ المخالِب. **الْمِخْلَبُ**: ظُفْرُ كُلِّ سَبُعٍ مِنَ الماشي، والطَّائر.

(٢) شُحُومُ الْبَقرِ والْغَنَمِ، إِلَّا الشُّحُومَ الَّتِي عَلَىٰ ظُهُورِهما، والشُّحُومَ الَّتِي تَكُونُ حَوْلَ الْحَوَايا، وهِيَ الْأَمْعَاء، مُفْرَدُهَا «حَاوِيَاء»، وإِلَّا الشُّحُومَ الَّتِي اخْتَلَطتْ بِعَظْمٍ، أي: اسْتَدَارَتْ والْتَفَّتْ أَوِ الْتَصَقَتْ بِعَظْم. فهٰذِهِ مُسْتَثْنَاةٌ مِنْ حُكْمِ تَحْرِيمِ الشُّحُومِ عَلَيْهِم.

- ﴿.. ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾: أي: ذَلِكَ التَّحْرِيمُ المشَدَّدُ عَلَيهِمْ جزَيْنَاهُم بِهِ جَزَاءً عِقَابِيّاً بِسَببِ بَغْيِهِمْ، وَهُوَ تَجاوُزُهُمُ الْحُدُودَ الَّتِي أَمَرْنَاهُمْ أنْ لَا يَعْتَدُوها، فاعْتَدَوْا وَبَغَوْا.

وَجَاءَ تَفْصِيلٌ لِبَغْيِهِمْ هَـٰذَا في النَّصّ الَّذِي جَاءَ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وفيه ما يلي:

(١) صَدُّهُمُ الكثير عن سَبِيلِ الله، وهو صراط دِينِهِ المستقيم عَقِيدَةً وعَملاً وخُلُقاً، ظاهراً وباطناً.

(٢) أَخْذُهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نَهَاهُمُ اللهُ عَنْه.

(٣) أَكْلُهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بالْبَاطِلِ.

(٤) كُفْرُ فَرِيقٍ مِنْهُم بِمَا شَرَعَ اللهُ لَهُمْ، وأَنْزَلَ عَلَىٰ رُسُلِهِمْ.

وَأخيراً يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِقَوْلِهِ:

- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾:

أي: فإنْ كَذَّبَكَ الْمَعْنِيُّونَ بالْمُعَالَجَةِ وَغَيْرُهُمْ فأطْمِعْهُمْ بِرَحْمَتِنَا الْوَاسِعَةِ، إذا تابُوا واسْتَغْفَرُوا وَآمَنُوا وَأَسْلَمُوا، وأنْذِرْهُمْ بِبَأْسِنَا الشَّدِيدِ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لَكَ، وأَنْتَ رَسُولُ رَبِّهِمْ تُبَلِّغُهُمْ مَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْكَ، وَأَمَرَكَ بِأَنْ تُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ.

- ﴿.. رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ..﴾: أي: رَبُّكُمُ الْخَالِقُ لَكُمْ، والَّذِي يُمِدُّكُمْ دَوَاماً بِعَطَاءاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، والْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الكَثِيرَةِ، ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ، تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ أَوَىٰ إِلَىٰ ظِلِّهَا، وَتُغِيثُ كُلَّ مُؤْمِنٍ اسْتَغَاثَ بِهَا، واسْتَمْطَرَ مِنْهَا عَطَاءَاتِ الرَّحْمَة.

﴿.. وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾:

الْبَأْسُ: الْعَذَابُ الشَّدِيد.

أي: والْمُجْرِمُونَ يُعَذِّبُهُمْ رَبُّكُمْ عَذَاباً شَدِيداً، وَإِذَا قَضَىٰ تَعْذِيبَهُمْ فَإِنَّ قَضَاءَهُ هـٰذا لَا يَرُدُّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ، إِذْ لا يُوجَدُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مَنْ يَرُدُّ عَذَابَ الرَّبِّ الَّذِي يَقْضِيهِ بِعَدْلِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس الثلاثينَ من دُرُوسِ سورة (الأنعام).

والْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(٣٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي والثلاثين من دُرُوس سورة (الأنعام)

الآيات من (١٤٨ ـ ١٥٣)

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۢ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍۢ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًۭٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًۭا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًۭا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

القراءات:

(١٤٨) ● قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: **[بَاسَنَا]** بإبْدَالِ الهمزة ألِفاً. وكذلِكَ قرأها حَمْزَةُ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بَأْسَنَا]** بالهمزة على الأصْلِ دُون إبدال.

(١٥٢) ● قرأ حَفْص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[تَذَكَّرُونَ]** بتخفيف الذَّال.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تَذَّكَّرُونَ]** بِتَشْدِيد الذال، أَصْلُها تَتَذَكَّرُون.

والقراءَتَان متكافئتَان.

(١٥٣) ● قرأ حَمْزة، والكِسَائي، وخلف: **[وَإِنَّ هَـٰذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً]** بِكَسْر هَمْزَةِ «إِنَّ» وإِسْكان ياء المتكلم.

ولِخَلَفٍ عَنْ حمزة إِشْمَامُ الصَّادِ صَوْت الزاي.

وقرأها ابن عامر: **[وَأَنْ هَـٰذا صِرَاطِيَ مُسْتَقِيماً]** بأنْ المخَفَّفَة من الثقيلة، وبفتح ياء المتكلّم في الوصل.

وقَرأَهَا رَوْح: **[وَأَنْ هَـٰذا صِرَاطِيْ مُسْتَقِيماً]** بأنْ المخففة من الثقيلة، وبإسْكَان ياء المتكلّم.

وقرأها قُنْبُل مِثْل قراءة رَوْح ولكِنْ بإبدال صاد «صِرَاطِي» سِيناً.

وقرأها باقي الْقُرَّاء العشرة: **[وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطي مُسْتَقِيماً]** بفَتْحِ همزة «أَنَّ» وبإسْكَانِ ياء المتكلم.

وكُلُّها وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ مُتَكَافِئَة.

(١٥٣) ● قرأ الْبَزِّي: **[فَتَّفَرَّقَ]** بِتَشْدِيد التاء، أصْلُها «فتَتَفَرَّق».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَتَفَرَّقَ]** بِحَذْفِ إِحْدَىٰ التَّاءَيْن.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذا الدَّرسِ من فُرُوع السَّاقِ الثَّاني من سَاقَي شَجرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة.

وفيها تَعْلِيمٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فَلِكُلّ داعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ فِقَرَاتٍ جِدالِيَّة، يُجادِلُ بِهَا المُشْرِكِينَ حَوْلَ بَعْضِ القضَايا الَّتِي يُثِيرُونها،

وتَعْلِيمُ فِقَرَاتٍ دَعَوِيَّةٍ يُبَيِّن فيها طائِفَةً مِنْ أَحْكام الله وشرائِعه، الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَها عَلَىٰ إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعيل عَلَيْهِمَا السَّلَام، وهي مِنَ الأَحْكام الثابتة في الرِّسالَة المحمَّدية.

وفيها خِتَامٌ بِبَيانِ أَنَّ هٰذا الدِّين الَّذِي يُبَلِّغُهُ الرَّسُول عَنْ رَبِّ العالَمِين، هُو صِراطُ اللهِ المستقيم، وأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوه، وَأَنْ لَا يَتَّبِعُوا السُّبُلَ المُتَعَدِّدَةِ الْأُخْرَىٰ، الَّتي تَجْعَلُهُمْ يَتَفَرَّقُون عَنْ سَبِيله.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِلْمُؤمنين المُسْلِمين، بِشَأْنِ مَا سَيَقُولُهُ المُشْرِكُونَ مُسْتَقْبلاً، مُتَعَلِّلِينَ بالرَّأي الْجَبْرِيّ الَّذي يَزْعُمُ فِيهِ الْجَبْرِيُّونَ أَنَّهُ لَا اخْتِيَارَ للنَّاسِ، بَلْ هُمْ مَجْبُورُونَ مِنْ قِبَلِ الرَّبّ جل جَلَالُهُ عَلَىٰ اخْتِيَارَاتِهِمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ إِرَادَاتٌ حُرَّةٌ، فالْمُشْرِكُونَ قَدْ أَشْرَكُوا بالْجَبْرِ الرَّبَّانِيِّ فَكَانُوا بِهِ مُشْرِكِين، وَعلى هٰذا فَهُمْ لَيْسُوا مَسْؤُولِينَ عَمَّا كَانَ مِنْهُم بِغَيْرِ إِرَادَاتِهِم:

● ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

أَخْبَرَ اللهُ رَسُولَهُ والمؤمِنِين، بأَنَّ الْمُشْرِكِينَ سَيَقُولُونَ مُسْتَقْبلاً أقْوالاً يُسَوِّغُونَ بِهَا شِرْكَهُمْ بالرَّأي الْجَبْرِيّ، قَائِلِينَ:

﴿.. لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ﴾:

أي: إنَّما أَشْرَكْنَا نَحْنُ وَآباؤنَا مِنْ قَبْلِنَا، وَحَرَّمْنَا مِنَ المطاعِم الْحَيَوَانِيَّةِ مَا حَرَّمْنَا بالْجَبْرِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي لَمْ تَكُنْ لَنا فِيهِ إرادات حُرَّاتٌ مَسْؤُولَاتٌ عَن اخْتِيارَاتِها.

وقبل الإرْشَادِ إلى مُجادَلَتِهِمْ أَبانَ اللهُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ في ادِّعاءِ الْجَبْر، أي: بَلْ لَهُمْ إرادَاتٌ حُرَّاتٌ فِي اخْتِيارَاتِها، وهُمْ مَسْؤُولُون عَمَّا يَخْتَارُون في حَيَواتِهِم مَسْؤولِيَّةً تَامَّة. وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَىٰ إِطْلَاقِ مِثْلِ هٰذا الكَذِب المُشْرِكُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ.

إنَّ مَقُولَتَهُمُ الْكَاذِبَةَ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ سَتْرِ الضِّدِّ الثَّالِثِ الْوَسَطِ بَيْنَ ضِدَّيْنِ مُتَبَاعِدَين، سَتْراً فِيهِ مُغَالَطَةٌ يَكْتَشِفُهَا الْمُنَاظِرُ الْجَدَلِيُّ الْحَكِيم.

إنَّهُمْ جعَلُوا الْقَضِيَّةَ مُتَرَدِّدَةً بَيْنَ احْتِمَالَيْن:

الاحْتِمَالُ الْأَوّلُ: أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الإِنْسانَ مَجْبُوراً عَلَىٰ الكُفْرِ ومِنْهُ الشِّرْك، وَعَلَىٰ لَوَازِمِ الكُفْرِ في السُّلُوك.

الاحْتِمَالُ الثَّاني: أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الإِنْسَانَ مَجْبُوراً على الإِيمانِ والإِسْلَام، ولَوَازِمِهِمَا في السُّلُوك.

فَقَالُوا: لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا أُشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلِنَا، وَلَوْ شَاءَ مَا حَرَّمْنَا مَا حَرَّمْنَاهُ مِنَ الْأَنْعَام.

وبما أَنَّ الْقَضِيَّةَ تَتَرَدَّدُ بَيْنَ احْتِمَالَيْنِ، فَيَلْزَمُ مِنْ هٰذا عَقْلاً أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي شَاءَ أَنْ نَكُونَ مُشْرِكين، وأَنْ نُحَرِّمَ مَا حَرَّمْنَا مِنَ الْأَنْعَامِ، فَجَعَلَنَا بالْجبرِ كَذلِكَ، فَإِراداتُنَا مَجْبُورَةٌ علىٰ أَنْ نَكُونَ عَلَىٰ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ عَقِيدَةً وَسُلُوكاً، وهٰذا يَقْتَضِي عَجْزَنَا عَنْ تَغْيِيرِ واقِعِنا الَّذِي نَحْنَ عَلَيْهِ، فَلَا حِسَابَ عَلَيْنَا وَلَا جَزاءَ فيما هو لَيْسَ مِن اخْتِيَارَاتِنا.

حُجَّةٌ زُخْرُفِيَّةٌ باطِلَةٌ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ المغالطة.

إنّهم سَتَرُوا **الاحْتِمَالَ الثَّالث**: وَهو أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الإِنْسَانَ ذا إِرادَةٍ حُرَّةٍ، يُخْتَارُ بِهَا مَا يَشَاءُ لِنَفْسِهِ مِنْ إيمانٍ أَوْ كُفر، وعَمَلٍ صَالِحٍ وَعَمَلٍ سَيِّئٍ، وَطَاعَةٍ لِلَّهِ أَوْ مَعْصِيَةٍ له، واللهُ يَخْلُقُ لَهُ مَا اخْتَارَ هُوَ لِنَفْسِهِ بِإِرَادَتِهِ الحرَّةِ غَيْرِ المجْبُورَة.

وهـٰذا الاحْتِمَالُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللهُ النَّاسَ على وَفْقِهِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصوصُ الْقُرْآنِيَّةُ الكَثِيرة، فَلا جَبْرَ عَلَىٰ إيمانٍ أَوْ كُفْر، ولا علىٰ طَاعَةٍ أو مَعْصِيَة، ولَا عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ أَوْ عَمَلٍ سَيِّئٍ.

فَقَوْلُهُمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ مُقَدِّمَةٌ صَحِيحَةٌ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، وهُو أَنَّ اللهَ قَدْ شَاءَ أَنْ يَكُونُوا مُشْرِكِينَ بالْجَبْر، وَقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هَـٰذا الْمُرَادَ كَذِبٌ كَذَبُوهُ، كَمَا كَذَبَ الكُفَّارُ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَهُ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ مَجْبُورُونَ عَلَىٰ الكُفْرِ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُه.

- ﴿.. كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ..﴾: أي: كَذَلِكَ الْكَذِبِ الّذِي سَيَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ الْمُعَالَجُونَ بِكَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ السُّورَةِ، كَذَّبَ الكُفَّارُ مِنَ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، واسْتَمَرُّوا في حَيَواتِهِمْ مُكَذِّبين حتَّىٰ مَاتُوا وَذَاقَتْ نُفُوسُهُمْ عَذَابَنَا الشَّدِيدَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَبَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَسَوْفَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْثِ الْعَذَابَ الْأَشَدَّ الْخَالِدَ في نَارِ جَهَنَّمَ، أَخْذاً مِنْ دَلَالَاتِ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ كَثِيرة.

- ﴿.. قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ..﴾: أي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَيَا حَامِلَ رِسَالَةِ دَعْوَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ لِهٰؤُلَاءِ الْمُغَالِطِينَ الْكَاذِبينَ عَلَىٰ رَبِّهم: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ ذِي بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ، أَوْ عِلْمٍ ذي دَلِيلٍ نَصِّيٍّ مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، حَتَّىٰ يَكُونَ مِفْتَاحَ جِدَالٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ؟.

إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ دَلِيلاً نَصِّيّاً مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ صَحِيحٍ، فَلَيْسَ لَدَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يُقَدِّمُوا مُغَالَطَتَهُمُ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا، وهـٰذِهِ الْمُغَالَطَةُ تَسْقُطُ أَرْكَانُهَا حِينَمَا يُكْشَفُ لَهُمُ الاحْتِمَالُ الثَّالِثُ الَّذِي سَتَرُوهُ بِالْمُغَالَطَةِ، وَتَدْمَغُهُمُ الْحُجَّةُ بِأَنَّ اللهَ قَدْ خَلَقَهُمْ ذَوِي إِرَادَاتٍ لَهَا حُرِّيَّةٌ تَامَّةٌ يَخْتَارُونَ بها مَا يَشَاءُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَهُمْ لَيْسُوا مَجْبُورِينَ، وادِّعَاؤُهُمُ الْجَبْرَ كَذِبٌ عَلَىٰ الله.

- ﴿.. إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾:

أي: وَقُلْ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ تُقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ الْقَاطِعَةَ لِجَدَلِهِم الْقَائِمِ على الْمُغَالَطَةِ، أَنْتُمْ بَيْنَ حَالَتَيْن:

الْأُولىٰ: اتِّبَاعُ الظَّنِّ الضَّعِيفِ الَّذِي لَا يُرَجِّحُ قَضِيَّةً فِكْرِيَّةً، فَهُوَ سَاقِطٌ لَا يَصِحُّ عَقْلاً الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، دَلَّ عَلَيْها: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: مَا تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ التَّوَهُّمِيَّ الضَّعِيفَ السَّاقِط.

الثانِية: اخْتِلَاقُ الكَذِبِ، دَلَّ عَلَيْها: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ. **الْخَرْصُ**: الكَذِبُ، في كُلِّ مَا جَاءَ في القرآنِ مِنْه.

- ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

أي: فإذا كَشَفْتَ مُغَالَطَتَهُمْ، وَأَبَنْتَ سُقُوط حُجَّتِهِمْ، وَدَمَغْتَهُمْ بالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ، فَقُلْ لَهُمْ: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَة، أي: الْبَالِغَةُ غَايَةَ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِل.

أَمَّا قَوْلُكُمْ: لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا أَشْرَكَ مِنْ قَبْلِنا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَنْعَام والْحَرْثِ. تَعْنُونَ أَنَّ اللهَ هُو الَّذِي جَعَلَكُمْ مَجْبُورِين عَلَىٰ هٰذا، وَقَدْ أَبَنَّا لَكُمْ أَنَّكُم كَاذِبُونَ في هٰذا الادِّعَاء، فإِنَّنا نَقُولُ لَكُم بِبَيَانٍ مِنْ رَبِّكُمْ:

لَوْ شَاءَ رَبُّكُمْ أَنْ يَجْعَلَكُمْ مَجْبُورِين، لَسَلَبَكُمْ إِرَادَاتِكُم الْحُرَّة، ولَمَا وَضَعَكُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَعِنْدَئِذٍ لَجَعلَكُمْ بِالْفِطْرَةِ مُؤْمِنِين، مُسْلِمِينَ مَهْدِيِّينَ بالْجَبْرِ أَجْمَعِينَ، وَلَرَفَعَ عَنْكُمُ المسؤولِيَّةَ والجزاء، وَلَجَعَلَكُمْ كَالْمَلَائِكَةِ، لَا تَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَكُمْ، بَلْ تَفْعَلُونَ مَا تُؤْمَرُونَ به.

فاللهُ رَبُّكُمْ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفْرَ والضَّلَالَ، فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ لَا يَخْلُقُ مَخْلُوقَاتٍ مَفْطُورَةً مَجْبُورَةً عَلَىٰ الكُفْرِ بِهِ، والضَّلَالِ عَنْ صِرَاطِهِ المستقيم.

أَمَّا الشَّيَاطِينُ مِنَ الْجِنِّ والْإِنْسِ، فَهُمْ ذَوُو إِرَاداتٍ حُرَّةٍ، وَمَوْضُوعُونَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَسَوْفَ يُبْعَثُونَ يَوْم الْقِيَامَةِ مَعَ سَائِرِ الْمَبْعُوثين، وَسَوف يُلاقُونَ رَبَّهُمْ في مَحْكَمَتِهِ لِلْحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ يَكُونُ جَزَاؤُهُمْ عَلَىٰ وَفْقِ حُكْمِ اللهِ فيهم، فَيَنَالُ كُلُّ وَاحِدٍ عِقَابَهُ بِالْعَدْلِ عَلَىٰ مِقْدَارِ إغْوَائِهِ وَإِضْلَالِهِ.

وإبليسُ إمَامُ الشَّيَاطِين كَانَ مِنَ الْجِنِّ الْمَوْضُوعِين فِي الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَق عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ باخْتِيَارِه الْحُرّ، كَكُفَّارِ الإِنْسِ.

والَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ الشَّيَاطِينَ مَفْطُورُونَ مَجْبُورُونَ عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ وَعَلَيْهِ واهِمُونَ، لَمْ يُتَابِعُوا دَلالاتِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ بِتَأَمُّلٍ وَإِمْعَانٍ، وهُمْ مُتَأَثِّرُونَ بِالْعَقِيدَةِ الْجَبْرِيَّة الَّتِي يَعْتَقِدُهَا الْجَبْرِيّون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ويلحَقُ بِهِ كُلُّ داعٍ إلى اللهِ من أمَّته، بِشَأْنِ مُجادَلةِ المَعْنِيِّينَ بالمُعَالَجَةِ مِنَ الْمُشْرِكين:

- ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾:

- ﴿هَلُمَّ﴾: اسْمُ فعل أَمْرٍ بِمَعْنَىٰ أَحْضُرْ أو أَحْضِرْ، وهُو في لُغَةِ الحجاز يكُونُ للواحِدِ والاثْنَيْنِ والجماعَةِ.

- ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾: أي: أَحْضِرُوا شُهَدَاءَكم.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾: أي: الَّذِينَ يَشْهَدُون لَكُمْ أنَّ اللهَ حَرَّمَ هـٰذَا الَّذي حَرَّمْتُمُوهُ مِنَ الأَنْعَامِ والحَرْثِ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ في الآيتين: «١٣٨» و«١٣٩».

إنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُحْضِرُوا شُهَدَاءَ يَشْهَدُونَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بالكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ السَّابِقَة، إذْ لَيْسَ فيها أحْكَامُ التَّحْرِيمِ الَّتِي افْتَرَوْها عَلَىٰ الله.

فإنْ أحْضَرُوا مِنَ الْيَهُودِ أَوِ النَّصَارَىٰ شُهَدَاءَ زُورٍ، ورأيْتَ أَنَّهُمْ مُسْتَعِدُّونَ أنْ يَكْذِبُوا انْتِصاراً لِلْمُشْرِكِينَ ضِدَّكَ وضِدَّ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ، وَكَيْداً للدِّينِ الَّذِي بَعَثْنَاكَ به.

- ﴿.. فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ ..﴾: أي: فإنْ شَهِدُوا كاذِبينَ فَلَا تَقْبَلْ شَهَادَتَهُمْ، وبإمْكَانِكَ أَنْ تُطالِبَهُمْ بِمَا يُثْبِتُ صِحَّةَ شَهَادَتِهِمْ مِنْ نُصُوصِ كُتُبِهِم، واعْلَمْ أَنَّهُمْ أصْحَابُ أهْواء، يَفْتَرُونَ عَلَىٰ الله.

- ﴿.. وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ..﴾ من المُشْرِكينَ والْيَهُودِ والنَّصارَىٰ، فكَفَرُوا بالْقُرْآنِ الَّذِي تَتْلُوهُ عَلَيْهِم.

- ﴿.. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ... (١٥٠)﴾: أي: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، فَهُمْ لَا يَخَافُونَ عَذَابَ الله، ولَا تَتَّبعْ أهْواء الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون، أي: يُسَوُّونَ بِرَبِّهِمْ في الإلَهِيَّةِ وفي بَعْضِ صِفَاتِ الرُّبوبِيَّة، آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونها مِنْ دُون اللهِ، ويَجْعَلُونَها شُرَكَاءَ لِلَّهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ بَعْضَ مَا يَقُولُ للنَّاسِ فِي بَيَانَاتِهِ الدَّعَوِيَّةِ مِنَ النَّوَاهِي والْأَوَامِرِ والْوَصَايا الرَّبَّانِيَّة.

- ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم

بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾:

- ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾: أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ للنَّاسِ ببلَاغ عَامّ: تعالَوْا أَتْلُ عَلَيْكُمْ بَيانَ رَبِّكُمْ المُشْتَمِلَ عَلَىٰ طائِفَةٍ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ فِعْلَهُ أَوْ تَرْكَهُ، وَهَذَا يَعُمُّ مَا نَهَىٰ عَنْ فِعْلِهِ أَوْ أَمَرَ بِفِعْلِهِ.

التّلَاوَة: تَتَبُّعُ النُّطْقِ بالْبَيانِ الْقَوْلِيّ المأمُورِ بِتِلاوَتِهِ عَلَىٰ وَفْقِ حُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ دُونَ زِيادَةٍ وَلَا نُقْصان.

فإذا كانَ المَنْطُوقُ تتبُّعاً لِكلامٍ مَكْتُوب فَهُوَ قِرَاءَة.

ولمَّا كَانَ هٰذا النَّصُّ مُشْتَمِلاً عَلَىٰ قَضَايَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهَا نَهْيَ تَحْرِيم، وقَضَايَا أَمَرَ بِها أَمْرَ إيجابٍ، كَانَ مِنْ حُسْنِ التَّدبُّرِ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ عِبارَةَ: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يُرَادُ بِهَا مَا حَرَّمَ فِعْلَهُ، ومَا حَرَّمَ تَرْكَهُ. ومِنَ المَعْلُومِ في الأصُولِ الْعَقْلِيَّةِ، أَنَّ النَّهْيَ عَنْ شَيْءٍ ما هُوَ أَمْرٌ بتَرْكِهِ، وأَنَّ الْأَمْرَ بِشَيْءٍ مَا هُوَ نَهْيٌ عَنْ تَرْكِهِ، هٰذا التَّلَازُمُ مِنَ الْقَضَايَا الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَكَادُ تَكُونُ بَدِهِيَّة، فَلَا حَاجَة لِأَنْ يُقَالَ: ما حَرَّمَ وَأَوْجَبَ عَلَيْكُم رَبُّكُم.

وَقَدْ اشْتَمَلَ هٰذا النَّصُّ عَلَىٰ عَشْرَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ السُّلُوكِ الإنْسَانِي، حَرَّمَ اللهُ فِعْلَها، أَوْ حَرَّمَ تَرْكَها، مَعَ تَعْقِيبَاتٍ مُنَاسِبَاتٍ مُلَائِمَاتٍ لِلْأَوامِرِ والنَّوَاهِي والْوَصَايَا الرَّبَّانِيَّة.

وفيما يَلِي بيانُها مَعَ التَّدبُّر:

الْمُحَرَّمُ الأول: الشِّرْكُ بِاللهِ، وهو مُحَرَّمٌ مُكَفِّرٌ يُخْرِجُ من المِلَّة، وَهُو أَوَّلُ دَرَكاتِ الكُفْر، دَلَّ عَلَيْهِ مِنَ النّصّ قول اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ في أُولَىٰ وَصَايَاه: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لَا فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إلَهِيَّتِه، إذْ لَا رَبَّ في الْوُجُودِ غَيْرُه، فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ إلَهاً مَعْبوداً سِوَاهُ، جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

الْمُحَرَّمُ الثَّاني: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، بِعَدَمِ الْقِيَامِ بِطَاعَتِهِمَا وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا، ومِن حَقِّهِمَا أَنْ لَا يَقُولَ الْوَلَدُ لَهُمَا أَوْ لِأَحَدِهِمَا إِذَا كَبِرَا وَكَثُرَتْ مَطَالِبُهُمَا أَوْ سَاءَتْ مُعَاملَتُهُمَا وقَبُحَتْ أَقْوَالُهُمَا: كَلِمَةَ «أُفٍّ» مُتَضَجِّراً مِنْهُما، وَأَنْ لَا يَنْهَرَهُما، فَضْلاً عَمَّا هُو أَشَدُّ وأقبح. وَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ هٰذا الْمُحَرَّمِ بِعِبَارَةِ الْأَمْرِ بالإِحْسَانِ إِلَيْهِما، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿. . وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا . .﴾ أي: وأحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وقد جَعَلَ اللهُ الإِحْسانَ بالوالِدَيْنِ أمراً واجباً. يُقَالُ لغة: «أَحْسَنَ بِهِ، وأَحْسَنَ إِلَيْهِ» أي: فَعَلَ مَا هُو حَسَن. وإِذْ جعل اللهُ الْإِحْسَانَ بالْوَالِدَيْنِ وَاجباً، فَتَرْكُ الإِحْسَانِ إِلَيْهِما مُحَرَّمٌ مِنَ الْمُحَرَّمَات، وهُوَ مِنَ الْعُقُوق.

الْمُحَرَّمُ الثَّالِث: قَتْلُ الْأَوْلَادِ مِنَ الْفَقْرِ للتَّخلُّصِ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَيْهِم، دَلَّ عَلَىٰ هٰذا الْمُحَرَّمِ الشَنِيع قولُ اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ فِي النَّصّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾:

الإِمْلَاقُ: الْفَقْر، يُقَالُ لُغَةً: «أَمْلَقَ فُلَانٌ إِمْلَاقاً» أي: افْتَقَر.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الإِسْرَاءِ/ ٥٠ نزول) قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هٰذِهِ الآيَةِ في مَوْضِعِها من سُورَة (الإِسْراء)، وَسَبَقَ بَيَانُ التَّكامُلِ الْفِكْرِيّ بَيْنَ النَّصَّيْنِ، فآية (الإِسْرَاء) دَلَّتْ عَلَىٰ خَشْيَةِ حُدُوث الْفَقْرِ في المُسْتَقبل، وآيَة (الأنْعَامِ) دَلَّتْ على أنَّ الْفَقْرَ مَوْجُودٌ، ولهٰذا جَاءَ التَّعْقِيبُ في النَّصَّيْن مُخْتَلِفاً بالتقديم والتَّأخير.

الْمُحَرَّمُ الرَّابعُ: الاقْتِرَابُ مِنَ الْفَوَاحِش ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، دَلَّ على هٰذا المحرَّم مِنَ النصّ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾:

الْفَوَاحِش: جَمْع «الفاحِشَة» وهِي كلُّ قبيح تجاوز حَدَّ ما يُحْتَمَلُ ويُغْضَىٰ عَنْهُ عادةً مِنْ قَوْلٍ أو فعلٍ، وكلُّ خَصْلَةٍ قبيحة.

وقَدْ نَظَرْتُ فِي الاِسْتِعْمَالات القرآنِيَّةِ لهـٰذِهِ المادة، فَوَجَدْتُ أَنَّها تَدُورُ حَوْلَ الكَبَائِرِ المُتَعَلِّقَةِ بِشَهَواتِ الفروج، وتَرَجَّحَ لَدَيَّ أنْ يُحْمَلَ مَا جَاءَ مِنْهَا مُطْلَقاً لَمْ تُبَيِّنْهُ القرائِنُ على ما جاءَ مِنْها مُبَيّناً بالقرائن، فهي في الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ مُخَصَّصَةٌ بهـٰذا الإطار مِنَ المعاصِي اصْطِلاحاً واللهُ أعْلم.

والنَّهْيُ عَن الاقْتِرَابِ أَشدُّ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْفِعْلِ، والاقْتِرَابُ مِنَ الْفَوَاحِشِ يَكُونُ مَثلاً بالْخَلْوَةِ، وبالملامَسَة، وبالتَّقْبِيلِ والمُعَانَقَة، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِشَهْوَةٍ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عَنِ الْوُقُوعِ بالكَبِيرَة.

أَمَّا مَا ظَهَرَ مِنْها فَهُوَ مَا يَكُونُ لَهُ بُيُوتٌ ذاتُ رَايَاتٍ خاصَّةٍ تُعْرَفُ بِبُيُوتِ الْبَغَايَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ فَوَاحِشَ مُعْلَنَةٍ.

وأَمَّا مَا بَطَنَ مِنْها فَهُوَ مَا يَكُونُ سِرّاً مع الْخَلِيلاتِ، والزِّنَا بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ النَّاس، وعَنْ مَوَاطِنِ الظَّنِّ الْمُرِيب، ومِمَّا بَطَنَ مِنْهَا إِتْيَانُ الذُّكُورِ، وهُو مِنْ قَبَائِحِ السَّدُومِيِّينَ قَوْمِ لُوط.

الْمُحَرَّمُ الْخَامِسُ: قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها بِغَيْرِ حَقٍّ. دَلَّ على هـٰذا الْمُحَرَّم مِنَ النّصّ قولُ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ: ﴿.. وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ..﴾.

قَتْلُ النَّفْسِ: هُوَ كُلُّ عَمَلٍ يُؤَدِّي إلى انْفِصالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ، الَّذِي تَذُوقُ بِهِ النَّفْسُ الموْت.

أي: وَلَا تَقْتُلُوا أيَّ نَفْسٍ حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها بِغَيْرِ حَقٍّ، فالنَّهْيُ مُسَلَّطٌ عَلَىٰ قَتْلِ نَفْسٍ جَعَلَ اللهُ قَتْلَهَا حَراماً بِغَيْرِ حَقٍّ، أَمَّا النُّفُوسُ الَّتِي لَمْ يَجْعَلِ اللهُ قَتْلَهَا حَراماً فَلَيْسَتْ داخِلَةً ضِمْنَ الْمَنْهِيِّ عَنْه، كَنُفُوسِ أَفْرادِ جَيْشٍ جَاءَ لِمُقاتَلَةِ الْمُسْلِمِين.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ﴾: أي: ولَا تَقْتُلُوا أَيَّ نَفْسٍ حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها فِي عُمُومِ الأَحْوالِ، إلَّا حَالَةَ كَوْنِ قَتْلِها مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ.

وَجَاءَ في النُّصُوصِ الموزَّعَةِ بَيانُ الحقِّ الَّذِي تُقْتَلُ بِهِ النَّفْسُ، فَمِنَ الْقَتْلِ بالْحَقِّ ما يَلِي:

(١) الْقِصَاصُ الَّذِي لَا يَعْفُو عَنْهُ أحَدُ وَرَثَةِ الْقَتِيلِ، فالنَّفْسُ بالنَّفْس.

(٢) الزَّانِي المُحْصَنُ الَّذِي اعْتَرَفَ بِزِنَاه، أَوْ شَهِدَ بِزِنَاهُ بَعْدَ إحْصانِهِ أَرْبَعَةُ شُهُودٍ رَأَوْهُ وَهُوَ يَزْنِي، وليس لِهٰذا مِثَالٌ وَاحِدٌ في تاريخ المسلمين.

(٣) المُرْتَدُّ عَنِ الإِسْلَامِ بَعْدَ إعْلَانِهِ إسْلَامَهُ سَخْطَةً عَلَيْهِ، ومُفَارَقَةً لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمين، والْغَرَضُ مِنْ قَتْلِهِ حِمَايَةُ المُسْلِمين من المتلاعِبين ذوي الْكَيْدِ بالدُّخُولِ في الإِسْلَامِ والْخُرُوجِ منه.

(٤) الّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ في الْأَرْضِ فَسَاداً، كما جاء في الآية (٣٣) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول).

(٥) الخائِنُ لِلْمُسْلِمين الّذي يُعِينُ أَعْدَاءَهُمْ الْكَافِرين عَلَيْهِم، فَلِلسُّلْطَةِ الْمُسْلِمَةِ إذا ثَبَتَتْ لَدَيْهَا إدَانَتُهُ بِجَرِيمَتِهِ أَنْ تَقْتُلَه.

(٦) الصَّائِلُ الَّذِي يَأْتِي مُقَاتِلاً للسَّلْبِ والسَّطْو، فَلِلْمُعْتَدَىٰ عَلَيْهِ أن يُدَافِعَ عَن نَفْسِه، بالأَخَفِّ فالأَشَدِّ حَتَّىٰ الْقَتْل، إنْ لَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً أخَفَّ من الْقَتْلِ يَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِه.

وَعَقَّبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ بَيَانِ الْمُحَرَّمَاتِ الْخَمْسَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

﴿.. ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾: أي: ذَلِكُمُ المَذْكُورُ مُفَصَّلاً في الآيَةِ نَهاكُمْ اللهُ عَنْهُ وَفَرَضَهُ عَلَيْكُم، رَغْبَةً في أَنَّ تَعْقِلُوا عَقْلاً عِلْمِيّاً وَعَقْلاً إرادِيّاً.

يُقَالُ لغةً: «وصَّىٰ، وأَوْصَىٰ فُلاناً بِكَذَا» أي: أَمَرَهُ بِهِ وَفَرَضَهُ عَلَيْه.

لَعَلَّ: قَالُوا: مَعْنَاهَا التَّرَجِّي والتَّوَقُّع. **وأَقُول**: بما أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ بما كانَ وبما هُوَ كَائِنٌ وبِمَا سَيكُون، فالمرادُ لَازِمُ المَعْنَىٰ، وهُوَ الرَّغْبَة. أي: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ رَبُّكُمْ بِهِ رَغْبَةً فِي أَنْ تَعْقِلوا.

﴿تَعۡقِلُونَ﴾: **الْعَقْلُ**: عَقْلَان: عَقْلٌ عِلْمِيٌّ، وعَقْلٌ إرادِي.

- **فَالْعَقْلُ الْعِلْمِي**: يَكُونُ بِتَقْيِيدِ الْمَعْلُومَةِ في الذَّاكِرَة، وحِفْظِهَا فِي مَكَانِ حِفْظِ المَعْلُومَاتِ في جهاز المَعْرِفَةِ، واسْتِدْعَائِهَا عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لِتَذَكُّرِها.

- **والْعَقْلُ الإرادِي**: يَكُونُ بِضَبْطِ النَّفْسِ ضَبْطاً إراديّاً عن اتّباع الأهْواء، والشَّهوات، وعَنِ الْجُنُوحِ عَنْ صِراطِ اللهِ المُسْتَقِيم في السُّلُوكِ.

هٰذا التَّعْقِيبُ قدْ جَاءَ فاصِلاً جَمِيلاً مُخَفِّفاً مِنْ تَوالِي ذِكْرِ الْمُحَرَّمَاتِ بالتَّتَابع. وجَاءَ في النصّ فاصِلٌ آخَرُ مُشَابِهٌ مَعَ تَغْيِيرٍ تكَامُلِيٍّ نَفِيس، وفاصِلٌ ثالِثٌ مُشَابِهٌ أيْضاً مَعْ تَغْيِيرٍ تَكَامُلِيٍّ نَفِيسٍ أيْضاً في آخِرِ الدَّرْسِ.

الْمُحَرَّمُ السَّادِسُ: الاقْتِرَابُ مِنْ مَالِ الْيَتِيم إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أشُدَّهُ، وَيُسَلَّمَ إِلَيْهِ مالُهُ، دَلَّ عَلَىٰ هٰذا الْمُحَرَّم مِنَ النَّصِّ قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ﴾:

أي: وَلَا تَقْرَبوا مَالَ الْيَتِيم بِتَصَرُّفٍ مَا أوْ بحَرَكَةٍ ما، إلَّا بالْحَرَكَةِ الَّتي هِيَ أحْسَنُ مِنْ عَدَمِ الاقْتِرَابِ مِنْه، كَحِفْظِهِ، أَوْ تَنْمِيَتِهِ تَنْمِيَةً صَحِيحَةً، مَعْرُوفَةَ النَّتَائِجِ، كَتَأْجِيرِ عَقَارٍ، واسْتِغْلَالِ أَرْضٍ بالْمُزَارَعَةِ، وَشِراءِ ثَوابِتَ لَا مُخَاطَرَةَ فِيها.

فالمَعْنَىٰ: ولا تَأْكُلوا من مَالِ اليتيم الّذي أَنْتُمْ أَوْلِياءُ أَوْ أَوْصِيَاءُ عَلَيْهِ، شيئاً بغير حق.

وقد سبق بَيَانُ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الاقْتِرَابِ أَبْلَغُ مِنَ النَّهْي عن الْفِعْلِ الْمُحَرَّم.

الْيَتِيم: هو الصغير الّذي مَاتَ أَبُوه من الناس، ويَبْقَىٰ يتيماً حَتَّىٰ يَبْلُغَ الحُلُم. ويُجْمَع لفظ «يَتِيم» على «أَيْتَام» و«يَتَامَىٰ».

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: حَتَّىٰ يَكُونَ قَادِراً على إِدَارَةِ أَمْوَالِهِ بِعَقْلٍ وَرُشْد، لَا بِسَفَهٍ وَتَبْذِير، فَبُلوغُ الْحُلْمِ لَا يَكْفِي وَحْدَهُ، بَلْ لا بُدَّ مِنْ إِينَاسِ الرُّشْدِ، لِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾.

أَشُدُّ الشَّيْء: اكْتِمالُه. وأَشُدُّ كُلِّ شَيْءٍ اكْتِمَالُ تَنَامِيهِ بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الْقَابِلَةِ للاكْتِمَال.

الْمُحَرَّمُ السَّابع: عَدَمُ إِيفَاءِ الكيلِ والمكْيَالِ وَالْوَزْنِ والميزانِ بالْقِسْطِ، دَلَّ على هٰذا الْمُحَرَّم مِنَ النَّصّ قَوْلُ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ: ﴿.. وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ .. (١٥٢)﴾.

أي: واجْعَلُوا الكَيْلَ والمكْيَالَ والْوَزْنَ وَالْمِيزَانَ وافِيَةً تَامَّة غَيْر مَنْقُوصَةٍ، جَاءَ التعبير بالأمرِ بالْوَفَاءِ، للدَّلالَةِ بِهِ على تَحْرِيم عَدَمِ الْوَفاء.

يُقَالُ لُغة: «أَوْفَىٰ الشَّيْءَ، يُوفِيهِ، إِيفَاءً» أي: أَتَمَّهُ وَافِياً كامِلاً غَيْر مَنْقُوص.

الكيلُ: التَّقْدِيرُ بالمِكْيالِ. **المِيزَانُ**: الْأَدَاةُ الَّتي يُوزَنُ بها.

دَلَّ الكَيْلُ على الْوَزْن، ودَلَّ المِيزانُ عَلَىٰ المِكْيَال، وباسْتِخْرَاجِ المطْوِيَّيْنِ تَكُونُ الْعِبَارَة: وَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِكْيَال، والْوَزْنَ والْمِيزان، فهٰذِهِ كُلُّها يَجِبُ إيفاؤها.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أي: مُتَّصِفاً بالْعَدْلِ كَيْلُكُمْ ومِكْيَالُكُمْ، وَوَزْنُكُمْ

ومِيزانُكُم، ويُقَاسُ على الكَيْلِ والوزنِ تَقْدِيرُ كُلِّ شَيْءٍ بأيَّةِ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائل، كَعَدِّ الْوَحْدَاتِ المتماثِلَاتِ بآلَةِ عَدٍّ ألِكْتْرُونِيّة.

وَجَاءَتْ عِبَارَة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ مُشِيرَة إلَىٰ أَنَّ النَّاسَ قَدْ يَعْجِزُونَ عَنْ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ الْكَامِلِ، بَيْنَ مَنْ يُكَالُ أو يُوزَنُ مِنْهُ، وَبَيْنَ مَنْ يُكالُ أَوْ يُوزَنُ لَهُ، فَمَا عَجَزُوا عَنْ تَحْقِيقِهِ فَلَا مَسْؤُولِيَّةَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، إذْ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلَّا وُسْعَها، أي: إلَّا مِقْدَارَ طَاقَتِهَا واسْتِطَاعَتِها، وهذا احْتِرَاسٌ حَكيم، لَوْلَاه لَتَحَرَّجَ الْمُتَّقُونَ من الكَيْلِ والوزن، خَوْفاً مِنْ مُجَانَبة القِسْطِ في الحبَّاتِ والذّرّات.

الْمُحَرَّمُ الثامِنُ: عَدَمُ الْعَدْلِ بالْقَوْلِ، الَّذِي يَجْرِي بَيْنَ النَّاسِ في مُعَامَلَاتِهِم. دَلَّ على هٰذا الْمُحَرَّمِ مِنَ النَّصِّ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ وَتَبارَكَ: ﴿.. وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ .. ﴿١٥٢﴾﴾:

جاء التَّعْبير عَنْ تَحْرِيمِ عَدَمِ الْعَدْلِ في الْقَوْلِ بالأمْرِ الإلْزَامِي بالْعَدْلِ فيه.

إنَّ الْعَدْلَ في الْقَوْلِ يَتَطَلَّبُ طَرَفَيْنِ: طَرَفاً يَكُونُ الْقَوْلُ مُثْبتاً لَهُ الْحَقّ، وَطَرَفاً يَكُونُ الْقَوْلُ مُثْبِتاً عَلَيْهِ الْحَقَّ لِلطَّرَفِ الأَوَّلِ.

وَهٰذا الْقَوْلُ الّذِي يأمُرُ اللهُ بالْعَدْلِ فِيه ويُحَرِّمُ فِيهِ مُجَانَبَةَ الْعَدْلِ يَكُونُ في أُمُورٍ كثيرةٍ جدّاً، ومِنْها مَا يلي:

(١) الشَّهادَةُ إذْ قَدْ يَكُونُ فيها مَشْهُودٌ لَهُ، وَمَشْهُودٌ عَلَيْه، واللهُ قدْ أَمَرَ بأنْ تَكُونَ بالْعَدْلِ، فَلَا يُظْلَم المَشْهُودُ لَهُ، وَلَا يُظْلَمُ المَشْهُودُ عليه.

(٢) القَضَاءُ الَّذِي يَصْدُرُ بِهِ نُطْقُ الْقَاضِي بالْحُكْم، واللهُ قدْ أَمَرَ بِأن يَكُونَ بالْعَدْلِ، فَلَا يُظْلَمُ الْمَقْضِيُّ لَهُ بِشَيْءٍ، ولا يُظْلَمُ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ بِشَيْء، وَلَا يُظْلَمُ حَقُّ اللهِ وَهُوَ مَا يُسَمَّىٰ بِالْحَقِّ الْعَامّ بِشَيْء.

(٣) التَّعْدِيل والْجَرْحُ، والْعَدْلُ فيهما الْتِزَامُ الْحَقِّ في كُلٍّ مِنْهُما، فَلَا يُظْلَم الْمُعَدَّلُ أو المُجَرَّحُ، ولَا يُظْلَمَ حَقُّ اللهِ ذُو الأثر العامّ.

(٤) الفتوى، والْعَدْلُ فيها الْتِزَامُ الْحُكْم الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الدليلُ الحقُّ، دُونَ غُلُوٍّ فيه مُحَابَاةً لِلّذِينَ يُحِبُّونَ التَّشَدُّدَ في أحْكامِ الدين، ودُونَ تَهَاوُنٍ وَتفْرِيطٍ مُحَابَاةً لِلَّذِين يُحِبُّونَ التَّهاوُنَ والتَّسَاهُلَ في أحْكَامِ الدِّينِ إرْضَاءً لِأَهْوَائِهِم وشَهَواتِهم.

إلى غير ذلِكَ مِنْ أُمُورٍ يَصْعُبُ حَصْرُها.

وبما أَنَّ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ قدْ يَكُونُ ذَا قُرْبَىٰ، كَأَبٍ وَابْنٍ وأَخٍ، ويَجِدُ صَاحِبُ الْقَوْلِ أَنَّ مُجَانَبَتَهُ لِلْعَدْلِ تَنْفَعُ قَرِيبَهُ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ في البيان أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ولَوْكَانَ الَّذِي تُجَانِبُونَ الْعَدْلَ مِنْ أَجْلِه ذَا قُرْبَىٰ لَكُمْ.

وَيُقاسُ عَلَىٰ ذِي الْقُربَىٰ صَدِيقٌ وَحَبِيبٌ وزَوْجٌ وَزَوْجَةٌ، وَكُلُّ مَنْ يُرِيدُ صَاحِبُ الْقَوْلِ مُجَانَبَةَ الْحَقِّ مِنْ أَجْلِهِ، وكذَلِكَ مَنْ كَانَ المَجْنُوفُ عَلَيْهِ مَكْرُوهاً مَبْغُوضاً، أَوْ عَدُوّاً لِصَاحِبِ الْقَوْلِ.

الْمُحَرَّمُ التَّاسِعُ: عَدَمُ الْوَفَاءِ بِعَهْدِ الله، دَلَّ على هَـٰذَا الْمُحَرَّمِ مِنَ النصّ قولُ الله تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿.. وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ..﴾:

الْعَهْد: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا أمَرَ اللهُ به أَوْ نَهَىٰ عَنْه. ويُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا بَيْنَ الْعِبادِ مِنْ مواثِيق وثَّقُوها بالْحَلِفِ باسْم من أسْماءِ الله. ويُطْلَقُ عَلَىٰ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ الْعَبْدُ تُجاهَ رَبِّهِ وَيُبَايعُ عَلَيْهِ، كَالْأَعْمَالِ الَّتِي كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ عَلَيْهَا، فَهِيَ عَهْدٌ مَعَ اللهِ، وَيَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم.

وإضَافَةُ الْعَهْدِ إلىٰ الله، هِيَ مِنْ إضَافَة الْمَصْدَرِ إلى فاعِلِهِ، إذا كان بمَعْنَىٰ أَوَامِرِ اللهِ وَنواهِيه. وَمِنْ إضَافةِ المَصْدَرِ إلى المَفْعُولِ به، إذا كان بمَعْنَىٰ الْتِزامِ الْعَبْدِ تُجاهَ رَبِّهِ بِعَمَلٍ مَا، كالْجِهادِ في سَبِيلِهِ، ونُصْرَةِ رَسُوله،

وَمِنْ هـٰذِهِ الإِضَافَةِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْعِبَادِ من مَواثِيق وَثّقُوها بالْحَلِفِ باسْم من أسماء اللهِ تَعَالَىٰ، لِأَنَّ هـٰذا التَّوْثِيقِ بِمَثَابَةِ عَهْدٍ يُعَاهِدُ بِهِ الْمُوثِّقُ اللهَ رَبَّهُ أَنْ يَفِي بِه لِمَنْ أَعْطَاهُ الْوَعْدَ من النّاس.

وَيُطْلَقُ الْعَهْدُ عَلَىٰ الْوَصِيَّةِ وَعَلَىٰ الشَّيْءِ الَّذِي يُودَعُ عِنْدَ الْمُسْتَأْمَنِ لِيُؤدِّي به عَمَلاً مَا بإِذْنِ الْمُودِعِ، إلى غير ذلك مِنْ مَعَانٍ.

(١) فقول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿.. وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

هو بمَعْنَىٰ: أمَرْنَا، وكَلَّفْنَا.

(٢) وقول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المؤمِنين من أصحاب الرَّسُول ﷺ، في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

هو بمَعْنَىٰ الْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، وصِدْقُهُمْ قَدْ كَانَ بِوَفَائِهِمْ به.

(٣) وقول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْن ما جَرَىٰ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والمشركين من عَهْدٍ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

هو من الْعَهْدِ الّذِي يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ، وقَدْ يُوَثِّقُونَهَا بِالْحَلِف باسم من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقَدْ جاءَ هـٰذا الْمُحَرَّمُ بِصِيغَةِ الأمْرِ بِالْوَفاءِ بِعَهْدِ اللهِ، وإذْ يَقْتَضِي

الأمْرُ وجُوبَ الْوَفَاءِ بالْعَهْدِ، فإنَّ عَدَمَ الْوَفَاءِ بِهِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ جَلَّ جَلالُه.

وَعَقَّبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ بيان الْمُحَرَّمَاتِ الأرْبَعَةِ، من (٦ ـ ٩) بِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ وَهـٰذا نظير التّعْقيبِ السَّابِقِ، مع تَبْدِيل عِبَارَةِ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بِعِبَارَة: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أي: رَغْبَةً فِي أَنْ تَضَعُوا ذلِكَ الّذي وصَّاكُمْ بِهِ من المحرَّمَاتِ في ذَاكِرَاتِكُم ورَغْبَةً في أَنْ تَسْتَدْعُوا مِنْهَا في كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بها.

والمرادُ بالتَّذَكُّرِ الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِحُضُورِ الْمَعْلُومَةِ في الذاكِرَة، اسْتِدْعَاءً لَهَا مِنْ خَزَائِنِ الْمَعْرِفَةِ في النفس، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لَهَا مِنَ الخارج، عَنْ طَرِيقِ بيانٍ وارد، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيٍّ ذَاتِيٍّ، أو بتَأْثِيرِ حَدَثٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ كَوْنِيَّةٍ، أو غير ذلك، لِلْعَمَلِ بالمَطْلُوبِ الدِّينيّ فيما جاء به التّذَكُّر.

فالْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ والسُّلُوكِيُّ، هو المَطْلُوب الديني مِنَ التَّذَكُّر.

وهـٰذا التَّعْقِيبُ لِلْمُحَرَّمَاتِ الْأَرْبَعَةِ يَصْلُحُ تَعْقِيباً لِلْمُحَرَّمَاتِ الْخَمْسَةِ الأولىٰ وللأخير مِنْها، والتَّعْقِيبُ لِلْمُحَرَّمَاتِ الْخَمْسَةِ يَصْلُحُ تَعْقِيباً لِسَائِرِ الْمُحَرَّمَاتِ بَعْدَهَا. والتَّعْقِيبُ الْأَخِيرُ الآتِي في الدَّرْسِ يَصْلُحُ لِكُلِّ الْمُحَرَّمَات. فالتّعْقِيباتُ الثَّلَاثَة هِي بِمَثَابَةِ تَعْقِيبٍ لَهَا جَمِيعاً، وَهـٰذا مِنْ بَدَائِعِ الْفُنُونِ الْقُرْآنِيَّة، الْقَائِمَة عَلَىٰ التَّوْزِيعِ في النَّصّ والتعميم في المرادِ، لأنَّ الْمُحَرَّمَات تَصْلُحُ لَهَا جَمِيعاً كُلُّ هـٰذِهِ التَّعْقِيبَات.

الْمُحَرَّمُ الْعَاشِر: عَدَمُ مُجَانَبَةِ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم، وَعَدَمُ اتِّبَاعِ السُّبُلِ الآخِذَة بَعِيداً عَنْهُ، إلى الْمَهَاوِي والمهالِكِ والضَّلالَاتِ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ وَمِنْ ذَاتِ الشِّمَال. دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا الْمُحَرَّم قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في النصّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ .. ﴿١٥٣﴾﴾:

إنَّ صِرَاطَ اللهِ يَشْمَلُ مَطالِبَ الدِّينِ كُلَّها، عَقِيدَةً، وَعَمَلاً إرادِيّاً، نَفْسِيّاً أَوْ جسدِيّاً، فَرْدِيّاً أَوْ اجْتِماعِيّاً.

فَمَنْ جَانَبَ صِرَاطَ اللهِ الْمُسْتَقِيمَ وَجَدَ أَمَامَهُ سُبُلاً عَدِيدَة مُتَفَرِّقَةً لَا حَصْرَ لَهَا، وكُلُّ هٰذِهِ السُّبُلِ الْمُتَفَرِّقَةِ تُوصِلُ إِلَىٰ نَكَدِ الْحَيَاةِ الدُّنيا وَضَنْكِهَا مَقْرُونَةً بِلَذَّاتٍ عَابِرَاتٍ مُغْرِيَاتٍ، لٰكِنَّ عَاقِبَتَهَا الْخُلُودُ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

هٰذَا الْمُحَرَّمُ الْعَاشِرُ شَامِلٌ لِكُلِّ ما فَرَضَ اللهُ على عِبَادِهِ، ولِكُلِّ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدّنيا، ولَوْ لَمْ يُذْكَرْ بِتَفْصِيلٍ في الْمُحَرَّماتِ التِّسْعِ الَّذي جاء في النّصّ بيانها، حتَّىٰ الَّتِي لَمْ يَنْزِلْ في الْقُرْآنِ بَيَانٌ عَنْهَا فيما سَبَقَ أَنْ أنزلَ اللهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيل.

فالمشارُ إِلَيْهِ صِرَاطٌ مَوْضُوعٌ فِي الْخُطَّةِ، ويُبَيِّنُهُ اللهُ شَيْئاً فَشَيْئاً في نُجُومِ التَّنزيل، حَتَّىٰ إِتْمَامِ وَإِكْمَالِ الدِّينِ كُلِّه، الَّذي هُوَ نِعْمَةُ اللهِ الْعُظْمَىٰ عَلَىٰ عِبَادِه.

وَعَقَّبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ بيان هٰذا الْمُحَرَّمِ الْعَاشِرِ بِقَوْلِه: ﴿.. ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾: أي: رَغْبَةً في أنْ تَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ في هٰذِهِ الْوَصَايا، فَتَتَّقُوا عَذَابَ رَبِّكُمْ الَّذي تَوَعَّدَ بِهِ مُرْتَكِبِي مَا حَرَّمَ عَلَيهم.

وبهٰذا تمَّ تَدَبُّر الدَّرس الحادي والثلاثين من دُروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوفِيقِه وَتَفْهِيمِهِ وَفَتْحِه.

* * *

(٣٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني والثلاثين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٥٤ ـ ١٦٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ

وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن
كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ
مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ
يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ
ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ
كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ
شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن
جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

القراءات:

(١٥٧) ● قرأ حَمْزَة، والكسائي، وخَلَف، ورُوَيْس: **[يَصْدِفُونَ]** بإشْمَامِ الصَّاد زاياً، في المَوْضِعَيْن.

وقرأها بَاقي القرّاء الْعَشْرَةِ بالصادِ الْخَالِصَةِ.

(١٥٨) ● قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[إِلَّا أَنْ يَأْتِيهُمْ]** بياء المضارعة.

وقرأها رُوَيْس، والسُّوسي، وأبُو جَعْفَر: **[إِلَّا أَنْ تَاتِيَهُمْ]** بتاء المضارعة وبإبْدَال الهَمْزَةِ من «تَأْتِيَهُمْ» ألِفاً مَدّيَّة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ]** بتاء المضارعة، وبالْهَمْزَةِ دُونَ إبْدال.

(١٥٩) ● قرأ حَمْزَة، والكِسَائي: **[فَارَقُوا]** مِنَ المفارَقَة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَرَّقُوا]** مِنَ التَّفْرِيق.

وبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداءِ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ، فالَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً مُخْتَلِفَةً، قَدْ فَارَقُوا دِينَهُمْ الْحَقَّ.

(١٦٠) • قَرأ يَعْقُوب: [**فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالُهَا**] بتنوين عشر، ورَفْعِ «أَمْثالُها».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ العشرة: [**فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها**] بإضافة«عشر» إلى «أمْثالها».

ومؤدّىٰ القراءتَيْن واحد، وهما من التّفَنُّنِ في التعبير.

تمهيد:

آيات هذا الدَّرْس من فُرُوع السَّاقِ الأوّلِ مِنْ سَاقَي شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة.

وفيها بيانٌ دَعَوِيٌّ مُبَاشِرٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّة، مع إنْذَارِ بِعَوَاقِبَ وَخِيمَةٍ إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ رَبّهم.

وَفيها بيانٌ للرَّسُولِ بِشَأْن الْكَافِرِينَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وفَارَقُوه، وكَانُوا شِيَعاً، فَيُبَيِّن اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فِيه انْفِصَالَهُ التَّامَّ عَنْهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ، ولو كانوا عَشِيرَتَهُ الأقربين.

التَّدَبُّر التَّحْلِيلِي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

دلَّنِي الْعَطْفُ بِحَرْفِ الْعَطْفُ «ثُمَّ» الَّذِي هو بحَسبِ أصْلِ الوضْعِ يَدُلُّ على الترتيب مع الْمُهْلَةِ المتراخِيَةِ في الزَّمنَ، علَىٰ أَنَّ مَا جاء في الآية

(١٤٥): ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ . .﴾. ومَا جاء في الآيات من (١٥١ ـ ١٥٣) قَدْ سَبَقَ أَنْ كَانَ مِنْ دِينِ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ رَسُولاً لِلْعَرَبِ، وَوَرِثُوا عَنْهُ تعظيم البيت الحرام، وشعائرَ الحجّ والصَّلاة، وغَيْرَهَا مِنَ العبادات وفَضَائِلِ السُّلُوكِ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ إِلَيْهِمُ الْوَثَنِيَّةُ، والانْحِرَافات السُّلُوكِيّةِ الْمُخْتَلِفَة، وبقِيَتْ مَعْمُولاً بِهَا مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ في الْبِيئَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهِيَ مِنْ شَرَائِعِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا في الرِّسَالَات السَّابقَات، إِذْ هِيَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِكُلِّ النَّاسِ فِي كُلّ الرِّسَالَات.

ثُمَّ آتَىٰ اللهُ مُوسَىٰ كِتَابَ التَّوْرَاة، فَهُوَ بِحَسَبِ التَّرْتِيبِ الزَّمَنِي مُتَأَخِّرٌ عَمَّا جاء به إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلام لِلْعَرَب، واخْتِيرَ في النّصّ التَّعْبِيرُ بحرف العطف «ثم» لِلْإِشْعَارِ بهٰذا، وهو مِنْ أَدِلَّةِ وَحْدَةِ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ للناسِ.

فحرف العطف «ثُمَّ» هُنَا لَا حَاجَةَ إِلَىٰ اعْتِبَارِ الترتيب والتراخِي فِيه تَرْتِيباً رُتْبِيّاً، وَلَا إِلَىٰ تَخْرِيجات أُخْرَىٰ يُخْرِجُ النَّصَّ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِه، فالْمُعَالَجَة تَدُور حَوْلَ فَسَادِ الأَحْكَام الجاهِلِيَّة الَّتِي افْتَرَاهَا الْمُشْرِكُونَ عَلَىٰ الله، وَبيَانِ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْذُ عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ كَانَ وَفْقَ مَا جَاء في الآيات (١٤٥) و(١٥١) و(١٥٢) و(١٥٣) والْأَحْكَامُ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا هٰذِهِ الآيَاتُ مِنْ شَرَائِعِ اللهِ وأَحكَامِهِ فِي الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّتِي بَعَثَ اللهُ مُحمّداً ﷺ بها للنَّاسِ أجْمَعِين.

- ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَمَا أَنْزَلْنَا فِي الرِّسَالَاتِ السَّابِقات أَحْكَاماً وشرائع هي من الدِّين الذي اصْطَفَيْنَاهُ للنَّاس، وهي كافياتٌ ومُلائمات للأقوام الّتي كُلّفَتْ أَنْ تَعْمَلَ بها، آتينا مُوسَىٰ كِتَابَ التَّوْرَاةَ حَالَةَ كَوْنِهِ تَمَاماً كامِلاً في أَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، مَحْمُولاً بِتَمامِهِ عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ إيماناً وإِسْلَاماً وَعَملاً، وَحَرَصَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مُحْسِناً مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان.

- ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: وَتَبْييناً لِكُلِّ شيءٍ مُلائم لابْتِلاءِ بَني إسْرَائِيل، ولِغَيْرِهِمْ مِنَ الأَقْوام الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائيلَ في عُصُورِهِم، في رِحْلَة الحياةَ الدُّنيا.

- ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: أُطْلِقَ عَلَىٰ التوراة أَنَّهُ هُدىً، للدَّلالَة عَلَىٰ أنَّ ما فِيه يَهْدِي إلى الحقّ والخَيْر، وفَضَائِلِ الأَعْمالِ الظاهِرَة والباطِنَة، فهو بمثابَةِ عَيْنِ الْهُدَىٰ. لفظ «الْهُدَى» مَصْدَرُ «هَدَاهُ يَهدِيه».

وأُطْلِقَ علىٰ التوراة أنَّهُ رَحْمَةٌ لِأَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، وهـٰذا مِنْ إطْلَاقِ اسْمِ الشيءِ علىٰ آثاره، فهُوَ مَجازٌ مُرْسَل.

﴿.. لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ يُؤْمِنَ بَنُو إسْرَائيلَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الْجَزاء. فَقَدْ كَانَ الْجُمْهُورَ الأَعْظَمُ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلِ إبَّانَ تَنْزِيلِ التَّوْرَاة عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام غَيْرَ مُؤْمِنين إيماناً صَحِيحاً بِيَوْم الدِّين، وَهَـٰذا ما جعلَهُمْ يَعْبُدونَ الْعِجْلَ الذَّهَبِيّ الَّذِي صَنَعَهُ لَهُمْ السَّامِرِيُّ، في المُدَّة التي ذَهَبَ فِيها مُوسَىٰ إلى مُنَاجَاةِ رَبِّهِ وَهُمْ فِي سِيناء، بَعْدَ اجْتِيَازِهِمْ بَحْرَ سُوف، بالمعجزَةِ الخارقة الَّتِي آتاهَا اللهُ عَزَّ وَجلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

وَحِينَ قَالَ اللهُ لَهُمْ خُذُوا الكِتَابَ بِقُوَّةٍ، رَفَضُوا حَتَّىٰ رَفَعَ اللهُ جَبَلَ الطُّورِ فَوْقَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ بالْهَلَاكِ، فَخَضَعُوا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ وَخِطَاباً لِلْمُشْرِكِين المعالَجِينَ فِي السُّورَة:

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ..﴾: أي: وهـٰذَا الْقُرْآنُ الَّذِي يَتْلُوهُ رَسُولُنَا عَلَيْكُمْ نَجماً فنَجماً، نَحْنُ الَّذِينَ أنْزَلْنَاهُ، وهُوَ ذُو بَرَكَةٍ عظِيمَةٍ لَا تَنْضَبُ فُيُوضُ مَعَانِيه، وذُو خيراتٍ كثيراتٍ جدّاً، فِكْرِيَّةٍ، ونَفْسِيَّةٍ، وشِفَائِيَّة، وَغَيْرِ ذلك.

- ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾: أي: فآمِنُوا بمَا جَاءَ فِيه، واطَيعُوا مَا جاء فيه مِنْ أوامِرَ ونَوَاهِيَ وَوَصَايَا.

اتّبَاعُ إنْسَانٍ يَكُونُ باقْتِفَاء آثَارِه، والاقْتِدَاءِ به، واتّبَاعُ الْأَوامِرِ والنَّوَاهِي والْوَصَايَا يَكُونُ بالْعَمَلِ بها، واتّباعُ الْحَقِّ يَكُونُ بالْإيمانِ بأَنَّهُ حقٌّ، وبالْعَمَل بِما يَقْتَضِيهِ مِنْ عَمَلٍ، وبِتَرْكِ مَا يَقْتَضِيهِ مِنْ تَرْك. واتّبَاعُ الشَّيْطان يَكُونُ بالاسْتِجَابَةِ لإغْوَاءَاتِه وإغْرَاءاته وَوَسَاوِسه وَتَسْوِيلَاتِه.

- ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾: أَيْ: واتَّقُوا عَذابَ رِبِّكُمْ الَّذِي أَبَانَهُ لَكُمْ فِي وَعِيدِه الْمُؤَجَّلَ إلَىٰ يَوْمِ الدِّين، وَمَا قَدْ يَكُونُ مِنْهُ مُعَجّلاً فِي الدُّنيا.

- ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: رَاجِينَ أَنْ يَرْحَمَكُمْ رَبُّكُمْ، فَيَغْفرَ لَكُمْ بالإيمَانِ وَالْإِسْلَام واتِّبَاعِ كِتَابِهِ، سَوَابِقَ خَطَاياكُم، وَجَرائِمِكُمْ، وكُفْرِكُمْ بالْحَقِّ الَّذِي جاءَكُم بِهِ رَسُولُ رَبّكُم.

- ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾:

أي: نُوَجِّهُ لَكُمْ أيها الْمُشْرِكُونَ الْعَرَبُ، هـٰذا الأمْرَ باتِّبَاعِ الْقُرْآنِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ الْمبينِ، مَنْعَ أَنْ تَقُولُوا مُعْتَذِرِينَ عَنْ كُفْرِكُمْ يَوْمَ الدِّين: إنَّما أُنزِلَ الكِتَابُ الرَّبَّاني عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا هُمَا: الْيَهُودُ الّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ التَّوْرَاة، والنَّصَارَىٰ الَّذِين أَنْزَلَ عَلَيْهِم الإنْجِيلَ. وإنَّا كُنَّا عَنْ دِرَاسَةِ مَا عِنْدَ الْيَهُودِ والنَّصارَىٰ مِنْ كِتَابِ رَبَّانِيٍّ لَغَافِلِينَ، غَيْرَ شَاعِرِينَ بأَنَّهُ يَجبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتّبعَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَاب.

الْغَفْلَة عَنِ الشيء: انْصِرَافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ مَعَ وُجُودِهِ في مجال الإدْراك، أَوْ وُجُودِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ في مَجَالِ الْإِدْراك.

- ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ ..﴾:

أي: أَوْ مَنْعَ أَنْ تَقُولُوا: لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ الَّذِي هُو هُدىً وَرَحْمَةٌ مِنْ رَبِّنَا، لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنَ الْيَهُودِ والنَّصارىٰ.

- ﴿.. فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ..﴾:

أي: فَهٰذِهِ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيّة بِلُغَتِكُمُ الْعَرَبِيَّة، جَاءَتْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وهُو كِتَابُهُ الْقُرْآن، الَّذِي هُو هُدىً يَهْدِيكُمْ إلى الحقّ، وإلى صِراط رَبِّكُمْ الْمُسْتَقِيم، وَهُو أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ لإنْقَاذِكُمْ مِنْ عذابِ رَبِّكُمْ، ولِفَوْزِكُمْ بِالْخُلودِ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النّعيم، سُعَدَاءَ تَنَالُونَ كُلَّ مَا تُحِبُّونَ وَمَا تَشْتَهُونَ وَفَوْقَ مَا تَشْتَهُون.

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ .. ﴿١٥٧﴾﴾؟!

صَدَفَ عَنْها: أي: أعْرَضَ وَمَالَ عَنْها وَلَمْ يَتَّبِعْ مَا جاء فيها.

والاستفهامُ يُرادُ به النفي، أي: فلَا أحَدَ أظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بآيات اللهِ وَمَالَ عَنْها مُعْرِضاً غيرَ عَابِئٍ بما فِيها مَنْ هُدىً وخَيْرٍ وَإسْعَادٍ للمؤمنين.

والمرادُ بآياتِ اللهِ هُنَا آياتُهُ الْبَيانِيَّة الْمُنَزَّلَةُ عَلَىٰ رَسُوله.

- ﴿.. سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

أي: سَنَجْزِي الَّذِينَ يُعْرِضُونَ مَائِلِينَ عَنْ آياتِنَا الْمُنَزَّلَاتِ عَلَىٰ رَسُولِنَا، غَيْرَ عابِئِينَ باتِّباعِها وَالْعَمَل بمَا تَقْتَضِيه مِنْهُمْ، شَدِيدَ الْعَذَابِ وَشَاقَّهُ وَمُؤْلِمَهُ.

سُوءَ العذاب: أي: شديدَ العذاب، وشَاقَّهُ، ومُؤْلِمه، وهو من إضَافة

الصِّفة إلى الموصوف، وأصل الكلام: الْعَذَاب السُّوء، أي: الشّدِيد الشَّاقّ المؤلم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُحَذِّراً وَمُنْذِراً المعانِدِين من المشركين، وهو تَحْذِيرٌ دائِمٌ لِكُلِّ أَمْثَالهم:

● ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾.

أي؛ هَلْ يَنْتَظِرُونَ وهُمْ مُلازِمُونَ مَوَاقِعَهُمْ في الكُفْرِ إلَّا وَاحِدَةً مِنْ قَادِمَاتٍ ثَلاث:

القَادِمَة الأولى: قادِمَةُ الْعَذَابِ عِنْدَ قَبْضِ أرْواحِهِمْ، إذْ تَأْتِيهِمْ مَلَائِكَةٌ يَضْرِبُونَ وُجوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، كما جاء بيانُهُ في الآيَة (٥٠) من سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول).

القادمة الثانية: قَادِمَةُ مَوْقِفِ الْحِسَاب بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ، كَما قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الْفَجْر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾.

القَادِمَةُ الثالِثَة: قَادِمَةٌ كُبرىٰ مِنْ أشْرَاطِ السَّاعَةِ وآياتها، كخُرُوجِ الدَّابَّةِ الَّتي تُكَلِّم الناسَ، وكَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبها، دَلَّ على هٰذِهِ القَادمَةِ: ﴿.. أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ .. ١٥٨﴾:

ومن آياتِ رَبِّكَ إِنْزَالُ الْعَذابِ الْمُعَجَّلِ الشَّامِلِ بِهِمْ لإِهْلاكِهِمْ.

وأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ، أَنَّهُ حِينَ يأتي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ الَّتي سَبَقَ

بَيَانُها، لَا يَنْفَعُ نَفساً إيمانُها إذَا لَمْ تَكُن آمَنَتْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، أَوْ لَا يَنْفَعُ نَفساً خَيْرٌ تَكْسِبُهُ إذَا لم تَكُنْ كَسَبَتْ خَيْراً مَعَ إيمانِها قَبْلَ ذَلِك.

وكَسْبُ الْخَيْرِ في الْإِيمانِ، هُوَ عَمَلٌ مَا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ يَكُونُ تَعْبِيراً عن صِحَّةِ الْإِيمانِ وصِدْقِهِ في عُمْقِ الْقَلْبِ.

وَلَا يُشْتَرَطُ فِي نَفْعِ الإيمانِ إذَا جَاءَتْ بَعْضُ آياتِ اللهِ الَّتِي سَبَقَ بَيانُها، اقْتِرَانُهُ بِكَسْبِ خَيْرٍ في الإيمَانِ، إذْ لَوْ كَانَ هٰذا شَرْطاً لَما جَاءَ العَطْفُ بحَرْفِ «أَوْ» بَلْ لَجَاءَ بِالواو. فَحَرْفُ «أَوْ» دَلَّنا عَلَىٰ أَنَّ مَا بَعْدَهَا تَعْبيرٌ عَنْ قَضِيَّةٍ ثَانِيَةٍ، هِيَ قَضِيَّةُ كَسْبِ خَيْرٍ في الإيمان بَعْدَ مَجِيءِ بَعْضِ آياتِ رَبِّكَ، فَهٰذَا الكَسْبُ لَا يَنْفَعُ نَفساً مُؤْمِنَةً، لَمْ تَكُنْ كَسَبَتْ فِي إيمانِها خَيراً قَبْلَ ذَلِك، إذ الباعِثُ عَلَىٰ كَسْبِ الْخَيْرِ قَدْ كَانَ بَعْدَ إقْفَالِ بَابِ التَّوْبَة، والآراء المخالفة لهذا الفهم مَنْقُوضَةٌ بالنصوص القطعيّة في القرآن والسنّة.

- ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ . . ۝١٥٨﴾: أي: قُلْ لَهُم يا مُحَمَّدُ: انْتَظِرُوا تَحْقِيقَ آمَالِكُمْ بِمَوْتِي والتَّخَلُّصِ مِنِّي، أَوْ بِحُدُوثِ حَدَثٍ يُوقِفُ مَسِيرَةَ دَعْوَتِي، فأَنَا وَالّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي مُنْتَظِرُونَ نَصْرَ اللهِ لَنَا، ومُنْتَظِرُونَ أَنْ يُظْهِرَ دِينَهُ على الدِّين كُلّه.

وهٰذَا ما حَصَلَ فِعْلاً بَعْدَ بِضْعِ سنين.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ بشأن المشركين وغَيْرِهِمْ الَّذِينَ تَرَكُوا دينَ اللهِ الْوَاحِدِ، فَتَفَرَّقُوا أَدْيَاناً وَمَذَاهِبَ، وصَارُوا شيعاً وأَحْزَاباً كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحُون:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝١٥٩﴾:

أي: إنَّ الّذِينَ تَرَكُوا دينَ اللهِ وَصِراطَهُ المُسْتَقِيمَ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا

لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الَّتي بَلَّغْتَهُمْ إيَّاهَا، لَا بُدَّ أَنْ يَتَّخِذُوا سُبُلاً مُتفَرِّقةً مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشِّمَال، وَهٰذِهِ السُّبُلُ تَسِيرُ في انْحِدَارٍ إلى الْحَضِيضِ وعَذَابٍ أَلِيمٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّين، ولَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ دِينٌ بِحَسَبِ سَبِيلِهِ الانْحِدَارِيِّ الَّذِي اخْتارَه، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ قَدْ فَرَّقُوا دِينَهُمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَعَصَّبَ كُلُّ فَرِيقٍ لِدِينِهِ مُشَايعاً سَالِكِي سَبِيلِهِ الآخِذِينَ بِالدِّينِ الملائِمِ لِهٰذِهِ السَّبيل اعْتِقَاداً وَسُلُوكاً.

هَؤُلَاءِ لَسْتَ يَا مُحَمَّدُ فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ، ولَسْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ مُشَايَعَتِهِمْ، وَلَسْتَ مَسْؤُولاً عَنْ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهم، فَلَا تَحْمِلْ هَمَّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، إنَّما أَمْرُهُمْ إِلَىٰ الله، هُو الَّذِي يُحْبِطُ أَعْمَالَهُمُ الكَيْدِيَّة، وَهُوَ الَّذِي سَيُظْهِرُ دِينَهُ، وسَيَنْصُرُكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ عَلَيْهِمْ، وَسَتَأْتِيهِمْ آجَالُهُمْ دُونَ تَحْقِيقِ آمَالِهِمْ الّتِي يَنْتَظِرُونَ تَحْقِيقَها، وَيَنَالُونَ قِسْطاً مِنْ عَذَابِهِمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَفِي مُدَّةِ البرزخ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ لِيَقِفُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ للحسَابِ، وَفَصْلِ القضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، وحِينَ يُسَائِلُهُمْ رَبُّهُمْ يُنَبِّئُهُمْ بما كَانُوا يَفْعَلُونَ في الحياةِ الدُّنْيا حَيَاةِ الابْتِلاء، تَوْطِئَةً لِلْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بما يَسْتَحِقُّونَ مِنْ جَزَاءٍ بالْعَدْلِ.

شِيعاً: جمعُ «شِيعَةٍ» وهم القوم والجماعة من الناس، الَّذِين يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ أمْرٍ ما، وكُلُّ قَوْمٍ أو جماعَةٍ لهم أَمْرٌ يَسِيرُونَ عليه، أو طَرِيقَةٌ واحِدَة يَتّبعُونها.

والشيعةُ في الغالب يُنَاصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فيما اتَّفَقُوا عليه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ في خِتَامِ هَـٰذا الدَّرْسِ مُبَيِّناً الْقَاعِدَةَ الْعَامَةِ لِلْجزاءِ عِنْدَهُ يَوْم الدّين، إتْماماً لِلْحَدِيثِ عَنْ مَوْقِفِ حِسَابِ الّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شيعاً:

● **﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾**:

الْحَسَنَةُ: أي: المكْسُوبَةُ الحسَنَةُ بالاخْتِيَارِ الْحُرِّ مِنَ الموضوع في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

السَّيِّئةُ: أي: المكْسُوبَةُ السَّيِّئَةُ بالاخْتِيَارِ الْحُرِّ من الموضوع في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

وَقَدْ أبَانَتْ هـٰذِهِ الآيَةُ أَدْنَىٰ الْجَزَاءِ عَلَىٰ الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْحَسَنَةِ، وَهُوَ مُضَاعَفَةُ الثَّوَابِ عليها إلى عَشْرِ أمْثَالِها، وهـٰذه قابلَةٌ للزيادةِ بِفَضْلِ الله.

وأبانَتْ أَعْلَىٰ الجزاءِ عَلَىٰ الأعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وهو الْعِقَابُ عَلَيْها بِمِثْلِهَا فَقط، فَمَهْمَا بَلَغَ عِقَابُ الْمُسِيءِ عَلَىٰ سَيِّئَتِهِ فإنَّهُ لا يُجْزَىٰ إلَّا مِثْلَهَا، والْمُسِيئُونَ لَا يُظْلَمُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَهـٰذا الجزاء قَابِلٌ للنَّقْصِ مِنْهُ بِعَفْوِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ وَفَضْلِهِ علىٰ المسيئِينَ مِنْ عِبَادِهِ، ضِمْنَ مُقْتَضَياتِ حِكْمَتِه.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني والثلاثين من دُروس سورة (الأنعام). والحمد لله في مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(٣٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث والثلاثين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٦١ ـ ١٦٥) وهو الدرس الأخير

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم

مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

القراءات:

(١٦١) ● فتح ياء المتكلّم من [رَبِّيَ إِلَىٰ] نافع، وأبُو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقِي القراء العشرة.

(١٦١) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [دِيناً قَيِّماً].

وقرأها باقِي الْقُرّاء العشرة: [دِيناً قِيَماً].

وبين القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَداء المعنى المراد، فَمَعْنَى: «قَيِّم» مُسْتَقِيم استقامةً كاملَة، إذِ الصيغَةُ صيغَةُ مُبالَغةٍ لاسم الفاعل «قائم».

ويتَرَجَّحُ لَدَيَّ أنَّ الْمُرَادَ بِقِرَاءَةِ [دِيناً قِيَماً] دِيناً ذَا مَبَادِئَ عظيمةٍ تُقَوَّمُ بِهَا العقائِدُ وأَنْوَاعُ السُّلُوكِ الإنْسَاني، فاللَّفْظُ على هـٰذا جَمْعُ قِيمَةٍ، وهو نظير: «دِيمَةٍ، ودِيَم»⁽¹⁾.

(١٦١) ● قرأ هشام: [إِبْرَاهام].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [إِبْرَاهِيمَ].

(١٦٢) ● قرأ قالُون، وأبو جَعْفَر: [وَمَحْيَايْ] بِإِسْكَان الياء الثانية وصْلاً ووقْفاً، وحينئذٍ يَمُدَّان مَدّاً مشبعاً لأجل الساكنَيْنِ، وهـٰذا وجْهٌ لورش.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَمَحْيَايَ] وَهو الوجه الثاني لورش، وَحِينئذٍ لَا مَدّ.

---

(١) قال السمين: هذا على رأي البصريين إلّا الأخفش (انظر الآية (٥) من سورة النساء).

وكلُّ مَن فَتَحَ الياءَ في الوصْلِ يجوز لَهُ في الوقف الأوْجُهُ الثلاثَةُ مِنْ السُّكُونِ العارض.

(١٦٣) • أثبت أَلِفَ «أَنَا» من: [**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**]: في الوصل نافع، وأبو جَعْفر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِحَذْفِ الْأَلِفِ وَصْلاً.

ولا خِلَافَ عِنْدَهُمْ في إثباتِ الألِفِ في الوقف.

تمهيد:

هذا الدَّرس من فروع السَّاقِ الثَّاني من ساقَيْ شجرة موضوع السورة، وهُوَ الدَّرْس الأخير من دُروسها الْبَدِيعَة، وفي آياتِهِ يُكَلّفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ أَنْ يُعْلِنَ لِقَوْمِه كُبْرَيَاتِ كُلّيَّاتِ الدِّينِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ عَقِيدَةً وسُلوكاً، ويَلْتَزِمُ الْعَمَلَ بِهِ في حَيَاتِهِ، وأَنَّهُ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ المُطِيعِينَ للهِ في أحْكَامِ دِينِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مَسْؤُولاً عَنْ كُفْرِ مَنْ يَكْفُرُ مِنْهُمْ، وأَنَّ مَرْجِعَهُمْ إلى اللهِ الَّذِي سَوْفَ يُجَازِيهِمْ على مَا كَسَبُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، الَّتِي خَلَقَهُمْ فيها، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُعَلّماً مَا يَقُولُهُ للنَّاس:

• ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ وفي القراء الأخرى: [**دِيناً قَيِّماً**]:

﴿هَدَىٰنِي﴾: أي: بَيَّنَ لي، وأوْضَحَ، وأرْشَد، يقال لغة: «هَدَاهُ الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ إِلَيْهِ، وَهَدَاهُ له» أي: بيّنَهُ وأوضَحَهُ لَهُ، وأرْشَدَهُ إِلَيْه.

أي: قُلْ يا رَسُولَنا، يا مَنْ جَعَلْنَاكَ خاتم المرسَلِين، ورسُولاً للنَّاسِ

أجْمَعِين، إنَّني هَدَاني رَبِّي إلَىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيم لَا عِوجَ فِيهِ ولا الْتِوَاء، حَالَةَ كَوْنِهِ دِيناً مُشْتَمِلاً عَلَىٰ مَبادِئَ وحَقَائِقَ وَفَضَائِلَ ومَحَاسِنَ وَضَوَابِطَ لِلسُّلُوكِ النَّفْسِيِّ والْجَسَدِيِّ قَيِّمَةٍ، أي: مُسْتَقِيمَةٍ اسْتِقَامَةً تامَّةً، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا قِيمَةٌ فَذَّةٌ تُقَوَّمُ بِهَا مَا يَقْتَرِحُهُ النَّاسُ من بدائِلَ، فَتَكْشِفُ مَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ وعُيُوبٍ وَمُخَالَفَاتٍ لِمَا تَقْتَضِيهِ سعادةُ النَّاسِ العاجِلَةُ والآجِلَةُ، وَجَمِيعُها قِيَمٌ عَظِيمَةٌ مُتَّصِفَةٌ بالْحَقِّ والْخَيْرِ والْحُسْنِ والْجَمَالِ والكَمَالِ.

أُطْلِقَ الصِّراطُ فِي القرآنِ بالإفراد اصطلاحاً، علىٰ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ، الشَّامِلِ لأُصُولِهِ وشَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ وبياناتِهِ وَتَعْلِيماتِهِ وَوَصَايَاه.

وَهٰـذا مِنْ نَقْلِ مَا هُو في اللُّغَةِ لِلْمَادِيَّاتِ، إلى المعنويَّاتِ والْفِكْرِيَّاتِ والمُشَابِهاتِ لَهَا، عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ أَوَّلاً، ثُمَّ يَجْرِي تَعْمِيمُهُ اصْطلاحاً، وهٰـذَا كثيرٌ في القرآن المجيد.

- ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: أي: دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام الَّذِي أَنْزَلَـهُ اللهُ عَلَيْهِ، وهو بَدَل من [**دِيناً**].

المِلَّة: الدّين، والشّريعة.

وكَوْنُ مَا جاء بِهِ محمَّدٌ ﷺ مِلَّةَ إبْراهيم عَلَيْهِ السَّلام هُو باعْتِبَارِ أَنَّ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ وَاحِدٌ في أصُولِهِ وَعَقَائِده وَكُلِّيَّاتِهِ السُّلُوكية. وفي بيانِ أَنَّهُ مِلَّةُ إبراهيمَ إعْلَامٌ لِلْعَرَبِ بأنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ قَبْلَ التحريفاتِ الشّركيّةِ والجاهِلِيَّةِ هُوَ مَا تَلَقَّوْهُ عَنْ إسْمَاعِيلَ الَّذِي تَلَقَّاهُ عَنْ أَبِيهِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِما السَّلام وَجَعَلَهُ اللهُ بِهِ رَسُولاً لِلْعَرب. وإعْلَامٌ لِلْيَهُودِ وللنَّصارَىٰ بأنَّ أصْلَ دِينِهِمْ هُوَ مِلَّةُ إبراهيم، وجَاءَ تَجْدِيدُهُ تَنْزِيلاً عَلَىٰ مُوسَىٰ وعِيسَىٰ عَلَيْهِما السَّلام، وهٰـذا قَبْلَ التَّحْرِيفَاتِ الَّتِي دَخَلَتْ في الْيَهُودِيَّةِ والنَّصْرانِيَّة.

﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام

مَائِلاً عَنْ كُلِّ عِوَجٍ في مِلَلِ الناسِ ومَذاهِبِهِمْ، وَهـٰذا إنَّما يَكُونُ بالاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، فالمائِلُ عَنْ كُلِّ عوَجٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِيماً.

وَفي عبارة: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إسْقَاطٌ لانْتِمَاءِ الْعَرَبِ إلىٰ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، بَانِي الكَعْبَةِ هُو وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيل، ومُعَلِّمِ الْعَرَبِ الحجَّ وَمَنَاسِكَهُ وَشَعَائِرَهُ.

وفي عبارة: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ توكيدٌ بِـ: «إنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ» والدَّاعِي للتوكيد أنَّ في المخاطَبِينَ مُنْكِرُونَ، وشَاكُونَ، وحَالُهُمْ تَحْتَاجُ تَوْكيداً.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في خِطَابٍ تَعْلِيمِيٍّ لِرَسُولِه ﷺ أيْضاً:

- ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾:

الصَّلَاة: هِي في الاصْطِلاحِ الدِّينِيِّ الْعِبَادَةُ الْمَعْرُوفَةُ، ذَاتُ الْقِيَامِ والرُّكُوعِ والسُّجُودِ والجلوس، والتلاوات، والأذْكار والأدْعية.

النُّسُكُ والنُّسْكُ: الْعِبَادَة، وكُلُّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، مِنْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أو بَاطِنٍ، نَفْسِيٍّ أَوْ ذِي حَرَكَاتٍ جَسدِيَّة.

وَفي هَـٰذا يُعَلِّمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: إنِّي أَدْعُوكُمْ إلَىٰ دِينٍ أَنَا أَوَّلُ الْمُلْتَزِمِينَ بِهِ، إنَّ صَلَاتِي الَّتِي هِيَ رَأْسُ أعْمَالِي التَّعَبُّدِيَّة، وسَائِرَ نُسُكِي الَّذِي أعْبُدُ بِهِ رَبِّي، مِنْ سُلُوكٍ نَفْسِيٍّ وَجسدِيٍّ ظَاهِرٍ وبَاطِنٍ، كُلُّ ذلِكَ بِإرَادَتِي الصَّادِقَةِ أجْعَلُهُ خَالِصاً للهِ رَبِّي، وَلَا أَجْعَلُ شيئاً مِنْهُ لِغَيْرِه، إِذْ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ.

وَأُومِنُ إيماناً رَاسِخاً لَا يَتَزَلْزَلُ أَنَّ مَحْيَايَ وَمَمَاتِي مِلْكٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ بِكُلِّ شَيْءٍ هو مِنْ ذَاتِي في حَيَاتِي،

وَبِكُلِّ شَيْءٍ هو مِنْ ذَاتِي فِي مَوْتِي، فَأَنَا أَجْعَلُ مَا هُوَ لِي بِإِرَادَتِي خالصاً لِلَّهِ رَبِّي، كَمَا أَنِّي فِي حَيَاتِي وَفِي مَوْتِي مِلْكٌ لِلَّهِ رَبِّي الَّذِي هُو رَبُّ العالَمِين، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِه.

﴿.. وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى ..﴾: كُلٌّ مِنْهُمَا مَصْدَرٌ مِيمِي، فَهُما بِمَعْنَىٰ: حَيَاتِي ومَوْتي.

وَاللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ لِلْمِلْكِ، أي: صَلَاتِي، ونُسُكِي، وحَيَاتِي، ومَوْتِي، كُلُّهَا مِلْكٌ لِلَّهِ، فأنا أُوَجِّه صَلَاتِي وَنُسُكِي لِلَّهِ مَالِكِهما، وأومِنُ بأنَّ حَياتي ومَوْتي هُمَا مِلْكٌ لِلَّهِ جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

﴿.. وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ..﴾: أي: وبذَلِكَ الَّذي هُوَ جَعْلُ صَلاتي وَنُسْكِي لِلَّهِ، وإيماني بأنَّ حَيَاتِي وَمَوْتِي لِلَّهِ أُمِرْتُ مِنَ اللهِ رَبِّي الَّذِي، هو رَبُّ العالَمِين.

﴿.. وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾: أي: وَبِما أَنِّي أَوَّلُ مُتَبَلِّغٍ مِنْ هـٰذِهِ الْأُمَّةِ لِدِينِ اللهِ، فَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَسْلِمِينَ لِلَّهِ رَبِّي فيهم، المُلْتَزِمِينَ بِطَاعَةِ اللهِ رَبّ الْعَالَمِين، فَلَا إِعْفَاءَ لِي عَنْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَظَراً إِلَىٰ أَنِّي رَسُولُ هـٰذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ، وقَائِدُهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في خِطَابٍ تَعْلِيمِيٍّ أيضاً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾:

في هذ الختام الَّذِي خَتَمَ اللهُ به سورة (الأنْعام) يُكَلِّفُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ثَمانِي قَضَايَا:

الْقَضِيَّةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لرسُوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ . .﴾: اسْتِفْهَامُ إنْكَارِيٌّ تَعَجُّبِيٌّ مِنْ دَعْوَةِ الْمُشْرِكِينَ إلَىٰ عِبادَةِ آلِهَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ.

أي: قل يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ وَاضِعاً نَفْسَكَ مَوْضِعَ الْبَاحِثِ الطَّالِبِ، الَّذِي يَطْلُبُ لِنَفْسِهِ رَبّاً في الْوُجُودِ: أغَيْرَ اللهِ أَطْلُبُ لِنَفْسِي رَبّاً مَالِكاً مَحْيَايَ وَمَمَاتِي، حَتَّىٰ أَتَّخِذهُ إلَهاً أَخُصُّهُ بِصَلَاتِي وسَائِرِ عِبَادَاتِي، وأَدْعُوهُ لِيُحَقِّقَ لِي مَا أرْغَبُ فِيهِ مِنْ جَلْبِ نَفْعٍ، ودَفْعِ ضُرٍّ، وَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، يُهَيْمِنُ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، ويَتَصَرَّفُ فِيهِ بِهَا عَلَىٰ وَفْقِ اخْتِيَارِهِ الحكيم.

إنَّ أَمْرَكُمْ يَا أَيُّها الْمُشْرِكُونَ، وَدَعْوَتَكُمْ إلى عبادة آلِهَتِكُم الَّتِي لَيْسَ لَهَا شيءٌ مِنَ الرُّبُوبِيَّة، لَمُسْتَنْكَرٌ جدّاً، ولَهُوَ أَمْرٌ عَجِيبٌ لَا يَصْدُرُ عَنْ ذِي عَقْلٍ وفَهْمٍ صَحِيحٍ سَلِيمٍ.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ لرسوله: ﴿. . وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا . .﴾: أي: وَمِنْ حِكْمَتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَنَّهُ خَلَقَ النَّاسَ بِصِفَاتِهِم الْمُتَمَيِّزَة، وجَعَلَ لَهُمْ إرادات حُرَّة، لِيَضَعَهُمْ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَقَدْ كَسَبَ لِنَفْسِهِ ثَوَاباً عَظِيماً، يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ، في جَنَّاتِ النَّعِيم. وَمَنْ عَصَىٰ رَبَّهُ الَّذِي وَضَعَهُ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، فَقَدْ جَنَىٰ بِكَسْبِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ اسْتِحْقَاقَ عُقُوبَةٍ من رَبِّهِ بالْعَدْلِ عَلَىٰ مِقْدارِ ذَنْبِهِ. وَلَا تَجْنِي نَفْسٌ بِمَا تَكْسِبُ مِنْ آثَام، عُقُوبَاتٍ مِنْ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا عُقُوبَاتٍ مُسَلَّطَاتٍ عَلَيْهَا فَقَط، لَا يُشَارِكُهَا فيها أَحَدٌ.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿. . وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . .﴾ أي: وَلَا تَحْمِلُ نَفْسٌ مِنْ

شَأْنِهَا أَنْ تَرْتَكِبَ وِزْراً بِمَعَاصِيها لِرَبِّها، وِزْر نَفْسٍ أُخْرَىٰ حَمَلَتْ بِكَسْبِهَا وِزْراً، وَلَوْ شَاءَتْ ذَٰلِكَ رَغْبَةً مِنْهَا فِي أَنْ تُخَفِّفَ عَنِ النَّفْسِ الوازِرةِ الَّتِي تُحِبُّهَا شَيْئاً مِنْ أَوْزَارِها، فَعَدْلُ اللهِ يَأْبَىٰ تَشَارُكَ الْوَازِرِينَ في آثامِهِم، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يَحْمِلُ مِنَ الوِزْرِ مَا كَسَبَ بإرَادَتِهِ الْحُرَّةِ، وَلَا يَحْمِلُ أَحَدٌ مَعَهُ مِنْهُ شَيْئاً وَلَوْ طَلَبَ ذَلِكَ، وَلَنْ يَطْلُبَ. وفي مُقَابِلِ هٰذا: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ عَمِلَهُ، لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِيه.

الوِزْر: الحمْلُ الثَّقِيلُ، وأُطْلِقَ عَلَىٰ الذَّنْب الّذِي يَرْتَكِبُهُ المُكَلَّفُ المختار، المَسْؤُولُ عَنْ أَعْمَالِهِ الإراديَّة.

القَضِيَّة الرَّابعة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ التَّعْليمِيَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿.. ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ أَيُّها النَّاسِ تَمُوتُونَ، وَتَمْضِي عَلَيْكُم مُدَّةُ الْبَرْزَخِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ حَيَاتِكُمُ الأُولىٰ، وحَيَاتِكُمْ الْأُخْرَىٰ بالْبَعْثِ وَقِيامِكُمْ مِنْ أَجْدَاثِكُمْ، عِنْدَئِذٍ يَكُونُ رُجُوعُكُمْ إِلَىٰ مُلَاقَاةِ رَبِّكُم في مَحْكَمَةِ يَوْم الدِّينِ، وفي هٰذِهِ الْمَحْكَمَةِ الرَّبانِيَّةِ تُسْأَلُونَ، وَتُحَاسِبُونَ، وَيُنَبِّئُكُم رَبُّكُمْ بِكُلِّ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ مِنْ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ نَفْسِيٍّ وَجَسَدِيٍّ، ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ.

فَمَنْ وَافَقَ اخْتِلَافُهُ دِينَ اللهِ رَبِّهِ، الَّذِي جَعَلَ الالْتِزَامَ بِهِ هُوَ مَطْلُوبَهُ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، نَجا وَكَانَ مِنَ السُّعَداءِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، دار جزاء المتَّقين.

ومَنْ كَانَ اخْتِلَافُهُ مُضَاداً لِدِينِ اللهِ رَبِّهِ، كَانَ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ في الْجَحِيمِ، دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمين.

وَمَنْ كَانَ اخْتِلَافُهُ مُوافِقاً لِدِينِ رَبِّهِ في الْإِيمانِ، مَعَ ارْتِكَابِهِ مَعَاصِيَ لِلَّهِ في السُّلُوكِ، اسْتَحَقَّ مِنَ الْعِقَابِ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا اكْتَسَبَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ مِنْ أَوْزَارٍ وآثام، وَقَدْ يَغْفِرُ اللهُ لَهُ وَيَعْفُو عَنْهُ بِحِكْمَتِهِ ما

اكْتَسَبَ أَوْ بَعْضَ مَا اكْتَسَبَ، بِحَسَبِ عِلْمِهِ بالظُّرُوفِ الَّتِي مَرَّ بِهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ أَحداً مِثْقَالَ ذَرَّة.

جاءَتْ عِبارَةُ: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كِنَايَةً عَنْ كُلِّ مَا يَجْرِي في مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، لِأَنَّ هَـٰذا الْإِنْباءَ فِقرَةٌ مِنْ فِقرَاتِ هَـٰذِهِ المَحْكَمَة، فَهِيَ تَدُلُّ باللُّزُومِ الْفِكْرِيِّ عَلَىٰ مَا يَكُونُ قَبْلَهَا، وَمَا يَكُونُ بَعْدَهَا، وَهـٰذا مِنَ الكِنَايَاتِ عند البلاغيّين.

الْقَضِيَّةُ الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ الْأَرْضِ . .﴾:

خَلَائف: جَمْعُ «خَلِيفَة» يكون بمعنى: «فاعل» ويكون بمعْنَىٰ: «مَفْعُول» وهُو من يَخْلُفُ غَيْرَهُ فَيَحُلُّ مَحَلَّهُ، إذا كانَ بمعنى اسْمِ الْفَاعِلِ، ومَنْ يَخْلُفُهُ غَيْرُهُ فَيَحُلُّ مَحَلَّهُ إذا كان بمعنى اسم المفعول.

أي: واللهُ هُو الَّذِي جعَلَكُمْ خلائِفَ في الْأَرْضِ، تَخْلُفُونَ مَنْ قَبْلَكُمْ وَيَخْلُفُكُم مَنْ بَعْدَكُمْ، لِيَقْضِيَ الْخالِفُونَ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ، بِحَسَبِ آجالِهِمُ المُقدَّرَةِ لَهُمْ.

الْقَضِيَّةُ السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُتَابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿. . وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾:

أي: وجَعَلَكُمْ رَبُّكُمْ مُتَفَاضِلِينَ فِي هِبَاتِهِ وَعَطَاياهُ لَكُمْ فِي ذَوَاتِكُمْ وفِيمَا مَلَّكَكُمْ إِيَّاهُ مِنْ أَشْيَاءَ، وفيما مَتَّعَكُمْ بِهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحيَاةِ الدُّنيا، وَفِيما مَكَّنَكُمْ مِنْ أَنْ تَتَصرَّفُوا فِيه، وفيما وَهَبَكُمْ مِنْ زِينَاتٍ وسُلْطَانٍ وَمَجْدٍ وَثَناءٍ حَسَنٍ، وَعِزٍّ وذُلٍّ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنْ مُتَفَاضِلَاتٍ صاعِدَاتٍ أَوْ هَابِطَاتٍ.

ومِنْ حِكَمِ اللهِ في هَـٰذا التَّفَاضُلِ أَنْ يَمْتَحِنَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِيمَا آتاهُ، وجاء في نصٍّ آخَرَ: أَنْ يَتَّخِذَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً بِحَسَب خصائِصِ كُلٍّ منكم.

إنَّ مِنَ الظَّاهِرِ الْجَلِيِّ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، أَنَّ نِظَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْخَلْقِ قَائِمٌ عَلَىٰ التَّفاضُلِ مِنْ أَدْنَىٰ سُلَّمِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَعْلَاه، في الذَّكاء، في الجمال، في الْقُوّة، في المال، في الصِّحَّة، في الْمَرَضِ، في العزّ، في الذّلّ، في إتْقَانِ الصِّنَاعَاتِ وعَدَمِ اتْقَانِها، في كُلِّ شيء.

الْقَضِيَّةُ السّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُتابِعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لِرَسُولِه ﷺ: ﴿.. **إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ** ..﴾:

أي: وقُلْ لِمَنْ تَرىٰ أَنَّ مِنَ المَصْلَحَةِ أَنْ تُرْهِبَهُ مِنْ عِقَاب رَبِّهِ بأسْلُوب الْخِطَابِ الإِفْرادِي: إنَّ رَبَّكَ الَّذِي هُو رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، إذا قَضَىٰ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُعَاقِبَ الْمُذْنِبَ مِنْ عِبادِه، وَقَدَّرَ لِعِقَابِهِ زَمَناً، فإنَّهُ سَرِيعُ تَنْفِيذِ الْعِقَاب، لَا يَحْتَاجُ إلى إعْدَادِ وَسَائِلَ، وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابٍ، بَلْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ الَّذِي قَدَّرَهُ وَقَضَاه: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ عَقِبَ أَمْرِ التَّكْوِينِ مُبَاشَرَة.

لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ حَلِيمٌ صَبُورُ يُمْهِلُ عِبَادَهُ حَتَّىٰ آخِرِ مِقْدَارٍ زَمَنِيٍّ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَمْنَحَهُمْ الإمْهَالَ إِلَيْه.

فَسُرْعَةُ الْعِقَابِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ سُلْطَانِ قُدْرَتِهِ، في الزَّمَنِ الْمُقَدَّرِ لِتَنْفِيذِ قَضَائِه، أمَّا حِلْمُهُ وَصَبْرُهُ فَهُمَا مَظْهَرانِ مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِه، رَغْبَةً في أَنْ يَتُوبُوا وَيَصْلُحُوا وَيُصْلِحُوا.

القَضِيَّة الثَّامِنَة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابِعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿.. **وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٦٥﴾﴾:

أي: وَقُلْ مُطْمِعاً الْمُذْنِبِينَ مَهْمَا عَظُمَتْ ذُنُوبُهُمْ بالتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ والإيمانِ والإِسْلَام وَالاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ صِرَاطِ رَبِّكَ المستقيم: إنّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَرَبَّ كُلِّ شيءٍ سِوَاه، لَغفُورٌ رَحِيمٌ:

غفُورُ: أي: كثيرُ الْغُفْرَانِ وَعَظِيمُهُ. **غفُور**: صيغة مُبالَغةٍ لغافر.

رَحِيم: أي: واسِعُ الرَّحْمَةِ وَعظيمُها. **رَحِيم**: صِيغَة مبالَغَة لراحم.

ويلاحَظُ أَنَّ عِبَارَة الإطماع هـٰذه جَاءَتْ مُؤَكَّدَةً بما يلي: «إنَّ - الْجُمْلة الاسميَّة - اللَّامُ المُزَحْلَقَة».

أمّا عِبَارَة القضيَّة السَّابِعَة فَقَدْ جَاءَت مُؤَكّدَةً بمؤكّدَيْنِ فقط، إذ لَيْسَ فيها لام الابتداء المُزَحْلَقَة إلى الخبر.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر سُورَةِ (الأنْعَام). والحَمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفَتْحِه المبين.

* * *

(٣٨)

مُلْحَق

مُستَخْرَجَات بلاَغِيَّة مِنَ السُّورة

يوجَدُ فِي سُورةِ (الأنعام) اختياراتٌ بلاغيَّة هي من عَنَاصِر إعجاز القرآن المجيد، ومنها المُسْتَخْرَجَاتُ التاليات الّتي لم أسْتَقْصِ فيها كُلَّ مَا يمكن اسْتِخْرَاجُهُ من هـٰذه السُّورَة العظيمة.

أولاً

من عناصر إعجازِ القرآن الحذْفُ من مَنْطُوقِ اللَّفْظ، والطَّيُّ في المثاني، مع الدَّلالَةِ عَلَىٰ المطْوِيّ فيها بإشَارَاتٍ لفظيّةٍ، أو لوازِمَ فِكْرِيَّة، أو دَلالَاتِ نُصُوصٍ أخرىٰ مُوَزَّعَاتٍ في القرآن المجيد.

ومن الأمثلة على هـٰذا في هـٰذِهِ السورة ما يلي:

المثال الأوَّل: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿.. لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿١٢﴾﴾:

أي: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مَسُوقِين ﴿إِلَىٰ﴾ مَوْقف الْحِسَابِ وَفَصْلِ القضاءِ في ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾:

حُذِف من الأواخر لدلالة الأوائل. أي: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ فَلا رَافِعَ لَهُ إِلَّا هو ﴿فَهُوَ﴾ الْحَفِيظُ النَّافِعُ، وهُوَ الكاشف الرافع، وهو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿.. وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ .. ﴿١٩﴾﴾:

أي: لِأُنْذِرَكُمْ يا سَامِعِيَّ بمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ إنْذَارات بِعِقَابٍ عَاجِلٍ أو آجل، وَلِأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتي، ومَنْ بَلَغَهُ مَا جَاءَ في القرآنِ من حقائق هـٰذا الدّين.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وهم بِنَهْيِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ وبِنَأْيِهِمْ عَنْهُ يَفْعَلُونَ أفْعَالاً مُهْلِكَةً، ومَا يُهْلِكُونَ بِهَا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وما يَشْعُرُونَ، لِأَنَّ عِقَابَهُمْ لَيْسَ مُقَارِناً لِأَفْعَالِهِمْ، ولَا يَأْتِي عَقِبَ أفعالِهِمْ مُبَاشَرة، وإِنَّمَا يَأْتِي بَعْدَ مُدَّة بَغْتَةً وهُمْ لَا يَشْعُرُون.

وفي هـٰذه الآية قَصْرٌ أَيْضاً، وهو قَصْرُ إهلاكهم على أنفسهم.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: ولو ترى أيُّها الرائي أيّاً كُنْتَ إِذْ وُقِفُوا على الْمَكَانِ الْمُشْرِف على هَاوِيَةِ النَّارِ، وهٰذا يَكُونُ عِنْدَ أبْوَابِها.

المثال السادس: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: ولو تَرىٰ أيُّها الرائي أيّاً كُنْتَ الْمُكَذِّبينَ بالْبَعْثِ وَيَوْم الدِّين، حِينَ وُقِفُوا علىٰ مَوْقِفِ مُحاكَمَةِ رَبِّهِمْ لهم، لرأيْت ذِلَّتَهُمْ وَاعْتِرافَهُمْ بأنَّ ما كانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ في الدُّنْيَا حَقٌّ، فَيُصْدِرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ في عَذَابِ النّار، وَيَقُولُ لهم: ادخلوا النار ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ جحوداً واسْتِكْباراً واتِّباعاً للهوى.

المثال السابع: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ .. ﴿٣٤﴾﴾:

أي: ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ يا مُحمَّد وَأُوذُوا فَصبروا علىٰ مَا كُذِّبُوا به، وعلىٰ ما أُوذُوا بِهِ، حتَّىٰ أتاهُمْ نَصْرُنَا، فاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ نَصْرُنا.

المثال الثامن: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرسوله أيضاً:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ .. ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ الْهَمُّ والْحُزْنُ بِسَبَبِ إعراض مَنْ تَحْرِصُ

على إيمانِهِمْ وإسْلَامهم، وبِسَبَبِ عَدَم اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِك، فَثقُلَ هٰذَا عَلَىٰ مَا لَدَيْكَ مِنْ احتِمَالٍ وَصَبْر، فإن اسْتَطعْتَ أَنْ تَطْلُبَ حَفْرَ نَفَقٍ في الْأَرْضِ، أَوْ صُنْعَ سُلَّمٍ تَصْعَدُ بِهِ في السَّمَاءِ، فَتأْتِيَهُمْ بآيَةٍ تَجعَلُهُمْ يَخْضَعُونَ لَهَا مُؤْمِنِينَ فَافْعَل.

ولَنْ يَفْعَلَ الرَّسُولُ شيئاً عَلَىٰ خِلَافِ حِكْمَةِ الله، ولَكِنْ يُبَيِّنُ اللهُ بهٰذا للمتعنِّتِينَ حُدُودَ وَظيفة الرسول فِيهم، وأَنَّ الإتيان بالآيَاتِ الخارقات المعجزات لَيْسَ مِنْ صَلَاحِيَّاته.

المثال التاسع: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ مُعَلّماً:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ .. ﴿٤١﴾﴾:

أي: أرأَيْتُم أنْفُسكُمْ إنْ أتَاكُمْ مَا يُنْزِل بِكُمْ عَذَابَ اللهِ من وسَائِلَ، أَوْ أتَتكُمْ مُقَدِّمَاتُ السَّاعَة، أَغيْرَ اللهِ تَدْعُونَ لِيَصْرِفَ عَنْكُمْ مَا هُوَ مُقْبِلٌ نَحْوَكم، أَخبِرُونِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقين.

فإنْ قَالُوا: نَدْعُوا آلِهَتَنا، فَقُلْ لهم: لَا تَكْذِبُوا، بَلْ تَخُصُّونَ اللهَ وَحْدَهُ بالدُّعاء، لِأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغِيثُكُمْ ولا تنجيكم، بل الله هو وحده الذي يغيثكم ويُنْجيكم إن شَاءَ، لِأَنَّهُ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيد.

المثال العاشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ مُعَلّماً:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

جواب الشَّرْط في: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ مَحْذُوف، تَقْدِيرُه: فَلا إِلَٰهَ غَيْرُ اللهِ يَصْرِفُ عَنْكُمْ مَا أتاكُمْ مِنْ وَسَائِلِ تَعْذِيبِكُم.

المثال الحادي عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾:

أي: وَمِثْلَ التفصيل الّذي سَبَقَ في الآيات، نُفَصِّلُ الآياتِ بِحَسَبِ مُقْتَضِيَاتِ الْحِكْمَة، لِيَسْتَبِينَ ويظْهرَ صِراطُ الْحَقِّ المستقيم، صراط الذين أنْعَمْنَا عَلَيهم، ولِتَسْتَبِين وتَظْهَرَ سَبِيلُ المجرمينَ، الَّذين سَوْفَ يَكُونُونَ يوم القيامة خالدين في عذاب الجحيم.

المثال الثاني عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرسوله ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾:

أي: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ فَإِنِّي إنْ اتَّبعْتُ أَهْوَاءَكُم أَكُونُ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

المثال الثالث عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾.

أي: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عِنْدَهُ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ وَتَعُودُ أَجْسَادُكُم تُراباً، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ مِنْ مَوْتِكُم بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لِتُلاقُوا حِسَابَكُمْ، وَفَصْلَ قَضَائِهِ في كُلِّ واحِدٍ مِنْكُم ﴿ثُمَّ﴾ في مَحْكَمتِهِ ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ في حَيَاةِ ابْتِلائِكُمْ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ تَوطِئَة لإصْدار أحْكَامِه.

المثال الرابع عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ مُعلّماً:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣﴾:

أي: قل مَنْ يُنْجيكُمْ مِنْ كُرُبَاتٍ تُحِيطُ بِكُمْ فِي ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

المثال الخامس عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسول الله ﷺ:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ . . (٦٥)﴾:

أي: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ فيجْعَلَكُمْ ﴿شِيَعًا﴾ مُتَضادَّةً مُتعادِيَةً مُتقَاتِلَةً ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

المثال السادس عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥)﴾:

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الَّذي سَبَقَ بَيَانُهُ مِنْ جدالِ إبراهيم لقومه ﴿نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لِيَكُونَ ذَا حُجَجٍ بُرْهَانِيّة يُثْبِتُ بِهَا أَنَّهُ لا رُبُوبِيَّةَ في الْكَوْنِ إلَّا لَنَا، وَلا إلَهِيَّةَ بِحَقٍّ في الْكَوْنِ إلَّا لَنا ﴿وَلِيَكُونَ﴾ هُوَ في ذَاتِهِ ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ بذَلِكَ، العالِمِينَ به عِلْماً لَا يُخَالِطُهُ وَلَا يَمَسُّهُ شَكٌّ.

المثال السابع عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ . . (٩٢)﴾:

أي: ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ يا مُحَمَّدُ مَنْ يَسْكُنُ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَ﴾ كُلَّ ﴿مَنْ حَوْلَهَاۚ﴾ من النَّاس حتَّىٰ آخرِ سَاكِنٍ في الأَرْض، ويقومُ معك بالإنذار الدُّعاة من أمَّتِكَ على تتابعِ الأجيال.

المثال الثامن عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ . . (٩٣)﴾:

جواب «لَوْ» مطويٌّ، تقديرُه: لَرَأَيْتَ شِدَّةَ مَا هم فيه من عَذابٍ عظيم.

المثال التاسع عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً للمشركين يَوْمَ الدِّين:

﴿. . لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

أي: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾ الْوَاصِلُ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وَبَيْنَ آلِهَتِكُمْ مِنْ أَسْبَاب، فَلَمْ تَجِدُوا لَهَا أثراً.

المثال العشرون: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

أي: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أَوْ دَرَكَاتٌ ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

المثال الحادي والعشرون: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿. . وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ . . ﴿١٥٢﴾﴾:

أي: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ والمِكْيَالَ، والْوَزْنَ ﴿وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ دَلَّ «الكيل» الذي هو مَصْدَر على «الوزن» المحذوف. ودَلَّ «الميزان» الذي هو آلَة عَلَىٰ المكْيَالِ المحذوف.

الكيل: التقدير بالمكيال.

الميزان: الأدَاة الَّتِي يُوزَنُ بها.

ثانياً

من منهج البيان القرآنيّ في الأقوالِ والأحْدَاثِ والْقِصَص استقطاع النُّصُوص مِنْ أَزْمَانها الماضِيَة أو المُسْتَقْبلة وعَرْضُها بألْفَاظِهَا، دونَ الإشَارَةِ إلَىٰ أَنَّهُ كَانَ كَذَا فيما مَضَىٰ، أو سَيَكُونُ فِيما سَيَأْتِي. وهـٰذا فنٌّ بَدِيعٌ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ الأُدَباءُ والبُلَغاء، واكْتَشَفَهُ الإعْلامِيُّون حَدِيثاً.

ومن أمْثِلَة هـٰذا الْفَنِّ البديع في السورة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ أَهْلِ جَهَنَّمَ وقد جاء في معرض الحديث عن المشركين:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: ولَوْ تَرَىٰ أَيُّها الرَّائِي أَيّاً كُنْتَ، هٰذا الْمَوْقِفَ الّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، لَرَأَيْتَ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِر، ولَكِنْ لَا يُجْدِي يَوْمَئِذٍ الاعْتِبَارُ.

وقد جاءَ التَّعْبِيرُ هُنا عمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ يَوْمَ القيامَةِ بِصِيغَةِ الفِعْلِ الماضي في «وُقِفُوا» وفي «فَقَالُوا» اسْتِقْطاعاً من الْحَدَثِ الّذِي سَوْفَ يكُونُ حَتْماً في المسْتَقْبلِ، وظاهِرٌ أَنَّ التَّعْبيرَ عَمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ بالْفِعْلِ الماضِي تَعْبيرٌ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ سَوْفَ يَتَحقَّقُ حَتْماً، فَهُوَ بِمَثَابَةِ أَدَواتِ تَوْكِيد.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْن أهل جهنم أيضاً:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: ولَوْ تَرَىٰ أَيُّها الرَّائي أيّاً كُنتَ، هٰذا المَوْقِفَ الَّذِي سَوْفَ يكون يَوْمَ القيامَة، حِينَ يُوقَفُونَ عَلَىٰ مَوْقف حساب ربِّهِمْ لَهُمْ.

ومَا جاء في هٰذِهِ الآيَةِ نظير ما جاء في الآيَة السابقة.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

هٰذِهِ الآيَة شَبِيهَةُ سَابِقَتَيْهَا في الاسْتِقْطَاع من الْمُسْتَقْبَلِ، وحِكَايَتِهِ بأسْلُوبِ حِكايَةِ حَدَثٍ مَضَىٰ لِتَوْكِيد أَنَّهُ سَوْفَ يَحْدُثُ حَتْماً.

ثالثاً

التقديمُ والتَّأْخِيرُ على خِلَاف الأصْلِ في تَرْتيب عَناصِرِ الْجُمْلَة الْعَرَبِيَّة، مِنَ الفُنُونِ الَّتي تُسْتَخْدَمُ لِدَاعٍ بَلَاغي، ومِنْهُ في السورة قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ .. (١٤)﴾.

في هٰذا النَّصّ قُدِّمَ المَعْمُول ﴿غَيْرَ اللهِ﴾ على الْعَامِلِ فيه ﴿أَتَّخِذُ﴾ وسُلِّطَ على الْمُقَدَّم الاسْتِفْهام، لِلْبَدْءِ بالإشْعَارِ بِمَنَاطِ الاسْتِنْكَارِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ الله مُتَّخذاً مَعْبُوداً، ولَيْسَ الاسْتِنْكارُ مُوَجَّهاً لاتِّخاذِ الْوَلِيِّ المَعْبُودِ، فالْوَلِيُّ المعبودُ الحقُّ يجب اتخاذُهُ وَلِيّاً.

رابعاً

من العناصر البلاغيّة المجدِّدَة لانْتِبَاه المتلَقِّي ما يُسَمِّيه عُلَمَاءُ المعاني «الالْتِفَات» وهو التَّحْوِيلُ في التَّعْبِيرِ الْكَلامي من اتّجاه إلى آخَرَ مِنْ طُرُقِ الكلام الثلاث: «التكلُّم، والخطاب، والغيبة» مع أنَّ الظَّاهِرَ في مُتَابَعَةِ الكلامِ يَقْتَضِي الاستمرار علَىٰ ملازمَةِ التَّعْبِير، وَفْقَ الطَّرِيقة المختارَةِ أَوّلاً دونَ التحوُّل عَنْها.

وأَضافَ السَّكَّاكِيُّ التعبيرَ ابْتِدَاءً في أول الكَلَامِ بواحِدَةٍ من هٰذه الطُّرُق، إذَا كَانَ عَلَىٰ خِلَافِ مُقْتَضَىٰ الظَّاهر.

وقد رأيْتُ إضافَةَ التَّحوُّلِ مِنْ خطابِ مخاطَبٍ أو أكْثر، إلى مُخَاطَبٍ آخَرَ أوْ أكْثَر، دُون تَصْرِيحٍ بما يَدُلُّ عَلَىٰ التَّحوُّلِ.

ومِنْ أَمْثِلَةِ الالْتِفَاتِ في السورة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿.. ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ

قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حديثٌ بالْغَيْبة. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ تحوُّلٌ إِلَىٰ الْخِطاب.

(١) قَوْلُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ..﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ حَدِيثٌ بالْغَيْبَةِ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ تَحوُّلٌ إلى التكلُّم.

خامساً

مِنْ عناصر الإيجازفي الْكَلام «التَّضْمِينُ» وهو تَضْمِينُ كَلِمَةٍ مَعْنَىٰ كَلِمَةٍ أُخْرىٰ، وجَعْلُ الْكَلامِ بَعْدَها مَبْنِيّاً عَلَىٰ الْكَلِمَةِ غَيْرِ الْمَذْكورة، كالتَّعْدِيَةِ بِالْحَرْفِ الْمُناسِبِ لِمَعْناها، فتكُونُ الْجُمْلَةُ بِهٰذا التَّضْمِينِ بِقُوَّةِ جُمْلَتَيْن.

ومن أمْثِلَةِ التَّضْمِينِ فِي السُّورة مَا يَلِي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآۗ .. ﴿٧٠﴾﴾.

ضُمِّنَ فِعْل ﴿وَذَكِّرْ﴾ معنى فِعْلِ «حَذِّرْ» أَوْ «أَنْذِرْ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، أي: وَذَكِّر مُحذِّراً مِنْ أَنْ تُبْسَلَ، (أي: من أن تُرْتَهَن وتُسَلَّم لِلْعَذابِ).

وضُمِّنَ فِعْل في: ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ مَعْنَىٰ فعل «وتُقَدِّمْ» فالمَعْنَىٰ: وإِنْ تَعْدِلْ مُقَدِّمَةً كُلَّ فِداءٍ لَا يُؤْخَذْ مِنها. على أنَّها لَنْ تَجِدَ ما تُقَدِّمُهُ فداءً.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ضُمِّنَ الْفِعْلُ فِي: ﴿تَقُولُونَ﴾ معنَىٰ الْفِعْلِ في: «تَكْذِبُونَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيتَه بِحَرْف الجرّ «على». أَيْ: تَقُولُونَ كاذِبينَ على اللهِ.

وضُمّنَ الفِعْلُ فِي: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ معنَىٰ الفِعْلِ في: «تَمْتَنِعُونَ» أي: تَسْتَكْبِرُونَ مُمْتَنِعِينَ عن اتّباعِ آيات اللهِ.

سادساً

من نَفِيسِ الْبَيَانِ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ للدَّلاَلَةِ بِهِ علىٰ المعْنَىٰ الْمُرَادِ «الْكِنَايَة» وهي عِنْدَ علماء البيان:

اللَّفْظُ المستعملُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلاح التخاطُب للدَّلالة بِهِ علَىٰ معْنىٰ آخَرَ لَازِمٍ له، أو مُصَاحِبٍ لَهُ، مُرافِقٍ أو سابقٍ أو لَاحِقٍ، أو يُشَارُ بِهِ عَادَةً إِلَيْهِ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُلَابَسَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه.

والكناية من أَبْدَعِ وأَجْملِ فُنُونِ الأَدَبِ، ومن أمْثِلَةِ الكنايَةِ في السُّورَة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ . . ﴿١٢﴾﴾.

عبارة: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾ ذاتُ لَوازِمَ دلَّتْ عَلَيْهَا دَلالَةً بأسْلُوبِ الكِنايَة.

أي: أَوْجَبَ اللهُ علىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَرْحَمَ عِبادَهُ، وكتَبَ هـٰذا في اللَّوْحِ

المحفوظ، لِأَنَّ كُلَّ مَكْتُوبٍ مَسْبُوقٌ بِعِلْمٌ، وَهٰذا الْعِلْمُ مَسْبُوقٌ بإرادَةٍ وقضاء. فَدَلَّتْ عِبارَة: ﴿كَتَبَ﴾ علَىٰ هٰذِهِ اللَّوازِمِ الْفِكْرِيَّةِ بأسْلُوبِ «الْكِنايَة».

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لرسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا . . ﴿٣٤﴾﴾.

دلَّتْ عِبارَةُ: ﴿حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ عَنْ طَرِيقِ الكِنايَةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ محمَّداً ﷺ كَمَا نَصرَ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِه، لِأَنَّ سُنَّتَهُ في عِبادِهِ وَاحِدَة.

أي: فاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا فَسَيأْتِيكَ نَصْرُنَا لَكَ وللمؤمنين مَعَكَ.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ إهْلَاكِهِ الظّالمِينَ من الأمم السَّالِفَة:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

الدَّابِرُ: التَّابِعُ في مُؤَخِّرَةِ الرَّكْب، وقَطْعُ الدَّابِر يُكَنَّىٰ بِهِ عن الاسْتِئْصَالِ، أي: أُهْلِكَ الْقَوْمُ إهْلاكاً شَامِلاً، حَتَّى قُطِعَ التَّابِعُ لَهُمْ واللَّاحِقُ بِهِمْ.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً للنَّاس:

﴿. . ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

عبارةُ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ دَلَّتْ بأسْلُوب الكِنايَةِ علَىٰ سَوابِقِ الإنْباءِ وَلَوَاحِقِهِ في مَحْكَمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الدِّين. وهٰذِهِ من الكِنَايَات الّتي تكَرَّرَتْ نَظَائِرُهَا في القرآنِ المجيد.

وأُنبِّهُ هُنَا عَلَىٰ أَنَّ أمْثِلَةَ الكِنَايَةِ في الْقُرْآنِ هي الْأَمْثِلَةِ الْغَالِبَةُ فِيه، عَلَىٰ سَائِرِ الْفُنُونِ الْبَلاغِيَّة، لِمَا فِيها مِنَ التَّعْبِيرِ غَيْرِ المباشرِ عَنْ كامل الْمُرادِ، ولِمَا فيها مِنَ الإِيجازِ الَّذي يَعْتَمِدُ على دَلَالاتِ اللَّوَازِمِ الفِكْرِيَّة.

سابعاً

من الفنون الجماليَّةِ اللَّفْظِيَّة «الجِنَاس»: وهُوَ أَنْ يَتَشَابَهَ اللَّفْظَانِ فِي النُّطْقِ وَيَخْتَلِفَا في المعْنَىٰ.

وهو فنٌّ بَدِيعٌ في اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُوهِمُ في الْبَدْءِ التَّكْرِيرَ، لَكِنَّهَا تُفَاجِئُ بِالتَّأْسِيسِ واخْتِلَافِ المعْنَىٰ.

ومن أمْثِلَةِ الجِنَاسِ في السُّورَةِ مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا عِناداً واسْتِكْبَاراً إِذْ يَنْهَوْنَ أَتْبَاعَهُمْ عن الاسْتِمَاعِ إِلَىٰ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ مِنَ الرَّسول ﷺ، وهُمْ يَبْتَعِدُونَ عَنِ اتّبَاعِهِ:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

بَيْنَ ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ جِناسٌ شبيهٌ بالتَّام، وهـٰذا النَّوْعُ من الجناس يُسَمَّىٰ عِنْدَ علماء الْبَدِيع «الجناسَ المضارِعَ» أي: المشابه للجناسِ التَّامّ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ عَقَائِدِ بَعْضِ المشركين:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

بَيْنَ «خَلَقَ» من: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ و«خَرَقَ» من ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ جناسٌ شبيهٌ بالتَّامّ، للتقارُب بَيْنَ اللَّام والرَّاء في النُّطْق، وهو أَيْضاً مِنْ نَوْعِ الجِنَاسِ المضارِعِ.

ثامناً

من الفنونِ الْإِبْداعيَّةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ المعَانِي الْخُرُوجُ عن مُقْتَضَى الظَّاهِرِ لِدَوَاعٍ بَلَاغِيَّة.

ومن الْخُرُوجِ عَنْ مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ لِدَواعٍ بَلاغِيَّة، وضْعُ الاسْمِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِير، ومن أمْثِلَة هـٰذا في السُّورَةِ ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُوله ﷺ بِشَأْنِ مُكَذِّبيه:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

في هـٰذه الآية وُضِعَ الاسْمُ الظّاهر في: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾بدَلَ الضّمير من «وَلَكِنَّهُمْ» الَّذِي كَانَ يَقْتَضِيهِ الظَّاهِرُ في التعبير، لِبَيَان اتِّصافِ مُكَذِّبي الرَّسُولِ بالظُّلْم الشَّنِيع، ومِنْ ظُلْمِهِم الشّنِيعِ جُحُودُهُمْ بآياتِ رَبِّهِم، مع عِلْمِهِم بأنَّها آياتٌ بَيِّنَاتٌ مُنَزَّلَاتٌ مِنْ لَدُنْه، جَلَّ جَلَالَهُ وَعَظُمَ سُلْطَانَهُ وهـٰذا دَاعٍ بَلاَغِيٌّ فِكْرِيٌّ ذُو شَأْنٍ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الْكَافِرينَ الَّذينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ من الأُمَم السَّابقة:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

في هٰذِهِ الآيَةِ وُضِعَ الاسْمُ الظّاهِرُ في: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بَدَلَ الضَّمير مِنْ: «دَابِرُهُمْ» لبَيَانِ سَبَبِ إهْلاكِهِمْ بَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ، وهُوَ ظُلْمُهُمُ العظيم مِنْ دَرَكَةٍ تَقْتَضِي إهْلاكَهُمْ باستِئْصَالٍ.

وهـٰذا دَاعٍ بَلاَغِيٌّ فِكْرِيٌّ ذُو شَأْن.

(٣) قَوْلُ اللهِعَزَّ وَجَلَّ في مَعْرِض الحديث عَنْ أَكَابِرِ مُجْرِمِي أَهْلِ الْقُرىٰ:

﴿.. سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وُضِعَ في هـٰذا النَّصِّ الاسْمُ الظّاهِرُ: ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ مَوْضِعَ الضَّمِير

الَّذِي يَقْتَضِيهِ الظّاهر، إذْ يَقْتَضِي أَنْ يُقَالَ: «سَيُصِيبُهُمْ» والداعي الْبَلَاغي هُنَا أَمْران:

الأول: بَيَانُ سَبَبِ مُعَاقَبَتِهِمْ بالصَّغَارِ والْعَذَابِ الشَّدِيد.

الثاني: تَعْمِيمُ هَـٰذا العِقَاب عَلَىٰ سَائِرِ الـمُجْرِمين أَمْثَالِ أكابِرِ الْمُجْرِمين المذْكُورِينَ في سِبَاقِ النَّصّ.

تاسعاً

من الفنون الْبَلاغيَّة لَدَىٰ عُلَمَاءِ الْمَعَانِي من الْبَلاغيِّينَ، اخْتِيَارُ اسْمِ الإشَارَةِ الموضوعِ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيد، والإشَارَةُ بِهِ إِلَىٰ الْمُشَارِ إِلَيْهِ الْقَرِيب لِأَحَدِ دَاعِيَيْنِ بَلاغِيَّيْنِ.

الداعي الأول: تَكْرِيمُ المشار إلَيْهِ بِبَيَانِ ارْتِفَاعِ مَكَانَتِهِ ارْتِفَاعاً بَعِيداً سَامِياً.

الدَّاعي الثاني: إهَانَةُ المشارِ إِلَيْهِ بِبَيَان انْحِطَاطِ مَكَانَتِه انْحِطَاطاً بَعِيداً مُتَّجِهاً إِلَىٰ أسْفَلِ سَافِلِين.

ومِنَ الأمْثِلَة علىٰ هـٰذا الْفَنّ في السُّورَة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ مَا يَقُولُهُ فِي جِدَالِهِ للمشركين المعانِدِين:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

اسْتُعْمِلَ في هـٰذا النَّصّ اسْمُ الإشَارَةِ في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي يُشَارُ بِهِ إلىٰ الْبَعِيد، مع أنَّ الظَّاهِرَ أَنْ يُقَال: «وَهـٰذا» بِمُقْتَضىٰ السِّيَاق، لِدَاعٍ بَلاغي، وهو الدَّلالَةُ على ارْتِفَاعِ مَنْزِلَةِ الْفَوْزِ الَّذي يَنالُهُ مَنْ يُصْرَفُ عَنْهُ عَذَابُ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَة.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ الْمُرْتَهَنِينَ السُّجَناءِ في جهَنَّم الَّذين يَذُوقونَ عَذابَ الْحَرِيقِ بنارِها بِسَبَبِ كُفْرِهم:

﴿. . أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٧٠﴾.

أُبْسِلُوا: أي: حُبِسُوا مُعَذَّبين في دَارِ العذاب.

وُضِعَ في هٰذا النَّصّ اسْم الْإشارَة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الَّذي يُشَارُ بِهِ إلَىٰ المشَارِ إلَيْهِمُ الْبَعِيدِينَ، وكانَ الظاهر أن يُقال: «هٰؤُلاء» للدلالة علَىٰ إهانَتِهِمْ، وبيان انْحِطَاطِ دَرَكَاتِهِمْ في اتّجاه الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ دار العذاب جهنَّم يَوْمَ الدين، فَهُمْ بُعَدَاءُ جدّاً عَنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلَاتِ رَحَماتِ اللهِ.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ المؤمنين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢﴾.

اخْتِيرَ فِي هَـٰذِهِ الآيةِ اسْتِعْمَالِ اسم الإشارة في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع للمشار إلَيْهِم الْبَعيدين، بَدل «هَـٰؤُلَاء» لداعٍ بلاغي، وهو الدَّلَالَةُ عَلَىٰ عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ ورِفْعَةِ مَكَانَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهم.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ذُكِرُوا فِي الآيات السَّابقاتِ له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ . . ۝٨٩﴾.

اختير في هٰذا النَّصّ استعمال اسْم الإشارَة في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع لِلْمُشَارِ إلَيْهم الْبَعِيدين، بَدَلَ «هؤلاء» للدَّلَالَةِ على ارْتِفَاع مَنْزِلَةِ الرُّسل المذْكُورِين في الآيات من (٨٣ ـ ٨٧) وعُلُوِّ مَكَانَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ جلَّ جَلَالُه.

(٥) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥)﴾.

اختير في هٰذِهِ الآيَةِ اسْتِعْمَالُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الموضوعِ لِلْمُشارِ إلَيْهِ الْبَعِيدِ مع قُرْبِ الحديثِ عَنْهُ وهو اللهُ فالِقُ الْحَبِّ والنوى.

أي: ذَلِكُمُ الْعَظِيمُ الجليلُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ الّذِي هو فَالِقُ الحبِّ والنوىٰ، والَّذِي يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيّتِ ومُخْرِجُ الميّتِ من الْحَيّ، فأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ عَنِ الإيمان به.

ونظير هٰذا النصّ قول الله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)﴾.

عاشراً

مِنْ فُنُون البلاغَةِ في البيان: «الاسْتِعَارَة» وهي عند عُلماءِ البيان: اسْتِعْمالُ لفْظٍ مَا فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ في اصْطِلاحٍ بِهِ التَّخاطُب، لعلاقَةِ المشابهة، مع قَرِينَةٍ صارفَةٍ عَنْ إرَادَةِ المعْنَىٰ الموضُوعِ لَهُ في الاصْطِلَاحِ.

وفي الاستعارة تناسِي التشبيه، وادّعَاءُ أَنَّ المشَبَّهَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ المشَبَّهِ به، أو عَيْنُ المشَبَّهِ به.

ومِنْ أمْثِلَةِ الاسْتِعارَةِ في السُّورَة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أَمَّته ما يَقُولُهُ في بَعْضِ مَجالَاتِ دَعْوَتِهِ إلى اللهِ وَصِرَاطِهِ المُسْتَقِيم:

﴿.. قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾.

اسْتُعِيرَ في هٰذا النّصّ لفْظُ ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ للدَّلَالَةِ بِهِ على الجاهل، لأَنَّ

الجاهل بحَقَائِقِ الدِّينِ الرَّبَّانِيَّةِ، وصِرَاطِ اللهِ المستقيم يُشْبِهُ الأَعْمَىٰ الَّذِي لَا يَرَىٰ طُرُقَهُ وَمَسَالِكه.

واستُعِير لفظ ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ للدَّلَالَة بِهِ على الْعَالِم، لأنَّ الْعَالِمَ بِحقَائِقِ الدِّينِ الرَّبَّانِيَّةِ، وصِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ يُشْبِهُ الْبَصِير الَّذِي يَرَىٰ طُرُقَهُ وَمَسَالِكَهُ، وآفَاق الكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً للنَّاس، وتعليماً للرسول ما يَقُولُهُ في دَعْوَتِه:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

استُعِير في هٰذه الآيةِ لفظ ﴿أَبْصَرَ﴾ للدَّلَالَةِ بِهِ على معْنَىٰ: «تفكَّرَ وَفَهِمَ وَآمَنَ وأسْلَم».

واسْتُعِير فيها لفْظُ ﴿عَمِىَ﴾ للدَّلَالَةِ بِهِ علَىٰ معْنَىٰ «أدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ولم يَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ رَبِّهِ كافراً بها».

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

في هٰذِهِ الآيَةِ العجيبَةِ اسْتِعَارَتَانِ قائِمَتَانِ علَىٰ تَشْبِيهَيْنِ مُمْتَزِجَيْنِ للمؤمن، وفيها اسْتِعَارَتَان قائِمَتَانِ علَىٰ تَشْبِيهَيْنِ مُمْتَزِجَيْنِ لِلْكَافِرِ.

فَقَدِ اسْتُعِيرَ فِيهَا لفظ «مَيِّتٍ» للدَّلَالَةِ بِهِ على مَنْ هُو مُتَّصِفٌ بالْجَهْلِ وعَدَمِ الإيمانِ والإسلام، فالْكَافِرُ كالميِّتِ وَكَالْأَعْمَىٰ الْمُحَاطِ بالظُّلُماتِ.

واسْتُعِيرَ فِيهَا «الإحْيَاءُ» للدَّلَالَة بِهِ عَلَىٰ مَا صَارَ إِلَيْهِ مَنْ آمَنَ وأَسْلَم، فالمؤمِنُ كالْحَيِّ الْبَصِير، الَّذِي يَحْمِلُ نُوراً يُنِيرُ لَهُ طَرِيقَهُ، فَيَمْشِي فِيهِ مُسْتَقِيماً رَشِيداً.

واسْتُعِيرَ فيها «النُّورُ» في عِبَارَة: ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ قَضَايَا الْإِيمان وشرائع الإسلام وأحْكامه، الّتي جاء بَيَانُها في آياتِ كِتَابِ اللهِ وأقْوَالِ رسُولِهِ، فالبيانَات الدينيَّةُ كالنُّورِ الْهَادِي في ظُلُمَاتِ حَيَاةِ الامْتِحَان في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا.

ولا يَخْفَىٰ على ذي التَّدبُّر الحَسَنِ، مَا في هـٰذه الآيَةِ من المزْج العجيب بَيْنَ مُخْتَلِفِ الاسْتِعَارَات.

حادي عشر

ممَّا نَبَّهَ عَلَيْهِ عُلَماءُ المعاني من الْبَلَاغِيِّين، وكَشَفُوا أقْسَامَهُ، وأرْكَانَهُ، وطُرُقَهُ: «الْقَصْر»: وهُوَ تَخْصِيصُ شيْءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ.

ومن أمْثِلَة الْقَصْرِ في هـٰذه السورة مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ جُمْلَتَانِ، وفي كُلٍّ مِنْهُما قَصْرٌ حقيقيٌّ، هُوَ مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف.

وأدَاة الْقَصْرِ في كُلٍّ مِنْهُمَا تَعْرِيف طَرَفَي الإسْنَادِ، المبتَدأ والخبر، أي: لَا أحَدَ يتّصِفُ بأَنَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِ اللهِ غَيْرُ اللهِ جَلَّ جَلَالُه، ولَا أَحَدَ يَتَّصِفُ بأَنَّهُ كامِلُ الْحِكْمَةِ في كُلِّ تَصرُّفَاتِهِ واخْتِيَارَاته، وبأنَّهُ كامِلُ الخِبْرَةِ بِكُلِّ شَيءٍ إلَّا اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ:

﴿.. قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: قُلْ: إنَّمَا الإلَـٰهُ الْحَقُّ هو إلَـٰهٌ واحِدٌ فَقَطْ. وفي هـٰذه الْجُمْلَةِ قَصْرُ الإلَـٰهِيَّة الحقّ عَلَىٰ إلَهٍ واحِدٍ هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَهُو قَصْرٌ حقيقي، من قَصْرِ صِفَةِ الإلَهِيَّةِ الْحَقِّ على اللهِ جلَّ جَلالُهُ. وأداةُ الْقَصْرِ هُنَا «إنَّما».

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ في مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل ونَهْيِهِمْ أتباعَهُمْ عَنِ القرآنِ ونَأْيِهِمْ هُمْ عَنْهُ:

﴿.. وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وَمَا يُهْلِكُونَ بأَعْمَالِهِمْ الإجْرَامِيَّةِ إلَّا أنْفُسَهُمْ. ففي هٰذه العبارة قَصْرُ إهْلَاكِهِمْ الَّذِي يَكُونُون هُمُ المُتَسَبِّبِينَ فِيه علَىٰ أنفسهم.

وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، من قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصُوف، والأداةُ النَّفْيُ بحَرْف النفي «إنْ» والاسْتِثْنَاء.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في بيانِ بَعْضِ صِفَاتِه:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ أَرْبَعَةُ أَمْثِلَةٍ مِنْ أَمْثِلَة الْقَصْر.

المثال الأول: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: وَعِنْدَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شريكَ لَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْب، وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌّ، من قَصْرِ صِفَةِ وُجُودِ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ على كَوْنِها عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ. والأَدَاةُ الدَّالَّة عَلَيْهِ تَقْدِيمُ المُسْنَدِ عَلَىٰ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ في جُمْلَةٍ اسْمِيَّة.

المثال الثاني: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يَعْلَمُ مَفَاتِحَ الْغَيْبِ كُلِّهِ إلَّا اللهُ عَزَّ وَجلَّ. وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف، والأدَاة الدَّالَّةُ عَلَيْهِ النَّفْيُ والاسْتِثْنَاء.

المثال الثالث: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ وفي هٰذِهِ

العبارة قَصْرُ سُقُوطِ كُلِّ وَرَقَةٍ عَلَىٰ كَوْنِهِ مَعْلُوماً للهِ عَزَّ وَجلَّ، وهُوَ قَصْرٌ إضَافِيٌّ، أي: بالإِضَافَةِ إلى فِكْرَةِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ صَغَائِرَ الأَحْدَاثِ والْأَشْيَاء. وأداةُ الْقَصْرِ هُنَا النَّفْيُ والاسْتِثْنَاء.

المثال الرابع: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: وَلَا تُوجَدُ مِنْ حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرض، ولَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا هو مَعْلُومٌ للهِ عَزَّ وَجلَّ وَمُدَوَّنٌ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ عنده بكلّ صِفَاتِهِ وتَحَرُّكاتِهِ. وهذا القصر كَسَابقِه.

(٥) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ يُعْلِّمُ رَسُولَهُ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، لِلَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مَجْبُورُونَ بالْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ على الشِّرْكِ، وعلَىٰ تَحْرِيمِهِمْ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ أشياءَ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِتَحْرِيمها مِنْ سُلْطان:

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: مَا تَتبِعُونَ بِبَعْضِ مَقَالَاتِكُمُ الْبَاطِلَةِ إِلَّا الظَّنَّ الضَّعِيفَ الَّذِي لَا يَصِحُّ عَقْلاً الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، ومَا أَنْتُمْ فِي مَقَالَاتٍ أُخْرَىٰ إِلَّا تَكْذِبُونَ.

في هاتَيْنِ الْجمْلَتَيْن قَصْران، هُما من الْقَصْرِ الإضَافِي، والأداة فيهما النَّفْيُ والاسْتِثْنَاءُ. ففي الجملة الأولى قَصْرُ قَوْلِهِمْ في بَعْضِ القضَايَا علَىٰ الظَّنِّ التَّوَهُّمِي. وفي الجملة الثَّانية قَصْرُ قَوْلِهِمْ في بَعْضِ الْقَضَايَا عَلَىٰ الكَذِب.

(٦) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِه:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾:
أي: قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللهِ هُوَ وَحْدَهُ الْهُدَىٰ الْحَقُّ وكُلُّ مَا هُوَ مُضَادٌّ لَهُ بَاطِلٌ.

دَلَّ علَىٰ الْقَصْر تَعْرِيف طَرفي الإسْنَادِ في جُمْلَةٍ إسْمِيَّة، مَعَ التَّوْكِيدِ بِضَمِيرِ الْفَصْل. وهو من قَصْرِ صِفَةِ الْهُدَىٰ الْحَقِّ على هُدَىٰ الله، وهُو قَصْرٌ إضافِي، أي: بالإِضافَةِ إلَىٰ مَا ضَادَّهُ وَنَاقَضَهُ.

(٧) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مبيناً بَعْضَ صِفَاته:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ .. ﴿٩٩﴾﴾ في هـٰذا البيان قَصْرُ إنْزَالِ الماء من السَّماءِ عَلَىٰ أنَّهُ فِعْلٌ مِنْ أفعال اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، وَهو قَصْرٌ حَقِيقيّ، مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف، والأداة هُنَا تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ في جُمْلَةٍ اسْمِيَّة «هو» و«الَّذِي أَنْزَل».

ثاني عشر

وجَّهَ عُلَمَاءُ المعاني من الْبَلاغِيينَ، تَأَمُّلاتِهِمْ في النُّصُوصِ الَّتِي فيها اسْتِفْهَام، فَرَأَوْا أَنَّ الاسْتِفْهَامَ كَثِيراً مَا يَخْرُجُ عَنْ أَصْلِ دَلالَتِهِ الَّتِي هِيَ طَلَبُ الإفْهَام، فَيُسْتَعْمَلُ للدَّلالَةِ بِهِ علَىٰ مَعَانٍ كثيرة أوْصَلُوهَا إلى أكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ مَعْنَىٰ، وهِي في الحقيقة لَا تَنْحَصِرُ فيما ذَكَرُوه.

ومِنْ أَمْثِلَة خُرُوج الاسْتِفْهام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ، والدَّلالَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعَانٍ أُخْرَىٰ في السُّورَةِ مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ في مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ .. ﴿٦﴾﴾.

الاسْتِفْهَام في هـٰذا البيانِ يُرَادُ بِهِ التَّعْجِيبُ مِنْ أَمْرِهم، ومِنْ مَبْلَغِ انْحِرَافِهم الإجْرَامِيّ، وسُقُوطِهِمْ في أَوْحَالِ الْحَمَاقَةِ والْجَهَالَةِ واتِّباع الْهَوَىٰ، علَىٰ نَقِيض مَا يَقْتَضِيهِ الرَّأْيُ السَّدِيد، والْعَقْلُ الْحَمِيد، والْعَمَلُ الرَّشيد.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ تَعْلِيماً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يُرادُ بالاسْتِفْهام في: ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ النَّفْي، أي: لَا يُهْلَكُ إهْلَاكاً

جَمَاعِيَّاً عَامَّاً شَامِلاً، بِمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللهِ فِي عباده، إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُون ظُلْماً شَنِيعاً مِن دَرَكَةِ الكُفرِ المقْتَرِنِ بِقَبَائِح وَجَرَائِم سُلُوكِيَّةٍ كثيرة.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِه، بشَأْنِ دَعْوَةِ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ عناداً واسْتِكْبَاراً.

﴿.. قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

الاستفهامُ في ﴿هَلْ يَسْتَوِى ..﴾؟ يُرَادُ بِهِ تَلْوِيمُهُمْ وَتَأْنِيبُهُمْ عَلَىٰ جَهْلِهِم.

والاسْتفهام في ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؟ يُرادُ بِهِ حَثُّهُمْ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ السَّلِيم لإِدْرَاكِ الحَقِيقةِ إنْ كَانُوا جَاهِلِينَ بِهَا حَقّاً، غَيْرَ مُرَاوِغِينَ وَلَا مُجَادِلِينَ بالْبَاطِل.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ اعْتِراضٍ أئِمَّةِ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ ضُعَفَاء المسلمين:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾؟؟

الاستفهام في عبارة أئمة الكُفْرِ عَنْ ضعفاء المؤمنين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ﴾؟ اسْتِفْهَامُ اسْتِنْكَارِيٌّ مِنْهُمْ، واحْتِقَارِيٌّ لِضُعَفَاءِ المؤمنين المسلمين.

والاستفهام في عبارَة: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟! اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ عَلَىٰ اسْتِكْبَارِ أئِمَّةِ الكُفْر، وتَعْجِيبِيٌّ مِنْ بَالِغِ جَهْلِهِمْ بِحِكْمَتِهِ السَّامِيَّة، وإِحَاطَتِهِ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً.

(٥) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أسْلُوباً مِنْ أَسَالِيبِ مُجَادَلَةِ المشركين:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا . . ﴿٧١﴾﴾؟!

الاستفهامُ في هـٰذا التَّعْليم اسْتِفْهامُ تعَجُّبٍ واسْتِنْكارٍ.

(٦) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾؟!

الاستفهامُ في قَوْلِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام لأبيه استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ إنْكارِيٌّ تَلْويمي.

(٧) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ . . ﴿٩٣﴾﴾؟!

الاستفهامُ في هـٰذا النَّصّ يُرادُ به النفي، أي: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هـٰؤُلاءِ الَّذِين جاءَ فيه بَيانٌ عَنْهُم، إنَّهُ قَدْ يُوجَدُ مَنْ يُشارِكُهُمْ فِي دَرَكَةِ الظُّلْمِ، ولكِنْ لَا يُوجَدُ مَنْ هُوَ أَظْلَمُ مِنْهُمْ.

(٨) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾؟.

الاستفهام في عبارة ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ استفهامٌ إنكارِيٌّ تَلْويمِيٌّ تَعْجيبيٌّ مِنْهُمْ إذْ يُصْرَفُونَ عَنْ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبيَّتِهِ وفي إلٰهِيَّتِهِ، مَعَ كَوْنِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ دالَّاتٍ عَلَيْهِما.

(٨) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

الاستِفْهَامُ في هـٰذه الآيَةِ استفهامٌ إنكارِيٌّ علَىٰ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ للهِ وَلداً، وَتَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمْرِهم.

(٩) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَسْلُوباً دَعَوِيَّاً وَجَدَلِيّاً لِلْمُشْرِكين:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ .. ﴿١٦٤﴾﴾؟

الاستفهامُ في هـٰذا النّصّ اسْتِفْهامٌ تَعْجِيبيٌّ مِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إلَىٰ الشِّرْكِ مِنَ المُشْرِكين.

ثالث عشر

من العناصر البلاغيَّة التَّوكيدُ بأدَاةٍ أَوْ أكْثَر من أدواتِ التوكيد، لِأَنَّ حَالَةَ المَقْصُودِ بالْخِطَابِ تَحْتَاجُ تَوْكِيداً.

ومِنَ النُّصُوصِ الَّتِي فيها تَوْكِيدٌ لدَوَاعٍ بَلاَغِيَّة في السُّورَة مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المعانِدِينَ مِنْ أَئِمَّةِ المشركين:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾.

زِيدَتْ ﴿مِّن﴾ في الْفَاعِلِ لتَوْكيد عُمُومِ النَّفْي، لأنَّ المعنِيِّينَ مُعْرِضُونَ فِعلاً عَنْ كُلِّ آيَةٍ تَأْتِيهِمْ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ مَا يَقُولُهُ لِلْمُشْرِكين:

﴿.. قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

اشْتَمَلَتِ الجملة الثانية على تَوْكيد بـ «إنّ ـ والْجُمْلَة الاسمية» لحاجَةِ المخاطبين إلى التوكيد.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وصفاً لِلَقْطةٍ من أحداث محاسَبَتِه تَعالَىٰ لمنكري الْبَعْثِ يوم الدين:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ . . (٣٠)﴾.

زيدَت الباء في خَبَرِ «لَيْسَ» لتوكيد إلزامِهِمْ بِجُرْمِهِم الكبير، إذْ كانُوا في الدُّنْيَا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ والدارَ الآخِرَة، ويُكَذِّبُونَ بالأنْبَاءِ الدَّالَةِ عليهما. وفي عبارتِهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ اعترافٌ مؤكّد بالْقَسَم، استجْداءً للرَّحْمَة بهم.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾.

زِيدَ حرف الجرّ «مِنْ» على المبتدأ وما عُطِفَ عليه بَعْدَ النفي، لتوكيد عُمُومِ النفي، والتنْصِيصِ عليه، ودَفع تَوَهُّمِ أنْ يكُونَ المرادُ بالنَّفي التكثير، لَا التعميم.

وكذلِكَ زِيدَ حَرْف الجرّ «مِنْ» في عبارة ﴿مِن شَىْءٍ﴾.

(٥) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ اعْتِرَاضِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ على تَفْضِيلِ اللهِ ضعفاءَ المؤمنين المسلمين وفُقَراءَهم عليهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ (٥٣)﴾.

زيدَت الباء في خَبَرِ «لَيْسَ» للتوكيد، نظراً إلى أَنَّ أئِمَّةَ الكُفْرِ إبَّانَ التنزيلِ مُسْتَكْبِرُونَ، وشَاكُّون في حِكْمَةِ اللهِ في تفضيلهِ الضُّعَفَاءَ والفقراء عليهم.

﴿فَتَنَّا﴾: أي: امتحَنَّا واخْتَبَرْنا.

(٦) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)﴾.

زيد حرف الجرّ «مِنْ» في عبارة: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ لتوكيد عُمُومِ النفي والتَّنْصِيص عليه، ودَفْعِ تَوهُّمِ خِلافِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ عُمُومُ النَّصّ.

(٧) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ مَا يَقُولُهُ للناسِ في دَعْوَتِهِ، وفي جَدَلِيَّاتِهِ للمخالِفِين:

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

جاءَ في هـٰذا النصّ التوكيدُ بِـ«إنَّ ـ والْجُمْلةِ الاسْمِيَّة» في موضِعَيْن، لغرضَيْن:

الغرض الأول: مُراعَاة بَعْضِ أحْوَالِ المخاطَبِين الشَّاكِينَ بِصِدْقِ الرَّسُول في دَعْوَتِهِ.

الْغَرَضُ الثاني: إعْلَانُ ثَبَاتِهِ في مَوْقِفِهِ الْإيمانيِّ الْإسْلاميّ، الّذي لَا تُزَحْزِحُهُ عَنْهُ مُرْهِبَاتُ النَّاسِ، ولَا اسْتِنْزَالَاتُهُم التَّرْغِيبِيَّة.

(٨) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في آخِرِ السُّورَة:

﴿.. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

جَاءَ فِي هـٰذا النصّ تَوْكِيدُ الجملة الأولَىٰ بـ«إنَّ ـ والْجُمْلةِ الاسْمِيَّة» فقط.

وتَوْكِيدُ الْجُمْلةِ الثَّانِيَة بـ«إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ ولَامِ الابتداء المزحْلَقَةِ إلى الْخَبَر» وقَدْ زِيدَ فيها التوكيد، لأنَّ رَحْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَسْبَقُ مِنْ غَضَبِهِ وانْتِقَامِهِ ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِه.

وبهـٰذا تَمَّتْ مُسْتَخْرَجاتي لِبَلاَغياتِ سُورَةِ (الأنعام) والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِه وفَتْحِهِ.

* * *

سورة الصَّافَّات

٣٧ مصحف ٥٦ نزول

وهي مكيَّةٌ كلُّها

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾
إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ
ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا
مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ
مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ
خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴿١٠﴾ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ
خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ

---

٦ ـ • قرأ شعبة: **[بِزِينَةٍ الكَواكِبَ]**.
وقرأها حفص، وحمزة: **[بِزِينَةٍ الكواكِبِ]**.
وقرأها باقي العشرة: **[بِزِينَةِ الكواكِبِ]**.
والمؤدّىٰ في هذه القراءاتِ وَاحِد، وهي من التَّفَنُّنِ في التعبير.

٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[لَا يَسَّمَّعُونَ]** بفتح السّن والميم مُشدَّدَتين.
وقرأها باقي العشرة: **[لَا يَسْمَعُونَ]** بإسكان السِّين وفتح الميم دون تشدِيد.
أي: لَا يستطيعون أن يقتربوا ليتَسَمَّعُوا، وإذا اقترَبَ بَعْضُهُمْ فَلا يُمَكَّنُونَ مِنَ السَّماع.

١١ ـ • قرأ رُوَيس: **[فاسْتَفْتِهُمْ]** بضَمّ هَاءِ الضَّمِير.
وقرأها باقي العشرة: **[فَاسْتَفْتِهِمْ]** بِكَسْرِ هاء الضَّمِير.

عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ
يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا
وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ
نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ
﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي
كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا
كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾
وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ

---

١٢ - ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: **[عَجِبتُ]** بتاء المتكلّم.
وقرأها باقي العشرة: **[عَجِبْتَ]** بتاء المخاطب، وبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعنَىٰ المراد.

١٦ - ● قرأ ابْنُ عَامِر: **[إِذَا.... أَئِنَّا]**.
وقرأها نافع، والكسائي وأبو جعفر، ويعقوب: **[أَئِذَا.... إِنَّا]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَئِذَا... أَئِنَّا]**.
ومُؤَدَّىٰ هذه القراءات واحد.

١٦ - ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب **[مُتْنَا]** بضم الميم.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[مِتْنَا]** بكَسْرِ الميم.

١٧ - ● قرأ قالون، وأبو جعفر، وابن عامر: **[أَوْ آبَاؤُنَا]**.
وقرأها الباقون: **[أَوَ آبَاؤُنَا]**.

١٨ - ● قرأ الكِسَائي: **[نَعِمْ]** بكسر العين.
وقرأها الباقون: **[نَعَمْ]** بفتح العين.

٢٥ - ● قرأ الْبَزّي، وأبو جعفر: **[لَا تَّنَاصَرُونَ]** بتَشْدِيد التاء، مع المدّ المشْبَع للسَّاكِنَيْن.
وقَرَأَهَا باقي القرَّاء العشرة: **[لَا تَنَاصَرُون]**.
والقراءتان وجْهَانِ مِنَ النطق العربي.

ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ (٢٦) وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓاْ
إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ (٢٨) قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ
(٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ (٣٠)
فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ
(٣٢) فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ
بِٱلۡمُجۡرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ
يَسۡتَكۡبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ (٣٦)
بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ
(٣٨) وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٤٠) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ (٤١) فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ
(٤٢) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيۡهِم
بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ (٤٥) بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوۡلٞ
وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ (٤٨)

---

٤٠ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابنُ عامر، ويعقوب: **[الْمُخْلِصِينَ]** بكسر اللام اسم فاعل من: «أخلص».
وقرأها باقي القراء العشرة: **[الْمُخْلَصِينَ]** بفتح اللام اسْم مفعول.
وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أَدَاءِ المعنَىٰ المراد، أي: أخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانَهُمْ وإسْلاَمَهُمْ وعباداتهم فجعَلَهُمُ اللهُ مِنَ المُخْلَصِينَ عِنْدَه.

٤٧ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[يُنْزِفُونَ]** من فعل: «أَنْزَفَ» بمعنى: سَكِرَ، أو ذَهَبَ عَقْلُه.
وَقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يُنْزَفُونَ]** من فعل: «أَنْزَفَهُ» بمعنَىٰ: أَسْكَرَهُ، أو أَذْهَبَ عَقْلَهُ.
فمُؤَدَّىٰ القراءتَيْن واحد.

كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ (٤٩) فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ
(٥٠) قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ
ٱلۡمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ
هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ (٥٥) قَالَ
تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ (٥٦) وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ
ٱلۡمُحۡضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا
نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٦٠) لِمِثۡلِ هَٰذَا
فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ (٦١) أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ (٦٢)
إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ
ٱلۡجَحِيمِ (٦٤) طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ
مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ
حَمِيمٖ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ

---

٥٣ - ● قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [**إِذَا... أَئِنَّا**].
وقرأها نافع، والكسائي، ويعقوب: [**أَئِذَا... إِنَّا**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَئِذَا... أَئِنَّا**].
والمؤدّىٰ واحد.

٥٣ - ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، وشُعْبَة، وأبو جعفر، ويعقوب: [**مُتْنَا**] والباقون: [**مِتْنَا**].
وهما لغتان عربيتان.

٥٦ - ● قرأ ورش في الوصل، ويعقوب في الوصل والوقف: [**لَتُرْدِينِي**] بإثبات ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لَتُرْدِينِ**] بحذف ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ
قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾
وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ
ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ
لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا
ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى
سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ
﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾

---

٧٤ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وابن عامر، ويعقُوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْرِ اللَّام اسم فاعل من فعل: «أخلص».

وقرأها باقي القراء العشرة بفتح اللام اسم مفعول.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، كما سَبَق في الآية (٤٠).

٩٤ ـ ● قَرَأ حمزة: [**يُزِفُّونَ**] مِنْ فعل: «أزَفَّ» بمعْنَىٰ أسْرَع الخَطْو.

وقرأها باقي الْقُرّاء العشرة: [**يَزِفُّونَ**] من فعل: «زَفَّ، يَزِفُّ، زَفًّا» أي: أسْرَعَ الْخَطْو.

فالقراءتان لغتان لمعنى واحد.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى
ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ
إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾
فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ
إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ
ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ
أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ
ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟

---

٩٩ ـ • قرأ يعقوب: [**سَيَهْدِينِي**] بإثباتِ ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم في الْحَالَيْنِ: [**سَيَهْدِينِ**].
وهذا الحذف مألُوفٌ في العربيَّة مع ملاحظتِه ذهناً.

١٠٢ ـ • قرأ حفص: [**يَا بُنَيَّ**] بِفتح الياء مُشدَّدَة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بكَسْرِها مشدّدة: [**يَا بُنَيِّ**] وهُما نطقان عَربيان.

١٠٢ ـ • فتح ياء المتكلّم في الموضِعَيْن من: [**إِنِّيَ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ**]
نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر.
وأسْكَنَها في الموضعين باقي القرّاء العشرة.

١٠٢ ـ • قرأ حَمْزَةُ، والكِسَائي، وخلَف: [**مَاذَا تُرِي**] أي: ماذا تُقدِّمُ مِنْ رأيٍ لِي.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**مَاذَا تَرَىٰ**] أي: أَنْتَ لِنَفْسِكَ.
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداءِ المعنى المراد.

١٠٢ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [**يَا أَبَتَ**] بفتح التاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**يَا أَبَتِ**] بِكَسْرِ التاء.
وهما لغتان عربيَّتان.

١٠٢ ـ • فتح ياء المتكلم من: [**سَتَجِدُنِيَ إِنْ شَاءَ اللهُ**] نافع، وأبو جعفر. وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

١٠٥ ـ • قرأ السُّوسي: [**الرُّويَا**].
وقرأها أبو جعفر: [**الرُّيَّا**].

=

ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ
﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ
مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ
لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾
وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ
هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾
سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا

= وقرأها بَاقي القراء العشَرَة: **[الرُّؤْيا]**.

ووقَفَ حَمْزَةُ كالسُّوسي وأبي جعفر.

١١٨ ـ • قرأ قُنْبُل، ورُوَيس: **[السِّراط]**.

وقرأها خلفٌ عن حمزة بإشْمام الصّادِ صَوْتِ الزاي.

وقرأهَا بَاقي القراء العشرة: **[الصِّرَاطَ]**.

١١٩ ـ • قرأ يعقوب: **[عَلَيْهُمَا]** بضمِّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير: **[عَلَيْهِما]**.

وهما لغتان.

١٢٣ ـ • قرأ ابن ذَكْوان في إحْدَى قراءتين لَهُ: **[وَإِنَّ لْيَاسَ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وإِنَّ إِلْيَاسَ]**.

وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۙ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ
يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ
أَجۡمَعِينَ ۙ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ
﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۙ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِ ۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ
﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ
ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ
وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۙ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي

---

١٢٦ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِي، ويعقوب، وخلَف: **[اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ]** على أنَّهُ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو اللَّهُ رَبّكم وربُّ.

والقراءتان وَجْهان عربيان جائزان.

١٢٨ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، ويعقوب: **[الْمُخْلِصِينَ]** بكسر اللام، اسم فاعل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح اللام: **[الْمُخْلَصِينَ]** اسم مفعول.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، كما سبق بيانه في الآية (٤٠).

١٣٠ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: **[عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[عَلَىٰ إِلْيَاسِينَ]**.

وهُمَا نُطْقَانِ عند العرب.

١٤٢ ـ • أسْكَنَ الهاء من: **[وَهْوَ]** قالون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَهُوَ]** بضم الهاء.

وهما لغتان عربيتان.

بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ
﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ
أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾
فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا
ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ
لَيَقُولُونَ ۙ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ
عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾
أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾
وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ
﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ
هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا

---

١٤٧ ـ • قرأ أبو جعفر: [**مِيَةِ**]. وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة [**مِائَةِ**].

وهما نطقان عربيان.

١٤٩ ـ • قرأ يعقوب: [**فَاسْتَفْتِهُمْ**] بضمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْر هاء الضمير: [**فاسْتَفْتِهِمْ**].

١٥٢ ـ • ١٥٣ ـ • قرأ أبُو جعْفر: [**لَكَاذِبُونَ اصْطَفَىٰ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَىٰ**] على الاستفهام.

١٥٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**تَذَكَّرُونَ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**تَذَّكَّرُونَ**] بتَشْدِيد الذّال.

١٦٣ ـ • قرأ يَعْقُوب: [**صَالِي**] في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**صَالِ**] في الوصل والوقف.

لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ
﴿١٦٧﴾ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ
كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا
لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٤﴾ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ
يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ
صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿١٧٨﴾ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ
يُبۡصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

---

١٦٩ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، ويعقوب: [**المُخْلِصِينَ**] بكسر اللام، اسم فاعل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح اللّام: [**المُخْلَصِينَ**] اسم مفعول.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، كما سبَق بيانه في الآية (٤٠).

(٢)

مما وَرَد بشأن سورة (الصَّافات)

(١) روى النسائي، والبيهقيُّ في سُنَنه، عن ابْنِ عُمر رضي الله عنهما، قال: «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنا بالتَّخْفِيف، ويؤُمُّنا بالصَّافَّاتِ».

أي: كان يأمُرُنا بالتّخْفِيفِ في الصَّلَوات، وكان يَقْرأ الصَّافَّاتِ وهو إمَامٌ لَنَا أَحْيَاناً.

(٢) ورُوي عن ابْن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ يسٓ والصَّافَّات يوم الجمعة، ثم سأل اللهَ أعْطاهُ سُؤْلَهُ».

(٣) ورُوِيَ عن ابْن عباس: أنّ النبيّ ﷺ لَمَّا سَأَلَهُ مُلُوكُ حَضْرَموت عِنْدَ قُدُومِهِمْ علَيْهِ أَنْ يَقْرأ عَلَيْهِم شَيْئاً مِمَّا أنزَلَ اللهُ، قرأ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ حتَّىٰ بَلغَ: ﴿.. وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ ولهذا الحديث تتمة.

(٣)

موضوع سورة (الصّافات)

تسير آياتُ سُورةِ (الصَّافات) مُوزَّعَةً علىٰ فَرْعَيْن: أَحَدُهما لمعالَجةِ المشركين، بشأن شِرْكِهِمْ وَبَعْضِ عَقَائِدِهِمْ ومقالاتهم الباطلات. والآخَرُ لِتَرْبية رَسُولِ الله ﷺ والَّذين آمنوا به واتَّبَعُوه، وطَمْأَنَتِهم بأنَّ نَصْرَ اللهِ لهم آتٍ لَا مَحالَة، على وَفْقِ سُنَّتِهِ السابقةِ الَّتي تَحقَّقَتْ في الرُّسُلِ السّابقينَ، والَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبعوهم.

فالفرْعُ الأول: يشْتَمِلُ على معالجة المشركين حول عَددٍ من عقائدهم ومقالاتهم الباطلات، ومَواقفهم الّتي كانوا عليها إبَّانَ تنزيل السورة، وهي كما يلي:

(١) إثبات أَنَّ شِرْكَهُمْ باطلٌ، بإثبات أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا إِلَهٌ واحِدٌ، هو رَبُّ السَّمَاواتِ والأرضِ، ورَبُّ كُلّ شيءٍ فِي الكَوْنِ، وكُلِّ حَدَثٍ يَحْدُثُ فيه.

(٢) قضية اعتزازِهِمْ بِقواهم المادِيَّةِ على الرَّسُولِ ﷺ، وعلى الَّذِينَ آمنوا به واتَّبَعُوه، إبَّانَ تَنْزِيلِ السّورة، مع اسْتِكْبَارِهِم عن الإيمانِ بالحقّ، واتِّباع رَسُولِ رَبِّهم.

(٣) قضيّةُ إِنْكَارِهِم الْبَعْثَ ويَوْمَ الدِّين، دُونَ أَنْ تكُونَ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا التَّعَجُّب من الإحياء بَعْدَ الموت، وتَحوُّلِ الأجساد إِلَىٰ ترابٍ مختَلِطٍ بتراب الأرض.

(٤) قضيَّة اعتقادهم بأنَّ الملائكة بناتُ اللهِ، واعتقادِهِمْ بأنَّ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ الجنِّ نَسَباً.

(٥) كَشْفُ كَذِبِهِمْ في قولهم الّذي كانوا يقولونَهُ قَبْلَ بِعْثَةِ محمد ﷺ: لَوْ أَنَّنا أُنْزِلَ عَلَيْنا كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَكُنَّا من المخلَصِينَ، وَمِنَ الْمُخْلِصِينَ.

(٦) وفي أثناء معالَجَةِ هذه القضايا جاء في السُّورة عَرْضُ صُوَرٍ من عذاب الله للكافِرِين في الآخرة، مع تَقْدِيم لَقَطاتٍ مِنْ مَشاهِدِ عَذابِهِمْ يَوْم الدّين.

الفرع الثاني: تَرْبِيَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وللمؤمنين بعِدَّةِ عناصر تربويّة، وطَمْأَنَتُهُمْ بأنَّ اللهَ ناصِرُهم كَمَا نَصَرَ الرُّسُلَ السَّابقين، والَّذِين كَانُوا مَعَهُمْ من المؤمنين.

وجاء في أثناء السّورَة لقطات مِنْ قِصَصِ سبعَةِ رُسُلٍ نَصرَهُمُ اللهُ علىٰ كُفَّارِ أقوامِهِمْ، وَتَتَضَمَّنُ هـٰذِهِ اللَّقَطاتُ إشعاراً للرسُول وللمؤمِنينَ بأنَّهُمْ مَنْصُورون، وهو من المبشّرات، وإعلاماً للكافِرِينَ بأنَّهُمْ سَيُغْلَبُونَ حتماً، وسَيَنْصُرُ اللهُ رَسُولَهُ والَّذِين آمَنُوا مَعَهُ، ضِمْنَ مَجاري سُنَّتِهِ في عباده، وهو من المنْذِرات.

وجاءت فيها قِصَّةُ «يُونُس» بأنَّهُ لَمَّا يَئِسَ من قومه، وتَرَكَهُمْ دُونَ إِذْنٍ مِنْ رَبِّهِ عَاقَبَهُ اللهُ بأنِ الْتَقَمَهُ الْحُوتُ، ولوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَما نَجا مِنْ بَلْعِ الحوت لَهُ وهضْمِه. وفي عَرْضِ هـٰذه القصَّةِ تَلْوِيحٌ تَرْبَوِيٌّ، بأَنَّ حَامِلَ رِسَالَةِ رَبِّهِ المكلّف لَيْسَ لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، فَيَتْرُكَ وَظِيفَتَهُ الدَّعوِيَّة قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الأَمْرُ أو الإِذْنُ الرَّبَّانِيُّ بذلك.

(٤)

دروس سورة (الصَّافات)

ظَهَرَ لي بَعْدَ تأمُّلٍ أَنْ أُقَسِّمَ السُّورَةَ إلى سَبْعَةِ دُروس ضِمْنَ وَحْدَةِ مَوْضُوعِهَا الَّذِي سَبَقَ بيانُهُ آنفاً:

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ١٠).

وفي آيَاتِ هـٰذا الدَّرْس قَسَمٌ علَىٰ أنَّ الإلٰهَ الحقَّ في الوجُودِ كُلِّهِ واحِدٌ، هُو الرَّبّ جلّ جلالُه، مع بيان ظاهرة كَوْنِيَّة تَدُلُّ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ ما في الكَوْن، ويَلْزَمُ عَقْلاً عَنْ رُبُوبيَّتِهِ هَـٰذِهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الإلٰهَ الحقّ الذي لا إلٰه سِواه.

الدَّرْسُ الثاني: الآيات من (١١ ـ ٧٤) وفي هذا الدّرْس ثلاثَةُ فصول:

الفصل الأول: الآيات من (١١ ـ ٣٩).

وفي آياتِ هـٰذا الفصل معالجة طائفة من المشركين بشأن اعْتزازِهِمْ بقُوَّتِهِمْ، وسُخْرِيَتِهِمْ من دَعْوَةِ الحقّ، وعنادهم، ومُبَالَغَتِهِمْ بالسُّخْرِية إذَا رأَوْا آيَةً تَشْهَدُ للرَّسُول بأنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً، ويقُولون هي من قبيلِ السّحر.

وفيها عِلَاجٌ مَا لإنكارهم الْبَعْثَ والدَّارَ الآخِرَة، ومنه عَرْضُ بَعْضِ مَشَاهِدَ مِنْ يَوْم الدّين لِعَذَابِهِمْ وعذاب سَائر الْمُجْرِمِين.

الفصل الثاني: الآيات من (٤٠ ـ ٦١).

وفي آيات هـٰذا الفصل عَرْضُ بَعْضِ مَشاهِدَ مِنْ نَعِيم المؤمِنين المتقين الْمُخْلِصِينَ الْمُخْلَصِين، في مُقَابِلِ عَرْضِ مَشاهد عَذَابِ الْمُجْرِمين.

الفصل الثالث: الآيات من (٦٢ ـ ٧٤).

وفيها عَوْدٌ لِبَيَانِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ في الجحيم.

الدَّرْسُ الثالث: الآيات مِنْ (٧٥ ـ ١٤٨).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ لقطاتٌ من قِصَصِ سبعة رُسُلٍ هم: «نوح، وإبراهيم، ومُوسَىٰ، وهارون، وَإلْيَاس، ولُوطْ، ويُونُسُ» عَلَيْهِمُ السّلام.

وَيَنْقَسِمُ هـٰذا الدَّرْسُ إِلَىٰ سِتَّةِ فُصُول:

الفصل الأول: الآيات من (٧٥ ـ ٨٢). وفيها لقطات من قصَّةِ نوح عليه السلام، ونَصْرِ الله لَهُ على قومه الكافرين.

الفصل الثاني: الآيات من (٨٣ ـ ١١٣) وفيها لقطات من قصة إبراهيم عليه السلام مع قَوْمه، ونَصْرِ الله له، وبيان بَعْضِ ما امْتَنَّ اللهُ بِهِ عليه.

الفصل الثالث: الآيات من (١١٤ ـ ١٢٢) وفيها بيان ما امْتَنَّ اللهُ بِهِ على مُوسَىٰ وهارُون، ونُصْرَتِهِمَا وَنُصْرَةِ بَنِي إسرائِيلَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه وجُنُودِهم.

الفصل الرابع: الآياتُ من (١٢٣ ـ ١٣٢) وفيها بيانٌ مُوجَزٌ عن دَعْوَة إلْيَاس لِقَوْمِهِ، وَمَا امْتَنَّ اللهُ بِهِ عليه.

الفصل الخامس: الآيات من (١٣٣ ـ ١٣٨) وفيها بيانٌ مُوجَزٌ عن نَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لوطاً عَلَيْهِ السَّلام، وإهلاك كُفَّارِ قَوْمِهِ، وتدميرِ بلادِهم وقَلْبِها عليهم.

الفصل السادس: الآيات من (١٣٩ ـ ١٤٨) وفيها لقطات موجَزاتٌ من قصَّة يونس عليه السلام، مع بيان مَا تَعَرَّضَ لَهُ، إذ تَرَكَ قَوْمَهُ وانْصَرَفَ عَنْهُمْ باجْتِهادٍ مِنْهُ، دُونَ إذْنٍ لَهُ مِنْ رَبِّهِ بذَلِكَ، وفي عَرْضِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ تَلْوِيحٌ بأنّ على حَامِلِ رِسَالَةِ رَبِّهِ المكلّف أَنْ لَا يَتْرُكَ قَوْمَهُ مُهاجراً مَا لَمْ يَأْمُرْهُ الله بذَلِكَ أَوْ يَأْذَنْ لَهُ به.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (١٤٩ ـ ١٦٣).

وفي آيات هذا الدَّرْس مناقشة المشركين حَوْلَ عَقِيدَتِهِمْ بأنَّ الملائكة بناتُ الله.

الدَّرْس الخامس: الآيات من (١٦٤ ـ ١٦٦).

وفي آيات هذا الدَّرْس تَوجِيهٌ للمؤمنين لأنْ يَقُولوا للمشْرِكين، مُعْلِنين مَوْقِفَهُمْ المضَادَّ لمواقف كلِّ الكافرين، وأنَّهُمْ هُم الصَّافُّونَ والمُسَبِّحُونَ.

الدرس السادس: الآيات من (١٦٧ ـ ١٧٠).

وفي آيات هذا الدَّرْسِ عَرْضُ مقالَةٍ مِنْ مَقَالاتِ المشركين الّتِي كانُوا يَقُولُونها قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّد ﷺ: لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِثْلَ ذِكْرِ اليهود أَوْ ذِكْرِ النَّصارَىٰ، لَكُنَّا عِبادَ اللهِ المُخْلَصِين والمُخلِصِينَ. فَلَمَّا جاءَهُمُ الذِّكْرُ مُنَزَّلاً عَلَىٰ رَسُولِ الله مُحمّد ﷺ كَفَرُوا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ مَصِيرَهُمْ جزاءَ كُفْرِهِمْ يَوْمَ القيامة.

الدرس السّابع: الآيات من (١٧١ ـ ١٨٢) آخر السورة.

وفي آياتِ هذا الدَّرْس طَمْأَنَةٌ من الله لِرَسُولِهِ ولِلّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ بأَنَّهُمْ مَنْصُورون حتماً، ضِمْنَ سُنَّة الله الَّتِي سَبَقَتْ بها كلمته. مع توجيهٍ للرَّسول ﷺ بشَأْن ما يَنْبَغِي له من مَوْقِفٍ مع المشركِين المُعانِدين المستكبرين، إبَّان تَنزِيل السُّورة.

* * *

(٥)

التدبُّر التَّحليليّ للدَّرسِ الأوّل من دُرُوسِ سورة (الصَّافّات) الآيات من (١ ـ ١٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ① فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ② فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ③ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ④ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ⑤ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ

ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

القراءات:

(٦) • قَرأ شعبة: [**بِزِينَةٍ الْكَواكِبَ**] بنصب الكواكب على تقدير. أعْنِي وأَخُصُّ.

وقرأها حفص وحمزة: [**بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ**] بجر الكواكبِ على أنها بَدَل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ**] على إضافة زينة إلى الكواكب.

والمؤدَّىٰ في هٰذه القراءات واحد، وهي من التَّفَنُّنِ في التعبير.

(٨) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي: [**لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَىٰ الْمَلَأَ الْأَعْلَىٰ**] بتَشْدِيد السّينِ والميمِ من «يَسَّمَّعُون» أصْلُها: «يَتَسَمَّعُون».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لا يَسْمَعُونَ**] بإسكان السين، وفتح الميم دُونَ تَشْدِيد.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد، فقراءة [**يَسَّمَّعُونَ**] دَلَّت عَلَىٰ أَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقْتَرِبُوا إلى الملأ الأعلىٰ ليتَسَمَّعُوا، ودلَّت قراءة [**لَا يَسْمَعُونَ**] على أنَّهُ إذا اقْتَرَبَ بَعْضُهُمْ لَا يُمَكَّنُونَ مِنَ السَّمَاعِ.

تَمْهيد:

يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّاسِ، ولَا سيما المشركونَ مِنْهُمْ علَىٰ أنّ إلَهَهُمْ

لَوَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَه، وأنَّهُ هُو رَبُّ السَّمَاواتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما وَرَبُّ المشَارِق، ومَنْ كَانَ رَبَّ المشَارِقِ فَهُو رَبُّ المغارب، إذْ لَا تُشْرِقُ الشَّمْسُ مِنْ جِهَةٍ، إلَّا غَرَبَتْ في الوقْتِ نَفْسِهِ عَن الْجِهَةِ المقابلَةِ لَهَا في دَوْرَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِها.

ويَمْتَنُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ علىٰ النَّاسِ فِي الأَرْضِ، بأنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيا بالكواكب المضيئة، وأبَانَ أَنَّهَا ذَاتُ وَظِيفَةٍ أُخْرَىٰ وهِيَ حفظ السَّمَاءِ مِنْ كُلِّ شيطانٍ مَارِدٍ طَرْداً لَهُ عَنْ مَواطِنِ الْمَلأِ الأعْلَىٰ من الملائكَةِ، الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ أوامِرَ اللهِ لِلْمَلَائِكَةِ المكلَّفِين تَنْفِيذَ أَوامِرِ اللهِ في الأرض، وَوَسيلَةُ طَرْدِ الشَّيَاطِين الَّذين يحاوِلُونَ تَلَقُّط أَخْبَارِ السَّمَاءِ، هِيَ مُلاحَقَتُهُمْ بالشُّهُبِ الَّتِي إذَا أَصَابَتْهُمْ أَحْرقَتْهُمْ، أو أنزلَتْ بِهِمْ عَذَاباً يَمْنَعُهُمْ من الْتِقَاطِ الأخبار.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾: الواو في: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ هي واو الْقَسم.

قِيلَ: إنّ الْمُقْسَمَ بِهِمْ أَصْنَافٌ مِنَ الملائكة، لكنّي لم أرَ أنَّ الْقَسم بأصْنَافٍ من الملائِكَةِ، وَهُمْ مَخْلُوقَاتٌ غَيْرُ مَشْهُودَة للنَّاس، يُؤَكِّدُ لَدَىٰ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ إِلٰهَهُمْ لَواحد، هو رَبُّ السَّماوات والأرض وما بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشَارِق.

إنَّ التَّوحِيدَ دَلِيلُهُ عَقْلِيٌّ مُسْتَفَادٌ من آيات اللهِ الكونيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ الرَّبَّ واحدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، واللّازِمُ العقلِيُّ المُباشر لِهٰذا أنّ الْإِلٰهَ الْمَعْبُودَ الْحقَّ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبّ الواحد.

إنَّ الملائكة مَخْلُوقَاتٌ غيبيَّةٌ، لَمْ يُعْلَمْ وُجُودُهم، ولَمْ تُعْلَمْ صِفَاتُهُمْ، إلَّا عَنْ طَرِيقِ الْخَبَرِ الدِّيني، والمُشْرِكُون لَمْ يَقْبَلُوا الأخْبَارَ الدِّينِيَّةَ ابْتِدَاءً بِشَأْنِ التوحِيد، فَكَيْفَ يُؤَكِّدُ لَهُمُ الْقَسَمُ بالملائكةِ الغائِبِينَ عَنِ الحواسِّ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الواحد لا شَرِيكَ له.

وأعجَبَنِي قَوْلُ مَنْ قال: إنَّ المقْسَمَ بِهِمْ جماعَاتٌ من أهل الإيمانِ يُصَلُّونَ صُفُوفاً، ويجاهِدُونَ صُفُوفاً مُتَراصَّة.

أقول: إنَّ مِنْ عَادَةِ النَّاسِ أَنْ يُقْسِمُوا بمَنْ يُعَظِّمُونَ، وبمَنْ يُكَرِّمُونَ، وَبِمَنْ يُحِبُّونَ مِنْ أَزْوَاجٍ، أو أولاد، أو أخِلَّاء، فيَكُونُ قَسَمُهُمْ في عُرْفِ النَّاسِ مُؤَكِّداً لِأَقْوالهم، والْقَسَمُ مُؤَكِّدٌ كسَائِرِ أَدَوَاتِ التَّوْكيد.

ومَعْلُومٌ أَنَّ الْمُحْسِنين، والأبْرَارَ، وكامِلِي التَّقْوىٰ، من المؤمنين المُسْلِمِينَ، وهُمْ رُسُلُ اللهِ، وأنْبِيَاؤُهُ، وأتْبَاعُهُمْ بإحْسَانٍ، هُمْ مَحْبُوبُونَ لِلَّهِ، وأصْحَابُ مَكَانَاتٍ رَفِيعَاتٍ عِنْدَهُ، وَهُمْ أصْحَابُ مَكَانَاتٍ عَالِيَاتٍ فِي كُلِّ أُمَّةٍ لِمَا يَتحَلَّوْنَ بِهِ مِنْ فَضَائِلِ الأخْلَاقِ، ومَحَاسِنِ السُّلُوكِ. فالْقَسَمُ بِهِمْ وَهُمْ مَشْهُودُونَ للنَّاسِ بفضائِلِهِمْ، يُشْعِرُ بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يُحِبُّهُمْ وَيَرْفَعُ عِنْدَهُ مَكَانَاتِهِمْ، فَيأتِي الْقَسَمُ بِهِمْ وَسِيلَةً من وَسَائِلِ التَّوْكِيدِ المألُوفَةِ بَيْنَ النّاس، مَعَ دَلَالَةِ الْقَسَمِ عَلَىٰ تَكْرِيمِهِمْ وَتَفْضِيلِهِمْ علَىٰ سَائِرِ النَّاس.

وأبْرَزَ اللهُ مِنْ فَضَائِلِ هـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمَ بِهِمْ من جَمَاعَاتِ الْأُمَمِ الرَّبَّانِيَّة ما يلي:

- ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ①﴾: أي: أُقْسِمُ بجَمَاعَاتِ الرَّبَّانيّين مِنْ عبادي المحسنين، والأبرار، وكامِلِي التَّقْوىٰ، الَّذِينَ هُمْ أحْبَابي من عبادي، وذَوُو مَكَانَاتٍ رَفِيعَاتٍ عِنْدِي، ومُقَرَّبُونَ مِنّي، الَّذِين مِنْ صِفَاتِهِمْ أنَّهُمْ يُصَلُّونَ صَافِّينَ صُفُوفاً مُسْتَوِيَةً مُتَراصَّة، ويجاهِدُونَ ويُقَاتِلُونَ في سَبِيلي صُفُوفاً مُسْتَوِيَةً مُتَراصَّة، لَا مُتَخَالِفَةً، وَلَا مُتَنَافِرَةً، وَلَا مُتَصَارِعَةً، وَلَا مُتَفَرِّقَةً شِيعاً وَأَحْزَاباً.

«**صَافَّات**»: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «صَافة» وهي الجماعَةُ الَّتِي تَنْتَظِمُ مُسْتَقِيمَةً عَلَىٰ خَطٍّ، أو خُطُوطٍ بَعْضُهَا وَرَاءَ بَعْضٍ، مُؤْتَمَّةً بإمَامٍ واحِدٍ يَقُودُ حَرَكَاتها، في الصَّلاةِ، وفي جهاد الدَّعْوَةِ إلى اللهِ، وفي القتالِ في سَبيلِ الله، أو تَخْضَعُ لِنِظَامٍ صَفِّيٍّ مُنْضَبِطٍ وَلَوْ تفرَّقُوا في المواقع.

فَالصَّافَّات وَصْفٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: الجماعَات الصَّافّات، واخْتِيرَ هـٰذا الجمع المؤنَّثُ الدَّال على الجماعَاتِ لِيَشْمَلَ جَمَاعَاتِ الإيمانِ من المحسنين، والأبرار، وكامِلِي التَّقْوىٰ، من كلِّ أمَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عَصْر، فَهُمُ السَّابِقُونَ الذين يُحِبُّهُمُ اللهُ ويُحِبُّونَه.

﴿صَفًّا﴾: مَفْعُول مُطْلَق يُؤَكِّدُ الْتِزَامَهُمْ بِالانْضِبَاطِ الصَّفِّيِّ المطْلُوب مِنْهُمْ شَرْعاً.

وَيُؤَكِّدُ هـٰذا الفَهْمَ مَا جَاءَ في الآيات من (١٦٤ ـ ١٦٦) الَّتِي أَرْشَدَ اللهُ المؤمنين أنْ يَقُولُوه في أَوَاخِرِ هـٰذه السُّورَة، وهو قولُهُ تَعالَىٰ مُعَلِّماً:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

وسيأتي تَدَبُّرُها إنْ شَاءَ الله تعالى.

قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾﴾: «**الزَّجْرُ**»: هو في اللُّغَةِ المَنْعُ والنَّهْيُ والانْتِهَار، يُقَالُ لغة: «زَجَرَهُ، يَزْجُرُه، زَجْراً» أي: مَنعَهُ وَنهَاهُ وانْتَهَرَهُ.

دلَّ هَـٰذَا الْوَصْفُ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ الْجماعَاتِ من الْمُحْسِنِينَ، والأبرار، وكامِلِي التَّقْوَىٰ، تَقُومُ بِرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ ضِمْنَ الْمِنْهَاجِ الرَّبَّانِيِّ، وَتَنْصَحُ وَتُرْشِد، فَمَنْ أَعْلَنَ إيمانَهُ وَإِسْلاَمَهُ، عَلَّمَتْهُ شرائعَ اللهِ وَأَحْكَامَ دِينِه، وطَالَبَتْهُ بالْتِزَامِهَا فِي حَيَاتِهِ، وَتَابَعَتْ رِسَالَتَهَا في الْمجْتَمَعِ المؤمِنِ الْمُسْلِم

تُرْشِدُ وَتَنْصَحُ، وتأمُرُ بالمعروف وَتَنْهَىٰ عَنِ المنكر، فَمَنْ أصَرَّ مِنَ المؤمِنِينَ المُسْلِمِينَ عَلَىٰ ارتِكَابِ كَبَائِرِ الْمَعَاصِي زَجَرَتْهُ عن مَعَاصِيهِ بِشِدَّةٍ، فِيها شيءٌ مِنَ الْعُنْفِ والانْتِهَار، لِيَمْتَنِعَ عَنْ كَبَائِرِهِ، ويَسْتَقِيمَ على صراطِ الله.

فَدَلَّ التَّعْبِيرُ بالزَّجْرِ عَلَىٰ سَوَابِقِهِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الحِكْمَةُ التَّرْبَوِيَّةُ في الإسْلَام، عَنْ طَرِيق اللَّوَازِمِ الْفِكْرِية، مَعَ مُلَاحَظَةِ مِنْهَاجِ فِقْهِ الدَّعْوَةِ إلىٰ الله، وفِقْهِ النُّصْحِ والإرْشَادِ، وَالْأَمْرِ بالْمَعْرُوف والنَّهْيِ عَنِ المنكر، إذِ الزَّجْرُ يَكُونُ مُتَأَخِّراً فِي تَرْتِيبِ الْعِلاجِ التَّرْبَوِيّ، وَلَا يَكُونُ في أوائِلِ الْعِلَاجِ وَلَا فِي أَوَاسِطِه، أمَّا التّعَازِيرُ الْعِقَابِيَّة فَهِيَ مِنْ وَظَائِفِ الإدَارَةِ الحاكمة المسْلِمَةِ، لا من وظائِفِ حَمَلَةِ الرِّسَالَةِ الآمِرِينَ بالمعْرُوفِ وَالنّاهِينَ عَنِ المنكر.

﴿زَجۡرٗا﴾: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ يُؤَكِّدُ اتِّصَافَ هٰؤلَاءِ النُّخْبَةِ بِغَيْرَتِهِمْ على دِين الله، غَيْرَةً تَجْعَلُهُمْ يَصِلُونَ إلَىٰ مُسْتَوىٰ زَجْرِ مُرْتَكِبِي الكبائر بِعُنْفٍ حَكِيمٍ، غَيْرِ مُنَفِّرٍ وَلَا مُشَهِّرٍ بالمسْتُورِين من أهْلِ المعاصِي.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾: أي: فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، تعَلُّماً وَتَعْلِيماً، وطَلَباً لِثَوابِ اللهِ الَّذِي أَعَدَّهُ جلَّ جَلَالُهُ لتالي آياتِ كِتابه، وتَبْلِيغاً لِكِتَابِ اللهِ مَا وَجَدُوا له سبيلاً بِمُخْتَلِفِ وسائِلِ التَّبْلِيغ.

إنَّ من صفاتِ الجماعَاتِ الَّذِينَ أقْسَمَ اللهُ بِهِمْ مِنَ الْمُحْسِنِين، والأبْرارِ، وكامِلِي التَّقوىٰ، أنَّ مِنْ أَحْوَالِهِم الدَّائِمَةِ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ اللهَ كثيراً، ويُسَبِّحُونَ بِحَمْدِهِ، ويَتْلُونَ كِتابَهُ مُتَعَلِّمِينَ، وَمُعَلِّمِينَ، وَمُبَلِّغِين.

﴿ذِكۡرًا﴾: مَفْعُولٌ بِهِ لِجَمْعِ اسم الفاعل: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾.

وجاء العطف بالفاء في: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ وفي ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ الدَّالّة علىٰ التَّرْتيب مع التَّعقيب، مُلائماً للتَّرْتيب الطَّبِيعي،

فالصَّفُّ في الصَّلاةِ يكونُ أوّلاً، وبَعْدَهُ يكونُ الصَّفُّ في الجهاد الدَّعَوِيّ والقتال، وبَعْدَهُ تَتكَوَّنُ الْأُمَّةُ المُسْلِمَة، وعِنْدَئِذٍ يُوَجَّهُ لَهَا الْأَمْرُ والنَّهْيُ، فَالزَّجْر، فالمداومَةُ علىٰ تَلَاوَةِ الذِّكْرِ تَبْلِيغاً، وتَعَلُّماً، وتَعْلِيماً.

هٰذه صفات النُّخْبَةِ السَّابِقَةِ في الخيْرات من المؤمنين المسلمين، وهم المُحْسِنُونَ، والأبْرَارُ، وكامِلُو التقوى.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً للنّاس ولا سيما المشركون:

- ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾: أي: إنَّ إلَٰهَكُمُ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ عليكم أَنْ تَعْبُدُوهُ، ولَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، هُوَ واحِدٌ فَقَط، لَا شَرِيكَ لَهُ.

جاءَ تَوْكِيدُ هٰذِهِ الجملة بِعِدَّة مُؤَكِّداتٍ هي: «الْقَسَمُ بالنُّخبة المُصْطَفَاة من المؤمنين الْمُسْلِمينَ ـ وإِنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر».

﴿إِلَٰهَكُمْ﴾: أي: مَعْبُودَكُمُ الحق.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً وَصْفَ الإلَٰهِ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَعْبُدَهُ المُكَلَّفُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وأنْ لَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، وَلَا شَيئاً:

- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾:

أي: هو خالِقُ السَّماواتِ والْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَ السَّماواتِ والْأَرْض، وخالِقُ المشَارِقِ والمغارِبِ، لأنَّ المشَارِقَ تَحْدُثُ مَعَهَا الْمَغَارِبُ دَواماً في الجهة المقابِلَةِ لَها، وهُو المتَصَرِّفُ والمُهَيْمِنُ عَلَيْها دَواماً بِصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ الكَثِيْرَة.

السَّماوات: هي السَّماواتُ السَّبْعُ الَّتِي جَاء الحديث عَنْهَا في نُصُوصٍ قرآنِيَّةٍ كثيرة.

الأرض: هي هٰذا الكوكَبُ ذُو السَّطْحِ البارد، الَّذِي يَسْكُنُ عَلَيْهِ

النَّاسُ، ويُلْحَقُ بهَا غِلَافُها الغازِيُّ المنْجَذِبُ إليها، وهذا الغِلَافُ هو سماءٌ قَرِيبةٌ بالنسبة إلى الأرض، وفق الوضع اللّغويّ للفظ «سماء».

ومَا بَيْنَهُمَا: أي: وَمَا بَيْنَ السَّمَاواتِ والْأَرْض، وهِيَ الكائنات في الفضاءِ الخارج عَنْ جاذبيَّةِ الأرض، وجَاذِبِيَّاتِ الكواكب والنجوم الكائِنَةِ فِي السَّمَاءِ الأُولَىٰ.

المشارق: تَدُور الأرض بِسُرْعَةٍ حَوْلَ مِحْوَرِهَا باتّجاه الشمس، وهذه الحركةُ الدَّوَرَانِيَّةُ السَّرِيعةُ تَجْعَلُ الشَّمْسَ في نظر سُكَّانِ الأرْضِ كأَنَّهَا هِي الّتي تَتَحَرَّكُ من الشَّرْقِ إلَىٰ الْغَرْب مُسَبِّبَةً حُدُوثَ النهار واللَّيْلِ على الأرض، وجانِبُ النَّهارِ على الأرض هُوَ الجانب المواجِهُ للشَّمْس، وأمَّا اللَّيْلُ فَيكُونُ في الجانب الآخر الذي لا تكُونُ الشَّمْسُ مُواجهةً لَهُ.

وبِدَوَرَانِ الأرض حَوْلَ نَفْسِها باتّجَاهِ الشَّمْسِ، تَكُونُ الشَّمْسُ ذَاتَ مَشَارِقٍ على الأرض لحظَةً فَلَحْظَةً، وكلُّ سَاكِنٍ من الأرْضِ يَرَىٰ الشُّرُوق الّذي يَكُونُ عَلَىٰ الأرْضِ الَّتِي يَسْكُنَها، ومَنْ يَسْكُنُ أَبْعَدَ مِنْهُ فِي اتّجاهِ الْغَرْب، يَرَىٰ على أَرْضِهِ شُرُوقاً آخر، ونَظِيرُه في المقابل الغروب.

مَشَارِق: جَمْع «مَشْرِق» وهو يُطْلَقُ على مَكانِ شُرُوق الشمس، وزَمَانِ شُرُوقِ الشمس، ويُطْلَقُ على الشُّرُوق باعتباره مصدراً مِيمِيّاً، ومَعْلُومٌ في المفاهيم الدّينيَّةِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يُهَيْمِنُ بِصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ خَلْقاً وتدبيراً وَتصاريف على الشُّرُوق، وعَلَىٰ أَمْكِنَةِ الشُّرُوق، وعَلَىٰ أَزْمِنَةِ الشُّرُوق، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ المشارِقِ، وكُلّ المغارِبِ، ولَا أَحَدَ غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ مَا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِك.

وجاء التصريح بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ رَبُّ المغارِب أيضاً في قوله تعالى في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشأن بَعْضِ مِنَنِهِ على النّاس.

- ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾:

يتحدَّثُ رَبُّنا ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ بضمير المتكلّم العظيم مؤكّداً: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ وَقَدْ سَبَقَ بيانُ القِراءَاتِ وبَيَانُ الحِكْمَةِ فيها. وَلَمَّا كانَتْ ظَاهِرَةُ هـٰذا التَّزْيينِ مِنْ خَصَائِصِ أَفْعَالِ الرَّبِّ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُهَا في الْوُجُودِ أَحَدٌ سواه، كان من الحكْمَةِ التحدُّثُ عَنْهَا بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم.

﴿زَيَّنَّا﴾: أي: حَسَّنَّا وَجَمَّلْنا، وهـٰذا التَّزْيِينُ بِالكَوَاكِبِ السَّمَاوِيّةِ ظَاهِرٌ لِكُلّ ذي نظرٍ يرَىٰ بِهِ السَّمَاء.

ومن المعلوم لَدَىٰ عُلَماء الكَوْنِ أَنَّ الكواكِب والنُّجومَ لَا تَظْهَرُ زِينَتُها لِأَعْيُنِ النَّاظِرِين في الأرْضِ، إلَّا بِوَسَاطَةِ الْخَصَائِصِ الَّتِي خلَقَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الغِلَافِ الغازي حَوْلَ الأرض، ولولاهُ لَمْ تَكُنْ زِينَةً للنَّاظِرِين، وهـٰذا التَّزْيينُ من مِنَنِ اللهِ على عبادِهِ من الناس، وهو من آيات رُبُوبيَّتِهِ لِكَوْنِه.

ولَمَّا كَانَ الْغِلَافُ الغازيُّ حَوْلَ الأرْضِ هو الوسِيطُ الَّذي تَظْهَرُ بِهِ زِينَةُ الكواكِب، ويُسَمَّىٰ في اللُّغَةِ «سَمَاءً» كانَ لَنا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ المرادَ بالسَّمَاءِ الدُّنْيا هُو هـٰذا الْغِلافُ الغازيّ حَوْلَ الأَرْض، إِذْ هُو الذي تَظْهَرُ فِيهِ زِينَةُ الكَوَاكِب، ولولاه لَمْ تَكُنْ ذاتَ زِينة. لفظ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ مؤنَّثُ الأدْنى، أي: السَّماءُ الأقْرَبُ لَكُم أيها الناس.

وَلَا يَقْتَصِرُ أَمْرُ الكَوَاكِب علَىٰ كَوْنِها زِينَة، بَلْ هِي أيْضاً كما جاء في النَّصِّ، تحْفَظُ السَّمَاءَ مِنْ أَنْ يَسْتَرِقَ الشَّيَاطِينُ الْمَرَدَةُ السَّمْعَ مِنْ مَلَائِكَةِ

الملأ الأعلىٰ، حِينَ يَنْزِلُونَ مُبَلِّغِينَ أوامِرَ اللهِ المُتَعَلِّقَةَ بتصاريفِ اللهِ في الأرضِ. لِذَوِي الوظائفِ الأرْضِيَّةِ من الملائكة، فقالَ تَعالى:

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾: أي: وجَعَلْنَاها أدوَاتِ حِفْظٍ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، وهٰذِهِ وظيفَةٌ للكَواكِبِ من الوظائفِ التي جَعَلَها اللهُ لَهَا في كونه.

شيطان: اسم جنْسٍ يُطْلَقُ عى كُلِّ مُغْوٍ مُضِلٍ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ مِنَ الجِنّ والإنس، وإبليسُ إمَامُ كُلِّ الشَّياطين ورَئِيسُهم. والَّذِينَ كانوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ الشَّيَاطين، هم من شياطين الجنّ.

مَارِد: أي: بالغُ الْغَايَةَ فِي الْعُتُوِّ والإجْرَامِ والإفساد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾:

أي: فَشَيَاطِينُ الجنِّ الْمَردَةُ، بَعْدَ أَنْ حفِظَ اللهُ السَّماءَ مِنِ اقْتِرَابِهِمْ مِنْها بالشُّهُب، خَافُوا مِنْ أَنْ تُصِيبَهُمُ الشُّهُبُ الْمُحْرِقَةُ، فَصَارُوا لا يَتَسَمَّعُونَ إِلَىٰ الْكَلام الَّذِي تَنْزِلُ بِهِ مَلَائِكَةُ الْمَلأ الأَعْلىٰ بالأَوامِرِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِمَلَائِكَةِ تَنْفِيذِ الْأَوَامِرِ في الأَرْضِ.

وَدلَّت القراءَةُ الأُخْرَى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ علىٰ أَنَّهُ إِذَا غَامَرَ بَعْضُهُمْ وَبَلَغَ مَكَاناً مَا يَتَسَمَّعُ وهُوَ فِيه تَنَصُّتاً، فإنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمَعَ، إِذْ يَجِدُ قَذَائِفَ تُوَجَّهُ لِقَتْلِهِ أو إحْرَاقِهِ أَوْ مَسِّهِ بِضُرٍّ شَدِيدٍ مِنَ الشُّهُبِ، مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبه.

- ﴿دُحُورًا ۖ﴾: أي: لِأَجْلِ دَحْرِهِمْ وَطَرْدِهِمْ عَنْ مَوَاقِعِ التَّسَمُّعِ من مَلائِكَةِ الْمَلأ الأعْلَىٰ، النَّازِلِينَ لِتَبْلِيغِ مَلَائِكَةِ التَّنْفِيذِ أَوامِرَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

الدُّحُور: والدَّحْرُ: الطَّرْدُ والإبْعَادُ المقتَرِنُ بدَفْعٍ عَنِيفٍ فيه إهانَةٌ وإذْلال.

- ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: أي: ولَهُمْ إذَا حَاوَلُوا التَّسَمُّعَ عَذَابٌ دَائِمٌ مُلازِمٌ، إذَا لَمْ تُحْرِقْهُمُ الشُّهُب. أو: ولَهُمْ في الآخرة عذابٌ دائم.
- ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾:

اسْتِثْنَاءٌ مِنْ [**لَا يَسَّمَّعُوْنَ**] ومِن [**لَا يَسْمَعُونَ**] في القراءَة الْأُخْرَىٰ، أي: إلَّا شَيْطاناً مَارِداً اسْتَرَقَ بَعْضَ الكَلَام مِنْ مَلَائِكَةِ الملأ الْأَعْلَىٰ، بأسْلُوب الْخَطْفِ السَّرِيع، فإنَّهُ لَا يُتْرَكُ بَلْ يَتْبَعُهُ شِهَابٌ نَارِيٌّ فَيُحْرِقُهُ أَوْ يُنْزِلُ به عِلَّةً تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَنْقُلَ إلى وَلِيِّهِ مِنْ شَيَاطِين الإنْسِ، مَا اخْتَطَفَهُ مِنْ كَلامٍ بتَسَمُّعِهِ.

﴿خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾: يقال لغة: «خَطِفَ الشّيْءَ، يَخْطَفُهُ، خَطْفاً» أي: جَذَبَهُ وأخَذَهُ بِسُرْعَةٍ.

- ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾: أي: فتبِعَهُ بِسُرْعَةٍ وقُوَّةٍ.
- ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: **الشِّهاب**: الشُّعْلَةُ السَّاطِعَةُ مِنَ النار، **والثاقب**: المتوقِّدُ لَهباً، فَهو شِهَابٌ شَدِيدُ التَّوَهُّجِ الناري.

ويطْلَقُ الشهابُ على النجم المضِيءِ اللامع، ويطْلَق على جرم سماويٍّ يَسْبَحُ في الفضاء، فإذا دَخَلَ إلى جوّ الأرْضِ انْجذَبَ إليها بِشِدَّةٍ فاشْتَعَلَ وَصارَ رَماداً غالباً.

أي: فتَبِعَهُ بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ شِهابٌ مُتَوَقِّدٌ لَهباً، فقَتَلَهُ، أوْ مَسَّهُ بحَرِيقٍ وَأَنْزَل بِهِ ضُرّاً، فَمَنَعَهُ من أَنْ يَنْقُلَ شيئاً إلى وَلِيِّهِ مِنْ شياطين الإنس.

وقد كان شياطين الجنّ يَسْتَرِقونَ بمَسَامِعِهِمْ مَا تتحادَثُ به الملائكةُ في السَّمَاء، أو مَا يُلْقَىٰ إليهم من أوامر رَبَّانِيَّة وأنْباء، ويُبَلِّغُونَ مَا اسْتَمَعُوهُ

إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شياطين الإِنْس، الكَهَنَةِ والْعَرَّافِينَ، فَمُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ بَعْد بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالشُّهُب، كما سبَقَ إيضاحُهُ لدَىٰ تدَبُّر سورة (الجنّ/ ٤٠ نزول).

وحِكْمَةُ هـٰذا المنْعِ حِمَايَةُ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّتي اصْطَفَىٰ اللهُ لَها محمّداً ﷺ، مِنْ أَنْ يَلْتَبِسَ الْوَحْيُ الرَّبَّانِيُّ بمَا تُلْقِيهِ شياطِينُ الجنّ إلى أوْلِيَائِهِمْ من شياطين الإنس، عَنْ طَرِيق اسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنْ مَلَائِكَةِ المَلأِ الأعْلَىٰ، وَكَانَ شياطِينُ الإنْسِ من الكَهَنَةِ والعَرَّافِينَ، يَكْذِبُونَ مَعَ الْخَبَرِ الصَّحِيحِ الَّذي يَصِلُ إِلَيْهِمُ من قُرَنَائِهِمْ من الجنِّ مِئَةَ كَذْبة، وقدْ جاء هذا فيما صَحَّ عَنِ النبيّ ﷺ.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدرس الأول من دُروس سورة (الصَّافَّات). والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفَتْحِه.

* * *

(٦)

التدبر التحليلي للدّرس الثاني من دروس سورة (الصافات) الآيات من (١١ ـ ٧٤) وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

الآيات من (١١ ـ ٣٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ

(١٩) وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (٢٠) هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ
(٢١) ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ
ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ
ٱلْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ ۖ بَلْ
كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ
(٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ
كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ (٣٦) بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ
(٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) ﴾.

القراءات:

(١١) • قرأ رُوَيس: [**فَاسْتَفْتِهُمْ**] بضمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**فاسْتَفْتِهِمْ**] بكسر هاء الضمير.

وهما لغتان عربيّتان.

(١٢) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**بَلْ عَجِبْتُ**] بتاء المتكلّم وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بَلْ عَجِبْتَ**] بتاء المخاطب وهو الرسول ﷺ.

وبين القراءَتَيْنِ تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فالله عَجِبَ من اعتزازِهِمْ بقُوَّتِهم مع أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الله أشدُّ مِنْهُم قوةً، والرَّسُولُ ﷺ عجب أيضاً من أَمْرِهم هـٰذا، والْعَجَبُ من اللهِ مَعْنَاه الإنكارُ الشديد عَلَيْهِمْ لما هُمْ فيه من مكابَرَة حمقاء.

(١٦) • قرأ ابن عامر: [**إذَا... أَئِنَّا**].

وقرأها نافع والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أَئِذَا... إِنَّا**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَئِذَا... أَئِنَّا**].

ومُؤَدّىٰ هـٰذه القراءات واحد، فَحَذْفُ هَمْزةِ الاستفهام هو عَلَىٰ أنَّها مُقَدَّرَةٌ ذهْناً. والاستفهام هنا تَعَجُّبِيٌّ إنكاري.

(١٦) • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وشُعْبَة، وأبو جعفر، ويعقوب [**مُتْنَا**] بضَمّ الميم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ الميم [**مِتْنَا**].

وهما وَجْهَانِ عَرَبيان، والقياسُ بضم الميم، لأنَّ الفعل «مَاتَ، يَمُوت».

(١٧) • قرأ قالُونُ، وأبُو جَعْفَر، وابن عامر: [**أَوْ آبَاؤُنَا**] بحرف الْعَطفِ «أَوْ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَوَ آبَاؤُنَا**] بهمزة الاستفهام والْعَطْفِ بالواو.

ومؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

(١٨) • قرأ الكسائي: [**نَعِمْ**] بِكَسْر الْعَيْنِ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**نَعَمْ**] بفَتْحِ الْعَيْن.

فتح الْعَيْنِ وَكَسْرُها في «نَعَمْ» لغتان عَرَبِيّتَان.

(٢٥) • قرأ الْبَزِّي، وأبو جَعْفَر: [**لَا تّنَاصَرُونَ**] بِتَشْدِيدِ التاء، مع المدّ المشْبَعِ للسَّاكِنَيْن، أصْلُها: «لَا تَتَنَاصَرُونَ» أُدْغِمَتِ التاء بالتاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**لَا تَنَاصَرُونَ**] بحذف إحْدىٰ التاءَيْنِ للتخفيف، وهذا مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيح.

تَمْهيد:

في هـٰذا الْفَصْلِ مُعالَجَةٌ لِأَئِمَّة الكُفْرِ المعانِدِين إبَّانَ تنزيل السُّورة، بشأن سَبْعِ ظاهراتٍ بَارِزاتٍ فيهم:

الظَّاهِرَة الأولى: اعْتِزَازُهُمْ بِقُوَّتِهِم المادِّيَّةِ علىٰ الرُّسُولِ وَعَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

الظَّاهِرَة الثانية: سُخْرِيَتُهُمْ بالرَّسُول وبما جاء به عَنْ رَبّه، وسخريَتُهم بالمؤمنين.

الظَّاهِرَةُ الثالِثَة: عَدَمُ اسْتِجَابَتِهِمْ للتذكير مَهْمَا كانَ ذَا تَأْثير في العقول والنفوس، لِقَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ.

الظَّاهِرَة الرابعة: إمْعَانُهُمُ الْمُسْرِفُ بالسُّخْرِيَةِ من الآيَات الخارقَاتِ الدّالَّاتِ على أَنَّ مُحَمّداً رَسُولُ اللهِ حَقّاً وَصِدْقاً، لِحَجْبِ أتْبَاعِهم عَنِ التَّأَثُّرِ بِهَا، وتَصْدِيق الرَّسُول، زَاعِمِينَ أَنَّها مِنْ قَبِيلِ السِّحْر.

الظَّاهِرَةُ الْخَامِسَة: إنكارُهُمُ الْبَعْثَ الَّذِي سَوْفَ يكُونُ يَوْمَ القيامة، دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا دَلِيلاً إلَّا الاستفهامَ التَّعَجُّبِيَّ الإنْكَارِيّ.

الظَّاهِرَة السَّادِسة: اسْتِكْبَارُهم عَنِ اتِّباع الحقّ، وإعْلَانِ كَلِمَةِ التوحِيد، وعَنْ تَرْكِهِمْ عِبَادَةَ آلِهَتِهِمْ الَّتِي وَرِثُوا الاعْتِقَادَ بِهَا عَنْ آبائهم.

الظَّاهِرَة السَّابعة: شَتْمُهُمُ الرَّسُولَ بأَنَّهُ شَاعِرٌ مَجْنُونٌ.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

- ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾:

الاسْتِفْتَاءُ: طلبُ الإِجابَةِ علَىٰ المَسْؤُولِ عَنْهُ.

﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾: أي: من طِينٍ مُتَمَاسِكٍ فيهِ قُوَّةُ الالْتِصَاقِ بالْأشياء، يقال لغة: «لَزَبَ الطِّينُ، يَلْزُبُ، لُزُوباً» أي: تماسَكَ ولَزِقَ، ويُقَالُ: «لَزَبَ بِالشَّيءِ يَلْزُبُ، وَلَزِبَ يَلْزَبُ لَزَباً» أي: لَصِق، فهو لَازِب.

أفْهَمُ مِنْ هٰذِهِ الآيَة أَنَّ كُبَراءَ مُشْرِكي مَكَّةَ، وعُتَاتَهُمْ إِبَّانَ تَنْزِيلُ السُّورَةِ، كَانُوا يَعْتَزُّونَ بِقُوَّتِهِمْ الغَالِبَةِ وَيَقِفُونَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، ومن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه مَوْقِفَ الْمُعْتَزِّ بِقُوَّتِهِ الْقَادِرِ على الْبَطْشِ والتَّنْكِيلِ، وهٰذا مَا جَعَلَهُم يَتَسَلَّطُونَ علَىٰ ضُعَفَاءِ المؤمنين، وَجَعَلَ بَعْضَ المؤمنين يُهَاجِرُونَ مِنْ مَكَّةَ طَلَباً لِسَلَامَةِ أَنْفُسِهِم مِنْ عُدْوانِ طُغَاةِ الكَفَرةِ، ومُضَايقاتِهِمْ لَهُمْ فِي أَرْزَاقِهِم.

فَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَسْأَلَ هٰؤُلَاءِ الأكابِرَ المجرمين، الْمُعْتَزِّينَ بِقُوَّتِهِم، وبِقُوَّةِ جُنُودِهِم وَأَنْصَارِهِمْ، والمُتَحَدِّينَ بأَجْسَادِهِمْ المتينَةِ، فيقولَ لَهُمْ: أأَنْتُمْ أشَدُّ خَلْقاً من الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، الَّتِي عَادَتْ رُسُلَ رَبِّها، وبَغَتْ على الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ. أَلَمْ يُهْلِكِ اللهُ عَاداً وقَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ خَلْقاً وقُوَّة؟. أَلَمْ يُهْلِكِ اللهُ ثَموداً؟. أَلَمْ يُهْلِكِ اللهُ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ وجُنُودَه؟.

إِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ عَقْلٍ فاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللهِ مِنْكُمْ، وتداركُوا أَمْرَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ عليكُمْ غَضَبُ رَبِّكُمْ. وأَيْضاً أأَنْتُمْ أشدُّ خَلْقاً أَمْ من خَلَقْنَا من ملائكة ذوي قوى تقلب البلاد عالِيَها سَافلها.

انْظُرُوا إلىٰ أصْلِ إِنْشَاءِ اللهِ لَكُم، إِنَّكُم تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّكُم قَدْ خَلَقَ أَباكُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ، وهي إِحْدَىٰ مَراحِلِ خَلْقِ اللهِ لآدم، وأَنْتُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فأَنْتُمْ مِنْ سُلَالَةِ مَخْلُوقٍ مِنْ طِينٍ، ماءٍ مُمْتَزِجٍ بتُرابٍ، وكمَا خلقَكُمْ في الْخَلْقِ الْأَوَّلِ هُو قادِرٌ على إعادَةِ خَلْقِكُمْ وبَعْثِكُم إلى الحياةِ يَوْمَ

القيامَةِ، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وقَادِرٌ على إهْلاكِكُمْ كَمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ مُجْرِمي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَلَسْتُمْ أَكْرَمَ عِنْدَ اللهِ مِنْهُمْ، إِذْ كُلُّكُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وعبيدٌ مِنْ عَبِيدِه.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشأن المعالجين أنفسهم:

- ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑫﴾ وفي القراءة الْأُخْرَىٰ: **[بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ]** بتاء المتكلّم وهو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

«**بَلْ**» للإِضراب الانتقاليّ مِنْ بَيَانٍ إلى بيَانٍ آخر.

أي: أنَا وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ عَجِبْنَا مِنْ أَمْرِ هٰؤُلَاءِ الجبَابِرَةِ الْعُتَاةِ الكَفَرَةِ، إِذْ يُعَانِدُونَ الحقَّ الْجَلِيَّ الَّذِي أَدْرَكُوهُ وفَهِمُوه، ويُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابٍ شَدِيدٍ مع إِهْلَاكٍ مُهِينٍ مُخْزٍ في الحياة الدُّنيا، وعَذَاب شَدِيدٍ خالِدٍ في دَارِ الْعَذَاب النار يَوْمَ القيامَةِ، وهُمْ أَهْلُ فَطَانَةٍ وَذَكَاءٍ، ولٰكِنَّهُمْ يَسْتَجِيبون لأهوائِهِمْ وَعَوَامل كِبْرِهم في نُفُوسِهِمْ، والْتِزَامِهِمْ بتقاليدِهِم الّتي يُحَقِّقُونَ بِهَا مَصَالِحَ لَهُمْ في دُنْيَاهُمْ.

وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنَ الإنْذَارَاتِ الَّتِي تُوَجَّهُ لَهُمْ الْعَاجِلَةِ والآجِلَةِ ظَانِّينَ ظنّاً تَوَهُّمِيّاً أَنَّهَا لَنْ تَتَحَقَّقَ.

أَنَا وأَنْتَ في مَوْقِفِ الْمُتَعَجِّبِ مِنْ أَمْرِهِمْ، المرْفُوضِ في مَقَايِيسِ الْعُقُولِ الْمَوْهُوبَةِ لهم. وهُمْ فِي مَوْقِفِ السَّاخِرِ من الْوَعِيدِ الَّذِي وُجِّهَ لَهُمْ من رَبِّهِمْ، عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ الَّذِي اسْتَيْقَنُوا صِدْقَه، وجَحَدُوا آيَاتِ اللهِ خَالِقِهِمْ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاها.

التَّعَجُّبُ الّذِي وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ نَفْسَهُ هو صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَلِيقُ بِجَلَالِهِ، أو هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الاسْتِنْكَارِ والتَّلْوِيمِ والتَّثْرِيب، لأَنَّ مَوْقِفَهُمْ مَوْقِفٌ مَذْمُومٌ مُسْتَنْكَرٌ، وَاضِحُ الانْحِرَاف عَنْ مَسَالِكِ ذوي العَقْلِ السَّلِيم، والْفَهْمِ المستقيم.

وتَعَجُّبُ الرَّسُول ﷺ مِنْ أَمْرِهِمْ، فيه مَعْنَىٰ اسْتِنْكارِ مَوْقِفِهِمْ الّذي يُسْتَغْرَبُ حُصُولُهُ مِنْ أهْلِ فِطْنَةٍ وذكاء، يَرَوْنَ أنْفُسَهُمْ أَهْلَ عَقْلٍ وَرُشْد، وقَادَةً لجماهِيرَ كَثِيرَةٍ مِنْ قَوْمهم.

هـٰذِهِ الآيَة تَكْشِفُ مَوْقِفَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ بَيْنَ اللهِ والرَّسُول مِنْ جِهَةٍ وَبَيْنَ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ فِي مَكَّةَ مِنْ جِهَةٍ أُخرىٰ، إبَّانَ تَنْزِيلِ سورة (الصَّافات).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشأن المُعَالَجِينَ أنفسهم أيضاً.

- ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: وإذَا ذُكِّرُوا بِمَا سَبَقَ أَنْ أبْلِغُوهُ وبُيِّنَ وَشُرِحَ لَهُمْ من حَقَائِقِ دِينِ اللهِ لَهُمْ، وأحْكَامِ شَرِيعَتِهِ الحكِيمَةِ الرَّشِيدَة، مُقترناً كُلُّ ذلِكَ بالْبَرَاهِين القاطِعَةِ والحُجَجِ السَّاطِعَة، لَا يَذْكُرُونَ ذِكْراً ذَا أَثَرٍ يُغَيِّرُونَ بِهِ مَا هُمْ فِيه مِنْ تَمَسُّكٍ بالْبَاطِلِ عَقِيدةً وإيماناً، فَيُؤْمِنُونَ بِأَرْكَانِ الْعَقِيدَةِ الإيمَانِيَّةِ الحقّ، ويُغَيِّرُونَ به ما هُمْ فيه من سُلُوكٍ آثِمٍ ظَالِمٍ، ومُعَادَاةٍ للحَقِّ والْخَيْرِ والْفَضَائِلِ، وَلِأَهْلِهَا حَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلَيْهَا، فَيَتَّبِعُونَ صِرَاطَ اللهِ المستقيمَ، الّذي أبانَتْهُ آياتُ كِتَابِ اللهِ الحكيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأن المعالَجِين أَنْفُسِهِمْ أيضاً:

- ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾:

﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾: أي: يَسْخَرُونَ بِشِدَّةٍ، مُظْهِرِينَ سُخْرِيَتَهُمُ الْعَنِيفَةَ أمَامَ جَمَاهِيرِهم، لِصَدِّهِمْ عَنِ التَّأثُّرِ بِسُلْطَانِ الآيَةِ الخارِقَةِ الدَّالَّةِ على أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ حَقّاً وَصِدْقاً وفي هذه الصيغة معنى استدعاءِ جماهيرهم أن يَسْخَروا تقليداً لهم.

أي: وإذا رَأَوْا آيَةً مِنَ الآياتِ الخارقاتِ الدَّالّاتِ على أنَّ مُحَمّداً رسُولُ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً، اشْتَدُّوا في إظْهارِ سُخْرِيَتِهِمْ مِنْهَا، لِصَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عَنِ التَّأثُّرِ بِسُلْطَانِها، ووَضْعِ غِشَاوَةٍ من السُّخْرِيَةِ الشَّدِيدَةِ علَىٰ عُقُولهم،

ويُكَرِّرُونَ هـٰذِهِ السُّخْرِيَةَ الشَّدِيدَةِ، أخْذاً من دَلاَلَةِ الفِعْل المضارع: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ الدّال على التكرار والتّجدُّد.

وإذا انْتَهىٰ وَقْتُ جَرَيَانِ الآيَةِ الْخَارِقَةِ، وعَادَتِ الْأُمُورُ إلَىٰ طَبِيعَتِها، قالُوا: إنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ ظاهِرٌ مُبِينٌ من أعْمَالِ السَّحَرَة، فَمُحَمّدٌ ساحِرٌ من السَّحَرَةِ، ولَيْس رَسُولاً.

دَلَّنِي على هذا الَّذِي فَهِمْتُهُ من النصّ، اسْتِعْمالُ الفعل الماضي في: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ بَعْدَ اسْتِعْمَال الفِعْلِ المضارِعِ في ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المُعالَجِينَ أنْفُسِهِمْ أيضاً وإنكارهم لِلْبَعْثِ والدَّارِ الآخِرَة، حِكايَةً لِقَوْلِهِم:

● ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

دَلَّ هـٰذا البيان في سورة (الصَّافّات) علَىٰ أَنَّهُمْ ما زَالُوا إبَّانَ نُزُولِها يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَيَوْمَ الدِّين، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يأتُوا بِدَلِيلٍ وَلَا بِشُبْهَةِ دَلِيلٍ، غَيْر مُجرَّدِ الاسْتِغْرَابِ والاسْتِبْعَادِ بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الإنكاري، الَّذِي سَبَقَ أَنْ تَعَلَّلُوا بِهِ مُنْذُ بَدْءِ تَلَقِّيهِمْ لِنَبأ الْبَعْثِ، ويَوْمِ القيامَةِ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ اسْتِغْراب أمْرٍ مَا أَنْ يَكُونَ دَلِيلاً علَىٰ أنّه باطِلٌ، فَكَمْ يَسْتَغْرِبُ النَّاسُ أشْيَاءَ أَوْ أَحْدَاثاً وَهِيَ من الحقائقِ الثَّابتَةِ بيَقِين.

وقَدْ سبَقَ أَنْ قَدَّمَ اللهُ لَهـُمُ الدَّلِيلَ الْبُرْهَانِيَّ الدَّافِعَ لاستِبْعَادِهِمْ واسْتِغْرَابِهِمْ، فَلَمْ يَقْبَلُوهُ وَأَصَرُّوا على إنْكارِهم ومَوْقِفِهِمْ الّذِي لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيه، فكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُوله: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: نَعَمْ سَتُبْعَثُون يَوْمَ القيامَة، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وأنتم أذِلَّاءُ، صَاغِرُونَ، خاضِعُون.

الداخر: هو في اللُّغَةِ الذَّلِيلُ، الصَّاغِرُ، الخاضِع.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ بَعْثِهِمْ يَوْم القيامة، مُقْتَطعاً مِن الأحْداثِ المستقْبَلِيَّةِ، ومُقَدَّماً بِصُورَةٍ كلامِيَّةٍ بَدِيعَةٍ مُرْهِبَة لأولي الألْبَابِ، تَحْكِي قِصَّةَ مَا سَوْفَ يَجْرِي، كأنَّهُ يَجْرِي الآن.

- ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (٣٢)﴾:

- ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾:

أي: فإنَّمَا قِصَّةُ بَعْثِهِمْ يَوْمَ القيامَةِ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ يُحْدِثُها النَّفْخُ في الصُّور، الَّذِي يَنْفُخ فيهِ إسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلام.

والمراد بالزَّجْرِ هُنا الإثارةُ الصَّوْتِيَّة الّتي يُحْدِثُها النَّفْخُ في الصور يَوْمَ الْبَعْث إلى الحياة.

يُقَالُ لُغَةً: «زَجَرَ الشَّيْءَ، يَزْجُرُهُ، زَجْراً» أي: أثاره.

والزَّجْرَةُ: هي المرَّةُ مِنَ الزَّجْر، وَوُصِفَتْ بأنَّها واحِدَةٌ لِدَفْعِ تَوَهُّم تَكْرَارِها، ولِتَوْكِيدِ عَدَمِ الحاجَةِ لدَىٰ بَعْثِ الموتَىٰ إلَىٰ أكْثَرَ مِنْ صَيْحَةٍ واحِدَةٍ فيها شِدَّةُ إثَارَةٍ.

لفظ ﴿هِىَ﴾: ضَمِير القِصَّةِ، أو يقالُ ضَمِيرُ الشَّأْن، وهو لا يَعُودُ على شيءٍ سابقٍ له. إنَّما تُفَسِّرُهُ الْجُمْلَةُ الَّتي تَأْتِي بَعْدَه.

- ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾: أي: فَيُفَاجَأُ الْمَوتَىٰ بِأَنَّهُمْ أحْيَاءٌ بأجْسَادٍ ذَاتِ حَيَاةٍ، يَنْظُرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ أحْدَاثَ يَوْم الدِّينِ.

قول الله تعالى:

- ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ (٢٠)﴾:

أي: وإذا شَاهَدُوا بأعْيُنِهِمْ أَحْدَاثَ يَوْمِ الدّين، الّتِي أَنْبَأَهُمْ بها رُسُل رَبِّهم في الحياة الدنيا، قَالُوا: يَا وَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ الدّين.

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾: عبارةٌ يَنْدُبُ بها قَائِلُوهَا نُفُوسَهُمْ، تَحَسُّراً، وتَوَجُّعاً، وتَفَجُّعاً، خَوْفاً مِنَ المصير الوخيم الّذِي هُمْ إلَيْهِ صَائِرُون، ومن العذاب الأليم الذي يترَقَّبُونَ، بِمَا جَنَوْا علَىٰ نُفُوسِهِمْ في الحياة الدُّنيا، إذْ كانوا بِالْبَعْثِ ويَوْمِ الدِّينِ يُكَذِّبُونَ، وبالحقِّ الرَّبَّانِيّ يَجْحَدُون، ولِلْجَرائم الكُبْرَىٰ يَرْتَكِبُونَ، وبِرَبِّهِمْ يَكْفُرُونَ، إذْ برُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ يُشْرِكُونَ، أو يَجْحَدون.

عندَئِذٍ يُقَالُ لَهُمْ مَا جَاءَ في الآيَةِ التَّالِيَه، أوْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْض:

- ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢١)﴾:

﴿يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾: أي: يَوْمُ فَصْلِ قَضَاءِ اللهِ بَيْنَ عِبادِهِ الَّذِينَ كَانُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان، تَمْهِيداً لِتَنْفِيذ مَا يَقْضِي اللهُ بِشَأْنِهِمْ مِنْ جَزاء.

وَهـٰذَا الْيَوْمُ الَّذِي أنْتُمُ الآنَ فِيهِ هو الْيَوْمُ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ في حَيَاةِ الامْتِحَانِ تُكَذِّبُونَ، مَا جَاءَكُم بِشَأْنِهِ مِنْ أنْبَاءٍ عَنْ رَبِّكُمْ، بَلَّغَكُمْ إِيَّاها رُسُلُهُ الصَّادِقُونَ المؤَيَّدُون مِنْ لَدُنْهُ بالآياتِ الباهرات، والخوارِقِ الْمُعْجِزَات.

وَبَيْنَمَا يَكُونُونَ في مَوْقِفِهِمْ خَائِفِينَ أَذِلَّاءَ صَاغِرِينَ، لَا يَجِدُونَ مَهْرَباً مِمَّا هُمْ فِيهِ، يَصْدُرُ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ لِلْمَلَائِكَةِ المكلَّفين جَمْعَهُمْ وَسَوْقَهُمْ، إذْ يَقُولُ اللهُ لهم:

- ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ (٢٤)﴾:

الحَشْر: الْجَمْعُ والسَّوْقُ إلىٰ الْجِهَةِ الَّتي يُرَادُ السَّوْقُ إليها، وإلى المكانِ الّذي يُرادُ إيقافُهُمْ فِيه.

أي: اجْمَعُوا وسُوقُوا يَا مَلائِكتِي المكلَّفِين، الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ والتَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّينَ، وأَزْوَاجهُمُ اللَّوَاتِي كُنَّ ظالِمَاتٍ مِثْلَهُمْ، واجْمَعُوا وسُوقُوا أَشْبَاهَهُمْ ونُظَرَاءَهُمْ فِي دَرَكَةِ الظُّلْم من الْكَافِرِينَ، واجْمَعُوا وسُوقُوا مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ مَعْبُودَاتٍ تَعْلَمُ أَوْ لَا تَعْلَمُ، ودُلُّوهُمْ علىٰ الطَّرِيقِ الْوَاسِعِ الَّذِي يجبُ عَلَيْهِمْ أَن يَسْلُكُوهُ ولَوْ قَهْراً وإِكْرَاهاً، وهو الصِّرَاطِ الْمُوصِلُ إِلَىٰ أبواب الْجَحِيم، وقِفُوهُمْ قَرِيباً مِنْ أَبْوَابِ الْجَحِيم، إِنَّهُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَبُّوا فيها من الباب الخاصِّ بِهِمْ بِحَسَبِ جرائمهم مَسْؤُولُونَ.

يأتي «هَدَاهُ» في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ: «دَلَّهُ» والدَّلَالَةُ تَكُونُ إِلَىٰ بُسْتَانِ الرَّفَاهِيَةِ، وتَكُونُ إلى سِجْنِ العذاب.

الصِّرَاط: الطريق الواضح الواسع.

الْجَحِيم: اسْمٌ من أسماء النَّار، وكُلُّ نَارٍ عظيمة في مَهْواةٍ هيَ جَحِيم.

فإذَا وَصَلُوا إلى مَوْقِفِ سُؤَالِهِمْ قَبْلَ كَبْكَبَتِهِمْ إلى الْجَحِيم، سَأَلَهُمْ رَبُّهُمْ عَنْ جَرَائِمِهِمْ الَّتِي ارْتَكَبُوها في رِحْلَةِ امْتِحَانهم، وحَاسَبَهُمْ عَلَيْها، وَقَضَىٰ عَلَيْهِمْ بالْخُلودِ في عَذَابِ الْحرِيق، وَسَأَلَهُمْ سُؤَالَ تَعْجِيزٍ وإِهَانَةٍ وإِذْلَالٍ، قَائِلاً لَهُمْ:

- ﴿مَا لَكُمْ لَا نَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾: أي: أَيْنَ قُدْرَاتُكُم التَّنَاصُرِيَّةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَسْتَخْدِمُونَهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، فَتقِفُونَ مُتَعَاوِنين مُتَنَاصِرِينَ، ضِدَّ رُسُلِ رَبِّكُمْ، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، إذْ كُنَّا قَدْ مَنَحْنَاكُمْ حُرِّيَّةَ الاخْتِيَارِ، ومَكَّنّاكُمْ مِنِ اتِّخاذِ الوسَائِلِ لِتَنْفِيذِ مَا تَخْتَارُون؟؟

إِنَّكُمُ اليَوْمَ عَاجِزُونَ، لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ عذاباً مَا، ولَا أَنْ تُحَقِّقُوا لِأَنْفُسِكُمْ مَطْلُوباً ما، إِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَحْتَ سُلْطَانِ الْقَهْرِ وَالْجَبْرِ، ولَيْسَ لَكُمْ حُرِّيَّةُ اختيارٍ لِشَيْءٍ ما.

إِنَّ وَاقِعَ حَالِهِمْ مُطَابِقٌ لِمَا أَبَانَتْهُ الآيَةُ التَّالِيَة:

- ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: هُمْ لَا يُفَكِّرُونَ في التَّنَاصُر، لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ، بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ اسْتِسلاماً تَامّاً، شُعُوراً مِنْهُمْ بأنّهُمْ مَسْلُوبُو كُلِّ قُوَّةٍ يُحَقِّقُونَ بِهَا مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَاباً، أَوْ يَجْلُبُ لَهُمْ نَفعاً.

حرف ﴿بَلْ﴾ هُنَا يَعْطِفُ علَىٰ مَحْذُوفٍ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ في الْفَهْمِ التَّدَبُّرِيِّ الَّذِي سبَق.

بَعْدَئِذٍ يُقَدِّمُ النَّصّ صُورَةَ حِوَارٍ بَيْنَ الأتباع الضَّالِّين، والْقَادَةِ المضِلِّينَ، فقال اللهُ تَعالى:

- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

حِوَارٌ تَنَازُعِيٌّ بَيْنَ الضَّالِّينَ مِنْ أَهْلِ الشِّمَالِ، بَعْدَ الْحُكْمِ عَلَيْهِم بأَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَحِيم، وبَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا في الدُّنْيَا أَئِمَّتَهُمْ، وَقَادَتَهُمْ، ومُغْوِيهِم، والسَّاعِينَ فِي إِغْرَائِهِمْ حَتَّىٰ يكُونُوا جُنُودَ ضَلَالٍ وَغَوَايَةٍ لَهُم.

- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ وَهُمُ الأَتْبَاعُ في الدُّنيا ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وَهُمُ الأَئِمَّة والْقَادَةُ الَّذِين كانُوا يُغْوُونَهُمْ فِي الدُّنيا ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يَتَحَاوَرُونَ تَحَاوُراً تَنَازُعِيّاً مُفْتَاحُهُ السُّؤَالُ يُوَجَّهُ مِنْ أَحَدِ الْفَرِيقَينِ الْمُتَحَاوِرَيْنِ للآخر، فَيُجِيبُ الْفَرِيقُ الْآخَرُ، وَقَدْ يُتْبِعُ إِجَابَتَهُ بِسُؤَالٍ يُوَجِّهُهُ لِلْفَرِيقِ الْأَوَّل، فَأُطْلِقَ عَلَىٰ التَّحَاوُرِ التَّنَازُعِيِّ: «التَّسَاؤُل».

الْفَرِيق الأوّل (الأتباعُ) لِلَّذِينَ كَانُوا قَادَتَهُم وأَئِمَّتَهُمْ في الدُّنْيَا:

أَلَسْتُمُ الَّذِينَ أضْلَلْتُمُونَا، فَجَعَلْتُمُونَا نُكَذِّبُ رُسُلَ رَبِّنَا، ونَكْفُرُ بالْحَقِّ، وَلَا نُؤْمِنُ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ؟. أَلَا تَحْمِلُونَ عَنَّا قِسْطاً مِنْ عَذَابِ رَبِّنَا؟.

الفريق الثّاني (الأَئِمَّةُ المَتْبُوعُونَ): قَالُوا: نَحْنُ لَمْ نُضِلَّكُمْ، ولا نَحْمِلُ عَنْكُمْ مِنْ عَذَاب اللهِ شيئاً، حَسْبُنَا مَا نَحْنُ فيه.

الفريق الأول (الأتباع): ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: إِنَّكُم كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا صَادِّينَ إِيَّانَا عَنِ الْإِيمَانِ الَّذِي مِنْ شأنِهِ أَنْ يَجْعَلَنَا الْيَوْمَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِين، لَا مِنْ أصْحَاب الشِّمَال.

ضُمِّنَ الفِعْل في: ﴿تَأْتُونَنَا﴾ مَعْنَىٰ الفِعْلِ في «تَصُدُّوننا» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرف الجرّ «عَنْ». وطُوِي في الثاني بَيْنَ ﴿عَنِ﴾ و﴿ٱلْيَمِينِ﴾ مَا يَقْتَضِيهِ الحوارُ التَّنَازُعِيُّ يَوْمَ القيامَة، أي: تَصُدُّونَنَا عَنِ الْإيمانِ الَّذِي يَجْعَلُنَا الْيَوْمَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِين.

الْفَرِيقُ الثّاني (الأئمَّةُ المتبوعُون): ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: لَسْنَا الَّذِينَ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الإيمَانِ، بَلِ الواقِعُ أَنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ حِينَما اسْتَنْصَرْنَا بِكُمْ، ولَمْ تكونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ تُؤْمِنُوا.

لفظ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ بِمَنْزِلَةِ الْفِعْلِ المضارع هُنَا يَدُلُّ علَىٰ الْحَالِ والاستِقْبَال.

الفريق الْأَوّل (الأتباع): أَمَا تَذْكُرُونَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُحَاوِلُونَ إقْنَاعَنَا بأنَّ الرَّسُولَ كاهِنٌ، أو شَاعِرٌ، أَو مَجْنُون، وَبأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ نَبأ الْبَعْثِ كَذِبٌ افْتراه، وبأَنَّ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ أَسَاطِيرُ الْأَوّلِين، وبأَنَّ الآيَاتِ الْخَارِقَاتِ الْمُعْجِزَاتِ اللَّاتِي أَجْرَاها اللهُ لَهُ سِحْرٌ مُبِين؟

الْفَرِيق الثاني (الأئِمَّةُ المتْبُوعُونَ): بَلَىٰ كُنَّا نَقُولُ لَكُمْ هـٰذا، [وَ] لَكِنْ ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي: مِنْ قُوَّةٍ قاهِرَة تُجْبِرُكُم عَلَىٰ قَبُولِ أَقْوالِنَا واتّبَاعِنَا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِدِينَ مُفْسِدِين، ظَالِمِينَ جَائِرِين مُعْتَدِينَ، مُجْتَمِعِينَ علَىٰ إثْم وَشَرٍّ، فَأَعْجَبَتْكُمْ مسالِكُنَا الكُفْرِيَّةُ الإجْرَامِيَّةُ فَاتَّبَعْتُمُونَا، لِأَنَّكُمْ وَجَدْتُمُونَا صَالِحِينَ لِقِيادَتِكُم فيما أَنْتُم فِيه من إثْمٍ وشَرّ.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ جميعاً نَحْنُ وَأنْتُمْ ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ الَّذي أَصْدَرَ بِهِ الْحُكْمَ بِعَذَابِنَا فِي نَارِ جَهَنَّم، وبِمُقْتَضَىٰ حُكْمِهِ الْعَادِلِ عَلَيْنَا جَميعاً: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ عَذَابَ الْحَرِيقِ خَالِدينَ فيه أَبداً، كَمَا أنبأنَا فِي الدُّنْيَا رُسُلُ رَبِّنا، وَكَمَا أنْبَأَتْنَا بِهِ آيَاتُ كِتَابِهِ.

عِبَارَة: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ وَأشباهُهَا في القرآن، هي بمعْنَىٰ: ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ نازِلاً عَلَيْنَا مَضْمُونُ قَوْلِ رَبِّنَا مَهْمَا يَكُنْ هـٰذا المضْمُون.

وَلَا نَقُولُ: إنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَّا لَكُمْ إغْوَاءٌ بالتَّزْيِينِ والتَّحْسِينِ ومُحَاوَلَاتِ إقْنَاعِكُمْ بالْبَاطِلِ، لاسْتِتْبَاعِكُمْ والاسْتِنْصَارِ بِكُمْ، بَلْ كَانَ مِنَّا كُلُّ ذَلِكَ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَنا عَلَيْكُم سُلْطَانٌ ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ بالتَّزيينِ والتَّحْسِينِ والإطْمَاعِ بِالْبَاطِلِ، لِتَنْضَمُّوا إِلَيْنَا ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ فأنْتُم تَتَحَمَّلُونَ جَرِيمَةَ غَوَايَتِكُمْ، وَنَحْنُ نَتَحَمَّلُ جَرِيمَةَ غَوايتِنَا، وكُلٌّ مِنَّا يَتَحَمَّلُ مِنَ الْجُرْمِ عَلَىٰ مِقْدَار مَا اكْتَسَبَ في حَيَاةِ الامْتِحَانِ مِنْهُ.

الإغْـوَاءُ: تَزْيِـينُ وَتَحْـسِـينُ الـضَّـلَالِ، وَالْـبُـعْـدِ عَـنْ صراط اللهِ، والانْغِمَاسِ في الشهواتِ والأهواءِ الفاسِدَةِ المفْسِدَة، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الإغْوَاءِ الإجبارُ والإكْرَاهُ والقَهر، بَلِ الْغَاوِي يَسْلُكُ مَسَالِكَ الْغَوَايَةِ باخْتِيَاره الحرّ.

- ويُعَلِّقُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على الحِوارِ بَيْنَ الأتباع والمتبوعين من أهل دار العذاب النار يوم الدِّين بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

■ قَوْلُهُ تعالَىٰ:

- ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: فإنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ يَجْرِي الحوارُ الّذي سَبَقَ بيانُهُ بَيْنَهُمْ، وَهُوَ يَوْمَ الدِّين، وسَوْفَ يَكُونُونَ مُشْتَرِكِينَ في الْعَذَاب، ولَا يَقْتَضِي الاشْتِرَاكُ في الْعَذَابِ تَساوِيَ الأفْرادِ الْمُعَذَّبينَ في نِسْبَةِ الْعَذَابِ الَّذي يَذُوقُونه، بَلْ كُلُّ واحِدٍ يَذُوقُ مِنَ الْعَذَابِ عَلَىٰ مِقْدَارِ جَرَائِمِهِ الَّتِي ارْتَكَبَها فِي حَياةِ الامْتِحَانِ بالْعَدْلِ، مَعَ احْتِمَالِ عَفْوٍ عَنْ كَثِيرٍ من الجرَائم بالْفَضْلِ الرَّبَّانيّ.

■ قَوْلُهُ تَعالَىٰ:

- ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: لَا يَخْتَصُّ هَـٰذَا الإجْرَاءُ الجزائيّ بالْمُجْرِمِينَ مُكَذِّبِي رَسُولِنَا مُحَمّد، بَلْ نَفْعَلُ نَظِيرَهُ بِسَائِرِ الْمُجْرِمِينَ من الإنْسِ والجنّ.

جاءت في هـٰذه الجملة الإشَارَةُ إلى الْعَذَابِ الّذِي يَشْتَرِكُ فِيهِ المتحاوِرُونَ أتباعاً وَمَتْبُوعِين، باسْمِ الْإشارةِ «ذَلِكَ» الَّذِي يُشارُ بِهِ إلى الْبَعِيد، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ بُعْدِ دَرَكَتِهِ في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجرمين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ جَرَائِمِهِمْ في حياة الابْتِلَاء، الَّتِي اقتضَتْ تَعْذِيبَهُمُ الْعَذَابَ الأليمَ في حَيَاةِ الجزاء:

- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: إنَّهُمْ كَانُوا في حَياةِ الابْتِلاءِ، وهي الحياة الدُّنْيا، إذا قِيلَ لَهُمْ: تَعالَوْا إلَىٰ عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً، يَسْتَكْبِرُونَ، فَلَا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، لِئَلَّا يَكُونُوا مَعَ المؤمِنِينَ أَتْبَاعَ رَسُولِ رَبِّهِمْ. وكانُوا يَقُولُونَ مُسْتَكْبِرِينَ وَشَاتِمِينَ رَسُولَ رَبِّهِمْ: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ﴾.

الاستفهامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ اسْتِكْبَارِيٌّ إنكارِيٌّ، والتوكيد باللّام في ﴿لَتَارِكُوٓاْ﴾ تَوْكِيدٌ للنَّفْيِ الّذي دَلَّ عَلَيْهِ الاسْتِفْهَام، أي: إنَّنَا نُؤَكِّدُ أَنَّنَا لَا نَتْرُكُ عبادَةَ آلِهَتِنَا الَّتِي وَرِثْنَا عِبادَتَها عَنْ آبائِنَا اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ شَاعِرٍ مَجْنُونٍ يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ العالَمِين، للنَّاسِ أَجْمَعِين.

فجَعَلُوا القرآنَ المَجيدَ نَوْعاً مِنْ أنواعِ الشِّعْر، وشَتَمُوا الرَّسُول بأنَّهُ مَجْنُونَ.

- ■ فَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

- ● ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: لَيْسَ مُحَمَّدٌ كَما قُلْتُم كاذِبِينَ وشَاتِمِينَ: هُوَ شَاعِرٌ مَجْنُونٌ، بَلْ هُوَ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، جاءَكُمْ وجاءَ النَّاسَ جَمِيعاً بالْحَقِّ مِنْ لَدُنَّا، وصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ السَّابِقِينَ فِيمَا جَاؤوا بِهِ عَنَّا، لَا فيما افْتَراهُ المنتَمُونَ إلَيْهِمْ مُحَرِّفِين ومُغَيِّرِينَ وَمُتَلاعِبِينَ بِدِينِ رَبِّهم.

وبَعْدَ أَنْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِم خاطَبَهُمْ بِقَوْله:

- ● ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: إنَّكُم أَيُّها الْمُكَذِّبُونَ الْمُجْرِمُونَ لَذائِقُونَ في جَهَنَّمَ الْعَذابَ الأَلِيمِ حَرِيقاً في النّارِ، وهٰذا أشَدُّ أنواعِ العذابِ المادّيّ.

وَمَا تُجْزَوْنَ إلَّا جَزاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، فَيَذُوقُ كُلُّ مُعَذَّبٍ مِنْكُم جَزاءَ عَمَلِهِ، وَلَا يَذُوقُ مِنْ عَذَابِ عَمَلِ غَيْرِهِ شيئاً ما لَمْ يَكُنْ لَهُ كَسْبٌ آثِمٌ في عَمَلِ غَيْرِه، فَيَنَالُ كُلٌّ مِنْهُما عَلَىٰ مقدار كَسْبِهِ.

أُطْلِقَ الذَّوْقُ علىٰ الْإِحْسَاسِ بِأَلَمِ الْعَذَاب، لأنَّ حَاسَّةَ الذَّوْقِ أَكْثَرُ الحواسِّ إِحْسَاساً بالأَنْوَاعِ المختَلِفَةِ الَّتِي تُلَامِسُها، أو تَدْخَلُ تَحْتَ سَطْحِها.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الأول من الدرس الثاني من دُروس سورة (الصَّافات). والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

الفصل الثاني

من الدَّرس الثاني من دُرُوس سورة (الصَّافات)

الآيات من (٤٠ ـ ٦١)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ
(٤٢) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
(٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ
قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَسَآءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ
(٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَٱطَّلَعَ
فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ (٦١)﴾.

القراءات:

(٤٠) • قرأ ابن كثير، وأَبُو عَمْرو، وابْن عامر، ويعقوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْرِ اللَّام، اسم فاعل من فعل: «أَخْلَصَ».

وقرأَهَا بَاقِي القرّاء العشرة: [**المُخْلَصِينَ**] بفتح اللام، اسم مفعول.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاء المعنى المراد، أي: أَخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانَهُمْ وإسْلاَمَهُمْ وعباداتِهم، فجَعَلَهُمُ اللهُ من المُخْلَصِينَ عنْدَه.

(٤٧) ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [**يُنْزِفُونَ**] من فِعْل: «**أَنْزَفَ**» بمعنى: سَكِرَ، أو ذَهَبَ عَقْلُه.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**يُنْزَفُونَ**] من فعل: «**أَنْزَفَهُ**» بمعنى: أَسْكَرَهُ، أَوْ أَذْهَبَ عقله.

فمُؤَدَّى القراءتين واحد.

(٥٣) ● قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [**إِذَا... أَئِنَّا**].

وقرأها نافع، والكسائي، ويعقوب: [**أَئِذَا... إِنَّا**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَئِذَا... أَئِنَّا**].

ومُؤَدَّىٰ هـٰذه القراءاتِ واحد.

(٥٣) ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جَعْفر، ويعقوب: [**مُتْنَا**] بِضَمّ الميم.

وقرأها باقي القرَّاء العشرة [**مِتْنَا**] بِكَسْرِ الميم.

والقراءتان لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ فَصِيحَتَان، والقياسُ الضمّ.

(٥٦) ● قرأ ورْشٌ في الوصْلِ فقط، ويعْقُوبُ في الوصْلِ والْوَقف: [**لَتُرْدِينِي**] بإثبات يَاءِ المتكلّم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**لَتُرْدِينِ**] بحَذْفِ ياء المتكلم.

وحَذْفُ ياء المتكلّم مع مُلَاحظَتِهَا ذِهْناً مَأْلُوفٌ في اللّسَانِ العربي.

تَمْهيد:

إذْ جاء في الْفَصْلِ الأوَّلِ من هـٰذا الدَّرس الثَّانِي، عَرْضُ لَقَطاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ المتعلّقَةِ بالكَفَرَةِ الْمُجْرِمين، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ التربويَّةِ الْمُلْتَزَمَةِ فِي القرآن، عَرْضُ لَقَطاتٍ مِن مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّينِ الْمُتَعَلِّقَةِ بالْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ المتَّقِين، فجاء في هـٰذا الْفَصْل الثاني عَرْضُ هـٰذِهِ اللَّقَطاتِ، وبَيْنَها وَبَيْنَ اللَّقَطاتِ المُوَزَّعَاتِ في الْقُرآنِ تَكامُلٌ، يَكْشِفُهُ حُسْنُ التَّدَبُّرِ في دِرَاسَاتٍ مُتَأَنِّيَّاتٍ شَامِلات.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ وَفي القراءة الأُخْرَىٰ [**الْمُخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللَّام، أي: أخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانَهُمْ وإسْلاَمَهُمْ وعِبَادَاتهم، فَجعلَهُمُ اللهُ مِن المخْلَصِينَ عِنْده، ومِنْ أهْلِ وِلايتِهِ الّذين يتولَّاهُمْ بِعِنَايَتِهِ.

أي: لَكِنْ لَا يَقْتَصِرُ ثَوابُ عِبَادِ اللهِ المخْلِصِينَ المخْلَصِينَ علَىٰ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، بَلْ يُضَاعِفُ اللهُ ثَوابَهُمْ بِفَضْلِهِ أَضْعَافاً كَثِيرَةً جِدّاً، كَمَا جَاءَ بيانُهُ مُفَصَّلاً في نُصُوصٍ كثيرة مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ، عَلَىٰ أنَّ مُجَازَاتِهِمْ بِدُخُولِ جَنَّاتِ النّعِيم هُوَ من مَحْضِ فَضْلِ اللهِ عليهم.

الْمُخْلِص: هو مَنْ أخْلَصَ عَمَلَهُ ونيّتَهُ مِنَ الشّوائب، وجَعَلَ قَصْدَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاة الله عَزَّ وَجلَّ، مع الْتِزَامِهِ بِما شَرَعَ الله وحَكَم.

المخْلَص: هو الْمُخْتَارُ، وهو المصَفَّىٰ المنَقَّىٰ مِنَ الشّوائب، والمرادُ الّذِي جَعَلَهُ اللهُ من المقْبُولِينَ عِنْدَه، لإيمانه وإسْلامِهِ وصِدْقِهِ في ابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ ثَوَابَ «المخْلِصِينَ المخْلَصِين» في جنَّاتِ النَّعِيم:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾. وفي القراءة الأخرىٰ: [**يُنْزِفُونَ**] والمعْنَىٰ واحد. أي: ولا هُمْ بَعْدَ شُرْبِهِمْ لَهَا يُصابُونَ بالسُّكْرِ وَذَهَاب العقل، إذْ لَيْسَ فيها غَوْلٌ (وَهُوَ مَا يُحْدِثُهُ شُرْبُ الْخَمْرِ مِنْ صُدَاعٍ وسُكْر).

- قَوْلُهُ تَعالَىٰ:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ﴾: أي: أولئكَ المخْلَصُونَ المخْلِصُونَ رَفِيعُو المَكَانَةِ عِنْدَنَا لَهُمْ رِزْقٌ مِنَ الْفَوَاكِهِ مَعْلُومٌ، أي: سَبَقَ أَنْ أَعْلَمْنَاكُمْ به. **فواكه:** جمع فَاكِهة.

في هذا البيان إحَالَةٌ عَلَىٰ مَا جَاءَ في سُورَةِ الواقِعَة بِشَأْنِ ثَوابِ أَصْحَاب الْيَمِين فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وأَنَّ لَهُمْ فيها فَاكِهَةً كَثِيرَةً لَا مَقْطُوعَةً وَلَا مَمْنُوعَة، فقد جاء في سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾:

فَالرِّزْقُ الَّذِي سَبَقَ الْعِلْمُ بِهِ مِنَ الْفَوَاكِهِ هو أَنَّهُ لا مَقْطُوعٌ وَلَا ممنُوعٌ، وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هٰذا النصّ لَدَىٰ تَدَبُّرِ سورة (الواقعة).

وغابَ هٰذا المعْنَىٰ عن مُلاحظَةِ المفسِّرين، لأَنَّهُمْ لَمْ يَضَعُوا في خُطَّة تَدَبُّرِهِمْ تَرْتِيبَ النُّزُول.

- قَوْلُهُ تعالَىٰ مُتَابعاً بيانَ بَعْضِ ثوابِ المخلَصِينَ المخْلِصِينَ:

- ﴿.. وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤)﴾:

أي: والْحَالُ أَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جنَّاتِ النَّعِيم، مُتَّكِئينَ عَلَى سُرُرٍ، مُتَقَابِلِينَ يُقَابِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً للتحادُثِ السَّارِّ، والأنْسِ والتنعُّم بالمواجهة.

مُكْرَمُونَ: أي: مُفَضَّلُونَ مَوْضُوعُونَ في أَمَاكِنِ تَعْظِيمٍ، وَيُقَدَّمُ لَهُمْ فيها مَا يَسُرُّهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ التكْرِيمِ والتَّعْظِيم والحفَاوَةِ والبهجَةِ، إذْ هم مُلُوكُ قُصُورهم.

في جنّاتِ: تَشْتَمِلُ الجنَّةُ العظمىٰ يَوْمَ الدّينِ علَىٰ أقْسَامٍ كلُّ قِسْمٍ مِنْها هُوَ جَنَّةٌ كامِلَة.

النعيم: مصْدَرُ «نَعِمَ، يَنْعَمُ، نَعَماً، وَنَعْمَةً، ونَعِيماً» أي: طَابَ، وَرَفُهَ، وهَدَأَ بَالُهُ، واسْتَرَاحَ، وقَدْ جَاءَ في القرآن تَخْصِيصُ لذَّاتِ الآخرة، وما فيها من أنواعِ سَعَادَةٍ، بأنَّهَا «نَعِيمٌ» لبقائها وعِظَم قيمَتِها، وتخصيص لذات الحياة الدُّنيا ورَفاهياتِها بأنَّها «مَتَاع» لسُرْعَةِ زوَالها، ونَقْصِ قِيمَتِها مَهْما بَلَغَتْ.

السُّرُر: جمعٌ مفرده «السَّرير» وهو الْمُضْجَعُ ذو القوائِمِ الأرْبعة، ويُبْسَطُ عَلَيْهِ الفراشُ اللّيِّنُ علَىٰ قَدْرِ المسَطَّحِ منْه.

▪ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ مُتابعاً بَيان بَعْضِ ثَوَاب المخْلَصِينَ المخْلَصِينَ:

- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ و﴿يُنزِفُونَ﴾.

الطواف: تكرار المرُورِ على دَوائِرِهِمْ آناً فآناً بِحَسَبِ الحاجة.

أي: يَطُوفُ عليهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُون خدَماً لَهُمْ مَصْحُوبٌ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ بكأسٍ من خَمْرٍ تَجْرِي بِهِ بَعْضُ أَنْهَارِ الجنَّةِ، فَهِيَ مَعِينَةٌ مَشْهُودَةُ الجرَيَان.

الكأسُ: قال أهل اللّغة: الكأس القدَحُ مَا دَامَ فِيهِ الْخَمْر، فإذا لم يكن فيه خَمْرٌ فَهو «كُوب».

- ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: مِنْ نَهْرٍ مِنْ أنهار الجنَّةِ الْجَارِيَةِ، يَسْهُلُ الاغْتِرَافُ مِنْهُ.

- ﴿بَيْضَآءَ﴾ وَصْفٌ لِلْكأسِ، أي: الآنيَةُ وَمَا فيها مِنْ خَمْر، وهذا يُشْعِرُ بأنَّ الآنيَةَ شَفَّافَةٌ لَوْنُهَا مِنْ لَوْنِ مَا فيها، فهي مِنْ أنْفَسِ الجواهر، كالأَلْمَاسِ مثلاً.

- ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: **اللَّذَّةُ**: إدْراكُ الْمُلَائِم لمطْلُوبِ النَّفْسِ مَعَ التَّنَعُّمِ أو الاسْتمتاعِ به.

فدَلَّ وَصْفُ الكأْسِ بالْبيضاء على أنَّها تَلَذُّ الأعين، ودَلَّ وَصْفُهَا بأنَّهَا لَذَّةٌ للشاربين علىٰ أَنَّ طَعْمَهَا يَجْعَلُ الشَّارِبِينَ يَتلَذَّذُونَ بها. فَتحقّقَ بهٰذَيْن الوصْفَيْنِ كَمالُها، حُسْنُ مَنْظر، وطِيبُ طَعْم.

- ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: **الْغوْل**: مَا يُحْدثُهُ شُرْبُ خَمْرِ الدُّنْيا مِنْ صُدَاع وسُكْر. وحَسَّنَ تقديم المسْنَد إلَيْهِ ﴿فِيهَا﴾ على المسْنَدِ ﴿غَوْلٌ﴾ إرادَةَ تَخْصِيصِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بِسَلْبِ صِفةِ الْغَوْلِيَّةِ عَنْها.

- ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ و﴿يُنزَفُونَ﴾أي: ولا هُمْ بَعْدَ شُرْبِ خَمْرِ الْجَنَّةِ مَهْمَا شَرِبُوا مِنْها يُصابُونَ بِصُدَاعٍ أَوْ سُكْر، لأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ نَزعَ مِنْ خَمْرِ الجنَّةِ على وجْهِ الْخُصُوصِ صِفَةَ الْغَوْلِيَّةِ، بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنيا.

دَلَّ تَقْديم المسند إلَيْهِ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا﴾ على المسْنَدِ الْفِعْلِيِّ ﴿يُنزَفُونَ﴾ على تَخْصِيصِ خَمْرِ الجنَّةِ بهذا الوصْفِ.

ودَلَّنِي على أنَّ الطَّائِفينَ ولْدَانٌ مُخَلَّدُون قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول) في أهْلِ الْجَنَّة السابقين:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابِعاً بَيَانَ بَعْضِ ثَوَابِ المخْلِصِينَ المخْلَصِينَ:

- ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: وعِنْدَهُمْ دَواماً حُوريَّاتٌ مِنْ نِسَاءِ الجنَّةِ اللَّوَاتِي أنْشَأَهُنَّ اللهُ فِيها إنْشَاءً لهُمْ، غَيْرُ أَزْواجِهِم المؤمِنَاتِ مِنْ نِسَاءِ الحياة الدُّنيا.

وقَدْ وَصَفهنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بثَلَاثِ صِفَاتٍ:

الصِّفَة الأُولى: أنَّهنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي: وعند المخْلِصين المخْلَصِينَ مِنْ أهْلِ الجنَّةِ في الجنَّة، من نِسَاء الجنَّةِ زَوْجَاتٌ قَاصِراتُ الطَّرْفِ، لَا يَنْظُرْنَ إلى غَيرِ أَزْواجِهِنَّ.

قاصِراتُ الطَّرْف: صفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوف، أي: زَوْجَاتٌ قَاصِراتُ الطَّرْف.

الطَّرْف: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على، تَحْرِيكِ الْجفْن، وعَلَىٰ الْعَيْنِ، وعَلَىٰ النظرِ.

وذاتُ الطَّرْفِ الْقَاصِر هِيَ الْعَفِيفَةُ الَّتِي لَا تَنْظُرُ إلَىٰ غَيْرِ زَوْجِها.

والمعنى: أَنَّهُنَّ عفِيفَاتٌ لَا يَنْظُرْنَ إلَىٰ غَيرِ أَزْواجِهِنَّ فِي الْجَنَّةِ لِشِدَّةِ حُبِّ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ لِزَوْجِها، فَتَقْصُر طَرْفَهَا علىٰ النَّظَرِ إلَيْهِ لَا تَتَعدَّاه.

يُقَال لغة: «قَصَرَ الشَّيْءَ عَلَىٰ كَذَا» أي: لم يُجاوِزْ بِهِ إلَىٰ غَيْرِهِ. «وَقَصَرَ غَلَّةَ بُسْتَانِهِ عَلَىٰ عِيالِهِ» أي: جَعَلَها لَهُمْ خاصَّة.

الصِّفَةُ الثَّانية: أَنَّهن ﴿عِينٌ﴾ لفْظُ «**عِينٍ**» هو جَمْعُ «عَيْناء» وهي ذاتُ الْعَيْنِ الحَسَنَةِ الْوَاسِعَة. ولا يَخْفَىٰ مَا لِحُسْنِ الْعُيُونِ الواسِعَةِ من تأثِيرٍ عميقٍ سَارٍّ للنُّفوسِ حتَّىٰ عُمْقِ الْقُلوبِ والأفْئِدة.

الصِّفَةُ الثالِثة: أَنَّ لَوْنَ بَشَرَتِهِنَّ تُشْبِهُ بَيْضَ النَّعام المكْنُون، فقال اللهُ تَعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾:

قالوا: الْبَيْضُ المكْنُونُ: هُو بيضُ النَّعامِ، إذِ النَّعامُ يُكِنُّ بَيْضَهُ فِي حُفَرٍ في الرَّمْلِ، وَيَفْرُشُ لَهَا مِنْ دَقِيقِ رِيشِه، فيكُونُ الْبَيْضُ شَدِيدَ لَمَعَانِ اللَّوْنِ، وهو أبْيَضُ مَشُوبٌ بَيَاضُهُ بِصُفْرَة، وهٰذا اللَّوْنُ أَحْسَنُ أَلْوانِ النِّسَاءِ في عُيُونِ الرِّجال.

وَجَاءَ في وَصْفِ نِسَاءِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبينَ الْمُتَفَوِّقين نَعِيماً عَلَىٰ أَصْحَابِ اليمين المخْلَصِينَ المخْلِصِينَ، بأَنَّهُنَّ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُوءِ المكْنُون، فَهُنَّ أكْمَلُ حُسْناً مِنَ اللَّواتي كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُون، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول) بشأنِهِنّ:

﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُبَيِّناً مَشْهداً حِوارِيًّاً بَيْنَ بَعْضِ أَهْلِ الْيَمِين المخلَصِينَ المخْلِصِينَ وهُو في الْجَنَّةِ، وبَيْنَ قَرِينٍ لَهُ كَانَ في الدنيا كافراً، فَهُوَ يَوْمَ الدِّينِ من المعذَّبين في النّار:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠﴾:

مَجْلِسُ مؤانَسَةٍ ومُحادَثَةٍ بَيْنَ طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ في جَنَّةٍ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، ممَّا سَوْفَ يَكُونُ حتماً عَلَىٰ مَا شَمِلَهُ عِلْمُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، ومَا جَاءَ في هـٰذِهِ الآيات مُسْتَقْطَعٌ من أَحْداثِ الْمُسْتَقْبَل، ومُقَدَّمٌ عَلَىٰ أَنَّهُ حَدَثٌ مَضَىٰ، لتوكيدِ أنّه سوْفَ يَحْدُثُ حتماً.

● ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾:

أي: فبيْنما كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ في مَجْلِسٍ من مجالِسِ أُنْسِ بَعْضِهِمْ

ببَعْض، يَتَنَعَّمُونَ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ، أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ ذِكْرَيَاتِ مَاضِيهِمْ في الحياةِ الدّنيا، وهُمْ يَحْمَدُونَ اللهَ عَلَىٰ أَنْ جَعَلَهُمْ بإيمانِهِم الخالِصِ الصادق، وإسْلَامِهِم الخالِصِ الصادق من أهْلِ جَنَّاتِ النعيم، فَذِكْرُ أَهْلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ الحمْدُ.

- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

الْقَرِين: المصاحِبُ الملَازِمُ، كأنَّهُ مَقْرُونٌ مَعَهُ بِقَرَنٍ، وهو الْحَبْلُ الّذِي يُشدُّ بِهِ الأَسِير.

- ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟: أي: أَئِنَّا لَمَجْزِيُّون عَلَىٰ أَعْمَالِنَا فِي الحياةِ الدُّنْيَا، فِي حَيَاةٍ أُخْرَىٰ يكُونُ بِهَا الْبَعْثُ والْحِسَابُ وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الْجَزَاءِ، فِي دَارِ عَذَابٍ لِلْكَفَرَةِ والمجْرِمِينَ، ولِلْعُصَاةِ والمذْنِبِينَ، اسْمُها النار، وفي دارِ نَعِيمٍ يُنَعَّمُ فيها المؤمِنُونَ المتقون، والأبْرارُ والمحسنون.

اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ الْإِنْكَارُ، وتَكْذِيبُ الْأَخْبَارِ الواردة بِشَأْنِ الْيَوْمِ الآخِرِ، والحياة الأخْرَى.

هُمَا قَرِينانِ فِي الحياة الدُّنْيا، أَحَدُهُمَا مُؤْمِنٌ، والآخَرُ كافِرٌ، يَقُولُ الكافِرُ لِقَرِينهِ المؤمِنِ بأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِيِّ، القائِمِ عَلَىٰ التَّعَجُّبِ والاستِبْعَادِ والاسْتِغْرَاب:

﴿.. أَءِنَّكَ﴾ يا قَرِينِي ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْت وهَلَاكِ الأَجْسَادِ وتَفَتُّتِهَا، وَأَنْتَ الصَّاحِبُ الْعَاقِلُ الذَّكِيُّ؟!

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ ووُضِعْنَا فِي قُبُورِنَا وَتَفَسَّخَتْ أَجْسَادُنَا ﴿وَكُنَّا﴾ أي: وصِرْنَا ﴿تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ نَخِرَةً ﴿أَءِنَّا﴾ لَمَبعُوثُونَ لِحَياة أخْرَىٰ غَيْرِ هٰذِهِ الحياة؟! و﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ في هـٰذه الحياة الأُخْرَىٰ، علَىٰ ما كَسَبْنَاهُ واكْتَسَبْنَاهُ في الْحَيَاةِ الْأُولى؟!

هَلْ يُقْبَلُ هـٰذا عَقْلاً؟!. إنَّهُ لا يُقدِّمُ دَليلاً مَا غَيْرَ الاستِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ الاسْتِغْرَابِيِّ الَّذِي لَا يَتضَمَّنُ إلَّا إنْكارَ غَيْرِ المألُوفِ، مَعَ أنَّ الحياة الأُخْرَىٰ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ القضاءِ، وَتَحْقِيقِ الجزاء، قَدْ قَامَ لإثباتِهَا دَلِيلُ الْعَقْلِ المستَنِدِ إلَىٰ صِفَاتِ رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ الْعَلِيم الحكيم القدير، وإلى دَلِيلِ الْخَبَرِ الذي جَاءَ بِهِ رُسُلُ اللهِ بَلَاغاً عَنْهُ، وهو خَالِقُ الكَوْن، وَوَاضِعُ خُطَّةِ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ وَحَيَاةِ الجَزَاء بقضائِهِ وَقَدَرِهِ، قَبْلَ أَنْ يَبْرأ الأنفس، وقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الجِنَّ والْإِنْسَ وَيضَعَهُمْ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

وَإِذْ كانَ المؤْمِنُون فِي الجَنَّةِ مُمَكَّنِينَ بوَسِيلَةٍ ما مِنْ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَىٰ أَهْلِ النَّارِ، وهُمْ يُعَذَّبُونَ فيها، ومُمَكَّنِينَ مِنْ أن يُحَادِثُوهم، أفراداً أَوْ جَمَاعَات، فَقَدْ قَامَ فِي نَفْسِ الْقَرِينِ المؤمِنِ أَنْ يُطْلِعَ جُلَسَاءَ أُنْسِهِ فِي الْجَنَّةِ، عَلَىٰ قرينِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنيا يُحَرِّضُهُ عَلَىٰ التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّين، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ عَرْضاً تَخْيِيرِيّاً:

- ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾ عَلَىٰ قَرِينِي الْكَافِرِ الَّذِي سَأَطَّلِعُ عَلَيْه وَأُحَادِثُه؟

«**اطَّلَعَ يَطَّلِعُ على الشيءِ**» أي: أَشْرَفَ عَلَيْهِ نَاظِراً إلَيْه.

قالُوا: نَعَمْ، أَعْمِلْ جِهَازَ الاطِّلَاعِ عَلَىٰ المعَذَّبِينَ في الجحيم.

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾: أي: في وَسَطِ النَّارِ لأنَّهُ كَانَ كافراً وَمَاتَ كافراً، فَهُوَ يُعَذَّبُ بِالْحَرِيق بالنّار، فَحَادَثَهُ وَتَعَارَفَا بِمُقْتَضَىٰ الصُّحْبَةِ الَّتِي كانَتْ بَيْنَهُمَا فِي الدُّنيا، وبالْوَسِيلَةِ الَّتِي يَرَىٰ وَيَسْمَعُ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخر.

﴿قَالَ﴾ المؤمِنُ المنَعَّمُ فِي الْجَنَّةِ للكافِرِ الَّذِي كانَ قَرِيْنَهُ في الدُّنيا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي: أُقْسِمُ لَكَ بالْقَسَمِ العظيم إِنَّكَ كِدْتَ بإغْرَاءاتِكَ وإغْوَاءَاتِكَ لَتُسْقِطُنِي مَعَكَ في هَاوِيَةِ عَذَابِ الْجَحِيم، إذْ كُنْتَ تُحَرِّضُنِي

علَىٰ التكذيب بِيَوْمِ الدِّينِ، لأنْطَلِقَ مَعَكَ فِي مَعْصِيَةِ رَبِّ العالمين، واتّباعِ خُطُوتِ الشَّيَاطِين.

يُقَال لغة: «أرْدَاهُ يُرْدِيه» أي: أسْقَطَهُ فِي هَاوِيَةٍ.

وَقال لَهُ أيْضاً: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: وَلَوْلَا مِنَّةُ اللهِ رَبِّي عَلَيَّ، بالتّثْبِيتِ علىٰ الإيمانِ بالْحَقِّ، الَّذِي اتّجَهَتْ إرادَتِي للإذْعَانِ لَهُ بِصِدْقٍ، لَاسْتَجَبْتُ لإغْوَائِكَ وَإغْرَائِكَ، فَكَفَرْتُ، فَكُنْتُ مِنَ المحْضَرِينَ الْمَسُوقين قَهْراً حَتَّىٰ أكُون معَكَ فِي الْجَحِيم حَاضِراً.

جاء في القرآن استعمال عبارَة «مُحْضَرُون ـ مُحْضَرِين» بِمَعْنَىٰ الإحْضَارِ في دار العذاب، وبمعنَىٰ الإحضار لمجْلِسِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، لَدَىٰ رَبّ العالَمين، والقرائن هي الَّتِي تُرْشِدُ إلى المراد بالإحضار. قال الماوردي: «أُحْضِر» لا يُسْتَعْمَلُ إلَّا في الشّر.

فَلْيَحْذَرْ مَنْ كَانَ ذَا رَأْيٍ سَدِيدٍ، وَعَمَلٍ رَشِيد، من قَرِينِ السُّوءِ الذي قَدْ يُغْرِيهِ فَيُغْوِيه، فَيُرْدِيه.

وأقْفَلَ المؤمِنُ وَسِيلَةَ الاطّلَاعِ عَلَىٰ أَهْلِ النَّارِ، وَقَطَعَ حَدِيثَهُ مَعَ الْمُعَذَّبِ في الْجَحِيم الَّذِي كانَ قَرِينَهُ في الْحَيَاة الدُّنيا.

هُنَا مَلأَتِ الْفَرْحَةُ والْبَهْجَةُ والمَسَرَّةُ قَلْبَهُ ونَفْسَهُ وَكُلَّ مَشَاعِره، وَكَذَلِكَ حَصَلَ لِكُلِّ الَّذِينَ يُؤْنِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً في مَجْلِسِهِ، وَأَخذُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِحَمْدِ اللهِ والثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَجعلَتْهُمُ الْفَرْحَةُ والمَسَرَّةُ يَقُولُونَ مِثْلَ مَا يَقُولُ الْعَاشِقُ حِينَما تُزَفُّ مَعْشُوقَتُهُ لَهُ في ليلةِ الْعُرْس: أأنْتِ حَقّاً زَوْجَتِي أَعْشِيقَتِي اللَّيْلَةَ زَوْجَتِي، أأنْتِ فِي مَخْدَعِي، أهـٰذِهِ اللَّيْلَةُ لَيْلَةُ سَعَادَتي، يَا فَرْحَتِي.

فالاسْتِفْهَامَاتُ هُنَا اسْتِفْهَامَاتُ الْفَرَحِ بِمَا حَصَلَ وَوَقَعَ وَكَانَ أملاً مُسْتَبْعداً.

عَلَىٰ مِثْلِ هٰـذا يُنْشِدُ أصْحَابُ هٰـذا المجْلِسِ مُعَبِّرين عَنْ فَرْحَتِهِمْ بالْخُلودِ الَّذي لَا يَتَخَلَّلُهُ مَوْت، وفَرْحَتِهِمْ بِعَفْوِ اللهِ عَنْهُمْ، فَلَمْ يُعَذِّبْهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتي كَانُوا يَسْتَحِقُّونَ عليها العذاب، ويقولُونَ بأسْلُوب اسْتِفْهامِ الْفَرَحِ بِمَا هُوَ فيه، الذي يَحْمَدُ رَبَّهُ على مَا أوْلَاه:

- ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠﴾.

إنَّهُمْ يَحْمَدُونَ اللهَ عَلَىٰ مَا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِه، وعَلَىٰ مَا مَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ عَفْوٍ عَنْ سَيِّئَاتِهِم، مُعْلِنِينَ أنَّ مَا هُمْ فِيهِ فَوْزٌ عَظِيمٌ لهم.

نَشِيدٌ بَدِيعٌ يُنْشِدُهُ أصْحَابُ الْيَمِين، المخْلِصُونَ الْمُخْلَصُونَ.

الفوز: يأتي بمعنَىٰ الظَّفرِ بخَيْر، والنَّجاة مِنَ الشّرّ.

وأبَانُوا انْحِصار الفوز العظيم بما هُمْ فِيه مِنْ نَعِيم، ولكنَّهُمْ لَمْ يَنْفُوا وُجُودَ فَوْزٍ أعْظَمَ، وهو الفوزُ الَّذِي نَالَهُ مَثلاً أهْلُ جنَّاتِ عَدْن، أَوْ أَهْلُ الْفِردوسِ الأعلَىٰ، وكُلُّ الَّذِينَ ارْتَقَتْ دَرَجاتُهُمْ عَنْ دَرَجاتِ أصْحَابِ الْيَمين.

وَجاءَ التعْقِيبُ الرَّبَّانِيُّ علَىٰ هـٰذا بقول اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾:

هـٰذا خِطَابُ مُوجَّهٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ، فيه إرْشَادٌ لِمَا هُو الْخَيْرُ للنَّاسِ الموضُوعِينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، يُبَيِّن لَهُمْ فيه أنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا وأسْلَمُوا وَعَمِلُوا صَالحاً، نَالُوا يَوْمَ الدّينِ بِفَضْلِ اللهِ الرَّحْمٰن الرَّحِيم الجواد الكريم فَوْزاً عظيماً.

والمعنى: لِمِثْلِ هـٰذَا الْفَوْزِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الدِّينِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ إيماناً وإسْلَاماً وَطَاعَةً لِرَبهم، حتَّىٰ ينالُوه.

وبهـٰذا انتهىٰ تدبُّر الفصل الثاني من فصول الدَّرْسِ الثاني من دُرُوس سورة (الصَّافات). والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

الفصل الثالث

من الدرس الثاني من دروس سورة (الصّافات)

الآيات من (٦٢ ـ ٧٤)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٧٤)﴾.

القراءات:

(٧٤) ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، ويعقوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكسر اللام، اسم فاعل من فعل: «أَخْلَصَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح اللّام، اسْم مفعول.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: أَخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانهم وإسْلامَهُمْ وعباداتهم، فجَعَلَهُمُ اللهُ من المخلَصِينَ عِنْدَه.

تمهيد:

اقتضىٰ ذِكْرُ لَقَطاتٍ مِنْ نَعِيمِ أصْحاب الْيمين الْمُخْلِصِينَ والمخْلَصِينَ

في جَنَّاتِ النَّعِيم، ومنها مطاعِمُهُمْ مِنَ الفواكه، ومشارِبُهُمُ النفيسَة، أَنْ تُقَابَلَ بِذِكْرِ لقَطاتٍ مِنْ شَقَاءِ الكَفَرَةِ المكَذِّبينَ أصْحَابِ الشِّمالِ، في طَعَامِهِمْ وشَرَابِهِم، معَ التعقيبِ بِبَيَانِ السَّبَبِ الذي أوصَلَهُمْ إلى هـٰذا العذاب الأليم، والشَّقَاءِ المسْتَدِيم، رَغبَةً في أنْ يتَّعظَ الناس بِبيَانَاتِ رَبِّهم، وتَحْذِيرَاتِهِ لهم.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:
- ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢﴾:

المشارُ إليه بعبارَة: ﴿أَذَٰلِكَ﴾؟ هو مَا جَاءَ بيانُه في الآيات من (٤١ ـ ٤٩) الّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْ طعام وشراب أصحاب اليمين، وبعض مَا هُوَ نُزُلُهُمْ (أي: ضِيَافَتُهُمْ في جَنَّاتِ النَّعِيم).

وطَرَحَتْ هـٰذِهِ الآيَةُ سُؤَالاً عَمَّا هُو الأفْضَلُ بَيْنَ النُّزُلَيْنِ، أنُزُلُ أصْحَابِ الْيَمِين، أَمْ نُزُلُ أصْحَابِ الشِّمَالِ الآتي وصْفُه.

«خَيْرٌ» أي: أحْسَنُ وأفْضَلُ وأخْيَر، وهـٰذا على سَبيلِ التَّنَزُّلِ في الْعَرْضِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ إمْلاءً خَبَرِيّاً، مع أنَّ نُزُل أصْحَاب الشِّمَالِ لَا خَيْرَ فيه مُطْلقاً، بل هو مِنْ عناصِرِ الشَّقاء، والتَّعْذِيبِ، مَعَ مَا فيه مِن اسْتِهْزَاء بالذِين استهزَؤوا بشجَرَة الزّقوم، كأبي جهل.

النُّزُل: هو ما يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لضَيْفِه، ويُقَدِّمُهُ إليه إذا نَزَل به.

﴿.. أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟

جَاءَ بِشَأْن شَجَرَةِ الزَّقوم في القرآن الكريم ثَلَاثَةُ نُصوص سبَقَ تَدَبُّرُها تَدَبُّراً تَكَامُلِيّاً في الملحق الثاني من مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورة (الواقعة/٤٦ نزول)(١) وهي:

---

(١) انظر هذا الملحق في المجلد الثامن، الصفحات من (٥٢٥ ـ ٥٤٠).

(١) الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول).

(٢) الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

(٣) الآيات من (٤٣ ـ ٥٠) من سورة (الدّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول).

إنَّ أهْلَ جَهَنَّم يُلْجَؤُونَ مِنْ شِدَّةِ جُوعِهِمْ، وشِدَّةِ آلامِهِمْ مِنْهُ، أنْ يَأكُلُوا مِنْ ثَمَرِ شَجَرٍ في جَهَنَّم، يُسَمَّىٰ «شَجَرَ الزَّقُّوم» أَوْ «شَجَرَ زَقُّوم».

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- • ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾:

أَصْلُ معنى الفتنة الصَّهْرُ بالنار للمعْدِنِ، كالذَّهَبِ والفِضَّة، لتمييز رَدِيئِهِ مِنْ جَيِّدِه، وشاعَ اسْتِعْمَالُ اللّفظ بمعنى الاختبار والامْتحان. ويُطْلَقُ ويُرَادُ بِهِ التَّعْذِيبُ بالنَّار، أَوْ بِمَا يُشْبِهُ التَّعْذِيب بالنّار، وهٰذا المعْنَىٰ الأخيرُ هُوَ المعنَىٰ الأكْثَرُ مُلاءَمَةً لِلْآيَةِ هُنا، لِأَنَّ شَجرَةَ الزَّقُّومِ فِي جَهنَّم شَجَرَةٌ يُعَذَّبُ بالْأَكْلِ مِنْ ثَمَرِهَا الظَّالِمُونَ، وهُمْ يُلْجَؤُونَ إِلَىٰ الْأَكْلِ مِنْهُ، لِشِدَّةِ الْجُوعِ الّذِي يُحِسُّونَ بآلَامِهِ في بُطُونِهِم، ولا يَجِدُونَ غَيْرَ ثَمرِهَا يَأْكُلُونَ مِنْهُ في الدَّرَكَاتِ الَّتِي هُمْ فِيها في جَهَنَّم.

﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: المرادُ بالظَّالِمينَ هُنَا الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكاتِ الكُفر، لَا الظَّالِمُونَ لِنُفُوسِهِم بِكَثْرَةِ المعاصِي مِنَ المؤمنين.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- • ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: إنَّهَا صِنْفُ شَجَرَةٍ تَنْبُتُ فِي قَعْرِ الْجَحِيم، دار عذاب المجرمين الكَفَرَةِ المكذّبينَ بِيَوْمِ الدِّين عَذاباً دائماً.

ولَا عَجَبَ أَنْ يُنْبِتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أشجاراً في مواطِنِ النَّار، فَهُو جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، ويَجْعَلُ لِمَا يَخْلُقُ الْأَسْبَابَ الملائِمَةَ لِشُرُوطِ وَجُودِ المخْلُوقِ وبقَائِه.

وطَلْعُ شَجَرَةِ الزَّقُّوم، أي: الثَّمرُ الَّذِي يُؤْكَلُ مِنْهُ وصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ يُشْبِهُ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ، وفي هٰذا إحَالَةٌ علَىٰ مُتَخَيَّلٍ في أَذْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ لِرُؤُوسِ الشَّيَاطِين، إِذْ يَتَخَيَّلُونَها بأَقْبَحِ صُورَةٍ، وأَشْنَعِ مَنْظَر، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ذَاتَ صُوَرٍ شَدِيدَةِ الْقُبْحِ، فَكَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقٌّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: إنَّ الظَّالِمِينَ المجرمين سَوْفَ يَجِدُونَ نُفوسَهُمْ مُلْجَئِينَ إلى الأكْلِ مِنْ صِنْفِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم، لِشِدَّةِ الْجُوعِ الَّذِي تَشْتَدُّ آلامُهُ فِي بُطُونهم، وَلَا يَجِدُونَ فِي الجحيمِ شيئاً آخَرَ يَأْكُلُونَهُ أَخَفَّ مِنْهُ أذىً وإيلاماً.

وبما أَنَّهُ لَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ فَإِنَّهُمْ يَمْلَؤُون مِنْهُ بُطُونَهُم، عسَىٰ أَنْ يَكُونَ ملْؤُهَا سَبباً في إسْكَاتِ جُوعِ بُطُونهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ امْتِلاءِ بُطُونِهِمْ مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم، الَّذِي يَغْلِي في بطونهم كَغَلْيِ الحميم، كما جاء في نص سورة (الدخان) يَشْتَدُّ ظَمَؤُهُم شِدَّةً عظيمة، فَلا يَجِدُونَ مَاءً بارِداً وَلَا شَرَاباً حَسَناً يُرْوُون بِهِ ظَمَأَهم، بَلْ

يَجِدُونَ حَمِيماً، أي: مَاءاً شَدِيدَ الحرارة، قَدْ أُعِدَّ لَهُمْ لِيَشْرَبُوا مِنْه، فَيَشْرَبُونَ مِنْهُ مُلْجَئِينَ، لِتَخْفِيفِ لَهِيبِ ظَمَئِهِم، فَيَدْخُلُ هٰذا الْمَاءُ الحميم إلى بُطُونِهِمْ، فَيَخْتَلِطُ بِمَا أَكَلُوا مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: الشَّوْبُ في اللُّغَةِ مَا اخْتَلَطَ بِغَيْرِه، أي: هُمْ يَشْرَبُونَ عَلَىٰ مَا أَكَلُوا مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم مَاءً شَديدَ الْحَرَارَة، فَيَخْتَلِطَانِ في بُطُونهم. وهٰذا الْحَمِيمُ مع الزَّقُّوم الّذي يَغْلِي في الْبُطُونِ لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنَ الظَّمَأِ وحَرَارَتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾:

دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَة عَلَىٰ أَنَّ جُوعَهُمُ الشَّدِيدَ يَجْعَلُهُمْ يَرْحلونَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ فِي الجحيم، إلَىٰ قَاعِهَا حَيْثُ مَنَابِتُ شَجَرِ الزَّقُّوم، لِيَأْكُلُوا مِنْهُ، وَعَلَىٰ أَنَّ ظَمَأَهُمُ الشّديد يَجْعَلُهُمْ يَرْحَلُونَ إلى حَيْثُ يُوجَدُ الماء، فلَا يَجِدُونَ إلَّا مَاءً حَمِيماً، فَيشْرَبُون مِنْهُ شُرْبَ الْهِيم، وهي الإِبِلُ الْمُصَابَةُ بِدَاءِ الْهُيَام، إِذْ تَسْتَمِرُّ بِهِ ظَامِئَةً شَدِيدَةَ الظَّمَأ مَهْمَا شَرِبَت، فَتَسِيرُ في الأَرْضِ هائِمةً كَئِيبَةً تُعَانِي مِنْ أَوْجَاعِها.

وَإِذْ يَجِدُونَ مَوَاقِعَ شَجَرِ الزَّقُّوم، وَمَوَاقِعَ الماء الْحَمِيم، أشَدَّ من مَنَازِلِهِمْ فِي الدَّرَكاتِ الّتي هُمْ فِيها مِنَ الجحيم، فإِنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إلىٰ دَرَكَاتِهِمْ فِيها، حتَّىٰ تُلْجِئَهُمُ الضَّرُورَة إلى رِحْلَةٍ أُخْرَىٰ، لِلْأَكْلِ مِنْ شَجَرِ الزَّقُّوم، وللشُّرْبِ مِنَ الْحَمِيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا جَعَلَهُمْ ظالِمِينَ مُجْرِمِينَ خَالِدِينَ في الجحيم:

- ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿أَلْفَوْا﴾: أي: وَجدُوا.

﴿يُهْرَعُونَ﴾: أي: يَمْشُونَ. أوْ يَعْدُونَ في اضْطِرَاب وسُرْعَة، يُقَالُ لُغَةً: «هُرِعَ الرَّجُلُ يُهْرَعُ» بالبناء على صيغَةِ المجهول، أي: مَشَىٰ، أَوْ عَدا في اضطرَابٍ وسُرْعَةٍ.

أي: إِنَّهُمْ وَجدُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، نَائِينَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، يَتَّبِعُونَ أهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهم، فَهُمْ فِي حَرَكَاتِ حَيواتِهِمْ يَمْشُونَ علَىٰ آثَارِ خُطُواتِ آبَائِهِمْ، وَبَعْضُهُمْ يُسْرِعُونَ الْخَطْوَ عَادِينَ في اضْطِرابِ، تُقْلِقُهُمْ دَوَافِعُ الأَهْوَاءِ والشَّهَواتِ وَرَغَبَاتِ النُّفُوس.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً حَالَ أَكْثَرِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ مُهْلِك:

● ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ وفي القراءة الأخرى [**الْمُخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللام، اسم فاعل من فعل «أَخْلَصَ» أي: جعلَ إيمانه وإسلامه وعباداتِه خالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ، يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَه ومَرْضاتَه وثوابَه.

أي: ونُؤَكِّد لَكَ أيُّها المتَلَقِّي في أيِّ مَكانٍ وزمَانٍ، أنَّهُ لَقَد ضَلَّ قبل الْمَعْنِيِّينَ بالمعَالَجَةِ إبَّانَ التنزيل أَكْثَرُ الْأَوَّلِين مِنَ الأُمَم، وهُمُ الَّذِينَ اجْتَازُوا رِحْلاتِ امْتِحَانِهِمْ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحمَّد، وكَانَ ضَلَالُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وعَنْ صِرَاطِنَا المستقيم، بِإراداتِهِم الحرَّة، إذ كانوا قد اتَّبعُوا أهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِم، وَوَسَاوِسَ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلاتهم مِنْ شَيَاطِين الْإِنْسِ والْجِنّ، كما أَبَنَّا لَكَ هٰذا في آيَاتٍ كثيراتٍ سَابِقَاتِ التنزيل.

ونُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّنَا أَرْسَلْنَا فيهم رُسُلاً مُبَلِّغين ومُبَيِّنِينَ وَمُبَشِّرِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ مَنْ آمَنَ وأَطَاع، وَمُنْذِرِينَ مَنْ كَذَّبَ وكَفَرَ وعَصَىٰ بعذَابٍ خَالِدٍ يَوْمَ

الدِّين، ومُنْذِرِينَ بإِهْلَاكٍ مَصْحُوبٍ بِتَعْذِيبٍ عَامٍّ شَامِلٍ سَاحِقٍ مَاحِقٍ في الدُّنيا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَاب.

فَمَا كَانَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْمُعَالَجَاتِ الكَثِيراتِ لَهُمْ، مَعَ حِلْمٍ وصَبْرٍ عَلَيْهِمْ، وإمْهَالٍ طَوِيلٍ لهم، إلَّا الإصْرارُ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ مُعَانِدِينَ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ إهْلَاكاً جَمَاعِيّاً شَامِلاً، كَمَا سَبَقَ أنْ أَنْبَأَنَا بإهْلَاكِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوح، وكفَّار قَوْمِ هُودٍ، وكُفَّارِ قَوْم صالح، وكُفَّارِ قَوْمِ لُوطٍ، وكُفَّار قَوْم شُعَيب، وفِرْعَوْنَ ومَلَئِه، وجُنُودِهم، فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَةِ لِسُوَرٍ من القرآن.

فانْظُرْ أيُّها الْمُتَلَقِّي المتفَكِّرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنْذَرِينَ، وانْظُرْ إلَىٰ آثَارِ دِيَارِهِمُ الَّتِي دَمَّرْنَاهَا عَلَيْهِمْ حِينَ أَهْلَكْنَاهم إهلاكاً عقابيّاً، لِيَكُونُوا عِبْرَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِ النَّاس.

وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ المنْذَرِينَ قَدْ أُهْلِكُوا، بَلْ كَانَ مِنْ ضِمْنِهِمْ مَنْ آمَنَ وَأسْلَمَ وَعَمِلَ صَالِحاً، مُخْلِصاً في إيمانه وإسلامِهِ وعَمَلِهِ، فَجَعَلْنَاهُ مِنَ المخْلَصِينَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَلم نُهْلِكْهُ مع المهْلَكِين.

خاطب اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ مَوْضُوعٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بأسْلُوبِ الْخِطَاب الإفراديّ، لِيُشْعِرَهُ بالمسؤولِيَّةِ الكامِلَةِ، مع تَكْرِيمه بالخطاب.

التوكيد جاء بِـ ﴿لَقَدْ﴾ مَرَّتين، فاللَّامُ يَرَىٰ المُعْرِبونَ أنَّها واقعةٌ في جواب قَسَمٍ منوي، و«قَدْ» للتحقيق، وفي التحقيق توكيد ظاهر.

وبهٰذا تمَّ تدبُّر الدرس الثاني بفصوله الثلاثة من دروس سورة (الصَّافَّات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة (الصّافّات) الآيات من (٧٥ ـ ١٤٨) وفيه ستة فصول

الفصل الأول

الآيات من (٧٥ ـ ٨٢)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

تمهيد:

هٰـذا الْبَيَانُ المقْتَضَبُ المُوجَزُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام، ذو هَـدَفَيْن جَلِيَّيْنِ:

الْهَدف الأول: الإنْذارُ من اللهِ لِلْمُعَالَجِينَ المكَذِّبينَ بِعِنَادٍ وإصرارٍ على الكُفْرِ، من كُبراء مُشْركي مَكَّة، بأنَّ مُحمّداً إِذَا دَعَانَا أَنْ نُهْلِكَ مُنَاوِئِيهِ الَّذِينَ يُؤْذُونَهُ، ويَضطَهِدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، فإِنَّنا نُجِيبُهُ ونُهْلِكُ أعْدَاءَهُ وَمُنَاوِئي دَعْوَته.

الْهَدَفُ الثاني: طَمْأَنَةُ اللهِ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ولِلّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، بِأَنَّهُ نَاصِرُهُمْ، ومُؤَيِّدُهُمْ، كَمَا نَصَرَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ وأَنْجاهُ وأَهْلَهُ مِنَ الكَرْب العظيم، الّذي نزلَ بِهِمْ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِم، أي: فإنْ وَصَلْتَ يا مُحَمَّدُ مَعَ قَوْمِكَ إِلَىٰ حَالَةِ كَرْبٍ عَظِيمٍ فادْعُنا نُجِبْكَ.

ودَلّ هٰـذا النَّصّ علىٰ آخِرِ مَسِيرَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام في دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ، الَّتي اسْتَمَرَّتْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً.

وَوَصَل حَالُ أجْيَالِ قَوْمِهِ أَنْ هَدَّدُوه وأهْلَهُ بالرَّجْم، فَنَادَىٰ رَبَّهُ أَنْ يَنْصُرَهُ، فَنَصَرَهُ، ونَجَّاهُ وأهْلَهُ مِمَّا نَزَل بهم من قومِهِمْ من كَرْبٍ عظيم.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بضمِير المتكلّم العظيم وبما يُلائمه:

- ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥)﴾:

سَبَقَ في سُورَةِ (القمر/ ٣٧ نزول) بَيَانُ دُعَائِهِ لِرَبِّهِ بأنْ يَنْصُرَهُ، إذ جَاءَ فيها بِشَأْنِهِ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ (١٠)﴾.

وَجاء هنا في (الصَّافّات/ ٥٦ نزول) بَيانُ أَنَّهُ نَادَىٰ رَبَّه، أي: دَعَاهُ دُعَاءً فِيه شِدَّةُ النّداء وحُرْقَتُهُ، وَلَا يُشْرَطُ فيه أَنْ يَكُونَ بِرَفْعِ صَوْتٍ، لأنَّ الأدَبَ مع اللهِ في الدّعَاء أَنْ يَكُونَ بِتضَرُّعٍ وَخُفْيَة، وتَخْتَلِفُ النِّسْبَةُ النَّفسِيَّةُ بَيْنَ دُعَاءٍ بِرِفْقٍ ودُعَاءٍ بِشِدَّة.

﴿.. فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥)﴾: الفاء تَعْطِفُ عَلَىٰ جُمَلٍ مَحْذُوفَةٍ، وفيها معْنَىٰ التَّفْرِيع، والتقدير: فاسْتَمَعْنَا نِدَاءَهُ، وأجَبْنَا دُعَاءَهُ، وفَرَّجْنَا كَرْبَهُ، وَكَانَ نَصْرُنَا لَهُ عَظِيماً يسْتَحِقُّ الْمَدْحَ والثناء: فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ.

اللَّام في: «لَنِعْمَ» لام الابتداء للتأكيد، ولفظ «نِعْمَ» فِعْلٌ جامِدٌ لإنْشَاءِ الْمَدْح على سَبِيل المبالغة.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَهُ بِشَأْنِ نُوح عليه السلام:

- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦)﴾:

أي: وخَلَّصْنَاهُ وَخَلَّصنَا أَهْلَهُ مِمَّا كَانُوا فيه من كَرْبٍ عَظِيم، من قِبَلِ مَلَإِ قَوْمِهِ إذْ تَوَعَّدُوهُمْ بالرَّجْم بالحِجَارة.

دلَّتْ هـٰذِهِ الآيَةُ علَىٰ أَنَّ سَائِرَ الَّذِين آمَنُوا بِهِ لَم يَتَعَرَّضُوا من قِبَلِ

قَوْمِهِمْ لِمِثْلِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ نوحٌ عليه السَّلامُ وأهلُه من كَرْبٍ عظيم، مَعَ أَنَّهُمْ رَكِبُوا معَهُ في الْفُلْكِ، وأنْجَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من الغرق.

الكَرْبُ: الحزْنُ والغَمُّ يأْخُذُ بالنَّفْسِ، كَأَنَّ حَبْلاً أُبْرِمَ عَلَيْها وَشُدَّ.

وطُوِيت قَبْلَ مَا جاءَ في هـٰذه الآية أحْدَاث، وطُوِيَتْ بَعْدَهُ أحداث، جاءَ بَيَانُها في نُصُوصٍ أخرىٰ لتتكامل النُّصُوصُ فيما بَيْنَها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً خَبَراً تَارِيخيّاً جاء لَاحِقاً، هو أَنَّ الّذِين كَانت لَهُمْ خَلَائِفُ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ مِنْ قَوْمِهِ، كَانُوا جَمِيعاً مِنْ ذُرِّيته:

● ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾:

أي: لَمْ يُنْجِبْ أَحَدٌ ذُرِّيَّةً مِنَ المؤمِنينَ الَّذِين رَكِبُوا مَعَهُ في السَّفِينَة ونَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ، غَيْرُ أوْلَاده.

ويَذْكُرُ المؤرِّخُون أنَّ الشُّعُوب انْحَدَرَتْ مِنْ أبناء نوحٍ الثلاثة، «سَام ـ وحَام ـ ويَافِث».

قالوا: فـ«سَام» أبو العرب، وفارس، والرُّوم.

و«حام» أبو السُّودان.

و«يافث» أبو التُّرْك، والخزر «أي: التَّتار» ويأجُوج ومأجُوج، وسَائِرِ شُعُوبِ الشَّرْقِ الأقْصَىٰ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً ثواباً تَكْرِيميّاً مُعَجَّلاً في الدُّنيا لنوح عَلَيْهِ السّلام، إذْ شَرَعَ لِلْمُؤْمِنِينَ باللهِ وَرُسُلِه مِنْ بَعْدِ نوحٍ إلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، أَنْ يُحَيُّوهُ بالسَّلَامِ كُلَّمَا ذُكِرَ اسْمُه:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾:

هـٰذا السّلام هو تحيَّةٌ مِنَ اللهِ يَدْعُو بها الْمُرْسَلُونَ وأتْباعُهُمْ، فَمَنْ

سَلّم على نوح، أو على أيِّ رسُولٍ أو نبيٍّ كُتِبَ لَهُ بذلِكَ أَجْرٌ، لِأَنَّهُ تَعْلِيمٌ مَشْرُوعٌ أشْعَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بالنَّدْبِ إلَيْه، بعبارة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ دُونَ عِبارَةٍ فِيها مَعْنَىٰ الأمْرِ أو الإِلْزام. وجَاء عند المفسرين: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ ثَناءً حَسَناً ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: فالمفعول به محذوف.

لَكِنَّ التعبير القرآنِيّ يُشْعِرُ بأنَّ الْمَتْرُوكَ عَلَيْهِ في الآخِرِينَ هو هٰذه التحيَّة المذكُورَةُ علىٰ الحكاية ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ وجاءت عبارة ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَالَّةً علىٰ أَنَّ أهلَ السَّماء والأرض مِمَّنْ يبْتغُونَ رضوانَ الله، يُحَيُّونَهُ بهٰذِهِ التَّحِيَّةُ، فيقولون: سَلامٌ علىٰ نوح، أو عبارة نحوها، ويُحَيُّونَ بِمِثْلِهَا كُلَّ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَرَكَ اللهُ عَلَيْهِم مِثْلَ هٰذا السَّلام، ويَقِيسُون عليهم سائر الرُّسل، مُسْتَفِيدين مِنْ قول الله عَزَّ وَجلَّ في آخِرِ السورة: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ فَعَمَّمَ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ بالسَّلامِ عليهم، تَعْلِيماً لِجَمِيع المؤمنين.

وقد جاء في بَعْضِ أقوال الرَّسُول ﷺ هٰذا التَّسليم، عند ذِكْرِ بَعْضِ المُرسلين. منها ما رواه البخاريُّ عَنِ ابْنِ عمر رضي اللهُ عنهما، عَنِ النبيّ ﷺ، أنَّهُ قَالَ حِينَ سُئِلَ عَنْ أَكْرَم الناس:

«الْكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيم ابْنِ الْكَرِيم ابْنِ الكريم، يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بْنِ إسْحَاقَ بْنِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلام».

وهٰذا من الرسُول ﷺ بَيَانٌ تَطبيقِيٌّ نَسْتَفِيدُ منْهُ كَيْفَ نُسَلِّمُ علَىٰ الرُّسُل.

السَّلَام: البَراءَةُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، ومِنْ كُلِّ نَقْصٍ، والعافية، والأمْنُ، وقَدِ اختاره اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيكُونَ عِبارَةَ اللِّقاءِ بَيْنَ المسلمين، إخاءً، وتكْريماً وَإيناساً، ودُعَاءً بالسَّلامَة من كلِّ مَكْرُوه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلّم العظيم:

● ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: إِنَّ نُوحاً عليه السَّلام جَزَيْنَاه بالنَّجاةِ مِنَ الكَرْبِ العظيم الذي نَزَلَ بِهِ مِنْ قِبَلِ قَوْمِه، وتَرَكْنَا عَلَيْهِ تَحِيَّةً طَيِّبَةً فِي الآخِرين، سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ في العَالَمِين، لِأَنَّهُ كَانَ مُحْسِناً، وإِنَّا كَذَلِكَ الجزاءِ الّذي جزَيْنَاهُ نُوحاً نَجْزِي سَائِرَ المحسنين، فَلِكُلِّ مُحْسِنٍ عندنا جزاءٌ مُشَابِهٌ لِلْجَزَاءِ الْمُعَجَّلِ الَّذِي جَزَيْنَاهُ نُوحاً.

الإِحْسَان: هُو المَرْتَبَةُ الْعُلْيَا مِنْ مَرَاتِب المُؤْمِنِين، ودُونها مَرْتَبَةُ الْبِرّ، ودُونَهَا مَرْتَبَةُ التقوى، ولكلٍّ من هـٰذه المراتب دَرَجَاتٌ كثيرات لَا يَعْلَمُها إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجلَّ.

ولَـٰكِنْ لَا يَرْتَقِي إِلى مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ أو مَرْتَبَةِ الْبِرِّ إِلَّا مَنْ كَانَ من المتّقِين المؤمنين حَقّاً وصِدْقاً، ولهـٰذا قال تَعَالَىٰ في وصْفِهِ: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ فَالْإِيمَانُ هو قَاعِدَةُ البناء الارتقائيِّ في مَرَاتِبِ الْمُتَّقِين، فالأَبْرار، فالمُحْسنين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ أَنْ أَنْجَيْنَا نُوحاً وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ العظيم، إِذْ رَكِبُوا فِي السَّفِينَةِ، وَابْتَعَدُوا عَنْ أَرْضِ قَوْمِهِم، وَهِي تَجْرِي بِهِمْ مَحْفُوظَةً بِحِفْظِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، أخذَ الْماءُ يَتَصاعَدُ في أَرْضِ قَوْمِهِ، وَأَخَذَ كُفَّارُ قَوْمِهِ يَتَسلَّقُون الْمُرْتَفَعَاتِ، ويُتَابِعُهُمُ الماءُ المتصاعِدُ، تَفَجُّراً مِنْ عُيُونِ الْأَرْضِ، وانْهِمَاراً مِنْ السُّحُبِ فِي السَّمَاء، وسُيُولاً جَارِفَةً عَلَيْهِمْ مِنَ الْجِبَالِ، حَتَّىٰ تَمَّ إِغْرَاقُهُمْ جَمِيعاً، ولَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إِتْمَامُ إِغْرَاقِهِمْ، بَعْدَ جَرْيِ السَّفِينَةِ في الماءِ المتصاعِدِ بزَمنٍ مُتَطَاوِلٍ يَحْسُنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِحَرْفِ العطف «ثُمَّ».

هـٰذا فَصْلٌ مُقْتَضَبٌ مُوجَزٌ جِدّاً، يَشْتَمِلُ على ثَماني آياتٍ قِصارٍ، لكِنَّهُ مَلِيءٌ ببيان قضايا ذاتِ شأنٍ في الفكْرِ الدِّيني.

وكثيرٌ من آيات هـٰذا الْفَصْلِ تَصْلُحُ أمْثِلَةً لإيجازِ الْقِصَرِ، وبَعْضُها أمْثِلَةً لإيجاز الحذف.

وبهـٰذا انتهىٰ تَدَبُّرُ الفصل الْأَوَّلِ من الدَّرْسِ الثالث من دُروس سورة (الصَّافّات). والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتَوفيقه وفتحه.

* * *

التدبّر التحليلي للفصل الثاني من الدرس الثالث من دُروس سورة (الصَّافات)

الآيات من (٨٣ ـ ١١٣)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ
(٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ
(٨٩) فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا
تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا
تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ
(٩٧) فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ
(٩٩) رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ
ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ
ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣)
وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ
هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨)
سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١)

وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾.

القراءات:

(٩٤) • قرأ حمزة: **[يُزِفُّونَ]** مِنْ فعل «أَزَفَّ» بمعنى: أسْرَع الخطْوَ.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[يَزِفُّونَ]** من فعل: «زَفَّ، يَزِفُّ، زفّاً» بمعنى: أسْرَعَ الخطْوَ.

فالقراءتان لغتان لمعنىً واحد.

(٩٩) • قرأ يَعْقُوب: **[سَيَهْدِينِي]** بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم في الوصْلِ والوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم في الحالَيْن: **[سَيَهْدِينِ]** وهذا الحذف مألُوفٌ في العربية مع مُلاحظتِه ذهناً.

(١٠٢) • قرأ حفْصٌ عن عاصم: **[يَا بُنَيَّ]** بفَتْحِ الياء مُشَدَّدَةً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِها مُشَدَّدَةً: **[يَا بُنَيِّ]**.

والقراءتانِ نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ متكافئان.

(١٠٢) • فتح يَاءَ المتكلِّم في الموضِعَيْنِ مِنْ **[إِنِّيَ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ]** نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر.

وأسْكَنَها بَاقي القرّاء العشرة في الموضِعَيْنِ أيضاً.

(١٠٢) • قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلف: **[مَاذَا تُرِي]**: أي مَاذَا تُقدِّمُ مِنْ رأيٍ بشَأْنِ هـٰذه الرُّؤيا.

وقَرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ العشرة: **[مَاذَا تَرَىٰ]**: أي: مَاذا تَرَىٰ أنْتَ لِنَفْسِكَ بِشَأْنِ هـٰذه الرُّؤيا.

وبين هاتَيْنِ القِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاء المعنَىٰ المراد.

(١٠٢) • قرأ ابْن عامر، وأبو جَعْفر: **[يَا أَبَتَ]** بفتح التاء.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرةِ: **[يَا أَبَتِ]** بِكَسْرِ التاء.

وهُما لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

(١٠٢) • فَتْحَ يَاءَ المتكلّم من: **[سَتَجِدُنِيَ إِنْ شَاءَ اللهُ]** نافع، وأبو جعفر.

وأسْكنها باقي القرّاء الْعَشَرَة.

(١٠٤) • قرأ السُّوسي: **[الرُّويَا]**.

وقرأها أبو جعفر: **[الرُّيَّا]**.

وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: **[الرُّؤْيا]**.

ووقف حمزة كالسُّوسي، وأَبي جعفر.

وهي وجُوهٌ من الأَداء باللِّسان الْعَرَبي.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الفصل لقطاتٌ من قِصَّةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السلام، ومَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ والجهادِيَّة، وهِيَ تَتَضَمَّنُ تَرْبِيَةً للرَّسُولِ محمّد ﷺ، وَطَمْأَنَةً لَهُ بأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ من ربّه، ومَنْصُورٌ لَا مَحَالَةَ، كَمَا نَصَرَ إبراهيم مِنْ قبل.

وفي طَمْأَنَتِهِ بِعَاقِبَةِ النَّصْرِ إلْماحٌ لِأَئِمَّةِ الكُفْرِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ هُمُ المَغْلُوبِين.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: وإِنَّ مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيهِ السّلامُ لَإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام.

الشّيعة: كلُّ قوم أو جماعَةٍ من النّاس لَهُمْ أَمْرٌ واحِدٌ هم متّفِقون عليه، أو لَهُمْ مَذْهَبٌ واحد يسيرون عليه، ولو لم يَكُونُوا في زمَنٍ واحِدٍ.

دلَّت هـٰذه الآيةُ على أنَّهُ مَا زَالَتْ بَقَايا من الدِّين الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ نوحٍ عليه السلام مَوْجُودَةً لَدَىٰ بَعْضِ النَّاس، ولَا سِيما عَقِيدَةُ التَّوْحِيد، وبَعْضُ الْعِبَادَاتِ كالصَّلاة، وبَعْضُ الأخْلَاقِ كالصّدْقِ والأَمَانَة، وبَعْضُ أنواع السُّلُوك الاجتماعي والآداب، وقَدْ تَلَقَّاهَا إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ بها فآمَنَ بِها والْتَزَمَهَا، فَكَانَ بذلِكَ مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ، وأَتْبَاعِ دِيَانَتِهِ.

وأَسَالِيبُهُ الْجَدَلِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ هِيَ من نَوعِ مُجَارَاةِ قَوْمِهِ مجاراةً ظَاهِرَةً، لِيَنْتَقِلَ مِنْها إِلَىٰ نَقْضِ عَقَائِدِهِم الشِّرْكِيَّةِ بالحجج الدامِغَة، وإبطالِ اعْتِقَادِهم في رُبُوبِيَّةِ النجوم وإلَهِيَّتِهَا، وإبطالِ عِبَادَاتِهِمْ لِلْأَوْثَان.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام:

- ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ ابْتِدَاءً أَيُّها الْمُتَلَقِّي أَنَّ إِبْرَاهِيم جَاءَ رَبَّهُ بَعْدَ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا بِقَلْبٍ سَلِيم مِنْ كُلِّ مَرَضٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ المعنويَّة الَّتِي تُصِيبُ الْقُلُوب، كالشِّرْك، والشَّكِّ في اللهِ وصِفَاتِه، والْحَسَدِ، وإرادة السُّوء والشرّ والمعْصِيَة.

والمرادُ بالقلْبِ مَرْكَزُ الْعِلْم والمعْرِفَةِ وَالإِرَادَةِ الحرَّة، والمكتَسَبَاتِ الإِرَادِيَّة، ذَواتِ الآثارِ النفسيَّة، والآثَارِ السُّلُوكيَّةِ الظَّاهِرَة.

وهـٰذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، علىٰ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَ عُبُورِهِ رِحْلَةَ الامتحان، وهي رِحْلَةُ الحياةِ الدُّنيا، قَبْلَ الدُّخُول في ذِكْرِ اللَّقَطاتِ المختارات مِنْ قِصَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هـٰذِهِ السُّورَة.

وقدْ رَجَّحَ لَدَيَّ هـٰذا الْفَهْمَ نَصَّانِ آخرانِ جاءَا بِشَأْنِ مجيء الْعَبْدِ إلىٰ رَبِّهِ بَعْدَ مَوْته.

النصّ الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (ق/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: وجَاءَ رَبَّهُ يَوْمَ الدِّينِ بِقَلْبٍ تَائِبٍ رَاجعٍ مُطِيعٍ له.

النصّ الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) في حكايَةِ دُعاءِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبّه:

﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وقد سَبَقَ تَدَبُّرُ هـٰذيْنِ النَّصَّيْنِ فِي مَوَاضِعهما، فَمِنَ الظَّاهِرِ أَنْ نفهم الآيَةَ من سُورةِ (الصَّافَّات) على الوَجْهِ الَّذِي في سُورتَي (ق) و(الشعراء).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام أيضاً:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

شُروعٌ في عَرْضِ اللَّقَطاتِ الْمُخْتَارَاتِ مِنْ قِصَّتِهِ عَلَيْهِ السّلام، لِهَـٰذِهِ السُّورةِ ومُقْتَضِيَاتِها إِبَّانَ التَّنْزِيل.

سبق في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) بيان دَعْوَةِ إبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلام لِأَبِيهِ آزر، وسَبَقَ أيضاً بَيَانُ لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّتِهِ فِي نجوم التَّنْزِيلِ قَبْلَ

(الأنْعام) سَبَقَ تَدبُّرُها، وَسَتَأْتي فِي سُوَرٍ كثيرةٍ لقَطَاتٌ مِنْ قِصَّتِهِ، وَهِي تَحْتَاجُ دِرَاسَةً تكَامُلِيَّةً تَدَبُّرِيَّة في مُلْحَقٍ أسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَني عَلَيْهِ، ليكُون مُلْحقاً مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّر سُورةٍ من السُّور.

قولُهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾؟:

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المُتَلَقِّي جِهَادَ إبْرَاهِيمَ الدَّعَوِيَّ، حِينَ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مُسْتَنْكِراً مُنْتَقِداً بِشِدَّةٍ عِبَادَتَهُمْ أوثَاناً هُمْ يَنْحِتُونها بِأَيْدِيهم، لا تَسْمَعُ وَلَا تُجِيبُ ولَا تَعْقِل، ولَا تنفعُ ولَا تَضُرّ.

﴿مَاذَآ﴾؟ مُرَكَّبَةٌ من «مَا» الاستفهامية، و«ذا» الموصولة الَّتي هِيَ بمعنى «الّذِي» أي: مَا الّذِي تَعْبُدون، والاستفهام استنكارِيٌّ تَلْويمي، مع ما فِيهِ مِنْ إظْهَارِ الْعَجَبِ الشَّدِيدِ مِنْ سَفَاهَتِهِمْ ونَقْصِ عُقُولهم.

وجوابُ سؤاله لَهُمْ، جاء بَيَانُهُ في سورة (الشُّعَرَاء/٤٧ نزول):

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾.

فَرَدَّ عليهم بقوله:

﴿.. هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾.

فقالوا له: لَا ﴿.. بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

هُنَا يأتي قول اللهِ تَعَالَىٰ في (الصافات) التي نتدَبَّرُها، حِكَايَةً لمَا رَدَّ بِهِ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السّلام:

- ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾؟:

الإفْكُ: الكَذِبُ قَوْلاً كَانَ أَوْ عَملاً، فَمَنْ صَنَعَ صَنماً وجَعَلَهُ إلَهاً يَعْبُدُهُ، فقد عَمِلَ كَذِباً، لأَنَّهُ يَجْعَلُ مَا لَيْسَ لَه من الرُّبوبيَّة، ولا من الإلَهِيَّةِ شَيءٌ، إلَهاً يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

فالمعنى: أَتَّخِذونَ أَصْنَاماً وتَجْعَلُونَهَا آلِهَةً تُعْبَدُ إفْكاً وكَذِباً عَلَىٰ اللهِ، الذي لَهُ وَحْدَهُ في كُلِّ الْوُجُودِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَلَهُ وَحْدَهُ الإلَـٰهِيَّة. وتُرِيدُونَ بِعِبَادَتِكُمْ لَهَا أَنْ تَجْلُبَ لَكُمْ نَفْعاً، أَوْ تَدْفَعَ عَنْكُمْ ضَرّاً.

وأصل العبارة على مَا أفهم: أَتُرِيدُونَ جَلْبَ نَفْعٍ أَوْ دَفْعَ ضَرٍّ، بِعِبَادَةِ أَصْنَامٍ مِنْ دُونِ اللهِ، تَتَّخِذُونَها آلِهَةً إفْكاً وَكَذِباً.

حُذِفَ الفِعل الناصِبُ لـ**[إفْكاً آلِهةً]**. وَحُذِفَ مَعْمُول: **[تُرِيدُونَ]** أي: جَلْبَ نَفْعٍ أَوْ دَفْعَ ضَرٍّ، ونَظِيرُ هـٰذا الحذف مألوفٌ في القرآن.

إنَّ هـٰذا الْعَمَلَ مِنْكُمْ سَفَاهَةٌ ونَقْصٌ في الْعَقْلِ، وكُفْرٌ بِحَقِّ رَبِّكُمْ عَلَيْكُم.

وقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِأَبيهِ وَقَوْمِهِ:

- ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: فَمَا ظَنُّكُمُ الَّذِي تَظُنُّونَهُ بِرَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، القادِرِ على الْإيجاد والإعْدَام، والجزاء والعقاب والانتقام، والذي هو مالِكُ كُلِّ شيء، والْقَدِيرُ عَلَىٰ مَا يَشَاء، وَالَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إلَٰهِيَّتِهِ؟؟

أَتَظُنُّونَ أَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَكُمْ عِبادَتَكُمْ لِغَيْرِهِ، وأَنْ تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكاً مِمَّا خَلَقَ، فَهو مَخْلُوقٌ لَهُ، كَمَا أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ لَهُ، وكَذَلِكَ كُلُّ شيءٍ في الوجود سِوَىٰ اللهِ هو مَخْلُوقٌ ومَرْبُوبٌ لِلَّه دَواماً؟؟.

أَتَظُنُّونَ أَنَّ رَبَّ العالَمِينَ غَيْرُ عَالِمٍ بِمَا تَصْنَعُونَ، وبما في نُفُوسِكُمْ تُضْمِرُونَ؟.

أَتَظُنُّونَ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يُحْصِي عليكُمْ أَعْمَالَكُمُ الإرادِيَّة الظَّاهِرَةَ والْبَاطِنَةَ، وَلَا يُحَاسِبُكُمْ ويُجازِيكُمْ عَلَيْها يَوْم الدين؟.

استعْمَل إبراهيمُ عَليه السَّلام التَّعْبيرَ بالظَّنِّ هُنا، لِأَنَّ قومَهُ لَا يَمْلِكُون ظَنّاً مُؤَيّداً بِدَلِيلٍ ما، يخالِفُ مَا يَدْعُوهم إليه من الحقّ، ونَبْذِ الشِّرْك، والْتِزَامِ صراط اللهِ المستقيم.

أمّا عِبادَتُهُمْ لِآلِهَتِهِمْ فَهِي عَقَائِدُ خُرَافِيَّةٌ تَقْلِيديَّة، لا يَقْتَرِنُ بِهَا ظَنٌّ مَقْبُولٌ في أَذْهَانِ الْعُقَلاءِ، بَلْ هي أَوْهَامٌ صَارَت عَقَائِدَ بِالتَّقْلِيدِ الْأَعمىٰ.

وبَعْدَ أَنْ جَاهَدَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ جهاداً دَعَوِيّاً لِيَنْبِذُوا شِرْكَهُمْ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وَكَانَ فَتىً مُكْتَمِلَ الْقُوَّة، ذَا عَزِيمَةٍ وَنَشَاط، وَتَرَقَّبَ يَوْماً مِنْ أَيَّام أَعْيَادِ قَوْمِهِ، إِذْ يَخْرُجُونَ مِنْ مَدِينَتِهِمْ إلى مَكَانٍ جامِعٍ يَلْتَقُونَ فيه، ويَلْهُونَ ويَلْعَبُونَ، فَدَعَوْهُ إِلَىٰ الْخُرُوجِ مَعَهُمْ غداً، فَأَرَادَ أَنْ يَكِيدَ في يَوْمِ عِيدِهِمْ أَصْنَامَهُمْ فِي مَعْبَدِهَا الْمُخَصَّصِ لَهَا، فَيُحَطِّمَهَا إِلّا كَبِيرَها؛ فيلزمهم الحجةَ في أنّها لا تستحقُّ العبادة.

- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

حَرَكَةٌ ذَكِيَّةٌ بَارِعَةٌ، أَوْهَمَ بِهَا مَنْ حَوْلَهُ مِنْ عَشِيرَتِهِ، أَنَّهُ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ في النَّظَرِ إِلَىٰ حَرَكَاتِ النُّجومِ، دُونَ أَنْ يَقُول لَهُمْ: إِنِّي أَسْتَطْلِعُ حَرَكَاتِهَا، وأَتْبَعَ هـٰذِهِ الْحَرَكَةَ بِقَوْلِهِ لهم: إِنِّي سَقِيمٌ، أي: مَرِيضٌ، ومَرَضِي يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَخْرُجَ مَعَكُمْ فِي يوْمِ عِيدِكُمْ.

فتَوَهَّمُوا أَنَّهُ اسْتَطْلَعَ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ النُّجُومِ أَنَّهُ سَيَكُونُ غداً سَقِيماً، يَمْنَعُهُ سَقَمُهُ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَهُمْ لِيَلْهُوا ويَلْعَبُوا في يَوْمِ عِيدِهِمْ.

قولُهُ عليه السّلام: «إِنِّي سَقِيم»، هي إِحْدَىٰ الكذبَاتِ الثَّلَاثِ اللَّاتي احتَسَبَهَا علىٰ نَفْسِه، كَمَا جاء في حديثِ الشفاعَةِ الّذِي رواه البخاري ومسلم⁽¹⁾، مع أَنَّ ثِنْتَيْنِ منها كانَتَا في ذَاتِ اللهِ، وهما قوله: «إِنِّي سَقِيم».

---

(١) انظر حديث الشفاعة في الصفحات من (٤١٤ ـ ٤١٦) من المجلد (٨) الملحق الثاني: «حول الشفاعة يوم الدِّين وأنواعها».

وقولُهُ: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذا». أمّا الثالِثَة فَقَوْلُهُ لِلْمَلِك حين أَرَادَ امْرأته «سَارَة»: هي أُخْتِي، يَعْنِي أَخْتَهُ في الإسلام، إذ من عادة هـٰذا الملك أَنْ يقتل أَزْوَاجَ من تُعْجِبُهُ مِنَ النساء، كما سيأتي في ص٦٠٧.

فَقَبِلَتْ عَشِيرَتُهُ عُذْرَهُ، وَخَرَجُوا مع النّاسِ إلى عِيدِهم، وبقي إبْراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في المدينَةِ لا يُرَاقِبُهُ فِيها أَحَدٌ.

- ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠﴾:

﴿فَتَوَلَّوْا﴾: أي: فَخَرَجَ أَهْلُهُ وعَشِيرَتُهُ نَائِينَ عَنِ المكان الّذِي كَانَ هُو فيه في المدينة.

التولّي: يأتي بمَعْنَىٰ الإدْبار، وبمعْنَىٰ الابتعاد.

﴿مُدْبِرِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لمعنَىٰ الإدْبار، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَمْ يَقَعْ في ظَنِّهِمْ أَنَّهُ سيَفْعَلُ شيئاً في غِيابِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ، بَلْ سَيَجْلِسُ جِلْسَةَ السَّقِيم في بَيْتِهِ، فلَمْ يَتْرُكُوا رَقيباً يُرَاقِبُهُ، بَلْ كَانُوا جَمِيعاً مُدْبِرِينَ.

أدْبَر: أي: جَعَلَ ظَهْرَهُ إلى جِهَةِ مَنْ أَدْبَرَ عَنْه.

فلَمَّا اطْمَأَنَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ إلَىٰ أَنَّ الْمَدينَةَ فَرَغَتْ مِنْ أَهْلها، وَلَا مُرَاقِبَ فِيهَا يُرَاقِبُه، أَسْرَع إلى تَنْفِيذِ خُطَّتِهِ الَّتِي رَسَمَها فأسْرع بِخِفَّةِ الْفَتَىٰ الْقَوِيّ إلَىٰ بَيْتِ أَصْنَامِهِم:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾.

﴿فَرَاغَ﴾: أي: فأَسْرَعَ بِخِفَّةٍ ونَشَاطٍ يَسِيرُ يميناً وَشمالاً، ويحْذَرُ أنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، حتَّىٰ وصَلَ إلى بَيْتِ أَصْنامهم.

فقَدَّمَ للأَصْنَام طعاماً، فَقَالَ لَهُمْ: أَلا تَأْكُلُونَ؟ خاطَبَها بخِطَابِ الجماعَةِ الذُّكور، إذْ هِيَ علَىٰ صُورِ ذكُور.

وحَادَثَ الأَصْنَامَ فَلَمْ تُجِبْهُ، فَقَال لهم: مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ؟ سُخْرِيَةً

بِهِمْ واحْتِقَاراً لهم، إذْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّها حِجارةٌ لَا حَيَاة لَها فَهِيَ لَا تَتكَلَّمُ، وإنَّمَا نَحتَها السُّفَهاءُ عَلَىٰ صُوَرِ أَحْيَاء، وصَارُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله.

وهُنَا ثَارَ غَضَبُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ رَبِّ الْعَالَمِين، فَعَزَمَ علَىٰ تَحْطِيمِها بأدَاةٍ حَدِيدِيَّةٍ، أَوْ كَانَ هو ذا قُوَّةٍ فَائِقَةٍ، وَكَانَتْ يَدُهُ ذَاتَ قُدْرَةٍ عَلَىٰ تَكْسِيرِ الحجارَةِ دُونَ أداةٍ حَدِيديَّة.

- ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ۝٩٣﴾:

أي: فأسْرَعَ بِخفَّةٍ وحِدَّةٍ ونَشَاطٍ يَضْرِبُهَا ضَرْباً قَوِيّاً بِيَدِهِ الْيَمِينِ، فَهِيَ الْيَدُ الْأَقْوَىٰ عِنْدَهُ، وهِيَ الْيَد الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا في الأمُور الشَّرِيفة، كالأكْلِ والشُّرْبِ والقِتَالِ، علَىٰ وَفْقِ الأدَبِ الإسْلَامي.

فكَسَّرَهَا إلَّا وَثَناً كبيراً فيها، فَجعَلَهَا جُذاذاً، أي: قِطعاً مُكَسَّرَة، كَمَا قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشَأْن إبراهِيم عليه السَّلام وتَكْسِيره أصْنامَ قومه:

- ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ۝٥٨﴾.

فَلَمَّا رَجَعُوا مِنْ عِيدِهِمْ وَجَدُوا آلِهَتَهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ مُكَسَّرَةً، إلَّا الصَّنَمَ الكَبِيرَ مِنْها، واشْتَدَّ غضَبُ الْقَوْمِ مِمَّنْ كَسَّرَ آلِهَتَهُمْ، فَتَسَاءَلُوا: مَنْ فَعلَ هَـٰذا بآلِهَتِنا، وهُنَا يأتِي التَّكْمِيلُ في سورة الأنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن

كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

كُلُّ هـٰذَا الّذِي جاء في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣ نُزول) قدِ اقْتُطِعَ من الْقِصَّة في سورة (الصَّافَّات) وَجيء مِنْهَا بمُخْتَزَلٍ، وفْقَ المنْهَجِ القرآني في التوزيع التكامُلِيِّ في السُّورِ لِعَرْضِ الْقِصَصِ فيه.

وَأتابعُ مَا جَاء في سُورَة (الصَّافَّات):

- ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾: أي: فَأَقْبَلَ قَوْمُهُ إلَيْهِ يُسْرِعُونَ. يقال لُغَةً: «زَفَّ، يَزِفُّ، زَفّاً، وزُفُوفاً، وَزَفِيفاً» أي: أَسْرَع. ويُقَالُ أيْضاً: «أَزَفَّ، يُزِفُّ» بمعْنى: أسْرَع، وعلى هـٰذا القراءة الأخرى: «يُزِفُّون».

لَقَدْ أَسْرَعُوا إِلَيهِ بَعْدَ أَنْ قَال قائِلُونَ مِنْهُمْ: سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُ آلِهَتَنا بِسُوء، فَهُو المتَّهَمُ بتكْسِيرِها.

وطُوِي هُنَا مَا جَاءَ مُفَصَّلاً في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣ نزول) وقفَزَ النَّصُّ هنا إِلَىٰ بَيَانِ مُنَاقَشَةِ إِبْراهِيم عليه السلام لِقَوْمِهِ بِشَأْنِ آلِهَتِهِمْ مِن الأصْنَام:

- ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾؟!:

أي: قَالَ لِقَوْمِهِ مُجَاهِداً جهاداً دَعَوِيّاً بشَجَاعَةٍ تَامَّةٍ، وبأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الاستِنْكارِيِّ التّلْويمِيّ الّذِي فيه تَسْفِيهٌ لِعُقُولهم: أتعْبُدُونَ حجارَةً وصُخُوراً أَنْتُمْ تنْحِتُونَهَا وَتُصوِّرُونها علَىٰ صُورِ أَحْياءِ، وتَجْعلُونَهَا شَرِيكَةً لِلَّهِ في إِلَٰهِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّهُ خلَقَكُمْ وَخلَقَ كُلَّ ما تَعْمَلُونَ، وممَّا تَعْمَلُونَ أصْنَامُكُمْ الَّتِي تَنْحِتُونَها، أفَتَعْبُدُونَ المخْلُوقَ الَّذِي لَا إِلَٰهِيَّةَ لَهُ وَتَجْعلُونَهُ شَرِيكاً لِلْخَالِقِ في إِلَٰهِيَّتِه؟؟.

إِنَّ عِبَادَتَكُمْ لأَصْنَامِكُمْ سَفَاهَةٌ مَا دُونَهَا سَفَاهَة.

فَلَمَّا غَلَبَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ بالحجَّةِ، ولَمْ يَجِدُوا لِأَنْفُسِهِمْ حُجَّةً مقْبُولَةً فِي الْعُقُولِ يَحتجُّونَ بِها، رَأَوْا أَنْ يَتخلَّصُوا مِنْهُ بالتَّحرِيق الْعَلَنِيّ نُصْرَةً لآلِهَتِهِمْ، وَهُنَا يأتي مَا جَاءَ في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

- ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

وَتَشَاوَرَ مَلأُ قَوْمِهِ عَنِ الكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُحَرِّقُونَهُ بِهَا، وهُنَا يأتي مَا جاء في سورة (الصافات/ ٥٦ نزول):

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾:

أي: اسْتَقَرَّ رأْيُهُم بَعْدَ التَّشَاوُرِ عَلَىٰ أَنْ يَبْنُوا بُنْيَاناً، كَجِدَارٍ دَائِرِيٍّ، يُرَىٰ مِنْ أَعْلاهُ كَبِئْرٍ مَطْوِيَّةٍ، ويَمْلَؤُوه حَطَباً، ويُوقِدُوا هَـٰذا الْحَطَبَ حَتَّىٰ يَكُونَ جَمْراً وَنَاراً مُلْتَهِبَةً، وَأَنْ يُلْقُوهُ فِيهَا بحُضُورِ جماهِيرِ قَوْمِهِمْ، ليَكُونَ عِبْرَة لِمَنْ يَعْتَبر، فَفَعَلُوا.

الجحيم: كُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيم.

وهُنَا يأتِي قَوْلُ اللهِ الَّذِي جاء في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: وأرادُوا بِدَعْوة إبْرَاهِيم مَا يُلْغِيها بتَحْرِيقِهِ ويَمْنَعُ انْتِشَارَها، فَلَمَّا جَعَلْنَا النَّارَ بَارِدَةً عَلَيْهِ، وخَرَجَ مِنْهَا سَالماً لَمْ يَمَسَّهُ من حَرَارَةِ النَّارِ شَيْء، كَانَ مَنْ دَبَّرُوا لَهُ كَيْدَ التَّحْرِيقِ هُمُ الأَخْسَرِينَ، إِذْ أَخَذَتْ مَشَاعِرُ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ تَعْتَقِدُ بُطْلانَ الشِّرْكِ، وفَسَادَ عِبادَةِ الأوثان، وإنْ بَقِي سُلْطَانُ الدَّوْلَةِ القائِمَةِ يوْمَئِذٍ وَثَنِيّاً.

وَجاء في سُورَة (الصَّافَّات/ ٥٦ نزول):

- ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

أي: فَجعلْنَاهُمُ المغلوبين الَّذِينَ سَقَطُوا إِلَىٰ الْأَسْفَلِ في الصراع بَيْنَ الْحقِّ وَالْبَاطل، والسَّاقِطُ إِلَىٰ الْأَسْفَلِ بَيْنَ المتصارِعَيْنِ هو المغْلُوبُ الْخَاسِرُ المخزِيُّ الْذَّلِيلُ المحتقر.

وَإِذْ بَقِيَ سُلْطَانُ الدَّوْلَةِ الْكَافِرَةِ في الْحُكْم، وأدَّىٰ إبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَظيفَتَهُ الدَّعَوِيَّةَ عَلَىٰ مَا يُرْضِي اللهَ، وأَمَرَهُ الله أو أذن لَهُ بأَنْ يُهَاجِرَ، قَالَ: اللَّهُمَّ قَدْ بَلَّغْتُ الرِّسَالَةَ، ونَصَحْتُ الأُمَّة، إذْ جَاء العطف التالي بالواو على مطويّ، وهذا أولى ما يقوله.

- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾:

أيْ: وَقَالَ لِعَشيرَتِهِ الأَقْرَبِينَ: إنّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ أرْضٍ غَيْرِ أرْضِكُمْ أهَاجِرُ إلَيْها، يَخْتَارُهَا لي رَبِّي.

قالُوا: هَلْ تَعْرِفُهَا؟. قَالَ: سَيَهْدِينِي رَبِّي الذي أمرني بالْهِجْرَةِ أو أذِنَ لي بها.

فهاجَرَ عَلَيْهِ السّلام هو وَبَعْضُ أَهْلِهِ، ومِمَّنْ هاجَرَ مَعَهُ ابْنُ أخيه «لُوط» عَلَيْهِ السَّلام، فإنَّهُ كَانَ قَدْ آمَنَ بِهِ واتّبَعَهُ، وانْتَهَتْ بِهِ هِجْرَتُهُ بَعْدَ مَرَاحِلَ إِلَىٰ الأرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فِيها لِلْعَالَمِين، وهِي أَرْضُ فِلَسْطِينَ، ونَجَّاهُ ونَجَّىٰ لُوطاً مَعَهُ مِن شُرُور قَوْمِهِ ومَكَايِدِهم.

وهُنَا يأتي قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الْأَنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وكانت «سَارَة» زَوْجَةُ «إبراهيم» عليه السّلام عَقِيماً لَا تُنْجِبُ ذُرِّيَّةً، فَرَغِبَ أَنْ تَكُونَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ، فَدعا رَبَّهُ قَائِلاً، كما في (الصَّافّات):

- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: رَبِّ هَبْ لِي وَلَداً مِنْ ذُرِّيَّتِي يَكُونُ صَالِحاً مِنَ الصَّالِحِينَ.

فجَرَتْ أَحْدَاثٌ فِي رِحْلَاتِهِ، ومِنْهَا أَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ أرْضٍ فِيهَا مَلِكٌ جَبَّارٌ، إذَا أبْلَغَهُ جُنُودُه بِامْرأةٍ حَسْنَاءَ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، فإذا كَانَ لها زَوْجٌ قَتَلَهُ واصْطَفاها لِنَفسه، فأبْلَغَهُ جُنُودُه، بِوُجُودِ امْرَأة حَسْنَاءَ هِي «سَارَة» زَوْجَةُ إِبْراهيم عَلَيْهِ السَّلام، فاسْتَدْعَاهُما الْمَلِكُ الجبَّارُ إلَىٰ قَصْرِهِ، فَقَالَ إبراهيم: إِذَا سَأَلَكِ عَنِّي فَقُولِي هو أَخِي، وأنَا أيضاً أقُول: إذا سَأَلَنِي أنْتِ أُخْتِي، فلَمَّا الْتَقَاهُما قالَ: هي أختي وقَالَتْ: هو أخِي، فَأَدْخَلَهَا الْمَلِكُ إلى حَيْثُ يَبْتَغِي بِهَا الفاحِشَة، وقام إبراهيم عليه السلام يُصَلِّي، ويَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يَعْصِمَهَا مِنْهُ، فلَمَّا أراد الْمَلِكُ أَنْ يَمَسَّهَا عَصَمَها اللهُ ثَلاثَ مَرَّات بِعِلَلٍ نَزَلَتْ بِهِ كادَتْ تَقْتُلُهُ، فَسَأَلَها أَنْ تَدْعُوَ لَهُ وَهُو يَكُفُّ عَنْهَا، فَدَعَتْ له، فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ، فأهْدَاهَا هدَايَا، وَصَرَفَها، وَكَانَ مِنْ هداياهُ لها أنْ أَعْطَاهَا «هَاجَرَ» المصريَّةَ خَادِمَةً، فأهْدَتْهَا هِيَ لِزَوْجها لِيُنْجِبَ مِنْها.

فَدَخَلَ بها إبراهيم عليه السّلام، وهُنَا يأْتي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ في (الصَّافَّات) عطفاً بالفاء الّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ الترتِيبِ مَعَ التعقيب:

- ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾: فحقق اللهُ البشرى، فولدت هَاجرُ الْغُلَامَ الْحَلِيمَ فَسَمَّاهُ «إِسْمَاعِيل» وهو اسْم عِبْرِيٌّ مَعْنَاهُ «يَسْمَعُ اللهُ» وكانَ أوَّلَ ذُرِّيَّةٍ وَهَبَها اللهُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام.

وهُنَا جَرَتْ أحْدَاثُ نَقْلِهِ مَع أُمِّهِ «هَاجر» إلَى أرْضِ مكَّة، وكانَتْ وادِياً لَا زَرْعَ فِيهِ، وَبِأمْرِ اللهِ تَرَكَ الطِّفْلَ وأُمَّهُ عِنْدَ مَكَانِ بَيْتِ اللهِ الحَرام، وَقَدْ مَضَىٰ فِي تَدَبُّراتٍ سَابِقَاتٍ بيانٌ مُوجَزٍ مِنْ قِصَّةِ الأُمِّ «هَاجَرَ» وابْنِهَا «إِسْمَاعِيل» وسَتَأْتِي إنْ شاءَ اللهُ تفصِيلات أَوسع.

الْغُلَام: هو في اللُّغَةِ الصَّبِيُّ مُنْذُ وِلَادَتِهِ وحَتَّىٰ سِنِّ الْبُلُوغ.

الْحَلِيمُ: هو ذُو الْأَنَاةِ، القادر على ضَبطِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْغَضَبِ، أَوْ عِنْدَ

حُلُولِ مَكْرُوه، وهو الَّذِي يَعْقِلُ بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ نَوازِعَ نَفْسِه، وَهُو الَّذِي يَعْفُو وَيَصْفَح.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: فَوَهَبْنَاهُ الْغُلَامَ الْحَلِيمَ الَّذِي بَشَّرْنَاهُ بِهِ، وَنَشَأَ الْغُلَامُ إسماعيلُ نَشْأَةً صَالِحَةً فِي وَادِي مَكَّةَ، عِنْدَ بَيْتِ اللهِ المحَرَّم، وكَانَ أَبُوهُ يَتَعَهَّدُ زِيَارَتَهُ حِيناً فَحِيناً، وَلَمَّا بَلَغَ «إِسْمَاعِيلُ» السِّنَّ الَّتِي يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْعَىٰ فِيهَا مَعَ إِبْرَاهِيم مُجَاهِدَيْنِ في الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، وَتَعْلِيم النَّاسِ في الْأَرْضِ الَّتِي نَشَأَ فيها إِسْمَاعِيلُ أُسُسَ الإيمَانِ وأَحْكَامَ السُّلُوكِ وفَضَائِلَ الْأَخْلَاقِ والْآداب.

أَصْلُ السَّعْي: الْعَدْوُ، وهو فَوْقَ المشْيِ الْعَادِي، ويُفِيدُ مَعْنَىٰ الْهِمَّةِ في الْعَمَل بِجِدٍّ ونَشَاطٍ.

لمَّا بَلَغَ «إِسْمَاعِيل» عليه السَّلام هـٰذه السِّنَّ، وكَانَ أَبُوهُ عِنْدَهُ في مَكَّةَ في إِحْدَىٰ زِيَارَاتِهِ لَهُ قَالَ لَهُ: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾: أي: يَا بُنَيَّ إِنَّ رُؤيَا تَتَكَرَّرُ عَلَيَّ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّنِي مَأْمُورٌ مِنَ اللهِ بأَنْ أَذْبَحكَ.

دَلَّ على تَكْرار الرُّؤيَا اسْتِعْمَالُ الْفِعْل المضارع ﴿أَرَىٰ﴾ وَلَوْ كَانَتْ رُؤيَا وَاحِدَةً لَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ.

• ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ وفِي القراءةِ الْأُخْرَى: **[فَانْظُرْ مَاذَا تُرِي]** أي: فانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ أَنْتَ لِنَفْسِكَ، وأَنْظُرْ مَاذَا تُقَدِّمُ لِي مِنْ رَأْي: فَأَسْرَعَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ مُبَيِّناً لِأَبِيهِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام مَا رَأَىٰ.

• ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

فَهِمَ «إسماعيل» عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّ الرُّؤْيا تَتضَمَّنُ تَكْلِيفاً رَبَّانِيّاً يأمُرُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ إسْماعِيلَ الّذي صارَ قَادِراً على أَنْ يَسْعَىٰ مُجاهِداً مَعَ أَبِيهِ للدَّعْوَةِ إلى اللهِ وتَبْلِيغ الدِّينِ الَّذي اصْطَفاهُ لِعِبادِهِ، فَقالَ لَهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ وَطَمْأَنَ الابْنُ أَبَاهُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ طَائِعاً مُسْتَسْلِماً مُسْتَجِيباً لِأَمْرِ اللهِ، وبِأَنَّهُ سَيَكُونَ صَابِراً من أَهْلِ الإحْسَانِ الصَّابِرِينَ، إذْ كَانَ قَدْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ الاسْتِعْدَادَ لِلاسْتِسْلَامِ التَّامّ، وَلَكِنْ عَلَّقَ أَمْرَ صَبْرِهِ علَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ، الْتِزاماً بالْواجِبِ الدِّينِي فِي الوعْدِ بِعَمَلٍ مُسْتَقْبَلِيّ، واسْتِعَانَةً باللهِ وَتَوكُّلاً عَلَيْهِ، حَتَّىٰ يُمِدَّهُ بالصَّبْرِ، فقالَ لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وَقَدَّمَ التَّعْلِيقَ عَلَىٰ مَشيئَةِ اللهِ عَلَىٰ الوعْدِ بالصَّبْرِ، لِأَنَّ التَّعْلِيقَ علَىٰ مَشيئَةِ اللهِ مُرْتَبِطٌ مُباشَرَةً بالإيمان، أَمَّا الصَّبْرُ فَهُوَ مَطْلُوبٌ فِي السُّلُوكِ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ.

وحِينَ اطْمَأَنَّ الْأَبُ «إبْراهِيمُ» إلى أَنَّ الابْنَ «إسْمَاعِيل» سَيَكُونُ مُسْتَسْلِماً كَامِلَ الاسْتِسْلَامِ لِقِيامِ أبِيهِ بِذَبْحِهِ طَاعَةً لِأَمْرِ اللهِ، وأَسْلَمَ «إبْرَاهِيم» أَمْرَهُ لِرَبِّهِ كابحاً كُلَّ عَواطِفِهِ نَحْوَ وَلَدِهِ، حينئذٍ أَقدمَ الأَبُ لِلْقِيامِ بِذَبْحِ وَلَدِه، واسْتَجابَ الابْنُ لِلْأَمْر:

- ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: فَلَمَّا أَسْلَمَ الأبُ والابْنُ أَمرَهُمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، طَاعَةً لَهُ، وامْتِثَالاً لِأَمْرِه الَّذِي جَاءَ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ في رُؤيَا مَنَامِيَّة، فَرُؤْيا الرُّسُلِ حَقٌّ.

وَتَلَّهُ لِلْجَبِينَ: أي: أَلْقَىٰ الْأَبُ «إبراهيمُ» الابْن «إسْمَاعِيلَ» عليهما السلام عَلَىٰ عُنُقِهِ وَخَدِّهِ، وجعَلَ جَبِينَهُ أَيْ: أَحَدَ جَانِبَيْ جَبْهَتِهِ عَلَىٰ الْأَرْض، وقَبَضَ عَلَىٰ مِقْبَضِ سِكِّينِهِ لِيُنَفِّذَ الْأَمْرَ الرَّبَّانِيَّ. وفِي «التَّلّ» مَعْنَى الشِّدَّةِ، كَما يَتُلُّ المصارع نِدَّه.

وكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ إذْ أَسْلَمَا وأَطَاعَا، وأتَمَّا امْتِحَانَهُمَا بِنَجاحٍ بَاهِرٍ، أَنْ يُوقِفَ اللهُ التَّنْفِيذ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي تَقْدِيرِه وقَضَائِهِ أَنْ يَذْبَحَ الوالِدُ الرَّحِيمُ ولَدَهُ الْحَلِيمَ، إِنَّمَا كَانَ الغَرَضُ امْتِحَانَهُمَا، وَقَدْ نَجَحَا فِيهِ نجاحاً عَظيماً، أوقَفَ اللهُ تَنْفِيذَ الذَّبْحِ، وهٰذا فيما أَرَىٰ جوابُ «لَمَّا» المطويّ في المثاني.

■ قَالَ اللهُ تَعالَىٰ:

• ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾:

إنَّ إِيقَافَ تَنْفِيذِ الذَّبْحِ بأمْرٍ رَبَّانِيٍّ، رُبَّما كَانَ مُوجَّهاً مِنْ جبْرِيلَ عَلَيْهِ السّلام، تَبِعَهُ نِداءٌ، تَفْسِيرُهُ: يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا، أَيْ: إنَّ التَّكْلِيفَ فِي الرُّؤْيا كَانَ ذَا حَدٍّ يَقِفُ قَبْلَ تَنْفِيذِ الذَّبْحِ بإدْخالِ حَدِّ السِّكِّين فِي الْمَذْبَحِ مِنَ الرَّقَبَةِ، وَقَدْ طَابَقَ مَا فَعَلَهُ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ مَا جَاءَ في الرُّؤْيا التَّكْلِيفيَّةِ فَصَدَّقَهُ، وبهٰذَا انْتَهَتْ حُدُودُ التكليفِ، وَقَدْ كَانَ هو وابْنُهُ مِنَ الْمُحْسِنينَ تَسْليماً لِلَّهِ، فالأَبُ قَدْ قَهَرَ أعْظَمَ عَواطِفِهِ طاعَةً لِأَمْرِ رَبِّه، والابْنُ قَدْ قَهَرَ حُبَّهُ لِلْحَياة، فأسْلَمَ نَفْسَهُ لِلذَّبْحِ كَما تُذْبَحُ الشَّاةُ، طاعَةً لأمْرِ رَبِّهِ، وانْتَهَتْ بِمَا فَعَلا حُدُودُ التكْلِيفِ.

• ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: أَيْ: قَدَّرْنَا وَأَمَرْنَا بإيقَافِ عَمَلِيَّةِ الذبْحِ جزاءً مُرْضِياً لَهُمَا وَسَارّاً لِقُلُوبِهِما، وكذلِكَ الجزاءِ السَّامي الذي أَنْعَمْنَا به عَلَيْهِمَا نَجْزي سَائِرَ الْمُحْسِنِينَ، الَّذِينَ يُحْسِنُونَ مِثْلَ إحْسَانِهِما.

• ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾: أي: إنَّ هٰذا الامتحان الذي امْتَحَنَّا بِهِ إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ، لَهُوَ الامْتِحَان الْجَلِيُّ الظَّاهر، الَّذِي اجْتَازَهُ كُلٌّ مِنْهُمَا بنجاحٍ بَاهِرٍ، ووصف البلاء بأَنَّهُ مُبِينٌ للدَّلاَلَة علَىٰ أَنَّهُ لَا يخفَىٰ على أحد.

وجَاءَ تَوكيد هٰذه الجملة بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية، ولام الابتداء المزحْلَقة لِلْخبر».

- ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾: أي: وفدَيْنا إسْمَاعِيلَ إذْ أوْقَفْنَا الذَّبْحَ عِنْدَ بِدَايَتِهِ بِذَبْحٍ عَظِيم. أي: بِمَذْبُوحٍ عَظِيم، رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رضي اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بِكَبْشٍ أَبْيَض أعْيَنَ أقْرَنَ، قَدْ رُبِط بِسَمُرَةٍ، أي: بشَجَرَةٍ مِنْ أشْجَارِ السَّمُر.

ويَظْهَرُ أَنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ أَنْ يَذْبَحَ هـٰذا الذِّبْحَ الكَبِيرَ، بَعْدَ أَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ قَدْ صَدَّقَ الرُّؤيَا، وأُمِرَ بِأَنْ لَا يُتِمَّ ذَبْحَ وَلَدِه، وأخَذَ الكَبْشَ مِنْ مَرْبَطِهِ فَذَبَحَهُ، وَكَانَ فِدَاءً مِنَ اللهِ لِوَلَدِهِ إسماعيل عليهما السَّلَام.

- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾:

هـٰذا السّلام على إبْراهيم هو تحيَّةٌ يَدْعُو بها المرسَلُونَ وأتْبَاعُهُمْ، فَمَنْ سَلَّمَ على إبراهيم، أو على أيّ رسُولٍ كُتِبَ لَهُ بذلك أجْرٌ، لأنَّهُ تعليمٌ مَشْرُوع أشْعَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالنَّدْب إلَيْهِ، بعِبارة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾.

ومثل هـٰذا الجزاء يَجْزي اللهُ بِهِ سَائِرَ الْمُحْسِنِين، الَّذِين ارْتَقَوْا بأعْمَالِهِمْ وَنِيّاتِهِمْ إلى مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، وهي أعْلَىٰ مَرَاتب المؤمنين، كما سَبَقَ بيانه.

ووصف الله عَزَّ وَجَلَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السّلام بأنَّهُ مِنْ أهْلِ كمال الإيمان، فقال تعالى بضمير المتكلّم العظيم: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ ومثل هـٰذا الثّناء بعد الإشعار بأنَّهُ مِن المحسنين يَدُلُّ على أنّ (ال) في لفظ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هي للكمال، أي: المؤمِنينَ الكامِلين في إيمانهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾:

أي: وبَشَّرْنَاهُ بِوَلَدٍ مِنْهُ ومِنْ زَوْجَتِهِ «سَارة» يَكُونُ نَبِيّاً من أَنْبِيَاء اللهِ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ويَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ الذين هُمْ مِنْ أَهْلِ كمالِ الْإِيمَانِ والْعَمَل الصّالح.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾:

الْبَرَكَةُ: الكَثْرَةُ مِنْ كُلّ خَيْر.

أي: وأَنْعَمْنَا علَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ وَلَدِه إِسْحَاقِ بخَيْرَاتٍ كثيراتٍ مِنَ المادّيَّاتِ والْمَعْنَويات.

ووصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَا تَنَاسَلَ مِن ذُرّيَّاتِهِما بأَنَّهُم عَلَىٰ دَرَجاتٍ أو دَرَكات، فأَفْضَلُهُمْ مُحْسِنٌ، أَيْ: مِنْ أهْلِ دَرَجَةِ الإِحْسَان. وأَحَطُّهُمْ دَرَكَةً ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ، واضِحٌ في انْحِطَاطِهِ إلى أَسْفَلِ سَافِلِين، وسَائِرُهُمْ عَلَىٰ دَرَجاتٍ أَوْ دَرَكَاتٍ بَيْنَ دَرَجَةِ الْمُحْسِنِ، ودَرَكَةِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ المبين.

وبهٰذا انتهى تَدَبُّر الفصل الثاني من الدَّرس الثالث مِن دروس سورة (الصَّافَّات). والحمد لله على معونته ومدده وتوفيقه وفَتْحه.

* * *

التدبُّر التحليلي للفصل الثالث من الدرس الثالث من دروس سورة (الصَّافات)

الآيات من (١١٤ ـ ١٢٢)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ

مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

القراءات:

(١١٨) ● قرأ قُنْبل، ورُوَيْس: [**السِّراط**] بالسّين.

وقرأها خَلَفٌ عن حمزة بإشْمَام الصّادِ صَوْتَ الزاي.

وقرأها باقي القرّاء العشرة [**الصِّرَاطَ**] بالصّاد الخالصة.

(١١٩) ● قرأ يعقوب: [**عَلَيْهُمَا**] بِضَمّ هاء الضّمِير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ هاء الضّمِير: [**عَلَيْهِمَا**].

تمهيد:

في هـٰذا الْفَصْلِ بَيانُ ما امْتَنَّ اللهُ بِهِ على مُوسَىٰ وأخِيهِ هارونَ عَلَيْهِمَا السلام، ونُصْرَتِهِمَا ونُصْرَةِ بَنِي إسْرَائيلَ على فرعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهِمْ، وأَنَّ اللهَ آتاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ، وهو التوراة، وتَرَكَ عَلَيْهِما مِثْلَمَا تَرَكَ على سائِرِ المرسَلِينَ مِنْ سَلامٍ، وأَثْنَىٰ عليهما بالإحْسَان، وبأنهما من عباده المؤمنين.

التَّدَبُّر التَّحْلِيلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾:

في هـٰذه الآياتِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ مِنَنِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ الكَثِيرَةِ الَّتي امْتَنَّ عَلَيْهِما بها، مُتَحَدِّثاً بِضَمِير المتكَلِّمِ الْعَظِيم، وقد سَبَقَ تَفْصِيلُ بَعْضِ هـٰذه الْمِنَنِ في نجوم التنزيل.

● ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾: أي: ونُؤكِّدُ للمتلَقِّي أنَّنا أنْعَمْنا وأَحْسَنّا.

الْمَنُّ: الإنْعامُ والإحْسَان، يقال لغةً: «مَنَّ عَلَيْهِ، يَمُنُّ، مَنّاً» أي: أنْعَمَ عَلَيهِ نِعْمَةً طَيِّبَةً، وأَحْسَنَ إلَيْهِ بِعَطَاءٍ، ويظهر أنّ المنَّ يُسْتَعْملُ في الإنعام العظيم بالنِّسبَةِ إلى المنْعَم عليه.

- ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾: أي: علَىٰ الأخوَيْنِ النَّبِيَّيْنِ الرَّسُولَيْنِ، مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وهَارُون عَلَيْهِ السَّلَام.

وقَدْ كانَتْ مِنَنُ اللهِ عَلَيْهِمَا كَثِيرَةً وجَلِيلَة، مِنْها أَنَّهُ تَبارَكَ وتَعالَىٰ اصْطَفَاهُما بِالنُّبُوَّةِ والرّسَالَة، وآتاهُمَا الآياتِ التِّسْعَ شهادة مِنْهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ علَىٰ أَنَّهُما نَبِيَّانِ ورسُولَانِ صَادِقانِ حقّاً، يُبَلِّغَانِ رِسَالَاتِ رَبّ العالَمين. إلى مِنَنٍ كَثِيرَة جاء تَفْصِيلُ بَعْضِها فِي نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ أُخْرَىٰ.

- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾: أي: وخَلَّصْنَا مُوسَىٰ وهَارُونَ وقَوْمَهُمَا بَنِي إسْرَائِيل.

- ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي: من الشِّدَّةِ الضّاغِطَةِ عَلَيْهِمْ المنْزِلَةِ بهم حزْناً وغَمّاً، وهي الشدّة الّتِي كان فِرْعَوْنُ وآلُهُ وجنودُهُ يُعامِلُونَ بني إسْرَائيل بها، إذْ يَعْتَبِرُونَهُمْ في مِصْرَ بمَثَابَةِ الْعَبِيد.

الكَرْب: هو في اللّغة الحزْنُ والغمّ يأخُذُ بِالنفس، كأنَّ حبلاً أُبْرِمَ عَلَيْها وشُدَّ. وَيَظْهَرُ أنّ أصْلَ الاسْتِعمالِ مأْخوذٌ من كرْبِ الْحَبْلِ، وهو شَدُّهُ وفَتْلُهُ، ومَعْلُومٌ أنَّ الْفَتْلَ يَجعَل الأجْزاءَ تتضاغَطُ فَتُؤْلِمُ ذا الإحْسَاس بالألم.

- ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾: أي: ونَصرْنَا مُوسَىٰ وهَارُون وبني إسْرَائيلَ مَعَهُمَا، بِتَنْجِيَتِهِمْ بِفَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وجَعْلِهِمْ يمُرُّون على اليابسَةِ في قاع مَكَان الْفَلْقِ بِسَلام، وَبإغرَاقِ فِرْعَوْنَ وجَيْشِهِ الّذِي خَرَجَ مَعَهُ وراءَ بني إسرائيل، فكانُوا هُمُ الْغَالِبين لأعدائهم بتدَخُّلِ الخارِقِ الرَّبَّانِيِّ الْعَجِيب، دونَ أَنْ يكُونَ مِنْ بَنِي إسْرَائيل قِتَالٌ لأَعْدَائهم، ولا مُواجَهَةٌ لَهُمْ بحَرْبٍ أوْ دِفَاع.

- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾: أي: وآتينا مُوسَىٰ وهارونَ عليهما السَّلامُ التوراةَ الّذي هو كِتَابٌ مُسْتَبِينٌ.

المُسْتَبِينُ: أي: الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ وُضُوحاً شَدِيداً، فَلَا غُمُوضَ فِيه، ولَا غَبَشَ عَلَيْه.

- ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾: أي: وهَدَيْنَا مُوسَىٰ وهَارُونَ بِمَا أنْزَلْنَا عَلَيْهِما الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ الّذِي لا عوجَ فيه، وهو الصِّرَاطُ الَّذي رَسَمْنَاهُ وَبيَّنَّاهُ لِعبَادِنا المُحْسِنِينَ والأبرارِ والمتَّقِين، لِيَتَّبِعوه في مَسِيرَة حَيَاةِ الامْتِحَانِ، ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

أصل الصراط: الطريقُ الواضِحُ الجلِيُّ، وأُطْلِقَ في الاصْطلاح الدينيّ على تعليمات الحقّ والْعَدْل والخير، والبرّ والإحسان والتقوى، وفضائل السُّلُوكِ، ومَكارِمِ الأخلاق.

يقال لغة: «هدَاهُ الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ إلَيْه، وهدَاهُ لَهُ» أي: دلَّهُ عَلَيْه، وبَيَّنَهُ له، وأرشَدَهُ إلَيْه، وعرَّفَهُ به.

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

هٰذه الآيات مُشَابِهَاتٌ لِمَا جَاءَ في السُّورَةِ قَرِيباً بِشَأْنِ نوحٍ عليه السلام، فَبِشَأْنِ إبْرَاهيمَ عَلَيْهِ السَّلام.

فلا دَاعِي للتدبُّر التحليليّ لهٰذه الآيات، إذْ يُغْنِي عَنْهُ التحليل الّذي سَبَقَ آنِفاً بشأنِ نوحٍ وإبْرَاهِيمَ عليهما السلام.

ويُلاحظُ أنَّهُ قد جاءت بشأن نوح ومُوسَىٰ وهارون عليهم السلام عبارة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أمَّا مَا جاء بشأن إبراهيم عَلَيْهِ

السّلام، ففِي شَأْنِ الفداء: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ وفي شأن تَرْكِ السَّلَامِ عَلَيْهِ في الآخِرِينَ، فَقَدْ جَاءَتِ العبارة فيه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ويَبْدُو لي أَنَّ زِيَادَة التوكيد في: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ لُوحِظَ فيها مَزِيدُ العِنَايَة بشَأْنِ مَنْ كَانَ ذَا إِحْسَانٍ زائِدٍ في جِهاده وصَبْرِهِ، وبشأن الحالَة الّتي يكونُ فيها ذا إحْسَانٍ زائد.

وبهٰذا انتهىٰ تدبر الفصل الثالث من الدرس الثالث من دروس سورة (الصافات). والحمد لله على معونته ومَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

التدبر التحليلي للفصل الرابع من الدرس الثالث من دروس سورة (الصّافات)

الآيات من (١٢٣ ـ ١٣٢)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

القراءات:

(١٢٣) • قرأ ابن ذَكْوانَ في إحدى قراءتَيْنِ لَهُ: [**وَإِنَّ لْيَاسَ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وإِنَّ إِلْيَاسَ**] وهو الوجْهُ الثاني لابْنِ ذَكْوان.

«لْيَاس» و«إلْيَاس» نُطْقَانِ لاسم هـٰذا الرسُول عليه السلام.

(١٢٦) ● قرأ حفْص، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ]** بالنَّصْب.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[اللَّهُ رَبُّكُم وَرَبُّ]** بالرفع، على أنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدأ محذوف، تقديرُهُ: هو اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ.

والقراءتان وجْهانِ عَرَبِيّان جائِزَان.

(١٢٨) ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، ويعقوب: **[الْمُخْلِصِينَ]** بكسر اللام اسم فاعل.

وقرأها باقي القراء العشرة بفتح اللّام: **[الْمُخْلَصِينَ]** اسم مفعول.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، كما سَبَقَ بيانُهُ في الآية (٤٠).

(١٣٠) ● قرأ نافع، وابْن عامر، ويعقوب: **[عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[عَلَىٰ إِلْيَاسِينَ]**.

وهما نطقان عند العرب.

تمهيد:

في هـٰذا الفصل بيان مُوجَزٌ عَنْ دَعْوَةِ إلْياس علَيْهِ السّلام لِقَوْمِهِ، وما امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ.

تعريف بالرسول إلياس عليه السلام:

سبق ذكر إلياس في الآية (٨٥) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول)، وسبق بيانٌ مُوجز عَنْه، وأَبان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنّه من المرسلين.

لم يتفق المُؤرِّخون على نَسَبٍ مُنْضَبِطٍ له، وذَكَر الطبريُّ له النَّسَبَ التالي:

«هو إلْيَاسُ، بْنُ يَاسِينَ، بْنِ فِنْحاص، بنِ العِيزَار، بن هارون» فهو على هـٰذا من ذُرِّيَّةِ هارون عليه السلام، فهو من بني إسرائيل، ويُسَمَّىٰ عند الإسْرَائيلِيِّينَ: «إِيلِيَّا» وهو اسم عِبْرِيٌّ مَعْنَاهُ: «إِلَهي يَهْوه». واسْمُهُ في الْيُونانِيَّةِ والعربيَّة: «إِلْيَاس» ولَهُ عند الإسْرَائِيلِيّين عِدَّةُ أخْبَار.

ومن أخباره عند الإسرائيليّين:

(١) عاشَ في جَلْعَاد، وكان عادةً يَلْبَسُ ثوباً من الشعر «=مُسُوحاً» ويَلْبَسُ مِنْطَقَةً مِنَ الْجِلْد.

(٢) كان يقضي كثيراً مِنْ وَقْتِهِ في الْبَرِّيَّة.

(٣) وقَدْ عَبَدَ شَعْبُ بني إسرائيل «الْبَعْل» وهو إلَه كَنْعَانِيٌّ ولَهُ وَثَنٌ مَعْروف، اكْتُشِفَ في «أوغاريت» بسُورية، وكانت عبادة «الْبَعْلِ» مُنْتَشِرَةً بين أهالي المشرق في الزمان القديم، وكان لِلْبَعْلِ كَهَنَةٌ كَثِيرونَ يَخْدَعُونَ الناس بِسِحْرِهِم وشَعْوَذَتِهِم وأعْمَالٍ كَثِيرَةٍ يَنْسُبونَها لإلَهِهِم.

ولمَّا عَبَدَ شَعْبُ بني إسْرَائيل الْبَعْلَ، تنبَّأَ إيليَّا بأنّ اللهَ سيَمْنَعُ المطَرَ عَنْ بَنِي إسرائيل، واعْتَزَلَهُمْ، وذَهَبَ إلى نَهْرِ كريت، وكانت الْغِرْبَان تأتيهِ بالطعام.

(٤) أجرى اللهُ لَهُ عِدَّةَ خَوارِقَ عَلَىٰ ما ذكَرُوا⁽١⁾.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٢٣﴾:

---

(١) أخذاً من «قاموس الكتاب المقدس».

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهـٰذه الآيَة أَنَّ «إِلْيَاسَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِين، أي: فَهُوَ نَبِيٌّ أَيْضاً لِأَنَّ كُلَّ رسُولٍ هُوَ نَبِيٌّ. والتوكيد جاء بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة».

والمؤَكَّدُ لهم بِهـٰذِهِ المؤكداتِ الّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ نَبِيٌّ لَا رسُول، أمّا المؤمِنُون المسْلِمُون فإنَّهم يُؤْمِنُونَ بِخَبَرِ اللهِ ولو كان خالياً مِنْ أيِّ تَوْكِيد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

أي: ضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّها المُتَلَقِّي لِهـٰذَا البيان دَعْوَةَ إلياسَ لِقَوْمِهِ حِينَ قَال لَهُمْ بأسْلُوبِ الْعَرْضِ الرَّفيق مع الإلحاح.

● ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي: أَلَا تَتَّقُونَ عَذَابَ اللهِ الَّذِي أَنْذَرَ بِهِ الْمُشْرِكين.

«أَلَا» هُنَا لِلْعَرْضِ، وقَدْ تَدُلُّ على مَعْنَىٰ التَّحْضِيضِ.

● ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾: أي: أَتَعْبُدُونَ إِلـٰهاً باطلاً تَتَّخِذُونَ لَهُ وثناً، وتُسَمُّونَهُ «بَعْلاً». أُطْلِقَ الدُّعَاء في القرآن كثِيراً عَلَىٰ معْنَىٰ العبادة، لأنَّ الدُّعَاءَ أوّلُ عبادات المعبود.

● ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾: أي: وتتركُونَ عِبَادَةَ اللهِ أَحْسَنِ الْخَالِقِينَ، والْمُرادُ بِالْخَالِقِينَ هُنَا الْمُقَدّرُونَ، الَّذِينَ يُعْطُونَ أجْزَاءَ الشَّيْءِ مَقاديرَها بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ جُمْلَتِهِ الْكُلِّيَّة. واللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهـٰذا المعنَىٰ أَحْسَنُ المقدّرين.

أمّا الْخَلْقُ بمَعْنَىٰ ابْتِداعِ الشيء من الْعَدَم، فَهُو ممَّا انْفَرَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، فلَا أحَدَ غَيْرُ اللهِ يَبْتَدِعُ من الْعَدَم.

ويَظْهَرُ أَنَّ عَابِدي الْبَعْلِ يَرَوْنَهُ ذَا تَقْدِيراتٍ حَسَنَةٍ في شُؤُونٍ كثيرة من شُؤُونِ الحياة الدُّنيا، فَبَيَّنَ لَهُمْ إلياسُ عَلَيْهِ السلام أنَّ اللهَ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ جَمِيعاً، فَهُو الَّذِي تَجِبُ عبادَتُهُ وَحْدَه.

- ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

أي: وَتَتْرُكُونَ اللهَ رَبَّكُمْ وَربَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فَلَا تَعْبُدُونَه، هذه العبارة بَدَلٌ من عِبَارَةِ: ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ على قراءة النَّصْبِ، فَالاسْتِفْهام الإنْكَارِيُّ عليهم، والتعجيبيُّ من أمْرِهِمْ مُنْسَحِبٌ عَلَيْها.

تَذْكِيرُهُمْ بِرُبُوبيَّةِ اللهِ لَهُمْ وِلآبَائِهِمُ الأوَّلِينَ حتَّىٰ جَدِّهِمْ آدمَ عَلَيْهِ السَّلام، يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ إلْيَاسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أبَانَ لَهُمْ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ المتَصَرِّفُ بِكُلِّ أمُورِهِمْ، بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَةِ لِمُعْظَم أسمائِه الحسنَىٰ، فَلَا شيءَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ إلَّا هُوَ خَاضِعٌ لِرُبُوبيَّتِهِ، إيجاداً وإعْداماً إلَىٰ سَائِرِ التصاريفِ، وأنَّهُ لَا أَحَدَ في الوجود كُلِّهِ يُشَارِكُ اللهَ فِي رُبُوبِيّتِهِ لِلْكَوْنِ، فالْإِلَهِيَّةُ حَقُّهُ وَحْدَهُ، فَمَنْ عَبَدَ مع اللهِ إلَهاً آخَرَ كَانَ مُشْرِكاً ظَالِماً لِحَقِّ رَبِّهِ عَلَيه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾:

أي: فَكَذَّبَهُ مُعْظَمُ قَوْمِهِ، ولم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، في نَبْذِ عبادَةِ «الْبَعْلِ» وفي وجُوبِ الْتِزامِ عبادَةِ اللهِ وحْدَهُ لا شريكَ له.

فإنَّهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ لَمُحْضَرُونَ في عَذَابِ نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين.

كَلِمَةُ: «مُحْضَرُونَ» جاءَت في القرآن المجيد غالباً بمعنى الإحضار في دار العذاب يَوْمَ الدِّين أو الإحضار لموقف الحساب وفصل القضاء.

أصْلُ معْنَىٰ الإحضار السَّوْقُ قهراً، وهـٰذا يكونُ في الغالِبِ لمسُوقٍ ظالمٍ آثم، لتعذيبه، أو لمحاسَبَتِهِ والحكم عليه بجرائمه.

إلَّا عِبَادَ اللهِ المُخلَصِينَ بفتح اللَّام، والمخْلِصِينَ بِكَسْرِ اللَّام فإنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنَ المُحْضَرِينَ قَهْراً لِتَعْذيبِهِمْ، بَلْ يُسَاقُونَ مُكَرَّمِينَ لِجَعْلِهِمْ مِنْ أهْلِ دَار النعيم.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾:

هـٰذه الآياتِ مُمَاثِلَات لما جاء في السورة بشأن نوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، ولما جاء بشأن موسَىٰ وهارون علَيْهِما السَّلام، وقَدْ سبَق تَدَبُّرها فلا حاجَةَ إلَىٰ الإعادة.

أمَّا لفظ: **[إل يَاسِين]** وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[آلِ يَاسِينَ]** فقد يكونُ من الْألْفَاظِ الَّتِي اشْتَهَرَتْ في قَوْمِهِ عَنِ اسْم «إلْيَاسَ» علَيْهِ السلام، وقَدْ يَكُونُ من الألْفَاظِ الّتي اشْتَهَرَتْ فِي قَوْمِهِ عَنْهُ وَعَمَّنْ نَاصَرَهُ للتَّخَلُّص مِنْ سَدَنَةِ «بَعْلٍ» بِقَتْلِهِمْ، وَكانَ فيهم «آلٌ» لَهُ ومُؤَيِّدُونَ لَهُمْ.

وقد جاء بَيَانٌ عَنْ سَعْيِهِ لِقَتْلِهِمْ عِنْدَ الإسْرَائيليّين.

والسَّلامُ علَىٰ آلِ يَاسِينَ المؤمنين بِهِ الّذِينَ نَصَرُوه يَسْتَلْزِمُ السَّلامَ على «إلياس» عقلاً من بَابٍ أوْلَىٰ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الرابع من فصول الدرس الثالث من دُروس سورة الصافات.

والحمد لله علىٰ مَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ وتوفِيقِه وفتحه.

* * *

التدبر التحليلي للفصل الخامس من الدرس الثالث
من دروس سورة (الصافات)
الآيات من (١٣٣ ـ ١٣٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

تمهيد:

في هٰذه الآياتِ بيانٌ مُوجَزٌ جدّاً عَنْ نَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلام، وأهْلَهُ إلّا امْرَأتَهُ الْعَجُوز الَّتِي كانت كافِرَةً مع قَوْمِها، وعَنْ تَدْمِيرِهِ كُفَّارَ قَوْمِهِ أهْلِ سَدُوم، مَعَ تَذْكِيرِ كُفَّارِ مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل بأنَّهُمْ يَمُرُّونَ في أسْفَارِهِمْ على مَكَانِ إهْلاكِهِمْ عِنْدَ الصَّباحِ أَوْ في اللَّيل، وهو الْبَحْرُ الميّتُ.

وقد سبقت دِراسَةٌ تَكَامُلِيَّةٌ للنُّصُوص القرآنية المتعلّقَةِ بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام وقومه، في الملْحَقِ الخامس من ملاحق تَدَبُّر سُورَة الْأَعْرَاف، فأقْتَصِرُ هُنا علَىٰ تَحْلِيلِ آيات هٰذا الفصل.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:
- ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

يؤكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحْلَقَة» أنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلام قد كَانَ نَبِيَّاً وَرَسُولاً.

وقد سبَقَ بيان أنَّ اللهَ قَدْ أَرسَلَهُ إلَىٰ سُكَّان أَرْضِ سَدُوم، الذين

كانت لَهُمْ قبائح كثيرة، ومِنْهَا أَنَّهُمْ كانُوا يأتُونَ الذُّكْرَانَ من الْعَالَمِين، وكانُوا يُجاهِرُونَ بذلك بوقَاحَةٍ، وكانُوا مُسْرِفِينَ في قَبَاحَاتِهِمْ إسْرَافاً لَمْ يَبْلُغْ إلى مِثْلِهَا أَحَدٌ من أَهْلِ الْفُجُورِ والطُّغيان، والْفِسْقِ والْعِصْيان.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾:

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المُتَلَقِّي الحدَثَ وعِبْرَتَهُ حِينَ نَجَّيْنَا لُوطاً وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إلَّا عَجُوزاً هِي زَوْجَتُهُ الكافِرَةُ الَّتِي كانَتْ علَىٰ هَوَىٰ قَوْمِها، كائِنَةً فِي الغابِرِينَ الْهَالِكِين.

الغابر: يأتي في اللُّغَة بِمَعْنَىٰ الماكِثِ الَّذِي لَا يَتحوَّل، ويأْتي بمَعْنَىٰ الماضِي الذَّاهِب الّذي لم يَبْقَ لَهُ وجُود. ويَصْلُحُ هُنَا المعْنيَان، فَقَدْ كانت امْرأة لوطٍ الْعَجُوزُ في الماكِثِينَ فِي أَرْضِ قَوْمِهَا بإهْلَاكِهَا فيها، وفي الماضِين الذَّاهِبِينَ الْمُهْلَكِينَ الَّذِين لَمْ يَبْقَ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الحياةِ الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تعَالَىٰ:

● ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

أي: وبَعْدَ أَنْ نَجَّيْنَا لُوطاً وَأَهْلَهُ إلَّا امْرأَتَهُ، وأوصَلْنَاهُمْ إلَىٰ أَرْضٍ آمِنَةٍ لَا تَنْزِلُ عَلَيْها المهْلِكات المدمِّرات، ومَنَحْنَاهُمْ مُهْلَةً زَمَنِيَّةً للاستقرار الآمِنِ، دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وهُمْ كُفَّارُ قَوْمِهِ.

التَّدْمِير: هو الإهْلَاكُ بِاسْتِئْصال، مع مَحْوِ المبانِي وآثارِهَا حتَّىٰ لَا يُرَىٰ مِنْها شيء. وأَصْلُ التَّدْمِير: تَحطِيمُ الشيْء المُدَمَّرِ على وَجْهٍ لَا يُرجَىٰ بَعْدَهُ صَلَاحُهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِكُفَّارِ مَكَّةَ إبَّان التَّنْزِيل:

- ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

أي: وَإِنَّكُمْ أَيُّها الكُفَّارُ المعانِدُونَ الْمُصِرُّون على كُفْرِكُم، والمكَذِّبُونَ رَسُولَ رَبِّكُمْ فِيما يُبَلِّغُكُمْ مِنْ إنْذارِنا لَكُمْ بإهْلَاكٍ كَمَا أَهْلَكْنَا مُكَذِّبِي رُسُلِ رَبِّهِمْ مِنْ قَبْلِكُمْ، لَتَمُرُّونَ فِي أَسْفَارِكم فِي تِجَارَاتِكُمْ إِلَىٰ أَرْضِ الشَّام، عَلَىٰ الأرضِ المشْرِفَةِ علىٰ الْبَحْرِ الميِّتِ، حَيْثُ جَعَلْنَا قُرىٰ قَوْمِ لُوطٍ مَدْفُونَةً فِي قَاعِ هَـٰذا الْبَحْرِ بَعْدَ أَنْ عَذَّبْنا وَأَهْلَكْنا كُفَّارَهَا فِيها.

ويَكُونُ مُرُورُكُمْ هَـٰذا عَلَيْها فِي أَسْفَارِكُمْ حالَةَ كَوْنِكُمْ مُصْبِحِين، أي: دَاخِلِينَ في الصَّباحِ، أو حَالَة كَوْنِكُمْ بِاللَّيْل قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْر.

وَيظْهَرُ أَنَّ مَسِيرَهُمْ فِي أَسفَارِهِمُ التِّجاريَّةِ إلَىٰ أَرْضِ الشَّام، قَدْ كَانَ مُقَدَّراً تَقْدِيراً يَجْعَلُهُمْ يَصِلُونَ إلَىٰ جوار الْبَحْرِ الميّتِ في الصَّباحِ أَوْ باللَّيْلِ، بِحَسَبِ المراحِلِ والمنَازِلِ الَّتِي يَحُطُّونَ فِيها وَيرْحَلُونَ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! اسْتِفْهَامٌ إنكارِيٌّ وَتَعْجِيبِيٌّ، عَنْ عَدَمِ تَعَقُّلِهِمْ، بِعَدَمِ إدْرَاكِ العِبْرَة، وَعَدَمِ ضَبْطِ أَهْوَائِهِمْ وشَهَوَاتِهِم بإرادَةٍ واعِيَةٍ عَاقِلَةٍ.

وَيَتَضَمَّنُ هـٰذا الاسْتِفْهامُ حَثَّهُمْ على أَنْ يَعْقِلُوا عَقْلَ إدْرَاكٍ لِلْعِبْرَة، وعَقْلَ إرادَةٍ حَازِمَة.

العقل هُنَا: يَتَناوَلُ الْعَقْلَ الْعِلْمِيَّ الْفِكْرِيَّ، والْعَقْلَ الإرادِيَّ الَّذي يَجب أَنْ يَعْقِلُوا به أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَنَزَعَاتِهِمْ ونَزَغَاتِ شياطِينِهِم عَنِ الشُّرُودِ إلى مَهَاوِي هَلَاكِهِمْ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الخامس من الدرس الثالث من دُروس سورة (الصّافات). والحمد لله على مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفيقه، وفَتْحِه.

* * *

التدبر التحليلي للفصل السادس من الدرس الثالث
من دروس سورة (الصَّافات)
الآيات من (١٣٩ ـ ١٤٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

القراءات:

(١٤٢) ● أسْكَنَ الْهَاء مِن [وَهْوَ] قالُون، وأَبُو عَمْروٍ، والكِسَائي، وأبو جَعْفَر.

وقرأها باقي القراء العشرة بِضَمّ الهاء: [وَهُوَ].

وهُمَا لغتان عَرَبِيّتان.

(١٤٧) ● قرأ أبُو جَعْفر: [مِيَةِ] وَكَذَلِكَ قرأَهَا حَمْزَةُ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مِائَةِ].

وهما نطقان عَرَبيان.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الفصل لقطاتٌ مُوجزَاتٌ مِنْ قِصَّةِ يُونُس عَلَيْهِ السّلام، مع بَيَانِ مَا تَعرَّضَ لَهُ، إذْ تَرَكَ قَوْمَهُ مُغَاضِباً وانْصرَفَ عَنْهُمْ باجْتِهَادٍ مِنْهُ، دُونَ إذْنٍ لَهُ مِنْ رَبِّهِ بذلِكَ، وظاهِرٌ أنَّ في ذِكْرِ مَا تَعرَّضَ لَهُ تَلْوِيحاً بِأَنَّ

عَلَىٰ حَامِلِ رِسَالَةِ رَبِّهِ المكلَّفِ، أَنْ لَا يَتْرُكَ قَوْمَهُ مُهَاجِراً ما لَمْ يأمُرُهُ اللهُ بذلِكَ، أو يأذَنْ لَهُ به.

مقدمة عامة حَوْلَ يونس عليه السلام وقومه:

(١) يونُسُ هو ابْنُ متَّى، قالوا: «متَّىٰ» هِيَ أُمُّه ولم يُنْسَبْ إلى أمِّهِ من الرُّسُل غَيْرُهُ وغيْرُ عِيسى عليهما السلام.

(٢) ويُسَمَّىٰ عند أهل الكتاب: «يُونَان بن أَمْتاي» قالوا: ويونُس علَيْهِ السّلام مِنْ بَنِي إسرائِيل، ويتَّصل نسبُهُ بشَقِيق يوسف عليه السلام «بَنْيامِين». وعند أهل الكتاب أنه من سِبْطِ «زبُولُون» أحد أولاد يعقوب عليه السلام، وهو مِن أهالِي «جت حافر» على بُعْدِ ثلاثة أميال من الناصرة.

(٣) أرْسَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى أهْلِ «نِينوى» وكانَتْ مَدِينَةً كبيرة تقع على نَهْرِ دَجْلَة أو قريباً مِنْهُ تجاه مَدِينة «الموصل» من أرض آشور، وجاء في «قَامُوس الكتاب المُقدَّس» أنَّ «نِينَوىٰ» كانت عَاصِمَةَ الإمْبَرَاطُورِيَّةِ الآشُورِيَّة.

(٤) كان عَدَدُ أَهْلِ «نِينَوَىٰ» زائداً على مِائَةِ أَلْفٍ، بِعَدَدٍ اختلَفَتْ فيه الآثار.

(٥) يظهر أنّ رِسَالَتَهُ علَيْهِ السّلام كانت خلال الْقَرْن الثامن قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ السلام.

(٦) أمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السلام بأنْ يَذْهَبَ إلى أَهْلِ «نينَوَىٰ»، لِيَرُدَّهُمْ إلى عبادة اللهِ وَحْدَه، وذَلِكَ بَعْدَ أَنِ انْحَرَفُوا عَنْ دين اللهِ الحقّ وعَبَدُوا الأوثان من دُون الله.

قال المؤرخون: وكانَ لأَهْلِ «نِينَوَىٰ» صَنَمٌ يَعْبُدونَهُ اسْمهُ «عَشْتَار».

(٦) ذَهَبَ يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مَوْطِنِهِ فِي بِلَادِ الشَّامِ إِلَىٰ «نِينَوىٰ»

فدَعَا أَهْلَهَا إلى عبادة اللهِ وَحْدَهُ بِمِثْلِ دَعْوَةِ سَائِرِ الرُّسُلِ كما أَمْرُهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ، ونَهاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ وعبادَةِ الأَوْثَانِ، فلَمْ يَسْتَجيبُوا له، كشَأْنِ أكْثَرِ أهْلِ الْقُرىٰ، فأوْعَدَهُمْ بالْعَذابِ في يَوْم مَعْلُومٍ إنْ لَمْ يَتُوبُوا، وظَنَّ أنَّه قد أَدَّىٰ رِسَالَةَ رَبّه، وقام بِكَامِلِ الوظيفة الَّتِي أمَرَهُ اللهُ بها، وخَرَجَ عَنْهُمْ مُغَاضِباً، وكان غَضَبُهُ لِلَّهِ مِنْ إعراضِهِمْ وعَدَم اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ غَضَباً شَدِيداً، لَكِنَّهُ خَرَجَ باجْتِهَادٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِه دُونَ أَنْ يَتَلَقَّىٰ مِنْ رَبِّهِ أَمْراً أَوْ إذْناً بالْخُرُوج، ظانّاً أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ لَا يُؤَاخِذُهُ على هٰذا الْخرُوجِ ولا يُضَيِّقُ عليه.

(٧) فلَمَّا تَرَكَ يُونُس عَلَيْهِ السَّلامُ أهْلَ «نِينَوىٰ» وجاء مَوْعِدُ العذاب، وظَهَرَتْ نُذُرُهُ، عَرَفُوا صِدْقَ رَسُولِهِمْ «يُونس» وخَرَجُوا إِلَىٰ ظَاهِرِ المدِينَةِ، وأَخْرَجُوا دَوابَّهُمْ وَأَنْعَامَهُمْ خَائِفِينَ مُلْتَجِئِينَ إلى اللهِ رَبِّهم، تَائِبين مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وأَخَذُوا يَبْحَثُونَ عَنْ رَسُولِهِمْ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السّلام، لِيُعْلِنُوا لَهُ الْإيمانَ والتوبَةَ، ولِيَسْأَلُوهُ أَنْ يَكُفَّ اللهُ عَنْهُمُ العذابَ فَلَمْ يَجِدُوه.

ولمَّا ظَهرَتْ مِنْهُمُ التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ، وَعلِمَ اللهُ صِدْقَهُمْ فِيها، كَفَّ عَنْهُم الْعَذَابَ، فَعادُوا إِلَىٰ مَدِينتهم مُؤْمِنِينَ باللهِ، مُوَحِّدِينَ لَهُ، هاجِرِينَ عِبَادَة الْأَصْنامِ.

(٨) أمّا «يُونُس» عَلَيْهِ السلام، فَإِنَّهُ سَارَ حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَوَجَدَ سَفِينَةً علَىٰ سَفر، فَطَلَبَ مِنْ أَهْلِهَا أَنْ يُرْكِبُوهُ مَعَهُمْ، فَتَوَسَّمُوا فِيه خيراً فأرْكَبُوه.

وَلَمَّا تَوَسَّطُوا الْبَحْرَ هَاجَ الْبَحْرُ بِهِمْ واضْطَّرَبَ، فقالوا: إِنَّ فينا صَاحِبَ ذَنْبٍ، فاسْتَهَمُوا فيما بَيْنَهُمْ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ السَّهْمُ أَلْقَوْهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَقَعَ السَّهْمُ على «يونس» فَسَأَلُوهُ عَنْ شَأْنِهِ وَعَجِبُوا مِنْ أَمْرِهِ وهُوَ التَّقِيُّ الصَّالح، فَحَدَّثَهُمْ بِقِصَّتِهِ، فأشْفَقُوا أَنْ يُلْقُوهُ في الْبَحْر، وأرَادُوا

الرُّجُوعَ بِهِ إلى السَّاحِلِ فَلَمْ يَقْدِرُوا، فأشَارَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُلْقُوهُ في الْبَحْرِ لِيَسْكُنَ عَنْهُمْ غَضَبُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَلْقَوْه.

فَلَمَّا أَلْقَوْهُ الْتَقَمَهُ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حُوتٌ عَظِيمٌ، وسَارَ بِهِ في الظُّلُمَاتِ في حِفظ اللهِ وَتَأْدِيبِهِ، وتَمَّتِ الخارِقَةُ الرَّبَّانِيَّة.

وقَدْ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ الْحُوتِ أَنْ لَا يُصِيبَ مِنْ «يونُسَ» عَلَيْهِ السلام لَحماً، وَلَا يَهْشِمَ لَهُ عَظماً، فَحَمَلَهُ الحوتُ الْعَظِيم وَسَارَ بِهِ على سَطْحِ الْبَحْرِ، ويُونُس فِي فَمِهِ حَيٌّ يُسَبِّحُ اللّهَ وَيَسْتَغْفِرُهُ، ويُنَادِي في الظُّلُمَاتِ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ، ونَجَّاهُ مِنَ الْغَمِّ، وأَوْحَىٰ إِلَىٰ الْحُوتِ أَنْ يَقْذِفَ بِهِ في الْعَرَاءِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْر، فَأَلْقَىٰ بِهِ وَهُو سَقِيمٌ.

قالُوا: وَقَدْ لَبِثَ فِي جَوْفَ فَمِ الحوتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيها، واللهُ أعلم.

(٩) وَجَدَ «يونُس» عليه السَّلام نَفْسَهُ في الْعَراء سَقِيماً هَزِيلاً، فَحَمِدَ اللهَ عَلَىٰ النجاة، وأَنْبَتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، فَأَكَلَ مِنْها واسْتَظَلَّ بِظِلِّها، وعَافَاهُ اللهُ مِنْ سَقَمِهِ، وتَابَ عَلَيْه.

وعَلِمَ «يُونُسُ» عَلَيْهِ السَّلام أَنَّ مَا أَصَابَهُ تَأْدِيبٌ رَبَّانِيٌّ مَحْفُوفٌ بِأَلْطَافِ اللهِ في مُعْجِزَةٍ مِنْ لَطَائِفِ خوارِقِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ وَعَلِمَ أَنَّ مَا حَصَلَ لَهُ قَدْ كانَ بِسَبَب اسْتِعْجَالِهِ وخُرُوجِهِ مُغَاضِباً لِقَوْمِهِمْ مِنْ «نِينوى» دُونَ إِذْنٍ صَرِيحٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِالْخُرُوج، وَإِنْ كانَ لَهُ فِيه اجْتِهَادٌ مَقْبُول، إِلَّا أَنَّ مِثْلَ هـٰذا الاجْتِهَادِ إِنْ قُبِلَ مِنَ الصَّالِحِينَ الْعَادِيِّين، فإِنَّهُ لا يُقْبَلُ مِنَ الرُّسُلِ الْمُقرَّبِينَ الَّذِينَ يُوحَىٰ إليهم، فَهُو بِخُرُوجِهِ واسْتِعْجَالِهِ قَدْ فَعَلَ مَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ اللَّوْمَ والتَّأْدِيبَ الرَّبَّانِيَّ.

(١٠) ولمّا استطاعَ «يُونُسُ» عَلَيْهِ السَّلام أَنْ يَسِيرَ، عَادَ إِلَىٰ قَوْمِهِ

فَوَجَدَ أَنَّهُمْ قَدْ آمَنُوا وأَسْلَمُوا، وتَابُوا إلى بارِئِهم، مُنْتَظِرِينَ عَوْدَةَ رَسُولِهِمْ لِيَأْتَمِرُوا بأمْرِهِ وَيَتَّبِعُوه، فَلَبِثَ فيهم يُعَلِّمُهم ويَهْدِيهم، ويُرَشِدُهُمْ إلى صراطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم.

(١١) ومَتَّعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَ «نِينَوىٰ» في مَدِينَتِهِمْ مُدَّةَ إقامَةِ «يونُسَ» عَلَيْهِ السلام فيهم، ومَتَّعَهُمْ بَعْدَه فيها آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ حَتَّىٰ حِين، إذْ أَفْسَدُوا وَضَلُّوا فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَنْ دَمَّرَ لَهُمْ مَدِينَتَهُمْ، فكانَتْ أحاديثَ يَرْوِيها المؤرخون، ويَعْتَبِرُ بها المعتبرون.

وجاء عند المؤرخين أنّ «نِينَوىٰ» دُمِّرَتْ علَىٰ أيْدِي «سِياكْرِيس» مَلِكِ «مِيدْيا» و«نَابُويُولْصار» مَلِكِ «بَابل» في سنة (٦١٢ق م) والله أعلم.

وقد جاء بشأن «يونس» عليه السَّلامُ في القرآن المجيد سِتَّةُ نصوص:

أمّا الأول منها، فَمَا جاء في سُورَة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نُزُول) وهو قول الله عَزَّ وَجَلَّ فيها لرسوله محمّد ﷺ:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

وقد سَبَقَ تدبُّر هـٰذا النّصّ في مَوْضعه من سورة (القلم/ ٤ نزول).

وأمَّا اثنان مِنْها فقد جاء ذِكْرُ «يونس» عليه السلام فيهما على أنه رَسُولٌ مِنَ المرسَلِينَ.

الأول: مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الأنْعَام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في الآية (٨٦) مِنْها، فَقَدْ جَاءَ ذِكْرُهُ فِيها ضِمْنَ طَائِفَةٍ مِنَ المرسَلِينَ ذكَرَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الآيات من (٨٣ ـ ٨٧) وقد سَبَقَ تدبُّر هـٰذا النصّ.

الثاني: مَا جاءَ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) في الآيات

من (١٦٣ ـ ١٦٥) ضِمْنَ طَائِفَةٍ من المرْسَلِين ذُكِرُوا فيها مَعَ بيانِ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ إِرْسالهم مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِين.

وَأَمَّا ثَلَاثَةٌ مِنْها، فَهِيَ:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هَـٰذَا النَّصِّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (يُونس).

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) وهُو الآيات من (١٣٩ ـ ١٤٨) وَهي آيات هـٰذا الْفَصْل الّذِي أَسْتَعِينُ باللهِ على تَدبُّرِه.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

هـٰذِهِ النُّصُوصُ تَحْتَاجُ دِرَاسَةً تكامُلِيَّةً تَحْلِيلِيَّةً أَسْتَعِينُ باللهِ العظيم الوهَّابِ عَلَىٰ تَدبُّرِها هُنا، إِذْ لِقِلَّتِها لَا تَحْتَاجُ فَرْزاً فِي مُلْحَقٍ خَاصٍّ بِالنَّبِيِّ الرَّسُولِ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السَّلام.

أولاً: أَثْبَتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُؤَكداً أَنَّ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السَّلام مِنَ الْمُرْسَلِينَ، أي: فَهُو نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فقال تعالى في سورة (الصافَّات/ ٥٦ نزول):

- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾:

جاء في هـٰذه الآية التوكيد بـ«إنَّ ـ والجملَةِ الاسميَّة ـ واللَّام

المزحلقة» للرَّدِّ على الذينَ يَعْتَبِرُونَهُ نبيّاً فقَطْ، ولَيْسَ رَسُولاً مُرْسلاً من اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِقَوْمٍ بَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ إليهم.

ثانياً: طَوتِ النُّصُوصُ ذِكْرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِم، وعِنْدَ المؤرّخين أنَّهم أَهْلُ نِينَوىٰ كَمَا سَبَقَ بيانُهُ في المقَدِّمَةِ العامَّة.

وطَوتِ النُّصُوصُ ذِكْرَ ذَهَابِهِ إِلَىٰ قَوْمِهِ، ودَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ، وتَحْذِيرِهِمْ مِنَ الشِّرْك الَّذِي كانُوا فِيه، حتَّىٰ يَئِسَ مِن استجابَتِهِمْ، فَغَضِبَ لِلَّهِ مِنْهُمْ، وأَنْذَرَهُمْ بِعَذَابٍ من الله.

ثالثاً: لَمَّا غَضِبَ لِلَّهِ مِنْ قَوْمِهِ، وأَنْذَرَهُمْ بعذاب مِنْ رَبِّهِمْ، انْصَرَفَ عَنْهُمْ مُغَاضِباً لَهُمْ، دُونَ إِذْنٍ مِنَ اللهِ لَهُ بالانْصِرَاف عنهم، وقَدْ جاء في بيان هـٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ .. ﴿٨٧﴾﴾:

النّون: اسْمٌ من أَسْمَاءِ الْحُوت، ولعَلَّهُ صِنْفٌ خاصٌّ من أصناف الحيتان العظمىٰ.

أي: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي قِصَّةَ «يُونُس» صَاحِبِ الْحُوتِ، الّذي الْتَقَمَهُ حِينَ انْصَرَفَ عَنْ قَوْمِهِ مُغَاضِباً لهم مِنْ أجْلِ دِينِ رَبِّهِ، دونَ إِذْنٍ لَهُ مِنَ اللهِ بأنْ يَنْصَرِف عَنْهُمْ.

وعَقِبَ تَحَرُّكِهِ ذَاهِباً عَنْهُمْ ومُغَاضِباً لَهُمْ بانْفِعَالٍ شَدِيد، ظَنَّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ بِسُلْطَانِهِ الْعَظِيم ورَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ، ولَنْ يَجْعَلَهُ مُؤَاخَذاً عَلَىٰ ذَهَابِهِ عَنْ قَوْمِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ صَرِيح مِنْهُ، وَظَنَّ أَنَّ لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مِثْلِ هـٰذا الْمَوْضُوع، لَكِنَّهُ كانَ ظَنّاً فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ المقبولِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْه بِوَصْفِهِ رَسُولاً.

﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: أي: لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ في الاجْتِهَادِ، فَنَجْعَلَهُ مُلْزَماً بالْأَمْرِ أَوِ الإذْنِ الصَّرِيح، باعْتِبَارِهِ نَبِيّاً رَسُولاً يُوحَىٰ إِلَيْه.

رَابعاً: وَلمَّا ذَهَبَ عَنْ قَوْمِهِ مُغَاضِباً لَهُمْ تَوجَّهَ جِهَةَ سَاحِلِ الْبَحْرِ، لِيَنْتَقِلَ إلَىٰ بَلَدِهِ في فِلَسْطِينَ عَلَىٰ مَرْكَبَةٍ بَحْرِيَّةٍ تُقَرِّبُهُ إلى مَنَازِلِ أَهْلِه، فَوَجَدَ فُلْكاً مُنَاسِباً، فَتَفَاوَضَ مع أَصْحَابِهِ عَلَىٰ أَنْ يُرْكِبُوهُ معهم، فَقبِلُوا ذٰلِكَ مِنْهُ فأَرْكَبُوه، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾:

وَصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في هـٰذِهِ الآيَةِ بأَنَّهُ عَبْدٌ آبِقٌ، إِذْ ذَهَبَ عَنْ قَوْمِهِ دُونَ إذْنٍ مِنْ رَبِّهِ.

الْعَبْدُ الآبِقُ: هُو الّذِي يَهْرُبُ مِنْ سَيِّدِهِ مَالِكِ رَقَبَتِهِ، لِئَلّا يَقُومَ بِمَا كَلَّفَهُ إيَّاه، يُقَالُ لغةً: «أَبَقَ، يَأْبِقُ، أَبْقاً، وإِبَاقاً» أي: هَرَبَ، فَهو «آبِقٌ» و«أَبُوق».

الْفُلْك: مَرْكَبُ البحر، يُطْلَقُ على الواحد وغيره، يُذَكَّر، ويُؤَنَّث.

المشْحُون: أي: المملوء، يُقَالُ لغة: «شَحَنَ السَّفِينَةَ يَشْحَنُها» أي: مَلأَهَا أحْمالاً ورُكّاباً.

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المُتَلَقِّي، أَنَّ النبيَّ الرَّسُول «يُونُسَ» أبقَ مِنَ المكان الّذي لم يَأْذَنْ لَهُ رَبُّه بأَنْ يَنْصرِفَ عَنْهُ إِذْناً صَرِيحاً، وَذَهَب رَاغِباً في الْعَوْدَةِ إلى مَنَازِلِ أهْلِهِ فِي فِلَسْطِينَ، فَاخْتَارَ أَنْ يَرْكَبَ مَرْكَبَةً بَحْرِيَّةً تُقَرِّبُهُ، فَوَجَدَ فُلْكاً مَشْحُوناً، فَفَاوَضَ أصْحَابَهُ على أَنْ يَحْمِلُوهُ مَعَهُم فَوافَقُوا علىٰ طَلَبِهِ فَحَمَلُوه.

خامساً: وَطوَتِ النُّصُوصُ بَيَانَ أَنَّ الْبَحْرَ هَاجَ وَمَاجَ وَخَافَ أَهْلُ الْفُلْكِ ورُكّابُها عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ مِنَ الْغرَقِ، فَقرَّرُوا أَنْ يُجْرُوا قُرْعَةً لإسْقَاطِ مَنْ تَقَعُ الْقُرْعَةُ عَلَيْهِ فِي الْبَحْرِ، وَيظْهَرُ أَنَّ هـٰذا الإجْرَاءَ كَانَ مِنْ عَادَةِ رُكَّابِ الْبَحْرِ في زَمَانِهِم.

وقَدْ جَاءَ بَيانُ هـٰذه الْقُرْعَةِ في سُورَةِ (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) وهو كِنَايَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ مُقْتَضِيَاتِهَا، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

الْمُسَاهَمَةُ: المشَارَكَةُ فِي الْقُرْعَةِ بالسِّهَام الَّتِي يُعَيَّنُ كُلُّ واحِدٍ مِنْها بِواحِدٍ مِنَ الْمُتَسَاهِمِينَ، فَمَنْ خَرَجَ سَهْمُهُ وَقَعَ عَلَيْهِ النَّصِيبُ، خَيْراً كَانَ أَمْ شرّاً.

فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ: أي: فَكَانَ يُونُس عليه السلام مِنَ الْمُزْلَقِينَ عَنِ الْفُلْكِ بمُقْتَضَىٰ الْقُرْعَةِ الّتِي أَجْرُوْهَا بإجالَةِ السِّهَام.

يُقَال لغة: «أَدْحَضَهُ» أي: دَفَعَهُ وَزَحْزَحَهُ، وأَزْلَقَه.

أي: فأَلْقَوْهُ في الْبَحْرِ بَعْدَ أنْ كَانَ بِمُقْتَضَىٰ الْقُرْعَةِ مِنَ الْمُزْلَقِينَ.

ولعَلَّ وَسِيلَتَهُمْ للإلْقَاءِ في البَحْر، كانت أَنْ يَضَعُوا الْمُلْقَىٰ فيه على لَوْحٍ مُثبَّتِ الوسَطِ على الْفُلْكِ، وقابِلٍ للتحرُّك، إذا رفَعُوه من جهة الفلكِ انزلق منْ وضع عليه إلى جهة الْبَحْر فأُلْقِي فيه.

سَادِساً: وَعقِبَ أَنْ أَلْقَىٰ أصْحَابُ الْفُلْكِ «يُونس» عَلَيْهِ السَّلامُ فِي الْبَحْرِ أَرْسَلَ اللهُ حُوتاً عَظِيماً فَالْتَقَمَهُ، أَيْ: جَعلَهُ كَلُقْمَةٍ فِي جَوْفِ فَمِهِ، وَقَدْ جَاءَ بَيَان هـٰذا في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

- ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾:

فَالْتَقَمَهُ: أي: فَوضَعهُ فِي جوْفِ فَمِهِ كأنَّهُ لُقْمَةٌ مِنْ طَعَام.

الْحُوت: أي: الْحُوتُ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ لِيلْتَقِمَهُ، فَهُوَ حُوتٌ مُكَلَّفٌ بِوَحْيٍ من اللهِ خَاصٍّ بِغَيْرِ أَهْلِ العلم. فـ«ال» فيها معنى التَّعْرِيف بأَنَّهُ حُوتٌ مُعَيَّنٌ بإلْهَامٍ من الله.

وهُوَ مُلِيمٌ: أي: و«يُونُسُ» عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ أَتَىٰ بِمَا يُلامُ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ جلَّ جَلَالُه، يُقَالُ لغة: «أَلامَ فُلَانٌ فَهُوَ مُلِيمٌ» أي: فَعَلَ مَا يُلامُ عَلَيْه.

والَّذِي جَعَلَ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السَّلامُ وَاقعاً فيما يُلامُ عليه أَنَّهُ تَركَ قَوْمَهُ دُونَ إِذْنٍ لَهُ بذلِكَ مِنْ رَبّه وهُوَ رَسُولٌ يُوحَىٰ إِلَيْهِ.

سابعاً: وَجَدَ «يُونُسُ» عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّهُ بِمَثَابَةِ لُقْمَةٍ فِي فَم حُوتٍ عظيم، وَوَجَدَ أَنَّهُ قَادِرٌ علَىٰ أَنْ يَذْكُرَ اللهَ ويُسَبِّحَهُ وَيَدْعُوَه، فاسْتَغَلَّ قُدْرَتَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالتَّسْبِيحِ والذِّكْرِ والدُّعَاء والاعترافِ بِذَنْبِهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿.. فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: فَنَادَىٰ رَبَّهُ وهُوَ فِي جَوْفِ فَم الْحُوتِ مُحَاطٌ بِظُلْمَةِ هـٰذا الْجَوْفِ، وظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وظُلْمَةِ الْغَيْمِ فَوْقَ سَطْحِ الْبَحْرِ، بالنِّدَاء ذي المضمون التالي:

(١) ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾: أي: رَبِّ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ في الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا أَنْتَ، فأَنْتَ وَحْدَكَ الرَّبُّ الَّذِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ.

(٢) ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾: أي: تَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ شَرِيكٍ، وَتَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِكَ، وَإِلَهِيَّتِك، وتَنَزَّهْتَ عَنْ أَنْ تُجْرِيَ مَقَادِيرَكَ دُوْنَ أَنْ تَكُونَ مُتَّصِفَةً بِكَمالِ الْحِكْمَةِ.

(٣) ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: أي: أُأَكِّدُ مُعْتَرِفاً بِذَنْبِي إِذْ ذَهَبْتُ مُغَاضِباً قَوْمِي بَعْدَ أَنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لي، دُونَ أَنْ أَتَلَقَّىٰ أَمْراً أَوْ إِذْناً مِنْكَ بانْصِرَافِي عَنْهُمْ، وقَدْ اخْتَرْتَنِي رَسُولاً لهم يُوحَىٰ إليّ.

ثامناً: فَقبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُ، واسْتَجابَ دُعَاءَهُ، فأوْحَىٰ إلَىٰ الْحُوتِ أَنْ يَلْفِظَهُ فِي الْعَرَاءِ قَرِيباً مِنْ شَاطِئِ الْبَحْر.

دَلَّ على هـٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

- ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾:

أي: فَلَوْلَا أَنَّ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي جَوْفِ فَم الْحُوتِ مِنَ الـمُسَبِّحِينَ، إذْ قالَ في دُعَائِهِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأَكَلَهُ الْحُوتُ وَهَضَمَهُ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ إِلَّا يَوْمَ يُبْعَثُ النَّاس للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

ودَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الله اسْتَجَابَ دُعَاءَهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سُورَةِ (الْأَنْبِياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

أي: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دُعَاءَه، وخَلَّصْنَاهُ مِنَ الْغَمّ الَّذِي كَانَ فيه كَلُقْمَةٍ في جَوْفِ فَمِ الْحُوتِ. ومِثْل هـٰذا التخلِيصِ مِنَ الْغَمِّ نُخَلِّصُ سَائِرَ المؤمنين الصَّادِقِينَ كامِلِي الإيمان.

الغَمُّ: الكَرْبُ المحيط بالقَلْب.

فقَدَّرْنَا أَنْ يَلْفِظَهُ الْحُوتُ علَىٰ الْيَابِسَةِ قَرِيباً مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَلَفَظَهُ، فَنبَذْنَاهُ بالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ.

النَّبْذُ: طَرْحُ الشيءِ بِسُرْعَةٍ.

الْعَرَاء: الْفَضَاءُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شيءٌ يُسْتَتَرُ بِهِ.

السَّقِيمُ: الْمَرِيضُ الَّذِي اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَض.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾﴾: أي: وأَنْبَتْنا شَجَرَة مِنْ يَقْطِينٍ بِجواره، فَامْتَدَّتْ عُرُوقُها عَلَيْهِ وَظَلَّلَتْهُ أَوْرَاقُها.

مِنْ يَقْطِين: أي: مِنْ نَوْعِ شَجَرِ الْيَقْطِين، وهو الدُّبَاءُ وَكُلُّ مَا يَنْتَمِي إلى هٰذا النوع.

وَلَعَلَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِها، أَوْ هَيَّأَ اللهُ لَهُ مَا يَتَغَذّىٰ بِهِ، حتَّىٰ أبَلَّ مِنْ سَقَمِهِ الّذِي نَزَلَ بِهِ، بِسَبَبِ وُجُودِهِ فِي جَوْفِ فَمِ الْحُوتِ ذِي اللُّعَابِ المسْقِم.

تاسعاً: أمَّا أَهْلُ «نِينَوىٰ» فإنَّهُمْ لَمَّا رأَوْا بَوادِرَ نُذُرِ الْعَذَابِ اقْتَرَبَتْ مِنْهُمْ، وَرَأَوْا أَنَّ رَسُولَ رَبِّهِمْ «يُونُس» عَلَيْهِ السَّلامَ قَدْ فَارَقَهُمْ مُغَاضِباً لَهُمْ إذْ لَمْ يَسْتَجِيبوا لَهُ، تَابُوا، وآمَنُوا بِرَبِّهم، ونَبَذُوا شِرْكِيَّاتِهِمْ، فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ العذاب.

دَلَّ عَلَىٰ هٰـذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورةِ (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾.

وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هذا النَّصِّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (يونس/ ٥١ نزول) فلا حاجَةَ إلى التكرار.

عَاشراً: ولَمَّا أَبَلَّ «يُونُس» عَلَيْه السّلام مِنْ سَقَمِهِ، وتابَ اللهُ عَلَيْهِ واجْتَبَاهُ، وَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، أَرْسَلَهُ إِرْسَالاً جَدِيداً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَهْلِ «نِينَوَىٰ» الّذِينَ تَابُوا إِلَىٰ بَارِئِهِمْ، وَبَحَثُوا عَنْ رَسُولِهِمْ فَلَمْ يَجِدُوه، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ أَعْلَنُوا إيمانَهُمْ بِهِ، واتّبَاعَهُمْ لِمَا يُبَلِّغُهُمْ عن رَبّه.

دَلَّ علَىٰ هٰـذِهِ الفِقْرَة مِنْ قِصَّتِهِ، قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الْقَلَم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾:

أي: فاصْطَفَاهُ رَبُّهُ اصْطِفَاءً جَدِيداً بَعْدَ حَادِثَةِ الْحُوتِ التَّأْدِيبِيَّةِ لَهُ، وبَعْدَ الَّذِي كانَ مِنْهُ وَهُوَ سَجِينٌ مَغْمُومٌ مَكْرُوبٌ في جَوْفِ فَمِ الحوتِ، فجَعَلَهُ بِحُكْمِهِ من الأنبياء والرُّسُلِ الصَّالِحِينَ.

وقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾:

أي: وَأَرْسَلْنَاهُ إرْسَالاً جَدِيداً بَعْدَ أَنِ اجْتَبَيْنَاهُ وَجعَلْنَاهُ مِنَ الصَّالِحِين، إِلَىٰ أَهْلِ «نِينَوَىٰ» وَكَانُوا يَزِيدونَ على مِئَةِ أَلْفٍ مِنَ النَّاس.

ولَمْ يَرِدْ خَبَرٌ صَحِيحٌ عَنِ الرَّسُولِ المعْصُومِ ﷺ مقدارُ زِيادَتِهِمْ علىٰ مِئَةِ أَلْفٍ، فَلَا داعِي للاشْتِغَالِ بِتَحْدِيدِ هٰذه الزِّيادَةِ بروايات وآثارٍ لَمْ تَبْلُغْ مَبْلَغَ الصِّحَّة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ أَهْلَ «نِينَوَىٰ» فَسدُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَسلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مُهْلِكَاتٍ أَهْلَكَتْهُمْ وَدَمَّرَتْ مَدِينتهم.

حادي عشر: وحذَّرَ اللهُ الدُّعَاةَ الصَّادِقِينَ مِنْ أمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِأُسْلُوب خِطَاب الرَّسُولِ قائِدِهِمْ وَقُدْوَتِهِمْ، مِنَ التَّضَجُّرِ مِنْ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ مَنْ يَدْعُونَهُمْ إِلَىٰ اللهِ وإلى صِراطِهِ المستقيم، وحذَّرَهُمْ مِنَ التَّخَلِّي عَنْ مُتَابَعَةِ تَأْدِيَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِم، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ في آياتٍ مَدَنِيَّة التَّنْزِيلِ مَضْمُومَةٍ إلى سُورَة (الْقَلَم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) الَّتِي هي من أَوائِلِ التَّنْزِيلِ المكِّيّ:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩﴾.

مَكْظُومٌ: أي: مَمْلُوءٌ غَمّاً وَكَرْباً، مَعَ ضَبْطِ نَفْسِهِ بإيمانٍ قَوِيٍّ، إذْ كَانَ مُعْتَرِفاً بأَنَّهُ كَانَ بِعَمَلِهِ مِنَ الظَّالِمينَ الَّذين يَسْتَحِقُّونَ التَّأْدِيبَ.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾: أي: إنَّهُ نُبذَ بالْعَرَاء ولَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَذْمُوماً، بَلْ كَانَ مِنَ الأَوَّابِينَ التَّائِبينَ، فاسْتَحقَّ أَنْ يَجْتَبِيَهُ رَبُّهُ، وأَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِأَنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَا كَانَ مِنْهُ قدْ كَانَ اجْتِهَاداً أخْطأَ فِيه، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَجْتَهِدَ في الأمْرِ الَّذِي اجْتَهَدَ فيه وَهُوَ نبيٌّ رَسُولٌ يُوحَىٰ إلَيه.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّر هـٰذَا النَّصِّ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَةِ (القلم/ ٤ نزول) فَلْيَرْجِعْ إليه.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر هـٰذا الْفَصْلِ السَّادس، وانْتَهَىٰ تَدبُّر الدَّرْسِ الثالث مِنْ دُرُوس سورة (الصَّافات) بِفُصُولِها السِّتَّة. والْحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتَوفيقهِ وفتحه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (الصَّافات) وهو الآيات من (١٤٩ ـ ١٦٣)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

القراءات:

(١٤٩) • قرأ يعقوب: [**فَاسْتَفْتِهُمْ**] بضَمِّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْرِ هَاء الضّمِير: [**فَاسْتَفْتِهِمْ**].

وهما لغتان عَرَبيَّتَان.

(١٥٢ ـ ١٥٣) • قرأ أبو جعفر: [**لَكَاذِبُونَ اصْطَفَىٰ**] بهمزة وصْلٍ في «اصْطَفَىٰ».

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: [**لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَىٰ**] بِهَمْزَةِ اسْتِفْهَام.

(١٥٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِي، وخَلَف: [**تَذَكَّرُونَ**].

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**تَذَّكَّرُونَ**] بِتَشْدِيد الذَّال.

(١٦٣) • قرأ يَعْقُوب: [**صَالِي**] فِي الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**صَالِ**] في الوقفِ والوصل.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدرس تَعْلِيمُ مُنَاقَشَةٍ للمشركين، بشأن عقيدتهم بأنَّ الملائكَةَ بَنَاتُ اللهِ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ الّذِين يَقُولون: الملائكَةُ بَنَاتُ الله، والـذيـنَ يَقُـولُـونَ: تَزَوَّجَ اللهُ مِنْ سَرَوَاتِ الْجِنِّ فَوَلَدْنَ لَهُ المـلائكَةَ، وهو تَعْلِيمٌ لكلِّ مُنَاظِرٍ لَهُمْ مُؤمِنٍ باللهِ إيماناً حقّاً.

• ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾: **الاستفتاء:** طَلَبُ الإجابَةِ على المسْؤُول عَنْه.

أما السُّؤَال الَّذِي يَحْسُنُ أَنْ يُطْرَحَ عَلَيْهِم بِصُورَةٍ إِفْرَادِيَّة لتكونَ

المناظَرَةُ بَيْنَ سَائِلٍ ومَسْؤُولٍ، فِي مُحَاجَّةٍ حاصِرة لَهُمْ بثَلاثةِ أسْئِلَة:

السؤالُ الأول: لماذا تَجْعَلُونَ أَوْلَادَ اللهِ من صِنْفِ الْبَنَاتِ لَا مِنْ صِنْفِ الذُّكور، وأنْتُمْ تَكْرَهُونَ الإناثَ لِأَنْفُسِكُمْ وتُحِبُّونَ أَنْ يُولَدَ لَكُمُ الذُّكُور؟!

هَلْ لدَيْكُمْ دَافِعٌ نَفْسِيٌّ؟!. هَلْ لَدَيْكُمْ بُرْهَانٌ عِلْمِيٌّ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ قدِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ذُرِّيَّةً من الإناث؟!

دلَّ على هـٰذا الاحْتِمال قول اللهِ في تَعْلِيمِ طَرْحِ الاستفتاء على المناظِرِ عَنْ أَصْحَابِ هـٰذِهِ الفرية:

﴿.. أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾:

أي: مِنْ أَيْنَ لَكَ أَيُّها المناظِرُ عَنْ قَبِيلِكَ هـٰذا الافْتِرَاءُ عَلَىٰ رَبِّكَ إِذْ جَعَلْتُمْ لَهُ أولَاداً، وَجَعَلْتُم هـٰؤلَاءِ الأولَادَ مِنْ صِنْفِ الْبَنَاتِ لَا مِنْ صِنْفِ الذُّكُور، وَأَنْتُم تَكْرَهُونَ أَنْ تُولَدَ لَكُمُ الْبَنَاتُ، وتُحِبُّون أَنْ يُولَدَ لَكُم الذُّكور؟!

هـٰذا السؤال يفتح الطريق لِطَرْحِ أَسْئِلَةٍ كثيرة، حَوْل الرَّبِّ الواحد الأحد، من الأزَلِ إلى الأبَدِ، وتَنَزُّهِهِ عَنِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَد.

ويفتح مجالاً لبيان سَفَاهَتِهِمْ ونَقْصِ عُقُولِهِمْ إِذْ يَنْسُبُونَ إلى ربِّهِمْ مَا يَكْرَهُونَهُ لِنُفُوسهم.

إنّ الأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ صَمَداً، لَا يَلِدُ وَلَا يُولدُ وَلَا يَكُونُ لَهُ كُفُؤاً أَحَدٌ، وبُرْهَانُ الْعَقْلِ قَائِمٌ علَىٰ هـٰذِهِ الحقيقة، وسؤال المناظَرِ مِنْهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ سُؤَالٌ فيه الْبَدْءُ بتَسْفِيهِ عقُولِهِمْ، لِيَكُونَ مِفْتاحاً لإقَامَةِ الْحُجَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ عَلَيْه.

السؤالُ الثاني: هَلْ شَهِدْتُمُ الملائِكَةَ عُرَاةً، وعَلِمْتُمْ مِنْ شُهُودِكُمْ

بِأَعْيُنِكُمْ أَنَّهُمْ إِنَاثٌ، ذَوَاتُ فُرُوجٍ كإِنَاثِ الإنس، حَتَّىٰ قُلْتُمْ مَا افْتَرَيْتُمْ بِشَأْنِهِمْ.

دَلَّ علَىٰ تَعْلِيمِ طَرْحِ هٰذا السؤال قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في هٰذا الدَّرس:

- ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾:

أي: قُلْ أَيُّها المُنَاظِرُ المؤمِنُ لِمَنْ تُنَاظِرُهُ مِنْهُمْ:

أَكَانَ قَبِيلُكَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَلاَئِكَةَ بَنَاتُ اللهِ حَاضِرِينَ يُشَاهِدُونَ بأَعْيُنِهِمْ، حِينَ خَلَقَ اللهُ الْمَلاَئِكَةَ، فَرَأَوْا أَنَّهُمْ إِنَاثٌ؟!.

إِنَّ أحداً لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزْعُمَ هٰذا، فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هٰذا السُّؤالُ مُفْحِماً لِلْمُنَاظِرِ، وَكَاشِفاً افْتِرَاءَ جَماعَتِه.

«أَمْ» هي بِمَعْنَىٰ «بَل» الإضرابيَّة، مع هَمْزَة الاسْتِفْهام.

لَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِيَ في التَّعْلِيم: أَشَهِدُوا وِلاَدَة الملائِكَةِ مِنْ زَوْجَاتِ الله؟! لِئَلَّا يَكُونَ في الكلام ما يُشْعِرُ بقَبُول أَصْلِ الادّعاء، ولو قبولاً جَدَلِيّاً، إذِ الفِرْيَةُ مَرْفُوضَةٌ ولَوْ في مُنَاظَرةٍ جَدَلِيَّة، ومتَىٰ سَقَطَ احْتِمَالُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ شَهِدُوا أَنَّهُمْ إِنَاثٌ عِنْدَ خَلْقِهِمْ، سَقَطَ أَصْلُ الادّعَاءِ الّذي زَعَمُوا فيه أنَّ الملائكَةَ بَنَاتُ الله.

وجاء في تَعْلِيمِ المناظَرَةِ لِلْمُنَاظِرِ المجادِلِ المؤمِن، بناءً على السؤالَيْنِ الأوّل والثاني، قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾:

﴿أَلَآ﴾: أَدَاةُ استِفْتَاحٍ وَتَنْبِيهٍ وتَحْقِيق.

أي: انْتَبِهْ وَتَحقَّقْ أَيُّها المؤمِنُ الْمُنَاظِرُ لِهٰؤلَاءِ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ في

ادّعَائِهِمْ «وَلَدَ اللهُ» فاللهُ الأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَبُرْهَانُ الْعَقْلِ يَقْضِي حَتْماً، بأنّ الْأَزَلِيّ الأَبدِيّ لَا يَتغَيَّرُ، فَلا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ شَيْءٍ، وَلَا يُشْتَقُّ مِنْهُ شَيْءٌ، وَكُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ فإنَّما يَصْدُرُ عَنْهُ خَلْقٌ بأمْرِ التَّكْوِينِ، «كُنْ» فالْمُرَادُ لِلَّهِ يَكُونُ، دُونَ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْ ذَاتِهِ الأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ شَيْء.

الْإفْكُ: الكلام الكذب، ولَوْ لَمْ يَقْصِدْ قَائِلَهُ أَنْ يَكُونَ كاذباً، يقالُ لغة: «أَفَكَ، يَأْفِكُ، أَفْكاً، وَإِفْكاً، وأُفُوكاً» ويُقال: «أفِكَ، يَأْفَكُ إِفْكاً» أي: قالَ قَوْلاً كَذِباً.

وأَصْلُ «الْإفْكِ» صَرْفُ الشيء عَنْ وَجْهِهِ الَّذي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ.

وعلى احْتِمَالِ ادِّعَائِهِم أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْمَلائِكَةَ، وجَعَلَهُنَّ بَنَاته بالتَّبَنِّي، يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾؟!!

أي: إنَّ مَنْطِقَ الْعَقْلِ يَقْضِي بِأَنْ لَا يَصْطَفِيَ الرَّبُّ الأزلِيُّ الأبَدِيُّ الْعَلِيمُ الحكيمُ، لَوْ شَاءَ أَنْ يَتبنّىٰ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ، الْبَنَاتِ ويُفَضّلَهُنَّ بالتّبَنّي عَلىٰ الْبَنِينَ.

هٰذه مُحَاجَّةٌ جَدَلِيَّةٌ لِإِسْقَاطِ ادِّعَائِهِمْ، مَعَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا تَقْتَضِي حِكْمَتَهُ بِأَنْ يَتَبَنَّىٰ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ غَنِيٌّ بذاتِهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْلَادٌ، إِنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ فِي الْأَكْوَانِ مِنْ آثَارِ خَلْقِهِ بِأَمْرِ التَّكْوين.

وَجاء في تَعْلِيمِ المحاجَّةِ الْجَدَلَّيةِ لِلْمُنَاظِرِ المؤمِنِ الداعي إلى الله، قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾؟!!:

مَا لَكُمْ: أَيْ: أَيُّ شيءٍ هُوَ حُجَّةٌ لَكُم تَحْتَجُّونَ بِهِ مِنْ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، يُسَوِّغُ لَكُم أَنْ تَزْعُمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ أَنْجبَ وَلَداً مِنْ نَسْلِهِ، أَوْ تبَنَّىٰ وَلَداً؟!!.

كَيْفَ تَحْكُمونَ؟!: أي: كَيْفَ تَصاغَرتْ عُقُولُكُمْ وَتَضاءَلَتْ، حَتَّىٰ

صَدَرَ عَنْكُمْ هـٰذا الْحُكْمُ الْبَاطِلُ، وَقَدْ مَنَحكُمْ رَبُّكُمْ في أصْلِ فِطَرِكُمْ عُقُولاً ذَاتَ مَوَازِينَ تُفَرِّقُونَ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ والْبَاطل؟!!.

إنَّ هـٰذا لأمرٌ مُسْتَنْكَرٌ مِنْكُمْ جدّاً، ويَسْتَحِقُّ أَنْ يَتَعَجَّبَ مِنْهُ الْعُقَلاءُ، ويَلُومُونَكُمْ عَلَيْهِ، وَيُسَفِّهُونَ بِهِ أَحْلَامَكُمْ.

الاستفهامَانِ في ﴿مَا لَكُمْ﴾؟! وَفي ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟! للتعجيب من أمْرِهِمْ، والإنْكارِ الشديدِ عليهم، مع التَّلْوِيمِ والتَّثْرِيب.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟: أي: أفَتَسْتَمِرُّونَ عَلَىٰ الْتِزام مَا أنْتُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِهِ مِنْ بَاطِلٍ، فَلَا تَضعُونَ مَوَازِينَ الْحَقِّ في سَاحَةِ تَذَكُّرِكُمُ الحاضِر، لِتَهْدِيَكُمْ إلى الإيمان بالحقّ الْمُتعَلِّقِ باللهِ رَبّكم، ونَبْذِ الْخرَافاتِ الباطِلاتِ الَّتي وَرِثْتُمُوهَا بالتقليد الأعْمَىٰ عَنْ أسْلَافِكُمْ.

وفي هـٰذا الاسْتِفْهَام حَثٌّ شديدٌ لَهُمْ علَىٰ تَرْكِ الْبَاطِلِ الَّذِي هُمْ فِيه، والاسْتِمْسَاكِ بالْحَقِّ الَّذِي يدْعُوهُمُ الدَّاعِي المؤمِنُ المنَاظِرُ لهم، فيَنْزِعُوا مِنْ تَصَوُّرَاتِهِمْ أوْهَامَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ الله.

السؤال الثالث: إذَا قَامَتْ عَلَيْكُمُ البراهينُ الَّتي وُجِّهَتْ لَكُمْ، اشْتِقَاقاً من السؤال الأوّل والثاني، فإنَّهُ يُوجَدُ احْتِمَالٌ ثَالِثٌ قَدْ تَدَّعُونَ فِيهِ مَا يُسَوِّغُ مَا زَعَمْتُمُوهُ، لِنُعْطِيكُمْ آخِرَ جَوْلَةٍ مِنْ جوْلَاتِ المناظَرَة، وَهُوَ احْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْكُمْ بيَانٌ عَنْ رَبِّكُمْ جاءَ علَىٰ لِسَانِ رَسُولٍ صَادِقٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ، وفِيهِ أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ نَسَباً أَوْ بِالتَّبَنِّي.

وقَدْ جاءَ التَّعْلِيمُ بِطَرْحِ سُؤَالٍ حَوْلَ هـٰذا الاحْتِمَالِ في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

- ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾:

الْمُرادُ بِالسُّلْطَانِ الْمُبين هُنَا الْحُجَّةُ الْبَيَانِيَّةُ الرَّبَّانِية، الَّتي أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهَا آياتٍ فِي كِتَابٍ مُنَزَّلٍ عَلَىٰ رَسُولٍ مِنْ رُسُله.

أي: بَلْ. أَلَكُمْ حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ، جَاءَتْ في آيَاتِ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّكُمْ، وفِيها إِثْبَاتُ أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ بِالنَّسَبِ أَوْ بالتَّبَنِّي؟؟

فإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ حُجَّةٍ نَصِّيَّةٍ مُنَزَّلَةٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ وَأَرُونا بَيَانَ رَبِّكُمْ فِي هٰذا، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي هٰذا الادِّعاء.

لَكِنَّهُمْ فِي الحقيقةِ لَيْسَ لَدَيْهِمْ بَيَانٌ ما مِنْ رَبِّهِمْ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ في إِثْبَاتِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ.

وبإِفْحَامِهِمْ فِي حُدُودِ هٰذه الأَسْئِلَةِ الْمُحَاصِرَةِ لَهُمْ مِنْ كُلِّ الجهات، لَا تَبْقَىٰ لهم ذَرِيعةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَلَّلُوا بها، ويُغْلَبُونَ في المناظَرَة، فإِنْ أَصَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيه مِنْ باطلٍ، فإِنَّهُمْ مُكَابِرُونَ مُعَانِدُون جَاحِدُون لِلْحَقِّ، ساقِطُون سُفَهاءُ لَدَىٰ جَمِيعِ الْعُقَلاء.

ويتَّصِلُ بادّعائِهِمْ أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ افْتِرَاؤُهُم أَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ عَمَّا يَصِفُونَ ـ قَدْ تَزَوَّجَ نِسَاءً مِنْ سَرَوَاتِ الْجِنِّ، فأَنْجَبَ مِنْهُنَّ الْمَلَائِكَة، فالْمَلائِكَةُ ذَوُو نَسَبٍ مُتَّصِلٍ باللَّهِ نَاتِجٍ عَنْ مُصَاهَرَةِ اللهِ لِأَشْرَافٍ مِنَ الْجِنّ.

أي: زَعَمَ بَعْضُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ أَنَّ اللهَ صاهَرَ أَشْرَافَ الجِنِّ، فَنَتَجَ عَنْ هٰذِهِ الْمُصَاهَرَةِ أَوْلَادٌ هُمُ الْمَلَائِكَةُ، فَالْمَلَائِكَةُ ذَوُو نَسَبٍ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الْجِنّ، إِذْ هُمْ أَوْلَادُ اللهِ مِنْ جِهَةِ أَبِيهِمْ، وأولادُ نِسَاءِ الْجِنِّ مِنْ جِهَةِ أُمَّهَاتِهِمْ.

أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذِهِ الْفِرْيَةَ مِنْ إِفْكِ الْمُشركين بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

هٰذه الفِرْيَةُ مُضَافَةٌ إلى فِرْيَتِهِمْ في أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بناتُ الله، وإلى كَذِبِهِمْ في قَوْلِهِمْ: ولد الله إِذْ هُمْ يَقُولُون فيها: إِنَّ اللهَ تَزَوَّجَ مِنْ نِسَاء

سَرَوَاتِ الْجِنِّ، فَأَنْجَبْنَ لَهُ، فَكَانَ أَوْلَادُهُ مِنْهُنَّ لَهُنَّ صِلَاتٌ بِهِ نَسَباً، وَلَهُنَّ صِلَاتٌ بالْجِنَّةِ نَسَباً، والتَّعْبِيرُ عَنْ هٰـذا جاء بعِبَارَةِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾ وَلَا يَقْتَضِي هٰـذا أَنْ يَكُونَ الْجِنُّ أَوْ بَعْضُهُمْ مِنْ ذَرَارِي الله، بل الأولاد مِنَ الله ومن نِسَاءِ الجِنِّ هُمْ صِلَةٌ ذاتُ ارتباطٍ نَسَبِيّ بَيْنَهُمَا.

الجِنَّة: لفظٌ يُطْلَقُ علىٰ الْجِنّ.

والرَّدُّ على هٰـذِهِ الفِرْيَةِ مُنَاظِرٌ للرَّدِّ الْعَقْلِيّ، ولِلرُّدود الّتِي سَبَقَتْ مُحَاصَرَتُهُمْ بالْأَسْئِلَة الثَّلَاثَةِ حَوْلَ افْتِرَاءَاتِهِمْ السابِقَةِ في هٰـذا الدَّرْس.

ويُضَافُ إِلَيْهَا الإعْلَامُ بأنَّ الْجِنَّ يُكَذِّبُونَهُمْ في افْتِرَائِهِمْ هٰـذا، إِذْ أَشْرَافُ الْجِنِّ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ عِبَادٌ لِلَّهِ، وأَنَّهُمْ مَوْضُوعُونَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ قَبْلَ الإنْسِ، وأَنَّهُمْ سَيُبْعَثُونَ يَوْمَ القيامَةِ، وسَيُحْضَرُونَ مَسُوقِينَ إِلَىٰ مَحْكَمَةِ رَبِّهِم لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ لِتَنْفِيذِ الجزاء، على مَا قَدَّمُوا فِي حياةِ الابْتِلَاء، فَمَنْ عَمِلَ صَالحاً فَلِنَفْسِهِ، ومَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْها.

دَلَّ عَلَىٰ هٰـذا قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في الآيَةِ:

﴿.. وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ عَلِمَ الْجِنُّ أَنَّهُمْ عَبِيدٌ لِلَّهِ مُمْتَحَنُونَ في ظُرُوف الْحَيَاةِ الدُّنيا، وأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ يَوْمَ القِيامَةِ إلى المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّة، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ ذَرَارِيهِمْ أَوْلَاداً لِلَّهِ، إِذْ لَوْ كَانَ بَعْضُ ذَرَارِيهِمْ مِنْ نَسْلِ اللهِ، لكانَ فِيهِمْ جُزْءٌ مِنْ رُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَمَنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ مَا لَا يَخْضَعُ لحِسَابٍ، وَفَصْلِ قَضَاءٍ، وتَنْفِيذِ جزاء.

هٰـذا الاحْتِجَاجُ هو مِنْ قَبِيلِ نَفْيِ اللَّازِمِ لِنَفْيِ الملْزُوم، أَوْ مِنْ إِثْبَاتِ نَقِيضِ اللَّازِمِ لِنَفْيِ الْمَلْزُومِ، لِأَنَّ إِثْبَاتَ نَقِيضِ اللَّازِم هُوَ في مَضْمُونِهِ نَفْيٌ لِلَّازِم.

والْمُرَادُ بالإحْضَارِ هُنَا: الْإحْضَارُ لِلْحِسَاب، وفَصْل القضاء، وبَعْدَهُ يَجْرِي تَنْفِيذُ الجزاءِ على وفْقِ فَصْلِ القضاء.

وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذا التَّعْلِيمَ الْجِدَالِيّ للمؤْمِنِ الداعي إلى اللهِ بِقَوْلِهِ:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٠﴾:

أي: تَنَزَّهَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عَنْ كُلِّ مَا يَصِفُهُ بِهِ الْوَاصِفُونَ بآرَائِهِمْ، وأَوْهَامِهِمْ، وتَخَيُّلَاتِهِمْ، مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ إِذْ لَمْ يأتِ بِهِ نَبِيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ولَمْ يَنْزِلْ بِهِ بَيَانٌ من عند اللهِ في كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ، باسْتِثْنَاءِ عِبَادِ اللهِ المخْلَصِينَ الَّذِينَ حَكَمَ اللهُ بأَنَّهُمْ بَرِيئُونَ مِنْ وَصْفِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بمَا لَا يَلِيقُ به، وهُمُ الْمُرْسَلُونَ، والنَّبِيُّونَ، والمؤمِنُونَ الْمُلْتَزِمُونَ فِي عَقِيدَتِهِمْ بما جَاءَ به رُسُلُ رَبِّهِم، فَهَـٰؤُلَاءِ لَا يَصِفُونَ اللهَ إلَّا بِالصِّفَاتِ الْحقِّ، الَّتِي جاءَ بِهَا بَيَانٌ عَنْهُ، والَّتِي لَهُمْ فيها بُرْهَان من الله.

وَأخيراً خاطَبَ اللهُ المشْرِكين خطاباً مُباشراً بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجلَّ لَهُم:

- ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ١٦٣﴾:

أي: فإنَّكُمْ أَيُّهَا المشْرِكُونَ مَعَ مَا تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ رَبِّكُمْ، مَهْمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ وَسَائِلِ إغْرَاءٍ وَإغْوَاء، لِفِتْنَةِ أَحدٍ وَجَعْلِهِ يَعْتَقِدُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ شرَكِيَّاتِكُمْ، ومعْتَقَداتِكُمُ الْبَاطِلَاتِ، فإِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَيْه، لِأَنَّ الْمَوْضُوعِينَ موضِعَ الابْتِلاءِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا أَصْحَابُ إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ لا يُمْكِنُ إكْراهُهَا.

فَمَا أَنْتُمْ بِفَاتِنِينَ فِتْنَة إكْرَاهٍ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحداً، لَكِنْ مَنِ اسْتَجَابَ لَكُمْ بإرادَتِهِ الْحُرَّة، اتّباعاً لِأَهْوَائِهِ وشَهَوَاتِهِ وإيثاراً لمتاعَاتِهِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، فإنَّهُ باخْتِيارِه الْحُرِّ صَائِرٌ إِلَىٰ عَذَابِ الْحَرِيقِ فِي الْجَحِيم.

● ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾: أي: ما أَنْتُمْ حالَة كونِكُم ثابتِينَ عَلَىٰ شِرْكِكُمْ بِفَاتِنينَ أحداً، فِتْنَةَ تَسَلُّطِ وإِكْراه، لِيَعْتَقِدَ مُعْتَقَداتِكُمْ، وَيَسْلُكَ طَرَائِقَكُمْ.

المراد بالفِتْنَةِ هُنَا الإضْلالُ بالإغْوَاءِ والإغْرَاءِ والوساوس والتَّسْوِيلات.

● ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾: أي: لَكِنْ مَنْ هُوَ سَالِكٌ باختيارِه الْحُرّ، مَسَالِكَ تُوصِلُهُ إلىٰ أَنْ يَكُونَ مُعَذَّباً يَوْمَ الدِّينِ بالْحَرِيقِ في الْجَحِيم، فإنَّهُ يَجِدُ فِيمَا تَدْعُونَهُ إِلَيْهِ مَا يَهْوَىٰ، فَيَسْتَجِيبُ لإغْوَائِكُمْ وَتَضْلِيلاتِكُمْ، ومَصِيرُهُ، باخْتِيَارِهِ الْحُرِّ أَنَّهُ صَالِي الْجَحِيم.

صَالي: اسْم فاعِل من «صَلِيَ النَّارَ، وصَلِيَ بها» أي: احْتَرَقَ فيها، أو عُذِّبَ فيها عذابَ الْحَرِيق.

وبهذا تمّ تدبر الدَّرْسَ الرابع من دُروس سورة (الصَّافات). والحمد لله على مَعُونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (الصّافّات) وهو الآيات من (١٦٤ ـ ١٦٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

تمهيد:

فِي آيَاتِ هٰذا الدَّرْسِ تَوجيهٌ لِلْمُؤْمِنين أَنْ يَقُولُوا للمشْرِكِينَ، مُعْلِنِينَ مَوْقِفَهُمُ المضادَّ لِمَوَاقِفِ كُلِّ الكافِرِين، وأنْ يقولُوا: إِنَّهُمْ هُمُ الصَّافُونَ فِي

صَلَواتِهِمْ وَفِي دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ دِينِ رَبِّهِمْ، وَفِي جِهَادِهِمْ وَقِتَالِهِمْ إِذَا دَعَا الواجِبُ لِذَلك، وَإِنَّهُمْ هُمُ المسَبِّحُونَ الَّذِينَ يُنَزِّهُونَ رَبَّهُمْ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بذاتِهِ وَصِفَاتِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه.

مُقَدِّمَة عَامَّة:

جَاءَ في أوَّل سُورة (الصَّافَّات) تَمْجِيدُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِجَماعَاتِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّة الْوَاحِدَةِ، مُنْذُ بَدْءِ التَّارِيخ الْبَشَرِي حَتَّىٰ آخِرِ جَماعَةٍ مِنْ أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ، بأسْلُوبِ الْقَسَمِ بها فِي قَوْلِهِ تَعالَىٰ:

﴿وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ① فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ② فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ③﴾.

وَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ قُبَيْلَ أَوَاخِرِ السُّورَةِ، أَنْ يُعَلِّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُعْلِنُوا للنَّاسِ أَجْمَعِينَ مِنْ دُونِهِمْ، أَنَّهُمْ مُنْفَصِلُون مُتَمَيِّزُونَ عَنِ النَّاسِ فِي مَقَامِهِم الإيمانِيِّ الإسْلَامِيِّ، الَّذِي يُلازِمُونَهُ وَلَا يُفارِقُونَهُ، فَلَا يَتَعَدَّوْنَهُ إِلَىٰ أيِّ مَقَام آخَرَ يَقُومُ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ والْأَدْيانِ والمذاهِبِ المخالِفَةِ لِدِينِ اللهِ الحقِّ، الَّذِي أَدَّىٰ رِسالَاتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله ﷺ.

وَأَنْ يُعْلِنُوا أَنَّهُمْ هُمْ مِنْ دُونِ النَّاسِ الصَّافُّون في صَلَوَاتِهِمْ، وفِي أَنْواعِ جِهادِهِمْ، وَفِي سَائِرِ شُؤُونِ حَياتِهِمْ، بِصُفُوفٍ مُتَراصَّةٍ مُنْتَظِمَة، غَيْر مُتَفَرِّقَةٍ وَلَا مُتَشَاقَّة، ولَا مُتَنافِرَة.

وَأَنْ يُعْلِنُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْمُسَبِّحُونَ لِرَبِّهِمْ، الْمُنَزِّهُونَ لَهُ مِنْ كلِّ مَا لَا يَلِيقِ بِذَاتِهِ وَلَا بِصِفَاتِه.

فَتَمَيُّزُهُمْ بِمَقَامٍ خَاصٍّ بِهِمْ مُنْفَصِلٍ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ يُبْرِزُ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ، وَهُمْ سَائِرُونَ عَلَىٰ طَرِيقِ الأمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْوَاحِدَةِ، الْمُتَتَابِعَةِ المواكِبِ بِقِيَادَاتِ رُسُلِ اللهِ وأنبيائِهِ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ،

حَتّىٰ بِعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سُورَةِ (الْمُؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) خِطَاباً لِلرُّسُلِ جَميعاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾.

وأمَّا الْتِزامُ المؤْمِنِينَ الْمُسْلِمينَ فِي جَمَاعَتِهِمْ الانْضِبَاطَ بِالصَّفِّ الْوَاحِدِ، في صَلَوَاتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِم الأخرى، وَجِهَادِهِمْ وَقِتَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَسَائِرِ شُؤُونِ حَيَاتِهِمْ، فَهُوَ يَمْنَحُهُمْ قُوَّةً لَا تُغْلَبُ، وَعِزَّةً وَمَنَعَةً بَيْنَ النَّاسِ، مَحْمِيَّةً بِحِمَايَةِ اللهِ وَمَحْفُوظَةً بِحِفْظِهِ.

وقَدْ عَلَّمَنَا اللهُ فِي الإسْلامِ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَة مَعَ الْجَمَاعَةِ فِي صُفُوفٍ مُنْتَظِمَةٍ مُنْضَبِطَةٍ، تُتَابعُ إِمَاماً فِي قِيَامِهِ وَرُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ وَجُلُوسِهِ.

وَأَبانَ لَنَا في سُورَةِ (الصَّفّ/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول) أنّ اللهَ يُحِبُّ الَّذينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

وَأَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الَّذِينَ آمَنُوا بأَنْ يَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ والتَّقْوَىٰ، ومَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هٰذا التعاوُن هُو مِنْ ثَمَرَاتِ اجْتِمَاع المؤمنين المسْلِمِينَ صَفّاً وَاحِداً، ولا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّفِّيَّ لَا يَلْزَمُ فِيه أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ سَطْرٍ أُفُقِيٍّ أَوْ سَطْرٍ طُولِي، بَلِ الْعَمَلُ الصَّفِّيُّ هُو الّذي يَخْضَعُ لِنِظَامٍ وَاحِدٍ تُحَرِّكُهُ قِيَادَةٌ وَاعِيَةٌ ذَاتُ إِمَامَةٍ، وَهٰذا يَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ الْعَمَلِ الَّذي يَقْتَضِي الْعَمَلَ التَّعَاوُنِيَّ التَّكامُلِيّ.

فَالْعَمَلُ الصَّفِّيُّ في الْحَرْبِ يَرْسُمُ للطائراتِ نِظَامَ عَمَلٍ مُتَعَاوِنٍ مَعَ الآلِيَّاتِ الْحَرْبِيَّةِ الَّتِي تَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَمَعَ الْجُنُودِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ، وَمَعَ الأَسْلِحَةِ الْخَفِيفَةِ والثَّقِيلَة، كالمدافِع، والصواريخ، والبنادِقِ والقنابل الْيَدَوِيَّة وَغَيْرِها.

وهَـٰذا الْعَمَلُ المتَعَاونُ يَرْسُمُ لِكُلِّ مَجْمُوعَةٍ أَوْ فَرْدٍ مَوْقِعاً مُحَدَّداً في سَاحَةِ مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ أَوْ سَاحَاتها، ضِمْنَ نِظَام تَكَامُلِيٍّ، سَواءٌ أكان هـٰذا الموقِعُ مُتَقَدِّماً أَمْ مُتَوَسِّطاً أَمْ مُتَأَخِّراً، وَفِي أَيِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ أَوْ سَاحَاتِها.

فَعُنْوانُ الصَّفِّ يَشْمَلُ كُلَّ نِظَامٍ عَامٍّ تَكَامُلِيٍّ تَقْتَضِيهِ المَصْلَحَةُ، ذَاتُ النَّتَائِجِ الَّتِي يُرْجَىٰ نجاحُهَا وَإِعْطَاؤُهَا أَفْضَلَ الثَّمَرَاتِ.

وَأَمَّا كَوْنُ المؤمِنين المسْلِمِينَ هُمُ المُسَبِّحُونَ، فَهُو بَيَانٌ لِلْوَاجِبِ الإيمانيِّ الاعْتِقَادِي، الّذِي يُمَيِّزُ المؤمِنينَ عَنْ جَمِيعِ الْكَافِرين، إِذِ الْكَافِرُونَ لَا يُسَبِّحُونَ اللهَ وَلَا يُنَزِّهُونَهُ، بَلْ يَكْفُرُونَ بِهِ مِنْ أَخَفِّ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَهُوَ الشِّرْكُ، إِلَىٰ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الكُفْرِ وهُوَ جُحُودُ وُجُودِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، واعْتِقَادُ أَنَّهُ لَا رَبَّ، وأَنَّ الْكَوْنَ مَادَّة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُرْشِدُ المؤمنينَ المُسْلِمِينَ أَنْ يُعْلِنُوا للنَّاس أَجْمَعِينَ ما يلي:

- ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾:

مَقَامٌ: أي: مَكَانُ قِيام مَعْنَوِيٍّ يَخْتَارُه القائِمُ فيه، فالموضُوعُ يَتَعَلَّقُ بالمُعْتَقَدَاتِ ولوَازِمِها من السُّلُوكِيَّات، ومَا تَقْتَضِيهِ مِنَ المفهوماتِ حَوْلَ مُخْتَلِفِ شُؤُونِ الْحَياة.

والمعنى: وَمَا مِنَّا نَحْنُ الْبَشَرَ فَرِيقٌ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ اعْتِقَادِيٌّ وسُلُوكِيٌّ اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ ثَابتاً عَلَيْهِ، ومُلَازِماً له.

فَمَقَامُنَا الّذِي اخْتَرْنَا لُزُومَهُ والثَّبَاتَ عَلَيْهِ، هُوَ مَقَامُ الإيمَانِ الصَّحِيحِ بِرَبِّنا، المقْتَرِنِ بالبراهين القواطِعِ، والإسْلامِ لَهُ بإعْلَانِ الطَّاعَةِ والانقياد

لِأَوامِرِهِ ونَواهِيهِ، الَّتِي بلَّغَهَا رَسُولُهُ المؤيَّدُ بالمعجزاتِ الباهرات الدَّالاتِ بيقين على صِدْقِهِ فيما يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّه.

فَنَحْنُ ثَابِتُونَ على هـٰذا المقام، وَمُلازِمُونَ لَهُ، وَمقامُنَا هـٰذا مَعْلُومٌ واضِحٌ لَا غُمُوضَ فيه، ولَيْس عَلَيْهِ غِشَاوات، فَلَا تُجْهِدُوا أَيُّهَا المخالِفُونَ لَنَا أَنْفُسَكُمْ فِي فِتْنَتِنَا، لِزَحْزَحَتِنَا عَنْ إيمانِنَا وإسْلامِنَا بإغْرَاءَاتِكُمْ، وإغْوَاءَاتِكُمْ، وزُخْرُفِ أَقْوَالِكُمْ، وَوَسَاوِسِكُمْ، وَإِطْمَاعَاتِكُمْ لَنَا بِالْبَاطِلِ، وَتَزْيِينَاتِكُمْ مَسَالِكَ الْأَهْوَاءِ والشهوات.

وكُلُّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ لَهُ مَقَامٌ مِنْ مَقَامَاتِ الكُفْرِ بما آمَنَّا نَحْنُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، تُجَاهَ رَبِّنَا، وَنَشْأَتِنَا، وَمَصِيرِنَا، والْغَايَةِ مِنْ خَلْقِنا، وَوَظِيفَتِنَا في هـٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

فالمشْرِكُونَ مِنْكُمْ لَهُمْ مَقَامٌ شِرْكِيٌّ قَدِ اخْتَارُوا أَنْ يُلازِمُوه، إذْ وَجَدُوهُ مُرْضِياً لِأَهْوَائِهِمْ، وَشَهَواتِهِمْ، وَنَزَعَاتِهِمْ، ونَزَغَاتِ شياطِينِهِمْ.

وَجَاحِدُوا وُجُودِ الرَّبّ الْخَالِقِ لَهُمْ مَقَامٌ جُحُودِيٌّ قَدِ اخْتَارُوا أَنْ يُلازِمُوه، إذْ وَجَدُوه مُرْضِياً لِكِبْرِهِمْ، وانْطِلَاقِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا فَاجِرِينَ مُجْرِمِين، لَا يَرْدَعُهُمْ عَنْ شُرُورِهِمْ رَادِعٌ، ولَا يُخِيفُهُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُخِيفٌ يَضَعُونَ احْتِمَالَ وُجُودِه في تَصَوُّراتِهِم.

وهَكَذا كُلُّ فَرِيقٍ لَهُ اعْتِقَادٌ مَا، هُوَ مُعْجَبٌ بِهِ وَمُلازِمٌ له، لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ لَهُ، فإذا كانَ عَلَىٰ غَيْرِ إيمانِنا وإسْلَامِنَا، دَعَوْنَاهُ إلى نَبْذِهِ والانتِقَالِ إلى مَقَامِنَا، فإنْ أبَىٰ تَرَكْنَاهُ وَمَقَامَهُ، وَسَوْفَ يُلاقي مَصِيرَهُ الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ عِنْدَ رَبِّه، عَذَاباً بالْحَرِيقِ بالنَّار في الجحيم يَوْمَ الدِّين، ولْيَعْلَمْ أَنَّهُ صَائِرٌ إِلَيْهِ باخْتِيَارِه الْحُرّ، لَمْ يُجْبِرْهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَقَدْ مَنَحَهُ رَبُّهُ إرادَةً حُرَّةً غَيْرَ مَجْبُورَة، وَأَداة تَفْكِيرٍ وفَهْمٍ يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرِّ، وعَقْلاً قادِراً على إِدْرَاكِ المعارِف، وعَقْلاً إرَادِياً يَقْدِرُ بِهِ أَنْ يَضْبِطَ

أَهْوَاءَ نَفْسِهِ وَشَهَواتِها، وَلَوْ فِي حُدُودِ الإيمانِ باللهِ رَبِّهِ، وإِعْلانِ الإِسْلَامِ بأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُو، لِيَنْجُو مِنَ الْخُلُودِ في عَذَابِ النَّار.

وعبارَةُ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ تُشْبِهُ التَّعْلِيمَ الرَّبَّانِيَّ الذي أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِهِ، فِي قولِهِ لَهُ في سُورَةِ (الأنْعَام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

الْمَكَانَة: مُؤَنَّثُ المكان، وهِيَ المقَامُ الاعْتِقَادِيُّ والسُّلُوكي، الَّذِي يَخْتَارُهُ لِنَفْسِهِ الْمَوْضُوعُ في الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

أي: اعْمَلُوا علَىٰ المقَامِ الاعْتِقَادِيّ والسُّلُوكِيِّ الَّذِي اخْتَرْتُمُوهُ لِنُفُوسِكُمْ، وأَصْرَرْتُم علَىٰ مُلازَمَتِهِ وَعَدَمِ مُفَارَقَتِهِ إلى مَقَامِ الْحَقِّ والرُّشْد، إِنِّي عَامِلٌ وَأنَا علَىٰ مَقَامِي الاعْتِقَادِيّ والسُّلُوكي مِنَ الإيمانِ الكامِلِ الصَّحِيحِ بِرَبِّي، والإسْلَامِ لَهُ، وَلَنْ تُزَحْزِحُوني عَنْ مَقَامِي مَهْمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ وَسَائِل.

فالْأَمْر الَّذِي أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ رَسُولَهُ، أَرْشَدَ اللهُ عَامَّةَ الْمُؤْمِنينَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقُولُوا نَظِيرَهُ لِغَيْرِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمين، من أَصْحَابِ الْمِلَلِ والنِّحَلِ والمذاهِب، المضَادَّةِ لِمَا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ رُسُلَهُ دَاعِينَ وَهَادِينَ، ومُبَشِّرِينَ ومُنْذِرين.

ولَسْتُ أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذا خَاصٌّ بِمَوْضُوعِ التَّعْلِيم الجدَلِيِّ الَّذِي جاء في الدرس الرابع السابق، بَلْ هُو عَامٌّ في كُلِّ قضايا الدِّينِ ومَسَائِلِه.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُتَابِعاً إِرْشَادَ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُعْلِنُوهُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، علَىٰ اخْتِلَافِ فِرَقِهِمْ وَمَذاهِبِهِمْ:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾:

أي: وَإِنَّا لَنَحْنُ وَحْدَنَا مِنْ دُونِ النَّاسِ جَمِيعاً، المطالَبُونَ بِأَنْ نَكُونَ فِي حَيَاتِنَا، وَعِبَادَاتِنَا لِرَبِّنَا مُنْضَبِطِين بالنِّظَام الصَّفِّيّ، فِي وَحْدَةٍ إيمَانِيَّةٍ إسْلَامِيَّةٍ جَمَاعِيَّة عَلَىٰ الْحَقِّ الَّذِي جاء به دِينُنَا عَنْ رَبِّنَا.

والنِّظَامُ الصَّفِّيُّ يَقْتَضِي قِيَادَةً وَإِمَامَةً تُتَّبَعُ، كالإمَامِ فِي الصَّلَاةِ.

اسْتُفِيدَ الْحَصْرُ والْقَصْرُ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنَادِ، مَعَ التوكيد بـ«إنَّ - والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة - واللَّامُ الْمُزَحْلَقَة» في كُلٍّ مِنَ الآيَتَيْنِ (١٦٥) و(١٦٦).

أمَّا أصْحَابُ الْمِلَلِ والنِّحَلِ والْمَذَاهِبِ الأُخْرَىٰ، فَتَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ، تُفَرِّقُ بَيْنَهَا المنافِعُ والْمَصَالِحُ مِنَ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، ويُلْقِي فِيهَا العداوةَ والبَغْضَاءَ، التَّحَاسُدُ عَلَىٰ مَا يَنَالُ الأفرادُ، أو تَنَالُ الْعِصَابَاتُ مِنْهُمْ، مِنْ مَغَانِمَ وَمَكَاسِبَ مَادِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّة، عَنْ طَرِيقِ الْمِلَّةِ أَوْ النِّحْلَةِ أَو المذهَب.

بِخِلَافِ المؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ فإنَّ مَطَامِعَهُمُ العظْمَىٰ تَتَعَلَّقُ بمَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ فِي جَنَّاتِ النّعيم يوْمَ الدِّينَ، فيُكْسِبُهُمْ ذَلِكَ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، فتَتَضَاءَلُ عِنْدَهُمْ مَشَاعِرُ الْحَسَدِ، وَتَقْوىٰ لَدَيْهِمْ مَشَاعِرُ الأُمَّةِ الْوَاحِدَة، بِنِظَامِ الانْضِبَاطِ الصَّفِّي، علَىٰ مَا سَبَقَ بيَانُهُ فِي المقدِّمَةِ العامَّة.

وَلَمَّا كَانَ تَسْبِيحُ اللهِ بِمَعْنَىٰ تَنْزِيهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بذاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وعَظِيم سُلْطَانِهِ، لَا يُوجَدُ إلَّا فِي عَقِيدَةِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِين، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُلْتَزِمُونَ وَحْدَهُمْ مِنْ دُونِ النَّاسِ، بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، علَىٰ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ وَبَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، كَانَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يُعْلِنُوا للنَّاسِ جَمِيعاً، أَنَّهُمْ وَحْدَهُمْ هُمُ المُسبِّحُونَ لِرَبِّهِمْ، كَمَا عَلَّمَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ:

- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

أَصْلُ مَعْنَىٰ تَسْبِيحِ اللهِ تَنْزِيهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِذَاتِهِ وصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، ويُحْمَلُ غَالِباً عَلَىٰ نَفْيِ الصِّفَاتِ الّتِي يَصِفُهُ بِهَا الْوَثَنِيُّون والْمُشْرِكون،

كَالإِشْرَاكِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، والْإِشْرَاكِ فِي إِلَٰهِيَّتِه، وجَعْلِهِ أباً لِأَوْلَادٍ مِنْ نَسْلِهِ، أَوْ بِالتَّبنِّي، أَوْ أَنَّ لَهُ صَاحِبَةً، أَوْ أَنَّ لَهُ صِفَاتٍ كَصِفَاتِ خَلْقِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء، إِلَىٰ نَحْوِ هٰذِهِ الضَّلَالَات.

لَكِنَّ الْمُرَادَ مِنَ التَّسْبِيحِ هُنَا عَلَىٰ مَا أَرَىٰ، يَشْمَلُ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، مَعَ تَنْزِيهِهِ عَنِ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِهِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُنَزَّهٌ أَيْضاً عَنْ عَدَمِ اتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ الَّتِي هِيَ لَهُ، كَالْعِلْمِ، والْقُدْرَةِ، وَالسَّمْعِ، والْبَصَرِ، والْحِكْمَةِ، والرَّحْمَةِ، إِلَىٰ سَائِرِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَىٰ، وَصِفَاتُهُ الْعُلْيَا.

وَهٰذَا التَّسْبِيحُ الْحَقِيقِيُّ الشَّامِلُ لَا يُوجَدُ إِلَّا عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ حَقّاً وَصِدْقاً.

وَمِنَ التَّسْبِيحِ الَّذِي تَشْمَلُهُ هٰذه العبارة أَيْضاً، التَّسْبِيحُ الْعَمَلِيُّ، وهٰذَا يَكُونُ باجْتِنَابِ الْأَعْمَالِ الشِّرْكِيَّة الَّتِي يَفْعَلُهَا الْمُشْرِكُونَ، ويَكُونُ أَيْضاً بإِخْلَاصِ الْعِبَادَاتِ والطَّاعَاتِ والْقُرُبَاتِ من الواجباتِ والمَنْدُوبَاتِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، خَالِصَةً مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الخفِيّ، وخالِيَةٌ من الرِّيَاءِ لِكَسْبِ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّة.

وبِهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرس الخامِسِ من دُروس سورة(الصَّافات). والحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتَوْفيقه وفَتْحِه.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدّرس السّادس من سورة (الصَّافّات) وهو الآيات من (١٦٧ ـ ١٧٠)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

القراءات:

(١٦٩) ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرُو، وابْنُ عامر، ويَعْقُوبُ: [**الْمُخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللام، اسْم فاعل من فعل «أخْلَصَ».

وقرأها باقي القراء العشرة بِفَتْحِ اللَّام: [**الْمُخْلَصِينَ**] اسْم مَفْعُول مِنْ فِعْل «أخلص».

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد، أي: أخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانَهُمْ وَإسْلَامَهُمْ، فجَعَلَهُمُ اللهُ عِنْدَهُ من المخْلَصِينَ.

تَمْهيد:

في آيات هٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَقَالَةٍ مِنْ مَقَالَاتِ الْمُشْرِكِينَ، الَّتي كَانُوا يَقُولُونَهَا قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَقَدْ كانوا يَقُولون: لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا كِتَاباً هُوَ ذِكْرٌ لَنا مِثْلَ كتابِ الْيَهُودِ التَّوْرَاة، أو مِثْلَ كِتَابِ النَّصارَىٰ الإنْجِيل، لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ المُخْلِصِين والمُخْلَصِينَ.

فلَمَّا جَاءَهُم الْقُرْآنُ ذِكْراً عَظِيماً أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ رَسُولٍ عَرَبِيٍّ هُوَ مِنْهُمْ كَفَرُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا رسُولَ رَبِّهِمْ بِهِ.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ مَصِيرَهُمُ الَّذِي هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ، حَرِيقاً في نَارِ جَهَنَّمَ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ بالْحَقِّ الّذِي جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِم.

مقدمة عامّة:

سبَقَ في سُورة (يس/ ٤١ نزول) لَدَىٰ تَدَبُّر الآية (٦) مِنْها. وفي سُورَة (القصص/ ٤٩ نزول) لدَىٰ تدبُّر الآيات من (٤٦ ـ ٥١) بَيانُ ما تَرَجَّح لَدَيَّ، مِنْ أَنَّ الْعَرَبَ قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا مَسْؤُولِينَ عَنِ اتِّبَاعِ الدِّين الْحَقِّ، الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسَىٰ فَرُسُلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وبَلَغَهُمْ هٰذا الدِّينِ عَنْ طَرِيقِ أَتْبَاعِه، مَعَ الآيَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي آتاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِم السَّلام، فَهُمْ لَيْسُوا مَعْفِيِّينَ باعْتِبَارِهِمْ أَهْلَ فَتْرَةٍ كما يَقُولُ بَعْضُ عُلَماءِ التَّوحيد، والأدِلَّةُ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ تَدُلُّ على مَا تَرَجَّحَ لَدَيّ.

وقَدْ سَبَقَ لَدى تَدَبُّر الآية (٦) من سورة (يٓس/ ٤١ نزول) عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْ هٰذِهِ الأدِلَّة، مَعَ تَدَبُّر دَلَالَاتها، وكذلِكَ لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآيات من (٤٦ ـ ٥١) من سورة (القصص/ ٤٩ نزول) فأحِيلُ الْقَارِئ على مَا سَبَقَ بَيَانُهُ وشَرْحُه.

وآيات هٰذا الدَّرس السادِس من سورة (الصَّافَّات/ ٥٦ نزول) ذَاتُ صِلَةٍ مَا بما سَبَقَ فِي سُورَتَيْ (يٓس/ ٤١ نزول) و(القصص/ ٤٩ نزول).

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ: [**المخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللَّام.

أي: وَقَدْ كَانَ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّةَ الْمُعَاصِرُونَ للرسُول يَقُولُونَ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: لَوْ أَنَّ عِنْدَنا كِتاباً رَبَّانِيّاً وَرِثْناهُ مِنَ الرُّسُلِ الْأَوَّلِينَ إِسْمَاعِيلَ وإبْرَاهِيم أو غَيْرِهما، وَبَقِي لَدَيْنا ذِكْراً نَرْجِعُ إلَيْهِ في عَقَائِدنا وَمَنَاهِجِ سُلُوكِنَا فِي حَيَاتِنا، لَاتَّبَعْنَا آيَاتِه، وتَعْلِيمَاتِهِ، ومَا فِيهِ مِنْ أوَامِرَ وَنَوَاهِي، وَلَكُنَّا بهٰذا الاتّبَاعِ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُخْلِصِينَ لَهُ في إيمانِنَا وَأَعْمَالِنَا، وَبِإخْلَاصِنَا لَهُ نَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْمُخْلَصِينَ، إذْ يَحْكُمُ لَنَا بِأَنْ نَكُونَ عِنْدَهُ خالِصِينَ مِنْ شَوائِبِ الْخُرُوجِ عَنِ الإيمانِ الحقّ، والطَّاعَةِ والانقيادِ لِأَوَامِرِه ونَوَاهِيهِ في الذِّكْرِ الَّذِي هو عِنْدَنا، والّذِي وَرِثْنَاهُ عن الرُّسُلِ الأَوَّلين.

لَقَدْ كانَ هـٰذا تَمَنِّياً دفَعَ إلَيْهِ غَيْرَتُهُمْ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ لديْهِمْ كِتَابُ التَّوْرَاةِ ذِكْراً لَهُمْ، وغَيْرَتُهم مِنَ النَّصارَىٰ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ كِتَابُ الإنْجِيلِ، مَعَ كُتُبِ الْعَهْدِ الْقَدِيم عِنْدَ بَنِي إسْرَائيل.

[إنْ] مِنْ ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ هِيَ المخفَّفَةِ مِنَ الثقيلَة، وتُفِيدُ التوكيد والتحقيق، وجَاءَت لَامُ الابْتِدَاء في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ فَارِقَةً لها عَنْ «إنْ» النَّافِية.

- ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٦٨﴾:

«لَوْ» شَرْطِيَّة، «وأنَّ» وما بَعْدَهَا سدَّ مَسَدَّ فِعْلِ الشَّرْط.

﴿ذِكْرًا﴾: أي: كتَاباً رَبَّانِيّاً مُنَزَّلاً يَكُونُ ذِكْراً لَنَا نَرْجِعُ إلَيْهِ.

﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: مَوْرُوثاً مِن الرُّسُلِ الْأَوَّلِين.

- ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٩﴾ و«المخلِصِينَ» في القراءة الْأُخرى، جَوَابُ الشَّرْط الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ «لَوْ».

لَكِنَّهُمْ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولٍ عَرَبِيٍّ مِنْهُمْ كِتَاباً هُوَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ جَمِيعاً الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ كَفَرُوا به، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا الَّذي كانَ مِنْهُمْ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

- ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ..﴾: أيْ: فَأَبَوْا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِم محمّداً ﷺ، وظَهَرَ أَنَّ مَقُولَتَهُمْ قَبْلَ بِعْثَتِهِ قَدْ كَانَتْ تَعِلَّةً كَاذِبَةً، واعْتِذَاراً ظَاهِرِيّاً عَنْ عَدَمِ إيمانِهِمْ بمُوسَىٰ وكتابِهِ، وعِيسَىٰ وَكِتَابِهِ الحقّ.

وَأَنْذَرَهم اللهُ عَزَّ وَجلَّ بقوله في آخِرِ هذا الدَّرس.

- ﴿.. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠﴾: أي: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَنَّ كُلَّ مَا أنذِرُوا بِهِ حَقٌّ، وَأَنَّهُمْ بإصْرَارِهِمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بالْحَقِّ الَّذي جَاءَهُم بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ، وبِعِنَادِهِمْ، ومُكَابَرَتِهِمْ، وجُحُودِهِمْ، قَدْ جَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمْ عَذَاباً أَبَدِيّاً، وهُوَ عَذَابُ حَرِيقٍ فِي الْجَحِيم، مَعَ مَا يُرَافِقُهُ مِنْ أَنْواعٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيم.

لَمْ يُصَرَّحْ في الْعِبَارَةِ هٰذِهِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي سَوْفَ يَعْلَمُونَهَا، عِنْدَ الموتِ، وبَعْدَ المَوْتِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ قَدْ جَاءَتْ بِهَا نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَةٌ كَثِيرَة، نَزَلَتْ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ إِنْزَالِ سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٥٦ نزول).

ومَعْلُومٌ مَا فِي هٰذِهِ الْعِبَارَةِ مِنْ إِنْذَارٍ شَدِيدٍ بالْعَوَاقِبِ الوخيمَةِ جدّاً، لَهُمْ وَلِكُلِّ أَمْثَالِهِم الْكَافِرِينَ بالحقِّ الرَّبَّاني، والمُكَذِّبِينَ رُسُلَ رَبِّهِمْ، فِي نُبُوَّاتِهِمْ ورِسَالَاتِهِمْ، وَمَا جَاؤوا بِهِ بَلَاغاً عَنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ السَّادِسِ من دُرُوس سورة(الصَّافَّات). والحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِه.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدّرْسِ السّابع من سورة (الصَّافَّات) وهو الآيات من (١٧١ ـ ١٨٢) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢)﴾.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرس السابع من دُروس سورة (الصَّافَّات) طَمْأَنَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ، ولِلّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، بأنَّهُمْ

مَنْصُورُونَ حَتْماً فِي المستقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيدِ، ضِمْنَ سُنَّتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ الَّتِي سَبقَتْ بِهَا كَلِمَتُه.

وفيها تَوجِيهٌ مِن اللهِ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ مع المشْرِكِينَ المعانِدِينَ المسْتَكْبِرِينَ، إِبَّانَ تَنْزِيل السُّورة.

التدبُّر التَّحْلِيلِيّ:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم طَمْأَنَةً لِرَسُولِهِ ولِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه:

● ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾:

العطف في أوّل هٰذا البيان هُوَ مِنْ عَطْفِ مَوْضُوعٍ علَىٰ موضوع، وأَكَّدَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَضْمُونَهُ بعبارَة: **[لَقَدْ]**.

والْمَعْنَىٰ: لَقَدْ سَبقَتْ كَلِمَتُنَا المعَبِّرةُ عَنْ تقديرِنَا وقَضَائِنَا، لِأَجْلِ عِبَادِنَا المرسَلِينَ، ولِأَجْلِ جُنْدِنَا مِنَ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ لِنُصْرَةِ دِينِنَا وإِعْلَاءِ كَلِمَتِنَا، هٰذِهِ الْكَلِمَةُ الْمُشْتَمِلَةُ على بَيَانَيْنِ مِنْ عِدَّة كَلِمَاتٍ مُفْرَدَات:

(١) إِنَّ رُسُلَنَا لَهُمُ المَنْصُورُون.

(٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ.

أي: إِنَّ رُسُلَنَا لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ بِنَصْرٍ مِنَّا فِي آخِرِ صِرَاعَاتِهِمْ لأَقْوَامِهِمْ، مَهْمَا نَالَهُمْ في مَسِيراتِهِمْ مَعَهُمْ مِنْ أذىً وهزائِمَ جُزْئِيَّةٍ مُؤَقَّتَةٍ.

وقَدْ أَكَّدَتْ شَوَاهِدُ تَارِيخِ الرُّسُلِ جَمِيعاً هٰذِهِ الحقيقة، وَلَا يَتَضَمَّنُ الْوَعْدُ بِالنَّصْرِ أَنْ يَتَفَوَّقَ الرُّسُلُ علَىٰ أَعْدَائِهِمْ فِي الْحَرْبِ والْقُوَىٰ الْعَسْكَرِيَّة، وَيَغْلِبُوهم، بَلْ يَكْفِي في تَحْقِيقِ الْوَعْدِ بالنَّصرِ أَنْ يَنْتَقِمَ اللهُ بالخوارقِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، كَمَا أَهْلَكَ اللهُ قَوْمَ نوح، وَقَوْمَ هود وقومَ صالح، وقومَ لُوط،

وقومَ شُعَيْب، وفِرْعَوْنَ وَجَيْشَهُ الذي خَرجَ معَهُ لِقِتَالِ بَنِي إِسْرَائِيل، أَوْ يَنْصُر مَا جَاؤوا بِهِ نَصْرَ عُلُوٍّ وانْتِشَارٍ وإِظْهَارٍ.

وإِنَّ جُنْدَنَا الَّذِينَ يُقَاتِلونَ أحْزَابَ الكُفْرِ صَادِقِينَ، ضِمْنَ وَصَايَانَا وتَعْلِيماتِنَا، والَّتِي مِنْهَا أخْذُهُمْ بِالْأَسْبَابِ المادّيَّةِ والمعْنَوِيَّةِ، دُونَ تَفْرِيطٍ وَلَا تَقْصِيرٍ بها، لَهُمُ الْغَالِبُونَ أخِيراً في مَعَارِكِ الْقِتَالِ، مَهْمَا كَانَ بَيْنَ الْبِدَايَاتِ والنّهَايَاتِ مِنْ فَرٍّ وَكَرٍّ، وبَعْضِ هزائِمَ لِجُنْدِ اللهِ.

وَمَا قالَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَلِمَتِهِ بِشَأْنِ رُسُلِهِ، كَتَبَهُ عِنْدَهُ فِي اللَّوْحِ المَحْفوظ حقيقَةً عِلْمِيَّةً عَمَّا سَيَكُونُ فِي المُسْتَقْبَلِ تَنْفِيذاً لِتَقْدِيره وَقَضَائِهِ السَّابِقَيْنِ، دَلَّ على هٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الْمُجَادَلَة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾: أي: يَعْصُونَهُما وَيُغْضِبُونَهُما بِكُفْرِهِمْ، ومُقَاوَمَةِ دِينِ رَبِّهِمْ، وَمُقَارعَةِ أَوْلِيَائِهِ المؤمنين.

وَبَشَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بأَنَّهُمْ مَنْصُورونَ، وبأَنَّ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ سَيُقَاتِلُونَهُمْ مَغْلُوبُون، وقَدْ تَحقَّقَتْ هٰذِهِ الْبِشَارَة في غَزْوَةِ بَدْرِ الكُبْرَىٰ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَنْفَالِ/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، أَنْ يَقُولَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: سَتُغْلَبُونَ، أيْ: مَهْمَا أعْدَدتُمْ مِنْ وَسَائِلَ، لِيُضْعِفَ مِنْ عَزَائِمِهِمْ، وَيُنَبِّهَهُمْ عَلَىٰ ضَلَالِهِمْ وفَسَادِ مَا هُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خِطَاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾.

أي: سَتُغْلَبُونَ فِي مَعارِكِ القِتَالِ الدُّنْيويَّة بَيْنَنا وَبَيْنَكُم، وسَوْفَ تُساقُونَ وَتُجْمَعُونَ، وَيَكُونُ سَوْقُكُمْ وجَمْعُكُم إِلَىٰ جَهَنَّم دارِ عَذابِكُمْ، الَّتِي سَتَكُون مَكاناً مُعَدّاً لَكُمْ تَسْتَقِرُّونَ فيه.

الْمِهَادُ: المكانُ الْمُمَهَّدُ الْمَوَطَّأُ، أُطْلِقَ عَلَىٰ مَكانِ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّم عَلَىٰ سَبِيلِ التَهَكُّم بِهِمْ والسُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمِ الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِيِّ لِلْحقِّ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه هُمْ حِزْبُ اللهِ، وأَنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ، أي: إذَا عَمِلُوا بِوَصَايَاهُ السَّبَبِيَّةِ وَكَانُوا صَادِقِين مُخْلِصِينَ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾.

أي: وَمَنْ يَجْعَلِ اللهَ وَرَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا أَوْلِيَاءه، يُؤَيِّدُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ وَيُجَاهِدُ جِهَادَهُمْ، فَهُو مِنْ حِزْبِ اللهِ، وَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ حِزْبِ اللهِ فَهُوَ مِنْ جُنْدِ اللهِ، فَهُوَ يَدْخُلُ في وَعْدِ اللهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُوصِي رَسُولَهُ مُحمّداً ﷺ، بِشَأْنِ المعانِدِينَ الميؤُوسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحقّ، وهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة إِبَّانَ تَنْزِيلِ سُورَةِ (الصَّافات/ ٥٦ نزول):

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥﴾:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أَيْ: فَابْتَعِدْ عَنْهُمْ، ولَا تَشْغَلْ وَقْتَكَ وَطَاقَاتِكَ بِمُعَالَجتِهِمْ لِيُؤْمِنُوا، فَقَدْ أَثْبَتَتْ تَجْرِبَتُكَ الطَّوِيلَةُ مَعَهُمْ أَنَّهُمْ مَيؤُوسٌ مِن إِصْلاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّة، وَوَجِّهْ جُهُودَكَ وَطَاقَاتِكَ لِلْمَطْمُوعِ باسْتِجَابَتِهِمْ وَلَوْ طَمَعاً يَسِيراً، وَهَـٰؤُلَاءِ كَثِيرُونَ.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: أي: حتَّىٰ وَقْتٍ تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ أَنْ تُوَاجِهَهُمْ فِيهِ بِقِتَالٍ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين، وعِنْدَئِذٍ نَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ، ويُظْفِرُكُمْ بِهِمْ.

وَقَدْ تَحقَّقَ فيما بَعْدُ مَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ هـٰذِهِ العبارة، فَنصَرَ اللهُ جُنْدَهُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، وَأَوْقَعَ بِأَئِمَّةِ الْكُفْرِ والْعِنَادِ في مَكَّةَ خِزْياً وَعَاراً، وَنَكَبَاتٍ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَتَوَقَّعُها، وَأَمَدَّ اللهُ جُنْدَهُ بِملائِكَةٍ يُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ فَيَضْرِبُونَ فَوْقَ أَعْنَاقِ الْكَافِرِينَ، وَيَقْطَعُونَ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ.

- ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾: أي: فإذا تَوَلَّيْتَ يَا مُحَمَّدُ عَنِ الاشْتِغَالِ بِدَعْوَتِهِمْ، وَمُعَالَجَتِهِمْ لِيُؤْمِنُوا، إِذْ وَصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها من أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الحرَّةِ، فَلَا تَكُنْ غَافِلاً عَنْهُمْ، بَلْ ضَعْهُمْ تَحت مُلَاحَظَتِكَ الدَّائِمَةِ بِبَصَرِكَ، لِتَكُونَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِمَا يُدَبِّرُونَ ضِدَّكَ، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَاتَّبَعُوك، فَهُمْ أَعْدَاءٌ لَا يَدَعُونَ مَكِيدَةً يَكِيدُونَها إِلَّا جَعَلُوها ضِمْنَ تَدْبِيراتهم، وبهـٰذِهِ المتابعَةِ الدَّائِمَةِ لَهُمْ بِبَصَرِكَ تَكُونَ عَلَىٰ حَذَرٍ مِنْ مَكَايِدِهِمْ، فَلَا تَدَعْهُمْ يُنَفِّذُونَ شَيْئاً مِنْهَا، بِتَدَابِيرَ مُضَادَّةٍ تَتَّخِذُهَا أَنْتَ والَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ، وَرَبُّكَ مَعَكَ مُلْهِمٌ وَمُسَاعِدٌ وَمُعِين.

﴿.. فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾: أي: فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَاقِبَتَهُمُ الْوَخِيمَةَ، وهِيَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بالْحَرِيقِ فِي نَارِ الجحيم، خالِدِينَ فيها أبداً.

وَسَوْفَ يُبْصِرُونَ فِي زَمَنٍ قَدْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً، كَيْفَ نَنْصُرُكَ والَّذِين آمَنُوا مَعَكَ عَلَيْهِمْ، وَهـٰذَا مَا تَحقَّقَ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ هـٰؤُلَاءِ الأَئِمَّةِ المَيْؤُوس مِنْ إيمانِهِم عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، وَبِشَأْنِ مَقَالَاتِهِمْ السَّاخِرَاتِ حَوْلَ إِنْذَارَاتِ الرَّسُولِ لَهُمْ بِعَذَابِ اللهِ، إِذْ صَدَرَتْ مِنْهُمْ مَقَالَاتٌ تُشْعِرُ بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ فِي إِنْذَارَاتِهِ لَهُمْ، وَظَاهِرُهَا يُشْعِرُ بِاسْتِعْجَالِهِمْ لَهَا:

- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

دَلَّتْ عِبَارَةُ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ عَلَىٰ أَنَّهُمْ صَارُوا يُوَجِّهُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ أَقْوَالاً فِيها اسْتِهْزَاءٌ بِإِنْذَارَاتِهِ لَهُمْ بِعَذَابِ اللهِ، مِثْل:

- أَيْنَ الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتَ وَمَا زِلْتَ تُنْذِرُنا بِهِ؟!

- لَوْ كُنْتَ رَسُولاً حَقّاً قَدْ أَرْسَلَكَ اللهُ إِلَيْنَا لَأَنْزَلَ بِنَا مَا كُنْتَ وَمَا زِلْتَ تُنْذِرُنَا به مِنْ عَذَاب.

- وسَبَقَ في سُورَةِ (الإِسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بَيَانُ أَنَّهُمْ قَالُوا لِلرَّسُول ﷺ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً، أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً، إِلَىٰ غَيْرِ هٰذه مِنْ مَطَالِب جَاءَ بَيَانُها في الآيات من (٩٠ - ٩٣) مِن (الإسراء).

فَهمْ فِي ظَاهِرِ بَعْضِ عِبَارَاتِهِمْ يَسْتَعْجِلُونَ عَذَابَ اللهِ، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الحَقِيقَةِ لَا يُرِيدُونَ إِنْزَالَ عَذَابِ الله بِهِمْ، لَكِنَّهُمْ يُشْعِرُونَ بِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ فِي إِنْذَارَاتِهِ لَهُمْ بِعَذَابِ الله، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ مُحمّداً لَيْسَ رَسُولاً صادِقاً يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّه.

وَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الْعِلَاجِيَّةُ أَنْ يُعَامِلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ أَقْوَالُهُمْ.

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا يلي:

إِنْ كَانُوا يَطْلُبُونَ حَقِيقَةً أَنْ نُعَجِّلَ تَعْذِيبَهُمْ، قَبْلَ الْوَقْتِ الَّتِي قَضَتْ حِكْمَتُنَا أَنْ نُعَذِّبَهُمْ فِيه، فَلْيَعْلَمُوا أَنَّ عَذَابَنَا إِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ، مُحِيطاً بِهِمْ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِمْ، وَغامِراً لَهُمْ، فَهُوَ عَذَابٌ شَدِيدٌ جِدّاً، وَسَيَأْتِيهِمْ صَباحاً أو بَيَاتاً، وزَمَنُ الصَّبَاحِ الَّذِي يُحِيطُ بِكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُمْ يُقالُ بِشَأْنِهِ: «سَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ».

«سَاءَ» فِعْلٌ يُقَالُ فِي إنْشَاءِ الذَّمّ على سَبيلِ المُبَالَغَة، مِثْل: «بِئْسَ».

أي: إذا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ عَذَابُ اللهِ الشَّامِلُ الْمُحِيطُ بِهِمْ، بَيَاتاً أَوْ في الصَّبَاح، فَصَبَاحُهُمْ مَصْحُوبٌ بِعَذَابٍ شَدِيد الإيلام والْخِزْي لهم، وأبْلَغُ وصْفٍ لَهُ أَنْ يُقَالَ: سَاءَ صَبَاحُهُمْ.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ تَعْقِيباً على اسْتِعْجَالِهِمْ عَذَابَ الله، بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ مِنْ أَقْوَالِهِم:

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾:

هٰذِهِ الْوَصِيَّةُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ هِيَ عَيْنُ الْوَصِيَّةِ في الآيَتَيْنِ (١٧٤) و(١٧٥).

إلَّا أَنَّ مَا جَاءَ في الآيَتَيْن (١٧٨) و(١٧٩) قَدْ جَاءَ مَبْنِيّاً عَلَىٰ أَقْوَالِ أئِمَّةِ الكُفْرِ وَالْعِنَادِ الاسْتِهْزَائِيَّةِ بالرَّسُول، والَّتِي يَدُلُّ ظاهِرُهَا على أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ مَا أَنْذَرَهُمْ به مِنْ عَذَابِ الله.

فيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: لَازِم الْمَوْقِفَ الَّذِي أَوْصَيْنَاكَ بِهِ آنِفاً، وَتَابعْ تَولِّيكَ عَنْهُمْ، وَوَجِّهْ طَاقَاتِكَ لِدَعْوَةِ غَيْرِ المَيْؤُوسِ مِن اسْتِجَابَتِهِم، مَعَ شِدَّةِ مُرَاقَبَتِكَ لَهُمْ بِبَصَرِك، فَسَوفَ يُبْصِرُونَ عَاقِبَتَهُمُ الْوَخِيمَةَ آجِلاً وَعَاجِلاً.

هٰذِهِ الْوَصِيَّةُ لَيْسَتْ تَأْكِيداً لِنَظِيرَتِها السَّابِقَة، بَلْ هِيَ تَأسِيسٌ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ مَوْقِفٍ آخَرَ غَيْرِ الْمَوْقِفِ الَّذِي سَبَقَ في الآيَتَيْن (١٧٤) و(١٧٥).

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خِتَامِ سُورَةِ (الصَّافَّاتِ) مُبيِّناً وَمُعَلِّماً مَا يَحْسُنُ أَنْ نَخْتِمَ مَقَالَاتِنا وَمَجَالِسَنَا الإيمانيَّة به:

• ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾:

- ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾: أي: أُنَزِّهُ رَبَّكَ مِنْ كُلِّ مَا لا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِهِ، تَنْزِيهَهُ لِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وأَفْعَالِهِ، وكُلِّ تصاريفه.

وكَلِمَةُ «سُبْحَانَ» اسْمُ عَلَمٌ لِمَعْنَىٰ البراءةِ والتَّنْزِيه، في مَوْضِعِ المَصْدَر. وهو مُضاف ولفظ «رَبِّ» مضافٌ إِلَيْهِ.

- ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾: أي: رَبّ الْقُوَّةِ الْغَالِبَة، فَكُلُّ قُوَّةٍ في الكَوْنِ هو خَالِقُهَا وَمَالِكُها والمُتَصرِّفُ فيها بِحِكْمَتِه تَصَرُّفَ كمالٍ.

- ﴿.. عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾: أَيْ: تَنَزَّهَ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ عَمَّا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ مِمَّا لَا يَلِيقُ بذَاتِهِ، وصِفَاتِهِ، وأَفْعَالِهِ، وَتَدْبِيراتِهِ، وقَضَائِهِ وقَدَرِهِ.

والتَّنْزِيهُ هُنَا يَشْمَلُ إثْبَاتَ كُلِّ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ مِن أَسْمَىٰ عُلُوٍّ لَهَا، لِأَنَّ النَّقْصَ بِشَيْءٍ ما مِنْها هُوَ مُبَرّأٌ عَنْهُ وَمُنَزَّهٌ مِنْهُ، وبهٰذَا كانَتْ عبارة «سُبْحَانَ الله» دَالَّةً عَلَىٰ إثْبَاتِ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ، وعَلَىٰ تَنْزِيهِهِ مِنْ كُلِّ صِفَةِ نَقْصٍ مُنَافِيَةٍ لِكَمَالِهِ، جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ، وَتَبارَكَ وَتَعالَىٰ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَبِيهٌ أَوْ نِدٌّ أو كُفؤ.

- ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾: أي: وَتَحِيَّةُ احْتِرَام وَتَوْقِيرٍ وتَكْرِيم عَلَىٰ الْأَنْبِياء الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ للنَّاس، لِيُؤَدُّوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، فَأَدَّوْا رِسَالَاتِهِ كَمَا أَمَرَهُمْ، وَنَصَحُوا أقوامَهُمْ، وجَاهَدُوا في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِمْ، عَلَىٰ تَفاضُلٍ في دَرَجَاتِهِمْ السَّامياتِ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحسان، وَسَلامُ دُعاءٍ لَهُم بِأَنْ يُسَلِّمَهُمُ اللهُ مِنْ كُلِّ مَا لَا يُحِبُّونَ مِنْ نَقْصٍ فِي دَرَجَاتِ سَعَادَاتِهِم في الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَىٰ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيم.

وَهٰـذا السَّلَامُ يَنْفَعُ الدَّاعِيَ بِهِ عِنْدَ رَبِّه بِأَنْ يَجْزِيَهُ اللهُ أَضْعَاف مَا دَعَىٰ به، فَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ: «مَنْ صَلَّىٰ عليَّ مَرَّةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً».

- ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾: أي: وَكُلُّ الْحَمْدِ الَّذِي لَا تُتَصَوَّرُ لَهُ غَايَةٌ، وَلَا نِهَايَةٌ، هُوَ مِنِ اسْتِحْقَاقِ اللهِ رَبِّ كُلِّ الْعَالَمِين.

ولفظ العالَمِين هُنَا يَشْمَلُ كُلَّ مَا سِوَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقَدْ سَبَقَ تَحْلِيل هذه العبارَة في تَدَبُّر سورة (الفاتحة).

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السَّابع مِنْ دُرُوس سورة (الصَّافات) وبه ختم الله عَزَّ وَجَلَّ السورة. والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

(١٢)

ملحق مستخرجات بلاغيّة من سورة (الصافات)

يوجد في سورة (الصَّافَّات) اختيارات بلاغيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، هِي من عناصر إعجاز القرآن المجيد، وفيها المستخرجات التاليات:

أولاً

مِنْ منهج البيان القرآني في الأقوال، والأحداث، والقصص، استقطاع النصوص من أزمانها الماضية، أو المستقبلة، وعرضها بألفاظها، دون الإشارة إلى أنَّهُ كان كذا فيما مَضَىٰ، أَو سَيَكُونُ كذَا فيما سيأْتي، وهـٰذا فَنٌّ بَديعٌ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ الْأُدَباء والْبُلَغاء من قَبْل، واكْتَشَفَهُ الإعلاميُّون حديثاً.

ومن أمْثِلَة هـٰذا الفنّ البديع في السورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَة لِقَوْلِ مُنْكِرِي الْبَعْثِ حينما يُبْعَثُونَ يَوْمَ القيامة، وَمَا يُقَالُ لَهُمْ، وما يُقَالُ بِشَأْنهم:

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ . . . . وحتى الآية ﴿٣٢﴾﴾.

المثال الثاني: مَا جاء في الآيات من (٥١ ـ ٥٧).

ثانياً

ومِنَ البلاغِياتِ في السورة «التشبيه».

ومن أمْثِلَةِ التشبيه في السُّورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في وصف الحور العين اللائي أنْشَأَهُنَّ اللهُ في الجنَّةِ لأَصْحَاب اليمين:

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: يُشْبِهُ لَوْنُ بَشَرَةِ أجْسَادِهِنَّ، لَوْنَ قِشْرَةِ بَيْضِ النَّعَام المَكْنُونِ المَحْفُوظ بنَاعِمٍ مِنْ رِيشِ النَّعَامِ، فَهُو أبْيَضُ مُشْرَبٌ بِصُفْرَةٍ قَلِيلَة.

قَالُوا: وَهـٰذا مِنْ أَجْمَلِ ألْوانِ بَشَرَاتِ النِّسَاء، وأحْسَنُ مِنْهُ مَا كَانَ كاللُّؤْلُؤِ المَكْنُون، وهو وَصْفُ نِسَاءِ أصْحَابِ المراتب الرّفِيعَةِ في الجنَّة مِنَ الحور العين، والغرضُ مِنَ التَّشْبيهِ تَقْرِيبُ صُورَةِ جُلودِهِنَّ للمُتَلَقِّي.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في وَصْفِ ثَمَرِ شَجَرِ الزَّقُّومِ الَّذِي يَأْكُلُ مِنْهُ أَصْحَابُ الجحيم:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾:

جاءَ فِي هـٰذا النّصّ تَشْبيهُ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم برُؤوسِ الشياطِين، وهو تَشْبيهٌ بِشَيْءٍ مُنْتزَعٍ مِنْ خَيالِ المُتَلَقِّينَ عَنْ رُؤوس الشَّيَاطِينِ، إذْ لَا يَعْرِفُونَ

هـٰذه الرُّؤوس، لكِنْ يُوجَدُ في خيالِهم أَنَّ الشَّياطِينَ لَهُمْ رؤوسٌ قَبيحَةٌ جدّاً مُنَفِّرَةٌ وَمُخِيفَة، فالصُّورَة الَّتِي يَتَخَيَّلُها الناسُ لَهَا أَقْبَحُ وأَخْبَثُ صُورَة. فالتَّشبيه برُؤوس الشياطين تَشْبيهٌ مُنْتَزَعٌ مِنْ خَيالِ النَّاسِ لها، وَقَدْ يَكُونُ وَاقِعُ رُؤوس الشياطِين شَدِيدَ الْقُبْحِ والتنفير.

ثالثاً

من الفنون البلاغيَّة الكِنَايَة، وقد سَبَقَ تَعْرِيفها في مُسْتَخْرَجات بَلَاغِيَّاتٍ سَابقات.

ومن أمثلة الكِنايَة في هـٰذه السورة ما يلي:

المثال الأوّل: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

إنَّ عبارة: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ تَدُلُّ بأسْلُوب الكِنَايَةِ على أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أجابَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا نَادَاهُ به.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ يُونُس عليه السلام:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾:

أي: لَأَكَلَهُ الحوتُ وهَضَمَهُ، ولَمْ يَعُدْ إِلَى الحياة إِلَّا يَوْمَ الْبَعْث.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ إبْراهِيمَ وإسْحَاقَ عَلَيْهِما السّلام:

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾:

جاء في هـٰذِهِ الآيةِ الاكْتِفَاءُ بِذِكْرِ الصِّنْفِ الْأَعْلَىٰ وَذِكْرِ الصِّنْفِ الْأَدْنَىٰ، إِذْ يَلْزَمُ عَقْلاً وُجُودُ أصْنافٍ عَلَىٰ دَرَجاتٍ بَيْنَ الأعْلَىٰ الَّذِي هو مُحْسِنٌ، وبَيْنَ الأدْنَىٰ الّذي هو ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبين، فَدَلَّ الْأَعْلَىٰ والْأَدْنَىٰ بأسْلُوبِ الكِنَايَةِ على اللّازِمِ الْفِكْرِي بَيْنَهما، وهُمْ ذَوُو الدَّرجات بَيْنَهُما.

رابعاً

إطْلَاقُ اللَّفْظِ بِمَعْنَيَيْهِ اللُّغَوِيَّيْن، وهـٰذا مِنَ الْإِيجاز البليغ، ومن أمْثِلَتِهِ في السُّورة، قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ امرأةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، إذْ كانَتْ كافِرَةً مَعَ هَوَىٰ قَوْمِها أَهْلِ سَدُوم:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾:

الغَابر: يأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ الباقي، ويأْتي بِمَعْنَىٰ الماضِي الذَّاهب. وهـٰذانِ المَعْنَيَانِ يَنْطَبِقَانِ عَلَىٰ امْرأةِ لُوطٍ عليه السلام. فَقَدْ كانت مِنَ الْبَاقِينَ في أَرْضِ قَوْمِها إذْ أُهْلِكَتْ وهِيَ فِيها، وكانت مِنَ الماضِينَ الذَّاهِبِينَ بالْإِهْلَاكِ مَعَ قَوْمِها.

خامساً

مِنَ الفنون البلاغيَّة الإيجاز، وهو قِسْمَان:

- **إيجَاز الْقِصَر**: وهو الإيجاز الَّذِي لَا يُعْتَمَدُ فِيهِ على اسْتِخْدَام الحذف.
- **إيجاز الحذف**: وهُو الإيجاز الّذي يكُونُ قِصَرُ الكَلَامِ فِيه بسَبَبِ اسْتِخْدَامِ حَذْفِ بَعْضِ الْكَلام، اكْتِفاءً بِدَلَالَة القرائن.

والْأَمْثِلَةُ على إيجاز الحذْفِ فِي السُّورَةِ كَثِيرَةٌ، يُدْرِكُها مَنْ تَدَبَّر السُّورَةَ بإمْعَان.

وَأَقْتَصِرُ هُنَا على ذِكْرِ مثالَيْنِ لإيجاز الْقِصَرِ، فالأوّلُ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها بِشأنِ الْبَعْثِ بِزَجْرَةٍ وَاحِدَة:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾.

والثاني بَعْضُ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلَام:

﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ
(٧٦) وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي
ٱلۡعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا
ٱلۡأٓخَرِينَ (٨٢)﴾.

أمّا التَّوكيدُ لدواعٍ بَلَاغيَّة، فقد تَرَكْتُ اسْتِخْرَاجَ أمْثِلَةٍ مِنْهُ، لِوُضُوحِهَا مِنَ النَّظائِرِ الَّتي اسْتَخْرَجْتُها من السُّوَر السابقة.

وَكَذَلِكَ خُروجِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ فَقَدْ سَبَقَ اسْتِخْرَاج نَظَائِرَ فِي المُسْتَخْرَجَاتِ البَلَاغِيَّةِ مِنَ السُّوَرِ السَّابِقَة.

وأكْتَفِي في هـٰذا المُلحق بهـٰذِهِ المُسْتَخْرَجَات. والحمدُ لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه.

* * *

سورة لقمان

٣١ مصحف ٥٧ نزول

وهي سورة مكيَّة

إلّا الآيات (٢٧ و٢٨ و٢٩)

فيما رُوي عن ابن عبّاس
ورُويَ عَنْهُ أنَّها مَكِّيَّةٌ كُلُّها

(١)

نصُّ السُّورَة وَمَا فيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ
لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ
يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ

---

١ ـ • سَكت أبو جعفر على: «ألف» و«لَامْ» و«ميم».

٣ ـ • قرأ حمزة: **[وَرَحْمَةٌ]** بالرفع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالنصب: **[وَرَحْمَةً]**.

والقراءتان وجهان عربيان جائزان.

٦ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرو: **[لِيَضِلَّ]** من فعل: «ضَلَّ».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[لِيُضِلَّ]** من فعل: «أَضَلَّ».

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد.

٦ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر: **[وَيَتَّخِذُهَا]** برفع الفعل عطفاً على «يشتري».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بنصب الفعل: **[وَيَتَّخِذَها]** أي: وَلِيَتَّخِذَها.

٦ ـ • لفظ: **[هُزُواً]** فيه قراءات «هُزْءاً، هُزاً، هُزْواً، هُزُؤاً» وهي لهجات عربية.

٧ ـ • قرأ نافع: **[أُذْنَيْهِ]** بإسكان الذال. =

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ
كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ
ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ
يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾
وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي
عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن
جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ
وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أُذُنَيْهِ]** بضمّ الذال.
وهما نطقان عربيان.

١٢ و١٤ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة ويعقوب: **[أَنِ ٱشْكُرْ]** في الآيتَيْن، بكَسْر النون.
وقرأها باقي القراء العشرة بضَمِّ النون: **[أَنُ اشْكُرْ]**.

١٣ ـ • قرأ حفص: **[يَا بُنَيَّ]** بفتح الياء المشدّدة.
وقرأها ابْنُ كثير: **[يَا بُنَيْ]** بإسْكانِ الياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَا بُنَيِّ]** بكَسْر الياء المشدّدة.
وهي وجوهٌ في النطق العربي.

إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن
تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ
أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ
أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ
﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ
لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

---

١٦ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[مِثْقَالُ]** بالرَّفع.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[مِثْقَالَ]** بالنصب.
وهماوجهان نحويان جائزان.

١٦ ـ • قرأ حفص: **[يَا بُنَيَّ]**.
وقرأها الباقون: **[يَا بُنَيِّ]**.

١٧ ـ • قرأ البزّي، وحفص: **[يَا بُنَيَّ]**.
وقرأها قنبل: **[يا بُنَيْ]**.
وَقرأها باقي القراء العشرة: **[يَا بُنَيِّ]**.
وهي وجوه عربيّة من الأداء.

١٨ ـ • قرأ ابن كَثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: **[وَلَا تُصَعِّرْ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَلَا تُصاعِرْ]**.
وهما لغتان بمعنى إمَالَةِ الْعُنُقِ من الكِبْرِ واحْتِقَارِ الناسِ.

٢٠ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر: **[نِعَمَهُ]** جمع «نِعْمة».
وقرأها باقي القراء العشرة: **[نِعْمَةً]** بالإفراد والتنكير، وهي اسْمُ جنس، والمؤدّى واحد.

يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ
ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾
۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ
بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا
يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ
غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ
ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ
أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا
خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ
﴿٢٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي

---

٢٢ - ● قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: **[وهْوَ]** بإسكان الهاء.
وقرأها الباقون بالضمّ: **[وهُوَ]**.

٢٣ - ● قرأ نافع: **[فَلَا يُحْزِنْكَ]** من فعل: «أحْزَنَهُ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة من فِعل: «حَزَنَهُ»: **[فَلَا يَحْزُنْكَ]**.
وهما لغتان عَرَبيتان.

٢٧ - ● قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: **[والْبَحْرَ]** بالنصب.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالرَّفْع: **[والْبَحْرُ]**.
وهما وجهان عَرَبيان جائزان.

ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى
وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ
وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ
﴿٣٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم
مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾
وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا
نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ
خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا
يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ
إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا
يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ
وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا
تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾

---

٣٠ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وابنُ عَامر، وشعبة، وأبو جعفر: **[وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بياء الغائبينَ: **[وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ]**.

وبين القراءتَيْنِ تكامل في الأداء البياني.

٣٤ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعْفر: **[وَيُنَزِّلُ]** من فعل: «نَزَّل».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَيُنْزِلُ]** من فعل: «أنزل].

والقراءتان متكافئتَان، فالفِعْل المهموز أخو الفعل المضعف.

(٢)

مما ورَدَ بشأن سورة (لقمان)

رَوَىٰ النسائي، وابْنُ مَاجهْ عن الْبَراءِ، قال: «كُنَّا نُصَلِّي خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ الظُّهْرَ، نَسْمَعُ مِنْهُ الآية بَعْدَ الآية من سورة لُقْمَان، والذَّارِيَات».

(٣)

سَبَبُ نزول سورة (لقمان)

قال أبو حيَّان: سَبَبُ نُزولِ هٰذه السُّورة: أنَّ قُرَيشاً سَأَلُوا رسول اللهِ ﷺ عَنْ قِصَّةِ لُقْمَانَ مَعَ ابْنِهِ، فأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هٰذه السّورة.

ويَظْهَرُ أَنَّ بَعْضَ وَصَايَا لُقْمَانَ وَمَوَاعِظِهِ لابْنِهِ، كَانت متداولَةَ الذِّكْرِ بَيْنَ الملأ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِي مَجَالِسِهِمْ، ويَسْتَشْهِدُونَ بها، ويُثْنُونَ على حِكْمَتِهِ فيها، وتُوجَدُ في المأثوراتِ العربية حِكَمٌ كَثِيرَةٌ مَنْسُوبَةٌ إلَيْه.

(٤)

موضوع سورة (لقمان)

يَظْهَرُ لي أنَّ مَوْضوعَها يدُور حَوْل الثَّناءِ على لُقْمَانَ الْحَكِيم، بِشَأْنِ وَصَايَاهُ ومَواعِظِهِ لابْنِهِ، الَّتِي جَاءَ في السُّورَةِ عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْهَا مع إقرار لها، إذْ هِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ كَلَامِ النُّبُوّاتِ السَّابِقَاتِ، وَجَاءَ فِي السُّورةِ ذِكْرُ وَصَايَا وَبيَانَاتٍ رَبَّانِيَّة سَابِقَةٍ لها في آياتِ السُّورَةِ، وَآتِيَةٍ بَعْدَهَا، وأُخْرَىٰ وارِدَةٍ أَثْنَاءَها، للإِشْعَارِ بأنَّ وَصَايا وَمَوَاعِظَ لُقْمَانَ لابنِهِ هِي مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ الرُّسُلِ السَّابقين، فَكُلُّ ما جاء في السُّورَةِ ومِنْهَا مَوَاعِظُ لُقْمَانَ لابْنِهِ، تَعْلِيمَاتٌ وَوَصَايَا ومَوَاعِظُ رَبَّانِيَّة.

وَمَا جَاءَ في السُّورَةِ من وَصَايا وَمَوَاعِظَ وتَعْلِيمَاتٍ ربَّانيَّة، هي مُكَمِّلَاتٌ، ودَاعِمَاتٌ لِمَا جَاءَ فيها مِنْ مَوَاعِظِ لُقْمَانَ لابنِهِ، وهي تَتَعَلَّقُ

بمفرداتٍ سُلُوكيّة إسْلاميَّة، وعَنَاصِرَ اعْتِقَادِيَّةٍ، وآيَاتٍ كَوْنِيَّة دَالَّاتٍ علَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَإلَٰهيَّته، وبيَانَاتٍ عَنْ بَعْضِ صفات اللهِ، مَعَ تَرْبِيَةٍ لِلرَّسُول ﷺ والدُّعَاةِ إلى اللهِ من أمَّته.

وفيها تَرْغِيب وَتَرْهيب، على وفْقِ مَنْهَجِ القرآن في التَّبْشِير والإنْذَار.

(٥)

دُرُوس سورة (لقمان)

تكاد تَكُونُ السُّورَةُ بَيَانَاتٍ وَوَصَايَا ومَوَاعِظَ من دَرْسٍ واحدٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ (٣٤) آيَة.

وَتَسْهِيلاً للتَّدبُّر أُقَسِّمُهَا إلى أحد عشر دَرْساً.

الدَّرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٥).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْس بيانٌ يتَعَلَّقُ بالقرآن وهدايته.

الدرس الثاني: الآيتان (٦) و(٧).

وفيهما بيانٌ عمَّنْ يُضِلُّ عَنْ سَبيلِ اللهِ بِلَهْوِ الحديث، وإذَا تُتْلَىٰ عليه آيات اللهِ وَلَّىٰ مُسْتَكْبراً، وفيهما إنْذَارُه بعذابٍ أليم.

الدرس الثالث: الآيتان (٨) و(٩).

وفيها وعْدٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات بأنَّ لهم جنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدين.

الدرس الرابع: الآيتان (١٠) و(١١).

وفيهما عَرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّةِ على أنَّهُ واحِدٌ في رُبوبيَّتِهِ، وَهَـٰذَا يلْزَمُ عَنْهُ عقْلاً أنَّهُ وَاحِدٌ في إلَٰهيَّتِهِ.

الدرس الخامس: الآيات من (١٢ ـ ١٩).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ ما جاء في السُّورة بشَأْنِ «لُقْمانَ» الحكيم، وَمَوَاعِظِهِ لابْنِهِ، تَعْلِيماً لِلْمُؤْمِنِين كَيْفَ يُوصُونَ أَبْنَاءَهم ويَعِظُونَهُمْ فيما فيه طِيبُ مَعِيشَتِهِمْ في دُنْياهم، وَسَعَادَتُهُمْ في آخِرَتهم مَعَ إِدْخَال وصايا من الله في أثنائها.

الدرس السادس: الآيات من (٢٠ ـ ٢٤).

وفيها بَيَانٌ عَنْ نِعَم اللهِ على النّاس، الَّتِي تَسْتَدْعِي شُكْرَهُمْ لَه، إلَّا أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَشْكُرونَ رَبَّهُمْ على نِعَمِهِ، ويُجادِلُونَ بالباطل، مع إنذارِهم بعذاب السَّعِير، وبِشَارَةِ المؤمِنِ الذي يُسْلِمُ وجْهَهُ لِلَّهِ وهُو مُحْسِنٌ بالعاقِبَةِ الحُسْنَىٰ يَوْمَ الدِّين، وتوصية الرَّسُول وكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ بأَنْ لَا يَحْزُنَهُ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ، وأنَّ مَصِيرَهم إلَىٰ عذابٍ غليظ.

الدرس السابع: الآيتان (٢٥) و(٢٦).

وفيهما تَعْلِيم جَوْلَةٍ جَدَلِيَّةٍ للمشركين بِشَأْنِ مَنْ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرض.

الدرس الثامن: الآية (٢٧).

وفيها بَيَانُ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ، وبيانُ أَنَّ كَلِمَاتِهِ مُسَايراتٌ لواسِعِ علمه.

الدرس التاسع: الآية (٢٨).

وفي هـٰذه الآية بَيَانُ قُدْرَةِ اللهِ العظيمَة، من خِلَال بَيَانِ أنّ خَلْقَ النَّاسِ وَبَعْثَهُمْ كخَلْقِ نَفْسٍ واحدة، وفيها بيانُ أنّ الله سميعٌ بصيرٌ، للإشْعَارِ بأَنَّ حِسَابَهُمْ وفَصْلَ القضاء بينهم مَسْبُوقٌ بِعِلْمِهِ بكُلّ أحْوَالهم وأعْمَالِهم الظاهرة والباطنة.

الدرس العاشر: الآيات من (٢٩ ـ ٣٢).

وفيها عَرْضُ بَعْضِ آيات اللهِ في كَوْنِهِ، وَنِعَمِهِ على عِبادِه، مَعَ عَرْضِ

بَعْضِ أحْوَالِ النَّاسِ تُجَاهُ الأَحْدَاثِ المخيفَةِ مِنْ ظاهِرَاتِ تَصَارِيفِ اللهِ في كَوْنِه.

الدرس الحادي عشر: الآيتان (٣٣) و(٣٤) آخر السورة.

وفيها نداء للناس جميعاً بأنْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ، ويَخْشَوْا عَذَابَهُ المعَدَّ لِلْعُصَاةِ والكافِرينَ يَوْمَ الدِّين، مع بيانِ أَنَّ عِنْدَهُ وحْدَهُ عِلْمَ السَّاعَةِ، وأنَّهُ يُنَزِّلُ الْغَيْث، وأنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ مَا فِي الأرْحَام، وَأَنَّهُ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غداً، وما تَدْرِي نَفْسٌ بأيِّ أَرْضٍ تَمُوت.

لَكِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِكُلِّ شيءٍ.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيات من (١ ـ ٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥)﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أبو جعفر على: «ألف» و«لَام» و«ميم».

ولم يَسْكُتْ باقي القرّاء العشرة.

(٣) • قرأ حمزة: [وَرَحْمَةٌ] بالرَّفع، على أنَّ «هدىً» خَبَرُ مبتدأ محذوف، تَقْدِيره: «هُو».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالنَّصْبِ: **[وَرَحْمَةً]** علىٰ أنّ هُدىً حَالٌ، أي: حَالَةَ كَوْن الكتاب الحكيم هُدىً ورحْمَةً.

فالقراءتان وجهان نحويّان جائزان.

تَمْهيد:

في هـٰذه الآيات بَيَانٌ عَنِ القرآن كتاب اللهِ للنَّاسِ في هـٰذا الدّين الخاتم، وأنَّهُ هُدىً لِلْمُحْسِنينَ، كَمَا هُوَ هُدىً لِلْمُتَّقِين، والْأَبْرار.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾: هـٰذه من الحروف المقطّعَة التي بدأ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بها بعض سُوَر القرآن، وقد سبَقَ بيان ما يَكْفِي بشأنِها في تدبّر أول سورة (القلم/ ٤ نزول):

- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾:

جاءت الإشارة إلى آيات القرآن باسم الإشارة في: **[تلك]** الموضوعة للمشارة إليها البعيدة مع قُرْبها لِغَرَضِ الدَّلَالَةِ على ارْتِفَاعِ مَكَانَتِها في بلاغتها، وفي المعاني السَّامِيَةِ الّتي اشْتَمَلَتْ عَلَيْها دَلالاتُ جُمَلِها، وارتفاعُ مكانَتِها يدُلُّ على أنّها تَنْزِيلٌ من رَبّ العالَمين، وأنَّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُون أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِها، وهو ما جاء مُصَرَّحاً به في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

وسُمِّيتْ أجْزَاءُ السُّورَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بفاصِلَاتِها «آيات» لأنَّ فيها علاماتٍ دَالَّاتٍ على كَوْنِهَا مُنَزَّلَاتٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبّ الْعَالَمِين، وَلَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ إِنْسٍ وَلَا جِنٍّ وَلَا غَيْرِهما مِنْ خَلْقِ الله.

الآية: هي في اللُّغَةِ العلامَةُ الدَّالَّةُ على شيءٍ ما، مُدْرَكٍ بالحواسِّ الظَّاهِرَة، أو غَيْرِ مُدْرَكٍ بها، كَالْفِكْرِيَّاتِ والْوِجْدَانِيَّات.

وأُطْلِقَ على مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَيَانٍ كَلامِيٍّ لفظ «الكِتَاب» للدَّلَالَةِ علَىٰ وُجُوبِ تَدْوِينِهِ بالكتابة، وَجَعْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ كِتَاباً مُحَرَّراً يَرْجِعُونَ إلَيْهِ، مَحْمِيَّاً مِنَ التَّحْرِيف، والتغيير، بالزِّيَادة، أو بالنقص، أو بالتَّبْدِيل.

و«ال» في لفظ «الكِتَاب» لِلْكَمال.

وَجاء وصْفُ القرآن هُنَا بأنَّهُ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: الْمُحْكَمُ إذْ أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحْكماً. أو ذُو الْحِكْمَة في أَلْفاظِهِ ومَعَانِيهِ، فلفظ «الحكيم» إمَّا بمعنىٰ اسم المفْعُول، أو بمعنَىٰ اسم الْفَاعل، أو هو مُحْكَمٌ وَذُو حِكْمَةٍ، وهٰذا هو الذي عَلَيْهِ كتاب اللهِ الْقُرْآن، فَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحْكماً فَهُوَ ذُو حِكْمة.

الحكمة: هي وضْعُ الأشياء في مواضِعِها، فكراً، أو مَعْرفةً، أو اعْتِقَاداً، أو عملاً، أو حُكْماً وقضاءً، وتكُونُ الحِكْمَةُ باختيار أفْضَلِ الأشْيَاءِ وأتْقَنِها وَأحسَنِهَا مِنْ كُلِّ البدائل لِمَا تُخْتَارُ له.

والْقُرآنُ بكُلِّ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مُتَّصِفٌ بالْحِكْمَة، إذْ هُو تَنْزِيلُ الْعَلِيم الحكيم رَبِّ العالَمِين.

وقد جاء في القرآن وصْفُ القرآن بأنَّهُ حَكِيمٌ، وبأنَّهُ مُبينٌ (أي: هُو ظاهِرٌ، وهو مُظْهِرٌ لِمَا اشْتَمَلَ عَليه من دَلَالَات). وبأنَّهُ مُبَارَكٌ (أي: كَثِيرُ الدَّلَالَاتِ ثَرُّ المعاني الَّتِي فيها هدايَةٌ وخَيْرٌ عَظِيم للناس).

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③﴾:

هُدىً: مَصْدَرُ «هَداهُ، يَهْدِيهِ، هُدىً» أي: بَيَّنَ لَهُ وأرشَدَه. وَوُصِفَ القرآنُ بأنَّهُ هُدىً، وهو وصفٌ بالمصْدَرِ، لأنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ فِيه تَشْتَمِلُ على بَيَانٍ أو دَلاَلَةٍ علَىٰ حَقٍّ أو رُشْدٍ، أو ما فِيه خَيْرٌ للموضُوعِينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، فَمِنَ الحقِّ أَنْ يُوصَفَ كُلُّهُ بأنَّهُ هدىً، إذْ كُلُّ جُزْءٍ فِيهِ جزْءٌ هَادٍ إلَىٰ حَقٍّ أَوْ رُشْدٍ أَوْ خَيْر، وهـٰذا من دواعي وَصْفِ الشيءِ بالمَصْدَرِ، وهُوَ أَبْلَغُ مِنْ وَصْفِهِ باسم الفاعل.

وَرَحْمَةً: الرَّحْمَةُ صفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الجليلة، وهي صفة نُثْبِتُها لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ على مَا يَلِيقُ بِجَلاَلِه وَعظِيم سُلْطانه، ومن آثَارِهَا الْعَطَاءُ، والمعونة، والتوفيق، وإزالةُ البؤس، والإمداد بِمَا يَسُرُّ، ويُسَكِّنُ النَّفْسَ، ويُطَمْئِنُ القلب، إلى غير ذلك من خَيْرات.

وَوُصِفَ القرآنُ بأَنَّهُ رَحْمَةٌ لِأَنَّ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ من هِدَاية، هُو أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحمَةِ اللهِ بعباده الموضوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلاء.

لِلْمُحْسِنِينَ: أي: القرآنُ هدىً ورَحْمَةٌ لِأَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، وهي أعْلَىٰ مَرَاتِبِ المؤمِنِين، فَهُمْ يتعلَّقُون به استماعاً، وتلاوة، وتدبُّراً، وعملاً بما جَاء فيهِ من هَدْي.

وَعَلَىٰ مَنْهَجِ القرآنِ فِي التَّفْصِيلِ، لِتَتَكَامَلَ المفَصَّلاَتُ فِيمَا بَيْنَهَا، وَيَأْخُذَ كُلُّ جُزْءٍ حَظَّهُ مِنَ البيان، جَاءَ في القرآن وَصْفُ القرآن بِمَا يلي:

(١) بأَنَّهُ هُدىً للمتّقين. (الآية ٢ من سورة البقرة).

(٢) وبأَنَّهُ هُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤمِنِينَ. (الآية ٩٧ من سورة البقرة).

(٣) وبأَنَّهُ هُدىً للنّاس. (الآية ١٨٥ من سورة البقرة).

(٤) وبأَنَّهُ هُدىً ورحمة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون، أي: لَدَيهم القابليَّةُ لأنْ يُؤْمِنُوا بإراداتهم الحرَّة. (الآية ٢٠٣ من سورة الأعراف).

(٥) وَبأنَّهُ هُدىً وَبُشْرَىٰ للمؤمنين. (الآية ٢ من سورة النمل).

(٦) وبأنَّهُ هدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُون. (الآية ٢٠ من سورة الجاثية).

(٧) وَبأنَّهُ هُدىً وَبُشْرَىٰ للمسْلِمينَ. (الآية ١٠٢ من سورة النَّحْل).

ولدى تَدَبُّر هٰذه النصوص معاً نُلاحِظُ التكامُلَ فيما بَيْنَها.

أمَّا بالنسبة إلى مَراتب المؤمنين الثلاثة: (مَرْتَبَةِ المتَّقِين، ومَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، وَمَرْتَبَةِ المحسنين) فنُلَاحِظُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ذَكَرَ في سورة (لقمان/ ٥٧ نزول) أنَّهُ هدىً ورَحْمَةٌ للمحْسِنين. وذكَرَ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أنَّهُ هُدىً لِلْمُتَّقِين. وَلَمَّا كانت مَرْتَبَةُ المتقين هِيَ المرتَبَةَ الدُّنيا، ومَرْتَبَةُ المحْسِنين هِيَ الْمَرْتَبَةَ العليا، فإنَّنَا نَفْهَمُ باللُّزُومِ الْعَقْلِيّ أَنَّهُ هُدىً لِلأَبْرَار، إذْ مَرْتَبَةُ الأبْرار هي الوسْطَىٰ بَيْنَ المحْسِنينَ والمتَّقين.

وَإذا كان القرآن هدىً وَرَحْمَةً للمحسنين، فَهُو هدىً وَرَحْمَةٌ للأبْرَارِ وللمتَّقين حَتْماً، لأنَّ أَصْحَابَ المَرَاتِبِ الأدْنَىٰ أَحْوَجُ إِلَىٰ الرَّحْمَةِ لِيَرْتَقُوا بِها إِلَىٰ الدَّرَجاتِ الأعْلَىٰ.

■ ووصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المحسنين في هٰذا الدَّرْسِ بِصِفَاتٍ مُعْظَمُها مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، لِأَنَّ صِفَاتِ أَهْلِ المراتِبِ الأدْنَىٰ هِي من صِفَاتِ أَهْلِ المراتب الأعْلَىٰ مَعَ زِيادَةٍ عَلَيْها، فقال تَعالى:

● ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④﴾:

﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: يُؤَدُّونَ الصَّلَواتِ المفروضَةَ الَّتِي سَبَقَ إِلْزَامُ المؤمنين المسْلِمينَ بِها، في لَيْلَةِ الإسْرَاء، والَّتِي سَبَقَ بَيانُها وَالتَّنْوِيهُ بِشَأْنِهَا لَدَىٰ تَدَبُّر سورة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول).

والمراد بإقامَةِ الصَّلَاة: المداوَمَةُ والمواظَبَةُ على أدائها في أوقاتها،

وأداؤها على الوجْهِ الشَّرْعِيِّ المطلوبِ فيها، وجَعْلُها مستقِيمَةً خالِصةً لِوَجْهِ اللهِ، لا عِوَجَ فيها ولَا رِيَاءَ، ولَا زيادَة، ولَا نَقصاً.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي: وَيُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بالإنْفَاقِ فيها، وَفِي مُقَدِّمَتِها إعْطَاءُ الفقراء وَذوي الحاجات من المؤمنين المسلمين.

وَهٰذا التكليفُ قَدْ كَانَ مُنَزَّلاً في الْعَهْدِ المَكِّيِّ دُونَ تَحْدِيدٍ للمقادِيرِ الواجِبَةِ من الزَّكاة، ثُمَّ جَاءَ فِي الْعَهْدِ المَدَنِيِّ تَحدِيدُ أنْصِبَةِ الزَّكاةِ وَمَا يَجِبُ فيها.

الزكاة: هي في اللُّغَة الطَّهارَة مِنَ النجاسَاتِ والْأَرْجَاس، وتأتي بمَعْنَىٰ النَّماء.

وأُطْلِقَتْ فِي الاصطلاح الدّيني على ما يَجِبُ على المسْلِم أَنْ يُنْفِقَهُ من أمْواله، للفقراءِ والمساكِين وسائر الأصناف الثمانية، إذْ هو بهٰذا الإنفاق يُطَهِّرُ أَمْوالَهُ، وَيجْعَلُها مُؤَهَّلَةً للنَّماءِ بفَضْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

الْيَقِينُ: هو الْعِلْمُ الَّذي لَا شَكَّ فيه، وأدنَىٰ مَرَاتِبِهِ ما اعْتَمَدَ على أدِلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ أَوْ خَبَرِيَّةٍ صَادِقَةٍ لَا شَكَّ فيها.

فَمِنْ صِفَاتِ الْمُحْسِنينَ الذين يكونُ القرآنُ هُدىً وَرَحْمَةً لَهُم، أَنَّهُمْ يُوقِنُونَ بِأَنَّ الحياةَ الآخِرَةِ، والدَّارَ الآخِرَةِ حَقٌّ لَا شَكَّ فيه.

وَجاء في العبارة التَّوْكِيدُ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ فِي: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْيَقِينَ الْكَامِلَ مِنْ دَرجَاتِهِ ومَرَاتِبِهِ الْعُلْيا هو مِنْ خَصَائِصِ الْمُحْسِنين، إذْ جَعَلَ هٰذا الضَّمِيرُ الْجُمْلَةَ بِقُوَّةِ الْجُمْلةِ الاسميَّةِ الَّتِي جاء فيها المسْنَدُ والمسنَدُ إِلَيْهِ مُعرَّفَيْن، فهي تُفِيدُ الْقَصْر.

وبهٰذا الْفَهْمِ يَكُونُ الْيَقِينُ بالآخِرَةِ مِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِ المحسنين، أمَّا المتَّقُونَ أَهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ فيَكْفِيهِمْ أَن يَكُونُوا مُؤْمِنِين بالآخِرَةِ إيمانَ تَصْدِيق، وَعَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول):

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

■ وَأَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الْمُحْسِنين بِقَوْلِهِ فِي آخِرِ هٰذا الدَّرْس الأول:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾:

أشار اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ باسم الإشارَةِ الموضوع للبعيدينَ، للدَّلالَةِ على ارْتِفَاعِ دَرَجَاتِهِمْ عِنْدَهُ إِذْ هُمْ مُحْسِنُونَ، فجاءَت الإشارة إليهم بِعِبارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مَرَّتَيْن.

﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾: أي: أُولَئِكَ سَائِرُون علَىٰ صِرَاطٍ وَطَرِيقِ حَقٍّ وَرُشْدٍ، مُبيَّنٍ مِنْ رَبِّهِمْ.

يُسْتَعْمَلُ «الْهُدَىٰ» بمعنى الصِّراطِ وهو طَرِيقُ الحقِّ والرُّشْدِ والخيرِ، وهذا هُوَ الملائم هنا.

- ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي: وَأولَئِكَ هُمْ وَحْدَهُمْ هُمُ الظَّافِرُون الْفَائِزُونَ فَوْزاً لَا يُدَانِيهِ فَوْز.

يقال لُغَة: «أَفْلَحَ، يُفْلِحُ» أي: ظفِرَ بما يُرِيدُ، وفَازَ بالنعيم العظيم يوم الدين.

وبهٰذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الأول من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقِهِ، وفتحه.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (لقمان) وهو الآيتان (٦) و(٧)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

القراءات:

(٦) • قرأ ابن كثير، وأَبُو عَمْرو: **[لِيَضِلَّ]** من فعل: «ضلَّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لِيُضِلَّ]** من فعل: «أَضلَّ».

وَبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاء المعْنَىٰ المراد، إِذْ مَنْ يَشْتَري لَهْوَ الحديثِ يَضِلُّ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ يُضِلُّ غَيْرَه.

(٦) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، وشُعبة، وأبو جعفر: **[وَيَتَّخِذُهَا]** برَفع الفعل عطفاً على «يَشْتَرِي».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَيَتَّخِذَهَا]** بالنَّصْبِ، أي: ولِيَتَّخِذَهَا.

(٦) • في لفظ: **[هُزُواً]** عدَّةُ قراءات هي من اللهجات العربية: «هُزْءاً» و«هُزاً» و«هُزْوَاً» و«هُزُؤاً».

(٧) • قرأ نافع: **[أُذْنَيْهِ]** بإسكان الذال.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أُذُنَيْهِ]** بضمّ الذّال.

وهُمَا نُطْقَانِ عَربيان.

تَمهيد:

في هاتَيْن الآيتَيْن بَيانٌ لحالِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَة، إذَا تُلِي عليهِم القرآن المجيد، فَهُمْ يُعْجِبُهم في الحياة الدّنيا الاشتغال بالمُلْهِيَات، وَمِنْها لَهْوُ الحديث، ولو بَذَلُوا مالاً للاستمتاعِ بِها، ضالّين مُضِلّين، أَوْ ضالين فقط.

ويَنْفِرُونَ من الاسْتِماع إلى آيات القرآن المجيد، وما تُوضِحُهُ من سبيل اللهِ الموصل إلى جنَّاتِ النّعيم يَوْمَ الدِّين، ويَسْتَهْزِئونَ بها، إذْ لَا يَجِدُونَ فيها مَنْفَعَةً دُنْيَوِيَّةً عاجلَة، ولَا مُتْعَةَ تَسْلِيَةٍ بحكايَاتها، فهم لا يؤمِنُون بالآخرة.

وإذا تُتْلَىٰ عليهم آيات اللهِ أدارُوا ظُهُورَهُمْ وَنَأَوْا، لئلَّا يسمَعُوها، واسْتَكْبَرُوا عَنْ سَمَاعِها، شُعوراً مِنْهُمْ بأنَّها دُونَ مَا يَهْتَمُّون بِهِ لمصالحهم الدُّنيويَّة، أَوْ لمتْعَتِهِم، فحالُهُمْ مَعَها كأنَّهُمْ لم يَسْمَعُوها، كأنَّ فِي آذَانِهِمُ صَمَماً، أَوْ شِبْهَ صَمَم.

هـٰذا الْفَريق من النَّاسِ وَاقفٌ عَلَىٰ الطرفِ الأقْصَىٰ المضاد لِلْمُحْسِنين، الَّذِين جاء البيان عَنْهُم في آيات الدَّرْس الأول.

إنَّ المحسنين يَرَوْنَ كِتَابَ اللهِ هُدىً وَرَحْمَةً لَهُمْ مِنْ رَبِّهم، فَهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ سَماعاً، وتِلَاوَةً، وتَدَبُّراً، وعَمَلاً بِهَدْيه، فهم بذلِكَ يَكُونُونَ عَلَىٰ هُدىً من رَبّهم، وتكونُ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ هم المفْلِحُونَ فَلاحاً مِنَ الدَّرَجاتِ السَّاميات عند رَبّهم.

أمَّا الفريق الواقف على الطرفِ الأقْصَىٰ المقابل لِلْمُحْسِنِين، فَهُمْ يَرَونَ دَلَالَاتِ آياتِ كتابِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ دُون مُسْتَوىٰ اهْتِمَامَاتِهم في الحياة الدُّنْيا، فَيَسْتَكْبِرُونَ عَنْ سَمَاعِهَا، ويَنْفِرُونَ مِنها إذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ وَيُصِمُّونَ آذانَهُمْ.

إنَّ هـٰؤلاء ضالُّونَ في أنْفُسِهِم، أو هم ضَالُّون مُضِلُّون، ولهم يَوْمَ الدِّينِ عِنْدَ رَبِّهِمْ عَذابٌ أَلِيم، فَبَشِّرْهم أيُّها الداعِي إلى اللهِ بهـٰذا الْعَذابِ الأليم الذي سَوْفَ يُعَذَّبُونَهُ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦﴾:

وَفي القراءة الأخرىٰ: **[لِيَضِلَّ]** و**[يَتَّخِذُها هُزُواً]**.

أي: وفي مُقَابِلِ المحسِنين الَّذينَ تَكُونُ آياتُ القرآنِ هُدىً ورَحْمَةً لَهُمْ، فيتعَلَّقُونَ بها سماعاً، وَتِلاوَةً، وَتَدَبُّراً، وَاهْتِدَاءً بِهَدْيِها، يُوْجَدُ ضَالُّونَ وَمُضِلُّونَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَة، فتَتَعَلَّقُ نُفُوسهم وقُلُوبُهُمْ بِمُلْهِيَاتٍ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، ومِنْهَا لَهْوُ الْحَدِيثِ، الَّذِي يَشْغَلُونَ بِهِ أَوْقَاتاً كَثِيرَةً مِنْ حَيَاتِهِمْ، وَلَوْ بَذَلُوا للاسْتِمْتَاعِ بِهِ أمْوالاً، وَهـٰذا اللَّهْوُ يَجْعَلُهُم ضَالِّينَ عَنْ سَبيلِ اللهِ، وَقَدْ يَجْعَلُهُمْ مُضِلِّينَ غَيْرَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مِنَ الَّذِينَ يُقَلِّدُونَهُمْ، أَوْ يَسْتَجِيبُونَ لإِغْرَاءَاتِهِم بالملاهي الَّتِي لَا فَائِدَةَ حَقِيقِيَّةً تُرْجَىٰ مِنْهَا.

وهـٰذا الضَّلالُ أَوِ الإضْلَالُ لَا يَقْتَرِنُ بِعِلْمٍ يُسَوِّغُهُ، بَلْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ أهْوَاءِ النُّفُوسِ وَالشَّهَوَاتِ، ومُغْرِيَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنياً، ومِنْ قَبِيلِ الاسْتِمْتَاعِ بِمَا يُلْهِي عَنِ الْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ المفيدةِ في العاجِلَةِ والْآجِلَة.

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: أي: وَبَعْضُ النّاس.

- ﴿مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: أي: مَنْ يَبْذُلُ مَالاً لِيسْتَمْتِعَ بالْحَدِيثِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ لَهْواً عمَّا هُوَ نَافِعٌ وَمُفِيدٌ في عاجِلِ حَيَاةِ الإنْسَانِ وَآجِلِها يَوْم الدين، ومَعْلُومٌ أنّ كُلَّ الملْهِيَاتِ تُبْذَل فيها أموالٌ كثيرة.

اللَّهْوُ: كُلُّ أَمْرٍ غَيْرِ ذي قِيمَةٍ صَحِيحَةٍ يَشْغَلُ عمَّا يَجِبُ تَوْجِيهُ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ. وإضافة «لَهْو» إلى «الحديث» من إضافة الصّفة إلى الموصوف، أي: الحدِيثَ الموصوف بِأَنَّهُ لَهْوٌ.

ولَهْوُ الحديثِ يَدْخُلُ فِيهِ: قِراءَةُ الْقِصَصِ والحكاياتِ وسَمَاعُها مِنَ الْقَصَّاصِين، وأغْلَبُهَا مَوْضُوعٌ للتَّلَهِي، وَشَغْلِ الأوْقَاتِ بها. والتَّمثيلِيَّاتُ الَّتِي تَلْتَهِمُ أَوْقَاتَ النَّاسِ كَمَا تَلْتَهِمُ النَّارُ الحَطَبَ الجافَّ، والنِّفْط السَّرِيعَ الاشْتِعَال، ودَوَاوِينُ الشِّعْرِ القائمةُ على المدْحِ والْهَجْوِ والغزلِيَّات وخُرَافِيَّاتِ الْأَفْكَارِ.

وأقْبَحُ مِنْ لَهْوِ الْحَدِيثِ التَّلَهِّي بآلَاتِ الطَّرَبِ والأغَانِي الساقِطَةِ المُنْحطَّةِ، المثيرَةِ للشَّهوَاتِ، والمحَرِّضَةِ على الْمعَاصِي وارْتِكَابِ كَبَائِرِ الإثْم.

ومن المُلْهِيَاتِ المضيعَاتِ للأوقاتِ بِغَيْرِ فَائدةٍ تُرْجَى، إنْفَاقُ الأوقاتِ الطَّوِيلَةِ في مُشَاهَدَاتِ مُبَارَيَاتِ الألْعَابِ المختَلِفَةِ، الَّتي لا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا المشاهِدُونَ شَيْئاً لِأَجْسَادِهِمْ أَوْ عُقُولِهِمْ أَوْ نُفُوسهم.

ومنَ المُلْهِيَات: الجُلوسُ في المقاهِي وإضَاعَةُ الْأَوْقَاتِ بألعاب طاولاتِ الزَّهْر، وَألْعَابِ الأوراقِ، وامْتِصَاصِ الدُّخَانِ إلى الرِّئَاتِ وَدَفْعِهِ مِنْهَا، ومَا يَجْرِي في مَجَالِسِ الْأُنْسِ والسَّمَرِ ممَّا لَا خَيْرَ فِيهِ لِدِينٍ أَوْ دُنيا.

وَالملْهِياتُ في الحياة الدُّنْيَا كَثِيراتٌ، وَجَاءَ ذِكْرُ لَهْوِ الْحَدِيثِ فِي الْآيَةِ مِثَالاً مِنْ أمْثِلَتِها ليقاس عليه.

وَجاء في بيانَاتِ سَبَبِ النُّزُول: أَنَّ النَّضْرَ بْنَ الحارث كَانَ يُسَافِرُ في تجارةٍ إِلَىٰ بلَادِ فَارِس، فيتَلَقَّىٰ أَكَاذِيب الأخْبَارِ عَنْ أبْطالِ الْفُرسِ في الْحُروبِ المَمْلُوءَةِ بالْخُرَافَاتِ المُسْتَمْلَحَة، والْأَكاذِيبِ الّتي تُعْجِبُ السَّامِعِينَ، فَيَقُصُّهَا عَلَىٰ قُرِيشٍ فِي أسْمَارِهِمْ، ويقول: إن كَانَ مُحَمَّدٌ

يُحَدِّثُكُمْ بأحاديث عادٍ وثَمُود، فأنَا أُحَدِّثُكُمْ بأَحَادِيثِ رُسْتمْ، واسفِنْدِيار، وبَهْرَام. وَكَانَ يَشْتَرِي مِنْ بِلادِ فَارِسٍ كُتُبَ أَخْبَارِ مُلُوكِهِمْ، فَيُحَدِّثُ بِهَا قُرَيشاً.

أقول: إنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ القرآني، لَا بِخُصُوصِ سَبَبِ النُّزُول وإِنْ صَحَّ.

- ﴿لِيُضِلَّ﴾ غَيْرَهُ و[**لِيَضِلَّ**] هو نَفْسُه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: لِتَكُونَ عَاقِبَةُ شَغْلِ الأوقَاتِ بِالْمُلهيَاتِ ضَلَالاً عَنْ سَبيلِ الله المسْتَقِيم، الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَهُ الموضُوعُونَ فِي الحياة الدنيا موضِعَ الامْتِحَانِ، وقَدْ يَحْصُلُ هٰذا الضَّلَالُ والْإِضْلَالُ وهُمْ لَا يَعْلَمُونَ سُوءَ العاقِبَة.

وَقَدْ أَدْرَكَ هٰذا التَّأْثِيرَ في النَّاسِ شَيَاطِينُ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، فابْتَدَعُوا مِنَ الملْهِيَاتِ مَا لَا حَصْرَ لَهُ، لاتّخَاذِهَا وَسَائِلَ إِضْلَالٍ عَنْ سَبيلِ اللهِ المسْتَقِيم، وإِبْعَادٍ عَنْهُ إلى مَتَاهَاتٍ وَمَهَالِكَ تَسْتَنْزِلُ سَالِكِيهَا إِلَىٰ الْوَهَدَاتِ والدَّرَكَات، حَتَّىٰ يكُونوا كُفَّاراً مِنْ أصْحَابِ النَّارِ الْخَالِدِينَ فِيها يَوْمَ الدِّين.

ونُلَاحِظُ تَوَالِيَ المبتكَرَاتِ مِنَ الْمُلْهِيَاتِ، الّتِي يَدْفَعُ بِهَا الشياطين من تُجَّارِ المبتكَرَاتِ الصِّنَاعِيَّةِ إِلَىٰ أجْيَالِ الشُّعُوب، لِقَتْلِ أَوْقَاتِهِمْ فيما لَا خَيْرَ فِيهِ، وفيما يُبْعِدُهُمْ وَيُضِلُّهُمْ عَنْ سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، ويَبْتَزُّونَ بِهَا أَمْوَالاً كَثِيرَةً، كانَ يَجِبُ أنْ تُوفَّرَ لِحَاجَاتِ النَّاسِ وَضَرُوراتِ مَعَايِشِهِمْ وَأُمُورِ آخِرَتهم.

- ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾: أي: ويَتَّخِذَ سَبِيلَ اللهِ الموصِلَةَ إِلَىٰ السَّعَادَة الأبَدِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ شيْئاً مَهْزُوءاً بِهِ.

الْهُزْءُ: السُّخْرية، أُطْلِقَ المصْدَرُ فِي مَوْضِعِ اسْمِ المفْعُولِ للدَّلَالة على أنَّ كُلَّ عَنَاصِرِ سَبِيلِ اللهِ قد تكُونُ عِنْدَ هٰؤُلَاءِ أشْيَاءَ يَسْتَهْزِئُونَ بها.

إنَّ مِنَ المَعْرُوفِ في طَبائِعِ النَّاسِ، أنَّهُمْ إذَا تَعَلَّقُوا بشيءٍ اسْتهواهُمْ مِنْ مَتاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وَجدُوا كُلَّ صَارِفٍ لَهُمْ عَنْهُ شَيْئاً لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْبَؤُوا به، أو يَكْتَرِثُوا لَهُ، فإذا دُعُوا إِلَيْهِ اسْتَهْزَؤُوا بِهِ وسَخِرُوا، وسَفَّهُوا دَاعِيَهُمْ إِلَيْه.

ومن الأمْثِلَة على هـٰذا، مَا هُو مُلَاحَظٌ لَدَىٰ المستغرقين في مَلْهَاتِهم، أَنَّهُ إذا دَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ وَدَعَاهُمُ الدَّاعِي إلى تَأْدِيَةِ الْفَرِيضَةِ وَهِيَ مِنْ سَبيلِ اللهِ، اسْتَنْكَرُوا دَعْوَتَهُ لَهُمْ وَهُمْ يَرْمُونَ بأَحْجَارِ الزَّهْرِ مَثلاً، لِيَعْرِفُوا حُظُوظَهُمْ مِنْ أعْدَادِ نِقَاطِهَا، ووَجَّهُوا عِبَارَاتِ السُّخْرِيَةِ بِهِ، والاسْتِهْزَاءِ مِنْهُ، ورُبَّما اسْتَهْزَؤوا بِالصَّلَاةِ وَحرَكَاتِهَا، إِذَا لَمْ يَكُونُوا مؤمِنِين مُسْلِمِينَ، وهـٰذا مِنَ الهزْءِ بِسَبِيلِ الله.

فَمَا بَالُكَ بالمقامِرينَ، والسُّكارَىٰ، والمُسْتَغْرِقِينَ بالاسْتِمْتَاعِ بِشَهَوَاتِهِمْ من النِّسَاء.

وَنَجِدُ قَرِيباً مِنْ هـٰذا لَدَى الشَّغُوفِينَ بمُشَاهَدَةِ الأَلْعَابِ الرِّيَاضِيَّةِ، الَّتِي هِيَ الملهَاةُ الْعُظْمَىٰ، لِجَماهِيرِ النَّاسِ في هـٰذا العصر الذي نَعِيشه.

وَقَد أبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَصِيرَ الَّذِينَ يَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ضَلالاً مُكَفِّراً، فَقَالَ تَعالَىٰ:

- ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦﴾:

أي: أولَئِكَ الْبُعَداءُ المنْحدِرُونَ في اتِّجاهِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ، أُعِدَّ لَهُمْ يَوْمَ الدِّين عَذَابٌ مُهِينٌ.

مُهِين: أي: مُذِلٌّ مخزٍ. وهـٰذَا الإذْلَالُ والاحْتِقَارُ لَهُ يَكُونُ فِي مُقَابِلِ اسْتِهْزَائِهِ بِعَنَاصِرِ سَبِيلِ الله، واحْتِقَارِه لَهَا في الحياة الدُّنيا، إِذْ كَانَتْ تَشْغَلُهُ عَنْهَا المُلْهِيَاتُ الَّتِي كَانَ يَجِدُ فِيهَا مُتْعَاتٍ تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بها، فَصَارَ يَحْتَقِرُ مِنْ أَجْلِهَا عَنَاصِرَ سَبِيلِ اللهِ الْمُوصِلِ إلى السَّعَادَة الأَبَدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، إِذْ هُو غَيْرُ مُؤْمِنٍ بالآخِرَة.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُتابِعاً وَصْفَ الَّذِي يَشْتَرِي لَهْوَ الحديثِ لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وهُو لَا يُؤْمِنُ بالآخِرَة:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾.

دَلَّتْ هٰذِه الآيَةُ علَىٰ أَنَّ هٰذا الْفَرِيقَ مِنَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ، فِي مُقَابِلِ الْفَرِيقِ الَّذِينَ جاء بيانٌ عَنْهُمْ في الدّرْس الأَوَّلِ، الَّذِينَ هُمْ بالْآخِرَةِ هُمْ مُوقِنُون.

وبما أَنَّ الْفَرِيقَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بالْآخِرَةِ لَا يَجِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا يُمَتِّعُهُ فِي دُنْيَاهُ، فإنَّ مِنْ آثارِ كُفْرِهِ بِيَوْم الدِّينِ أَنْ يَجِدَ مَا يَدْعُوهُ إلى سُلُوكِ سَبِيلِ اللهِ أَمْراً بَاطِلاً، وَأَنْ يرَىٰ إِضَاعَةَ الْوَقْتِ فِي اسْتِمَاعِ مَا يُبَيِّنُ عَنَاصِرَ سَبِيلِ اللهِ خَسَارَةً مِنْ عُمْرِهِ، وَأَنَّ مِنْ مَصْلَحَتِهِ أَنْ لا يَخْسَرَ شَيْئاً مِنْ عُمْرِهِ فِيمَا لا فَائِدَةَ لَهُ بِهِ، وَلَا سِيَّما إذَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَىٰ تَرْكِ مَا هُو فِيهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا الَّتِي هو مُتَعَلِّقٌ بِها.

إنَّ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ فيما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ هِدَايَةٍ، مُنَفِّرَةٌ بالنِّسْبَةِ إلى نَفْسِهِ، وَمَا تُؤْمِنُ بِهِ وَمَا تَكْفُرُ به، فَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ أَدَارَ ظَهْرَهُ وابْتَعَدَ عَمَّنْ يَتْلُوها عَلَيْهِ، مُسْتَنْكِراً وَمُسْتَكْبِراً.

دَلَّ عَلَىٰ اسْتِنْكَارِهِ تَوَلِّيهِ وابْتِعَادُه، وَدَلَّ عَلَىٰ اسْتِكْبَارِه قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: هُوَ يَرَاهَا دُونَ مَعَالِي الْأُمُور الَّتِي يَهْتَمُّ بها.

إِنَّهُ لَا يَخْطُرُ في بَالِهِ أَنْ يَقْرَأَ شَيْئاً مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فِي كِتَابِهِ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بالْقُرْآن ولا بِجَدْوَىٰ قِرَاءَتِهِ لَهُ، لَكِنْ قَدْ يَتْلُو عَلَيْهِ دَاعٍ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ شَيْئاً مِنْ آياتِ الْقُرْآنِ، فإذَا سَمِعَها اشْمأَزَّتْ نَفْسُهُ وَنَفَرَتْ مِنْ سَمَاعِهَا، لِأَنَّهَا تَتَحدَّثُ عَنْ أشْياءَ هُو كافِرٌ بِها، ويَرَىٰ الحديث عَنْها مِنَ السَّفَاهَةِ.

وَيُعَبِّرُ عَنْ نُفُورِ نَفْسِهِ مِنْ سَمَاعِهَا، بانْصِرَافِهِ عَنْ مَكَانِ التِّلَاوَةِ

جَسَدِيّاً، أَوْ بانْصِرَافِ حَوَاسِّهِ عَنِ الاسْتِمَاعِ لَهَا، حتَّىٰ كَأَنَّهُ أَصَمُّ، أَوْ قَرِيبٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَصَمَّ.

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾: أي: وَإِذَا تَلَا عَلَيْهِ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ داعٍ إلى اللهِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِنَا في الكِتَاب الحكيم القرآن.
- ﴿وَلَّىٰ﴾: أي أَدْبَرَ وَنَأَىٰ عَنْ مَكَانِ التِّلَاوَةِ جَسَدِيّاً، أَوْ نَفْسِيّاً. يُقَالُ لغة: «وَلَّىٰ عَنِ الشيءِ يُوَلِّي» أي: أَدْبَرَ عَنْهُ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الإدْبَارِ نَأْيٌ وابْتعاد، فيكُونَ المعنى: أَدْبَرَ ونَأَىٰ.

والمدْبرُ النَّائي عَن الشيءِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَنْكِراً لَهُ وَنَافِراً مِنْه.

- ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾: أي: مُتَرفِّعاً عَنْهُ بِشِدَّةٍ، لِأَنَّهُ يَرَاهُ شَيْئاً لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، فَهُوَ يَحْتَقِرُهُ، وَلَا يَعْبَأُ بِهِ، وَلَا يَجِدُهُ أَهْلاً لِأَنْ يَنْزِلَ إِلَىٰ مَكَانِهِ المنْخَفِضِ عَنِ المعالِي الَّتِي تُهِمُّهُ، ويرَىٰ أَنَّها جَدِيرَةٌ بِتَوْجِيهِ عِنَايَتِهِ.

الاسْتِكْبَار: الشِّدَّةُ والْغُلُوّ فِي مَشَاعِرِ الكِبْر.

- ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: أي: إنَّ حَالَةَ نُفُوره النَّفْسِيِّ عَنْ آياتِ اللهِ تَجْعَلُهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا، فإذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا قَالَ: لَا أَدْرِي.
- ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: أي: كأنَّ في أُذنَيْه صَمماً، أَوْ ضَعْفاً شديداً في السَّمْع قَرِيباً من الصَّمَم.

الْوَقْرُ: صَمَمٌ، أَوْ ثِقَلٌ شَدِيدٌ في السَّمْعِ قَرِيبٌ مِنَ الصَّمَم.

وفي خِتَام هـٰذا الدَّرسِ عَلَّمَ اللهُ المؤمِنَ الْمُسْلِمَ أَنْ يَقُولَ لِهـٰذَا الإنْسانِ مِنْ هـٰذا الْفَرِيقِ: أَبْشِرْ بعَذَابٍ أليم عنْدَ رَبِّكَ إذَا لَمْ تَفِئْ إِلَىٰ رُشْدِك، بتَدَبُّرِ آيات كِتَابِ رَبِّك، فقال اللهُ عَزَّ وَجلَّ له: ﴿.. فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦﴾. الأصْل في الْبِشَارَةِ أَنْ تكونَ إخباراً بِمَا يَسُرُّ، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ في الإخْبَارِ بما يَسُوءُ، لُغَةً أو على سبيل التهكُّمَ.

وبهـٰذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (لقمان). والحمدُ لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

(٨)

التدبر التحليلي للدَّرْسِ الثالث من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيتان (٨) و(٩)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

تَمْهيد:

في مُقَابِلِ الْعَذاب الْمُهِين والْأَلِيم الَّذِي جاء بَيَانُ إعْدادِه لِلْكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ، وَيَتَّخِذُونَ آيات اللهِ هُزُواً، وَيَسْتَكْبِرُونَ عَنْ سَمَاعِها، في الدَّرْس الثاني السَّابق. جَاءَ في آيَتَيْ هٰذا الدَّرْسِ الثالِثِ التبْشِيرُ بِالْخُلُودِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحات.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾:

أبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في هٰذِهِ الآية، أَنَّ الظَّفَرَ باسْتِحْقاق جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين يَكُونُ لِلَّذِينَ تَحقَّقَ فِيهِمْ شَرْطَانِ:

الشَّرْط الأول: أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا أَوْجَبَ اللهُ على الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان أَنْ يُؤْمِنُوا به، وهي أَرْكَانُ الإيمان السِّتَّةُ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِها مِنْ تَفْصِيلات.

الإيمان: تَصْدِيقٌ إرادِيٌّ واعْترافٌ قَلْبِيٌّ بِعَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانيَّةِ في الْإسلام، ولَيْسَ مُجَرَّدَ عِلْم بِهٰذِهِ العناصِر، فالْعِلْمُ غَيْرُ المصْحُوبِ بِتَصْدِيقٍ إراديٍّ في الْقَلْب لَيْسَ إيماناً، بَلْ قَدْ يَكُونُ مصحوباً بِجُحُودٍ، وهو من أَشَدِّ دَرَكَاتِ الكُفر.

ويَتْبَعُ التَّصْدِيقَ الإرَادِيَّ عَاطِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مُلائمةٌ لَهُ، ثمّ تَأْتي الإرَادَاتُ السُّلُوكِيَّةُ مُوَجَّهَةً مِنْ عَامِلَيْن: الإيمان، والعاطفة النفسيّة.

الشَّرْطُ الثاني: أَنْ يَعْمَلُوا الصَّالِحَات، أي: أَنْ يَعْمَلُوا أَعْمَالاً صَالِحَاتٍ تُرْضِي اللهَ عَنْهُم، كإعْلَانِ الشهادَتَيْنِ، وإعْلَانِ الاسْتِسْلَامِ لله وَلِأَوَامِره، والدُّعَاءِ للهِ وحْدَهُ دُونَ إشراكٍ بِهِ، وأداءِ بَعْضِ الْفُرُوضِ والواجبات، وَبَذْلِ المالِ ابتغاء مَرْضَاةِ الله، والابْتِعَادِ عَنْ بَعْضِ المحرَّمَاتِ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

هذا الشَّرْطُ يُمَثِّلُ تَعْبِيراً عَمَلِيّاً عَنْ صِحَّةِ الإيمانِ الإرَادِيِّ الاعتقاديِّ.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ اللّام في ﴿لَهُمْ﴾ هي لَام الاستحقاق، أي: هُمْ يَسْتَحِقُّونَ بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ جَنَّاتِ النّعِيم يَوْمَ الدِّين.

جاء لفظ «جَنَّات» جمعاً، لِأَنَّ دَارَ نَعِيم المؤمنين في الآخِرَةِ ذَاتُ أَقْسَامٍ كَثِيرَةٍ جِدّاً، كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا هو جَنَّةٌ فِيها كُلُّ مَا يُحَقِّقُ كُلَّ نَعِيمِ المقيمِينَ فِيه، فَهِيَ جَنَّاتٌ كَثِيراتٌ في دَارٍ عُظْمَىٰ وَاحِدَةٍ تُسَمَّىٰ «جَنَّة».

النّعِيم: خَصَّ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَذَّاتِ الجنَّةِ والسَّعَادَاتِ الَّتِي تكُونُ فيها بلَفْظِ «نعيم ـ وَالنَّعِيم».

وخَصَّ لذَّاتِ الحياة الدُّنيا بلفظ «متاع» لسُرْعَةِ زَوَالِها وقِلَّةِ قِيمَتِها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا ۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾:

أي: لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ جَنَّاتُ النَّعِيم حَالَةَ كَوْنِهِمْ خَالِدِين فِيها خُلُوداً أبَدِيّاً بِلَا نِهَايَةٍ.

ومثل هٰذه الحال تُسَمَّىٰ عِنْدَ النُّحاة حَالاً مُقَدَّرَة، أي: حالَة كَوْنِ خُلُودِهم فيها أَمْراً مُقَدّراً بِتَقْدِير اللهِ وَقَضائه.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾:

الْوَعْدُ: الْإِخْبَارُ بِمَا تَمَّتْ بِتَحْقِيقِهِ إِرَادَةُ المخْبِرِ في المستقبل، مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، يقالُ لغة: «وعَدَهُ بخير، ووعَدَهُ بِشَرّ».

أمّا الْوَعِيد والإيعادُ فَهُمَا في الشّرِّ خَاصَّة.

وَعْدَ اللهِ: «وَعْدَ» مَنْصُوبٌ علىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ نَائِبٌ عَنْ فِعْلِه، وأصْلُ الكَلَام: وَعَدَهُمُ اللهُ بِدُخُولِ جنَّاتِ النَّعِيم وَعْداً مُؤَكَّداً لا خُلْفَ فِيهِ.

حَقّاً: أَيْ: حَالَةَ كَوْنِ وَعْدِ اللهِ حَقّاً، مُراداً بِهِ تَحْقِيقُهُ في الْوَاقِعِ مُسْتقبلاً، ومَعْلُومٌ مِنْ عَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ أَنَّ اللهَ لَا يَخْلِفُ الميعاد، إِذْ هُوَ الْعَلِيمُ الحكِيمُ فيما يُقَدِّرُهُ ويَقْضِي به، والقدير على تَنْفِيذِ مَا يَعِدُ بِهِ، لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَهُو يَكُون.

- ﴿.. وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾: خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هٰذا الدَّرْسَ باسْمَيْنِ جَلِيلَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، مُنَاسِبَيْن لمضْمُونِ وَعْدِهِ الَّذي وَعَدَهُ عبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات.

الْعَزِيز: أي: القويُّ الغالِبُ الَّذي لَا يُغْلَبُ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ تَحْقِيق مَا يَشَاءُ مَهْمَا كَانَ عظيماً وَدَقِيقاً، وَيَحْتَاجُ أعْظَمَ وَأجَلَّ إتْقَان، فهو بعِزَّته يخْلُقُ ما يُريد.

الْحَكِيم: أي: الّذِي يَضَعُ كُلَّ شيءٍ في الموضع الملائم بإتقانٍ كامل، ويَخْتَارُ أفضل الأشياء وأتْقَنها وَأحْسَنَها في الْأُمُورِ المختَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أحْسَنَ الأعمال وأحْسَنَ النَّتَائِج، فهو بِحِكْمَتِهِ يُقدِّرُ وَيَقْضِي عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ وَأَحْسَنِهِ وَأَتْقَنِه.

وبهٰذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفَتْحِه.

* * *

(٩)

التدبّر التّحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (لقمان) وهو الآيتان (١٠) و(١١)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

تمهيد:

مِنْ عِنَايَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ الّذِينَ يَتوَلَّونَ نَافِرِينَ عَنْ آياتِ اللهِ فِي كِتَابِهِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ هُدىً وَرَحْمَةً، لِيُبَيِّنَ للنّاسِ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ سَبِيلَهُ المسْتَقِيمَ، الْمُوصل لِمَنْ سَلَكَهُ إلى السَّعَادَةِ فِي جَنَّاتِ النعيم خالِدِينَ فيها يَوْمَ الدّينِ، قَدَّمَ لَهُمْ فِي آيَتَيْ هـٰذا الدّرْسِ تَنْبِيهاً علَىٰ بَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، الدَّالّاتِ علَىٰ قُدْرَتِهِ العظيمة، وَحِكْمَتِهِ البالِغَةِ، وإِتْقَانِهِ لِكُلِّ شيءٍ، وكَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ لِكَوْنِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ هـٰذا الكَوْنَ عَبَثاً، وأَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يكونَ قَدْ خلَقَ الناسَ لِيَبْلُوَهُمْ ويَخْتبِرَهُمْ في ظروفِ الحياة الدُّنيا، أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وأَيُّهُم الْمُسِيءُ الَّذِي يَقْتَضِي الْعَدْلُ أنْ يُجازَىٰ بِحسَبِ عَمَلِهِ، كَمَا يَقْتَضِي الْفَضْل أَنْ يُثَابَ الْمُحْسِنُ علَىٰ إِحْسَانِهِ، في حَياةٍ أُخرَىٰ غَيْر هـٰذه الْحَياةِ الدّنيا.

فَالْحَيَاةُ الْأُخْرَىٰ، والدَّارُ الآخِرَةُ، من الحقائق الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْها بُرْهَانُ الْعَقْلِ، إِذَا تفَكَّرَ مَنْ وَهَبَهُ اللهُ أَداةَ التَّفْكِيرِ والْفَهْمِ فِي الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ الدَّالَّاتِ علَىٰ اللهِ الخالِقِ الرَّبِّ الْعَلِيم الحكيم القدير، الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

وَالظّاهرات الكَوْنِيَّةُ تَدُلُّ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ، الَّتِي يَلْزَمُ عَنْها عَقْلاً وَحْدَانِيَّتُه في إلٰهيَّتِه، فَمَن اعْتَقَدَ غَيْرَ هـٰذا كَانَ ظَالِماً وَفي ضَلَالٍ مُبين.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾.

فِي هـٰذِهِ الآيَةِ يُنَبِّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ أَرْبَعِ آياتٍ ظاهِراتٍ مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، وَهِيَ دَالّاتٌ على طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ لِكَوْنه، الّتي يَلْزَمُ عَنْهَا عقْلاً أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقِ النَّاسَ في الحياةِ الدُّنْيا عَبَثاً، بَلْ هُمْ مُمْتَحَنُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وسَوْف يُحْيِيهِمْ حَيَاةً أُخْرَىٰ يُحَاسِبُهُمْ فِيها عَلَىٰ ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَيَفْصِلُ الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يُجَازِيهِمْ بِمُقْتَضَىٰ حُكْمِهِ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

الآيَة الأولَىٰ مِنَ الظَّاهِرات الكَوْنِيَّة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾: فَاعِل: ﴿خَلَقَ﴾ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ يَعُودُ عَلَىٰ لفظ الجلالَة في ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ من الآية (٩).

السَّمَاوَاتُ: هي مَجْمُوعَاتُ النُّجُومِ المنْبَثَّةِ في الكَوْنِ مِنْ حَوْلِ الأرض، والتي يُقَدِّرُهَا عُلَمَاءُ الْفَلَكِ بِبَلَايين المجرَّاتِ، دُونَ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إلى مَعْرِفَةِ عَدَدِ المجرَّاتِ الموجودَةِ في الكَوْن.

المجَرَّةُ: نظامٌ مِنَ النُّجُوم والْغُبَارِ والغازاتِ المتماسِكَةِ معاً بوساطَةِ الجاذِبية، وَتَنْتَشِرُ المجرَّاتُ فِي الكَوْن. وقُطْرُ بَعْضِ المجرَّاتِ نِصْفُ مَلْيُون

سَنَة ضَوْئية. والسَّنَةُ الضَّوْئِيَّة هِي المسافة التي يَقْطَعُها الضوء في سنة، وَهي نحو (٩,٥ ترليونات كم). ويُوجَدُ في المجرَّاتِ الكبيرَة أكْثَرُ من ترلْيُون نَجْمَة، أمّا المجرَّات الصغيرة فيوجَدُ فيها ما يُقَارِب بَلْيُون نَجْمَة.

وجاء في البيانِ القرآنيّ أَنَّ السَّمَاوَاتِ سَبْعٌ، أيْ: فَهٰذِهِ المجرّات تَنْقَسِمُ إِلَىٰ سَبْعَةِ أقْسَام، كُلُّ قِسْم مِنْها سَمَاءٌ، وهِيَ مُتَتَابِعَةٌ في المدَىٰ الكَوْنِيِّ الْبَعِيدِ الّذي لَا تَسْتَطِيعُ مَدارِكُ الْخَلَائِقِ تَصوُّرَ أبْعَادِه.

وَهٰذِهِ السَّمَاوَاتُ مَوْجُودَةٌ فِي مَوَاقِعِهَا مِنَ الكَوْنِ، مَعَ تَحَرُّكِ نُجُومِها، بِنِظَامِ الجاذِبِيَّةِ الْعَجِيبِ الَّتِي جَعَلَ اللهُ بِهِ لِكُلّ سَمَاءٍ، وَكُلِّ نَجْمٍ وَكَوْكَبٍ فيها، وَلِكُلِّ مَجَرَّةٍ فيها، مَوْقِعاً لَا يَخْرُجُ عَنْهُ إِلَّا ضِمْنَ إِرَادَةِ اللهِ الْمُسَيِّرَةِ لِكُلِّ شَيْءٍ في هٰذا الكَوْنِ، من الذَّرَّةِ إِلَىٰ أَكْبَرِ مَجَرَّة. ولَفْظ «السَّمَاءِ» في اللُّغَةِ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا عَلَا فأظلّ.

والْجَاذِبيَّة الَّتِي يُمْسِكُ اللهُ بِهَا السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيها هي بِمَثَابَةِ عَمَدٍ غَيْرِ مَرْئِيَّةٍ بالْعُيُونِ، ولَكِنْ تُدْرَكُ آثارُها بِضَبْطِ كُلِّ نجم، وكُلِّ كَوْكَبٍ، وَكُلِّ مَجرَّةٍ، وكُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ، في مَوْقِعِهِ أَوْ مَدَارِه أَوْ خَطِّ حَرَكَةِ سَيْرِهِ، ضَبْطاً عجيباً مُتْقَناً، ضِمْنَ نِظَامٍ عَامٍّ شَامِلٍ لِكُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ.

وبناء على هٰذا نَفْهَمُ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أَيْ: بِغَير عَمَدٍ تَرَاهَا الْعُيُون، لَكِنَّهَا جَاذِبِيَّاتٌ هِيَ بِمَثَابَةِ عَمَدٍ غَيْر أَنَّها لَا تَراهَا الْعُيُون، وَهٰذه الْجَاذِبيَّاتُ الَّتِي هي مِنْ خَلْقِ اللهِ العجيب فِي كَوْنِهِ، هِيَ قُوىً غَيْرُ مَنْظُورَةٍ ذَاتُ قُدْرَاتٍ تُحَدِّدُ مَوَاقِعَ السَّمَاواتِ السَّبْعِ وَكُلِّ شيءٍ فِيها، فلَا تَتَحَرَّكُ إِلَّا بنظامٍ رَبَّانِيٍّ يَمْنَعُها مِنَ التَّصَادُم مَا لَمْ يَقْضِ اللهُ بشيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

الْعَمَد: جَمْعُ مُفْرَدُهُ «الْعَمُود» ويُجْمَعُ أيْضاً عَلَىٰ «عُمُدٍ» و«أَعْمِدَة».

الآية الثانِيةُ من الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: أي: وَأَلْقَىٰ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فِي الْأَرْضِ جِبَالاً رَوَاسِيَ مَنْعَ أَنْ تَمِيدَ الْأَرْضُ بِكُمْ.

رَوَاسِيَ: أي: ثَوَابِتَ، وهو صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ هِيَ الجبالُ، إِذِ الواقع المشهود في الأرْضِ أَنَّ الجبالَ هِيَ المُلْقَاةُ الغائِصَاتُ أَسَافِلُهَا فِي الْأَرْض، وهي المثبِّتَاتُ لِلْمُنْبسطَاتِ مِنَ الْأَرْضِ مَانِعَةً لَهَا عَنْ أَنْ تَمِيدَ بالنَّاسِ السَّاكِنِينَ عَلَيْهَا.

يُقَالُ لُغَةً: «مَادَ الشَّيْءُ، يَمِيدُ، مَيْداً، ومَيَدَاناً» أي: تَحَرَّكَ واضْطَرَبَ، فالجِبالُ مُثَبِّتَاتٌ لِلْمُنْبَسِطَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، ومَانِعَةٌ لَهَا مِنْ أَنْ تَتَحَرَّكَ وَتَضْطَّرِبَ، بِالضَّوَاغِطِ عَلَيْهَا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ، بما فِيهَا مِنْ غَازَاتٍ تَمْتَدَّ لِتَخْرُجِ، وَتَحْدُثُ عَنْهَا فِي مَوَاطِنَ عَدِيدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ بَرَاكِينُ تَتَفَجَّرُ بِالْحُمَمِ، وبالصّخُورِ والأتْربَةِ الذَّائِبَةِ السَّائِلَةِ مِنْ شِدَّةِ الحَرارَةِ والْغَلَيَانِ فيها، إِذْ باطِنُ الأرض كُتْلَةٌ نارِيَّةٌ مُلْتَهِبَة.

فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنَبِّهُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآيَةِ مِنْ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، وَهِيَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِه سُكَّانِ الْأَرْض.

الآيَةُ الثالِثَةُ مِنَ الظَّاهِرَات الْكَوْنِيَّة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: أي: وَنَشَرَ فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ، وَنَوْعٍ، وصِنْفٍ مِمَّا خَلَقَ مِنَ الدَّوَاب.

الْبَثُّ: النَّشْرُ والتَّفْرِيقُ فِي مُخْتَلِفِ الجهات، يقال لغة: «بَثَّ الشَّيْءَ، يَبُثُّه، بَثّاً» أي: فَرَّقَهُ، ونَشَرَهُ في مُخْتَلِفِ الْجِهَات.

دَابَّة: هَـٰذا اللّفظ يُطْلَقُ لُغَةً على كُلِّ ما يَدِبُّ عَلَىٰ الأرْضِ مِنْ حَيَوانٍ. يقالُ لغة: «دَبَّ، يَدِبُّ، دَبّاً، وَدَبِيباً» أي: مَشَىٰ على هيئتِهِ. فكُلُّ حيوانٍ يَمْشِي على الأرض أَوْ في دَاخِلِها هو دَابَّةٌ، سَوَاءٌ مَشَى عَلَىٰ قوائم، أَوْ مَشَىٰ عَلَىٰ بَطْنِهِ كالثعابين والدِّيدان وغيرها.

ومـمَّا لَا شَـكَّ فِيهِ أَنَّ مَا بَثَّ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في الأرْضِ مِنْ دَوابَّ خَلَقَهَا بِقُدْرَتِهِ، وأتْقَنَ صُنْعَها بِحِكْمَتِه، مِنَ الأدلَّةِ الْكُبْرَىٰ عَلَىٰ طائفةٍ جَلِيلَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبيَّته لِكَوْنِهِ، وكثِيرٌ مِنْ هـٰذِهِ الدَّوَابِّ فيه مَنَافِعُ للنَّاسِ، إِذَا تَوَصَّلُوا إلى مَعْرِفَةِ خَصَائِصِها وَوَسِيلَةِ الاسْتِفَادَةِ مِنْهَا لِمَعَايِشِهِمْ، وأَدْوِيَتِهِم وغَيْرِ ذَلِكَ.

الآيَةُ الرابعةُ من الظَّاهرات الكونية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾:

الْتَفَتَ البيانُ مِنَ الْغَيْبَةِ إلى التَّكَلُّم، مَعَ اسْتِعْمَالِ ضَمِير المتكلّم العظيم، لِمَا فِي الآيَةِ المبيَّنَةِ هُنَا مِنْ دَلَالَةٍ عَلَىٰ عَظَمَةِ سُلْطَانِ اللهِ، وَعَظِيم مِنَّتِهِ عَلَىٰ عِبَادِه بأَرْزَاقِهِم الَّتِي هِيَ مَادَّةُ بَقَاءِ حَيَوَاتِهِمْ إلى آجالِها، وبالثَّمراتِ المتنوِّعَاتِ اللَّاتي هِيَ مِنْ أَجَلِّ وَسَائِلِ مَتَاعَاتِهِمْ في الحياة الدنيا.

- فنظام تَبَخُّرِ المياهِ وتَكَوُّنِهَا سُحُباً، وَتَخْلِيصِهَا مَنْ كثير مِنَ الشَّوَائِبِ والأَمْلَاحِ التي اخْتَلَطَتْ بِها في الأرْضِ، مِنْ عجائب إتْقَانِ صُنْعِ اللهِ في كَوْنِهِ، عِنَايَةً بِسُكان الْأَرْضِ من الناس والأحْياءِ الْأُخْرَىٰ.

- وَإِنْزَالُ الْمَاءِ الطَّهُورِ مِنَ السَّمَاءِ بِتَقْدِيرِ اللهِ الحكيم، من الدَّلَائِلِ الْكُبْرَىٰ عَلَىٰ حِكْمَتِهِ، وعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَحُسْنِ تَصارِيفِهِ.

- وَإِنْبَاتُ الزُّرُوعِ والْأَشْجارِ، وإِخْرَاجُ الثَّمراتِ الطَّيِّبَاتِ النَّافِعَاتِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ كَرِيم، مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ تَفَضُّلِهِ عَلَىٰ عِبَاده، وَنِعَمِهِ الْجَلِيلَةِ، وَمِنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَها، مع ما فِيها من أَدِلَّةٍ على عظيم قُدْرَتِهِ، وَإِتْقَانِهِ لمخْلُوقاتِهِ، وعِلْمِهِ المحيط بكلّ شيء.

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ: أي: مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الزُّرُوع والْأَشْجارِ والثمرات.

كَرِيم: أي: جَامِعٍ للصّفَاتِ المحْمُودَةِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ صِنْفِه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾:

لمَّا كانَتِ الآيَةُ السَّابِقَةُ (١٠) مُوجَّهَةً إبَّانَ التَّنْزِيلِ للمشْركين، مَعَ صَلاحِيَّةِ تَوْجِيهِهَا لِكُلِّ الكافِرِينَ حتَّىٰ الدَّهْرِيّين، أَتْبَعَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهٰذِهِ الآيَةِ (١١) مُوَجَّهَةً لِمُعَالَجَةِ المشْرِكين، الَّذِين يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُه وعَظُمَ سُلْطَانه ـ فَقَالَ لهم:

● ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾: المشَارُ إلَيْهِ بـ﴿هَٰذَا﴾ الآيَاتُ الْأَرْبَعُ مِنَ الظَّاهِراتِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ شَرْحُها في الآية (١٠).

أي: هٰذَا الَّذِي نَبَّهْنَا عَلَيْهِ في الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّة الْأَرْبَعِ مِنْ آثَارِ خَلْقِ اللهِ.

لفظ «خَلْقِ» هُنَا مَصْدَرُ «خَلَقَ» أُطْلِقَ بمَعْنَىٰ اسْمِ المَفْعُولِ، أي: مَخْلُوقُ اللهِ، أي: مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾: أي: فَأَرُونِي أيُّها المشركون، الّذِينَ تَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُون اللهِ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ لَهَا رُبُوبِيَّةً ما في الكَوْنِ، مَاذَا خَلَقَ مِنَ الكَوْنِ آلِهَتُكُمْ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله رَبّكُمْ، تَلْتَمِسُونَ مِنْهُمْ جَلْبَ نَفْعٍ لكم، أَوْ دَفْعَ ضُرٍّ عَنْكُمْ، أو جَلْبَ ضُرٍّ لِأَعْدَائِكُمْ وَخُصُومِكُمْ.

إنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ مِنَ المشْرِكِينَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ شيئاً مِنَ الكَوْنِ وَأَحْدَاثِهِ، هُوَ مِنْ خَلْقِ آلِهَتِهِ الَّتِي يَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وإذا عَجزَ المشْرِكُونَ عَنْ إثباتِ ذَلِكَ فإنَّ آلِهَتَهُمْ لَا رُبُوبِيَّةَ لَهَا، وَحِينَ تَسْقُطُ رُبوبِيَّتُها

لِشَيْءٍ مِنْ أَحْدَاثِ الكَوْن، تَسْقُطُ إلٰهِيَّتُها باللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ، لِأَنَّ الإِلٰهِيَّةَ حَقُّ مَنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ مَا، وَلَا رُبُوبِيَّةَ في الكَوْنِ لِغَيْرِ اللهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه.

● ﴿.. بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾: لَفْظُ «بَلْ» في هٰذِهِ العبارة يَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف يَسْهَلُ اسْتِخْرَاجُهُ ذِهْناً، إذِ التَّقْدِيرُ: إنَّ المخاطَبِينَ المعالَجِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ شيئاً من الكَوْنِ أو أَحْداثِهِ مِنْ خَلْقِ آلِهَتِهِمْ، بَلْ هُمْ في ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ جَلِيٍّ وَوَاضِحٍ. وضِعَ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بَدَلَ الضمير «هُمْ» لبيانِ أَنّهم ظالمون في شركهم.

وبهٰذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الرابع من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدّرس الخامِسِ من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيات من (١٢ ـ ١٩)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ».

القراءات:

(١٢) و(١٤) ● قرأ أبو عمْرو، وعاصم، وحَمْزَة، ويعقوب: **[أَنِ اشْكُرْ]** بِكَسْرِ النون في الآيتَيْن.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِضَمّ النُّون: **[أَنُ اشْكُرْ]** في الآيتَيْن.

وَهُما نُطْقَانِ عَرَبِيان.

(١٣) ● قرأ حفص: **[يَا بُنَيَّ]** بفَتْحِ الياءِ المشدَّدَة.

وقرأها ابن كثير: **[يَا بُنَيْ]** بإسْكانِ الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَا بُنَيِّ]** بكَسْرِ الياء المشددة.

وهي وُجُوهٌ في النطق العربي.

(١٦) ● قرأ حفْصٌ: **[يَا بُنَيَّ]** بفَتْحِ الياء المشَدَّدَة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَا بُنَيِّ]** بكسر الياء المشدَّدة.

(١٦) ● قرأ نافع، وأبو جَعْفر: **[مِثْقَالُ]** بالرَّفْع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مِثْقَالَ]** بالنَّصْب.

والقراءتان وجْهَانِ نَحْوِيَّانِ جائزَان.

(١٧) ● قرأ الْبَزّي، وحفص: **[يَا بُنَيَّ]** بفتح الياء المشدَّدة.

وقرأها قُنْبُل: **[يَا بُنَيْ]** بإسْكان الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَا بُنَيِّ]** بِكَسْرِ الياء المشدّدة.

(١٨) ● قرأ ابن كثير، وابْنُ عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: **[وَلَا تُصَعِّرْ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَلَا تُصَاعِرْ]**.

«تُصَعِّر، وتُصاعِر»: لُغَتان بمَعْنَىٰ إمَالَة الْعُنُقِ مِنَ الكِبْرِ واحْتِقَارِ الناس.

تَمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ ثَنَاءٌ عَلَىٰ لُقْمَانَ الحكِيم، من خِلَالِ عَرْضِ وَصَايَاهُ الدّينيَّةِ لابْنِهِ، وَمَوَاعِظِهِ لَه، وَتَتَضَمَّنُ تَوْجِيهاً لِلْآبَاءِ بِأَنْ يُوصُوا وَيَعِظُوا أَبْنَاءَهُمْ بِمِثْلِهَا.

وَجَاءَ فِي أَثْنَائِهَا عَرْضُ وَصِيَّةِ اللهِ الإنْسَانَ بوالِدَيْهِ، للإشعار بأَنَّ وَصَايا لُقْمَانَ وَمَوَاعِظَهُ لابْنِهِ هِي مِمَّا تَلَقَّاهُ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوّاتِ السَّابِقَةِ لَهُ، فَهِي جُزْءٌ مِنَ التَّعْلِيمَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ للنَّاس، وَهـٰذا الأسْلُوبُ قَدْ تَكَرَّرَ في القرآن، وهو من الْأَسَالِيبِ الَّتِي يُدْرِكُها الْفُطَنَاءُ، وَقَدْ يَسْتَعْمِلُها بَعْضُ أَذْكِيَاءِ الشُّيُوخِ لإقرار مَا يَقُولُهُ وَيَشْرَحُهُ بَعْضُ تَلَامِيذِهِمْ في مَجْلِسِهِمْ، فَيُضِيفُونَ إِلَىٰ مَا يَقُولُونَ أقوالاً مِنْ عِنْدِهِم.

تعريفٌ بِلُقْمَان:

(١) لَمْ يَأْتِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ «لُقْمَانَ» كان نَبِيّاً، فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ حَكِيمٌ، دَاعٍ إلى اللهِ بالْحِكْمَةِ والموعِظةِ الحسَنَة، وهـٰذا ما عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ والمؤرّخون.

(٢) أَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ تُفِيدُ أنَّهُ كَانَ أَسْوَدَ الْجِسْم، فقِيلَ: هُوَ مِنْ بِلَادِ النُّوبَة، وقيل: مِنَ الْحَبَشَة.

(٣) قالُوا: وَكَانَ في زَمَنِ دَاوُد عَلَيْهِ السلام.

(٤) قال ابن إسْحاق في السِّيرَة: قدِمَ سُوَيْدُ بْن الصَّامتِ أَخُو بَنِي عَمْرو بن عَوْفٍ مَكَّةَ حَاجّاً أَوْ مُعْتَمِراً، فتصَدَّىٰ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَدَعَاهُ إلَىٰ الإسْلَام، فقال له سُوَيد: فَلَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلُ الَّذِي مَعِي، فقال لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟». قال: مَجلَّةُ لُقْمان. فقالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «اعْرِضْهَا عَلَيّ»، فعَرَضَهَا عَلَيْه، فَقَالَ: إنَّ هٰذا الكلامَ حَسَنٌ، والَّذي مَعِي أَفْضَلُ مِنْ هٰذا، قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ الله.

(٥) كَانَ لُقْمَانُ الحكيم مَعْرُوفاً عِنْدَ الْعَرَبِ، وهٰذا مَا جَعَلَ قُرَيشاً يَسْأَلُونَ الرَّسُولَ ﷺ عَنْهُ، كَمَا جاء في سبب نُزُولِ هٰذِهِ السُّورَة.

التدبُّر التَّحْلِيلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

العطف بالواو في أوّلِ هٰذا الدّرْسِ هو مِنْ عَطْفِ مَوْضوع عَلَىٰ مَوْضُوع، وقصَّةٍ على قِصَّة.

- وَيُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالْقَسَم المنويّ الَّذِي دَلَّتْ عليه اللام، وبحرف «قَدْ» الدّالّ عَلَىٰ التحقيق، أنَّهُ تبارَكَ وَتعالَىٰ آتىٰ لُقْمَانَ الْحِكْمَة، فقال تعالى بضمير المتكلّم العظيم إشعاراً بِمِنَّتِهِ الْعَظِيمَةِ عَلَىٰ لُقْمان.

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾:

سبَق شَرْحُ الْحِكْمَةِ في مَوَاضع كَثِيرَةٍ، وأُضِيف هُنا أَنَّ الْحِكْمَةَ تَرْجِعُ إلى جَذْرَيْن:

الجذْرُ الأوّل: الْحِكْمَةُ في المعرفة، وتكُونُ بمُطَابَقَةِ الْعِلْمِ للواقع، أَوْ

لِأَحْسَنِ وَأَقْوم صُورَةٍ مُمْكِنَةٍ تَقْتَرِبُ مِنْ مُطابَقَةِ الكَمالِ في الشيء.

الجِذْرُ الثاني: الْحِكْمَةُ في السُّلُوكِ، سواءٌ أكانَ خُلُقاً، أَمْ عملاً جَسدِيّاً، أَمْ تَصَرُّفاً في قَوْلٍ، أَوْ إِفْتَاءٍ، أَوْ حُكْمٍ، أو سياسَةٍ، أَوْ إِدارَة، أَوْ تَرْبِيَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذلِكَ مِمَّا يَصْعُبُ اسْتِقْصاؤه.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿.. أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

دَلَّ هـٰذا الْبَيانُ عَلَىٰ الْعُنْصُرِ الْأَوَّلِ مِنْ عَناصِرِ الْحِكْمَةِ الَّتِي آتاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لُقْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْه.

أي قُلْنَا لَهُ فِيما تَلَقَّىٰ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ السَّابِقَةِ: اشْكُرْ لِلَّهِ، حَتَّىٰ آخِرِ مَا جَاءَ في البيانِ، فَكَانَ مِنَ الشَّاكِرِين، فَتدَفَّقَتْ عَلَيْهِ بِفَتْحٍ مِنْ رَبِّهِ فُيُوضُ حِكَمٍ جَلِيلَةٍ.

- ﴿أَنِ﴾ تَفْسِيرِيَّة، تُفَسِّرُ الْعُنْصُرَ الْأَوَّلَ مِنْ عَناصِرِ الْحِكْمَةِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ لَه.

- ﴿ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾: الشُّكْرُ مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ الْحَسَنِ، وإِنْعَامِ المنْعِمِ، بما يُرْضِيه، وقد يَشْمَلُ الْقَوْلُ الذي فِيهِ مَا يُرْضِي المنعم.

يُقَال لغة: «شَكَرَهُ، وَشَكَرَ لَهُ» وأكثر ما اسْتُعْمِلَ في الْقُرْآن التَّعْدِية باللَّام.

- ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ﴾: أي: وَمَنْ يَشْكُرِ الله بالإيمان والْحَمْدِ والطَّاعَةِ والْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ، فإِنَّما يَشْكُرُ لمصلحة نَفْسِهِ وَفائِدَتِها مِنَ الشُّكْرِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَجْزِيهِ على شُكْرِهِ ثَوَاباً عَظِيماً يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّات النَّعيم، خالداً فيها مُخَلَّداً سَعِيداً.

أمّا اللهُ عزَّ وَجلَّ فلا يَزيدُ شُكْرُ الشَّاكِرينَ لَهُ فِي مُلْكِهِ شَيْئاً، وَكَذَلِكَ لَا يَنْقُصُ كُفْرُ الْكَافِرين به مِنْ مُلْكِهِ شَيْئاً.

• ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: أي: وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ الله بالإيمانِ، والحَمْدِ والطَّاعَةِ والعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ بِذَاتِهِ، لا يَزِيدُ في مُلْكِهِ شُكْرُ كُلِّ عبادِهِ له، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِهِ كُفْرُ كُلِّ عِبَادِهِ بِهِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَحْمُودٌ دَوَاماً مِنْ قِبَلِ مَلَائِكَتِهِ، وَمَحْمُودٌ مِنْ قِبَلِ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلِّ ذَرَّةٍ خَلَقَهَا فِي كَوْنِهِ، بِلِسَانِ الْحَالِ، وبِنُطْقٍ خاصٍّ بِكُلِّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ في الْوُجُود لَا نَفْقَهُهُ نَحْن، وهو ما أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِقَوْلِهِ في سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾:

لفظ «حَمِيد» من قول الله تعالى: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ هو بمعنى مَحْمُود، أيْ: هو مَحْمُودٌ من كُلِّ شَيْءٍ في الْوُجود، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هٰذا إلَّا إرَادَةُ الْكَافِرِ بِرَبِّهِ، أمَّا كُلُّ ذَرَّةٍ فِي ذَاتِهِ فَهِيَ مُسَبِّحَةٌ بِحَمْدِه دَوَاماً، إذْ هِيَ تَدْخُلُ في عُمُومِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّها الْمُتَلَقِّي آيَاتِ كِتَابِ اللهِ الحكيم، هٰذا الْحَدَثَ الّذي جَرَىٰ حِينَ قَالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ باللهِ، إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

تَلَطَّفَ لُقْمانُ فِي مُخَاطَبَتِهِ لابْنِهِ مُوصِياً وواعِظاً، فَقَالَ لَهُ: ﴿يَا بُنَيَّ﴾

بالنداء بـ[يا] للتَّنْبيهِ على جلالَةِ الموضوع، وبِصيغةِ التَّصْغِيرِ للتَّقْريبِ والتحبُّب، كأنَّهُ قَالَ لَهُ، يا ابْنِيَ الْقَرِيبَ مِنْ قَلْبِي، والْحَبِيبَ لي. أمَّا الْوَصِيَّةُ المقْتَرِنَةُ بالْمَوْعِظَةِ في هٰذِهِ العبارة، فهي قولُه له: ﴿.. لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⑬﴾.

لَا تُشْرِكْ باللهِ: هٰذِهِ هي الوصِيَّة، يُقَالُ لغة: «وَصَّىٰ، وَأَوْصَىٰ، فُلَانٌ فُلَاناً بالشَّيْءِ» أي: أَمَرَهُ بِهِ وفَرَضَهُ عليه، إذَا كَانَ ممَّا يُطْلَبُ فِعْلُهُ، وَنَهَاهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ عَلَيْهِ إذا كَانَ مِمَّا يُطْلَبُ تركُهُ.

والوصِيَّةُ: بَيَانٌ مَقْرُونٌ بِنُصْحٍ مُؤَكَّدٍ بِعَهْد، ولَيْسَ مُجَرَّدَ بَيَانٍ عابِر، أَوْ نُصْحٍ فَاتِرٍ، بل هي نُصْحٌ مُشَدَّدٌ مُؤَكَّدٌ بِعَهْد.

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾: **الوعْظُ**: هو النُّصْحُ بالْفِعْل أو بالتَّرْكِ المقرونُ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أَوِ الرَّهْبَة في النَّفْسِ، للانْتِفَاعِ بالنُّصْح، واتِّباع ما هَدَىٰ إِلَيْهِ فِعلاً أَوْ تَرْكاً، قال ابْنُ سِيدَه: **الوعْظُ**: تَذْكِيرُكَ للإنْسَانِ بِمَا يُلَيِّنُ قَلْبَهُ مِنْ ثوابٍ وعقاب. **والموعظة**: ما يكُونُ بِهِ الوعْظُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وَمَعْنَىٰ: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾: لَا تَجْعَلْ لِلَّهِ في اعتقادِكَ أَوْ عَمَلِكَ شَرِيكاً لِلَّهِ في رُبُوبيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، أَوْ في إِلَهِيَّتِهِ، إِذْ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ أَنْ يُعْبَدَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ الرَّبُّ الواحِدُ الأَحَد.

هٰذا النَّهْيُ وَصِيَّةٌ مُؤَكَّدَة مُشدَّدَةٌ بِعَهْدٍ، أَوْصَىٰ بها لُقْمَانُ ابْنَهُ.

- ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: أي: إنَّ اتِّخَاذَ شَرِيكٍ للهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فِي رُبُوبيَّتِهِ أَوْ في آلِهِيَّتِهِ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ فِي جانب حَقِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ على عِبادِه، ويَلْزَمُ عَقْلاً وخَبَراً عَنْ هٰذا الظُّلْم العظيم أَنْ يَسْتَحِقَّ الظَّالِمُ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِ عَذَاباً أَلِيماً، خالِداً بِهِ في نارِ جَهَنم.

ويَغْلَطُ بَعْضُ النَّاسِ فَيَرَىٰ أَنَّ الشِّرْكَ أَشَدُّ أَنْواعِ الظُّلْم، مَعَ أَنَّهُ أَوَّلُ دَرَكَاتِ الكُفرِ المنْحَدِرَةِ إِلَىٰ قَاعِ جَهَنَّم، إِذْ أَشَدُّ مِنَ الشِّرْكِ باللهِ ظُلْماً

جُحُود وُجُودِ اللهِ، وَاعْتِبَارُ أَنَّ الكَوْنَ مَادَّةٌ، وأنَّهُ لَا يُوجَدُ رَبٌّ يُهَيْمِنُ عَلَىٰ الكَوْنِ بِصِفَاتِ رُبُوبيّتِهِ، هُو الّذِي خَلَقَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شيئاً مَذْكُوراً، وَمِنْ هٰـؤلَاءِ الدَّهْرِيُّونَ قَدِيماً، ومَلاحِدَةُ الشُّيُوعِيينَ الَّذِينَ ظَهَرُوا في الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ الميلادي وقَبْلَهُ، وأمثالُهم في الْقُرُونِ السَّالِفَة والقادِمَة.

وَيَسْبِقُ إِلَىٰ أَذْهَانِ هٰـؤلَاءِ الّذِينَ يَغْلَطُونَ هٰـذا الْغَلَط، أَنَّ العبارة القرآنِيَّة تُفِيدُ أَنَّ الشِّرْكَ أَظْلَمُ الظُّلْم، مع أَنَّها تُفِيدُ أَنَّ الشِّرْكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَهِيَ لَا تَنْفِي أَنْ يُوجَدَ مَا هُوَ أَظْلَمُ مِنْه، وَهوَ إِنْكارُ وُجُودِ خالِقٍ لِهٰـذَا الكَوْن، يُهَيْمِنُ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وعُرِفَ هٰـؤُلَاءِ المنْكِرُونَ في عَصْرِنا باسْمِ الْمُلْحِدِينَ، وَكانُوا يُعْرَفُونَ باسْمِ الزَّنَادِقَةِ، وقَبْلَ ذَلِكَ أُطْلِقَ عليهم أَنَّهم الدَّهْرِيُّون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في بَيَانٍ صَادِرٍ عَنْهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ أَثْنَاءَ عَرْضِ وَصَايَا لُقْمَانَ لابْنِهِ، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ وَصَايا لُقْمَانَ لابْنِهِ مِنْ وَصَايَا اللهِ الَّتِي أَنْزَلَ بِهَا بَيَانَاتٍ عَلَىٰ رُسُلٍ سَابِقِينَ لِلُقْمَانَ الْحَكِيم:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: إنَّ مَا وَعَظَ بِهِ لُقْمَانُ ابْنَهُ هُوَ مِنْ وَصَايَانَا السابقَةِ فِي رِسَالَاتِ الْمُرْسَلِينَ لِلإنْسَان، وهـٰذا يُشْعِرُ بأنَّ هـٰذِهِ الْوَصَايا مُوَجَّهَةٌ لِلْإِنْسَانِ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عليه السَّلام، أخذاً من ذكر لفظ الإنسان.

وقد سبَقَ قَرِيباً شَرْحُ مَعْنَىٰ الوصِيَّةِ، وفي هَـٰذا بيانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ وصَّىٰ الإِنْسَانَ مِنْذُ تَارِيخِ الإنْسَانِ الْأَوَّلِ، بَعْدَ آدَمَ وزَوْجِهِ بوالِدَيْهِ أَبِيهِ وأُمِّهِ.

- ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾:

جَاءَ فِي هَـٰذا الْبَيانِ التَّذْكِيرُ بِسَببَ الْوَصِيَّةِ بِالْوَالِدَيْنِ قَبْلَ ذِكْرِ مَا أوصَىٰ اللهُ بِهِ الإِنْسَانَ الابْنَ بوالِدَيْه، وَجاءَ تَخْصِيصُ مَا تُعَانِيهِ الْأُمُّ في حَمْلِ وَلَدِهَا فِي بَطْنِهَا وَتَرْبِيَتِهِ حَتَّىٰ فِطَامِهِ بالذِّكْرِ، لِأَنَّهَا الْأَكْثَرُ مُعَانَاةً وخَدَماتٍ في هَـٰذِه المدَّة، ولهـٰذا فَهِي تَسْتَحِقُّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْبِرِّ مِنْ وَلَدِها، في جَانِبِ اسْتِحْقَاقِ الْأَبِ نِسْبَةَ الرُّبعِ، علَىٰ أَنَّ خَدَماتِ الأب وإنْفَاقَهُ مُسْتَمِرَّةُ الْعَطاءِ، مَا دَامَ مَسْؤُولاً شَرْعاً عَنْ تَرْبِيَتِهِ والْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ، مَعَ مَالَهُ مِنْ عَاطِفَةٍ صَادِقَةٍ تُجَاهُ وَلَدِه، يُشَارِكُهُ بِهَا في آلَامِهِ وَمَسَرَّاتِه.

الْوَهْنُ: والْوَهَنُ: الضَّعْفُ وَذُبُولُ الْحَيَوِيَّة.

- ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾: أي: حَمَلَتْهُ أُمَّهُ حَمْلَ ضَعْفٍ فِي حَالَتِها النَّفْسِيَّةِ، عَلَىٰ ضَعْفٍ فِي قُواها الْجَسَدِيَّة، إذْ تَحْدُثُ فيها بِسَبَبِ الْحَمْلِ تَغَيُّراتٌ دَاخِلِيَّةٌ يَكُونُ الْجَنِين فِيهَا مُشَارِكاً لِأُمِّهِ فِي غِذَائِها مِنْ دَمِهَا، مَعَ مَا يَعْتَرِيها مِنْ تَغْيِيراتٍ في حَالَتِها النَّفْسِيَّة تُصَابُ مَعَها بالْغَثَيَانِ، والرَّغْبَةِ في التَّقَيُّؤ إِلَىٰ بَعْضِ آلَامٍ كَصُدَاعٍ في الرأس، وَغيْرِ ذَلِكَ.

وتَتَعَرَّضُ بَعْدَ نِهَايَةِ الْحَمْلِ إِلَىٰ آلَامِ الْوَضْعِ، وَمَتَاعِبِ النِّفَاسِ.

ثُمَّ بَعْدَ الْوَضْعِ تُعَانِي الْأُمُّ مِنْ مَتَاعِبِ الإِرْضَاعِ والتَّرْبِيَةِ وخَدَمَاتِها، فقال تعالى:

- ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾: أي: ويَكُونُ فِطَامُهُ عَنِ الرَّضَاعِ فِي مُدَّةٍ غَايَتُهَا الْفُضْلَىٰ نِهَايَةُ عَامَيْنِ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ الْفُضْلَىٰ.

الْفِصَالُ: فِطَامُ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ عَنِ الرَّضَاعَة.

وفي هـٰذِهِ المدَّةِ تُعَانِي الْأُمُّ في العادة مَا تُعَانِي مِنْ مَتَاعِبَ شَاقَّةٍ على جَسدِها وَعَلَىٰ نَفْسِها.

وَسَكَتَ النَّصُّ عَمَّا يُعَانِيهِ الْأَبُ أَيْضاً في العادَةِ مِنْ مَتَاعِبِ نَفَقَةٍ وَمُشَارَكَةٍ لِلْأُمِّ في تَرْبِيَةِ الطِّفل، اكْتِفَاءً بإشَارَةِ تَوْصِيَةِ الْوَلَدِ بأَنْ يَشْكُرَ لِرَبِّهِ وَلِوَالِدَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ في بَيَانِ الوصِّية.

- ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾: فَجَعَلَ الْأَمْرَ بِشُكْرِ الوالِدَيْنِ عَقِبَ الْأَمْرِ بِشُكْرِهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ مُبَاشَرةً.

اللهُ هُو الرَّبُّ الخالِقُ الْمُمِدُّ بِنِعَمِهِ دَوَاماً، والْوالِدَانِ كَانَا سَبَباً فِي وُجُودِ الْوَلد، مَعَ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ خَدَمَاتٍ كثيراتٍ لَهُ، حَمْلاً، وَوِلَادَةً، وإِرْضَاعاً، وتَرْبِيَةً، وَنَفَقَاتٍ، ومُشَارَكَاتٍ لَهُ بِعَوَاطِفِ الوالِدِيَّةِ الَّتِي فَطَرَهُمَا اللهُ عَلَيْها.

وَلَمَّا كَانَ شُكْرُ اللهِ وَالْوَالِدَيْنِ بِبِرِّهِمَا، مَأْجُوراً عِنْدَ اللهِ بِثَوابٍ عظيم يَوْمَ الدِّين، وَكَانَ الْكُفْرَانُ والْعُقُوقُ مُعَاقَباً عَلَيْهِما عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالْعَدْلِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تَأْتِيَ الإشَارَةُ إلَيْهِمَا في آخِرِ الْآيَةِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤﴾: أي: إِلَيَّ المكانُ الَّذي يَصِيرُ إِلَيْهِ النَّاسُ يَوْمَ القيامة، وَفِيهِ يَجْرِي حِسَابُهُمْ، وَفَصْلُ القَضَاءِ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ تَكُونُ مُجَازَاتُهُمْ بِحَسَبِ الأحْكَامِ الَّتِي تَصْدُرُ بِشَأْنِهِمْ، فَضْلاً أَوْ عَدْلاً من رَبِّهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً وَصِيَّتَهُ للإنسان بشَأْنِ وَالِدَيْه:

- ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥﴾:

أبانت هـٰذه الآية أنَّ حَقَّ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُقدَّمٌ على حَقِّ الوالِدَيْنِ، ولمَّا كَانَ مِنْ شُكْرِهِمَا طَاعَتُهُمَا فِي أُمُورِهِمَا الدُّنْيَوِيَّة، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ في البيانِ الاحْتِرَاسُ بِتَقْيِيدِ طَاعَتِهِما بما لَيْسَ فِيهِ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، وَعُدْوَانٌ على حَقٍّ مِنْ حُقُوقِه، إِذْ لَا طَاعَةَ لمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخالِقِ.

وَضرَبَ اللهَ مَثَلاً لِوُجوبِ عَدَم طَاعَتِهما فِي مَعْصِيةِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ، أن يُجاهِدَا وَلَدَهُمَا عَلَىٰ أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ مَا لَيسَ لَهُ بِهِ علم، رغبة فِي أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ دِينِهِمَا عَقِيدَةً ومَنْهَج حَيَاة.

- ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾: أي: وَإن اشْتَدَّا عَلَيْكَ في الطَّلَبِ إلى حَدِّ الإلْزَام بالإكْراه والضَّرْبِ. أصْلُ المجاهَدَةِ الْمُغالَبَةُ بِبَذْلِ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقين طَاقَتَهُ، لِيَغْلِبَ الْفَرِيقَ الآخَرَ الْمُغَالِبَ لَهُ، وَأَقْصاهَا المقاتَلة. وقد تَدُلُّ عَلَىٰ بَذْلِ غايَةِ الطاقة، كَمَا لَوْ كَانَ الصِّراعُ بَيْنَ مُتَقَاتِلَيْن.

- ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾: أي: وإنْ جَاهَدَاكَ مُكْرِهَيْنِ لَكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي شَرِيكاً مَا، لَيسَ لَكَ عِلْمٌ بأَنَّهُ شَرِيكٌ لي.

يُلاحَظُ في هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَيِّنُ أَنَّ الْعِلْمَ أَسَاسٌ لِلْقَضَايا الْإيمانيةِ، فَمَا يُثْبِتُهُ الْعِلْمُ بأدِلَّتِهِ الصَّحِيحَةِ فَمِنْ حَقِّ الإنسانِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ.

فَعَلَىٰ الرُّغم مِنْ أَنَّ الشِّرْكَ بِرُبُوبيَّةِ اللهِ أو بِإلَٰهِيَّتِهِ، لَا يُوجَدُ لَهُ دَلِيلٌ عِلْمِيٌّ يُعْطِي بِشَأْنِهِ يَقِيناً وَلَا ظَنّاً، بَلِ الأدِلَّة العلميَّةُ تَكْشِفُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَخُرَافَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ مَصْنُوعَةٌ، أعْطَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ مَجالاً للتفكير الْعِلْمِيِّ، فإذَا وَجَدَ الإِنْسَانُ دَلِيلاً عِلْمِيّاً يَسْمَحُ لَهُ عَقْلاً بأَنْ يُؤْمِنَ بِوُجُودِ شَرِيكٍ للهِ فَلْيُؤْمِنْ بِهِ، لَكِنَّهُ لَنْ يَجِدَ مَهْمَا بَذَلَ مِنْ جَهْد.

إنَّ قَضَايَا الْإيمانِ فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبادِهِ قَضَايا عَقْلِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ، تُثْبِتُها أَدِلَّةٌ يَقِينِيَّةٌ قَطْعِيَّة، لَا يُخالِطُها خَلَلٌ وَلَا شَكّ.

- ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾: أي: فَلَا تَسْتَجِبْ لَهُمَا، ولَا تَكُنْ مُتَّبِعاً لَهُما فِي ذلك. **الطَّاعَةُ**: هِيَ في اللُّغَةِ الانْقِيادُ، والامْتِثالُ، والمتابَعَة.

في هـٰذا نَهْيٌ مُشَدَّدٌ مِنَ اللهِ عَنْ طَاعَةِ الإنْسَانِ لِوَالِدَيْهِ، إنْ جَاهَدَاهُ يُلْزِمَانِهِ عَلَىٰ أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ مَا لَيسَ لَهُ بِهِ عِلْمٍ، وَيُقَاسُ عَلَىٰ قَضِيَّةِ الشِّرْكِ

كُلُّ قَضِيَّةٍ فيها مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، فَحقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ في طَاعَتِهِ، مُقَدَّمٌ عَلَىٰ حُقُوقِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ في الطَّاعَةِ.

ويَقَعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ في جَهالَةٍ عُظْمَىٰ حِينَما يَرَوْنَ وُجُوبَ طَاعَةِ أُولي الْأَمْرِ، وَلَوْ أَمَرُوا بِمَعْصِيَةِ اللهِ، إنَّ هَـٰذِهِ الْفِكْرَةَ مُسْتَوْرَدَةٌ مِنْ أَنْظِمَةِ الْحُكْمِ غَيْرِ الإسْلَامِيَّة، الَّتِي يُمَجَّدُ فِيهَا الْقَانُونَ الَّذِي يُلْزِمُ بِطَاعَةِ ذِي السُّلْطَانِ، وَلو أمَرَ بِقَتْلِ الْبُرَءَاء، أَوْ أَمَرَ بالكُفْرِ بِاللهِ، أو بالْفِسْقِ والْفُجُور وَإِبَاحَةِ الْفوَاحِشِ عَلَناً.

- ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾: **الْمُصاحَبَة**: الْمُرافقَةُ الَّتِي تَقْتَضِي حُسْنَ المعَاشَرَة والخِدْمَةِ والْمَعُونَةِ.

مَعْرُوفاً: صِفَةٌ لِمَوْصُوفٌ مَحْذُوفٍ هُو مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مِنَ الفِعْل في: ﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾ أي: وَصَاحِبْهُمَا صِحَاباً مَعْرُوفاً.

يُقَالُ لغة: «صَاحَبهُ، مُصَاحَبَةً، وَصِحَاباً».

والمُرَادُ بِكَوْنِهِ مَعْرُوفاً، مَا تَعارَفَ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ مُصَاحَبَةِ الْوَلَدِ لِوَالِدَيه، بالْبِرِّ والْخَدَمَاتِ والطَّاعَةِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَأَنواع الإكرامِ، والْخُضُوعِ تَذَلُّلاً لَهُما، والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِمَحَابِّهِمَا.

وقَدْ جَاءَ في القرآن بَيَانُ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بالإحْسَانِ إلى الوالدين، وَخَفْضِ جَنَاح الذُّلِّ لَهُمَا مِنَ الرَّحْمَة والدُّعَاءِ لَهُما، وَنَفْهَمُ أَنَّ هـٰذا مَطْلُوبٌ بالنِّسْبَةِ إلى الوالِدَيْنِ المسْلِمَيْن.

وجاء فيه بَيَانُ أن اللهَ أَمرَ بمُعَامَلَةِ الوالِدَيْنِ بالْحُسْنى، ونَفْهَمُ أَنَّ هـٰذا مَطْلُوبٌ بالنِّسْبَةِ إلى الوالِدَيْنِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، لأنّ الْحُسْنَ هُنَا دُونَ الإحْسَانَ الذي جاء بشأنِ الْوَلَدَيْنِ الْمُسْلِمَيْن.

وَجاءَت عبارَة ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ لِتَقْيِيد المصَاحَبَةِ بالْمَعْرُوفِ في أُمُورِ

الدُّنيا، وَلِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ مَنْع تَقْدِيم شَيْءٍ لَهُمَا يَتعلَّقُ بأمُورِ الآخِرَةِ، كالاسْتِغْفَارِ لَهُمَا، والدُّعَاءِ لَهُمَا بالرَّحْمَةِ، والصَّدقَةِ عَنْهُما، إذا كانا مُشْرِكَيْن كَافِرَيْنِ، لِأَنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاء، وَلَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِمُؤْمِنٍ بأنْ يَسْأَلَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ الْكَافِرِين.

وَقَدْ سَبَقَ فِي الآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْوَالِدَيْنِ المعْنِيَّيْنِ فِي النَّصّ مُشْرِكان، غَيْرُ مُؤْمِنَيْنِ مُسْلِمَيْن.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: أي: لَا تُطِعْ وَالِدَيْكَ المشركَيْنِ فِي مُجاهَدَتِهِمَا إِيَّاكَ لِتُشْرِكَ بِرَبِّكَ، واتَّبِعْ في مَسِيرَتِكَ في حَيَاتِكَ مَا بَيْنَ حَدَيَّ صِرَاطِ رَبِّكَ المسْتَقِيم، الَّذي يَسِيرُ بَيْنَ حَدَّيْهِ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ ومِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ الَّذِينَ أَنَابُوا راجِعِينَ إِلَىٰ سُلُوكِ صِرَاطِي، وَتَارِكِينَ كُلَّ السُّبُلِ الَّتِي تُفَرِّقُ عَنْ صِرَاطِي، وتُبْعِدُ عَنْهُ، مَنْ يَسْتَجِيبُونَ بِأَهْوَائِهِمْ وشَهَواتِهِمْ، لِدَعَوَاتِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ والإنس.

أَنَابَ: أي: رَجع، يُقَالُ لُغَةً: «أَنَابَ فُلانٌ إِلَىٰ الشَّيْءِ يُنِيبُ» أي: رَجَعَ إِلَيْه مَرَّة، فَمرَّة. ويُقَالُ أَيْضاً: «نَابَ إِلَىٰ الشَّيْء» أي: رَجَعَ إِلَيْهِ واعْتَادَه.

والْمُنِيبُونَ إلى اللهِ: هُمُ الرُّسُلُ، وَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ المؤمِنُونَ.

- ﴿.. ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ رِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، وبَعْدَ مَوْتِكُمْ، أَبْعَثُكُمْ إلى الحياة الأُخْرَىٰ، الَّتِي يَكُونُ مَرْجِعُكُمْ فِيهَا إِلَىٰ حِسَابِي وفَصْلِ قَضَائي، وتَنْفِيذِ جَزَائي.

إنَّ الحياة الدُّنْيَا حَيَاةُ الابْتِلاءِ، وإنَّ الْحَيَاة الأُخْرَىٰ هِي حَيَاةُ الجزاء.

وحِينَ تَقِفُونَ في مَحْكَمَتِي يَوْمَ الدِّين لِمُحَاسَبَتِكُمْ على ما قَدَّمْتُمْ في

رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِي الحياة الدُّنيا تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مِنْ طاعَةٍ لي أَوْ مَعْصِيَة.

مَرْجِعُكُم: الْمَرْجِعُ في هـٰذه العبارة: اسْمُ مَكَانٍ، واسْمُ زَمَان، وَمَصْدَرٌ مِيمِيٌّ. أي: ثُمَّ إليَّ رُجُوعُكُمْ، وَمَكَانُ رُجُوعِكُمْ، وزَمَانُه.

جَاءَت عبارة: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كِنَايَةً عَنْ مَوْقِفِ المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّين، وعَنْ كُلِّ مَا يَجْرِي فيها، إِذِ الإِنْبَاءُ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ أَحَدُ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تَجْرِي في المحكَمةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّين.

وَبَعْدَ هـٰذا الفاصِلِ الْبَيَاني الْمُبَاشِرِ، الْمُوَجَّهِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْحِكْمَة الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها. يُتَابِعُ البيانُ الرَّبَّانِيُّ فِي الدَّرْسِ حِكَايَةَ وَصَايَا وَمَوَاعِظِ لُقْمَانَ لابْنِهِ، الَّتِي هِيَ مُسْتَفَادَةٌ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُلِهِ قَبْلَ لُقْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنه.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ لُقْمَانُ الحَكِيمِ لابْنِهِ:

- ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾:

أَرَادَ لُقْمَانُ الحكيم أَنْ يُفْهِمَ ابْنَهُ شُمولَ عِلْمِ الله كُلَّ شيء، وعَظِيمَ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ مَا يراهُ النَّاسُ عَسِيراً وصَعْباً، فَضَرَبَ لَهُ مَثلاً بأَصْغَرِ الصَّغِيراتِ الَّتِي يَعْرِفُهَا مِنَ الْحُبُوب النباتِيَّة، والَّتِي يُشَبِّهُ النَّاسُ الصَّغِيراتِ جِدّاً بها، وهي حَبَّةُ الْخَرْدَل.

فأَبَانَ لَهُ أَنَّ الكائنَةَ الصَّغِيرَة في الْوُجُودِ وَلَوْ كَانَتْ مِقْدَار حَبَّة خَرْدَلٍ، وَكانت هـٰذِهِ الكائنَةُ في باطِنِ صَخْرَةٍ مَهْمَا كانت شَدِيدَة الْقَسَاوَة، أَوْ كانت في مَكَانٍ مَا مِنَ السَّمَاواتِ، أو في مَكَانٍ ما مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ، فإنَّ اللهَ عَلِيمٌ بها، خبير بكُلِّ أَحْوالِهَا، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يأتي بِهَا أَتَىٰ بِهَا مِنْ مَكَانِ وُجُودِها بأَلْطَفِ وَسِيلَةٍ، لأنَّ اللهَ لَطِيفٌ خبير.

- ﴿يَٰبُنَيَّ﴾: سبقَ بيانُ مَا فِي هٰذِهِ العبارة من اهْتِمام شديد بالنداء بحرف النداء «يا» مَعَ مَا في التَّصْغِيرِ مِنْ تَقْرِيبٍ وتَحَبُّب.
- ﴿إِنَّهَآ﴾ قال النَّحويّون الضَّمير في هٰذا وَنَحْوِهِ ضَمِيرُ الْقِصَّة.

وأقول: هٰذا الضَّمِيرُ يُفَسَّرُ فِي كُلِّ بَيَانٍ بما يُلَائِمُ مَوْضُوعَهُ. وأرَىٰ أَنَّ المرادَ هُنَا: أنَّ الْغَائِبَةَ عَنِ الْخَلَائِقِ مَهْمَا كانَتْ خافِيَةً عَلَيْهِمْ، فإنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِهَا، خَبِيرٌ بأحْوَالِها، وهُوَ قَدِيرٌ عَلَىٰ أَنْ يَأْتِي بِهَا إِذَا شَاءَ، دُونَ أَنْ يَتَغَيَّرَ شَيْءٌ آخَرُ عَنْ وَضْعِهِ وصِفَاتِهِ، لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَطِيفٌ لِفِعْلِ مَا يَشاء.

- ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾: ﴿تَكُ﴾ أَصْلُها «تَكُنْ» وَهٰذا مِنَ المواضِعِ الَّتِي يَجُوزُ فيها حَذْفُ نُونِ مُضَارِعِ «كَانَ».

أَيْ: إِنْ تَكُنِ الْغَائِبَةُ الخفيَّةُ عَلَىٰ الْخَلَائِقِ.

مِثْقَالَ: مِثْقَالُ الشَّيْءِ مِثْلُهُ فِي وَزْنِهِ وَمِقْدَارِه، وقرأ نافِعٌ، وأبو جعفر: [**مِثْقَالُ**] بالرَّفع على اعتبار أَنَّ فِعْلَ ﴿تَكُ﴾ فِعْلٌ تَامٌّ غيرُ ناقص، ولفظ «مِثْقال» فاعل. وبقِيَ الفِعْلُ بتاء التأنيث لِأَن لفظ «مِثْقَال» مُضَافٌ إلى «حَبَّةٍ» وهيَ مُوءَنَّثَةُ اللّفظ.

- ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾: **الْخَرْدَل**: اسْمُ فَصِيلَةٍ مِنَ النباتَاتِ الموسِمِيَّةِ المورقة الّتِي تَنْمُو في المناطِقِ المعْتَدِلَةِ. ولهٰذا النبات بزور على شكل حُبُوبٍ صَغيرةٍ جدّاً، يُشَبِّهُ النَّاسُ الأشياءَ الصَّغِيرَةَ بحَبَّةٍ مِنها، لِصِغَرِها الشَّدِيد بالنِّسْبَةِ إلى مَا يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ مِنْ حُبُوب النباتات، وَحَبُّ الْخَرْدَلِ يَسْتَعْمِلُهُ النَّاسُ فِي التَّوابل.

وصَارَ النّاسُ يَسْتَخْرِجُونَ مِنَ الْخَرْدَلِ غَازَاتٍ سَامَّاتٍ قَاتلاتٍ، يَسْتَعْمِلُونها فِي الْحُرُوبِ.

- ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾: أي: فَتَكُنْ هٰذِهِ الغائِبَةُ الخفيَّةُ على الْخَلَائِقِ، في دَاخِلِ صَخْرَةٍ مَا، مَهْمَا كَانَتْ عَظِيمَةً وَشَدِيدَةَ الْقَسَاوَة.

- ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي: أو في مَكَانٍ مَا مِنَ السَّمَاواتِ الَّتِي فيها بَلايِينُ المجرَّات، كما سبق بيانُه في تَدَبُّر الدرس الرابع من هٰذه السورة.

- ﴿أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أو في مكانٍ مَا مِنْ باطِنِ الأرض حتّىٰ المركَزِ مِنها.

- ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: أي: يَأْتِ بها اللهُ مِنْ مَكانِهَا الَّتِي هِي فِيهِ، إلَىٰ المكان الّذي تَقتضِي الْحِكْمَةُ بِأَنْ يأْتِيَ بها إلَيه، إذَا شَاءَ أَنْ يأْتِي بها.

وَمَعْلُومٌ ذِهْناً أَنَّهُ لَا يَأْتِي بِها إلّا إذَا كَانَ ذَا عِلْمٍ بمَكانِهَا لِأَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَا خِبْرَةٍ بِأَحْوالِهَا وَتَغيُّرَاتِها مَعْ تَتَابُعِ الوَحْدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الصُّغْرَىٰ، وَلَا يَأْتِي بِهَا مِنْ مَكَانِهَا إلّا إذا كَانَ ذَا قُدْرَةٍ وَاصِلَةٍ إلَىٰ حَيْثُ وُجُودُها، وَلَا يَسْتَخْرِجُهَا مِنْ مَكَانِهَا دُونَ تَغْيِيرِ شَيْءٍ عَنْ صِفَاتِهِ مِنْ حَوْلِها، إلّا إذَا كَانَ لَطِيفاً بِقُدْرَتِهِ لُطْفاً يَجْعَلُ الْأَشْيَاءَ مِنْ حَوْلِهَا لَا تَتَأَثَّرُ باسْتِخْرَاجِهَا مِنه، وَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنَ الأشياءِ اللّطِيفَةِ الَّتِي هِي مِنْ خَلْقِ اللهِ الأنوارَ، والجاذِبياتِ، والْأَرْوَاح.

- ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾: في هٰذا رَبْطٌ لِلْبَيَانِ السَّابِقِ بالْجَذْرِ الاعْتِقَادِيِّ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ بِقُدْرَتِهِ العُظْمَىٰ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يَشَاؤُهُ فِي كَوْنِهِ، بَلْ يَفْعَلُهُ بِلُطْفٍ بالِغِ الغايَة، وَأَنَّهُ بِشُمُولِ عِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيء لَا يَعْزُبُ عَنْهُ أَصْغَرُ صَغِيرٍ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ وَلَا أَكْبَرُ كَبِيرٍ مِنْهَا، بَلْ هُوَ خَبِيرٌ بِكُلِّ صِفَاتِهِ وَتَغَيُّرَاتِهِ الَّتِي تَجْرِي لَهُ أو فِيهِ مَعَ أَقَلِّ الوحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتي لَا تَسْتَطِيعُ مَدَارِكُ الْخَلائِقِ إدْرَاكَها.

اللّطيف اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، ومَعْنَاهُ: الَّذِي يُجْرِي تدابِيرَهُ وَأعْمَالَهُ وَأفْعالَهُ بِرِفْقٍ تَامٍّ لَا عُنْفَ فِيه وَلَا خُشُونَة.

واللّطيف: الَّذِي يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ بِرِقَّةٍ دُونَ أَنْ يُحَسَّ بِدُخُولِهِ وَخُرُوجه، ومِنَ الكائنات اللّطِيفَةِ الملائكة، والنسيم، وَالْأَشِعَّةِ، والْأَرْواح.

الخبيرُ: اسْمٌ من أسْماء اللهِ الحُسْنى، **مَعْنَىٰ الخبير في اللُّغَة**: الْعَلِيمُ بالشَّيْءِ عَنْ تَجْرِبَةٍ وَمُمَارَسَةٍ مَعَ شُهُودٍ وحُضُورٍ مُصَاحِبٍ لِكُلِّ أجْزَاءِ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ ظَوَاهِرِهِ وَبَوَاطِنِهِ.

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ عِلْماً كامِلاً شَامِلاً، لِكُلِّ ظَوَاهِرِ الأشياء وبَواطِنها، عِلْمَ حُضُورٍ وشُهُودٍ وَتَدْبِيرٍ وخَلْقٍ وَتَصَارِيفَ، إذْ كُلُّ مَا يَجْرِي فِي الكَوْنِ كُلِّهِ خَلْقُهُ وَفِعْلُهُ، ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه ـ فهو به خَبِيرٌ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ وَصَايَا وَمَوَاعِظِ لُقْمَانَ لابْنِه:

● ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

فِي هٰـذِهِ الآيَاتِ بيَانُ ثَمَانِي وَصَايَا أَوْصَىٰ بِهَا لُقْمَانُ ابْنَهُ، وَبِضَمِّهَا إلى الْوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الآية (١٣) تَكُونُ وَصَايَاهُ لَهُ تِسْعاً.

أمّا الوصايا الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْها هـٰذه الآيات (١٧) و(١٨) و(١٩) فَهِيَ:

الْوَصِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

● ﴿يا بُنَيَّ﴾: سَبَقَ بَيَانُ مَا فِي هـٰذِهِ العبارة الرفيقةِ الرَّشيقة من تَقَرُّبٍ وَتَحَبُّبٍ مِنْ لُقْمَانَ لِوَلدِه.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أَدِّ الصَّلاَةَ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللهُ عَلَىٰ عِبَاده الَّذِينَ وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا.

دَلَّتْ هـٰذِهِ الْوَصِيَّةُ عَلَىٰ أَنَّ أُولَىٰ الْفَرَائِضِ بَعْدَ الإيمَانِ إقَامَةُ الصَّلاَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِي الدّين الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ

لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَملاً، وَهـٰذا يُشْعِرُ بأَنَّ فَرِيضَةَ الصَّلَاةِ مِنَ الفرائِضِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ عَلَىٰ آدَمَ وَكُلِّ بَنِيهِ مِنْ بَعْدِه، وَهـٰذا المَعْنَىٰ مُؤَيَّدٌ بِنُصُوصٍ كَثِيرةٍ في القرآنِ، وَمِنْهَا مَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلام بقوله لَهُ كما جاء في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿.. وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

والمرادُ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ الْمُدَاوَمَةُ والمواظَبَةُ علَىٰ أدَائِها في أوْقَاتِها، وأَدَاؤهَا على الوجْهِ الشَّرْعِيِّ المطْلُوبِ فيها، وَجَعْلُها مُسْتَقِيمةً خالِصَةً لوَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، لَا عِوَجٍ فيها، وَلَا رِياءَ ولا سُمْعَةً، وَلَا زِيادَةً، وَلَا نَقْصاً.

الْوَصِيَّةُ الثانية: دَلَّ عليها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

الْوَصِيَّةُ الثالثة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

دَلَّت هاتَانِ الْوَصِيَّتانِ على أن مُجْتَمَعَ لُقْمَانَ الحكيم رضي الله عَنْهُ مُجْتَمَعٌ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ، لَدَيْهِ عِلْمٌ بِمَا أَمَرَ اللهُ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمين به، فَهُو مَعْرُوفٌ لَديهم، ولَدَيْهِ عِلْمٌ بما نَهَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ المؤمنين المسْلِمِينَ عَنْهُ، فَهُوَ مُنْكَرٌ لَدَيْهِمْ، فَمَنْ تَرَكَ المعْرُوفَ وهو الَّذِي أمَرَ اللهُ بِهِ مَنْ دخَلَ في الإسلام، وهو دِينِ اللهِ للنّاسِ أَجْمَعِينَ في رِسَالَاتِهِ للنَّاسِ الَّتِي بَلَّغَها جَمِيعُ الْمُرْسَلِينَ، أو فَعَلَ المنكر وهُو الذي نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ مَنْ دَخَلَ في الْإسلام، فَقَدْ عَصَىٰ رَبَّهُ، وَعَلَىٰ حُماةِ المجتَمَع الْإسْلَامِيِّ مِنْ تَفَاقُم مَعَاصِي أفْرَادِه، أَنْ يَقُومُوا بِوَظِيفَة الْأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ دَواماً، والتَّحْذِيرِ مِنْ عَوَاقِبِ مَعْصِيَةِ اللهِ الَّتِي قَدْ تَنْتَشِرُ فِيهِمْ، ثُمَّ لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّخَلُّصَ مِنْهَا وَلَا كَبْحهَا، مَتَىٰ تَفَاقَمَتْ وَانْتَشَرَتْ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ لُقْمَانَ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ ابْنَهُ الَّذِي وَجَّهَ لَهُ هـٰذِه الوَصَايَا، مِنْ أُمَّةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكَرِ في مُجْتَمَعِهِ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ،

فأَوْصَاهُ بأَنْ يَقُومَ بِوَظِيفَةِ الأمْرِ بالمعروف، والنَّهْيِ عَنِ المنْكَرِ دَاخِلَ مُجْتَمَعِه، فَمَنْهَجُ اللهِ في رِسَالَاتِهِ، وفي تَكْوِينِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الملْتَزِمَةِ بِوَجْهٍ عَامٍّ أَحْكَامَ شَرِيعَتِهِ، بِفِعْلِ الواجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ مَنْهَجٌ وَاحِدٌ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَنْهَجُ الْأَحْكَمُ.

وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَتْ أُمَّةُ الأمْرِ بالمعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكر، وقَلَّتْ أَعْدَادُهَا عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ في الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، انْتَشَرَتْ فيها المعاصِي، وكَثُرَ في أَفْرَادِها تَرْكُ فُرُوضِ الإسلام، وكثُرَ فيها ارْتِكابُ المحرَّمَاتِ من الكَبَائِر، وصَارَتْ هٰذه المعَاصِي من الكبائِرِ أُمُوراً مَأْلُوفَةً، لا تُقَابَلُ بالاسْتِنْكَار مِنْ مُعْظَمِ أفْرَادِ المجْتَمَع، لِوقُوعِ أَكْثَرِهِمْ بِهَا أَوْ بِمِثْلِها، فَسَلَبَهُمُ اللهُ عزَّتَهُمْ وَقُوَاهُمُ المنتصرة الَّتِي كَانَتْ لهم، وَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ مِن الْكَافِرِين، ثُمَّ مِنَ الْيَهُودِ شَرِّ الْبَرِيَّة.

الوصِيَّةُ الرابعة: دلَّ عليها قولُ الله تَعالى: ﴿.. وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾:

لَقَدْ عَلِمَ لُقْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِحِكْمَتِهِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، وتَجَارِبِهِ المتكَرِّرَةِ، أَنَّ مَنْ يَقُومُ بوظِيفَةِ الْأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكرِ، لا بُدَّ أَنْ يَلْقَىٰ أذىً مِنَ الَّذِين يُوجِّهُ لَهُمْ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، فأوصَىٰ ابْنَهُ بأنْ يُتَابِعَ القِيامَ بِهٰذِهِ الْوَظِيفَةِ وَلَا يَضْعُفَ عَنْ أدائها، وأنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ مَا يُصِيبُهُ مِنْ أَذىً.

وَجَاءَت عِبَارَةُ: ﴿مَآ أَصَابَكَۖ﴾ باسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ الماضِي، دُونَ عِبَارة: «مَا يُصِيبُكَ» باسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ المضارع، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: وَسَيُصِيبُكَ أَذىً مِنَ الَّذِينَ تَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوف، أو تَنْهَاهُم عن المنكَرِ، أَوْ مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَجُنُودِهِمْ، وَسَيَنَالُكَ مِنْهُمْ مَا تَكْرَهُ فِي نَفْسِكَ أَوْ في جَسَدِكَ، فاعْتَبِرْ أَنَّ هٰذَا قَدْ وَقَعَ فِعْلاً، فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ.

وَأَبَانَ لُقْمَانُ لابْنِهِ أَنَّ دَرجَةَ الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يُصِيبُ حَامِلَ وظِيفَةِ الْأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْي عَنِ المنكر دَرجَةٌ رَفِيعَةٌ جِدّاً، فأَشَارَ إلى هـٰذا الصَّبْرِ باسْم الإشَارَة الموضُوعِ لِلْبَعيد بعِبَارَة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مَعَ التَّأْكِيدِ بحَرْفِ التّأكيد: «إِنَّ».

عبارة: ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ تدلُّ عَلَىٰ أنَّ الصَّبْرَ عى مَا يُصِيبُ حَامِلَ وَظِيفَةِ الأمْرِ بالمعْرُوف والنهي عَنِ الْمُنْكَرِ، ابْتِغَاءَ الْخيْرِ لِمَنْ يَأْمُرهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، يَحْتَاجُ إرادَةً قَوِيَّةً مِنْ مُسْتَوَىٰ «الْعَزْم» إذ العزْمُ أَعْلَىٰ مُسْتَويَاتِ قُوَّةِ الإرَادَةِ، ووصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ طائفَةً مُفَضَّلَةً مِنْ رُسُلِهِ بأَنَّهُمْ أُولُو الْعَزْمِ، إذْ تَحَمَّلُوا مَتَاعِبَ وَأذىً كثيراً مِنْ أَقْوَامِهِمْ بِصَبْرٍ عَظِيم⁽¹⁾.

فمَعْنَىٰ: ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ عَلَىٰ مَا أَفْهَمُ: مِنْ إرَادةِ الْأُمُور إرادَةً قَوِيَّةً رَفِيعَةً هِيَ مِنْ مُسْتَوَى الْعَزْمِ. فالإضافَةُ مِنْ إضَافَةِ الْمَصْدَرِ إلى مَفْعُوله.

يُقَالُ لُغَةً: «عَزمَ فُلانٌ الْأَمْرَ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ» أي: جَدَّ، وَصَبَر. وَالجدُّ وَالصَّبْرُ يَحْتَاجَانِ إرَادَةً قَوِيَّةً مِن مُسْتَوىٰ الْعَزْمِ.

ونَفْهَمُ مِنْ هـٰذا أَنَّ لُقْمَانَ يُحرِّضُ ابْنَهُ علَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْعَزْمِ (أي: مِنْ أصْحَابِ الإرَادَةِ الْقَوِيَّةِ ذَاتِ المسْتَوىٰ الرفيع) بالصَّبرِ علَىٰ مَا يُصِيبُهُ ممَّا يَكْرَهُ بِسَبَبِ أَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ ونَهْيِهِ عن المنكرِ في بيئَتِهِ.

الْوَصِيَّة الْخَامِسة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾:

تَصْعِير الْخَدِّ: إمَالَتُهُ بإمَالَةِ الْعُنُقِ عُجْباً وَكِبْراً. وَكانَ هـٰذا التَّصْعِيرُ

---

(١) انظر شَرْح الْعَزم في الجزء الأول، صفحة من (١١٣ ـ ١١٦) من كتاب «الأَخْلَاق الإِسْلَامِيَّة وأسسها» للمؤلف.

مِنْ عَادَةِ الجبابِرَةِ وبَعْضِ المُلُوكِ لِلْإِشْعَارِ باسْتِعْلَائِهِمْ عَلَىٰ النَّاس، واحْتِقَارِهِمْ لهم، إذْ هُمْ أَوْفَرُ حَظّاً مِنْهُم في الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّة، وفي الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ، والْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مَا يُرِيدون.

ولمَّا كانَتْ وَظِيفَةُ الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ فِي الجماهِير، قَدْ تُوَلِّدُ لَدَىٰ بَعْضِ صِغَارِ النُّفُوسِ، ومُرِيدِي الاسْتِعْلَاءِ بَيْنَ النَّاسِ عُجْباً بأَنْفُسِهِمْ، وكِبْراً عَلَىٰ الْعَامَّةِ، وهـٰذا قد يَجْعَلُهُمْ يُمِيلُونَ رِقَابَهُمْ مِنَ الْعُجْبِ بأنْفُسِهِمْ وَمِنَ الاسْتِعْلَاءِ عَلَىٰ النَّاسِ، أَوْ يَتَصَرَّفُونَ تَصَرُّفَاتٍ أُخْرَىٰ تُشْعِرُ بما تَسَلَّلَ إلىٰ نُفُوسِهِمْ مِنْ دَاءِ الْعُجْبِ بالنَّفْس والكِبْر، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُوصِيَ لُقْمَانُ ابْنَهُ بأَنْ لا يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ وَلَا يَسْتَكْبِرَ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، إِذَا وَجَدَ أَنَّ الجماهِيرَ أَعْطَتْهُ احْتِرَاماً وَتَوْقِيراً، إذْ تَصَدَّىٰ لِأَمْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ.

وَجَاءَ النَّهْيُ عَنْ بَعْضِ مَظَاهِرِ هـٰذِهِ الْحَالَة النَّفْسِيَّةِ فِي السُّلُوك، والَّتِي يُقَاسُ عَلَيْهَا أشْبَاهُهَا، لِأَنَّ ضَبْطَ السُّلُوكِ عَنِ الظَّواهِرِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ مَا فِي النُّفُوس، يُسَاعِدُ الإنْسَانَ عَلَىٰ مُعَالَجَةِ نَفْسِهِ بِشِفَائِها مِمَّا تَسَلَّلَ إِلَيْهَا مِنْ دَاءٍ نَفْسِيٍّ، أَمَّا تَرْكُ الإنْسَانِ إرادَتَهُ تُعَبِّرُ عَمَّا فِي نَفْسِهِ بظَاهِرَاتٍ سُلُوكِيَّةٍ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَزِيدَ فِي نِسْبَةِ الدَّاءِ الَّذِي تَسَلَّلَ إلَيْها.

الوصِيَّةُ السادسة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

الْمَرَحُ: الاخْتِيَالُ، والتَّبَخْتُر في الْمَشْي، وأَصْلُهُ شِدَّةُ الْفَرَحِ والنَّشَاطِ، وتجاوُزُ الْحَدِّ الْمُعْتَادِ مِنْ حَرَكَاتِ الْعُقَلَاءِ وأَهْلِ الرُّشْدِ عِنْدَ فَرَحِهِم وَسُرُورهم.

فِي هـٰذِهِ الْوَصِيَّة يُتَابِعُ لُقْمَانُ نَهْيَ ابْنِهِ عَنْ ظَاهِرَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ ظَوَاهِرِ الكِبْرِ، والْعُجْبِ بالنَّفْسِ، وهِيَ ظاهِرَةُ الاخْتِيَالِ والتَّبَخْتُر في المَشْي.

هـٰذِهِ الظَّاهِرَةُ أَقْبَحُ مِنْ ظَاهِرَةِ تَصْعِيرِ الْخَدّ، لِأَنَّها تَدُلُّ عَلَىٰ خِفَّةٍ في

الْعَقْلِ، وَرُعُونَةٍ في الحركات، فالعاقِلُ الرَّزِين، وَذُو الرأي الرشيد، لَا يَسْتَخِفُّهُ الْكِبْرُ فِي نَفْسِهِ حَتَّىٰ يمْشِي في الْأَرْضِ مُخْتَالاً مُتَكَبِّراً مُتبخْتِراً، إِذْ يَشْعُرُ أَنَّ مِثْلَ هَـٰذِهِ الحركاتِ تَدُلُّ عَلَىٰ رُعُونَتِهِ وَخِفَّةِ عَقْلِه.

وحذَّرَ لُقْمَانُ ابْنَهُ مِنْ عَاقِبَةِ هَـٰذا السُّلُوكِ بقولِهِ لَهُ: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾: أَيْ: وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللهُ لِقِيَامِهِ بِما نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ نَهْيَ إِلْزَامٍ، فإنَّهُ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعِقَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

إنَّ مَنْ يَحْمِلُ وَظِيفَةَ الأمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عن المنكر بين الجماهير، يَقْبُحُ بِهِ جِدّاً أَنْ يَمْشِيَ في الْأَرْضِ مَرحاً، مُخْتَالاً مُتَبَخْتراً، وَسُلُوكُهُ هـٰذا يُنَفِّرُ النَّاسَ مِنْه، فَلَا يَتَأَثَّرُونَ بما يأْمُرُهُمْ به، وَلَا بِمَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ، مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ، إذْ يَرَوْنَهُ في سُلُوكِهِ مُخَالِفاً لِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ حَامِلِي رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ وبما أمَرَ به رسُولُه، أَخْذاً مِمَّا قالَ لَهُ في سورة (الحِجْر/ ٥٤ نزول):

﴿.. وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

الوصِيَّة السَّابعة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾:

القَصْدُ: هو الاعتدالُ في الأمْرِ، دُون إفراطٍ ولَا تَفْرِيط. **والْقَصْدُ في المشي:** هو التوسُّط بَيْنَ الإسْراع الّذي يَدُلُّ عَلَىٰ الْخِفَّةِ والطَّيْش، وبين الإبطاء الذي يَدُلُّ على الكَسَلِ والضَّعْفِ وانْعِدَام النَّشَاطِ لِلْحَرَكة.

إنَّ الْقَصْدَ في المشْي يَدُلُّ علىٰ الرَّزَانَةِ والرَّصَانَةِ، والْعَقْلِ والْحِكْمَةِ فِي التَّنَقُّل، وهُو مِنَ الْمُرَشِّحَاتِ لِأنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، الَّذِينَ هُمْ أئِمَّةٌ يَقْتَدِي بِهِمُ الْمُتَّقُونَ، كما جاء في بَيَانِ الصِّفَات الَّتِي يَتَحَلَّىٰ بها عِبَادُ الرَّحْمٰن، في أواخِرِ سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) الَّتي سَبَقَ تَدَبُّرُهَا، وَشَرْحٌ مُوَسَّعٌ فِيها لِصفَاتِ عباد الرَّحْمٰن.

الوصِيَّة الثامِنَة: دلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿.. وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾:

غَضُّ الصَّوْت: خَفْضُهُ وعَدَمُ رَفْعِهِ، فَرَفْعُ الصَّوْتِ في الأحاديثِ الْعَادِيَّةِ مُنَافٍ لسُلُوك الْعَاقِلِ الرَّصِينِ الرَّشيد.

أصْلُ الْغَضِّ مِنَ الشَّيْءِ النَّقْصُ مِنْهُ، والمَطْلوب في الصَّوْتِ عِنْدَ المُحَادَثَةِ أَنْ يَكُونَ بِمِقْدَار مَا يُسْمَعُ دُونَ زِيادَةٍ ولَا نَقْصٍ.

إنّ الزّيادة في رَفْع الصَّوْتِ عَنِ المَطْلُوبِ رُعُونَةٌ لَا تَلِيقُ بالْعَاقِلِ الحكيم الرَّشِيد، وَإِنَّ خَفْضَهُ عَنِ المَطْلُوبِ للإسْمَاع مُنَافٍ لِلْحِكْمَة، ودَلِيلٌ على أَنَّ الْمُحَدِّثَ لَا يَمْلِكُ الْحِسَّ اللّازِمَ لِتَقْدِيرِ الْأُمُور قَدْرَهَا بِحَسَبِ الحاجَةِ.

إنَّ رَفْعَ الْأَصْوَاتِ مِنْ أعْمَالِ الْبَاعَةِ الْمُتَجوِّلين، الَّذِين يُرِيدونَ إسْمَاع النَّاسِ في بُيُوتِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ عَمَّا جَلَبُوهُ لِيَبِيعُوه، وَهَـٰؤُلَاءِ لَا يَعْنِيهِمُ الالْتِزَامُ بالآدَابِ الْعَامَّة، إنَّمَا يَعْنِيهِم بَيْعُ بَضَائِعِهِمُ الَّتِي جَلَبُوهَا، لكَسْبِ أَرْزَاقِهِمْ، والنَّاسُ يَعْذُرُونَهُم في هـٰذا، لَكِنَّهُمْ لا يَعْذُرُونَ الْمُحَدِّثِينَ فِي الْمَجَالِسِ، أَوْ المُتَحادِثِينَ في أُمُورٍ خَاصَّةٍ أَوْ عَامَّةٍ، إذا رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ عَنْ مِقْدَارِ حَاجَةِ الإسْماع، ويَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ عَمَلاً مُزْعِجاً لِآذانِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا مَصْلَحَةَ لَهُمْ فِي سَمَاعِ الحديث، وَمُخَالِفاً لِلْآدَابِ الْعَامَّة.

ولِلتَّنْفِيرِ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ دُونَ الحاجَةِ إِلَيْهِ قال لُقْمَانُ لابْنِهِ:

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾: أي: إنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ دُونَ حاجَةٍ إلىٰ رَفْعِهِ مِنْ صِفَاتِ الْحَمِير، فَلَا تَكُنْ يا بُنَيَّ مُتَّصِفاً بِصِفَةٍ هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْحَمِير الَّتِي تَنْهَقُ فَتَرْفَعُ أَصْوَاتَها الْمُنْكَرَةَ لحاجَةٍ فِي أَنْفُسِها.

أَنْكَرُ الْأَصْوَات: أي: أَقْبَحُها وَأَكْثَرُهَا تَنْفِيراً لِلْأَسْمَاع.

وجاء في هـٰذه العبارة التوكيد بـ«إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللَّام المزحْلَقَة» والْغَرَضُ مِن التوكيد بهـٰذِهِ المؤكِّدَاتِ الْمُبَالَغَةُ في التَّنْفِير من رَفْعِ الصَّوْتِ دُون حَاجَةٍ إلىٰ رَفْعِهِ.

مأثوراتٌ مِنْ وَصَايا لُقْمان:

أَنْقُلُ هُنَا طَائِفَةً مِنْ وَصَايا لُقْمَانَ المَنْثُورَةِ في الكُتُب، وهٰذِهِ الطَّائِفَةُ قَدْ جَمَعَها «الشَّيْخُ مُحَمَّد الطاهر بن عَاشور» في تَفْسِيره: «التَّحريرُ والتَّنْوِير» بَعْدَ أَنْ فَسَّرَ الآيات الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِوصَاياه لابنه:

(١) • أي بُنَيَّ، إنَّ الدُّنيا بَحْرٌ عَمِيقٌ، وقَدْ غَرِق فيها أُنَاسٌ كثير، فاجْعَلْ سَفِينَتَكَ فيها تَقْوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وحَشْوَهَا الإيمانَ، وشِرَاعَهَا التَّوَكُّلَ عَلَىٰ الله تَعَالَىٰ، لَعَلَّكَ أَنْ تَنْجُو، ولَا أَرَاكَ ناجِياً.

(٢) • مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ، كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَافِظ، ومَنْ أَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِه زَادَهُ اللهُ بِذَلِكَ عِزّاً، والذُّلُّ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ أَقْرَبُ مِنَ التَّعَزُّزِ بالْمَعْصِيَة.

(٣) • ضَرْبُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ كالسَّمَادِ للزَّرْعِ.

(٤) • يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ والدَّيْنَ، فإنَّهُ ذُلُّ النَّهارِ، وهَمُّ اللَّيْلِ.

(٥) • يَا بُنَيَّ ارْجُ اللهَ عَزَّ وَجلَّ رَجاءً لَا يُجَرِّئُكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ تَعَالَى، وخَفِ اللهَ سُبْحَانَهُ خَوْفاً لَا يُؤْيِسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَىٰ شَأْنُهُ.

(٦) • مَنْ كَذَبَ ذَهَبَ مَاءُ وَجْهِهِ، وَمَنْ سَاءَ خُلُقُه كَثُرَ غَمُّهُ، وَنَقْلُ الصُّخُورِ مِنْ مَوَاضِعِهَا أَيْسَرُ مِنْ إفْهَامِ مَنْ لَا يَفْهَمُ.

(٧) • يَا بُنَيَّ، حَمَلْتُ الْجَنْدَلَ والْحَدِيدَ وَكُلَّ شَيْءٍ ثَقِيلٍ، فَلَمْ أَحْمِلْ شيئاً هُوَ أَثْقَلُ مِنْ جَارِ السُّوءِ. وَذُقْتُ الْمِرَارَ فَلَمْ أَذُقْ شيئاً هُوَ أَمَرُّ مِنَ الْفَقْرِ.

(٨) • يَا بُنَيَّ، لَا تُرْسِلْ رَسُولَكَ جَاهِلاً، فإنْ لَمْ تَجِدْ حَكِيماً فَكُنْ رَسُولَ نَفْسِكَ.

(٩) • يَا بُنَيَّ، احْضُرِ الجَنَائِزَ، وَلَا تَحْضُرِ الْعُرسَ، فإنَّ الجنائِز تُذَكِّرُكَ بالْآخِرَة، والْعُرس يُشَهِّيكَ الدُّنيا.

(١٠) ● يَا بُنَيَّ، لَا تَأْكُلْ شِبعاً علَىٰ شِبَعٍ، فَإِنَّ إِلْقَاءَكَ إِيَّاهُ لِلْكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَأْكُلَهُ.

(١١) ● لَا تَكُنْ حُلْواً فَتُبْلَعَ، ولَا تَكُنْ مُرّاً فَتُلْفَظَ.

(١٢) ● لَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا الْأَتْقِيَاء، وشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ الْعُلَماء.

(١٣) ● لَا خَيْرَ لَكَ في أَنْ تَتَعَلَّمَ مَا لَمْ تَعْلَمْ، ولَمَّا تَعْمَلْ بما قَدْ عَلِمْتَ، فإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ احْتَطَبَ حَطَباً، فَحَمَلَ حُزْمَةً، وذَهَبَ يَحْمِلُها، فَعَجَزَ عَنْها، فَضَمَّ إِلَيْهَا أُخْرَىٰ.

(١٤) ● يَا بُنَيَّ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُؤَاخِيَ رَجُلاً، فأَغْضِبْهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فإِنْ أَنْصَفَكَ عِنْدَ غَضَبِه فآخِه، وإِلَّا فَاحْذَرْه.

(١٥) ● لِتَكُنْ كَلِمَتُكَ طَيِّبَةً، ولْيَكُنْ وَجْهُكَ بَسْطاً تَكُنْ أَحَبَّ إِلىٰ النَّاسِ مِمَّنْ يُعْطِيهِمُ العطاء.

(١٦) ● يَا بُنَيَّ، أَنْزِلْ نَفْسَكَ مِنْ صَاحِبِكَ مَنْزِلَةَ مَنْ لا حَاجَةَ لَهُ بِكَ، وَلَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ.

(١٧) ● يَا بُنَيَّ، كُنْ كَمَنْ لَا يَبْتَغِي مَحْمَدَةَ النَّاسِ، ولَا يَكْسَبُ ذَمَّهُمْ، فَنَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاء، والنَّاسُ مِنْهُ في راحَة.

(١٨) ● يَا بُنَيَّ، امْتَنِعْ بما يَخْرُجُ مِنْ فِيكَ، فإِنَّكَ مَا سَكَتَّ سَالِمٌ، وإِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ مِنَ الْقَوْلِ مَا يَنْفَعُكَ.

(١٩) ● يَا بُنَيَّ، جَالِسِ الْعُلَمَاءَ، وزَاحِمْهُمْ بِرُكْبَتَيْكَ، فإِنَّ اللهَ يُحْيِي الْقُلُوبَ بنُورِ الْعِلْمِ، كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ بوابل السَّماء.

(٢٠) ● قيل لِلُقْمان: مَا بَلَغَ بِكَ مَا نَرَىٰ؟ فقال: صِدْقُ الْحَدِيث، وأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِينِي.

(٢١) ● يَا بُنَيَّ، لِيَكُنْ أَوَّلَ مَا تُفِيدُ مِنَ الدُّنْيَا بَعْدَ خَلِيلٍ صَالِحٍ، امرأَةً صَالِحَةً.

(٢٢) ● يَا بُنَيَّ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ مَا يُوعَدُونَ، وهُمْ إلَىٰ الآخِرَةِ سِرَاعاً يَذْهَبُون، وإنَّكَ قدِ اسْتَدْبَرْتَ الدُّنْيا مُنْذُ كُنْتَ، واسْتَقْبَلْتَ الْآخِرَة. وَإِنَّ دَاراً تَسِيرُ إِلَيْهَا أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ دَارٍ تَخْرُجُ عَنْها.

(٢٣) ● لَيْسَ غِنىً كَصِحَّة، وَلَا نِعْمَةٌ كَطِيبِ نَفْسٍ.

(٢٤) ● يَا بُنَيَّ، لَا تُجَالِسِ الْفُجَّارَ، وَلَا تُمَاشِهِمْ، اتَّقِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيُصِيبَكَ مَعَهُمْ.

(٢٥) ● يَا بُنَيَّ، جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَمَاشِهِمْ، عَسَىٰ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ رَحْمَةٌ فَتُصِيبَكَ مَعَهُمْ.

(٢٦) ● قَالَ لِرَجُلٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ: إِنْ كُنْتَ تَرَانِي غَلِيظَ الشَّفَتَيْنِ، فإنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا كَلَامٌ رَقِيقٌ، وإِنْ كُنْت تَرَانِي أسْودَ فَقَلْبِي أَبْيَض.

(٢٧) ● أَمَرَهُ مَوْلَاهُ بِذَبْحِ شَاةٍ وَأَنْ يَأْتِيَهُ بِأَطْيَبِ مُضْغَتَيْن، فأتَاهُ باللِّسَانِ والْقَلْب.

ثُمَّ أمَرَهُ بِذَبْحِ أُخْرَىٰ، وقالَ لَهُ أَلْقِ مِنْها أَخْبَثَ مُضْغَتَيْن، فَأَلْقَىٰ اللِّسَانَ والْقَلْبَ.

فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَال: هُمَا أَطْيَبُ مَا فِيها إذا طَابَا، وأَخْبَثُ مَا فِيها إِذَا خَبُثَا.

(٢٨) ● قِيل: دَخَلَ لُقْمَانُ علَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَهو يَسْرُدُ الدُّرُوع، فأرَادَ أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّاذَا يَصْنَعُ، فأدْرَكَتْهُ الْحِكْمَةُ فَسَكَتَ. فَلَمَّا أَتَمَّها دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام، لِبسَها وقال: نِعْمَ لَبُوسُ الْحَرْبِ أنْتِ. فقالَ لُقْمان: الصَّبْرُ حِكْمَةٌ، وَقَلِيلٌ فَاعله.

(٢٩) ● قيل لِلُقْمان: أيُّ النّاسِ شَرّ، فقال: الَّذِي لَا يُبالِي أَنْ يَراهُ النَّاسُ سَيِّئاً، أَوْ مُسِيئاً.

(٣٠) • إِنَّ الْحَاكِمَ بِأَشدِّ الْمَنَازِلِ وَكَدِرِها، يَغْشَاهُ المظْلُومُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، إِنْ يُصِبْ فَبِالْحَرِيّ أَنْ يَنْجُو، وَإِنْ أَخْطَأَ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْجَنَّة.

(٣١) • مَنْ يَكُنْ في الدُّنْيَا ذَلِيلاً خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ شَرِيفاً.

(٣٢) • مَنْ يَخْتَرِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الآخِرَة تَفُتْهُ الدُّنْيَا وَلَا يُصِبِ الآخِرَة.

(٣٣) • قيل: إِنَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلامُ سَأَلَ لُقْمَانَ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فقال: أَصْبَحْتُ فِي يدَيْ غَيْرِي.

(٣٤) • قال لُقْمَانُ لابْنِهِ: إِنَّ اللهَ رَضِيَنِي لَكَ فَلَمْ يُوصِنِي بِكَ، ولَمْ يَرْضَكَ لِي فَأَوْصَاكَ بِي.

(٣٥) • يَا بُنَيَّ، إِذَا امْتَلأَتِ الْمَعِدَةُ نَامَتِ الْفِكْرَةُ، وَخَرِسَتِ الْحِكْمَةُ، وَقَعَدَتِ الْأَعْضَاءُ عَنِ الْعِبَادَة.

(٣٦) • يَا بُنَيَّ، إِنَّ مَثَلَ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ، كَمَثَلِ الدُّهْنِ في الرَّأْسِ، يُلَيِّنُ الْعُرُوقِ، ويُحَسِّنُ الشَّعَر، وَمَثَلَها كَمَثَلِ التَّاج عَلَىٰ رَأسِ الْمَلِك، وَمَثَلَها كَمَثَلِ اللُّؤْلُؤِ والْجَوْهر لا يَدْرِي أَحَدٌ مَا قِيمَتُه، وَمَثَلُ المرأةِ السُّوءِ كَمَثَلِ السَّيْلِ، لَا يَنْتَهِي حَتَّىٰ يَبْلُغَ مُنْتَهَاهُ، إِذَا تَكَلَّمَتْ أَسْمَعَتْ، وَإِذَا مَشَتْ أَسْرَعَتْ، وإِذا قَعَدَتْ رَفَعَتْ، وَكُلُّ دَاءٍ يَبْرأُ إِلَّا دَاءُ امْرَأَةِ السُّوء، تَبْكِي وَهِيَ الظَّالِمَة، وتَحْكُمُ وَهِيَ الجائِرَة، وتَنْطِقُ وَهِي الجاهِلَة، وهِي أَفْعَى بِلَدْغِها.

(٣٧) • يَا بُنَيَّ، سَافِرْ بِسَيْفِكَ، وخُفِّكَ، وعِمَامَتِكَ، وخِبَائِكَ، وسِقَائِكَ، وخُيُوطِكَ، ومِخْرَزِكَ، وَتَزَوَّدْ مَعَكَ من الأدْوِيَة مَا تَنْتَفِعُ به أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، وكُنْ لِأَصْحَابِكَ مُوَافِقاً إِلَّا في مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

يَا بُنَيَّ، إِذَا سَافَرْتَ مَعَ قَوْم فَأَكْثِرِ اسْتِشَارَتَهُمْ في أَمْرِكَ وَأُمُورِهِم، وأَكْثِرِ التَّبَسُّمَ فِي وُجُوهِهِم، وَكُنْ كَرِيماً عَلَىٰ زَادِكَ بَيْنَهُمْ، فإذَا دَعَوْكَ

فأَجِبْهُمْ، وَإِذَا اسْتَعَانُوا بِكَ فَأَعِنْهُمْ، واسْتَعْمِلْ طُولَ الصَّمْتِ، وَكَثْرَةَ الصَّلَاة، وسَخَاءَ النَّفْس بما مَعَكَ مِنْ دابَّةٍ أَوْ مَاءٍ، أو زاد، وإِذَا اسْتَشْهَدُوكَ علَىٰ الحقِّ فاشْهَدْ لهم، واجْتَهِدْ رَأْيَكَ لَهُمْ إذا اسْتَشَارُوكَ، ثُمَّ لَا تَعْزِمْ حَتَّىٰ تَتَثَبَّتَ وتَنْظُرَ، ولَا تُجِبْ فِي مَشُورَةٍ حَتَّىٰ تَقُومَ فيها وتَقْعُدَ وتَنَامَ وَتَأْكُلَ وتُصَلِّي وأنْتَ مُسْتَعْمِلٌ فِكْرَتَكَ وَحِكْمَتَكَ في مَشُورَتِك، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَمْحَضِ النَّصِيحَةَ مَنِ اسْتَشَارَهُ سَلَبَهُ اللهُ رأيَهُ.

وَإِذَا رَأَيْتَ أَصْحَابَكَ يَمْشُونَ فَامْشِ مَعَهُمْ، فإذا رأَيْتَهُمْ يَعْمَلُونَ فَاعْمَلْ مَعَهُمْ، واسْمَعْ لِمَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ سِنّاً، وإِذَا أَمَرُوكَ بِأَمْرٍ وَسَأَلُوكَ شَيْئاً فَقُلْ: «نَعَمْ» ولا تَقُلْ: «لَا». فَإِنَّ «لَا» عِيٌّ وَلُؤْمٌ.

وإِذَا تَحَيَّرْتُمْ في الطَّرِيقِ فانْزِلُوا، وَإِذَا شَكَكْتُمْ في الْقَصْدِ فَقِفُوا وَتَآمَرُوا، وإِذَا رَأَيْتُمْ شَخْصاً وَاحِداً فَلَا تَسْأَلُوهُ عَنْ طَرِيقِكُمْ وَلَا تَسْتَرْشِدُوه، فإنَّ الشَّخْصَ الواحِدَ في الْفَلَاةِ مُرِيبٌ، لَعَلَّهُ يَكُونُ عَيْنَ اللُّصُوصِ، أَوْ يَكُونُ هُو الشَّيْطَانُ الَّذِي حَيَّرَكُمْ، واحْذَرُوا الشَّخْصَيْنِ أيضاً، إِلَّا أَنْ تَرَوْا مَا لَا أَرَىٰ، لِأَنَّ الْعَاقِلَ إِذَا أَبْصَرَ بِعَيْنِهِ شَيْئاً عَرَفَ الحقَّ مِنْهُ، والشَّاهِدُ يَرَىٰ مَا لَا يَرَىٰ الْغَائِب.

يَا بُنَيَّ، إِذَا جَاءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَلَا تُؤَخِّرْهَا لِشَيءٍ، صَلِّهَا واسْتَرِحْ مِنْهَا، فإِنَّهَا دَيْنٌ، وَصَلِّ في جَمَاعَةٍ وَلَوْ على رَأْسِ زُجٍّ(١)، وإِذَا أَرَدْتُمُ النُّزُول فَعَلَيْكُمْ مِنْ بِقَاعِ الْأَرْضِ بأحْسَنِهَا لَوْناً، وَأَلْيَنِهَا تُرْبَةً، وأَكْثَرِهَا عُشْباً.

وَإِذَا نَزَلْتَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ تَجْلِسَ، وإِذَا أَرَدْتَ قَضَاءَ حَاجَتِكَ فَأَبْعِدِ المذْهَبَ فِي الْأَرْض.

---

(١) **الزُّجّ**: ٱلحَدِيدَة في أسْفَلِ الرُّمْحِ، وهذا على سَبِيلِ المبالَغَةِ، والمرادُ ولَوْ فِي مَكانٍ شَدِيدِ الضِّيق.

وإِذَا ارْتَحَلْتَ فَصلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ وَدِّعِ الأَرْضَ الَّتِي حَلَلْتَ بها، وسَلِّمْ عَلَىٰ أَهْلِها، فإنَّ لِكُلِّ بُقْعَةٍ أَهْلاً مِنَ الملائكة.

وإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَأْكُلَ طَعَاماً حتَّىٰ تَبْتَدِئَ فَتَتَصدَّقَ مِنْهُ فَافْعَلْ.

وعَلَيْكَ بقراءةِ كِتَابِ اللهِ مَا دُمْتَ رَاكِباً، وعَلَيْكَ بالتَّسْبِيحِ مَا دُمْتَ عَامِلاً عَملاً، وَعَلَيْكَ بالدُّعاءِ مَا دُمْتَ خَالِياً، وإِيَّاكَ والسَّيْرَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَىٰ آخِرِه، وَإِيَّاكَ وَرَفْعَ الصَّوْتِ في مَسِيرِكَ.

وبهـٰذا أَنْتَهِي من تدبُّر الدرس الخامس من دروس سورة (لُقْمان).

والْحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وتَوْفِيقِه، وفَتْحِه.

* * *

(١١)

التدبُّر التحليليّ للدَّرسِ السادس من دُرُوس سورة (لقمان) وهو الآيات من (٢٠ ـ ٢٤)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

القراءات:

(٢٠) ● قرأ نافع، وأبُو عَمْرو، وحَفْص، وأَبُو جَعْفر: **[نِعَمَهُ]** جمع «نِعْمَةٍ».

وقرأَهَا باقي القرّاء العشرة: **[نِعْمَةً]** بالإفْراد، والتَّنْكِير، وهِي اسْمُ جِنس، والمؤدّىٰ واحد.

(٢٢) ● قرأ قَالُون، وأَبُو عَمْرو، والكِسَائي: **[وَهْوَ]** بإسْكَانِ الهاء.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء الْعَشَرَة: **[وَهُوَ]** بضَمّ الهاء.

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبيان.

(٢٣) ● قرأ نافع: **[فَلَا يُحْزِنْكَ]** مِنْ فِعْل «أَحْزَنَهُ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَلَا يَحْزُنْكَ]** من فِعْلِ «حَزَنَهُ».

قال الجوهريّ: «حَزَنَهُ» لغة قريش، و«أحْزَنَهُ» لُغَةُ تَمِيم.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرس بَيَانٌ تَذْكِيرِيٌّ للنَّاسِ بِنعَمِ اللهِ الكَثِيرَة عَلَيْهِم، الَّتِي تَسْتَدْعِي أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَيْها.

ولَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ بالْبَاطِل، علَىٰ الرُّغْمِ مِنْ إنْذَارِهِمْ بِعَذَابِ السَّعِير.

وفيها بِشَارَةٌ لِلْمُؤمِنِ الَّذِي يُسْلِمُ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ في عِبَادَتِهِ لرَبّه، بالعاقِبَةِ الحسْنَىٰ يَوْمَ الدين.

وفيها تَوْصِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ بِأَنْ لَا يَحْزُنَهُ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ، فالْكَافِرُونَ مَصِيرُهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ، وهُمْ باخْتِيارِهِمُ الْحُرِّ يَجْنُونَ علَىٰ نُفُوسِهِمْ إذْ يَدْفَعُونَ بِها إِلَىٰ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ جَمِيعاً، والْمَقْصُودُونَ بالمعالَجَةِ الَّذِينَ لَا يُؤَدُّونَ وَاجِبَ شُكْرِ اللهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ الكَثِيرَة عَلَيْهِمْ، بَلْ يُشْرِكُون بِهِ مَا لَا يَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً، ولَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضرّاً:

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً . . ﴿٢٠﴾﴾:

التَّسْخِير: التّذْليل لِعَمَلٍ ما، أَوْ لِأَمْرٍ ما، وجَعْلُ الشَّيْءِ مُطاوعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ، ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيرِه، وهٰذِهِ المطاوعَةِ قَدْ تَكُونَ بِالطَّبْعِ كَتَسْخِير الأَشْيَاء، وقَدْ تَكُونُ بِالْقُوَّةِ، كَتَسْخِيرِ الْعَجْمَاوَاتِ، وقَدْ تَكُونُ بالاختيار الْحُرّ لِمَا فِي المطَاوَعَةِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لِلْمُطَاوِع.

الإسْباغُ: الإتْمَامُ، والتوسِعةُ، وإطَالَة الشيء، يُقَالُ لُغَةً: «أَسْبَغَ الثَّوْبَ» أي: وَسَّعَهُ، ويُقَالُ: «أَسْبَغَ لَهُ في النَّفَقَةِ» أي: وَسَّعَ عَلَيْهِ فيها، ويُقَالُ: «أَسْبَغَ اللهُ عَلَيْكَ النِّعْمَة» أي: أَكْمَلَهَا وَأتَمَّهَا.

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾: اسْتِفْهَامٌ يُحْمَلُ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِ الْمُخَاطَبِينَ عَلَىٰ التَّقْرِير، ويُحْمَلُ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِهِمْ علَىٰ التَّلْوِيم والتَّثْرِيب والتَّعْنِيفِ، ويُحْمَلُ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِهِمْ عَلَىٰ الْحَثِّ والْحَضِّ حَتَّىٰ يَرَوْا رُؤْيَةً شَامِلَةً للرُّؤْيَةِ الْفِكْرِيَّةِ والرُّؤيَةِ الْعَيْنِيَّةِ المشَاهَدِيَّة.

- ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أَيْ: سَخَّرَ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ مُسَخَّرَاتٍ لَكُمْ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ.

- الشَّمْسُ مُسَخَّرَةٌ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ وخَلْقِهِ وَمُتَابِعَتِهِ الدائِمَةِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، لِمَنَافِعِ النَّاسِ والْأَحْيَاءِ الْأُخْرَىٰ في الْأَرض.

- والْقَمَرُ مُسَخَّرٌ بتقدير الله وقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ وَمُتَابَعَتِهِ الدائِمَةِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِه، لِمَنَافِعِ النَّاسِ في الأرض، وكُلُّ مَا فِي الأرض مُسَخَّرٌ للناسِ.

- والرّياحُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللهِ للناسِ في الْأَرْض.

- والنُّجُومُ الْقَرِيبَةُ والْبَعِيدَةُ مُسَخَّرَاتٌ كَذَلِكَ.

- إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لا نُدْرِكُ كَوْنَهُ مُسَخّراً، وَلَا نُدْرِكُ فِينَا آثارَ هٰذا

التَّسْخِير، ومِنَ التَّسْخِيرِ نِظَامُ الجاذِبياتِ الضَّابِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ في الْكَوْنِ مِنْ أَدْنَاهُ إِلَيْنا، إِلَىٰ أَقْصاهُ عَنَّا.

- ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: أي: وَأَتَمَّ وأَكْمَلَ وَوَسَّعَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ نِعَمَهُ الكَثِيرَةَ، الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَها، حَالَةَ كَوْنِ هٰذِهِ النِّعَمِ ظَاهِرَةً مَشْهُودَةً لَكُمْ، وَباطِنَةً لَا تُشَاهِدُونَها بأَبْصَارِكُمْ، فَنِعَمُ اللهِ عَلَيْكُمْ قِسْمَان:

- قِسْمٌ ظَاهِرٌ مَشْهُودٌ لَكُمْ.

- وقِسْمٌ بَاطِنٌ لَا تَرَوْنَه، ولدى الْبَحْثِ والتَّتَبُّعِ نُدْرِكُ أَنَّ نِعَمَ اللهِ الْبَاطِنَةَ أَكْثَرُ مِنْ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ، وبَعْضُهَا أَجَلُّ وأَعْظَمُ مِنْ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ المنْظُورَة، ومِنَ النِّعَمِ الْبَاطِنَةِ الْجَلِيلَة قُدُرَاتُ الْفَهْمِ والتَّفْكِير، والرُّوحِ، والمشاعِرِ والْعَوَاطِفِ النَّفْسِيَّة.

ومِنَ النِّعَمِ الْبَاطِنَةِ مَا خَلَقَ اللهُ فِي كَوْنِهِ مِنْ كَائِنَاتٍ مُسَخَّرَاتٍ لِحِمَايَةِ النَّاسِ وحِفْظِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً جُحُودَ الْكَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلَهِيَّتِهِ بالْبَاطِلِ، وَيُجَادِلُونَ لِتَزْيِين بَاطِلِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدَىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ:

﴿. . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

أي: وَيُوجَدُ مِنَ النَّاسِ كُفَّارٌ بِرَبِّهِمْ عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ كُلِّ البراهِينِ والْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ والْآيَاتِ الْكَوْنِيَّة، الدَّالَّاتِ علَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِيها، وأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَلْزَمُ عَنْ هٰذا عَقْلاً أَنَّهُ واحِدٌ في إِلَهِيَّتِهِ، وهٰؤُلَاءِ لا يُؤَدُّونَ واجِبَ الشُّكْرِ لَهُ، بَلْ يَلْتَمِسُونَ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ الَّتِي افْتَرَوْهَا

جَلْبَ مَنَافِعَ لَهُمْ، وَدفْعَ مَضارِّ عَنْهُمْ، وَيَسْتَمْسِكُونَ بِعَقَائِدَ باطِلَةٍ واضِحَةِ الْبُطْلَانِ، مُضَادَّةٍ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وواجِبِ شُكْرِهِ بإفْرادِه في الْعِبَادة، واتِّباعِ صراطِه المسْتَقِيم.

وَهٰؤُلَاءِ الكَفَرَةُ مِنَ النَّاسِ يُجادِلُونَ فِي اللهِ لِتَزْيين عَقَائِدهم الْبَاطِلَةِ، بِغَيْرِ عِلْم وَلَا هُدَىً وَلَا كِتَابٍ مُنِير.

إنَّ وسائِلَ اكْتِسَاب الْمَعْرِفَةِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ النَّاسِ تَرْجِعُ إلى ثَلَاثَةِ جُذُور:

الجذْر الْأَوّلُ: مَا يُكتَسَبُ بِهِ عِلْمٌ جَلِيٌّ، وَلَهُ طَرِيقَانِ: طَرِيقُ الإِدْرَاكِ الْحِسيِّ، وَطَرِيقُ الْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ، الْمُستَنِد إلى مُقَدِّماتٍ عَقْلِيَّةٍ ذَوَاتِ دَلَالاتٍ قَطْعِيَّةٍ، كالْحِسابِيَّاتِ، والْهَندَسِيَّاتِ، والنَّتَائِجِ الْعَقْلِيَّةِ المبْنِيَّةِ علَىٰ الْبَدهِيَّاتِ، ومِنْهَا الواجباتُ الْعَقْلِيَّة، والمسْتَحِيلاتُ الْعَقْلِيَّةِ، والجائِزَاتُ الْعَقْلِيَّة.

وَيَظْهَرُ لي أَنَّ هٰذَا الَّذِي أطْلَقَ اللهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ «عِلْمٌ» في هٰذِه الآيَةِ، وفي نَظِيرِهَا في سورَة (الحج/ ٢٢ مصحف/١٠٣ نزول) في الآية (٨) مِنْها. هُوَ لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ وَسَائِلِ المعرفة، وَلَيْسَ هٰذا في كُلِّ مَا أَطْلَقَ اللهُ عَلَيْهِ فِي القرآنِ أَنَّهُ عِلْمٌ.

الجذْرُ الثاني: مَا يُكْتَسَبُ بِهِ عِلْمٌ تَجْرِيبِيٌّ، نَاتِجٌ عَنْ تَجارِبَ مُتَكَرِّرة، كالطبيَّاتِ، والْغِذائِيَّات، والزِّراعِيَّاتِ، والصِّناعِيَّاتِ، والإِدارِيَّاتِ، والْحَرْبِيَّاتِ، والتَّرْبَوِيَّاتِ، ونَحْوها.

وَيَظْهَرُ لي أَنَّ هٰذا هو الذي أطْلَقَ اللهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ «هُدىً» في الآيَتَيْنِ، للتَّفْريق بَيْنَ وَسَائِلِ اكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ، لِأَنَّ أَصْحَابَ التَّجَارِبِ يَهْتَدُونَ إلَىٰ الأَفْضَلَ وَالْأَكْثَرِ صَوَاباً مِنْ خِلَالِ تَجْرِبَاتِهِمْ الْمُتَكَرِّرَاتِ والمتَنَوِّعَاتِ، وبالتَّنْوِيعِ والتَّكْرِيرِ يَهْتَدُونَ إلَىٰ الْأَفْضَلِ، والْأَكْثَرِ صَوَاباً واقْتِراباً مِنَ الكَمالِ المطَابِقِ لِلْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ الْجَلِيّ.

الجذْر الثالث: مَا يُكْتَسَبُ بِهِ عِلْمٌ خَبَرِيٌّ، آتٍ عَنْ طَرِيقِ كِتَابٍ مُنِيرِ الدَّلاَلاَتِ، صَحِيحِ الثُّبُوتِ لِمَصْدَرٍ يُحْتَجُّ بأَقْوالِهِ وبيَانَاتِهِ عقلاً.

وَالكِتَابُ الَّذِي يُحْتَجُّ بِهِ عَقْلاً فِيمَا يَتعَلَّقُ باللهِ وَصِفَاتِهِ ورُبُوبِيّتِهِ وإلَـهِيَّتِهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَنْقُولاً نَقْلاً صَحِيحاً عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ الصَّادِقِينَ المؤَيَّدِينَ بآيَاتِ اللهِ الباهِرَاتِ، والْمُبَلِّغِينَ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ رِسَالَاتٍ.

وَيظْهَرُ لي أنَّ هـٰذا هو الَّذِي أَطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِ في الآيَتَيْن، «أَنَّهُ كِتَابٌ مُنِيرٌ» للتفريق بَيْنَ وَسَائِلِ اكْتِسَاب المعرفة.

والكَفرَةُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ مِنْ مُشْرِكِينَ وغَيْرِهم يُجادِلُونَ بالْبَاطِلِ، مُسْتَخْدِمِينَ زُخْرُفاً مِنَ الْقَوْلِ قَائِماً عَلَىٰ المغالَطَاتِ، والْأَكَاذِيب، واسْتِرْضَاءِ الْأَهواء والشَّهَوَاتِ، ومَطَالِبِ النُّفُوسِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، فَلَا يُقَدِّمُونَ أدِلَّةً حِسِّيَّة، ولَا بَرَاهِينَ عَقْلِيَّة، وَلَا تَجْرِبَاتٍ مَقْرُونَاتٍ بِنَتَائِجَ صَحِيحَةٍ صَادِقَة، وَلَا خَبَراً صَادِقاً عَنْ رَسُولٍ مَعْصُومٍ فِي كِتَابٍ مُنِير.

وَهـٰؤُلَاءِ يُكَابِرُونَ فِي جَدَلِيَّاتِهِمْ، وَيَسْتَخْدِمُونَ مُخْتَلَفَ الْوَسَائِلِ الإغْرَائِيَّة الإغْوَائِيَّة الْخِدَاعِيَّة، لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ من آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ، وَلِيَصُدُّوا عَنْهُ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِلْإِيمانِ به واتِّبَاعِهِ، وَلِيُجَنِّدُوا الْأَشْرَارَ مِنْ خَلْقِ اللهِ في جَيْشِ شَيَاطِينِ الإنْسِ.

وَمِنْ حُجَجِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ هَـٰؤلَاءِ، الَّتِي لَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ دَلِيلٍ مَقْبُولٍ عقلاً، مِنْ مَسْلَكٍ مِنْ مَسالِكِ اكْتِسَابِ المَعْرِفَةِ الصَّحِيحَة، قَوْلُهُمْ: إِنَّا نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، فَقَالَ اللهُ تَعالَىٰ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ . . ﴿٢١﴾﴾.

أي: وإذا قيل لهـٰؤُلَاءِ الكَفَرَةِ المشْرِكينَ المقلِّدِينَ لِآبَائِهِم: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ حقَائِقَ إيمانِيَّةٍ، وشَرائِعَ وأَحْكَامِ سُلُوكٍ نَافِعٍ فِي الْحيَاةِ،

ومُسْعِدٍ لَكُمْ بَعْدَ الْمَمات، قالوا: لَا نَتَّبعُ مَا تَدْعُونَنا إلَيْهِ، بَلْ نَتَّبعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا مِنْ عَقائِدَ شِرْكِيَّةٍ، وسُلُوكٍ تَعَبُّدِيٍّ لِأَوْثَانِنَا، وسائِرِ أنواعِ السُّلُوكِ في الحياة.

مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ هَـٰذَا ردٌّ عِنَادِيٌّ، لَا يَعْتَمِدُ علَىٰ مِيزانٍ عَقْلِيٍّ يَقْتَضِيه، وَلِهَـٰذَا جَاءَ في الآيَةِ تَعْلِيمُ الرَّدِّ المفْحِمِ لَهُمْ، يَرُدُّ به عَلَيْهِمُ الدَّاعِي إلَىٰ اللهِ مُفَصِّلاً وَشَارِحاً، وهُمْ يَسْمَعُونَهُ مِنْ تِلَاوَةِ الْبَيَانِ القرآنِيِّ عَلَيْهِم، فقال اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿.. أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

أي: أيُعانِدُونَ مُصِرِّينَ على اتِّبَاعِ آبائِهِمْ وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يدْعُوهُمْ بالإِصْرَارِ على هـٰذا الاتِّبَاعِ إلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ في النَّارِ الموقَدَةِ يَوْمَ الدِّين.

الاتّباعُ: سَيْرُ التَّابعِ في أَثَر مَتْبُوعِهِ، وتقْلِيدُ المقتدي إمَامَهُ فِي أقوالِهِ وأفْعَالِه، وَطَاعَتُهُ في أوَامِرِهِ ونواهِيهِ، والاسْتِجَابَةُ لَهُ في دَعْوَتِهِ، والاجْتِهَادُ فِي تَطْبِيقِ وَصَايَاه.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المقَلِّدِينَ أيْضاً تَقْلِيداً أعْمَىٰ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ﴾: أَيْ: وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا.

وَبَيْنَ هـٰذِهِ الآيَةِ، وآيَةِ سُورَةِ (لُقْمان) تكامُلٌ فِي تَعْلِيم الرَّدِّ على الْمُقَلِّدِينَ تَقْلِيداً أعْمَىٰ، فآيَةُ سورة (الْبَقَرة) تَكْشِفُ وَصْفاً يَتعَلَّقُ بالآباءِ، وهُو احْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شيئاً مِنْ حَقَائِقِ الْعِلْمِ، وَلَا يَهْتَدُونَ عَنْ طَرِيقِ التجارب المتَكَرِّرَةِ إلَىٰ ما هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَكْثَرُ صَوَاباً،

إذْ كُلُّ هَمِّهِمْ مُنْصَرِفٌ إلَىٰ إرْضَاءِ غَرائِزِهِم وأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَائِهِم ومَا يَسْتَنْزِلُهُمْ إلَىٰ الآثام مِنْ مُغْرِيَاتِ الْحَيَاة الدُّنْيا.

وَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَأْخِيرُ هَـٰذا الرَّدِّ إلَىٰ أَوَائِلِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، وإنْزَالُه في سُورَةِ (البقرة) أَوَّلِ سُورَة مَدَنِيَّة، لئَلَّا يُثِيرَ عَصَبِيَّةَ مُشْرِكي مَكَّةَ لِآبَائِهِمْ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ فيها، وَكَانَ المسْلِمُونَ حِينَئِذٍ مضطَّهدِينَ فِيها، فَيَزِيدُوا فِي اضطهادِهِمْ لهم، أَوْ يُعْلِنُوا الْحَرْبَ ضِدَّهُمْ وَضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ، ولَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ قُدْرَةٌ علىٰ مُقَاتَلَتِهِمْ ضِمْنَ الأَنْظِمَة السَّبَبِيَّةِ لِلْمُوَاجَهات الْحَرْبِيَّة، وَلَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ حِينَئِذٍ أَنْ يَتَدَخَّلَ بالمعجِزَاتِ لِنَصْرِ الْمُؤْمِنين علىٰ الْكَافِرِين.

«الواو» بَعْدَ هَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ فِي ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ في آيَتي سُورَةِ «لُقْمَان» وسُورَة «الْبَقَرَة» تَعْطِفُ على مَحْذُوفٍ، من السَّهْلِ اسْتِخْرَاجُهُ ذِهْناً. وهو: أَيُعَانِدُونَ مُصِرِّينَ على اتِّبَاعِ آبَائِهِمْ ولَوْ كانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلَىٰ عَذَابِ السَّعِير، ولَوْ كان آباؤهم لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً حَالَةَ مَنْ يُسْلِمُ وَجْهَهُ إلَىٰ اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ، مَعَ الإلْمَاحِ إلَىٰ ثَوَابِهِ الْعَظِيمِ عِنْدَ رَبِّهِ، في مُقَابِل الكافِرِ المعاند المجادل بالباطل:

- ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾:

اسْتَمْسَكَ: أي: أَمْسَك بِشِدَّةٍ وقُوَّةٍ قابضاً.

الْعُرْوَة: مَدْخَلُ الزِّرِّ في الثَّوْب، ودَائِرَةٌ مِنَ الْحَبْلِ تُعْقَدُ فِي وَسَطِهِ لِرَبْطِ شيءٍ ما بِهَا أَوْ تَعْلِيقِهِ. وعُرْوَةُ الكُوزِ أَوِ الإبْرِيقِ أَو الْكَأْسِ مَا يُوضَعُ عِنْدَ صُنْعِهِ في جَانِبِهِ وَيُقْبَضُ عَلَيْه مِنْهُ، ويُحْملُ به.

وتُطْلَقُ الْعُرْوَةُ بِطَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ علَىٰ مَا يُسْتَمْسَكُ بِهِ مِنْ عَقَائِدَ وَمَفْهُومَاتٍ وقُوىً غَيْبِيَّةٍ، وعَلَىٰ مَا يُعْتَصَمُ به.

الْوُثْقَى: مُؤَنَّثُ «الْأَوْثَق» أي: الْعُرْوَةُ الْأَشَدُّ إحْكَاماً وَتَوْثِيقاً.

إسْلَامُ الْوَجْهِ لِلَّهِ: كِنَايَةٌ عَنِ انقيادِ الإنْسَانِ صَاحِبِ الْوَجْهِ، مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ في مَسِيرَتِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا، لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَامِرِه وَنَوَاهِيه.

فالإنْسَانُ يَسِيرُ في حَيَاتِهِ في الاتِّجَاه الَّذِي يُوَجِّهُ لَهُ وَجْهَهُ، ولَا يَسِيرُ إِلَىٰ جِهَةِ دُبُرِهِ تَرَاجُعاً، وَلَا إِلَىٰ جِهَةِ يَمِينِهِ أَوْ يَسَارِهِ مَعَ بَقَاءِ وَجْهِهِ مُتَّجِهاً إِلَىٰ جِهَةٍ أُخْرَىٰ، فَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ انْقَادَ لِأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ انْقِيَاداً تَامّاً، في مَسِيرَتِهِ الابْتِلَائِيَّةِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِه.

- ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَكُنْ مُنْقَاداً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ لِأَوامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ طَائِعاً مُخْتَاراً.

«مَنْ» شَرْطِيَّة «يُسْلِمْ» فِعْلُ الشَّرْطِ مجزوم.

- ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جُمْلَةٌ حَالِيَّة، أي: والْحَالُ أَنَّهُ مُحْسِنٌ عِبَادَتَهُ وَطَاعَتَهُ لِرَبِّهِ، مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، وهُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ، ومَرْتَبَةُ الإحْسَانِ أعْلَىٰ مَرَاتِبِ المؤمنين.

- ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: أي: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بأَوْثَقِ الْعُرَىٰ، الْمُوصِلَةِ إِلَىٰ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

- ﴿.. وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾: أي: وَبَعْدَ حَيَاةِ الابتلاء الَّتِي يَمْنَحُ اللهُ فِيها الْمَوْضُوعِينَ مِنَ الخلائق مَوْضِعَ الامْتِحَانِ حُرِّيَّاتِ اخْتِيَارِ أَعْمَالِهِمْ، وَيَخْلُقُ لَهُمْ مَا يُرِيدُونَ مِنْهَا، مَا لَمْ تَتَعَارَضْ مَعَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ السَّابِقَيْنَ، يَسْلُبُهُمُ اللهُ حُرِّيَّاتِهِمْ، وَمَا كَانُوا يَرَوْنَ لِنُفُوسِهِمْ مِنْ قُدُرَاتٍ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ فِيما كَانَ مُسَخَّراً لَهُمْ، وَتَكُونُ إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ في كُلِّ الْأُمُورِ عَاقِبَتُهَا.

هُوَ الَّذِي يُحَاسِب، وهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ ويَقْضِي، وهُوَ الَّذِي يُجَازِي، ولَيْسَ لِأَحَدٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ تَصرُّفٌ إِلَّا بأَمْرِ اللهِ.

عاقبة كل شيء أو أَمْرٍ: هُو مَا يَأْتِي عَقِبَهُ، مُباشَرَةً، أَوْ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ.

هـٰذا المعنَىٰ الّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هـٰذِهِ الآية (٢٢) من سورة (لُقْمَان) بِشَأْنِ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ، جَاءَ بَيانُهُ في نَصَّيْنِ آخرَيْن، وهُمَا نَصَّانِ مَدنيا التَّنْزِيل.

(١) • فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بِشَأْنِ مَقَالَةٍ قالَهَا الْيَهُود، وقالَهَا النَّصارَىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

هُوداً: هُمُ الْيَهُود. وهو جَمْعُ «هَائِدٍ» بِمَعْنَىٰ التائِبِ الراجِعِ إِلَىٰ الحق.

﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾: أي: فَلَهُ أَجْرُهُ الملائم بِفَضْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لإِحْسَانِهِ فِي عِبَادَتِهِ لَهُ.

(٢) • وقال اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

فجاء في الآيةِ (١٢٤) مِنْ هـٰذا النّصّ بَيَانٌ عَنِ المؤْمِنِ الّذِي لم يَرْتَقِ إلى مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ بأَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، ويُمْنَحُ مِنَ الثَّوَابِ بِفَضْلِ اللهِ

فيها شيئاً عظيماً. ولَا يُظْلَمُ قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ بَعْدَ الموت إِذَا حُوسِبَ وُجُوزِي عَلَىٰ مَعَاصِيهِ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ مِقْدارَ نَقِير.

النَّقِير: نُقْرَةٌ في خَشَبَةٍ، أَوْ حَجَرٍ أَو نَحْوِ ذَلِكَ، تُنْقَرُ بأَدَاةٍ مَا مِنْ حَدِيدٍ أَوْ غَيْرِه، مَهْمَا كانَتْ صَغِيرَةً لَا تَتَّسِعُ لِنَمْلَةٍ صَغِيرَة.

وَالمرادُ: لا يُظْلَمُونَ شيْئاً مَهْمَا كانَ هـٰذا الشَّيْءُ صَغِيراً، كَنَقِيرٍ أَحْدَثَهُ فِي سَطْحٍ مَا، مِنْقَارُ كَرَأْسِ مِنْقَارِ عُصْفُورٍ صَغِير، أَوْ غَيْرِهِ مِنْ ذِي أَدَاةٍ نَاقِرَة من الحيوانات الصُّغْرَىٰ.

وَجَاءَ في الآية (١٢٥) مِنْ هـٰذا النَّصِّ بيانُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ. فَدَلَّتْ هـٰذِهِ الآيَة عَلَىٰ أَنَّ لفظَةَ «مُحْسِن» مُرادٌ بِهَا مَنْ بَلَغَ دَرَجَةَ الإِحْسَانِ، وهي أَعْلَىٰ مَراتِب المؤمنين، الّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ مُرَبِّياً، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ سَبيلِهِ مِنْ أمَّتِهِ ﷺ، بِشَأْنِ الّذِينَ يَكْفُرُونَ وَلَا يَسْتَجِيبُونَ للدَّعْوَة:

● ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾:

تَكَرَّرَ فِي القرآنِ الْمَجيدِ التوجيهُ التَّرْبَوِيُّ للرَّسُولِ، ويُلْحَقُ به الدُّعَاة إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَجَمِيعُ المؤمِنِينَ بِأَنْ لا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِ كُفْرِ الَّذِينَ يَكْفُرُون، فِي مُنَاسَبَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ.

فَفِي مُنَاسَبَةِ مَشَاعِرِ حُزْنِهِ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ مِنْ عَشِيرَتِهِم الأَقْرَبِين أَوْصَاهُ اللهُ بأَنْ لَا يَحْزَنَ مِنْ أجْلِهِم، إِذْ هُمْ مَوْضُوعُونَ فِي الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ امْتِحَانِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، واللهُ عَلِيمٌ بما فِي قُلُوبهم.

وفي مُنَاسَبَةِ مَشَاعِرِ حُزْنِهِ لِأَنَّ جُمْهُور قَوْمِهِ فِي مَكَّة لَمْ يَسْتَجِيبوا

لِدَعْوَته، وهُمْ يَعْمَلُونَ على اضْطِّهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، أَوْصَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنْ لَا يَحْزَنَ، وأَلْمَحَ إِلَيْهِ بِأَنَّ اللهَ نَاصِرَهُ وناصِرُ المؤمنين معه.

وفي مُنَاسَبَةِ حُزْنِهِ لِأَنَّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ اتَّهَمُوهُ بأَنَّهُ كَاذِب، أَوْ شَاعِرٌ، أو مَجْنُونٌ، أَوْ نَحْو ذلِكَ، أَوْصَاهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِأَنْ لَا يَحْزُنَهُ قَوْلُهُم، وأبانَ لَهُ أَنَّهُ سَيُخْزِيهِم ويَنْصُرُهُ عَلَيْهِمْ، وَيُذِلُّهُم.

إِلَىٰ غير ذلك مِنْ مُنَاسِبَات.

وَفِي هـٰذا النصّ مِنْ سُورَةِ (لُقْمان) أَوْصَاهُ اللهُ بأَنْ لَا يَحْزُنَهُ كُفْرُ الَّذِينَ يُمَتِّعُهُمْ بأَنْواعٍ مِنْ مَتاعَاتِ الحياة الدُّنيا، في حِينِ أَنَّ أَكْثَرَ المؤمِنينَ مِنْ أَصْحَابِهِ يُعَانُونَ مِنَ الفَقْرِ والحاجَةِ والضعف، وَبَشَّرَهُ بأَنَّ هـٰؤُلَاءِ الكَفَرَةِ سَيُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً بمَتَاعَاتٍ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، لَكِنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَىٰ عذابٍ غَلِيظٍ يَوْمَ الدِّين، بخِلَافِ أَحْوَالِ المؤمنين على مَرَاتِبِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ فيها.

- ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ وفـي الـقـراءة الأُخـرَى: **[فَـلَا يُحْزِنْكَ]**: أي: وَمَنْ كَفَرَ مِنْ قَوْمِكَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِكَ، وكَذَّبكَ فِيمَا تُبَلِّغُ عَنْ رَبِّكَ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ سَعَةٍ في مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، بِخِلَافِ حَالِ الَّذين آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ فِي هـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ المكيَّة فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُه.

الْحُزْن: مَشَاعِرُ أَلَمٍ في النَّفْسِ بِسَبَبِ فواتِ مَحْبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه، أَوْ بِسَبَبِ مَكْرُوهٍ نَازِلٍ أَوْ مُتَوَقَّعِ النُّزُول قَرِيباً، ورُبَّما يَكُونُ بَعِيداً.

- ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: أي: إِلَىٰ حِسَابِنَا، وَفَصْلِ قَضَائِنا، وَتَنْفِيذِ جَزَائِنَا مَرْجِعُهُمْ، حِينَ نَبْعَثُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ بَعْدَ مُدَّة البرْزَخ، لِيُلَاقُوا الْحَيَاةَ الآخِرَةَ الَّتِي لَا مَوْتَ فِيها، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فيها حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ، بَلْ يَكُونُونَ مَجْبُورِينَ، مَدْفُوعِينَ بالاضْطِرارِ إِلَىٰ مَصَائِرِهِم، الَّتِي تَقْتَضِيهَا مُكْتَسَبَاتُهُمُ الَّتِي قَدَّمُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا. يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بضمير المتكلّم العظيم.

• ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾: أي: فَنُخْبِرُهُمْ بِمَا عَمِلُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الَّتي نُقِيمُها لَهُمْ، هٰذا الإنْبَاءُ أَحَدُ فِقراتِ الْمُحاكَمَةِ الَّتي يُجْرِيها اللهُ لَهُمْ، وَذِكْرُهَا يُعْتَبَرُ كِنَايَةً عَنْ سَائِرِ فِقراتِ الْمُحاكَمَة.

• ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾: أي: وَنَكْشِفُ مَا كَانُوا يُضْمِرُونَ ويَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ سَرَائِرَ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونُوا بِهَا خَالِدِينَ فِي عَذَابِ الجحيم.

ذَاتُ الصُّدُور: هي صاحِبَةُ الصُّدُور، وهي السَّرائِر.

وَقَدْ جَاءَ مُصَرَّحاً بِهِ في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الطّارق/٨٦ مصحف/٣٦ نزول):

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾﴾.

السَّرائِر: جمع «السَّرِيرَة» وهِيَ مَا يَكْتُمُهُ الإنْسَانُ ويُخْفِيه، ومِنَ السَّرائِرِ النِّيَّاتُ مِنْ وَرَاءِ الْأَعْمَال.

• ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلٗا﴾: أي: نُعْطِيهِمْ مِمَّا يُحِبُّونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَتَاعاً قَلِيلاً فِي مِقْدَارِهِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ نَعِيمِ الآخِرَةِ، وقَلِيلاً فِي زَمَنِهِ، بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الْخُلُودِ الْأَبدِيِّ يَوْمَ الدِّين.

إنَّها رِحْلَةُ امْتِحَانٍ، ومن الْحِكْمَةِ أَنْ يَنَالَ المُمْتَحَنُ حُظُوظَهُ المَقْسُومَةَ لَهُ مُدَّةَ امْتِحَانِهِ.

• ﴿.. ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿نَضۡطَرُّهُمۡ﴾: أي: نُلْجِئُهُم بالْجَبْرِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ اختيار، ودُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَىٰ دَفعِ شَيْءٍ مِمَّا يُلْجَؤُونَ إِلَيْهِ.

﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾: أي: شَدِيدُ الإيلام. **الْغَلِيظُ في اللُّغَةِ:** خِلَاف الرَّقيقِ في المادِّيَّاتِ، **والْعَصَا الْغَلِيظَةُ:** هِيَ العَظِيمَة الْقَوِيَّةُ الموجِعَةُ في

الضَّرْب. واسْتُعْمِلَ اللَّفْظ في المعنويات، فيقال: أَمْرٌ غَلِيظٌ، أي: شَدِيدٌ صَعْبٌ، وَعَذَابٌ غَلِيظٌ: أي: شَدِيدُ الإيلام.

فالمعنى: ثُمَّ بَعْدَ الْبَعْثِ، والْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، نُلْجِئُهُمْ بالْجَبْرِ والإكْرَاه، إلَىٰ جَهَنَّمَ لِيَنَالُوا فيها عَذَاباً غَلِيظاً شَدِيدَ الإيلام.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدبُّرُ الدَّرْس السادس من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على معونَتِهِ ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليليُّ للدَّرْسِ السَّابع من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيتَان (٢٥) و(٢٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

تمهيد:

لَمَّا كانَتِ السُّورَةُ تَشْتَمِلُ فِيمَا تَشْتَمِلُ عليْهِ علَىٰ مُعَالَجَةِ المشْركين إبَّانَ التَّنْزيل، وَكَانَ هٰؤُلَاءِ يَعْتَقِدُونَ أنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذي خَلَقَ السَّماوَاتِ والْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ لَهَا رُبُوبِيَّةٌ مَا فِي الأرْضِيَّاتِ، كَقَضَايا الرِّزْقِ، والتوفيق في الأسفار، والحمايَةِ وَالنَّصْرِ لِعَابِدِيهَا عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَقْرِيرُهم بِشَأْنِ عَقِيدَتِهِمْ فِي خَلْقِ اللهِ للسَّمَاوَاتِ والْأَرْض، والانْطِلَاقِ مِنْهَا إِلَىٰ إثْبَاتِ رُبُوبيَّتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ في الكَوْنِ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَىٰ أقصاه، وَمِنْ ذَلِكَ رُبُوبيَّتُهُ لِأَرْزَاقِهِمْ، ومَرَضِهِمْ، وَصِحَّتِهِمْ،

وَنَصْرِهِمْ وهَزِيمَتِهِمْ، وكُلِّ التَّصارِيفِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهِمْ، مِمَّا فِيه نَفْعُهُمْ أَوْ ضَرُّهم.

فالمَنْهَجُ الجَدَلِيُّ يَجِبُ أَنْ يَبْدَأَ مِنْ قَاعِدَةٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهَا لَدَىٰ المُتحاوِرَيْنِ المُتَناظِرَيْنِ، وَالانْطِلاقِ مِنْهَا إِلَىٰ مَا بَعْدَهَا مُباشَرَةً مِمَّا هُمَا مُخْتَلِفَانِ فِيه، وهٰذا مِنْ أُسُسِ الحِوارِ السَّوِيِّ المُجْدِي، نَزَلَ بِهِ تَعْلِيمٌ رَبَّانِيٌّ.

التدبر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُعَلِّماً حِواراً جَدَلِيّاً للمشْركين:

- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . ﴿٢٥﴾﴾:

أي: نُؤَكِّدُ لَكَ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ وإِلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفِي إِلٰهِيَّتِه، أَنَّ المعانِدِينَ من المشركِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ على أَنْ يَتَّبِعُوا مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آباءَهُمْ مِنْ شِرْكٍ وَلَوازِمِهِ فِي السُّلُوكِ، إِنْ سَأَلْتَهُمْ فِي حِوارٍ جَدَلِيٍّ؛ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ بِتِلْقَائِيَّةٍ حَاضِرَةٍ فِي أَذْهَانِهِمْ دُونَ إِبْطاءٍ: اللهُ هُو الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ.

فَإِذَا أَقَرُّوا بِهٰذِهِ الحَقِيقَةِ فَأَعْلِنْ مَعَهُمُ الاتِّفَاقَ عَلَيْها، وقُلْ: الحَمْدُ لِلَّهِ، أيْ: كُلُّ الثَّنَاءِ في الوُجُودِ كُلِّهِ هُوَ لِلَّهِ وَحْدَه.

وَاعْتِرَافُهُمْ بِهٰذِهِ الحَقِيقَةِ ذُو لَوازِمَ فِكْرِيَّةٍ تَهْدِي إِلَىٰ أَنَّ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، هُو المُتَصَرِّفُ دَوَاماً بِالسَّماوَاتِ والأَرْضِ وَكُلِّ ما فِيهِما وَكُلِّ مَنْ فِيهِما، فَلَا يَجرِي شَيْءٌ فيهما وَلَا في أيِّ كائِنٍ فيهما إِلَّا هُوَ خَاضِعٌ لِتَصارِيفِ رُبُوبِيَّتِهِ وَحْدَه.

﴿. . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أَيْ: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ مَا وَهَبَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ مَوازِينَ عَقْلِيَّةٍ وَفِكْرِيَّةٍ، لِإِدْراكِ أَنَّ الخَالِقَ الرَّبَّ لَا

يُمْكِنُ أَنْ يُشَارِكَهُ أَحَدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِمَا خَلَقَ، فِي تَصَارِيفِهِ وهَيْمَنَتِهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا هُوَ خَلْقُهُ وَمِلْكُهُ.

فَعَلَىٰ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَكْشِفَ لَهُم فِي حِوَارِهِ ومُنَاظَرَتِهِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ عَقْلاً أَنْ يَتْرُكَ اللهُ لِأَحَدٍ مِمَّا هُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ، أَنْ يَتَصَرَّفَ بِمَرْبُوبِيهِ تَصَرُّفاً يُشَارِكُهُ فِيها بِرُبُوبِيَّتِهِ لَهُ، وَبِسُقُوط كُلِّ رُبُوبِيَّةٍ لِغَيْرِ اللهِ تَسْقُطُ بِاللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ كُلُّ إِلَٰهِيَّةٍ لِغَيْرِهِ، فلا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الأَحَد.

- ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٢٦﴾:

في هَٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَضِيَّتَيْنِ تَشْتَمِلَانِ عَلَىٰ مَفَاتِيحِ فِكْرِيَّةٍ تُعَلِّمَ المناظِرَ المحاوِرَ الدَّاعِيَ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ، مَا يُقْنِعُ بِهِ المشركين بِبُطْلَانِ عَقِيدَتِهِم الشِّرْكِيَّةِ، وبُطْلَانِ كُلِّ لوازِمِهَا في سُلُوكِهِمْ في حَيَواتِهِمْ، سَوَاءٌ أكانَتْ مِن العباداتِ المحضَةِ لِلْأَوْثَانِ، أم كانت مِنْ أحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ، وأَنْظِمَةِ الْعَلاقَاتِ الإنْسَانِيَّة.

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

أي: بِمَا أَنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ بأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُو خَالِقُ السَّمَاواتِ والْأَرْض، فَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ والْأَحْيَاءِ فيهما، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَلْقِهِ تبَعاً لَهُما. وَإذَا كانَتْ كُلُّهَا خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ فَهِيَ مِلْكُهُ بِلَا شَكّ، فَلا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي مِلْكِيَّتِهِ لَهَا، وَادِّعَاءُ أَنَّ لِغَيْرِهِ تَأْثِيراً فِيهَا بِنَفْعٍ أَوْ ضَرٍّ بَعِيداً عَنْ إرادَةِ مَالِكِهَا، مُنَاقِضٌ لِمَوَازِينِ الْعَقْلِ السَّلِيمَةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ الْعُقَلاءُ فِيها.

وَلَمْ يَأْتِ عَنِ اللهِ الْمَالِكِ، مَا يُثْبِتُ أَنَّهُ مَنَحَ شَيْئاً مِنْ رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ إِلَٰهِيَّتِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فِي كَوْنِهِ.

فادّعَاءُ أَنَّ لِغَيْرِ اللهِ تَأْثِيراً مَا بِنَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ يَسْتَحِقُّ بِهِ إِلَٰهِيَّةً ما ادِّعَاءٌ تَوَهُّمِيٌّ كاذِبٌ، أَوْحَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ بِوَسَاوِسِهَا وَدَسَائِسِهَا، لِدَفْعِ النَّاسِ إِلَىٰ عَذَابِ السّعِير.

القضية الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

أي: إنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ وصِفَاتِهِ الْأَزَلِيَّة الْأَبَدِيَّة، عَنْ أَنْ يَتَّخِذَ شُرَكَاءَ لَهُ يُعِينُونَهُ في تَدْبِيرِ أُمُورِ كَوْنِهِ، وخَلْقِ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، ولَهُ غاياتُ صِفَاتِ الكَمالِ، وهُو مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ النُّقْصَانِ، وَهُوَ بِذَلِكَ مَحْمُودٌ، يَنْطِقُ بِحَمْدِهِ كُلُّ شَيْءٍ في كَوْنِهِ، فإِنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ مِنْ أَقْصَىٰ الكَوْنِ إِلَىٰ أَقْصَاه، وَلَا يَشِذُّ عَنْ هٰذا إِلَّا إِرَادَاتُ الْكَفَرَةِ الْجَاحِدِينَ، الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، أَمَّا ذَرَّاتُ ذَوَاتِهِمْ فَهِيَ مُسَبِّحَةٌ بِحَمْدِهِ أيْضاً، بِنُطْقٍ خاصٍّ بِهَا أَنْطَقَهَا اللهُ بِهِ، لَا تَصِلُ مَدَارِكُ النَّاسِ إِلَىٰ فِقْهِهِ.

الْحَمِيد: أي: الْمَحْمُودُ مِنْ كُلِّ شيءٍ في الوجوه، فعيل بمعنى مَفْعول. ويصْلُحُ أيْضاً أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَىٰ «حَامِد» لِأَنَّهُ تَعالى يَحْمُدُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ مِنْ عِبادِهِ، وقَدْ أَثْنَىٰ عَلَىٰ كثيرٍ مِنهم.

وبهٰذا تمّ تَدَبُّر الدرس السابع من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على مَعُونته، ومدده، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

(١٣)

التّدبُّر التحليليُّ للدّرسِ الثامِنِ مِنْ دُروس سورة (لقمان) وهو الآية (٢٧)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

القراءات:

(٢٧) • قرأ أَبُو عَمْرو، ويَعْقُوب: [**وَالْبَحْرَ**] بالنّصْب عَطْفاً على اسْم «أنَّ» في: [**أَنَّمَا**].

وقَرأَهَا بَاقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَالْبَحْرُ**] بالرَّفْعِ علَىٰ أَنَّهُ مُبْتَدأ، وجُمْلَتُهُ حَالِيَّة.

تَمْهيد:

مضْمُونُ هـٰذِهِ الآيَةِ مُرْتَبِطٌ ارْتِبَاطاً تَكَامُلِيّاً بِمَا جَاءَ فِي السُّورَةِ بِشَأْن شُمُولِ عِلْمِ اللهِ، وإحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فهو مُرْتَبِطٌ بما جاء في الآية (١٦) وَبِمَا جاء في الآية (٢٣). ومُرْتَبِطٌ بِمَا جَاءَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بِشَأْنِ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ قَبْلَ سُورَةِ (لُقمان) ثُمَّ بِما في القرآن كُلِّه.

التّدبُّر التحليلي:

(١) اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً إحَاطَةً لِكُلِّ مَا هُوَ ظَاهِرٌ فِيه، ولِكُلِّ مَا هُوَ بَاطِنٌ فِيهِ.

فالذَّرَّةُ مَثَلاً فِي مُدْرَكَاتِ عُلَمَاءِ الكِيمياءِ والْفِيزِيَاء، ذَات نَوَاةٍ في عُمْقِها، وَذَاتُ مُصَغَّرَاتٍ جِدّاً تدورُ في فَلَكٍ أَوْ أكْثَرَ حَوْلَ نَوَاتِها. ونواةُ الذَّرَّةِ والْمُصَغَّرَاتُ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَها، ذَوَاتُ ظَوَاهِرَ وَأَعْمَاق.

وعِلْمُ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَسَمَتْ صِفَاتُهُ ـ مُحِيطٌ بالظَّوَاهِرِ، وَمُحِيطٌ بالْأَعْمَاقِ حتَّىٰ عُمْقِ الْعَدَم.

(٢) وكُلُّ مَعْلُوم مَهْمَا دَقَّ وصَغُرَ، لَهُ عِنْدَ اللهِ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُمَيِّزُهُ عَمَّا سِوَاهُ تَمْيِيزاً تَاماً بِحُدُودِهِ، وصِفَاتِهِ.

(٣) وكُلُّ كَلام لَهُ رُمُوزُ كِتَابَةٍ عِنْدَ اللهِ، حَتَّىٰ تَتَمَيَّزَ كُلُّ كَلِمَةٍ عَمَّا سِوَاها، لَدَىٰ كِتَابَتِهَا، بِحُدُودٍ فَاصِلَةٍ، وحَتَّىٰ لَا تَتَدَاخَلَ كَلِمَةٌ بأخرىٰ شَبِيهَةٍ بها.

وَهُنَا يَضْرِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هٰذِهِ الآيَةِ افْتِرَاضاً تَمْثِيلِيّاً لِكَلِمَاتِ اللهِ الدَّالّاتِ عَلَىٰ وَحدَاتِ مَعْلُومَاتِهِ، الْمُحِيطَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَوْ كَانَ مُسْتَحِيلَ الْوُجُودِ، أَوْ مُمْكِنَ الْوُجُودِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَوْجُود، وهُوَ افْتِرَاضٌ لِتَقْرِيبِ المعْنَىٰ إِلَىٰ مَا يُدْرِكُ النَّاسُ، إِذْ مَا عِنْدَ اللهُ أَكْثَرُ مِنْهُ وأَوْسَعُ، بِمَا لَا تَصِلُ إِلَىٰ إِدْرَاكِهِ أَوْهَامُ الْخَلائق.

والافْتِرَاضُ التمثيلِيُّ التَّقْرِيبِيُّ لِأَفْهَامِ النّاس هو كما يلي:

- افْتَرِضُوا أيُّها الْمُتَلَقُّونَ لِهٰذا الْبَيَان، لَوْ أَنَّ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ من شَجرٍ قُطِّعَ أَقْلَاماً بِمِقْدَارِ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ مِنْ أقْلَامٍ يَكْتُبُونَ بِها.

- وَافْتَرِضُوا أَنَّ الْبَحْرَ الْغَامِرَ لِمُعْظَم سَطْح الْأَرْضِ كَانَ مِدَاداً لِكِتَابَةِ كَلِمَاتِ اللهِ، وهٰذا الْبَحْرُ يَمُدُّهُ بَعْدَ نَفَادِه سَبْعَةُ أَبْحُرٍ.

- وَافْتَرِضُوا أَنَّ خَلْقاً مِنْ خَلْقِ اللهِ أعْطاهُمُ اللهُ قُدْرَةً عَلَىٰ الكِتَابَةِ بالْأَقْلَامِ مُسْتَمِدِّينَ مِدَادَ أَقْلَامِهِمْ مِنَ الْبُحُورِ الثَّمَانِيَة، وشَرَعُوا يَكْتُبُونَ كَلِمَاتِ اللهِ الَّتِي يُمْلِيهَا عَلَيْهِمْ دُونَ تَكْرَار.

- وافْتَرِضوا أَنَّ اللهَ أَحْيَاهُمْ أَزْمَاناً طَوِيلَةً جِدّاً لِإِنْجَازِ كِتَابَةِ كَلِمَاتِ اللهِ الَّتِي لَا تَكْرِيرَ فيها.

فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَقْلَامَ تَذُوبُ وتَفْنَىٰ، وأَنَّ الْبُحُورَ المفْتَرَضَ أَنْ تَكُونَ مِدَاداً تُدَوَّنُ بِهِ الْكِتَابَةُ تَنْفَدُ، لَكِنَّ كَلِمَاتِ اللهِ لَا تَنْفَدُ.

مَا أَرْوَعَ هٰذِهِ الصُّورَةَ الدَّالَّةَ عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ وإِحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَشُمُولِ كَلِمَاتِ اللهِ الدَّالّاتِ عَلَىٰ كُلِّ مَعْلُومَةٍ مِنْ مَعْلُومَاتِهِ مَهْمَا صغُرَتْ ودَقَّتْ، بِحُدُودٍ وصِفَاتٍ تُمَيِّزُ كُلَّ كَلِمَةٍ عَنْ سَائِرِ كَلِمَاتِهِ تَمْيِيزاً يَمْنَعُ التَّدَاخُلَ والاشْتِبَاه.

- ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾:

هـٰذا خِتَامٌ يَرْبِطُ ظَوَاهِرَ كَلِماتِ اللهِ بِعَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمانية، فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذُو الْقُدْرَةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ قُوَّةٍ، وَالمذَلِّلَةِ لِكُلِّ عَسِيرٍ، فَهوَ يَخْتَارُ مِنَ الاحْتِمَالاَتِ الَّتِي لَا تَتَنَاهَىٰ مِنَ الْكَلِمَاتِ، لِكُلِّ مَعْلُومَةٍ مَهْمَا دَقَّتْ وَصَغُرَت كَلِمَةً خَاصَّةً بِهَا لِتَدُلَّ عَلَيْها وحْدَهَا ضِمْنَ حُدُودِها وصِفَاتها، وَهُو - جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - حَكِيمٌ فِي اخْتِيَارَاتِهِ كُلِّها، ومِنْهَا حِكْمَتُهُ فِي اختيار الكَلِمَاتِ الدَّالَّاتِ علَىٰ الْوَحَدَاتِ الصُّغْرَىٰ لِمَعْلُومَاته، فَلَا تَخْتَلِطُ مَعْلُومَةٌ بأُخرىٰ، ولَا تَشْتَبِهُ مَعْلُومَةٌ بأُخْرَىٰ عِنْدَهُ، لَا في العلم ولَا في التعبير بالكلام عنه.

﴿مِن شَجَرَةٍ﴾: بيانٌ لاسم الموصول «مَا» في: ﴿أَنَّمَا﴾.

هـٰذا الْبَيَانُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هـٰذه الآيَة، قَدْ عَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ فَكُلّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ في حِوَارِهِ للنَّاسِ ومُنَاظَرَتِهِ لَهُمْ، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ نَظِيرَه، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الكَهْفِ/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نُزُول):

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾:

مِنْ هـٰذِهِ الآيَةِ نَفْهَمُ أَنَّ التعبيرَ بِسَبْعَةِ أبْحُرٍ في آية سورة (لُقْمَان) لَيسَ الْغَرَضُ مِنْهُ تَحْدِيدَ السَّبْعَةِ وإنَّمَا الغَرَضُ مِنْهُ التّكْثِير، مَعَ مَا فِي كَلِمَة «سَبْعَة» مِن انْسِجَامٍ مع السَّمَاوات السّبْع، وَغَيْرِها مِنِ اختيار عَدَدِ السبْعَةِ لِكَثِيرٍ من الأشْيَاءِ.

النَّفَادُ: فَنَاءُ الشَّيْءِ وانْتِهاؤُه عَنْ آخِرِه، يُقالُ لغَةً: «نَفِدَ الشَّيْءُ، يَنْفَدُ، نَفَداً، وَنَفَاداً» أي: فَنِيَ وَذَهَبَ وانْتَهَىٰ عَنْ آخِره.

جاء في أَسْبَاب نزول آيَةِ سُورة (لُقْمَان) روايات، مِنْها ما يلي:

(١) أنّ الْيَهودَ قَالُوا لِلرَّسُولِ أَوْ أَغْرَوْا بَعْضَ الْقُرَشِيِّينَ أَنْ يَقُولُوا لَه، لـمَّا سَمِعُوا أَنَّهُ ﷺ قَالَ بِشَأْنِهِم مَا جَاءَ بيانُهُ في سُورَةِ (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴿٨٥﴾﴾:

قالُوا: كَيْفَ وَأَنْتَ تَتْلُو فِيمَا جَاءَكَ أَنَّا قَدْ أُوتِينَا التَّوْرَاةَ، وفيها تبيان كُلِّ شيءٍ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هِيَ فِي عِلْمِ اللهِ قَلِيلٌ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ الآية (٢٧) من سُورَة (لُقمان).

(٢) أنَّ قُرَيشاً قَالَت: «مَا أَكْثَرَ كَلَامَ مُحَمّد!» فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآية.

إلى غير ذَلِكَ مِنْ رِوايَاتٍ، واللهُ أَعْلَمُ، علَىٰ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَب.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثامن مِنْ دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوفيقه، وفتحه.

* * *

(١٤)

التدبر التّحليلي للدّرسِ التاسع من دُروس سورة (لقمان) وهو الآية (٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

تمْهِيد:

بما أَنَّ المشركين المُعَالَجِين في السُّورَةِ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، ولَا يُقَدِّمُون دَليلاً غَيْرَ التَّعَجُّب، وَيظْهَرُ أَنَّ قَائِلِينَ مِنْهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَبْعَثُ اللهُ الْأُمَمَ كُلَّها يَوْمَ الْبَعْثِ في وَقْتٍ وَاحِدٍ، وقَدْ خُلِقُوا في أطْوارٍ عَبْرَ أَحْقَابٍ وَقُرُونٍ كثيرَةٍ جدّاً؟!

فأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ قَادِرَةٌ عَلَىٰ خَلْقِ النَّاسِ جَمِيعاً بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، فِي وَقْتٍ واحِدٍ، كَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ خَلْقِ نَفْسٍ واحِدَةٍ في الوقْتِ نَفْسِهِ.

التدبُّر التحليلي:

يخاطِبُ اللهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ - النّاسَ جَمِيعاً، والمقْصُودُونَ الْأَوَّلُونَ مُنْكِرُو الْبَعْثِ، اسْتِغْراباً مِنْ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ النَّاسَ جَمِيعاً إِلَىٰ الحياةِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ يَوْمَ الْقِيَامَة.

فأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ لِدَفْعِ تَعَجُّبِ الْمُتَعَجِّبِينَ مِنْ هـٰذا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، أَنَّ خَلْقَ النَّاسِ جَمِيعاً في وَقْتٍ وَاحِدٍ، وخَلْقَ نَفْسٍ واحِدَةٍ مِنْهُمُ ابْتِدَاءً، وأَنَّ بَعْثَ النَّاسِ جَمِيعاً في وَقْتٍ واحِدٍ، وبَعْثَ نَفْسٍ واحِدَةٍ مِنْهُم إلى الْحَيَاة بَعْدَ مَوْتِهِمْ، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدْرَتِهِ كَخَلْقِ نَفْسٍ واحِدَة، وكَبَعْثِ نَفْسٍ وَاحِدَة.

وفي الْعِبَارَةِ مَطْوِيَّاتٌ مِنَ السَّهْلِ على المتدبِّرِ إِبْرَازُهَا.

أي: مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ أَيُّها النَّاسُ جَمِيعاً، إلَّا مِثْلُ خَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَة، وبَعْثِ نَفْسٍ وَاحِدَة.

فَخَلْقُ النَّاسِ جَمِيعاً كَخَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدْرَتِهِ، وَبَعْثُ النَّاسِ جَمِيعاً إِلَىٰ الْحَيَاةِ كَبَعْثِ نَفْسٍ واحِدَةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدْرَتِهِ.

- ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾: أي: فَلَا يَتَصَوَّرْ أَحَدٌ مِنْكُم أَنَّهُ غَيْرُ مَجْزِيٍّ عَلَىٰ ما اكْتَسَبَ بإرَادَتِهِ الْحُرَّةِ في الحياة الدُّنْيا، حِينَما يَرْجِعُ إِلَىٰ حِسَابِ رَبِّهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذِ جزائِه، يَوْمَ القيامَةِ، وأَنَّ ما اكْتَسَبَهُ بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ غَيْرُ مَعْلُوم لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، واعْلَمُوا جَمِيعاً أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ كُلَّ أَقْوَالِكُم، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَقْوَالِكُم خَافِيَةٌ ما. واعْلَمُوا جَمِيعاً أَنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِكُلِّ أَعْمَالِكُمُ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنهَا خافِيَةٌ ما.

وقَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ أَنَّ الملائِكَةَ الْمُلازِمِينَ الرُّقَبَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ، يُسَجِّلُونَ فِي أَدَوَاتِ التَّسْجِيلِ الَّتِي خَلَقَهَا لَهُمْ كُلَّ مُكْتَسَبَاتِهِم الإرادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، وأنَّ النَّاسَ يَطَّلِعُونَ عَلَيْهَا في صُحُفِ أعْمَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ.

وسَبَقَ بَيَانُ أَنَّ جَوارِحَهُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا قَدَّمُوا إذا جَحَدُوا وأَنْكَرُوا ما فِي صُحُفِهِمْ، ومَا يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِهِ الشُّهُودُ مِنَ الملائكة وغَيْرِهم.

وَيُدْرِكُ المتَدَبِّرُ بأناةٍ أَنَّ بَيانَ كَوْنِ خَلْقِ الناسِ جَمِيعاً كَخَلْقِ نَفْسٍ واحِدَةٍ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ، وأنَّ بَيانَ كَوْنِ بَعْثِ النَّاسِ أَنَّ عَمَلِيَّاتِ الْإِيجَادِ والْإِعْدَامِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، يَكْفِي فِيها أَنْ يَقُولَ لِلشَّيْءِ: «كُنْ» فَالمقْضِيُّ بِقَضَاءِ اللهِ يَكُونُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فيكُون.

وسُلْطَانُ اللهِ الْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ ذَرَّةٍ فِي هٰـذا الكَوْنِ العظيم الممتَدِّ يَدُلُّ عَلَىٰ هٰـذه الحقيقة.

وبهٰـذا انتهىٰ تَدَبُّر هٰـذا الدَّرْسِ من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيات من (٢٩ ـ ٣٢)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ

بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾.

القراءات:

(٣٠) ● قرأ نَافِعٌ، وابْن كثير، وابْنُ عَامرٍ، وشُعْبَة، وأبو جعفر: **[وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ]** بياء الْغَائِبين.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في الأداءِ البياني، إحداهُمَا فِيها مُواجَهَةٌ للمشرِكينَ بالخطاب، والأُخْرىٰ فيها الحديثُ عَنْهُمْ لِغَيْرِهم.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضٌ لِبَعْضِ آيات اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ عَدَدٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وأَسْمَائِهِ الحُسْنىٰ، وعَلَىٰ إتْقَانِهِ لِكُلِّ مَا خَلَقَ فِي كَوْنِهِ، وعَلَىٰ نِعَمِهِ الكثيرَةِ عَلَىٰ عِبَادِه.

وفيها بَيَانُ حَالِ النَّاسِ تُجاهُ مَا يَتفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَيْهِم حِينَما يُنَجِّيهِمْ مِنَ الشَّدَائِدِ العظْمَىٰ الَّتي لَا يُنَجِّيهِمْ مِنها سِوَاه.

التَّدبُّر التحليلي:

فِي آيَاتِ هـٰذا الدَّرسِ التَّنْبِيهُ علَىٰ أَرْبَعِ آيَاتٍ كُبْرَىٰ مِنْ آيَات اللهِ فِي كَوْنِهِ، مَعَ التَّنْبيهِ عَلَىٰ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ عَقَائِدَ إيمانِيَّة.

الآيَةُ الكَوْنِيَّةُ الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ . . (٢٩)﴾:

سَبَقَ في سُورَة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) بَيَانُ هـٰذِهِ الآيَةِ مِنْ آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّة بقول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ .. ⑬﴾.

وَكانَ هـٰذا فيها بَياناً رَبَّانِيّاً عَنْ هـٰذِه الظّاهِرَةِ مِنْ ظَوَاهِرِ آياتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ.

وَجَاءَ هُنَا فِي سُورَةِ (لقمان/ ٥٧ نزول) خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَجَّهٌ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ بِأُسْلُوبِ الخِطَابِ الإفْرادِيِّ، وبِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ الَّذِي فِيهِ مَعْنَىٰ التَّلْوِيم لِمَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنَ الْبَيَانِ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (فاطر/ ٤٣ نزول) الآية: ١٣ فَقَالَ تَعالَىٰ لَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ..﴾.

وَلَدَى تَدَبُّر النَّصّ الذي جاء في سُورَة (فَاطر/ ٤٣ نزول) أَوْرَدْتُ النُّصُوصَ القرآنِيَّة الْخَمْسَةَ الَّتِي جَاءَت فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ بِشَأْنِ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَة، مَعَ بَيَانِ مَا ظَهَرَ لِي مِنْ حِكْمَةِ إيرادِها فِي خَمْسَةِ سُورٍ، اثْنَانِ مِنْهَا مَكِّيَّانِ، وثَلاثَة مِنْها مَدَنِيَّة.

وَأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّر النَّصِّ الَّذِي جاءَ في سُورَةِ (لقمان) مُسْتَفِيداً مِمَّا سَبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّرِ النَّصِّ الذي جاء في سورة (فاطِر/ ٤٣ نزول).

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدْخِلُ، يُقَالُ لغة: «أَوْلَجَ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ» أي: أَدْخَلَهُ فِيه. وَيقال: «وَلَجَ، يَلِجُ، وُلُوجاً، ولِجَةً شَيْءٌ فِي شَيْءٍ» أي: دَخَلَ فيه.

وإيلاجُ شَيْءٍ فِي شَيْءٍ آخَرَ يَكُونُ بِإدْخَالِهِ فِيهِ شيئاً فَشَيْئاً بالتَّتابعُ، لَا عَلَىٰ طَرِيقَةِ دَفْعِهِ بمَرَّةٍ واحِدَةٍ، أو إلْقَائِهِ وَقَذْفِهِ فِيه.

إنّ الظاهِرَةَ الَّتِي عَبَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا بِإِيْلاجِ اللَّيْلِ في النَّهَارِ، وإيلاجِ النَّهَارِ في اللّيل، تَدُلُّنا علىٰ آيَةٍ بَاهِرَةٍ مِنْ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، ونَحْنُ

نُشَاهِدُ مِنْهَا عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْضِ تَتَابُعَ اللَّيْلِ والنَّهارِ دَائِرَيْن، فَكُلَّمَا امْتَدَّ أَحَدُهُمَا مِنْ جِهَةٍ تَقَلَّصَ الآخَرِ مِن الجِهَةِ نَفْسِهَا، وَكُلَّمَا اخْتَفَىٰ أَحَدُهُمَا مِنْ جِهَةٍ ظَهَرَ الآخَرُ مِنَ الْجِهَةِ نَفْسِها، وهكَذا دَوَالَيْكَ مَعَ تَوَالِي الْأَيَّامِ.

واكْتَشَفَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ بالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، أَنَّ حَرَكَةَ دَوَرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا باتِّجَاهِ الشَّمْسِ، ضِمْنَ نِظَامٍ مُتْقَنٍ عَجِيب، يَجْعَلُ اللَّيْلَ يَخْتَفِي شَيْئاً فَشَيْئاً عَنْ سَطْحِ الأرض، كُلَّمَا امْتَدَّتْ بالتَّدَرُّجِ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ صَباحاً، عَلَىٰ مَسَافَاتٍ مِنَ الْأَرْضِ بِتَتَابُعِ الشُّرُوقِ.

هٰذِهِ الظَّاهِرَةُ تُشْبِهُ إِيلاجَ شَيْءٍ فِي شَيْءٍ آخَرَ، إِذْ يَخْتَفِي مِنَ الْوَالج مَا يَدْخُلُ مِنْهُ فِي الْمَوْلُوجِ فِيهِ، فكَأَنَّ اللَّيْلَ مَعَ تَتَابُعِ الشُّرُوقِ عَلَىٰ مَسَافَةٍ فَمَسَافَةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَلِجُ فِي النَّهارِ الذي يُخْفِيهِ.

وَهٰذِهِ الحركَةُ نَفْسُها إِذَا شَاهَدَهَا النَّاظِرُ، وهُوَ مُرْتَفِعٌ في الطَّائِرَةِ، ويَنْظُرُ مِنَ الْجُوِّ، عِنْدَ تَتَابُعِ غُرُوبِ الشَّمْسِ، عَلَىٰ مَسَافَةٍ فَمَسَافَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فإنَّهُ يرَىٰ اخْتِفَاءَ النَّهارِ شَيْئاً فَشَيْئاً، كَمَا يَخْتَفِي مِنَ الْوَالِجِ بِمِقْدَارِ مَا يَدْخُلُ مِنْهُ فِي الْمَوْلُوجِ فِيه، فَكَأَنَّ النَّهارَ مَعَ تَتَابُعِ الْغُرُوبِ يَلِجُ في اللَّيْلِ الَّذي يُخْفِيهِ.

فجاء في النَّصِّ تَشْبيهُ تَتابُعِ ذَهَابِ اللَّيْلِ، عِنْدَ تَتابُعِ أَحْوالِ الشُّرُوق، وَتَشْبِيهُ ذَهَابِ النَّهَارِ عِنْدَ تَتَابُعِ أَحْوَالِ الْغُرُوبِ بِوُلُوجِ شَيْءٍ في شَيْءٍ آخَرَ.

وجاء في النُّصُوصِ إيثَارُ الْبَدْءِ باخْتِفَاءِ اللَّيْلِ عِنْدَ الشُّرُوق، لِأَنَّ اللَّيْلَ ظَلَامٌ ولِأَنَّ النَّهَارَ ضِيَاءٌ، وَبَدْءُ الكَلَامِ بِحُدُوثِ الضِّيَاءِ أَوْلَىٰ مِنْ بَدْءِ الْكَلَامِ بِحُدُوثِ الظَّلام.

ولَكِنْ طُوِيَ في النُّصُوصِ التَّصْرِيحُ بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ التَّشْبِيهِ، واسْتُعِيرَ مِنْهُ لفظ «يُولِجُ» للدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، ففي التَّعْبِير اسْتِعَارَة واضِحَةٌ بِحَسَبِ مُصْطَلَحِ الْبَلاغِيِّين.

وَلَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ المتَدبِّرِ الْحَصِيفِ مَا فِي هٰـذِهِ الاسْتِعَارَةِ الْقَائِمَةِ على التَّشْبِيه، مِنْ إبْدَاعٍ رَائِعٍ فِي عَرْضِ الصُّورَةِ، مَعَ مَا فِيها مِنْ دِقَّةٍ بَالِغَةِ الْغَايَةِ فِي تَوْصِيلِ المعْنَىٰ المرادِ بيانُه.

إنَّ التَّشْبِيهَ الَّذِي اعْتَمَدَتْ عَلَيْهِ هٰـذِهِ الاسْتِعَارَةُ، يَدُلُّ بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ عَلَىٰ حَرَكَةِ شَيْئَيْنِ، مُتَلاصِقَي الرَّأْسَيْنِ عَلَىٰ شِبْهِ دَائِرة، أَحَدُهُمَا يَخْتَفِي والْآخَرُ يَظْهَرُ، واخْتِفَاءُ اللَّيْلِ يَكُونُ عِنْدَ الشُّرُوقِ مِنْ جِهَةِ مطلع الشَّمْس، واخْتِفَاءُ النهار يكُونُ عِنْدَ الْغُرُوبِ مِنْ جِهَةِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، وهٰـذا الاخْتِفَاءُ مِنْ كِلَيْهِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْحَرَكَةَ حَرَكَةٌ دَائِرِيَّةٌ، إِذْ يَدْخُلُ كُلُّ طَرَفٍ مِنْ طَرَفَيْ أَحَدِهِمَا، فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ مِنَ الآخِرِ مِنْهُما، وهَكَذَا دَوَالَيْكَ مَعَ تَتَابُعِ الأَيَّام.

وَعَرْضُ هٰـذِهِ الآيَةِ بِعِنايَةٍ في خَمْسَةِ نُصُوصٍ قُرْآنِيَّة، مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، يَحُثُّ المشْتَغِلِينَ بالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ فِي الكَوْنِيَّاتِ، عَلَىٰ الْبَحْثِ الْجَادِّ عَنْ سَبَبِهَا التَّكْوِينِي، وَحِينَ يَتَوَصَّلُونَ إلى مَعْرِفَةِ السَّبَبِ، ويَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَىٰ التَّنْظِيم الْبَدِيعِ، والإتْقَانِ الْمُدْهِشِ الْعَجِيب، فِي وَضْعِ كُلٍّ مِنَ الشَّمْسِ والْأَرْضِ في مَجْمُوعَةِ نُجُوم مَجَرَّتِنَا وَكَوَاكِبِهَا، وَفِي حَرَكَةِ دَوَرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا في اتِّجَاهِ الشَّمْسِ، مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْمَسَافَةِ وَمِقْدَارِ الحركة، طَوَالَ مِئَاتِ الْمَلايينِ مِنَ الْقُرُونِ، فإنَّ ذَوِي الْأَلْبَابِ المنصِفِينَ مِنْهُمْ، لَا بُدَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بالْخَالِقِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ إتْقَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُه، ولا بُدَّ أَنْ يُذْعِنُوا لَهُ، ويَخْضَعُوا، وأَنْ يَتَوَجَّهُوا لَهُ وَحْدَهُ بالْعِبَادَة، وأَنَّ لَا يُشْرِكُوا بِعِبادَتِهِ أحداً.

ومَعَ مَا فِي هٰـذه الآيَةِ الكَوْنِيَّة مِنْ دَلَالَاتٍ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ، وشُمُولِ عِلْمِهِ، وعَظِيمِ إتْقَانِهِ، وجَلِيلِ حِكْمَته، فَفِيها أيضاً دَلَالَةٌ عَلَىٰ عِنَايَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ، وَعَلَىٰ وَاسِعِ رَحْمَتِهِ، وفُيُوضِ إنْعَامِهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ الَّذِينَ لَهُمْ مَنَافِعُ جَلِيلَة وَكَثِيرَة مِنْ تَتَابُعِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْض.

الآية الكَوْنِيَّة الثَّانية: دَلَّ عَلَيْهَا في هـٰذا الدَّرْسِ قَوْلُ الله تعالى: ﴿.. وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٢٩﴾﴾:

أي: أَوَ لَمْ تَرَ أَيُّهَا المتَلَقِّي أَنَّ اللهَ سَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إلى أَجَلٍ مَعْلُومٍ مُعَيَّنٍ مُسَمًّى باسْمِهِ الْخَاصِّ به.

وقد سبَقَ في الآية (١٣) من سُورَة (فاطر/٥٣ نزول) بَيَانُ هـٰذِهِ الآيَةِ مِنْ آيات اللهِ الكونِيَّةِ. إِلَّا أَنَّ مَا جاء هُنَا في سورة (لقمان/ ٥٧ نزول) قَدْ جَاءَ بأُسْلُوبِ خِطَابٍ إفراديّ، وبِصِيغَةِ اسْتِفْهَامٍ فِيهِ مَعْنَىٰ التَّلْوِيم لِمَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنَ البيانِ الَّذِي جاء في سورة (فاطر) وجاء في سورة (لقمان) استعمال: ﴿إِلَىٰٓ﴾ في عبارة: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بَيْنَمَا جاء في سور «فاطر، ويس، والزُّمَر، والرَّعْد» استعمال حَرْف اللام.

وإذْ سَبَقَ في تدبُّر الآية (١٣) من سُورَةِ (فاطر) شَرحٌ تَحْلِيلِيٌّ مُطَوَّلٌ لِهـٰذِهِ الآيَةِ الكَونِيّة، فإنِّي أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ بَيَانٍ فِيهِ إيجازٌ ما.

التَّسْخِير: يَأْتِي بِمَعْنَىٰ تَطْوِيعِ الْمَخْلُوقِ بالْجَبْرِ الرَّبَّانِيِّ، لِلْعَمَلِ والتَّحَرُّكِ عَلَىٰ وفْقِ إرادَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

ويأتي بمَعْنَىٰ تَذْلِيلِ الْمَخْلُوقِ لِعَمَلٍ ما أو أَمْرٍ ما، وجَعْلِهِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرادُ بِهِ أَوْ يُرَادُ مِنْهُ ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيرِهِ.

وقَدْ دَلَّ التَّنْبِيهُ علَىٰ هـٰذِهِ الآيَةِ علَىٰ أَنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ، وَنِعَمِهِ الْجَلِيلةِ الْوَفِيرَةِ على الناسِ في الأَرْض، تَسْخِيرَهُ الشَّمْسَ والقَمَرَ لِتَحْقِيقِ كثيرٍ من مَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، وَضَرُورِيَّاتِ حَيَاتِهِمْ.

فبِالشّمْسِ يَكُونُ ضِيَاءُ النَّهار، ومِنْهَا يأْتِي الدِّفْءُ والحرارَةُ الضَّرُورِيَّةُ لِكُلِّ ذِي حَيَاةٍ عَلَىٰ الْأَرض، وبِدُون الضَّوْءِ وَامْتِدَادِ أشِعَّتِهِ، وبدُونِ الحرارَةِ لَا تَنْبُتُ النَّبَاتَاتُ الَّتِي هِيَ المادَّةُ الأُولَىٰ لِغذَاءِ الْأَحْيَاءِ، وإِمْدَادِهَا بِقُوتِ بَقَائِهَا إِلَىٰ آجَالِهَا المقَدَّرَةِ لها.

وَبِتَسْخِيرِ الْقَمَرِ تَحْصُلُ مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ لِلنَّاسِ في الأَرْضِ، مِنْهَا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابِ، ومِنْها مَا كَشَفَهُ مُتَتَبِّعُو الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ فِي الْكَوْنِيَّاتِ بِشَأْنِ عَلاقَةِ الْقَمَرِ بالشَّمْسِ مِنْ جِهَةٍ وَبالْأَرْضِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ.

وَظَاهِرٌ لِكُلِّ نَاظِرٍ مِنَ النَّاسِ مَا لِلْقَمَرِ مِنْ نُورٍ في اللَّيْلِ نَافِعٍ وَمُمْتِعٍ.

وقَدْ أَثْبَتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ جريَانَ كُلٍّ مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ في السَّمَاءِ، وأَنَّ كُلّاً مِنْهُمَا يَسْبَحُ فِي فَلَكٍ خاصٍّ به.

وخَصَّ اللهُ الشَّمْسَ بالتَّعْبِيرِ عَنْ جرَيَانِها بِعِبَارَةٍ صَرِيحَةٍ، فِي قولِهِ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ في سُورَة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول):

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾:

وقَدْ كَانَ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ الميلادي حَتَّىٰ أواسِطِهِ، يُدَرَّسُ فِي مَادَّةِ الْعُلُومِ الطَّبيعِيَّة، المأخُوذَةِ مِنْ مُقَرَّرَاتِ الْعُلُومِ الْغَرْبِيَّةِ، أَنَّ الشَّمْسَ ثَابِتَةٌ لَا تَجْرِي، وَأَنَّ الأَرْضَ والْكَواكِبَ مِنْ حَوْلِ الشَّمْسِ التَّابِعَةِ لِلْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ هِيَ الَّتِي تَجْرِي حَوْلَهَا.

وَانْطَلَقَتِ الأَسْئِلَةُ حِينَئِذٍ تَدُورُ مِنْ قِبَلِ دَارِسِي هٰذِهِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ الإنْسانِيَّة عَنِ الْكَوْنِيَّاتِ، بِشَأْنِ الاخْتِلافِ بَيْنَ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ عَنِ الشَّمْسِ وجَرَيَانِها، وبَيْنَ مَا هُوَ مُقرَّرٌ في الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ مِنْ أَنَّهَا ثَابِتَةٌ.

وأَخَذَ المشَكِّكُونَ حِينَئِذٍ يُوَجِّهُونَ المغامِزَ والمطاعِنَ لِلْبَيَان القرآني.

وقَامَتْ جَدَلِيَّاتٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بالْقُرْآنِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ، وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَقَالَاتِ الْعُلُومِ الطّبيعِيَّةِ الإنْسَانِيَّةِ دُونَ تَحَفُّظ.

فالْمُؤْمِنُونَ يَبْنُونَ أَقْوالَهُمْ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وأَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ كَوْنُهُ وَخَلْقُهُ، فَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ به، ولَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْبِرَنَا اللهُ تَبارَكَ وتَعالَىٰ إلَّا بالْحَقِّ والصِّدْق، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْزِلَ فِي كِتَابِهِ إلَّا حَقّاً وَصِدْقاً.

أمَّا مُقَرَّراتُ عُلَمَاءِ الْعُلُومِ الْكَوْنِيَّةِ، الْمُسْتَنِدَة إلى مُلاحَظَاتِهِمْ، وَتَأَمُّلاتِهِمْ وَتَجْرِبَاتِهِمْ، فَكَثِيرٌ مِنْهَا قَدْ كَانَ مَبْنِيّاً عَلَىٰ الْحَدْسِ والظَّنّ وَالرُّؤَىٰ النَّاقِصَةِ، مَعَ إعْطَائِهَا قَرَارَاتٍ عَامَّاتٍ، تَتَناوَلُ مَا لَمْ تَصِلْ بَعْدُ إلَيْهَا عُلُومُهُمُ المحَقَّقَةُ، وكَانَ هَـٰذا الكَثِيرُ مِنْ مُقَرَّرَاتِهِمْ غَيْرَ مَبْنِيٍّ علَىٰ الْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ والْيَقِين.

وَكَانَ أَهْلُ الْعَقْلِ والْعِلْمِ والإنْصَافِ مِنْ علَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، ذَوِي التَّمكُّنِ فِي مُخْتَلِفِ الْعُلُوم الإسْلامِيَّةِ، يُقَرِّرُونَ أَنَّهُ إذَا تَنَاقَضَتْ مُقَرَّرَاتُ الْعُلُومِ الكَوْنِيَّةِ الإنْسَانِيَّةِ، الَّتِي لَمْ تَبْلُغْ مَبْلَغَ اليقينِ الَّذِي لا يَقْبَلُ التَّعْدِيلَ والتَّبْدِيلَ والنَّقْضَ، مَعَ مَفاهِيمِ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ الصَّحِيحَة الثَّابِتَةِ، دُونَ إمْكَانِ التَّأْوِيلِ الَّذِي تَسْمَحُ بِهِ قَوَاعِدُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقواعِدُ اسْتِنْبَاطِ المعاني والأَحْكَامِ لَدَىٰ عُلَمَاءِ المسْلِمِينَ الْمَوْثُوقِينَ، فَالْحَقُّ مَا جَاءَ فِي القرآنِ، أَوْ فِي السُّنَّةِ الْقَطْعِيَّةِ الثُّبُوتِ، والْقَطْعِيَّةِ الدَّلالَة، لَا مَا قَرَّرَتْهُ النَّظَرَاتُ الظَّنِّيَّةُ الإنسانيَّةُ النَّاقِصةُ في الْعُلُومِ الكَوْنِيَّة.

ثُمَّ تَقَدَّمَتِ الْبُحُوثُ الْعِلْمِيَّةُ الْفَلَكِيَّةُ، وأَثْبَتَتْ دِراساتُ عُلَمَاءِ الْفُلْكِ، أَنَّ الشَّمْسَ بِالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَجْمُوعَتِهَا الدَّائِرَةِ حَوْلَهَا، والَّتِي هِيَ أُسْرَتُها، ذاتُ وَضْعٍ ثَابِتٍ، لَكِنَّهَا مَعَ كُلّ أُسْرَتِهَا تَجْرِي بِحَرَكَةٍ خَاصَّةٍ فِي فَلَكٍ أَكْبَرَ ضِمْنَ الْمَجَرَّةِ، فَهِيَ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ وَضْعِهَا مَعَ أُسْرَتِهَا فِي الْمَجَرَّة جَارِيَةٌ غَيْرُ ثَابِتَةٍ.

وَظَهَرَ بِهـٰذا صِدْقُ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، ومُطَابَقَتُهُ لِلْوَاقِعِ، وظَهَرَ نَقْصُ الدِّرَاسَاتِ الإنْسَانِيَّةِ السَّابِقَةِ، بِشَأْنِ هـٰذا الموضوع عَنْ مُطَابَقَتِهِ لِلْوَاقِع.

أمّا اسْتِعْمَالُ: ﴿إِلَىٰٓ﴾ فِي عِبَارَةِ: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ في سُورَةِ (لُقْمَانَ/ ٥٧ نزول) بِخِلافِ اسْتِعْمَالِ حَرْفِ اللَّام في النُّصُوصِ الْأُخْرَىٰ، فَقَدْ قَالَ بِشَأْنِهِ كثيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إنَّ اللَّامَ بِمَعْنَىٰ «إلَىٰ» الدَّالَّة عَلَىٰ الْغَايَةِ، فَهُمَا يَصْلُحَانِ فِي مَوْضِعٍ واحِدٍ والْمُخَالَفَةُ تَفَنُّنٌ فِي النظم.

لَكِنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ رَفَضَ هـٰذا بِشِدَّةٍ، واعْتَبَرَهُ مِنْ ضِيقِ مَوْقِعِ المتَدَبِّر في فَهْمِ الْفُرُوقِ اللُّغَوِيَّةِ، وفَهْمِ النُّصُوصِ.

وَقَدْ فَهِمَ الزَّمَخْشَرِيُّ أَنَّ اللاَّمَ في النُّصُوصِ الَّتِي جَاءَ فيها: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هِيَ بِمَعْنَىٰ «التَّعْلِيلِ» أي: لتحقيق الوظيفةِ المسَخَّرَيْنِ لَهَا طَوَالَ مُدَّةِ الْأَجَلِ.

أَمَّا حَرْف «إِلَىٰ» فَهوَ بِمَعْنَىٰ بُلُوغِ الْغَايَةِ.

أقُول: مِنْ مَعَانِي «الْأَجَلِ» الْمُدَّةُ الْمُحَدَّدَةُ للشَّيْءِ، والمحصُورَةُ بَيْنَ أَوَّلٍ وَآخِرٍ، وَهـٰذَا المعْنَىٰ يُنَاسِبُهُ وَيُلَائِمُهُ اسْتِعْمَالُ حَرْف «اللّام» للإشَارَةِ إِلَىٰ قِيَام كُلٍّ مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ بِوَظَائِفِهِمَا الَّتِي سَخَّرَهُمَا اللهُ لَها طَوَالَ هَـٰذَا الْأَجَلِ مِنْ بِدَايَتِهِ وَحَتَّىٰ نِهَايَتِهِ.

ومِنْ مَعَانِي «الأَجَل» غايَةُ الزَّمَنِ الْمُحَدَّدِ لِشَيْءٍ مَا، وهـٰذا المَعْنَىٰ يُلَائِمُهُ وَيُنَاسِبُهُ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ «إِلَىٰ» أي: كُلٌّ مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ يَجْرِي إِلَىٰ بُلُوغِ غايَةِ الزَّمَنِ المحَدَّدِ، إِذْ يَتَوَقَّفُ عِنْدَهُ جريَانهما، أَمّا مَاذَا يَحْدُثُ لَهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ في عِلْمِ اللهِ، وقد جَاءَ فِي الْقُرآنِ بَيَانُ أَنَّ الشَّمْسَ والْقَمَرَ سَوْفَ يُجْمَعَانِ، وهـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْقَمَرَ يَقْتَرِبُ مِنَ الشَّمْسِ، فتَجْذِبُهُ الشَّمْسُ إِلَيْهَا بِجَاذِبِيَّتِها الْقَوِيَّةِ فَتَبْتَلِعُه.

﴿مُّسَمًّى﴾: أي: مُعَيَّنٌ باسْمِهِ المحَدَّدِ لَهُ فِي عِلْمِ اللهِ، وفي الكِتَابِ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ.

وَهـٰذا يدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ زَمَنٍ لَهُ عِنْدَ اللهِ اسْمٌ مِنَ أَسْمَاءِ الْعَدَدِ، يُمَيِّزُهُ عَنْ سَائِرِ الْأَزْمَان.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا فِي هـٰذَا الدَّرْسِ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: أَوَلَمْ تَرَ أَيُّها الْمُتَلَقِّي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُ النَّاس، فالاسْتِفْهَام الَّذِي جَاءَ في أَوَّلِ الآيَةِ، والَّذِي فِيهِ مَعْنَىٰ تَلْوِيم مَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ مِمَّا جَاءَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَةِ مِنْ كَشْفٍ لِمَا فِي نُفُوسِ النَّاسِ، وَلِمَا يُدَبِّرُ أَعْدَاءُ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِن مَكَايِدَ ضِدَّهُ وَضِدَّ دَعْوَتِهِ، وَلِمَا يَقُولُونَ بَيْنَهُمْ سِرّاً، ومِنْهَا ما يلي:

(١) مَا جَاءَ في سُورَةِ (الْقَمَر/ ٣٧ نزول) وهو قول اللهِ تعالى فيها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾: أي: نَحْنُ إذا اجْتَمَعْنَا وَدَبَّرْنَا أَمْرَ مَقَاتَلَةِ الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فإنَّنَا سَنَكُونُ مُنْتَصِرِين، وبهٰذا نَتَخَلَّصَ مِنْ هَٰذِهِ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَة، وكَانَ هٰذا سِرّاً بَيْنَ كُبَرائِهِمْ، فَفَضَحَهُمُ اللهُ بِهِ، وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، وَهٰذا مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّاتِ على أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

(٢) وَمَا جاء في سُورَة (صۤ/ ٣٨ نزول) وهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فيها:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾: وَكَانَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّة يَأْتَمِرُون سِرّاً بِأَنْ يُعِدُّوا قُواهُمُ الْحَرْبِيَّة، ويُعْلِنُوا مَوْقِفَهُمُ الْحَرْبِيَّ الْمُشَاقَّ لِلرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، لِقِتَالِهِمْ، والتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَتِهِمْ، فَفَضَحَ اللهُ مَا كَانَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ يَأْتَمِرُونَ به، وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَبِيرٌ بما يَعْمَلُونَ سِرّاً، وَبِما يُدَبِّرُونَ مِنْ مَكْرٍ وكَيْدٍ، وَهَٰذَا مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّات عَلَىٰ أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

بهٰذَا الْفَهْمِ نُدْرِكُ كَيْفَ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ خِبْرَتَهُ بِمَا يَعْمَلُ النَّاسُ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنه، مَعَ مَا جَاءَ في سَوَابِقِ نُجُوم التَّنْزِيلِ مِنْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم، وأَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، وَأَنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْض.

وأَضَافَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بَعْدِ ذِكْرِهِ الآيَاتِ الثَّلاثِ الَّتِي سَبَقَ شَرْحُهَا

بَيَاناً يَكْشِفُ بِهِ فَسَادَ عَقِيدَةِ المشْرِكِينَ، وَفَسَادَ عِبَادَتِهِمْ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ الله، وَيُثْبِتُ فِيهِ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الحقُّ وأَنَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ في الْوُجُودِ كُلِّه، فقال اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ وَفِي القراءة الأخرىٰ: **[وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ]** خِطَاباً لِلْمُشْرِكين.

- ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي الآيَاتِ السَّابِقَاتِ، ذَكَرْنَاهُ بَيَاناً إِقْنَاعِيّاً بُرْهَانِيّاً لِلْمُشْرِكِينَ، بِسَبَبِ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ وَحْدَهُ فِي مُقَابِلِ مَا يَعْتَقِدُهُ الْمُشْرِكُونَ فِي آلِهَتِهِم الَّتِي يَعْبُدونَها مِنْ دُونِهِ.

فالْقَصْرُ في عبارة: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ قَصْرٌ إضَافِي، أي: بالإضَافَةِ إِلَىٰ مَا يَعْتَقِدُهُ المشْرِكُونَ فِي آلِهَتِهِمْ.

وَبِسَبَبِ أَنَّ مَا يَدْعُونَ (أي: يَعْبُدُونَ) مِن دُون اللهِ هُوَ الْبَاطِلُ فِي مُقَابِلِ كَوْنِ اللهِ هُو الْحَقّ. وبِسَبَبِ أنَّ ما تَعْبُدُون أيُّها المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هُو الباطل.

وبِسَبَبِ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الْعَلِيُّ الَّذِي لا يَقْرُبُ مِنْ عُلُوِّه ذُو عُلُوّ، وأَنَّهُ وَحْدَهُ في الْوُجُودِ كُلِّهِ الْكَبِيرُ الَّذِي لَيْسَ كمثْلِهِ شيءٌ.

الآيَة الكونِيَّةُ الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا في هَـٰذا الدَّرْسِ قول اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾:

- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الخطابُ هُنَا كالْخِطَابِ الّذِي جَاءَ في الآيَةِ (٢٩) السَّابِقَة، مُوَجَّهٌ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ بأُسْلُوب الْخِطَاب الإفْرادِي، وبِصِيغَةِ الاسْتِفْهَام الَّذِي فِيهِ حَضٌّ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ في هَـٰذِهِ الآيَةِ الكَوْنِيَّة الرَّبَّانِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلاَلُهُ، الْواحِدِ في رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ في الكَوْن،

مِنْها إحاطَةُ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهَا قُدْرَتُهُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاء، ومِنْهَا إتْقَانُهُ صُنْعَ كُلِّ شَيْءٍ، ومِنْهَا عِنَايَتُهُ بِعِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ بِهِمْ، وَمِنْهَا حِكْمَتُهُ فِي تَصَارِيفِهِ، مُبْتَلِياً، ومُذَكِّراً، ومُنْذِراً.

- ﴿.. أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ..﴾:

الْفُلْك: مَرْكَبُ الْبَحْر، يُطْلَقُ عَلَىٰ الواحِدِ وغَيْرِهِ، ويُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، وجَاءَ في العبارة هُنَا تَأْنِيثُهُ بِفِعْلِ: ﴿تَجْرِى﴾.

والنِّعْمَة: هِيَ المِنَّةُ والْعَطِيَّةُ مِمَّا يُحِبُّ مَنْ أُعْطِيَهَا، ونِعْمَةُ اللهِ أَثَرٌ مِنْ آثار رحْمَتِهِ، الَّتي هِيَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ نَفْسِهِ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، ونِعَمُ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ كَثِيرَةٌ لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصاءَها.

أي: أَلَمْ تُفَكِّرْ حَتَّىٰ تَرَىٰ رُؤْيَةً عِلْمِيَّةً، أَيُّهَا المتَلَقِّي لِخِطَابِ رَبِّكَ لَكَ خِطاباً إفْرَادِيّاً، عِنَايَةً بِكَ، ولِتَحْمِيلِكَ مَسْؤُولِيَّةَ مَعْرِفَةِ آيَاتِ رَبِّكَ فِي كَوْنِهِ، حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِهِ وَاحِداً فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وواحِداً فِي إلَهِيَّتِهِ، وحَتَّىٰ تَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ أحَداً.

أَلَمْ تُفَكِّرْ في ظَاهِرَةِ الْفُلْكِ الَّتي تَجْري فِي الْبَحْرِ تفْكِيراً سَلِيماً بِوَعْيٍ وَتَأَمُّل، لِتَرَىٰ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْر، إنَّمَا تَجْرِي مَصْحُوبَةً ومحْمِيَّةً ومُسَيَّرَةً بِنِعْمَةِ اللهِ على النَّاسِ، ضِمْنَ عَطَاءَاتِهِ وَإنْعَامَاتِهِ الكثيرات اللَّاتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَها؟!.

إذَا كُنْتَ لَمْ تُفَكِّرْ فَاجْتَهِدْ في أَنْ تُفَكِّرَ لِتَرَىٰ كَيْفَ تَجْرِي الْفُلْكُ فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ.

هٰذا الْحَضُّ علَىٰ التَّفَكُّرِ لِلْوُصُولِ إلَىٰ رُؤيَةٍ عِلْمِيَّةٍ صَحِيحَةٍ شَامِلَةٍ للدَّقَائِقِ التَّكْوِينِيَّةِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ إتْقَانِ اللهِ الْمُدْهِش، وَعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ شيء، وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، وحِكْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، يَتَطَلَّبُ دِرَاسَةَ خَصَائِصِ الْمَاءِ، وَخَصَائِصِ نِظَامِ الطَّفْوِ، وَكَيْفَ يَكُونُ

الْجريَانُ السَّلِيمُ لِلْفُلْكِ، لِبُلُوغِ الأمَاكِنِ والْبُلْدَانِ الْبَعِيدَةِ عُبُوراً في الْبِحَارِ وَجَرْياً عَلَىٰ سُطُوحِهَا، إلَىٰ كُلِّ مَا تَحْتَاجُهُ الْأسْفَارُ الْبَحْرِيَّة.

هـٰذِهِ الدِّرَاسَةُ ذَاتُ هَدَفَيْنِ، دُنْيَوِيٍّ، ودِينِي أُخْرَوي:

الْهَدَف الدُّنْيَوِيُّ: هُو الّذِي يُوصِلُ إلَىٰ مَعْرِفَةِ أفْضَلِ الْأَسْبَابِ الصِّنَاعِيَّةِ، والشُّرُوطِ المطْلُوبَةِ لِتَسْيِيرِ الْفُلْكِ تَسْيِيراً يَغْلِبُ فِيهِ الْأَمْنُ مِنْ عَوَارِضِ الْهَلَاكِ بالْغَرَقِ، حِينَما تَأْتِي الرِّيَاحُ الْعَاصِفَةُ وَالْقَاصِفَة، وَتَرْفَعُ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ فَتَجْعَلُهَا كالْجِبَالِ، وَتَضْرِبُ الْفُلْكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَرْفَعُهَا وَتَخْفِضُهَا حَتَّىٰ تَمْتَلِئَ قُلُوبُ رُكَّابِهَا خَوْفاً مِنَ الْغَرَقِ، الَّذِي لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ إلَّا أَنْ تُدْرِكَهُمْ رَحْمَةُ اللهِ بِنِعْمَتِه، فَيُسْكِنَ الرِّيَاحَ بِقُدْرَتِهِ.

هـٰذا الْهَدَفُ الْعِلْمِيُّ لَا يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إلَىٰ المطْلُوبِ الْغَائِيِّ مِنْهُ، إلَّا كُلُّ صَبَّارٍ في بُحُوثِهِ الْعِلْمِيَّةِ، الَّتِي يَتَّبِعُ فِيهَا الدَّقَائِقَ بالتَّجَارُبِ الكَثِيرَة، والْمُلَاحَظَاتِ الْقَائِمَاتِ عَلَىٰ التَّأَمُّلِ وَالنَّظَر السَّلِيم، وتَدْوِينِ هـٰذِهِ الْمُلَاحظَاتِ، وَوَضْعِهَا مَوْضِعَ التَّنْفِيذِ لِمَعْرِفَةِ مَدَىٰ الانْتِفَاعِ بها، وَمُتَابَعَتِهَا بالتَّطْوِيرِ والتَّحْسِينِ والتَّجْوِيدِ، كُلَّمَا أَدْرَكَ الْبَاحِثُونَ الْعِلْمِيُّونَ شَيْئاً أفْضل وأحْسَنَ مِمَّا سَبَقَ أَنْ تَوَصَّلُوا إلَيْهِ، وَنَفَّذُوهُ فِيمَا سَبَقَ أَنْ صَنَعُوه.

الْهَدَفُ الدِّينِيُّ الأُخْرَوِي: هُو الَّذِي يَجْعَلُ الْمُتَفَكِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَحْثِ الْعِلْمِي يُدْرِكُونَ عَظَمَةَ إتْقَانِ اللهِ الْجَلِيلِ لِكُلِّ مَا خَلَقَ وَصَنَعَ فِي كَوْنِهِ، وَيُدْرِكُونَ وَافِرَ إنْعَامِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وواسِعَ رَحْمَتِهِ بِهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْمَنَازِلَ العالِيَةَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، إنَّمَا تَكُونُ لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَه، فَيَحْرِصُونَ عَلَىٰ بُلُوغِ هـٰذه المنازِلِ العالِيَةِ في جَنَّاتِ النَّعِيم، فَيَزِيدُونَ مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ والْقُرُبَاتِ، فَوْقَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ والْوَاجِبَاتِ، شُكْراً لِلَّهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ، رَغْبَةً في أَنْ يَكُونُوا شَكُورِينَ.

- ﴿.. لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ..﴾: جَاءَ الْخِطَابُ فِي هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ

لِلنَّاسِ جَمِيعاً بِأسْلُوبِ خِطَابِ الْجَمَاعَةِ علَىٰ سَبِيلِ الالْتِفَاتِ، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ الإرَاءَةَ مُوَجَّهَةٌ لِلْجَمِيعِ، وأَنَّ الْحِكْمَةَ اقْتَضَتْ تَحْمِيلَ كُلِّ فَرْدٍ مَسْؤُولِيَّتَهُ تُجاهَ مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أفْرَادِ الناس حِينَ يُوَجَّهُ لَهُمُ التَّكْلِيفُ الْجَمَاعِيّ.

أي: لِيُرِيَكُمْ أَيُّها النَّاسُ بَعْضَ آيَاتِهِ، لِأَنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَتَوَصَّلُوا إلى رُؤيَةِ كُلِّ آيَاتِهِ، ولَوْ عَلَىٰ سَبِيلِ الرُّؤْيَةِ الْعِلْمِيَّة، فَفِي الْكَوْنِ دَقَائِقُ هِي مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، ولَكِنْ لَا تَسْتَطِيعُونَ الوصُولَ إلى إدْرَاكِها ومَعْرِفَتِها.

- ﴿.. إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾:

أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ ظَاهِرَةُ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي في الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ، لآيَاتٍ كَثِيراتٍ، وَعَلَامَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ، ذَوَاتِ هَدَفَيْنِ:

- فَالْهَدَفُ الدُّنْيَوِيُّ الْعِلْمِيُّ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ كُلُّ صَبَّارٍ في الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ.
- والْهَدَفُ الدِّينيُّ الْأُخْرَوِيُّ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ وَيَسْتَفِيدُ مِنْهُ كُلُّ شَكُور.

صَبَّار: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لِصَابِر، أي: هو صابِرٌ صَبْراً شَدِيداً.

شَكُور: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لِشَاكِرٍ، أي: هُوَ شَاكِرٌ شُكْراً كَثِيراً بَلَغَ إلى مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ، أَوِ الْمُحْسِنِين.

▪ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ يُبيِّنُ أَقْسَامَ النَّاسِ تُجَاهَ الْمَخَاوِفِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ وَمِنْ أمْثِلَتِها مَخاوِفُ الْغَرَقِ فِي الْبَحْرِ، حِينَما يَكُونُونَ في الْفُلْكِ وَتَأْتِيهِمُ الْأَمْوَاجُ كالظُّلَلِ، الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يَتَرَقَّبُونَ الْغَرَقَ لَحْظةً فَلَحْظة.

- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾:

غَشِيَهمْ مَوْجٌ: أي: ارْتَفَعَ مَوْجٌ منْ جِهَتَي الْفُلْكِ أَوْ من إحْدَاهُمَا حَتَّىٰ سَتَرَتْهُمْ فَصَارَتِ الْفُلْكُ كالْغَارِقةِ بيْنَ الْمَوْج، فَلَا يَرَوْن وَلَا يُرَوْن.

يُقَالُ لغة: «غَشِيَ الشَّيْءُ شَيْئاً» أَيْ: غَطَّاهُ وَجَلَّلَهُ فَحَجَبَهُ.

كالظُّلَلِ: الظُّلَلُ جَمْعُ «الظُّلَّةِ» وهِيَ مَا أَظَلَّ مِنْ شَجَرٍ وغَيْرِه.

إنَّ رُكَّاب السُّفُنِ في الْبِحَارِ، قَدْ يَتَعَرَّضُونَ بِقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِه لِأَحْدَاثٍ مُرْهِبَةٍ، تُنْزِلُ بِهِمْ ذُعْراً شَدِيداً، يَتَرَقَّبُونَ مَعَهُ الْغَرَقَ لَحْظَةً فَلَحْظَةً.

فَقَدْ يَبْعَثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيَاحاً عَاتِيَةً، تَضْرِبُ مِيَاهَ البَحْرِ، فَتَجْعَلُ أَمْوَاجَهُ تَرْتَفِعُ كالْجِبَالِ، وَقَدْ يَصِلُ ارْتِفَاعُهَا إِلَىٰ أَكْثَرَ مِنِ ارْتِفَاعِ جُدْرَانِ السَّفِينَةِ فَوْقَ سَطْحِ الماء، فَتَكُونُ سَاتِرَةً لَهَا.

فإذَا يَئِسُوا مِنِ اتِّخَاذِ أَسْبَابٍ تُنْجِيهِم:

- ﴿.. دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ..﴾: أي: تَوَجَّهُوا لِلَّهِ يَدْعُونَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِدُعَائِهِ أَحَداً وَلَا شَيْئاً.

إِخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ فِي الدُّعَاء، دُعَاءُ الدَّاعِينَ لَهُ مُؤْمِنِينَ بأَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوُجُودِ غَيْرُهُ، فَلَا خَلْقَ إِلَّا خَلْقُهُ، وَلَا أَحَدَ يُنْجِي مِنَ الْهَلَاكِ والْكَرْبِ سِوَاه، وَمُؤْمِنِين بأَنَّهُ لَا إِلَهَ بِحَقٍّ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، وَلَا عِبَادَةَ بالدُّعَاءِ وغَيْرِهِ إِلَّا لَهُ.

- ﴿.. فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ ..﴾: أي: فَلَمَّا أَسْكَنَ اللهُ الْبَحْرَ، وهَيَّأَ لَهُمْ وَسَائِلَ النَّجَاة، ونَجَّاهُمْ مِنْ أَهْوالِ الْبَحْرِ، وأَوْصَلَهُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ آمِنِينَ، وَوَجَدُوا نُفُوسَهُمْ علَىٰ الْيَابِسَةِ.

- ﴿.. فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾:

الْخَتَّارُ: الْغَدَّارُ بأقْبَحِ الْغَدْرِ، يُقَالُ لغة: «خَتَرَ فُلَانٌ فُلاناً، يَخْتُرُه» أي: غَدَرَ بِهِ أَقْبَحَ الْغَدْر. ولفظ «خَتَّار» صيغة مبالغة لاسم الفاعِلِ «خاتِر».

الكَفُور: صِيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «كَافِر» فالكَفُور هو ذُو الكُفْرِ الشَّدِيدِ بِالْحَقّ، والكُفْرِ الشَّدِيدِ لإنْعَامِ المنْعِم.

دَلَّ هـٰذا البيانُ بِصَرِيح اللَّفْظِ والمطويات فيهِ علَىٰ أَنَّ النَّاسَ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين، يَنْقَسِمُونَ بَعْدَ أَنْ يُنجِيَهُمُ اللهُ مِنَ الشِّدَّةِ الَّتِي كانُوا فِيها إلَىٰ الأَقْسَام الَّتِي يَنْقَسِمُ إِلَيْهَا النَّاسُ جَمِيعاً، قَبْلَ أَنْ يَتَعَرَّضُوا إلَىٰ أَحْدَاثٍ مُرْهِبَةٍ تَخْلَعُ قُلُوبَهُمْ بِالذُّعْرِ مِن الْهَلاكِ.

وَجاءَ في النَّصِّ التَّصْرِيحُ بِقِسْمَيْنِ، مَعَ طَيِّ سَائِرِ الأَقْسَام، الَّتِي يَسْتَخْرِجُها المُتَدبّر المتأنّي بالتفكير المتَعمِّقِ مع دَلالاتِ نُصُوصٍ أخْرَىٰ جَاءَتْ فِي سوَابِقِ نُجُوم التَّنْزِيل.

إنَّ النَّاسَ فَرِيقان: فَرِيقٌ مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمين أَصْحَابِ الجنّة، وَفَرِيق كافِرٌ مِنْ أَصْحَابِ الشِّمَالِ أَهْلِ النار.

- **أَمَّا الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ** المؤمِنُونَ أهلُ الْيَمِينِ، فَهُمْ أقْسَامٌ ثَلاثَة.

(١) مُقْتَصِدُونَ.

(٢) وَأَحْسَنُ حَالاً مِنَ المقْتَصِدِين، وهُمُ السَّابِقُون بِفِعْل الخيراتِ بإذْنِ الله.

(٣) وأَسْوَأُ حالاً من المقْتَصِدينَ، وهُمُ الظَّالِمُونَ لِنُفُوسِهِمْ بِكَثْرَةِ مَعَاصِيهِمْ مَعَ إيمانهم.

وقَدْ سَبَقَ في سُورةِ (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) بَيَانُ هـٰذِهِ الأَقْسَامِ الثَّلاثَةِ لِلْمُؤْمِنينَ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ المؤمِنينَ الْمُسْلِمِينَ أتْبَاعِ الرِّسالَةِ المحمَّدِيَّة:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ .. ﴿٣٢﴾﴾.

فالْقِسْمُ الأَدْنَىٰ وهُمُ الأَكْثَرُ عَدداً: هُمُ المؤمِنُونَ الظَّالِمُونَ لِنُفُوسِهِمْ بِكَثْرَةِ المعاصِي والْمُخَالَفَاتِ وارْتِكَابِ الكَبَائِرِ مِنَ الذُّنوب والآثام.

وكُلُّ فَرْدٍ مِنْ أفرادِ هـٰذا الْقِسْمِ صَحَّ إيمانُهُ وإسْلَامُهُ، لَكِنَّهُ ظَلَمَ نَفْسَه، وأسْرَفَ عَلَيْهَا وجَنَىٰ باقْتِرَافِ المعاصِي والآثام، وارْتِكَابِ الكَبَائِرِ الَّتِي نَهَىٰ اللهُ عَنْهَا نَهْياً مَقْرُوناً بِتَحْذِيرٍ شدِيدٍ، ورَتَّبَ عَلَيْهَا عِقَاباً ألِيماً.

وهؤلَاءِ علَىٰ دَرَجاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ تَحْتَ سَقْفِ مَرْتَبَةِ التقوى، بِحَسَبِ نِسْبَةِ مَعَاصِيهِمْ وَجِنَايَاتِهِمْ وإسْرَافِهِمْ علَىٰ نُفُوسهم.

والْقِسْمُ الْأَوْسَطُ: هُمُ المقْتَصِدُون، وهُمُ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ حُقُوق مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، بِتَأْدِيَةِ الْوَاجِبَاتِ، واجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَات، وَقَدْ يُجْبَرُ الْخَلَلُ فِيهَا بالاسْتِغْفَارِ والتَّوْبةِ، وبِتَأْدِيَةِ بَعْضِ نَوَافِلِ الْقُرُبَاتِ مِنْ غَيْرِ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ.

والْقِسْمُ الْأَعْلَىٰ: وَهُمُ الأَقَلُّ عَدداً، هُمْ قِسْمُ السَّابِقِينَ بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ بإذْنِ اللهِ.

وأفْرَادُ هـٰذا الْقِسْمِ هُمُ الَّذِينَ يتَقَرَّبُونَ إلىٰ اللهِ بالنَّوَافِلِ مِمَّا يُحِبُّهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَوْقَ أدَائِهِمْ لِلْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكِهِمْ للمحرّمات، وَهُمْ يَسْتَزِيدُون مِنْ نَوَافِلِ الْقُرُبَاتِ طلباً لِمَرْضَاةِ اللهِ، والثواب الْجَزِيلِ عِنْدَه.

وأفرَادُ هـٰذا الْقِسْمِ علَىٰ دَرَجاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ كثيرات، بِمِقْدَارِ سَبْقِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِفِعْلِ الخيرات.

ويدْخُلُ في هـٰذا الْقَسَمِ الْأَبْرَارُ، والْمُحْسِنُون، وجَاءَ التعبير عَنْهُمْ بأنَّهُمُ الْمُقَرَّبُون.

فَدلَّتْ عِبَارَة: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ في آيَةِ سُورَة (لقمان/ ٥٧ نزول) عَلَىٰ الْقِسْمِ الْأَوْسَطِ، من أقْسَامِ الْمُؤْمِنِين أَهْلِ الْيَمِينِ، أَصْحَابِ الْجَنَّة، بِصَرِيحِ اللَّفْظ.

وَدلَّتْ عَنْ طَرِيقِ اللُّزُومِ الفكْرِي علَىٰ الْقِسْمَيْنِ الآخَرين اللَّذَيْنِ سَبَقَ بَيَانُهُما فِي سُورَةِ (فاطر/ ٤٣ نزول).

إنَّ عِبارَةَ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ﴾ هِي على تَقْدِيرِ: فَقِسْمٌ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، ومَعْلُومٌ أَنَّ ذِكْرَ قِسْمٍ مِنْ أقْسَامِ جَمَاعَةٍ ذَاتِ عُنْوَانٍ واحِدٍ، يَسْتَدْعِي ذِهْناً سَائِرَ الأَقْسَام الْمَعْلُومَةِ.

• **وأَمَّا الْفَرِيقُ الثَّانِي**: الْكَافِرُونَ أصْحَابُ الشِّمَال، فَهُمْ أيضاً أقْسَامٌ ثَلاثَة، فِي مُقَابِلِ أقْسَام الْفَرِيقِ الأوّل.

(١) أصْحَابُ الدَّرَكَاتِ الْأُولَىٰ مِنَ النَّار، وهُمُ المُشْرِكُونَ على تنازُلِ دَرَكَاتِهِمْ، فِي نِسْبَةِ الشِّرْكِ وارْتِكَاب الجرائِمِ الْكُبْرَىٰ.

(٢) أصْحَابُ الدَّرَكَاتِ الْوُسْطَىٰ فِي الْجَحِيم، وَهُمُ الْكَافِرُونَ المعانِدُونَ، عَلَىٰ الرُّغْم مِنْ إقناعِهِمْ بالْأَدِلَّةِ والبراهِينَ، مَعَ إسْرَافٍ في ارْتِكَابِ بَعْضِ الجرائِمِ الكُبْرَىٰ.

(٣) أصْحَابُ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النَّارِ، وهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ الْجَبَّارُون، الضّالّون الْمُضِلُّون، الجاحِدُونَ الكَفُورون، ومِنْهُمُ الْمُنَافِقُونَ، لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ رَذِيلَتَيْن خَسيسَتَيْنِ هُمَا الكُفْرُ والنِّفَاق.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ أصْحَابِ الدَّرَكَاتِ الْوُسْطَىٰ، مَا سَبَقَ أَنْ جَاءَ في سُورَة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نُزول) بِشَأْنِ المكَذِّبِ بِيَوْم الدِّينِ، وقَرِينِهِ المؤمِنِ الَّذِي دَخَلَ الجَنَّة، وَطَلَبَ مِنْ جُلَسَائِهِ فيها أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَىٰ قَرِينِهِ الَّذِي كَانَ يُحَاوِلُ إقْنَاعَهُ بأنْ يَكْفُرَ بِيَوْمِ الدّين، وهو قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾: أي: في وَسَطِهَا لَا في أَدْنَاها، ولَا فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ فيها.

ودَلَّتْ سَوَابِقُ النُّصُوصِ في سَوَابِقِ نُجُوم التَّنْزِيلِ علَىٰ أَنَّ عَذَابَ أَهْلِ النَّارِ مُتَفَاوِتُ النِّسَبِ بِحَسَبِ مَقَادِيرِ الكُفْرِ والْجَرائِمِ، ومِنْهَا مَا جَاءَ فِي الآية (٣٨) مِنْ سُورَة (الأعراف/ ٣٨ نزول) ومَا جَاء في الآيتَيْن (٦٠) و(٦١) مِنْ سُورَة (صۤ/ ٣٨ نزول).

والتَّقَابُلُ بَيْنَ أَقْسَام الْمُؤْمِنِينَ أَهْلِ الْيَمِين، وأَقْسَام الْكَافِرِينَ أَصْحَاب الشِّمَالِ، مَعَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَاقِعِ أَحْوَالِ الناسِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ أَقْسَامٌ رَئِيسَةٌ ثَلاثَة، وهُمْ علَىٰ دَرَكَاتٍ مُتَنَازِلَاتٍ إِلَىٰ قَرَارِ الجحيم.

وَقَدْ دَلَّتْ عِبَارَة: ﴿.. وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ في سُورَة (لُقمان/ ٥٧ نزول) عَلَىٰ الْقِسْمِ الْأَخَسِّ مِنَ الْكَافِرِين، لِأَنَّهُ الْتَجَأَ إِلَىٰ رَبِّهِ دَاعِياً مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ، فَلَمَّا أَنْجَاهُ اللهُ جَلَّ جَلَالَهُ بِرَحْمَتِهِ كَانَ غَدَّاراً نَاقِضاً عَهْدَهُ، وَكَانَ كَفُوراً شَدِيدَ الكُفْرِ عِناداً وَكِبْراً وَفُجُوراً.

وهـٰذا الجاحِدُ الغَدَّارُ الكَفُورُ، يُشَارِكُ فِي الدَّرَكَاتِ السُّفْلَىٰ مِنَ النَّارِ، أئِمَّةَ الكُفْرِ والإضْلَالِ، والْمُنَافِقِين، والطُّغَاةَ الْجَبَّارِين، وَلِكُلٍّ مِنْهُمْ دَرَكَةٌ تُلَائِمُ مُسْتَوَىٰ جرائِمه.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ العاشر من دُروس سورة (لقمان). والْحَمْدُ لِلَّهِ علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفِيقِه وفَتْحه.

* * *

(١٦)

التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيتان (٣٣) و(٣٤) آخِر السّورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

القراءات:

(٣٤) ● قرأ نافعٌ، وابْنُ عامر، وعاصم، وأبُو جعفر: **[وَيُنَزِّلُ]** مِنْ فعل: «نَزَّلَ» المضعّف.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: **[وَيُنْزِلُ]** من فعل: «أَنْزَلَ» الْمَهْمُوز.

والقراءتان مُتَكافئتان، فالفعل المهموز أخو الفعل المضعَّف.

تمهيد:

في آيَتَيْ هـٰذا الدَّرْسِ الْأَخِيرِ مِنْ دُروس السورة نداء للنَّاسِ جَمِيعاً بأنْ يَتَّقُوا اللهَ رَبَّهُم، وبأنْ يَخْشَوْا عَذَابَهُ الْمُعَدَّ لِلْعُصَاةِ والكافِرِينَ يَوْمَ الدِّين.

وَفيهما بَيَانُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هو الَّذِي يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَة، لَمْ يُعْطِ اللهُ بَيَانَ وَقْتِ قيامِهَا لِأَحدٍ مِنْ خَلْقِه.

وفيهما بَيَانُ أنَّه يُنَزِّلُ الْغَيْثَ بِحِكْمَتِه. وأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ ما فِي الأَرْحَام، وبَيَانُ أَنَّهُ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبَ غداً، وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوت. لَكِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شيءٍ خبير.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي نِداءٍ مُوَجَّهٍ لِلنَّاسِ جَمِيعاً:

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾:

فِي هـٰذِهِ الآيَةِ مَوْعِظَةٌ تَحْذِيرِيَّة تَرْهِيبيَّةٌ، مِنْ عِقَابِ اللهِ عَلَىٰ الكُفْرِ بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وعَلَىٰ مُخالَفَةِ أَوامِرِهِ وَنَواهِيهِ اللَّاتي رَتَّبَ عَلَىٰ مَخالَفَتِها عِقاباً.

وَهـٰذا الْعِقَابُ مِنْهُ مَا هُوَ مُعَجَّلٌ فِي الحياة الدنيا، ومِنْهُ مَا هُوَ مُؤَجَّلٌ إلَىٰ يَوْم الدِّين، الَّذِي يَكُونُ الجَزاءُ فِيهِ شَخْصِيّاً، فَلَا يَكْفِي ولا يُغْنِي والدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولَا مَوْلُودٌ عَنْ والِدِهِ شيئاً.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ..﴾: أي: اتَّقُوا جزاءَ رَبِّكُمُ الْعِقَابِيَّ كُلَّهُ عَاجلَهُ وآجِلَهُ.

واتِّقَاءُ عِقَابِ اللهِ يَكُونُ بالْإِيمانِ بِمَا أَمَرَ بالإيمانِ بِهِ، فيما أَنْزَلَ عَلَىٰ رسُوله، وإعْلَانِ الإسْلَام لَهُ وأَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هو، وَطَاعَتِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِفِعْلِهِ أمْرَ إيجابٍ، واجْتِنَاب ما نَهَىٰ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم.

واخْتِيرَ هُنَا مِنْ صِفَاتِ الله صِفَةُ «الرَّبِّ» لِأَنَّ الصِّفَاتِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ عُنْوَانِ «رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِعِبَاده» هِيَ الصِّفَاتُ ذَوَاتُ الْعَلَاقَةِ بإيجادِهِمْ، وإمْدَادِهم، وَتكليفِهِمْ، وَحِسَابِهِمْ، وَمُجَازَاتِهِ لَهُمْ، ومَوْتِهِمْ، وَبَعْثِهِمْ، وكُلِّ تَصَارِيفِهِ فِي ذواتِهم وصِفَاتِهم، فَمِنْ حَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمُ الشَّامِلَةِ لِكُلِّ شَيْءٍ فِيهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، ويُسْلِمُوا لَهُ، ويُطِيعُوه، ومِنْ سَعْيِهِمْ لِمَا يَنْفَعُهُمْ، وحِمَايَةِ نُفُوسِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ مِنْ جَزاءٍ عِقَابِي، الْتِزامُهُمُ الْعَمَلَ بِمَا يُحِبُّ جَلَّ جلالُهُ مِنْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوهُ، واجْتِنَابُهُمُ اقْتِرَافَ مَا لَا يُحِبُّ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْهُمْ أَنْ يَقْتَرِفُوه.

- ﴿.. وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ..﴾:

أي: وَخافُوا وَقَائِعَ يَوْم يَكُونُ فِيهِ الْحِسَابُ وفَصْلُ الْقَضَاءِ وتنفيذُ الْجَزاءِ، هُو يَوْمُ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْث.

وَمِنْ أَوْصَافِ وَقَائِعِ هَـٰذا الْيَوْم، أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ مَوْضُوعاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، يأتِي فِيهِ فَرْداً لِمُلَاقَاةِ حِسَاب رَبِّهِ وفَصْلِ قَضَائِهِ بِشَأْنِهِ وَتَنْفِيذِ مُجَازَاتِهِ لَهُ، وَيفِرُّ فِيهِ الْمَرْءُ مِنْ أخيهِ، وأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ، إذْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.

فَلَا يَكْفِي وَلَا يُغْنِي فِيه وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ شيئاً، إِذْ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يُسَاعِدَ أحداً أَوْ يَنْصُرَ أحداً.

ولَا يَكْفِي وَلَا يُغْنِي فيه مولودٌ عَنْ والدِهِ شيئاً، إِذْ لَا يَمْلِكَ أَحَدٌ أَنْ يُسَاعِدَ أحداً أَوْ يَنْصُرَ أحداً يومَئِذٍ.

إِنَّ الْأَمْرَ يَوْمَئِذٍ كُلَّهُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ وَحْدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِي سُلْطَانِهِ مُشَارِكٌ، وَمَلَائِكَتُهُ يُنَفِّذُونَ أَوَامِرَه.

﴿لَّا يَجْزِى﴾: أي: لَا يَكْفِي وَلَا يُغْنِي. يُقَالُ لغة: «جَزَىٰ الشَّيْءُ يَجْزِي، جَزَاءً» أي: كَفَىٰ، وأغْنَىٰ.

- ﴿.. إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ..﴾: أي: كُلُّ وَعْدٍ وَعَدَهُ اللهُ ممَّا سَيكُونُ أَوْ سَوْفَ يَكُونُ هُوَ وَعْدٌ حَقٌّ، لِأَنَّهُ صِدْقٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتحَقَّقَ لِأَنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الميعَادَ، إذْ هُو قَدِيرٌ علَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاء، بأمْرِ التكْوين، ولَهُ كُلُّ صِفَاتِ الكمال.

والمقْصُودُ الْأَوَّلُ بالْوَعْدِ هُنَا هُوَ الْبَعْثُ وَيَوْمُ الدّين، وكُلُّ الأحْدَاثِ الَّتِي جَاءَ فِي النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ أَنَّها سَوْفَ تَجْرِي فيه.

- ﴿.. فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ..﴾: أي: فَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ زِينَاتُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمفَاتِنُها، وَلَا تَصْرفَنَّكُمْ عَنِ الْبَصِيرَةِ الْمُدْرِكَةِ لِلْحَقِّ.

يقال لُغَةً: «غَرَّهُ، يَغُرُّه، غَرّاً، وَغُرُوراً، وغِرَّة» أي: خَدَعَهُ وأَطْمَعَهُ بالْبَاطل.

والْمُرَادُ بالحياة الدُّنيا مَا فِيهَا مِنْ شَهوَاتٍ، ولَذَّاتٍ، وزِيناتٍ وأَهْوَاءٍ» مِمَّا يَخْدَعُ نُفُوسَ النَّاسِ بالْبَاطِل، وَيَصْرِفُهُمْ عَنِ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ الْخَالِدَةِ، ونَعِيمِها المقِيم فِي جَنَّاتِ النعيم.

- ﴿.. وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾:

الْغَرُورُ: مِنْ صِيَغِ المبالغة، أي: شَدِيدُ الْخَدْعِ بالْبَاطِلِ، وَيَنْطَبِقُ هٰذا اللَّفْظُ علَىٰ كُلِّ خَدَّاعٍ يُطْمِعُ بالْبَاطِل.

ويُطْلَقُ غَالِباً عَلَىٰ الشَّيْطَانِ وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُ.

والتَّعْدِيَةُ بالْبَاءِ فِي: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ هي فِيمَا أَرَىٰ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: وَلَا يَخْدَعَنَّكُمْ بِتَزْيِينِ مَعْصِيَةِ اللهِ لِنُفُوسِكُم، وَبِإِقْنَاعِكُمْ بِأَنَّهُ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ وَلَا جزاءَ، وَأَنَّ يَوْم الدِّينِ خُرَافَةٌ، الْغَرُورُ بِوَسَاوِسِهِ وَدَسَائِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ وَتَزْيِيفَاتِهِ وَزُخْرُفِ الْقَوْلِ الَّذِي يَصْطَنِعُهُ لِيَخْدَعَ بِهِ بالباطل.

إنّ كُلَّ مَا يُقَدِّمُهُ الكافِرُونَ، الَّذِينَ يُنْكِرُونَ مَا جاء مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِه ﷺ، هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْأَكَاذِيب، وزُيُوفِ الْأَقْوَالِ، وأباطِيلِها، مُزَيَّناً بِزُخْرُفٍ مِنَ الْقَوْل.

وَرَبُّ النَّاسِ يُحَذِّرُهم مِمَّا يَتَّخِذُهُ المضِلُّون مِنْ وَسَائِلَ وأَسْباب، لإغْواءِ النَّاس، وإِضْلَالِهِم، وصَدِّهِمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، وجَعْلِهِمْ يَكْفُرُونَ بالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ رَبُّهُمْ لِهِدَايَتِهِمْ وخَيْرِهم وسَعَادَتِهِم الْأَبَدِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ آيَاتِ السُّورَة:

● ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

فِي هٰذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ سِتِّ قَضَايَا يَجِبُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ السَّوِيِّ، أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِهَا، وَأَنْ يَجْعَلَها فِي سَاحَةِ تَصَوُّرِهِ الحاضِرِ، أَوْ قَرِيبَةَ الْحُضُورِ فيه، دُونَ إِجْهادٍ نَفْسِيٍّ في الاسْتِذْكَار.

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . .﴾.

السَّاعَة: أُطْلِقَ لفظ «السَّاعَةِ» في القرآن على عدّةِ مَعانٍ سبَقَ بَيانُها

لدىٰ تَدَبّر الآيَةِ (١٨٧) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) ومِنْ هـٰذِهِ المعاني: وقْتُ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا وأحْدَاثها. وهٰذا الْمَعْنَىٰ هو المراد هُنَا.

وَفي عِبَارَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إشْعَارٌ بأنَّ الْعِلْمَ بِوَقْتِ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وأَحْدَاثِهَا لَا يُوجَدُ إلَّا عِنْدَ الله، أخْذاً مِنْ تَقْدِيم الظَّرْف «عِنْدَهُ» على عامِلِهِ في: «عِلْمُ السَّاعَة» ولَيْسَتْ هـٰذِهِ الدَّلَالَةُ قَطْعِيَّةً.

وَلَكِنْ جَاءَ فِي الآيَةِ (١٨٧) من سُورَةِ (الأعْرَاف/ ٣٩ نزول) مَا يَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُعْلِمْ أَحداً بِوَقْتِ قِيامِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا لَا تَأْتِي إلَّا بَغْتَةً، فقالَ اللهُ تَعَالَىٰ فيها:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ بَيَانٌ تَدَبُّرِيٌّ مُوسَّعٌ لَدَىٰ تَدَبُّرِ هـٰذِهِ الآيَةِ فِي مَوْضِعِها مِنْ سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول) ولَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ هُنَا تَكْرِيرُ مَا سَبَقَ شَرْحُهُ حَوْلَ هـٰذِهِ الْقَضِيَّة.

ويَظْهَرُ لِي أَنَّ مَا جَاءَ في سورة (لُقْمان/ ٥٧ نزول) اسْتُغْنِيَ فِيه عَنْ إيرادِ نَصٍّ قَطْعِيِّ الدَّلَالَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ لَمْ يُعْلِمْ أَحداً مِنْ خَلْقِهِ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، اعْتِمَاداً عَلَىٰ مَا جَاءَ في آيَة سورة (الأعْرَافِ/ ٣٩) السَّابِقَةِ نُزُولاً.

القضِيَّةُ الثانِيَةُ: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿.. وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ..﴾: أي: واللهُ عَزَّ وَجَلَّ باخْتِيَارِهِ الْحَكِيم، يُنَزِّلُ الْغَيْثَ الَّذِي يَرْزُقُ به عِبادَهُ، وهُوَ مِنْ نِعَمِه عَلَيْهِم.

الغيث المَطَرُ، وقيلَ: هُو الْخَاصُّ بالْخَيْرِ مِنَ المطَرِ.

أقول: وتَشْهَدُ الاستِعْمَالَاتُ بتَرْجِيحِ هـٰذا الْقَوْلِ.

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُو الَّذِي يَرْزُقُ عِبادَه، فَيَقْضِي لِبَعْضِهِمْ بالسَّعَةِ فِي الرِّزْق، ويَقْضِي لِبَعْضِهِمْ بِجَعْلِ رِزْقِهِمْ غَيْرَ ذي سَعَةٍ، لِيُبْلُوَ كُلّاً فيما آتاهُ بِحَسَبِ خَصَائِصِ نَفْسِهِ الَّتِي فَطرَهُ اللهُ عَلَيْها.

وَقَدْ يُكافِئ اللهُ بَعْضَ عِبادِهِ المتَّقِينَ أوِ الْأَبْرار بِرِزْقٍ خَاصٍّ بِهِمْ، دُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَسَائِلَ مَادِّيَّةً ظَاهِرَةً يُنْسَبُ إِلَيْهَا هـٰذا الرِّزْق.

ومِنْ أمْثِلَةِ هـٰذا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِه، والإمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أبي هُرَيْرَة، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال:

«بَيْنَا رَجُلٌ بفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانَ، فَتَنَحَّىٰ ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ⁽¹⁾، فإذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ⁽²⁾ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الماءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإذَا رَجُلٌ قَائِمٌ في حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاء بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ، مَا اسْمُكَ؟ قال: فُلان، للاسْمِ الَّذِي سَمِعَ في السَّحَابَة. فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ، لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟. قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتاً فِي السَّحَابِ الَّذِي هـٰذا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَان لاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فيها؟. قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هـٰذَا فإِنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَا يَخْرُجُ مِنْها، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنا وَعِيَالِي ثُلُثاً، وأَرُدُّ فِيها ثُلُثاً».

أَقُولُ: وَبِسَبَبِ أَنَّهُ كَانَ فِي صَدَقَتِهِ مِنَ الْأَبْرَارِ، رَزَقَهُ اللهُ بالْغَيْثِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب، كما قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سُورَة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

---

(١) **الْحُرَّة:** أرْضٌ ذَاتُ حِجارَة سُودٍ كأنَّهَا أُحرِقَتْ.

(٢) **الشَّرْجَة:** مَجْرَىٰ ماءٍ يَسِيلُ مِن الهضابِ إِلَىٰ ما دُونها من الأرض.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ..﴾: أي: وَيَعْلَمُ كُلّ مَا فِي أَرْحَامِ الإناثِ مِنْ كُلّ ذِي حَيَاةٍ، حَتَّىٰ الْبَعُوضَةِ فَمَا دُونها مِنَ الْكَائِنَات الْحَيَّة، عِلْماً يَشْمَلُ كُلَّ الدَّقَائِقِ ويُحِيط بها.

هـٰذَا الشُّمُولُ الْعِلْمِيُّ لِكُلِّ أَرْحَام الْإِنَاثِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْخَاصَّةِ به، إذْ هوَ جَلَّ جَلَالُهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

أَمَّا عِلْمُ مَا فِي بَعْضِ أَرْحَامِ الإِنَاثِ، بآلَاتٍ وَأَدَوَاتٍ كاشِفَاتٍ، فَقَدْ أَعْطَىٰ اللهُ النَّاسَ إمْكَانَ أَنْ يَعْلَمُوا مِنْهُ بَعْضَ الظَّوَاهِرِ، وهـٰذا مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ الْمُخْتَصُّونَ، وهُوَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْفَهْمِ السَّلِيم للنُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ الصَّحِيحَةِ في الإِسْلَام، الوارِدَة بِشَأْنِ هـٰذا الموضُوع.

علَىٰ أَنَّ العبارَةَ القرآنِيَّةَ هُنَا عَنْ هـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ لَيْسَ فيها قَصْرٌ ولَا حَصْرٌ.

القضيَّة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿.. وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ ..﴾: أي: وَمَا تَدْرِي نَفْسُ مَخْلُوقٍ مَا أيّ مَخْلُوقٍ مَهْمَا سَمَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ مَا الَّذِي تَكْسِبُهُ في الْيَوْمِ التالِي لِيَوْمِها الَّتِي هِيَ فِيه.

- ﴿مَاذَآ﴾ مَوْصُول بمَعْنَىٰ الَّذِي. أي: وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ الشَّيْءَ الَّذِي تَكْسِبُهُ غداً.

- ﴿تَكۡسِبُ﴾: أي: تَفْعَلُ.

إنَّ الإنْسَانَ قَدْ يُقَرِّرُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلاً ما في الْيَوْم التَّالِي لِيَوْمِهِ، وَكثيراً مَا يَفْعَلُهُ، لكنْ إذَا لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ مَشِيئَةٌ فِي أَنْ يَفْعَلَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يفْعَلَهُ، فَقَدْ تَأْتِيهِ مَنِيَّتُه، أَوْ يَمْرَضُ، أَوْ تَقُومُ عَوَائق تَعُوقُهُ، فَيَعْجِزُ عَنْ فِعْلِ مَا كَانَ قَرَّرَهُ.

وَلِـٰذَا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤْمِنَ بِقَوْلِهِ لَهُ فِي سُورَةِ (الكَهْف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

لفظ «فاعل» بمنزلَةِ الْفِعْلِ المضارع، يَدُلُّ هنا على الاسْتِقبال.

وَالمُرَادُ الْجَزْمُ بأنَّهُ سَيَفْعَلُهُ قَطْعاً، لا مُجَرَّدُ الْعَزْمِ عَلَىٰ فِعْلِه، فَالْجَزْمُ يُعَارِضُهُ احْتِمَالُ وُجُودِ مَشيئَةٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُضَادَّةٍ لِفِعْلِهِ، ولِذَلِكَ يَعِدُ وَيَقُول مَعَ وَعْدِهِ: إِنْ شَاءَ الله، أيْ: وَإِنْ لَمْ يَشأ اللهُ فإِنّي لَا أَفْعَلُهُ.

وَمَا يَنْطَبِقُ علىٰ الْغَدِ يَنْطَبِقُ علَىٰ كُلِّ أَزْمَانِ المسْتَقْبَلِ الذي يَبْدأُ عَقِبَ لحظَةِ التّكَلُّم، أَمّا مَا بَعْدَ الْغَدِ فَهُو مِثْلُ الْغَدِ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ. وأَمَّا مَا دُونَ الْغَدِ مِنْ بَعْدِ لحظَةِ التّكَلُّم، فالأَمْرُ فِيهِ احْتِمالَان.

الاحْتِمَال الْأَوّلُ: أَنْ يَكُونَ دَاخِلاً تَحْتَ عِبارة ﴿غَدًا﴾ عَلَىٰ اعْتِبَارِ أَنَّ الْمُرَادَ بالْغَدِ كُلُّ أَزْمَانِ المسْتَقْبَلِ الَّذِي لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ فِيهِ، لاحْتِمَالِ وُجُودِ مَانِعٍ أو أكْثَرَ سَبقَتْ بإرَادتِهِ مَشِيئَةُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

الاحْتِمَالُ الثّاني: أنْ يَكُونَ فُسْحَةً مَنَحهَا اللهُ لِلْمُؤمِنِ لِرَفْعِ الْحَرَجِ عَنْهُ، إذا لَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، في أمْرٍ عَزَمَ أَنْ يَفْعَلَهُ الْيَوْمَ، لِصُعُوبَةِ مُلَاحَظَةِ هَـٰذا دَواماً، علىٰ أَنَّ الْأَفْضَلَ لَهُ أَنْ يَقُولَ أَيضاً: إِنْ شَاءَ الله في كُلِّ أَمْرٍ أَنْ يَفْعَلَه، ولَوْ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ يَوْمِهِ.

الْقَضِيَّةُ الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿.. وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ ..﴾: أي: وَمَا تَدْري نَفْسُ مَخْلُوقٍ مَا أيِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوت.

إِنَّ هَـٰذَا الْعِلْمَ مِمَّا حَجبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ النُّفُوسِ، فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ حَيَّةٌ مَا الأَرْضَ الّتِي سَيكُونُ مَوْتُهَا فِيها.

لَقَدْ سَبَقَ فِي تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ، تَعْيِينُ الْمَكَانِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ مَوْتُ النَّفْسِ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ، مَعَ تَعْيِينِ الزَّمَانِ الَّذِي يَكُون مَوْتُهَا فِيهِ وَلَئِنْ أَعْلَمَ اللهُ نَفْساً بِأَجَلِهَا الَّذِي سَتَمُوتُ فيه، فإِنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَخْفَىٰ عَنْهَا المكانَ الّذي سَتَمُوتُ فِيه.

وَلِلَّهِ حِكَمٌ جَلِيلَةٌ فِي كُلِّ تَصْرِيفٍ مِنْ تَصَارِيفِهِ لِخَلْقِهِ، وفي كُلِّ تَقْدِيرٍ مِنْ تَقَادِيرِهِ، وفِي كُلِّ قَضَاءٍ مِنْ أَقْضِيَتِه.

فَاضِلٌ مِنَ الْفُضَلَاءِ يَعِيشُ بِنَحْوِ عُشْرِ قَلْبِهِ الْمَرِيض، الَّذِي أُجْرِيَتْ لَهُ فِيهِ عِدَّةُ عَمَلِيَّاتٍ، وَعَاشَ سِنِينَ عَدِيدةً زِيَادَةً عَلَىٰ مَا قَدَّرَ الْأَطِبَّاءُ لَهُ أَنْ يَعِيشَ.

عَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يُسَافِرَ إِلَىٰ الرِّبَاطِ مِنَ المملَكَةِ الْمَغْرِبية، وكَانَ مُقِيماً فِي مَكَّةَ هُو وَأَهْلُه، ولَهُ فِي مَدِينَةِ الرِّبَاطِ سَكَنٌ وبَعْضُ مَصَالِح.

وَرَجَاهُ إخوانُهُ ومُحِبُّوهُ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أَطِبَّاءُ بأَنْ لَا يُسَافِرَ، لِأَنَّ حَالَتَهُ الصِّحِّيَّةَ لَا يُنَاسِبُهَا هَـٰذَا السَّفَرُ الطَّوِيل، وقَدْ يَكُونُ هَـٰذَا السَّفَرُ خطراً عَلَيْه، وأَلَحُّوا عَلَيْهِ إِلْحَاحاً شَدِيداً بأَنْ لا يُسَافِر.

لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِرَجَاءَاتِهِمْ وَإِلْحَاحَاتِهِمْ، وَسَافَرَ إِلَىٰ الرِّبَاطِ، وبَعْدَ مُدَّةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ جَاءَتْهُ مَنِيَّتُهُ فِيها، وَدُفِنَ هُنَاكَ، رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَة.

سَبَقَ في تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ أَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي سَيَكُونُ مَوْتُهُ فيها، هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي مَاتَ عَلَيْها بالرِّبَاط، فَحرَّكَ اللهُ قَلْبَهُ بأنْ يُسَافِرَ إليها، وَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ نَصَائِحُ إِخْوَانِهِ ومُحِبِّيهِ، فَقَدْ كَانَ قَضَاءُ اللهِ غالِباً، فَجعَلَ حِرْصَهُ عَلَىٰ السَّفَرِ إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي سَيَكُونُ مَوْتُهُ بِها نابعاً مِنْ عُمْقِ قَلْبِهِ(١).

وَكَانَ قَدْ وَقَعَ فِي ظَنِّي أَنَّ حِرْصَهُ عَلَىٰ هَـٰذا السَّفَرِ مَدْفُوعٌ بِقَضَاءٍ رَبَّانِيّ، لِأَمْرٍ سَبَقَ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤه.

---

(١) إِنَّهُ الدكتور «محمد خير عرقسوسي» تغمَّدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، وأَسْكَنَهُ فَسِيح جنَّتِهِ.

والْقِصَصُ الْمُشَابِهَةُ فِي تَارِيخِ النَّاسِ كثيرةٌ، ومِنْهَا غَرَائِبُ تَدْخُلُ فِي أمْثِلَةِ خَوارِقِ الْعَادَات.

الْقَضِيَّةُ السَّادِسة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾:

في هٰـذهِ الْقَضِيَّةِ تَذْكِيرٌ بِبَعْضِ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ، ذَاتِ الصِّلَةِ بِما جاء في هٰـذا الدَّرْسِ الْأَخِير مِنْ دُروسِ السّورة، وبما جَاءَ أيْضاً في أثناء السّورة.

عَلِيمٌ: صِيغَة مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعل «عالم» وَهُوَ يَدُلُّ بِمُسَاعَدَةِ نُصُوصٍ قُرآنِيّةٍ أخرَىٰ عَلَىٰ أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلٍّ عِلْماً لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَعْلُومَةٌ ما، مَهْمَا كَانَتْ دَقِيقَةً تتعَلَّقُ بأصْغَرِ صَغِيرَة.

خبير: صِيغَةُ مُبالَغَةٍ أيضاً، إلّا أَنَّ الْخِبْرَةَ أخصُّ مِنْ عُمُومِ الْعِلْم، إذْ هي تَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ الأشْيَاءِ النَّاتِجِ عَنْ مُمَارَسَةِ صُنْعِ كُلِّ صَغِيرٍ وكَبيرٍ فيها.

وبهٰـذا تَمَّ تَدبُّرُ الدَّرْسِ الأَخِيرِ مِنْ دُرُوس السُّورَة. والحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتوفيقه وفَتْحِه.

* * *

(١٧)

مُلْحق: مُسْتَخْرَجات بَلاَغِيّة مِنَ السُّورَة

توجد في سورة (لقمان) اختيارات بَلَاغِيَّة عَدِيدَة، وقَد اسْتَخْرجْتُ مِنها بِعَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في هٰـذا الملْحق الاختيارات الْبَلَاغِية التالية:

أوّلاً

من الفنون البلاغيّة القرآنيَّة الّتي لم يتعَرَّضْ لها عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ ولَمْ يُنَبِّهُوا عَلَيْهَا.

الاعْتِرَاضُ بِكَلاَمٍ مُبَاشِرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوجَّهٍ لِلنَّاسِ، ضِمْنَ حِكَايَتِهِ كَلاَماً لِغَيْرِه، للإشْعَارِ بتَصْدِيقِ المَحْكِيِّ عَنْ غَيْرِه، وأَنَّهُ مُسْتَفَادٌ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي رِسَالاَتِهِ السَّابِقَةِ للنَّاس.

لقد ذَكَرَ الْبَلاغِيُّون الاعْتِرَاضَ بِوَجْهٍ عَامٍّ، ولكِنْ لَمْ يُنَبِّهُوا عَلَىٰ هـٰذا الْغَرَضِ الَّذِي ذَكَرْتُه.

ومِنْ أمْثِلَةِ هـٰذا الْفَنِّ الرَّفِيع الاعْتِرَاض بالآيَتَيْن (١٤) و(١٥) أثْنَاءَ حِكَايَةِ وَصَايَا لُقْمَان الحكيم لابْنِه، تَأَمَّلْ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾.

ثانياً

مِنَ الْفُنون البلاغيّة «الاسْتِعَارَة» وهي استعمال لفظٍ مَا فِي غَيْرِ ما وُضِعَ له في اصطلاحٍ بِهِ التَّخاطب، لِعَلَاقةِ المشابَهَةِ، مَعَ قَرِينَةٍ صارفَةٍ عن إرادَة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب.

ومن أمثلة الاستعارة في السورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾:

(١) في هـٰذِهِ الآيَةِ شُبِّهَ الانْقِيَادُ لِأَوَامِرِ اللهِ ونَوَاهِيهِ بِمَنْ يُسْلِمُ وَجْهَهُ لِقَائِدٍ يقُودُهُ مِن جِهَةِ وَجْهِهِ، واسْتُعِير لَفْظُ: ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ للدَّلَالَةِ على مَعْنَىٰ: «يَنْقَادُ لَهُ».

وهـٰذه استعَارَةٌ دَقِيقَةُ الدَّلَالَةِ علَىٰ مَعْنَىٰ الانقياد الْكامِلِ لِلَّهِ تَعالَىٰ، كما تَنْقَادُ النَّاقَةُ مَثَلاً مِنْ قِبَلِ وَجْهِها لِقَائدها مُطَاوِعَة.

وَلَيْسَ في هـٰذا التّشبيهِ الّذِي بُنِيَتْ عَلَيْه الاسْتِعَارَة إهَانَةٌ لِلْمُنْقَادِ، بَلْ فِيه تَكْرِيمٌ لَهُ، لِأَنَّ الْقَائِدَ لَهُ رَبُّ الْعَالَمِين.

(٢) وفي هـٰذِهِ الآيَةِ شُبِّهَ الانْقِيَادُ المتَتَابِعُ مَعَ الْأَزْمَانِ المتَتَابِعَةِ، باسْتِمْسَاكِ مُرَافِقِ قَافِلَةٍ يَخْشَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ الانْفِرَادِ والضَّيَاعِ بِعُرْوَةٍ وُثْقَىٰ مِنْ عُرَىٰ أَحْمَالِ رَوَاحِلِها، واسْتُعِير هـٰذا الاسْتِمْسَاكُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ شِدَّةِ حِرْصِ المؤمِنِ المنْقَادِ لِأوامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَمِرَّ مُتَابِعاً مُنْقَاداً خَوْفاً عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ الضَّيَاعِ والْهَلَاك، ورَغْبَةً فِي الْوصُولِ سالماً آمِناً نَاجِياً، سَعِيدَ الْعَاقِبَةِ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْكَافِرِين:

- ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾:

شُبِّهَ فِي هـٰذِهِ الآيَةِ الْأَلَمُ الشَّدِيدُ بِالشَّيْءِ الْغَلِيظ، أَخْذاً مِنْ أَنَّ الْعَصَا الْغَلِيظَةَ يَكُونُ الضَّرْبُ بِهَا في الْعَادَةِ أَشَدَّ إيلاماً مِنَ الْعَصَا الَّتِي هِي مِنْ نَوعِهَا وَصِنْفِها، إذَا كَانَتْ غَيْرَ غَلِيظَة وضُرِبَ بها.

وَوُصِفَ الْعَذَابُ الشّدِيدُ الْأَلِيمُ بأَنَّهُ غَلِيظٌ على سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، وَلَا تَخفَىٰ الْمُلاءَمَةُ بيْنَ الْأَلَمِ الشّدِيدِ وَالضَّرْبِ بِالْعَصَا الْغَلِيظَةِ.

ثالثاً

مِنَ الْفُنُونِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي يَحْلُو لِلْمُرَبِّي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا للتَّقَرُّبِ والتَّحَبُّبِ إلَىٰ مَنْ يُرَبِّيهِ «التَّصْغِير».

وَمِنْ هـٰذا الْفَنِّ مَا جَاءَ فِي حِكَايَةِ أَقْوَالِ لُقْمَانَ الحكيم لابْنِهِ، إذْ قَالَ لَهُ: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بَدَلَ: «يا ابْنِي» في الآيات «١٣ و١٦ و١٧».

رابعاً

من الفنون الْبَلَاغِيَّة الَّتِي يُعَبَّرُ فيها عَنِ المرادِ بِتَعْبِيرٍ دلَالَتُهُ غَيْرُ مُبَاشِرَة «الكناية».

وهي عِنْد عُلَمَاءُ البيان: اللفظ المسْتَعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ فِي اصْطِلاحِ التَّخَاطُبِ للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعْنَىً آخر لازمٍ له، أو مُصَاحِبٍ لَهُ، أَوْ يُشَارُ بِهِ عَادةً إلَيه، لِمَا بَيْنَهُمَا مِن الملابَسَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه.

والكنايات في سورة (لقمان) كثيرة، ومِنْ أمْثِلَتِها مَا يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿.. وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

أي: فإنَّهُ لَا يَضُرُّ اللهَ شيئاً، ولَا يَنْقُصُ من مُلْكِ الله شيئاً، فُهِمَ هـٰذا مِنْ لَازِم مَعْنَىٰ العِبَارَة لَا مِنْ صريحِها، فهي كنايَة.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿.. ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُحَاسِبُكُمْ وأفْصِلُ الْقَضَاء بَيْنَكُمْ وأجَازِيكم على أعْمَالِكُمْ بِحَسَبِهَا.

جَاءَتِ الكنايَةُ عَنْ هـٰذا بِذِكْرِ ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ لِأَنَّ هـٰذا مُصَاحِبٌ لِمَا يَجْرِي فِي مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي حِكَايَةِ مَا أَوْصَىٰ بِهِ «لقمان» ابْنَهُ:

• ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾:

(١) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: أَيْ: ولا تتكبَّرْ، لِأَنَّ إمالَةَ الْخدّ لِلنَّاسِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ الكِبْرِ.

(٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾: أيْ: لَا تكُنْ مُختالاً فخُوراً، لِئَلَّا تُعَرِّضَ نَفْسَكَ لِسَخَطِ اللهِ وعِقَابه.

(٣) ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾: أي: فَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ رَفعاً مُزْعِجاً كَمَا تَرْفَعُ الْحَمِيرُ أصْواتها، فَإِنَّ هٰذا يَخْفِضُ مَنْزِلَتكَ فِي نَظَرِ النّاس، وَيُخْرِجُكَ عَنْ دَائِرَةِ فُضَلَاءِ الناس، الَّذِينَ يَلْتَزِمُونَ بِالْآدَابِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الرَّاقِية.

أَمْثِلَةٌ مُتعَدِّدَةٌ يَجِدُهَا الْبَلَاغِيُّ فِي خَوَاتِيم الآيات (٢٢ و٢٣ و٢٦ و٢٧ و٢٨).

خامساً

ومن الاختيارات البلاغيَّةِ الرّفيعة في السّورة (الإيجاز بالحذف) ومِنْ أمثلَته فيها ما يلي:

المثال الأوّل: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشأن المعانِدِينَ مِنَ المشْركين:

• ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

(١) أي: قَالُوا: لَا نَتَّبِعُ مَا أَنْزَلَ اللهُ، بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا.

(٢) ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾: أَيَتَّبِعُونَ مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آباءَكم وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِير.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿.. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾:

أي: وَفَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في وَحدانِيَّةِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِه وإلَٰهِيَّتِهِ وعَظِيم قُدْرَتِهِ وَسَامِي حِكْمَتِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدىً ولا كِتَابٍ مُنِير.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا .. ٣٣﴾:

أي: اتَّقُوا عِقَابَ رَبِّكُمْ بِالإيمانِ بِه، وبِفِعْلِ مَا أمَرَ به، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ، واخْشَوْا عَذَابَهُ في يَوْمٍ....

سادساً

من دواعي اختيارِ اسْمِ الإشارَةِ الموضوع للمشار إلَيْهِ البعيد، مع أنّ المشار إليه في البيان قَرِيبٌ، تَكْرِيمُهُ، وبَيَانُ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِه وعُلُوِّ شَأْنِه.

ومن الأمْثِلَةِ على هٰذا في السُّورَة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾:

جاءت الإشَارَة بعبارة: ﴿تِلۡكَ﴾ إلَىٰ الآياتِ القريبة المتْلُوَّةِ المسْمُوعَة، للدَّلالَة على ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِها، وعُلُوّ شَأنِها.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْمُحْسِنِين:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾:

جَاءَتِ الإشارة إليهم باسْم الإشَارة الموضوع لِلْبَعِيدِينَ في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للدَّلالَة علىٰ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وعُلُوّ شَأْنِهِم.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حكايَةً لِبَعْضِ أقوال لقمان لابْنِهِ:

- ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾:

أي: إنَّ ذَلِكَ المقامَ الرَّفِيعَ فِي جِهَادِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكر، وَهُوَ أَنْ تَصْبِرَ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ وَأَنْتَ تُجاهِدُ هٰذا الْجِهَادَ، هُوَ مِنْ عَزْمِ الأُمور.

سابعاً

مِنَ الفنون البلاغِيّةِ الّتِي يَدْعُو إِلَيْها الإيجازُ والاقتصادُ في التعبير مع مَا فيه مِنْ حَرَكَةٍ فِكْرِيَّة مُعْجبة «الالْتِفَات» وهو التَّحوُّل في التعبير الكَلامِي بَيْنَ التكلُّم، والخطاب، والْغَيْبَة، ومِنْ مُخَاطَبٍ إِلَىٰ مُخَاطَبٍ آخَرَ فيما ظَهَرَ لي.

ومِنْ أمْثِلَتِهِ في السُّورة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾:

كانَ الكَلامُ مُوجّهاً بأسْلُوب خِطاب النَّاسِ جَمِيعاً، والْتَفَتَ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ بضمير المتكَلِّم العظيم: ﴿وَأَنزَلْنَا ..﴾ والْتَفَتَ أيْضاً بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ خِطَابِ المشْرِكين: ﴿فَأَرُونِى ..﴾ وأخيراً توجَّهَ الخِطَابُ لِلْمُؤْمِنين: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ما أَعْجَبَ هٰذَا الأسْلُوبَ الرَّفِيعَ وَأَلْطَفَهُ مَعَ إيجازٍ رائع.

ثامناً

من الفنون البلاغيَّةِ اسْتِخْدَامُ اللَّفْظَةِ في المعْنَىٰ المضَادِّ لمعناها لدواع بَلاغِيَّة. ومِنْ أمْثِلَتِهِ في السُّورَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المسْتَكْبِرِ الَّذِي يَتَوَلَّىٰ عَنْ آيَاتِ رَبِّه:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦﴾:

أَصْلُ التَّبْشِيرِ الإِخْبَارُ بِمَا يُفْرِحُ وَيَسُرُّ، ومِنْ دَوَاعِي اسْتِعْمَالِهِ في الإِنْذَارِ بِمَا يَسُوءُ وَيَضُرُّ، إرادَةُ التّهكُّمِ بِمَنْ يُوَجَّهُ لَهُ الْقَوْل.

تاسعاً

ومِنَ الْفُنُون البلاغية التي ذكَرَهَا البلاغيّون «القصر» وهو: تَخْصِيصُ شَيْءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْه.

ومِنَ الْقَصْرِ في السُّورة: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْمُحْسِنِينَ من المؤمنين:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤﴾:

ففي عبارة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قَصْرٌ بِتَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ مع ضمير الفصل أيضاً، فالْفَلاحُ العظيم مقْصُورٌ عَلَيْهِمْ يومَ الدّين.

عاشراً

من الفنون البلاغيَّة خُرُوجُ الاسْتِفْهَام عَنْ أَصْلِ دَلالَتِهِ الّتِي هي طَلَبُ الإفْهام، للدَّلالَةِ علىٰ معانٍ أُخرَىٰ، ومِنْ أمْثِلَةِ هٰذا الخروج، ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خِطاباً للنَّاس:

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ .. ⑳﴾:

الاسْتِفْهَامُ فِي ﴿أَلَمْ تَرَوْا ..﴾ يُرَادُ بِهِ هُنَا حَثُّ مَنْ لم يَرَ عَلَىٰ أَنْ يَرَىٰ. وتَلْوِيمُ وَتَثْرِيبُ مَنْ رَأَىٰ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ دَلاَلَةِ مَا رَأَىٰ.

(٢) وقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأسْلُوب الْخِطَابِ الإفْرَادِي:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

وقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أيضاً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾:

الاسْتِفْهَام بعِبَارَة: ﴿أَلَمْ تَرَ ..﴾ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْن، نَظِير الاسْتِفْهام في الآية (٢٠) الآنِفَةِ الذِّكْر.

حادي عشر

من الفنون البلاغية «التّشْبيهُ» وهو الدَّلاَلَةُ عَلَىٰ مُشَارِكَةِ شيءٍ لِشَيْءٍ فِي مَعْنًىَ من المعاني أَوْ أَكْثَرَ علَىٰ سَبِيلِ التَّطَابُقِ أو التّقارُبِ لِغَرَضٍ مَا.

ومِنَ التَّشْبيهِ الْحَكِيم قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الّذِي يَتَوَلَّىٰ عَنْ آيَاتِ اللهِ مُسْتَكْبِراً:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾:

جاءَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَشْبِيهَانِ لِلَّذِي يَتَوَلَّىٰ عَنْ سَمَاعِ آيَاتِ اللهِ مُسْتَكْبِراً، دُوْن حَرْفِ عَطْفٍ بَيْنهما لِلدَّلاَلَةِ على أَحْوَالٍ بِهـٰذا المتوَلِّي، أَوْ أَحْوَالٍ لِأَفراد الْمُتَوَلِّين.

فَمِنْهُمْ يُشْبِهُ حَالُهُ حَالَ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ مَا تُلِيَ عَلَيْهِ من آيَاتِ اللهِ، فَهُوَ

كَالأَصَمّ، لأَنّ شِدَّةَ عِنَادِهِ في كُفْرِه أغْلَقَتْ عَلَيْهِ كُلَّ الْأَبْوَاب الَّتي يُمْكِنُ أَنْ تُوصِلَ إِلَىٰ مَرَاكِزِ سَمْعِهِ في دِمَاغِهِ مَا تُلِيَ بِحُضُورِهِ.

ومِنْهُمْ يُشْبِهُ حَالَهُ مِنْ حَالَ في سَمْعِهِ ثِقَلٌ شَدِيدٌ، فَهُوَ يَسْمَعُ وَلَكِنَّ سَمْعَهُ بَاهِتٌ وضَعِيفٌ جدّاً.

الْوَقْر: ضَعْفٌ شَدِيدٌ في السَّمع، وَقَدْ يُطْلَقُ على الصَّمَمِ.

وأَكْتَفِي بِهـٰذِهِ المسْتَخْرجَاتِ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ السّورة من اختيارات بِلاَغِيَّةٍ حَكِيمة.

والحمْدُ لِلَّهِ على معونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفيقِه، وفَتْحِه.

* * *

خاتمة المجلّد الحادي عشر

هٰذا مَا فتح اللهُ بِهِ عليّ في تَدَبُّر المجلَّدِ الحادي عشر من كتاب «مَعَارج التفكُّر وَدَقَائِق التدبّر» المشتمل على تدبّر ما يلي:

(١) سورة (الحجر/ ٥٤ نزول) وَملحق مستخرجات بلاغيّة مِنْها.

(٢) سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) ومُلحق مستخرجات بلاغيّة منها.

(٣) سُورَة (الصَّافات/ ٥٦ نزول) وَملحق مستخرجات بلاغيّة منها.

(٤) سورة (لقمان/ ٥٧ نزول) وملحق مستخرجات بلاغيّة منها.

وقد انتهيتُ مِنْ تَسْطِير هٰذا المجلّد في يوم الخميس ٢ ربيع الآخر من سنة ١٤٢٣ هجرية الموافق لـ١٣ حزيران من سنة ٢٠٠٢ ميلادية.

وأسأل اللهَ العليم الحكيم الجواد الوهّابَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ الْقَبُولَ الحسَنَ، وأَنْ يَنْفَعَ بِهِ نفعاً كثيراً واسعاً، وأنْ يَجْعَلَ عَمَلِي فِيهِ خالصاً لِوَجْهِهِ الكريم.

وَعَلَىٰ طَرِيقتي في المجلَّداتِ السَّابِقات، فقد اجْتَهَدْت في الالْتِزامِ بالقواعِدِ الْأَرْبَعِينَ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْها كتابي «قواعد التدبّر الأمثل لِكِتَاب اللهِ عَزَّ وَجلَّ».

رَبِّ لَكَ الحَمْدُ علَىٰ مَا تَفَضَّلْتَ بِهِ عَلَيَّ مِنْ عَطَايَاكَ وَمِنَنِك ومَعُونَتِكَ ومَدَدِكَ، وفَتْحِكَ الْمُبِين، إنَّكَ الجوادُ الوهَّابُ المنَّان.

رَبِّ أَوْزِعْنِي ووفّقْنِي وَاقْضِ لِي أَنْ أكُونَ لَكَ عَبْداً شَكُوراً، ما أبقيتني فِي هٰذِهِ الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ آخِرِ نَفَسٍ من أنفاسِي فيها.

وأسْأَلُكَ رَبِّي أَنْ أكُونَ عِنْدَكَ يَوْمَ الدِّينَ مِن الْمُحْسِنِين الأَبْرَارِ المتقين، إنَّكَ أنْتَ ذُو الْفَضْلِ العظيم.

وآخر دَعْوانا أنِ الحمد لله ربِّ الْعَالَمِين، وسَلَامٌ على المرسلين، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وآلِهِ وَصَحْبه أجْمَعِين، ومَنْ تَبِعَهمْ بإحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

مكة المكرمة في ٢/ ٤/ ١٤٢٣هـ
و١٣/ ٦/ ٢٠٠٢م

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الفهرس

الموضوع الصفحة

سورة الحِجْر

١٥ مصحف ٥٤ نزول

(١) نصّ السّورةِ وَمَا فيها من فَرْشِ القراءات ٧
(٢) موضوع سورة (الحجر) ١٣
(٣) دُرُوسُ سُورَةِ (الحِجْر) ١٥
(٤) التدبُّر التَّحلِيليّ للدرس الأوّل من سورة (الحجر) الآيات من (١ ـ ١٥) ١٧
ـ القراءات ١٨
ـ تمهيد ١٩
ـ التدبر التحليلي ٢٠
- ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ ٢٠
وهي تتضمَّنُ قضيَّتَيْن: ٢٢
الأولى: أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ رب العالمين ٢٢
الثانية: أنّ محمداً نبيُّ اللهِ ورسُولُهُ حقّاً وصِدْقاً ٢٢
- ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ ٢٣
- ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ ٢٥
- ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾ ٢٦
- ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾ ٢٦
- ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ ٢٧
- ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾ ٢٧
- ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨﴾ ٢٩
- ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ ٣٠
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾ ٣١

الموضوع **الصفحة**

- ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (١٢) لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣)﴾ ٣٢
- ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ (١٥)﴾ ٣٢

(٥) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من سورة (الحِجْر) الآيات من (١٦ ـ ٢٥) ... ٣٤

ـ القراءات ٣٥

ـ تمهيد ٣٥

ـ التدبر التحليلي ٣٥

- ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ (١٦) وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ (١٨)﴾ ٣٥
- ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ (١٩)﴾ ... ٣٨

وفيها بيان ثلاث قضايا ٣٨

- ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ (٢٠)﴾ ٤٠
- ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ (٢١)﴾ ٤١
- ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ (٢٢)﴾ ٤٢
- ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ (٢٣)﴾ ٤٤
- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ (٢٤)﴾ ٤٥
- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (٢٥)﴾ ٤٦

(٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من سورة (الحجر) الآيات من (٢٦ ـ ٤٤) .. ٤٧

ـ القراءات ٤٨

ـ تمهيد ٤٩

ـ التدبّر التحليلي ٤٩

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ (٢٦)﴾ ٤٩
- ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (٢٧)﴾ ٥٠
- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩)﴾ ٥٠
- ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣١)﴾ ٥٢
- ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ (٣٣) قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (٣٥)﴾ ٥٣

الموضوع الصفحة

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦)﴾ ٥٤
- ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٣٨)﴾ ٥٥
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ ٥٥
- ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾ ٥٦

(٧) التدبر التحليلي للدرس الرابع من سورة (الحجر) الآيات من (٤٥ ـ ٥٠) .. ٥٨

- **القراءات** ٥٨
- **تمهيد** ٥٩
- **التدبر التحليلي** ٥٩
  - ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)﴾ ٥٩
  - ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦)﴾ ٥٩
  - ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)﴾ ٦٠
  - ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠)﴾ ٦١

(٨) التَّدبُّر التَّحْلِيلي للدَّرْس الخامس من سُورَة (الحجر) الآيات من (٥١ ـ ٧٧) ٦٢

- **القراءات** ٦٣
- **تمهيد** ٦٤
  - ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١)﴾ ٦٥
  - ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)﴾ ٦٥
  - ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣)﴾ ٦٦
  - ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦)﴾ . ٦٦
  - ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٧)﴾ ٦٨
  - ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨)﴾ ٦٨
  - ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩)﴾ ٦٨
  - ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٦٠)﴾ ٦٨

الموضوع الصفحة

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢)﴾ ٦٩
• ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣)﴾ ٧٠
• ﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ (٦٤)﴾ ٧٠
• ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)﴾ ٧١
• ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)﴾ ٧٢
• ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ (٧١)﴾ ٧٣
• ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ ٧٥
• ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾ ٧٦
(٩) التدبُّر التحليلي للدَّرْس السَّادِس من سورة (الحِجر) الآيات من (٧٨ ـ ٨٤) .. ٧٨
ـ القراءات ٧٨
ـ تَمْهيد ٧٨
• ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ (٧٨) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩)﴾ ٧٨
• ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾ ٨٠
(١٠) التدبّر التحليلي للدرس السابع من سورة (الحِجْر) الآيات من (٨٥ ـ ٩٩) آخر السورة ٨٢
ـ القراءات ٨٣
ـ تمهيد ٨٣
ـ التدبّر التحليلي ٨٦
• ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥)﴾ ٨٦
• ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ ٨٧

الموضوع الصفحة

- ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)﴾ ٩٢
- ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ ٩٣
- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ ٩٥
- ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦)﴾ ٩٦
- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ (٩٨)﴾ ٩٨
- ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ ٩٩

(١١) ملحق حول مستخرجات بَلَاغية من سورة (الحِجْر) ١٠٠

سُورَة الأنعام

٦ مصحف ٥٥ نزول

(١) نص سورة (الأنعام) وما فيها من قراءات ١٠٩

(٢) ممّا جاء في السّنة بشأْنِ سورة (الأنعام) ١٣٧

(٣) موضوع سورة (الأنْعَام) ١٣٨

(٤) دُروس سُورَةِ (الأنعام) ١٤٠

(٥) التدبر التحليلي للدّرْس الأول من سورة (الأنعام) الآيات من (١ ـ ١٠) ١٤٨

ـ القراءات ١٤٩

ـ تمهيد ١٥٠

ـ التدبر التحليلي ١٥١

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾ ١٥١
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)﴾ ١٥٢
- ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)﴾ .. ١٥٥
- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٥)﴾ ١٥٥
- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٦)﴾ ١٥٧

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ ١٥٩
- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ ١٦٠
- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)﴾ ١٦٤

(٦) **التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من سورة (الأنعام) الآيتان (١١) و(١٢)** ١٦٤

- **تمهيد** ١٦٤
- **التدبُّر التحليلي** ١٦٥
- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ ١٦٥
- ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ . . .﴾ ١٦٦
- ﴿قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ . . .﴾ ١٦٧
- ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢)﴾ ١٦٨

(٧) **التدبر التحليليّ للدّرس الثالث من سورة (الأنعام) الآية (١٣)** ١٦٩

- ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٣)﴾ ١٦٩

(٨) **التدبر التحليليّ للدّرس الرابع من سورة (الأنعام) الآيات من (١٤ ـ ١٦)** ١٧١

- **القراءات** ١٧١
- **تمهيد** ١٧٢
- **التدبّر التحليلي** ١٧٢
- ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ . . (١٤)﴾ ١٧٢
- ﴿. . قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٤)﴾ ١٧٤
- ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (١٦)﴾ ١٧٥

(٩) **التّدبُّر التحليلي للدرس الخامس من سورة (الأنعام) الآيتان (١٧) و(١٨)** ١٧٦

- **تمهيد** ١٧٦
- **التدبّر التحليلي** ١٧٦
- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾ ١٧٧

الموضوع الصفحة

• ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١٨)﴾ ١٧٨

(١٠) التدبر التحليلي للدرس السادس من سورة (الأنعام) الآية (١٩) ١٧٩

- القراءات ١٧٩
- تمهيد ١٧٩
- التدبّر التحليلي ١٨٠

• ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ . . .﴾ ١٨٠

• ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ . . .﴾ ١٨١

• ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾ ١٨٢

(١١) التدبّر التحليليّ للدّرس السّابع من سورة (الأَنْعَام) الآيات من (٢٠ - ٣٩) ١٨٤

- القراءات ١٨٥
- تمهيد ١٨٧
- التدبّر التحليلي ١٨٨

• ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)﴾ ١٨٨

• ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢١)﴾ ١٨٩

• ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾ ١٩٠

• ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾ ١٩٣

• ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٢٨)﴾ ١٩٩

• ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)﴾ ٢٠٣

• ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)﴾ ٢٠٣

الموضوع **الصفحة**

• ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾ ٢٠٥

• ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ ٢١٥

• ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ . . (٣٤)﴾ ... ٢١٦

• ﴿. . وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ . . (٣٤)﴾ ٢١٦

• ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ ٢١٧

• ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ . . (٣٥)﴾ ٢١٨

• ﴿. . وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٥)﴾ ٢١٨

• ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ . . .﴾ ٢١٩

• ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)﴾ ٢٢٠

• ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)﴾ ٢٢١

• ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾ ٢٢١

• ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾ ٢٢٥

(١٢) التدبّر التحليلي للدرس الثامِن مِنْ سُورة (الأنعام) الآيَتان (٤٠) و(٤١) ٢٢٦

ـ تمهيد ٢٢٦

ـ التدبُّر التحليلي ٢٢٦

• ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾ ٢٢٦

(١٣) التّدبُّر التحليلي للدّرس التاسع من سورة (الأنعام) الآيات من (٤٢ ـ ٤٥) ٢٢٩

ـ القراءات ٢٢٩

ـ تمهيد ٢٣٠

ـ التدبّر التحليلي ٢٣٠

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ . . .﴾ ٢٣٠

الموضوع الصفحة

- ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢﴾ ٢٣١
- ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ ٢٣٢
- ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ . . .﴾ ٢٣٢
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ ٢٣٣
- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ . . .﴾ ٢٣٣
- ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ ٢٣٤

(١٤) التدبّر التحليلي للدَّرْس العاشر من سورة (الأنعام) الآيتان (٤٦) و(٤٧) ٢٣٤

ـ القراءات ٢٣٥

ـ تمهيد ٢٣٥

ـ التدبر التحليلي ٢٣٥

- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ . . ٤٦﴾ ٢٣٥
- ﴿. . ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦﴾ ٢٣٧
- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً . . .﴾ ٢٣٨
- ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾ ٢٣٩

(١٥) التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من سورة (الأنعام) الآيتان (٤٨) و(٤٩) ٢٣٩

ـ تمهيد ٢٣٩

ـ التدبّر التحليلي ٢٤٠

- ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨﴾ ٢٤٠
- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾ ٢٤١

(١٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني عشر من سورة (الأنعام) الآيات من (٥٠ ـ ٥٨) ٢٤٢

ـ القراءات ٢٤٢

ـ تمهيد ٢٤٣

ـ التدبُّر التحليلي ٢٤٤

- ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ ٢٤٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)﴾ ٢٤٦
- ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٢)﴾ ٢٤٧
- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ (٥٣)﴾ ٢٥٣
- ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾ ٢٥٤
- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٥٥)﴾ ٢٥٦
- ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٥٨)﴾ ٢٥٧

(١٧) التَّدبُّر التحليلي للدَّرْس الثالث عشر من سورة (الأنْعام) الآيات من (٥٩ ـ ٦٢) ٢٦١
- القراءات ٢٦٢
- تمهيد ٢٦٢
- التدبُّر التحليلي ٢٦٢

- ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ ٢٦٢
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾ ٢٦٥
- ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ (٦٢)﴾ ٢٦٨

(١٨) التَّدَبُّر التَّحليلي للدَّرْس الرابع عَشَر من سورة (الأنْعَام) الآيات من (٦٣ ـ ٦٦) ٢٧٢
- القراءات ٢٧٢

الموضوع **الصفحة**

ـ تمهيد ٢٧٣

ـ التدبّر التحليلي ٢٧٣

• ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٣)﴾ ٢٧٣

• ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)﴾ ٢٧٥

• ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾ ٢٧٦

• ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦)﴾ ٢٧٨

(١٩) التدبّر التحليلي للدرس الخامس عشر من سورة (الأنعام) الآيات من (٦٧ ـ ٧٠) . ٢٧٩

ـ القراءات ٢٧٩

ـ تمهيد ٢٨٠

ـ التّدبّر التحليلي ٢٨٠

• ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)﴾ ٢٨٠

• ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٦٨)﴾ ٢٨١

• ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)﴾ ٢٨٣

• ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ ٢٨٤

(٢٠) التدبُّر التَّحْليلي للدَّرْس السادس عشر من سورة (الأنعام) الآيات من (٧١ ـ ٧٣) ٢٨٨

ـ القراءات ٢٨٨

ـ تمهيد ٢٨٨

ـ التدبر التحليلي ٢٨٩

• ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)﴾ ٢٨٩

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٧٣)﴾ ٢٩٣

(٢١) التدبر التحليلي للدرس السّابع عشر من سورة (الأنعام) الآيات من (٧٤ ـ ٨٢) ٣٠١

- القراءات ٣٠٢
- تمهيد ٣٠٣
- قوم إبراهيم عليه السّلامُ مِن الصّابئين ٣٠٣
- التدبر التحليلي ٣٠٥

• ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤)﴾ ٣٠٥

• ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥)﴾ .. ٣٠٦

- تَدرُّجُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لإِبْطَالِ عِبادَة الكواكب والنجوم فِي دَعْوته ٣٠٧

• ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ (٧٦)﴾ ٣٠٧

• ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ ٣٠٩

• ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ ٣٠٩

• ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ . . .﴾ ٣١٠

• ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)﴾ ٣١١

• ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾ ٣١٢

• ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ ... ٣١٢

(٢٢) التدبّر التحليلي للدرس الثامن عشر من سورة (الأنعام) الآيات من (٨٣ ـ ٩٠) ٣١٣

- القراءات ٣١٤
- تمهيد ٣١٥
- التدبر التحليلي ٣١٥

الموضوع الصفحة

- ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾ ٣١٥
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)﴾ ٣١٦
- ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٨)﴾ ٣٢٦
- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ (٨٩)﴾ ٣٢٦
- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (٩٠)﴾ ٣٢٨

(٢٣) التدبُّر التحليلي للدرس التاسع عشر من سورة (الأنعام) الآية (٩١) ٣٢٩
- القراءات ٣٢٩
- تمهيد ٣٣٠
- ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ . . (٩١)﴾ ٣٣٠
- ﴿. . قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ . . (٩١)﴾ ٣٣١
- ﴿. . تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ ٣٣٢

(٢٤) التدبر التحليلي للدرس العشرين من سورة (الأنعام) الآيات من (٩٢ ـ ٩٤) . ٣٣٣
- القراءات ٣٣٤
- تمهيد ٣٣٤
- التدبّر التحليلي ٣٣٤
- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾ ٣٣٤
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾ ٣٣٧

الموضوع الصفحة

• ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾ ٣٣٩

(٢٥) التدبر التحليلي للدرس الحادي والعشرينَ من سورة (الأنعام) الآيات من (٩٥ ـ ٩٩) ٣٤١

ـ القراءات ٣٤٢

ـ تمهيد ٣٤٣

ـ التدبر التحليلي ٣٤٣

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ .. (٩٥)﴾ ٣٤٣

• ﴿.. يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ .. (٩٥)﴾ ٣٤٤

• ﴿.. ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥)﴾ ٣٤٥

• ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ .. (٩٦)﴾ ٣٤٦

• ﴿.. وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا .. (٩٦)﴾ ٣٤٦

• ﴿.. وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ .. (٩٦)﴾ ٣٤٧

• ﴿.. ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦)﴾ ٣٤٨

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ ... (٩٧)﴾ ٣٤٨

• ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)﴾ ٣٤٩

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ ... (٩٨)﴾ ٣٥٠

• ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)﴾ ٣٥٢

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ ٣٥٣

(٢٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني والعشرين من سورة (الأنْعام) الآيات من (١٠٠ ـ ١٠٣) ٣٥٨

ـ القراءات ٣٥٨

ـ تمهيد ٣٥٨

ـ التدبّر التحليلي ٣٥٩

• ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾ ٣٥٩

الموضوع الصفحة

- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ ٣٦١
- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ ٣٦٣

(٢٧) التدبر التحليلي للدَّرْس الثالث والعشرين من سورة (الأنعام) الآية (١٠٤) ٣٦٧

- تمهيد ٣٦٧
- التدبّر التحليلي ٣٦٧
- ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾ ٣٦٧

(٢٨) التدبر التحليلي للدَّرْس الرابع والعشرينَ مِنْ سُورَةِ (الأنعام) الآيات من (١٠٥ ـ ١١٧) ٣٦٩

- القراءات ٣٧٠
- تمهيد ٣٧١
- التدبّر التحليلي ٣٧٢
- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ ٣٧٢
- ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧﴾ ٣٧٤
- ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾ ٣٧٨
- ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩﴾ ٣٨٠
- ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ ٣٨٣
- ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾ ٣٨٥
- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾ . ٣٨٧
- ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤﴾ . ٣٩١

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (١١٥)﴾ ٣٩٣
• ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ
إِلَّا يَخۡرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ (١١٧)﴾ ٣٩٦
(٢٩) التدبّر التحليلي للدَّرْس الخامِسِ والعشرين من سورة (الأنعام) الآيات من
(١١٨ ـ ١٢١) ٤٠٠
ـ القراءات ٤٠٠
ـ تمهيد ٤٠١
ـ التدبّر التحليلي ٤٠١
• ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمۡ أَلَّا
تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ
إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ (١١٩)﴾ ... ٤٠١
• ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ
يَقۡتَرِفُونَ (١٢٠)﴾ ٤٠٥
• ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ
أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ (١٢١)﴾ ٤٠٦
(٣٠) التدبر التحليلي للدرس السادس والعشرين من سورة (الأنْعام) الآيات من
(١٢٢ ـ ١٢٥) ٤٠٨
ـ القراءات ٤٠٩
ـ تمهيد ٤١٠
ـ التدبّر التحليلي ٤١٠
• ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن
مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ (١٢٢)﴾ ٤١٠
• ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ
إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ
أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ
عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ (١٢٤)﴾ ٤١٢
• ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ
صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى
ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (١٢٥)﴾ ٤١٧

الموضوع **الصفحة**

(٣١) التدبّر التحليلي للدرس السّابع والعشرين من سورة (الأنعام) الآيات من (١٢٦ ـ ١٣٤) ٤١٩
- القراءات ٤٢٠
- تمهيد ٤٢١
- التدبّر التحليلي ٤٢١
- ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٢٧)﴾ ٤٢١
- ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (١٢٨)﴾ ٤٢٤
- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (١٢٩)﴾ ٤٢٦
- ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (١٣٠)﴾ ٤٢٧
- ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ (١٣١)﴾ ٤٣٠
- ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ (١٣٢)﴾ ٤٣١
- ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ (١٣٤)﴾ ٤٣٢

(٣٢) التدبر التحليلي للدرس الثامن والعشرين من سورة (الأنعام) الآية (١٣٥) ٤٣٤
- القراءات ٤٣٤
- تمهيد ٤٣٤
- التدبّر التحليلي ٤٣٥
- ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١٣٥)﴾ ٤٣٥

(٣٣) التدبّر التحليلي للدّرس التاسع والعشرين من سورة (الأنعام) الآيات من (١٣٦ ـ ١٤٠) ٤٣٦
- القراءات ٤٣٦
- تمهيد ٤٣٨
- التدبر التحليلي ٤٣٨

الموضوع الصفحة

- ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ ٤٣٨
- ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾ ٤٤٠
- ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾ ٤٤٣
- ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾ ٤٤٦

(٣٤) التدبر التحليلي للدرس الثلاثين من سورة (الأنعام) الآيات من (١٤١ ـ ١٤٧) .. ٤٤٧
- القراءات ٤٤٧
- تمهيد ٤٥٠
- التدبّر التحليلي ٤٥٠
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ ٤٥٠
- ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤)﴾ ٤٥٤
- ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾ ٤٥٧

الموضوع **الصفحة**

(٣٥) التدبّر التحليلي للدرس الحادي والثلاثين من سورة (الأنعام) الآيات من (١٤٨ ـ ١٥٣) ٤٦٢
ـ القراءات ٤٦٢
ـ تمهيد ٤٦٣
ـ التدبّر التحليلي ٤٦٤
- ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)﴾ ٤٦٤
- ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)﴾ ٤٦٨
- ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ ٤٦٩
(٣٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني والثلاثين من سورة (الأنعام) الآيات من (١٥٤ ـ ١٦٠) ٤٨٠
ـ القراءات ٤٨١
ـ تمهيد ٤٨٢
ـ التدبّر التحليلي ٤٨٢
- ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)﴾ ٤٨٢
- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾ ٤٨٤

الموضوع الصفحة

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾ ٤٨٧
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾ ٤٨٨
- ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾ ٤٨٩

(٣٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث والثلاثين من سورة (الأنعام) الآيات من (١٦١ ـ ١٦٥) وهو الدرس الأخير ٤٩٠

ـ القراءات ٤٩١

ـ تمهيد ٤٩٢

ـ التدبر التحليلي ٤٩٢

- ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾ ٤٩٢
- ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ ٤٩٤
- ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (١٦٥)﴾ ٤٩٥

(٣٨) مُلْحق: مُسْتَخْرَجات بلاغيَّة من السورة ٥٠٠

سورة الصّافّات

٣٧ مصحف ٥٦ نزول

(١) نص السّورة وَمَا فِيها مِنْ فَرْشِ القراءات ٥٢٩

(٢) ممَّا وَرَدَ بِشَأْن سورة (الصّافات) ٥٣٨

(٣) مَوْضوعُ سورة (الصّافّات) ٥٣٩

(٤) دُرُوس سورة (الصّافات) ٥٤٠

(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول من سورة (الصَّافات) الآيات من (١ ـ ١٠) ... ٥٤٣

ـ القراءات ٥٤٤

الموضوع | **الصفحة**

ـ **تمهيد** ٥٤٤

ـ **التدبّر التحليليّ** ٥٤٥

- ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا (١) فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ (٤) رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ (٥)﴾ ٥٤٥
- ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ ٥٥١

(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني مِنْ سُورَةِ (الصَّافات) الآيات من (١١ ـ ٧٤)

وَفيه ثلاثَة فصول ٥٥٤

الفصل الأول: الآيات من (١١ ـ ٣٩) ٥٥٤

ـ **القراءات** ٥٥٥

ـ **تمهيد** ٥٥٧

ـ **التدبّر التحليلي** ٥٥٧

- ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١)﴾ ٥٥٧
- ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢)﴾ ٥٥٩
- ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ (١٣)﴾ ٥٦٠
- ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾ ٥٦٠
- ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ (١٨)﴾ ٥٦١
- ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا۟ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (٣٢)﴾ ٥٦٢
- ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)﴾ ٥٦٨

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثاني من الدّرْس الثاني من سورة (الصافات) الآيات من (٤٠ ـ ٦١) ٥٧٠

- القراءات ٥٧٠
- تمهيد ٥٧٢
- التدبُّر التحليلي ٥٧٢

- ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ ٥٧٢
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ ٥٧٣
- ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩)﴾ ٥٧٦
- ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٠)﴾ ٥٧٧
- ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ (٦١)﴾ ٥٨١

الْفَصْلُ الثالث من الدرس الثاني من سورة (الصَّافَّات) الآيات مِنْ (٦٢ ـ ٧٤) ٥٨٢

- القراءات ٥٨٢
- تَمْهِيد ٥٨٢
- التدبّر التحليلي ٥٨٣

- ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ (٦٢)﴾ ٥٨٣
- ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ (٦٣)﴾ ٥٨٤
- ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ (٦٥)﴾ ٥٨٤
- ﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧)﴾ ٥٨٥
- ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ (٦٨)﴾ ٥٨٦
- ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)﴾ ٥٨٦
- ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٧٤)﴾ ٥٨٧

(٧) التدبّر التحليليّ للدَّرْسِ الثالث من سورة (الصَّافّات) الآيات من (٧٥ ـ ١٤٨) وفيه ستة فصول ٥٨٩

الموضوع الصفحة

الفصل الأول: الآيات من (٧٥ ـ ٨٢) ٥٨٩

ـ **تمهيد** ٥٨٩

ـ **التدبّر التحليلي** ٥٩٠

- ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥)﴾ ٥٩٠
- ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦)﴾ ٥٩٠
- ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩)﴾ ٥٩١
- ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١)﴾ ٥٩٣
- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٨٢)﴾ ٥٩٣

الفصل الثاني من الدرس الثالث من سورة (الصّافات) الآيات من (٨٣ ـ ١١٣) ٥٩٤

ـ **القراءات** ٥٩٥

ـ **تمهيد** ٥٩٦

ـ **التدبّر التحليلي** ٥٩٧

- ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣)﴾ ٥٩٧
- ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)﴾ ٥٩٧
- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧)﴾ ٥٩٨
- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩)﴾ ٦٠١
- ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)﴾ ٦٠٢
- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢)﴾ ٦٠٢
- ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣)﴾ ٦٠٣
- ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)﴾ ٦٠٤
- ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ ٦٠٤
- ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ (٩٧)﴾ ٦٠٥
- ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨)﴾ ٦٠٥
- ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٩٩)﴾ ٦٠٦
- ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠)﴾ ٦٠٦
- ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾ ٦٠٧
- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢)﴾ ٦٠٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ (١٠٣)﴾ ٦٠٩
- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ (١٠٧)﴾ ٦١٠
- ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١١١)﴾ ٦١١
- ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢)﴾ ٦١١
- ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ (١١٣)﴾ ٦١٢

الفصل الثالث مِنَ الدَّرْسِ الثّالِثِ من سورة (الصَّافّات) الآيات من (١١٤ ـ ١٢٢) ٦١٢

ـ **القراءات** ٦١٣
ـ **تمهيد** ٦١٣
ـ **التدبّر التحليلي** ٦١٣

- ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ (١١٨)﴾ ٦١٣
- ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٢٢)﴾ ٦١٥

الفصل الرابع من الدّرس الثالث من سورة (الصّافات) الآيات من (١٢٣ ـ ١٣٢) ٦١٦

ـ **القراءات** ٦١٦
ـ **تمهيد** ٦١٧
ـ **تَعْرِيف بالرَّسُول إلياس عليه السلام** ٦١٧
ـ **التدبر التحليلي** ٦١٨

- ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (١٢٣)﴾ ٦١٨
- ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٢٦)﴾ ٦١٩
- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (١٢٨)﴾ ٦٢٠
- ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٣٢)﴾ ٦٢١

الموضوع **الصفحة**

الفصل الخامس من الدرس الثالث من سورة (الصَّافات) الآيات من (١٣٣ - ١٣٨) ٦٢٢
ـ تمهيد ٦٢٢
ـ التدبر التحليلي ٦٢٢
• ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣)﴾ ٦٢٢
• ﴿إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (١٣٦)﴾ ٦٢٣
• ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ ٦٢٤
الفصل السادس من الدّرس الثالث من سورة (الصَّافَات) الآيات من (١٣٩ - ١٤٨) ٦٢٥
ـ القراءات ٦٢٥
ـ تمهيد ٦٢٥
ـ مقدمة عامة حَوْلَ يُونُسَ عليه السلام وقومه ٦٢٦
ما جاء في القرآن بشأن يونس عليه السلام وهي ستة نصوص ٦٢٩
دِراسَةٌ تكامُلِيَّة للنصوص القرآنيّةِ بِشأنِ يونُسَ عليه السلام ٦٣٠
أمّا آيات «يونس» عليه السلام في سورة (الصَّافات) فهي: ٦٣٠
• ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩)﴾ ٦٣٠
• ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠)﴾ ٦٣٢
• ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)﴾ ٦٣٣
• ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦)﴾ ٦٣٥
• ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾ ٦٣٧
(٨) التدبّر التحليلي للدّرسِ الرابعِ من سورة (الصَّافَات) الآيات من (١٤٩ - ١٦٣) ٦٣٨
ـ القراءات ٦٣٩
ـ تمهيد ٦٣٩
ـ التدبر التحليلي ٦٣٩
• ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ . . .﴾ ٦٣٩
• ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ (١٤٩)﴾ ٦٤٠
• ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ (١٥٠)﴾ ٦٤١

الموضوع الصفحة

- ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (١٥٢) أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥)﴾ ٦٤١
- ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ (١٥٦) فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٥٧)﴾ ٦٤٣
- ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ (١٥٨)﴾ ٦٤٤
- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (١٦٠)﴾ ٦٤٦
- ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ (١٦٣)﴾ ٦٤٦

(٩) التدبّر التحليليّ للدّرس الخامس من سورة (الصَّافّات) الآيات من (١٦٤ ـ ١٦٦) ٦٤٧

ـ تمهيد ٦٤٧

ـ مقدّمة عامّة ٦٤٨

ـ التدبر التحليلي ٦٥٠

- ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ (١٦٤)﴾ ٦٥٠
- ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾ ٦٥٣

(١٠) التدبر التحليلي للدّرس السادس من سورة (الصَّافات) الآيات من (١٦٧ ـ ١٧٠) ٦٥٤

ـ القراءات ٦٥٥

ـ تمهيد ٦٥٥

ـ مقدمة عامة ٦٥٥

ـ التدبر التحليلي ٦٥٦

- ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (١٧٠)﴾ ٦٥٦

(١١) التّدبُّر التحليلي للدّرس السّابع من سُورَة (الصَّافّاتِ) الآيات من (١٧١ ـ ١٨٢) آخر السورة ٦٥٨

ـ تمهيد ٦٥٨

ـ التدبّر التحليلي ٦٥٩

- ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (١٧٣)﴾ ٦٥٩
- ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ (١٧٤) وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ (١٧٥)﴾ ٦٦١
- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ (١٧٧)﴾ ٦٦٢
- ﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ (١٧٨) وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ (١٧٩)﴾ ٦٦٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢)﴾ ٦٦٤
(١٢) مُلْحق: مسْتَخْرَجَات بَلاغية من سورة (الصَّافَات) ٦٦٦

سُورة لُقْمان

٣١ مصحف ٥٧ نزول

(١) نَصُّ سُورَة (لُقمان) ومَا فيها مِنْ فَرْشِ القراءات ٦٧٣
(٢) مِمَّا وَرَدَ بِشَأْن سورة (لقمان) ٦٧٨
(٣) سبب نزول سورة (لقمان) ٦٧٨
(٤) موضوع سورة (لقمان) ٦٧٨
(٥) دُرُوسُ سُورة (لُقْمان) ٦٧٩
(٦) التّدبُّر التحليلي للدّرْس الأوّل من سورة (لقمان) الآيات من (١ ـ ٥) ٦٨١
ـ القراءات ٦٨١
ـ تمهيد ٦٨٢
ـ التدبّر التحليلي ٦٨٢
- ﴿الٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣)﴾ .. ٦٨٢
- ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾ ٦٨٥
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ ٦٨٧
(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني من سُورَة (لقمان) الآيتان (٦) و(٧) ٦٨٨
ـ القراءات ٦٨٨
ـ تمهيد ٦٨٩
ـ التدبّر التحليلي ٦٩٠
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦)﴾ ٦٩٠
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾ ٦٩٤
(٨) التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الثالث من سورة (لقمان) الآيتان (٨) و(٩) ٦٩٦
ـ تمهيد ٦٩٦
ـ التدبّر التحليلي ٦٩٦
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ (٨)﴾ ٦٩٦

الموضوع **الصفحة**

• ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٩)﴾ ٦٩٧

(٩) التدبّر التحليلي للدّرس الرّابع من سورة (لُقمان) الآيتان (١٠) و(١١) ٦٩٩

ـ تمهيد ٦٩٩

ـ التدبر التحليلي ٧٠٠

• ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (١٠)﴾ ٧٠٠

• ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (١١)﴾ ٧٠٤

(١٠) التَّدبُّر التحليلي للدَّرْس الخامس من سورة (لقمان) الآيات من (١٢ ـ ١٩) ٧٠٥

ـ القراءات ٧٠٦

ـ تمهيد ٧٠٧

ـ تعريف بلقمان ٧٠٧

ـ التدبّر التحليلي ٧٠٨

• ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ (١٢)﴾ ٧٠٨

• ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ (١٣)﴾ ٧١٠

• ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٥)﴾ ٧١٢

• ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ (١٦)﴾ ٧١٨

• ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ (١٨) وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ (١٩)﴾ ٧٢١

ـ مأثوراتٌ من وَصَايَا لُقْمان ٧٢٨

الموضوع الصفحة

(١١) التدبر التحليلي للدّرس السادس من سورة (لقمان) الآيات من (٢٠ ـ ٢٤) . ٧٣٣
- القراءات ٧٣٣
- تمهيد ٧٣٤
- التدبّر التحليلي ٧٣٤
- ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً . . (٢٠)﴾ ٧٣٥
- ﴿. . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١)﴾ ٧٣٦
- ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٢٢)﴾ ٧٤٠
- ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)﴾ ٧٤٣

(١٢) التدبّر التحليلي للدّرسِ السّابع من سورة (لقمان) الآيتان (٢٥) و(٢٦) ٧٤٦
- تمهيد ٧٤٦
- التدبّر التحليلي ٧٤٧
- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ ٧٤٧
- ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦)﴾ ٧٤٨

(١٣) التدبّر التحليلي للدّرسِ الثامن من سورة (لقمان) الآية (٢٧) ٧٤٩
- القراءات ٧٥٠
- تمهيد ٧٥٠
- التدبّر التحليلي ٧٥٠
- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾ ٧٥٠

(١٤) التدبّر التحليليُّ للدّرس التاسعِ من سورة (لُقمان) الآية (٢٨) ٧٥٣
- تمهيد ٧٥٣
- التدبّر التحليلي ٧٥٣
- ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٢٨)﴾ ٧٥٣

الموضوع الصفحة

(١٥) التدبر التحليلي للدَّرْسِ العاشِرِ من سورة (لقمان) الآيات من (٢٩ ـ ٣٢) ٧٥٥
ـ القراءات ٧٥٦
ـ تمهيد ٧٥٦
ـ التدبر التحليلي ٧٥٦
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ...﴾ ٧٥٦
- ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى...﴾ ٧٦٠
- ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ ٧٦٣
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾ ٧٦٥
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١﴾ ٧٦٥
- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ٣٢﴾ ٧٦٨
(١٦) التدبر التحليلي للدَّرْس الحادي عشر من سورة (لقمان) الآيتان (٣٣) و(٣٤) آخر السورة ٧٧٣
ـ القراءات ٧٧٤
ـ تمهيد ٧٧٤
ـ التدبر التحليلي ٧٧٤
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ ٧٧٤
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ ٧٧٧
(١٧) ملحق: مستخرجات بَلاغيَّة من سُورَة (لقمان) ٧٨٣
ـ خاتمة المجلّد الحادي عشر من كتاب «معارج التفكّر ودَقائق التدبر» ٧٩٣

والحمد لله ربّ العالمين..

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرٌ تَدَبُّرِيٌّ لِلقُرْآنِ الكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ
وِفْقَ مَنْهَجِ كِتَابِ «قَوَاعِدِ التَّدَبُّرِ الأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»

المجلّد الثّاني عشر

تَفْسِيرُ السُّوَرِ التَّالِيَةِ:
سبأ/ ٥٨ وَالزّمر/ ٥٩ وَغافر/ ٦٠
وَفُصّلت/ ٦١ وَالشّورى/ ٦٢ وَالزّخرف/ ٦٣

عبد الرّحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

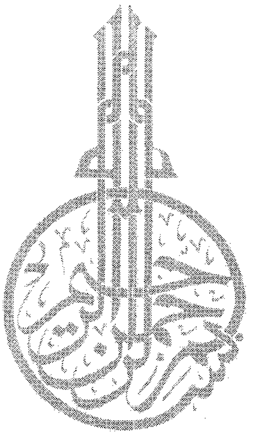
بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

١٢

دار القلم
دمشق

أسسها:
محمد علي دولة
سنة ١٩٦٧م

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

سورة «سَبَأْ»

٣٤ مصحف ٥٨ نزول

وهي سورة مكيّة

وقيل: إلّا الآية (٦) منها

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ
فِى ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلۡأَرۡضِ
وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ
ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ
بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ
إِلَّا فِى كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ لِّيَجۡزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ

---

٣ ـ • قرأ نَافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس: **[عَالِمُ الْغَيْبِ]** برفع «عالم» علىٰ أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو.

وقرأها حمزة، والكسائي: **[عَلَّامِ الْغَيْبِ]** بصيغة مُبالغة لـ«عالم» مَعِ الجرّ، علىٰ أنّه صفة لـ«رَبِّي».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿عَالِمِ الغَيْبِ﴾** بجرّ «عَالِم» علىٰ أنه صفة لـ«ربي».

والرَّفعُ والجرّ وجهان عربيان جائزان. وفي صيغة «عَلَّام» توكيد دَلَالَةٍ علىٰ أَنَّ عِلْمَ اللهِ بالِغٌ الغاية.

٣ ـ • قَرأ الكِسَائي: **[لَا يَعْزِبُ]** بكَسْرِ الزاي.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿لَا يَعْزُبُ﴾** بضم الزّاي.

والقراءتان لغتان عَربيتان.

سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ
(٥) وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ
ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ
لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ (٧) أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ (٨) أَفَلَمۡ
يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن
نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ (٩) ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا

---

٥ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو: **[مُعَجِّزِينَ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿مُعَاجِزِينَ﴾**.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنىٰ المراد كما سيأتي إن شاء الله بَيَانُهُ.

٥ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وحفص، ويَعْقُوبُ: **[لَهُم عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ]** برفع «أليمٌ» علىٰ أَنَّهُ صِفَةٌ لـ«عَذَابٌ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ]** بجرّ «أليمٍ» علىٰ أنه صِفَةٌ لـ«رِجْزٍ».
ومؤدّىٰ القراءتين واحد، وهما من التَّفَنُّنِ في حركة الإعراب.

٦ ـ • قرأ قُنْبل، ورُويس: **[إِلَىٰ سِرَاطٍ]** بالسّين. وقرأها خَلَفٌ عَنْ حمزة بإشمام الصاد زاياً. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾** بالصّاد الخالِصَة.

٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهُمُ الأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ]**.
وقرأها أبو عمرو، ويَعقوب: **[إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمِ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿إِن نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾** بيْنَ الْحَدِيث بضمير الغائب، والحديث بضمير المتكلّم العظيم تفنُّن في التعبير.

٩ ـ • قرأ حفصٌ: **﴿كِسَفاً﴾**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[كِسْفاً]** وهُمَا لُغَتان.

دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ
﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي
بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا
شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ
بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ
﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ
كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ
عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ
مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ

---

١٢ ـ • قرأ شعبة: **[الرِّيحُ]** بالرفع، والإفراد.
وقرأها أبو جعفر: **[الرِّيَاحَ]** بالجمع والنَّصب.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**الرِّيحَ**﴾ بالإفراد والنصب.
والمؤدّىٰ واحد.

١٣ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو: **[كَالْجَوَابِي]** بإثبات الياء في الوصل.
وكذلك قرأها ابنُ كثير، ويَعْقُوب، في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**كَالْجَوَابِ**﴾ بحذف الياء في الوصل والوقف.

١٣ ـ • أسكن ياء المتكلم في: **[عِبَادِي الشَّكُورُ]** حمزة وصلاً ووقفاً.
وفتحها باقي القراء العشرة وَصْلاً وأسْكَنُوهَا وقفاً.

١٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[مِنْسَاتَهُ]** بإبدال الهمزة ألفاً ليّنة.
وقرأها ابْنُ ذكْوان: **[مِنسَأْتَهُ]** بِهَمْزَةٍ سَاكنة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**مِنسَأَتَهُ**﴾ بهمزةٍ مَفتوحة.
ووقف حمزة بالتسهيل فقط.
وهـٰذه القراءات لَهَا وجوه في نطق الكلمة. **المنسأة:** الْعَصَا.

١٤ ـ • قرأ رُوَيْس: **[تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ]**: أي: كُشف للناس أنّ الجنّ لَا يَعْلَمُونَ الغيب.
وقرأها باقي القراء الْعَشَرَةِ: ﴿**تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ**﴾ أي: أنَّهُمْ لو كانوا يَعْلَمُون الغيب=

أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿١٤﴾
لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ
كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ
﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ
ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلۡنَا
بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا

= لَعَلِمُوا أَنَّ سُلَيْمَانَ كانَ مَيّتاً طوال المدّة الَّتِي كان فيها مُتَوكّئاً علىٰ العصا قبل أن تأكلها الأرضة فتنكسر، ولما لَبِثُوا في الْعَذَابِ المهين.

١٥ ـ • قرأ البزّي، وأبو عمرو: [لِسَبَأَ] جرّاً بالفتحة علىٰ أنه ممنوع من الصرف.
وقَرَأَهَا قنبل: [لِسَبَأْ] بإِسْكَانِ الهمْزَة، حكايَةً للنطق الدارج.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿لِسَبَإٍ﴾ بالجرّ والتنوين علىٰ أنّه مَصْرُوف.

١٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ بالإفراد وفَتْحِ الكاف.
وقرأها الكِسَائي، وخلف: [مَسْكِنِهِمْ] بالإفراد وكَسْرِ الكاف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [مَسَاكِنِهِم] بالجمع، إذ كَانَتْ لهم مَساكِنْ مُتَعَدِّدَةٌ في قُرَىٰ، وعليه يُحْمَلُ الإفراد، إذ هو مضاف إلىٰ ضميرهم.

١٦ ـ • قرأ نَافع، وابن كثير: [أُكْلٍ خَمْطٍ] بإسْكان الكاف، وجرّ اللام مع التنوين.
وقرأها أبو عمرو، ويعقوب: [أُكُلِ خَمْطٍ] بضم الكاف وجَرّ اللّام دون تنوين، وهو علىٰ الإضافة.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بضم الكاف وجرّ اللّام مع التنوين.
والمؤدّىٰ في القراءات واحد.

١٧ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، وشعبة، وأبو جعفر: [وَهَلْ يُجَازَىٰ إِلَّا الكَفُورُ].
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ
بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ
مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ وَلَقَدۡ
صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ
مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ قُلِ
ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم
مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ

---

١٩ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وهشام: [رَبَّنَا بَعِّدْ].
وقرأها يَعْقوب: [رَبُّنَا بَاعَدَ] وهـٰذه القراءة دلَّتْ علىٰ أنّ الله استجابَ دُعَاءَهم.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ﴾. بعِّدْ، وبَاعِدْ، لغتان.

٢٠ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿صَدَّقَ﴾ بِتَشْدِيد الدّال.
وقرأها باقي القراء العشرة: [صَدَقَ] بفتح الدال دُون تشديد.

٢٢ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [قُلِ ادْعُوا] بِكَسْرِ اللام.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قُلُ ادْعُوا] بضم اللّام مَراعاةً لضم العين.

٢٢ ـ • قرأ يعقُوب: [فِيهُمَا] بضم الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فِيهِمَا﴾ بكَسْر الهاء. وهما لغتان.

٢٣ ـ • قرأ أبو عمرو، وحَمْزَة، والكسائي، وخلف: [أُذِنَ لَهُ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِله.
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَذِنَ لَه] بالبناء للمعلوم، أي: أَذِنَ اللهُ له.
قراءة «أُذِنَ لَهُ» هي علىٰ مَعْنَىٰ: أُذِنَ لَهُ من اللهِ عزّ وجلّ.
فمؤدّىٰ القراءتين واحد.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ
وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣ ۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ
مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا
تَعۡمَلُونَ ٢٥ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ
ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ
كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا
كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعۡلَمُونَ ٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ
وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ
عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ
إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ

---

٢٣ ـ ● قرأ ابن عامر، ويعقوب: [فَزَّعَ] بالبناء للمعلوم، والفاعل هو الله عزّ وجلّ.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فُزِّعَ﴾ بالبناء لما لم يُسَمَّ فَاعِلِهِ. وهي علىٰ معنىٰ:
فَزَّعَ اللهُ عزّ وجلّ.
فمؤدّىٰ القراءتين واحد.

ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ
وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا
ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ
إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا
وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن
يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ
وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ
ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي
ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ
مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ
وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ

---

٣٧ - • قرأ رُوَيس: **[جَزاءً الضِّعْفُ]** مع كَسْرِ التنوين في الوصل لالْتِقاءِ السَّاكنين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾** بالرَّفع والإضافة.

٣٧ - • قرأ حمزة: **[فِي الْغُرْفَةِ]** بالإفراد.
وقرأها بَاقي القراء العشرة: **﴿فِي الْغُرُفَاتِ﴾** بالجمع.
والمؤدَّىٰ واحِد لأنّ المراد بالغرفة الجنس.

٣٨ - • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو: **[مُعَجِّزِينَ]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿مُعَاجِزِينَ﴾**.

٤٠ - • قرأ حفص، ويعقوب: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ﴾**: بياء المضارعة
في الفعلين.

=

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ
وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ
﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ
ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ
﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ
فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم
بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا
بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَيَوْمَ **نَحْشُرُهُم جميعاً ثم نَقُولُ**] بضمير المتكلّم العظيم.

٤٥ ـ ● قرأ يَعْقُوب: [**نَكِيرِي**] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.

وكذلِكَ قرأها وَرْش في الوصل فقط.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿**نَكِيرِ**﴾ بحذف ياء المتكلم لفظاً وهي مقدَّرة ذهْناً.

٤٦ ـ ● قرأ رُوَيس في الوصل: [**ثُمَّ تَّفكَّرُوا**].

وقرأها باقي القراء العشرة في الوصل والوقف ﴿**ثُمَّ تتفكَّرُوا**﴾.

٤٧ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو، وآبن عامر، وحفص، وأبُو جَعْفَر: ﴿**إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا**﴾=

عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ
عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ
﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا
يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا
فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ
وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا
يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ
مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾

= بفتح ياء المتكلم. وأسْكَنَها باقي القراء العشرة.

٤٨ ـ • قرأ شعبة، وحمزة: [**الغِيُوبِ**] بكَسْر الغين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**الْغُيُوبِ**﴾ بِضَمّ الْغَيْنِ.
القراءتان لُغَتانِ عَرَبيتان للكلمة.

٥٠ ـ • قَرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ﴿**رَبِّيَ إِنَّهُ**﴾ بفتح ياء المتكلم.
وقَرَأها باقي القرّاء العشرة: بإسْكان ياء التكلم.

٥٢ ـ • قرأ أبو عمرو، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [**التَّنَآؤُشُ**] بالهمزة بَعْدَ الألف.
وقَرَأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**التَّنَاوُشُ**﴾ بالواو بعد الألف.
ويقف حمزة بالتسهيل مع المدّ والقصر.

٥٤ ـ • قرأ ابْن عامر، والكِسَائي، ورُوَيْس: بإشْمَام ضَمِّ الحاء من: ﴿وَحِيلَ﴾ الكَسْر.
وقَرَأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَحِيلَ﴾ بالكَسْرَة الخالِصَة.

(٢)
موضوع سُورَة «سَبأ»

ظهَرَ لي أنَّ موضوعَ سُورَةِ «سَبأ» يَدُور حَوْلَ مُتابَعةِ مُعالَجَةِ فِئةٍ مِنَ المشركين المعانِدِين، الّذِين لَمْ يَصِلُوا إلَىٰ دَرَكةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها من اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيق إرادَاتِهِم الحرَّة، تُجاهَ مَواقِفِهِم الَّتي كَانُوا عَلَيْها إبَّانَ نُزُولِ هٰذِهِ السُّورَة، والأقوالِ المكَرَّرَةِ والمتَجدِّدَة الَّتي كانُوا يَقُولُونَها في هٰذِهِ المرحَلَةِ، بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ، وحَدِيثِهِ عَنِ الْبَعْثِ وَيَوْم الدين، وبِشَأْنِ إصْرارِهِمْ علَىٰ عِبادَةِ آلِهتِهِمْ، مِنْ دُونِ الله، مُتَذَرِّعِينَ بأنَّها تَنْفَعُهُمْ أَوْ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهم، وَبِشَأْنِ تَرْدِيدِهم مقُولَتَهُمْ للرَّسُول ﷺ: متَّىٰ يَكُون تَحْقِيقُ مَا أَنْذَرْتَنَا بِهِ مِنْ عَذَابِ رَبّك، وبِشَأْنِ إعْلَانِهِم الصَّرِيح بأَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا بهٰذا القرآن وَلَا بالكُتُبِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلىٰ الرُّسُلِ السَّابقين، وبِشَأْنِ اعْتِزَازِهِمْ بأمْوَالِهِمْ وَبِمَا أُتْرِفُوا فِيه، إذْ هُمْ مُتَفَوِّقُونَ بِهِ عَلىٰ الَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعُوا الرَّسُول.

واشْتَمَلَتْ مُعَالَجَتُهُمْ في السُّورَةِ علىٰ عِدَّةِ عناصِرَ عِلَاجيّة، أَهَمُّها مَا يلي:

(١) الإقناع الفكريُّ ببيَانَاتٍ مُلَائمات لِمواقِفِهِمْ.

(٢) تَرغيب الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ بِمَغْفِرَةٍ ورزقٍ كريمٍ يَوْمَ الدّين.

(٣) مجادَلَتُهُمْ والتَّوجيهُ لمجادَلَتهمْ بالَّتِي هي أَحْسَنُ، ولنُصْحِهِمْ بأنْ يَتَأمَّلُوا وَيَتفَكَّرُوا مَثْنَىٰ وفُرَادىٰ، مُتَجرِّدِينَ مِنْ سَوابقِ المؤثّرات، ومِنْ هَيْمَنَةِ جَماعَاتِهِمْ الضَاغِطَةِ عليهم، لِيَكُونَ تَفْكِيرهُمْ أَكْثَر صِحَّةً وسَلَامَة، وأَرْجَىٰ لإدْرَاك الْحقّ.

(٤) عَرْضُ أَمْثِلَةٍ مِنْ قِصَصِ الأولِينَ تَكْشِفُ سُنَّةَ اللهِ في عباده، رغبةً في أَنْ يَتَّعِظُوا بها.

(٥) الترهيب من عذابِ اللهِ المعَجَّلِ والمؤجّلِ، مع تقديم بَعْضِ مَشَاهِدَ مِنْ مَشَاهِدِ يوم الدّين.

وقَدْ جاءت هـٰذهِ المعالجات بأسْلُوبٍ تَرَاوُحيٍّ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ، والأخْذِ مِنْها عِنْدَ كُلِّ مِفْصَلٍ مَا يُلَائِمه، لَا بأسْلُوبِ التزامِ البيانِ حول عُنْصُرٍ واحِدِ حتَّىٰ آخِرِ ما يُرَادُ بَيَانُهُ مِنْهُ في السورة، مع التَّنْويع في الأسَاليب.

(٣)

دُروس سورة «سبأ»

هـٰذه السورةُ تشتمل علىٰ (١١) درساً فيما بَدَا لِي بَعْدَ تَأَمُّلٍ وإعَادَةِ نظر وتَفَكّر:

الدرس الأول: الآيتان (١) و(٢).

وفي هـٰذا الدَّرْسِ بيان أنَّ الحمْدَ كُلَّهُ لله في الدُّنيا، وأنَّهُ هُو الّذِي لَهُ مِلْكُ كلّ ما في السَّمَاواتِ والأرض مِنْ ذي حياةٍ وغير ذي حياة.

وبيانُ أنَّ لَهُ وحْدَهُ الحمْدَ كُلَّهُ في الآخِرَة، وأنّه هو الحكيم الخبير.

وبيان إحَاطَةِ عِلْمِهِ بِكُلِّ حَرَكَاتِ المَوْجُوداتِ الكُبْرىٰ والصُّغْرَىٰ، في الأرضِ وفي السَّمَاء.

وهـٰذا الدَّرْس بمَثَابَةِ مُقَدِّمَةٍ مِنْ عَنَاصِرِ القَاعِدَةِ الإيمانية، للدُّخول في أصْلِ الموضوع الّذي تَدُور حَوْلَهُ آياتُ السُّورَةِ، والذي سبَقَ بيانُهُ في الفقرة (٢).

الدرس الثاني: الآيات من (٣ ـ ٩).

وفيه عَرْضُ مقالَتَيْن من مقالَاتِ الّذِينَ كَفَرُوا إبَّانَ تَنْزِيلِ سورة «سبأ».

المقالة الأولىٰ: قولُهُمْ: لَا تَأْتينا السَّاعَةُ، وهي ساعة البعث.

المقالة الثانية: شتيمتهم للرَّسُولِ محمّد ﷺ أَمَامَ جماهيرهم للصّدِّ

عن الإيمان بهِ، فزعُموا أنَّهُ كاذِبٌ يَفْتَرِي علىٰ الله، أو مجنون، فَهُو يقولُ كَلاماً عجيباً لَا يُسْتَسَاغ عَقْلاً، فيزْعُمُ أَنَّ النَّاس إذا ماتُوا وتفرَّقَتْ ذرَّات أجْسَادِهِمْ في الأرض، سَوْفَ يَخلقُهُمُ اللهُ خلْقاً جَدِيداً، ويُحْيِيهم حياةً أُخْرَىٰ ليحَاسِبَهُمْ، ولِيُجَازِيَهُمْ علىٰ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ فِي الحياة الأُولَىٰ.

وجاء فيه عَقب بيانِ كُلِّ مَقَالَةٍ مِنْهُما مَا يُلائِمُها مِنْ عِلَاج.

الدَّرْس الثالث: الآيات من (١٠ ـ ١٤).

وفيه عرضُ لَقَطاتٍ مُوجَزَاتٍ مِنْ قِصَّةِ دَاوُدَ وابْنِهِ سُلَيْمَانَ عليهما السَّلَامُ، لإشعار الرَّسُول ﷺ والَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، أَنَّ من الْيَسِيرِ عَلىٰ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ أَنْ يَهَبَ رَسُولَهُ محمّداً مِثْلَمَا وَهَبَ دَاود وسُلَيْمَانَ وأفْضَل، وإِذْ لَمْ يَفْعَلْ فاعْلَمُوا أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ في هٰذه الرِّسَالةِ الْخَاتِمَةِ، أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ المبْعُوثُ لِتبلِيغها والقيامِ بوظائِفِ رِسَالَتِهِ فيها كَمَا اخْتَارَ اللهُ لَهُ وهُوَ وَاقِعُهُ الَّذِي هُوَ عَلَيْه.

وهٰذا المَعْنَىٰ يَفْهَمُه فُطَنَاءُ المشركين أيضاً.

الدَّرس الرابع: الآيات من (١٥ ـ ٢١).

وفيه عَرْضُ مُوجزٍ عَنْ قوم «سَبأ» وهم سامِيون، من الْعَرَبِ العاربة، ولَيْسُوا مِنْ سَلَالَة «إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام». سُمُّوا باسْمِ جَدِّهِمْ «سَبَأ» وإليه تَنْتَسِبُ قَبَائِلُ الْيَمَن.

وفي هٰذا المُوجزِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ سَلَبَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ ورِزْقٍ وافر، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ بأنْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِم، إذْ شَقَّ لَهُمُ الرَّدْمَ الَّذِي جَعَلُوهُ سَدّاً في مَأْرِب، يَحْجُزُ وَرَاءَه ماءً كثيراً، يَسْقُون مِنْهُ مَزَارِعَهُمْ وبَسَاتينهم، فانْدَفَعَ الماء سَيْلاً مُدَمّراً، فأتْلَفَ مزَارِعَهُم وَأَغْرَقَ بُيُوتهم، فَتَفَرَّقُوا في الْبِلاد، وَمَزَّقَهُم اللهُ أشْتَاتاً.

وفي هٰذا العَرْضِ إنْذارٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ بأنَّ اللهَ قَدْ يَجْزِيهِمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِسَلْبِهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَمْوَالٍ يُفَاخِرُونَ بها.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٢ ـ ٢٧).

وفيه تَعْلِيمُ حِوَارٍ إقْناعِيٍّ وجَدَلِيٍّ للرَّسُولِ ولِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أمَّتِهِ، يُوجَّهُ للمشركين بِشَأْنِ آلِهَتِهِمْ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُون اللهِ عزّ وجلّ.

الدرس السادس: الآيات من (٢٨ ـ ٣٠).

وفيه خِطَابٌ للرَّسُولِ ﷺ بأنَّهُ رسُولٌ للنَّاسِ كَافَّةً، بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافِرين.

وفيه عَرْضُ مَقُولَةِ الْكَافِرِينَ الّتي يُكَرِّرُونها سَائِلين: مَتىٰ يكُونُ قيام السَّاعَةِ، ومَتىٰ يَنْزِلُ بِهِمْ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ محمّد من عذابٍ مُعَجّلٍ، مع بيان الرَّدِّ الذي يَنْبَغِي أنْ يُرَدَّ بِهِ عَلَىٰ مُماحَكَتِهِمُ الجدليَّةِ التي يُكَرِّرُونها.

الدرس السابع: الآيات من (٣١ ـ ٣٣).

وفيه بَيَانُ مقُولَةِ الَّذِينَ كَفرُوا الْعِنادِيَّةِ التَيْئِيسيَّة مِنْ إيمانهم: «لَا نُؤْمِنُ بهٰذا القرآنِ وَلَا بالكُتُبِ السَّابقة له».

وجاءتْ مُعَالَجَتُهُمْ بِشَأْنِ هٰذِهِ المقولَةِ بعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إذْ يَكُونُون مَوْقُوفِين عِنْدَ رَبِّهِمْ يُحَاسِبُهم مع بَيَانِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الأَتْبَاعِ وَبيْنَ الّذِينَ كَانُوا كُبَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيا مِنْ تَخاصُمٍ، إذْ كانُوا يأْمُرُونَهُمْ بِأَنْ يَكْفُرُوا بالله، وبِأَنْ يَجْعَلُوا لَهُ شُرَكاءَ أَنْداداً.

الدرس الثامن: الآيات من (٣٤ ـ ٣٩).

وفيه إشعارٌ بأنَّ حَالَ مُتْرَفي قُرَيْشٍ، الّذِينَ كَفَروا بِرِسَالَةِ رَسُولِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ مُتَفَاخِرِين ومُعْتَزِّينَ بأمْوالهم وأولادهم، مُشابهٌ لأحْوَالِ مُتْرَفي أهْلِ الْقُرَىٰ الذين كفرُوا مِنْ قَبْلِهم، إذْ قَالَوُا لمّا أعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بِمَا أُرسِلَ

بِهِ رُسُلُ رَبّهم: نَحْنُ أَكْثَرُ مِن المؤمنينَ أمْوالاً وَأَولاداً، وَإِذْ قَدْ فَضَّلَنَا اللهُ بهٰذا فَمَا نَحْنُ بِمُعَذّبين، إِنْ صَحَّ أَنَّهُ ستَكُونُ حَيَاةٌ أُخْرَىٰ بَعْدَ هٰذِهِ الحياة.

وفيه تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ مُحمّد ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أمَّتِهِ، مفاتيحَ الإِقْنَاعِ الّذِي يَكْشِفُ لَهُمْ خَطَأَهُمْ في تَصَوُّرِهِم، وهو أيْضاً بَيَانٌ مِنَ اللهِ لهم. وفيه أيضاً تَعْلِيمُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ الرَّسُولُ والدَّاعي إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، لِلْمُسْلِمينَ المُؤْمِنِين، الّذِينَ جعَلَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ مُتَفَاضِلِينَ في الأَرْزَاقِ.

الدرس التاسع: الآيات من (٤٠ ـ ٤٢).

وفيه بيانٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، يُقَدِّمُ فِيهِ للمشركين الّذِينَ يتوهّمُونَ أنَّ قُرنَاءَهُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الجنّ مَلائكة، مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ يوم القيامة، يَسْأَلُ الله فِيهِ المَلَائِكَةَ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾؟ فيتبَرَّؤُون مِنْهُمْ ويَقُولُونَ: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾.

وفي آخر هٰذا المشهد بَيَانُ ما يقولُهُ اللهُ لِلْمُشْرِكينَ وآلِهَتِهِمْ، ومَا يَقُولُهُ للذّينَ ظَلَمُوا إذْ يقول لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

ولا يَخْفَىٰ مَا فِي هٰذا الْعَرْضِ مِنْ عِلَاجٍ فَعَّالٍ مُؤَثِّرٍ في قُلُوب الّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتِعدَادٌ مَا للاستجابة لِلْحَقّ، لم تُطْمَسْ بصائرهم باتباعهم أهواءهم وشهواتهم وَمَطالِبِهِمْ مِن الحياة الدُّنيا العَاجلة.

الدرس العاشر: الآيات من (٤٣ ـ ٥٠).

وفيه بَيانُ مَقَالَةِ الّذِينَ كَفَرُوا بشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ إِذَا تلَىٰ عَلَيْهِمْ آياتٍ بَيّنَاتٍ من القرآن المجيد، إذْ يتهمُونَهُ بأنَّ غَرَضَهُ انْتزاعُ الزّعَامَةِ، بِصَدِّ النَّاسِ عمّا كان يَعْبُدُ آباؤهم، وبأنَّه يَفْتَري القرآنَ من عِنْدَه، ويَنْسُبُهُ إلىٰ الله، وَبأنَّ مَا فِي القرآن مِنْ تَأْثِير عَلَىٰ سَامِعِيه هُوَ مِنْ قَبِيل السِّحر. وَيَزْعُمُون

أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ مَا آتاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها، وما أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ مِنْ نَذِير، جَاحِدِينَ رِسَالَة إِسْمَاعِيلَ وإبراهيمَ عَلَيْهما السَّلام، وما أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهما مِن تعليماتٍ دِينيَّة، وجاحِدِينَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيْلَ، وقَدْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُلّ صَحِيحٍ بَلَغَهُمْ عَنْ أيّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ الله.

وفيه تَعْلِيقٌ رَبَّانِيٌّ عَلَىٰ هٰذا الموقف مِنْ مَواقِفِهم، وتَعْلِيمٌ لِلرَّسُول ﷺ مَا يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَهُ لهم مُعَالَجَةً لهٰذا الموقف.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٥١ ـ ٥٤) آخر السورة.

وفيه بيانُ مَشْهَدٍ مِن مَشَاهد الكافِرِينَ يَوْم الْقِيامَةِ، إِذْ يَقُومُونَ مِنْ أَجْدَاثِهِمْ فَزِعِينَ مِمّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عَذَابِ رَبّهم، ويَجِدُونَ أنهم يُؤْخَذُونَ مِنْ أَمْكِنَةٍ قَرِيبة مِنْهُمْ، تَأْخُذُهُمُ الْمَلائِكَةُ المحيطَةُ بهم إِلَىٰ حَيْثُ تُقَامُ لَهُمْ مُحْكَمَةُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة، ويُحَاوِلُونَ أَنْ يَتَخَلَّصُوا بِإِعْلَانِ إِيمانِهِمْ، لٰكِنَّهُمْ عاجزون عَنْ أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ شيءٍ يحقّقُ لَهُمْ نَجاتَهُمْ، وَيَكُونُ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ إبلٍ ظِمَاءٍ تَمُدُّ أَعْنَاقَها إِلَىٰ مَاءٍ يَبْعدُ عَنْهَا مِقْدَارَ مَدِّ بَصَرِها، ويُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، ثُمَّ يَلْقَوْنَ عَذَابهم الَّذِي يَقْضِي بِهِ عَلَيْهِم رَبُّهُم علىٰ مَا سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِهِ في رِحْلَةِ امتحانِهِم في الحياة الدُّنيا.

* * *

(٤)

التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (سَبأ) الآيتان الأولىٰ والثانية

قال اللهُ عَزَّ وجلّ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِى ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ① يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ②﴾.

تمهيد:

هاتان الآيتان هُمَا بمَثابَةِ مُقَدّمةٍ مِنْ عَناصِرِ الْقَاعِدَة الإيمانِيَّةِ، للدُّخُول في أَصْلِ الْمَوْضُوعِ الّذِي تَدُور عَلَيْهِ آيات السورة، وهو مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ فِئَةٍ مِنَ المشركين تُجاهَ مَوَاقِفِهم الّتي كَانُوا عَلَيْهَا إبَّان نُزُول السُّورَة، والأَقْوَالِ المكَرَّرَةِ والمتجدِّدَةِ الّتي كانُوا يَقُولُونَها فِي هٰذه المرحَلَةِ، ممَّا يَتَنَاقَضُ مَعَ أصُولِ الدِّينِ وحِكْمَةِ اللهِ في تَصَارِيفه.

التدبّر التحليلي:

- قول اللهِ تعالَىٰ:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ①﴾:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أَيْ: كُلُّ الثَّنَاءِ الَّذي يُدْرِكُهُ الْعِلْمُ الشّامِلُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شيءٍ، هُوَ ممَّا اخْتَصَّتْ بِهِ ذَاتُ اللهِ وَصِفَاتُه، وَهُوَ يَشْمَلُ الثَّنَاءَ علىٰ اتِّصَافِهِ بِكُلّ صِفَاتِ الكمالِ الَّتي تَلِيقُ بِذَاتِهِ الْعَلِيَّة، وَتَنَزُّهَهُ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النَّقْصِ الّتِي لَا تَلِيقُ به، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

«ال» في لفظ «الحمد» للاستِغْراقِ، و«اللّام» في «لله» للاختصاص.

- ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أَي: الَّذي كُلُّ مَا فِي السَّمَاواتِ وكُلُّ ما فِي الأَرْضِ مِنْ ذَواتٍ وَقُوىً وصِفَاتٍ، أَحْيَاءٍ وغَيْرِ أَحْيَاءٍ، هِيَ مِلْكُهُ، لأَنَّها مَخْلُوقَةٌ لَهُ خَلَقَهَا بأمرِ التَّكْوين، فَلَا أَحَدَ يُشَارِكُهُ فِي مِلْكِ شَيْءٍ مِنْها، إِذْ لَمْ يُشَارِكْهُ في خَلْق شيءٍ مِنْهَا أحدٌ، وَكُلُّ مَا يُتَصَوَّرُ أَنَّهُ مُشَارِكٌ للهِ في شيءٍ من الوُجُودِ كُلِّه هو خَلْقُهُ، وَهُوَ مِلْكُهُ.

أَطْلِقَ لفظ «مَا» عَلَىٰ غير ذَوِي الْعِلْمِ وَعَلَىٰ ذَوِي العلم، مِنْ بَاب التَّغلِيب، لأَنَّ المَخْلُوقاتِ الّتِي لَمْ تُوهَبْ أَدوات الْعِلْمِ والْمَعْرِفَة أَكْثَرُ في الوجود مِنَ الّتي وُهِبَتْ أَدَوَاتِ العلم والمعرفة.

السَّماوات: كُلُّ الْكَائِنَاتِ الْمَوْجُودَة في الكَون، حَوْل الأرضِ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ عزّ وجلّ بِخَصَائِصِها لِسَكَنِ الإِنْسِ والجنّ.

- ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: دَلَّ هـٰذا البيانُ علىٰ أنَّ المرادَ بعبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في صَدْرِ الآية هو «الْحَمْدُ للهِ في الأُولىٰ الَّذِي لَهُ فيها كُلُّ مَا في السَّمَاوَاتِ والأرْض». وهُوَ يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا سَيَكُونَ فِي الآخِرَةِ مِنْ شيءٍ هُوَ خَلْقُهُ وَهُوَ مِلْكُهُ أيضاً، فالْحَمْدُ في الآخِرَةِ كُلُّهُ لَهُ أيضاً.

- ﴿..وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ①﴾: الحكِيمُ الخبيرُ اسْمَانِ جليلانِ عَظِيمانِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

الحكيم: هُو الذي يضَعُ الأَشياء في مَواضِعها الملائمة لها، ويخْتَارُ أفْضَلَ الأَشياء وَأتْقَنَهَا وَأَحْسَنَها فِي الأُمُور المخْتَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النتائج.

وهو من الصِّيَغ الدالَّةِ علَىٰ الكمالِ في الحِكْمَة، ومن المَسلّم به أَنَّ الكمالَ بالنسبة إلىٰ اللهِ عزّ وجلّ لا تُحيطُ بِهِ تَصَوُّرَاتُ المخْلُوقَاتِ، إِذْ هي تُدْرِكُ منهُ علَىٰ مَقَادِيرِ إِدْرَاكَاتِها، وتُطْلِقُ الباقي في أبْعَادِ عَالَمِ الغيب.

الخبير: العالم بالشَّيْءِ أو بالأَمْرِ عَنْ تَجْربَةٍ ومُمَارَسَةٍ، ومِنَ المعلوم أنَّ اللهَ عزّ وجلّ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ حَتَّىٰ أصْغَرِ صَغِيرٍ فيهِ، فَلَهُ الْخِبْرَةُ التَّامَّةُ بِكُلِّ شيء، إذْ هُوَ مَعْلُومٌ لَهُ، وخَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وصُنْعٌ من صَنِيعِهِ.

ومن حِكْمَته جلَّ جلالُهُ أَنَّهُ سَيُجَازِي العصاةَ بِعَدْلِهِ، ويُثيب المطيعينَ بفضله، وهو خبير بِأَعْمَالِ عباده.

■ قول اللهِ تَعَالىٰ:

- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ②﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ التَّعْبِيرِ عَنْ شُمُولِ عِلْمِهِ وإحَاطَتِهِ بِكُلِ كَبِيرٍ وصَغِيرٍ في الوُجُودِ حتَّىٰ أصْغَرِ أجْزاءِ الذَّرَّةِ الّذِي لا تُدْرِكُ الْخَلَائِقُ حُدودَه، لِبُلُوغِهِ الغايَةَ في الصِّغر.

- ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يَشْمَلُ الْمِياهَ، والأَحْيَاءَ الكُبْرَىٰ والصُّغرَىٰ حتَّىٰ «البكْتِرْيَاتِ» وَمَا هُو أصْغَرُ مِنها، وَيَشْمَلُ الأَشِعَّةَ والحرارة وأجزاءَهما حَتَّىٰ أَصْغَرِ جُزْءٍ، ويَشْمَلُ الْقُوىٰ المخْتَلِفة، ومِنْهَا الجاذِبِيَّة حَتَّىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ مِنْها، وَإذا كَانَ يَعْلَمُ الْوَالِجَ وَحركَتَهُ فَهُو يَعْلَمُ المولُوجَ فِيهِ بَدَاهَةً.

- ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: أي: ومَا يَخرجُ مِنَ الأَرْضِ، وهُو يَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ يَخْرُجُ مِنَ الأَرْضِ، وَمِنْهُ النباتَاتُ علىٰ اختلاف أفرادِها، وَأجناسِها وأنواعها، وأصْنافها، ومقادِيرها، وَمِنْهُ يَنَابِيعُ المياه حتَّىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ من الماءِ، ومِنْهُ المعادِنُ والصُّخُورُ والأَتْربَةُ والرِّمال، وَمِنْهُ الأَحْيَاءُ مَهْمَا صَغُرَتْ، ومِنْهُ الْحَرارَةُ وَقُوىٰ الجَاذِبِيَّةُ، إلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ تَكْتَشِفْهُ الْعُلُومُ الإنْسَانِيَّةُ بَعْدُ.

- ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: وَيَعْلَمُ جَلَّ جَلالُهُ كُلَّ مَا يَنْزِلُ مِن السَّمَاءِ مِنْ أشياءَ وأحياء وَقُوىً، حَتَّىٰ أصْغَرِ صَغِير يَنْزِلُ منها، وَهُو يَشْمَلُ الأَمْطَارَ، والشُّهُبَ، وأشِعَّةَ الشَّمْسِ، والأَنْوَار، وَيَشْمَلُ الجاذِبيات، وغَيْرَها مِمَّا لَمْ يَتوصَّلْ إلَيْهِ بَعْدُ عِلْمُ النَّاس.

- ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾: أي: وَيَعْلَمُ كُلَّ مَا يَعْرُج في السَّمَاءِ صَاعِداً مِن الأَرْضِ، أَوْ مِنْ إحْدَىٰ السَّمَاوَاتِ إلىٰ مَا فَوْقها، حَتَّىٰ آخرِ بُعْدٍ مِنْ أَبْعَادِ السَّمَاوَات الَّتِي يُقدِّرُ الْفَلَكِيُّون بَعْضَ أبعادها بِمِلْيَارَاتِ السَّنوات الضَّوْئيّة.

- ﴿.. وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾: خَتَمَ اللهُ هـٰذِهِ الآيَة بـاسْمَيْنِ عَظِيمَيْن جَلِيلَيْن مِنْ أَسْمَائِهِ الحُسْنَى، فِيهِمَا إطْمَاعٌ للمُذْنِبينَ والعُصاةِ مَهْمَا بَلَغَتْ مَعَاصِيهِمْ أَنْ يَسْتَغْفِرُوهُ ويَتُوبُوا إليه، حتَّىٰ يَغْفِرَ لَهُمْ، وَيَتُوبَ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِهِ وإِحْسَانه وَعَظِيم رَحْمَتِه.

• ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، وهو يَدُلُّ علىٰ رَحْمَةِ اللهِ العظيمة الواسِعَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

لفظ «الرَّحيم» صِفَةٌ مُشبَّهَةٌ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الرَّحْمَةِ، وهو مبني عَلَىٰ وَزْنِ «فَعِيل» الّذِي هو مِنْ صِيَغِ المبالغة.

والرَّحْمَةُ بالنسبة إلىٰ اللهِ عزّ وجلّ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّة عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، ومِنْ آثارِهَا الإنْعَامُ والإكْرَام، والْعَفْوُ والْغُفْرَان.

• ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: اسْمُ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ الحسنىٰ، وهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَسْتُرُ ذُنُوبَ عِبَادِهِ إذا اسْتَغْفَرُوا وَتَابُوا إلَيْهِ، وَيَلْزَمُ مِنْ سَتْرِهَا أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ مُحَاسَبَتِهِمْ ومُؤَاخَذَتِهِمْ عليها.

مَعْنَىٰ الْغَفْرِ في اللُّغَةِ السَّتْرُ، يُقَالُ لغةً: «غَفَرَ، يَغْفِرُ، غَفْراً، وَغُفْرَاناً، ومَغْفِرَةً، الشَّيْءَ» أي: سَتَرَهُ.

وبهٰذا تَمَّ تَدبُّر الدَّرْس الأول من دُروس سورة (سبأ).

والحمد لله علىٰ معونته ومَدَدِه وتَوْفيقه وفتحه.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دروس سورة (سبأ)

الآيات من (٣ ـ ٩)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

القراءات:

(٣) ● قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جعفر، ورُويس: **[عَالِمُ الْغَيْبِ]** برَفع «عالم» علىٰ أنَّهُ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو.

وقرأها حمزة، والكسائي: **[عَلَّامِ الْغَيْبِ]** بصيغَةِ مُبالغةٍ لـ«عالم» مع الجرّ علىٰ أنه صفةٌ لـ«ربِّي».

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: **﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾** بجرِّ «عالم» علىٰ أنَّهُ صفة لـ«ربّي».

الرفع والجرّ وجهان عربيان جائزان، وفي صيغة «عَلَّام» توكيد الدَّلَالَةِ عَلَىٰ أنَّ عِلْمَ اللهِ بالغُ الغاية، إذْ هو يُحيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

(٣) ● قرأ الكِسَائي: **[لَا يَعْزِبُ]** بكَسْر الزاي.

وقرأها باقي القرَّاء العشرة: **﴿لَا يَعْزُبُ﴾** بضمّ الزّاي.

والقراءتان لغتان عَرَبيَّتان.

(٥) ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو: **[مُعَجِّزِينَ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿مُعَاجِزِينَ﴾**.

وبَيْنَ القِرَاءَتَيْنَ تكامُلٌ في أَداءِ المعنىٰ المراد «مُعَجِّز» أي: مُثَبِّط، ومُعَوّق. و«مُعَاجِزٌ» أي: مُفْلِتٌ هَارِبٌ لَا يُدْرَك.

(٥) • قرأ ابن كثير، وحفص، ويعقوب: **[لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيْمٌ]** برفع «أليم» علىٰ أنه صفةٌ لـ«عَذَابٌ».

وقرأها باقي القُرّاء العشرة: **[لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ]** بِجَرِّ «أليم» علىٰ أَنَّه صفة لـ«رِجْزٍ».

ومؤدّىٰ القراءتَيْن واحد، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في حَرَكَةِ الإعْرَاب.

(٦) • قرأ قُنْبل، ورُوَيس: **[إِلَىٰ سِرَاطِ]** بالسّين بَدَل الصاد. وقرأها خلف عَنْ حَمْزَة بإشْمَامِ الصّادِ زاياً. وقرأها بَاقي القرَّاءِ العشرة بالصَّادِ الخالِصَة: **﴿إِلَىٰ صِرَاطِ﴾**.

(٩) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلَفٌ: **[إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ]** بالياء في الأفعال الثلاثة، والضمير يعود علىٰ الله عزّ وجل.

وَقَرأهَا باقي الْقُرَّاءِ العشرة بِضَمِير المتكلّم العظيم، بالنُّون في الأفعال الثلاثة: **﴿إِن نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾** إلَّا أنَّ أبا عمْرو، ويعقوبَ يَكْسِرَان مِيمَ «بِهِمِ».

بَيْنَ الحديثِ بضَمِيرِ الغائب، والحديث بضمير المتكلم العظيم تَفَنُّنٌ في التعبير، مَعَ مَا في ضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم مِنْ تَرْبِيَةِ المهابَةِ في قُلُوبِ مَنْ تُؤَثِّرُ فيهمُ عَظَمَةُ المتحدّثِ وسُلْطَانُهُ وَقُدْرَتُهُ علىٰ مَا يَشاء.

(٩) • قرأ حَفْصٌ **[كِسَفاً]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[كِسْفاً]** والقراءتانِ لُغَتَان عَربيّتان.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدّرْسِ عَرْضُ مَقَالَتَيْنِ مِنْ مَقَالَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا إبَّان تنزيل هـٰذه السورة:

المقالة الأولىٰ: قَوْلُهُمْ: لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، وهِيَ سَاعَةُ البعث، وهٰذه مَقَالَةٌ ادِّعائِيَّةٌ غَيْرُ مُقْتَرِنَةٍ بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْها.

المقالة الثانية: شَتِيْمَةُ ذَوي المكانَةِ فيهم الرَّسُولَ ﷺ أمام جماهيرِهم للصَّدِّ عَنِ الإيمان به.

فزَعَمُوا أنَّهُ كاذِبٌ يَفْتَرِي علىٰ اللهِ، أو هو مجنون، إذْ هو يقول كلاماً عجيباً غرِيباً لَا يُسْتَسَاغ عَقْلاً، فَيَزْعُمُ أنَّ النَّاسَ إذَا مَاتُوا وتَفرَّقَتْ ذَرَّاتُ أجْسَادِهِمْ في الأَرْضِ، سَوْفَ يَخْلُقُهُمُ اللهُ خَلْقاً جَدِيداً، ويُحْيِيهِمْ حَيَاةً أُخْرَىٰ لِيُحَاسِبَهُمْ، ولِيُجَازِيَهُمْ عَلَىٰ مَا كَانُوا في الحياةِ الأُولَىٰ يَعْمَلُونَ.

وجاء في هـٰذا الدَّرْسِ عَقِبَ بَيانِ كُلِّ مَقَالَةٍ مِنْهما مَا يُلائِمُها مِنْ عِلَاج.

التدبّر التحليلي:

- قول الله تعالىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ... ۝٣﴾:

الْمُرَادُ بالسَّاعَةِ هُنَا السَّاعَةُ الَّتِي يَكُونُ فيها الْبَعْثُ لِيَوْمِ الدِّين، ومُلَاقَاةِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ويُلاحَظُ في هـٰذِهِ المقالَةِ أنَّها نَفْيٌ لِحَقِيقَةٍ جَاءَ بَيَانُها في كُلِّ رِسَالَاتِ اللهِ للنَّاسِ، ويَدُلُّ بُرْهَانُ الْعَقْلِ الَّذِي يَسْتَنِدُ إلىٰ حِكْمَةِ الْخَالِقِ، وتَنَزُّهِهِ عَنِ الْعَبَثِ، وقُدْرَتِهِ الَّتِي يَخْلُقُ بها مَا يَشَاءُ، وعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ، ومِنْهُ أعْمَالُ الْعِبَادِ الْمَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضع الامْتِحان.

ونفيُ الّذِين كَفَرُوا هُنَا لَا يَقْتَرِنُ بِدَلِيلٍ يُعْذَرُونَ به، بَلْ قَالُوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

مَا قِيمةُ النَّفْي الذي لَا دَلِيلَ يقْتَرِنُ به، تُجاهُ الإِثْبَاتِ الَّذِي يَقْتَرِنُ بِحجج تُرجِّحُهُ، بَلْ بِبراهِينَ تَجْعَلُهُ حَقّاً مَقْطُوعاً بِهِ، ولَا يَعْتَرِيهِ شَكٌّ ما؟!

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مُعَلِّماً مَا يَرُدُّ بِهِ علَىٰ نُفَاةِ السَّاعَةِ بغير دَليل:

● ﴿..قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾:

سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ الأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تُثْبِتُ الْبَعْثَ ويَوْمَ الدِّينِ، بَعْد ظُرُوف الحياة الدنيا كُلِّها، وتَرُدُّ علىٰ تَعَجُّب المنكرينَ، وعَلَىٰ شُبُهَاتِهِمْ بِشَأْنِ الْبَعْث، وقد جاء هٰذا في عِدَّةِ سُوَرٍ سَبَقَ تَدَبُّرُهَا.

وَفِي مُوَاجَهَةِ إِصْرَارِ المنْكِرِينَ علىٰ النَّفْي الْمُجَرَّدِ، اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ مُقَابَلَتَهُمْ بإسْقَاطِ مَقُولَتِهِمُ البَاطِلَةِ، وَتَأْكِيدِ ضِدِّها بِالْقَسَم بالرَّبِّ المَهيْمِنِ بصِفَات رُبِيَّتِهِ عَلَىٰ عِبادِه، فجاءَ في التَّعليم: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

﴿بَلَىٰ﴾: أَيْ: مَقُولَتُكُمْ كَاذِبَةٌ، مَرْفُوضَةٌ وسَاقِطَة، فَلَيْسَ الْحَقُّ والْوَاقِعُ مَا تَدَّعُون، بَل الْحَقُّ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ حَتْماً هُوَ نَقِيضُهُ، وَأُقْسِمُ لَكُمْ بِرَبّي الَّذي هُو رَبُّكُم وَربُّ كُلِّ شَيْءٍ في الْكَائِنَاتِ سِوَاه ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ سَاعَةُ الْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّين، الَّذِي سَوْفَ تُلَاقُونَ فِيهِ مُحَاسَبَتَكُمْ، وفَصْلَ قضاء اللهِ فِيكُمْ، وجزاءَكُم عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

وَلَا تَتَصَوَّرُوا أَنَّ أَعْمَالَكُمْ خَافِيَةٌ عَلَىٰ رَبِّكُمْ، بَلْ هِيَ مَعْلُومَة لَهُ صِغَارُهَا وَكِبَارُها، سِرُّهَا وَعَلَنُهَا، بَاطِنُها وَظَاهِرُها.

كَيْفَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَا كَسَبْتُمْ وَمَا تَكْسِبُونَ مِنْ أَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ في الجوارح، وَبَاطِنَةٍ في السَّرَائِرِ، وَهُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ كُلِّه لَا يَبْعُدُ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَاوَاتِ وَلَا في الأَرْض، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَرَّةٍ ولَا

أَكْبَرَ مِنْ ذَرَّةٍ، ولَا شيءَ مِنْ كُلِّ ذلك إلا هو مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ مَعَ عِلْمِ اللهِ الدَّائِمِ بِهِ.

● ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: أي: عَالِمِ كُلِّ مَا هُوَ غَيْبٌ بِالنِّسْبَةِ إلىٰ غَيْرِهِ، أَمَّا اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ شَهِيدٌ، عَلِيمٌ به عِلْمَ حُضُورٍ وشُهُودٍ، فَلَا شَيْء هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إلَيْه.

وفي القِرَاءَة الأخرىٰ: **[عَالِمُ الْغَيْب]** بالرَّفع.

● ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: أي: لَا يَبْعُدُ عَنْه، ولَا يَخْفَىٰ عَلَيْه.

● ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: مِثْقَالُ الشّيْءِ مِثْلُهُ في وَزْنِه. ومَهْمَا يَكُن المرادُ بالذَّرَّةِ فقد جَاءَ في التَّعْلِيم: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ فالأَصْغَرُ يَصِلُ إلَىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ غَيْرِ قَابلٍ لِلْقِسْمَةِ عَقْلاً، والأَكْبَرُ يَصِلُ إلى أَكْبَرِ كَائِنٍ فِي الكَوْن.

● ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: اسْتِثْنَاءٌ مِنْ مَطْوِيٍّ مَحْذُوفٍ من اللَّفظ يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ، والتَّقْدِيرُ الذي أَرَاهُ: ولَا شيءَ مِمَّا هُوَ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أو أَصْغَرُ مِنْها أَوْ أَكْبَرُ إلَّا هُو مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبِينٍ، هو وَاضِحٌ ظاهِرٌ، وَيُبَيِّنُ دَلَالَةَ مَا هُوَ مُدَوَّنٌ فِيهِ بَيَاناً وَاضِحاً.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً التَّعْلِيم الدَّعَوِيّ الجدليّ:

● ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: **[مُعَجِّزِينَ]**: أَيْ: وَبَعْدَ أَن تَرُدَّ أَيُّها الدَّاعِي إلَىٰ اللهِ عَلَىٰ الَّذِين قَالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ بِقَولِكَ لَهُم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبَعْدَ أَنْ تَصِفَ اللهَ عزّ وجلّ بأنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، أَقْنِعْهُمْ بإقناعٍ هَادِئ بأنَّ الْغَايَةَ مِنَ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ تَحْقِيقُ الْجَزَاءِ الّذي

تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ الخالِقِ الْعَلِيم الْقَدِير الحكيم، الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ويَخْتَارُ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ عَقْلاً بِمُقْتَضىٰ حِكْمَتِهِ أَنْ يَخْلُقَ النَّاسَ بصفاتِهِمُ الّتِي هم عَلَيْها عَبَثاً وَبَاطِلاً، وَهـٰذا الجزاء الرَّبَّاني يَنْقَسِمُ إلىٰ قِسْمَيْن:

القسم الأول: الجزاءُ بالثوابِ، فضلاً مِنَ الرَّبّ الجليل الوهّاب.

القسم الثاني: الجزاءُ بالْعِقَابِ، عَدْلاً مِنْ الرَّبّ الْحَكَمِ الْعَدْلِ.

وَجاء في التَّعْلِيم الرَّبَّاني، الّذي يُعْطِي الدَّاعِيَ إِلَىٰ اللهِ مَفَاتِيحَ هـٰذا الإقْنَاعِ الْعَقْلِيّ الهادِئ، المسْتَنِدِ إِلَىٰ البياناتِ الرَّبَّانِيَّة، مَا يَلِي:

- ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ . . ﴿٤﴾﴾:

الجزاء: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنَ الثّواب والْعِقَابِ، ولهذَا جَاءَ في أوَّلِ الْبَيانِ ليشْمَلَ مَا سَيأتي في النَّصِّ مِنْ حَدِيث عَنِ الثواب والعقاب.

وَالجزاءُ بالثَّوَابِ خاصٌّ بالّذِينَ آمَنُوا بِما كَلَّفَ اللهُ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا به فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وَعَبَّرُوا عَنْ صِحَّةِ إيمَانِهِمْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُؤَدُّوا شَيْئاً مِمَّا أمَرَ اللهُ عزّ وجلّ بِفِعْلِهِ طَاعَةً لَهُ، وبِأَنْ يَتْرُكُوا شَيْئاً مِمَّا نَهَىٰ اللهُ عن فِعْلِهِ طاعَةً لَهُ، وبأنْ يَمُوتُوا وَهُمْ عَلَىٰ إيمانٍ صَحِيحٍ.

- ﴿. . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾:

أي: أولَئِكَ رَفِيعُو المكانَةِ عِنْدَ رَبِّهِم لَهُمْ ثوابَان:

الثوابُ الأَوَّل: أنْ يَغفِرَ اللهُ لهم سوابِقَ ذُنُوبِهِمْ، فَيَسْتُرَهَا وَيتجاوَزَ عَنْ مُحَاسَبَتِهِمْ وَمُجَازَاتِهِمْ عليها.

الثواب الثاني: رِزْقٌ كَرِيمٌ يَنالُونَهُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وهـٰذا الرِّزْقُ قَدْ سَبَقَ في نجومِ التَّنْزِيلِ بَيانُ بَعْضِ تفصيلاتٍ له.

هـٰذا الذي جاء في هـٰذا التعليم الرَّبَّانيّ، مِفْتَاحٌ للترغيب بأنْواعِ

الثَّوَاب الّذِي أعَدَّهُ الله لِلّذِين آمَنُوا وَعمِلُوا الصالحات في جَنّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين، والّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الموزّعَةُ في القرآن المجيد.

الكَرِيمُ: هُوَ الْمَحْمودُ بالصِّفَاتِ الرفِيعَةِ النَّفِيسَةِ بالنسبةِ إلىٰ جِنْسِهِ ونَوْعِهِ وصِنْفِهِ.

- ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ... ۝٥﴾: وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[مُعَجِّزِينَ]**.

السَّعْي: العَمَل بِهِمّةٍ ونَشَاطٍ، وهو فَوْقَ الْعَمَلِ الْهَادِئِ المعتاد.

أي: والَّذِينَ سَعَوْا مُجْتَهِدِينَ فِي الصَّدِّ عَنْ آيَاتِنَا الكَوْنِيَّةِ والْبَيَانِيَّة، وفي مُحَاولَةِ الإقْنَاعِ بأنَّ آيَاتِنَا الكونيَّةِ ظَوَاهِرُ طبيعيَّةٌ، لَا آثَار خالِقٍ عَلِيم حَكِيم، وفي مُحَاوَلَةِ الإقْنَاعِ بأنَّ آياتنا الْبَيَانِيَّة المنزَّلَة مُفْتَرَيَاتٌ، وَأَنَّها وَضْعٌ بَشَرِيٌّ وَلَيْسَتْ تَنْزِيلاً رَبَّانِيّاً.

وَأَصْحَابُ هـٰذا السَّعْي قِسْمَانِ:

الْقِسْمُ الأول: **الْمُعَاجِزُونَ**: وهم الذين يتوهّمُونَ أنَّهُمْ قادِرُونَ علىٰ الإفْلاتِ والْهَرَبِ مِنْ قَبْضَتِنَا الّتي نَأْخُذُهُمْ بها إلَىٰ الْعَذَابِ الأَلِيمِ الْمُعَدِّ للكافرين.

يُقَالُ لُغَةً: «عَاجَزَ فُلاَنٌ» أي: ذَهَبَ فَارّاً هَارِباً فَلَمْ يُوصَلْ إِلَيْهِ، ولَمْ يُقْدَرْ عَلَيْه.

الْقِسْمُ الثَّاني: **الْمُعَجِّزُونَ**: وهم الّذِينَ يَسْعَونَ بِوَسَائِلِهِم الإعْلَامِيَّةِ، وزُخْرُفِ أَقْوَالِهِمْ، أَنْ يُثَبِّطُوا النَّاسَ ويُعَوِّقُوهم عَنِ الإيمانِ باللهِ وَبِمَا جاءَ بِهِ رُسُلُ اللهِ، تَضْلِيلاً عَنِ الحقِّ، وإغْرَاءً وَإِغْوَاءً.

يُقَالُ لُغَةً: «عَجَّزَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: ثَبَّطَهُ وَعَوَّقَه.

فالقراءَتَانِ مُتَكَامِلَتَانِ في آداءِ الْمَعْنَىٰ المراد.

- ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[أَلِيم]**: في هٰذا التعليم مِفْتَاحٌ للتَّرْهِيبِ مِنَ الْعَذَابِ الأَلِيم، الَّذِي اعْتَدَهُ اللهُ الْحَكَمُ الْعَدْل، لِلْكَافِرِينَ الَّذِين يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُم قَادِرُون علىٰ الإِفْلاتِ مِنْ عَذَاب اللهِ، وللكافِرِين الْمُضلِّين الذينَ يَصُدُّونَ الناسَ عَنْ الإيمانِ باللهِ وباليوم الآخِرِ، وَعَنْ سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الْبُعَدَاءُ في اتِّجَاهِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النار.

- ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾: أي: أُعْتِدَ لَهُمْ عَذَابٌ يُعَاقَبُون به.

- ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾: **الرِّجْزُ**: الأشياءُ الرَّبَّانِيَّةُ الّتِي يُعَذِّبُ اللهُ بها مُسْتَحِقي الْعَذَاب، وَمِنْهَا الأَمْرَاضُ الْفَتَّاكَةُ، والآفاتُ، وحَامِلَاتُ السُّمُومِ للنَّاسِ مِنْ أَشْيَاءَ وأَحْيَاء.

روىٰ مسلم مِنْ حَدِيث أُسَامَة بن زَيْدٍ، وسَعْد بن مَالِك، وَخُزَاعَة بْنِ ثابت، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ هذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وَبَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

- ﴿أَلِيمٌ﴾: أي: مُؤْلِمٌ مُوجِعٌ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ التَّعْلِيم الدّعَوِيّ الْجَدَلِيّ مُبَيِّناً لِرَسُولِهِ، أنَّ من صِفَاتِ أُولي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ هُوَ الْحَقُّ وأَنَّهُ يَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيد.

- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾:

لمَّا كَانَ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَىٰ رَسُولِهِ هُوَ الْحَقّ، وَأَنَّ مَا يُنَاقِضُهُ باطل، ولَمَّا كَانَ مَا يُرْشِدُ إليهِ من سُلُوكٍ هُوَ سُلُوكُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيم الْمُوصِلِ إِلَىٰ السَّعَادَة، كَانَ مِمَّا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ النُّفُوسَ، أَنَّ مَنْ آتاهُمُ الْعِلْمَ بِحَقَائِقِ ما

أنْزَلَ إلَىٰ رَسُولِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَرَوْا بأَدَوَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّة أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ هُوَ الْحَقّ، وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ اللهِ الْعَزِيزِ الحميد.

وَلَكِنْ هَلْ كُلُّ النَّاسِ يَسْتَخْدِمُونَ أَدَوَاتِهِم الْفِكْرِيَّةَ لِاسْتِبْصَارِ أنَّ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ هُوَ الحقّ، وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاط مُسْتَقِيم.

وَهَلْ كُلُّ منْ يَرَىٰ هـٰذِهِ الرُّؤيَةَ السَّلِيمَةَ، يَكُونُ مِنَ المؤمنين بالْحَقّ وبصراط اللهِ المسْتَقِيم، دُونَ أَنْ تَصْرِفَهُ صَوَارِفُ مِنْ أهوائِهِ وَشَهَواتِهِ. وَمَطَالِبِ نَفْسِهِ مِنَ الْحَيَاة الدُّنيا، هُنَا تَقَعُ عَقَبَةُ أكْثر الْكَافِرين الّذِينَ يَصدِفُونَ عَنْ آياتِ الله، مُنْذُ عَصْرِ التنزيل حتىٰ آخر حياة الناس في الأرض، إنّ الّذينَ لَا يَرَوْنَ هـٰذِهِ الرُّؤيَة يُعَطِّلُونَ أدواتِهم الفكريَّة عمَّا خُلِقَتْ له، فَهُمْ سَيُحَاسَبُونَ علَىٰ تَعْطِيلِها مَعُ وُجُودِ المنبِّهات والمذكِّراتِ، والمبشّراتِ، والمنذِرات.

وَإِنَّ الَّذِينَ يَرَوْنَ هـٰذِهِ الرُّؤيَةَ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ، وَلَا يَسْلُكُونَ صِرَاط اللهِ الْمُسْتَقِيمَ، أعْظَمُ جُرْماً وَإثماً، وأكْثَرُ هُوِيّاً إلىٰ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النار، ويَغْضَبُ اللهُ عَلَيْهِمْ غَضباً شَدِيداً.

- ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑥﴾:

جَاءَ في آخِرِ البيانِ الذي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هـٰذِهِ الآيَة ذِكْرُ «الْعَزِيز الْحَمِيدِ» مِنْ أسْمَاءِ اللهِ عزّ وجلّ، للإِيْمَاءِ إلَىٰ أنَّهُ بِعِزَّتِهِ يُعَاقِبُ مُسْتَحقّي الْعِقَاب، وبكونِهِ حَمِيداً يُثبتُ بِفَضْلِهِ مَنْ وَعَدَهُمْ بالثوابِ، وَهم الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَات.

الْعَزِيزُ: أي: ذُو الْقُوَّةِ الغالِبَةِ.

الْحَمِيدُ: أي: الَّذِي يَحْمَدُ عِبَادَهُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصَّالحات، والَّذِي هُوَ مَحْمُودٌ يُسَبِّحُ بِحَمدِهِ كُلُّ شيء.

وَحَمْدُهُ لِلْمُؤْمِنينَ يَقْتَرِنُ بفُيُوضَاتِ إنْعَامَاتِهِ عَلَيْهِمْ، في جَنَّاتِ النعيم فَضْلاً مِنْهُ وَجُوداً.

هـٰذا مَا ظَهَرَ لي في فَهْمِ هـٰذه الآيَةِ واللهُ أعْلَم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشَأنِ أَئِمَّةِ الضَّلَالِ الَّذِين يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ الإيمانِ بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾:

جَاءَ في هَاتين الآيَتيْنِ بَيانُ مَقَالَةٍ دِعَائِيَّةٍ قَالَهَا مُضَلِّلُون مِنَ الّذِين كَفَروا، بِغَرَضِ صَدِّ مَنْ يَتَأَثّرُ بِهِمْ عن الاستجابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، لِئَلَّا يَتَزَايَدَ المؤمنون المسْلِمُونَ في مَكَّة، فِي هـٰذِهِ المرحَلَةِ مِنْ مَرَاحِلِ مَسِيرَة الرَّسُولِ الدَّعوِيةِ، لأَنَّهُمْ إذَا كَثُرَتْ أعْدَادُهُمْ وَزَادَت علىٰ أعْدَادِ المشركين، أسْقَطُوا ذَوِي السُّلْطَانِ وذوي الْجاهِ والْقُوَّةِ عَنْ مَكانَاتِهِم، وصَارَتِ الْقُوَّةُ والمكانَةُ الْعُظْمَىٰ للرَّسُولِ ﷺ فيها.

ومَقَالَةُ هَؤُلَاءِ الدِّعَائِيَّةُ، لَيْسَ فيهـا إلّا تَرْدِيدُ عِبَارَةِ التَّعَجُّب والاسْتِغْرَابِ مِنْ إحْياءِ المَوْتَىٰ، بَعْدَ أَنْ صَارَتْ أجْسَادُهُمْ فانِيَةً مُخْتَلِطَةً بِتُرَابِ الأَرْضِ، وَقَدْ قَدَّمُوا هـٰذا التَّرْدِيدَ بِصِيَاغَةٍ جَدِيدَةٍ فيها مُبالَغَةٌ في عَرْضِ صُورَةِ فَنَاءِ الأَجساد.

لَقَدْ كانت مَقَالَةُ قَائِلِهم إِبَّانَ نُزول سورة (يس/ ٤١ نزول):

﴿...مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾؟ بِصِيغَةِ التَّسَاؤل.

ثُمَّ صَارُوا يَقُولونَ إبَّانَ نُزُول سورة (الإِسْرَاء/ ٥٠ نزول):

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾.

ثُمَّ صَارَ دُعَاتُهُمْ إِلَىٰ الضَّلَالِ، يَعْرِضُونَ هٰذِهِ المقالَةَ بأُسْلُوبٍ فِيهِ مَزِيدُ خِدَاعٍ دِعَائِيٍّ، إِبَّانَ نَزُول سورة (سبإ/٥٨ نزول) قائلين في تَضْلِيلِهِمْ لمَنْ يَسْتَمِعُ إليهم قَوْلاً مَقْرُوناً بالسُّخْرِيَةِ والاستِهْزَاء:

- ﴿. .هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ. . . ۝٨﴾:

- ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: أَيْ: جُزِّئْتُمْ وَفُرِّقْتُمْ غَايَةَ التَّجْزِئَةِ والتَّفْرِيقِ في تُرَابِ الأَرْضِ. «**مُمَزَّق**»، مَصْدَرٌ مِيميٌّ للتَّمْزِيق.

يُقَالُ لُغَةً: «مَزَّقَ الشَّيْءَ، تَمْزِيقاً، ومُمَزَّقاً» أَيْ: بالَغَ فِي تَجْزِئَتِهِ وَتَفْرِيقِ بَعْضِهِ عَنْ بَعْضٍ.

﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: أَيْ: كُلَّ تَمْزِيقٍ يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ فِيه، والمعنىٰ: إذَا مُزِّقْتُمْ تَمْزِيقاً كُلَّ تَمْزِيقٍ، لَا بَعْضَ تَمْزِيقٍ. فلَفْظ «كُلَّ» نائب عن مَفْعُول مُطْلَق.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أي: إنَّكُم لتُخْلَقُونَ خَلْقاً جَدِيداً، تَكُونُ لَكُمْ فِيهِ حَيَاةٌ أُخْرَىٰ بَعْدَ الْمَوْت والْفَناء.

إِنَّ مَضْمُونَ عبارتِهِم الجديدَةِ، المفَخَّمَةِ المنْفُوخَةِ بأسْلُوبٍ إعْلَامِيّ، لَا يَخْتَلِفُ عَنْ مَضْمُون قَوْلِهِمُ السَّابق، فَلَا شيءَ فيه يَسْتَدْعي مُنَاظَرَةً فِكْرِيَّة، ولا يَتَضمَّن شُبْهَةً جَدِيدةً تَتطَلَّبُ بياناً إقْنَاعِيّاً يُزِيلُهَا ويَكْشِفُ الْحَقّ بِجَلاء، وقَدْ سَبَقَ فِي نجوم التَّنْزِيلِ البيانُ الإقْنَاعِيُّ المقرونُ بالْبُرْهَان.

ولِلإشْعَارِ بأنَّ مَقُولتهم القائِمَةَ علىٰ مُجَرَّدِ التَّعَجُّب والاسْتِغْرَاب، مَقُولَةٌ صَارَتْ مَقْبُولَةً لَدَىٰ المستمعين إليهم، بَنَوْا عَلَيها قَوْلَهُمْ في شتيمَة الرَّسُول ﷺ:

- ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾: **الجنَّةُ**: الْجُنُون.

أي: إنَّ هـٰذا القولَ العجيبَ الغريبَ المستنكر لا يَقُولُهُ إلَّا أحَدُ اثْنَيْنِ: مَنْ يَفْتَرِي علَىٰ اللهِ كذِباً، وَمَنْ بِهِ جُنُونٌ، فإمَّا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ سَوِيَّ الْفِكْرِ إلَّا أنَّهُ يَكْذِبُ عَلَىٰ اللهِ كذِباً افْتِرائِيّاً يَخْتَلِقُهُ اخْتِلَاقاً مِنْ عِنْدِه، وَإمَّا أنْ يَكُونَ قَدْ أصَابَهُ الجُنونُ، فَهُوَ يَقُولُ أقوالاً لَا تَقْبَلُهَا الْعُقُول.

وَبما أَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِجَديدٍ بشأْنِ قَضِيَّةِ الْبَعْثِ، واقْتَصَرَتْ مَقَالَتُهُمْ عَلَىٰ تَرْدِيدِ مَا سَبَقَ دَفْعُهُ بالْبُرْهَانِ العقلي.

وبالنَّظَرِ إلَىٰ مَا أضافُوه مِنْ شتِيمَةٍ للرَّسُول، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ في العِلَاجِ بَيَانُ أَنَّهُمْ فِي مُحِيط مِنَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ عَنْ مَوَاقِعِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ، فَقَالَ اللهُ عزّ وجلّ في التَّنْزِيلِ الْعِلَاجيّ مُبَيِّناً ومُنْذِراً:

﴿...بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾:

■ وَقَالَ اللهُ عزّ وجلّ مُنْذِراً بِعَذَابٍ يَكُونُ بِهِ هَلَاكُهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ عَذَابِ الآخِرَة:

● ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾:

في هـٰذا البَيانِ نَظَرَاتُ غَضَبٍ مِنْ إصْرارِهم عَلَىٰ كُفْرِهِم الْعِنَادِيّ، الَّذِي لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ شُبْهَةٌ تُعْطِيهِمْ عُذْراً بِنِسْبَةِ وَاحِدٍ في المئة، بَلْ هُمْ يَتَّبِعُونَ أهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَتَقَالِيدَهُمُ الْعَمْيَاءَ، اسْتِكْباراً عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقّ.

● ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟﴾: أي: أنْطَمَسَتْ أَبْصَارُهُمْ وَبَصَائِرُهُمْ فَلَمْ يَرَوْا بأعْيُنِهِمْ وَلَا بعُقُولِهِمْ.

● ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾: أي: نَاظِرِينَ إِلَىٰ مَا خَلَقَهُ اللهُ فِي كَوْنِه، مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِم بَعْضُه

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَبَعْضُهُ خَلْفَهُمْ، فَمِنْ مَوَاقِعِ أَقْدَامِهِمْ إِلَىٰ جِهَةِ امْتِدَادِ بَصَرِهِمْ شَطْرَ الأَرْضِ وشَطْرَ السَّمَاء، هو وَاقِع بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَيُقَابِلُهُ مِنَ الْجِهَةِ الأُخْرَىٰ هُو وَاقِعٌ خَلْفَهم، وجَاءَتِ العبارَةُ فِيها تَفْصِيلٌ وإِطْنَابٌ، لإِيْضَاحِ الصُّورَةِ وَالإِرْعَاب.

- ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

أي: إِنَّنَا نَحْنُ الّذينَ خَلَقْنَا الأَرْضَ والسَّمَاوات، وَنَحْنُ نُمْسِكُهُمَا بِتَجَدُّدٍ لِئَلَّا تَزُولَا، فإِنْ نَشَأْ إِهْلَاكَهُمْ مَعَ تَعْذِيبِهِمْ بأَنْ نَخْسِفَ بهِمُ الأَرْضَ، أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ قِطعاً مِنَ السَّمَاءِ، مِنْ كَوْكَبٍ جَزَّأناه وَبَثْثَنَاهُ في الْفَضَاءِ فَوْقَ غِلَافِ الأَرْضِ الغَازيّ، فَعَلْنَا ذَلِكَ بأَمْرِ التَكْوِينِ، فَلَا يَسْتَطيعونَ هَرَباً وَلَا نَجَاةً.

- ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾: أيْ نُغَوِّرْ مِنْ تَحْتِهِمُ الأَرْض فَندْفِنُهُمْ فِيهَا غَائِرِين.

- ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: أو إنْ نَشَأْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ قِطَعاً مُهْلِكَةً لَهُمْ مِنَ السَّمَاء، فَنَدْفِنُهُمْ تَحْتَهَا.

الكِسَفْ و**الكِسْف**: القِطَعُ مِنْ أيّ شيء، واحِدَتُها: «كِسْفَة».

- ﴿.. إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾:

أي: إنَّ في ذَلِكَ الَّذِي هُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ والَّذِي هُوَ خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، لَعَلَامَةً عَظِيمَةً دَالَّةً عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْمُهَيْمِنِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ الذي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَلَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَخْسِفَ الأَرْضَ بِمَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُعْجِزُهُ أَنْ يُسْقِطَ قِطعاً مُهْلِكَةً مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ.

إِلَّا أَنَّ الّذِي يُدْرِكُ هـٰذِهِ الآيَةَ وَيَهْتَدِي بِها، كُلّ عَبْدٍ لَدَيْهِ الرَّغْبَةُ فِي أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ رَبِّهِ، مُؤْمِناً بِهِ مُطِيعاً مُسْلِماً.

● ﴿مُّنِيبٍ﴾: أيْ: ذو رُجُوعٍ إلَىٰ اللهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ بِقَلْبِهِ، ونَفْسِهِ، وفِكْرِه. وَيُعْتَبَرُ الْكَافِرُ الَّذِي يَهْتَدِي بآيَاتِ اللهِ رَاجعاً إلَىٰ اللهِ، لأَنَّهُ مَفْطُورٌ مُنْذُ وِلَادَتِهِ عَلَىٰ الإيمَانِ والإسلام، وَكُفْرُهُ حَدَثٌ طَارِئٌ عَلَىٰ فِطْرَتِه، فإذَا آمَنَ بَعْدَ ذلِكَ كَانَ إيمانُهُ إِنَابَةً وَرُجُوعاً.

لفظ «مُنيب» اسم فاعل من «أناب» وهو بمَنْزِلَةِ الفِعْلِ المضارع، يَدُلُّ عَلَىٰ الْحَالِ والاسْتِقْبَال.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (سبأ).

والحمد لله علىٰ معونته، ومَدَدِهِ، وتَوْفيقِهِ، وفَتْحِه.

* * *

(٦)

التدبر التحليلي للدَّرْس الثالث من دُروس سورة (سَبَأْ) الآيات من (١٠ ـ ١٤)

قال اللهُ عَزَّ وجلّ:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ (١٠) أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (١٤)﴾.

القراءات:

(١٢) • قرأ شُعْبَة: [**الرِّيحُ**] بالإفراد والرَّفع علىٰ أنَّه مبتدأ مُتَأَخّر.

وقرأهَا أبو جعفر: [**الرِّيَاحَ**] بالجمع والنصب، أي: وهبنا لِسُلَيْمَانَ الرّياحَ، مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ يُفْهَمُ مِنَ السِّيَاق.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: ﴿**الرّيحَ**﴾ بالإفراد والنَّصْب.

(١٣) • قرأ وَرْشٌ، وأبُو عَمْرو: [**كَالْجَوابي**] بإثبات الياءِ في الوصل.

وكذلِكَ قرأها ٱبن كثير، ويَعْقُوب، في الْوَصْلِ والوقف.

وقرأها باقي القرّاءِ الْعَشَرَة: [**كَالْجَوَابِ**] بحذف الياء في الوصلِ والوقف. وهٰذا الحذف مِنَ التخفيف في العربيّة.

(١٣) • أسْكَنَ يَاءَ المتكلّم فِي: ﴿**مِّنْ عِبَادِي الشَّكُورُ**﴾ حمْزَةُ وصلاً ووقفاً.

وفتح هٰذه الياء بَاقي القراءِ العشرة: ﴿**مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾.

(١٤) • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأَبُو جَعْفر: [**مِنْسَاتَهُ**] بِإبْدَالِ الهمْزَة ألِفاً ليّنَة.

وقرأها ابْنُ ذَكْوَان: [**مِنْسَأْتَهُ**] بِهَمْزَةٍ سَاكِنَة.

وقرأها بَاقي القرّاءِ الْعَشَرَة: ﴿**مِنسَأَتَهُ**﴾ بهمزةٍ مَفْتُوحَة.

ووقَفَ حمزة بالتسهيل.

وهٰذِهِ القراءات وُجُوهٌ في نُطْقِ الكلمة.

الْمِنْسَأَة: الْعَصا.

(١٤) • قرأ رُوَيْس: [**تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ**]: أي: كُشِفَ لِلنّاسِ أنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْب.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿**تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ**﴾.

فبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

تمهيد:

في آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ عَرضُ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ مِنْ قِصَّةِ دَاوُدَ وابْنِهِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِما السَّلامُ، لإشْعارِ الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه إبَّانَ التَّنْزِيلِ، أنَّ مِنَ الْيَسِيرِ علىٰ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ أنْ يَهَبَ رَسُولَهُ محمّداً مِثْلَما وَهَبَ دَاوُد وسليمان وأفْضَل. وَإذْ لَمْ يَفْعَلْ فَاعْلَمُوا أنَّ حِكْمَةَ اللهِ في هـٰذِهِ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، أنْ يَكُونَ الرَّسُولُ الْمَبْعُوث لِتَبْلِيغِها وَالقِيَام بوظائف رِسَالَتِهِ فيها كما اخْتَارَ اللهُ له، وهو وَاقِعُهُ الّذِي هُو عليه.

وهـٰذا المعنَىٰ يَفْهَمُهُ فُطَناءُ المشركين، ويَعْرِفُونَ أَنَّ اللهَ اخْتَارَ لِرَسُولِهِمْ أَنْ لَا يَكُونَ مَلِكاً، وَلَا صَاحِبَ ثَرَاءٍ وَاسِعٍ وسُلطانٍ في قَوْمِهِ بِقُوىً غيبيَّة.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالىٰ بشأن دَاوُد عليه السّلام:

● ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

في هـٰذا النصّ بَيَانُ أَنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ آتَىٰ دَاوُدَ مِنْهُ فَضْلاً، أي: أعْطَاهُ عَطاءً زَائِداً خَصَّهُ بِهِ، ومِنْ هـٰذا الْفَضْلِ تَسْبِيحُ الْجِبَالِ، وَحَشْرُ الطَّيْرِ وَتَسْبِيحُها مَعَهُ، وإلانَةُ الْحَدِيد له ففيه عِدَّة قَضَايَا:

الْقَضِيَّةُ الأُولىٰ: أنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَمَرَ الجِبَالَ بأَنْ تُسبِّح مَعَهُ، وَبَيَانُ هـٰذِهِ الْقَضِيَّة بَيَانٌ لِبَعْضِ عَنَاصِرِ الْعَقِيدَةِ الإيمانيَّة، إذْ كُلُّ ظَاهِرَةٍ جَبْرِيَّةٍ في الكَوْنِ إنَّما تُوجَدُ بأمْرِ التّكْوينِ الرَّبَّانيّ، وَكَذَلِكَ كُلُّ حَدَثٍ في الْوُجُودِ إنّما يَكُونُ بِخَلْقِه.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: أَنَّ تَسْبِيحَ الجِبَالِ مَعَهُ قَدْ كَانَ صَدًا تَسْبِيحِ دَاودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَدَا تَرْنيماته.

دلَّ علىٰ هَاتَيْنِ القضيتين قولُ اللهِ عزّ وجلّ في هـٰذا النّصّ:

- ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾: أي: يَا جِبَالُ رَجِّعِي التَّسْبِيحَ مَعَهُ.

أَوِّبِي: أي: رَجِّعِي، يُقَالُ لغة: «أَوَّبَ، يُؤوِّبُ» أي: رَجَّعَ الصَّوْت. وهـٰذا الأَمْرُ لِلْجِبَالِ هو مِنْ قَبِيلِ الأَمْرِ التَّكْوِيني الْجَبْري.

وهـٰذِهِ الجملة بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ قولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَضْلًا﴾ فهي في مَحَلِّ نَصْبٍ، والمعْنَىٰ: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا تَرْجِيعَ الجِبَالِ بأمْرِنا صَدَا صَوْتِه الشَّجِيِّ النَّدِيّ في تَسَابيحِهِ، قَائِلِينَ لَها: يَا جِبَالُ أوِّبي مَعَهُ. والطَّيْرَ وإلَانَة الحديد.

القضيَّة الثَّالِثَة: أنَّ اللهَ تعَالَىٰ آتَاهُ ممَّا فضَّلَهُ به، أَنْ جَعَلَ جَماعَةً مِنْ أَصْنَافِ الطَّيْرِ تُحْشَرُ إِلَيْهِ، وَتُرَجِّعُ مَعَهُ صَوْتَهُ في التَّسَابِيحِ والتَّرَانِيم، دَلَّ علىٰ هـٰذه القضية قول الله تعالىٰ:

- ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾.

هـٰذه اللّفظةُ معْطُوفَةٌ بِالنَّصْبِ علىٰ مَحَلِّ الْبَدَلِ السَّابِق الذي هو جُمْلَةُ ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾.

والاقتصار علىٰ ذكر الطير معطوفاً بالنَّصْبِ يَدُلُّنا علىٰ أَنَّ الأَمْرَيْنِ مُتَمَاثِلَان، أي: آتيناهُ فَضْلَ تَرْجيع الجبالِ مَعَهُ بأمْرِنا، إذْ آتَيْنَاهُ صَوْتاً عالياً نَدِيّاً، وَفَضْلَ تَرْجِيع الطّيْرِ مَعَهُ، وَهِي جماعَةُ الطَّيْرِ الَّتِي تُحْشَرُ له، إذْ آتَيْنَاهُ صَوْتاً حَسَناً تَطْربُ مِنْه بَعْضُ أصْنَافِ الطُّيُور، فَتُرجِّعُ مَعَهُ بَعْضَ تَرْنِيمَاتِهِ وَتسبيحاته.

- ﴿... وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ... ۝١١﴾:

- ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾: أي: وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ لَيِّناً في يَدَيْهِ، قَالُوا: فَكَانَ كالْعَجِينِ، أو الشَّمْعِ في يَدَيْهِ وقْتَ الْعَمَلِ به، ثُمَّ يَعُودُ الْحَدِيدُ إِلَىٰ صَلاَبَتِه.

أقول: هلِ المرادُ بإلاَنَةِ الْحَديدِ لَهُ تَغْيِيرَ خَصَائِصِ الْحَدِيدِ الصُّلْبَةِ لَهُ حَال عَمَلِهِ فيه، أمْ إعْطَاؤهُ الْقُوَّةَ الْجَسَدِيَّة العظيمة الَّتِي يُلَيِّنُ بِها الْحَدِيد، أَمْ إعْطَاؤهُ طَاقَةً إشْعَاعِيَّةً تَنْطَلِقُ مِنْ جَسَدِهِ لَهَا خُصُوصيَّةُ إلاَنَةِ الْحَديد؟؟.

إنَّنَا لَا نَمْلِكُ دَلِيلاً يُحَدِّدُ وَاحِداً مِنْها، ولَعَلَّ آخِرَهَا مَعَ قُوَّتِهِ الْجَسَدِيَّةِ الْمَعْرُوفَة هِيَ المرادة، إذْ هِيَ الأَقْرَبُ لِمَا نَعْرِفُ مِنْ تَجَارِبِ الْعُلُوم، وخَصَائِصِ الطَّاقَاتِ الإشْعَاعِيَّةِ، واللهُ أَعْلَم.

وإذْ أَلاَنَ اللهُ عزّ وجلّ لِدَاوُد عَلَيْهِ السَّلاَمُ الْحَدِيدَ، أَمَرَهُ بأن يَسْتَخْدِمَ ذَلِكَ في صِنَاعَةِ الدُّرُوعِ الواقِيَةِ مِنْ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ والرِّمَاح والنِّبَالِ وغَيْرِها فِي الْحَرْب.

ونُلاَحِظُ في أَمْرِ اللهِ عزّ وجلّ دَاوُد بِصِنَاعَةِ الدُّرُوع، أَنَّهُ جَلَّ جَلاَلُهُ شَاءَ التَّوْجِيه لِلْوِقَايَةِ مِنْ شُرُور الْقِتَالِ، إذْ لَمْ يَأْمُرْ دَاوُدَ بِصِنَاعَةِ السُّيوف والرِّمَاح والنبال ونحوها، والسَّبَبُ في هٰذا عَلَىٰ مَا يَظْهَرُ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَنَّنُونَ فِي صِنَاعَةِ أدَوَاتِ القِتَالِ بِرَغْبَةِ التَّسَلُّط، والعُلُوّ في الأَرْضِ، واللهُ عزّ وجلّ جَعَلَ الدَّارَ الآخِرَةَ الَّتِي فيها أَنْوَاعُ السَّعَادَاتِ كُلّها، لِلَّذِين لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ ولا فَسَاداً.

أَمَّا أَمْرُ اللهِ عزّ وجلّ في الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنْ يُعِدُّوا مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ قُوَّةٍ، فالْغَايَةُ مِنْهُ الحمايَةُ والإرهابُ الْمَعْنَوِيُّ، لا أَنْ يَكُونَ وَسِيلَةً لِلْعُلُوّ في الأَرْضِ، ولِمُمَارَسَةِ الْفَسَادِ والإفْسَاد في الأرْض.

والدُّرُوعُ الَّتِي عَلَّمَ اللهُ دَاوُد عليه السَّلامُ ابْتِكَارَهَا وَصِنَاعَتَها هِيَ دُرُوع الزَّرَدِ، الَّتِي تُلْبَسُ كالثِّيَاب، وقَدْ كَانَتِ الدُّرُوعُ قَبْلَهُ صَفَائِحَ مِنْ حَدِيدٍ.

- ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي: أَنِ اعْمَلْ يَا دَاود دُرُوعاً سَابِغَاتٍ.

جاءَ في الْعِبَارِةِ الاسْتِغْنَاءُ بالصِّفَةِ عَنِ الموصُوفِ، وَشَاعَتْ كَلِمَةُ «سَابِغَاتٍ» للدَّلَالَة علىٰ الدُّرُوع التَّامَّات.

سَابِغَاتٌ: أي: تَامَّاتٌ كَامِلَاتٌ سَاتِرَاتٌ لِمَقَاتِلِ الْمُقَاتِلِ.

السُّبُوغُ: هُو في اللُّغَةِ التَّمَامُ والكمال، يُقَالُ لغةً: «شَيْءٌ سَابِغٌ» أيْ: كامِلٌ وافٍ، ويُقَالُ: «سَبَغَ الثَّوْبُ يَسْبُغُ سُبُوغاً» أي: طَالَ إِلَىٰ الأَرْضِ واتَّسَعَ، ويقال: «أَسْبَغَ الثَّوْبَ يُسْبِغُهُ» أي: جَعَلَهُ طَوِيلاً واسِعاً.

وإِسْبَاغُ الْوُضُوء: إِتْمَامُهُ وإِكْمَالُهُ وإِعْطَاؤُهُ حقَّهُ، مَعَ زِيَادَةٍ تُحقّقُ فِعْلَ المطْلُوب.

- ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: أي: وأَحْكِمْ مَقَادِيرَ حَلَقِ الدِّرْع، وَمَقَادِيرَ الثُّقُوب، عِنْدَ مَوَاطِنِ اتِّصَالِهَا بِبَعْضِها، ومَقَادِيرَ مَسَامِيرِ الرَّبْطِ بَيْنَها، حَتَّىٰ تُؤَدِّي الْغَرَضَ مِنْهَا أَدَاءً حَسَناً، وأَحْكِمْ تَفْصِيلَهَا عَلَىٰ مَقَادِيرِ أَجْسَادِ لَابِسِيهَا، حتَّىٰ تَكُونَ وَافِيَةَ الْوِقَايَةِ، تَامَّةَ الصَّنْعَة.

السَّرْدُ: إِتْبَاعُ الشَّيْءِ بِشَيْءٍ نَظِيرِه، حَتَّىٰ يَكُونَ الْكُلُّ مُؤَلَّفاً مِنْ وَحَدَاتٍ مُتَّسِقَاتٍ مُتَتَابِعَاتٍ مُتَمَاثِلات.

ويُطْلق لفظ «السَّرْدِ» علىٰ الدُّرُوع، وَعلَىٰ الْحَلَقِ، وعلَىٰ الثَّقْب، يُقَالُ لغة: «سَرَدَ الشَّيْءَ، وَسَرَّدَهُ، وأَسْرَدَهُ» أي: ثقبه.

وَالسِّرادُ، والْمِسْرَدُ: المِثْقَب. **والْمَسْرُودَة**: الدِّرْعُ المثْقُوبَة. ويُقَالُ لِصَانِعِ ذَلِكَ: «سَرَّاد» و«زَرَّاد» بإبدالِ السِّينِ زَاياً.

و«أَنْ» في عبارَة: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تَفْسِيريَّة، والمفَسَّرُ مَطْوِيٌّ غَيْرُ مَذْكُورٍ في اللَّفظِ، يَكْشِفُهُ التَّدبُّر، والتَّقْدِير: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وَأَوْصَيْنَاه ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ فَأَبَانَ الله عزّ وجلّ لِدَاود عليه السلام الْغَايَةَ مِنْ إِلَانَةِ الْحَدِيدِ لَهُ.

- قول الله تعالىٰ:

- ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ⑪﴾:

كَانَ الكَلَامُ يَحْكي مَا وَجَّهَ اللهُ عزّ وجلّ لِدَاوُد عَلَيْهِ السَّلَام، وَجَاءَت هٰذِهِ الْعِبَارَةُ مُوَجَّهَةً لِجَماعَةٍ لَا لِفَرْد.

وباسْتِطَاعَتنا أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هٰذا الإجْرَاءِ أَنَّ الأَعْمَالَ الصِّنَاعِيَّة تَحْتَاجُ إلىٰ رَئِيسٍ مُعَلِّم مُحْكِمٍ لِلصَّنْعَةِ وَمُشْرِفٍ عَلَيْهَا، وَتَحْتَاجُ إِلَىٰ مُعَاوِنِينَ يُسَاعِدُونَهُ في الْعَمَلِ، ويَتَدَرَّبُونَ عِنْدَهُ وبإشْرَافِهِ، لِتَوْفير الإنْتَاجِ وَإتْقَانِ الصُّنْع.

ففي هٰذِهِ العبارَةِ تَوْجِيهٌ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ مَعَهُ، أَنْ يَتَعَاوَنُوا فيما بَيْنَهُمْ تَعَاوُناً تكامُلِياً، وتوجيهٌ لإتْقَانِ الْعَمَل، فالْعَمَلُ الصَّالِحُ في الصِّنَاعَاتِ هُوَ الْعَمَلُ المتْقَنُ.

وَفي هٰذا التَّوْجِيهِ إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ يَنْبغي لِمَنْ يَبْتَكِرُ، أَوْ يُلْهَمُ، أَوْ يُعَلَّمُ صَنْعَةً مِنَ الصِّنَاعَاتِ النَّافِعَاتِ، أَنْ يَجْعَلَ تَحْتَ يَدَيْهِ مَنْ يَتَعَلَّمُهَا، لِتَكُونَ مِيراثاً حَضَارِيّاً بَشَرِيّاً، تَتَقَدَّمُ بِهِ وَتَرْتَقي الْحَضَارَةُ الإنْسَانِيَّةُ وَوَسَائِلُها.

أَمَّا مَنْ يَحْتَكِرُ سِرّ صِنَاعَتِهِ لِنَفْسِهِ، فَلَا يَجْعَلُ تَحْتَ يَدَيْهِ وإشْرَافِهِ مَنْ يَتَعَلَّمُهَا، فإنَّ صِنَاعَتَهُ الرَّاقِيَةَ وَمَهارَتَهُ تَمُوتُ بمَوْتِهِ، ثُمَّ يَحْتَاجُ الْمُجْتَمَعُ الْبَشَرِيُّ أَنْ تَمُرَّ أَزْمَانٌ طَوِيلَةٌ حَتَّىٰ يَظْهَرَ في النّاسِ نظيرُه، فيَتَعَلَّمَ النَّاسُ مِنْه، إِذَا أَذِنَ لَهُمْ بِأَنْ يَقْتَبِسُوا مِنْهُ مَا وَهَبَهُ الله.

- ﴿. . إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ⑪﴾: هٰذِهِ العِبَارَةُ تَدُلُّ بِاللُّزُوم الفكريّ علىٰ وَعْدِ اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ صَالِحاً في الصِّنَاعَاتِ بالثَّواب علىٰ الْعَمَلِ الصَّالِح، وَبالْعِقَابِ عَلَىٰ الْعَمَلِ السّيِّء، فَإذَا كانوا مِنْ أَهْلِ الإيمَانِ وابْتِغَاءِ مَرْضَاة الله، أثَابَ اللهُ الّذِين يَعْمَلُونَ صَالحاً مِنْهُمْ ثَواباً آخَرَ أَعْظَمَ يَوْمَ الدِّين، فَوْقَ مَا يَمْنَحُهُمْ مِنْ ثَوابٍ مُعَجَّل.

واقْتَبَسَ النَّاسُ مِنْ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلامُ صِنَاعَةَ دُرُوع الزَّرد، وانْتَشَرَتْ بَعْدَه.

وَأَقُول هُنَا: إنَّ نُصُوصاً قُرْآنِيَّة مُتَعَدِّدَةً تَدُلُّنَا عَلَىٰ أَنَّ أُصُولَ كَثِيرٍ مِنَ الصِّنَاعَاتِ الْبَشَرِيَّة، قَدْ كانَتْ عَلَىٰ أَيْدِي بَعْضِ أنبياء اللهِ وَرُسُلِهِ، بأمْرٍ مِنَ اللهِ وَتَعْلِيم، وَاقْتَبَسَها النَّاسُ عَنْهُمْ فيما بعد، ثُمَّ طَوَّرَ النَّاسُ فيها وأضَافُوا ضِمْنَ سُلَّمِ الارْتِقَاءِ الحضارِيّ التراكميّ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاود عَلَيْهِما السَّلام:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾:

في هـٰذا النصّ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ آتَىٰ سُلَيْمَانَ مِنْ فَضْلِهِ ثَلاثَ مِنَنٍ امْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِ، وَخَصَّهُ بها دُونَ سائِرِ الأَنْبِيَاء والْمُرْسَلِين، وهي:

(١) تَسْخِيرُ الرِّيح له.

(٢) إسَالَةُ عَيْنِ النُّحَاسِ له.

(٣) إكْرَاهُ بَعْضِ الْجِنِّ لِلْعَمَلِ بِأمْرِه، فإنْ عَصَاهُ عَاصٍ مِنْهُمْ ذَاقَ مقداراً مَا مِنْ عَذَابٍ أَليمٍ علىٰ مِقْدَارِ مَعْصِيَته.

فالْمِنَّةُ الأُولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا في النصّ قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ . . . ﴿١٢﴾﴾: وفي القراءة الأخرىٰ: **[الرِّيَاحَ]**.

أي: وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ، وقد سَبَقَ في سورة (ص/ ٣٨ نزول) بَيَانُ أَنَّها تَجْرِي بأمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أصاب، أي: تَجْرِي لَيِّنَةً حَيْثُ قَصَدَ وأراد، فقال تعالىٰ فيها: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾.

وجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أنَّ الرّيح العاصِفَةَ قَدْ سُخِّرَتْ لَهُ أيضاً، فقالَ تَعَالَىٰ فيها:

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ وفي قراءة أبي جعفر: **[الرِّياح]**.

سُلَيْمان: اسم عبريٌّ معناه «رَجُلُ سَلَام» قالوا: وكان عَهْدُهُ عَهْدَ سَلَامٍ وأمْنٍ في مملكته.

فكانَ لِسُلَيْمانَ علىٰ الرِّيحِ وَالرِّيَاحِ سُلْطَانُ أَمْرٍ ونهيٍ بِتَسْخِيرِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ أمّا «الرِّيحُ» بالإفرَادِ فَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ كُلَّ أنواعِها، وَدَلَّ علَىٰ الأَنْواعِ الْجَمْعُ في قِرَاءَة «الرِّيَاح».

ويَظْهَرُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْمُرُ الرِّيحَ أَنْ تَجْرِيَ بأمْرِهِ رُخاءً في الأَحْوَالِ الَّتِي يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ فيها رُخاءً، ويأمُرُها أنْ تَجْرِيَ عَاصِفَةً في الأَحْوَالِ الَّتِي يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ فيها عَاصِفَةً شَدِيدَة.

وَهَـٰذه من المنَنِ الّتي اخْتَصَّ اللهُ بِهَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَلَمْ يُؤْتِهَا لِغَيْره من أنبيائِهِ ورُسُلِهِ.

وَمَا جاء في وَصْفِ الرِّيح بأنَّ غُدُوَّهَا شَهْرٌ وَأَنَّ رَوَاحَهَا شَهْرٌ، فأذْكُرُ فيه أوّلاً مَعْنَىٰ الْغُدُوّ، ومعنَىٰ الرَّواحِ في اللُّغَة:

الْغُدُوُّ: الذَّهَابُ في وقْتِ الْغُدْوَةِ، وهو مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْسِ.

والرَّواحُ: السَّيْرُ في العشيّ، وهو في الْغَالِبِ مِنْ وقْتِ الْعَصْرِ إلىٰ الغروب.

والمعتاد أنْ الْغُدُوَّ ذهَاباً مِنَ المنازِلِ إلَىٰ المقاصِدِ في السَّفَرِ أو الحضر، وأنْ يَكُونَ الرَّواحُ عَوْداً إلَىٰ المنازِلِ للسُّكُون والرَّاحَة.

أمّا تَسْخير الرّيح لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السّلام الّتي غُدُوُّها شَهْرٌ، وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ، فالظَّاهِرُ مِنْهُ أَنَّ سُرْعَتَهَا في الْوَقتِ الّتِي يَكُونُ فِيهِ غُدُوُّها، تَجْتَازُ بِهَا مِقْدَارَ مَا تَجْتَازُهُ قَافِلَةُ الْمُسَافِرِينَ في شَهْرٍ كامل. وأَنَّ سُرْعَتَها في الْوَقْت الَّذِي يَكُونُ فيه رَواحُها، تَجْتَازُ بِهَا مِقْدَارَ مَا تَجْتَازُهُ قَافِلَة الْمُسافِرين فِي شَهْرٍ كامل.

ونَقَلَ المفسّرُون عن الحسَنِ البصري: أَنَّهُ كَانَ يَغْدُو عَلَىٰ بِسَاطِهِ مَسَافَة شَهْرٍ كامِلٍ للمُسْرِع، ويَرُوحُ عَائِداً إِلَىٰ قَصْرِهِ مَسافَةَ شَهْر.

ولَمْ أَجِدْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ هـٰذِهِ الْعَطِيَّة مِنْ عَطَاءَاتِ اللهِ لِسُلَيْمَانَ، علَىٰ مَا رُوي عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْري، وشاعَتْ علىٰ أَلْسِنَة العامّة.

وتأَوَّلَ بَعْضُ المفسِّرينَ تَسْخِيرَ الرّيح لِسُلَيْمَانَ، بأَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُها لِتَسْيِيرِ سُفُنِهِ في أَسْفَارِهَا ذَاهِبَةً مَسِيرَة شَهْرٍ في الْبَحْر، وعَائِدَةً مَسِيرَة شَهْرٍ، وأَرَىٰ أَنَّ هـٰذا خُرُوجٌ عَنْ ظاهِرِ دَلَالَة النَّصّ.

وَتَرْكُ النَّصِّ القرآنِيّ عَلَىٰ عُمُومِهِ، دُونَ تَحْدِيدِ صُوَرٍ خَاصَّةٍ مِنْ صُوَرِ هـٰذا التَّسْخير، هُوَ مِنَ التَّدَبُّر الأَمْثَلِ لِكِتَابِ الله، فالرِّيَاحُ في سُنَّةِ اللهِ التَّكْوِينيَّة لَهَا وَظَائِفُ كَثِيرَةٌ جدّاً، وَقَدْ فَضَّلَ اللهُ عزّ وجلّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام، بِأَنْ جَعَلَهَا مُسَخَّرَةً لَهُ في حُدُودِ مَمْلَكَتِه الَّتي كَانَتْ عَلَىٰ مَا يَذْكُرُ أَهْلُ الْكِتاب مِنَ الْفُرَاتِ إِلَىٰ النّيل، فإذا شاءَهَا رُخاءً أَمَرَهَا فَجَعَلَهَا اللهُ لَهُ رُخاءً، وَإِذَا شَاءَها عَاصِفَةً قَوِيَّةً أَمَرَهَا فَجَعَلَها اللهُ لَهُ عَاصِفَة، واللهُ أَعْلَم بالصُّوَرِ التَّفْصِيلِيَّة.

والمنَّةُ الثانية: دَلَّ عليها في النّصّ قَوْلُ اللهِ تَعالىٰ: ﴿.. وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ .. ﴿١٢﴾﴾:

الْقِطْر: هُوَ في اللُّغَةِ النُّحَاسُ الذَّائب، والْحَدِيدُ الذَّائب.

جَاءَ في كُتُب التفسير أَنَّ اللهَ أَسَالَ لسُلَيْمان عيناً مِنَ الأَرْضِ تُخْرِجُ النُّحَاسَ الذَّائب، أخذاً مِنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ القرآني.

ولَمْ يأتِ عِنْدَ أَهْلِ الكتابِ ذِكْرٌ لِهـٰذِهِ الْعَيْنِ الَّتِي أَسَالَهَا اللهُ لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكِنْ جاء في «قاموس الكتاب المقدس» أنَّ التَّنْقِيبَ أَظْهَرَ في «عصيون جابر» مَسابِكَ للنُّحَاسِ تَرْجِعُ إِلَىٰ عَصْرِ سُلَيْمان.

فالْمُرَجَّحُ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ عَلَّمَهُ أنْ يَتَّخِذَ لِلنُّحَاسِ مَسابِكَ، ذَاتَ أفْرَان عَالِيَةِ الحرارة، يَذُوبُ في «بُوتَقَاتٍ» كبيرَة، وَيُصَبُّ الذَّائب في مَجَارِي كالسَّوَاقي، لِيُصَبَّ في الْقَوالِبِ المصْنوعَةِ لَهُ، حتَّىٰ يَبْرُدَ علَىٰ أَشْكَالِهَا، وَلَعَلَّ هـٰذا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً قَبْلَ زَمَانِهِ، فَكَانَ مِنَ الْعَطَاءَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي وَهَبَها اللهُ لَهُ.

وَيَكْفِي أَنْ يَكُونَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الآمِرَ لِعُمَّالِهِ من الإنْسِ والْجِنّ، وأَنْ يَكُونَ المعَلِّمَ والْمُرْشد، دُون أَنْ يَكُونَ المباشرَ لِلأَعْمَالِ بِنَفْسه، واللهُ أَعْلَم.

المنَّةُ الثالثَة: دَلَّ عَلَيْها في النّصّ قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿..وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾:

وَجَاءَ في سورة (ص/ ٣٨ نزول) قَوْلُ الله عزّ وجلّ مُبَيّناً لقْطَةً ممَّا سَخَّرَ اللهُ لِسُلَيمانَ عليه السلام:

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾:

وجاء في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأنِ بَعْضِ مَا سخَّرَ اللهُ عزّ وجلّ لِسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السّلام:

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

هٰذِهِ النُّصوص الثَّلاثَة مُتكامِلاتُ الدَّلالاتِ فِيما بَيْنَها.

مِنَ الْمَعْلُومِ فِي النُّصُوصِ الدينيَّةِ أَنَّ الشَّيَاطِينَ مِنَ الْجِنّ، لأَنَّ إمَامَهُمْ وَأَوَّلَهُمْ «إبليس» قد ذَكَرَ اللهُ بِشَأْنِهِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، فَكَانَ بِذَلِكَ شَيْطاناً.

فلا مانع مِنْ أَنْ يَكُونَ الّذِينَ سَخَّرَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ لِسُلَيْمان مِنَ الجنِّ هُمْ مِنْ شياطِين الْجِنّ، أَوْ مُعْظَمُهُمْ هُمْ مِنْ شياطين الجنّ.

ودَلَّتْ هٰذِهِ النُّصُوص عَلَىٰ أَنّ المسَخّرِينَ لَهُ مِنَ الْجِنّ كانُوا عِدَّة فِئَاتٍ:

(١) فِئَةٌ تَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ، أي: تَحْتَ مُرَاقَبَتِهِ وسُلْطَانِهِ المباشر، ومَنْ يَزِغْ مِنْ هؤلَاءِ (أي: يمِلْ) عَنْ تَنْفِيذ أَمْرِ اللهِ لَهُ بطَاعَةِ سُلَيْمان، يُذِقْهُ عَنْ طَرِيق بَعْضِ مَلَائِكَتِهِ أَوْ غَيْرِهِمْ بَعْضَ عَذَابٍ مِنْ نَوْعِ عَذَابِ السَّعير، وهي النَّارُ الْمُحْرِقَة.

وهؤلاءِ يَعْمَلُونَ لِسُلَيْمان مَا يَشَاءُ أَنْ يَعْمَلُوه، ومِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ مَا يلي:

(١) **المحَارِيب**: جمع مفرده «مِحْراب» وهو صَدْرُ البيت، وأكْرَمُ مَوْضِعٍ فيه، وأَرْفَعُ بَيْتٍ في الدَّار، وأَرْفَعُ مَكَانٍ في المسْجد، ويُطْلَقُ علىٰ الْقَلْعَةِ وَالحِصْن.

ومَحَارِيبُ بني إسْرَائيل هي مَسَاجِدُهُمُ الَّتي كانُوا يَجْلِسُونَ فيها.

(٢) **التَّمَاثِيل**: جمع مفردهُ «تِمْثَال» وهُو الصُّورَةُ ذَاتُ الْجِسْمِ المماثِلِ لِصُورَةِ جِسْمٍ من الأَجْسَام، ذي حَيَاةٍ أَوْ غَيْرِ ذي حَيَاةٍ.

وجَاءَ في الإصحاح العاشر مِنَ سِفْرِ الْمُلوكِ الأول عند الإسْرَائيليين: «١٨ وعَمِلَ الْمَلِكُ (أي: سليمان) كُرْسِيّاً عَظيماً مِنْ عَاجٍ، وغَشَّاهُ بِذَهَبٍ إبْريزٍ ١٩ وَلِلْكُرْسِيّ سِتُّ دَرَجاتٍ. ولِلْكُرْسِي رَأسٌ مُسْتَدِيرٌ مِنْ وَرَائِهِ وَيَدَانِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ عَلَىٰ مَكَانِ الْجُلُوس وَأَسَدَانِ وَاقِفَانِ بِجَانِبِ الْيَدَينِ، واثْنَا عَشَرَ أَسَداً واقِفَةً هُنَاكَ علَىٰ الدَّرَجَاتِ السِّتّ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ. لَمْ يُعْمَلْ مِثْلُهُ فِي جَمِيعِ الْمَمَالِكِ».

إنَّهُ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ التَّمَاثِيلَ الْمُجَسَّمَةَ لِلأَحْيَاءِ، قد كَانَتْ مُحرَّمَةً فِي الشَّرَائِعِ الرَّبَّانِيَّةِ السَّابقة، وَقَدْ جَاءَ تَحْرِيمُهَا في الرِّسَالَةِ الخاتِمَة سَدّاً للذَّرَائِعِ، حتَّىٰ لَا تُعْبَدَ الأَوْثَانُ من دُون اللهِ عزّ وجلّ.

(٣) الجفانُ الّتِي تُشْبِهُ الجوابي: «**الجِفَانُ**»: جَمْعُ «**جَفْنَة**» وهِيَ الْقَصْعَةُ الّتِي يُوضَعُ فيها الطَّعَامُ لِلآكِلين. «**الْجَوَابِي**» جَمْعُ «**جَابِيَة**» وهي حَفِيرَةٌ في الأَرْضِ كالْحَوْضِ، وقيل: هي الْحَوْضُ الكبير الذي يَجْبِي الْمَاءَ أيْ: يَجْمَعُهُ، ويُتَّخَذُ لِشُرْبِ الإبل.

فهي قِصَاعٌ كَبِيرَةٌ تُشْبِهُ حِيَاضَ الإبلِ، وَفي هـٰذا الْوَصْفِ كِنَايَةٌ عَنْ كَثْرَةِ الآكِلِينَ مِن قِصَاعِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام.

(٤) الْقُدُورُ الرَّاسِيَات: **الْقُدُور**: جمع مفردهُ: «الْقِدْرُ» وهيَ إنَاءٌ يُطْبَخُ فِيهِ الطَّعَام، ويُصْنَعُ مِنْها صغيرات، ومتوسِّطَات، وَكَبِيراتٌ جدّاً تُوضَعُ عَلَىٰ مَوْقِدِهَا دَواماً فَلَا تُنْزلُ عَنْه بَلْ يُغْرَفُ مِنْهَا بالْمَغَارِف. **الرَّاسِيَات**: أي: الثابتات، فَدَلَّ هـٰذا الوصْفَ عَلَىٰ أَنَّها كَبِيرَاتٌ جِدّاً مِنْ بَيْنِ الْقُدُور، فَقَدْ تَتَّسِعُ لِطَهْوِ لَحم أكْثَرَ مِنْ جَمَلٍ وأكْثَرَ مِنْ ثَوْر، فيُبْقِيها النَّاسُ ثَابِتَةً علىٰ مَوْقِدٍ يُصْنَعُ لَها مُلائِمٍ لِحَجْمِها.

وأتْبَعَ اللهُ عزّ وجلّ ذِكْرَ هـٰذِهِ الأَشْيَاء الّتي يَعْمَلُها الْجِنُّ المسخَّرُونَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام، بِذِكْرِ قَوْلِهِ الَّذِي خاطَبَ بِهِ آلَ دَاودَ عليه السلام:

- ﴿... ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ...﴾: أيْ: اعْمَلُوا عَمَلاً صَالِحاً، لأَجْلِ شُكْرِ اللهِ بالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَلَىٰ مَا تَفَضَّل بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعَمٍ كثيرة.

وأَتْبَعَ اللهُ عزّ وجلّ هٰذِهِ العبارةِ الّتِي خَاطَبَ بما يَتَضَمَّنُ مَعْنَاها آلَ دَاود بِقولِهِ:

- ﴿... وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ⑬﴾: **الشَّكُور**: صيغة مبالغة لاسْم الفاعل «شَاكِر». **والشَّكُورُ**: هو الَّذِي يَتقَرَّبُ إلَىٰ اللهِ بِمَحَابِهِ مِنْ عِبادِهِ، فَوْقَ أداء الواجِبَات، وتَرْكِ الْمُحرَّمات، إذْ يَجْتَهِدُ بأداءِ نَوافِلِ العباداتِ ارْتِقاءً في دَرَجات مَرْتَبَةِ الأَبْرَارِ، فَمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ.

ولهٰذا قَالَ الرسُولُ ﷺ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ حينَ سَألُوه عَنْ سَبَبِ كَثْرَةِ إجْهَادِهِ نَفْسهُ بِنَوافِلِ عِباداتِهِ لِربّه، وَقَدْ غَفرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تأخر: «أَفَلا أكُونُ عَبْداً شَكُوراً».

إنَّهُ قَدْ يُوجَدُ شَاكِرُونَ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلاتٍ، ولَكِنْ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ «الشَّكُور».

وَجاءَ بالنِّسْبَةِ إلىٰ مِنَّةِ اللهِ علىٰ سُلَيْمَانَ بِتَسْخِير الْجِنّ له، قول اللهِ تَعالَىٰ في سورة (ص/٣٨ نزول):

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ㊲﴾: أَيْ: وجَعَلَ اللهُ سُلَيْمَانَ مُسَلّطاً علىٰ مَنْ سَخَّرَهُمْ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِين، فَهُوَ يُكَلِّفُ الْقَادِرِينَ مِنْهُمْ عَلَىٰ البناء أَنْ يَبْنُوا لَهُ مَا يأمُرُهُمْ بِبِنَائِه مِنْ مَبَانٍ وحُصُونٍ وقُصُورٍ وقِلاعٍ، ويُكَلّفُ الْقَادِرين مِنْهُمْ عَلَىٰ الْغَوْصِ فِي البِحَارِ أَنْ يَغُوصُوا، لِيَسْتَخْرِجُوا لَهُ مَا يَجِدُونَ فيها مِنْ لُؤْلُؤٍ وغَيْرِهِ مِنْ نَفَائس.

وَمَنْ يَعْصِهِ مِنْهُمْ يَأْمُرُ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ بِأَنْ يَشُدُّوهُمْ بالسَّلاسِلِ والأَغْلَالِ، دَلَّ علىٰ هٰذا قول الله تعالىٰ فيها:

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾: أي: مَشْدُودِينَ فُرَادَىٰ أَوْ مُقْتَرِنين في السَّلاسِلِ، والأَغْلال الْمُلَائِمَةِ لِطَبَائِعهم.

وجاء بالنِّسْبَةِ إلىٰ هـٰذِهِ المنَّةِ أيْضاً قَوْلُ اللهِ تعالىٰ في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: وَكُنَّا لِتَسْخِيرِهِمْ لَهُ حَافِظِينَ، فَمَنْ أَرادَ أَنْ يَزِيغ عَنْ أَمْرِهِ مِنْهُمْ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِير، وهو ما جاء بيانُه في سورة (سَبَأٍ) التي نَتَدَبَّرُ آياتها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً مَشْهَداً مِنْ أَحْدَاثِ مَوْتِ سُلَيْمانَ عليه السلام:

● ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾:

● ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾: أَيْ: فَحِينَ أَمْضَيْنا قَضاءَنَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ إِذْ جَاءَ أَجَلُهُ المقَدَّرُ لِانْتِهَاءِ حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ.

● ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ﴾:

دَابَّةُ الأَرْض: هِيَ الأَرَضَة، دُوَيْبَةٌ تَأْكُلُ الْخَشَبَ ونَحْوَه، أو هي دُودَةٌ تَأْكُلُ الخشبَ ونَحْوَه، وتُعْرَفُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الأَحْيَاءِ باسْم: «النَّمْل الأَبيض» وَهُوَ يأْكُلُ الأَخْشَابَ في المبانِي ويُتْلِفُهَا، ويُعَالَجُ بِمُبيدَاتٍ حَشَرِيَّةٍ قَوِيَّةِ التَّأْثِير.

مِنْسَأَته: **المِنْسَأَة**: بِكَسْرِ الميم وفَتْحِهَا هي الْعَصَا الْعَظِيمةُ، قيلَ: هِيَ كَلِمَةٌ دَاخِلَةٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ من لُغَةِ الْحَبَشَةِ.

جاء في قِصّةِ مَوْتِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلامُ حِكَايَاتٌ لَيْسَ لَهَا أَسَانِيدُ تَجْعَلُهَا ذَاتَ قِيمَةٍ خَبَرِيَّة، فَمِنَ الْخَيْرِ عَدَمُ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهَا.

وَمِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ لَهُ خَلَواتٌ مَعَ رَبِّهِ، فإِذَا دَخَلَ مَكانَهُ الْخَاصَّ الَّذِي يَخْلُو به لَمْ يَجْرُؤْ أحدٌ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ، لِمَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنْ هَيْبَةٍ عَظِيْمَةٍ في الْقُلُوب. وكَانَ لَهُ كُرْسِيٌّ في خَلْوَتِهِ يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَيَتَوكَّأُ فِيهِ علَىٰ عَصَاهُ، وَاضِعاً رَأْسَهُ عَلَيْها يَذْكُرُ اللهَ وَيُسَبِّحُ وَيَتْلُو مِنْ آيَاتِ اللهِ فيما أَنْزَلَ عَلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، وَكَانَتْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْجُلُوسِ الطَّوِيلِ مَعْرُوفَةٌ لَدَىٰ الْجَمِيع، وَرُبَّما كَانُوا يَرَوْنَهُ مِنْ بَعْضِ النَّوَافِذِ إِذَا مَرُّوا مِنْ جِهَتِها جَالِساً عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ مُمْسِكاً عَصَاهُ وَوَاضِعاً رَأْسَهُ عَلَىٰ أَعْلاَهَا، وهُمْ لاَ يَمْلِكُونَ أَنْ يُرَاقِبُوهُ مُرَاقَبَةً دَائِمَةً، وإِنَّما تَكُونُ نَظَراتُهُمْ لَمَحَاتٍ في بَعْضِ الأَوْقَاتِ، فَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُ تَرَكَ مَجْلِسَهُ لِحَاجَاتِهِ ثُمَّ عَادَ، وشَاءَ اللهُ عزّ وجلّ أَنْ يُعَمِّيَ عَنْ كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الإنْسِ والْجِنِّ وَاقِعَ حَاله.

وقَبَضَ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ في أوائل خَلْوَتِهِ عَلَيْهِ السَّلام، وَهُوَ جالِسٌ علَىٰ كُرْسِيّهِ مُمْسِكاً بِعَصَاهُ، وَوَاضِعاً جبينه عَلَىٰ أَعْلاَهَا، وَشَاءَ اللهُ أَنْ يَحْفَظَهُ وَهُوَ عَلَىٰ هـٰذا الْوَضْع مُدَّةً طَوِيلَةً يُدْرِكُ بِها الْجِنُّ أَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ الْقَرِيبَ مِنْهُمْ، وَيُدْرِكُ بها الإنْسُ الَّذِينَ كانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْجِنَّ يَعْلَمُونَ شيْئاً مِنَ الْغَيْبِ، أَنَّ الْجِنَّ لا يَعْلَمُونَ شيئاً مما هو غيب عن حواسهم، فهم لم يعلموا مَوْتَ سُلَيْمانَ وَهُوَ فِي خَلْوَتِهِ دَاخِلَ قَصْرِه، وَهُمْ يُنَفِّذُونَ أَوَامِرَهُ لَهُمْ بأَعْمَالٍ شَاقَّةٍ فيهَا تَعْذِيبٌ لَهُمْ وَإِهَانَةٌ، كَانَ قَدْ أَمَرَهُمْ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ خَلْوَته.

وأَرْسَلَ اللهُ الأَرَضَة تأكُلُ مِنْ عَصَاه لِتَضْعُفَ عَنْ حَمْلٍ مَا تحمل مِن رأسه وجَسَدِهِ فتنكسر.

وَلَمَّا انْتَهَتِ المدَّةُ الَّتِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يُعَمِّي فيها عَنْ كُلِّ مَنْ حَوْلَ سُلَيْمَانَ مِنَ الإِنْسِ والْجِنِّ واقِعَ حَالِ مَوْتِهِ، كَانَتِ الأَرَضَةُ قد انْتَهَتْ مِنْ وَظِيفَتِها الَّتِي أَرْسَلَهَا اللهُ لَهَا، فانْكَسَرَتِ الْعَصَا، فَخَرَّ سُلَيْمَانُ عَلَىٰ الأَرْضِ.

ولَمَحَ مُنَاظِرُو وَضْعِهِ أَحْيَاناً، أَنَّهُ خَرَّ عَلَىٰ الأَرْضِ خُرُورَ الموتىٰ، فَدَخَلَ خَاصَّتُهُ، وَأَعْيَانُ قَصْرِهِ إِلَىٰ خَلْوَتِهِ فَوَجَدُوهُ مَيِّتاً.

عِنْدَئِذٍ: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾: أي: مَا لَبِثُوا يُنَفِّذُونَ الأَعْمَالَ الَّتِي كَانَ قَدْ أَمَرَهُمْ بِتَنْفِيذِها قَبْلَ مَوْتِهِ، وَكَانُوا يَرْهَبُونَ سَطْوَتَهُ، وَمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ عَلَيهم.

وَدَلَّتْ القراءة الأُخْرَىٰ [تُبُيِّنَتِ] عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَ الّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ في الْجِنِّ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ شيئاً مِنَ الْغَيْبِ، قَدْ تَبَيَّنُوا أَنَّ اعْتِقَادَهُمْ فِي الْجِنِّ كَانَ اعْتِقَاداً باطِلاً، وظَهَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِنَّ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً مِنَ الْغَيْبِ الْخَارِجِ عَنْ إِدْرَاكَاتِهِم الحسّيّة.

لَبِثُوا: أي: أقامُوا. **المُهِين**: أي: الْمُذِلّ المخزي.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (سبأ).

والْحَمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وَتوفِيقهِ وفَتحِهِ.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع من دُروس سورة (سبأ) الآيات من (١٥ ـ ٢١)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ

وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

القراءات:

(١٥) ● قرأ الْبَزِّي، وأبو عمرو: **[لِسَبَأَ]** جرّاً بالفتحة عَلَىٰ أَنَّهُ مَمْنُوعٌ مِن الصَّرْف، باعتبار أَنَّهُ عَلَمٌ واسْمٌ للقبيلة.

وقرأها قنبل: **[لِسَبَأْ]** بإسْكانِ الهمزة حِكَايَةً للنُّطْقِ الدارج.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿لِسَبَإٍ﴾** بالجرّ والتَّنوين، مُراعَاةً لأَنَّ اللّفظ اسْمٌ عَلَمٌ لِلْجدّ الأعْلَىٰ.

(١٥) ● قرأ حفص، وحمزة: **﴿مَسْكَنِهِمْ﴾** بالإفراد وفَتْح الكاف.

وقرأها الكسائي، وخلف: **[مَسْكِنِهِمْ]** بالإفراد وكسْرِ الكاف، وهو لُغَة مِمَّا سُمِعَ علىٰ غير القياسِ، إذِ القياسُ «مَسْكَن».

وقَرَأَهَا بَاقي الْقُرّاء العَشَرةِ: **[مَسَاكِنِهِمْ]** بالجمع، إذْ كَانت لهم مَسَاكِنُ مُتَعَدِّدَةٌ فِي قُرَىٰ. وعَلَيْهِ يُحْمَلُ الإفراد، إذْ هو مُضَافٌ إِلَىٰ ضَمِيرِهِمْ.

(١٦) ● قَرَأَ نَافِعٌ، وابْنُ كثير: **[أُكْلِ خَمْطٍ]** بإسْكانِ الكاف، وجَرِّ اللّام مَع التَّنْوين.

وقرأهَا أبُو عَمْرو، ويَعْقُوبُ: **[أُكُلِ خَمْطٍ]** بِضَمِ الْكَافِ، وجَرّ اللَّامِ دُونَ تَنْوينٍ علىٰ أَنَّهُ مُضَاف.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: ﴿**أُكُلٍ خَمْطٍ**﴾ بِضَمّ الكاف، وجرّ اللّامِ مَعَ التّنوِين.

ومؤدّىٰ هـٰذه القراءاتِ واحد. الأُكْلُ والأُكُلُ لغتان بمعنىٰ الثمر.

(١٧) ● قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْن عامر، وَشعبة، وأبو جعفر: [**وَهَلْ يُجَازَىٰ إِلَّا الكَفُورُ**] أي: في أحكام الله القائمة علىٰ العدل.

وقرأهَا بَاقي الْقُرّاء الْعَشرة: ﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ**﴾ بضمير المتكلّم الْعَظِيم.

(١٩) ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وهِشَامٌ: [**رَبَّنَا بَعِّدْ**].

وقرأها يَعْقُوبُ: [**رَبُّنَا بَاعَدَ**] وهـٰذه القراءة تدلُّ علىٰ أن الله عزّ وجلّ اسْتَجابَ دُعَاءَهم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**رَبَّنَا بَاعِدْ**﴾ لفظتَا «بَعِّدْ، وبَاعِدْ» لغتان عَرَبيّتان.

(٢٠) ● قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائِي، وخلَف: ﴿**صَدَّقَ**﴾ بِتَشْدِيد الدّال وفتحها، بِمَعْنَىٰ حَقّقَ إبْلِيسُ باسْتِجَابتهم لإغراءاتِه ظَنَّهُ فيهم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**صَدَقَ**] بفتح الدّال دون تَشْدِيد، بمعنىٰ صَدَق إِبْلِيسُ بِظَنِّهِ أَنَّهُمْ سَيَسْتَجِيبُون لإِغْرَاءاته وإغواءَاته. ونَصْبُ «ظَنَّهُ» علىٰ هـٰذِهِ القراءة هو علَىٰ نَزْعِ الخافِض.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدّرْس عَرْضٌ مُوجَزٌ عَنْ قَوْمِ «سَبَأْ» وهم ساميّونَ مِنَ العَرَبِ العاربَة، ولَيْسُوا مِنْ سُلَالَة «إسْمَاعيل بن إبراهيم عليهما السلام».

وفي هـٰذا الموجز بيَانُ أنَّ اللهَ عزّ وجلّ قَدْ سَلَبَهُمْ مَا كانُوا فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَرِزْقٍ وافِرٍ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وكَثْرَةِ مَعَاصِيهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ بأنْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِم سَيْلَ الْعَرِمِ، إذْ شَقَّ الرَّدْمَ الَّذِي جَعَلُوهُ سَدّاً في «مَأْرِب» يحْجُزُ وَرَاءَهُ مَاءً كَثيراً، يَسْقُونَ مِنْهُ مَزَارِعَهُم وَبَسَاتِينَهُمْ، فانْدَفَعَ الْمَاءُ سَيْلاً مُدَمِّراً، فأتْلَفَ مَزَارِعَهُمْ، وأغْرَقَ بُيُوتَهُمْ، فَتَفَرَّقُوا في الْبِلَادِ، وَمَزَّقَهُمُ اللهُ أَشْتَاتاً.

وفي هـٰذا الْعَرْض الموجَزِ إنْذَارٌ لِكُفَّارِ قُرَيشٍ بأنَّ اللهَ عزّ وجلّ قَدْ يَجْزِيهِمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِسَلْبِهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ وأمْوَالٍ يُفَاخِرُونَ بِها، وَيرَوْنَ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ بها مِنَ الرَّسُول مُحمَّدٍ ﷺ ومِنَ الَّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، إذْ كَانَ هَؤُلَاءِ حِينَئِذٍ فُقَرَاءَ ضُعَفَاء، وفيه إنذارٌ لِكُلِّ أمْثَالِهِمْ حتَّىٰ آخِرِ النَّاسِ في الأرض.

موجز مُختارٌ مِنْ قِصَّة «سَبَأ» عِنْدَ المؤرّخين:

«سَبَأٌ» قَوْمٌ مِنَ العَرَب العاربة، يُنْسَبُونَ إلىٰ جَدِّهِمْ الّذِي اشْتَهَرَ باسْمِ «سَبَأ» وكانَ أَوّلَ مُلُوكهم، واسْمُهُ علىٰ مَا يَذْكُرُونَ «عَبْدُ شَمْس بن يَشْجب بن يَعْرُب بن قَحْطَانَ» ويقال: إنّه أوّلُ مَنْ لَبِسَ تَاجاً في الْعَرَب، تَقْلِيداً لِمُلُوكِ الْفُرْسِ، ويُلَقَّبُ الْمَلِكُ مِنْهُم بلَفْظِ «تُبَّع» ومنهم الملكة «بلْقِيس» التي كانت ملكة عليهم في عهد سُلَيمان عليه السلام.

وقومُ «سبأ» يَجْمَعُونَ عشرة قبائل، سِتَّةٌ مِنْهم يمانيون، وأرْبعَةٌ مِنْهُمْ شَامِيّون.

فالْيَمَانِيُّونَ مِنهم هم: «مَذحج، وكِنْدة، والأَزْد، والأشْعَرِيُّون، وَأَنْمار، وحِمْيَر».

والشّامِيُّونَ منهم هُمْ: «لَخم، وجذام، وَعَامِلَة، وغَسَّان».

وكانت قبائِلُ «سبأ» في اليمن في نِعْمَةٍ عظيمة، وأرْزَاقٍ دَارَّةٍ، وثمارٍ وزُرُوعٍ كثيرة.

وكانُوا أهْلَ اسْتِقَامَةٍ وسَدَادٍ، وحِكْمَةٍ ورَشاد.

ثُمّ تَحَوَّلُوا إلَىٰ الشَّرّ والإثم والفسادِ والإفساد.

فسَلَبَهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ ما كانوا فيه مِنْ رَفاهِيَةٍ ونِعَمٍ وافِرَةٍ، وحَيَاةٍ سَعِيدة، إلىٰ ضَنْكٍ وقِلَّةٍ ومُكابَدَةٍ وَشظَفٍ مِنَ العيش.

كانَ لَهُمْ في «مأرِب» مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ سَدٌّ بَيْنَ جبلَيْنِ، أنْشَأَهُ أَجْدَادُهُمْ، وقَدْ حَجَرُوا وَرَاءَ هـٰذا السَّدِّ مِيَاهاً كَثِيرَة مِنَ الْعُيُونِ والأَمْطَار، وأتْقَنُوا بِحَسَبِ مُسْتَواهُمُ الحضاريّ طُرُق الانْتِفاع بها لِسَقْي مزارِعِهِمْ وَبَسَاتينهم ولسائر حَاجاتهم من الماء.

قيلَ: إنَّ اتِّسَاعَ مُسَطَّح الماء وَرَاءَ السَّدّ يَبْلُغُ نَحْو فَرْسَخٍ في فَرْسَخ، **الفرسخ**: ثَلاثَةُ أميال، ويُقَدَّرُ الميل بنحو (١٦٠٩م طولاً).

وكانَ لِسَبأ جنَّتان، مُتَقابِلَتَان مُمْتَدَّتَان، وكانت مَساكِنُهُمْ وقُراهُمْ بَيْنَهما، وَفي كُلِّ جَنَّةٍ مِنْهُما بَسَاتِينُ وَحَدَائِقُ كَثِيرَةٌ وَمَزَارِعُ مُتَعَدِّدَة.

قالُوا: وقَدْ مَنَحَ اللهُ عزّ وجلّ أَرْضَهُمْ وبِلَادَهُمْ مُنَاخاً طَيّباً، وَهَوَاءً نَقِيّاً.

فَلَمَّا فَسَدُوا سَلَّطَ اللهُ عزّ وجلّ علىٰ سَدّهِمْ عَوامِلَ هَدْم، فانْهَدَمَ وتَدَفّقَ الماءُ الحبيسُ وَرَاءَهُ عَلَيْهِمْ سَيْلاً شَدِيداً عَرِماً لَا يُطَاقُ صَدُّه ولَا مُقَاومَتُه، فأغْرَقَ دِيارَهُمْ وَمَزَارِعَهُمْ وَبسَاتِينَهُمْ، وأَتْلَفَ أرْزَاقَهُمْ، وجَعَلَ بَدَلَ جنَّتيهم النّفيسَتَيْنِ، جَنّتَيْنِ ذَوَاتَي أَشْجَارٍ رَديئة سَيِّئَةِ الثَّمَر، إلّا قَلِيلاً مِنْ أشجار السِّدْر.

وانْتَقَلَ مَنِ انْتَقَلَ مِنْ سَبأ إلَىٰ مَوَاطِنَ شَتّىٰ، وقَالُوا إنّ الأوْسَ والخَزْرَجَ في المدينة مِنَ السّبئِيّينَ الّذينَ هَاجَرُوا من اليمن إلىٰ المدينة (يَثْرِب قَبْلَ هِجْرَة الرَّسُولِ ﷺ إليها).

وكان من المناسب بَعْدَ عَرضِ لَقَطاتٍ مِنْ قصّة سُليمان المنْعَم عليه الشاكر، أن يأتي في البيان عَرْضٌ لِقِصَّةِ «سبأ» الَّذين أنعم اللهُ عليهم فكَفَرُوا فَسَلَبَهُمْ اللهُ وافر النِّعْمَة، وفي هٰذا موعظة للمعاندين إبّانَ التنزيل، ولأَمْثالهم من بَعْدِهم.

التدبر التحليلي:

- قول الله تعالىٰ:

• ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: **[في مَسَاكِنِهِمْ]** بالجمع، والمؤدَّىٰ واحدٌ، فالْمُرَادُ الْبِلَادُ والْقُرَىٰ الّتي كانُوا يَسْكُنُونها، هِيَ في مُجْمَلِهَا: «مَسْكَنٌ» وأفرادُها: «مَساكن».

أي: يُؤَكّدُ اللهُ لَكُمْ أيُّها المصِرُّونَ عَلَىٰ كُفرِكُمْ، أَيُّها المشرِكُونَ في مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ «بلام القسم و«قَدْ» الّتي للتَّحْقيق» أَنَّ قَوْمَ سَبأ كَانَ لَهُمْ في مَسْكَنَهِمْ آيَةٌ مِن آياتِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهم، الَّتِي يَجِبُ عليهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا رَبَّهُمْ عَلَيْها، بالإيمَانِ الصَّحِيح الخالي مِنَ الشِّرْكِ، وبالإسْلَام لَهُ وَطَاعَتِهِ في أوَامِرِهِ وفي نواهيه.

هٰذِهِ الآيَةُ هِيَ أَنْ جَعَلَ لَهُمْ بِتَوْفيقِهِ وَتَيْسِيرِهِ وعِنَايَتِهِ، جَنَّتَيْنِ عَنْ يَمِينِ مَسَاكِنِهِمْ وعَنْ شمَالِها، فَالْمَاشِي في الطَريق الْمُمْتَدِّ مِنْ أَوَّلِ مَساكِنِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِهَا ذهَاباً أَوْ إياباً يَجِدُ بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ وَمَزَارِع جَمِيلَةَ المنْظَرِ، وافِرَةَ الثَّمَراتِ، كَثِيرةَ الْعَطاءِ مِنَ الأَرْزَاقِ لِلْقَوْمِ وأَنْعَامِهِمْ وَدَوابّهم.

وكَانَتْ هَاتَانِ الجنَّتَانِ تُسْقَيَانِ مِنَ المياهِ المخزونَة وَرَاءَ سَدِّ مأْرب، إِذْ أَلْهَمَ اللهُ السَّبَئِيِّين وَوَفَّقَهُمْ أَنْ يُحْسِنُوا الاسْتِفَادَة مِنَ المياهِ، وَتَوْزِيعِها بالسَّوَاقِي والْمَجَارِي تَوْزِيعاً بمَقَاديرَ مُناسِبة.

«جَنَّتَانِ» بَدَلٌ من «آيَة».

وكانَتْ حَالَتُهُمْ قَبْلَ أَنْ يُجازِيَهُمُ اللهُ بِسَلْبِ وافِرِ نِعَمِه عليهم تُشْبِهُ حَالَتَكُمْ أَيُّهَا المشرِكُونَ، فأَنْتُمْ فِي مَكَّةَ في قَرْيَةٍ آمِنَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ يَأْتِيها رِزْقُهَا رَغداً مِنْ كُلِّ مَكان، فَلَا تُسَبِّبُوا لأَنْفُسِكُمْ بالكُفْرِ بما جاءَكُم بِهِ رَسُول رَبِّكُمْ أَنْ يُنْزِل الله بِكُمْ نَظِيرَ مَا أنزَل بِقَوْمِ «سَبأ».

- ﴿.. كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾:

دَلَّ هـٰذا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَرْسَل إِلَيْهِمْ مَنْ يَعِظُهُمْ، ويأمُرُهُمْ بِأَنْ يَشْكُرُوا لِرَبِّهِمْ، ولَا يَكْفُرُوه، وَيُذَكِّرُهم بأَنَّهُ هُوَ الّذِي جَعَلَ لَهُمْ بَلْدَةً طَيّبَةً وافِرَةَ الْعَطاءِ مِنَ الأَرْزَاقِ، حَسَنَة المُنَاخ والهواء، نَقِيَّةً مِنَ الأَوْباء. ويُطْمِعُهُمْ بأَنَّ اللهَ غَفُورٌ يَغْفِرُ لَهُمْ إذا آمَنُوا بِهِ إيماناً صَحِيحاً خالِياً من الشِّرْكِيَّاتِ، وأسْلَمُوا لَهُ وَأَطَاعُوا، بِفِعْلِ الواجِباتِ، وتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ.

ولَا بُدَّ أَنْ تَقْتَرِنَ هـٰذِهِ الموعظَةُ بالتَّرْغيب تَبْشيراً، وبالتَّرْهِيبِ إِنْذاراً.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾: **الطَّيِّبُ**: ضِدُّ الخبيث، والطَّيبُ مِنَ الأرض ما كَانَ منها خَصِيباً حَسَنَ الإِنْبَاتِ. والطيبُ مِنَ الشجر هو الذي يُؤْتي أُكُلَهُ جيّداً بإِذْنِ رَبِّهِ. والطّيّبُ مِنَ الْبَلْدَاتِ ما كَانَ خَالِياً مِنَ الأَوْبِئَةِ، جَيّدَ الْهَوَاءِ، مُعْتَدِلَ دَرجَاتِ الْحَرارَةِ. والمعنىٰ: هـٰذِهِ بَلْدَتُكُمْ بَلْدَةٌ طيّبَة.

- ■ قوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

- ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾: أيْ: فَلَمْ يَسْتَجيبُوا لِمَا دَعاهُمْ إِلَيْهِ دَاعِيهِمْ إِلَىٰ اللهِ، المنْذِرُ لَهُمْ بِعِقَابِهِ. **الإِعْرَاضُ**: وَسَطٌ بَيْنَ الإِقْبَالِ والإِدْبَارِ.

- ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾: جاء في تفسير الْعَرِمِ عِدَّةُ وجوه، أَحْسَنُهَا فيما أرىٰ أَنَّ «الْعَرِمَ» اسم للسَّدِّ في اللُّغَةِ، قَالَ الْمُبَرِّد: «الْعَرِمُ: كُلُّ شَيْءٍ حَاجِزٍ بَيْنَ شَيْئَيْن» ومَعْلُومٌ أَنَّ الْمَاءَ الكَثِيرَ الْمخزُونَ وَرَاءَ السَّدِّ إِذَا انْهَدَمَ السَّدُّ تَدفَّقَ سَيْلاً شَدِيداً لَا يُطَاقُ صَدُّهُ، ولَا يَسْتَطِيعُ الناسُ مُقَاوَمَتَهُ، فَلَا وَسِيلَةَ لَهُمْ إِلَّا الْهَرَبُ، وَتَرْكُ كُلّ شيء.

ومِنْها نَدْرِكُ اختِيَارَ كَلِمَةِ «الْعَرِم» مِنْ أَسْمَاءِ السَّدِّ، لِمَا فيها لُغَةً مِنْ مَعْنَىٰ الشِّدَّةِ أَيْضاً، يُقَالُ لُغَة: «عَرَمَ فُلَانٌ يَعْرُمُ عَرْماً» أي: اشْتَدَّ، وخَبُثَ، وكَانَ شِرِّيراً. وكَذَلِكَ «عَرِمَ، يَعْرَمُ، عَرَماً، فَهُوَ عَرِمٌ» أي: صَارَ شَدِيداً شَرِساً. وعَلَىٰ هٰذا يُمْكِنُ أَنْ تُفْهَمَ العبارة علىٰ الوجْهِ التالي: فأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْمَاءِ الشَّدِيدِ الْعَنِيفِ المتَدفِّقِ بالْوَحْل، فَمِنْ مَعَانِي «عَرِمَ الشَّيْءُ» كانَ فِيهِ سَوَادٌ مختَلِطٌ بِبَيَاضٍ.

وبَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ، وَاتْلَفَ مَزَارِعَهُمْ، وَدَمَّرَ مَسَاكِنَهُمْ، وَأَهْلَكَ كثيراً مِنْ بَهائِمِهم، هَاجَرَ مِنْهُمْ مَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ مَنَازِل شَتَّىٰ، وبقي مَنْ بقي مِنْهُمْ عَلَىٰ شَظَفٍ، يُرَمِّمُونَ وَيَسْتَصْلِحُونَ عَلَىٰ مَقَادِير طَاقَاتِهِمْ، وكانَ حَالُهُمْ كَمَا وصَفَ اللهُ عزّ وجلّ:

- ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾:
- ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ وفي القراءة الأُخْرىٰ: **[أُكُلِ خَمْطٍ]: الأُكُل.**

والأُكُلُ: الثَّمَرُ الَّذي يُؤكَلُ مِنَ الشّجر. **والْخَمْطُ**: يأتي بمعنىٰ: الْحَمْلِ الْقَلِيل مِنْ كُلّ شجر. ويَأْتي بمعْنَىٰ الْمُرّ مِنْ كُلّ شيءٍ، وكُلُّ نَبْتٍ أَخَذَ طَعْماً مِنْ مَرَارَة. ويُطْلَقُ عَلَىٰ صِنْفٍ مِنْ شَجَرِ الأَرَاك لَهُ ثَمرٌ يُؤْكَلُ. قَالَ المبرِّد: كُلُّ شيءٍ تَغَيَّرَ إِلَىٰ مَا لَا يُشْتَهَىٰ يُقَالُ لَهُ: خَمْط.

هٰذِهِ المعاني كلُّها صَالِحَةٌ لأَنْ تُفَسَّرَ بِها الْعِبَارَةُ هُنَا.

فقراءَةُ: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ تُفسَّرُ بِثَمرٍ مُرٍّ، أو فيه مَرَارَةٌ غَيْرُ مُحَبَّبَةٍ لَا

تُشْتَهَىٰ. وتُفَسَّرُ بِثَمَرِ شَجَرٍ قَلِيلِ الْحَمْلِ. وتُفَسَّرُ بِثَمَرِ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الأَرَاكِ. وكُلُّ هـٰذِهِ صَالِحَةٌ لأَنْ تُفْهَمَ معاً مِنْ هـٰذِهِ العبارة.

وقِراءَةُ [**أُكُلِ خَمْطٍ**] بإضافَةِ لَفْظِ «أُكُل» إلىٰ لفظ «خَمْط» تُفَسَّرُ بِثَمَرِ شَجَرٍ قَلِيلِ الْحَمْلِ. وَتُفَسَّرُ بِثَمَرِ شَجَرِ أَرَاكٍ. وتُفَسَّرُ بِثَمَرِ شَجَرٍ ذِي مَرَارة. وتُفَسَّرُ بِثَمَرِ شَجَرٍ تَغَيَّرَ إلىٰ مَا لَا يُشْتَهَىٰ.

وكُلُّ هـٰذِهِ المعاني أيْضاً صَالِحَةٌ لأَنْ تُفَسَّرَ بِها هـٰذِهِ الْقِرَاءة.

دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَىٰ معْنَيَيْهِ فَأَكْثَرَ من مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلَيْهِ مُعْظَم الأئِمَّةِ المجتَهِدينَ، ومِنْهم «مالِكٌ، والشَّافِعيُّ، وأحْمَدُ» رَحِمَهُمُ اللهُ ورَضي عنهم، وهو الملائِمُ لِمَا يُفْهَمُ من كثيرٍ مِنَ الكلمات القرآنية ذَوَاتِ المعاني المتعدّدة.

وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ أَرَاضِيَ الجنَّتَيْنِ قَدْ تَلِفَتْ فِيها الأَشْجَارُ ذَواتُ الثَّمَرِ النَّفِيسِ المحبَّبِ للنَّاس، وبقِي فيها وَتكاثَرتِ الأَشْجَارُ الَّتي تَنْبُتُ في الفيافي القاحِلَةُ، ذَوات الثمر المرِّ، أو الطَّعْمِ غَيْرِ المستَحَبِّ للناس.

- ﴿وَأَثْلٍ﴾: **الأَثْلُ**: شَجَرٌ عظيم مِنْ شَجَرِ الْعِضَاه، مِنَ الْفَصِيلَةِ الطَّرْفَاوِيَّة، طَوِيلٌ مُسْتَقِيمٌ يُعَمِّر، وهُو جَيِّدُ الخشب، كثير الأَغْصَانِ مُتَعَقِّدُها، دَقيق الورق، واحِدَتُهُ: «أَثْلَة».

- ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾: أَيْ: وَشيءٍ قَلِيلٍ مِنْ شَجَرِ السِّدْر.

السِّدْرُ: شَجَرٌ مَعْرُوفٌ في الجزيرة الْعَرَبية، ولَهُ ثَمَرٌ يُقَالُ له: النَّبِقُ، يَنْبُتُ في الجبال والرَّمْل. ويُسْتَنْبَتُ فيكُونُ أَعْظَمَ وَرَقاً وثمراً، وأَقَلّ شَوْكاً، ولَا يَنْثُرُ وَرَقَهُ، وهو من الأشجار المعمِّرَة، الّتي تُقِيمُ نَحْوَ مائةِ عام. ولَهُ فَوائِدُ وخَصَائِصُ عِلَاجِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، يَعْرِفُها الّذينَ يُمَارِسُونَ الْعِلَاجَ الطبّيَّ بِالنَّباتَات.

- ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: ذَٰلِكَ الْجَزَاءَ الَّذِي بَيَّنَّاهُ في الآيَة السَّابِقَةِ جَزَيْنَا قَوْمَ سَبَأ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ كُفْراً هُو مِنَ الْكُفْرِ الموغِلِ في الخِسَّة. وقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا المستوىٰ المنحطِّ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ في الآيةِ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ الاستفهام يُرَادُ بِهِ في هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ النَّفْي، أي: وَنَحْنُ مِنْ سُنَّتِنَا في عِبَادِنا أَنَّنا لَا نُجازِي في هَـٰذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيَا مِثْلَ هَـٰذا الجزاءِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ بِقَوْمِ سَبَأْ، إلَّا مَنْ كَانَ كَفُوراً، فَدَلَّ هَـٰذا علىٰ أنّ هؤُلَاءِ الْقَوْم قَدْ وَصَلَ مُعْظَمُهُمْ إِلَىٰ دَرَكَةِ مَنْ هُو كَفُورٌ.

الكَفُور: صيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسْم الْفَاعِلِ «كافر» أيْ: مَنْ كانَ مُوغِلاً في ظُلُماتِ الكُفْرِ، مُعَانِداً مُجْرِماً جَاحِداً لِلْحَقِّ وَهُوَ عَالِمٌ بِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ البَطَرِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ قَوْمُ سَبَأْ مِنْ دُونِ الْكُفْر:

- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾:

قيلَ: كان للسَّبَئيّينَ رِحْلَاتٌ تجارِيَّةٌ إِلَىٰ قُرىٰ بلاد الشَّام، يَحْمِلُونَ فيها مِنْ مَأرِبَ مِنْ مُنْتَجاتِهِم الزراعيَّة وغيرها في قَوافل لِبَيْعِهَا في قُرىٰ بِلَادِ الشَّامِ، وَيَجْلُبُونَ مِنْ بِلَادِ الشَّام مَا يَحْتَاجُ قَوْمُهُمْ إِلَيْهِ.

فقُرَىٰ بِلَادِ الشَّام هِيَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فيها، ولَمَّا كانَتْ رِحْلَاتُهُمْ كثيرةً، في قَوافِلَ مُتَعَدِّدَةٍ، كانَ مِنْ مَصْلَحَةِ سُكَّانِ البِلَادِ الَّتِي تَقَعُ قريبة مِنْ طَرِيقِهِمْ، أَنْ يُقِيمُوا مَرَاكِزَ ظَاهِرَةً لِقَوَافِلِهِمْ ولَوْ كَانَتْ عَلَىٰ شَكْلِ قُرىً صَغِيرَةٍ، لِحَطِّ رِحَالِهِمْ عِنْدَهَا بُغْيَةَ الاسْتِرَاحَةِ والتَزوُّدِ، وَيَسْتَفِيدُ أَهْلُ

هـٰذه الْقُرَىٰ الظَّاهِرَةِ مِن قوافِلِ السَّبَئِيّينِ أمْوالاً، ويَشْتَرُونَ مِنْهُمْ بَعْضَ مَا يَحْمِلُونَ مِنْ بِلادِهِم في تجاراتِهِم، فَمِنْ شَأْنِ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْمُسَافِرُونَ بِكَثْرَةٍ، أَنْ يُنْشِيءَ السُّكَّانُ الْقَرِيبونَ عِنْدَ كُلِّ مَكانٍ تَنْزِلُ عِنْدَهُ الْقَوافِلَ مَبانِيَ لاسْتِرَاحَةِ أَهْلِهَا، وَتَزْوِيدِهم بالْمَاءِ والْغِذَاءِ الَّذِي يَطْلُبُونه.

وَقَدْ أَبْطَرَتْ هـٰذِهِ النِّعْمَةُ السَّبَئِيّين، ولعَلَّ السَّبَبَ رَغْبَتُهُمْ في أَنْ تَكُونَ مَنَازِلُهُمْ عِنْدَ حِلِّهِمْ خَاصَّةً بِهِمْ، لَا يُشَارِكُهُمْ فيها أَحَدٌ مِنْ أصْحَابِ الْبِلَادِ الَّتِي تَقَعُ في طَرِيقِهِمْ، إذْ لَهُمْ في حِلِّهِمْ أَعْمَالٌ خَاصَّةٌ، لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ وهُمْ يُمَارِسُونها، فقالُوا رَبَّنَا: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وَبَعْدَ أَنْ بَاعَدَ اللهُ بَيْنَ أسْفَارِهِمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بارْتِكَابِ الْمَعَاصِي والجرائم، ورُبّما كَانُوا يَنْحَرِفُون إذَا اقْتَرَبُوا مِن بَعْضِ الْقُرَىٰ الظَّاهِرَةِ عَنِ الطَّرِيق، ويَحِلُّونَ في أَرْضٍ بَعِيدَةٍ عَنْها، ثُمَّ يَعُودُونَ إلىٰ طَرِيقِهم.

فَعَاقَبَهُمُ الله فَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ تُرْوَىٰ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أُمَّةً ذَاتَ شَأْنٍ بَيْنَ الأُمَمِ، وشَتَّتَهُمْ في بُلْدانٍ كثيرةٍ، ومَزَّقَهُمْ تَمْزِيقاً شَدِيداً.

- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً . . ⑱﴾:

إنَّ الله عزّ وجلَّ يُلْهِمُ الْبَشَرَ في ظُرُوفِهِم المخْتَلِفَةِ مَا يُحَقِّقُونَ بِهِ مَنَافِعَهُمْ، فَمَا يَحْصُلُ فِي الوَاقِعِ مِنْ أَعْمَالِهِم هُوَ مِنْ جَعْلِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ لأَنَّهُ الْمُلْهِمُ، وخَالِقُ قُدُراتِ النَّاس، وَخَالِقُ مَا يَصْنَعُون، فَهُو الّذِي جعَلَ بَيْنَ السّبئيّين المُسَافِرينَ مِنْ مَأْرِب، وبَيْنَ الْقُرَىٰ الّتي بَارَكَ فيهَا، وهِيَ قُرَىٰ بلاد الشَّام، قُرىً ظاهِرَةً عِنْدَ الْمَنازِلِ الَّتِي تَحِلُّ فيها قَوافِلُهُمْ فِي نِهَايَةِ كُلِّ مَرْحَلَةٍ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيانُهُ فيما أَرَىٰ.

- ﴿. . وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ . .﴾: أي: وَجَعَلْنَا سيْرَهُمْ في الأَرْضِ الفاصِلَةِ بَيْنَ الْقُرَىٰ الظَّاهِرَة مُقَدَّراً بِحَسَبِ مُعْتَادِ الْقَوافِلِ المسافِرَة في حِلِّهَا وَتَرْحَالِها، الملائمَيْن لحَاجَاتِها من الاسْتِرَاحَةِ والتَّزَوُّدِ والْمَسِير.

- ﴿. . سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾: أي: قال اللهُ عزّ وجلَّ بأمْرِ التَّكْوين عِنَايَةً بهم هـٰذا القول، وهـٰذا يَدُلُّ علىٰ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ إنْسَانِيٍّ مَقْرُونٌ بأمْرِ التكوين الرَّبَّاني.

فكانُوا يسِيرونَ بِقَوافِلِهِمْ غُدُوّاً ويَحِلُّونَ، وبَعْدَ أَنْ يَسْتَرِيحُوا هُمْ وإبِلُهُمْ وَدوابُّهم، ويَنَالُوا مَا يكْفِيهم مِنَ الغذاء والماء، يَرْحَلُونَ فَيَسِيرون عَشِيّاً.

وجَعَلَهُمُ اللهُ في رِحْلَاتِهِمْ هـٰذِهِ آمِنِينَ.

- ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا. .﴾: دَعَوْا رَبَّهُمْ وَهُمْ عُصَاةٌ لَهُ بِأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَنَازِلَ يَنْزِلُونَ فيها مُنْفَرِدِينَ، دُونَ أَنْ يُرَاقِبَهُمْ فيها أَهْلُ البِلَادِ الْقَرِيبَةِ مِنْ هـٰذِهِ المنازل.

وَيظْهَرُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِم كما طَلَبُوا.

- ﴿. . وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ. .﴾: أَيْ: وَصَارُوا يَرْتَكِبُونَ الْمَعَاصِيَ والآثَامَ وَالْجَرائِم وَيَظْلِمُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ، لأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَها لِعِقَاب اللهِ علىٰ مَا يَكْتَسِبُونَ.

- ﴿. . فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ. .﴾: أي: فَبَعْدَ أَنْ كَانُوا أُمَّةً مَشْهُودَةَ الْقُوَّةِ والْمَكَانَةِ، أصْحَابَ سِيَادَةٍ بَيْنَ الأُمَمِ، عزَلْنَاهُمْ عَنْ مَكَانَتِهِمْ، وَسَلَبْنَاهُمْ قُوَّتَهُمْ، وَسَلَّطْنَا عَلَيْهُمْ مَنْ غَلَبَهُمْ وصَارَ حَاكِماً عَلَيْهِمْ في بِلَادِهِمْ، وَصَارَ مَجْدُهُمُ السَّابِقُ أَحَادِيثَ يُتَحَدَّثُ بِهَا فِي الْمَجَالِسِ، وَقِصَصاً تُرْوَىٰ عَنْ أُمَّةٍ كانَتْ فِي الْيَمَنِ ذاتَ شَأْنٍ وَمَجْدٍ وَقُوَّة.

- ﴿. . وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ. .﴾: أي: وجَزّأنَاهُمْ غَايَةَ التَّجْزِئَةِ في مُخْتَلِفِ الأَمَاكِنِ والْقُرَىٰ والمنازِل، لفظ «كُلّ» نائب عَنْ مَفْعُول مُطْلق، **والمعنىٰ**: ومَزَّقْنَاهُمْ تَمْزِيقاً كُلَّ تَمْزِيقٍ.

وسبَقَ وَافي التحليلِ في تدبُّرِ الآيةِ (٧) من هـٰذِهِ السُّورة.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾:

أي: إنَّ في ذَلِكَ الَّذي كَانَ مِنَ السَّبَئِيّينَ، والَّذي كَانَ مِنْ تَصَارِيفنا الحكيمة فيهم، ومُتَابعَتِنَا لَهُمْ بالْعِقَابِ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُه، لَعَلَامَاتٍ علَىٰ سُنَّةِ اللهِ في عبادِهِ الموْضُوعينَ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ، يَسْتَفِيدُ مِنْهَا وينْتَفِعُ بها كُلُّ صَبَّارٍ مَعَ تَتَابُعِ الزَّمَنِ عَلَىٰ فِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، كثير الشُّكْرِ للهِ بِالتَّقرُّب إلَيْهِ بِمَحَابِّهِ مِنْ نَوَافِلِ العباداتِ والْقُرُبَات، فَهُوَ بذلِكَ مُرَشَّحٌ لأَنْ يكون مِنَ الأَبْرَارِ فالمحسنين.

صَبَّار: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسْم الْفَاعِلِ «**صَابِر**» أي: هو كَثِيرُ الصَّبْرِ علىٰ ابْتِلَاءَاتِ اللهِ لَهُ بالأَعْمَالِ الشَّاقةِ وبالْمَكَارِهِ.

شَكُور: صيغة مبالَغَةٍ لاسم الفاعل «**شاكر**» أي: هو كثير الشُّكْرِ لله بالتَّقرُّبِ إلَيْهِ بالنَّوافِلِ مِنَ الْعِبادَات.

أمَّا مَنْ هو غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لأنْ يَكُونَ صَبَّاراً شَكُوراً، فإنَّهُ يَسْتَمْتِعُ بأخبارِ الأَوَّلِينَ وَقِصَصِهِمْ، ولَا يَنْتَفِعُ بِمَا فيها مِن آيَاتٍ دَالَّاتٍ علَىٰ سُنَنِ اللهِ في عِبادِهِ، بَلْ يَبْقَىٰ غارِقاً في مَعَاصِيهِ، كافراً بنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، ودَوَافِعُهُ الضَّعِيفَةُ للاسْتِقَامَةِ والتَّخلِّي عمَّا هُوَ فيهِ من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا وَلَذَّاتِها، تكُونُ بَارِدَةً سَاكِنَةً مسْتَرخيةً لَا تَنْشَطُ لِفِعْلِ خَيْرٍ مِنْ مَرَاضِي الله عزّ وجلّ.

■ قول الله تَعالَىٰ مُتابعاً الحديثَ عَنْ قَوْمِ «سَبأ»:

• ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾. وفي القراءة الأُخْرىٰ: [**صَدَقَ**] بفتح الدّال دون تَشْدِيد.

جاء في سَوَابِق نُجُوم التَّنْزِيلِ، أَرْبَعةُ نُصوصٍ بِشَأْن إبليسَ عَلَيْه لَعْنَةُ اللهِ بَعْدَ مُحاكَمَةِ اللهِ لَهُ، والْحكمِ عَلَيْهِ بالطَّرْدِ، لأَنَّهُ عَصَىٰ رَبَّهُ بِعَدَمِ السُّجُودِ لآدَمَ مع السَّاجِدِينَ مِنَ الملائكة، وكَانَ هُوَ مَشْمُولاً بأَمْرِ السّجود، وبِإِصْرَارِه عَلَىٰ عِنَادِهِ وَاسْتِكْبَارِه عَنْ طَاعَة رَبّه بالسُّجُودِ لآدَم، وفي هٰذه النُّصُوص الأَرْبَعَة بَيَانُ الكَيْدِ الَّذِي عزمَ إبْلِيسُ أَنْ يَكِيدَهُ لآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ بإِغْوَائِهِم وإِغْرَائِهِم لِصَدهم عَن صِرَاط الله الْمُسْتَقِيم أو إخراجِ سَالِكِيه مِنْهُمْ، ورأىٰ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَبادَ اللهِ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ الْمُخْلَصِينَ، وهؤلَاءِ في ذُرِّيَةِ آدَمَ قَلِيلُون، وَكَانَ هٰذا مِنْهُ ظَنّاً مَبْنِيّاً عَلَىٰ مَا عَلِمَ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَان وضَعْفِ إرادتِهِ أمَامَ شَهَوَاتِهِ وَأَهوائِهِ وغَرَائِزه ومطالِبِهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا.

ـ فجاء في سورة (ص/ ٣٨ نزول) بِشَأْنِ ما عزمَ عَلَيْهِ مِنْ كَيْدٍ لِذُرّيَةِ آدم.

قول اللهِ عزّ وجل:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وفي القراءة الأخرىٰ: [**المخلِصين**] بكسر اللام.

ـ وجاء في سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ـ وجاء في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول):

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

ـ وجاء في سورة (الحجر/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وفي القراءة الأخرىٰ: **[المخْلِصِينَ]** بكسر اللام.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰـذِهِ النُّصُوصِ في مَوَاضِعِهَا مِنْ سُوَرِها.

ولـمَّا كَانَ أَكْثَرُ السَّبَئِيّينَ مِنَ الَّذين اتَّبَعُوا إبْلِيسَ وَجُنُودَهُ، مُتَأَثِّرين بوسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ وإغْرَاءَاتِهِ وإغْوَاءَاتِهِ، كَانُوا مِن الَّذِينَ حَقَّقَ فِيهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ إذْ قالَ لِرَبِّهِ: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ وَنَحْوَ هٰـذا فِي النُّصُوصِ الأُخْرَىٰ.

إنَّ هٰـذا لَمْ يَكُنْ مِنْ إبْلِيسَ عِلْماً بِالْغَيْبِ، إنَّما كَانَ ظَنّاً مُسْتَنِداً إِلَىٰ مَا عَلِمَ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَانِ، وَقِيَاساً عَلَى خِبْرَتِهِ بواقِعِ حَالِ الْجِنِّ الْمخلُوقِينَ قَبْلَ الإنْسِ، والْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء. ولَكِنَّ ظنَّ إبْلِيسَ قَدْ تَحَقَّقَ في الواقِعِ التَّجْرِيبِي، فَأَكْثَرُ النَّاسِ غَيْرُ شَاكِرِين.

وقَدْ أَبَانَ اللهُ عزَّ وجَلَّ هٰـذا الْوَاقِعَ الإنْسَانِيّ في نُصُوصٍ كثيرة، مِنْهَا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ في سُورَة (يوسف/٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وَهٰـذا مِنَ اللهِ عزّ وجلَّ عِلْمٌ بِالْغَيْبِ، وهُوَ مِنْ خَصَائِصِ اللهِ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

- ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ أغْرَاهُمْ إبليسُ وَخَدَعَهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ المؤمِنِينَ، فحَقَّقَ باتِّبَاعِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ مِنْهُمْ ظَنَّهُ، أي: رأىٰ فِي الواقِعِ أنَّ ظَنَّهُ قَدْ تَحقَّقَ، وَلَمْ يَكُنْ ظَنّاً تَوَهُّمِيّاً لا يُؤَيِّدُهُ الْوَاقِعِ.

وأَمَّا الْفَرِيقُ الآخَرُ مِنَ المؤمِنِينَ، فَقَدِ اتَّبَعُوهُ بالْمَعَاصِي مِنْ دُونِ الْكُفْرِ، وقَدْ تَكُونُ مِن الكَبَائِرِ.

وَأَمَّا علَىٰ القراءة الأخْرَىٰ: **[وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّه]** فَلَفْظَة

[ظَنَّهُ] مَنْصُوبَةٌ بِنَزْعِ الخافض، والتقدير: ولَقَدْ صَدَقَ إِبْلِيسُ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ سَيُؤَثِّرُ عَلَيْهِمْ بإغراءَاته وإغْواءَاته.

- ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ... ﴿٢١﴾﴾: أَيْ: وحِينَ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ السَّبَئِيِّينَ، لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ أيِّ سُلْطَانٍ يُلْغِي إِرَادَاتِهِمْ ذَوَاتِ الْحُرِّيَّةِ الْكَامِلَةِ، وَإِنَّما اتَّبَعُوهُ طَاعَةً لأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ ورَغَبَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وهُمْ أَحْرَارُ الإِرَادَاتِ، ولَمْ يَكُنْ لإبْلِيسَ وَجُنُودِهِ إِلَّا أَنْ دَعَاهُمْ بِأَسْلُوبِ الْوَسْوَسَةِ والتَّسْوِيلِ، فاسْتَجَابُوا له.

وَيَتَسَاءَلُ بَعْضُ أَهْلِ الْفِكْر: مَا الْحِكْمَةُ مِنْ تَمْكِينِ اللهِ إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ مِنَ الشَّيَاطِينَ، أَنْ يَقُومُوا بِهَـٰذِهِ الْوَسَاوِسِ والتَسْوِيلاتِ والإغْرَاءَاتِ والإغْوَاءَاتِ، الَّتِي لَا يَكُونُ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَىٰ إرَادَاتِ النَّاسِ يُلْغِي حُرِّيَّاتها، وجَواباً علَىٰ هـٰذا التَّساؤُلِ المطوِيّ الْمُدْرَكِ فِي الذِّهْنِ، جَاءَ قولُ اللهِ عَزَّ وجَلّ:

- ﴿... إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ.. ﴿٢١﴾﴾:

أي: وَمَا مَكَّنَّا إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ مِنْ هـٰذِهِ الأَعْمَالِ الإغْوَائِيَّة إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِن بالآخِرَةِ ونَمِيزَهُ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا في شَكٍّ، أو مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الشَّكِّ، كالإنْكارِ الْكَامِلِ.

الاسْتِثْنَاءُ مِن مَطْوِيٍّ مَحْذُوفٍ يُدْرَكُ مَعَ إدْراك التَّسَاؤُلِ الآنِفِ بَيَانُه.

وفِعْلُ «نَعْلَم» ضُمِّنَ مَعْنَىٰ فِعْلِ «نَميز» فجاء «مِمَّنْ هُو مِنْها في شكّ» ملائماً له أي: لِنَعْلَمَ المؤمِنَ فنمِيزَهُ من الشَّاكِّ والكافر.

واسْتُغْنِي بالأَدْنَىٰ بِعِبَارَةِ «فِي شَكٍّ» عَنِ التَّصْرِيح بالأَشَدِّ وهُوَ الإنكار.

- ﴿..وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾:

الحفيظ: مِنْ أسْماء الله الحسنىٰ، وهو علىٰ وزْنِ «فعيل» صيغة مبالغة لاسم الفاعل «حافظ» أي: عظيمُ الحفظ.

الحِفْظُ: صَوْنُ الشَّيْءِ مِنَ الزَّوالِ والاخْتِلَال في أيِّ أَمْرٍ مِنْ أمُوره.

ويَدْخُلُ فِي مَعْنَىٰ الْحِفْظِ، الْعِلْمُ بما هُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ الصِّيَانَةِ عِلْماً لَا تَتِمُّ الصِّيَانَةُ إلَّا به، وَتَدْخُلُ فِيهِ أَيْضاً الْمُرَاقَبَةُ الدَّائِمَةُ لَه.

فاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ حَفِيظٌ بِسُلْطَانِهِ وَهَيْمَنَتِهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ في الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا المخْلُوقَةِ لَهُ، مِنْ أنْ يَخْرُجَ شيءٌ مِنْهَا مَهْمَا دَقَّ، عَمَّا قَدَّرَ لَهُ وَقَضَىٰ فِي خُطَّةِ وُجُودِهِ، مُتَابِعاً الزَّمَنَ مَعَ أَصْغَرِ وَحَدَاتِهِ. ومُحِيطٌ بكُلِّ شَيْءٍ ظاهِرٍ وبَاطِنٍ مَادِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ عِلْماً. وَمُرَاقِبٌ دَوَاماً لِكُلِّ مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُه.

ومِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مُرَاقِبٌ دَواماً لِعِبَادِهِ المكلَّفِينَ المَوْضُوعِينَ فِي الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فلا تُوجَدُ حَرَكَةٌ وَلَا سُكُونٌ، ولَا خَاطِرَةٌ، وَلَا نِيَّةٌ، وَلَا إِحْسَاسٌ، ولَا شُعُورٌ بِلَذَّةٍ أوْ أَلَم، أَوْ سُرُورٍ أوْ حُزْنٍ، إِلَّا مَشْمُولٌ بمراقَبَتِه مَعَ تَوَالِي أصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ ـ جَلَّ جلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مَعَ حِفْظِهِ مِنْ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ خُطَّةِ وُجُودِه الْمُقَدَّرَةِ الْمَقْضِيَّةِ له، بِتَأْثِيرٍ مِنْ ذَاتِ الشَّيْءِ، أَوْ بِتَأْثِيرِ كَائِنٍ آخَرَ فِيهِ إِلَّا بإِذْنِ اللهِ أَوْ بِأَمْرِه.

هـٰذا هُو اسْمُ اللهِ «الْحَفِيظُ» بِحَسَبِ مَقَادِيرِ فَهْمِنَا لأَسْمَاء اللهِ الْحُسْنَىٰ وصِفَاتِه الْعُلَا.

وجَاءَ التَّنْبِيهُ علىٰ هـٰذا الاسْم مُلَائماً لِكَوْنِهِ تَعَالَىٰ قَدْ مَكَّنَ إِبْلِيسَ وجُنُودَه مِنْ إغواءِ النَّاسِ لِيَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنَ بالآخِرَةِ بِإرَادَتِهِ الْحُرَّة، وَيميزَهُ مِنَ الشَّاكِّ أو الْكَافِرِ بها.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الرابع من دُروس سورة (سبأ).

والْحَمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس مِنْ دُروس سورة (سبأ) الآيات من (٢٢ ـ ٢٧)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

القراءات:

(٢٢) • قرأ عَاصم، وحمزة، ويَعْقُوب: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ﴾ بِكَسْرِ اللّام.

وقرأهَا بَاقِي القراء العشرة: [قُلُ ادْعُوا] بِضَمِّ اللّام مُرَاعَاةً لِضَمِّ الْعَيْن.

(٢٢) • قَرَأ يَعْقُوب: [فِيهُمَا] بِضَمّ الْهَاءِ، وهو لغة.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَةِ: ﴿فِيهِمَا﴾ بِكَسْرِ الهاء وهو لغة.

(٢٣) • قرأ أبو عمْرو، وحمزة، والكِسَائي، وَخَلَف: [أُذِنَ لَهُ] بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، أي: أُذِنَ لَهُ من اللهِ عزَّ وجلّ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَذِنَ لَهُ﴾ بالبناء لِلْمَعْلُوم، أي: أذِنَ اللهُ له.

فَمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ وَاحِد، وهُمَا مِنَ التفَنُّنِ في التعبير.

(٢٣) ● قرأ ٱبن عامر، ويعقوب: [فَزَّعَ] بالبناء لِلْمَعْلُوم، والفاعل هو اللهُ عزّ وجل.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: ﴿فُزِّعَ﴾ بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله. وهِيَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: فَزَّعَ اللهُ عَزّ وجلّ.

فَمُؤَدَّىٰ القراءَتين وَاحد، وهما من التفَنُّنِ في التعبير.

تَمْهيد:

في هـٰذا الدَّرْسِ تَعْلِيمُ حِوارٍ إقْنَاعِيٍّ وجَدَلِيٍّ لِلرَّسُولِ وَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، يُوَجَّهُ لِلْمُشْرِكِين بِشَأْنِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ عزّ وجلّ.

التّدَبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ داعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّته فِي تَعْلِيمِ حِوارِي دَعَوِيٍّ يُوجَّهُ لِلْمُشْرِكِين:

● ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾:

● ﴿ٱدْعُواْ﴾: اسْأَلُوا لِتَحْقِيقِ مَنَافِعَ لَكُمْ، أَوْ كَشْفِ ضُرٍّ أو سُوءٍ عَنْكُمْ.

● ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: الَّذين جَعَلْتُمُوهُمْ آلِهَةً تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ غَيْرِ الله، وهُمْ مِنْ دُونِهِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، خَاضِعُونَ لِتَصَارِيفِهِ، فَجَعَلْتُموهم كَذِباً وزوراً وافْتِرَاءً شُرَكَاءَ للهِ في إلَهيَّتِهِ وفي بَعْضِ رُبُوبِيَّتِهِ.

الزَّعْم: ادِّعَاءٌ دُونَ بَيِّنَةٍ، وادّعَاءٌ كاذب، وظَنٌّ تَوَهُّمِيٌّ ضعيف.

• ﴿..لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ..﴾: أي: حالَةَ كَوْنِ آلِهَتِكُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَةٍ في الكَوْنِ كُلِّهِ، وكُلُّ شَيْءٍ في الكَوْنِ إمَّا أَنْ يَكُونَ في السَّمَاءِ أَوْ فِي الأَرْض، وإِذْ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّصرُّفَ في شيءٍ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، لأَنَّهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، فَهُوَ مَمْلُوكٌ له، وهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَتَصرَّفُ فِيهِ عَلَىٰ مَا يَشاء.

مِثْقَالُ الشيْءِ: مِثْلُهُ فِي وَزْنه.

الذَّرَّة: أَصْغَرُ جُزْءٍ في عُنْصُرٍ ما، ويُطْلَقُ لَفْظُ الذَّرُّ علىٰ صغار النَّمْلِ، وعلىٰ ما يُرَىٰ في شُعَاعِ الشَّمْسِ الدَّاخِلِ مِنَ النافِذَة.

• ﴿..وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ..﴾: أي: ومَا لآلِهَتِكُمْ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، مِنْ مُشَارَكَةٍ لِلرَّبِّ الخالقِ الْمَالِكِ في خَلْقِ شيءٍ مِنهما، ولَا في امْتِلَاكِ شَيْءٍ مِنْهُما، ولَا في التَّصرُّفِ بِشَيْءٍ مِنهما، فَلَيْسَ لَهُم مُجْتَمِعِينَ وَلَا مُنْفَرِدِينَ مُشَارَكَةٌ له فِي إِلَٰهِيَّتِه.

الشِّرْك: النَّصِيبُ، يقالُ لغة: «شَرِكَ فُلَانٌ فُلَاناً في كذا شِرْكاً، وَشَرِكَةً، وشِرْكَةً» أي: كانَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا نَصِيبٌ مِنْهُ، فَهُوَ «شَرِيك».

• ﴿..وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: ومَا للهِ مِنْ آلِهَتِكُمُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ مُعِينٍ لَهُ فِي شَيءٍ مِن تَصَارِيفِهِ فِي كَوْنه.

الظَّهِيرُ: هُوَ في اللُّغَةِ الْمُعِين.

«مِنْ» فِي عِبَارَةِ: [**مِنْ شِرْكٍ**] وفِي عِبَارَةِ: [**مِنْ ظَهِيرٍ**] زِيدَتْ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي، وَالتَّنْصِيصِ عَلَيه.

• ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾: أي: إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ اللهُ لَهُ بِأَنْ يَشْفَعَ كالملائكة، والرُّسُلِ.

وفي القراءة الأُخرىٰ: [**إلَّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ**]: أي: إلّا لِمَنْ أُذِنَ لَهُ مِنَ اللهِ بأنْ يَشْفَعَ، وتحمِلُ أيضاً مَعْنَىٰ إلّا مَنْ أُذِنَ لَهُ مِنَ اللهِ بأَنْ يُشْفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ المعاصِي.

وقد سَبَقَ فِي نُجُوم التنزيل بَيَانُ أَنَّ الْكَافِرِينَ والْمُجْرِمين وَمِنْهُمُ المشْرِكُونَ، لَا يَأْذَنُ اللهُ لأَحَدٍ مِنَ الشَّافِعِينَ بِأَنْ يَشْفَعَ لأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي رَفْعِ عَذَابِ جهَنَّمَ عَنْه.

أيْ: فَلَا تَطْمَعُوا بأنْ تَشْفعَ لَكُمْ آلِهَتُكُمُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، ولَا شَافِعِ غَيْرُهُمْ ولَوْ كانَ أَفْضَلَ رُسُلِ اللهِ أَوْ أَفْضَلَ مَلَائِكتِه.

وقَدْ سَبَقَ بَيَانٌ مُوسَّعُ عَنِ الشَّفَاعَةِ في القرآن والسنة، في الملحق الثاني مِنْ مَلَاحِقِ تَدبُّر سُورَة (طٰه/ ٤٥ نزول)(١).

• ﴿..حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ..﴾: أي: حَتَّىٰ إذَا أُزِيلَ الْفَزَعُ عَنْ قُلُوبِ بَعْضِ عُصَاةِ المؤمِنين، الَّذِينَ تَسْتَدْعِي مَعَاصِيهِمْ أَنْ يُجَازَوا بالْعَدْلِ، لَكِنْ شَمِلَتْهُمْ رَحْمَةُ اللهِ فَأَذِنَ للشُّفَعَاءِ بِأَنْ يَشْفَعُوا لهم.

﴿فُزِّعَ﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: [فَزَّعَ]. أي: أَزَالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ الْفَزَعَ وهُوَ الخوفُ عَنْ قُلُوبِهِم، التضعيف هُنَا في الفِعْلِ للإزَالة، نظير: «قَشَّرَ الْعُودَ» أي: أزال قِشْرَه، وهـٰذا أَحَدُ المعاني التي يَدُلُّ عليها تضعيف عَيْنِ الفعل.

• ﴿..قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ..﴾؟ أي: قَالَ الَّذِينَ أزالَ اللهُ الْفَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وهُمْ يَرْجُون أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بأَنْ يَشْفَعَ لَهُمُ الشَّافِعُونَ مِنَ الملائِكَةِ، ومِنَ الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ هـٰذا السُّؤَالُ مُوَجَّهاً للملائِكَةِ.

---

(١) انظر الصفحات من (٣٩٢ ـ ٤٢٠) من المجلد الثامن «ملحق حول الشفاعَةِ يوم الدّين وأنواعها».

أي: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ هَلْ أَذِنَ لَكُمْ بِأَنْ تَشْفَعُوا لَنَا؟.

مَاذَا: أي: مَا الَّذِي قَالَهُ رَبُّكُمْ، جاءت «ذَا» هنا بعد الاستفهام اسْمَ مَوْصُولٍ بمَعْنَىٰ «الذي».

- ﴿..قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ..﴾: أي: قال الملائكةُ المطلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يَشْفَعُوا: قَالَ رَبُّنَا الْقَوْلَ الحقَّ الثَّابِتَ الَّذِي قَضَىٰ بِهِ أَنْ يَأْذَنَ لَنا بِأَنْ نَشْفَعَ لَكُمْ، لِعِلْمِهِ بِمَا كَانَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ خَيْرٍ فِي رِحْلَةِ ابتلائكمُ.

- ﴿..وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾: أيْ: وأَثْنَوْا علىٰ الله ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ بِصِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ، هُمَا اسْمَان من أسمائِهِ الْحسْنَىٰ.

الْعَلِيّ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاء اللهِ الْحُسنَىٰ، أي: الْعَالِي فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَعْلُو عَلَيْهِ وَلَا يُدانِيهِ شَيْءٌ فِي عُلُوِّه، وهو مِنْ مَقام عُلُوِّه، يَمْنَحُ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِه مَا يَشاء، ويَحْجُبُ عَمَّنْ يَشاءُ بِحِكْمَتِهِ مَا يَشاء.

«العليّ» علىٰ وزن «فَعِيل» صيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسم الفَاعل «عالٍ» أي: لَهُ كَمَالُ الْعُلُوِّ وكُلُّ غَايَاتِه.

الكبير: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، أي: الْكَامِلُ فِي كِبَرِه، الَّذِي لَا شَيْءَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ لَهُ مِثْلُ وَصْفِهِ بِالْكِبَر.

■ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ يُعْطِي الدَّاعِيَ إِلَىٰ اللهِ مَفَاتِيحَ حِوَارٍ جَدَلِيٍّ، يُوَجَّهُ لِلْمُشْرِكِينَ بِشَأْنِ شِرْكِهِمْ، وَمَوَاقِفِهِم الْمُعَادِيَة لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة:

- ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿يَفْتَحُ﴾: أي: يَقْضِي وَيَحْكُم. الْفَتْحُ بَيْنَ الْفَرِيقين، أو بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ هُوَ فَصْلُ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمَا، وقَضَاءُ اللهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بالحقّ.

في هٰذِهِ الآياتِ الأرْبَعِ، بَيَانُ مَفَاتِيحِ خَمْسِ جَوْلَاتِ حِوَارٍ جَدَلِيٍّ بَيْنَ الداعي إلىٰ اللهِ وبَيْنَ المشركين بِشَأْنِ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلٰهِيَّتِهِ:

الْجَوْلَةُ الأُولَىٰ: مِفْتَاحُها مَعَ تَوْجِيه الدَّاعي إلىٰ اللهِ مَا يقولُهُ في خَاتِمَتِها: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ..﴾:

يَبْدأ الْحِوَارُ بأنْ يُلْقِيَ علىٰ المشْرِكِينَ السُّؤَال التالي:

الداعي إلىٰ الله: مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ؟

المشركون: بما أَنَّ المشْرِكِينَ لَمْ يَكُونوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لآلِهَتِهِمْ سُلْطاناً في السَّمَاء، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ: اللهُ هُو الذّي يَرْزُقُنَا مِنَ السَّمَاوَاتِ.

الداعي إلىٰ الله: وَهَلْ تَرْزُقُكُمْ آلِهَتُكُمْ مِنَ الأَرْضِ؟.

المشركون: يقولُ قَائِلُهُمْ: نَعَمْ.

الداعي إلَىٰ الله: يُقَدِّمُ هُنَا الْبَراهِينَ الْعِلْمِيَّةَ بِأَنَّ أَرْزَاقَ الأَرْض كُلَّهَا مِنْ خيرات اللهِ الّتي تأتي مِنَ السَّمَاءِ، ضِيَاءً وحَرَارَةً ونُوراً وأَمْطاراً، وتَصَارِيفَ.

المشركون: إمَّا أَنْ يُجَادِلَ مُجَادِلُهُمْ بالْبَاطِلِ الَّذي لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، فيَسْقُطَ في الصِّرَاعِ الْفِكْرِيّ، ويَظْهَرَ أَنَّهُ مُرَاوِغٌ مُمَاحِكٌ غَوْغَائيّ، وَإِمَّا أَنْ يَسْكُتَ مُفْحماً.

الداعي إلىٰ الله: هُنَا يَجِدُ فرْصَتَهُ لأَنْ يَقُولَ: اللهُ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، ويُقِيمُ الأَدِلَّةَ الْعِلْمِيَّةَ علَىٰ هٰذا، وَيَكْشِفُ أَنَّ آلهَةَ الْمُشْرِكِينَ لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ تَصَارِيفِ الكَوْنِ وَأَحْدَاثِه كُلِّها، ومِنْهَا أَرْزَاقُ الْعِبَادِ.

الْجَوْلَةُ الثَّانِيَة: مِفْتَاحُهَا: ﴿...وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾:

الدّاعِي إلىٰ الله: يَقُولُ للمُشْرِكين: نَحْنُ وَإِيَّاكُم عَلَىٰ طَرَفَيْنِ مُتَنَاقِضَيْن.

- نَحْنُ نَقُول: لَا رَبَّ في الْوُجُودِ كُلِّه إلَّا الله، فَلا إلَهَ إلَّا هُو.
- وأَنْتُم تَقُولُونَ: للهِ شُرَكَاءُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَهُ شُرَكَاءُ في إلَهيَّتِه.

هـٰذَانِ قَوْلَانِ مُتَناقِضَانِ تَماماً، ولَا بُدَّ عَقْلاً مِنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا حَقّاً، وَالآخَرُ بَاطِلاً ظَاهر الْبُطْلَانِ، لأَنَّ النَّقِيضَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ معاً وَلَا يَرْتَفِعَانِ معاً، في شيءٍ واحد.

- فإمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ عَلَىٰ هُدًىٰ، وأَنْتُمْ في ضَلَالٍ مُبِين.
- وإمَّا أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ عَلَىٰ هُدىً، ونَحْنُ فِي ضَلَالٍ مُبين.

فَقَدِّمُوا مَا لَدَيْكُمْ مِنْ أَدِلَّةٍ لإِثْبَاتِ مَا تَدَّعُون، وَنَحْنُ نُقَدِّمُ ما لَدَيْنَا مِنْ بَرَاهِينَ لإِثْبَاتِ مَا نُؤْمِنُ بِهِ.

وَهُنَا تَأْخُذُ الْمُنَاظَرَةُ جِدِّيَّتَهَا، فإذَا بَدَأَ الْمُتَحَدِّثُ عَن المشْرِكين بِتَقْدِيم أَدِلَّتِهِ، كَانَ لَدَىٰ الدّاعِي إلَىٰ اللهِ حقائِقُ كثِيرَةٌ لإِسْقَاطِهَا وَبَيَانِ بُطْلَانِها. وإذَا كَانَ الدَّاعي هُو البادِئَ بِتَقْدِيم براهِينِهِ لَمْ يَجِدِ المشْرِكُ ما يَسْتَطِيعُ بِهِ إسْقَاطَهَا، أو التَّشْكِيكَ فيها، إلَّا غَوْغَائِيَّاتٍ وَأَكَاذِيبَ يَفْتَرِيها، وهُنَا تَظْهَرُ خَيْبَتُهُ، ويَنْكَشِفُ إصْرَارُهُ عَلَىٰ الْبَاطِل، والْتِزَامُهُ بِمَا يُرْضِي أَهْوَاءَهُ وَشَهَواتِهِ وَنَزَعَاتِهِ وَنَزَغاتِهِ وَتَقَالِيدَهُ الْعَمْياء.

وإذَا اسْتَبْصَرَ واهْتَدَىٰ إلَىٰ الحَقِّ وأعْلَنَ قَبُولَهُ لَهُ، كَانَ المقْصُودُ بالْمُنَاظَرَةِ قَدْ تَحقَّقَ وَالْحَمْدُ للهِ.

الْجَوْلَةُ الثَّالِثَة: مِفْتَاحُها: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

هـٰذِهِ الْجَوْلَةُ يَبْدَؤُهَا المتَحَدِّثُ بِلِسَانِ المشْرِكين.

المشْرِك: أنْتُم أيُّهَا الْمُسْلِمُونَ قَدِ ارْتَكَبْتُمْ جَرائِمَ مُتَعَدِّدَةً بِحَقِّ قَوْمِكُم، فَرَّقْتُمْ صَفَّهُمْ، وَشَتَمْتُمْ آلِهَتَهُمْ، وَسَفَّهْتُمْ أحْلَامَهُمْ، وَتَقُولُونَ هُمْ وآبَاؤُهُمْ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْمُعَذَّبينَ فِي النّار، أَلَيْسَتْ هـٰذِهِ جَرائِمَ كُبْرَىٰ بِحَقِّ قَوْمِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَهـٰذا بِسَبَبِ الدِّينِ الْجَدِيدِ الّذي جَاءَ بِهِ مُحمَّدٌ وآمَنْتُمْ بِهِ.

الدَّاعِي إلَىٰ الله: إنَّ المسؤولِيَّةَ عِنْدَ اللهِ مسْؤُولِيَّةٌ شَخْصِيَّة، فَرْدِيَّةٌ، لَا يَشْتَرِكُ اثْنَانِ فِي الْمَسْؤُولِيَّةِ، مَا لَمْ يَشْتَرِكا فِي الْعَمَلِ الَّذِي اقْتَضَىٰ أَنْ يُسْأَلَا عَنْهُ وَيُحاسَبَا عَلَيه. هـٰذا قَانُونُ الْحَقِّ فِي الدُّنْيا وفِي الآخِرَة، فِي جَزَاءِ اللهِ وفِي جَزَاءِ الْعِبَاد.

فإنْ كُنَّا قَدْ أَجْرَمْنَا فِي نَظَرِكُمْ، إِذِ اعْتَدَيْنَا عَلَىٰ حَقِّ قَوْمِنَا كَمَا تَزْعَمُونَ، فَقَدْ أَنقَذْنَا أَنْفُسَنَا مِنْ جُرْمٍ عَظِيمٍ تُجَاهَ رَبِّنَا، إِذْ آمَنَّا بِهِ رَبّاً واحِداً فِي الْوُجُودِ كُلّه، وإلَهاً واحِداً في الْوُجُودِ كُلِّهِ، وأسْلَمْنَا لَهُ، وأَنْقَذْنَا بهـٰذا أَنْفُسَنَا مِنَ الْخُلُودِ في عَذَابِ الْجَحِيم.

أَمَّا أَنْتُم فَإِنْ كُنتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ حَافَظْتُمْ عَلَىٰ وَحْدَةِ قَوْمِكُمْ، وحَفِظْتُمْ كَرَامَةَ آبَائِكُمْ وَأَجْدادِكُمْ، مِنْ أَنْ يُشْتَمُوا بالسَّفَاهَةِ والْتِزَامِ الْبَاطل، وَآثَرْتُمْ اتِّبَاعَهُمْ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، فإِنَّكُمْ تُعَرِّضُونَ نُفُوسَكُمْ لِعَذَابٍ أَبَدِيٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَنَحْنُ نَقُولُ لَكُمْ بَعْدَ هـٰذا البيانِ التَّحليليّ، مَعَ التَّلَطُّفِ مَعَكُمْ فِي العبارَة، إِذْ لَا نَصِفُكُمْ بالإِجْرَامِ رَدّاً علىٰ اتِّهَامِكُمْ لَنَا بالإجرَام:

أَنْتُم لَا تُسْأَلُونَ عَقْلاً وَلَا عِنْدَ رَبِّنَا عمَّا أَجْرَمْنَا، وَنَحْنُ لَا نُسْأَلُ عَقْلاً وَلَا عِنْدَ رَبِّنَا عَمَّا تَعْمَلُون.

وهَكَذَا تَنْتَهِي الْجَوْلَةُ الْحِوارِيَّة، ويبْقَىٰ الداعِي إلىٰ اللهِ المحاوِرُ مُمْسِكاً نَفْسَهُ عَنِ الغضَب، ومُحَافِظاً عَلَىٰ أَدَبِ الْحِوَارِ المشْبَعِ بالرِّفْق والتّهْذِيب.

الْجَوْلَةُ الرَّابِعَة: مِفْتَاحُهَا: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾:

في هٰذِهِ الْجَوْلَةِ يَصِلُ المتَحَدِّثُ بِلِسَانِ المشْرِكينَ إِلَىٰ ادِّعَاءٍ أَنَّ الله سَوْفَ يُعْطِيهِمْ فِي الآخِرَة ـ عَلَىٰ فَرْضِ وُجُودِها الذي لا يُؤْمِنُون به ـ مِثْلَما أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا أَوْ خَيْراً مِنْه، كَما قال الكافِرُ الَّذِي جَعَلَ اللهُ له جَنَّتين، لصاحِبِهِ المؤمِنِ وهُوَ يُحَاوِرُه، مَا جاء بيانُهُ في سورة (الكهف/ ٦٩ نزول):

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

وَفِي مُقَابَلَةِ هٰذا الادِّعَاءِ الْجَدَلِيِّ التَّعَنُّتِيِّ الْكَاذِب، الَّذِي لَا دَلِيلَ يَدُلُّ عَلَيه، لَا مجَالَ للدَّاعِي إلىٰ اللهِ إِلَّا أَنْ يَقُولَ:

سَوْفَ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ يَبْعَثُنَا إِلَىٰ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ للحِسَابِ وفصْلِ القضاء وَتَنْفِيذ الجزاءِ كَمَا وَعَدَنَا، وهُوَ لَا يُخْلِفُ الميعاد، وسَوْفَ يَقْضِي ويَحْكُمُ بَيْنَنَا بالحقِّ، ثُمَّ يُنَفِّذُ مَا قَضَىٰ بِهِ مِنْ جَزَاءٍ بِالثَّوَابِ في جَنَّاتِ النَّعِيم، أو بالْعَذَاب في نَارِ الجحيم، إِنَّهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، والْحَاكِمُ الْقَاضِي بالفَضْلِ أو بالْعَدْلِ، فَلَا يَظْلِمُ أَحداً مِثْقَال ذَرَّة.

الْفَتَّاحُ: صِيغَةُ مبالَغَةٍ لاسم الفاعل «الْفَاتِح» بِمَعْنَىٰ الَّذِي يَحْكُمُ ويَقْضِي بالحقِ، وهُوَ خَيْرُ الْفَاتِحين، والْفَتاحُ اسْمٌ مِنْ أسماء الله الحسْنَىٰ.

الْعَلِيم: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، وهو صيغة مبالغة لاسْم الفاعل «العالم». ومَعْنَىٰ العليم بالنِّسْبَةِ إلىٰ اللهِ عزّ وجلَّ أَنَّهُ المحيطُ بِكلِّ شيءٍ عِلْماً، الّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّماواتِ وَالأَرْض، ولَا أصْغَرُ مِنْ ذَرَّةٍ وَلا أكْبَرَ مِنها.

الْجَوْلَةُ الْخَامِسَةُ: مِفْتَاحُها مَعَ الرَّدّ: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

في هـٰذِهِ الْجَوْلَةِ يَبْدَأُ الدَّاعِي إلىٰ الله بِطَرْحِ السُّؤَالِ التَّالي عَلَىٰ المشْرِكِين.

الداعي إلىٰ الله: أيُّها المشركُونَ أَرُوني آلِهَتَكُمُ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمُوهم بِاللهِ، جاعِلِينَ إيَّاهم شُرَكَاءَ لَه، في رُبُوبيَّتِهِ فإلَهِيَّتِهِ.

المنَاظِرِ بِلِسَانِ المشركين: يُشِيرُ مَثلاً إلَىٰ هُبَل، وإسَاف، ونائِلَة، ومَنَاة، والْعُزَّىٰ مِنْ أَوْثَانِهِمْ الّتي يَعْبُدونها، ويَدْعُونَها.

الداعي إلىٰ الله: مَاذَا خَلَقَ هؤلَاءِ مِنَ الكَوْنِ حَتَّىٰ يَكُونُوا شُرَكَاءَ للهِ في رُبُوبيَّتِه، فَيَسْتَحِقُوا أَنْ يُشَارِكُوهُ فِي إلَهِيَّتِه.

المناظر عن المشْرِكين: قَدْ يَدَّعِي دَعَاوَىٰ كَاذِبَةً، يَزْعُمُ فِيها أنَّهم سَأَلُوا «هُبَلَ» في مَوْقِعَةِ كَذا أَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ فَانْتَصَرُوا.

وسَأَلَ فُلَان «مَنَاة» أَنْ يَأْتِيَهُ أَوْلَادٌ ذُكُورٌ، فجاءَه أَوْلَادٌ ذُكُور.

وسَأَلَ فُلَان «الْعُزَّىٰ» أَنْ يُوَفِّقَ فِي سَفَرِهِ، ويَعُودَ سَالِماً رابحاً فِي تِجَارَتِهِ، فَذَهَبَ سَالماً وَعَادَ سَالماً مُوَفَّقاً، وَرَابحاً فِي تِجَارَتِهِ.

وكثيرةٌ تَجَارِبُ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنا مِنْ هـٰذا القبيل، ولِهـٰذا نَتَقَرَّبُ إلىٰ هـٰذِهِ الأَوْثَانِ بالْقَرَابِينَ، ونَعْبدُهَا بالدُّعَاءِ، والْعُكُوفِ عِنْدَها، والرُّكُوعِ لها، والْفَاعِلُ مِنْ وَرائِهَا أَرْواحُ مَنْ تُمَثِّلُهُمْ.

الداعي إلىٰ الله: عِنْدَ هـٰذا الادّعَاءِ الْكَاذِبِ لَا يَجِدُ إلَّا أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ زَاجراً لهم: ﴿كَلَّاۚ﴾ لَمْ يَكُنْ لآلِهَتِكُمْ تَأْثِيرٌ مَا فِيمَا زَعَمْتُمْ.

فإنْ كَانَتْ قِصَصُكُمْ صَحِيحَةً فِيمَا ذَكَرْتُمْ، فَلَيْسَتْ آلِهَتُكُمْ هِيَ الَّتِي حَقَّقَتْ مَا سَرَّكُمْ في كَذا وكذا وكَذا. بَلِ الَّذي حَقَّقَهَا لَكُمُ اللهُ الْعزِيزُ بِقُوَّتِهِ الْغَالِبَة، الحكيمُ في كُلِّ أَفْعَالِه، فأَنْتُمْ في حِيَاةِ الابْتِلَاءِ، وَرَأْسُ مَا يُمْتَحَنُ فِيكُمْ عُقُولُكُمْ وَضَمَائِرُكُمْ وإرَادَاتُكُمْ، وَقَدْ عَبِثَ الشَّيْطَانُ بِعُقُولِكُمْ

وَضَمَائِرِكُمْ، فَأَوْهَمَكُم أَنَّ آلِهَتَكُمْ نَفَعَتْكُم أَوْ رَفَعَتْ عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ، وعَبِثَ بأهوائِكُمْ وَشَهَواتِكُمْ فَأَثَّرتْ عَلَىٰ إرادَاتِكُم، فَوَجَهَتْهَا لِسُلُوكِ سُبُلِ الْغَوَايَة.

إنْ كَانْ لَدَىٰ آلِهَتِكُمْ جَلْبُ نَفْعٍ، أَوْ دَفْعُ ضُرٍّ، أَوْ رَدُّ أَعْدَائِها عَنْها، فتَعَالَوْا نُجَرِّبْ تَحْطِيمَها أمَامَكُمْ، وَجَعْلَهَا جُذاذاً، كما فَعَلَ إبراهيم عليه السلام في أَوْثَانِ قَوْمِهِ، وَلْيَفْعَلْ فِينَا مَنْ تَرْمُزُ لَهُ هـٰذِهِ الأَوْثَانُ مَا نَكْرَهُ، إِنْ كَانَ لَدَيْهَا قُدْرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً.

وهُنَا يَنْقَطِعُ المشْرِكُونَ، وَتَسْقُطُ ذَرَائِعُهُمْ، وَلَا يُوَافِقُونَ علىٰ أَنْ تُحَطَّمَ أَصْنَامُهُمْ، ويُغْلَبُونَ.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الخامِسِ مِنْ دُروس سورة (سبأ).

والحمْدُ للهِ علىٰ معونته ومَدَدِه، وتَوْفيقِه وفَتْحِه.

* * *

(٩)

التَّدبُّر التحليلي للدَّرس السّادس من دُروس سُورَةِ (سَبأ) الآيات من (٢٨ ـ ٣٠)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ خِطابٌ من اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ، بأَنَّهُ رَسُولٌ لِلنَّاسِ كَافَّةً، بَشِيراً لِلْمُؤْمِنين، ونَذِيراً لِلْكافِرِين.

وفِيهِ عَرْضُ مَقُولَةِ الكافِرِين الَّتِي يُكَرِّرُونَهَا، ويَتَصَوَّرُونَ أَنَّها ذَرِيعَةٌ مَقْبُولَةٌ لِجُحُودِهِمُ الْحَقَّ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ رَسُوله، وهيَ سُؤَالُهُمْ: مَتَىٰ يَكُونُ قِيَامُ السَّاعَةِ، ومَتَىٰ يَنْزِلُ بِهِمْ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ مِن عَذَابٍ مُعَجَّلٍ إذَا أصَرُّوا علَىٰ عِنَادِهِم وكُفْرهم، مَعَ بَيَانِ الرَّدِّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُرَدَّ بِهِ علَىٰ مُمَاحَكَتِهِمُ الْجَدَلِيَّةِ الَّتِي يُكَرِّرُونَها.

التَّدَبُّرُ التحليلي:

- قولُ اللهِ عزّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ يُبَيّنُ لَهُ فيه أَنَّ رِسَالَتَهُ رِسَالَةٌ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ لِلنّاسِ أجْمَعِينَ مِنْ كُلِّ قَوْم وَفي كُلِّ أَرْض:

● ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

كافَة: لفظٌ من ألفاظ الْعُمُوم، يقال لغة: «جاء النَّاسُ كافَةً» أي: جَمِيعاً.

والمعنىٰ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ في حَالٍ من الأَحْوالِ إلَّا في حَالِ كَوْنِكَ مُرْسَلاً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهـٰذا مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ الإضَافي، أي: فَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّكَ رَسُولٌ لأَهْلِ مَكَّةَ، أَوْ رَسُولٌ لِلْعَرَبِ خَاصَّةً، فَقَدَ جَانَبَ الصَّوَابَ والْحَقَّ، إذْ أَنْتَ رَسُولٌ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، ورِسَالَتُكَ عَامَّةٌ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

وَنَفْهَمُ باللُّزُوم الْعَقْلِيّ مِنْ هـٰذا، أَنَّهُ يَجبُ علىٰ الدُّعَاةِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنْ يُبَلِّغُوا هـٰذا الدِّينَ لِلنَّاسِ كَافَّةً، فإذَا قَصَّرُوا فِي هـٰذا التَّبْلِيغ كانُوا جَمِيعاً آثِمِينَ، وَهـٰذا التَّبْلِيغُ مِنْ فُرُوضِ الكِفَايَةِ، إذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ الْوُجُوبُ عَنِ الآخَرين، وإذَا احْتَاجَ هـٰذا التَّبْلِيغُ مُسَاهَمَةً من سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ بِأَمْوَالٍ وَأَعْمَالٍ وَجَبَ عَلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمْ أَنْ يُسَاهِمَ عَلىٰ مِقْدَارِ حَالِهِ، وعَلَىٰ ذَوِي السُّلْطَةِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ المسْلِمين تَدْبِيرُ الأُمُورِ اللَّازِمَةِ لِهـٰذَا التَّبْلِيغ، وَمِنْهَا إعْدَادُ الدُّعَاةِ إعْدَاداً مُلَائِماً لِوَظِيفَتِهِمُ الْعُظْمَىٰ.

وَهٰـذَا التَّكْلِيفُ للمؤمِنِينَ الْمُسْلِمين مُسْتَمِرٌّ فِي كُلِّ عَصْرٍ، ومِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَلُغَة.

- ﴿..بَشِيرًا وَنَذِيرًا..﴾ أيْ حَالَةَ كَوْنِكَ مَعَ تَبْلِيغِكَ رِسَالَةَ رَبِّكَ، بَشِيراً لِمَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ لله، بالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، مَعَ مَا جَاءَتْ بِهِ نُصُوصُ القرآنِ مِنْ أَنْوَاعِ ثَوَابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، وَنَذِيراً لِمَن كَفَرَ وَأَعْرَضَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ، بالشَّقَاءِ الأَبَدِيّ بِعَذَابٍ في نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، مع مَا جَاءَتْ بِهِ نُصُوصُ الْقُرْآنِ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَقْضِيَ الله بِهِ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيا، إذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ.

الْبَشِيرُ: الْمُخْبِرُ بمَا يَسُرُّ وَيُفْرِحُ مُتَلَقِّيَ الْخَبَر.

النَّذِيرُ: المخبرُ بما يَسُوءُ أَو يُحْزِنُ مُتَلَقِّي الخبر.

- ﴿..وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: وَلَـكِـنَّ أَكْـثَـرَ النَّاسِ لَا يَرْغَبُونَ في أَنْ يَعْلَمُوا حَقَائِقَ الدِّينِ الَّذِي تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ؛ لِئَلَّا يَصْرِفَهُمْ هـٰذا العِلْمُ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ تَحْقِيقِ أَهْوَائِهِمْ، وَشَهَواتِهِمْ، وَمَطَالِبِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَة، لأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ الآخِرَة.

هـٰذا ما يَدُلُّ عَلَيْهِ الفِعْلُ المضارِعُ: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ هَنَا، إذْ جَاءَ في مَعْرِضِ تَبْلِيغِ الناسِ حَقَائِقَ الدِّين، ودَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الإيمانِ باللهِ وباليَوْمِ الآخِرِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلىٰ طَاعَةِ اللهِ في أَوَامِرِهِ وَنواهِيهِ، وهـٰذِهِ قَضَايَا غَيْرُ مُحَبَّبَةٍ لَهُمْ، فَهُمْ لا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوها.

أي: هَكَذَا سَيَكُون وَاقِعُ حَالِ النَّاس، وَلَكِنْ يَجِبُ تَبْلِيغُهُمْ دِينَ رَبِّهِم لإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِم.

■ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ مُبيِّناً مَقالَةً ذَرائِعِيَّةً يَتَعَلَّلُ بها الّذِينَ كَفُروا، مَعَ تَعْلِيم الرَّسُولِ فكُلِّ دَاعٍ إِلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِم:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

لَمْ يَكُنْ لَدَىٰ المشْرِكِينَ ذَرِيعَةٌ يُرَدِّدُونَها بتَكْرَارٍ، في مُقابَلَةِ دَعْوَةِ الدُّعَاةِ المنذِرين لَهُمْ بِعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ احْتِمَالِ إهْلَاكِهِمْ بِعَذابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، إلَّا أَنْ يَقُولُوا لهم: أَبِينُوا لَنَا الْوَقْتَ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ مَا تُنْذِرُونَنَا به إن كنْتُمْ صَادِقِينَ في هـٰذا الإِنْذَارِ، فإذَا لَمْ تُبَيِّنُوا لَنَا هـٰذا الْوقْتَ فَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ في إنْذارِكُمْ، وَفِي كُلِّ مَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مِنْ هـٰذا الدِّينِ الْجَدِيدِ، الَّذِي جاء به مُحَمَّدٌ، واسْتَجَبْتُم لَهُ فِيهِ واتَّبَعْتُمُوهُ.

وَطَرْحُ هـٰذا السُّؤال، وَرَبْطُ الصِّدْقِ في خَبَرِ الْوَعْدِ الَّذِي وُعِدُوه بأَنْ يَكُونَ مُقْتَرِناً بِبَيَانِ الْوَقْتِ الّذِي سَيَكُونُ فِيهِ جَهالَةٌ فِكْرِيَّةٌ أَوْ مُغَالَطَة، وهـٰذا الثاني هُوَ الأَحْرَىٰ بالاعتبار، لأَنَّ المشْرِكِينَ كَانُوا يُصَدِّقُونَ كُهّانَهُمْ فِي أُمُورٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ دون أَنْ يُعْلِمُوهُمْ بأَوْقَاتِ حُصُولِها، ومعظم أخبار الكُهَّانِ المسْتَقْبَلِيَّةِ كاذِبة.

إنّ الصِّدْقَ فِي الإخْبَارِ بأَحْدَاثٍ سَتَكُونُ في المسْتَقْبَلِ القريب أَوِ الْبَعِيدِ، لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ الْعِلْمُ بالْوَقْتِ الَّذِي سَتَكُونُ فيه، حَتَّىٰ في الْوُعُودِ الإنْسَانِيَّة.

كَمْ يَقُولُ إِنْسَانٌ لِمَنْ يَعِدُهُ سَأَزُورُكَ، ويَكُونُ صَادِقاً فِي وَعْدِهِ، ويُرِيدُ زِيَارَتَهُ حَقّاً، ثُمَّ يُحَدِّدُ وَقْتَ الزِّيارَة فِيما بَعْدُ.

كَذَلِكَ يَكُونُ في مَوَاعِيدِ تَهْدِيدِ وإنْذَارِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لبَعْضٍ، فإنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَقْتَرِنُ بِبَيَانِ أَوْقَاتِ التَّنفيذ، ويَأْتِي التَّنْفِيذ مُباغَتَةً.

عَلَىٰ أَنَّ مَوَاعِيدَ اللهِ عزّ وجلَّ مُحَدَّدَةُ الْمَوَاقِيتِ عِنْدَهُ، وَلَكِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يُخْبِرُ في مُعْظَمِهَا بِمَواقِيتِ حُصُولِها، وَمِمَّا أَخْفَاهُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ عِبَادِهِ في السَّماواتِ والأَرْضِ وَقْتُ قِيامِ السَّاعَة.

فَرَبْطُ صِدْقِ وُقُوعِ الْخبَرِ الْمُسْتَقْبَلِيّ بالإعْلَامِ بِوَقْتِ حُصُولِهِ مُغَالَطَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَتَشْوِيشٌ مَقْصُودٌ كَانَ يُوَجِّهُهُ المشْرِكُونَ لتَضْلِيلِ الْعَامَّةِ مِنَ المسْلِمِينَ، وفِتْنَتِهِمْ عَنِ دِينهِم الَّذِي آمَنُوا بِهِ، واتَّبَعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ، واتَّبَعُوا رَسُولَ رَبِّهِم.

وهٰذَا الْعَمَلُ مِنَ المشْرِكِينَ هو مِنْ وَسَائِلِ الإعْلَامِ التَّضْلِيلِيَّة، الَّتِي لَا تَعْتَمِدُ علَىٰ موازِينَ عَقْلِيَّةٍ مَقْبولَةٍ لَدَىٰ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ.

وَلِهٰذا جَاءَ في التَّعْلِيم الرَّبَّانِيّ للرَّدِّ عَلَىٰ مَقالَةِ المشْرِكِينَ الذَّرائِعِيَّة، قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ للرَّسُولِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه:

- ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

الميعاد: المواعدة. ووقْتُ تَحْقيقِ الْوَعْدِ. ومَكَانُ تَحْقِيقِ الْوَعْد.

ومِيعَادُ يَوْمٍ: أي: وقْتُ تَحْقِيقِ الْمَوْعُودِ في يَوْم مَعْلُومٍ.

لَا تَستَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً: أَي: لَا تَسْتَطِيعُونَ مَهْمَا بَذَلْتُمْ مِنْ جَهْدٍ تَأْخير زَمَنِ وُقُوعِ ميعاد اللهِ مَهْمَا قلَّ، وجاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِلَفْظِ «سَاعَة» فهٰذا اللفظ يُطْلَقُ بإطْلَاقَاتٍ مُتعَدِّدَاتٍ مِنْها إرادَةُ أَقلِّ مِقْدَارٍ مِن الزَّمن.

وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ: أي: ولا تَسْتَطِيعُونَ مَهْمَا بَذَلْتُمْ مِنْ جَهْدٍ تَقْدِيم فِعْلِ شَيْءٍ قَبْلَ زَمَنِهِ الذي قَدَّرَهُ الله لَهُ وقَضَىٰ بِهِ.

الاسْتِئْخَارُ والاسْتِقْدَامُ فِيهِمَا مَعْنَىٰ المبالَغَةِ في طلَبِ تَحقِيقِ التَّأَخُّرِ والتَّقدُّمِ.

والمعنىٰ: قُلْ لَهُمْ فِي مُعَالَجَتِهِمْ بِشَأْنِ مَقالَتِهِمْ الْخارِجَةِ عَنْ مَوازِينِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: لَكُمْ أَيُّهَا المشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِالإنْذارَاتِ الَّتِي أَنْذَرَكُمْ بهَا رَسُولُ رَبِّكُمْ، مُتَعَلِّلِينَ بِتعِلَّاتٍ لَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ الصِّحَّةِ وَقْتٌ مُحدَّدٌ عِنْدَ رَبِّكُمْ بقَضَائِهِ وَقَدَرِه، لا تَسْتَطِيعُونَ مَهْمَا اجْتَهَدْتُمْ تَأْخِيرَ أَقَلِّ زَمنٍ عَنِ

الزَّمنِ الْمُقَدَّرِ لِتَنْفِيذِ مَا أُنْذِرْتُم بِهِ مِنْ مُؤَجّلٍ أَوْ مُعَجّل، وَلَا تَسْتَطِيعُونَ أَيْضاً لَوْ شِئْتُمْ تَقْدِيمَ أَقَلِّ زَمَنٍ مَهمَا اجْتَهَدْتُمْ، فَالْقَضَاءُ قَضَاءُ اللهِ، والأَمْرُ أَمْرُهُ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِه، ولَا مُعَدِّلَ لَهُ، وَلَا مُغَيِّرَ لِشَيْءٍ فيه.

وبهٰذا انْتَهىٰ تَدبُّر الدَّرْسِ السادس مِنْ دُروس سورة (سبأ).

والحمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِه.

* * *

(١٠)

التدبُّر التحليلي للدَّرْس السابع من دُروس سورة (سبأ)

الآيات من (٣١ - ٣٣)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ مَقُولَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْعِنَادِيَّةِ التَّيْئِيسِيَّةِ مِنْ إيمانِهِم.

وجاءَتْ مُعَالَجَتُهُمْ بِشَأْنِ هٰذِهِ المقُولَةِ بِعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ الّذِي سَوْفَ يَكُونُ حَتْماً، وهو مَشْهَدٌ سَوْفَ يَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا

مَوْقُوفِينَ فِيهِ عِنْدَ رَبِّهِم يُحَاسِبُهُمْ، مَعَ بَيَانِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الأَتْبَاعِ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا كُبَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ تَخَاصُمٍ، إِذْ كَانُوا يَأْمُرُونَهُمْ بِأَنْ يَكْفُرُوا بِاللهِ، وَبِأَنْ يَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ أَنْدَاداً لَهُ، فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وفي إِلَـٰهِيَّتِهِ، وفِي هَـٰذا حَثٌّ ضِمْنِيٌّ لِلأَتْبَاعِ أَنْ يَتَحَرَّرُوا مِنْ تَبَعِيَّتِهِم لِقَادَتِهِم وأَئِمَّتِهِمْ فِي الكُفْرِ، لأَنَّهُم سَوْفَ يَتَبَرَّؤُونَ عند رَبِّهِمْ مِن إِضْلاَلِهِم.

التدبُّر التَّحْلِيلِي:

- قول الله تعالىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ... ﴿٣١﴾﴾:

سَبَقَ أَنْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورة (الْقَصص/ ٤٩ نزول) أَنَّ أَئِمَّةَ الكُفْرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ قَالُوا بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ يَعْنُونَ الآياتِ التِّسْعَ الَّتِي آتاهُ اللهُ إِيَّاها، وهَـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهم يَعرِفُونَ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلامُ رسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ، وأَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به فَلَمْ يفْعَلُوا، فَقَالَ اللهُ بِشَأْنِهم عَقِبَ البَيَانِ السَّابق:

﴿... أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وَجَاء بَعْدَ سُورَة (القصص/ ٤٩ نزول) في نجوم التَّنْزيل تَفْصِيلٌ عَنِ الرُّسُلِ، وذِكْرٌ بِتَمْجِيدٍ للتوْراة وَالإنجيل، وَشَعَرُوا مِنْ هَـٰذا أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ في الإِسْلام بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِكُلِّ كُتُبِ اللهِ السَّابِقَةِ لِلْقُرْآن، فَأَرَادُوا أَنْ يُيْئِسُوا الرَّسُولَ والدُّعَاةَ إِلَىٰ الإسْلام مِنْ أُمَّتِهِ، بِأَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا لَا بالْقُرْآنِ وَلَا بالكُتُبِ الَّتِي نَزَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ عَلَىٰ الرُّسُلِ السّابِقِين، فَهِيَ كُتُبٌ نَزَلَتْ بَيْنَ يَدَي القرآن، أَيْ: قَبْلَه، فأَعْلَنُوا قَوْلَهُمُ الَّذِي جاء بيانُهُ في الآيَةِ (٣١) من سورة (سَبَأ/ ٥٨ نزول).

فَلَمْ يَصْلُحْ فِي عِلَاجِهِمْ إلَّا إنْذارُهم بِعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، عَنْ طَرِيقِ تَقْدِيمِ مَشْهَدٍ مِن المشاهِدِ المسْتَقْبَلِيَّةِ الَّتِي سَوْفَ تكُونُ حَتْماً.

■ فقال اللهُ عزَّ وجَلَّ:

﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

فِي هٰذِهِ الآياتِ عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ وُقُوفِ الَّذِين كَانُوا أئِمَّةَ الكُفْرِ في الدُّنيا، مَعَ الَّذِينَ كَانُوا أَتْبَاعَهُمْ، وَمَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ مِنْ تخاصُم.

أ ـ يَبْدَأُ الْعَرْضُ بِقَوْلِ اللهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ..﴾:

أي: وَلَوْ تَرىٰ أَيُّهَا الرَّائِي أَيّاً كُنْتَ حِينَ يَكُونُ الظّالِمُونَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ مَوْقُوفِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضاءِ، والأَتْبَاعُ يَتَخاصَمُونَ مَعَ الَّذِينَ كَانُوا أَئِمَّتَهُمْ فِي الدُّنيا، لَرَأَيْتَ حِواراً عَجَباً، وأَمْراً مُرْهِباً.

- ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أي: حِينَ يَكُونُ الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، ومِنْهُمُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ قَالُوا: لَا نُؤْمِنُ بِهٰذا الْقُرْآنِ وَلَا بالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ.
- ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أي: سَاقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وجَعلَتْهُمْ وَاقِفِينَ عِنْدَ رَبِّهم لِمُحَاسَبَتِهِمْ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِ كُلٍّ واحِدٍ مِنْهُمْ.
- ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾: أي: يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

قَوْلاً، فَيُجيبُهُمْ بَعْضُهُمُ الآخرُ، هـٰذا التَّعْبيرُ يَدُلُّ علىٰ التخاصُمِ الْكَلَامِي بَيْنَ فَرِيقين.

رَجْعُ الْقَوْلِ: هُو الجوابُ عَلَيْهِ، أي: يَقُولُ خَصْمٌ قَوْلاً، فَيُجيبُهُ المخاصِمُ عَلَيْهِ بِجَوابٍ يَرْفَعُ فِيهِ عَنْ نَفْسِهِ مَسْؤُولِيَّةً ما مِنَ المسْؤُوليات.

يقال لغة: «رَجعَ فُلانٌ الْقَوْلَ» أي: أَجَابَ بِكَلامٍ مِنْ عِنْده عَلَىٰ كَلامٍ وُجِّهَ لَهُ مِنْ شَخصٍ آخرَ.

ب ـ التَّخَاصُمُ بَيْنَ الأَتْبَاعِ والمتْبُوعِين، الأتباعُ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا في الدُّنيا مُسْتَضْعَفين، والمتْبُوعُونَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنيا مُسْتَكْبِرِينْ.

- **الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ:** يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَانُوا مُسْتَكْبِرِين: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾: أي: لَوْلَا فِتْنَتُكُمْ لَنا وَضَغْطُكُمْ عَلَيْنا لَكُنَّا مُؤْمِنينَ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ رَبِّنا، وَلَما تَعرَّضْنَا لِحِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ.

- **الَّذِينَ كانوا مُسْتَكْبِرِين:** يَرُدُّونَ عَلَيْهِم بِقَوْلِهِمْ: ﴿..أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

المرادُ بالاسْتِفْهام هُنَا النَّفْيُ مَعَ شِدَّةِ التَّبَرُّؤ، والإنْكَارِ عَلَىٰ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ اتِّهَامَهُمْ لَهُمْ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا هُمُ السَّبَبَ فِي ضَلَالِهِمْ وَمَنْعِهِمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْهُدَىٰ الرَّبَّانِيَّة.

يُقَال لُغَةً: «صَدَّ فُلَانٌ فُلاناً عَنْ كَذَا» أي: صَرَفَهُ عَنْهُ ومَنَعَهُ منه.

أي: لَسْنَا الَّذِينَ مَنَعْنَاكُمْ وَصَرَفْنَاكُمْ بِسُلْطَانِنَا عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَىٰ الَّذِي جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ فِي نُفُوسِكُمْ، فَأَعْجَبَتْكُمْ مَسالِكُنا الْبَعِيْدَةُ عَنْ صِرَاطِ الْهُدَىٰ، وَوَجَدْتُمْ فِيهَا مَا يُرْضِي أَهْوَاءَكُمْ وشَهَوَاتِكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَنَا، ولَمْ نكُنْ مُكْرِهِينَ لَكُمْ.

● **الّذِين كانُوا مُسْتَضْعَفِينَ**: يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ بقَوْلهم: ﴿.. بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا.. ﴿٣٣﴾﴾:

أي: بَلْ كَانَ لَكُمْ تَأْثِيرٌ عَلَيْنَا بِالتَّضْلِيلِ الْفِكْرِيّ، والإغْرَاءَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وكَانَ هـٰذا مِنكُمْ مَكراً مَكَرْتُمُونَنا إِيَّاهُ فِي اللَّيْلِ والنَّهارِ، لِخِدَاعِنَا وَتَضْلِيلِنَا.

● ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي: مَكْرٌ فِي اللَّيْلِ والنَّهارِ، يُقَالُ لُغَةً: «مَكَرَهُ، وَمَكَرَ بِهِ، يَمْكُرُ مَكْراً، فَهُو مَاكِر، وَمَكَّارٌ، وَمَكُورٌ».

الإضافة في: ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هي علىٰ تَقْدِير «فِي» أي: مَكْرٌ في اللَّيْلِ وفي النَّهار.

المكْرُ: تَدْبِيرُ أَمْرٍ مَا فِي خَفَاءٍ عَنِ الممكُورِ بِهِ، يَكُونُ فِي الشَّرِّ، ويَكُونُ فِي الْخير.

● ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾: أي: حين كُنْتُم في الدُّنْيا تَأْمُرُونَنا بِأَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ، بِتَكْذِيبِ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ علَىٰ لِسَانِ رَسُولِه، وبِجُحودِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، وَتَأْمُرُونَنا بِأَنْ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً، أي: نُظَرَاءَ للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

أَنْدَاد: جَمْعُ «نِدّ» وهو في اللُّغَةِ المِثْلُ، والنَّظِير.

وطَوَىٰ النَّصُّ مَا يُجِيبُ بِهِ المسْتَكْبِرُون لِسُهُولَةِ إِدْرَاكِهِ، أي: لَمْ نَكُنْ مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبِرِينَ لَكُمْ، فَلِمَاذَا اسْتَجَبْتُمْ لأَوَامِرِنَا، إِنَّكُمْ لَوْ لَمْ تَسْتَهْوِكُمْ طَرَائِقُ حَيَاتِنَا وَمَفْهُومَاتُنَا لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِمَا كُنَّا نَأْمُرُكُمْ بِهِ.

■ وَخَتَمَ اللهُ عزّ وجلَّ بَيَانَ هـٰذا التَّخاصُم بَيْنَ الأَتْبَاعِ والْمَتْبُوعِينَ بقولِهِ تَعالَىٰ:

● ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

النَّدَامَة: مَصْدَرُ «نَدِمَ علَىٰ الأمْرِ، يَنْدَمُ، نَدماً، وَنَدَامَةً» أَيْ: أسِفَ، وتَحَسَّرَ، وَحَزِنَ، علَىٰ مَا كَانَ فَعَلَهُ باخْتِيَارِهِ الْحُرِّ دُونَ إِجْبَارٍ وَلَا إِكْرَاهٍ، وَتَمَنِّيهِ أَنْ لَا يَكُونَ قَدْ فَعَلَهُ.

الأَغْلَال: جَمْعُ «الْغُلّ» وهُوَ طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جِلْدٍ أَوْ غيْرِهما، يُوضَعُ في عُنُق الأَسِيرِ وَنَحْوِه، أَوْ فِي يَدَيْهِ، وَقَدْ تُجْمَعُ يَدُ المغْلُولِ إلَىٰ عُنُقِهِ، وَتُطَوَّقَانِ بالْغُلّ، وتُعْقَدُ بالْغُلِّ سِلْسِلَةٌ مِنْ حَدِيد، أَوْ يُعْقَدُ بِهِ سَيْرٌ لِجَرِّهِ بِهِ.

المعْنَىٰ: وأَسَرَّ الأَتْبَاعُ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ، والمتْبُوعُونَ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، نَدَامَتَهُمْ: أَسَفَهُمْ، وَتَحَسُّرَهُمْ، وَحُزْنَهُمْ، ولَوْمَهُمْ لِنُفُوسهم عَلَىٰ ما كَانُوا قَد ارْتَكَبُوهُ مِنْ جَرائِم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، حِينَ رَأَوْا أَدوَاتِ تَعْذِيبهم، وحِينَ رَأَوْا جهَنَّمَ دَارَ عَذَابِهِم.

وَيَجْعَلُ اللهُ الأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وفي أعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَروا جميعاً، بِأَمْرِ التَّكْوِين، أَوْ بأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ الْمَسْؤُولِينَ عَنْ سَوْقِهِمْ إلىٰ حَيْثُ يَكُونُ تَعْذِيبُهُمْ فِي جهَنَّم، وَيُساقُونَ لِيَنَالُوا عَذَابَهُمْ عَلَىٰ وفْقِ قَضَاءِ اللهِ الَّذِي قَضَاهُ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

وأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ جَزاءَهُمْ يَكُونُ مُسَاوِياً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، دُونَ زِيَادَةِ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَرَّة، فَقَالَ تَعَالىٰ:

- ﴿..هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

الاسْتِفْهَام هُنَا يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا يُجزَوْنَ بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ اللهِ التَّامّ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ إلَّا مُطَابِق وَمُمَاثِل مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الحياة الدُّنْيَا مِنْ جَرَائِمَ وَمَعَاصِي وآثام.

وَفِي هٰذا الاسْتِفْهَام مَعْنَىٰ: هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَجْزِيَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِعَدْلِهِ إِلَّا جَزَاءً مُطَابِقاً وَمُمَاثلاً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُون، إِذَا لَمْ يَكُنْ أَقلَّ مِمَّا كَانُوا

يَعْمَلُونَ بِفَضْلِ اللهِ عَلَىٰ مَنْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ شَيْئاً مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ، فالْعِبَارَةُ يُرَادُ بِها نَفْيُ الزِّيَادَةِ عَلَىٰ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذَابٍ عَلَىٰ مَا أَسْلَفُوا فِي الحياة الدُّنْيا، إِذْ لَا يَظْلِمُ اللهُ أَحداً مِنْ عِبَادِهِ مِثْقَالَ ذَرَّة ولا أَصْغَرَ مِنها.

وبهٰذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس السَّابِعِ مِنْ دُرُوسِ سُورَة (سبأ).

والحمدُ للهِ علَىٰ مَدَدِه ومَعُونَتِهِ وتَوفِيقِهِ وفَتْحِه.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدَّرْس الثامن من دروس سورة (سبأ)

الآيات من (٣٤ ـ ٣٩)

قال اللهُ عَزّ وجل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾.

القراءات:

(٣٧) ● قرأ رُوَيْسٌ: **[جَزَاءً الضِّعْفُ]** مع كَسْرِ التَّنْوين في الوصْلِ لالتقاءِ السَّاكِنَيْن.

وقرأها باقي الْقُرّاء الْعَشَرة: **﴿جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾** بالرَّفْعِ والإضافة.

وهما مِنَ التفَنُّن في التعبير.

(٣٧) ● قرأ حَمْزَة: [فِي الْغُرْفَةِ] بالإفراد.

وقرأها باقي القراء العشرة بالجمع: ﴿فِي الْغُرُفَاتِ﴾.

والإفراد يُحَمَلُ عَلَىٰ الجنس فَهُو بمَعْنَىٰ «الْغُرُفَات».

(٣٨) ● قرأ ٱبن كثير، وأبُو عَمْرو: [مُعَجِّزِينَ] مِنْ فِعْلِ «عَجَّزَ» أي: ثَبَّط وعَوَّق.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مِنْ فِعْلِ «عَاجَزَ» بمَعْنَىٰ سَبَقَ فَلَمْ يُدْرِك، أي: مُفْلتين هاربين لا يُدْرَكُون.

فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ إشْعَارٌ بأَنَّ حَالَ مُتْرَفي قُرَيشٍ، الَّذِين كَفَرُوا بِرِسَالَةِ رَسُولِ رَبِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، مُتَفَاخرِينَ ومُعْتَزِّين بِأمْوَالِهِمْ، مُشَابِهٌ لأَحْوَالِ مُتْرَفِي أَهْلِ الْقُرَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، إذْ قَالُوا لَمَّا أَعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بِمَا أُرْسِلَ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ: نَحْنُ أَكْثَرُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْوالاً وأَوْلَاداً. وبِمَا أَنَّ اللهَ فَضَّلَنَا بهـٰذا فَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، إِنْ صَحَّ ما يَقُولُ مُحَمَّد مِنْ وُجودِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ هـٰذِهِ الحياة.

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَفَاتِيحَ الإقْنَاعِ الَّذِي يَكْشِفُ للّذِينَ كَفَرُوا خَطَأَهُمْ فِي تَصَوُّرِهم، وهُوَ أَيْضاً بَيَانٌ مِنَ اللهِ لَهُم بأسْلُوبِ التَّعْرِيضِ لَا بأُسْلُوبِ الْخِطَابِ المباشر.

وفي آيَاتِ هـٰذا الدَّرسِ أيْضاً تَعْلِيمٌ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ ولِكُلِّ داعٍ إِلَىٰ اللهِ وَنَاصِحٍ مُرْشدٍ، مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَهُ للْمُؤْمِنِينَ المسلمين، الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللهُ مُتَفَاضِلِينَ فِي الأَرْزَاقِ.

التدبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ عزّ وجلّ مُبيِّناً سُنَّةً مِنْ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ، الَّذِي مِنْ ظَاهِرَاتِ أَهلِ الثَّرَاءِ وَالْمَالِ الْوَفير فيه، أَنْ يَقُولُوا لِرُسُلِ رَبِّهِمْ: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾:

- ﴿فِي قَرۡيَةٖ﴾: أي: فِي مُجَمَّعٍ سَكَنِيٍّ وَلَوْ كَانَ مَدِينَةً عظيمة.

- ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾: «مِنْ» زيدتْ للدَّلالَةِ عَلَىٰ اسْتِغْرَاقِ الْعُمُومِ، وذكْرُ لفظ «نَذِير» يَدُلُّ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَسْبِقُ الإنْذَارَ مِنْ وَظَائِفِ الرَّسُولِ فِي رِسَالَتِه.

المترفون: هُمُ الذين وسَّعَ اللهُ عَلَيْهِم في الرزق والمال، فكانوا بِهِ ذوي رفاهيَة زَائِدَة، وهـٰذِهِ الرفاهية مُبْطِرَةٌ تُولِّد الاسْتكبارَ والعزَّةَ بالإثم.

أي: وَمَا أَرسَلْنَا فِي أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْ رَسُولٍ يُبَلِّغُ رِسَالَتَنَا، ويُبَيِّنُها للنَّاس، وَيَقُومُ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِهِ المختَلِفَةِ، وَفِي آخِرِهَا إِنْذَارُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِهَا، بأنَّهُمْ سَوْفَ يُلاقُونَ عَذَابَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين، إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهُمْ لِرُسُلِ رَبِّهِمْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ.

■ قول اللهِ عزّ وجَلَّ يُبَيِّنُ افْتِخَارَ المتْرفِينَ بأمْوَالِهِمْ وأَوْلَادِهم واسْتِكْبَارَهُمْ بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وجَعْلَهُمْ ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَىٰ أَنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُهُمْ:

- ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾: أي: وقالوا: نَحنُ مُفَضَّلُونَ في هـٰذِهِ الْحَياةِ بِكَثْرَةِ الأَمْوَالِ وَبِكَثْرَةِ الأَوْلَادِ، لِمِيزَاتٍ مَيَّزَنَا رَبُّنَا بِها، فَلَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يُعَذِّبَنَا.

■ قَولُ اللهِ عزّ وجلَّ يُعَلِّمَ رَسُولَهُ فَكُلَّ نَاصِحٍ مرْشِدٍ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ

أمَّتِهِ، مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ بِهِ فَسَادَ رَأْيِهِمْ، وَجَهْلَهُمْ بِحِكْمَةِ اللهِ في بَسْطِ رِزْقِهِ لِبَعْضِ عِبادِه، وَفي تَقْدِيرِهِ عَلَىٰ بَعْضِ عِبَادِهِ، ويُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ أَمْوالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ عَطَاءٌ مِنَ اللهِ لامْتِحَانِهِم، فَهِيَ لَا تُقَرِّبُهُمْ عِنْدَ اللهِ زُلْفَىٰ، بَلِ الَّذِي يُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ إيمانُهُمْ وإسْلامُهُمْ وَالأعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يَبْتَغُونَ بِها مَرْضَاةَ رَبِّهِمْ، فَهُمُ الَّذِينَ يُضَاعِفُ اللهُ ثَوَابَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، ويَجْعَلُهُمْ فِي غُرُفَاتِ الْجنَّاتِ آمنين، خالِدِينَ فِيها مُخَلَّدِين:

- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

- ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: أي: يُوسِّعُهُ وَيُكَثِّرُهُ.

- ﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ الرّزقَ ويُقَلِّله، أصل الْعِبارَة: «ويقْدِرُهُ» حُذِفَ الضمير المفْعُولُ به إيجازاً.

(١) أي: قُلْ أَيُّها الدَّاعي إلىٰ اللهِ النَّاصِحُ الْمُرْشِدُ: إنَّ للهِ حِكْمَةً سَامِيَةً فِي تَوسعَةِ الرِّزْقِ وَتَكْثِيره لِبَعْضِ عِبادِهِ دَواماً أَوْ فِي بَعْضِ الأَوْقَات، وفِي تَضْيِيقِ الرزْقِ وتَقْلِيلِهِ لآخرِينَ كَذٰلِكَ، دَواماً أَوْ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ.

وقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزيل بَيَانُ هٰذِهِ الْحِكْمَةِ وهي امْتِحَانُ عِبَادِه.

- فَمَنْ وَسَّعَ اللهُ رِزْقَهُ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يَمْتَحِنُهُ لِيَكْشِفَ مَا انْطَوَىٰ فِي نَفْسِهِ: هَلْ هُوَ مِنْ شَاكِرِي أَنْعُم اللهِ عَلَيْهِ، بالطَّاعَةِ والاسْتِقامَةِ وعَدَم الاسْتِكْبَارِ عَلَىٰ عِبادِ اللهِ بِمَا آتاهُ الله، بتَأْدِيَةِ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ تَأْدِيَتَهُ مِنْ حُقُوقٍ، أَمْ هُوَ مِن الْكَافِرِينَ الْعُصاةِ الَّذِينَ يَسْتَخْدِمُونَ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي مَعْصِيَتِهِ، والخُرُوج مِنْ دَوائِرِ طَاعَتِه، وَجُحُود نِعْمَتِهِ، والاسْتِكْبارِ علىٰ عِبَادِ اللهِ بِمَا آتاه الله.

- ومَنْ ضَيَّقَ اللهُ رِزْقَهُ وقَلَّلَهُ لَهُ، فَاللهُ عزَّ وجلَّ يَمْتَحِنُهُ لِيَكْشِفَ مَا

انْطَوىٰ فِي نَفْسِهِ، هَلْ هُوَ مِن الصَّابِرِينَ الرَّاضِين بِمَا قَسَمَ اللهُ لهم، الَّذِينَ لَا يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ، وَلَا يَسْتَخْدِمُون وَسَائِلَ فِيها مَعْصِيَةُ اللهِ أَوِ الكُفْرُ بِهِ، لإنْماءِ ثَرواتِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَا يَتذَمَّرُون مِنْ وَاقِعِ حَالِهِمْ، مُعْتَرِضِينَ علَىٰ مَقَادِيرِ رَبِّهِم، بَلْ يَقُومُونَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم كَمَا أَمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ. أَمْ هُوَ مِنَ الضَّجِرِينَ السَّاخِطِينَ عَلَىٰ مَا قَدَّرَ الله لَهُمْ، الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ نَظَرَاتِ حَسَدٍ وغَيْظٍ، وَيُحاوِلُونَ الْحُصُولَ عَلَىٰ مَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ بالظُّلْمِ والْعُدْوانِ، وَمَعْصِيَةِ الله، ويَكُونُونَ دَواماً مُتَذَمِّرِينَ، شَاكِينَ، طَاعِنِينَ فِي حِكْمَةِ اللهِ عَزّ وجَلّ، بِعَطَائِهِ ومَنْعِهِ، وبَسْطِهِ وتَقْدِيرِه.

وَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿..وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بأُسْلُوبِ الاسْتِدْرَاك، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ تَغُرُّهُمْ وَفْرَةُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِم، فَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ قَدْ تَوَصَّلُوا إِلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نِعَمٍ قَدْ كَانَ ثَمَرَةَ عِلْمٍ عِنْدَهُمْ، وَعَمَلٍ رَشِيدٍ سَدِيدٍ مَارَسُوهُ فِي حَيَواتِهِم، نَاسِينَ تَيْسِيرَ اللهِ وفَضْلَهُ عليهِم، أَوْ جَاحِدِينَ لَهُ، وَمَهْمَا أَبَانَ لَهُمْ أَهْلُ الإِيمانِ والْعَقْلِ والرُّشْدِ أَنَّ اللهَ يَمْتَحِنُهُمْ فِيمَا آتاهُمْ، وأَنَّهُ قَدْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ لِيَبْلُوَهُمْ، فإنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا هٰذِهِ الحقيقَةَ، فَلَا يَفْتَحُونَ مَغَالِيقَ نُفُوسِهِمْ لاسْتِقْبَالِهَا، وَإِدْرَاكِها والتَّأَمُّلِ فيها، لأَنَّ عِلْمَهُمْ بِهَا يُشْعِرُهُمْ بِوَاجِبَاتٍ كَثِيراتٍ، عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤَدُّوهَا طَاعَةً لِرَبِّهِمْ، وأداؤهُمْ هٰذِهِ الواجبَاتِ يُخَالِفُ أَهواءَهم، ويَصْطَدِمُ بِشُحِّ نُفُوسِهِم، فَهُمْ لَا يَفْتَحُونَ مَغالِيقَ نُفُوسِهِمْ لإِدْرَاكِها، وَيَحْرِصُونَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَعْلَمُوها عِلْماً يُعَكِّرُ صَفْوَ نُفُوسِهِم.

هٰذا مَا أَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿..وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

(٢) والْتَفَتَ الْبَيانُ فخاطَبَ اللهُ عزّ وجلّ هؤلَاءِ الكَافِرِينَ الْمُترَفِينَ المتَفَاخِرِين بِوَفْرَةِ أَمْوَالِهِمْ، وَكَثْرَةِ أَوْلَادِهِمْ، فقالَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ لهم:

- ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

زُلْفَىٰ: أي: قُرْبَىٰ. وَتُطْلَقُ عَلَىٰ دَرجَةٍ عَالِيَةٍ ذَاتِ قُرْبٍ مِنْ فُيُوضَاتِ ثَوابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ. فَعَلَىٰ أَنَّها اسْمُ مَصْدَرٍ، هِيَ نائب مَفْعُول مطلق. وَعلَىٰ أَنَّها دَرجة عَالِية، هي مَفْعُول للفعل في «تُقرِّبُكُمْ».

﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾: أي: جزاءُ المضاعَفَةِ لأَعْمَالِهم. **الضِّعْفُ**: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ علىٰ مِثْلِ الشَّيْءِ، أَوْ مِثْلَيْهِ فَأَكْثَرَ، ودَلَّ البيان النَّبَوِيُّ علىٰ أَنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا عِنْدَ اللهِ في الْحَدِّ الأَدْنَىٰ، وَتُزَادُ بِفَضْلِ اللهِ إلىٰ سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ فَأَكْثر.

﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ جمع «الْغُرْفَة» وهِي في الْقُصُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ عِنْدَ العَرَب ذَاتُ مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ فيها، تُخْتَارُ لِسَيِّدِ الْقَصْرْ ومُتْعَتِهِ الْخَاصَّة، وَيُصْعَدُ إِلَيْها بدَرَجٍ، وتَكُونُ فِي الْعَادَةِ عَالِيَةً مُشْرِفَة.

وقَدْ تُطْلَقُ «الغرفَةُ» بالإفراد كما جاء في الآية (٧٦) من سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) ويُرَادُ بِهَا الْجِنْسُ الشَّامِلُ لِلْغُرُفَاتِ، وَعَلَىٰ هٰذا تُحْمَلُ القراءة الأُخْرَىٰ هُنَا فِي سُورَة (سبأ/ ٥٨ نزول).

فَاللهُ عزَّ وجَلَّ يَقُولُ لَهُمْ تَكْمِيلاً لإِقْنَاعِ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ لَهُمْ بِالْحِكْمَةِ مِنْ بَسْطِ الرِّزْقِ وَتَضْيِيقِهِ: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُم بالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا أَقَلَّ تَقْرِيب، فَنَحْنُ الَّذِينَ مَنَحْنَاكُمُوهَا لِنَبْلُوكُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا مَا كَانَ مِنْ كَسْبِكُمُ الإِرَادِي ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِنَا، بالتَّقَرُّبِ إِلَيْنَا بالإِيمانِ والطَّاعَةِ، وَفِعْلِ الْخَيْرِ الَّذِي رَغَّبْنَا عِبادَنَا أَنْ يَفْعَلُوهُ، وَتَرْكِ مَا رَغَّبْنَاهُمْ أَنْ يَتْرُكُوهُ، فَهؤُلَاءِ نَجْزِيهِمْ جَزَاءً مُضَاعَفاً أَضْعَافاً كَثِيرَةً، بِسَبَب مَا عَمِلُوا مِنْ صَالِحَاتٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدُّنيا، وَنَجْعَلُهُمْ آمِنِينَ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُون، في الْغُرُفَاتِ الرَّفِيعَاتِ النَّفِيسَاتِ فِي جَنَّاتِ النعِيم يَوْمَ الدِّين.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿إِلَّا﴾ هي هُنَا بمَعْنَىٰ «لَكِنْ» وَ﴿مَن﴾ بَعْدَهَا اسْم شَرْط جَازِم. ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فِعْلُ الشَّرطِ ومَعْطُوفٌ عليه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ. . .﴾ جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ جوابِ الشَّرْطِ.

(٣) وإذْ جاءَ تَرْغِيبُ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً بالجزاءِ المضاعف في الآية (٣٧) كَانَ مَنَ الْحِكْمَةِ المتَّبَعَةِ فِي القرآنِ، الْتَّذْكِيرُ بِعِقَابِ مَنْ كَفَرَ وارْتَكَبَ قَبَائِحَ الأَعْمَالِ وَسَيِّئَهَا، مِمَّا يُسْخِطُ اللهَ عزّ وجلّ عَلَىٰ عِبَادِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

السّعْيُ: عَمَلٌ فَوْقَ المشْي، وهُوَ عَدْوٌ دُونَ الرَّكْضِ بِشِدَّةٍ وسُرْعَةٍ، ويأتي السَّعْيُ بمَعْنَىٰ الْعَمَلِ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ.

وجاء في القرآن اسْتِعمَالُ «السَّعْيِ» في الأَعْمَالِ ذَاتِ الثواب أو العقابِ في الآخِرَةِ.

- ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: أيْ: مُتوهّمينَ أَنَّهُمْ قادِرُونَ علىٰ أن يَسْبِقُوا، وأنْ يُفْلِتُوا من عذاب رَبّهم. وفي القراءة الأخرىٰ: **[مُعَجِّزِينَ]**: أي مُثَبِّطين ومُعوِّقين.

فبين القراءتين تكامل في أداء المعنىٰ المراد.

والْمُرَادُ بِالسَّعْيِ في آيَاتِ اللهِ سَعْيُهُمْ في عَدَمِ اتِّبَاعِهَا، وسَعْيُهُمْ في تَحْريفِ دَلاَلاَتِهَا، وَسَعْيُهُمْ في التشْكِيكِ فيها، وفي جُحُودِها، وَمِنَ السَّعْي في تَحْرِيف دَلاَلاَتِها، تَلاعُبُهُمْ في تَعْلِيلِ تَفاضُلِ أَرْزَاقِ النَّاسِ فِي الحياة، الَّذِي هو آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ علىٰ امْتِحَانِ بَعْضِهِمْ بِبَسْطِ الرِّزْق بِحَسَبِ

خَصَائِصِ نُفُوسِهم، وعلى امْتِحَانِ بَعْضِهِمْ بتَقْدِيرِهِ وتَقْلِيلِهِ بِحَسَبِ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ نُفُوسَهُمْ، فَيُوهِمُونَ أَنَّ مَنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَكَثَّرَ أَمْوَالَهُمْ وَكَثَّرَ أَوْلَادَهُمْ، هُمْ مُفَضَّلُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَهُوَ لَا يُعَذِّبُهُمْ مَهْمَا ارْتَكَبُوا مِن آثَامٍ وجَرَائم.

وَنَصْبُ لفظ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ علىٰ أَنَّهُ حَالٌ، أي: يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا حَالَةَ كَوْنِهِمْ مُعَاجِزِين، أو مُعَجِّزِينَ.

- ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: أَيْ: أُولَٰئِكَ الـمُنْحَطُّونَ الْبُعَدَاءُ في اتِّجَاهِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، سَوْف يَكُونُونَ مَسُوقِينَ مِنْ قِبَلِ مَلَائِكَةِ الْعَذَاب، لإِحْضَارِهم فِي مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ نَارٍ مُحْرِقَةٍ، ووسَائِلِ تَعْذِيبٍ أُخْرَىٰ فِي الْجَحِيم، دَارِ عَذَابِهِمْ يَوْمَ الدين.

(٤) والْتَفَتَ الْبَيَانُ فَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِن أُمَّتِهِ، يُعْطِيهِ بَعْضَ مَفَاتِيح بَيَانٍ دَعَوِيٍّ إِقْنَاعِيٍّ، يُوَجِّهُهُ فِي بَيَانَاتِ النُّصْحِيَّةِ الإِرْشَادِيَّة، بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

- ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

يَبْدُو أَنَّ هَٰذا التَّعْلِيمَ يُقْصَدُ بِهِ، أَنْ يُوَجِّهَهُ الْمعَلِّمُ النَّاصِحُ الْمُرْشِدُ الَّذِي هو مِنْ أَئِمَّةِ المتقِينَ، لِجَمَاهِيرِ الْمُسْلمين، لإِقْنَاعِهِمْ بِحِكْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَسْطِ الرِّزْقِ وتضييقِهِ، الَّتِي سَبَقَ بَيانُها لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآيَةِ (٣٦) مِنْ هَٰذا الدَّرْس، وَلِحَثِّهِمْ عَلَىٰ الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، في وُجُوه الْخَيْرِ الَّتِي رَغَّبَ اللهُ عزَّ وَجلَّ في الإِنْفَاقِ فيها، ولإِطْمَاعِهِمْ بأَنَّ اللهَ يُخلِفُ لَهُمْ مَا يُنْفِقُونَ في سَبِيلِهِ، وَلِبَيَانِ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خَيْرُ الرَّازِقِين.

فَيَقُولُ الناصِحُ الْمُرْشِدُ في حَثِّ المسْلِمينَ عَلَىٰ الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ: وَمَا أَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ مِنْ شَيْءٍ مَهْمَا قَلَّ أَوْ كَثُر، فاللهُ

يُخْلِفُهُ لَكُمْ فِي الدُّنْيا، أي: إضَافَةً إلىٰ الأَجْرِ الْعَظِيم الَّذِي ادَّخَرَهُ لَكُمْ وَالَّذِي تَنالُونَهُ يَوْمَ الدِّين.

إخْلَافُ الشَّيْءِ: التَّعْوِيض عَنْهُ وَجَعْلُ الْخَلَفِ عِوَضاً عَنْهُ.

● ﴿..وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ جَاءَت هـٰذِهِ العبارة ثَنَاءً عَلَىٰ اللهِ في نِهَايَةِ هـٰذا الدَّرْسِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْعَظِيمَةِ فِي رِزْقِهِ لِعِبَادِه، وَلِهـٰذِهِ الْحِكْمَةِ وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ، بَعْضُهَا يَقْتَضِي الْبَسْطَ بقَدَر، وبَعْضُهَا يَقْتَضِي التَّضْيِيقَ بِقَدَرٍ، وَاخْتِيَارَاتُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا تَكُونَ إِلَّا خَيْراً، وَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ خَيْرُ الرازقين.

وبهـٰذا تم تَدَبُّر الدَّرْس الثامن مِنْ دُروس سورة (سبأ).

والحمد للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وَتَوْفِيقِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٢)

التدبر التحليلي للدَّرْس التاسع من دُروس سورة (سبأ) الآيات من (٤٠ ـ ٤٢)

قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

القراءات:

(٤٠) ● قرأ حفص، ويعقوب: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ﴾** بياء المضارعَةِ في الفِعْلَيْن. أي: يحشُرُهم اللهُ عزّ وجلّ.

وقرأَهَا بَاقي القراء العشرة: [**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَميعاً ثُمَّ نَقُولُ**] بضَمِيرِ المتكلِّم العظيم في الفعلين.

والقراءتان متكافئتان، وهما من التَّفَنُّن في أُسْلُوب الخطاب، وفي قراءة الجمهور تربية المهابة من جلال الله.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْس بيان مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ، يُقَدِّمُ فيهِ للمشرِكين الَّذِينَ يَتوَهَّمُونَ أَنَّ قُرنَاءهُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ مَلاَئِكة، مشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ يوم القيامَةِ في مَوْقِفِ الحِساب، وفي هـٰذا المشْهَدِ يَسْأَلُ اللهُ عزّ وجلَّ فِيهِ المَلاَئِكَة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾؟ فيتبرَّؤُون مِنْهُمْ، وَيَقُولُون: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾.

وفي آخِرِ هـٰذا المشْهَدِ بَيَانُ مَا يَقُولُهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِلْمُشْرِكِينَ وَآلِهَتِهِمْ، ومَا يَقُولُهُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عابِدِينَ ومَعْبُودِين: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

ولَا يَخْفَىٰ مَا فِي هـٰذا الْعَرْضِ مِنْ عِلَاجٍ فَعَّالٍ مُؤَثِّرٍ فِي قُلُوب الذين لَديهم اسْتِعْدَادٌ مَا للاسْتِجَابَةِ لِلْحَقِّ، لَمْ تُطْمَسْ بَصَائِرهم باتِّبَاعِهم أهواءَهم وشَهَواتِهم ومَطَالِبَهُمْ مِنَ الحياة الدُّنْيَا العاجِلَة.

التدبّر التحليلي:

دلَّت آيَاتُ هـٰذا الدَّرْسِ عَلَىٰ أَنَّ قُرنَاءَ الإنْسِ مِنَ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، كانُوا يَكْذِبُونَ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُونَ لَهُمْ: نَحْنُ مَلاَئِكَةٌ، وَيَأْتُونَهُمْ بِبَعْض الأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ، لِيُوهِمُوهُمْ بأَنَّهم صَادِقُونَ في ادِّعَاءِ أَنَّهُمْ مَلاَئِكَة، ثُمَّ يُزْلِقُونَهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، فَيُطِيعُهُمْ قُرنَاؤُهُم مِنَ الإنْسِ مُشْرِكِينَ باللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَفي آلِهِيَّتِهِ، عَلَىٰ أَنَّ طَاعَتَهُمْ فِي التَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ هِيَ عِبَادَةٌ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ.

■ قول اللهِ تَعالَى يَعْرِضُ لَقْطَةً مِنْ لَقَطاتِ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَة:

• ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: **[وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُول]**:

الحشْر: السَّوْقُ والْجَمْعُ.

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِبَيانَاتِ رَبِّكَ في آياتِ كِتَابِهِ، هـٰذا الْمَشْهَدَ الَّذي نُحَدِّثُكَ عَنْهُ، والَّذي يَكُونُ يَوْمَ يَحْشُرُ رَبُّكَ الإِنْسَ والْجِنَّ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء جميعاً، وَيَسُوقُهُمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وَيَأتي بالشُّهُودِ وَمِنْهُمُ الْمَلَائِكَة.

ثُمَّ بَعْدَ وُقُوفِ الْمُحَاسَبِينَ وَالشُّهُودِ، وَهـٰذا المشْهَدُ يَتَعَلَّقُ بالمشْرِكِينَ وَالْمَلَائِكَةِ الَّذِين كَانَ شَيَاطِينُ الْجِنّ يَزْعُمُون لِقُرَنائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ أَنَّهُمْ مِنْهُمْ، يَقُول اللهُ عزَّ وجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا في الدّنيا مُشْرِكِينَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ، أي: يُطِيعُونَ فِي أَوَامِرِ الدِّينِ بِحَسَبِ مَا يَزْعُمُونَ؟

قُدِّمَ المفعولُ به ﴿إِيَّاكُمۡ﴾ على الفِعْلِ ﴿يَعۡبُدُونَ﴾ لإِفَادَة التَّخْصِيصِ، أيْ: أَهَؤُلَاءِ المشْرِكُونَ كَانُوا يَخُصُّونَكُمْ بالْعِبَادَة؟

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبيناً مَا يُجِيبُ بِهِ الْمَلَائِكَة، وجاء بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الماضِي اسْتِقْطَاعاً مِن الْحَدَثِ المستقْبَلِيِّ، لِلدَّلَالَة عَلَى أَنَّهُ سَوْفَ يَقَعُ حَتْماً، فَهُوَ بِقُوَّةِ الأَمْرِ الَّذِي وَقَعَ فِعلاً:

• ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾:

• ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾: أي: قَالَ الْمَلَائِكَةُ: رَبَّنَا تَنَزَّهْتَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ شُرَكَاءُ في رُبُوبِيَّتِكَ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِكَ، وَنَحْنُ نَتبَرَّأ مِنَ الرِّضا بِعِبَادَتِهِمْ لنا.

• ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ أَيْ: أَنْتَ وَحْدَكَ رَبّنا، وَمَالِكُنا، وَإِلَٰهُنا،

والمتصرِّفُ بِكُلِّ أُمورِنا، لَا رَبَّ غَيْرُكَ، ولَا إِلَهَ إِلَّا أنتَ، فَنَحْنُ لَمْ نَتَّخِذْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَوْلِيَاءَ يَعْبُدُونَنَا مِنْ دُونِكَ، وَلَمْ نَرْضَ بِذَلِكَ، فإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَنا وَنَحْنُ رَاضُونَ بأَنْ نَكُونَ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ، فَنَحْنُ نُكَذِّبُهُمْ، وَنُعْلِنُ أَنَّكَ وَحْدَكَ وَلِيُّنَا مِنْ كُلِّ مَنْ هُوَ غَيْرُهُمْ، كُنَّا وَمَا زِلْنَا عَلَى هـٰذا.

إِنَّهُمْ في الحقيقة لَا يَعْبُدُونَنَا، وَلَا يُطِيعُونَ أَوامِرَنَا، بَلْ كَانُوا يَعْبُدون الْجِنَّ، الَّذِينَ كَانُوا في الدُّنْيا شَيَاطِينَهُمْ، الَّذِينَ يُغْرُونَهُمْ وَيُغْوُونَهُم، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ بِشَيَاطِينِهِمْ مِنَ الْجِنِّ مُؤْمِنِين، يُصَدِّقُونَهُم فيما يُوحُونَ بِهِ إِلَيْهِمْ مِنْ ضَلَالَات، وَيَتَّبِعُونَهُمْ غاوِين.

■ وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ هـٰذا المشْهَدَ بِذِكْرِ مَا يَقُولُهُ لِلْمُشْرِكِين وَأَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنّ، وبالإشَارَةِ إلى مَا قَضَى بهِ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابٍ أَبَدِيٍّ في النَّار، ومَا يَقُولُهُ جلَّ جلَالُهُ لَهُمْ وَلِكُلِّ الظَّالِمِينَ الْمُجْرِمِينَ الْخَالِدِينَ في العذاب:

● ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ للمشركين ولأَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الجنّ:

لَقَدِ اسْتَمْتَعَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ حِينَ كُنْتُمْ مُمَكِّنِينَ مِنْ مُمَارَسَةِ مَا تَشَاؤون فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياة الدُّنيا، حَتَّى قَضَيْتُمْ فِيها آجالَكُم المقدَّرة المقْضِيَّةَ لَكُم، فَالْيَوْمَ أَنْتُمْ فِي حَيَاةِ الجزاءِ، لَسْتُمْ مُمَكَّنِينَ مِنْ أَنْ تَفْعَلُوا مَا تَشَاؤون، فَلَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا دَفْعَ ضَرّ، وَسَيلْقَى كُلُّ فَرْدٍ مِنْكُمْ جَزاءَهُ بِحَسَبِ جُرْمِهِ، وَيَكُونُ في الدَّرَكَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِمَا سَبَقَ أَنْ قَدَّمَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الْحَياةِ الدُّنْيا مِنْ ظُلْمٍ وَبَغْيٍ وَعُدْوان، وَفُجُورٍ وإثْمٍ وطُغْيان.

ويُوَجِّهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لِجَمِيعِ الظَّالِمِينَ مِنْ دركَةِ الشِّرْكِ، فالدَّرَكاتِ اللَّاتِي هِيَ أَخَسُّ مِنْهَا قَائِلاً لهم:

﴿.. ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

لَقَدْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، يُكَذِّبُونَ بقَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ رُسُلُ اللهِ، ويُكَذِّبُونَ بِعَذَابِ النَّارِ الَّذِي نَزَلَتْ ببيَانِهِ والإخْبارِ عَنْهُ آيَاتُ اللهِ في كتابِهِ المُبين، فلْيَذُوقوا هـٰذا الْعَذَابَ الَّذِي كَانُوا بِهِ يُكَذِّبُونَ، وهُوَ خَبَرٌ حَقٌّ جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِم.

ويُخَاطِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ الظَّالِمِينَ بِهـٰذا الْقَوْلِ إهَانَةً لَهُمْ، لأَنَّهُمْ كانُوا يُكذِّبُونَ بأَنْباءِ اللهِ جَاحِدِين، يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، مُدْبِرِينَ عَنِ اسْتِبْصَارِ بَرَاهِينِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة.

جاء في القرآن تَشْبِيهُ الإحْسَاسِ بألَم الْعَذَاب بالذَّوَاقِ، لِتَقْرِيب مَعْرِفَةِ الإحْسَاسِ بِهِ، فَحَاسَّةُ الذَّوْق مِنْ أَشَدِّ المواضِعِ إحْسَاساً بِمَا يُلامِسُهَا.

وبهـٰذا انتهى تَدَبُّر الدَّرْس التاسع من دُروس سورة (سبأ).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

التدبر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة (سبأ) الآيات من (٤٣ ـ ٥٠)

قال اللهُ عزَّ وجل:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ

مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾﴾.

القراءات:

(٤٥) ● قرأ يَعْقُوب: [**نَكِيري**] بإثباتِ يَاءِ المتكلّم في الوصْلِ والْوَقف.

وكذَلِكَ قَرَأَهَا وَرْشٌ فِي الْوَصْلِ فَقَط.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاء العشرة: ﴿**نَكِيرِ**﴾ بحَذْفِ يَاء المتكلم في الوصْلِ وَالوقف، وهي مُلاحَظَةٌ ذِهْناً.

(٤٦) ● قَرأ رُوَيس في الوصْلِ: [**ثُمَّ تفكَّرُوا**].

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: ﴿**ثُمَّ تَتفكَّرُوا**﴾ وَصلاً ووقْفاً.

(٤٧) ● قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: ﴿**إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا**﴾ بفتح ياء المتكلّم.

وأسْكَنَها باقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ.

(٤٨) ● قرأ شُعْبَة، وحمزة: [**الْغِيُوبِ**] بِكَسْرِ الْغَيْن.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**الْغُيُوبِ**﴾ بضَمّ الْغَيْن.

القراءتان لُغَتَانِ عَرَبِّيَتَانِ لِلْكَلِمَة.

(٥٠) ● قرأ نَافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: ﴿**رَبِّيَ إِنَّهُ**﴾ بفتح يَاءِ المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ يَاءِ المتكلم.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ بَيانُ مَقالَةِ الَّذِينَ كَفرُوا بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ، إذَا تَلى عَلَيْهِمْ آياتٍ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ المجيد، إذْ يَتَّهِمُونَه بأنَّ غَرَضَهُ انْتِزاعُ الزَّعَامَةِ مِنْ أصْحَابها فِي مَكَّة وغَيْرِها، بِصَدِّ النَّاسِ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤهم، وَبأنَّهُ يفتَري الْقُرْآن مِنْ عِنْدِه، ويَنْسُبُهُ إلَى الله، وَبأَنَّ مَا فِي القرآنِ مِنْ تَأْثِيرٍ عَلَى سَامِعِيهِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ، وَيَزْعُمُونَ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ مَا آتَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها، وَمَا أَرْسَلَ إلَيْهِمْ قَبلَ مُحَمَّدٍ مِنْ نَذِيرٍ، جَاحِدِينَ رِسَالَةَ إسْمَاعِيلَ وَإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِما السَّلام، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمَا مِنْ تَعْلِيمَاتٍ دِينِيَّةٍ، وَجَاحِدِينَ التَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكُلِّ صَحِيحٍ بَلَغَهُمْ عَنْ أيِّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ الله.

وفي هـٰذِهِ الآيات تَعْلِيقٌ رَبَّانِيٌّ عَلَى هـٰذا الموقفِ مِنْ مَوَاقِفِهِمْ، وتَعْلِيمٌ لِلرَّسُولِ ﷺ مَا يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ مُعَالَجَةً لهـٰذا الموقف.

التدبّر التحليلي:

- قول الله تَعَالَى بِشَأْنِ المعَالَجِينَ في السورة مِنَ الَّذِينَ كَفرُوا:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾:

دَلَّتْ هَاتَانِ الآيَتَانِ عَلَى خَمْسِ مَقولَات كاذِبَاتٍ قَالَهَا الَّذِينَ كَفَرُوا مُعَانِدِين، ونَزَلَتْ آياتُ هـٰذا الدّرْسِ لِبَيَانِ كَذِبِهِمْ فيها، ولِتَعْلِيم الرَّسُول ﷺ مَا يَقُولُ لَهُمْ:

المقُولَةُ الكاذِبة الأولىٰ: دَلَّ عليها مَا جاء في قول اللهِ تَعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ . .﴾:

أي: وَإِذَا تَلَىٰ الرَّسُولُ عَلَيْهِمْ طَائِفَةً مِنْ آيَاتِ كِتَابِنَا القرآنِ المنزَّلِ عَلَيْهِ، حَالَةَ كَوْنِها بيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ يَفْهَمُونَ دَلَالَاتِها، خَافُوا أَنْ تَتَأَثَّر بِهَا جَمَاهِيرُهُمْ الَّذِينَ يَخْضَعُونَ لِزَعَامَاتِهِمْ، وَيأتَمِرُونَ بأوامِرِهم، فَقَالُوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

﴿أَن يَصُدَّكُمْ﴾: أيْ: أَنْ يَصْرِفَكُمْ وَيُحَوِّلَكُم.

هَـٰذِهِ المقولَةُ ذَاتُ هَدَفين:

الْهَدَفُ الأَوّل: إثَارَةُ قائِليهَا عَصَبِيَّةَ جَمَاهِير قَوْمِهِمْ لِآبَائِهِمْ، إِذْ كَانَتْ عَصَبِيَّاتُ الأَبْنَاءِ لِلْآبَاءِ مِنْ أَقْوَىٰ دَوَافِع الْأَقْوَام، الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ مَوارِيثِهِمْ مِنَ الْعَادَاتِ، والمعتقدات، والرَّوابِطِ الْقَوْمِيَّة، ولَوْ لَمْ تَكُنْ لَهَا قِيَمٌ حَقِيقِيَّةٌ تَجْعَلُ المحافَظَةَ عَلَيْهَا أَمْراً حَسَناً. وَهَـٰذِهِ نَخْوَةٌ جَاهِلِيَّةٌ مَحْمُودَةٌ لَدَيْهِم، ولَوْ كَانَتْ مَذْمُومَةً لَدَىٰ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والارتقاء الحضاريّ.

الْهَدَفُ الثاني: إشْعَارُ جماهِيرِهِمْ بأنَّ مُحمّداً طالِبُ زَعَامَةٍ عَلَيْهِم، فإِذَا صَدَّهُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤهُمْ، كَانَ هُوَ الَّذِي يُمْلِي عَلَيْهِمْ عِبادَاتِهم، وهُوَ الّذِي يكُونُ قَائِدَهُمْ وزَعِيمَهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ، فَهُوَ غَيْرُ صَادِقٍ فِي ادِّعَاءَاتِهِ.

المقولَة الكاذِبَةُ الثانِيَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿..وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ..﴾:

الإفْك: الحديث والكَلامُ الكَذِب، يقالُ لغة: «أَفَكَ، يَأْفِكُ، أَفْكاً، وإِفْكاً، وأُفُوكاً» ويُقال أيضاً: «أَفِكَ، يَأْفَكُ، إِفْكاً» أي: تَكَلَّمَ بِكلامٍ كَذِب، أَوْ حَدَّث بحَدِيثٍ كَذِب.

مُفْتَرَىٰ: أيْ: مُخْتَلَقٌ ومُصْطَنَعٌ عَنْ عَمْد.

أي: وَمَا هَـٰذَا القرآنُ الَّذِي يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ وَيَقُولُ: إِنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، إِلَّا كَلَامٌ كَذِبٌ مَصْنُوعٌ مُخْتَلَقٌ مِنْ عِنْدِه، وهُوَ يَزْعَمُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وغَرَضُهُ مِنْ هَـٰذَا تَحْقِيقُ زَعَامَةٍ فِي قَوْمِهِ.

إِنَّهُمْ يُصِرُّونَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المقولَةِ الكاذِبَةِ، عَلَىٰ الرُّغْم مِنْ كُلِّ الْبَيَانَاتِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي نُجُوم التَّنْزِيلِ عَنِ القرآنِ وأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يكُونَ مِنْ كَلَامِ إِنْسٍ وَلَا جِنّ، وَعَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ تَحَدِّيهِمْ بأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ سُورَةٍ ذَاتِ طُولٍ مِنْ سُوَره، أَوْ بِمِثْلِ عَشْرِ سُوَرٍ قِصَارٍ مِنْ سُوَرِهِ، كالْعَصْرِ، والْفَلَقِ، والنَّاسِ.

المقولَةُ الكاذِبَة الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿. . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ المقولَةُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا يُصَابُونَ بالدَّهْشَةِ الشَّدِيدَةِ، حِينَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وكانُوا يَشْعُرُونَ بِعَظَمَتِهِ وَإِعْجَازِهِ، فَخَافُوا أَنْ تَتَأَثَّرَ بِهِ جَمَاهِيرُهُمْ، فَقَالُوا لِصَدِّهِمْ عَنِ الإِيمانِ باللهِ وبرسُولِهِ وبالْقُرْآن: مَا هَـٰذَا الْقُرْآنُ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ أنواعِ السِّحْرِ مُبين.

جاء ذِكْرُ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ المتحدَّثِ عَنْهُمْ فِي السورة بعُنْوان: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ للدَّلَالَةِ علىٰ أَنَّ كُفْرَهُمُ الإرادِيَّ الْعِنادِيَّ، هُوَ الَّذِي دَفَعَهُمْ لِأَنْ يَقُولُوا عَنِ الْحَقِّ الْإِعْجَازِيِّ فِي الْقُرْآن: مَا هَـٰذَا التَّأْثِيرُ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي النُّفُوسِ، إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ظاهِرٌ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْر.

فالمعْنَىٰ: وَقَالَ أئِمَّةُ الشِّرْكِ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً عِنَادِياً لِأَجْلِ صَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي عَرَفَ هَـٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ أَنَّهُ حَقٌّ: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ «إِنْ» حَرْف نفي بمعنَىٰ «مَا». أَيْ: ما هَـٰذَا التَّأْثِيرُ الَّذِي يُحْدِثُهُ القرآن فِي النُّفُوسِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ، إِلَّا بِسَبَبِ كَوْنِهِ نَوْعاً مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ، لَا بِسَبَبِ كَوْنِهِ كَلاماً مُعْجِزاً مُنَزَّلاً مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أو: قَالُوا مُوَجِّهِينَ كلامَهُمْ لِلْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ الذي جاءَهُمْ: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

المقولَةُ الكاذِبَة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُبيِّناً مَقُولَتَهُم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا . .﴾.

دَلَّ عَلَىٰ أنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَـٰذِهِ المقولَةِ، أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ عِلْم بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّةٍ، وأَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحَرَّوْا الْحَقَّ مِمَّا جَاءَ فِي الكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَلَا سِيَّمَا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ وعيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وأَنْ يَدْرُسُوها، ويُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَ مِنْ حَقٍّ فيها.

وقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ تَوْبِيخُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لَهُمْ، إذْ كَفَرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سُورَةِ (القصص/ ٤٩ نزول) بِشَأْنِهم:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: كَيْفَ يُطَالِبُونَ بِأَنْ يُؤْتَىٰ مُحَمَّدٌ لِتَصْدِيق بَلَاغَاتِهِ عَن رَبِّهِ، مِثْلَ مَا أُوتِي مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ مِنْ آيَاتٍ بَاهِرَاتٍ، وَخَارِقَاتٍ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن التوراة، ويَكْفُرُونَ بالآيَاتِ المعجزاتِ الّتي آتاهُ اللهُ إيَّاهَا مُصدِّقَةً أنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِين، وَمُصدِّقَةً بَلاغَاتِهِ عَنْهُ، وَقَال قَائِلُونَ مِنْهُمْ وَسَكَتَ الآخَرُون: إنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ سِحْر، فَهُو سَاحِرٌ، وإنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ قُرْآنٍ عجيبٍ مُعْجِزٍ هُو أَيْضاً سِحرٌ، فَمُحَمَّدٌ سَاحِرٌ مِثْلُ مُوسَىٰ، وَقَدِ اجْتَمَعَا كَالْمُتَعَاوِنَيْن عَلَىٰ إثْبَاتِ قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، هِي تَوحِيدُ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَنَفْيُ الشُّرَكَاء، وَمُحَارَبَةُ الأَوْثَانِ، وإثباتُ القيامَةِ ويَوْمِ الدّين لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

الْمَقُولَة الكاذِبَةُ الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُبيّناً مقُولَتَهُمْ: ﴿. . وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾:

إنَّهُمْ يَقُولُونَ بِوَقاحَةٍ عِنادِيَّةٍ عَجيبَة: إنَّ اللهَ مَا أَرْسَلَ إلَيْهِمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولاً مُبَلِّغاً وَمُعَلِّماً وَدَاعِياً إلَىٰ رَبِّهِ وَهَادِياً، وَمُبَشِّراً مَنْ آمَنَ وأطاع بِخُلُودٍ يَوْمَ الدِّينِ بِجَنَّاتِ النَّعِيم، ومُنْذِراً مَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ بِخُلُودٍ فِي دَارِ العذاب النّارِ يَوْم الدّين.

إنَّهُمْ يَقُولُونَ هَـٰذَا الْقَوْلَ الْوَقِحَ الْقَائِمَ عَلَىٰ المكابَرَةِ، مَعَ افْتِخَارِهِمْ بِجَدِّهِمْ إسْمَاعِيلَ بْنِ إبراهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلام، وإيمَانِهِمْ بِأَنَّهُمَا نَبِيَّانِ وَرَسُولَان، وهُمْ يُعْلِنُونَ أَنَّهُمْ وَارِثُوا مَنَاسِكِ الْحَجِّ عَنْهُما.

ومَعْلُومٌ أَنَّ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانَ رَسُولَهُمْ، وَرَسُولاً لِجَمِيعِ الْقَبائِلِ الْعَرَبِيّة، وَيأتِيهِمْ فِي كُلِّ عَامٍ حَاجُونَ وَحَاجَّاتٌ مِنْهَا اتِّبَاعاً لِشَرِيْعَةِ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام.

■ وَجَاءَ التَّعْلِيقُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المقولَاتِ الْكَاذِبَاتِ بِقَول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾:

مِعْشَارُ الشَّيْءِ: جُزْءٌ مِنْ عَشَرَةٍ مِنْه، والمرادُ هنا التقليل.

أي: كَذَّبَ هَـٰؤلَاءِ وكذّب الّذِين كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، كَعَادٍ، وثمود، وفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وجنوده بالْحَقِّ، وَمَا بَلَغَ مَا آتَيْنَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَا الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، مِنْ سُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَأَمْوَالٍ وَمَنَعَةٍ وأنْصار، فأرْسَلْتُ لِأُولئِكَ المكَذِّبينَ السَّابِقِينَ بالْحَقّ رُسُلِي، فَكَذَّبُوهُم، ولَمْ يَعْبَؤُوا بِمَا آتَيْتُ رُسُلِي مِنْ آياتٍ بَيِّنَاتٍ، ومُعْجزَاتٍ عَظيماتٍ، فَأَهْلَكْتُهُمْ، وقَدْ بَيَّنْتُ قِصَص إهْلَاكِهِمْ فِي سَوَابِقِ نُجُوم تَنْزِيلِ الْقُرْآن، فَكَيْفَ كَانَ إنْكَارِي التَّطْبِيقِيّ لِتَكْذِيبِهِمْ؟! أَلَمْ يَكُنْ إنْكاراً سَاحِقاً مَاحِقاً؟!!

• ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟: أي: فَكَيْفَ كان عِقَابي. إنَّ إنْكَارَ الْقَدِيرِ عَلَىٰ المعاقَبَةِ والانْتِقَامِ يَدُلُّ عَلَىٰ عِقَابِهِ وانْتِقَامه.

هـٰذَا البيان يَهْدِف إلى غَرَضِين:

الْغَرَضُ الأَوّل: طَمْأنَةُ المؤمِنِينَ المسْلِمِينَ بأنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُمْ وَيُهْلِكُ عَدوَّهم.

الْغَرَضُ الثاني: إنْذَارُ الكُفَّارِ المعانِدِينَ المضِلِّين الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، بأنَّ اللهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ، كَمَا أَهْلَكَ كُفَّارَ الْقُرُونِ السَّالِفَة، الَّذِينَ كَانُوا أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَالاً وسُلْطَاناً وآثاراً فِي الأَرْض.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَوْعِظَةً يُوَجِّهُهَا لِأَفْرَاد الَّذِينَ كَفَرُوا، أَنْ يُفكِّرُوا بِحُرِّيَّةٍ فَرْدِيَّةٍ طَالِبِينَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ، أو أَنْ يُفكِّرُوا مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ، وَأَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ سُلْطَانِ الضَّغْطِ الْجَمَاعِي، الَّذِي يُهَيْمِنُ عَلَيْهِ الْقَادَةُ المضِلُّونَ ذَوُو السُّلْطَانِ عَلَىٰ جماهِيرِهم:

- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾:

إنَّ مِنْ أسَالِيبِ أئِمَّةَ الضَّلالِ والفساد والإفساد في الأَرْض، أنْ يُحِيطُوا أتْبَاعَهُمْ وَجَمَاهِيرَ قَوْمِهِمْ بِضَغْطٍ جَمَاعِي، يَسْلُبُونَ بِهِ الأَفْرَادَ قُدْرَةَ التَّفْكِيرِ الْفَرْدِيّ وَقُدْرَةَ التَّفْكِيرِ الثُّنَائِي، ويَمْلِكُونَ بالمنافِعِ والْمَصَالِحِ الخاصَّةِ مِنَ الْجَمَاعَةِ أفراداً مَعْدُودِينَ يَبُثُّونَهُمْ بَيْنَهُمْ، لاقتراحِ الآرَاءِ أو الأَفْكَار، الَّتِي يُرِيدُ الأَئِمَّةُ المضِلُّونَ الإقْنَاعَ بها، واسْتِعْطَافَ الْجُمْهُورِ الأَكْثَرِ لِلْمُوَافَقَةِ عَلَيْهَا واعْتِقَادِ أَنَّهَا الأَفْضَلُ والأَحْسَن، وَمُنَاصَرَتِها بما لَهُمْ مِنْ قُدْرات مُنَاصَرَة.

وبِحِيلَةِ تَكْرِيرِ عَرْضِ الاقْتِراحِ أو الْفِكْرَة، مِنْ أَفْرَادٍ مُتَعَدِّدِينَ مُتَبَاعِدِي المواقِع، يُعَطِّلُ الْجُمْهُورُ الأَعْظَمُ مَلَكَاتِهِم الْفِكْرِيَّة، ويُعْلِنُونَ مُوافَقَتَهُمْ وَمُنَاصَرَتَهُمْ لِلاقْتِرَاحِ أَو الفِكْرَة، مُغْتَرِّين بِأَنَّ عَدَداً مِنَ الأَفْرَادِ المُتَبَاعِدِينَ

فِي مَوَاقِعِهِمْ قَدْ قَدَّمُوا ذَلِكَ دُونَ تَوَاطُؤٍ، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الحقِيقَةِ مُتَوَاطِئُونَ، مُوَجَّهُونَ سِرّاً مِنْ أَئِمَّةِ الضَّلَالِ والإِضْلَالِ، وَهَـٰؤُلَاءِ الأَفْرَادُ مُسْتَأْجَرُونَ لَهُمْ، أَوْ هُمْ مِنْ جُنُودِهم.

وَلِفَكِّ هـٰذا الحِزَام الجماعِيِّ الضَّاغِط، أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ بِأَنْ يَعِظَ جَمَاهِيرَ الْأَتْبَاعِ بِأَنْ يَقُومُوا مُخْلِصِينَ للهِ ولِلْحَقِّ، مُتَجَرِّدِينَ مِنْ تَبعِيَّتِهِمْ لِأَئِمَّتِهِم، وقَادَتِهِمْ الضَّاغِطِين عليهم، ويَتَفَكَّرُوا مَثْنَىٰ، وَيَتفكَّروا فُرَادَىٰ، لَا أَنْ يَنْسَاقُوا بِغَوْغَائِيَّةٍ مَعَ أَصْوَاتِ الْجَمَاعَةِ دُونَ تَفْكِيرٍ مُسْتَقِلّ.

ومِفْتَاحُ الْقَضَايَا الَّتِي عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَفَكَّرُوا فيها، مَا يَقُولُهُ قَادَتُهُمْ بِشَأْنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ: إِنَّهُ مُصَابٌ بِالْجُنُون، فإِذَا هَدَاهُمْ تَفْكِيرُهُم الْحُرُّ إِلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ مَجْنُوناً، بَلْ هُوَ أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلاً، وأَعْظَمُهُمْ رُشْداً، اسْتَطَاعُوا أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ مُعْظَم أَقْوَالِ أَئِمَّتِهِمْ الدِّعَائِيَّةِ، وأَنْ يَكْتَشِفُوا أَنَّ قَادَتَهُمْ كَاذِبُونَ مُغْرِضُونَ، يَصُدُّونَهُمْ عَنِ الْحَقِّ لِهَوىً فِي نُفُوسِهِمْ، وَخَوْفاً عَلَىٰ زَعَامَاتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ.

- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾: أَيْ: قُلْ لِلْجَمَاهِيرِ من الْأَتْبَاعِ: مَا أَعِظُكُمْ إِلَّا بِمَوْعِظَةٍ وَاحِدَةٍ.

الْمَوْعِظَة: مَا يَكُونُ بِهِ الْوَعْظ. **والْوَعْظ**: هو النُّصْحُ المقرُونُ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أَوِ الرَّهْبَةَ في النَّفْسِ، للانْتِفَاعِ بالنُّصح، واتِّبَاعِ مَا هَدَىٰ إِلَيْهِ.

- ﴿..أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ..﴾: أَيْ: أَنْ تَقُومُوا مُتَجَرِّدِينَ مِنَ الأَهْوَاء، والْعَصَبِيَّاتِ، والتَّبَعِيَّاتِ، تَبْتَغُونَ الْوُصُولَ إِلَىٰ الْحَقِّ وَمَرْضَاةِ الله. مَثْنَى، وفُرَادَىٰ، بَعِيدِينَ عَنِ الضَّغْطِ الْجَمَاعِيِّ الَّذِي يُحِيطُ بِكُمْ، وَيُهَيْمِنُ عَلَيْكُم بِهِ أَئِمَّتُكُمْ وَقَادَتُكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ.

مَثْنَىٰ: أي: اثْنَيْنِ، فَاثْنَيْن، يُقَالُ لغة: «جَاءَ الْقَوْمُ مَثْنَىٰ» أي: جاءُوا اثنين، فاثْنَيْن، وهكذا.

فُرَادَىٰ: أي: واحداً، فواحداً، يقال لغة: «جاء الْقَوْمُ فُرَادَىٰ» أي: جَاءُوا وَاحِداً، فَوَاحِداً، وهكذا.

إنّ الاثْنَيْنِ يَتَفَكَّرانِ غَالِباً دُونَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِهِمَا هَيْمَنَةٌ ضَاغِطَةٌ عَلَىٰ الآخر، إذَا كانَا مُتَعادِلَيْنِ نِدَّيْنِ. وَالْفَرْدُ يَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ بِحُرِّيَّةٍ أَكْثَر، إلَّا أَنَّ الاثْنَيْنِ أَقْدَرُ عَلَىٰ الإحَاطَةِ بِكُلِّ جَوَانِبِ الْقَضِيَّةِ الْمَطْرُوحَةِ للتَّفْكِير، لِأَنَّ كُلَّاً مِنْهُمَا يَجْتَهِدُ بأَنْ تَكُونَ مُشَارَكَتُهُ فِي التَّفْكِيرِ تَأْتِي باحْتِمَالَاتٍ وَجَوَانِبَ لَمْ تَخْطُرْ بِبَالِ صَاحِبِهِ.

● ﴿..ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ..﴾: هـٰذِهِ هِيَ الْقَضِيَّةُ الَّتِي تَدْعُوهُمْ للتَّفَكُّرِ فيها بَعْدَ تَأَنٍّ وَتَأَمُّلٍ، لِيَتَوَصَّلُوا بالتَّفْكِيرِ الحرِّ الْبَعِيدِ عَنِ الضَّوَاغِطِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، فَيَعْلَمُوا وَيُؤْمِنُوا أَنَّهُ: مَا بِصَاحِبِهِم النبيّ الرَّسُولِ الَّذِي يَدْعُوهم إلى الحقِّ والخير وَسَعَادَةِ دُنياهم وأُخْرَاهُمْ مِنْ جُنُونٍ مَا، كما يَزْعُمُ قادَتَهُمْ وأئمتُهُمْ، بَلْ هُو ذُو عَقْلٍ كَامِلٍ، وَرُشْدٍ عَظِيمٍ، وَهُوَ حَرِيصٌ عَلَىٰ نَجَاةِ الناسِ مِنْ عَذَاب رَبِّهِمْ، وَظَفَرِهِمْ بِجَنَّاتِ النَّعيمِ يَوْمَ الدّين.

● ﴿... إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: وقل لَهُمْ مَا هُوَ إلَّا مُبَلِّغٌ رِسَالاتِ رَبِّهِ لَكُمْ، وَنَاصِحٌ لَكُمْ أَمِينٌ، وَمُعَلِّمٌ وَدَاعٍ إِلَىٰ اللهِ بِصِدْقٍ، وَمُبَشِّرٌ مَنْ آمَنَ وَأطاع بسعادة أبديَّةٍ فِي جَنَّاتِ النعيم، وَمُنْذِرٌ مَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ بِعَذَابٍ شَدِيد في دَار الْعَذَاب يَوْمَ الدِّين، جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المصير.

وهو بالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ وَقَدْ أَبَيْتُمْ أَنْ تَسْتَجِيبوا لِدَعْوَتِهِ، وَهُوَ يَدْعُوكُمْ إلى صِرَاطِ اللهِ المستقيم عِدَّةَ سِنِينَ، نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، سَوْفَ تُعَذَّبُونَهُ، إِذَا لَمْ تَحْمُوا نُفُوسَكُمْ مِنْهُ بأَنْ تُؤْمِنُوا وَتَعْمَلُوا صَالِحاً.

■ وَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يُكَرِّرَ لَهُمْ تَجَرُّدَهُ مِنَ المصْلَحَةِ

الشَّخْصِيَّةِ عِنْدَهم، ويُقْنِعَهُمْ بأَنَّهُ لَا يَبْتَغِي مِنْهُمْ أجراً مَا عَلَىٰ مُجاهَدَتِهِ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ خَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا يَبْتَغِي ثَوَابَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ له:

- ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾:

الأجْرُ: عِوَضٌ نَافِعٌ عَلَىٰ عَمَلٍ مَا، سَواءٌ أَكَانَ مَالاً أَمْ غَيْرَ مَالٍ، كَمُلْكٍ أَوْ سُلْطَانٍ، أَوْ شَيْءٍ آخَرَ مِنْ مَحَابِّ النُّفُوس.

- ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ..﴾: أَيْ: كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَنِي بِأَنَّنِي سَأَلْتُكُمْ أجْراً مَا أَقَلَّ أَجْرٍ، عَلَىٰ مُجَاهَدَتِي لِهِدَايَتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ وَنَجَاتِكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، فإِنَّنِي أُمَلِّكُكُمْ إِيَّاهُ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَنِي بِطَلَبِ مَالٍ، فإِنَّنِي أَقُولُ لَكُمْ حَافِظُوا عَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ لَا تُعْطُونِي مِنْهَا شَيْئاً، فهِيَ لَكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَنِي بِطَلَبِ مُلْكٍ أَوْ سُلْطَانٍ، فَإِنَّنِي أَقُولُ لَكُم حَافِظُوا عَلَىٰ سُلْطَانِكُمْ وَمَكَانَاتِكُمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَإِنَّنِي لَا أُنَافِسُكُمْ عَلَيْهَا، وَلَا أَسْعَىٰ لانْتِزَاعِهَا مِنْكُمْ، فَهِيَ لَكُمْ بِحَسَبِ مَوَاقِعِكُمْ فِي قَوْمِكُمْ.

وَأُؤَكِّدُ لَكُمْ وَأُكَرِّرُ أَنَّنِي مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أَيَّ أَجْر.

- ﴿..إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ..﴾: أي: مَا أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رَبِّي، فَلَا تَظُنُّوا أَنِّي لَا أَطْلُبُ أَجْراً عَلَىٰ تَأْدِيَة رِسَالَتِي مِنْ أَحَدٍ، بَلْ أَطْلُبُ أَجْرِي مِن اللهِ الَّذِي اصْطَفَانِي نَبِيّاً وَرَسُولاً، وكَلَّفَنِي أَنْ أبلِّغ رِسَالَاتِهِ دَاعِياً هادِياً مُجَاهِداً صَابِراً، مُحْتَسِباً أَجْرِي عِنْدَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

- ﴿...وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾: أي: واللهُ عَلِيمٌ بِحَالِي عِلْماً شَامِلاً، ظَاهِراً وبَاطِناً، حَتَّىٰ خَوَاطِر فِكْرِي، وَخَلَجَاتِ قَلْبِي وَنَفْسِي، وَرَغَبَاتِي وَنِيَّاتِي، إِذْ هُوَ حَاضِرٌ بِصِفَاتِ عِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَخَلْقِهِ، مُسْتَعْلٍ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ غَايَةِ أَجْزَاءِ الذَّرَّةِ، حَتَّى غَايَةِ أَكْبَرِ كَائِنٍ في الْكَوْنِ كُلِّه.

الشَّهِيدُ: الحاضِرُ الْمُشَاهِدُ الْمُرَاقِبُ دَواماً لِمَا هُوَ شَهِيدٌ عَلَيْه. لفظ «شَهِيد» صيغة مبالغة لاسم الفاعل «شاهد» وهو بالنِّسْبَةِ إلى اللهِ يُحْمَلُ عَلَىٰ غَايَةِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ لَفْظُ «شَهِيد» وكذلِكَ كُلُّ أسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ تَعْلِيم رَسُولِهِ مَا يَقُولُهُ لِلْمُعَالَجِينَ مِنْ قَوْمه:

- • ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾:

الْقَذْف: رَمْيُ الشيءِ بِقُوَّةٍ.

وَجَاءَ في سُورَةِ (الْأَنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَرْهِيب المعانِدِينَ مِنَ الّذِينَ كَفَرُوا بِمَعْرِضِ الحديثِ عَنْ إهْلَاكِ الَّذِينَ كَذَّبوا رُسُل رَبِّهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، مَع مَزِيد إيضَاحٍ لِلآيَتَيْن (٤٨) و(٤٩) من سورة (سبأ/ ٥٨ نزول):

- • ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾:

الحقُّ قُوَّةٌ صَامِدَة، إذَا قُذِفَتْ عَلَىٰ رَأْسِ الباطِلِ أَخْرَجَتْ دِمَاغَهُ فقَتَلَتْه، هٰذِه اسْتِعَارَةٌ أَسَاسُها تَشْبِيهُ الحقّ بقَذِيفَةٍ تَصْرَعُ الباطل.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾: أي: فإِذَا هُوَ زَائِلٌ لَا حَرَكَةَ لَهُ.

الْحَقُّ: هُوَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ.

والْبَاطِل: هُوَ مَا عَلَيْهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ممَّا هُو مُنَاقِضٌ أو مضادٌّ لِلْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على رسُوله.

إنَّ الْحَقَّ الرَّبَّانِيَّ مُؤَيَّدٌ بالْبَراهِينِ القَاطِعَةِ، والحجج السَّاطِعَة. والْباطلُ الَّذي يَتَّبِعُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْهَامٌ وَأَكاذِيبُ وَمُفْتَرَيَاتٌ لَيْسَ لَهَا قِيمَةٌ مَا فِي مَقَايِيس وَمَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَة.

فإذَا قَذَفَ اللهُ بالْحَقِّ وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ كُلِّها، عَلَىٰ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا قِيمَةَ لَهُ وَلَا وَاقِيَ لَهُ يَقِيهِ مِنْ صَدَمَاتِ الْحَقِّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكْسِرَ رَأْسَهُ، وَيُخْرِجَ دِمَاغَهُ وَيُزِيلَهُ، وَيُزِيلَ الْهَيْكَلَ الْهَشَّ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ وَيَدْعُو إِلَيْهِ.

إِنَّ الْحَقَّ يُبْدِئُ فِي الْوُجُودِ خَيْراً عَظِيماً، وفَضَائِلَ جَسِيمَةً، وأُمَّةً مُؤَيَّدَةً بِنَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِذْ هُوَ الْحَق. وَإِذَا تَرَكَتِ الأُمَّة الْحَقَّ فانْهَارَتْ بِتَرْكِهِ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَتِهَا بِقَضَاء الله وقَدَره. إذا عادتِ فاسْتَمْسَكَتْ به.

وَإِنَّ الباطِلَ لَا يُبْدِئ فِي الْوُجُودِ خَيْراً، ولَا فَضائلَ، ولَا أُمَّةً مُؤَيَّدَةً بِنَصْرِ اللهِ، وَإِذَا تَدَاعَتْ دُمْيَةُ الْأُمَّةِ المبْنِيَّةِ عَلَىٰ الْبَاطل، فإِنَّ الْبَاطِلَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِيدَ تِلْكَ الْأُمَّةَ الَّتِي جرَّبَتْهُ فَلَمْ تُفْلِحْ، بَلْ كَانَ ضَعْفُهُ سَبَبَ سُقُوطِها.

- ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ . .﴾ وَسَيَنْتَصِرُ، وَسَيَزْهَقُ الْبَاطِلُ، وهٰذا الحقُّ الرَّبَّانِي قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَصْنَعَ أُمَّةً هِيَ خَيْرُ الْأُمَم، وَإِذَا تَرَكَتْهُ فانْهَارت بِسَبَبِ تَرْكِه، فإِنَّهَا إذَا عَادَتْ فَاسْتَمْسَكَتْ به، فَهُوَ بقضاءِ اللهِ وَقَدَرِه سَيُعِيدُها إِلَىٰ مَجْدِهَا وَقوَّتِها، وَيَجْعَلُها فِي النَّاسِ خَيْرَ الأُمَم.

﴿. .وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾: أي: وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ أُمَّةً تَكُونُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ، وَإِذَا انْهَارَ كَيَانُ الأُمَّةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَىٰ الْبَاطِلِ، لَمْ يَسْتَطِعْ هٰذَا الْبَاطِلُ أَنْ يُعِيدَها إِلَىٰ مِثْلِ كِيَانِها السَّابق.

وقَدْ دَلَّتْ علَىٰ هٰذا أيضاً شَوَاهِدُ تَارِيخ الْأُمَمِ والشُّعُوب والدُّول.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ تَعْلِيمَ رَسُولِهِ، مَا يُجِيبُ بِهِ الَّذِينَ يَتَّهِمُونَهُ مِنْ قومِهِ بِالضَّلَالِ والْخُرُوجِ عَنْ صِرَاطِ الْهُدَىٰ في دَعْوَتِهِ:

- ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾:

دَلَّ مَا جَاءَ في هـٰذا التَّعْلِيم عَلَىٰ أَنَّ فَرِيقاً مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، صَارُوا يَصِفُونَهُ بالرَّجُلِ الضَّالِّ، وسِيلَةً إعْلَامِيَّةً لِصَدِّ النَّاس عَنْهُ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ الَّذِينَ يَسْتجيبونَ لِدَعْوَتِهِ يَتَكَاثَرُون.

هـٰذا التَّعْلِيمُ مُشْبَعٌ بالرِّفْقِ والنَّزَاهَةِ والْحِكْمَةِ فِي الرَّدِّ، فَلَيْسَ فِيهِ رَدُّ الشَّتِيمَةِ بِمِثْلِهَا وَلَا بِأَدْنَىٰ مِنْهَا، بَلْ فِيهِ تَرْدِيدُ الْأَمْرِ بَيْنَ احْتِمَالَيْن، والإجابَةُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنَ الاحْتِمَالَيْنِ، وفِيهِ أَخِيراً إلْمَاحٌ إلَىٰ عِقَابِ اللهِ السَّمِيعِ الْقَرِيبِ، الَّذِي مِنْ عَدْلِهِ أَنْ يُعَاقِبَ مُسْتَحِقِّي الْعِقَابِ، الَّذِينَ يَشْتُمُونَ رَسُولَ ربّهم بأَنَّهُ ضَالٌّ، لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنْهُ وعَنْ دَعْوَتِهِ إلىٰ سَبيلِ رَبِّهِ.

- ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ ..﴾: أي: إنْ كُنْتُ ضَلَلْتُ عَنْ صِراطِ الْحَقِّ والرَّشَادِ، وابْتَعَدْتُ عَنِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وأُتَابِعُ مَسِيرَتِي ضَالّاً، فإنِّي لَا أَضِلُّ إلّا جَانِياً عَلَىٰ نَفْسِي، إذْ أُعَرِّضُهَا لِلْعِقَابِ مِنْ رَبِّي الْحَكَم الْعَدْل، فكُلُّ مَنْ ضَلَّ مُرِيداً مُخْتَاراً عَالِماً بِمَا اخْتَارَ مِنْ ضَلَالٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَحِقَّ عِقَابَ ضَلَالِهِ بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم، ولَنْ يتْرُكَنِي أَنْتَصِرُ، بَلْ سَيأْخُذَني بِعَدْلِهِ.

وفي هـٰذا تَعْرِيضٌ للّذِينَ افْتَرَوْا عَلَيْهِ واتَّهَمُوه بالضَّلَالِ، وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ علىٰ هدىً مِنْ رَبِّه، وإشَارَةٌ ضِمْنِيَّةٌ بِأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ نُفُوسَهُمْ لِعِقَابِ اللهِ الشَّدِيدِ يوم الدِّين، وخذلَانٍ عَاجلٍ فِي الدُّنيا.

- ﴿.. وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ..﴾: أي: وإنْ كُنْتُ اهْتَدَيْتُ وَأُتَابِعُ مَسِيرَتِي مَهْدِيّاً وَهَادِياً، فَلَيْسَ هـٰذا مِنِّي، بَلْ بِسَبَبِ مَا يُوحِي إلَيَّ رَبِّي، مِنْ بَيَانَاتٍ يُنَزِّلُ عَلَيَّ آيَاتِها، وَهِيَ مَا أُبَلِّغُهُ للنَّاسِ عَنْهُ، فَتَدَبَّرُوها إنْ شِئْتُمْ وقَارِنُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْمَالِي وَمَا أَدْعُو إلَيْهِ.

- ﴿.. إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾: أي: إنَّ رَبِّي سَمِيعٌ لِأَقْوالِكُم

وسَمِيعٌ لِرَدّي، قَريب بِصِفَاتِهِ مِنْ كُلِّ عِبَادِهِ، وهُوَ يُنَفِّذُ مَا يَبُتُّهُ بِحِكْمَتِهِ بِأَقْصَرِ زَمَنٍ إِنْ شاء.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ العَاشِرِ مِنْ دُرُوسِ سُوْرَةِ (سبأ).

وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَفَتْحِهِ.

(١٤)

التَّدبرُ التحليلي للدّرْس الحادي عشر من دُروس سورة (سبأ) الآيات من (٥١ ـ ٥٤) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

القراءات:

(٥٢) ● قرأ أبو عَمْرو، وشُعْبَة، وحَمْزَة، والكِسَائي، وَخلف: [**التّنَاؤُش**] بالْهَمْزَة المضمومَةِ بَعْدَ الْألِفِ وقَبْلَ الشِّين.

وقرأها باقي الْقُرَّاء العشرة: ﴿**التّنَاوُشُ**﴾ بالواو بَعْدَ الألف وقبل الشين.

ويَقِفُ حمزة بالتَّسْهِيلِ مَعَ المدّ والقصر.

(٥٤) ● قرأ ابْنُ عَامر، والْكِسَائي، ورُوَيْس: بإشْمَامِ ضَمِّ الحَاء مِنْ: [**وَحيلَ**] الكَسْر، إذْ أَصْلُ الْفِعْل «حُوِلَ».

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ العشَرَة: ﴿**وَحِيلَ**﴾ بالكَسْرَةِ الْخَالِصَة، اعْتِبَاراً بأنَّ الْوَاوَ انْقَلَبَتْ يَاءً بالتَّصْريفِ.

تمهيد:

فِي آياتِ هذا الدَّرس بَيَانُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِذْ

يَقُومُونَ مِنْ أجْداثِهِمْ فَزِعِينَ مِمَّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم، عِقَاباً لَهُمْ عَلَىٰ مَا أَسلفُوا في حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَجرَائم.

ويَجدُونَ أَنَّهُم يُؤْخَذُونَ مِنْ أَمْكِنَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُمْ، تَأْخُذُهُمُ المَلَائِكَةُ المُحِيطَةُ بِهِمْ، إِلَىٰ حَيْثُ تُقَامُ لَهُمْ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةُ، ويُحَاوِلُونَ أَنْ يَتَخلَّصُوا بإِعْلَانِ إيمانِهِمْ، لَكِنَّهُمْ عاجِزُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ شيءٍ يُحَقِّقُ لَهُمْ نَجاتَهُمْ، ويَكُونُ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ إبلٍ ظِمَاءٍ تَمُدُّ أعْنَاقَهَا إِلَىٰ مَاءٍ يَبْعُدُ عَنها مَدَّ بَصَرِها.

ويُحَالُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، ثُمَّ يَلْقَونَ عَذَابَهُمْ الَّذِي يَقْضِي عَلَيْهِمْ بِهِ رَبُّهُمْ، عَلَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِهِ، إِذْ كَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

التدبُّر التَّحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ الْكافِرين حِين يُبْعَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، وَيرَوْنَ نُفُوسَهُمْ مُحاطِينَ بِمَلَائِكَةِ السَّوْقِ والْجمْعِ، ويرَوْنَ أنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مَهْرباً يُفْلِتُونَ بِهِ مِنْ عذَابِهِمْ، عَلَىٰ ما سَلَفَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَجَرَائمهم فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحياةِ الدُّنيا:

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

- ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾: أي: حِينَ خَافُوا خَوْفاً شَدِيداً، مِمَّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم، بَعْدَ بَعْثِهِمْ مِنْ أَجْدَاثِهِمْ، لِيُلَاقُوا أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّين.

الْفَزَعُ: الْخَوْفُ والذُّعْرُ الشديد مِنْ مُخِيفٍ مُفَاجِيءٍ يُقَالُ لُغَةً: «فَزِعَ فُلَانٌ، يَفْزَعُ، فَزَعاً» فَهُوَ«فَزِعٌ» وَهٰذا الْفَزَعُ الشَّدِيدُ تَظْهَرُ لَهُ آثار نُفُورٍ واضْطِرَاب ومُحَاوَلَةُ هَرَبٍ.

وَوَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ في الآية (١٠٣) من سورة (الأنبياء/ ٢١مصحف/ ٧٣نزول) فَزَعَ الْكَافِرِينَ يوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُ الْفَزَعُ الأكبر، أمّا المؤمِنُون المتَّقُون فَلا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ.

- ﴿فَلَا فَوْتَ﴾: أيْ: فَلَا تَفَلُّتَ ولَا خَلَاصَ وَلَا مَهْرَبَ مَنْ قَبْضَةِ الْأَخْذِ إلَىٰ حِسَابِهِمْ فَعذابهم، والمعنَىٰ: فَلا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلىٰ الْفَوْتِ.

الْفَوْتُ: يأتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ سَبْقِ الْفَارِّ الَّذِي يَفُوتُ مُلَاحِقَهُ فَلَا يَسْتَطِيعُ الْقَبْضَ عَلَيْهِ، فالْكَافِرُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يَجِدُونَ قُدْرَةً عَلَىٰ التَّفَلُّتِ، والْهَرَبِ، والسَّبْقِ، والْفَوْت، إذْ هُمْ مُحَاطُونَ بالْقَبْضِ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيُؤْخَذُونَ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ جِدّاً مِنْهُمْ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمأْمُورِينَ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِمْ مُلَاصِقُونَ لَهُمْ، ولَدَيْهِمُ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي أَجْسَامِهِمْ، إذَ هُمْ، مَخْلُوقُونَ مِنْ نُورٍ، فَأَجْسَادُهُمْ لَطِيفَة تَنْفذُ فِي الْأَجْسَادِ الْبَشَرِيَّة.

وَجَاءَ التَّعْبِيرُ بالْفِعْل الماضِي، اسْتِقْطَاعاً مِنَ الْحَدَثِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، كأنَّهُ يَحْدُثُ عِنْدَ التكلُّم، وهٰذا مِنَ الابْدَاعَاتِ الرائِعَة الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا القرآنُ المجيد.

فالمعنىٰ: وَلَوْ تَرَىٰ أَيُّها الرائي أيّاً كُنْتَ إذْ فَزِعَ الَّذِين كَفَروا بَعْدَ الْبَعْثِ خَوْفاً مِمَّا سَيُلاقُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وإذْ أَخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ جِدّاً مِنْهُمْ، وَسِيقُوا سَوْقاً مُذِلاً مُهِيناً، إلى مَكَانِ حِسَابِهِم، فَمَكَانِ عَذَابِهِمْ، لَرَأَيْتَ أَحْدَاثاً هَائِلَةً مُرْعِبَةً تَخْلَعُ الْقُلُوب مِنْ مَوَاضِعِهَا.

حُذِفَ جوابُ «لَوْ» لإمْكَانِ إدْرَاكِهِ مِنَ الْقَرائِنِ.

- ■ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ مُبيِّناً تَوابعَ تَتعلَّقُ بِالمشْهَدِ:

- ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾:

- ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ جاءَ فِي السَّوابقِ مِنَ السُّورَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِعَذَابِ النَّارِ، وأَنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ بآياتِ اللهِ الْبيِّنَات، وَيقُولُونَ عَنِ الْقُرْآن هُو إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ، وسِحْرٌ مُبِينٌ، وأَنَّهُمْ كَفرُوا بِالْحَقّ لَمّا جاءَهُمْ، وأَنَّهُمْ كذَّبُوا الرَّسُولَ ووصَفُوه بأَنَّهُ ضَالٌّ عَنْ سَبيلِ الهُدَىٰ، والجامِعُ لِكُلِّ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بالْحَقِّ لمّا جاءَهُمْ، فأجْمَعُ مَا يُعادُ عَلَيْهِ الضّمِيرُ فِي قَوْلِهِمْ يَوْمَ القيامَة: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ هُو الْحَقُّ الَّذِي جاءَهُمْ، الشَّامِلُ لِلْقُرْآن، ولِلرَّسُولِ، ولِأَنْباءِ يَوْمِ الدِّينِ، ولِكُلِّ مَا جاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبلَّغَهُمْ إيَّاه.

إِنَّ إعْلانَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِيْمانَهُمْ بالْحَقِّ الَّذِي كَان قَدْ جاءَهُم عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئاً، لِأَنَّهُ إِيمانٌ عَنْ شُهُودٍ، وَكَانَ المطْلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْغَيْبِ، إلَّا أَنَّهُمْ رُبَّما تَوهَّمُوا أَنَّ هَـٰذا الإيمانَ قَدْ يَنْفَعُهُمْ بِتَخْفِيفِ شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ عَنْهُمْ، ولَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُم هـٰذَا الإيمانُ يَوْم الدِّين شَيْئاً مِنَ الْعَذابِ، فَقَد انْتَهتْ بِمَوْتِهِمْ مُدَّة الابْتِلاءِ، وَجاءَ يَوْمُ الْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

- ﴿. . وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾؟!:

«أَنَّىٰ» اسْتِفْهامِيَّةٌ بِمَعْنَىٰ «كَيْفَ» هُنا، وَالْمُرادُ بهـٰذا الاسْتِفهام النَّفْيُ، أي: لَنْ يَكُونَ لَهُمْ تَحْقِيقُ أَقلِّ مِقْدارٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ مِنْ نَجاةٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ و[**التَّنَاؤُشُ**] في القراءة الْأُخْرَىٰ. هو تَناوُلُ الْمَطْلُوبِ مِنْ بُعْدٍ. وَأَكْثَرُ ما وَرَدَ هـٰذا اللَّفْظُ في مُحاوَلَةِ الإبلِ الشُّرْبَ مِنَ الْحَوْضِ الَّذِي يَبْعُدُ مَاؤُهُ عَنْ مَدِّ أَعْنَاقِهَا، حتَّىٰ تَصِلَ إلىٰ الْماءِ أَوائِلُ مَشَافِرِها فَتَمْتَصُّ الْمَاءَ شَيْئاً فَشَيْئاً بِكُلْفَةٍ ومُجاهَدَة.

قالَ غَيْلَانُ بْنُ حُرَيْثٍ يَصِفُ نَاقَتَهُ:

فَهْيَ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشاً مِنْ عَلَا   نَـوْشـاً بِـهِ تَـقْـطَـعُ أَجْـوَازَ الْـفَـلَا

أي: تَمْتَصُّ مَاءَ الْحَوْضِ مِنْ عُلْوٍ، بأوائِلِ مَشَافِرِها حَتَّىٰ تَجْمَعَ فِي بَطْنِها مَا تَقْطَعُ بِهِ أَوْسَاط الْفَلا الَّتِي لَا مَاءَ فيها.

فقد تكونُ العِبارَةُ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، بِتَمْثِيل حَرَكَةِ الْكَافِرِين يَوْمَ الدِّينَ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مَطْلُوبِهِمْ، وهُوَ الْخَلاصُ مِنَ الْعَذَاب الَّذِي قَضَىٰ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، بِنُوقٍ تَمُدُّ أَعْنَاقَهَا لِلْوُصُول إِلَىٰ مَاءِ حَوْضٍ بَعِيدٍ جدّاً عَنْهَا، وَهِيَ شَدِيدَةُ الظَّمأ، فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَنَاوَشَ (أي: تَتَنَاوَلَ) من الماءِ شَيْئاً.

فالمعنى: هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ تَنَاوُلُ شيءٍ مِنْ مَطْلُوبِهِمْ، وهُمْ يَمُدُّونَ أعْنَاقَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ جدّاً، فَقَدْ قَضَىٰ اللهُ لِكُلِّ مِنْهُمْ أَنْ يَنَالَ عَذَابَهُ خَالِداً مُخَلَّداً فِي نَارِ جَهَنَّمَ، جَزَاءَ سَابِقِ كُفْرِه وجَرَائِمه، فِي حَيَاةِ ابتِلَائه.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ تَحْقِيقُ شَيْءٍ مِنَ النَّجَاةِ الَّتِي يُرِيدُون تَنَاوُشَهَا: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ﴾ وهُوَ الَّذِي أعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَعْدَ أَنْ فَاتَ الْأَوَانُ، وتَحَقَّقَ الْخُسْرَان، وَكَانُوا فِي الْحَيَاةِ ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ رَجْماً ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾، فَيَدَّعُونَ دَعَاوَىٰ كَاذِبَاتٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا. ويُثْبِتُونَ آلِهَةً بَاطِلَةً، وَيَنسبُونَ إِلَيْهَا صِفَاتٍ وأفْعَالاً غَيْبِيَّةً، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ لِأَنْفُسِهَا وَلَا لِغَيْرِها نَفْعاً وَلَا ضَرّاً، ورُبَّما تكُونُ أَسْمَاءً وَهْمِيَّةً هُمْ اصْطَنَعُوهَا لَيْسَ لَهَا وُجودٌ إِلَّا فِي أَوْهَامِهِمْ، وَرَجْمُهُمْ أقوالاً وَأَكَاذِيبَ تَتَعَلَّقُ بالْغَيْبِ عَنْهُمْ، هُوَ رَجْمٌ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ جدّاً عَنِ الْغَيْبِ الَّذِي يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أمُورٍ هِيَ فِيه، وَلَيْسَ باسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ أَيِّ مَوْقعٍ مِنْه.

- ▪ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِتَاماً لِهَـٰذا الدَّرْسِ وخِتَاماً للسُّورَةِ بِشَأْنِ المعالجين فيها:

- ● ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾:

- ● ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ..﴾: أي: وأقِيمَ حَائِلٌ حَاجِزٌ بَيْنَهُمْ وَبيْنَ مَا يَشْتَهُونَ يَمْنَعُهُمْ مَنْعاً كَامِلاً مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

- أَمَّا مَا يَشْتَهُونَهُ فَهو أُمورٌ مُتَعَدِّدَة، مِنْها:

(١) أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي قَضَىٰ اللهُ بِهِ عَلَيْهِم.

(٢) أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ وَيأْذَنَ لَهُمْ بِدُخُول الجنّة.

(٣) أنْ يَأْذنَ اللهُ لَهُمْ باسْتِئْنَافِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

(٤) أن يَقْبلَ اللهُ شَفَاعَةَ الشُّفَعاءِ فِيهم.

- وَأمَّا الحائِلُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، فَهُوَ حَائِلُ جَهَنَّم الَّتِي كُبْكِبُوا فِيها، وَأَحَاطَتْ بِهِمْ وَيْلاتُهَا.

- ﴿.. كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ..﴾:

أشْيَاع: جَمْعُ «شِيَع» وَهذا جَمْعُ «شِيعَةٍ» فَأَشْيَاع جَمْعُ جَمْع. ويُطْلَقُ لفظ «الْأَشْيَاع» علَىٰ الْأَشْبَاهِ والأمْثَال.

أي: وَأُدْخِلُوا في دَارِ الْعَذَابِ، كَمَا أُدْخِلَ أَشْبَاهُهُمْ وَأمْثَالُهُمْ فِيها مِنْ قَبْلِهِمْ، فَوْجاً فَفَوْجاً بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ الله، وبِحَسَبِ إصْدارِ أحْكَامِهِ عَلَيْهِمْ.

- ﴿.. إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾﴾:

شَكُّهُمْ هُنَا: هُو مَا كانَ فِي خَوَاطِرِهِم مِن احْتِمَالٍ مَهْمَا كانَ ضَعِيفاً، يَطْمَعُونَ بِهِ أَنْ يَتَجاوزَ اللهُ عَنْ تَعْذِيبِهِمْ.

مُرِيب: أي: موقع لَهُمْ فِي رَيْب، أي: في شَكّ، وَوَصْفُ شَكِّهِمْ بأنَّه مُريب، يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّ شَكَّهُمْ فِي احْتِمَالِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الْعَذاب، جَرَّهُمْ إلَىٰ شَكٍّ آخَرَ، وهُوَ أَنَّهُمْ إذَا دَخلُوا دَار عَذَابِهِم، وعُذِّبُوا فِيها مُدَّةً مِنَ الزَّمنِ، فَمِنَ المطْموعِ بِهِ أَنْ يُخْرِجَهُمُ اللهُ مِنْها، اسْتِجَابَةً لِطَلَبٍ مِنْ طَلِبَاتِهِمْ، مِمَّا يَشْتَهُونَ تَحْقِيقَهُ، فَمِنْ طَبيعَةِ الشَّكِّ فِي

شيْءٍ مَا، أَنْ يُولِّدَ أَوْ يَجُرَّ إِلَىٰ شُكُوكٍ أُخْرَىٰ وَرَاءَهُ، عَلَىٰ احْتِمَالِ عَدَمِ تَحقُّقِهِ، فهُو شَكٌّ مُرِيب.

وبهـٰذا تَمَّ تَدبّر الدَّرس الحادي عشر من دُروس سورة (سبأ) وَهُو الدَّرْسُ الْأَخير مِنْ دُروس السورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوفيقه، وفَتْحِه.

* * *

(١٥)

ملحق: مُسْتَخْرجَات بلاغِيَّة من سورة (سبأ)

توجَدُ في سورة (سبأ) اختيارات بلاغيَّة عَدِيدَة، اسْتَخْرَجْتُ مِنْها طائِفَةً لهذا الملْحَق، وتَرَكْتُ طَائِفَةً يَسْتَخْرِجُها مَنْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِعُلُومِ الْبَلاغَة وَفُنُونِها.

أولاً:

ذكَر عُلَمَاءُ الْبَدِيعِ مِنْ أنواع المحسِّنَاتِ الْجَمَالِيَّةِ البديعة «الطِّبَاق»: وهُوَ الجمع في العبارة الواحِدَةِ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ مُتَقابِلَيْنِ على سبيل الحقيقة، أو على سبيلِ المجاز ولَوْ إيهاماً. كالتقابُلِ بَيْنَ النّقِيضَيْن، وبَيْنَ الضِّدَّين، وَبَيْنَ المتضايفَيْن.

وَذَكَرُوا أَنَّ مِنَ الطِّباقِ نَوْعاً سَمَّوْهُ «المقابَلَة» وهي طِبَاقٌ مُتَعَدِّدُ عَناصِرِ الْفَرِيقَيْنِ المتقابِلَيْن، وفيها يُؤْتَىٰ بِمَعْنَيَيْن فَأَكْثَر، ثُمَّ يُؤْتَىٰ بِمَا يُقَابِلُ ذَٰلِكَ عَلَىٰ التَّرْتِيب.

ومِنَ أمْثِلَة الطِّبَاقِ في السُّورة قول اللهِ عزَّ وجلَّ في بَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِهِ تبارك وتَعَالَىٰ: .

- ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾:

في هذه الآية ثَلاثة أمْثِلَةٍ للطباق.

الأول: مَا بَيْنَ: «يَلِجُ» و«يَخْرُج».

الثاني: مَا بَيْنَ: «يَنْزِل» و«يَعْرُج».

الثالث: مَا بَيْنَ: «الأرض» و«السَّماء».

والعنصر الجماليُّ في الطّبَاقِ هُوَ مَا فِيهِ مِنْ تَلَاؤُم بَيْنَهُ وَبَيْنَ تداعِي الأفْكارِ في الأذهان، باعتبار أَنَّ المتقابِلَاتِ أقْرَبُ تَخاطُراً إلَىٰ الأذهان مِنَ المتشابِهَاتِ والمتخالفات.

ثانياً:

من أَمْثِلَةِ الإيجاز بالحذف في السورة قول اللهِ عزَّ وجَلَّ في وصْفِ عِلْمِهِ تَعالَىٰ:

﴿. . .عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾:

الاستثناء في: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هو اسْتِثْنَاءٌ مِنْ مَحْذوفٍ يُمْكِنُ فَهْمُهُ مِنَ السِّبَاق، أي: وَلَا مَعْلُومٌ لِلَّهِ في السَّمَاواتِ والأَرْضِ إلَّا هُوَ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ هُو اللَّوْحُ الْمَحْفُوظ.

ولهذا المثال نظائِرُ في القرآن المجيد.

ثالثاً:

ذكَرَ عُلَمَاءُ البيان «الاسْتِعَارَة» وهي استعمالُ لفظ مَا في غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ في اصْطِلَاحٍ به التَّخَاطُب، لِعَلَاقَةِ الْمُشَابَهةِ مع قَرِينَةٍ صَارِفَةٍ عَنْ إرَادَة المعنى الموضوع لَهُ في اصْطِلَاحٍ بِهِ التَّخاطب.

وأرَىٰ أنَّ مِنَ الاستعارة في السُّورة مَا جاء في قول اللهِ عزَّ وجلَّ بشأنِ الكافِرِينَ يَوْمَ القيامة، وأمَلِهِمْ بالنَّجاةِ أَوْ تَحْقِيق مَا يَشْتَهُون:

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾:

أَكْثَرُ مَا وَرَدَ لفظ التَّنَاوُشِ في مُحَاوَلَةِ الإِبِلِ الشُّرْبَ مِنَ الْحَوْضِ الَّذِي يَبْعُدُ مَاؤُهُ عَنْ مَدّ أَعْنَاقِها، حتىٰ تَصِلَ إِلَىٰ الْمَاءِ أَوَائِلُ مَشَافِرِها، فَتَمْتَصّ الماءَ شَيْئاً فَشَيْئاً بِكُلْفَةٍ وَمُجاهَدَةٍ.

فَقَدْ تَكُونُ هذه العِبارَة قَدِ اسْتُعْمِلَتْ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، بِتَمْثِيلِ حَرَكَةِ الكَافِرِين يَوْمَ الدِّينِ، لِلْوُصُولِ إلى مَطْلُوبِهِمْ، وهُوَ الْخلاصُ مِنَ الْعَذابِ الّذي قَضَىٰ بِهِ اللهُ عَلَيْهم، بِنُوقٍ تَمَدُّ أَعْنَاقَها لِلْوُصُولِ إلى مَاءِ حَوْضٍ بَعِيدٍ عَنْها بُعْداً شَاسعاً، وهِيَ شَدِيدَةُ الظمأ.

ولَا يَخْفَىٰ مَا فِي هٰذِهِ الاسْتِعَارَةِ مِنْ تَصْوِيرٍ رائعٍ لِحَالَةِ نُفُوسِهِم الْمُشْرَئِبَّةِ لتَحْقِيقِ مَطْلُوبٍ قَضَىٰ اللهُ بأَنْ يَحْرِمَهُمْ مِنْهُ.

رابعاً:

من الفنون البلاغيَّةِ الاستقطاع، وهو اسْتقطاع النصوص مِنْ أزمانها الماضية، أو المستقبلة، وعرضها بألْفَاظِها، دون الإشارَةِ إلى أَنَّهُ كانَ كَذا فِيما مَضَىٰ، أو سَيَكُونَ كذَا فيما سَيأْتي.

ومِنْ أمْثِلَةِ هذا الاستقطاع في السورة ما يلي.

المثال الأول: قول اللهِ عزّ وجل بشأن دَاوُد عَليْه السَّلام:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

عبارة: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ مِن الاسْتِقْطَاع من الماضي.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ عَمَلِ الجِنِّ لِسُلَيْمانَ:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

عبارة: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ مِنَ الاستقطاعِ مِنَ الماضِي.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قِصَّةِ سَبأ:

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾.

عبارة: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ من الاستقطاع من الماضي.

المثال الرابع: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ التَّخاصُم الّذي سَوْفَ يَكُون بَيْنَ الأتباع والمتبوعين يَوْمَ القِيامَةِ في مَوْقف الحساب:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ . . . ٣٣﴾.

هذا البيان من الاستقطاع الّذي سوف يَحْدُثُ في المستقبل.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْن المشركين الّذِين يَعْبُدونَ الجنّ زاعِمِينَ أَنَّهُمْ مَلائِكة:

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾.

ما جاء في الآية (٤١) من الاستقطاع الّذِي سَوْفَ يَحْدُثُ يَوْم الحساب وفَصْلِ القضاء.

خامساً:

من دواعي اختيار اسم الإشارة الموضوع للمشار إِلَيْهِ الْبعيد، مَع أَنَّ المشار إِلَيْهِ في البيان قَرِيبٌ، تَكْرِيمُهُ وبيان ارْتِفاعِ مَنْزِلَتِهِ وَعُلُوِّ شأنِه، أو

إهَانَتُهُ بِبَيَانِ انْحِطَاطِ مَنْزِلَتِهِ وبُعْدِها في اتِّجَاهِ الدَّرْكِ الأَسْفل.

ومن الأمْثِلَةِ الدَّالَّةِ على التكريم ما يلي:

(١) قَوْلُ الله تَعَالَىٰ بشأن الّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات:

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

ومن الأمْثلَة الدَّالَّةِ علَىٰ الإهَانَةِ مَا يلي:

قول الله تعالى:

(١) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

أي: أولئكَ الْبُعَداءُ في اتجاه الدَّرْكِ الأسْفل.

(٢) وقولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: أولئِكَ البعداءُ في اتجاه الدَّرْكِ الأسْفَلِ.

سادساً:

ممَّا اعْتَنَىٰ بَتَفصيلهِ البلاغيّونَ «الْقَصْر» وهو تخصيص شيءٍ بشيءٍ بعبارة كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيه.

وأعْرِضُ هُنَا الأَمْثِلَة دُونَ شَرْحٍ وَدُونَ تَحْلِيلٍ، لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ في المستخرجاتِ الْبَلاغِيَّةِ مِنَ السُّوَرِ السَّابِقَةِ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَة مُشَابهة:

(١) ﴿... وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ .. ﴿٢﴾﴾.

(٢) ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

(٣) ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ... ﴿٢٣﴾﴾.

(٤) ﴿...وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ .. ﴿٢٣﴾﴾.

(٥) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ... ﴿٢٨﴾﴾.

(٦) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

(٧) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ... ﴿٤٦﴾﴾.

(٨) ﴿...إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ... ﴿٤٧﴾﴾.

(٩) ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ... ﴿٥٠﴾﴾.

وأكْتَفِي بهذه المستخرجات لهٰذا الملْحق.

والْحَمْدُ للهِ على معونته، ومَدَدِهِ، وتَوْفيقه، وفتْحه.

* * *

سورة الزّمر

٣٩ مصحف ٥٩ نزول

وهي سورة مكية كُلُّها
على الأرجح
وقيل: إلّا الآيات ٥٢ و٥٣ و٥٤

(١)

نصّ السورة مع فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ
ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ
إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ
﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا
يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ
وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ
أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى

---

٦ ـ • قرأ حمزة: [**فِي بُطُونِ إِمِّهَاتِكُمْ**] بِكَسْرِ الهمزة وكَسْرِ الميم المشَدَّدَة في الوصل.
وقرأ الكسائي: [**فِي بُطُونِ إِمَّهَاتِكُمْ**] بِكَسْر الْهَمْزَة وفَتْح المِيم المشدّدة في الوصل.
وقَرَأها بَاقي القرّاء العشرة: ﴿**فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ بضَمّ الهمزةِ وفتح الميم المشَدَّدة.
وأجْمَعُوا على ضَمّ الهمزة وفتح الميم المشدَّدَةِ عند البدء.
وهي وجوه من النطق العربيّ.

ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ
فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ
لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ
أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا
رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ
إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ
بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ
ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ
يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ
﴿٩﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي
هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم

---

٧ - • قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: **﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾** بِضَمّ الهاء مِنْ غير صِلَة.

وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ ذكوان، والكِسَائي، وابْنُ وَرْدان وَخَلَفٌ: بِضَمِّ الهاء مع الصِّلَة.

وقرأها السُّوسي، وابْنُ جمّاز: بإسكان الهاء: **[يَرْضَهْ لَكُمْ]**.

ولِدُورِي أبي عمرو وجهان: الإسكان، والضَّمّ مع الصِّلَةِ.

ولهشام الضَّمُّ مِنْ غَيْرِ صِلَة.

٨ - • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ورُوَيس: **[لِيَضِلّ]** بفتح الياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿لِيُضِلَّ﴾** بضم الياء من فعل «أضَلَّ».

٩ - • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وحَمْزَةُ: **[أَمَنْ]** بفتح الميم دُونَ تَشْدِيد.

وقرأها باقِي القراء العشرة: **﴿أَمَّنْ﴾** بفَتْحِ الميم مع التشْدِيد، أصلُهَا «أم مَنْ».

بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ
﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ
عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي
﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾
لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ
بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا
وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ
ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي
ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ

---

١١ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿**إِنِّيَ أُمِرْتُ**﴾ بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٣ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: ﴿**إِنِّيَ أَخَافُ**﴾ بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان.

١٦ ـ • قرأ رُوَيْس: [**يَا عِبَادِي**] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**يَا عِبَادِ**﴾ بحذْفِ يَاءِ المتكلّم وَصلاً ووقفاً.

١٦ ـ • قرأ يعقوب: [**فَاتَّقُونِي**] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**فاتَّقُونِ**﴾ بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

١٧ ـ • قرأ يَعْقُوبُ: [**فَبَشِّرْ عِبَادِي**] بإثبات ياء المتكلّم في الوقف فقط وقرأها باقي القراء العشرة ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ**﴾ بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

٢٠ ـ • قرأ أَبُو جَعْفَرْ: [**لَكِنَّ الَّذِينَ**] بِتَشْدِيدِ نُون «لَكِنَّ».

=

مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ
(٢٠) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى
ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ
مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِى
ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ
مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٖ
مُّبِينٍ (٢٢) ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِىَ
تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ
وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ
وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ (٢٣) أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجۡهِهِۦ
سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ
(٢٤) كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا
يَشۡعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡىَ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ
ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِى
هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا
غَيۡرَ ذِى عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ

= وقرأها باقي القراء الْعَشَرَة بإسْكان نُون «لَكِنْ» وتُكْسَرُ في الْوَصْلِ للتَّخلُّصِ مِن التقاء السَّاكِنَيْن.

٢٣ ـ ● قرأ ابْن كثير: [هَادِي] بإثبات الياء في الوقف فقط.
وقرأها باقي القراء العشرة ﴿هَادٍ﴾ وصلاً ووقفاً.

شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ
لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنۡ
أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ
فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ
وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ
عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ
أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهۡدِ
ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن
سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم
مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ

---

٢٩ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويَعْقُوب: [سَالِماً].

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَة: ﴿سَلَماً﴾ وهما بمعنى «خالصاً» فَمُؤَدَّى القراءتَيْنِ واحد.

٣٦ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائي، وأبو جَعفر: [عِبَادَهُ] بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿عَبْدَهُ﴾ بالإفراد.

والمؤدّى واحد، لأن النكرة المضافة إلى المعرفة تعم.

وقد يكون المراد بالإفراد الرسولُ، وبالجمع أتباعه المؤمِنُون المسلمون.

٣٨ ـ ● قرأ حمزة: [أَرَادَنِي اللهُ] بإسْكان ياء المتكلم.

وقرأها باقِي القُراءِ العشرة بالفتح: ﴿أَرَادَنِيَ اللهُ﴾.

كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ
قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ
ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن
يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا
عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ
يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ
فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ

---

٣٨ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [**كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ**] و[**مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ**] بتَنوينِ الأوّل مِنْ كُلٍّ مِنَ العبارتين، ونَصْبِ الثاني علىٰ أنَّهُ مَفْعُول بِهِ.

وقرأهما بَاقي القراء العشرة بِدُونِ تَنْوين الْأَول مِنْ كُلٍّ مِنْهما، وبجرّ الثاني علىٰ أنَّهُ مُضافٌ إليه.

والقراءتان وجْهَانِ عَربيان.

٣٩ ـ • قرأ شعبة: [**مَكَانَاتِكُمْ**] بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشر: ﴿**مَكَانَتِكُمْ**﴾ بالإفراد.

ومُؤَدّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

٤١ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [**عَلَيْهُمْ**] بضم الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**عَلَيْهِم**﴾.

٤٢ ـ • قَرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [**الَّتي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ**] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالبناء للمعلوم: ﴿**الَّتي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ**﴾.

ومؤدى القراءتين واحد.

شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ
وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ
ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ
عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ
ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ
﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ
نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم
مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ
﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ

---

٤٤ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلوم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

٥٣ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ﴾ بفتح ياءِ التكلم. =

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ
جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ
لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾
وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن
يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ
نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ
ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ
ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي
كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي
فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ
فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ

= وأسْكَنَها باقي القرّاءِ العشرة.

٥٣ ـ • قرأ أبو عمْرو، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[لَا تَقْنِطُوا]** بكَسْرِ النون.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿لَا تَقْنَطُوا﴾** بفتح النون.
وهما لغتان عَرَبيّتَان.

٥٦ ـ • قرأ ابْن جمّاز، وابْنُ وَرْدَانَ بخُلْف عنه: **[يَا حَسْرَتَايَ عَلَىٰ]**.
وقرأها رُوَيس: **[يَا حَسْرَتَاهْ]** وقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ﴾**.
وهي وجُوهُ عَرَبيَّة.

٦١ ـ • قرأ رَوْح: **[وَيُنْجِي اللهُ]** مِنْ فعل «أنْجىٰ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿وَيُنَجِّي اللهُ﴾** مِنْ فعل «نَجَّىٰ».
القراءتان متكافئتان، لأنَّ الهمز أخو التضعيف.

بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ
كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾
قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ
وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا
قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾
وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن
شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ
ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ
وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا

---

٦١ ـ • قرأ شعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**بِمَفَازَاتِهِمْ**] بالجمع.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**بِمَفَازَتِهِمْ**﴾ بالإفراد.
ومُؤدَّى القراءتين واحد، لأنَّ النكرة المضافة إلى المعرفة تَعُمُّ.

٦٢ ـ • قرأ قَالُون، وأبو عمرو والكِسَائي، وأبو جعفر: [**وَهْوَ**] بإسْكانِ الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**وَهُوَ**﴾ بضم الهاء.
وهما لغتان عَرَبيتان.

٦٤ ـ • قرأ نافع وأبو جعفر: ﴿**تأمُرُونِيَ أَعْبُدُ**﴾.
وقرأها ابْنُ كثير: [**تَأْمُرُونِّيَ أَعْبُدُ**] مع المدّ المشْبَع وبفتح ياء المتكلم.
وقرأها ابْنُ عَامر: [**تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**تَأْمُرُونِّي أعْبُدُ**] مع المدّ المشبع، وبإسكان ياء المتكلّم.

٦٩ ـ • قرأ نافع: [**بِالنَّبِيئِينَ**].

=

عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ
جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ
يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ
يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا
وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ
ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.
وهما نُطْقَانِ عَربيان.

٧٠ ـ • قرأ قَالُون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [وَهْو] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضم الهاء.
وهما لغتان عربيّتان.

٧١ و٧٣ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائي، ويَعْقُوب: ﴿فُتِحَتْ﴾ في الْمَوْضِعَيْن، بكَسْرِ التاء دون تَشْدِيد.
وقرأهُمَا باقي القرّاءِ العشرة: [فُتِّحَتْ] بكَسْرِ التَّاء مَعَ التَّشْدِيد، رُوعي في التّشْدِيد الإشارة إلَىٰ زِيَادَةِ إهانَة بَعْضِ أهل جهَنَّم.
وزِيادَةِ تكْريم بَعْضِ أهل الْجنَّة.

٧٢ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [فَبِيسَ] بإبدال الهمزة ياء في الوقف والوصل.
وكذلك قرأها حمزة في الوقف فَقَطْ.
وقرأها بَاقي الْقُرّاء العشرة: ﴿فَبِئْسَ﴾.
الإبدال وعَدَمُهُ من اللّهجات العربية.

(٢)
مما ورَدَ فِي السّنّة بشأن سورة (الزُّمَر)

روى النسائي بسَنَدِه عن عائِشَةَ أم المؤمنين رضي اللهُ عنها، قالَتْ:

«كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ حتَّىٰ نَقُولُ: مَا يُرِيد أنْ يُفْطِرَ، ويُفْطِرُ حَتَّىٰ نَقُولُ: مَا يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ، وَكَانَ ﷺ يَقْرأ في كُلِّ لَيْلَةٍ: بَنِي إسْرَائيل، والزُّمَر».

سورة «بني إسْرَائيل» هي سورة «الإسْرَاء».

(٣)
موضوع سورة (الزُّمَر)

ظهر لي أنَّ مَوْضوع هذه السّورة يَدُورُ حوْلَ ذِكْرِ مُلَخَّصاتٍ مُوجَزاتٍ لقَضَايَا تتعلَّقُ بالقضايا الإيمانيَّة، وبمَفْهُومَاتٍ هِيَ من الكلِّيَّاتِ الكُبْرىٰ في الدّين، سَبَقَ ذِكْرُ مُعْظَمِهَا فِي نُجُومِ التَّنْزيل قَبْلَ سورة (الزُّمَر/ ٥٩ نزول) مَبْسُوطاً، أَوْ مُفَصَّلاً، أَوْ مَقْرُوناً بِجَدَلِيَّاتٍ لِلْمُخَالِفِينَ، بُغْيَةَ الإقْنَاعِ، أو الإلْزَامِ، أو الإفْحَام.

وتُعتَبَرُ هـٰذِهِ السُّورَةُ فيما أَرَى بِمَثَابَةِ شَجَرَةٍ بَاسِقَةٍ ذَاتِ سَاقٍ وَاحِدَةٍ مُمَتَدَّةٍ سُمُوقاً، وَقَدْ نُضِّدَتْ عَلَيْها المَلخَّصَاتُ الْمُوجَزَاتُ تَنْضِيداً حَكِيماً مُتَرَاكِباً مَعَ مَا قُرِنَ بِها مِنْ إضَافَاتٍ نَافِعَاتٍ مُكَمِّلاتٍ.

وظَهَرَ لي أنَّ قَضَايَاها بِمَثَابَةِ «مَتْنٍ» سَبَقَ شَرْحُهُ، وأُضِيفَتْ إلَيْهِ إضَافَاتٌ تَوْضِيحِيَّةٌ وتَكمِيلِيَّة، وَقَدْ يُتْبَعُ بِشُرُوحٍ مُفَصَّلَةٍ مَعَ إضَافَاتٍ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ اللَّاحِقَةِ، ذَوَاتِ قِيَمٍ ثَمينَةٍ فِي الْفِكْرِ الدِّيني.

وبما أَنَّها مُلَخَّصَاتٌ مُوجَزَاتٌ لِمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ في نُجُوم التَّنْزِيل، فَمِنْ غَيْرِ المسْتَحْسَنِ تَحْدِيدُ مَوْضُوعٍ مُعَيَّنٍ جامِعٍ لَها، غَيْرَ كونِهَا كُلِّيَّاتٍ عَامَّاتٍ

مِنْ أُصُولِ الدِّين، وَمَفْهومَاتٍ كُبْرَيَاتٍ تَتعَلَّقُ بِبَيَانِ حِكْمَةِ اللهِ في تَصارِيفه، وبِوَاقِعِ حَالِ سُلُوكِ النَّاسِ تُجاهَ مَطْلُوبَاتِ اللهِ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

(٤)

دروس سورة (الزُّمَر)

اجتَهَدْتُ فِي اكْتِشَافِ دُروسِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ، فَبَدا لي أَنَّ مِنَ المقبولِ فِكْرِيّاً تَقْسِيمَها إلى (٢٣) دَرْساً، وهي كما يلي:

الدّرْس الأول: الآيات من (١ ـ ٤).

وفي آيات هذا الدَّرْس افتتاحٌ يَتعَلّقُ بالْقُرآن، فَأَمْرٌ للرسول ﷺ بتوحيد اللهِ في عِبادَتِه، لإِعْلَامِ الْمُشْرِكِينَ بأَنَّ الرَّسُولَ مأمُورٌ مِثْلَ سَائِرِ النَّاسِ بقَضَايَا الْقَاعِدَةِ الإيمانية، وكانَ هَـٰذَا مَدْخَلاً لِلْحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ كُفْرِيّاتِ المشْرِكِين.

الدرس الثاني: الآيتانِ: (٥) و(٦).

وفي هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ عَرْضٌ لبَعْضِ آيات اللهِ في كونه.

الدرس الثالث: الآية (٧).

وفي آية هذا الدّرس خطابٌ من الله عزّ وجلّ للنّاس بأنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ إيمانِ مَنْ يُؤْمِنُ به، وأَنَّهُ في ابْتِلَائِهِ عِبادَهُ يُقِيمُ عَدْلَهُ، إِذْ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفْرَ ويَرْضَىٰ لهم الإيمان الّذِي هُو أَدْنى دَرَجاتِ الشُّكر، ويُحَاسِبُ النَّاسَ ويُجَازِيهِمْ فُرادَىٰ بحَسَبِ أَعْمالِهِمْ، وأَنَّهُم مَبْعُوثُونَ ورَاجِعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الدّين لمجازاتهم على ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحانهم.

الدرس الرابع: الآية (٨).

وفيها بيانُ حالِ الإنسان الّذي عليه أَكْثَرُ النَّاسِ من إنابتِهِمْ إِلَىٰ الله داعين ملتجئين إليه في أحوال الضُّرّ، فإذا آتاهُمْ مِنْ نِعَمِهِ كَفَرُوا وَأَشْرَكُوا.

الدرس الخامس: الآيتان (٩) و(١٠).

وفي هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانٌ لِلْفَرْقِ الكَبِيرِ بَيْنَ الْمُحْسِنِينَ والأبرار، وبين مَنْ هم دُونَهُمْ، ودَعْوَةٌ لِلَّذينَ آمَنُوا بأنْ يَتَّقُوا رَبَّهم في أنواع سُلُوكهم، وأَنْ يَرْتَقُوا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ المحْسِنِينَ لِيَنَالُوا مَثُوبَةً حَسَنَةً فِي الدَّنيا، وَمِنَ الْإِحْسَانِ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَىٰ بَلَدٍ يَجِدُون أَنَّ الهِجْرَة إِلَيْه تُمَكِّنُهُمْ مِنْ أعْمَالٍ هِيَ أَرْضَىٰ للهِ مِمَّا يَقُومُونَ بِهِ فِي بَلَدِهِمْ، وأَنْ يَصْبِرُوا عَلَىٰ مَا يُلاقُونَ مِنْ مَكَارِه، لينالُوا الْأَجْرَ العظيم.

الدرس السادس: الآيات من (١١ ـ ٢٠).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ تكْلِيفٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، أن يُعْلِنَ للنَّاس أَنَّهُ مأمُورٌ بأنْ يَعبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين، وبأنْ يَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أُمَّتِهِ، وأَنَّهُ يَخَافُ عذابَ اللهِ إِذَا هو عَصاه، وبأَنَّهُ يُطَبِّقُ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ.

ومنها أيضاً بيانُ أَنَّهُ لَيْسَ مُجْبراً لَهُمْ، فَلَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا عبادَة مَا شَاءُوا، وَلَكِنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحَمَّلُوا تَبِعَةَ اخْتِيارَاتِهِم إذا اخْتَارُوا الشِّرْكَ أَوْ غَيْرَهُ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ، عَذاباً خَالِداً يَوْم القِيامَةِ في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجْرِمِينَ.

وفيها بيانُ الْبُشْرَىٰ للمؤمنينَ، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِهِمْ في اتِّباع الْهُدَىٰ، وَمَعَ لَوَاحِقَ مُرْتَبطَةٍ بأهْلِ النَّعِيمِ وأهْلِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين.

الدَّرس السابع: الآية (٢١).

وفيها عَرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنه، تذكيراً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ مَا في الكون، المسْتَلْزِمَةِ عقْلاً لِوَحْدَانِيَّتِهِ في إلَهِيَّته.

الدرس الثامن: الآية (٢٢).

وفيها بيان الْفَرْقِ الكبيرِ بينَ المؤمن الذي شرح اللهُ صَدْرَه للتطبيقات الإسلامية، والْكَافِرِ الّذِي قَسَا قَلْبُهُ فهو في ضَلَالٍ مُبِينٍ.

الدرس التاسع: الآيتان: (٢٣) و(٢٤).

وفيها بَيَانٌ عن تأثير آياتِ القرآن في قلوب المؤمنين الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَبيانٌ مُوجَزٌ عن المؤمِنِ الَّذِي يَتَّقِي بِتَوَجّهِهِ لِرَبِّهِ سُوءَ العذاب يَوْمَ القيامة، بخِلَافِ الظالمين الّذِين يَذُوقُونَ عَذَابَ مَا كانُوا يَكْسِبُون.

الدرس العاشر: الآيتان: (٢٥) و(٢٦).

وفيهما التَّذْكِيرُ بِتَعْذِيب اللهِ كُفَّارَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، للاتِّعَاظِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا.

الدرس الحادي عشر: الآيتان: (٢٧) و(٢٨).

وفيهما بَيَانٌ تكمِيلِيٌّ لِمَا جاءَ بِشَأْنِ القرآنِ في سَوابقِ التَّنْزِيل.

الدرس الثاني عشر: الآية (٢٩).

وَفيها بيانُ دَلِيلٍ إقْنَاعِيٍّ للمشْرِكين، بأنَّ التوحِيدَ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَكْرَمُ لِنُفُوسهم.

الدرس الثالث عشر: الآيات من (٣٠ ـ ٣٥).

وتبدأ بخِطَاب الرَّسُول ﷺ بأَنَّهُ مَيّتٌ وَبأنَّ كُلَّ الأحْيَاءِ مِنْ عباد اللهِ مَيّتُون، وينْتَقِلُ البيان إلى خطاب النَّاسِ بِشأنِ يَوْمِ القيامَةِ، وبَيَانِ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على الله، أو كَذَّبَ بالصِّدْقِ الَّذِي جاءَ عَنِ اللهِ علىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ الصَّادِقين، بخِلَافِ أحْوَال الرّسُل الصَّادِقِينَ، والمؤمِنِينَ المصَدِّقين، وثَوابِهِمْ عند رَبهم.

الدرس الرابع عشر: الآيتان (٣٦) و(٣٧).

وفيهما إشْعَارُ الْكَافِرِينَ بأَنَّ رَسُولَهُ ﷺ وَالمؤمِنينَ مَكْفِيُّونَ بِحِمَايَةِ اللهِ لَهُمْ، وأَنَّ الْحُكْمَ بِالضَّلالِ والحكْمَ بالْهِدَايَةِ للهِ عزَّ وجلَّ وَحْدَه.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٣٨ ـ ٤٠).

وفيها تَعْلِيمٌ جَدَّلِيٌّ وإقْنَاعِيٌّ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ لِلرَّسُولِ ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّته، يُوَجَّهُ للمشْرِكِينَ، وهُو مُكَمِّلٌ لِمَا جاء مِنْ تَعْلِيمٍ في سَوَابقِ التَّنْزيل.

الدرس السادس عشر: الآية (٤١).

وفيها بيانٌ من الله عزَّ وجلَّ للنَّاسِ بِشَأْن القرآن وأنَّ اللهَ أَنْزَلَهُ لَهُمْ مُتَّصِفاً بالحق، وأَنَّ مَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ جَلَبَ الْخَيْرَ والسَّعَادَةَ، ومَنْ ضَلَّ فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ.

الدرس السابع عشر: الآية (٤٢).

وفِيها بيانٌ عَنِ الموتِ والنَّوْمِ وأنَّهُما يَشْتَرِكانِ في أنَّ كُلّاً مِنْهُمَا وَفَاةٌ.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٤٣ ـ ٤٨).

وفيها بَيَانُ تَعْلِيم إقْنَاعيّ يُوجَّهُ مِنَ الرَّسُولِ أو مِن الداعي إلى اللهِ للمشْرِكينَ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ لِيَكُونُوا شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ، مَعَ بَيَانِ بَعَضِ أَحْوالِ المشرِكِينَ تُجاه ذِكْرِ اللهِ، ومَا يَنْبَغِي للدَّاعي إلى اللهِ أَنْ يَقُولَه.

وفيها تَحْذِيرٌ مُباشِرٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ للمشركين من عاقِبَةِ شِرْكِهِمْ الَّذِي هُو سُوءُ عذَابٍ يَوْمَ القيامَة.

الدرس التاسع عشر: الآياتُ من (٤٩ ـ ٥٢).

وفيها مُتَابَعَةُ بيانٍ بِشَأْنِ الإنسانِ الجَحُود الكنود، الّذي جاء في «الدَّرْسِ الرَّابع» وصْفُ حاله بِأَنَّهُ يَلْجَأُ إلى اللهِ دَاعِياً إذا نزل به الضُّرُّ، ثُمَّ يَكْفُرُ بِرَبِّهِ، فَيُشْرِكُ بِهِ، أَوْ يَدَّعِي أَنَّ مَا أنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ قَدْ كَانَ بِسَبَبٍ مِنْ

مَهَارَتِهِ وَعِلْمِهِ، لَا مِنْ عَطاءَاتِ رَبِّهِ له، وهذا مِنْ كُفْرِهِ نِعْمَةَ الرَّبِّ المنعم عَلَيْه دَواماً بما لَا يُحْصِي من النِّعَم.

الدرس العشرون: الآيات من (٥٣ ـ ٦٣).

وفيها بيانُ تعليم دَعَوِي من اللهِ عزّ وجلّ لرسُوله ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه، وفي هذا البيان الدَّعَوِي إِطْمَاعُ بِرَحْمَةِ اللهِ وَأَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، مع بَيَانَاتٍ وَاعِظَات.

الدرس الْحَادِي والعشرون: الآيات من (٦٤ ـ ٦٦).

وفيها تعليم الرَّسُول ﷺ أَنْ يُعْلِنَ اسْتِنكَارَه دَعْوَة المشركين لَه أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ الله، على خِلَافِ مَا أَمَرَهُ اللهُ به.

الدرس الثاني والعشرون: الآية: (٦٧).

وفيها بيانُ أَنَّ الْكَافِرِينَ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، مع أَنَّ كُلَّ مَا فِي الكَوْنِ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحتَ سُلْطَانِه.

الدرس الثالث والعشرون: الآيات من (٦٨ ـ ٧٥) آخر السورة.

وَفيها بَيَانُ لقطاتٍ مُوجَزَاتٍ عَنْ أحداث يَوْمِ الدِّين، بدأً مِنْ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، حَتَّىٰ دُخُولِ أَهْلِ النَّارِ النارَ، ودُخول أهل الجَنَّةِ الجَنَّةَ.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدّرس الأوّل من سورة (الزُّمر)

الآيات من (١ ـ ٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ① إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا

مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

تمهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدَّرْس مُقَدِّمَةٌ عَنِ القرآن، فأمْرٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، بأَنْ يَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين، لَا يُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ أَحداً، إذْ لَا تَكُونُ عِبَادَةٌ للهِ مَا لَمْ تَكُنْ خَالِصَةً لَهُ.

وفيها بَيَانُ تَعِلَّةِ بَعْضِ المشْرِكِينَ بَعْدَ أَنْ أَفْحَمَتْهُمُ الحجج الْبُرْهَانِيَّة بأَنَّ آلِهَتَهُمْ لا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، إذْ لَجَؤُوا إلَىٰ تَعِلَّةِ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ لِيُقَرِّبُوهم إلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ.

وَجاء فيها إنْذَارُ هؤلاء المشركين الْكَذَّابين.

وجاء فيها بَيَانُ إحْدىٰ كُفْرِيَّاتِ المشْرِكين، وهي ادِّعَاؤُهُمْ أَنَّ للهِ وَلَداً، مَعَ الرَّدِّ الرَّبَّانِيِّ علَىٰ هـٰذا الادّعاء الباطل.

التدبّر التحليليّ:

- قول اللهِ تعالى:

- ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾:

- ﴿تَنزِيلُ﴾: مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وهُوَ مُكَافِئُ «أَنْزَلَ إِنْزَالاً» لِأَنَّ المهْمُوزَ والمضَعَّفَ في المعنَىٰ وَالدَّلَالَةِ أخوان، ولَمْ أَجِدْ فِي النُّصُوصِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْفَرْقِ بَيْنَ «التَّنْزِيل» و«الإِنْزَال» وَقَدْ جَاء فيها بالنِّسْبَةِ إلى القرآنِ المجيد فعل «نَزَّل» وفعل «أَنْزَل».

لمَّا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الْعَلِيّ الأَعْلَىٰ كَانَ كُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ تَنْزِيلاً وَإِنْزَالاً، مِنْ عُلُوِّهِ إِلَى مَا هُوَ دُونَهُ، وَإِلَىٰ مَنْ هُمْ دُونَهُ، وَكُلُّ أَكْوَانِهِ كَذَلِكَ سَواءٌ أكَانَتْ أحياءً أم غَيْرَ أَحْيَاء.

- ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: سمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَا يُنَزِّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِن بَيَانٍ كلَامِيّ كتاباً للدَّلَالَةِ علىٰ أَنَّ علَىٰ الرَّسُولِ وعَلَىٰ المؤمِنينَ أَنْ يُدَوِّنُوهُ في كِتَاب مَصُونٍ، مَحْفُوظٍ مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ والتحرِيفِ. وتَابَعَ تَعْرِيفَهُ بـ (ال) الْعَهْدِيَّة، فَصَارَ يُعْرَف بلَفْظِ «الكِتَاب» وهذا اللَّفْظُ أَحَدُ الْعُنْوانَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا الْبَيَانُ الْقَوْلِيُّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ قَبْلَ إكمالِ إِنْزَالِهِ، وَبَعْدَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ إِذْ هُوَ في الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ مُهَيَّأٌ إِنْزَالُهُ كُلّهُ بأُسْلُوبِ التَّنْجِيمِ والتَّفْرِيقِ، مُنْذُ بَدْءِ إِنْزَالِ «اقْرأ» حتَّىٰ آخِرِ حَرْفٍ أُنْزِلَ مِنْهُ.

لفظ «كتاب» هو في الأصْلِ مَصْدَرُ «كَتَبَ» يُقالُ لُغَةً: «كَتَبَ يَكْتُبُ، كَتْباً، وكِتَاباً». وقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ «المكْتُوب» من إطلاق المصْدَرِ على اسْمِ المفْعُول.

«تَنْزِيلُ» مُضَافٌ و«الْكِتَابِ» مُضَاف إليه. ولفظ «تَنْزِيل» مُبْتَدأٌ خَبَرُه:

- ﴿..مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾: جاءَ تَمْجِيدُ اللهِ هُنَا بِذِكْرِ اسْمَيْنِ من أسمائِهِ الحسْنَىٰ هُمَا: «الْعَزِيز» و«الْحَكيم».

الْعَزِيز: أي: الْقَوِيُّ الغالِبُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَلَا تُكَافِيءُ قُوَّتَهُ قوَّةٌ ما، ولَا قُدْرَتَهُ قُدرَةٌ ما.

الْحَكِيم: أي: الّذي يَضَعُ الأَشْيَاءَ في مَواضِعِها، ويَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ وأَتْقَنَها وَأَحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ المختَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائِج.

وهذا الاسْمُ بِالنّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ، يَدُلُّ علىٰ اتِّصَافِهِ بالْكَمَالِ الْأَقْصَىٰ لِلْحِكْمَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِن اخْتِيارَاتِهِ وَأَفْعَالِه وتَصارِيفِهِ كُلِّهَا.

وفي ذِكرْ هـٰذينِ الاسْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، بَعْدَ بيانِ أَنَّ تَنْزِيلَ الكِتَابِ مِنْهُ، فِيه دَلاَلَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ ـ بِعِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ يَجْزِي عِبَادَهُ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدنيا مَوْضِع الامْتِحَان، ويَبْعَثُهُمْ بَعْدَ الْمَوْت، وَيَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لِلآخِرَةِ، بِأَتْقَنِ مَا تَقْضِي بِهِ حِكْمَتُه، لِدَار نعيم المسلمين، ولدار عذاب المجرمين.

هـذه الآيـة جَـاءَتْ أيـضـاً فـي أوَّلِ سُـورَتـي (الـجـاثـيـة ٦٥ نـزول) و(الأحْقَاف/ ٦٦ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِه مُحَمَّدٍ ﷺ بضمير المتكلّم العظيم:

● ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ . . . ۝٣﴾:

أي: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ أيها الرَّسُولُ محمَّدٌ الكِتَابَ مُتَّصِفاً بالْحَقِّ، فَلا بَيَانَ فِيهِ إِلَّا هُوَ حَقٌّ.

الحق: هو الأمْرُ الثّابتُ الَّذِي لَا شَكَّ فيه، فالمطابِقُ للواقع هو من الحق، وضِدُّه الباطل، وَالمطابقُ بِمَا فِيهِ نَفْعٌ وخيْرٌ هو من الحق. والمطابق لمطلوب اللهِ مِن عباده هو من الحقِّ، وعَمَلُ شَيْءٍ لِغَايَةٍ نَافِعَةٍ حَكيمَةٍ هُوَ مِنَ الحقّ، أمّا عَمَلُ شيءٍ لِغَيْرِ غايَةٍ حكيمةٍ فَهُو من الْعَبَث، وهو مُنَافٍ لِلْحَقّ.

● ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾:

أي: فاعْبُدْ أيُّها الرَّسُولُ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصاً لَهُ عَبادَتَكَ الَّتي هِي الدِّينُ الحقُّ، غَيْرَ مُشْرِكٍ بِعِبَادَتِهِ أحداً وَلَا شَيْئاً ما في الوجود كُلِّه، فَأَنْتَ أَوَّلُ المطَالَبِينَ بهذا التَّكْلِيفِ مِنْ رَبّكَ في هذه الرسالة الخاتمة.

الإخْلَاصُ لله: جَعْلُ أَعْمَالِ الدِّينِ خَالِصَةً صَافِيَةً مَنقَّاةً مِنَ الشِّرْكِ والرِّيَاءِ ومِنْ شوائِبِهما.

يُقَالُ لُغَةً: «أَخْلَصَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أَيْ: صَفَّاهُ ونقَّاهُ مِنْ شوَائِبِهِ.

فالْمُخْلِص: هو مَنْ أخْلَصَ عَمَلَهُ وَنِيَّتَهُ مِنَ الشَّوَائِب، وَجعَلَ ذَلِكَ صَافِياً لِمَنْ وَجَّهَهُ له.

الدّين: الطاعَةُ والانقياد، **والدِّينُ لله**: الطَّاعَةُ والانقياد وصِدْقُ الْعُبُودِيَّةِ لَه، مَعَ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ لِجَلَالِهِ وَلِعَظَمَتِه.

- ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ .. ③﴾:

﴿أَلَا﴾: أَدَاة اسْتِفْتَاحٍ، وتَنْبِيهٍ، وتَحْقِيق.

أي: انْتَبِهُوا وَتَحقَّقُوا أَيُّهَا النَّاسِ أَنَّ الدِّينَ الْخَالِصَ مِنَ الشوائِبِ لَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا اللهُ وَحدهُ، ولا يَصِلُ إِلَيْهِ مَا فيه شِرْك.

اللام في: ﴿لِلَّهِ﴾ مَعْنَاها الاستحقاق، وَتَقْدِيم هذا الخبر عَلَىٰ المبتدأ: ﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ وهو مَعْرِفَةٌ أَفَادَ التخصيص، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أغْنَىٰ الشُّركاءِ عن الشِّرْك، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ عِبَادَةٍ أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرَ اللهِ لَمْ يَقْبَلْهُ اللهُ مِنْه، وَرَدَّهُ إِلَيْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشْرِكين الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله، وَيَجْعلُونَ آلِهَتَهُمْ شُرَكَاءَ لله في إلَهِيَّتِهِ:

- ﴿... وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ③﴾:

- ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾: أي: تَكَلَّفُوا باصْطِنَاعٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ خِلَافِ الحقّ والواقع.

- ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: أي: مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ بعِبادَاتٍ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ اللهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

- ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾: أي: قَائِلِينَ هٰذا القول تَعِلَّةً جَدَلِيَّةً، بَعْدَ أَنْ تَبيَّنَ لَهُمْ أنّ آلِهَتَهُمْ لا تَخْلُقُ شَيْئاً، ولَا تَنْفَعُ وَلا تَضُرُّ، ولم يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُثْبِتُوا بِحُجَجٍ مَقْبُولَةٍ أنّ لَهَا أثراً مَا في جلْب نفع أو دفع ضُرٍّ.

- ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾: **الزّلْفَىٰ**. **والزُّلْفَةُ**: الْقُرْبَةُ والمنزلة. قالَ الأخفش: **الزُّلْفَىٰ**: اسْمُ مَصْدَر. فِعْلُ: «زَلَفَ إِلَيْهِ، وازْدَلَفَ إِلَيه» بمعْنَىٰ دَنَا إِلَيْهِ وَقَرُبَ مِنْهُ.

أي: مَا نَعْبُدُ آلِهَتَنَا مِنَ الأَوْثَانِ لِأَنَّ لَهمْ رُبُوبِيَّةً يَسْتَحِقُّونَ بِهَا أَنْ يُعْبدُوا، بَلْ نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إلَىٰ اللهِ مَنْزِلَةً، لِمَا لَهُمْ عِنْدَ الله مِنْ مَنْزِلَة عَظِيمَةٍ، وشَفَاعَةٍ مَقْبُولَة، ولَمْ تَصْدُرْ عَنْهُمْ هٰذه المقالَةُ طَوال سنين من دعوة الرّسُولِ لهم.

قالُوا هذا القولَ فِي مُرَاوَغَةٍ جَدَلِيَّةٍ، وهُمْ كاذِبُونَ، إذْ يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ زَاعِمِينَ أَنَّ لَهَا تَصَارِيفَ رُبُوبِيَّةٍ مَا في حيَوَاتِهم.

وَإسْقَاطُ هٰذِهِ التَّعِلَّةِ الْجَدَلِيَّةِ يَكْفِي لَهَا أَنْ يُقَالَ لهم: إِنَّ الْعِلْمَ بأنَّها تُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ لَا يَكُونُ إِلَّا بِبَيَانٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَاتُوا بُرْهَانَكُمْ مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ صَحِيحٍ يَدُلُّ عَلَىٰ مَا تَزْعُمُونَ، وَلَنْ يَسْتطيعوا أنْ يَأْتُوا بأيِّ دَلِيلٍ علَىٰ مَا يَزْعُمُون، ولهذا جَاءَ فِي آخِرِ الآيَةِ بَيانُ أَنَّهُمْ كاذِبُون كَفَّارُون.

- ﴿. . إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ . .﴾:

أي: إنَّ اللهَ يَقْضِي في مَحْكَمَتِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، بَيْنَ كُلِّ الَّذِينَ كَانُوا في الحياةِ الدُّنْيَا مُمْتَحنِينَ، في كُلِّ مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ممَّا يَتعَلَّقُ بمَا كَانُوا بِهِ مُمْتَحَنِينَ، مِنْ إيمانٍ ظَاهِرٍ يُحسُّ، أَوْ بَاطِنٍ في قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ يَعْلَمُهُ اللهُ.

ومن الْمَعْلُومِ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ سِجِلَّ حَيَاةٍ مِمَّا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ عِنْدَ رَبِّهِ،

فيَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ ثَواباً بِفَضْلِ الله، أَوْ عِقَاباً بِعَدْلِ الله، وَهـٰذَا السِّجلُّ مُخْتَلِفٌ عَنْ كُلِّ سِجِلَّاتِ سَائِرِ عِبَادِ اللهِ الْمُحَاسَبِينَ فِي الْحَسَنَاتِ وفي السّيّئات.

وبما أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَرِيعُ الحساب، ويُحِيطُ بِكُلّ شيءٍ عِلْماً، فإنَّهُ تبارَكَ وتَعالَىٰ يقْضِي بالحقِّ فضْلاً أَوْ عَدْلاً، فَلَا يَظْلِمُ أحداً مثقالَ ذَرَّةٍ ولَا أصْغَرَ مِنْ ذرَّة.

- ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ .. ﴿٣﴾﴾:

أي: إِنَّ اللهَ قَدْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ ويَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِ بَعْضِ عبادِه، فَيَجْعَلُهُمْ مَعَ مَنْ حَكَمَ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ لِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُون وكانُوا يَتَّقُونَ بِمَقَادِيرَ مُخْتَلِفَة، لَكِنَّهُ لَا يَحْكُمُ وَلَا يَقْضِي بِهِدَايَةِ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ علَىٰ رَبِّهِ فِي قَضَايَا الدِّينِ، كَفَّارٌ بَلَغَ كُفْرُهُ دركَةَ مَنْ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَهُم، وهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَمَنْ هُمْ أحطُّ مِنَ الْمُشْرِكين في الدَّركاتِ، كالَّذِينَ يَجْحَدُونَ وُجُودَ الرَّبِّ الخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه.

كَفَّارٌ: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعِلِ «كافر».

﴿لَا يَهْدِى﴾: أي: لَا يَحكُمُ بالهِدَايةِ وَلَا يقضي بِها، إذا كان المقضيُّ لَهُ كَاذِباً كَفَّاراً.

وقد أَبَانَ الله عَزَّ وَجَلَّ أنّ الشِّرْكَ أَوَّلُ دركاتِ الكَفَّارِينَ، ويأتي بَعْدَهَا مَا هُو أحطُّ مِنْهَا وأخَسُّ، فقال تَعالَىٰ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

■ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذينَ زَعَمُوا أَنَّ للهِ وَلَداً، وَفِي مُقدِّمَتِهِم بالنِّسْبَة إِلَى هـٰذِهِ الآيَةِ، الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الملائكةَ أَوْ إِناثَ أَوْثَانِهِمْ

بَنَاتُ اللهِ، وهُمْ مِنَ المشركين، ثُمَّ يَعُمُّ النَّصُّ كُلَّ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ للهِ وَلَداً، كالنصارىٰ الَّذِينَ قالُوا: عِيسَىٰ ابْنُ اللهِ سبحانَهُ وتعالَىٰ عمَّا يَصِفُون:

- ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾:

كانَ بَعْضُ المشركين يَزْعمون أنَّ «اللَّاتَ، والْعُزَّىٰ، ومَنَاةَ» بَنَاتُ اللهِ، هٰذِهِ الأوثان تَمَاثيلُ لِنِسَاء، وهِيَ بالتجْرِبَةِ مَعَ الوقَائِعِ لَا تَجْلُبُ لِعَابِدِيها نَفْعاً، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضرّاً.

ومِن بَابِ مُخَاطَبَةِ المشْرِكِينَ عَلَىٰ مَقَادِيرِ مَدارِكِهم الْفِكْرِيَّةِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ هٰذِهِ الْقَضِيَّة، يُبَيِّنُ اللهُ لَهُمْ سَفَاهَتَهُمْ وَضَعْفَ عُقُولِهِمْ، إذْ يَجْعلُونَ هٰذِهِ الأوثَانَ أَوْ مَنْ تَرمُزُ إلَيْهِن هٰذِهِ الأَوْثَانُ، بَنَاتِ اللهِ.

لَوْ أرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً بالتَّبَنِّي، إذْ وُجُودُ وَلَدٍ للهِ عَلَىٰ وَجْهِ الحقيقَةِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلاً، لَاصْطَفَىٰ لِنَفْسِهِ مِمَّا يَخْلُقُ مَخْلُوقاً عظيماً جدّاً، قَادِراً عَلَىٰ السَّيْطَرَةِ علَىٰ نُجُوم السَّمَاءِ، وعَلَىٰ خَلْقِ مَا يَشَاءُ، ولَمْ يَصْطَفِ لِنَفْسِهِ مِثْلَ هٰذِهِ الأَوْثَانِ الحقيرَة الَّتِي لا تَمْلِكُ لِغَيْرِها ولَا لِأَنْفُسِها جَلْب نَفْعٍ أو دَفْعَ ضَرٍّ، إنَّهُ الْوَاحِدُ في رُبُوبيَّتِهِ، الْقَهَّارُ فِي الإيجاد والإعدام.

الْقَهَّارُ: صيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعلِ «القاهر» وهو اسْمٌ مِنْ أَسَماءِ اللهِ الحسنىٰ، ومعْنَاهُ الغالِبُ الَّذِي لَا يَحُدُّ غَلَبَتَهُ شيء، الْمُجْبِرُ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ إيجادَهُ أَوْ إعْدَامَهُ أَوْ أيَّ تَصرُّفٍ فيه.

أي: وَإِذْ هُو قَهَّارٌ يفْعَلُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ما يُرِيدُ، فَلَا حَاجَةَ لَهُ إلَىٰ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً يُعِينُهُ فِي أعْمَالِ رُبُوبيّتِهِ لِكَوْنِهِ.

أمّا الملائكَةُ وَسَائِرُ الأَسْبَاب الكَوْنِيَّةِ فَهِيَ تَعْمَلُ بأمْرِهِ وَخَلْقِهِ،

وَقَدْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُجْرِيَ أفْعَالَهُ فِي كَوْنِهِ مَسْتُورَةً بِسُتُورِ الأسْبَابِ، لحكْمَةِ ابتِلَاءِ عبادِه.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الأول من دُروس سورة (الزُّمَر).

والحمْدُ لله على معونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، وفَتْحِه.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الزُّمرِ)

الآيتان (٥) و(٦)

قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾.

القراءات:

(٦) • قرأ حَمْزَةُ: [**فِي بُطُونِ إِمِّهاتِكُمْ**] بِكَسْر الهمزة، وكَسْرِ الميم المشدَّدَةِ في الوصل.

وقرأها الكسائي: [**فِي بُطُونِ إِمَّهَاتِكُمْ**] بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، وفَتْحِ الْمِيمِ المشَدَّدَةِ في الوصل.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: ﴿**فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ بِضَمّ الْهَمْزَةِ وفَتْحِ الميم المشَدَّدَة.

وأَجْمَعُوا عَلَىٰ ضَمِّ الْهَمْزَةِ وفَتْحِ الميم المشَدَّدَةِ عِنْدَ الْبَدْءِ..

وهي وُجُوهٌ مِنَ النُّطْقِ العَرَبي.

تمهيد:

في آيتي هذا الدَّرسِ عَرْضٌ لِبَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنه، الدالَّاتِ على طائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَة، مِنْها عِلْمُهُ، وقُدْرَتُهُ، وحِكْمَتُهُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، وإتْقَانُهُ لِخَلْقِهِ.

وجاء في هذه الآيات ما يلي:

(١) التَّذْكِير بأنَّهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ السَّماواتِ والْأَرْضَ بالحق.

(٢) التَّنْبِيهُ علىٰ ظَاهِرَةِ تَكْوِيرِ اللَّيْل على النَّهارِ وتَكْوِيرِ النَّهارِ علَىٰ اللّيل.

(٣) التَّذْكِير بأنَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ سَخَّرَ الشّمْسَ والْقَمَرَ، وأنَّ كُلًّا مِنْهُما يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ.

(٤) تَذْكير اللهِ النَّاسَ بأنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَة، وأنَّهُ جَعَلَ مِنْها زَوْجها، وَجاءَت إضَافَةُ فِكْرَةِ الترتيب المتراخي عَلَىٰ ما جاء في الآية (١٨٩) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول).

(٥) امْتِنَانُ اللهِ علَىٰ النَّاسِ بأَنَّهُ أنْزَلَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمانِيَةَ أزْواجٍ.

(٦) بَيانُ أنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَخْلُقُ النَّاسَ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْق في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ.

(٧) خَتْمُ بَيَانِ الآيَاتِ السَّابقَاتِ بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

التّدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ .. ⑤﴾:

هذه القضيَّة جاءَت تَذْكِيراً لِمَا سبَقَ بَيانُهُ في الآية (٧٣) مِنْ سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول).

وَقَدْ جاءَ تَدبُّرُ هـٰذا البيانِ مُوسّعاً مُفَصَّلاً في صَفَحاتٍ، فَيَنْبَغِي الرُّجُوعُ إلَيْهِ، لِمعْرِفَةِ وُجُوه الْحَقِّ، وكيْفَ أَنَّ اللهَ تبارَكَ وَتَعالَىٰ خَلَقَ السَّمَاوَات والْأَرْضَ بالْحقِ، ولَمْ يَخْلُقْهُمَا بَاطلاً، ولَيْسَتِ الإعَادَة مُسْتَحْسَنَة لِطُولها.

- قول الله تعالى:

- ﴿..يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ..﴾:

سبَقَ في سورة (فاطر/٤٣ نزول) في الآية (١٣) منها، وفِي سورة (لقمان/ ٥٧ نزول) في الآية (٢٩) مِنْهَا بَيانُ أَنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالَىٰ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ، ويُولِجُ النَّهَارَ في اللَّيل، وقد سبَقَ تَدبُّرُ المراد مِنَ الإيلَاجِ لَدَىٰ تَحْلِيلِ الْآيَتَيْن.

لَكِنْ جَاءَ هُنَا فِي سُورَةِ (الزُّمَر/ ٥٩ نزول) بَيَانُ أَنَّ اللهَ يَكُوِّرُ اللَّيْلَ عَلَىٰ النَّهَارِ، ويَكُوِّرُ النَّهارَ عَلَىٰ اللَّيْل.

إنَّ حَرَكَةَ دَوَرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا تُجاهَ الشَّمْسِ الَّتِي تُعْطِي تَعَاقُبَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، تُصَوِّرُ لِلنَّاظِرِ مِنْ عُلُوٍّ مَشْهَدَيْن:

المشْهَدُ الْأَوّل: أنَّ اللَّيْلَ في أَوّلِ النَّهارِ مَعَ تَتَابعِ امْتِدَادِهِ يَلِجُ فيه، وأنَّ النَّهارَ فِي أوّل اللَّيْلِ مَعَ تَتَابعِ امْتدادِه يَلِجُ فيه.

المشْهَدُ الثاني: أَنَّ اللَّيْلَ في آخِرِ النَّهارِ يُكَوَّرُ عَلَى النَّهارِ فَيَسْتُرُهُ شَيْئاً فَشَيْئاً، وأَنَّ النَّهَارَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ يُكَوَّرُ علَىٰ اللَّيْلِ شيئاً فشيئاً، إِذْ يَبْدُو في مَحلِّهِ النَّهار.

فجاء في القرآن التعبيرُ عَنْ هـٰذين المشْهَدَيْنِ بالإيلَاجِ وبالتّكْوِير،

والْغَرَضُ مِنْهَا الدَّلَالَةُ عَلَىٰ حَرَكَةِ دَوَرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا باتّجَاهِ الشَّمْسِ، في نِظَامٍ رَائِعٍ بَدِيعٍ، وَمِنْ لَوَازِم هذا أنَّ الْأَرْضَ بِمَثَابَة كُرَةٍ كَبِيرَةٍ تَدُورُ عَلَىٰ مِحْوَرِها باتّجَاهِ الشّمْسِ، دُونَ خَلَلٍ وَلَا خُرُوجٍ عَنْ نِظَامِهَا في الْأَحْقَابِ والدُّهُور طَوال ملايين السِّنِين، وَهَـٰذا لَا يَكُونُ إلَّا بسُلْطَانِ رَبٍّ عَلِيمٍ حَكِيم قَدِيرٍ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ في كونِهِ ويَخْتَارُ.

التَّكْوير: لَفُّ الشَّيْءِ عَلَىٰ جِهَةِ الاسْتِدَارة، كَمَا تُلَفُّ خُيُوط الصُّوفِ علَىٰ بَعْضِهَا حَتَّىٰ تَكُونَ كُرَةً ذاتَ مُحِيطٍ دَائِرِيّ من كُلِّ جِهاتها.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿. . وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . . .﴾:

المراد بالتَّسخير هنا: تَطْويعُ المخْلُوقِ بالْجَبْرِ الرَّبَّاني لِلْعَمَلِ وَالتَّحرُّكِ على وَفْق إرَادَةِ اللهِ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

وقد ثبت لدى عُلَمَاءِ الفَلَك أنَّ كُلًّا مِن الشَّمْسِ والْقَمَر يَجْرِيَانِ فِي السَّماءِ كما جاء في كتاب اللهِ القرآن.

فمِنْ آيات اللهِ العظيمة الكَوْنيَّةِ، ذَاتِ الصِّلَةِ بمَصَالحِ الْعِبَادِ في الأرْض، آيَتَا تَسْخِير الشَّمْس وتَسْخِيرِ القمر.

وقد سَبَقَ لَدَى تدبّرِ الآية (١٣) من سُورَةِ (فاطر/٤٣ نزول) ولَدَى تَدَبُّر الآية (٢٩) من سُورَةِ (لُقمان) بَيَانٌ مُطَوَّلٌ بِشَأْنِ تَسخير الشَّمْسِ والْقمر، وبِشَأْنِ جَرَيانِ كُلٍّ مُنْهُمَا لِأَجَلٍ مُسمَّىٰ، وإلَىٰ أجَلٍ مُسَمَّىٰ، فَمِنَ الأحْسَنِ عَدَمُ التَّكْرار، والرُّجُوعُ إلى مَا جَاءَ في تَدَبُّرِ آيَتَي (فاطر) و(لُقْمَان).

الأَجَلُ المسَمَّىٰ: هو الأجَلَ المعَيَّنُ باسْمِهِ المحدَّدِ لَهُ في عِلْمِ الله، وفي الكِتَابِ الَّذِي كتَبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِيهِ كُلَّ شيءٍ قَدَّرَهُ وقَضَاه.

■ قول الله تعالى:

- ﴿. . . أَلَا هُوَ ٱلْعَـزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾:
- ﴿أَلَآ﴾: أداة اسْتِفْتَاحٍ، وتَنْبيهٍ، وتحْقيق.

أي: انْتبِهُوا وتَحَقَّقُوا أيُّها المشركون أنَّ رَبَّكُمُ الْخَالِقَ الَّذِي خَلَقَ مَا أَبَانَهُ لَكُمْ فِي هـٰذِه الآيَةِ قَدِيرٌ عَلَىٰ الانتقام مِنْكُمْ بِقُوَّته الْغَالِبَةِ لِكُلّ شيْءٍ إِذَا أصْرَرْتُم عَلَىٰ شِرْكِكُمُ وَكُفْرِكم، غفَّارٌ لِكُلِّ مَا أسْلَفْتُمْ إذَا آمَنْتُمْ وأسْلَمْتُمْ وَتُبْتُمْ إلَيهِ، قَبْلَ أَنْ تَنْتَهِيَ مُدَّةُ امْتِحَانِكُمْ في الْحَياةِ الدُّنيا.

الْعَزِيز: أي: ذُو القوَّةِ الْغَالِبَةِ الَّتِي لَا تُغْلَبُ.

الْغَفَّار: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الغافِر» وهو السَّاتر المتجاوزُ عن ذُنُوبِ وسيّئات مَنْ آمَنُوا وأسْلَمُوا وَتَابُوا إلى ربّهم.

■ قول اللهِ تَعَالىٰ خِطَاباً لِكُلِّ الناس ويَدْخُلُ فيهم المعنيُّونَ بالمعالجة:

- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . ⟨٦⟩﴾.

أي: خَلَقَكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ أنْسَالاً مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ هِيَ نَفْسُ أَبِيكُمْ آدم، ففي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَقَادِيرُ خَاصَّةٌ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ والْخصَائِصِ الكُلّيّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ أبَاكُمْ آدَمَ عَلَيْها.

وبَعْدَ مُدَّةٍ ذَاتِ مُهْلَةٍ مِنَ الزَّمَانِ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجها، وهِيَ أُمُّكُمْ الْأُولَىٰ «حَوَّاء». فَدَلَّ هـٰذا عَلَىٰ أَنَّ مُصغَّرَاتِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ فِي ظَهْرِهِ كَانُوا مَخْلُوقين قَبْلَ خَلْقِ «حَوَّاء» مِنْ ضِلَع مِنْ أضْلَاعِه.

لَقَدْ أوْدَعَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في ظَهْرِ آدَمَ كُلَّ ذُرِّيَّاتِهِ إلَىٰ آخِرِ مَوْلُودٍ يُولَدُ مِنْ بَنِيه، وَجعَلَهُمْ مُتَدَاخِلِينَ بَعْضَهُمْ فِي بَعْضٍ عَلَىٰ وفْقِ نِظَام تَنَاسُلِهِمُ الَّذِي ظَهَرَ فيما بَعْدُ، فالذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ جَمِيعاً أنْسَالٌ مِنْ آدم عليه السّلام.

فقد جاء في البيان النبويّ أنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ مَسَحَ عَلىٰ ظَهْرِ آدَمَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ كُلَّ ذُرِّيَّتِهِ وَأشْهَدَهُمْ علىٰ أنفسهم، وقَدْ سبق بَيانُ هٰذا لَدَىٰ تَدبُّرِ الآية (١٧٢) مِنْ سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول) مَعَ ذِكْرِ مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ حَوْل هذا الاسْتِخْراج، ومع تحليلات فيها توسُّع.

وَقَدْ صَحَّ في الحديث عَنِ النبيّ ﷺ: «أَنّ المرأةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وأَنَّ أعْوَجَ شَيْءٍ في الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنِ اسْتَمتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفيها عوَجٌ».

وأوْرَدَ ابْنُ كثير في تَفْسِيره الآيَة (١) من سورة (النساء) أَنَّ حَوَّاءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعِ آدم الأيْسَر مِنْ خَلْفِهِ وهُوَ نَائِم، فاسْتَيْقَظَ فَرَآها، فأعْجَبَتْهُ، فَأنِسَ إلَيْها وَأنِسَتْ إليه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ أيضاً:

● ﴿..وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ..﴾:

أي: وَخَلَقَ لَكُمْ أيُّهَا النَّاسُ مِنْ صِنْفِ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ المذَلَّلَةِ لَكُمْ ثَمَانِيَةَ أَزْواج.

الْأَنْعَام: هي الأموال الراعِيَة، وهي الإبِلُ، والبَقَرُ، والْغَنَم: «الضَّأْنُ والْمَعز» مِنْ كلٍّ مِنْهَا ذُكُور وإناث، فهي ثَمَانِيَةُ أَزْواج. ولفظ «الأنعام» يذكّرُ ويؤنث.

الزَّوْج: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مَعَهُ آخَرُ مِنْ جِنْسِهِ. فالذَّكر من الإبلِ «زَوْج» والأنْثَىٰ «زَوْج» وهكَذَا.

إنَّ خَلْقَ الْأَنْعَامِ لِلنَّاسِ مِنْ عَظِيم نِعَمِ اللهِ علَىٰ عباده.

وقَدْ سَبَقَ في الآيات مِنْ (٧١ ـ ٧٣) من سُورَةِ (يس/ ٤١ نزول) امتنانُ اللهِ عَلَىٰ عِبادِهِ بالْأَنْعَام، مع تَفْصِيلٍ زَائِدٍ على مَا جاء هُنَا في سورة (الزُّمَر).

وَمَا جَاءَ هُنَا قَدْ جَاءَ تَذْكِيراً بِمَا سَبَقَ بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُ فَضْلِ اللهِ بِهِ عَلَىٰ النَّاس.

وَجَاءَ هُنَا اسْتِعْمَالُ فِعْلِ: «أَنْزَلَ» بَدَلَ فِعْلِ «خَلَقَ» للدَّلَالَةَ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنِ اللهِ مِنْ خَلْقٍ وَتَصَارِيفَ هُو إِنْزَالٌ، لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، وَكُلُّ خَلْقٍ يَخْلُقُهُ يَكُونُ مِنْ دُونِه، فَهُوَ إِنْزَالٌ مِنْ لَدُنْهُ بِالْخَلْقِ والتَّكْوِينِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً للنَّاسِ أيضاً:

- ﴿. . . يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ . .﴾.
- ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾:

دَلَّ الفِعْلُ المضَارِعُ في ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾ عَلَىٰ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانيِّ المتَتَابِعِ، الَّذِي يَكْتَشِفُ عُلَمَاءُ الْأَجِنَّةِ مِنْهُ الْأَطْوَارَ الَّتِي يَظْهَرُ فِيها تَغَيُّرٌ مَشْهُودٌ فِي الْجَنِين، وهو في الحقيقة خَلْقٌ مُتَتَابِعٌ.

وَجَاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ لِبَيَانِ أَنَّ كُلَّ تَغَيُّرٍ في أَحْوالِ الْجَنِينِ مَهْمَا قَلَّ وَلَوْ كَانَ نُمُوّاً، هُوَ خَلْقٌ جَدِيدٌ، مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ سَابِقٍ له، وَمِنْهُ نَسْتَفِيدُ أنَّ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ مُتَتَابِعَةٌ فِي الْكَائِنَاتِ، مَعَ أَصْغَرِ الوحَدَاتِ الزَّمَنِيَّة، وَلِكُلِّ قِسْمٍ لَا يَقْبَلُ عَقْلاً الْقِسْمَةَ مِنْ ذَرَّاتِ هَـٰذا الكوْن كُلِّه.

- ﴿. . .فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ . .﴾:

وقَدْ أَبَانَ عُلَمَاءُ الْأَجِنَّةِ هَـٰذِهِ الظُّلُمَاتِ الثَّلاثِ مَرْسُومَةً بالصُّوَرِ، ومُحَدَّدَةً بالْأَسْمَاء، وأَنْقُلُ هُنَا مِن كتاب «خَلْق الإنسان بَيْنَ الطِّبِّ والقرآن» للدُّكْتُور: «مُحمّد علي البار»:

«إذَا دقَّقْنَا النَّظرَ في الْأَغْشِيَةِ الْمُحِيطَةِ بالْجَنِينِ وَجدْنَاها ثَلاثَةً:

١ ـ غِشَاءُ السَّلَىٰ، أو الأَمنيون، ويُحِيطُ بالجنين مُبَاشَرَة.

٢ ـ غِشَاءُ الكُورْيون (الغِشَاءِ الْمَشِيمِيّ).

٣ ـ الْغِشَاءُ السَّاقِط، وَهُو غِشَاءُ الرَّحِم الّذي يَسْقُطُ بَعْدَ الولادة أو الإجهاض، وسُمِّيَ بالسَّاقط، لأنَّ الرَّحِمَ يُسْقِطُهُ مَعَ الأَغْشِيَة».

أقول: وَقَدْ سَمَّاهَا اللهُ في الآية ظُلُمَاتٍ، لِأَنَّ كُلَّ غِشَاءٍ مِنْهَا يُحْدِثُ نِسْبَةً مِنَ الظُّلْمَةِ، وَكوْنُ كُلٍّ مِنْهَا مُحِيطاً بالْجَنِينِ علَىٰ التَّتابُعِ، فالْجَنِينُ مُحَاطٌ بِمَا يُحْدِثُ ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ، ومَعْلُومٌ بالبداهَةِ أنَّ الظُّلْمَةَ ذَاتُ نِسَبٍ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، فكُلَّمَا زَادَتِ الْحُجُبُ زَادَتْ نِسبَةُ الظُّلْمَةِ في مَكَانٍ تَرَاهُ الأَبْصَارَ بِسَبَبِ ضَوْءٍ أَوْ نُورٍ يُظْهِره.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ لِلنَّاسِ ولا سيما المَعْنِيُّون بالْمُعَالَجَةِ وَهُمُ المشْرِكُون:

● ﴿...ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾:

أي: ذَلِكُمُ العظيمُ الْجَلِيل الَّذِي ذَكَرْنَا لَكُمْ بَعْضَ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، ومِنْها خَلْقُكُمْ وَالإِنْعَامُ عليكم وَإِنْشَاؤُكُم في بُطُون أَمَّهَاتِكُمْ هو اللهُ رَبُّكُمْ.

الله: اسْمُ عَلَم علَىٰ ذَاتِهِ الجامِعَةِ لِكُلّ صِفَاته.

رَبُّكُمْ: أي: المهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ والمتَصَرِّفُ فِيكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ الْجَامِعَةِ لمعْظَمِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

وهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا ذَكَرْنَا لَكُم في سَوَابِقِ التنزيل، ولَكِنْ ذَكَرْنَا لَكُمْ هُنَا أَنَّهُ رَبُّكُمْ، لِإشعاركم بحَقِّ رُبُوبيّتِه لكُمْ، وَبِمَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ تُجاهَهُ، ولاسْتِثَارَة طَمَعِكُم في ثَوَابِهِ، وخَوْفِكُم مِنْ عِقَابِه.

● ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾: أي: كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مِنْ أَحْيَاء وغَيْرِ أحياء، مَمْلُوكٌ لَهُ، لَا يُشَارِكُهُ في ملكه أَحَدٌ، إذْ هُو الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شيء،

وكُلُّ مَا هُو دَاخِلٌ في ملكِهِ خاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ وَحْدَه، وخاضِعٌ لِتَصارِيفهِ وَحْدَه، فَلَا يُشارِكُهُ في السُّلْطَانِ وَلَا في التَّصارِيفِ أحَدٌ، إذْ كُلُّ مَا يُدَّعَىٰ لَهُ شيْءٌ من الرُّبُوبيَّةِ أو شيءٌ مِن الإلَهِيَّةِ هُو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَهُو دَاخِلٌ في ملكه، وهذا يسْتَلْزِم نفي رُبُوبِيّتِهِ وإلَهيته.

يُقَالُ لغة: «مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مِلْكاً ومُلْكاً وَمَلْكاً» أي: حازَه، وانْفَرَدَ بِحَقِّ التَّصرُّفِ فيه، وَكَانَ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطانٌ وقُدْرَةٌ علَىٰ التَّصرُّفِ في حُدُودِ مِلْكِيَّتِهِ له.

- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ في الوجود كلِّهِ، هٰذِه الحقِيقَةُ نَتيجَةٌ عَقْلِيَّةٌ بَدَهِيَّة لِكَوْنِهِ تَبَارَكَ وتَعالَىٰ خالِقَ كُلِّ شيءٍ، ولَهُ الْمُلْكُ كُلُّه في الْوُجُودِ كُلِّه.

فَكَيْفَ يَتّخِذُ الْمُشْرِكُونَ أَرْبَاباً أَو آلِهَةً مِنْ دُونِه، عَلَىٰ خِلَافِ مَوَازِينِ الْعَقْلِ وَمَقَايِيسِهِ وَبَدَهِيَّاتِه، ولهذا خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآيَةَ بِقَوْلِهِ الْمُوَجَّهِ لِلْمُشْرِكين، ولَوْ كَانَ شِرْكُهُمْ مِنْ أَخَفِّ دَرَكَاتِه:

- ﴿. . فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: «أَنَّىٰ» هُنَا بمعْنَىٰ «كيْفَ». والاستفهام هُنَا استِفْهامٌ إنْكارِيٌّ وَتَعْجِيبِيٌّ مِنْ ابْتِعَادِ المشْرِكِينَ عَنْ هٰذِهِ الحقيقة البَدَهِيَّة.

- ﴿تُصْرَفُونَ﴾: أي: تُبْعَدُونَ عَنْ هٰذِهِ الحقيقَةِ الْعُظْمَىٰ والإيمانِ بها، والتزام مَا تُوجِبُهُ عليكُمْ مِنْ وَاجِبَات تُجاهَ رَبّكُم.

المعنى: فَكَيْفَ تُبْعَدُونَ عَنْ هَٰذِهِ الحقيقة الجَلِيَّةِ الْبَدَهِيَّة الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ظواهِرُ الكونِ وَبُرْهَانَاتُهُ؟!!.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الثاني من دُروس سورة (الزُّمَر).

والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتَوْفيقه وفتحِه.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الزُّمر)

الآية (٧)

قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾.

القراءات:

- قرأ نَافع، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: ﴿**يَرْضَهُ لَكُمْ**﴾ بِضَمِّ الهاء من غير صِلَة.

وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكْوَان، والكِسَائيّ، وابْنُ وَرْدَان، وخلف، بِضمِّ الهاء مَعَ الصِّلَة.

وقرأها السُّوسِي، وابْن جمَّاز: بإسْكانِ الهاء: [**يَرْضَهْ لَكُمْ**].

ولِدُوري أبي عمرو وجهان: الإسْكان، والضَّمُّ مع الصِّلَة.

ولِهِشَام الضَّمُّ مِنْ غَيْرِ صِلَة.

وهِي وُجُوهٌ مِنَ الْأَدَاء.

تمهيد مع التدبر التحليلي:

في هذا الدَّرْسِ تَأْكِيدٌ وَتَأْسِيسٌ لقَضَايَا مِنْ قضَايا الفِكْرِ الدِّينيّ في الإسْلَام، ذَاتِ قِيَمٍ عَظِيمَةٍ مُقوِّمَةٍ لِسُلُوكِ الإنسانِ فِي حَيَاتِهِ إذا آمَنَ بِهَا وَاتَّبَعَ مَا تَهْدِي إليه، وهِي خَمْسُ قَضَايا:

القضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطَاباً لِلنَّاسِ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ ..﴾:

سبق بيان هذه القضيَّة في الآية (١٢) من سورة (لقمان/٥٧ نزول) وجاء تأكيدها في آيةِ هـٰذا الدَّرْسِ لأنَّ معظَمَ النَّاسِ يَتوَهَّمُونَ أنَّ لِلْمَعْبُودِ مَصْلَحَةً خَاصَّةً مِنْ عِبادَةِ عَابِدِيهِ لَهُ وَإيمانِهِمْ به، وتَكْثِيرِ جماعَةِ المؤمنين المسلمين، فَكَانَ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ غَنِيٌّ عَنْ إيمَانِ الناسِ بِهِ يَحْتَاجُ تَوْكيداً، فجاء هُنَا في مُوجزَاتِ هـٰذِهِ السُّورَةِ خِطَابُ اللهِ للنَّاسِ بقوله لهم: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾.

أي: إنَّ إيمَانَكُمْ أَيُّها النَّاسُ باللهِ رَبِّكُمْ، وَطَاعَتَكُمْ لَهُ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بما يُرْضِيهِ مِنْ عِبَادَات، لَا يَزِيد في مُلْكِهِ شَيئاً. وإنْ تَكْفُرُوا وَتَجْحَدُوا صِفَاتِهِ، وتَجْحَدُوا نِعَمَهُ عَلَيْكُمْ، وَتَعْصُوهُ دواماً، فإنَّكُمْ لَا تَنْقُصون مِنْ مُلْكِهِ شيئاً، فاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ لِذاتِهِ ولِصِفَاتِهِ.

ويَلْزَمُ عَنْ هـٰذِهِ الحقيقة، أنَّ إيمَانَ مَنْ آمَنَ، وَطَاعَةَ مَنْ أطاع، وعِبَادَاتِ منْ يَسْتَزِيدُ مِنْ قُرُبَاتِهِ لِمَرْضَاةِ رَبِّه، كُلُّ ذَلِكَ لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ، إذْ يَنَالُ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِ ثَوَاباً جَزِيلاً وسَعَادَةً أَبَدِيَّة، فِي حَيَاةِ الجزاء، بَعْدَ أَنْ أَنْهَىٰ بأعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ حَيَاةَ الابْتِلاء.

ويلْزَمُ عنها أيْضاً أَنَّ كُفْرَ مَنْ كَفر، ومَعْصِيَةَ مَنْ عَصَىٰ، وطُغْيَانَ مَنْ طَغَىٰ، وفُجُورَ مَنْ فَجر، كُلُّ ذَلِكَ ضِدُّ مَصْلَحَةِ نَفْسِهِ، وظُلْمٌ لها، إِذْ يكُونُ لَهُ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِ جَزاءٌ عِقَابِيٌّ بالْعَدْل، وشقاءٌ أبدِيٌّ فِي حَيَاةِ الجزاء، بَعْدَ أَنْ أَنْهَىٰ بِجَرَائِمِهِ وأَعْمَالِهِ السَّيِّئَةِ حَيَاةَ الابْتِلاء.

كيف لَا يَكُونُ اللهُ غَنِيّاً عَنْ عِبَادِه، وهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاء، وَيَفْعَلَ مَا يَشاء؟.

الْقَضِيَّةُ الثانيَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ . . وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ . . ﴾:

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُو الكَمَالُ المطْلَقُ في ذَاتِهِ وفي صِفَاتِه، فَهُو تَبارَكَ وَتعالَىٰ بِكَمَالِ صِفَاتِهِ يَكْرَهُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ والْعِصْيانَ، والْجُحُودَ والظُّلْمَ

والطُّغْيَان، وسَائِرَ صِفَاتِ النَّقْصِ والانْحِطَاطِ والخِسَّة، مِنْ ذِي إرادَةٍ حُرَّةٍ قَادِرٍ عَلَىٰ اجْتِنَابها.

وَإِذْ وَضَعَ اللهُ النَّاسَ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، ومَنَحَهُمْ قُدْراتِ فَهْمِ الْحقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرِّ، والكَمَالِ، والنُّقْصَان، وَخلَقَ فيهم إرادَاتٍ حُرَّةً يَخْتَارُونَ بِهَا مَا يَشَاؤُونَ، وهُو يَخْلُقُ لَهُمْ مَا أَرادُوا أنْ يَفْعَلُوهُ، فَإِنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الَّذِين يَمْنَحُهُمْ شَرَفَ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ أَنْ يَتَّصِفُوا بالْكُفْر، بَلْ هُو يَكْرَهُهُ لَهُمْ.

بَلْ يَكْرَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مَا هُوَ دُونَ الكُفْرِ مِنَ الكَبَائِرِ وَمِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا مَا جَاءَ في سُورَةِ (الإِسْرَاء/ ٥٠ نزول) بَعْدَ ذِكْرِ طَائِفَةٍ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ على عِبَادِهِ، ومِمَّا أَرْشَدَهُمْ بِهِ إلى كَمَالِ السُّلُوكِ والاخْتِيَاراتِ، ومِنْهَا النَّهْيُ عَنِ اتّباعِ الْعَبْدِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، ومِنْهَا النَّهْيُ عَنِ الاختيالِ والتَّكَبُّر، وهو قولُهُ تعالى:

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

إنَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ يَكْرَهُ السَّيِّئَاتِ كُلَّها، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ أنْ يَتَّصِفُوا بِهَا مُخْتَارِين.

القضِيَّة الثّالِثة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾:

أي: وَإِنْ تَشْكُرُوه ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ بِالْإِيمانِ، وبإعْلَانِ الإسْلَامِ والاسْتِسْلَام والخُضُوعِ لَهُ، وبِفِعْلِ مَا يَرْضَىٰ لَكُمْ مِنَ الصَّالِحَاتِ والحسَنَاتِ والْخيراتِ والْفَضَائِلِ، وبتَرْكِ واجْتِنَابِ مَا لَا يَرْضَىٰ لَكُمْ مِنَ الفاسِدَاتِ والسَّيِّئَاتِ والشُّرُورِ والرَّذَائِل، فإنَّهُ تبارَكَ وتَعالَىٰ يَرْضَاهُ لَكُمْ.

رَأْسُ شُكْرِ اللهِ عَلَىٰ مَا تَفَضَّلَ بِهِ علَىٰ عِبَادِهِ المدْرِكين ذوي الإرادات الحرَّة: الإيمان، فالإسْلام، ثُمَّ فِعْلُ مَا أَمَرَ اللهُ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكُ مَا أَمَرَ اللهُ بِتَرْكه.

وأَصْلُ مَعْنَىٰ الشُّكْرِ في اللُّغَة: مُقَابَلَةُ إحْسَانِ الْمُحْسِنِ بما يُرْضِيهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْك، وَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ الْحَمْدُ والثَّنَاءُ، لكنَّ الحمْدَ والثَّنَاءَ لَا يَشْمَلُ كُلَّ العناصِرِ المطْلُوبَةِ في الشُّكْرِ.

الْقَضِيَّةُ الرابِعَة: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ..﴾:

هذه القضيَّة جاءَتْ تَأْكِيداً لِمَا سَبَقَ بيانُهُ:

(١) في الآية (١٨) مِنْ سُورَة (فاطِر ٤٣ نزول).

(٢) وفي الآية (١٥) من سورة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول).

(٣) وفي الآية (١٦٤) من سورة (الأنْعَام/ ٥٥ نزول).

والْغَرَضُ مِنْ هذا التوكيد تَكْرِيراً لِهـٰذِهِ الْقَضِيَّة، انْتِزَاعُ مَفْهُوم مُتَأَصِّلٍ لَدَىٰ كثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، أَنَّ الصَّالِحِينَ المقَرَّبِينَ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ، يَحْمِلُونَ أَوْزَارَ الْمُجْرِمِينَ، وَيَفْتَدُونَهُم بِأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَدَىٰ بَعْضِ ذُرِّيّات الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ والمسرفين بحُبِّهِم نَصِيبٌ كَبِيرٌ مِنْ هـٰذا المفْهُوم الباطل، الّذي صَارَ لَدَيْهِمْ عَقَائِدَ مَوْرُوثَة، وَعَقِيدَةُ النَّصارَىٰ قَائِمَةٌ عَلَىٰ أنَّ الْمَسِيحَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام حَمَلَ خَطَايَا النَّاسِ، وَقَدَّمَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ ليكُونَ فِداءً لِلْخَاطِئين.

هـٰذه حِيلَةٌ إبْلِيسيَّة، أَرَادَ بِهَا إِبْلِيسُ تَوْرِيطَ النَّاسِ في ارتِكَاب الخطايا والذُّنُوب تُجاهَ الرَّبِّ، لِأَنَّ عِيسَىٰ تَحَمَّلَ عَنْهُمْ خَطَايَاهُم، ورضِي أَنْ يُقْتَلَ صَلْباً، إذ افْتَدَاهُمْ بِنَفْسِهِ، زَاعِمِينَ أَنَّهُ ابْنُ اللهِ الأَوْحَد، تَعَالَىٰ اللهُ عمَّا يَصِفُون، وسُبْحَانَهُ عَمَّا يَفْتَرُون.

وكان العرَبُ في الجاهِلِية يُحَمِّلُونَ الْقَبِيلَةَ كُلَّها مَا يَرْتَكِبُ بَعْضُ أفرادها مِنْ جرائم قَتْلٍ أَوْ سَلب.

ونفهم مِنْ قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ما يلي:

ولا تَحمِلُ نَفسٌ وَازِرَةٌ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحمِلَ أَوْزَارَهَا الَّتِي تَكْتَسِبُها، وِزْرَ نَفسٍ أُخْرَىٰ قَدْ حَمَلَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْ أَوْزَاراً وذُنوباً.

الْوِزْرُ: هُوَ في اللُّغَةِ الْحِمْلُ الثَّقِيل، ومِنَ الْأَحْمَالِ الثقيلَةِ أَسْلِحَةُ الْحَرْب.

ولـمَّا كانَ ارْتِكَابُ الذَّنب وفِعْل الإِثْم، مِمَّا يَتَحَمَّلُ بِهِ الإنْسَانُ مَا يُشْبِهُ الْحِمْلَ الثَّقِيلَ، أُطْلِقَ في اللُّغَةِ لَفْظُ «الْوِزْرِ» على الذَّنْبِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ المكلَّفُ المختار، المسْؤُولُ عَنْ أعْمَالِهِ الإراديَّة.

وجَمْعُ لفظ «وِزرٍ» يَأتي علَىٰ «أَوْزار». يَقُالُ لغة: «وَزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، وَوِزْراً، وزِرَةً» أي: حَمَلَ حِمْلاً ثَقِيلاً، أَو ارْتَكَبَ ذَنْباً، فهو «وَازِرٌ» وهي «وَازِرَةٌ».

ومن هذه القَضية نُدْرِكُ أَنَّ المسؤولِيَّة عَنِ الأوْزَارِ، عند اللهِ الْعَزِيزِ الْقَهَّار، مَسْؤُولِيَّةٌ شَخْصِيَّةٌ، ولَا شَكَّ أَنَّ هـٰذا هُوَ مَا يَقْتَضِيهِ الْعَدْلُ الرَّبَّانِيُّ، وَتَقْتَضِيهِ مَوازِينُ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَمَقَايِيسُهَا الصحيحة.

الْقَضيّة الخامسة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿.. ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ⑦﴾.

أي: ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ حَيَاةِ الابْتِلاءِ الَّتِي تَجْتَازُونَها مُمْتَحنينَ تَمُوتُونَ، وَيَوْمَ الْبَعْثِ تُبْعَثُونَ لِتُلاقوا أَحْدَاثَ الآخِرَةِ ويَوْم الدين، وفيه يَكُون إِلَىٰ حِسَابِ رَبّكُمْ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، رُجُوعُكُمْ وَمَكَانُ رُجُوعِكُمْ، وَزَمَانُ رُجُوعِكُمْ، فإِذَا كُنْتُمْ فِي مَحْكَمَتِهِ فإِنَّهُ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ لِيُحَاسِبَكُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بَيْنَكُمْ ثُمَّ يَكُونُ تَنْفِيذُ الجزاء الرَّبَّانِيّ، عَلَىٰ وَفْقِ مَا تَمَّ بِهِ قَضاؤه، جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

ولَا تَتصَوَّرُوا أَنَّ اللهَ يُحَاسِبُكُمْ يَوْمَ الدِّين عَلَىٰ مَا يَظْهَرُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ بِجَوارِحكُمُ الظَّاهِرَة، بَلِ يُحَاسِبُكُم عَلَىٰ مَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَنُفُوسُكُمْ بِإرَادَاتِكم مِنْ أعْمَالٍ، كالنِّيَّاتِ السَّيِّئَاتِ، وَإِرَادَاتِ الشَّرِّ ذَواتِ الآثَارِ في سُلُوكِ النَّفْسِ،

وَالتَّدَابِيرِ الْفِكْرِيَّةِ للإضرارِ ومَنْعِ انْتِشَارِ الحقِّ وانْتِصَارِ دِينِ الله وَأَوْلِيَائه، وَكراهِيَةِ الحقِّ واسْتِعْلاءِ كَلِمَةِ الله، فَيَجْزِيكُمْ عَلَىٰ هـٰذِهِ المكتَسَبَاتِ القلبيَّةِ والنفسيَّة بما تَسْتَحِقُّ مِنْ جزَاءٍ بالْعَدْل. وفي مُقَابِلِهَا يُجَازِي المتَّقِينَ والأبْرارَ وَالْمُحْسِنِينَ عَلَىٰ مُكْتَسَبَاتِ قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ الإرادِيَّة الْمُرْضِيَاتِ لَهُ، بالثَّوابِ العظيمِ الَّذِي يُنَاسِبُ صِفَاتِ جُودِهِ وفَضْلِهِ وَفُيُوضِ عَطَاءَاتِهِ.

- ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ يَصْلُحُ هُنَا أَنْ يَكُونَ مَصْدراً مِيمِيّاً، واسْمَ مَكَانٍ، واسْمَ زَمَان، فيُفْهَمُ النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّهَا مُرَادَاتٌ كُلُّها هنا.
- ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ تُكِنُّهُ صُدُورُ عِبادِه، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْها.

ذَاتُ الصُّدُورِ: أي: صَاحِبَةُ الصُّدُورِ المخْتَصَّةُ بِكَوْنِهَا مِنْ حَرَكَاتِ أو أعمَالِ النُّفُوسِ الَّتِي تَبْقَىٰ خَفِيَّةً فِي دَاخِلِ الصُّدُور، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا أَثَرٌ ظَاهِرٌ فِي السُّلُوك، كَنِيَّاتِ المنَافِقِينَ والمرائين.

عبارة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ جاءَتْ كِنَايَةً عَنْ كُلِّ ما يَجْرِي في مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، لِأَنَّها بَعْضُ عَنَاصِرِها.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الزُّمَر).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، وفَتْحِه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الرابع مِن دُروس سورة (الزُّمر)

الآية (٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾.

القراءات:

- قرأ ابْنُ كثير، وَأبو عَمْرو، ورُوَيْس: [لِيَضِلَّ] بفَتْحِ الياء مِنْ فعل «ضَلَّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضمّ الياء، من فعل «أضَلَّ».

تمهيد:

سبق في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ هٰذِه الصِّفَةِ الَّتِي جاءت في آية هٰذا الدَّرْسِ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَان، والْمُرَادُ بِهِ الإنْسَانُ الْجَحُودُ الكَنُودُ الكَفُور، وهِي في الْواقِع تنْطبقُ علَىٰ أَكْثَرِ النَّاس، فأكْثَرُ النَّاسِ مُدَنَّسُونَ بهٰذِهِ الصِّفَةِ الذَّمِيمَة، إذْ أكْثَرُ النَّاسِ لَيْسُوا شَاكِرِينَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ.

التدبر التُحليلي:

- ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾: أي: رَاجعاً إِلَىٰ رَبِّهِ بالدُّعاءِ وَالتَّضَرُّعِ، لِأَنَّهُ مُسْتَيْقِنٌ مِنْ عُمْقِ فُؤَادِهِ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضُّرَّ إِلَّا هُوَ جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

- ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾: أَيْ: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، إِذَا أعْطَاهُ رَبُّهُ نِعْمَةً مُتفَضِّلاً بها عَلَيْهِ.

- ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾: أي: نَسِيَ الضُّرَّ الَّذِي كان يَدعُو رَبَّهُ إِلَىٰ كَشْفِهِ عَنه، وَأَبْطَرَتْهُ النِّعْمَةُ.

- ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وفي القراءة الأخرى: [لِيَضِلَّ].

- ﴿أَندَادًا﴾: أي: أشْبَاهاً، وأمْثَالاً، ونُظَراء. ومن جَعْلِهِ الأنْدَادَ، أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ مَا أصابَ مِنْ نِعْمَةٍ، قَدْ كَانَ بِعِلْمِهِ وَمَهارَتِهِ وَذَكَائِهِ وحُسْنِ اتِّخَاذِهِ الأَسْبَابَ الموصِلَة لظَفَرِه بما وَصَلَ إليه مِنْ نِعْمَةٍ.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾: أو [**لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**]: أي: إذَا كَانَ مِنَ الْمُضِلِّينَ الْحَامِلِينَ رِسَالَةَ إبْلِيسِيَّةً، فَهُو يَصْرِفُ النَّاسَ عَنِ الإيمَانِ بِرَبِّهِمْ لِيَجْعَلَهُمْ خَارِجِين عَنْ سبيلِ اللهِ المسْتقيم، ضالِّين تَائِهِينَ ضَائِعِينَ فِي سُبُلِ الإِثْم والشَّرِّ والْفَسَادِ في الأرض.

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ حَمَلَةِ رِسَالَةِ إبْلِيسَ الإضْلَالِيَّة، فَهُوَ يَتَّبعُ أَهْوَاءَ نَفْسِهِ وشَهَواتِها ومَطالِبها من الحَياة الدُّنيا، وباتِّباعها يَكون ضالاً بِنفسه عَنْ سَبِيلِ اللهِ، تَائِهاً ضَائِعاً فِي سُبُلِ الْإِثْم وَالشّرِّ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَهٰذا الْمُصِرُّ عَلَىٰ جُحُودِه وَكُنُودِهِ وَكُفْرِه، لا يَليقُ بالدَّاعِي إلى الله إلَّا أَنْ يَقُولَ لَهُ مَا جَاءَ في التعليم الرَّبَّانيّ في الآيَة:

- ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ⑧﴾:

أي: قُلْ لَهُ تَمَتَّعْ بتَحْقيقِ اللَّذَّاتِ وَمَا يَسُرُّكَ مِنَ الدُّنْيا الَّتِي يُهَوِّنُهَا عَلَيْكَ كُفْرُكَ بِربّكَ، مَتاعاً قَلِيلاً، يَنتَهِي بِمَوتِك. ثُمَّ تَحَمَّلْ عِقَاباً شَدِيداً عظيماً يَوْمَ الدِّينِ بِعذابِ الْحَريق جزاءَ كُفْرِكَ، إنَّكَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ خالداً فِيها مُخَلَّداً أبداً، إذْ كُنْتَ مِنَ المشْركين الّذِينَ جعلوا للهِ أنْداداً.

وبهذا تَمَّ تَدبُّر الدَّرس الرابع من دُرُوس سورة (الزُّمر).

والحَمْدُ لله على مَعُونتِهِ وَمَدَدِه وتَوفيقِهِ وفَتْحه.

* * *

(٩)

التدبّر التحليليّ للدّرس الخامس من دُرُوس سورة (الزّمر) الآيتان (٩) و(١٠)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ⑨ قُلۡ يَٰعِبَادِ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾».

القراءات:

- قرأ نَافِع، وابْنُ كثير، وحمزَة: [**أَمَنْ**] بفتح الميم دُونَ تَشْدِيد، فالعبارة مُؤَلَّفَة من همزة استفهام، و«مَنْ» اسم موصول.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَمَّن**] بفتح الميم مع التشديد، أَصْلُهَا «أَمْ مَنْ».

تَمْهيد:

آيَتَا هذا الدَّرْسِ تَتَعَلَّقَان بالْمُؤْمِنِينَ المسلمين، وحَثُّهُم مباشَرةً أو عن طريقِ أَئِمَّتهِمْ على أن يَرْتَقُوا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ فَمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين، بالاسْتَزَادة مِنْ نَوَافِل الْعِبَادَاتِ كَقِيَامِ اللَّيْل، والاسْتِزَادَةِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي فِيه مَرْضَاةٌ للهِ عَزَّ وَجلَّ وَيُقَرِّبُ إِلَيْهِ، والاسْتِزَادَةِ مِنَ التَّذَكُّرِ الدَّافِعِ إِلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالح الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ أُولُو الْأَلْبَاب.

وفي الثانية مِنْهُما كما في الأولىٰ أَمْرٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ نَاصِحٍ مُرشِدٍ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يُوجِّهَ نُصْحَهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِأَنْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ أَوَّلاً في كُلِّ سُلُوكِهِمْ الظَّاهر والباطِنِ، بفِعْلِ مَا أَمَرَ الله بِهِ، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْه، وأَنْ يَسْتَزِيدُوا مِنْ نَوافلِ العباداتِ لِرَبِّهم حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِنين، الّذِينَ ارْتَقَوْا إلىٰ مَرْتَبَةِ الْبِرّ فَمَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ، فَلِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنيا حَسَنَةٌ تَسُرُّهُمْ وَتُرْضِيهِمْ، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فاللهُ يُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

وَجاء فيها إِشْعَارٌ بأَنَّ الهجرة في سَبيلِ اللهِ، مِنَ الْوَطَنِ الَّذِي لَا يَسْتَطيعُ المؤمِنُ المسْلِمُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِن الْمُتَّقِينَ، هِيَ من مَرْتَبَةِ الإحْسَان، وَكَذٰلِكَ الصَّبْرُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ هُوَ مِنْ مَرْتَبَةِ الإِحْسَان.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُوَجّهاً نُصْحَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ:

- ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ .. ۝٩﴾: وفي القراءة الأخرى: [أَمَنْ]:

- ﴿أَمَّنْ﴾: لفظٌ مُرَكَّبٌ مِنْ كَلِمَتَيْن: «أمْ» و«مَنْ» أُدْغِمَتِ الميم في الميم، فصَارَ اللّفْظُ «أمَّنْ».

«أم» هُنَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ تَطْلُبُ مُعَادِلاً، وعلى هذا تَكُونُ قراءة ﴿أَمَّنْ﴾ مُكَافِئَةً لِقِرَاءَةِ [أَمَنْ]، والمعادِلُ مَطْوِيٌّ يسْهُلُ اسْتِخراجُهُ.

- ﴿قَٰنِتٌ﴾: أي: عَابِدٌ خاضِعٌ مُتَذَلِّلٌ لِرَبِّهِ.

- ﴿ءَانَآءَ﴾: **الآنَاءُ**: سَاعَاتُ اللَّيْل، مُفْرَدُهَا: «أَنْيٌ» و«إِنْيٌ».

- ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾: أي: سَاجداً وَرَاكِعاً وَقَائِماً، ذُكِرَ السُّجُودُ أَوّلاً لأنّهُ أكْثَرُ تَعْبيراً عَنْ كَمَالِ الْخُضُوعِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِأَنَّ أقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجد، وَذُكِرَ القيام وَهُوَ الطَّرَفُ المقابِلُ الأَقْصَىٰ، وَطُوِيَ الرُّكُوعُ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنْ ذِكْرِ الْأَقْصَيَيْنِ، فَهُو وَسَطٌ بَيْنَهُمَا.

- ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾: أي: يَحْذَرُ عِقَابَ اللهِ في الآخِرَة عَلَىٰ إخْلَالِهِ بِحُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، فَيَسْتَزِيدُ مِنْ نوافِلِ العباداتِ وَمِنْهَا قِيَامُ اللَّيْلِ، لِتَكُونَ مُكَفِّرَاتٍ لِمَا سَلَفَ مِنْهُ مع اسْتِغْفَارِهِ وَتَوْبَتِهِ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ مِنْ مَطْلُوبَاتِ مَرْتَبَتَي الْبِرِّ والإحْسَان، أَمَّا مَرْتَبَةُ التَّقْوىٰ فالمطْلُوبُ لها فِعْلُ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكُ المحرّمَات، وَلَيْسَ مِنْهَا قيامُ اللَّيْلِ.

- ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾: أي: وَيَتَوَقَّعُ طَامِعاً أَنْ يَنَالَ ثَوابَ اللهِ الْعَظِيم، بِسَبَب تَوَسُّعِهِ في فِعْلِ الْعِبادَاتِ الَّتِي تُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ مَطْلُوبَاتِ مَرْتَبَةِ الْبرّ، فَمَطْلُوبَاتِ مَرْتبَةِ الإحْسَان.

إنَّ عَطاءَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ ثَواباً عَلَىٰ فِعْلِ الصَّالحاتِ الَّتي تُرْضِيهِ، هِيَ تَفضُّلٌ مِنْهُ، وَأَثَرٌ مِنْ آثارِ رَحْمَتِهِ، تَبارَكَ وَتَعالَى.

المعْنَىٰ: أَمْ مَنْ هُو في رِحْلَةِ امتحانِهِ في الحياة الدُّنْيا يُجاهِدُ نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِ، فَيَسْهَرُ عابداً لِرَبِّهِ خَاضِعاً مُتَذَلِّلاً، سَاجداً وَرَاكِعاً وَقَائماً، يَحْذَرُ عِقَابَ اللهِ في الآخِرَة عَلَىٰ مَا سَلَفَ فِي حَيَاتِهِ مِنْ إِخْلالٍ بِحُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوى، وَيَرْجُو مُترقِّباً ثَوابَ رَبِّهِ العظيم الَّذي هُوَ أثرٌ مِنْ آثارِ رَحْمَتِهِ، كَمَنْ لَيس كَذلِكَ، بَلْ يَسْهَرُ لَيْلَهُ في الملْهِيَاتِ وَالأَلْعَابِ، أَوْ في المعاصِي والمخالفات، أَوْ يَقْضِي سَاعَاتِ لَيلِهِ كُلَّهَا فِي نَوْمٍ عَميقٍ، مَعَ قُدْرَتِهِ على أَنْ يَمْلأَ بَعْضَهَا بِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ، والتَّقَرُّبِ إلى اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ بما يُرْضِيهِ مِنْ عِبَادَاتٍ، وَأَعْمالِ خَيْرٍ هِيَ مِنْ نَوافِلِ الْقُرُبَاتِ؟؟.

وجوابُ هذا الاسْتِفْهَامِ ظَاهِرٌ لَا يَحْتَاجُ تَفْكيراً وَلَا تَأَمُّلاً.

■ قَوْلُ الله تَعالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فَكُلَّ نَاصِحٍ مُرْشِدٍ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَحُثَّ المؤمِنِينَ الْمُسْلمين علَىٰ الاسْتِزَادَةِ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ:

- ﴿ . . قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . . ﴿٩﴾ ﴾؟:

أي: قُلْ أَيُّها النَّاصِحُ الْمُرْشِدُ لِمَنْ تَتوسَّمُ فِيهِمُ الاسْتِجابَةَ لاكْتِسَابِ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ، مُستثيراً فِيهِمُ الرَّغْبَةَ فِي الْخَلاصِ مِن مُنْحَدَرِ الْجَهْلِ، وفي الارْتِقَاءِ فِي مَراقِي الْعِلْمِ والْمَعْرِفَةِ سُمُوّاً إِلَىٰ المنازِلِ الرَّفِيعَةِ العالِيَةِ، بأُسْلُوبِ سُؤَالٍ اسْتِفْهَامِيٍّ يَقُولُونَ فِي جوابِهِ تلْقَائِيّاً: لَا يَسْتَوِي الَّذين يَعْلَمُونَ وَالجاهِلُونَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ عُلُوماً نَافِعَةً مُفِيدَةً يَرْتَقُونَ سُمّواً إلى سَمَاوَاتٍ رَفِيعَاتٍ عَلَىٰ مَقَادِيرِ مَا نَالُوه مِنَ الْعِلْمِ، أَمَّا الجاهِلُونَ فَيَبْقَوْنَ فِي دَرَكاتٍ مُنْحَطَّاتٍ وَضِيعَاتٍ على مَقَادِيرِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ جَهْلٍ.

إنَّ هـٰذا الْعَرْضَ الاسْتِفْهَامِيَّ يَسْتَحِثُّ الَّذِين لَدَيْهِم رغْبَةٌ فِي الْكَمالِ،

وَأَنَفَةٌ مِنَ النَّقْصِ واسْمِئْزَازٌ مِنْه، أن يكْتَسِبُوا ما يستطيعون من علم.

فَلْيَسْتَبْصِرُ الْعَاقِلُ الرَّشِيدُ في أيّ مَوْقِعٍ هُوَ مِنْ سَمَاوَاتِ الارْتِقَاء، أو مِنْ دَرَكَاتِ الانْحِطَاطِ والنقص.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيمَ السَّابق:

- ﴿. . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾:

﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هُمْ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الواعِيَةِ الدَّرَّاكَةِ الَّتِي تَعْقِلُ المعَارِفَ، وتَعْقِلُ النَّفْسَ بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ عَنِ اتباعِ الْهَوىٰ، والاستجابةِ لِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَمُغْرِيَاتِهم لِفِعْلِ الشَّرِّ والإثْم.

- ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ فِعْلُ «يَتذَكَّرُ» وتَصَارِيفُهُ اسْتُعْمِلَ فِي القرآنَ المجيد، للدَّلَالَة على الأثرِ القلْبِيّ والنَّفْسِيّ لِحُضُورِ المعلومَةِ النافِعَةِ في الذَّاكِرَة، اسْتِدْعَاءً لَهَا مِنْ مَخَازِنِ المعرفَةِ في النفس، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لَهَا مِنَ الخارِجِ، عَنْ طريقِ بيانٍ وارِدٍ، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيّ ذَاتِي، أَوْ بِتَأْثِير حَدَثٍ طَارِئ، أو ظاهِرَةٍ كونيَّةٍ، أو غَيْرِ ذلِكَ.

فَصَارَ هذا المراد بهذه المادَّة اللُّغَوِيَّةِ بِمَثابَةِ مُصْطَلحٍ قُرْآني، كَمُصْطَلَح الصَّلاةِ، والزَّكاة، في الدَّلَالَةِ علَىٰ مَعَانِيهما الدِّينيَّة.

وَهـٰذا الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ هُوَ المطْلُوبُ الدِّينيُّ مِنَ التَّذَكُّرِ وَمِنَ الذِّكْر، ومِن اكْتِسَابِ المعارِفِ والْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، وهُوَ الدَّافِعُ للسُّلُوكِ الدِّيني الملَائِم لَهُ والمطْلُوبِ فيه.

فالْمَعْنَىٰ: لَا يَتَذَكَّرُ هـٰذا التّذَكُّرَ المؤَثِّرَ في الْقَلْبِ والنَّفْسِ إِذْ تُسْتَحْضَرُ الْمَعْرِفَةُ الدِّينِيَّةُ في الذَّاكِرَة، وَلَا يَكُونُ دَافِعاً للسُّلُوكِ الدِّينِيِّ الْمُلَائِم لَهُ والْمَطْلُوبِ فيه، إِلَّا أَصْحَابُ الْعُقُولِ الواعِيَةِ الدَّرَّاكَةِ، الَّتِي تَعْقِلُ المعارِف، وتَعْقِلُ النَّفْسَ بإرادَةٍ قَوِيَّةً عن اتِّبَاعِ الْأَهواء والشَهواتِ الضَّارَّاتِ،

والاسْتِجَابَةِ لِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَمُغْرِيَاتِهِمْ لِفِعْلِ الإِثْمِ والشَّرِّ ومَعْصِيَةِ اللهِ رَبِّ العالمين.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً التَّعْلِيمَ السَّابق:

- ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

فِي هذِهِ الآيَةِ يَأْمُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ فَكُلَّ إمَام مِنْ أئِمَّةِ المتَّقِينَ مِنْ أُمَّتِهِ، بأَنْ يُعْلِمَ المؤمنِينَ إخْباراً عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأرْبَعِ قَضَايَا مِنْ كُبْرَيَاتِ الْفِكْرِ الدينيّ إبَّانَ التنزيل:

القضيَّةُ الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ..﴾:

أي: قُلْ أَيُّها الرَّسُولُ، ويَا مَنْ أنْتَ نَاصِحٌ مُرْشِدٌ مِنْ أَئِمَّةِ المتقين، للمؤْمِنِينَ الّذِينَ تَحقَّقُوا بِصِحَّةِ الإِيمانِ: إنَّ رَبَّكُمْ يُنَادِيكُمْ قائلاً لَكُمْ: ﴿يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: أي: إنَّ رَبَّكُمْ يُشَرِّفُكُمْ بِعُبُودِيّتِكُمْ لَهُ بِسَبَبِ إيمَانِكُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ، بِأَنْ تَتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي يُمِدُّكُمْ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لَكُمْ، ويُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ دَوَاماً.

أي: اتَّقُوا عِقَابَه، بِفِعْلِ مَا أَمَرَكُمْ وَيَأْمُرُكُمْ بِفِعْلِهِ، وَبِتَرْكِ مَا نَهَاكُمْ عَنْ فِعْلِهِ، وَهَـٰذَا أَمْرٌ بالْتِزَامِ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، وَهِي الْمَرْتَبَةُ الدُّنيا مِنْ مَرَاتِبِ المؤمنين، وفيها دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلَاتٌ بِحَسَبِ أحْوَالِ المتّقِينَ الْتِزَاماً أَوْ تَقْصِيراً، وهذه الدَّرَجَاتُ لَا يُحْصِيهَا إلّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً التعليم: ﴿.. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ..﴾:

أي: وَرَغِّبْهُمْ فِي أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، فَقُلْ لَهُمْ: إنَّ

رَبُّكُمْ يَقُولُ لَكُمْ مُنَادِياً يَا عِبَادِي: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْكُمْ بِأَعْمَالٍ هِي مِنْ مَطْلُوبَاتِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، وَهِيَ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ، فإِنَّ اللهَ يَمْنَحُهُمْ فِي هذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنيا حَسَنَةً تَسُرُّهُمْ وَتُرْضِيهم، غَيْرَ الْأَجْرِ العظيم والثَّوابِ الجزِيلِ الّذِي ادَّخَرَهُ لَهُمْ، فَهُمْ يَنَالُونَهُ يَوْمَ الدِّين فِي جَنَّاتِ النعيم.

وَطَوىٰ النَّصُّ ذِكْرَ مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ لِأَنَّ الارْتقاءَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خِلَالِ الارْتِقَاءِ في دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، وَهِي مَرْتَبَةُ التوسُّعِ في الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُقَرِّبَةِ إلىٰ اللهِ، فَوْقَ فِعْلِ الواجِبَاتِ وَتَرْكِ المحرَّماتِ.

وتَكْشِفُ هذا المطويَّ النُّصوصُ القرآنيَّة المتعلِّقَةُ بالْأَبْرَار.

القضية الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابعاً التعليم:

﴿.. وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ..﴾:

كَانَ كثيرٌ مِن المؤمنين في هـٰذِهِ المرحَلَةِ يَتَعَرَّضُونَ للاضْطِهادِ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ جَبابِرَة أئِمَّةِ المشْركين في مكة، وَرُبَّما أكْرَهُوهُمْ عَلَىٰ الكُفْر، أو مَنَعُوهُمْ مِنْ مُمَارَسَةِ حُرِّيَّاتِهم الدِّينِيَّة، فَأَعْطَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الرَّسُول ﷺ، وأئِمَّةَ المتّقِينَ: أَنْ يُبيِّنُوا لَهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَتَحَ لَهُمْ بَابَ الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّة، إِلَىٰ أَرْضٍ يَجِدُونَ فِيها الْأَمْنَ، وَحُرِّيَّة مُمَارَسَةِ مَطْلُوبَاتِ اللهِ الدِّينيَّةِ مِنْهُمْ، فَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ يَجِدُونَ في مَكانٍ مَا مِنْهَا مَا يُرِيحُهُمْ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ دِينِهِمْ، وَتَطْبيق أحْكَامِه.

وَلَعَلَّ هِجْرَةَ بَعْضِ أصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْعَهْدِ المكِّيِّ كَانَ عَمَلاً بهذا التوجيهِ: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾.

القضيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعَاً التعليم:

- ﴿.. إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾:

• ﴿.. يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم ..﴾: أي: يُعطَىٰ الصَّابِرُونَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ كامِلَ أَجْرِهِمْ وَافِياً تامّاً، عَلَىٰ مَا يُلائِمُ جُودَ اللهِ وَفَضْلَهُ الّذِي لَا يَقْدِرُ الْعِبَادُ مَعْرِفَةَ مَدَاهُ كمّاً ولَا كَيْفاً.

• ﴿.. بِغَيْرِ حِسَابٍ ⑩﴾: أي: بِالْعَطاءِ الْعَظِيمِ الّذِي لَا تَسْتَطِيعُ الْخَلائِقُ حِسَاب مِقدارِه، بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَا تَحَمَّلُوا مِنْ صَبْرٍ ابْتغاء مَرْضاةِ رَبِّهم، لكِنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيْءٍ عِلْماً.

هَلْ يَسْتَطِيعُ مَنْ قَدَّمَ مِثْقَالاً مِنَ الصَّبْرِ أَنْ يَحْسُبَ مِقْدار المكافَأَةِ عَلَيْهِ، إِذَا كان مِلْءَ الْأَرْضِ مِنْ مَثَاقِيل الْعَطاءِ الرَّبَّانِي، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا كَان مع ذَلِكَ دَائماً خالداً مُتَجَدِّداً بِلَا نِهايَة.

وبهذا انتهىٰ تدبرُّ الدّرس الخامس من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله عَلَىٰ معونَتِه ومَدَدِه وتَوْفيقه وفتحه.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السّادس من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (١١ ـ ٢٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ⑪ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ⑫ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑬ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ⑭ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ⑮ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ⑯ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ⑱ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ

كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

القراءات:

(١١) ● قرأ نَافع، وَأَبُو جَعْفر: **[إنِّيَ أُمِرْتُ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإِسْكان: ﴿**إِنِّي أُمِرْتُ**﴾.

(١٣) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[إنّيَ أخافُ]** بفتحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إنّي أخافُ]** بإسكان ياء المتكلم.

(١٦) ● قرأ رُوَيس: **[يَا عِبَادِي]** بإثْبَاتِ يَاءِ المتكِلّم وَصلاً وَوَقْفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**يَا عِبَادِ**﴾ بِحَذْفِ يَاءِ المتكلّم وَصْلاً وَوقفاً.

(١٦) ● قرأ يَعْقُوب: **[فَاتَّقُونِي]** بإثباتِ ياء المتكلّم وَصْلاً ووَقْفاً.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة ﴿**فَاتَّقُونِ**﴾ بحذفِ يَاء المتكلّم وَصْلاً وَوَقْفاً.

(١٧) ● قرأ يَعْقُوب: **[فَبَشِّرْ عِبَادِي]** بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم في الوقف فَقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**فَبَشِّرْ عِبادِ**﴾ بحَذْفِ يَاءِ المتكلّم وصْلاً ووَقْفاً.

(٢٠) ● قرأ أبو جعفر: **[لَكِنَّ الَّذِينَ]** بتَشْدِيد نون «لَكِنَّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكان نُونِ «لَكِنْ»، وتُكْسَرُ فِي الوصْلِ للتَّخلُّصِ مِن الْتِقَاءِ السَّاكِنَيْن.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ تَكْلِيفٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ، أَنْ يُعْلِنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين، كَسَائِرِ المُكَلَّفِينَ،

وَمَأْمُورٌ بِأَنْ يَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمين مِنْ أُمَّتِه، وبِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إنّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي مِنْ عَذَاب يَوْم عظيم، هُو يَوْمُ الْحِسَاب، وفَصْل القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وَمَأْمُورٌ بأَنْ يُعْلِنَ لَهُمْ أَنَّهُ يُطَبِّقُ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ فِي سُلُوكِهِ فِي حَيَاتِهِ، فَهُوَ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ أحداً.

وفي آيات هٰذا الدَّرْسِ تعليمٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُوله ﷺ، بأَنْ يَقُولَ لِلَّذِين يأبَوْنَ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ: اعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِ الله، فإنِي لَا أُجْبِرُكُمْ وَلَا أُكْرِهكُمْ عَلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَكِنَّكُمْ تَكْتسبُون باخْتِيَارِكُمْ خُسْرَاناً عَظِيماً تَخْسَرُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة، واعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ الْخُسْرَانَ الشَّنِيعَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، واعْلَمُوا أَنَّ عَذَابَكُمْ سَوْفَ يَكُونُ فِي جهَنَّمَ إِذْ تُحِيطُ بِكُمْ ظُلَلُ دُخَانِ نَارِهَا: مِنْ فَوْقِكُمْ، وَمِنْ تَحْتِكُمْ، فاحْذَرُوا إِنْ شِئْتُمْ هٰذَا الْعَذَابَ الرَّهِيبَ.

أَمَّا المؤمِنُونَ الّذِينَ أَنَابُوا إِلَىٰ اللهِ واجْتَنَبُوا عِبادَةَ غَيْرِ اللهِ وَلَمْ يُطِيعُوا الطَّواغيت، فَلَهُمُ الْبُشْرَىٰ، خُلُودٌ في جنَّاتِ النعيم، لَهُمْ فِيها غُرَفٌ نَفِيسَةٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الرائِعَة.

وكُلٌّ مِنْ جزاءِ المشركين، وجزاء المتّقين، قَدْ نَزَلَ بِهِ وعْدٌ صَادِقٌ مِنَ الله، واللهُ لَا يُخْلِفُ الميعاد.

التَّدَبُّر التَّحْلِيليّ:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ أَوَامِرَ تَتَعَلَّقُ بِرِسَالَتِهِ، وَبِدُخُولِهِ تَحْتَ تَكَالِيفِهَا الْعَامَّةَ كَسَائِرِ الْمُكَلَّفِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

● ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾:

اشْتَملَتْ هـٰذهِ الآيَاتُ عَلَىٰ أرْبعَةِ أوَامِر، أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا رَسُولَهُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَهُ للنَّاسِ، لِيُعْلِمَهُمْ بِهَا أَنَّهُ مِثْلُهُمْ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ التَّكالِيفِ الدِّينيةِ الْمُوَجَّهَةِ لَهُمْ مِنَ اللهِ رَبِّ العالَمِين.

الْأَمْرُ الْأَوَّل: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

العبادة: الْخُضُوعُ والطَّاعَةُ والقيامُ بِمَا يُرْضِي الْمَعْبُود، وَتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيه، وَرَأسُ العبادة الدُّعَاءُ بالغيب، لِتَحْقِيقِ مَطالِب الدُّنيا والآخِرَة.

والعبادةُ لَا تَكُونُ إلَّا لِلرَّبّ جَلَّ جَلالُهُ، فَهُو وَحْدَه الَّذِي يَسْتَحِقُّهَا، لِأَنَّهُ هُو وَحْدَهُ الرَّبُّ الخالِقُ المالك.

وَالإِخْلَاصُ للهِ في الدين: هو جَعْلُ أعْمَالِ الدِّينِ خالِصَةً صَافِيَةً مُنَقَّاةً مِنَ الشِّرْكِ والرِّيَاءِ ومِنْ شَوائِبِهِما.

يقالُ لُغةً: «أَخْلَصَ الشَّيْءَ» أي: صَفَّاهُ وَنَقَّاهُ مِنْ شوائِبِهِ.

الدِّين: الطَّاعَةُ والانْقياد، يُقَالُ: «دَانَ نَفْسَهُ» أي: أَذَلَّها وطَوَّعَها. ويَأتي الدِّين بمَعْنَىٰ الجزاء، ومنه «يوم الدين».

والدِّينُ للهِ: الطَّاعَةُ والتَّعَبُّدُ لَهُ مَعَ الخضوع والذُّلِّ والإِذْعَانِ لَهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَسُلْطانِهِ جَلَّ جلالُه، والإذعانِ لِحَقِّهِ في الإلَهيَّةِ الَّتِي لَا يُشارِكُهُ فيها شَريك.

فالمعنى: قُلْ يَا أَيُّها الرَّسُولُ مُعْلِناً للنَّاسِ جَمِيعاً: إِنِّي مَأْمُورٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّي الَّذِي أَرْسَلَنِي بالرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ لِرِسَالَاتِهِ للنَّاس، بِأَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً له دِيني، جَاعلاً كُلَّ أعْمَالِي التّعبُّدِيَّةِ خَالصةً لَهُ، صَافِيَةً مُنَقَّاةً مِنَ الشِّرْكِ والرِّيَاءِ وَمِنْ شَوَائِبِهِما.

فأنَا مُطَالَبٌ بالإخْلَاصِ للهِ في عِبادَتِي مِثْلَما أَنَّكُمْ مُطالَبُونَ بِهِ، وَلَيْسَ لِي إِعْفَاءٌ خَاصٌّ مِنْ هـٰذَا التكليفِ باعْتِبَارِي نَبيّاً وَرسُولاً.

أقول: بَلْ تَكْلِيفُ اللهِ رَسُولَهُ فِي هَـٰذَا أَشَدُّ مِنْ تَكلِيفِ سائِرِ النَّاسِ، فَمَا يَتَجَاوَزُ اللهُ عَنِ الناسِ فيه، لَا يَتَجاوَزُه عَنْ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: وَقُلْ لَهُمْ يَا أَيُّها الرَّسُولُ: وَأُمِرْتُ بأَعْمَالٍ خَاصَّةٍ بِي، لَمْ تُؤْمَرُوا أَنْتُمْ بِمِثْلِهَا، وَمِنْهَا أَنْ أَغْشَىٰ جُمُوعَ النَّاسَ دَاعِياً إِلَىٰ اللهِ بالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، وأَنْ أَصْبِرَ عَلَىٰ مَا أَنَالُ مِنْ أذىً فِي تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبّي، وَمِنْهَا أَنْ أَقُومَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلاً أَعْبُدُ رَبِّي بالصَّلَاةِ والتِّلَاوَةِ والذِّكْرِ، لأجل أَنْ أَكُونَ فِي تَطبيقَاتِي الإِسْلَامِيَّةِ أَوّلَ الْمُسْلِمينَ الْمُطِيعِينَ لِرَبِّهِم في هذه الرسالةِ الخاتِمَة.

الْمُسْلِم: المنقادُ المطِيعُ بِفِعلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنه. يُقَالُ لغة: «أَسْلَمَ، يُسْلِمُ، إِسْلَاماً» أي: انْقَادَ مطيعاً مُخْتَاراً.

وَلِهٰذا جاء في بَيَانِ أَرْكَانِ الإِسْلَام: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله وأَنَّ مُحمَّداً رَسُولُ الله ﷺ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضَان، وتَحُجَّ الْبَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سبيلاً.

الأَمْرُ الثَّالث: دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾:

أي: وَقُلْ لهم يا أَيُّهَا الرَّسُولُ: إِنِّي مُعَرَّضٌ لِعَذَاب رَبِّي فِي يَوْمٍ عَظِيم قَادِمٍ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، هُوَ يَوْمُ الدِّينِ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، فَعبَدْتُ مِنْ دُونِهِ شُرَكَاءَ، أَوْ عَصَيْتُهُ بِتَرْكِ مَا أَمَرني بفِعْلِه، أَوْ بِفِعْل مَا أَمَرَنِي بِتَرْكِه، فَلَسْتُ مَعْفِيّاً مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ إِنْ أَنَا عَصَيْتُهُ، وَلَكِنِ اعْلَمُوا أَنِّي لَنْ أُعَرِّضَ نَفْسِي لِعِقَابِ رَبِّي، وَقَدْ آتَانِي عَقْلاً وَرُشْداً، وإِرَادَةً قَوِيَّة حَازِمَةً أَضْبِطُ بِهَا سُلُوكِي عَلَىٰ وَفْقِ مَا يُرْضِيه مِنِّي، مُلْتَزِماً فِي مَسِيرَتِي فِي حَيَاتِي صِرَاطَهُ المسْتَقِيم، لَا أَخْرُج عَنْهُ ذَاتَ الْيَمِين ولَا ذَاتَ الشِّمَال.

أُضِيفَ لفظ «عَذَابَ» إلى «يَوْم عَظِيم» لِأَنّ هـٰذا الْعَذَابَ يَجْرِي فيه، والْمُرادُ: إِنّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَهُ الْأَلِيمَ الّذِي سَوْفَ يَكُونَ فِي يَوْمٍ عَظِيم هو يَوْمُ الدين.

الأَمْرُ الرابع: دَلَّ عليه قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ لرسوله ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ⑭﴾:

أي: أَعْلِنْ للنَّاسِ أَنَّكَ مُطِيعٌ بالتَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ أَمْرَ اللهِ لَكَ، بأنْ تَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين، لَا تُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ شيئاً مِنَ الأَحْيَاءِ ومِنْ غَيْرِ الأَحْيَاء، فَقُلْ لَهُمْ بإعْلَانٍ صَرِيحٍ وَاضِحٍ لَا لَبْسَ فيه وَلَا غُمُوض:

﴿ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾.

جاء في العبارة تقديم لفظ الجلالة «الله» وهو مَفْعُولٌ بِهِ على العامل وهو فعل «أَعْبُدُ» لإفَادَةِ الْحَصْرِ، أي: لا أَعْبُدُ إلَّا الله، وحِينَ أَعْبُدُهُ تَكُونُ عِبَادَتِي لَهُ خَالِصَةً مِنْ كُلِّ الشَّوَائِبِ، وأَدْنَاها أَخَفُّ أَنْوَاعِ الرِّيَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَى مُتَابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لرسوله ﷺ، بِشَأْنِ مَا يَقُولُهُ لِلْمُشْرِكِين في مَوْضُوعِ عباداتِهم، إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِم بِمَا جاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُوله ﷺ:

- ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ⑮ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ⑯﴾:

أي: قُلْ يَا أَيُّها الرَّسُولُ لِلَّذِينَ لم يَسْتَجِيبوا لِدَعْوتِكَ: أَنْتُمْ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ أَحْرَارٌ فيما تَخْتَارُونَ مِنْ إيمانٍ وَعِبَادَةٍ، لَسْتُمْ مَجْبُورِينَ على الاسْتِجَابَةِ لِمَا يَدْعُوكُم رَسُولُ رَبِّكُمْ إليْه، إِذْ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين، فلَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ فِي رِحْلَة امْتِحَانِكُمْ مِنْ أحياءٍ وَغَيْرِ أَحْيَاء، مِنْ مَشْهُودٍ وَغَيْرِ مَشْهُود، ولَكِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَحَمَّلُوا تَبِعَةَ اختِيارَاتِكم، فِي عِبَادَةِ مَا تَشَاؤُونَ مِنْ دُونِ رَبِّكُمْ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِذَا لَزِمْتُمْ مَذْهَبَ الشِّرْكِ، وكَفَرْتُمْ بِحَقِّ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ، كُنْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ خُسْرَاناً، إِذْ تَخْسَرُونَ أَنْفُسَكُمْ بِإِلْقَائِهَا فِي الْعَذَابِ الأَبَدِيِّ الأَلِيم، وَتَخْسرون الأُنْسَ بأَهْلِيكُمْ، لِأَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا مَعَكُمْ فِي الْعَذَاب، فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ أَعْدَاءً لَكُمْ، إِذِ الأخِلَّاءُ سَوْفَ يَكُونُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّاً إِلَّا المتَّقِينَ، وإِنْ كَانُوا بِإِيمانِهِمْ مِنْ أَهْلِ دَارِ النَّعِيم، فإِنَّهُمْ سَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْكُمْ، ويَكُونُونَ شَدِيدِي الْعَدَاوَةِ لَكُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِرَبِّكُمْ، وهُمْ يَوْمَ الدّين يَسْخَطُونَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَجَعَلَهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

واعْلَمُوا أَنَّكُمْ حِينَما تُكَبُّونَ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، تَكُونُونَ فِي وَسَطٍ مِنْهَا تُحِيطُ بِكُمْ ظُلَلٌ مِنْ دُخَانِ نَارِها مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِكُمْ، وَمِنْ تَحْتِ أَرْجلِكُمْ، وهٰذه الظُّلَلُ الدُّخَانِيَّةُ تكُون شَدِيدَة الحرارة، مَعَ مَا تُحْدِثُهُ مِنْ ظُلْمَةٍ تَزِيدُ مِنْ عَذَاب المعَذَّبين فِي جَهَنَّمَ.

وقد سبَقَ في سورة (الواقعة/٤٦ نزول) بَيَانُ أَنَّ أَصْحَابَ الشِّمَالِ يكُونون في دَارِ العذاب:

﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾.

السَّمُوم: الرّيحُ الحارّة الّتِي تَنْفُذُ في المسَامّ.

الْحَمِيم: الماء الْحَارُّ ذُو الحرارة الشَّديدة.

وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم: أي: وفي ظِلٍّ مِنْ أَثَرِ يَحْمُوم، وهُوَ الدُّخَانُ، والأَسْوَدُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَهُو دُخَانٌ أسْودُ شدِيدُ الحرارة.

ظُلَل: جَمْعُ «ظُلَّة» وهِيَ مَا أَظَلَّ وَسَتَر. وظَاهِرٌ أَنَّ الظُّلَلَ مِنَ النار إِنَّمَا تَكُونُ دُخَاناً أسْودَ شَدِيدَ الحرارة، يُحْدِث كَرْباً شَدِيداً.

- ﴿... أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾:

«أَلَا» أداةُ استفتاح، وتَنْبِيهٍ، وَتَوْكيد.

أي: انْتَبِهُوا وَتَأَكَّدُوا أَنَّ خُسْرانَ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَأَهْلِيه، إِذْ يَكْتَسِبُ مِنَ الجرائم مَا يَجْعَلُهُ يَوْمَ الدِّينِ مِنَ الخالِدِين في جَهَنَّم دَارِ عَذَابِ المُجْرِمِينَ، هُوَ الْخُسْرَانُ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ بأَنَّهُ مِنْ أَشَدِّ صُوَرِ الْخُسْرَانِ الَّتِي لَا يَخْتَلِفُ في الْحُكْمِ عَلَيْهَا اثْنَان.

- ﴿. . ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾:

أي: ذَلِكَ التحْذيرُ الشَّدِيدُ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، بَيَانٌ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنَ الْعَذَابِ الشديد الذي سَوْفَ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الدِّين، إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ شِرْكِهِمْ، فَضْلاً عمَّا هُو أَشَدُّ مِن الشِّرْكِ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ، وَمَاتُوا وَلَمْ يَتَدَارَكُوا نُفُوسَهُمْ بالإِيمانِ الصَّحِيح، وبِما يُعَبِّرُ عَنْهُ مِنْ عَمَلٍ صالحٍ.

وأخِيراً يُنَادِي اللهُ في الآيَةِ عِبَادَه الَّذِينَ هُمْ مَخْلُوقُونَ وَمَمْلُوكُونَ لَهُ، فَيَقُولُ لهم: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾: أي: يَا عِبَادِي الَّذِين أَنْتُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي، وَوَاقِعُونَ فِي مِلْكِي، أَتَصَرَّفُ فِيكُمْ بِحَسَبِ مَشيئَتِي الْعَادِلَةِ الحكِيمَةِ فِيكُم: اتَّقُوا عَذَابِي الَّذِي جَعَلْتُهُ لِمَنْ كَفَرَ بِوَحْدَانِيَّتِي فِي رُبُوبِيَّتِي، أَوْ وَحْدَانِيَّتِي في إِلَهِيَّتِي، وَلِمَنْ عَصَانِي بِتَرْكِ مَا أَمَرْتُهُ بِفِعْلِه، أَوْ بِفِعلِ مَا نَهَيْتُهُ عَنْ فِعْلِه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾:

﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ، وهذا المعنىٰ هُو المرادُ هنا، ولفظ «الطَّاغُوت» يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وغَيْره والمذكَّرُ والمؤنث، وقد يُجْمَعُ على «طَواغيت».

وأصْلُ معنى «الطاغوت» كُلُّ رَأسٍ في الضَّلال، ويُطْلَقُ على الشيطان، والكاهن، والساحر.

- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾:

اجْتِنَابُ الشَّيْءِ: يكُونُ بالابْتِعَادِ عَنْ حُدُودِهِ، وَعدَمِ الاقْتِرَاب مِنْهُ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ عَدَمِ الْوُقُوعِ به.

فالمعنى: والَّذِينَ ابْتَعَدُوا عَنِ الاقتراب مِنْ كُلِّ الطَّوَاغيت، وهي آلِهَةُ المشْركينَ، والاقْتِرَابِ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَىٰ تَعْظيمِهَا وَعِبَادَتِها، حَذَرَ أَنْ يُسْتَنْزَلُوا أَوْ يُزْلَقُوا إِلَىٰ عِبَادَتِهَا، ولَوْ بِقَبُول أحْكَامِ التحلِيلِ والتحريم، وَمَا يَفْتَريهِ سَدَنَتُها مِنْ أخْبَارٍ عَنْ مُغَيّبَاتٍ، وَهٰذَا مِنْ عِبَادَتها.

فالعبارة فيما أَرَىٰ على تَقْدِير: «حَذَرَ أَنْ يَعْبُدُوها».

فالتَّعْبِيرُ باجْتِنَاب الطَّوَاغِيتِ حَذَرَ عبادَتِهَا يَدُلُّ عَلَىٰ شِدَّةِ إيمانِهِمْ بتَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبيّتِهِ وفي إلٰهيَّتِه، وشِدَّةِ كَرَاهِيَتِهِمْ لِلشِّرْكِ، عَلَىٰ أيّ صُورَةٍ مِنْ صُورِه، وَأيّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِه.

- ﴿. . وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ . .﴾: يُقَال لغة: «أَنَابَ فُلانٌ إلى الشَّيْءِ يُنِيبُ»، أي: رَجَعَ إِلَيْهِ مَرَّةً فَمَرَّةً، فَهُو «مِنيب».

أُطْلِقَ عَلىٰ الإيمانِ وتَرْجَمَتِهِ بالْعَمَلِ الصَّالحِ: إنَابَةً، لِأَنَّهُ رُجُوعٌ إِلَىٰ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها، وهي الإيمان الصحيح برُبوبيَّة الله.

ولَمَّا كَانَ هذا الرُّجُوعُ لَا يَتِمُّ الْكَمَالُ فِيهِ دُفْعَةً واحِدَة، كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبَ أَنْ يُخْتَارَ لِلدَّلَالَة عليه فعل: «أنَابَ» الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ الرُّجُوع مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة.

- ﴿. . لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ . .﴾: **الْبُشْرىٰ**: اسْمٌ للتَّبْشِير. كما أَنَّ «**الذِّكْرىٰ**»

اسْمٌ لِلتَّذْكِير. **والتَّبْشِيرُ**: هُو الْإخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ المخْبَرَ مِنْ نَبأٍ حَصَلَ لَهُ ولَمْ يَعْلَمْ بِهِ، أَوْ نَبأٍ سَيَحْصُل لَهُ عَاجلاً أَوْ آجلاً.

والبشْرَىٰ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الْمؤمِنُونَ الَّذين اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها، وأَنَابُوا إِلَىٰ اللهِ:

(١) قَدْ تَنَزَّلَتْ بِهَا نُصُوصُ القرآن المجيد، في مَواطِنَ كثيرةٍ مِنْه، بِوْعدٍ مُؤَكَّدٍ مَقْطُوعٍ بِهِ، واللهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَاد.

(٢) وَتَكُونُ لَهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ إِذْ يُكْشفُ للمؤمِنِ عِنْدَ مَوْتِهِ مَنْزِلَتُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللهِ، فَيُحِبُّ اللهُ لِقَاءَه.

(٣) وتكُونُ لَهُمْ بَعْدَ الْبَعْثِ إِذْ يأخُذُونَ كُتُبَ أَعْمالِهِم بأيمَانِهِم، وهـٰذِهِ بُشْرَىٰ عظيمة بأنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة.

(٤) وَتكُونُ لَهُمْ في الْحَياةِ الدُّنيا بِرُؤْيا صَالِحَةٍ أَوْ أَكْثَرهُمْ يَرَوْنَها، أَوْ تُرَىٰ لهم مِنْ صَالِحِينَ أَوْ صَالِحَات.

(٥) وَقَدْ تَكُونُ لَهُمْ بِخَبَرِ نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ، كالعَشَرَةِ الْمُبَشَّرينَ بالْجَنَّة مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ.

أَمَّا الْبُشْرَىٰ بما جاء في الْقُرْآنِ مِنْ وَعْدٍ كَرِيم، فقد قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِها في الآية: ﴿...فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾: أي: فَبَشِّرْ يا أيُّها الرَّسُولُ عِبَادِي هـٰؤلَاء بالسَّعَادَةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النعيم يَوْم الدّين.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ صِفَاتِ هَـٰؤلَاءِ المبَشَّرِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيُحَاكِمُونَهُ بِعُقُولِهِمْ الدَّرَّاكَةِ الْوَاعِيَةِ الْحَصِيفَةِ النَّظِيفَةِ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ قَوْل، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِهِمْ:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ .. ﴿١٨﴾﴾:

أي: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ قَوْلَ اللهِ في آيَاتِ كِتَابِهِ، وقَوْلَ الرَّسُولِ فِي

بَيَانَاته، وَقَوْلَ حَمَلَةِ دَعْوَةِ الرسُولِ ﷺ مِنْ أُمَّتِهِ، ويَسْتَمِعُونَ أقْوالَ المشْرِكِين، وَزُخْرُفَ أَقْوالِ الْكَفَرَةِ المضلِّلينَ مِنْ شَيَاطِينِ الإنس، فَيُوازِنُونَ بَيْنَ الأَقْوالِ، وَقَدْ تَغُرُّهُمْ أحْياناً أَقْوالُ الْمُضِلِّينَ الزُّخْرُفِيَّة، فَيَجِدُونَ فِي أَصْبَاغِهَا وَأَلْوَانِهَا وَمَا فِيها مِنْ صِنَاعَةٍ تُوهِمُ بأنَّها حَقٌّ، بَعْضَ الْحُسْنِ فِي بَعْضِ الْقَضَايَا الَّتِي هِيَ من الْفُرُوعِ لَا مِنَ الأُصُولِ، لَكِنَّهُمْ إِذَا قَارَنُوهَا بِمَا جَاءَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَظَرُوا إِلَيْهَا بِمِنْظَارِ الْحَقِّ والتَّجْرِبَةِ وَجَدُوا أَنَّ مَا جَاءَ في بَيَانَاتِ دِينِ اللهِ أَحْسَنَ مِنْها.

فَهُمْ لا يَرْفُضُونَ اسْتِمَاعَ الأَقْوالِ ابْتِداءً، بَلْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْها، فَيَنْبذُونَ مَا يَظْهَرُ لَهُمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَهِيَ الأُصُولُ الَّتِي يَبْنِي عَلَيْهَا الْكَافِرُونَ أبْنِيَتَهُمُ الْفِكْرِيَّةَ التَّنْظِيمِيَّةَ لِشُؤُونِ الحياة، ثُمَّ بالْبَحْثِ والتَّأمُّلِ يرَوْنَ أَنَّ أحْكَامَ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ هِي أَحْسَنُ الأَحْكَامِ وأفْضَلُهَا، لِمُرَاعَاةِ حُقُوقِ النَّاسِ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَتَنْظِيم حَيَاتِهِمْ تَنْظِيماً فِيهِ طِيبُ عَيْشِهِمْ وَمَرْضَاةُ رَبِّهِمْ.

وَمِنْ هُنَا يَتحقَّقُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبعُونَ أَحْسَنَهُ، أي: فَيَنْبِذُونَ مَا يَرَوْنَهُ بَاطِلاً، وَيَتَّبِعُونَ مَا يَرَوْنَهُ هُوَ الأَحْسَن، وَعِنْدَئِذٍ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ مُلْتَزِمِينَ دِينَ اللهِ الْتِزَاماً كَامِلاً فِي أُصُولِهِ الَّتِي هِيَ الْحَقُّ، وفي فُرُوعِهِ الَّتِي هِيَ الأَحْسَن.

وَبناءً عَلَىٰ مَا سَبَقَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِمْ:

﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾:

أي: أُولئِكَ رَفِيعُو المنْزِلَةِ وَالْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ حَكَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِدَايَتِهِمْ، لاسْتِخْدَامِهِمْ عُقُولَهُمْ فيما خُلِقَتْ لَهُ، فَأَدْرَكُوا الْحَقَّ والْخَيْرَ والأَحْسَنَ فَاتَّبَعُوه، وَأَعَانَهُمْ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ خُطُواتِهِمْ فِي صِرَاطِ الْهِدَايَةِ، إِذْ لَمْ تَخْدَعْهُمْ زَخَارِفُ أقْوالِ المضِلّين، وَأُولئِكَ أَيْضاً هُم أُلُوا الأَلْبَاب، أي: هم أَصْحَابُ الْعُقُولِ الْحَصِيفَةِ النظيفة.

اللُّبُّ: هو العقل الخالِصُ مِنَ الشّوائب. **والأَلْبَابُ**: هِيَ الْعُقُولُ الواعِيَة الدَّرَّاكَةُ الَّتِي تَعْقِلُ المَعارِفَ فَتُمْسِكُ بها، وتَعْقِلُ النفوسَ عَنِ اتّبَاعِ الْهَوىٰ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في آخِر هذا الدَّرْسِ مُبّيناً لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنَّ وَظِيْفَة الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ لَا تَزِيدُ عَلَىٰ كَوْنِهَا وَظيفَةَ بَلاغ، فَهِيَ لَا تَصِلُ إِلى إِنْقَاذ مِنْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الكُفْرَ عَلَىٰ الإيمانِ، مِنْ عَذَابِ النَّار الَّذي اسْتَحَقَّهُ بِاخْتِيَارِه الْحُرِّ.

لَكِن الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ وَاتَّبَعُوا رِضوانَهُ قَد اخْتَارُوا لِنُفُوسِهِمْ سُلُوكَ الصِرَاطِ الَّذي يُوصِلُهُمْ إِلىٰ الْخُلُودِ في السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، ذَاتِ الصِّفَاتِ النَّفِيسَاتِ الْمُسْعِدَاتِ دَوَاماً لِلّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ:

- ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾:

- ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾؟:

أي: أَفَمَنْ ثَبَتَ وَتَحقَّقَ عَلَيْهِ العذَابُ الّذِي صَدَرَتْ بِهِ كَلِمَةُ اللهِ الْقَضَائِيَّةُ مُسَلَّطَةً عَلَيْهِ، أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، تَسْتَطِيعُ أَنْتَ أَيّاً كُنْتَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، ومَهْمَا كُنْتَ مِنْ مُحِبِّيهِ ونَاصِرِيهِ، إِنْقَاذَه مِنْ عَذَاب النَّار؟؟.

الاستفهام هُنَا يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، والإِنْكَارُ عَلَىٰ مَنْ يَدَّعِيهِ.

وَجَاءَت جُمْلَةُ: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ المصدَّرة بالاستفهام الإِنْكارِيّ سَادَّةً مَسَدَّ خَبَرِ «مَنْ» في الْعِبَارَةِ السَّابِقَةِ.

والمعنى: أَمَنَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِاخْتِيارِه الْحُرِّ، وَمَاتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ مُعَانِداً، فَحقَّ بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ اللهِ وَوَعِيدِه الصَّادِقِ أَنْ تُصَدَّر مُسَلَّطَةً عَلَيْهِ

كَلِمَةُ اللهِ بتَعْذِيبِهِ خَالِداً مُخَلَّداً فِي نَارِ جهَنَّم، فأنْتَ أيّاً كُنْت وَمهْمَا كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ إِنْقَاذَهُ مِنْ عَذابِ النَّار، إذْ لَا رَادَّ لِحُكْمِ اللهِ وَلَا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ. الفاء في ﴿أَفَمَنْ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ على محذوف.

وأرَىٰ أَنَّ الْخِطَابَ فِي العِبَارَةِ غَيْرُ مُوَجَّهٍ لِمُعَيَّن، والمرادُ بِهَا نَفْيُ إمْكَانِ إنْقَاذِ مَنْ صَدَرَتْ مُسَلَّطَةً عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ من اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَجاء استعمالُ حَرْفِ «عَلَىٰ» في عبارَة «عَلَيْهِ» مُلَائِماً لِمَعْنَىٰ الْحُكْمِ النَّازِلِ عَلَيْهِ بالْعَذابِ، وَلَوْ كانَتْ كَلِمَةُ اللهِ لِمَصْلَحَتِه لَكَانَ مِنَ المناسِبِ في العبارة أنْ يُقَالَ: أَفَمَنْ حَقَّ لَهُ؟.

وفي مُقَابِلِ بَيَانِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ في النَّارِ الّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ إنْقَاذَهُمْ مِنْهُ، جَاءَ بَيَانُ طَرَفٍ مِنْ نَعِيمِ المتَّقِينَ فِي جنَّاتِ النّعِيم، وفْقَ مَنْهَجِ القرآن فِي إتْبَاعِ ذِكْرِ الْوَعِيدِ بذِكْرِ الْوَعْد، وإتْبَاعِ ذِكْرِ الْوَعْدِ بِذْكِرِ الْوَعِيد، فقال اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾:

جاء الاسْتِدْرَاكُ بِحَرْفِ [لَٰكِنْ] وفِي القراءة الأخرى [لَٰكِنَّ] لِدَفْعِ تَوَهُّم أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ الثَّابِتَات تَكُونُ كَلِمَاتِ قَضَاءٍ بِعَذَاب، فَجاءَتْ كَلِمَةُ «لَكِنْ» دَالَّةً على أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ الثَّابِتَاتِ تَكُونُ بالجزاءِ بِالثَّوَابِ كَمَا تَكُونُ بِالْجَزَاءِ بالْعِقَابِ. كما تَكُونُ بِغَيْرِهما مِنْ أَحْكَامِه.

وحَرْفُ «لَكِنْ» حَرْفُ ابْتِدَاءٍ لَا يَعْمَل، ومَعْنَاهُ الاسْتِدْرَاك.

وحَرْفُ «لَكِنَّ» حَرْفٌ مِنْ أخَواتِ «إِنَّ» يَنْصِبُ الاسْمَ ويَرْفَعُ الخبر، وَمَعْنَاهُ الاسْتِدْرَاكُ.

فَمُؤدَّىٰ معنَىٰ الحرفَيْنَ وَاحد.

- ﴿.. ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا ..﴾: أي: الَّذِينَ اتَّقَوْا عَذَابَ رَبِّهِمْ بِالْإِيمَانِ والْعَمَلِ الصَّالح، فَحمَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذاب النَّارِ.

- ﴿.. لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ ..﴾: أي: أُعِدَّتْ لَهُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم قُصُورٌ عَظِيمَةٌ، وَفي هٰذِه الْقُصُورِ العظيمة غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ عَلَىٰ مَا يَشْتَهِي أَهْلُها.

الْغُرَفُ: جَمْعُ «الْغُرْفَةِ» وهي في الْقُصُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ عِنْدَ الْعَرَب ذَاتُ مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ فيها، تُخْتَارُ لِسَيِّدِ الْقَصْرِ ومُتْعَتِهِ الْخَاصَّةِ، وَيُصْعَدُ إِلَيْها بِدَرَجٍ، وتَكُونُ فِي العادة عالِيَةً مُشْرِفَةً تُشَاهَدُ مِنْ شُرُفَاتِهَا الْأَنْهَارُ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا، وَمِنْ تَحْتِ الْقُصُور.

- ﴿.. تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ..﴾: أي: تَجْرِي مِنْ تَحْتِ هٰذِهِ الْغُرَفِ وَمِنْ تَحْتِ الْقُصُورِ الَّتِي هِيَ مَبْنِيَّةٌ فَوْقَهَا الْأَنْهارُ الْجَمِيلَةُ الرَّائِعَةُ التَّدفُّقِ وَالْجرَيَانِ، زِيَادَةً فِي نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فِي حَيَاةِ الامْتِحانِ في الدُّنيا.

﴿.. وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾:

أي: هُمْ مَوْعُودُونَ بِأَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم غُرَفٌ مِنْ فوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ، حَالَةَ كَوْنِ هٰذا الْوَعْدِ وَعْدَ اللهِ، وَحالَةَ كَوْنِ اللهِ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

الْمِيعَادُ: مَصْدَرُ «وَاعَدَ». يقال لغة: «وَاعَدَهُ، مُواعَدَةً، ومِيعَاداً» وجاء مِنْ فِعْلٍ يَدُلُّ عَلَىٰ المشَارَكَةِ لِلْإِشْعَارِ بأنَّ وَعْدَ اللهِ مُؤَكَّدٌ جدّاً، فَكَأَنَّهُ مُوَاعَدَةٌ بَيْنَ فَرِيقَين، مَقْرُونَةٌ بِتَوْثِيق. وَيُطْلَقُ الميعاد علَىٰ زَمَانِ الْوَعْدِ، ومَكَانِهِ.

ومِنْ قَطْعِيَّاتِ الْعَقِيدَة الإيمانيَّةِ في الْإِسْلَام أَنَّ الله عَزَّ وَجلَّ لا يُخْلِفُ تَنْفِيذَ وَعْدِه، وَلَا يُخْلِفُ في زَمَنِ وَعْدِه، ولَا في مَكَانِهِ، فَشَمَلَتِ الْعِبَارَةُ كُلَّ ذَلِكَ.

وبهذا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ السَّادِس من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على معونتِه ومَدَدِه وتَوفيقِهِ وفَتحه.

* * *

(١١)

التدبُّر التحليلي للدَّرْس السابع من دُروس سورة (الزُّمر)

الآية (٢١)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

تمهيد:

في آيَةِ هٰـذا الدَّرْسِ عَرْضٌ لِبَعْضِ آياتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في كَوْنِهِ، تَذْكيراً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِكُلِّ مَا فِي الكَوْنِ، المسْتَلْزِمَةِ عَقْلاً لِوَحْدَانِيَّتِهِ ـ تَبارَكَ وَتَعالَى ـ فِي إِلٰهِيَّتِهِ.

التدبّر التحليلي:

بَيْنَ آيَةِ هٰـذا الدَّرْسِ، وَبَيْنَ مَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ في نُجُوم التَّنْزِيل، بِشَأْنِ مِنَّةِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بالْمَاءِ الَّذِي يُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ، بَعْدَ أَنْ يُصْعِدَهُ بالتَّبَخُّرِ وَيَجْعَلَهُ سَحَاباً، تَكَامُلٌ بَدِيعٌ مَعَ تَأْكِيدِ أَصْلِ الامْتِنَان.

وَالتَّدَبُّر التكامُلِيُّ لَهَا يَحْتَاجُ بَحْثاً خَاصّاً، وَقَدْ نظرتُ في سوابق التنزيل فَظَهَرت لي النصوص التالية:

(١) الآياتُ من (٩ ـ ١١) مِنْ سُورَة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

(٢) الآية (٥٧) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

(٣) الآيتان (٤٨ و٤٩) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٤) الآية (٢٧) من سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول).

(٥) الآيتان (٥٣ و٥٤) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

(٦) الآية (٦٠) من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

(٧) الآية (٢٢) من سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

(٨) الآية (٩٩) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

(٩) الآية (١٠) من سروة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول).

(١٠) الآية (٢١) من سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) وهي: التِي يَجْري تَدَبُّرُها بِمَعُونَةِ اللهِ وَمَدَدٍ مِنْه.

وسيأتي في سُوَرِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ اللَّاحِقِ نُصُوصٌ أُخْرَىٰ.

وَمُتَدبِّر هـٰذِهِ النُّصُوصِ تَدَبُّراً تَكَامُلِيّاً بأَنَاةٍ وتأَمُّلٍ عَمِيقٍ، يُلَاحِظُ مَا في كُلٍّ مِنْهَا من بَيَانِ جَانِبٍ أَوْ أَكْثَرَ لَمْ يَأْتِ فِي غَيْرِه من النُّصُوص، فتَبَارَكَ اللهُ مُنْزِلُ هـٰذا الكِتَاب الْمُعْجِز، الَّذِي لَا تَنْتَهِي عَجَائِبُه ورَوائِعُهُ الدَّالَّة علَىٰ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ حَكِيمٍ عَلِيم.

أمَّا آيَةُ سورة (الزُّمر) فَقَدْ طَرَحَتِ البيانَ بصِيغَةِ اسْتِفْهَام مُوجَّهٍ لِكُلِّ صَالحٍ لِأَنْ يَرَىٰ بِبَصَرِه، وَيَرَىٰ بِفِكْرِه الدَّرَّاكِ، أَنَّ اللهَ الرَّبَّ الْمُهَيْمِنَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِه عَلَىٰ كُلِّ أصْغَرِ جزْءٍ مِنْ ذَرَّاتِ كَوْنِهِ، أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

(أي: مِنَ السَّحاب، إذْ كُلُّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ فَهُو فِي اللُّغَةِ سماء) مَاءً عَلَىٰ شَكْلِ مَطَرٍ، أَوْ ثَلْج، أَوْ بَرَدٍ، فَأَدْخَلَهُ فِي مَسَارِبَ مِنَ الْأَرْض، وَجَعَلَهُ مَخْزُوناً فِي تَجَاوِيفها، فَسَلَكَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَسَارِبَ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ، وَأَخْرَجَهُ يَنَابِيعَ، مِنْهَا مَا يَكُونُ عُيُوناً، وَمِنْهَا مَا يَجْرِي سَوَاقِيَ، ومِنْهَا مَا يَجْرِي أَنْهَاراً صُغْرَىٰ وَكُبْرَىٰ.

- ﴿يَنَـٰبِيعَ﴾: جَمْعٌ مُفْرَدُه «يَنْبُوع» وهو عَيْنُ مَاءٍ يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْض.

- ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: فَأَدْخَلَهُ في مَسَارِبَ جعَلَها الله في بَاطِنِ الْأَرْضِ، لِيَخْرُجَ مِنْ أَمْكِنَةٍ أُخْرَىٰ يَنابِيعَ يَشْرَبُ مِنْهَا النَّاسُ، وَيَسْقُونَ مِنْها أَنْعَامَهُمْ وَدَوابَهُمْ وَمَزَارِعَهُمْ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزّمَنِ يُوصِلُ الله عَزَّ وَجلَّ إِلَىٰ بَاطِنِ الْبُزُور والجذُورِ الْمُنْبَثَّةِ فِي الْأَرْض، ويُخْرِجُ بالماء الَّذِي حَلَّلَ عَنَاصِرَ التُّرْبَة، فاخْتَلَطَتْ بِهِ مَوادُّ غذَاءِ النَّبَاتِ، فَتغَلْغَلَ الْخَلِيطُ إِلَىٰ نَوَيَاتِ الْبُزُور، وَمَا هُوَ مُسْتَعِدٌّ بِتَقْدِيرِ اللهِ لِلنَّبَاتِ فِي الْجُذُور، فَيُخْرِجُ اللهُ بِذَلِكَ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ، وَمُخْتَلِفَةً أَجْنَاسُهُ وَأَصْنَافُهُ وَطُعُومُهُ وَمَنَافِعُهُ.

- ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: أي: يَيْبَسُ وَيَصْفَرُّ، يُقَالُ لغة: «هَاجَ النَّبَاتُ، يَهِيجُ، هَيْجاً، وَهَيَجاناً» أي: يَبِسَ واصْفَرَّ، وَيُقَالُ: «هاجَتِ الْأَرْضُ» أي: يَبِسَ بَقْلُهَا واصْفَرّ.

- ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾: أي: فَتَراهُ أَيُّهَا الرائي أيّاً كُنْتَ بَعْدَ يُبْسِهِ مُصْفَرّاً.

- ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا﴾: أي: ثُمَّ يَجْعَلُهُ اللهُ مُحَطَّماً مُكَسَّراً، لَا خُضْرَةَ فِيه وَلَا نُضْرَة.

الْحُطام: الأشْيَاءُ الْمُحطَّمَةُ المكَسَّرَة.

- ﴿.. إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾:

- ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: اسْمٌ لِلتَّذكير.
- **[لِأُولى الْأَلْبَاب]**: أي: لأَصْحَابِ العقولِ الواعية الدَّرَّاكةِ الحصيفةِ النَّظِيفَة.

أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي هذه الآيَةِ مُصرَّحاً بِهِ وَمَطْوِيّاً، تَذْكِيراً لِأَصْحَاب الْعُقُولِ الواعِيَةِ، بِكَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وَبِرُبُوبِيَّتِهِ المهيْمِنَةِ عَلَىٰ كُلِّ أصْغَرِ جُزْءٍ مِنْ ذَرَّاتٍ كَوْنِهِ، وَعَلَىٰ إِتْقَانِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَعَلَىٰ أَنَّ حَالَةَ الْأَحْيَاءِ وَمِنْهُمُ النَّاسُ، كَحَالَةِ النَّبَاتِ فِي الْأَرْضِ، إِذَا انْتَهَتْ أَعْمَارُهُمْ أَمَاتَهُمُ اللهُ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ بَعَثَهُمْ إِلَىٰ حياةِ الْحِسَابِ، وَفَصْلِ القَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء، بَعَثَهُمْ، كَمَا يُحْيِي النباتاتِ مِنْ بُزُورِهَا، بَعْدَ أَنْ صَارَتْ حُطاماً، وَخَلْقُ اللهِ لِلْأَشْياءِ غَيْرِ الْحَيَّةِ ولِلْأَحْيَاء لَا يَحْتَاج أَكْثَرَ من أَمْرِ التكوين: «كُنْ فيكُون»..

وبهذا انتهى الدرس السابع منْ دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾.

التدبّر التحليلي:

الشّرح: يُستَعْمَلُ للدّلالَةِ على الْبَسْطِ والتوسِعَة، وشَرْحُ الصَّدْرِ

لِلْإسلام يَكُونُ بِجَعْلِه منفرجاً واسعاً قَادِراً على تَحمُّلِ الْمُزعجَاتِ والمكارِهِ والأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، وكُلِّ مَا يُخَالِفُ أهْواءَ النَّفْسِ وشَهواتِها، ويَكُونُ بِجَعْلِه مُقْبلاً علىٰ التطبيقَاتِ الإسلاميَّةِ بسُرُور ورَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ بِسَبَبِ إيمانِهِ بالجزاء العظيم الَّذِي أعَدَّهُ اللهُ عَز وجَلَّ للَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ويَتَحَمَّلُونَ المكاره ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِه.

هذه الآيَةُ قَدْ نَزَلَ قَبْلَهَا في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) آيَةٌ يَتَكَامَلُ مِنْهُما عِقْدُ مَوْضُوع، وَهي قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰذِهِ الْآيَةِ في مَوْقِعِهَا من سورة (الأنعام).

ولاسْتِجْماع كَامِلِ عَنَاصِرِ الموضُوعِ مِنَ النَّصَّيْنِ، لَا بُدَّ مِنْ تَوْضِيحِ أفْكَارٍ أَسَاسِيَّةٍ تُبْنَىٰ عَلَيْهَا تتِمَّاتُ الموضوع.

الإيمان: هُو التَّصْدِيقُ الإرَادِيُّ الْقَلْبِيُّ المقْرُونُ بابْتِغَاءِ الحقِّ والْبُعْدِ عَنِ الباطلِ، وهذا التصْدِيقُ يَجِبُ أَنْ يكون تَصْدِيقاً بأَرْكَانِ الإيمان الَّتِي أَمَرَ اللهُ عباده أَنْ يُؤْمِنُوا بِهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

ولا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ هٰذا التَّصْديق مَتْرُوكٌ لاخْتِيارِ الإنسانِ الموضوع في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، لَا جَبْرَ فِيهِ مُطْلقاً، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفر، وعَلى المبتلَىٰ أن يتحمَّلَ نَتَائِجَ اختيارِه الحرّ.

والإسلام: هو أَثَرُ الْإِيمانِ في السُّلُوكِ النَّفْسِيِّ والْجَسَدِي، ولهذا جاءَ في تَعْرِيفِهِ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَه إِلّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، وتقيمَ الصَّلَاةَ، وتُؤْتِي الزَّكاة، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وتَحُجَّ الْبَيْتَ إِن اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. وهٰذِهِ كُلُّهَا ظَاهراتٌ سُلُوكِيَّةٌ يَدْفَعُ إلى تَطْبِيقِها في السُّلُوك صِدْقُ

الْإيمَانِ عَلَىٰ مِقْدَارِه، باعتبار أنَّ الإيمانَ ذُو نِسَبٍ مُتَفاضِلَةٍ في الناس.

فمَنْ آمَنَ بإرَادَتِه الْحرَّةِ كَانَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ في كَوْنِه، أَنْ يَشْرَحَ الله صَدْرَهُ للتَّطْبِيقَاتِ الإسْلامِيَّةِ علَىٰ مِقْدَارِ قُوَّةِ إيمَانِه، وعَلَىٰ هٰذا المعنىٰ يُفْهَمُ قَوْلُ الله تَعالَىٰ في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول):

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ .. ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَحْكُمُ له بالهداية المنجيَةِ الْمُسْعِدة، اسْتِنَاداً إِلَىٰ أَثَرِ إيمانِهِ فِي السُّلُوكِ النَّفْسِيِّ والْجَسَدِيّ، كَانَ مِنْ سُنَّتِهِ الدَّائِمَةِ فِي عِبَادِه، أَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ للتَّطبيقَاتِ الإسْلامِيَّةِ عَلَىٰ مِقْدارِ قُوَّةِ إيمانِهِ، بِدَلِيلِ أَنَّ مَنْ لَا يَشْرَحُ اللهُ صَدْرَهُ للتَّطْبِيقَاتِ الإسْلامِيَّةِ قَدْ كَانَ ذَٰلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِ وَعَدَمِ إيمانِهِ بالْحَقِّ، أَخْذاً مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ في آخر الْآيَة:

﴿... كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

بَعْدَ قَولِهِ تَعالَىٰ:

﴿.. وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ...﴾

فَضِيقُ الصَّدْرِ وَعَدَمُ انْشِرَاحِهِ للتّطبيقات الإسلاميَّة، أَثَرٌ مِنْ آثَارِ عَدَمِ الإيمان بما أَمَرَ اللهُ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا به، فَدَلَّ هٰذَا على أَنَّ انْشِرَاح الصَّدْرِ لِهٰذَهِ التطبيقات هو مِنْ أَثَرِ الإيمان.

ووَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذا الضِّيقَ في الصَّدْرِ بأنَّهُ رِجْسٌ، أي: نَجاسَةٌ سَبَبُها الكُفر الَّذِي هُو أَخْبَثُ الرِّجْسِ في النفوس.

وَمَنْ لَا يُدْرِكُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإيمانِ والإسْلام، وَأَنَّ مِنْ آثَارِ الإيمانِ الاختياريِّ انْشِرَاحَ الصَّدْرِ للتَّطْبِيقَاتِ الإسْلامِيَّةِ في السُّلُوكِ، يَقَعُ في مَفْهُومَاتٍ جَبْرِيَّةٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ في الفِكْرِ الدينيّ.

وَجاءت آيَة سورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول) مُؤَكِّدَة لِلْمَفْهُوم الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ سورة (الْأَنْعَام/ ٥٥ نزول) وَمُضيفَةً إِلَيْهِ تَكْمِيلاً يَدُلُّ عَلَيْهِ التحليلُ التّالي:

- ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ..﴾:

أي: أمَنْ كانَ ذَا إيمانٍ صَحِيحٍ بإرَادَةٍ حُرَّةٍ مِنْ قَلْبِهِ، فَشَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلتَّطبيقَاتِ الإسْلامِيَّةِ بِسَبَبِ إيمانِهِ، فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ من رَبِّهِ يَهْدِيهِ، ويَجْعَلُهُ يَسِيرُ في حَيَاتِهِ عَلَىٰ صِرَاطِهِ المستقيم، كَمَنْ هُوَ كَافِرٌ يَجِدُ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً، يَنْفِرُ من التطبيقاتِ الإسلاميَّة، وتَشْمَئِزُّ نَفْسُهُ مِنها، بمقتضىٰ سُنَّةِ الله في عِبادِهِ فَهُو في حَيَاتِهِ يَسِيرُ في مَتَاهَاتِ سُبُلٍ مُظْلِمَةٍ، تَنْتَهِي بِهِ إِلَىٰ عَذَاب السَّعِير. **الْحَرَجُ**: أضْيَقُ الضّيق.

الفاءُ في: ﴿أَفَمَن﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ (الأنعام).

- ﴿.. فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ..﴾:

﴿فَوَيْلٌ﴾: **الْوَيل**: كَلِمَةُ عَذَاب: أي فعذَابٌ شَدِيد.

المَعْنَىٰ: فعذابٌ شَدِيدٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ النَّافِرَةَ المشمَئِزَّة مِنْ ذِكْرِ اللهِ حِينَمَا يُذَكَّرُون به، أَوْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آياتُه.

ضُمِّنَ لَفْظُ «القاسِيَة» وهو اسْمُ فاعلٍ يَعْمَل عَمَلَ فِعْلِهِ مَعْنَىٰ لفظ «نافِرَة» أَوْ «مُشْمَئِزَّة» فَعُدِّي تَعْدِيَتُهُ بحرف الجرّ «من».

وَوَرَدَ أن «الْوَيل» وَادٍ في جَهَنَّمَ.

روى أحمد، والترمذي، وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِهِ، والحاكم عن أبي سعيدٍ الخُدْرِي، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«الْوَيلُ: وَادٍ في جهنَّم، يَهْوِي فيه الكافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفاً، لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهِ الجِبَالُ لَمَاعَتْ مِنْ حَرِّهِ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَه»(١).

- ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أولَئِكَ الْكَافِرُونَ الْبَعِيدُونَ عَنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلَاتِ رَحْمَاتِ اللهِ لِتَسَفُّلِهِمْ فِي دَرَكَاتِ الْإِثْمِ الَّذِي كَانُوا بِهِ كَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ، الْمُمِدَّ لَهُمْ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَهَائِمِينَ فِي ضَلَالٍ عَنْ طَرِيقِ سَعَادَتِهِمْ، وَضَلَالُهُمْ هَـٰذَا مُبِينٌ وَاضِحٌ يُدْرِكُهُ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الحصيفَة النَّظِيفَة، وَالْبَصَائِرُ الدرَّاكَةُ النَّافِذَةُ، الَّتِي تُدْرِكُ صِرَاطَ الْهُدَى، وَمَسَالِكَ الضَّلَالِ.

وبهذا انتهى تدبُّر هَـٰذَا الدرس الثامن من دُروس سورة (الزمر).

والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه المبين.

* * *

(١٣)

التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (الزُّمر) الآيتان (٢٣ و٢٤)

قال الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

---

(١) لم يَبْلُغْ هذا الحديثُ عِنْدَ المحدِّثين دَرَجَةَ الصحيح، ولكِنْ يُسْتَأْنَسُ بِهِ للدلالَة على معنى شدَّة العذاب.

القراءات:

(٢٣) ● قرأ ابْنُ كثير: [مِنْ هَادِي] بإثباتِ الياء في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ بحذْفِ الياء وصلاً ووَقفاً.

تمهيد:

في آيَتَيْ هذا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ تَأْثِيرِ آياتِ القرآنِ المجيد في قُلُوب المؤمنين الَّذِين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَبَيَانٌ عَنِ المؤمِنِ الَّذي يَتَّقِي بِتَوَجُّهِهِ لِرَبِّه سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ القيامَةِ، بِخِلَاف الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَذُوقُونَ عَذَابَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

وفي هذا الدَّرْسِ إضَافَةٌ تَكَامُلِيَّةٌ، لِمَا سَبَقَ أَنْ نَزَل بِشَأْنِ القرآنِ في نُجُومِ التَّنْزِيل.

التدبّر التحليلي:

قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْن القرآن المجيد:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

اشْتَملَتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ بَيَان سَبْعِ قضايا تَتعلَّقُ بالقرآنِ الكريم:

القضيَّة الأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الّذِي نَزَّلَ الْقُرْآن عَنْ طَرِيقِ الْوَحْي إلى رسُولِهِ مُحمَّد ﷺ، لِيُؤْمِنَ به ولِيَعْمَلَ بِمَا جاءَ فيه مِنْ تكاليف، ولِيُبَلِّغَهُ للنَّاس حتَّىٰ يكونوا علَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهم تُجاهَ رَبِّهِم.

القضيَّة الثَّانية: أنَّ الْقُرْآن أَحْسَنُ الحديثِ، وقد وَصَفَ اللهُ القرآن بأَنَّهُ حَدِيث، لِيُمَيِّزَهُ عَنِ الْخُطْبَةِ، والشِّعْرِ، وَالْقِصَّةِ، وَغيرها مِنْ فُنُونِ

الْقَوْل، ولِيُبَيِّنَ أنَّهُ مِنْ نَوعِ الحديثِ، والواقِعُ على تَوالي القرونِ أبان أنَّ القرآن المجيد أحْسَنُ الحديث كلِّه.

الحديث: هو الكلام الهادئ الَّذي يَتَكَلَّمُ بِهِ الْمُحَدِّثُ فِي مَجْلِسٍ مُتَكافِئٍ بَيْنَهُ وبَيْن مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْه، فَلا يَشْعُرُ المسْتَمِعُ بأنَّهُ في مَوْقِعِ الأَدْنىٰ الَّذي يَتَلَقَّىٰ مِنَ الأَعْلَىٰ، بَلْ يَشْعُرُ بأنَّهُمَا على سواءٍ، في التَّلَقِّي والْعَطاء.

بخلاف عَمَلِ الْخطِيب أو المعلّم، أو المدَرِّس، أو المحاضِرِ، أو الآمرِ النّاهي، أو الشَّاعِرِ، أو الْقَصَّاص، أو نحوهم.

ومَعْلُومٌ أَنَّ الحديثَ أكْثَرُ قَبُولاً وتأثيراً في النفوس البشرية، إذْ لَا يُواجهُ عَقَبةً صَادَّةً فِي الْغَالِبِ من الأحْوَالِ، ولا يُواجِهُ نُفُورَ مُسْتَكْبِرٍ، يَرْفُضُ تلَقِّيَ الْعلْمِ مِنْ مُعَلّم.

ونَسْتفيدُ مِنْ وَصْفِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كتابَهُ بأنَّهُ مِن نَوْعِ الحديث إرْشَاداً للدُّعَاةِ إلى اللهِ، والناصحين المرشِدِينَ الآمِرِينَ بالمعروف الناهِينَ عَنِ المنْكَر، بأَنْ يكُونُوا مُحَدِّثِينَ فِي بيانَاتِهم، ونُصْحِهم، وإرْشَادِهم.

ولهذا أمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ في سورة (الضُّحى/١١ نزول) بقوله له:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾: وَنِعْمَةُ اللهِ هي مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْ دِين.

القضيّة الثالثة: أَنْ يُدَوِّنَهُ المؤمنُونَ فِي كِتَابٍ مَصُونٍ مِنَ التحريفِ، والتغيير، والتَّبْدِيل، كالّذِي حَصَلَ في كُتُبِ أَهْلِ الكِتَاب من تحريفاتٍ وزيادة ونقصان.

هذه القضية نَسْتفيدها مِنْ قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿كِتَٰبًا﴾ في الآيَة، إذْ لَمْ يَنْزلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ كِتَاباً في صُحُفٍ أَوْ أَلْوَاحٍ مَكْتُوبَة، بَلْ نَزَلَ قَوْلاً تَلَقَّاهُ الرَّسُولُ ﷺ بِقَلْبِهِ وسَمَعه، وَكانَ يأمُرُ بِكِتَابَةِ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْه، وَعُرِفَ

الصَّحَابَةُ الَّذِينَ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِكِتَابَةِ مَا يُنْزَلُ عَلَيْهِ من القرآن: «بكتَّابِ الْوَحْي».

وَأَلْهَمَ اللهُ أَصْحَابَ رَسُولِهِ مِنْ بَعْدِهِ تَثْبِيتَ القرآنِ في مُصْحَفٍ جَامِعٍ، وَكَانَ للخليفَةِ الثالث «عُثْمَانَ بن عَفَّان» رضي الله عَنْهُ فَضْلُ نَسْخِ مَا كُتِبَ في عَهْدِ «أبي بَكر» رضي اللهُ عَنْهُ فِي مَصَاحِفَ وتوزيعها على الأمصار الإسلامية، وكانت هذه إمام المصاحف الَّتِي يَكْتُبُهَا النَّاسُ، فَحَفِظَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهذا العمل المجيد القرآنَ كَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رسُولِه محمد ﷺ.

الْقَضِيَّة الرابعَة: أَنَّ القرآن مُتَمَاثِلُ الكَمالِ والْحُسْنِ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ وُجُوهِ الإعْجَاز فَمَا يَتَدَبَّرُ المتدبِّرُونَ مِنْهُ سُورَةً إِلَّا وَجَدُوا فِيهَا مِنْ وُجُوهِ الكَمَالِ والحسْنِ مَا هُوَ فِي أَعْلَىٰ قِمَم الإعْجَازِ اللّفظيّ، والمعنويّ، والْعِلْميّ، والمطابَقَةِ لِلْحقِّ، وَمَا هُوَ الْأَفْضَلُ والأحْسَنُ مِنْ كُلِّ الاحْتِمَالَاتِ الممكِنَةِ لِبيَانِ السُّلُوكِ الأفْضَلِ للنَّاسِ.

دَلَّ علىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ القرآن: ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ أي: مُتَمَاثِلَ صِفَاتِ الكَمَالِ والْحُسْنِ وَعَنَاصِرِ الإعجاز فيه.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُتَشَابِهَةَ فِي الْحُسْنِ، لَا يُسْتَطَاعُ تَفْضِيلُ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدُرَاتِ النَّاسِ، لِوُجُودِ التَّفَاضُلِ الْمُتَكَافِئِ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ الْمُخْتَلِفَةِ بَيْنَهَا.

القَضِيَّةُ الخَامِسَة: أَنَّ الْقُرْآنَ مَثَانِيَ، أي: فيه مَطْوِيَاتٌ بَيْنَ جُمَلِهِ، وَبَيْنَ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ مِنْهُ، وَهَـٰذِهِ المَطْوِيَّاتُ يَكْشِفُهَا التَّدَبُّرُ الصَّحِيحُ، بِتَأَمُّلٍ وَعُمْقِ نَظَرٍ فِكْرِيّ.

وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَا ظَهَرَ لِي مِنَ الْمُرَادِ بِوَصْفِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ «مَثَاني» لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآيَةِ (٨٧) من سورة (الحِجْر/ ٥٤ نزول).

المَثَاني: جمع «المثْنَاة» وهِي الطيَّةُ الْوَاحِدةُ الَّتِي تُثْنَىٰ، مِنْ قَوْلِهِمْ:

«ثَنَىٰ الشَّيْءَ يَثْنِيهِ» أي: رَدَّ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَالْقُمَاشُ الَّذِي يُثْنَىٰ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ بِصِفَةٍ مُتَوالِيَةٍ، تُسَمَّىٰ طَيَّاتُهُ «مَثاني».

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ وُجُوهاً مُتَعَدِّدَةً لِتَفْسِيرِ كَوْنِ الْقُرْآنِ مَثَانِي، وَهِي تَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَا فِي لَفْظِ «مَثَانِي» مِنْ مَعْنَىٰ التَّكْرِيرِ، كَتَكْرِيرِ آياتِ «الْفَاتِحَة» فِي رَكَعَاتِ الصَّلَوَات.

وَالَّذِي ظَهَرَ لِي مِنْ خلَالِ تَدَبُّرِي الطَّوِيلِ لآيَاتٍ كَثِيراتٍ مِنَ الْقُرآنِ الْمَجِيدِ، أَنَّ الْمُرَادَ بِوَصْفِ الْقُرآنِ بِأَنَّهُ «مَثاني» أَنَّ لَهُ سُطُوحاً ظَاهِرَةً، وَهِي ما يُدْرَكُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمَقْرُوءَات في أَعْلَىٰ كل مَثْنَاةٍ مِنْهُ وَأَن فِيهِ مَطْوِيَّاتٍ فِي بَاطِنِ الثَّنْيَاتِ هِيَ مَحْذُوفَاتٌ لفظاً، ويُمْكِنُ إِدْرَاكُهَا ذِهْناً، عَنْ طَرِيقِ اللَّوَازِمِ الفِكْرِيَّةِ، أو الدَّلَالاتِ اللَّفْظِيَّة، كَحَرْفِ جَرٍّ، أَوْ حَرْفِ عَطْفٍ، أَوْ تَعْدِيَةِ الْفِعْلِ لِغَيْرِ مَا يَتَعَدَّى به لُغَةٍ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ تَعْتَمِدُ عَلَيْها المحاذيف، وِمِنْها الْعَطْف علىٰ مَحْذُوفٍ بِمَا يُسَمَّىٰ الفاء الْفَصِيْحَة، وَقَدْ رَأَيْتَ أَنَّ كُلَّ حُرُوفِ الْعَطْفِ قَدْ تَعْطِفُ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ مَطْوي. وَكَمَلْءِ فَرَاغَاتِ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، إِذْ تَبْدُو فِي الظَّاهِرِ أَنَّهَا مُكَرَّرَاتٌ، وَهِيَ فِي الحَقِيْقَةِ مُتَكَامِلاتٌ فِيمَا بَيْنَهَا، يَتَدَاخَلُ بَعْضُهَا فِي بَعْض، فَيُكَمِّلُ بَعْضُها الظَّاهِرُ هُنَا، النّصّ الآخَرَ، إِذْ يَمْلَأُ فَرَاغَ مَطْوِيٍّ فِيْهِ، وَمِنْهَا الْحَذْفِ مِنَ الْأَوَائِلِ لِدَلَالَةِ مَا فِي الْأَوَاخِرِ، وَالْحَذْفِ مِنَ الأَوَاخِرِ لِدَلَالَةِ مَا فِي الْأَوَائِلِ مِنَ النّصّ.

وَكُلُّ ذلِكَ هُوَ مِنَ الإعْجاز الإيجازيِّ فِي الْقُرْآنِ المَجيد.

وَأَفْضَلُ تَعْبِيرٍ عَنْ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ فِي الْقُرْآنِ الكَرِيْم، أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ «مَثَانِي» تَظْهَرُ فِي السُّطُوحِ المَقْرُوءَةِ مِنْ مَثَانِيهِ جُمَلٌ وَكَلِمَاتٌ، وَتُوجَدُ مَطْوِيَّاتٌ دَاخِلَ المَثَانِي تُسْتَخْرَجُ بِالتَّأَمُّلِ الدَّقِيقِ، وبالاسْتِنْبَاطِ الْعَمِيقِ، ضِمْنَ ضَوَابِطِ الْفِكْرِ، وَقَوَاعِدِ الاسْتِعْمَالِ اللُّغَوِيِّ وَأَمَارَاتِهِ، إِمَّا عَنْ طَرِيقِ الحَقِيْقَةِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ المَجاز.

أَمَّا الْبَاطِنِيُّونَ الْأَخْبَاثُ، فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ بِتَفْسِيرَاتٍ بَاطِنِيَّةٍ مِنْ إِيحَاءَاتِ شَيَاطِينِهِمْ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا، لَا مِنَ اللَّوَازِمِ الْفِكْرِيَّة، وَلَا مِنْ مُقْتَضيات دَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ، وَلَا مِنْ جَمْعِ النُّصُوصِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي السُّورِ، وَهَدَفُهُمْ التَّلَاعُبُ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ. لإِلْغَاءِ الدِّينِ كُلِّهِ، وَإِقَامَةِ بِدَعٍ إِبْلِيسِيَّةٍ إِبَاحِيَّةٍ كُفْرِيَّةٍ لَا تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ، بَلْ تَتَّخِذُ مِنَ النَّاسِ آلِهَةً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، وَتَجْعَلُ مَا يَفْتَرُونَهُ مِنَ العِبَادَاتِ لَعِباً وَلَهْواً، وَمُمَارَسَاتٍ لِقَبِيحِ الشَّهَوَاتِ.

القَضِيَّةِ السَّادِسَة: أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ عِنْدَ سَمَاعِهِ أَوْ تِلَاوَتِهِ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ القَضِيَّةِ فِي الآيَة، مُتَابَعَةً لِوَصْفِ القُرْآنِ، قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِيْهَا: ﴿. . تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . . ﴾.

تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ: أي: تَضْطَّرِبُ وَتَرْجُفُ وَتَأْخُذُهَا رِعْدَةٌ مَقْرُونَةٌ بِمَشَاعِرِ الْخَوْفِ فِي النَّفْسِ.

هَـٰذِهِ الظَّاهِرَةُ تَحْدُثُ لَدَىٰ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَائِلِ سُلُوكِهِمُ الإِسْلَامِيّ، حِيْنَمَا يَسْمَعُونَ أَوْ يَتْلُونَ آيَاتٍ فِيْهَا تَرْهِيبٌ مِنْ عِقَابِ اللهِ، إِذْ تَنْفَعِلُ قُلُوبُهُمْ بِمَشَاعِرِ الْخَشْيَةِ مِنَ اللهِ وَعَذَابِهِ، فَتَرْجُفُ جُلُودُهُمْ الَّتِي تَتَرَكَّزُ فِيْهَا النِّهَايَاتُ الْعَصَبِيَّةُ.

وَمَشَاعِرُ الْخَشْيَةِ مِنَ اللهِ وَعَذَابِهِ، تَنْفَعِلُ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ، حِيْنَ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا خَوَاطِرُ سَوَابِقِ مَعَاصِيهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَالْوَجَلُ الَّذِي يَحْدُثُ فِي قُلُوبِهِمْ يَمْتَدُّ إِلَىٰ أَعْصَابِهِمْ الْوَاصِلَةِ إِلَىٰ جُلُودِهِمْ، فَتَحْصُلُ فِيْهَا هَـٰذِهِ الرَّعْدَةُ وَالرَّجَفَانُ فِي الْجُلُودِ.

لَكِنَّهُمْ حِيْنَمَا تَسْكُنُ نُفُوسُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمُتَابَعَةِ مَسِيرَتِهِمُ الإِيمَانِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ، فَيَصِلُونَ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ الْخُشُوعِ لَدَىٰ ذِكْرِ اللهِ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ

الطُّمَأْنِينَةِ الْكَامِلَةِ، فَإِنَّ حَالَتَهُمْ تَكُونُ كَالْوَصْفِ التالي الَّذِي جَاءَ فِي الْقَضِيَّةِ السَّابِعَةِ:

الْقَضِيَّةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ تَلِينَ سَاكِنَةً مُطْمَئِنَّةً لِسَمَاعِ آيَاتِهِ أَوْ تِلَاوَتِهَا، جُلُودُ وَقُلُوبُ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا مَرْحَلَةَ الْوَجَلِ فِي سُلُوكِهِمْ الإِيمانِيِّ الإِسْلَامِي الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأَنْفَالِ/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . ۝٢﴾.

وَدَخَلُوا مَرْحَلَةَ الْخُشُوعِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ . . ۝١٦﴾.

أَو ارْتَقَوْا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الطُّمَأْنِينَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الرَّعْد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ السَّابِعَةِ مِنَ الآيَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿. . . ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ . .﴾:

دَلَّ لِينُ الْجُلُودِ وَالْقُلُوبِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْخُشُوعُ وَهُوَ السُّكُونُ، أَوْ تَكُونُ بِهِ الطُّمَأْنِينَةُ الَّتِي هِيَ غَايَةُ المَرَاحِلِ الإِيمانِيَّةِ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، عَلَىٰ أَنَّ الْقُشَعْرِيرَةَ الَّتِي تَحْدُثُ لِلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ تَكُونُ بِسَبَبِ شَدٍّ عَصَبِي تَتَقَبَّضُ بِسَبَبِهِ الْجُلُودُ وَالْقُلُوب.

أَمَّا عِنْدَ الْخُشُوعِ، أَوِ الطُّمَأْنِينَةِ الَّتِي هِيَ أَرْقَىٰ مَرْتَبَةً مِنَ الْخُشُوعِ، فَلَا يَكُونُ مَعَهُمَا شَدٌّ عَصَبِيٌّ وَلَا تَقَبُّضٌ، بَلْ تَكُونُ بِهِ الْجُلُودُ وَالْقُلُوبُ لَيِّنَةً عَلَىٰ وَفْقِ أَصْلِ فِطْرَتِهَا وَطَبِيْعَتِهَا، إِذْ رَجَحَ رَجَاءُ الْمُؤْمِنِ بِغُفْرَانِ اللهِ وَعَفْوِهِ

عَلَىٰ خَوْفِهِ مِنْ عِقَابِهِ، أَوِ اطْمَأَنَّ إِلَىٰ أَنَّ اللهَ أَحَاطَهُ بِرَحْمَتِهِ وَجَعَلَهُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «لَانَ لَهُ» وبِتَضْمِيْنِ فِعْلِ «لَانَ» مَعْنَىٰ فِعْلِ: «اطْمَأَنَّ» يُقَال: لَانَ إِلَيْهِ.

وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآيَة بِقَوْلِهِ:

- ﴿... ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾:

الإشارة بِعِبَارَة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَرَىٰ أَنَّهَا مُوَجَّهَةٌ لِلْأَمْرِ الْحَمِيدِ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، إِذْ تَقْشَعِرُّ مِنْ سَمَاعِ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ أَوْ مِنْ تِلَاوَتِهَا جُلُودُهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ مَائِلَةً إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَمُطْمَئِنَّةً إِلَيْهِ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي التَّدَبُّرِ.

أَي: إِنَّهُمْ بِسَبَبِ إِيمانِهِمْ بِرَبِّهِمْ إِيماناً صَحِيْحاً صَادِقاً، وَبِسَبَبِ خَشْيَتِهِمْ عَذَابَهُ وَعِقَابَهُ، فَمِنْ سُنَّةِ اللهِ الْعَامَّةِ فِي عِبَادِهِ، أَنْ يَرْتَقُوا بِتَوْفِيْقِهِ فِي الْمَرَاتِبِ، مِنْ مَرْتَبَةِ الْخَشْيَةِ الَّتِي جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِالْوَجل فِي آيَةِ (الأَنْفَالِ) إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْخُشُوعِ، كَمَا جَاءَ فِي آيَةِ سُورَةِ (الْحَدِيد) ثُمَّ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الطُّمَأْنِيْنَةِ الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا فِي آيَةِ سُورَةِ (الرَّعْدِ) وَهِي أَعْلَىٰ الْمَرَاتِبِ، الَّتِي يَنَالُ مَنْ بَلَغَها عِنْدَ مَوْتِهِ وَبَعْدَهُ حَتَّىٰ دُخُولِ الجَنَّةِ فَضْلَ النِّدَاءِ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الْفَجْرِ/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

إِنَّ التَّوْفِيقَ المَقْرُونَ بِالْمَعُونَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، لِمَنْ آمَنَ وَكَانَ يَخْشَىٰ اللهَ حَقّاً، حَتَّىٰ يَتَرَقَّىٰ فِي المَرَاتِبِ بِحَسَبِ مَقَادِيرِ إِيمانِهِ وَخَشْيَتِهِ رَبَّهِ، جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ هُدَىٰ اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَشِيئَةَ اللهِ لَا

تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَمَنْ نَحىٰ مَنْحَىٰ الْجَبْرِ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي فَهْمِ الآيَةِ، إِذِ التَّوْفِيقُ الرَّبَّانِيُّ جَاءَ ضِمْنَ قَانُونٍ رَبَّانِيٍّ أَيْضاً مَبْنِي عَلَىٰ عَمَلٍ اخْتِيَارِيٍّ كَانَ مِنَ الْعَبْدِ وَهُوَ إِيمَانُهُ الصَّادِقُ الَّذِي نَشَأَ عَنْهُ خَشْيَتُهُ رَبَّه.

أَمَّا مَنْ كَفَرَ ابْتِدَاءً بِرَبِّهِ، فَلَمْ يَخْشَ عِقَابَهُ، سَهَّلَ اللهُ لَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ مَسَالِكَ ضَلَالِهِ، وَأَمَدَّهُ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِيَكْتَسِبَ بِهَا مَا يَشَاءُ مِنْ جَرَائِمَ وَآثَامٍ، وَمَنْ سَارَ فِي سُبُلِ ضَلَالِهِ بِاخْتِيَارِهِ الحرِّ، النَّاشِئِ عَنْ كُفْرِهِ بِرَبِّهِ وَعَدَمِ خَشْيَتِهِ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ، وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ يَهْدِيهِ، إِذِ الحُكْمُ بَيْنَ العِبَادِ للهِ وَحْدَهُ، هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بِالضَّلَالَةِ لِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بِالْهِدَايَةِ لِمَنْ كَانَ مَهْدِيّاً، وَكُلُّ ذَلِكَ بِمَشِيْئَتِهِ المُطْلَقَةِ الَّتِي لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَلَا سُلْطَانَ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ ذَاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، لَكِنَّ كَمَالَهَا يَجْعَلُ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا حَقّاً وَعَدْلاً أَوْ فَضْلاً وَإِحْسَاناً.

وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُخَالِفَ اللهُ سُنَّتَهُ فِي امْتِحَانِ عِبَادِهِ فَيَسْلُبَهُمُ اخْتِيَارَهُمْ وَهُمْ مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، أَوْ يَمْنَعَ عَنْهُمْ إِمْدَادَهُمْ بِالْقُوَىٰ فِي حَالَةِ مَعْصِيَتِهِمْ لَهُ.

وَعَلَىٰ الْمُتَفَكِّرِ أَنْ يَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ دَواماً، أَنَّ مَنْ وَضَعَ يَدَهُ فِي النَّارِ بِاخْتِيَارِهِ الحُرِّ، أَحْرَقَ اللهُ لَهُ يَدَهُ ضِمْنَ سُنَّتِهِ فِي كُلِّ عِبَادِهِ، وَمَنْ تَحَسَّىٰ سُمّاً قَاتِلاً قَتَلَهُ اللهُ بِسُمِّهِ الَّذِي تَجَرَّعَهُ، ضِمْنَ سُنَّتِهِ فِي كُلِّ عِبَادِهِ.

كَذَلِكَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَبِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ بَيَانَاتٍ، وَجَدَ سُبُلَ الضَّلَالِ مُيَسَّرَةً أَمَامَهُ، وَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَبِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ بَيَانَاتٍ، وَجَدَ صِرَاطَ الْهُدَى مُيَسَّراً أَمَامَهُ، وَأَعَانَهُ اللهُ وَزَادَهُ تَوْفِيقاً، لِيَزِيدَ مِنْ دَرَجَاتِهِ، وَيَرْفَعَهُ فِي الْمَرَاتِبِ عَلَىٰ مِقْدَارِ قُوَّةِ إِيمَانِهِ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: أَفَمَنْ يَتَّقِي سُوءَ الْعَذَابِ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُوَجِّهُهُ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً، بَعِيداً عَنْ كُلِّ شِرْكٍ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وَإِلٰهِيَّتِهِ، وَقَالَ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ الَّذِي سَبَقَ بَيَانُهُ وَتَدَبُّرُهُ فِي سُورَةِ (الْأَنْعَامِ/ ٥٥ نزول):

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

كَمَنْ يَكُونُ مِنَ الكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ بِتَوْجِيهِ وُجُوهِهِمْ لِلرَّبِّ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَفَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض، فَهُمْ يَسِيرُونَ فِي حَيَاتِهِمْ فِي سُبُلِ الْغَيِّ وَالضَّلَالَ، تَسُوقُهُمْ أَو تَقُودُهُمُ الشَّيَاطِينُ، مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَشَيَاطِينِ الْجِنِّ، إِلَىٰ جَحِيمِ عَذَابِهِم الدَّائِمِ الْخَالِدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَإِذَا كُبْكِبُوا فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ يُقَالُ لَهُمْ عِنْدَ إِلْقَائِهِمْ وَبَعْدَهُ: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: أي: ذُوقُوا عَذَابَ مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ ظُلْمٍ هُوَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الَّذِي تَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ الْخُلُودَ فِي النَّارِ.

وَلَما كَانَ عَذَابُهُمْ مُكَافِئاً لِظُلْمِهِمْ كَانَ أَدَقُّ تَعْبِيرٍ عَنِ الْمُكَافَأَةِ دُوْنَ زِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَلَوْ مِثْقَالَ ذَرَّة، أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنِ الإِحْسَاسِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ بِالذَّوْقِ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، لِأَنَّ حَاسَّةَ الذَّوْقِ أَشَدُّ الْمَوَاضِعِ إِحْسَاساً بِمَا يُلَامِسُها.

إِنَّ عِبَارَة: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لَا يَصِحُّ أَنْ تُفْهَمَ دُونَ اسْتِخْرَاجِ المطْوِيّ فِيهَا، وَهُوَ كَمَا يلي: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾ الَّذِي يُوَجِّهُهُ لِلَّذِي فَطَرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ إِذْ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَىٰ فِي الدُّنْيَا، كَمَنْ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ؟؟.

الجواب: لَا يَسْتَوِيَانِ حَتْماً.

سُوء العَذَابِ: شَدِيدُهُ، وَشَاقُّهُ وَمُؤْلِمهُ. وأصْلُ الكَلَامِ: العَذَاب السُّوء.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ التَّاسِعِ مِنْ دُرُوسِ سُوْرَةِ (الزُّمَرِ). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَفَتْحِهِ المُبِيْنِ.

* * *

(١٤)

التدبُّر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة الزُّمر

الآيَتَان (٢٥ و٢٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

تمهيد:

فِي آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ تَذْكِيرُ المُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ كُفَّارِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ مِنْ عَذَابٍ، مِنْ حَيْثُ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ أَنَّ عَذَاباً مِنَ اللهِ سَيَأْتِيهِمْ، وَكَانَ عَذَابُ اللهِ الَّذِي أَتَاهُمْ مُخْزِياً لَهُم.

وَأَنْذَرَهُمُ اللهُ بِأَنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ سَوْفَ يَكُونُ أَكْبَرَ، وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ يَرْضَىٰ لَهُمْ أَنْ يُوَجِّهُوا مَلَكَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّة لِلْعِلْمِ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ، فَيَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ، وَيَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَىٰ إِيمَانِهِم.

التدبُّر التحليلي:

- ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿٢٥﴾﴾:

أي: كَذَّبَ كُفَّارُ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ قَبْلِهِمْ، رُسُلَ رَبِّهِم، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاؤوهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِم.

- ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يُوَجَّهُ لَهُمُ الْعِلَاجُ فِي السُّورَةِ، وَهُمُ المُعَانِدُونَ المُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل.

﴿.. فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وَأُنْذِرُوا بِعَذَابِ رَبِّهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، وَاسْتَمَرُّوا مُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَارْتِكَابِهِمْ جَرَائِمَهُمْ، فَأَتَاهُمْ مَا أُنْذِرُوا بِهِ وَهُوَ مَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ تَعْذِيبَهُمْ وَإِهْلَاكَهُمْ بِهِ، مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، إِذْ هُمْ كَانُوا نَائِمِينَ، أَوْ فِي غَفَلَاتِهِمْ يَلْعَبُونَ أَوْ يَلْهُونَ.

حَيْثُ: ظَرْفُ مَكَانٍ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الضَّمِّ، وَقَدْ تُفْتَحُ الثَّاء. وَقَدْ يَرِدُ ظَرْفَ زَمَانٍ. وَالغَالِب كَوْنُهُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَىٰ أَنَّهُ ظَرْفُ مَكَان. وَجَاءَ هُنَا فِي مَحَلِّ جَرٍّ بِحَرْفِ الجَرّ «من».

أي: وَجَاءَهُمْ مَا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ مَكَانٍ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ، إِلَّا أَنَّهُمْ فِيهِ آمِنُون.

الشُّعُورُ بِالشَّيْءِ: قَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الْعِلْمِ بِهِ، فَالَّذِي لَا يَشْعُرُ بِالشَّيْءِ لَا يَكُونُ لَدَيْهِ أَقَلُّ عِلْمٍ بِهِ.

- ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .. ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فَجَعَلَهُمُ اللهُ يُحِسُّونَ بِآلَامِ الْعَذَابِ الَّذِي صُبَّتْ عَلَيْهِمْ وَسَائِلُهُ،

إِحْسَاساً شَدِيداً، نَظِيرَ إِحْسَاسِ حَاسَّةِ الذَّوْقِ بِمَا تَكْرَهُ مِنْ مَذُوقَاتٍ، وَجَعَلَهُمْ يُحِسُّونَ أَيْضاً بِآلَامِ الْخِزِي الَّذِي حَلَّ بِهِمْ، إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَوْ جُثِيّاً عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَقدْ كَانُوا يَمْشُونَ بَيْنَ أَقْوَامِهِمْ مُخْتَالِينَ مُسْتَكْبِرِينَ، فَصَارُوا أَذِلَّاءَ مُهَانِينَ مُحْتَقَرِين.

﴿..وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ .. ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وَتَأَكَّدُوا أَنَّ مَا سَوْفَ يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وَخِزْيٍ فِي الآخِرَةِ أَكْبَرُ مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيا.

﴿..لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: لَوْ كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ يَعْلَمُوا الحَقَّ وَيَعْمَلُوا بِهِ، لَما أَلْقَوْا نُفُوسَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ هَـٰذَا المَصِيرِ الوَخِيمِ.

فَاعْتَبِرُوا أَيُّهَا الكَافِرُونَ المُكَذِّبونَ، وَاسْتَعْمِلُوا عُقُولَكُمْ فِيمَا خُلِقَت مِنْ أَجْلِهِ.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ العَاشِرِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الزُّمَرِ). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دروس سورة (الزُّمر) الآيتان (٢٧ و٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

تَمْهِيد:

فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مُتَابَعَةٌ لِلْحَدِيثِ عَنِ القُرْآنِ، الَّذِي جَاءَ طَرَفٌ مِنْهُ:

(١) في الآيَتَيْنِ (١ و٢) مِنْ هَـٰذِهِ السُّورَة.

(٢) وَفِي الآيَة (٢٣) وَكَانَ البَيَانُ فِيهَا مُشْتَمِلاً عَلَىٰ سَبْعِ قَضَايَا.

التدبّر التحليلي:

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ العَظِيمِ مُؤَكِّداً بِعِبَارَة: ﴿وَلَقَدْ﴾ الَّتِي فِيهَا اللَّامُ الوَاقِعَةُ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ عَلَىٰ مَا يَذْكُرُ المُعرِبُونَ، وَفِيْهَا حَرْفُ «قَدْ» الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ التَّحْقِيقِ، مُرَاعَاةً لِحَالِ المُسْتَهِينِينَ بِعَظَمَةِ القُرْآن.

﴿..ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ..﴾:

أي: ذَكَرْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ يُقَاسُ عَلَيْهِ للاعْتِبَارِ، أَوْ لِمَعْرِفَةِ حُكْمٍ دِينِيٍّ فِي قَضِيَّةٍ لَهَا أَشْبَاهٌ وَنَظَائِرُ، يُقَاسُ عَلَيْهَا، أَوْ لِتَقْرِيبِ حَقِيْقَةِ مَوْجُودٍ غَيْرِ مَشْهُودٍ، بِذِكْرِ مَشْهُودٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَاسَ عَلَيْهِ، أَوْ بِتَشْبِيهِ أَمْرٍ مَعْنَوِيٍّ بِأَمْرٍ آخَرَ يُدْرَكُ بِالْحِسِّ لِتَقْرِيبِ إِدْرَاكِ حَقِيْقَتِهِ وَإِدْرَاكِ النَّتَائِجِ الَّتِي يَؤُولُ إِلَيْهَا.

المَثَل: يُطْلَقُ عَلَىٰ الشَّيْءِ الَّذِي يُضْرَبُ لِشَيْءٍ آخَر لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ شَبِيهُهُ، فَيُدَّعَىٰ أَنَّهُ مِثْلُهُ.

وَالمُرَادُ بِالتَّعْمِيمِ الوَارِدِ بِعِبَارَة: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أَنَّ كُلَّ قَضِيَّةٍ هِيَ مِنَ القَضَايَا الدِّينِيَّةِ، وَلَهَا أَشْبَاهٌ وَنَظَائِرُ تُقَاسُ عَلَيْهَا. قَدْ ضَرَبَ اللهُ مِنْهَا مَثلاً أَوْ أَكْثَر لِيُقَاسَ عَلَيْهِ أَشْبَاهُهُ وَنَظَائِرُهُ، فَيُعْطَىٰ لِلْمَقِيسِ مِنَ النَّتِيجَةِ أَوِ الْحُكْمِ، مِثْلُ مَا ثَبَتَ لِلْمَقِيسِ عَلَيْهِ.

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ حُجِّيَّةِ الْقِيَاسِ، أَقْوَىٰ وَأَجْلَىٰ مِنَ الأَدِلَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا عُلَمَاءُ أُصُولِ الْفِقْهِ عَلَىٰ حُجِّيَّتِهِ.

أَصْلُ الضَّرْبِ تَوْجِيهُ شَيْءٍ لِشَيْءٍ آخَرَ بِقُوَّةٍ حَتَّىٰ يَصْطَدِمَ بِهِ، وَلَمَّا كَانَتْ صِنَاعَةُ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ تَتِمُّ عَنْ طَرِيقِ ضَرْبِ صَفَائِحِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ بِقَوَالِبَ حَدِيدِيَّةٍ صُلْبَةٍ حُفِرَتْ فِيهَا أَمْثِلَتُهَا، أَوْ ضِمْنَ قَوَالِبَ يَدْخُلُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، قَالُوا: ضَرَبَ فُلَانٌ الدَّرَاهِمَ أَوِ الدَّنَانِيرِ، أي: طَبَعَ مَعْدِنَهُمَا عَلَىٰ المِثَالِ المَحْفُورِ فِي القَالِبِ.

ثُمَّ حَصَلَ تَوَسُّعٌ فِي مَعْنَىٰ الضَّرْبِ، فَقَالُوا: ضَرَبَ مَثَلاً، أي: ذَكَرَ مَثَلاً، أَوْ صَنَعَ مَثَلاً، أَوْ نَحو ذَلِكَ.

هَـٰذِهِ الصِّفَةُ هِيَ مِنْ عَجَائِبِ صِفَاتِ القُرْآنِ المَجِيدِ، الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُشْتَمِلاً عَلَىٰ كُلِّيَّاتِ الدِّينِ وَمَقَاصِدِهِ، بِصَرِيحِ العِبَارَةِ، أَوْ بِلَوَازِمِهَا الفِكْرِيَّةِ، وَمَطْوِيَّاتِها، أَوْ بِقِيَاسِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ عَلَيْهَا، وَتَأْتِي بَعْدَهَا بَيَانَاتُ الرَّسُولِ ﷺ.

- ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

أيْ: رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرَ المَوْضُوعُونَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

وَالمُرَادُ بِالتَّذَكُّرِ فِي الاصْطِلَاحِ القُرْآنِي، أَثَرُهُ فِي نُفُوسِ المُتَذَكِّرِينَ وَقُلُوبِهِمْ، وَمَا يَنْجُمُ عَنْ هَـٰذَا الْأَثَرِ مِنْ سُلُوكٍ دِينِيٍّ نَفْسِيٍّ وَجَسَدِيٍّ يَتَحَقَّقُ بِهِ رِضْوَانُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

«**لَعَلَّ**» أَصْلُ مَعْنَاهَا الرَّجَاءُ، وَلَازِمُهُ الرَّغْبَةُ فِي تَحَقُّقِ الْمَرْجُوّ، فَيُحْمَلُ فِي العِبَارَاتِ الَّتِي لَا يَلِيقُ فِيهَا مَعْنَىٰ الرَّجَاءِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرَّغْبَة.

- ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِ هَـٰذَا القُرْآنِ قُرْآناً عَرَبِيّاً، مُنَزَّلاً بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، مِنَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

لَفْظ «قُرْآن» هُوَ فِي الأَصْلِ مَصْدَرٌ لِفِعْلِ «قَرَأَ»، يُقَالُ لُغَةً: «قَرَأَ فُلَانٌ الْكِتَابَ يَقْرَؤُه، قِرَاءَةً، وَقُرْآناً» أي: تَتَبَّعَ كَلِمَاتِهِ نَظَراً، وَنَطَقَ بِهَا.

وَأُطْلِقَ لَفْظ «الْقُرْآن» فِي الاصْطِلَاحِ الدِّينِيِّ عَلَىٰ الكَلَامِ المُنَزَّلِ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَلَىٰ خَاتَمِ رُسُلِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَىٰ سَائِرِ رُسُلِ اللهِ وأَنْبِيَائِهِ أَجْمَعِينَ.

- ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾: وَصْفٌ لِـ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

الْعِوَجُ: بِكَسْرِ الْعَيْنِ عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ فِي الأَشْيَاءِ المَعْنَوِيَّةِ، كَالفِكْرِ، وَالقَوْلِ، وَالمَذْهَبِ، وَمِنْهَاجِ السُّلُوكِ.

أي: فَهَـٰذَا القُرْآنُ المُنَزَّلُ عَلَىٰ خَاتَمِ المُرْسَلِينَ مُحَمَّد ﷺ، مُسْتَقِيمٌ عَلَىٰ صِرَاطِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالفَضَائِلِ وَكُلِّ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ وَصَايَا وَأَحْكَام وَنَصَائِحَ، غَيْرُ صَاحِبِ عِوَجٍ مَا فِي أَيِّ بَيَانٍ مِنْ بَيَانَاتِهِ مَهْمَا كَانَ كُلِّيّاً أَوْ جُزْئِيّاً، وَشَوَاهِدُ الدِّرَاسَاتِ المُخْتَلِفَاتِ الَّتِي اعْتَنَتْ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ تُقَرِّرُ أَنَّهُ لَا عِوَج فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ، وَهَـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ العَلِيْمِ الحَكِيم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ يُنْهُوا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، لِيَتَّقُوا عَذَابَ اللهِ يومَ الدِّين.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الحَادِي عَشَر مِنْ دُرُوسِ سُوْرَةِ (الزُّمَرِ). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٦)

التدبر التحليلي للدّرسِ الثاني عشر من دُروس سُورَة (الزُّمر) الآية (٢٩)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

القراءات:

- قرأ ابن كثير، وَأَبُو عَمْرو، ويَعْقُوب: **[سَالِماً]**. وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿سَلَماً﴾.

«سَالِماً» و«سَلَماً» بِمَعْنَىٰ «خَالِصاً» فَمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ وَاحِد.

تَمْهِيد:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ عَوْدٌ إِلَىٰ مُعَالَجَةِ المُشْرِكِينَ، بِأُسْلُوبٍ إِقْنَاعِيٍّ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ اسْتِثَارَةِ جَانِبٍ نَفْسِيٍّ لَدَىٰ الْإِنْسَانِ المُشْرِكِ، بِسُؤَالِهِ: أَيُّهُمَا أَكْرَمُ وَأَفْضَلُ لَهُ، أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكاً عَابِداً لِمَعْبُودٍ وَاحِدٍ، أَمْ أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكاً لِمَالِكِينَ مُتَعَدِّدِينَ مُخْتَلِفِينَ مُتَشَاكِسِينَ، وَمَطْلُوباً مِنْهُ أَنْ يَكُونَ عَابِداً لَهُم جَمِيعاً؟!.

إِنَّ الْأَكْرَمَ وَالْأَشْرَفَ لَهُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِمَعْبُودٍ وَاحِدٍ بَدَاهَة.

أي: فَمَا هِيَ الْخِسَّةُ وَالضَّعَةُ الَّتِي رَضِيَ المُشْرِكُونَ بِهَا لِنُفُوسِهِم بِاخْتِيَارِهِمْ الحُرِّ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِمَا زَعَمُوهُ مِنْ آلِهَةٍ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الحَقِيْقَةِ، بَلْ هُمْ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ افْتَرَوْهَا عَلَىٰ اللهِ وَعَلَىٰ الْحَقِيْقَةِ، أَوْ أَسْمَاءٌ وَهْمِيَّةٌ سَمَّوها لَا وُجُودَ لِمُسَمَّيَاتِهَا فِي الوَاقِع.

التدبّر التحليلي:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا . . .﴾: سَبَقَ في الدرس «الحادي عشر» بَيَانٌ تَحْلِيلي للمثلِ وَلِضَرْبِ المثلِ.

والمثلُ الَّذي جَاءَ فِي هَـٰذَا الدَّرْس «الثَّانِي عَشَر» مَثَلٌ إِقْنَاعِيٌّ للتَّنْفِيرِ مِنَ الشِّرْكِ، بِاسْتِثَارَةِ دَافِعِ الكَرَامَةِ فِي نَفْسِ المُشْرِكِ.

- ﴿. . رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ . .﴾:

﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾: أي: مُتخالِفُونَ مُتعاسِرُونَ.

أي: ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً: رَجُلاً مَمْلُوكاً اشْتَرَكَ فِي مِلْكِهِ شُرَكَاءُ مُتَخالِفُونَ مُتعاسِرُونَ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِخدَماتِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْحَظِّ الأَكْثَرِ مِنْهَا، فَهَـٰذَا يَنْهَرُهُ لِيَخْدُمَهُ، وَذَاكَ يَنْهَرُهُ لِيَخْدُمَهُ، وَذَلِكَ يَنْهَرُهُ لِيَخْدُمَهُ، وَلَا يَتَّفِقُونَ عَلَىٰ مُهايَأَةٍ مَا بَيْنَهُمْ.

- ﴿. . وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ . .﴾: وَفِي القِرَاءَةِ الأُخْرَىٰ **[سَالِماً]**.

يُقَالُ لُغَةً: «الشَّيْءُ سَلَمٌ لِفُلَان» أي: خَالِصٌ لَهُ. ويُقَالُ: «سَالِمٌ لَهُ» بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ، أي: خَالِصٌ لَهُ أَيْضاً. فَمُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِد.

- ﴿. . هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا . .﴾: أي: هَلْ يَسْتَوِيَانِ وَصْفاً.

أَرَىٰ أَنَّ المَثَلَ هُنَا فِي هَـٰذِهِ العِبَارَةِ بِمَعْنَىٰ الوَصْفِ. قَالَ الْجَوْهَرِي: «وَمَثَلُ الشَّيْءِ صِفَتُهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا . . ﴿٣٥﴾﴾[1]: أي: صِفَةُ الْجَنَّةِ.

فَالمَعْنَىٰ: هَلْ يَسْتَوِي هَـٰذَانِ الرَّجُلَانِ فِي الْوَصْفِ؟.

وَالْجَوَابُ الَّذِي يُجِيبُ بِهِ كُلُّ عَاقِلٍ رَشِيدٍ بَدِيهَةً هُوَ: لَا يَسْتَوِيَانِ وَصْفاً، فَمَنْ كَانَ عَبْداً لِمَالِكٍ وَاحِد، لَا يُنَازِعُهُ فِي مِلْكِهِ أَحَدٌ، أَكْرَمُ وَأَشْرَفُ لَهُ مِنَ الآخَرِ الَّذِي يَخْضَعُ لِشُرَكَاءَ يَمْلِكُونَهُ، وَهُمْ فِيهِ مُتَشَاكِسُونَ، مُتَخالِفُونَ مُتَنَازِعُون.

وَهُنَا يُقَالُ لِلْمُشْرِكِينَ: كَيْفَ تَجْعَلُونَ نُفُوسَكُمْ عَبِيداً لِآلِهَةٍ مُتَعَدِّدِينَ، تَتَوَزَّعُ أَوْقَاتُكُمْ لِعِبَادَةِ هَـٰذَا فَهَـٰذَا فَذَاك. بَيْنَمَا رَبُّكُمُ الْخَالِقُ لَكُمْ، الَّذِي يُمِدُّكُمْ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، هُوَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ.

---

(١) من سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول).

كَيْفَ تَسْقُطُونَ بِاخْتِيَارِكُمُ الْحُرّ فِي هَـٰذَا الحَضِيضِ العَفنِ الْوَخِيم، الَّذِي يَتَرَفَّعُ عَنْهُ ذَوُو الكَرَامَةِ، وَأَهْلُ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ، وَيَتَنَزَّهُونَ مِنَ الاقْتِرَابِ مِنْهُ؟؟.

هَـٰذِهِ حُجَّةٌ إِقْنَاعِيَّةٌ مُسْكِتَةٌ، لَا رَدَّ لَهَا مِنْ قِبَلِ الْمُشْرِكِينَ، وَهِيَ مَسْبُوقَةٌ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ بِحُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ، تُثْبِتُ أَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللهُ، فَلَا إِلَٰهَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ.

وَإِذْ سَكَتَ الْمُشْرِكُ وَلَمْ يَجِدْ جَوَاباً فَعَلَىٰ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَقُولَ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَة:

- ﴿... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٢٩﴾﴾: أي: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي آتَانَا الْحُجَّةَ الْمُسْكِتَةَ الدَّامِغَة، فَنَصَرَ الحَقَّ بِهَا.

وَجَاءَ فِي آخِرِ الْآيَةِ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: بَلْ أَكْثَرُ الْمُشْرِكِينَ لَا يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ، لِأَنَّ أَهْوَاءَهُمْ تَدْفَعُهُمْ لِلتَّمَسُّكِ بِالْبَاطِلِ.

«بل» هنا ابتدائية، ومعناها الإضرابُ الانتقالي.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الثَّانِي عَشَر مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الزُّمَرِ). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِه.

* * *

(١٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (الزُّمر)

الآيات من (٣٠ ـ ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى

جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

تَمْهيد:

بَدَأَ هَـٰذَا الدَّرْسُ بِخِطَابِ اللهِ لِرَسُولِهِ مُحمّد ﷺ بِأَنَّهُ مَيِّتٌ، وبِأَنَّ كُلَّ الْأَحْيَاءِ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَيِّتُون.

وَانْتَقَلَ الْبَيَانُ بَعْدَ هَـٰذِهِ التَّوْطِئَةِ إِلَىٰ خِطَابِ اللهِ النَّاسَ بِشَأْنِ يَوْم الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَخْتَصِمُون، وَكَانَ قَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ مَشَاهِدَ مِنَ التَّخَاصُمِ بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَتْبَاعاً، وَبَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا أَئِمَّةً لَهُمْ، وَيَحْرِصُ الأَتْبَاع أَنْ يُحَمِّلُوا أَئِمَّتَهُمْ مَسْؤُولِيَّة إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ، وَيَتَبَرَّؤ الَّذِينَ كَانُوا أَئِمَّة مِنْ مَسْؤُولِيَّةِ إِضْلَالِ الَّذِينَ كَانُوا أَتْبَاعاً لَهُم.

وَجَاءَ فِي هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ، أَو كَذَّبَ بِالصِّدْقِ الَّذِي جَاءَ عَنِ اللهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ الصَّادِقِين، بِخِلَافِ أَحْوَالِ الرُّسُلِ الصَّادِقِين، والمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقين، فَثَوَابُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين عَظِيمٌ جَسِيمٌ.

التدبر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وَهُوَ خَاتَمُ المُرْسَلِينَ أَنَّهُ مَيِّتٌ كَسَائِرِ الْأَحْيَاء، لِيَفْهَمَ النَّاسُ جَمِيعاً أَنَّ اللهَ لَا يَخُصُّ أَحَداً مِنْ عِبَادِهِ مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ، بِالْخُلُودِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَالْمَوْتُ قَضَاءٌ مُبْرَمٌ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى الْأَحْيَاءِ جَمِيعاً فِي هَـٰذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِأَنَّهَا حَيَاةُ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، فَنِظَامُهَا قَائِمٌ عَلَىٰ انْتِهَاءِ الحَيَاةِ فِيهَا بِالْمَوْتِ لِكُلِّ حَيٍّ.

أَمَّا الحَياة الأُخْرىٰ بَعْدَ البَعْثِ فَهِيَ حَياةُ جَزاء، وَهِيَ حَياة خُلُودٍ وبَقَاءٍ، لِمَنْ كَانُوا فِي الحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعِيْنَ مَوْضِعَ الابْتِلاءِ، وَلِذُرِّيَّاتِهِمْ الَّذِينَ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا سِنَّ التَّكْلِيفِ، ولِحَيٍّ شَاءَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَهُ خالداً.

وَأَمَّا الأَحْيَاءُ الَّتِي لَمْ يَجْعَلْهَا الله مُمْتَحَنَةً فِي الحَياة الدُّنْيا بالإِيمَان بِالغَيْبِ، وَبِالإِسْلَام وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّ الله يَبْعَثُها لِيُقِيمَ عَدْلَهُ بَيْنَهَا فِي التَّظَالُم، ثُمَّ يُمِيتُها، وَيَقُولُ لَهَا كُونِي تُرَاباً.

وَتَوْكِيد الجُمْلَةِ لُوحِظَ فِيهِ صَرْفُ أَوْهَامِ بَعْضِ المُؤْمِنِينَ عَنْ تَوَهُّمِ أَنَّ مُحَمّداً ﷺ لَا يَتَعَرَّضُ لِلْمَوْتِ.

وَقَدْ جَاءَ هَـٰذَا البَيَانَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَوْطِئَة لِلْحَدِيثِ عَنِ الْبَعْثِ الَّذِي جَاءَ فِي الآيَة التَّالِيَة:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِلنَّاسِ جَمِيعاً بَعْدَ أَنْ أَبَانَ أَنَّهُم مَيِّتُونَ:

- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾:

﴿تَخْتَصِمُونَ﴾: أي: يُخَاصِمُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وَهَـٰذَا الاخْتِصَامُ يَشْمَلُ بِعُمُومِهِ مَا بَيْنَ الْخُصَمَاءِ مِنْ حُقُوقٍ كَانَ قَدْ ظَلَمَ بَعْضُهُمْ فِيْهَا بَعْضاً، فِي الْأَمْوَالِ، أَوِ الأَنْفُسِ، أَوِ الأَعْرَاضِ، أَوْ غَيرِ ذَلِكَ.

وَيَشْمَلُ أَيْضاً التَّخَاصُمَ بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَتْبَاعاً ضَالِّين، وَبَيْنَ قَادَتِهِمْ وَأَئِمَّتِهِمْ، إِذْ كَانُوا يُطِيعُونَهُمْ وَيَأْتَمِرُونَ بِأَوَامِرِهِم، وَيُنَفِّذُونَ مَكَايِدَهُمْ، وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الآيَة (٣٣) مِنْ سُورَة (سَبأ/ ٥٨ نزول) وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُها.

جَاءَ التَّعْبِيرُ بِحَرْفِ الْعَطْفِ (ثُمَّ) لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْفَاصِلِ الزَّمَنِيِّ المُتَرَاخِي، بَيْنَ المَوْتِ وَبَيْنَ المُثُولِ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ وَالْفَصْلِ الرَّبَّانِيَّة يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ الْبَعْث.

وَجَاءَ التَّعْبِير بِعِبَارَة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لِأَنَّ قِيَامَ الْمَوْتَىٰ مِنْ نَوَيَاتِهِمْ الْمُتَنَاثِرَةِ فِي الْأَرْضِ أَحْيَاءً يَكُونُ فِيْهِ. وَيُسَمَّىٰ «يَوْمَ الدِّين» إِذْ يَكُونُ فِيْهِ الجَزَاءُ الرَّبَّانِيُّ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاء. وَيُسَمَّىٰ «يَوْمَ الْفَصْلِ» إِذْ يَكُونُ فِيْهِ فَصْلُ الأَحْكَامِ بَيْنَ العِبَاد. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَاء، أَخْذاً مِنْ أَحْدَاثٍ تَجْرِي فِيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً فَرِيقَيْنِ هُمْ مِنْ أَظْلَمِ الظَّالِمِينَ، مَعَ الإِشْعَارِ بِأَنَّ مَكَانَهُمُ الدَّائِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ فِي جَهَنَّمَ:

● ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾؟.

الاسْتِفْهَامُ فِي ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا أَحَدَ أَشَدُّ ظُلْماً مِنْ هَـٰذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ المَذْكُورَيْنِ فِي الْآيَة:

الْفَرِيْق الْأَوَّل: مَنْ كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ، فَادَّعَىٰ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ رَسُولٌ أَوْ تَلَقَّىٰ عَنِ اللهِ كَذَا، أَوْ حَكَمَ بِحُكْمٍ فِي الدِّينِ زَاعِماً أَنَّهُ مِنْ دِينِ اللهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ مَقْبُولٌ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ، أَوْ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ الصَّحِيحَةِ، وَمِنْ هَـٰذَا الفَرِيْقِ المُشْرِكُون وَمَنْ هُمْ أَخَسُّ مِنْهُم.

الْفَرِيْق الثَّاني: مَنْ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ عَنِ اللهِ، بِبَلَاغِ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ، أَوْ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ الثَّابِتَةِ بِيَقِينٍ.

وَبِمَا أَنَّ هَـٰذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الْكَافِرِين، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَتَوَعَّدَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْعَذَابِ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ، الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ وَعَذَابِهِمْ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين:

● ﴿... أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾؟.

جَهنَّم: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ فِيْهَا الْكَافِرِينَ، وَالْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّين، وَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ، لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيْثِ.

وَلَفْظُ «جَهَنَّمَ» يُطْلَقُ لُغَةً عَلَىٰ الْقَعْرِ الْبَعِيدِ مِنْ وَادٍ أَوْ بِئْرٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

مَثْوَىً: أي: مَكَانُ إِقَامَةٍ وَاسْتِقْرَارٍ. يُقَالُ لُغَةً: «ثَوَىٰ بِالْمَكَانِ، يَثْوِي، ثَوَاءً، وَثُوِيّاً» أي: أَقَامَ بِهِ وَاسْتَقَرَّ.

والمعنى: أَقِرُّوا أَيُّهَا الْمُتَلَقُّونَ الْمُسْتَمِعُونَ آيَاتِنَا هَـٰذِهِ، أَلَمْ نُعْلِمْكُمْ فِي سَوَابِقِ التَّنْزِيلِ، أَنَّ الْكَافِرِينَ سَوْفَ نَجْعَلُهُمْ فِي جهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، ثَاوِينَ مُقِيمِينَ مُسْتَقِرِّينَ خَالِدِينَ، يُعَذَّبُونَ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ فِيْهَا، وَمِنْهُ عَذَابُ الْحَرِيقِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً فَرِيقَيْنِ آخَرَيْنِ مُقَابِلَيْنِ لِلْفَرِيقَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَهُمْ عَلَىٰ دَرَجَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، بَدْءاً مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ، وَارْتِقَاءً فِي الدَّرَجَاتِ وَالْمَرَاتِبِ حَتَّىٰ قِمَّةِ دَرَجَاتِ الْمُحْسِنِين:

• ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

• ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ﴾: هُمْ أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ عَلَيْهِم السَّلام، وَحَمَلَةُ رِسَالَاتِهِمُ الصَّادِقُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، هَـٰؤُلَاءِ هُمُ الفَرِيقُ الْأَوَّل.

• ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: أي: وَصَدَّقَ بِالصِّدْقِ الَّذي جَاءَ بِهِ أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُله عَلَيهِم السَّلام، وَحَمَلَةُ رِسَالَاتِهِمُ الصَّادِقُونَ مِنْ أَتْبَاعهم، وَهَـٰؤُلَاءِ هُمُ الْفَرِيقُ الثَّانِي.

وَكُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَشْمَلُهُمْ عُمُومُ عُنوان: «المتَّقِين»، لأنَّ «التَّقْوَىٰ» هِي

الْمَرْتَبَةُ الدُّنيا مِنْ مَرَاتِبِ المؤمِنين، وهِيَ ذَاتُ دَرجَات، وَفَوْقَهَا تَأْتِي مَرْتَبَةُ «الْبِرّ» عَلَىٰ دَرجَاتِهَا الْمُتَفَاضِلَات، وَفَوْقَ مَرْتَبَةِ «الْبِرِّ» تَأْتِي مَرْتَبَةُ «الْإِحْسَانِ» وَهِيَ قِمَّةُ مَرَاتِبِ أَهْلِ الإِيمان، وَهِي أَيْضاً ذَاتُ دَرجَات.

وَلَا يَتحقَّقُ الارْتِقَاءُ إِلَىٰ الْمَرْتَبَةِ الْأَعْلَىٰ إِلَّا مِنْ خِلَالِ التَّحقُّقِ بِالْمَرْتَبةِ الْأَدْنَىٰ.

الْمَعْنَىٰ: وَفِي مُقَابِلِ الْفَرِيْقَيْنِ السَّابِقَيْنِ الدَّاخِلَيْنِ تَحْتَ عُنْوَانِ «الْكَافِرِين» أَصْحَابِ جهَنَّم، يُوجَدُ فَرِيقَانِ آخَرَانِ يَشْمَلُهُمَا عُنْوان «المتَّقِين».

الْفَرِيقُ الْأَوَّل: الَّذِي جَاءَ النَّاسَ يُحَدِّثُهُمْ بِالصِّدْقِ عَنِ اللهِ وَعَنْ دِينِ اللهِ وَأَحْكَامِ شَرِيْعَتِهِ لِعِبَادِهِ، دَاعِياً هَادِياً مُبَلِّغاً مُرْشِداً.

وَيَنْطَبِقُ هَـٰذَا الْوَصْفُ عَلَىٰ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِم السَّلَام، وَيَنْطَبِقُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ وَأَئِمَّةِ الْمُتَّقِين.

الْفَرِيقُ الثَّانِي: عَامَّةُ الْمُؤْمِنِين الصَّادِقِينَ فِي إِيمانِهِمْ وَإِسْلَامِهِم، الَّذِينَ صَدَّقُوا بِالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي بَلَّغَهُ رُسُلُ اللهِ، وَأَنْبِيَاؤُهُ عَلَيهِم السَّلام، وَدُعَاةُ الْهُدَىٰ وَأَئِمَّةُ الْمُتَّقِين مِنْ أَتْبَاعِ رُسُلِ اللهِ، وَهُمْ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَتْبَاعُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، الَّذِينَ أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ، غَيْرَ غَالِينَ، وَلَا مُحَرِّفِينَ، وَلَا مُبْتَدِعِينَ.

وَكِلَا هَـٰذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ فِي هَـٰذَا الدَّرْس:

﴿.. أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: أُولَئِكَ رَفِيعُو الْمَكَانَةِ عِنْدَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ يَصْدُقُ عَلَيْهِمُ الْعُنْوَانُ الْعَامُّ الشَّامِلُ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ «الْمُتَّقُونَ»، أي: الَّذِينَ اتَّقَوا بِإِيمَانِهِم الصَّادِقِ وَبِإِعْلَانِهِمْ إِسْلَامَهُمْ أَنْ تَكُونَ جَهَنَّمُ مَثْوَاهُم، بِخِلَافِ

الْفَرِيقَيْنِ الْمُنْحَطَّيْنِ السَّافِلَيْنِ الَّذِينَ يَشْمَلُهُمْ عُنْوَانُ «الْكَافِرِين».

وَهَـٰؤُلَاءِ «الْمُتَّقُون» يَدْخُلُونَ الْجَنَّة يَوْمَ الدِّينِ، وَلَوْ بَعْدَ مُجَازَاتِهِم عَلَىٰ مَعَاصِيهِمْ كُلِّها أَوْ بَعْضِها، إِذَا لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِنِينَ، أَوْ الْأَبْرَارِ أَوْ كَامِلِي التَّقْوَىٰ، أَوْ مِنَ الَّذِينَ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ خَطَايَاهُم لِعِلْمِهِ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ مِنْ خَيْرٍ.

وَبَعْدَ دُخُولِ هَـٰؤُلَاءِ الْجَنَّة:

- ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ .. ﴿٣٤﴾﴾:

كَمَا سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورة (ق/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هَـٰذَا النَّصِّ لَدَىٰ تَدبُّر سُورَةِ (ق).

وَيَجْزِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِثْلَ هَـٰذَا الجَزَاءِ الْمُقَرَّر لِعُمُوم الْمُتَّقِينَ، الْأَبْرَارَ وَالْمُحْسِنِينَ، لِأَنَّهُمْ مُتَّقُونَ وَزِيَادَة، فَيَأْخُذُونَ مَع الْمُتَّقِينَ الجَزَاءَ الْمُخَصَّصَ لَهُمْ، وَيَنَالُ الْأَبْرَارُ مَا يُعْطِيهِمُ الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ زِيَادَاتٍ لِبِرِّهِمْ وَتَوَسُّعِهِم فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ وَمَرَاضِي اللهِ، وَيَرْفَعُ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ بِمَا يُلَائِمُ مَا قَدَّمُوهُ مِنْ أَعْمَالِ بِرٍّ زَائِدَةٍ عَلَىٰ مَطْلُوبَاتِ مَرْتَبَةِ «الْمُتَّقِين». وَيَنَالُ الْمُحْسِنُونَ مَا يُعْطِيهِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ زِيَادَاتٍ لِإِحْسَانِهِم، مَعَ مَا يَنَالُونَهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ وَالأَبْرَارِ، لِأَنَّهُمْ مُتَّقونَ، وَأَبْرَارٌ، وَزَادُوا عَلَىٰ مَطْلُوبَاتِ الْمَرْتَبَةِ الدُّنْيَا وَالْوُسْطَىٰ مَا هُو مِنْ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، فَاسْتَحَقُّوا عَطَاءَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثَةِ.

وَاقْتَصَرَ النَّصُّ فِي السُّورَةِ الجَارِي تَدَبُّرُها، عَلَىٰ ذِكْرِ الْمُحْسِنِين، فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿... ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الَّذِي يَنالُهُ عُمُومُ الْمُتَّقِين، يَنالُهُ الْمُحْسِنُونَ أَيْضاً مَعَ زِيادَاتٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ، بِسَبَبِ ارْتِقَائِهِمْ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ، إِذْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الله كَأَنَّهُمْ يرَوْنَه، وَيُفْهَمُ مِنْ هَـٰذَا أَنَّ الْأَبْرَارَ الَّذِينَ هُمْ فَوْقَ الْمُتَّقِينَ وَدُونَ الْمُحْسِنِينَ لَهُمْ مِثْلُ مَا لِلْمُتَّقِينَ مَعَ زِيَادَاتٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ بِسَبَبِ ارْتِقَائِهِم إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، إِذْ كَانُوا يَسْتَزِيدُون مِنَ الْقُرُبَاتِ فَوْقَ فِعْلِ الوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَات.

أَمَّا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَقِبَ ذِكْرِ الْمُحْسِنِين:

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

فَهُوَ تَعْلِيلٌ لِمَطْوِيٍّ فِي النَّصِّ تَقْدِير مَعْنَاهُ فِيمَا أَرَىٰ: وَيَخُصُّ اللهُ «الْمُحْسِنِين» أي: أَصْحَاب مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ الْعُلْيَا الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بِعُيُونِهِم، بِجَزَاءٍ فَوْقَ مَا يَشَاؤُونَ وَفَوْقَ مَا يَتَصَوَّرُونَ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ ضِمْنِ الْمَوْضُوعِينَ لِلْمُحَاسَبَةِ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ، لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا فَمَا دُونه مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ، وَلِيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ الصَّالِحَاتِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، بِجَزَاءٍ يُسَاوِي الجَزَاءَ الْمُقَرَّرَ لِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَىٰ اللهِ، بِسَبَب أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مُحْسِنِين.

وَبِهَـٰذَا تَمَّ تَدَبّر الدَّرْس الثَّالِث عَشَر مِنْ دُرُوسِ سُورَة (الزُّمر).
وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ.

* * *

(١٨)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيتان (٣٦ و٣٧)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

القراءات:

(٣٦) ● قرأ حمزة، والكسائي، وأبو جعفر: [**عِبَادَهُ**] بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**عبده**﴾ بالإفراد.

والمؤدَّىٰ واحد، لأنَّ النكرة المضافَةَ إِلىٰ المعرفة تَعمُّ.

وقد يكون المرادُ بِالإفراد الرَّسُول، وبالجمع أتباعُهُ المؤمنون المسلمون، فيكون بَيْنَ القراءتَيْنِ تَكامُلٌ فِي أداء المَعْنَىٰ المراد.

تَمْهِيد:

تُشْعِرُ الآيَةُ الْأُولَىٰ مِنْ هَـٰذَا الدَّرْسِ أَنَّ كُبَرَاءَ مُشركي مكة كَانُوا يُدَبّرون مَكايِدَ للتّخَلُّص مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، ويَضْطَهِدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ويُخَوِّفُونَ الرَّسُول ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ مِنْ أنْ تُنْزِلَ بِهِم آلِهَتُهُمْ بَأْساً أَوْ ضُرّاً أَوْ شَرّاً، فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَمِيعِ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَام التَّقْرِيرِيّ أَنَّهُ كافٍ عَبْدَهُ وَعِبَادَهُ، يحْمِيهِمْ مِنْ كلِّ سُوءٍ لا يَقْضِيْهِ أوْ يأذَنُ بِهِ، فَهُوَ الرَّبُّ الذي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ كُلِّ شَيءٍ، والمُهَيمِنُ بِصِفَاتِ رُبُوبيَّته على كلِّ شَيء. وَبَعْدَ هَـٰذَا الاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيريّ لَوَّحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلَّذِينَ يُخَوِّفُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه بِآلِهَتِهِمْ، بِأَنَّهُ بِعِزَّتِهِ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، بَعْدَ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهِم بِالضَّلَالِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِهِ الانْتِقَام، فَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ فَلَا أَحد يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِالْهِدَايَةِ، وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ.

التدبّر التّحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ .. ﴿٣٦﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: **[عِبَادَهُ]**.

أي: تَفَكَّرُوا فِي عِزَّةِ الرَّبِّ ذِي الانْتِقَام، ثُمَّ أَجِيبُوا عَلَىٰ هَـٰذَا السُّؤَال أَيُّهَا المُشْرِكُون الَّذِينَ تُدَبِّرُونَ المَكَايِدَ للتَّخَلُّص مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه، وَأَنْتُم تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أَلَيْسَ اللهُ الْعَظِيم الكَبِيرُ، الحَكِيم الْقَدِيرُ، الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمّداً ﷺ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَكْفِي عَبْدَهُ، وَيَكْفِي عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه، مَكَايِدَكُمْ وَتَدْبِيراتِكُمْ وَشُرُورَكُمْ بِمَا شَاءَ مِنْ حِمَايَةٍ يَحمِيهِ بِهَا، وَلَوْ بِإِهْلَاكِ مُدَبِّرِي المَكَايِدِ والمُحَرّضِين عَلَيْهَا مِنْ كُبَرَائِكُمْ؟؟.

والجواب: إنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَكْفِيَ رَسُولَهُ ﷺ وَالَّذِين آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه كُلَّ شُرُورِكم، فَيَحْمِيَهُمْ مِنْها.

الاسْتِفْهَامُ فِيه مَعْنَىٰ التقرير، وفيه معنىٰ الاسْتِهَانَةِ بِمُدَبّرِي المكايد، وتَهْدِيدِهِمْ بالانْتِقَام، وَعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ تَحْقِيقِ مَا يُرِيدُون مِنْ شَرٍّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاللهُ كَافِيه، ولا بعبادِهِ المؤمنين الصَّادِقِين مِنْ أَصْحَابِهِ.

الباء في «بِكَافٍ» زيدَت للتوكيد في خَبَرِ ليس، والأكثر في خَبَرِ لَيسَ زيادة الباء.

- ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾: أي: بِحَافِظٍ عَبْدَهُ وَحَامِيهِ، مِنْ كَيْدِ أَعَادِيه.

أي: فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ حَافِظُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ وحَامِيهِ مِنْ مَكَايِدِكم، مَهْمَا دَبَّرْتُمْ وَمَكَرْتُمْ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِه ﷺ:

﴿. . وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ . . ﴿٣٦﴾﴾:

أي: ويُخوِّفُكَ المشْرِكُونَ بِآلِهَتِهِمْ الّذِين يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، أَنْ تُنْزِلَ بِكَ مَكْرُوهاً أو انْتِقاماً، لِأَنَّكَ تَذْكُرُ أَنَّها باطِلَة، وبأَنَّها لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَلِأَنَّكَ تُسَفِّهُ أَحْلَامَ عَابِدِيها، وَتُنْذِرُهُمْ بِعَذَابٍ فِي جَهَنَّمَ يَوْم الدِّين، خَالِدِينَ فِيها أبداً.

ورَدَ في أقوال بعض المفسرين: أنَّ قُرَيشاً قَالُوا لرسُول اللهِ ﷺ: «إنَّا نَخَافُ أَنْ تَخْبِلَكَ آلِهَتُنا، وإنَّا نَخشَىٰ عَلَيْكَ مَعرَّتَها لِعَيْبِكَ إِيَّاهَا».

«أن تَخْبِلَكَ آلِهتُنا»: أي: أَنْ تُفسِدَ عقْلَكَ، وتُذْهِبَ فُؤادَك.

«مَعرَّتَهَا»: أي: أذاها، ومَكْرُوهاً يَأْتِيكَ مِنْ قِبَلِها.

وقد سبَقَ في سورة (الأنْعَام/ ٥٥ نزول) بَيانُ أَنَّ قَوْمَ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ خَوَّفُوه بانْتِقَامِ آلِهَتِهِمْ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُمْ مَا دَلَّ عليه قول اللهِ تَعالَىٰ فيها:

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

فَدلَّ هَـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ أفكَارَ المشْرِكينَ وَطَرائِقَهُمْ مُتَشَابِهَةٌ، وَلَوْ عَقَلَ مُشْرِكُو مَكَّة لَاكْتَفَوْا بِمَا سَبَقَ بَيانُهُ عَنْ إبراهِيم عَلَيْهِ السَّلام، وَلَمْ يُخَوِّفُوا رَسُولَهُم مُحمّداً ﷺ بِآلِهَتِهِمْ، فَجَوابُهُمْ عَلَىٰ هَـٰذَا التَّخْوِيف هُوَ الجوابُ نَفْسُهُ، الَّذِي سَبَقَ أَنْ أجابَ بِهِ إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ مُشْرِكي قَوْمِهِ، ولكِنَّهُم عِنادِيُّون، وَبِباطِلِهِمْ مُسْتَمْسِكُون.

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ تَعْقِيباً عَلَىٰ هَـٰذَا الموقف مِنْ مَواقِفِ المشركين الَّذِي كانُوا عَلَيْهِ إِبَّانَ التَّنْزِيل:

- ﴿... وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾:

- ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُم اللهُ عَلَيْهِ بأَنَّهُ ضَالٌّ، لِأَنَّهُ اجْتَازَ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِ ضَالّاً باختيارِهِ الحرِّ، فاسْتَحَقَّ الْعِقاب.

- ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: أي: فَمَا لَهُ مِنْ حَاكمٍ يَحْكُمُ لَهُ بأَنَّهُ كَانَ مُهْتَدِياً في رِحْلَةِ امْتِحَانه، لِيَرْفَعَ اللهُ عَنْهُ الْعِقَابَ الَّذِي اسْتَحَقَّهُ.

الإِضْلَالُ والْهِدَايَةُ: مُسْتَعْمَلَانِ هُنَا بمَعْنَىٰ الْحُكْمِ بالضَّلَالِ، والْحُكْمِ بالْهِدَايَةِ، بالاسْتِنَادِ إِلَىٰ وَاقِعِ حَالِ المحْكُومِ عَلَيْهِ أَوْلَه(١).

- ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ..﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُم اللهُ لَهُ بالْهِدَايَةِ، فيسْتَحِقُّ بحُكْمِ اللهِ وقَضَائِهِ دُخُولَ الجنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، خالداً فِيها مُخَلَّداً مُنَعّماً أبداً، فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَةِ، لِيَحْجُبَ عَنْهُ فَضْلَ رَبِّهِ عَلَيْه بالنَّعِيم المقيم.

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

والمعنى: فَلَا يَطْمَعِ المشْرِكُونَ بأَنْ تَصْنَعَ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ شَيْئاً، فَتَدْفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ إذا حَكَمَ بِهِ عَلَيْهِم، أَوْ تَجْلُبَ لَهُمْ مَنْفَعَةً مَا، إذا قَضَىٰ اللهُ أَنْ يُمْسِكَها عَنْهُمْ.

- ﴿.. أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾: اسْتِفْهامٌ يُرادُ بهِ إثْبَاتُ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَام، وهو اسْتِفْهامٌ تَقْرِيري بِالنِّسبَةِ إلى مَنْ يُؤمِنَ بِهَـٰذا، وفي هذِه العبَارة تَلْوِيحٌ لِلْمُعَالجين المعاندين بأَنْ يَتَرَقَّبُوا عِقَابَ الله لهم.

بِعَزِيزٍ: أيْ: بقَوِيٍّ غَالِبٍ، لَا نِدَّ لَهُ، ولَا تَمْتَنِعُ عَنْ تَنْفِيذِ إرادَتِهِ قُوةُ مَا فِي الوجود كُلِّهِ بَالغاً ما بَلَغَت.

---

(١) انظر القاعدة (٣٧) حول علاقات إسناد الفعل أو ما في معناه في كتاب: «قواعد التدبُّر الأمْثَل لكتاب اللهِ عَزَّ وَجلّ» للمؤلِّف.

ذي انْتِقَامٍ: أي: ذي عُقُوبَةٍ بِالْعَدْل. **الانْتِقَامُ**: الْعُقُوبَةُ.

وَبِهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الرَّابع عشر مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الزُّمَر). وَالحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيْقِهِ وَفَتْحِه.

* * *

(١٩)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس عشر من دُروس سورة (الزُّمَر) الآيات من (٣٨ ـ ٤٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

القراءات:

(٣٨) • قرأ حَمْزَة: [**إِنْ أَرَادَانِيْ اللهُ**] بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرَة بِفَتْحِ يَاءِ المتكلم: ﴿**إن أرادنيَ الله**﴾.

(٣٨) • قرأ أَبو عَمْرو، وَيَعْقُوبُ: [**كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ**] و[**مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ**] بتَنْوِينِ الْأَوّلِ مِنْ كُلٍّ مِنَ الْعِبارَتَيْن، وَنَصْبِ الثاني على أَنَّهُ مَفْعُولٌ به لاسم الفاعل.

وقرأهُمَا باقِي الْقُرَّاءِ العشرةِ، بدُونِ تَنوِينِ الْأَوّلِ مِنْ كُلٍّ مِنْهُما وبِجَرّ الثاني من كلٍّ مِنهما على أَنَّهُ مُضَافٌ إِلَيْهِ.

وَالقراءتَانِ وَجْهَانِ عَرَبيَّانِ مُتكَافِئَان.

(٣٩) ● قرأ شعبة: [مَكَانَاتِكُمْ] بالجمع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿مكانتكم﴾ بالْإفراد.

ومُؤَدّىٰ القراتَيْن واحد.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ جَدَلِيٌّ وإقْناعِيٌّ، مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، يُوجَّهُ للمشْرِكين، وهـٰذا التَّعْلِيمُ مُكَمِّلٌ لِمَا جَاءَ مِنْ تَعْلِيمٍ في سَوَابقِ التَّنْزِيلِ.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِه بِشَأْنِ المشْرِكين إبَّانَ التَّنْزِيل:

● ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... ﴿٣٨﴾﴾:

كَانَ المشْرِكُونَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ يُؤْمِنُونَ بأَنَّ اللهَ هُوَ خَالِقُ السَّماواتِ والأرْضِ، ولٰكنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ بالنِّسْبَةِ إلى أَحْوَالِ النَّاسِ في الأَرْض، وَبِسَبَبِ هَـٰذَا يَعْبُدُونَ شُرَكَاءَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، فَيَتَّخِذُونَهُمْ آلِهَةً.

فجاء التَّعْلِيمُ هُنَا لانْتِزَاعِ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ اللهَ هُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وللانْتِقَالِ مِنْ هـٰذا الاعْتِرَافِ إلَىٰ فِكْرَةٍ أُخْرَىٰ يَرَوْنَ بِهَا أَنَّ لِآلِهَتِهِمْ رُبُوبِيَّةً ما علَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي الأَرْضِ.

■ وفي الانْتِقَالِ إلَىٰ المرحلَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ المناظَرَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الخطاب:

- ﴿... قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: إِنَّكُمْ أيُّها المشْرِكُون تُؤمِنُونَ بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ، ولا تَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي هَـٰذَا الْقِسْمِ مِنْ أَقْسَامِ رُبُوبيَّتِهِ، لكِنَّكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ تَجْعَلُونَ للهِ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبيَّتِه، كَقَضَايا الرِّزْق، والذُّرِّيّة، والْأَمْنِ، والنَّصْرِ عَلَىٰ الْأَعْدَاء، والتوفيق في الرِّحْلَاتِ التجارية، ونحو ذَلِكَ.

هُنَا أَطْرَحُ عَلَيْكُمُ السُّؤالَ التالي:

إِنْ أَرَادَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ أَنْ يُنْزِلَ بِي ضُرّاً أَكْرَهُهُ، فَهَلْ آلِهَتُكُمْ قَادِرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَكْشِفَ عَنِّي مَا أَنْزَلَ بِي مِنْ ضُرٍّ؟. وإِنْ أَرادَ أَنْ يُنْعِمَ عَلَيَّ بِنِعْمَةٍ هِيَ من آثَارِ رَحْمَتِهِ، فَهَلْ آلِهَتُكُمْ قَادِرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تُمْسِكَ عَنِّي نِعْمَتَهُ، فَتَمْنَعَهَا عَنِي؟. تَفَكَّرُوا وأَجِيبُونِي.

فإِنْ قَالُوا: إِنْ أَرادَ اللهُ أَنْ يُنْزِلَ بِكَ أَوْ بِغَيْرِكَ ضُرّاً فَلَا أَحَدَ يَكْشِفُهُ غَيْرُهُ، وإِنْ أَرادَ أَنْ يُنْعِمَ عَلَيْكَ أَوْ على غَيْرِكَ بِنِعْمَةٍ، فَلَا أَحَدَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُمْسِكَهَا وَيَمْنَعَها، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الحجَّةُ بِأَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ، بِمَا في ذَلِكَ أَحْوَالُ النَّاس، وَعِنْدَئِذٍ يَلْزَمُهُم حَتْماً أَنْ يُؤْمِنُوا بأَنَّهُ لَا إِلَٰه إِلَّا هو.

ويَتَحَقَّقُ المطْلُوبُ مِنَ المناظَرَة.

وَإِنْ قَالُوا: إِنَّ لِآلِهَتِهِمْ تَأْثِيراتٍ فِي كَشْفِ الضُّرِّ أَوْ إِمْسَاكِ النِّعْمَة، فإِنَّ باسْتِطَاعَةِ المناظِرِ لَهُمْ أَنْ يَأْتِي بِذِي ضُرٍّ، ويَتَحَدَّاهُمْ بِأَنْ يَدْعُو آلِهَتَهُمْ لِكَشْفِ الضرِّ عَنْه، ولَنْ تَسْتَجِيبَ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ لِعَجْزِها، وَباسْتِطَاعَتِهِ بأَنْ يأتِي بِذِي نِعْمَة، وَيَتَحَدَّاهُمْ بأَنْ يَدْعُو آلِهَتَهُمْ لإمْسَاكِ نِعْمَةِ اللهِ عَنْه، ولَنْ تَسْتَجِيبَ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ لِعَجْزِها.

وعِنْدَئِذٍ يُغْلَبُ الْمُشْرِكُونَ، ويتحقّقُ المطْلُوبُ مِنَ المناظَرة.

وهُنَا يُعْلِنُ المنَاظِرُ المؤمِنُ الداعي إلَىٰ مَقَالَته الإيمانيَّة، كَما جَاءَ في التعليم الرَّبَّاني فيقول:

﴿... حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾: أي: كافٍ لِيَ اللهُ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَهُو الرَّبُّ الَّذِي يُغْنِي كُلَّ كائِنٍ فِي الْوُجُود عَمَّا سِوَاهُ، وَلَسْتُ بِحَاجَةٍ إلَىٰ الاستعانَةِ بأحَدٍ لَا عَوْنَ عِنْدَهُ مِن دُون الله، وآلِهَتُكُمْ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ بَاطِلَةٌ، لَا رُبُوبِيَّةَ لها، فَلا إلَهِيَّةَ لَهَا، لِذَا فَأَنَا أَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ في كُلِّ أُمُوري وشُؤُوني وأحْوَالي.

﴿.. عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: عَلَيْهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ يَتَوكَّلُ المتَوكِّلُونَ مِنْ أَهْلِ الإيمان والْعَقْلِ والرُّشد، الَّذِينَ يَنْفَعُهُمْ تَوَكُّلُهُمْ.

التوكُّلُ علَىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إِلَيْهِ، وتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ وَتَحْقِيق مَا يَرْغَبُ فِيه المتوكّل، مع القيامِ بالْأَسْبابِ المسْتَطَاعَةِ الماديَّةِ وَالْمعنَوِيَةِ طَاعَةً لِأَمْرِه ونَهْيِه.

يُقَالُ: «تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ» أي: اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ اعْتِمَاداً صَادِقاً، مُسْتَسْلِماً لِمَا يَخْتَارُهُ لَهُ مِنْ أَمْر، مع قيامِهِ بالْأَسْبَاب الكَوْنِيَّةِ الَّتِي لم يُحَرِّمِ اللهُ اتِّخَاذَها، دُونَ تَفْرِيطٍ بشيءٍ مِنْها.

اسْتُفِيدَ القصرُ من تقديم المعمول: ﴿عَلَيْهِ﴾ على عَامِلِه: ﴿يَتَوَكَّلُ﴾.

و«ال» في: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لِلْكَمَال، والْكَامِلُونَ مِنْهُمْ هُم المؤمنُون أهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ الَّذِينَ يَنْفَعُهُمْ تَوَكُّلُهم.

أَمَّا الَّذِين يَتوَكَّلُونَ عَلَىٰ آلِهَةٍ مِنْ دُون اللهِ فإِنَّهُمْ خائِبُونَ، لَا يَنْفَعُهُمْ تَوَكُّلُهُمْ شَيْئاً، بَلْ يَجْعَلُهُمْ شِرْكُهُمْ كُفَّاراً مَحْكُوماً عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار.

وَإذا أَصَرَّ المشْرِكُونَ علَىٰ مَوْقِفِهِمْ الشِّرْكي الْعِنَادِيّ الّذي قَامَتِ الحجَّةُ علَىٰ بُطْلَانِهِ، كَانَ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ فَكُلِّ داعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّته، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ مَا جَاءَ فِي خِتَامِ التَّعْلِيم، وهو قول الله التالي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيم:

- ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

الْمَكَانَة: مُؤَنَّثُ الْمَكَان، والمرادُ بعبارَةِ: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ الموقفُ الشِّرْكيُّ الَّذي يُصِرُّونَ عَلَىٰ مُلَازَمَتِهِ مَعَ ظُهُورِ بُطْلَانِه، وَلَا يَتَزَحْزَحُونَ عَنْه.

وفي القراءة الأخرى **[مَكَانَاتِكُمْ]** أي: مَوَاقِفُكُم الشركية.

المعنىٰ: قلْ لَهُم إذَا أصَرُّوا علَىٰ شِرْكِهِمْ عَلَىٰ الرُّغْم مِنْ ظُهُورِ فَسَادِ مَذْهَبِهِمْ: اعْمَلُوا مَا تَشَاؤُونَ مُحَافِظِينَ علَىٰ مَوْقِفِكُمُ الشِّرْكيّ الباطل أو مَواقِفِكُمْ، إنّي عَامِلٌ بِمَا يَطْلُبُهُ مِنّي إيماني بِرَبِّي الَّذي لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَلَازِمٌ مَكَانِي فِيه، لَا أَتَزَحْزَحُ عَنْهُ.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مَنْ يَأْتِيهِ مِنْ رَبِّه عَذَابٌ يُخْزِيهِ ذُلّاً وَهَوَاناً فِي مَوْقِفِ الحشْرِ فَمَا بَعْدَه، وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ لَا يَرْحَلُ عَنْه، أَيْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَنَالُونَ هَـٰذا الْمَصِير الوخيم.

الخِزْيُ: الذُّلُّ والْهَوَانُ، والافتضاح بالقبائحِ، مَعَ آلامِ التَّعْذِيب.

- ﴿.. وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾: أي: وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ، حَالّاً بِهِ حُلُولَ النَّازِلِ بالمكانِ للإقامَةِ والاسْتِقرار.

يُقالُ لُغةً: «حَلَّ المكَانَ، وحَلَّ بِهِ، يَحِلُّ، حُلُولاً» أي: نَزَلَ بِهِ.

وَتَنْتَهِي جَوْلَاتُ هٰذِه المناظَرَةِ الحِوَارِيَّةِ بِهٰذا، ويَتَفَاصَلُ الْفَرِيقان.

وبهذا يَنْتَهِي هَٰذا الدَّرْسُ الخامس عشر من دُروس سورة (الزُّمر).

والحْمدُ للهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(٢٠)

التدبّر التحليلي للدرس السادس عشر من دُروس سورة (الزّمر)

الآية (٤١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسُوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

الْقِرَاءات:

- قرأ حَمْزَة، ويَعْقُوبُ: **[عَلَيْهُمْ]** بِضَمِّ الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة بكسْرِ الْهَاءِ: **[عَلَيْهِمْ]**.

تَمهيد:

في هذه الآية مُتَابَعَة للحديث عن القرآن، الَّذي جاءت لقطاتٌ عَنْهُ فيما يلي:

(١) في الآيتين (١ و٢) من هذه السورة.

(٢) وفي الآية (٢٣) وكان البيانُ فيها مشتملاً على سبْعِ قضايا.

(٣) وفي الآيتين (٢٧ و٢٨).

وفي آيَةِ هذا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ القرآنَ أُنْزِلَ لِلنَّاسِ مُتَّصِفاً بالحقِّ.

التدبر التحليلي:

■ قول اللهِ تعالى خطاباً لرسوله:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ . . .﴾:

يتَحَدَّثُ رَبُّنَا بضَمِير المتكلّم الْعَظِيم إشْعَاراً بِمَكَانَةِ الْقُرآن الْجَلِيلَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ عَلِيم حَكِيم، فَيَقُولُ لرسوله ﷺ: إنَّا بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِنَا العظيمةِ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الكِتَاب القرآنِ، وَسَنُتِمُّ تَنْزِيلَ سَائِرِ آيَاتِه، لِتُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ لِأَنَّكَ رَسُولُنَا للنَّاسِ أَجْمَعِين، وَقَدْ أَنْزَلْنَاهُ مُتَّصِفاً بِالْحَقّ فِي بَيَانَاتِهِ الخبريَّةِ عَنِ الماضِي والحاضِرِ والمستقْبَلِ، وَمُتَّصِفاً بالْحَقِّ فِي أَحْكَامِهِ الْعَدْلِيَّة، وَمُتصِفاً بِالْحَقِّ فِي بَيَانِ العِبَاداتِ الَّتِي تُرْضِيهِ تَعالى مِنْ عِبَادِه، فَكُلُّ مَا فِيهِ مُتَّصِفٌ بِالْحَقّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُوله ﷺ:

- ﴿. . .فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾:

أي: فَمَنِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، فاهْتَدَىٰ بِهَـٰذِهِ الاسْتَجَابَةِ لِمَا يُحَقِّقُ بِهِ لِنَفْسِهِ السَّعَادَةَ الْخَالِدَةَ، فَلِنَفْسِهِ جَلَبَ رِضْوَانَ اللهِ، والنَّعِيمَ الأَبَدِيَّ فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّين، مَعَ طِيبِ عَيْشٍ فِي الحياة الدُّنيا بالرِّضَا عَنِ اللهِ وَمَقَادِيره.

ومَنْ لم يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْها الْقُرْآن، فَضَلَّ بِرَفْضِهِ الاستِجَابَةَ، عَنِ الطَّرِيق الَّذِي يُوصِلُهُ إِلَىٰ السَّعَادَةِ الْخَالِدَة، فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ شَقَاءً أَبَدِيّاً، وخُلُوداً فِي عَذَاب النَّارِ يَوْم الدِّين.

- ﴿. . .وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾: أي: وما جَعَلْنَاكَ قَائِماً عَلَىٰ النَّاسِ مُلْزَماً بِحِمَايَتِهِمْ، وتَحْوِيلِهِمْ مِن الكُفْرِ إِلَىٰ الإِيمَانِ، كالْوَكِيلِ عَلَىٰ

قُطْعَانِ الْأَنْعَام، إنَّمَا أَنْتُ مُبَلِّغٌ رِسَالَةَ رَبِّكِ، وقائِم بوظَائِفها فَقَطْ، إِذِ النَاسُ ذَوُو إرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وهُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا مُمْتَحنُونَ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَحمَّلُوا تَبعَاتِ اخْتِيَارَاتِهِمْ، فإمَّا أَنْ يَجْلبُوا لِنُفُوسِهِمْ ثَواباً، وإمَّا أَنْ يَجْلُبُوا لِنُفُوسِهِمْ عِقَاباً وعَذاباً أَليماً عِنْدَ رَبهِمْ يَوْمَ الدين.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْس السادس عشر من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على مَعُونَتِه ومَدَدِه وتوفيقِهِ وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢١)

التدبّر التحليلي للدرس السابع عشر من دُروس سورة (الزُّمر)

الآية (٤٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

القراءات:

● قرأ حمْزَةِ، والكِسَائِي، وخَلَف: [**الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ**] بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بالبناء لِلْمَعْلُوم: ﴿**الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ**﴾.

أي: قَضَىٰ اللهُ عليها الموت.

ومُؤَدَّى القراءتَيْنِ وَاحد.

تمهيد:

سبَقَ في الآيتين (٦٠ و٦١) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) بَيَانٌ عَنْ تَوَفِّي الله النَّاسَ بالنَّوم، وعَنْ تَوَفِّيهم بالموت.

ومَا جَاءَ فِي آيَةِ هذا الدَّرْسِ فيه تَوْكِيدٌ وَإِضَافَاتٌ فِكْرِيّة، فَبَيْنَ النَّصَّيْنِ تَكَامُلٌ لَا يَخْفَىٰ علَىٰ مُتَدبِّرِهما معاً.

التدبرُّ التحليلي:

أصْلُ مَادَّةِ «تَوَفَّى، يَتَوَفَّىٰ» ومُشتقَّاتِها يَدُور حَوْل مَعْنَىٰ استيفاءِ المقدارِ الْمُحَدَّدِ، سواءٌ أَكَانَ مُتَّصِلَ الأجزاءِ أمْ مُنْفصلها. وبُلُوغُ غَايَةِ أَفْرادِ الشيءِ أَوْ أجْزَائِهِ الْمُقَدَّرَةِ يَحْصُلُ بِهِ التَّوَفّي.

فيقال: «تَوَفَّىٰ اللهُ فُلاناً» أي: أَعْطَاهُ غَايَةَ الزَّمَنِ المقدَّر لَهُ أَنْ تكُونَ رُوحُهُ مُتَّصِلَةٌ بِنَفْسِهِ اتِّصَالاً كُلّيّاً أَو اتِّصَالاً جُزْئِيّاً، وبالْفَصْلِ الْكَامِلِ يَحْدُثُ الموْتُ، وبالْفَصْل الجزْئِيّ يَحْدُثُ النَّوْمِ.

وقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هذه الآيَةِ من سورة (الزُّمر) أَنَّهُ يَتوفَّىٰ الْأَنْفُسَ وَفَاةً كَامِلَةً حِينَ مَوْتِها، ويَتَوَفَّاها وَفَاةً جُزْئِيَّةً فِي حَالَةِ نَوْمِها.

وَنَفْهَمُ مِنْ هـٰذا البيانِ الرَّبَّانِيِّ أَنَّ النَّوْمَ والْمَوْتَ ظَاهِرتَانِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الرُّوحِ الْمُمِدَّةِ بِالْحَيَاةِ، وبَيْنَ النَّفْسِ الَّتِي تَجْتَمِعُ فيها خَصَائِصُ الْكَائِنِ الْقَابِلِ لِلْحَيَاة.

فإِذَا كَانَ الْفَصْلُ فَصْلاً كُلِّيّاً حَدَثَ الموتُ، فَذَاقَتِ النَّفْسُ الْمَوْتَ، كما قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٨٩ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ .. ﴿١٨٥﴾﴾.

وَإِذَا كَانَ الْفَصْلُ فَصْلاً جُزْئِيّاً يَقْتَصِرُ عَلَىٰ سَلْبِ الْحَرَكَةِ الإرادِيَّةِ حَدَثَ النَّوم.

وقدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي بَيانِهِ القرآنيّ فِعْل «تَوفَّىٰ - يَتَوفَّىٰ» ومُشْتَقَّاتِه للدَّلالَةِ عَلَىٰ مَعْنىً كُلِّيٍّ ذِي نَوْعَيْنِ:

النَّوع الأوَّل: الْفَصْلُ الْكُلِّيُّ بَيْنَ الرُّوح والنَّفْس، وبه يكون الموت.

النوع الثاني: الْفَصْلُ الْجُزْئي بَيْنَ الرُّوح والنَّفْس، وقَدْ يكُونُ ما أجْرَاهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، مِنْ هٰذا النَّوْع.

وقد يَسْتَمِرُّ هَذَا الْفَصْلُ الجزْئِيُّ مِئَاتِ السِّنين، كَمَا حَصَل لِأَهْلِ الكَهْف، واللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ خَلْقاً وَتَصارِيف.

وتَحْلِيلُ الآيَةِ بَعْدَ هٰذا البيان السَّابقِ يَكُونُ على الوجْهِ التالي:

اللهُ يَتوفَّىٰ الأنْفُسَ فَيَمْنَحُها غَايَةَ الأَجَلِ الْمُقَدَّرِ لَهَا في الحياة الدُّنْيا وَافِياً غَيْر مَنْقُوصٍ، ويَتَحقَّقُ هٰذا التَّوَفِّي حِينَ مَوْتِها.

أمَّا الْأَنْفُسُ الَّتِي لَمْ يَنْتَهِ أَجلُ بَقَائِهَا فِي الحياة، فَاللهُ يَتوفَّاهَا تَوَفِّيّاً جُزْئِيّاً بِفَصْلٍ جُزْئِيٍّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرُّوحِ، في حَالَةِ النَّوْم الَّذِي تُسْلَبُ بِهِ الحَرَكَةُ الإرَادِيَّةُ لِذِي الْحَيَاة.

وَغفَوَاتُ النَّوْمِ قَدْ يَنْتَهِي فيها الأَجَلُ المقَدَّرُ لِحيَاةِ الْأَنْفُسِ، فَيُمْسِكُ اللهُ عَنْهَا الإمْدَادَ بِالحيَاةِ إمْسَاكاً كاملاً، إذْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ بانْتِهَاءِ أَجَلِهَا المقَدَّرِ لَهَا في الحياةِ الدُّنيا، فيتَحَقَّقُ الْفَصْلُ الْكُلِّيُّ بَيْنَ الرُّوح والنَّفْس. والَّتِي لَمْ يَنْتَهِ أَجلُهَا الْمُقَدَّرُ لَهَا فِي الحياةِ الدُّنيا، فَيَرْفَعُ عَنْهَا الْفَصْلَ الْجُزْئِيَّ وَيُرْسِلُهَا مِنْ قَيْدِ النَّوْم فَتَصْحُو وَتُمَارِسُ حَرَكَاتِهَا الإرادِيَّة، وتَسْتَمِرُّ هَكَذَا في كُلِّ حَالاتِ النَّوْم، إلَى زَمَنِ انْتِهاءِ أَجَلِ بَقَائِهَا فِي الحياة الدُّنيا، وَهٰذا الْأَجَلُ مَعَيَّنٌ مُحَدَّدٌ مُسَمَّىٰ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضائِهِ للنفوس، فإذَا بَلَغتْهُ تَوفَّاها اللهُ تَوفِّياً كُلِّيّاً، فأمَاتَهَا بالْفَصْلِ الْكُلِّيِّ بَيْنَها وَبَيْنَ أرْوَاحِهَا الَّتي تكُونُ بِهَا ذَاتَ حَيَاة.

وَتَشْمَلُ عِبَارَةُ الْأَنْفُسِ كُلَّ المخْلُوقاتِ الْحَيَّةِ مِنْ أَدْنَاهَا إِلَىٰ أَعْلَاهَا.

- ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: إِنَّ في ذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيم الذي اشْتَملتْ علَىٰ بَيانِهِ هـٰذِهِ الآيَةِ لَآيَاتٍ جَلِيلَاتٍ، علَىٰ قُدْرَةِ الرَّبِّ ـ جلَّ جَلَالُه ـ وعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيء، وإِتْقَانِهِ لِكُلِّ مَا خلَقَ، وحِكْمَتِهِ السَّامِيةِ، وهَيْمَنَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الدَّائِمِ على كُلِّ شَيْءٍ في كَوْنِهِ مَادِيٍّ أَوْ مَعْنَوِيّ، مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ ومِن عَالَم الْغَيْب.

وبهذا تَمَّ تَدبُّر الدَّرْس السَّابع عشر من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِه.

* * *

(٢٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٤٣ ـ ٤٨)

قال الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

القراءات:

(٤٤) • قرأ يَعْقُوب: [**تَرْجِعُونَ**] بالبناء للمعلوم.

وقَرَأها بَاقِي القراء العشرة: ﴿**تُرْجَعُونَ**﴾ بالبناء لما لم يُسَمَّ فَاعِلُه.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ، أي: يُرْجِعُهُم اللهُ تَعالَىٰ فَيَرْجعُونَ مُطَاوِعينَ.

تمهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمُ حِوارٍ إقْنَاعِيٍّ وجَدَلِيٍّ لِلْمُشْرِكين بِشَأْنِ اتِّخاذِهِمْ آلِهَتَهُمْ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ الله.

وفيها بيانُ نُفُورِهِمْ واشمِئْزَازِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَحْدَه، مَعَ تَوْجِيهِ مُعَالَجَةٍ لَهُمْ بِشَأْنِ هَذِهِ الظَّاهِرَة مِنْ سُلُوكهم.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ اتّخاذِ المشركين آلِهَتَهُمْ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ الله:

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾. وفي القراءة الأُخْرَى: [**تَرْجِعُونَ**]:

[**أَمْ**] هذه هي «أم» المنقَطِعَة وهِيَ تُفِيدُ الإضراب الانتقالِيَّ، وفِيها مَعْنَىٰ الاسْتِفْهَام المسْتَأْنَفِ بَعْدَ كَلامٍ تَقَدَّمَ عَلَيْها.

أي: نَنْتَقِلُ مِن الحديثِ السَّابق، ونَتَحَدَّثُ عنِ المشْرِكين الَّذِينَ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ.

سَبَقَ في سورة (يونس/ ٥١ نزول) بيان أنَّ المشركين لَجؤُوا إلىٰ ادِّعَاءِ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ لِيَكُونُوا شُفَعَاءَهُمْ عِنْدَ اللهِ، وَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها رَسُولَهُ ﷺ حُجَّةً يَدْفَعُ بِهَا زَعْمَهُمُ الباطِلَ، فقال اللهُ تَعالَىٰ فيها:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقد سَبَق تَدَبُّرُ هـٰذِه الآيَةِ عِنْدَ مَوْضِعِهَا مِنْ سُورَة (يُونس/ ٥١ نُزُول) وَجَاءَتِ الْحُجَّةُ فِيها حُجَّةً ابْتِدائِيَّة كافِيَةً لِمَنْ لِدَيْهِم تَفْكِيرٌ مَنْطِقِيٌّ سَلِيم.

إِنَّ ادِّعَاءَهُمْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ شُفَعَاءُهُمْ عِنْدَ اللهِ، لَا يَصِحُّ مَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ خَبَرٌ عَنِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، بِأَنَّهُ مَنَحَهُمْ أَنْ يَشْفَعُوا لِمَنْ يَعْبُدُهم، لِكنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ بياناً عَلَىٰ رَسُولٍ صَادِق، وَلَا فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ أَنَّهُ مَنَحَ آلِهَةَ المشْرِكِينَ مِيزَةَ الشَّفَاعَةِ لِعُبّادِهم عِنْدَه، فَقَوْلُهُمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ افتراء منهم على الله، وادعاء كاذب باطل.

إِلَّا أَنَّ الـمشْرِكِينَ قَدْ أَعْجَبَتْهُمْ هـٰذِهِ الذَّرِيعَةُ الْجَدَلِيَّة، فَصَارُوا يُكَرِّرُونَهَا، فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول) تَعْلِيماً جدلِيّاً فِيهِ شِدَّةٌ وَقَسْوَةٌ واسْتِهَانَةٌ بِعُقُولِ المشرِكِينَ، وَأُلْحِقَ هـٰذا التَّعْلِيمُ الْجَدَلِيُّ بِتَعْلِيم إِقْنَاعِيٍّ فِيهِ بَيَانُ أَنَّ الإِذْنَ بالشَّفَاعَةِ حَقُّ اللهِ، وهُو الّذِي يَقْبَلُها أَوْ يَرْفُضُها، فَهِي في الْحَقِيقَةِ مِلْكُهُ، وَلَيْسَ لِأَحْدٍ عَلَىٰ اللهِ حَقٌّ مَا لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ ذٰلِكَ بِوَعْدِهِ الْكريم، وَلَهُ تَبارَكَ وتَعَالَىٰ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْض، وَقَدْ وَضَعَ النَّاسَ في الْحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتحانِ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيما آتاهُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ بَعْدَ الْبَعْثِ للحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

فجاءَ في التعليم الْجَدَلِيّ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: قُلْ لِلَّذِينَ اتَّخذُوا آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُهُم عِنْدَه: أَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَتَزْعُمونَ أَنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ، وَلَوْ كانُوا لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهم شَيْئاً عِنْدَ اللهِ، وَلَوْ

كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ عَقْلاً يَعْقِلُونَ بِهِ مَعْرِفَةً مَا، بالنَّظر إِلَىٰ كَوْنِهِمْ أَصْنَاماً حَجَرِيَّةً أَوْ مَعْدَنِيَّةً أَوْ طِينِيَّة تُمَثِّلُ فِي أَوْهَامِكُمْ ذَوِي أَوْ ذَواتِ قُوىً غَيْبِيَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِنْ عَقْلٍ وَلَا خَبَرٍ عَنِ اللهِ صحيح.

وَجَاءَ فِي التَّعْلِيمِ الإقْنَاعِيّ قولُ اللهِ تَعالىٰ:

- ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: قُلْ لهم: للهِ وَحْدَهُ حَقُّ الشَّفَاعَةِ، هُو الَّذِي يَقْبَلُ شفَاعَةَ الشَّافِعِينَ إنْ شَاءَ، وهُوَ الَّذِي يَرْفُضُهَا إِنْ شَاء، وهُوَ الَّذِي يَأْذَنُ لِمَنْ يَشَاءُ بأَنْ يَشْفَعَ لِمَنْ يَشَاءُ فِيما يَشَاءُ.

فَلَهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً، إِذْناً، وَقَبُولاً، واسْتِجَابَةً لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الشَّافِعينَ، ولِمَنْ يَشَاءُ مِنَ المشْفُوعِ لَهُمْ، وفيما يَشَاءُ مِنْ شَفَاعَات.

﴿جَمِيعًا﴾ حَالٌ باعْتِبَارِ شُمُولِ الشَّفَاعَةِ لِكُلّ العناصر السَّابقة.

وَهٰذِهِ الشَّفَاعَةُ جُزْءٌ مِنْ مُلْكِ اللهِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاواتِ والْأَرْضِ.

وَبِمَا أَنَّ النَّاسَ مُطَالَبُونَ بِأَنْ يُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَه، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وبمَا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنيا حَيَاةُ ابْتِلَاءٍ، وبمَا أَنَّ الجَزَاءَ مُؤَجَّلٌ للحياةِ الْأُخرىٰ، جَاءَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ الْآية:

- ﴿...ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ مُشيراً إِلَىٰ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدِّين.

وَجاء الترتيبُ المتراخِي بحَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» مُطَابقاً لِوَاقِعِ حَالِ يَوْمِ الدّين الّذي سَوْفَ يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَ الْبَعْث.

- ▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً صِفَةً مِنْ صِفَاتِ المشْرِكِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ وهُمْ حاضِرُونَ شَاهِدُون، بخلافِ حَالِهِمْ إِذَا ذُكِرَتْ آلِهَتُهُم:

• ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

اشْمَأَزَّ: أي: تَقَبَّضَ نافراً كَارِهاً ضَائِقاً.

اسْتَبْشَرَ: أي: سُرَّ وفَرِحَ.

المعنى: وَإذا ذُكِرَ اللهُ وحْدَهُ بحُضُورِ المشركين الَّذِينَ نَتحدَّث في السُّورةِ عَنْهُمْ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُمْ مُتقَبِّضَةً نَافِرَةً كارِهةً، وكَذلِكَ كُلُّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، إذْ هُمْ لَا يَطْمَعُونَ فِي ثوابِ اللهِ العظيم، ولَا يَخْشَوْنَ مِنْ عِقَابِهِ الْأَلِيم يَوْمَ الدِّين.

وَإِذَا ذكرَتْ آلِهَتُهُمُ الَّذِينَ يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُون اللهِ، إِذَا هُمْ يُسَرُّونَ ويفْرَحُونَ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مَتعلِّقَةٌ بِمَنَافِعِهِمْ، إذْ هُمْ يُؤْمِنُون بأنَّ لَهُمْ رُبُوبيَّةً في أحْوَالِ النَّاس.

أمَّا ادِّعَاؤهم بأنَّ آلِهَتَهُمْ شُفَعَاؤهُمْ عِنْدَ الله، فَهُو ذَرِيعَةٌ جَدَلِيَّةٌ اتَّخذُوها، إذْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُقِيمُوا الدَّلِيلَ علَىٰ أنَّ آلِهتَهُمْ تَنْفَعُ وَتَضُرُّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه، مَا يُقَابلُ بِهِ هـٰذا الْمَوْقِفَ مِنْ مَواقِفِ المشْرِكِين، بِمَوْقِفٍ إيمانيٍّ إسْلَامِيّ يَغِيظُ المشْرِكِينَ ويَزِيدُ اشمِئزَازَ قُلُوبِهم:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

فَاطر: أي: خالِق ومُوجِد عَلَىٰ نِظامِ الْفَطْرِ، وهو الشَّقُّ والْفَلْقُ. لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شيءٍ هِي الْعَدَمُ، واللهُ هُو الموجِدُ مِنَ الْعَدَم.

الغَيْب: هو مَا غَابَ عَنْ شُهُودِ الْخَلائِقِ كُلِّهِمْ أَوْ بَعْضِهِمْ، أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجلَّ فَلَا شَيْءَ هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ.

الشَّهَادَة: كُلُّ مَا يُدْرَكُ بالحسِّ، وأصْلُ لفظ «شَهَادَة» مَصْدَرُ «شَهِدَ الشَّيْءَ شَهَادَةً»، أي: عاينَهُ ورآه بِحسِّهِ، وأُطْلِقَ عَلَىٰ كُلِّ مَشْهُودٍ يُدْرَكُ بالْحِسِّ.

- ﴿..أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ..﴾: أي: أنْتَ تَفْصِلُ أحْكَامَكَ بَيْنَ عِبادِكَ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيما أَحْسَنُوا بِهِ أَوْ أَسَاؤُوا بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، لِتَجْزِيَهُمْ عَلَىٰ مَا أسْلَفُوا مِنْ أَعْمَالٍ بالثَّوابِ أو بالعقاب.

- ﴿..فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: فيما كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ في الحياةِ الدنيا حياة الابْتِلَاء، من حَقٍّ وَباطلٍ، وَخَيْرٍ وَشَرٍّ، وَطَاعَةٍ لله وَمَعْصِيَةٍ له، وَأَفْعَالٍ حَسَنَةٍ وَأَفْعَالٍ سَيِّئَة.

وَبعْدَ أَنْ يَفْصِلَ اللهُ حُكْمَهُ فِيمَا كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُم بِحَسَبِهِ، ضمْنَ قَاعِدَتَي الْفَضْلِ لِلْمُحْسِنِينَ، وَالْعَدْلِ لِلْمُسِيئين.

المعْنَى: دَعْهُمْ تَشْمَئِزّ قُلُوبُهُمْ كَمَا يَحْلُو لَهُمْ، وَتَوجَّهْ لِرَبّكَ دَاعِياً قائلاً: اللَّهُمَّ يا خَالِقَ السَّمَاواتِ والأَرْضِ على نِظَامِ الْفَطْرِ مِنْ نُقْطَةِ الْعَدَمِ، وَيا عَالِمَ كُلِّ غَيْبٍ عَنْ خَلَائِقِكَ كُلِّهِمْ أَوْ بَعْضِهِمْ، وَيا عَالِمُ كُلِّ مَشْهُودٍ لِخَلَائِقِكَ كِلِّهُمْ أَوْ بَعْضِهُمْ، أَنْتَ وَحْدَكَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ يَوْمَ القِيامَةِ، لَا يُشارِكُكَ فِي حُكْمِكَ أَحَدٌ، فَتَفْصِلُ فِي أحْكامِكَ بَيْنَهُمْ فيما كَانُوا فِي حَيَاة الامْتِحانِ يَخْتَلِفُونَ فِيه، مِنْ مَكْسُوبَاتِهِم الإرادِيَّة مِمَّا يُرْضِيكَ ومِمَّا لَا يُرْضِيكَ، وَبعْدَ فَصْلِ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ تُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِهِ ثواباً أَوْ عِقَاباً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي خِتَامِ هَـٰذَا الدَّرْسِ مُبَيِّناً حَالَ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ يَوْمَ الدِّينِ:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا

لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٤٨﴾:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ..﴾: أي: ولو أنَّ لِكُلِّ واحِدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ المقْصُودِينَ بِالْعِلَاجِ فِي السُّورَةِ، وسَائِرِ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، الَّذِين يَحْكُمُ اللهُ بِعَذَابِهِمْ خالِدِينَ فِي جَهَنَّمَ، مِلْكَ:

- ﴿..مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ ..﴾: أي: كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَمْوَالٍ وَكُنُوزٍ وَقُوىً وَكُلَّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ.

- ﴿..لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ..﴾:

- ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾: أي: لَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ وأَكْثَرَ لَقَدَّمُوهُ فِداءً، لِيُنْقِذُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَذَاب، لَكِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شيئاً يَفْتَدُونَ بِهِ، وَلَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ فِداء.

- ﴿..مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ ..﴾ مِنْ شَدِيدِ الْعَذَابِ وَشَاقِّهِ، أَصْلُ العبارَة: من الْعَذاب السُّوء.

- ﴿..وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ٤٧﴾:

أي: وَظَهَرَ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحَكَمِ الْعَدَلِ المحيط بكُلِّ شيءٍ عِلْماً، مَا لَمْ يَكُونُوا يَظُنُّونَ، وَلَوْ ظَنّاً تَوَهُّمِيّاً ضعِيفاً، إِذْ لَمْ يَكونوا يُؤْمِنُونَ بِيَوْم الدِّين، تَصْدِيقاً لِلْمُرْسَلِين، ولِمَا جاءَ في كِتَاب رَبِّ الْعَالَمِينَ.

- ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٤٨﴾.

- ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: أَحَاطَ بِهِمْ ونَزَلَ بِهِمْ وَلَزِمَهُمْ.

يقال لغة: «حَاق بفلانٍ الْأَمْرُ، يَحِيقُ، حَيْقاً، وحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً» أي: لَزِمَهُ، وَوَجَبَ عَلَيْه، ونَزَل به، وأَحَاط به.

- ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: عَذَابُ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَة، الَّذِي كَانُوا بِهِ في الْحَيَاةِ يُكَذِّبُون، وَكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ومِنَ الْمُخْبِرِ بِهِ يَسْخَرُونَ.

أي: وَظَهرَ لَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ، بَعْدَ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ جَزَاءُ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا، فَيَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْبُؤْسِ والْحُزْنِ والنَّدَمِ والذُّعْرِ مِمَّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيهِ ومِن الْهَمِّ الشَّدِيدِ، مَا لَوْ أُلْقِي عَلَىٰ جَبَلٍ ذِي إحْسَاسٍ لتَفَتَّتَ وانْهَار.

وَمَا لَبِثُوا أَنْ أَحَاط بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا في الدُّنْيَا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، إِذْ يُكَبُّونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ فَيَهْوُونَ بَيْنَ وِدْيَانِهَا وَدُخَانِهَا، وَصُنُوفِ الْعَذَابِ الَّتِي فيها.

وبهـٰذَا انْتَهىٰ تَدبُّر الدَّرْسِ الثامن عشر من دُرُوس سورة (الزُّمر).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفيقه وفَتْحِه.

* * *

(٢٣)

التدبّر التحليلي للدّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الزّمر) الآيات من (٤٩ ـ ٥٢)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ مُتَابَعَةُ بيانٍ بِشَأْنِ ذوي الجحود ـ وهم أكْثَرُ النّاسِ ـ الَّذِي جاءَ في «الدَّرْس الرابع» من السّورة وصْفُ حالِ الواحِدِ

مِنْهُم بأنَّهُ يَلْجَأُ إلىٰ اللهِ دَاعِياً إذَا نَزَلَ بِهِ الضُّرُّ، ثُمَّ يَكْفُرُ بِرَبِّهِ، فَيُشْرِكُ به، أَوْ يَدَّعِي أَنَّ ما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ، قَدْ كَانَ بِسَبَبٍ مِنْ مَهَارَتِهِ وعِلْمِهِ، لَا مِنْ عَطَاءاتِ رَبِّهِ لَهُ لِيَبْلُوَهُ فِيمَا آتاه.

وهـٰذا مِنْ شِدَّةِ كُفْرِهِ نِعْمَةَ رَبِّهِ المنْعِمِ دَواماً بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ إحْصَاءَهُ مِنَ النَّعَم.

وسَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ هـٰذَا الْوَصْفِ مِنْ سُلُوكِ أَكْثَرِ الناسِ فيما يلي:

(١) في الآيتين (٦٧ و٦٨) مِنْ سُورَة (الإسْراء/ ٥٠ نزول).

(٢) وفي الآيات من (٢١ ـ ٢٣) من سورة (يونس/ ٥١ نزول).

(٣) وفي الآية (٣٢) من سورة (لقمان/ ٥٧ نزول).

(٤) وفي الآية (٨) من سورة (الزّمر/ ٥٩ نزول) الجاري تدبُّرُها.

مع تكامُلٍ فِكْرِيٍّ وَبَيَانِيٍّ في هـٰذِهِ النُّصُوصِ يَكْشِفُهُ المتدبّرُ بأناةٍ.

التدبّر التحليلي:

■ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ حَالِ الإنْسَانِ الَّذِي يَظْهَرُ في مُعْظَمِ أَفْرَادِه، مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلّم الْعَظِيم:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

- ﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾: أي: أَعْطَيْنَاهُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّفَضُّلِ نِعْمَةً صَادِرَةً مِنْ أَمْرِنَا، وَجَارِيَةً ضِمْنَ أَنْظِمَتِنَا السَّبَبِيَّةِ فِي كَوْنِنَا.

أي: فَلْنَتْرُكِ الحديثَ عَنِ المشركينَ، لِبَيَانِ حَالِ أَكْثَرِ النَّاسِ تُجَاهَ

تَعَامُلِهِمْ مَعَ سُلْطَانِ رُبُوبِيّتِنَا عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ كُلِّ شيءٍ فِي كَوْنِنَا، إنَّهُ كما يلي:

إِذَا مَسَّ الإنْسَانَ أَلَمُ ضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، ولم يَجِدْ وَسِيلَةً سَبَبِيَّةً لِكَشْفِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ ضُرّ، دَعَانا، إِذْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضّرَّ إلّا اللهُ، وَلَا يَجْلُبُ الْخَيْرَ إلّا اللهُ، وَقَدْ نَكْشِفُ عَنْهُ الضُّرَّ ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِنَا، وَلِنُثْبِتَ لَهُ سُلْطَانَ رُبُوبِيّتِنا، وأَنَّنَا نَفْعَلُ مَا نَشَاءُ بِأَمْرِ التكْوين.

وَنَتْرُكُهُ مُدَّةً مُسْتَغْرِقاً فِي مَتَاعَاتِهِ من الْحياةِ الدُّنْيا، ونُمِدُّه عَنْ طَرِيقِ الأَسْبَابِ بِمَا يُمْتِعُهُ مِنْ مَتَاعَاتٍ تَسُرُّهُ.

ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا تفضُّلاً عَلَيْهِ ضِمْنَ أَنْظِمَتِنَا السَّبَبِيَّة، جَحَدَ نِعْمَتَنَا عَلَيْه، وَقَالَ مُتَفَاخِراً بِمَهَارَتِهِ وَعِلْمِهِ باتِّخَاذِ الأَسْبَاب:

مَا أُوتِيتُ هٰذا الَّذِي أَمْلِكُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ أَوْ مَجْدٍ إِلَّا بِمَهارَتِي، وبِكَسْبِي الْقَائِم عَلَىٰ عِلْم بِفُنُونِ الكَسْب، وَمَداخِلِ الحياةِ ومَخَارِجِها، وَطَرَائِقِ الْحِيلَةِ بَيْنَ النَّاسِ لِتَحْقِيقِ مَا أَصْبُو إِلَيْهِ.

فجاء الرَّدُّ الرَّبّاني بِقَولِ اللهِ تَعالىٰ:

- ﴿.. بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ..﴾: أي: لَمْ تَصِلْ إلَيْكَ النِّعْمَةُ بِمَهارَتِكَ وَعِلْمِكِ وَحِيلَتِكَ وَفَرْطِ اجْتِهادِك، بَلْ نَحْنُ مَنَحْنَاكَ إِيَّاهَا لِنَبْلُوَكَ فِيمَا آتَيْنَاكَ، هَلْ تَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ، أَمْ تَكُونُ مِنَ الكَفُورِينَ الْجَحُودِين.

فِتْنَةٌ: أي: امْتِحَانٌ وابْتِلَاء.

- ﴿.. وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: وَلَكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ مَا يَسْتَمْتِعُونَ بِهِ في الحياة الدُّنْيا مِنْ نِعَم، هُوَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ أَلْهَمَهُمْ اتِّخاذَ الأَسْبَاب الكَوْنِيَّة، وَيَسَّرَهَا لَهُمْ، لِيَصِلُوا إلىٰ مَا يُحِبُّونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ، ولِيَبْلُوَهُمْ بِهَا، هَلْ يَكُونون مِنَ الشَّاكِرِينَ، أَمْ يَكُونُونَ مِنَ الكَفُورِين الكَنُودِينِ الجحودين؟.

إنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا هـٰذِهِ الْحَقِيقَةَ، حَتَّىٰ لَا تُقَيِّدَ أَوَامِرُ اللهِ وَنَوَاهِيه حَرَكَتَهُمْ فِي الحياة، فَتَحْرِمَهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ الْجَانِحَاتِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَشَهواتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكُلُّ واحِدٍ مِنَ الكَفُورِينَ يَقُول: إنَّمَا أُوتِيتُ مَا لَدَيَّ عَلَىٰ عِلْمٍ، جَاحِداً فضل الله عليه.

- ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.. ۝٥٠﴾:

أي: قَد قَالَ هـٰذِهِ المقالَةَ الدّالَّةَ علىٰ الجحود والكُنُودِ والاسْتِكْبَارِ، الكَفُورُونَ الَّذِينَ مَرُّوا رِحْلَةَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنْيا مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمِنْهُمْ «قَارُونُ» الَّذِي سَبَقَ بَيَانُ لَقَطَاتٍ مِنْ قِصَّتِهِ في الآيات من (٧٦ ـ ٨٢) مِنْ سُورَة (القَصَص/٤٩ نزول)، فَقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيها أَنَّهُ قَالَ بِشَأْنِ مَا أَتَاهُ اللهُ مِنَ الكُنُوزِ الكَثِيرة:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾ أي: عِنْدَ إهلاكهم في الدنيا.

وَكَانَتْ عُقُوبَةُ قَارُونَ في الدُّنْيَا، أَنْ خَسَفَ اللهُ بِهِ وبِدَارِه الأَرْضَ، لِيَكُونَ عِبْرَةً لأُولِي الأَلْبَاب.

- ﴿.. فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾:

أي: فَمَا كَفَاهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ عِقَابَ اللهِ، مَا جَمَعُوهُ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ، وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ أُوتُوهُ باجْتِهَادِهِمْ الْقَائِمِ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْ إيتاءِ اللهِ لَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

وَقَضَىٰ اللهُ بأنْ يُعَاقِبَهُمْ كَمَا فَعَل بِقَارُونَ، فَاتَّخَذُوا وَسَائِلَ لَمْ تَدْفَعْ عَنْهُمْ شيئاً من نوازل العذاب.

- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟... ۝٥١﴾:

أي: فَأَصَابَهُمْ مِنَ اللهِ عِقَابٌ بَالِغٌ غَايَةَ الْعُمْقِ مِنْ ذَوَاتِهِمْ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَىٰ الْمَسِّ، وَهُوَ عِقَابُ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا في الحياة الدُّنيا مِنْ مَسَاخِطِ اللهِ.

- ﴿.. وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: والَّذِين ظَلَمُوا مِنْ هؤُلَاءِ الْكَفُورِينَ الْمُجْرِمِينَ المعَالَجِينَ فِي السُّورَةِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، وَهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والْعِنَادِ في مَكَّةَ، الَّذِينَ يَكِيدُونَ الرَّسُولَ ﷺ والمؤمِنِينَ، سَيُصِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا مِثْلُ مَا أَصَابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَيَنْزِلُ بِهِمْ عِقَابُ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا، وَمَا هُمْ بِقَادِرِينَ عَلَىٰ الْهَرَبِ والإِفْلَاتِ مِنْ عِقَابِ اللهِ الَّذِي سَيُصِيبُهُمْ.

- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أكانُوا صُمّاً عَمَّا سَبَقَ بيانُهُ فيما أَنْزَلَ اللهُ، وَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ قَبْلَ سُورَةِ (الزُّمر) وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزْقَ ويُكَثِّرُهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِه، وَيُضَيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيَبْلُوَ كُلًّا فيما آتَاهُ.

- ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾: أي: يُوسِّعُهُ وَيُكَثِّرُه.

- ﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ وَيُقَلِّل. يُقَالُ لُغَةً: «قَدَرَ اللهُ عَلَىٰ فُلَانٍ الرِّزْقَ وَقَدَّرَهُ عَلَيْه» أي: ضَيَّقَهُ وَقَلَّلَهُ عَنْ حَاجَاتِهِ وَحَاجَاتِ مَنْ هو مُكَلَّفٌ أَنْ يُنْفِقَ عَلَيْهِمْ.

- ﴿.. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: إنَّ فِي بَسْطِ الرِّزْقِ عَلَىٰ بَعْضِ عِبَادِ اللهِ، وَفِي تَضْيِيقِهِ عَلَىٰ آخَرِينَ لَعَلَامَاتٍ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ هُوَ الْبَاسِطُ وهُوَ المضَيِّقُ، فَكَمْ مِنْ ضَعِيفٍ

الْحِيلَةِ وَالذَّكَاءِ قَدْ وَسَّعَ اللهُ رِزْقَهُ، وَكَمْ مِنْ وَاسِعِ الْحِيلَةِ والذَّكاء وَالمجاهَدَةِ والْكَدْحِ في الكَسْب قَدْ ضَيَّقَ اللهُ رِزْقَهُ.

وَلكِنَّ هٰذِهِ الآيَاتِ يُدْرِكُهَا وَيَتَأَثَّرُ بِهَا الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ وَالْقَلْبِيُّ لأَنْ يُؤْمِنُوا باللهِ وَبِحِكْمَتِهِ، وَلأَنْ يَعْمَلُوا بِمُقْتَضَىٰ إِيمَانِهِمْ، فِي امْتِحَانِ اللهِ لَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَياةِ الدُّنْيا.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الزُّمَر).

والحمدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِه.

* * *

(٢٤)

التدبر التحليلي للدَّرْسِ العشرين من دروس سورة (الزُّمر)

الآيات من (٥٣ ـ ٦٣)

قَال اللهُ عزّ وجل:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ٱللَّهُ خَٰلِقُ

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

القراءات:

(٥٣) ● قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامر، وَعَاصم، وأبو جعفر: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ﴾** بفتح ياء المتكلّم.

وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

(٥٣) ● قرأ أبو عمرو، والكِسَائي، ويَعْقُوب، وخلف: **[لَا تَقْنِطُوا]** بِكَسْرِ النون.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿لَا تَقْنَطُوا﴾** بفتح النون.

وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبِيَّتان.

(٥٦) ● قرأ ابْن جمّاز، وابن وَرْدان بخُلْفٍ عنه: **[يَا حَسْرَتَايَ عَلَىٰ]**.

وقرأها ابن وردان **[يا حَسْرَتَايْ على]** مع المدّ المشبّع.

وقرأها رُوَيْسٌ: **[يَا حَسْرَتَاهْ]** وَقفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ﴾**.

وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّة.

(٦١) ● قرأ رَوْحٌ: **[وَيُنْجِي اللهُ]** مِنْ فعل «أنْجَىٰ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿وَيُنَجِّي اللهُ﴾** مِنْ فعل «نَجَّىٰ».

القراءتان متكافئتان، لأنَّ الفعل المهمُوز أخو الفعل المضعَّف.

(٦١) ● قرأ شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلَف: **[بِمَفَازَاتِهِمْ]** بالجمع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾** بالإفراد.

ومُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد، لأنَّ النكِرَة المضافة إلىٰ المعرفة تَعُمّ.

(٦٢) • قرأ قَالُون، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: **[وَهْوَ]** بإسْكان الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**وَهُوَ**﴾ بضمّ الهاء.

والقراءتان لغتان عَرَبيّتَانِ.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ تَعْلِيم دَعَوِيٍّ من اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وفي هـٰذا البيانِ الدَّعَوِيِّ إطْمَاعٌ بِرَحْمَةِ الله ـ جلّ جَلالُهُ وَعَظُم سُلْطَانه ـ وبأنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً، مع بيانات واعِظَات.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ من أمَّتِه، مُعَلِّماً بياناً دَعَوِيّاً:

• ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾:

• ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ . . .﴾:

أي: قُلْ أيُّها الدَّاعي إلىٰ الله لِلْمُذْنِبِينَ الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا بَعْدُ، وتَأْنَسُ فِيهِمْ لِيناً، وَقَابِلِيَّةً ما لأَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحق: اللهُ يُنَادِيكُم فَيَقُولُ لَكُمْ: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا مُتَجَاوِزِينَ الحدَّ الْمُحْتَمَلَ مِنَ المعَاصِي والآثَام، جَانِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، إذْ جَعَلُوهَا مُسْتَحِقَّةً لِلْعَذَابِ الأَلِيمِ، مِنَ الرَّبِّ الْعَلِيمِ الحكيم.

الإسْرَافُ: الْغُلُوُّ فِي تَجاوُزِ الْحُدُودِ المحْتَمَلَةِ مِنْ أَخْطَاءِ وَخَطَايَا النَّاسِ في تَصَرُّفَاتِهِم الإرَادِيّة.

- ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أي: أَسْرَفُوا جَانِينَ علَىٰ أنْفُسِهِمْ بأنَّهُمُ اسْتَحَقُّوا بجرائمِهِمْ عِقَابَ اللهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ، فالفعل مُضَمَّنٌ مَعْنَىٰ فِعْل: «جَنَىٰ».

- ﴿. . . لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ. . ﴾:

أي: لَا تَيْأَسُوا مِنْ آثار رَحْمَةِ اللهِ إذَا تَعَرَّضْتُّمْ لَهَا بإراداتِكُمْ واسْتَغَثْتُمْ بها، فاسْتَغْفِرُوه يَغْفِرْ لكم، وتُوبوا إلَيْهِ بالإيمان والإسلام يَتُبْ عليكم.

يُقَال لغة: «قَنَط، يقْنُط، وَيَقْنِطُ، وَقَنِطَ، يَقْنَطُ، قُنُوطاً» أي: يَئِسَ يَأْساً شَدِيداً.

- ﴿. . . إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا. . . ﴾:

أي: إنَّ اللهَ يَسْتُرُ جَمِيعَ ذُنُوبِ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَيَتُوبُونَ إلَيْهِ مَا دَامُوا فِي حَيَاةِ الامْتِحَان.

يَغْفِرُ: أي: يَسْتُرُ، ومِنْ لوازم سَتْرِ الذُّنُوبِ التَّجَاوُزُ عَنِ المؤاخَذَةِ عليها. يُقَالُ لغة: «غَفَرَ الشّيءَ يَغْفِرُه» أي: سَتَرَه.

جَمِيعاً: حَالٌ، أي: حَالَةَ كَوْنِ الذُّنُوبِ جَمِيعاً، فَهِيَ تُغْفَرُ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، لِمَنْ آمَنَ وأَسْلَمَ وَتَابَ إلَىٰ رَبِّه.

﴿. . إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾: أي: إِنَّهُ هُو وَحْدَهُ المتَّصِفُ بِكَمَالِ هذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ الْجَلِيلَيْن.

في هٰذِهِ العبارة قَصْرٌ بِتَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنَادِ، وبالتَّأْكيد بِضَمِيرِ الْفَصْل.

الْغَفُور: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعل «الغافر» أي: كَثِيرُ المغْفِرَةِ وَعَظِيمُها.

الرَّحِيم: أي: كثِيرُ الرَّحْمَةِ وَعَظِيمُها وَوَاسِعُها.

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيم الدَّعوِيّ:

- ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

الإنَابَةُ إلىٰ الشيء: الرُّجوعُ إلَيْهِ مَرَّةً فَمَرَّةً، يقال لغة: «أَنَابَ فُلَانٌ إلَىٰ الشَّيْءِ يُنِيبُ» أي: رجعَ إلَيْه مَرَّة بَعْدَ مَرَّةٍ، وَوُصِفَ إيمَانُ الْكَافِرِ وإسْلَامُهُ بأنَّهُ إنَابَةٌ إلَىٰ اللهِ؛ لأنَّ كُفْرَهُ قَدْ كَانَ خُرُوجاً وابْتِعَاداً عَنْ أصْلِ فِطْرَتِهِ الإيمانيّة، فإيمانُهُ وإسْلَامُهُ رُجُوعٌ إلىٰ أَصْلِ فِطْرَتِهِ.

المعنىٰ: وارْجِعُوا إلىٰ رَبِّكُمْ الَّذِي فَطرَكُمْ عَلَىٰ الإيمان، فَآمَنُوا بِكَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ المهَيْمنَةِ بِصِفَاتِها عَلَىٰ كُلِّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الكَوْنِ، لَا يُشَارِكُهُ فيها مُشارِكٌ ما، وَأسْلِمُوا لَهُ مُسْتَسْلِمِينَ عَابِدِينَ، مُذْعِنينَ بأنَّهُ لا إلَهَ إلَّا هُو، وَتَدَارَكُوا أنفُسَكُمْ مِنْ قَبل أَنْ يَأْتِيكُمْ عَذَاب رَبِّكُمْ، جَزَاءَ عِنَادِكُمْ وإصْرَارِكُمْ علَىٰ الشِّرْكِ الباطِل الَّذِي لَا حُجَّةَ لَكُمْ فِيهِ، وَهَـٰذا يَكُونُ لَكُمْ فِي الدُّنيا، ويَكُونُ فِيهِ إهْلَاكُكُم.

ثُمَّ يَأْتِيكُمْ يَوْمَ القيامَةِ عَذَابٌ أَبَدِيٌّ في دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمِين، وَيَوْمَئِذٍ لَا تَجِدُونَ مَنْ يَنْصُرُكُمْ، فَيَمْنَعُ عَنْكُمْ الْخُلُودَ في الْعَذَاب، وَتَجِدُونَ أَنَّ مَنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُكُم عِنْدَ رَبِّكُمْ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ وَلَا لأَنْفُسِهِمْ شَيْئاً، وتَجِدُونَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَتَشَبَّثُونَ بأَوْهَامٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَخُرَافَاتٍ صَنَعَهَا الكَذَّابُون من شياطين الإنس والجنّ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيمَ الدَّعوِيّ:

- ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

بما أنَّ هـٰذِهِ الآية تضمّنَتْ مُتابعَةَ تَعْلِيم دَعويٍّ، يَدْعُو بِهِ الدَّاعِي إلىٰ اللهِ مَنْ وَجدَ لَدَيْهِمْ لِيناً، وقَابِلِيَّةً لِلاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحقِّ الرَّبَّانِيَّة، فَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَدْعُوَهُمْ بَعْدَ إيمانِهِمْ وَإعْلَانِهِمْ إسْلَامَهُمْ، إلَىٰ الْعَمَلِ بما سبَقَ أَنْ أَنْزَلَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ قَبْلَ سُورَةِ (الزّمر) مِنْ فَرَائِض فَرَضَ اللهُ علَىٰ عِبادِه أَدَاءَها، وَإلىٰ تَرْكِ ما حَرَّمَ اللهُ علَىٰ مَنْ آمَنَ وَأسْلَمَ فِعْلَهُ.

فالأَحْسَنُ مِنَ الأَفْعَالِ قَدْ جعَلَهُ اللهُ فَرْضاً واجِبَ الأَدَاء، ويأتي دُونَ الْفَرَائِضِ الّتي يَجبُ فِعْلُهَا مَطْلُوبَاتٌ حَسَنَةٌ كَثِيرَةٌ لَمْ يُوجِبِ اللهُ فِعْلَها فِيمَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ، قَبْلَ سُورَةِ (الزُّمَر) فاللهُ يَدْعُو إلىٰ فِعْلِهَا تَطَوُّعاً لا إلْزَاماً.

وَفي مُقَابِلِ الأَفْعَالِ تَأْتِي الأَشْيَاءُ الَّتِي يُطْلَبُ مِنْ عِبادِ اللهِ تَرْكُهَا وَعَدَمُ فِعْلِها، وَتَرْكُ الأَشْيَاءِ الَّتِي يُطْلَبُ تَرْكُها قِسْمَانِ أَيْضاً، فَمَا كَانَ تَرْكُهُ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ غَيْرِهِ هُوَ الأَحْسَن جعَلَهُ اللهُ حَراماً، وجَعَلَ فِعْلَهُ مِنَ الكَبَائر، وَمَا كانَ تَرْكُهُ حَسَناً لَمْ يَصِلْ إلىٰ دَرجَةِ الأَحْسَن، فاللهُ يَدْعُو إلىٰ تَرْكِهَا تَطوُّعاً لا إلْزَاماً.

وَهـٰذا الْمَنْهَجُ هُوَ مِنَ الْحِكْمَةِ في الدَّعْوَةِ إلَىٰ الالْتِزَامِ بأحْكَامِ الدِّينِ وَتَكالِيفِهِ مِنَ الأَفْعَالِ والتُّرُوكِ.

هـٰذا مَا ظَهَرَ لِي في فهم عبارَةِ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: واتَّبِعُوا بَعْدَ أَنْ تُؤْمِنُوا وتُعْلِنُوا إسْلامَكُمْ، مَا شَرعَهُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَحْكَام، فَافْعَلُوا مَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَفْعَلُوه، وَاتْرُكُوا مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَفْعَلُوهُ، فَهـٰذَا أَحْسَنُ مَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ تَكالِيف، بأوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ، وَتُوجَدُ أَعْمَالٌ وَتُرُوكٌ يَحْسُنُ فِعْلُهَا أَوْ يَحْسُنُ تَرْكُها، إذا اتَّبَعْتُموها تَطَوُّعاً أَثَابَكُمْ رَبُّكُمْ، وَإذا لَمْ تَتَّبِعُوها لَمْ يُؤاخِذْكُمْ عَلَىٰ عَدَمِ اتِّبَاعِهَا، ولَكِنْ تُحْرَمُونَ ثَوَابَ اتِّبَاعِها.

هـٰذا الْفَهْمُ يَتَلاءَمُ مَعَهُ قَوْلُ الله تَعالَىٰ في تَتِمَّة الآية:

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥﴾.

هـٰذِهِ التَّتِمَةُ تُفِيدُ أَنَّهُم لَمْ يُؤْمِنوا ولَمْ يُسْلِمُوا بَعْدُ، والدَّاعِي إلَىٰ اللهِ يُهَوِّنُ عَلَيْهِمُ الالْتِزامَ بأحكَامِ الدِّينِ، فَيُطَالِبُهُمْ بأَنْ يَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِل إليهم.

بَغْتَةً: أي: مُفَاجَأَةً دُونَ إشْعَارٍ سَابق.

تَلَطُّفٌ وَحِكْمَةٌ عَالِيَةٌ في الدَّعْوَةِ إلَىٰ الله، جاءَ عَقِبَهُ تَرْهِيبٌ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ مُبَاغِتٌ مُهْلِكٌ مِنْ رَبِّهِمْ، فَقَدْ طَالَ أَمَدُ عِنادِهِمْ وإصْرَارِهِمْ عَلَىٰ شِرْكِهِم الْبَاطل، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ إلَيْهِمْ (٥٨) سورة قَبْلَ (سورة الزُّمر) وفيها أفانينُ عِلاجِيَّةٌ لَهُمْ، دُونَ أَنْ يَتَزَحْزَحُوا عَنْ مَوْقِفِهِم الْعِنَادِيِّ الشِّرْكِي الَّذِي لَا حُجَّةَ لهم فيه.

- قول الله تَعَالَىٰ مُتابعاً التعليم الدَّعَوِيّ:

- ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾:

أي: أَنْزَلْنَا الْبَيَانَ الدَّعَوِيَّ السَّابِقَ، وأَنْزَلْنَا الكِتَابَ، وبَعَثْنَا الرَّسُول مُبَلِّغاً، وكلّفْنَا الدُّعاة أنْ يبلِّغُوا رسالة الرَّسُول للأسباب التالية:

السَّبَبُ الأوّل: أَنْ تقُولَ يَوْمَ الْقِيامَةِ نَفْسٌ كَفَرَتْ وَكَذَّبتْ بِمَا بَلَّغَهَا رَسُولُ رَبِّهَا، مُعْتَرِفَةً بِجَرِيمَتِهَا، مُتَحَسِّرَةً عَلَىٰ مَا فَاتَها، نَادِمَةً عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانها:

﴿. . . يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾:

الحسْرَة: شِدَّةُ التَّلَهُّفِ والحزْنِ مع النَّدَمِ علىٰ ما فات.

وَأرىٰ: أنَّ نِدَاءَ الْحَسْرَةِ هُو مِنْ قَبِيلِ إعْلَانِ التَّوَجُّعِ والتَّفَجُّعِ والحزْنِ والنَّدَمِ وَتَوْبِيخِ النفس عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْها مِنْ جُرْمٍ أوْصَلَها إِلَىٰ الْخُلُودِ في عَذَابِ النار يَوْم الدِّين.

والنادِمُونَ المتحسِرُونَ، يَسْتَعْمِلُونَ بتلْقَائِيَّةٍ أداة النداء، فِي أوّلِ تَعْبِيرِهِمْ عَنْ تَحَسُّرِهِمْ وحُزْنِهِمْ وَنَدَمِهم.

ولَا حَاجَةَ مَعَ هـٰذا لتخريجات مُتَكَلَّفَةٍ جَاءَتْ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ التفسير.

أصْلُ: «يا حَسْرتا» يَا حَسْرَتي، قُلِبَتْ كَسْرَةُ التاء فَتْحَةً، وقُلِبَتِ الياء ألِفاً، وهـٰذِهِ إحْدَىٰ لُغَاتٍ ستٍّ ذَكَرَهَا عُلَمَاءُ النَّحْوِ في مِثْلِ هـٰذا التعبير.

التَّفْرِيطُ في الشّيء: التَّقْصِيرُ والتَّضْيِيعُ فِيهُ حَتَّىٰ فَاتَ دُونَ إمْكَانِ تَدَارُكٍ له.

﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: الْجَنْبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَاحِيَتُه. والمرادُ بالتَّفْرِيطِ في جَنْبِ اللهِ التقْصِيرُ والتَّضْييعُ في نَاحِيَةِ اللهِ وحَقِّهِ عَلَيَّ.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾: أي: وقد كُنْتُ مِنْ أصْحَاب السُّخْرِيَة الشديدة بِنَبَأ الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين، ومَا فيه مِنْ حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتَحْقِيقِ جزاء.

«إنْ» هي المخففة من الثقيلَةِ «إنَّ» واللّامُ في ﴿لَمِنَ﴾ هي الفارقة بَيْنَ المخففَةِ من الثقيلة و«إنْ» النافية.

السبب الثاني: مَنْع أَوْ دَفْعَ أَنْ تَقُولَ يَوْمَ القِيَامَةِ نَفْسٌ كَفَرَتْ وكَذَّبَتْ بِمَا بَلَّغَهَا رَسُولُ رَبِّها:

﴿..لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: لَوْ لَمْ نَبْعَثِ الرَّسُولَ، وَلَمْ نُنْزِلِ الكِتَابَ، ولم نُكلّفِ الدُّعَاة أَنْ

يُبَلِّغُوا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول، لَوَجَدَ الْكَافِرُ لِنَفْسِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ حُجَّةً يَعْتَذِرُ بِها قائِلاً: لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي إلىٰ الْحَقِّ وإِلَىٰ صِراطِهِ الْمُسْتَقِيم، بإرْسَالِ رَسُولٍ، أَوْ إنْزَال كِتَاب، أو تَكْلِيفِ دُعاةٍ يُبَلِّغُونَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَنْ رَبِّهِ، لَكُنْتُ اسْتَجَبْتُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، وَلَكُنْتُ مِنَ المتَّقِين.

فَمَنَعَ وَدَفَعَ اللهُ اعْتِذَارَ الْكَافِرِ بِهٰذا الْعُذْر بإرسَالِ الرَّسُولِ، وَبيَانَاتِ الكتابِ، وتكليفِ الدُّعَاةِ من أُمَّةِ الرَّسُولِ محمد ﷺ أَنْ يُبلِّغُوا مَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

السَّبَبُ الثالث: رَدٌّ وَصدٌّ أَنْ تَقُولَ يَوْمَ القيامَةِ نَفْسٌ كَفَرتْ وَكَذَّبتْ بِمَا بَلَّغَهَا رَسُولُ رَبّها، حِينَ تَرىٰ الْعَذَابَ وَهِيَ عَلَىٰ أبواب جَهَنَّمَ أَوْ حِينَ تَذُوقُهُ:

﴿...لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾:

«**الْكَرُّ**» وواحِدُهُ «**الْكَرَّةُ**» الرُّجُوعُ إلىٰ الوراء لاسْتِئنَافِ الإقْبَالِ إلَىٰ الأَمَام.

«لَوْ» هُنَا للتّمنّي.

أي: أَتمنَّىٰ أَنْ يَجْعَلَ لِي رَبِّي رَجْعَةً إلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلاء، فَأَكُونَ فِيهَا مِنَ الْمُحْسِنينَ، أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، أَعْلَىٰ مَرَاتِب المؤمِنِينَ، ظَانّاً أَنَّ اللهَ، إنْ رَدَّهُ إلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاء، فَستَبْقَىٰ في ذَاكِرتِهِ مَشَاهِدُ يَوْم الجزاء الأكبر، لكِنَّ هٰذا الظَّنَّ بَاطِلٌ؛ لأنَّ اللهَ لَوْ رَدَّهُ إلىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاء، وَلَن يَرُدَّهُ، فَسَيَمْسَحُ مِنْ ذَاكِرَتِهِ كُلَّ شَيْءٍ انْطَبَعَ فيها مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامة، وَحِينئذٍ يَكُونُ مِثْلَ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَيُبْعَثَ، ولَنْ يَكُونَ حالُهُ إلَّا مِثْلَ مَا كَانَ عَلَيْهِ في الحياة الدُّنيا أَوّلاً، كَفُوراً جَحُوداً مُكَذِّباً، كَمَا قَال اللهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هـٰذا النَّصِّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (الأنعام).

السَّبَبُ الرابع: زَجْرُ أَنْ تَقُولَ يَوْمَ الْقِيامَةِ نَفْسٌ كَفرتْ في الحياةِ الدُّنْيا، بادِّعَاءٍ كاذِبٍ وَقِحٍ: يا رَبّ لَمْ تأتني آياتٌ مِنْ عِنْدِك، وَلَوْ جاءَتْني لآمَنْتُ بها، وكُنْتُ مِنَ المتَّقِين.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا السَّبَبِ المطْوِيِّ في النَّصِّ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ رَدّاً عَلَيْه:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾:

دلَّ هـٰذا البيان علىٰ أنَّهُ رَدٌّ لِدعْوىٰ كَاذِبَةٍ يَدَّعِيها فَرِيقٌ مِنَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ القيامَةِ، يَدَّعِي فِيها أَنَّهُ لَمْ تَأْتِهِ فِي حَياةِ امْتِحانِهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ، تُبَيِّنُ لَهُ مَطْلُوباتِهِ في رِحْلَة ابْتِلائه.

فيأتي الرَّدُّ بِقولِ اللهِ تَعالَىٰ مُكَذِّباً لَهُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ وَتبلَّغْتَهَا، ودَمَغَتْكَ الْحُجَّةُ الْبُرْهَانِيَّة، وهؤلاء الشُّهُودُ الكثيرونَ مِنَ الناسِ والملائكة، مَعَ سِجلَّاتِ الصُّحُفِ، ومَعَ شَهادَة جَوارِحِكَ عليكَ، كُلُّ ذَلِكَ يَشْهَدُ عَلَيْكَ بأَنَّكَ تبلَّغْتَ آياتي فَكَذَّبْتَ رَسُولَنا بِها، وزَعَمْتَ أَنَّهُ قَدِ افْتَراهَا عَلَيْنا، واسْتَكْبَرْتَ فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوةِ الحقِّ، إِذْ تَوَهَّمْتَ أَنَّكَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَكُونَ تابِعاً لِمَنْ اصْطَفاهُ رَبُّكَ رَسُولاً، وكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ كُفْراً عِنادِيّاً اسْتِكْبارِيّاً، مَعَ وُضُوحِ الْحَقِّ لَكَ بِأَدِلَّتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً حالَ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللهِ، ومُبَيِّناً مَصِيرَهُمْ فِي جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ مَثْواهُمْ وَمَثْوىٰ المتكبِّرِينَ الَّذِين دَفَعَهُمْ كِبْرُهُمْ إِلَىٰ أَنَّ يَكُونُوا كَفُورِينَ مُجْرِمين:

- ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

أي: وَيوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي يَخْرُجُ الموتَىٰ بها مِنَ الأَجْدَاثِ، لِيُلَاقُوا حِسَابَ رَبِّهِمْ، وَفَصْلَ قضائِه، وتَنْفِيذَ جزائه، تَرَىٰ أيُّها الرّائي أيّاً كُنْتَ، الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللهِ بافْتِرَاءِ دِينٍ وأحْكَامٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ، وادِّعَاءِ شُرَكَاء لَهُ يَعْبُدُونهم مِنْ دُون الله لتَحْقِيقِ مَصالِحَ تُرضِي نَوازِع الكِبْرِ في نُفُوسِهِمْ، تَرَىٰ وُجُوهَهُمْ مُسْوَدَّةً تَحْقِيراً لَهُمْ وَعَلَامَةً فَارِقَةً تُمَيِّزُهُمْ عَنْ أَهْلِ الإيمانِ والطَّاعَةِ، إذْ يَجْعَلُهَا اللهُ بَيْضَاءَ مُتلأْلِئَةً، وَلَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيا مِنْ ذَوِي الأَلْوانِ السَّوْدَاء.

﴿. . أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾؟.

المرادُ بالاستفهام هُنَا إثباتُ أنَّ في جَهَنَّم مَكَانَ إقَامَةٍ واسْتِقرارٍ لِلْمُتَكَبِّرِينَ، الَّذِينَ جَعَلَهُمْ كِبْرُهُمْ يَكْفُرُونَ بالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ.

وَقَدْ سَبَقَ في هٰذِهِ السُّورَةِ تَدَبُّرُ نَظِيرِ هٰذِهِ الْعِبَارَة فِي الآيَةِ (٣٢) فَلْيُرْجَعْ إلَيْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبيِّناً حَالَ المتَّقِينَ في مُقَابِلِ بَيَانِ حَال الكافِرِينَ المتكَبِّرين:

- ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾:

﴿وَيُنَجِّى﴾: أي: ويُخلِّصُ مِنْ مَكْرُوه مُتَوقَّع الحدوث، يُقال لغة: «نَجَّىٰ اللهُ فُلاناً تَنْجِيَةً» أي: خَلَّصَهُ مِنْ مَكْرُوه مُتَوقع الحدوث، فَاسْتِعْمَالُ هٰذا الفعل يُشْعِرُ بِعَفْو اللهِ وَغُفْرَانِهِ عَنْ كثير مِنْ ذُنوب الَّذِينَ اتَّقَوا.

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: **المفَازَة:** تَأْتي مَصْدراً مِيمياً بمعنىٰ «الفوز».

وتأتي بمعْنَىٰ اسْم مَكانِ الْفَوْز، وهو في الآخِرَةِ الجنَّةُ أو المكانُ الموصِلُ إليها والطريق الذي يُسَاقُ فيه المتقون إلَيْها.

الفوز: يأتي للدلالة علىٰ الظَّفَرِ، والنجاة من الشّرِ، وعلىٰ الربح، يقال لغة: «فَازَ، يَفُوزُ، فَوْزاً، ومَفَازاً، وَمفَازَةً».

السُّوء: اسْمُ جَامع لمختلف الآفاتِ والمكاره.

الحزن: مَشَاعِرُ أَلَم في النَّفْس طَوِيلَةِ الأمَدِ بسَبَب فوات مَحْبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه، أو بِسَبَب مَكْرُوه نَازِلٍ أو مُتوَقَّعِ النُّزُول.

المعنىٰ: وَيُخَلِّصُ اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بعَفْوِهِ وغُفْرَانِهِ، مِنْ كُلّ مَكْرُوه يَتوَقَّعُونَهُ علَىٰ خَطَايَاهُمْ، بالْحُكْم لَهُمْ بالفَوْزِ، وبإبْلاغهم مَفَازَتَهُمْ وَهِيَ الْجَنَّةُ، أو الطَّرِيقُ الَّذِي يُسَاقُونَ فِيهِ إلَيْها.

وبِتَنْجِيتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ الَّذِي يَكْرَهُونَهُ وَلَوْ مَسّاً خَفِيفاً، ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ علَىٰ مَحْبُوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فيه فَاتَهُمْ، أَوْ يَخْشَوْنَ فَوَاتَهُ، بَلْ هُمْ فَرِحُونَ مَسْرُورُونَ آمِنُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُذَكّراً في آخِرِ هـٰذا الدّرْسِ بِبَعْض عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة، ومُبَيِّناً أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِ اللهِ هُم الْخَاسِرُون مِنْ أَشَدِّ دَرَكَاتِ الْخُسْرَان:

● ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

في هاتين الآيتين بَيَانُ أَرْبعِ قَضَايَا:

القضِيَّة الأُولىٰ: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾:

فعل «خَلَقَ» يَأْتي للدَّلَالَة علىٰ معنىٰ «التقدير» وهو إعْطَاءُ أجْزَاءِ الشيْءِ مَقَادِيرَهَا بإحْكَام. وللدَّلَالَة علىٰ معنىٰ ابْتِدَاعِ الشيْءِ علَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وإيجادِهِ مِن الْعَدَمِ.

فاللهُ عزَّ وجلّ مُقَدِّرُ كُلِّ شيءٍ بإحكام كامِلٍ، ومُبْدِعُ كُلِّ شيءٍ إيجاداً مِنَ الْعَدَم، وَتَصَارِيفَ وتَغْيِيرَاتٍ في الأشياء الَّتِي سَبَقَ إيجادُهُ لها، وعِبَارَةُ: «كلّ شيءٍ» تَشْمَلُ كُلّ ما سوىٰ الله إذْ هُوَ الخالق.

ومِمَّا خَلَقَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ الإرادات الْحُرَّةَ الَّتِي أَوْجَدَهَا فِي نُفُوسِ النَّاسِ لِيَبْلُوَهَا بالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، والخَيْر والشّر، وَهُوَ الذي يَخْلُقُ مُرَاداتِها، ويُحاسِبُها عَلَىٰ اخْتِيَارَاتِها.

القَضِيّة الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾:

الوكيل: هو مَنْ يُسَلَّمُ إِلَيْهِ أَمْرٌ مَا، ويُكْتَفَىٰ بِهِ في اختياره وعَمَلِهِ وَسَائِر تَصَرُّفَاتِهِ فيما هُو مُوَكَّلٌ عَلَيْهِ.

والمرادُ بِكَوْنِ اللهِ وكيلاً عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، أَنَّهُ هُوَ الْقَائِمُ دَوَاماً بِحِفْظِ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبالتَّصَرُّفِ فِيهِ الشَّامِلِ لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ أجْزَائِهِ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، إيجاداً وإمْدَاداً، وتَغْييراً، والشَّامِلِ لابْتِلَائِهِ فيما مَنَحَهُ فيه الاختيار الحرَّ، وَلِتَرْبِيَتِهِ وَمُحَاسَبَتِهِ وَمُجازَاتِهِ، فَمَا مِنْ أَصْغَرِ جُزْءٍ من أجْزَاء كُلِّ ذَرَّةٍ في الكَوْنِ كُلِّهِ إِلَّا هُوَ خَاضِعٌ لِصِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ في كَوْنِهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فَمَعْنَىٰ كَوْنِ اللهِ وَكِيلاً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، صَارَ في الاصْطِلَاحِ الدِّينيّ يَشْمَلُ كُلَّ المفْهُومَاتِ الّتي سَبَقَ بَيانُها، ولَا يَقْتَصِرُ عَلَىٰ مَفْهُومِ الناس من مَعْنَىٰ الْوَكِيلِ مِنَ الْبَشَرِ عَلَىٰ شَيْءٍ ما.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

﴿مَقَالِيدُ﴾: جَمْعُ «مِقْلَاد» وهُو في اللُّغَةِ يُطْلَقُ عَلَىٰ «الْخِزَانَةِ» ويُطْلَقُ علىٰ «المفتاح» **فالمقاليد** هي الخَزَائِنُ، والمفاتيح.

فَدَلَّتْ هـٰذِهِ الْقَضِيَّةُ علَىٰ أَنَّ للهِ وَحْدَهُ كُلَّ مَا في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ مِنْ خَزَائِن، مِنْهَا خَزَائِنُ الأَرْزَاق، وخَزَائِنُ المعادِن، وَخَزَائِنُ الْقُوىٰ، وَأَنَّ للهِ وحْدَهُ كُلَّ مَفَاتِيحِ كُلِّ الخزائِن، وكُلَّ مَفَاتِيح التَّصَرُّفِ في كُلِّ شيء، إذْ نِظَامُ اللهِ السَّبَبِيّ في كَوْنِهِ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ سَبَبٍ مِفْتَاحاً بِهِ يَتَحَرَّكُ السَّبَبُ، فَتُوجَدُ المسَبَّبَاتِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِه.

الْقَضِيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: والَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمْ يُؤْمِنُوا بآيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّة، وآيَاتِ اللهِ الجزَائِيَّة، وآيَاتِ اللهِ الإعْجَازِيَّة، وآيَاتِ اللهِ الْبَيَانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ علَىٰ رَسُوله ﷺ، أَولئِكَ المنْحَطُّونَ، الْبُعَداءُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ، المتَسَفِّلُونَ فِي الدَّرَكاتِ هُمُ الْخَاسِرُونَ أشَدَّ الْخَسَارَاتِ؛ لأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَخَسِرُوا أَهْلِيهِمْ وَخَسِرُوا جَنَّاتِ النَّعِيم وَجلَبُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ الْخُلُودَ فِي عَذَاب النار.

كيف لَا يَكُونُونَ كامِلي الْخُسْرَانِ وَقَدْ خَسِرُوا كُلَّ رُؤُوس ما يَمْلِكُونَ فِي وُجُودهم الأبَدِيّ، وَحيواتِهم الأبديّة؟؟!.

خَسِرُوا ذَواتهم، وصِفَاتِهِمْ، وأَزْمَانَهُمْ الأَبَدِيَّةَ في حَيواتِهم، فَجعَلُوا كُلَّ زَمَنٍ مِنْها مَصْحُوباً بآلَام وأَوْجَاعٍ مِنْ دَرَكَةِ الْحَرِيقِ فَمَا دُونَهُ.

هل يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِهـٰذَا الْخُسْرَانِ المبينِ مَنْ لَدَيهِ عَقْلٌ وبصيرَةٌ غَيْرُ عَمْيَاء؟؟!.

وبهـٰذا انتهىٰ تدبر الدرس العشرين من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمْدُ لله علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفَتْحِه.

* * *

(٢٥)

التدبُّر التحليلي للدرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (الزّمر)

الآيات من (٦٤ ـ ٦٦)

قال اللهُ عزَّ وجل خِطَاباً لِرَسُوله محمّد ﷺ مُعلّماً:

﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

القراءات:

(٦٤) ● قرأ نافع، وأبو جَعْفَر: [**تَأْمُرُوْنِيَ أَعْبُدُ**] بِكَسْر النون دُون تَشْدِيدٍ، وبِفَتْحِ يَاءِ المتكلم.

وقرأها ابْن كثير: [**تَأْمُرُوْنِّيَ أَعْبُدُ**] بِكَسْرِ النُّونِ المشَدَّدَة، مع المدّ المشْبَع، وبفَتْحِ يَاء المتكلّم.

وقرأها ابْنُ عَامر: [**تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ**] بنونين مفتوحة، فَمَكْسُورَة، وبإسْكَانِ يَاء المتكلّم.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**تَأْمُرُوْنِّيْ أَعْبُدُ**] بِكَسْرِ النُّونِ المشَدَّدَةِ مع المدّ المشبع، وبإسْكان يَاءِ المتكلم.

وهـٰذِهِ القراءات وَجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ في النطق.

تمهيد:

في هـٰذا الدَّرسِ يُعَلِّم اللهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، مَا يَقُولُهُ لِلّذِينَ يَدْعُونَهُ مِنَ المشْرِكين أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ، ويُبيِّنُ لَهُ لِيُعْلِمَ المشْرِكين بأُسْلُوب غَيرِ مُباشر، قائلاً لَهُ: لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، ولَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرين، وأمَرَهُ بأَنْ يَعْبُدَ اللهَ وحْده وأَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

التَّدبّر التحليلي:

دَلَّ هـٰذا الدَّرْس من دُروس السُّورَة علَىٰ أَنَّ أئِمَةَ المشركين في مَكَّةَ كَرَّرُوا مُحَاوَلَتَهُمْ الَّتِي نَزَلَتْ بِسَبَبِهَا سُورة (الْكَافِرُون) فَدَعَوا الرَّسُولَ ﷺ إِلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ، وَيَكُفَّ عَنْ بَيانِ بُطْلَانِها، وَسَفَاهَةِ مِنْ يَعْبُدُها، وَوَعَدُوه أَنْ يَعْبُدُوا الله مَعَهُ، فَيجمَعُوا بَيْنَ عِبادَةِ اللهِ وعِبادَةِ أَصْنَامِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾؟!.

الاستفهام في هٰذِهِ الآيَة فيه دلالَةٌ عَلَىٰ مَعاني التعجبِ، والاستنكارِ، والتوبيخِ للمُشْرِكين، الَّذين يَدْعُونَ وَيَأْمُرُون بِعِبادَةِ غَيْرِ الله.

وَالمعْنَىٰ: أَوَصَلَتْ بِكُمْ الجهالَةُ والْمُكَابَرَةُ بالْبَاطِلِ والْوَقَاحَةُ إِلَىٰ أَنْ تُقَدِّمُوا لِي آلِهَةً غَيْرَ اللهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ، وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، ولَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَعْبُدَها، وَأَنا رَسُولُهُ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا تُشْرِكُونَ بِعِبادَتِهِ شَرِيكاً، أَيُّها الْجَاهِلُونَ.

مَا هٰذِهِ الْحَمَاقَةُ الَّتِي تَرْتَكِبُونَها؟!، مَا هٰذِهِ السَّفَاهَةُ الَّتِي لَا تَخْجَلُونَ مِنها؟!

أَصْلُ الْجَهْلِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: «جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ جَهْلاً، وَجَهالَةً» أي: اشْتَدَّ غَلَيَانُها، وهو ضِدُّ «تَحَلَّمَتْ».

وَيُقَالُ: «جَهِلَ فُلانٌ عَلَىٰ فُلان» أي: جَفَا وَتَسَافَهَ.

ويُطْلَقُ الْجَهْلُ أَيْضاً بِمَعْنَىٰ عَدَمِ الْعِلْمِ بالشَّيْءِ.

وأَرَىٰ أَنَّ مَعْنَىٰ الْحَمَاقَةِ وَالسَّفَاهَةِ هُو المرادُ هُنَا؛ لأَنَّ المشْرِكين لَا يَجْهَلُونَ جَهْلاً عِلْمِيّاً دَعْوَةَ الرَّسُولِ ﷺ إِلىٰ التوحيد، وَتَمَسُّكَهُ بِهِ، وَلَكِنْ تَغْلِي صُدُورهُمْ غَضَباً مِن انْتِشَارِ الإِسْلَامِ في مَكَّة، فَيُحَاوِلُونَ أَنْ يَقِفُوا مَوْقِفَ الدَّاعِي المضادِّ النّدّ إِلىٰ عِبادَةِ آلِهَتِهِمْ، وَيُوَجِّهُونَ دَعْوَتَهُمْ إِلَىٰ رَسُولِ رَبِّهِمْ، الَّذِي يَعِيبُ آلِهَتَهُمْ وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَهِمْ، لِيَخْدَعُوا جَماهِيرَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَلَىٰ حَقٍّ، وأَنَّهُمْ يُوَاجِهُونَ الرَّسُولَ والمؤمنين به بنِدِّيَّة في المبادئ والمفاهيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ لِيُسْمِعَ المشْرِكين بِأُسْلُوبٍ غَيْرِ مُباشر:

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾:

دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْغَرضَ إسْمَاعُ المشْرِكِينَ الّذِينَ يَأْمُرُونَ الرَّسُولَ ﷺ بِعِبَادَةِ آلِهتِهِم، التوكيدُ في صَدْرِ الآيَةِ بِعِبَارَة ﴿وَلَقَدْ﴾ فاللّامُ وَاقِعَةٌ فِي جَوابِ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ كَمَا يَقُولُ الْمُعْرِبُون، و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقيق. وَمَعْلُومٌ بَدَاهَةً أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَحْتَاجُ تَوْكِيداً فِي مِثْلِ هـٰذا الْمَوْضوع، فَالْغَرَضُ التَّوْكِيدُ لِلْفِئَةِ من المُشْرِكين الَّذِينَ قُصِدَ إسْمَاعُهُمْ.

أي: وَنُؤَكّدُ بِشِدَّةٍ أَنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّد، وأُوحِيَ إِلَىٰ كُلِّ رَسُولٍ وَنَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ قَائِلِين لَهُ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي: نُقْسِمُ لَكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ أَخَفَّ أَجْزَاءِ الشِّرْكِ، كاعْتِقَادِ فَاعِلِيَّةِ الأسْبَابِ، لِيَبْطُلَنَّ عَمَلُكَ الصَّالِح، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين.

حَبِطَ الْعَمَلُ: أي: بَطَل، وكُلُّ عَمَلٍ لَا يُحَقِّقُ الْغَايَةَ الْمَرْجُوَّةَ مِنْهُ فَقَدْ حَبِطَ وَبَطَلَ.

لَكِنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ، وَلَوْ مِنْ أَخَفِّ أَجْزَاءِ الشِّرْكِ وَعَنَاصِرِه، رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ، وَلَا نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَام، فَكَيْفَ يُشْرِكُ بِاللهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وسَيِّدُ المرْسَلِينَ ﷺ؟!.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ وَآمراً لَهُ بِأَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ شَرِيكاً مّا:

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾:

«بَلْ» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ مِنَ السَّهْلِ إدْرَاكُهُ، وَهُوَ لَا تَسْتَجِبْ يَا مُحَمَّدُ لِدَعْوَةِ المشْرِكِين أنْ تَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ، وإذا كُنْتَ حَرِيصاً علىٰ مَرْضَاةِ رَبِّكَ فاعْبُد اللهَ وَحْدَه.

جاء في العبارة تقديمُ لَفْظِ الْجَلَالَةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ وهُوَ مَفْعُولٌ بِهِ عَلَىٰ العامِلِ فيه وَهُوَ فِعْل: «اعْبُدْ» لإفَادَةِ الْحَصْرِ والتَّخْصِيصِ.

- ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾: أي: وَكُنْ مِنَ الْعَامِلِينَ بِمَا يُرْضِي اللهَ عَنْكَ.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إِنْعَامِ المنعِمِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ، وَيَدْخُلُ في عُمُومِهِ الْحَمْد، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْقَوْلِ يَخْتَصُّ بعُنْوَانِ الْحَمْدِ وَالثناء، يُقَالُ لغة: «شَكَرَهُ يَشْكُرُهُ، وَشَكَرَ له».

لَمْ يُكلّف اللهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ ﷺ بأنْ يَكُونَ شَكُوراً، لِئَلَّا يَكُونَ تَكْلِيفاً وَاجِباً عَلَيْهِ، أَنْ يَكُونَ شَكُوراً دَوَاماً. لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ دُونَ تَكْلِيفٍ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَكُونَ عَبْداً شَكُوراً، كما صَحَّ عَنْهُ ﷺ.

وَقَدْ قَالَ اللهُ عزّ وجلّ في سورة (سَبَأ/ ٥٨ نزول):

﴿...وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

وبهٰذا انْتَهىٰ تدبر الدّرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله علىٰ معونتِه، ومَدَدِه، وتَوْفيقه، وفَتْحه.

* * *

(٢٦)

التدبُّر التحليلي للدّرسِ الثاني والعشرين من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٦٧)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

تمهيد:

جَاءَ في الآيتين (٦٢) و(٦٣) بَيَانُ ثَلاثِ كليَّاتٍ كبرى من صِفَاتِ اللهِ المتَعلِّقَةِ بِالكَونِ في الحياة الدنيا وهي:

(١) اللهُ خَالِقُ كُلِّ شيء.

(٢) وهو على كُلِّ شيءٍ وكيل.

(٣) لَهُ مَقَاليد السَّمَاوَات والأرض.

وجاء بَعْدَهما دَرْسٌ مِنْ ثلاثِ آيات تتعلَّقُ بِدَعْوَةِ أَئِمَّة مُشْرِكِي مَكَّةَ الرَّسُول ﷺ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ.

فَكَانَ مِنَ الحكْمَةِ في البيان تَوْطِئَةً لِبَيَانِ أَحْدَاثٍ تَتَعَلَّقُ بِيَوْمِ القيامة، ذِكْرُ عَظَمَةِ قُدْرَةِ اللهِ إِذْ يَقْبِضُ الأرضَ ويَطْوِي السَّمَاوَات بِيَمِينِه يَوْمَ القيامة، وَبَيَانُ أَنَّ عِبَادَ الله مَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِه، أَمَّا المشركون فَقَدْ نَقَصَتْ إِدْرَاكَاتُهُمْ إِلَى حَدِّ أَنْ جَعَلُوا لله شُرَكاء مُعِينينَ لَهُ في تَصَارِيفِ كَوْنِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون.

التدبُّر التحليلي:

- قوله تَعَالَى:

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ . .﴾ :

يقال لغة: «قَدَرَ فلانٌ الشيْءَ يَقْدِرُه» أي: بَيَّنَ مقداره. أَوْ عَلِمَ مِقْدَاره، أو أَدْرَكَ بِتَصَوُّره مِقْداره.

و«**قَدْرُ الشيء**» مِقْدَارُه في ذَاتِهِ أو في صفاته.

وأَرَىٰ أَنّ الضميرَ في: ﴿وَمَا قَدَرُواْ﴾ يُرَادُ بِهِ كلُّ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ قُدْرَاتٌ إِدْرَاكِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ، يَسْتَطِيعُونَ بها إِدْرَاكَ مَقَادِير الأشيَاء.

فكُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ ذَواتِ الإِدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ، لَمْ تَصِلْ إِدْرَاكاتُها فِي تَصَوُّرَاتِهَا إِلَىٰ إِدْرَاكِ عَظَمَةِ صِفَاتِ اللهِ حَقَّ قَدْرِها.

﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ : أي: قَدْرَهُ الحقّ، فالإضافة هُنَا من إضافةِ الصِّفَةِ إِلَىٰ

الموصُوف، **والمعنىٰ**: لم تَصِلْ تَصوُّرَاتُهُمْ إلىٰ إدْرَاكِ مِقْدَارِه الحقِّ المطَابِقِ لِلْوَاقِع، بَلْ كُلُّ إدْرَاكاتِهِمْ نَاقِصَاتٌ عَمَّا هُوَ لَهُ مِنْ مِقْدَارٍ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ وَسَمَتْ فَوْقَ كُلِّ التَّصوُّرَاتِ صِفَاتُه.

وَتَتَفَاوَتُ تَصوُّرَاتُ المخْلُوقَاتِ ذَوَاتِ الإدْرَاكِ الْعِلْمِي بالنِّسْبَةِ إلَىٰ إدْرَاكِ صِفَاتِ اللهِ تَفَاوتاً كَبيراً، وأعْلَاهَا وَأسْمَاهَا لَا يَصِلُ إلىٰ الإدْرَاكِ المطابقِ لِمَا هِي عَلَيْهِ في الواقِع، إذْ لَا تَمْلِكُ أجْهِزَتُهَا الإدْرَاكِيَّةُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ إِدْرَاكِ الكَمَالِ الأَزَلِيّ المطْلَقِ، لِصِفَاتِ اللهِ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيِّ في ذَاتِهِ وَفِي صِفَاته جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

وانْحَطَّ المُشْرِكُونَ انْحِطَاطاً فَاحِشاً في إدْرَاكِهِمْ لِصِفَاتِ اللهِ، تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ، فاتَّخَذُوا لَهُ شُرَكَاء افتراءً عَلَيْهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُون.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿.. وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ..﴾:

أي: وَمَا قَدرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، والحالُ أَنَّ الأَرْضَ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامَة وأَنَّ السَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه.

- ﴿جَمِيعًا﴾: حَالٌ لِلأَرْض، والمراد جَميعُ أَجْزَائِها.

- ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: **القبضَة**: الْمَرَّةُ الواحِدَةُ مِن القبض، مَصْدَر «قَبضَ الشَّيْءَ قَبْضاً» أي: أخَذَه بكَفِّهِ وَضَمَّ أَصابِعَهُ عَلَيْه.

- ﴿مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾: أي: مَضْمُومَاتٌ أو مَلْفُوفَاتٌ بَعْضُهَا علىٰ بَعْضٍ بِيَمينِهِ جلَّ جلالُه يَوْمَ القيامة. يقال لغة: «طَوىٰ فلانُ الشَّيْءَ، يَطْوِيهِ، طَيّاً» أيْ: ضَمَّ بَعْضَهُ علىٰ بَعْضٍ، أَوْ لَفَّ بَعْضَهُ فَوْق بَعْض.

وَجَاءَ في سُورَة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ... ﴿١٠٤﴾﴾.

السِّجِلّ: يأتي بمعنىٰ: الكِتاب، ويأْتي بمَعْنَىٰ: الْكَاتِب. والظَّاهِرُ هُنا أنَّهُ بمَعْنَىٰ «الْكَاتِب» أي: كَطَيِّ الكاتِبِ لِلْكُتُب إذْ يَضُمُّ بَعْضَها علَىٰ بَعْض، أَوْ يَلُفُّ بَعْضَها فَوْقَ بَعْضٍ.

أي: فَالسَّمَاوَاتُ كُلُّهَا بِمَا فِيهَا مِنْ بَلَايين المجرَّاتِ يَطْوِيهَا اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ ـ كَمَا يَطْوِي الْكَاتِبُ مَا يَكْتُبُ مِنْ كُتُبٍ في قَراطيسَ أَوْ فيما يُشْبِهُها.

وجاء في الصّحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عَنْهُ قَال: جاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبار إلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فقال: يَا مُحمَّدُ إنَّا نَجِدُ أنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إصْبَعٍ، والأرضينَ عَلَىٰ إصْبَعٍ، والشَّجَرَ علَىٰ إصْبَع، والماءَ والثَّرَىٰ عَلَىٰ إصْبع، وسَائِرَ الْخَلْقِ علَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أنَا الْمَلِكُ.

فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حتى بَدَتْ نَواجِذُه (= أَضْرَاسُهُ) ثُمَّ قَرأ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

جاء في رِوَايَةِ هٰذا الحديث: «فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الْحبر».

قال الْخَطَّابي: رَوَىٰ هٰذا الحديث غَيْرُ وَاحِدٍ عن عبد اللهِ بن مَسْعُودٍ مِنْ طَريق عَبِيدَة، فَلَمْ يَذْكُرُوا قَوْلَهُ: «تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الْحَبْر».

وَقَدْ جَزَمَ الْقُرْطُبي في كِتابه: «الْمفهِمْ علىٰ صحيحِ مُسْلم» أنَّ هٰذا الْقَوْلَ مُدْرَجٌ في الحديث مِنْ فَهْمِ الرَّاوي.

وَيَظْهَرُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جاءَ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْم، وَلَمْ يَتَعرَّض لِما ذَكَرَهُ الْحَبْرُ الْيَهُودِي، دَفعاً لِلْجَدَلِ في أَمْرٍ غَيْبِيٍّ يَتَعلَّقُ بأَحْوالِ يَوْم القيامَةِ

وَأَفْعَالِ الله عزّ وجلّ، وَضَحِكَ حتَّىٰ بَدَتْ نواجِذُهُ اسْتِغْرَاباً مِنَ التَّفْصِيلاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْحَبْر، وهـٰذا يَنْسَجِمُ مَعَ وَصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ المسْلِمِينَ، بأَنْ لَا يُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا يُكَذِّبُوهم، اجْتِنَاباً لِلْمُشَاحَنَاتِ الْجدَلِيَّة.

وَرَوَىٰ البخاري وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول:

«يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، ويَطْوِي السَّمَاوَات بِيمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلوكُ الأَرْضِ؟».

- ﴿.. سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: تَنَزَّهَ اللهُ عزّ وجلّ، وَتَعَالَىٰ عُلُوّاً لَا حَدَّ لَهُ، عَمَّا يَفْتَرِي المشْرِكُونَ مِنْ شُرَكَاءَ للهِ في رُبُوبِيّتِه، أَوْ في إِلَهِيَّتِه، فَيَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونه.

وبهـٰذا انتهىٰ تَدَبُّر هـٰذا الدَّرْس من دُروس سورة (الزُّمر).

والحمد لله علىٰ مَعُونته ومَدَدِه وتَوفيقه وفَتْحِهِ.

* * *

(٢٧)

التدبر التحليليُّ للدّرس الثالث والعشرين من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٦٨ ـ ٧٥) آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وجل:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ

يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ
كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ
نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

القراءات:

(٦٩) • قرأ نافع: **[بِالنَّبِيئِينَ]** بِهَمْزَةٍ بَعْدَ الياء الأولىٰ جمع «النَّبِيء».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**بِالنَّبِيِّينَ**﴾ بياء مُشدَّدَةٍ بَعْدَ الباء، جمع «النَّبِيِّ».

وهُما نُطقَانِ عَرَبِيَّانِ.

(٧٠) • قرأ قَالُون، وأبو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جَعْفر: **[وَهْوَ]** بإسْكانِ الْهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَهُوَ**﴾ بضَمّ الْهاء.

والقراءتان لغتان عَرَبِيّتَانِ.

(٧١) و(٧٣) ـ • قرأ عاصم، وحَمْزَة، والكسائي، ويَعْقُوب: ﴿**فُتِحَتْ**﴾ بتاء مَكْسُورَةٍ دُونَ تَشْدِيد بَعْدَ الفاء، في الموضعين.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة: **[فُتِّحَتْ]** بكَسْرِ التّاء مع التَّشْدِيد.

رُوعي في التَّشْدِيد الإشَارَةُ إلىٰ زِيادَةِ إهَانَةِ بَعْضِ أَهْلِ جهَنَّم، وزيادَةِ تَكْرِيمِ بَعْضِ أَهْلِ الجنَّة.

(٧٢) • قرأ السُّوسي، وأبو جَعْفر: [فَبِيسَ] بإبْدَال الهمزة ياءً في الوقف وفي الوصل. وكذلِكَ قرأهَا حَمْزَةُ فِي الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿فَبِئْسَ﴾.

الإبْدَالُ وعَدَمُهُ نُطْقَانِ مِنَ اللّهجات العربيّة.

تمهيد:

في هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ لَقَطاتٍ مُوجَزَاتٍ عَنْ أَحْدَاثِ يَوْم الدّين. بَدَأَتْ هـٰذِهِ اللَّقَطاتُ مِنْ إنْهَاءِ ظُرُوف الحياةِ الدُّنيا بالنفخة الأولَىٰ، فالْبَعْثِ بالنَّفْخَةِ الثانية، فأحْدَاثٍ تتعَلَّقُ بِمَوْقِفِ الحساب، فَسَوْقِ الّذين كَفَرُوا إلَىٰ جَهَنَّم ومَا يُقَالُ لهم من تَلْويم، وَسَوْقِ الَّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلَىٰ الْجَنَّة، وَمَا يُقَالُ لَهُمْ مِنْ تَحِيَّةٍ وَتَكْرِيم، ومَا يَقُولُونَ مِنْ عِبَارَات ثناء علىٰ الله.

وفيه لَقْطَةٌ أخيرَةٌ عن الملائِكة حَافِينَ من حَوْلِ الْعَرْشِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وقد قُضِيَ بين الخلائق بالحقّ، وقيل: الحمدُ لله رَبّ العالمين.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالَىٰ استقطاعاً من أحداث المستقبلِ وحكايَتِهِ بأسْلوب أحداث مَضَتْ، لتوكيد وقوعها حتماً.

• ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

• ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: **الصُّور**: مَخْلُوقٌ عظيم مِنْ مَخْلُوقاتِ اللهِ كَهَيْئَةِ الْقَرْن، إحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دائِرِيَّةٌ ضَيِّقَة، والأُخْرَىٰ واسِعَةٌ جدّاً، وبَاطِنُهُ فَارِغٌ، يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ فَيُصْدِرُ صَوْتاً بِحَسَبِهِ، والْمَلَكُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّفْخِ في الصُّور هو إسْرَافيل عَلَيْهِ السّلام.

هـٰذِهِ النفخة في الصُّورِ هي النَّفْخَةُ الأُولَىٰ الَّتِي يَمُوتُ بِهَا مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ في الأَرْضِ مِنَ الأَحْيَاءِ حينئذٍ، إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ لَا يَمُوتَ بها.

- ﴿فَصَعِقَ﴾: أي: فَمَات. ويأتي الصَّعْقُ لغةً بمَعْنَىٰ الغِشْيَانِ الَّذِي يَفْقِدُ بِهِ المصْعُوقُ كَامِلَ وَعْيِهِ دُونَ أَنْ يَمُوت.
- ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾: «مَـنْ» اسْـمُ مَـوْصُـولٍ خَـاصٌّ بذوي الْعِلْم، وهُمُ الْمَلَائِكَةُ في السَّمَاء، والإِنْسُ والْجِنُّ والْمَلائِكَةُ في الأَرْضِ، وَالْمُرَادُ جَمِيعُ الأَحْيَاءِ في السَّمَاوَاتِ وفي الأَرْض، وغير ذوي الْعِلْمُ يَدْخُلُونَ في عُمُومِ «مَنْ» مِنْ بَاب التَّغْلِيب؛ لأَنَّ ذوي الْعِلْم مِنَ الْمَلَائِكَةِ والإِنْسِ والْجِنِّ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَكْثَرُ مِن الأَحْيَاءِ غَيْرِ ذَوِي الْعِلْمِ في الأَرْضِ بمَا لَا يَدْخُلُ تَحت حَصْرٍ، فَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ بِشَأْنِ السَّمَاء:

«... والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، مَا فيها مَوْضِعُ شِبْرٍ إلَّا وَفِيهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ سَاجِدٍ يُسَبِّحُ اللهَ ويَحْمَدُه»⁽¹⁾.

- ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: اخْـتَـلَـفَ أهـل الْـعِـلْـم فـي تَـحْـدِيـدِ الَّـذِيـن اسْتَثْنَاهم اللهُ عزّ وجلّ بهـٰذِهِ العبارة، وهي أَقْوَالٌ اجْتِهَادِيَّةٌ لم أَجِدْ فيها مَا يَصْلُحُ لأَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيه.

وقد يُسْتَأْنَسُ بما رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قال: سأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قول اللهِ تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقال: «جِبْرِيلُ، وَمِيكَائِيلُ، ومَلَكُ الموْتِ، وَإِسْرَافِيلُ، وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ».

ومَنِ استَثْنَاهُم اللهُ من الموت بالنفخة الأولىٰ، لَا يُفِيدُ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ لَا يُمِيتُهُمْ بَعْدَهَا، وقَبْلَ نَفْخَةِ الْبَعْث.

---

(1) انظر الحديث رقم ١٠٢٠ في «صحيح الجامع الصغير وزيادَتُه» لِلأَلْبَاني.

فقَدْ ورَدَتْ أخْبَارٌ تُفِيدُ أَنَّ اللهَ يُميتُ مَنْ جَاءَ ذِكْرُهُمْ في حَدِيثِ أَنسٍ، وظاهِرٌ أَنَّ هٰذا يَكُونُ بَعْدَ نَفْخَةِ الصَّعْقِ وقَبْلَ نَفْخَةِ الْبَعْث، واللهُ أعلم.

- ﴿..ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ ـ اللهُ أَعْلَمُ بِمِقْدارِها ـ يُنْفَخُ في الصُّورِ نَفْخَةٌ أُخْرَىٰ، هِيَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ بأمرِ اللهِ بَعْدَ أَنْ يُحْيِيَهُ مِنَ الْمَلَائِكة، فإذا الْمَوْتَىٰ قِيامٌ مِنْ أَجْدَاثِهِمْ مَبْعُوثُونَ رَاجِعُونَ إِلَىٰ الحياةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

«إذا» فُجَائِيَّةٌ، أي: فَيُفَاجَؤُونَ بأَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ يَنْظُرُونَ أَرْضَ الْمَحْشَرِ، وَيَنْظُرُونَ كُلَّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ بَصَرُهُمْ فَوْق أَرْضِ المحشر.

هٰذِهِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ يَكُونُ بِهَا انْطِلَاقُ الأَرْوَاحِ إِلىٰ أَجْسَادِهَا، فَتَلْتَقِي بالنُّفُوسِ الَّتِي كانَتْ قد انْفَصَلَتْ عَنْهَا، فَذَاقَتِ الْمَوْتَ بِهٰذا الانفصالِ، فَتَعُودُ النُّفُوسُ وأَجْسَادُهَا حَيَّةً حَيَاةً أُخْرَىٰ، لِمُلَاقَاةِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين.

- ■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

- ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ..﴾: أي: وَظَهَرَتْ أَرْضُ المَحْشَرِ مُشْرِقَةً مُضِيئَةً بِنُورِ رَبِّها، وَلَيْسَ لَنا أَنْ نُحَدِّدَ أَنَّ هٰذا النُّور مُنْبَعِثٌ مِنْ أَرْضِ الْمَحْشَرِ ذَاتِها، أَوْ مِنْ مَصْدَرٍ مُضِيءٍ مُسَلَّطٍ عَلَيْها، إذ الاحْتِمالَانِ مُتَكافِئَانِ، والْعِبَارَةُ صَالِحَةٌ لِكُلٍّ مِنْهُما. والنور في الوجود كلِّهِ هو نورٌ مَمْلُوكٌ للهِ لأَنَّه مَخْلُوقٌ من مَخْلُوقاته.

- ﴿. . وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ . .﴾: أي: وأحْضِر بأَمْرِ اللهِ الكِتَابُ الَّذِي سُجِّلَتْ فِيه أعْمَالُ العباد الّذِينَ كانُوا في الحياة الدُّنيا مُمْتَحَنِين، وعُرِضَتْ عَلَيْهِمْ صُحُفُ أعْمَالِهِمْ، فَرَأَوْها سِجِلًّا كامِلاً بالصُّورَةِ، والصَّوْتِ، وَخَواطِرِ الْفِكْرِ، وَأَحَادِيث النفس، وَالنِّيّاتِ، وأعْمَالِ الْقُلُوبِ والنفوسِ الإرَادِيَّة.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

وَضْعُ الكتاب: يُرادُ بِهِ إحْضَارُهُ، وكَشْفُ مَا سُجِّلَ فيه مِنْ أعْمَالِ الْعِبَادِ، وَعَرْضُهُ عَلَيْهِم.

الْوَضْعُ: ضِدُّ الرَّفْعِ الّذِي هُو الإبْعَادُ والإزَالَة.

وَيكُونُ هـٰذا الْحَدَثُ أَحَدَ عَناصِرِ الْمَحْكَمَةِ الرَّبَّانِيَّة الَّتِي يُحَاسِبُ اللهِ فيها عِبَادَهُ، ويَفْصِلُ قَضَاءَهُ بَيْنَهُمْ، فَيُصْدِرُ حُكْمَهُ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ بِمَا يُلائِمُهُ مِن عَدْلٍ أَوْ فَضْلٍ.

- ﴿. . وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ. . .﴾:

أي: وَجِيءِ بأمْرِ اللهِ بالنَّبِيِّين وفي مُقَدِّمَتِهِم الرُّسُلُ عَلَيهِم السَّلام، لِيَشْهَدُوا عَلَىٰ أُمَمِهِمْ بِتَبْليغ رِسَالَةِ اللهِ لِعِبَادِهِ، وجِيءَ أيْضاً بالشُّهَداءِ مِنْ غَيرِ النَّبيِّين عَلَيهِم السَّلام، وَهُمْ أُمَّةُ الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ والنُّصْحِ والإرْشَادِ والأَمْرِ بالمعْرُوفِ والنَّهْيِ عن المنكَرِ من أَتْبَاعِ الرُّسل عَلَيهِم السَّلام.

وقَدْ جَاءَ تَفْصِيلُ شَهَادَةِ النبيّين عَلَيهِم السَّلام، والشُّهَداء مِنَ المؤمنين أتباع الرُّسُلِ عَلَيهِم السَّلام في عِدَّةِ نُصُوصٍ، مِنْها النُّصُوص التالية:

(١) قول اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ مُحمَّدٍ ﷺ في سورة (النحل/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ . . . ﴿٨٩﴾﴾.

(٢) وقول الله تعالىٰ خِطاباً لأَتباع الرسول محمد ﷺ في سورة (البقرة/ ٨٧ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ . . . ﴿١٤٣﴾﴾.

(٣) وقَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ خِطاباً لرسوله في سُورَة (النساء/ ٩٢ نزول):

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾.

فَأَبَانَتْ هـٰذِهِ النُّصُوصُ الْغَرَضَ مِنْ إحْضَارِ النبيِّين عَلَيهِم السَّلام إلَىٰ مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، وهو أَنْ يكُونُوا شُهَدَاءَ علىٰ الَّذِينَ أَبْلَغُوهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ وَأَمَانَةٍ، وَنَصَحُوهُمْ وَلَمْ يألُوا جهداً فِي إِقْنَاعِهِمْ وَتَرْغِيبِهِمْ وَتَرْهِيبِهِمْ والصَّبْرِ عَلَيْهِم.

- ﴿. . وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: وَقُضِيَ بَيْنَ الَّذِينَ اسْتَحقُّوا الْعِقَابَ بِالْعَدْلِ، وهُمْ لا يُظْلَمُونَ في أَحْكَامِ اللهِ القضائيَّة فيهمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، ولَا أصْغَرَ من ذلِكَ، وجاءَ استعمالُ الفعلِ المضارعِ بَعْدَ المَوَاضِي لِتَصْوِيرِ حركةِ تتابعِ الأَحْكامِ يومئذٍ.

- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

يَظْهَرُ لي أَنَّ تَوْفِيَةَ كُلِّ نَفْسٍ مَا عَملَتْ خَاصٌّ بالَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا في حياة امْتِحَانِهِمْ مِنَ الصَّالحاتِ.

تَوْفِيَةُ صَاحِبِ الحقّ تَكُونُ بإعْطَائِهِ حَقَّهُ وافياً غَيْرَ مَنْقُوص، كيْفَ لَا

يُوَفِّيهِم مَا عَمِلُوا وَقَدْ جَعَلَ حَسَنَاتِهِمْ مُضَاعَفَةً إلىٰ عشرة أضْعاف، إلىٰ سبعمائَةِ ضِعْفٍ، إلَىٰ أضْعَافٍ كثيرَةٍ، فضْلاً مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظُمَ بِلَا حُدُودٍ جُودُه؟!.

﴿..وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: في هٰـذِهِ العبارة انْتِقَالٌ إلىٰ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا، وَإعْلَامٌ بأنّ اللهَ أعْلَمُ مِنْ كُلِّ الْعَالِمِينَ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُه، مِمَّا يَكْسِبُونَ مِنْ أفْعَالٍ بإرَادَاتِهِمْ، حتَّىٰ مَا يَكْسِبُونَ مِنْها في داخِلِ نُفُوسِهِمْ وقُلُوبهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُبيِّنُ حَدَثَ سَوْقِ الّذِينَ كَفَرُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ إلَىٰ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين:

- ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾:

- ﴿وَسِيقَ﴾: **السَّوْق**: الْحَثُّ عَلَىٰ السَّيْرِ مِنْ خَلْفٍ، يَقُال لغة: «سَاقَهُ، يَسُوقُهُ، سَوْقاً، وَسِيَاقاً، وسِيَاقَةً، ومَسَاقاً» أي: حَثَّهُ من خَلْفِهِ عَلَىٰ السَّيْر، بِخِلَافِ: «الْقَوْدِ ـ والقِيَاد ـ والقِيَادَة» فهُوَ حَثُّ الْمَقُود عَلَىٰ السَّيْرِ مِنْ أمَامِهِ.

- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: أي: الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ كَفَرُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، ومَاتُوا وهُمْ كَافِرُون.

- ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: أي: إلَىٰ بُلُوغ أبْوابِ جهنم. لفظ «جَهَنَّمَ» اسْمُ علَمٌ مِنْ أسماء دَار العذاب الَّتي أعْتَدَهَا اللهُ لمستحِقِيهِ، يَدْخُلُونَها يَوْمَ الدّين. وهو ممنوعٌ من الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ والتأنيث.

- ﴿زُمَرًاۖ﴾: جَمْع زُمْرَة، وهي الجماعَة، والْفَوْجُ من الناس.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا . . .﴾: أي: حتَّىٰ إذَا وَصلُوا إلَىٰ أبْوَابِهَا فُتِحتْ تِلْقَائِيّاً هـٰذِهِ الأَبْوَابُ، كَمَا تُفْتَحُ الأَبْوَابُ الْعَصْرِيَّةُ بِجهَازٍ حَسَّاسٍ لِلْقَادِمِ إلَيْها، وهُوَ يُحرِّكُ الآلَاتِ الكَهْرُبَائِيَّةَ الْمَحْجُوبَةَ بِنِظَامٍ تَنْفَتِحُ بِهِ الأَبْوَابُ الْخَاصَّةُ بِهَا. حَتَّى هُنَا ابْتِدَائِيَّةٍ، وَهذِهِ الْحَرَكَةُ التِّلْقَائِيَّةِ خَاصَّةٌ بأبْواب جَهَنَّم، وهي سَبْعَةُ أَبْواب، كما جاء في الآية (٤٤) من سورة (الحجر/ ٥٤ نزول) وقد سبق تدبّرها.

- ﴿. . وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ . .﴾: أي: وَقَالَ لِلْمَسُوقِينَ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ مِنَ الْمَلَائِكَة. **خَزَنَة**: جَمْعُ خَازِن، وهم المكلّفُون مِنَ الملائكة أَنْ يَكُونُوا عِنْدَ أبْوابِ جَهَنَّمَ حُرَّاساً، ورُبَّما يَتَوَلَّوْنَ تَعْذِيبَ مَنْ يُؤْمَرون بِتَعْذِيبِهِ، ورَئِيسُ خَزَنَةِ جَهَنَّمُ «مَالِكٌ» عَلَيْهِ السَّلَام.

- ﴿. .أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ . .﴾؟.

أي: وَقَالَ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ للمَسُوقِين إلَىٰ إلْقَائِهِمْ مِنْ أبوابها بِحَسَبِ جرائِمِهِمْ هـٰذا الْقَول.

دلَّ هـٰذا القول علَىٰ أَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يُحكَمُ عَلَيْهِمْ بأنَّهُمْ كَانُوا كافرينَ في الحياة الدُّنيا، وَمَاتُوا كَافِرِينَ، قَدْ تَبَلَّغُوا رِسَالَةَ رَسُولٍ مِنْهُمْ، مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرين.

ودَلَّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ عَلَيهِم السَّلام قَدْ كَانَ يَتْلُو علَىٰ أُمَّتِهِ آيَاتٍ مُنَزَّلَاتٍ من اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، أنْزِلَتْ عَلَيْهِ أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَىٰ رَسُولٍ مِنْ قَبْلِهِ، أو مُصَاحِبٍ لَهُ في حَيَاتِه.

وَدَلَّ علىٰ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ أَنْبَأَ أُمَّتَهُ بالآخِرَةِ وَيَوْم الدّين، وأطْمَعَهُمْ بجَنَّاتِ النعيم إذَا آمَنُوا واسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ رَبِّهِمْ، وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ في جَهَنَّمَ خالِدِين مُخَلَّدِين فيها، إذا رَفَضُوا أَنْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَةِ

رَبِّهِمْ الَّتي بَلَّغَهُمْ إيَّاها رَسُولُهُ. ويَوْمُهُمْ هـٰذا، هُوَ الْيَوْمُ الآخِرُ الَّذي يَكُونُونَ يَوْمَئِذٍ فِيهِ.

- ﴿. . قَالُواْ بَلَىٰ . .﴾: أي: بَلَىٰ قَدْ أَتَتْنَا رُسُلٌ مِنَّا، وَتَلَوْا عَلَيْنَا آيَاتِ رَبِّنَا، وَأَنْذَرُونا لِقَاءَ يَوْمِنَا هـٰذا، وَعَذَابَ رَبِّنَا فِي جَهَنَّمَ إذَا اسْتَكْبَرْنَا، وَكَذَّبْنَا، وَكَفَرْنَا، واتَّبَعْنَا أهْوَاءَنا وشَهَوَاتِنَا وَغَرَّتْنَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا بِزِينَاتِها، وخَدَعَنَا شَيَاطِينُ الإنْسِ والجنّ بأبَاطِيلِهِمْ.

- ﴿. . وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: وَلَكِن اسْتَكْبَرْنَا، وَكَذَّبْنَا، وكَفَرْنَا، واتَّبَعْنَا أَهْوَاءَنَا وشَهَواتِنَا، وغَرَّتْنَا الْحَيَاةُ الدُّنيا بزِينَاتِهَا، وَخَدَعَنَا شَيَاطِين الإنس والْجِنّ بأبَاطِيلِهم، فَثَبَتَتْ عَلَيْنَا وتَحقَّقَتْ كَلِمَةُ الْعَذَاب الرَّبانيّ السَّابقَةُ بِعَذَابِ الْكَافِرِينَ في جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها، بِسَبَبِ كُفْرِنَا، وَتَحققَتْ وثَبَتَتْ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَافِرِين.

- ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

أَيْ: يَقُولُ مَالِكٌ رَئِيسُ خَزَنَةِ دَارِ الْعَذَاب يَوْمَ الدِّين، أو هُوَ وَمَعَهُ سَائِرُ خَزَنَتِها يَتَوزَّعُونَ عَلَىٰ الزُّمَر، فَيقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِلزُّمْرَةِ المكلَّفِ أَنْ يُدْخِلَهَا مِنَ الْبَابِ الْمُعَيَّنِ أَنْ تَدْخُلَ مِنْه، اُدْخُلُوا جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها.

- ﴿فَبِئْسَ﴾: «بِئْسَ» فِعْلٌ لإنْشَاءِ الذَّمّ عَلَىٰ سبيلِ المبالغة.

- ﴿. . مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: هو فاعل «بِئْسَ» والمخْصُوصُ بالذّم محذوف تَقْدِيرُه: جَهَنَّم، والمعنىٰ: فبِئْسَ مَكَانُ إقَامَةِ المتكبِّرِينَ واسْتِقْرارِهِمْ جَهَنَّمُ دَارُ عَذَاب الْمُجْرِمِينَ الْكَافِرِينَ المتكبِّرِينَ، الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ الَّذِي يُمِدُّهُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الإيمانِ بِهِ والإسْلامِ له.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ حَدَثَ سَوْقِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، إلَىٰ الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّين:

● ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

دلَّ هـٰذا البيان علىٰ أَنَّ أهْلَ الجنَّةِ يُسَاقُونَ إِلَيْهَا زُمَراً جَمَاعَاتٍ وَأفْواجاً، ويَظْهَرُ أَنَّ تَقسِيمَهُمْ إِلَىٰ زُمَر يُلاحَظُ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ وَدرَجَاتُهُمْ واتِّبَاعُهُمْ لِرُسُلِهِمْ عَلَيهِم السَّلام، وَقَدْ يُلاحَظُ فيه تَعَارُفُهُمْ في الدُّنيا وَقرابَاتُهُمْ.

ولكنّ سَوْقَ المتَّقِينَ أَهْلِ الجنَّةِ يَكُونُ مَصْحُوباً بالتَّكْرِيم كَمَا يُكَرَّمُ ضُيوفُ الْقَوْمِ، بِخِلَافِ سَوْقِ أَهْلِ النَّارِ، فإنَّهُ يكُونُ مَصْحُوباً بالإهَانَةِ والإِذْلَالِ، كَمَا يُسَاقُ الأَسْرَىٰ والسُّجَنَاءُ إِلَىٰ سُجُونِهِمْ وَأَمَاكِنِ تَعْذِيبِهِم.

● ﴿. . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا . .﴾: أي: حَتَّىٰ إذَا جَاءُوهَا بالوصُولِ إِلَىٰ أبْوابِهَا، اسْتُقْبِلُوا بالْحَفَاوَةِ والتَّكْرِيم مِنْ قِبَلِ طَوائِفَ مِنَ الملائِكَةِ عَلَيهِم السَّلام، وَرُبَما قُدِّمَتْ لَهُمْ كُؤُوسُ شَرابٍ وَثَمَراتٌ مِنْ ثَمَراتِ الْجَنَّة.

وَفُتِحتْ لَهُمْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ مِنْ قِبَلِ مُسْتَقْبِلِيهم، مُبالَغَةً في تَكْرِيمِهِمْ، بِخِلَافِ أهْلِ الْعَذَابِ الَّذِينَ تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوابُ النَّارِ فَتْحاً تِلْقَائِيّاً.

فالَّذِي أَرَاه أَنَّ الواو في عِبارَةِ: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ عَطَفَتْ علىٰ مَطْوِيٍّ يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بما ذكَرْتُ آنِفاً؛ لأنَّ السَّوْقَ إلىٰ دَارِ النَّعِيم يَقْتَضِي التَّكْرِيمَ بِاسْتِقْبَالٍ سَارٍّ بَهِيج قَبْلَ الدُّخول، وهـٰذا المطويُّ المحذُوفُ مِنَ اللَّفْظ هو جواب «إذَا»، بِخِلَافِ العبارَة الّتي سَبَقَتْ بِشَأْنِ أَهْلِ النار، فإنَّ جَوَابَ «إذَا» فيها هو «فُتِحَتْ»، وهـٰذا الَّذِي جَعَلَ بَعْضَ المفسِّرِينَ يَرَوْنَ أَنَّ الواو في ﴿وَفُتِحَتْ﴾ زَائِدَةٌ، وهُو غَلَط.

● ﴿. . وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ وَعَلَىٰ رَأسِهِمْ رِضْوَان عَلَيهِ السَّلام بَعْدَ

فَتْح الأَبْوَابِ لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ. هٰذِهِ الْعِبَارَةُ عِبَارَةُ تَحِيَّةٍ، مَعَ بِشَارَةٍ ودُعَاءٍ لَهُمْ بِالأَمْنِ الدَّائِم.

ولمعنىٰ الأَمْنِ الدَّائم سمَّىٰ اللهُ عزّ وجلّ الجنَّةَ دَارَ السَّلام، كَمَا جاء في الآية (٢٥) من سورة (يونس/ ٥١ نزول). وجعل تحيَّةَ أهْلِ الجنة في الجنة: «سَلَام»، كما جاء في الآية (١٠) من سورة (يونس) أيضاً. ويَقُولُ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة: «سَلَامٌ»، كما جاء في الآية (٥٨) من سورة (يس/ ٤١ نزول) إلىٰ غير هٰذِهِ مِنْ نصوص.

- ﴿طِبْتُمْ﴾: أي: زَكَوْتُمْ، وَطَهُرْتُمْ، وَسَعِدْتُمْ بِمَا سَتُلَاقُونَ مِنْ نَعِيم.

- ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾: أي: فَادْخُلُوا الْجَنَّةَ، حَالَةَ كَوْنِكُمْ سَتَكُونُون خالِدِينَ فيها أبداً، مَا امْتَدَّتِ الأَزْمَان في الآباد.

- ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: فَدَخَلُوا الجنَّةَ مُعَزَّزِينَ مُكَرَّمِينَ، وَقَالُوا حِينَ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَىٰ أَرْضِهَا يَتَنَقَّلُونَ أَحْرَاراً، مُنَعَّمِينَ بِمَا فيها مِنْ وَسَائِلِ نَعِيمٍ عظيم جَسِيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: كُلُّ الثَّنَاءِ عَلَىٰ الله، إِذْ هُوَ مُسْتَحِقُّ الْحَمْدِ كُلِّهِ، الّذي أَوْفَىٰ بِوَعْدِهِ الَّذِي وَعَدَنَا إِيَّاهُ، بأَنْ يُدْخِلَنَا جَنَّتَهُ خَالِدِينَ أَبَداً، مُنَعَّمِينَ إذا آمَنَّا بِهِ وبِمَا أَتَانَا مِنْ عِنْدِه وأَعْلَنَّا إِسْلَامَنَا لَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَرِيكاً، إِذْ كُنَّا نجتاز رِحْلَةَ امْتِحَانِنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

يُقَالُ لغة: «صَدَقَ فُلَانٌ فُلاناً الْوَعْدَ» أي: أَوْفَىٰ به.

- ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾: أي: أرضَ الجنَّةِ، بِدَلِيلِ مَا جَاءَ بَعْدَها، وهو قولُهم: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

الْمِيرَاثُ: هُوَ مَا يَمْلِكُهُ الخلفُ مِنْ سَلَفٍ دُونَ عِوَضٍ، وهُوَ يَشْمَلُ المادّيَّاتِ والمعنويات، فيُقال: «فُلاَنٌ وَرِثَ الْمَالَ والْمَجْدَ عَنْ أبيهِ، وَوَرِثَهُ مِنْهُ» ويُقَال: «وَرِثَ فُلاَنٌ أَبَاه».

وَلمَّا كَانَ تَمْلِيكُ اللهِ الّذِين اتَّقَوْا أَرْضَ الْجَنَّةِ عَطاءً مِنْ فَضْلِهِ بالْوَعْدِ الْكَرِيم، وَلمَّا كَانَتِ الْجَنَّةُ مِنَ السَّعَةِ بِحَالٍ تَسْتَوْعِبُ كُلَّ عِبَادِ اللهِ الّذِينَ أُبْعِدُوا عَنْهَا لِكُفْرِهِمْ، عَلَىٰ مَقَادِير أَطْمَاعِهِمْ لَوْ آمَنُوا وأَسْلَمُوا واسْتَحَقُّوا دُخُولَهَا، كَانَ من المناسبِ أَنْ يُعَبَّرَ عَنِ امْتِلاَكِ أَهْلِ الْجَنَّة أَرْضَ الْجَنَّةِ بأَنَّهُ مِيراثٌ، فَهُوَ تَمَلُّكٌ دُونَ مُقَابلٍ مَلَّكَهُمُ اللهُ إيَّاه، وَفَاءً بِوَعْدِه الْكَرِيم، وَلأَنَّهُمْ وَرِثُوا فِيها مَا كَانَ قَدْ خُلِقَ للّذِينَ كَفَرُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ، فِيمَا لَوْ كَانُوا آمَنُوا وَأَسْلَمُوا باختيارِهِمُ الْحُرّ.

- ﴿. . . نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ . .﴾: أي: نَنْزِلُ وَنُقِيمُ في المكان الّذِي نَشَاؤُهُ مِنَ الجنَّة، لَا يُنَازِعُنا فيه مُنَازِع.

يُقَالُ لغة: «تبوَّأَ الْمَكَانَ، وتبوَّأَ بِهِ» أي: نَزَلَهُ وأقَامَ بِهِ.

والْمَبَاءَة: الْمَنْزِل، وَيُقَالُ: «بَوَّأَهُ المكانَ» أي: أَنْزَلَهُ فِيهِ.

حَيْثُ: ظَرْفُ مَكَانٍ، مبنيٌّ علَىٰ الضمّ، وقَدْ تُفْتَحُ ثَاؤه، وقَدْ يَرِدُ للزَّمَان، وَالغالب أَنْ يكونَ في مَحَلِّ نَصْبٍ ظَرْفَ مكان. أي: نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ مَكَاناً نَشَاءُ أَنْ نَتَبَوَّأَه.

- ﴿. . فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾: «نِعْمَ» فِعْلٌ لإنْشَاءِ الْمَدْحِ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالغة. ﴿أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ فاعل «نِعْمَ» والمخصُوصُ بالْمَدْحِ محذوف تَقْدِيره: الجنَّة.

هـٰذِهِ العبارَةُ جَاءَت في مُقَابلِ عبارَة ﴿. . فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وَهَلْ عبارَة: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ تَصْدُرُ عَنْ الّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ

الجنَّة، أَوْ هِيَ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ أَثْنَىٰ اللهُ به عَلَىٰ الثواب العَظيم الَّذِي يَمْنَحُهُ لِلْعَامِلِينَ بمَرَاضِيه، تَحْرِيضاً وَترغِيباً للمؤمِنِينَ في الدُّنيا، حَتَّىٰ يَكُونُوا مِنَ المجتَهِدِينَ الْعَامِلِينَ بِمَا يُرْضِي اللهَ مِنْهُمْ، لِيَنَالُوا الأَجْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَثْنَىٰ اللهُ عَلَيه، وهـٰذا الْفَهْمُ هُوَ الأَرْجَحُ فيما ظَهَرَ لي، واللهُ أَعْلَمُ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآيَةِ الأَخِيرَة مِنْ هـٰذا الدَّرْس، ومِنْ هـٰذِهِ السّورة:

• ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

أي: وَتَرَىٰ يا أيُّها الرَّسُولُ وَيَا كُلَّ رَاءٍ مُؤَهَّلٍ لِهـٰذا التَّشْرِيف الرَّبَّاني يَوْم الدِّينِ، الْمَلَائِكَةَ مُحِيطِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْش، صُفُوفاً صُفُوفاً، بِحَسَبِ دَرجَاتِهِمْ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللهُ إيَّاها، وَاللهُ أَعْلَمُ بالْمَسَافَةِ الَّتِي تَصِلُ إِلَيْهَا دَوَائِرُ صُفُوفِهِم الكَثِيرَةِ، وَهُمْ طَوَال مُدَّةِ الْحَشْرِ والْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم قَائِلين: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَوْ سُبْحَانَ اللهِ رَبِّنَا وَبِحَمْدِه، وَيَسْتَمِرُّونَ هَكَذَا ذَاكِرِينَ مُسَبِّحِينَ حَامِدِين، حَتَّىٰ يُنْهِيَ اللهُ قَضَاءَه بَيْنَ العباد، وَيُنْهِيَ إِدْخَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْجَنَّة، وَإِدْخَالَ أَهْلِ النَّارِ النار.

وَإِنْهَاءُ كُلِّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بالْحَقِّ عَدْلاً أَوْ فَضْلاً.

• ﴿. . وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ . .﴾: أَيْ: وأُنْهِي قَضَاءُ اللهِ بَيْنَ الْعِبَادِ بالْحَقّ، حُكْماً وَتَنْفِيذاً.

• ﴿. . وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: أي: وَبَعْدَ إِنْهَاءِ كُلِّ ما سَبَقَ يَقُولُ الْمَلَائِكَةُ وَكُلُّ شُهُودِ هـٰذا الموْقِفِ من الرُّسُلِ والنبيّينَ عَلَيهِم السَّلام وغَيْرِهِمْ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين.

حَافِّين: أي: مُحِيطِينَ وَمُلْتَفِينَ حَوْلَ العرْش.

وبهٰذا انتهىٰ تدبّر الدّرس الثالث والعشرين وهو الدرسُ الأخير من دُروس سُورة (الزُّمَر).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِه ومَدَدِه وتَوْفيقه وفتحه.

* * *

(٢٨)

ملحق: مُستَخْرَجات بَلاَغِيَّة مِنْ سُورَةِ (الزُّمر)

في هٰذِهِ السّورة اختياراتٌ بلاغيةٌ كَثِيرَةٌ، استَخْرَجْتُ مِنْها ما يلي:

أولاً: مِنَ الإيجاز

يوجد في السّورة مِنْ قسم الإيجاز بالحذْف، أمْثِلَةٌ مُتَعَدِّدَة، منها الأمْثِلَةُ التالية:

المثالُ الأوَّل: قول الله عزّ وجلّ:

﴿... وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ... (٣)﴾:

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ قـائِـلِـيـنَ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

المثال الثاني: قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ... (٩)﴾:

أي: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا﴾ وَراكِـعـاً ﴿وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ كَمَنْ لَيْسَ كَذٰلِكَ بَلْ هُو مُعْرِضٌ عَنْ عبادة رَبِّهِ، أو هو مُقَصِّرٌ في نوافِلِ العبادات.

المثال الثالث: قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾:

أي: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ: اللهُ يقولُ لَكُمْ: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟﴾ عِقَابَ ﴿رَبَّكُمْ﴾ بِفِعْلِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَتَرْكَ ما نَهَاكُمْ بإلْزَام، وكُونوا أبْرَاراً بالتَّقَرُّب إلَيْهِ بنوافِلِ العبادات يَزِدْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وأَحْسِنُوا ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ عَطَايَا ومِنَحٌ ﴿حَسَنَةٌ﴾، ومِنَ الْبِرِّ والإحْسَانِ الْهِجْرَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فالْهِجْرَةُ مُيَسَّرَةٌ لَكُمْ ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾، وَاصْبِرُوا على مَتَاعِبِ الهجرَةِ وغيرها لِتَنالُوا الأجْرَ العظيم عِنْدَ رَبّكُم بِغَيْرِ حِسَاب إذْ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لرسوله محمد ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٢)﴾:

أي: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بأوامِرَ وَتكاليفَ زَائِدَةٍ عَلَىٰ التَّكَالِيفِ الموجَّهَةِ لِسَائِرِ الْمُسْلِمينَ ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الخاتِمَةِ لِلْأُمَم.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧)﴾:

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فَلَمْ يَقْتَرِبُوا مِنْها وَلَا من الدُّعَاةِ إليها، خَشْيَةَ أَنْ يُفْتَنُوا بِها و﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ تَأَثُّراً بالدَّاعين إلى عبادتها، ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ﴾ أيّها الدَّاعي إلى رَبّك **[عِبَادِ]** ي.

المثال السادس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ۝١٩﴾:

أي: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ الَّتِي سبَقَ بِبَتِّهَا تقدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ فِي قَانُونِ جزائِهِ لِعِبَادِه، أَتَمْلِكُ يَا مَنْ تُحِبُّهُ أَيّاً كُنْتَ أَنْ تُنْقِذَهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾؟، إِنَّكَ مَهما كَانَ شَأْنُكَ لا تُنْقِذُه، إذ الْحُكْمُ، والتنفيذُ للهِ وحْدَه.

المثال السابع: قوله اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسُوله ﷺ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٤١﴾:

أي: [فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِـ] نَجاةِ [نَفْسِهِ] وَسَعادَتِها كَسَبَ خَيْراً، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ جانياً ﴿عَلَيْهَا﴾ شَقاءً أَبدِيّاً وَعذاباً أَليما.

المثال الثامن: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾.

أي: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ لِأَنَّهُ قَضَىٰ أَنْ يُميتَها، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ لِأَنَّهُ قَضَىٰ أَنْ لا يُمِيتَها فَإِنَّهُ يَتوَفَّاها ﴿فِى مَنَامِهَا﴾، [فَـ] سُنَّتُهُ فِي عِبَادِهِ أَنَّهُ ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ الَّتِي لَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

المثال التاسع: قول الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الظَّالِمِينَ الكفرة يوم القيامة:

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨﴾:

أي: وَبدا لَهُمْ «جَزاءُ» سَيِّئَاتِ ما كَسَبُوا وحَاقَ بهم «واقع» ما كانُوا «بالْوَعيد به في الدُّنيا» يَسْتَهْزِئون.

المثال العاشر: قول الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ عباده المسرفين على أَنْفُسِهم:

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

والآيتان (٥٧) و(٥٨).

أي: نُوجِّهُ لكُمْ هذا النداء الذي جاء في: ﴿يَٰعِبَادِىَ ... ﴿٥٣﴾﴾ «مَنْعَ» ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ .. ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ .... ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ ... ﴿٥٨﴾﴾.

المثال الحادي عشر: قول عَزَّ وَجَلَّ بشَأْن الْكَافِرِ الذي يَدَّعِي كاذباً يوم القيامة أَنَّهُ لَمْ يَتبَلَّغْ رِسَالَةَ رَسُولٍ:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: وإذا ادَّعىٰ كَافِرٌ يوم القِيامَةِ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ رَسُولٌ مُبَلِّغٌ وَمُبَشِّرٌ ومُنْذِرٌ، قال اللهُ لَهُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ...﴾ الآية.

المثال الثاني عشر: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المتّقِينَ حِينَ يُسَاقُونَ يَوْمَ القِيامَةِ إِلىٰ الجنَّة مُكرَّمِين:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ اسْتُقْبلُوا بِحَفَاوَةٍ وتَكْرِيمٍ عِنْدَ وصولهم إليها، ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بأيْدِي مستقبِليهم زيادةً في تَكْرِيمهم والْحَفَاوَةِ بِهِمْ، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ عِنْدَ دُخُولِهِمْ إِلىٰ الْجَنَّةِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

ثانياً: من الكناية:

الكناية: هي اللّفظ المسْتَعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلَاحِ بِهِ التَّخَاطُبُ للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعْنًى آخرَ لَازِمٍ لَهُ، أَوْ مُصَاحِبٍ لَهُ، أَوْ يُشَارُ بِهِ عَادَةً إِلَيْهِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الملابَسَة بِوَجْهٍ من الوجُوه.

وفي سورة (الزُّمَرِ) من الكِنَايَةِ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا الْأَمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ حُكْمِهِ بَيْنَ عبادِه يَوْمَ الدّين:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾:

أي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يَوْمَ القيامَة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ﴾، ويُجَازِيهم بِحَسَبِ أَحْكامِهِ فيهم بالثَّوابِ أَوْ بِالعقاب، وهُو لَا يَحْكُمُ بهِدَايَةِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْحُكْمَ لَهُ بالْهِدَايَة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

جاء التَّعْبِيرُ بِبَعْضِ العناصر الَّتي تَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ لِتَحْقِيقِ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّاني، وفي هٰذا المذْكُور في الآيةِ كِنَايَةٌ عَنْ سَائِرِ العناصر لِمُصَاحَبَتِهِ لها.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً للنَّاس:

﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾:

جاء في هذه الآيَةِ التعبير بِالرُّجوع إلى الله، وبإِنْبَاءِ الناس بما كانوا يَعْمَلُونَ في الحياةِ الدّنيا، ومِنْهُ أعمالُ قُلُوبِهِمْ ونُفُوسِهِم الإرادِيَّة، كِنَايَةً عَنْ كُلِّ مَا يَتِمُّ بِه تَحْقِيقُ قَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَانيّ يَوْم الدِّينِ، لِتَلَازُمِها وَمُصَاحَبَةِ بَعْضِها لِبَعْض.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾:

جاء في هذا النَّصِّ التعبير بعبارة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ . . .﴾ الآية، كِنايَةً عَنْ عبارة أُخرىٰ تتضمَّنُ الدلالَةَ على ما يلي: إنَّكُمْ إذا عَبَدْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ شيئاً خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ، وجُوزِيتُمْ بعذاب شَدِيدٍ يَوْمَ الدِّين عَلَىٰ شِرْكِكُمْ.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

جاءَتْ عِبارَةُ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في هـٰذِهِ الآيَةِ كِنايَةً عن الحسابِ، وفَصْلِ القضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، يَوْمَ الدين.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

جاءت في هـٰذِهِ الآية عبارة: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لِإشْعَارِ المشْرِكينَ بأسْلُوب الكِنايَةِ، أَنَّ اللهَ سَوْفَ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القيامَةِ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ خُلُودٍ فِي عَذابِ النَّارِ، وَيُنَفِّذُ فِيهِمْ أَحْكَامَهُ، وهذا الإشْعَارُ إِنْذارٌ لَهُمْ.

المثال السادس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

في هذه الآيَةِ اسْتِفْهَامٌ تَوْبِيخيٌّ للكافِرينَ المتكَبِّرينَ، وهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ عذابِهِمْ في جهنَّمَ، وإنْذارِهِمْ بهذا العذاب.

ثالثاً: من خُرُوج الاستفهام عَنْ أصل دَلاَلَتِه:

ذكر علماء المعاني أَنَّ الاستفهام قَدْ يَخْرُجُ عن أصلِ دَلاَلَتِهِ وهي

طَلَبُ الإفهام، إلى مَعَانِي كثيرة أُخْرَىٰ تُفْهَمُ مِنَ القرائن.

ومِنْ أَمْثِلَةِ هَـٰذَا الخروج في السُّورَةِ مَا يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿. . . أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾؟:

يدُلُّ الاسْتِفْهَام في هذه العبارة على الإخْبارِ، والإنْذَارِ، مَعَ تَوْبيخ المتكَبِّرِينَ الَّذِينَ كَذَبُوا علىٰ الله.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ، بشأن المشركين الذين كانُوا يَدْعُونَهُ إلىٰ عبادَةِ آلِهَتِهِمْ مِنْ دُون الله:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾؟:

يُفْهَمُ مِنْ هذا الاسْتِفْهامِ الإنْكارُ بِشِدَّةٍ على هؤلَاءِ المشركين، مَعَ تَوْبيخِهِمْ عَلَىٰ حَمَاقَتِهِمْ، وَدَعْوَتِهِمْ، الَّتِي فيها سَفَاهَةٌ ومُكابَرَةٌ بالْبَاطِل.

رابعاً: من الْقَصْر:

ذكر علماء المعاني «الْقَصْر» وهو تَخْصِيصُ شيءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

ومن أمْثِلَة الْقَصْرِ في سورة (الزُّمر) ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ . . . ﴿٣﴾﴾:

أي: أَلَا للهِ وَحْدَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ مِنْ شَوَائِب الشِّرْكِ.

دَلَّ على القصر في هذه العبارة تَقْدِيمُ الخبر: ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ: ﴿ٱلدِّينَ﴾، وَهو قَصْرٌ حقيقيٌّ من قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿. . . وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا . . . ﴿٤١﴾﴾:

أي: وَمَنْ ضَلَّ فإنَّهُ لَا يَضِلُّ إلَّا جَانِياً علىٰ نَفْسِهِ وَجالباً لها عِقَاباً عِنْدَ رَبه.

دَلَّ علَى الْقَصْرِ أَدَاةُ «إنَّما»، وهو قَصْر حقيقي من قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصوف.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: والَّذِينَ كَفَرُوا بآيات اللهِ هُمْ وَحْدَهم دُونَ غَيرِهم أَكْثَرُ النَّاسِ خَسَارة؛ لِأَنَّهُم خَسِرُوا أَنْفسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ بإراداتِهم الحرَّة.

دلَّ على القَصْرِ في هذه العبارَة تَعْرِيف طَرَفي الإسناد، وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌّ، مِنْ قَصْرِ صِفَةِ الْأَخْسَرِيَّة على الَّذِين كَفَرُوا بآيات الله.

خامساً: من التوكيد:

المثالُ الأوّل: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿٢﴾﴾:

جاء في هذه العبارة التوكيد بـ«إنَّ ـ والْجُمْلَة الاسمية»، ونَفْهَمُ من أحوال الرَّسُول ﷺ أَنَّهُ على يَقِينٍ كامِلٍ بأنَّ اللهَ أنْزَلَ عَلَيْهِ الكتابَ مُتَّصفاً بالْحَقّ، فالمَقْصُودُونَ بالتوكِيدِ هُمُ الّذِينَ تَقْتَضِي أَحْوَالُهُمْ التَّوْكِيدَ مِنَ النَّاسِ، وَقَدْ جَاءَ الخطابُ مُوَجّهاً لِلرَّسُولِ ﷺ باعْتِبَارِه أَوَّلَ المتلَقِّينَ عَنِ اللهِ.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ ... ﴿١١﴾﴾.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسوله ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ ... ﴿١٣﴾﴾.

المقصُودُون بالتوكيد في هـٰذِينِ المثالَيْنِ الشَّاكُّونَ من المبلَّغِين.

وجاء فيها التوكيد بـ«إنَّ ـ والجملة الاسمية».

وأقتصر على هذه المستخرجات من الاختيارات البلاغيَّة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفَتْحِهِ.

سورة غافر

وتُسَمَّى سورة (المؤمِن) وسورة (الطَّوْل)

٤٠ مصحف ٦٠ نزول

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا

وقيل إلّا الآيتَيْنِ (٥٦ و٥٧) منها فهما مَدَنِيتان

وهي أولَى «الحواميم السبع»

(١)

نص السورة وَمَا فيها من فَرْش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ (٢) غَافِرِ
ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ
إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ (٣) مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ (٤) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ
وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ
وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ
(٥) وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ (٦) ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ
بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ
كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ
وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي

---

١ ـ • سَكَتَ أبو جعفر على «حا» و«ميم» سَكْتَةً لطيفة بدون تنفُّس.

٥ ـ • قرأ يعقوب **[عِقَابِي]** في الوقف والوصْل.
وقرأها باقي القراء العشر: **﴿عِقَابِ﴾** في الوصْلِ والوقف أيضاً.

٦ ـ • قرأ نَافع، وابن عامر، وأبو جعفر: **[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** بالجمع.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإفراد **﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾**.

٧ ـ • قرأ رُويس: **[وَقِهُمْ عَذَابَ الْجَحِيم]** بضم هاء الضمير.
وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرِ هاء الضمير.

وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْۚ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن
مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ
إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ
وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ
ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ
ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ

---

٩ - ● قرأ أَبُو عَمْرو، وروح: [**وَقِهِمِ السَّيِّئَاتِ**] بكسر الهاء والميم من [**وَقِهِمِ**] في حَالة الوصل.

وقرأها حَمْزَةُ، والكسائي، وَرُيْس، وخَلَف: [**وَقِهُمُ السَّيِّئَاتِ**] بضم الهاء والميم في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة:

﴿**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ**﴾ بكسر الهاء وضم الميم في الوصل.

أما في حالة الوقف فكُلُّ القراء على كَسْرِ الهاء وإسْكان الميم.

إلَّا رُوَيْساً فَيقِفُ بِضَم الهاء وإسكان الميم.

وهي وُجوه من النطقَ في العربية.

١٣ - ● وقرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [**وَيُنْزِلُ**] من فعل «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَيُنَزِّلُ**] من فعل «نَزَّلَ» المضعف.

والقراءتان متكافئتان، فالمهموز أخو المضعف.

لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ
تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى
ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ
﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
يَقْضِى بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍۗ إِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوا۟ هُمْ
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا
كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت

---

١٥ ـ • قرأ ورْش، وابْن وَرْدان [**يَوْمَ التَّلَاقِي يَوْمَ هُمْ**] بإثبات يَاءِ «التلاقي» في الوصل.

وقرأها ابْنُ كثير، ويعقوب بإثبات ياء «التلاقي» في الوصل والوقف.

وحَذَف هٰذِه الْيَاء باقي القراء العشرة في الْوَصْلِ والوقف، فَقَرؤوها ﴿**يَوْمَ التَّلَاقِ**﴾.

٢٠ ـ • قرأ نافع، وهشام: [**والَّذِينَ تَدْعُونَ**] بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ**﴾ بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداءِ البياني.

٢١ ـ • قرأ ابن عامر: [**أَشَدَّ مِنْكُمْ**] بضمير المخاطَبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**أَشَدَّ مِنْهُمْ**﴾ بضمير الغائبين.

وبين القراءتين تَكامل في الأداء البياني، وفي قراءة ابْنِ عامر التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب.

٢١ ـ • قرأ ابن كثير: [**مِنْ وَاقِي**] في الوقفِ، و﴿**مِنْ وَاقٍ**﴾ في الوصل. =

تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ
ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ
﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ
﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ
إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ
﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ
لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ

= وقرأها باقي القراء العشرة: بحذف الياء في الوقف والْوَصْل.

٢٢ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَأْتِيهُمْ] بِضَمّ هاء الضمير، والباقون بكَسْرِها.

٢٢ ـ • قرأ أَبُو عَمْرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكان السِّين.
وقرأها باقِي القراء الْعَشَرَة: ﴿رُسُلُهُمْ﴾ بِضَمّ السّين.

٢٦ ـ • قرأ ابن كثير: [ذَرُونِيَ أَقْتُلْ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ ياءِ المتكلّم.

٢٦ ـ و٣٠ ـ و٣٢ ـ• قرأ نافع، وابْنُ كَثِير، وأَبُو عَمْرو، وأَبُو جعفر: [إِنِّيَ أَخَافُ] بفَتْح ياء المتكلم.
وقرأ الثلاثة باقي القراء العشرة بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

٢٦ ـ • قرأ نَافع، وأبو عمْرو، وأَبُو جعفر: [وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ].
وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ عَامِر: [وَأَنْ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ].
وقرأها شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [أَوْ أَنْ يَظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادُ].
وقرأها حفص، ويعقوب: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾. وفي هٰذِهِ القراءَاتِ تَكَامُلٌ يَدُلُّ على مَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ فِي مَجَالِسَ لَهُ مع مَلَئِهِ.

وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ
كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ
ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ
قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ
ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ
يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ
عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ
يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ

---

٢٩ و٣١ ـ ● أبدل الهمزة من «بأس» ومن «دَأب» ألفاً السُّوسي، وأبو جعفر، وكذلك حمزة في الوقف.

٣٢ ـ ● قرأ ورش، وابْن وردان [التَّنادِي] بإثبات الياء في الوصل.
وقرأها ابن كثيرٍ، ويَعْقُوب بإثبات الياء في الوصل والوقف.
وحَذَف هذه الياء باقي القراء العشرة في الوصل والوقف.

٣٣ ـ ● قرأ ابن كثير: [مِنْ هَادِي] في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ على التَّنْوِينِ في الوصل.

ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ
أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ
وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ
عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾

---

٣٥ ـ • قرأ أبو عمرو، وابن ذكْوان: **[عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ]** بتنوين لفظ «قَلْبٍ».

وقرأها باقي القراء العَشَرة بكَسْرِ لفظ «قَلْبِ» دُونَ تَنْوين، وهو على الإضافَة إلى ما بَعْدَه.

وبين القراءتين تكامل في أداءِ المعنى المراد.

٣٦ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جَعْفر، وابن عامر: **﴿لَعَلِّيَ أَبْلُغُ﴾** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٣٧ ـ • قرأ حَفْص: **﴿فَأَطَّلِعَ﴾** بالنَّصْب بأنْ مضمرة، على اعتبار أَنَّ الفاء سببيَّة.

وقَرأها باقي القراء العشرة: **[فَأَطَّلِعُ]** بالرَّفع على أنَّ الفاء عاطفة.

٣٧ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعفر: **[وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾**.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، ففِرْعَوْنَ صَدَّ مَلأَهُ وقَوْمه عن السبيل. وهُو قد «صُدَّ» عَنِ السَّبِيل من قبَل الشيطان، وعَوامِل نَفْسِهِ الجامِحة الجانِحة.

٣٨ ـ • قرأ قالُون، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: **[اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ]** بإثباتِ ياء المتكلّم وصلاً، وأثبتها في الوصل والوقف ابن كثيرٍ، ويعقوب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذفِ ياءِ المتكلم: **﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾** وصلاً ووقفاً.

يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ
ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ
عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ
يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا
لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي
لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ
إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ
دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ
ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ
لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾

---

٤٠ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وشُعْبة، وأبو جعفر، ويعقوب: **[يُدْخَلُونَ الجنَّةَ]** بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾** بالبناء للمعلوم.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: يُدْخِلُهُمُ اللهُ الجنَّة، فَيَدْخُلُونها هُمْ.

٤١ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وهِشام، وَأبو جعفر: **[مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرَة بإسْكَانِ يَاء المتكلم.

٤٢ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[وَأَنَا أَدْعُوكُمْ]** بإثْبَاتِ ألف «أنا» وتُمَدُّ للهمزة بعدها.

وقرأها باقي القراء العشرة بحذف ألف «أنا» من النُّطْق.

٤٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وَأبو جَعْفر: **[وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَىٰ اللهِ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكانِ ياء المتكلّم.

فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ
ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ
فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ
تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ
ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ
رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ
تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ
ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ
ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾

---

٤٦ ـ • قرأ ابنُ كثير، وَأبُو عمْرو، وابْنُ عامر، وشُعْبة: **[وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ٱدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ]** أي: يُقَالُ لَهُمْ: ادخُلُوا يا آلَ فِرْعَوْنَ.

وقرأها باقي القراءِ الْعَشَرَةِ **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾** أي: يُقَالُ لِمَلائِكَةِ التَّعْذِيبِ بالنار: أَدْخِلُو آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ الْعَذَابِ.

فبين القراءتَيْنِ تكاملٌ في الدَّلالَةِ على مَعْنَيَيْن مُرادَيْن.

٥٠ و٥١ ـ • قرأ أبو عمرو: **[رُسْلُكُمْ]** و**[رُسْلَنَا]** بإسْكانِ السين فيهما.

وقرأهما باقي القراء العشرة بضمّ السّين.

٥٢ ـ • قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **﴿لَا يَنْفَعُ﴾**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[لَا تَنْفَعُ]** بالتاء.

وهما وجْهانِ عَرَبيان جائزان.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ
﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ
وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ
﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

---

٥٨ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: **[يَتَذَكَّرُون]** بياء الغائبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾** بتاء المخاطبين.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

٦٠ ـ • قرأ ابن كثير: **[ادْعُونِيَ أَسْتَجِبْ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ ياء المتكلم.

٦٠ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وشعبةُ، وأبو جعفر، ورُويس: **[سَيُدْخَلُونَ جَهَنَّمَ]** بالبناء لِمَا لم يُسَمَّ فَاعِلُه، أي: يأمُرُ اللهُ بإدْخالهم جهنَّم، فَتُدْخِلُهُمُ الملائِكَةُ المأمُورنَ بذلك.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾** بالبناء لِلْمَعْلُوم.

وبَيْنَ القراءتين تَكامُلٌ، أي: يُدْخَلُونَ مُكْرَهِين، فَهُمْ يَدْخُلُونها عاجزِينَ عن المقاومة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى
نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ
ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ

---

٦٧ ـ ● قرأ ابن كثير، وابن ذَكوان، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي: [**شِيُوخاً**] بِكَسْر الشِّين.

وقرأها باقي القراء الْعشَرة ﴿**شُيُوخاً**﴾ بضَمِّ الشّين.

والقراءتانِ لُغَتان عَربيّتانِ.

٦٨ ـ ● قرأ ابنُ عَامر: [**كُنْ فَيَكُونَ**] بنصب «يكون» بأنْ مضمرة، عَلَىٰ أنّ الفاء سببيَّة. =

ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ
أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ
أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ
يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾
مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ
شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾
ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ
﴿٧٦﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي
نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا
مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ
عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾** بِرَفع «يكونُ» علىٰ أنّ الفاء عاطفة غير سببيَّة، أي: فَهُو يكون.

٧٠ ـ • قرأ أبو عمْرو: **[رُسْلَنَا]** بإسكان السّين.
وَقرأها باقي القرّاء العشرة **﴿رُسُلَنَا﴾** بضمّ السّين.
والقراءتان نطقان عَرَبيان.

٧٦ ـ • قرأ السّوسي، وأبو جعفر: **[فَبِيسَ]** بإبدال الهمزة ياءً، وكذلك قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿فَبِئْسَ﴾** بالهمزة دون إبدال.

٧٧ ـ • قرأ يعقوب: **[يَرْجِعُونَ]** بالبناء للمعلوم.
وقرأَهَا باقي القراء العشرة: **﴿يُرْجَعُونَ﴾** بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعله.
أي: يُرْجِعُهُمُ اللهُ بالْجَبْرِ فَهُمْ يَرْجعُونَ مُطَاوِعِين.

جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا
تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ
فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ
ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ
أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم
مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ
وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ
إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

---

٨٣ ـ • قرأ أبو عمْرو: [**رُسْلُهُمْ**] بإسْكان السّين.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**رُسُلُهُمْ**﴾ بضمّ السّين.
وهما نطقان عربيان.

٨٤ ـ و٨٥ ـ • أبْدَلَ السُّوسي، وأَبُو جَعْفَر الهمزَةَ مِنْ [**بَأْسَنا**] أَلِفاً فِي الْمَوْضِعَيْنِ.
وكذَلِكَ حمزةُ فِي الوقف، وَلَمْ يُبْدِلْهَا الباقون.

٨٥ ـ • وقف ابن كثير، وأبو عمْرو، والكسائي، ويعقوب، بالهاء في لفظ ﴿**سنت**﴾.
ووقف باقي القراء العشرة بالتاءِ.

(٢)
ممّا ورَدَ بشأن سورة (غافر)

(١) رُوي عن أبي هُرَيرَة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ قَرأ حمَ المؤمن (غافر) إلى ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وَآيَةَ الكُرْسِيّ حِينَ يُصْبِحُ، حُفِظَ بِهِمَا حَتَّىٰ يُمْسِي، وَمَنْ قَرَأَهُمَا حِينَ يُمْسِي حُفِظَ بهما حَتَّىٰ يُصْبِحَ».

(٢) ورُوي عَنْ أَنَسٍ قال: قال رسُول اللهِ ﷺ:

«الْحَوامِيمُ دِيبَاجُ القرآنِ».

الحواميم: هي السُّور الْمَبْدُوءَةُ بـ(حمَ) وهي سبع سُور، مُرَتَّبَة في المصحف على وفق ترتيب نزولها: (غافر ـ فُصِّلَت ـ الشُّورى ـ الزُّخْرُف ـ الدُّخان ـ الجاثِية ـ الأحْقَاف).

الدّيباج: نوع من الثياب، سَدَاهُ ولُحْمَتُهُ حَرِير، أي: هـٰذِهِ السُّور نفيسَةٌ لَيِّنَةٌ نَاعِمَة، كالديباج بَيْنَ الثياب، وذوات زينة.

وجاءت تَسْمِيَةُ هـٰذِهِ السُّورِ السَّبْعِ: «آلَ حَم» كأنَّها مِنْ عائِلَةٍ شَرِيفَةٍ واحِدَة.

(٣)
موضوع سورة (غافر = المؤمن)

ظَهَر لي أنَّ موضُوعَ هـٰذِهِ السُّور يَدُور حَوْلَ مُعَالَجَةِ الَّذِين يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ وَبالحِيلِ الكَلامِيَّة والمكابراتِ العِنَادِيّة، فِي آياتِ اللهِ الْبَيِّنَاتِ المنَزّلَاتِ بالحَقِّ من العزيز الحكيم، لِيُدْحِضُوا بجدالِهِمْ بالْبَاطِلِ الْحَقَّ المنَزَّلَ الَّذي يُبَلِّغُهُ رُسُولُ ربِّهِمْ، مع تَوجِيهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ وَتَرْبِيَتِهِ فيما يتَعَلَّقُ بِجدَليات الكافِرِين بالباطل، وبِشَأْنِ هـٰذا الموقف من مَوَاقفِهِمْ.

ومعالجتُهُمْ في مُعْظَمِها مُراوحَةٌ بَيْنَ الترغيب، والترهيب، وعَرْضِ لَقَطاتٍ مِنْ أحْوَالِ المجادِلِينَ بالباطلِ من الأُمَم السَّابقة، ومَا أنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ وَعَذَابٍ كَانَ بِهِ هَلَاكُهُمْ، ومَا أَعْتَدَ لَهُمْ مِنْ عَذَابٍ أبَدِيٍّ يَوْمَ القيامَةِ في الْجَحيم، دَار عذاب الكَفَرَة المجرمين، وَتَقْدِيم مَشَاهِدَ مِمَّا سَوْفَ يُلَاقِيهِ الكافِرُونَ يَوْمَ الدِّين.

وفي أثناء المعالَجَةِ بالتَّرْغيب والتَّرْهِيبِ إقْنَاعٌ بِعَرْضِ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ الكوْنيّة، الدّالّاتِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبوبيَّةِ اللهِ لِكَوْنه، في الخلْقِ والرِّزْق، وهـٰذِه الآياتُ الكَوْنِيَّةُ تُلْزِمُ العقول بأنَّهُ لَا رَبَّ إلَّا الله، فلا إلَه إلَّا هو، وتُبيِّنُ لَهَا واجِبَ شُكْرِ اللهِ على نِعَمِهِ الكثيرة.

وفي السُّورَةِ تَوْكِيدُ قَضَاياً مِنْ أُصُولِ العقيدة الإيمانيّة في دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، والتَّنْبِيهُ على قَضَايَا مُتَّصِلَةٍ بها، مَعَ بَيَانِ حِكْمَةِ اللهِ في تَدْبيراتِهِ جلَّ جلالُه في طَائِفَةٍ من القضايا.

وفي السُّورَةِ ضَرْبُ مَثَلٍ تَارِيخيٍّ، فيه عَرْضُ مُوجَزٍ من قصَّةِ مُوسَىٰ عليه السلام، وإرسالِهِ رَسُولاً إلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وقَارُوْنَ، وفيه تَفْصِيلٌ لدَعْوَةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ لِدِينِ اللهِ في داخِلِ القَصْرِ الفِرْعَوْني، وأَنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ مَكَرُوا للتَّخلُّصِ مِنْهُ، فأنْجَاهُ اللهُ وَوَقَاهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا.

إلَىٰ غير ذَلِكَ مِنْ قضايا مُنْبَثَّةٍ بِحِكْمَةٍ في السُّورَة.

(٤)

دروس سورة (غافر = المؤمن)

ظهر لي بالتأمُّل أَنْ أقَسِّمَ هـٰذِهِ السُّورةَ إلى (١٥) دَرْساً. وهي المفصَّلَاتُ فيما يأتي:

الدّرس الأول: الآيات من (١ ـ ٦).

وفِي هـٰذَا الدَّرْسِ مُقَدِّمَةٌ تتعلَّقُ بالقرآن الكريم، وبِذِكْرِ بَعْضِ صفاتِ اللهِ وأسمائِهِ الَّتي فيها تَرْغيبٌ وَتَرْهِيبٌ، وأنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هو، توطِئَةً لِبَيَانِ المحْوَرِ الَّذِي تَدُور حَوْلَهُ المعالجات في السُّورَة، وَهُو مُجَادَلَةُ الْمُجادِلِين في آيات اللهِ البيانية المنزَّلَاتِ على رسُوله، مَعَ الْبَدْءِ بِمُعَالَجَتِهِمْ في جَرْعَةٍ عِلَاجِيَّةٍ أُولى.

الدرس الثاني: الآيات من (٧ ـ ٩).

وفي آياتِ هذا الدَّرْسِ إطْمَاعٌ وَتَرْغيبٌ للّذِين يُؤْمِنُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، بأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ سَخَّرَ حَمَلَةَ العرش مِنْ مَلائِكَتِه، وَمَنْ هُمْ حَوْلَ الْعَرْش، أَنْ يَسْتَغْفِروا للَّذِينَ آمَنُوا وَتَابُوا واتَّبَعُوا سبيل رَبّهم مِنَ الموضُوعين في الحياة الدنيا موضِعَ الامْتحان، ويَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يَغْفِر لَهُمْ ويَقِيَهُمْ عَذَاب الجحِيم، ويُدْخِلَهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ، ومَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهم، وَأَنْ يَقِيَهُمُ السَّيِّئَاتِ.

الدرس الثالث: الآيات من (١٠ ـ ١٢).

وفي آياتِ هذا الدَّرْسِ تَقْدِيمُ مَشْهَدٍ مِن مَشَاهِدِ الّذِين كَفَرُوا وَهُمْ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الدِّين في النار، وفي هذا المشهد بيان حِوارٍ يَجْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَزَنَةِ جهَنَّم، وبيانُ دُعائِهِمْ رَبَّهُمْ بأُسْلُوب اسْتِفْهَامِ المستجْدِي: هَلْ إِلَىٰ خُروجٍ من دَارِ العذاب مِنْ سبيل؟. فَلا يُسْتَجابُ لَهُمْ مع بَيَان سَبَبِ رَفْضِ طَلَبِهِمْ.

الدرس الرابع: الآيات من (١٣ ـ ١٧).

وفي آيات هذا الدَّرس تذكيرٌ بآياتِ اللهِ في كونه بوجْهٍ عامٍّ، مَعَ تخْصِيصِ إِنْزَالِ الرِّزْقِ من السَّمَاءِ، وأَمْرٌ للمُؤْمِنين الَّذِينَ يُنِيبُونَ إِلىٰ رَبِّهِمْ بأَنْ يَدْعُوا اللهَ مُخْلِصين لَهُ الدِّينَ، ولو كَرِهَ الْكَافِرُونَ ذٰلِكَ.

وفيها بيانُ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ يُلْقِي مَا يُوحِي به علىٰ

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عبادِه، وهم أنبياؤه وَرُسُلُه، لِيُنْذِرَ مَا أَوْحَىٰ بِهِ، وَمَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ، النَّاسَ بعَذَاب اللهِ يَوْم الدين لِمَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ وَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة.

وفِيهَا عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّين، مع بَيَانِ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَرَّتْ رِحْلَةَ الامْتِحانِ في الحياة الدُّنيا، تُجْزَىٰ يَوْمَ القيامَةِ بما كَسَبَتْ، دُونَ أَنْ تُظْلَمَ شيئاً، ومع بيان أن اللهَ سَرِيعُ الحساب.

الدرس الخامس: الآيات من (١٨ ـ ٢٠).

وفيها توجيهٌ للرَّسُول ﷺ، فلكُلِّ حَامِلِ رسَالَة دَعْوَتِهِ أَنْ يُنْذِرَ الْمُعَالَجِينَ في السّورة وأمْثَالَهُمْ، عِقَابَ اللهِ يَوْم القيامَة، ويُبيِّنَ لَهُمْ أَنّه يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ ومَا تُخْفِي الصُّدُور، وأَنَّهُ يَقْضِي بيْنَ عِبَادِه بالحقّ، وأَنَّ الَّذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شركاء لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، وأَنَّ اللهَ هُو وَحْدَهُ السّمِيعُ لِكُلِّ مَا يمكن أَنْ يُسْمع، الْبَصِير لِكُلّ مَا يمكِنُ أَنْ يُبصَر، من الكائنات.

وظاهر أنَّ هذا الدَّرْسَ تَعْلِيمٌ دَعَوَيّ قائِمٌ على الترهيب والإقناعِ بالحقّ.

الدرس السادس: الآيتَانِ: (٢١ و٢٢).

وفي هذا الدَّرْسِ تَذكيرٌ بِعاقِبَةِ الَّذِينَ كَفَروا مِنْ قَبْلِ المعَالَجِينَ في السُّورة، مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، الَّذِينَ تُوجَدُ آثار إِهْلاكِ اللهِ لَهُمْ فِي أماكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ من الْأَرْض، وَكانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بالآيات البَيِّنَاتِ الَّتِي كانَت تأتِيهم بها رُسُلُ ربّهم، وكانوا يجادلُونَ فيها بالباطل، لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ.

الدرس السابع: الآيات من (٢٣ ـ ٤٦).

وفي هذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَثَلٍ تَارِيخي يَتَضَمَّنُ فَصْلاً مِنْ فُصُولِ تاريخ فِرْعَوْنَ، إِذْ كَفَرَ هُو وآلُهُ وجنودُهم بما جاءهم به مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْ

آياتِ اللهِ، وسُلْطانٍ مُبينٍ كانَ بُرْهَاناً دَامغاً لَهُمْ، وَمَا كانَ مِنْهُم، وفي هٰذا الْفَصْلِ بَيانٌ لِمَا دَعاهُمْ إِلَيْهِ مُؤْمِنُ آلَ فرعون، ومَا نَصَحَهُمْ به، فَلَمَّا كَشَفَ عَنْ هُوِيَّتِه وأَبَانَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ، وَدَاعٍ مِنْ دُعَاةِ الحقّ دَبَّرُوا سِرّاً أَنْ يَقْتُلُوه ويَتخلَّصُوا مِنْه، فَوَقَاهُ اللهُ، وأَنْزَلَ بِفِرْعَوْن وآلِهِ وجُنودِه سُوءَ الْعَذَابِ وأَغْرَقَهُمْ أَجْمَعِين، وأبان اللهُ أَنَّهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلىٰ يَوْم يُبْعَثُونَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّار عَرْضاً غُدُوّاً وعَشِيّاً، وأَنَّهُمْ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةِ ويُقْضَىٰ عَلَيْهِم يُسَاقُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمُ ويُقْذَفُونَ فِيها، لِيُلاقُوا عَذابَهُمُ الأَبْدِيّ دَاخِلَها.

هذا مَثَلٌ تَاريخيٌّ يَتَّعِظُ بِهِ أُولُو الأَلْبَابِ، وهو من العلاج بالتَّرْهِيب.

الدرس الثامن: الآيات من (٤٧ ـ ٥٠).

وفي هذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَشْهَدٍ من أَحْوَالِ المعذَّبين في النّار يَوْمَ الدِّين، وهو مَشْهَدٌ مُخِيفٌ لِأَهْلِ العقُولِ الواعِيَةِ، الّذِينَ لم تَنْطَمِسْ بصائِرُهُمْ بالأهواء، والشّهَواتِ، وَوَسَاوِسِ الشَّيَاطِين، وحُبّ الْعَاجِلَةِ وَمَتَاعَاتِ الأَنفس فيها.

الدرس التاسع: الآيات من (٥١ ـ ٥٥).

وفيه طَمْأَنَةٌ لِلرَّسُولِ وللمؤمنين مَعَه، بأنّ الله سَيَنْصُرُهم في الحياةِ الدُّنيا، وفي الآخِرَة، كما نَصَرَ مُوسَىٰ وبني إسرائيل على فِرْعَوْنَ وآلِهِ وجنودِهِم.

وَفيه تَوجيه للرَّسُولِ بأَنْ يَصْبرَ ويَسْتَغْفِرَ، ويُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ بالعشيِّ والإبكار، وهذا التوجيه يَنْسَحِبُ عَلَىٰ المؤمنين الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

الدرس العاشر: الآيات من (٥٦ ـ ٦٥).

وفي آيات هذا الدَّرْسِ بيانٌ من اللهِ بشأنِ الّذِينَ يجادِلُون في آيات اللهِ بغير حُجَّةٍ يُعْذَرُون بها، وأنَّ الدافع لهم الكِبْرُ الَّذي وَرَّمَ صُدُورهم، فَحَجَبَهُمْ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ الحقّ الرَّبانية.

وفيها دَعْوَةُ المؤمِن إلى أَنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ من الكِبْر ومن كُلّ مَا يَصُدُّ عن الإيمان، وعن سُلُوك سبيل الْهُدَى، وفيها إقناعٌ بأنّ الناس لَا يَلِيقُ بهم أَنْ يَسْتَكبِرُوا، فخَلْقُ السَّماوَاتِ والْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِهِمْ.

وفيها بيانُ أنَّهُ لَا يَسْتَوِي الأعْمَىٰ والبصير، ولَا يَسْتَوِي الذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصالحات، ولا المسيءُ.

وفيها بيان أن السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لَا ريبَ فيها، وأنَّ الله رَبَّ العالَمِينَ قالَ: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، وأنَّهُ قال: إنَّ الذين يسْتَكْبِرُونَ عن عبادته سيدخلون جهَنَّم صَاغِرِين.

وفيها امْتِنَانٌ من اللهِ على عبادِهِ باللَّيلِ والنهار وبيانُ أنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ. وفيها خطابُ اللهِ الناسَ بأنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شيْءٍ، وأنَّه لَا إلَه إلَّا هو، فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ هَـٰذِهِ الحقِيقَةِ الَّتي دَلَّ عَلَيْهَا كُلُّ شيءٍ في الكون؟!

كَذَلِكَ كَانَ يُصْرَفُ الجاحِدُون بآيَات اللهِ، فيَكْفُرُونَ، مِنْ كُلِّ أمَّةٍ سَلَفَتْ وفي كُلِّ عَصْر.

وفيها عَوْدٌ إلَىٰ التَّنْبِيهِ عَلَىٰ بَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِه، والتَّذْكِيرِ بِبَعْضِ صِفَاتِه وأسمائه.

وختَمَ الله هذا الدرس بقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٦٦ ـ ٦٨).

وفي آيات هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، ما يَقُولُهُ للنّاسِ في هـٰذِهِ المرْحَلَةِ مِنْ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٦٩ ـ ٧٦).

وفي آيات هـٰذا الدَّرسِ عَوْدٌ إلَىٰ تَرْهِيب الّذين يُجَادِلُون في آيات اللهِ بالباطلِ ليُدْحِضُوا به الحق، بِشَيْءٍ مِمَّا سَوْفَ يُلاقُونَهُ من عَذَاب اللهِ يَوْمَ الدّين.

الدرس الثالث عشر: الآيتان (٧٧ و٧٨):

وفي هَاتين الآيَتَيْن تَرْبِيَةٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُوله، بِشَأْن عِدَّةِ قضايا، وفيها إسْمَاعٌ لِلكَافِرِينَ وتَرْبِيَةٌ للمؤمنين:

(١) أَمْرُه بأنْ يَصْبِر، إذْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ.

(٢) إشْعَارٌ بأنَّ اللهَ سَيُرِيهِ في الدُّنْيا بَعْضَ الّذِي يَعِدُ المجادِلِينَ في آياته مِنْ عِقَاب، وأمَّا عذابُهُمُ الأَكْبَرُ فَسَوْفَ يكونُ يوم القيامة.

(٣) تَذْكِيرُهُ بما لاَقَىٰ الرُّسُلُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ أُمَمِهِمْ مِنْ تَكْذِيبٍ وَأذىً، وكَيْفَ صَبَرُوا، وكَيْفَ نَصَرَهُمُ الله، في آخرِ الأمر.

(٤) كَفُّهُ عَنْ تَشَوُّفِ نَفْسِهِ لِأَنْ يُجْرِيَ اللهُ الآياتِ الخوارق، طَمَعاً في إيمان قَوْمِهِ وإسلامِهِمْ.

الدَّرس الرابع عشر: الآيات من(٧٩ ـ ٨١).

وفيها عَوْدٌ إلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، وَمِنَنِهِ على الناس، ومنها مِنَّةُ اللهِ علَىٰ الناس بالأنْعَام.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٨٢ ـ ٨٥) آخر السورة.

وفيها تَلْويمٌ للمكذّبين الكافرين، الَّذين يجادِلُونَ في آيات اللهِ بالْباطل، إذْ لم يَتَّعِظُوا بمَا شَاهَدُوا في مَوَاطِنَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَرْض، آثَار المُهْلكِينَ السَّابقين، الَّذين كَفَرُوا بمَا جاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، وفَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمٍ يَنْتَفِعُونَ به فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْا قَوابِلَ تَعْذِيبهم وَإهلاكِهِمْ آمَنُوا فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ حِينَئِذٍ إيمانِهم وأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذابُ الّذي كَانوا بأنبائِهِ الَّتِي أَنْذَرهُمْ بِهَا رُسُلُ رَبِّهِمْ يَسْتَهْزِئُونَ، وأَهْلَكَهُمُ اللهُ ضِمْنَ سُنَّتِهِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ في عبادِهِ الأوّلِينَ والآخِرِين.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (غافر) وهو الآيات من (١ ـ ٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أبو جعفر على «حَا» و«مِيم» سَكْتَةً لطيفةً بدُون تنفس.

(٥) • قرأ يعقوب: **[عِقَابِي]** في الوقف والوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة **﴿عِقَابِ﴾** بحَذْفِ يَاء المتكلّم في الوصل والوقف.

(٦) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: **[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشرة **﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾** بالإفراد.

ومُؤَدَىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ واحد.

تمهيد:

في هذا الدّرْس مقدمةٌ تتعلّقُ بالقرآن الكريم المشتمل على آيات اللهِ البيانِيَّة، وبذكر بعض صفاتِ اللهِ وأسْمَائِهِ الحسنىٰ، الَّتي فيها تَرْغيب

وَتَرْهِيب، وَأَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هو، وفيهِ تَوْطِئَةٌ لبيانِ المِحْوَرِ الذي تَدُور حَوْلَهُ المعالجات في السورة، وهُو مَا لجأ إِلَّيه المكذِّبُونَ من المِحْوَرِ الذي تَدُور حَوْلَهُ المعالجات في السورة، وهُو مَا لجأ إِليّه المُكذِّبُونَ من المجادلة بالباطِلِ في آيات اللهِ المنزَّلَاتِ على رسُولِهِ، مع الْبَدْءِ بمعالجتِهِمْ فِي جَرْعَةٍ عِلَاجِيَّةٍ أولَىٰ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ② غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ③﴾.

﴿حمٓ ①﴾ حرفان من الحروف المقطّعة الواردة فِي أوائلِ بَعْضِ سُورِ القرآنِ المجيد، وقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِها لَدَىٰ تَدَبُّرِ أول سورة (الْقَلَم/ ٤ نزول).

● ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ②﴾:

سَبَقَ في أول سورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول) نظير هذه الآيَةِ إِلَّا أَنَّهُ جَاءَ فِيها اسْمُ اللهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ بَدَلَ اسْم اللهِ ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ هُنَا في سورة (غافر). ونَسْتَفِيدُ مِنَ الآيَتيْنِ أَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْحَكِيم الْعَلِيم، فهو بِعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ شَيْءٍ، يختار أحْكَمَ بَيَانٍ لِكِتَابِهِ المجيد، خَاتِمَةِ كُتُبِهِ للنَّاسِ أَجْمَعِين، وَإِنْزَالِهِ عَلَىٰ خَاتَم أنبيائِهِ وَرُسُلِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبد اللهِ.

﴿تَنزِيلُ﴾: مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وهو مكافِئُ «أَنْزَلَ إِنْزَالاً».

إِنَّه لَمَّا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هو الْعَلِيّ الأعْلَىٰ كانَ كُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ، تَنْزِيلاً وَإِنْزَالاً مِنْ عَلُوّه إِلىٰ ما هُوَ دُونَه، وإِلَىٰ مَنْ هُمْ دُونه، وَكُلُّ أَكْوَانِه كذَلِكَ سَوَاءٌ أكانَتْ أَحْيَاءً أَمْ غَيْرَ أحياء.

• ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ مَا يُنَزِّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ بَيَانٍ كَلَامِي يُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ كِتَاباً، للدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّ عَلَىٰ الرَّسُول وَعَلَىٰ المؤمنين أَنْ يُدَوِّنُوهُ في كِتَابٍ مَصُونٍ، مَحْفُوظٍ من التحريف، والتَّغْيير، والتبديل، والزِّيَادَةِ، والنقْص، وتَابَعَ تَعْرِيفَه بـ(ال) الْعَهْدِيَّة، فصَارَ يُعْرَفُ بلفظ «الكِتَاب» وهذا اللفظ أَحَدُ الْعُنْوانَاتِ الّتي يُعْرَفُ بها الْبَيَانُ الْقَوْلِيُّ الرَّبَّاني الذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على رَسُولِهِ محمد ﷺ، قَبْلَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ، وبَعْدَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ، إِذْ هُوَ في الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ مُهَيَّأٌ إِنْزَالُهُ كُلُّهُ، بِأُسْلُوبِ التَّنْجِيمِ والتَّفْرِيق، مُنْذُ بَدْءِ إِنْزَالِ «اقْرأْ» حَتَّىٰ آخِرِ حَرْفٍ أُنْزِلَ مِنْهُ.

ولفظ «كتاب» هو في الأصْلِ مصدر «كتب» وقد يُطْلَقُ على المكتُوب، منْ إطلاقِ المصدر على اسْمِ المفعول.

«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» مُضَافٌ وَمُضَافٌ إليه.

• ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾: خَبَرُ «تَنْزِيلُ الكِتَاب».

الْعَزِيز: أي: القوي الغالِب الَّذِي لَا يُغْلَبُ، ولَا تُكَافِئُ قُوَّتَهُ قُوَّة، ولَا قُدْرَتَهُ قُدْرَة.

الْعَلِيم: صيغَةُ مُبَالغَة لاسْمِ الفاعل «عَالم» وَمعنى «الْعَليم» بالنِّسْبَةِ إلى الله، الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَمَ عِلْماً، حَتَّىٰ أَصْغَرِ جُزْءٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ظَاهِرِه وبَاطِنِه.

• ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: أي: سَاتِرِ كُلِّ ذَنْبٍ يُذْنِبُهُ عِبَادُهُ، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَيَلْزَمُ مِنْ سَتْرِ الّذنْبِ عَدَمُ المؤَاخَذَةِ عَلَيْهِ. **غافر**: اسم فاعل من فعل «غفر» وهو بمعنى «يَغْفِر».

والمَعنَىٰ: أَنَّ مِنْ صِفَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّهُ يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِذَا شَاءَ، وَمَشيئَتُهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهَ، فَمَن استَغْفَرَ الله مُعْتَرِفاً بِذَنْبِهِ صَادِقاً فِي طَلَب المغفرةِ غَفَرَ اللهُ لَهُ، وهَـٰذِهِ الصِّفَةُ ذَاتُ اسْتِمْرَارٍ تَشْمَلُ الماضِيَ، والحاضِرَ، والمسْتَقْبَل.

- ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾: أي: وَيقْبَلُ الرُّجُوعَ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، بَعْدَ الابتِعَادِ عَنْهَا بالْمَعْصِية، عُطِفَتْ هـٰذِهِ العبارة بالواو لدفع توهُّمِ المطابقة بيْنَ غُفْرَانِه وقبول التوبة.

قابل: اسْمُ فاعل من فعل «قَبِلَ» وهو بمعنى «يَقْبَلُ».

التَّوْبُ: الرُّجُوعُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ، يُقَال لغة: «تَابَ، يَتُوبُ، تَوْباً، وتَوْبَةً، ومَتَاباً، وَتَابَةً» أي: رَجَعَ إلى الطَّاعةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ. و«تَابَ اللهُ عَلَىٰ عَبْدِه» أي: قَبِلَ تَوْبَتَهُ، وأَرْجَعَ إِلَيْهِ مَا كَانَ حَجبَ عَنْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ بِسَبَبِ مَعْصِيَته.

وَفي ذِكْر عبارَة: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ إطْمَاعٌ لِلْعُصَاةِ المذنبين مِنْ كُلِّ دَرَكَاتِ المعاصِي والذُّنوب حتَّىٰ أشَدِّ أنواع الكُفْرِ، بأنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ، وَيتُوبُوا إِلَيْهِ، لِيَغْفِرَ لَهُمْ، ويَقْبَلَ توبَتَهُمْ، وَيُرْجِعَ إِلَيْهِمْ ما كَانَ حَجبَ عَنْهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ بِسَبَبِ ذُنوبِهِمْ ومَعَاصِيهم.

- ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾: **العِقَابُ**: الجزاءُ عَلَىٰ الذّنب، يقال لغة: «عَاقَبَ فُلَاناً بِذَنْبِهِ، مُعَاقَبَةً، وَعِقَاباً» أي: جَزَاهُ سُوءاً بما فَعَلَ من ذنب.

والمرادُ بِشِدَّةِ الْعِقَابِ جَعْلُ الجزاء عَلَىٰ الذَّنْبِ مُكَافِئاً لمقدارِ الذَّنب، دون ارْتِخَاءٍ أَوْ تَهاوُنٍ أَو ضَعْفٍ.

ويُعَاقِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عِقَاباً شَدِيداً إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ إِقَامَةَ كَمَالِ الْعَدْلِ، لكِنَّهُ قَد يَرْحَمُ فيخَفِّفُ بإِرَادَتِهِ مِنْ شِدَّةِ العقاب.

وفي ذِكْرِ هذا الْوَصْفِ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ من الوقوع في الذُّنُوب والْمَعَاصِي، وَإِثَارَةٌ لمخَاوِفِ ذَوِي الإِدْرَاكِ السَّلِيم، مِنَ الإصْرَار على ارْتكاب الذّنوب والآثام، ومَعْصِيَةِ اللهِ بفِعْلِ ما نَهَىٰ عَنْه نَهْيَ إِلْزَام. وَتَرْكِ مَا أَمَرَ بِفِعْلِهِ أَمْرَ إِلْزَام.

- ﴿ذِى ٱلطَّوْلِۖ﴾: أي: ذي الإنْعَام والتّفضُّلِ بالْعَطاءِ، وذي الْغِنَىٰ والسَّعَة. فَهو الْغنيُّ عَنْ كُلِّ شيء، والْغَنِيُّ الّذِي لَا تَنْفَدُ خَزَائِنه، وهُوَ الْجَوَادُ المتفَضِّلُ المنْعِمُ علىٰ عِبَادِهِ بِعَطَايَاه.

ويَأْتِي الطَّوْلُ بمعْنَىٰ الْقُدْرَة.

وفي ذِكْرِ هـٰذا الوصْفِ إِطْمَاعٌ بالثّوابِ الجَزِيلِ العظيم للسَّاعِينَ في الْعَمَلِ بمراضِي اللهِ، والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بالطَّاعَاتِ وَنَوَافِلِ العبادات، مع الخَشْيَةِ مِنْ قُدْرَتِهِ العظيمة.

- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: لَا يُوجَدُ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ، إِذْ لَا رَبَّ في الوجود غَيْرُه جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُه.

- ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: **الْمَصِيرُ**: اسْمُ المكان الّذِي يُصَارُ إِلَيْهِ طَيّباً كانَ أَمْ خَبِيثاً. **ومَصِيرُ الأَمْر**: مُنْتَهاهُ وَعَاقِبَتُهُ.

أي: إِلَىٰ حُكْمِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ، وإِلَىٰ المكانِ الّذِي يَقْضِي بِهِ يكُونُ مَصِيرُ العباد الموضُوعِينَ في الْحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾:

المجادَلَة: أصْلُ معناها في اللُّغَةِ المصارعَة، وأُطْلِقَتْ علَىٰ المخاصَمَة الكلامية، والمحاوَرَة على فِكْرَةٍ ما أو قضيَّةٍ ما، لإثباتِها أو نَفْيِها، وهي تكون بالحقّ، وتكونُ بالباطل.

والمرادُ بِالْمُجَادَلَةِ فِي آياتِ الله هُنَا المخاصَمَةُ بالْبَاطِل، للإقْنَاع بأنَّها لَيْسَتْ حَقّاً، ولَيْسَتْ مُنَزَّلَةً مِنْ عند الله، والدِّفَاع عن المفْهُومات المناقِضَةِ والمضَادَّةِ لِمَا جاء فيها مِنْ حقائق.

أي: مَا يجادِلُ فِي صِدْقِ آياتِ اللهِ، وصِحَّةِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ بيانُها

المحكَمُ، إلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا كُفراً إرادِيّاً بالحقِّ، بَعْدَ أنْ ظَهَرتْ لَهُمْ أدِلَّةُ كَوْنِهِ حَقّاً، فَسَتَرُوا إدْراكَهُمْ لَهَا بِجُحُودِهِمْ، ويُجَادِلُونَ لِسَتْرِهَا بِحِيَلِهِمْ وَزُخْرُفِ أَقْوالِهِم، وما يَصْطَنِعُونَهُ مِنْ أكاذِيبَ ومُفْتَرَيَاتٍ.

والكافِرُونَ بالحقِّ الرَّبَّانِيِّ يُبْطِلُ اللهُ سَعْيَهُمْ وأعْمَالَهُمْ الرَّامِيَةَ إلَىٰ إبْطَالِ الحقّ، ونَصْرِ بَاطِلِهِمْ عَلَيْه، ويَجْعَلُ عاقِبَتَهُمْ ذُلّاً وهَزِيمَةً وانْكِسَاراً، وَخِزْياً وصَغَاراً، ويُحِقُّ اللهُ الحقَّ بكَلِمَاتِهِ ولَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وتَعْلُو في الأجواء رَايَةُ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

- ﴿. . . فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾: أي: فَلَا يَخْدَعْكَ أيُّهَا المشاهِدُ لِأحْوَالِ النَّاسِ إمْهَالُ اللهِ لَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ، إذْ جعلَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ مُتَصَرِّفِينَ آمِنِين في الْبِلَاد كما يشاءُون، إقامَةً وسَفَراً وكَسْباً وَمَتَاعَاتٍ، كَمَا يَتَصَرَّفُ غَيْرُهُمْ مِنَ النَّاسِ، دُون إنْزَالِ الْعِقَابِ عَلَيْهم، فَلَهُمْ سَاعَةٌ يَكُونُونَ فيها خَزَايَا نَادمين، بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ، وعلى وَفْق سُنَّةِ إمْهَالِهِ لِعِبادِه لقَطْعِ كُلِّ أعْذَارِهِم.

يقال لغة: «تَقَلَّبَ فِي الْأُمور» أي: تَصرَّفَ فيها كيف شاء. و«تَقَلَّبَ في الْبِلَاد» أي: تَنَقَّلَ فيها حُرّاً آمِناً.

- ■ قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ:

- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾:

سبَقَ في نجومِ التَّنْزِيلِ بَيانُ إهْلَاكِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كُفَّارَ قَوْم نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، وبَيَانُ إهلاك كُفَّارِ عَادٍ وَثَمُودَ، وقَوْمِ لُوطٍ، وقَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وجُنُودِهِمْ، وغَيْرِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَقَدْ أَطْلَقَ اللهُ عَلَيْهِمْ عُنْوانَ «الأحزاب» في (١١) مَوْضِعاً مِنَ الْقُرْانِ المجيد؛ لأنَّ المؤمِنينَ الصَّادِقِينَ حِزْبٌ وَاحِدٌ هو «حِزْبُ الله». أمَّا الكافِرُونَ فَلا يَجْمَعُهُمْ حِزْبٌ واحد، بَلْ هُمْ أحْزَابٌ مُتَعَدِّدُون.

الحزب: الجماعةُ مِنَ الناسِ الذينَ تَشَاكَلَتْ مَبادِئُهُمْ وأهواؤُهُمْ واتّفقَتْ أعمالهم.

- ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾:

الْهَمُّ بالْعَمَل: رَغْبَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَمْ تَصِلْ إلَىٰ مُسْتَوىٰ الإرَادَةِ الجازِمَة، المؤثِّرَةِ فِي التَّنْفِيذِ.

أي: وَهَمَّتْ كُلُّ أمَّةٍ كَافِرَةٍ بِتَدْبِيرِ أمْرٍ يَتخلَّصُونَ بِهِ مِنْ رَسُولِهِمْ، وغَرَضُهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يَسْجُنُوهُ أو يُعَذِّبُوهُ، رَغْبَةً في أَنْ يَمْنَعُوهُ عَنْ تَأْدِيَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ الّتي كلَّفَهُ اللهُ أَنْ يُؤَدِّيهَا في الْقَوْمِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُ إليهم.

والمرادُ: فَصَبَر رُسُلُ رَبِّكَ السَّابقون، فاصْبِرْ يا مُحَمَّدُ كَمَا صَبَرَ الرُّسُل، فَرَبُّكَ حَامِيكَ ونَاصِرُك.

- ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾:

أي: وَجَادَلُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ إِلَيْهِم، وَجَادَلُوا الَّذِينَ آمَنُوا بهم، بالْبَاطِلِ مِنْ الأَقْوَالِ المزَخْرَفَةِ بالْحِيَلِ الْفِكْرِيَّةِ والزِّينَاتِ الكَلامِيَّة، لِيُزْلِقُوا الْحَقَّ فِي مَزَالِقِ الشُّبُهَاتِ والتَّلْبِيسَاتِ والتّدْلِيسَات، رَغْبَةً في أَنْ يُزِيلُوهُ عَنْ مَوَاقِعِ ثَبَاتِهِ في أذْهَان المؤمنين به.

الإدْحَاض: الإزْلَاق، يُقَالُ لُغَةً: «أَدْحَضَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: دَفَعَهُ وَأَزْلَقَهُ عَنْ مَوْضِعِهِ، إلى مَوْضِعٍ آخَرَ لَيْسَ هو له.

- ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾: أي: فَقَبَضْتُ عَلَيْهِمْ قَبْضَ مُعَاقِب، فَعَذَّبْتُهُمْ، وأَهْلَكْتُهُمْ، أغْرَقْتُ كُفَّارَ قَوْمِ نوحٍ، وعذَّبتُ وأَهْلَكْتُ كُفَّار عادٍ وثمود، ومن بَعْدهم.

- ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾:

أي: فَتَفَكَّرْ أيُّها المتفكِّرُ، وَضَعْ في تَصَوُّرِكَ الحالَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا

عِقَابِي الشَّدِيدُ للأقْوَامِ المهْلَكِينَ إهْلَاكاً جَمَاعِيّاً مُسْتَأصِلاً، عَلَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ بَعْضَ تَفْصِيلٍ لَهُ في سَوَابِقِ نُجُومِ التَّنْزِيل.

ولَا تَقْتَرِحْ علىٰ رَبِّكَ تَدْبيراتٍ وَتَصاريفَ فِي عِبَادِهِ على خِلَاف حِكْمَتِهِ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: **[كَلِمَاتُ رَبّك]**.

أي: وَكَذَلِكَ الْعِقَاب الَّذِي أَنْزَلَهُ رَبُّكَ بِكُفَّارِ الْقُرونِ السالفة، تَعْذيباً فإهْلَاكاً سَاحِقّاً مَاحِقاً، ثَبَتَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الصادرَةُ بشأْنِ جزَاءِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، في بَيَانَاتٍ مِنَ الكلِمَاتِ مُفَصَّلَات، وَهُمُ الَّذِينَ مَاتُوا وهُمْ كَافِرُونَ، أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ ومُحَاسَبَتِهِمْ وَفَصْلِ قَضَائِهِ فِيهِم، وبَعْدَ إِدْخَالِهِمْ، دَارَ الْعَذَابِ النَّارَ، فَهُمْ يَكُونُونَ يَوْمَ القيامَةِ أصْحَابَها الملازِمينَ لَهَا أبداً لَا يُفَارِقُونَها.

أصْحَابُ النَّار: أي: مُلازِمُوها مُلازَمَةَ الصَّاحِبِ لِصَاحِبه.

أصْحَاب: جمع «صَحْب» وَهٰذا جمع «صاحِب».

- **[حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَىٰ الَّذينَ كَفَرُوا]**: أي: ثَبَتَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ السَّابِقَةُ الَّتي كانَتْ مُعَلَّقَةً، لَا تَثْبُتُ وَلَا تَتَحقَّقُ حَتَّىٰ يَتَحقَّقَ شَرْطُهَا، وهُوَ اخْتِيَارُ الْعَبْدِ بِإِرَادَتِهِ الْحُرَّة.

إنَّ كَلِمَةَ اللهِ بأنَّ الَّذين كفروا أصْحَابُ النَّار، كَانَتْ كَلِمَةً مُعلَّقَةً في حَلْقَةٍ مِنْ حَلقَاتِ قَانُونِ الْجزَاءِ، فَلَمَّا مَاتَ الْكَافِرُونَ عَلَىٰ كفْرِهِمْ لَمْ يَسْتَغْفِرُوا وَلَمْ يَتُوبوا، حقَّتْ وَثَبَتَتْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أصْحَابُ النَّارِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ بأنْوَاعِ العذاب المقَرَّرِ في خُطَّةِ الابتلاءِ والجزاء، الَّتِي سَبَقَتْ فَحَدَّدَتها كَلِمَاتُ اللهِ.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الأول من دُروس سورة (غافر).

والحمد لله على معونتِهِ وَمَدَدِه وتَوْفِيقِه وفَتْحِهِ.

(٦)

التدبّر التحليلي للدَّرس الثاني من دُروس سورة (غافر)
الآيات من (٧ ـ ٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٩)﴾.

القراءات:

(٧) • قرأ رُوَيس: **[وَقِهُمْ عَذَابَ الْجَحِيم]** بِضَمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾** بكَسْرِ هاء الضمير. وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيَّان.

(٩) • قرأ أبو عمْرو، ورَوْح: **[وَقِهِمِ السَّيِّئَاتِ]** بِكَسْرِ الهاءِ والميم، في حالة الوصل.

وقرأها حمزة، والكِسَائي، ورُوَيْس، وخَلَف: **[وَقِهُمُ السَّيِّئَاتِ]** بضَمّ الهاء والميم في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾** بِكَسْرِ الهاء، وضَمِّ الميم في الوصل.

أمَّا في حالَةِ الوقف فكُلُّ القرَّاء على كَسْرِ الهاء وإسكان الميم، إلَّا رُويساً فَيَقِفُ بضَمِّ الهاء وإسكان الميم.

وهذه القراءات وُجُوهٌ من النُّطْقِ في اللِّسَانِ العربيّ.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرْس إطْمَاعٌ وتَرْغيب للّذين يُؤْمِنون وَيَسْتَغْفِرُونَ، بأنَّ اللهَ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ سَخَّرَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، وَمَنْ هُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ، أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَتَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَ رَبِّهِمْ، مِنَ الموضوعِينَ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحان، وَيَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، وأَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ الجحيم، وأَنْ يُدْخِلَهُمْ جَنَّاتِ عَدْن، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتهم، وَأَنْ يَقِيهُمُ السَّيِّئَاتِ.

التدبر التحليلي:

جاء في هٰذا الدرسِ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ يُبَشِّرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ المؤْمنين، بأنَّه جَعَلَ بِواسِعِ رَحْمَتِهِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ مِنَ الملائكَةِ وهُمْ كَثِيرُونَ جِدّاً، يَسْتَغْفِرُونَ دَواماً بتَجَدُّدٍ للّذِينَ آمَنُوا مِنَ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

فَمِنْ عَمَلِ الْمَلاَئِكَةِ حَمَلَةِ الْعَرش، وَمَنْ هُمْ حَوْل الْعَرْش، الّذي هُوَ جُزْءٌ مِنْ عِبادَاتِهِمِ المتكرِّرَةِ المتَجَدِّدَةِ للهِ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ مَا يلي:

(١) أَنَّهُمْ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: أي: يُنَزِّهُونَ اللهَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، بعبارَة: «سُبْحَانَ اللهِ» ويَقْرِنُونَ بهذا التَّسْبِيحِ ثَنَاءَهُمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ بعبارة: «الْحَمْدُ للهِ».

فالمعْنىٰ: يُسَبِّحُونَ رَبَّهُمْ تَسْبِيحاً مُقتَرِناً بِحَمْدِه، وهو مَا جاء في التعليم الدِّينيّ في الإسلام: «سُبْحَانَ اللهِ والْحَمْدُ للهِ» و«وسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ».

وَجاء استعمالُ الفِعْلِ المضارِعِ في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ للدَّلاَلَة عَلَىٰ عَمَلِهِمِ المتجَدِّدِ المتكرِّرِ في هٰذا التَّسْبِيحِ.

(٢) ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: أي: ويُحيُونَ فِي نُفُوسِهِمْ بتَكْرِيرٍ وتَجْدِيدٍ تَصَوُّرَاتِهِمُ الْإيمانيّة، ويُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هَـٰذِهِ العبارة أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي ذِكْرِهِمْ لِرَبِّهِم بِتَكْرَارٍ وتَجَدُّدٍ: «رَبَّنَا آمَنَّا بِكَ».

(٣) ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وَيَسْأَلُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِتَكْرِيرٍ وتجديدٍ أَنْ يَغْفِرَ لِلَّذِينَ آمَنُوا قائلين في دُعَائِهِمْ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾:

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هـٰذا الدُّعَاءُ قَدْ تَلَقَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ تَعْلِيماً مِنْ رَبِّهِمْ، لِيَكُونَ مِنْ وَظَائِفِهِمُ التَّعَبُّدِيَّةِ الَّتِي يَعْبُدُونَ اللهَ بها وهُمْ سُعَدَاءُ في عِبَادَاتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، فَهِيَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ المتكرِّرة الَّتِي يَعْمَلُونَها، كَمَا نَتَنَفَّسُ نَحْنُ فِي الْحَيَاةِ أَنْفَاسَنا سُعَدَاءَ بها.

- ﴿..رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا..﴾: دُعَاءٌ حُذِفَتْ مِنْهُ أداةُ النِّدَاء، وهو الأكْمَلُ في دُعَاءِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ لِأَنَّهُ أقْرَبُ إِلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ أَقْرَبِ الْأَشْيَاءِ إِلَىٰ نُفُوسِهِمْ، فَهُو لَا يَحْتَاجُ أَدَاةَ نِدَاء.

وقَدْ بَدَأَ دُعَاءُ الملائكةِ بالثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ بأَنَّهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً.

أَمَّا كَوْنُهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً فَهُو ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهُ ما مِنْ مَوْجُودٍ واجِبِ الْوُجودِ أَوْ مُمْكِنِ الْوُجُودِ، وَمَا مِنْ مَعْدُوم مُسْتَحِيلِ الْوُجُودِ، أَوْ مُمْكِنِ الْوُجودِ، إِلَّا هُوَ دَاخِلٌ فِي عِلْمِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ وَسَمَتْ إِلَىٰ الْغَايَاتِ صِفَاتُهُ ـ وعِلْمُهُ تَعَالَىٰ مُحِيطٌ بِمَا كَانَ، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، وبما سَيَكُونُ أَوْ سَوْفَ يَكُون.

وَأَمَّا كَوْنُهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً، فَمَعْنَاهُ فِي حُدُودِ مَدَارِكِنَا، أَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ذِي حَاجَةٍ إِلَىٰ مِقْدَارٍ ما مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، فَكُلُّ ذِي إِحْسَاسٍ مَا بِحَاجَةٍ مَا يُمِدُّهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِه، وهذا في الدُّنيا ظَاهِرٌ، وأَمَّا في الآخرةِ فالمعَذَّبُونَ فَمَشْمُولُونَ بشيءٍ من رحمة الله، إِذْ مَا يَنَالُونَهُ مِنْ عذَابٍ أقلُّ مِمَّا يستحقون مِنْهُ، وأَمَّا غيرهُم فهم مغمورون برحماتِ الله.

● ﴿.. فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ..﴾: أي: فَاغْفِرِ الذُّنُوبَ والمعاصِي مَغْفِرَةً تَسْتَتْبِعُ عَدَمَ المؤاخَذَةِ والْعِقَابِ عَلَيْها، لِعِبَادِكَ الَّذِينَ تابُوا رَاجِعِين إِلَىٰ الإيمانِ بِكَ، وإِلَىٰ طَاعَتِكَ، مِنْ كُفْرِهِمْ أَوْ مِنْ مَعَاصِيهِمْ الَّتِي هِي مِنْ دُونِ الكُفر، واتَّبعُوا سَبِيلَكَ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ، وهُوَ صِرَاطُكَ المسْتَقِيمُ الَّذِي أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَسْلُكُوهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنْيا.

● ﴿... وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ⑦﴾ أي: وَصُنْهُمْ وَاحْفَظْهُمْ مِنْ عَذَابِ الجحيم، بغفرانِكَ وعَفْوِكَ وَفَضْلِكَ، وبِحِمَايَتِهِمْ من الوقُوعِ بِمُسَبِّبَاتِ عَذَابِ الجحيم.

الْجَحِيم: اسْمٌ من أَسْمَاءِ النّارِ دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ والْعُصَاةِ يَوْمَ الدّين. وكُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

يقال لغة: «وَقَىٰ الشيءَ، يَقِيهِ، وَقْياً، وَوِقَايَةً، ووَاقِيَةً» أي: صانَهُ عَنِ الأذىٰ، وحَمَاهُ.

● ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑧﴾:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: أي: جَنَّاتِ ثَبَاتٍ واسْتِقْرَارٍ دَائم، وجَنَّاتُ عَدْنٍ في عُمُومِ الجنَّةِ دَارِ نَعِيم المؤمنين، هي جَنَّاتٌ ذَواتُ دَرَجاتٍ مُرْتَفِعاتٍ، وَلَكِنْ فَوْقَهَا دَرَجاتٌ أعْلَىٰ مِنْها هِيَ دَرَجاتُ الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَىٰ، وَدُونَها فِي عُمُومِ

الجنَّةِ دَرَجاتٌ لِغَيْرِ السَّابِقِينَ بِفِعْلِ الخيرات، فجنَّاتُ عَدْنٍ جَنَّاتٌ مُتَوَسِّطاتُ الارْتِفَاعِ في الدَّرَجات(١).

فالَّذِينَ اتَّبَعُوا سَبِيلَ اللهِ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ، واسْتَقَامُوا في مَسِيرَتِهِمْ على صِراط اللهِ، يَسْتَحِقُّونَ بِفَضْلِ اللهِ الارْتِقَاءَ إِلَىٰ جَنَّاتِ عَدْن، فالْمَلَائِكَةُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، والملائِكَةُ مِنْ حَوْلِ الْعَرْش يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُدْخِلَهُمْ بِفَضْلِهِ جَنَّاتِ عَدْنٍ، وإكْراماً لَهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِأَنْ يُدْخِلَ مَعَهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وأزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، لِيَأْنَسُوا بِأَهْلِيهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا يَسْتَحِقُّونَ دَرَجاتِ جَنَّاتِ عَدْنٍ بأعْمَالِهِم.

فَدَلَّ هَـٰذا على أَنَّ الْمُرَادَ بعبارَةِ: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ مَنْ مَاتَ مُؤْمِناً مِنْ ذَوِي التَّقْوَىٰ بِدَرَجَةٍ لَا تُؤَهِّلُهُ لاسْتِحْقَاقِ دَرَجَةٍ من دَرجاتِ جَنَّاتِ عَدْن، وَلَكِنْ قَدْ يَرْفَعُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى جَنَّاتِ عَدْنٍ، إكْراماً لِمُسْتَحِقِّيهَا مِنْ أَهْلِهِمْ لِيَأْنَسُوا بِهِمْ.

ويُثْنِي الدَّاعُونَ مِنَ الْمَلَائِكَة على رَبِّهِمْ باسْمَيْنِ من أسمائِهِ الْحُسنى، هما الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، والتوكيد بـ«إنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ وضَمِيرِ الْفَصْلِ» يُقْصَدُ بِهِ المبالَغَةُ فِي التَّعْبِير عَنْ مَشَاعِرِ الثناء، مَعَ إِفَادَة الْقَصر، أي: إنَّكَ وَحْدَكَ الْعَزِيزُ الْكَامِلُ فِي صِفَةِ الْعِزَّة، وهي القوةُ الغالِبَة، الْحَكِيمُ الْكَامِلُ فِي الْحِكْمَة، وهي وضْعُ كُلِّ شيءٍ في الموضع الملائم له، فَهُمْ مَعَ الدُّعاءِ بِمَا يَرْجُوْنَ، يُسَلِّمُونَ للهِ ويُؤْمِنُونَ بأنَّ اللهَ لَا يُجْري في تَصارِيفِهِ إلَّا ما تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه.

- ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ..﴾: أي: وَصُنْهُمْ وَاحْفَظْهُمْ مِنَ المؤاخَذَةِ عَلَىٰ ما ارْتَكَبُوا مِنْ سَيئَاتٍ، لَمْ تُخْرِجْهُمْ عَنِ اتِّباعِ سَبِيلِكَ؛ لِأَنَّ

---

(١) انظر: الملحقَ الثَّاني من مُلْحقَي تَدَبُّر سورة (مريم/ ٤٤ نزول): «جَنَّات عَدْنٍ ومُسْتَحِقُّوها» في أواخر المجلّد السّابع من هذا الكتاب.

ذَوِي الإِرَادَاتِ الحرَّةِ والشَّهَوَاتِ والأَهْوَاء خَطَّاءُون، وَأَنْتَ غَفُورٌ عَفُوٌّ كَرِيم.

- ﴿..وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ..﴾: أي: وَمَنْ لَمْ تُؤَاخِذْهُ يَوْمَ الدِّينِ، عَلَىٰ مَا ارْتَكَبَ مِنْ سَيِّئَاتٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحياة الدُّنْيا، فَقَدْ رَحِمْتَهُ بِفَضْلِكَ وَجُودِكَ وَإِحْسَانِكَ.

- ﴿...وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ⑨﴾: وَذَلِكَ الشَّيْءُ العظيمُ السَّامِي، وهُوَ عَفْوُكَ عَنْ سَيِّئَاتِ مُرْتَكِبِ المعاصِي، الَّذِي لَمْ تُخْرِجْهُ مَعَاصِيهِ خُرُوجاً كُلِّيّاً عَنِ اتّباعِ سَبِيلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ له.

الفَوْز: النَّجاةُ مِنَ الشَّرّ، والرِّبْحُ، والظَّفَر، يُقَالُ لُغَةً: «فَازَ، يَفُوزُ، فَوْزَاً، وَمَفَازاً، ومَفَازَةً».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (غافر).

والحمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وتَوْفيقه، وفتحه.

* * *

(٧)

التدبر التحليليّ للدّرس الثالث من دُروس سورة (غافر) الآيات من (١٠ ـ ١٢)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ⑩ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ⑪ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ⑫﴾.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَشْهَدٍ بيانِيٍّ تَرْهِيبيٍّ، من مَشَاهِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا وهُمْ يُعَذَّبُون فِي الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّين، وهو من المعالَجَةِ بالترهِيبِ المثِيرِ لمَخَاوِفِ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ للاتِّعَاظِ بالْمُرْهِبَاتِ البيانيّة.

وفي هذا المشهد بَيَانُ حوار يَجْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَزَنَةِ جهَنَّم، وفيه بَيَانُ دُعَائِهِم بأُسْلُوبِ اسْتِفْهَامِ المسْتَجْدِي المتَذَلِّلِ: هَلْ إلىٰ خُروجٍ مِنْ دَارِ الْعَذَابِ مِنْ سَبِيلٍ؟.

ولَكِنْ لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ، فَقَدْ صَدَرَ قَضَاءُ اللهِ بِخُلُودِهِمْ في دَار الْعَذَابِ، بِكُفْرِهِمْ، الَّذِي لم يَكُنِ الدَّافِعُ لَهُ إلَّا كِبْرُهُمْ، ورَفْضُهُمْ أنْ يُؤْمِنُوا بِرَبِّهِمْ الْمُمِدّ لَهُمْ دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبِيَّته، وأنْ يُؤْمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ علَىٰ رَسُولِهِ من الحقِّ، ورفْضُهُمْ أَنْ يُعْلِنُوا إسْلامَهُمْ لَهُ، وأَنَّهُ لَا إلَه يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إلَّا هو، جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

التدبّر التحليلي:

يُشَاهِدُ خَزَنَةُ جهَنَّمَ مَا يُعَانِيهِ المعَذَّبُونَ فِيها عَذَاباً خَالداً بِسَبَبِ أَنَّهُمْ مَاتُوا وَهُمْ كَافِرونَ، بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُمْ رَبُّهُمْ إمْهَالاً طَوِيلاً في الحياة الدُّنيا لِيُؤْمِنُوا.

إنَّهُمْ فيما هُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ يَمْقُتُونَ أَنْفُسَهُمْ مَقْتاً شَدِيداً، عَلَىٰ مَا خَتَمُوا بِهِ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدّنيا مِنْ كُفْرٍ، لَا دَاعِي لَهُ إلَّا الكِبْرُ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أُنْذِرُوا بهذا الْعَذاب الذي هُم فيه، فَلَمْ يُصَدِّقوا بإنْذَاراتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ إليهم، ورُبَّمَا تَصْدُرُ عَنْهُمْ عِبَارَاتٌ يُعْلِنُونَ بِهَا مَقْتَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ.

المقْتُ: أشَدُّ الْبُغْضِ، يقال لغة: «مَقتَ فُلَانٌ فُلاناً، يمْقُتُهُ، مَقْتاً» أي: أَبْغَضَهُ أشَدَّ الْبُغْضِ.

فيُنادِيهِمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ قائِلِينَ لَهُمْ فِي النِّداءِ مِن بَعيد:

﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾:

أي: لَبُغْضُ اللهِ الشَّدِيدُ لَكُمْ، حِينَ كُنْتُمْ في الحياة الدُّنْيا تُدْعَوْنَ إلَىٰ الْإيمانِ بِالْحَقِّ الّذِي بَلَّغَكُمْ إِيّاهُ رُسُلُ رَبِّكُمْ، وَظَهَرَتْ لَكُمْ بَراهِينُ أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ رَبِّكُمْ الْمُمدّ لَكُمْ دَواماً بِعَطاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَكُنْتُمْ تَكْفُرُونَ، أَكْبَرُ مِنْ مقتكمَ أَنْفُسَكُمْ الآن وأنتم في العذاب نادِمُون متحَسِّرُون.

دَلَّ الْفِعْلُ المضارِعُ في ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ وفي ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ عَلَىٰ تَكْرِيرِ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الإيمانِ فِي الْحَياةِ الدُّنيا آناً فآناً، وتَكْرِيرِ مُقابَلَةِ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ آناً فآناً.

وفي التَّعبير بالكُفْر مَعْنَىٰ سَتْرِ الحقِّ الَّذي تبَلّغُوه، وَسَتْرِ أَدِلَّتِهِ وَبَرَاهِينِهِ بوسائِلِهم الإيهامِيَّة، وَحِيَلِهِمْ وَأكاذِيبِهِمْ وافْتِراءَاتِهِم، وزُخْرُفِ أَقْوالِهِمْ.

وقَدْ دَلَّ هٰذا النّداء عَلَىٰ أنَّ ما يُعانُونَهُ مِنْ عَذابٍ في جَهَنَّم أَقَلُّ مِمَّا يَسْتَحِقُّون علىٰ كُفْرِهم العِنادِيِّ، إذْ كَانَ مَقْتُ اللهِ لَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ خالِدُونَ فِي العذاب، ولَوْ جَازَاهُمُ اللهُ بِحَسَبِ مَقْتِهِ لَهُمْ، لكانَ عَذَابُهُمْ أَشَدَّ مِمَّا هُمْ فِيه، وهذا من واسِعِ رَحْمَتِه جلَّ جلالُهُ.

وَبَعْدَ أَنْ يَسْمَعَ المعذَّبُونَ في جَهَنَّمَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ هٰذا النداء مِنْ خزَنَتِها، ويُدْرِكُوا مِنهُ أَن اللهَ قَضَىٰ عَلَيْهِم بعَذَابٍ دُونَ ما يَسْتَحِقُّون، يَتجدَّدُ طَمَعُهُمْ، بِأَنْ يَسْأَلُوا رَبَّهُمْ مُتَذَلِّلِينَ مُسْتَفْهِمِين:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾:

الْمَوْتُ يَكُونُ بانْعِدام اتِّصالِ الرُّوحِ بالنَّفْسِ، وأَوَّلُ تَكْوِينٍ للنَّفْسِ

يَكُونُ بَعْدَ الْتِقَاءِ نَوَاةِ بُيَيْضَةِ الْأُنْثَىٰ بالْحُوَينِ القَادِمِ مِنْ نُطْفَةِ الذكر، وَيَنْمُو الجنينُ مئة وعِشْرِينَ يَوْماً في رَحِم أُمِّهِ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ رُوحُ الحياةِ الْإِنْسَانِيَّة، فَهُوَ في هـٰذِهِ المَدَّةِ ذُو نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِهَا الرُّوحُ فَتَجْعَلَهَا إِنْسَاناً حَيّاً حَيَاةً إِنْسَانِيَة، فالنَّفْسُ في هـٰذِهِ المُدَّةِ تَكُونُ مَيِّتَةً، لَيْسَ لَهَا حَيَاةٌ إِنْسَانِيَّةٌ ذَاتُ رُوحٍ جَامِعَةٍ لِكُلِ خَلَايا الجنِينِ، وَهـٰذِهِ هِي الْمَوْتَهُ الْأُولَىٰ فِيمَا أَرَىٰ.

أَمَّا قَبْلَ انْعِقادِ الجنِينِ فَالمادَّةُ الَّتِي يُخْلَقُ مِنْهَا بَدْءاً مِنَ التُّراب، مَادَّةٌ غَيْرُ ذَاتِ نَفْسٍ، فَلَا تُوصَفُ بأَنَّها إِنْسَانٌ مَيِّتٌ، بِسَبَبِ عَدَم اتِّصَالِ الرُّوح بِها.

وَإِذَا قُلْنَا إِنَّ اسْتِخْرَاجَ ذُرِّيَّةِ آدمَ مِنْ ظَهْرِهِ، لِأَخْذِ اعْتِرَافِهِمْ برُبُوبِيَّةِ اللهِ لَهُمْ قَدْ كانَ حَيَاةً، ثُم سُلِبَتْ مِنْهُمُ الحياةُ وأُعِيدُوا إِلَىٰ ظَهْرِهِ، فإِنَّ هذا الْقَوْل يَلْزَمُ عَنْهُ وُجودُ ثَلَاثِ حَيواتٍ، لَا مُجَرَّدُ حَيَاتَيْنِ، وهذا يُخَالِفُ عبارَةَ: ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾.

والّذي لَا إِشْكَالَ فِيهِ هو مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ عليَّ مِنْ فَهْم، فالْجَنِينُ في ضِمْن مدَّة (١٢٠) يَوْماً ذُو نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ، ولكِنْ لَيْسَ لَهُ رُوحٌ تَجْعَلُهُ إِنْسَاناً حَيّاً، فَهُو في مَوْتَةٍ أُولَىٰ(١).

فَعبَارة أَهْلِ جَهَنَّمَ فِي دعائهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فيها مَعْنَىٰ الاسْتِعْطَافِ، والثَّناءِ عَلَىٰ اللهِ بِعَظِيم قُدْرَتِهِ علىٰ الإحْيَاءِ والْإماتَةِ، أي: فَأَمِتْنَا وَأَحْيِنا حَياةَ امْتِحَانٍ أُخْرَىٰ، لِنُؤْمِنَ وَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَل، أَمَّا بِالنِّسبَةِ إِلَىٰ مَا كَانَ مِنَّا في الْحَيَاةِ الْأُولَىٰ الَّتِي كُنَّا فِيهَا مُمْتَحنِينَ، فَقَدْ كُنَّا فِيهَا مُذْنِبِينَ نَسْتَحِقُّ هـٰذا العذابَ الَّذِي نَحْنُ فيه، وَأَمَّا الآن: ﴿.. فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ..﴾ وَأقْرَرْنا بأَنَّا كُنَّا فِي الحياةِ الدُّنْيا مُرْتَكِبي كَبَائِرِ الْإِثْم، وَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْنا مُدَّة نَحْنُ فِيها نُعذَّبُ فِي جهنَّم ﴿.. فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ ..﴾ مِنْ

---

(١) بَعْدَ أَنْ كتبتُ هذا رَأيْتُ أَنَّ بَعْضَ كِبارِ المفسّرين ذَهَبَ إلى هذا الفهم الذي ظهر لي، والحمدُ للهِ على فتحه.

هـٰذا الْعَذَابِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾؟. اسْتِفْهَامٌ بِتَذَلُّلٍ وخُضُوعٍ يُرَادُ بِهِ طَلَبُهُمُ الْخُرُوجَ بأسْلُوبِ الْعَرْضِ الرَّفِيقِ الاسْتِفْهَامِيِّ.

وَيُفْهَمُ مِنْ طَلَبِ الْخُرُوجِ مَا أَشْعَرَتْ بِهِ مُقَدِّمَةُ دُعَائِهِمْ، مِنْ رَغْبَتِهِمْ في إعَادَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي حياةٍ ثَالِثَةٍ بَعْدَ إمَاتَتِهِمْ، ثُمَّ إمَاتَتِهِمْ ثُمَّ بَعْثِهِمْ، فَهَذِهِ أُمورٌ هيِّنَةٌ عَلَىٰ الرَّبِّ الَّذِي أَمَاتَهُمْ مَوْتَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، وَأَحْيَاهُمْ حَيَاتَيْنِ اثْنَتَيْن.

فَيُجَابُونَ بِرَفْضِ تَلْبِيَةِ طَلَبِهِمْ وَاسْتِعْطَافِهِمْ، وَقَدْ طُوِيَ فِي النَّصِّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ هـٰذا الرَّفْضِ، وَبُنِيَ عَلَىٰ المطويِّ قَوْلُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ لَهُمْ وَهُمُ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ كَرَّرُوا عَلَيْهِمُ النِّدَاءَ الَّذِي جاءَ بَيانُهُ في الآية (١٠):

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾:

أي: ذَلِكُمُ الرَّفْضُ الَّذِي تَضَمَّنَ عَدَمَ تَلْبِيَةِ طَلَبِكُمُ الخروجَ، واسْتِئنَافَ حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ، قَدْ كَانَ بِسَبَبِ أَنَّ شَأنَكُمْ، قَدْ كُنْتُمْ إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكْ به تُؤْمِنُوا، فالأَمرُ مُتَعَلِّقٌ بذاتِ اللهِ وصفاتِهِ وحَقِّهِ عَلَيْكُمْ في تَوحِيدِ رُبُوبِيَّتِهِ وتوحيد إلَهِيَّتِه، فالحكُم في شأنِكُمْ للهِ الْعَلِيِّ الكبير، وهو الذي لَمْ يَسْتَجِبْ لِطَلَبِكُمْ في دُعَائِكُمْ.

وبهذا انتهى تدبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (غافر).

والحمد لله على معونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليليّ للدَّرْس الرابع من دُروس سورة (غافر) الآيات من (١٣ - ١٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ

ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

القراءات:

(١٣) • قَرَأَ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: **[وَيُنْزِلُ]** مِنْ فعل: «أَنزَلَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**وَيُنَزِّلُ**﴾ مِنْ فعل: «نَزَّلَ» المضعف.

والقراءتان مُتَكَافِئَتَان، فالفعل المهموز أخو الفِعْل المضعّف.

(١٥) • قرأ ورْشٌ، وابْن وَرْدَان: **[يَوْمَ التَّلَاقِي يَوْمَ هُمْ]** بإثْبَاتِ يَاء «التَّلاقي» في الوصل.

وأثْبَتَ هذه الياء في الوصْلِ والوقف ابْنُ كثير، ويَعْقُوب.

وحَذَفَ هـٰذِهِ الياء بَاقي القرّاء العشرة في الوصْلِ والوقف، فَقَرَؤُوها ﴿**يَوْمَ التَّلَاقِ**﴾ وهذا الحذف مِنَ الإيجاز في اللّفظ، وهو نُطْقٌ عَرَبيّ.

تَمْهِيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ تَذْكِيرٌ بآيَاتِ اللهِ في كوْنِهِ بِوَجْهٍ عامٍّ، مَعَ تَخْصِيص إنْزَالِ الرِّزْقِ مِنَ السَّمَاءِ بالذّكر.

وفيها أمْرٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلْمُؤْمِنينَ الَّذِينَ يُنيبُونَ إلى رَبِّهِمْ، بِأَنْ يَدْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ.

وفِيها بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وَأَنَّهُ يُلْقِي مَا يُوحِي على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه، وهُمْ أنبياءُ اللهِ وَرُسُله، لِيُنْذِرَ مَا أَوحَىٰ بِهِ، وَمَنْ أَوحِيَ

إلَيْه، النَّاسَ بِعَذَاب اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، لِمَنْ كَفَرَ وَعَصَىٰ وَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيّة.

وفيها عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ مَرَّتْ رِحْلَةَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، تُجْزَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا كَسَبَتْ دُونَ أَنْ تُظْلَمَ شَيْئاً، ومَعَ بيانِ أَنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَاب.

التَّدَبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُذَكِّرُ بآيَاتِهِ في كَوْنِهِ وبِبَعْضِ نِعَمِهِ علَىٰ عباده:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

الضمير ﴿هُوَ﴾ يَعُودُ عَلَىٰ لَفْظِ الجلالَةِ في: ﴿. . فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: اللهُ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ هُوَ الّذِي يُرِيكُمْ دَواماً آيَاتِهِ في الظَّوَاهِرِ الكَوْنِيَّةِ المتَجَدِّدَة، مِنْهَا خَلْقُ الْأَحْياءِ، وَمِنْها إنْبَاتُ النباتاتِ المخْتَلِفَات، وَمِنْهَا تَصْرِيفُ الرِّيَاحِ وَتَسْخِيرُ السُّحُبِ بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ، وَمِنْهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ والْقَمَرِ وغيابُهما، وَتعَاقُبُ اللَّيلِ والنهار، إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ هِيَ مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ.

﴿. . وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ . .﴾ وهـٰذا الـرِّزْقُ مَـاءٌ يَـنْـزِلُ مِـنَ السُّحُبِ تَشْرَبُونَ مِنْهُ أَنْتُمْ وبَهَائِمكُمْ، وتَنْبُتُ بِهِ الزُّرُوعُ المختلِفَةُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْها أَنْواعُ الثَّمرات، الَّتِي فِيها رِزْقٌ لَكُمْ. ويَنْزِلُ من السَّمَاءِ أَيْضاً أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الَّتِي جَعَلَ اللهُ بِهَا مَعَ الماء إنْباتَ الزُّرُوعِ وَإخْرَاجَ الثمراتِ. وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ غُبَارٌ وعَنَاصِرُ كَثِيرَةٍ تُمِدُّ الأرضَ بِمَا تَحْتَاج إلَيْهِ لإنْبَاتِ الزُّرُوعِ، وكُلُّ هـٰذا مِنْ آياتِ اللهِ المتَجَدِّدَةِ في كَوْنه.

- ﴿..وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ⑬﴾:

أصْلُ التَّذَكّر استحضارُ المعلومَةِ في الذّاكِرَةِ، بمعنى استِحْضَارِها فِي جهازِ التَّصَوُّرِ الحاضِرِ في الدِّماغ، والمرادُ بالتَّذَكُّرِ في الاستعمالَات القرآنيَّةِ الأثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِحُضُورِ المعلومَةِ الدِّينيَّةِ في الذَّاكِرَة، إذْ هو الدَّافع لِتوجِيهِ الإرَادَةِ لِلسُّلُوكِ المطْلوبِ في الدِّين فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

وقد جَاءَ في القرآنِ بَيانُ أَنَّ هَـٰذَا التَّذَكُّر مُنْحَصِرٌ في أُولِي الْأَلْبَابِ، وفي مَنْ يُنِيب.

أمَّا أُولوا الْألباب: فهم أَصْحَابُ العقولِ الْحَصِيفَةِ النَّظِيفَةِ الخالِصَةِ من الشَّوَائب، الواعِيَةِ الدَّرَّاكَةِ الَّتِي تَعْقِلُ المعَارِفَ فَتُمْسِكُ بها، وَتَعْقِلُ نُفُوسَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ.

وأمَّا الَّذِينَ يُنِيبُونَ: فَهُمُ الَّذِين يَرْجِعُون آناً فآناً إِلَىٰ رَبِّهِمْ، وَإِلَىٰ طَاعَتِهِ، وإِلَىٰ الاعْتِرَافِ بالْحَقِّ واتِّبَاعِ سَبِيلِ الْهُدَىٰ، كُلَّمَا انْحَرَفَتْ نُفُوسُهُمْ عَنْ سَوَاءِ صِرَاطِ الْحَقِّ وَالخيْرِ والنَّجَاةِ والفلاح والسَّعَادَة.

وهـٰؤُلَاءِ هم أُولُو الألْبَابِ، فَمَنْ لَدَيْهِمْ أَلْبَابٌ علَىٰ الوصْفِ الّذِي سبَقَ بَيَانُهُ، تُوَجِّهُهُمْ أَلْبَابُهُمْ لِأَنْ يَكُونُوا مُنِيبِينَ إلى رَبِّهِمْ وإِلَىٰ طاعَتِهِ آنا فآنا.

والرُّجوعُ إِلَىٰ اللهِ هُو رُجُوعٌ إِلَىٰ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الناسَ عليها.

ولمَّا كَانَ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطائِين، بَدوافِع أَهْوَائِهِمْ وشَهَواتِهم، كَانَ فُضَلَاءُ المؤمِنِينَ المتَّقِين والأبرار والمحسنين مُنِيبِينَ إِلَىٰ رَبِّهِم آناً فآناً، بالرُّجُوع إلى سَوَاءِ صِرَاطِهِ المستقيم.

يُقَالُ لغة: «أَنَابَ فُلَانٌ إِلَىٰ الشَّيْءِ يُنِيبُ» أي: رَجعَ إِلَيْهِ مَرَّةً فَمَرَّةً

بِتَكْرار، **فالمنيب**: هُو ذُو الرُّجُوعِ إِلَىٰ اللهِ دَواماً بِقَلْبِهِ ونَفْسِهِ وَفِكْرِه.

ومِنْ هذا نَفْهَمُ أنَّ مِنْ صِفَاتِ أُولِي الْأَلْبَابِ أَنَّهُمْ مُنِيبُونَ إلى رَبِّهِمْ وإِلَىٰ طَاعَتِهِ آناً فآناً، ارْتِقَاءً فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالصَّالِحَات، وَعَوْداً إِلَىٰ خَطِّ الاسْتِقَامَةِ كُلَّما انْحَرَفُوا عَنْهُ وَلَوْ قَلِيلاً.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة:

- ● ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: فاعْبُدوا اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، لَا تُشْرِكُونَ بِعبادَتِهِ شَيْئاً، وَمِنْ عِبادَةِ اللهِ أَنْ تَسأَلُوهُ أَنْ يُحقِّقَ لَكُمْ مَطَالِبَكُمْ لِدُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ، وصَحَّ عَنِ النبيِّ ﷺ أَنَّ هـٰذا رأسُ الْعِبَادَةِ وَأَحَدُ عَنَاصِرِها الكُبْرَى، ومن عبادته أَنْ تَدْعُوا إلى اللهِ وإلى صراطِهِ المستقيم.

الدُّعَاء في اللُّغَة: النِّدَاءُ ورَفْعُ الصَّوْت، ويأتي بِمَعْنَىٰ السُّؤالِ والطَّلب، واسْتُعْمِلَ الدُّعَاءُ في القرآنِ للدَّلالَةِ عَلَىٰ مُطْلَقِ العبادَةِ، ومن العبادة الدَّعْوَة إلى دين اللهِ، وتَبْلِيغُ مَا أَمَرَ اللهُ بِتَبْلِيغِه.

وقد جاء في الآيَتَيْن (١٨) و(١٩) مِنْ سُورَةِ (الجنّ/ ٤٠ نزول) استِعْمَالُ الدُّعَاء بمعْنَىٰ العبادة، وَيَدْخُلُ في عبادَةِ اللهِ تَبْلِيغُ دِينِهِ، وتبليغُ آيَاتِ كِتَابِهِ المجيد، وشَرْحُ مَعَانيها، والإقْنَاعُ بما تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ حَقٍّ وَخَيرٍ وهُدىً وفَضَائِل، وهذا التَّبْلِيغُ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ وأَجَلّها، وهو وظيفة المرسلين الكبرى. ومن استعمال القرآن الدُّعاءَ بمعنىٰ العبادة: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ و﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ و﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: تَعْبُدُون.

وتَدُلُّ عِبَارَة: ﴿. . وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ في الآيةِ هُنا عَلَىٰ أَنَّ المطْلُوبَ الْأَوَّلَ من عِبادَةِ اللهِ الَّتي دَلَّ عَلَيْها: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ . .﴾ هُوَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ، وتَبْلِيغُ آياتِ كِتَابِهِ، وَبَيَانُ الحقِّ الرَّبَّانِيِّ الَّذي جاءَ فيها.

إخْلَاصُ الدِّينِ للهِ: جَعْلُ أَعْمَالِ الدِّينِ خالِصَةً للهِ وحْدَهُ، مُنَقَّاةً مِنَ الشِّرْكِ والرِّيَاء ومِنْ شَوَائِبِهما.

يُقَالُ لُغَةً: «أَخْلَصَ الشَّيْءَ» أي: صَفَّاهُ وَنَقَّاهُ مِنْ شَوَائِبِهِ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ صِفَاتِهِ، وَبَعْضَ أعْمَالِهِ المتَعلِّقَةِ بالدِّين:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (١٦) ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٧)﴾:

في هٰذِه الآيَاتِ بَيَانُ تِسْعِ قَضَايَا.

القَضِيَّةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ مُبَيِّناً أنَّهُ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ..﴾: أي: ذُو دَرَجَاتٍ رَفِيعَاتٍ مِنَ الْكَمالَاتِ لَا تُدْرِكُ الخلائِقُ غَايَاتٍ لها، فَكُلَّما أَدْرَكَ وَاسِعُو الإدْرَاكِ مِقْدَاراً ما مِنْها، وَجَدُوا أَنَّهم مَا زَالُوا في أجواءٍ سَحَابِيَّةٍ دُونَ سَمَاواتها.

أَوْ ذُو دَرَجَاتٍ رَفِيعَاتٍ مِمَّا خَلَقَ، يَرْفَعُ إلَىٰ أَجْزَاءٍ مِنْها بَعْضَ عِبَادِه الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ بِفَضْلِهِ أَنْ يَرْفَعَهُمْ إلَيْها، وهُمْ مُتَفَاضِلُونَ في الدَّرَجَاتِ الَّتي يَرْفَعُهُمْ إلَيْهَا، وقَدْ جَاءَ في القرآن المجيد ما يَدُلُّ على الدَّرجَاتِ الَّتي يَرْفَعُهُمْ إلَيْها، وقَدْ جَاءَ في القرآن المجيد ما يَدُلُّ على الدَّرجَاتِ الَّتي يَرْفَعُ اللهُ بَعْضَ عِبَادِهِ إلَيْها، فمنها مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بِشَأْنِ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ الله:

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (المجادِلَة/٥٨ مصحف/١٠٥ نزول):

﴿...يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

القضية الثّانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أنّه: ﴿..ذُو..ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مَالِكُ الْعَرْشِ، فهو مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ مِنْ مَخْلُوقاتِهِ في كَوْنِهِ، وهو المتَصَرِّف فيه على ما يشاء، فكَيْفَ حَالُ ما هو دون العرش.

الْعَرْش: مَخْلُوقٌ أعْظَمُ فَوْقَ السَّمَاواتِ السَّبْعِ وَمُحِيطٌ بِها.

ورُوِي أنَّ السَّمَاوَاتِ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ في أَرْض فَلَاةٍ واسِعَة، واللهُ أعلم.

القضِيَّةُ الثالثة: دَل عليها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْوَحْي الَّذِي يُوحِي بِهِ إلَىٰ أنْبِيائِهِ وَرُسُلِه: ﴿..يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ ..﴾:

المرادُ بإلْقَاءِ الرُّوحِ هُنَا، الْوَحْيُ بقَضَايَا الدِّينِ، من عَقَائِدَ وشرائعَ، وأحْكَامٍ وَوَصَايَا، وَتَعْلِيمَاتٍ وَمَفْهُومَاتٍ، وَأَوامِرَ وَنَوَاهِيَ؛ لِأَنَّهَا لِلْقُلُوبِ والنُّفُوسِ، وَلِنَجاتِهَا وَسَعَادَتِهَا الْأَبَدِية بمَثَابَةِ الرُّوحِ لِحَيَاةِ الْأَجْسَاد، وَيَدْخُلُ في عُمُومِ الرُّوحِ آيَاتُ الكِتَابِ المنَزَّل.

وكَمَا أَنَّ الرُّوحَ لحَيَاةِ الأجْسَادِ تَصْدُرُ مُبَاشَرَةً مِنْ أَمْرِ اللهِ، فالْوَحْيُ بقَضَايا الدِّينِ يَصْدُرُ مُباشَرَةً مِنْ أَمْرِ اللهِ للرُّسُل والأنْبِيَاءِ مُبَاشَرَةً، خِطَاباً مِنْ وَرَاءِ حِجَاب، أو إلْقَاءً في عُمْقِ الْقَلْب (= الرُّوع) أو بوسَاطَةِ إرْسَالِ رَسُولٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وجِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ رَسُولُ الْوَحْي غَالباً.

- ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: أي: يُلْقِي اللهُ هٰذا الرُّوحَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وهُمْ رُسُلُ اللهِ وأنْبِيَاؤُه غالباً.
- ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: أي: لِيُبَلِّغَ متلَقِّي هٰذا الرُّوحِ الرَّبَّانِيِّ، مَا أَمَرَهُ اللهُ بتَبْلِيغِهِ لِقَوْمِه، ولِيُبَشِّرَ مَنْ آمَنَ وَأطَاعَ بِسَعَادَةٍ أبَدِيَّةٍ فِي جَنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدِّين، ولِيُنْذِرَ مَنْ كَفَرَ وعَصَىٰ، بِشَقاءٍ أَبَدِي في دار العذاب يَوْمَ الدِّين.

ووصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في هٰذِهِ الْعِبَارَةِ يَوْمَ الدِّين، الّذي هُوَ يَوْمُ الْقِيامَةِ، بأنَّه يَوْمُ التَّلَاقِي.

ويُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ وَصْفِهِ بأَنَّهُ يَوْمُ التَّلاقي، أَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يَتلاقَىٰ فِيهِ النَّاسُ جَمِيعاً، بَدْءاً مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلام، حَتَّىٰ آخِرِ مَخْلُوقٍ مِنَ النَّاس في الْأَرض، وَيَتَلَاقَىٰ فيهِ الإنْسُ والْجِنُّ والملائِكَة، ويَلْزَمُ مِنْ هٰذا التَّلاقِي، أَنْ يُمْنَحَ الإنْسُ يَوْمَئِذٍ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ مُشَاهَدَةِ الْجِنِّ والْمَلَائِكَةِ، والْإحَساسِ بِهِمْ بِمُخْتَلِفِ الْحَواسِّ، كَمَا يُحِسُّ الإنْسُ بِالْإِنْسِ في الحياة الدُّنيا.

- ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ...﴾:

أي: يَوْمَ يَكُونُ المتَلاقُونَ في أَرْضِ المحْشَرِ بَارِزِين، أي: ظاهِرِينَ لَا سَاتِرَ يَسْتُرُ أحَداً مِنْهُمْ، عَلَىٰ أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ بَرَازٍ.

الأرض الْبَرَاز: هي الأرض الْفَضَاء الواسِعَةُ الخالِيَةُ مِنَ الشَّجَرِ وَمِنْ كُلِّ سَاتِرٍ.

وعبارَة: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ للهِ دواماً في الدُّنْيا وفي الْآخِرَةِ، وَذُكِرَتْ هُنَا للدَّلَالَةِ علَىٰ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ سَاتِرٌ يَسْتُرُ أحداً مِنَ الْمُتَلاقِينَ يَوْمَ الحشْر، وَلَيْسَ المرادُ بيَانَ ظُهُورِهِمْ بَعْدَ خَفَاءٍ بالنِّسْبَةِ إلىٰ اللهِ، فاللهُ لَا تَخفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ في كُلِّ مَكَانٍ وَفِي كُلِّ زَمَان، وَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

القضية الرابعة: دَلَّ عليها قول الله تَعَالَىٰ بِشَأْنِ يَوْمِ التَّلَاقِي فِي الْمَحْشَرِ يَوْم القيامَة: ﴿. . لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾:

أي: يُنَادَىٰ يومَئذٍ بأَمْرِ اللهِ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؟ فيأْتِي الجوابُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمِنْ كُلِّ مَنْ يُشَارِكُهُمْ مِن المتَلَاقِينَ في الْمحشَرِ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾:

يَوْمَئِذٍ تُعْلِنُ الْخَلَائِقُ الْمُدْرِكَةُ جَمِيعُها اعْتِرافَهَا بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ ومُلْكِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، وبأَنَّهُ الْقَهَّارُ الَّذِي يَفْعَلُ ما يَشَاءُ فِي كُلّ الْخَلَائِقِ بالْجَبْرِ والْقَهْرِ، إِذْ تَكُون الْخَلائِقُ قَدْ سُلِبَتْ تَحرُّكَاتِها الاخْتِيَارِيَّة، الَّتِي كانت قَدْ مُنِحَتْها لابتلائِهَا.

الْقَهَّار: الغالِبُ الَّذِي لَا يَحُدُّ غَلَبَتَهُ شَيْءٌ، الْمُجْبِرُ على مَا يُرِيد، ولفظ «الْقَهَّار» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

القضِيَّةُ الخامسة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾:

أي: اليومَ (وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ ـ يَوْمُ الْقِيامَةِ ـ يَوْمُ التَّلَاقِي) تُحَاسَبُ كُلُّ نَفْسٍ كَانَتْ في الحياة الدُّنْيا مُمْتَحنَةً مُبْتَلاةً، ويُفْصَلُ قَضَاءُ اللهِ بِشَأْنِها، وَتُجْزَىٰ بِمَا كَسَبَتْ بإِرَادَتِهَا الحرَّةِ في رِحلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، فإِنْ كانَتْ آمَنَتْ وَعَمِلَتْ مِنَ الصَّالِحَاتِ أُثِيبَتْ ثَوَاباً جَزِيلاً عَظِيماً دائماً في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَإِنْ كَانت قَدْ كَفَرَتْ وَعَصَتْ رَبَّهَا جُوزِيَتْ بما تَسْتَحِقُّ مِنْ عِقَابٍ عَادِلٍ في دَار الْعَذَاب النَّارِ.

وتتَنَازَلُ الدَّرَكَاتُ في العقاب بَحَسبِ الجرائم والآثام، وتَرْتَقِي الدَّرَجَاتُ في الثواب بِحَسَبِ الطَّاعَاتِ والْقُرُبَاتِ، وَفِعْلِ الصَّالِحَاتِ والْخَيْراتِ الْمُرْضِيَاتِ للهِ رَبّ العالمين.

القضية السادسة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾: أي:

لَا يُجْزَىٰ الْمُسِيءُ بأكْثَرَ مِنْ إسَاءَتِهِ وَلَوْ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ أَوْ مَا هُوَ أقَلُّ مِنْها، وَلَا يُجْزَىٰ الْمُحْسِنُ بأقَلَّ مِمَّا وَعَدَ اللهُ، مِنْ مُضَاعَفَةِ الأجْرِ إلَىٰ عَشْرَةِ أَضْعَافٍ إلَىٰ سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إلَىٰ أَضْعَافٍ كثيرة.

القضية السابعة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُ مَحْدُودِي التّفكِيرِ، أَنَّ مُحَاسَبَةَ الَّذِينَ كانُوا في الحياةِ الدُّنيا مَوْضُوعِينَ مَوْضعَ الامْتِحَانِ، لِفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِم، من الإنْسِ والْجِنّ، قَدْ تَأْخُذُ وَقْتاً طَوِيلاً جِدّاً؛ لِأَنَّهُمْ يُحَاسَبُونَ أفراداً، إذْ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ حِسَابٌ خاصٌّ بِهِ مَلَائِمٌ لِخَصَائِصِ نَفْسِهِ، ولِمَا كَسَبَ باخْتِيَارِهِ الْحُرِّ فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيا، فَجاءَ بَيَانُ هٰذِه الْقَضِيَّةِ دَافِعاً لِهٰذا التوهُّم.

إنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ الْمُحِيطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً سَرِيعُ الْحِسَابِ، فَلَا يُظْلَمُ مُسِيءٌ وَلَا مُحْسِنٌ بِطُولِ انْتِظَار.

إنَّ تَصَارِيفَ اللهِ مَعَ عِبادِهِ تجري بِالْحَقِّ، والْعَدْلِ، والْفَضْلِ، وكَمَالِ الْحِكْمَة.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الرابع من دُروس سورة (غافر).

والحَمْدُ للهِ على معونتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقه، وفَتحه.

* * *

(٩)

التّدبُّر التحليليّ للدرس الخامس من دُروس سورة (غافر)

الآيات من (١٨ ـ ٢٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

القراءات:

(٢٠) ● قرأ نافع، وهشام: **[والّذِينَ تَدْعُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾** بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الْأَدَاء البياني.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ توجيهٌ للرَّسُول ﷺ، فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَةِ دَعْوَتِهِ، أَنْ يُنْذِرَ المعالَجِينَ في السورة وأمْثَالَهُمْ، عَقَابَ اللهِ يَوْم القيامَة، وأَنْ يُبيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُوْرُ، وأَنَّهُ يَقْضِي بَيْنَ عِبَادِهِ بالْحَقِّ، وأنَّ الَّذِينَ يَعْبُدونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شُرَكاء لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ، وأنَّ اللهَ هُو وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعَ مِنَ الْكائنات، الْبَصِيرُ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُبْصَرَ مِنَ الْكائنات.

ولَا يَخْفَىٰ أَنَّ هذا الدَّرْسَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ تَعْلِيمٍ دَعَوِيٍّ قائمٍ علىٰ التَرهِيبِ من عِقَاب اللهِ، والإقناعِ بالحقِّ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطَاباً لرسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ حَامل رسالَتِه من أُمَّتِهِ:

● ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾:

● ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾: أي: وَأعْلِمِ الَّذِين كَفَرُوا ولَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَةِ الحقِّ.

الإنْذَارُ: الإعْلَام، والإخْبَارُ بعَوَاقِبَ غَيْرِ سَارَّةٍ، كَشَرٍ قادم، أو عُقُوبَةٍ علىٰ مُكْتَسَبٍ إرَادِيٍّ مِنْ قولٍ وعَمَلٍ أو اعْتِقَاد.

يقالُ لُغَةً: «أَنْذَرَ فُلَانٌ فُلَاناً الشَّيْءَ» أَيْ: أَعْلَمَهُ بِهِ وخَوَّفَهُ مِنْه.

الآزفَةُ: أي: الْقَرِيبَةُ، والمرادُ بِها «القِيامَةُ» من الأجْدَاثِ يَوْمَ الْبَعْث، وَصَفَهَا اللهُ بأنَّها قَرِيبَةٌ لِأَنَّ الْمَوْتَىٰ يُلْغَىٰ الْحِسُّ بالزَّمَنِ مِنْ إدْرَاكِ نُفُوسِهِم، وَحِينَ الْبَعْثِ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا نَائِمِينَ نَوْمَةَ الضُّحَىٰ أَوْ نَوْمَةَ الْعَشِيّ، فالْمُدَّةُ الَّتِي قَضَوْهَا بَيْنَ الْموتِ والْبَعْثِ لَا تَزِيدُ فِي إحْسَاسِهِمْ علىٰ سَاعَاتِ الضُّحَىٰ، أَوْ سَاعَاتِ الْعَشِيّ، ولَوْ كَانُوا قَدْ ذاقُوا في هـٰذِهِ المدَّةِ عَذَاباً شَدِيداً فِي زَمَنٍ طَوِيل، فَالنَّائِمُ قَدْ يَرَىٰ فِي نَوْمِهِ أَحْداثاً كَثِيرَةً، وَقَدْ يُعَانِي فِي هَـٰذِهِ الأحْدَاثِ آلَاماً شَدِيدَةً، وقَدْ يَشْعُرُ في نَوْمِهِ أَنَّ سِنِينَ عَدِيدَةً قَدْ مَرَّتْ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ حِينَ يَصْحُو مِنْ نَوْمِهِ لَا يُقَدِّرُ زَمَنَ نَوْمِهِ بأكْثَرَ مِنْ عِدَّةِ سَاعَات.

فالقِيَامَةُ قَرِيبَةٌ في إحسَاسِ الْموتَىٰ مِن اللَّحْظَةِ الَّتِي فَارَقُوا فِيهَا الحياة، فهي إِذَنْ «آزِفَة».

يُقَالُ لغة: «أَزِفَ الوقْتُ، يَأْزَفُ، أَزَفاً، وأُزُوفاً» أي: دَنَا وقَرُبَ.

- ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾: إنَّ الظَّالِمِينَ حِينَ يُبْعَثُونَ، وَيَقُومُونَ مِنَ الأَجْدَاث، ويُدْرِكُونَ أنَّ هذا الْيَوْم هُو الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا بِهِ يُنْذَرُونَ، بآيَاتِ كتابِ اللهِ، أَوْ علىٰ أَلْسِنَة رُسُلِ الله، أَوْ بَلَاغَاتِ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُل، يَشْتَدُّ خَوْفُهُمْ، وَذُعْرُهُمْ مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُون، فَتَنْشَمِرُ قُلُوبُهُمْ مَشْدُودَةً إِلَىٰ الأَعْلَىٰ، حَتَّىٰ يُحِسُّوا أَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَىٰ حَنَاجِرِهِمْ، فَكَانَتْ بِمَثَابَةِ الْغُصَّةِ المؤلِمَة.

الْحَنَاجِرُ: جَمْعُ «الْحَنْجَرَة» وهي الْحُلْقُومُ، ومَجْرَىٰ النَّفَسِ في الرَّقَبَة.

أي: حِينَ يُحِسُّونَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ انْشَمَرَتْ عَنْ مَوَاضِعِهَا تَحْتَ قَفَصِ الصَّدْرِ، وارْتَفَعَتْ حتَّىٰ وَصَلَتْ إِلَىٰ الْحناجِرِ، مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ، ومِنَ المصِيرِ الذي هُمْ صَائِرُون إِلَيْهِ بَعْدَ الْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضاء، والْأَمْرِ بتَنْفِيذِ الجزاء.

(ال) في «القلوب» وفي «الحناجِرَ» عوَض عن المضافِ إليه، أي: إذ قلوبُهُمْ لَدَىٰ حَنَاجِرِهم.

- ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾: أي: حَالة كوْنِهِمْ كاظِمِينَ، أي: يُمْسِكُونَ خَوْفَهُمْ وَذُعْرَهُمْ دَاخِلَ صُدُورِهِمْ، لَا يُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِصِيَاحٍ وَعَوِيل، مع أنَّهَا مَمْلُوءَةٌ ذُعْراً وَخَوْفاً.

يُقَالُ لُغَةً: «كَظَمَ السِّقَاءَ، يَكْظِمُهُ، كَظْماً» أي: مَلَأَهُ وَسَدَّ فاه، ويقال: «كَظَمَ الرَّجُلُ غَيْظَهُ، وكَظَمَ عَلَىٰ غَيْظِهِ» أي: أَمْسَكَ عَلَىٰ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْهُ.

- ﴿..مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾:

الْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ الَّذِي تَوَدُّهُ وَيَوَدُّكَ.

الشَّفِيعُ: الَّذِي يَطْلُبُ لِغَيْرِه قَضَاءَ حَاجَةٍ، عِنْدَ مَنْ يَرْجُو أَوْ يَطْمَعُ أَنْ يَقْبَلَ شَفَاعَتَهُ.

أَمَّا الظَّالِمُونَ مِنْ دركَةِ الكُفْر، فَلَيْسَ لَهُمْ حَمِيمٌ يَنْصُرُهُمْ يَوْمَ الدِّين، فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ تَنْفِيذَ قَضَاءِ اللهِ بعَذَابِهم، ولَيْسَ لَهُمْ شَفِيعٌ يُسْتَجَابُ لِشَفَاعَتِهِ عِنْدَ الله يَوْمَئِذٍ.

وثبت في نُصوصٍ أُخرَىٰ أَنَّ الشفاعَةَ يَوْمَ القيامَةِ لَا تكُونُ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ اللهُ لَهُ بأَنْ يَشْفَعَ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(١)، فَعَلَىٰ فَرْضِ وُجُودِ شَفِيعٍ يَشْفَعُ لِظَالِمٍ مِنَ الظَّالِمِين مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، فَإِنَّ شَفَاعَتَهُ لَا تُطَاع، أي: لَا يُسْتَجَابُ لها. «من» في: ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ مَزِيدَة لتوكيد عُمُومِ النَّفْي والتنصيص عليه.

- ■ قَوْلُ اللهِ في التَّعْلِيمِ الدَّعوِي:

---

(١) انظر: الملحق الثاي من ملحقي تدبر سورة (طه/ ٤٥ نزول) في المجلّد الثامن من هذا الكتاب «حول الشفاعَة يوم الدين وأنواعها».

- ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾: أيْ: يَعْلَمُ اللهُ كُلَّ شيْءٍ، وَمِنْهُ مَا تَخْتَلِسُهُ الْعُيونُ بالنَّظرِ السَّرِيع، عَلَىٰ سبيل الْخِيَانَةِ إِذْ لَا حَقَّ لها بهذا الاخْتِلَاسِ، الَّذِي فيه اطّلاعٌ علىٰ عَوْرَاتِ النَّاس، وَكُلُّ مَعْصِيَةٍ للهِ عَزَّ وَجَلَّ بالْأَعْيُنِ هُوَ مِنْ خَائِنَةِ الْأَعْيُنِ، وَيَعْلَمُ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ فَلَا يُظْهِرُهُ أَصْحَابُها، وَمِمَّا تُخْفِي الصُّدُور الكُفْرُ الَّذِي يُخْفِيهِ المنافِقُون، والرِّيَاءُ الَّذِي يُخْفِيهِ المراءُونَ، والكَرَاهِيَةُ الَّتِي يُخْفِيهَا الكَارِهُونَ، والحبُّ الّذي يُخْفِيهِ المحبُّون، ومِنْهُ النِّيَّاتُ والإرادَاتُ والرَّغَبَاتُ، إلىٰ غير ذلِكَ مِنْ أمُورٍ كَثِيرَةٍ جدّاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ التَّعْلِيمَ الدَّعَوِيّ:

- ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ٢٠﴾:

- ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّۖ﴾ فِي كُلِّ قَضَاءٍ يَقْضِيهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَهُو يَوْمَ القيامَةِ يَقْضِي بَيْنَ عِبادِهِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، قَضَاءً مُتَّصِفاً بالْحَقِّ فَلا يَظْلِمُ أَحداً مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَلَا أَقلَّ مِنْ ذَلِك.

أمّا الْمُحْسِنُونَ فَيُضَاعِفُ لَهُمْ أعْمالَهُمْ وَأُجورَهُمْ عليها أضعافاً كثيرة جدّاً، ويَجْزيهم بفضله جزاءً وَفيراً.

وأمّا الْمُسيئُونَ فيَتَجاوزُ عَنْ كَثِيرٍ مِن سَيِّئَاتِهِمْ، فَلا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْها، رَحْمَةً مِنْهُ بِهِمْ، وَتَفَضُّلاً عَلَيْهِم.

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍۗ﴾:

أي: والَّذِين يَعْبُدُهُم المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، لَا يَقْضُونَ بَيْنَ الْعِبادِ بشَيْءٍ، لَا بِحَقٍّ وَلَا بباطِلٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُون حُكْماً ولَا سُلْطَاناً عَلَىٰ شيءٍ، حتَّىٰ يكُونَ لَهُمْ قَضاءٌ ما، وهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً، إِذْ كُلُّ أُمُورِهِمْ مَمْلُوكَةٌ للهِ ـ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطِانه ـ وَيَنْفُذُ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ مَا يَتِمُّ بِهِ قَضاءُ الله.

فَعَلَىٰ الداعِي إلَىٰ اللهِ أَنْ يَشْرَحَ هـٰذِهِ الحقيقةَ، للّذين يَدْعُوهُمْ إلَىٰ دِينِ اللهِ وصِرَاطِهِ المسْتَقِيم، والْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِيَّاتِ وسَائِرِ الكُفْرِيَّات.

- ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: إنَّ الله عَزَّ وَجلَّ هُوَ وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا لَهُ صَوْتٌ مَهْمَا كانَ ضعِيفاً خافِتاً، وَمِنْهُ أصْوَاتُ حَرَكَاتِ أجْزَاءِ الذَّرةِ مَهْمَا صَغُرَت، وَهُو وَحْدَه الْبَصِيرُ بِكُلِّ مَا لَهُ ذَاتٌ يُمْكِنُ عَقْلاً أَنْ تُرَىٰ، وَمِنْهُ حَرَكَاتُ الْأَلْكْترُونَاتِ في دَاخِلِ الذَّرَّات.

فَكَيْفَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شيْءٌ مِن أَصْوَاتِ عِبَادِه وأعْمالِهِمْ وَحَرَكَاتِ نُفُوسِهِمْ وَأفْكَارِهِمْ وَضَمَائِرِهم، وَهُمْ مُمْتَحَنُونَ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، ومَحَاسَبُونَ عَلَىٰ كُلِّ تَصرُّفَاتِهم الإرَادِيَّة الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَة؟؟!.

فَعَلَىٰ الدَّاعي إلىٰ اللهِ أَنْ يَشْرَحَ هـٰذِهِ الحقيقة، للذّينَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ دين اللهِ وَصِرَاطِهِ المستقيم، والبراءَةِ مِنَ الشِّرْكِيَّاتِ وسائِرِ الْكُفْرِيَّاتِ.

وبهذا انتهىٰ تَدبُّر الدَّرْس الخامس من دُروس سورة (غافر).

والحمد لله علىٰ معونته، ومَدَدِه، وتوفيقِه، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليليّ للدّرْس السّادس من دُروس سورة (غافر) الآيتان: (٢١ و٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

القراءات:

(٢١) • قرأ ابْنُ عَامر: [**أَشَدَّ مِنْكُمْ**] وفي هذه القراءة التفاتٌ من الغيْبَةِ إلىٰ الخطاب.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: ﴿**أَشَدَّ مِنْهُمْ**﴾ بِضَمِيرِ الغائبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

(٢١) • قرأ ابْنُ كثير: [**مِنْ وَاقِيَ**] في الوقف، و﴿**مِنْ وَاقٍ**﴾ في الوصل.

وقرأها باقي القرّاء بِحَذْفِ الياء في الوصل والوقف.

(٢٢) • قرأ يَعْقُوب: [**تَأْتِيهُمْ**] بِضَمّ هَاء الضّمِير.

وقرأها باقي الْقرّاء العشرة: ﴿**تَأْتِيهِمْ**﴾ بِكَسْرِ هاء الضّمِير.

(٢٢) • قرأ أبو عَمْرو: [**رُسْلُهُمْ**] بإسْكانِ السّين.

وقرأها باقي القرّاء العَشَرَة ﴿**رُسُلُهُمْ**﴾ بِضَمّ السّين.

وهما نطقان عربيان.

تمهيد:

في آيتَي هٰـذا الدَّرْس تَذْكِيرٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعاقِبَةِ الَّذِين كَفرُوا مِنْ قَبْلِ الْكُفَّارِ المعالَجِينَ في السُّورَة، من الْأُمَم السَّابِقَةِ، الَّذِينَ تُوجَدُ آثَارُ إِهْلاكِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لهم، في أماكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وكانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، الَّتِي كَانَتْ تَأْتِيهِمْ بِها رُسُلُ رَبِّهِم، وكانُوا يُجَادِلُونَ فيها بالباطِلِ، لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ.

التدبرُ التَّحْلِيلِيّ:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ في عِلَاجِ المقْصُودِينَ بالْعِلَاج في السُّورَةِ، وهُمْ

مُشْركو مَكَّةَ المعانِدُونَ الْمُصِرُّونَ علىٰ عِنادِهم إِبَّانَ التَّنْزيل، ويُلْحَقُ بِهِمْ أمْثَالُهُمْ:

- ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: أبقُوا في بَلَدِهِمْ، ولَمْ يَسِيرُوا مُسَافِرِينَ فِي رِحْلَاتِهِمْ، فَيَنْظُرُوا بأعْيُنِهِمْ بِلَادَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ دمَّرَ اللهُ بُلْدَانَهُمْ وأبْقَىٰ مِنْهَا آثاراً يَعْتَبِرُ بِهَا أولُو الْأَلْبَابِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَاقِبَةَ كُفْرِهم بالحق؟؟!.

استِفْهَامٌ فِيهِ مَعْنَىٰ التَّلْوِيمِ والتَّثْرِيبِ؛ لِأَنَّهُمْ في رِحْلَاتِهِمْ التجارِيَّة، كانُوا يَرَوْنَ آثَارَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ من كُفَّار الْأُمَم السَّالِفَةِ، الَّتِي أمْضَتْ رِحْلَاتِ امْتِحَانِها مِنْ قَبْلِهِمْ، ومِنْهُمْ مَنْ كَانُوا في أزمَانِهِمْ أشَدَّ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ قُوَّةً، وَأَشَدَّ آثاراً عُمْرانِيَّةً فِي الْأَرْضِ، فَدمَّرَ اللهُ بِلَادَهُمْ، وَعذَّبَهُمْ، وأهْلَكَهُمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

- ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿هُمْ﴾ ضَمِيرٌ فَصْلٍ جِيءَ بِهِ لِتَوكِيدِ أَنَّ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ كَانُوا في أَزْمَانِهِمْ أشَدَّ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزيل قُوَّةً وآثاراً فِي الْأَرْضِ، فَلَمْ تَحْمِهِمْ قُوَّتُهُمْ، ولَمْ تَقِهِم مُنْشَآتُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ، بِتَدْمِيرِ مُنْشَآتِهِمْ، وتَعْذِيبِهِمْ، وإهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

الآثَار: مُفْرَدُهَا «الْأَثَرُ» وهِيَ مَا خَلَّفَهُ السَّابِقُونَ من أعْمَالِهم أو مُمْتَلَكَاتِهِمْ، مَادِّيَّاتٍ أمْ مَعْنَوِيَّاتٍ.

- ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: فَقَبَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَبْضَ عِقَابٍ، بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَـٰذا الْقَبْضُ بِأَيْدِي المأمورين بذلِكَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، فَعذَّبَهُمْ، وَأَهْلَكَهُمْ، وَدَمَّرَ دُورَهُمْ وحُصُونَهُمْ وبلَادَهُم.

أصْلُ الْأَخْذ: الْقَبْضُ علَىٰ الشيء، ويُطْلَقُ علَىٰ مَا يُؤخَذُ لَهُ الشيء، وأخْذُ المذنِبينَ يَكُونُ أَخذَ عِقَابٍ.

• ﴿.. وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾: أي: وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ وَاقٍ يَقِيهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِنْ عِقَابِ اللهِ وإنْزَالِ عَذَابه. ﴿مِن وَاقٍ﴾ حَرْفُ «مِنْ» زِيدَ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي وَالتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ. وَالْجَار والْمَجْرُور فِي: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتعَلِّقٌ باسْمِ الفاعِل ﴿وَاقٍ﴾ مُقَدَّمٌ عَلَيه لِرِعَايَةِ الْفَاصِلَة. **الْوَاقِي**: الْحَافِظُ الحامِيَ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً سبَبَ أَخْذِهِمْ بالْعَذَابِ وَإِهْلَاكِهِمْ وَتَدْمِير بِلَادِهم:

• ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ لِلْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، قَدْ حَصَل بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانَتْ تَأتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بالْبَيِّاتِ مِنَ المعْجِزَاتِ الباهِرَات، وبالْبَيِّنَاتِ مِنَ الآيَاتِ المنزَّلَاتَ، فَكَفَرُوا وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعَواتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، حَتَّىٰ اسْتَحقُّوا بِحِكْمَةِ اسْتِئْصَالهُم بِالْعَذَاب والإِهْلَاكِ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإِهْلَاكٍ شَامل.

• ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾: أي: عَظِيمُ الْقُوَّةِ الَّتِي يَفْعَلُ بها مَا يَشَاءُ و«الْقَوِيّ» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ.

• ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: أي: إِنَّهُ عَزَّ وَجلَّ إذا عَاقَبَ عاقَبَ عِقَاباً شديداً عَلَىٰ وَفْقِ مَا قَدَّرَ وقَضَىٰ مِنْ عقاب.

وبهذا تمّ تَدَبُّر الدرس السادس من دُروسِ سورة (غافر).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدِه، وتوفيقه، وفتْحه.

❋ ❋ ❋

(١١)

التدبّر التحليلي للدّرسِ السابع من دُروس سورة (غافر)

الآيات من (٢٣ ـ ٤٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ

عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرْس عرْضُ مَثَلٍ تاريخيٍّ يَتَضَمَّنُ فصْلاً مِنْ فُصُول تاريخ فِرْعَوْنَ، إذْ كَفَرَ هُو وآلُهُ وجُنودُهُمْ بما جاءَهُمْ بهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، مِنْ آياتِ اللهِ وسُلْطانٍ مُبين كانَ بُرْهاناً دامِغاً لهم، وما كانَ مِنْهُمْ.

وفي هذا الفصل بَيانٌ لِمَا دَعاهُمْ إِلَيْهِ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْن، وما نَصَحَهُمْ بهِ، فلَمَّا كَشَفَ عَنْ هُوِيَّتِهِ وَأَبانَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ مُسْلم، وداعٍ مِنْ دُعاة الحقِّ، دَبَّرُوا سِرّاً أَنْ يَقْتُلُوهُ ويتخلَّصُوا مِنْه، فَوَقَاه اللهُ سَيِّئاتِ مَا مَكَرُوا، وأَنْزَلَ بفِرْعَوْنَ وآلِهِ وجُنُودِه سُوءَ العذاب، وأَغْرَقَهُمْ أَجْمعِينَ، وأَبانَ اللهُ أَنَّهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلىٰ يَوْم يُبْعثُونَ، يُعْرَضُونَ علىٰ النّارِ عَرْضاً غُدوّاً وَعَشِيّاً، وأَنَّهُمْ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ويُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ يُساقُونَ إلىٰ جهَنَّمَ بأمْرِ اللهِ، وَيُقْذَفُونَ فيها لِيُلاقُوا عذابَهُمُ الأَبَدِيَّ داخِلَها.

إنّ هذا المثَلَ التَّاريخِيَّ هو من الْعِلَاجِ بالتَّرْهِيب، ويَتَعِظُ بِهِ أولُو الْأَلْبَاب.

التَّدبُّر التحليليّ:

- قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾:

في هـٰذه الآيات بَيانُ لَقْطَةٍ مِنْ لَقَطاتِ المراحِلِ الْأُولَىٰ لِدَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في مِصْر، لِلْمِصْرِيِّينَ ولِبَنِي إسْرائيل الَّذِينَ كَانُوا مضطهدينَ فيها.

- ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أي: ولَقَدْ أرْسَلْنَا مُوسَىٰ مصحوباً بآيَاتِنَا الإعجازيَّة، وآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّة، والتوكيد بِعِبَارَة «لَقَدْ» مُوَجَّهُ للمشْرِكِينَ المعَالَجين في السُّورَة.

- ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي: وبُرْهَانٍ جَلِيٍّ واضح، ومُبِينٍ لِلْحَقِّ الذي أَرْسَلْنَاه به.

السُّلْطان: مِن مَعَانِيه في اللُّغَةِ الحجَّةُ والْبُرْهَان، وهذا هُوَ المرادُ هُنَا فيما يَظهر.

مُبِين: من فعل «أبان» اللّازم بمعنىٰ «ظَهَر» ومن «أَبَانَ» المتَعَدِّي بمَعْنَىٰ «أظهَرَ وَأَوْضح» وكِلَا المعنيَيْنَ صَالِحانِ هُنَا.

- ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾: هؤلاء الأَرْكَانُ الكُبْرَىٰ لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْني يَوْمَئذٍ.

أمَّا فِرْعَوْنَ فالْمَلِكُ الَّذِي طَغَىٰ، فادَّعَىٰ أنَّهُ الإلَهُ أَوَّلاً، ثُمَّ قَالَ: أنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ.

وأَمَّا هَامَانُ فَوَزِيرُهُ الأَولُ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ، وهُوَ مِنْ آلِهِ في الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيِّ الطَّاغُوتِي.

وأمَّا قَارُونُ فوزِيرُهُ الثَّانِي المختصُّ بِشُؤُونِ بني إسْرَائِيلَ في مِصْر، وهُوَ مِنْ بَنِي إسْرَائِيل قَوْم مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ، واشْتَرَاهُ فِرْعَوْنُ بالْأَمْوَالِ والمَنافِعِ الكَثِيرة، وَقَرَّبَهُ فَجَعَلَهُ وَزِيرَهُ الثَّاني ءَسبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّر سُورة (الْقُصَصِ/ ٤٩ نزول) بَيَانُ قِصَّةِ اسْتِعْلَائِهِ عَلَىٰ بَنِي إسْرَائيل، ثُمَّ خَسْفِ الْأَرْضِ بِهِ وَبِدَارِه⁽¹⁾.

• ﴿..فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾: أي: فَقَالُوا بالنِّسْبَةِ إلىٰ الآيَاتِ الإعجازِيَّة الَّتِي كَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ يُجْرِيهَا لَهُ: إنّها مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ، وقالُوا بالنِّسْبَةِ إلىٰ الآيَاتِ الْبَيَانِيَّةِ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إيَّاها عَنْ رَبِّهِ باعْتِبَارِه نَبِيّاً وَرَسُولاً: إنَّها كَذِبٌ يفْتَرِيهَا علىٰ اللهِ، فَهُو سَاحِرٌ كَذَّابٌ.

• ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ ..﴾:

أي: فَلَمَّا ظَهَرَتْ في مِصْرَ آثارُ الآيَاتِ التِّسْعِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إيَّاهَا ومِنْها آيَتَا الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ ثُعْبَاناً حَقِيقِيّاً، والْيَدِ الَّتِي تَصِيرُ بَيْضَاءَ مُتَلأْلِئَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، وَبَدَأَ بَعْضُ قَوْمِهِ الإسْرَائيلِيِّينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبّه، خَافَ فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَقَارُونُ أَنْ يَنْتَشِرَ الدِّينُ الَّذِي جاء بِهِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلام فيُؤْمِنَ بِهِ كُلُّ الإسْرَائِيليّين، ويَمْتَدَّ إلَىٰ الْمِصْرِيين، وَتَبِعَهُمْ سَائِرُ مَلأِ فِرْعَوْنَ ومُسْتَشَارُوهُ فِي قَصْرِه، فَأَصْدَرُوا أَمْراً بقَتْلِ أَبْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

---

(١) انظر تَدَبّر الآيات من (٧٦ ـ ٨٢) من سُورة (القصص/ ٤٩ نزول) من هذا الكتاب.

وهُمُ المواليدُ الذُّكُورُ، وباسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ، أي: باسْتِبْقَاءِ المواليدِ الْإِنَاثِ علىٰ قَيْدِ الحياة. وَعَدم قَتْلِهِنَّ، وَكَانَ مِثْلُ هـٰذا الْأَمْرِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الْمُعْتَادَةِ في أَوَامِرِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، كُلَّمَا خَافَ أَرْكَانُ الْقَصْرِ عَلَىٰ سُلْطَانِهِمْ، أَوْ عَلَىٰ دِينِهِم الْوَثَنِي الَّذِي كَانُوا يَدِينُونَ بِهِ، وَيَدْعَمُونَ بِهِ سُلْطَانَهُمْ.

- ﴿..وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ الَّذِي يَكِيدُنَهُ لِحِمَايَةِ بَاطِلِهِمْ، وَمَنْع انْتِشَارِ الْحَقِّ الرَّبَّاني إلَّا في ضَيَاع وَخَيْبَةٍ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ وَيَجْعَلُهُ زَاهِقاً، وقَدْ كانَ مَصِيرُ فِرْعَوْنَ وَأَرْكَانِ قَصْرِه وَجُنُودِهِم إِلَىٰ الْغَرَقِ في بَحْرِ «سُوف» بَعْدَ نَجَاةِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِما السَّلام وجَمِيعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بآيَةٍ رَبَّانِيَّةٍ باهِرَةٍ فَلَقَ اللهُ فِيها الْبَحْرَ، فأنجىٰ بِهِ بني إسْرَائيل، وَضَمَّ الْمَاءَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ جَمِيعاً فأغْرَقَهُمْ.

الكيد: التَّدْبيرُ سَواءٌ أكان خفيّاً أَمْ ظَاهراً، بحَقٍّ أَمْ بِبَاطِلٍ، وفِيه مَكْرُوه لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه.

الضَّلَال: يُرَادُ بالضَّلالِ هُنَا مِنْ مَعَانِيهِ الضَّيَاعُ، وَعَدَمُ تَحْقِيقِ الْمَرْجُوِّ مِنَ التَّدْبِير، وخَيْبَةُ الْمَسَاعِي المتخَذَةِ لِتَحْقِيق المراد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيّناً مَا عَرَضَهُ فِرْعَوْن في أواخِرِ مَسِيرَةِ مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ الدَّعوية في مصر، عَلَىٰ مَلَئِهِ وَمَجْلِسِ مُسْتَشَارِيةِ:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾:

- قرأ ابْنُ كثير: [**ذَرُونِيَ أَقْتُلْ**] بِفَتْحِ يَاءِ المتكلِّم.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرَةِ بإسْكَانٍ ياءِ المتكلّم.

- قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأَبُو جَعْفَر: **[إنِّيَ أخَافُ]** بِفَتْحِ ياء المتكلم.

وقرأها باقي الْقُرّاء العَشَرةِ بإسْكَانٍ يَاءِ المتكلّم.

- قرأ نافع، وأبو عمْرو، وَأبُو جعفر **[وَأَنْ يُظْهِرَ في الأَرْضِ الْفَسَادَ]**.

أي: أخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَخافُ أَنْ يُظْهِرَ في الْأَرْضِ الفسادَ.

وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ عَامِر: **[وَأَنْ يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادُ]**.

أي: وأخاف أَنْ يَظْهَرَ بِسَبَبِ دَعْوَتِهِ وَتَأَثُّرِ النَّاسِ بآيَاتِهِ الخوارِقِ الْفَسَادُ.

وقرأها شُعْبَةُ، وَحَمْزَةُ، والكِسَائِيُّ، وخَلَفٌ: **[أَوْ أَنْ يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادُ]**.

أي: أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يَظْهَرَ في الأَرْضِ الْفَسَادُ وقرأها حَفْصٌ، وَيَعْقُوب: **[أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ]**.

أَيْ: أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ مُوسَىٰ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ، بِدَعْوَتِهِ وخَوَارِقِهِ الْفَسَادَ.

ويُلَاحَظُ في هـٰذِهِ القراءاتِ تَكَامُلٌ يَدُلُّ علىٰ مَا قَالَهُ فِرْعَوْنُ لِمَلَئِهِ في مَجَالِسَ مُتَعَدِّدَة.

التدبّر التحليلي:

مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ لِمَلَئِهِ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فِي أَوَاخِرِ دَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِصْرَ، وَبَعْدَ أَنْ أَجْرَىٰ اللهُ لَهُ الآيَاتِ التِّسعِ الَّتِي آتاهُ إِيَّاهَا، وَأَبَانَ فِرْعَوْنُ سَبَبَ تَوَجُّهِهِ لِإِصْدَارِ الأَمْرِ الْفِرْعُونِيِّ

بِقَتْلِ مُوسَىٰ، بِأَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَ قَوْمِهِ الْوَثَنِيِّ، وَيَخَافُ عَلَىٰ سَبِيلِ الجزْمِ أَنْ يُظْهِرَ مُوسَىٰ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ، إِذْ يُحَرِّضُ الشَّعْبَ عَلَىٰ التَّمَرُّدِ عَلَىٰ سُلْطَانِ الْقَصْرِ الفِرْعَونِي، أَوْ أَنْ يَتَمَرَّدَ الشَّعْبُ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ.

وَقَدِ اعْتَبَرَ فِرْعَوْنُ هَـٰذَا التَّمَرُّدَ فَسَاداً، شَأْنُهُ فِي هَـٰذَا كَشَأْنِ كُلِّ ذَوِي السُّلْطَانِ فِي كُلِّ الدُّوَلِ، إِذْ يَعْتَبِرُونَ كُلَّ دَاعٍ إِلىٰ إِصْلَاحِ قَوَانِينِ الدَّوْلَةِ، أَوْ مَذْهَبِهَا الدِّينِي أَوِ الإِدَارِي، مُفْسِداً فِي الأَرْضِ؛ لِأَنَّ هَـٰذَا الإِصْلاحَ يُضِرُّ بِمَصَالِحِ ذَوِي السُّلْطَانِ الظالمة.

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَتَرَدَّدُ فِي إِصْدَارِ مِثْلِ هَـٰذَا الأَمْرِ لِأَنَّهُ كَانَ يَخَافُ أَنْ يَدْعُوَ مُوسَىٰ رَبَّهُ، فَيُحْبِطَ رَبُّهُ كَيْدَهُمْ، وَيُنْزِلَ نِقْمَتَهُ عَلَيْهِمْ. لَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ ضَاقَ صَدْرُهُ بِمُوسَىٰ وَبِنَشَاطِهِ الدَّعَوِيِّ الدَّائِبِ، جَازَفَ وَهُوَ مُنْطَمِسُ الْبَصِيرَةِ فَقَالَ: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

وَبَلَغَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ مَا يُدَبِّرُ الْقَصْرُ الْفِرْعَونِيُّ ضِدَّهُ مِنْ إِصْدَارِ أَمْرٍ بِقَتْلِهِ، إِمَّا عَنْ طَرِيقِ المؤمِنِ الَّذِي يَكْتُمُ إِيمانَهُ بَيْنَ آل فِرْعَوْن، وَإِمَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحِي الرَّبَّانِيِّ، فَقَالَ مُسْمِعاً رِجَالاً مِنْ رِجَال فِرْعَوْنَ، وَمُشْعِراً بِمَا يُدَبِّرُونَ:

﴿. . إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: إِنِي لَجأْتُ مُسْتَعِيذاً لِحِمَايَتِي وَحِفْظِي بِرَبِّي الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ظَالِمٍ كَافِرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ حِسَابُ النَّاسِ مِنْ قِبَلِ رَبِّ العباد، وَفَصْلُ القضاءِ بِشَأْنِهِمْ، وَتَنْفِيذُ جَزَائِهِ.

وَقَدْ أَثْبَتَ التَّارِيخُ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ قَدْ أَعَاذَهُ، فَأَنْجَاهُ وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ المتكبّرينَ الظّالمين، الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الحساب، والَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَقْتُلُوه.

■ قول الله تَعالىٰ يُبَيِّنُ مَا كَانَ مِنْ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ إيمانَهُ، فِي اعْتِرَاضِهِ عَلَىٰ تَدْبِيرِ أَمْرِ قَتْلِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

- أَبْدَلَ السُّوسي وأَبُو جَعْفَر الهمزة من ﴿بَأْسِ﴾ ألفاً في الحالَين، وكَذٰلِكَ حَمْزَةُ في الْوَقف.

في هَـٰذِهِ الآيَات بيانُ بِدَايَةِ دَعْوَة الرَّجُل المؤمِنِ من آلِ فِرْعون، فَقَدْ آمَنَ بموسىٰ وَهَارُونَ عليهما السَّلامُ، وَكَتَمَ إيمانَهُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، إذْ كَانَ مُعَاصِراً لَهما، مَع مَا كَانَ لَدَيْهِ مِنْ عِلْمٍ مَوْرُوثٍ عن نَبيِّ اللهِ وَرَسُولِهِ «يوسف» عَلَيْهِ السَّلام.

ويظهر أنَّ هَـٰذَا الرَّجُلَ قد كَانَ واحداً مِنْ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ المُسْتَشَارِينَ فِي الْقَصْرِ الفرعَوْنِيّ يَوْمَئِذٍ، فَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ عزّ وجَلَّ بأنَّهُ مِنْ آل فِرْعَوْن، والآلُ مِنَ الأُسْرَةِ هُمْ أَشْرَافُهَا وَأَعْيَانُها وكبراؤها.

وقد اسْتَمَرَّ هَـٰذَا الرَّجُلُ يَكْتُمُ إيمانَهُ، حَتَّىٰ تَأَزَّمَ الأَمْرُ ضِدَّ مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ إلىٰ الحدّ الأَقْصىٰ، إِذْ بَدَأَ فِرْعَوْنُ وَوُزَرَاؤُهُ وَمُسْتَشَارُوهُ يأْتَمِرُونَ لإصْدَارِ أَمْرٍ سُلْطَانيٍّ بِقَتْلِهِ.

عِنْدَئِذٍ قَدَّمَ هَـٰذَا الرَّجُلُ المؤمِنُ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ إيمانه مَشُورَته ناصِحاً، ضِمْنَ مَجْلِس المسْتَشَارِينَ، بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلَا مِنَ الْعَدْلِ، وَلَا مِنْ حُسْنِ السِّيَاسَةِ، قَتْلُ رَجُلٍ يَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَهِي بَيِّنَاتٌ فِكْرِيَّةٌ صَحِيحَةٌ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهَا، قَدَّمَها بِمَقَالِهِ فِي دَعْوَتِهِ، مَقْرُونَةً بِآيَاتٍ إعْجَازِيَّةٍ شَهِدْتُمُوهَا خِلَالَ سِنِينَ.

دَلَّ عَلىٰ هَـٰذا من الآيات:

- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ..﴾.

﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾: أي: كان مؤمناً قبل ذلك بمُدَّةٍ من الزَّمَنِ، وصَارَ يَكْتُمُ مَعَ تَتَابُعِ الأَيَّامِ واللَّيَالِي إِيمَانَهُ باللهِ الواحِدِ الأحَدِ، وبما جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ وَهَارُون.

﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾: أي: لِقَوْلِهِ: رَبِّيَ الله، أَوْ كَرَاهَةَ قولِهِ: رَبِّيَ اللهُ.

﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي: بالْوَاضِحَاتِ الْجَلِيَّاتِ الْفِكْرِيَّة، وبالآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ الْمُعْجِزَاتِ الخوارِقِ، مِنْ رَبِّكُمْ، خالِقِكُمْ وَمُمِدِّكُمْ دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وَتَابَعَ هَـٰذَا الرَّجُلُ نُصْحَهُ لِفِرْعَوْنَ وَكِبَارِ وُزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ، مُعْتَمِداً عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ الْفِكْرِيِّ الراجح، والمنْطِقِ الْعَقْلِيِّ السَّدِيدِ، فَقَالَ لَهُمْ:

لَا يَخْلُو مُوسَىٰ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَاذِباً أَوْ صَادِقاً، فَهَـٰذَانِ احْتِمَالَانِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا:

- **أَمَّا عَلَىٰ الاحْتِمَالِ الْأَوَّلِ:** وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُوسَىٰ كَاذِباً، فَإِنَّ إِبْقَاءَهُ حَيّاً وَعَدَمَ التَّعَرُّضِ لِقَتْلِهِ لَا يَضُرُّكُمْ بِشَيْءٍ، إِذْ أَنْتُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ فِي مِصْر، وَهُوَ وَقَوْمُهُ عَاجِزُونَ عَنِ التَّصَدِّي لَكُمْ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْشُرَ دِينَهُ وَهُوَ كَاذِبٌ فِي مِصر؛ لِأَنَّ الله لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ فِي ادّعَائِهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، كَذَّابٌ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

إِنَّهُ إِنْ كَانَ كَذّاباً فِي ادّعَاءَاتِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَخِيبَ فِي مَسْعَاه. ولَا يَنْجَحَ فِي مقَاصِدِهِ.

- **وَأَمَّا عَلَىٰ الاحْتِمَالِ الثَّانِي:** وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَادِقاً، وَأَنْ يَكُونَ

رَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ رَبِّكُمْ حقّاً، فَأَقَلُّ مَا يُتوَقَّعُ مُسْتَقْبَلاً أَنْ يُصِيبَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَتوعَدُكُمْ بِهِ إِذَا تَعَرَّضْتُمْ لِقَتْلِهِ.

دَلَّ عَلىٰ هَـٰذَا من الآيات:

- ﴿. . .وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وإنْ يَكُنْ مُوسَىٰ كَاذِباً فِي البَيِّنَاتِ الَّتِي جَاءَكُمْ بِهَا فَعَلَيْهِ يَنْزِلُ مِنَ اللهِ عِقَابُ كَذِبِهِ، وَلَا يَضُرُّكُمْ كَذِبُهُ شَيْئاً، فَأَنْتُم أَصْحَابُ الْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ وَالسُّلْطَانِ، وَلَا يَنْزِلُ بِكُمْ مِمَّا يَتَوَعَّدُكم بِهِ شيء؛ لأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ فِي الادّعَاءِ عَلىٰ رَبِّهِ كَذَّابٌ فِيمَا يُبَلِّغُ عَنْهُ، فَلَا يُحقّقُ فِي الْوَاقِعِ مَا يَتوَعَّدُكُمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا حَقَّقَ مَا تَوَعَّدَكُمْ بِهِ كَانَ ذَلِكَ بَيَاناً مِنْهُ عَلَىٰ أَنَّهُ عَلىٰ هُدىً، وَهَـٰذَا مِنْ مَعَانِي هداية اللهِ لَهُ، والكَذِبُ عَلىٰ الله مِنْ أَفْحَشِ أنواعِ الكَذِبِ وأَكْثَرِهَا تجاوزاً لحدود أنواع الكذب.

وإن يَكُنْ مُوسىٰ صَادِقاً فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يُصِيبَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، فِي الدُّنْيَا أَوْ يَوْمَ الدِّين، وهَـٰذَا أَمْرٌ خَطِيرٌ، فِيهِ عَذَابٌ لَكُم كَبِيرٌ.

قَالَ عُلُمَاءُ اللُّغة: تُحْذَفُ نُونُ المضارع مِنْ «يَكُون» بشَرْطِ كَوْنِهِ مجْزُوماً بالسُّكُون غَيْرَ مُتَّصِلٍ بِضَمِيرِ نَصْبٍ وَلَا بِسَاكن، كما جاء في هـٰذا النصّ.

وَتَابَعَ الرَّجُلُ المؤمِنُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ نُصْحَهُ لِفِرْعَوْنِ ولَمَلَئِهِ فِي قَصْرِهِ قَائلاً:

- ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا . . . ﴿٢٩﴾﴾:

أي: يَا قَوْمِ الَّذِينَ أَنْتُمْ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي، يَسُوؤنِي مَا يَسُوؤكم،

ويُحزنني مَا يُحزِنُكُم، لَكُمْ المُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، غَالِبِينَ بِقُوّاتِكُمْ كُلَّ مُخالِفِيكُمْ وَمُنَافِسِيكُمْ، وَكَانَ الْمُلْكُ مِنْ قَبْلِ أُسْرَتِنَا لِغَيْرِنَا.

فَمَنْ يَنْصُرُنا حَامِياً لَنَا مِنْ بأسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا، وَهُوَ بَعْضُ مَا تَوَعَّدكُم بِهِ مُوسَىٰ.

- ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: بارِزِين مُسْتَعْلِين غالِبينَ مُخالِفِيكُم ومُنَافِسِيكُمْ.

- ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾: أي: فَمَنْ يَنْصُرُنا حَامِياً لَنا مِنْ بَأْسِ الله؟! ضُمِنَ فِعْل «يَنْصُر» مَعْنَىٰ فِعْلِ «يَحْمِي» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، وَهـٰذا التضمين مِنْ بَدِيعِ الإيجَاز في القرآن.

﴿ٱلْبَأْسِ﴾: الْعَذابُ الشَّدِيدُ، وهـٰذا أَحَدُ مَعَانِي البأس، ويَظْهَرُ أَنَّهُ هو المرادُ هُنَا.

﴿إِن جَآءَنَا﴾: أي كَمَا تَوَعَّدَنَا مُوسىٰ بِسَبَبِ كُفرِنَا بِمَا جَاءَ بِهِ عن الله.

وَهُنَا أَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَحْسِمَ الأَمْرَ، وَلَا يَدَعَ مَجالاً للرَّجُلِ مِنْ آلِهِ أَنْ يَزِيدَ فِي بَيانَاتِهِ فِي مَجْلِسِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يُشْعِرَ أَعْضَاءَ مَجْلِسِهِ بِأَنَّهُ نَاصِحٌ لَهُمْ وَلِقَوْمِهِ فِي مصر، لِيَسْتُرَ خَوْفَهُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَىٰ مُلْكِهِ، فَقَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي النّصّ:

- ﴿. . قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: مَا أُرِيكُمْ مِنَ الرَّأْيِ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي صَالِحاً، وما أَهْدِيكُمْ فِي عَرْضِي عَلَيْكُمْ أَنْ أَقْتُلَ مُوسَىٰ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ، لِحِمَايَتِكُمْ وَحِمَايَةِ مُلْكِكُمْ مِمَّا يُحْدِثُهُ هـٰذا الرَّجُلُ مِنْ فِتْنَةٍ فِي مِصْرَ.

■ قول الله مُبَيّناً مُتابَعَةَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ نُصْحَهُ لِفِرْعَوْنَ وَمَجْلِسِ وُزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ وَمَلَئِهِ:

• ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾
مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾
وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ
عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ
مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

القراءات:

(٣٠ ـ ٣٢) • فتح ياء المتكلم في **[إِنِّيَ أَخَافُ]** نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأَسْكَنَهَا الباقون.

(٣١) • أبدل الهمزة من «دَأْبِ» ألفاً السُّوسي، وأبو جعفر، وكذلك حمزة في الوقف.

(٣٢) • قَرأ وَرْشٌ وابْنُ وِرْدان: **[التَّنَادِي]** بإثبات الياء في الوصل.

وقرأها ابن كثير، ويعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف.

وحذَفَ هَـٰذِهِ الياء باقي القرّاء العشرة في الوصل والوقف.

(٣٣) • قرأ ابن كثير: **[مِنْ هَادِي]** في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة **[مِنْ هَادٍ]**.

واتّفقُوا عَلَىٰ التّنوِينِ في الوصل.

تمهيد:

يَبْدُو أَنَّ الرَّجُلَ المؤمِنَ من آل فرعونَ قَدْ شَعَرَ بِأَنَّ الْفُرْصَةُ مُتَاحَةٌ لَهُ، بَعْدَ تَقْدِيم مَشْوَرَتِهِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا آنفاً، والّتي نَصَحَ بِهَا فِرْعَوْنَ وَمَجْلِسَ وُزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ، إذْ أَصْغُوا لاسْتِمَاعِهَا، وَتَوَقَّفَ أَعْضَاءُ المجْلِسِ عَنْ

إِصْدَارِ الْأَمْرِ بِقَتْلِ مُوسَىٰ، وَشَعَرَ بِأَنَّهُمْ أَحَسُّوا بِإِيمَانِهِ بِمُوسَىٰ وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، فَتَحَوَّلَ دَاعِياً إِلَىٰ اللهِ، مُنْذِراً قَومَهُ بِعُقُوبَةِ اللهِ، وَمُحَذِّراً لَهُمْ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ عِقَابٌ مِنَ اللهِ مِثْلُ العِقَاب الَّذِي نَزَلَ بِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وثمود والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وهٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قِصَصَ هؤلاءِ الأقوامِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً لَهُمْ، وَمُتَدَاوَلَةً بَيْنَ الْمِصْرِيين حِينئذٍ.

وَبَعْدَ هٰذا انْتَقَلَ إِلَىٰ تَحْذِيرِهِمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ، وَيَظْهرُ مِنْ هٰذا أَنَّ عَقِيدَةَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذُ الجَزَاءِ، كَانَتْ مِنَ الْعَقَائِدِ الْمَوْرُوثَةِ لَدَيْهِمْ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي لَهُ الحكْمُ بَيْنَ العباد يومئذٍ، فَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلالَةِ فَلَنْ يَجِدَ مَنْ يَحْكُمُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ.

وَهُنَا ذَكَّرَهُمْ بِرِسَالَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، الَّذِي تُوُفِّي مُنْذُ أَقَلَّ مِنْ قَرْنٍ عَلَىٰ مَا يَذْكُرُ المؤرِّخون، وأَنَّ الأسْرَةَ الْفِرْعُونِيَّة فِي عَهْدِهِ ـ وهُمْ قَوْمُ هٰذا الرَّجُلِ المؤمِنِ الدَّاعِيَةِ ـ مَا زَالُوا يَشُكُّونَ فِي أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِ، حَتَّىٰ إِذَا مَاتَ تَحَقَّقُوا مِنْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً يَمْنَعُهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَيَهْوَوْنَ مِنْ أَنْوَاعِ آثام وَتَسَلُّطٍ وَطُغْيَانٍ فِي الْأَرْضِ، إِذْ كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الْحَاكِمُ الْأَوَّلَ بَعْدَ فِرْعَوْنَ فِي عَهْدِهِ.

التدبّر التحليلي:

- قول الله تَعالَىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

سبق بيانُ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ أَطلَقَ عَلَىٰ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ عُنْوانَ «الْأَحْزَاب» لاخْتِلافِ صُوَرِ كُفْرِهم، أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ فَهُمْ حِزْبٌ

وَاحِدٌ هُوَ حِزْبُ اللهِ(١) وهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ.

الدَّأْبُ: العادَةُ، والسُّنَّةُ المتَّبَعَةُ الّتي تَتَكَرَّرُ فِي أَحْدَاثِ الدَّهْرِ.

أي: يَا قَوْمِ إِنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذاباً مُعَجَّلاً فِي الدُّنْيَا وإهْلَاكاً شَامِلاً، يُنْزِلُهُ رَبُّكُمْ بِكُمْ، مِثْلَ مَا أَنزلَ فِي الْأَيَّامِ الَّتي عَذَّبَ وَأَهْلَكَ فِيهَا أَحْزَابَ الكُفْرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، مِثْلَ سُنَّتِهِ الَّتِي أَجْرَاهَا لِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم.

- ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ هَـٰذِهِ الإضافَةُ هي علىٰ تَقْدِيرِ: إهْلَاكاً مِثْلَ إِهْلَاكِ اللهِ الكافِرينَ فِي أَيَّامِ الْأَحْزَاب، فَلَفْظُ «يَوْم» اكْتَسَبَ مَعْنَىٰ الْجَمْعِ بِإِضَافَتِهِ إِلَىٰ الجمع.

- ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هَـٰذِهِ الْإِضَافَةُ هِي علَىٰ تَقْدِير: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِجْرَاءَ سُنَّةٍ مِثْلِ سُنَّةِ اللهِ الّتي أَجْرَاها لِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُود.

- ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: هؤلاء يَدْخُل فِيهم قَوْمُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، وَقَوْمُ شُعَيْبَ عَلَيْهِ السَّلام، وَيَدْخُلُ فِيهِمْ أَصْحَابُ الرُّسّ.

- ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾: أي: وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ هَـٰؤُلاءِ الْأَحْزَابَ بعَدْلِهِ؛ لِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا بِكُفْرِهِمْ، وَبِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ، فَمِنْ صِفَتِهِ الدَّائِمَةِ أَنَّهُ مَا يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ، فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَلَا فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

جاءَ تَقْدِيمُ لَفْظِ الْجَلَالَةِ «الله» عَلىٰ فِعْلِ «يُرِيدُ» لتكونَ الْجُمْلَةُ جُمْلَةً اسْمِيَّة، وهِي أَقْوىٰ مِنَ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، إِذْ جَاءَ فِيها إِسْنَادُ فعل «يُرِيد» خبراً للفظ الجلالَةِ، وإسنادُهُ لضميره فاعِلاً مُسْتَتِراً.

---

(١) انظر تدبُّر الآية (٥) من هَـٰذِهِ السُّورة.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ قَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي تَحَوَّلَ دَاعِيَةً إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ:

- ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾:

يَوْمُ التَّنَادِي: هُوَ يَوْمُ القيامَةِ، إِذْ يُنَادِي فِيهِ بَعْضَ الْخَلائِقِ بَعْضاً، وَلهـٰذا سُمِّيَ يومَ التَّنَادِي.

وَجاءَ بَيَانٌ لِتَنَادٍ يَحْصُلُ بَيْنَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي سُورَةِ (الأعْرَاف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول) فقال تَعَالَىٰ فِيهَا:

- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمْۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

وجاء فيها أَنَّ أَصْحَاب الأعراف يُنادُونَ، وأَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ يُنادُون أَصْحَابَ الْجَنَّةِ، اقرأ الآيات من (٤٦ ـ ٥٠).

وَجاء في سُورَة (الزّخرف/٦٣ نزول) بيانُ أَنَّ أَهْلَ النار يُنَادُون مالكاً خَازِنَ النـارِ قَائِلِيـنَ لَـهُ: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ ... ﴿٧٧﴾﴾ فـيـجـيـبُـهُـم نـداءً ﴿... إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

وجاء في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) بَيَانُ أَنَّ المنافِقِينَ يَوْمَ القِيامَةِ يُنَادُونَ المؤمِنِينَ مِنْ وَرَاءِ السُّورِ الَّذِي يُضْرَبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ..﴾ الآيـة (١٤) فـيُـجـيـبُـهُـم الْـمُـؤْمِـنـونَ نـداءً: ﴿... بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ... ﴿١٤﴾﴾ الآية.

وَجـاء فـي الآيـة (٦٢) مـن سُـورَة (الـقـصـص/٤٩ نـزول) بَـيَـانُ أَنَّ اللهَ يُنَادِي المشْرِكين: ﴿... أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وجاءَ فيها بَيَانُ نداء آخر في الآية (٦٥).

وَسَبَقَ فِي الآية (١٠) من سورة (غافر) بيانُ أَنَّ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ يُنَادُونَ المعذّبين فِيها.

وَمِنْ هَـٰذَا يَظْهَرُ أَنَّ التَخَاطُبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ المتَبَاعِدِينَ فِي الْأَمَاكِنِ يَكُونُ بِأُسْلُوب التَّنَادِي، ولهَـٰذَا أَطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِ عُنْوَان: «يَوْم التَّنَادِي».

- ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾: أي: يَوْمَ تُحَاوِلُونَ أَنْ تَبْتَعِدُوا مُدْبِرِينَ، خَائِفِينَ مِنْ إِلْقَائِكُمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ فَلَا تَسْتَطِيعُونَ.

- ﴿...مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ ...﴾:

أي: مَا لَكُمْ مِنْ حَافِظٍ يحفظُكُمْ وَيَحْمِيكُمُ مِنْ عَذَاب الله النَّازِلِ بِكُمْ حَتماً، إِذَا مِتُّمْ وَأَنْتُمْ كَافِرُون.

«مِنَ الله» أي: مِنْ عَذَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ، والجار والمجرُور متعلّقَانِ باسم الفاعل: «عَاصِم» قُدِّمَا للتَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ لَا يَعْصِمُ مِنْ عَذَابِهِ عَاصِمٌ، إِذْ كُلُّ شيءٍ فِي الْوُجُودِ مِلْكُهُ، وَهُو القادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءَ.

وَزِيد حرف «مِنْ» في: «مِنْ عَاصِمٍ» لتوكيد عُموم النَّفْيِ وَالتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

- ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ له بِالْهِدَايَةِ، لِيُنجيَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ.

«لَهُ» متَعَلّق بـ«هادٍ» و«مِنْ» في: «مِنْ هَادٍ» زائِدَةٌ نَظِيرها في «مِنْ عَاصم».

لَقَدْ حَذَّرَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ قَوْمَه مِنَ الْعَذَابِ المعجَّلِ فِي الدُّنيا أوّلاً، وَبَعْدَهُ حَذَّرَهُمْ مِنْ عذاب اللهِ الْخَالِدِ يَوْمَ الدِّين.

وَبعْدَ هٰذَيْنِ التَّحْذِيرَيْنِ ذَكَّرَهُمْ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامَ، فَقَالَ لَهُمْ مَا جَاء بَيَانُهُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أَكَّدَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ بَيَانَهُ بِعبارَة: ﴿وَلَقَدْ﴾ مُقْسِماً وَمُحَقِّقاً.

أي: وَلَقَدْ جاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ مِنْ قَبْلِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ، وهُوَ الَّذِي كَانَ الرَّجُلَ الثَّانِي فِي الْقَصْرِ بَعْدَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ فِي زَمَانِهِ، وَهُوَ مِنْ آبَاءِ أُسْرَتِكُم الْحَاكِمَةِ فِي مِصْرَ.

وَالْمُرَادُ بِالْبَيِّنَاتِ الَّتِي جاءَ بِهَا الْقَضَايَا الْوَاضِحَاتُ الْجَلِيَّاتُ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً وَأحْكَاماً، مَقْرُونَةً بِالْبَيِّنَاتِ الْوَاضِحَاتِ مِنَ الحجج والْبَرَاهِينِ، وَبِبَعْضِ الآيَاتِ الخوارِقِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَكَانَ يُبَلِّغُهَا وَيَدْعُو إِلَيْهَا مِنْ مَوْقِعِهِ الْإِدَارِيّ الرَّفِيعِ فِي حُكْمِ مِصْرَ، فَمَا زَالَتْ أُسْرَتُكُمْ أَجْدادُكُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي شَكٍ مِنْ صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ، وكَانَ يُنَفِّذُ مَا يَمْلِكُ تَنْفِيذَهُ مِنْ أَحْكَام وَهُوَ فِي سُلْطَانِهِ، وَكَانَ أَفْرَادُ أُسْرَتِكُمْ يَضِيقُونَ بِتَنْفِيذِ مَا يُنَفِّذُهُ مِنْ أَحْكَام تَمْنَعُهُمْ مِنَ التجاوُزَاتِ الَّتِي كَانُوا يَتَجَاوَزُونَ بِهَا حُدُودَ الْحُقُوقِ، قَبْلَ تَوَلِّيهِ السُّلْطَةَ بِأَمْرِ الْمَلِكِ.

وَكَانَتْ أُسْرَتُكُمْ تَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَكِنَّ مُعْظَمَ أَفْرَادِهَا لَمْ يَكُونُوا يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِدِينِهِ، وَيَعْمَلُوا بِأَحْكَام شَرِيعَتِهِ، لِتَبْقَىٰ لَهُمْ امْتِيَازَاتُهُمْ الظَّالِمَةُ الَّتِي يَنَالُونَهَا بِقُوَّةِ السُّلْطَانِ فِي مِصْرَ.

حَتَّىٰ حِينَ مَاتَ وَخَلَا لَهُمُ الْحُكْمُ، انْطَلَقُوا فِي مِصْرَ ظَالِمِينَ آثِمِينَ، لَا يَعْتَرِضُ تَصَرُّفَاتِهِمْ سُلْطَانُ رَسُولٍ حَاكِمٍ، بِيَدِهِ مَقَالِيدُ أُمُورِ الدَّوْلَةَ، وَقَدْ وَرِثْتُمْ أَنْتُمْ عَنْ آبَائِكُمْ هَـٰذَا السُّلْطَانَ الَّذِي أَطْلَقَ أَيْدِيَكُمْ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَا

تَشْتَهُونَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَفِي شَعْبِهَا مِنْ مِصْرِيِّين وَغَيْرِهِمْ، وَقُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِ يُوسُفَ رَسُولاً يَمْلِكُ مَقَالِيدَ الحُكم فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْني؛ لِأَنَّنَا لَنْ نُمَكِّنَ رَسُولاً مِنَ الْوُصُولِ إِلَىٰ كُرْسِيِّ الْحُكْمِ، حَتَّىٰ لَا يَمْنَعَنَا مِنْ تَحْقِيقِ مُرَادَاتِنَا مِنْ أَهْوائِنَا وَشَهَواتِنا بِسُلْطَانِ الدَّوْلَة.

وانْطَلَقَتْ أُسْرَتُكُمُ الْحَاكِمَةُ ضَالِّينَ يَظْلِمُونَ وَيُفْسِدُونَ وَيَضْطَّهِدُونَ وَيُذِلُّونَ الْعِبَادَ، وَيَسْتَأْثِرُونَ بِخَيْرَاتِ الْبِلَادِ، وَقَدْ وَرِثْتُمْ عَنْهم كُلَّ ذَلِكَ، فَضَلَلْتُمْ، وَمَكَّنَكُمْ اللهُ مِنْ سُلُوكِ سُبُلِ الضَّلَالِ فِي سُلْطَانِكُمْ، إِذْ كُنْتُمْ مُسْرِفِينَ غُلاةً فِي تَجاوُزِ الْحُقُوقِ، مُرْتَابِينَ فِي الْإِنْذَارَاتِ الَّتِي أَنْذَرَكُم بِهَا رَسُولُ رَبِّكُمْ، شَاكِينَ فِي صِدْقِهَا، بِسَبَبِ غِشَاوَاتِ الأهواء والشهواتِ الَّتِي غَشَّتْ عَلَىٰ بَصَائِركم، وَهَـٰذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ، فَمَنْ أَسْرَفَ مُغَالِياً فِي تَجاوُزِ الحقوق، وَصَارَ مُرْتَاباً شَاكّاً بِالْحَقِّ الْجَلِيِّ المؤيَّد بالبراهين، أَمَدَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ فِي ضَلَالِهِ، لِيَأْخُذَهُ بِجَرَائِمِهِ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

- ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾:

خَاطَبَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَونَ المعَاصِرينَ لَهُ مِنْ أُسْرَتِهِ، مَعَ أَنَّ الَّذِينَ كانُو فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَ بِهِ النَّبِيُّ الرَّسُولُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُم أَجْدادُهُم المعاصِرُونَ لِيُوسف؛ لِأَنَّ هٰؤُلَاءِ الأَحْفَادَ مُسْتَمْسِكُونَ بِدِينِ أَجْدَادِهِمْ وَمَفَاهِيمِهِمْ، فَهُمْ مِثْلُهُمْ، وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ مَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ أَجْدَادِهِمْ الَّذِينَ كَانُوا مُعَاصِرِينَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ «يُوسف» عَلَيْهِ السَّلَامُ ضِمْنَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

- ﴿. . . حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا . . .﴾.

أي: فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِن نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ، ضَيِّقَةً بِتَصرُّفَاتِهِ الإِدارِيَّةِ المخالِفَةِ لِأَهْوائِكُم صُدُورُكُمْ؛ حَتَّىٰ حِينَ مَوْتِهِ الَّذِي انْشَرَحَتْ بِهِ صُدُورُكُمْ، لِأَنَّكُمْ عُدْتُمْ إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ قَبْلَ تَوَلِّيهِ السُّلْطَةَ، ظَالِمِينَ بَاغِينَ.

حِينَئِذٍ قُلْتُمْ: لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِ «يُوسُفَ» رَسُولاً يُمَكِّنُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَا سُلْطَانٍ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِي، يَكُفُّ أَيْدِينَا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي مِصْرَ مَا نُرِيدُ بِاعْتِبَارِنَا الْأُسْرَةَ المالِكَةَ الحاكِمَةَ ذَاتَ التَّصَرُّفِ المطْلَق.

- ﴿... كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: وَقَدِ انْطَلَقْتُمْ بَاغِينَ ظَالِمِينَ طَاغِينَ ضَالِّينَ فِي مَتَاهَاتِ الآثام والجرائم، بَعْدَ يُوسُفَ، ومَكَّنَكُمْ اللهُ مِنْ هَـٰذَا الضَّلَالِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِيَدِينَكُمْ بِجَرَائِمَكُمْ يَوْمَ الدِّين، وَيُعَذِّبَكُمْ خَالِدِينَ فِي دَارِ الْعَذَابِ بِسَبَبِ كُفْرِكُم، وَهَـٰذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ، فَمَنِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ سُبُلَ الضَّلَالِ مَكَّنَهُ اللهُ مِنْ سُلُوكِهَا، وَأَمَدَّهُ بِمُخْتَلِفِ الْقُوَىٰ لِيُحَقِّقَ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، مَا لَمْ يَتَعَارَض اخْتِيَارُهُ مَعَ مَا قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ فِي كَوْنِهِ.

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ: «يُضِلُّ» بِمَعْنَىٰ: يُمَكِّنُ مِنَ الضَّلَالِ مَنْ أَرَادَهُ لِنَفْسِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُسْرِفَ فِي بَغْيِهِ وَآثَامِهِ، الْمُرْتَابَ فِي الْحَقِّ الْجَلِيِّ الواضِحِ لَا بُدَّ أَنْ يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ سُبُلَ الضَّلَالِ.

المُسْرِفُ فِي ذُنُوبِهِ: هو الْغَالِي فِي مَعَاصِيهِ وَبَغْيِهِ وَجرائِمِهِ وآثامه.

المُرْتَابُ: هُوَ الَّذِي يَخْتَار لِنَفْسِهِ مَذْهَبَ الشَّكِّ فِي كُلِّ حَقِيقَةٍ تَتَضَمَّنُ تَحْذِيرَهُ مِنْ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَهْوَىٰ وَيَشْتَهِي مِنْ دُنْيَاهُ، وَمَنْعَهُ مِنْ تَحقيقِ مُرَادَاتِهِ الظَّالِمَةِ الآثمة.

■ قول اللهِ عزّ وجلَّ بياناً مِنْهُ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ آتاهم، وفي هَـٰذَا الْبَيَانِ الاعْتِرَاضِيِّ ضِمْنَ عَرْضِ قِصَّةِ الرَّجُلِ المؤمِنِ مِنْ آلِ فِرْعَوْن فِي مَجْلِسِ فِرْعَوْنِ، إِشْعَارٌ بِصِحَّةِ مَا عَرَضَهُ هَـٰذَا الرَّجُلُ المؤمِنُ، وإِشْعَارٌ بِأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دِينِ اللهِ الَّذِي أَوْحَىٰ بِهِ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَام:

- ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾.

وفي قراءة أبي عمْرو، وابْنِ ذَكْوان: **[عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتكَبِّرٍ جبَّارٍ]** بتنوين لفظ «قَلْبٍ».

دلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمَّا كَشَفَ الرَّجُلُ المؤمِنُ مِنْ آل فِرْعَوْنَ هُوِيَّتَهُ الْإِيمَانِيَّةَ، بَدَأَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ يُجادِلُونَ بِالْبَاطِلِ، إِذْ مَنَعَهُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لَهُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ كِبْرٍ، وَمَا لَهُمْ مِنْ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ فِي مِصْر، وهَـٰذَا مَا جَعَلَهُمْ طُغَاةً جَبَّارِينَ.

فجاء البيانُ القرآنيُّ مُشِيراً ضِمناً إِلَىٰ هَـٰذَا المَوْقِف.

- ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾.

السّلطان: الحجة والبرهان.

أي: الَّذِينَ يُخَاصِمُونَ بِالْبَاطِلِ دُونَ بُرْهَانٍ أَتَاهُمْ مِنْ عَقْلٍ سَلِيم، أَوْ عِلْمٍ صَحِيحٍ، أَو خَبَرٍ يَقِينِيٍّ ثَابِتٍ عَنِ اللهِ، للإِقْنَاع بِأَنَّ آيَاتِ اللهِ البيانِيَّةَ لَيْسَتْ مُنَزَّلَةً مِنْ عِنْدِ اللهِ، أَوْ بِأَنَّ آياتِ اللهِ الإعجازِيَّةَ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ اللهِ بَلْ هِيَ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْر، وللدِّفَاعِ عَنِ المفْهُومَاتِ المناقِضَةِ والمضَادَّةِ لِمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ حَقَائِق.

هـٰذا الْمَوْصُولُ وَصِلَتُهُ مُبْتَدأ، وَخَبَرُهُ دَلَّتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ التَّالِيَةُ فِي الْآيَةِ.

﴿. . كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ . .﴾.

﴿كَبُرَ﴾: علىٰ وزن «فَعُلَ» مُسْتَعْمَلٌ فِي إِنْشَاءِ الذَّمّ، نَظِيرَ «بِئْسَ» وفاعِلُهُ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلىٰ الجدال المفهوم مِنْ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾. و﴿مَقۡتًا﴾ تمييز.

الْمَقْتُ: أَشَدُّ البغْضِ والكراهِية.

فالمعْنَىٰ: الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، مَمْقُوتُونَ

عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، لانْكِشَافِ مُراوغاتِهِمْ وحِيَلِهِمُ الجداليَّةِ، للإيهامِ بِأَنَّ الْحَقَّ الرَّبَّانِي بَاطِلٌ، ولِلْإيهَامِ بأنَّ بَاطِلَهُمْ حَقٌّ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا الخَبرِ عِبَارَةُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الَّتي جيء بها لإنْشَاءِ الذَّم.

إنَّ مِنَ الْأُمُورِ الْفِطْرِيَّةِ فِي النُّفُوسِ أَنْ يَمْقُتَ الْمُؤْمِنُونَ دُعَاةُ الْحَقِّ، مَنْ يَظْهَرُ لَهُمْ أَنَّهُ يُرَاوِغُ وَيَحْتَالُ وَيَكْذِبُ وَيُضَلِّلُ فِي جِدَالِهِ لِيَنْصُرَ بَاطِلَهُ وَيُوهِمَ أَنَّهُ حَقٌّ، وَيُوهِمَ أَنَّ الْحَقَّ باطل.

● ﴿. . كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ وفي القراءة الْأُخْرَىٰ: [**كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**] بتَنْوِين لفظ «قَلْبِ».

الطَّبْعُ فِي المادّيَّاتِ الملْمُوسَةِ كَالْخَتْمِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ إِذَا أَرْسَلُوا رَسَائِلَ، وَأَرَادُوا الْمُحَافَظَةَ عَلَىٰ سِرِّيَّةِ مَا فِيهَا، أَقْفَلُوهَا بِإِحْكَام، وَوَضَعُوا عِنْدَ مَكَانِ إِقْفَالِهَا طِيناً خَاصّاً يَطْبَعُونَ عَلَيْهِ خَاتَمَهُمُ الخَاصَّ بِهِمْ، فَيَجِفُّ الطِّينُ وَمِثَالُ الخاتمِ عَلَيْهِ مَطبوعٌ، فَلَا يُعْرَفُ مَا فِي دَاخِلِ الرِّسَالَةِ إِلَّا بِكَسْرِ خَاتم الطِّين.

وَعَلَىٰ سَبيل التوسُّعِ فِي التَّعبيرِ بِنَقْلِ مَا هُو لِلْمَادِّيَاتِ لِلْمَعْنَوِيَاتِ، جَاءَ فِي القرآنِ المجيد التعبير بالطَّبْع وبالختم علىٰ القلوب، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهَا صَارَتْ مَحْجُوبَةً عَنْ إِدْرَاكِ أَيّ شَيْءٍ يَتَعلَّقُ بِمَا هِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ.

وطَبْعُ اللهِ علَىٰ الْقُلُوب لَا يَكُونُ بصُورَةٍ ابْتِدَائِيَّةٍ جَبْرِيَّةٍ، ولَكِنْ يَكُونُ نَتِيجَةَ مَا يَكْسِبُهُ الْعَبْدُ بإرادَتِهِ، مِنْ أعمالٍ ظاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ، وهـٰذِهِ الأعمال يَتَوَلَّدُ عَنْهَا الطَّبْعُ، بِمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللهِ فِي عبادِه، ضِمْنَ قَوانِينِ الأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ الثابتة.

وقَوَانِينُ الأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ إِنَّما تَتَحقَّقُ نَتَائِجُها بِخَلْقِ الله.

المتكبِّر: هُوَ المتعاظِمُ عَلَىٰ عِبادِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، ويَبْتَغِي بِتَكَبُّرِهِ تَحْقِيقَ مَطَامِعِ أَهْوائِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَنَزَعَاتِهِ وَنَزغَاتِه.

الْجَبَّار: هو العاتي المُتَسَلِّطُ بالْقُوَّة، الَّذِي يُكْرِهُ النَّاسَ بالْقَهْرِ علىٰ مَا يُرِيدُ بِغَيْرِ حَقٍّ.

فَكُلُّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ لَا يُذْعِنُ لِلْحَقِّ، وَلَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِه، فَتَنْطَمِسُ بَصِيرَتُهُ، فَلَا يَهْتَدِي بِالنُّور الَّذِي يُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَلْ يَسْتَمِرُّ تَائِهاً في ظُلُمَاتِهِ.

وكُلُّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ يَطْبَعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِهِ، فَيُغَلِّفُهُ الطَّبْعُ بِغِلَافٍ شَامِلٍ كُلَّ مِقْدَارٍ مِنْ مُحِيطِهِ.

فَقِرَاءَةُ: [**كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**] بِكَسْرِ لفظ «قَلْبِ» دُونَ تَنْوِين، دَلَّتْ عَلَىٰ إِحَاطَةِ الْقَلْبِ بِالطَّبْعِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مِقْدَارٍ مِنْ مُحِيطه، وفي هـٰذِهِ القراءة وَصْفُ صَاحِبِه بِأَنَّهُ مُتَكَبِّرٌ جَبَّارٌ.

وقراءَةُ: [**عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**] بِتَنْوِينِ لفظِ «قَلْبٍ» دَلَّتْ عَلَىٰ عُمُومِ قُلُوبِ الْمُتَكَبِّرِينَ الْجَبَّارِين، وَلَيْسَ فِيها دَلَالَةٌ عَلَىٰ إِحَاطَةِ كُلِّ قَلْبٍ مِنْهَا بالطَّبْعِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مِقْدَارٍ مِنْ مُحِيطِهِ.

وفي هـٰذه القِراءة وَصْفُ الْقَلْبِ بأَنَّهُ مُتَكَبِّرٌ جَبَّار.

ففي القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في دَلَالَتَيْهِما، وَقَدْ تَدُلُّ قِراءة تَنْوِينِ لفظ «قَلْبٍ» على احْتِمَالِ وُجُودِ بَعْضِ الْقُلُوبِ الَّتِي لَا يُحِيطُ الطَّبْعُ عليها إِحَاطَةً شَامِلَةً لِكُلِّ مِقْدَارٍ مِنْ مُحِيطِها، وَهـٰذِهِ لَمْ تَصِلْ إِلى حَدِّ انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ انْطِمَاساً كُلِّيّاً.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا لَجأَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَ الرَّجُلُ المؤمِنُ مِنْ آلِهِ إِلَىٰ دَاعِيَةٍ إِلى دين اللهِ الحقّ:

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾: قرئ: [**لَعَلِّيَ أَبلُغُ**] بفتح ياء المتكلم. وقُرئ [**فَأَطَّلِعُ**] بالرفع على أن الفاء عاطفة غير سَبَبِيَّة.

لَقَدْ خَشِيَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَتَأَثَّرَ بَعْضُ مَلَئِهِ بِدَعْوَةِ الَّذِي آمَنَ مِنْ آله، فَعَلَّقَ بِدَهَائِهِ الْأَمْرَ عَلَىٰ اتِّخَاذِ وَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ الْبَحْثِ، مُشْعِراً بِأَنَّهُ يُرِيدُ التَّأَكُّدَ مِنْ صِحَّةِ كَوْنِ مُوسَىٰ رَسُولاً مِنْ رَبِّهِ، وأَعْرَضَ عَنْ إِصْدَارِ الْأَمْرِ بِقَتْلِهِ، وَتَنَازَلَ عَنِ الْجَزْمِ بأَنَّهُ كاذِب، مُكْتَفِياً بِبَيَانِ أَنَّه يَظُنُّهُ كَاذِباً.

وَطَرَحَ فِرْعَوْنُ بِدَهَائِهِ وَسِيلَةً يَطُولُ أَمَدُ تَحْقِيقِها، فقَالَ لِوَزِيرِه الْأَوَّلِ: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾: أي: قَصْراً عَالِياً لَعَلِّي أَبْلُغُ إِلَىٰ أَسْبَابٍ عُلْوِيَّةٍ، أَصِلُ بِوَسَاطَتِهَا إلى السَّمَاوات، فأَطَّلِعَ هُنَاكَ إِلَىٰ إلَه مُوسَىٰ، فأَعْرِفَ مِنْهُ هَلْ مُوسَىٰ رَسُولُهُ حَقّاً أم لا؟!.

الصَّرح: القصر العالي، والبناء الشاهق الذاهِبُ ارتفاعاً في السماء.

لقَدْ قَذَفَ فِرْعَوْنُ القضيَّةَ بِهـٰذِهِ الحِيلَةِ الشَّيْطانيّة، وعَلَّقَها على أَمْرٍ خُرَافِيٍّ مُتَعَذِّرِ التحقيق، وهو يَشْعُرُ بأنّ قَوْمَهُ: إمَّا هُمْ ضُعَفَاءُ التَّفْكِير قَلِيلو الْعِلْم، يَرَوْنَ أَنَّ لِفِرعونَ قُدْرَاتٍ تُمَكِّنُهُ إذا بَنَىٰ الصَّرْحَ الْعَالِيَ مِن اتِّخَاذِ أَسْبابٍ تُوصِلُهُ إلى السَّمَاءِ وهُنَالِكَ يَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ. وإِمَّا شَيَاطِينُ مِثْلُهُ يُوَاطِئُونَهُ علَىٰ أكاذِيبِهِ وحِيَلِهِ، فَهُمْ شُرَكاؤه في الملْكِ والسُّلْطانِ والمنافع.

وبهـٰذا قَطَعَ فِرْعَوْنُ بَحْثَ هـٰذِه القضيَّةِ دَاخِلَ قَصْرِ الحُكْم، بانْتِظَارِ بِنَاءِ الصَّرْحِ واتّخاذِ الأَسْبَابِ إِلَىٰ السَّمَاء.

• ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾: أي: لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ العالِيَةَ الرفيعة في الْأَجْوَاء الْعُلْيَا.

- ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بَدَلٌ مِنَ ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ وهو بدَلُ كُلٍّ من كلٍّ، وهو بَدَلٌ يُقْصَدُ بِه الشَّرْحُ والتوضيح.

- ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: بِنَصْبِ لَفْظ: «أَطَّلِعَ» بأنْ مضمرة على أنّ الفاء سببية.

وفي القراءة الأخرىٰ، وهي قراءة جمهور القراء العشرة برَفع «أطّلعُ» على أن الفاء عاطفة فقط، أي: فأنا أَطَّلِعُ.

أطّلِع: أي: أَنْظُرُ وأشاهد. يُقَالُ لغة: «اطَّلَعَ إلَىٰ الشيء» أي: تَطَلَّعَ وَنَظَرَ لِمَعْرِفَتِه(١).

- ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾: كان فِرْعَوْنُ يَقُولُ: إنَّ مُوسَىٰ سَاحِرٌ كذَّابٌ، فلَمَّا سَمِعَ مَقَالَاتِ الرَّجُلِ المؤمِنِ مِنْ آلِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ تَأْثِير دَعْوَةِ مُوسَىٰ قَدْ نَفَذَتْ إلَىٰ بَعْضِ رِجَالِ قَصْرِهِ من آلِهِ، تَنَازَلَ فِي عبارَتِهِ مِنَ الْقَوْلِ المجْزُومِ بِهِ إلَىٰ مُسْتَوىٰ الظَّنِّ بأنَّ مُوسَىٰ كَاذِبٌ.

- ﴿.. وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ..﴾: أي: وَكَذٰلِكَ التَّزْيِينِ الَّذِي جَعَلَهُ يُعْرِضُ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ المؤمِنِ مِنْ آلِهِ إلىٰ الْحَقِّ الرَّبَّاني، زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ في كُلِّ حَيَاتِه، ومِنْهُ تَدْبيرُ التخلُّصِ مِنَ المؤمِنِ مِنْ آلِهِ، بِوَسَائِلَ سِرِّيَّةٍ لَا يُصْدِرُ فِيهَا أَمْراً صَرِيحاً يُزَعْزِعُ بِهِ أركانَ مُلْكِه.

- ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: بالبِنَاءِ لما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ، وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ]** بالبناء لِلْمَعْلُوم.

أَمَّا قِرَاءَةُ «صُدَّ» بِالبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ فَقَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنِعَ وَصُرِفَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ. ومَعْلُومٌ أَنَّ الصَارِفَ لَهُ شَيْطَانُهُ بِمُسَاعَدَةِ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ وشَهَوَاتِهَا، ونَزَعَاتِها ونَزَغَاتها.

---

(١) انظر تدبر الآية (٣٨) من سورة (القصص/ ٤٩ نزول).

وأمَّا قِرَاءَة «صَدَّ» بالبناء لِلْمَعْلُوم، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ امْتَنَعَ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ اللهِ، وَمَنَعَ غَيْرَهُ بِسُلْطَانِهِ وَوَسَائِلِهِ عن سُلُوكه، إذْ فِعْل «صَدَّ» يُسْتَعْمَلُ لَازِماً ومُتَعَدِّياً.

● ﴿..وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (٣٧)﴾:

الكيد: التَّدْبير الظاهِرُ أو الخفي للإضرار بالمكِيد.

التَّبَابُ: الانْقِطاعُ عَنْ تَحْقيقِ النَّتَائِجِ الْمَرْجُوَّةِ مِنَ الْعَمَل، ويَكُونَ غايَةً لِلْكَيْدِ ضِدَّ الْحَقِّ وَدُعَاةِ الْحَقِّ. ويَأْتِي بِمَعْنى الْخُسْرانِ والهلاك.

دَلَّت هٰذِهِ الْعِبارَة علَىٰ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَادَ كَيْداً مَا، للتَّخَلُّصِ مِنَ الرجُلِ المؤمِنِ مِنْ آله، وَمِنْ مُوسَىٰ، لَكِنَّ اللهَ أَحْبَطَ كَيْدَهُ، إذْ تَسَارَعَتِ الْأَحْدَاثُ، وَخَرَجَ مُوسَىٰ بِبَنِي إِسْرَائيل مِنْ مِصْرَ، وتابَعَهُمْ فِرْعَوْنَ بِجَيْشِهِ، وأَنْجَىٰ اللهُ مُوسَىٰ وهَارُونَ وَمَعَهُمَا بَنُو إسْرَائيل، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ جَيْشِهِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ، فَكَانَ كَيْدُ فِرْعَوْنَ فِي خَيْبَةٍ، وكَانَ هُوَ وَكُلُّ جَيْشِهِ في خُسْرَانٍ وَهَلَاك.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ مَسِيرَةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ الدَّعَوِيَّةِ فِي قَوْمِه:

● ﴿وَقَالَ الَّذِى ءَامَنَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ الْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾:

(٣٨) ● قرأ قالُون، وأبو عمْرو، وأبو جَعْفر: **[اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ]** بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم وصلاً، وأثبتها في الْوَصْلِ والوقف ابْنُ كثير، ويَعْقُوب.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة بِحَذْفِ ياء المتكلم: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾

وصلاً ووقفاً، ومثلُ هـٰذا الْحَذْفِ مَعْرُوف في العربية، والغرضُ مِنْهُ الإيجاز في اللَّفْظِ.

(٤٠) ● قرأ ابْن كثير، وأَبُو عَمْرو، وشعبة، وأبو جَعْفَر، ويَعْقُوب: [**يُدْخلُونَ الْجَنَّة**] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿**يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ**﴾ بالبناء للمعْلوم.

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاء المعنَىٰ المراد، أي: يُدْخِلُهُمُ الله الجنَّة، فَهُمْ يَدْخُلُونها.

يَظْهَرُ أَنَّ الرَّجُلَ المؤمِنَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ أَنِ انْكَشَفَ أَمْرُهُ أَنَّهُ مِنَ المؤمِنينَ بمُوسَىٰ وَهَارُونَ، ومِنَ المؤمِنِينَ بِمَا جَاءَا بِه عَنِ اللهِ، ومِنَ الْعَالِمِينَ الْوَاعِينَ تَلَقِّياً عَنْهُمَا كَثِيراً مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وقَضَايَاهُ الكُبْرَىٰ، رَأَىٰ مِنَ الواجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يَنْطَلِقَ فِي قَوْمِه الْمِصْرِيينَ بَدءاً بالأُسْرَةِ الْفِرْعونِيَّة، دَاعِياً إلى سَبيلِ رَبِّهِ، ودِينِهِ الَّذي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ وَهَارُونُ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ وَجَدَ أَنَّ دَعْوَتَهُ دَاخِلَ الْقَصْرِ السُّلْطَانِيِّ قَدْ أَبْعَدَهَا فِرْعَوْنُ إِلَىٰ أَجَلٍ لَنْ يَأْتِيَ، إِذْ عَلَّقَ الأَمْرَ عَلَىٰ بِنَاءِ الصَّرْحِ الشَّاهِقِ الْمُسْتَعْلِي فِي السَّمَاءِ، وَعَلَىٰ صُعُودِه هُوَ إِلَىٰ أَعْلاهُ، واتِّخَاذِهِ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ رَجَاءَ أَنْ يَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ في السَّمَاءِ.

فجاءَ في بيانِ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ المصريينَ مَا يَلِي:

- ﴿.. يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨﴾:

نَادَاهُمْ مُسْتَعْطِفاً مُترفقاً بِهِمْ، مُبَيِّناً لَهُمْ أَنَّهُمْ قَوْمَهُ، الَّذِينَ يُرِيدُ لَهُمُ الْخَيْرَ، وَيَحْرِصُ عَلَىٰ نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم.

- ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾: أي: فِيما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ.
- ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾: أي: أُبَيِّنْ لَكُمْ وَأُوَضِّحْ لَكُمُ الطَّرِيقَ

الموافق للحقّ والصّواب، ولما هُوَ الأفْضَلُ والأحْسَنُ والأكْثَرُ نفعاً، والأبْعَدُ عن الضّرَرِ العاجل والآجل.

الرّشاد: هو السُّلُوكَ الفكريُّ والنّفسيُّ وَالخَلْقِيُّ والعَمَلِيُّ الموافق للحقِّ والصوابِ والْخَيْر.

- ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾:

المتاع: مَا يُنْتَفَعُ بهِ إِلَىٰ وَقْتٍ ما، ومَصِيرُهُ إلى الزَّوَالِ والفناء.

دَار القَرَارِ: أي: دار الاستقرار الدائم، والإقامَةِ الدّائمة، بِسُكُونٍ واطْمِئْنَان، وَهٰذا اصطلاحٌ قرآنيٌّ مأخُوذٌ من الْوَضْعِ اللّغوِيِّ، بإضَافَةِ الدَّوَام إليه، أي: الخلود بلا نهاية.

القرارُ في اللُّغة: المكانُ الَّذي يَثْبُتُ فِيهِ الشيء، ومَصْدَرُ «قَرَّ» بمعنى: أقامَ، وبمَعْنَىٰ: سكَنَ واطْمَأَنَّ.

أي: يَا قَوْمِ الَّذين أحْرِصُ عَلَىٰ نَجاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ الله، وعلى ظَفَرِهِمْ بالسَّعادَةِ الأَبَدِيَّة، مَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيا إلّا مَتاعٌ سَرِيعُ الزَّوالِ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ بِالفناء، فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ زِيناتُها، وَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ مَظَاهِرُهَا وَفِتَنُهَا.

ويا قَوْمِ إنَّ الْآخِرَةَ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، هِيَ دَارُ الاسْتِقْرَارِ الدَّائِمِ، والإقامَةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لها، فَاحْذَرُوا أَنْ يَكُونَ اسْتِقْرَارُكُمْ فِي الآخِرَة في دَارِ العذاب، واحْرِصُوا أَنْ يَكُونَ اسْتِقْرَارُكُمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ للمؤمِنِينَ المتقين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَ دَعْوَةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ:

- ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠﴾:

مَا كان لِمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ أنْ يَعْرِفَ مَا عَرَضَهُ فِي بَيَانِهِ الدَّعوِيِّ الَّذي

جَاءَ فِي هٰذه الآية وغيرها، مَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ عِلْمٌ عَنْ دِينٍ رَبَّانِيٍّ جَاءَ بِهِ رَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، فالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ يَتَّصِلُ سِرّاً بِمُوسَىٰ وَهَارُونَ بَعِيداً عَنْ عُيُونِ جواسِيسِ فِرْعَوْن، ويتَلَقَّىٰ عَنْهُمَا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمَا مِن قَضَايَا الدِّين، ومِنْهُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ بَيانُهُ الدَّعوِيُّ للمِصْريين.

إنَّ مِنْ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِيّ، أَنْ لَا يَجْزِي عَلَىٰ السَّيِّئَةِ، إِذَا جازَىٰ عَلَيْها ولَمْ يَغْفِرْ ولَمْ يَعْفُ، إلَّا بِمِثْلِهَا في أَشَدِّ دَرَجاتِ الجزاء، فَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا.

وَمِنْ قَانُونِ الجَزَاءِ الرَّبَّانِي، أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً صَالحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وهُوَ مُؤْمِنٌ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُؤمِنَ بِهِ فِي دِينِ اللهِ، وَكَانَ عَمَلُهُ طاعَةً لِلَّهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، كَانَ جَزَاؤُهُ يَوْمَ الدِّينِ أَنْ يُدْخِلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ خَالِداً فِيهَا مُخَلَّداً، وَأَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ فِيهَا مَا يُحِبُّ مِنْ رِزْقٍ مَادِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ، غَيْرِ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ، وَدُونَ أَنْ يَكُونَ خَاضِعاً لِحِسَابٍ في مُقَابِلِ الأَعْمَالِ، لَا مِنَ الْمَرْزُوقِينَ فيها، ولَا مِنَ الملائِكة.

أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجلَّ فَهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِمّا يُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ وَيُلْبَسُ وَيُتَلَذَّذُ بِهِ، وَكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الْحَيُّ فِي حَيَاتِهِ، حَتَّىٰ الهواء الذي يَتَنَسَّمُهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ دَعْوَةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ في قَوْمِه:

• ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٞ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٞ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(٤١) ● قرأ نافع، وابْن كثير وأبو عَمْرو، وهشام، وأبو جعفر: **[مَالِيَ أَدْعُوكُم]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرَة بالإسكان.

(٤٢) ● قرأ نافع، وأبو جعفر: **[وَأَنَآ أَدْعُوكُمْ]** بإِثْباتِ ألف «أنا» وتُمَدُّ للهمزة بَعْدها.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف ألف «أَنَا» من النُّطْق.

(٤٤) ● قرأ نافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللهِ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرَّاءِ العشرة بالإسْكان.

التدبّر التحليلي:

دَلَّتْ هـٰذِهِ الآياتُ علَىٰ أنَّ دَعْوَةَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ تَحوَّلَتْ إلَىٰ صِرَاعٍ جَدَلِيٍّ، مَعَ مُجَادِلِينَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ مِنْ كُبَرَاءِ الْقَوْم، فَهُوَ يَدْعُوهم إلَىٰ الإيمانِ بالحقِّ الرَّبَّانِيّ، وهُمْ يَدْعُونَهُ إلَىٰ الكُفْرِ باللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، وأنْ يُشْرِكَ بِهِ آلِهَتَهُمْ الَّتِي يَعْبُدُونها مِنْ دُونِ اللهِ، وهِيَ بَاطِلَةٌ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ يُثْبِتُ أَنَّ لَهَا حَقِيقَةً عِلْمِيَّةً ما.

● ﴿۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾؟!:

إنَّهُ يُعْلِنُ تَعَجُّبَهُ الشَّدِيدَ مِن الْفَارِقِ الكَبِيرِ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ، هو يَدْعُوهُمْ إلَىٰ النَّجاةِ مِنْ عَذَابِ اللهِ في النار يَوْم الدِّينِ، وهُمْ يَدْعُونَهُ إلى الدُّخولِ فِي دِينِهِمْ الَّذِي يَجْعَلُ أَصْحَابَهُ من الخالِدِينَ يَوْمَ الدِّينِ في عَذَابِ النار.

﴿مَا لِيٓ﴾؟؟: عِبارَةُ تَعَجُّب، أَصْلُ مَعْنَاها: أَيُّ شيءٍ هَو لِي مُبَايِنٌ

لِلْحَقِّ والخيرِ حَتَّىٰ رَفَضْتُمْ دَعْوَتِي وَأَنْكَرْتُمُوها، وأَنا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ دِينٍ يُنْجيكُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار يَوْمَ الدين، هـٰذا اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ إنْكارِي، اخْتُصِرَ إِلَىٰ عِبارة: «ما لي ـ ما لَكَ ـ مَا لَهُ ـ مَا لَكُمْ» ونحو ذلك.

ويُقابِلُها في الآية عبارةٌ مُناظِرَة مَطْوِيَّةٌ تَقْدِيرها: وَمَا لَكُمْ؟ أي: وأيّ شيءٍ هُوَ لَكُمْ مِنْ دَلِيلٍ تَقْبَلُهُ العقولُ السَّلِيمة، وأَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَىٰ دِينٍ شِرْكِيٍّ عَاقِبَتَهُ الْخُلُودُ في عَذَابِ النّارِ يَوْمَ الدِّين؟!.

■ وَشَرَحَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ خُلاصَةَ مَضْمُونِ دَعْوَتِهِمْ له، ومَضْمُونِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، فقال لهم مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ الآيَةُ التالِيَة:

● ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ باللهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ، وأَنَا وَأَنْتُمْ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي يُهَيْمِنُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، ويُمِدُّهَا بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَوَاماً، وَلَهُ عَلَىٰ عِبادِهِ حَقُّ الإيمانِ بأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبُّ الْوَاحِدُ الأَحَدُ، وبأَنَّهُ الإِلَٰهُ الْمَعْبُودُ بِحَقِّ الواحِدُ الأَحَدُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وكُلُّ إخْلَالٍ بهذا الاعْتِقَادِ مِنَ الكُفْرِ به.

وتَدْعُونني لِأُشْرِكَ بِهِ آلِهَتَكُمْ، وَهِيَ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ لَيْسَ لِي بِإِلَٰهِيَّتِها عِلْمٌ، إِذْ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ يُثْبِتُ إِلَٰهِيَّتَها، ولَا يُوجَدُ دَلِيلٌ حِسِّيٌّ يُثْبِتُ رُبُوبِيَّتَها الَّتِي تَسْتَلْزِمُ إِلَٰهِيَّتَها، ولا يُوجَدُ خَبَرٌ عَنِ اللهِ يَأْمُرُنا بِعِبادَتِها، فَكَيْفَ تَدْعُونَنِي أَنْ أَعْبُدَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ؟! فَإِنْ كانَ لَكُمْ دَلِيلٌ ما عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِها أَوْ إِلَٰهِيَّتِهَا فَهَاتُوا دَلِيلَكُمْ، لِكِنَّكُمْ لا تَمْلِكُونَ دَلِيلاً.

وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إلى الإيمانِ باللهِ رَبِّكُمْ، الَّذي لَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ، فَهُو إِلَٰهُكُمُ الَّذي لَا يُوجَدُ مَعْبُودٌ بِحَقٍّ سِوَاه، ومِن صِفَاتِهِ أَنَّهُ الْعَزِيزُ الْغَفَّار.

العزيز: أي: الْقَوِيُّ الْغَالِبُ لِكُلِّ شيءٍ، الْقَدِيرُ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ وأَنْ يَخْلُقَ مَا يُرِيد، فبِعِزَّتِهِ يُثِيبُكُمْ بالْخُلُودِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ يوم الدّين، إِنْ آمَنْتُمْ بِهِ وَأَسْلَمْتُمْ له، وبِعِزَّتِهِ يُعَاقِبُكُمْ بِالْخُلُودِ فِي دَار الْعَذَابِ النَّار يَوْمَ الدِّين، إِنْ كَفَرْتُمْ وَأَشْرَكْتُمْ.

وبِعِزَّتِهِ يُحْيِيكُمْ حَياة طَيِّبَةً في الدُّنيا إِنْ آمَنْتُمْ وأَطَعْتُمْ، وبِعِزَّتِهِ قَدْ يُعَذِّبُكُمْ فِي الدُّنيا، ويُهْلِكُكُم إِهْلَاكاً شَامِلاً، إِنْ أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُم وَعَصَيْتُم.

الْغَفَّار: أي: عَظِيمُ الْغُفْرَانِ وَكَثِيرُهُ، فَهُوَ يَسْتُرُ سَوابِقَ ذُنُوبِكُمْ وجَرَائِمكُمْ، وَيَتَجَاوزُ عَنْ مُؤَاخَذَتِكُمْ عَلَيْها، إِنْ آمَنْتُمْ وأَسْلَمْتُمْ وَعَمِلْتُم أَعْمَالاً صَالِحَاتٍ تَرْضِيه.

■ وتَابَعَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ جِهَادَهُ الدَّعَوِيَّ قَائِلاً لِقَوْمِهِ مَا جاء بيانُهُ في الآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ:

● ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: عِبارَةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكِيدِ الْكَلام وَتَوْثِيقِهِ، وقَدْ تَحْمِلُ مَعْنَىٰ الْقَسَم، فهي بِمَنْزِلَة «حَقّاً ـ لَا شكَّ ـ لَا مَحَالَةَ» وأَصْلُ مَعْنَىٰ الْجَرْمِ الْقَطْعُ. فكَأَنَّ المعْنَىٰ: لَا جَرَمَ جَارِمٌ مَا أَقُولُ بِرأْيِ مُخَالِفٍ لَهُ، ثُمَّ حَصَلَ الاكْتِفَاء بِعِبَارَة: «لَا جَرَمَ».

فالمعنى: لَا شَكَّ فِي أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَجَعْلِهِ إِلَهاً، لَيْسَ لَهُ أَثَرٌ يُحقِّقُ صِحَّةَ هٰذِهِ الدَّعْوَة فِي الدُّنْيَا وَلَا في الآخِرَة.

الدَّعْوَة: مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ «دَعَا، يَدْعُو».

أي: فَدَعْوَتُكُم بَاطِلَةٌ لَيسَ لَهَا حَقِيقَةٌ؛ لِأَنَّ مَا تَدْعُونَ إلَيْهِ أَمْرٌ بَاطِلٌ لَا وُجُودَ لَهُ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَة.

هَلْ يُوجَدُ رَبٌّ حَقٌّ، أَوْ إلَهٌ حَقٌّ غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟. إِنَّهُ لَا يُوجَدُ، فَكُلُّ رَبٍّ سِوَىٰ اللهِ، وكُلُّ إلَهٍ سِوَىٰ اللهِ، لَا تُوجَدُ دَعْوَةٌ صَحِيحَةٌ لَهُ، قَدْ تُوجَدُ لَهُ علَىٰ أَلْسِنَةِ الكَذَّابِينَ دَعْوَةٌ كاذِبَةٌ، لَكِنَّ الدَّعْوَةَ الْكَاذِبَةَ مَرْفُوضَةٌ لدَىٰ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ السَّلِيمَة، فَهِيَ بِمَثَابَةِ الْأَمْرِ الْمَعْدُومِ الَّذِي يُقَالُ بِشَأْنِهِ لَا وُجُودَ له.

وبهـٰذَا المعْنَىٰ نَفْهَمُ قَوْلَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ لِمُشْرِكي قَوْمِه:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْآخِرَةِ﴾.

وأبانَ لَهُمْ بَعْدَ هَـٰذا قَضِيَّتَيْنِ تَتَعَلَّقَانِ بِالْآخِرَة:

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعَالَىٰ مُبيّناً مَضْمُونَ قولِهِ لهم: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: وَأَنَّ مَرْجِعَنا بَعْدَ الْمَوْتِ، والْبَعْثِ إلَىٰ حِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قَضائِهِ وَتَنْفِيذِ جَزَائه.

كلمة «مَرَدّ» تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ اسْمَ مَكَانٍ، واسْمَ زَمَانٍ، ومَصْدراً مِيمِيّاً، وكُلُّ هـٰذِهِ المعاني مُلائِمَةٌ هنا، أي: وأَنَّ رُجُوعَنا، وَمَكَانَ رُجُوعِنَا، وزَمَانَ رُجُوعِنَا إلَىٰ الحياة الْأُخْرَىٰ، كُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ لِمُلَاقَاةِ حِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ.

يقَالُ لُغةً: «رَدَّهُ، يرُدُّهُ، رَدّاً، وتَرْداداً، وَرِدَّةً» بمعنَىٰ أَرْجَعَهُ.

القضيّة الثّانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً مَضْمون قوله لَهُمْ: ﴿..وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: وأَنَّ الْغَالِينَ في ذُنوبِهِمْ، ومَعَاصِيهِمْ، وبَغْيِهِمْ، وجرائِمِهِمْ وآثَامِهِمْ، وظُلْمِهِمْ إلَىٰ دركَةِ الكُفْرِ هُمْ أصْحَابُ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ،

المُلاَزِمُونَ لَهَا لَا يُفَارِقُونَها، ولَا يُفَارِقُهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ عَذابُها.

دَلَّ تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنَادِ فِي هٰـذِهِ الْجُمْلَةِ، عَلَىٰ قَصْرِ مُلازَمَةِ النَّارِ يَوْمَ القيامَةِ عَلَىٰ الْمُسْرِفين في مَعَاصِيهِمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر، والشِّرْكُ مِنْهُ؛ لأنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

وبَعْدَ أَنْ أَنْهَىٰ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ بَيَانَ الكلّيَاتِ الْكُبرَىٰ مِنْ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهم، قال لهم مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الآيَةِ التَّالِيَة:

- ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ مُؤْمِنَ آل فِرْعَونَ، كَانَ عِنْدَهُ خَبَرٌ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، بِأَنَّ اللهَ مُهْلِكٌ فِرْعَوْنَ وَكُفَّارَ آلِهِ وَجُنُودَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ مُسْتَعْمِلاً الْحَرْفَ الدَّالَّ عَلَىٰ المسْتَقْبَلِ فِي الحياة الدُّنيا، وهو حرف «السين»: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾: أي: فَستَذْكُرُونَ في الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَة، مَا أَقولُ لَكُم بتكرارٍ ناصِحاً وَهَادِياً، وذَلِكَ حِينَمَا يَنْزِلُ بِكُمْ عَذَابٌ مِنَ اللهِ يَسْتَأْصِلُكُم بِهِ مُهْلِكاً لَكُمْ.

وَشَعَرَ بأَنَّ كُبرَاءَ آلِهِ قَدْ غَضِبُوا مِنْهُ أَشَدَّ الْغَضَب، لإيمانِهِ بموسَىٰ وهَارُونَ وَمَا جَاءا بِهِ عَنِ اللهِ، وأَنَّهُ إذا لَمْ يَعْصِمْهُ اللهُ مِنْهُمْ عَذَّبُوهُ وقَتَلُوهُ، فَقالَ: ﴿. . وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ . .﴾:

التَّفْوِيض: جَعْلُ التَّصرُّفِ كُلِّهِ تَحْتَ إرادَةِ مَنْ حَصَلَ التَّفْوِيضُ إِلَيْهِ.

يُقَالُ لغة: «فَوَّضَ فُلَانٌ أَمْرَهُ إِلَىٰ فُلَانٍ» أي: جَعَلَ لَهُ التَّصرُّفَ فيه.

فَتفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَىٰ اللهِ نَظِيرُ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ الله، ويَدْخُلُ في مَعْنَىٰ هٰـذا التَّفْوِيض سُؤَالُ اللهِ الْحِمَايَةَ والْحِفْظ مِنْ مَكْرِ الأعْدَاءِ وكَيْدِهِمْ، وَمَا يُدَبِّرُون مِنْ شَرٍّ أَوْ ضُرٍّ أَوْ أَذىً.

وَبعْدَ أَنْ أعْلَنَ تَفْوِيضَ أَمْرِهِ إِلَى اللهِ، أَثْنَىٰ عَلَىٰ اللهِ بأَنَّهُ لَا يَغِيبُ عَنْ بَصَرِهِ تَدْبِيرٌ يُدَبِّرُهُ أَعْدَاؤُهُ وأعْدَاءُ دِينِهِ ضِدّه، فَهُوَ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ، قَادِرٌ علَىٰ أَنْ يُحْبِطَ تَدْبيراتِهِمْ، فَقال مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً عَنْهُ: ﴿إِنَّ . . ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلۡعِبَادِ . . ﴿٤٤﴾﴾: أي: والْبَصِيرُ بِعبَادِهِ جَمِيعاً، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْمِيَ أَوْلِيَاءَه، ويُحْبِطَ تَدَابِيرَ أَعْدَائِهِ ضِدَّ أَوْلِيائه، وهـٰذا مَا تَحقَّقَ فِعْلاً بَعْدَ ذَلك.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْحِمَايَةِ لِمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، مِنْ مَكْرِ كُفَّارِ آلِهِ الَّذِي مَكَرُوه لِتَعْذِيبِهِ وَقَتْلِهِ، قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: فَوَقَّىٰ اللهُ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرَهُ كُفَّارُ آلِهِ، صُغْرَاهَا وَكُبْرَاهَا، مِنَ الإهَانَةِ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْهُ، فالسِّجْنِ، والتَّعْذِيبِ، حَتَّىٰ الْقَتْلِ، إِذْ تَتَابعَتْ عَلَيْهِمْ أَحداثُ خُرُوجِ مُوسَىٰ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرِ، وَاسْتِدْعَاءِ الْجُنْدِ مِنَ الْأَقَالِيم لِلَّحَاقِ بِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَخُرُوجِ فِرْعَوْنَ بِجَيْشِهِ وَمَعَهُ كُفَّارُ آلِهِ، ثُمَّ كَانَتِ النِّهَايَةُ فَلْقَ الْبَحْرِ، وَنَجاةَ بَنِي إِسْرائيل، وَغَرقَ فِرْعَوْنَ وَكُلِّ الَّذِينَ خَرجُوا مَعَهُ.

وَحَمَىٰ اللهُ المؤمِنَ الدَّاعِيَةَ مِنْ كُلِّ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرَ كُفَّارُ آلِ فِرْعَوْنَ.

﴿. . وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَأَحَاطَ نَازلاً بآلِ فِرْعَوْنَ الكَفَرَةِ الطُّغَاةِ الْبُغَاةِ شَدِيدُ العذاب وشَاقُّهُ وَمُؤْلِمُه.

سُوءُ العذاب: هو مِنْ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصُوف، أي: العذابُ السُّوءُ. **السُّوءُ**: اسْمٌ جَامِعٌ لمخْتَلِفِ الآفَاتِ وكُلِّ مَا يَقْبُحُ.

وسُوءُ الْعَذَابِ هـٰذا، اسْتَمرَّ مِنْ سَاعَاتِ إغْرَاقِهِمْ فِي الْبَحْرِ، تَضْرِبُهُمُ الْمِياهُ الْمُنْهَالَةُ حتَّىٰ مَوْتِهِم، وَبَعْدَ مَوْتِهِمْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنُفُوسِهِمْ عَذاباً آخر، إذْ جَعَلَهَا تُعْرَضُ عَلَىٰ النَّار غُدُوّاً وَعَشِيّاً، لِيَذُوقُوا آلاماً مِنْ آلامِ حَرِّها.

الْغُدُوُّ: جَمْعُ مُفْرَدُهُ «الْغُدْوَةِ» وهي مَا بَيْنَ طُلُوعِ الفجر والشمس.

الْعَشِي: هو الوقْتُ مِنَ الْعَصْرِ إلى غُرُوب الشمس.

وَيَوْمَ تَقُومُ سَاعَةُ بَعْثِ الموتَىٰ إلَىٰ الآخِرَة، وَيَجْري حِسَابُ اللهِ، وفَصْلُ قَضَائِه بآلِ فِرْعَوْنَ الْكَافِرِين، يَقُولُ اللهُ لِلْمَلائِكَةِ المكلَّفِينَ أَنْ يَسُوقُوهم إلَىٰ دركاتِهِمْ فِي جهَنَّمَ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴿٤٦﴾﴾: أي: أَدْخِلُوهم مَكاناً مِنْ جَهَنَّم فِيهِ أشَدُّ الْعَذاب، وَظَاهِرٌ أَنَّهُمْ إذا دَخلُوا هذا المكانَ، كَانُوا قَدْ دَخلُوا أشَدَّ الْعَذَابِ الْمُحِيطِ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ مِنْ جَوَانِبِهِم. وتشْمَلُ العِبَارَةُ فِرْعَوْنَ لِأَنَّهُ رَأْسُ آلِ الْملك.

وَلَا تَمْلِكُ الْمَلائِكَةُ المكلّفُونَ إلَّا تَنْفِيذَ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ، فَهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بطَاعَةٍ تَامَّةٍ، وَقُدْرَةٍ عَظِيمَةٍ أعْطاهُمُ اللهُ إيَّاها.

وجاء في قراءة ابْنِ كثيرٍ، وأبي عمرو، وابْن عامِرٍ، وشُعْبَة:

[.. وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ٱدْخُلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ]:

أي: يُصْدِرُ اللهُ حُكْمَهُ بآلِ فِرْعَوْنَ الْكَافِرِين، فَيَقُولُ لَهُمْ: ادْخُلُوا يا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب.

وبعده يأمُرُ الملائِكَةَ بإدْخالِهِمْ أَشَدَّ العذاب.

فالقراءتان مُتَكَامِلَتَانِ في الدَّلَالَةِ علَىٰ المعنَيَيْنِ المرادَيْنِ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس السابع من دُروس سورة (غافر). والحمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، وفَتْحِه.

* * *

(١٢)

التدبر التحليلي للدّرْس الثامن من دُروس سورة (غافر)

الآيات من (٤٧ ـ ٥٠)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٥٠)﴾.

القراءات:

(٥٠) ● قرأ أبو عَمْرو: [**رُسْلُكُمْ**] بإسْكَانِ السِّين.

وقرأها باقي القراء العشرة بِضَمِّ السِّين: ﴿**رُسُلُكُمْ**﴾.

تمهيد:

فِي آيات هـٰذا الدَّرْس عَرْضُ مَشْهَدٍ مِن أَحْوَالِ المعذَّبِينَ في النَّارِ يَوْمَ الدِّين، وَهُوَ مَشْهَدٌ مُخِيفٌ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الواعِيَةِ، الَّذِينَ لَمْ تَنْطَمِسْ بَصَائِرُهُمْ بالْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ وَوَسَاوِسِ الشَّيَاطِين، وحُبِّ الْعَاجِلَةِ ومَتَاعَاتِ الْأَنْفُسِ مِنْهَا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (٤٨)﴾:

التَّحَاجج: التَّخاصُمُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ الْمُقْتَرِنُ بتقديم كُلٍّ مِنْهُما مَا لَدَيْهِ مِنْ حُجَّةٍ فأكثر.

اسْتَكْبَرُوا: أي: تَكَبَّرُوا كِبْراً شَدِيداً في الحياة الدُّنيا، إذْ كَانُوا هُمْ أَصْحَابَ الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ والْمُلْك، والأَمْر والنَّهْي علَىٰ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِم.

مُغْنُونَ: أي: كافُونَ وصَارِفُون. **التَبَعُ**: التابع، يقال: للوَاحد فأكثر.

نَصِيباً: **النصِيبُ**: الحظُّ مِنْ كُلِّ شيءٍ، ويُجْمَعُ على «أنْصِبَاء، وأنْصِبَة، وَنُصُب» ويُسْتَعْمَلُ في الخير والشّرّ.

مِنَ النار: أي: مِنْ عَذَاب النَّار الذي نُعَذَّبُ بِهِ.

إِنَّا كُلٌّ فِيهَا: التَّنْوِينُ فِي «كُلٌّ» هُو تَنْوِينُ العِوَضِ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ المحذوف، أي: كُلُّ فَرِيقٍ مِنَّا.

المعْنَىٰ: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِي لِبيانِ رَبِّكَ للاتِّعاظِ والاعتبار، صُورَةً مِنْ صُوَر التَّخَاصُم الَّذِي سَوْفَ يكونُ يوْمَ الدِّينِ في دَارِ العذاب النار، بيْنَ الَّذِينَ كَانُوا في الدُّنْيَا أَتْباعاً، والَّذِينَ كانُوا فِي الدُّنْيَا مَتْبُوعِينَ مُسْتَكْبِرِينَ فِي الأَرْضِ، إِذْ كَانُوا أَصْحَابَ الدَّوْلَةِ وَالْحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ، أَو الزَّعَامَةِ والشَّرَفِ والجاه.

المخاصِمُونَ الّذِينَ كَانُوا ضُعَفَاءَ أَتْبَاعاً: يَقُولُونَ للّذِينَ كانوا أئمَّتَهُمْ: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَابِعِينَ، وكُنْتُمْ أَئِمَّتَنَا، نُطِيعُكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ تَأْمُرُونَنَا بِه، وَصِرْنَا الآنَ جَمِيعاً مُعَذَّبين لِلْكُفْرِ الَّذِي أَمَرْتُمُونَنَا بِهِ، وللجرائِمِ الَّتِي أَطَعْنَاكُمْ فِي ارْتِكَابِها، فَهَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ كَافُونَ وَصَارِفُونَ عَنَّا جُزْءاً مِنْ عَذَابِ النَّارِ الَّذِي نُعَذَّبُهُ، بأنْ تَتَحَمَّلُوهُ عَنَّا، مُراعِينَ أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ سَبَباً فيما نَحْنُ فِيهِ مِنْ عذَاب؟؟.

الرَّدُّ الذي يَرُدُّ بِهِ الَّذِين كانُوا مُسْتَكْبِرِينَ مَتْبُوعِين: إِنَّنَا جَمِيعاً نَحْنُ

وَأَنْتُم فِي دَارِ الْعَذَابِ نُعَذَّبُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا يُعَذَّبُ بِالْعَدْلِ على مقدار مَا قَدَّمَ في الدُّنيا حَيَاةِ الامْتِحَانِ مِنْ كُفْرٍ وَجَرَائِمَ وآثَام، باخْتِيَارِه الْحُرّ.

إنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ جَمِيعاً بالْفَضْلِ وَالْعَدْلِ، فلَمْ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ بأَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذابٍ، وَمَا كُنْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ لَمْ يُحَاسِبْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ، فَلا نَحْمِلُ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ عَذابِكُمُ الَّذي تَسْتَحِقُّونَهُ، وَلَا نَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، وَلا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَكُفَّ أَوْ نَصْرِفَ عَنْكُمْ شيئاً مِنَ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ جَمِيعاً، والْحُكْمُ لَهُ وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ.

في عَرْضِ هٰذا التَّخَاصُمِ المقترِنِ بِتَقْدِيم كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقين مَا لَدَيْهِ مِنْ حُجَّة، وبصُورَتِهِ الْعَامَّةِ الشَّامِلَةِ لِكُلِّ الْأَتْبَاعِ والمتْبُوعِينَ، إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ جُنُودَ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ لَيْسُوا مِن آلِهِ، والَّذِينَ لَمْ يَتَعَرَّضْ آخِرُ الدَّرْسِ السَّابِقِ السَّابع لِبَيَانِ إدْخَالِهِمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، سَوْفَ يَدْخُلُونَهَا مَعَ آلِ فِرْعَوْنَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمُ الإرادي، وجرائِمِهم الَّتي كَانُوا يرْتَكِبُونَهَا بِإِرَادَتِهِمْ الْحُرَّةِ، وَلَا يُسْتَثْنَىٰ مِنْهُمْ إِلَّا الْمَسُوقُونَ بِالْإِكْرَاهِ، وَهُمْ مُؤْمِنُونَ غَيْرُ راضِينَ عَنْ أَعْمَالِ فِرْعَوْنَ وآلِهِ، إِنْ وُجِدَ مِنْ هٰؤلاءِ أَحَدٌ في جَيْشِ فِرْعَوْن، الَّذِي أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ الشَّامل.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ مَشْهداً آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ أَصْحَابِ النار وهُمْ يُعَذَّبُونَ فيها:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾:

أي: وقَالَ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ بعَذَابٍ أَبَدِيٍّ لِكُفْرِهِم، مُوَجِّهِينَ قَوْلَهُمْ لِخزَنَةِ جهنَّم، يَسْتَعْطِفُونَهُمْ بِتَذَلُّلٍ وَخُضُوعٍ: ادْعُوا رَبَّكُمْ دُعَاءً يُخَفِّفْ بِهِ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ.

خزَنَةُ جهَنَّم: هُمُ الملائِكَةُ المأْمُورُونَ بِحِفْظِ مَا كُلِّفُوا أَنْ يَحْفَظُوهُ فيها.

قال الخزنَةُ: أَلَمْ تكُنْ لكم أسْمَاعٌ وأَبْصارٌ وَأَجْهِزَةُ إِدْرَاكٍ تُفرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ والباطل، وبَيْنَ الخير والشّر، وَلَمْ تكُنْ تأْتِيكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حيَاةِ امْتِحَانِكُمْ رُسُلُ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ، يُبَلِّغُونَكُمْ مَطْلُوبَ اللهِ مِنْكُمْ مِنْ إِيمَانٍ وَإِسْلَام، وَلَمْ تكُنْ لَكُمْ إِرَادَاتٌ حُرَّةٌ؟

قَالَ الْمُعَذَّبُونَ فِي النَّار: بَلَىٰ كَانَتْ لَنَا أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ وَأَجْهِزَةُ إِدْرَاكٍ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الخير والشَّر، وجَاءَتْنَا رُسُلُ رَبِّنَا فَبَلَّغُونَا مَطْلُوبَ اللهِ مِنّا، وكانَتْ لَنَا إِرَادَاتٌ حُرَّةٌ غَيْرُ مُكْرَهَة، ولَكِنَّا آثَرْنَا مَتَاعَاتِ الحَيَاةِ الدُّنيا.

الواو في ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾ بَعْدَ الاسْتِفْهَام أَرَىٰ أَنَّها تَعْطِفُ على مَحْذُوفٍ، يتَلَخَّصُ بِمَا ذَكَرْتُهُ فِي التَّدبّر.

قَالَ الْخَزَنَةُ: لَمْ يَأْذَنْ لَنَا رَبُّنَا بأَنْ نَدْعُوَ بِهٰذا الدُّعَاءِ الَّذِي طَلَبْتُمُوهُ مِنَّا، وَنَحْنُ لَا نَشْفَعُ لِأَحدٍ إِلَّا إِذَا أَذِنَ اللهُ لَنَا بِأَنْ نَشْفَعَ لَهُ، فَادْعُوا أَنْتُمْ رَبَّكُمْ إِنْ شِئْتُمْ، ولَكِنْ نَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ كافِرِينَ بِهِ، وَمَا دُعَاءُ الَّذِينَ كانُوا كافِرِينَ بِرَبِّهِمْ إِلَّا في ضَيَاعٍ، فَلَا أَثَرَ لَهُ عِنْدَ الله.

وتَمَّ بِهٰذَا الحِوَارُ بَيْنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَخَزَنَتِها.

وبِهٰذا تَمَّ تَدبُّر الدَّرْسِ الثامن من دُرُوسِ سُورَة (غافر). والحمد لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وَتَوْفيقِهِ، وَفَتْحِه.

* * *

(١٣)

التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (غافر) وهو الآيات من (٥١ ـ ٥٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ

ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

القراءات:

(٥١) ● قرأ أبو عمْرو: **[رُسْلَنَا]** بإسْكان السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[رُسُلَنَا]** بضَمِّ السّين.

(٥٢) ● قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكِسَائي وخلف: **﴿لا يَنْفَعُ﴾**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَا تَنْفَعُ]** بالتاء.

والقراءتان وجْهانِ عَرَبيَّانِ جائزان.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدّرْسِ طَمْأَنَةٌ للرَّسُول ﷺ ولِلْمُؤْمِنينَ مَعَهُ، بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ سَيَنْصُرُهُمْ في الحياة الدُّنيا، وسَوْف يَنْصُرُهُمْ في الآخِرَة، كما نَصَرَ مُوسَىٰ ومَعَهُ بَنُو إسْرَائيل، علَىٰ فِرْعَوْنَ وآلِهِ وَجُنُودِهم.

وفِيها توجيهٌ للرَّسُولِ ﷺ بأَنْ يَصْبِرَ ويَسْتَغْفِرَ، وبأَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ بالْعَشِيِّ والإبْكار، وهذا التوجيه يَنْسَحِبُ على المؤمنين الذين آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم الْقَادِرِ علَىٰ مَا يُريد:

● ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾؛

يُؤَكِّدُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بالمؤكِّدَاتِ: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّامُ الْمُزَحْلقة إلى الخبر» أنَّهُ سَيَنْصُرُ رُسُلَهُ والَّذِينَ آمَنُوا صَادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَضْطَهِدُونَهُمْ وَيُدَبِّرُونَ الْمكايدَ مُؤْذِينَ وَمُعَذِّبين وَظالِمِينَ، مَهْمَا أَمْهَلَهُمْ وأَمَدَّ لَهُمْ، فالْعَاقِبَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ نصراً للرَّسُولِ ولِلْمُؤْمِنِينَ، على الكافِرِينَ الظَّالِمِين، وأنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ سَوْفَ يَنْصُرُ رُسُلَهُ وَالّذِينَ آمَنُوا يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ فِي مَحْكَمَةِ الرَّبِّ لعبادِه، فَيَحْكُمُ لِأَوْلِيَائِهِ بأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، عَلَىٰ دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا مِنْ إيمانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَيَحْكُمُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِين بأَنَّهُمْ أَصْحَابُ دَارِ العذاب النَّار، عَلَىٰ دَرَكَاتِهِمْ فيها، بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ في الحياة الدُّنيا من كُفْرٍ وَجرائِمَ وآثام.

الْأَشْهَادُ: الشُّهَدَاءُ، الَّذِينَ يَشْهَدُونَ في مَوْقِفِ الحسابِ وفَصْلِ القضاء، عَلَىٰ مَا عَلِمُوا مِنْ أَحْوَالِ الظَّالِمِينَ في الحياة الدُّنيا، وهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ومِنَ النَّاسِ الصَّادِقِينَ، وفي مُقَدِّمَةِ النَّاسِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثُمَّ حَمَلَةُ رِسَالَةِ الرُّسُلِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهم، وَدَعَوْا إلى اللهِ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المنكر.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ يَقُومُ الأشهادُ بأَنَّهُ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ الَّتِي يَعْتَذِرُونَ بها عَنْ كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهم الثَّابتِ عَلَيْهِم، والَّذِي كانُوا قَدَّمُوه لِآخِرَتِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الْحَياةِ الدُّنيا.

الْمَعْذِرَة ـ والْمَعْذُرَة: هِيَ الْحِجَّةُ الَّتِي يُقَدِّمُهَا ويُجَادِلُ بِهَا المعْتَذِرُ عَنْ ذَنْبِهِ لِتَبْرِئَةِ نَفْسِهِ. وجَمْعُها «المعاذِير».

والمعاذير يَشُوبُها الكَذِبُ، وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَب: «المعاذِرُ مَكَاذِب».

- ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾: أي: ولَهُمُ الطَّرْدُ الكَبِيرُ العظيم الشَّدِيدُ مِنْ مَهَابِطِ رَحْمَةِ الله جَلَّ جَلَالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه.

- ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾: **السُّوء**: اسْمٌ جَامِعٌ لمختلِفِ الآفاتِ والمؤلماتِ وكُلِّ مَا هُو قبيح وكَرِيهِ، وَسُوءُ مَكَانِ الْإقَامَةِ يَوْمَ الدِّين إنَّما يَكُونُ فِي جهَنَّم دَارِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ المجرمين:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَوجيهاً لِرَسُولِهِ وإنْذَاراً بالتعريضِ لِلْمَعْنِيِّين بالْعِلَاجِ في السُّورَة:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾:

في الآيتين (٥٣ و٥٤) إيجازٌ إلىٰ حَدِّ الإيماءِ لِقِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام وبني إسْرائيل، أي: وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَىٰ الْهُدَىٰ، وهُوَ الآيات الْبَيِّنَاتُ المنَزَّلَات، والآيَاتُ الخوارِقُ المعجزات، فَكَذَّبَ بها فِرْعَوْنُ وَمَلؤه وَجُنُودُهُمْ، فَنَصَرْنَا أَوْلِيَاءَنَا عَلَىٰ أَعْدَائِنَا، وَأَوْرَثْنَا بَنِي إسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ كِتَابَ التَّوْرَاةِ، وفيه هُدىً، وفيهِ ذِكْرَىٰ لِأُولي الألباب، ونَصَرْنَاهم على القوم الكافِرين الجَبَّارِين في الأرض المقدسة.

الذِّكْرَىٰ: اسْمٌ للتَّذْكير، وتأتي اسْماً للتَّذْكِرَة، وهِيَ الوسِيلَةُ المذَكِّرَةُ.

أولو الألباب: هُمْ أَصْحَابُ العقولِ الواعِيَةِ الدَّرَّاكَةِ، الَّتِي تَعْقِلُ المعارف فتُمْسِك بها، وتَعْقِلُ النَّفْسَ عن اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ.

وكانَ نَصْرُنَا لِمُوسَىٰ أَوّلاً، ثُمَّ لِبَنِي إسْرَائيل مِنْ بَعْدِه، تَحْقِيقاً لِوَعْدِنَا الذي سَبَقَ أَنْ وَعْدْنَاه مُوسَىٰ، ومِنْ قَبْلِهِ إبراهيم، وَقَدْ صَبَرَ مُوسَىٰ، وصَبَرَ المتَّقُونَ مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ حتَّىٰ أتاهُمْ نَصْرُنا.

- ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ كَمَا صَبَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ من الرُّسُل.

- ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾: أي: اسْأَلْ رَبَّكَ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ مَا قد يَقَعُ مِنْكَ مِنْ ذَنْب.

إنَّ الرَّسُول ﷺ مَعْصُومٌ مِنْ أَنْ يَرْتَكِب ذَنْباً مِنْ ذَنُوب مَرْتَبَةِ المتَّقِينَ؛

لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قد جَعَلَهُ أُسْوَةً حَسَنَةً لِلْمُؤْمِنِين، فَلَا يَقَعُ مِنْهُ ذَنْبٌ وَلَا تَقْصِيرٌ في حُدُودِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، لِئَلَّا يَكُونَ فِيهِ أُسْوَةً حَسَنَةً للمتَّقِينَ، ولَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قد كَلَّفَ رَسُولَهُ تكالِيفَ زَائِدَةً على تَكَالِيفِ مَرْتَبَةِ التقوى، هي مِنْ دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الأبْرَارِ، أَوْ دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، وَمَا هُوَ مِنْ هَاتَيْنِ الْمَرْتَبَتَيْنِ يَعْمَلُها غَيْرُ الرَّسُولِ تَطَوُّعاً وَتَنَفُّلاً، لكِنْ قَدْ يَكُونُ بَعْضُهُ مَفْرُوضاً علىٰ الرَّسُول ﷺ، فإذَا قَصَّرَ فيما جَعَلَهُ اللهُ وَاجِباً عَلَيْهِ، كَانَ مُذْنِباً في حُدُودِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ أَوْ مَرْتَبَةِ الإحْسَان.

- ﴿.. وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾:

الْعَشيّ: هو الوقْتُ من الْعَصْرِ إلىٰ الْغُرُوب.

الإبكارُ: هو الوقت من طُلُوعِ الفجر حتَّىٰ طُلُوع الشمس.

أي: وَنَزِّهِ رَبَّكَ تَنْزِيهاً عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، واجْعَلْ هذا التنزيهَ مُقْتَرِناً بِحَمْدِهِ، أي بالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

وكُلٌّ مِنَ الاستِغفارِ والتسبيح بحَمْد الله من الأدْوِيَة المساعِدَةِ على الصَّبْرِ، مع مَا في ذَلِكَ مِنْ فوائدَ جَلِيلَةٍ في معالجة النفس، في اكتساب رضوان الله.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس التاسع من دروس سورة (غافر). والحمْدُ للهِ علىٰ معونته، ومدده، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

(١٤)

التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة (غافر)

الآيات من (٥٦ ـ ٦٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

ٱلْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
يَجْحَدُونَ (٦٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٤) هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٥)﴾.

القراءات:

(٥٨) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويعْقُوب: [**يَتَذَكَّرُونَ**] بياء الْغَائبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**تتَذَكَّرُون**﴾ بتاءِ المخاطبين وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني.

(٦٠) • قرأ ابْن كثير: [**ادْعُونِيَ أسْتَجِبْ لَكُمْ**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكانِ يَاءِ المتكلّم.

(٦٠) • قرأ ابن كثير، وشعبة، وأبو جعفر، ورُويس: [**سَيُدْخَلُونَ جَهَنَّمَ**] بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعلُه، أي: يأمُرُ اللهُ بإدْخالهم جهَنَّم فَتُدْخِلُهُمُ الملائِكَةُ المكلَّفُونَ أن يُدْخلوهم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ**﴾ بالبناء للمعلوم. وبينَ القراءتَيْنِ تكامل، أي: يُدْخَلُونَ مُكْرَهِينَ، فَهُمْ يَدْخُلونَها عاجزينَ عَنِ المقاومَة.

تمهيد:

في آياتِ هٰذا الدَّرْسِ بيانٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آيات اللهِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ يُعْذَرُونَ بها، وأَنَّ الدَّافِعَ لَهُمُ الْكِبْرُ الَّذِي وَرَّمَ صُدُورَهُمْ فَحَجَبَهُمْ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة.

وَفيها دَعْوَةُ المؤمِنِ إِلَىٰ أَنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ من الكِبْرِ ومِنْ كُلِّ مَا يَصُدُّ عَنِ الإيمانِ، وعَنْ سُلُوكِ سبيل الْهُدَى.

وفيها إِقْنَاعٌ بأنَّ النَّاسَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ أَنْ يَسْتَكْبِرُوا، فَخَلْقُ السَّمَاواتِ والْأَرْضِ أكبَرُ مِنْ خَلْقِهِمْ.

وفِيها بَيَانُ أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ والْبَصِيرُ، ولَا يَسْتَوِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ولَا المسِيء.

وفيها بَيَانُ أَنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيها، وأَنَّ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ قال: ادْعُوني أَسْتَجِبْ لكم، وأَنَّهُ قال: إِنَّ الَّذِين يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبَادتِهِ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ صَاغِرِين.

وفيها امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ على عباده باللَّيْلِ والنَّهَارِ، وبَيَانُ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.

وفيها خطَابُ اللهِ النَّاسَ بأَنَّهُ خالِقُ كُلِّ شيءٍ، وأنّه لا إِلَه إِلَّا هو، فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ هٰذِهِ الحقيقة الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْن؟!. كذَلِكَ كَانَ يُصْرَفُ الجاحِدُونَ بآيات الله، فَيَكْفُرونَ، مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ سَلَفَتْ وفي كُلِّ عَصْرٍ من تاريخ الناس.

وفيها دَعْوَةٌ إلى التَّنْبيه عَلَىٰ بَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، والتَّذْكِيرِ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ وأسْمَائِهِ الحسْنَىٰ.

وخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هذا الدَّرْس بقَوله:

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾:

هذه الآيَةُ مَوْصُولَةٌ بالْخَطِّ الأَعْظَم الَّذِي سَارَتْ عَلَيْهِ وَحْدَةُ مَوْضوع السُّورَة، وهو مُعَالَجَةُ الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ بالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقَّ.

وَفي هـٰذه الآيَةِ بَيَانُ الْعِلَّةِ النَّفْسِيَّةِ الدّافِعَةِ إلى مُجادَلَةِ الْكَافِرِينَ الجاحِدِين، في آيات اللهِ الكَوْنِيَّة، والْجَزَائِيَّةِ، والإعْجَازِيَّة، والبيانيَّةِ المنزَّلَة، بالْبَاطِلِ، لِيُدْحِضُوا بِجدَالِهم بالْبَاطِلِ الْحَقَّ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ آياتُ اللهِ، هـٰذِهِ الْعِلَّةُ الْخَسِيسَةُ النَّجِسَةُ هِي الكِبْرُ الّذِي انْتَفَخ في صُدُورِهِمْ انْتِفَاخاً مُنْتِناً، فَأَوْهَمَهُمْ أَنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مَخْلُوقِينَ بقُدْرَةِ رَبٍّ خَالِقٍ، يُهَيْمِنُ عَلَيْهِمْ دَواماً بِصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ، فَلَا وُجُودَ لَهُمْ إِلَّا بإمْدَادِه، ولا رِزْقَ لَهُمْ، ولَا حَيَاة لَهُمْ، وَلَا شَيْءَ يَجْرِي فِيهِمْ مِمَّا يَسُرُّهُمْ وَمِمَّا يَسُوؤُهُمْ، إِلَّا بِخَلْقٍ مِنْهُ عَطَاءً أَوْ مَنْعاً، وضَرّاً أَوْ نَفْعاً.

وهـٰذا الْوَهْمُ الَّذِي سيْطَرَ عَلَىٰ مَدَارِكِهِمْ بِكِبْرِهِمْ، جَعَلَهُمْ كُلَّمَا

عُرِضَتْ عَلَيْهِمْ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ وعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، أو بَيَانٌ حَكِيمٌ مِنْ بياناته، جَادَلُوا بالباطِلِ لِرَفْضِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ اللهِ، وأَعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بها، واسْتَخْدمُوا مَا وَهَبَهُمُ اللهُ مِنْ ذَكَاءٍ في صِنَاعَةِ أدِلَّةٍ زُخْرُفِيَّة، وَحُجَجٍ وَهْمِيَّة، قَدْ يَغْتَرُّ بِهَا سُفَهَاءُ الْعُقُولِ، والْجَهَلَةُ الَّذِينَ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ، فَيَتَّبِعُونَهُمْ مُنْجَذِبِينَ إِلَيْهِم بِزِينَاتِ الْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ وزُخْرُفِ الحياة الدُّنيا.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يُخَاصِمُونَ في دَلَالَاتِ آيَاتِ اللهِ بالْبَاطِلِ، لِيُوهِمُوا أَنَّها غَيْرُ ذَاتِ دَلَالَةٍ عَلَىٰ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ حَقّاً، وَلِيُدَافِعُوا عَنْ آرَائِهِم وَمَذَاهِبِهِم الْبَاطِلَة، وَمَفْهُومَاتِهِم المناقِضَةِ والمضَادَّةِ لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آياتُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

- ﴿..بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ..﴾ أَيْ: بِغَيْرِ بُرْهَانٍ أَتَاهُمْ مِنْ مَقَايِيسَ عَقْلِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، أَوْ أَدِلَّةٍ حِسِّيَّةٍ أَوْ عِلْمِيَّةٍ صَحِيحَة، أَوْ خَبَرٍ عَنِ اللهِ صَادِق.

السُّلْطانُ: هُنَا الحجَّةُ والْبُرْهَان.

- ﴿..إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ..﴾ «إِنْ» حرف نفي بمعنى «ما». أي: مَا يُوجَدُ فِي صُدُورِهِمْ حَقِيقَةٌ عِلْمِيَّةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بها لِعَدَمِ قَبُولِهِمْ دَلَالَاتِ آياتِ اللهِ، مَا يُوجَدُ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مُنْتَفِخٌ، أَوْهَمَهُمْ أَنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مَخْلُوقِينَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَبِيداً مِنْ عِبَادِهِ، وأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به، وأَنْ يَسْلِمُوا وَأَنْ يَرْكَعُوا لَهُ وَيَسْجُدُوا، خاضِعِينَ مُتَضَرِّعِينَ ضُعَفَاءَ أَذِلَّاءَ.

إِنَّ اسْتِكْبَارَهُمْ أَوْهَمَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ مَكَانٍ رَفِيعٍ في هَـٰذا الْوُجود، وهـٰذا المكانُ العالِي لَيْسُوا في حَقِيقَةِ وَاقِعِهِمْ ببالِغِيه.

إِنَّهُمْ قَدْ يَتَوَهَّمُونَ أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ ذِرْوَةِ الْجَبَلِ، وَهُمْ في الحضيضِ. وقد يَتَوَهَّمُونَ أَنْفُسَهُمْ في السَّمَاءِ، وَهُمْ في بِئْرٍ عَمِيقٍ جداً مِنْ بَاطِنِ الْأَرض.

زيدَتِ الباء في: ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ لِلتَّوكيد.

وَأُطْلِقَتِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَى مَا تَحوِيهِ النُّفُوسُ مِنْ حَرَكَاتٍ ومُكْتَسَبَاتٍ إرادِيَّاتٍ فيها.

- ﴿.. فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾:

أيْ: فَادْعُ اللهَ أَيُّهَا المؤمِنُ الْمُتلقّي هـٰذا الْبَيَانَ الرَّبَّانِيَّ مُسْتَعِيذاً بِهِ مِنَ الكِبْر، وَمُسْتَعِيذاً بِهِ مِنَ التَّأَثُّرِ بِجدَلِيَّاتِ المسْتَكْبِرِينَ، وَزُخْرُفِ أقْوالِهِم الخادِعَة، فَهُوَ السَّمِيعُ لاسْتِعَاذَتِك بِهِ مَهْمَا كانَتْ خَافِتَة، وَالْبَصِيرُ بأحْوَالِ نَفْسِكَ حَتَّىٰ غَايَةِ عُمْقٍ فِيهَا، فَإِذَا وَجَدَكَ صَادِقاً فِي اسْتِعَاذَتِكَ، صَادِقاً في تَضَرُّعِكَ لِرَبِّكَ وَخُضُوعِكَ لَهُ وَذُلِّكَ لَهُ بِدَافِعٍ مِنْ إيمَانِكَ، أَعَاذَكَ وَصَانَكَ وَحَمَاكَ، وَنَصَرَكَ على المجَادِلِينَ في آيَاتِ اللهِ بالباطل.

وَأَرَىٰ أن يَقُولَ المسْتَعِيذُ: أعُوذُ باللهِ السّمِيعِ الْبَصِيرِ من الكِبْر ومِنَ التأثُّرِ بالمسْتَكْبِرِين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

إنّ دَاءَ الكِبْر في صُدُورِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، يَتَّجِهُ بِهِم اتِّجَاهاً مَادِّيّاً في الكِبَرِ، فَيَتَطَاوَلُونَ في السَّمَاءِ مُسْتَكْبِرِينَ، وَيَضْرِبُونَ الْأَرْضَ بِأَرْجُلِهِمْ مُتَعَاظِمِينَ، وَيُكَبِّرُونَ كَرَاسِيَهُمْ، وَمَرَاكِبَهُمْ، إِشْعَاراً بِأَنَّهُمْ كُبَرَاءُ أَعْظَمُ مِنْ نُظَرائِهِمْ مِنَ الْبَشَر، وَيَتَّخِذُ ذَوُو السُّلْطَانِ مِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ أَصْنَاماً عَظِيمَةً لِتَضْخِيمِ صُوَرِهِمْ في أَذْهَانِ جَمَاهِيرِ الْعَامَّة، فجاءَ عِلَاجُهُمْ في هـٰذِهِ الآيَةِ مُرَاعِياً أَوْهَامَهُمْ الَّتِي أَوْهَمَتْهُم أَنَّ أَجْسَامَهُمْ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَهُ، ويَعْبُدوهُ وَحْدَهُ، ويَرْكَعُوا وَيَسْجُدُوا أَذِلَّاءَ خَاضِعِينَ لَهُ، وَهَـٰذا مِنْ سَفَاهَتِهِمْ وَصِغَرِ

عُقُولِهِم، وجَهْلِهِمْ بأنَّ خَرِيطَةِ نُفُوسِهِمْ مَوْجُودَةٌ بِكَامِلِهَا فِي جُزْءٍ صَغِيرٍ فِي دَاخِلِ الْخَلِيَّةِ الْأُولَىٰ الَّتِي كَوَّنَهَا اللهُ في بَدْءِ خَلْقِ كُلِّ واحِدٍ مِنَ النَّاس، وَبَنَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ أَجْسَادَهُمْ عَلَيْهَا وَضِمْنَ صِفَاتِ مُخَطَّطِهَا.

هٰذا الانْحِطَاطُ الْفِكْرِيُّ لَدَيْهِمْ يُلائِمُهُ أَنْ يُقَالَ فِي مُعَالَجَتِهِمْ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وَمَعَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ فَهِيَ كُلُّها مُسَخَّرَةٌ لِلَّهِ، تَسِيرُ طَائِعَةً لِمَا يُجْرِي اللهُ فيها بأمْرِه. فَمَا لِلإنْسَانِ المسْتَكْبِرِ يَتَعَالَىٰ وَيَتَعَاظَمُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، وعبادَتِهِ بالرُّكُوعِ والسُّجُودِ والتَّذَلُّلِ لَهُ، ويُجَادِلُ فِي آيَاتِهِ دُونَ أَنْ تكُونَ لَدَيْهِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ يَعْتَذِرُ بِهَا عِنْدَ رَبِّه؛ وَكُلُّ ذَرَّةٍ فِيهِ وَاقِعَةٌ تَحْتَ تَصارِيفِ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، لَكِنْ مُنِحَتْ لَهُ حُرِّيَّةُ الإرَادَةِ لاخْتِبَارِهِ، فَاسْتَكْبَرَ، وَتَمَرَّدَ عَلَىٰ رَبِّهِ، فَكَفَرَ بِهِ، وَصَارَ يُجَادِلُ في آيَاتِ اللهِ بالباطل؟!.

هٰذا الْفَهْمُ يَنْسَجِمُ مَعَ خِطَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْتَكْبِرِ في سُورة (الإسْراء/ ٥٠):

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾:

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰذه الآيَةِ في مَوْضِعِها مِنْ سُورَة (الإسْراء).

فالمستَكْبِرُ يَشْعُرُ في نَفْسِهِ الْعَظَمَةَ الَّتِي تَنْحُو مَنْحَىٰ الاسْتِكْبَارِ الْجَسَدِيّ، فَحَقَّرَهُ اللهُ بأَنَّ الْجِبَالَ أَطْوَلُ مِنْهُ، وأَنَّ الْأَرْضَ أَصْلَبُ مِنْهُ.

وأبانَ هُنَا في سورة (غافِر) لِلْمُسْتَكْبِرِ الكافِرِ الجاحِد أَنَّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ فِي مِنْظَارِ الْكِبَرِ الْجَسَدِي المادِّيِّ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناسِ كُلِّهِم، فَلَا تَتَكَبَّرُوا أَيُّها الكافِرُونَ الجاحِدُون.

● ﴿.. وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾: أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَعْلَمُوا حَقَائِقَ الْأُمُور، الَّتِي تَقْتَضِي كَفَّهُمْ عن اتِّباع أَهْوَائِهِم وَشَهَوَاتِهِمُ الجانِحَةِ المتجاوزةِ حُدُودَ الْحَقِّ وصِراطِ اللهِ المستقيم، الَّذِي أَمَر

عِبَادَهُ أَنْ يَسْلُكُوهُ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، ومِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ الَّذِين يُجَادِلُونَ في آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، مَنْ دَافِعُهُمْ إلَىٰ الجدالِ بالْبَاطِلِ مَا في صُدُورِهِمْ مِنْ كِبْرٍ مَا هُمْ بِبَالِغِيه.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾:

جاء في هٰذِهِ الآيَةِ نفي التَّسَاوِي بَيْنَ الْأَعْمَىٰ والْبَصِير، بِمَثَابَةِ شاهِدٍ علَىٰ أَنَّهُ لَا تَصِحُّ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْجَاهِلِ الَّذِي ساقهُ الْجَهْلُ إِلَىٰ الكُفْر، وبَيْنَ الْعَالِمِ الّذِي هَدَاهُ عِلْمُهُ إلىٰ الإِيمان.

فالْجَاهِلُ كالأَعْمَىٰ، والْعَالِمُ كالْبَصِير.

وجاء فيها نَفْيُ التَّسَاوي بَيْنَ أَفْرَادِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات، ونَفْيُ التَّسَاوِي بَيْنَ أَفْرَادِ جِنْسِ الْمُسِيء، فَكُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أفرادُهُمَا مُتَفَاضِلُو المسْتَوَيَاتِ، وَيَلْزَمُ مِنْ هٰذا عَقْلاً نَفْيُ التَّسَاوِي بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ.

وجاء في الْعِبَارَة الثَّانِيَةِ مِنَ الآيَةِ تَكْرِيرُ حَرْف النَّفْي «لَا» إِشَارَةً إلى التفاضُلِ والتَّفَاوُتِ بَيْنَ أَفْرَادِ الَّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وبَيْنَ أفرادِ جِنْسِ الْمُسِيء، وظاهِرٌ مَا فِي هٰذا الاختيارِ الْبَيَانِيّ مِنْ إيجازٍ بَدِيع.

ويَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ التَّسَاوِي بَيْنَ الْأَعْمَىٰ والْبَصِيرِ، المشْبِهَانِ الْجَاهِلَ الكافِرَ، والعالِمَ المؤمِنَ، أَنْ لَا يَجْعَلَ اللهُ العليمُ الحكِيمُ الْكَافِرَ والمؤمِنَ مُتَسَاوِيَيْنِ مَحْيَاهُمَا وَمَمَاتُهما، بل لا بُدَّ أَنْ يُعَاقِبَ الكافِرَ علىٰ كُفْرِه، وَلَا بُدَّ أَنْ يُثِيبَ المؤمِنَ عَلَىٰ إيمانه.

ولَا بدَّ أَنْ يُثِيبَ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفرادِ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً، بِحَسَبِ دَرَجَتِهِ في مُكْتَسَبَاتِهِ الإرادِيَّةِ من الإيمان والْعَمَلِ الصالح.

أمّا المسيئُونَ فَيسْتَحِقُّونَ الْعِقَابَ بِحَسَبِ دركَةِ كُلّ واحِدٍ مِنْهُمْ في مُكْتَسَباتِهِ الإرَادِيَّةِ مِنَ الْمَعَاصِي والذُّنُوبِ والجرائم.

- ﴿. . قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ وفي القراءة الأخرى: **[قَلِيلاً مَا يَتذَكَّرُونَ]** ۝٥٨.

وبين الخطاب والحديث عن الغائبين تكامُلٌ في الأداءِ البياني.

أي: تَذكُّراً قليلاً تَتذَكَّرُونَ أيها المتَلَقُّونَ، وَتَذَكُّراً قليلاً يَتذَكَّرُ الّذِين لَا يُهِمُّهُمْ أَنْ يَتلَقَوْا بيانات رَبّهم.

لفظ «قليلاً» صِفَة لِمَفْعولٍ مُطْلَقٍ مَحْذُوفٍ مُقَدَّمٍ عَلَى فِعْلِه، ولفظ «مَا» إبْهَامِيَّةٌ لِتَوْكِيد الْقِلَّة.

والمرادُ بالتَّذَكُّرِ الْأثَرُ النَّفْسِيُّ والسُّلُوكِيُّ الَّذِي يُثِيرُهُ أَوْ يُحْدِثُهُ التَّذَكُّرُ لِقَضِيَّةٍ ما مِنْ قَضايا المعْرِفَة، والمرَادُ بالمعْرِفَةِ هُنَا المعرفَةُ الدِّينيَّةُ الّتِي أَوْحَىٰ اللهُ بِهَا إِلَىٰ رَسُولِه.

وَقَدْ تَكَرَّرَ هـٰذا التعْبير في القرآن المجيد، في الآية (٣) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) وفي الآية (٥٨) من سُورَة (غافر/ ٦٠ نزول) وفي الآية (٤٢) من سورة (الحاقَّة/ ٧٨ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾:

أي: إنَّ سَاعَةَ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ وَقيامِ النَّاسِ مِنَ الأجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ لَسَاعَةٌ آتيةٌ، جَاء توكِيدُ الجمْلَةِ بـ«إنّ ـ والجملة الاسمية ـ ولَام الابتداء المزحْلَقَةُ إِلَىٰ الْخَبَرِ» لِأَنَّ الخبرَ مُوجَّهٌ للشَّاكّين أو المنكرين.

- ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: أي: لَيْسَ الْإِخْبَارُ بِهَا إخْبَاراً على سَبِيلِ الاحْتِمَالِ الّذِي يُظَنُّ مَعَهُ الوقُوعُ، مع احْتِمَالِ عَدَمِ الوقوعِ، بَلِ الإخْبَارُ بِهَا أَمْرٌ

مَقْطُوعٌ بِهِ؛ لِأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ خُطَّةِ التكْوينِ الرَّبَّانية الَّتِي تَمَّ بَها تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ المبْرَم.

وَلَا شَكَّ في إتْيَانِهَا لَدَىٰ المؤمِنِينَ أُولي الْأَلْبَاب الَّذِينَ يَنْظُرُونَ ويَتَفَكَّرُونَ في حِكْمَةِ اللهِ، وعِلْمِهِ المحيطِ بِكُلِّ شيء، وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ ويَخْتَار، وَيَرَوْنَ أَحْوَالَ النَّاسِ الّذِينَ يُوجَدُ فيهم المؤمِنُ والْكَافِرُ، والتّقِيُّ والْفَاجِرُ، والظَّالِمُ والمظْلُومُ، والْمُحْسِنُ والْمُسِيءُ، دُونَ أَنْ يَنَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ في الحياة الدُّنْيا جَزَاءَه، وهـٰذا يَدُلُّهُمْ عَقْلاً على أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَضَعَ فِي خُطَّةِ التكوينِ حَيَاةً أُخْرَى يكُونُ فيها الجزاء، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَلَقَ النَّاسَ بهـٰذا الوضْعِ الَّذِي هـمْ فِيهِ عَبَثاً، فالْبَعْثُ لحياة أُخْرىٰ يَتَحقَّقُ فيها الْعَدْلُ والْفَضْلُ أَمْرٌ لَا رَيْبَ فِيهِ.

● ﴿.. وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾: أي: ولَـكِـنَّ أَكْـثَـرَ النَّاسِ لَا يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يُؤْمِنُوا بالْحَقِّ الْعَاجِلِ والْآجِلِ، لِأَنَّهُمْ سَلَّمُوا إِرَادَاتِهِمْ لِأَهْوائِهِم، وَشَهَوَاتِهِمْ، وَمَطَالِبِ نُفُوسِهِمْ الْجَانِحَة، الْمُجَافِيَة لِصِرَاطِ اللهِ المستقيم، وَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَهُنْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْتَازُوا عَقَبَاتِ نُفُوسِهِمْ وَلَا أَنْ يَقْتَحِمُوهَا طَمعاً بالثَّوابِ الآجِلِ عِنْدَ الله جَلَّ جَلَالُه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾:

أي: واسْمَعُوا يا أَيُّها النَّاسُ مَا قَالَ رَبُّكُمْ، قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ أي: إِذَا أَرَدْتُم دَلِيلاً يُثْبِتُ لَكُمْ أَنِّي مَوْجُودٌ حَقٌّ غَائِبٌ عَنْ حَوَاسِّكُم، فادْعُونِي صَادِقِين فِي عِبادَتي بالدُّعَاء، وَلَا تُشْرِكُوا بِي أحداً، أَسْتَجِبْ لَكُمْ، ضِمْنَ حُدُودِ الأدْعِيَةِ الَّتِي يَدْعُو بِهَا الدَّاعُونَ آلِهَتَهُمْ، أَمَّا آلِهَتُكُمْ فإنَّهَا لَا تَسْتَجِيبُ لَكُمْ بِشَيْءٍ، فَمَا كَانَ لَهُ وجُودٌ مِنْهَا فَهُو عَاجِزٌ عن إجابَتِكُم

غَيْرُ مُمكَّنٍ مِنها، وَمَا لَيسَ لَهُ وُجُودٌ مِنْها، فَأَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها صَنعَتْهَا أَوْهامُكُم.

ولَا يُوجَدُ مَانِعٌ يَمْنَعُ إِنْسَاناً مَا مِنْ عِبادة رَبِّهِ بالدُّعَاءِ وهو أَهْوَنُ الْعِبَادَات، وأَقْرَبُها نَفْعاً لِلْعَابِد، إِلَّا الاسْتِكْبَارُ علَىٰ الرَّبِّ الْمُمِدِّ لَهُ دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِعِبادِه، وَهٰذا الْمُسْتَكْبِرُ الْجَاحِدُ لِرَبِّهِ يَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ في جَهَنَّمَ ذَلِيلاً حَقِيراً صَاغراً.

- ﴿.. إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

- ﴿دَاخِرِينَ﴾: أي: أَذِلَّاء، صَاغِرِينَ، خَاضِعِينَ، جَزَاءَ اسْتِكْبَارِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

- ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾: أي: يَغْلُونَ فِي كِبْرِهِمْ، مُتَرفِعِينَ مُمْتَنِعِينَ عَنْ عِبَادَتِي، وأَنَا رَبُّهُمُ الْمُمِدُّ لَهُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِي.

- ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾: أي: سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ يَوْم الْقِيَامَةِ أَذِلَّاءَ صَاغِرِين خَاضِعِين، جزاء اسْتِكْبَارِهم.

اسْتُعْمِلَت «السِّينُ» الّتي تُسْتَعْمَلُ غَالِباً للمسْتَقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيد، نَظَراً إِلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ بِطُولِ الزَّمَنِ مَهْمَا طَالَ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْث، الَّذِي يَتْبَعُهُ حِسَابُهُمْ والقضاءُ عَلَيْهِمْ وإِدْخَالُهُمْ جهَنَّمَ؛ لِأَنَّهُمْ حِينَ يُبْعَثُونَ لَا يَشْعُرونَ أَنَّهُمْ لَبِثُوا بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وهُوَ مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِقَوْلِهِ في سُورَة (الْأَحْقَاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

- ﴿.. كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

جهنم: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاء دار الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُمْتَنّاً على النَّاس بِنِعْمَتَي اللَّيْلِ والنَّهارِ:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾:

سبَقَ أَنْ أنْزَل اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بشَأْنِ نِعْمَتَي اللَّيْلِ والنَّهارِ علَىٰ الناس نَصَّيْن:

الأول: قولُ اللهِ تَعالَىٰ في سورة (النمل/ ٤٨ نزول):

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

الثاني: قولُ اللهِ تَعالَىٰ في سورة (الْقَصص/ ٤٩ نزول):

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وَبَيْنَ هٰذِهِ النُّصُوصِ الثَّلَاثَةِ تَكامُلٌ.

ففي آيَة (النَّمْلِ) حَثٌّ عَلَىٰ النظر الْفِكْرِيّ، لِيَرَىٰ النَّاسُ مَا في اللَّيْلِ والنَّهارِ مِنْ آياتٍ، دَالَّاتٍ عَلَىٰ شُمُولِ عِلْم الله وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، ومِنَّتِهِ عَلَىٰ عبادِهِ، بِاللَّيْلِ لِيَسْكُنُوا فِيهِ، وبِالنَّهارِ لِيَعْمَلُوا فِيه إذِ الضَّوْءُ مُنْتَشِرٌ علَىٰ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْها، ويَنْتَفِعُ من دَلَالَاتِ هٰذه الآياتِ من لديهم الاستعدادُ لأنْ يُؤْمِنُوا وفيها تَلْوِيمٌ لِمَنْ رَأىٰ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ عِلْمِهِ.

وكلٌّ مِنَ الْحثِّ والتَّلْويم قد دَلَّ عَلَيْهِ الاسْتِفْهام في: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾؟

وفي آيَة سورة (القصص) بَيَانُ رَحْمَةِ اللهِ وَمِنَّتِهِ على عباده باللَّيْلِ والنَّهار، مَعَ بَيَانِ الرَّغْبَةِ فِي أَنْ يَشْكُرُوا نِعْمَةَ الله عليهم.

وفي آية سورة (غافر) التَّنْبِيهُ الشّدِيدُ علَىٰ مِنَّةِ اللهِ على النَّاسِ باللَّيلِ والنَّهار، مَعَ بَيَانِ أنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُون.

إنَّ التَّدْبير الرَّبَّانِيَّ الذي جعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ في الْأَرْضِ لَيلاً ونَهاراً

مُتعَاقِبَيْن، لِيَسْكُنَ النَّاسُ في اللَّيلِ، ولِيَعْمَلُوا في النَّهَارِ نَشِيطِينَ يُبْصِرُونَ أَمَاكِنَ أعْمَالِهِمْ، والأَشْيَاءَ الَّتِي يَعْمَلُونَها أو يَعْمَلُونَ فيها، والْأَدَوَاتِ الَّتِي يَعْمَلُونَ بها، هو مِن نِعْمَةِ اللهِ على الناس، ومِنْ عِنَايَتِهِ بِهِمْ، فالْوَاجِبُ الْعَقْلِيُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا نِعَمَهُ الَّتِي أَفَاضَ عَلَيْهم، والَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَها لَوْ أرَادُوا أَنْ يَعُدُّوها، وهِيَ في نُفُوسِهِمْ وَفِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِمْ.

- ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾: أي: وَجعَلَ النَّهَارَ بِضَوْئِهِ كاشِفاً لَهُمُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يُرِيدُونَ إِبْصَارَهَا بأَعْيُنِهِمْ، فَهُو بِضَوْئِهِ يَجْعَلُهُمْ يُبْصِرُونَ.

وَلَدَىٰ تَدبُّر آيَة سُورَة (النمل/ ٤٨ نزول) تَظْهَرُ بَيَانَاتٌ أَوْسَعُ، فَمِنَ الْخَيْرِ لِلْقَارِئِ أَنْ يُطَالِعَ مَا جَاءَ في تَدَبُّرِ آيَة (النمل) وكذلك في آيَةِ سورة (القصص/ ٤٩ نزول):

- ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١)﴾:

أي: إنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ وَوَسِعَتْ رَحْمَتُهُ لَذُو فَضْلٍ على النَّاسِ بِمِنَنِهِ الكَثِيرَة وَنِعَمِهِ الْوَفِيرَة، والواجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَىٰ مَا تَفضَّلَ بِهِ عَلَيْهِم، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ رَبَّهُمْ أَدْنَىٰ دَرَجاتِ الشُّكْرِ بِالْإيمانِ والإسْلَام وَبَعْضِ الْأَعْمَالِ الصَّالحاتِ، بَلْ يَكْفُرُونَ وَيُشْرِكُونَ بِهِ، أَوْ يَجْحَدُونَ وُجُودَهُ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ بِرُبُوبِيّتِهِ، أَوْ بوحدانِيَّتِهِ فِي إِلَٰهِيَّتِه، وَهَٰذا مَا يَكْشِفُهُ إِحْصَاءُ المجْمُوعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ في كُلِّ الشُّعُوب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣)﴾:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: أي: ذَلِكُمُ الْعَظِيمُ الْجلِيلُ الَّذِي جعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيه، والنَّهَارَ مُبْصِراً، وَالَّذِي هُوَ ذُو فَضلٍ عَلَىٰ النَّاسِ، هُوَ

رَبُّكُمُ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُم بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، والْمُمِدُّ لَكُمْ دَواماً بِعَطَايَاه، وَلَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ، فَلَا إِلَهَ سِوَاه.

- ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىۡءٍ﴾: أي: وهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ في السَّمَاوَاتِ وفي الْأَرْضِ وفي الْأَنْفُسِ، مِنْ أَصْغَرِ أجْزَاءِ الذَّرَّاتِ، إِلَىٰ أكْبَرِ وأعْظَمِ الكائِنَاتِ من المجرَّات فَمَا فَوْقَها، حَتَّىٰ حَرَكاتِ كُلِّ ذِي حَرَكَةٍ فيها.

فَمَا مِنْ شَيْءٍ في الْوُجُودِ يَكُونُ إِلَّا هُوَ يَخْلُقُهُ، والْأَحْدَاثُ المتَجَدِّدَةُ هُوَ يَخْلُقُها، فَلَا رَبَّ فِي الوجُودِ كُلِّهِ إلَّا هو.

- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: وبِمَا أَنَّهُ لَا رَبَّ في الوجود إلَّا هو فَلَا إِلَهَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إلَّا هو.

- ﴿.. فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ يَا مَنْ لَا تُؤْمِنُونَ باللهِ وَبِأَنَّهُ واحِدٌ فِي رُبُوبيَّتِهِ وَوَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ، عَنْ هَٰذِهِ الحقائِقِ الْجَلِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الآيَاتُ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ، في السَّمَاوَاتِ، وفي الْأَنْفُسِ، مَعَ الآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ المنَزَّلَاتِ مِنْ لَدُنْهُ، الْمُعَلِّمَاتِ والْمُنَبِّهَاتِ، الدَّلَّاتِ عَلَىٰ هَٰذِهِ الحقائِقِ.

أَصْلُ الإفْكِ: صَرْفُ الشيءِ عَنْ وَجْهِهِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْه.

- ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: كَذَلِكَ الْإفْكِ الْخَسِيسِ الدَّنِيءِ الذي تُؤْفَكُونَهُ، كَانَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بآيَاتِ اللهِ يَجحَدُونَ، مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، فَنَالُوا بِجُحُودِهم مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذَابٍ وإِهْلَاكٍ، ثُمَّ يَنَالُونَ خُلُوداً فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَة.

الْجُحُودُ: إِنْكَارُ الْحَقِّ مَعَ العلم به، يُقَالُ لُغة: «جَحَدَ الْحَقَّ، يَجْحَدُهُ، جَحْداً، وَجُحُوداً» ويقال: «جَحَدَهُ حَقَّهُ» و«جَحَدَهُ بِحَقِّهِ».

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

في هـٰذه الآيَةِ مُتَابعَةٌ لِبَيَانِ بَعْضِ مِنَنِ اللهِ ونِعَمِهِ علىٰ الناس، ويُخَاطِبُ اللهُ النَّاسَ بِتَنْبيهِهِمْ عَلَيْها، وقَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ بَيَانِ أرْبَعٍ مِنْها:

الْمِنَّةُ الأُولى: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ جَعَلَ لِلنَّاسِ الأَرْضَ قراراً، أي: مَكاناً صَالِحاً للاسْتِقْرار عَلَيْهِ.

الْقَرَارُ: مَصْدَرُ «قَرَّ» بمَعْنَىٰ أقام، وبمَعْنَىٰ سَكَنَ واطْمَأَنَّ.

فلَوْ كَانَ جعَلَها ثَائِرَةً مُضْطرِبَةً كأمْوَاجِ الْبِحَارِ الثائِرَة، لمَا كَانَتْ صالِحَةً للاسْتِقْرار عَلَيْها، والسُّكُونِ والاطْمِئْنَانِ والإقَامَةِ الدَّائمة.

المنَّةُ الثانية: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ جَعَلَ السَّماءَ بِنَاءً، أيْ: ذَاتَ أجْزَاءٍ مُتَرَابِطَةٍ مُتَمَاسِكَةٍ يَمْنَعُ هـٰذِهِ الأَجْزَاءَ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ نِظَامِهَا خُرُوجاً مُفْسِداً لِوَحْدَةِ نِظَام الكَوْنِ، الَّذِي لَوْ حَدَثَ لَتَسَاقَطَ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، ولَصَارَتِ الأَرْضُ هَبَاءً مَنْثُوراً.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ بِنَاءَ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ بِحَسَبِهِ، فبناء الذَّرةِ لَهُ نظام، وبناءُ الْخَلِيَّةِ لَهُ نظام، وبِنَاءُ الآلَةِ كالطَّائِرَةِ والسَّفِينَةِ الْبَحْرِيَّةِ لَهُ نِظَام، وبناءُ الْقُصُورِ لَهُ نِظَامٌ، وبِناءُ النُّجُومِ والكواكِبِ لَهُ نظام.

فَلَيْسَ مِنَ الفكرِ السَّلِيمِ أَنْ نَقِيسَ بناءَ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ بِنَاءِ المَسَاكِنِ والْبُيُوتِ والْقُصُورِ في الأَرْضِ، إذْ لِكُلِّ ذي أجْزَاءٍ مُتَمَاسِكَةٍ مُترابِطَةٍ بِنَاءٌ يُلاَئِمُه.

المنَّة الثالِثَة: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ صَوَّرَ النَّاسَ فَأَحْسَنَ

صُوَرِهم، وَهَـٰذِهِ المنَّةُ مُشَاهَدَةٌ لِكُلِّ ذِي بَصَرٍ وَفِكْرٍ، فَالإِنْسَانُ أَحْسَنُ صُورَةً مِنْ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ لَهُ صُورَةٌ مَا، كما هُوَ مُشَاهِد.

المنَّة الرابعة: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَتْ مِنَنُهُ ـ هو الّذي يَرْزُقُ النَّاسَ مَا يَحْتَاجُونَ لَهُ فِي حَيَواتِهِم، وَهَـٰذِهِ ظاهِرَةٌ مَشْهُودَةٌ للنَّاسِ في كلّ بِلَادِ الدُّنيا، إِذْ هَيَّأَ لَهُمْ وَسَائِلَ أَرْزَاقهم، في السَّمَاءِ والأَرْض.

وبَعْدَ خِطَابِ اللهِ تَعالَىٰ مُذَكِّراً بِمِنَنِهِ عَلَيْهِمْ بالمنَن الأَرْبَعِ التي سبقَ بيانُها، قَالَ لَهُمْ فِي خِطابٍ مُبَاشِرٍ لهم:

- ﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: ذَلِكُمْ أيُّها النَّاسُ العظيم الجليلُ ذُو المِنَنِ التي تَفَضَّلَ بها عَلَيْكُمْ، هُوَ رَبُّكُمْ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُم بِصِفَاتِ رُبُوبيّته، وَالْمُمِدُّ لَكُمْ دَواماً بِمِنَنِهِ وَهِبَاتِهِ وَعَطَاياه.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: أي: فتنامَىٰ وَتَزايَدَ وَتَعاظَمُ بالإِطْلَاقِ العامّ فَوْق كُلِّ مَا يَصِفُهُ الواصِفُونَ من كَمالَاتٍ، اللهُ رَبُّ الْعَالَمِين.

الْعَالَمُونَ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «الْعَالَم» ولفظ «العالَم» يُطْلَقُ علَىٰ كُلِّ مَوْجُودٍ سوى اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وهُوَ مَأْخُوذٌ من الْعَلَمِ والْعَلَامَة، بمَعْنَىٰ الشَّيْءِ الَّذِي يُوضَعُ ليكونَ دَالاً عَلَىٰ شيءٍ آخر.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ في خِتَامِ هَـٰذا الدَّرْس:

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

- ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾: أي: هُو وَحْدَهُ الْحَيُّ دَواماً مِنَ الأَزَلِ إلىٰ الأَبَدِ، فَلا يَمُوتُ بِخِلَافِ سَائِرِ الأَحْيَاءِ فإِنَّهُمْ يَمُوتُون.

- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لَا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ سِوَاهُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبُّ الَّذِي لَا رَبَّ سِوَاهُ.

- ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾: أي: فَاعْبُدوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ والطَّاعَة، ومِنْ عِبادَتِهِ أَنْ تَسْأَلُوهُ دَاعِينَ لِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ وآخِرتِكُمْ.

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: الثَّنَاءُ كُلُّهُ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ الْعِلْمُ هُوَ مُسْتَحَقٌّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه.

بهٰذا تَمَّ تَدبُّر الدَّرْسِ العاشر من دُروس سورة (غافر). والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٦٦ ـ ٦٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

القراءات:

(٦٧) • قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكْوَان، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي: [**شِيُوخاً**] بِكَسْرِ الشين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**شُيوخا**﴾ بضَمّ الشّين.

والقراءتَان لُغتَان عَربيّتَان.

(٦٨) ● قرأ ابْنُ عَامر: [**كُنْ فيَكُونَ**] بنصب فعل «يكون» بأنْ مُضْمَرَة، على أنَّ الفاء سببيَّة.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَة: ﴿**كن فَيَكُوْنُ**﴾ برَفع فعل «يكون» على أنّ الفاء عَاطفة غَيْرُ سَببيَّة، أي: فهو يكون.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرس تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِه ﷺ مَا يَقُولُهُ للنَّاسِ في هـٰذِهِ المرحَلَةِ مِنْ مَسِيرتِهِ الدَّعوِيّةِ في مَكَّةَ المكرَّمة.

التدبّر التّحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

● ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ مُتَابَعَةٌ تَكْمِيلِيَّةٌ لِمَا جَاءَ في الآيَة (٦٤) مِنْ سُورَةِ (الزُّمَر/ ٥٩ نزول) وهِيَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فيها لِرَسُوله:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هـٰذه الآيَةِ في مَوْضِعِهَا، وفيها تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَسْتَنْكِرَ بِشِدَّةٍ دَعْوَةَ أئِمَّةِ المشْرِكِينَ لَهُ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ، وأَنْ يَفْتَحَ مَعَهُمْ بَابَ المجادَلَةِ في آلِهَتِهِمُ الباطِلَةِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ جَاهِلُونَ في بَابِ الْمَعْرِفَةِ، وجَاهِلُونَ جُفَاةٌ سُفَهَاءُ في بَابِ التَّعَامُلِ مَعَ دُعَاةِ الْحَقِّ والخير والْهُدَىٰ.

وجَاءَت آيَةُ سُورَةِ (غَافِر) فيها تَعْلِيمٌ لِلرَّسُولِ مُضَافٌ إلى مَا جَاءَ في آية سُورَة (الزُّمر/٥٩ نزول).

فعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أنْ يَقُولَ لَهُمْ عِدَّةَ مَقَالَاتٍ وفي هٰذِهِ الآيَةِ مِنْها مَقَالَتَان:

المقالَةُ الأُولَىٰ: مَا تَضَمَّنَهُ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي ..﴾:

أي: قُلْ لِلَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَىٰ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَلِلنَّاسِ جَمِيعاً: إنَّ رَبِّي نَهَانِي أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ آلِهَةً تَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ الله، حِينَ جَاءَنِي الْوَحْيُ بِالْبَيِّنَاتِ الْوَاضِحَاتِ من رَبِّي الَّذِي هُو رَبُّ الْعَالَمِين.

أي: حِينَ جَاءَنِي هٰـذا الْوَحْيُ نُهِيتُ بِنَهْيٍ مِنْ رَبِّي أَنْ أَعْبُدَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فأَنَا مُنْذُ بَدْءِ رِسَالَتِي كَانَ هٰـذا النَّهْيُ مُوَجَّهاً لِي، قَبْلَ أَنْ أُطَالِبَ المشْرِكِينَ بِنَبْذِ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ مِنْ دُونِ الله.

﴿تَدْعُونَ﴾: أي: تَعْبُدونَ، ومن الْعِبَادَةِ وأوَّلِ صُوَرِها الدُّعَاءُ بسُؤَالِ اللهِ مَا يَطْلُبُ الدَّاعي من رَبِّهِ.

«لَمَّا» هُنَا ظَرْفٌ لِحَدَثٍ مضَىٰ، وَجَوَابُها في الآيَةِ دَلَّ عَلَيْهِ البيانُ الَّذِي جَاءَ قَبْلَا في الآيَة، أي: لَمَّا جَاءني البينات من ربي نهيت أن أَعْبُدَ ما تعبدون من دون الله.

المقالَةُ الثانية: مَا تَضَمَّنَهُ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٦﴾:

أي: وَقُلْ أيضاً: إنَّ اللهَ أمَرَني أَنْ أُسْلِمَ لَهُ، إذْ هُوَ رَبِّي وَرَبُّ جَمِيعِ الْعَالَمِين، بإعْلَانِ انْقِيَادِي وطَاعَتِي لِأَوَامِرِه ونَوَاهِيهِ، وبتَحْقِيقِ انْقِيَادِي وطَاعَتِي لَهُ فِي كُلِّ أَعْمَالِي الإرادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَة، الْجَسَدِيَّةِ والنفْسِيَّة.

الإسلام: هو الانْقِيادُ والطَّاعة، وأوَّلُهُ يَكُونُ بالإعْلانِ الْقَوْلِي، وبَعْدَهُ يَكُونُ بالتَّطْبِيقَاتِ الْعَمَلِيَّةِ فِي حَرَكاتِ الحياةِ الإرادِيَّة.

رَبُّ العالَمِين: هُو اللهُ الْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ مَا سِوَاهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه وسَمَتْ حِكْمَتُه.

هـٰذا التَّكْلِيفُ الَّذِي جاء في هـٰذه الآية لِلرَّسُولِ ﷺ، يَتَضَمَّنُ بَيَانَ أنَّ الرَّسُولَ أَوَّلُ الْمُطَالَبِينَ مِنْ أُمَّتِهِ باجْتِنَابِ عِبادَةِ غَيْرِ الله، وأَوَّلُ المطالَبِين بالإسْلَامِ لَه مِنْهم.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيمَ رَسُولِهِ بَيَاناً دَعوِيّاً:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾:

يُعَلِّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ، فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ، أنْ يَجْعَلَ مِنْ ضِمْنِ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ بَيَانَ مَا يَتَعَلَّقُ بمراحِلِ خَلْقِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أفراد النَّاسِ من بَعْدِ آدمَ وَحَوَّاء، حَتَّى إنْهاءِ رِحْلَةِ الحياةِ الدُّنيا، وَبَيَانَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الخالِقُ لِكُلِّ ذَلِكَ وأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُو الَّذي يُحْيِي ويُميتُ.

إنَّ عَمَلِيَّاتِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ التطويريَّةِ مُسايرَةٌ لِأَصْغَرِ الوحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ، الَّتِي تُجزَّأ بِهَا الثَّانِيَةُ إِلىٰ مِلْيَارَات الْأَجْزاءِ بِحِسَابِ سُرْعَةِ الضَّوْءِ.

إلَّا أنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ ذَكَرَ في التعليم أطْواراً بَارِزَةً مِنْ خَلْقِ النَّاس، وَهِيَ تَدُلُّ أَهْلَ الْعَقْلِ وَأَهْلَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ عَلَىٰ الْأَطْوَارِ الكثيرَةِ جدّاً الَّتِي تَحْدُثُ بَيْنَها.

الطَّوْرُ البارِزُ الأوَل: خَلْقُ الإنْسَانِ مِنْ تُراب، وهـٰذا الطَّوْرُ يُدْرِكُهُ النَّاسُ مِنَ الأَغْذِيَةِ الَّتي يُعْتَبَرُ التُّرَابُ مَادَّتَها الْعُظْمَىٰ، مَعَ الماء والضَّوْءِ، فَيَتَحَوَّلُ التُّرَابُ نَبَاتاً، فَيأْكُلُهُ الحَيَوانُ والإنسان، فَيَتَحَوَّلُ لَحْماً وَدَماً، وَمِنَ الدَّمِ تَكُونُ نُطَفُ المنيّ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ بَدْءُ خَلْقِ الإنْسَان.

الطَّوْرُ البارِزُ الثاني: طَوْرُ النُّطْفَةِ، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذا الطَّوْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهِيَ نُطْفَةُ المنِيِّ الَّذِي يَتَكَوَّنُ الجنِينُ مِنْ حُوَينٍ هو واحِدٌ مِنْ مِئَاتِ الملايِينِ أمْثَالِهِ فِي الدَّفْقَةِ الواحِدَة، بِحَسَبِ مُقَرَّرَاتِ عُلَمَاءِ الأَحْيَاءِ، حِينَ التِقَائِهِ بالْبُيَيْضَة الَّتِي تَهْبِطُ مِنْ مِبْيَضِ الأُنْثَىٰ.

النُّطْفَةُ: هي فِي اللُّغَةِ الْقَلِيلُ مِنَ الماء.

وَجَاء الْعَطْفُ بحرف الْعَطْفِ «ثُمَّ» لِأَنَّ طَوْرَ النُّطْفَةِ يَكُونُ بَعْدَ أَطْوَارٍ كَثِيرَةٍ لَا يُدْرِكُ مِقْدَارَهَا الْعِلْمُ الإنْسَانِيُّ مَهْمَا بَلَغَتْ وَسَائِله.

الطَّوْرُ البارز الثالث: طوْرَ الْعَلَقَةِ، وهِي قِطْعَةٌ مِنَ الدَّمِ الْغَلِيظِ المتماسِكِ الَّتِي يَتَطَوَّرُ إِلَيْها الْجنِينُ بَعْدَ انْدِمَاجِ حُوَيْنِ الذَّكَرِ بنَوَاةِ بُيُيْضَةِ الأُنْثى، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذا الطَّوْر بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: وَقَدْ جَاءَ الْعَطْفُ بِحَرْف الْعَطْف «ثُمَّ» لِأَنَّ طَوْرَ الْعَلَقَةِ يَكُونُ بَعْدَ أَطْوَارٍ كَثِيرَةٍ لَا يُدْرِكُ مِقْدَارَهَا الْعِلْمُ الإنْسَاني مَهْمَا بَلَغتْ وَسَائِله.

الطَّوْرُ البارزُ الرَّابع: طَوْرُ خُرُوج الْجَنِينِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ طِفْلاً.

الطِّفْل: الْمَوْلُودُ الْحَدِيثُ الْوِلَادَة، يَسْتَوِي فِيهِ المذكّر والمؤنَّثُ والجمع، وقَدْ يُجْمَعُ ويُثَنَّىٰ ويُؤَنَّث.

وقد ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذا الطَّورَ بقولِهِ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

وَجَاءَ الْعَطْفُ بِحَرْفِ العطف «ثُمَّ» لِأَنَّ طَوْرَ خُرُوج الجنين من بَطْنِ أُمِّهِ طِفْلاً، يَكُونُ بَعْدَ أطْوارٍ كَثِيرَةٍ لَا يُدْرِكُ مقْدَارَهَا الْعِلْمُ الإنْسَانِيُّ مَهْمَا بَلَغَتْ وَسَائِلُه.

الطَّوْرُ البارز الخامس: طَوْرُ بُلُوغ الإنْسَانِ أَشُدَّهُ، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذا الطَّوْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾: أي: ثُمَّ قَدْ يُبْقِيكُم اللهُ أَحْيَاءَ تَتَنَامَوْنَ بِخَلْقِهِ لِتَبْلُغُوا طَوْرَ اكْتِمَالِ نُمُوِّكُمْ الإنسانيّ.

أَشَدُّ كُلّ شَيْءٍ: اكْتِمَالُ تَنَامِيهِ بِحَسَبِ صِفَاتِهِ القابِلَةِ للاكْتمالِ، والاكْتِمالُ في النُمُوِّ الْبَشَرِيّ، يَتَنَاوَلُ مُخْتَلِفَ الْقُوَىٰ والصِّفَاتِ الْجَسَدِيَّةِ والْفِكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، علىٰ وَفْقِ الْهِبَاتِ الْفِطْرِيَّةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ كُلَّ نَفْسٍ عَلَيْها.

الطَّوْرُ البارِزُ السَّادِس: طَوْرُ بُلُوغ الإنْسانِ مَرْحَلَةَ الشَّيْخُوخَة، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذا الطَّوْر بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ﴾.

شُيوخ: جمع «شَيْخ» وَهُوَ مَنْ بَلَغَ سِنَّ الْخَمْسِينَ فَمَا فَوْق حَتَّىٰ مَرْحَلَةِ «الْهَرَم» وتُقَدَّرُ غَايَةُ الشَّيْخُوخَةِ بِسِنِّ الثمانين.

الْهَرِمُ: هُوَ الشَّيْخُ الَّذِي بَلَغَ أقْصَىٰ الْكِبَرِ، فَصَارَ عَاجزاً عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَرَكَاتِ الشُّيُوخ، ضَعِيفَ الْقُوىٰ، فإذا زَادَ هَرَمُهُ وَصَلَ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ.

والمعنى: ثُمَّ قَدْ يُبْقِيكُمْ اللهُ أحْيَاءً بِخَلْقِهِ لِتَبْلُغُوا سِنَّ الشَّيْخُوخَة، الَّتي قَدْ يَعْقُبُها ويَتَّصِلُ بِهَا الْهَرَم.

وَلَمَّا كَانَتْ أَعْمَارُ النَّاسِ بِحَسَبِ تَقْدِير اللهِ وَقَضَائِهِ مُتَفَاضِلَةً، من أَدْنَىٰ الأَعْمَارِ إِلَىٰ أَقْصَاهَا بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ في اختِيَارَاتِهِ لِأَعْمَارِهِم، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي التعليم:

﴿..وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى ..﴾:

أي: وبَعْضُكُمْ يَتَوَفَّاهُ اللهُ فِي أيِّ سِنٍّ بَعْدَ وِلَادَتِهِ، ومِنْ قَبْلِ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ الشيخُوخَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا الْهَرَم، وَيُبْقِي اللهُ فِي الحياة مَنْ لَمْ يَنْتَهِ أَجَلُهُ، وَيَسْتَمِرُّ مُمِدّاً لَهُ فِي الحياة لِيَبْلُغَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أجلاً مُحَدَّداً

ومَعْلُوماً ومُسمَّى بِمِقْدَارِ لَحظَاتِهِ، فإذا انْتَهَىٰ أَجَلُهُ المحدَّدُ المسَمَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ.

وَلمَّا كَانَتْ أَجَالُ النَّاسِ مُخْتَلِفَةً وَمَجْهُولةً لَهُمْ، وَكَانَ احْتِمَالُ بُلُوغِ الْأَجَلِ قَائِماً فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحظَاتِ حَياةِ الإنْسَانِ كَانَ بَيَانُ اخْتِلَافِ الْأَعْمَارِ الْمَجْهُولَةِ لِلنَّاسِ، دَافِعاً لَهُمْ لِأَنْ يَعْقِلُوا إِنْ شَاءُوا أَنْ يَكُونُوا أَهْلَ رُشْدٍ وَنَجَاةٍ وَفَوْزٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في التَّعْلِيم: ﴿.. وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: ويَرْغَبُ رَبُّكُمْ في أَنْ تَعْقِلُوا، ويُفْهَمُ مِنْ هٰذِهِ العبارَة الْعَقْلُ الْعِلْمِيّ والْعَقْل الإرَادِي:

فالْعَقْل العِلْمِيُّ يَكُونُ بِوَضْعِ هٰذه الحقيقة في ذَاكِرَتِكُمْ دَواماً.

والْعَقْل الإرادِيّ يكُونُ بِضَبْطِ حَرَكَةِ حَيَاتِكُمْ بإرادةٍ حَازِمَةٍ عَنْ تَعْرِيضِ نفوسِكم، لسَخَطِ اللهِ وَعَذَابِهِ بِمَعْصِيَتِهِ وبالْخُرُوجِ عن صِرَاطِهِ المسْتَقِيم.

ولِرَبْطِ مَا جَاءَ في هٰذا الدَّرْسِ التَّعْلِيمِيّ بِبَعْضِ عَنَاصِرَ مِنَ الْقَاعِدَة الإيمانيّة، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْهُ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: اللهُ وَحْدَهُ هُو الَّذِي يُحْيِي ويميت، فَلا أَحَدَ في الوجود كُلِّهِ يُحْيي بنَفْخِ الرُّوحِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا النُّفُوسُ حَيَّةً غَيْرُه جلَّ جلَالُهُ، وَلَا أَحَدَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ يُميتُ بِنَزْعِ الرُّوحِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا النُّفُوسُ الحيَّةُ مَيِّتَةً غَيْرُه جَلَّ جَلالُهُ.

والْقَتْلُ الَّذِي تَتَّخِذُ الْخَلَائِقُ وَسَائِلَهُ لَا يَكُونُ الموتُ به إلَّا بتقدير اللهِ وَقَضائِه، وحِينَ لَا يَكُونُ لِلَّهِ بالْمَوْتِ قَضَاءُ رَبّاني فإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَصْرِفُ بِتَدْبيراتِهِ مُريدَ الْقَتْلِ عَن اتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ القاتِلَةِ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ الدَّائمة.

- ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ﴾ الله ﴿أَمْرًا﴾: أي: فإذا أَرَادَ جَلَّ جَلالُهُ تَنْفِيذَ أَمْرٍ سَبَقَ أَنْ قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ وَجَاءَ أَجَلُ التَّنْفِيذِ، وقضىٰ اللهُ أَمْرَ تَنْفِيذه.

• ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: أي: فَلا يَحْتَاجُ تَنْفِيذُهُ إِلَّا أَنْ يُوَجِّهَ لَهُ أَمْرَ التكوين، فيقولَ لَهُ: «كُنْ» فَهُو «يَكُون».

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الحادي عشر من دُروس سورة (غافر). والحمد لله على معونَتِهِ، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفَتْحِه.

* * *

(١٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دروس سورة (غافر) الآيات من (٦٩ ـ ٧٦)

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

القراءات:

(٧٠) • قرأ أبو عمْرو: **[رُسْلَنَا]** بإسْكانِ السِّين.

وقرأَهَا باقي القراءِ العشرة: **[رُسُلَنَا]** بضَمّ السِّين.

والقراءَتَانِ نُطْقَانِ عَربيّان.

(٧٦) • قرأ السُّوسي، وأبُو جَعفر: **[فَبِيسَ]** بإبْدَال الهمزة ياءً.

وكذلك قَرَأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿فَبِئْسَ﴾ بالهمزة دُون إبدال.

تمهيد:

في آيات هذا الدّرْس عَوْدٌ إلَىٰ تَرْهِيبِ الَّذِين يجادِلُونَ في آيات اللهِ بالباطل لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ.

والمعروض للترهيب مِنْهُ بَعْضُ مَا سَوْفَ يُلاقيه الكافِرُونَ مِنْ عذابِ اللهِ يَوْم الدّين.

التدبر التحليلي:

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُجادِلُون في آيَاتِ اللهِ بالباطل:

- ● ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: أَلَمْ تَرَ أَيُّهَا الْعَاقِلُ الْبَصِيرُ الرَّشِيدُ أيّاً كُنْتَ، ناظراً إلَىٰ الَّذين يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ الرَّبّاني، ولِيُوهِمُوا أَنَّ بَاطِلَهُمُ المضادّ لَهُ هُوَ الحقّ؟!!

اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبيٌّ مِنْ أَمْرِهِمْ المنَاقِضِ لموازينِ الْعُقُولِ السّلِيمة، وَالأَخْلاقِ الْقَوِيمَةِ، والسُّلُوكِ الحكيم الّذِي لَيْسَ لَهُ عَوَاقِبُ وخيمَة.

﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾؟!: أي: كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الحقِّ الْجَلِيِّ الواضِحِ، والصِّرَاطِ المسْتَقِيم الظَّاهِرِ للنَّاظِرين؟!.

وهذا أيضاً اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمْرِهم.

هذا البيانُ عَنِ الّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بالْبَاطِلِ، مُتَّصِلٌ بِالْخَطِّ الْأَعْظَم الَّذِي سَارَتْ عَلَيْهِ وَحْدَةُ مَوْضُوع السُّورَةِ، وهو مُعَالَجَةُ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ.

وَفِي آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ إنْذارٌ لَهُمْ بعَذابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّين، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَات التَّالِيَاتُ، إذا مَاتُوا وهُمْ كافِرُونَ مُكَذِّبُون.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِم:

- ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

أي: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِكِتَابِنَا (وهو يَشْمَلُ كُلَّ الكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَىٰ رُسُلِه) وكَذَّبُوا بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا مِنْ كُلِّ الأُمَم، حَتَّىٰ خاتِمِهم مُحَمَّدِ بن عَبْدِ الله (وهُوَ يَشْمَلُ مَا أَوْحَىٰ اللهُ به إلى رُسُلِهِ مِنْ غَيْرِ الكُتُبِ الَّتِي أنْزَلَهَا عَلَيْهِم) فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ما نُنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّين، إذَا مَاتُوا وهُمْ مُكَذِّبُون.

زِيدَتِ «الفاء» في خَبَرِ «الَّذِينَ» وصِلَتِهِ، لِتَضْمِينِهِ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾:

الْأَغْلَالُ: جمع «الْغُلّ» وهُو طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جِلْدٍ، يُجْعَلُ فِي عُنُقِ الْأَسِيرِ ونَحْوِه، أَوْ فِي يَدَيْهِ، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُ المغْلُول إِلَىٰ عُنُقِهِ وَتُطَوَّقَانِ بالْغُلِّ.

وتُعْقَدُ بالْغُلّ سِلْسِلَةٌ مِنْ حَدِيد، أَو سَيْرٌ مِنْ جِلْدٍ لِجَرِّهِ بِذَلِكَ.

السَّلَاسِلُ: جَمْعُ «السِّلْسِلَة» وهِيَ حَلْقَاتٌ مَوْصُولٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ قَابِلَةٌ لِلثَّنْيِ والتحريكِ كالحَبْلِ.

يُسْحَبُونَ: أي: يُجَرُّونَ عَلَىٰ الأَرْضِ.

فِي الْحَمِيم: أي: فِي الْجَمْر، فالْجَمْرُ الَّذِي يُتَبَخَّرُ بِهِ يُسَمَّىٰ فِي اللُّغَة حَمِيماً، والْحَمِيمُ يُطْلَقُ علَىٰ الماء الحَارّ.

أي: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ مَا نُنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ أَلِيمٍ حِينَ تُوضَعُ الْأَغْلَالُ في أعْنَاقِهِمْ، وَتُعْقَدُ بِها السَّلَاسِلُ، ويُسْحَبُونَ في الْجَمْرِ الْكَاوِي لِأَجْسَادِهم.

• ﴿..ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ۝٧٢﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ سَحْبِهِمْ عَلَىٰ الْجَمْر، يُوضَعُونَ ضِمْنَ لَهَبِ النّارِ وَقُوداً لِيَحْتَرِقُوا بها، كَمَا يُمْلأُ التَّنُّور بالحطَبِ لإحمائه، وَهـٰذا المعْنَىٰ يتَّفِقُ مَعَ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سُورَة (البقرة/ ٣ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿...فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾.

وكذلك جاء في الآية (٦) من سُورَة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول).

السَّجْرُ: يأتي في اللُّغة بمعنىٰ الْمَلْء، وبِمَعْنَىٰ الإحْمَاءِ والإبقاء، يُقَالُ لغة: «سَجَرَ التَّنُّور، يَسْجُرُهُ، سَجْراً، وسُجُوراً» أي: مَلأَهُ وَقُوداً وَأَحْمَاهُ.

• ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾:

في هَـٰذَا النَّصّ حِكَايَةُ أَحْدَاثٍ سَوْفَ تَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، بِصِيَغِ الْأَفْعَالِ الْمَاضِيَةِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّها سَوْفَ تَقَعُ حَتْماً، فَكَأَنَّها أَحْداثٌ قَدْ وَقَعَتْ فِعْلاً.

أَي: وَبَعْدَ وَضْعِ الْأَغْلَالِ فِي أَعْنَاقِهِم، وَسَحْبِهِمْ عَلَىٰ أَرْضِ الْعَذَابِ بِالسَّلَاسِلِ، وَجَعْلِهِمْ فِي النَّارِ بِمَثَابَةِ الْوَقُودِ، لَكِنَّهُمْ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ

بَدَّلَهُم اللهُ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العذاب، يُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخاً، وَبَيَاناً لِأَكَاذِيبِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَكْذِبُونَهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِذْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ مِنْ دُونه: أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِاللهِ مِنْ دُونِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ، لِيُخَلِّصُوكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي أَنْتُمْ الآنَ فِيهِ؟!!

- ﴿قَالُواْ.. ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا..﴾.

أي: قَالُوا: غَابُوا عَنَّا، فَفِعْلُ «ضَلَّ» يأتِي بِمَعْنَىٰ «غَابَ» فَهُمْ لَا يَجِدُونَ يَوْمَ الدِّينِ مَنْ كَانُوا يَجْعَلُونَهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، أَوْ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ أَثَراً فِي تَخْلِيصِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ عَلَىٰ شِرْكِهِم.

وَيُضْرِبُونَ عَنْ قَوْلِهِمْ: ضَلُّوا عَنَّا، فَيَقُولُونَ: بَلْ لَمْ نَكُنْ نَعْبُدُ مِنْ قَبْلُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَيْئاً لَهُ وُجُودٌ فِي الواقع وهَـٰذَا الإِضْرَابُ يُلائِمُ أَحْوَالَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَسْمَاءَ فَقَطْ هُمْ سَمَّوْهَا لِأَوْهَامٍ لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ فِي الْوَاقِعِ.

- ﴿.. كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾: أي: كَذَلِكَ الضَّلَالِ الَّذِي ضَلَّ بِهِ الْمشْرِكُونَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِالْبَاطِلِ، يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بالضَّلَالِ، ولِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الضَّالِّينَ حُكْمٌ عَلَيْهِ من اللهِ بِعَدْلِهِ عَلَىٰ مِقْدَارِ ضَلَالِهِ.

فَالْمُرَادُ بِعِبَارَةِ: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ بِحَسَبِ ضَلَالِهِمْ، وَعَدْلُ اللهِ يَقْتَضِي أَنْ يَحْكُمَ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ بِمِقْدَارِ نِسْبَةِ ضَلَالِهِ، فَحُكْمُ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ حُكْمٌ إِفْرَادِيّ، وَلَيْسَ حُكْماً جَمَاعِياً.

وَبَعْدَ حُكْم اللهِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ بِالضَّلَالِ، وَاعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الحياةِ الدُّنْيَا ضَالِّينَ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَصِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم ضَلَالاً إِرَادِياً، وَبَعْدَ إِصْدَارِ الْحُكْم عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُمْ:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

الْفَرَحُ: انْفِعَالٌ نَفْسِيٌّ بِمَسَرَّةٍ وَرِضىً، حِينَ يَنَالُ الإنْسَانُ مَا يُلَائِمُهُ وَيُحِبُّهُ وَيَلَذُّهُ وَيُحقّقُ لَهُ مَطْلُوبَهُ مِمَّا يَهْوَىٰ وَيَشْتَهِي. وَيُرَادُ بِهِ الكِبْرُ وَتَجَاوُزُ حُدُودِ الحَقِّ وَالْخَيْرِ.

والمَرَحُ: الاخْتِيَالُ والتَّبَخْتُرُ فِي الْمَشْيِ اسْتِكْبَاراً وَتَعَاظُماً عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وَأَصْلُهُ شِدَّةُ الْفَرَحِ والنَّشَاطِ، وَتَجَاوُزُ الْحَدِّ الْمُعْتَادِ فِي حَرَكَاتِ الْعُقَلَاءِ وَأَهْلِ الرُّشْدِ، عِنْدَ فَرَحِهِمْ وَسُرُورِهِمْ.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: قَيْدٌ لِلْفَرَحِ الْمَذْمُومِ، وَلِلْمَرَحِ الْمَذْمُومِ، أَي: ذَلِكُمْ وَهُوَ الحكْمُ عَلَيْكُمْ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذَابٍ فِي جَهَنَّمَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ بِهِ مِنْ كُفْرٍ بِاللهِ وَتَكْذِيبٍ بآيَاتِهِ، وَلَوَازِمِ هَـٰذَا الكُفْرِ فِي سُلُوكِكُمْ النَّفْسِيِّ وَالْجَسَدِيِّ، مِنْ فِسْقٍ وَفُجُورٍ وَعِصْيَانٍ، وَظُلْمٍ وَبَغْيٍ وَعُدْوَانٍ، واتّبَاعٍ لِكُلِّ فَاسِدٍ وَمُفْسِدٍ وَشَيْطَانٍ. وَبِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُسْتَكْبِرِينَ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وَمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَعَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ، وَعَنِ الْعَمَلِ بآيَاتِ اللهِ الْمُنَزَّلَاتِ.

بَيْنَ لَفْظَتَيْ: «تَفرَحُونَ» و«تَمْرَحُونَ» من البديع، ما يُسَمَّىٰ عِنْدَ عُلَمَاءِ البلاغة «الجناسَ المضارع» وهو ما اختلف فيه اللَّفْظَانِ المتشابِهَانِ فِي نَوْعِ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُما، مع تَقَارُبِهما فِي النُّطْقِ، في الأوّل أو الوسَطِ أو الآخر.

وَبَعْدَ ذَلِكَ يَصْدُرُ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا أَبْوَابَ جهَنّم، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً الْقَوْلَ المقتطع مِنْ أحداثِ يَوْمِ الدِّين:

- ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: يُقَالُ لَهُمْ بِالْأَمْرِ الْمُقْتَرَنِ بِالتَّنْفِيذ: ادْخُلُوا أبوابَ جهَنَّمَ بِحَسَبِ دَرَكَاتِكُمْ، خَالِدِينَ فِيهَا، فَبِئْسَ مَكَانُ إقَامَةٍ واسْتِقْرَارِ الْمُتَكَبِّرِينَ، الَّذِي جَعَلَهُمْ كِبْرُهُمْ يَرْفُضُونَ اتّبَاعَ مَا جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِم.

بِئْسَ: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشَاءِ الذَّمِّ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالَغَة.

المَثْوَىٰ: مَكَانُ الإقَامَةِ والاسْتِقْرَار.

والمعنىٰ: فبِئْسَ مَكَانُ إقَامَتِكُمُ الدَّائِمة واسْتِقرارِكم.

وضِعَ الاسم الظاهِرُ «المتكَبِّرينَ» مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِبَيَانِ سَبَبِ الحكم عَلَيْهِم بالعذاب خالِدِينَ في جهنّم.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس الثاني عشر من سورة (غافر).

والحمد لله عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحه.

* * *

(١٧)

التدبّر التَّحليلي للدرس الثالث عشر من دُروس سورة (غافر) الآيتان (٧٧ و٧٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾.

القراءات:

(٧٧) ● قرأ يعقوب: [يَرْجِعُونَ] بالبناء للمعْلُوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه.

وبَيْنَ القراءتين تكامل، أي: يُرْجِعُهُمُ اللهُ بالْجبْر، فَهُمْ يَرْجِعُونَ مُطَاوِعين.

تمهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْس تَرْبِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرسوله ﷺ، بِشأْنِ عِدَّةِ قضايا، وفيها إسْماعٌ لِلْكَافِرِينَ، وَتَرْبِيَةٌ للمؤمنين، وقد اشتملَتْ هَـٰذِهِ القضايا عَلَىٰ ما يلي.

(١) أمْرُ الله رَسُولَهُ بِأَنْ يَصْبِر، إِذْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقّ، وَيَنْسَحِبُ هَـٰذا الْأَمْرُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ.

(٢) إشْعَارٌ بأنَّ اللهَ سَيُرِي رَسُولَهُ فِي الدُّنْيا بَعْضَ الَّذي يَعِدُ المجادِلينَ فِي آيَاتِهِ مِنْ عِقَاب، وأَمَّا عَذَابُهُمُ الْأَكْبَرُ فَسَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ القيامة.

(٣) تذكير اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ، بِمَا لَاقَىٰ الرُّسْل الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ أُمَمِهِمْ مِنْ تَكْذِيبٍ وَأَذىً، وَكَيْفَ صَبَرُوا، وَكَيْفَ نَصَرَهم اللهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ.

(٤) كَفُّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ عَنْ تَشَوُّفِ نَفْسِهِ لِأَنْ يُجْرِيَ اللهُ الآيَاتِ الخوارقِ، طمعاً فِي إيمان قَومِهِ وإسْلَامِهِمْ.

التّدبّر التَّحليلي:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

● ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

«إِمَّا» هي «إِنْ» الشَّرْطِيّة و«مَا» الزائدة لِتَوْكِيدِ مَعْنَىٰ الشرط.

والنون الْمُشَدَّدَة في: «نُرِيَنَّكَ» وفي «نَتَوَفَّيَنَّك» هي نون التوكيد الثقيلة.

أي: فاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ وَلَا تَسْتَشْرِفْ نَفْسُكَ إِلَىٰ تَعْجِيلِ الانْتِقَامِ مِنْ مُكَذِّبِيكَ، الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقّ، فَانْتِقَامُ اللهِ لَهُ وَقْتٌ مُحَدَّدٌ بِإِرَادَتِهِ الحكيمة، وَإِنَّ وَعْدَ اللهِ بِعِقَابِ المجرمين وَعْدٌ حَقٌّ لَهُ أَجَلٌ مُسَمَّىٰ عِنْدَهُ، وكذلك سَائِرُ وُعُودِهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

الوَعْدُ: هُو الإِخْبَارُ بِمَا تَمَّ العزْمُ عَلَىٰ فِعْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَل، خيراً كَانَ أَمْ شَرّاً.

أي: فإمَّا نُرِينَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبلَ أَنْ نَتَوَفَّاكَ، أَوْ نَتوَفينَّكَ قَبْلَ أَنْ نُرِيكَ كُلَّ الَّذِي نَعِدُهُمْ، فَإِلَىٰ حِسَابِنَا، وَفَصْلِ قَضَائِنَا، وَتَنْفِيذِ جَزَائِنَا لَهُمْ يُرْجَعُونَ يَوْمَ الدِّينِ، إِذْ يُبْعَثُونَ بَعْدَ الموتِ إِلَىٰ مُلاقَاة أَحْدَاثِ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ، حَيَاةِ الجزاءِ الأَكْبَرِ.

- قول الله تعالَىٰ مُتَابِعاً تَرْبِيَتَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ نَفْسَ الرَّسُولِ محمّد ﷺ، مَا زَالَتْ تَتَطَلَّعُ إِلَىٰ أَنْ يُؤْتِيهِ اللهُ آيَةً خَارِقَةً مُعْجِزَةً، رَاجِياً أَنْ تُؤَثِّرَ بِإِعْجَازِهَا عَلَىٰ قَوْمِهِ الَّذِينَ يُطَالِبُونَهُ بآيَةٍ عَظِيمَةٍ كَآيَاتِ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَبِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي القرآنِ المجيد.

فأَبَانَ اللهُ عَزّ وَجلَّ لَهُ، أَنَّ رُسُلَهُ الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْهِ بَعْضَ قِصَصِهِمْ، وَرُسُلَهُ الَّذِينَ لَمْ يَقُصَّ عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ قِصَصِهِمْ، لَمْ يَكُنْ يُعْطِي أَحَداً مِنْهُمْ التَّمْكِينَ الْمُطْلَقَ مِنْ إِجْرَاءِ الآيَاتِ الخَارِقَاتِ الْمُعْجِزَاتِ، بَلْ كَانَ إِذَا شَاءَ إِجْرَاءَ خَارِقٍ مُعْجِزٍ مِنْهَا، أَذِنَ لِرَسُولِهِ باتِّخَاذِ السَّبَبِ الصُّورِي الَّذِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاه، كَمَا كَانَ يَأْذَنُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ، لِيُجْرِيَ اللهُ

بِأَمْرِهِ التَّكْوِينيّ الخَارِقَ الَّذِي شَاءَ أَنْ يُجْرِيَهُ لَهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ فَلْقُ الْبَحْرِ لَهُ، وَتَفْجِيرُ عُيُونِ الماءِ لَهُ.

فَإِذَا جَاءَ أَجَلُ أَمْرِ اللهِ الحكيم، بِتَنْفِيذِ تَعْذِيب وإِهْلاكِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ انْتَهَىٰ زَمَنُ امْتِحَانِهِمْ، قَضَىٰ اللهُ بالْحَقّ، فأصْدَرَهُ أَمْرَهُ التكْوينيَّ، فَتَمَّ بِهِ تَنْفِيذ إِهْلَاكِهِمْ بَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ، عَلَىٰ وَفْقِ الأَمْرِ الرَّبَّاني، وَخَسِرَ هُنَالِكَ فِي الْمَكَان الَّذِي عُذِّبَ وَأُهْلِكَ فِيهِ الْمُبْطِلُونَ، الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ.

الْمُبْطِلُونَ: هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ واتَّبَعُوه، وَكَفَرُوا بِالْحَقّ ولم يَتَّبِعُوا سَبِيلَهُ وبهَـٰذا تمَّ تَدَبُّر الدَّرس الثالث عشر من دروس سورة (غافر).

والحمد لله عَلَىٰ معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

(١٨)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع عشر من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٧٩ ـ ٨١)

قال الله عزّ وجل:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

تمهيد:

في آيات هَـٰذا الدَّرسِ عُوْدٌ إِلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ آياتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وَمِنَنِهِ عَلَىٰ النَّاس، وَمِنْهَا مِنَّةُ اللهِ عَلَىٰ الناسِ بِنِعْمَةِ الْأَنْعامِ.

التدبّر التحليلي:

هَـٰذا هو النَّصّ الخامس مِن النصوص القرآنيَّة المتعلّقةِ بامْتِنَانِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْأَنْعَامِ، وَقَدْ سَبَقَ فِي الملْحَقِ الرابع مِنْ مَلَاحِقِ تدبُّر سورة (يس/ ٤١ نزول) دراسة تكامُلِيَّة للنُّصُوص المتعلِّقة بامتِنَانِ اللهِ عَلَىٰ عباده بالأنعام، وهي (١١) نصّاً:

- ■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخاطِبُ النَّاسَ مُمْتَناً عَلَيْهِمْ بِالْأَنْعَام:

- ● ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

الأنْعام: الأمْوَالُ الرَّاعِيَة، وهِيَ الْإبلُ والْبَقَرُ والغنم. ولفظ «الأنعام» يُذَكَّر ويُؤَنَّث، فيقال: هو الأنعام، وهي الأنعام.

أي: اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ مِنْ نِعَمِهِ عليكم أيُّها النَّاسُ نِعْمَةَ الْأَنْعَام، ومِنْ ظَوَاهِرِ هَـٰذِهِ النِّعْمَةُ العظيمة أنّكُمْ تَرْكَبُونَ بَعْضاً مِنْهَا، وَهِيَ الجمال، وَأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ مِنْ لُحُومِها.

«مِن» في «مِنْهَا» للتَّبْعِيض. وفعل «جَعَلَ» مُسْتَعملٌ بمعنىٰ فعل «خَلَقَ»، وقد يَدُلُّ فِعْل «جَعَلَ» عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بَعْدَ أَنْ أَسْكَنَ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَتْ الْأَنْعَامُ مَخْلُوقَةً فِيهَا مِنْ قَبْلُ، جَعَلَهَا بالإلْهَام لِبَنِي آدَمَ، وبالتَّسْخِير الَّذِي فَطَرَها عَلَيْهِ صَالِحَةً لِمَا جَاءَ بَيَانُهُ مِنْ مَنَافِعَ للنَّاسِ، بَعْضُهَا جَاءَ مُفَصّلاً، وَبَعْضُهَا جَاءَ مجملاً، كما في الآيةِ التالِيَة:

- ■ قول اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً:

- ● ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

- ● ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ..﴾: أي: ولَكُمْ في الْأَنْعَام مَنَافِعُ كَثِيرَةُ أُخرَىٰ، غَيْرُ مَذْكُورَةٍ فِي النّصّ هُنَا، فَمِنْ مَنَافِعِهَا أَلْبَانُها، وأَصْوَافُها،

وأشْعَارُهَا، وأوْبَارُهَا، وجُلُودُهَا، وعِظَامُهَا، ورَوْثُهَا، واسْتِخْدَامُ قُوَاهَا فِي الحرثِ والجرّ وغير ذلك.

- ﴿.. وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ..﴾: أي: ولِتُحَمِّلُوا عَلَىٰ ظُهُورِ مَا يَصْلُحُ لِلْحَمْلِ مِنْهَا أثْقَالكُمْ، وَتَبْعَثُوهَا إِلَىٰ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، فَتُحَقِّقُوا بِذٰلِكَ حَاجَةً تَقْصِدُونَ تَحْقِيقَهَا فِي صُدُورِكُمْ الحاوِيَةِ لِقُلُوبكم، الْبَاعِثَةِ لِإرَادَاتِكُمْ، الَّتِي تُوَجِّهُهَا رَغَبَاتُ نُفُوسِكم، كالتّجارَةِ، والارْتِحالِ مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ.

- ﴿.. وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾: أي: وَعَلَىٰ الْإِبِلِ مِنْهَا تُحْمَلُونَ فِي الْبَرّ، وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ.

جَاءَ الْفِعْلُ مَبْنِيّاً لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، لَكِنْ مِنَ الْمَعْلُوم أَنَّ الخَالِقَ الفَاعِلَ في الوجود كُلِّهِ هُوَ اللهُ جَلَّ جلالُهُ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَسَمَتْ مِنَنُهُ.

الْفُلْك: مَرْكَبُ البحر، يُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَاحِدِ وَغَيْرِهِ، ويُذَكَّرُ وَيُؤَنَّث، فيقال: هو الفلك، وهي الْفُلْك.

ويقاسُ علىٰ الْإبِلِ والْفُلْك مَا تَوَصَّلَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِإِلْهَامِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وَتَسْخِيرِهِ، مِنْ مَرَاكِبَ بَرِّيَّةٍ، وَبَحْرِيَّةٍ وَجَوِّيَّة.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِلنَّاسِ بِشَأْنِ سَائِرِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ:

- ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: وَيُرِيكُمُ اللهُ آيَاتِهِ الكَثِيرَةَ الْعُظْمَىٰ يَا أَيُّهَا النَّاسَ، فِي الآفَاقِ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ غَيْرَ آيَاتِ الْأَنْعَام، وَهِيَ آيَاتٌ جَلِيلَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ عَظِيمِ صِفَاتِهِ، وَجَزِيلِ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

فَأَيُّ آيَاتِ اللهِ الظَّاهِرَاتِ لِكُلّ ذِي حِسٍّ وَفِكْرٍ تُنْكِرُونَ، فَلَا تَعْرِفُونَ أَيُّهَا الجاحِدُونَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَيَانَاتِ كِتَابِهِ، والمكَذِّبُونَ رَسُولَهُ بما يُبَلِّغُكُمْ عَنِ اللهِ مِنْ حَقٍّ وَهُدىً؟!

أو فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صُنْعاً، فَدَلَّ بِخَلْقِهِ وإتْقَانِهِ عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَجَلِيلِ حِكْمَتِهِ.

وبهـٰذا تمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسَ الرَّابعَ عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (غافر).

والحمد لله عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٩)

التدبّر التحليلي للدَّرْسَ الخامس عشر من دُروس سورة (غافر) وهو الآيات من (٨٢ ـ ٨٥) آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

القراءات:

(٨٣) ● قرأ أبو عمرو: **[رُسْلَهُمْ]** بإسْكَانِ السّين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[رُسُلَهُمْ]** بِضَمّ السِّين.

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيَّان.

(٨٤ و٨٥) ● أَبْدَلَ السُّوسي وأبو جَعْفَر الهمزة مِنْ ﴿**بأسنا**﴾ أَلِفاً في الموضعين. وكذلِكَ حمزة في الوقف.

ولَمْ يُبْدِلْهَا باقي القراء العشرة.

(٨٥) ● وقف ابن كثير، وأبُو عَمْرو، والكِسَائي، ويعْقُوب، بالْهَاءِ في لفظ ﴿سُنَّتَ﴾.

ووقف باقي القراء العشرة بالتَّاء.

تمهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ تَلْوِيمٌ لِلْمُكَذِّبِينَ الكافرين الذين يُجَادِلُون في آياتِ اللهِ بالباطِلِ، إِذْ لَمْ يَتَّعِظُوا وَلَمْ يَعْتَبِرُوا بِمَا شَاهَدُوا فِي مَوَاطِنَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، آثَارَ المهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا جَاءَتهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، وَفَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْم يَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ. فَلَمَّا رَأَوْا قَوَابِلَ تَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ آمَنُوا فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ حِينَئِذٍ إيمانُهُمْ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا بِأَنْبَائِهِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا رُسُلُ رَبِّهِمْ يَسْتَهْزِئُونَ، وَأَهْلَكَهُمُ اللهُ عزَّ وَجلَّ ضِمْنَ سُنَنِهِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ فِي عِبَادِهِ الْأَوَّلِينَ والآخِرِينَ.

التدبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ المعالَجِينَ فِي السُّورَةِ وَيُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَمْثَالُهُمْ بِأُسْلُوب الاسْتِفْهَامِ التَّلْوِيمِيِّ بِشِدَّةٍ مَعِ الْإِعْرَاضِ عَنْ خِطَابِهِمْ:

● ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

عَاقبة: عَاقِبَةُ كُلّ أَمْرٍ آخِرُهُ وخاتِمَهُ، وعاقِبَةُ الأمْرِ جزاؤه.

الآثار: جمع «الأثر» وهُوَ مَا خَلَّفَهُ السَّابِقُونَ، وَبَقِيَّةُ دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَأَشْيَائِهِمْ بَعْدَ هَلَاكهم.

فَمَا أغْنَىٰ عَنْهُم: أي: فَمَا صَرَفَ عَنْهُمْ.

المعنىٰ: أبقُوا في بَلَدهم، ولَمْ يَسِيرُوا مُسَافِرِينَ فِي رِحْلَاتِهِمْ، أمْ كانوا عُمْيَاناً، فَلَمْ يَنْظُرُوا بأعْيُنِهِمْ بِلَادَ المُهْلَكِينَ السَّابقين. الَّذِينَ دَمَّرَ اللهُ بُلْدَانَهُمْ وَأَبْقَىٰ مِنْهَا آثَاراً يَعْتَبِرُ بِهَا أُولو الْأَلْبَابِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِم بِما بَلَّغُوهُمْ عَنْهُ؟؟!

استفهام فيه معنىٰ التَّلْويم والتَّثْرِيب الشديد؛ لِأَنَّهُمْ في رحلاتهم التجاريّةِ، كانوا يَرَوْنَ آثَارَ المهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّتِي أَمْضَتْ رِحْلَاتِ امْتِحَانِهَا مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانوا فِي أَزْمَانِهِمْ أَشَدَّ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ قُوَّةً، وَأَشَدَّ آثاراً عِمْرَانِيَّةً فِي الْأَرْضِ، فَدَمَّرَ اللهُ بلادَهُمْ، وعَذَّبَهُمْ، وأَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

وقد سَبَقَ في الآيَةِ (٢١) من هَـٰذِه السُّورَةِ نَظِيرُ هَـٰذِه الآيَةِ، مع اختلافٍ بين [**أَوَلَمْ**] و﴿**أَفَلَمْ**﴾ ومع اختِلَافٍ في التعقيب:

ففي الآية (٢١): ﴿. . فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

وفي الآية (٨٢): ﴿. . فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: فما صَرَفَ عَنْهُمْ عِقَابَ اللهِ وَعَذَابَهُ وإهْلَاكَهُ لَهُمْ، مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَيَجْمَعُونَ مِنْ أَمْوَالٍ وَقُوىً وَحُصُونٍ، وَمَلَاجِئَ إِلَيْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ يَلْجؤون.

فبين الآيتين تكامل ظاهر.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً سَبَبَ تَعْذِيبِ وَإِهْلَاكِ المُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، وَمُبَيِّناً لُجوءَهُمْ إِلَىٰ الْإِيمانِ حِينَ لَمْ يَكُنِ الإيمان يَنْفَعُهُمْ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾ أرَىٰ أَنَّهَا فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذوف فيما أرَىٰ، أي: كَانَ هٰؤُلَاءِ المهْلَكُونَ السَّابِقُونَ خَارِجِينَ عَنْ دِينِ اللهِ الْحَقّ وَعَنْ صِرَاطِهِ المستقيم، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ إِلَيْهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ الْوَاضِحَاتِ مِنَ الآيَاتِ الْمُنَزَّلَاتِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الشَّاهِدَاتِ عَلَىٰ صِدْقِ الرُّسُلِ فِيمَا يُبَلِّغُونَ عَنْ رَبّهِم، لَمْ يَقْبَلُوا الْعِلْمَ الرَّبَّانِيّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُ اللهِ، فَرِحِينَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمٍ يَنْفَعُهُمْ فِي أُمُورِ مَآكِلهم وَمَشَارِبِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَمَنَاكِحِهِمْ وَأَمْنِهِمْ، وَسَائِرِ مَصَالِحِهِمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَرَفَضُوا الاسْتِجَابَةَ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ آخِرَتِهِمْ، وَمَصِيرِهِمْ الْأَبَدِيّ.

واسْتَمَرُّوا كَذَلِكَ حَتَّىٰ اسْتَحَقُّوا عِقَابَ اللهِ بِتَعْذِيبِهِمْ، وَإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، وَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِإِنْذَارَاتِ رُسُلِهِمْ بِعَذَابِ اللهِ لَهُمْ وَإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، وَلَمَّا حَانَ وَقْتُ عِقَابِهِمْ بِحِكْمَةِ اللهِ وَقَضَائِهِ، حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

حَاقَ بِهِمْ: أَيْ: أَصَابَهُمْ وَأَحَاطَ بِهِمْ، يُقَالُ لُغَة: «حَاقَ بِهِ الْعَذَابُ، يَحِيقُ، حَيْقاً، وَحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً» أي: أَصَابَهُ، وَأَحَاطَ بِهِ، وَلَزِمَهُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ حَالِهِمْ حِينَ أَحَاطَتْ بِهِ وَسَائِلُ تَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، وَرَأَوهَا مُقْبِلَةً إِلَيْهِمْ:

● ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

البأسُ: الْعَذَابُ الشَّدِيد. والشِّدَّةُ فِي الحرب.

السُّنَّة: الطَّرِيقَةُ المتَّبَعَةُ.

أي: فَلَمَّا رَأَوْا إِقْبَالَ وَسَائِلِ عَذَابِنَا الشَّدِيدِ لَهُمْ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُمْ

مُعَذَّبُونَ وَهَالِكُونَ بِهَا، قَالُوا آمَنَّا باللهِ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ.

لَكِنْ بَعْدَ صُدُورِ قَضَاءِ اللهِ عَلَيْهِمْ بِالتَّعْذِيبِ وَالإِهْلَاكِ، وَبَعْدَ مُشَاهَدَتِهِمْ إِقْبَالَ وَسَائِلِ مَا كَانُوا بِهِ يُكَذِّبُون، وَيَسْتَهْزِئُون، لَمْ يَكُنْ لإِيمَانِهِمْ أَثَرٌ يَرْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ وَإِهْلَاكَهُ لَهُمْ، إِذِ المَطْلُوبُ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْغَيْبِ عنهم، لَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْمَشْهُودِ لَهُمْ، وَحِينَ يَنْكَشِفُ جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنَ الْغَيْبِ يَكُونُ قَدِ انْتَهَىٰ زَمَنُ الامْتِحَانِ والابْتِلَاءِ، وَجَاءَ زَمَنُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

- ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ...﴾: أي: فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ فِي رَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، وَفِي إِيقَافِ إِهْلَاكِهِمُ الشَّامِلِ، لَمَّا رَأُوا وَسَائِلَ عَذَابِنَا الشَّدِيدِ مُقْبِلَةً بِعُنْفِهَا إِلَيْهِمْ، لانْتِهَاءِ زَمَنِ ابْتِلَائِهِمْ فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيا.

- ﴿..سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ..﴾: أي: أَجْرَىٰ اللهُ فِيهِمْ سُنَّتَهُ المُتَّبَعَةَ، الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَجْرَاهَا فِي عِبَادِهِ الْكَافِرِينَ السَّابِقِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ إِلَيْهِمْ.

- ﴿..وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾: أي: وَخَسِرَ هُنَالِكَ فِي المَكَانِ الَّذِي أَحَاطَتْ بِهِ وَسَائِلُ تَعْذِيبِ اللهِ وَإِهْلَاكِهِ الْكَافِرُونَ.

لَقَدْ خَسِرُوا نُفُوسَهُمْ، وَأَمْنَهُمْ وَسَلَامَتَهُمْ وَرَاحَتَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَبَدِي، وَخَسِرُوا نَجَاتَهُمْ وَفَوْزَهُمْ بِجَنَّاتِ النعيم.

وَلَا خَسَارَةَ أَشَدُّ وَأَخَسُّ مِنْ هَـٰذِهِ الْخَسَارَة.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الْأَخِيرِ مِنْ دُرُوس سُورة (غافر).

والحمد للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٠)

ملحق: مستخرجات بلاغية من سورة (غافر)

في هٰـذِهِ السورة اختياراتٌ بلاغيةٌ كثيرة، اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا بِمَعُونَةِ اللهِ وَجُودِهِ ما يلي:

أولاً:

التَّعْبير عن المشاعر النفسيَّة بِعِبَارَةٍ مُطَابِقَةٍ لِهَٰـذِهِ المَشاعر، ولَوْ لَمْ يَكُنِ الْوَاقع كذلك، وهو ما يُعَبَّرُ عَنْهُ عِنْدَ المشتغلين بالأدب المعاصرين «بالصِّدْقِ الْفَنّي».

ومن أمثلته في السورة قول الله عزّ وجلَّ:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾:

الآزفة: القريبة، والمرادُ بِها القيامة.

أي: الكافرونَ حينما يُبْعَثُونَ، ويُدْرِكونَ أَنَّهُمْ فِي الحياة الآخرة، الَّتي كانوا يُنْذَرُونَ بِهَا، يَشْتَدُّ خَوْفُهُم وَذُعْرُهُمْ مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ، فَتَنْشَمِرُ قُلُوبُهُمْ، حَتَّىٰ يُحِسُّوا كَأَنَّهَا قَدْ وَصَلَتْ إِلىٰ حَنَاجِرِهم، فَصَارَتْ بِمَثَابَةِ الْغُصَّةِ المؤلِمَة.

فجاء التعبير عن هٰـذَا الشُّعُورِ النَّفْسِيّ، بِعِبَارَةٍ مُطَابِقَةٍ لِهَٰـذَا الشُّعُورِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْوَاقِعِ قَدِ ارْتَفَعَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَوَاضِعها، وَصَارَتْ لَدَىٰ الْحَناجر.

ثانياً:

في هَـٰذِهِ السورة إيجازٌ كثير، ومن إيجازِ الحذف فيها ما يلي:

المثال الأول: قولُ الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾: مُبْتَدأ، وخَبَرُهُ مَحْذُوف إيجازاً، دَلَّ عَلَيْهِ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

المعنىٰ: الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ، مَمْقُوتُون عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، لانكِشافِ مُراوغَاتِهِمْ وَحِيَلِهِم الجداليَّة، وَقَدْ دَلَّ عَلىٰ هٰذَا الْخَبَرِ عِبارَةُ إنْشاءِ الذَّمّ فِي: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ إلىٰ آخرها.

المثال الثاني: قول اللهِ عزّ وجلَّ فيها بِشَأْنِ تَخاصُمِ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ وَهم في النَّار:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: فيقول الّذين كانُو فِي الدُّنيا الضُّعَفَاءَ لِلَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيا قَدِ اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِم.

المِثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ فيها بِشَأْنِ جوابِ خَزَنَةِ جَهَنَّم لِلْمُعَذَّبِينَ فِيهَا، إذْ قَالَ الْمُعَذَّبُونَ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾:

الواو في ﴿أَوَلَمْ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذوف، والتَّقْدِير: أَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ أَسْمَاعٌ وَأَبْصارٌ وأَجهِزَةُ إدْراكٍ تُفرِّقُ بَيْنَ الحقّ والْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الخير والشَّرّ، وَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ فِي الحياة الدُّنيا رُسُلُ رَبّكُمْ إِلَيْكُمْ، يُبلِّغُونَكُمْ مَطْلُوب رَبِّكُمْ مِنكُمْ، مِنْ إِيمَانٍ وَإِسْلامٍ، وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ إرادَاتٌ حُرَّة؟

قالوا: بلىٰ.

فيقول الخزنة: لم يأذَنْ لَنَا رَبُّنَا بِأَنْ نَدْعُوَ بِهَـٰذَا الدُّعَاءِ الَّذِي طَلَبْتُمُوهُ مِنَّا، فادْعُوا أَنْتُمْ رَبَّكُمْ إِنْ شِئْتُمْ، وَلَكِنْ نَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا كَافِرِينَ بِهِ، وَمَا دُعَاءُ الَّذِينَ كَانُوا أَيَّامَ امْتِحَانِهِمْ كَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ إِلَّا فِي ضَيَاعٍ، فَلَا أَثَرَ لَهُ عِنْدَ اللهِ.

المِثَالُ الرَّابع: قَوْلُ اللهِ عزّ وَجَلَّ فِيهَا بِشَأْنِ المهْلَكِينَ السَّابِقِينَ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

الفاء في: ﴿فَلَمَّا﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلىٰ محذوف، والتَّقْدِير: كَانَ هٰؤُلَاءِ الْمُهْلَكُون السَّابِقُونَ خَارِجِينَ عَنْ دِينِ اللهِ الحقّ، وَعَنْ صِرَاطِهِ المستقيم، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ إِلَيْهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ الوَاضِحَاتِ مِنَ الآيَاتِ الْمُنَزَّلَاتِ، وَالمعجزاتِ الشَّاهِدَاتِ عَلىٰ صِدْقِ الرُّسُلِ، لَمْ يَقْبَلُوا الْعِلْمَ الرَّبَّانِيَّ، فَرِحِينَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُم وَرَفَضُوا الاسْتِجَابَةِ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ آخِرَتِهِمْ.

وأَخِيراً أَحَاطَ بِهِمْ الْجَزَاءُ الَّذِي كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون، وَلَا يُصَدِّقُونَ إِنْذَارَ رُسُلِهِمْ بِهِ.

ثالثاً: من القصر:

اهْتَمَّ البلاغيون بالْقَصْر، وعرَّفُوه بأنَّهُ جَعْلُ شيءٍ مَقْصُوراً علىٰ شيءٍ آخَرَ بواحدٍ من طُرُقٍ مَخْصُوصَةٍ مِنْ طُرُق القَوْلِ المفيد للقصر. وهو قصْرٌ حقيقيٌّ، وقَصْرٌ إضافيّ.

وفي هَـٰذِهِ السورة أَمْثِلَةٌ كثيرة مِنْ أَمْثِلَةِ القصر، منْهَا الأَمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قول اللهِ عزَّ وجل:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَصْرِ المجادَلَةِ في آيَاتِ اللهِ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا، والطَّرِيقُ الدَّالُّ عَلَىٰ القَصْرِ: النَّفْيُ والاسْتِثْنَاءُ، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصران:

(١) قَصْرُ إِرَاءَةِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ وَإِنْزَالِ الرِّزْقِ من السماء، علىٰ الله عزّ وجلّ، والطَّرِيق الدَّالُّ علىٰ القصر تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسناد. وهو قَصْرٌ حقيقي، مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصوف.

(٢) قَصْرُ التَّذَكُّرِ النَّافِعِ فِي الإيمانِ والسُّلُوكِ عَلَىٰ مَنْ يُنِيبُ رَاجِعاً إِلَىٰ رَبِّهِ، كُلَّما ابْتَعَدَ عَنْهُ بِتَقْصِيرَاتِهِ وَمُخَالَفَاتِهِ، والطَّرِيقُ الدَّالُّ عَلَىٰ هَـٰذَا القصر: النَّفْيُ والاسْتِثْنَاءُ، وهو قصر حقيقي من قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصوف.

المثال الثالث: قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾:

في هَـٰذِهِ العبارة قَصْرُ السَّمْع الشَّامِلِ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ وَالْبَصَرِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، والطَّرِيقُ الدَّالُّ علىٰ الْقَصْرِ تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْناد، وهو قَصْرٌ حقيقي، من قَصْرِ صِفَةٍ علىٰ مَوْصُوف.

المثال الرابع: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ لِمَلَئِه:

﴿... قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾:

في هـٰذَا الْقَوْلِ يَدَّعِي فِرْعَوْنُ لِمَجْلِسِ وُزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ أَنَّ مَا يُرِيهِمْ إِيَّاهُ مَقْصُورٌ عَلَىٰ مَا يَرَاهُ هُوَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَّ مَا يَهْدِيهِمْ إِيَّاهُ مَقْصُورٌ عَلَىٰ الْهِدَايَةِ إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ.

فَفِي عِبَارَتِهِ قَصْرَانِ، عَلَىٰ سَبِيل الادّعَاءِ الكاذِبِ مِنْهُ، والطّرِيقُ الدَّالُّ علىٰ القصر فيهما النَّفْي والاستثناء، وهما من قبيل قَصْرِ مَوْصُوفٍ وهو ما يريهم علىٰ صفة هي مَا يرىٰ، وما يهديهم علىٰ صِفةٍ هِيَ إلَّا أنه يهديهِم سبيلَ الرشاد.

المثال الخامس: قول اللهِ تَعَالَىٰ بشأن فرعَوْنَ وَكَيْدِهِ:

﴿...وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

في هـٰذِهِ الْعِبارَةِ قَصْرُ كَيْدِ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ أَنَّهُ فِي خَيْبَةٍ عَنْ تَحْقِيقِ ما أُرِيدَ بِهِ، والطَّرِيقُ الدَّالُّ عَلَيْهِ النَّفْيُ والاستثناء، وهو مِنْ قَصْرِ مَوْصُوف وَهُوَ كَيْدُ فِرْعَوْنَ عَلىٰ صِفَةِ التَّبَاب، وَهُوَ قَصْرٌ إضافي. إذْ كَيد فِرْعَونَ بالإضَافَةِ إلىٰ تحقيق نتائِجِهِ هُوَ فِي تَبَاب.

وتُوجَدُ أَمْثِلَةٌ أُخرَىٰ أَعْرِضُها دُونَ تَحْلِيل لِيُعْمِلَ المتَدبِّر ذهْنَهُ في تَحْلِيلِها قياساً علىٰ ما سبق:

(١) ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ ... ﴿٣٩﴾﴾.

(٢) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ... ﴿٤٠﴾﴾.

(٣) ﴿...وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

(٤) ﴿...إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ... ﴿٥٦﴾﴾.

(٥) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ... ﴿٦١﴾﴾.

(٦) ﴿...لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴿٦٢﴾﴾.

(٧) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ... ﴿٦٤﴾﴾.

(٨) ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴿٦٥﴾﴾.

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ... ﴿٦٧﴾﴾.

(١٠) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

(١١) ﴿...وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... ﴿٧٨﴾﴾.

رابعاً: من خُرُوج الاستفهام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ إلىٰ مَعانٍ أخرىٰ:

اعْتَنَىٰ عُلَمَاءَ المعاني بالتَّنْبِيهِ علىٰ خروج الاسْتفهام عن أصْلِ دَلَالَتِهِ وَهِيَ طَلَبُ الإفْهَامِ إِلَىٰ مَعَانٍ أخرىٰ، وعَدُّوا مِنْهَا نَيِّفاً وَثَلَاثِينَ مَعْنَىً.

ومن الاسْتِفْهَامِ الخَارِجِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ فِي هَـٰذِهِ السورة الأَمْثِلَةِ التالية:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ... ﴿٢١﴾﴾.

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ هُنا التَّلْويمُ والتَّثْرِيب.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ فيها في حِكَايَة قَوْل مُؤْمِنِ آلِ فِرْعون لِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِشَأْنِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ... ﴿٢٨﴾﴾؟؟

المراد بالاسْتِفْهَام هنا الاسْتِنْكارُ والتعجّب.

المثال الثالث: قول اللهِ عزّ وجلّ فيها يَحْكِي أيْضاً قَوْلَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْن:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١)﴾؟؟

يُرادُ بالاسْتِفهام هُنا التّعجّبُ مَعَ اسْتِنْكارِ دَعْوَتِهِمْ.

المثالُ الرابع: قول الله عزَّ وجلّ بِشَأْنِ المشركين:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢)﴾؟؟

يُرادُ بالاستفهام هُنَا الإنْكَارُ عَلَيْهم وبيان أَنَّ أَمْرَهُمْ يُثِيرُ العجب.

المثال الخامس: قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩)﴾؟

يُراد بالاسْتِفْهَامُ هُنا التَّعْجِيبُ من أَمْرِ المُجادلين.

المثال السادس: قول الله عزّ وجل بشَأْن الكَفَرَةِ المعذّبين يَوْمَ الدّين:

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣)﴾؟

يُراد بالاسْتِفهام هُنا تَحْسِيرُهُمْ وَتَنْدِيمُهُمْ علىٰ مَا كان مِنْهُمْ مِنْ شركٍ باطلٍ أَوْصَلَهُمْ إِلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ عَذَاب.

خامساً: التوكيد:

اعتنىٰ عُلَمَاءِ المعاني بتوكيد الجملَةِ الخبريَّة وعَدَمِه، وقَسَّمُوا الإخبار إلىٰ ابتدائي، وطَلَبي، وإنْكاري.

قالوا: ويَحْسُنُ في ابتداء الإخبار بِالخَبَر إيرادُهُ غَيْرَ مُقْتَرِنٍ بِأَيَّةِ مُؤَكّدات.

وحين يَكُونُ لَدىٰ المخاطَبِ شَكٌّ فِي الخَبرِ، أَوْ عَوامِلُ شَكٍّ، أَوْ إِحْجَامٌ عَنْ قَبُولِ الخبر، فإنَّ حالَهُ تَكُونُ حالَ طَالِبٍ يَسْأَلُ عَنْ صِحَّةِ الخبر، فَيَحْسُنُ أَنْ يُؤْتَىٰ لَهُ بِالْجُمْلَةِ الخَبرِيَّةِ مُقْتَرِنَةً بِمَا يُؤَكِّدُ صِحَّةَ مَضْمُونِ الخبر.

وَحِينَ يَصِلُ المخاطَبُ إلىٰ حَالَةِ الْإِنْكَارِ يَكُونُ مِنْ بَلَاغَةِ الكلامِ الخَبَرِيّ وجوب اقترانِهِ بالمؤكّداتِ الّتِي تُلَائِمُ حَالَةَ الإنكار.

وفي سُورَة (غافر) جُمَلٌ كَثِيرةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِمُؤَكِّدَاتٍ مَرَاعَاةً لِأَحْوَالِ المخاطبين، أو الَّذِينَ يُرَادُ التَّوْكِيدُ لَهُمْ تبعاً أَوْ تَعْرِيضاً، فَقَدْ يَكُونُ الخطابُ مُوَجَّهاً لِلرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ تَوْكِيداً، لَكِنْ يَكُونُ الخبر مُؤَكّداً مُرَعَاةً لِلْمُؤْمِنِينَ لأنَّ خِطَابَ اللهِ عزَّ وجلَّ لَهُ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يُرَاعَىٰ بالتوكيد الكافِرُونَ أَوِ المنافِقُونَ، لِمَا فِي الخِطَابِ مِنْ بَيَانٍ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ، فَهُمْ مُخَاطَبُونَ بِهِ تَعْرِيضاً، فَمِنَ الْبَلَاغَةِ إيرادُهُ مُؤَكّداً، وَقَدْ يَكُونُ الدّاعِي للتوكيد التعبير عن الإيمان أَوْ شِدَّةِ الخضوع، أو شِدَّةِ الحاجَةِ والطلب، ونحو ذلك ممّا يكون في نفس مُسْتَعْمِلِ التوكيد.

والتوكيد يكونُ بِواحِدٍ فأكْثَرَ مِنَ المؤكداتِ التاليات:

(١) تقديم مَا هو فاعل في المعنىٰ علىٰ فِعْله.

(٢) اختيار الجملة الاسميّة بَدل الجملة الفعلية ابتداءً.

(٣) كلمة «قد» الْحَرْفية حينما تَكُونُ للتحقيق.

(٤) القسم.

(٥) نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة.

(٦) لَامُ الابتداء.

(٧) لامُ الابتداءِ الَّتي تُزَحْلَقُ عَنْ صَدْرِ الجملة.

(٨) «إنَّ» و«أَنَّ» بِكَسْرِ الهمزة وفَتْحها.

(٩) ضمير الفصل.

(١٠) «إنَّما» و«أنَّما».

(١١) «إنْ» المخفّفة من الثقيلة.

(١٢) «أمَّا» الشَّرْطية.

(١٣) أدوات التنبيه، ومِنْها «ألَا».

(١٤) الأحْرُف الّتي تُضَافُ فِي الكلام، وتُسَمَّىٰ «زَائِدَة» ومنها «مَا» بَعْدَ «إذَا» و«مِنْ» الجارة الَّتي قَدْ تُزَادُ للتوكيد. والباء الجارة الّتي قد تزاد للتوكيد.

(١٥) تكرير النفي.

(١٦) السين وسوف الداخلتان علىٰ فعلٍ دَالٍّ علىٰ وعْدٍ أو وَعيد.

(١٧) «لَكِنَّ» وهي حَرْفٌ ينْصِبُ الاسم ويَرْفَعُ الخَبَر.

(١٨) «لَنْ» فالراجِحُ فيما أرَىٰ أَنَّها تفيد التوكيد، ولا تفيد التأبيد.

والجُمَلُ المؤكَّدَة في السُّورَة كَثِيرةٌ، ومن السَّهْلِ بالتَّأَمُّلِ القريب اسْتِخْرَاجُهَا، ومَعْرِفَةُ الدَّاعي إلَىٰ التوكيدِ فيهَا، ومنها:

(١) ﴿... إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ... ﴿١٠﴾﴾.

(٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ... ﴿١٣﴾﴾.

(٤) ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

(٥) ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

(٦) ﴿... وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

(٧) ﴿... فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

(٨) ﴿... إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ ... ٢٦﴾.

(٩) ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾.

(١٠) ﴿... إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾.

(١١) ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾.

(١٢) ﴿... وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾.

(١٣) ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ ... ٣٤﴾.

(١٤) ﴿... وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ ...﴾.

(١٥) ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾.

(١٦) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾.

(١٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

(١٩) ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... ٦٦﴾.

(٢٠) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ ... ٧٨﴾.

(٢١) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ ... ٧٩﴾.

وغيرها من الأمْثِلَة.

وأكتفي بهٰذِهِ المستخرجات البلاغية من السورة.

والحمد لله علىٰ معونته ومَدِه وفَتْحِه.

سورة فُصِّلَت

٤١ مصحف ٦١ نزول

وتُسَمَّى «حمَ السَّجْدةِ»
وتسمَّى بأسماء أخرى
وهي سورة مكيّة بلا خلاف
وهي الثانية من «الحواميم السبع»

(١)

نصّ السّورة وما فيها من فَرْشِ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ
ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ
أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ (٤) وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا
تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ
إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥) قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ
إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ
(٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ
(٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ
(٨) ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِى يَوۡمَيۡنِ
وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن
فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ

---

١ ـ • سكت أبو جعفر علىٰ «حا» وعلىٰ «ميم» سكتة لطيفة.

١٠ ـ • قرأ أبو جعفر: [سَوَاءٌ] بالرَّفع، أي: هي سواءٌ.

وقرأها يعقوب: [سواءٍ] بالجرّ، صفةٍ لأيَّام.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿سواءً﴾ بالنصب، علىٰ أنها حال من «أربعة».

﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا
طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ
فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا
بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ
فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ
ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُوٓاْ
لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾
فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا
قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ
نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ

---

١١ - • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْيَ] بإسْكان الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة:
﴿وهِي﴾ بِكَسْرِ الهاء.
وهما لغتان.
ووقف يعقوب بهاء السّكْت.

١٤ - • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ ضم الهاء وكسْرها لُغَتان.

١٦ - • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكسر الهاء.

١٦ - • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمرو، ويَعْقوب: [نَحْسَاتٍ] بإسْكَانِ الحاء، جمع «نَحْسَةٍ».
وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرِ الحاء ﴿نَحِسَاتٍ﴾ جمع: «نَحِسَة» أي: ذَاتُ نَحْسٍ.
النَّحْسُ: الْجَهْدُ والضُّر.

أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ
ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوۡمَ
يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا
جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ
أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا
جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾
وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ
فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ
لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ

---

١٩ ـ • قرأ نافع، ويعقوب: [وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللهِ] بضمير المتكلّم العظيم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ﴾: بالفعل المبني لما لم يُسَمَّ فاعله، و«أعداءُ» نائب فاعل.

٢١ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] ببناء الفعل للمعلوم.

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿تُرْجَعُوْنَ﴾ ببناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءَتَيْنِ تكامل، أي: يُرْجِعُهم اللهُ فَيَرْجِعُون.

٢٥ ـ • قرأ أبو عمرو: [عَلَيْهِمِ الْقَوْلُ] بِكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلَف: [عَلَيْهُمُ الْقَوْلُ] بضمّ الهاء والميم.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿عليهِمُ القول﴾ بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم. =

خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ
فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا
تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا
ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا
تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ
أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

= وهَـٰذِهِ القراءات وُجُوهٌ عَرَبِيَّة.

ووقف حمزة ويعقوب بضم الهاء، والباقون بكَسْرها.

٢٩ ـ • قرأ ابن كثير، والسُّوسي، وابْن عامر، وشعبة، ويَعْقُوب: **[أَرْنا]** بإسْكَانِ الرَّاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**أَرِنَا**﴾ بكَسْرِ الراء. إلَّا الدُّوري عن أبي عَمْرو، فإنَّهُ قرأها باختلاس الكَسْرَة.

٢٩ ـ • قرأ ابن كثير: **[اللَّذَيْنِّ]** بتَشْدِيدِ النون مع القصر والتوسُّط والمدّ في الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**الَّذَيْنِ**﴾ بكسر النُّون دُون تَشْدِيد.

٣٠ ـ • قرأ أبو عمرو: **[عَلَيْهِمِ الْمَلائِكَةُ]** بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكِسَائِي، ويعقوب، وخلف: **[عَلَيْهُمُ الْمَلائِكَةُ]** بضمّ الهاء والميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**عليهِمُ الملائكة**﴾ بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.

ووقف حمزة، ويعقوب بضمّ الهاء، والباقون بكَسْرِهَا.

وهَـٰذِهِ القراءات وُجُوهٌ عَرَبِيَّة.

تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ
غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ
وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي
ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ
وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ
صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾
وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ
لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن
كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنۡ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ
وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ
﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي

---

٣٧ ـ ● وقف يعقوب بهاء السكْتِ علىٰ ﴿خلقهُنَّ﴾.

٣٨ ـ ● وقف حمزة بنقْلِ حركة الهمزة إلىٰ السّين في: [لَا يَسْأَمُونَ].

٣٩ ـ ● قرأ أبو جعفر: [وَرَبَأَتْ]. يقال لغة: «رَبَأَتِ الأرض» أي: زَكَتْ وارْتَفَعَتْ زروعها.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَرَبَتْ﴾ من فعل «رَبَا الشيءُ يَرْبُو» بمعنىٰ: نَما وَزاد.

فمؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

٤٠ ـ ● قرأ حَمْزَة: [يَلْحَدُونَ] من فعل «لَحَدَ» بمعنىٰ مَالَ عن القصد. =

ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا
تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ
لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ
خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ
قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ
﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ
وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ
يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ
فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ
وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ
وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ
عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ

= وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿يُلْحِدُوْنَ﴾** من فعل «أَلْحَدَ» بمعنىٰ عَدَلَ عَنِ الحقِّ وأدْخَل فِيه ما ليس منه.

فمؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

٤٠ ـ • قرأ السّوسي، وأبو جعفر: **[شِيْتُمْ]** بإبدال الهمزة ياءً. وقرأها كذلِكَ حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿شِئْتُمْ﴾**.

٤٤ ـ • قرأ ابْنُ كثير: **[قُرَانًا]** وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿قُرْآنًا﴾**.

وكلا القراءتين من النُّطْقِ العربي.

٤٧ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: **﴿من ثمرات﴾** بالجمع. =

أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟
ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ
مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن
دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ
رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ
ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ
فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ
﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ
ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ

= وقرأها باقي القراء العشرة بالإفراد: **[مِنْ ثَمَرةٍ]**.
ومؤدىٰ القراءتين واحد.

٤٧ ـ • قرأ يَعْقُوب **[يُنَادِيهُم]** بضمّ الهاء.
والباقون بكَسْرِها.

٤٧ ـ • قرأ ابن كثير: **[شُرَكَائِيَ قَالُوا]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ ياء المتكلم.

٥٠ ـ • قرأ ورش، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، وقالون بخلف عنه: **[رَبِّيَ إِنَّ]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَان ياء المتكلم، وهو الوجه الثاني لقالون.

٥١ ـ • قرأ ابنُ ذَكْوان، وأبو جَعْفَر: **[وَنَاءَ بِجَانِبِهِ]** بمعنىٰ مَالَ وَتجافىٰ مُتَثاقلاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ]** بمعنىٰ ابْتَعَد.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنىٰ المراد، فَمِنَ الناس من يميلُ مُتَثاقلاً، ومن الناس من يبتَعِد عن شكر ربّه.

بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ
شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ
بِكُلِّ شَيْءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾

---

٥٣ ـ ● قرأ يعقوب: [سَنُرِيهُمْ] بضمّ الهاء، والباقون بكَسْرِها.

(٢)

ممّا ورَدَ في السُّنَةِ والأخبار بشأن سُورة (فُصّلت)

(١) رُوي عن أنس قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:

«الْحوامِيمُ ديباجُ القرآن».

الديباج: نوع من الثياب سَداهُ ولُحْمَتُهُ حَرِير، أي: الحواميم لَيِّنَةٌ ناعِمَةٌ فَاخِرَة، كالدِّيباج بالنسبة إلى سائر الثياب.

والحواميم: هي السُّوَرُ المبْدُوءَة بـ«حمٓ» وهي سبع متَتاليات في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول: (غافر ـ فصّلت ـ الشُّورَىٰ ـ الزخرف ـ الدُّخان ـ الجاثية ـ الأحقاف).

(٢) أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يَعْلَىٰ، والحاكِمُ وصَحَّحَهُ، وابْنُ مَرْدَوِيه، وأبو نعيم، والبيهقي، وابْنُ عساكر، عن جابر بْنِ عبد الله، قال:

اجتمَعَتْ قُرَيشٌ يَوْماً، فقالُوا: انْظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بالسِّحْر، والكَهانَةِ، والشِّعْر، فَلْيَأْتِ هـٰذا الرَّجُلَ «يَعْنُونَ محمّداً ﷺ» الّذي فَرَّقَ جَماعَتَنا، وشَتَّتَ أَمْرَنا، وعَابَ دِينَنا، فَلْيُكَلِّمْهُ، ولْيَنْظُرْ مَاذَا يَرُدُّ عليه.

فقالوا: مَا نَعْلَمُ أحداً غَيْرَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَة.

فقالوا: ائْتِهِ يَا أَبَا الْوَلِيد.

فأتاهُ فقالَ: يَا مُحَمّد، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عبدُ اللهِ؟، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عبد المطّلب؟. فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ.

قال عتبة: فإنْ كُنتَ تَزْعُمُ أنَّ هَـٰؤلاءِ خَيْرٌ مِنْكَ، فَقَدْ عَبَدُوا الآلِهَةَ الَّتِي عِبْتَ. وإنْ كُنتَ تَزْعُمُ أنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلَّمْ حَتَّىٰ نَسْمَعَ قَوْلَكَ، أَمَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا سَخْلَةً أشْأَمَ عَلَىٰ قَوْمِكَ مِنْكَ، فَرَّقْتَ جَمَاعَتَنَا، وشَتَّتَ أَمْرَنَا، وعِبْتَ دِينَنَا، وفَضَحْتَنَا فِي العَرَبِ، حتَّىٰ لَقَدْ طَارَ فِيهِمْ أَنَّ فِي قُرَيشٍ ساحراً، وأنَّ فِي قُريشٍ كاهِناً، واللهِ مَا نَنْتَظِرُ إلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الحبْلَىٰ أَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ بالسُّيوف. يَا رَجُلُ إنْ كَانَ إنَّما بِكَ الحاجَةُ جَمَعْنَا لَكَ حَتَّىٰ تَكُونَ أغْنَىٰ قُرَيشٍ رَجُلاً، وإنْ كانَ إنَّما بِكَ الْبَاءَةُ فاخْتَرْ أيَّ نِسَاءِ قُرَيشٍ شِئْتَ، فَلْنُزَوِّجَنَّكَ عَشْراً.

فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَرَغْتَ»؟.

قال: نَعَمْ.

قال رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«بسم اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم. ﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا

وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ (١١) فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ (١٢) فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ (١٣)﴾.

فقال عُتْبة: حَسْبُكَ، حَسْبُكَ، مَا عِنْدَكَ غَيْرُ هٰذا؟..

قال رسول الله ﷺ: «لَا» فَرجَعَ عُتْبَةُ إلَىٰ قُرَيشٍ فَقَالُوا مَا وَرَاءَكَ؟،

قال: مَا تَرَكْتُ شَيْئاً أَرَىٰ أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ بِهِ إِلَّا كَلَّمْتُهُ.

فقالوا: فَهَلْ أَجابَكَ؟.

قال: والَّذِي نَصَبَهَا بَنِيَّةً (يَعْنِي رَبَّ الكَعْبَة) مَا فَهِمْتُ شَيْئاً مِمَّا قَال، غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ.

قالوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ الرَّجُلُ بالْعَرَبِيَّةِ وَمَا تَدْرِي مَا قَالَ.

قَال: لَا وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئاً مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرَ الصّاعِقَة.

وجاء فِي رِوَايَةٍ عن ابْن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه، أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ قَال لِقُرَيشٍ: يَا قَوْمِ أَطِيعُونِي فِي هٰذا الْيَوْمِ واعْصُونِي بَعْدَه، فواللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ هٰذا الرَّجُلِ كَلَاماً مَا سَمِعَتْ أُذُنِي قَطُّ كلاماً مِثْلَهُ، ومَا دَرَيْتُ مَا أَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِ.

(٣) وأخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ في شُعَب الإيمان مِنْ طريق خَلِيلِ بْنِ مُرَّة «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ لَا يَنَامُ حَتَّىٰ يَقْرأ: تَبارَكَ، وحمَ السَّجْدَة».

قال البخاري عَنْ خَلِيلِ بْنِ مُرَّة: هُو مُنْكَرُ الحَدِيث.

(٣)

موضُوعُ سُورَة (فُصِّلَتْ)

يَدُورُ موضوع هـٰذه السُّورة حَوْل مُعالَجَةِ الموقِفِ الَّذِي تَشَبَّثَ بِه، أو تَطَوَّرَ إِلَيْهِ مُشْرِكُو مَكَّة، قُبَيْلَ نُزُولِهَا.

وتَشْتَمِلُ أيْضاً عَلَىٰ تَثْبِيتِ المؤْمِنينَ بالْمُرَغِّبَاتِ من ثواب اللهِ العظيم، وَتَوجِيهِ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ مِنْهُمْ لالْتِزَام الْعَمَلِ الصالح، وإعْلَانِ الاسْتِسَلامِ للهِ والخضوع لَهُ كَسَائر المسلمين، والدَّفْع بالَّتِي هي أَحْسَنُ.

وتَشْتَمِلُ عَلَىٰ التذكِيرِ بِبَعْضِ آياتِ اللهِ في كوْنه، والتَّحْذِيرِ مِنْ عقاب اللهِ الشّدِيد، وَتَقْدِيم لَقَطاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين للترهيب بها.

وفيها عَرْضُ بَعْضِ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ الجحوديَّةِ، إضَافَةً إلى مَا جَاءَ مِنْ صِفَاتِهِ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَةِ في مُخْتَلِفِ السُّور.

وفيها تَعْلِيمُ حِوَارٍ دَعَوِيّ للَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الحقِّ.

وفيها وعْدٌ بأنَّ اللهَ سَيُرِي الْكَافِرِينَ بَعْضَ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، وهـٰذِهِ الآيَاتُ تَكْشِفُ لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ جُذُورِهَا مِنَ القاعدة الإيمانيَّةِ، وأَنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ علِماً.

(٤)

دروس سورة (فُصِّلَتْ)

من الأَفْضَل لحُسْنِ التّدبُّر تقسيم السّورة إلى دُروس، وقد ظَهَرَ لي أنّ مِنَ المناسبِ تقسيمَ هـٰذِهِ السّورَةِ إلى أحَدَ عَشَرَ دَرْساً.

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٨).

وفيه بيانٌ عَنِ القرآن مُضَافٌ إلى مَا سَبَقَ مِنْ بَيَانٍ عَنْهُ فِي نُجُوم

التنزيل السَّابقة، مَعَ بَيَانِ مَوْقِفِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّةِ مِنْه، إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة، وَفِيهِ تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ عِلَاجاً لِبَعْضِ شُبَهِهِمْ، وَدَعْوَةً إِلَىٰ الاستقامَةِ في مَسِيرَتِهِمْ عَلَىٰ صِرَاط الله بَعْدَ الإيمانِ الحق، وتَحْذِيراً لَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وعَاقبَتِه، وتَرْغيباً لَهُمْ في الإيمانِ وَعَاقِبَتِهِ التي ينالُونَ فيها أجراً عظِيماً لَا يَنْقَطِع.

الدرس الثاني: الآيات من (٩ ـ ١٢).

وفي هذا الدَّرْس تَعْلِيمٌ من اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ، حِواراً دَعَوِيّاً حَوْلَ قَضِيَّةِ الإيمانِ باللهِ الرَّبِّ وَحْدَه لَا شَرِيك لَهُ، مُقْتَرِناً بِبَيَانِ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ الواحِدَةِ لِكَوْنِهِ كُلِّه، ويَلْزَمُ مِنْ هـٰذَا عَقْلاً تَوْحِيدُهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ الرَّبِّ لا شريكَ لَهُ فيها.

الدرس الثالث: الآيات من (١٣ ـ ١٨).

وفي هـٰذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِه ﷺ أَنْ يُنْذِرَ الْمُعَالَجِينَ في السُّورَةِ، بِصَاعِقَةٍ مُهْلِكَةٍ لَهُمْ إهْلاكاً جَمَاعِيّاً شامِلاً، إنْ أَعْرَضُوا جَمِيعاً عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، وتَوَقَّفَ المتوافِدُونَ مِنْهُمْ للإيمان والدُّخُولِ في الإسلام. مع بَيَانٍ يتَعَلَّقُ بِكُفْرِ عَادٍ وثَمُود، وإهْلَاكِ كُلٍّ مِنْهما، ونجاةِ الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُون.

الدرس الرابع: الآيات من (١٩ ـ ٢٥).

وفي هذا الدَّرْسُ عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَةِ يتعَلَّقُ بالْكَافِرين، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ أحْوالِهِم الَّتِي كانُوا بِهَا ضَالِّينَ، في الحياةِ الدُّنيا، يَتَّبِعُونَ فيها قُرَنَاءَ السُّوء.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٦ ـ ٣٢).

وفي آياتِ هذا الدَّرْسِ بيانُ دَعْوةِ أئِمَّةِ الكُفْرِ في مَكَّة إبَّانَ التنزيل،

لِجَمَاهِيرِهِمْ أَنْ لَا يَسْمَعُوا لِلْقُرْآن، وإذَا تُلِيَ عَلَيْهِم أَنْ يَلْغَوْا فِيهِ لِيُشَوِّشُوا عَلَىٰ صَوْتِ التَّالِي، فَلَا يَصِلُ الكلامُ سَوِيّاً إِلَىٰ أَسْمَاعِ شُهُودِ التِّلَاوَة، رَجاءَ أَنْ يَغْلِبُوا بِلَغْوِهِمْ دَعْوَة الدَّاعي إلى اللهِ.

وفيها وعِيدٌ مِنَ اللهِ لِلّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ شَدِيدٍ يَوْمَ الدِّين، مع عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ وهُمْ يُعَذَّبُونَ في النار.

وفيها وَعْدٌ لِلّذينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، بما يَلْقَوْنَهُ مِنْ بُشْرَيَاتٍ في الحياة الدُّنْيَا، وَثَوَابٍ جَزِيلٍ يَوْمَ الدِّين.

الدرس السادس: الآيات من (٣٣ ـ ٣٦).

وفي آيَاتِ هذا الدَّرس تَرْغيبٌ للمؤهَّلِينَ أَنْ يكُونُوا دُعَاةً للهِ، فِي أَنْ يَقُومُوا بِوَظِيفَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ وَإِلى صِراطِهِ المستقيم، مع تَوْصِيَتِهِمْ بِأَنْ يَدْفَعُوا الَّذِينَ يُؤْذُونَهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَن، وأَنْ يَسْتَعِيذُوا باللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيم مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ الدَّاعِي إِلَى مُقَابلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ بأَشَدَّ مِنْها.

الدرس السابع: الآيات من (٣٧ ـ ٣٩).

وفي هذا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ علَى وحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبيَّتِهِ، المسْتَلْزِمَةِ وَحْدَانِيَّتَهُ في إِلَهِيَّتِهِ، مع الدَّعْوَةِ إلى السُّجُودِ للهِ وَحْدَه. وعرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ علَىٰ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ إحْيَاءِ الْموتَىٰ، الْمُمَاثِلِ لإحْيَاءِ الأرضِ بِالنَّبَاتِ بَعْدَ مَوْتها.

الدرس الثامن: الآيات من (٤٠ ـ ٤٥).

وَفي هذا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ بِالإنْذَارِ لِلّذين يُلْحِدُونَ في آيَات الله، ولِلّذِينَ كَفَرُوا بالقرآن، وفيه تَسْلِيَةٌ للرَّسُولِ ﷺ، ودَفْعٌ لِبَعْضِ أقْوَالِ الكافِرِينَ بِشَأْنِ القرآن، وتَعْلِيمٌ للرَّسُول ﷺ مَا يَقُولُه لهم.

الدرس التاسع: الآيات من (٤٦ ـ ٤٨).

وفيه بَيَانٌ مُجْمَلٌ بِشَأْنِ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً وَمَنْ أَساء، وأَنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ عِبادَهُ شيئاً.

وفيه بيانٌ عَنْ شُمُولِ عِلْم اللهِ مُضَافٌ إلَىٰ مَا سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزيل بشَأْنِ عِلْمِهِ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

وفيه عَرْضُ لَقْطَةٍ مِن مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين تَتعلَّقُ بالمشْرِكين.

الدرس العاشر: الآيَات من (٤٩ ـ ٥١).

وفي هذا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَن بَعْضِ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ بِوَجْهٍ عَامٍّ، وَأَنَّهُ دَائِمُ الطَّلَبِ لِمَا يَرَاهُ خيراً لَهُ في الحياة الدُّنيا، فإذا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يؤُوساً قَنُوطاً. وأَنَّهُ كَفُورٌ جَحُودٌ لِنِعَمِ اللهِ عليه.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٥٢ ـ ٥٤) آخر السورة.

وفي هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ الله عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أُسْلُوباً مِنْ أَسَالِيب مُحَاجَّةِ الْكَافِرِينَ بالقرآن، وفيه بيَانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بأَنَّهُ سَيُرِي النَّاسَ في المسْتَقْبَلِ بَعْضَ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ أنَّ القرآن حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، ولَيْسَ مِنْ وَضْعِ بَشَر، فالبشر عاجزُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ الآيَاتِ الْبَاهِراتِ الَّتِي سَيُرِيها اللهُ عَزَّ وَجلَّ للنَّاسِ فِي كَوْنِهِ، وقَدْ أَخْبَرَهُمْ عَنْهَا فِي القرآن.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدّرْس الأول من دُروس سورة (فُصّلت)

الآيات من (١ ـ ٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ

فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أَبُو جَعْفَر على «حَا» وعلى «مِيم» سَكْتَةً لَطِيفَة.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ القرآنِ مُضَافٌ إلَىٰ مَا سَبَقَ مِنْ بَيَانٍ عَنْهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَة، مَعَ بَيَانِ مَوْقِفِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ في مَكَّةَ مِنْهُ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السّورَة، مَعَ تَعْلِيمِ الرَّسُولِ ﷺ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ عِلَاجاً لِبَعْضِ شُبَهِهِمْ، ومَعَ دَعْوَةٍ إِلَىٰ الاسْتِقَامَةِ في مَسِيرَتِهِمْ عَلَىٰ صِرَاطِ الله، بَعْدَ الإيمان بالحقّ، وَتَحْذِيرٍ لَهُم مِنْ الشّرْكِ وعاقِبَتِهِ، وتَرْغيب في الإيمان وعاقِبَتِهِ التَّي ينالُونَ فيها أَجراً عظيماً لَا يَنْقَطِع.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ :

• ﴿حمٓ ۝١﴾: سبَقَ بيانُ مَا يكْفِي بالنّسْبَةِ إلى الحُروف المقطّعةِ الَّتِي جَاءَت في أوائل بَعْضِ سُوَرِ القرآن، في تَدَبُّر أوائِلِ سُورَة (الْقَلَم/ ٤ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾.

أي: هَـٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ لِسَانِ الرُّسُولِ محمَّدٍ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، وقد سبَقَ في أوائِلِ المجلّدِ الأوّل شَرْحٌ وافٍ لِهـٰذَينِ الاسْمَيْن من أسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

تَنْزِيل: مَصْدَرُ فِعْل: «نَزَّل يُنَزِّلُ»، وقَدْ «أُطْلِقَ المصْدَرُ وأُرِيدَ بِهِ اسْمُ المفْعُول، أي: مُنَزَّلٌ من الرَّحْمٰن الرحِيم.

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُو الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، فَكُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ خَلْقٍ أَو بَيَانٍ هُو تَنْزِيلٌ مِنْهُ، إذْ لَا يُدَانِيهِ ولَا يَكُونُ مَعَهُ شَيْءٌ فِي شَيْءٍ مِنْ عُلُوِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

وفي الإعْلَامِ بأنَّ هَـٰذا القرآنَ تَنْزِيلٌ من اللهِ، دَفْعٌ لأَوْهَامِ الَّذِينَ يَرَوْنَهُ مِنْ صُنْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمُعِينِينَ لَهُ مِن الإنْسِ أو الْجِنّ.

وقد جاءَ في سوابق نجوم التَّنْزِيل بيانُ:

(١) أنَّهُ تَنْزِيلٌ مَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ في الآية (٨٠) من سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول) وفي الآية (١٩٢) من سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول).

(٢) وأنَّهُ تنزيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيم في الآية (٥) من سورة (يٓس/ ٤١ نزول).

(٣) وأنَّهُ تَنْزِيل من اللهِ الْعَزِيز الحَكِيم في الآية (١) من سورة (الزمر/ ٥٩ نزول).

(٤) وأنَّهُ تَنْزِيلٌ من اللهِ الْعَزِيز العَلِيم في الآية (٢) من سورة (غافر/ ٦٠ نزول).

فَدَلَّ هـٰذا التنويعُ في الْبَيَانِ على المنْهَج التكامُلِيِّ في القرآنِ بَيْنَ النُّصُوص.

- فكوْنُ مَا جَاءَ في القرآنِ قد اشتَملَ عَلَىٰ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِلْعَالَمِين، يُنَاسِبُهُ أنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرّحيم.

- وكَوْنُ مَا جَاء في القرآن قد اشتملَ عَلَىٰ أوامِرَ وَنواهِي وتَكالِيف تقتضيها رُبُوبِيَّة اللهِ عَزَّ وَجلَّ، يُناسِبُهُ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمين.

- وكَوْنُ مَا جَاءَ في القرآنِ يَشْتَمِلُ علىٰ إعْجَازٍ لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرُ اللهِ الْعَزِيز الْقَوِيّ الغالِبِ تَقْدِيمَهُ، مع اشتمالِهِ علَىٰ مَا فِيهِ رَحْمَةٌ للعباد، يُنَاسِبُهُ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلُ العزيز الرَّحِيم.

- وكَوْنُ مَا جَاءَ فِي الْقُرآن يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَعَارِفَ وعُلُوم غيبيَّة لَا يَعْلَمُها إلَّا اللهُ تباركَ وتَعالَىٰ، يُنَاسِبُهُ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلُ الْعزِيزِ الْعَلِيم.

- وكَوْنُ مَا جَاءَ فِي القرآن يَشْتَمِلُ عَلَىٰ بَيَانَاتٍ حَكِيمَةٍ، وتَكَالِيفَ حَكِيمَةٍ مُلَائِمَةٍ لِأَحْوَالِ العباد، يُنَاسِبُهُ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّهُ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الْحَكِيم.

ونظراً إِلَىٰ القرآنِ كُلِّهِ مَا نَزَلُ مِنْهُ سَابِقاً، ومَا سَيَنْزِلُ مِنْهُ حتَّىٰ آخِرِ سُورَة، قال اللهُ تَعالَىٰ:

- ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾:

أي: هذا البَيَانُ الَّذي تُلِيَ قِسْمٌ مِنْهُ، وسَيَنْزِلُ علَىٰ الرَّسُولِ ﷺ سَائِرُهُ، هُوَ ﴿كِتَٰبٌ﴾ تَجِبُ كِتَابَتُهُ وجَعْلُ صَفحاتِهِ كِتَاباً مُدوَّناً مَحْفُوظاً مِنَ التغيير والتَّبْدِيلِ والزِّيادَةِ والنَّقْص، وهذا مَا تحقَّقَ بِفِعْلِ الرَّسُولِ ﷺ والْخِيرَةِ مِنْ أَصْحَابِهِ قادَة المؤمنين المسْلمين.

لفظ: ﴿كِتَٰبٌ﴾ بَدَلٌ مِنْ مُبْتدأ الْجُمْلَةِ السَّابِقَة أو مِنْ خَبَرِها.

- ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: أي: بُيِّنَت آياتُه بَيَاناً وَافِياً بالمقْصُودِ بها.

التَّفْصِيل: التَّبْيِينُ، وكَشْفُ حُدُودِ الأجْزاءِ المتلاصِقَةِ في الظَّاهِر، بإظْهارِ مَا بَيْنَها من انْفِصالٍ، ولو لم يَكُنْ مَرْئِيّاً، لتمييز بَعْضِها عَنْ بَعْضٍ فِي الإدْرَاكِ الفكْرِيّ.

إنَّ تَفْصِيلَ الْبَيَانِ يمْنَعُ اخْتِلَاطَ الأفْكَارِ وَتَداخُلَ بَعْضِها بِبَعْضٍ،

ويَظْهَرُ تَفْصِيلُ البيانِ القرآني مِنْ جَمْعِ النُّصُوصِ القرآنية الموزَّعَةِ في السُّور، وتَدَبُّرِهَا تَدبُّراً تَكامُلِيّاً.

• ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾: أُطْلقَ لفظ القرآن في الاصطلاح الدِّينيّ عَلَىٰ الكَلامِ المنزَّلِ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالمين علَىٰ مُحَمَّد ﷺ.

وَلفظ «قرآن» هو في الأصْلِ مَصْدَرُ فِعْلِ «قرأ» يُقَالُ لُغَةً: «قَرأَ الكِتَابَ، يَقْرَؤُهُ، قِرَاءَةً، وقُرْآناً» أي: تَتَبَّعَ كَلِمَاتِهِ نظراً، ونَطقَ بها. وهو هنا مَنْصُوبٌ على أنَّهُ «حال»، أي: حالَة كوْنِهِ قرآناً عَرَبياً.

واخْتيرَ تَسْمِيَةُ كِتَابِ اللهِ الخاتِمِ «قُرْآناً» لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ الْحَثِّ علَىٰ قِرَاءَتِه مِنَ المصْحَفِ، فَأَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ لَا يَحْفَظُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، حَتَّىٰ حُفَّاظُهُ يَحْتَاجُونَ إِلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَىٰ المصْحَفِ، حِمَايَةً لِتِلَاوتِهِمْ مِنَ الْغَلَطِ والْخَطَأ والنِّسْيان.

وَوَصَفَ اللهُ هٰذا الكِتَابَ بأنَّهُ عَرَبِي، أي: أَنْزَلَهُ اللهُ بِلِسَانِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّة، ولَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ عَرَبِيّاً عَدَمُ وَجُودِ كَلِمَاتٍ فِيهِ ذَاتِ أُصُولٍ غَيْرِ عَرَبِيَّة، إذْ قد اسْتَعْمَلَ الْعَرَبُ هٰذِهِ الكَلِمَاتِ، وطَوَّعُوها لِلُغَتِهِمْ وَأُصُولِهَا وَقوَاعِدِها.

• ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾: أي: هذا الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبيّاً، مُنَزَّلاً ومُوَجَّهاً لِقَوْمٍ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ الْعِلْمِ واكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ المنَزَّلَةِ مِنْ رَبِّهِمْ آناً فآناً، ويَحْرِصُونَ على الْعِلْم واكْتِسَاب المَعْرِفَةِ بِوَجْهٍ عَامٍّ، إذْ هُمْ يُدْرِكُونَ قِيمَةَ أجْهِزَةِ الْعِلْم الَّتِي آتاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ إيَّاها، فَيَسْتَعْمِلُونَها فيما خُلِقَتْ لَهُ، ويُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ.

• ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾:

الْبَشِير: صِيغَةُ مُبالَغَة لِلْمُبَشِّر، وهو المخْبِرُ بما يَسُرُّ المبشَّرَ وَيُفْرِحُهُ.

النَّذِيرُ: اسْمٌ لِلإِنْذارِ، مَصْدَرِ أَنْذَرَه. **الإنذار**: الإخبارُ بعَواقِبَ غَيْرِ سَارَّةٍ، كَشَرٍّ قَادِمٍ، أو عُقُوبَةٍ عَلىٰ مُكْتَسَبٍ إراديّ.

والنَّذِيرُ: يأتي بمعنىٰ المنْذِر.

ولَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ مُشْتَمِلاً علَىٰ آياتٍ فيها تَبْشِيرٌ للمؤمنينَ المتَّقِين بثَوابٍ عَظِيمٍ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ، وصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُ بَشِيرٌ.

ولَمَّا كان مُشْتَمِلاً عَلَىٰ آياتٍ فِيهَا إنْذَارٌ بِعِقَابٍ أَلِيمٍ، للكافِرِينَ والْعُصَاةِ المسْرِفِينَ في مَعَاصِيهِمْ، وَصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُ نَذير.

وبما أَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ، وكَلَامٌ مِنْ كَلامِهِ، فَهُو فِي الْحَقِيقَةِ الْمُبَشِّرُ والمنذِرُ.

- ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾: أَيْ: فَأعْرَضَ أَكْثَرُ الَّذِينَ بَلَّغَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ القرآنِ المجيد في الْبَلَدِ الأوّل لدَعْوَتِه وهو مكة.

الْإعْرَاض: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَال والإدْبَار، والْمُعْرِضُ يَنْصَرِفُ بِفِكْرِهِ وحَوَاسِّهِ عمَّا يُوَجَّهُ له، ولهذا قال تَعَالَىٰ:

- ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾: أَيْ: فَهُمْ لَا تَصِلُ الآياتُ الَّتِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إلى مَرَاكِزِ السَّمْعِ فِي أَدْمِغَتِهِمْ، فَلَا يَفْهَمُونَها، ولا يَتَدَبَّرُون دَلَالَاتِها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَوْقِفَ الكافِرِينَ المعالَجِينَ في السورة إبَّانَ تَنْزِيلِها.

- ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾:

أَكِنَّة: جمع «كِنٍّ» وهو المكان المحفوظ المحجوبُ ببناء أو بِغَيْرِه مِنَ الْحُجُب، وجمع «كِنان» وهو الغطاء، وكلُّ شيءٍ يقي شيئاً ويَسْتُرُه.

وقْرٌ: **الْوَقْرُ**: الصَّمَمُ، أو هو ثِقَلٌ فِي السَّمْعِ قَرِيبٌ مِنَ الصَّمَم.

اشْتَمَلَتْ هـٰذِهِ الآيَةُ علىٰ أَرْبعِ مَقالاتٍ قَالَها أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة، أو قَالَها بَعْضُهُمْ وأقَرَّهَا سائِرُهم، لِتَيْئِيسِ الرَّسُول محمد ﷺ مِنْ مُتَابعَةِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، وتِلَاوَةِ مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَلَيْهِمْ.

المقولَة الأولَىٰ: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾:

أرادوا بالْقُلُوبِ مَراكِزَ الْإِدْراكِ والتَّفْكِيرِ في أَدْمِغَتِهِمْ، فالْقَلْبُ يُطْلَقُ عِنْدَ العَرَب عَلَىٰ وَسْطِ كُلِّ شَيْءٍ ولُبِّهِ ومَحْضِهِ، والْعُمْقُ المدْرِكُ المفَكِّرُ المسْتَقْبِلُ لْلِمَعْرِفَةِ فِي الإنْسَانِ، هو مَا في دِمَاغِ رأْسِهِ من أجْهِزَةٍ تُدْرِكُ مَا يَصِلُ إِلَيْهَا من الصُّوَرِ والمعانِي والأقوالِ، وتُحَلِّلُ فِيهَا وتُفكِّرُ، وتحْفَظُ في الذَّاكِرَة، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أعْمَالٍ فِكْرِيَّة.

وقَدْ عَبَّرُوا عَنْ عَدَمِ وُصُولِ مَا يَدْعُوهُمْ الرسولُ ﷺ إِلَيْهِ، بآيَاتِ القرآنِ وبِبَيَانَاتٍ مِن عِنْدِه، بأَنّ قُلُوبَهُمْ (وهي مَرَاكِزُ الإدْراك والتفكير في عُمْقِهِمْ) مُحَاطَةٌ في أَكِنَّةٍ تَمْنَعُ وَصُولَ دَعْوتِهِ إِلَيْهَا، فَهِي محجوبَةٌ، عَنْهَا.

أي: فَهِيَ في شِبْهِ أَكِنَّةٍ مَانِعَةٍ مِنْ وُصُولِ دَعْوتِكَ إليها. إنَّ رَفْضَهُمْ لِدَعْوتِهِ في المراحِلِ الْأُولَىٰ مِنْ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ فِيهم، جَعَلَ مَرَاكِزَ الإدْرَاكِ فِي دَاخِلِهِمْ تُحْجَبُ بِحُجُبٍ نَفْسِيَّةٍ كَثِيفَةٍ خاصَّةٍ بِمَنْع وُصُولِ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ إِلَيْها، مَعَ مُرُورِ الزَّمنِ، حتَّىٰ قُبَيْلَ نُزُولِ سُورَةِ (فُصِّلَت).

[مِنْ] في ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ مَعْمُولٌ لَمحذُوفٍ من السَّهْلِ مُلَاحَظَتُهُ وتقديرُهُ، وهو صِفَةٌ لِلفْظِ ﴿أَكِنَّةٍ﴾ تقديرُه: في أكِنَّةٍ مَانِعَةٍ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ بَيَانٍ رَبَّانِيٍّ أَوْ بَيَانٍ مِنْكَ.

المقولَةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾: أي: والأَدَاةُ النَّاقِلَةُ لِلصَّوْتِ وهِيَ آذانُنا مُصَابَةٌ بالصَّمَم أو بِمَا هُوَ قَرِيبٌ مِنَ الصَّمَم بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا تَدْعُونَا إليه، فَنَحْنُ لَا نَسْمَعُ بأدَواتِ سَمْعِنَا أصْوات دَعْوَتِكَ لَنَا.

إنَّ انْشِغَالَ أَفْكارِهِمْ بِمَا هُوَ مُضادٌّ أَوْ مُنَاقِضٌ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، يَجْعَلُ آذَانَهُمْ لَا تَسْمَعُ الكَلَامَ المتضَمِّنَ شَيْئاً مِنْ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانية، حَتَّىٰ كأنَّها صَمَّاءُ أَوْ مُصابَةٌ بمَا هُو قَرِيبٌ من الصَّمَم.

المقولَةُ الثالِثَة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾: أي: والأَرْضُ الفاصِلَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ قَدْ قَامَ فِيهَا حِجَابٌ يَحْجُبُنَا عَنْكَ، فَنَحْنُ لَا نَرَاكَ وَلَا نَشْعُرُ بِوُجُودِكَ فِي مُجْتَمَعِنا.

وهذا مِنْهُمْ إمْعَانٌ فِي الْغُلُوّ الّذي يُعَبِّرونَ فِيهِ عَنْ رَفْضِ دَعْوَتِه رَفْضاً كُلِّيّاً، فَلَا المعَانِي الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا تِلَاوَاتُهُ وبَيَانَاتُهُ تَصِلُ إلى مَرَاكِزِ الإِدْرَاكِ والتفكِير في عُقُولِهِم، وَلَا الأَصْوَاتُ المَشْتَمِلَةُ على أقواله في دَعْوته تَمُرُّ مِنْ آذَانِهِم، إلى مَرَاكِزِ السَّمْعِ في أَدْمِغَتِهِمْ، وَلَا المسَافَةُ الأَرْضِيَّةُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ مَشَاهَدَتِهِ، ومن الشُّعُورِ بِوُجُودِهِ، لِوُجُودِ حِجَابٍ مَعْنَوِيٍّ قَائِمٍ فيها يَحْجُبُهُ عَنْهُمْ.

وَلَا يَخْفَىٰ مَا فِي هَـٰذِهِ التَّعْبِيراتِ مِنَ الْغُلُوّ الدَّالِّ عَلَىٰ شِدَّةِ رَفْضِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، وسَمَاعِ أَقْوَالِهِ، وَحُضُورِهِمْ المكانَ الَّذِي يَكُونُ هو فيه لِئَلَّا يُشَاهِدُوا شَخْصَهُ.

هذا هو الموقف الّذي وصَلَ إِلَيْهِ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ قُبَيْلَ نُزول هذه السورة.

المقولَةُ الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِهِم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾:

إنَّهُمْ بهـٰذِهِ المقولَةِ يَتَحَدَّوْنَ الرَّسُولَ ﷺ باسْتِعْلَاءٍ واسْتِكْبَارٍ، أَنْ يَعْمَلَ مَا يَسْتَطِيعُ عَمَلَهُ لِدَفْعِ كَيْدِهِمْ وَمُقَاوَمَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، فإنَّهُمْ سَيَعْمَلُونَ بِكُلِّ قُوَّاتِهِمْ لإِيقافِ دَعْوَتِهِ، ومَنْعِ انْتِشَارِهَا، ولاضطهادِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ويَتَّبِعُونه، وللتخلُّصِ مِنْهُ بوسِيلَةٍ مِن الوسائل.

والمعْنَىٰ: فاعْمَلْ مَا شِئْتَ أَنْ تَعْمَلَ، فَنَحْنُ ذَوُو الْقُوَّةِ الْغَالِبُون، وَتَأَكَّدْ أَنَّنا عَامِلُونَ ضِدَّكَ وَضِدَّ دَعْوَتِكَ، وَضِدَّ الّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ بما لَدَيْنَا مِنْ قُوىً غالِبَةٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَىٰ مَوْقف الكافِرِين الْمُعَالِجِينَ فِي السُّورَة، مَا جَاءَ التَّصْرِيحُ بِهِ في المقالَاتِ الْأَربع السابقَاتِ، وَمَا لَمْ يَأْتِ التَّصْرِيحُ به وَلَكِنْ دَلَّ عَلَيْهِ مَا جَاءَ في التَّعْلِيم، مَعَ بيانٍ دَعَوِيّ:

• ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾:

في هَذَا التَّعْلِيم الرَّبَّانِيِّ للرَّسُولِ ﷺ، تَوْجِيهٌ لِبَيَانِ وشَرْحِ خَمْسِ قضَايَا:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

هـٰذا البيانُ التَّعْليميُّ قَدْ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ المعَالِجِينَ في السُّورَةِ، مَا زَالُوا يَتَعَلَّلُون لِرَفْضِ الْإيمانِ بنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِه وَعَدَم الاسْتِجابَةِ لِدَعْوته بأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، زاعِمِينَ أَنَّ الْبَشَرَ غَيْرُ مُؤَهَّلِينَ لِتَلَقِّي الْوَحْي عَنِ اللهِ، وَقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ تَقْدِيمُ البراهِينِ على سُقُوط تَعِلَّتِهِمْ هَـٰذِهِ وَبُطْلَانِها، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُؤَكِّدَ لَهُمْ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ مِنْ جِهَةِ التَّكْوِينِ الْخَلْقِيّ، ولَكِنَّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ اصْطَفَاهُ بِحِكْمَتِهِ لِلنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وَيُكَرِّرُ الْوَحْيَ إِلَيْهِ مُبيِّناً وَمُكَلِّفاً إِيَّاهُ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ إِنَّمَا إِلَهكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

• ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: أي: مَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ مِنْ جِهَةِ التَّكْوِين الْجَسِديّ والنَّفْسِيِّ، فَلَسْتُ مَلَكاً مِنَ الْمَلائِكَةِ، ولَيْسَ لِي طَبِيعَةٌ فَوْقَ طَبيعَةِ الْبَشَر.

في هـٰذِهِ الْعِبَارَة قَصْرٌ بأدَاةِ القصر «إنَّما» وهو من قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْراً إضَافِيّاً، أي: إنْ كُنْتُمْ لَا تَقْبَلُونَ نبيّاً وَلَا رَسُولاً إلَّا إذَا كانَتْ لَهُ طَبِيعَةٌ غَيْرُ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ، فَمَا أَنَا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، آكُلُ ممَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ، وأَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُون، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاء، وَيَجْرِي عَلَيَّ نَظِيرُ مَا يَجْرِي عَلَىٰ سَائِرِ الْبَشَر.

- ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي: وَاخْتَارَ اللهُ أَنْ يَصْطَفِيَنِي فَيَجْعَلَنِي نَبِيّاً وَرَسُولاً، فَهُوَ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُوحِي إِلَيَّ بتَتَابعٍ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ هُو رَبُّكُمْ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِه، وهُو وَحْدَهُ صَاحِبُ الْحَقِّ فِي أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، ولَا شَيْئاً.

في عِبارة ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قَصْرٌ بأداة الْقَصْرِ «أَنَّما» وهُوَ مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوفٍ، وهُوَ قَصْرُ صِفَةِ الإلَٰهِيَّةِ عَلَىٰ إلَٰه مَعْبُودٍ واحِدٍ، ومَعْلُومٌ مِنْ سَوَابِقِ التَّنْزِيلِ أَنَّ هـٰذا الْإِلَٰهَ الْمَعْبُودَ الْوَاحِدَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِين، فَهُو بِرُبُوبِيَّتِهِ لِعِبَادِه، لَهُ وَحْدَهُ حَقُّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً وَلَا شَيْئاً.

هـٰذِهِ حقيقةٌ قَامَتْ عَلَيْهَا بَرَاهِينُ الْعَقْلِ، وَجَاء بالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا والأمْرِ بِهَا جَمِيعُ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ في تَارِيخ الْبَشَرِيَّة.

وهَلْ فِي اصطفاءِ اللهِ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ مُنَافَاةٌ لِلْعَقْلِ، أَو مُنَافَاةٌ لِلْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّة، أو فِيْهِ نِسْبَةُ شَيْءٍ إِلَىٰ اللهِ لَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِهِ لِعِبَاده، وَقَدْ سَبَقَ أَنِ اصْطَفَىٰ جَمِيعَ أَنْبِيَائِهِ ورُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام إِلَىٰ الْبَشَرِ مِنَ الْبَشَرِ أَنْفسِهِمْ، لِعِلْمِهِ بأَهْلِيَّتِهِمْ لهـٰذَا الاصطفاء.

القضية الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي التَّعْلِيم: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾:

الاسْتِقَامَة: الاعْتِدَالُ والاسْتِوَاءُ، وضِدُّه الْعِوَجُ وهُوَ عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ في الأمُور المعْنَوِّية.

وَلَمَّا كَانَ الموضُوعُونَ في الحيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مُطَالَبِيْنَ بأَنْ يَسْلُكُوا صِرَاطَ اللهِ المستقيم، اعْتِقَاداً وعَملاً، ظَاهِراً وَبَاطِناً، نَفْسِيّاً وَجَسَدِيّاً، وَكَانَتْ حَيَاتُهُمْ مُتَوالِيَةَ الْأَزْمَانِ.

وَلَمَّا كَانُوا سَائِرِينَ فِي حَيَواتِهِمْ كَادِحِينَ إِلَىٰ غَايَةٍ يَكُونُ عِنْدها حِسَابُ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وفَصْلُ قَضَائِهِ بشَأْنِهِمْ، ومُجَازَاتُهُمْ علَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، كَانَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ أَنْ يَسْتَمِرُّوا مُسْتَقِيمينَ، إِلَىٰ الغَايَةِ الَّتِي يَكُونُ عِنْدَها حِسَابُهُمْ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِم، ومُجَازَاتُهُمْ.

إنَّ الاسْتِقَامَةَ علَىٰ صِرَاطِ اللهِ طَوالَ رِحْلَةِ الامتحان، من الأمُور الشَّاقَّةِ علَىٰ النَّفْسِ الإنْسَانِيَّة، وَلِهَـٰذَا كَانَ مِنْ أَعْظَمِ فَضَائِلِ الإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَمِرَّ مُسْتَقِيماً طَوَالَ رِحْلَةِ امْتِحَانِه.

وَلِهَـٰذَا جَاءَ فِي الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ أَنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ خَطَّاء، وأَنَّ خَيْرَ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ، فجاء في التعليم الأمْرُ باسْتِغْفَارِ اللهِ، وهو القضية التالية:

القضيَّة الثالِثَة: دلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ في التعليم: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ﴾:

أي: وادْعُوا اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ إذَا خَرَجْتُمْ عَنْ واجِبِ الاسْتِقَامَةِ على صِرَاطِ اللهِ، فَمِنْ صِفَاتِ اللهِ أَنَّهُ يَغْفِرُ ذُنُوبَ الْمُذْنِبِينَ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا اسْتَغْفَرُوه.

الاسْتِغْفَارُ: طَلَبُ غُفْرَانِ الذُّنُوبِ وهو سَتْرُها، ومِنْ لوازِمِ السَّتْرِ عَدَمُ المؤَاخَذَةِ عَلَيْهَا بِفَضْلِ اللهِ على عباده.

الْقَضِيّة الرابعة: دلَّ علَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ في التَّعْلِيم:

﴿.. وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾:

وَيْلٌ: كَلِمَةُ عَذَابٍ، وفيها مَعْنَىٰ الوعِيدِ بحُلُولِ عِقَابِ الله. وورَدَ أنَّ كَلِمَة «ويْل» اسْمٌ عَلَمٌ عَلَىٰ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ.

وكَلِمةُ «ويل» تأتي مُبْتدأً، والمجْرُورُ بَعْدَها باللَّام «خَبَرٌ»، وسَوَّغ الابتداء بها أنَّها تَحْمِلُ وَصْفاً مُقدّراً، أي: وَيْلٌ عظيمٌ، وإذا كانَتْ علماً على وادٍ في جَهنم فهي مَعْرِفَةٌ لَا إشْكالَ في جَعْلِها مبتدأً.

﴿لِّلْمُشْرِكِينَ﴾: وهُمُ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ للهِ شَرِيكاً فِي رُبُوبيَّتِهِ، أوْ فِي إلهيَّتِهِ.

وأَبانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في التَّعْلِيم أنَّ مِنْ صِفاتِ المشركين صِفَتَيْنِ شَدِيدَتَي الْقُبْحِ والْخِسَّة، وهُمَا:

(١) أنَّهُمْ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ مِنَ أمْوَالِهِمْ، لجَفَافِ عَاطِفَتِهِمْ عَلَىٰ ذوي الحاجَات مِنْ عِبادِ اللهِ، ولِأَنَّهُمْ لَا يَشْكُرُونَ نِعَمَ اللهِ الكَثِيرَةَ عَلَيْهِم، بِبَذْلِ شَيْءٍ مِنْهَا في السُّبُل الَّتِي أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بالْبَذْلِ فِيها، إذْ لَا يَتَوَقَّعُونَ أَنَّ اللهَ سَيُكَافِئُهُمْ عَلَىٰ مَا يَبْذُلُونَهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاتِهِ، والمرادُ بالزَّكاة في هٰذه المرحَلَة المكيَّةِ مُطْلَقُ الْبَذْلِ لذَوِي الحاجات والضروراتِ في المجتمع، وذكرُها في هذه المرحلة هو من قبل التمهيد بتكليف عامٍ قبل تَنْزِيلِ مقدار الواجب.

(٢) أنَّهُمْ كافِرُونَ بالْآخِرَةِ، فَلَا هَمَّ لَهُم غَيْرُ حُظُوظِهِمْ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، وهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ أَنْ يَعْمَلُوا شَيْئاً لِيَوْم الدِّينِ، الذي سيكُونُ بَعْدَ الموْتِ والْبَعْثِ، إذْ هُمْ كَافِرونَ بِهِ، غَيْرُ مُصَدِّقِينَ بأنَّهُ يَوْمٌ قَادِمٌ لَا مَحالَةَ.

القضية الخامسة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ في التعليم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾:

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي: مُتَتَابِعٌ غَيْرُ ناقِصٍ عَنْ رَغَباتِ أَهْلِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ، وَغَيْرُ مَقْطُوعٍ في زَمَنٍ مَا مِنْ أَزْمَانِ الْأَبَد، إِذْ هُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ خَالِدُون.

يُقَالُ لغة: «مَنَّ الشَّيْءُ» أي: نَقَصَ.

ويُقَالُ لغة: «مَنَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: قَطَعَه.

وبِحَمْلِ اللّفظ على معْنَيَيْهِ يكونُ المعنى: غَيْر نَاقِصٍ ولَا مقْطُوع.

في مقابِلِ وَعِيدِ المشركين بالعذابِ الألِيمِ، جَاءَ فِي التعليم التوجيه لِوَعْدِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وعَمِلُوا الصَّالِحَات الدَّالَّاتِ بالتطبيقِ الْعَمَلِي علَىٰ صِحَّةِ إيمانِهِمْ وفَاعِلِيَّتِهِ فِي السُّلُوكِ، بأنَّ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ أَجْراً عَظيماً غَيْرَ نَاقِصٍ عَنْ رَغَبَاتِهِمْ وأَمَانِيهِمْ، وَغَيْرَ مقطوعٍ في زَمَنٍ مَا مِنْ أزْمانِ خلودهم الأبدي.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدّرس الأول من دُروس سورة (فصلت).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ ومِنَّتِهِ وتوفيقِه وفتحه.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (فصّلت) الآيات من (٩ ـ ١٢)

قال الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا

طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ⑪ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ⑫﴾.

القراءات:

(١٠) ● قرأ أبو جعفر: [**سَواءٌ**] بالرّفع، أي: هِي سواءٌ.

وقرأها يعقوب: [**سَواءٍ**] بالجرّ، صِفة لـ«أيّامٍ».

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿**سَوَاءً**﴾ بالنَّصْبِ، علَىٰ أنَّها حالٌ من ﴿**أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**﴾.

(١١) ● قرأ قالُون، وأبو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [**وَهْيَ**] بإسْكانِ الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَهِيَ**﴾ بكَسْرِ الهاء.

وهما لغتان عَربيتان. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

تمهيد:

في هذا الدَّرْس تعليم من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلّ داعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، حواراً دَعَوِيّاً حوْلَ قَضِيَّةِ الإيمان باللهِ الرَّبّ وحْده لَا شَرِيكَ لَه، مقترناً بِبَيَانِ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كونه الدَّالَّات علَىٰ رُبُوبيّتِهِ الواحِدَةِ لِكَوْنِهِ كُلِّهِ، ويَلْزَمُ مِنْ هـٰذا عقلاً تَوْحِيدُهُ في إلَٰهيَّته؛ لِأَنَّ العبادَةَ حَقٌّ من حُقُوقِ الرَّبّ لَا شَرِيكَ لَهُ فيها.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُوله ﷺ في التعليم الدَّعَويّ:

● ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ⑨﴾:

الأَنْدَادُ: جمع «النِّدِّ»، وهُوَ المِثْلُ والنَّظِيرُ والكُفْء.

والاستفْهامُ الَّداخِلُ علىٰ الجملَة المؤكَّدَةِ بـ «إنَّ واللام المزحلقة» استفهامٌ فِيه معنَىٰ التَّعجُّبِ مِنْ فَرِيقٍ مِنَ المعَالَجِين، ومعنَىٰ التوبيخ لِفَرِيقٍ آخر مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ أدركُوا الحقَّ وَعانَدُوه مُصِرِّيْنَ علَىٰ باطِلِهم من الشِّرْكِ والكُفْرِ باللهِ الَّذِي خَلَقَ الأرْض، وَخَلَق كُلَّ كائِنٍ في الكَونِ مِنْ دُونه جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه.

أي: عجَبٌ لِأَمْرِكم وأنْتُمْ أَهْلُ الرَّأي والْعَقْلِ والْقُدْرَةِ عَلَىٰ إدْرَاك الْحَقِّ، كيْفَ تَجْعَلُونَ للهِ الرَّبِّ خَالِقِ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ أمْثَالاً وَنُظَراءَ وأكْفَاءَ فِي رُبُوبيَّتِهِ وَإلٰهِيَّتِهِ فَتدْعُونَهُمْ وتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِه، وهُمْ لَا يَمْلِكُون لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضرّاً.

والعالِمُونَ مِنكم بهـٰذِهِ الحقيقَةِ يَسْتَحِقُّون التَّوبِيخ والتثريب، لمجافَاتِهِم الحقَّ الَّذِي يَعْلَمُونَهُ، اتّباعاً لأهوائهم وشهواتِهِمْ وَتَقالِيدِهم العمياء.

وجاء في هذا التعليم أنّ الله خَلَقَ الْأَرْضَ بتَكَوْينها الأسَاسِيِّ في يَوْمَين، أي: فِي حِقْبَتَيْنِ زَمَنِيَّتَيْنِ اللهُ يَعْلَمُ مقدارهما؛ لِأَنَّ لفظ يَوْم قَدْ جاء في القرآنِ مُسْتَعْمَلاً للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ أزْمانٍ مُتَفَاوِتَةٍ تفاوتاً عظيماً، حتَّىٰ الآخِرَةُ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لِزَمَنِها أُطْلِقَ عَلَيْها أنَّها يومُ الدِّين.

وجاء في القرآن بيان أنَّ الأرض والسَّماواتِ كانَتَا رَتْقاً مُجْتَمِعَتَيْن ففتقَهُما الله، فَيَدُلُّ هذا عَلَىٰ أنَّ الكوْنَ كان بخلْقِ اللهِ كتلةً غازِيّةً ملْتَهِبَةً، ففَصَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُتْلَةَ الْأَرْضِ، وَجعَلَها خِلَالَ حِقْبَتَيْنِ من الزمانِ تَبْرُدُ مِنْ جِهَةِ أعْلَاهَا، ويَبْقَىٰ بَاطِنُها سَائلاً نَارِيّاً نَافعاً، ودَلِيلاً يَدُلُّ عَلَىٰ مَا كانَتْ عَلَيْهِ، ولمَّا بَرَدَ أعْلَاهَا صَارَ صُخُوراً وتُراباً ومَعَادِنَ ونحوَ ذلِكَ، مُهَيَّأً للإِنْبَاتِ والإقامَةِ والسُّكْنَىٰ والانتفاعِ بِكُنُوزِها مِنْ قِبَلِ النَّاسِ وأعْمَالِهِمْ ومَبَانِيهم ومَصَانِعِهم ومُبْتَكراتِهِم.

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: ذَلِكَ الَّذي خَلَقَ الْأَرْضَ في حقبَتَيْنِ زَمنِيَّتَيْنِ هُو رَبُّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً. والمرادُ بِالْعَالَمِينَ هُنَا كُلُّ مَا سَوَىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه. الخطاب في هذه الجملة لكلّ صالح للخطاب إفراديًّا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً التعليم الدَّعويّ.

● ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾:

● ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾: أي: وَجَعَلَ فِي دَاخِلِ سَطْح الأرْضِ جِبالاً رَوَاسِيَ ثابِتَاتٍ راسِخَاتٍ، وَصَاعِدَاتٍ أعالِيها وَظُهُورُهَا وأسْنِمَتُهَا مِنْ فَوْقِ سَطْحِ الْأَرْض، لتَحْقِيقِ مَنَافِعَ كَثِيرَةٍ للنَّاسِ مِنها.

● ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾: أي: وَجَعَلَ في الأرْضِ زِيَادَاتٍ كثِيرَاتٍ نافِعَاتٍ للنَّاسِ، ما أقام النَّاسُ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا فِيها، منْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ حتَّىٰ قيامِ السَّاعَةِ.

البَرَكة: الكَثْرَةُ فِي كُلِّ خَيْر، والنَّمَاءُ والزِّيَادَةُ في الحسِّيَّاتِ، أَوْ في المعنويات.

والْبَرَكَةُ الَّتِي جعَلَهَا اللهُ في الْأَرْضِ، يَتَوَالَىٰ ظُهُورُهَا مَعَ الْأَزْمَانِ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ، بِحَسَبِ نُمُوِّ عُلُومِهِمْ، وتكاثُر اكتِشَافَاتِهِمْ لِكُنُوزها وَمَا فِيهَا مِنْ قُوىٰ لَمْ تَكُنْ ظَاهِرَةً في الْقُرونِ السَّابقَة، كالكهْرباء والطَّاقَاتِ النَّوَوِيَّةِ وغَيْرِها.

● ﴿.. وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ أي: وجَعَلَ اللهُ في الأرْضِ أَقْوَاتَ كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ قُوتٍ من الأحْياءِ والْأَشْيَاءِ فيها مُقدّراً بَحسبِ الطَّلب.

وإذا تَدَبَّرْنا قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿...وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾﴾ أي: مُمِدّاً لَهُ بحَاجَتِهِ من الْقُوتِ، وَإِذَا أَدركْنا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ في الْوُجُودِ ذُو حَرَكَةٍ مَهْمَا كَانَ صغيراً، وهٰذِهِ الحركة تَحْتَاجُ إلَىٰ قُوَّةٍ تُحرِّكُهَا، أَدْرَكْنا أنَّ الْقُوَّةَ المَحرِّكَةَ لَهَا هِيَ قُوتُ حَرَكَتِها، ولَدَىٰ التَّفكُّرِ التفصِيلِيّ نُدْرِكُ أَنَّ الْحَطبَ أَو الموادَّ النِّفْطِيَّةَ هِيَ قُوتُ النَّارِ، وَأَنَّ النِفط قُوتُ كَثِيرٍ مِن الآلَاتِ والْمَكنَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ بالنَّفْط، وأنَّ الكهربَاءَ قوتُ كثِيرٍ جدّاً مِنْ أَدَوَاتِ هٰذِهِ الْعُصُور الّتِي نَعِيشُها، وأنَّ الكَهْرباء لَا تُوجَدُ وَلَا تَظْهَرُ إِلَّا بِقُوتٍ من الحَرَكَةِ، ونُدْرِكُ أَنَّ الذَّرَّةَ وعَنَاصِرَهَا ذَوَاتُ حَرَكَاتٍ مُذْهِلَاتٍ، وَهٰذِهِ الحركاتُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ طَاقَاتٍ تُحرِّكُهَا، هي قوتُها، ولَا بُدَّ أَنْ نفهم أنَّ الله عَزَّ وَجلَّ هُوَ المقيتُ لها.

إِذَا وَضَعْنَا فِي تَصوُّرِنَا كُلَّ مَا سَبَقَ فَهِمْنَا أبْعَادَ قول الله تَعالَىٰ: ﴿..وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ مُّقِيتٗا﴾، وَتوسَّعْنَا في فَهْمِ قول الله تَعالَىٰ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

تَقْدِير الشّيء: تَحْدِيدُ مَقَادِيرِ ذَاتِهِ وصِفَاتِه، وتَدْبيرُهُ قَبْلَ إيجاده، وتَقْدِيرُ أَقْوَاتِ الأحْيَاءِ والْأَشْيَاءِ في الْأَرْضِ، هُوَ جَعْلُ مَقَادِيرِهَا وافِيَةً بِحَاجَاتِهَا عَلَىٰ تَوَالِي أَزْمَانِ بَقَاءِ الْأَرْضِ والْأَحْيَاءِ والأشْيَاءِ فيها. ويَتْبَعُ التقديرَ القضاءُ، ثُمَّ يأتي الخلْقُ التَّنْفِيذي عَلَىٰ وفْقِ القضاء والقدر.

وعبارَةُ: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: أي: مُسَاوياً لِطَلَب طَالِبِي أَقْواتِهِمْ وَأقْوات أَحْيائِهِمْ وَأشْيائِهِمْ، الّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْأَسْبَابَ الْكَوْنِيَّةَ لتحقيقِ مَطَالِبِهِمْ مِنْ خَزَائِنِ اللهِ في الْأَرْض.

فَطَالِبُو أقواتِهِمْ وَأَقْواتِ أَنْعَامِهِمْ وَدوابِّهِمْ، يَتَّخِذُونَ أَسْبَابَ إِنْبَاتِ

الزُّرُوعِ والأَشْجَار في الأَرَاضِي الصَّالِحَةِ لَهَا، فَيُنْبِتُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمُ الأَقْوَاتَ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا ضِمْنَ سُنَنِهِ الكَوْنِيَّة.

وطالِبُو أقواتِ الآلاتِ الميكانيكيَّة مِنَ النِّفْط، يَتَّخِذُونَ أَسْبَابَ استخراجِهِ مِن باطِنِ الأَرْضِ، ومُعَالَجَتِهِ بالتَّصْفِيَةِ والتَّقْسِيمِ والتجزئة وغير ذَلِكَ، لتحقيق مَطَالِبِهِمْ الْمُسَيِّرَةِ لِآلاتهم.

وطالِبُو أَقْوَاتِ الآلاتِ الَّتِي تَعْمَلُ بالكَهْرُباء، يَتَّخِذُونَ أَسْبَابَ اسْتِخْرَاجِ الكَهْرُباء بالْحَرَكَةِ، وَتَسْيِيرِهِ في الأَسْلاكِ، وَتَشْغِيلِ آلاتِهِمْ به.

وَهَكَذَا إِلَىٰ سَائِرِ الأَقْواتِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في خَزَائِنِ الأَرْضِ الظَّاهِرَةِ والْخَفِيَّةِ، وَتَأْتِيهِمْ مُسَاوِيَةً لطلباتِهِمْ، إذا اتَّخَذُوا وَسَائِلَ الْحُصُولِ عَلَيْها ضِمْنَ سُنَنِ اللهِ الكَوْنِيَّة.

ويَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالأَيَّام الأَرْبَعَةِ الَّتِي تَمَّ فِيهَا تَقْدِيرُ أقْوَاتِ الأَرْضِ فِيها، يَدْخُلُ فِيهَا الْيَوْمَانِ الأَوَّلانِ اللَّذانِ خَلَقَ اللهُ فيهما هَيْكَلَ الأَرْضِ الأَوَّل، إِذْ يَدْخُلُ في هَـٰذَا الْخَلْقِ بَعْضُ عَنَاصِرِ تَقْدِيرِ الأَقواتِ، وقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا: أَنَّ مَجْمُوعَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْض قَدْ كانَ فِي سِتَّةِ أَيَّام (أي: في سِتَّةِ أَحْقَابٍ زَمَنِيَّةٍ مُتَفَاصِلَة)، وقَدْ جاء في البيان القرآني أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَزَّأَ السَّمَاءَ إِلَىٰ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ في يَوْمَيْن، فَمَجْمُوعُ خَلْقِ الأَرْضِ وَتَقْدِيرِ الأَقْوَاتِ فِيها قَدْ كَانَ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ يَعْلَمُ اللهُ مَقَادِيرَ أَزْمَانِها، وتسوية السماء سبعاً قد كان في يومين.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيمَ الدَّعَوِيَّ بِشَأْنِ خَلْقِ الأَرْضِ والسَّمَاوَاتِ:

- ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾:

الاستواء: هو في اللُّغَةِ الاستقامَةُ والاعْتِدَال، ويقال: «اسْتَوَىٰ علىٰ

كذا» أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ فَوْقَه، ويقال: «اسْتَوىٰ إِلَىٰ فِعْلِ كذا» أي: اعْتَدلَ واسْتقامَ مُتَوَجِّهاً لِفِعْلِهِ قَاصِداً إِلَيْه، لا يَلْوِي علَىٰ شيءٍ آخر.

وأحْسَنُ بيانٍ حَوْلَ الاسْتِواء الّذي وصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ مَا قَالَهُ الإِمَامُ مَالِكٌ: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقول، والاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُول، والإيمانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَة».

وَوَصْفُ السَّمَاءِ بأَنَّهَا دُخَانٌ قَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّهَا غَازَاتٌ مُنْبَثَّةٌ في الْفَرَاغِ الْكَوْنِي، فهي كما يَعْلم الناسُ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ عَنِ الدُّخَان، فَأُطْلِقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا دُخَانٌ مِنْ قَبِيلِ تَعْمِيمِ اللَّفْظِ عَلَىٰ الدُّخَانِ الَّذِي يَتَصَاعَدُ عَنِ النَّار وَيَنْبَثُّ في الْفَراغِ الكَوْنِي، وكانت حينئذٍ سَمَاءً وَاحِدَةً مُتَّصِلَةَ الْغَازَاتِ، غَيْرَ مُقَسَّمَةٍ إِلَى سَبْعِ سَمَاواتٍ.

- ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾:

إِذَا حَمَلْنَا هٰذَا البيانَ عَلَىٰ ظَاهِرِه، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ في السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُدْرَاتِ فَهْمٍ وَإِجَابَةٍ كَمَا لِأَهْلِ الْعِلْمِ والنُّطْقِ والإِرَادَة، فَأَجَابَتَا إِجَابَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ والنُّطْق حِينئذٍ.

وَإِذَا حَمَلْنَا هٰذَا الْبَيَانَ علَىٰ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ الاستعارَةِ الْقَائِمَةِ على التشبيه، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ أَمْرَ التَّكْوِينِ الْجَبْرِيّ لِلْأَشْيَاء التِي لَيْس لَهَا عِلْمٌ وَلَا حَيَاةٌ وَلَا إِرَادَة، يَنْفُذُ فِيها وهِيَ طَائِعَةٌ غَيْرُ كَارِهَةٍ لِمَا يَجْرِي فيها، بِخِلَافِ الْأَحْيَاءِ ذَوِي الإِرَادَةِ والْعِلْم والْأَحَاسِيس، فإِنَّ أَمْرَ التكوينِ قَدْ يَنْفُذُ فِيهِمْ وَهُمْ كَارِهُونَ، كَمَنْ يَنْفُذُ فِيهِمْ أَمْرُ التَّكْوِينِ بإِيلامِهِمْ، وتَعْذِيبِهِمْ.

وَالْمُرَادُ بإِتْيَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، حُضُورُهُمَا لِتَحْدِيدِ مَوْقِعِ الْأَرْضِ، وَمَوْقِعِ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ فِي مَوْقِعِهِ مِنَ الْكَوْنِ الْفَسِيحِ، بَعْدَ أَنْ قَدَّر الله لِكُلِّ جُزْءٍ مَوْقِعَهُ وقَضَاهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التعليم الدّعوِيّ بِشَأْنِ خَلْقِ الْأَرْضِ والسَّمَاوات:

- ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾:

- ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾: أي: فقدَّر وقضىٰ أنْ يجعلَ السَّماءَ ذاتَ الطَّبقاتِ الْمُرتفعاتِ في الأبْعادِ السَّحيقَةِ من الفراغِ الْكَوْنيّ، سَبْعَ سَماواتٍ مُتَفاصِلاتٍ، ولِكُلِّ سَماءٍ مِنْها نِظامٌ خاصٌّ بِها ضِمْنَ وَحْدَةِ النظَام الكَوْنِيّ الشامل.

السَّماء: اسْمُ جِنْس يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلّ مَا ارْتَفَعَ فأظَلَّ وَاحداً أوْ مُتعَدِّداً. ولُوحِظَ تَعَدُّدُ طَبَقاتِ السَّماءِ وهي دُخانٍ (أي: غازٌ مُنْتَشِرٌ) فأعِيدَ عَلَيْها الضَّمير بالجمع في: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾، ومَعْلُومٌ أَنَّ القضاء وهُوَ الإمْضَاءُ مَسْبُوقٌ بالْقَدَرِ، وهُوَ تَحْدِيدُ مَقَادِير الذَّواتِ والصِفَات، فَكَانَ لَنا أَنْ نُقَدِّرَ مَحْذُوفاً، هو: فَقَدَّرَهُنَّ، قَبْلَ قَضاهُنَّ، فالفاء في ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف.

وضُمّن الفعل في «قَضاهُنَّ» مَعْنَىٰ الفِعْلِ في «سَوَّاهُنَّ» أوْ «جَعَلَهُنَّ» فنَصَبَ لَفْظَ «سبْعَ» على أنَّهُ مَفْعُولٌ به.

- ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾: أي: فِي حِقْبَتَيْنِ زَمَنِيَّتَيْنِ اللهُ يَعْلَمُ مِقْدارَهما.

- ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾: أي: وأصْدَرَ بالأَمْرِ التكْوِينِيِّ الّذِي وَجَّهَهُ وَحْياً نَافِذَ الأَثَرِ في كُلِّ سَمَاءٍ، كُلَّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِها المتَعَلِّقَةِ بذَواتِ عَنَاصِرِهَا وبصفاتها وبوظائِفِها في الكَوْن، وبِمَنْ يَحُلُّ فيها من الملائكة، وغَيْرِ ذَلِكَ.

- ﴿. . . وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ . . .﴾:

التَّزْيين: التحسين والتجميل.

الْمَصَابِيحُ: جَمْعُ «المصْباح» وَهُو السِّرَاجُ الْمُضِيءُ.

وقد أطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ النُّجُومِ وعلى الشُّهُبِ الَّتِي تُرَىٰ في السَّمَاءِ الدُّنيا اسْمَ «مَصَابِيحَ» لِمَا فيها من إضاءَةٍ ذَاتِ زِينَةٍ.

وجَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الشُّهُبَ رُجُوماً للشَّيَاطِين، لِطَرْدِهِمْ عن اسْتراقِ السَّمْعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وهِيَ نَيَازِكُ مُنْبَثَّةٌ في الفراغِ فَوْقَ الْغِلَافِ الغازِي المحيط بالأَرْض، وهذه الشُّهُب ذَاتُ وَظِيفَتَيْن:

- وَظِيفَةُ المشَارَكَةِ فِي تَزْيِين السَّمَاءِ الدُّنيا، للناظِرِينَ في الأرض.

- ووظيفة مُلَاحَقَةِ شَيَاطِين الجِنّ الَّذِين يَصْعَدُونَ مَتَرَاكِبينَ إلى عَنَانِ السَّماء لاسْتراق السَّمْعِ مِن الملائكة، وقد سَبَقَ بيانُ هـٰذا لَدَىٰ تَدَبُّر سُورة (الجنّ/ ٤٠ نزول).

وقد أَدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الشُّهُبَ ضِمْنَ عُمُومِ الْمَصَابِيح لِمَا فِيها مِنْ زِينَة، وهِيَ الّتِي جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ وَظائِفِها الغيبيَّةِ عن الناس أنَّهَا رُجُومٌ لِلشَّيَاطين، وهِي المقصودَة بقول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَحِفۡظٗا﴾، أي: وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَصَابِيحِ السَّمَاوِيَّةِ شُهُباً حِفْظاً، أي: حَافِظَةً عَنَانَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يتَصَاعَدُونَ لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنَ الملائكة عَلَيْهِم السَّلام.

أُطْلِقَ المصْدَرُ **[حِفْظاً]** بِمَعْنَىٰ اسْمِ الفاعل «حَافِظَةً»، أو هُوَ مفعولٌ لِأَجْلِهِ، أي: وجَعَلْنَا من المصابيح السّمَاوِيَّة شُهُباً لِأَجْلِ الحفظ.

ففي العبارة كَلَامٌ مطويٌّ قَبْل: **[حِفْظاً]**، يُمْكِنُ تَقْدِيرُهُ بِمَا سَبَقَ بيانُهُ.

- ﴿. . ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ⑫﴾:

المشَارُ إِلَيْهِ باسْمِ الإشَارَةِ في عِبَارَةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ بِصَرِيحِ لَفْظِها والمطويَّاتِ فيها مِنْ تَكْوِينٍ رَبَّانِيٍّ وَخَلْقٍ وَتَصَارِيف، وَكُلِّ الأُمُور المسْبُوقَةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ الَّذِي حَدَّدَ اللهُ بِهِ الذَّوَاتَ والصِّفَاتَ والْأَفْعَالَ لِكُلِّ شَيْءٍ في الْأَرْضِ وفي السَّمَاوَاتِ صَغِيراً كَانَ أَمْ كَبِيراً.

الْعَزِيز: أي: ذِي الْقُوَّةِ النَّافِذَةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ مُعَانِدٍ مُقَاوِم.

الْعَلِيم: أي: ذي الْعِلْم الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ، فَهُو بِعِلْمِهِ المحيطِ بكُلِّ شيءٍ يُقَدِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ مَا يُلَائِمُهُ ضِمْنَ الْكَوْنِ الكَبير، وضِمْنَ وَحْدَةِ نِظَامِهِ الشَّامل.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُرُوس سورة (فُصِّلَت).

والحمد لله على معونَتِهِ وَمَدَدِه وَمِنَّتِهِ وَتوفيقه وفتْحِه.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدَّرْس الثالث من دُرُوس سورة (فصلت) الآيات من (١٣ ـ ١٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (١٨)﴾.

القراءات:

(١٤) • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ] بضم الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**أَيْدِيهِمْ**﴾ بِكَسْرِ الهاء.

ضمّ الهاء وكَسْرُها لغتان عَربيتان.

(١٦) • قرأ حمزة، ويَعْقُوبُ: [**عَلَيْهُمْ**] بضَمّ الهاء.

وقرأها باقِي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء: ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾.

(١٦) • قرأنا نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [**نَحْسَاتٍ**] بإسْكَانِ الحاء، جمع «نَحْسَةٍ».

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿**نَّحِسَاتٍ**﴾ بِكَسْرِ الحاء، جمع «نَحِسَة»، أي: ذَات نَحْس.

النَّحْسُ: الْجهْدُ وَالضُّرّ.

تمهيد:

في آيات هذا الدّرْس تَعْلِيمٌ من الله عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، أنْ يُنْذِر المعالَجِينَ في السُّورَةِ، بِصَاعِقَةٍ مُهْلِكَةٍ لَهُمْ إهْلَاكاً جَمَاعِيّاً، كَصَاعقَةِ عادٍ وثمود، إنْ أعْرَضُوا جَمِيعاً عن الاستجابَةِ لِدَعْوَتِهِ، وتَوَقَّفَ المتوافِدُونَ مِنْهُمْ للإيمان والدُّخول في الإسلام، مع بَيانِ مَا يَتعلَّقُ بِكُفْرِ عادٍ وَثَمُودَ، وإهْلَاكِ كُلٍّ مِنْهما، ونَجاةِ الَّذينَ آمَنْوا وكانُوا يتَّقُونَ.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي تَعْلِيم رَسُولِهِ ﷺ إنْذَارَ المعالَجِينَ في السُّورَة:

• ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

الإعْرَاضُ: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الْإقْبالِ والإدْبار.

الإنْذار: الإعْلامُ والإخْبارُ بِعواقِبَ غَيْرِ سارَّة، كَشَرٍّ قادِمٍ، أَوْ عُقُوبَةٍ علَى مُكْتَسَبٍ إرادِيٍّ من قولٍ أَوْ عَمَلٍ أو اعتقاد.

يقال لغة: «أَنْذَرَ فُلانٌ فُلاناً الشَّيْءَ» أي: أَعْلَمَهُ بِهِ وخَوَّفَهُ مِنْهُ.

الصَّاعِقَة: تُطْلَقُ علىٰ النَّازِلَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا عَذابٌ مُهْلِكٌ مَهْمَا كانَ نَوْعُها أَوْ كانَتْ مَادَّتُها. وتُطْلَقُ عَلَىٰ جِسْمٍ نارِيٍّ مُشْتَعِلٍ يَسْقُطُ مِنَ السَّماء.

أي: فإنْ أعْرَضَ الْمُعالَجُون كُلُّهُمْ إعْراضاً كُلِّيّاً شامِلاً كُلَّ أفرادِهم، وتَوَقَّفَ تَتابُعُ دُخُولِ أَفْرادٍ مِنْهُمْ في الإيمان والإسْلام، فَقُلْ لَهُمْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً تَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ أَوْ صاعِقَةِ ثَمُودَ، فتُعَذِّبُكُمْ، وتُهْلِكُكُمْ إهْلاكاً جَماعيّاً شامِلاً.

وجاء اسْتِعْمال «إنْ» لِأَنَّ إعْراضَهُمْ جَمِيعاً إعراضاً شامِلاً غير مُتَوَقَّع الحصُول، وقَدْ أثبت الواقِعُ أنَّ دُخُولَ أفرادٍ وجماعَاتٍ مِنْهُمْ في الإسْلام لَمْ يَنْقَطِعْ، فَلَمْ يَسْتَحِقُّوا الإهْلاكَ الجماعيّ الشامِل، فَلَمْ يُنْزِلِ اللهُ عَلَيْهِمْ صاعقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وثمُود، واقْتَصَرَ الإهْلاكُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ المعانِدِينَ المجرمِينَ من أئمة الشِّرْكِ والكُفْرِ، بِصُورَةٍ إفرادِيَّة، أَوْ بِمَعارِكَ قِتالِيَّةٍ، وأعْظَمُها غَزْوَةُ بَدْر، الّتي قُتِلَ فِيها سَبْعُونَ مِنْ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ القادِمِينَ من مَكَّةَ لِقِتالِ المسْلِمِينَ. وعادٌ وثَمُود سَبَقَ الحديثُ عَنْهُمْ فِي عَدَدٍ من نجوم التنزيل(١).

وقَدْ أَبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَبَبَ إهْلاكه عاداً وثَمُودَ إهْلاكاً جماعِيّاً شامِلاً، بقولِهِ تَعالَىٰ:

- ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

---

(١) وسبقت دِراسَةُ قِصَّة كُلٍّ مِنْهما دِراسَةً تكامُلِيَّةً لجميع النصوص الّتي تَحدَّثَتْ عنهما في القرآن المجيد.

- ﴿إِذْ﴾ هُنَا بمَنْزِلَة «لَامِ التَّعْلِيل» مع كَوْنِهَا ظَرْفاً للزَّمَانِ الماضي.

- ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ جِيلِ المُهْلَكِينَ من عَادٍ وَثَمُود.

- ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: أي: ومِنْ بَعْدِ تَكَوُّنِ جِيلِ المهْلَكِينَ إذْ جَاءَ عَاداً رَسُولُهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَام، وَجَاءَ ثَمُودَ رَسُولُهُمْ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، وَسَبَقَتْهُمَا رُسُلٌ لِقَوْمِهِمَا.

فالمعْنَىٰ: أَهْلَكَ اللهُ عَاداً وَأَهْلَكَ ثَمُودَ؛ لِأَنَّهُمْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِ جِيلِهِمْ، وقَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَام لِعَادٍ، وقَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لِثَمُودَ، وكَانَتْ تَتَضَمَّنُ رِسَالَةُ الرُّسُلِ لَهُمَا إِحْدَىٰ كُلِّيَّاتِ الدِّينِ الْكُبْرَىٰ، وَتَفْسِيرُهَا:

- ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾: إِذْ كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ أَوْثَاناً، فَرَفَضُوا دَعْوَة رُسُلِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلام، وَقَالُوا لَهُمْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا، ونَحْنُ لا نَقْبَلُ رُسُلاً بشَراً يُبَلِّغُونَنَا عَنِ اللهِ، لِعَدَم صَلاحِيَّةِ الْبَشَرِ أَنْ يَتَلَقَّوْا وَحْياً عَنِ اللهِ، وأَنْ يَخْتَارَهُمُ اللهُ رُسُلاً له، وَقَالُوا لَهُمْ: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا إِرْسَالَ رُسُلٍ يُبَلِّغُونَنا عَنْهُ مَطْلُوبَهُ مِنَّا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مِن السَّمَاءِ، ولِهَـٰذَا فإنَّا كَافِرُونَ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَلَا نُصَدِّقُكُمْ في قَوْلِكُمْ لَنَا: لَا تَعْبُدُوا إلَّا اللهَ، ودَعُوا عِبَادَتَكُمْ لِآلِهَتِكُمْ، وشِرْكَكُم الَّذِي تُؤْمِنُونَ به.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التعليم بِشَأْنِ عادٍ:

- ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾:

«أَمَّا» حَرْفُ تَفْصِيلٍ فِيهِ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ والتَّوْكِيد. وقوبِلَتْ في هذا الدَّرْس بِمِثْلِهَا لَدَىٰ الْحَدِيثِ عَنْ ثَمُود.

- ﴿عَادٍ﴾ هُم قَوْمُ «عَادٍ» الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ تمكُّنٌ فِي الأرْضِ مِنْ ذُرِّيَّةِ أَوْلَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام.

- ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: تَكَبَّرُوا كِبْراً شَدِيداً فاحشاً فِي الْأَرْضِ علَىٰ مُعَاصِرِيهم من الأقوام، وكَانَ اسْتِكْبَارُهُمْ عَلَىٰ النَّاسِ بغَيْرِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بُغَاةً مُعْتَدِينَ ظَلَمَةً، وهُمْ كَفَرَةٌ مُشْرِكُونَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، ويَعْتَزُّون بِتفَوُّقِهِمْ في الْقُوَّةِ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ من الأقوام.

- ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟: أي: وصَارُوا يَتفَاخَرُونَ مُعْلِنين بَيْنَ الْأَقْوامِ أَنَّهُمْ أشَدُّ قُوَّةً مِنْ كُلِّ الْأَقْوام في زمَانِهم، ويَتحَدَّوْنَ الناسَ في زَمَانِهم قَائِلين بِأسْلُوبِ الاستِفْهامِ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟، أي: لَا يُوجَدُ قَوْمٌ هُمْ أَشَدُّ قُوّةً مِنّا.

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: أي: أعَمِيَتْ بَصائِرُهُمْ وَلَمْ يرَوْا أَنَّ الله رَبَّ العالَمِينَ الَّذِي خلقَهُمْ هُوَ أشَدُّ مِنهُمْ قُوَّةً، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ تَعْذِيبِهِمْ وَإهْلاكِهِمْ، عُقُوبَةً لَهُمْ على اسْتِكْبارِهِمْ في الْأَرْضِ بغَيْرِ الحقّ.

إنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا شيئاً مَذْكُوراً فَخلَقَهُمُ اللهُ، وهُو الّذِي يُمِدُّهُمْ دَواماً بالْبَقاء إلى آجالِهِمْ، ويُمِدُّهُمْ بعَطَاءَاتِ رُبُوبيَّتِهِ، وإنَّهُ إذا شَاءَ سَلَبَهُمْ قُوّاتِهِمْ، وأنْزَلَ بِهِمْ عِقَابَهُ وعذابَهُ، وأهْلَكَهُمْ فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أحداً.

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾: وَصْفٌ يَدُلُّ بِمَضْمُونِهِ الْفِكْرِيّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً.

- ﴿هُوَ﴾ ضَمِيرُ فَصْلٍ جيءَ بِهِ لِلتَّوْكِيدِ.

- ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: كَانَ يَكْفِي أَنْ يَكُونَ التَّعْبِيرُ: «أَقْوىٰ مِنْهم»، ولَكِنْ جَاءَ في العبارَةِ إِطْنَابٌ لِتُوَافِقَ عِبارَتَهُمْ الّتي أطْنَبُوا فيها مُتَحَدِّين مُتَبَجِّحِينَ.

وقد جِيءَ بهـٰذَا الْبَيَانِ لِمُعَالَجَةِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ مِنْ قُرِيشٍ، إذْ كَانُوا يَرَوْنَ أنْفُسَهُمْ أشَدَّ قُوَّةً وَبَأْساً مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وَمِنَ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَحَالَتُهُمْ تُشْبِهُ بِصُورَةٍ مَصَغَّرَةٍ حَالَةَ «عَادٍ» قَوْمِ الرَّسُول «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلام.

وجاءَ هَـٰذَا الْبَيَانُ مُعْتَرِضاً بَيْنَ الْجُمَلِ الْمَوْصُولَةِ بِبَعْضِهَا بحرف العطف «الواو».

- ﴿.. كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ⑮﴾: أي: فَأَمَّا عَادٌ فاسْتَكْبَرُوا، وتفاخَرُوا مُتَحَدِّينَ قَائِلِينَ: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» وكانُوا بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ، أي: يُنْكِرُونَها مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّها حَقٌّ، وأَنَّهُمْ مُبْطِلُون بِمُخَالَفَتِهِمْ مَا تَدُلُّ عَلَيه.

والمرادُ بآيَاتِ الله، آيَاتُهُ الكَوْنِيَّة، وآيَاتُهُ الإعجازِيَّة وآيَاتُهُ البيانِيَّةُ المنزَّلَة، وآيَاتُهُ الجزائيَّةُ، وآيَاتُه التَّذْكِيرِيَّة.

- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾:

الرِّيحُ الصَّرْصَر: هي الرِّيحُ البارِدَةُ ذَاتُ الصَّوْتِ الشَّدِيدِ المخيف الذي يُسْمَعُ مِنْهُ ما يُشْبِهُ الصَّادَ والرَّاء.

- ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾: أي: فِي أيَّامٍ قاسِيَاتٍ ذَوَاتِ جَهْدٍ وَضُرٍّ وَلَا خَيْرَ فيها.

النَّحْسُ: الْجَهْدُ والضُّرّ.

وجاء بيان هذه الأيَّام في سورة (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بقول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ⑦ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ⑧﴾.

- ﴿عَاتِيَةٍ﴾: أي: طَاغية متجاوزة حَدَّ السَّلَامَةِ والاحْتِمال، فهي مُدَمِّرة.
- ﴿حُسُومًا﴾: أي: مُتتابعةً مُتوالِيَةً في الشّرِّ والتَّعْذِيبِ، فهي تَحْسِمُ مَادَّتَهُمْ، وتَقْطَعُ أصْلَهُمْ. أَصْلُ مَعْنَى الْحَسْمِ: الْقَطْعُ.
- ﴿صَرْعَىٰ﴾: أي: هَلْكَىٰ مَقْتُولِينَ مَطْرُوحِينَ.
- ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: أي: كأَنَّهُمْ أصُول نَخْلٍ فَارِغة، شُبِّهُوا بها لِتَصْوير حَالَة بُطُونِهِم الَّتِي بُقِرَتْ وَخَرَجَ مَا فِيها، فَصَارَتْ خَاوِيَة.
- ﴿.. لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ..﴾:

الْخِزْيُ: الوقُوعُ في الشّرّ والْبَلَايَا، والذّلُّ والْهوْان. وعَذَابُ الخِزْيِ هُو عذابٌ يرافِقُ كلَّ هَـٰذِهِ المؤلِمَاتِ للأجْسَادِ والنُّفُوس.

لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ الرِّيحَ الصَّرْصَرَ في الأيَّامِ النَّحِسَاتِ، لِيُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ في الحياة الدُّنيا، الشَّامِلَ لِلْعَذَابِ الْجَسَدِيِّ والنَّفْسِيِّ مُقَابِلَ اسْتِكْبَارِهِمْ عَلَىٰ النَّاسِ وَظُلْمِهُمْ لَهُمْ وَعُدْوانِهِمْ عَلَيْهِمْ.

- ﴿.. وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ..﴾: أي: ولَعَذَاب الآخِرَة الَّذِي سَوْفَ يُلاقُونَهُ يَوْمَ الدِّينَ أشَدُّ إيلاماً لِأَجْسَادِهِمْ، ولِنُفُوسِهِمْ، وَأَبْقَىٰ زَمَاناً؛ لأَنَّهُمْ سَوْفَ يكونُونَ خَالِدِينَ فِيهِ جزاءً لَهُمْ علىٰ كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وجُحُودِهِمْ آيَاتِهِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أنْوَاعِهَا وكَثْرَةِ أفرادِها.
- ﴿.. وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾: أي: وَهُمْ لَا يَجِدُونَ مَنْ يَنْصُرُهُمْ، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِ الْخِزْيِ فِي كُلِّ أَحْوالِهِمْ، في الدُّنْيا وفي الْآخِرَة، إذْ لَا حُكْمَ إلَّا للهِ، وَلَا قَضَاءَ إلَّا قَضَاءُ اللهِ، ولَا رَادَّ لِقَضَائِهِ عَنِ التَّنْفِيذِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً التَّعْلِيم وهُو بشَأْنِ ثُمودَ قَوْمِ الرَّسُول صالحٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ثَمُودُ﴾: قَوْمٌ نَشَؤُوا وتَكَاثَرُوا مِنْ سُلالَاتِ الَّذِينَ نَجَوْا مِنْ عَادٍ بِسَبَبِ إيمانِهِمْ واتّباعِهِمْ رَسُول رَبِّهِمْ. وقَدْ دَخَلَ إلَىٰ ثَمُودَ الشِّرْكُ والْفَسَادُ والإفْسَادُ فِي الْأَرْضِ، وَصَارَتْ أحْوَالُهُمْ مِثْلَ أحْوَالِ الَّذِينَ أُهْلِكُوا مِنْ «عَادٍ» أيَّامَ هودٍ عَلَيْهِ السَّلام.

﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: أي: فَدَلَلْنَاهُمْ عَلَىٰ صِرَاط هِدَايَتِهِمْ اعْتِقَاداً وقولاً وَعَمَلاً، عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ، بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ من آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ بَلَّغَهُمْ إيَّاها.

- ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟﴾: أي: أحَبُّوا بِشِدَّةٍ طَاغِيَةٍ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِم. أُخِذ مَعنى الشَّدَّةِ مِن «السين والتاء».

- ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾: أي: الكُفْرَ وَالضَّلَالَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم الحقّ.

أُطْلِقَ عَلَىٰ الكُفْرِ والضَّلَالِ لفْظُ الْعَمَىٰ علَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة؛ لِأَنَّ الْأَعْمَىٰ يَضِلُّ فِي مَسِيرِهِ، إذَا رَفَضَ هِدَايَةَ مِنْ يَهْدِيهِ طَرِيقَهُ.

- ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: أي: فَأَحَبُّوا الكُفْرَ والضَّلَالَ عَنِ الْحَقّ والْخيرِ حُبّاً شَدِيداً، وآثَرُوهُ وَفَضَّلُوهُ عَلَىٰ الْهَدَىٰ الَّذِي بَلَّغَهُمْ إيَّاهُ رَسُولُ رَبِّهِمْ عَلَيهِ السَّلام؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ الكُفْرَ والضَّلَالَ يُحَقِّقانِ لَهُمْ مَا يَهْوَوْنَ وَيَشْتَهُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا.

- ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾:

﴿ٱلْهُونِ﴾: الْخِزْيُ والذّلَّة.

أي: فَأَخَذَتْهُمْ أخذَ تَعْذِيبٍ وَإهْلَاكٍ شَامِلٍ، نَازِلَةُ الْعَذَاب الْمُهْلِكِ المخْزِي الْمُذِلِّ مِنْ رَبِّهِمْ، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ جَرَائِمَ وآثَام، وَكُفْرٍ

وَفُسُوقٍ وَعُدْوانٍ، بإرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ أعْمَالاً ظَاهِرَةً وبَاطِنَة، جسَدِيَّةً وَنَفْسِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْلِيمَ، وَهٰذا يَتعَلَّقُ بالنَّاجِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ مِن عَادٍ قَوْمِ الرَّسُول هود عَلَيْهِ السَّلام، وثمودَ قَوْمِ الرَّسُول صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلام:

● ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: وخَلَّصْنَا مِنَ التَّعْذِيب والإهْلاَكِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِ رَبِّهِمْ مِنَ الْقَوْمَيْنِ وَآمَنُوا بما جَاءَهُمْ مِنْ بَلاغٍ عَنْه، وكَانُوا يُعَبِّرونَ عَنْ صِحَّةِ إيمانِهِمْ وصِدْقِهِمْ فِيهِ بسُلُوكٍ يتَّقُونَ فِيهِ عِقَابَ اللهِ المقرَّرَ عَلَىٰ تَرْكِ مَا أَمَرَ بِهِ وفِعْلِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ.

وبهذا انتهى تدبر الدّرس الثالث من دُروس سورة (فصلت).

والحَمد لله على معونته ومَدَدِه وتَوْفِيْقِهِ ومِنَّتِهِ وفتحه.

* * *

(٨)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (فصّلت) الآيات من (١٩ ـ ٢٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾».

القراءات:

(١٩) • قرأ نافع، ويعقوب: [وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَاءَ اللهِ] بضمير المتكلّم العظيم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: «وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ» بالفعل المبني لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الآمِرَ بالْحَشْرِ هُو الله، و«أعْدَاءُ» نائب فاعل.

(٢١) • قرأ يعقوب: [تَرْجِعُونَ] بِبنَاء الفعل للمعلوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: «تُرْجَعُونَ» ببناء الفعل لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وبين القراءتين تكامل، أي: يُرْجِعُهُمُ اللهُ فَيَرْجِعُونَ بالجبر.

(٢٥) • قرأ أبو عَمْرو: [عَلَيْهِمِ الْقَوْلُ] بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: «عَلَيْهُمُ الْقَوْلُ» بضم الهاء والميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: «عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم، ووقف حمْزةُ ويعقوب بضَمّ الهاء والباقون بَكَسْرِها.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَةِ، وهُوَ يتعَلّقُ بالْكَافِرين، مع بيانِ بَعْض أحْوَالِهِم الَّتي كانُوا بها ضَالِّين فِي الحياة الدنيا، يَتّبِعُونَ فِيها قُرَنَاء السُّوءِ.

وعَرْضُ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ المتعلّقَةِ بالكافِرينَ أسْلُوبٌ مِنْ أسَالِيبِ التّرهِيبِ ذُو تَأْثِيرٍ بَالِغٍ في النُّفُوسِ الَّتِي لَمْ تتحجَّرْ باتّبَاعِ الأهواء والشَّهوَاتِ، والتَعلّقِ بزينَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وإيثار العاجلَةِ علىٰ الآجِلَة.

التّدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرينَ أعْدَاءِ الله يَوْم الدّين:

• ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ . . .﴾:

الحشْرُ: الجمع والسَّوْق.

• ﴿يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: أي: يُجْمَعُ وَيُسَاقُ جَمِيعُ الكَافِرِينَ أعْدَاءِ اللهِ، مَسُوقِينَ إلَىٰ مَوْقِفِ حِسَابِهِمْ عِنْدَ أبْوابِ النار.

• ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ يُجْمَعُونَ فِي مَكَانٍ، ويُرتبُونَ صُفُوفاً وَيُسَوَّوْنَ، للقِيامِ مُنْتَظِمينَ بِمَا يكلّفُونَ من أعمال.

أصْلُ الوزعِ: الكفُّ والحبْسُ، والمرادُ كَفُّهُمْ ـ بتَرْتِيبِهم وصَفِّهِمْ ـ عَنِ التفرُّقِ والانْتِشَار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾: «حتَّىٰ» هذه ابتدائيَّة، فهي حَرْفٌ تَبْتَدِئ بَعْدَهُ الْجُمَلُ الاسْمِيَّةُ والفعليَّة، وهي منتهىً لابْتداء الغاية، بِمَنْزِلَةِ «إلَىٰ»، إلَّا أنَّ مَا بَعْدَ «حتَّىٰ» جُزْءٌ مِمَّا قَبْلَها، أيْ: فهم يُحْشَرُونَ فَيُجْمَعُونَ، ويُسَاقُونَ، ويُرَتَّبُونَ صُفُوفاً حَتَّىٰ يَصِلُوا إلَىٰ مَوْقف حِسَابِهِمْ وفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ أَبْوابِ النَّار.

و«مَا» بَعْدَ إِذَا زَائِدَةٌ للتوكيد، فهي تفيد توكيد مَعْنَىٰ مَجِيئهمْ إلَىٰ قُرْبِ

أَبْواب النار، حَيْثُ يكُونُ مَوْقِفُ حِسَابِ الْكَافِرِينَ وَفَصْلِ القضاءِ بِشَأْنِهِمْ، إِذْ هُوَ الْمَكَانُ الملائِمُ للمحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الخاصَّةِ بهم.

وظاهِرٌ أَنَّ مَجيئَهُمْ إِلَىٰ النَّارِ يُرَادُ بِهِ مَجِيئُهُمْ إِلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ أَبْوابِ النَّار، إِذْ جَاءَ فِي النَّصِّ أَنَّ سَمْعَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ وَجُلُودَهُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ هـٰذَا الْمَجيء، ومَعْلُومٌ أَنَّ هـٰذِهِ الشَّهَادَةَ هِيَ مِنْ عَناصِرِ مُحَاكَمتِهِمْ، وَمُحَاكَمَتُهُمْ سَابِقَةٌ لإِدْخَالِهِمْ فِي النَّارِ دَارِ عَذَابِهِمْ.

- ﴿. . شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: إِنَّهُمْ يُحَاسَبُونَ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنْيَا، من جرائم وآثَام وَكُفْرِيَّاتٍ وشِرْكِيَّات، فَيُنْكِرُونَ، ولَا يَقْبَلُون إِلَّا شُهُوداً مِنْ أنفسهم، فَيَسْتَنْطِقُ اللهُ جَوارِحَهُمْ فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بما كانوا يَعْمَلُونَ.

فَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ بِمَا كَانُوا قَدْ سَمِعُوهُ مِمَّا يُدَانُونَ بِهِ، وتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَبْصَارُهُمْ بِمَا كَانُوا قَدْ رَأَوْهُ بِهَا، مِمَّا يُدَانُونَ به، وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا قَدْ أَحَسُّوهُ بها، مِمَّا يُدانُونَ بِهِ.

هذا البيانُ مُضَافٌ إِلَىٰ مَا جَاءَ حَوْلَ هذا الموضوع في الآية (٦٥) من سُورةِ (يس/ ٤١ نزول)⁽¹⁾.

- ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا . . .﴾؟!، أي: نَحْنُ نُدافِعُ عَنْكُمْ لِئَلَّا تُلاقُوا عَذَابَ رَبِّكُمْ، فأَنْتُمُ الْمُحِسُّونُ بأشدِّ الْعَذابِ؛ لِأَنَّ مُعْظَمَ أعْصَابِ الْحِسِّ مُنْتَشِرَةٌ في الْجُلُود.

---

(١) انظر تدبر الآية (٦٥) من سورة (يس/ ٤١ نزول)، في الصفحتين (١٧٤ ـ ١٧٥) من المجلد السَّادِس من هذا الكِتَاب، وَمَا جاء في السُّنَّةِ بشَأْنِ شَهادَةِ جوارحِ المنكرين عليهم في مَوْقف حسابِهِمْ يَوْم الدِّين.

● ﴿... قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ... ﴿٢١﴾﴾: أي: مَا سَبَقَ أَنْ عَمِلْتُمُوه بنا في الحياةِ الدُّنْيا مُسَجَّلٌ فِي دَاخِلِ خَلَايَانا تَسْجِيلاً كامِلاً، وَقَدْ أَنْطَقَ اللهُ بِسُلْطَانِ قُدْرَتِهِ مَا هُوَ مُسَجَّلٌ فِي باطِنِ خَلَايَانَا، فَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا النُّطْقَ بِمَا هُوَ فينا مُسَجَّلٌ تَسْجِيلاً تَامّاً، وَيَجْرِي نُطْقُنا بالْجَبْرِ الرَّبَّانِي، كَمَا أَنْطَقَ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ بالتَّسْبِيحِ بِحَمْدِ اللهِ.

وهذا مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةَ (الإِسْرَاء/ ٥٠ نزول):

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

فَدَلَّتْ هذه الآيَةُ علَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ بالْجَبْرِ بالتَّسْبِيحِ بِحَمْدِ رَبِّهِ، فَجُلُودُ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ يُنْطِقُهَا اللهُ بِمَا هُوَ مَسَجَّلٌ فِيهَا مِنْ أَعْمَالِهِم فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، كَمَا تَنْطِقُ أَشْرِطَةُ تَسْجِيلِ الأَصْوَاتِ والصُّوَرِ بِمَا هُو مُسَجَّلٌ فِيها، وهُوَ مَا تَوَصَّلَ النَّاسُ إلى اكْتِشَافِهِ فِي هٰذَا الْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُعَقِّباً عَلَىٰ هٰذا المَشْهَدِ مِنْ مَشَاهِدِ حِسَابِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، وَمُتَابِعاً مُتَابَعَةَ تَصْدِيقٍ لِمَا قَالَتْهُ جُلُودُهم من أَنَّ اللهَ أَنْطَقَهُمْ، الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، ومُوَجِّهاً بيانَهُ للكافِرِين وهم في الدنيا، ثُمَّ في الآخرة:

● ﴿..وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿... وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: واللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شيْءٍ، هُوَ خلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ مِنْ عَنَاصِرَ لَا حَيَاةَ فيها وَلَا عِلْمَ لَهَا وَلَا تَنْطِقُ، فَجَعَلَكُمْ أَحْيَاءً ذوي عِلْمٍ تَنْطِقُونَ وَتَفْهَمُونَ النُّطْقَ الَّذِي يُوَجَّهُ لَكُمْ

وَتَعْلَمُونَ دَلاَلاَتِ كَلِمَاتِهِ، وجعلَكُمْ فِي الحياةِ الدُّنْيا مُمْتَحَنِينَ وَمُكَلَّفِينَ، وَمُلاَحَقِين بالْحِسَاب وفَصْلِ القضاءِ وَتَنْفيذ الجزاء، وَرَتَّبَ في خُطَّتِهِ أَنْ تَمُوتُوا بَعْدَ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ لَكُمْ، ثُمَّ تُبْعَثُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لإكمالِ الْغَايَةِ من امْتِحَانِكُمْ، ومَتَىٰ رَجَعْتُمْ إلى الحياة بَعْدَ انْفِصَالِهَا عَنْ نُفُوسِكُمْ، فَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُونَ لِيُحَاسِبَكُمْ وَيَفْصِلَ القضاء بَيْنَكُمْ، ويُجَازِيَكم علىٰ مَا أَسْلَفْتَمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ.

وقَدْ كُنْتُمْ تَحْتَ الْمُرَاقَبَةِ التَّامَّةِ المسْتَمِرَّة، فَرَبُّكُمْ مُحِيطٌ بِكُلِّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وكَانَ عَلَيْكُمْ مُرَاقِبُونَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يُسَجِلُونَ أَقْوَالَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ الظَّاهِرَةَ والباطِنَةَ، الْجَسَدِيَّةَ والنفْسِيَّة، وَكَانَتْ خَلاَيَا أَجْسَادِكُمْ وَجَوَارِحِكُمْ وَجُلُودِكُمْ تُسَجِّلُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْكُمْ، وهِي حِينَ تُسْتَنْطَقُ تَشْهَدُ عَلَيْكُمْ، وكُنْتُمْ تَسْتَخْفُونَ بمَعَاصِيكُمْ وَجرائِمكُم وآثَامِكُمْ بَعِيدِينَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاس، وَلَكِنْ مَا كُنْتُمْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَسْتَتِرُوا لِئَلا يَرَاكُم رَبُّكُمْ وَمُرَاقِبُوكُم مِنْ مَلاَئِكَتِه.

- ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ . . .﴾:

أي: وَمَا كُنْتُمْ تسْتَطِيعُونَ أَنْ تَسْتَتِرُوا بِأَعْمالِكُمُ الإجْرَامِيَّةِ الكُفْرِيَّةِ عَنْ سَمْعِكُمْ وَلاَ أَبْصَارِكُمْ وَلا جُلُودِكُمْ، فَهِيَ أَجْزَاءٌ مِنْ ذَوَاتِكُمْ، ومَا كُنْتُمْ تَتوقَّعُونَ أَنْ تُسَجَّلَ فِيها أعْمالُكُمْ، وأَنْ يُنْطِقَها رَبُّكُمْ شَاهِدَاتٍ عَلَيْكُمْ.

وتقدير العِبَارة للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ هـٰذه المطويَّاتِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ: وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَسْتَتِرُوا حَذَرَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ولاَ أَبْصَارُكُم وَلا جُلُودُكُمْ؛ لِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ ذواتِكُمُ الْكَاسِبَةِ، ولِأَنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ تتوَقَّعُونْ أَنْ تَكُونَ شَاهِدَةً عَلَيْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ بِمَا هُوَ مُسَجَّلٌ فِيها، لَحْظَةً فَلَحْظَةً طَوَالَ رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياة الدُّنيا.

وَقَدْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ عِلْمَهُ غَيْرُ مُحِيطٍ بِكُلِّ مَا تَكْسِبُونَ، فَهُوَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ، دَلَّ على هٰذا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

المرادُ بالظَّنِّ هُنَا الظَّنُّ التَّوَهُّمِيُّ السَّاقِطُ الَّذِي ليسَ لَهُ قيمةٌ في فِكْرٍ سليم.

- ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾: أي: أَسْقَطَكُمْ في أَوْدِيَةِ الآثامِ والجرائم والكُفْرِياتِ الَّتِي تَجْعَلُكُمْ من الخالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

أي: ولَكِنْ مَعَ إيمَانِكُمْ بِأَنَّ اللهَ رَبَّكُمْ مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ، لكن ظَنَنْتُمْ مُتَوهِّمِين أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كثيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ، فَهُو لَا يُحَاسِبُكُمْ وَلَا يُجَازِيكُمْ علَىٰ هٰذَا الكَثِير، وَذَلِكُم الظَّنُّ التَّوَهُّمِيُّ السَّاقِطُ الَّذِي ظَنَنْتُمُوهُ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ، فَأَسْقَطكُمْ فِي الْأَوْدِيَةِ الَّتِي تُوصِلُكُمْ إلى الْخُلُودِ في عَذابِ النار يَوْمَ الْقِيامَة، فَأَصْبَحتُمْ عِنْدَ مَوْتِكُمْ بَعْدَ لَيْلِ الكُفْرِ الطَّوِيل مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ كُلَّهَا، وَقَذفُوا بِهَا إِلَىٰ عَذَابٍ أبَدِيّ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَه عَلَيْهِم السَّلام، وتَكْذِيبِهِمْ بِمَا جَاءُوا بِهِ عن اللهِ وَبَلَّغُوهُمْ إيَّاه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَهُ عَنْ أَعْدَاءِ اللهِ:

- ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ الْتِفَاتٌ عَنْ خِطَابِ أعداء اللهِ الْكَافِرين، ويَدْخُلُ فِيهم المعالَجُونَ في السُّورَةِ إِبَّانَ التَّنْزِيل، إلى الحديث عَنْهُم بالْغَيْبَةِ، على اعْتِبَار أَنَّهُم بَعْد حِسَابِهِمْ وفَصْلِ القضاء بِشَأْنِهِمْ يَنْتَظِرُونَ تَنْفِيذَ قضاءِ اللهِ فِيهِمْ بأَنَّهُمْ خَالِدُونَ في دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ.

إنَّهُمْ حِينَئذٍ بَيْنَ أمرَينِ:

- إمَّا أنْ يَتلَقُّوا قضاءَ اللهِ بِشَأْنِهِمْ صابِرِينَ صَامِتِين، لِعِلْمِهِمْ بأنَّهَ لَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه، وهـٰذا الأمْرُ يَكُونُ مِنْ فَرِيقٍ مِنْهم، دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ..﴾: أي: فإنْ يَسْكُتوا يَائِسِينَ نَادِمِينَ صَابِرِينَ، فالنَّارُ مَكَانُ إقَامَتِهِمْ واسْتِقْرارِهم الأَبَدِيّ.

المثْوَىٰ: مَكَانُ الإقامَةِ والاستقرار. يقال لغة: «ثَوَىٰ بالمكان يَثْوِي، ثَوَاءً، وثُوِيّاً» أي: أقَامَ بِهِ واسْتَقَرّ.

- وَإِمَّا أَنْ يُعْلِنوا تَوْبَتَهُمْ ونَدَمَهُمْ وَيَسْأَلُوا اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ كُفْرِيَّاتِهِمْ وَجَرائِمَهُمْ، وَهـٰذَا الأَمْرُ قَدْ يَكُونُ مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُقْبَلُ ذٰلِكَ، فَهُمْ فِي حَيَاةِ الجزاء لَا فِي حَيَاة الابْتِلَاءِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا الْأَمْرِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الآيةِ:

- ﴿..وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ۝٢٤﴾: أي: وإنْ يَطْلُبُوا سَائِلِينَ اللهَ أَنْ يَرْفَعَ الْعَتْبَ وَالْمَلَامَ عَنْهُمْ، وَيَرْفَعَ عَنْهُمُ الجزاء الَّذِي اسْتَحقُّوهُ بِذُنُوبِهِمْ وَجَرائِمِهِمْ، فَمَا هُمْ مِنَ الَّذِينَ يَقْبَلُ اللهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ الْمَلَامَ والمؤاخَذَةَ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللهِ وَكَانُوا فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ كَافِرِينَ بِهِ، وَيُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلام، وَيُكَذِّبُونَ بِمَا تَبَلَّغُوهُ عَنْهُ.

يُقَالُ لغة: «اسْتَعْتَبَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: اسْتَرْضَاهُ لِيَرْفَعَ الْمَلَامَ عنه. ويُقَالُ: «أعْتَبَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: قَبِلَ رَفْعَ الملَامِ والمؤاخَذَةِ وَالْعِقَابِ عنه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيانَهُ عَنْ أَعْدَائِهِ، بِشَأْنِ بَعْضِ أُمُورِهِمْ إذْ كَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا:

- ﴿۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢٥﴾:

- ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾: أَيْ: وَهَيَّأْنَا لَهُمْ ضِمْنَ ظُرُوفِ امْتِحَانِهِم.
- ﴿قُرَنَآءَ﴾ جَمْع «قَرِينٍ»، وهو الصَّاحِبُ الْمُلَازِمُ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مَشْدُودٌ مَعَهُ بِقَرَنٍ، وهُو الحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ الأَسِيرِ.

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي: فَحَسَّنُوا لَهُم بزخرف أقوالهم كُفْريات وَجرائم السابقين لَهُمْ من الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ عُلُوٌّ فِي الْأَرْضِ، وَقُصُورٌ عَظِيمَة وَجنَّاتٌ، وَجُنُودٌ وعبيد وَخَدَمٌ، وَكَانَتْ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ اسْتِمْتَاعَاتٌ وَاسِعَاتٌ كَانوا فيها فَارِهِينَ، وَحَسَّنُوا لَهُمْ بِزُخْرُفِ أَقْوَالِهِمْ أَنْ يَرْتَكِبُوا جَرَائِمَ عُدْوَانٍ وَظُلْمٍ وَطُغْيَانٍ، وَفِسْقٍ وَفُجُورٍ وَعِصْيَان، فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَوَاتِهِمْ الَّتِي هِيَ خَلْفَهُمْ، لِيَنَالُوا أَعْظَمَ نَصِيبٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

وَتَهْيِئَةُ هَؤُلَاءِ الْقُرَنَاءِ الْمُزَيِّنِينَ بِالْبَاطِلِ الشُّرُورَ والْآثَامَ، هُوَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الامْتِحَانِ الْأَمْثَلِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَمِنْهُمُ الْقَرِينُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِ، يَدْعُوهُ إِلَىٰ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ وَالْعِصْيَانِ.

وَقَدْ اسْتَجَابَ هٰؤُلَاءِ الْكَفَرَةُ أَعْدَاءُ اللهِ لِلْقُرَنَاءِ الْمُضِلِّينَ، وَكَانَ بَاسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ لَا يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ مَنَحَهُمْ بِأَصْلِ تَكْوِينِهِمْ إِرَادَاتٍ حُرَّةً كَامِلَةَ الْحُرِّيَّةِ، لَا مُكْرِهَ لَهَا، وَلَا جَبْرَ مُسَلَّطٌ عَلَيْهَا، لَا مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَا مِنْ بَعْضِ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، وَتَنْحَصِرُ أَعْمَالُ الشَّيَاطِينِ وَالْقُرَنَاءِ الْمُضِلِّينَ، بِالْوَسْوَسَةِ، والإغْرَاءِ وَالتَّزْيِينِ بِالْبَاطِلِ.

وَإِذَ اسْتَجَابُوا بِإِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ لِتَزْيِينَاتِ الْمُضِلِّينَ مِنْ قُرَنَاءِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَفَرَةٌ ضَالُّونَ مُجْرِمُونَ، كَانَ مِنَ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ أَنْ يَثْبُتَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين،

وَأَنْ يَدْخُلوا فِي زُمَرِ أُمَمٍ كَافِرَةٍ قَدْ خَلَتْ سَابِقَةً لَهُمْ فِي تَارِيخ الْمَوْضُوعِيْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي نِهَايَةِ مَرْحَلَةِ امْتِحَانِهِمْ خَاسِرِينَ كُلَّ نُفُوسِهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَبِجَرَائِمِهِمْ الْكُبْرَىٰ الْمعبِّرَةَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَالتَّي دمَغَتْهُمْ بِأَنَّهُمْ أَعْدَاءِ اللهِ، دَلَّ على هَـٰذَا بِصَرِيحِ اللَّفْظِ وَبالمطْويَّاتِ فِيهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الآيَة:

﴿..وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

- ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾: جاءت هَـٰذِهِ العبارة وأشباهُها في القرآن المجيد للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ تَحقُّقِ كَلِمَةِ اللهِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ أَنَّهُ سَيُعَذِّبُ بِعَدْلِهِ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَصَرُّوا عَلَىٰ الْكُفْرِ وَلَوَازِم الْكُفْرِ فِي السُّلُوكِ، بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُمْ كُلَّ مَا يَلْزَمُ لابْتِلاَئِهِمْ الابْتِلاَءَ الأَمْثَلَ، وَأَمْهَلَهُمْ إِمْهَالاً كَافِياً، فَلَوْ بَقُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلىٰ الأَبَدِ لَبَقُوا كَافِرِينَ إِلىٰ الأَبَدِ. وَجَاءَتْ كَلِمَةُ «عَلَىٰ» مُنَاسِبَةً لِقَرَارِ الْعِقَابِ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ، تَعْذِيباً وَإِهْلاكاً عَاجِلِينَ، أَوْ تَعْذِيباً أَبَدِيّاً فِي جَهَنَّم يَوْمَ الدِّينِ.

إِنَّ كَلِمَةَ اللهِ بِالْعِقَابِ تَعْذِيباً أَوْ إِهْلاكاً كَلِمَةٌ مَعَلَّقَةٌ مَشْرُوطَةٌ سَبَقَتْ وَضْعَ الممتَحَنِينَ فِي مَجَالاَتِ ابْتِلاَئِهِمْ، وَهِي تَتَرَقَّبُ مَنْ يُحَقِّقُ مِنْهُمْ فِي نَفْسِهِ باخْتِيَارِهِ الحرِّ الصِّفَاتِ الَّتِي تَجْعَلُهُ يَسْتَحِقُّ إِنْزَالَ الْعِقَابِ عَلَيْهِ. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ فَقَدْ حَقَّ قَوْلَ رَبِّهِ عَلَيْهِ، فَانْطَبَقَ عَلَيْهِ وَاسْتَقَرَّ وَثَبَتَ، كَمَا تَنْطَبِقُ أَسْنَانُ المفتاح علىٰ أَسْنَانِ القفل.

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾:

﴿قَدْ خَلَتْ﴾: أي: قَدْ مَضَتْ وَذَهَبَتْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هَالِكَةً.

﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: أي: من المُمْتَحَنِينَ فِي ظُرُوف الحياة الدُّنيا مِنَ الْجِنّ والإنس.

وَقُدِّمَ الْجنَّ عَلَىٰ الإنْسِ هُنَا لِأَنَّهُمْ مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا قبْلَ الْإِنْسِ، وَفِيهِمْ زُمَرٌ كَافِرُون مُجْرِمُونَ، وَرَأْسُ كُفَّارِهِمْ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهِ.

المعنىٰ: وَثَبَتَ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللهِ الْكَافِرِينَ المذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ (١٩) مِنْ هَـٰذَا الدَّرْسِ، الْقَوْلُ بِأَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، دَاخِلِينَ ضِمْنَ زُمَرٍ مِنْ أُمَمٍ كَافِرَةٍ، قَدْ ذَهَبَتْ وَمَضَتْ مِنَ الحياةِ الدُّنْيَا هَالِكَةً مِنْ قَبْلِهِمْ، مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَهُمْ جَمِيعاً سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّم.

● ﴿.. إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: إِنَّ هٰؤُلَاءِ وَالَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، كَانُوا بَعْدَ أَنْ اجْتَازُوا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ خَاسِرِينَ نُفُوسَهُمْ خُسْرَاناً كَامِلاً، إِذْ جَلَبُوا لِنُفُوسِهِمْ عَذَاباً أَبَدِياً لَا خَلَاصَ لِذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِمْ مِنْهُ.

وَلَا يُوجَدُ خُسْرَانٌ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَخْسَرَ الْإِنْسَانُ كُلَّ نَفْسِهِ، إِذْ يَقْذِفُ بِهَا إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ خَالِدٍ لَا خَلَاصَ لَهُ مِنْهُ أَبَدَ الآبِدِينَ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الرابع من دُروس سورة (فصّلت).

والحمدُ لِلَّهِ عَلىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوفِيقِهِ وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التّدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (فصلت)

الآيات من (٢٦ ـ ٣٢)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ

جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾.

القراءات:

(٢٩) • قرأ ابن كثير، والسُّوسيُّ، وابنُ عَامر، وشعبة، ويعقوب: [**أَرْنَا**] بإسْكَان الرَّاء.

وقرأها بَاقِي القرّاءِ العشرة: ﴿أَرِنَا﴾ بِكَسْرِ الرَّاء، إلَّا الدُّوري عن أبي عمْرو، فإنَّهُ قرأهَا باختلاسِ الكَسْرَةِ.

(٢٩) • قرأ ابْنُ كثير: [**اللَّذَيْنِّ**] بِتَشْدِيدِ النون، مع الْقَصْرِ والتوسُّطِ والْمَدِّ فِي الياء.

وقرأها باقِي القراء العشرة: ﴿**الَّذَيْنِ**﴾ بِكَسْرِ النُّونِ دونَ تَشْديد.

(٣٠) • قرأ أبو عمْرو: [**عَلَيْهِمِ الْمَلَائِكَةُ**] بِكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حَمْزَة، والكِسَائي، ويعقوب، وخلف: [**عَلَيْهُمُ الْمَلَائِكَةُ**] بِضَمّ الهاء والميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ**﴾: بكسر الهاء وضَمّ الميم.

ووقف حمزة، ويعقوب بِضَمِّ الهاء، والباقون بكَسْرِها.

تمهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ الخَامِسِ بَيَانُ دَعْوَةِ أئِمَّةِ الكُفْرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ

التَّنْزِيلِ، لِأَوْلِيَائِهِمْ أَنْ لَا يَسْمَعُوا لِلْقُرْآنِ، وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَلغَوا فِيه لِيُشَوِّشُوا عَلَىٰ صَوْتِ التَّالِي، فَلَا يَصِلُ الْكَلَامُ سَوِيّاً إِلَىٰ أَسْمَاعِ شُهُودِ التِّلَاوَةِ، رَجَاءَ أَنْ يَغْلِبُوا بِلَغْوِهِمْ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ.

وفيها وَعِيدٌ مِنَ اللهِ لِلّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ شَدِيدٍ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ.

وَفِيهَا وَعْدٌ لِلَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، بِمَا يَلْقَوْنَهُ مِنْ بُشْرَيَاتٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وَثَوَابٍ جَزِيلٍ يَوْمَ الدِّين.

التدبُّر التحليلي:

- قول اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَوْقِفاً مِنْ مَوَاقِفِ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ القرآنِ، وَمُحَاوَلَاتِهِم لإيقَافِ تَأْثِيرِهِ عَلَىٰ الْجَمَاهِيرِ الَّذِين لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

اللَّغْو: كُلُّ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَلَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَأَصْوَاتٍ وَتَشْوِيشَاتٍ ونَحْوِ ذٰلِك.

رأىٰ أَئِمةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ مَا لِلْقُرْآنِ مِنْ تأثِيرٍ عَلَىٰ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ، وَهَـٰذَا التَّأْثِيرُ الْبَالِغُ يَجْعَلُ الَّذِينَ لَيسَ لَهُمْ وَلَاءٌ أَعْمَىٰ لَهُمْ، يَقْتَنِعُونَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ دَعْوَةٍ إِلَىٰ التوحِيدِ وَنَبْذِ عِبادة الْأَصْنَام، وَدَعْوَةٍ إِلىٰ الْخَيْرِ وَفَضَائِلِ السُّلُوكِ وَمَحَاسِنِ الشِّيم، فَيَمِيلُونَ إِلَىٰ الإيمَانِ بِالْحَقِّ والدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَفكَّرُوا بِوَسِيلَةٍ شَيْطَانِيَّة يَمْنَعُونَ بِهَا تَأْثِيرَ الْقُرْآنِ علىٰ الَّذِين لَمْ يُسلِمُوا بَعْدُ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا لِأَتْبَاعِهِمْ الَّذِينَ أَعْطُوهُمْ كَامِلَ وَلَائِهِمْ: لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ لِئَلَّا تَشْغَلُوا أَفْكَارَكُمْ بِدَلَالَاتِ آيَاتِهِ، فَتَتَشَكَّكُوا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ

آبَاؤُكُمْ وَأَجْدَادُكُم أَهلُ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ وَالْحِكْمَةِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْقُرْآنَ يُتْلَىٰ عَلَىٰ جَمْعٍ مِنْ قَوْمِكُمْ، فَأَحْدِثُوا لَغْواً مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَصْوَاتِ وَالْحَرَكَاتِ تَشْوِيشاً عَلَىٰ التَّالِي، وَبِهَـٰذَا لَا يَسْتَمِعُ حَاضِرُو تِلَاوَةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ اسْتِمَاعاً سَوِيّاً، فَمِنْ شَأْنِ هَـٰذَا اللَّغْوِ أَنْ يَمْنَعَ تَأْثِيرَ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِ وَنُفُوسِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، فَتَغْلِبُونَ بِتَشْوِيشِكُمْ بَيَانَاتِ الْقُرْآنِ ذَاتِ التَّأْثِيرِ الشَّبِيهِ بِتَأْثِيرِ السِّحْرِ.

هَـٰذَا الأَسْلُوبُ التَّشْوِيشِيُّ قَدِ اتَّخَذَتْهُ الدُّوَلُ المتحَارِبَةُ، لِمَنْعِ وُصولِ بَيَانَاتِ أَعْدَائِهَا الإِعْلَامِيَّةِ إِلَىٰ جَماهِيرِ شَعْبِهَا، وَجَمَاهِيرِ الشُّعُوبِ الَّتِي تَرَىٰ مِنْ مَصْلَحَتِهَا عَدَمَ وُصُولِ بَيَانَاتِ أَعْدَائِهَا إِلَيْهَا.

وَيُطْلِقُونَ عَلَىٰ هَـٰذَا الْأُسْلُوبِ التَّشْوِيشِيِّ اسم «بَرَازِيت» إِذْ يُصْدِرُونَ أَصْوَاتاً مُشَوِّشَةً فِي الْمَوْجَاتِ الْإِذَاعِيَّةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمهَا الْإِعْلَامُ الْإِذَاعِيُّ لِلدَّوْلَةِ أَو الدُّوَلِ المعَادِيَة.

وَكُنْتُ أُلْقِي مُحَاضَرَةً فِكْرِيَّةً قَيِّمَةً فِي إِحْدَىٰ قَاعَاتِ الْمُحَاضَرَاتِ الْكُبْرَىٰ، وَكَانَتْ غَاصَّةً بِالْحُضُورِ، فَأَخَذَ بَعْضُ الْكَارِهِينَ لي وَلِمَوْضُوعِ الْمُحَاضَرَةِ يَعْبَثُ بِمَفَاتِيحِ المِنَصَّةِ الَّتِي أَمَامَهُ، وَالَّتِي يَكُونُ بِهَا تَحْوِيلُ تَرْجَمَةِ الْمُحَاضَرَةِ إِلَىٰ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ، وَكَانَ لِهَـٰذَا الْعَبَثِ المتوالي أَصْوَاتٌ مَسْمُوعَةٌ مُشَوِّشَةٌ، يَسْمَعُهَا كثيرٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ، وَتُحْدِثُ فِي آذَانِهِمْ تَشْوِيشاً يَمْنَعُ عَنْهُمْ مُتَابَعَةَ كَلَامِ الْمُحَاضِرِ، وَاسْتَمَرَّ هَـٰذَا الْكَارِهُ يَعْبَثُ عَبَثَهُ مُدَّةً غير قَصِيرَةٍ، حَتَّىٰ ضَاقَ صَدْرُهُ وَخَرَجَ مِنَ القاعةِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ أَفْضَحَهُ وَأَدعوهُ إِلَىٰ تَرْكِ هَـٰذَا الْعَبَثِ، وَهُوَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِنْ مَقَاعِدِ الْحُضُورِ.

■ قول الله تَعَالَىٰ مُتوَعِّداً الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ شَدِيدٍ:

- ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟

يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

- ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ...﴾: يُؤَكِّدُ اللهُ عزَّ وَجلَّ أَنَّهُ سَيُعَذِّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً.

جَاءَ التوكيد باللَّامِ الواقعة في جوابِ قَسَمٍ مَنْويّ كما يقول المعْرِبُونَ، وبنُونِ التوكيد الثقيلةِ.

وهَـٰذَا الْعَذَابُ الشّدِيدُ قَدْ يَكُونُ للمعنيِّينَ بالمعالَجَةِ فِي السورة في الدُّنيا وفي الآخرة، وأمَّا سَائِرُ الْكَافِرِينَ فَعذابُهُمْ الشَّدِيدُ يكون يَوْمَ الدِّينِ.

واسْتُعْمِلَ الذَّوْقُ الَّذِي يَكُونُ بِاللِّسَانِ عَلَىٰ سَبِيلِ الاستعارة للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الإِحْسَاسِ بِالْأَلَمِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ يُحِسُّ بالأَلَمِ مِنَ الْجِسْمِ؛ لِأَنَّ حَاسَّةَ الذَّوْقِ مِنْ أَشَدِّ الْمَوَاضِعِ إِحْساساً بِأَنْوَاعِ ما يُلَائِمُها مِنْ مَذُوقات.

- ﴿... وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

الْجَزَاء: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ بِمَا يُلائِمُهُ مِن خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وَجزاءُ اللهِ بالثوابِ هُو فَضْلٌ مِنْهُ دواماً، وَجَزاءُ اللهِ بالعقاب هو عَدْلٌ مِنْهُ دواماً، يَسْتَحِقُّهُ المسِيءُ بِعَمَلِهِ.

وأرىٰ أَنَّ لَفْظَ «أَسْوَأ» أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ علىٰ بَابِهِ؛ لِأَنَّ مُجازَاةَ الْكَافِرِينَ عَلَىٰ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيا، وَهُوَ الْكُفْرُ ولوازِمُ الْكُفْرِ مَعَ الدَّوام إِذْ لَا يُفتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ، يَنْدَرِجُ فِيهِ الْعَذَابُ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ عَلَىٰ مَا دُونَ ذَلِكَ، فَالْأَصْغَرُ يَنْدَرِجُ فِي الْأَكْبَرِ.

والْعِبَارَةُ عَلَىٰ تَقْدِير مُضَافٍ مَحْذُوفٍ قَبلَ لَفْظ ﴿أَسۡوَأَ﴾، أي: وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ جزاءَ أسْوإِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياةِ الدُّنيا.

- ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

- ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: ذَلِكَ الْعَذَابُ الشّدِيدُ المعادِلُ أسْوَأَ مَا كَانوا يَعْمَلُونَ فِي الحياة الدُّنيا. «ذَا» مبتدأ، وخَبَرُهُ:

- ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾: أي: جَزَاءُ الَّذِينَ عَادَوُا اللهَ رَبَّهُم بالكُفْرِ بِهِ، ومَعْصِيَتِهِمْ أوَامِرَهُ ونَوَاهِيَهُ غَيْرَ مُبَالِينَ عِقَابَهُ، فَعَادَاهُم اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ عِقَابُهُ وانْتِقَامُهُ.

- ﴿.. ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿جَزَآءُ﴾ أَوْ عَطْفُ بَيَان. وهو عَلَمٌ لِدَارِ الْعَذَابِ الَّتِي اعْتَدَهَا اللهُ عزّ وجلّ لِلْمُجْرِمِينَ، إذَا أُطْلِقَ في الاصطلاح الدّينيّ كَانَ دَالًّا عَلَيْها.

- ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾: أي: للكافِرِينَ أَعْدَاءِ اللهِ فِي النَّارِ دَارُ الْخُلْد، فلَهُمْ فيها مَنْزِلٌ يَسْكُنُونَ فِيه، يَكُونُ مَحَلَّ إقَامَتِهِم الدَّائِمَةِ أَبداً بِلَا نِهايَة.

الْخُلْدُ، والْخُلُودُ: هو في اللّغَةِ طُولُ البَقاء، وهُوَ في الإصْطِلَاحِ القرآنيّ: البقاءُ الدَّائِمُ بِلَا نِهايَةٍ أبداً.

- ﴿... جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: حَالَة كَوْنِ ذلِكَ الجزَاءِ، وهو العذابُ في النَّارِ خَالِدِينَ فيها، جزَاءً بسَبَبِ مَا كَانُوا يَجْحَدُونَ بآيَاتِنَا.

الْجُحودُ: إنْكَارُ الشَّيْءِ مَعَ الْعِلْم بأَنَّهُ حَقٌّ، يُقَالُ لغة: «جَحَدَ الأَمْرَ، وَجَحَدَ بِهِ» أي: أَنْكَرَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَقّ.

وجُحُودُهم بآياتِ اللهِ يَشْمَلُ جُحُودَهُمْ بالآياتِ الكَوْنِيَّة، والآيَاتِ الإعجازِيَّة، والآيَاتِ الجزائِيَّةِ، والآيَاتِ البيانِيَّة المنزّلَةِ صُحُفاً وكُتُباً، والآيَات التَّذْكِيرِيَّة.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ مُبيّناً مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرِينَ وهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي دار العذاب النَّار:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ سَائِلِينَ رَبَّهُمْ: رَبَّنَا أَرِنَا الْفَرِيقَيْنِ الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا إِضْلَالَ إغْوَاءٍ وتَزْيِينٍ وإغْرَاءٍ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُمَا، وهُمَا مِنْ قُرَنَاءِ الإِنْسِ والْجِنِّ، فإِنْ رَأَيْنَاهُمْ جَعَلْنَاهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا، وَأَخَذْنَا نَرْفُسُهُمْ وَنَرْكُلُهُمْ وَنَضْرِبُهُمْ بأَرْجُلِنَا، حَتَّىٰ يَكُونَا في الأَسْفَلِينَ الْمُعَذَّبِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النار.

رَأَيْتُ أنّ حَمْل لَفْظِ اللَّذَيْنِ عَلَىٰ الْفَرِيقَيْنِ أَوْلَىٰ، لِيَشْمَلَ كُلَّ قُرَناءِ السُّوءِ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، سواءٌ أَكَانُوا أَفْراداً أَمْ أَكْثَر.

والْوَاقِعُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قُرَنَاءَ السُّوءِ مِنَ الإنْسِ، قَدْ يَكُونُونَ أَكْثَرَ مِنْ قَرِينٍ واحِد، أمَّا مِنْ الْجِنِّ فَالنُّصُوصُ القرْآنِيَّةُ تَدُلُّ علَىٰ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ قَرِيناً شَيْطَاناً مِنَ الجِنِّ يُوَسْوِسُ لَهُ، وهُوَ مُلَازِمٌ لَهُ، ولكِنْ قَدْ يُعَاوِنُهُ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ مُعَاوِنُونَ آخَرُونَ، في مُنَاسَبَاتٍ يَصْعُبُ فيها علَىٰ الْقَرِينِ الملَازِمِ أَنْ يُغْوِيَ مَنْ هُو قَرِينٌ لَهُ مِنَ الإِنْسِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا، مُتَحَدِّثاً عَنْ فَرِيقِ أَهْلِ الاسْتِقَامَةِ مِنَ المؤمنينَ، ومَا قَيَّضَ اللهُ لَهُمْ مِنْ مَلَائِكَةٍ يُثَبِّتُونَ قُلُوبَهُمْ، وَيُبَشِّرُونَهُمْ بالْجَنَّةِ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِهِمْ في الحياةِ الدُّنْيا:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾:

جَاءَ في الآية (٦) من هـٰذِهِ السُّورَة تكْلِيف الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَدْعُو المشْرِكين إلَىٰ التوحِيدِ والاسْتِقَامَةِ إلىٰ الله وإلىٰ الاسْتِغْفَار.

وَجَاءَ في هـٰذِهِ الآيَاتِ من (٣٠ ـ ٣٢) بَيَانٌ يَتعَلَّقُ بالْمُؤْمِنِينَ الموحِّدِينَ المستقِيمينَ عَلَىٰ صراطِ اللهِ.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ..﴾:

أي: إنَّ الَّذِينَ أعْلَنُوا بألْسِنَتِهِم مُتحدِّينَ الطُّغَاةَ مِنْ أئمة الكُفر، أنَّ اللهَ رَبُّهُمْ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إلَـٰهِيَّتِهِ، وَكَانَ هـٰذا الإعْلَانُ تَعْبِيراً صَادِقاً يُطَابِقُ مَا في قُلُوبِهِمْ مِنْ إيمَانٍ رَاسِخٍ، بِدَلِيلِ اسْتِقَامَتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ، مُطَبِّقِينَ مُقْتَضَيَاتِ إيمانِهِمْ بأنَّهُ لَا إلَه إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وقد سَبَقَ بيانُ الاسْتِقَامَةِ لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآيَةِ (٦) من هـٰذِهِ السورة، ومَعْلُومٌ أنَّ الاسْتِقَامَةَ عَلَىٰ سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ مِنْ أشَقِّ الأَعْمَالِ الدَّالَّةِ علىٰ الالْتِزَامِ بمُقْتَضَيَاتِ الإيمَانِ الصحيحِ الصَّادِقِ.

ودَلَّ حَرْفُ «ثُمَّ» عَلَىٰ تَوَالِي اسْتِقَامَتِهِمْ في كَدْحِهِمْ عَبْرَ حياتِهِمْ، إلَىٰ الْغَايَةِ الَّتِي يُلاقُونَ فيها حِسَابَ اللهِ وفَصْلَ قضائِهِ بِشَأْنِهِم.

- ﴿.. تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾:

يُخْبِرُنَا اللهُ عزّ وجلّ بِأنَّ الْمَلَائِكَةَ المكلَّفِينَ أَنْ يُثَبِّتُوا المؤمنينَ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، تتنزَّلُ عَلَيْهِمْ آناً فَآناً كُلَّمَا تَعَرَّضُوا لمقلقاتٍ مُزْعِجَاتٍ بالْمَخاوِفِ والْمُحْزِنَاتِ، فتُلْقِي بِمَا يُشْبِهُ حَدِيثَ النَّفْسِ في قُلُوبِهِمْ معَانِي تَفْسِيرُهَا أَنْ لَا تَخَافُوا مِنْ مَكارِهِ تَنْزِلُ بِكُمْ؛ لأَنَّ المكارِه الَّتِي يَخْتَارُها رَبُّكُمْ لَكُمْ هِيَ خَيْرٌ لَكُمْ، فِي عَاجِلِ أمْرِكُمْ وآجِلِهِ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ شَيْءٍ فَاتَكُمْ مِنْ مَحَابِّكُمْ؛ لأَنَّ اللهَ رَبَّكُمْ قَدْ اخْتَارَ لَكُمْ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَفْضَلُ، جَزَاءَ إيمانِكُمْ واسْتِقَامَتِكم.

هٰذِهِ قناعَةٌ إيمانِيَّةٌ يُلْقِيهَا اللهُ عزّ وجلّ عَنْ طَرِيقِ فرِيقٍ مِنْ مَلائِكَةِ الرَّحْمَةِ في قُلُوبِهِمْ، لِيَنالُوا بِهَا حَيَاةً طَيِّبَةً فِي دُنْيَاهُمْ.

أمَّا عِنْدَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ فإنَّ هؤلاءِ الفريقَ مِنَ الملائِكَةِ يَتَنزَّلُونَ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ قَائِلِينَ لَهُمْ: لَا تَخافُوا مِنْ شيءٍ قَادِمٍ، ولَا تَحْزَنُوا علىٰ شَيْءٍ تَركْتُمُوهُ في الْحَياةِ الدُّنْيَا، فَمَا أُعِدَّ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَأجَلُّ وأعْظَمُ.

وأمَّا بَعْدَ الْبَعْثِ فهٰذا التَّثْبِيتُ أجَلُّ وأعْظَمُ، إذْ يَشْهَدُونَ مِنْ أحْوَالِ الآخِرَةِ مَا يَفْرَحُونَ بِهِ.

ويَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَ الْمَلائِكَةِ لَهُمْ: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: يَكُونُ عِنْدَ الموْتِ وَبعْدَ الْمَوْتِ، وَبعْدَ الْبعْث، طَمْأنَةً لَهُمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ صَائِرُونَ إلَىٰ سَعَادَةٍ أبَدِيَّةٍ في نَعِيمِ الْجَنَّة، فعِبَارَة: ﴿كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: تُشْعِرُ بِمَا كَانُوا يُوعَدُونَهُ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ قَبْلَ مَوْتِهِمْ، وهُوَ مَا كَانُوا يَقْرَؤُونَهُ أَوْ يَتْلُونَهُ، أَوْ يُقْرأُ أَوْ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فِي آيَاتِ كِتَابِ اللهِ المجيد، إذْ أكثر سُوَرِ القرآنِ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ هٰذا الْوَعْدِ الرَّبَّانِيّ، وَكُلَّما قرأ المؤمِنُ أو تَلَىٰ، أوْ قُرِأَتْ عَلَيْهِ أَوْ تُلِيَتْ سُورَةٌ فيها هٰذا الْوَعْدَ، كَانَ ذٰلِكَ بِمَثَابَةِ تَجْدِيدِ وَعْدِ اللهِ لَهُ بالْجَنَّةِ وَنَعِيمِها، وَهٰذا قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ استِعْمَالُ الفِعْلِ المضارِعِ الدَّالِّ علىٰ التَّكرِيرِ بصُورَةٍ متجَدِّدَة.

ويَقُولُ هٰذا الْفَرِيقُ مِنْ مَلائِكَةِ الرَّحْمَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالُوا:

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾: أيْ: نَحْنُ نُصَرَاؤكُم عَلَىٰ أعْدَائِكُمُ الكَفرَةِ، وَالمحافِظُونَ عَلَيْكُمْ، نَحْمِيكُمْ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ ممَّا خَلَقَ اللهُ في كَوْنِهِ، مَا لَمْ يتِمَّ بِهِ قَضَاءُ اللهِ وَقَدَرُهُ لابْتِلائِكُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وهٰذا يَظْهَرُ فِي حِمَايَةِ المؤمِنِينَ ذَوي الاسْتِقَامَةِ علىٰ صِرَاطِ اللهِ، مِنْ كَثِيرٍ مِنْ شُرُورِ مَا خَلَقَ اللهُ في كَوْنِه، إذْ

يُسَخِّرُ اللهُ عزّ وجلّ هـٰذا الفريق من مَلَائِكَتِهِ لِحِمَايَتِهِمْ والمحافَظَةِ عَلَيْهِمْ، ضِمْنَ نِظَامِ الأَسْبَابِ والمسبَّبَاتِ.

إنَّ المؤمنينَ ذَوِي الاسْتِقامَةِ، لَا يَسْمَعُونَ مَا يَقُولُهُ هـٰذا الفريقُ مِنْ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ لَهُمْ، لَكِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ، فَيَشْعُرُونَ بأنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُصَاحِبُونَ لَهُمْ يَنْصُرُونَهُمْ، وَيَحْفَظُونَهُمْ بأمْرِ اللهِ لَهُمْ، ضِمْنَ أَنْظِمَتِهِ السَّبَبِيَّة جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

أمَّا في الآخِرَةِ فإنَّهُمْ يَسْمَعُونَ بأَجْهِزَةِ السَّمْعِ لَدَيْهِمْ قَوْلَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ لَهُمْ: لَا تخافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأبْشِرُوا بالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلياؤكُمْ في الحياةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ أيضاً وَهُمْ يُبَشِّرُونَهُمْ بالْجَنَّة:

- ﴿.. وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: وَلَكُمْ فِي الْجَنَّةِ كُلُّ مَا تَشْتَهِي أنفُسُكُمْ مِنْ مُشْتَهيَاتٍ تَلَذُّكُمْ.

ولَكُمْ فِي الجنَّةِ كُلُّ مَا تَدَّعُونَ، أي: كُلُّ مَا تَتَمَنَّوْنَ ممَّا هُوَ فِي حُدُودِ الأَمَانِي بَعِيدَةِ المنَالِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

يقال لغة: «ادَّعَىٰ الشَّيْءَ» أي: تَمنَّاهُ وَطَلَبَهُ لِنَفْسِهِ.

وَهـٰذا يَكُونُ لَكُمْ نُزُلاً مِنْ رَبٍّ غَفُورٍ لِذُنُوبِكُمْ، رَحِيمٍ بِكُمْ، يَمْنَحُكُمْ عَطَاءَاتِهِ مِنْ فَضْلِهِ العظيم، أيْ: ضِيَافَةً لَكُمْ يُكْرِمُكُمْ بها.

النُّزُل: بضَمِّ الزَّاي وإسْكَانِها، مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لِضَيْفِهِ إذا نَزَلَ عَلَيْه.

وَجاء اسْمُ اللهِ «غَفُور» أيْ: كَثِير المغْفِرَةِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ المؤمنين ذَوِي الاسْتِقَامَةِ قَدْ يَكُونُونَ مِنْ مُرْتَكِبِي الذُّنُوب، وَقَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُمْ.

وَجَاءَ اسْمُ اللهِ «رَحِيم» أي: كَثِير الرَّحْمَةِ وَوَاسِعها، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أنَّ عَطَاءاتِهِ لِعِبَادِهِ المؤمنينَ في جَنَّاتِ النَّعِيم هِي من آثَارِ رَحْمَتِهِ العظيمَةِ بعِباده، وهِيَ فَضْلٌ مِنْهُ عَلَيْهِم.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الخامس من دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحَمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وَتَوْفيقِهِ ومِنَّتِهِ وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دُروس سورة (فُصِّلَت) الآيات من (٣٣ ـ ٣٦)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

تمهيد:

فِي آيَات هٰذا الدَّرْسِ تَرْغِيبٌ لِلْمُؤَهَّلِينَ أَنْ يَكُونُوا دُعَاةً للهِ، فِي أَنْ يَقُومُوا بِوَظِيفَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ وَإِلىٰ صِرَاطِهِ المستقيم، مَعَ تَوصِيَتِهِمْ بأَنْ يَدْفَعُوا الَّذِينَ يُؤْذُونَهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وأَنْ يَسْتَعِيذُوا باللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ الدَّاعِي إلىٰ مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ بمَا هُوَ أَشَدُّ مِنها.

التدبُّر التحليلي:

- قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّهُ لَا يُوجَدُ قَوْلٌ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ مَنْ دَعا

إِلَىٰ اللهِ، إِذَا كَانَ صَادِراً مِنْ إِنْسَانٍ مُكَلَّفٍ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً علىٰ وفْقِ مَا يَقْتَضِيهِ إِيمَانُهُ وَإِسْلَامُه:

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾؟:

اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ ذِي قَوْلٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ يَقُولُ قَوْلاً هُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ بِشَرْطَيْنِ:

الشَّرْطُ الأَوَّل: أَنْ يَعْمَلَ هُو عَملاً صَالحاً مُطَابِقاً لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِمَا يَدْعُو إليه، غَيْرُ مُمْتَهِنٍ وَظيفَةً مَأْجوراً عَلَيْها، وهو لَا يُؤْمِنُ بِمَضْمُونِها.

الشَّرْطُ الثاني: أَنْ يُعْلِنَ صَرَاحَةً أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ أَفْرَادِ المسْلِمِينَ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَىٰ دِينٍ يُؤْمِنُ بِهِ، وَيَنْتَمِي إِلىٰ الأُمَّةِ الَّتِي تَدِينُ بالإِسْلام.

هٰذانِ الشَّرْطَانِ لازِمَانِ لِبَيَانِ صِدْقِ الداعي إلىٰ اللهِ في دَعْوَتِهِ وصِحَّةِ مَا يَقُولُ، حتَّىٰ يَكُونَ قَوْلُهُ أَحْسَنَ قَوْلٍ يَقُولُهُ قَائِلٌ مَا مِنْ عِبَادِ الله.

فالَّذِي لَا يَعْمَلُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يَدْعُو الناسَ إِلَيْهِ، إِنْسَانٌ مَشْكُوكٌ فِي أَمْرِه، وفي دَعْوَتِهِ، إِذْ يَقُولُ النَّاسُ لَوْ كَانَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ حَقّاً وَخيْراً، لَكَانَ أَوَّلَ الْعَامِلِينَ بِمَا يَدْعُو إِلَيْه، فَهُوَ إِذَنْ ذُو مَصْلَحَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتِهِ، فَدَعْوَتُهُ مَشْكوكٌ فيها.

والدَّاعي إِلىٰ الانْتِمَاءِ إِلَىٰ الإِسْلَام، إِذَا لَمْ يُعْلِنْ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ المسْلِمِينَ، مَشْكُوكٌ فِي أَمْرِهِ وفِي دَعْوَتِهِ، إِذْ يَقُولُ النَّاسُ: لَوْ كَانَ الإِسْلَامُ الَّذِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ الدُّخُولِ فيهِ دِيناً صَحِيحاً لَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ إِلىٰ الدُّخُولِ فِيه، وَلأَعْلَنَ أَنَّهُ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَهُو إِذَنْ مُنَافِقٌ مَأْجُور، أَوْ ذُو مَصْلَحَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتِهِ، فَدَعْوَتُهُ مَشْكُوكٌ فيها.

وبِفَقْدِ أَحَدِ هذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا لَا يَكُونُ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي إلىٰ اللهِ تَأْثِيرُهَا الْمَرْجُوُّ، وَقَدْ يَنْعَدِمُ تَأْثِيرُهَا، فَلَا يَظْهَرُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ قَوْلٌ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِهِ.

إنَّ الْقَوْلَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الدَّعْوَةَ إلَىٰ اللهِ، يَتَّصِفُ بأَفْضَلِيَّتِهِ لأَنَّهُ يَهْدِي إلىٰ النّجاةِ مِنْ عَذاب اللهِ، والْفَوْزِ بالْخُلُودِ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، وَلَا يُوجَدُ في الأكْوانِ الَّتِي خلَقَهَا اللهُ أَعظَمُ مِنْ هـٰذا الْفَوْزِ العظيم، فالْقَوْلُ الَّذِي يَدْعُو إلَىٰ هـٰذا الْفَوْزِ العظيم لَا يُوجَدُ قَوْلٌ هُوَ أَعْظَمُ مِنْه ولَا أَحْسَنُ مِنْهُ، إذا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِهِ وَنَوْعِهِ.

والدّعْوَةُ إلَىٰ اللهِ تَشْمَلُ الدَّعْوَةَ إلىٰ كُلِّ مَا جَاءَ في الإسْلَامِ إيمَاناً وعَمَلاً، ظاهِراً وَباطِناً، جَسَدِيّاً وَنَفْسِيّاً.

■ قول الله تَعَالَىٰ يُوصي الدَّاعِيَ إلَىٰ اللهِ بأنْ يَدْفَعَ أَذىٰ من يُؤْذِيهِ وسيِّئَاتِ مَنْ يُسيء إلَيْهِ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، بَعْدَ بَيانِ قَاعِدَةٍ مِنْ الْقَوَاعِدِ الفِكْرِيَّة بِشَأْنِ الْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ فِي السُّلُوكِ الإرَادِي، لِذَوِي الإرَاداتِ الْحُرَّة:

- ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾:

- ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾:

الْحَسَنَةُ: اسْمُ جِنْسٍ يُطْلَقُ عَلَىٰ مُفْرَدَاتٍ كَثِيرَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ بَعْضُهَا أَحْسَنُ مِنْ بَعْضٍ. فكُلُّ خَصْلَةٍ حَسَنَةٍ، وكُلُّ فعلةٍ حَسَنَةٍ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ حَسَنَةٍ، قَدْ يُوجَدُ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهَا حُسْناً، وقَد يُوجَدُ مَا هو أقلُّ مِنْهَا حُسْناً، فَأَفْرَادُ الْحَسَنَةِ غَيْرُ مُسْتَوِيات.

والسَّيِّئَةُ: اسْم جِنْسٍ يُطْلَقُ علىٰ مفرداتٍ كثِيراتٍ مُتَفَاوِتاتٍ بَعْضُهَا

أَسْوَأُ مِنْ بَعْض، فكُلُّ خَصْلَةٍ سَيِّئَةٍ، وكلُّ فعلةٍ سَيِّئَةٍ، وكُلُّ كَلِمَةٍ سَيئة، قَدْ يُوجَدُ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهَا سُوءاً، وَقَدْ يُوجَدُ مَا هُوَ أقَلُّ مِنْها سوءاً. فأفرادُ السّيئة غَيْرُ مُسْتَوِيَات.

فمن البدهيّ أنْ لا تستوي الحَسَنَاتُ والسَّيّئات.

والداعي إلَىٰ اللهِ الرَّشِيدُ العَامِلُ بوصَايا رَبِّه لَهُ، يَخْتَارُ دواماً أحْسَنَ الْخِصَالِ فِي مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة، وأحْسَنَ الأَفْعَالِ، وأحْسَنَ الأَقْوال، رجَاءَ أنْ يَكُونَ تأْثِيرُهُ الدَّعَوِيُّ في الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ أكْثَرَ وَأَفْعَلَ وَأَفْضَلَ، فَالنَّاسُ تُؤَثِّرُ فِيهِم الْخِصَالُ والأفْعَالُ والأقوالُ الحسَنَةُ الْحَمِيدَةُ تَأْثِيراً بِالِغاً، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بَرِيئاً من الأَمَراضِ الْقَلْبِيَّةِ والنَّفسِيَّةِ والسُّلُوكِيَّةِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، الَّتِي يَقُومُ بِوَظِيفَتِها الدَّاعِي الرَّبَّانِيّ.

ولَمَّا كَانَ الدَّاعي إلَىٰ اللهِ قد يَدْعُو مُخَالِفِينَ لَهُ في الدِّينِ، وَذَوِي الْتِزَامِ بِمَبَادِئَ وَسُلُوكِيَّاتٍ مُرْضِيَاتٍ لأَهْوَائِهِم وَشَهَواتِهِمْ، وهؤُلاءِ قَدْ يُقَابِلُهُ بَعْضُهُمْ بِمَا يَسُوؤهُ وَيُؤْذِيهِ أَوْ يَضُرُّه، لإيقافِ نَشَاطِهِ الدَّعَوِيّ، أَوْصَاهُ اللهُ عزّ وجلّ بأنْ يَدْفَعَ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، فَيَدْفَعَ الخَصْلَةَ السَّيِّئَةَ بالْخَصْلَةِ الحسَنَة، ويَدْفعَ الفِعْلَ السَّيِّءَ بالفِعْلِ الحَسنِ، ويَدفَعَ الْقَوْلَ السّيِّئَ بالْقَوْلِ الْحَسَن.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ يُوصِي حَامِلَ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ وكُلَّ مُؤْمِنٍ مسلم:

- ﴿.. ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ..﴾، أي: ادْفَعْ مَنْ يُرِيدُ مُقَاوَمَةَ دَعْوَتِكَ بما يَضُرُّكَ أَوْ يُؤْذِيكَ ويُقْبلُ عَلَيْكَ بِشَرٍّ، بالْخَصْلَةِ التي هي أَحْسَنُ، مِنْ خُلُقٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، فتوقيف حَرَكاتِه بالخصلَة الأَحْسَنِ جَعَلَهُ اللهُ مِنَ الدَّفعِ.

وأبانَ اللهُ عزّ وجلّ أَنَّ الدَّفْعَ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، قَدْ يُفَاجِيءُ الدَّاعِي بِتَحَوُّلِ الْعَدُوّ إلىٰ شبيهٍ بوليٍّ نَصِيرٍ، وصَدِيق حمِيم، فقال تَعَالَىٰ:

- ﴿. . فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

الْوَلِيّ: النَّصِيرُ الْمُعِينُ، والصَّدِيقُ الملازم.

الْحَمِيم: الْقَرِيبُ الَّذِي تَوَدُّه وَيَوَدُّك.

البيانُ في هـٰذِهِ العِبَارَةِ اخْتِيرَتْ فِيهِ الصُّورَةُ الأَشَدُّ مِنْ تَأْثِيرِ الدَّفْعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِذْ قَدْ يَصِلُ إِلَىٰ تَحْوِيلِ الْعَدُوِّ إِلَىٰ شَبِيهٍ بِالْوَلِيِّ الْحَمِيم، فَأَغْنَىٰ ذِكْرُهَا عَنْ ذِكْرِ مَا دُونها مِنَ الصُّور.

والسَّبَبُ في هـٰذا التحوُّلِ أَنَّ الْبَادِئَ بالإِسَاءَةِ إذَا قُوبِلَ بالإِحْسَانِ يَشْعُرُ بِحقَارَةِ نَفْسِهِ خُلُقِياً وسُلُوكِياً تُجاهَ مَنْ قَابَلَ إسَاءَتَهُ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَيُحَاوِلُ تَغْطِيَةَ عَمَلِهِ السَّابِقِ لِيُحَسِّنَ صُورَةَ سُلُوكِهِ أَمَامَ نَفْسِهِ، وَأَمَامَ حَامِلِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ، بأَعْمَالٍ فيها مُبَالَغَةٌ فِي التَّحْسِين، حتَّىٰ كأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، لَا يَحْمِلُ عداوةً ولَا كَرَاهِيَةً، بَلْ يَحْمِلُ وُدّاً وَوَلَاءً.

ولَمَّا كَانَ دَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْخِصَالِ الْفَاضِلَةِ ذَاتِ الامْتِياز الرَّفيع، والَّتي لَا يَتَّصِفُ بِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ مِنْ فَضَائِلِ الأخْلَاق، قَالَ اللهُ تَعالَىٰ:

- ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾:

- ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾: أي: وَمَا يُمْنَحُ تَلَقِّياً هـٰذِهِ الْخَصْلَةَ الْحَمِيدَةَ إلَّا الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِخُلُقِ الصَّبرِ، وَإِلَّا الَّذِينَ لَهُمْ حَظٌّ عَظِيمٌ مِن الإيمانِ وابْتِغاءِ رِضْوَانِ الرَّحِيم الرَّحْمنِ.

يُقَالُ لُغَةً: «تلَقَّىٰ فُلَانٌ الشَّيْءَ مِنْ فُلَانٍ» أي: أَخَذَهُ مِنْهُ.

وَجاءَ التَّعْبِيرُ بِعِبَارَةِ: ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ بالبِناءِ لَما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ للدَّلَالَةِ ضِمْناً علَىٰ أَنَّ هـٰذِهِ الْخَصْلَةَ الْعَظِيمَةَ تَأْتِي مِنْحَةً مِنَ اللهِ لِبَعْضِ عِبادِه، إذا كَانُوا في حَيَوَاتِهِمْ مِنَ الصَّابِرِينَ، وَكَانَ لَهُمْ حَظٌّ عَظِيمٌ مِنَ الإيمان، وابْتِغاءِ رَضْوانِ وثَوَابِ الرَّحمنِ الْوَهَّابِ المنَّانِ.

الْحَظُّ: النَّصِيبُ مِنَ الْخَيْر، سَواءٌ أكانَ من الماديّاتِ أمْ من المعنويّات.

وفي هـٰذا البيانِ ثَنَاءٌ يُشْعِرُ بأنَّ مَنْ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بالّتي هِيَ أحْسَنُ، لَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللهِ جَلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

ولَمَّا كانَ الَّذي يَتَعَرَّضُ لِلأذَىٰ وَلِمَا يَكْرَهُ مِنَ الّذِينَ يَدْعُوهُمْ إلىٰ الله، يُحَاوِلُ الشَّيْطَانُ أنْ يَنْزَغَ نَزَغَاتِهِ فِي صَدْرِه، لِتَحْرِيضِهِ عَلَىٰ مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ بِمَا هُو أشَدُّ مِنْها، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ تَعْلِيمُهُ أَنْ يُعَالِجَ نَزْغَ الشَّيْطَانِ بالاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ باللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيم، فَقَالَ اللهُ لَهُ:

- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾: [إمَّا] هي «إنْ» الشرطيَّة و«ما» زائدة لتوكيد الربط بين الشرط وجوابه.

نَزْغُ الشَّيْطَان: وَسَاوِسُهُ وَتَسْوِيلاتُهُ الَّتِي يَحْمِلُ الإنسانَ بِها علىٰ ارتكاب المعاصي والْمُخَالَفَات.

وأصْلُ النزغ في الحسّيّات النَّخْسُ والْغَرْزُ بإبْرَةٍ ونحوها، للإثَارَةِ والدَّفعِ لأَمْرٍ ما.

والنَّزْغُ: الكلام الَّذي يُقْصَدُ بِهِ الإغْرَاءُ والإفسادُ بَيْنَ النَّاس.

فإذَا أحَسَّ المؤمنُ بِنَزْغِ الشَّيْطَانِ فَلْيَقُل: أعُوذُ باللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجيم.

والوصِيَّةُ بالاسْتِعَاذةِ باللهِ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَان، قَدْ جَاءَتْ في الآية (٢٠٠) من سُورَة (الأعراف/ ٣٩ نزول)، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فيها:

- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾.

وَالْفَارِقُ بَيْنَ آيَتِي (الأعراف) و(فُصِّلت) أَنَّ آيَةَ (الأَعْرَاف) جاء فيها: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وَهُوَ تَعْبِيرٌ لَا قَصْرَ فيه. أمَّا آيَةُ (فُصِّلت) فقد جاءَ

فيها: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وَقَدْ دَلَّ الْقَصْرُ فيها بتَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ مَعَ ضَمِيرِ الفَصْل، عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ سَمِيعٌ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ، وَلَا عَلِيمٌ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً إِلَّا اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وبَلَغَتْ غَايَةَ العظَمَةِ صِفَاتُه.

فَعَلَىٰ المؤمِنِ الْمُسْلِم أَنْ يَسْتَعِيذ باللهِ السّمِيعِ الْعَلِيم مِنْ نَزْغِ الشيطان، كُلَّمَا خَطَرَتْ عَلَىٰ ذِهْنِهِ خَاطِراتٌ تَدْعُوهُ إلىٰ مَزَالِقَ تُزْلِقُهُ إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ، أَوْ إِلَىٰ مُجَافَاةِ مَا يُحِبُّ اللهُ مِنْه.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (المؤمِنُونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نُزُول) وَصِيَّةُ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِسَائِرِ المؤمنين المسْلِمِينَ، بأَنْ يَدْفَعَ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وبأَنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين، فقالَ تَعالَىٰ فيها:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

فَمِنَ الْخَيْرِ الاسْتِعَاذَةُ بالله وَفْقَ هٰذِهِ الْعِبَارَةِ القرآنِيَّة، ومِنَ الخير أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَها وَبَيْنَ صِيغَةِ الاسْتِعَاذَةِ السَّابِقَة.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ السَّادسِ من دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحَمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وَتَوْفِيقِهِ ومِنَّتِهِ وَفَتْحِه.

⁂

(١١)

التدبر التحليلي للدّرس السابع من دروس سورة (فُصّلت)

الآيات من (٣٧ ـ ٣٩)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ

ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ (٣٨) وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٣٩)﴾.

القراءات:

(٣٧) • وقف يعقوب بهاء السّكت على: ﴿**خَلَقَهُنَّ**﴾.

(٣٨) • وقف حمزة بنقل حركة الهمزة إلى السّين في: ﴿**لَا يَسْأَمُونَ**﴾.

(٣٩) • قَرأَ أَبُو جَعْفَر: [**وَرَبَأَتْ**] يُقَال لُغَةً: «رَبَأَتِ الأَرْض» أي: زَكَتْ وارْتَفَعَتْ زُرُوعُها.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: ﴿**وَرَبَتْ**﴾ مِنْ فِعْلِ «رَبَا الشيءُ يَرْبُو» بمعنىٰ: نَمَا وَزَاد.

فَمُؤَدّىٰ القراءتَيْنِ وَاحد.

تمهيد:

في آيَات هٰذا الدّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، المستَلْزِمَةِ وَحْدَانِيَّتَهُ فِي إلَـٰهِيَّتِهِ، معَ الدَّعْوَةِ إلىٰ السُّجُودِ للهِ وَحْدَهُ، والنَّهْيِ عَنِ السُّجُودِ للشَّمْسِ والْقَمَر لأَنَّهُما خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ.

وفيها عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ علىٰ قُدْرَتِهِ عزّ وجلّ علىٰ إحياء الموْتَىٰ، الْمُمَاثِلِ لإحْيَاءِ الأَرْضِ بالنَّبَاتِ بَعْدَ مَوْتها.

التدبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ (٣٧)﴾:

تكرَّرَ في القرآنِ المجيد التَّنْبيهُ عَلَىٰ آيَتي اللَّيْلِ والنَّهارِ من آيَاتِ اللهِ في كوْنِهِ، وعَلَىٰ آيَتي الشَّمْسِ والْقَمَرِ مِنْ آيَاتِهِ جَلَّ جَلالُهُ، لِمَا فِي هـٰذِهِ الآيَاتِ مِنْ دَلَالَةٍ عَظِيمَةٍ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ الكُبْرَىٰ وعِلْمِهِ المحيطِ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، وحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ، ومِنَّتِهِ عَلَىٰ عِبَادِه في الأَرْض، وقَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ لَدَىٰ تَدبُّر الآيَاتِ القرآنِيَّةِ الَّتي جاءَ فيها ذِكْرُ هـٰذِهِ الآيَاتِ الكَوْنِية، شَرْحُ وَتَفْصِيلُ مَا يَتعَلَّقُ بِهَا بِمِقْدَارِ مَا فَتَحَ اللهُ.

وقَدْ جَاءَ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَىٰ هـٰذِهِ الآيَاتِ، تَوْطِئَةً لِلنَّهْي عن السُّجُودِ لِلشَّمْسِ والْقَمَر، اللَّذَيْنِ يَرْتَبِطُ بِهِمَا اللَّيْلُ والنَّهارُ في الظَّواهِرِ الكَوْنِيَّةِ الْخَاصَّةِ بالأَرْضِ وَسُكَّانِها.

وَلَمَّا كَانَ فِي النَّاسِ مَنْ يَسْجُدُ للشَّمْسِ أو الْقَمر عِبادَةً لَهُمَا، كَصابِئَةِ الْعِرَاقِ، ويَمنِيّي سَبأ في عَهْدِ بِلْقِيسَ وَقَبْلَهُ، وَرُبَّما اسْتَمَرَّ لَهُمْ وُجودٌ بَعْدَها، وكَانَتْ رِسَالَةُ الإِسْلَام للنَّاسِ عَامَّةً، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ اشْتِمَالُ القرآنِ المَجِيدِ عَلَىٰ بَيانٍ يَتعَلَّقُ بالنَّهْي عَنِ عِبادَةِ الشَّمْسِ والْقَمرِ، وَمِنْ مَظاهِرِهَا لَدَىٰ عُبَّادِهِمَا السُّجُودُ لَهُما، وَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ بَيانُ أَنَّهُما خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ في كَوْنِهِ، وكذلِكَ اللَّيْلُ والنَّهار.

- ﴿.. إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ تُفْرِدُونَ اللهَ بِعِبَادَتِه، وَلَا تُشرِكُونَ بِعِبادَتِهِ شَيْئاً، بمَعْنَىٰ: إنْ كُنْتُم تُرِيدُونَ نَجاة أنْفُسِكُم مِنَ العذابِ عَلَىٰ الشِّرْكِ.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ تَقْدِيم المفْعُول بِهِ ﴿إِيَّاهُ﴾ علىٰ الْفِعْلِ الْعَامِلِ فِيهِ ﴿تَعْبُدُونَ﴾. والْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِلَّذِينَ يَسْجُدونَ للشَّمْسِ أوِ الْقَمر، سَوَاءٌ أَكَانَ لَهُمْ وُجُودٌ في بَعْضِ قَبَائِلِ الْعَرب أَوْ أفرادٍ مِنْهُمْ، أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وُجودٌ فِي الْعَرَب، إِذْ كَانَ لَهُمْ وُجُودٌ حَتْماً في أُمَمٍ أُخْرَىٰ كَصَابِئَةِ الْعِرَاق، وَمَنْ يُتَابِعُهُمْ عَلَىٰ مَذْهَبِهم الشِّرْكِيّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُلْتَفِتاً عَنْ خِطَابِهِمْ وَمُتَحَدِّثاً عَنْهُمْ بالْغَيْبَةِ:

- ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: فإن اسْتَكْبَرَ عُبَّادُ الشَّمْسِ والقَمَرِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا للدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، بِنَبْذِ السُّجُودِ للشَّمْسِ والْقَمَرِ، وبِالْتِزَامِ السُّجُودِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُمْ لَا يُغَيِّرُون بِسُلُوكِهِم الْكُفْرِيّ شَيْئاً مِنْ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ عزّ وجلَّ في رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إلَٰهِيَّتِهِ، وَإِنَّهُمْ بِسُلُوكِهِمْ الكُفْرِيِّ هٰذا يَكُونُونَ شَاذِّينَ بِعِنَادٍ، وَخَارِجِينَ عَنْ صُفُوفِ مِلْيَارَاتٍ مَالِئَاتٍ لِلسَّمَاواتِ الْعُظْمَىٰ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ المطَهَّرِينَ مِنَ المعاصي والآثام وَخَبَائِثِ النُّفُوسِ، وَهُمْ جَمِيعاً يُسَبِّحُونَ للهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ باللَّيْلِ والنَّهَارِ، ويَسْجُدُونَ لَهُ وَيَرْكَعُونَ، لَا يَسْأَمُونَ، أي: لَا يَمَلُّونَ وَلَا تَضِيقُ نُفُوسُهُمْ مِنْ تَوَالِي العِبَادة وَطُولِ مُدَّتِها. وجَاءَ فِي بَيَانٍ آخَرَ أَنَّهُمْ لَا يَفْتُرُونَ، بَلْ عِبَادَتُهُمْ مُتَواصِلَةٌ كَأَنْفَاسِ النَّاسِ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ حَيَواتِهِم.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً مِنْ آيَاتِهِ التَّكْوِينيَّةِ آيَةَ إِحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَنَّ هٰذا الإحْيَاءَ يُشْبِهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ، وَأَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير:

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

الْخُشُوعُ: هو في اللُّغَةِ الْخُضُوعُ، والسُّكُونُ، وقَدْ يَدُلُّ عَلَىٰ الخوفِ في الأَحْيَاء، أَمَّا إطْلَاقُ الْخُشوعِ علَىٰ الأَرْضِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيها، فالْمُرَادُ بِهِ تَشْبيهُهَا بالْخَاضِعِ الذَّلِيلِ الَّذي سَاوَىٰ جَسَدَهُ بالأَرْضِ، كَالْمَيِّتِ المنْبَسِطِ الَّذي لَا حَرَكَةَ لَه، والخطابُ مُوَجَّهٌ لِكُلِّ فَرْدٍ صَالِحٍ للخطاب.

- ﴿. . فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . .﴾:

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم بَعْدَ الْحَدِيث بِضَمِيرِ الْغَيْبَة. فإِذَا أَنْزَلْنا عَلَيْها (أي عَلَىٰ الأَرْضِ الْخَاشِعَةِ) الماءَ مِنَ السَّمَاءِ، تَفَجَّرَتِ الْبُزُورُ والْجُذُورُ فيها، فَنبَتَتْ نَبَاتَاتُهَا مِنْ جَدِيدٍ وارْتَفَعَتْ فَوْقَ سَطْحِ الأَرْضِ، واهْتَزَّتْ هـٰذِهِ النَّبَاتَاتُ بالرِّياحِ الَّتِي تُحَرِّكُهَا، وَرَبَتْ (أَيْ: نَمَتْ وَارْتَفَعَتْ خَضِرَةً نَضِرَةً ذَاتَ حَيَاة).

● ﴿. . إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: إنَّ الَّذِي أحْيَا الأَرْضَ الْخَاشِعَةَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ فِيها نَبَاتٌ، لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ مِنَ الأَحْيَاءِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَفَنَاءِ أَجْسَادِهِمْ، بإِنْزَالِ مَطَرٍ خَاصٍّ تَتَفَجَّرُ نَوَيَاتُ أَجْسَادِهِمُ المحْفُوظَةِ في عَجْبِ ذَنَبِ كُلِّ مَنْ كَانَ ذَا حَيَاةٍ مِنَ النَّاسِ وأَشْبَاهِهِمْ من الأَحْيَاءِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ النَّبَاتَاتُ مِنْ نَوَيَاتِ بُزُورِها، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَيأْمُرُ اللهُ عزّ وجلّ كُلّ رُوح أَنْ تَدْخُلَ فِي الْجَسَدِ الَّذِي نَمَا عَلَىٰ مِثْلِ صُورَتِهِ السَّابِقَةِ، وَبِهـٰذا يَكُونُ الْبَعْثُ إِلَىٰ الحياةِ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

وَقَدْ جاءَ بَيَانُ هـٰذا في بَيانَاتٍ نَبَوِيَّةٍ صَحِيحَة، تَفْصِيلاً لِمَا جَاءَ في القرآن المجيدِ مُجْملاً.

وقَدْ تَكَرَّرَ في القرآنِ تَشبيهُ خُرُوجِ أَجْسَادِ المَوْتَىٰ مِنَ الأَرْضِ يَوْمَ القيامَةِ، بخُرُوجِ النَّبَاتَاتِ مِنْ بُزُورِهَا فيمَا يُشَاهِدُ النَّاسُ دواماً، لِلإِشْعَارِ بأَنَّ الْبَعْثَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ مُشَابِهٌ لإحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِها، مَعَ بَيَانِ أَنَّ الله عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاءُ خَلْقَهُ مِن الممْكِنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ قَدِير.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السّابع من دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وتَوْفِيقه ومِنَّتِهِ وفَتْحِه.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليليّ للدَّرْس الثامن من دُروس سورة (فُصّلت)

الآيات من (٤٠ ـ ٤٥)

قَال اللهُ عزَّ وجَلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)﴾.

القراءات:

(٤٠) • قرأ حمزة: [يَلْحَدُون] مِنْ فعل «لَحَدَ» بمعنىٰ مَالَ عن القصد.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ مِنْ فِعْلِ: «أَلْحَدَ» بمَعْنىٰ عَدَلَ عَنِ الحقّ، وأدخَلَ فيه ما ليس مِنْه.

فمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

(٤٠) • قرأ السُّوسِي، وأبُو جَعْفَر: [شِيتُمْ] بإبْدَال الهْمزَة ياء.

وقرأها كذلِكَ حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿شِئْتُمْ﴾ بالهمزة.

(٤٤) • قرأ ابْنُ كثير: [قُرانًا]. وكذلِكَ حَمْزَةُ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿قُرْآناً﴾.

وكِلَا القراءتَيْنِ مِنَ النُّطْقِ الْعَرَبي.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْس مُعالَجةٌ بالإنْذار للّذين يُلْحِدُونَ في آياتِ اللهِ مَائِلين عن الحقّ فيها، ولِلّذينَ كَفرُوا بالقرآن، وفيها تَسْلِيَةٌ للرَّسُول ﷺ، ودفْعٌ لِبَعْضِ أقوال الكافِرين بشَأْنِ القرآن، وتَعْلِيمٌ للرَّسُول ﷺ ما يَقُولُهُ لهم.

التدبّر التحليلي:

- قول اللهِ تَعالَىٰ بِشأنِ الَّذينَ يُلْحِدُونَ في آياتِهِ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ ..﴾ وفي قراءة حمزة: [يَلْحَدُونَ]. أي: إنَّ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ عَنِ الْحَقِّ في تَفْسِيرِ آياتِنَا الكونيَّة، والتَّربويَّة، والجزائية، والإعجازيَّة، وآياتِنَا المنزَّلاتِ عَلَىٰ رُسُلِنا، مَعْلُومُونَ لَنا عِلْماً تامّاً ظَاهِراً وَباطِناً، جسَداً وَنَفْساً، وخَواطِرَ ونِيّات، فَهُمْ لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا، وهُمْ يُعَرِّضُونَ نُفُوسَهُمْ لِعُقُوبَاتِنا بالْعَدْلِ عَلَىٰ كُفْرِهم، وتَلاعُبِهِمْ فِي تَفْسِيرِ الآيات، ففي عبارة ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ كِنايَةٌ عَنْ عِقابِ اللهِ لهم.

وَمِنَ الإلْحَادِ فِي آياتِ اللهِ الكَوْنِيَّة، والتَّرْبويَّة، وَالجَزائِيَّة، تَفْسِيرها بِأَنَّها ظَوَاهِرُ طَبِيعيَّةٌ لِحَرَكَاتٍ ذَاتِيَّةٍ فِي عَنَاصِرِ الْكَوْن.

ومِنَ الإلْحَادِ فِي آياتِ اللهِ الإعْجَازِيَّة تَفْسِيرُهَا بأنَّها نَوْعٌ مِنْ أنواعِ السِّحْر، كإلْحادِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بالنِّسْبَةِ إلى آياتِ اللهِ الَّتي أجْرَاها لِرَسُولِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن الإلْحادِ في آيات اللهِ البيانيَّةِ المنزَّلاتِ تَحْرِيفُها وتأْوِيلُها تأْويلاتٍ باطِلاتٍ علَىٰ غَيْرِ المرادِ بها، كتَتَبُّع الْمُتَشابِهاتِ والتَّلاعُبِ في دَلالاتِها، وقَدْ أبانَ اللهُ عزّ وجلّ هؤُلاءِ الْمُحَرِّفين بقولِهِ تعالَىٰ في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) خطاباً لرسُولِهِ ﷺ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ . . . ﴿٧﴾﴾.

وقَدْ كَانَ لِلقَرامِطَةِ الْبَاطِنِيّينَ الْمُوَجَّهِينَ مِنْ قِبَلِ أَخبَاث الْيَهودِ تَلاعُبَاتٌ كثيراتٌ شنيعَاتٌ في آياتِ اللهِ البيانِيَّةِ، وتَحْرِيفَاتٌ عَنْ دَلالاتِها الحقّ.

وظَهَر في عَصْرِنَا الْحَاضِرِ مُتَلاعِبُونَ كَثِيرُونَ مُوَجَّهُونَ مِنْ قبل أَعْداءِ الإسْلام «الْيَهُودِ، والنصارىٰ، والملاحِدَة، وغَيْرِهم» يَكْتُبُونَ مُؤَلّفَاتٍ مَشْحُونَةً بِأَرْجَاسِ تَأْوِيلَاتِهِمْ الباطلاتِ لآياتِ كِتَابِ اللهِ الْقُرآن، ابْتِغَاءَ فِتْنَةِ النَّاس عَنْ دِينِ اللهِ الحقّ.

- ﴿. . أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ . .﴾؟:

الاستِفْهَامُ فِي هٰذِهِ العبارَةِ فِيهِ إِشْعَارٌ بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُباشِرٍ وهُوَ يَدْخُلُ فِي التَّعْرِيض، بأنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِ اللهِ سَوْفَ يُلْقَوْنَ يوْمَ الدِّينِ فِي النَّارِ، بِخِلَافِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْحَقِّ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ آياتُ اللهِ، فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ آمِنِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ دَالَّةٍ عَلَىٰ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُون سُعَداء أبداً فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

- ﴿. . ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾:

الخطابُ فِي هٰذِهِ العِبارَةِ مُوَجَّهٌ لِلَّذِينَ يُلْحِدُونَ في آياتِ اللهِ، عَلَىٰ اخْتِلَافِ فِرَقِهِمْ وزُمَرِهِمْ، وفِيه إِنْذارٌ لَهُم بأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ نُفُوسَهُمْ بإلْحادِهِمْ في آياتِ اللهِ لِعَذَابٍ شَدِيدٍ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ إِيَّاه في دَارِ الْعَذَاب النَّار.

فالأمْرُ في عِبارَةِ: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ أَمْرُ تَهْدِيدٍ وَوَعِيد.

والْخَبرُ في عِبارَةِ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خَبرٌ فِيهِ كِنايَةٌ عَنْ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ بعَذَابٍ شَدِيدٍ، بِسَبَبِ إلْحادِهِمْ في آيَاتِه، كُفْراً بِهَا وَابْتِغَاءَ فِتْنَةِ النَّاسِ عَنْ دِينِ اللهِ الْحقِّ، بِتَحْرِيفاتِهِمْ وَتأْوِيلاتِهِم الباطِلاتِ الْفَاسِدَاتِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْقُرْآنِ لَمَّا جاءَهُمْ بَلاغاً عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ:

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿بِٱلذِّكْرِ﴾: أيْ: بالْقُرْآنِ، سَمَّاهُ اللهُ عزّ وجلّ ذِكْراً، للإشْعَارِ بأنَّ المطْلُوبَ أنْ يَتَلقَّاهُ الموضُوعُونَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وأَنْ يَتَدَبَّروهُ، وأَنْ يَخْتَزِنُوا مَعَانِيَهُ فِي ذَاكِرَاتِهِمْ، وأَنْ يَذْكُرُوا مِنْها عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يَتعَلَّقُ بها، وَلِيَعْمَلُوا بِمَا يُوجِبُ القرآنُ الْعَمَلَ به، ويَعْتَقِدُوا مَا يُوجِبُ اعْتِقَادَهُ، ويَهْتَدُوا بما دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ هِدَايَة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ أي: وَإنَّهُ لَمَطْلُوبٌ مِنَ المؤمنين الْمُسْلِمينَ أَنْ يُدَوِّنُوهُ في كِتَاب مَحْفُوظٍ، مَحْمِيٍّ مِنَ التحريفِ، والتَّبْدِيل، والزِّيَادَة، والنَّقْص.

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قَوِيٌّ غَالِبٌ بِبَيَانِهِ وحُجَجِهِ وبَرَاهِينِهِ، وكَرِيمٌ ذُو كَرَامَةٍ عُظْمَىٰ لِمَا فِيهِ مِنْ حَقَائِقَ وهدَايَةٍ عَظِيمَة.

فالعزيزُ في اللُّغَةِ الْقَوِيُّ الْغَالِب. وذُو الكَرامَةِ الَّذِي يُمَجَّدُ بها.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ ..﴾: أي: لَا يَأْتِيهِ مَا يُبْطِلُ شَيْئاً فِيهِ مِنْ حَقَائِقَ سَابِقَةٍ لِتَنْزِيلِهِ، ولَا مِنْ حَقَائِقَ مُكْتَشَفَةٍ أَوْ كائِنَةٍ بَعْدَ تَنْزِيلِهِ، فَشَمَلَ هٰذا التعبيرُ الأزمَانَ كُلّها، وتَدْخُلُ لحظَةُ التَّنْزِيلِ في عُمُوم مَا قَبْلَهَا أَوْ عُمُوم مَا بَعْدَها عُرْفاً، وهو أيضاً محفوظٌ بِحِفظِ اللهِ من التغيير والتَّبديل والزيادة والنقص، فهٰذا من الباطل.

- ﴿.. تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾: أي: ومِنْ صِفَاتِ القرآن أنَّهُ كَلَامُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمُنَزَّلٌ علَىٰ الرَّسُول ﷺ مِنْ لَدُنْهُ.

ولمَّا كَانَ اللهُ عزّ وجلّ حَكيماً كَانَ كَلَامُهُ المنزَّلُ مِنْ لَدُنْهُ حَكيماً، فالْقُرآنُ من صِفَاتِهِ أَنَّهُ حَكِيمٌ.

الحكيم: هو الّذي يضَعُ الأَشْيَاءَ في مَوَاضِعِها، ويخْتَارُ أفْضَلَ الأشياءِ وأتْقَنها وأحْسَنَهَا في الأُمُور المختلفة، لِمَا يُعْطِي أحْسَنَ النَّتَائِجِ وَأفْضَلَها.

ولمَّا كَانَ اللهُ عزّ وجلّ حَمِيداً، أيْ: مَحْمُوداً لَهُ كُلُّ الْحَمْدِ، كَانَ كَلَامُهُ المنزَّلُ مِنْ لَدُنْهُ حَمِيداً أَيْضاً، إذْ لَا يُنَزِّلُ الْحَمِيدُ في كُلِّ صِفَاتِهِ إلَّا كلاماً حَمِيداً.

المعْنَىٰ: إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالْقرآنِ الّذي يَجِبُ علىٰ مُتَبَلِّغِيهِ أنْ يَجْعَلُوهُ ذِكْراً لَهُمْ عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ دَاعِيَة، حِينما جَاءَهُمْ بَلَاغاً عَنْ رَبِّهِمْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، والْحَالُ أنَّهُ لَكِتَابٌ رَبَّانِيٌّ قَوِيٌّ غَالِبٌ بِحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ، وذُو كَرَامَةٍ عظيمة، وَلا يَأْتِيهِ مَا يُبْطِلُ شيئاً فِيهِ مِنْ حَقَائِقَ سَابِقَةٍ لِتَنْزِيلِه، وَلَا مِنْ حَقَائِقَ أخرَىٰ مُكْتَشَفَةٍ أَوْ كَائِنَةٍ بَعْدَ تَنْزِيلِهِ، وَهُوَ حَكِيمٌ وَمَحْمُودٌ بِكُلِّ صِفَاتِهِ، لَهُمْ عَذَابٌ في نَارِ جَهَنَّمَ كَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِإِلْحَادِهِمْ فِي آيَاتِ رَبِّهِم، الذين جَاء في الآية (٤٠) الحديثُ عنهم.

لَمْ يُذْكَرْ في الآيتينِ (٤١) و(٤٢) خَبَرُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بَلْ جَاءَ مَطْوِيّاً اكْتِفَاءً بِمَا جَاءَ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِإِلْحَادِهِمْ في آيَاتِ الله، نظراً إِلَىٰ أَنَّ الْكَافِرِينَ سَوَاءٌ في الْحُكْم عَلَيْهِمْ في عَذَاب النَّارِ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ دَرَكَاتُهُمْ فِيها بِحَسَبِ جرائِمِ كُلٍّ مِنْهم.

ويُدْرَكُ هـٰذا المطْوِيُّ بالْقَرِينَةِ أوْ بالْقِيَاس، أو بدُخُولِ الجميع تَحْتَ عُمُومِ الْكَافِرِينَ، مَعَ اقْتِرَانِ الْفَرِيقَيْنِ في دَرْسٍ واحد، وهـٰذا مِنْ أَسَالِيبِ القرآنِ الإيجازِيَّة البديعة.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرسُولِهِ ﷺ:

- ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾:

الأعجميُّ: المتكلِّم الّذي لَا يَتكلَّمُ بالْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحىٰ، واللِّسَانُ المخالِفُ لِلْعَرَبِيَّة الفُصْحَىٰ، والكِتَابُ المكتُوبُ بِلُغَةٍ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ الفصحىٰ.

يقال لغة: فُلَانٌ أَعْجَميٌّ، ولِسَانٌ أعْجَمِيٌّ، وَكِتَابٌ أَعْجَميٌّ.

جاء في أوَّلِ السُّورَةِ بَيَانُ أَنَّ القرآنَ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قرآناً عَربيّاً لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الرَّغْبَةُ في أَنْ يَعْلَمُوا، وأَنَّهُ بَشِيرٌ لِمَنْ يُؤْمِنُ وَنَذِيرٌ لِمَنْ يَكْفُرُ، فأَعْرَضَ عَنْهُ أكثَرُ مُتبَلِّغِيهِ من مُشْركي مَكَّةَ، وَصرفوا أسْمَاعَهُمْ عَنْهُ، وقَالُوا للرَّسُولِ ﷺ: قُلُوبُنَا في أكِنَّةٍ، فَهِيَ مَحْجُوبَةٌ بأَغْطِيَةٍ وسُتُورٍ وحُجُبٍ لَا يَصِلُ إِلَيْها مَا تَدْعُونَا إليه. وفي آذَانِنَا وقْرٌ (أي: صَمَمٌ أوْ شِبِيهٌ بالصَّمَم)، فهي لَا تَسْمَعُ الآيَاتِ الَّتِي تَقُولُ: إنَّها مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ يُنَزَّلُ عَلَيْك. وتُوجَدُ في المسَافَةِ المكانِيَّةِ بَيْنَنَا وبَيْنَكَ حِجَابٌ، فَنَحْنُ لَا نَرَاكَ اسْتِهَانَةً بِكَ، فَكَأَنَّكَ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي بَلَدِنَا وَلَا فِي بيئَتِنا.

وَجاء في الآية (٢٦) من السُّورَة بَيَانُ وَصِيَّةِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة لأَوْلِيَائِهِمْ قَائِلِينَ لَهُمْ: ﴿..لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وجَاءَ في نُجُوم التَّنْزِيلِ السَّابِقَةِ لِنُزُول سورة (فُصّلَتْ/ ٦١ نزول) بَيَانُ أنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَالُوا بِشَأْنِ الْقُرْآنِ إِنَّهُ سِحْر، وإِنَّهُ مِنْ قَبِيل الشعر، وقَالُوا: إِنَّ مُحمَّداً ـ ﷺ ـ يَفْتَرِيه عَلَىٰ رَبِّهِ، ويُعِينُه علىٰ تَأْلِيفِهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، وَيَنْقُلُهُ مِنْ أَسَاطِيرِ الأَوَّلِين.

وَجاءَ في هٰذا الدَّرْسِ الثامِنِ بَيَانٌ عَنْ مَجْدِ القرآن، وأَنَّهُ غَالِبٌ

بِحُجَجِهِ وبَراهِينِهِ، وأنَّهُ لَا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وأنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَمِيد.

فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُبَيِّنَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنَّ مَوْقِفَ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ مِنْ قَوْمِهِ، مُمَاثِلٌ لِمَوْقِفِ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ تُجاهَ رُسُلِهِمْ عَلَيْهِم السَّلام، وتُجاهَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رُسُلِهِمْ عَلَيْهِم السَّلام، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، وتَشَابَهَ كُفْرُهم، وتَشَابَهَتْ أقوالُهُمْ، فَقَالَ تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ. . . ﴿٤٣﴾﴾:

في هـٰذَا الْبَيَانِ يُهَوِّنُ اللهُ عزّ وجلّ عَلَىٰ رسُولِهِ ﷺ، مِنْ وَقْعِ أقوالِ الّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ، بِشَأْنِ القرآنِ، وبِشَأْنِ تَكْذِيبِهِ واتِّهَامِهِ بالافْتِرَاءِ عَلَىٰ رَبِّه، بِأَنَّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ قَدْ قَالُوا لِرُسُلِ رَبِّهِمْ لَهُمْ مِثْلَ مَا يُقَالُ لَكَ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِكَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا يَقُولُهُ الْكَافِرُون، وَلَا تَكْتَرِثْ لَهُ، وَلَا تُبَالِ به.

وَأَطْمَعَ اللهُ عزّ وجلَّ الَّذِينَ يَتُوبُونَ وَيُؤْمِنُونَ بالمغْفِرَة، وأَنْذَرَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِم بِعِقَابٍ أَلِيم، فَقَالَ تَعالَىٰ فِي الشَّطْرِ الثاني مِنَ الآيَةِ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿. . . إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: مَا زَالَ بَعْضُ قَوْمِكَ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ الْيَأْسِ مِنْ تَوْبَتِهِمْ وإيمَانِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِهؤُلَاءِ، فَلَيْسَ مِن الْحِكْمَةِ تَعْجِيلُ الْعِقَابِ الشَّامِلِ لهم جَمِيعاً.

لوحظ في توكيد الجملة بـ(إنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسميّة ـ واللّام المزَحْلَقَة) حَالُ الّذِين لَمْ يَصِلوا إلىٰ دَرَكَةِ الميؤُوسِ مِنْ إيمانهم، إطْمَاعاً لَهُمْ بأَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا.

وَأمَّا الميؤُوسُ مِنْ تَوْبَتِهِمْ، فَلَهُمْ عِقَابٌ أَلِيمٌ سَيأْتِيهم لَا مَحالَةَ. إِنَّ رَبَّكَ لَذُو عِقَابٍ أليمٍ، أَيْ: شَدِيدِ الإِيلَامِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّه مِنْ عِبَادِه.

وَمُتَابَعَةً لِمَا جَاءَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ مِنْ أَنَّ هـٰذا الْبَيَانَ الرَّبَّانِيَّ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُه قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْم يَعْلَمُونَ، جَاءَ فِي الآية (٤٤) بَيانُ حِكْمَةِ اللهِ فِي إِنْزَالِهِ عَرَبيّاً لِقَوْمٍ عَرَبٍ أَقْحاحٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدادُ لِتَلَقِّيهِ وَفَهْم كَثِيرٍ مِنْ دَلَالَاتِ آيَاته، وَحَمْلِهِ وَتَبْلِيغِهِ للنَّاسِ مِنْ غَيْرِ الْعَرَب، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ...﴾؟:

أي: لَقَدْ أَنْزَلْنَاهُ عَرَبيّاً لِقَوْمٍ عَرَبٍ أَقْحَاحٍ، فَمَنَحْنَاهُمْ بهـٰذا الإِنْزَالِ شَرَفَ هـٰذا الذِّكْرِ الْعَظِيم المنَزَّلِ بِلُغَتِهِمْ، فَقَابَلُوا هـٰذِهِ الْمِنَّةَ الْعَظِيمَةَ بِالْجُحُودِ والكُفْرَانِ، وبالأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ، فَمَاذَا كَانُوا يَقُولُونَ لَوْ جَعَلْنَاهُ كِتَاباً أَعْجَمِيّاً يُقْرأُ بِلِسَانٍ مَا غير اللِّسَانِ الْعَرَبي، إِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: هَلَّا أنزلَ كِتَاباً عَرَبياً مُفَصَّلَ الآيَاتِ، واضِحَ الدَّلَالَاتِ، وكانُوا يَقُولُونَ أيضاً: أَكِتَابٌ أَعْجَمِيٌّ وَمُبَلَّغٌ بِهِ عَرَبِيٌّ لَا يَعْرِفُ اللُّغَةَ الَّتِي يُخاطَبُ بها؟!!. إنَّ هـٰذا مُنَافٍ لِلْحِكْمَة.

إِنَّهُ أُنْزِلَ بِلُغَةِ الْعَرَب، وهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِبَلَاغَتِهِ وأَفَانِينِ إعجازِهِ الْبَيانِيِّ، فَقَالَ الْكَافِرُونَ بِهِ من الْعَرَبِ الأَقْحَاحِ: هُو سِحْرٌ، هُوَ شِعْرٌ، هُوَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين، هُوَ كِتَابٌ مُفْتَرىً علَىٰ اللهِ، من صُنْعِ الْبَشَرِ.

كَيْفَ يُرِيدُون أَنْ يُنْزِلَ اللهُ لَهُمْ كِتَاباً، وهُمْ لَا يَقْبلُونَهُ أَعْجَمِيّاً، ولَمْ يَقْبَلُوهُ عَرَبيّاً؟؟.

هـٰذا الْبَيَانُ يَدْمَغُهُمْ بالْجُحُودِ، والكُفْرَانِ، والْعِنَادِ، والْتزامِ الباطِلِ والإِصرار عَلَيْهِ.

فعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لهم:

• ﴿... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾:

أَيْ: قُلْ لَهُمْ: إِنَّكُمْ تَقُولُونَ عَنِ القرآن أقوالَكُمُ الْبَاطِلَةَ، فَتَقُولُونَ: هو سحر، هو شِعْر، هو مُفْتَرىً علىٰ الله، هُو أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ، ونحو ذلِكَ؛ لأَنَّكُمْ لَمْ تُؤْمِنُوا بأَنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَنْزَلَهُ لِهِدَايَةِ النَّاسِ وشِفَاءِ مَا في صُدورِهِمْ مِنْ باطِلٍ وضَلَالٍ عَنِ الحقّ، ورَغَبَاتِ إثْمٍ وعِصْيَانٍ، وَظُلْمٍ وعُدْوان، وَمَا في صُدُورِهِمْ مِنْ كِبْرٍ ما هُمْ بِبَالِغِيهِ، وتَعَلُّقٍ بزيناتِ الحياة الدُّنيا، وحُبٍّ للْعَاجِلَةِ الحقيرة، وتَرْكٍ للآخِرَةِ الباقية ذَاتِ الخير العظيم.

القرآنُ: هو لِلّذِينَ آمَنُوا به هُدىً كُلُّهُ، يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ سَعَادَتِهِم الأَبَدِيَّةِ عقيدةً وَخُلُقاً وَسُلُوكاً. وهو لَهُمْ شِفَاءٌ يَشْفِي ما في صُدُورهم مِنْ دَاءٍ، وهـٰذا الشِّفَاءُ يُحقِّقُ لَهُمْ السَّعَادَةَ الأَبَدِيَّةَ، مَعَ مَا يَنالُونَ من طِيبِ عَيْشٍ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

والقرآن: هُو لِلّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بأنَّهُ كَلامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إذَا وَصَلَ إِلَىٰ آذَانِهِمْ كَانَ بمَثَابَةِ الصَّمَمِ فيها؛ لأَنَّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ لَدَىٰ قُلُوبِهِمْ أَنْ يَنْفُذَ إِلَيْها.

إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ يَحْجُبُهَا عَنِ الاسْتِمَاعِ لِلْقُرْآن، فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّ القرآنَ إذا وَصَلَ إِلَىٰ آذَانِكُمْ كَانَ هو بمثَابَةِ الْوَقْرِ (أي: الصَّمَم) فيها؛ لأَنَّ قُلُوبَكُمْ كافِرَةٌ رَافِضَةٌ الاسْتِمَاع لَهُ وَفَهْمَ دَلالاتِهِ.

وإِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فالمَسَافَةُ المكانِيَّةُ بَيْنَنا مَحْجُوبَةٌ بِسُتُورٍ، فَنَحْنُ لا نَراكَ وأَنْتَ تَتْلُو الْقُرْآن، فَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّد: إِنَّ الْقُرْآنَ حينما أَتْلُوهُ وأَنْتُمْ شُهُودٌ، يكُونُ بمَثَابَةِ الْعَمَىٰ فِي عُيُونِكُمْ؛ لأَنَّ تَالِيَهُ عَلَيْكُمْ غَيْرُ مَقْبُولٍ لَدَىٰ قُلُوبِكُمْ أَنْ تَرَوْا ذَاتَهُ، لِكُفْرِكُمْ بِهِ وَكَرَاهِيَتِكُمْ دَعْوَتَه.

وَقَالَ اللهُ عزّ وجلّ بِشَأْنِهِمْ:

﴿. . . أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: إِنَّهُمْ مُوغِلُونَ فِي تِيهِ الكُفْرِ والضَّلال عَنْ صِرَاطِ الحقِّ والْهِداية، فَهُمْ بَعِيدُونَ جدّاً عَنْ دَاعِي الْحَقِّ بُعْداً شَاسِعاً، فَلا يَسْمَعُونَ نِداءَهُ لَهُمْ حِينَمَا يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ.

وَهـٰذِهِ العبارَةُ وَارِدَةٌ فِي الكناياتِ المسْتَعْمَلَةِ عِنْدَ الْعَرَب، قَالَ الفرّاء: تَقُولُ للرَّجُلِ الَّذِي لَا يَفْهَمُ كَلامَكَ: أَنْتَ تُنَادَىٰ مِنْ مَكَانٍ بَعِيد.

وَلَمَّا كانَ مِنْ سُنَّةِ الله عزَّ وَجلَّ أَنْ لَا يُعَجِّلَ الْعُقُوبَاتِ عَلَىٰ الكُفْرِ في الحياة الدُّنْيا، بَلْ يُؤَخِّرُ ذَلِكَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، تَنْفِيذاً لِكَلِمَةٍ عَبَّرَ اللهُ بها عَنْ تَقْدِيره وَقَضَائِهِ بهـٰذا الشَّأْنِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَضْرِبَ اللهُ مَثَلاً عَنْ كُفْرِ بَعْضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالتَّوْراةِ، وَتَأْجِيلِ مُعَاقَبَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ إِلَىٰ يَوْمِ القيامَة، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ هـٰذا الدَّرْسِ بضمير المتكلّم العظيم:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ كِتَابَ التَّوْرَاةِ، فَاخْتَلَفَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَآمَنَ بِهِ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَكَفَرَ بِهِ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَلَمْ نَقْضِ بَيْنَ مُؤْمِنِيهِمْ وَكافِرِيهِمْ في الحياةِ الدُّنْيا، بَلْ أَخَّرْنَا ذَلِكَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ تَنْفِيذاً لِكَلِمَتِنَا الَّتِي سَبَقَتْ بهـٰذا الأَمْر.

وَكَذَلِكَ الْحَال تَكُونُ مُعامَلَتُنَا لِلْمُكَذِّبِينَ الكافِرِينَ بالقرآنِ مِنْ أُمَّتِكَ يَا مُحَمَّد، إذا اقتصَرَ أَمْرُهُمْ علىٰ التَّكْذِيبِ والكُفْر، وَلَم يَرْتَكِبُوا شُرُوراً كُبْرَىٰ تَسْتَدْعِي تَطْهِيرَ المجْتَمَعِ الْبَشَرِيّ مِنْهُمْ، لِتَأْثِيرِهِمْ عَلَىٰ إِرَادَاتِ النَّاسِ الحرَّة، الْمَوْضُوعِينَ بمُقْتَضَاهَا مَوْضع الامْتِحَانِ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا.

- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: تَتَضَمَّنُ تَأْجِيلَ عِقَابِ الكافِرِينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَهِيَ كلمةٌ عَبَّرَتْ عَنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه بهـٰذا الشَّأن.

- ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: لَقُضِيَ بَيْنَ كُفَّارِ قَوْمِكَ بالْقُرْآنِ وبَيْنَ مُؤْمِنِيهِمْ بِهِ، فَأُهلِكَ الْكَافِرُونَ إهْلَاكَ إبادَة، ونُصِرَ المؤمِنُونَ نَصْراً يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهُ مِنْ رَبِّهِمْ، وَلَا كَسْبَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِوَسَائِلَ مَادِّيَّةٍ.

- ﴿. . وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾: أي: وَإِنَّ مُكَذِّبِي كُفَّارِ قَوْمِكَ بِالْقُرْآنِ لَوَاقِعُونَ فِي شَكٍّ مِنَ أَنَّ القرآنَ كَلَامُ رَبِّهِمْ، وَهٰذا الشَّكُّ مِنْهُم شَكٌّ ضَعِيفٌ، لَا تَسْمَحُ لَهُمْ مَوَازِينُ الْفِكْرِ السَّلِيم والْعقْلِ الصّحيح بِأَنْ يَعْتَمِدُوا عَلَيْهِ، رَافِضِينَ الأَدِلَّةَ الْوَاضِحَةَ الَّتِي تُرَجِّحُ أَنَّهُ كَلامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّهِمْ، فَهُوَ شَكٌّ مُرِيب، أَيْ: يَجْعَلُ النَّاظِرَ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّاسِ، والمتفَحِّصَ فِي أَمْرِهِمْ يَتَّهِمُهُمْ بِأَنَّهُمْ عَالِمُونَ بالْحَقِّ وَجَاحِدُونَ لَه، اتِّبَاعاً لأَهْوَائِهِم وَشَهَوَاتِهِم، وَرَغَبَاتِهِمْ من الحياةِ الدُّنيا.

يُقَالُ لُغَةً: «ارْتَابَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ» أي: اتَّهَمَهُ.

فَالشَّكُّ الَّذِي هُمْ فِيهِ يُوقِعُ فِي تُهْمَتِهِمْ بأَنَّهُمْ جَاحِدُونَ عِنَاداً، لِضَعْفِ شَكِّهِمْ، وَقُوَّةِ حُجَجِ مَا هُمْ شَاكُّونَ فِيهِ.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثامِن من دُروس سُورَة (فُصِّلَت).

والحَمْدُ لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقه، ومنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

التدبُّر التحليلي للدَّرْسِ التاسِع من دُروس سورة (فُصّلت)

الآيات من (٤٦ ـ ٤٨)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾
۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا

تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

القراءات:

(٤٧) ● قرأ نَافع، وٱبْنُ عامر، وحفص، وأَبُو جعفر: ﴿**مِن ثَمَرَاتٍ**﴾ بالجمع.

وقرأها بَاقي الْقُرَّاء العشرة بالإفراد: [**مِنْ ثَمَرَةٍ**].

ومُؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحد، ففي الإفراد هُنَا معْنَىٰ كُلِّ ثَمَرَة.

(٤٧) ● قرأ يعقوب: [**يُنَادِيهُمْ**] بِضَمّ الهاء.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: ﴿**يُنَادِيهِمْ**﴾ بِكَسْرِ الهاء.

(٤٧) ● قرأ ٱبْنُ كثيرٍ: ﴿**شُرَكَائِيَ قَالُوا**﴾ بفَتْحِ ياءِ المتَكَلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرةِ بإسْكانِ يَاءِ المتكلم.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانٌ مُجْمَلٌ بِشَأْنِ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً وبِشَأْنِ مَنْ أَسَاءَ، وأنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ عباده شيئاً.

وفيها بيانٌ عَنْ شُمُولِ عِلْم اللهِ، مُضَافٌ إِلَىٰ مَا سَبَقَ فِي نجوم التنزيل بِشأنِ عِلْمِهِ جَلَّ جَلاَلُهُ وعَظُم سُلْطَانُه.

وفيها عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين، تَتَعَلَّقُ بالمشْرِكين.

التدبُّر التحليلي:

فـي هـٰذا الـدَّرْسِ بَـيَـانُ خَـمْـسِ قَـضَـايَـا هِـيَ مِـنْ أُسُـسِ الـمـفـهـومـاتِ الدِّينيَّة، وبَيَانُ مَشهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ يَتَعَلَّقُ بالمشركين.

- أمّا القضايا الخمس فهي مَا يلي:

القضيَّةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾: أي: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً مَبْنِيّاً عَلَىٰ قَاعِدَةٍ إيمَانِيَّةٍ صَحِيحَةٍ، مُطَابِقَةٍ لِمَا جَاءَ في الإسْلَام، مِمَّا جَاءَ في الإسْلَام دِين الله لعباده، بأنَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُرْضِي اللهَ عزّ وجلّ، فَلِنَفْع نَفْسِهِ وَخَيْرِها عَمِلَ هـٰذا الْعَمَل؛ لأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلاَلُهُ سَوْفَ يُثِيبُهُ عَلَيْهِ ثَوَاباً جَزِيلاً يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يُثِيبُهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَجْرٍ عَاجِلٍ في حَيَاةٍ طَيِّبَة، وهـٰذِهِ الْقَضِيَّةُ مِنْ قواعِدِ الجزاء الرَّبَّانِيّ.

الْقَضِيَّةُ الثانِيَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾: أي: وَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً سَيِّئاً باخْتِيَارِهِ الحرِّ، ممَّا جَاءَ في الإسْلَام دِينِ اللهِ لِعِبادِهِ، بأنَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي رَتَّبَ اللهُ عزّ وجلّ عُقُوبَةً عَلَيْها، فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ إذْ عَرَّضَ نَفْسَهُ بإسَاءَتِهِ لِعُقُوبَةِ اللهِ لَهُ، وهـٰذِهِ الْقَضِيَّةُ مِنْ قواعِدِ الجزاءِ الرَّبَّاني.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ فَلِكُلِّ صَالحٍ لِلْخِطَابِ بأسْلُوبِ الْخِطَاب الإفرادِيّ: ﴿..وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾: أي: وَمَا رَبّكَ الْمُقدِّر الْقَاضِي بِعِقَابِ المسِيئِينَ يَظْلِمُ أَحداً مِنْهُمْ، بَلْ هُمُ الظَّالِمُونَ لِنُفُوسِهِمْ إذِ ارْتَكَبُوا السَّيِّئَاتِ وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُعَاقَبُونَ عَلَيْهَا، ضِمْنَ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّاني.

وجَاءَتْ صيغَةُ «ظلّام» الّتي هي مِنْ صِيَغ المبالَغَةِ مُرَاعَاةً لِجَمْع الْعَبِيد، فَلَوْ ظَلَمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَقَلَّ ظُلْمٍ لَكَانَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ جَمِيعاً ظَلَّاماً. ولِهـٰذا جَاءَ فِي بَيانٍ آخر قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ في سورة (يُونس/٥١ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وقول اللهِ تَعَالَىٰ في سُورَة (الكهف/ ٦٩ نزول):

﴿... وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

وقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (النساء/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾:

الْقَضِيَّة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾:

أي: لَا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ، فإذا سُئِلَ رَسُولٌ أَوْ مَلَكٌ: مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ قَالَ: عِلْمُهَا عِنْدَ رَبّي لَا يُجلِّيها لِوَقْتِها إلّا هُو.

وقد جاء في القرآنِ الْمَجيدِ عِدَّةُ نُصُوصٍ فِيهَا بَيَانُ قَصْرِ عِلْمِ وَقْتِ السَّاعَةِ علَىٰ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وَأَنَّهَا لا تَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً، فَلَا يَعْلَمُ متىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ رَسُولٌ مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُه، وَلَا مَلَكٌ مُقرَّبٌ وَلَوْ كَانَ مِنَ الكَرُوبِيِّينَ، ومِنْهُمْ جبريل، ومِيكائِيل، وإِسْرَافِيلُ عَلَيْهِمُ السّلام.

القضية الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ ...﴾:

هـٰذِهِ القضيَّةِ مِنْ تَفْصِيلاتِ إحَاطَةِ عِلْمِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَهـٰذِهِ الإحَاطَةُ جَاءَ بَيانُها بِصِيَغٍ ذَوَاتِ دَلَالَاتٍ كُلِّيَّةٍ، وَصِيَغٍ فيها تَفصِيلٌ لِمُفْرَدَاتٍ كثيراتٍ مِنْهَا، فِي نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ كَثِيرَة، لِتَرْسِيخِ عَقِيدَةِ المؤمِنِينَ بِشُمُولِ عِلْمِ اللهِ كُلَّ شيءٍ، وإِحَاطَةِ عِلْمِ اللهِ بِكُلِّ شيءٍ.

أَكْمَام: جَمْع «كمّ» بِكَسْرِ الْكَافِ وضَمِّهَا، هو الْوِعَاءُ الْخَارِجِيُّ الَّذِي تَخْرُج مِنْهُ الثَمرات.

«مِنْ» في ﴿مِن ثَمَرَٰتٖ﴾ وفي ﴿مِّنۡ أُنثَىٰ﴾ زِيدَتْ لِتَوْكيد عُمُوم النَّفْي والتَّنصِيصِ عَلَيه.

أي: وَمَا تَخْرُجُ ثَمَرَةٌ أَوْ ثَمَراتٌ بالاسْتِغْرَاقِ الشَّامِلِ مِنْ أَوْعِيَتِها فِي شَجَرَتِها وَنَبَاتِهَا إِلَّا مَصْحُوبَةً بِعِلْمِ اللهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِها.

ومَا تَحْمِلُ أُنْثَىٰ مِنَ النَّاسِ والْحَيَوانِ والحشَرَاتِ وَالميكْرُوبَاتِ والْفَيْرُوساتِ، وَلَا تَضعُ حَمْلَها إِلَّا مَصْحُوبَةً بِعِلْمِ اللهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ أَطْوَارِهَا مَعَ أَصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّة.

- وأمَّا بَيَانُ المشْهَدِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ المتَعَلِّقِ بالمشْركين، فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿.. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾:

- ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾: أي: أَعْلَمْنَاكَ، وقد يكونُ هٰذا لَدَىٰ مُحَاسَبَتِهِمْ.

- ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾: أي: مَا مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ شَهِيدٌ يَشْهَدُ بأنَّ لَكَ رَبَّنَا شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ.

- ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: أي: وغَابَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَجِدُوا لِمَا غَابَ عَنْهُمْ أَثَراً.

- ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: **الْمحيصُ**: الْمَحِيد، والمعْدِل، والْمَهْرَب.

يقالُ لغة: «حَاصَ عَنِ الشيءِ، يَحِيصُ، حَيْصاً، ومَحِيصاً، وحَيصَاناً» أي: حَادَ عَنْهُ، وعَدَلَ عَنْه.

يَظْهَرُ لي أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ يُنَادِي المشْرِكينَ بَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ أفراداً، نداءً عَامّاً يَسْمَعُهُ أَهْلُ الْمَحْشَر: أَيْنَ شُرَكَائِي، أي: الَّذِينَ كُنْتُمْ تَدَّعُونَ أَنَّهُمْ شُرَكائي في الرُّبُوبِيَّة أوْ في الإلَٰهِيَّة؟؟.

قَالُوا: آذَنَّاكَ رَبَّنَا، أيْ: أَعْلَمْنَاكَ رَبَّنَا بِأَنَّنا كُنَّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ضَالِّين، نَدَّعِي أَنَّ لَكَ شُرَكَاءَ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَنَا أَدِلَّةٌ تُثْبِتُ أَنَّ لَكَ شُرَكَاءَ،

وَقَدِ اعْتَرَفْنَا بِذَنْبِنَا وَكُفْرِنا حِينَ حَاسَبْتَنَا أَفراداً، فَمَا مِنَّا الْيَوْمَ شَهِيدٌ يَشْهَدُ بِأَنَّ لَكَ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءُ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُنَادِي المشركين عَلَىٰ رُؤوسِ أَهْلِ الموقِف، لإِعْلَامِ الْجَمِيعِ بِأَنَّ أَحْكَامَهُ الإفرادِيَّة عَلَىٰ المشْرِكِينَ بالْكُفْرِ وبالْخُلُودِ في عَذَابِ النَّارِ، قَدْ كَانت مُطَابِقَةً لِقَانُونِ الجزاءِ الْعَامّ، فَلَمْ يَظْلِمِ اللهُ أحداً.

وَجَاءَ التَّعْبِير بـ﴿قَالُوٓاْ﴾ اسْتِقْطَاعاً مِنْ أَحْدَاثِ المسْتَقْبل، للإِشْعَارِ بأَنَّ هـٰذا الخبَرَ حَقٌّ، فَكَأَنَّهُ حَدَثٌ وَقَعَ وَمَضَىٰ.

والاستِقْطَاعَ مِنَ الماضِي أو المسْتَقْبل أَحَدُ الأَسَالِيبِ القرآنِيَّةِ الْبَدِيعَة.

ويَقُولُ اللهُ عزّ وجلّ تَعْقِيباً عَلَىٰ هـٰذِهِ اللَّقْطَةِ مَنْ مَشَاهِدِ يَوْم الْقِيَامَة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾: أي: وَغَابَ عَنْهُمُ الشُّرَكَاءَ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اتَّخَذُوهم شُرَكَاءَ للهِ افْتِراءً عَلَيْهِ، في الحياةِ الدُّنيا حَيَاةِ الامْتِحَانِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُحَاسَبُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ يَوْمَ الدّين، إِذْ كَانُوا يَعْبُدُونَ شُرَكَاءَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ.

- ﴿يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾: أي: يَعْبُدونَ مِنْ قَبْلِ يَوْمِ الْحِسَاب، أُطْلِقَ الدُّعَاء علىٰ العبادةِ في كثير من النصوصِ القرآنية.

وَيَقُولُ اللهُ عزّ وجلّ أَيْضاً فِي التَّعْقِيب: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: أي: وَظَنُّوا ظَنّاً رَاجحاً أَنَّهُمْ لا خَلاصَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ خُلُوداً فِي جهَنَّمَ، مَعَ طَمَعِهِمْ بأَنْ يَرْحَمَهُمُ اللهُ بالتَجاوُزِ أَوْ بالتَّخْفِيف، وَهـٰذا هُوَ الَّذي يَجْعَلُهُمْ وَهُمْ في دَارِ العذابِ يَسْأَلُونَ الْخُروجَ مِنْها أَوِ التخفيفَ مِنْ عَذَابِها.

لَمْ أَجِدِ الظَّنَّ في النُّصُوص القرآنِيَّة مُسْتَعْملاً بمعْنَىٰ الْيَقِين، عَلَىٰ خِلَافِ المشْهُورِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ طُلَّابِ الْعُلُومِ الإِسْلَامِيَّة، وفي كِتَابَاتِ كَثِيرٍ من المؤلفين.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس التاسع من دُروس سُورَة (فُصِّلَت).

والحمْدُ لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقه، ومنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(١٤)

التدبّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (فُصّلت) الآيَات من (٤٩ ـ ٥١)

قالَ اللهُ عزّ وجلّ:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

القراءات:

(٥٠) • قرأ ورشٌ، وأَبُو عمْرو، وأَبُو جَعْفر، وقَالُونُ بِخُلْفٍ عَنْه: ﴿رَبِّيَ إِنَّ﴾ بِفَتْحِ يَاء المتكلّم.

وقرأَهَا باقي القرَّاء العشرةِ بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم، وهو الوجْهُ الثاني لِقَالُون.

(٥١) • قرأ ٱبْنُ ذَكْوان، وأَبُو جَعْفر: [**وَنَاءَ بِجَانِبِهِ**] بِمَعْنَىٰ مَال وتَجَافَىٰ مُتَثَاقِلاً.

وقرأَهَا بَاقي القراء العشرة: ﴿**وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ**﴾ بِمَعْنَىٰ ابْتَعَدَ.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في أدَاء المعنَىٰ المراد، إذْ من النَّاسِ مَنْ يَمِيلُ مُتَثَاقِلاً عن القيام بواجِبِ شُكْرِ رَبِّه، ومِنَ الناسِ مَنْ يَبْتَعِدُ ابْتِعَاداً كُلِّيّاً.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْس بَيَانٌ عَنْ بَعْضِ صِفَاتِ الإنْسَانِ بِوَجْهٍ عَامّ، وأَنَّهُ دائِمُ الطَّلَبِ لِمَا يَرَاهُ خَيْراً لَهُ فِي الحيَاةِ الدُّنيا، فإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً قَنُوطاً. وَأَنَّهُ كَفُورٌ جَحُودٌ لِنِعَمِ اللهِ عَلَيْه.

وقد سَبَقَ في نجوم التنزيل وَصْفُ الإنْسَانِ بما يلي:

(١) إِنَّهُ لِرَبِّهِ لَكَنُود، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ الدنيويّ لَشَدِيد (العاديات/ ١٤ نزول).

(٢) إِنَّهُ يَدْعُو بالشَّرِ دُعَاءَهُ بالخير. إِنَّهُ عَجُول. مُعرِضٌ عَنْ رَبِّهِ كَفُور. إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ أَعْرَض وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ. إِنَّهُ قَتُور. (الإسراء/ ٥٠ نزول) الآيات (١١ ـ ٦٧ ـ ٨٣ ـ ١٠٠).

(٣) إِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كان يَدْعُو إِلَيْه وجَعَلَ للهِ أَنْدَاداً (الزُّمر/ ٥٩ نزول) الآية (٨).

(٤) لَا يَسْأَمُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيؤُوسٌ قَنُوطٌ، وَلَئِنْ أَذَاقَهُ اللهُ رَحْمَةً مِنْهُ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هـٰذا لي. (فُصِّلَتْ/ ٦١ نزول).

وَسَيأْتِي فِي نُصُوصِ أَخْرَىٰ إِضَافَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ الإنْسَان.

التّدبُّر التحليلي:

جَاءَ في هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ خَمْسِ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَانِ بِوَجْهٍ عَامٍّ، وَهِي في الواقِعِ تَنْطَبِقُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ، فهي صِفَاتٌ لِلنِّسْبَةِ الْغَالِبَةِ مِنْهُم:

الصِّفَةُ الأُولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ . . .﴾: أي: لَا يَملُّ الإنْسَانُ مِنْ طَلَبِ الْخَيْرِ لِنَفْسِهِ، فَهُوَ يَطْلُبُهُ دَاعِياً رَبَّهُ، وَسَاعِياً دَائِباً لِلْحُصُولِ عَلَيْهِ بوسائله.

والمرادُ بالخير هنا مَا يَراهُ الإنْسَانُ في دُنْيَاهُ خيْراً، وهو المالُ، وكُلُّ مَا يرىٰ الإنْسَانُ مُتْعَةً لَهُ فِيهِ، مِنْ مَآكِلَ، وَمَشَارِبَ، وَمَسَاكِنَ، وَحَدَائِقَ، وَمَنَاكِحَ، وزِينَاتٍ، وتُحَفٍ يَتَفَاخَرُ بِهَا، ومَرَاكِبَ، وسُلْطَانٍ وعُلُوٍّ في الأَرْضِ، ونَحْوِ ذَلِك.

والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ نَفْسَهُ وَشَهواتِهِ وأهواءَه مُتَعَلِّقَاتٌ بِلَذَّاتِهِ وَمَسَرَّاتِهِ مِنْها، ورَغَبَاتِ اسْتِكْبارِه بها.

الإضافة في ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ هي من نوع الإضافَةِ غَيْرِ المحضَةِ، فَدُعَاء مَصْدَرٌ يَعْمَلُ عَمَلَ فِعْلِهِ، وهُو مَضَافٌ إلَىٰ المفْعُولِ به.

الصِّفَة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ۝٤٩﴾: أي: وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ عَلَىٰ سَبِيلِ النُّدْرَةِ كَانَ شَدِيدَ الْيأْسِ وشَدِيدَ الْقُنُوط.

الْيَأْسُ: انْقِطَاعُ الأَمَلِ مِن الشَّيْءِ الْمَرْغُوبِ فِيه، **والْيَؤُوسُ:** صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسْمِ الْفَاعل «يائِس».

الْقُنُوطُ: أَشَدُّ اليأْسِ، **والْقَنُوطُ:** صيغَةُ مُبَالَغَة لاسم الفاعِلِ «قَانط».

وجَاءَ فِي الْعِبَارَةِ الْجَمْعُ بَيْنَ «يَؤُوسٍ» و«قَنُوطٍ» للدَّلاَلَة عَلَىٰ شِدَّةِ الْحَالَةِ الَّتِي تُصِيبُ مَشَاعِرَه النَّفْسِيَّة إنْ مَسَّهُ الشَّرُّ مَسّاً.

وجاء استعمال لفظ: «إنْ» للدَّلاَلَة عَلَىٰ أَنَّ مَسَّ الشَّرِّ في حَيَاةِ الإنسانِ حَالَةٌ أَقَلُّ مِنْ حَالاَتِ اسْتِمْرار الْخَيْرِ.

والْمُرَادُ بِالشَّرِّ، هو مَا يَرَاهُ الإنْسَانُ في الحياة الدُّنْيَا شَرّاً، كَمَصَائِبِ الأَمْرَاض، وَالمصَائِبِ فِي الأَمْوَالِ، والأَنْفُسِ، والْمُمْتَلَكَاتِ، وكالْمُحْزِنَاتِ وَسَائِرِ الْمَكارِهِ.

إنَّ الإنْسَانَ بِحَسَبِ النِّسْبَةِ الْغَالِبَةِ مِنْ أَفْرَادِهِ لَا يَتَصَوَّرُ أَنَّ الحياةَ الدُّنْيَا حَياةُ امْتِحَانٍ، والامْتِحَانُ يَكُونُ بِمَا يَسُرُّ لاخْتِبَارِ مِقْدَارِ شُكْرِهِ لِرَبِّهِ، أَوْ كُفْرِهِ بِهِ، وَيَكُونُ بِمَا يُؤْلِمُ مِنَ المكاره لاختبار مَدَىٰ صَبْرِه، وَرِضَاهُ عَنْ رَبِّه فِيمَا ابْتَلاَهُ بِهِ، وإنَّمَا يَتَصَوَّرُ أَنَّها لِمَسَرَّتِهِ وَإِسْعَادِهِ، وأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ تَحْقِيقِ ذَلِكَ بِكَدْحِهِ واجْتِهادِهِ ووسَائِلِه، فَإِذَا لَمْ يَتَحقَّقْ لَهُ مَطْلُوبُهُ فيها، كَانَ حَزِيناً مُتَأَلِّماً ضَجِراً يَؤُوساً قَنُوطاً، مُنْقَطِعَ الآمَالِ يائِساً.

الصّفةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله تَعالَىٰ متحدّثاً بضمير المتكلم العظيم: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ . . .﴾:

- ﴿وَلَئِنْ﴾ اللّامُ مُوطّئَةٌ لِلْقَسم، فالعبارة مُؤكَّدَةٌ بالْقَسَم.

- ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾: أي: جَعَلْنَاهُ بِفَضْلٍ مِنَّا يَسْتَمْتِعُ بآثارِ رَحْمَةٍ مِنَّا، فَيُحِسُّ بِلَذَّةِ مَا وَهَبْنَاه. أُطْلِقَ علَىٰ الإحْسَاسِ بآثارِ النِّعْمَةِ مَعْنَىٰ الذَّواقِ الَّذِي يَكُونُ بِالْفَمِ؛ لأَنَّ حَاسَّةَ الذَّوْقِ أَكْثَرُ الْحَواسِّ إِدْراكاً لاخْتِلَافِ الْمُحَسَّاتِ، وهٰذا من الاستعارة.

- ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾: أيْ: آثَارَ رَحْمَةٍ صَادِرَةً مِنْ فَيْضِ عَطَائِنَا لابْتِلَاءِ إيمانِهِ وَشُكْرِه.

- ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾: أي: وهٰذِهِ الضَّرَّاءُ قَدْ أَنْزَلْنَاهَا بِهِ، لِتَذْكِيرِه بِرُبُوبيّتِنا، وابْتِلَائِهِ بِبَعْضِ مَصَائِبِ الحياة الدُّنيا.

- ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾: أيْ: لَيَقُولَنَّ: هٰذا الَّذِي أَصَبْتُهُ مِنْ نِعْمَةٍ هُوَ لِي، مَلَكْتُهُ بِعِلْمِي، واكْتَسَبْتُهُ بمَهارَتِي، وَظَفِرْتُ بِهِ بِسَعْيِي، وَلَا يَنْسُبُهُ إلَىٰ فَضْلِ اللهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْه، وَتَنْطَلِقُ مِنْهُ تَعْبِيرَاتٌ مُمَاثِلَاتٌ لِمَا عَبَّرَ بِهِ قَارُون، إذْ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾(١).

- ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾: أي: وَيَتَمَادَىٰ فِي جُحُودِه، فَيُعْلِنُ شَكَّهُ بِيَوْمِ القيامَة، وبِحِسَابِ اللهِ، وَفَصْلِ قَضَائِه، وَتَنْفِيذِ جَزَائِه.

- ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾: أي: وَيَقُولُ أَيْضاً: وأُقْسِمُ لَئِنْ كَانَ خَبَرُ الرُّجُوعِ إلىٰ الحياةِ بَعْدَ الموْتِ خَبَراً صَحِيحاً، وَتَحَقَّقَ هٰذا الرُّجُوع المسْتَبْعَدُ جدّاً، فَإِنَّ رَبِّي الّذِي أَنْعَم عَلَيَّ فِي هٰذِهِ الْحَيَاةِ،

---

(١) القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول (الآية/٧٨).

سَوْفَ يُنْعِمُ عَلَيَّ فِي الحياةِ الأُخْرَىٰ؛ لأَنَّنِي أَسْتَحِقُّ هـٰذا الإنْعَام والإكْرَامَ، بِمُقْتَضَىٰ تَكْوِيني، وَسَوْفَ تَكُونُ لِي الْمَعِيشَةُ الْحُسْنَىٰ بَعْدَ الْبَعْثِ للحياةِ الأُخْرَىٰ، إذْ تَكُونُ أفْضَلَ لي من هـٰذِهِ الحياة.

الْحُسْنَىٰ: مُؤَنَّثُ «الأَحْسَنِ» فَهِيَ صِيغَةِ أفْعَلِ التَّفْضِيل للمؤنّث.

وَجاءَ التعقِيبُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ هـٰذِهِ الصِّفَةِ مِنْ صِفَاتِ الإنْسَانِ الّذِي جَعَلَ فَرِيقاً مِنْ أفْرَادِهِ يَكْفُرُ بِرَبِّهِ وَبِيَوْمِ الدّين:

- ﴿.. فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزّ وَجَلّ لِهـٰذا الْفَرِيقِ الْكَافِرِ مِنْ أَفْرَاد الإنْسَانِ، بِأَنَّهُ سَوْفَ يُحَاسِبُهُمْ، ويُنبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا في حَيَاةِ الامْتِحَانِ، وهِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وسَوْفَ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار، بِمُقْتَضَىٰ كُفْرِهِم.

وَقَدْ جَاءَتِ الكِنَايَةُ عَنْ هـٰذِهِ الْعَواقِبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لأَنَّ هـٰذا التَّنْبِيءَ جُزْءٌ مِنَ الْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء، فَهُو كِنَايَةٌ عَنْ مُرَافِقَاتِهِ ولوازِمِه.

ويُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُ سَوْفَ يُذِيقُهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِنْ نَوْعِ عَذَابٍ غَلِيظ.

الْعَذَابُ الْغَلِيظُ: هو الصَّعْبُ الشّدِيدُ الإيلام.

وَهـٰذا إنْذَارٌ شَدِيدٌ بالْعَذَاب الأَلِيم لأَصْحَابِ هـٰذِهِ الصِّفَةِ من صِفَاتِ الإنْسَانِ، الَّذِينَ أفْضَتْ بِهِمْ إلىٰ الكُفْر بالله وباليَوْمِ الآخر.

الصِّفَةُ الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ...﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: **[وَنَاءَ بِجَانِبِهِ]**:

هـٰذا البيان يَكْشِفُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الإنْسَانِ الْجَحُودِ لِنَعَم اللهِ عَلَيْهِ، الَّذِي يَشْغَلُهُ الاسْتِمْتَاعُ بنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ عَنْ مُرَاقَبَتِهِ، وتَأْدِيَةِ مَا فَرَضَ اللهُ

عَلَيْه، والابْتِعَادِ عَمَّا نَهاهُ اللهُ عَنْه، أَوْ تَرْكِهِ طاعَةً لَهُ، فَهُوَ يَسْتَعْمِلُ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ فِي مَعْصِيَتِهِ، فَيَتْرُكُ مَا أَوْجَبَ عَلَيْهِ، وَيَفْعَلُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ، وَهٰذا غَايَةٌ في نُكْرَانِ نِعْمَةِ الْمُنْعِمِ، وَغَايَةٌ فِي مَقَابَلَةِ الإنْعَامِ بالْجُحودِ والكُفْرَان والعصيان.

هٰذا الْفَرِيق الكَبِيرُ من أَصْنَافِ أفْرَادِ الإنْسَانِ يَنْقَسِمُ إلىٰ قِسْمين:

القِسْمُ الأَوَّل: مَنْ إذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِنِعَمٍ وَاسِعَةٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا، أَعْرَضَ ولَمْ يَتَّجِهْ بِصَدْرِهِ لمقابَلَةِ نِعَم اللهِ عَلَيْهِ بطاعَتِهِ لَهُ، وَالْعَمَل بِمَا يُرْضِيهِ مِنْهُ، بَلْ مَالَ وأَخَذَ يَتَجَافَىٰ بِتَثَاقُلٍ شَيْئاً فَشَيْئاً، رَاغِباً فِي أَنْ يَخُوضَ فِي مَعَاصِيهِ وَمُخَالَفَاتِهِ مَعَ الْخَائِضِيْنَ، وَجَاءَتْ قِراءَةُ **[وَناءَ بِجَانِبِهِ]** دَالَّةً عَلَىٰ هٰذا الْقِسْم.

القِسْمُ الثَّانِي: نَظِيرُ الْقِسْمِ الأَوَّلِ، إلَّا أَنَّهُ يُعْرِضُ عن مَقَابَلَةِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ بِطَاعَتِه لَهُ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ منه، وَيُتْبِعُ إعْرَاضَهُ بالنَّأْيِ والابْتِعَادِ بِخِفَّةٍ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، والْخَوْضِ السَّرِيعِ في أَوْحَالِ المعاصِي والمخالَفَات، وجاءَت قراءَةُ: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ دَالَّةً عَلَىٰ هٰذا القِسْمِ.

ويُوجَدُ قِسْمٌ ثَالِثٌ سَكَتَ النَّصُّ عَنْهُ لأَنَّهُ أَقَلُّ عَدَداً مِنَ القِسْمَيْنِ السَّابقَيْن، وَهُوَ قِسْمُ الْمُدْبِرينَ إدْبَاراً كَامِلاً عَنِ اللهِ، فَهُوَ لَا يَكْتَفِي ابْتِدَاءً بالإعْرَاض، وهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبَار، بَلْ هُوَ يُدْبِرُ إدْبَاراً كامِلاً، كافراً بِرَبِّهِ وَبِنِعَمِهِ عَلَيْهِ، وغَارِقاً في أَوْحَالِ الجرائِمِ الكُبْرَىٰ.

الصِّفَةُ الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾: أي: وَإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسّاً فَآلَمَهُ هٰذا المسُّ، كَانَ ذَا دُعَاءٍ عَرِيضٍ لِرَبِّهِ، بِأَنْ يَصْرِفَ اللهُ عَنْهُ الشَّرَّ الذي مَسَّهُ.

وسَبَقَ آنِفاً بَيَانُ المراد بالشَّرّ. وَوَصَفَ اللهُ عزّ وجلّ دُعَاءَهُ بأَنَّهُ عَرِيضٌ، للدَّلَالَة علىٰ أَنَّ صَوْتَهُ وَهُوَ يَدْعُو يَمْتَدُّ بِقُوَّتِهِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ

الشِّمَالِ، حَتَّىٰ يَخْرُجَ عَرِيضاً مَسْمُوعاً علَىٰ عَرْضِ امْتِدَادِهِ يَميناً وَشِمالاً، فَهُوَ يَجْأَرُ بِهِ مُبالِغاً فِي التعبير عَنْ مَشَاعِرِ أَلَمِهِ وَضَجَرِهِ مِمَّا مَسَّهُ مِنْ شرّ.

وبهٰذا تَمَّ تَدبُّر الدَّرْسِ العاشِرِ مِنْ دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحمْدُ للهِ علَىٰ معونَتِه، ومَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ وفَتْحِهِ.

* * *

(١٥)

التّدبُّر التحليلي للدَّرْسِ الحادي عشر من دُروس سورة (فُصِّلَتْ) الآيَات من (٥٢ ـ ٥٤) وهو الدرس الأخير

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

القراءات:

(٥٣) ● قرأ يعقوب: [سَنُرِيهُمْ] بِضَمِ هاء الضمير.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاء العشرةِ بكَسْرِ الهاء.

تمهيد:

في آيَاتِ هٰذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أُسْلُوباً من أَسَالِيبِ مُحَاجَّةِ الْكَافِرِينَ بالْقُرْآن.

وفيها بَيَانٌ مِنَ الله عزّ وجلّ بأَنَّهُ سَيُرِي النَّاسَ في المستقبل بَعْضَ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، وهِي آيَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ

عزّ وجلّ، ولَيْسَ مِنْ وَضْعِ بَشَر، فالْبَشَرُ عَاجِزُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ الآيَاتِ الْبَاهراتِ الَّتِي سَيُرِيها اللهُ عزّ وجلّ للنَّاسِ في كَوْنِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ عَنْهَا فِي القرآن المجيد.

التدبُّر التحليلي:

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ أسْلُوباً مِنْ أَسَالِيب إِقْنَاعِ الْكَافِرين بأنَّ القرآنَ كَلامٌ مِنْ كَلامِ اللهِ، ومُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْهُ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾:

جَاءَ في أوّلِ هـٰذِهِ السُّورَةِ بَيَانٌ يَتعلَّقُ بالْقُرْآنِ وَبَعْض صِفَاتِهِ وإعْراضِ أكْثَرِ مُتبلِّغيهِ فِي مَكّة عنه.

وجَاءَ فِي أَثْنَائِها بَيانُ بَعْضِ مَوَاقِفِ أئِمَّةِ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ المضَادَّةِ لاسْتِمَاعِ آيَاتِهِ، وبَيَانُ مَوْقِفِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ في آيَاتِه، وَهـٰذا الدَّرْسُ الْخِتامِيُّ مِنْ دُروس السُّورَةِ فِيهِ تَعْلِيمٌ إِقْنَاعِيٌّ يُوَجَّهُ لِلْكَافِرِينَ بالقرآن، مع وَعْدٍ من الله عزّ وجلّ بأنَّهُ سَيُري الناسَ في الآفَاقِ مِنْ آيَاتِهِ الكَوْنِيَّةِ مَا يُبيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْقُرآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ العالمين.

وَفِي هـٰذِهِ الآية (٥٢) يُعَلِّمُ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ دَلِيلاً إقْنَاعِيّاً يَجعَلُ الّذِينَ كَفَرُوا بالْقُرْآنِ يُحجِمُونَ عَنْ كُفْرِهِم به، إِذَا كَانُوا يَخافُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَذَاب الأَلِيمِ الَّذِي يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لَهُ، مُجازِفِينَ غَيْرَ مُبالِينَ سُوءَ الْعَاقِبَة.

● ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾: أي: قُلْ لِلْكَافِرِينَ بالْقُرآنِ: أفكَّرْتُمْ فَرأَيْتُم بِعُقُولِكُم:

● ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾: أي: إنْ كَانَ الْقُرْآنُ

الَّذي يُبلِّغكُم إيَّاهُ مُحمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللهِ حقّاً، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَوالَىٰ عَلَيْكُم إنْزَالُ سُورِهِ وآياتِهِ الْبَلِيغَةِ المعْجِزَةِ لَكُمْ، والدَّاعِيَةِ إلَىٰ الحقّ والْهُدَىٰ والخير، كَفَرْتُم بِهِ، أفكَّرْتُم بالْمَصيرِ الَّذي أَنْتُم صائِرُونَ إلَيْهِ، وَقَدْ اخْتَرْتُمُ الضَّلالَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمُشَاقَّةَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ بِوُقُوفِكُمْ فِي شِقِّ الْمُحارِبِ الْمُعَانِدِ، وقَدْ دَمَغَتْكُمْ بَرَاهِينُ كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ الله؟؟.

أمَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لا يُوجَدُ أَضَلُّ مِمَّنْ يَقِفُ مَوْقِفَ الْمُشَاقِّ للهِ وَرَسُولِه ﷺ، وأَنَّهُ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعَذَابٍ أَلِيمٍ خُلُوداً في دار العذابِ يَوْمَ الدِّينِ؟!. تَفَكَّرُوا وَأَخْبِرُوني:

- ﴿..مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾؟؟: استفهامٌ يُرَادُ به انتزاعُ اعْتِرَافِ ذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ، أَوْ إشْعَارُهُمْ في داخِلِهِمْ بأنَّهُ لَا يُوجَدُ أَضلُّ مِمَّنْ هو في شقاقٍ بَعِيدٍ عَنِ اللهِ ورسُوله ﷺ.

الشِّقَاقُ: العداوة والخلاف، يُقَالُ لغة: «شَاقَّهُ مُشَاقَّةً وشِقاقاً» أي: خالفَهُ وعاداه. قال الزّجّاج: «الشِّقَاق: العداوةُ بيْنَ فَرِيقَيْنِ، والخلافُ بَيْنَ اثْنَيْن، سُمِّيَ ذَلِكَ شِقَاقاً؛ لأنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْ فِرْقَتَي العداوة قَصَدَ شِقّاً، أي: ناحِيَةً غَيْرَ شِقّ صَاحِبِهِ».

وجاء وَصْفُ الشِّقَاقِ بأنَّهُ بَعِيدٌ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْفَاصِلَ بَيْنَ الشّقِّ الَّذي فِيه الحقُّ والْهُدَىٰ وَالخير، فَاصِلٌ بَعِيدٌ عَنِ الشِّقِّ الَّذي يَحْتَلُّهُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بأنَّ القرآنَ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ وَاعداً بإظْهارِ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي الآفَاقِ، وبَعْضِ آيَاتِهِ فِي أنْفُسِ النَّاسِ، وَهَـٰذِهِ الآيَاتُ تُبيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ الَّذي هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، فَهُوَ يَتَحدَّثُ عَمَّا فِي الآفَاقِ وَعَمَّا فِي الأَنْفُسِ حَدِيثَ عَلِيمٍ خَبِيرٍ بالظَّوَاهِرِ والبواطِنِ بَصِيرٍ بِكُلِّ شيء:

- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾:

- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾: أي: سَنُرِيهِمْ في الحياة الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَة مِنْ آيَاتِنَا الكَوْنِيَّةِ، والضّميرُ يَعُودُ علَىٰ الَّذِين لا يُؤمِنُونَ مِنَ الناس أنَّ القرآن كلامُ اللهِ.

- ﴿فِى ٱلْآفَاقِ﴾: **الآفاق**: جَمْعُ «الأُفُقِ». وهِيَ الأَبْعَادُ الْعُلْيَا الْمُحِيطَةُ بِالأَرْضِ.

- ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أي: وفِي تَكْوِينِ أَنْفُسِهِمْ من النَّاحِيَتَيْنِ الْجَسَدِيَّةِ وَغَيْرِ الْجَسَدِيَّة، كالْفِكْرِيَّاتِ، والْعَاطِفِيَّاتِ، والْوِجْدَانِيَّاتِ.

- ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: حتَّىٰ يَتبيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْقُرآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، إذْ يَجِدُونَ الْمَطَابَقَة تَامَّةً بَيْنَ الْحقَائِقِ في الآفَاقِ وَفِي الأَنْفُسِ وَبيْنَ مَا جاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ حَدِيثٍ عَنْها، وَذلِكَ حِينَ يَتوصَّلُونَ بِوَسَائِلِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ إلىٰ إدْرَاكِ هٰذِهِ الْحقَائِقِ، إدْرَاكاً جَلِيّاً تَقُولُ عُلُومُهُمْ فِيهِ كَلِمَتَهُم الأَخِيرَة.

- ﴿. . أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾: أي: أَلَمْ يَخْلُقْ رَبُّكَ أَيُّها المتَلَقِّي المتفكّرُ هٰذا الكَوْنَ كُلَّهُ مِنْ أصْغَرِ جُزءٍ فِيهِ إلَىٰ أكْبَرِ كائِنٍ فيهِ؟؟، أَولَمْ يَكْفِ بِهِ لِيُخبِرَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ في الْكَونِ إخْبَاراً مُطابقاً لِمَا هُوَ عَلَيْهِ في الْوَاقِع: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مِنْ فَوْقِ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، يَعْلَمُ دَوَاماً كُلَّ مَا يَجْرِي فيهِ مِنْ حَرَكَاتٍ وسَكَنَاتٍ وَأطوارٍ وَتغَيُّرَاتٍ وَصِفَاتٍ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الكَوْنِ كُلِّهِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ.

الشّهيدُ: هُوَ الْحَاضِرُ الْمُعاينُ لِمَا يُخْبِرُ به، وَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ حَاضِرٌ دَواماً، مُعَاينٌ دَوَاماً مِنْ فَوْقِ كلِّ شيءٍ مَهْمَا دَقَّ أَوْ جَلَّ، فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ في الْوُجُودِ خافِيَة من أَقْصَاهُ إلَىٰ أَقْصَاه، ويُحيطُ عِلْمُهُ بِكُلِّ شيءٍ إحَاطَةً كامِلَةً تَامَّةً مِنْ عُمْقِهِ إلىٰ ظَاهِرِهِ.

وَقَدْ بَدَأَتْ تَظْهَرُ في مجالَاتِ الْبُحُوثِ العلميّة الكونيَّة في الآفَاقِ وفي الأَنْفُسِ، المطابقاتُ بَيْنَ دَلَالَاتِ بَعْضِ النُّصُوصِ القرآنِيَّةِ، وَبَيْنَ الحقائِقِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتي قَالَ فيها عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ كَلِمَاتِهِمْ الأَخِيرَة، الَّتي لَا تَقْبَلُ التَّعْدِيلَ والتَّغيير، لِوُصُولِهِمْ فِيها إلَىٰ حَقَائِقَ جَلِيَّة.

وَمِنْهَا مَا جَاءَ في القرآنِ مِنْ وَصْفِ الأَجِنَّةِ، ومَا جَاءَ في القرآنِ مِنْ بَيَانِ أَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لها، وبَيَانِ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ، وَمِنْ أَنْفُسِ النَّاسِ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْهُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الآيَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ السُّورَةِ مُبَيِّناً سَبَبَ كُفْرِ الكَافِرِينَ بالقرآنِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي شَكٍّ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمَ القيامَة، لِمُحَاسَبَتِهِمْ وفَصْلِ قَضَائِهِ بِشَأْنِهِمْ، وَمُجَازَاتِهِمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا، فَهُمْ لَا يَخَافُونَ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، فَلَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِهِ، لِيَسْتَمِرُوا مُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَطَالِبَ نُفُوسِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنيا:

- ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾:
- ﴿أَلَآ﴾: أداة اسْتِفْتَاحٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَحْقِيق.
- ﴿فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ﴾: أي: في شَكٍّ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء وتَنفِيذ الجزاء.

ولِلرَّبْطِ بأَصْلٍ اعْتِقَادِيٍّ مِنَ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ أي: مُحِيطٌ عِلْماً وقُدْرَةً وسُلْطَاناً وقضاءً وَقَدَراً وَتَصَارِيفَ وامْتِحَاناً وجزاءً.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الأخيرِ مِنْ دُروس سورة (فُصِّلَت).

والحَمْدُ للهِ علَىٰ معونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ وفَتْحِهِ.

(١٦)

ملحق: مستخرجَات بَلَاغِيَّة مِنَ السّورة

توجَدُ في سورة (فصّلت/ ٦١ نزول) اختيارات بَلاغياتٌ نَفِيسات، ومِنْها الاختيارات التاليات:

أولاً: من الاستقطاع

الاستقطاع: وَهُو تَقْدِيمُ الأقوالِ أو الأحداثِ من الماضي، أو المستقبل كأنَّها تجرِي عِنْدَ تَقْديم البيانِ، أَوْ كَأَنَّ المستقْبَلَ مِنْهَا أَمْرٌ قَدْ حَدَثَ وَوَقَعَ فِعلاً، لِتَوْكِيدِ أنَّهُ سَوفَ يَحْصُلُ حَتْماً، وهَـٰذا فَنٌّ إِبْدَاعِيٌّ رائع، لم يَكُنْ مَعْرُوفاً فِي بَيَانِ بُلَغاءِ النَّاسِ قَبْلَ القرآن.

ومِنْ أَمْثِلَةِ الاسْتِقْطاع في هـٰذِهِ السُّورَة ما يلي:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ الكَافِرينَ يَوْمَ القيامَة:

- ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ... (٢١)﴾:

عبارةُ: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ ...﴾ وعِبارَة: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ...﴾ مُسْتَقْطَعَتَانِ مِنَ الأَحْدَاثِ الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ يَوْمَ القيامة بفَنِّيَّةٍ بَدِيعَة، تُشْعِرُ بأنَّهَا سَوْفَ تَحْدُثُ حَتْماً.

المثال الثاني: قَوْل اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ نِدائِهِ المشركينَ يَوْمَ الدِّين:

﴿... وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾:

﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ ..﴾ إلىٰ آخِرِ البيانِ هنا كَلامٌ مُسْتَقْطَعٌ ممَّا سَوف يَكُون.

ثانياً: من الكنَاية

اعتنىٰ عُلَماءُ البيان بالكناية، وهي اللّفظ المستَعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلاحِ بِهِ التَّخاطب، للدّلَالةِ بِهِ علىٰ معْنًىٰ آخَرَ لازِمٍ لَهُ، أَوْ مُصَاحِبٍ لَهُ، أَوْ يُشَارُ بِهِ عَادَةً إِلَيْهِ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الملابَسَةِ بوجْهٍ مِنَ الْوُجوه.

والكِنَايَات مِنْ نَفِيسِ التعبير غَيْرِ المباشِرِ عَنِ المقصود.

ومن الكِنَايَاتِ في السُّورَة كُلُّ عبَارَةٍ يُفْهَمُ مِنْ لَازِمِهَا مَقْصُودٌ آخَرُ غَيْرُ المصَرَّحِ بِهِ في العبارة، ومِنْ جَلِيِّ الكِنَايَات فيها ما يلي:

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيها بِشَأْنِ الَّذِينَ حَجَبُوا أَسْمَاعَهُمْ عَنْ تَلَقّي آياتِ الْقُرْآنِ المجيد، مَعَ وُصُولِ صَوْتِ التَّالِي إِلَيْها:

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: والَّذِي يُنَادَىٰ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْهُ لَا يَسْمَعُ مَا يُوَجَّهُ لَهُ من كَلَامٍ، ومَعْلُومٌ أَنَّ بُعْدَهُمْ بُعْدٌ نَفْسِيٌّ، ولَوْ كَانُوا قَرِيبِينَ بأَجْسَادِهِمْ.

ثالثاً: مِنَ الإيجاز

ومن الإيجاز بالحذف في السُّورَة مَا يلي:

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾:

حُذِفَ فِي هٰذَا الْبَيَان خَبَرُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لإمْكَانِ إدرَاكِهِ وتَقْدِيرِه بدون صُعُوبَةٍ، وهو نَحْوُ: سَوْفَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ في دار عَذَابِ المجْرِمِينَ الكافِرِينَ يَوْم الدِّينِ.

رابعاً: من الْقَصْر

اعْتَنَىٰ عُلَماء عِلْمِ المعاني بالقَصْر، وأركانِهِ وأقْسَامِهِ، وطُرُقه.

وعرَّفوا الْقَصْر بأنَّهُ تَخْصِيصُ شيءٍ بشيْءٍ بعِبارَةٍ كَلامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْه.

وَمِنْ أمْثِلَةِ الْقَصْرِ في السُّورَةِ مَا يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ ما يَرُدُّ بِهِ علىٰ كُفَّارِ قومِهِ به لِأَنَّهُ بَشر:

- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾:

فِي هٰذِهِ الآية قصران:

الأول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: أي: مَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فَلَسْتَ مَلَكاً وَلَا ذَا طَبيعَةٍ غَيرِ بَشَرِيَّة، وَلَكِنْ يُوحَىٰ إليّ.

وهو مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة، وهُو إضَافِي، أي بالإضافَةِ إلىٰ ما تَطْلُبُونَ مِنْ أَنْ يكُونَ الرَّسُولُ مَلَكاً.

وأداة القصر هنا ﴿إِنَّمَآ﴾، وهي تَنْحَلُّ مِنْ جِهَةِ المعنىٰ إلىٰ «ما» و«إلّا».

الثاني: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: مَا إِلَٰهُكُم الحقُّ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ هو رَبُّ العالمين.

وهٰذا مِنْ قَصْرِ صِفَةِ الإلَٰهِيَّةِ عَلَىٰ الْمَعْبُودِ الواحِدِ الَّذِي هو رَبُّ الْعَالَمين.

وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ. وأداة القصر فيه ﴿أَنَّمَآ﴾ بفتح الهمزة.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بيان بَعْضِ صِفاتِهِ جَلَّ جَلالُه:

- ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ . . . ۝٤٧﴾:

فِي هٰذِهِ الآيةِ قصران:

الأول: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: أي: إلَيْهِ وَحْدَهُ يُرَدُّ عِلْمُ زَمَنِ قيامِ السَّاعَة.

استفيد القصر مِنْ تقديم المعمول ﴿إِلَيْهِ﴾ علىٰ عامِلِهِ ﴿يُرَدُّ﴾، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ من قَصْرِ صِفَةٍ علىٰ مَوْصُوف.

الثاني: قَصْرُ خُرُوج الثمرات من أكمامِها، وحَمْلُ كُلِّ أُنْثَىٰ وَوَضْعُهَا علىٰ الاقترانِ بِعِلْمِ الله جلَّ جلالُهُ، وهو من قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة، وهو قَصْرٌ إضافِيٌّ، أي: بالإضَافةِ إلىٰ كَوْنِهِ مَعْلُوماً أَوْ غَيْرَ مَعْلُوم.

والأداةُ فِيهِ النفيُ والاسْتِثْناء.

خامساً: مِن إسْنَادِ الشيءِ إلىٰ غيرَ ما هو له

مِنْ فُنُونِ البلاغَةِ إسْنادُ الشَّيْءِ إلىٰ غير ما هو لَهُ لعلاقَةٍ مِنْ عَلاقات المجاز. ومِنْ أَمْثِلَتِهِ فِي السّورَة ما يلي:

قول الله عزّ وجلّ بِشأْنِ القرآنِ:

- ﴿... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ... ﴿٤٤﴾﴾:

أُطْلِقَ فِي هٰذِهِ الآيَةِ علَىٰ القرآنِ أَنَّهُ هُدىً وشِفَاءٌ لِلَّذِين آمَنُوا به؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِلْهِدَايَةِ والشفاءِ بِهِ.

وأُطْلِقَ عَلَيْهِ بالنِّسْبَة إِلَىٰ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ أَنَّهُ وَقْرٌ وأَنَّهُ عَمىً؛ لِأَنّ سَمَاعَهُمْ لَهُ وَهُمْ كَافِرُونَ بِهِ كَانَ سَبباً فِي إصَابَةِ آذَانِهِمْ بِالْوَقْرِ عَنْ مُتَابَعَةِ سَمَاعِهِ. وَسَبباً في إِصَابَةِ عُيُونِهِمْ بِالْعَمَىٰ عَنْ مُشَاهَدَةِ مَنْ يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ.

سادساً: مِن الاسْتِعَارَة

من فنون البلاغَة في الكلام الاستعارة، وهي عند عُلَمَاءِ البيان:

استعمال لفظٍ مَا فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ فِي اصْطِلَاحٍ بِهِ التخاطب، لعلاقَةِ المشابهَة، مع قَرينَةٍ صَارِفَةٍ عن إرادة المعنىٰ الموضوع له في اصطلاحٍ به التخاطب.

ومن أمثلة الاستعارة في السورة ما يلي:

المثال الأول: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْن «ثمود» قَوْمِ الرَّسُولِ صَالِح عليه السلام:

- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾:

اسْتُعِير لفظ ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾ للدلالَةِ بِهِ عَلَىٰ الضَّلَالِ الفِكْرِيِّ وَالنَّفْسِي؛ لِأَنَّ هَـٰذَا الضَّلَالُ يُشْبِهُ الْعَمَىٰ فِي كَوْنِهِ سَبَباً للانْحِرَافِ عَن صِرَاط النَّجَاةِ والسَّعَادة.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ... ﴿٣٩﴾﴾:

أَطْلِقَ في هَـٰذِهِ الآيَة «الْخُشُوعُ» وَهُو الْخُضُوعُ، والذُّلُّ، حَتَّىٰ السُّجود، للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ خُلُوّ الْأَرْضِ مِنَ النَّبَاتَاتِ الَّتِي تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا وَقَامَاتِها مُتَعَالِيَةً فِي اتّجاه السَّماء؛ لِأَنَّ خُلُوَّ الْأَرْضِ مِنَ النَّبَاتَاتِ يُشْبِهُ حَالَ الخَاضِعِ الذَّلِيلِ السَّاجِدِ.

سابعاً: من خُرُوج صيغةِ فِعْلِ الْأَمْرِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ

ومِنْ أَمْثِلَةِ هَـٰذَا الخروجِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياته:

﴿... ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾:

صيغة فعل الأمر ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ في هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، وَلَيْسَتْ لِطَلَبِ أَنْ يَعْمَلُوا مَا يَشَاءُونَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِبَاحَةِ.

ثَامِناً: مِنْ خُرُوجِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ التي هي طَلَبُ الإفْهَام

في هـٰذِهِ السُّورَة مِنْ خُرُوجِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ أَمْثِلَةٌ كَثِيرة، منها ما يلي:

المثال الأول: قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ أُسْلُوباً مِنْ أَسَالِيبِ الْحِوَارِ الدَّعَوِيّ للكافرين:

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾:

الاستفهام في هـٰذَا التعليم اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَتَثْرِيبِيٌّ لَهُمْ.

المثال الثاني: قول الله عزّ وجلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ عَادٍ مُتَفَاخِرِينَ بِقُوَّتِهِم:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً .. ۝١٥﴾:

يُرِيدُونَ بِهـٰذَا الاستفهام التفاخُرَ بِقُوَّتِهِم، وبَيَانَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ قَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّة.

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِ اللهِ:

- ﴿... أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ... ۝٤٠﴾:

يُرَادُ بِهـٰذَا الاسْتِفْهَامِ إِنْذَارُهُمْ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ مِنْ زُمَرِ الَّذِينَ يُلْقَوْنَ فِي النَّارِ، وَفِي مُقَابِلِهِم المؤمِنُونَ الَّذِينَ يأتُونَ يَوْمَ القيامَةِ آمِنِين بِسَبَبِ إيمانهم.

المثال الرابع: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشرِكِينَ وَبَعْضِ أَحْوَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ:

- ﴿... وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾:

يُرادُ بالاسْتِفْهَامِ في هَـٰذَا النَّصِّ التَّشْهِيرُ بِهِمْ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمَحْشَرِ، وَبَيَانُ أَنَّ خُلُودَهُمْ فِي عَذَابِ جَهَنَّم كَانَ بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَيُرَادُ بِهِ اسْتِنْطَاقُهُمْ بَاعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عزَّ وَجلّ يُعلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ حِواراً دَعوياً يُوَجِّهُهُ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ:

- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾:

يُرادُ بالاسْتِفْهَامِ فِي هَـٰذَا الْحِوَارِ انْتِزَاعُ اعْتِرَافِ الْمُحَاوِرِينَ، أَوْ إِسْكَاتُهُمْ بِدَمْغِهِمْ بِالْحُجَّةِ.

المثال السادس: قَوْلُ اللهِ عزَّ وَجلَّ:

﴿... أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾؟!:

يُرادُ بالاسْتِفْهَام انْتِزَاعُ اعْتِرَافِ الْمُخَالِفِ الجَاحِدِ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد.

تاسعاً: مِنَ التَّوْكِيدِ لِدَوَاعٍ بَلَاغِيَّة

توجَدُ فِي السُّورَةِ جُمَلٌ مُؤَكَّدَة لِدَوَاعٍ بَلاغِيَّة، وَمِنْهَا الْأَمْثِلَةُ التالية:

المثال الْأَوَّل: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ مِنْ قَوْمَي عَادٍ وَثمود:

- ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أَكَّدُوا عِبادَتَهُمْ الدَّالَّةَ عَلَىٰ كُفْرهم بـ «إِنَّ - والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة» لِقَطْعِ أَمَلِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام بِمُعَالَجَتِهِمْ رَجاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا.

المثال الثاني: قول الله عزّ وجلّ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ إِذْ يُسَاقُونَ يَوْمَ الْحَشْرِ إِلىٰ جِهَةِ أبوابِ جَهَنَّم:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

زِيدَت «مَا» بَعْدَ «إذَا» لِتَوْكِيدِ الرَّبْطِ الشَّرْطِيّ، بَيْنَ مَجِيئِهِمْ وَشَهَادَةِ أعْضَائِهِمْ عَلَيْهِم، إِذْ هُم كَافِرُونَ يَحْتَاجُونَ أَنْ يُؤَكَّدَ لَهُمْ البيانُ المتعلِّقُ بأحداثِ يَوْمِ الدِّينِ.

المثال الثالث: قولُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿...وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾:

زِيدَتْ «الباء» فِي «بِظَلَّام» لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النفي، والمقْصُودُونَ بالتوكيد الشَّاكُّونَ أو المنكِرُونَ، وَلَوْ كَانَ الْخِطَابُ خِطَاباً إفْرادِياً لِكُلِّ مَنْ يَصْلُح للخطاب.

المثال الرابع: قول اللهِ عزّ وجلَّ بِشَأْنِ المشْرِكِينَ وحَالِهِمْ فِي بَعْضِ المواقف يَوْمَ الدّين:

﴿...وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾﴾:

زِيدَتْ «مِنْ» في: ﴿مِن مَّحِيصٖ﴾ للتَّنْصِيصِ عَلَىٰ عُمُومِ النفي.

المثال الخامس: قول الله عزَّ وجلَّ في بَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِ الْإِنْسَان:

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾﴾.

مَعْظَمُ جُمَلِ هٰذِهِ الْآيَةِ جُمَلٌ مُؤَكَّدَةٌ لِدَوَاعٍ بَلَاغِيَّةٍ أَتْرُكُ تَحْلِيلَها لتفكّرِ القارئ.

وبهٰذا انتهىٰ هٰذا الملْحق، والحمْدُ لِلَّهِ علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وَفَتْحِه.

سورة الشُّورَى

٤٢ مصحف ٦٢ نزول

وقد أطلق عليها سورة «حم عسق»
عند بعض السَّلف
وهي مكيَّة كلُّها
وقيل إلَّا الآيات (٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٧)
وهي الثالثة من «الحواميم السَّبْع»

(١)

نصّ السُّورة وَمَا فِيها من فَرْشِ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ
ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ
ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ
أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ
ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ

---

١ و٢ ـ • سكت أبو جعفر علىٰ «حا» و«ميم» و«عَيْن» و«سين» و«قاف» سكتات لطيفات بدون تنفس.

٣ ـ • قرأ ابْنُ كثير: **[يُوحَىٰ]** بالمبني لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يُوحِي]** المبنيّ للمعلوم.
أي: اللهُ يوحي إليكَ، فأنْتَ يُوحَىٰ إليك.

٥ ـ • قرأ نافع، والكسائي: **[يَكَادُ]** بالياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تَكَادُ]**. وهما وجْهَانِ عَرَبِيَّان جائزان.

٥ ـ • قرأ أبو عمْرو، وشعبة، ويعْقُوب: **[يَنْفَطِرْنَ]** من فعل «انْفَطَرَ».
وقرأها باقي القراء العَشَرَة **[يَتَفَطَّرْنَ]** من فعل: «تَفَطَّرَ»، وفي هَـٰذِهِ القراءة معنىٰ تتابُعِ التفطُّر.

شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ
وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ
جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ
فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ
مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ
نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ
وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا
تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا
بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ
بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ

---

١١ ـ • قرأ قَالُون، وأبُو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر **[وَهْوَ]** بإسْكَانِ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضَمّ الهاء. ووقف يعْقُوب بهاء السَّكْت.

١٣ ـ • قرأ هشام: **[إبْرَاهَام]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿إبْرَاهِيمَ﴾ وهُمَا نُطْقَانِ عِنْدَ العَرَبِ لاسْمِه.

مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ
أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ
بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ
بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ
رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ
ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾
يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ
مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي
ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ
ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ
فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ
ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ
بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ

---

١٦ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [وَعَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَعَلَيْهِمْ**﴾ بِكَسْرِ الهاء.

٢٠ ـ • قرأ قالون، ويعقوب، وهِشَام بِخُلْف عنه: ﴿**نُؤْتِهِ**﴾ بِكَسْرِ الْهاءِ مِنْ غَيْرِ صِلَة.
وقرأها باقِي القرّاء العشرة بِكَسْرِ الهاء مع الصِّلَةِ: ﴿**نُؤْتِهِ منها**﴾ وهُوَ الوجْه الثّاني لِهِشَام.

مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ
رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ
عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا
ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ
يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ
عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ
﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن
يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي

---

٢٢ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسْكَانِ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بِضَمِّ الهاء. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

٢٣ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وحمْزَةَ، والكِسَائي: [يَبْشُرُ] من فعل: «بَشَرَهُ بالأَمْرِ يَبْشُرُه».
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يُبَشِّرُ﴾ مِنْ فعل «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ» المضعَّف. وفي المضعّف معنىٰ التوكيد، وهُوَ يُناسِبُ قِسماً من المؤمنين.

٢٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿تفْعَلُونَ﴾ بتاء المخاطبين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَفْعَلُونَ] بياء الغائبين.
وبين القراءتين تَكَامُلٌ في الأداء البياني.

٢٧ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [يُنْزِلُ] من فِعْلِ «أَنْزَلَ» المهموز. =

يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ
ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ
فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ
أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ
﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ
﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن
كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ

= وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿يُنزِّلُ﴾** من فعل «نَزَّل» المضعف والقِراءتان متكافئتان.

٢٨ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر: **﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾** من فعل «نَزَّل» المضعف.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[يُنْزِلُ الْغَيْثَ]** من فعل «أَنْزَلَ».

٣٠ ـ • قرأ نافع، وابنُ عَامر، وأبو جعفر: **[بِمَا كَسَبَتْ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾** بالفاء قَبْلَ «بِما».

٣٢ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[الجَوَارِي]** بإثبات الياء وَصْلاً. وكذلك ابن كثير، ويَعْقُوب، وَصلاً وَوَقفاً.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: **﴿الْجَوَارِ﴾** بِحَذْفِ الياء، وهما وجْهَانِ جَائِزَانِ فِي النطق.

٣٣ ـ • قرأ نَافع، وأبو جعفر: **[الرِّيَاحَ]** بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿الرِّيحَ﴾** بالإفراد، وهو اسم جنسٍ يَشْمَلُ كُلَّ أَنواعِ الرِّياح.

٣٥ ـ • قرَأ نَافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر: **[وَيَعْلَمُ]** بالرفع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿وَيَعْلَمَ﴾** بالنَّصب.

(٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ
وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ
كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ
ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ
يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَٰٓؤُاْ
سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن
سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ
وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (٤٣) وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ
مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ
إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ (٤٤) وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ
ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ
يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦)
ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ

---

٣٧ ـ ● قرأ حمزة، والكِسائي، وخَلَف: [**كَبِيرَ الإِثْم**] بإِفْرادِ لَفْظ «كَبِير».
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**كَبَائِرَ الإِثْمِ**﴾ بالْجَمْعِ للفظ «كَبِيرَة». والمؤدَّىٰ واحد.

مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ
أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ
إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ
بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ
وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ
لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ
رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ
وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ
وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾

---

٥١ ـ • قرأ نافع، [**أَوْ يُرْسِلُ**] بالرفع، أي: أو هو يُرْسِلُ.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**أَوْ يُرْسِلَ**﴾ بالنَّصْبِ، وهما وجهان عَرَبيان جائزان.

٥١ ـ • قرأ نافع: [**فيُوحِي**] أي فهو يوحي. وقرأها باقي القراء العشرة: [**فيوحِيَ**] بالنصب عطفاً علىٰ «يُرْسِلَ».

٥٢ و٥٣ ـ • قرأهما قُنْبل، ورُويس: [**سِرَاطٍ**] بالسّين، وقرأهما بالصّاد مُشَمَّةً صَوْت الزاي خلفٌ عن حَمْزَة.
وقرأهما باقي القراء العشرة بالصاد الخالصة ﴿**صِرَاطٍ**﴾، وهي وُجوهٌ في النُّطْقِ العربي.

(٢)
مما ورَدَ بِشَأْنِ هَـٰذِهِ السُّورَة

هَـٰذِهِ السُّورَة من «الحوامِيم السَّبْع» التي سَبَقَ الحديث عَنْهَا في الفقرة (٢) مِنْ تَدَبُّر سورة (غافر/ المؤمن/ ٦٠ نزول)، ومِنْ تَدبُّر سورة (فصلت/ ٦١ نزول). وَجَاءَ فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْحَوَامِيمَ دِيباجُ القرآن، أي: فيها زينة، ونفاسَةٌ ولِينٌ.

(٣)
موضوع سورة (الشورىٰ/٦٢ نزول)

ظهر لي أنّ الحواميم السَّبْع: (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) و(فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) و(الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) و(الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) و(الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) و(الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول) و(الأحْقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) ذَاتُ خَطٍّ رَئِيس هو خَطُّ الحديثِ عن القرآن ومَوْقِفِ الكافِرِينَ إبَّانَ التنزيل مِنْه. وهَـٰذَا الخطّ قَدِ اسْتَدْعَىٰ الحديثَ عَنِ اللهِ عزّ وَجلَّ مُنَزِّلِ القرآنِ وَعَنْ مَوْقِفِ الكافِرينَ مِنْهُ في خَطٍّ. والحَدِيث عَن الرَّسُولِ مُبَلِّغ القرآنِ، وَمَوْقِفِ مُكَذِّبِيهِ، في خَطٍّ. والحديثَ عَنِ الجَزاءِ المُعَجَّلِ فِي الدُّنْيا، والمُؤَجَّلِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَالإِنْذَارِ بِهِمَا مَعَ تَنْوِيعِ الْحَدِيثِ، وَتَنْوِيعِ التَّرهيب بِعَرْضِ مَشاهِدَ مِنْ يَوْمِ الدِّينِ، مَعَ التَّرْغِيبِ للمؤمنين بثوابٍ عظيم في خطٍّ. وَاسْتَدْعَىٰ أَيضاً الْحَدِيثَ عَنِ الْإِنْسَانِ وَصِفَاتِ مُعْظَم أَفْرَادِهِ فِي خَطّ.

وَرَافَقَ هَـٰذِهِ الْخُطُوط بَيَانَاتٌ مُخْتَلِفَاتٌ مُتَّصِلَاتٌ بِهَـٰذِهِ الخُطُوط مِنَ الفكر الدِّيني، ومن آيات اللهِ فِي كَوْنِهِ، وَمِنْ حِكْمَةِ اللهِ فِي تَصارِيفِهِ بِعِبَادِهِ، وَشَوَاهِدَ مِنَ التَّارِيخ لِقَضَايَا تَحتَاجُ بِحِكْمَةِ اللهِ شَواهد.

وَتَكَادُ هَـٰذِهِ الْخُطُوط وَمُرَافِقَاتُها تُسَايِرُ سُوَرَ الحواميم السَّبْع، فَهِيَ بِمَثَابَةِ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ مُفَصَّلَةٍ إِلَىٰ سَبْعِ سُوَر، مَبْدُوءَةٍ بـ(حم)، وَقَدْ أُنْزِلَتْ فِي مَكَّة مُتَتَابِعَةً.

(٤)

دروس سورة (الشورىٰ/٦٢ نزول)

دُرُوسُ هَـٰذِهِ السُّورَةِ دُرُوسٌ مُتَشَابِكَةٌ يَصْعَبُ تَمْيِيزُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، وَآيَاتُهَا تَسِيرُ عَلَىٰ الْخُطُوطِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا لدىٰ بيانِ موضوعِهَا الَّذِي هُوَ مَوْضُوعُ الحواميم السَّبْعِ.

ولتسهيل التَّدَبُّر بَدَا لِي أَنْ أُقَسِّمَهَا إلىٰ (١٢) درساً:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٥).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ الْوَحْيَ إلىٰ رَسُولِ اللهِ محمد ﷺ والْوَحْيَ إِلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مُتَمَاثِلَانِ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ والأرْضِ، وَأَنَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيم. وَبَيَانُ أَنَّ السَّمَاوَات تَكَادُ تَتَشَقَّقُ غَيْظاً مِنْ أَقْوَالِ الْأُمَمِ الْمُشْرِكَةِ الشِّرْكِيَّةِ، الَّتِي يَزْعُمُونَ فِيهَا أَنَّ للهِ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَٰهِيَّتِهِ.

الدرس الثاني: الآيات من (٦ ـ ١٢).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّهُ لَيْس مُكَلَّفاً أَنْ يُحَوِّلَ المشْرِكِينَ مِنَ الشِّرْكِ إِلَىٰ الإيمَانِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ حَفِيظاً وَلَا وَكِيلاً عَلَيْهِمْ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُبَلِّغَ مَا أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ، وَبِأَنْ يُنْذِرَ النَّاسَ بَدْءاً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، بِأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعِقَابِ اللهِ المعَجَّلِ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ ذَلِكَ، أَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّار حَتْماً، إِذَا أَنْهَوْا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا مُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، بِخِلَافِ فَرِيقِ المؤمنين الَّذِينَ يُجَازَوْنَ فِي الْجَنَّةِ بِنَعِيمٍ خَالِدٍ فِيهَا.

وفِيهَا بَيَانُ أَنَّ اللهَ لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً لَسَلَبَهُمْ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّةَ، وَلَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ والْإِسْلَام وَالطَّاعَةِ، وَلَكِنَّهُ ـ جلَّ جَلَالَهُ ـ شَاءَ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِينَ، فَمَنْ آمَن

وَأَطَاعَ أَدْخَلَهُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ بِمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ ظَلَمَ بِكُفْرِهِ وَعِصْيَانِهِ جَعَلَهُ اللهُ خَالداً فِي دَارِ الْعَذَابِ، وَلَمْ يَجِدْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً يُنَجِّيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يُعَالِجَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أولياء، بِبَيَانِ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الْوَلِيُّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوتَىٰ، وأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، وأَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ إِلَىٰ يَوْم الدِّينِ، وأَنَّ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وأَنْ يَقُولَ لَهُمْ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبِّي، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وإِلَيْهِ أُنِيب.

وَأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ طَائِفَةً مِنْ مَظَاهِرِ خَلْقِهِ فِي كَوْنِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَأَنَّ كُلَّ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكُهُ، إِذْ هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ يَمْنَحُ عِبَادَهُ بِحِكْمَتِهِ مِنْ خَزَائِنِهِ مَا يَشَاء، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم.

الدرس الثالث: الآيَاتُ من (١٣ ـ ١٦).

وفي آيات هـٰذا الدَّرسِ بَيَانُ وَحْدَةِ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي أُصُولِهَا الاعْتِقَادِيَّةِ، وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَفِي أُصُولِ وَقَوَاعِدِ المعاملات.

وَفِيهَا مُطَالَبَةُ النَّاسِ بِأَنْ يُقِيمُوا الدِّينَ، وَلَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ.

وبَيَانُ أَنَّ اللهَ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَنَّهُ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ.

وبيانُ أَنَّ النَاسَ تَفَرَّقُوا إِلَىٰ مُؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ بَعْدَمَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ، بَلَاغاً عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلام، وَقَدْ كَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَغْياً، وَأَنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ عِقَابَهُ فِي الْكَافِرِينَ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَدَّرَ وَقَضَىٰ تَأْجِيلَ الْعِقَابِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَفِيهَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ لِمَا شَرَعَ اللهُ لِعِبَادِهِ، وَبِأَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ كَمَا أَمَرَهُ، وَأَنْ لا يَتَّبِعَ أَهْوَاءَ الكافِرِينَ، وَأَنْ يُعْلِنَ لِلنَّاسِ إيمانَهُ، وَمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ.

وَفِيهَا بَيَان سُقُوطِ حُجَجِ الْكَافِرِينَ بعد تَكَاثُرِ المؤمنين المسلِمين.

الدرس الرابع: الآيَتَانِ (١٧، ١٨).

وفي آيَتَيْ هـٰذا الدَّرسِ حَدِيثٌ عَنِ الْقرآن، وَعَنِ السَّاعَةِ، وَعَنْ حَالٍ مِنْ أَحْوَال غَيْرِ المؤمنين بها، وحالٍ آخرَ مِنْ أَحْوَالِ المؤمنين بها.

الدرس الخامس: الآيتان (١٩، ٢٠).

وفي آيَتَيْ هـٰذا الدَّرس بيانٌ عن بَعْضِ صفَاتِ اللهِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ الرازق، تَمْهيداً للْحَدِيثِ عَنْ قَانُونِ اللهِ بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ مَنْ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ، وَإِلَىٰ مَنْ يُرِيدُ حَرْثَ الدنْيا فقط.

الدرس السادس: الآيات من (٢١ ـ ٢٦).

وفي آياتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ ترهِيبُ المشْرِكِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أَحْكَامٌ لَمْ يَأْذَنْ بِها اللهُ، بعذاب أَلِيم يَوْمَ الدِّين، وتَرْغِيبُ المؤمنين الذين آمنوا وعَمِلُوا من الصَّالِحَاتِ، بأنَّ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي رَوْضَاتِ الجنَّاتِ.

وفيها تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ، مَا يَقُولُهُ للَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، وَلَهُ مَعَ أَكْثَرِهِمْ قُرْبَىٰ، مَعَ إِطْمَاعِهِمْ بأَنْ يَزِيدَ اللهُ في ثَوَابِهِمْ إِذَا آمَنُوا وَاكْتَسَبُوا مِن الحَسَنَاتِ شَيئاً.

وفِيها بَيَانُ اتّهَام الّذِينَ كَفَرُوا الرَّسُولَ ﷺ بافترائِهِ الكَذِبَ عَلىٰ اللهِ، مَعَ الْمُعَالَجَةِ بالإقْنَاع، وإطْمَاعِ المؤمنين بأنْ يَزِيدَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِنْذَارِ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ.

الدرسُ السَّابع: الآيتان (٢٧، ٢٨).

في آيَتَي هَـٰذَا الدَّرس بَيَانُ حِكْمَةِ اللهِ في عَدَمِ بَسْطِ الرِّزْقِ لِعباده، وأَنَّهُ هُو الَّذِي يُهَيِّىءُ للنَّاسِ أَسْبَابَ أَرْزَاقِهِمْ، عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ، وَوِلَايَتِهِ لَهُمْ، وَصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي لَهُ بِهَا كَمال الْحَمْدِ.

الدرس الثامن: الآيات من (٢٩ ـ ٣٥).

وفي آيات هـٰذا الدَّرس عَرْض بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، مع بيان حِكْمَتِهِ في بَعْضِ تَصارِيفِهِ مِنَ المكارِهِ، وَتَحْذِيرِ الكافِرِينَ من نِقْمَتِهِ، إنْ شَاءَ أَنْ يُعَجِّلَ عِقَابَهُمْ.

الدرس التاسع: الآيات من (٣٦ ـ ٤٣).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرسِ تَزْهِيدٌ بِمَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وإطْمَاعٌ بما عِنْدَ اللهِ يوْمَ الدّين.

وفيها حَثٌّ عَلَىٰ الْتِزَام بَعْضِ فَضَائِلَ مِنَ السُّلُوكِ الإسلامي ابْتِغَاءَ مَرْضَاةَ اللهِ، وَبَيَانُ أَنَّ أَخْذَ الْحَقِّ بالْعَدْلِ لَا يُلَامُ المسْلِمُ عَلَيْهِ، لَكِنَّ الْعَفْوَ والإصْلَاحَ وَالصَّبْرَ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ، وَلِمَنْ اخْتَارَ ذَلِكَ ثَوابٌ جزيلٌ عِنْدَ رَبّه.

الدرس العاشر:الآيات من (٤٤ ـ ٤٦).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْس عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٤٧ ـ ٥٠).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرْس تَوْجِيهُ أَمْرٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ للنَّاسِ، أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِربّهم، مَع تَحْذِيرِهِ لَهُمْ مِنْ يَوْمِ الدّينِ الَّذِي لا مَرَدَّ لَهُ، وَلَا مَلْجَأَ فِيهِ يَلْجَأُ إِلَيْهِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا للخَلاصِ مِنْ عَذَابِ رَبّهم.

وفيها بَيَانُ وَظِيفَةِ الرَّسُولِ ﷺ بأنَّهُ مُبلّغٌ، وَلَيْسَ مُكلَّفاً أَنْ يَكُونَ حَفِيظاً عَلَىٰ النَّاسِ.

وفيها بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ الإنْسَانِ تُجاهَ مَا يَنالُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، أَوْ يُصِيبُهُ مِمَّا يَكْرَهُ بِحِكْمَةِ اللهِ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وأَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ يَهَبُ الْأَوْلَادَ للآبَاءِ وَالْأُمَّهاتِ، مِنْ إناثٍ وذُكُور علىٰ ما

يَشَاءُ، وقدْ يَجْعَلُ بَعْضَ عِبَادِهِ مَحْرُومِينَ مِنَ الذُّرِّيَّةِ، وَكُلُّ ذٰلِكَ عَلىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بعبادِهِ.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٥١ ـ ٥٣) آخِر السورة.

وفي آيات هٰـذَا الدَّرْسِ بَيَانُ وُجُوهِ الكَلَامِ الَّذِي يُوَجِّهُهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ لِأَنْبيائِهِ ورُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ إِلَىٰ رَسُولِهِ مَحَمَّد ﷺ ضِمْنَ هٰـذِهِ الْوُجُوهِ القرآنَ وَتَعَالِيمَ الدِّينِ الَّتِي هِيَ رُوحُ سَعَادَةِ النَّاسِ، ونُورُ هِدَايَةِ مَنْ شَاءَ الْهِدَايَةَ مِنْهُمْ إِلَىٰ صِراطِ اللهِ الَّذي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَصِيرُ الْمَوْضُوعِيْنَ فِي الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الأول من دُرُوس سورة (الشورىٰ) الآيات من (١ ـ ٥)

قال الله عزّ وجلّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥)﴾.

القراءات:

(١) و(٢) ● سَكَتَ أَبُو جَعْفَر علىٰ (حَا) و(مِيم) و(عَيْن) و(سِينْ) و(قَاف) سَكَتَاتٍ لَطِيفَات بدون تنفس.

(٣) ● قرأ ابْن كَثِير: ﴿يُوحَىٰ﴾ بالمبني لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه.

وقرأها باقي القراء العشرَة [**يُوحِي**] بالمبْني للمعلوم.

أي: اللهُ يُوحِي إِلَيْكَ فأَنْتَ يا مُحَمَّد يُوحىٰ إِلَيْكَ، بِمَعْنَىٰ يتحقَّقُ لَدَيْكَ وَحْيُ اللهِ.

(٥) • قرأ نَافع، والكِسَائي: [**يَكَادُ**] بالْيَاء.

وقرأها بَاقي الْقُرَّاءِ العشرة ﴿**تَكَادُ**﴾ بالتاء.

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جَائِزَانِ.

(٥) • قرأ أَبُو عمْرو، وَشُعْبَة، ويَعْقُوب: [**يَنْفَطِرْنَ**] مِنْ فِعْل: «انْفَطَرَ» أي: انْشَقَّ.

وقَرَأها بَاقِي القراء العشَرة: ﴿**يَتَفَطَّرْنَ**﴾ من فعل: «تَفَطَّر»، وفي هَـٰذِهِ القراءة مَعْنَىٰ تَتابُعِ التَّفَطُّر وهو الانْشِقَاق.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أداءِ المعنَىٰ المراد؛ لِأَنَّ بَعْضَ أَقْوَالِ المشْرِكِينَ أَشَدُّ مِنْ بَعْض، فالأشدُّ يقتضِي التَّفَطُّر، والأخف يَقْتَضِي الانْفِطار.

التدبّر التحليليّ:

■ قول الله تعالىٰ:

• ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢﴾:

سبق بَيَانُ مَا يَكْفِي بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ الحروف المقطَّعةِ الموجودَةِ فِي أَوَائِلِ بَعْضِ السُّور، لَدَىٰ تَدبُّر أَوَّلِ سُورَة (الْقَلَم/ ٤ نزول).

■ قول الله تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بُغْيَةَ إِسْمَاعِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الوَحْيَ إِلَىٰ الْبَشَرِ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ:

• ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾:

وفي قراءة ابن كثير [**يُوحَىٰ**] بالمبني لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ، وَسَبَق بَيانُ التكامُلِ بيْنَ القراءَتَيْنِ. و[**اللهُ**] علىٰ هـٰذِهِ القراءةِ فَاعل لِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ، تَقْدِيرُهُ: يوحي إليك الله.

سَبَقَ في سُورَةَ (فصلت/ ٦١ نُزُول) النَّازِلَةِ قَبْلَ سُورَةِ (الشُّورىٰ/ ٦٢ نُزُول) بَيانٌ عَنِ الْقُرْآنِ وأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم، وأَنَّ مُحمَّداً ﷺ بَشَرٌ يُوحىٰ إِلَيْهِ، وأَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَبِمَا أَنَّ خُطُوطَ عَنَاصِرِ مَوْضُوعِ (الحواميم السَّبْع) تَسِيرُ فِيهَا جَمِيعاً، ويَأْتِي لَاحِقُهَا مضافاً إِلَىٰ سَابِقِهَا إِضَافَاتٍ تَكْمِيلِيَّة، فَالَّذِي أراه أَنَّ عبارة ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ مُرْتَبِطَةٌ بِمَا جَاءَ فِي الآيَةِ (٦) مِنْ سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٦١ نزول) وَهِيَ قَوْلُ اللهِ عزّ وَجَلَّ فِيهَا لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾.

وَالْمَعْنَىٰ: كَذَلِكَ الَّذِي أَعْلَمْتَهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّكَ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ يُوحَىٰ إِلَيْكَ، يُوحِي إِلَيْكَ اللهُ الْعَزِيزُ بِقُدْرَتِهِ الْغَالِبَةِ، الْحَكِيمُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، إِذِ اصْطَفَاكَ نَبِياً وَرَسُولاً، وَهُوَ جَلَّ جَلالُهُ يُوحِي إِلَيْكَ مَا دُمْتَ تَتَلَقَّىٰ وَحْياً مِنْ رَبِّكَ وَأَنْتَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ كَانَ يُوحِي إِلَىٰ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ قَبْلِكَ، بِعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

العزيز: القويُّ الغالب.

الحكيم: الذي يضعُ الأشياءَ فِي مواضِعها، ويَختارُ أَفْضَلَ الاحْتِمَالَاتِ من كُلِّ الأشياء ذوات الاحتمالات المختَلِفَات.

- قول اللهِ تعالىٰ:

- ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾:

أي: لِلَّهِ العزيز الحكيم كُلُّ شَيْءٍ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِما خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَلا شَيْءَ فِيهما يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ شَرِيكاً لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ، فَاتِّخَاذُ الْمُشْرِكِينَ أَنْدَاداً لله ـ جَلَّ جَلَالَهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ ظُلْمٌ كَبِيرٌ، وَكُفْرٌ جَسِيمٌ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً.

وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ مِلْكاً لَهُ، وَخَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ، فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْعَلِيَّ الْعَظِيمَ، إِذْ هُوَ الْعَلِيُّ فَوْقَ كُلِّ ذِي وُجُودٍ فِي الْكَوْنِ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي يَمْلِكُ بِعَظَمَتِهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ بِعَظَمَتِهِ كُلَّ مَا سِوَاهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابِعاً خَطَّ الْحَدِيثِ عَنِ اللهِ وَكُفْرِ الْأُمَمِ الْمُشْرِكَةِ بِهِ، بِاتِّخَاذِهَا شُرَكَاءَ أَنْدَاداً، وهَـٰذَا الْخَطُّ مُسْتَمِرٌّ في الْحَوَامِيمِ السَّبْعِ الْمُتَتَالِيَاتِ تَنْزِيلاً:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

التَّفَطُّر: التَّشَقُّقُ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّمَزُّقِ مِنَ الْغَيْظِ تَأَثُّراً مِنْ كَبِيرَةِ مَقَالَاتِ المشْرِكِينَ الَّذِينَ جعَلُوا لله أَنْدَاداً فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِه.

إِنَّ الْكَلَامَ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي غَيْرِ الْأَحْيَاءِ ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، إِذَا لَمْ يُوجَدْ مَانِعٌ يَمْنَعُ تَأْثِيرَهُ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَمِنْ هَـٰذَا التأثِيرِ مَا هُوَ تَأْثِيرٌ حَمِيد، فَلَوْ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَتصَدَّعَ وَخَشَعَ، وَمِنَ الْكَلام مَا يُؤَثِّرُ فِي الشِّفَاءِ مِنَ الْأَمْرَاضِ، كَالتِّلَاوَاتِ وَالْأَدْعِيَةِ وَالرُّقَىٰ. وَمِنَ الْكَلام مَا يَجْعَلُ الجامِدَاتِ غَيْرَ الْحَيَّةِ تَتفَطَّرُ وَتَتَشَقَّقُ إِذَا لَمْ يَحْمِهَا اللهُ مِنْ ذَٰلِكَ بِقُدْرَتِهِ، وَهَـٰذَا تَأْثِيرٌ سَيِّئٌ فِيها غير حَميد، كَتَأْثِير الْأَشْيَاءِ المادِّيَّة في مَادِّيَّاتٍ أُخْرَىٰ، مثل تأثير الْحَرَارَةِ فِي التَّجْفِيفِ أو الإحْرَاقِ.

وَقدْ يَكُونُ هـٰذا الْبَيانُ تعْبيراً عَنْ حَالَةِ السَّماوَاتِ لَوْ كَانَتْ ذَوَاتَ إِحْسَاسٍ، تُدْرِكُ أَقْوالَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ الصَّادِرَةِ عَنْهُمْ وَهُمْ فِي الْأَرْضِ، مِمَّا يُسْخِطُ رَبَّ الْعَالَمِينَ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ كَبِيراتٍ شَنِيعَاتٍ، إِذْ تَنْفِرُ مِنْ شِدَّةِ تَأْثِيرِهَا فِي أَجْرَامِهَا، فَتَرْتَفِعُ مِنْ أَواسِطِ أَسْفَلِهَا ارْتِفَاعاً يُشْبِهُ بَاطِنَ الْقَوْسِ، وَهـٰذَا الارْتِفَاعُ الكَرِيهُ يَجْعَلُ أَعْلاهَا يَتفطَّرُ وَيَتَشقَّقُ، بِتَأْثِيرِ تَمَدُّدِهَا إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ، فَهِيَ تَتَفَطَّرُ مِنْ فَوْقِهِنَّ تفطُّرَ الْعَجِينِ إِذَا انْتَفَخَ إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ.

وَهـٰذَا تَمْثِيلٌ عَلَىٰ تقْدِيرِ أَنَّ أَجْرَامَ السَّمَاوَاتِ ذَوَاتُ إِحْسَاسٍ، يَتَأَثَّرُ بِمَعَانِي أَقْوال الْكُفْرِ الصَّاعِدَةِ مِنْ كُفَّارِ أَهْلِ الْأَرْضِ.

وَعَلَىٰ هَـٰذَا يَكُونُ مَعْنَىٰ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾: تَقْتَرِبُ السَّمَاوَاتُ لو كَانَتْ تُحِسُّ، مِنْ حَالَةِ تَفَطُّرِهِنَّ مِنْ فَوْقِهِنَّ، بِتَأْثِيرِ أَقْوَالِ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ بِرَبِّهَا المسْخِطَةِ لَهُ، إِذْ تَصْعَدُ إِلَىٰ أَجْرَامِهَا مِنَ الْأَرْضِ، فَتَضْغَطُ عَلَيْهَا ضَغْطاً كَرِيهاً مُؤْلِماً مِنْ أَسْفَلِهَا، فَتَبْتَعِدُ أَوَاسِطُهَا إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ نَافِرَةً وَمُتَجَافِيَةً عَمَّا يُؤْلِمُهَا، فَيَتَفَطَّرُ أَعْلاهَا مُتَشَقِّقاً غَضَباً للهِ رَبِّهَا.

- ﴿. . وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

أي: والْمَلائِكَةُ فِي السَّمَاوَاتِ (وَهُمْ مَالِئُونَ لَهَا أَخْذاً مِنْ بيانِ الرَّسُول ﷺ) يَقُومُونَ بأدَاءِ وَظِيفَتَيْنِ:

الوظيفة الأولىٰ: أَنَّهُمْ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: أي: يُنَزِّهُونَ اللهَ رَبَّهُمْ عَنْ كُلّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَهـٰذَا التَّنْزِيهُ مُقْتَرِنٌ بِحَمْدِهِ والثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِكُلِّ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي هِيَ لَهُ، مَا عَلِمَتِ الْخَلَائِقُ مِنْهَا وَمَا لَمْ تَعْلَمْهُ، فَاللهُ لَهُ الحَمْدُ كُلُّه.

الوظيفة الثانية: أَنَّهُمْ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أَيْ: يَسْأَلُونَ اللهَ رَبَّهُمْ أَنْ يَغْفِرَ لِجَمِيعِ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَيَسْتُرَ ذُنُوبَهُمْ وَلَا يُعَجِّلَ بِعِقَابِهِمْ عَلَيْهَا، رَجَاءَ أَنْ يَتُوبُوا وَيَعْمَلُوا صَالِحاً.

وهـٰذَا الاسْتِغْفَارُ مِنَ الْـمَلاَئِكَةِ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، مِمَّا أَمَرَهُمُ اللهُ بِه، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يَأْمُرُهُمُ اللهُ بِهِ. وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لِعُصَاةِ المؤمنين، طَمَعاً فِي أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ، وَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لِلْكُفَّارِ مِنَ الْأَحْيَاءِ، عَلَىٰ مَعْنَىٰ عَدَم تَعْجِيلِ عِقَابِهِمْ عَلَىٰ كُفْرِيَّاتِهِمْ، رَجَاءَ أَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا فَيَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، أَمَّا الَّذِينَ مَاتُوا كَافِرِينَ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ مَاتَ كَافِراً.

- ﴿. . . أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾:

﴿أَلَآ﴾: أَدَاةَ اسْتِفْتَاحٍ، وَتَنْبِيهٍ، وَتَوْكِيد.

أي: انْتَبِهُوا وَتَأَكَّدُوا أَيُّها المتَلَقُّونَ، واعْلَمُوا هَـٰذِهِ الحقيقة عَنْ رَبِّكُمْ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»، فَهُوَ وَحْدَهُ فِي الْوُجُودِ الْغَفُورُ غُفْرَاناً عَظِيماً لَا يُدَانِيهِ فِيهِ أَحَدٌ، وَهُوَ وَحْدَهُ فِي الْوُجُودِ الرَّحِيمُ الَّذِي لَا تُدَانِي رَحْمَتَهُ بِعِبَادِهِ كُلُّ الرَّحَماتِ الْمُوَزَّعَاتِ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ.

الغَفُور: صيغَةُ مبالَغَةٍ لاسْمِ الْفَاعِلِ «غافر»، وهو السَاتِرُ للذُّنوب.

الرَّحيم: أي: الْعَظِيمُ الرَّحْمَة بِعِبَادِهِ، وَهِيَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، من آثارِهَا الْعَطَاءُ، والْعَفْوُ، وَالْعَوْنُ.

وبهـٰذا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدرس الأول من دُروس سورة (الشورىٰ).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتوفيقه، ومِنَّتِهِ، وفتحه.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الثاني من دروس سورة (الشورىٰ) الآيات من (٦ ـ ١٢)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ

لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ (٧) وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ
وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٩)
وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ
أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ
أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ (١١) لَهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (١٢)﴾.

القراءات:

(١١) • قرأ قالُون، وأَبُو عَمْرُو، والكِسَائِي، وأبو جَعْفَر: **[وَهْوَ]** بإسْكَانِ الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَهُوَ**﴾ بضم الهاء، ووقف يَعْقُوب بهاء السَّكْت.

تمهيد:

في آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، بِأَنَّهُ لَيْسَ مُكَلَّفاً أَنْ يُحوِّلَ المشْرِكِينَ مِنَ الشِّرْكِ إِلىٰ الْإِيمَان؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ حَفِيظاً، وَلَا وَكِيلاً عَلَيْهِمْ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ أَنْ يُبَلِّغَ مَا أَوْحىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ إِلَيْهِ، وَمَأْمُورٌ بِأَنْ يُنْذِرَ النَّاسَ بِدْءاً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، بِأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ نُفُوسَهُمْ لِعَذَابِ اللهِ المعَجَّل، إِذَا أَصرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُعَجِّلَ لَهُمْ جُزْءاً مِنْ عَذَابِهِمْ، أَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ حَتْماً، إِذَا أَنْهَوْا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا مُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، بِخِلَافِ فَرِيقِ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يُجَازَوْنَ يَوْمَ الدِّينِ بِالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وفيهَا بَيَانُ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلّ لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدةً لَسَلَبَهُمُ إرادَاتِهِمْ الحرَّة، وَلَجعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الإِيمان والإسْلَام وَالطَّاعَةِ، وَلَكِنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ شَاءَ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِينَ، فَمَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ وَأَطَاعَ بِإِرَادَتِهِ الحُرَّةِ أَدْخَلَهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجلَّ ـ فِي رَحْمَتِهِ بِمَشِيئَتِهِ تَفَضُلاً مِنْهُ عَلَيْه، وَمَنْ ظَلَمَ فَكَفَرَ وَتَمَرَّدَ وَعَصَىٰ، بِإِرَادَتِهِ الحرَّة، وَمَاتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ، جَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ خَالِداً فِي دَار العذابِ النّار، وَلَمْ يَجِدْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وفِيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه، أَنْ يُعَالِجَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ، بِبَيَانِ أَنَّ اللهَ هُوَ وحْدهُ الْوَلِيُّ فِي الْوُجُودِ كُلِّه، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَأَنَّ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ شَيْءٍ، فَحُكْمُهُ إِلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ مُطْلقاً.

وَعَلّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ للنَّاسِ: ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

وَعَلَّمَ اللهُ عزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُبَيِّنَ للنَّاسِ فِي دَعْوَتِهِ طَائِفَةً مِنْ ظَاهراتِ خَلْقِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وَأَنَّهُ لَيْس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَأَنَّ كُلَّ خزَائِنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَفَاتِيحها مِلْكُهُ، وَهِيَ تحت سُلْطَانِهِ وَتَصرُّفِهِ، إِذْ هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَمَشْمُولَةٌ دَواماً بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ يَمْنَحُ عِبَادَهُ مِنْ خزَائِنِهِ مَا يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

التدبُّر التحليلي:

□ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾:

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ: مَا أَنْتَ عَلَىٰ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ بِوَكِيلٍ مَسْؤُولٍ عَنْ كُفْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ ذَوُو إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيَا مُمْتَحَنُونَ، وَأَنْتَ تُبَلِّغُهُمْ مَطْلُوبَ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَتُبَشِّرُهُمْ وَتُنْذِرُهمْ.

وَلَسْتَ مَسْؤُولاً عَنْ حِفْظِهِمْ حِفْظاً جَبْرِياً مِنَ الضَّلَالِ الَّذِي يَصِيرُ بِهِمْ إِلَىٰ عَذَابِ اللهِ وَنِقْمَتِهِ، فَالْحَفِيظُ الْمُجْبِرُ ذُو السُّلْطَانِ عَلَىٰ عِبَادِهِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ، فِيمَا شَاءَ أَنْ يَكُونَ حَفِيظاً لَهُ بِسُلْطَانِهِ الْجَبْرِي.

أي: فَلا تَحمِلْ فِي قَلْبِكَ هَمَّ تَحْوِيلِ النَّاسِ مِنَ الْكُفْرِ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَىٰ الهِدَايَةِ.

الحفيظ: الحارِسُ علىٰ الشيءِ، المُوَكّلُ بِحِفْظِهِ مِمّا قَدْ يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ شَرّ.

الْوَكِيل: مَنْ يُسَلَّمُ إِلَيْهِ أَمْرٌ مَا وَيُكْتَفَىٰ بِهِ فِي اخْتِيَارِهِ أَوْ عَمَلِهِ.

جَاءَ فِي القرآن فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ لَمْ يَجْعَلْ رَسُولَهُ مُحمَّداً ﷺ عَلَىٰ أُمَّتِهِ حَفِيظاً، مِنْهَا قول اللهِ عزَّ وَجلَّ في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) خطاباً لِرسوله ﷺ:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

وقول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٩٢ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿... وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

وجاء في القرآن في عدّة نُصوصٍ بَيانُ أَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ رَسُولَهُ ﷺ عَلىٰ أُمَّتِهِ وَكيلاً، منها ما جاء في آيَةِ (الأنعام) الآنِفَةِ الذِّكْرِ، ومِنْهَا قول الله تَعالَىٰ فِي سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿... وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

وجاء في القرآن بيانُ أَنَّ اللهَ هو الحفِيظُ وَهُوَ الْوَكِيلُ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَكُلِّ كَوْنِهِ.

فالمرادُ بِكَوْنِ اللهِ حَفِيظاً علىٰ عِبَادِهِ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِسُلْطَانِهِ الْجَبْرِي، يَحْفَظُهُمْ مِمَّا فِي كَوْنِهِ مِمَّا يَسُوءُهُمْ أَو يُؤْذِيهِمْ أَوْ يَضُرُّهُمْ أَوْ يَكُونُ شَرّاً لَهُمْ مِنْ عَوَارِضِ مَا فِي كَوْنِهِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ قَضَاءٌ وَقَدَر. ويَحْفَظُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ أَعْمَالٍ اخْتِيَارِيَّةٍ تَدْخُلُ فِي مُحَاسَبَتِهِمْ بِعِلْمِهِ، وَبِمَا يُسَجِّلُ الْمَلائِكَةُ المكلَّفُونَ أَنْ يَكْتُبُوا أَعْمَالَ العِبَادِ الموضوعِينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَبِمَا جَعَلَ فِي أَجْسَامِ الْعِبَادِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُسَجِّلاتٍ تَشْهَدُ بِهَا أَعْضَاؤُهُمْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ، وَلَيْسَ مَسْؤُولاً عَنْ حِفْظِ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ بِسُلْطَانٍ جَبْرِيٍّ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، بَلْ هُوَ مُبَلِّغٌ مَا أَمَرَهُ بِتَبْلِيغِهِ الرَّحْمٰنُ، وَنَاصِحٌ وَمُرْشِدٌ، وَمُبَشِّرٌ وَمُنْذِر، ثُمَّ هُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْ إِرَادَاتِهِمْ وَاخْتِيَارَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

والمرادُ بِكَوْنِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَكِيلاً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَّهُ هُوَ الْقَائِمُ دَوَاماً بِحِفْظِ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ تَصَرُّفاً يَشْمَلُ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، إيجاداً وَإِعْدَاماً، وَإِمْدَاداً، وَتغييراً، ويَشْمَلُ ابْتِلَاءَ مَنْ مَنَحهُمُ الإرادة الْحُرَّةَ، وَيَشْمَلُ التَّرْبِيَةَ والجزاء.

فَمَا مِنْ أَصْغَرِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ كُلِّ ذَرَّةٍ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ، إِلَّا هُوَ خَاضِع لِصِفَاتِ رُبُوبِيَّة اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

فَمَعْنَىٰ كَوْنِ اللهِ عزّ وَجلَّ وَكيلاً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ صَارَ فِي الاصْطِلَاحِ الدِّينيّ يَشْمَلُ هٰذِهِ المفهومات.

والرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ شَيْئاً مِنْهَا، فَهُوَ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ.

□ قولُ الله تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ⑦﴾:

جاء في سورة (فُصّلت/ ٦١ نزول) قول اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④﴾:

وَمُتَابعَةً لِخَطِّ الْحَديثِ عَنِ الْقرآنِ فِي الحَوامِيمِ السَّبْعِ» جاءَتْ هَـٰذِهِ الآية (٧) من سُورَةِ (الشُّورَىٰ/ ٦٢ نزول).

أي: وَكَذٰلِكَ الْوَحْيِ الَّذِي يُوحَىٰ إِلَيْك، وَكَانَ يُوحَىٰ إِلَىٰ الأَنْبِياءِ والرُّسُلِ، مِنْ قَبْلِكَ، أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً.

أَطْلَقَ اللهُ عزّ وَجلّ عَلَىٰ الْبَعْضِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ الْكِتابِ المقْضِيّ أَنْ يُنْزِلَ سَائِرَهُ عُنْوَانَ «قُرْآن» للدَّلالَةِ علىٰ أَنَّ البَعْضَ مِنْهُ قُرْآنٌ أَيْضاً، نَظَراً إِلَىٰ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ أَنْ يُكْتَبَ وَيُقْرأ، وهُو جُزْءٌ مِنْ كُلّ.

وجاءت عِبَارَةُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ تَوْطِئَةً وَتَمْهِيداً لِقَوْلِ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أي: لِتُبلّغ وَتُبَيِّنَ وَتُبَشِّرَ وَتُنْذِرَ النَّاسَ فِي أُمّ الْقرىٰ الْمُعاصِرينَ لَكَ، وَكُلَّ سُكَّانِ الأَرْضِ الْمَوْجُودِينَ حَوْلَ أُمِّ الْقُرىٰ، مُباشَرَةً، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ، وَيَحْمِلُونَ رِسالَةَ تَبْلِيغِ دِينِ اللهِ مِنْ أُمَّتِكَ، مَا تَتَابَعتِ الأَيَّامُ، حَتَّىٰ آخِرِ الأَجْيالِ المتتابِعَةِ فِي الأَرْضِ.

أُمّ الْقُرَىٰ: هِيَ مَكَّةُ الْمُكَرَّمَة، وَوُصِفَتْ بِأَنَّها أُمُّ الْقُرىٰ لِأَنَّها سُرَّةُ الأَرْضِ، وَأَوَّلُ مَكانٍ فِي الأَرْضِ سَكَنَتْهُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ النَّاسِ مُنْذُ عَهْدِ آدم عَلَيْهِ السَّلام.

يُطْلَقُ لَفظِ الْقَرْيَةِ عَلَىٰ كُلِّ أَرْضٍ فِيهَا مَسَاكِنُ وَبُيُوتٌ مُجْتَمِعَة سواءٌ أَكَانَتْ قَلِيلَةً أَمْ كَثِيرَة، وَلَوْ بَلَغَتْ مَدِينَةً عُظْمَىٰ، وَإِطْلَاقُ أمّ القرىٰ علىٰ سكانها من إطلاق المحلِّ وإِرَادَةِ الحَالّينِ فِيهِ. وَتَوْطِئَةً وَتَمْهيداً لِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ.

- ﴿.. وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾.

فِعْلُ «أَنْذَرَ» يَتَعَدَّىٰ إِلَىٰ مَفْعُولَيْنِ، يُقَالُ لُغَةً: «أَنْذَرَ فُلَانٌ فُلَاناً مَكْرُوهاً» أَيْ: أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ.

يَوْمُ الْجَمْعِ: أي: يَوْمُ القيامَة، سُمِّيَ يَوْمَ الجَمْعِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجْمَعُ فِيهِ الْخَلَائِقَ مِنْ أَوَّلِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِهِمْ، وَفِيهِ يجري الْحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، ثُمَّ تَنفِيذُ الجزاء.

لَا رَيْبَ فِيهِ: أي: خَبَرُ يَوْمِ الْجَمْعِ خَبَرٌ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، فَهَـٰذَا الْيَوْمُ أَحَدُ عَنَاصِرِ خُطَّةِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيَّة، وَعَدَ اللهُ بِهِ، وَاللهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَاد؛ لِأَنَّهُ قَدِيرٌ عَلَىٰ مَا يَشَاء، وفَعَّالٌ لِمَا يَشَاء، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَقُولَ غَيْرَ الْحَقِّ.

وَإِذْ كَانَ يَوْمُ الْجَمْعِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجَزاءِ وَإِذْ كَانَ النَّاسُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا فَرِيقَيْن: مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ أَخْياراً، وَكافِرِينَ مُسْتَكْبِرِينَ فُجَّاراً، وَكَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَا فَضْلٍ وَذَا عَدْلٍ، كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ فِي ذَلِكَ الْيَوْم أَنْ يَكُونَ الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ فِي الجَنَّة، وَأَنْ يَكُونَ الْفَرِيقُ الآخَرُ فِي السَّعير، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْآيَةَ:

- ﴿... فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾:

السَّعِير: هو في اللُّغَةِ النَّار، وقيل: لَهَبُ النَّارِ. ويقالُ لغة: «سَعَرَ النَّار، وأَسْعَرَهَا، وَسَعَّرَهَا» أي: أَوْقَدَهَا وَهَيَّجَهَا.

فَمَعْنَىٰ الآيَة: بإبْرازِ المطْوِيَّاتِ فِيها: وَكَذٰلِكَ الْوَحْيِ الَّذِي يُوحَىٰ

إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَكَانَ يُوحَىٰ نَظِيرُهُ إِلَىٰ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً، لِتُبَلِّغَ وَتُبَيِّنَ وَتُبَشِّرَ وَتُنْذِرَ أَهْلَ مَكَّةَ أُمِّ الْقُرَىٰ الْعَرَب، وَمَنْ حَوْلَ مَكَّةَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، عَرَباً وَغَيْرَ عَرَبٍ، إِمَّا بِالْمُبَاشَرَة، وإِمَّا عَنْ طَرِيقِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِكَ، وَيَحْمِلُونَ رِسَالَةَ تَبْلِيغ دِينِ اللهِ مِنْ أُمَّتِكَ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ، مَا تَتَابَعَتِ الأَيَّامُ حَتَّىٰ آخِرِ الأَجْيَالِ المتتابِعَةِ فِي الأَرْضِ.

وَمَضْمُونُ إِنْذَارِكَ فِي رِسَالَتِكَ يَشْمَلُ إِنْذَارَيْنِ:

الأَوَّل: أَنْ تُنْذِرَ الْكَافِرِينَ عِقَابَ اللهِ الْمُعَجَّلَ فِي الدُّنْيا، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُعَجِّلَ لَهُمْ شَيْئاً مِنَ الْعِقَابِ.

الثَّانِي: أَنْ تُنْذِرَ الْكَافِرِينَ وَالْعُصَاةَ عِقَابَ اللهِ وَعَذَابَهُ الذي سَوْفَ يَكُونُ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْجَمْعِ، بَعْدَ أَنْ يُحَاسِبَهُمْ، وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِمْ، إِذْ يَكُونُ فَرِيقُ الْكَافِرِينَ فِي السَّعِير، أَمَّا فَرِيقُ المؤمنين فَيَكُونُ فِي الْجَنَّةِ مُنَعَّماً بِنَعِيمِها.

وَعِبارة الإِنْذَارَين هي فيما أَرَىٰ علىٰ الوجهِ التالي: لِتُنْذِرَ كُفَّارَ أُمِّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا عِقَاباً مُعَجّلاً إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ رَبِّكَ ذَلِكَ، وَتُنْذِرَ عِقَابَ اللهِ المحقَّقَ يَوْمَ الْجَمْعِ الذي لَا رَيْبَ فِيهِ، وَالَّذِي يَكُونُ فِيهِ النَّاسُ فَرِيقَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَفِي الجنَّة، وأَمَّا الآخَرُ فَفِي السَّعِير.

■ قول الله عزَّ وَجلَّ مُبيّناً أَنَّ الْمَوْضُوعِينَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ ذَوُو إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَلَيْسُوا مَجْبُورِينَ، وَلَوْ كَانُوا مَجْبُورِينَ لَجَعَلَهُمُ اللهُ أُمَّةً وَاحِدَةً مُؤْمِنَةً:

● ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧﴾:

أي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ الناسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، لَا يَكُونُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ

فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ آخَرُ مِنْهُمْ فِي السَّعِيرِ، لَسَلَبَهُمْ إِرَادَاتِهِمْ الحرَّة، وَلَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ، وَلَوْ جَعَلَهُمْ مَجْبورِينَ لَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الإِيمانِ والإِسْلَامِ والطَّاعَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفْرَ والْعِصْيَانَ، وَلَكَانُوا حِينئذٍ كَالْمَلَائِكَةِ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَلَكَانُوا يَفْعَلُونَ مَا يَأْمُرُهُمُ اللهُ بِهِ آناً فآناً.

وَلَكِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْنَحَ كُلَّ مَنْ وَضَعَهُ مِنْ عِبَادِهِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ إِرَادَةً حُرَّةً، يُرِيدُ بِهَا لِنَفْسِهِ طَرِيقَ الحَقِّ وَالْخَيْرِ والْهُدَىٰ، أَوْ يُرِيدُ بِهَا لِنَفْسِهِ طَرِيقَ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ والضَّلَالِ، تَلْبِيَةً لِرَغَبَاتِ نَفْسِهِ وَأَهْوَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا مِنَ الدُّنْيَا العَاجِلَةِ، وَيَأْتِي بَعْدَ هٰذَا الامْتِحَانِ الْحِسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَنْفِيذُ الجَزَاءِ الملائِم لِمَا قَدَّمَ كُلُّ مُمتحَنٍ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَمَلٍ اخْتَارَهُ بِإرَادَتِهِ الْحُرَّة. فاللهُ يُدْخِلُ فِي رَحْمَتِهِ الَّتِي مِنْ آثَارِها النَّعِيمُ المقِيمُ فِي جَنَّاتِ الْخُلُودِ، عَلَىٰ وَفْقِ مَشِيئَتِهِ الَّتِي لَا مُجْبِرَ لَهَا، بَلْ مِنْ كَمَالِ صِفَاتِهِ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ المسلمين من عباده، وأَمَّا الظَّالِمُونَ بِكُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِمْ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي دَارِ الْعَذَابِ النّار خَالِدِينَ فِيهَا، وحِينئذٍ لَا يَكُونُ لَهُمْ وليٌّ مَا يَرْحَمُهُمْ فَيَحْمِيهِمْ وَيُؤْوِيهِمْ، وَلَا نَصِيرٌ يَنْصُرُهُمْ فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ رَبِّهِمْ الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِالْعَدْلِ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ أَحَداً مِثْقَالَ ذَرَّة. «مِنْ» فِي: «مِنْ وَلِيٍّ» للتنصيص علىٰ استغراق عُموم النفي.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّهِمْ أَرْبَاباً وَآلِهَةً شُرَكَاءَ لله فِي رُبُوبِيَّتِهِ أو فِي إِلٰهِيَّتِهِ:

● ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾:

﴿أَمِ﴾ تَنْحَلُّ إِلَىٰ إِضْرَابٍ واسْتِفْهَامٍ. أي: بَلْ تَوَهَّمَ المشْرِكُون أَنَّ

آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ سَوْفَ يَكُونُونَ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ. أَهُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ سَوْفَ تَحْمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، يَوْمَ لَا يَكُونُ لَهُمْ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ مِنْ دُونِ اللهِ، إِنَّهُمْ ضَالُّونَ ضَلَالاً بَعِيداً، يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ أَشَدَّ التَّأْنِيبِ وَالتَّلْوِيمِ وَالتَّوْبِيخِ والإنكار.

- ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾: أي: فَاللهُ وَحْدَهُ هو الْوَلِيُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ لِكُلّ عِبَادِهِ، فَلَا حَامِيَ إِلَّا هُوَ، وَلَا نَاصِرَ إِلَّا هُوَ.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفَي الإِسْنَادِ مَعْ تَوْكِيدِهِ بِضَمِيرِ الْفصل.

- ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ متىٰ شَاءَ إِحْيَاءَ مَا يَشَاءُ إِحْيَاءَهُ مِنَ الْمَوْتَىٰ، وَهُوَ يُحْيِي الموتَىٰ يَوْمَ الْبَعْثِ، لِتَحْقِيقِ الْغَايَةِ مِنِ امْتِحَانِ الموضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وَهِيَ الْحِسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذُ الجَزَاءِ، بِالْفَضْلِ أَوْ بِالْعَدْلِ.

- ﴿...وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٩)﴾:

أي: وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاءُ إِيجَادَهُ، أَوْ إِعدَامَهُ، أو إِجْرَاءَ أَيِّ تَصرُّفٍ فِيهِ: قَدِيرٌ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُنْ»، فَهُوَ يَكُونُ بِأَمْرِهِ التَّكْوِينِي جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلّمُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، بَيَاناً دَعوِياً يُوَجِّهُهُ لِمَنْ يُلَائِمُهُمْ تَوْجِيهُهُ لَهُمْ مِنَ الْمَدْعُوِّينَ إلىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ:

- ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ (١١) لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (١٢)﴾:

يَشْتَمِلُ هَـٰذَا التعليم الدَّعَوِي عَلَىٰ (١١) قَضِيَّةً مِنْ قَضَايَا كُبْرَيَاتِ المَفْهُومَاتِ الدِّينيَّة.

الْقَضِيَّةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُوله ﷺ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾:

«ما» مَوْصُولٌ مُبْهَمٌ. «مِنْ شَيْءٍ» بَيَانٌ لَهُ. أي: وكلُّ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ، الشَّامِلَةِ لِلْعَقَائِدِ، وَالأَخْلَاقِ، وَالْمُعَامَلَاتِ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ السُّلُوكِ النَّفْسِيِّ وَالْجَسَدِيِّ، فَحُكْمُهُ إِلَىٰ الله، هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَحْكُمُ فِيهِ بِأَنَّهُ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ، صَوَابٌ أَوْ خَطَأٌ، خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ، حَسَنٌ أَوْ قَبِيحٌ، طَاعَةٌ لِلَّهِ أَوْ مَعْصِيَةٌ لَهُ.

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ مَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ، وَسَيُنْزِلُ سَائِرَهُ، وَفِيهِ بَيَانُ أُمَّهَاتِ قَضَايَا الدِّينِ، لِتُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَ فِيهِ، وَلَا تُخَالِفُوا أَحْكَامه، فَمَا اخْتَلَفْتُمْ عَنْهُ بِهِ، فَسَوْفَ يُحَاسِبُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَلَيْهِ بِحَسَبِ حُكْمِهِ هُوَ، لَا بِحَسَبِ حُكْمِ أَهْوَائِكُمْ، وَلَا بِحَسَبِ أَحْكَامِ أَهْلِ الضَّلَالِ مِنْكُمْ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لَكُمْ اتِّبَاعَ غَيْرِ مَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ مِنْ شَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ لِتَتَّبِعُوهَا وَتَعْمَلُوا بِهَا، وَزَيَّنُوا لَكُمْ اتِّخَاذَ آلِهَةٍ مِنْ دُونَ اللهِ رَبِّكُمْ.

فَحُكْمُ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا هُوَ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا دِينُ اللهِ رَبِّكُمْ، وَجَعَلَكُمْ مَسْؤُولِينَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ إيماناً وَعَملاً، سَوفَ يَكُون يَوْمَ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ آمَنَ بِالْحَقِّ وَأَسْلَمَ لِلَّهِ وَأَطَاعَ نَجَا وَفَازَ، بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ الْخَالِدَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وَمَنْ كَفَرَ بِالْحَقِّ وَأَبَىٰ أَنْ يُسْلِمَ لِلَّهِ وَيُطِيعَ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، خَسِرَ كُلَّ نَفْسِهِ، وَأَدْخَلَهُ اللهُ بِعَدْلِهِ دَارَ الْعَذابِ النَّار يَوْمَ الدِّين، خَالِداً فِيهَا مُخَلَّداً.

القضيَّة الثَّانِيَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾:

أي: ذَلِكُمُ الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ الَّذِي إِلَيْهِ يَكُونُ حُكْمُ جَمِيعِ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ بِحَسَبِ حُكْمِهِ خَيْراً أَوْ شَرّاً، هُوَ اللهُ رَبِّي، الَّذِي جَعَلَنِي نَبِياً وَرَسُولاً، وَكَلَّفَنِي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ مَا أَنْزَلَ وَيُنْزِلُ عَلَيَّ مِنْ كِتَابِهِ الْقُرْآن، وأَنْ أُبَيِّنَ لَكُمْ قَضَايَا الدِّين، الَّذِي جَعَلَكُمْ مَسْؤُولِينَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ واتّبَاعِ أَحْكَامِهِ، فَلَا تَسْتَهِينُوا بِهَـٰذِهِ الْحَقَائِقِ الّتي تَرْتَبِطُ بِهَا مَصَايِرُكُمْ، فِي آخِرَتِكُمْ.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

أَيْ: فَإِذَا لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِي، وَحَاوَلْتُمْ مُقَاوَمَةَ دَعْوَتِي، أَوْ حَاوَلْتُمُ التَّخَلُّصَ مِنِّي، وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَاتَّبَعُونِي، فاعْلَمُوا أَنِّي عَلَيْهِ وَحْدَهُ تَوَكَّلْتُ، فَهُوَ الْكَفِيلِ بِحِمَايَتِي وَنُصْرَتِي وَحِمَايَةِ مَنْ آمَنَ بِي وَاتَّبَعَنِي، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ إِظْهَارِ دِينِهِ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهِ الْكَافِرُونَ بِهِ.

التوكُّل عَلَىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إِلَيْهِ، وَتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ وَتَحْقِيقِ مَا يَرْجُو المتوكِّلُ إِلَيه، مَعَ قِيامِ المتوكّلِ عَلَىٰ اللهِ بالْأَسْبَابِ المستطاعَةِ لَهُ، المادّيَّة والمعنويّة، طَاعَة لِأَمْرِهِ وَنَهْيِه.

وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ مَعَ طَاعَتِهِ لَهُ كَفَاهُ، فَحَمَاهُ وَنَصَرَهُ، وَجَعَلَ لَهُ النِّهَايَةَ الظَّافِرَةَ الَّتِي تُرْضِيه.

القضيّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾:

أي: وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ أَرْجِعُ فِي أُمُورِي كُلِّهَا، طَاعَةً لَهُ، وَاتّبَاعاً لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَوَصَايَاهُ، واسْتِعَانَةً بِهِ، وَلُجُوءاً إِلَيْهِ وَاسْتِعَاذَةً بِهِ، وَأَرْجِعُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ فِي دُعَائِي وَعِبَادَاتِي، وَمَا يُفْتِينِي بِهِ، فِي كُلّ أَمْرٍ لَا أَعْلَمُ بِشَأْنِهِ عِلْماً تَلَقَّيْتُهُ عَنْهُ، فَأَنَا لَا أَسْتَجِيبُ لَكُمْ بِشَيْءٍ عَلَىٰ خِلَافِ طَاعَةِ رَبِّي.

الإنابةُ: الرُّجُوع مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، يُقَالُ لُغَةً: «أَنَابَ فُلانٌ إِلَىٰ الشَّيْءِ يُنِيبُ» أي: رَجَعَ إِلَيْهِ مَرَّةً فَمَرَّةً، وَهٰكَذا بِعادةٍ مُتَتابِعَةٍ.

والمنيب إلىٰ الله: هو ذُو الرُّجُوعِ إِلىٰ اللهِ آناً فَآناً، بِقَلْبِهِ، وَنَفْسِهِ، وفِكْرِهِ، وَعَمَلِهِ.

القضية الخامِسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلّمُ رَسُولَه ﷺ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

أي: هُوَ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَلَىٰ نِظَامِ الْفَطْرِ وَهُوَ الشَّقُّ مِنْ عُمْقِ بَاطِنِ الأشْيَاءِ، مِنْ نُقْطَةِ مَرْكَزِ كُلِّ أَصْغَرِ جُزْءٍ فِي الْوُجُودِ، وَهِيَ نُقْطَةُ الْعَدَمِ، فَاللهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مِنَ الْعَدَمِ.

الأرض: هِيَ الكُرَةُ الكَوْكَبِيَّةُ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

السَّماوَات: هِي السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ الْمُلْتَفَّاتُ حَوْلَ بَعْضِهَا، فِي الأَبْعَادِ السَّحِيقَةِ، الَّتِي تُقَدَّرُ بِمِلْيَارَاتِ مِلْيَارَاتِ السَّنَوَاتِ الضَّوْئِية، وَالْوَهْمُ الإنْسَانِيُّ لاَ يَسْتَطِيعُ تَخَيُّلَ أَبْعَادِها، وَهِيَ مَلِيئَةٌ بِمِلْيَارَاتِ الْمَجَرَّاتِ.

فَمَا أَعْظَمَ الْخَالِقَ الْفَاطِرَ وَمَا أَجَلَّهُ؟!!.

القضية السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ:

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾:

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾: أَيْ: يُكَثِّرُكُم فِيهِ بِطَرِيقِ التَّزاوُج الذي تَكُونُ فِيهِ الذُّرِّيَّة، تَنَاسُلاً مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرِ وَالأُنْثىٰ. وَمَعْنَىٰ «ذَرَأ» خَلَقَ، قَالُوا: وَكَأَنَّ الذَّرْءَ مُخْتَصٌّ بِخَلْقِ الذُّرِّيَّة.

أي: وَتَفَضَّلَ اللهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَجَعَلَ لَكُمْ اشْتِقَاقاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً، فَتَتَلاَقَوْنَ تَلاَقِي مَوَدَّةٍ وَرَحْمَةٍ وَشَهْوَةٍ وَلَذَّةٍ، فَيُخْرِجُ لَكُمْ فِيهِ ذُرِّيَّةً

مِنْ أَصْلَابِ ذُكُورِكُمْ وَبُطُونِ إِنَاثِكُمْ، فَيُكَثِّرُكُمْ، وَيَجْعَلُكُم شُعُوباً وَقبَائِلَ وأُمَماً.

وَكَذٰلِكَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً، فَهُوَ يُكَثِّرُهَا لَكُمْ بالتَّزَاوُجِ بَيْنَ ذُكُورِهَا وَإِنَاثِهَا، وَبِتَنَاسُلِهَا.

الزَّوْج: خلَافُ الفرد، وجَمْعُهُ «الْأَزْواج».

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: جَعَلَ لَكُمْ أَزْوَاجاً مُشْتَقَّةً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَحَوَّاءُ الْأُمُّ الْأُولىٰ قَدْ خَلَقَهَا اللهُ اشْتِقَاقاً مِنْ ضِلَعٍ مِن أَضْلاع آدَمَ الْأَب الْأَوَّلِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَقَدْ خَلَقَهُ اللهُ عزّ وجلَّ مِنْ طِينٍ، وَتَتَابَعَتْ ذُرِّيَّاتُ النَّاسِ مِنْ أَنْفُسِهَا تناسُلاً، فَصِفَاتُهُمُ التَّكْوِينِيَّة الْعَامَّة تَرْجِعُ إِلَىٰ نَوْعٍ وَاحِدٍ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ صِنْفَيْنِ: ذَكَر، وَأُنْثىٰ. ثُمَّ لِكُلّ فَرْدٍ مِنْهُم طَبْعَةٌ خَاصَّةٌ بِهِ، تُمَيِّزُهُ عَنْ سَائِرِ أَفْرَادِ النَّاسِ.

وتقديرُ العبارَةِ: جَعَلَ لَكُمْ متفَضلاً عَلَيْكُمْ بِحِكْمَتِهِ اشْتِقَاقاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَشْبَاهاً لَكُمْ أَزْوَاجاً، وَجَعَلَ لَكُمْ كَذٰلِكَ مِنَ الْأَنْعَامِ ذَاتِ المنَافِعِ الكثيرَةِ لَكم أَزْوَاجاً تتوالدُ وَتتَناسَلُ، فَهُوَ يُكَثِّرُكُمْ ضِمْنَ عَنَاصِرَ النِّظَامِ التَّزَاوُجِيِّ، وَيُكَثِّرُ أَنْعامَكُمْ.

الْقَضِيَّة السَّابِعة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: مِثْل، ومَثَل: بمعنىٰ واحد.

جَاءَتْ فِي القرآن لَفْظَةُ «مَثَلٍ» بِمَعْنىٰ: «وَصْفٍ» وَمِنْهُ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: وَصْفُ الجنَّة. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾: أي: وَصْفُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ، والْمُرَادُ وَصْفُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِهٰذا المعنىٰ أَصْلٌ فِي لُغَةِ العرب.

فَمَعْنَىٰ الْعِبَارَةِ: لَا يُشْبِهُ وَصْفَ اللهِ عزّ وجلَّ فِي شيءٍ مِنْ صِفَاتِهِ

شَيْءٌ، تَعَالَىٰ جَلَّ جَلاَلُهُ، وَتَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يُشْبِهَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْأَزَلِيَّة الْأَبَدِيَّةِ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَبِهـٰذَا الْفَهْمِ نَكُونُ فِي غَنَاءٍ عَنْ تَأْوِيلاتِ الْمُفَسِّرِينَ، الْقَائِمَةِ عَلَىٰ اعْتِبَارِ كَافِ التَّشْبِيهِ وَكَلِمَةِ «مِثْل» بِمَعْنًى وَاحِدٍ، أخذاً مِنَ الْمَتَبَادِرِ الَّذِي سَبَقَ إِلَىٰ أَذْهَانِهِمْ، وَهُوَ: لَيْسَ مِثْلَ مِثْلِهِ شَيْءٌ.

أي: فَإِذَا كَانَ نِظَامُ اللهِ فِي الْكَائِنَاتِ الحيَّةِ قَائِماً عَلَىٰ التَّزَاوُجِ وَالتَّنَاسُلِ، فَإِنَّ اللهَ الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ وَاحِدٌ أَحَدٌ، لَيْسَ لَهُ زَوْجَةٌ وَلَا وَلَد، وَهُوَ مُنْفَرِدٌ فِي كُلِّ صِفَاتِهِ، لَا تُشَابِهُ صِفَةُ أَحَدٍ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ.

وَفِي هَـٰذَا بَيَانٌ لِأَصْلٍ عَظِيمٍ مِنْ قَوَاعِدِ الْعَقِيدَةِ الإِيمَانِيَّةِ، فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ.

أَمَّا عَقَائِدُ الْمُشْرِكِينَ فَكُلُّهَا تَقُومُ عَلَىٰ تَوَهُّم أَنَّ مَن اتَّخَذُوهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، يُشْبِهُونَ فِي بَعْضِ صِفَاتِهِمْ مَا لِلرَّبِّ الخَالِقِ الْفَاطِرِ مِنْ صِفَاتٍ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لِلَّهِ وَلَداً أَوْ أَوْلَاداً، وَالَّذِينَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَالَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لِلَّهِ صَاحِبَةً أَوْ زَوْجَةً أَوْ أَكْثَرَ، قِيَاساً عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ.

الْقَضِيَّةُ الثامِنَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي تَعْلِيمِ رَسُولِهِ ﷺ.

﴿. . وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾:

أي: وَهو جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانَهُ الْمُنْفَرِدُ بأَنَّهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ فِي الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا، الَّذِي لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَسْمُوعَاتِ كُلِّهَا شَيْءٌ مَهْمَا كَانَ خَافِتَ الصَّوْتِ، وَعَلِيمٌ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَسْمُوعَات، إِذَا كَانَتْ ذَوَاتَ دَلَالَات، وَهُوَ المنفرد بِأَنَّهُ الْبَصِيرُ بِكُلِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَىٰ فِي الْكَائِنَاتِ كُلّهَا، الَّذِي لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَرْئِيَات كُلِّهَا شَيْءٌ، مَهْمَا كَانَ صَغِيراً، وَعَلِيمٌ بِكُلِّ صِفَاتِهِ مَهْمَا كَانَتْ دقيقةً، لِأَنَّ مِنْ لَازِمِ الرُّؤْيَةِ الْمُحِيطَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ الْعِلْمَ بِصِفَاتِهِ كُلّها، مَعَ دَلَالَة الْبَيَانَاتِ الْأُخْرَىٰ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

الْقَضِيَّةُ التَّاسِعَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

مَقَالِيدُ: جَمْعُ «مِقْلَادٍ» وَهُوَ فِي اللُّغَةِ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْخِزَانَةِ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْمِفْتَاحِ، فَالْمَقَالِيدُ: الخَزَائِنُ، والمفاتيح.

أي: لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، جَمِيعُ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ، وَجَمِيعُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَجَمِيعُ مَفَاتِيحِ هَـٰذِهِ الْخَزَائِنِ.

فَمَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ مِنْ نَبَاتَاتٍ هُوَ مِنْ خَزَائِنِها، وَمَفَاتِيحُ إِخْرَاجِهَا هِيَ مَمْلُوكَةٌ لَهُ وَخَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِهِ، وَمَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ مَاءٍ أَوْ نِفْطٍ أَوْ مَعَادِنَ، أَوْ عَنَاصِرَ نَافِعَةٍ هُوَ مِنْ خَزَائِنِهَا، وَهِيَ وَمَفَاتِيحُها مِلْكٌ لَهُ، وَهُوَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يَمْنَحُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاء، عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ فِي الابْتِلَاءِ وَالكَرَامَةِ والجزاء.

وَمَا يَنْزِلُ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ أَوْ ضِيَاءٍ أَوْ طَاقَاتٍ وَنَحْوِهَا هُوَ مِنْ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ، واللهُ عزَّ وَجلَّ يُمِدُّ بِهَا سُكَّانَ الْأَرْضِ عَلَىٰ وِفْقِ حِكْمَتِهِ، وَهِيَ وَمَفَاتِيحُهَا مِلْكٌ لَهُ، إِذْ هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ.

القضية الْعَاشِرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُوله ﷺ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾:

الْبسطُ: التَّوسِعَةُ والتكثير.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِمَّا يُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ ويُلْبَس حَتَّىٰ الْهَواء، وَكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الحيُّ لحياته.

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ وَيُقَلِّلُ عَنْ حَاجَةِ الْحَيِّ إِلَىٰ الرِّزْقِ.

أي: وَاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ حِكْمَتُهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ فَيُوسِّعُهُ وَيُكَثِّرُهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِباده، بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ، لِعِلْمِهِ بِمَا فِي نُفُوسهم، وَمَا هُوَ

الْأَحْكَمُ لَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ. وَيُضَيّقُ وَيُقَلِّلُ الرِّزْقَ بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ، لِعِلْمِهِ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ، وَمَا هُوَ الْأَحْكَمُ لَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

القضِيّة الحادِيَة عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلّم رَسُولَهُ ﷺ: ﴿.. إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٞ ⑫﴾:

أي: إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَعْلُومَةٌ مِنْ كُلِّ مَا يُدْرَكُ بِالْعِلْم، مَهْمَا كَانَ شَأْنُهُ، فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، من الْوَاجِبَاتِ، وَالْمُسْتَحِيلَاتِ، والجَائِزَاتِ عقلاً، مَا هُوَ مَوْجُودٌ وَمَا هُوَ مَعْدُوم، وَعِلْمُهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ مُطَابِقٌ مُطَابَقَةً تَامَّةً لِلْمَعْلُوم بِكُلِّ صِفَاتِهِ، حَتّىٰ أَصْغَرِ جُزْءٍ مِنَ الْمَعْلُومِ، وَحَتَّىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ مِنَ الصِّفَاتِ وَفُرُوقِهَا وَتَفَاوُتِ مَا بَيْنَهَا.

عَلِيم: صيغَةُ مُبالَغَةٍ لاسم الفاعِلِ «عَالم». ولفظ «عليم» بالنّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ يَدُلُّ عَلَىٰ الْغَايَةِ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا غَايَة، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ الْعُلَا.

وبهـذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْس الثاني مِنْ دُرُوسِ سورة (الشورىٰ).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وتوفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الشورى)

الآيات من (١٣ ـ ١٦)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى

ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ
﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ
مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ
ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ
أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ
﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ
وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

القراءات:

(١٣) ● قرأ هشام: [**إِبْرَاهَامَ**].

وقرأها بَاقي القرّاءِ العشرة: ﴿**إِبْرَاهِيمَ**﴾.

وهما نُطْقَانِ عَرَبِيّان لاسم إبراهيم عليه السلام.

(١٦) ● قرأ حمزة، ويعقوب: [**وَعَلَيْهُمْ**] بضمّ الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**وَعَلَيْهِمْ**﴾ بِكَسْرِ الهاء.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ وَحْدَةِ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي أُصُولِهَا الاعْتِقَادِيَّة، والأَخْلَاقِية، وفي أُصُولِ وقَوَاعِدِ المعامَلات.

وفيها مُطَالَبَةُ النَّاسِ بأنْ يُقِيمُوا الدِّينَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدنيا، وبأنْ لَا يَتفَرَّقُوا فِيهِ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ اللهَ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وَأَنَّه يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيب.

وفيها بَيَانُ أَنَّ النَّاسَ تفرَّقُوا إلىٰ مُؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ بَعْدَ التَّارِيخِ الْأَوَّلِ لِلْبَشَرِيَّةِ، مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ بَلَاغاً عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلام، وَقَدْ كَفَرَ مَنْ كَفر مِنْهُمْ بَغْياً.

وفِيها بَيَانُ أَنَّ اللهَ عزَّ وَجلَّ لَمْ يُنْزِلْ عِقَابَهُ فِي الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّهُ سَبَقَ أَنْ قَدَّرَ وَقَضَىٰ بِحِكْمَتِهِ السَّنِيَّةِ تَأْجِيلَ الْعِقَابِ عَلَىٰ الْكُفْرِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، بَعْدَ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ لِلْحَيَاةِ الآخِرَةِ.

وفِيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، بِأَنْ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ مَا شَرَعَ اللهُ لِعِبَادِهِ، وَبِأَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ كَمَا أَمَرَهُ، وَبِأَنْ لَا يَتَّبِعَ أَهْوَاءَ الْكَافِرِينَ، وبأَنْ يُعْلِنَ لِلنَّاسِ إيمانَهُ، وَبِأَنْ يُعْلِنَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ.

وفِيهَا بَيَانُ سُقُوطِ حُجَجِ الْكَافِرِينَ بَعْدَ تَكَاثُرِ الْمُؤْمِنِينَ المسْلِمِينَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا اسْتِنَاداً إِلَىٰ مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ بَرَاهِينِ الْحَقّ الَّتِي تُظْهِرُ أَنَّ هَـٰذَا الدِّينَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، فَالْكَافِرُونَ بِهِ يَسْتَحِقُّونَ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهِم، وَعَذَابَهُ الشَّدِيدِ.

التدبّر التحليلي:

في آيات هذا الدَّرسِ بَيانُ (١٨) قَضِيَّةً، سَبْعٌ مِنْهَا خِطَابٌ مِنَ اللهِ عزَّ وَجلَّ للنَّاسِ، و(١١) قَضِيَّة فِيهَا أَوَامِرُ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ، تَرْبَوِيَّةٌ، وَدَعَوِيَّةٌ، وَتَعْلِيمِيَّة:

القضيَّةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وَجلَّ خِطَاباً للنَّاسِ وخطاباً لرسوله ﷺ:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ .. ﴿١٣﴾﴾:

- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ خِطَاباً للنَّاسِ بَعْدَ بِعْثَةِ محمَّدٍ ﷺ، حَتَّىٰ آخِرِ مُكَلَّفٍ مِنْ أَجْيَالِ النَّاس في الأرض.

الشَّرِيعَةُ والشِّرْعَةُ: في كلام العرب، هي مَشْرَعَةُ الماء، أي: مَوْرِدُ الشَّارِبة الَّتي يَشْرَعُهَا النَّاسُ، فَيَشْرَبُونَ مِنْهَا وَيَسْتَقُون. ورُبَّمَا شَرَّعُوها دَوابّهُمْ حَتَّىٰ تَشْرَعَها وَتَشْرَبَ مِنْهَا بأفوَاهِها.

يُقَالُ لغة: «شَرَعَ الوارِدُ يَشْرَعُ شَرْعاً» أي: تَناول الماء بفيه.

والعربُ لَا تُسَمِّي مَوْرِدَ الْمَاءِ شَرِيعَةً حَتَّى يَكُونَ الماءُ فَيضاً لَا انْقِطَاعَ لَهُ، وَيكُونَ ظَاهِراً مَعِيناً لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُنْضَحَ بالدِّلَاء.

ويقال: «شرَعَ الْأَمْرَ يَشْرَعُهُ شَرْعاً» أي: أَبَانَهُ وَأَظْهَرَهُ وَجعَلَهُ قَرِيبَ التَّنَاوُلِ لِلْقاصِدِينَ. وَيُقَالُ: «شَرَعَ فُلَانٌ الطَّرِيق» أيْ: مَدَّهُ وَمَهَّدَهُ، وَجعَلَهُ صَالِحاً للسَّيْرِ فِيهِ وَمُيَسَّراً للسَّالكين.

الدِّين: الطَّاعَةُ والانْقِيادُ، ومِنْهُ: «دَانَ نَفْسَهُ» أي: أَذَلَّها واسْتَعْبَدَهَا وَطَوَّعَها. **والدِّين**: العادَةُ والشَّأْن. **والدِّينُ لِلَّهِ**: الطَّاعَةُ لَهُ، والتَّعَبُّد، وَصِدْقُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ والخُضُوع والذُّلّ له.

وَيَأتي الدِّين بمَعْنَىٰ الجزاء، وَمِنْهُ «يَوْمُ الدِّينِ» وَهُوَ يَوْمُ الجزاءِ عَلَىٰ أَعْمَالِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الحياة الدُّنيا مَوْضُوعِيْنَ مَوْضِعَ الابْتِلاءِ.

ويُطْلَقُ الدِّينُ عَلَى السُّلْطَانِ وَالْقَهْرِ.

وَصَارَ الدِّينُ بالاسْتِعْمَالِ الْعَامِّ يُطْلَقُ عَلَىٰ مَطْلُوب اللَّهِ مِنْ عِبادِهِ في رِحْلَة امْتِحَانِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا. ويُطْلَقُ أيْضاً عَلَىٰ الْأَنْظِمَةِ وَالْأَحْكَام والقوانين الَّتي تَجِبُ طَاعَتُهَا لَدَىٰ مَجْمُوعَةٍ مِنَ النَّاسِ، وَمِنْ هَـٰذَا الْإِطْلَاقِ قول اللهِ تَعالَىٰ في سورة (يوسف/٥٣ نزول): ﴿... مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... ﴿٧٦﴾﴾.

مِنْ هَـٰذِهِ التَّحْلِيلاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالاسْتِعْمَالَاتِ لِمَادَّةِ «شَرَع» ولفظةِ «الدِّين» تَرجَّح لَدَيّ أَنَّ المُرادَ بِعِبارَةِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ خِطاباً للنَّاسِ

أَجْمَعِينَ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّد خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والتَّسْلِيم: حَدَّدَ وَبَيَّنَ وَأَظْهَرَ لَكُمْ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاهُ الكُبْرَىٰ، صِرَاطاً وَاضِحاً مُشْرَعاً مُبَيَّنَ الْمَعَالِمِ وَالْحُدُودِ، مَمْدُوداً مُمَهَّداً، لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ ذِي إِدْرَاكٍ فِكْرِي، وَيَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَشْهَدَ حُدُودَهُ وَمَعَالِمَهُ لِظُهُورِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَانْكِشَافِهَا بِأَدِلَّتِهَا الْبُرْهَانِيَّة، وَمُلاءَمَتِهَا لِفِطَرِ النُّفُوسِ الإِنْسَانِيَّة.

وهَـٰذَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ أُصُولِ الْعَقَائِدِ الإِيمَانِيَّة، والمبادئ الأَخْلاقِيَّة، وَالْقَوَاعِدِ الْكُبْرَىٰ لِلْمُعَامَلاتِ الْحُقُوقِيَّةِ بَيْنَ النَّاس، وَالْقَوَاعِدِ الْكُبْرَىٰ لِفَضَائِلِ السُّلُوكِ الْفَرْدِي والجَمَاعِيِّ فِي الحياة.

فَهَـٰذِهِ الأُصُولُ والمبادئُ والْقَوَاعِدُ مِنَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهَا الْعُقُولُ السَّوِيَّة، وَالنُّفُوسُ الزَّكِيَّة، وَهِيَ بِمَثَابَةِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يَكُونُ الماء فِيهَا فَيْضاً لا انْقِطَاعَ لَهُ، وَيَكُونُ ظَاهِراً مَعِيناً لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُنْضَحَ بِالدِّلَاءِ، وَيَشْرَبُ الأَحْيَاءُ بِأَفْوَاهِهِمْ مُبَاشَرَة مِنْهُ.

أَمَّا أَحْكَامُ الْفُرُوعِ فَتَحْتَاجُ اسْتِنْبَاطَاتٍ وَاجْتِهَادَاتٍ مِنْ أَهْلِ الاجْتِهَاد، وَلَيْسَتْ مُشْرَعَةً وَلَا ظَاهِرَةً وَلَا قَرِيبَةَ التَّنَاوُلِ لِكُلِّ وَارِدٍ، فَهِيَ لَا تَدْخُلُ فِي عُمُومِ عِبَارَةِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾.

﴿مَا وَصَّىٰ﴾: لفظ «وَصَّىٰ» و«أَوْصَىٰ» بمَعْنَىٰ «أَمَرَ» و«أَوْجَبَ». يُقَالُ لغة: «وَصَّىٰ فُلَانٌ فُلَاناً بالشَّيءِ وَأَوْصَاهُ بِهِ» أَيْ: أَمَرَهُ بِهِ، وَفَرَضَهُ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ مِمَّا يُطْلَبُ فِعْلُهُ، وَنَهَاهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ عليه، إِذَا كَانَ مِمَّا يُطْلَبُ تَرْكُهُ.

والوصِيَّة: بيانٌ مَقْرُونٌ بِنُصْحٍ مُؤَكَّدٍ بِعَهْدٍ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ بَيَانٍ عَابِرٍ، أَوْ نُصْحٍ فَاتِرٍ، بَلْ هِيَ نُصْحٌ مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ بِعَهْد.

يَظْهَرُ لِي أَنَّ قَضَايَا الدِّينِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِنُوحٍ

أَبي الْبَشَرِ الثَّانِي، والَّذِي جعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ، وَبقِيَ مَا شَرَعَهُ اللهُ لَهُ مُتَّبعاً فِي الرِّسَالاتِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ بَعْدِهِ، كَرِسَالَةِ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلام، وَرِسَالَةِ «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلام، لَمْ يَزِدِ اللهُ فِيهَا شَيْئاً.

وَلَكِنْ جَاءَتْ زِيَادَاتٌ عَلَيْهَا فِي رِسَالَةِ «إِبْرَاهِيمَ» عَلَيْهِ السَّلام، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ بِعْثَتِهِ مِنْ شِيعَةِ نُوح وَمُتَّبعاً مَا وَرِثَهُ النَّاسُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الَّتِي وَصَّاهُ اللهُ بِهَا. ثُمَّ جَاءَتْ زِيَادَاتٌ عَلَيْهَا فِي رِسَالَةِ «مُوسَىٰ» عَلَيْهِ السَّلَامِ بِحَسَبِ تَطوُّرِ الْفِكْرِ الإنْسَانِيّ وَقَابِلِيَّاتِهِ. ثُمَّ جَاءَتْ بَعْضُ زِيَادَاتٍ أُخْرَىٰ فِي رِسَالَةِ «عِيسَىٰ» عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَأَخيراً جَاءَتْ زِيَادَاتٌ فِي رِسَالَةِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّد ﷺ تُلَائِمُ مَا يَحْتَاجُهُ الْبَشَرُ مِنْهَا إِلَىٰ آخِرِ جِيلٍ مِنَ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ.

فَذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّهُ أَبُو الْبَشَرِ الثَّانِي، وَمَا وَصَّىٰ اللهُ بِهِ «نُوحاً» عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ وَقَوَاعِدِهِ الْكُبْرَىٰ لَمْ يَزِدِ اللهِ عَلَيْهَا شَيْئاً فِي الرِّسَالَاتِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّىٰ رِسَالَةِ «إِبْرَاهِيم» عَلَيْهِ السَّلَام، وَذَكَرَ عَقِبَ ذِكْر مَا وَصَّى بِهِ «نوحاً» عَلَيه السَّلام مَا وَصَّى بِهِ مُحَمّداً ﷺ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ مَا نَزَلَ مِنْ هَـٰذِهِ الْوَصَايَا أَوْ سَيَنْزِلُ عَلَىٰ محمَّد ﷺ هُوَ خِتَامُ هَـٰذَا النَّوْعِ مِنْ وَصَايَا اللهِ لِعِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَهُمْ، أَمَّا الزِّيَادَات الَّتِي جَاءَتْ بَيْنَهُمَا مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَىٰ اللهُ بها إبراهيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمْ السَّلام، فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْوَصَايَا لِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، فَجَاءَ تَرْتِيبُ ذِكْرِ هَـٰؤُلَاءِ الرُّسُلِ الْخَمْسَةِ، وَمَا وَصَّاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، تَرْتِيباً مُحْكَماً دَالّاً بإيجَازٍ بَدِيعٍ عَلَىٰ مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ عَلَيَّ مِنْ فَهْمٍ لِهذه الْعِبَارَةِ الْقُرْآنِيَّة.

- ﴿..أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ..﴾: أي: وَنُوصِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْخَاتِمَةِ لِرِسَالَاتِ رَبّكم بأَنْ تُقِيمُوا الدِّين، وَلا تَتفَرَّقُوا فِيهِ.

- ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾: أي: الْزَمُوا الدِّينَ الَّذِي أَوْصَىٰ اللهُ بِهِ فِي الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، وَوَاظِبُوا عَلَىٰ أَداءِ مَا فَرَضَ اللهُ فِيهِ، وَعَلَىٰ تَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ، وَاجْعَلُوا دِينَكُمْ (أي: طَاعَتَكُمْ وَانْقِيَادَكُمْ) مُسْتَقِيماً عَلَىٰ مَا شَرَعَ لَكُمْ رَبُّكُمْ، وَهُوَ صِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيم، وَلَا تَنْحَرِفُوا عَنْهُ، وَلَا تَجْعَلُوا طَرِيقَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ طَرِيقاً عِوَجاً.

إِقَامَةُ الشَّيْءِ: تَأْتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ جَعْلِهِ مُسْتَقِيماً لَا عِوَجَ فِيهِ، وَتأتي بِمَعْنَىٰ مُدَاوَمَتِهِ وَالْمُوَاظَبَةِ عَلَيْهِ، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِهِ.

وهذه المعاني صَالِحَةٌ لِتَفْسِيرِ ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ بها.

- ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾: أي: واجتَمِعُوا مُتَّحِدِينَ فِي التَّمَسُّكِ بِشَرَائِعِ دِينِ اللهِ لَكُمْ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، إِلَى أَحْزَابٍ وَفِرَقٍ وَمَذَاهِبَ؛ لِأَنَّ مَا شَرَعَهُ اللهُ لَكُمْ، مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الْكُبْرَىٰ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَمَسَالِكِ الْحَيَاةِ، أُمُورٌ واضِحَةٌ لَا تَحْتَمِلُ الْخِلَافَ وَلَا التَّفَرُّقَ إِلَىٰ مَذَاهِبَ وَطَوَائِفَ وَفِرَق.

وفي هَـٰذَيْنِ الأَمْرين: إقامة الدين وعدم التفرُّق فيه تَعْرِيضٌ بأَتْبَاعِ رِسَالَاتِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، إِذْ لَمْ يَلْزَمُوا الدِّينَ الَّذِي أَوْصَاهُمُ اللهُ بالتَّمَسُّكِ بِهِ، وَلَمْ يَكُونُوا فِيهِ مُتَّحِدِينَ، بَلْ تَفَرَّقُوا فِيهِ إِلَىٰ أَحْزَابٍ وَفِرَقٍ وَمَذَاهِبَ، فَخَرَجُوا بِتَفَرُّقِهِمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُمْ.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿.. كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ .. ﴿١٣﴾﴾:

أي: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ تَدْعُو المشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ بَلَدِكَ إِلَىٰ مَا وَصَّىٰ اللهُ رَبُّهُمْ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَهِيَ أُصُولُ الدِّينِ الْكُبْرَىٰ، الَّتِي لَا يَشُكُّ فِيهَا ذُو عَقْلٍ رَشِيدٍ، فَكَبُرَ عَلَى نُفُوسِهِمْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِمَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ.

أي: لَمْ يَدْخُلْ إِلَىٰ نُفُوسِهِمْ حَتَّىٰ يَقْبَلُوهُ وَيَسْتَجِيبُوا لَهُ؛ لِأَنَّهُ كَبُرَ عَلَيْهَا وَعَظُمَ، وَشَقَّ وَثَقُلَ عَلَيْهِمْ تَحَمُّلُهُ، لِكِبَرِهِ وَعِظَمِهِ وَثِقَلِهِ.

يُقَالُ لُغة: «كَبُرَ الأَمْرُ عَلَىٰ فُلَانٍ يَكْبُرُ» أي: شَقَّ وَثَقُلَ عَلَيْهِ.

وَسَبَبُ ثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ كَرَاهِيَتُهُمُ اتّبَاعَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَظِيماً مِنْ عُظَمَاءِ الْحِجَازِ، وَكَرَاهِيَتُهُمْ تَرْكَ مَا أَلِفُوهُ مِنْ دِينِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ، وَتَرْكَ مَنَافِعِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَالتَّنَازُلَ عَنْ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، وَكَرَاهِيَّتُهُمُ الالْتِزَامَ بِأَحْكَامِ الدِّين، وَتَرْكَ الْمُحَرَّمَاتِ، كَالْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقّ، والرِّبَا، وَالزِّنَا، وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَالْعُدْوَانِ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، وَنَحْوِ هذه الأُمُورِ.

الْقَضِيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾:

الاجتباء: الاصطِفَاءُ والاختِيَارُ، يُقَالُ لُغَةً: «اجْتَبَىٰ اللهَ عَبْدَهُ» أَيْ: اصْطَفَاهُ واخْتَارَهُ، وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِعْلُ اجْتَبَىٰ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ اصْطِفَاءِ اللهِ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلام لِنُبُوَّتِهِ، وَرِسَالَتِهِ، وَعَلَىٰ اصْطِفَاءِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ لِحَمْلِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَبْلِيغِهَا للنَّاسِ جِيلاً بَعْدَ جِيل، فَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنَ هذه الْأُمَّةِ ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ يُبَلِّغُونَ دِينَ اللهِ للنَّاسِ، طَائِفَةً فَطَائِفَةً، وهذه الطَّائِفَةُ لَا يَخْلُو مِنْهَا عَصْرٌ، وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهَا أَنَّهَا أُمَّةٌ مُجْتَبَاةٌ مِنَ اللهِ لِتَبْلِيغ دِينِ اللهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ.

وَضُمِّنَ فِعْلُ: «يَجتَبِي» مَعْنَىٰ فِعْلِ: «يُقَرِّب»، فَعُدِّي بِحَرْف «إِلىٰ»، فَصَارَتِ الْعِبَارَةُ: ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾: أي: يَصْطَفِي مُقَرِّباً إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

وَلَمَّا كَانَ مِنْ دَوَافِعِ كُفْرِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، اعْتِرَاضُهُمْ عَلَىٰ اصْطِفَاءِ الله مُحَمّداً ﷺ لِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِه، وَجَعْلِهِ مُقَرَّباً إِلَيْهِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ الرَّبَّانِيِّ أَنْ يُعْلِمَ اللهُ عزَّ وَجلَّ المعترضين أَنَّهُ يَجْتَبِي مُقَرِّباً إِلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاء، وَلَمَّا كَانَتِ اخْتِيَارَاتُهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي

كُلِّ تَصَارِيفِهِ فِي كَوْنِهِ مُوَافِقَةً كَمَالَ الْحِكْمَةِ، فَاجْتِبَاؤُهُ لِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، هُوَ الاجْتِبَاءُ الحكيم، وَكَذٰلِكَ تَقْرِيبُهُ إِلَيْهِ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ هُوَ الْأَمْرُ الحكِيمُ؛ لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلِيمٌ بِنُفُوسِ عِبَادِهِ، وَمَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَتَّبِعُ أَهْوَاءَ النَّاسِ، وَمَشِيئَتُهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

فَرَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ أَفْضَلُ عِبَادِهِ، وَلِعِلْمِهِ بِهِ، اصْطَفَاهُ بِحِكْمَتِهِ لِيَكُونَ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلام، وَجَعَلَهُ أَقْرَبَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيهِ، شَاءَ أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ المعتَرِضُونَ أَمْ أَبَوا.

الْقَضِيَّةُ الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿...وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ⑬﴾.

أي: وَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ يَهْدِي بِتَعْلِيمِهِ وَتَفْهِيمِهِ وَتَوْفِيقِهِ، إِلَىٰ سُلُوكِ السَّبِيلِ الموصِلِ إِلَىٰ رِضْوَانِهِ وَحُبِّهِ وَمَنَازِلِ الْقُرْبِ عِنْدَهُ، مَنْ يُنِيبُ رُجُوعاً إِلَيْهِ آناً فَآناً حُبّاً بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَحِرْصاً عَلَىٰ الْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ.

المنيبُ إلىٰ اللهِ: هُوَ المتَّصِفُ بِأَنَّهُ ذُو رُجُوعٍ إِلَىٰ اللهِ آناً فَآناً، بِقَلْبِهِ، وَنَفْسِهِ، وَفِكْرِهِ، وَعَمَلِهِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، مَا عَاشَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدنيا.

الإنابة: هِيَ الرُّجُوعُ مَرَّةً فَمَرَّةً بِصُورَةٍ مُتَتَابِعَة. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِمَرَاضِيهِ رُجُوعاً إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَمْرَ تَكْوِينِ عَبْدِهِ ذِي الْإِرَادَةِ الْحُرَّة صَادِرٌ عَنْهُ، وَقَدْ جَعَلَتِ الإرادَةُ الْحُرَّةُ الْعَبْدَ يَبْتَعِدُ عَنْ نِظَامِ الطَّاعَةِ الْجَبْرِيَّةِ للرَّبِّ الخالِقِ، فالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَرَاضِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ هِي من قبيل الرُّجُوعِ إِلَيْهِ.

القضيَّة الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى بِشَأْنِ اتباع الرُّسُلِ السَّابِقِينَ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ... ⑭﴾:

أي: وَتَفَرَّقَ أتْبَاعُ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ عَنِ الَّذِي وَصَّاهُمُ الله بِهِ مِنَ الدِّينِ، وَمَا تَفَرَّقُوا فِيهِ إِلَّا مِنْ بَعْدِمَا جاءَهُمُ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ بِمَا أَنْزَلَ الله وَفَهِمُوهُ وَوَعُوه، وَكَانَ سَبَبُ تَفَرُّقِهِمْ الْبَغْيَ الَّذِي اسْتَشْرَىٰ دَاؤُهُ بَيْنَهُمْ.

البغي: تَجاوُزُ الْحَدِّ المأذُونِ بِهِ فِي السُّلُوكِ الإرادِيّ، وَالْعُدُول عَنِ الْحَقّ. وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الْكِبْرِ، والظُّلْمِ، والْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَأَصْل الْبَغْيِ الْحَسَدُ، ثُمَّ سُمِّيَ الظُّلْمُ بَغْياً؛ لِأَنَّ الْحَاسِدَ يَظْلِمُ الْمَحْسُودَ جَهْدَهُ، وَاتَّسَعَتْ دَلَالَةُ الْبَغْيِ حَتَّىٰ صَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ تَجاوُزٍ لِلْحَدِّ المأْذُونِ بِهِ فِي السُّلُوكِ الْإِرَادِيّ، إِلَىٰ مَا هُوَ ضَارٌّ أَوْ مُؤْذٍ أَوْ فِيهِ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ عزَّ وَجلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ.

فَتَفَرُّقُهُمْ عَمَّا وَصَّىٰ بِهِ الله رُسُلَهُمْ عَلَيْهِم السَّلام مِنَ الدِّينِ، واتِّخاذُهُمْ فِرَقاً وَمَذاهِبَ وَطَوَائِفَ شَتَّى لَمْ يَأْذَنْ بِهَا الله، قَدْ كَانَ بِسَبَبِ أَنَّ الْبَغْيَ بَيْنَهُمْ اسْتَشْرَىٰ حَتَّىٰ فَرَّقَ وَحْدَتَهُمْ، وَمَزَّقَ جَماعَاتِهِمْ، وَاخْتَلَفَتْ عَنْ دِينِ الله أَدْيَانُهُمْ.

أي: فَلَا تَتَّبِعُوا سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَا أُمَّةَ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، وَسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله النَّبِيِّ الرَّسُولِ الْأَمِينِ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ وأَتَمُّ التَّسْلِيم.

القضيَّة السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿. . .وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ . . ﴿١٤﴾﴾:

أي: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ رَبِّكَ المحدِّداتِ قضاءَهُ وَقَدَرَهُ، سَبَقَتْ بِتَأْخِيرِ مُعَاقَبَةِ الَّذِينَ يَتَفَرَّقُونَ فِي الدِّينِ بَغْياً بَيْنَهُمْ، مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ وَيَفْهَمُوه، إلى يَوْم القيامَة، مَعَ تَحْدِيدِ أَجَلِ الحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء، وَجَعْلِهِ أَجلاً مُسَمًّى مَعْلُومَ الْوَقْتِ لَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي الحياة الدُّنْيا، عَقِبَ تَفَرُّقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ

بِدِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَلَنُفِّذَ فِيهِمْ عِقَابُ اللهِ الخالِدِ فِي النّارِ.

ولٰكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدَّرَ وَقَضَىٰ أَنْ يُؤَخِّرَ عِقَابَ الْكَافِرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَصَدَرَتْ بهـٰذَا التأجِيْلِ كَلِمَتُهُ الْمُبْرَمَة.

فَلَا تَتَصَوَّرُوا أَنَّ تَرْكَ اللهِ عِقَابَ الْكَافِرِينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا حِسَابَ وَلَا جَزَاءَ، إِنَّ هٰذَا عَبَثٌ تَنَزَّهَ اللهُ الْبَارِئُ الْحَكِيمُ عَنْهُ.

القضيَّة السَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَول الله تَعَالَىٰ: ﴿.. وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾:

أي: وإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ (وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصارَىٰ فِيمَا يَظْهَر) مِنْ بَعْدِ رُسُلِ رَبِّهِمْ الَّذِينَ تَلَقَّوا عَنْ رَبّهِم وَصَايَاهُ، لَمُنْغَمِسُونَ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ الْكِتَابِ الذي أُورِثُوهُ عَنْ أَسْلَافِهِمْ فِي أَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَنِ اللهِ، وَمِنْ صِحَّةِ البيانَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَاتُه، وَشَكُّهُمْ هـٰذَا يُوقع في الرَّيْبِ والتُّهْمَةِ بِأَنَّ دَوَافِعَهُمْ إِلَىٰ الشَّكِّ نَابِعَةٌ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِ نُفُوسِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وهـٰذَا بالنظر إلىٰ النِّسْبَةِ الْغَالِبَةِ مِنْهُمْ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبالنظر إلى جَميعهِمْ بَعْدَ بِعْثَتِهِ وَفُشُوِّ رِسَالَتِهِ وَمَبَادِئِهَا في الناس، ومن شَكِّهِمْ شَكُّهُمْ بِالْبِشَارَاتِ بمحمَّدٍ ﷺ التي جَاءت في كُتُبِهِمْ.

الْقَضِيَّة الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ .. ﴿١٥﴾﴾؛

أي: فادْعُ يَا مُحَمَّدُ لِذلِكَ الَّذِي شَرَعْنَاهُ لِلنَّاسِ مِن الدِّين بَعْدَ بِعْثَتِك.

يقال لُغةً: «دَعَا فُلَانٌ فُلَاناً إِلَىٰ أَمْرٍ مَا» أي: طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَقْصِدَهُ «وَدَعَاهُ إِلَىٰ الدِّينِ، أَوْ إِلَىٰ عَمَلِ الْخَيْرِ» أَيْ طَلَبَ مِنْهُ اعتقاده، أو فعله.

وفي فِعْل: «دَعَا يَدْعُو» مَعْنَىٰ الْحَثِّ والطَّلَبِ بِشِدَّة.

وَوُضِعَتِ اللَّامُ في: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ بَدَلَ «إِلَىٰ» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ دُعَاءَهُ أَلْصقَ بِمَا شَرَعَهُ اللهُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ مَعَ كُلِّيَّاتِهِ الْكُبْرَىٰ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْمُعَامَلَاتِ، مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى فُرُوعِ الدِّين، فَدَلَالَةُ اللَّام عَلَىٰ الالْتِصَاقِ أَقْوَىٰ مِنْ دَلَالَةِ «إلى».

أَمَّا الدَّعْوَةُ إِلَىٰ سُلُوكِ سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ جَاءَتِ العبارة فِيهِ باستِخْدَام حَرْف «إِلى» فَقَال تَعَالى في سورة (النحل/ ٧٠ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ... ﴿١٢٥﴾﴾.

لِأَنَّ سُلُوكَ سَبِيلِ اللهِ يَشْمَلُ أُصُولَ العقَائِدِ وَكُلِّيَاتِ الدِّينِ الكُبْرَىٰ، وَيَشْمَلُ أَيْضاً الْفُرُوعَ، فَكَانَ اسْتِخْدَامُ حَرفِ «إِلَىٰ» أَكْثَرَ مُلاءَمَة.

وَيُلَاحَظُ أَنَّ العِنَايَةَ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها سُورَة (الشُّورَى) كَانَتْ مُوَجَّهَةً لِأُصُولِ الدِّينِ الاعْتِقَادِيَّةِ، وَقواعدِهِ الكُبْرَىٰ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَفَضَائِلِ السُّلُوك.

الْقَضِيَّةُ التَّاسِعَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾:

أي: واعْتَدِلْ فِي مَسِيرَتِكَ فِي حَيَاتِكَ بِكُلِّ أُمُورِكَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، كَمَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، واحْذَرْ أَنْ تَمِيلَ عَنْهُ، فَقَدْ جَعَلَكَ رَبُّكَ فِي سُلُوكِكَ أُسْوَةً حَسَنَةً لِأُمَّتِكَ. وَإِذَا انْحَرَفْتَ وَتَرَكْتَ مَا فَرَض اللهُ عَلَيْكَ مِن اسْتِقَامَةٍ اتَّبَعَتْكَ أُمَّتُكَ فِي الاعْوِجَاجِ مُعْتَذِرَةً بِأَنَّها تُطِيعُ اللهَ فِي تَقْلِيدِكَ والاقْتِداءِ بِكَ.

الاسْتِقَامَة: الاعْتِدَالُ وَعَدَمُ الاعْوِجَاج والانحراف عَنِ الْخَطِّ المُستقيم، والاسْتِقَامَةُ فِي الدِّينِ الْتِزَام صِرَاطِ اللهِ المُسْتَقِيمِ، وَعَدَمُ الانحرافِ عَنْهُ، فِي مَسِيرَةِ حَيَاةِ الابْتِلَاء.

القضيَّة العاشرة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ محمَّد ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾:

أي: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ النَّاسِ فِيمَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ، وفِيمَا يُزَيِّنُونَهُ لَكَ، سَوَاءٌ أَكَانُوا مُشْرِكِينَ، أَمْ أَهْلَ كِتَابٍ، أَمْ أَصْحَابَ أَهْوَاءٍ مِنْ بَعْضِ أَتْبَاعِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ زَيَّنَتْ لَهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ أَشْيَاءَ وَهُمْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهَا تُسَاعِدُ عَلَىٰ نَشْرِ الدِّين، وَانْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ، فَرَبُّكَ لَا يَعْدِلُ عَنِ الْحَقِّ، وَلَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا هُوَ الْأَحْكَمُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.

الْأَهْوَاء: جَمع «الْهَوَىٰ»، وَهُوَ مَيْلُ النَّفْسِ إِلَىٰ مَا تُحِبُّ وَتَشْتَهِي وَلَوْ كَانَ فِيهِ ضُرٌّ وَشَرٌّ. وَفِي الْهَوَىٰ مَعْنَىٰ السُّقُوطِ وَالْهُبُوطِ مِنْ عُلُوٍّ إلى سُفُولٍ.

وَلَا يَخْفَىٰ مَا في هذه الوصِيَّةِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ مِنْ حِمَايَةٍ لَهُ مِنِ اسْتِدْرَاجِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، مِنَ الْكَافِرِينَ وَعُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَحْذِيرٍ لِحَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ وَفُقَهَائِهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ مِن ذَوِي السُّلْطَانِ، وَذَوِي الْغِنَىٰ وَالثَّرَاءِ، وَذَوِي الْمَكَانَةِ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ، لِإِصْدَارِ أَحْكَامٍ دِينِيَّةٍ وَفَتَاوىٰ بَاطِلَةَ.

القَضِيَّة الحادية عشرة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾:

أي: وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ مُعْلِناً للنَّاس أَجْمَعِينَ، وَلَا سِيَّمَا المنتمُونَ إِلَىٰ أَدْيَانٍ سَالِفَةٍ: آمَنْتُ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ أَيِّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلام مِنْ كِتَابٍ.

«مِنْ» فِي: ﴿مِن كِتَٰبٖ﴾ لِبَيَانِ الْإِبْهَامِ فِي «مَا» من: ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾، والْإِيمَانُ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللهِ وَبِجَمِيعِ رُسُلِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِم السَّلام من أركَانِ الإيمان في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للنَّاسِ وَأَوْصَىٰ بِهِ رُسُلَهُ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ جَمِيعاً، وَهُوَ مِنْ بَدَهِيَّاتِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ فِي الْإِسْلَامِ الدِّينِ الخاتم.

القضِيَّةُ الثانيَةَ عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾:

أي: وَأُمِرْتُ بِأَوَامِرَ كَثِيرَةٍ تَتَعَلَّقُ بأَحْكَامِ الحقُوقِ وَالْمُعَامَلاتِ المَالِيَّةِ وَنَحْوِهَا، لِأَجْلِ أَنْ أَحْكُمَ بِالْعَدْلِ بَيْنَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، ولِيَحْكُمَ الْحُكَّامُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ بَعْدِي بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ.

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونُوا خَاضِعِينَ لِحُكْمِي بِأَمْرِ رَبِّي، ولِحُكْمِ حُكَّامِهِمْ مِنْ بَعْدِي الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُطَبِّقُوا أَحْكَامَ رَبِّهِمْ.

وأَمَّا غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ فَإِذَا خَضَعُوا لِسُلْطَانِ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ، فَالْمَطْلُوبُ مِنِّي وَمِنْ خُلَفَائِي مِنْ بَعْدِي أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ.

اللَّام في: ﴿لِأَعْدِلَ﴾ لَيْسَتْ مُتَعَلِّقَةً بِفِعْلِ: «وَأُمِرْتُ»، إِذِ الْعِبارَة علىٰ تَقْدير: «وَأُمِرْتُ بأَوَامِرَ تَتَعَلَّقُ بأَحكَامِ الْحقوق لِأَجْلِ أَنْ أَحْكُمَ بِالْعَدْلِ بَيْنَكُم».

القضِيّة الثالثة عَشرة: دَلَّ عَلَيْهَا قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خطابَهُ لرسُوله ﷺ: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾:

أي: وَقُلْ لِلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَتِكَ: اللهُ رَبُّنا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ وَرَبُّكُمْ، إِذْ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا رَبٌّ وَاحِدٌ، هُوَ الْمُتَصَرِّفُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ بِكُلِّ الْكَوْنِ، مِنْ أَصْغَرِ جُزْءٍ فِيهِ، حَتَّىٰ أَكْبَرِ شَيْءٍ فِيهِ، لَا يَخْرُجُ عَنْ سُلْطَانِهِ وَتَصَارِيفِهِ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، فَلَهُ بِمُقْتَضَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَةِ: الإِلٰهِيَّةُ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا شَيْءٌ، فَمَنِ اتَّخَذَ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ كَانَ كَافِراً، وَجَازَاهُ اللهُ بِعَدْلِهِ فَجَعَلَهُ يَوْمَ الدِّينِ خَالِداً فِي دَارِ عَذَابِ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ.

القضِيَّة الرابعة عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي التَّعْلِيمِ الدَّعوِي: ﴿..لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .. ﴿١٥﴾﴾:

أي: وقُلْ لَهُمْ: تَخْتَصُّ بِنا أَعْمالُنا، فَنحْنُ الَّذِينَ نُحاسَبُ عَلَيْها عِنْدَ رَبِّنَا، وكُلُّ واحِدٍ مِنَّا يُحاسَبُ عَلَىٰ عَمَلِهِ، إذْ نَأْتِي إلىٰ حِسَابِ رَبِّنَا فُرَادَىٰ. وَكَذَلِكَ تَخْتَصُّ بِكُمْ أَعْمالُكُمْ، فَأَنْتُمُ الَّذِينَ تُحاسَبُونَ عَلَيْهَا عِنْدَ رَبِّكُمْ الَّذِي هُوَ رَبُّنَا، وكُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ يُحاسَبُ عَلَىٰ عَمَلِهِ، إذْ تَأْتُونَ إلىٰ حِسَاب رَبِّكُم فُرَادَىٰ، وَيَقْضِي اللهُ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِحَسَبِ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

القضيَّة الخامِسَة عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي التَّعْلِيمِ الدَّعوِيِّ: ﴿... لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ .. ⑮﴾:

أي: وَقُلْ لِلْمُكَابِرين الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ قَدَّمتَ لَهُمْ الْحُجَجَ الْبُرْهَانِيَّةَ الدَّامِغَةَ لَهُمْ، فَرَفَضُوهَا، مَعَ ظُهُور أَنَّ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ: لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ نُقَدِّمُهَا لَكُمْ بَعْدَ أَنْ رَفَضْتُمْ كُلَّ حُجَجِنا الْبُرْهَانِيَّة، وَلَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ تُقَدِّمُونَهَا لَنَا إذْ لَيْسَ لَدَيْكُمْ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ تَقْبَلُهَا الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ، فَمِنَ الْخَيْرِ وَالْعَقْلِ السَّوِيّ قَطْعُ الْجِدَالِ بَيْنَنا وَبَيْنَكُم.

القضيَّةُ السَّادِسة عشرة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي التَّعليم الدَّعوِيِّ: ﴿... اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا .. ⑮﴾:

أي: وَقُلْ لِلَّذِينَ وَجَّهتَ لَهُمُ الْبَيَانَ السَّابِقَ: اللهُ الَّذِي هُو رَبُّنَا وَرَبُّكُم، سَوْفَ يَجْمَعُ بَيْنَنا يَوْمَ الجَمْعِ بَعْدَ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الأُخرىٰ، الَّتِي يَكُونُ فِيها الحسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذُ الجَزاءِ، ويَوْمَئِذٍ تَعْلَمُون عِلْمَ الْيَقِينَ أَنَّكُم كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا مُبْطِلِينَ كَافِرِينَ مُجْرِمِينَ، تَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ بِالْعَدْلِ. وَتَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّنا كُنَّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُؤْمِنِينَ بِالْحَقِّ، الَّذِي فَرَضَ عَلَيْنَا رَبُّنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ، وَكُنَّا بِالْإِسْلَامِ إِلَىٰ رَبِّنَا نَتَّقِي عَذَابَ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

الْقَضِيَّةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي التَّعْلِيمِ الدَّعْوِي: ﴿... وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾:

أَيْ: وَقُلْ لِلَّذِينَ وَجَّهْتَ لَهُمُ الْبَيَانَ الدَّعْوِيَّ السَّابِقَ: وَإِلَىٰ اللهِ الَّذِي هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ سَوْفَ يَكُونُ الْمُنْتَهَىٰ وَالْعَاقِبَةُ، إِذْ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ كُلُّ أَمْرٍ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُحَاسِبُ عِبَادَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُجَازِي عِبَادَهُ بِالْفَضْلِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، أَوْ بِالْعَدْلِ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ.

الْمَصِير: مَصْدَرُ «صَارَ»، والموضِعُ الَّذِي تَصِيرُ إِلَيْهِ المياه. وَمَصِيرُ الْأَمْرِ مُنْتَهَاهُ وَعَاقِبَتُهُ، وَهَـٰذَا الْمَعْنَىٰ هُو الملَائِمُ هُنَا.

يُقَالُ لغة: «صَارَ الْأَمْرُ إِلَىٰ كَذَا، يَصِيرُ، صَيْراً، وَمَصِيراً، وصَيْرُورَةً».

أي: انْتَهَىٰ إِلَىٰ كَذَا، وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَذَا.

القضِيَّةُ الثامِنَة عَشْرَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحدِّثاً لِكُلِّ مَنْ يَتَلَقَّىٰ بَيَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾: أي: والَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي رُبوبِيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ أَوْ يُجَادِلُونَ فِي إِلَـٰهِيَّةِ الله الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحدٌ، وَيُقَدِّمُونَ فِي مُجَادَلَاتِهِمْ حُجَجاً.

- ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ﴾: أي: مِنْ بَعْدِمَا اسْتَجَابَ كَثِيرُونَ مِنْ عُقَلَاءِ النَّاسِ وَأَذْكِيَاءِهِمْ، لِدَعْوَتِهِ الَّتِي بَلَّغَهَا رَسُولُهُ ﷺ، عَنِ اقْتِنَاعٍ بِبَرَاهِينِ الْحَقِّ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ، وَظُهُورِ بُطْلَانِ مَعَاذِيرِ غَيْرِ الْمُسْتَجِيبِينَ الَّتِي يُقَدِّمُونَهَا مُوهِمِينَ أَنَّها حُجَجٌ.

- ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أَيْ: مَا يُقَدِّمُونَ مِنْ تَلْبِيسَاتٍ يُوهِمُونَ

أَنَّهَا حُجَّةٌ لَهُمْ هِيَ سَاقِطَةٌ تَزْلَقُ فِي أَوْحَالِ الباطِلِ، وَلَا ثَبَاتَ لَهَا عَلَىٰ مَوْقِعٍ صُلْبٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

وَإِذَا كَانَتْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً مُنْزَلِقَةً، فَهُمْ إِذَا صَارَعُوا بِهَا أَصْحَابَ الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ انْزَلَقُوا وَلَمْ يَثْبُتُوا، وَسَقَطُوا فِي أَوْحَالِ الْخَيْبَةِ وَالْهَزِيمَةِ.

دَاحِضَة: أيْ: مُنْزَلِقَةٌ تَسْقُطُ مُنْهَزِمَةً خَائِبَةً خَاسِرَةً لدَىٰ أَيِّ مُقَابَلَةٍ لَهَا مِنْ بُرْهَانٍ مِنْ بَرَاهِينِ الْحقّ. شُبِّه ظُهُورُ بُطْلَانِهَا بالانْزِلَاقِ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا دَاحِضَةٌ.

يُقَالُ لُغَةً: «دَحَضَتْ رِجْلُ الرَّجُل: تَدْحَضُ، دَحْضاً وَدُحُوضاً» أي: زَلِقَتْ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَىٰ مَوْقِعِهَا، واشْتَهَرَ: «حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ» بِمَعْنَىٰ بَاطِلَةٍ لَا ثَبَاتَ لَهَا.

- ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾: أي: وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ آثَارُ غَضَبٍ مِنَ اللهِ.

الغَضب: صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ آثَارِهَا إِرَادَةُ الانْتِقام، يُقَالُ: «غَضِبَ عَلَيْهِ، يَغْضَبُ، غَضَباً»، أي: سَخِطَ عَلَيْهِ، وَأَرَادَ الانْتِقَامَ مِنْهُ، وَمُعَاقَبَتَهُ، فَهُوَ: «غَضِبٌ» و«غَضْبَان».

- ﴿... وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾: أي: وَلَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي نَارِ جهَنَّم، دَارِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ.

وَالسَّبَبُ فِي غَضَبِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي جَهَنَّمَ، أَنَّ كُفْرَهُمْ كُفْرُ جُحُودٍ، إِذْ قَدْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَجَحَدُوهُ وَكَذَّبُوا بِهِ، وَتَحَايَلُوا لِسَتْرِ جُحُودِهِمْ بِزُيُوفِ أَقْوَالٍ زُخْرُفِيَّةٍ بَاطِلَةٍ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ بُطْلَانَهَا.

وبهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثالِثِ مِنْ دُرُوس سورة (الشورىٰ).

والحمدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التّدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (الشورىٰ) وهو الآيتان (١٧ و١٨)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

تمهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ الْقرآنِ مُضَافٌ إلىٰ مَا سَبَقَ أَنْ أُنْزِلَ بِشَأْنِهِ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَبيانٌ عَنِ السَّاعَةِ وَعَنْ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بها، وَحَالٍ آخَرَ مِنْ أَحْوَالِ الَّذِينَ آمَنُوا بها.

التدبّر التحليليّ:

- قول اللهِ تَعَالَىٰ بِخِطَابٍ مُوَجَّهٍ لِكُلِّ مَنْ هُوَ مَوْضُوعٌ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ ..﴾:

أي: اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، هُوَ الَّذي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الكِتَابَ الْخَاتِمَ لِكُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا رَحْمَةً بِعِبَادِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ صِرَاطَ نَجَاتِهِمْ، وَفَوْزِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وهَـٰذَا الْكِتَابُ مُتَّصِفٌ بِالْحَقّ، وَهُوَ الأَمْرُ الثَّابِتُ الَّذِي لا شَكَّ فِيهِ، ومن الحقّ البيانُ المطابقُ لِلْوَاقِعِ، والإرْشادُ لِمَا يَنْفَعُ وَيُفِيد، ومن الحقّ ما هُوَ مُطَابِقٌ لمطلُوبِ اللهِ مِنْ عباده فِي امْتِحَانِهِم، وَمِنَ الحقّ عَمَلُ شيءٍ لِغَايَةٍ نَافِعَةٍ حَكِيمَةٍ، أَمّا الْعَمَلُ لِغَيْرِ غَايَةٍ حَكِيمَةٍ فَهُوَ من الْعَبَثِ، وهُوَ مُنَافٍ لِلْحَقّ.

والقرآنُ وَكَذلِكَ كُتُبُ اللهِ السَّابِقَةُ، مُتَّصِفَةٌ بِالْحَقِّ لاشْتِمالِهَا عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيانُهُ مِنْ مَعْنَىٰ الْحَقّ وامْتِدَادِ دَلَالَتِه، وَقَدْ جَاءَ فِي القرآن بَيانُ هَـٰذَا، فقال الله تعالىٰ في سورة (الحديد/ ٩٤ نزول):

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.
- ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: أَيْ: وأَنْزَلَ الْمِيزَانَ.

الْمِيزَان: يُطْلَقُ علىٰ الآلَةِ الّتي يُوزَنُ بها، وهي معروفَةٌ، وَيُطْلَقُ عَلىٰ المثاقيل ذَاتِ المقادير المَعْلُومَة الَّتي تُوضع عَادَةً فِي إِحْدَىٰ كِفَّتي الميزان، لِتُوزَنَ بِهَا الْأَشْيَاء ذَوَاتُ المقادير المَجْهُولَة.

ويُطْلَقُ الميزانُ ويُرَادُ بِهَـٰذَا الإِطْلَاقِ عَمَلِيَّةُ الْوَزْنِ، وَهو من إطْلَاقِ الْأَدَاةِ عَلىٰ الْمَصْدَرِ الَّذي يَدُلُّ عَلىٰ الْحَدَث.

وَلَمَّا كَانَ الْمِيزَانُ الْأَدَاةَ الَّتِي يُقَدَّرُ فِيهَا بِالْحَقِّ المَوْزُونُ الْمُعَادِلُ لِحَقِّ مَنْ يُوزَنَ لَهُ، أُطْلِقَ لَفْظُ الميزانِ عَلَىٰ الْعَدْلِ، وَعَلَىٰ النُّظُم وَالْقَوَاعِدِ وَالْوَصَايَا وَالْأَحْكَام الَّتِي يُوصِلُ اتّبَاعُهَا إِلَىٰ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ، الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي كُلِّيَّاتِ الدِّينِ الْعَامَّة، ضِمْنَ اسْتِطَاعَةِ النَّاس، فَهُمْ مُطَالَبُونَ بِتَحْقِيقِ الْعَدْلِ أو الاقتراب مِنْهُ علىٰ مِقْدَارِ اسْتِطَاعَاتِهم، فَأَنْزَلَ اللهُ النُّظَمَ والْقَوَاعِدَ وَالْوَصَايَا وَالْأَحْكَامَ، الَّتِي يُوصِلُ اتّبَاعُهَا إِلَىٰ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ، أو إِلَىٰ الاقْتِرَابِ مِنْهُ عَلَىٰ مِقْدَارِ الاسْتطاعَةِ الْبَشَرِيَّة.

وَجَاءَ التَّعْبِيرُ بِفِعْلِ ﴿أَنزَلَ﴾ لِأَنَّ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنِ اللهِ مِنْ خَلْقٍ أَوْ بَيانٍ أَوْ أَمْرٍ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ هُو إِنْزَالٌ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ وَمَنْ سِوَاهُ هُوَ مِنْ دُونِهِ، وَلَا يُفِيدُ الْإِنْزَالُ مِنَ اللهِ دَوَاماً مَعْنَىٰ إِنْزَالِ الشيءِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، كَإِنزَالِ الْحَدِيدِ، وإِنْزَالِ الْأَنْعَامِ، فَخَلْقُ اللهِ لَهَا فِي الْأَرْضِ هُوَ إِنْزَالٌ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ السَّاعَةِ مُتَابِعاً خِطَابَهُ السّابِق:

● ﴿..وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ⑰﴾:

أي: أَيُّ شَيْءٍ يُعْلِمُك أَيُّهَا المتَلَقِّي مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَها الْبَعْثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

إِنَّهُ لَا أَحَدَ يُعْلِمُكَ بِهَـٰذَا، وَقَدْ أَخْفَىٰ اللهُ الْعِلْمَ بِقِيَامِ السَّاعَةِ عَنْ كُلِّ عِبَادِهِ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، فَقَدْ ثَقُلَتْ في السماوات والأرض فَلَا تَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً، وَجَاءَ وصف السَّاعة بـ«قَرِيب» لِأَنَّ صيغة «فَعيل» يجُوز أن يَسْتَوِي فيها المذكر والمؤنث، والمفرد وغيرُهُ، ولو كانت بمعنىٰ اسم الفاعل⁽¹⁾.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؟: أي: وَأَيُّ شَيْءٍ يُعْلِمُك؟ يقالُ لُغَة: «دَرَىٰ فُلَانٌ الشيءَ، وَدَرَىٰ بِهِ، دَرْياً، ودِرَايَةً» أي: عَلِمَه. ويُقَالُ: «أَدْرَاهُ بالشَّيْءِ» أي: أَعْلَمَهُ بِهِ.

الْمُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ نَفْيُ الْعِلْمِ، أَيْ: أَنْتَ لَا تَدْرِي أَيُّهَا المتَلَقِّي أَيّاً كُنْتَ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ، فَقَدْ أَخْفَىٰ اللهُ الْعِلْمَ بِهِ عَنْ كُلِّ عِبَادِهِ، حَتَّىٰ الْمَلَائِكَةِ المقَرَّبين.

﴿...لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ⑰﴾:

أي: وَلَكِنْ ضَعْ فِي تَوَقُّعِكَ احْتِمَالَ أَنَّ وَقْتَ قِيَام السَّاعَةِ قَرِيبٌ، بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا سَبَقَ مِنْ عُمْرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، فَرَبُّكَ مُقَدِّرٌ وَقْتَهَا يُشْعِرُكَ بِقُرْبِهِ، فَلَا تَتَصَوَّرْ أَنَّ مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِ الحيَاةِ الدُّنْيَا، نَظِيرُ مَا سَبَقَ مِنْهُ فِي المدَّةِ.

أقول: وَيُشْعِرُ بِهَـٰذَا الْقُرْب تَطَوُّرُ الْبَشَرِيَّة فِي المكْتَشَفَاتِ الْعِلْمِيَّة،

---

(١) هـٰذا ما صَحَّ عِنْدِي أخذاً من الاستعمالات القرآنية.

وَتَكَاثُر النَّاسِ تَكاثراً عَظِيماً، ووصُولُ النَّاسِ إلىٰ زَخْرَفَةِ الْأَرْض وَإِلَىٰ تَصْنِيعِ أَسْلِحَةِ الدَّمَارِ الشَّامل، ودَلَالَةُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورة (يونس/ ٥١ نزول):

- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقد سَبَقَ تَدبُّر هَـٰذِهِ الآيَةِ فِي مَوْقِعِهَا مِنْ تَدَبُّرِ سُورَةِ (يونس).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ حَالَي الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالسَّاعَةِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهَا:

- ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾:

يَسْتَعْجِلُ: أي: يَسْتَحِثُّ طَالِباً تَعْجِيلَ قِيَامِ السَّاعَة.

وَأَصْلُ فِعْلِ «عَجِلَ» و«اسْتَعْجَلَ» فعل لازمٌ بمعْنَىٰ: «أَسْرَعَ». وفي «اسْتَعْجَلَ» معنَىٰ طَلَبَ التَّعْجِيل.

فَمَعْنَىٰ العبارة القرآنِيَّة فيما أرىٰ: يَطْلُبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالسَّاعَةِ وَلَا بِالْجزَاءِ وَالْيَوْم الآخِرِ، مِنَ الرَّسُولِ ﷺ الإِسْرَاعَ بِقِيَامِ السَّاعَةِ، اسْتِهْزَاءً بِخَبَرِ قِيَامِهَا واسْتِهَانَةً بِهِ.

فَفِعْلُ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ فاعِلُهُ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾: أي: بالسَّاعَةِ طَالِبِينَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ تَعْجِيلِ قيامها.

وَلفظ ﴿بِهَا﴾ عَقِبَ فِعْلِ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ مُتعلّقٌ بِعَامِلٍ مَحْذوف، تَقْدِيرُه: اسْتِهْزَاءً بِخَبَرِهَا، أَو اسْتِهَانَةً بِهِ.

والفِعْلُ فِي: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ الْحالِ والاستقبالِ: أي: لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقبلاً، ولهَـٰذَا فَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ بِنَبأ قيام السَّاعَةِ.

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾:

أي: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِأَرْكَانِ الإيمان في الْإِسْلَامِ، وَمِنْهَا إِيمَانُهُمْ بالسَّاعَةِ، والْبَعْثِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْجَزَاءِ، يَخَافُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ فِيهَا، وَيَحْذَرُونه.

يُقَالُ لُغَةً: «أشْفَقَ فِلَانٌ مِنْ أَمْرٍ مَا» أي: خَافَهُ وَحَذِرَ مِنْهُ.

﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾: أَيْ: خَائِفُونَ حَذِرُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ فِيهَا دَواماً، فَهُمْ يَبْتَعِدُونَ عَنْ مُسَبِّبَاتِ هَـٰذَا العذاب.

اسمُ الفاعل «مُشْفِقُون» يَحْمِلُ دَلَالَةَ الْفِعْلِ المضارع علىٰ الْحَالِ والاستقبال.

وَجَاءَ اسْتِعْمَال الفِعْلِ الماضي في عِبارة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَحقُّقِ إيمانِهِمْ، في مُقَابِلِ عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: الَّذينَ لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقبلاً.

وَسَكَتَ النَّصُّ عَنِ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدادٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَظْهَرْ حَالُهُمْ بَعْدُ، وَهؤُلَاءِ لَا يَسْتَهْزِئُونَ غَالباً بِنَبَإِ قِيَامِ السَّاعَةِ، بَلْ هُمْ يَتَرَيَّثُون.

وَالَّذِينَ آمَنُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ السَّاعَةَ وَمَا يَجْرِي بَعْدَهَا مِنْ بَعْثٍ وَحِسَابٍ وَفَصْلِ قَضَاءٍ وَجزاءٍ: هُوَ الْحَقُّ، أَمَّا إِنْكَارُهَا أَوِ الشَّكُّ فِيهَا فَهُوَ بَاطِلٌ حَتْماً.

في عِبَارة: ﴿أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ قَصْرٌ اسْتُفِيدَ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفِي الإسْنَاد، وَهُوَ قَصْرٌ إِضَافِي، أي: بالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَا يُضَادُّ الحقَّ مِنْ عَقَائِدِ المخالفين، وهُوَ مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ.

- ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾:

﴿أَلَآ﴾: أَدَاة استفتاح، وتَنْبيهٍ، وَتَوْكِيد.

﴿يُمَارُونَ﴾: أي: يُجَادِلُونَ، والَّذِينَ يُمَارُون فِي السَّاعَةِ: أَي: يُجَادِلُونَ بزُخْرُفِ أَقْوَالِهِمْ للإِيْهَامِ بِأَنَّ نَبأَ قِيَامِ السَّاعَةِ نَبأٌ كَذِبٌ لَا يُطَابِقُهُ وَاقِعٌ سَوْفَ يَكُون.

الْمُمَارَاة: هِي الْمُجَادَلَةُ عَلَىٰ مَذْهَبِ الشَّكِّ والرِّيبةِ، للإيهَامِ بأنَّ مَا يدَّعِيهِ الْمُمَارِي مِنْ بَاطِلٍ هو حَقٌّ، وللإيهَامِ بِأَنَّ مَا يُخَالِفُهُ بَاطِل.

وسُمِّيَتْ هَـٰذِهِ المجادَلَةُ مُمَارَاةً؛ لأَنَّ صَاحِبَهَا يُحَاوِلُ اسْتِخْرَاجَ اعْتِرَافِ مَنْ يُنَاظِرُه، كَمَا يَمْتَرِي الحَالِبُ اللَّبَنَ مِنَ الضَّرْعِ لاسْتخراجه مِنَ الحَلَمات، أي: يَمْسَحُ أعلىٰ الضَرْعِ بِرِفْقٍ ليسترْخِيَ وَيَسْمَحَ بخروجِ اللَّبَنِ.

﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ﴾: أي: لَفِي ضَيَاعٍ فِي قَفْرٍ بَعِيدٍ عَنْ مَوْقِعِ الْحَقّ، فَهُوَ فِيهِ مُعَرَّضٌ لِعَذَابٍ شَدِيدٍ، وَشَقَاءٍ مَدِيد.

جَاءَ فِي هَـٰذَا البيان تَوْكيد أَنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ضَالُّونَ ضَلالاً بَعِيداً بِالْمُؤكدات التاليات: «أداة الاستفتاح - وإِنَّ - والجملَة الاسْمِيَّة - واللَّام المزَحْلَقَة».

وَوَصَفَ اللهُ ضَلَالَهُمْ بِأَنَّهُ ضَلَالٌ بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ إِنْكَارَ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا الْجَزَاءُ يَوْمَ الدِّينِ، يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يُمَارِسُ كُلَّ القبائِحِ وَالشُّرُور، والظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، والْبَغْي والْعِصْيَانِ، بِوَقَاحَةٍ وَجُرْأَةٍ، وَقَدْ يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ جَبَّارٍ فِي الْأَرْضِ وَمُجْرِمٍ عَظِيم، وَشَيْطَانٍ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الرابعِ مِنْ دُرُوس سورة (الشّورىٰ).

والحمدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبّر التحليليّ للدّرس الخامس من دُروس سورة (الشورىٰ) الآيتان (١٩ و٢٠)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

القراءات:

(٢٠) ● قرأ قَالُون، ويَعْقُوب، وهِشَامٌ بخُلْفٍ عنه: **﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾** بِكَسْرِ الهاء من غَيْرِ صِلَة.

وقرأها بَاقِي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء مع الصّلَة **﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾**، وهُو الوجْهُ الثاني لِهِشَام.

تمهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يَرْزُقُ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عباده مَا يَشَاءُ، تَمْهِيداً لِلْحَدِيثِ عَنْ قَانُونِ اللهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَة، وَقَانُونِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ مَنْ يُرِيدُ حَرثَ الدُّنيا.

التدبّر التحليلي:

- قول اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾:

● ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: أي: اللهُ رَفِيقٌ رَؤوفٌ بَعِبَادِهِ، يَرْفُقُ بِهِمْ، وَيَرْأَفُ بِهِمْ، وهَـٰذَا الوَصْفُ مِنْ فُرُوعِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ، وثبتَ أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ وسِعَتْ كُلَّ شيءٍ.

وَيُطْلَقُ وَصْفُ اللَّطِيفِ عَلَىٰ الَّذِي يُجْرِي تَدَابِيرَهُ وَأَعمالَهُ برفْق، فَلا يَكُونُ عَنِيفاً وَلَا خَشِناً، ويطلقُ علىٰ الَّذِي يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ بِرِقَّةٍ دُونَ أَنْ يُحَسَّ بِدُخُولِهِ وَخُرُوجِهِ.

والملائكَةُ مِنَ الْأَجْسَادِ اللَّطِيفَةُ، وَمِنَ الْأَشْيَاءِ اللَّطِيفَةِ: النّسِيم، وَالْأَشِعَةُ، والرُّوح.

ومعنَىٰ الرِّفْقِ وَالرَّأْفَةِ هو المناسِبُ لِعبَارَةِ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

- ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾: أي: ومِنْ آثارِ لُطْفِ اللهِ عزَّ وَجلَّ بِعبادِهِ، أَنَّهُ يَرْزِقُ مَنْ يَشَاءُ.

وَلِهَـٰذِهِ العبارة تَكْمِيلٌ جَاءَ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ، وَمِنْ هَـٰذَا التكْمِيلِ أَنَّهُ يرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، وأنَّهُ يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيَقْدِرُ الرِّزْقَ وَيُضيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ، لِيَبْلُوَ كُلّاً فيما آتَاهُ. وَكُلّ تَصارِيفِهِ بِعِبَادِهِ حَكِيمَةٌ.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِه، فَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ عَطَاءَاتِ اللهِ لعباده، مَا يُدْرَكُ مِنْهَا بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ، وَمَا لَا يُدْرَكُ مِنْهَا بها، وَيُطْلَقُ عَلَيْهَا أَنَّها أَشْيَاءُ مَعْنَوِيَّة أَوْ نَفْسِيَّة أَوْ رُوحِيَّة، وَمِنْ هَـٰذِهِ المعنويَاتِ الْعِلْمُ، وُجودَةُ الرَّأْيِ، وَحُسْنُ التدبير والتفكير.

واللهُ عزّ وَجلَّ هُوَ الْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ كَوْنِهِ، وَالْخَالِقُ لِكُلِّ مَا يَجْرِي فِيهِ، دُونَ أَنْ يَسْلُبَ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّة، فَهُوَ بِحِكْمَتِهِ يَرْزُقُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، والمُؤمِنَ وَالْكَافِرَ فَهُمْ جميعاً في ظروفِ حياة الامتحان، ـ وهو جلَّ جلالُهُ وعظم سُلْطَانُهُ ـ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتٌ، فَبَقاءُ كُلّ ذِي حَيَاةٍ حَيّاً يَحْتَاجُ رِزْقاً، وَلَوْ كَانَ فَيْرُوساً، واللهُ يَهْدِيهِ لَهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، وَلَوْ كَانَتْ جُزْءاً من الثانِيَةِ، مَهْمَا قَلَّ هَـٰذَا الْجُزْءُ.

- ﴿..وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾: أي: وَمَع كَوْنِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ لَطِيفاً بِعِبادِهِ يُعْطِيهم الرِّزْقَ مِنْ آثَار رَحْمَتِهِ، هُوَ أَيْضاً قَوِيٌّ عَزِيزٌ، وَهُوَ

وَحْدَهُ كَامِلُ الْقُوَّةِ وكَامِلُ الْعِزَّةِ لا يُشارِكُهُ فِي كَمالِهِمَا أَحَدٌ، وَكُلُّ ذِي قُوَّةٍ مَا وَعِزَّةٍ مَا، فَقُوَّتُهُ وَعِزَّتُهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ يُمِدُّهُ بِهِمَا، وَإِذَا شَاءَ سَلَبَهُما مِنْهُ بِأَقَلَّ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ.

وبِقُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ تَبارَكَ وَتَعالىٰ يُعَاقِبُ الكافِرِينَ والمجرمين، ويُهْلِكُ الْجَبَّارِينَ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ رزْقٍ فِي: الْبَغْي وَظُلْمِ عِبادِ اللهِ، وَفِي كَبائِرِ الْإِثْم وَالْفُجُورِ وَفِي كُلِّ مَا يَحْلُو لَهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْجَرائِم كَافِرين بِإِنْعَامِ الْمِنْعِم.

القوي: اسمٌ من أسْماء الله الحسْنَىٰ، وَمَعْنَاهُ: ذُو الْقُوَّةِ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا قُوَّةٌ، وَالَّتِي يَفْعَلُ اللهُ بِهَا مَا يَشاء.

الْعزِيزُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، وَمَعْنَاهُ: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ الْقُوىٰ، وَإِذَا شَاءَ سَلَبَ بِعِزَّتِهِ قُوَّةَ كُلِّ ذِي قُوَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

■ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾:

الناسُ فَرِيقَانِ فِي الحياةِ الدُّنيا:

الفريقُ الأول: فَرِيقُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الآخِرَةَ مُؤْمِنِينَ بها، وَلَا يُهمِلُونَ إِرادَةَ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وَهُمْ بِمُقْتَضَىٰ إِرادَتِهِمْ هَـٰذِهِ يَجْتَهِدُونَ فِي الْأَعْمالِ الَّتِي يَبْتَغُونَ بِهَا مَرْضَاةَ اللهِ وَثَوابَ الآخِرَةِ سَاعِينَ لَهَا سَعْيَهَا، وهؤُلَاءِ يَزِيدُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي أَعْمالِهِمْ للآخِرَةِ، وَيُضَاعِفُهَا لَهُمْ، وَيَزِيدُ فِي ثَوَابِهِمْ عَلَيْهَا زِيَادَاتٍ فَوْقَ مَا يَتَمَنَّوْنَ وَيَحْلُمُونَ بِهِ.

وَيُعْطِيهِمُ اللهُ حُظُوظَهُمْ مِنَ الْحياة الدُّنْيا بِحَسَبِ مَا قَسَمَ لَهُمْ أَنْ يَنالُوهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

الفريق الثاني: فَرِيقُ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَلَا يَسْعَوْنَ لَهَا سَعْيَهَا، وَهٰؤُلَاءِ لَا يَجْعَلُ اللهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ نَصِيباً مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، بَلْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الْجَحِيمِ.

جَاءَ فِي الْآيَةِ التَّعْبِيرُ عَنِ الْعَمَلِ لِلظَّفَرِ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي الآخِرَةِ، وَلِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا بِكَلِمَةِ الْحَرْثِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ بَذْلِ الْجَهْدِ فِي الْعَمَلِ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ ثَمَرَاتِهِ، نَظَراً إِلَىٰ أَنَّ الْحَرْثَ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ ثَمَرَاتِ الإِنْتَاجِ الزِّرَاعِيِّ، أَكْثَرُ التَّعْبِيرَاتِ شَبَهاً بِالْأَعْمَالِ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا ثَوَابُ الْآخِرَةِ، وَبِأَعْمَالِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَنَالُوا أَكْثَرَ مَا يُحِبُّونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحياةِ الدُّنيا.

فَكَلِمَةُ «حَرْثٍ» عُبِّرَ بِهَا عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ عَنْ بَذْلِ الْجَهْدِ فِي الْعَمَلِ لِلآخِرَة وَلِلْعَمَلِ فِي الدُّنيا.

الْحَرْثُ: الْعَمَلُ فِي الْأَرْضِ لاسْتِنْبَاتِ زَرْعِهَا، أَوْ غَرْسِ شَجَرِها.

وقد جاء في القرآن عِدَّةُ نُصُوصٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ هٰذَا النَّصّ تَكَامُل، وتَدَبُّرُ تَكَامُلِهَا فِيمَا بَيْنَهَا يَحْتَاجُ جَمْعاً وَنَظَراً وَتَأَمُّلاً شاملاً لَهَا.

وبهٰذا تم تدبُّر الدَّرسِ الخامس من دُروس سورة (الشورىٰ).

والحمدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتوفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبُّر التحليلي للدَّرسِ السّادس من دُروسِ سُورَة (الشورى)

الآيات من (٢١ ـ ٢٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ

مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي
رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾
ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا
ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ
يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن
فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٢) ● قرأ قَالُون، وأبُو عمْرو، والكِسَائي، وأَبُو جَعْفر: **[وَهْوَ]** بإسكان الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿وَهُوَ﴾** بضمّ الهاء، ووقَفَ يَعْقُوبُ بهاء السَّكْت.

(٢٣) ● قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وحمزة، والكِسَائي: **[يَبْشُرُ]** مِنْ فِعْل «بَشَرَهُ بالأمْرِ يَبْشُرُهُ» أي: أخبره بما يَسُرُّه.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿يُبَشِّرُ﴾** من فعل «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُه» المضعّف، وفي المضعّفِ معنى التوكيد، وهو يُنَاسِبُ قِسْماً مِنَ المؤمنين.

(٢٥) ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَفْعَلُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأهَا باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **﴿يفْعَلُونَ﴾** بياءِ الْغَائِبِينَ. وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في الْأَدَاءِ البياني.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرسِ تَرْهِيبٌ للمشْرِكِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أحْكَامٌ جاهِلِيَّةٌ لَمْ

يَأْذَنْ بِها اللهُ، بِعَذابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّينِ، وتَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمنينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا مِنَ الصَّالِحَاتِ، بِأَنَّ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ في رَوْضَاتِ الجنَّاتِ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، مَا يَقُولُهُ لِلَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، ولَهُ مَعَ أَكْثَرِهِمْ قُرْبَىٰ، مَعَ إِطْمَاعِهِمْ بِأَنْ يَزِيدَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ ثوابَهُمْ إِذَا آمَنُوا واكْتَسَبُوا مِنَ الْحَسَنَاتِ شيئاً.

وفيها بَيَانُ أنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّهَمُوا الرَّسُولَ ﷺ بافْتِرَائِهِ الكَذِبَ علَى اللهِ، مَعَ المعالَجَةِ بالإقْنَاعِ، وإِطْمَاعِ المؤمنينَ بِأَنْ يَزِيدَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وإِنْذَارِ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ شَدِيد.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْمُشْرِكِين وأَحْكَامِهِم الجاهِلِيَّةِ:

- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾:

جاء في الآية (١٣) بيانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ شَرَعَ لِلنَّاسِ في الرِّسَالَةِ الخاتِمَةِ، مَا شَرَعَهُ فِي الرِّسَالَاتِ السَّابِقَات مع إِضَافَاتٍ عَلَيْها، تُلَائِمُ أَحْوَالَ النَّاسِ إلى قيامِ السَّاعة.

وبما أَنَّ السُّورَةَ تُعَالِجُ المشْرِكِينَ في كُفْرِيَّاتِهِمْ وأحْكَامِهِمْ المخالفة لِمَا شَرَعَ اللهُ، جَاءَ في الآية (٢١) حَدِيثٌ يَتَعَلَّقُ بما لَدَيْهِمْ مِنْ شرائِعَ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللهُ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ، ولَهُ الأَمْرُ، ولَهُ التَّشْرِيعُ، وَلَا حَقَّ لِأَحَدٍ في أَنْ يَشْرَعَ مِنَ الدِّين حُكْماً لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ.

وسَبَقَ في نُجُوم التَّنْزِيلِ بَيَانُ أَنَّ لِلْمُشْرِكِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَحْكَاماً فاسِدَةً لَمْ يَأْذَنْ بها اللهُ، وتَشْرِيعَاتٍ باطِلَاتٍ مِنْ افْتِرَاءاتِ شياطِين الجنِّ

والإنْسِ علىٰ الله، ومِنْ أَوْضَاعِ الكَهَنَةِ وَسَدَنَةِ الأَصْنَامِ، لِجَلْبِ مَنَافِعَ لَهُمْ مِنْ عُبَّادِها.

فيَقولُ اللهُ بشَأْنِهِمْ:

- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ . . .﴾:

﴿أَمْ﴾ يُعَبَّرُ عَنْها بِحَرْفِ «بَلْ» مع همزة اسْتِفْهام. والإضرابُ بحرف «بَلْ» انْتِقَالي.

أي: وَنَنْتَقِلُ مِمَّا سَبَقَ ونَقُول: أَلِلْمُشْرِكِينَ آلِهَةٌ هِي أَرْبَابٌ تَسْتَحِقُّ الإلَهِيَّة بِرُبُوبيَّتِها، فَهُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ، شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ شرائِعَ لَمْ يَأْذَنْ بها اللهُ، الَّذي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا رَبَّ غَيْرُه، فَهُوَ الإلَهُ الْمَعْبُودُ بِحَقٍّ الَّذي لَا إلَه غَيْرُه.

والاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ تَوْبِيخِيٌّ لَهُمْ دُونَ مُوَاجَهَةٍ لَهُمْ بِالْخِطاب.

ويُتْبِعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذا الاسْتِنْكَارَ التوبيخِيَّ بِقَوله:

- ﴿. . وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾:

الْفَصْل: الفرْقُ والتّمْييزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَو الأَشْيَاء. ويُطْلَقُ الْفَصْلُ علَىٰ الْحُكْم والقضاء، يُقَال: فَصَل الحاكم بَيْنَ الْخَصْمَيْن، أي: حَكَمَ وقَضَىٰ قَضاءً بَتَّهُ وأَبْرَمَه. والقولُ الْفَصْلُ هو: القولُ الْبَيِّنُ الواضحُ الْمُبْرَمُ المقْطُوعُ به.

والمرادُ بِكَلِمَةِ الْفَصْلِ هُنَا أخْذاً مِنَ السِّيَاقِ والسِّبَاق: الْكَلِمَةُ الَّتِي أَبْرَمَ اللهُ بِهَا قَضَاءَهُ وقَدَرَهُ بِإمْهَالِ الكُفَّارِ مِنْ عِبَادِهِ، وتَأجِيلِ حِسَابِهِمْ، وفَصْلِ القضاءِ بَيْنَهُمْ، وَتَنْفِيذِ مُجازَاتِهِمْ، إلَىٰ يَوْم الدِّينِ، الَّذي سَوْفَ يَكُونُ بَعْدَ الْبَعْثِ، إذْ يَقُومُ الموتَىٰ أَحْيَاءً إلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُون.

أي: وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصلِ الَّتِي أَبْرَمَ اللهُ بِهَا تَقْدِيرَهُ وقَضاءَهُ، بِتَأْخِيرِ الْجَزَاءِ الْوَافِي إلى يَوْمِ الدِّينِ، لَقضَىٰ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ تَجْرِي مُعَالَجتُهُمْ في السُّورَة، ولَنفَّذَ جَزاءَهُ فِيهِم فِي الحياة الدُّنيا؛ لِأَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ إِصْلَاحِهِمْ مَعَهَا عَنْ طَرِيقِ إرادَاتِهِم الحرَّة، وَصَارُوا مُسْتَحِقِّينَ العقاب.

• ﴿..وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾: أي: وَإِنَّ الظَّالِمِينَ كُلَّ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، والمشْرِكُونَ المتَحَدَّثُ عَنْهُم مِنْهُمْ؛ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ بِقَضاءٍ وَأَمْرٍ تَنْفِيذِيّ من اللهِ رَبِّ العالَمِين عَذَابٌ أَلِيمٌ شَدِيدُ الإيلام، ودَلَّتْ نُصُوصٌ أخرَىٰ علَىٰ أَنَّهُم خالِدُون في دار الْعَذابِ النَّار.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُبيِّنُ لَقْطَةً مِنْ لَقَطاتِ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَة، مُسْتَقْطَعَةً مِمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ حَتْماً، والمخاطَبُ: كُلُّ صَالِحٍ لِلخطاب، بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفرادي:

• ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ..﴾:

• ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أَيْ: لَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ حُضُورِ هَـٰذَا المشْهَدِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيامَةِ أيُّها الْمُتَلَقِّي لِهَـٰذَا الْبَيانِ، لَكُنْتَ تَرَىٰ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ سَبَقَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ، ولَكُنْتَ ترىٰ أَمْثالَهم:

• ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ﴾: أَيْ: خَائِفِينَ مِنْ جَزاءِ مَا كَسَبُوا عَذاباً أَلِيماً، وهَـٰذَا الْجَزاءُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحالَةَ، لِكُفْرِهِمْ ولافْتِرائِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِم بِشَرائِعَ وَأَحْكَامٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ﴾:

رَوْضَات: جَمْعُ «رَوْضَةٍ» وهي الأَرْضُ المكْسُوَّةُ خُضْرةً وأَزْهاراً، والبُسْتَانُ الْحَسَنُ، فالرَّوْضَاتُ: جَنَّاتٌ ضِمْنَ دَارِ النَّعِيمِ الكُبْرى، الَّتِي تُسَمَّىٰ الجنَّةِ، وهي ضِمْنَ جَنَّاتٍ نَفِيسَاتٍ بَدِيعَاتٍ فيها المسْعِدَاتُ من كل شيء.

أي: ولكُنْتَ ترَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً صحيحاً صَادِقاً بما أوجَبَ اللهُ الإيمانَ به، وَعَمِلُوا الصَّالِحَات المعبِّراتِ عَنْ طَاعَتِهِمْ لِلَّهِ طَلَباً لِرِضْوَانِهِ، وَثوابِهِ العظيم الذي أعَدَّهُ للمُسْلِمينَ الْمُتَّقِينَ، يَتَنَعَّمُونَ في روضاتٍ رائِعَاتٍ، ضِمْنَ جَنَّاتٍ نَفيسَاتٍ، فِيها مِنْ وَسَائِلِ النعيم العظيم الخالد، ما لَا عَيْنٌ رأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَر.

ولَهُمْ فيها مَا يَشَاءُونَ مَهْمَا بَالَغُوا في أَمَانِيهِمْ، وهـٰذا يَكُونُ لَهُمْ في مَنَازِلِ الْقُرْب من ربِّهِمْ ورِضوانهِ عَلَيْهِم، وَفِي رحْمَتِهِ، وفُيُوضِ مِنَنِهِ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ، تَسْبِقُ عَطَايَاهُ خَوَاطِرَهُمْ، حتَّىٰ تعجزَ خَوَاطِرُهُمْ عَنْ طَلَبِ أَمَانِي جَدِيدَةٍ.

﴿.. ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾:

المشارُ إِلَيْهِ بِعِبَارَةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدَّالَّةِ على ارْتِفَاعِ مَنْزِلَةِ وعَظَمَةِ الْجَزَاءِ الَّذِي يَسْعَدُ بِهِ الَّذِينَ يُكَرِّمُهُم اللهُ يَوْمَ الدِّينِ بالْقُرْبِ الكَثِيرِ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَجْعَلَهُمْ عِنْدَهُ، هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ، الَّذِي يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

الْفَضْلُ: هو الإحْسَانُ ابْتِدَاءً دُونَ مُقَابِلٍ، ودُون تَرَقُّبِ مُكَافَأَةٍ أَوْ شُكْر.

جاءَتْ عِبارَةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ مُعَرَّفَةَ طَرَفَي الإِسْنَادِ، ومُؤَكَّدَةً بِضَمِيرِ الْفَصْلِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فَضْلٌ كَبِيرٌ إِلَّا مَا يُعْطِيهِ اللهُ في الْجَنَّاتِ يَوْمَ الدِّينِ، لِلَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، عَلَىٰ تَفاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ من الْفِرْدَوسِ الأَعْلَىٰ حَتَّىٰ أدْنى مَا في الجناتِ.

ذلِكَ الَّذي هو الْفَضْلُ الكبيرُ، يُبَشِّرُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات.

حُذِفَتْ عِبارَةُ: «بِهِ» إيجازاً، ويَسْهُلُ إدْراكُها وتَقْدِيرُها.

وجاءت عِبارَةُ: ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ مع إمكان الاستغناء عنها بالضّمِير كأنْ يُقَالَ: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ الَّذِي يُبَشِّرُهُم بِهِ» لِأَنَّ المَقَامَ مَقَامُ إِطْنَابٍ يَقْتَضِيهِ إِطْمَاعُ النَّاسِ بِأَنْ يُؤْمِنُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ، لِيَنالُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ هٰذا الْفَضْلَ الكَبِير.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَقُولُهُ لِمُشْرِكِي مَكَّة، وهُمْ فِي أَغْلَبِهِمْ أَصْحَابُ قُرْبَىٰ لَهُ:

- ﴿.. قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ .. ﴿٢٣﴾﴾:

جاء هٰذا التعْلِيمُ مُعْتَرِضاً في أسْلُوبِهِ، لَكِنَّهُ ذُو صِلَةٍ قَوِيَّةٍ فِي مَضْمُونِهِ بِمُعالَجَةِ المعْنِيِّينَ بالْمُعَالَجَةِ في السُّورَةِ، وهُمْ مُشْرِكو مكّة، فَكَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَهُمْ: مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَىٰ بالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ، فَلِمَ تُعَادُونَهُ وتُعَادُونَ مَنْ آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ مِنْكُمْ، وتريدُونَ التَّخَلُّصَ مِنْهُ ومِنْ دَعْوَتِهِ؟.

أَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْقَرابَةِ في مَفْهُوماتِكُمْ أَنْ تُعامِلُوهُ بالْمَوَدَّةِ، ولَوْ كَانَتْ مَوَدَّةً ضَعِيفَةً، لا بِالمشَاقَّةِ والْعِداءِ، وَتَدْبِيرِ المكايِدِ لِحَرْبِه؟؟.

وَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُوصِلَ إِلَيْهِمْ هٰذَا المعْنَىٰ.

أمّا عبارة: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ فَقَدْ سَبَقَ أَنْ قَالَهَا لَهُم بَعْدَ إِنْزَالِ اللهِ عليه قَوْلَهُ في سورة (الأنْعام/ ٥٥ نزول):

﴿.. قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

وجَاءَ تَكْرِيرُ هٰذا التَّكْلِيفِ في سُورَة (الشورى/ ٦٢ نُزُول) تَوْطِئَةً لعبارة: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾:

﴿إِلَّا﴾: هُنَا أداة اسْتِدْرَاكٍ بمَعْنَىٰ «لَكِنْ» وليست أداة استثْناء، لِأَنَّ المودَّة في الْقُرْبَىٰ لَيْسَتْ مِنَ الأجْر.

الْمَوَدَّة: مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِر: «وَدَّ» كالْوِدّ، وهو مثلَّثُ الواو، وهو نوعٌ من الحبِّ الهادِئِ الّذي يَكُونُ بَينَ الْأَصْحَابِ والإخوان، وذوي القرابَاتِ، وذوي الصّدَاقات، ولَا يُطْلَقُ علَىٰ المشْبُوبِ بالْعَوَاطِفِ الثائرة.

الْقُرْبَىٰ: هِيَ الْقَرابَة، وهِيَ الْقُرْبُ وَالدُّنُوُّ فِي النَّسَب.

أي: لَكِنْ أَسْأَلُكُمْ أَنْ تُعَامِلُوني مُعَامَلَةَ الْمَوَدَّةِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْأَقْرِبَاءِ وَلو كانَتْ قرابَاتُهُمْ بَعِيدَةً، ومِنْ عَادَات أَهْلِ الْقُرْبَىٰ في القبائل العربيَّةِ، أَنْ يَنْصُرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِمَوَدَّةِ الْقَرَابَةِ بَيْنَهُمْ، لَا أَنْ يُعَادِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ويُشَاقَّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. فَرَاعُوا هـٰذِهِ الْمَوَدَّةَ، فَدَعُونِي وَمَسِيرَتِي في دَعْوَتي وَلَا تُعَادُوني، وَلَا تُدَبِّرُوا المكايِدَ ضِدِّي، وضدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني.

هـٰذا المعنىٰ هو الذي صَحَّ عَنِ ابْنِ عبَّاس رضي اللهُ عَنْهُ، فقد جاء في صحيح البخاري وغيره، أنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وكَانَ هـٰذا بِحَضْرَةِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَابْتَدَرَ سَعِيدٌ فَقَالَ: قُرْبَىٰ آلِ مُحَمَّد ـ ﷺ ـ. فقال لَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ: عَجِلْتَ (أي: لَيْسَ هـٰذا هُوَ المراد) لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيشٍ إلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرابَة، فقالَ لهم: إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ بَيانَهُ السَّابِقَ لِلْجُمْلَةِ الاعْتِراضِيَّة:

- ﴿.. وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾:

الاقتراف: الاكْتِسَاب، يُقَال لغة: «اقْتَرَفَ حَسَنَةً، أَوْ سَيِّئَةً، أو مَالاً» أي: اكْتَسَبَهُ، بإرَادَةٍ واعيَةٍ وَتَكَلُّف.

حَسَنَةً: أي: مُكْتَسبَةً حَسَنَةً، مِنْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أو بَاطِنٍ.

• ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾: أي: نُسَجِّلُهَا زَائِدَةً عَلَىٰ المِقْدَارِ الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ بإرَادَتِهِ، لِنُثِيبَهُ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ مَا زِدْنَاهُ فِيهَا الثوابَ المضاعَفَ عَشْرَ مَرَّات. وسبَقَ أنْ جاء في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) قول اللهِ تَعالى:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

أي: وَمَنْ يَكْتَسِبْ حَسَنَةً بإرَادَتِهِ الحرَّةِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِ، نَزِدْ لَهُ فِي حَسَنَتِهِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا حُسْناً، لِنَزِيدَ لَهُ عَلَيْهَا ثَوَاباً.

• ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾: أي: إنَّ الله كَثِير المغفرة لخطايا عِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، كَثِيرُ الشُّكْرِ لِلْأَعْمَال الصَّالِحَة الَّتِي يَعْمَلُهَا عِبَادُه المؤمِنُون.

المغْفِرَةُ: سَتْرُ خَطَايَا المذْنِب، وَيَلْزَمُ مِنْ سَتْرِ الْخَطَايا عَدَمُ المؤاخَذَةِ عَلَيْها. **والغفور**: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «غافِر».

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ الحَسَنِ بِمَا يُرْضِي الْعَامِل. **والشَّكُور**: صِيغَة مبالَغَةٍ لاسْم الفاعل «شاكر».

والْغَفُور والشَّكُور مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسنىٰ الملَائِمَةِ هُنَا في النَّصِّ للحَدِيثِ عَنْ ثَوَاب الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَمَعْلُومٌ ذِهْناً أَنَّهُمْ لَا يَخْلُون مِنَ ارْتِكَابِ الْخَطَايا، فَهُمْ يَسْأَلُونَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ بِرَحْمَتِه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديثَ عَنِ المشْرِكِينَ، وَعَنْ كَبَائِرِهِمُ الشَّنِيعَةِ، الّتي هي مِنْ ظواهِرِ كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ الله ﷺ:

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ للإضْرَاب والاسْتِفْهام مَعاً، والاسْتِفْهامُ هُنَا للتَّثْرِيبِ والتَّوْبِيخ،

عَلَىٰ اتِّهَامِهِمْ رَسُولَ اللهِ مُحَمَّداً ﷺ بِأَنَّهُ يَفْتَرِي الْقُرْآنَ عَلَىٰ اللهِ، ويَدَّعِي كَذِباً أَنَّهُ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَيَدَّعِي كَذِباً أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ ورَسُولُهُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

الافتراء: اخْتِلَاقُ الْكَذِبِ عَنْ عَمْدٍ.

أي: بَلْ. أيَقُولُونَ مُكَرِّرِينَ تَكْرِيراً دِعَائِيّاً إعْلَامِيّاً، أخذاً مِنْ صِيغَةِ الفعل المضارع: مُحَمَّدٌ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً بِادّعَائِهِ النبوَّةَ والرِّسَالَة، وادِّعَائِهِ أَنْ مَا يَتْلُوهُ مِنْ كَلامٍ عَلَيْنَا هُوَ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ.

وغَرَضُهُمْ مِنْ هٰذا التَّرْوِيجِ الْإِعْلَامِيِّ صَدُّ النَّاسِ عن الاستجابَة لِدَعْوَتِهِ، وَالْإِيمانِ بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وعَنِ الدُّخولِ في الإسلام.

وَيَرُدُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ تَعْرِيضاً واسْتِهَانَةً بِهِمْ، بِأُسْلُوبِ خِطَابِهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَتَفْرِيعاً على مَا يَقُولُونَ للصَّدِّ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ:

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ﴾:

الْخَتْمُ عَلَىٰ الشَّيْء: مَنْعُ وُصُولِ شَيْءٍ إِلَىٰ دَاخِلِهِ، وَمَنْعُ خُرُوجِ أيِّ شيءٍ مِنْهُ، والمراد بالْقَلْبِ هُنَا جِهَازُ الْإِدْرَاكِ وَالتَّفْكِير، والْعِلْم والتَّعْبِيرِ، والْخَتْمُ عَلَيْهِ مَنْعُ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ، وَعِنْدَئِذٍ لَا يَسْتَطِيعُ المخْتُومُ عَلَىٰ قَلْبِهِ أَنْ يَفْهَمَ شيئاً، أَوْ يُدْرِكَ شيئاً، وَلَا يَسْتَطِيعُ لِسَانُهُ أَنْ يَقُول كَلَاماً صَحِيحاً سَوِيّاً.

وَبِمَا أَنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، فَإِنَّهُ لَا يَدَعُ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ يَفْتَرِي عَلَيْهِ بَيَاناً، أَوْ كَلاماً يَزْعُمُ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، وَمِنْ وَسَائِلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَخْتِمَ خَتْماً تَامّاً عَلَىٰ جِهَازِ الْإِدْرَاكِ وَالتَّفْكِيرِ، والْعِلْمِ وَالتَّعْبِيرِ فيه، فَيَمْنَعَهُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ، لِئَلَّا يَفْتَتِنَ النَّاسِ بِهِ وَهُوَ يَفْتَرِي عَلَىٰ رَبِّهِ، وَمِنْ وَسَائِلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ أَنْ يُمِيتَهُ إِمَاتَةَ عُقُوبَةٍ فيها إهَانَةٌ

وعُنْفٌ وَإذْلَالٌ، كَمَا قالَ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ رَسُولِهِ محمّد ﷺ في سُورَة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

الْوَتِين: الشِّرْيانُ الرئِيسُ الّذِي يُغذِّي جِسْمَ الإنسانِ بالدَّمِ النَّقِيّ الْخَارِجِ مِنَ الْقَلْبِ.

فَعَدَمُ حُدُوثِ الْخَتْمِ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَعَدَمُ قَتْلِهِ بِقَطْعِ وَتِينِهِ، دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَفْتَرِ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً مَا، وَعَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَوَّلْ عَلَىٰ اللهِ بَعْضَ الْأَقَاوِيل.

كَيْفَ يَفْتَرِي ﷺ عَلَىٰ اللهِ رَبِّهِ، وَقَدِ اصْطَفَاهُ مِنْ عِبَادِهِ لِلنُّبُوَّةِ والرِّسَالَة، وَعَصَمَهُ بِعِصْمَتِهِ، وَأَمَرَ المؤمِنِينَ بأَنْ يَكُونَ قُدْوَةً حَسَنَةً لَهُمْ.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾: أي: وَمِنْ صِفَاتِ اللهِ وَسُنَّتِهِ الثَّابِتَةِ، أَنَّهُ كُلَّمَا ظَهَرَ لِلْبَاطِلِ بُرُوزٌ أزالَهُ حَتَّىٰ يَمْحُوَهُ، ويُزِيلَ أَثَرَهُ الضَّارَّ، إذْ تَسْقُطُ بالتَّجْرِبَةِ دَعَاوَاهُ الّتِي كانَ الْمُبْطِلُونَ يَخْدَعُونَ النَّاسَ بِهَا لِيَفْتِنُوهم عَنِ الحق.

ومِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَىٰ أَنَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ، أَيْ: يَجْعَلُهُ ثابتاً في واقِعِ الحياة، كَمَا هُوَ ثَابِتٌ فِي الْعِلْم، وبإِحْقَاقِ الحقِّ يَخِيبُ الْمُبْطِلُونَ.

﴿وَيَمْحُ﴾ فِعْلٌ مَرْفُوعٌ حُذِفَتْ مِنْهُ الواو لالْتِقَاءِ السَّاكِنِين، ورُسِمَتْ بِحَذْفِ الْوَاوِ مُجارَاةً لِلنُّطْقِ، أي: واللهُ يَمْحُو بِوَسَائِلِهِ الخفيَّةِ الباطل، ضِمْنَ سُنَّتِهِ فِي كَوْنِهِ.

وهُو سُبْحَانَهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ ويُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَكَلِمَاتُ اللهِ تَشْمَلُ كَلِمَاتِهِ التَّكْوِينِيَّةَ، الّتِي يُنَفِّذُ بِهَا مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَكَلِمَاتِهِ الْبَيَانِيَّةَ الّتِي يَهْتَدِي بِهَا أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ، فَيُدْرِكُونَ الْحَقَّ وَيُعْلِنُونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ، فَيَكُونُ هُوَ

الظَّاهِرَ والثَّابِتِ، أَمَّا الْبَاطِلُ فَيَضْمَحِلُّ شَيْئاً فَشَيْئاً، حَتَّىٰ يَكُونَ زَاهِقاً زَائِلاً، أَوْ بِمَثَابَةِ الزَّائِل.

● ﴿..إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾: أي: إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلِيمٌ بِصَاحِبَةِ الصُّدُور، وهِيَ الْأَعْمَالُ وَالنِّيَّاتُ وَالْحَرَكَاتُ الإِرَادِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ في دَاخِلِ الصُّدُور، ومِنْهَا الحبُّ والكراهِية والحِقْدُ والتدابِيرُ الكَيْدِيَّةُ، وكُلُّ مَا فِي عُمْقِ النُّفُوسِ.

فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحَاسِبُ النَّاسَ عَلَىٰ مَا في قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ مِمَّا يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُطْمِعُ عِبَادَهُ مَهْمَا كَانَتْ مَوَاقِعُهُمْ فِي الضَّلَالِ، بأَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ التَّائِبِينَ مِنْهُم، وَيَعْفُو عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ آناً فآناً، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

التَّوْبَة: هِي في اللُّغةِ الرَّجُوع، يقال لغة: «تَابَ، يَتُوب، تَوْباً، وَتوبةً، ومَتَابَةً، وَتابَةً» أي: رجع.

ويقال: «تَاب العبد إلى ربّه» أي: عزَمَ على الرُّجُوع إلى الطَّاعة، والاستقامَة بعد المعصية.

ويقال: «تَاب اللهُ على عَبْدِه» أي: قَبِلَ رَجْعَتَهُ، فرجَعَ إِلَيْهِ بالغفران والْعَفْو وفَضْلِ الْعَطَاء.

فالمعْنَىٰ: واللهُ هُو الّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ الْكَافِرِينَ إذا تَابُوا فآمَنُوا وأَسْلَمُوا، ويَتَجَاوَزُ عَنْ خَطَايَاهُمْ وَجَرَائِمِهِم السَّابِقَةِ الَّتِي فَعَلُوهَا قَبْلَ الإسلام؛ لِأَنَّ الإسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ.

وهُو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الَّتِي تَكُونُ مِنْهُمْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ.

يَعْفُو: أي: يَمْحُو ويُزِيلُ الْأَثَرَ، يُقَالُ لُغَةً: «عَفَتِ الريحُ الْأَثَرَ» أي: مَحَتْهُ وَدرَسَتْهُ، فَلَمْ تُبْقِ في مَكَانِهِ شيئاً يدُلُّ عَلَيْهِ.

فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَتفَضَّلُ عَلَىٰ عِبَادِهِ فيَمْحُو سَيِّئَاتِهِمْ مَحْواً كَامِلاً، فَلَا يُبْقِي لَهَا أثراً.

وضُمِّنَ فِعْلُ: «يَعْفُو» مَعْنَىٰ فِعْل: «يَتَجَاوَزُ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْفِ «عَنْ» أي: فاللهُ يَمْحُو أَثَرَ سَيِّئَاتِ عِبَادِه المؤمِنين التائبينَ مُتَجَاوِزاً عَنْهَا.

والْعَفْوُ: دَرَجَةٌ أَعْلَىٰ مِنْ دَرَجَةِ المغْفِرَةِ؛ لِأَنَّ الْعَفْوَ مَحْوٌ، أمَّا المغْفِرَةُ فَسَتْرٌ. **والسَّيِّئَاتُ**: تَشْمَلُ صُغْرَىٰ المعاصِي وكُبْراها، ويُرادُ بِها في كثير من النصوص صُغْرَاها.

والْتَفَتَ الْبَيَانُ مِن الْغَيْبَةِ إلى الْخِطَابِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لعباده: ﴿.. وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: وهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، يَعْلَمُ كُلَّ مَا تَفْعَلُونَ، مِنْ أَعْمَالٍ ظَاهِرةٍ وَأَعْمَالٍ باطِنَةٍ، جَسَدِيَّةٍ وَنَفْسِيَّة، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَة.

وفِي القراءَةِ الْأُخْرَى دُون الْتِفَات: ﴿.. وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ﴾، فَتَكَامَلتِ القِرَاءَتَانِ في الْأَدَاءِ البياني خِطاباً وغَيْبَةً.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً بَيَانَهُ بِشَأْنِ فَرِيقي المؤمنين والْكَافِرِين:

- ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فَالَّذِين تَابُوا فآمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ المعبِّراتِ عن صحَّةِ إيمانِهِمْ وصِدْقِهِمْ فيه، يَسْتَجِيبُونَ لِمَا يَتَلَقَّوْنَ تِباعاً مِنْ أوامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ، آناً فَآناً، وكانَ هٰذا الْبَيَانُ بِمَثَابَةِ إِعْدَادِ نُفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، لاِسْتِقْبَالِ مَا سَيَنْزِلُ من أحْكَامٍ وأوامِرَ وَنَوَاهِي بَعْدَ سُورَةِ (الشُّورىٰ) مِنْ سُوَر.

يَسْتَجِيبُونَ: أي: يُطِيعُونَ، والْمُرَادُ هُنَا أَنَّهُمْ يُطِيعُون الله ورَسُولَهُ ﷺ، بفِعْلِ الواجباتِ وَتَرْكِ المحَرَّمَاتِ.

وَهٰـؤُلَاءِ يَزِيدُهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَيُوَفِّقُهُمْ لِأَدَاءِ نوافِلِ الطَّاعَاتِ والْقُرُبَاتِ بِدَوَافِعَ مِنْ قُلُوبهم، ليضاعِفَ أُجُورَهم، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ثَوَاباً، بِمُضَاعَفَةِ الْأُجُور المقَرَّرَةِ عَلَىٰ الأعْمَالِ الّتي يَعْمَلُونَها طَاعَةً لِرَبِّهِمْ وابْتِغاءَ مَرْضَاتِه.

أَمَّا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ لَمْ يَتُوبُوا فَلَمْ يُؤْمِنُوا ولَمْ يُسْلِمُوا فَلَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ شَدِيد.

العذاب: اسْمٌ لِلْعِقَاب والنَّكَالِ الّذي يُحْدِثُ في أجْهِزَةِ الإحْسَاسِ آلَاماً. وهو اسْمُ مَصْدَر: «عَذَّبَهُ تَعْذِيباً».

وأَصْلُ الْعَذَاب كُلُّ مَا يَشُقُّ عَلَىٰ النَّفْسِ وَيُؤْلِمُها.

الشّديد: الْقَوِيُّ، الصَّعْبُ، ذُو المقْدَارِ الزَّائِدِ المؤلِمِ أَلَماً كبيراً.

وبهٰـذا تَـمَّ تَـدَبُّـر الـدَّرْس الـسـادس مـن دُروس سـورة (الـشـورى). والحمد للهِ على معونته، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

* * *

(١١)

التدبّر التحليليّ للدّرْس السَّابع من دُروس سورة (الشورى) الآيتان (٢٧ و٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

القراءات:

(٢٧) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، ويَعْقُوب: [يُنْزِلُ] مِنْ فعل «أَنْزَلَ» المهموز.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يُنَزِّلُ﴾ مِن فعل «نَزَّل» المضعف.

القراءتان مُتكافئتان، فالمضعَّفُ أخو المهموز.

(٢٨) • قرأ نافع، وابْنُ عامر، وعاصم، وأَبُو جعفر: ﴿يُنَزِّلُ الغَيْثَ﴾ من فعل «نَزَّلَ» المضعَّف.

وقرأها بَاقِي الْقُرّاء العشرة: [يُنْزِلُ الْغَيْثَ] من فِعْلِ «أَنْزَل».

والقراءتان مُتكافِئَتَانِ.

تمهيد:

في آيَتَيْ هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ حِكْمَةِ اللهِ في عَدَمِ بَسْطِ الرِّزْقِ لعباده، وأنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ هُوَ الَّذِي يُهَيِّئُ لِلنَّاسِ أسْبَابَ أَرْزَاقِهِمْ على وَفْقِ حِكْمَتِه، وَوِلَايتِهِ لَهُمْ، وصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي لَهُ بِها كَمَالُ الْحَمْد. وأنَّهُ تبَارَكَ وَتعَالَىٰ خَبِيرٌ بَصِيرٌ بعِبَادِهِ.

وأنَّهُ حِينَ يُمْسِكُ الغيث بِحِكْمَتِهِ فإنَّهُ قَدْ يُمْسِكُهُ حَتَّى يَقْنَطُوا، وبَعْدَ أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ القُنُوطِ يُغِيْثُهُمْ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ.

التدبّر التحليلي:

ربطاً بما جاء في الآية (١٢) من هـٰذه السُّورة بشَأْنِ الرِّزْق، إذْ جَاءَ فيها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

جاء في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ السَّابِعِ، بَيَانُ الْحِكْمَةِ مِنْ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْسُطِ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ في حَيَاة الابْتِلَاءِ، وبَيَانُ أَنَّهُ قَدْ يُضَيِّقُ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَقْنَطُوا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَفْتَحُ لهم أَبْوابَ الرِّزْقِ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾:

بَسْطُ الرِّزْق: تَوْسِعَتُهُ.

الْبَغْيُ: الكِبْرُ والظُّلْمُ والْفَسَادُ والإِفْسَادُ فِي الأَرْضِ.

- ● ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾: أي: لَا يَبْسُطُ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ بَسْطاً يَجْعَلُهُمْ يَبْغُونَ بَغْياً طُغْيَانِيّاً فَاحِشاً، وَلَكِنْ يُنَزِّلُ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَشَاءُ، بِقَدَرٍ تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه.

فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ خَبِيرٌ بِعِبَادِهِ بَصِيرٌ بهم.

الْخَبِير: الْعَالِمُ بالشَّيءِ عَنْ تَجْرِبَةٍ وَمُمَارَسة. ولفظ «الْخَبِير» اسْمٌ مِن أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عِلْمِ اللهِ الشَّامِلِ لِكُلِّ أجْزَاءِ الْأَشْيَاءِ وصِفَاتِهَا الثَّابِتَةِ والْمُتَحرِّكَةِ، ومَا بَيْنَهَا مِنْ تَلَاؤُمٍ أَوْ عدمِ تَلَاؤُم، وهُوَ صيغة مبالغة لاسم الفاعلِ «خابر».

البصير: ذو الْبَصَرِ الّذي يُدْرِكُ بِبَصَرِهِ المرْئِيَّاتِ. ولَفْظُ «البصير» اسْمٌ من أَسْمَاءِ الله الحسْنَىٰ، فهو تبارك وتعَالَىٰ يَرَىٰ كُلَّ شيءٍ يُمْكِنُ أنْ يُرَىٰ.

المعنى: إنَّ اللهَ لَمْ يُوسِّع الرِّزْقَ لِعِبادِه مُؤْمِنِيهم وكَافِرِيهِمْ، تَوْسِعَةً دَائِمَةً تُوصِلُهم إلَىٰ حَدِّ الْبَغْيِ الطَّاغِي طُغْيَاناً فَاحِشاً في الأَرْضِ؛ لِأَنَّهُمْ في حَيَاةِ الابْتِلَاءِ ذَوُو إرادَاتٍ حُرَّةٍ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ هـٰذا الْبَغْيِ الطَّاغي.

ولَوْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِم الرِّزْقَ تَوْسِعَةَ فَيْضٍ، لَبَغَوْا في الأَرْضِ بَغْياً

شَنِيعاً، قَدْ تقتضي الحِكْمَةُ مِنْ بَعْدِهِ إِبَادَتَهُم، لِتَطْهِيرِ الأَرْضِ مِنْ شُرُورِهِم.

وَلَكِنْ جَعَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِمْدَادَهُمْ بِالرِّزْق مُقَدَّراً بِالمقادِيرِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا مَشِيئَتُهُ الْحَكِيمة، إِذْ هُوَ عَلِيمٌ بِنُفُوسِ عِبَادِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ عِلْمَ خِبْرَةٍ، وَبَصِيرٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي كَوْنِهِ، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شيءٌ مِمَّا يُمْكِنُ إِبْصَارُهُ بالإمكان العقلي.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾:

الغيث: المطر، وقيل: الخاصُّ بالْخَيْرِ من المطر، **أقول**: هذا هُوَ الأَظْهَرُ، واللهُ أعلم.

القُنُوط: أَشَدُّ الْيَأْسِ. يُقَالُ لغة: «قَنَطَ، يَقْنُطُ، وَيَقْنِطُ، قُنُوطاً، وقَنَاطَةً» أي: يَئِسَ أَشَدَّ الْيَأْس. ويقالُ أيْضاً: «قَنِطَ، يَقْنَطُ».

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ﴾: أي: وَيَنْشُرُ آثَارَ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِه، بَعْدَ إِنْزَالِ الغَيْثِ، أَرْزَاقاً وَإِنْعَامَاتٍ كَثِيرَاتٍ عَلَىٰ مَسَاحَاتٍ واسِعَاتٍ مِنَ الأَرْضِ يَسْتَمْتِعُ بِها الْعِبَادُ.

الْوَلِيُّ: هُنَا بِمَعْنَىٰ الرَّبّ المنْعِم، من معانيه الكثيرة، وهو اسْمٌ مِنْ أَسْماء اللهِ الحسنى.

الحميد: أي: المحمُودُ حَمْداً كثيراً عَظِيماً عَلَىٰ كُلِّ صِفَاتِهِ وأفْعاله، إِذْ لَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ الْحَمْدُ كُلُّهُ.

أي: وَمِنْ سُنَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا ضَيَّقَ الرِّزْقَ عَلَىٰ عِبَادِهِ، أَنْ يَحْبِسَ الْغَيْثَ، وبِحَبْسِهِ يَحْدُثُ قَحْطٌ فِي الأَرْضِ، حَتَّىٰ تَحْدُثَ مَجَاعَاتٌ، وَقَدْ يُطِيلُ اللهُ زَمَنَ الْقَحْطِ عَلَىٰ الْعِبَادِ، حَتَّىٰ يَشْتَدَّ يَأْسُهُمْ وَيَقْنَطُوا مِن اسْتِئْنَافِ إِمْدَادِ اللهِ لَهُمْ بِالْغَيْث.

عِنْدَئِذٍ تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أنْ يُغِيثَهُمْ، وَيَنْشُرَ آثارَ رَحْمَتِهِ رِزْقاً نَافِعاً، يَسُدُّ حَاجَاتِهِم الْمُخْتَلِفَاتِ مِنْه.

وَهو ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ الرَّبُّ الْمُنْعِمُ، وَهُوَ المحْمُود الَّذِي لَهُ الْحَمْدُ كُلُّه، في كُلِّ صِفَاتِهِ وأفْعَالِهِ، وَتَصَارِيفِهِ، ومِنْهَا تَقْدِيرُ الْأَرْزَاقِ وَتَوْسِعَتُها بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ في امْتِحَانِ عِبَادِه فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

ومِنَ الثَّابِتِ في براهِينِ الْعَقْلِ وَدَلَالَاتِ النُّصُوصِ، أَنَّ مَشِيئَتَهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، فِي كُلِّ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرسِ السّابع من دُروس سورة (الشورى). والحمد لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وتوفيقه، ومِنَّتِهِ، وَفَتْحه.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (الشورى)
الآيات من (٢٩ ـ ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

القراءات:

(٣٠) • قرأ نافع، وابن عَامر، وأبو جَعْفر: [**بِمَا كَسَبَتْ**].

وقرأهَا بَاقي القرّاء العشرة: ﴿**فَبِمَا كَسَبَتْ**﴾ بالفاء قبل «بما».

(٣٢) ● قرأ نَافع، وأبو عَمْرو، وَأبو جعفر: [**الْجَوَارِي**] بإثْبَاتِ الْيَاءِ وَصْلاً، وكَذَلِك اَبْن كثير ويَعْقُوب وَصْلاً وَوَقفاً.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: ﴿**الجوار**﴾ بحَذْفِ الياء وصْلاً ووقْفاً.

وهُمَا وَجْهَانِ جَائِزَانِ في النُّطْقِ.

(٣٣) ● قرأ نَافع، وأبُو جعفر: [**الرِّيَاحَ**] بالجمع.

وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: ﴿**الرِّيحَ**﴾ بالإفراد، وهو اسْمُ جنْسٍ يَشْمَلُ كُلَّ أَنْوَاعِ الرِّيَاحِ.

(٣٥) ● قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وَأبو جَعْفر: [**وَيَعْلَمُ**] بالرَّفع.

وقَرأَهَا بَاقي القرّاء العشرة: ﴿**وَيَعْلَمَ**﴾ بالنَّصب.

تمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذا الدَّرسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، مَعَ بَيَانِ حِكْمَتِهِ فِي بَعْضِ تَصَارِيفِهِ مِنَ الْمَكَارِه، ومَعَ تَحْذِير الكافِرِينَ مِنْ نِقْمَتِهِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُعَجِّلَ عِقَابَهُمْ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ بَعْضَ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، وأنَّهُ كَمَا خلَقَ الْأَحْيَاء في الأَرْضِ، هُوَ حِينَ يَشَاءُ إِحْيَاءَهُمْ بَعْدَ الموتِ فإنّه قَدِيرٌ عَلَىٰ إِحْيَائِهِمْ، وَجَمْعِهِمْ يَوْمَ الحشْرِ:

● ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

آيَاتُ اللهِ: الْعَلامَات الدَّالّاتُ عَلَىٰ وُجُودِهِ مِنْ خِلَالِ إِدْرَاكِ صِفَاتِه،

الَّتِي بِهَا خَلَقَ هـٰذا الكَوْنَ الْعَجِيبَ المتْقَنَ، الَّذِي دَلَّت صِفَاتُهُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ بِخَلْقِ خَالِقٍ قَدِير مُتْقِنٍ حَكيم.

السَّماواتُ: كُلُّ الْكائِنَاتِ العظيماتِ، الْمُحِيطَاتِ ـ في الْبُعْدِ الَّذِي لَا يُدْرِكُ الناسُ لَهُ نِهايَةً ـ حَوْلَ الأَرْض، فلفظ السَّماءِ في اللُّغَةِ كلُّ ما عَلَا فأَظَلَّ.

الأَرْض: الكَوْكَبُ الَّذِي يَعِيشُ عَلَيْهِ النَّاس.

- ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾: أي: وَمَا نَشَرَ في السَّمَاوَاتِ والأرض مِنْ دَابَّةٍ هِيَ مِنْ خَلْقِهِ، وَمُحَاطَةٌ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

الْبَثُّ: النَّشْرُ والتَّفْرِيقُ، يقال لغةً: «بَثَّ الشيءَ، يَبُثُّهُ، بَثّاً» أي: فَرَّقَهُ ونَشَرَهُ في مُخْتَلِفِ الْجِهات.

دَابَّة: لفظٌ يُطْلَقُ علىٰ كُلِّ ما يَمْشي عَلَىٰ أَرْضٍ ما، وأرىٰ أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلى كُلِّ ذي حَياةٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ، فَكُلُّ ذِي حَيَاةٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ لَهُ مَشْيٌ عَلَىٰ شيء مَا فيهما، والْمَلَكُ بهـٰذا المعنَىٰ دَابَّةٌ، والجِنيُّ دَابَّة، والطُّيُورُ وحَيَوَانَاتُ الأَرْضِ دَوَابُّ.

وصَحَّ في دَلَالَاتِ النُّصُوصِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ يَوْم القيامَةِ الْإِنْسَ والجنَّ والملائِكَةَ وَالْبَهائِمَ، والْغَرَضُ مِنْ حَشْرِ الْبَهَائِمِ إِقَامَةُ الْعَدْلِ بَيْنَهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهَا كُوني تُراباً.

فقول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿..وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تبارَكَ يَبْعَثُ كُلَّ ذِي حَيَاةٍ يَوْمَ القيامَةِ، ويَجْمَعُهُمْ فِي الْمَحْشَرِ يَوْم الْجَمْعِ حِينَ يَشَاءُ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشاءُ قَدِيرٌ، إِنَّما أَمْرُهُ إذا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ شيئاً، فإِنَّما يَقُولُ لَهُ: «كُنْ» فَهُوَ يكُونُ بأمْرِ التَّكْوِين الرَّبَّاني.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِعِبَادِهِ:

- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾:

وفي القراءة الْأُخْرَىٰ: [**بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**] دُون «فاءِ» قبل «بما».

الْمُصِيبَة: كُلُّ مَكْرُوهٍ يَنْزِلُ بالْحَيِّ ذي الإحْسَاسِ بألَمِ المَكْرُوهِ، وَجَمْعُها «الْمَصَائِب» عَلَىٰ غَيْرِ قياسٍ، إذِ القياس «المصاوِب».

أي: وَمَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا الْعِبَادُ مُصِيبَةٌ عَامَّةٌ، لِمُجْتَمَعٍ مِنْ مُجْتَمَعَاتِكُمْ، إلَّا بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ مِنْ آثَامٍ كُبْرَىٰ، جزاءً، أَوْ تَرْبِيَةً، أَوْ تَذْكِيراً بالْجَزَاءِ الْأَكبر.

أَمَّا المصائِبُ الْفَرْدِيَّةُ غَيْرُ الْجَمَاعِيَّةِ فَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَىٰ أَنَّها قَدْ تَكُونُ للابْتِلَاء، وقَدْ تَكُونُ لِلتَّرْبِية، وقد تَكُونُ للجزاء.

ومن الْحقَائِقِ الثَّابتَةِ، أَنَّ تَصَارِيفَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِعِبَادِهِ كُلَّهَا حَكِيمَة، وأنَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ أَحْكَمُ الْحَاكِمين، وأنَّ مَشيئَاتِهِ كلَّها حَكِيمَة.

- ﴿..وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وَيَمْحُو مِنْ سِجِلِّ المؤاخَذَةِ كثيراً مِنَ الذُّنُوب، مُتَجاوِزاً عَنِ المؤاخذَةِ عَلَيْهَا.

والتقدير على قراءة [**بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**]: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ عَامَّةٍ فَهِي عُقُوبَةٌ لَكُم بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً للمشركين الّذين جرَتْ معالَجَتُهُمْ في السُّورة، ويُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَشْبَاهُهُمْ:

- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾﴾:

- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أَيْ: وَمَا أَنْتُمْ بِقَادِرِينَ عَلَىٰ الإفْلَاتِ مِنْ عَذَابِ رَبِّكمْ، إذَا قَضَتْ حِكْمَتُهُ بأَنْ يُنْزِلَ بِكُمْ عَذَابَهُ، عُقُوبَةً لَكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَجرَائِمِكُمْ.

- ﴿..وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١)﴾: أي: وَلَا يُوجَدُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ يَتَوَلَّىٰ حِمَايَتَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ رَبِّكُمْ؛ لأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ وَلِيٌّ مَهْمَا كَانَ مُحِبّاً لَكُمْ، أَنْ يُوقِفَ شَيْئاً مِنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه، وَلَا يَسْتَطِيعُ نَصِيرٌ أَنْ يَنْصُرَكُمْ فَيَمْنَعَ نُزُولَ عَذَابِ اللهِ فيكم.

«مِنْ» في: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مَزِيدَةٌ للتوكيد. وهي دَاخِلَةٌ على المـبْتَدَأ، والخبر مُقَدَّم وهو: ﴿وَمَا لَكُم﴾، وعبارَةُ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في مَوْقِعِ حَالٍ مُقَدَّمٍ على «وَلِيّ ونصير».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ عَرْضَ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ:

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾: وفي القراءة الْأُخرى: [وَيَعْلَمُ] بالرَّفْع.

- ﴿ٱلْجَوَارِ﴾: بِحَذْفِ الياء إيجازاً في اللَّفْظ، وقُرِئ بإِثْباتِها كما سبَقَ: «الجواري»، وَهِي جَمْعُ «الجارية»، والمراد بالجواري السُّفُنُ العظيمَةُ الّتي تَجْرِي في الْبَحْرِ، وهي صِفَةٌ لموصوفٍ مَحْذُوف.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أَيْ كَالْجِبَال. مُفْرَدُهَا «الْعَلَمُ»، فَمِنْ مَعَانِيهِ في اللُّغة الجبل، وجَمْعُهُ الْأَعْلَام، وتَشْبِيهُ السُّفُنِ بالأَعْلَامِ هُو المراد هُنَا بِقَرِينَةِ أَنَّها تَجْرِي في الْبَحْرِ بِتَأْثِيرِ الرِّيَاحِ في أَشْرِعَتِها.

- ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾: أي: يَبْقَيْنَ رَوَاكِدَ، يُقَالُ لغة: «ظَلَّ فُلَانٌ عَلَىٰ طَاعَتِهِ» أي: اسْتَمَرَّ يُدَاوِم عَلَىٰ طَاعَتِه، ويُقال: «ظَلَّ فُلَانٌ يَفْعَلُ كذا» أي: اسْتَمَرَّ يَفْعَلُهُ نَهَاراً، لَا يُقَالُ هٰذا إلّا في عَمَلِ النَّهَار. والمرادُ هُنَا المعنَىٰ الأوّل؛ لِأَنَّ رُكُودَهَا لَا يَقْتَصِرُ على النَّهار.

- ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾: أي: سَوَاكِنَ ثوابتَ لَا تَجْرِي إلى حَيْثُ يُرِيدُ

رُبَّانُها أَوَ رُكَّابُهَا. وجَاءَ التعبيرُ عَنِ الْمَاءِ الأَعْلَىٰ فِي الْبَحْرِ بِأَنَّهُ ظَهْرُهُ، تَشْبيهاً بِظَهْرِ الدَّابَّةِ الَّتِي يُرْكَبُ عَلَيْها، وبُنِيَتْ عَلَىٰ هَـٰذَا التَّشْبِيهِ الاسْتِعَارَة.

- ﴿.. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: إِنَّ فِي طَفْوِ السُّفُنِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي هِي كالْجِبَالِ عَلَىٰ سَطْحِ الماء، وفي جَرَيَانِهَا بالرِّياحِ قَدِيماً، وبالطَّاقَةِ الحراريَّة بَعْدَ ذَلِكَ، وَقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ إِسْكَانِ الرِّيَاحِ إِنْ شَاءَ، وَتَعْطِيلِ الْمُحَرِّكَاتِ الأُخْرَىٰ الَّتِي تَعْمَلُ بالطَّاقَةِ الْحَرَارِيَّة، لآيَاتٍ هي عَلَامَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ إِتْقَانِ صُنْعِ اللهِ لِكَوْنِهِ، وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ: وَإِتْقَانُ الصُّنْعِ يَدُلُّ عَلَىٰ عِلْمِهِ الْعَظِيمِ المحيطِ بِكُلِّ شيءٍ، وَعَلَىٰ قُدْرَتِهِ الَّتِي يَخْلُقُ بِها مَا يَشَاءُ. وَعِنَايَتُهُ بِعِبادِه تَدُلُّ عَلَىٰ رَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ بِهِمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، الَّتِي تَقْتَضِي مِنْهُمْ أَنْ يُؤَدُّوا وَاجباتِ شُكْرِه.

وَلَـٰكِنَّ الإِدْرَاكَ الْعِلْمِيَّ لِلنِّظَامِ السَّبَبِيِّ، الَّذي نَتَجَتْ عَنْهُ ظَوَاهِرُ الطَّفْوِ، وَإِجْرَاءِ السُّفُنِ بالرِّيَاحِ الخاضِعَةِ لِأَمْرِ اللهِ وَتَدْبِيرِه، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا صَبَّارٌ في الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، يَعْمَلُ مُجْتَهِداً بِدَأَبٍ لِبُلُوغِ الْمَعْرِفَةِ الحقّ.

ولَا يَنْتَفِعُ مِنْ إِدْرَاكِ عَظِيمِ صِفَاتِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبادِه، فِي سُلُوكِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا، إِلَّا شَكُورٌ لِرَبِّهِ سَابِقٌ في الخيراتِ بإِذْنِ اللهِ.

- ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾: أي: أَوْ يُهْلِكِ السُّفُنَ بالأَمْوَاجِ والرِّيَاحِ، تَكْسِيراً وَتَحْطِيماً، وَقَدْ يَفْعَلُ فِيهِنّ شَيْئاً دُونَ ذَلِكَ، كَحَبْسِهِنَّ فِي صُخُورٍ عَلَىٰ الشَّوَاطِئِ أو في البحر، وَكَصَدْمِهِنَّ وَإِذْلَالِهِنَّ وَتَعْطِيلِهِنَّ عَنِ الْحَرَكَة، فَهَـٰذِهِ الاحْتِمَالَاتُ يَدُلُّ عَلَيْهَا فعل «أَوْبَقَهُ».

يُقَال لُغَةً: «أَوْبَقَهُ» بمعنى «أَهْلَكَهُ» وبمعْنَىٰ «حَبَسَهُ» وبمعْنَىٰ «ذَلَّلَهُ».

- ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كَسَبَ رُكَّابُهَا مِنْ كُفْرِيَاتٍ وجَرائِمَ،

فَهُوَ إنْ يَشَأْ يَفْعَلْ شَيْئاً مِنْ هٰذِهِ الاحْتِمَالَاتِ في سُفُنِهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ جَرَائِمِهِمْ.

- ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾: أي: وَمَعَ مَا يُعَاقِبُ بِهِ، فإنَّهُ بِرَحْمَتِهِ إنْ يَشَأْ مُعَاقَبَتَهُمْ يَعْفُ عَنْ كثيرٍ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، مَاحِياً مِنْ سِجِلّ الْعِقَابِ المؤاخَذَةَ عَلَيْها.

- ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾:

هٰذِهِ الآيَة مَوْصُولَةٌ بِمَا جَاءَ فِي سورة (غافر/ ٤٠ نزول) أُولَىٰ «الْحَوَامِيم السَّبْع» في الآيات (٤) و(٣٥) و(٥٦) و(٦٩) بِشَأْنِ الَّذِين يُجَادِلُون فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أتَاهُم، نَظراً إلَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ السُّوَرَ تَكادُ تَكُونُ سُورَةً واحِدَة ذَاتَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، وهِيَ بِحِكْمَةِ اللهِ مُنْفَصِلَةٌ إلَىٰ سَبْعِ سُوَر.

﴿وَيَعْلَمَ﴾ وفي الْقِراءَة الْأُخْرَىٰ: **[وَيَعْلَمُ]** معْطوف بالواو، أو الواو حَرْف اسْتِئْنَافٍ، وفي كلِّ الْأَحْوَالِ لَيْسَ المعْنَىٰ عَلَىٰ أَنَّهُ تَابعٌ لِجَوَاب الشَّرْط. ويجوزُ في الْفِعْلِ هُنَا الجزْمُ، والرَّفْعُ، والنَّصْبُ. فالْجَزْمُ يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ العطف على لفظ الجواب دُون اشْتِراكٍ في المعنى، والرَّفْعُ يَكُونُ من قبيلِ الاسْتِئنَاف، والنَّصْبُ يَكون بِأَنْ مُضْمَرَة وُجُوباً، وَجَازَ النَّصْبُ لِشَبَهِ الشَّرْطِ بالاسْتِفْهَامِ فِي عَدَمِ التحقُّق، والتقدير في حالة النَّصْبِ: ونُجْرِي هَـٰذِهِ التصاريف لِيَعْلَمَ الَّذِينَ يجادِلون في آياتِنا ما لهم مِنْ محيص.

- ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: أي: مَا لَهُمْ مِنْ مَهْرَبٍ، ولا مَعْدِلٍ، ولَا محيد.

يُقَالُ: لُغَةً: «حَاصَ عَنِ الشَّيْءِ، يَحِيصُ، حَيْصاً، ومَحِيصاً، وحَيَصَاناً» أي: حَادَ عَنْهُ، وعَدَلَ، وحَاوَلَ الْهَرَب.

وَ«مِن» في ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ زِيدَتْ فِي المبتَدأ المتأخِّرِ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي.

فالمعنى: وَمِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ أَنَّهُ جَعَلَ مِنْ قَوانِينِهِ، أَنْ تَطْفُوَ السُّفُنُ الكُبْرَىٰ المشبَهَةُ لِلْجِبالِ، وَتَجْرِيَ بالرِّياحِ عَنْ طَرِيقِ تَوْجِيهِ أَشْرِعَتِهَا، وَيُقَاسُ عَلَيْهَا السُّفُنُ الَّتِي تَجْرِي بالطَّاقَةِ الْحَرارِيَّةِ المُحَرِّكَةِ لِمَكَناتِها وَدَوَالِيبِهَا.

وَهُوَ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بأَمْرِهِ، وَبإِسْكَانِ الرِّيحِ تَتَوَقَّفُ السُّفُنُ، فَتَكونَ رَوَاكِدَ سَوَاكِنَ لَا تَجْرِي. ويُقَاسُ عَلَىٰ إِسْكَانِ الرِّيحِ تَعْطِيلُ الْآلَاتِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بالطَّاقَةِ الْحَرارِيَّة، وَلَمْ يَتَعَرَّض النَّصُّ لَهَا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَوَصَّلَ إلى اكْتِشَافِها عِنْدَ إِنْزَالِ القرآن.

إنَّ فِي هٰذِهِ الْقَوانِينِ الكونِيَّةِ الدّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ قَدْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، والدَّالَّةِ عَلَىٰ عِنَايَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادِهِ، لَآيَاتٍ كَثِيرَاتٍ ذَوَاتِ دَلَالاتٍ عَظِيمَاتٍ عَلَىٰ عِلْمِ اللهِ الْمُحِيطِ، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَة، وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء، وَلَا يَصِلُ إلى إِدْرَاكِ دَقَائِقِ إِتْقَانِ صُنْعِ اللهِ وَتَدَابيره السَّنِيَّةِ إِلَّا كُلُّ صَبَّارٍ في البَحْثِ الْعِلْمِي، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا لِدِينِهِ وَلآخِرَتِهِ إِلَّا كُلُّ شَكُورٍ يَشْكُرُ الله مِنْ مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ أو مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ.

فإِنْ لَمْ يُسْكِنِ الرِّياحَ فَمِنَ الاحْتِمَالَاتِ أَنْ يَخْتَارَ تَحْطِيمَ السُّفنِ، أَوْ حَبْسَها، أو تَعْطِيلَها وَجَعْلَها غَيْرَ صَالِحَةٍ لِأَنْ تَجْرِي في الْبَحْرِ، لِتَأْدِيَةِ النَّاسِ مَصَالِحَهُمْ مُسافِرِينَ عَلَىٰ ظُهُورِها.

وإِنْ أَنْزَلَ اللهُ هٰذا الْعِقَابَ لِرَاكِبِي السُّفُن عَلَىٰ بَعْضِ جرائِمِهِمْ يَعْفُ عَنْ كثير مِنْها، وَلَا يُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا كُلِّها، رَحْمَةً بِهِمْ وَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

وَحِينَ يُنْزِلُ اللهُ هٰذا الْعِقَابَ بالمذنِبِينَ المجْرِمِين، وحِينَ يَعْرِض في كِتَابِهِ هٰذا الْبَيَانَ، فَمِنْ الْأَغْراضِ أَنْ يَعْلَمَ الّذِينَ يُجادِلُون في آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتاهُمْ، والَّذِينَ جَاءَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ في سُورَة (غافِر/ ٤٠) أُولَىٰ

(الْحَوامِيم السَّبْع) أَنَّهُمْ إِذَا أَرادَ اللهُ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ عَذَابَهُ، فَمَا لَهُمْ مِنْ مَهْرَبٍ يَهْرُبُونَ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُمْ مِنْ مَعْدِلٍ يَمِيلُونَ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَلْجَؤُونَ إِلَيْه، فالْكَوْنُ كُلُّهُ مِلْكُهُ، وهُمْ مُحَاطُونَ بِسُلْطَانِهِ، وَوُجُودُهُمْ وَقُواهُمْ إِمْدَادٌ مِنْهُ، مَتَىٰ شَاءَ سَلَبَ مَا شَاءَ مِنْهُمْ، أَوْ أَنْزَلَ بِهِمْ مَا شَاءَ، مِنْ تَعْذِيبٍ فإِهْلَاك.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثامن من دُروس سورة (الشورى). والحمد للهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وتَوْفِيقِه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

* * *

(١٣)

التدبر التحليلي للدّرس التاسع من دُروس سورة (الشورى) وهو الآيات من (٣٦ ـ ٤٣)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

القراءات:

(٣٧) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وَخَلَف: [**كَبِيرَ الإِثْم**] بإفراد لفظ «كَبِير»، أي: كلَّ كبير الإثم.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ بالجمع للفظ «كَبِيرة»، ومُؤَدَّىٰ القراءَتَيْنِ وَاحد.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ تَزْهِيدٌ بمَتَاعَاتِ الحياة الدنيا، وإطْمَاعٌ بِمَا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

وفيها حَثٌّ على الْتِزَامِ بَعْضِ فَضَائِلَ مِنَ السُّلُوكِ الإسلاميّ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ.

وفيها بيانُ أنَّ أَخْذَ الْحَقِّ بالْعَدْلِ لَا يُلامُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُ، لَكِنَّ الْعَفْوَ والصَّفْحَ وَالإصْلَاحَ والصَّبْرَ خَيْرٌ وأفْضَلُ عند الله، ولِمَنِ اخْتَارَ ذَلِكَ ثَوَابٌ جَزِيلٌ عِنْدَ رَبِّه، فاخْتِيَارُ هـٰذِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَحْتَاجُ إرَادَةً قَوِيَّةً مِنْ مُسْتَوىٰ الْعَزْمِ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابَعَةً لقضيَّةِ بَسْطِ الرِّزْقِ وتضييقه:

• ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣)﴾:

مُتَابعَةً في الْبَيَانِ لِقَضِيَّةِ الرِّزْقِ الَّتي سَبَقَ الحديث عَنْهَا في الآية (١٢)

وفي الآية (٢٧) من هـٰذه السُّورَة، وهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ الإنْسَانُ في الحياة الدُّنيا أو يَنْتَفِعُ به، جاء هُنَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

أي: إتْبَاعاً لِقَضِيَّةِ الرِّزْقِ الَّتِي سَبَقَ الْحَدِيثُ عَنْهَا، بأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِر، فاعْلَمُوا أيُّهَا النَّاسُ أَنَّ مَا تَتَنافَسُونَ فِي جَمْعِهِ وَامْتِلَاكِهِ والانْتِفَاعِ بِهِ مِنْ زِينَاتِ الحياةِ الدُّنْيا، أَمْوالِهَا، وقُصُورِهَا، ومَزَارِعَهَا، ومَرَاكِبها، ومَطَاعِمِها ومَشَارِبِها، وَمَنَاكِحِهَا، وَسَائِرِ مَا يَسْتَهْوِيكُمْ مِنْ لَذَّاتِها وشَهَوَاتِها وَمَا تَتَفَاخَرُونَ بِهِ مِنْها، حَتَّىٰ الْمُلْكِ والسُّلْطَانِ فيها، وَيُؤْتِيكُمُ اللهُ بِتَقْدِيره وقضائِهِ وحِكْمَتِهِ شيئاً مِنْ ذَلِكَ، فَكُلُّه مَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيا.

وصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُ «مَتَاعٌ» تَزْهِيداً فِيهِ، إِذِ المتَاعُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مُؤَقَّتاً وَهُوَ سَرِيعُ الزَّوالِ، وقَلِيلُ الْقِيمَةِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ نَعِيمِ الآخِرَة، مَهْمَا كَانَ مَتَاعاً عظيماً فِي نَظَرِ النَّاس.

وَجَاءَ في بَيَانَاتٍ أُخرَىٰ، أَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي عِبَادَهُ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا بِحِكْمَتِهِ، لِيَبْلُوَ كُلّاً مِنْهُمْ فيما آتاهُ مِنْها، إِذِ الحياةُ الدُّنْيَا حَيَاةُ ابْتِلَاء واخْتِبَارٍ، لَا حَيَاةُ إِقَامَةٍ دَائِمَةٍ واسْتِقْرار، أَمَّا الآخِرَةُ ففيها يَكُونُ الْخُلُودُ والْقَرارُ في سعادةٍ دائِمَةٍ للمؤمنين المتقين، أو عَذَابٍ أَلِيمٍ لِلْكَفَرَةِ والْفُجَّار.

وأَبَانَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ مَا عِنْدَهُ مِمَّا ادَّخَرَهُ لِبَعْضِ عِبَادِهِ المؤمنينَ المتَّقِين خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿. . وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . .﴾:

أَيْ: وَمَا عِنْدَ اللهِ مِمَّا أَعَدَّهُ لِبَعْضِ عِبَادِهِ المؤمنين المتقين، خَيْرٌ فِي قِيمَتِهِ، بِعَنَاصِرِ ذاتِهِ كُلِّها، وبِصِفَاتِهِ كُلِّهَا، مِنْ كُلِّ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا،

وَهُوَ أَبْقَىٰ، أي: أَكْثَرُ بَقَاءً لِأَنَّهُ خَالِدٌ بِتَجَدُّدِه دَواماً، وَعَدَمِ انْقِطَاعِ أَجْنَاسِهِ وأَنْوَاعِهِ وأَصْنَافِهِ، والتَّنَعُّم بِهِ.

وأَبَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طَائِفَةً مِنْ صِفَاتِ مُسْتَحِقِّي المقْدَارِ العظيم مِنْ هٰذا الْجَزاءِ الرَّبَّانِي يَوْمَ الدِّينِ، فَذَكَرَ مِن صِفَاتِهِمْ عشْرَ صِفَاتٍ، تُشْعِرُ بأَنَّهُمْ ارْتَقَوْا فَوْقَ سَقْفِ مَرْتَبَةِ الْمُتَّقِينَ كامِلِي التَّقْوىٰ، وَتَرَقَّوْا فِي دَرَجَاتِ الْأَبْرَارِ، بالأعْمَالِ الصالِحَةِ مِنَ النوافل:

الصِّفَةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في النصّ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي: لِلَّذِينَ آمَنُوا إيمَاناً صَحِيحاً صَادِقاً بِمَا أَوْجَبَ اللهُ الإيمان بِهِ، فِيمَا اصْطَفَىٰ لِعِبَادِهِ من الدِّين.

الإيـمان: هُو التصديقُ الإراديُّ الْقَلْبِيُّ المحَرِّكُ للعاطفة بِمُقْتَضَىٰ عَنَاصِرِه، والموجِّهُ للسُّلُوكِ.

الصِّفَةُ الثَّانِيَة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي النَّصِّ: ﴿.. وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦﴾: أي: وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ وَحْدَهُ يَتوَكَّلُونَ فِي أُمُورِهِمْ كُلِّهَا، مَعَ قِيَامِهِمْ بالْأَسْبَابِ الَّتِي أَوْجَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ دَعَا إِلَىٰ اتِّخَاذِها.

التَّوَكُّلُ علىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إِلَيْهِ، وَتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الأمُور وتحقِيقِ مَا يَرْجُو المتوكِّلُ إِلَيْه، مَعَ قِيَامِهِ بالْأَسْبَابِ المادِّيَّةِ والمعْنَوِيَّةِ المسْتَطَاعَةِ، طَاعَةً لِأَمْرِهِ ونَهْيِه.

الصِّفَةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في النصّ: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ..﴾:

اجْتِنَابُ الشَّيْء: الابْتِعَادُ عَنْهُ، وعَدَمُ الاقْتِرَابِ مِنْهُ، والأمْرُ باجْتِنَابِ عَمَلٍ مَا أَشَدُّ مِنَ النَّهْيِ عَنْ فِعْلِهِ؛ لأنَّ الاجْتِنَاب يَسْتَدْعِي وُجُود فَاصِلٍ بَيْنَ المأمُورِ بالاجْتِنَابِ، وبَيْنَ الشَّيْءِ أو الْعَمَلِ المأمُور باجْتِنَابِه، بخلاف النَّهْي عَنِ الْعَمَل فإنَّهُ لَا يَسْتَدْعي وُجُود فَاصِلٍ ما.

كَبَائر: جَمْعُ «كَبِيرَة».

الإِثْمُ: الذَّنْبُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ مُرْتَكِبُهُ الْعُقُوبَة عَلَيْه، وجمْعُهُ: «الْآثَام».

وجاء في القرآن بَيَانُ أنَّ المعاصِي الَّتِي يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلٍّ مِنْها لَفْظُ «الإثم» مِنْهَا مَا هُو مِنَ الكبائر، وَمِنْهَا مَا هُو دُونَ ذَلِكَ بالتَّدَرُّجِ، حَتَّىٰ الصَّغَائِرِ الصُّغْرَىٰ.

فَمِنْ صِفَاتِ هـٰؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْم، ومِنْ هـٰذِهِ الكبائر ما يلي: «الشِّرْكُ ـ أَكْلُ الرِّبا ـ أَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بالباطل ـ كِتْمَانُ الشَّهَادَةِ الَّتِي يُضَيِّعُ كِتْمانُهَا حَقَّاً لِلْعِبَادِ ـ قَذْفُ أَهْلُ الْعِفَّة ـ شربُ الخمر ـ افْتِرَاء الكذِبِ على الله ـ الظُّلْمُ والعدوان ـ قَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْر حَقّ ـ الْغِيْبَةُ والنَّمِيمَة».

الصِّفَةُ الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا فِي النّصّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي: وَيَجْتَنِبُونَ الْفَوَاحِشَ كُلَّها.

الفواحِش: جَمْعُ «الْفَاحِشَة»، وهِي في اللُّغَةِ الْقَبِيحُ من الْقَوْلِ والفِعْلِ، وكُلُّ خَصْلَةٍ قَبِيحَة.

وقَدْ نَظَرْتُ في الاسْتِعْمَالَاتِ القرآنِيَّة لهـٰذِهِ المادَّةِ اللُّغَوِيَّة، فَوَجَدْتُ أَنَّهَا تَدُورُ حَوْلَ الكَبَائِرِ المُتَعَلِّقَةِ بِشَهَوَاتِ الْفُرُوجِ، ومنها الزِّنَا، وَعَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، وَإِتْيَانُ الْبَهَائِم.

الصِّفَة الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا في النصّ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿..وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: «ما» زائدة لِتَوكيد ارْتباطِ الشَّرْطِ بالْجَزاء.

أي: وَإِذَا أَسَاءَ إِلَيْهِمْ مُسِيءٌ، أو اسْتَثَارَ غَضَبَهُمْ مُؤْذٍ أَوْ ذُو عُدْوَان فَأَغْضَبَهُمْ، فإِنَّهُمْ يَسْتُرُونَ إساءَتَهُ أَوْ إِيذاءَهُ، وَيَتَجاوَزُونَ عَنْ مُؤَاخَذَتِهِ.

الصِّفَةُ السّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا في النَّصّ قولُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟

لِرَبِّهِمْ ..﴾: أي: والَّذِينَ أطَاعُوا رَبَّهُمْ فَحقَّقُوا بِطاعَتِهِمْ لَهُ ما طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُحقِّقُوهُ، مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ.

وهَـٰذا يَشْمَلُ الاسْتِجَابَةَ لِكُلِّ أَوَامِرِه، وَلِكُلِّ نَوَاهِيهِ، الْجَسَدِيَّة والنَّفْسِيَّة، ولَوْ كَانَ لَا يَقْتَضِي التَّكْرَارَ والمواظبَة.

الصِّفَةُ السَّابِعة: دَلَّ عَلَيْها في النَّصِّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أَدُّوا الصَّلاةَ المفْرُوضَةَ مُداوِمِينَ ومُوَاظبِينَ عليها في أَوْقَاتِها، علىٰ الوجْهِ الشَّرْعي المطْلُوبِ فيها.

يقال لغة: «أَقَامَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ» أي: أَدَّاهُ مُداوِماً علىٰ أَدائِه، ومُواظباً عليه، وَمُوَفِّياً حَقَّهُ.

وخُصَّتْ إِقامَةُ الصلاةِ بالذِّكْرِ للدَّلَالَة عَلَىٰ وَجُوبِ الاهْتِمَام بها، والعِنَايَةِ بالْمُحافَظَةِ عَلَيْها، لِأَنَّها أُولَىٰ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ إِعْلَانِ الشَّهادَتَيْن.

الصِّفَة الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْها في النَّصّ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: **الشُّورَىٰ**: اسْمٌ للتَّشَاور. ويُطْلَقُ عَلَىٰ الْأَمْرِ الّذِي يَتَشَاوَرُ الْمُتَشَاوِرُونَ فيه.

يُقَالُ لغة: «شَاوَرَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ فِي أَمْرٍ، مُشَاوَرَة، وشِواراً» أي: طَلَبَ رَأْيَهُ فيه. ويُقَال: «اشْتَوَرَ الْقَوْمُ، وتَشَاوَرُوا» أي: شَاوَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. ويُقَال: «اسْتَشَارَ المرْءُ حَكِيماً فِي أَمْرٍ» أي: طَلَبَ رَأْيَهُ فيه.

مِنْ مَفَاخِرِ الإِسْلَامِ في نُظُمِهِ، أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ مَتْرُوكٍ لِتَنْظِيمَاتِ الْمُسْلِمِين وَتَدْبِيرَاتِهِمْ، وإِصْدَارِ الْقَرَارِ فِيه، خَاضِعٌ لنظام الشُّورى، أي: لِتَشَاوُرِ أَهْلِ الْحَلِّ والْعَقْدِ في الأمْرِ الموضوع للتَّشَاوُر، ولاتّخاذ قرارٍ بِشَأْنِه.

والْأَكْثَرِيَّةُ في هَـٰذِهِ الْأُمُور أَكْثَرِيَّةٌ مُلْزِمَةٌ، بِخلَافِ مَا لِلَّهِ أو لِرَسُولِهِ ﷺ

فِيهِ حُكْمٌ، فَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَّا الْعَمَلُ بِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فِيهِ.

والرَّسُولُ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، يُشَاوِرُ أَهْلَ الْحَلِّ والْعَقْدِ في الأُمُورِ الإِدَارِيَّة والسِّيَاسِيَّة والْحَرْبِيَّة ونَحْوِهَا، طَاعَةً لِأَمْرِ اللهِ لَهُ بأنْ يُشَاوِرَهُمْ تَكْرِيماً لَهُمْ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُلْزَم بأَنْ يأْخُذ بِرَأْيِ الأَكْثَرِية، بَلْ إِذَا عَزَمَ عَلَىٰ أَمْرٍ نَفَّذَهُ مُتَوَكِّلاً عَلَىٰ اللهِ؛ لِأَنَّهُ مُسَدَّدٌ بالْوَحْي.

وقَدْ أَوْفَيْتُ هَـٰذا الْأَمْرَ بَحْثاً، فِي كِتَاب «كواشِفُ زُيُوفٍ في المذاهِب الفكريَّة المعاصِرَةِ»، في الباب الثالث من الْقِسْم الثّالِثِ من الكتاب: «النُّظُم السِّيَاسِيَّة المعاصرة» فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ، فَفِيهِ تَفْصِيلَاتٌ وَبَيَانَاتٌ كافِيَاتٌ مَعَ الأدِلَّة مِنَ النُّصُوص، ومَعَ التَّعْلِيلِ وَالتحليل.

الصِّفَةُ التاسِعة: دَلَّ عَلَيْها من النّصّ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿.. وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: وَيُنْفِقُونَ بَعْضاً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ إِيَّاه، بِحَسَبِ حَاجَةِ المسْلِمِينَ في المرحَلَةِ المكِيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها سُورَة (الشورى) إذْ لم يَكُنْ قَدْ حُدِّدَتْ نِسْبَةُ الزَّكَاةِ المفْرُوضَة علىٰ الْأَمْوَال.

«مِنْ» في «مِمَّا» للتَّبْعِيضِ. والفِعْلُ في «يُنْفِقُونَ» فِعْلٌ مُضارِعٌ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ آناً فآناً مِنَ الْفَائِضِ عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَحَاجَاتِ أُسَرِهِمْ، في الخَيْرَاتِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ.

أَصْلُ الإنْفَاقِ إِفْنَاءُ المال وإِنْفَادُه، وَجَرَىٰ الاسْتِعْمَالُ مُنْذُ عَهْدِ التَّنْزِيلِ على مَعْنَىٰ بَذْلِ المالِ أَوْ قِسْمٍ مِنْهُ في أمْرٍ ما، سَواءٌ أَكَانَ طَاعَةً أَمْ مَعْصِيَة.

ولكِنَّ المرادَ هُنَا بَذْلُ الْمَالِ في طَاعَةِ اللهِ، وفي مُقَدِّمَتِها فُقَراءُ الْمُسْلِمِينَ وَمَسَاكِينُهُمْ، ومَا يُحَقِّقُ تَأْيِيدَ الإِسْلَامِ وانْتِشَارَه، ومَا تَقُومُ بِهِ مَصَالِحُ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّة.

الصِّفَة الْعَاشِرَة: دَلَّ عَلَيْهَا مِنَ النَّصّ قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

الْبَغْي: الاعْتِداءُ، والظُّلْمُ، في الْأَنْفُسِ أو فِي الْأَمْوَالِ أو نَحْوِهِما.

ذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هَـٰذَا الْوَصْفَ، مِنْ أَوْصَافِ الَّذِينَ لَهُمْ أَجْرٌ عِنْدَهُ يَوْمَ الدِّينِ هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ مِنْ كُلِّ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا، وفيهِ إِذْنٌ لَهُمْ بأَنْ يَنْتَصِرُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ، في حُدُودِ قولِهِ تعالَىٰ عَقِبَ ذَلك:

- ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾: أي: وَلَوْ كان المعْتَدِي الباغِي كافراً، فَجَزاءُ الْبَاغِي بِسَيِّئَةٍ أَنْ لَا يَكُونَ زَائداً علَىٰ سَيِّئَتِهِ، إِلْزَاماً بالْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ به.

وَرَغَّبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الَّذِينَ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ في أنْ يَعْفُوا وَيُصْلِحُوا، وَوَعَدَهُمْ بِأَجْرٍ خَاصٍّ زَائِدٍ عَلَىٰ أَجْرِ أَمْثَالِهِمْ الّذِينَ يَنْتَصِرُونَ لِأَنْفُسِهِم، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ فِي النَّصِّ:

- ﴿...فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

في هذا الْبَيَانِ تَرْغِيبٌ فِي الْعَفْوِ عَنْ إِسَاءَاتِ المسِيئِينَ مِنَ المشْرِكِينَ في الْعَهْدِ المكّي لِلمُؤْمِنِينَ المسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ هَـٰذا الْعَفْوَ يُخَفِّفُ مِنْ حِدّةِ الصِّرَاعِ، ويُبَيِّنُ لِجُمْهُور الْكَافِرِين أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَصْحَابُ فَضَائِلَ خُلُقِيَّةٍ تَعَلَّمُوهَا مِنَ الإِسْلَام، فَهُمْ لَا يُقَابِلُونَ السَّيِّئَاتِ بِمِثْلِهَا، بَلْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ، وَهَـٰذا يُمَثِّلُ دِعَايَةً وَدَعْوَةً عَمَلِيَّةً لِلإِسْلام، مَعَ قُدْرَةِ المظْلُوم الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ عَفَا لِأَنَّ دِينَهُ يُرَغِّبُهُ في هَـٰذا الْعَفْو، وَيأْجُرُهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِ، وفيهِ وَعيد للظَّالِمِينَ بالْعِقَابِ أخذاً مِنْ كنايَةِ أَنَّ اللهَ لا يُحِبّهم.

وَعِبَارَةَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ذَاتُ دَلَالَتَيْن:

الدَّلَالَةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُ بِعَفْوِهِ يُصْلِحَ نُفُوسَ كَثِيرٍ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا

لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، إِذْ كَوْنُهُ مَظْلُوماً، وَقَادِراً عَلَىٰ مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا، يَجْعَلُ قُلُوبَهُمْ تَعْطِفُ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ، وَتُكْبِرُ خُلُقَهُ الإِسْلَامِيَّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ، فَيَمِيلُونَ إِلَىٰ الدُّخُولِ في الإِسْلَامِ، وَهَـٰذا إِصْلَاحٌ عَظِيمٌ لِنُفُوسهم.

الدَّلَالَةُ الثَّانِيَةُ: دَعْوَةُ المظْلُوم المؤْمِنِ الْمُسْلِمِ إِلَىٰ إِصْلَاحِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ظَالِمِهِ، إِذَا كَانَتْ بَيْنَهُمَا خُصُومَةٌ مَالِيَّةٌ أَوْ غَيْرُهَا، بِوَسَائِلِ الإِصْلَاحِ المَعْرُوفَةِ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ، مَعَ عَفْوِه عمَّا نَالَهُ مِنْ أذىً.

وفي كِلْتَا الدَّلَالَتَيْنِ عَمَلٌ دَعوِيٌّ يُسَاعِدُ عَلَىٰ انْتِشَارِ الإِسْلَام، وَتَحْبِيبِ قُلُوبِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ به، وهـٰذا أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ بانْتِصَارِ الْمُسْلِمِ لِنفْسِهِ، وَمُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا.

وَلِتَأْكِيدِ حَقِّ المظْلُومِ بِأَنْ يَنْتَصِرَ بالْعَدْلِ لِنَفْسِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ في النَّصّ:

- ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾:

«مَنْ» فِي ﴿وَلَمَنِ﴾ شَرطِيَّة رُوعِيَ لَفْظُها المفرد في جُمْلَةِ الشَّرْط، ورُوعِيَ مَعْنَاهَا الْجَمْعِيُّ في جُمْلَة جَوَابِ الشَّرْط: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

أي: وَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ كُلَّ مَنِ انْتَصرَ لِنَفْسِهِ فِي حُدُودِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ فَأُولَـٰئِكَ الْفُضَلَاءُ لَا يُوجَدُ سَبِيلٌ يُوصِلُ إِلَىٰ لَوْمِهِمْ أَوْ مُؤَاخَذَتِهِمْ عَلَىٰ انْتِصَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بالْعَدْلِ، إِذْ هُمْ يَمْلِكُونَ الْحَقَّ الدِّينِيَّ والْعَقْلِيَّ المقْبُولَ لَدَى الْعُقُولِ وَفِطَرِ النُّفُوسِ في أَنْ يَنْتَصِرُوا لِأنفسهم.

وَجَاءَت عِبَارَةُ: ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾: أي: مِنْ بَعْدِ أَنْ يَظْلِمَهُ ظَالِمُهُ قَيْداً لَازِماً، وَالْغَرَضُ مِنْهُ أَنْ لَا يُبادِرَ الْمُسْلِمُ بالانْتِقَامِ تَخَوُّفاً مِنْ أَنْ يُظْلَمَ؛ لِأَنَّهُ بهـٰذا يَكُونُ هُوَ البادِئَ بالظُّلْم.

وَأَبَانَ اللهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ هَـٰذا أَنَّ السَّبِيلَ الموصِلَ إِلى اللَّوْمِ،

والمؤاخَذَةِ، والْعِقَابِ، مُنْحَصِرَةٌ فِي السَّبِيلِ الْمُسَلَّطَةِ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاس، فَقَالَ اللهُ تَعالَىٰ:

- ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: مَا السَّبِيلُ الموصُوفُ بالحقِّ والْعَدْلِ، الْمُوصِلُ إلى إقَامَةِ الجزَاءِ الْعِقَابِيِّ علَىٰ مُسْتَحِقِّه، إلَّا السَّبِيلُ الْمُسَلَّطُ بِسُلْطَانِ الْحَقِّ والْعَدْلِ عَلَىٰ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ، وَيَعْتَدُون بُغَاةً فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

أُولَٰئِكَ الْمُنْحَطُّونَ الْمُجْرِمُونَ الْبُغَاةُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ عَذَابٌ أَلِيم، ولَهُمْ بِأَحْكَام الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ في الدِّينِ عَذَابٌ أَلِيمٌ، يُجْرِيهِ السُّلْطَانُ الزَّمَنِيّ الَّذِي يُنَفِّذُ أَحْكَامَ اللهِ الْعَدْلِيَّة، بِحَسَبِ جرائم المجْرِمِينَ، وبَغْيِ الْبُغَاةِ الظَّالِمِينَ.

وَمَعَ تأْكِيدِ حَقِّ المظْلُومِ المعْتَدَىٰ عَلَيْهِ بأَنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ بالْعَدْلِ دُونَ زِيادَةٍ عَلَىٰ حَقِّهِ، ضِمْنَ قاعدة: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ أبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فَضْلَ مَنْ يَصْبِرُ وَيَغْفِرُ، وأَنَّهُ مِنْ ذَوِي الإرادَة الْقَوِيَّةِ جِدّاً، ومِنْ ذوي الْقُدْرَةِ عَلَىٰ ضَبْطِ نَفْسِهِ عِنْدَ مُثِيراتِ غَضَبِهِ، فقال اللهُ تَعالَىٰ في النَّصّ:

- ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾:

- ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾: يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مُؤَكِّداً بلام الابتداء، وباختيار الجملة الاسميَّة، أَنَّ مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ إساءَةِ مَنْ أَساءَ إِلَيْهِ، وَظُلْمِ مَنْ ظَلَمَهُ، فَلَمْ يَجْزِهِ بِمِثْلِ سَيِّئَتِهِ، وَلَمْ يُطَالِبْ بِحَقِّهِ في الجزاء.

الصَّبْر: قُوَّةٌ خُلُقِيَّةٌ مِنْ قُوَىٰ الإرَادَةِ، تُمَكِّنُ الإنْسَانَ مِنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ لِتَحمُّلِ المتاعِب والمشقّات والآلام، وضَبْطِهَا عَنِ الانْدِفَاعِ بِعَوَامِلِ الضَّجَرِ أَوِ الْجَزَعِ أو السَّأَمِ أو الْمَلَلِ أو الْعَجلَةِ أو الرُّعُونَةِ، أو الْغَضَبِ أو الطَّيْش، أو الْخَوْفِ أو الطَّمَعِ، أو الْأَهْوَاءِ والشَّهوَاتِ والغرائز.

﴿وَغَفَرَ﴾: أي: وَغطّىٰ إِسَاءَةَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَنْشُرْهَا، وتَجاوَزَ عَنْ مُجَازَاتِهِ بِمِثْلِ سَيِّئَتِهِ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾: أي: إِنَّ ذَلِكَ الْخُلُقَ الرَّفِيعَ، وَالسُّلُوكَ الْبَدِيعَ، لَمِنْ إرادَةِ الْأُمُورِ الصَّعْبَةِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ النُّفُوسِ، الَّتِي تَحْتَاجُ إرادَةً قَوِيَّةً جِدّاً هِيَ مِنْ مُسْتَوىٰ الْعَزْمِ، وهُوَ أَقْوَىٰ الإِرَادَاتِ الَّتِي تَتَفَاضَلُ فِي قُوَّاتِها، مِنْ أَدْنَىٰ الإِرَادَاتِ الصَّالِحَةِ لِبَذْلِ جُزْءٍ مِنْ دِرْهَمٍ في الصَّدَقَاتِ، إِلَىٰ أَقْوَىٰ الإِرَادَاتِ الَّتِي يَبْذُلُ بِهَا الْمُتَصَدِّقُ كُلَّ مَا يَمْلِكُ، أَوْ يُضَحِّي بِهَا الْمُجَاهِدُ بِحَيَاتِهِ كُلِّها.

وَلِهَٰذَا جَاءَ وَصْفُ بَعْضِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلام بأَنَّهُمْ أُولُو الْعَزْمِ؛ لِأَنَّهُمْ صَبَرُوا علَىٰ أَشَدِّ المؤلِمَاتِ في مَسِيراتِهِم الدَّعَوِيَّة، وتَحَمَّلُوا أَشَدَّ المؤذِيَاتِ والمتاعِبِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ، فَكَانُوا المثَلَ الْأَعْلَىٰ فِي عَزْمِ الْأُمُورِ بِإِرَادَاتٍ هِيَ مِنْ أَسْمَىٰ الإِرَادَاتِ الْبَشَرِيَّةِ قُوَّةً⁽¹⁾.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس التاسع من دُروس سورة (الشورى). والحمدُ لله على معونته، ومَدِه، وتَوْفيقه، ومِنَّته، وفَتْحِه.

* * *

(١٤)

التدبر التحليلي للدّرسِ العاشر من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٤٤ ـ ٤٦)

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ

---

(١) انْظُرْ «الفصل الرابع» من «الباب الأول» من كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرس بَيانُ أَنَّ مَنْ يَحْكُم اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ، فَلَا وَلِيَّ لَهُ مِنْ بَعْدِ اللهِ يَسْتَطِيع أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بالْهِدَايَةِ، لِيُنْجِيَهُ مِنْ عَذَاب اللهِ يَوْمَ الدِّين.

وفيها عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ يَوْمَ القيامَةِ وهُمْ أَذِلَّاء خَاشِعُونَ، يَنْظُرُونَ إِلَىٰ أَمَاكِنِ عَذَابِهِمْ وَإِلَىٰ كُلِّ مَنْ فِي المَحْشَرِ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، رَهْبَةً من الْعَذَابِ، وَخَجلاً مِنَ الْخِزْيِ الَّذِي هُمْ فيهِ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ الْحُكْمَ بالضَّلَالِ والْهِدَايَةِ لَهْ وَحْدَهُ:

- ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ .. ﴿٤٤﴾﴾:

أي: وَمَنْ يَحْكُم اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَةِ، ويَقْضِي بِمُعَاقَبَتِهِ بِحَسَبِ ضَلَالَتِهِ، فَمَا لَهُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مِنْ وَلِيٍّ مُحِبٍّ لَهُ مِنْ بَعْدِ اللهِ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بالْهِدَايَةِ، وأنْ يَرْفَعَ عَنْهُ عِقَابَ اللهِ الَّذِي قَضَىٰ بِهِ عَلَيْهِ، إِذِ الْحُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شريك لَهُ.

والمُتَسَرِّعُونَ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ الأَلْفَاظَ بِحَسَبِ مَا يَتَبَادَرُ إلى أَذْهَانِهِمْ، دُونَ أَنَاةٍ وَتَفْكِيرٍ عَمِيقٍ، قد يَفْهَمُونَ مِنْ عِبَارَةِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْجَبْرِيِّينَ، أي: يَخْلُقُهُمْ ضَالِّين، وَهـٰذَا فَهْمٌ فَاسِدٌ مُعَارِضٌ لِمَا يُؤْخَذُ مِنْ مِئَاتِ النُّصُوصِ القرآنِيَّةِ، وَمَنْطِقِ الْعَقْلِ السَّدِيد والْفَهْمِ الرَّشيد.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَة:

• ﴿.. وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ . . .﴾:

يخاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ كُلَّ صالِحٍ لِلْخِطَابِ بأُسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفرادي، عَطْفاً عَلَىٰ خِطَابِهِ لَهُ في الآية (٢٢): ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾:

أي: وَلَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ حُضُورِ هـٰذا المشْهَدِ الآخَرِ من مَشَاهِدِ يَوْمَ القيامَةِ، أَيُّها المُتَلَقِّي لِبيَانَاتِ رَبِّكَ في هـٰذِهِ السُّورَة، لَكُنْتَ تَرَىٰ الظَّالِمِين الَّذِين سَبَقَ الحديثُ عَنْهُمْ، ولَكُنْتَ تَرَىٰ أَمْثَالهم:

يَقُولُونَ: هَلْ إلَىٰ رُجُوعٍ إلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلاءِ مِنْ سَبِيلٍ، وذَلِكَ لَمَّا رأَوْا مَكَانَ عَذَابِهِم ووسائِلَهُ فِي جَهَنَّم، رَجاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَتَّقُوا إذا رَجَعُوا.

الْمَرَدّ: الرُّجُوع، وهو مَصْدَرٌ مِيمِيّ من فعل «رَدَّهُ، يَرُدُّهُ، رَدّاً» بمعنى: أَرْجَعَهُ وَأَعَاده.

يُطْلَقُ لفْظُ «السَّبِيلِ» وهو بِمَعْنَىٰ: «الطريقِ» لُغَةً، وُيرادُ بِهِ وسيلَةٌ مَا، تُوصِلُ إلى تحقِيقِ المطْلُوب، وهـٰذا من التَّعْمِيمَاتِ المجازِيَّةِ في الاستعمال، ولَهُ أشْباهٌ وَأَمْثَالٌ كثيرة.

ولَكُنْتَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ جهَنَّم دَارِ عَذَابِهِمْ يَوْمَ القيامَة، خَاشِعِينَ خَاضِعِينَ خَائِفِينَ سَاكِنِين مُنْكَسِرين مِنَ الذُّلِّ الَّذِي هُمْ فيه، يَرْمُونَ بِأَبْصارِهِمْ إلَىٰ الأَرْضِ، وَيَنْظُرونَ إلى مَوَاقِعِ عَذَابِهِمْ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، وكذلِكَ إلى مَنْ يُشَاهِدُهُمْ أذِلَّاء مِنْ أَهْلِ المحشر خَجلاً.

الْخُشُوعُ: الخضُوعُ، والْخَوْفُ، والسُّكُونُ.

وَعَرْضُهُمْ عَلَىٰ دَارِ عَذَابِهِم يَدُلُّ عَلَىٰ تَقْدِيمِهِمْ إلَيْها لِيَرَوْا دَرَكَاتِهِمْ فيها.

مِنْ طَرْفٍ خفِيٍّ: الطَّرْفُ: الْعينُ، وتَحْرِيكُ الْجَفْنِ. **فالطَّرْف الْخفِيُّ**: هُوَ تَحْرِيكُ الْجفْنِ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ لَا يَرَاهَا النَّاظِرُونَ، بِرَفْعِهِ إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ، لِتَرَىٰ الْعَيْنُ بِسُرْعَةٍ، مَا يُرِيدُ النَاظِرُ أَنْ يَرَاهُ، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ مُشَاهِدُوهُ؛ لِأَنَّ جِفْنَهُ مُنْخَفِضٌ مُنْكَسِرٌ مِنَ الخوف والذّلّ. وقَدْ يَفْعَلُ مِثْلَ هٰذا الْخجُولُ في بَعْضِ حَالَاتِه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي النَّصِّ يَحْكِي مَقَالَةً يَقُولُهَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي مَوْقِفِ الحشْرِ، إِذْ يَرَوْنَ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ قَرِيبونَ مِنْ أبواب جهَنَّمَ، خَاشِعِينَ أَذِلَّاءَ، يَتَرَقَّبُونَ أَنْ يُقْذَفُوا فِيها:

﴿.. وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ .. ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَقَالَ الَّذِين آمَنُوا فِي مَوْقِفِ الحشْرِ، بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُم الْبُشْرَىٰ بأنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، وبَعْدَ أَنْ شَاهَدُوا أَهْلَ النَّارِ الْخالِدِينَ فِيهَا علَىٰ أبوابِهَا أَذِلَّاءَ خَاشِعِين: إنَّ أَخْسَرَ الْخَاسِرِينَ وَأَشَدَّهُمْ خُسْراناً هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وأَهْلِيهِمْ.

إِنَّ الحقيقَةَ تَنْكَشِفُ يَوْمَئِذٍ لجميعِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ، وبانْكِشَافِهَا يَشْعُرُ المؤمِنُونَ النَّاجُونَ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَاب النَّارِ بِنِعْمَةِ اللهِ وفَضْلِهِ عليهِم، ولَوْ كَانُوا مِنْ مُرْتَكِبِي كَبَائِر الإثْم، إِذْ سيَكُونُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَو ذَاقُوا نَصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بِحَسَبِ كبائِرهم الكُبْرَىٰ، فَيَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَإِنْ عُذِّبُوا لَا يَصِلُونَ إلىٰ دَرَكَةِ الْأَخْسَرِينَ، فَيَقُولُونَ مُؤَكِّدِين: إِنَّ الْخَاسِرِينَ حَقًّا كُلَّ شيءٍ، هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَلَا خُسْرَانَ أَعْظَمُ مِنْ هٰذا الْخُسْران، وَخَسَارَتُهُمْ أَهْلِيهِمْ تَكُونَ بِحِرْمَانِهِمْ مِنَ الْأُنْسِ بِهِمْ وَلَوْ في دَارِ الْعَذَاب.

كَيْفَ لَا يَكُونُ الْكَافِرُونَ هِمُ الْأَخْسَرِينَ يَوْمَ القيامة، وقَدْ خَسِرُوا كُلَّ

مَا يَمْلِكُونَ فِي وُجُودِهِم الْأَبَدِيّ، خَسِرُوا ذَواتهم، وصفاتهم، والْخَلَاصَ مِن الآلامِ في أزْمانِهِم الْأَبَدِيّة؟!!.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ في النَّصِّ يُبَيِّنُ سَبَبَ كَوْنِ الظَّالِمِينَ الكافِرين أَخْسَرَ الخاسِرين يوم الدِّين:

- ﴿... أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۝٤٥﴾:

﴿أَلَآ﴾: أداةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتَنْبِيهٍ، وتوكيد.

المقيم: الْبَاقي في مَكانِهِ لَا يَرْتَحِلُ عَنْه، فالْعَذَابُ المقيم هُوَ الْعَذَابُ الدَّائِمُ المسْتَمِرُّ فِي شِدَّتِهِ مَعَ تَوالِي الْأَزْمان.

فِي هـٰذه الْعِبَارَة بَيَانُ سَبَبِ كَوْنِ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِين أَخْسَرَ الْخَاسِرِينَ، وَهـٰذا يَظْهَرُ يَوْمَ الدِّين، وهُوَ أَنَّهُمْ بَاقُونَ فِي عَذَابٍ دائِم، لَا يَرْحَلُ عَنْهم وَلَا يَتَحَوَّل، إِذْ كَانُوا في الحياةِ الدُّنيا كَافِرِينَ كُفْراً أَبَدِيّاً، فَلَوْ أَحْيَاهُمْ رَبُّهُمْ في الدُّنْيا أَبداً لَاسْتَمَرُّوا كَافِرِينَ أَبداً.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ أنَّ الْكَافِرِينَ الظّالمين حِينَ مُحَاسَبَتِهِمْ، وَفَصْلِ القضاء بِشَأْنِهِم، والْحُكم عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ في عَذَاب النَّارِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ دُون اللهِ، ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ سبيلٌ لِلْخَلاصِ مِنْ حُكْمِ اللهِ عَلَيْهِمْ بالضَّلَال:

- ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾:

أي: وَمَا كان لهم حِينَ مُحَاسَبَتِهِمْ وَالْحُكْم عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ في عَذَابِ النَّارِ أَوْلِياءُ مِنْ دُونِ الله مُحِبُّونَ لَهُمْ، يَنْصُرُونَهُمْ فَيَدْفعُونَ عَنْهُم حُكْمَ اللهِ عَلَيْهِم بالعذاب الْأَبَدِي.

وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلالِ والْعَذَابِ الأَبَدِي فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ

يُوصِلُهُ إِلَىٰ الْخَلاصِ والنَّجاة، بَلْ عَذَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاقِعٌ فِيهِ لَا مَحالَة.

«مِن» في: ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ وَ«مِنْ» في: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النفي والتَّنْصِيصِ عَلَيْه.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس العاشر من دُروس سورة (الشورى). والْحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٤٧ ـ ٥٠)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

تمهيد:

في آياتِ هٰذا الدَّرسِ تَوْجِيهُ أَمْرٍ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّاسِ، أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِرَبِّهِم، مَعَ تَحْذِيرِهِ لَهُمْ مِنْ يَوْمِ الدِّينِ الَّذِي لا دَفْعَ لَهُ، وَلَا مَلْجَأَ فِيهِ يَلْجأُ إِلَيْهِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لِلْخَلاصِ مِنْ عَذابِ رَبِّهِم.

وفيها بيان وَظِيفَةِ الرَّسُولِ ﷺ بأَنَّهُ مُبَلِّغٌ، ولَيْسَ مُكَلَّفاً أَنْ يَكُونَ حَفيظاً علَىٰ النَّاس.

وفيها بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ الإنْسَانِ تُجاهَ مَا يَنالُهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، أَوْ يُصِيبُهُ مِمَّا يَكْرَهُ بِحِكْمَةِ الله.

وفيها بَيَانُ أَنَّ لِلَّهِ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وأنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشاء، وَأَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ يَهَبُ الْأَوْلَادَ للآباءِ والْأُمَّهاتِ، مِن إنَاثٍ وَذُكُورٍ علَىٰ مَا يَشَاء، وقَدْ يَجْعَلُ بَعْضَ عِبادِهِ مَحْرُومِينَ مِنَ الذُّرِيَّة، وكُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِعِبادِه، ورُبُوبِيّتِهِ لِكُلِّ مَا سِوَاه، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُخَاطِبُ عِبَادَهُ الموضوعِينَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان:

- ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾:

- ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾: أي: أَطِيعُوهُ فيما دَعَاكُمْ إلَىٰ الإيمَانِ بِهِ، وإلَىٰ فِعْلِهِ أو تَرْكِهِ إلْزاماً، بِتَعْبِيرٍ مُحقِّقٍ لِصِحَّة إيمانِكُمْ وصدْقِكُمْ فيه.

واختِيرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ هُنَا اسْمُ الرَّبِّ، لِلدَّلَالَةَ عَلَىٰ حَقِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِم، بأَنَّهُ رَبُّهُمْ المتَصَرِّفُ بِهِمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، خَلْقاً وإمْدَاداً، وحَيَاةً وَمَوْتاً، وَكُلَّ مَا يَجرِي فِيهِمْ وفي الكَوْنِ كُلِّهِ مِنْ حَوْلِهِم. ومِنْ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ: امْتِحَانُهُمْ، وتَكْلِيفُهُمْ، وَحِسَابُهُمْ، والحكْمُ عَلَيْهِمْ، وَجَزَاؤهم، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بهم.

- ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي يَوْمُ حِسَابِكُمْ وَجزائِكُمْ الَّذي يَبْدَأُ بِمَوْتِ كُلِّ واحِدٍ مِنْكُم، وتَكُونُ قِمَّتُهُ الْمُثْلَىٰ بَعْدَ بَعْثِكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ لِلْحِسَاب الْأَكْبَر، وفَصْلِ القضاء وَتَنْفِيذِ الجزَاءِ، في دار العذاب، أو دَارِ النَّعيم.

وَهـٰذا الْيَوْمُ لَا دَفْعَ لَهُ وَلَا مَنْعَ لَهُ، إذْ هُوَ مِنَ اللهِ تَقْدِيراً وقضاءً مُبْرَماً، وخَلْقاً وتصاريف، فَلا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ دَفعه.

الْمَرَدّ: مَصْدَر ميمي لفعل «رَدَّهُ، يَرُدُّهُ، رَدّاً» بمعنى: دَفَعَهُ وصَرَفَهُ ومَنَعَهُ. وسبَق بيان أنَّ هـٰذا الفِعْل يأتِي بِمَعْنَىٰ: أَرْجعَهُ.

جَاءَ وَصْف هـٰذا الْيَوْم بِصِفَتَيْن:

الْأُولى: أنَّهُ لَا دَفعَ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ دَافِعٍ ما.

الثّانية: أنّهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ، تقديراً، وقضاءً، وخَلْقاً.

- ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: ما لَكُمْ مِنْ مَعْقِلٍ وَلَا مَلاذٍ تَلْجؤُونَ إلَيْه، لِيَقِيَكُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَجَرائِمِكُمْ.
- ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾: كَلِمَة «نَكير» تَأْتِي وَصْفاً لِلْحِصْنِ الْحَصِين.

يقال لغة: «حِصْنٌ نَكِيرٌ» أي: حِصْنٌ حَصِين. وَتأتي بمعنى: «الإنْكار».

فَعَلَىٰ المعْنَى الأوّل: تكونُ العبارة بمعنى: وَمَا لَكُمْ مِنْ حِصْنٍ حَصِينٍ تَحْتَمُونَ فِيهِ، لِتَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ تَعْذِيبَ اللهِ لَكُمْ.

وعَلَىٰ المعْنَىٰ الثاني: تكُونُ العِبارَةُ بمَعْنَىٰ: وَمَا لَكُمْ مِنْ إنْكَارٍ لِمَا يُنْزِلُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُمْ مِنْ جَزَاءٍ بالْعَدْل.

ويُمْكِنُ حَمْلُ الْعِبَارَةِ علَىٰ المَعْنَيَيْنِ مَعاً، وهـٰذا هُوَ الْأَحَقُّ بالْفَهْم، لِمَا فِيهِ مِنْ دَلَالَةٍ أَكْثَرَ امْتِداداً وَعَطاءً فِكْرِيّاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِه ﷺ بِشَأْنِ الَّذِين تَجْرِي مُعالجتُهُمْ في السُّورة، وهم المشركون الكافِرُونَ الظَّالِمُون إِبَّانَ التَّنْزِيل:

- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ .. ﴿٤٨﴾﴾:

أي: فإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا فَلَمْ يُطِيعُوا بِالْإِيمان والعمل لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَبُّهُمْ، وَدَعْوَتَهُمْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ إِلَيْهِ بَلَاغاً عَنْ رَبّك.

جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ عَدَمِ الاسْتِجَابَةِ بِالإعْرَاضِ، الَّذِي هُوَ وَسَطٌ بَيْنَ الإِقْبَالِ والإدْبار؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي يُعْرِضُ عَنْهُ بِوَجْهِهِ، وَلَا يُقَابِلُهُ بِهِ، وَهَـٰذا أخفُّ حَالَاتِ عَدَمِ الاسْتِجَابَة، وأشَدُّ مِنْهُ الإِعْرَاضُ مَعَ النَّأْيِ، فالإِدْبَارُ، فَالتَّوَلِّي إِدْباراً وابْتِعَاداً، فالْمُشَاقَّةُ وإظْهَارُ الْعَدَاوَةِ، فإعْلَانُ المقاومَةِ بالْحَرْب.

- ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾: أي: فَلَسْت مُكَلّفاً أَنْ تُحَوِّلَهُمْ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإيمان والإسلام، ومِنَ الْعِصْيَانِ إِلَىٰ الطَّاعَة.

الْحَفِيظُ: المطالَبُ بِحَرَاسَةِ وَحِفْظِ مَا هُو مَأْمُورٌ بِحِفْظِهِ مُطَالَبَةً شَدِيدَةً، وَلَوْ بأسْلُوبِ الإِلْزَامِ والْقَهْر، كالْحَفِيظِ المطالَبِ بِحِفْظِ بُسْتَانٍ بِكُلِّ مَا فيه، أَوْ حِفْظِ قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ أو الْبقر، أو نَحْوِهِمَا، إِذْ هَـٰذا الْحَفِيظُ مُطَالَبٌ بِأَغْذِيَتِها، وبإيوائها، وحِمَايَتِهَا مِنَ الْعَوَادِي عَلَيْها، وَرَدِّ شَوَارِدِهَا إلى حَظَائِرِها، وَمُعَالَجَةِ مَرْضَاهَا، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

إِنَّ الْحَفِيظَ حَارِسٌ مُكْرِهٌ مُجْبِرٌ، ولَمْ يُرْسِلِ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ لِيَكُونَ عَلَىٰ النَّاسِ حفيظاً بهـٰذا المعْنَىٰ، إِذْ هُمْ ذَوُو إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَقَدْ وَهَبَهُمُ اللهُ جِهَازَ الإِدْرَاكِ والْفَهْمِ، والتَّحْلِيلِ والتركيب، وأَعْطَاهُمُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ الْعَقْلِ الْعِلْمِيِّ والْعَقْلِ الإرَادي، فالرَّسُولُ ﷺ لَيْسَ مُجْبِراً وَلَا مُكْرِهاً، ولَيْسَتْ وَظِيفَتُهُ وَظِيفَةَ حَارِسٍ حَفِيظ.

- ﴿.. إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ..﴾: أي: مَا عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَهُوَ تَوْصِيلُ مَا أمرَكَ رَبُّكَ بِإبْلَاغِهِ إِلَىٰ الناس، بالبيانِ الْكَلَامي، والْبَيَانِ الْعَمَلِيِّ، والْقُدْوَةِ الْحَسَنَة.

البلاغ: اسمٌ بمَعْنَىٰ المصْدَرِ الَّذي هو الإبْلَاغُ أو التبليغُ، وهُوَ إيصَالُ رِسَالَةٍ كَلامِيَّةٍ أَوْ غَيرِ كَلامِيَّةٍ إلَىٰ مَنْ أُرْسِلَتْ إلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديث عَنْ صِفَاتِ الإنسانِ التي جاءَ بيانُها في سُورَةِ (فُصّلت/ ٦١ نزول) في الآيات من (٤٩ ـ ٥١)، وفي سُوَرٍ أخرى قَبْلَها في نجوم التنزيل:

● ﴿..وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ بضَمِيرِ المتكلِّمِ العظيمِ بأنَّ مِنْ سُلوكِ الإنْسَانِ بالنَّظَرِ إلَىٰ مُعْظَمِ أَفْرَادِهِ أَنَّ لَهُ حَالَتَيْن:

الحالَة الْأُولى: أَنَّهُ إذا ذَاقَ بِفَضْلِ اللهِ نِعْمَةً هِيَ مِنْ آثار رَحْمَةِ اللهِ، وفُيوضِ عَطَاءاتِهِ لِعِبَادِه، فَرِحَ بها فَرَحَ بَطَرٍ واسْتِكْبَارٍ وَتَفَاخُرٍ وَتَعالٍ علَىٰ النَّاس، وَهـٰذا قد يَجُرُّه إلَىٰ الطُّغْيَان، وقد دَلَّ على هـٰذه الحالة قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ﴾، والمرادُ بالفرحِ الْبَطَرُ والْأَشَرُ، والْاسْتِكْبَارُ والتفاخُرُ والتَّعَالي على الناس، وهِيَ تَدْعُو إلى الْفُجُورِ والطُّغْيَان.

الحالة الثانية: أنَّه إنْ تُصِبْهُ سَيِّئَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَبَبِ ما قَدَّمَتْ يَدَاهُ مِنْ سَيِّئَاتٍ كُبْرَيَاتٍ، كَانَ يَؤُوساً قَنُوطاً، وَكَانَ ذَا دُعَاءٍ عَرِيض، كما جاء في سُورَة (فُصّلت/ ٦١ نزول) في الآيتَيْن: (٤٩) و(٥١)، وَلَمْ يُذْكَرْ جَزَاءُ الشَّرْطِ هُنَا اعْتِمَاداً على ما سَبَقَ بيانُهُ في سُورَةِ (فُصِّلَتْ)، إذْ مَوْضُوعُ سُورَةِ (الشُّورَىٰ) امتِدادٌ لِمَوْضُوعِ سُورَة (فصّلت).

فالْعِبَارَةُ في سُورَة (الشُّورى): ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هي عَلَىٰ تَقْدِير: فَهُمْ يَؤُوسُونَ قَنُوطُون، وَذَوو دُعاءٍ عَرِيضٍ. وجاءَ هُنَا التَّعْبِير بالْجَمْعِ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ المُرادَ بالإنْسَانِ بِعِبَارَةِ: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا

ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ..﴾ مُعْظَمُ أَفْرَادِ الإِنسان، وللدَّلالَة عَلَىٰ أَنَّ التَّعْمِيمَ بالْجَمْعِ يَكْفِي فِيهِ انْطِبَاقُهُ علَىٰ الْأَغْلَبِ من الْأَفْراد.

وَلمَّا كَانَ الإنْسَانُ فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ فَرِحاً بَطِراً طاغياً، كافراً بأَنْعُم اللهِ عَلَيْهِ، وَفي حَالَةِ المصِيبَةِ يَؤُوساً قَنُوطاً ضجراً وَذَا دُعَاءٍ عَرِيض، ولَوْ كانَ هُوَ بمَعَاصِيهِ سَبَباً في مُعَاقَبَتِهِ بِمَا يَسُوؤُه، كَانَ مِنْ مُطَابَقَةِ الواقِعِ أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ:

- ﴿..فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾: أي: فَمِنَ المؤكَّدِ حقّاً أَنَّ الإنْسَانَ بالنظر إلى غالِب أَفْرَادِ جِنْسِهِ كَثِيرُ الْكُفْرِ، كثير الجحود، يُنكِرُ الحقَّ وهُوَ عَالِمٌ بأنَّهُ حَقٌّ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ الرِّزْقِ الَّذِي تَكَرَّرَ الْحَدِيثُ عَنْهُ في هٰذِهِ السُّورَةِ، وَفِي سُوَرٍ نَزَلَتْ قَبْلَها، ومِنْها سورة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول)، وسورة (سبأ/ ٥٨ نزول)، وسورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول)، وهي صُورَةُ الرِّزْقِ بالذُّرِّيَّة بنِينَ وَبنَات:

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾:

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾: أَيْ: كُلُّ السَّماوات والْأَرْضِ وَكُلُّ مَا فِيهِما مَمْلُوكٌ لِلَّهِ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وهُوَ خَاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي كُلِّ شيء، خَلْقاً، وإمْدَاداً، وإعْدَاماً، وَحَيَاةً، وَمَوْتاً، وابْتِلَاءً وَجزاءً، وهَكَذا إلَىٰ سَائِرِ التَّصارِيفِ فِي كُلِّ شيءٍ مِنْ أصْغَرِ جُزْءٍ في الذَّرَّةِ، إلَىٰ أَكْبَرِ شيءٍ في الكَوْنِ، أحْيَاءً وَغَيْرَ أَحْياء.

- ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾: أي: يَخْلُقُ فِي الْوُجُودِ الحادِثِ كُلِّهِ ما يَشاءُ أَنْ يَخْلُقَهُ، إيجاداً مِنَ الْعَدَمِ وإِبْداعاً، أو إيجاداً لكائِنَاتٍ جَدِيداتٍ مِنْ

مَوْجُوداتٍ سَابِقَاتٍ، كَمَا خَلَقَ جَسَدَ آدمَ مِنْ تُرَاب، وكَمَا خَلَقَ الملائكة مِنَ النُّور، وكَمَا خَلَقَ الجانَّ مِنَ النَّار.

وَمَشيئاتُ اللهِ مُقْتَرِنَةٌ بِحِكْمَتِهِ المقْتَرِنَةِ بِعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ شيء، المقتَرِنِ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاء.

وَمِنْ خَلْقِهِ خَلْقُ الذُّرِّيَّاتِ الإنْسَانِيَّةِ، ضِمْنَ نِظَامِ التَّنَاسُل، وقد جَعَلَ اللهُ في فِطَرِ النَّاسِ حُبَّ الذُّرِّيَّةِ الْمُشْتَقَّةِ مِنْ أَجْسَادِهِم، وَإِذَا مَلَكُوا بَعْضَ الْأَسْبَابِ فإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ خَلْقَ الذُّرِّيَةِ لِأَنْفُسِهِمْ، بَلْ هُمْ يَتَرَقَّبُونَ أنْ يَهَبَ اللهُ لَهُمْ مِنَ الذُّرِّيَّةِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه.

والْقِسْمَةُ الْعَقْلِيَّةُ في تَوزيعِ هِبَةِ الذُّرِّيَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ أَوِ الْحِرْمَانِ منها، دُونَ النَّظَرِ إِلَىٰ نِسْبَةِ عَدَدِ الْأَوْلَاد الموْهُوبِينَ، تَنْحَصِرُ فِي أَرْبَعَةِ احْتِمَالَات:

الاحْتِمَالُ الأَوَّل: هِبَةُ الإنَاثِ فقط: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾.

الاحْتِمَالُ الثَّاني: هِبَةُ الذُّكُور فَقَط: ﴿. . وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.

جاءَ لَفْظُ الذُّكُور هُنَا مُعَرَّفاً بأداة التَّعْرِيفِ «ال» لِلإشْعَارِ بِأَنَّ النَّاسَ يُؤْثِرُونَ أَنْ يَهَبَهُمُ اللهُ الذُّكُور، فَهُمْ يُفَضِّلُونَ مَوَالِيدَ الذُّكُور على مَوَالِيدِ الْإِنَاث، وَلا سِيمَا القبائلُ الْعَرَبِيَّة، فَقَدْ كَانَ كثيرٌ مِنْهُمْ إذا بُشِّرَ بالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَهُوَ كظيم.

الاحْتِمَالُ الثالث: هِبَةُ الذُّكورِ والإنَاثِ معاً: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾: التَّزْويجُ قَرْنُ شيءٍ بشَيْءٍ آخر، والمراد هُنَا قَرْنُ صِنْفِ الذُّكُور بصِنْفِ الإناث، وَلَوْ لَمْ تَتَساوَ الْأَفْرادُ عَدَداً.

الاحْتِمَالُ الرَّابِعُ: الْحِرْمَانُ من الذُّرِّيَّةِ، ومِنْ صُوَرِهَا الْعُقْمُ في الزَّوْجَيْن أَوْ في أَحدِهِما: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾: **الْعَقِيمُ**: مَنْ كَانَ فِيهِ داءٌ أَوْ حَائِلٌ يَمْنَعُ التَّنَاسُلَ في الذَّكَرِ أَو الْأُنثى، يُقَالُ: رَجُلٌ عَقِيمٌ،

ورِجَالُ عُقْمَاءُ، وعِقَام. ويُقَالُ: امْرأَةٌ عَقِيمٌ، ونِسَاءٌ عَقَائِمُ، وَعُقُم.

وَلَمَّا كَانَتْ هٰذه الاحْتِمَالَاتُ الْأَرْبَعَةُ صَادِرَةً عَنِ الرَّبِّ الْخَالِقِ وَمَشِيئَتِهِ الحكِيمَة، كَانَ مِنَ المُنَاسِبِ فِي البيانِ التَّذْكِيرُ باسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، هُمَا: «عَلِيمٌ» و«قَدِير»، فقال تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾: أي: كَامِلُ الْعِلْمِ وَكَامِلُ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ مَا يَشاء.

وَبِهٰذا تَمّ تَدَبُّرُ الدَّرْس الحادي عَشَرَ مِنْ دُروس سورة (الشورى). والحمد لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِه، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، ومِنَّته، وفَتْحِه.

* * *

(١٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الشُّورَىٰ) الآيات من (٥١ ـ ٥٣) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

القراءات:

(٥١) ● قرأ نافع: [**أَوْ يُرْسِلُ**] بالرّفع، أي: أَوْ هُو يُرْسِلُ.

وقرأهَا بَاقي القراء العشرة: ﴿**أَوْ يُرْسِلَ**﴾ بالنَّصْبِ.

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جَائِزَان.

(٥١) ● قرأ نَافع: [فَيُوحِي] بالرَّفع، أي: فَهُو يُوحِي.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿فَيُوحِيَ﴾ بالنَّصْبِ عَطْفاً على ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾.

(٥٢) و(٥٣) ● قرأ قُنْبُل، وَرُوَيس: [سِرَاطٍ] و[سِرَاطِ] بالسِّينِ في الموضِعَيْن. وقرأهما بالصّاد مُشَمَّةً صَوْت الزاي: خلفٌ عن حَمْزَة.

وقرأهُمَا باقي القرّاء العشرة بالصَّادِ الْخَالِصَة: [صِرَاطٍ] و﴿صِرَاطِ﴾.

وهي وجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ في النُّطْقِ.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ وُجُوهِ التَّكْلِيم الَّذِي يُوَجِّهُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لأنبيائِه ورُسُلِه عَلَيْهِم السَّلام، وَبَيَانُ أَنَّهُ تباركَ وَتَعَالَىٰ أوحَىٰ إلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ضِمْنَ هـٰذِهِ الْوُجُوهِ القرآنَ وتَعَالِيمَ الدِّين، الَّتِي هِي رُوحُ سَعَادَةِ النَّاسِ، ونُورُ هِدَايَةِ منْ شَاءَ الْهِدَايَةَ مِنْهُمْ إلَىٰ صِرَاطِ اللهِ الّذي لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَصِيرُ الْمَوْضُوعِينَ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحان، لِلْحِسابِ وَفَصْلِ الْقَضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء.

التَّدَبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في تَحْدِيدِ أَنْوَاعِ تَكْلِيمِ اللهِ لِلْبَشَرِ وأفْضَلُهُمْ رُسُلُهُ وأَنْبِيَاؤه عَلَيْهِم السَّلام:

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

هـٰذِهِ الْآيَةُ مَوْصُولَةٌ بِمَا جَاءَ فِي صَدْرِ السُّورة عَنِ الْوَحْي، وأَنَّ الْوَحْيَ إِلَىٰ الرَّسُولِ محمّدٍ ﷺ مُشَابِهٌ للوَحْي إلى الرسُلِ والأَنْبياء عَلَيْهِم السَّلام مِنْ قَبْلِهِ.

وموصولَةٌ بِمَا جاء في الآيةِ (١٣) عَنِ الوحْي، وبما جاء في سُوَرِ «الْحَوامِيم» السَّابقَةِ عَنِ الوحْيِ، إذْ هِيَ فيما ظَهَرَ لِي سَائِرَةٌ عَلَىٰ خَطِّ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ.

وَفِي هـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ أنْوَاعِ تَكْلِيمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِبَشَرٍ مِنْ عِبَادِهِ، وأنَّهَا تَكُون عَلَىٰ أَنْوَاعٍ ثَلَاثَة، فَيُكَلِّمُ اللهُ مَنْ أَرَادَ تَكْلِيمَهُ بِوَاحِدٍ مِنْهَا أوْ أكْثَر، بِحَسَبِ مُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ جَلَّ جَلالُه:

- ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾: أي: ومَا جَعَلَ اللهُ بتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ الْحَكِيم، أنْ يُكَلِّمَ بَشَراً تَكْلِيماً مَا فِي الحياة الدُّنيا، إلَّا مَا جَاءَ اسْتِثْنَاؤُهُ فِي الْبَيَانِ التالِي:
- ﴿.. إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ..﴾:

جاء في هـٰذه العبارة بَيانُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ، الَّتِي يُكَلِّمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بواحِدٍ مِنْهَا أَوْ أَكْثَرَ، مَنْ شَاءَ أَنْ يُكَلِّمَهُ مِنَ الْبَشَر:

النَّوْعُ الْأَوَّل: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾: أي: إلَّا أَنْ يُلْقِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُمْقِ فُؤَادِ مَنْ أَرَادَ تَكْلِيمَهُ، الْكَلامَ الّذِي شَاءَ أَنْ يُكَلِّمَهُ بِهِ، بِطَرِيقَةٍ تُعْلِمُهُ بِيَقِينٍ لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ هـٰذا الْكَلامَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، انْطَبَعَ فِي عُمْقِ قَلْبِهِ، دُونَ كَسْبٍ مِنْهُ وَلَا اخْتِيَارٍ، وَلَا سَوابِقِ إرادَةٍ وَعَمَلٍ فِكْرِيّ.

النَّوع الثاني: دَلَّ عَلَيْهِ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾: أي: أَوْ أَنْ يُكَلِّمَهُ كَلاماً يَسْمَعُهُ بِأُذُنَيْهِ نَافِذاً إِلَىٰ عُمْقِ فُؤادِه مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

وَمِنْ هـٰذا النَّوعِ تَكْلِيمُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ، كَلَاماً سَمِعَهُ بِأُذُنَيْهِ وَوَعَاهُ بِقَلْبِهِ وَعْياً تامّاً، وأَكَّدَتْ قرائِنُ آيَةِ الْعَصَا الَّتِي انْقَلَبَتْ حَيَّةً تَسْعَىٰ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ الَّذِي يُكَلِّمُهُ حَقّاً، مَعَ شُعُورِهِ بِكِيَانِهِ كُلِّهِ أَنَّ الحدَثَ أَمْرٌ رَبَّانِيٌّ لَا تَدَخُّلَ فِيهِ لِقُوَّةٍ أُخْرَىٰ.

النوع الثالث: دلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾:

أي: أو أَنْ يُرْسِلَ رَسُولاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَيُوحِيَ هـٰذا الرَّسُولُ إِلَىٰ الْبَشَرِ المختَارِ لإيصَالِ كَلَامِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ إِلَيْهِ، بإذْنِ اللهِ وتَمْكِينِهِ، مَا يَشَاءُ اللهُ تِبَاعاً أَنْ يُوْحِي بِهِ إِلَيْهِ حَرْفاً بحَرْف، وكَلِمَةً بِكَلِمَة.

وخَتَمَ اللهُ تعالى الآية بالتَّذكير بِاسْمَيْنِ من أسمائه الحسنىٰ فقال جَلَّ جَلَالُهُ:

- ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

عَلِيٌّ: أي: لَهُ الْعُلُوُ الَّذي لَا يُدَانِيهِ وَلَا يُقَارِبُهُ عُلُوّ، إِذْ كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ هُوَ مِنْ دُونِهِ، وهُوَ مَخْلُوقٌ ومَمْلُوكٌ له، فَهُوَ عَالٍ عَلَىٰ كُلِّ مَا خَلَقَ، وبَائِنٌ مِنْ كُلِّ مَا خَلَقَ في ذاته وفي صِفَاته.

حَكِيم: أي: يَضَعُ الْأَشياءَ في مَوَاضِعِهَا الْمُلَائِمَةِ لَهَا، ويَخْتَارُ أَفْضَلَ الأَشْيَاءِ وأَفْضَلَ الاحْتِمَالاتِ وأَحْسَنَهَا فِي الأمُورِ المختلفة، لِمَا يُحَقِّقُ أَفْضَلَ الْعَمَلِ ويُحَقِّقُ أَحْسَنَ النَّتَائج.

واخْتِيَارُ هـٰذَيْنِ الاسْمَيْنِ هُنَا، لِيُشِيرَ وَصْفُ اللهِ بِأَنَّهُ عَلِيٌّ إِلَىٰ أَنَّ عُلُوَّ ذَاتِهِ وَعُلُوَّ صِفَاتِهِ، لَا تَحْتَمِلُ الْمَخْلُوقَاتُ في ظُرُوفِ الْوُجُودِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُمْ فِيهِ، إِدْرَاكَ شيءٍ مِنْ تَجلِّيَّاتِ أَنْوَارِهِمَا، وَلَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنْ يُغَيِّرَ مَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَةُ المصْطَفَىٰ مِنْهُمْ في هـٰذا الوجُودِ الأوَّل.

وهُنَا يَأْتي وَصْفُ اللهِ بِأَنَّهُ حَكِيمٌ مُتمِّماً فِي هـٰذا الموضوع لِكَوْنِهِ عَلِيّاً، ولاخْتِيَارِ احْتِمَالاتٍ أُخْرَىٰ فِي تَكْلِيمِهِ لِبَشَرٍ ما غَيْرِ احْتِمَالِ التَّكْلِيمِ المباشر الْمَعْرُوفِ بَيْنَ مُتَكَلِّمٍ وَسَامِعٍ مِنَ الحوادث.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ وَإِسْمَاعاً للمكَذِّبين بطَرِيقٍ غَيْرِ مُباشر:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: المشار إلَيْهِ أَنْواعُ تَكْلِيمِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِبَشَرٍ ما، والخطاب لِلرَّسُولِ ﷺ مع إسماعِ غَيْرِه.

- ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾: **الرُّوحُ**: مَا بِهِ يَكُونُ غَيْرُ الحيّ حَيّاً، وسَبَقَ لَدَىٰ تدبُّر الآيةِ (٨٥) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) بَيانُ أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا غَيْرُ الْحَيِّ حَيّاً، يُخْلَقُ بِأَمْرِ اللهِ التَّكْوِينيِّ المباشِرِ، دُونَ اسْتِخْدَامِ عَنَاصِرَ سَابِقَةِ الْإيجادِ فِي الكَوْنِ، كالنّور، أو النّار، أو الطِّين.

والمرادُ بالرُّوحِ هُنَا مَا تَكُونُ بِهِ الْحَياةُ الْأَبَدِيَّةُ السَّعِيدَة، من إيمانٍ وإسْلَام والْتِزَام بشَرائِع اللهِ ووَصَاياهُ لِعِبادِه، أُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظ «الرُّوح» لِأَنَّهُ نَظِيرُ الرُّوحِ الَّتِي إذَا الْتَقَتْ بِالنَّفْسِ الميِّتَةِ صَارَتْ حَيَّةً. والمؤْمِنُونَ المتَّقُون هُمُ الَّذِينَ يَكُونُونَ يَوْمَ القِيامَةِ أَحْياءً حَياةً حَقِيقِيَّةً، أَمَّا الْكَافِرُونَ فَهُمْ مُعَذَّبُونَ لَا يَمُوتُونَ مَوْتاً مُرِيحاً، وَلَا يَحْيَوْنَ حَياةً فِيهَا أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الرَّاحَة، فَهُمْ مَحْرُومُونَ مِنَ الحياةِ الّتي يُرْغَبُ فِيها، ومحرومون من الموت المريح لهم من عذابهم.

وسبق في الآية (١٥) من سُورة (غافر/ ٦٠) إطلاق لفظ الرُّوحِ على ما أُطْلِقَ عليه هنا في (الشورى).

وَجاءَتْ عبارَةُ: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم، نظِيرَ مَا جَاءَ بِشَأْنِ الرُّوحِ الَّتِي تَحْيَا بِها النفوسُ في آية سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهِيَ قَوْل اللهِ عَزَّ وَجلَّ فيها خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾:

أي: فكَمَا أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي تكونُ بِهَا حَيَاةُ النُّفُوسِ في الأَحْيَاءِ كُلِّها، يَبْتَدِئُ خَلْقُهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مُبَاشَرَةً، دُونَ اسْتِخْدَام عَنَاصِرَ سَابِقَةِ الإيجادِ في الكَوْنِ، كَذَلِكَ الْعُلُومُ الرَّبَّانِيَّةُ المنزَّلَةُ لِبَيَانِ صِرَاطِ اللهِ المستقيم للموضُوعِينَ في الْحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعِ الابْتِلَاء، هِيَ بمَثَابَةِ رُوحِ الحياةِ الْأَبَدِيَّةِ السَّعِيدَةِ لِمَنْ آمَنَ بِهَا، واجْتَهَدَ في سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيمِ المُبَيَّنِ بها.

والْقُرْآنُ المجيدُ هُوَ المشْتَمِلُ عَلَىٰ زُبْدَةِ الْعُلُوم الرَّبَّانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ لِبيَانِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، وَالمُشْتَمِلُ عَلَىٰ كُلِّيَّاتِ الدِّينِ الكُبْرى، ويُلْحَقُ بِالْقُرْآنِ مَا صَحَّ مِنْ بَيَانَاتِ الرَّسُول ﷺ.

ولِإِقْنَاعِ مُكَذِّبِي الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَبأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْهُ؛ قال اللهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿..مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ .. ﴿٥٢﴾﴾:

أي: مَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ قَبْلَ أَنْ نُوحِيَ إِلَيْكَ تَعْلَمُ جَوابَ سُؤَال: «مَا الْكِتَابُ»؟، وَلَا كُنْتَ تَعْلَمُ جَوابَ سُؤَالِ «مَا الإيمَانُ»؟.

وصَارَ عُمْرُكَ فِي قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، دُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنْكَ بَيَانٌ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَضْمُونِ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي نُوحِي بِهِ إِلَيْكَ. وَدُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنْكَ شيءٌ ما، يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا الإيمان وأَرْكَانِهِ، كَتَوْحِيدِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَتَوْحِيدِ إِلَـهِيَّتِه، وَصِفَاتِهِ وأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وَكَالْيَوْمِ الْآخِرِ، والْبَعْثِ والْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، ودَارٍ فيها نَعِيمُ المؤمِنِينَ، ودَارٍ فِيهَا عَذَابُ الْكَافِرِينَ والْعُصَاةِ المجرمين.

وَلَكِنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وعَلَّمْنَاكَ الإيمانَ وأَرْكَانَهُ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ مَا نَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآن، وسَنُنَزِّلُ عَلَيْكَ سَائِرَهُ، وَجَعَلْنَا الْقُرآنَ عِلْماً حَقّاً كَالنُّور

الْكَاشِفِ، نَمْحُو بِهِ ظُلُماتِ الضَّلاَلاتِ الْفِكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ والسُّلُوكِيَّةِ، وَهَـٰذا النُّورُ الْعِلْمِيُّ نَهْدِي بِهِ إلَىٰ سُلُوكِ صِراطِنَا الْمُسْتَقِيم، مَنْ نَشَاءُ هِدَايَتَهُ، لِأَنَّهُ آمَنَ بِهِ، وأَرَادَ أَنْ يَظْفَرَ بِحَياةٍ خَالِدَةٍ سَعِيدَةٍ يَوْمَ الدِّين، أَمَّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِرَسُولِنَا ـ ﷺ ـ وَلَا بالْقُرْآنِ الَّذِي يُنَزَّلُ عَلَيْهِ، ولَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْلُكَ صِرَاطَنَا، فإنَّنَا لَا نَشَاءُ هِدَايَتَهُ، لِأَنَّ مَشِيئَتَنَا لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَنَا.

مَنْ آمن وأَرَادَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ بِسُلُوكِ صِرَاطِنَا الْمُسْتَقِيم هَدَيناهُ بِحِكْمَتِنَا، وَمَنْ كَفَرَ وَلَمْ يُرِدِ السَّعَادَةَ الأَبَدِيَّةَ الَّتِي يوصلُ إِلَيْها سُلُوكُ الصِّرَاطِ المستقيم، مَكَّنَّاهُ مِنْ أَنْ يَضِلَّ بِحِكْمَتِنَا فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، ثُمَّ حَكَمْنَا عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ يَوْمَ الدِّينِ وَأَنَّهُ مِنَ الخالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ، لِأَنَّهُ اختار لِنَفْسِهِ الضَّلَالَ بإرَادَتِهِ الْحُرَّةِ، الَّتِي لَمْ يَكُنْ فيها مَجْبُوراً بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

وَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رسُولَهُ ﷺ بِقَوْلِهِ في آخِرِ الْآيَة:

- ﴿. . وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: وإنَّك يا مُحمَّد لتهْدِي هِدَايَة دَعْوَةٍ وتبلِيغ، بِمَا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَسَنُوحِي مِنْ قَضَايَا الدِّين، فِي الْقُرآنِ وَفِي غَيْرِ الْقُرْآن، إلَىٰ صِرَاطِ رَبِّكَ المسْتَقِيم الَّذِي لا عِوَجَ فِيهِ، فَمَنْ آمَنَ وَسَلَكَهُ وَمَاتَ عَلَىٰ إيمانٍ صَحِيحٍ، كَانَ مِنَ الظَّافِرِينَ بِالْحَياةِ الخالِدَةِ السَّعِيدَةِ يَوْمَ الدّين.

- ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ . . ﴿٥٣﴾﴾:

أي: وَهَـٰذَا الصِّراطُ الَّذِي تَهْدِي إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ لَيْسَ صِراطاً مِنْ وَضْعِكَ، وَلَا مِنْ وَضعِ فَرْدٍ أَوْ أَكْثَر، في الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ، بَلْ هُوَ اصْطِفَاءٌ حَكِيمٌ مِنَ اللهِ الَّذِي لَهُ مِلْكُ ومُلْكُ كُلِّ مَا وَمَنْ فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، والْقَدِيرُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ.

فَلَا اخْتِيَارَ أَحْكَمُ مِنِ اخْتِيَارِه، وَلَا اصْطِفَاءَ أَفْضَلُ مِن اصْطِفَائِهِ، وَلَا

يُوصِلُ إِلَىٰ الحياة الْأَبَدِيَّةِ السَّعِيدَةِ الَّتِي يَجْزِي بِهَا إِلَّا صِرَاطُهُ المستقيم.

وَخَتم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السُّورة بقوله:

- ﴿..أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾:

﴿أَلَآ﴾: أَدَاةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتَنبيهٍ، وتَوْكيد.

أي: انْتَبِهُوا وَأَصْغُوا إِلَىٰ هَـٰذا الْخِتَامِ يَا مَنْ تَحْرِصُونَ عَلَىٰ حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ سَعِيدَة:

إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصِيرُ كُلُّ الْأُمُور، في السَّمَاوَاتِ وفي الْأَرْضِ، صِغَارُها وَكِبارُهَا، ولَا سِيَّما مَا يَخْتَصُّ بالْمَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلاء، وهُوَ الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الْجَزاء يَوْمَ الدّين.

مَصِيرُ الْأَمْر: هو في اللُّغَةِ مُنْتَهاهُ، وعَاقِبَتُهُ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدّرْسِ الْأَخِير من دُرُوس سورة (الشورى). والحمدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٧)

ملحق: مُسْتَخْرَجَات بلاغِيّة من سورة (الشورى/٦٢)

تشتمل سورة «الشورى» على اختياراتٍ بَلاغيَّةٍ نَفيسة، وقَد اسْتَخْرَجْتُ مَا يلي منها:

أوّلاً: الْإِيجازُ بالْحَذْفِ الَّذِي يُدْرَكُ مَعْنَىٰ المحْذُوفِ فيه بالتَّدبُّر:

ومنْ أمْثِلَةِ هـٰذا الإيجاز ما يلي:

المثال الأول: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ (٧) وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ (٨)﴾:

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الْوَحْيِ الَّذِي كَانَ يُوْحَىٰ إِلَى الرُّسُلِ والأَنْبِياء عَلَيْهِم السَّلام مِنْ قَبْلِكَ ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ لِتُبلِّغَهُ، وتُبيِّنَهُ، ولِتُبَشِّرَ مَنْ آمَنَ واتَّقَىٰ بِنَعِيم خَالِدٍ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، و﴿لِّتُنذِرَ﴾ الْكَافِرِينَ السَّاكِنِينَ ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ عَذَابَ اللهِ الْمُعَجَّلَ إِنْ شَاءَ إِنْزَالَهُ عَلَيْهِمْ، ﴿وَتُنذِرَ﴾ الْكافِرِين أَيْضاً عَذَابَ اللهِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ الَّذِي ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ وهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يُحَاسِبُ اللهُ فِيه الموْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الابْتِلاء، ويَفْصِلُ الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ، ويَأْمُرُ فيه بِجَزَاءِ أَهْلِ الإيمانِ وأهْلِ الكُفْرِ بِحَسَبِ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُم، إذْ يُؤْخَذُ ﴿فَرِيقٞ﴾ مِنْهُمْ وهُم المؤمِنُونَ المتَّقُونَ فَيكُونُونَ ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، ويُؤْخَذُ فَرِيقٌ آخَرُ مِنْهُمْ وَهُمُ الْكافِرُونَ المجْرِمُونَ، فيكُونونَ ﴿فِي ٱلسَّعِيرِ (٧)﴾. ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً ﴿لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ مُؤْمِنَةً مُسْلِمَةً لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون، ﴿وَلَٰكِن﴾ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ بَلْ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَبْلُوَهُمْ فِيما آتاهُمْ، وَبَعْدَ مُحاسَبَتِهِمْ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمة ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾، وَهِيَ الْجَنَّةُ دَارُ نَعِيم المتَّقِينَ، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ دَارَ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، و﴿مَا لَهُم﴾ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ (٨)﴾ يَحمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَه.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيها بِشَأْنِ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام السَّابقين، وتَفَرُّقِهِمْ فِي الدِّينِ الَّذِي أَوْصَىٰ بِهِ رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلام:

- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ (١٤)﴾:

أي: وَتَفرَّقَ أتباعُ الرُّسلِ عَلَيْهِم السَّلام السَّابِقِينَ عَنِ الَّذِي وَصَّاهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الدِّين، ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ فِيهِ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ الرَّبَّانِيُّ بِما أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام، وفَهِمُوهُ، وَوَعَوْهُ، وَكانَ سَبَبُ تَفرُّقِهِمْ ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ﴾ مِنَ الْكَلِمَاتِ المحَدِّدَاتِ المبيِّنَاتِ مَا تَمَّ بِهِ تقديرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ، وهَـٰذِهِ الْكَلِمَة ﴿سَبَقَتۡ﴾ بِتَأْخِيرِ مُعَاقبَةِ الَّذِينَ يَتفرَّقُونَ في الدِّينِ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ، وهَـٰذِهِ الْكَلِمَةُ صَادِرَة ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، هو زَمَنُ الْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجزاء؛ ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ وَلَنُفِّذَ عِقَابُ اللهِ فيهِمْ في الحياة الدُّنيا.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

- ﴿. . . وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ . . ⑮﴾:

أي: وَأُمِرْتُ بأَوامِرَ تَتَعَلَّقُ بِأَحْكَامِ الْحُقُوقِ ﴿لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ فِي أَحْكَامِي وَأَقْضِيَتِي أيُّها النَّاس.

المثال الرابع: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

- ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ . . ㉒﴾:

أي: تَرَىٰ الظالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ خَائفين مِن جَزاءِ مَا كَسَبُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا، وهَـٰذا الجزاءُ سَيَقَعُ بِهِم لَا مَحالَة، حِينَ يُسَاقُونَ زُمَراً إِلَىٰ دارِ عَذَابِهِمْ.

المثال الخامس: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها بِشَأْنِ نَعِيمِ الّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ في رَوْضَاتِ الجنَّات:

- ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ . . ㉓﴾:

أي: ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ بِهِ ﴿عِبَادَهُ﴾ . . .

المثال السّادس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وَهُوَ الَّذِي يقبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبادِه، وَيَتجَاوَزُ عَنْ جرَائِمِهِم الَّتِي كانَتْ قَبْلَ الإسلام، ويَعْفُو مُتَجَاوِزاً عَنِ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تكُونُ بَعْدَ الإِسْلام.

المثال السَّابع: قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

- ﴿... وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: لمَّا رَأوْا مَكَانَ وَوَسَائِلَ تَعْذِيبِهِمْ في جَهنَّم يَقُولُونَ: هَلْ إلى رُجُوعٍ إلى حَيَاةِ الامْتِحَانِ مِنْ سَبِيلٍ، لِنَسْتأْنِف امْتِحَانَنَا، وَنُصْلِحَ أَحْوالَنَا بِالْإِيمَانِ والإِسْلَامِ والْأَعْمَالِ الصَّالِحة.

ومِنَ الإيجاز بالْحذْفِ مَا يُسَمَّى عِنْدَ البلاغِيِّين «التَّضْمِين»، وهُوَ تَضْمِينُ كَلِمَةٍ مَعْنَىٰ كَلِمَةٍ أُخرَىٰ، وجَعْلُ الْكَلام بَعْدَهَا مَبْنِيّاً عَلَىٰ الْكَلِمَةِ غَيْرِ المذكُورَةِ، كالتَّعْدِيَةِ بِالْحَرْفِ المناسِبِ لِمَعْنَاها، فتَكُونُ الْجُمْلَةُ بِهَـٰذَا التَّضْمِينِ بِقُوَّةِ جُمْلَتَيْنِ، وهَـٰذا التَّضْمِينُ مِنْ نَفَائِسِ الإيجاز في القرآن.

ومِنْ هَـٰذا التضمين في السُّورَة، قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

- ﴿... ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ .. ﴿١٣﴾﴾:

أي: اللهُ يجتَبي مُقرِّباً إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ، ضُمِّنَ فعل «يَجْتَبي» معنى فعل «يقرب» فعُدِّيَ تعديته.

وقولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

- ﴿.. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا .. ﴿١٨﴾﴾:

أي: يَسْتَعْجِلُ مُسْتَهْزِئاً بِهَا الَّذِينَ لَيْس لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ نَفْسِيٌّ لِأَنْ يُؤْمِنُوا بها، ضُمِّنَ فعل «يَسْتَعْجل» معنى فعل «يَسْتَهْزِئ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ.

ثانياً:

ومن الفنونِ البلاغية النّفِيسَة في القرآن: الاستقطاعُ مِن الماضِي أو المسْتَقْبَلِ، وتَقْدِيمُ الْبيَانِ كَأَنَّهُ يَجْرِي الآنَ عِنْدَ التكلُّم.

ومن أمْثِلَةِ هـٰذا الاستقطاعِ في السورة ما يلي:

المثالُ الأوّل: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها خِطاباً لِكُلِّ صالح للخطاب بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفرادي، بِشَأْن مَشْهَدٍ مِن مَشاهِدِ يوم القيامَة:

- ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ (٢٢)﴾:

لَمْ يَأْتِ البيانُ بِأُسْلُوبِ: سَوْفَ تَرَىٰ، بَلْ جَاءَ بأَسْلُوبِ تَقْدِيم المَشْهَدِ كَأَنَّهُ يَجْرِي الآن، وهـٰذا مِنَ الإبْدَاعِ فِي البيانِ بِمَكَانٍ، مَعَ مَا فِيه مِنْ تَوكِيدِ أَنَّ المشْهَدَ سَوْفَ يَجْرِي لَا مَحَالَة، وتَحَقُّقُ وُقُوعِهِ مُسْتَقْبَلاً يَسْمَحُ بأَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بأنَّهُ يَجْرِي مَعَ زَمَنِ التكلُّم.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها أيضاً بشَأْنِ المتحدَّثِ عنهم في الآية السّابقة، وَلَكِنْ بَعْدَ (٢١) آية في السُّورة:

- ﴿.. وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ (٤٤) وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦)﴾:

هـٰذا النصّ شَبِيهٌ بِسَابِقِهِ، مَعَ حِكَايَةِ أَقْوَالٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَيْهِ بِأُسْلُوبِ الحديثِ عَنْ أَمْرٍ مَضَىٰ، إِذْ جَاءَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الماضي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ . . .﴾، و﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ . . .﴾، فَكَأَنَّ المشهَدَ قَدِ انْتَهَىٰ عَرْضُهُ، وجَاءَتْ بَعْدَهُ أقوالٌ وبياناتٌ تتعلَّقُ بِهِ، تَحْكِي أَمْراً مَضَىٰ وانْقَضَىٰ، وفي هـٰذا تصويرٌ إبْداعِيٌّ آخر.

ثالثاً:

اهْتَمَّ عُلَمَاءُ المعاني بالْقَصْرِ، وهُوَ تَخْصِيصُ شَيْءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهُوَ عَلَىٰ وَجْهَين:

الوجه الأول: الْقَصْرُ الحقِيقيُّ، وهو أنْ يَكُونَ المقْصُورُ عَنْهُ جَمِيعَ مَا سِوَى المقْصُورِ عَلَيْهِ.

الوجه الثاني: الْقَصْرُ الإضَافي، وهو أنْ يَكُونَ المقْصُورُ عَنْهُ شيئاً خَاصّاً وَاقِعاً في دَائِرَةٍ مُعَيَّنَة، لَا كُلَّ مَا سِوَىٰ المقْصُورِ عَلَيْهِ.

ومن أمْثِلَةِ الْقَصْرِ في السّورَةِ مَا يلي:

المثال الأول: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿..وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾:

أي: وَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، الَّذِي لَا يُسَاوِيهِ في عُلُوِّه وعَظَمَتِهِ، وَلَا يُدَانِيه فيهما أحَدٌ سِوَاه.

وهٰذا مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ علَىٰ مَوْصُوفٍ، وهو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ، وأَدَاةُ الْقَصْرِ فِيهِ تَعْرِيفُ طَرَفَي الْإسْنَاد.

المثال الثاني: قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿..أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾:

هٰذا المثالُ نظيرُ سَابقه. وأداة القصر فيه تَعْرِيف طَرَفَي الإسْنَادِ، مع ضَمِيرِ الفصل.

المثال الثالث: قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿..فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ .. ۝٩﴾:

هٰذا الْقَصْرُ نظير سَابقه.

المثال الرابع: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿.. ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾:

في هـٰذا البيانِ ثَلَاثَةُ أَمْثِلَةٍ مِنْ أَمْثِلَةِ القصر.

١ - ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾: أي: لَا رَبَّ لي غَيْرُه، وأداة الْقَصْرِ فيه تَعْرِيف طَرَفي الإسْناد.

٢ - ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾: أي: عَلَيْهِ وَحْدَهُ توَكَّلْتُ. وأَداة الْقَصْرِ هُنَا تَقْدِيمُ المعْمُول ﴿عَلَيۡهِ﴾، عَلَىٰ عَامِلِهِ ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾.

٣ - ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾: القصر هُنَا نظير سابِقِهِ.

المثال الخامس: قول اللهِ تَعَالَىٰ بشَأْنِ بَعْضِ صِفَاته:

- ﴿.. وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾: أي: وهُو وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعَ فِي الْوُجُودِ كُلِّه، الْبَصِيرُ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَىٰ في الوجود كُلّه.

وأداة الْقَصْرِ هنا تَعْرِيفُ طَرَفي الإسْناد.

المثال السادس: قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿.. وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾: أي: وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ مَصِيرُ كُلِّ الأُمور.

وأداة القَصْر فيه تَقْدِيم المسْنَدِ في: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ علَىٰ المسْنَدِ إليه: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾.

المثال السابع: قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿.. وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ .. ﴿١٨﴾﴾:

في: ﴿أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ قَصْرٌ أداتُهُ تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ، والقصر هنا إضافي. أي: بالإضافَةِ إلَىٰ مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ خَبَرَ السَّاعَةِ خَبَرٌ كَاذِبٌ.

المثال الثامن: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾:

في عبارة: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ قَصر، أداتُهُ تَعْرِيف طَرَفَي الإسْنَادِ، وهو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ، إذ اللهُ وَحْدَهُ الْقَوِي العزيز، المتفرّدُ بكَمَالِ الْقُوَّةِ والْعِزَّة.

المثال التاسع: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في وَصْفِ نَعِيمِ أَهْلِ الجنَّة:

- ﴿..ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾:

أداة القصْرِ في هـٰذا المثال تَعْرِيفُ طَرَفِي الإسْنَاد، وسَبَق تحليلُ نظيره.

المثال العاشر: قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾:

في هـٰذِهِ الآيَة قصران أداة الْقَصْرِ فيهما تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنَاد:

(١) فاللهُ وَحْدَهُ هو الّذي يُنَزّلُ الْغَيْثَ.

(٢) واللهُ وَحْدَهُ هو الْوَلِيّ الْحَمِيدُ.

وكِلَاهُمَا مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ الحقيقي، وهُمَا مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصُوف.

وَأَكْتَفِي بهـٰذِهِ المستَخْرَجَات الْبَلَاغِيَّة مِنْ سورة (الشورى). والْحَمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

سورة الزُّخرف

٤٣ مصحف ٦٣ نزول

وهي مكيةٌ كلُّها

وهي الرابعة من «الحواميم السبع»

وسُمِّيَتْ «سورة الزّخرف»

لأنّ في الآية (٣٥) منها كلمة «زُخْرُفاً»

(١)

نصّ السورة ومَا فيها مِنْ فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا
لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ
حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ
قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾
وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ
أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾

---

١ ـ ● سكت أبو جعفر علىٰ: «حا» و«ميم» سَكْتَةً لطيفة من غير تنفس.

٤ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي: [فِي إِمِّ] بِكَسْرِ الهمزة، في الوصل، أمَّا عِند البدء بكلمة «أمّ» فبضمِّ الهمزة.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فِي أُمِّ﴾ وَصْلاً وَعِنْدَ البدء بكلمة «أُمّ».

٥ ـ ● قرأ نافع، وحَمْزة، والكِسَائي، وأبو جعفر، وخلف: [إِنْ كُنْتُمْ] بِكَسْرِ همزة «إِنْ» علىٰ أنَّها شَرْطِية.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَن كُنْتُمْ﴾ بفتح همزة «أَنْ» علىٰ أنَّها مخففة من الثقيلة، أي: لِأَنْ كُنْتُم.

٧ ـ ● قرأ أبو جعفَر: [يَسْتَهْزُونَ] وصلاً ووقفاً، وكذٰلِكَ قرأَها حَمْزَةُ فِي الوقف، ولَهُ تَسْهِيلُ الهمزة بَيْنَهَا وَبَيْنَ الواو، وإِبْدَالُها يَاءً خَالِصَة.

وقرأها باقي القراء الْعَشرةِ: ﴿يَسْتَهزِئُونَ﴾.

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ
فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾
لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ
﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ

---

١٠ ـ • قرأ عاصِم، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: ﴿مَهْداً﴾.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مِهاداً].
ومُؤدَّىٰ القراءتَيْن واحدٌ، إذ المراد أنَّ اللهَ جَعَلَ الأرض مُمَهَّدَة كالفِراش الموَطَّأ الممهَّد، صالِحَةً للرَّاحَةِ وَالْعَمَلِ عليها، ولم يَجْعَلْ ظَهْرَهَا كَأَشْوَاكِ القُنْفُذ.

١١ ـ • قرأ أبو جعفر: [مَيِّتاً] بتشديد الياء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿مَيْتاً﴾ بإسكان الياء.
وهما نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ للكلمة.

١١ ـ • قرأ ابْنُ ذكْوان، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [تَخْرُجُون] بالبناء للمعلوم.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بالبناء لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه.
وبين القراءتين تَكامُلٌ فِي أداءِ المعنىٰ المراد، أي: يُخْرِجُكُمُ اللهُ بالْبَعْثِ فأَنْتُمْ تَخْرُجُون.

١٥ ـ • قرأ شُعْبَةُ: [جُزُءاً].
وقرأها أبو جعفر: [جُزّاً].
وقرأها باقي القُراء الْعَشَرَة: ﴿جُزْءاً﴾. ووقف حمزة بحذْفِ الْهَمْزَةِ وَنَقْلِ حَرَكَتِهَا إلىٰ الزّاي.
وهي وجوه عَرَبيّة في نُطْق الكلمة.

وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ
مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي
ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ
ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ
شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا
لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ
كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا
وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا
وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞
قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ

---

١٨ ـ ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [يُنَشَّأُ] بضم الياءِ وتَشْدِيدِ الشين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَنْشَأُ] بفتح الياء وفتح الشين دون تشديد.

١٩ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْن عامرٍ، وأبو جعفر، ويعقوب: [عِنْدَ الرَّحْمٰنِ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [عِبادُ الرَّحْمٰن].
وبين القراءتَيْن تكاملٌ في أداء المعنىٰ المراد.

١٩ ـ ● قرأ نَافع، وأبو جعفر: [أَأُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَشْهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾.
وبين القراءتَيْنِ تكاملٌ. أي: أَأَشْهَدَهُم اللهُ خَلْقَهُمْ فَشَهِدُوه.

٢٤ ـ ● قرأ ابْن عامر، وحفص: ﴿قالَ أَوَلَوْ﴾.
وقرأها باقي القراء العشرة: [قُلْ أَوَلَوْ].

٢٤ ـ ● قرأ أَبُو جَعْفَر: [جِئْنَاكُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿جِئْتُكُمْ﴾.

أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ
مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا
كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ
قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ
رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ
فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ
خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ
لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ
عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾

---

٢٧ ـ • أثبت ياء ﴿سَيَهْدِينِ﴾ وصلاً ووقفاً يعقوب. ولم يُثْبِتْهَا الْبَاقُونَ.

٣٣ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بضم الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة [لِبِيُوتِهِمْ] بسكر الباء.

وهما لغتان عربيتان.

٣٣ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [سَقْفاً] بالإفراد اسم جنس، وقرأها باقي القراء العشرة: [سُقُفاً] بالجمع.

والمؤدّىٰ واحد.

٣٤ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بضم الباء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لِبِيُوتِهِمْ] **بكَسْرِ الباء.**

وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ
رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ
شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى
وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ
إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾
فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى
وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَۖ
إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ

---

٣٥ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، وهشام بخُلْفٍ عنه، وابنُ جَمَّاز: ﴿لَمَّا مَتَاعُ﴾ بِتَشْدِيدِ الميم من «لمّا».

وقرأها باقي القراء العشرة: [لَمَا مَتَاعُ] دون تشديد ميم «لما».

٣٦ ـ • قرأ يعقوب: [يُقَيِّضْ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

وقرأها باقي القراء العشرة: [نُقَيِّضْ] بضمير المتكلّم العظيم.

٣٧ ـ • قرأ ابنُ عَامِر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ بفتح السِّين.

وقرأها باقي القراء العشرة [وَيَحْسِبُونَ] بِكَسْرِ السّين.

وهما لغتان.

٣٨ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابنُ عامر، وشعبة، وأَبُو جَعْفر: [حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانا] أي: الذي كان يَعْشُو وقَرِينُهُ الشيطان.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: الَّذِي كانَ يَعْشُو.

٤١ ـ • ٤٢ ـ • قرأ رُويس: [نَذْهَبَنْ] و[نُرِيَنْكَ] بنون التوكيد الخفيفة، وإذا وقَفَ علىٰ [نَذْهَبَنْ] وقف بالألف علىٰ الأصل.

وقرأهُما باقي القراء العشرة: ﴿نَذْهَبَنَّ﴾ و﴿نُرِيَنَّكَ﴾ بنون التوكيد الثقيلة.

تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن
دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾
فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ
ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ
يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى
مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾
أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ
أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

٤٥ ـ • قرأ ابن كثير، والكسائي، وأبو جعفر: **[وَسَلْ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَاسْأَلْ]**.

٤٥ ـ • قرأ أبو عمرو: **[رُسْلِنَا]** بإسكان السين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿رُسُلِنَا﴾**.

٤٨ ـ • قرأ يعقوب: **[نُرِيهُمْ]** بضم الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة بكسر الهاء.

٤٩ ـ • قرأ ابن عامر **﴿يا أَيُّهُ السَّاحِرُ﴾** بضم الهاء وصلاً، وقرأها الباقون بفتحها.

٥١ ـ • قرأ نافع، والبزّي، وأبو عمرو، وأبُو جعفر: **﴿مِنْ تَحْتِيَ أَفَلَا﴾** بفتحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ يَاء المتكلم.

٥٣ ـ • قرأ حفص، ويعقوب: **﴿أَسْوِرَةٌ﴾**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[أَسَاوِرَةٌ]**.

مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ
﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾
فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ
مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا
خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ
﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ
يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا
صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ
مُّبِينٞ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾

---

٥٦ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [سُلُفاً] بضَمّ السّين واللام، جمع «سَلِيفٍ» وهو اسم للفريق الذي سلف ومضىٰ.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿سَلَفاً﴾ جمْعُ «سَالِف» وهو مَنْ يَسْبِقُ غيره.

٥٧ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف: [يَصُدُّونَ] بضم الصاد:

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بِكَسْرِ الصاد.

٦١ ـ • قرأ يعقوب: [واتَّبِعُوني] بإثبات الياء في الوصل والوقف. وكذلِكَ قرأها أبو عمرو، وأبو جعفر في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿واتَّبِعُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف.

٦٣ ـ • قرأ يعقوب: [وَأَطِيعُونِي] بإثبات ياء المتكلِّم في الوصل والوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف.

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾
فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ
يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم
بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ
ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ
مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا
يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ

---

٦٨ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس: **[يَا عِبَادِي لَا]** بإثباتِ ياء المتكلم سَاكِنَةً في الوصل والوقف.

وقرأها شعبة بفتح يَاء المتكلّم وصلاً، وبإسْكانها وقفاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿يَا عِبَادِ لَا﴾** بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

٦٨ - • قرأ يَعْقُوب: **[لَا خَوْفَ]** بفتح الفاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿لَا خَوْفٌ﴾** بضمّ الفاء مع التنوين، وهما وَجْهَانِ إعرابيانِ جائزان.

٧١ - • قرأ نافع، وابنُ عَامِر، وحفْصٌ، وأبو جعفر: **﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾** بإثبات هَاءِ الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[مَا تَشْتَهِي]** بحذف هاء الضمير.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ
﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمۡ
أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ
وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ
وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ
ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ
يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِى
ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ

---

٨٠ ـ • قرأ ابن عامر وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: ﴿**يَحْسَبُونَ**﴾ بفتح السين، والباقون بكسرها.

٨٠ ـ • قرأ أبو عمرو: [**وَرُسْلُنَا**] بإسكان السين.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَرُسُلُنَا**﴾.

٨٠ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [**لَدَيْهُمْ**] بضم الهاء وقرأها باقي القرّاء العشرة بكَسْرِ الهاء.

٨١ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [**وُلْدٌ**] بالجمع. وقرأها باقي الْقُراء العشرة: ﴿**وَلَدٌ**﴾ بالإفراد، والمؤدىٰ واحد.

٨١ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿**فَأَنَا أَوَّلُ**﴾ بإثبات ألف «أنا» وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة بحَذْف ألف «أنَا» وصلاً، وإثباتها وقْفاً.

٨٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [**يَلْقَوْا**] مِن فعل «لَقِيَ» وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**يُلاقُوا**﴾ مِنْ فعل: «لَاقَىٰ»، والمؤدىٰ واحد.

٨٥ ـ • قرأ ابن كثير، وحَمْزة، والكسائي، وخلف: [**يُرْجَعُونَ**] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.
وقرأها رُوَيس [يَرْجِعُونَ] وقرأها رَوح: [**تَرْجِعُونَ**]. وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**تُرْجَعُونَ**﴾.

تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا
مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا
يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

---

٨٨ - ● قرأ عاصم، وحمزة: ﴿وَقِيلِهِ﴾ بالجرّ وكسْر هاء الضمير.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَقِيلَهُ] بالنَّصب، وضمّ هاء الضمير.

٨٩ - ● قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [تَعْلَمُونَ] بضمير المخاطبين.
وقرأها باقي القراء العشرة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بضمير الغائبين. وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

(٢)

مما ورَد بشأن سورة (الزخرف)

روي عن أنس قال: قال رسُولُ اللهِ ﷺ:

«الحوامِيم دِيباجُ القرآن».

الحواميم: هي السّور المبْدوءَةُ بِـ «حَم» وهي سبع سُور مرتّبة في المصحف علىٰ وِفْقِ تَرْتِيبِ نزولها: «غافر ـ فُصِّلَتْ ـ الشورىٰ ـ الزُّخرف ـ الدُّخان ـ الجاثية ـ الأحقاف».

الدِّيباج: نَوْع من الثياب، سَداهُ وَلُحْمَتُه حرِير، أي: هـٰذِهِ السُّور نفيسَةٌ لَيِّنَةٌ نَاعِمَةٌ كَالدِّيباجِ بَيْنَ الثِّياب.

والمُدَبَّجُ فِي اللُّغَةِ: المزيَّنُ، يقال لغة: «دَبَّجَ فلانٌ الشيء» أي: زيَّنَهُ وَنَقَشَهُ. ويقال: «دَبَّجَ الْغَيْثُ الأرض» أي: سَقَاها فاخْضَرَّتْ وَازْدَهَرَتْ.

وجاءت تسْمِية هـٰذِهِ السُّوَرِ السَّبْعِ «آلَ حَم» كأنَّها مِنْ عَائِلَةٍ شَرِيفَةٍ وَاحِدَة.

(٣)

موضوع سورة (الزُّخرف)

ظهر لي أنّ «الحواميم السّبع» ذَاتُ خَطٍّ رَئِيسٍ وَاحِدٍ، هو خَطُّ الحديثِ عَنِ الْقُرْآنِ، وَمَوْقِفِ الكافِرينَ مِنْهُ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ.

وَهِيَ تَدُور حَوْلَ مُعالَجَةِ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِهَا، تُجَاهَ مَوَاقِفِهِم الْكُفْرِيَّةِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ الْكُبْرَىٰ وَمَفْهُومَاتِهِ، وهٰذِهِ المواقف منها ما جاء عِلَاجُهُمْ بشَأْنِهِ تَكَامُلِيّاً فِي السُّور، وَمِنْهَا مَا انْفَرَدَتْ بِهِ بَعْضُ السُّوَرِ مِنْهَا، وَتَكَادُ تَكُونُ «الحواميمُ السَّبْعُ» عائلةً وَاحِدَةً مُفَصَّلَةً إِلَىٰ سَبْعِ سُور، ذواتِ مَلامحَ وَقَسَمَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا شَرِيفَاتُ أُسْرَةٍ وَاحِدَة.

(٤)

دُروس سورة (الزُّخرف)

تَفَكَّرْتُ في هٰذِهِ السُّورَةِ فَظَهَرَ لِي أَنْ أُقَسِّمَها إلىٰ (١٢) دَرْساً، كما يلي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٨).

وفي آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ إشْعَارٌ بأَنَّ القرآن المجِيدَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ مؤهَّلٌ لِأَنْ يُقْسِمَ اللهُ بِهِ لاشْتِمَالِهِ عَلَىٰ مَعَانِي كَلِمَاتِهِ الجليلة وَلِعَجْزِ الْخَلَائِقِ منفردين ومُجْتَمِعِينَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وفيهَا تَلْوِيحٌ بِإِنْذَارِ المشْرِكينَ الْكَافِرينَ بالْقُرْآن، بِأَنَّهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابٍ وَإِهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ، مُشَابِهٍ لِمَا حَصَلَ لِلْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، من كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ.

الدرس الثاني: الآيات من (٩ ـ ١٤).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرس عَرْضٌ جَدَلِيٌّ وإقْنَاعِيٌّ حَوْلَ رُبُوبِيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا سِوَاهُ، فِي الْوُجُودِ كُلِّه.

وفِيهَا تَشْبِيهٌ لِبَعْثِ الموتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِنْبَاتِ الزُّروعِ وإحياء الأرض الميِّتة بماءٍ يُنْزِلُهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّ اللهَ هو الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاج كُلَّهَا.

وفيها امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِأَنَّهُ خَلَقَ لَهُمْ مَا يَرْكَبُونَ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرّ، مُقْتَرِنٌ بِتَوْجِيهِهِمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّهِمْ عَلَيْهِمْ، وَيَقُولُوا إذا اسْتَوَوْا عَلَىٰ ظَهْرِ مَرْكُوبِهِم: ﴿..سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

الدرس الثَّالث: الآيات من (١٥ ـ ١٩).

وفي آياتِ هَـٰذَا الدَّرس مُعالَجَةُ المشْرِكينَ بِشَأْنِ عَقِيدَتِهِمْ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ.

الدرس الرابع: الآيات من (٢٠ ـ ٢٥).

وفي آياتِ هَـٰذَا الدَّرسِ مُعَالَجَةُ المشْرِكِينَ، بِشَأْنِ تَعَلُّلِهِمْ لِتَسْوِيغِ عِبادَاتِهِمُ الشِّرْكِيَّة بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ الْجَبْرِيِّ، وإبطالِ هَـٰذَا التَّعَلُّلَ الْكَاذِب.

وفِيها مُحاصَرَتُهُمْ فِكْرِيّاً بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ فِي عبادَتِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ كِتَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ الَّذِي لَا رَبَّ فِي الوجود سِوَاه، يَأْذَنُ لَهُمْ فِيهِ بِأَنْ يَعْبُدُوا آلِهَتَهُمْ الَّتِي اتَّخَذُوها مِنْ دُونِ اللهِ، وَإِنَّما هُمْ يُقَلِّدُونَ آبَاءَهُمْ تَقْلِيداً أَعْمَىٰ بِعَصَبِيَّةٍ مَقِيتَةٍ.

وَفيها بَيَانُ انْتِقامِ اللهِ مِنْ أَمْثَالِهِمْ فِي القرون السَّالفة.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٦ ـ ٢٨).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرس بَيَانُ تَبَرُّؤ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَدِّ الْقُرَشِيِّينَ، فَهُوَ أَبُو جَدِّهِمْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام، مِمَّا كَانَ يَعْبُدُ أَبُوهُ

وَمُشْرِكُو قَوْمِهِ مِنْ دُونِ اللهِ. أي: فإِنْ كَانُوا عَلَىٰ آثَارِ آبَائهِمْ سَائِرِينَ مُقْتَدِين، فَلْيَتَّبِعُوا جدَّهم إبراهِيمَ، وابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَقَدْ كَانَا عَلَىٰ الْحقِّ، وَلْيَنبِذُوا الشِّرْكَ الَّذِي دَخَلَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِقُرُونٍ.

الدرس السادس: الآيات من (٢٩ ـ ٣٥).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْس مُعَالَجةُ مُشْرِكي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزيل، بِشَأْن كُفْرهم بِالقرآن وادّعَائِهِمْ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ، واعْتِرَاضِهِمْ عَلَىٰ تَنْزِيل القرآنِ عَلَىٰ مُحَمَّد ﷺ، دُونَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَىٰ رَجُلٍ عَظِيمٍ مِنْ مَكَّةَ أَوِ الطَّائِف.

وَفِيهَا بَيَانُ أَنَّ الوفْرَةَ الماليَّةَ الَّتِي تَجْعَلُ صَاحِبَهَا عَظِيماً بَيْنَ النَّاسِ، لَيْسَتْ فِي الْحَقِيقَةِ دَلِيلاً عَلَىٰ أَنَّهُ عَظِيمٌ مُؤَهَّلٌ لِأَنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِ كِتَاباً لِهِدَايَةِ النَّاس.

الدرس السابع: الآيات من (٣٦ ـ ٣٩).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ مَنْ يَكُفُّ بَصَرَ بَصِيرَتِهِ عَنْ تَدَبُّرِ آيَاتِ اللهِ، يُهَيِّءِ اللهُ لَهُ قَرِيناً مِنَ الشَّيَاطِينِ، يَصُدُّهُ عَنْ سَبيل اللهِ، وَيَكُونُ حِينَ لِقَائِهِ رَبَّهُ يَوْمَ الدِّينِ نَادِماً.

الدرس الثامن: الآيات من (٤٠ ـ ٥٦).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْس ما يلي:

(١) التيئيسُ مِنْ إِسْمَاعِ الصُّمّ، ومِنْ هِدَايَةِ الْعُمْي، أي: مِنْ تَرَقُّبِ اسْتِجَابَةِ الَّذِينَ أَثْبَتَتِ التَّجْرِبَاتُ المتكَرِّرَاتُ، أَنَّهُمْ غَيْرُ مَطْمُوعٍ بإيمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الحرَّة.

(٢) إِنْذَارُ الميْؤُوسِ مِنْ إيمَانِهِمْ بِأَنَّ اللهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي حَيَاة الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ بَعْدَ وَفاته.

(٣) تَكْلِيفُ اللهِ عزّ وجلَّ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِمَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ علىٰ صراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

(٤) بيانُ اللهِ عزّ وجلّ بأنَّ القرآن شَرَفٌ لَهُ وَلِقَوْمِهِ، إذْ أَنْزَلَهُ عَرَبِيّاً بِلِسَانِهِم.

(٥) أَمْرُ اللهِ عَزَّ وجلَّ رسُولَهُ بأنْ يَسْأَلَ مَنْ أَرْسَلَ مِنْ رُسُلٍ مِنْ قَبْلِهِ، أَجَعَلَ اللهُ فِي رِسَالَاتِهِمْ إذْناً بِعبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ الرَّحْمٰنِ، والْغَرَضُ تَكْلِيفُ الشَّاكِّين أَنْ يَبحثوا فيما صحَّ عن الرُّسلِ السابقين.

(٦) عَرْضُ مُوجَزٍ مِنْ رِسَالَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وَاتَّهَمُوهُ بأَنَّهُ سَاحِرٌ، فانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ، فَأَغْرَقَهُمْ أَجْمَعِينَ.

وفي هَـٰذَا الْعَرْضِ إِنْذَارٌ لِمُشْركِي قُرِيشٍ المعانِدِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، بأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لانْتِقَامِ اللهِ مِنْهُمْ، إِذَا أَصَرُّوا عَلىٰ عِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ.

الدرس التاسع: الآيات من (٥٧ ـ ٦٥).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ إشارَةٌ إلىٰ جَدَلٍ جَرَىٰ بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ كُفَّارِ قُرَيْش، مَع رَدّ اللهِ عَلَيْهِمْ بإثبات أَنَّ عِيسىٰ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ أنعمَ اللهُ عَلَيه.

وفيها بيانٌ بِشَأْنِ الملائكة الَّذِينَ زَعَمَتْ بَعْضُ قَبَائِلِ العرب أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ، مع بَيَانِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ بَدَلَ النَّاسِ فِيهَا، وَلَيْسَ جَعْلُهُمْ سُكَّانَ السَّمَاوَاتِ مُغيّراً لِكَوْنِهِمْ عِباداً لِلَّهِ فَالْأَرْضُ والسَّمَاوَاتُ مِلْكٌ لِلَّهِ يُسْكِنُ فِيهما مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَشَاءُ مِنْ خلْقِهِ.

وفيها بيانُ أَنَّ عِيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَشْرَاطِ وَعَلَامَاتِ السَّاعَةِ.

وفيها تَعْلِيمٌ لِلرَّسُولِ ﷺ مَا يَقُولُهُ للمُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَادَلُوا بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الدرس العاشر: الآيات مِنْ (٦٦ ـ ٧٧).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْس مُعَالَجَةٌ للذين لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ بالتَّرهِيبِ والترغيب.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٧٨ ـ ٨٠).

وفي آيات هـٰذَا الدّرْس بَيَانُ وَاقِعِ حَالِ مَجْمُوعِ الّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّة، مع إعْلَامِهِمْ بِأَنَّ كُلَّ ما يُبْرِمُوْنَهُ مِنْ أَمْرٍ مَعْلُومٌ لِلَّهِ، وَأَنَّ اللهَ يُبْرِمُ ضِدَّهُمْ مَا يُعَاقِبُهُمْ بِهِ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ إليهم.

وفيها إعْلَامُهُمْ بأنّ اللهَ سَمِيعٌ لِكُلِّ مَا يُسِرُّونَهُ، وَسَمِيعٌ لِنَجْوَاهُمْ.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٨١ ـ ٨٩) آخر السورة.

وفي آياتِ هـٰذَا الدَّرْس تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ بَعْضَ مَا يُعَالَجُ بِهِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ إِبَّانَ التَّنْزِيل.

وفي هـٰذَا التَّعْلِيم وَعِيدٌ وإقْنَاعٌ حَكِيم، وَتَرْبِيَةٌ مِنَ اللهِ عزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بأَنْ يَصْفَحَ عَنْ سَيِّئَاتِ المشْرِكِينَ، وَأَنْ يُنْهِيَ الكلامَ مَعَهُمْ بِكَلِمَة «سَلام» وَبأَنْ يُنْذِرَهُمْ بأَنَّهُمْ سَوْفَ يَعْلَمُونَ جَزاءَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَسوف يَذُوقونَهُ فِي الجحيم.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليليّ للدرس الأول من دُروس سورة (الزخرف)
الآيات من (١ ـ ٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿حمٓ ① وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ③ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ④ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ

ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾:

القراءات:

(١) • سكت أبو جعفر علىٰ «حا» و«ميم» سَكْتَةً لَطيفة من غير تَنَفُّس.

(٤) • قرأ حمزة، والكِسَائي: [فِي إِمِّ] بِكَسْرِ الهمزة في الوصل، أمَّا عِنْدَ البدْءِ بِكَلِمَةِ: «أُمّ» فبِضَمّ الهمزة.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فِي أُمِّ﴾ وَصْلاً وعند البَدْءِ بِكَلِمَةِ «أم».

(٥) • قرأ نَافع، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف: [إِنْ كُنْتُمْ] بِكَسْرِ هَمْزَةِ «إِنْ» عَلَىٰ أَنَّهَا شَرْطِيَّة.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ علىٰ أَنَّهَا مُخَفَّفَةٌ مِن الثقيلة، أي: لِأَنْ كُنْتُمْ.

(٧) • قرأ أبو جعفر: [يَسْتَهْزُونَ]وَصْلاً ووقفاً. وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف، ولَهُ تَسْهِيلُ الهمزة بينها وبَيْنَ الواو، ولَهُ إِبْدَالُهَا ياءً خالصة.

وقرأها باقي القرّاء العشرةِ: ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

تمهيد:

في آيات هٰـذَا الدَّرس إشْعارٌ بِأَنَّ القرآنَ المجيدَ يَشْتَمِلُ علىٰ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ مُؤَهَّلٌ لِأَنْ يُقْسِمَ اللهُ بِهِ، لاشْتِمَالِهِ عَلَىٰ مَعَانِي كَلِمَاتِهِ جَلَّ جلالُه، ولِعَجْزِ الْخَلَائِقِ مُجْتَمِعِينَ وَمُنْفَرِدِينَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

وفيها تَلْوِيحٌ بإنْذارِ الْمُشْرِكينَ الكافِرِينَ بالْقُرآنِ، بأنَّهُمْ بِكُفرِهِمْ يُعَرِّضُونَ أنْفُسَهُمْ لِعَذابٍ وَإِهْلاكٍ مُسْتَأْصلٍ، مُشَابِهٍ لِمَا حَصَلَ لِلْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، مِنْ كُفَّارِ الأُمَمِ السالِفَةِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، واسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ.

التدبّر التَّحْلِيلي:

- قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿حمٓ ①﴾: حَرْفانِ مِنَ الْحروف المقطعة الواردة في أوائِلِ بَعْضِ سُوَرِ القرآنِ المجيد، وقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا لدىٰ تَدَبُّرِ أوَّلِ سُورَة (القلم/ ٤ نزول).

- قول الله تعالىٰ:

- ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾: يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُرْآنِ المجيد، فالواو هي واو الْقَسم، وذكَرَهُ اللهُ هُنا بعُنْوَانِ «الْكِتَاب» لِتَأْكِيدِ تَكْلِيفِ المؤمنينَ المسلمينَ بأَنْ يُدَوِّنُوه، وَيَجْعَلُوهُ كِتَاباً مَصُوناً مَحْفُوظاً مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ والتحريف والضَّياع. وقَدْ تَمَّ هَـٰذَا بأَمْرٍ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ لِكُتَّابِ الوحي، ثمَّ بِمَا قَامَ بِهِ خُلَفَاؤُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ، عَلَىٰ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي التَّاريخ.

ووَصَفَهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ بـ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: أي: الظَّاهِرِ الواضِحِ الَّذِي لَا غُمُوضَ فِي كَلِمَاتِهِ وَتَرَاكِيب جُمَلِهِ، والمظهِر الموضِحِ للمعاني المقْصُودَةِ مِنْ تَنْزِيلِهِ.

فالمعنىٰ الأول: هو من فعل: «أبَانَ» اللازم، بمعْنَىٰ ظَهَرَ واتَّضَحَ.

والمعنَىٰ الثاني: هو من فعل: «أبَانَ» المتَعَدِّي، بمعنىٰ أَظْهَرَ وأوضَحَ.

وكلا المعْنَيَيْنِ يَنْطَبِقَانِ عَلىٰ وَاقِعِ مَا يَتَّصِفُ بِهِ القرآنُ المجيد، فَهُوَ ظَاهِرٌ وَاضِحٌ، وَمُظْهِرٌ مُوضِحٌ، وَالْقَسَمُ بالقرآنِ يَدُلُّ عَلىٰ أَنَّهُ آيَةٌ كُبْرَىٰ من آياتِ اللهِ المُعْجِزَةِ، وإِعجازُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ العزيز الحكيم.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾:

هَـٰذَا الْبَيَانُ هُوَ جوابُ الْقَسَمِ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ الَّذِي هُوَ القرآنُ المجيد.

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم فَيُبَيّنُ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْمُبِينَ قُرْآناً عَرَبياً، أي: يُقْرَأ بِلِسَانٍ عَرَبِيّ، وَخَاطَبَ اللهُ الناطِقينَ بِاللِّسَانِ العربيّ بِقَوْلِهِ:

- ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ تَعْقِلُوا.

كَلِمَةُ «لَعَلَّ» للتَّرَجّي، وَلَمَّا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيماً بِمَا سَيَكُونُ مِنْ عِبادِه، فإِنَّ مَعْنَىٰ «التَّرَجّي» يُنَافِي صِفَةَ تَحَقُّقِ الْعِلْم عنده، لَكِنَّ هَـٰذَا المَرْجُوَّ مَرْغُوبٌ فِيهِ، إِذْ هُوَ مَطْلُوبُ التحقُّقِ، فَكَانَ حَمْلُ لفظ «لَعَلَّ» عَلىٰ مَعنَىٰ الرَّغْبَةِ هُوَ الْمُلَائِمُ هنا، فالمرغوبُ فِيه مَطْلُوبٌ يُرْجَىٰ، وحينَ يَسْقُطُ الرَّجَاء تَبْقَىٰ الرَّغْبَة.

والعقل عَقْلَان: عَقْلٌ عِلْمِيّ، وعَقْلٌ إراديٌّ.

فَالْعَقْلُ الْعِلْمِيّ: مَا تُدْرَكُ بِهِ مَسَائِلُ المعرفة، وتُحْفَظُ مَعْقُولَةً فِي الذَّاكِرَةِ، وَتُسْتَدْعَىٰ إِلىٰ سَاحَةِ التَّذَكُّرِ الحاضِرِ عِنْدَ الحاجة.

والعقل الإرادي: مَا تُضْبَطُ بِهِ النَّفْسُ عن اتباع الأهواء والشهواتِ

والنَّزعَات والنَّزغَاتِ الجانحات، المؤدِّيَاتِ إلىٰ عِقاب اللهِ وعَذَابه، وعن الاستجابَةِ لِوَساوسِ الشَّيَاطِينِ وَتَسْويلَاتِهم، وعَنِ اتِّباعِ خُطُوَاتِهِمْ.

وكُلٌّ مِنَ الْعَقْلِ العلميِّ وَالْعَقْلِ الإرادِيّ مُرادٌ بعبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

- ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾:

أُمُّ الكِتَابِ: أصْلُ كُلِّ مَعْلُومَةٍ كُتِبَتْ فِي كِتَابٍ، بَعْدَ التَّعْبِيرِ عَنْهَا بِكَلِمَاتِ اللهِ، **والكِتَابُ**: جِنْسٌ يَشْمَلُ كُلَّ الكُتُب، فأُمُّ الكِتَاب يَنْطَبِقُ عَلَىٰ اللَّوْحِ المحْفُوظِ، وهَـٰذَا المعنَىٰ مطابِقٌ لِقَوْلِ اللهِ عزَّ وَجلَّ فِي سورة (الْبُرُوج/ ٢٧ نزول):

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

وأُمُّ اللَّوْحِ المحفُوظِ عِلْمُ اللهِ عزَّ وَجلَّ فِي نَفْسِهِ.

فَالْقُرْآنُ مَكْتُوبٌ بِكِتَابَةٍ يَعْلَمُهَا اللهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ عِنْدَه، وَهُوَ فِي هَـٰذَا اللَّوْحِ الْمحفُوظِ، فِي مَكَانٍ عَلِيٍّ ذي مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ، هُوَ فِيهَا «عَلِيٌّ» لأنَّ دَلَالَاتِهِ تَتَعلَّقُ بِكُبْرَيَاتِ الْحقَائِقِ المُبيِّنَاتِ لصِفَاتِ اللهِ، والمبيّنَاتِ لمَطْلُوبَاتِ اللهِ مِنَ عِبادِهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، وهُمْ مُطَالَبُونَ بِهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، والمشتَمِلَاتِ عَلَىٰ بَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِ دَارَي الْجزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، أعْظَمِ دَارَيْنِ خَلَقَهُمَا اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فِي كَوْنِهِ، مَع مَا فِيهِ مِن آياتٍ بَيَانِيَّةٍ مُعْجِزَة.

وهو أَيْضاً ﴿حَكِيمٌ﴾: لِأَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنْ بَيَانٍ، مُشْتَمِل عَلَىٰ حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ غَايَةَ الْحِكْمَةِ فِي مَعَانِيهِ وَفِي مبانِيهِ.

الْحِكْمَةُ: اخْتِيَارُ أَحْسَنِ الاحْتِمَالَاتِ المُمْكِنَةِ وَأَفْضَلِهَا، وَوَضْعُ كُلِّ مُخْتَارٍ مِنْهَا فِي أَفْضَلِ المواضِعِ الملائِمَةِ لَهُ. ولفظ «الحكيم» يَصْلُحُ وَصْفاً

لِذِي الاخْتِيَارِ الحكيم، وللشَّيْءِ المتْقَنِ عَلَىٰ وَفْقِ الْحِكْمَةِ، فَهُوَ مُحْكَمٌ.

- قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلْمُعَالَجِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، وَيَنْطَبِقُ عَلَىٰ أَمْثَالِهِمْ دَوَاماً، وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَةِ الحقِّ، بَعْدَ مَسِيرَةِ الرَّسُولِ الدَّعَوِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ فِيها (٦٢) سورة:

- ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: [**أَفَنضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً إِنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ**]: بِكَسْرَةِ هَمْزَةِ «إِنْ» وَجَعْلِهَا شَرْطِيَّة.

أَصْلُ مَعْنَىٰ الضَّرْبِ: تَوجِيهُ شَيْءٍ وَإِيقَاعُهُ عَلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ بِقُوَّة. وَحَصَلَ تَوَسُّعٌ فِي اسْتِعْمَالِ مَادَّةِ «الضَّرْبِ» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ يُسْتَعْمَلُ فِيهَا الضَّرْبُ، كَضَرْبِ النُّقُودِ، وَضَرْبِ الأَمْثَالِ.

وَيضْرَبُ الثَّوْرُ لِصَرْفِهِ وَإِبْعَادِهِ عَنِ إِنَاثِ الْبَقَرِ إِذَا عَافَتِ السِّفَادَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ «أَنَسِ بْنِ مُدْرِكَة الْخَثْعَمِي»:

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكاً ثُمَّ أَعْقِلَهُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتِ الْبَقَرُ

فاسْتُعْمِلَ الضَّرْبُ عَنِ الشَّيْءِ بِمَعْنَىٰ الصَّرْفِ والإبْعَادِ عَنْهُ، فَيُقَالُ: ضَرَبَ عَنْهُ جَمَاعَتَهُ وأَتْبَاعَهُ، أي: أَبْعَدَهُمْ عَنْهُ بِقُوَّةٍ وَعُنْف.

﴿ٱلذِّكْرَ﴾: أي: تَبْلِيغَ آيَاتِ الْقُرْآنِ، والتَّذْكِيرَ بِهَا.

﴿صَفْحًا﴾: أي: إعْرَاضاً عَنْكُمْ وإهْمَالاً لَكُمْ، لِعَدَمِ جَدْوَىٰ تَبْلِيغِكُم وَتَذْكِيرِكُمْ فِيمَا خَبَرْنَاهُ سَابِقاً مِنْكُمْ.

الصَّفْحُ: أَصْلُ الصَّفْحِ فِي اللُّغَةِ الجنْبُ، وصَفْحُ كُلِّ شيءٍ جَانِبَاه، واسْتُعْمِلَ «الصَّفْحُ» بمَعْنَىٰ «الإعْرَاض» ومِنْهُ: الإعراضُ عن الذَّنْبِ وَعَدَمُ المؤاخَذَةِ عَلَيْهِ، وهو مأخوذ من إعْطاءِ الجانب إعراضاً.

والمرادُ بِهِ هُنا الإعْرَاضُ عَنْ تَبْلِيغِ الذِّكْرِ، وعن التَّذْكِيرِ بِهِ.

الإسْرَافُ: الْغُلُوّ فِي تَجاوُزِ الحُدُودِ المحْتَمَلَةِ مِنْ أَخْطاءِ النَّاسِ وخطاياهم، في تَصرُّفَاتِهِمْ الإرادِيَّة.

فالمعنىٰ: أَنَتْرُكُكُمْ فِي غَوَايَاتِكُمْ، فَنَصْرِفُ عَنْكُم تَبْلِيغ آيَاتِ الذِّكْرِ الحَكِيم والتَّذْكِيرَ بها بِعُنْفٍ وَقُوَّةٍ، إعْرَاضاً عَنْكُمْ وَيَأْساً من اسْتِجابَتِكُمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَتِكُمُ الْحُرَّة، لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ قوماً مُسْرِفِينَ، ذوي غُلُوٍّ فِي الْمُكَابَرَةِ بِالْبَاطِلِ وَالْعِنَادِ، وَرَفْضِ دَعْوَةِ الْحَقِّ، وَهُوَ مَا ظَهَرَ مِنْكُمْ فِي تَجْرِبَاتٍ كَثِيرَاتٍ فِي مَسِيرَةِ دَعْوَةِ رَسُولِنَا بَيْنَكُمْ، وهـٰذَا يَتَضَمَّنُ إِنْذارهمْ باسْتِحقَاقِهِمْ عَذَابَ الاستئصال.

ورُوعي في القراءَةِ الْأُخْرَىٰ مَنْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلىٰ دَرَكَةِ الْإِسْرَافِ وَالْغُلُوِّ فِي رَفْضِ دَعْوَةِ الْحَقِّ، فجاءَتْ فِيها العبارة باسْتِعْمَالِ «إِنْ» الشَّرْطِيَّة الَّتِي تَدْخُلُ عَلَىٰ غَيْرِ المتحقَّقِ وُقُوعُهُ مُسْتَقْبلاً.

فالمعْنَىٰ علىٰ هـٰذِهِ القراءة: أَنَتْرُكُكُمْ فَنصْرِفُ عَنْكُم تَبْلِيغَ آياتِ الذِّكْرِ الْحَكِيم، وَالتَّذْكِيرَ بِهَا بِعُنْفٍ وَقُوَّةٍ، إعْرَاضاً عَنْكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ فِي وَاقِعِ حَالِكُمْ قَوْماً مُسْرِفين.

أي: احْذَرُوا أَنْ تَصِلُوا إِلَىٰ هـٰذِهِ الدَّرَكَةِ، لِئَلَّا نَتْرُكَكُمْ فِي غَوَايَاتِكُمْ فَنَصْرِفَ عَنْكُمْ تَبْلِيغَ آياتِ الذّكْرِ الحكِيم، والتَّذْكِيرَ بِهَا بِعُنْفٍ وَقُوَّةٍ إعْرَاضاً عَنْكُمْ وَيَأْساً مِنِ اسْتِجابَاتِكُمْ لِدَعْوَةِ الْحقّ، وفي هَـٰذَا إِنْذارٌ ضِمْنِي باسْتِحْقَاقِ الْغُلاةِ الْمُسْرِفِينَ عَذَاباً مُعَجّلاً وإهلاكاً مُسْتَأْصِلاً.

وهَـٰذَا الْعَذَابُ الْمُعَجّلُ وَالإهْلاكُ باسْتِئْصَالٍ، مُشَابِهٌ لإِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ الْمُسْرِفَةِ في كُفْرِها وَعِنادِها الَّتي أَهْلَكَهَا رَبُّكُم مِنْ قَبْلِكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ يُقَدِّمُ مَثَلاً مِنَ الْمهْلَكِينَ السَّابِقِينَ.

● ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾:

أي: وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ رُسُلاً لَنَا فِي الْأَوَّلِينَ مِنَ الْأُمَمِ وَالْأَقْوَام، وَكَانَ مِنْ حَالِ هٰؤُلَاءِ الْأَوَّلِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، أَنَّهُمْ كَانُوا مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ رَسُولاً يُبَلِّغُهُمْ دِينَ اللهِ الحقّ، وَمَطْلُوبَ اللهِ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، إِلَّا كَانُوا يَسْتَهْزِؤُونَ بِهِ، وَبِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ، ولا سِيَّمَا الحياة الْأُخْرَىٰ بَعْدَ الموْتِ وَفَنَاءِ الْأَجْسَادِ وَالْبَعْثِ.

وَيَقُولُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ مُتَحَدِّثاً عَنِ الْمُعَالِجِينَ فِي السُّورَةِ، الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ فِي الآية الخامِسَةِ السَّابِقَةِ، وَمُلْتَفِتاً عَنْ مُخَاطَبَتِهِمْ:

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾:

أي: فَأَهْلَكْنا أقْواماً كَثِيرِينَ كَانُوا أَشَدَّ بَطْشاً مِنْ كُفَّارِ أَهْلِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السلام، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَأَهْلِ سَدُومَ، وَأَهْلِ مَدْيَنَ، وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، وَفِرْعَونَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهم.

الْبَطْشُ: التَّنَاوُلُ الشَّدِيدُ عِنْدَ الصَّوْلَة، السَّطْوُ فِي سُرْعَة، الْأَخْذُ القويُّ الشديد. تَقُول لغة: «بَطَش، يَبْطُشُ، وَيَبْطِشُ، بَطْشاً».

- ﴿. . . وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾: أي: وَمَضَىٰ فِيمَا سَبَقَ أَنْ أُنْزِلَ مِنْ سُوَرٍ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ، قَبْلَ سُورَةِ (الزخرف/ ٦٣ نزول) ذِكْرُ وَصْفِ كُفْرِ المهْلَكِينَ الأَوَّلِينَ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَعِنَادِهِمْ، وَمُقَاوَمَتِهِمْ دَعَوَاتِ الحقّ، وَذِكْرُ إِهْلَاكِهِمْ بَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ واسْتِئْصَالِهِمْ.

المَثَلُ: يأتي بِمَعْنَىٰ الْوَصْفِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ قِصَصَ الْأَوَّلِينَ هِيَ وَصْفٌ بَيَانيٌّ لِمَا جَرَىٰ مِنْهُمْ، وَلِمَا جَرَىٰ عَلَيْهِمْ أَوْ لَهُم.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِ سورة (الزُّخْرف).

والحمد لله عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٦)

التدبّر التحليليّ للدرس الثاني مِنْ دُروس سورة (الزخرف) الآيات من (٩ ـ ١٤)

قال اللهُ عزّ وجَلّ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾.

القراءات:

(١٠) ● قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: ﴿**مَهْداً**﴾.

وقرأها باقي القرّاء العشَرةِ: [**مِهَاداً**].

ومؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحد، إذِ المرادُ أنَّ اللهَ جعلَ الْأَرْضَ مُمَهَّدَةً كَالْفِراشِ الْمُوَطَّإِ الْمُمَهَّدِ، صَالِحَةً للراحَةِ وَالْعَمَلِ عليها، وَلَمْ يَجْعَلْ ظَهْرَهَا كَأَشْوَاكِ الْقُنْفُذ.

(١١) ● قَرَأَ أبو جعفر [**مَيِّتاً**] بِتَشْدِيدِ الياء.

وقرأها باقِي القراءِ الْعَشَرَةِ: ﴿**مَيْتاً**﴾ بإسْكَانِ الياء. وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ لِلْكَلِمَةِ.

(١١) ● قرأ ابن ذَكْوَانِ، وحمزة، والكِسَائِي، وخَلَف: [**تَخْرُجُونَ**] بالبناءِ لِلْمَعْلُوم.

وقرأها باقِي القراء العشرة: ﴿**تُخْرَجُونَ**﴾ بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وبين القراءتين تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ المعنىٰ المراد، أيْ: يُخْرِجُكُمُ اللهُ بِالْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّين، فَأَنْتُمْ تَخْرُجُونَ بِالْجَبْرِ.

تَمْهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدرس عَرْضٌ جَدَلِيٌّ وإقْنَاعِيٌّ، بِشَأْنِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا سِوَاهُ فِي الْوُجُودِ كُلِّه، وَمِنْهَا بَعْضُ ظَوَاهِرِ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ.

وفيها تَشْبِيهٌ لِبَعْثِ الموتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِإِنْبَاتِ الزُّرُوعِ وإحْيَاءِ الْأَرْضِ الميتة بمَاءٍ يُنْزِلُهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ، مَع بيان أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا.

وفيها امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ علىٰ النَّاسِ بأَنَّهُ خَلَقَ لَهُمْ مَا يَرْكَبُونَ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرّ، مُقْتَرِنٌ بِتَوْجِيهِهِمْ لِأَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ رَبِّهِم عَلَيْهِمْ، وَيَقُولوا إذا اسْتَوَوْا عَلَىٰ ظَهْرِ مَرْكُوبِهِم:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

التَّدبُّر التحليلي:

- ■ قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِلرَّسُولِ ﷺ بِشَأْنِ المعالَجِينَ فِي السُّورَة:
- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾.

«ولَئِنْ» اللّام مُوَطّئة للقسم، وهي تُؤْذِنُ بأَنَّ الجواب بَعْدَها مَبْنِيٌّ عَلَىٰ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ قَبْلَهَا.

أي: نُؤَكِّدُ بِالْقَسَم، لَئِنْ سَأَلْتَ مُشْرِكي مَكَّةَ الَّذِينَ تَجْرِي مُعَالَجَتُهُمْ فِي السُّورَة: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ أفراداً، وَجَمَاعَاتٍ، بِتِلْقَائِيَّةٍ وَبِتَتَابُعٍ: خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ.

الْعَزِيزُ: أي: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ الْقُوىٰ.

الْعَلِيمُ: أي: ذُو الْعِلْمِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مَا خَلَقَ.

كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ عِنْدَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ يُؤْمِنُونَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ عزّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ بِشُؤُونِ حَيَوَاتِهِم، كَالنَّصْرِ، والرِّزْقِ، وَالأَمْنِ، والتَّوْفِيقِ فِي الْأَسْفَارِ، ومَنْحِ الذُّرِّيَّةِ، ونَحْوِ ذَلِكَ(١).

فأبَانَ اللهُ عزّ وجلَّ لَهُمْ أَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ شَامِلَةٌ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ، فَهُوَ وَاحِدٌ أَحَدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَمِنْ مَظَاهِرِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي الْأَرْضِ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ مَهْداً، وَأَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا سُبُلاً، وأَنَّهُ يَرْزُقُهُمْ فَيُنْزِلُ لَهُمُ الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاء، وَيُخْرِجُ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحُبُوبِ والثمار وغَيْرِهَا، وأَنَّهُ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ التَّكَامُلِيَّةَ فِي الْأَشْيَاءِ، مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ، ومِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، وَأَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَمِنَ الْأَنْعَام مَا يَرْكَبُونَ، وهَـٰذِهِ مِنْ عِنَايَةِ اللهِ بِهِمْ وَمِنَنِهِ عَلَيْهِمْ فِي الْأَرْضِ، فالرُّبُوبِيَّةُ كُلُّهَا فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِلَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض:

● ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑩﴾: وفي القراءة الأخرىٰ **[مِهاداً]**:

أي: الَّذِي تُؤْمِنُون بأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، لَمْ يُشَارِكْهُ فِي خَلْقِهِمَا شَرِيكٌ ما، هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَمِهَاداً.

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبُّر سورة (فاطر/٤٣ نزول) ـ «توحيد الرُّبوبيَّة وتَوْحيد الإلٰهيَّة في الدَّلالاتِ القرآنية».

المهْدُ: السَّرِيرُ الَّذِي يُهَيَّأُ لِلطِّفْلِ الصَّغِيرِ، ويُوَطَّأُ لِيَنَامَ، أي: جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِمَثَابَةِ الْمَهْدِ، صَالِحَةً لِتَجِدُوا عَلَيْهَا رَاحَتَكُمْ، إقَامَةً، وَجُلُوساً، واضطجاعاً، وَمَناماً، فَوِدْيانُها وُسُهُولُها تُشْبِهُ المَكَانَ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ الطِفْلُ فِي بَاطِنِ السَّرِيرِ، وَجِبالُها تُشْبِهُ حَافَّتي السَّرِيرِ الْمُرْتَفِعَتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

وَيُقَالُ لُغة: «مَهَدَ الْفِرَاشَ، يَمْهَدُهُ، مَهْداً» أي: بَسَطَهُ، وَوَطَّأَهُ، وَجَعَلَهُ مُرِيحاً لِلْجُلُوسِ أَوِ الاضطجاعِ عَلَيْهِ.

المِهَادُ: يَأْتِي فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ الْفِرَاشِ، وبِمَعْنَىٰ الْأَرْضِ الْمُنْخَفِضَة المسْتَوية، وبمعنىٰ قاعِ الْبَحْرِ أَوْ قَاعِ النَّهْرِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي الْأَرْضِ أَمْكِنَةً كَثِيرَةً جدّاً، وبقاعاً فِي سُهُولِهَا، وَبَعْضِ مُرْتَفَعَاتِها، صَالِحَةً مَنَازِلَ للإقامَةِ والسَّكَنِ، والاضطجاعِ والرَّاحَةِ عَلَيْهَا.

فالْمَهْدُ والْمِهَادُ يَدُلّانِ بِتَكَامُلٍ بَيْنَهُمَا عَلَىٰ مَا جَعَلَ اللهُ للنَّاسِ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَمْكِنَةِ إِقَامَةٍ وَرَاحَةٍ وَسَكَنٍ مُطْمَئِنٍّ آمِنٍ.

وهَـٰذَا مِنْ عِنَايَةِ اللهِ عزَّ وَجلَّ بالنَّاسِ فِي الْأَرْضِ.

وَلَيْسَ فِي الْمَهْدِ وَالْمِهَادِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عُمُومَ الْأَرْضِ كَالْفِرَاشِ أَوْ كَالْبِسَاطِ، بَلْ هِيَ كَكُرَةٍ أَوْ كَصَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ تَدُور حَوْلَ نَفْسِهَا، عَلَىٰ مَسِيرٍ فِي الْأُفُقِ، ضِمْنَ نظامٍ رَبَّانِيٍّ لَا تَخْرُجُ عَنْهُ.

- ﴿. . وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: وَجَعَلَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ طُرُقاً، صَالِحَةً لِأَنْ تَسْلُكُوهَا فِي تَنَقُّلَاتِكُمْ وَأَسْفَارِكم، وبهـٰذِهِ السُّبُل تُحَقِّقُونَ مَنَافِعَ كَثِيرَة لَكُمْ.

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها أيضاً سُبُلاً مَعْنَوِيَّةً كَثِيرَةً، تُحَقِّقُونَ فِيهَا كَثِيراً مِنْ مَنَافِعِكُمْ وَأَرْزَاقِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ مِنْ دُنْيَاكُمْ، وَهِيَ تَشْمَلُ سُبُلَ الزِّرَاعَاتِ،

وَالصِنَاعَاتِ، والتجارات، وسُبُلَ الْحِمَايَةِ وَالْحِفْظِ وَالْأَمْنِ، فِي السِّلْمِ وَالحرْب، وغَيْرَ ذَلِكَ.

فلفظ «السُّبُل» في الاستِعْمَالِ القرآنِيِّ يَشْمَلُ السُّبُلَ المادِّيَّة والمعنوية.

■ قولُ اللهِ تَعَالىٰ مُتَابِعاً بَيَانَهُ فِي عَرْضِ أمْثِلَةٍ مِنْ مَظَاهِرِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي كَوْنِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ:

- ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ⑪﴾:

أي: وهُوَ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ فَلا تَرْزُقُكُمْ آلِهَتُكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونه، وَمِنْ ظاهِرَاتِ رِزْقِهِ لَكُمْ، أنَّهُ نَزَّلَ كَما تَعْلَمُونَ مِنَ السَّحَابِ إِذْ هُوَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ سَمَاءٌ (إِذْ كُلُّ ما عَلا فَأَظَلَّ فَهُوَ سَمَاء) نَزَّل مَاءً بِقَدَرٍ اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ، لِرِزْقِ عِبادِهِ وَسَائِرِ الْأَحْيَاءِ فِي الْأَرْضِ.

وَدلَّ عَلىٰ عَظَمَةِ رُبُوبيَّتِهِ بإنْبَاتِ أَنْواعِ النَّبَاتَاتِ فِي الْأَرْضِ، فَالْتَفَتَ مُتَكَلِّماً بِضَمِيرِ المتَكَلِّم الْعَظِيم فقَالَ تَعالىٰ: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ﴾: أَيْ: فَأَحْيَيْنا بِالْمَاءِ إِذْ جَعَلْنَاهُ بِخَلْقِنا سَبباً، بَلْدَةً قَاحِلَةً لَا نَبات فِيها، فَصَارَتْ ذَاتَ حَيَاةٍ بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجناهُ فِيهَا خَضِراً نَضِراً.

الْبَلْدَةُ، وَالْبَلَدُ: المكانُ الواسِعُ من الأرض، ويُطْلَقُ لفظ «الْبَلْدَةِ» علىٰ الْأَرْضِ، تَقُولُ العرب: «هَـٰذِهِ بَلْدَتُنا» أي: أَرْضُنا.

وَوُصِفَتِ «الْبَلْدَة» ولَفْظُها مؤنَّث، بلفظ «مَيْت» أو «مَيِّت» إلحاقاً بما يَسْتَوِي فيه المذكّر والمؤنَّثُ مِنْ صِيَغ. قال الزَّجَّاج: «المَيْتُ والميِّتُ» بالتخفيف والتَّشْدِيدِ، وَيَسْتَوِي فِيهِ المذكَّر والمؤنث.

ولِتَقْرِيب قَضِيَّةِ إِحْياءِ الموتىٰ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِلَىٰ أَذْهَانِ مُنْكِرِي الْبَعْثِ: قَالَ اللهُ تَعالَىٰ لَهُمْ: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ⑪﴾: أَيْ: كذَلِكَ الَّذِي تُشاهِدُونَهُ

مِنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِالنَّبَاتَاتِ مِنْ بُزُورِهَا، تُخْرَجُونَ أَحْيَاءً يَوْمَ الْبَعْثِ مِنْ بِزْرَةٍ صَغِيرَةٍ مَحْفُوظَةٍ فِي عَجْبِ الذَّنَبِ، فَتَخْرُجُونَ بِنَماءٍ تَكَامُلِيٍّ، حَتَّىٰ تَصِيرُوا أَجْسَاداً كَامِلَةً، وتُزَوَّجَ بأَرْوَاحِهَا الَّتِي كَانَتْ دَاخِلَةً فِيهَا فِي الحَيَاة الدُّنْيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَهُ فِي عَرْضِ أَمْثِلَةٍ مِنْ مَظَاهِرِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي كَوْنِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيها أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ:

• ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

الأزواجُ: جَمْعُ الزَّوْجِ، وهو خِلَافُ الفَرْدِ، وَكُلُّ شَيْئَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ يُقَالُ لَهُمَا زَوْجَانِ، وَلَوْ كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ غَيْرَ مُتَشَاكِلَيْن. وَيُطْلَقُ الزَّوْجُ عَلَىٰ الصِّنْفِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَالْأَزْوَاجُ عَلَىٰ هَـٰذَا: الْأَصْنَافُ.

وَتُطْلَقُ الْأَزْوَاجُ بِمَعْنَىٰ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ لَهُ زَوْجٌ مِنْ جِنْسِهِ أَوْ مِنْ نَوْعِهِ، فَهُمَا يَتَكَامَلَانِ فِي أَدَاء وَظِيفَتَيْهِما فِي الْوُجُود:

وَلَا أَرَىٰ مَانِعاً مِنْ حَمْلِ الْأَزْوَاجِ هُنَا عَلَىٰ:

(١) مَعْنَىٰ الْأَصْنَافِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، كَأَصْنَافِ الزُّرُوعِ والثمار.

(٢) ومَعْنَىٰ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ لَهُ زَوْجٌ مِنْ جِنْسِهِ أَوْ مِنْ نَوْعِهِ، فَهُمَا يَتَكَامَلَانِ فِي أَدَاء وَظِيفَتَيْهِمَا فِي الْوُجُودِ، كالذَّكر والأُنْثَىٰ فِي الْأَحْيَاءِ، وَكالسَّالِبِ والموجِبِ فِي الْكَهْرُبَاء، وَفِي الذَّرَّاتِ، وفي المغناطيس، وفي غَيْرِ ذَلِكَ، وقد دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا قولُ اللهِ عزَّ وجلّ في سورة (يسٓ/ ٤١ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّرُ هَـٰذِهِ الآيَةِ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ سُورة (يس) وجَاءَ فِي تَدبُّرِهَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اخْتَارَ أَنْ يَجْعَلَ أَجْنَاسَ خَلْقِهِ، وأَنْوَاعَهُمْ، وأَصْنَافَهُمْ، وأفرادَهُمْ جَمِيعاً خَاضِعَةً لِنِظَامِ الزَّوْجِيَّة، لِئَلَّا يُشَارِكَ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فِي صِفَةِ الْأَحَدِيَّةِ أَحَد.

الْفُلْك: مَرْكَبُ الْبَحْر، يُطْلَقُ عَلَىٰ الواحِدِ، والاثْنَيْنِ والجمع، ويُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، فَيُقَال: هِيَ الْفُلْك، وهُوَ الْفُلْك.

الأنْعَام: هي الأمْوالُ الراعية، وهي الْإِبِلُ، والبقر، والغنم، ولفظ «الأنعام» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، وَالمركُوبُ منَ الْأَنْعَامِ الْإِبِلُ، وهي فِي الصحراء بِمَثَابَةِ الْفُلْكِ فِي الْبَحْر. وقَدْ قِيل: «الْإِبِلُ سَفَائِنُ الْبَرّ».

- ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾: أي: لِتَكُونُوا رَاكِبِينَ باعْتِدَالٍ واسْتِقَامَةٍ عَلَىٰ ظُهُورِ مَا تَرْكَبُونَ مِنْ فُلْكٍ وَأَنْعَام، وَفِيمَا دُونَ ظُهورِ الْفُلْكِ إِذَا كَانَتْ لَهَا بُطُونٌ يَسْتَوِي عَلَيْهَا الرَّاكِبُونَ بِاعْتِدَالٍ واسْتِقَامَةٍ، وهَـٰذَا يُفْهَمُ بِاللُّزُومِ الذِّهْنِي.

- ﴿..ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾: أَيْ: ثُمَّ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَىٰ مَا تَرْكَبُونَ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَام، وَسَارَ بِكُمْ آمِنِينَ، تَذْكُرُونَ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ، إِذْ سَخَّرَ لَكُمْ أَنْ تَحمِلَكُمْ وَأَحْمَالَكُمْ سُفُنُ الْبَحْرِ بِنِظَامٍ مُتْقَنٍ عَجِيب يَجْعَلُهَا تَجْرِي فِي الْمَاءِ، فَتَصِلُونَ بِرَحْمَةِ اللهِ إِلَىٰ بِلَادٍ لَمْ تَكُونوا بَالِغِيهَا إِلَّا بِشِقّ الْأَنْفس، وَسَخَّرَ لَكُمْ أَنْ تَحْمِلَكُمُ الإِبِلُ فِي الْفَيَافِي وَتَحْمِلَ أَحْمَالَكُمْ كَذَلِكَ، وَيُقَاسُ عَلَيْهما سَائر المركوبَاتَ.

- ﴿..وَتَقُولُواْ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

التَّسْخِير: التَّذْلِيلُ وَالتَّطْوِيعُ لعَمَلٍ مَا أَوْ أَمْرٍ مَا، وَجَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيرِهِ، وهَـٰذِهِ المطاوعَةُ قَدْ تَكُونُ بِالطَّبع، كَتَسْخِيرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا حَيَاةَ لَهَا، وقد تَكُونُ بِالْقُوَّةِ مَعَ التَّذْلِيل،

كَتَسْخِيرِ العجماوات، وقَدْ تَكُونُ بالاختيار الحرّ، لِمَا فِي المطاوعَةِ مِنْ مصْلَحَةٍ للمُطَاوِعِ.

- ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾: أي: وَمَا كُنَّا لَهُ مُطِيقِينَ لَوْلَا أَنْ سَخَّرَهُ اللهُ لَنَا، يُقَالُ لغة: «أَقْرَنَ للشَّيْءِ» أي: أطاقَهُ وقَوِيَ عَلَيْه.
- ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾: أي: وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنا لَراجعُونَ بَعْدَ المَوْتِ وَالْبَعْثِ، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الجزاء.

يقال لغة: «انْقَلَبَ، يَنْقَلِبُ» أي: رَجَعَ يَرْجع.

جاء توكيد هَـٰذِهِ العبارة بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّام المزحْلَقَة» والْغَرَضُ الإعْلَانُ عَنْ صِدْقِ إيمَانِهِمْ بيَوْمِ الدِّينِ، وَمَا سَوْفَ يَجْرِي فِيهِ، مِمَّا صَحَّتْ بِهِ الْأَخْبَارُ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ.

وقَدْ عَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ المؤمِنينَ أَنْ يَذْكُرُوا هَـٰذَا الذِّكْرَ الْعَظِيمَ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَنْزِيهٍ لِلَّهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَحَمْدٍ ضِمْنِيٍّ يَسْتَلْزِمُهُ التَّنْزِيهُ بِكَلِمَةِ «سُبْحَانَ» مَعَ دَلَالَةِ الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ بِتَسْخِيرِ المرْكُوبِ، وَلِمَا فِيهِ مِنِ اعْتِرَافِ المؤمنِ بِعَجْزِهِ لَوْلَا تَسْخِيرُ اللهِ لَهُ مَا سَخَّرَ فِي كَوْنِهِ لِعِبَادِهِ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ إعْلَانِ الإيمانِ بِيَوْمِ الدِّينِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الرَّجْعَةُ الْكُبْرَىٰ إِلَىٰ اللهِ، بَعْدَ رِحْلَةِ الابْتِلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، وفِي الْعِبَارَةِ طَيُّ الرَّغْبَةِ فِي الرَّجْعَةِ إِلَىٰ مَكَانِ الْإِقَامَةِ، بَعْدَ رِحْلَةِ السَّفَرِ عَلَىٰ الْمَرْكُوبِ إِلَىٰ غَيْرِ مَكَانِ الإقَامَةِ، لِقَضَاءِ مَصَالِحَ وَتَحْقِيقِ مَنَافِعَ.

فَكَأَنَّ العِبَارَةَ مَعَ المطْوِيِّ فِيهَا: سُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا الْمَرْكُوبَ، وَمَا كُنَّا لَهُ مُطِيقِينَ لَوْلَا أَنْ سَخَّرَهُ اللهُ لَنَا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُعِيدَنَا بَعْدَ قَضَاءِ حَاجَاتِنَا فِي سَفَرِنَا آمِنِينَ، وَإِنَّا إِلَىٰ حِسَابِ رَبِّنَا، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَحقِيقِ جَزَائِهِ، لَرَاجِعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُعَدَاءَ بإيمانِنَا.

وبهَـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (الزُّخرف).

والحمد لله علىٰ معونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٧)

التدبّر التحليليّ للدَّرْس الثالث من دُرُوس سورة (الزُّخرف)

الآيات من (١٥ ـ ١٩)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾.

القراءات:

(١٥) ● قرأ شُعْبة: **[جُزُءاً]**. وقرأها أبو جعفر: **[جُزّاً]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**جُزْءاً**﴾.

ووقف حمزة بِحَذْفِ الهَمْزَةِ وَنَقْلِ حَرَكَتِها إلىٰ الزَّاي، وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ فِي نُطْقِ الْكَلِمَةِ.

(١٨) ● قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: **[يُنَشَّأُ]** بضَمِ الياء، وَتَشْدِيدِ الشِّين.

وقرأها باقي القراء العَشَرَةِ: **[يَنْشَأُ]** بِفَتْحِ الياء وفَتْحِ الشِّين دُونَ تَشْدِيد.

وفي القراءتَيْن تَعْبِيرٌ عَنْ حَالَتَيْنِ للنَّاشِئَاتِ بِرَفَاهِيَةٍ وَدَلَال، بِمُبَالَغَةٍ أو بغَيْرِ مبالغة.

(١٩) ● قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامر، وأبو جَعْفر، ويعقوب: **[عِنْدَ الرَّحْمٰنُ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[عِبَادُ الرَّحْمٰن]**.

وَبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ المعنَىٰ المراد، إذ المَلائِكَةُ عِنْدَ الرَّحْمٰن، وَهُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ.

(١٩) ● قرأ نَافِع، وأَبُو جَعْفَر: **[أَأُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ**﴾.

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي المعنىٰ، أي: أَأَشْهَدَهُمُ اللهُ خَلْقَهُمْ، فَشَهِدُوه، فَهُمْ يُخْبِرُونَ عَمَّا شَهِدُوا، أَمْ هُمْ يَفْتَرُونَ؟

تمهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدرس مُعَالَجَةُ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ عَقِيدَتِهِمْ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ⁽¹⁾.

التدبُّر التحليليّ:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ كُفْرِيَّةٍ كُبْرىٰ مِنْ كُفْرِيَّاتِ المشركين، وَهِيَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا خَلَقَ وَلَداً، زَاعِمِينَ أَنَّهُ جُزْءٌ مُنْفَصِلٌ مِنْ ذَاتِهِ، قِيَاساً عَلَىٰ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَأَنَّهُمْ أَجْزَاءُ مِنْ ذَوَاتِهِمْ:

● ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾:

إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلّ صَمَدٌ، فَلَا يَدْخُلُ فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا يَنْفَصِلُ مِنْ ذَاتِهِ شَيءٌ، فَهُوَ واحِدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، بَالِغٌ غَايَةَ الكَمَالَاتِ كُلِّهَا فِي ذَاتِهِ وَفِي صِفَاتِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُكَافِئَهُ أَوْ يُنَاظِرَهُ أَوْ يُسَاوِيَهُ أَحَدٌ.

---

(١) سبقت دراسة عقيدة مُشركي العرب في الجاهلية بشَأن الملائكة، من خلال تسعة نصوص قرآنية في ثماني سور، في الملحق الثاني من ملاحق سورة (النجم/ ٢٣ نزول). المجلّد الثاني، الصفحات من (١٧٢ ـ ١٩٣) فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

وَيَلْزَمُ مِن انْفِصَالِ جُزْءٍ مِنْ ذَاتِهِ لِيَكُونَ وَلَداً لَهُ، أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا الْجُزْءُ مُتَّصِفاً بِبَعْضِ صِفَاتِ أَصْلِهِ فِي أَدْنَىٰ الْحُدُود، وَأَنْ تَكُونَ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ مَا، وإِلَـٰهِيَّةٌ مَا، لَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَهُوَ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَا وَالِدَ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنِ المثيلِ وَالشَّبِيهِ وَالنَّظِيرِ، وَعَنْ أَنْ يَكُونَ جُزْءاً مُنْفَصِلاً عَنْ غَيْرِه، وَعَنْ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْهُ جُزْءٌ بالاشْتِقَاقِ أَوْ بَالتَّوَلُّدِ وبِالتَّنَاسُلِ، أَوْ بِغَيْرِ ذٰلِكَ، وَمَنْ زَعَمَ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ كَانَ بِرَبِّ الْكَوْنِ كُلِّهِ كَافِراً، لِأَنَّ مَا زَعَمَهُ مُخَالِفٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

إِنَّ كُلَّ ذِي حَيَاةٍ فِي الوجودِ كُلِّهِ سِوَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ، مَخْلُوقٌ لِلَّهِ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، فَكَيْفَ يَكُونُ وَلَداً لَهُ وَجُزْءاً مُنْفَصِلاً عَنْ ذاتِهِ.

لَكِنَّ مُتَّبِعِي أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ مِنْ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ، يُرِيدُونَ أَنْ يَصْطَنِعُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ عَلَىٰ مَا يَشْتَهُونَ، وَأَنْ يَجْعَلُوا لِهٰؤُلَاءِ الْأَرْبَابِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْمَطَالِبِ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَ نُفُوسِهِمُ الجَانِحَةِ الجامِحَةِ، وهَـٰذَا مِنْهُمْ غُلُوٌّ فِي الْكُفْرِ لِسَتْرِ الْحَقِّ الرَّبَّانِي، وَلَمَّا كَانَ أَكْثَرُ أَفرادِ الإِنْسَانِ مِنْ هَـٰذَا الصِّنْفِ الجاحِدِ الكَفُور الْغَالِي فِي الضَّلَالِ، كان من المناسِبِ وَالْأَمْرِ الْحَكِيم وَصْفُ الإنْسَانِ بأَنَّهُ كَفُورٌ مُبِينٌ، أَيْ: كفُورٌ ظَاهِرُ الْغُلُوِّ فِي الْكُفْرِ وَالْجُحُود.

الكَفُور: صِيغَة مُبَالَغَةٍ لاسْمِ الْفَاعِلِ «كافر».

الكُفْر: يَأْتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ جُحُودِ النِّعْمَة، وَهُو ضِدُّ الشُّكْر، وَأَصْلُ «الكُفْرِ» فِي اللُّغَةِ تَغْطِيَةُ الشيءِ تَغْطِيَةً تَسْتَهْلِكُهُ، وَكُلُّ مَنْ كَفَرَ شَيْئاً فَقَدْ سَتَرَه، ولِهَـٰذَا يُقَالُ للزَّارِعِ «كافر».

فالكَافِرُ فِي الدِّينِ هُو الَّذِي سَتَرَ أَدِلَّةَ الإِيمَانِ وَجَحَدَهَا بَعْدَ أَنْ وَضَحَتْ لَه.

وبَعْدَ بَيان أَنَّ انْفِصالَ جُزْءٍ مِن اللهِ عَزَّ وَجلَّ مَرْفُوضٌ عَقْلاً، لِأَنَّ الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ لا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ تَغَيُّرٌ فِي ذَاتِهِ فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ وَمَقَايِيسِها، أَبَانَ اللهُ تبارَكَ وَتعالَىٰ فَسادَ احْتِمَالِ أَنْ يَتَّخِذَ اللهُ لِنَفْسِهِ مِمَّا يَخْلُقُ أَوْلَاداً بِالتَّبَنِّي، مِنْ خِلَالِ اسْتِنْكَارِهِ الشَّدِيدِ عَلىٰ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، فقال اللهُ تَعالَىٰ:

- ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ هَـٰذِهِ «أم» المنقطعة بمَعْنىٰ «بَلْ» وَتَدُلُّ علىٰ الإضراب الانْتِقالِي، ويُلازِمُهَا مَعْنَىٰ الاسْتِفْهَامِ، والاستفهام إنْكَارِيٌّ تَوْبِيخِيٌّ هنا.

أي: بَلْ. أَتَّخَذَ اللهُ مِمَّا يَخْلُقُ فِي كَوْنِهِ بَنَاتٍ، وَتبَنَّاهُنَّ أَوْلَاداً لَهُ، وَهُنَّ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَعِبادٌ مِنْ عِبادِهِ؟!!!

- ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾: أي: وآثَرَكُمْ بِالْبَنِينَ؟؟! تقولُ لُغَةً: «أَصْفَيْتُ فُلَاناً بِكَذا» أي: آثَرْتَهُ بِهِ عَلىٰ نَفْسِكَ.

وأَعْرَضَ اللهُ عزّ وجلَّ عَنْ مُخاطَبَتِهِمْ، فَقَالَ مُلْتَفِتاً عَنْهُمْ، للتَّعْجِيبِ مِنْ أَمْرِهِم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: يَجْعَلُونَ أَوْلَادَ اللهِ رَبِّهِمْ مَلَائِكَةً إِنَاثاً، مَعَ أَنَّ الواحِدَ مِنْهُمْ إِذَا بُشِّرَ بِمَوْلُودَةٍ أُنْثَىٰ لَهُ، ظَلَّ طُولَ نَهارِهِ كَالِحَ الْوَجْهِ، شَاعِراً بِأَنَّهُ كالمسَخَّم وَجْهُهُ بِالسَّوادِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ.

- ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: وهُوَ مُمْسِكٌ عَلَىٰ مَا امْتَلأَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ غَيْظٍ وَغضَب، وَيقُولُ فِي نَفْسِهِ عَنِ الْمَوْلُودِ مِنَ الإِنَاث:

- ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ⑱﴾:

أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا تَعْبِيرٌ عَنْ تَصوّرَاتِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ قَبْلَ الإسلام.

أي: أَأُبَشَّرُ بِمَنْ لَا يَكْسِبُ لِي رِزْقاً وَلَا يُدَافِعُ عَنِّي فِي قِتَال، وَلَا أَفتخِرُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يُنشَّأُ أَوْ يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ (الْحِلْيَةُ: مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ مِنْ مَصُوغِ المعادِنِ وَغيْرِها وَمِنَ الْحِجَارَةِ الكريمة) وَهُوَ فِي الْخِصَامِ (أي: الْمُخَاصَمَة) غيرُ مُبِينٍ بِحِجَّةٍ دَامِغَةٍ يَقْبَلُهَا أَهْلُ الْفِكْرِ والرُّشْدِ وَالْبَيَانِ.

هَكَذَا كَانَ حَالُ النِّسَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّة عِنْدَ الْعرَب، فَالْجَاهِلِيُّ كَانَ يَنْظُرُ إِلَىٰ الأُنْثَىٰ مِنْ خِلَالِ هَـٰذَا الْوَاقِعِ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ المرأةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَام، لِذَلِكَ فَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تُولَدَ لَهُ أُنْثَىٰ.

واللهُ عَزَّ وَجلَّ يُؤَنِّبُ الَّذِينَ يَجعَلُونَ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُنَّ بَنَاتُ اللهِ، وَهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ تُولَدَ لَهُمُ الإِنَاثُ، لِأَنَّهُنَّ لَا يَحْمِينَهُمْ وَلَا يَزِدْنَ فِي ثَرَوَاتِهِمْ، بَلْ يُحَمِّلْنَهُمْ أَعْبَاءَ حَيَوَاتِهِنَّ.

وَيقُولُ تبارَكَ وَتعَالَىٰ أَيضاً بِشَأْنِ زَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ دَلِيلٌ خَبَرِيٌّ عَنِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، وَدُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شُهُودٌ حِسِّي لَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ و**[أَأُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ]** في القراءة الأُخْرَىٰ، فَعَرَفُوا مِنْ مُشَاهَدَتِهِمْ الْبَصرِيَّة أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاث؟!

هَـٰذَا مِنْهُمُ ادِّعَاءٌ عَجِيبٌ لِمَا فِيهِ مِنْ كَذِبٍ مَفْضوحٍ.

سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ إِنْ شَهِدُوا بِأَنَّهُمْ رَأَوْهُم إِنَاثاً بِشُهُودٍ بَصرِيٍّ، وَيُسْأَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ شَهَادَتِهِمُ الْكَاذِبَةِ وَيُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا وَيُجَازُونَ.

وبهَـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثَّالث من دُروس سورة (الزُّخرُف).

والحمد للهِ علىٰ معونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَنِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٨)

التدبُّر التَّحليلِيُّ للدَّرْس الرابع من دُرُوس سورة (الزُّخرف)

الآيات من (٢٠ ـ ٢٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا
يَخۡرُصُونَ (٢٠) أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ (٢١) بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا
وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ
فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم
مُّقۡتَدُونَ (٢٣) ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ
أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٢٤) فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾.

القراءات:

(٢٤) ● قرأ ابْن عامر، وحفص: [**قَالَ أَوَلَوْ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**قُلْ أَوَلَوْ**﴾.

(٢٤) ● قرأ أَبُو جَعْفَر: [**جِئْنَاكُمْ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**جِئْتُكُمْ**﴾..

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدرس معالَجَةٌ لِلْمُشْرِكين بِشَأْنِ تَعَلُّلِهِمْ لِتَسْوِيغِ عباداتِهِم الشِّرْكِيَّةِ، بأَنَّهُ حَاصِلٌ بتقديرِ اللهِ وقضائِهِ الْجَبْرِي، وإبْطَالِ هـٰذا التَّعَلُّلِ الكاذِب.

وفيها مُحاصَرَتُهُمْ فِكْرِيّاً بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَدَيْهِم حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ في عبادتِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ، ولَيْسَ لَدَيْهِمْ كتابٌ مِنْ رَبِّهِم الَّذِي لَا رَبَّ في الوجود سواه، يأْذَنُ لَهُمْ فِيه بأَنْ يَعْبُدوا آلِهَتَهُمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وإِنَّمَا هُمْ يُقَلِّدُونَ آباءَهُمْ تَقْلِيداً أَعْمَىٰ بِعَصَبِيَّةٍ مَقِيتَةٍ.

وفيها بَيَان انتقام اللهِ مِنْ أمْثَالِهِمْ في الْقُرُونِ السَّالِفَة، فَهُمْ يُعَرِّضُونَ أنْفُسَهُمْ بِشِرْكِيَّاتِهِمْ لِانْتِقَامِ اللهِ مِنْهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ تَعَلُّلَ المشْرِكِينَ لِتَسْوِيغِ شِرْكِيَّاتِهِمْ بالْقَضَاءِ والْقَدَر، مع الرَّدِّ عَلَيْهِمْ بأنَّهُمْ كَذَّابُون يَخْرُصُون:

● ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

● ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾: يُرِيدُونَ بِهَـٰذا الْقَوْلِ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لِآلِهَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ، إنَّمَا هِيَ أمْرٌ جَبْرِيٌّ سَبَقَ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُه، والأُمُورُ الْجَبْرِيَّةُ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ لَا تَخْضَعُ لِإرَادَاتِ النَّاسِ، فَلَا مَسْؤُولِيَّةَ عَلَيْهِمْ فِيها، فإنْذَارُهُمْ بِعَذَابِ اللهِ عَلَىٰ شِرْكِيَّاتِهِمْ مُخَالِفٌ لِمَنْطِقِ الْعَقْلِ وأحْكَامِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة، ولِهَـٰذَا رَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بِرَدَّين:

الرَّدُّ الأوّل: أبانَهُ تبارَكَ وتعالىٰ بقوله:

● ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾:

أي: لَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ عِلْمِيٌّ مِنْ بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ، يُثْبِتُ أَنَّهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مَجْبُورُونَ فَلَيْسَ لَهُمْ إرَادَةٌ حُرَّة يُرِيدُونَ بِهَا مَا يَعْبُدُونَ وَمَا لَا يَعْبُدُونَ، بَلِ الْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ والتَّجْرِيبِيُّ يُثْبِتُ أَنَّهُمْ ذَوُو إرادَاتٍ حُرَّةٍ يُرِيدُونَ بها مَا يَشَاؤُونَ مِنْ كُلِّ مَا يَخْضَعُ لِتَصَرُّفَاتِهِم الإرادِيَّة، وَهُمْ مَسْؤُولُونَ عَمَّا يَفْعَلُونَ بِإرَادَاتِهِم الحرَّة.

وَإنْ هُمْ بادِّعَائِهِمْ هَـٰذَا إلَّا يَخْرُصُونَ. «إنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بمعنى «ما».

الْخَرْصُ: يأتي بِمَعْنَىٰ الكَذِبِ، يُقَالُ لغة: «خَرَصَ يَخْرُصُ» أي:

كَذب. ويأْتي بمَعْنَىٰ الظَّنِّ الَّذي لا يَصِحُّ عَقْلاً الاعْتِمادُ عَلَيْهِ لإثْبَاتِ أو نَفْيِ حَقَائق عِلْمِيَّة.

وقِسْمٌ مِنَ المشركين يَخْرُصُونَ بمعْنَىٰ: «يَكْذِبُون» لِأَنَّهُمْ يَشْعُرُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَتعَلَّلُونَ تعَلُّلاً جَدَليّاً، وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كاذِبون.

وقِسْمٌ مِن المشْرِكين يُسَوِّغُونَ الْعَمَلَ بِتَقَالِيدِهِمْ، بالاستنادِ إِلَىٰ ظُنُونٍ تَوَهُّمِيَّةٍ، وَيَصْرِفُونَ عَنْ تَصَوُّرَاتِهِمْ الأَدِلَّةَ الْبُرْهَانِيَّةَ المخالِفَةَ لها، إرْضَاءً لِأَهْوَائِهِمْ، وَالْتِزاماً بِتَقَالِيدِهم الْعَمْيَاءِ لِآبَائِهِمْ وأجْدَادِهِم.

وَقَدْ سَبَقَ في سورة (الأنْعام/ ٥٥ نزول) بَيانُ أنَّ المشْرِكينَ سيتعَلَّلُونَ بالقضاءِ والْقَدَرِ على معْنَىٰ الْجَبْر، لِتَسْويغِ شِرْكِهِمْ، وَأَحْكَامِهِم الباطلةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطان، وأبانَ اللهُ فيها كَذِبَهُمْ فيما يَتعَلَّلُونَ به، فقالَ اللهُ تَعَالَىٰ فيها:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هـٰذا النصّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (الْأنعام).

الرَّدُّ الثاني: أبانَهُ اللهُ تَبارَكَ وتَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ:

- ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ هُنا مُنْفَصِلَة بمعنى الإضراب مع اسْتِفْهَام. أي: بَلْ أَآتَيْنَاهُم كِتَاباً مُنزَّلاً عَلَىٰ رَسُولٍ مِنْ قَبْلِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وفي هـٰذا الكِتَابِ أَمْرٌ مِنَّا أَوْ إِذْنٌ بِأَنْ يَعْبُدوا شُرَكَاءَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُم آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّهِمْ، فَهُمْ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ هـٰذا الكِتَابُ مُسْتَمْسِكُون؟!.

اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ أيضاً عَلَيْهِمْ، إِذْ لَمْ يُنْزِلِ اللهُ على رَسُولٍ مِنْ رُسُلِه

يأمُرُ فِيه أَوْ يَأْذَنُ بِعِبادَةِ غَيْرِه، بَلْ كُلُّ الرُّسُلِ كَانُوا يَأْمُرُونَ أقوامَهُمْ وَأُمَمَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وكانُوا يُبَلِّغُونَ وَعِيدَ اللهِ الشَّدِيدَ بِعَذابٍ خالدٍ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، لِكُلِّ مُشْرِكٍ يَمُوتُ عَلَىٰ شِرْكِهِ، مِنَ الْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحان، من الإنْسِ أَوِ الجنّ.

وَأَبَانَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ المشْرِكِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ مُسْتَنِدٌ إِلَىٰ مَنْطِقٍ عَقْلِيٍّ أو حِسِّيٍّ مَشْهُود، ولَيْسَ لَدَيْهِمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ يأمُرهُم فِيهِ أو يأْذَنُ لَهُمْ فيهِ بِعِبادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ، بَلِ التَّعِلَّةُ الَّتِي تَذَرَّعُوا بِهَا أَنَّهُمْ وَجَدُوا آباءَهُمْ عَلَىٰ مِلَّةِ الشِّرْكِ، فَهُمْ سَائِرُونَ فِي دِينِهِمْ عَلَىٰ آثَارِ آبَائِهِمْ، وهُمْ مُهْتَدُونَ بهٰذَا الاتِّباع التَّقْلِيدِيّ، فقال تَبارَكَ وتَعالَىٰ:

- ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

الْأُمَّة: تَأْتِي بِمَعْنَىٰ الطَّرِيقَةِ، والمِلَّةِ، والدِّين، وتأتي بمَعْنَى المجموعَةِ مِنَ النَّاسِ الَّتِي تَجْمَعُها صِفاتٌ، أَوْ خَصَائِصُ أو رَوابِطُ مُتَمَيِّزَة، والمعنى الأول هُوَ المرادُ هُنَا.

أي: إنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا سَائِرِينَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ ومِلَّةٍ وَإِنَّا نَسِيرُ على آثَارِهِمْ، مُقْتَدِينَ بِهِمْ، ونُؤْمِنُ بأَنَّنَا مُهْتَدُونَ بهٰذا الاقْتِداء.

وبَعْدَ هٰذا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ، فَأَبَانَ لَهُ أَنَّ أَقْوَامَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِ قَوْمِهِ أَهْلِ قَرْيَتِهِ مَكَّةَ، قَالُوا لِرُسُلِهِمْ مُتَذَرِّعِينَ لِتَسْوِيغِ شِرْكِيَّاتِهِم الَّتِي كانُوا عَلَيْها مِثْلَ الَّذِي قَالَهُ مُشْرِكو مَكَّةَ لَهُ، فَذَرِيعَةُ المشْرِكِينَ التَّعَلُّلِيَّةُ قُدَمائِهِمْ وَمَنْ جاؤُوا بَعْدَ الْقُدَمَاءِ السَّابِقِينَ وَاحِدَةٌ، إذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ مَا يَتَذَرَّعُونَ بِهِ غَيْرُها، فقال اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى خِطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

- ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾: القريَةُ تُطْلَقُ في اللُّغَةِ علَىٰ كُلِّ أَرْضٍ فِيها بُيُوتٌ ومَسَاكِنُ مُجْتَمِعَةٌ، سواءٌ قَلَّتْ أَمْ كَثُرَتْ، ولَوْ بَلَغَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً جدّاً، ومَعَها مُلْحقَاتُهَا في الإدَارةِ والحكم.

- ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾: «مِنْ» زِيدَتْ في المفْعُول بِهِ لتوكيد عُمُومِ النفي. أطْلِقَ لَفْظُ «نَذير» اعْتِبَاراً بآخِرِ وَظَائِفِ رِسَالَتِه، إذْ هو مُبَلِّغٌ، وَمُعَلِّمٌ، وَمُذَكِّرٌ، ومُبَشِّرٌ، وَنَذِير.

- ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾: أي: إلَّا قَالَ كُبَرَاؤُها الْمُوَسَّعُ عَلَيْهِم في الرِّزْقِ والأَمْوَالِ، تَوْسِعَةً جعَلَتْهُمْ ذَوي رَفَاهِيَةٍ زَائِدَةٍ كانُوا بِهَا فِي مُجْتَمِعِهم مُسْتَكْبِرين بَطِرين.

- ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: أي: عَلَىٰ طَرِيقَةٍ ومِلَّةٍ.

- ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾: أي: وَإِنَّا سَائِرُونَ عَلَىٰ آثَارِ مِلَّةِ آبائِنَا، ومُقْتَدُونَ بِهِمْ، ومُهْتَدُونَ فِي مَسِيرَتنا.

جاء في الآية (٢٢) ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ وجاءَ فِي الآية (٢٣) ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ في مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، لِيَفْهَمَ المتَدبِّرُ أَنَّ كُلًّا مِن المشْرِكِينَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ والمشْرِكِين في الْأُمَمِ السَّالِفَة، قالُوا: وإِنَّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ، وَمُهْتَدُون، وهٰذا مِنَ الإيجاز في المتناظِرَات.

وَجاء ذِكْرُ المتْرَفِينَ دُونَ الَّذِينَ هُمْ دُونَهُمْ في شَرَائِح المجتمع، لِأَنَّ مَنْ دُونَهُم في مُجْتَمعَاتِهِمْ تبَعٌ لَهُمْ غَالباً.

وَأَخيراً أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ تَلَقَّىٰ مِنْ رَبِّهِ تَعْلِيمَ مَا يَقُولُهُ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّا وَجدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثارِهِمْ مُقْتَدُون وَمُهْتَدُون، وَكَانَ الرَّسُولُ يَقُولُ لِقَوْمِهِ مَا عَلَّمَهُ اللهُ إِيَّاه، فقال تَبارَكَ وَتعَالَىٰ:

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ .. ﴿٢٤﴾﴾:

وَفِي الْقِراءَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿**قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ** ...﴾، وفي قراءة أبي جَعْفَر: [**قُلْ أَوَلَوْ جِئْنَاكُمْ**]:

أي: أَمَرَ اللهُ كُلَّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ، أَنْ يَقُولَ هَـٰذَا الْقَوْلَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ سَائِرِ رُسُلِ الله. فَقَالَ كُلُّ رَسُولٍ لِقَوْمِهِ مَا جَاءَ في هـٰذا التعليم.

أي: أَتَسْتَمِرُّونَ مُتَّبِعِينَ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ، ومُحَافِظِينَ عَلَىٰ تَقْلِيدِهِمْ والسَّيْرِ عَلَىٰ آثَارِهِمْ، ولَوْ جِئْتُكُمْ، ولَوْ جِئْنَاكُمْ مَعْشَرَ رُسُلِ الله بِأَفْضَلَ هِدَايَةً إِلَىٰ نَجَاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ مِنَ الدِّينِ الَّذِي وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ.

فَكَانَ جَوَابُ مُتْرَفِي المشركينَ المسْتَكْبِرِينَ مِنْ أَقْوَامِ الرُّسُلِ، مَا أبانَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: قَالَ المشركُونَ الْمُتْرَفُونَ لِرُسُلِ رَبِّهِمْ: إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الإلَـٰهِيَّةِ لِلَّهِ، وجَعْلِ أَحْكَامِ الدِّينِ قَاصِرَةً عَلَىٰ اللهِ الرَّبِّ لَا شَرِيكَ له، إِنَّا بِكُلِّ هَـٰذا كافِرُون، وكافِرُونَ بأَنْبَاءِ الْبَعْثِ ويَوْمِ القيامَةِ، وكافِرُونَ بالجزاء، وَبِكُلِّ مَا تُبَشِّرُونَ بِهِ مِنْ وَعْدٍ في جَنَّاتِ النَّعِيم، وبكُلّ مَا تُنْذِرونَ بِهِ مِنْ وَعِيدٍ في الجحيم.

كُلُّ هـٰذا وَكُلُّ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ لِتُبَلِّغُونا إِيَّاهُ عَنِ اللهِ لَا نُؤْمِنُ به بَلْ نَحْنُ بِهِ كافِرُون.

وَبَعْدَ عَرْضِ حَالِ المشْرِكِينَ السَّابِقِينَ الَّذِين كَفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ إِلَيْهِم، أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بالتَّعْذِيبِ والإهْلَاكِ المسْتأْصِلِ، فقالَ تبارَكَ وَتَعالَىٰ:

- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾: أي فَعاقَبْناهُمْ عَلَىٰ مَا كانَ مِنْهُمْ مِنْ كُفْرٍ بمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، وَتَكْذِيبٍ لَهُمْ، مَع تكذيبهم بمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ شَاهِدَاتٍ بِأَنَّهُمْ رُسُلُ رَبِّهِمْ حَقّاً وَصِدْقاً، وبأَنَّ مَا أُرْسِلُوا بِهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ.

وآيَاتُ هٰذا الانْتِقَامِ الرَّبَّانِيِّ لَهُمْ، مَوْجُودَةٌ فِي آثَارِ المهْلَكِينَ السَّابِقين، في أَمَاكِنَ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ بُلْدَانِ الأُمَمِ السَّالِفَة.

وَلِهٰذا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ مُؤَهَّلٍ للنَّظَرِ التَّفَكُّرِي في آثَارِ المهْلَكِينَ السَّابِقِين، بقوله تَعَالَىٰ:

- ﴿.. فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

عَاقِبَةُ عَمَلِ الْعَامِلِ: الجزاء الَّذِي يَكُونُ بَعْدَهُ، مُبَاشَرَةً، أَوْ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الرابع من دُروس سورة (الزُّخرف). والحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، ومِنَّتِهِ، وفتحه.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الزّخرف) الآيات من (٢٦ ـ ٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

القراءات:

(٢٧) • أثبَت ياءَ المتكلّم مِنْ: [**سَيَهْدِينِي**] يَعْقوبُ وصْلاً ووقْفاً.

وحَذَفَهَا باقِي القراء العشرة: ﴿**سَيَهْدِينِ**﴾ وصلاً ووَقفاً.

تَمْهيد:

فِي هـٰذِهِ الآيَاتِ مُعالَجَةٌ لمشْرِكِي مَكَّةَ بِشأْنِ قولِهِم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ بالإشَارَة إلى أَنَّ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَجْدٍ دِينِيٍّ بَيْنَ قَبائِلِ الْعرَبِ، سَببُهُ جَدُّهم إبْرَاهِيمُ عليه السلام بانِي الكَعْبَةِ هُوَ وَابْنُهُ جَدُّهُمْ إسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلام.

وقد كَانَ مِنْ شَأْنِ جَدِّهِمْ إبراهِيمَ أَنَّهُ قَال لِأَبِيهِ ولِقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْبُدون مِنْ آلِهَةٍ جَعلْتُمُوهم شُرَكاءَ للهِ.

فإنْ كُنْتُم حَرِيصِينَ عَلَىٰ تَقْلِيدِ آبَائِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ فَقَلِّدُوا إبراهِيمَ مُؤَسِّس أُمَّتِكُمْ فِي مَكَّةَ، وَبَانِيَ كَعْبَتِكُمْ، وَمُعَلِّمَكُمْ عَنْ رَبِّهِ مَنَاسِكَ الْحَجِّ فِي أَرْضِكُمْ، وبِسَبَبِهِ اكْتَسَبْتُمْ مَجْداً بَيْنَ قَبائِلِ الْعَرَبِ جَمِيعاً، إذْ يَحُجُّونَ إلَىٰ بَلَدِكُمْ، وَيَعْتَبِرُونَكُم أَهْلَ بَيْتِ اللهِ وَحَرَمِهِ الآمِنِ، ومِنْكُم سَدَنَةُ الْبَيْتِ، وأَنْتُم سُقَاةُ الْحُجَّاجِ، والْقَائِمُونَ بِمَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ في بَلَدِكُمْ، والشِّرْكُ دَخيلٌ عَلَيْكُمْ، وَلَيْسَ مِنْ أَصْلِ مِلَّتِكُمْ.

التدبُّر التحليليّ:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾: أي: إِنَّنِي بَرِيءٌ. **بَرَاءٌ**: مَصْدَرٌ يُخْبَرُ به، ويُوصَفُ بِهِ، مِثْل «بَرِيء».

الْبَرِيء: هُو الْمُبْتَعِدُ كُلَّ الْبُعْدِ، المطَّهَّرُ غَايَةَ الطَّهَارَة، مِمَّا تَبرَّأَ مِنْهُ. واسْتَبْرأَ مِنَ النَّجَاسَةِ، أي: تَطَهَّرَ مِنْهَا فأبْعَدَها عَنْهُ كُلَّ الْبُعْد.

والشِّرْكُ مِنْ أشْنَعِ النَّجَاسَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ، فالمؤْمِنُ الحريصُ علَىٰ نَجَاتِهِ وعلَىٰ فَوْزِهِ بالسَّعَادَة الْأَبَدِيَّة، يَتَبرَّأُ مِنْ آلِهَةِ الْمُشْرِكِين الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، وَيَبْتَعِدُ عَنْهُمْ كُلَّ الْبُعْدِ، أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَبرِئُ مِنَ النَّجاسَاتِ المادِّيَّة.

﴿إِذْ﴾: ظَرْفُ زَمَانٍ مَعْمُولٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف تَقْدِيرُهُ هُنَا: واذْكُرُوا الْحدَثَ الَّذِي جَرَىٰ يَا أَبْنَاءَ إسْمَاعِيلَ بْنِ إبراهيمَ حِينَ قَالَ إبْرَاهِيمُ جَدُّكُمْ لِأَبِيهِ وَلِقَوْمِهِ إنَّنِي بَرَاءٌ مِنْ كُلِّ مَا تَعْبُدُونَ، إلَّا من عِبَادةِ الَّذِي فَطَرَنِي فَخلَقَنِي بَعْدَ أَنْ لَمْ أَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، وإذْ هَدَاني إلَىٰ الإيمان بِهِ رَبّاً لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّتِهِ، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي إلى صِرَاطِ عِبَادَتِي لَهُ، وَإِلَىٰ أَعْمَالِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُرْضِيهِ مِنْ عِبَادِهِ، الْمُبَايِنَةِ لِعِبَادَاتِ المشْرِكِين لِآلِهَتِهِمْ، الَّتِي اتَّخَذُوها مِنْ دُونِ اللهِ زُوراً وَبُهْتَاناً، وافْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ في رُبُوبيَّتِهِ وفي إِلَهِيَّتِهِ.

وجاء ذِكْرُ ﴿لِأَبِيهِ﴾ قَبْلَ ذِكْرِ ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ مع أَنَّهُ مِنْهُمْ، لبيان أَنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، الْتَزَمَ بِتَبليغ وإنْذَارِ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِيْن قَبْلَ أَوْ مَعْ تَبْلِيغِ وَإِنْذَارِ سَائِرِ قَوْمِهِ، وهو الْأَمْرُ الَّذِي أَرْشَدَ اللهُ إِلَيْهِ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِقَوْلِهِ لَهُ في سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول):

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام:

- ● ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾: أي: في ذُرِّيَّتِهِ، **الْعَقِبُ**: يأتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ: وَلَدِ الرَّجُلِ، وَوَلَدِ وَلَدِهِ الْبَاقِينَ بَعْدَهُ، **والولَدُ** في اللُّغَة يُطْلَقُ عَلَىٰ الذكَرِ

والأُنْثَىٰ، والمفْرَدِ والمثَنَّىٰ والجمع، فَتَعْرِيفُ «الْعَقِبِ» بالذُّرِّيَّةِ هُوَ المناسِبُ هُنا، وهُو الأَخْصَر.

وَالضَّمِيرُ في: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ هي قَوْلُهُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهـٰذِهِ الْعِبَارَةُ ذَاتُ لَوَازِمَ فِكْرِيَّةٍ، وفي مُقَدِّمَتِهَا الإيمانُ بأَنَّ اللهُ وَاحِدٌ أحَدٌ في رُبُوبِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، وَوَاحِدٌ أَحَدٌ فِي إِلٰهِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، فَلَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ غَيْرُهُ، وَلَا إِلٰهَ في الْوُجُودِ كلّه غَيْرُه، ثُمَّ إِفْرَادُهُ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ الْعِبَادَاتِ، وطاعَتُهُ بِفِعْلِ أوامره، واجْتِنَابِ نَواهيه.

وَيُفْهَمُ من جَعْلِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هـٰذِهِ العبارة كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ، أَنَّهُ وَصَّىٰ بِهَا وَبِلَوَازِمِهَا مَنْ كَانَ حَيّاً مِنْ أَوْلَادِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَأَوْصَاهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهَا وَصِيَّةً يَنْقُلُهَا خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ، رَاجِياً بهـٰذِهِ الْوَصِيَّةِ أَنْ تَرْجِعَ ذُرِّيَّاتُهُ إِلَىٰ تَذَكُّرِها جِيلاً بَعْدَ جيلٍ، وأَنْ يَلْتَزِمُوا بِمَضْمُونِها، وَأَنْ تَكُونَ وَسِيلَةً تَهْدِي إِلَىٰ الرُّجُوعِ إلى مَضْمُونِهَا مَنْ خَرَجَ عَنْ صراطِ اللهِ إِلَىٰ شيءٍ من الشِّرْكِيَّات، أو كبائر الإثم.

وبهـٰذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الخامس من دُروس سورة (الزُّخرف).

والحمد لله على معونتِهِ، ومَدَدِه، وتوفيقه، ومنّته، وفَتْحِه.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدّرسِ السادس من دُروس سورة (الزّخرف)

الآيات من (٢٩ ـ ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ

مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ
رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن
يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا
وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

القراءات:

(٣٣) ● قرأ ورْشٌ، وأَبُو عمْرو، وحفْص، وأبو جَعْفر، ويعقوب: **﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾** بِضَمِّ الباء.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: **[لِبِيُوتِهِمْ]** بِكَسْرِ الباء.

وهما لغتان عَرَبِيّتان.

(٣٣) ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[سَقْفاً]** بالإفراد، اسْمَ جنْسٍ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿سُقُفاً﴾** بالجمع.

ومُؤَدَّى القراءتَيْنِ واحِدٌ.

(٣٤) ● قرأ وَرْشٌ، وَأَبُو عَمْرو، وحَفْصٌ، وأبو جعفر، ويعقوب: **﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾** بضمِّ الباء.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: **[لِبِيُوتِهِمْ] بِكَسْرِ الباء.**

وهما لغتانِ عَرَبِيَّتانِ.

(٣٥) ● قرأ عَاصم، وحمزة، وهِشَام بخُلْفٍ عنْهُ، وابنُ جمّاز: **﴿لَمَّا مَتَاعُ﴾** بِتَشْدِيدِ الميم مِنْ «لَمَّا» وهي هنا بِمَعْنَىٰ «إِلَّا» حَرْفُ اسْتِثْنَاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَمَا مَتاعُ]** دُون تَشْدِيدِ «الميم» مِنْ «لَمَا» واللام فيها هي اللّام الفارقة، المسْبُوقَةُ بـ«إنْ» المخفَّفَةُ من الثقيلة، و«مَا» زائدة للتوكيد. والمعنى: وإنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَتاعُ الحياة الدُّنيا.

تمهيد:

فِي آيَات هـٰذا الدَّرْس مُعالَجَةٌ لمشركي مكَّة إبَّانَ التَّنْزيلِ بِشَأْنِ كُفْرِهِمْ بالقرآن، وادِّعَاءِ أنَّهُ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ، واعْتِرَاضِهِمْ عَلَىٰ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ علَىٰ محمّد ﷺ، دُونَ أنْ يَنْزِلَ عَلَىٰ رَجُلٍ عظيم فِي مَفَاهِيمِ النَّاسِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ مَكَّةَ أَوِ الطَّائف.

وفِيها بَيَانُ أَنَّ الْوَفْرَةَ الْمَالِيَّةَ، الَّتِي تَجْعَلُ صَاحِبَهَا عظيماً بَيْنَ النَّاسِ، فِي مَفْهُومَاتِهِم الْقَاصِرَاتِ، لَيْسَتْ في الحقيقة دَلِيلاً علَىٰ أَنَّهُ عَظِيمٌ مُؤَهَّلٌ لِأَنْ يُنْزِلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ كِتَاباً لِهِدَايَةِ النَّاسِ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْن مُشْرِكي مَكَّةَ الَّذِينَ هم مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بنِ إبراهيمَ عَلَيْهِما السَّلام، والَّذِينَ أَوْصَى إبراهيم أجدادَهُمْ بالمحافَظَةِ علَىٰ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ، والْبَرَاءَةِ مِنْ شِرْكِ المشركين، فَلَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ وَصِيَّتِهِ الَّتِي كانَتْ بَاقِيَةً فِيهم، ولَمْ يَرْجِعُوا إلى تَعْلِيمَاتِها في أجيالِهِمُ المتَأَخِّراتِ، ونبَذُوا مَا جَاءَ فيها، وعَبَدُوا الأَوْثَانَ الَّتِي جَلَبَهَا لَهُمْ مِنَ الشَّامِ «عَمرو بْنُ لُحيّ» فَأَمْهَلَهُمُ اللهُ بِحَسَبِ سُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ، ولَمْ يُعَاقِبْهُمْ، بَلْ مَتَّعَهُمْ في حَيَواتِهِمْ إلَىٰ آجالِهِم المقدّرَةِ لَهُمْ، حَتَّىٰ بَعَثَ رَسُولَهُ محمّداً فِيهِمْ، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ تَجْدِيدَ تَعالِيم مِلَّةِ إبْرَاهِيم، ويُنْزِلُ عَلَيْهِ القرآنَ تِباعاً نَجماً بَعْدَ نَجم.

● ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: لَمْ أنْتقِمْ مِنْهُمْ إذْ أهْمَلَتْ أجْيالُهُمُ المُتأخِّرَةُ وَصِيَّةَ جَدِّهِمْ إبْرَاهِيمَ وَنَبَذُوا الْعَمَلَ بها، بَلْ مَتَّعْتُهُمْ مَتاعَاتِهِمُ المقْسُومَةَ لَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَمْ أُعَاقِبْهُمْ علَىٰ شِرْكِيَّاتِهِمُ الَّتِي أَدْخَلُوهَا إلَىٰ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، إمْهَالاً لَهُمْ في ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، حتَّىٰ تَفَاقَمَ أَمْرُهُمْ فِي الشِّرْكِ والجاهِلِيَّاتِ المختَلِفَات، واقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ أُرْسِلَ خاتم المرسَلِينَ محمّداً رَسُولاً مِنْهُم مُبيناً لِلْحقِّ بِلُغَتِهِمْ، فأبَانَ لَهُمُ الْحَقَّ الَّذِي كَانَ قَدْ وَصَّىٰ بِهِ جَدُّهُمْ إبْرَاهِيمُ أَوَائِلَ أَجْدَادِهِم، وأَوْصَاهُمْ بأَنْ يَتَوارَثُوهَا جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، وأَنْ يُوصِيَ بِهَا كُلُّ جِيلٍ سَابِقٍ مَنْ يَلِيهِ مِنَ الأَجْيَالِ.

وَلَمَّا جَاءَ قُرَيشاً الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ بِبِعْثَةِ مُحمَّدٍ، وَتَلَا عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ قُرآنٍ نَجماً بَعْدَ نَجمٍ، وأَدْهَشَتْهُمْ بَلَاغَتُهُ وَكَمَالُ بَيَانِهِ، قَالُوا: هٰذَا سِحْرٌ.

وَلَمَّا كَانَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ القرآنُ مُخَالِفاً لِأَهْوَائِهِمْ، وانْطِلَاقِهِمْ فِي فُجُورِهِمْ، ورَغَبَاتِهِمْ في الظلْم والْعُدْوَانِ، والإثْمِ والْفُسُوقِ والْعِصْيَانِ، قَالُوا: إِنَّا بِهِ كَافِرُونَ.

- ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾: أي: جَعلْتُ هؤلَاءِ الأحْياءَ مِنْ قُرَيشٍ وَآبَاءَهُمْ المشركينَ مِثْلَهُمْ، يَنالُونَ مَا قَسَمْتُ لَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَلَمْ أُهْلِكْهُمْ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا مُسْتَأْصِلاً، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إلى دَرَكَةِ الإهْلَاكِ الْعَامّ المسْتَأْصِلِ في الدنيا، أَمَّا كُفْرُهُمْ بالْحَقِّ فَسَوْفَ يَنَالُونَ جَزاءَهُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيامَة.

- ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: أي: واسْتَمَرَّ إمْدَادِي لَهُمْ بِمَتَاعَاتِهِمْ مِن الحياة الدُّنيا، حَتَّىٰ بَعَثْتُ رَسُولِي مُحَمّداً، وَجَاءَهُمُ الْحَقُّ بَلاغاً عَلَىٰ لِسَانِهِ، وَهُوَ مَا سَبَقَ أَنْ أَوْصَىٰ أوائِلَ أَجْدَادِهِمْ بِهِ رَسُولِي إبراهيم بَلَاغاً عَنِّي.

- ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: أي: وَحَتَّىٰ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ أرْكَانَ الإيمَانِ، وتَعْلِيمَاتِ الإسْلَامِ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الكِتَابِ الْعَرَبِيّ الْمُبِين، وفِيهِ بَيَانَاتُ الْحَقِّ الدِّينيِّ الَّذي يجب عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَعْمَلُوا بأَحْكَامِهِ.

- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾: أيْ: ولَمَّا جَاءَهُمُ الكِتَابُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، بَلَاغاً عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ مُحمّد ﷺ، وأَدْهَشَتْهُمْ بَلَاغَتُهُ وكَمَالُ بَيَانِهِ، وَعَجَزُوا عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

- ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾: أي: إنَّ تَأْثِيرَهُ في نُفُوسِهِمْ وَفِي قُلُوبِهِمْ وَعقُولِهِمْ نَاتِجٌ عَمَّا اقْتَرَنَ بِهِ مِنْ سِحْرٍ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ بِذَاتِهِ بَيَانٌ مِنَ اللهِ عَظِيمٌ مُعْجِزٌ، وَلَيْسَ لِأَنَّ بَلَاغَتَهُ أسْمَىٰ مِنْ كُلِّ كَلَامٍ بَلِيغٍ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الإنْسُ والْجِنُّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

ولَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَا يُخَالِفُ تقالِيدَهُمُ الدِّينِيَّةَ، ويُخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَكَثِيراً مِنْ مَطَالِبِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنيا الظَّالِمَةِ الآثِمَةِ الفاجِرَة، أعْلَنُوا كُفْرَهُمْ بِهِ وَهُمْ يَعْلَمُون أنَّهُ الْحَقُّ، فَقَالوا:

- ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾ وَكُفْرُهُمْ هٰذا كُفْرُ جُحُودٍ لَا كُفْرُ جَهْلٍ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ دَافِعاً مِنْ دَوَافِعِ كُفْرِهِمْ بالْقُرآن، وهُوَ كِبْرُهُمْ عَنْ أَنْ يَتَّبِعُوا الرَّسُولَ محمَّداً، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ عَظِيماً مِنْ عُظَمَاءِ أَهْلِ الدُّنيا والمال والجاه، في مَكَّةَ أَوِ الطَّائِفِ هُو الأَحَقُّ بِأَنْ يَخْتَارَهُ اللهُ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِ القرآن:

- ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾:

﴿لَوْلَا﴾: أَدَاة تَحْضِيضٍ بمَعْنَىٰ «هَلَّا».

- ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾: هُمَا مَكَّةُ والطَّائِف.

- ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: أي: عَلَىٰ رَجُلٍ عَظِيمِ الْجَاهِ واسِعِ الْمَالِ، ذي مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ في مَكَّةَ أو الطَّائِف.

جاء عِنْدَ المفسّرين ذِكْرُ بَعْضِ عظماء مَكّة، ومنهم: «الولِيدُ بْنُ المغيرة، عُتْبَةُ بْنُ رَبيعَة» وذِكْرُ بَعْضِ عظماء الطائف ـ ومِنْهُمْ «عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثقفي ـ عُمَيْرُ بْنُ عَبْدِ يَالِيلَ الثَّقَفِي ـ حَبِيبُ بْنُ عمْرو الثَّقَفِيّ».

ورَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا جَاءَ في سَفَاهَتِهِم الَّتِي اقْتَرَحُوها عَلَىٰ رَبِّهِمْ، الْقَائِمَةِ عَلَىٰ اعْتِبَارِ السَّعَةِ فِي الْمَالِ، وامْتِلاكِ زُخْرُفِ الحياةِ الدُّنْيا، وَاسْتِكْبَارِ الإنْسَانِ فِي مُجْتَمَعِهِ هِي المؤهِّلاتُ لاصْطِفَاءِ اللهِ بَعْضَ عِبَادِهِ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ وَإِنْزَالِ كِتَابِهِ.

■ فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ خِطاباً لِكُلِّ صَالح للخطاب بأُسْلُوبِ الخطاب الإفراديِّ:

- ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

- ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾: عَطاءَاتُ اللهِ المادِّيَّةُ والمعْنويَّةُ كُلُّها مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ وَمِنْ فَضْلِهِ بِحَسَبِ ما تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه، وَهُوَ يَقْسِمُ مِنْ فُيُوضِ عَطاءَاتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، ولَيْسَ لِأحدٍ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَقْتَرِحَ عَلَىٰ رَبِّهِ ما يَشَاءُ مِنْ عَطَاءٍ وَمَنْعٍ، وَبَسْطٍ أَوْ تَقْدِيرٍ، وَاصْطِفَاءٍ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، أَوِ الْحِرْمَانِ مِنْ ذَلِكَ، فَاللهُ هُوَ الْعَلِيمُ بِعِبادِه وَبِصِفَاتِهِمْ وَخَصَائِصِهِمْ، وَمَا هُمْ مُؤَهَّلُونَ لَهُ أَوْ لَيْسُوا بِمُؤَهَّلِينَ لَهُ.

- ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِيرِ المتكَلِّم الْعَظِيم، مُبَيِّناً أَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ الْجَلِيلَةِ قَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ مَعِيشَتَهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنيا، فَجَعَلَ النَّاسَ الموسَّع

عَلَيْهِمْ في الرِّزْقِ عَلَىٰ دَرجَاتٍ مُتفاضِلاتٍ، وجَعَلَ المقدَّرَ عَلَيْهِمْ في الرِّزْقِ على دَرَجات مُتَنازِلَات.

الْمَعِيشَةُ: مَا يُعَاشُ بِهِ، وجَمْعُها «الْمَعَايش».

- ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾:

أي: ونَحْنُ رَفَعْنَا بَعْضَ النَّاسِ فَوْقَ بَعْضٍ دَرجَاتٍ في الْهِبَاتِ والْخصَائِصِ المادّيَّةِ والمعنويَّة، الْجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، ومِنْهَا الفِكْرِيَّةُ وَالعقليّة، والْخُلُقِيَّة، لِيَكُونَ بَعْضُ النَّاسِ مُسَخَّراً لِبَعْضٍ بِحَسَبِ خَصَائِصِ كُلٍّ مِنْهُمْ، ويَحْصُلُ بهـٰذا تبادُلُ الخدماتِ، وَتَكَامُلُ تَأْدِيَةِ وَظَائِفِ الحياةِ وَمَعَايش النَّاسِ.

وَهـٰذا ظَاهِرٌ في كُلِّ صِفَاتِ النّاسِ، في الْقُوىٰ الْجَسَدِيَّة، وفي الْخَصَائِص الْفِكْرِيَّة، وفي الْقُدُرَاتِ وإمْكَانَاتِ المهَارَاتِ الصِّنَاعِيَّةِ، وفي الصِّفَاتِ الْخُلُقِية، وغَيْر ذلِكَ مِنْ صِفَاتٍ وَخَصَائِصَ يَعْسُرُ إحْصَاؤها.

وبِسَبَبِ هـٰذا ظَهَرَ الْعُلَمَاءُ الْمُبْدِعُونَ، وظَهَرَ المخْتَرِعُونَ، وذَوُو إمْكَانَاتِ الْمَهَارَاتِ الصِّنَاعِيَّة، وَمَنْ هُم دُونَ ذَلِكَ حَتَّىٰ دَرجَةِ الْعُمَّالِ الَّذِينَ لَا يَصْلحُونَ إلَّا لِلْحَمْلِ والنَّقْلِ والأَعْمَالِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضِ الْقُوىٰ الْجَسَدِيَّة.

سُخْرِيّاً: أَيْ: مُسَخَّراً في حُدُودِ قُدْرَاتِهِ وَخَصَائِصِهِ ومَهَارَاتِه، ولَا أَرَىٰ مَعْنَى السُّخْرِيَة (أي: الاسْتِهْزَاءِ) مُراداً هُنَا في النَّصّ واللهُ أعلم.

- ﴿.. وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾: أي: ورحْـمَـةُ رَبِّـكَ الْخَاصَّةُ بالاصْطِفَاءِ للنُّبوَّةِ والرِّسَالَةِ وَإنْزَالِ الكِتَابِ، الَّتِي يُرِيدُهَا المشركُونَ لِرَجُلٍ عَظِيم مِنْ عُظَمَاءِ مَكَّةَ والطَّائفِ، هِيَ خَيْرٌ وَأَجَلُّ وأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا يَجْمَعُ عُظَمَاءُ النَّاسِ مِنْ أَمْوالٍ، وَمَتَاعَاتٍ، وزِينَاتٍ، مِنْ مظاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنيا. وَعَطَاءَاتُ هـٰذِهِ الرَّحْمَةِ الخاصَّةِ لَا تَكُونُ بِحِكْمَةِ اللهِ إلَّا لِمَنْ هُوَ

مُؤَهَّلٌ لَهَا بِخصَائِصِهِ الفِكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، وبمَا لَدَيْهِ مِنْ خُلُقٍ عَظِيم، وَإِذْعَانٍ لِلْحَقِّ، وَقُدْرَةٍ علَىٰ ضَبْطِ نَفْسِهِ عن الْجُنُوحِ والميْلِ إلَىٰ مَرَاتِعِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ والشَّهَواتِ، وَلَا يَعْلَمُ مَنْ هُوَ مُؤَهَّلٌ إِلَّا الْعَلِيمُ الخبيرُ بِخَصَائِصِ النفوسِ وخبايَاها، وعَوَاطِفِها، وحَرَكَاتِها الإرادِيَّة، ومَا فيها مِنْ مَطَالِبَ وَتطَلُّعَاتٍ.

▪ قَوْلُ اللهِ تعَالَىٰ مُبيِّناً أَنَّ كُلَّ مَا فِي الدُّنْيا مِنْ مَتاعٍ يَتقاتَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَيتَنَافسُونَ فِيهِ، حَقِيرٌ لا قِيمَةَ لَهُ فِي الحقيقة، ولَوْلا أَنْ يَفْتَتِنَ النَّاسُ ويَكْفُرُوا جَمِيعاً، لَخصَّ الْكَافِرِينَ بِهِ فَجَعَلَ لَهُمْ أعْظَمَ مَا فِي الدُّنْيا مِنْ مَتَاعَاتٍ وَمُمْتَلَكَاتٍ وَزيناتٍ وزُخْرُف:

• ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وَلَوْلَا أَنْ يَفْتَتِنَ أَكْثَرُ النَّاسِ بمظَاهِرِ الحياة الدُّنيا وزيناتِها، فَيكُونُوا أُمَّةً وَاحِدَةً كَافِرَةً، لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمٰنِ الْمُمِدِّ بِعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ، مِنْ أَقَلِّ مَا يَسُرُّهُمْ مِنْ دُنياهُمْ إلَىٰ أعْظَمِ مَا يَتَقَاتَلُونَ عَلَيْهِ، وَيتَنَافسُونَ فِيه، أَفْخَمَ المظاهِرِ والزِّينَاتِ والمتاعَاتِ، لَكِنْ لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لافْتُتِنُوا فَكَفَرُوا، إذْ تَدْفَعُهُمْ أَهْواؤُهُمْ وشَهَوَاتُهُمْ وحُبُّهُمْ لِلتَّفَاخُرِ والتَّكَاثُرِ، فَتُوَجِّهُ إرادَاتِهِم الحرَّةَ لِطَلَبِ هٰذِهِ المظاهِرِ الْخَادِعَةِ الْفَاتِنَة، وَلَوْ كانَ الكُفْرُ بالرَّحْمٰنِ هُوَ السَّبِيلَ الموصِلَ إِلَيْهَا.

ولِهٰذَا لَمْ نَخُصَّ الْكَافِرِينَ بالتَّفْضِيلِ بِمظَاهِرِ الحياة الدُّنيا وزينَاتِها، بَلْ كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاءِ وهٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءَاتِنَا مِنَ الدُّنْيَا، بِحَسَبِ حِكْمَتِنَا فِي امْتِحَانِ عِبَادِنَا فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا دَار الابْتِلاء.

• ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: أي: لَجعَلْنَا لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بالرَّحْمٰنِ، وخُصَّ هُنَا اسْمُ «الرَّحْمٰنِ» مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ بالذِّكْرِ، لِأَنَّ عَطَاءَاتِ اللهِ في الدُّنيا مِنْ مَتَاعَاتِهَا هِيَ مِنْ تَجلِّيَاتِ اسْمِهِ «الرَّحْمٰن».

- ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾: أي: لَجَعَلْنَا لِبُيُوتِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بالرَّحْمٰنِ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ، بَدَلَ الْخَشَبِ والطِّين، أَوْ بَدَلَ الحجارةِ والصُّخُورِ، فَالسُّقُفُ مِنَ الْفِضَّةِ مِمَّا يَتَفَاخَرُ بِهِ النَّاسُ فِي بِنَاءِ بُيُوتِهِمْ، لِأَنَّ الْفِضَّةَ غَالِيَةُ الثَّمنِ بالنِّسْبَةِ إلى الحجارةِ وكثيرٍ مِنَ المعادِنِ، باسْتِثْنَاءِ الذَّهَبِ الَّذِي هو أنْفَسُ جَوْهراً، وأغْلَىٰ قِيمَةً، لَكِنَّهُ أَقَلُّ وُجُوداً في الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِه.

سُقُفاً: جَمْعُ «سَقْفٍ» وهو البناء الذي يُغَطِّي الْبَيْتَ مِنْ أعْلَاهُ، والمعتَمِدُ على الْجُدْرَان.

- ﴿.. وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: وَلَجَعَلْنَا لَهُمْ مَعَارِجَ مِنْ فِضَّةٍ أيضاً، فَهُمْ عَلَىٰ هـٰذِهِ المعارِجِ الفِضّيَّةِ يَرْقَوْنَ ويَصْعَدُونَ إِلَىٰ الْغُرَفِ الْعُلْيَا فِي بُيُوتِهِمْ، وَإِلَىٰ أعَالِيهَا وَسُطُوحِها.

يُقَالُ لُغَةً: «ظَهَرَ عَلَىٰ الجِدَارِ أَوِ السَّطْحِ، يَظْهَرُ» أيْ: عَلَاهُ.

الْمَعَارِجُ: أَيْ: المصاعِدُ، والسَّلَالِمُ، وَنَحْوُهَا، ويُمْكِنُ أَنْ تُطْلَقَ عَلَىٰ المصَاعِدِ الْآلِيَّةِ الكهربائِيَّة.

أي: وَمَعَارِجَ مِنْ فِضَّةٍ بالصُّعُودِ عليها يَعْلُونَ، حَتَّىٰ يَظْهَرُوا عَلَىٰ مَا يُرِيدون أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ وَيَعْلُو عَلَيْهِ.

- ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾:

أي: وَلَجَعَلْنَا لِبيوتِهِمْ أبواباً وسُرُراً مِنْ فِضَّةٍ، ولجعَلْنَاهُم مُرَفَّهِينَ يَتَّكِئُونَ عَلَىٰ سُرُرِهم، وَلَجَعْلنَا لَهُمْ زُخْرُفاً يَسْتَمْتِعُونَ بِهِ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِحُسْنِهِ وَبِمَا فِيهِ مِنْ زِينَاتٍ سَارَّاتٍ للنَّاظِرِين.

السُّرُرُ: جَمْعُ «السَّرير» وهو المضْجَعُ ذو القوائم الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَرْفَعُهُ عَنِ الْأَرْضِ، ونَحْوُهُ، ويُبْسَطُ عَلَيْهِ الْفِرَاشُ اللَّيِّنُ عَلَىٰ قَدْرِ المسَطَّحِ مِنْهُ.

يَتَّكِئُونَ: أي: يَجْلِسُونَ بَتَمكُّنٍ عَلَىٰ السُّرُرِ المَكْسُوَّةِ بالْفُرُشِ الْوَثِيرَةِ، وَيُصَاحِبُ هـٰذا الْجُلُوسَ بتمكُّنٍ في الغالِبِ، وضْعُ الْيَدِ أو الْيَدَينِ علَىٰ مَا يَحْملُهُمَا لِلرَّاحَة.

الزُّخْرُف: يُطْلَقُ علَىٰ الزِّينَةِ، وَعَلَىٰ كَمالِ حُسْنِ الشيء، ويُطْلَقُ على الذَّهَبِ. يُقالُ لغة: «زَخْرَفَ الشيْءَ» أي: زَيَّنَهُ وكَمَّلَ حُسْنَه. ومِنْ تَزْيينِ الأشْيَاءِ جَعْلُهَا مِنَ الذَّهب، أَوْ تَغْلِيفُهَا بِالذَّهَبِ، أَوْ تَطْعِيمُهَا به.

- ﴿..وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ ..﴾: أَيْ: وَمَا كُلُّ ذَلِكَ وأشْبَاهُهُ إِلَّا مَتَاعُ الْحَياةِ الدُّنيا، يُنْتَفَعُ بِهِ مُؤَقَّتاً في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ، وَهُوَ ضَئِيلُ الْقِيمَةِ، ومَصِيرُهُ إِلَىٰ الْبِلَىٰ والْفَنَاءِ والزَّوَالِ.

المتاع: مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مُؤَقّتاً، ومَصِيرُهُ إلى الفناء والزَّوال، وهو في جَوْهَرِهِ بِمِنْظَارِ الحقيقَةِ ضئيلُ القيمَة.

وسبَقَ تَوجيه قراءَة [**لَمَا**] بفتح الميم دُون تَشْدِيد.

- ﴿..وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾: أي: والآخِرَةُ الْعَظِيمَةُ الْخَالِدَةُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، هِيَ عِنْد رَبِّكَ أَيُّها المتلَقِّي بَيانَاتِهِ، وَقَدْ جَعَلَها اللهُ جَزاءَ المؤمِنِينَ المتّقِينَ يَوْمَ الدين.

وبهـٰذا تَمَّ تَدبُّرُ الدَّرْسِ السَّادِس من دُروسِ سورة (الزُّخرف).
والحمدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتوفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (الزخرف) الآيات من (٣٦ ـ ٣٩)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي

وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

الْقِراءات:

(٣٦) ● قرأ يَعْقُوب: [يُقَيَّضْ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿نُقَيِّضْ﴾ بضمير المتكلّم العظيم.

وقراءة يَعْقُوبُ تُفْهَمُ عَلَىٰ أَنَّ المقيِّضَ هو اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ، إِذْ هُو وَاضِعُ سُنَنِ كَوْنِهِ العامّة، والمهَيْمِنُ عَلَيْهَا، والمتصّرف بِكُلِّ أَحْدَاثِ كَوْنه.

(٣٧) ● قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ بِفَتْحِ السين.

وقرأها بَاقي القراء العشرة: [وَيَحْسِبُونَ] بِكَسْرِ السّين.

والقراءتان لُغَتَان عَرَبِيَّتَان، يُقَالُ لُغَةً: «حَسِبَ الشيءَ كذَا يَحْسَبُهُ، وَيَحْسِبُهُ» أي: ظَنَّهُ، وكُلَّ مَا جَاءَ فِي القرآن مِنْ هٰذا الفِعل فَهُوَ بمعنىٰ الظَّنِّ التوهُّمِيِّ الضّعِيف الَّذي لَا يَصِحُّ الاعْتِمَادُ عَلَيه.

(٣٨) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامِر، وشعبة، وأبُو جَعْفر: [حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا]: أي: الَّذي كانَ يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ، وقرينُهُ الشيطان.

وقَرَأها باقي القراء العشرة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنا﴾: أي: الَّذي كان يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ الرَّحمٰن.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرسِ بَيانُ أَنَّ مَنْ يَكُفّ بَصَرَ بَصيرَتِهِ عَنْ تَدَبُّرِ آيَاتِ الله، فَمِنْ سُنَّةِ اللهِ في عِبَادِهِ أَنْ يُهَيِّئَ لَهُ قَرِيناً مِنَ الشَّيَاطِينِ يَصُدُّهُ عَنْ

سَبِيلِ اللهِ، ويَكُونُ عِنْدَ لِقَائِهِ رَبَّهُ يَوْمَ الدِّينِ في مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ نَادِماً.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً سُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ في عِبَادِه:

- ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾:

- ﴿وَمَن﴾: الواو حَرْفُ عَطْفِ مَوْضوعٍ على مَوْضوعٍ، وهي مَوْضوعات تتعلَّقُ بالقُرآنِ، الّذي بدأتِ السُّورَةُ بالْحَدِيثِ عَنْه.

و«مَنْ» اسم شرْطٍ جازم.

- ﴿يَعْشُ﴾ فِعْلُ الشَّرْط، وهو مجزومٌ بحَذْفِ حَرْفِ الْعِلَّةِ مِنْ آخِره، يقالُ لُغَةً: «عَشَا، يَعْشُو، عَشْواً» أي: سَاءَ بَصَرُهُ ليلاً. ويقال: «عَشَا، يَعْشُو عَنِ الشَّيْءِ، عَشْواً» أي: أعْرَضَ عَنْهُ وَمَضَىٰ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ، وأفْهَمُ مِنْ إعراضِهِ وانصِرَافه، أنَّهُ غَشَّى عَلَىٰ بَصَرِ بَصِيرَتِه، بِعَمَلٍ إرَادِيٍّ مِنْهُ، فَصَارَ كَالْأَعْشَىٰ، فَلَمْ يَتَدَبَّرْ ذِكْرَ الرَّحْمٰنِ فِي القرآنِ وَغَيْره، وانْطَلَقَ يَتَّبِعُ أهْواءَ نَفْسِهِ وشَهَواتِها، وَلَذَّاتِها مِنَ الحياة الدُّنيا.

- ﴿نُقَيِّضْ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[يُقَيِّضْ]** هذا جوابُ الشَّرْطِ مجزومٌ بالسُّكُون. ومَعْنَىٰ: «نُقَيِّضْ» نُهَيِّئُ ضِمْنَ سُنَنِنَا السَّبَبِيَّة، الَّتِي تَأْتِي بأسْبَابٍ مِنْ إرَادَاتِ الموضُوعِينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلاءِ والامْتِحَان.

- ﴿شَيْطَٰنًا﴾: الشَّيْطَانُ في اللُّغَةِ: كُلُّ عَاتٍ مُتَمرِّدٍ مِنَ الْجِنِّ والإنْسِ والدَّواب، والمراد بالشَّيْطَانِ هُنَا الْعَاتِي المتمرِّدُ مِنَ الْجِن، وقَدْ يَكُونُ مِنَ الإنْسِ أيْضاً.

- ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾: **الْقَرِينُ**: المصاحِبُ الملازم، كأَنَّهُما مَشْدُودَانِ بِقَرْنٍ، وَهُوَ الحبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِه الأَسِيرُ.

فالمعنَىٰ: وَمَنْ يَجْعَلْ بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ عَلَىٰ بَصَرِ بَصِيرَتِهِ غِشَاوَةً، تَجْعَلُهُ كَليلاً ضعيفاً عَنِ الرُّؤْيَةِ فِي ظُلُمَاتِ أهوائِهِ، فَيُعْرِضُ بَسَببِ ذَلِكَ عَنِ التَّفَكُّرِ في آيَاتِ الذِّكْرِ الَّذِي أَنْزَلَهُ الرَّحْمٰن لِهِدَايَةِ عِبَادِهِ، وينْصَرِفُ عَنْ مَوَاطِنِ تَدَبُّرِهَا، مُتَّبِعاً أَهْوَاءَهُ وَشَهَواتِهِ ولَذَّاتِهِ مِنْ دُنْياه، نُهَيِّئُ لَهُ ضِمْنَ مَجَارِي سُنَنِنَا فِي عِبَادِنا الموضُوعين في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، شَيْطَاناً مِنْ شَيَاطِينِ الجِنِّ، وقَدْ يَكُونُ مِنْ شياطِين الإنْسِ أيضاً، فَهُو لَهُ مَصَاحِبٌ مُلَازِمٌ، كَأَنَّهُ مَشْدُودٌ بِهِ بِالْحَبْلِ الّذِي يُشَدُّ بِهِ الأَسِيرُ، فَيأْنَسُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِقَرِينِهِ، ويَسْتَمْتِعُ به، وَيَشْتَرِكَانِ في الْبُعْدِ عَنْ صِرَاطِ اللهِ، وفي الانْغِمَاسِ في مَعْصِيَتِه، وثبت في صحيح مسلم وغيره، أنَّ مع كلِّ إنسان قَرِيناً مِنَ الجنّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ تَأْثِيرِ الْقُرَنَاءِ من الشَّيَاطِين في الَّذِينَ يَعْشُونَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن:

● ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

جَاءَ التَّعْبِيرُ هُنَا عَنْ جَمِيعِ الشَّيَاطِينِ، الّذِينَ يَكُونُونَ قُرَنَاءَ لِلَّذِينَ يَعْشُونَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن، لِلتَّنْوِيعِ فِي الْبَيانِ، ولِتَوْكِيدِ اتّصَافِهِمْ بِصِفَةٍ مُشْتَرَكَةٍ عَامَّة.

وَجَاءَ البيانُ مُؤَكَّداً بـ«إِنَّ ـ والجملة الإسمية ـ واللَّامِ المزحْلَقَة» أي: وإِنَّ الْقُرَنَاءَ مِنَ الشَّيَاطِين، لَيَمْنَعُونَ وَيَصْرِفُونَ قُرنَاءَهُم الَّذِينَ عَشَوْا بإراداتِهِم الحرَّةِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن، عَن السَّبِيلِ الذي هُو سَبِيلُ اللهِ، الموصِلُ إلى النَّجاةِ وَالْفَوْزِ بالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

يُقَالُ لُغَةً: «صَدَّهُ عَنْ كَذا» أي: مَنَعَهُ وَصَرَفَهُ عَنْهُ.

والْمَصْدُودُونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ يَظُنُّونَ ظَنّاً ضَعِيفاً سَاقِطاً لَا قِيمَةَ لَهُ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ، إلى مَا يُحَقِّقُ سَعَادَاتِهِمْ.

والسَّبَبُ في تَأَثُّرِهِمْ بهـٰذا الظَّنِّ الضَّعِيفِ التَّوَهّمِيِّ، أَنَّهُ مُقْتَرِنٌ بِمَا يُرْضِي أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ مِنْ مَتاعَاتِ الحياة الدُّنيا، وَزِيناتِها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً بَيَانَ حَالِ مَنْ يَعْشُو عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمٰن، وَمُنْتَقِلاً إِلَىٰ يَوْمِ القيامَة:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾:

وفي القراءة الأخرى: **[حَتَّىٰ إذَا جاءَانَا]** أي: مَنْ كَانَ يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ، وقرينُهُ الشَّيْطان.

والمعنى: ويَسْتَمِرُّ الَّذِي كانَ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، يَعْشُو عَن تَدَبُّرِ آياتِ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ فِي كِتَابِهِ الْمبين القرآن، مُصَاحِباً قَرِينَهُ الشَّيْطَانَ، ويَحْسَبُ أَنَّهُ مُهْتَدٍ باتِّباعِهِ مَا يُوَسْوِسُ فِي صَدْرِه الشَّيْطان، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ حَيَاةُ امْتِحَانِهِ بالمْوتِ، وَيَلْقَىٰ رَبَّهُ، وَيَعْلَم مَصِيرَهُ التَّعِيسَ، وأَنَّهُ كَانَ ضَالاً ضَلَالاً بَعِيداً عَنِ الصِّرَاطِ الْحَقِّ الّذِي في سُلُوكه النجاةُ، والْفَوْزُ الأَبَدِيُّ بجنَّاتِ النعيم خالِداً فيها أَبَداً، عنْدَئِذٍ يُعْلِنُ تَحسُّرَهُ وَنَدَمَهُ وتَفَجُّعَهُ، فَيَقُولُ مُخَاطِباً قَرِينَهُ الشَّيْطان: يَا مَنْ وَسْوَسْتَ إِلَيَّ حَتَّىٰ سَلَكْتُ مَسْلَكَ الْغَوَايَةِ، وتَوَغَّلْتُ فِي سُبُلِ الضَّلالِ، أَتَمَنَّىٰ نَادماً مُتَحَسِّراً لَوْ كَانَ بَيْنِي وَبيْنَكَ بُعْدٌ كَبُعْدِ مَا بَيْنَ المشْرِقِ إِلَىٰ الْمغْرِب، ولَمْ تَكُنْ قَرِيناً مُصَاحِباً مُلَازِماً لي، فَبِئْسَ الْقَرِينُ أَنْتَ في الدُّنيا وفي الآخرة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي: عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِهِ فِي الْحيَاةِ الدُّنْيا، وذَاقَتْ نَفْسُهُ الْمَوْتَ، وانْكَشَفَ لَهُ عِنْدَ الموتِ وبَعْدَهُ مَصِيرُهُ الَّذِي هُو صَائِرٌ إِلَيْهِ فِي دَرَكَاتِ جَهنَّمَ يَوْمَ الدِّين.

ودَلَّت قِرَاءَةُ: **[حَتَّىٰ إِذَا جاءَانا]** بالتَّثْنِية، علَىٰ أَنَّ الْقَرِينَ الشَّيْطَانَ يَمُوتُ مَعَ مَوْتِ الكافِرِ الّذي كان في الحياة الدُّنيا يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰن لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ مَجِيئَهُمَا إِلَىٰ رَبِّهِمَا يَكُونُ بَعْدَ مَوْتِ مَنْ كَانَ يَعْشُو عَنْ ذِكْرِ

الرَّحْمٰن، فَقَدْ صَحَّ في بَيَانَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، أَنَّ الْإِنْسَانَ يُكْشَفُ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، أَوْ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّة، أَمَّا الْكافِرُ فَيكْرَهُ لِقَاءَ اللهِ فَيكْرَهُ اللهُ لِقَاءَه، وأَمَّا المؤمِنُ فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللهِ فيُحِبُّ اللهُ لِقَاءَه.

- ﴿. . قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ . .﴾:

﴿يَٰلَيۡتَ﴾: لَيْس بَعِيداً أَنْ يَكُونَ حَرْفُ النداء هُنَا «يَا» مُوَجِّهاً لِلْقَرِينِ الشَّيْطانِ، والمنادَىٰ مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾.

أَمَّا عِبارَةُ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ وأَمْثَالُها فَأَرَىٰ أن «يَا لَيْتَني أَوْ يَالَيْتَنا» هِيَ مِنْ صِيَغِ التَّفَجُّعِ، والتَّوَجُّعِ والتَّحَسُّرِ، وحَرْفُ «يَا» يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ حَرْفَ نُدْبَة، أو هو مُسْتَعْمَلٌ بَدَلَ حرف النُّدْبَةِ على سبيلِ الاستعارة.

ويُرَادُ بلفظ [**المشْرِقيْنِ**] المشْرِقُ والمغْرِب، والتَّثْنِيةُ هِي مِنْ بَابِ تَغْلِيبِ المشْرِقِ عَلَىٰ المغْرِب، لِأَنَّ الشُّرُوق أَحَبُّ مِنَ الْغُرُوب لانْتِشَارِ الضِّياء بَعْدَه، وهو نظير عبارة «الْقَمَرَيْن» أي: الشَّمْس والْقَمَر، وعِبَارة «الأَبوَيْنِ» أي: الأب والأمّ.

وعبارَة «الْأَسْوَدَيْن» أي: التَّمْر والماء، ولِهَذِهِ التَّثْنِيَة نَظَائِر، كُلُّها مِنْ بَابِ التَّغْلِيب.

المشْرِق: هو المكانُ الَّذِي تُشْرِقُ عِنْدَهُ الشمسُ حِينَ طُلُوعها.

المغْرِب: هو المكان الذي تَغْرُبُ عِنْدَهُ الشَّمْسُ حِينَ أُفُولِها.

- ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾: أيْ: يَالَيْتَهُ كَانَ بَيْنِي وبَيْنَكَ بُعْدٌ كَبُعْدِ المشْرِقِ عَنِ المغْرِب، وبُعْدُ المشْرِقَيْن، هو الْبُعْدُ الخاصُّ بهما. ولفظ «بُعْدَ» مَنْصُوبٌ عَلىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مُشَبَّهٌ به.

- ﴿. . . فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾: أي: فَبِئْسَ الْقَرِينُ أنْتَ.

«**بِئْسَ**»: فِعْلُ جامِدٌ لإنْشاءِ الذَّمِّ على سَبِيلِ المبالَغَة.

«**الْقَرِينُ**» فاعل «بِئْسَ» والمخصُوصُ بالذَّمّ مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ به، أي: بِئْسَ الْقَرِينُ أَنْتَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً خِطَابَهُ يَوْمَ الدِّينِ، لِلّذِي كَانُوا يَعْشُونَ فِي حياةِ الامْتِحَانِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ، ولِقُرَنَائِهِمْ مِنَ الشَّيَاطِين:

- ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ انْتِقَالٌ مِنْ خِطَاب المفْرَدِ وَعَوْدٌ إِلَىٰ خِطَابِ جَمَاعَةِ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ كَانُوا يَعْشُونَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ، وجَمَاعَةِ قُرَنَائِهِمْ مِنَ الشَّيَاطين:

وَجَاءَ الْبَيَانُ مُقْتَطعاً مِنَ الْحَدَثِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، وكأَنَّهُ يَجْرِي الآنَ عِنْدَ التكلُّم به.

والمعْنَىٰ: لَا يُخَفَّفُ عَنْكُمُ الْعَذَابُ مَهمَا دَعَوْتُمْ، ولَنْ يَنْفَعَكُمُ فِي هـٰذا الْيَوْمِ الّذِي هُوَ يَوْمُ الدِّينِ الممتدُّ إِلَىٰ الأَبَدِ، إِذْ سَبَقَ أَنْ ظَلَمْتُمْ ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، أَنَّكُمْ مُلْتَصِقُونَ بِقُرَنَائِكُمْ، وَتَنْزِلُ عَلَيْكُمْ وَسَائِلُ تَعْذِيبِكُمْ نَزْلَةً وَاحِدَةً، تَكُونُونَ فِيهَا مُشْتَرِكين، بَلْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ نَصِيبُهُ الْخَاصُّ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَذُوقُهُ، ولَوْ كَانَ فِي ظَاهِرِ الأَمْرِ أَنَّ قَرِينَهُ مُشارِكٌ لَهُ فِي تَلَقِّي وَسَائِلِ التَّعْذِيب، فالْفَرِيقَانِ فِي عَذَابِ النَّارِ الْمَجْمُوعَانِ فِي قَرَنٍ وَاحِدٍ، يَنَالُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْعَذَابِ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا قَضَىٰ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ، إِنَّ الإحْسَاسَ بالأَلَمِ يَكُونُ بِحَسَبِ الْقَضَاءِ الرَّبَّانِيِّ بِهِ، لَا بِحَسَبِ عُنْفِ الْوَسِيلَةِ وشِدَّتها.

﴿إِذ﴾ ظَرْفٌ مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَىٰ التعليل، أي: لِأَنَّكُمْ كُنْتم ظلمتم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدّرْس السابع من دُروس سورة (الزُّخْرُف).

والحمد لله على مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

(١٢)

التدبُّر التحليلي للدَّرْس الثامن من دُروس سورة (الزُّخرف)

الآيات من (٤٠ ـ ٥٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٠)
فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم
مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُۥ
لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ (٤٤) وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا
مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ
(٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ
(٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١)
أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ
مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥)
فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ (٥٦)﴾.

القراءات:

(٤١) و(٤٢) ● قرأ رُويس: [**نَذْهَبَنْ**] وَ[**وَنُرِيَنْكَ**] بنونِ التوكيد الخفيفة، وإذا وقف على [**نَذْهَبَنْ**] وقف بالأَلِفِ على الأَصْل.

وقرأهُما باقي القراء العشرة: ﴿**نَذْهَبَنَّ**﴾ و[**وَنُرِيَنَّكَ**] بنُونِ التوكيد الثقيلة.

(٤٥) ● قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائي، وأَبُو جَعْفر: **[وَسَلْ]**.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: **[وَاسْأَلْ]**.

وهُمَا وَجْهَانِ عَربيان.

(٤٥) ● قَرَأَ أبُو عَمْرو: **[رُسْلِنَا]** بإسْكَانِ السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿رُسُلِنَا﴾**.

وهُمَا وَجْهَانِ عَربيان.

(٤٨) ● قرأ يعقوب: **[نُرِيهُم]** بضَمّ الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿نُرِيهِمْ﴾** بِكَسْرِ الهاء.

وهما وَجْهان عَربيان.

(٤٩) ● قرأ ابن عامر: **[يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ]** بضمِّ الهاء وصْلاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾** بفَتْحِ الهاء.

(٥١) ● قرأ نافع، والْبَزِّي، وأبُو عَمْرو، وأبُو جَعْفر: **﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِيَ أَفَلَا﴾** بفتح يا المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

(٥٣) ● قرأ حَفْص، ويَعْقُوب: **﴿أَسْوِرَةٌ﴾** جِمع «سِوار» وهو الْحِلْيَةُ الَّتِي تُلْبَسُ فِي المِعْصَمِ.

وَقرأها بَاقِي القرَّاءِ العشرة **[أَسَاوِرَةٌ]** جَمْع «أَسْوِرَة» فهو جَمْعُ جَمْعٍ.

(٥٦) ● قرأ حمزة، والكِسَائيّ: **[سُلُفاً]** بضمّ السِّينِ واللَّامِ، جمْعُ «سَلِيف» وهُو اسْمٌ لِلْفَرِيق الذي مَضَىٰ وَسَلَفَ.

وقرأها باقي القراء العشرة: **﴿سَلَفاً﴾** جمْعُ «سَالِفٍ» وهُوَ مَنْ يَسْبِقُ غَيْرَه.

ومُؤَدّىٰ القراءتَيْنِ وَاحِدٌ.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْس مَا يلي:

(١) التَّيْئِيسُ من إسْمَاعِ الصُّمّ، وَمِنْ هَدَايَةِ الْعُمْي، أي: التَّيْئِيسُ مِنْ تَرقُّبِ اسْتِجَابَةِ الَّذِين أَثْبَتَتِ التَّجْرِبَاتُ المتكَرِّرَاتُ، أَنَّهُمْ غَيْرُ مَطْمُوعٍ بإيمانِهِمْ وإسْلَامِهِمْ، عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الْحُرَّة.

(٢) إِنْذَارُ المَيْؤُوسِ مِنْ إيمانِهِمْ بِأَنَّ اللهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ بَعْدَ وَفَاتِه.

(٣) تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ، أَنْ يَسْتَمْسِكَ بمَا أَوْحَىٰ اللهُ إلَيْه، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم.

(٤) بَيَانُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأنَّ الْقُرْآنَ المجيد شَرَفٌ للرَّسُولِ ولقَوْمِه، إذْ أَنْزَلَهُ عَرَبيّاً بِلِسَانِهِمْ.

(٥) أَمْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بأَنْ يَسْأَلَ مَنْ أَرْسَلَ مِنْ رُسُلٍ مِنْ قَبْلِهِ، أَجَعَلَ اللهُ فِي رِسَالَاتِهِمْ إذْناً بِعِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ الرَّحْمٰن، والمقْصُودُ بتوجيه هذا الأمْر الشَّاكُّون.

(٦) عَرْضٌ مُوجَزٌ مِنْ رَسَالَةِ مُوسَىٰ عَليه السلام إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، واتَّهَمُوهُ بأَنَّهُ سَاحِرٌ، فانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ، فَأَغْرَقَهُمْ أَجْمَعِين.

وفي هذا العرض إنْذَارٌ لمشْرِكي قُرَيْشٍ المعانِدِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، بأَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أنْفُسَهُمْ لانْتِقَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ، إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ عِنادِهِم وَكُفْرِهِم، وتكذيبهِمْ رَسُول رَبّهم، وَعَلَىٰ تَدْبيراتِهِم لِلْخَلَاصِ مِنْهُ ومِنْ دَعْوَتِهِ، ومن الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

التدبر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ عَدمَ جَدْوَىٰ تَذْكِيرِ الميؤُوسِ مِنْ اسْتِجَابَتِهِم

لدعْوَةِ الْحَقِّ عَنْ طَرِيقِ إرَادَتِهِم الحرَّةِ بَعْدَ مُعَالَجَتِهِمْ الطَّوِيلة، لِأَنَّهُمْ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا بِمَثَابَةِ الصُّمّ الْعُمْي:

- ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾؟:

الخطابُ فِي هـٰذِهِ الآيَةِ مُوجَّهٌ بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفراديّ للرَّسُولِ ﷺ أَوّلاً، فَلِكُلِّ صَالحٍ للخِطَابِ مِنَ المؤمنِينَ الَّذِينَ يَهْتمُّونَ بدعْوَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمينَ إلى الدُّخُولِ في دِينِ اللهِ الْحَقّ.

وَفي هذا الْخِطَابِ إشْعَارٌ للجاحِدِينَ المعانِدِينَ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ، وَلَمْ يَسْتَجيبُوا للدَّاعي إِلَىٰ الْحَقِّ، بَعْدَ مُعَالَجَاتٍ مختلفاتٍ بأسَالِيب الإقناع، والجدالِ بالَّتِي هي أحْسَن، والتَّرْغيبِ والتَّرهيبِ، بأنَّهُمْ بِمَثَابَةِ الصُّمِّ الْعُمْي، المتوغّلِينَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

والاسْتِفْهَامُ في هـٰذا البيان، فيهِ مَعْنَىٰ الإِرْشَادِ إِلَىٰ تَوْجِيهِ جِهَادِ الدَّعْوَةِ لِغَيْرِ الميْؤُوسِ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة. حرْصاً عَلَىٰ عَدَم إنْفَاقِ طَاقَةِ الْمُجَاهَدَةِ فِيمَا لَا جَدْوَىٰ مِنْهُ، وعَلَىٰ تَوْجِيهِهَا لِلَّذِينَ تُلاحَظُ لَدَيْهِمْ مَخَايِلُ الاسْتِجَابَةِ، أَوْ لِلَّذِينَ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ عُولِجُوا بأسَالِيبِ الدَّعْوَةِ عِلَاجاً طَوِيلاً، مُقْنِعاً بأَنَّهُمْ مَيْؤُوسٌ مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة.

أي: لَا تُحَاوِلْ إسْمَاعَ الصُّمِّ، وَهِدَايَةَ الْعُمْي، وهِدَايَةَ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، سَائِرٍ في سُبُلِ الضَّلَالِ بجُحُود ومُكابَرَةٍ وَمُعَانَدَةٍ للْحَقّ.

شُبِّهَ الَّذِينَ يُدْبِرُونَ وَيَتَوَلَّوْنَ عَنِ اسْتِماعِ الْبَيَانَاتِ الدَّاعِيَاتِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، بالصُّمّ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِمْ أنَّهُمْ صُمٌّ على سَبِيلِ الاسْتِعَارَة.

وشُبِّهَ الَّذِين يُدْبِرُونَ وَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ تَفَهُّمِ آيَاتِ اللهِ المشْهُودَةِ فِي كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، بالْعُمْي، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ عُمْيٌ على سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ أيضاً.

أمَّا مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَهُوَ مُكَابِرٌ مُعَانِدٌ جاحِدٌ يَعْلَمُ الْحَقَّ، وَيَسِيرُ في طَرِيقِ الباطل عَالماً به، وَيَعْلَمُ صِرَاطَ الْهُدَىٰ، ويَسْلُكُ سُبُلَ الْغَوَايَةِ عَالماً بها، فَهُوَ مِنْ فِئَةِ الْمغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، لَا مِنْ فِئَةِ الصُّمِّ الْعُمْيِ، فَلَا جَدْوَىٰ مِنْ مُعالَجَتِه، إِذْ هُوَ في ضَلَالٍ ظاهِرٍ لَهُ كَوْنُهُ ضَلالاً.

الصُّمُّ: جمع «الأصَمّ» وَهُوَ مَنْ لا سَمْعَ له.

الْعُمْيُ: جمع «الْأَعْمَىٰ» وهو مَنَ لَا بَصَرَ لَهُ.

«**مُبِين**»: مِنْ فِعْلِ «أبَانَ» اللّازم، وهُوَ بمَعْنَى: «ظَاهِرٍ وَاضِحٍ» يَقَالُ لُغَة «أَبَانَ الشَّيْءَ فَهُو مُبِينٌ» أي: ظَهَرَ وَوَضَحَ، فَهو ظاهِرٌ واضح.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ وَإِسْمَاعاً لِلْمُكابِرِينَ الجاحِدِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيل من مُشْرِكي مَكَّة، ومُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكِلِّمِ العظيم:

- ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ (٤٤) وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾:

- ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١)﴾:

- ﴿فَإِمَّا﴾ الْفَاءُ حَرْف عَطْفٍ. «إِمَّا» أَصْلُها «إِنْ» الشَّرْطِيّة، وَ«مَا» الزَّائِدَة لِتَوْكِيد معْنَىٰ الشرط.

- ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ فِعلُ الشَّرْطِ مجزوم، وهُوَ مُؤَكَّدٌ بِنُونِ التوكيد الثَّقِيلَة، وفي القراءة الأخرى، مؤكَّدٌ بنونِ التوكيد الْخَفِيفَة.

والمرادُ بالذَّهاب بِهِ وَفَاتُهُ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من المكابِرِينَ المعاندين، الصُّمّ الْعُمْي، والَّذِينَ هُمْ في ضَلالٍ مُبِينٍ.

- ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾: الْفَاءُ وَاقِعَةٌ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي هِيَ جواب

الشَّرْطِ وَجزاؤه، ويَجبُ اقترانُ هـٰذا الجواب بالفاء، لِأَنَّ هـٰذِهِ الجملة اسْمِيَّةٌ لَا يَصِحُّ جَعْلُهَا شَرْطاً.

مُنْتَقِمُون: أي: مُعَاقِبُونَ. يُقَالُ لُغَةً: «انْتَقَمَ اللهُ مِنَ المذْنِب» أي: عَاقَبَه. **فالانتقام**: الْعُقُوبَة.

- ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿وَعَدْنَٰهُمْ﴾: أي: وَعَدْنَاهُمْ بِهِ مِنْ عِقَابٍ، لِكُفْرِهِم الْعِنَادِيّ الْجُحُودِي، ولِمُعَادَاتِهِمْ لَكَ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ، ومُقَاوَمَتِهِمْ لِدَعْوَتِك.

الْوَعْدُ: هُوَ الإخْبَارُ بِمَا تَمَّ الْعَزْمُ عَلَىٰ فِعْلِهِ في المستقبل، يَكُونُ فِي الْخَيْر ويَكُونُ في الشَّرّ، يُقال لُغَةً: «وَعَدَهُ بِنَفْعٍ، وَوَعَدَهُ بِضُرّ».

أَمَّا الْوَعِيد والإيعادُ فَهُمَا في الشَّرِّ خاصَّةً.

مُقْتَدِرُونَ: أي: شَدِيدُو الْقُدْرَةِ عَلَىٰ الانْتِقَام مِنْهُمْ، وَعَلَى تَنْفِيذِ مَا وَعَدْنَاهُمْ إِيَّاهُ مِنْ عُقوبَةٍ مُؤْلِمة. فِعْل: «اقْتَدَرَ» أَبْلَغُ مِنْ فِعْلِ «قَدَرَ» وهُوَ يُلَائِمُ عَظَمَةَ الْعَظِيم الْقَدِير عَلَىٰ مَا يَشَاءُ.

في هاتين الآيتين تَصَاعُدٌ فِي تَهْدِيد أئمة المشْرِكِينَ فِي مَكَّة عمَّا جَاء (في الآية (٤٦) من سورة يونس/ ٥١ نزول).

المعنى: يُخَاطِبُ اللهُ العظيم الْجَلِيلُ الْمُقْتَدِرُ رَسُولَهُ، فَيُعْلِمُهُ بِشَأْنِ الْمُكَابِرِينَ المعانِدِينَ الْجَاحِدِينَ، بَعْدَ أَنْ أَيْأَسَهُ مِنْ صَلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرادَاتِهم الْحُرَّة، لِسَبْقِ مُعَالَجَتِهِ لَهُمُ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لم تُؤَثِّرْ في اسْتِجَابَتِهِمْ، بِأَنَّهُ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ في الدُّنْيَا فِي حَيَاةِ رَسُولِهِ أَوْ بَعْدَ مَوْتِه.

فإنْ أَمَاتَهُ قَبْلَ أَنْ يُعاقِبَهُم، فَسَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَإِنْ عَاقَبَهُمْ قَبْلَ مَوْتِهِ فَسَيَرَىٰ تَحْقِيقَ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ عِقَابٍ، وهُوَ على إنْزَالِ عِقَابِهِ فِيهِمْ مُقْتَدِرٌ، جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عِقَابَ المسْتَهْزِئِينَ مِنْهُمْ قَبْلَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَة، فَأَرَاهُ بَعْضَ مَا وَعَدَ بِهِ المكَابِرينَ المعانِدِين الجاحِدِين، وقد سبق بيانهم لدى تدبر الآية (٩٥) من سورة (الحِجْر/ ٥٤ نزول).

وَحَقَّقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عِقَابَ سَائِرِ المكابرين المعاندين الجاحِدِينَ، بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ المدينَةِ، فَأَرَاهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ مَا أَنْزَلَ بِسَبْعِينَ عَاتِياً مِنْ عُتَاتِهِمْ، وَجبَّاراً مِنْ جَبابِرَتِهِمْ، ثُمَّ مَا أَنْزَلَ بأَعْدَاءِ دَعْوَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ قَتْلٍ وهَزَائِمَ مُنْكَرَة، حَتَّىٰ فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُ مَكَّةَ مُعَزَّزاً مَنْصُوراً.

- ■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ:

- ● ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

مَسْكُ الشيء: القبض عَلَيْهِ باليد، ويأْتي على سبيل الاستعارة للدَّلاَلة عَلَىٰ الْإيمانِ بِفِكْرَةٍ ما، أَوِ الْعَمَلِ بِمَطْلُوبٍ مَا.

ومَسَّك، واسْتَمْسَكَ: أي: أَمْسَكَ بِقُوَّةٍ وشِدَّة.

- ● ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ﴾: أي: أَمْسِكْ بِقُوَّةٍ وشِدَّةٍ، مُؤْمِناً وعَامِلاً بِكُلِّ الَّذي أُوحِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّك، وفي مُقَدِّمَتِهِ الْقُرْآن.

- ● ﴿... إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾: أي: إِنَّكَ بإيمانِكَ وعَمَلِكَ بالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ تَسِيرُ فِي حَيَاتِكَ على صراطٍ مُسْتقيم.

الصِّرَاط، والسِّراط: الطريق الواضح. قيل: وسُمِّي سِراطاً لِأَنَّهُ يَسْتَرِط مَنْ يَمرُّ فيه، أي: يَبْتَلِعُهُمْ بِيُسْرٍ وسُهُولَةٍ دُونَ تَزَاحُمٍ.

والصراط المستقيم: الطريق الواضح الْجَلِيُّ الواسِعُ الْمُمَهَّد، الَّذِي لَا عِوَجَ فيه وَلَا مُعْثِرات.

وأُطْلِقُ فِي الإِسْلام على تعليماتِ الحقّ والْعَدْلِ وَمَا يجب فعله وما

يجب تركُه، وعَلَىٰ الْبرّ والإحْسَان والخير، وفضائِلِ السُّلُوكِ ومَكَارِمِ الْأَخلاق.

• ﴿..وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ ..﴾: أي: وَإِنَّ الذي أوحِيَ إلَيْكَ وفِي مُقَدِّمَتِهِ القرآن لَذِكْرٌ لَكَ وَلقَوْمكَ.

الذِّكْرُ: يَأْتي بمَعْنَىٰ حِفْظ الشَّيْءِ في الذَّاكِرَة، وبِمَعْنَىٰ اسْتِحْضَارِهِ في سَاحَةِ التَّصوُّرِ الْحاضِرِ، وبِمَعْنَىٰ نُطْقِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ كَلَامٍ باللِّسَان.

وَيَأْتِي الذِّكْرُ بِمَعْنَىٰ الصِّيتِ الْحَسَنِ الَّذِي يَكْتَسِبُ النَّاسُ بِهِ الشَّرَفَ، وَيَتَفَاخَرُونَ بِهِ.

• ﴿وَلِقَوۡمِكَۖ﴾: عِبَارَةٌ صَالِحَةٌ لِإِرَادَةِ أُمَّةِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ كُلُّ المكَلَّفِينَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ وَحْيٍ، وأَنْ يَعْمَلُوا بما أمَرَ اللهُ بِه، وأَنْ يَتْرُكُوا مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ في هذا الدّين الخاتم.

وَكَوْنُ القرآنِ وسَائِرِ مَا أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إلى رسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ ذِكْراً لَهُمْ، هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ مِنْهُم أَنْ يَتبَلَّغُوهُ وَيَفْهَمُوهُ، ويَضَعُوهُ فِي ذَاكِراتِهِمْ، وَيسْتَدْعُوهُ إِلَىٰ ساحَةِ التَّذَكُّرِ الْحَاضِرِ، لِيكُونَ دَافِعاً لِتَحْقِيقِ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْهُمْ فِيه، كلّما دعَت المناسَبَة.

وهِي صَالِحَةٌ أَيْضاً لِإِرَادَةِ قَوْمِهِ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ الرَّبَّانِيُّ وفي مُقَدِّمَتِهِ الْقُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ، وَهـٰذا شَرَفٌ عَظِيمٌ لَهُمْ، وصِيتٌ حَسَنٌ بَيْنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَوْ لَا نُزُولُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ المعجز، وَسَائِرِ مَا أَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ إلى رسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ، باللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ صِيتٌ وَشَرَفٌ عَظِيمٌ بَيْنَ أُمَمِ الْأَرْضِ الكُبْرى، وَلَما كَانَتْ لَهُمْ جَامِعَةٌ تَجْمَعُهُم.

وَهذا الشَّرَفُ الْعَظِيمُ يَنْبَغِي أن يَكُونَ دافِعاً لِلْعَرَبِ، أَنْ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وأَنْ يؤْمِنُوا بالْقُرْآنِ، ويَكُونُوا رُسُلَ تَبْليغِهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِين، لَا

أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُكَذِّبوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فِيما جَاءَ بِهِ عَنْهُ، وَيحْرِمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ المجْدِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَدْفَعَهُمْ إلى الافْتِخَارِ بِهِ إِذْ أَنْزَلَهُ اللهُ بِلُغَتِهِمْ.

ورُوِي عن ابْنِ عباس في تَفْسِيرِ قَول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أنَّهُ قال: شَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ.

أقول: هذا المعْنَىٰ لا يَتَعَارَضُ مَعَ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ، وقَدْ عَرَفْنا أَنَّ العبارَاتِ الْقُرْآنِيَّة، والْأَلْفَاظَ الْقُرْآنِيَّة يُمْكِنُ حَمْلُها علَىٰ مَعْنَيَيْنِ فَأكْثَر، إِذَا كانَتْ مُلَائِمَةً وَلَا تَعارُضَ بَيْنَها، وكانَ اللَّفْظُ قابِلاً عَرَبِيّاً للدَّلَالَةِ علَيْها، وهذا مِنْ ثَرَاءِ الْإيجاز القرآني.

وأرَىٰ أَنَّ الخطابَ للرَّسُولِ ﷺ بِقَوْلِ اللهِ تعالى:

- ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ﴿٤٤﴾﴾ هُو خِطَابٌ لَهُ باعْتِبَارِهِ رَسُولَ الْأُمَّةِ الْمُمْتَحَنَةِ الْخَاتِمَةِ لِلْأُمَمِ، وبَاعْتِبَارِه قَائِدَهَا وَقُدْوَتها، والْخِطَابُ لَهُ خِطَابٌ لِكُلِّ أُمَّتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَخِطَابٌ أَيْضاً لِكُلِّ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ مِنْ بَعْدِ بِعْثَتِهِ، إِذْ هُمْ مُكَلَّفُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِه وَأَنْ يَتَّبِعُوه، فَمَا أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ، هُوَ مُوحًى بِهِ عِنْ طَرِيقِهِ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ من أُمَّةِ دَعْوَتِه.

فالْعِبَارَة تَتَضَمَّنُ الْمَعْنَىٰ التالي:

يَا كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أمَّةِ بَلَاغِ الرسُولِ الْخَاتِمِ لِلْأَنْبياءِ والْمُرْسَلِين، اسْتَمْسِكْ بالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رسُولِكَ، إِنَّهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَذِكْرٌ لَهُ ولِكُلِّ قَوْمِهِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إليهم عَرَبٍ وغَير عَرَبٍ إِلَىٰ أَنْ تنتهي مُدَّةُ امْتِحَانِ النَّاسِ فِي هٰذِهِ الحياة الدُّنيا، أُطْلِقَ عَلَيْهِم أَنَّهُم قَوْمُهُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّهُمْ قَوْمُ دَعْوتِهِ، لا قَوْمُ لُغتِه.

دَلَّنِي عَلَىٰ هٰذا المعنىٰ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في آخِرِ الآيَةِ (٤٤) خِطَاباً لِكُلِّ قَوْمِهِ الَّذِينَ أُرْسِلَ رَسُولاً إليهم وهُمْ النَّاسُ جَمِيعاً، وَالْجِنُّ أيضاً:

﴿... وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: وسَوْفَ تُسْأَلُونَ يَوْمَ القيامَةِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفصْلِ الْقَضَاءِ، عَنِ اتِّخاذِ القرآنِ وسائِرِ ما أَوْحَىٰ اللهُ إلَىٰ رَسُولِهِ ذِكْراً، وعَنِ الاسْتِمْسَاكِ به، والسَّيْرِ في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ علَىٰ صِراطِهِ المستقيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ باعْتِبَارِه رَسُولَ الأمَّةِ الممتَحَنَةِ الْخَاتِمَة لِلْأُمَم، وباعْتِبَارِهِ قَائِدَهَا وقُدْوَتها، فَخِطَابُهُ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ خِطَابٌ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِها بأسْلُوبِ الْخِطَاب الإفرادِيّ:

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

هَـٰذَا الْأَمْرُ صيغَتُهُ عَامَّةٌ مُوَجَّهَةٌ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أفْرَادِ أُمَّةِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ولَكِنَّ المقْصُودَ بِهِ مَنْ كَانَ لَدَيْهِ شَكٌّ أوْ توَهُّمٌ، باحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمَرَ اللهُ أَوْ أَذِنَ فِي رِسَالاتِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، أَوْ فِي بَعْضِها، بِعِبَادَةِ مَعْبُودِينَ مِمَّنْ خَلَقَ مِنْ عِبَادِه، من مَلائِكَةٍ، أَوْ أَنْبِيَاءَ أَوْ مُرْسلين.

فَإذَا أَرَادَ أَنْ يَدْفَعَ شَكَّهُ أَوْ تَوَهُّمَهُ، فَلْيَسْأَلِ النُّصُوصَ الصَّحِيحَةَ الثابِتَةَ عَنِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ مِن قَبْلِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ، فَسُؤَالُ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ عَنْهُمْ هُو بِمَثَابَةِ سُؤَالِهِمْ أَنْفُسِهِمْ.

لَكِنَّهُ لا يُوجَدُ نَصٌّ صَحِيحٌ ثَابِتٌ عَن رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ السَّابِقِينَ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ أَذِنَ بِعِبادَةِ أَحدٍ مِنْ دُونِهِ مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ رَبِّه، واتّخاذِهِ إلَهاً يُعْبَدُ.

بَلْ كُلُّ رُسُلِ اللهِ كَانُوا يأمُرُونَ أَقْوامَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

أَمَّا الرَّسُولُ مُحمَّدٌ ﷺ، فإنَّهُ لا يَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَ الرُّسُلَ السَّابقِينَ عَنْ قَضِيَّةٍ مَا أَوْحَىٰ اللهُ بها إِلَيْه، فإيمانُهُ بِمَا يُوْحِي اللهُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ أعْلَىٰ مَرَاتِبِ الإيمانِ الَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ شَكٌّ ما أَوْ تَوَهُّمٌ ما.

ولِكنْ خُوطِبَ الشَّاكُّ مِنْ أُمَّةِ دَعْوَتِهِ، مِنْ خِلَالِ خِطَابِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إذْ هُوَ رَأْسُ هـٰذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ بِعْثَتِهِ، إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ بالنسبة إلى اللهِ، ولَوْ جَحَدَهُ مَنْ جَحَدَهُ مِنْهُمْ، والْخِطَابُ الَّذِي يُرَادُ بِهِ بَعْضُ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ، قَدْ يَحْسُنُ فِي أَسَالِيبِ الْبَيَانِ الْحَكِيمِ تَوْجِيهُهُ لِرَأْسِها، كخطاب رئيس الدَّوْلَةِ والمراد أفرادُ حُكومَّتِه.

ونَجِدُ نَظِير هذا كثِيراً في أسْفَارِ الْيَهُودِ مِنْ أَهْلِ الكتاب، إذ يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِيها إسرائيل، وهُوَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَام، والْمُرَادُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ بَنِي إسْرَائيل، ومن أمْثِلَة هذا:

(١) مَا جاءَ في الإصْحاح الرابع من سِفْرِ التَّثْنِيَة:

«١ ـ فالآنَ يا إسْرَائِيلُ اسْمَعِ الْفَرائضَ والْأَحْكَامَ.

وجاءَ في هـٰذَا السِّفْرِ النَّهْيُ الْمُشَدَّدُ عَنْ اتّخَاذِ الْأَوْثَانِ وعِبَادَتِها.

(٢) ومَا جاء في الإصْحَاحِ الخامِسِ مِنْ سِفْرِ التَّثْنِيَةِ أَيْضاً خطاباً لإسرائيل:

«٧ ـ لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخرَىٰ أَمَامِي. ٨ ـ لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً صُورَةً مَا مِمَّا في السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا في الْأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ ومَا فِي الماء مِنْ تَحْتِ الْأَرْض. ٩ ـ لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ لِأَنّي أنا الرَّبُّ إلَهُكَ..».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَادئاً بعَرْضٍ موجَز مِن قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ، إنْذاراً لِأَئِمَّةِ مُشْرِكِي مَكَّة بِأَنَّهُم بإصْرَارِهِمْ على الكُفْر، ومُعَاداتِهم رَسُولَ رَبِّهِمْ وَدَعْوَتِهِ، يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعقَابٍ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَا عاقَبَ فِرْعَونَ ومَلَأَهُ وجُنُودَهُمْ:

● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

التوكيد بعبارة ﴿وَلَقَدْ﴾ مُوَجَّهٌ للمعنيِّينَ بالْمُعَالَجَةِ مِن مُشْرِكي مَكَّةَ إبَّانَ التنْزيل.

يَتَحدَّثُ رَبُّنَا بضَمِير المتكلّم العظيم، بِكَلامٍ مُوجَّهٍ للمعالَجِينَ إيَّانَ التَّنْزِيلِ مِنْ مُشْرِكي مَكَّة.

أي: نُؤَكِّدُ لَكُمْ بِعِبَارَةٍ شَدِيدَةِ التوكيد، أنَّنا أَرْسَلْنَا نَبيَّنَا مُوسَىٰ مَصْحُوباً بآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ وَالإعْجَازِيَّةِ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وهم عِلْيَةُ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَيْكُم.

الملأ: أَشْرَافُ الْقَوْمِ وسَرَاتُهُمُ الَّذِين يُمْلؤُونَ عُيُونَ الْعَامَّة.

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: فَحِينَ جَاءَهم موسَىٰ بآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ الدَّاعِيَةِ إلَىٰ دِينِ الله الْحقِّ، ونَبْذِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ وكُفْرِيَّاتٍ، فاجَؤوا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالضَّحِكِ مِمَّا جاءَهُمْ بِهِ، إذْ كَانُوا يَعْتَقِدُون أَنَّ الدِّينَ الَّذِي هُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِهِ دِينٌ حَقٌّ مَوْرُوثٌ عَنْ آبَائِهِمْ بالتقليد لا بحجَّةٍ عقلية.

وَطَلَبَ فِرْعَوْنُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُقَدِّمَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَرَاهُ آيَتَي الْعَصَا وَالْيَدِ، فَاتَّهَمَهُ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ، وَدَعَاهُ إِلَىٰ مُبَارَاةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنِ كِبَارِ سَحَرَةِ الْمِصْرِيِّين، فَنَصَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ

السَّلام، وأَعْلَنَ السَّحَرَةُ إيمَانَهُمْ بموسَىٰ وَهَارُونَ رَسُولَيْنِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكانَ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ لَدَىٰ تَدبُّر سُورَة (طَه/ ٤٥ نزول).

وأجرىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لموسى بقيَّة الآيَاتِ التِّسع: وهي: «الطوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضفادعُ، والدَّمُ، وسنواتُ الجدْبِ والْقَحطِ، ونقصُ الثَّمرات».

■ وَهُنَا يَظْهرُ مَوْقِع قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَة (الزُّخرف):

● ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: وَمَا نُرِيهِمْ مِن آيَةٍ إعْجَازِيَّةٍ مِنْ بَقِيَّةِ الآيَات التِّسْعِ الَّتِي آتَيْنَاهَا مُوسَىٰ، إلَّا هِي أكْبَرُ مِنْ أخْتِهَا السَّابِقَةِ لَهَا، أخْذاً بِحِكْمَةِ التَّدرُّجِ الارْتِقَائي، فالآيَاتِ الإِعْجَازِيَّةُ كَانَتْ أَخَواتٍ بمعْنَىٰ متشابهاتٍ، لأنَّها صَادِرَاتٌ مِنْ أَصْلٍ إعْجازِيٍّ واحِدٍ مُخَالِفٍ للسُّنَنِ المعتادة.

وكَوْنُ اللَّاحِقَةِ أكْبَرَ مِنْ السَّابِقَةِ، قَدْ يَكُونُ مِنْ جِهَةِ اتِّسَاعِ مَدَاهَا، أَوْ شِدَّةِ تَأْثِيرِهَا.

وفي آخِرِهَا أَخَذَ اللهُ فِرْعَوْنَ وآلَهُ وسَائِرَ الْمِصْرِيِّين بِعَذَابٍ، وجاءت تَسْمِيَةُ هٰذا العذاب رِجْزاً في الآية (١٣٤) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول)، فَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ هنا في الزّخرف/ ٦٣ نزول):

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: وقَبَضْنَا عَلَيْهِم قبضاً شَدِيداً بِعَذَابِ الرِّجْزِ، وكَانَ قَبْضاً مُؤلِماً لَهُمْ، رغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ غَيِّهِمْ إلى أَصْلِ فِطْرَتِهِم الإيمانيَّة، فَيُؤْمِنُوا بموسَىٰ وَهَارُونَ، وَبما جاءَا بِهِ بَلَاغاً عَنَّا، لَكِنَّهُمْ أصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ.

● ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ مُصِرِّين على أنَّهُ فِي نظرهم سَاحِرٌ: يَا أَيُّها السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بما عَهِدَ عِنْدَكَ فإذَا اسْتَجَابَ رَبُّكَ لَكَ بِدُعَائِكَ فَرَفَعَ عَنَّا عَذَابَ الرِّجْسِ فإنَّنا نَعِدُكَ بأَنْ نكون مُهْتَدِينَ بالْإيمانِ بِكَ نَبِيّاً وَرَسُولاً، وبالإيمان بِمَا جِئْتَنا بِهِ بَلاغاً عَنْ رَبّك، وبالإسلام لَكَ، ونُؤَكِّدُ لَكَ هذا الْعَهْد.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: أي: بِلَفْظِ الدُّعَاء الَّذِي عَهِدَ بِهِ إِلَيْكَ وأَوْصَاكَ باسْتِعْمالِهِ لِيُجيبَ دُعَاءَكَ، وجَعَلَهُ عِنْدَكَ.

يُقَالُ لُغَةً «عَهِدَ فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ بالأَمْرِ»: أي: أَوْصَاهُ بحِفْظِهِ(١).

- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾: أي: فَلَمَّا أَزَلْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي أَخَذْنَاهُمْ بِهِ أَخْذاً شَدِيداً مُؤْلماً، إذَا هُمْ يُفَاجِئُونَ بِمَا لَا يُتَوَقَّعُ مِنْ أَهْلِ الرأي والْعَقْل، وهُوَ نَكْثُ عُهُودِهِمْ وَأَيْمَانِهِمُ الَّتِي أَقْسَمُوها.

النَّكْثُ: هُو نَقْضُ الْعَهْدِ وعَدَمُ الْوَفَاءِ به، مَأخُوذٌ مِنْ نَكْثِ الْحَبْلِ، وَهُوَ نَقْضُهُ بَعْدَ إِبْرَامِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَوْقِفَ فِرْعَوْنَ، بَعْدَ أَنِ اسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَاء مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكَشَفَ مَا أَخَذَ بِهِ أَهْلُ مِصْرَ مِنْ عَذَاب.

- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا

---

(١) انظر تدبر الآية (١٣٤) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول:) الصفحات من (٥١٣ ـ ٥١٦) من المجلد الرابع.

أَنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾»:

• «وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ»: يظْهَرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ عَلِمَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ بَدؤوا يتَأَثَّرُونَ بِمُوسَىٰ وبالآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ الَّتِي أَجْرَاهَا الله له، فَحَشَدَ حَشْداً عَاماً كَبِيراً، وَخَطَبَ فِيهِمْ خُطْبَةَ الْعَرْشِ الْفِرْعَوْنِي، فَكَانَ مِمَّا جَاءَ فِي خُطْبَتِهِ لِتَثْبِيتِ مُلْكِهِ، وإبْعَادِ تَأَثُّرِ جماهِيرِ قَوْمِهِ بِمُوسَىٰ وبالدِّينِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ، وأَرَادَ بِمَكْرِهِ أَنْ يَجْعَلَ خِلَافَهُ مَعَ مُوسَىٰ تَنَافُساً عَلَىٰ الْمُلْكِ، فَحَاوَلَ أَنْ يَسْتَعْطِفَهُمْ لِإِخْلَاصِ وَلَائِهِمْ لِمُلْكِه وسُلْطَانِهِ فِي مِصْرَ:

(١) «قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»:

«يَٰقَوْمِ» يَسْتَعْطِفُهُمْ بِهذا النِّداء بِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ، هو مِصْرِيٌّ وهُمْ مِصْرِيُونَ، أَمَّا مُوسَىٰ فَهُوَ إِسْرَائِيلِيٌّ مَهَاجِر، ومِنْ قَوْمٍ هُمْ عَبِيدٌ لَكُمْ. وذُكِرَ أَنَّ هٰذا الْمَلِكَ كانَ «منفطاح الثاني» بن «رَعْمَسِيس الثاني».

• «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ»: اسْتِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ عَلَىٰ النَّفْيِ، وَجَوابُهُ: «بَلَىٰ» المثْبِتَةُ أَنَّ لَهُ مُلْكَ مِصْرَ، وأَنَّ الْأَنْهَارَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ قَصْرِه الملَكِيِّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قَصْرِه، وَيظْهَرُ أَنَّها فُرُوعٌ مِنَ النِّيلِ أَجْرَاهَا لَهُ المهندسُونَ والْبَنَّاءُونَ تَحْتَ شُرُفَاتِ قَصْرِهِ.

أي: أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ مِيراثاً عَنْ آبائِي الْمُلُوكِ الْمُؤَيَّدِينَ بالْقُوىٰ الغيبيَّة، فَلَا تَتَأَثَّرُوا بِمَا يُجْرِيهِ مُوسَىٰ مِنْ سِحْرِيَّاتٍ، لِيَنْتَزِعَ الْمُلْكَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَقِّ فِيهِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُلُوكٍ عِظَامٍ.

وَمِنْ مَوَارِيثِ مُلْكِي الْعَظِيم قَصْرِي العظيم الَّذِي تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ شُرُفَاتِه.

• «.. أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾»؟: أي: أَفَلَا تُبْصِرُونَ هٰذِهِ الْأَدِلَّةَ الملَكِيَّةَ الَّتِي تَجْعَلَنِي وأُسْرَتِي أَصْحَابَ الْحَقِّ فِي مُلْكِ مِصْرَ، الَّذِي لَا حَقَّ لِأَحَدٍ أَنْ يُنَازِعَنِي فِيهِ، مَهْمَا قَدَّمَ مِنْ سِحْرِيَّاتٍ كَبِيرَاتٍ.

فأوْهَمَ المِصْرِيِّينَ أَنَّ مُوسَىٰ يُرِيدُ انْتِزَاعَ الْمُلْكِ مِنْهُ بأعْمَالِهِ السِّحْرِيَّةِ، وَأَنَّهُ يَتَسَتَّرُ بِدَعْوَةٍ دِينِيَّةٍ إلى مَا يُسَمِّيهِ رَبَّ العالمين.

٢ ـ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

«أمْ» هي المنْقَطِعَةُ لِلْإِضْرَاب، بمعنى: «بل». أي: بل مَا يَدَّعِيهِ مِنْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ هُو ادِّعَاءٌ كَاذِبٌ. كَيْفَ يَكُونُ رَسُول رَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنَا بِصِفَاتِي خَيْرٌ مِنْهُ؟!

- ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾: أي: هو حَقِيرٌ ضَعِيفٌ مِنْ قَوْمٍ هُمْ عَبِيدٌ لَكُمْ.
- ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾: أي: وفي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ، فَإِذَا نَطَقَ يُرِيدُ التعبيرَ عَنْ مُرَادِهِ تَكَلَّمَ بِكُلْفَةٍ وَصُعُوبَة.

كَادَ: هِيَ بمعنىٰ «قَارَبَ» يُقَالُ لغة: «كَاد فُلَانٌ أَنْ يَعْمَلَ كذا» أَيْ: قَارَبَ أَنْ يَعْمَلَهُ. وَظَاهِرُ عِبَارَةِ: مَا كَادَ يَفْعَلُ كذا، هِي بِمَعْنَىٰ: مَا قَارَبَ أَنْ يَفْعَلَهُ، فَهِيَ تَنْفِي مُقَارَبَةَ الْعَمَلِ، لَكِنَّ الاسْتِعْمَالَ جَارٍ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: أَنَّهُ قَارَبَ أَنْ لَا يَفْعَلَ الْفِعْلَ لَكِنَّهُ فَعَلَهُ.

وَالتعبيرُ الْمُلَائِمُ: وَيَكَادُ لَا يُبِين، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ جَرَى على أَلْسِنَتِهِمْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى هَـٰذَا الْمَعْنَىٰ اسْتِعْمَالُ: وَلَا يَكَادُ يُبِّين، فَجرَىٰ على وَفْقِهِ الاسْتِعْمَالُ القرآني. ورُبَّمَا كَانَ قَصْدُ فِرْعَوْنَ أَنَّ مُوسىٰ لا يَقْتَرِبُ مِنَ الْإِبَانَةِ عَنْ مُرَادِهِ فِي الْكَلَامِ بَلْ يَعْجِزُ كلامُهُ عَنْهُ، وَيُقَصِّرُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَىٰ الاقْتِرَابِ مِنَ الإِبَانَةِ.

٣ ـ ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

«لَوْلَا» حرف تحضيض بمَعْنَىٰ «هَلَّا». «أَسْوِرَة» جمع «سِوار».

أي: فَهَلَّا إِنْ كَانَ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا يَزْعُمُ أَغْنَاهُ فَجعَلَهُ مِنْ ذَوِي الثَّرَاءِ العظيم، بآيَاتٍ بَاهِرَاتٍ مُعْجِزَاتٍ مِنْ عِنْده، وَأَلْقَىٰ عَلَيْهِ أَسْوِرَةً

مِنْ ذَهَبٍ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَـٰذَا وادَّعَىٰ أَنَّهُ مُبَلِّغُ دِينٍ فَقَطْ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهَلَّا جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ يُبَلِّغُونَ دِينَ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَعَهُ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ فِرْعَوْنَ اعْتَمَدَ أُسْلُوبَ الْمُغَالَطَاتِ فِي إِقْنَاعِ قَوْمِهِ الْمِصْرِيِّينَ بِأَنَّ مُوسَىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ، يَسْعَىٰ إِلى انتزاعِ الْمُلْكِ مِنْ أَصْحَابِهِ الشَّرْعِيِّينَ فِرْعَونَ وَأُسْرَتِهِ مِنْ قَبْلِهِ وَمِنْ بَعْدِهِ، وَأَنَّ قَضِيَّةَ الدِّينِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ قِنَاعٌ يَسْتَخْفِي بِهِ، وَأَنَّ الخوارِقَ وَالْعَجَائِبَ الَّتِي أَتَىٰ بِهَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ.

وَمِنَ الظَّاهِرَ أَنَّهُ وَجَدَ جَمَاهِيرَ قَوْمِهِ مِنَ المصْرِيِّينَ لَيْسَ لَهُمْ وَزنٌ فِكْرِيٌّ ثَقِيلٌ، يَسْتَطِيعُونَ بِهِ إِدْرَاكَ سَفْسَطَاتِهِ وَمُغَالَطَاتِهِ، وَمِنَ الظَّاهِرِ أَيْضاً أَنَّهُ نَشَرَ أَعْوَانَهُ لِاسْتِرْضَاءِ زُعَمَاءِ قَوْمِهِ بِمَا يُحِبُّونَ مِنْ أَهْوَاءٍ وَشَهوَات، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ أَنَّهُمْ عَبِيدُ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ فَهُمْ يَنْجَذِبُونَ إِلَيْهَا بِخِفَّةٍ، وَيَنْبِذُونَ مَنْطِقَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ والرُّشْدِ وَالْفَضِيلَة.

- ■ فَجَاءَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً هَـٰذَا الواقِعَ:
- ● ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

أي: فَعمِلَ فِرْعَوْنُ بِحِيَلِهِ المغَالَطِيَّة، وَوَسَائِلِهِ الإِغْرَائِيَّة، الَّتِي جَعَلَ بِهَا قَوْمَهُ غَيْرَ ذَوِي أَوْزَانٍ فِكْرِيَّة، وَغَيْرَ ذَوِي أَوْزَانٍ اتّئَادِيَّة، تَرَيُّثِية، مُتَأَنِّيَةٍ، تَتَرَبَّصُ حَتَّىٰ تُفَكِّرَ وَتُدْرِكَ غَرَضَ فِرْعَوْنَ مِنْ حِيَلِهِ وَوَسَائِلِه.

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فِكْرِيّاً وَنَفْسِيّاً، فَانْجَذَبُوا إِلَيْهِ، فَأَعْلَنُوا طَاعَتَهُمْ لَهُ، طَمَعاً بِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ مُغْرِيَاتٍ، وَفَتَحَ أَبْوَابَ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَأَطْلَقَهُمْ فِي أَوْحَالِ الْفِسْقِ، فَتبِعُوهُ مُنْطَمِسَةً بَصَائِرُهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِين.

الْفَاسِقُ: هوَ الَّذِي مِنْ عَادَتِهِ الخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ وَالْوَاجِبِ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ، اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَرَغَبَاتِهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

- ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾: أي: فَحِينَ أَغْضَبُونا، يُقَالُ لغة: «آسَفَهُ» أي: أَغْضَبَهُ.

- ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أي: عَاقَبْنَاهُمْ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ كُفْرٍ وَجَرائِم.

- ﴿.. فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: فَأَغْرَقْنَا فِرْعَوْنَ وآلَهُ وَمَلأَهُ، وَجُنُودَهُم أَجْمَعِينَ عِقَاباً لَهُمْ، وَسَبَقَ بَيَانُ قِصَّةِ إغْرَاقِهِمْ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَاف/ ٣٩ نزول) وفي سورة (طه/ ٤٥ نزول).

- ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

السَّلَف: جمع «السَّالِفِ» وهُمْ مَنْ تَقَدَّمُوا فِي الأجيال السَّابِقَةِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ذُو أثرٍ مَا، بَلْ هَلَكُوا مَعَ الهالكينَ السَّالِفِينَ.

﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: وَجَعَلْنَاهُمْ فِي ذَاكِرَاتِ تَارِيخ النَّاسِ حَدِيثاً يُمَثَّلُ بِهِ، لِيُقَاسَ عَلَيْهِمْ أَمْثَالُهُمْ فِي الْكُفْرِ والْعِنَادِ وَجُحُودِ الْحَقِّ، وَلِيَكُونُوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنَ انْتِقَامٍ مُسْتَأْصِلٍ، فَسُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَاحِدَة.

فَهُمْ مَثَلٌ مِنَ الأَمْثِلَةِ الْكَثِيرَةِ، لِسُنَّةِ اللهِ فِي عِقَابِهِ الْكَافِرِينَ المعاندين الجاحِدِين، الَّذِينَ بَلَغُوا دركَةَ اسْتِحْقَاقِ عِقَابِ الاسْتِئْصَالِ فِي الحياة الدنيا، والْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثامن من دُروس سورة (الزخرف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

(١٣)

التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (الزّخرف) الآيَات من (٥٧ ـ ٦٥)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوٓا۟
ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ
إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم
مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا
صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَآءَ
عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤)
فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥)﴾.

القراءات:

(٥٧) • قرأ نَافع، وابْنُ عامر، والكِسَائي، وأبو جَعْفر، وخَلَف: **[يَصُدُّونَ]** بضَمِّ الصاد.

وقَرَأها بَاقي القُرّاء العشرة: **﴿يَصِدُّونَ﴾** بِكَسْرِ الصاد.

(٦١) • قرأ يَعقوب: **[وَاتَّبِعُونِي]** بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم في الوصْلِ والوقف، وكذَلِكَ قرأها أبو عَمْرٍو، وأبو جَعْفَرٍ في الوصل فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **﴿واتَّبِعُونِ﴾** بحَذْف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

(٦٣) • قرأ يعقوب: **[وَأَطِيعُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وأَطِيعُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف.

تمهيد:

في آياتِ هٰذا الدَّرْسِ إشَارَةٌ إلىٰ جَدَلٍ جَرَىٰ بشَأْنِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، مِنْ قِبَلِ بَعْضِ كُفَّارِ قُرَيش، مع رَدِّ اللهِ عَلَيْهِمْ بإثْبَاتِ أَنَّ عيسَىٰ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ أَنْعَمَ اللهُ عليه.

وفيها بَيَانٌ بِشَأْنِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ زَعَمَتْ بَعْضُ قَبَائِلِ الْعَرَب أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الملائِكَةَ يَسْكُنُونَ الأَرْضَ بَدَلَ النَّاسِ فيها، ولَيْسَ جَعْلُهُمْ سُكَّانَ السَّمَاوَاتِ مُغَيِّراً لِكَوْنِهِمْ عِبادَ اللهِ، فالأَرْضُ والسَّمَاوَاتُ مِلْكٌ للهِ يُسْكِنُ فيهما مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ.

وفِيهَا بَيَانُ أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ وأَشْرَاطِهَا.

وفيها تَعْلِيمٌ لِلرَّسُول محمّد ﷺ مَا يَقُولُهُ للمشركين الَّذِينَ جَادَلُوا بِشَأْنِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السلام.

وفيها بَيَانٌ من اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السلام، وهُوَ مُوَجَّهٌ من اللهِ مُبَاشَرَةً لِكُلِّ صَالِحٍ لأَنْ يَتَلَقَّىٰ بَيَانَاتٍ مِنَ اللهِ تبارَكَ وتَعالىٰ.

التدبر التحليلي:

■ قول اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ اعْتِرَاضٍ اعْتَرَضَ بِهِ بَعْضُ مُشْرِكي مَكَّةَ، عَلَىٰ فِكْرَةِ كَوْنِ آلِهَةِ المشْرِكِينَ سَوْفَ يَكُونُونَ مَعَهُمْ فِي جَهَنَّمَ، فقالَ للرَّسُولِ ﷺ: النَّصارَىٰ يَعْبُدُونَ عِيسَىٰ فَكَيْفَ يَكُونُ مَعَ عَابِدِيهِ فِي النَّار؟:

● ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

وفي القراء الأخرَىٰ [يَصُدُّونَ] بضَمّ الصَّاد.

«يَصِدّونَ» بِكَسْرِ الصَّادِ وبِضَمِّهَا مَعْنَاهَا هُنَا يَضِجُّونَ ويَصِيحُونَ فَرِحينَ بِتوجيهِ هـٰذا الاعْتِرَاضِ للرَّسُولِ ﷺ. قال الكِسَائي، والفرَّاء، والزَّجَاجُ، والأَخْفَشُ: يَصِدُّون، ويَصُدُّونَ، لغتان ومَعْنَاهُمَا يَضِجُّون. وقال الْجَوْهَرِي: «صَدَّ يَصِدُّ صَدِيداً» أي: ضَجَّ.

يَظْهَرُ أَنَّ المشْرِكِينَ سَمِعُوا مِمَّا نَزَلَ مِنْ قُرْآنٍ قَبْلَ نُزُول سُورَة (الزُّخرف) قوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ في سُورَة (الصَّافَات/ ٥٦ نزول):

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فتوَهَّمُوا مِنْ هـٰذا البيان الرَّبَّانِيّ، أنَّ هـٰذا الْحَشْرَ مع السُّؤال يَقْتَضِي تَعْذِيب الظالمِينَ مِنْ دَركَةِ الكُفْرِ الشِّرْكِيّ، وتَعْذِيبَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فقالَ قَائِلُهُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ: هـٰذا عِيسَىٰ يَعْبُدُهُ النَّصارَىٰ، فَهَلْ هُوَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ مَعَ الَّذِينَ يَعْبُدونه.

ورُبَّما سَمِعُوا مِنْ أقْوَالِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّ مَعْبُودَاتِ المشْرِكِينَ سَتَكُونُ مَعَهُمْ في جَهَنَّم، وهِيَ مَعْبُودَاتُهُمْ مِنَ الأَصْنَام، فَوَجَّهُوا هـٰذا الاعْتراضَ بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السّلام.

وَمِنَ الْبَدَهِيِّ أَنَّ اعْتِرَاضَهُمْ سَاقِطٌ لَا قِيمَةَ لَهُ، لأَنَّ لَفْظَ «ما» في عبارة: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ يَنْطَبِقُ عَلَىٰ مَا لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا عِلْمَ ويرادُ بِهِ الأَصْنَامُ الَّتِي لَا حَيَاةَ لَهَا ولا إحْسَاس. ولأنَّ الحشْرَ والسُّؤَالَ قُرْبَ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ لَا يَقْتَضِي إدْخَالَ كُلِّ مَنْ حُشِرَ فِي دَارِ الْعَذَابِ، بلْ قَدْ يَكُونُ الحشْرُ والسُّؤَالُ لإدَانَةِ الْمُجْرِمِينَ بِشَهَادَةِ الْمَعْبُودِينَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا بِعِبادَةِ عَابديهِمْ أصلاً، أَوْلم يَكُنْ مِنْهُمْ تَسَبُّبٌ مَا فِي عِبادَتِهِمْ لَهُمْ، فَلَا مَسْؤُولِيَّة عَلَيْهِم.

قولُ اللهِ تَعالَىٰ :

- ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ :

أي : وَحِينَ وَاجَهكَ بَعْضُ قَوْمِكَ يا مُحَمَّدُ بِضَرْبِ مَثَلٍ بِعِيسَىٰ بْنِ مَرْيم، عَلَىٰ اعْتِبَارِ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي مَعْبُودِي مَنْ يَعْبُدُونَ آلِهةً مِنْ دُونِ الله، فَسَوْفَ يَكُونُ مُعذَّباً مَع عَابِدِيه في النَّارِ يَوْمَ القيامَة، أَخْذاً مِنْ قَوْلِكَ : إنَّ الْعَابِدِينَ وَمَا يَعْبُدونَ سَوْفَ يَكُونُونَ مَعاً فِي النار يَوْمِ القيامَة، وَرَأَىٰ كُبَرَاءُ مُشْرِكي مَكَّةَ أَنَّ هـٰذا الاعْتِرَاض اعْتِراضٌ قَوِيٌّ ضِدَّ أقْوَالِك، ضَجُّوا وَصَاحُوا مُبْتَهِجِينَ مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ مُحَمَّداً لَا يَجِدُ جَواباً عَلَىٰ هـٰذا الاعْتِرَاضِ، وكَانَ هـٰذا الضَّجِيجُ وَالصِّيَاحُ مِنْهُمْ مُفَاجِئاً، فِيهِ إِشْعَارُ فَرْحَةٍ بِالانْتِصَار.

- ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ . . ﴿٥٨﴾ ﴾؟ :

أي : إنْ كَانَ عيسَىٰ فِيمَا تَزْعُمُ سَوْفَ يَكُونُ مُعَذَّباً مَع عَابِدِيهِ في النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنْ آلِهَتِنَا الَّتِي نَعْبُدُهَا، والّتي هِيَ مِنَ الحجارَةِ ونَحْوِها مِنْ مَعَادِنِ الأَرْض، فَلَا ضَيْرَ أَنْ نَكُونَ مَعَ آلِهتنا.

وغَرَضُهُمْ مِنْ هـٰذا تَكْذِيبُ بَيَانَاتِهِ بِشَأْنِ الآخِرَةِ وَدَارَي الجزَاءِ : الجنَّة والنار.

- ﴿ . . مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا . . ﴿٥٨﴾ ﴾ :

أي : مَا ضَرَبُوا عِيسَىٰ لَكَ مَثَلاً يَشْمَلُهُ أَنَّهُ مَعَ عَابِدِيهِ في النارِ يَوْمَ القيامَة، إلّا لِاسْتِدْرَاجِكَ لِمُجادَلَتِهِمْ، وهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ سَوَابِقِ مَا نَزَلَ فِي القرآنِ بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه، ومِنْهُ مَا جاء في سورة (مَرْيم/ ٤٤ نزول) في الآيات من (٢٧ ـ ٣٤).

- ﴿ . . . بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ :

أي: لَيْسَ مَا قَدَّمُوهُ مِن اعْتِراضٍ أَمْراً صَالِحاً للاعْتِرَاضِ بِهِ مُطْلَقاً، إذ الكَلَامُ يَتَعَلَّقُ بالْمَعْبُودَاتِ الْوَثَنيَّةِ وَهِيَ من الحجارَةِ، وذكرَتْ تَحْتَ عُنْوانِ «ما» لَا تَحْتَ عُنْوَانِ «مَنْ».

وَوَقُودُ النَّارِ يَوْمَ القيامَةِ النَّاسُ الْكَافِرُون والحجارَةُ، أَمَّا الْمَعْبُودُونَ الَّذِينَ لَا ذَنْبَ لَهُمْ، فقد يَكُونُونَ في الْفِرْدَوسِ الأَعْلَىٰ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيم.

فَلَا حُجَّةَ لَهُمْ مُطلقاً فِي الاعْتِرَاضِ الَّذِي قَدَّمَهُ بَعْضُهُمْ، وَضَجَّ بِهِ وَصَاحَ كثير مِنْ أئِمّتِهِمْ، ﴿..بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾: أي: بل هُمْ قَوْمٌ شَدِيدُو الْخُصُومَةِ بالْبَاطِلِ، وهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّةَ مَا يَقُولُون، وإِنَّمَا يُخَاصِمُونَ لِمُجَرَّدِ مُضادَّةِ مَنْ يُخَاصِمُونَهُ مَهْمَا كَانَ مَا يَقُولُهُ حَقّاً وَصِدْقاً.

خَصِمُونَ: جَمْعُ «خَصِم» وهو مَنْ كَانَ شَدِيدَ الْخُصُومَة والمجادلَة ولَوْ بالباطِلِ ضِدَّ الْحَقّ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ رَدّاً عَلَيْهِمْ بِشَأْنِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: مَا عِيسَىٰ بإلَهٍ، ولَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، ولَمْ نَأْذَنْ لأَحدٍ بِعِبادَتِهِ، مَا هُوَ إلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِنَا أنْعَمْنَا عَلَيْهِ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وأنْطَقْنَاهُ وَهُوَ صَبِيٌّ، وآتَيْنَاهُ بَعْضَ آيَاتِنا، تَصْدِيقاً لَهُ بأنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مِنْ أَنْبِيَائِنَا وَرُسُلِنَا، وَلَا يُجْرِي آيَاتِهِ إلَّا بإذْنِنا، فَنَخْلُقُ لَهُ الآيَةَ الخارِقَة.

وَجَعَلْنَاهُ إِذْ خَلَقْنَاهُ مِنْ أُمٍّ بِلَا أب، مَثَلاً مِنْ أَمْثِلَةِ قُدْرَتِنَا عَلَىٰ الْخَلْقِ، دُونَ اتِّخَاذِ الأَسْبَابِ الّتي اعْتَادَ النَّاسُ أَنْ يَشْهَدُوا آثَارَها في المتكَرِّرَاتِ من تَجرِبَاتِهِمْ، ولِيَعْلَمَ بَنُو إِسْرَائيل أَنَّنا إذا أَرَدْنَا شيئاً فإنَّما نَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون، فَنَخْلُقُهُ مِن خِلَالِ قَنَوَاتِ الأَسْبَابِ وَمِنْ غَيرِ اتِّخَاذ قَنَواتِ الأسْباب، وذِكْرُ بَنِي إِسْرَائيل لَيْسَ لِقَصْرِ رِسَالَتِهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائيل، بَلْ لِمُعَالَجَةِ أفْكَارٍ مُخَالَفَةٍ لِهَـٰذِهِ الحقيقة لَدَىٰ بَعْضِ بَنِي إِسْرَائيلَ يَتَشَبَّثُ

أصْحَابُهَا بالأَنْظِمَةِ السَّبَبِيَّة، باعْتِبَارِ أَنَّ مَريَم أَمَّ عيسَىٰ مِنْ سُلاَلَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَهِيَ إسْرَائِيلِيَّة، فَوِلاَدَةُ عيسَىٰ من امْرَأةٍ منَ الإسْرَائيليين عَلَىٰ خِلاَفِ النِّظَام السَّبَبِيِّ المعتادِ، مَثَلٌ من الأَمْثِلَةِ الَّتِي تَدُلُّهُمْ علَىٰ أَنَّ اللهَ عزّ وجلّ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ مِنْ قَنواتِ الأَسْبَاب الَّتِي وَضَعَهَا هُو، ومِنْ غَيْرِ اتّخاذِ الأَسْبَابِ، وَلَا سَتْرِ أَفْعَالِهِ بِها، جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ اعْتِقَادِ بَعْضِ المشْرِكِينَ أنَّ الْمَلاَئِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، لأَنَّهُ جَعَلَ الملاَئِكَةَ سُكَّانَ السَّمَاوَاتِ عِنْدَه، قِيل: وهُمْ بَنُو مُلَيح، فَعَالَجَهُمْ بِمَا يَدْفَعُ تَوَهُّمَهُمْ:

● ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿مِنكُم﴾: أي: بَدَلَكُمْ، فَمَعْنَىٰ «مِنْ» الجارَّة هُنَا الْبَدَل، وهو أَحَدُ مَعَانِيها.

﴿يَخْلُفُونَ﴾: أي: يَكُونُونَ خَلَفاً لِسُكَّانِ الأَرْض.

المعنىٰ: لَا تَتَوَهَّمُوا أَنَّ إسْكَانَنَا الْمَلاَئِكَةَ في السَّمَاوَاتِ لأَنَّهُمْ بَنَاتُنَا، بَلِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا فِي التَّوْزِيع إسْكَانَ الْمَلاَئِكَةِ في السَّمَاوَات، وَإِسْكَانَ الجنِّ والإنْسِ في الأَرْض، فالْمَلاَئِكَةُ عِبَادٌ مِنْ عِبَادِنَا إذْ هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِنَا، وَلَوْ نَشَاءُ لَجعلْنَا بَدَلَكُمْ مَلاَئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَكُمْ وَيَخْلُفُونَ كُلَّ سُكَّانِ الأَرْضِ، فَالأَرْضُ مِثْلُ السَّمَاواتِ صالِحَةٌ لإِسْكَانِ الملاَئِكَةِ فيهَا، كَمَا هِي صَالِحَةٌ لإِسْكَانِ الْجِنِّ والإنسِ فيها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً حَدِيثَهُ عَنْ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، بَعْدَ دَفْعِ مَفْهُومَاتِ بَعْضِ الْعَرَبِ بِشأْنِ الْمَلاَئِكَةِ إذْ سَبَقَ الحديثُ في السُّورَةِ عَنِ اتخاذِ بَعْضِ العَرَبِ الملائكَةَ بَنَاتٍ للهِ في الآيَاتِ مِنْ (١٥ ـ ٢٢).

● ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

يَظْهَرُ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، مُطَالَبَةُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِأَنْ يَقُولَ مَا جَاءَ فِيهِما مِنْ بَيَانٍ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُعَالَجِينَ في السُّورة، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿. . وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾:

أَبَانَتْ الأحاديثُ المتَواتِرَة عَنِ النبيّ ﷺ، أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، سَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ، ويُنْهِي ما قُدِّرَ لَهُ مِنْ حَيَاةٍ فِيها، وَأَنَّ نُزُولَهُ مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ وأَشْرَاطِهَا الْقَرِيبةِ جِدّاً مِنْ قِيَامِهَا.

ومِنْ هٰذِهِ الأَحَادِيث، ما رَوَاهُ البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَن سَعِيد بن المسَيّب، عَنْ أبي هُرَيرَة، أَنَّ النبيّ ﷺ قَال:

«والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ٱبْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، ويَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْحَرْبَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّىٰ لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ الواحِدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيها».

وَوَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، وعن الْحَسَنِ الْبَصْرِي، وعَنْ قَتَادَة، تَفْسِيرُ قولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ بأَنَّ نُزُولَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ في آخِرِ الزَّمَانِ، عِلْمٌ لِبَيَانِ اقْتِرَابِ قِيَامِ السَّاعَةِ، فإذَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، وحَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بالعَدْلِ وَكَسَرَ الصَّلِيبَ، وقَتَلَ الْخِنْزِيرَ، وَوَضَعَ الْحَرْبَ، كَانَ نُزُولُهُ هٰذا عِلْماً مَشْهُوداً مُفِيداً اقْتِرَابَ قِيامِ السَّاعَةِ، إِذْ مَعَهُ مِنَ الْقُوَىٰ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالتأييدِ مِنَ اللهِ مَا يُحَقِّقُ نَصْرَ الْحَقِّ الإسْلامِيّ عَلَىٰ بَاطِلِ الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ وغَيْرِهِم، يُضَافُ إِلَىٰ هٰذا مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَمَا سَبَقَ أَنْ جَاءَ في القرآنِ، وعلىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

- ﴿. . فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا . .﴾: أي: فَلا تَشُكُّنَّ بِقِيَام السَّاعَةِ، واعْلَمُوا أَنَّهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ، فَهِيَ آتِيَةٌ لَا مَحالَة، تَبدأ بإِنْهاءِ ظُرُوف الحياةِ الدُّنْيا، ثُمَّ تَكُونُ سَاعَةُ الْبَعْثِ لِيَوْم الدِّين، لِيَوْم الحساب وفَصْلِ القضاء والجزاء.
- ﴿. . وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾: أي: وسِيرُوا عَلَىٰ أثَرِي،

واقْتَدُوا بِي في اعْتِقَادِكُمْ، وفي أَقْوَالِكُمْ، وفي أَعْمَالِكُمْ، وفي أَخْلاَقِكُمْ، وَفي كُلِّ مختَلِفَاتِ سُلُوكِكُمْ فِي الحَيَاة، فَأَنَا أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لَكُمْ، بِعِنَايَةٍ لِي مِنْ رَبِّكُمْ، وبِمَا أَوْحَىٰ إِلَيَّ وَأَمَرَني باتِّبَاعِهِ، وبِعِصْمَتِهِ لِي عَمَّا يُنَافِي كَوْنِي أُسْوَةً لَكُمْ مُطَالَبُونَ مِنْهُ باتِّبَاعِي.

وَهـٰذا الَّذِي أُوحِيَ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي الشَّامِلُ لِلْقُرآنِ، ولِغَيْرِهِ مِمَّا عُلِّمْتُهُ عَنْ طَرِيقِ الوحْيِ، هُوَ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لَا اعْوِجَاجَ فيه وَلَا مُعْثِرات، وهُوَ وَاضِحٌ جَلِيٌّ مَكْشُوفٌ بالأَنْوَارِ الرَّبَّانِية.

هـٰذِهِ الْعِبَارَةُ مُرْتَبِطَةٌ فِكْرِيّاً بالآية (٤٣) من السّورة، وهِيَ قَوْلُ اللهِ لِرَسُولِهِ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

- ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: وَلَا تُمَكِّنُوا الشَّيْطَانَ بِوَسَاوِسِهِ مِنْ أنْفُسِكُمْ، حَتَّىٰ يَجْعَلَكُمْ تَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَتُعْرِضُونَ عَنْ سُلُوكِ هـٰذا الصِّرَاطِ المستقيم، فِي حَيَواتِكُمْ، فَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُوصِلُ إِلَىٰ السَّعَادَةِ العظْمَىٰ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين.

وَاتِّخَاذُ الشَّيْطَانِ وَسَائِلَهُ الإغْوَائِيَّةَ والإغْرائِيَّة، لِمَنْعِكُمْ عَنْ سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، أَوْ لإِخْرَاجِكُمْ مِنْهُ جَذْباً أَوْ تَحْوِيلاً أَوْ دَفْعاً، هُوَ بِسَبَبِ كَوْنِهِ عَدُوّاً لَكُم وَاضِحَ الْعَدَاوَة، وَقَدْ ظَهَرَتْ عَداوَتُه لأَبَوَيْكُم إِذْ وَسْوَسَ لَهُمَا فأَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَعْطَىٰ الْعَهْدَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِأَنْ يُغْوِي ذُرِّيَّاتِهِ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَ اللهِ المخلَصِينَ والمخْلِصِينَ، وباعِثُ عَداوَتِهِ كِبْرُهُ عن السُّجُودِ لآدَمَ طَاعَةً لأَمْرِ رَبِّهِ، فَجَلَبَ لَهُ هـٰذا الْكِبْرُ حُكْمَ اللهِ عَلَيْهِ بِالْغَوَايَةِ، فقال لِرَبِّهِ كَمَا جَاءَ في سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

وَجَنَّدَ إِبْلِيسُ ذُرِّيَّتَهُ لإِغْوَاءِ ذُرِّيَّاتِ آدَمَ، بَعْدَ أَنِ اسْتَوْثَقَ مِنْ رَبِّهِ أَنَّهُ

سَيُنْظِرُهُ حَيّاً إلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بِها إنْهَاءَ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيثَ عَنْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السلام وَبِعْثَتِهِ فِي بَنِي إسْرائيل:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: وَحِينَ جاءَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيّاً وَرَسُولاً، دَاعِياً إلَىٰ اللهِ فِي مُجْتَمَعِ بَنِي إسْرَائيلَ، وَمَصْحُوباً بالْبَيِّنَاتِ الباهراتِ المعجزاتِ الشَّاهِدَاتِ لَهُ بِأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، وصَادِقٌ فِيما يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ لِقَوْمِهِ مِنَ الْيَهُودِ:

(١) ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾: أي: لَمْ آتِكُمْ بِتَشْرِيعَاتٍ جَدِيدَاتٍ مُخَالِفَاتٍ لِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّوْرَاةِ، وإنَّمَا جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ فِي السُّلُوك، وفي الأَخْلَاقِ، وَفي الآداب، وفي كُلِّيّاتِ الْمَعَارِفِ والمَفْهُومَاتِ الدِّينيَّة.

الْحِكْمَةُ تَرْجِعُ إلَىٰ جِذْرَيْن:

الْجِذْرُ الأَوَّلُ: الْحِكْمَةُ فِي الْمَعْرِفَةِ، وتَكُونُ بِمُطَابَقَةِ الْعِلْمِ لِلْوَاقِعِ، أَوْ لأَحْسَنِ وَأَقْوَم صُورَةٍ مُمْكِنَةٍ تَقْتَرِبُ مِنْ مُطَابَقَةِ الْكَمَالِ في الشَّيْءِ.

الجِذْرُ الثاني: الْحِكْمَةُ فِي السُّلُوكِ، سواءٌ أَكَانَ خُلُقاً أَمْ عَمَلاً جَسَدِيّاً، أَمْ تَصَرُّفاً في قَوْلٍ أو حُكْمٍ أو سياسَةٍ أَو إدارَةٍ، أو نحو ذلكَ.

وتَكونُ الْحِكْمَةُ في السُّلُوك باخْتِيَارِ الأحْسَنِ وَالأَفْضَلِ دَوَاماً، مِمَّا تُوَجِّهُ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي المعرفة، بِحَسَبِ الاسْتِطَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَضِمْنَ حُدُودِها.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أنَّ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أضَافَ فِكْرَةَ: ﴿.. وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ.. ﴿٥٠﴾﴾

وهُوَ مَا كَانَ قَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ مِنَ الطّيِّبَاتِ عُقُوبَةً لَهُمْ بِسَبَبِ ظُلْمٍ كَانَ مِنْهُمْ.

(٢) ﴿.. وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ .. ﴿٦٣﴾﴾:

كَانَ الْيَهُودُ قد اخْتَلَفُوا فِي قَضَايَا كُلِّيَّةٍ كُبْرَىٰ مِنْ قَضَايَا الدِّين، وَاخْتِلَافُهُمْ فِيهَا قَدْ يَكُونُ مِنَ المكَفِّرَاتِ، وقَدْ يَنْشَأُ عَنْهُ اسْتِبَاحَةُ الكَبَائِرِ الكُبْرَىٰ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ وَقَضَايَا دُونَ ذَلِكَ، فَاهْتَمَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَيَانِ كُبْرَيَاتِ الْقَضَايا، وَمُجَادَلَةِ رُؤسَاءِ فِرَقِهِمْ فِيمَا انْتَحَلُوهُ مِنْ مَذَاهِبَ، وفِيمَا انْحَرَفُوا فِيهِ عَنْ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، فَغَضِبُوا مِنْهُ وثارُوا عَلَيْه.

فَدَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَىٰ اهْتِمَامِهِ عَلَيْهِ السلام بِبَيَانِ كُبْرِيَاتِ الْقَضَايَا الَّتِي اخْتَلَفُوا فِيها، وابْتَدَعُوا بِهَا فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ في دِينِ اللهِ الحقّ، وهـٰذا بَعْضُ الَّذِي كَانُوا فِيه يَخْتَلِفُونَ. أمَّا الأُمُورُ الصُّغْرَىٰ الَّتِي اخْتَلَفُوا فِيها، فَأَمْرُ تَصْحِيحها سَهْلٌ بَعْدَ تَصْحِيح الكُبْرَيَاتِ، وَقَدْ يَكُونُ الاخْتِلَافُ في بَعْضِها يَعْتَمِدُ عَلَىٰ اجْتِهَادٍ مَأْذُونٍ به شَرْعاً، ولَوْ كانَ الحكْمُ الاجْتِهَادِيُّ فيهَا مُخَالِفاً للصَّواب.

(٣) ﴿.. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾: أي: فَاتَّقُوا عُقُوبَاتِ اللهِ علىٰ انْحرافَاتِكُمْ، وعَلَىٰ مُخَالَفَاتِكُمْ لِدِينِ رَبِّكُمْ، وأَطِيعُونِي في سُلُوكِ صِراطِ اللهِ المسْتَقِيم.

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾:

وجَدَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ الْيَهُودِيَّ الّذِي نَشأَ فِيهِ، قَدْ دَخلَتْهُ انْحِرَافَاتٌ كَثِيراتٌ، شِرْكِيَّاتٌ وَبِدْعِيَّاتٌ فِي دِينِ الله، فَوَجّهَ عِنَايَتَهُ العظْمَىٰ لِدَعْوَةِ قَوْمِهِ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِه، فقالَ لَهُمْ: إنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ فِي الْوُجُودِ الرَّبُّ الَّذِي تَجِبُ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ، فاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، واعْمَلُوا بِشَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِ دِينِهِ، وَلَا تَفْتَرُوا

علىٰ اللهِ بإصْدَارِ أحْكَامٍ مَا أنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان، وَكَانَ هـٰذا مُوَجَّهاً لِرُؤسَاءِ اليهود الدينيين.

هـٰذا الّذِي أَدْعُوكم إلَيْهِ صِرَاطٌ مُسْتَقِيم، هو صِرَاطُ رَبّكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ مُجْتَمَعِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ بَعْدِ الأحْدَاثِ الّتِي انْتَهَتْ بِرَفْعِهِ إلىٰ السَّمَاءِ، وادّعَاءِ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ عمِلُوا عَلَىٰ قَتْلِهِ صَلْباً:

- ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾:

أي: فَانْقَسَمَ النَّاسُ إلَىٰ أَحْزَابٍ بِشَأْنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، فَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَعَادَاهُ، ومِنْهُمْ مِنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ومِنْهُمْ مِنْ غَلا فيه فَجَعَلَهُ إلَهاً علَىٰ أَنَّهُ ٱبْنُ اللهِ، أو هو اللهُ بِطَرِيقِ حُلُولِ اللهِ فِيه، أَوْ هُو ثالِثُ ثَلاثَةِ أقَانِيمَ مُتَفَاصِلَة هِيَ بِمَجْمُوعِهَا اللهُ.

- فقالَتِ النِّسْطُورِيّة: عِيسَىٰ ابْن الله.
- وقالَت الْيَعَاقِبة: عِيسَىٰ هُوَ الله، أي: حَلَّتْ بِهِ ذَاتُ اللهِ.
- وقالَت الملْكَانِيَّة، وهُمُ الْكَاثُولِيك: عيسَىٰ ثَالِثُ ثَلاثَةِ أَقَانِيم مُتَفَاصِلَةٍ، هي في مجْمُوعِهَا الله. الأب، والابن، وروح القدس.
- ﴿.. فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾: **وَيْلٌ**: كَلِمَةُ عَذاب.

أي: فَعِقَابٌ شَدِيد لِلّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤلاءِ الأَحْزَابِ ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الكُفرِ، مِنْ جِنْسِ عَذَابٍ مُؤلِمٍ لهم يَوْم القيامَة فِي دار العذاب النار.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ التاسِعِ مِنْ دُروس سورة (الزُّخرف).

والحمْدُ لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وَتوفِيقه، ومِنَّتِهِ وفَتْحِهِ.

(١٤)

التدبّر التّحليلي للدّرس العاشر من دُروس سُورَة (الزّخرف)

الآيات من (٦٦ ـ ٧٧)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)
ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧) يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٦٩) ٱدْخُلُوا۟
ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا
مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ
ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم
مَّٰكِثُونَ (٧٧)﴾.

القراءات:

(٦٨) ● قرأ نافع، وأَبُو عمْرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس: [**يَا عِبَادِي لَا**] بإثْبَاتِ يَاء المتكلّم سَاكِنَةً في الوصْلِ والْوَقْفِ.

وقرأها شُعْبَةُ بِفَتْحِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ وَصْلاً، وَبِإِسْكَانِها وَقْفاً.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: ﴿**يَا عِبَادِ لَا**﴾ بِحَذْفِ يَاءِ المتكلِّم وصْلاً وَوقْفاً.

(٦٨) ● قَرَأَ يَعْقُوبُ: [**لَا خَوْفَ**] بِفَتْحِ الفاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**لَا خَوْفٌ**﴾ بِضَمِّ الفاء مَعَ التَّنْوِينِ.

وهُمَا وَجْهَانِ إعرابيَّانِ جَائِزَان.

(٧١) ● قرأ نَافع، وابْنُ عَامر، وحفْصٌ، وأبو جَعْفر: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾ بإثباتِ هَاءِ الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**مَا تَشْتَهِي**] بِحَذْفِ هَاءِ الضمير.

تمهيد:

في آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ لِلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا بَعْدُ مِنْ كُفَّارِ مَكَّة، مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغوا مَبْلَغَ الْيَأْسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيق إراداتِهِمُ الْحُرَّة، بأسْلُوب التَّرْغيب بالثَّوابِ العظيم يَوْم الدِّين، وبالتَّرْهِيبِ مِنَ الْعِقَابِ الْجَسِيمِ في جَهَنَّمَ يَوْم الدِّين.

التدبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الْيَأْسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ:

● ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

● ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ بِتَبَاطُئِهِمْ عَنِ الإيمَانِ والإسْلَام، وَتَأخِيرِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ؟.

الاستِفْهَامُ في هـٰذِهِ الْعِبارَةِ تَلْوِيميٌّ، مَمْزُوجٌ بمَعْنَىٰ الْحَضِّ عَلَىٰ تَرْكِ مَا هُمْ فِيهِ مِن شِرْكٍ وَكُفْرٍ، وَعَلَىٰ الإسْرَاعِ بالإيمان والإسْلَامِ، لحمايَةِ أنْفُسِهِمْ، والْفَوْزِ بالسَّعَادَةِ الأبَدِيَّة.

● ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ بِتَباطُئِهِمْ إلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ الَّتِي تَنْتَهِي بِهَا آجَالُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَنْقَطِعُ بِهَا أَعْمَالُهُمْ، ثُمَّ يَسْتَقْبِلُونَ بَعْدَ ذَلِكَ سَاعَةَ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ، حَيَاةِ الْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجزاء. يدخل في عُمُوم السَّاعَةِ هُنَا سَاعَةُ الموت.

بَغْتَةً: أي: مُفَاجَأَةً دُونَ إشْعَارٍ سَابق.

- ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: أي: تُبَاغِتُهُمْ سَاعَةُ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وهُمْ لَا يَشْعُرُون، وتُبَاغِتُهُمْ سَاعَةُ بَدْءِ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ حِينَ يُبْعَثُون وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

الشُّعُورُ: أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ سُلَّم الإدْرَاكِ بِشَيْءٍ ما، كَإِدْرَاكِ لَمْسِ الشَّعَرِ لَمْساً خَفِيفاً، ونفْيُ الشُّعُور نَفْيٌ لِكُلِّ دَرجَاتِ الإدْرَاكِ حَتَّىٰ أَدْنَاها.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً لِلْكَافِرِينَ، أَنَّ الْخُلَّةَ فِي الحياةِ الدُّنْيَا بَيْنَ غَيْرِ المتَّقِين، تَنْقَلِبُ إلَىٰ عَدَاوَةٍ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الدِّين:

- ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

الأخِلَّاء: جَمْعُ «الْخَلِيلِ» وهُوَ الصَّدِيقُ الّذِي تخلَّلَتْ مَوَدَّتُهُ قَلْبَ صَدِيقِهِ، حتّىٰ صَارَ مُدَاخِلاً مُخَالِطاً، يَطَّلِعُ عَلَىٰ بواطِنِه وأَسْرَارِه.

يَوْمَئِذٍ: أي: يَوْم تَقُومُ سَاعَةُ الْبَعْثِ وَيَسْتَمِرُّ يَوْمُ الدِّينِ.

أي: اعْلَمُوا أَيُّهَا الأخِلَّاءُ المتَعَاوِنُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ عَلَىٰ الكُفْرِ بِدِينِ اللهِ الحقِّ الْجَلِيّ، وَمُعَادَاتِهِ وَمُقَاوَمَتِهِ، سَوْفَ تَكُونُونَ يَوْمَ القيامَةِ أَعْدَاءً فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، ولَا يَبْقَىٰ يَوْمَ الدِّينِ مِنَ الأَخِلَّاءِ عَلَىٰ خُلَّتِهِ إِلَّا المؤمِنُونَ المتَّقُونَ، وَذَلِكَ لِيَنْعَمُوا وَيَأْنَسُوا بالصَّدَاقَاتِ الَّتِي كَانَتْ بينَهُمْ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، حينما يَكُونُون مُنَعَّمِينَ في دار النعيم.

وَقَدْ جَاءَ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُ اللهُ بإدْخَالِهِم في النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، في الآيَةِ (٣٨) من سُورَة (الأعراف/ ٣٩ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿.. كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ .. ﴿٣٨﴾﴾ أي: الَّتِي كانَتْ أُخْتَها دَاعِيَةً إلىٰ الكفر.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِعِبَادِه المتَّقِين، بِبَيَانٍ مُسْتَقْطَعٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين.

- ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

يُشَرِّفُ اللهُ عزّ وجلّ المؤمنينَ المتَّقِين، فيُنادِيهِمْ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: يا عِبادِي، لَا خَوْفٌ مُسَلَّطٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ عَلىٰ شَيْءٍ فَاتَكُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنيا.

وَأَبَانَ اللهُ عزّ وجلّ وَصْفَ عِبَادِه هؤلاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي الَّذِينَ آمَنُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، بآياتِنا البيانِيَّةِ المنزَّلَة، وآمَنُوا بآياتِنَا الكَوْنِيَّة، وآياتِنَا الإعجازِيَّة، وآياتِنَا المَذكِّرَةِ، وسَائِرِ آياتنا.

وبِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾: أي: وكانُوا مُحقِّقِينَ إسْلاَمَهُمْ لِرَبِّهِمْ.

الْمُسْلِمُ: المنْقَادُ المطِيعُ. يُقَالُ لُغَةً: «أَسْلَمَ يُسْلِمُ إسْلاَماً» أي: انْقَادَ مُطِيعاً.

وَبَعْدَ النِّدَاءِ السَّابِقِ يَدْعُوهُمُ اللهُ إلَىٰ دُخول الجنَّةِ مُكَرَّمِينَ مُحْتَفَىٰ بِهِمْ، فيقولُ لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: أدْخُلُوا الْجَنَّةَ الَّتِي كُنْتُمْ فِي حَياةِ الابْتِلَاءِ وُعِدْتُمْ بِدُخولها خَالِدِينَ مُنعَّمِينَ، أُدْخُلُوهَا أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ المؤمِنَاتُ اللَّوَاتِي كُنَّ في الحياة الدُّنْيَا أَزْوَاجَكُمْ، حَالَةَ كَوْنِكُمْ تُحْبَرُونَ سُرُوراً بِمَا تَلْقَوْنَ فيها مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ.

يُقَالُ لِكُلٍّ مِنَ الزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ «زَوْج».

تُحْبَرُون: أَيْ: تُسَرُّونَ، وتُنَعَّمُونَ. يُقَالُ لغةً: «حَبَرَهُ، يَحْبُرُهُ، حُبُوراً» أي: سَرَّهُ ونَعَّمَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يَصِفُ بَعْضَ مَظَاهِرِ نَعِيمِهِمُ في الجنَّة:

- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾:

- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾: أي: يَدُورُ عَلَيْهِم الحسناوَاتُ، والوِلْدَانُ المخَلَّدُونَ لِخِدْمَتِهِمْ وتَقْدِيمِ وَسَائِلِ نَعِيمِهِمْ مِنْ مَطَاعِمَ وَمَشَارِبَ وغَيْرِ ذَلِكَ.
- ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾: أي: بآنِيَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، والذَّهَبُ أَجْمَلُ وأَشْرَفُ المعَادِنِ.

الصِّحَافُ: جَمْعُ «الصَّحْفَة» وهِي إِنَاءٌ مُسْتَدِيرٌ واسِعُ الْفَمِ، وهي مِنَ القِصَاعِ مَا يُشْبِعُ خَمْسَةَ آكِلِينَ. قَالَ الكِسَائي: أَعْظَمُ القِصَاعِ الْجَفْنَةُ، ثُمَّ الْقَصْعَةُ، وهِيَ تُشْبِعُ عشرَةً، ثُمَّ الصَّحْفَةُ، وهِي تُشْبِعُ خَمْسَةً، ثُمَّ المكيلَة، وهي تُشْبِعُ الرَّجُلَيْنِ والثّلاثَة.

وجاء ذِكْرُ «الصِحَاف» كِنَايَةً عَمَّا يُقدَّمُ فيها مِن طَعَامٍ وفَاكِهَة.

الأكْواب: جَمْعُ «الكُوب» وهو الْقَدَحُ من زُجَاجٍ ونحوه، وهو مُسْتَدِيرُ الرَّأس، لَا أُذُنَ لَهُ ولَا عُرْوَة، وهُوَ مِنْ آنِيَةِ الشَّرَاب.

وجاء ذِكْر «الأكوابِ» كِنَايَةً عَمَّا يُقدَّمُ فِيهَا مِنْ أَشْرِبَةٍ مُتَنوِّعَة.

- ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾: أي: وفي الْجَنَّةِ كُلُّ مَا تُحِبُّهُ الأَنْفُسُ وَتَرْغَبُ فِيهِ، وَكُلَّ مَا تَتَلَذَّذُ بِمُشَاهَدَتِهِ الأَعْيُنُ إِذْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ.

يُقَال لغة: «اشْتَهَىٰ الشَّيْءَ، يَشْتَهِيهِ» أي: اشْتَدَّت رَغْبَتُهُ فِيهِ، وطَلَبُ نَفْسِهِ له.

الشَّهْوَةُ: قُوَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَنْدَفِعُ بِشِدَّةٍ لِنَيْلِ مَا تَرْغَبُ فِيهِ مِنْ تَحْقِيقِ لَذَّاتٍ.

اللَّذَّةُ: إِدْرَاكُ الْمُلَائم مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُلَائم، كَطَعْمِ الْحُلْوِ عِنْدَ حَاسَّةِ الذَّوْق. يُقَالُ لُغَةً: «لَذَّهُ الطَّعَامُ مَثَلاً، يَلَذُّهُ، لَذَاذاً، ولَذَاذَة» أيْ: أَحَسَّ بِمُلَائِمٍ سَارٍّ لِمَشَاعِرِهِ، مُثِيرٍ للرَّغْبَةِ في الاسْتِمْرَارِ أَوِ التكرار.

وتَوجَّهَ اللهُ عزّ وجلّ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ قَالَ لهم: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ آنِفاً، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: وأَنْتُمْ فِي الْجَنَّة خَالِدُونَ، بَاقُونَ فِيهَا مُنعَّمِينَ بَقَاءً أَبَدِيّاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يتابعُ بَيَانَ تَكْرِيمِهِ لِعِبَادِهِ المؤمنينَ الْمُسْلِمِينَ وَهمْ فِي أنواع نَعِيمِ الْجَنَّةِ يتقلّبُونَ، إِذْ يَقُول لهم:

● ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

أَشَارَ اللهُ عزّ وجلّ إلىٰ الْجَنَّةِ الّتِي يَتَقَلَّبُونَ في نَعِيمِها، باسم الإشارة الموضوع في اللُّغةِ للبَعيدَةِ، للدّلالَةِ عَلَىٰ ارْتِفَاعِ قِيمَتِهَا جَوْهَراً وَعَطَاءً مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، بِعِبَارَةِ ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ وخاطَبَ بِهَا كُلَّ مُنَعَّمٍ بأسْلُوب الْخِطَابِ الإفرادي، مُتَحَدِّثاً عَنْ كُلِّ المنَعَّمِينَ فِيها.

● ﴿.. ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾: أي: الَّتي أُعْطِيتُمُوهَا مِنْ رَبِّكُمْ، عَطَاءً يُشْبِهُ عَطَاءَ الْمِيرَاثِ، الَّذي تَنَالُونَهُ دُونَ بَذْلِ جَهْدٍ مِنْكُمْ. وذلِكَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالٍ تَبْتَغُونَ بِهَا رِضوانَ اللهِ وثَوابَهُ، مَعَ أَنَّ هٰـذِهِ الأَعْمَالَ الَّتي كَانَ المؤمنُونَ الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَهَا في رِحْلَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ، لا تُكَافِئُ بَعْضَ نِعَمِ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِم، فَدُخُولُهُم الْجَنَّةَ، وَنَعِيمُهُمْ فِيهَا خَالِدِينَ، مَحْضُ فَضْلٍ مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ أَثْبَتُوا بِبَعْضِ أَعْمَالِهِمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ أَنَّهُمْ عَبِيدٌ للهِ رَاغِبُونَ فِي طَاعَتِهِ.

● ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

جاء في سورة (مَريم/ ٤٤ نزول) بِشَأْنِ أَهْلِ جنَّاتِ عَدْن قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

وَجَاءَ في سُورة (الواقِعَة/ ٤٦ نزول) بِشَأْنِ الْفَاكِهَةِ الَّتي تُقَدَّمُ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ في الْجَنَّةِ، قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وَنَأْخُذُ مِنْ فَهْمِ هٰذِهِ النُّصُوصِ فَهْماً تَكَامُلِيّاً، أَنَّ الرِّزْقَ الغِذَائيَّ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الإمْدَادِ بالطَّاقَةِ الأَسَاسِيَّة يَأْتِي بُكْرَةً، أي: في وقْتِ الصَّبَاحِ مِنْ أَيَّامِ الْجَنَّة، ويأتي عَشِيّاً، أي: فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ مِنْ أَيَّامِ الْجَنَّةِ.

أَمَّا الْفَاكِهَةُ فالإمْدَادُ بِهَا دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ، لأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا التَّنعُّمُ الدَّائِمُ بِلَذَّاتِ الأَكْلِ مِنْهَا، علىٰ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَطُعُومِها وَرَوَائِحِها الزَّكِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ لقْطَةً مِنْ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِين، بَعْدَ بَيَانِهِ لَقْطَةً مِنْ نَعِيمِ المؤمنِينَ الْمُسْلمِينَ، إتْباعاً للتَّرْغِيبِ بالتَّرْهِيب:

- ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

الْمُجْرِم: هُو في اللُّغَةِ المتَعَدِّي بِذَنْبٍ كبير، وجاء في القرآنِ لفظ «المجرمين» عنواناً مُقَابِلاً للمسْلِمِينَ، وَوَصْفاً لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ اللهُ في الدُّنيا، وَوَصْفاً لِلْمُعَذَّبين في النّار، فَيَظْهَرُ أَنّ «المجْرِمِينَ» فِي الاصْطِلَاح القرآنيّ هُمْ مُرْتَكِبُو الآثَامِ مِنْ دَرَكَاتِ الكُفْر.

جَهَنَّم: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ عزّ وجلّ لِيُعَذِّبَ فِيها الْكَافِرِين والْعُصَاة يَوْمَ الدِّين. ولفظ «جهَنّم» مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيث. ويُقَالُ لُغَةً للقَعْرِ الْبَعِيدِ «جَهنّم».

الْخُلُود: اسْتُعْمِلَ فِي الاصْطِلاحِ القرآني بمَعْنَىٰ الدَّوامِ بلَا نِهَايَة.

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُم: أي: لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ شِدَّتِهِ وَحَرَارَتِهِ المؤلِمة، يُقَالُ لُغَةً: «فَتَّرَ فُلَانٌ الشَّيْءَ الْحَارَّ أَو الْعَذَابَ الْمؤلِمَ، يُفَتِّرُهُ» أي: خَفَّفَهُ، وَجَعَلَهُ فَاتِراً غَيْرَ شَدِيدِ الحرارة.

- ﴿مُبۡلِسُونَ﴾: أي: سَاكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ.
- ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾: رَئِيسُ خَزَنَةِ جهنَّم مِنَ الْمَلَائِكَةِ.
- ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾: أي: اسْأَلِ اللهَ رَبَّكَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْنَا بالموت.
- ﴿مَّٰكِثُونَ﴾: أي: بَاقُونَ تَنْتَظِرُونَ نِهَايَةً لَنْ تَحْصُلَ لَكُمْ، المكْثُ: الانْتِظَارُ.

المعنىٰ: إنَّ الْمُجْرِمِينَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، مُسْتَقِرُّونَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، وهُمْ فِيهَا خَالِدُون أبداً، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ شِدَّةِ عَذَابِها، وهُمْ فيها سَاكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ.

- ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾: أي: بهٰذا الْخُلُودِ في الْعَذَاب الأَلِيم، بَلْ أَجْرَيْنَا عَلَيْهِم مَا سَبَقَ أَنْ رَتَّبْنَاهُ فِي نِظَامِ كَوْنِنَا، وَفي نِظَامِ الابْتِلَاءِ وَالْجَزَاء.
- ﴿. . وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾: أي: وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ لأَنْفُسِهِمْ، إِذْ أَعْلَمْنَاهُم بِعَاقِبَةِ الكُفْرِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، بوسائِلِ تُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِي، فَكَذَّبُوا بِمَا أَعْلَمْنَاهُمْ به، وآثَرُوا الحياة الدُّنيا علىٰ الآخِرَة، وَعَادَوا الحقَّ الرَّبَّانِيَّ والدُّعَاةَ إِلَيْهِ، وَعَمِلُوا بِكُلِّ وسائِلِهِمْ لِطَمْسِ الحقِّ، والتخلُّصِ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَيْهِ، فَكَانُوا هُمُ المتَسَبِّبِينَ لأَنْفُسِهِمْ بأنْ يَكُونُوا خالِدِينَ في عَذَابِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

وَكَانَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ مَنْ عَلِمَ أَنَّ النَّارَ مُحْرِقَةٌ، وَهُوَ في الحياة الدُّنْيا، فَقَذَفَ نَفْسَهُ فِيها، فَهُوَ يُعَذَّبُ بِالْحَرِيقِ بِكَسْبٍ مِنْ إِرادَتِه، وهُوَ الظَّالِمُ لِنَفْسِه.

وكَمَثَلِ مَنِ اشْتَهَىٰ أَنْ يَسْتَمْتِعَ بالطَّيَرَانِ الْحُرِّ، فَقَذَفَ نَفْسَهُ مِنَ الطَّائِرَةِ إِلَىٰ الْجَوِّ، دُونَ أَنْ يَقِيَ نَفْسَهُ بِمظَلَّةٍ أَوْ بأداةٍ تحمِلُهُ بِخِفَّةٍ إِذَا اقْتَرَبَ مِنَ الأَرْضِ، وَتَرَكَ جِسْمَهُ يَصْطَدِمُ بِصُخُورِ الأَرْضِ وأَشْوَاكِها، فهُوَ الَّذِي ظَلَمَ

نَفْسَهُ بِمَا لَاقَىٰ مِنْ عَذَابٍ وآلَامٍ، وكُلُّ ذَلِكَ ضِمْنَ نِظَامِ اللهِ في كَوْنِهِ.

وَمَنِ اخْتَارَ سَبِيلاً مُنْكَراً فَلْيُلَاقِ الْعَاقِبَاتِ المؤلِمَاتِ
إِنَّهُ الظَّالِمُ فِيمَا قَدْ جَنَىٰ مِنْ عِقَابٍ دَسَّهُ في الدَّرَكَاتِ

- ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

مَشْهَدٌ مُسْتَقْطَعٌ مِمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ مِنْ قِبَلِ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ أَنْ يَمُرَّ عَلَيْهِمْ زَمَنٌ مَدِيدٌ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي جَهَنَّمَ.

يُحَاوِلُ الْمُجْرِمُونَ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ أَنْ يَتَوَسَّطَ لَهُمْ مَالِكٌ رَئِيسُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ عِنْدَ رَبِّهِ بِأَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ بالْمَوتِ، ويُرِيحَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيه مِنْ عذابٍ.

فَيَقُولُ لَهُمْ «مَالِكٌ»: إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ، أي: إِنَّكُمْ بَاقُونَ تَنْتَظِرُونَ نِهَايَةً لَنْ تَحْصُلَ لَكُمْ، لَقَدْ ذُبِحَ الموْتُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ قَبْلَ دُخُولِهِمْ دَارَ العذاب.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ العاشِرِ مِنْ دُرُوس سورة (الزّخرف).

وَالحمْدُ للهِ علىٰ مَعُونته، وَمَدَدِه، وَتوفيقِهِ، ومِنَتِهِ، وفتْحِهِ.

* * *

(١٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٧٨ ـ ٨٠)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

القراءات:

(٨٠) • قرأ ٱبْنُ عَامر، وعاصِم، وحمزة، وَأبُو جعفر: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ بِفَتْحِ السّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَحْسِبُونَ] بكَسْرِ السّين.

وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبِيّتَان.

(٨٠) • قرأ أبو عمرو: [وَرُسْلُنَا] بإسْكَانِ السّين.

وقَرَأهَا بَاقِي القُرّاءِ العشرة: ﴿وَرُسُلُنَا﴾ بِضَمّ السّين.

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبيّان.

(٨٠) • قرأ حمزة، ويَعْقُوب: [لَدَيْهُمْ] بِضَمّ هَاءِ الضّمِير.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿لَدَيْهِمْ﴾ بِكَسْرِ هاءِ الضّمِير.

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِّيان.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدّرْسِ بَيَانُ وَاقِعِ حَالِ مَجْمُوعِ الّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ مِنْ مُشْرِكِي مَكّة، مَعَ إعْلَامِهِمْ بأنّ كُلّ مَا يُبْرِمُونَهُ مِنْ أَمْرٍ مَعْلُومٌ للهِ عزّ وجلّ، وَأَنّ الله يُبْرِمُ ضِدَّهُمْ مَا يُعَاقِبُهُمْ بِهِ، إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِمْ وكُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ إليهم.

وفِيها إعْلَامُهُم بأنّ الله سَمِيعٌ لِكُلّ مَا يَتَسَارُّونَ بِهِ، وَسَمِيعٌ لكلّ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِه.

التدبّر التحليلي:

▪ الْتَفَتَ الخطابُ الرّبّانيّ مِنْ بَيَانَاتٍ تَرْغِيبيّةٍ وتَرْهِيبيّة جاءت في الدّرْسِ السّابق، إلَىٰ مُخَاطَبَةِ الْمُعَالَجِينَ في السُّورة مِنْ مُشْرِكي مَكّةَ إبّانَ التّنْزِيل، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ بِضَمِيرِ المتكلّمِ العظيم:

- ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِمَا بَلَّغَكُمْ إِيَّاهُ رَسُولُنَا فِي القرآن وفي غَيْرِه بالْحَقِّ الثَّابِتِ، مِنْ قَضَايَا الإيمان، وقَضَايَا السُّلُوكِ الْجَسَدِي والنفسيّ والْفِكْرِي، وَدَعَوْنَاكُمْ إِلَىٰ اتِّبَاعِهِ، والتَّمَسُّكِ به، والْتِزَامِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيم، ولَكِنْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا بَعْدَ مُعَالَجَةٍ طَوِيلَةٍ عَالَجْنَاكُمْ بِهَا بِالْإِقْنَاعِ وَبالتَّرْغِيبِ، وَبالتَّرْهِيبِ وَبالْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، لِمَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ، وَالسَّبَبُ في عَدَمِ اسْتِجَابَتِكُمْ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ يَكْرَهُونَ الحقَّ الَّذِي جِئْنَاكُمْ بِهِ، وَدَعَوْنَاكُمْ إِلَىٰ اتِّبَاعِهِ، وَفِيكُمْ مَنْ لَا يَكْرَهُونَ هَـٰذا الْحَقَّ، إِلَّا أَنَّهُمْ مُتَأَثِّرُونَ بِقَادَتِهِمْ، وبِغَوْغَائِيَّةِ جَمَاهِيرِ أَتْبَاعِ قَادَةِ مُجْتَمَعِهِمْ.

أَمَّا الَّذِينَ يَكْرَهُونَ الْحَقَّ، فَكَرَاهِيَتُهُمْ لَهُ إِنَّمَا هِي بِسَبَبِ أَنَّ الْتِزَامَ الْحَقِّ يَحْرِمُهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْوَائِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، وهُمْ حَرِيصُونَ عَلَيْها، وَهَـٰذا الْحِرْصُ يُغَشِّي علىٰ بَصَائِرِهِم، فَيَجْعَلُهُمْ لَا يَرَوْنَ الْحَقَّ رُؤيَةً صَحِيحَةً، ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْ مَوَاقِعِهِ، ثُمَّ يُدْبِرُونَ عَنْهَا ويَتَوَلَّون.

■ ثُمَّ الْتَفَتَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَنْ مُخَاطَبَتِهِمْ، وتَحَدَّثَ عَنْهُمْ بِضَمِير الغائِبِينَ، مُبَيِّناً أَنَّهُمْ يُبْرِمُونَ مَكَايِدَ ضِدَّ الرَّسُولِ وضدَّ دَعْوَةِ الحقِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْه، وأَنْذَرَهُمُ اللهُ جَلَّ جَلَالُه، بِأَنَّهُ يُبْرِمُ مَا لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ، لإِحْبَاطِ مَكَايِدِهِم، ونُصْرَةِ دِينِهِ وَرَسُولِهِ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فقال الله تَعَالَىٰ:

- ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

«أَمْ» فِي الموضِعَيْنِ للإِضْرَابِ الانْتِقَالِيِّ بمعنَىٰ «بَلْ» مع اسْتِفْهام يُشْعِرُ بأَنَّهُمْ يُبْرِمُونَ أمْراً مَا ضِدَّ دَعْوَةِ الحق وضِدَّ الرَّسُول والمؤمنين، ويُشْعِرُ

بأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللهَ رَبَّهُمْ لَا يَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْواهم، علَىٰ خِلَافِ الحقيقة.

أبْرَمَ الأَمْر: أي: أحْكَمَهُ، بمَعْنَىٰ: دَبَّرَهُ تَدْبيراً مُحْكماً، لِيُنَفِّذَهُ عَلَىٰ مَا أَبْرَمَهُ فِي الأَعْمَالِ الفِكْرِيّة. وَأَصْلُ الإبْرام مَأْخُوذٌ مِنْ إبْرَامِ الحبْلِ، بِمَعْنَىٰ فَتْلِهِ وإحْكَامِ تَقْوِيَةِ طَاقَاتِه.

- ﴿سِرَّهُمْ﴾: أي: أَحَادِيث نُفُوسِهِمْ الَّتِي يَكْتُمُونَها، ويُخْفُونَها، واللهُ عزَّ وجلَّ يَسْمَعُهَا، لأَنَّ أَحَادِيث النُّفُوسِ حَرَكَاتٌ كَلَامِيَّةٌ خَفِية.

- ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾: **النَّجْوَىٰ**: الْمُحَادَثَةُ سِرّاً بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، وتَكُونُ بِصَوْتٍ يَسْمَعَانِهِ.

الْمَعْنَىٰ: بَلْ. أَأَبْرَمُوا كَيْداً ضِدَّ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثْنَا بِهِ رَسُولَنا محمّداً، وَضِدَّ رَسُولِنا، وضِدّ الَّذِين آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوه، فَلْيَعْلَمُوا أَنَّنَا مُبْرِمُونَ كَيْداً أَشَدَّ مِنْ كَيْدِهِمْ، نُحْبِطُ بهِ كَيْدَهُمْ، وَنَرُدُّهُ إلَىٰ نُحُورِهِمْ، وَنُؤَيِّدُ بِهِ دِينَنا وَرَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

وبَلْ: أَيَحْسَبُونَ مُتَوَهِّمِينَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ نُفُوسِهِمْ، ولَا نَسْمَعُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ سِرّاً فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنْ أَحَادِيث؟.

بَلَىٰ نَحْنُ نَسْمَعُ كُلّ ذَلِكَ، ونُتَابِعُهُمْ في كُلّ كَبِيرَةٍ وصَغِيرَةٍ، وَيُضَافُ إلَىٰ هٰذا أَنَّ رُسُلَنا مِنَ الْمَلَائِكَةِ المصَاحِبِينَ لَهُمْ والْمُرَاقِبِينَ لِكُلِّ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ يَكْتُبُونَ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ، مَهْمَا كانَ سِرّاً.

وبهٰذا تَمَّ تَدبّر الدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الزُّخْرُف).

والحمد لله علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفيقه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

* * *

(١٦)

التدبّر التحليليّ للدّرس الثاني عشر مِنْ دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٨١ ـ ٨٩) آخر السورة

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

القراءات:

(٨١) ● قرأ حَمْزَة، والكِسَائي: **[وُلْدٌ]** بالْجَمْع.

وقرأها بَاقِي القراء العشرة: ﴿**وَلَدٌ**﴾ بالإفراد.

ومُؤدَىٰ القراءتَيْنِ وَاحِدٌ.

(٨١) ● قرأ نافع، وأَبُو جَعْفَر: ﴿**فَأَنَا أَوَّلُ**﴾ بإثْبَاتِ أَلِفِ «أَنَا» وصْلاً، ووقفاً.

وقرأها بَاقي القراء الْعَشَرَةِ بِحَذْفِ ألف «أنا» وصْلاً، وإثْبَاتِها وقْفاً.

(٨٣) ● قَرأ أَبُو جَعْفَر: **[يَلْقَوْا]** مِنْ فِعْل: «لَقِي».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**يُلاقُوا**﴾ مِنْ فعل: «لَاقَىٰ». والمؤدّىٰ وَاحد.

(٨٥) ● قرأ ابْنُ كثير، وحمزة، والْكِسَائي، وخَلَفٌ: **[يُرْجَعُونَ]** بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه، مع ضمير الغائبين.

وَقرأها رُوَيْسٌ: [يَرْجِعُونَ] بالْبِنَاءِ للمعْلُومِ مع ضمير الغائبين.

وقرأهَا رَوْح: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعْلُوم مع ضمير المخاطبين.

وقرأهَا بَاقِي القراء الْعَشرَة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبنَاء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ مع ضمير المخاطَبين.

(٨٨) ● قرأ عَاصم، وحَمْزَة: ﴿وَقِيلِهِ﴾ بالْجَرِّ، وكسْرِ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَقِيلَهُ] بالنّصْب وضمّ هاء الضمير.

الجرُّ والنَّصْبُ وَجْهَانِ عَربيانِ عَلَىٰ تَخْرِيجَيْن.

(٨٩) ● قرأ نافع، وابْنُ عامر، وأبو جعفر: [تَعْلَمُونَ] بضَمِير المخاطَبِين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بضَمِيرِ الغائبين.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكَامُلٌ فِي الأَدَاءِ البياني.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْس تَعْلِيمٌ مِن اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِه ﷺ، بَعْضَ مَا يُعَالِجُ به الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجيبوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ إبَّانَ التَّنْزيل.

وَفي هـٰذا التعليم وَعِيدٌ وَإقْنَاعٌ حكِيمٌ، وَتَرْبِيَةٌ مِنَ اللهِ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ بِأَنْ يَصْفَحَ عَنْ سَيِّئَاتِ المشْرِكين، وأنْ يُنْهِيَ الكَلامَ مَعَهُمْ بِكَلِمَة: «سَلام» وَبأَنْ يُنْذِرَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَعْلَمُونَ جَزاءَهُمْ يَوْمَ الدِّين، وسَوْفَ يَذُوقُونَهُ فِي الْجَحِيم.

التدبُّر التحليلي:

■ قول الله تعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ محمَّداً ﷺ أسْلُوباً مِنْ أسَالِيبِ مُعَالَجَةِ الَّذِينَ افْتَرُوا عَلَىٰ اللهِ فَجَعَلُوا لَهُ وَلَداً أَوْ أَوْلَاداً.

- ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾:

وفي القراءة الأُخرَىٰ: **[إنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وُلْدٌ]** بالجمع: مِنَ الّذِينَ جَعَلُوا للرَّحْمٰنِ وَلداً النصارىٰ الذين قالُوا: عيسَىٰ ٱبْنُ الله.

ومن الذين جَعَلُوا للرَّحْمٰنِ «وُلْداً» بالجمع الذين قالوا: الملائكَةُ بَنَاتُ الله، وهم بعضُ قبائِلِ العرب.

اسْتِعْمَالُ «إِنْ» الشَّرطِيَّةُ هُنَا للدَّلَالَة علَىٰ أَنَّ الشَّرْط احْتِمَالٌ افْتِرَاضِيٌّ مَرْفُوضٌ عَقلاً.

والمعْنَىٰ: اعْلَمُوا أَيُّهَا الّذِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّ للهِ وَلَداً أَوْ أَوْلَاداً، إنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ أَوْ أَوْلَادٌ في الْوَاقِعِ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لِوَلَدِ الرَّحْمٰنِ، أَوْ أَوْلَادِه، لأَنَّ وَلَدَ الرّبّ الإلٰهِ جُزْءٌ مِنْهُ، فَهُوَ يُشَارِكُهُ في رُبُوبيَّتِهِ وَإلٰهيَّتِه، لَكِنَّ الرَّبَّ الرَّحْمٰنَ يَسْتَحِيلُ عَقْلاً أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْ ذَاتِهِ جُزْءٌ، أَوْ يَدْخُلَ في ذَاتِهِ شيءٌ مِنْ غَيْرِه، إذْ هُوَ صَمَد، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد، وهُوَ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ لَا يَتغَيَّرُ، فَلَا يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ وَلَا النّقصَ، وما هُو أَزَلِيٌّ مِنْ ذَاتٍ أَوْ صِفَةٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَبَدِيّاً، والتَّغَيُّرُ يُنَاقِضُ الأَزَلِيَّة الأَبَدِيَّة.

هٰذا البيانُ مَوْصُولٌ بِمَا جَاءَ في الدَّرْسِ الثالث من دُروس السُّورة.

الآيات من (١٥ ـ ١٩) مِنْ بيانِ أَنَّ بَعْضَ المشْرِكينَ جَعَلُوا للهِ مِنْ عِبَادِه جُزْءاً، وَبَعْضَ المشركينَ جَعَلُوا الملائكةَ بَنَاتاً للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُون.

■ قوْلُ اللهِ تَعَلَىٰ مُبَيِّناً تَنَزُّهَ ذَاتِهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَوْ أَوْلَادٌ، وَأَنَّ مَا يَزْعُمُهُ الْمُشْرِكُونَ بَاطِلٌ لَا شَكَّ في بُطْلَانِه:

- ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

«سُبْحَانَ» كَلِمَةُ تَنْزِيهٍ، وهِيَ فِي مَوْقِعِ المصْدَر، وليس مِنْها فعل،

والمعنَىٰ: تنزّهَ رَبُّ السَّماوَاتِ والأَرْض وربُّ الْعَرْشِ عمَّا يَصِفُهُ بِهِ المشرِكُونَ، مِنْ أَنَّ لَهُ وَلداً هُو جُزْءٌ مِنْهُ، أَوْ أَنَّ لَهُ أَوْلَاداً هُمْ أجزاءٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، أَوْ وَلَداً أَوْ أولاداً بالتَّبَنِّي.

كَيْفَ يَكُونُ لَهُ أَوْلَاد والسَّماواتُ والأَرْضُ وَالْعَرشُ وكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقَةُ لَهُ بأمْرِ التكْوينِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ إنَّ هٰذِهِ الْفِكرة مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيَاطين، وإنَّ قَبُولَهَا مِن سَقَطاتِ الفِكْرِ الإنْسَانِيِّ الشَّنِيعَةِ، المصَادِمَةِ لمنْطِق العقول السَّلِيمةِ، ومَقَاييسها الصَّحِيحَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ وَكُلَّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَذَرَ المشْرِكينَ الَّذِين لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، يَخُوضُوا ويَلْعَبُوا في الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ يُلَاقُوا مَصِيرَهُمْ مِن الْعَذَابِ الَّذِي يُوعَدُونَهُ فِي الْبَلاغَاتِ عَنِ الله، يَوْم القيامة:

- ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٨٣﴾:
- ﴿فَذَرْهُمْ﴾: أي: فَدَعْهُمْ، وَلَا تَهْتَمَّ مِنْ أَجْلِ كُفْرِهِم.
- ﴿يَخُوضُوا﴾: أَصْلُ الْخَوْضِ الْمَشْيُ في الْمَاءِ وَتَحْرِيكُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ بِمَعْنَىٰ التَّلَبُّسِ في الأَمْرِ، وتَعْكِيرِ صَفْوِ حَقَائِقِ الأُمُور. والْخَوْضُ مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ الكَذِبُ وَالْبَاطل. ويَأْتِي الْخَوْضُ فِي آيَاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ بِمَعْنَىٰ الطَّعْنِ فيها، والسُّخْرِيَةِ والكُفْرِ والاسْتِهْزَاءِ بها.
- ﴿وَيَلْعَبُوا﴾: **اللَّعِبُ**: ضِدُّ الْجِدّ، ويُقَالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عملاً لَا يُجْدي عَلَيْهِ نَفْعاً: إنَّمَا أنْتَ لَاعِب، فَكَيْفَ إذا كَانَ لَعِبُهُ يَجْنِي عَلَيه، ويَجْلُبُ لَهُ عَذاباً أليماً.
- ﴿. . حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٨٣﴾: أي: حَتَّىٰ يُلَاقُوا حِسَابَهُمْ، وَفَصْل الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، وَجزاءَهُمْ عَذَاباً أليماً، فِي يَوْمِهِم الَّذِي يُوعَدُونَهُ، في آيَاتِ كِتَابِ رَبِّهِمْ، وَفِي بَيَانَاتِ رَسُولِهِ، وبَلاغَاتِ الدُّعاة إلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقّ.

«لقِيَ الشَّيْءَ، وَلاَقَاهُ» أي: اسْتَقْبَلَهُ وَوَاجَهَهُ، وحَصَلَ لَهُ مَا يَحْدُثُ بهـٰذِهِ المواجَهَةِ مِمَّا هُوَ مَوْعُودٌ به.

- قول اللهِ تَعَالَىٰ مُبيّناً بَعْضَ صِفَاتِهِ جَلَّ جَلاَلُهُ:

● ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

فِي هـٰذِهِ الآيَاتِ بَيَانُ سَبْعِ صفاتٍ يَصِفُ اللهُ عزّ وجلّ بِهَا نَفْسَه، تَرْسِيخاً وتَعْمِيقاً لِكُلِّيَّاتٍ إيمانيَّةٍ في قُلُوبِ المؤمِنِينَ، وإسْقَاطاً لِنَقَائِضِهَا وَأَضْدَادِهَا المتمركِزَة فِي أَوْهَامِ الْكَافِرِين:

الصفة الأولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾:

أي: واللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي اجْتَمَعَتْ لَهُ صِفَةُ الإلَـٰهِيَّةِ في السَّمَاءِ، فَمَلَائِكَةُ السَّمَاوَاتِ يَعْبُدُونه، وصِفَةُ الإلَـٰهِيَّةِ في الأَرْضِ، فالمؤمِنُون مِنَ الجنِّ والإنْسِ يَعْبُدُونَهُ في الأَرْض، والْمَلَائِكَةُ الّذِين لَهُمْ وَجُودٌ فِي الأَرْضِ يَعْبُدُونه فيها.

أَمَّا مَا يُعْبَدُ في الأَرْضِ مِنْ دُونِ الله، فَلَيْسَ لَهُ مَنْ يَعْبُدُهُ في السَّماء، لأَنَّ سَكَانَ السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَة مُؤمِنون بالطَّبْعِ فلا يعبدون إلّا ربَّهم.

الإلَـٰه: هُوَ في اللُّغَةِ الْمَعْبُود، وَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مَعْبُوداً إلَّا مَنْ كَانَ رَبّاً، وَلَا رَبَّ فِي الوجُودِ كُلِّهِ غَيْرُ اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالىٰ.

الصّفة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾:

أي: وهُوَ المتَّصِفُ بِكَمَالِ الحِكْمَةِ، فِي اخْتِيَارَاتِهِ من الاحْتِمالَاتِ الْمُمْكنَاتِ، وَفِي تَصارِيفِهِ فِي كَوْنِهِ وفي عِبادِه.

الْحِكْمَةُ: اخْتِيَارُ مَا هُوَ الأَفْضَلُ والأَحْسَنُ مُلاءَمَةً لِمَا اخْتِيرَ لَهُ.

الصفة الثالثة: دَلَّ عليها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ عطفاً علىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: وهُوَ المتَّصِفُ بِكَمَالِ الْعِلْم، فَهُوَ جَلَّ جَلالُهُ قَدْ أحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلماً، مِنْ أصْغَرِ صَغِيرٍ إلَىٰ أكْبَرِ كبير، لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ولَا أصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ ولَا أكْبَرُ.

الصفة الرابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾:

تَبارَكَ: أي: تَنامَىٰ وتزايَدَ وَتَعاظَمَ بالإطلاق العامّ، فَوْقَ كُلِّ مَا يَصِفُهُ بِهِ الواصِفُونَ مِنْ كَمَالَات، وهو علىٰ وزن «تَفاعَلَ» مِنَ الْبرَكَة، وهي في اللُّغَة النماء والزيادة في الحِسّيَّاتِ وفي المعنويات من كلِّ خير.

المعنىٰ: تنامَىٰ وتزَايَدَ وتعَاظَمَ فِي صِفَاتِ كَمَالَاتِه فَوْق كُلِّ مَا يَصِفُهُ بِهِ الْوَاصِفُونَ مِنْ كَمَالَات، الرَّبُّ الَّذِي لَهُ بِمُقْتَضَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَةِ لِكُلِّ كَوْنِهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَ أفراد السَّماوَات، وَمَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، والْمَلائِكَةُ والْجِنُّ والإنْسُ جميعاً عَبِيدُه، لأَنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، ومَمْلُوكُونَ له.

الصِّفَة الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾:

أي: وعِنْدَه وَحْدَهُ عِلْمُ وَقْتِ قِيَام سَاعَةِ إنْهاءِ الحياةِ الدُّنيا، وعِلْمُ وَقْتِ قِيَامِ سَاعَةِ الْبَعْثِ لِلْحَياة الأُخْرَىٰ.

هٰذا الْعِلْمُ مِمَّا لَمْ يُطْلِعِ اللهُ عَلَيْهِ أحداً مِنْ خَلْقِه.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ في هٰذِهِ العبارة مِنْ تَقْدِيم الْمُسْنَدِ الَّذِي هُوَ خَبَرٌ، علىٰ المسْنَدِ إلَيْهِ الَّذِي هُوَ مُبْتَدأ.

الصِّفَة السَّادِسَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿..وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: وإلَىٰ حِسَابِهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذِ جَزَائه، تُرْجَعُونَ يَوْمَ الدِّين، أَيُّهَا الموضُوعُونَ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

في هـٰذِهِ العبارة قَصْرٌ اسْتُفِيدَ مِنْ تَقْدِيم المعْمُول «إِلَيْهِ» عَلَىٰ عَامِلِهِ: «تُرْجعُون» فالْحُكْمُ يَوْمَئِذٍ للهِ وَحْدَه.

الصِّفَة السَّابعة: دلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

سبَقَ في نُجُوم التَّنْزِيلِ بَيَانُ شُرُوط الشَّفَاعَةِ بوجْهٍ عَام، أَمَّا المعْبُودُونَ، ومنْهُمُ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ بَعْضِ الْعَرَب، وعيسَىٰ عِنْدَ النَّصَارَىٰ، وعزَيْرُ عِنْدَ بَعْضِ الْيَهُودِ ـ فَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَهْمَا كانَ شَأْنُهُ وارْتَفعَتْ مَنْزِلَته ـ شَفَاعَةً مَا لأَحَدٍ مَا إِلَّا ضِمْنَ الشُّروط الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها في نُجُومِ التَّنْزِيل، وهي:

(١) أَنْ يَأْذَنَ اللهُ للشَّافِعِ بأَنْ يَشْفَعَ للمشْفُوعِ له.

(٢) أَنْ يَرْضَىٰ اللهُ عزّ وجلّ قَوْلَ الشَّافِعِ في المشْفُوعِ له.

(٣) أَنْ يَكُونَ المشْفُوعُ لَهُ مِنَ عُصَاةِ المؤمنين، أَمَّا الْكَافِرُونَ فَلَا شَفَاعَةَ لأَحَدٍ فيهم.

وَدَلَّ ما جاء في هٰذِهِ الآية (٨٦) علىٰ أنّ الْمعبُودين مِن دونِ اللهِ لا يَمْلِكُ الشفاعَةَ منْهُمْ إِلَّا منَ تَحقَّقَ فِيهِ شَرْطان:

الشَّرْطُ الأَوَّل: أَنْ يَكُونَ مُؤْمِناً قَدْ شَهِدَ بالْحَقِّ شَهَادَة صَادِقَةً صَحِيحَة، أَعْلَنَ فيها إيمانَهُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بالإيمان بِهِ، في الدِّينِ الّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِه، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾.

الشَّرْطُ الثاني: أَنْ يَكُونَ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ في أَجْهِزَةِ الْمَعْرِفَةِ لَدَيهِمْ، مَا شَهِدُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ عِلْماً جَلِيّاً، ولَمْ تَكُنْ شَهَادَتُهُمْ الإِيمانِيَّةُ

تَقْلِيداً غَيْرَ مَصْحُوبٍ بِعِلْمٍ بِحَقَائِقِ أَرْكَانِ الإيمانِ. ويَعْلَمُونَ أَيْضاً حَالَ مَنْ يَشْفَعُونَ لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الإيمان، لَكِنَّهُ كان مِنْ مُرْتَكِبي كَبَائِرِ الإثم. دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا الشرط: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فالمعنىٰ: وَلَا يَمْلِكُ المعْبُودُونَ مِنْ دونِ اللهِ الشَّفَاعَةَ لأَحَدٍ، إلَّا مَنْ تَحقَّقَ فِيهِ مِنْهُمْ شَرْطان:

(١) أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ شَهِدَ بالحقّ شَهَادَةً صَادِقَةً صَحِيحَة.

(٢) أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ عَلِمْ بما شَهِدَ بِهِ، وعلىٰ عِلْمٍ بحالِ مَنْ يَشْفَعُ لَهُ.

وَهـٰذان الشَّرْطَانِ في الشَّافِعِ مُضَافَانِ للشُّرُوطِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها لِعُمُومِ الشَّفَاعَةِ، وَلَدَىٰ التَّأمُّلِ نُلَاحِظُ أَنَّهُمَا مِنْ لَوازِمِ الشروط الثَّلاثَةِ العامَّة.

- ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾: أي: يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، ومِنْهُمْ الملائكة وعيسَىٰ والعزير عليهم السلام، فقَدْ جَاءَ اسْتِعْمَالُ الدُّعَاءِ في القرآنِ بمَعْنَىٰ العبادة في عِدَّةِ نُصُوص.

■ قولُ الله تَعالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ داعٍ إلىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وإسْمَاعاً لِلْمُشْرِكِينَ، وهُوَ قَوْلٌ مَوْصُولٌ بما جَاءَ في الآية (٩) من السّورة.

- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: أُقسِمُ لَئِنْ سَأَلْتَ الْمُشْرِكينَ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ مُباشَرَةً بِتلقائِيَّة لا تَرَيُّثَ فِيهَا: اللهُ هُوَ الَّذي خَلَقَهُمْ، كما يجيبون علَىٰ سُؤال: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ؟ إنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بأنَّ اللهُ هُوَ خَالِقُهُمْ وَرَبُّهُمْ، ويَلْزَمُ من هـٰذا الإيمانِ أنْ يُؤْمِنُوا بأنَّ رِزْقَهمُ وَنَصْرَهُمْ وَسَائِرَ تَصَارِيفِ حَيَواتِهِمْ خاضِعَةٌ لسُلْطَانِ رُبُوبيَّة اللهِ لَهُمْ، واللَّازِمُ الْعَقْلِيُّ لِهـٰذا الإيمان أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُو المسْتَحِقُّ وَحْدَهُ لِلْعِبَادَة، وَأَنَّ عِبادَةَ غَيْرِهِ شِرْكٌ بِهِ، وإنْكَارٌ لِحقِّهِ،

وهٰذا مِنَ الكُفْرِ الَّذِي يجازي اللهُ عَلَيْهِ بالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النار يَوْم الدِّين.

- ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟: أي: فَكَيْفَ يُصْرَفُ المشْرِكُونَ عَنْ هٰذِهِ الْحَقِيقَةِ فَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهم، وكَيْفَ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْخُلُودِ في عَذَابِ النارِ؟.

الاستفهام في هٰذِهِ العبارة اسْتِفهَامُ تَعْجِيبٍ مِنْ أَمْرِهم، وتَلْوِيمٍ لَهُمْ دُونَ مُوَاجَهَتِهِمْ بالْخِطَاب.

- ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصْرَفُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً عَنْ رَسُولِهِ ﷺ بضَمِير الغائب.

- ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

وفي القراءَة الأخرىٰ: **[وَقِيلَهُ]** بِالنَّصْبِ، علىٰ اعتبار أَنَّهُ مَصْدَرٌ نُصِبَ علىٰ أنه مفعول مطلقٌ وهو بَدَلٌ من فِعله. ولا أرىٰ مانعاً مِنْ تقدير فعل محذوف: أي: وسَمِعَ اللهُ قِيلَهُ.

الْقِيْلُ: الْقَولُ، أي: وقَوْل الرَّسُول: يَا رَبِّ إنَّ هؤلَاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ.

وأَحْسَنُ تَخْرِيجٍ لِجَرِّ: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بِحَسَبِ قراءَة الجرِّ، أنَّ اللَّفْظَةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ لَفْظِ السَّاعَةِ، والتَّقْدِير: وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَعِلْمُ قِيلِ الرَّسُولِ فِي نَفْسِهِ مُتَلَهِّفاً: يَا رَبِّ إنَّ هؤلاءِ الأئمَّة، المُشْرِكينَ الْمُعَانِدِينَ المُصِرِّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُون، أي: لَيْسُوا مُسْتَعِدِّين أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلاً. ولا أرىٰ مانعاً من تقدير: وهو سَامِعُ قِيلِهِ.

وفي عَرْضِ هٰذِهِ الشَّكْوَىٰ إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُمْ مَيْؤُوسٌ مِنْهُمْ، فَمِنَ الْخَيْرِ التَّخَلُّصُ مِنْهُمْ، لِتَكُونَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الدِّينِ الحقِّ أَوْسَعَ سَيْراً، وأَكْثَرَ انْتِشَاراً، وأَكْثَرَ اسْتِجَابَةً لَهَا فِي الْمُجْتَمَعِ المَكِّيّ، فَوُجُودُهُمْ فِي مُجْتَمَعِهِم عَقَبَةٌ كُبْرَىٰ مِنْ الْعَقَبَاتِ الْمُعَوِّقَاتِ لانْتِشَارِ دَعْوَةِ الْحَقِّ.

- فَأَجَابَ اللهُ رَسُولَهُ بأَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي التَّرَيُّث، وَقالَ لَهُ:

- ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾:

الصَّفْح: الإعراضُ عَنِ الذَّنْب وعَدَمُ المؤاخذة عليه. وأَصْلُ الصَّفْحِ فِي اللُّغَةِ: **الْجَنْبُ**. وصَفْحُ كُلِّ شَيْءٍ جَانِبَاهُ، فمعْنَىٰ عَدَم المؤاخَذَةِ عَلَىٰ السَّيِّئَةِ مَأْخُوذٌ من إعْطَاءِ الجانِبِ إعْرَاضاً عَنِ المؤاخَذَة.

- ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾: وَقُلْ لهم: لَكُمْ مَنّي سَلَامُ مُفَارَقَةٍ لَكُمْ، وبُعْدٍ عَنْكُمْ وَعَنْ دَعْوَتِكُمْ، إذْ لَا جَدْوَىٰ مِنْ مُجَاهَدَتِكُمْ ومُجَادَلَتِكُمْ لإقْنَاعِكُمْ بالحقِّ، فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّكُمْ مَيْؤُوسٌ مِن اسْتِجَابَتِكُمْ عَنْ طَرِيق إرادَاتِكُمُ الحرَّة.

- ﴿.. فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾: أي: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ يَوْمَ القيامَةِ، أَنَّهُمْ كَانُوا مُبْطِلِينَ جَاحِدِينَ مُعَانِدِينَ، يُصِرُّونَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أَنَّهم كانُوا يسْتَهِينُونَ بِوَعِيدِ اللهِ وَعَذَابِهِ الشَّدِيد، حِينَ يَرَوْنَ مَقَاعِدَهُمْ فِي جَهَنَّمَ، وحِينَ يُشَاهِدُونَهَا وَهُمْ علَىٰ أبوابِهَا يُحَاسَبُونَ، وحينَ يَذُوقُونَ عَذَابَهَا وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون، وفي القراءة الأخرىٰ: **[فَسَوْفَ تَعْلَمُون]** بالخطاب.

الفاء في ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ علىٰ مَحْذُوف، تَقْدِيرُهُ: فَلَا تَسْتَعْجِلِ التخلصَ مِنْ هؤُلاءِ الأَئمَةِ الْمُكَابِرِين الْمُعَانِدِينَ، فالْحِكْمَةُ تَقتضي إمْهَالَهُمُ الآن، فَاصْبِرْ عَلَىٰ أَذَاهُمْ، وتَجَاوَزْ عَنْ مُقَابَلَةِ سَيِّئَاتِهِمْ بِمِثْلِهَا، وَقُلْ لَهُمْ: هـٰذا سَلَامُ مُفَارَقَةٍ مِنِّي لَكُمْ، وسَوْفَ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ حِينَ تَرَوْنَ عَذَابَكُمْ يَوْمَ الدِّينِ، كما جَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ الأُخرىٰ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الأخيرِ مِنْ دُرُوس سُورَة (الزُّخْرُف).

والحمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٧)

ملحق: مُسْتَخْرَجات بَلَاغِيَّة من السُّورَة

تشتمل سورة «الزّخرف» علىٰ اختياراتٍ بَلاغِيَّة مُتَعَدِّدَة، وقَدِ اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا بِتَوْفِيقِ اللهِ ومَعُونَتِهِ مَا يلي:

أوّلاً: الإشَارَة إلَىٰ الْقَرِيب باسم الإشارة الموضوع للبعيد للدَّلَالَة علىٰ ارْتِفَاعِ مَكَانَتِهِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِه

ومِنْهُ في هٰذِهِ السّورة ما يلي:

قول اللهِ تَعَالَىٰ في خِطَابِ المؤمِنينَ وهُمْ في الْجَنَّةِ يُنَعَّمُون بنعيمها:

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

«تِلْكَ» اسم إشارة مَوْضوعٌ للمشارِ إلَيْها الْبَعِدَةِ، يُخَاطَبُ بِهَا أَهْلُ الجنَّةِ وَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ في نَعِيمها، للدَّلَالَة علىٰ ارْتِفَاعِ قِيمَتِها جَوْهراً، وَعَطَاءً مِنَ النَّعِيم المقيمِ الخالد.

ثانياً: القصر

القصر: وَهُوَ تخصيصُ شيءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَة كَلامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

ومِنَ الْقَصْرِ في السُّورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

في هٰذِهِ الآية ثَلاثَةُ أمْثِلَةٍ مِنْ أمْثِلَةِ الْقصر:

(١) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾:

أي: لَهُ وحْدَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما، لَا يُشارِكُهُ أَحَدٌ في مُلْكِها، لأنَّها مَخْلُوقَاتٌ لَهُ، والخالِقُ مالِكٌ لِمَا خَلَق.

وقد دَلَّ عَلَىٰ الْقَصْر تَقديم المسْنَد الَّذِي هُوَ الخبر، علَىٰ المبتدأ الذي هو المسْنَدُ إليه.

وهو قَصْرٌ حَقِيقيّ، من قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف.

(٢) ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾:

أي: وعِنْدَهُ وَحْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، الَّتِي يَتمُّ بها إنْهاءُ ظُرُوف الحياة الدنيا كُلّها، والسَّاعَة الَّتِي يَتِمُّ بهَا بَدْءُ ظُرُوف الحياة الأُخرىٰ، فَلَمْ يُطْلِعِ اللهُ أحداً علَىٰ وَقْتِ قيامِ السَّاعة.

دَلَّ علىٰ القصرِ تَقْدِيم المسْنَدِ الذي هو الخبَر: «عِنْدَه» علىٰ المسند إليه المبتدأ: «عِلْمُ السَّاعَة».

وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ علىٰ مَوْصُوف.

(٣) ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

أي: وإلىٰ حِسَابِهِ، وفَصْلِ قضائِهِ، وتنفيذِ جزائِهِ، تُرْجَعُونَ يَوْمَ القيامَةِ بَعْدَ الْبَعْث، فالْحُكْمُ يَوْمَئذٍ للهِ وحْدَه.

دَلّ علىٰ القصر تقديم المعمول «إليه» عَلَىٰ عامِلِه «تُرْجَعُون».

وهو قَصْرٌ حقيقي، من قَصْرِ صِفَةٍ علىٰ مَوْصُوف.

المثال الثاني: قول اللهِ تَعالىٰ:

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

أي: ولا يَمْلِكُ الّذين يَعْبُدُهم المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ الله الشَّفاعة

لأَحدٍ، إلَّا مَنْ كانَ مِنْهُمْ مُؤمِناً وَشَهِدَ بالْحَقِّ عَنْ عِلْم، وهُمْ يَعْلَمُونَ حَالَ مَنْ يَشْفَعُونَ لَهُ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِناً.

دلَّ علىٰ القصر النفي والاستثناء، وهو قَصْرٌ حقيقي، من قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف.

ثالثاً: الإيجاز بالحذف

ومن الإيجاز بالحذف في السورة ما يلي:

قول اللهِ عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُوله ﷺ يُعَلِّمُهُ مَا يَقُولُهُ للمشركين:

﴿۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: [قَال أ] تَسْتَمِرُّونَ مُتَّبِعِينَ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ، ومُحَافِظِين عَلَىٰ تَقْلِيدِهِمْ وَالسَّيْرِ عَلَىٰ آثَارِهِمْ **[وَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ]** مِمَّا يَضْمَنُ لَكُمُ النَّجاةَ وَالسَّعَادَةَ الأَبَدِيَّة يَوْمَ الدِّين؟.

رابعاً: الالتفات

يُوجَدُ في السُّورَةِ الْتِفَاتَاتٌ كثيرات من الْخِطَابِ إلىٰ الغيبة، والعكس، ومِنَ المفرد إلىٰ الْجَمَاعَةِ والعكس، وانْتِقَالاتٌ من الحياةِ الدُّنيا، إلىٰ الآخِرَة، وهي فُنُونُ بَلاغِيَّة جَمِيلَةُ الحركة عِمَادُهَا التَّنوِيع.

خامساً: الاسْتِقْطَاعُ مِنَ الماضي أو المستقبل وَتَقديمُ البيانِ كأنَّهُ يَجْرِي الآن

ومن هٰذا الفنّ البديع في السورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في حِكَايَةِ مَا يُخَاطِبُ بِهِ الْكَافِرِينَ يَوْم الدين:

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

هـٰذا بَيَانٌ مُسْتَقْطَعٌ مِمَّا سَوْفَ يُقَالُ يَوْم الدِّينِ للَّذِين كانُوا في الدُّنْيَا يَعشُونَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ، وَقُرَنَائِهِمْ مِنَ الشَّيَاطِين، دُونَ أَنْ يَشْتَمِلَ النَّصُّ علىٰ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ سَوْفَ يُقَالُ لَهُمْ هـٰذا القول.

المثال الثاني: قول اللهِ عزّ وجلّ مُبَيِّناً مَا يَقُولُهُ الكافِرُونَ بَعْدَ عَذَابٍ طَوِيلٍ في دَار العذاب النارِ:

﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ (٧٧)﴾:

المثالُ الثالث: قول اللهِ عزّ وجلّ مُبَيِّناً مَا يُخَاطِبُ بِهِ الَّذِينَ كَانُوا في الحياة الدُّنْيَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا مسلمين، دُونَ إِشْعَارٍ بأَنَّه مِمَّا سَوْفَ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّين، بَلْ جَاءَ مُسْتَقطعاً اسْتِقطاعاً:

﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٦٩) ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾.

سادِساً: من خروج الاستفهام عَنْ أصلِ دَلالَتِهِ وهي طَلَبُ الإفهام إلىٰ مَعانٍ أخرىٰ

يُوجَدُ فِي السُّورَةِ مِنْ هـٰذا الاختيار البلاغي عِدَّة أَمْثِلَة، وَمِنْها ما يلي:

المثال الأَوَّل: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ اعتقادِ بَعْضِ مُشْرِكي العرب أنَّ الملائِكَةَ إناث، وهـٰذِهِ بَنَاتُ الله:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ (١٩)﴾.

في عِبَارَةِ: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ اسْتِفْهَامُ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ شُهُودِهِمْ خَلْقَ الْمَلَائِكَةِ، مَعَ تَوْبِيخِهِمْ علىٰ ادّعاءِ أَمْرٍ لَمْ يَشْهَدُوهُ، ولَيْسَ لَدَيْهِمْ دَلِيلٌ مَا عَلَيْهِ.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ اعْتِقَادِ هؤُلاء المشركين بَنَاتٍ للهِ بالتَّبَنِي:

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾:

الاسْتِفهام الذي تَضَمَّنَته هـٰذِهِ الآيَةُ اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ تَوْبِيخي.

المثال الثالث: قَولُ اللهِ بِشَأْنِ قَوْلِ المشْركِينَ: لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ، مُتَعَلِّلِينَ بالْجَبْر، وأَنَّهُمْ مَفْطُورُونَ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْ هـٰذِهِ:

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾:

الاستفهام الّذي دَلَّتْ عَلَيْه «أَمْ» إنْكَارِيٌّ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَمْ نُؤْتِهِمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِ القرآن فيه الإذْنُ لَهُمْ بِعِبَادَة غَيْرِ اللهِ رَبِّهِمْ.

المثال الرابع: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ، يُرْشِدُهُ فِيهِ إلىٰ عَدَمِ إنْفَاقِ وقْتِهِ وَطَاقَاتِ مُجَاهَدَتِهِ في قَوْمٍ بَلَغُوا دَرَكَةَ الميؤوسِ من اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيق إرادَاتِهِم الحرَّة:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾:

في الاسْتِفْهَامِ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هـٰذِهِ الآيَةُ، مَعْنَىٰ الإرْشادِ إلَىٰ تَوْجِيهِ جِهَادِ الدَّعْوَةِ لِغَيْرِ الميْؤُوسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرادَاتِهِم الحرَّة.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ تَدْبِيرِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ في مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيل، كيداً ضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ، وَدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة الَّتِي يَدْعُو الناسَ إلَيْها:

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

الاستفْهَامُ الّذي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هـٰذا البيان بمَا تَضَمَّنَتْهُ «أم» الَّتِي هي للإضْرَابِ مَعَ الاسْتِفْهام، يُرَادُ به إعْلَامُ المقْصُودِين مِنْ أئِمَّةِ الشِّرْك، بأنَّ إبْرَامَاتِهِمْ الكَيْدِيَّة مَعْلُومَةٌ للهِ، وأنَّ اللهَ يُبْرِم مَا يُحْبِطُهَا ويَرُدُّ بِهِ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِم، وإعْلَامُهُمْ بأنَّ تَوهُّمَهُمْ عَدمَ عِلْمِ اللهِ بِمَا يُسِرُّونَهُ وَمَا يَتناجَوْن بِهِ بَيْنَهُمْ توهُّمُ بَاطِل، بَلِ اللهُ يَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْوَاهم، وَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُمْ خافِية.

المثال السادس: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ بِشَأْنِ المشركين:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

في عبارة: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أي: فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقّ؟ اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ التَعْجيب مِنْ أَمْرِهِمْ، والتَّوْبِيخُ لهم.

سابعاً: تَوكيدُ الْجُمَلِ الخبريَّة لِدَوَاعٍ بَلاغِيَّةٍ تَقْتَضِي التوكيد

توجَدُ في السُّورَةِ جُمَلٌ خَبرِيَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ لأَنَّ حَالَ المقْصُودِينَ بالبيانِ يقتضي التوكيد، ومِنْها الأَمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ خِطَاباً للنَّاسِ وفي مُقَدِّمَتِهِمْ عَرَبُ مَكَّة:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾:

في الجملة الأولىٰ التوكيد بِـ«إنّ - والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة».

وفي الجملة الثانية التوكيد بـ«إنّ - والجملَة الاسميَّة - واللام المزحْلَقَة».

وقَدِ اقْتَضَىٰ هـٰذا التوكيد هُنَا أنَّ الْمقصُودِين بالْخِطَاب كُفَّارُ قُرَيش.

المثال الثاني: قَوْلُ الله تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشركين:

﴿وَلَبِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾:

جَاءَ التوكيد في هـٰذا البيان بالْقَسَمِ المنْوِيّ الّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ اللام من [لَئِنْ] الْمُوطِئَة لِلْقَسم، واللَّامُ فِي جواب الشَّرْطِ، مَعَ نُونِ التوكيد الثقيلة: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ لأنَّ حَالَ المقصودين بالْخِطاب تَقْتَضِي هـٰذا التوكيد.

ونَظِيرُه مَا جاء في الآية (٨٧) من السورة.

المثالُ الثالث: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ يُعَلِّمُ المؤمِنينَ الذِّكْرَ المطْلُوبَ مِنْهُمْ، إذَا رَكِبُوا مَرْكوبَاتِهِمْ المصْنُوعَةِ وَالْمَخْلُوقَةِ مُبَاشَرَةً بِخَلْقِ الله:

﴿... وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

فِي عبارة ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ التوكيد بـ«إنّ - والجُمْلَةِ الاسمية - واللَّام المزَحْلَقة» والغرضُ تَعْلِيمُ المؤمنِ أَنْ يُعْلِنَ إيمَانَهُ بالآخِرَة إعْلَاناً مُؤكّداً دَالاً عَلَىٰ رُسُوخِ الإيمانِ هـٰذا في قَلْبِهِ.

المثالث الثالث: قول اللهِ عزّ وجلّ يَحْكِي مَقَالَةَ المشْرِكِينَ المتَشَبِّثِينَ بتَقْلِيدِ آبائهم:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

وَنَظيرُهُ مَا جَاء في الآية (٢٣).

في هـٰذا البيان جُمْلَتَان مُؤَكَّدَتان، بـ«إنَّ - والْجُمْلَة الاسْمِيَّة» وهُمَا مِنْ أَقْوَالِ المشْرِكِينَ يُؤَكِّدُونَ لِلْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُمْ وارِثُونَ شِرْكَهُمْ عن آبائِهم، وأَنَّهُمْ ثَابِتُونَ علَىٰ التَّمَسُّكِ بهـٰذا الشِّرْكِ.

المثال الرابع: قولُ اللهِ تَعالَىٰ بِشأْنِ مُشْركي مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزيل:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أكَّدُوا كُفْرَهُمْ بالْقُرآنِ بـ«إنّ - والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة» وَغَرَضُهُمْ التَّيْئِيسُ مِنْ مُعَالَجَتِهِمْ رَجَاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا ويَسْلِمُوا.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ مَا أَوحَىٰ اللهُ به إِلَيْهِ مِنْ قرآنٍ ومَعَهُ غَيْرُه:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

جَاءَ تَوْكِيدُ هـٰذا البيان بـ «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللّام المزحْلَقة» لأَنَّ المقْصُودِينَ بالْبيانِ الَّذينَ لَمْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِ الرَّسُول، ولَوْ كَانَ الْخِطَابُ مَوَجّهاً له.

المثال السَّادِس: قولُ الله تَعالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

جَاءَ التوكيد بـ«لَقَدْ» المشْعِرَةُ بأنَّ اللّام مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ قَسَمٍ مَنْوِي، لِأَنَّ المقْصُودِين بالتوكِيد المشْرِكُونَ الْكَافِرُون.

وقول مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُؤَكداً بـ «إِنَّ - والْجُمْلَة الاسْمِيَّة» لِأَنَّ حَال فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ تَسْتَدْعِي بَلَاغِيّاً هـٰذا التوكيد.

وأكْتَفِي بِهـٰذِهِ المستخرجات من الاختيارات الْبَلَاغِيَّة في سورة «الزُّخرف». والحمْدُ لِلَّهِ علىٰ مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، وفَتْحِه.

* * *

خاتمة المجلّد الثاني عشر

هـٰذا ما امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيَّ مِنْ تَدبُّر لست سُورِ من التَّنْزِيلِ المكي، هي: «سبأ/ ٥٨ - الزُّمر/ ٥٩ - غافر/ ٦٠ - فُصِّلَتْ/ ٦١ - الشورىٰ/ ٦٢ - الزُّخرف/ ٦٣» الَّتِي اشتمل علىٰ تَدبُّرِهَا هذا المجلّد الثاني عشر، مع المسْتَخْرَجَات الْبَلَاغِيَّة مِنها.

وقد اجْتَهَدْتُ أَنْ أَلْتَزِمَ مَنْهَجِي في كتاب: «قَوَاعِدِ التَّدبُّر الأمْثَل لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ».

وكُنْتُ أَسْأَلُ اللهَ رَبِّي آنَاً فآنَاً أَنْ يُسَدِّدَني فِي فَهْم كِتَابِهِ المجيدِ، فَمَا أَصبْتُ فيه فَهُو مِنْ فَيْضِ عَطَاءِ رَبِّي جَلَّتْ مِنَنُه، ولَيْسَ لِي مِنْهُ شيءٌ، وَمَا أَخْطَأْتُ فِيهِ فَهُوَ مِنِّي وَمِنْ قُصُوري عَنْ بُلُوغِ الآفَاقِ السَّامِيَاتِ، لِدَلَالَاتِ كَلِمَاتِ اللهِ المنَزَّلَاتِ لِهِدَايَةِ الناسِ إلىٰ صراطِ اللهِ المستقيم، وَلإعْلَامِهِمْ بِحَقَائق الدِّين الكُبْرَىٰ، وبكَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وقَدْ أعَانَنِي اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ كِتَابَةِ هـٰذا المجلّد، وأنَا أتقَلَّبُ علىٰ شَيْخُوخَتِي وَمَرَضِي، بَيْنَ مَسْكَنِي في مَكَّة، وبَعْضِ كُبْرَيَاتِ المسْتَشْفَيَاتِ فِي جَدَّة، وَسَكَنِ ابْنَتِي الدُّكْتُورَة «صَفا» مع زَوْجها الدُّكتور «أَيْمَن ابن الدكتور محمّد خير العرقْسُوسِي» في جَدَّة أيضاً، أُعاني الذُّيُولَ الَّتِي خَلَفَتْ عَنْ سَرَطَانِ الْقُولُون الَّذِي امْتَدَّ إلىٰ الكبد.

وكُنْتُ وَمَا زِلْتُ علىٰ ثِقَةٍ تَامَّةٍ وَإِيْمَانٍ عَمِيقٍ بِأَنَّهُ لَا شَافِيَ إلّا الله، هُو المبْتَلِي، وَهُوَ الشَّافي، ويُجْرِي أفْعَالَهُ الْحَكِيمَةَ مَسْتُورَةً بِقَنَوَاتِ الْأَسْبَابِ غَالباً، وَقَدْ يُجْرِيها بأمْرِ التّكْوِينِ المباشرِ، دُونَ أَنْ يَسْتُرَهَا بالأسْبَاب، إنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ، وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَخَافَ عليَّ وَلَدِي الدُّكتور الطبيب «محمد حسن» وولدي الدكتور الطبيب «وَائل» وأخِي الدُّكتور الطبيب «محمّد» من إجْرَاء عَمَليَّةٍ جراحِيَّةٍ لِمَا خَلَفَ مِنْ سَرَطَان بَقَايا قولُوني وكَبِدي، أنْ يكُونَ ضَرَرُهَا أكْثَرَ مِنْ نَفْعِها، بالنظر إلىٰ شَيْخُوخَتِي، وبالنَّظَرِ إلَىٰ سَوابِقِ الْعَمَلِيَّاتِ الجراحِيَّة الّتي أُجْرِيَتْ لي، وإلىٰ تجربَةٍ صغيرة أخيرة.

فَصَحَّ عَزْمي مَعْهُمْ عَلَىٰ أَنْ أُفَوِّضَ أَمْرِي إلَىٰ اللهِ وحْدَه، وَأَنْ أَقْتَصِرَ علىٰ الدُّعَاء، والاسْتِشْفَاءِ بالقرآن، والْعَسَلِ، والحبَّةِ السَّوْدَاءِ، ومَاءِ زَمْزَم، وبَعْضِ الْعِلَاجَاتِ الطَّبيعِيَّة، سَائلاً الْمَوْلَىٰ الْجَلِيلَ الّذِي بيده مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْض، أَنْ يُعِينَنِي عَلَىٰ إكْمَالِ تَدَبُّرِ كتابه، علىٰ وفْق المنهج الّذي فَتَحَ بِهِ عليّ.

وكانَ الفراغُ مِنْ كِتَابَةِ هـٰذا المجلّد قُبَيْلَ الظُّهْرِ مِنْ يوم السبت «١١ مِن شهر رَمضان المبارَك ١٤٢٣هـ» الموافق لـ «١٦/ ١١/ ٢٠٠٢م».

وَسَبَقَ وَأنَا أَكْتُبُ هَـٰذَا الْمُجلّد أَنْ تُوُفِّيَتْ زَوْجَتِي «عَائِدَة بنت رَاغب الجراح الحلاق» فِي يوم «١٤/ ٥/ ١٤٢٣هـ الموافق لـ ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٢م».

والحمْدُ لِلَّهِ علىٰ مَا أعْطَىٰ، والْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا أَخَذَ، والحمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا يَخْتَارُ لِي، وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ أهْلِ النَّارِ.

وَآخِرُ دُعَائي أن الحمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين، والصَّلَاة والسَّلَامُ علىٰ خاتم المرسَلِينَ، وَعَلَىٰ سَائِرِ إخْوَانِهِ المصطَفَيْنَ الأخْيَار.

رَبِّ آتِنِي مِنَ الْخَيْرِ مَا يُصْلِحُ لِي دُنْيَاي وآخِرَتِي، وَيَزِيدُنِي ارْتِقَاءً في الدَّرَجَاتِ السَّامِيَات، بِمَا تُوَفِّقُنِي لَهُ مِنْ صَالِحات الأعْمَالِ، وَصَادِقِ النِّيَّاتِ الْمُرْضِيَاتِ لَكَ، وَالدَّعَوَاتِ المستجابَاتِ، إنَّكَ أنْتَ الْوَهَّابُ.

يوم السبت في (١١ رمضان المبارك ١٤٢٣هـ) و(١٦/١١/٢٠٠٢م)

عبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني

الفهرس

الموضوع الصفحة

(٥٨)

سورة سَبأ

٣٤ مصحف ٥٨ نزول

(١) نَصُّ السُّورَة وَمَا فِيها من فرش القراءات ٧

(٢) موضوع سورة (سبأ) ١٦

(٣) دُرُوس سورة (سبأ) ١٧

(٤) التدبر التحليلي للدَّرْسِ الأول من دُروس سورة (سبأ) الآيتان (١ و٢) ٢١

- تمهيد ٢٢

- التدبّر التحليلي ٢٢

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١)﴾ ٢٢
- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ (٢)﴾ ٢٣

(٥) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (سبأ) الآيات من (٣ ـ ٩) . ٢٥

- القراءات ٢٦

- تمهيد ٢٧

- التدبّر التحليلي ٢٨

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ . . (٣)﴾ ٢٨
- ﴿. . قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٣)﴾ ... ٢٩

الموضوع **الصفحة**

- ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ (٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٞ (٥)﴾ ... ٣٠
- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٦)﴾ ٣٣
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٖ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ (٨)﴾ ٣٥
- ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبْدٖ مُّنِيبٖ (٩)﴾ ٣٧

(٦) **التدبُّر التحليلي للدّرسِ الثالث من دُروس سورة (سَبأ) الآيات من (١٠ ـ ١٤)** ٣٩

- **القراءات** ٤٠
- **تمهيد** ٤١
- **التدبر التحليلي** ٤١
- ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ (١٠) أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ (١١)﴾ ٤١
- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٞ وَرَوَاحُهَا شَهْرٞۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ (١٣)﴾ ٤٦
- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (١٤)﴾ . ٥٣

(٧) **التَّدبُّر التَّحْليلي للدَّرس الرابع مِنْ دُروس سورة (سَبَأْ) الآيات من (١٥ ـ ٢١)** .. ٥٥

- **القراءات** ٥٦
- **تَمْهيد** ٥٧
- **مُوجزٌ مُخْتَارٌ مِنْ قِصَّة «سَبأ» عِنْدَ المؤرخين** ٥٨
- **التدبّر التحليلي** ٦٠

الموضوع الصفحة

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ ٦٠
- ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ (١٧)﴾ ٦١
- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ (١٨) فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾ ٦٤
- ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾ ٦٧

(٨) التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الخامسِ من دُروسِ سورة (سبأ) الآيات من (٢٢ ـ ٢٧) ٧٢

- ـ القراءات ٧٢
- ـ تمهيد ٧٣
- ـ التدبّر التحليلي ٧٣
- ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣)﴾ ٧٣
- ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٧)﴾ ٧٦

(٩) التدبّر التحليلي للدَّرْسِ السَّادِس من دُروس سورة (سَبأ) الآيات من (٢٨ ـ ٣٠) ٨٢

- ـ تمهيد ٨٢
- ـ التدبر التحليلي ٨٣

الموضوع الصفحة

• ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٢٨)﴾ ٨٣

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ (٣٠)﴾ ٨٥

(١٠) التدبّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (سبأ) الآيات من (٣١ ـ ٣٣) ٨٧

- **تمهيد** ٨٧
- **التدبر التحليليّ** ٨٨

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ .. (٣١)﴾ ٨٨

• ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٣٣)﴾ ٨٩

(١١) التدبُّر التحليليّ للدرس الثامِنِ مِنْ دُروس سورة (سَبَأْ) الآيات من (٣٤ ـ ٣٩) ٩٣

- **القراءات** ٩٣
- **تمهيد** ٩٤
- **التدبّر التحليلي** ٩٥

• ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٤)﴾ ٩٥

• ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ ٩٥

• ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٣٦) وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ (٣٧)﴾ ٩٦

• ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ (٣٨)﴾ ٩٩

• ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٣٩)﴾ ١٠٠

الموضوع — الصفحة

(١٢) التدبّر التحلِيلي للدرس التاسع من دُروس سورة (سَبأ) الآيات من (٤٠ ـ ٤٢) ١٠١

- القراءات ١٠١
- تمهيد ١٠٢
- التدبّر التَّحْلِيلي ١٠٢
- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ١٠٢
- ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ ١٠٣
- ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ١٠٤

(١٣) التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الْعَاشِرِ من دُروس سورة (سَبأْ) الآيات من (٤٣ ـ ٥٠) ١٠٥

- القراءات ١٠٦
- تمهيد ١٠٧
- التدبّر التحليلي ١٠٧
- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ ١٠٧
- ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ ١١١
- ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ ١١٢
- ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ ١١٥
- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ ١١٦
- ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ ١١٧

الموضوع الصفحة

(١٤) التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (سَبأ) الآيات من (٥١ ـ ٥٤) آخر السورة ١١٩

ـ القراءات ١١٩

ـ تمهيد ١١٩

ـ التدبّر التحليلي ١٢٠

- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١﴾ ١٢٠
- ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٢ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ ١٢١
- ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ٥٤﴾ ١٢٣

(١٥) ملحق: مستخرجات بلاغيّة مِنْ سُورَة (سَبَأْ) ١٢٥

(٥٩)

سورة الزمر

٣٩ مصحف ٥٩ نزول

(١) نَصُّ السورة وما فيها من فَرْشِ القراءات ١٣٣

(٢) ممَّا وَرَدَ في السُّنَّة بِشَأْنِ سورة (الزُّمر) ١٤٣

(٣) موضوع سورة (الزُّمَر) ١٤٣

(٤) دُرُوس سُورَةِ (الزُّمَر) ١٤٤

(٥) التدبّر التحليليّ للدَّرْس الأول مِنْ سُورَة (الزمر) الآيات من (١ ـ ٤) ١٤٨

ـ تمهيد ١٤٩

ـ التدبّر التحليلي ١٤٩

- ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ ١٤٩
- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ . . ٣﴾ ١٥١
- ﴿. . . وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ . . ٣﴾ ١٥٢

الموضوع الصفحة

• ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾ ١٥٥

(٦) التدبّر التحليليّ للدّرْس الثاني من دُروس سورة (الزّمر) الآيتان من (٥) و(٦) ١٥٦

- القراءات ١٥٦
- تمهيد ١٥٧
- التدبر التحليلي ١٥٧

• ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ .. ٥﴾ ١٥٧
• ﴿... يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ .. ٥﴾ ١٥٨
• ﴿... وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ .. ٥﴾ ١٥٩
• ﴿... أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾ ١٦٠
• ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا .. ٦﴾ ١٦٠
• ﴿... وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ .. ٦﴾ ١٦١
• ﴿... يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ .. ٦﴾ .. ١٦٢
• ﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾ ١٦٣

(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٧) ١٦٥

- القراءات ١٦٥
- تمهيد مع التّدبر التحليلي ١٦٥

• ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ ١٦٥

(٨) التدبّر التحليليّ للدّرسِ الرّابع من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٨) ١٧٠

- القراءات ١٧١
- تمهيد ١٧١
- التدبّر التحليلي ١٧١

• ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ ١٧٠

الموضوع الصفحة

ـ التَّدبُّر التحْليليّ للدَّرْسِ الْخَامِسِ مِنْ دُروس سورة (الزُّمر) الآيتان (٩) و(١٠) ١٧٢
ـ القراءات ١٧٣
ـ تمهيد ١٧٣
ـ التدبُّر التحليلي ١٧٤
• ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ . . (٩)﴾ ١٧٤
• ﴿. . . قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ . . (٩)﴾ ١٧٥
• ﴿. . . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (٩)﴾ ١٧٦
• ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾ ١٧٧
(١٠) التدبر التحليليّ للدَّرْس السادس من دُروسِ سورة (الزُّمر) الآيات من (١١ ـ ٢٠) ١٧٩
ـ القراءات ١٨٠
ـ تمهيد ١٨٠
ـ التدبر التحليلي ١٨١
• ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى (١٤)﴾ .. ١٨١
• ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ (١٦)﴾ ١٨٤
• ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٨)﴾ ١٨٦
• ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ (١٩) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠)﴾ ١٩٠
(١١) التدبّر التحليليّ للدرس السابع من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٢١) ١٩٣

الموضوع الصفحة

- تمهيد ١٩٣
- التدبر التحليلي ١٩٣
• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ ١٩٣
(١٢) التدبّر التحليليّ للدرس الثامن من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٢٢) ١٩٦
- التدبر التحليلي ١٩٦
• ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ ١٩٦
(١٣) التدبّر التحليليّ للدرس التاسع من دروس سورة (الزّمر) الآيتان (٢٣) و(٢٤) ٢٠٠
- القراءات ٢٠١
- تمهيد ٢٠١
- التدبر التحليلي ٢٠١
• ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ ٢٠١
• ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ٢٠٩
(١٤) التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة (الزُّمَر) الآيتان (٢٥) و(٢٦) ٢١٠
- تمهيد ٢١٠
- التدبّر التحليلي ٢١١
• ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . ﴿٢٥﴾﴾ ٢١١
• ﴿. . . فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . . ﴿٢٥﴾﴾ ٢١١
• ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ٢١١

الموضوع **الصفحة**

(١٥) التدبر التحليلي للدَّرْس الحادي عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيتان (٢٧) و(٢٨) ٢١٢
- **تمهيد** ٢١٣
- **التدبّر التحليلي** ٢١٣
- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾ ٢١٣
- ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)﴾ ٢١٤

(١٦) التدبر التحليليّ للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الزُّمَر) الآية (٢٩) .. ٢١٥
- **القراءات** ٢١٦
- **تمهيد** ٢١٦
- **التدبُّر التحليلي** ٢١٦
- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ ٢١٦

(١٧) التدبر التحليلي للدَّرْس الثالث عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٣٠ ـ ٣٥) ٢١٨
- **تمهيد** ٢١٩
- **التدبّر التحليلي** ٢١٩
- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ ٢١٩
- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ ٢٢٠
- ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (٣٢)﴾ ٢٢١
- ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾ ٢٢٢

(١٨) التدبر التحليليّ للدرس الرابع عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيتان (٣٦) و(٣٧) ٢٢٦
- **القراءات** ٢٢٦
- **تمهيد** ٢٢٦

الموضوع الصفحة

ـ التَّدبُّر التحليلي ٢٢٧

- ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ . . (٣٦)﴾ ٢٢٧
- ﴿. . . وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ . . (٣٦)﴾ ٢٢٨
- ﴿. . . وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ (٣٧)﴾ ٢٢٩

(١٩) التدبُّر التحليليّ للدرس الخامس عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٣٨ ـ ٤٠) ٢٣٠

ـ القراءات ٢٣٠

ـ تمهيد ٢٣١

ـ التدبر التحليلي ٢٣١

- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ . . (٣٨)﴾ ٢٣١
- ﴿. . . قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ . . (٣٨)﴾ ٢٣٢
- ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾ ٢٣٤

(٢٠) التدبّر التحليلي للدرس السادس عشر من دروس سورة (الزُّمر) الآية (٤١) ٢٣٥

ـ القراءات ٢٣٥

ـ تمهيد ٢٣٥

ـ التدبّر التحليليّ ٢٣٦

- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١)﴾ ٢٣٦

(٢١) التدبّر التحليلي للدَّرسِ السَّابع عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٤٢) ٢٣٧

ـ القراءات ٢٣٧

ـ تمهيد ٢٣٨

ـ التدبّر التحليليّ ٢٣٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٣٧

(٢٢) التدبر التحليلي للدَّرْس الثامن عشر من دُروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٤٣ ـ ٤٨) ٢٤٠

- القراءات ٢٤١
- تمهيد ٢٤١
- التدبّر التحليلي ٢٤١

- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ٢٤١
- ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ٢٤٤
- ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ٢٤٤
- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ٢٤٥

(٢٣) التدبّر التحليلي للدرس التاسع عشر من دُروس سورة (الزُّمَر) الآيات من (٤٩ ـ ٥٢) ٢٤٧

- تمهيد ٢٤٧
- التدبّر التحليلي ٢٤٨

- ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ٢٤٨
- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ ٢٥٠

الموضوع **الصفحة**

• ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾ ٢٥١

(٢٤) التدبّر التحليلي للدرسِ الْعِشْرِينَ مِنْ دُرُوس سورة (الزُّمَر) الآيات من (٥٣ ـ ٦٣) ٢٥٢

ـ القراءات ٢٥٣

ـ تمهيد ٢٥٤

ـ التدبر التحليلي ٢٥٤

• ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣)﴾ ٢٥٤

• ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤)﴾

• ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾ ٢٥٦

• ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٩)﴾ ٢٥٨

• ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾ ٢٦١

• ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾ ٢٦٢

• ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٦٣)﴾ ٢٦٣

(٢٥) التدبّر التحليليّ للدّرسِ الحادي والعشرين مِنْ دُرُوس سورة (الزُّمَر) الآيات من (٦٤ ـ ٦٦) ٢٦٥

ـ القراءات ٢٦٦

ـ تمهيد ٢٦٦

ـ التدبر التحليلي ٢٦٦

• ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤)﴾ ٢٦٧

الموضوع الصفحة

- ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ ٢٦٧
- ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ ٢٦٨

(٢٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني والعشرين من دُروس سورة (الزُّمر) الآية (٦٧) ٢٦٩

- تَمْهيد ٢٦٩
- التّدبُّر التحليلي ٢٧٠
- ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ٢٧٢

(٢٧) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثالث والعشرين من دروس سورة (الزُّمر) الآيات من (٦٨ ـ ٧٥) آخر السورة ٢٧٣

- القراءات ٢٧٤
- تمهيد ٢٧٥
- التدبّر التحليلي ٢٧٥
- ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ٢٧٥
- ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ٢٧٧
- ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ ٢٨٠
- ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ٢٨٣
- ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ ٢٨٦

(٢٨) مُلْحق: مُسْتَخْرَجاتٍ بلاغيَّة من سُورَة (الزمر) ٢٨٧

الموضوع **الصفحة**

(٦٠)
سورَة غافر (المؤمن)
٤٠ مصحف ٦٠ نزول

(١) نَصُّ السُّورَةِ وَمَا فِيها مِنْ فَرْشِ القراءات ٢٩٧
(٢) ممَّا وَرَدَ بِشَأْن سورة (غافر) ٣٠٩
(٣) مَوضوع سُورَة (غافر) ٣٠٩
(٤) دُرُوسُ سُورَةِ (غافر) ٣١٠
(٥) التّدبُّر التحليلي للدّرْس الأول مِنْ دُروس سورة (غافر) الآيات من (١ ـ ٦) ٣١٦
- القراءات ٣١٦
- تمهيد ٣١٦
- التدبّر التحليلي ٣١٧
- ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣)﴾ ٣١٧
- ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ (٤)﴾ ٣٢٠
- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)﴾ ٣٢١
- ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٦)﴾ ٣٢٣
(٦) التدبّر التحليلي للدّرْسِ الثاني مِنْ دُروس سورة (غافر) الآيَات من (٧ ـ ٩) ٣٢٤
- القراءات ٣٢٤
- تمهيد ٣٢٥
- التدبُّر التحليلي ٣٢٥
- ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩)﴾ ٣٢٦

الموضوع **الصفحة**

(٧) التدبّر التحليليّ للدرس الثالث من دُروس سورة (غافر) الآيات من (١٠ ـ ١٢) ٣٢٩

ـ تمهيد ٣٣٠

ـ التدبُّر التحليلي ٣٣٠

- ﴿.. لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ (١٠)﴾ ٣٣١
- ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١)﴾ ٣٣١
- ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ (١٢)﴾ ٣٣٣

(٨) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (غافر) الآيات من (١٣ ـ ١٧) ٣٣٣

ـ القراءات ٣٣٤

ـ تمهيد ٣٣٤

ـ التدبّر التحليلي ٣٣٥

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣)﴾ ٣٣٥
- ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ (١٤)﴾ ٣٣٧
- ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (١٦) ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٧)﴾ ٣٣٨

(٩) التدبّر التحليليّ للدّرسِ الخامسِ مِنْ دُروس سورة (غافر) الآيات من (١٨ ـ ٢٠) ٣٤٢

ـ القراءات ٣٤٣

ـ تَمْهيد ٣٤٣

ـ التدبُّر التحليلي ٣٤٣

- ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)﴾ ٣٤٣
- ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (١٩)﴾ ٣٤٦

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝٢٠﴾ ٣٤٦

(١٠) التدبر التحليلي للدّرْس السّادس من دُروس سورة (غافِر) الآيتان (٢١) و(٢٢) ٣٤٧

- القراءات ٣٤٨
- تَمْهيد ٣٤٨
- التدبّر التحليلي ٣٤٨

• ﴿۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٢١﴾ ٣٤٩

• ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٢﴾ ٣٥٠

(١١) التدبّر التحليلي للدرس السّابع من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٢٣ ـ ٤٦) ٣٥١

- تَمْهيد ٣٥٢
- التدبّر التحليلي ٣٥٣

• ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ۝٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝٢٥﴾ ٣٥٣

• ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٧﴾ ٣٥٥

• ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ۝٢٨ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾ ٣٥٨

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ
قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ
فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤)﴾ ٣٦٢

• ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ ٣٧٠

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ (٣٦) أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (٣٧)﴾ ٣٧٣

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوْمِ إِنَّمَا
هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾ ٣٧٥

• ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِى
لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ
(٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ
مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ
لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤)﴾ ٣٧٨

• ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
ٱلْعَذَابِ (٤٦)﴾ ٣٨٤

(١٢) التدبّر التحليليّ للدَّرْسِ الثامن من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٤٧ ـ ٥٠) ٣٨٦

ـ القراءات ٣٨٦

ـ تمهيد ٣٨٦

ـ التدبر التحليلي ٣٨٦

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ ٣٨٦
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ ٣٨٨

(١٣) التدبّر التحليلي للدّرس التاسع من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٥١ ـ ٥٥) ٣٨٩

ـ القراءات ٣٩٠

ـ تمهيد ٣٩٠

ـ التدبُّر التحليلي ٣٩٠

- ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ ٣٩٠
- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ ٣٩٢

(١٤) التدبّر التحليلي للدّرسِ العاشِر من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٥٦ ـ ٦٥) ٣٩٣

ـ القراءات ٣٩٤

ـ تمهيد ٣٩٥

ـ التدبّر التحليلي ٣٩٦

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ ٣٩٦
- ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٣٩٨
- ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ٤٠٠
- ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٤٠١

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ ٤٠٢
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١)﴾ ٤٠٤
- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣)﴾ ٤٠٥
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٤)﴾ ٤٠٧
- ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٥)﴾ ٤٠٨

(١٥) التدبّر التحليليّ للدّرْسِ الحادي عشر مِنْ دُروسِ سورة (غافر) الآيات من (٦٦ ـ ٦٨) ٤٠٩
- القراءات ٤٠٩
- تمْهيد ٤١٠
- التدبُّر التحليلي ٤١٠
- ﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٦)﴾ ٤١٠
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾ ٤١٢

(١٦) التدبّر التحليليّ للدّرس الثاني عشر مِنْ دُروسِ سورة (غافر) الآيات من (٦٩ ـ ٧٦) ٤١٦
- القراءات ٤١٦
- تمهيد ٤١٧
- التدبُّر التحليليّ ٤١٧

الموضوع الصفحة

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ٤١٧
- ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٤١٨
- ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ٤١٩
- ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ٤٢١
- ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ ٤٢١

(١٧) التَّدبُّرُ التحليليُّ للدَّرْس الثالث عشر من دُروس سورة (غافر) الآيتان (٧٧) و(٧٨) ٤٢٢

ـ القراءات ٤٢٢

ـ تمهيد ٤٢٣

ـ التدبر التحليلي ٤٢٣

- ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ٤٢٣
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ٤٢٤

(١٨) التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الرابع عشر مِنْ دُرُوس سورة (غافر) الآيات من (٧٩ ـ ٨١) ٤٢٥

ـ تَمهيد ٤٢٥

ـ التدبّر التحليلي ٤٢٦

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ٤٢٦
- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ٤٢٦
- ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٤٢٧

(١٩) التدبّر التحليلي للدَّرْس الخامس عشر من دُروس سورة (غافر) الآيات من (٨٢ ـ ٨٥) ٤٢٨

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ٤٢٨
- تمهيد ٤٢٩
- التدبّر التحليلي ٤٢٩
- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ ٤٢٩
- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٨٣)﴾ ٤٣٠
- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨٥)﴾ ٤٣١

(٢٠) مُلْحق: مُسْتَخْرَجات بَلَاغيّة مِنْ سُورَةِ (غافر) ٤٣٣

(٦١)

سُورة فُصِّلت

٤١ مصحف ٦١ نزول

(١) نصّ السُّورَة وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْشِ الْقِرَاءات ٤٤٥
(٢) ممَّا وَرَدَ في السُّنَّةِ والْأَخْبَارِ بِشَأْنِ سورة (فُصِّلَت) ٤٥٢
(٣) موضوع سورة (فُصِّلَت) ٤٥٥
(٤) دُروس سورة (فُصِّلَت) ٤٥٥
(٥) التدبُّر التحليلي للدَّرْس الأول من دُروس (فُصِّلَتْ) الآيات من (١ ـ ٨) ٤٥٨
- القراءات ٤٥٩
- تمهيد ٤٥٩
- التدبّر التحليلي ٤٥٩
- ﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)﴾ ٤٥٩
- ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ (٥)﴾ ٤٦٣

الموضوع **الصفحة**

• ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾ ٤٦٦

(٦) التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الثاني من دُروس سورة (فُصِّلَت) الآيات من (٩ ـ ١٢) ٤٧٠

ـ القراءات ٤٧١

ـ تَمْهيد ٤٧١

ـ التدبُّر التحليلي ٤٧١

• ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩)﴾ ٤٧١

• ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠)﴾ ٤٧٣

• ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١)﴾ ٤٧٥

• ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢)﴾ ٤٧٧

(٧) التَّدبُّر التحليلي للدَّرس الثالث من دُروس سورة (فُصِّلَت) الآيات من (١٣ ـ ١٨) ٤٧٩

ـ القراءات ٤٧٩

ـ تمهيد ٤٨٠

ـ التدبّر التحليلي ٤٨٠

• ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (١٤)﴾ ٤٨٠

• ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦)﴾ ٤٨٢

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٧)﴾ ٤٨٦
- ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (١٨)﴾ ٤٨٧

(٨) **التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (فُصِّلت) الآيات من (١٩ ـ ٢٥)** ٤٨٧
- ـ **القراءات** ٤٨٨
- ـ **تمهيد** ٤٨٨
- ـ **التدبر التحليلي** ٤٨٩
- ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١)﴾ ٤٨٩
- ﴿. . . وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣)﴾ ٤٩١
- ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤)﴾ ٤٩٣
- ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (٢٥)﴾ ٤٩٤

(٩) **التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (فُصّلت) الآيات من (٢٦ ـ ٣٢)** ٤٩٧
- ـ **القراءات** ٤٩٨
- ـ **تمهيد** ٤٩٨
- ـ **التدبّر التحليلي** ٤٩٩
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ ٤٩٩
- ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨)﴾ ٥٠٠
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ ٥٠٣

الموضوع **الصفحة**

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِى ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِىٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ (٣٢)﴾ ٥٠٣

(١٠) التدبّر التحليليّ للدّرس السّادسِ مِنْ دُروس سورة (فُصِّلَت) الآيات من (٣٣ ـ ٣٦) ٥٠٧

ـ تمهيد ٥٠٧

ـ التدبّر التحليليّ ٥٠٧

• ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٣٣)﴾ ٥٠٨

• ﴿وَلَا تَسۡتَوِى ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٞ (٣٤) وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ (٣٥)﴾ ٥٠٩

• ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٦)﴾ ٥١٢

(١١) التدبّر التحليلي للدّرْسِ السّابعِ من دُروس سورة (فُصِّلَت) الآيات من (٣٧ ـ ٣٩) ٥١٣

ـ القراءات ٥١٤

ـ تمهيد ٥١٤

ـ التدبر التحليلي ٥١٤

• ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ (٣٧)﴾ ٥١٤

• ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ (٣٨)﴾ ٥١٦

• ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ (٣٩)﴾ ٥١٦

(١٢) التدبّر التحليلي للدرس الثامن مِنْ دُروس سورة (فُصِّلَتْ) الآيات من (٤٠ ـ ٤٥) ٥١٨

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ٥١٨

- تمهيد ٥١٩

- التدبّر التحليلي ....

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ ٥١٩

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ ٥٢١

- ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ ٥٢٣

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥﴾ ٥٢٧

(١٣) التدبُّر التحليلي للدَّرسِ التاسعِ مِنْ دُروس سورة (فصّلت) الآيات من (٤٦ ـ ٤٨) ٥٢٨

- القراءات ٥٢٩

- تمهيد ٥٢٩

- التدبُّر التحليلي ٥٢٩

- ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨﴾ ٥٢٩

(١٤) التدبّر التحليلي للدَّرْس العاشر مِنْ دُروس سورة (فُصِّلَت) الآيات من (٤٩ ـ ٥١) ٥٣٤

- القراءات ٥٣٤

- تمهيد ٥٣٤

- التدبّر التحليلي ٥٣٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ ٥٣٤

(١٥) التدبر التحليلي للدَّرْس الحادي عشر مِنْ دُروس سورة (فُصِّلَتْ) الآيات من (٥٢ ـ ٥٤) آخر السورة ٥٤٠

- **القراءات** ٥٤٠
- **تمهيد** ٥٤٠
- **التدبر التحليلي** ٥٤١

- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ ٥٤١
- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ ٥٤٢
- ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ ٥٤٤

(١٦) ملحق: مُسْتَخْرجات بَلاغيَّة من سورة (فُصِّلَت) ٥٤٥

(٦٢)

سورة الشورىٰ

٤٢ مصحف ٦٢ نزول

(١) نَصُّ السُّورَة ومَا فِيها مِنْ فَرْشِ القراءات ٥٥٥

(٢) مِمَّا وَرَدَ بِشَأْنِ هـٰذِهِ السُّورَة ٥٦٢

(٣) مَوْضُوعُ سُورَة (الشورى/ ٦٢ نزول) ٥٦٢

(٤) دُرُوسُ سورة (الشورَىٰ) ٥٦٣

(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (١ ـ ٥) ٥٦٧

- **القراءات** ٥٦٧
- **التدبر التحليلي** ٥٦٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣)﴾ ٥٦٨
- ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٤)﴾ ٥٦٩
- ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥)﴾ ٥٧٠

(٦) التدبُّر التحليلي للدَّرْس الثاني مِنْ دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٦ ـ ١٢) ٥٧٢

ـ القراءات ٥٧٣

ـ تمهيد ٥٧٣

ـ التدبّر التحليلي ٥٧٤

- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦)﴾ . ٥٧٤
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ (٧)﴾ ٥٧٧
- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨)﴾ ٥٧٩
- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٩)﴾ ٥٨٠
- ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١١) لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٢)﴾ ٥٨١

(٧) التدبُّر التحليلي للدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الشُّورَىٰ) الآيات من (١٣ ـ ١٦) ٥٨٨

ـ القراءات ٥٨٩

ـ تمهيد ٥٨٩

ـ التدبّر التحليلي ٥٩٠

- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ . . (١٣)﴾ ٥٩٠
- ﴿. . . كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ . . (١٣)﴾ ٥٩٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿... ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ .. (١٣)﴾ ٥٩٥
- ﴿... وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣)﴾ ٥٩٦
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ .. (١٤)﴾ ٥٩٦
- ﴿... وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ .. (١٤)﴾ . ٥٩٧
- ﴿... وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾ ٥٩٨
- ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ .. (١٥)﴾ ٥٩٨
- ﴿... وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ .. (١٥)﴾ ٥٩٩
- ﴿... وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ .. (١٥)﴾ ٦٠٠
- ﴿... وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ .. (١٥)﴾ ٦٠٠
- ﴿... وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ .. (١٥)﴾ ٦٠١
- ﴿... ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ .. (١٥)﴾ ٦٠١
- ﴿... لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ .. (١٥)﴾ ٦٠١
- ﴿... لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ .. (١٥)﴾ ٦٠٢
- ﴿... ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا .. (١٥)﴾ ٦٠٢
- ﴿... وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٥)﴾ ٦٠٣
- ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)﴾ ٦٠٣

(٨) التدبّر التحليلي للدّرْسِ الرابع من دُروس سورة (الشُّورى) الآيتان (١٧) و(١٨) ٦٠٥

- **تمهيد** ٦٠٥
- **التدبر التحليلي** ٦٠٥
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ .. (١٧)﴾ ٦٠٥
- ﴿... وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٨)﴾ ٦٠٧
- ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ (١٨)﴾ ٦٠٨

(٩) التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (الشُّورى) الآيتان (١٩) و(٢٠) ٦١١

الموضوع **الصفحة**

ـ القراءات ٦١١
ـ تمهيد ٦١١
ـ التدبّر التحليلي ٦١١
• ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ ٦١١
• ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ ٦١٣
(١٠) **التدبّر التحليلي للدرس السادس من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٢١ ـ ٢٦)** ٦١٤
ـ القراءات ٦١٥
ـ تمهيد ٦١٥
ـ التدبر التحليلي ٦١٦
• ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١﴾ ٦١٦
• ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ .. ٢٣﴾ ٦١٨
• ﴿... قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ .. ٢٣﴾ ٦٢٠
• ﴿... وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣﴾ ٦٢١
• ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ ٦٢٢
• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾ ... ٦٢٥
• ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ٢٦﴾ ٦٢٦
(١١) **التدبّر التحليلي للدّرسِ السَّابع من دُروس سورة (الشورى) الآيتان (٢٧) و(٢٨)** ٦٢٧
ـ القراءات ٦٢٨
ـ تمهيد ٦٢٨

الموضوع **الصفحة**

ـ **التدبّر التحليلي** ٦٢٨

- ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)﴾ ٦٢٩
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨)﴾ ٦٣٠

(١٢) التدبر التحليلي للدرس الثامِنْ مِن دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٢٩ ـ ٣٥) ٦٣١

ـ **القراءات** ٦٣١

ـ **تمهيد** ٦٣٢

ـ **التدبر التحليلي** ٦٣٢

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)﴾ ٦٣٢
- ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾ ٦٣٤
- ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١)﴾ ٦٣٤
- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾ ٦٣٥

(١٣) التدبر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٣٦ ـ ٤٣) ٦٣٩

ـ **القراءات** ٦٣٩

ـ **تمهيد** ٦٤٠

ـ **التدبر التحليلي** ٦٤٠

- ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)﴾ ٦٤٠
- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ ٦٤٦

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ⁽٤٠⁾﴾ ٦٤٦
- ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ⁽٤١⁾﴾ ٦٤٧
- ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ⁽٤٢⁾﴾ ٦٤٨
- ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ⁽٤٣⁾﴾ ٦٤٨

(١٤) التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٤٤ ـ ٤٦) ٦٤٩

ـ تمْهيد ٦٥٠

ـ التدبُّر التحليلي ٦٥٠

- ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ .. ⁽٤٤⁾﴾ ٦٥٠
- ﴿. . . وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ⁽٤٤⁾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ .. ⁽٤٥⁾﴾ ٦٥١
- ﴿. . . وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ .. ⁽٤٥⁾﴾ ٦٥٢
- ﴿. . . أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ⁽٤٥⁾﴾ ٦٥٣
- ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ⁽٤٦⁾﴾ ٦٥٣

(١٥)التدبّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٤٧ ـ ٥٠) ٦٥٤

ـ تمهيد ٦٥٤

ـ التدبّر التحليلي ٦٥٥

- ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ⁽٤٧⁾﴾ ٦٥٥
- ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ .. ⁽٤٨⁾﴾ ٦٥٧
- ﴿. . . وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ⁽٤٨⁾﴾ ٦٥٨

الموضوع — الصفحة

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ ٦٥٩

(١٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني عشر من دُروس سورة (الشورى) الآيات من (٥١ ـ ٥٣) آخر السورة ٦٦١

ـ القراءات ٦٦١

ـ تمهيد ٦٦٢

ـ التدبر التحليلي ٦٦٢

- ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾ ٦٦٢
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)﴾ ٦٦٥

(١٧) ملْحق: مُسْتَخْرَجَات بَلَاغِيَّة مِنَ السُّورَة ٦٦٨

(٦٣)

سورَة الزُّخرف

٤٣ مصحف ٦٣ نزول

(١) نصّ السّورة ومَا فيها من فرشِ القراءات ٦٧٩

(٢) مِمَّا وَرَدَ بِشَأْن سورة (الزُّخرف) ٦٨٨

(٣) موضوع سورة (الزّخرف) ٦٨٩

(٤) دُروس سورة (الزخرف) ٦٨٩

(٥) التدبّر التحليلي للدَّرْس الأوّل من دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (١ ـ ٨) ٦٩٣

ـ القراءات ٦٩٤

ـ تمهيد ٦٩٤

ـ التدبّر التحليلي ٦٩٥

- ﴿حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢)﴾ ٦٩٥

الموضوع **الصفحة**

• ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤)﴾ ٦٩٦

• ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ (٥)﴾ ٦٩٨

• ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٧) فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٨)﴾ ٦٩٩

(٦) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثّاني مِنْ دُروسِ سورة (الزخرف) الآيات من (٩ ـ ١٤) ٧٠١

ـ القراءات ٧٠١

ـ تمهيد ٧٠٢

ـ التدبّر التحليلي ٧٠٢

• ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ (٩)﴾ ٧٠٢

• ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٠)﴾ ٧٠٣

• ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ (١١)﴾ ٧٠٥

• ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ (١٢) لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ (١٣) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾ ٧٠٦

(٧) التدبّر التحليليّ للدَّرْس الثالث مِنْ دُروس سورة (الزُّخْرف) الآيات من (١٥ ـ ١٩) ٧٠٩

ـ القراءات ٧٠٩

ـ تمهيد ٧١٠

ـ التدبّر التحليلي ٧١٠

• ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ (١٥)﴾ ٧١٠

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ (١٨) وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ (١٩)﴾ ٧١٢

الموضوع الصفحة

(٨) التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الرابع من دُروس سورة (الزّخرف) الآيات من (٢٠ ـ ٢٥) ٧١٤
ـ القراءات ٧١٤
ـ تمهيد ٧١٤
ـ التدبر التحليلي ٧١٥
- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾ ٧١٥
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ ٧١٧
- ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٢٤)﴾ ٧١٩
- ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾ ٧١٩

(٩) التدبّر التحليلي للدَّرْس الخامس من دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) ٧٢٠
ـ القراءات ٧٢١
ـ تمهيد ٧٢١
ـ التدبّر التحليلي ٧٢١
- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ ٧٢١

(١٠) التدبر التحليلي للدَّرس السادس من دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٢٩ ـ ٣٥) ٧٢٣
ـ القراءات ٧٢٤
ـ تمهيد ٧٢٥
ـ التدبّر التحليلي ٧٢٥
- ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٠)﴾ ٧٢٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (٣٢)﴾ .... ٧٢٧ ـ ٧٢٨
- ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ (٣٤) وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ ٧٣٠

(١١) التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٣٦ ـ ٣٩) ٧٣٢

ـ القراءات ٧٣٣

ـ تمهيد ٧٣٣

ـ التدبر التحليلي ٧٣٤

- ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ (٣٦)﴾ ٧٣٤
- ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ (٣٧)﴾ ٧٣٥
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ (٣٨)﴾ ٧٣٦
- ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ (٣٩)﴾ ٧٣٨

(١٢) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثامِن من دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٤٠ ـ ٥٦) ٧٣٩

ـ القراءات ٧٣٩

ـ تمهيد ٧٤١

ـ التدبر التحليلي ٧٤١

- ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٤٠)﴾ ٧٤٢
- ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ (٤٢) فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٤٣) وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ (٤٤) وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ (٤٥)﴾ ٧٤٣

الموضوع الصفحة

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠)﴾ ٧٤٩

• ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ (٥٦)﴾ ٧٥٢

(١٣) التدبُّر التحليليّ للدَّرْس التاسع مِنْ دُروس سورة (الزُّخْرُف) الآيات من (٥٧ ـ ٦٥) ٧٥٧

- القراءات ٧٥٧

- تمهيد ٧٥٨

- التدبُّر التحليلي ٧٥٨

• ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨)﴾ ٧٥٨

• ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩)﴾ ٧٦١

• ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢)﴾ ٧٦٢

• ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤)﴾ ٧٦٥

• ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥)﴾ ٧٦٧

(١٤) التدبُّر التحليليّ للدَّرْس العاشر من دُروس سورة (الزُّخرف) الآيات من (٦٦ ـ ٧٧) ٧٦٨

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ٧٦٨
- تمْهيد ٧٦٩
- • ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)﴾ ٧٦٩
- • ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ ٧٧٠
- • ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٦٩) ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠)﴾ ٧٧١
- • ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٧١)﴾ ٧٧١
- • ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾ ٧٧٣
- • ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ (٧٧)﴾ ٧٧٤

(١٥) التدبر التحليلي للدّرْس الحادي عشر من دُرُوس سُورَةِ (الزُّخرف) الآيات من (٧٨ ـ ٨٠) ٧٧٦

- القراءات ٧٧٧
- تمهيد ٧٧٧
- التدبّر التحليلي ٧٧٧
- • ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)﴾ ٧٧٨

(١٦) التدبّر التحليلي للدّرْسِ الثاني عشر مِنْ دُرُوس سُورَة (الزُّخرف) الآيات من (٨١ ـ ٨٩) آخِر السورة ٧٨٠

- القراءات ٧٨٠
- تمهيد ٧٨١
- التدبّر التحليلي ٧٨١
- • ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ (٨١)﴾ ٧٨٢
- • ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)﴾ ٧٨٢

الموضوع الصفحة

- ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٨٣)﴾ ٧٨٣
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ ٧٨٤
- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ ٧٨٧
- ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ ٧٨٨
- ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾ ٧٨٩

(١٧) مُلْحَق: مُسْتَخْرَجات بَلاغيّة مِنْ سُورَةِ (الزُّخْرُف) ٧٩٠

خاتمَة المجلَّدِ الثاني عشر ٧٩٨

فهرس المجلد الثاني عشر ٨٠١

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقرآنِ الكريمِ بحسبِ ترتيبِ النُّزولِ
وِفْقَ منهجِ كتابِ «قواعِدِ التدبُّرِ الأمْثلِ لكتابِ الله عزَّ وجلَّ»

المجلَّد الثَّالث عشر

تفسير سُوَر

الدُّخَان/٦٤ الجاثية/٦٥ الأحقَاف/٦٦ الذَّاريَات/٦٧
الغَاشيَة/٦٨ الكهْف/٦٩ النّحل/٧٠ ونُوح/٧١

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

الطّبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

جميع حقوق الطّبع محفوظة للمؤلّف

0101092

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق: ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشاميّة - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَة الدُّخان

٤٤ مصحف ٦٤ نزول

وهي سورة مكّية كُلُّها

وهي السُّورَةُ الْخَامِسَة من الْحَوامِيم السَّبْع

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ
عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾
فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ
هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ
﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ
وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ
﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدۡ

---

١ ـ • سَكَت أبو جعفر على «حا» وعلى «ميم» سكْتَةً لطيفة مِنْ غير تَنَفُّس.

٧ ـ • قرأ عاصِم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [رَبِّ] بالجرِّ إتْباعاً لـ [رَبِّكَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [رَبُّ] بالرَّفع، إتْباعاً لـ [السَّمِيعُ العَلِيمُ].

١٦ ـ • قرأ أبو جعفر: [نَبْطُشُ] بضَمِّ الطاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [نَبْطِشُ] بكَسْرِ الطاء.
وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟
إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ
إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ
﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ
مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ
ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ
﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

١٩ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ آتِيكُمْ**] بفَتْحِ يَاءِ المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسْكانِ يَاء المتكلم.

٢٠ و٢١ ـ ● قرأ يَعقُوب بإثبات ياء المتكلّم في: [**أَنْ تَرْجُمُوني**] وفي: [**فَاعْتَزِلُوني**] في الوصلِ والوقف. وكذلِكَ وَرْشٌ في الوقف فقط. وقرأهما باقي القرّاء العشرة بحَذْفِ ياء المتكلم وَصْلاً ووقْفاً.

٢١ ـ ● فتح ورْشٌ ياء المتكلّم في: [**لِيَ فَاعْتَزِلُونِ**] وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

٢٣ ـ ● قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو جعْفَر: [**فَاَسْر**] من فعل «سَرَىٰ» وقرأها باقي القرّاء العشرة [**فَأَسْرِ**] من فِعْلِ «أَسْرَىٰ».

٢٥ ـ ● قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشعبة، وحَمْزَة، والكِسَائي: [**وَعِيُونٍ**] بكَسْرِ العَين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَعُيُونٍ**] بضمِّ العين.
والقراءتان لغتان عَرَبيتَانِ.

٢٧ ـ ● قَرَأ أبو جَعْفَر: [**فَكِهِين**] أي: مُسْتَمْتِعِينَ بَطِرين.
وقرأها باقي القرّاء العشرةِ: [**فَاكِهِينَ**] أي: مسْتَمْتِعِين.

٢٩ ـ ● قرأ أَبُو عَمْرو: [**عَلَيْهِمِ السَّمَاءُ**] بكسر هاء الضمير والميم بَعْدَها.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ**] بِكَسْرِ هاء الضَّمِيرِ وضم الميم بَعْدَها.

مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾
وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ
﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ
تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ
مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ
﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾
خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ
مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

٤٥ ـ ● قرأ ابْنُ كثير، وحفص، ورُوَيس: **[يَغْلِي]**.
وقرأها بَاقي القراء العشرة: **[تَغْلِي]**.

٤٧ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وابن عامر، ويعقوب: **[فَاعْتُلُوهُ]** بضمّ التاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَاعْتِلُوهُ]** بكَسْرِ التاء. وهما لُغتَان.

٤٩ ـ ● قرأ الكسائي: **[ذُقْ أَنَّكَ]** أي: لِأَنَّكَ.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[ذُقْ إِنَّكَ]**.

ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ
ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ
مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا
يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾
فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم
مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

---

٥١ - ● قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر: [مُقَامٍ] من فعل: «أقام». وقرأها باقي القراء العشرةِ: [مَقَام] مِنْ فعل: «قَامَ».

٥٢ - ● قرأ ابنُ كثير، وابنُ ذكْوان، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي: [وَعِيونٍ] بِكَسْرِ العَيْن.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَعُيُونٍ] بضمّ العَيْن. وهما لغتان.

(٢)

ممّا وَرَدَ بشأن سُورة (الدُّخان)

(١) (الدُّخان) حَاجة الحواميم السَّبع، ويَنْطَبِقُ عَلَيْهَا ما وَرَدَ بشأْنِ الحوامِيم السّبع، السَّابقِ ذكْرُه في الرّقم (٢) مِنْ تَدَبُّر الحواميم الأربعِ السَّابقات.

(٢) وَرُوِي عنْ أبي هريرة عن النبي ﷺ:

«مَنْ قَرأ حَم الدُّخان في لَيْلَةِ جُمُعَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُوراً له».

وفي رِوَاية:

«مَنْ قرأ الدُّخَانَ في لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ، أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ».

وفي رواية:

«مَنْ قرأ سُورَة حَمٓ الدُّخان في لَيْلَةِ الجمعة أَوْ يَوْم الْجُمُعَةِ بَنَىٰ اللهُ لَهُ بِهَا بَيْتاً في الجنَة».

وهي رواياتٌ لَمْ تَصِلْ إلى دَرَجَةِ الحسَنِ.

(٣)

موضوع سورة (الدُّخان)

أُعِيد هُنَا بَيان مَا سَبَقَ أَنْ ظَهَرَ لي مِنْ أَنَّ (الحوامِيمَ السَّبْعَ) ذَاتُ خَطٍّ رَئيسٍ وَاحِدٍ، هو خَطُّ الحديث عن القرآن ومَوْقف الكافِرينَ مِنْهُ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ.

وهو يَدُور حَوْل مُعَالَجَةِ مُشْرِكي مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلها، تُجاهَ مَوَاقِفِهِمُ الكُفْرِيَّة أو بَعْضِها إِبَّانَ التَّنْزِيل، ولا سِيمَا مَوْقِفُهُمْ من القرآن والرسُول ﷺ.

وَتَكَادُ تَكُونُ «الحوامِيمُ السَّبْعُ» عائلةً واحدةً مُفَصَّلَةً إلى سَبْعِ سُور، ذواتِ ملامح وقَسَمَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّها شَرِيفاتُ أَسْرَةٍ واحدة.

(٤)

دروس سورة الدُّخان

ظهر لي أنَّ هَـٰذِهِ السورة يُمْكن تَقْسِيمُها إلى ستَّةِ دُروسٍ، هي الدروس التالية:

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٨).

وفي آيَات هـٰذَا الدَّرس بَيَانٌ عَنِ القرآنِ المجيد، مضافٌ إِلَىٰ مَا جاء

عَنْهُ في «الحواميم السَّبع» وفي غَيْرِها مِن سُوَرٍ سَبَقَ تَدَبُّرُهَا، وَقَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ نُزُولِها.

وفيها بيانُ أَنَّ إنْزَالَ الْقُرْآن هُو مِنْ آثار رَحْمَةِ اللهِ بعِباده، وَهٰذا البيان مَقْرُونٌ بِبَيَانِ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ وأسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، التي هِيَ مِنْ أُمَّهاتِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ، في دين اللهِ لعباده الموضوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء.

الدرس الثاني: الآيات من (٩ ـ ١٦).

وفي آيَات هٰذَا الدَّرْس تَعَرُّضٌ لِمَوْقِفِ مُشْركي مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل، وإصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الشَّكِّ في القرآنِ وَتَلَهّيهِمْ لَاعِبينَ بأمُور دُنْيَاهُمْ، وَتَحْذِيرُهُمْ مِنْ عُقُوبَاتٍ جُزْئِيَّةٍ تُلْجِئُهُمْ إلَىٰ الْوَعْدِ بالْإِيمان إذَا كَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، لَكِنَّهُمْ لَا يَفُونَ بِوَعْدِهِم بَلْ يَنْقُضُونَهُ وَيَتَمَادَوْنَ فِي غَيِّهِمْ، وأخيراً يُنْذِرُهُمُ اللهُ بأَنْ يَبْطِشَ بِهِمْ بَطْشَةً كُبرىٰ مُنْتَقِماً مِنْهُمْ.

الدَّرْس الثالث: الآيات من (١٧ ـ ٣٣).

وفي آيات هٰذَا الدَّرْس عَرْضُ جَانِب مِنْ قِصَّةِ قَوْم فِرْعَوْنٍ، وَعَدَم اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام، وعَرْضُ النِّهايَةِ التَّعيسَةِ الَّتِي عَاقَبَ اللهُ بِهَا فِرْعَوْنَ وَكُلَّ جُنُوده، إغْرَاقاً بِخارِقٍ عَظِيم مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعِقَابِيَّةِ الانتقامِيَّة.

وفيها بَيَانٌ مُوجزٌ جدًّا عَنْ بَنِي إسْرائيلَ، بَعْدَ أَنْ أنجاهُمُ الله من العذاب الْمُهِينِ الّذِي كانوا يُعَانُونَهُ فِي مِصْرَ مُسْتَعْبَدِين.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (٣٤ ـ ٤٢).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْس بيانٌ عَنْ مُشْرِكِي مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيل، بالنِّسْبَةِ إلى مَوْقِفِهِمْ مِنْ إنْكَارِ الآخِرَةِ وَالْبَعْثِ، مع مَعَالَجَتِهِمْ بالإقناعِ، وبالإنْذارِ بِيَوْمِ الدِّين.

الدَّرس الخامس: الآيَاتِ من (٤٣ ـ ٥٧).

وفيها بيانٌ عَنْ شَجرَةِ الزَّقُّوم في الجحيم، الَّتِي يَكُونُ مِنْها طَعَامُ الأثيم. وعَرْضُ مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامة:

المشْهَدُ الأوَّل: يَتَضَمَّنُ بَيَانَ صِنْفٍ من أَصْنَافِ عَذَابِ الكافِرِ المجْرِمِ في الجحيم.

المشْهَدُ الثَّانِي: يَتَضَمَّنُ بَيَانَ بَعْضِ نَعِيمِ المتَّقِينَ فِي جنَّاتِ النعيم، في مُقَابِلِ بَيَانِ بَعْضِ عَذَاب الْكافِرِين.

الدّرس السادس: الآيَتَان (٥٨) و(٥٩).

وفيهما خطابٌ من الله لرسولِهِ ﷺ بشَأْنِ القرآنِ وتَيْسيرِه بِلِسَانه العربيّ، وَإِلْمَاحٌ بِبِشَارَته بِأَنَّهُ مَنْصُورٌ بنَصْرِ اللهِ لَهُ، وبِأَنَّ المشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ مَخْذُولُونَ، وبأَنَّ الله سَيَنْتَقِمُ مِنْهُم.

* * *

(٥)

التَّدبّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (الدخان) الآيات من (١ ـ ٨)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑧﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أَبُو جعفر على «حا» وعلى «ميم» سَكْتَةً لطيفَةً مِن غَيْر تَنَفُّس، دون سَائِر القرّاء.

(٧) • قرأ عَاصم، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [رَبِّ] بالْجَرِّ إتباعاً لـ [رَبِّكَ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رَبُّ] بالرَّفع، إتباعاً لـ [السَّمِيعُ الْعَلِيمُ]. والقراءَتَان وَجْهَانِ نَحْوِيَّان مُؤَدَّاهُمَا وَاحد.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ القرآن المجيد، مُضَاف إلى ما جاء عَنْهُ في «الْحَوَامِيم السَّبْع» وفي غَيْرِهَا مِنْ سُوَرٍ سَبَقَ تَدَبُّرُها.

وفيها بَيَانُ أَنَّ إِنْزَالَ الْقُرآنِ هُوَ مِنْ آثار رحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، وهـٰذَا البيان مَقْرُونٌ بِبيانِ بَعْضِ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ وَأَسْمَائِهِ الحسنى، الّتِي هي من أمَّهَاتِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة، في دين اللهِ لعبادِهِ الموضوعين في الحياة الدّنيا مَوْضع الابْتِلَاء.

التدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالى:

• ﴿حمٓ ①﴾ حرفان من الحروف المقطَّعةِ، الوارِدَةِ في أَوَائِلِ بعض سور القرآن المجيد، وَقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِها لَدَى تَدَبُّر أوّل سُورَة (الْقَلَم/ ٤ نزول).

■ قول الله تعالى:

• ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾:

أعيد هُنَا مَا سَبَقَ أن كتَبْتُهُ في تَدبُّر نظِيرِ هَـٰذِهِ العبارة.

يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالْقُرْآنِ المجيد، فالواو هي واو القسم. وذَكَرَهُ اللهُ هُنَا بعنوان «الكِتَاب» لِتَأْكِيدِ تَكْلِيفِ المؤمِنِينَ المسلمين بأَنْ يُدَوِّنُوهُ ويَجْعَلُوهُ كِتَاباً مَصُوناً، مَحْفُوظاً مِنَ التَّغْيير والتَّبْدِيلِ والزِّيَادَةِ والنَّقْصِ والتَّحْرِيفِ والضَّيَاعِ، وقَدْ تَمَّ هـٰذَا بِأَمْرٍ من الرسُولِ ﷺ لِكُتَّابِ الوحْي الَّذِينَ كَانَ يَخْتَارُهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ لِكِتَابَةِ مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ القرآن، ثُمَّ بِمَا قَامَ بِهِ خُلَفَاؤهُ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ، عَلَىٰ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي التَّاريخ.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ مِنْ فعل: «بَانَ» اللَّازم، بمَعْنَىٰ: ظَهَرَ واتَّضح. ومِنْ فعل: «أَبَان» المتَعَدِّي، بِمَعْنَىٰ أَظْهَرَ وأَوْضح.

فالقرآن ظاهِرٌ واضِحٌ لَا غُمُوضَ فِي كَلِمَاتِهِ وَتَرَاكِيبِ جُمَلِهِ، ومُظْهِرٌ مُوضِحٌ لِلْمَعَانِي الَّتِي أُنْزِلَ لِبَيَانِهَا للنَّاس.

والْقَسَمُ بِالْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ آيَةٍ كُبْرَىٰ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْمُعْجِزَةِ، وإِعْجَازُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ من عِنْد اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم.

■ قول الله تعالى:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾:

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكَلِّم العظيم، للإشْعار بِعَظَمَةِ هـٰذَا الكِتَابِ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ وَبَيَانٍ لِصِرَاطِ اللهِ المسْتقيم، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ من آيَةٍ إِعْجَازِيَّة كُبْرَىٰ.

أي: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ الْمُبِينَ وَهُوَ الْقُرآنُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ هِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ، أَخذاً مِمَّا سَبَقَ بَيَانُهُ في سورة (القدر/ ٢٥ نزول) بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ وَهِـيَ إِحْدَىٰ لَـيَالِـي الْـعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَان، بِدَلِيل مَا جاء في القرآنِ والسُّنَّة، فَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (البقرة/ ٨٧ نزول):

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ . . .﴾.

وجاء فِي السُّنَّةِ بيان أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ هي إِحْدَىٰ لَيَالِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِن شهر رَمَضَان، وخصَّ الرَّسُول الآحَادَ مِنْهَا.

يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالْقُرْآنِ الكِتَابِ الْمُبِينِ، على أَنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَة كَثِيرَةِ الْبَرَكَةِ، فَلَا تَطابُقَ بَيْنَ الْمُقْسَم بِهِ وَالْمُقْسَم عَلَيْهِ، إِنَّ الْقُرْآنَ مُدْرَكُ الْآيَات، وَإِنْزَالُهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ هِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ أَمْرٌ خَفِيٌّ غَيْرُ مُدْرَك، فَأَقْسَمَ اللهُ بالظَّاهِرِ عَلَىٰ تَحقُّق أَمْرٍ خَفِيّ غَيْرِ ظاهر.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اللَّيْلَةَ الَّتِي أَنْزَلَ فِيها الْقُرْآنَ بأَنَّهَا لَيْلَةٌ مُبارَكَة، أي: ذَاتُ بَرَكة، **والْبَرَكَة**: هي الكَثْرَةُ مِنْ كلِّ خَيْرٍ.

وَمِنْ بَرَكَةِ هَـٰذِهِ اللَّيْلَةِ ذَاتِ الْخُصُوصِيَّةِ النَّفِيسَةِ عِنْدَ اللهِ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر، أي: هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ فِي فَضْلِهَا الزَّمَانِيّ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَهَا، وبِمَا يُجْرِي اللهُ فِيها مِنْ خَيْرٍ عَظِيم، وَبِمَا يُفيضُ اللهُ فِيها عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ رَحمَاتٍ، وَبِمَا فِيها مِنْ فَضْلِ الدُّعاء والعبادة، وبما يُضاعِفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها لِعِبادِه مِنْ أُجُورٍ على الأعْمَالِ الصالِحَةِ التي يُؤَدُّونها فيها، وَبِمَا يَقْضِي اللهُ فِيها من إجابَةِ الدُّعاء.

مَا الْمُرادُ بإنْزَال الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَة؟:

ذكر المفسِّرونَ أَنَّ المرادَ بِإنْزَالِ القرآن فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ هِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ، إِنْزَالُ أَوَّلِ قُرْآنٍ أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسول اللهِ ﷺ، قَدْ كَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

من شَهْرِ رَمَضَان، باعْتِبَارِ أَنَّ هـٰذَا الإنْزَالَ مِنْهُ يَسْتَتْبِعُ إِنْزَالَ سَائِرِهِ في الأيَّامِ واللَّيَالي والشُّهورِ، بِحَسَبِ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ إِنْزَالِ نُجُومه خِلَال (٢٣) سنة، فَكَانَ بَدْءُ إِنْزَالِهِ فَاتِحَةَ أَمْرٍ عَظِيم، وقَدْرٍ جَلِيلٍ للنَّاسِ.

ورُوِيَ عن ابْنِ عباسٍ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ كما ذَكَرَ ابْنُ كَثِير، أَنَّهُ سَأَلَهُ «عَطِيَّةُ بْنُ الأَسْوَد» فقال: وقَعَ في قَلْبِي الشَّكُّ، قَوْلُ الله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وَقَولُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وقَولُهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ وَقَدْ أُنزِلَ في شَوَّالٍ، وفي ذي الْقَعْدَة، وفي ذِي الْحِجَّةِ، وَفي الْمُحَرَّم، وصَفَر، وشَهْرِ رَبيع.

فقالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّهُ أُنْزِلَ فِي رَمَضَانَ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وفي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ، جُمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَىٰ مَوَاقِعِ النُّجُومِ تَرْتِيلاً في الشُّهُورِ وَالأَيَّام.

ورُوِي عن ابنِ عبَّاسٍ أيضاً بإسْنَادٍ صَحَّحَهُ الحاكم، أَنَّهُ قَالَ: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ، حتَّىٰ وُضِعَ في بَيْتِ الْعِزَّةِ في السَّمَاءِ الدُّنْيا، ثُمَّ جَعَلَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ عَلَىٰ مُحَمّدٍ بِجَوابِ كَلَامِ الْعِبَادِ وأعمالهم.

- ﴿... إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾: **الإنْذَارُ**: الإخْبَارُ بِمَكْرُوهٍ قَادِمٍ. أي: إِنَّا مِنْ شَأْنِنَا أَنْ نُنْذِرَ عِبادَنا عَاقِبَةَ عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِلْإيمانِ والإسْلَامِ بِكِتَابِنا المنزَّلِ، وبما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَوَامِرَ وَنَواهِيَ وإرْشَادٍ إلَىٰ سُلُوكِ صِرَاطِنَا المستقيم.

جاء في هـٰذِهِ العبارة الاكْتِفَاءُ بآخِرِ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ دَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، وهِيَ مَرْحَلَةُ الإنْذَارِ بالْعِقَاب، فِي مُقَابِلِ إطْلَاقِ إِنْزَالِ الكِتَابِ عَلَىٰ أَوَّلِ مَا أُنْزِلَ مِنْهُ، إِذْ سَيَستتبعُ إِنْزَالَ سَائِرِهِ فِي نُجُومِ التَّنْزِيل مع مَسِيرَةِ الرَّسُول الدعوية.

أَمَّا مَرَاحِلُ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، فَتَبْدأ بإنْزَالِ البيانِ الربَّاني، ويَتْبَعُهُ

التَّبْلِيغ، فالْبَيَانُ والشَّرْحُ، والتَّرْغِيبُ والتَّذْكِيرُ، والإقْنَاعُ بالْأَدِلَّةِ والحجج وَالْبَراهِينِ، والْجِدَال بالَّتِي هِي أَحْسَنُ، والمجاهَدَة بالْقُرآن، وآخِرُ مَرَاحِلِهَا الْإِنْذَارُ بِعِقَابِ اللهِ المؤجَّل إلى يَوْمِ الدِّين، مَعَ احْتِمَالِ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ إنِ اقْتَضَتِ حِكْمَةُ اللهِ إنْزَالَ هـٰذَا الْعِقَاب، وَهـٰذَان الْإجْرَاءَانِ مِنَ الإيجازِ في الْقُرآنِ المجيد، وَلَيْسَ المرادُ بِكَوْنِ الإنْذَارِ آخِرَ مَرَاحِلِ دَعْوَة الحَقّ الرَّبَّانِيَّةَ أَنَّهُ مُتَأَخِّرٌ زَمنِيًّا، بَلْ تَرتِيبُهُ الْفِكْرِيُّ يَأْتِي مُتَأخِّراً، وَقَدْ تَقْتَضِي الْمَصْلَحَةُ التَّرْهِيبَ بالإنْذَارِ مَعَ التَّرْغِيبِ بالتَّبْشِيرِ، وعَقِبَ التَّبْلِيغِ الْعَامّ بِوُجُوب الاستجابَةِ لِدَعْوَةِ الحقّ.

- ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ . . .﴾.

﴿يُفْرَقُ﴾: أي: يُفْصَل ويُبَيَّن، يُقَالُ لُغَةً: «فَرَق فُلانٌ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، يَفْرُق، فَرْقاً، وفُرْقَاناً» أي: فَصَل ومَيَّزَ أَحَدَهُمَا مِنَ الآخر، ويُقَالُ: «فَرَق شيئاً عَنْ شيءٍ» أي: فَصَلَهُ. وَيُقَال: «فَرَقَ بَيْنَ الخصمَيْن» أيْ: حَكَمَ وَفَصَلَ بَيْنَهُمَا. ويُقَال: «فَرَقَ بَيْنَ المتَشَابِهَيْنِ» أي: بَيَّنَ أَوْجُهَ الْخِلاف بَيْنَهما. ويُقَال: «فَرَقَ فُلانُ لِفُلانٍ عَنِ الْأَمْرِ» أي: كَشَفَهُ لَهُ وَبَيَّنَهُ. ويُقَالُ: «فَرَقَ الشَّيْءَ، وفَرَّقَهُ» أي: قَسَمَهُ، وَقَسَّمَه.

فالمعنى: في هـٰذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي أُنزلَ فِيهَا عَلَىٰ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوَّلُ مَا أنزلَ مِنْ قُرْآن، يَكُونُ في نَظِيرِها مِنْ كُلِّ سَنَةٍ فَرْقُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيم، وهـٰذَا الفرقُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فَصْلاً مِنَ اللَّوْحِ المحفوظ، أي: فَصْلَ اسْتِنْسَاخٍ مِنْهُ، لِتَبْلِيغ الملائِكَةِ المكَلَّفِينَ القِيامَ بالْأَعْمَالِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهِمُ القِيامُ بِهَا طَوَالَ الْعَام، حَتَّىٰ مِثْلِ هـٰذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ السَّنَةِ القَادِمَةِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا يَقْضِي الله بِهِ ويُمْضِيهِ، مِمَّا تَمَّ بِهِ تَقْدِيرُهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ وَأَحْدَاثِ كَوْنِهِ، مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مِمَّا لِلْمَلَائِكَةِ فِيهِ وَظَائِفُ يجب عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بها، أَوْ أَنْ يَكُونُوا عَلَىٰ عِلْمٍ بها، والملائكةُ

يُدَوِّنُونَ ذَلِكَ فِي صُحُفِهِمْ، ويَنْتَظِرُونَ أَوَامِرَ التَّنْفِيذِ، ويَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا وَيُثْبِتُ، وعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَاب الَّذِي لَا يَحْدُثُ فِيهِ تَغْيِيرٌ بِمَحْوٍ وَلَا إِثْبَاتٍ.

- ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾: أيْ: كُلُّ أَمْرٍ مُحْكَم، مُخْتَارٍ مِنْ بَيْنِ الاحْتِمَالَاتِ الْمُمْكِنَةِ اخْتِيَاراً حَكِيماً. وَتَكُونُ الْحِكْمَةُ بِاخْتِيَارِ أَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ، وأَتْقَنِهَا وَأَحْسَنِهَا مِنْ كُلِّ الْبَدَائِلِ لِمَا تُخْتَارُ له.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ وَنُؤْمِنُ، أَنَّ كُلَّ اخْتِيَارَاتِ اللهِ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ، أُمُورٌ حَكِيمة، فَوصْفُ لَفْظِ «أَمْرٍ» وَهُوَ مِنْ قَضَاء اللهِ وَقَدَرِهِ بأَنَّهُ حَكِيم وَصْفٌ كاشِفٌ، ولَيْسَ وَصْفاً تَقْيِيدِيًّا.

ووَصْفُ الْأَمْرِ بِأَنَّهُ حَكِيمٌ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَمْرٌ مِنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فِي تَدْبِيرِهِ لِأُمُورِ عِبَادِهِ وَسَائِرِ كَوْنِهِ.

- ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾:

أَيْ: حَالَةَ كَوْنِ الأَمْرِ الْحَكِيمِ الَّذِي تَمَّ تَحْدِيدُهُ بالتَّقْدِير وَالْقَضَاءِ أمْراً صَادِراً مِنْ عِنْدِنَا.

ولَمَّا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْحَكِيمَةِ أُمُورٌ تَتَعَلَّقُ بابْتِلاءِ الْعِبَادِ الموضُوعينَ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضعَ الامْتِحان، وَكَانُوا هُمُ الْمَقْصُودِينَ مِنْ إِنْزَالِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ القرآنِ، وسَائِرِ الكُتُبِ المنزَّلَةِ قَبْلَهُ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ لِتَبْلِيغِ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، وَتَبْلِيغ آيَاتِ كِتَابِهِ أَنْ يُرْسِلَ اللهُ رُسُلاً يَحْمِلُونَ رِسَالَتَهُ للنَّاسِ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿... إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: أي: إِنَّا مِنْ شَأْنِنَا فِي كُلِّ الْأُمَم السَّابِقَةِ وَفِي هَـٰذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ لِلْأُمَم أَنْ نُرْسِلَ مَنْ يَحْمِلُ رِسَالَتَنَا وَيُبَلِّغُهَا عَنَّا، وأَنْ نُؤَيِّدَهُ بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ والمعجزاتِ الباهرات، لِنَشْهَدَ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُنَا حَقًّا وَصِدْقاً.

- ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: كُنَّا مُرْسِلِينَ رُسُلاً إِرْسَالاً رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ

لِهِدَايَةِ النَّاسِ إِلَىٰ الدِّين الْحَقِّ الْمُوصِلِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّة الْخَالِدَة، والْخِطَابُ لِكُلِّ صَالِحٍ للخطاب بأسْلُوب الخطاب الإفرادي.

وبما أَنَّ الموضُوعينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، سوف يُحَاسَبُونَ على أَقْوالِهِمْ وَأعْمَالِهِمْ فيها يَوْمَ الدِّين، وَيَقْضِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ، بالثَّوابِ أو بِالْعِقَابِ، كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ ذِكْرُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ مُتَّصِلَيْنِ بأَقْوَالِ الْعِبَادِ وأَعْمَالِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾:

السَّمِيع: اسْمٌ من أسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ اللهَ سَمِيعٌ لِكُلِّ مَا يُمْكِنُ سَمْعُهُ، فَهُوَ سَمِيعُ لِكُلِّ قَوْلٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعَ، حَتَّىٰ حَدِيثِ الإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ في داخِلِ نَفْسِهِ.

الْعَلِيم: اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلماً، ومِن عِلْمِهِ عِلْمُهُ بأعْمَالِ عِبَادِهِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ الْجَسَدِيَّةِ، والنَّفْسِيَّة.

■ قول الله تعالى:

- ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾:

وفي القراءة الأخْرَىٰ: [رَبُّ] بِالرَّفع، وسَبَقَ توجيهُهُما؛ يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهَـٰذَا الْبَيَانِ الَّذِين لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورة، فَيُعْلِمُهُمْ بأَنَّ تَنزِيلَ الكِتَابِ الْمُبِينِ، وَالإِنْذارَ بالْعَذَابِ الأَلِيم لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، وَإِرْسَالَ الرَّسُولِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين مِن الرَّبِّ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ.

هـٰذَا الرَّبُّ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا وَكُلِّ مَا فِيهما، فَهُوَ خَالِقُ كُلِّ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ، والمتَصَرِّفُ بِكُلِّ أَصْغَرِ جُزْءٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، دَواماً، فَلَا رَبَّ غَيْرُهُ فِي الْوُجُودِ فاعْبُدُوه وَحْدَهُ، ولَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ غَيْرَهُ مَهْمَا كَانَ شَأْنُ هـٰذَا الشَّرِيك، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ تُوقِنُوا بِهَـٰذِهِ الحَقِيقَةِ، وهي أَنَّ مُنْزِل الكِتَاب، والمنْذِرَ، ومُرْسِلَ الرَّسُولَ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا.

مُوقِن اسْم فاعل من فعل «أَيْقَنَ الشَّيْءَ وأَيْقَنَ بِهِ» أي: عَلِمَهُ عِلْماً لَا شَكَّ فِيهِ، واسم الفاعل بقُوَّة الفِعْل المضارع.

- ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: أي: إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ تُوقِنُوا بِهَـٰذِهِ الحقيقَة الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا آياتُ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وَبَرَاهِينُ الْعَقْل، فاعْبُدُوهُ وَحْدَه.

- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لَا إِلَهَ يَسْتَحِقُّ عَقْلاً أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَالْإِلَهِيَّةُ حَقُّ الرَّبِّ وَحْدَهُ، وعِبَادَةُ غَيْرِهِ أَنْدَاداً أَوْ أَضْداداً أَوْ شُرَكَاءَ، عُدْوانٌ عَلَىٰ حَقِّهِ، وَعُقُوبَتُهُ الْخُلُودُ فِي عَذَابِ جهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، لِأَنَّهُ جُحُودٌ لِحَقِّ الرَّبِّ كُلِّهِ أَوْ بَعْضِهِ.

- ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: لَمَّا كَانَ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ عَلَىٰ اخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ فِي رِحْلَةِ الْحيَاةِ الدُّنْيَا، رِحْلَةِ الابْتِلَاء، مُؤَجَّلاً إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ بَعْدَ فَاصِلِ المَوْتِ، الَّذِي يَعْقُبُهُ الْبَعْثُ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّذْكِيرُ هُنَا بِأَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُحْيِي ويُمِيتُ. فَهُوَ الَّذِي أَحْيَا النَّاسَ وَسَائِرَ الْأَحْيَاءِ، وَهُوَ الَّذِي يُمِيتُهُمْ، وهو الَّذِي يُحْيِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيُلَاقُوا حِسَابَهُمْ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، ثُمَّ يَكُونُ جزاؤهُمْ بالعَدْلِ في دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، أَوْ بالْفَضْلِ فِي دَارِ النَّعِيمِ الْجَنَّةِ.

- ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑧﴾: أي: رَبُّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا، هُوَ رَبُّكُم وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، الَّذِينَ سَلَفُوا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ مِن آدَمَ جَدِّكُمُ الْأَوَّل، وأَنْتُمْ وآبَاؤُكُمْ والمؤهَّلون مِنْ غَيْرِكُمْ مَوْضُوعُونَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتحان، والمطلوبُ مِنْكُمْ جَمِيعاً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا رَبَّكُمْ، بالإيمانِ بِالْحَقِّ ـ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وبإِعْلَانِ الإِسْلَامِ لَهُ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَبالتَّعْبِيرِ عَنْ هَـٰذَا الإسْلام بالطَّاعَةِ والانْقِيَادِ.

كَلِمَةُ «الرَّبّ» وعُنْوان «الرُّبُوبِيَّة» يَدُلَّانِ عَلَىٰ كُلِّ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ السَّامِيَاتِ ذَواتِ الْعَلَاقَةِ بالمخْلُوقَات من خَلْق ورِزْقٍ وَتَصارِيف، وإحياء وإماتَةٍ، ونَفْعٍ وضَرٍّ، وامْتحانٍ وتكليفٍ وجزاء، إلى معظم أسماءالله الْحُسْنَىٰ.

وبهذا تَمَّ تَدبُّر الدَّرْس الأول من دُرُوسِ سورة (الدُّخان).

والحَمْدُ للهِ على معونته، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ وفتحه.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (٩ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجل:

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

القراءات:

(١٦) • قَرَأ أبُو جَعْفَرُ: [نَبْطُشُ] بِضَمِّ الطَّاءِ.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرّاء العشرة: [نَبْطِشُ] بِكَسْرِ الطَّاء. وهما لُغتَان عَرَبِيّتان.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ تَعَرُّضٌ لِمَوْقِفِ مُشْرِكي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الشَّكِّ في القرآن، وتَلَهِّيهِمْ لاَعِبِينَ بأمُورِ دُنْيَاهُمْ، وَفِيهَا تَحْذِيرُهُمْ مِن عُقُوبَاتٍ جُزْئِيَّةٍ تَذْكِيرِيَّةٍ، تُلْجِئُهُمْ إلى الْوَعْدِ بالإيمانِ إذا كَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، لَكِنَّهُمْ لَا يَفُونَ بِوَعْدِهِمْ بَلْ يَنْقُضونَهُ وَيَتَمَادُونَ فِي غَيِّهِمْ، وأخيراً يُنْذِرُهم اللهُ عَزَّ وَجلَّ بأَنْ يَبْطِشَ بِهِمْ بَطْشَةً كُبْرَىٰ مُنْتَقِماً مِنْهُمْ.

التدبّر التحليلي:

- قول الله تعالى:

• ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾: أي: لَمْ تُؤَثِّرْ في المعنيّين بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ، وَهُمْ مُشْرِكُو مَكَّة وَلَا سِيما أئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ والمتْرَفُونَ فِيهِمْ، وَسَائِلُ الْعِلَاجِ السَّابِقَةُ، الْإِقْنَاعِيَّةُ، والترغِيبيَّةُ، والترهيبِيَّةُ، والجداليَّة، بَلْ هُمْ مُنْغَمِسُونَ مِنْ كُلّ جَوانِبِهم فِي شَكٍّ مِنْ كَوْنِ القرآنِ كَلَامَ اللهِ، ومِنْ كَوْنِ محمّد بن عبد اللهِ ﷺ نَبِيًّا للهِ وَرَسُولاً حَقّاً وَصِدْقاً، وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِدَلَائِلِ آياتِ اللهِ الإعْجَازِيَّةِ، وَآيَاتِهِ الْبَيَانِيَّةِ المنزَّلَةِ، وينْطَلِقُونَ فِي حَيَواتِهِمْ لَاعِبِينَ، لِتَحْقِيقِ مَتَاعَاتِهِمْ مِنْ دُنْيَاهم.

اللَّعِبُ: ضِدُّ الْجِدّ، يُقَالُ لغة: «لَعِب، يَلْعَبُ، لَعِباً، ولَعْباً» أي: شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا لَا فَائِدَةَ لَهُ فِيهِ. ويقالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً لَا يُجْدِي عَلَيْهِ

نَفْعاً: إنَّما أنْتَ لاعِبٌ، وكذلِكَ مَنْ يَشْتَغِلُ بنافع قليلٍ عَنْ نَافِعٍ جَلِيل.

فَكَيْفَ إذَا كَانَ مَا يُنْفِقُ وَقْتَهُ وطَاقَاتِهِ فِيهِ، سَوفَ يَجْنِي عَلَيْهِ عَذاباً أَلِيماً يَكُونُ خَالِداً فِيهِ أبداً!!!.

- ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾.

- ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾: أي: فَانْتَظِرْ انْتِظاراً مُقْتَرِناً بِمَلاحَظَةٍ وَتَوَقُّعِ أَمْرٍ سَيَحْدُثُ قَرِيباً. الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ رَاغِبٍ فِي أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِمُشْرِكِي مَكَّةَ مَا يَكْرَهُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

- ﴿... يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾:

أَطْلِقَ لفظ «يَوْم» وأُرِيدَ بِهِ الزَّمَنُ الَّذِي يَحْدُثُ فِيهِ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ رَبُّكَ بكُفَّارِ قَوْمِكَ فِي مَكَّةَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ عِنادِهِمْ الْبَأْسَاءَ عِقَاباً جُزْئِيّاً، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيَرْجِعُوا عَنْ غَيِّهِم الْعِنَادِي.

إِنَّهُمْ حِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ هَـٰذَا الْعِقَابُ الْجُزْئِيُّ التَّرْبَوِيُّ الَّذِي يَمَسُّهُمْ فِيهِ الْقَحْطُ والْجُوعُ، والحرْمَانُ مِنَ الْغَيْثِ، يَنْظُرُونَ إِلَىٰ السَّمَاءِ أَنْ تُنْزِلَ لَهُمْ غَيْثاً، فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا إِلَّا غُبَاراً وَقَتماً ودُخَاناً، مِنْ شِدَّةِ الْجَفَافِ، وَتَتَابُعِ عَلَيْهِمُ الشُّهُورُ والسِّنُونَ وَهُمْ يُعَانُونَ مِنْ هـٰذَا الْحِرْمَانِ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِمْ هـٰذَا الْبَلَاءُ وَأَرْضُهُمْ شَدِيدَة الْحَرَارَة، فَيُحِسُّونَ أَنَّ أَجْوَاءَ بَلَدِهِمْ قَدِ انْتَشَرَ فِيهَا الدُّخَانُ بَدَلَ أَنْ تَكُونَ رَطْبَةً بِبُخَارِ الماء، إِحْسَاسٌ بأعْيُنِهِمْ مَصْحُوبٌ بِذَرَّاتِ الجفاف الّتي انْتَشَرَتْ في أَجْوَائِهِم.

وَمَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ قَحْطٍ وَجَفَافٍ وَجُوعٍ، هُوَ في الحقِيقَةِ عَذابٌ أَلِيمٌ، وَيَجْعَلُهُمْ يَقُولُونَ: هـٰذَا عَذَابٌ أَلِيم.

- ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ . . .﴾: أي: يَغْشَىٰ كُفَّارَ مَكَّة، فَيَعُمُّهُمْ وَيُجَلِّلُهُمْ كالسِّتْرِ والغِطَاءِ الكَبِيرِ الَّذِي يَعُمُّ مَنْ أُلْقِيَ عَلَيْهِ.

رَوَىٰ البخاريُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: إنَّ قُرَيشاً لمَّا غَلَبُوا عَلَىٰ النبيِّ ﷺ واسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ قالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِم بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُف».

فأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ أَكَلُوا فِيها الْعِظَامَ والْمَيْتَةَ مِنَ الْجَهْدِ، حَتَّىٰ جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَرَىٰ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الجُوعِ.

فأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ فَقِيلَ لَهُ: اسْتَسْقِ لِمُضَرٍ (قُرَيشٌ مُنْحدرُونَ مِنْ مُضَر) أَنْ يَكْشِفَ اللهُ عَنهُمُ العذاب، فَدَعَا فَكُشِفَ عَنْهُمْ، وَقَالَ اللهُ لَهُ: «إِنْ كَشَفْنَا عَنهُمُ الْعَذَابَ عَادُوا» فَعَادُوا فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ.

- ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾: أي: فَسَيَقُولُونَ مِنْ شِدَّةِ مُعَاناتِهِمْ مِنَ الجوعِ هٰذَا الْقَوْلَ، وفيهِ دُعَاءٌ وَوَعْدٌ بأَنْ يُؤْمِنُوا إِذَا كَشَفَ اللهُ عَنْهُمْ مَا سَيُنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ الجوعِ.

مُؤْمِنُونَ: اسم فاعل جَمْع «مُؤْمِن» وقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ بِقُوَّةِ الْفِعْلِ المضارعِ، قَدْ يَدُلُّ عَلَىٰ الْحَالِ وَقَدْ يَدُلُّ على الاستقبال، علَىٰ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، أَخْذاً مِنَ النُّصُوصِ الكَثِيرَةِ الَّتِي تَابَعْتُهَا في آيَاتِ القرآنِ المجيد.

لَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أَبَانَ أَنَّهُمْ سَيَنْقُضُونَ وعْدَهم، ويَعُودُونَ إِلَىٰ شِرْكِهِمْ إِذَا كَشَفَ اللهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الْجُوعِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾:

﴿أَنَّىٰ﴾: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ، وهِيَ هُنَا بِمَعْنَىٰ: مِنْ أَيْنَ؟.

- ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: هُنَا اسْمٌ للتَّذَكُّر، والمرادُ أَثَرُ التَّذَكُّرِ المطلوبِ بالإِيمانِ والإِسْلام.

- ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡا۟﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ سِنِينَ مُتَعَدِّدَةٍ، عالَجَهُمُ الرَّسُولُ فِيها بِكُلِّ وَسَائِلِ الإِقْنَاعِ، والْجِدَالِ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ، والْمُلَايَنَةِ والْمُدَارَاة، لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا التَّوَلِّي، وهُو إِدَارَةُ ظُهُورِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، والابْتِعَادُ عَنْهَا، بَعْدَ أَنْ أَعْرَضُوا وَنَأَوْا، فَمَا هُمْ فِيهِ الْآنَ هُوَ أَقْصَىٰ حَالَاتِ رَفْضِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ.

- ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾: أي: قَالُوا غُلُوّاً في كُفْرِهِمْ: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ بَشَرٌ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ، وهُوَ مَجْنُونٌ جُنُونَ عَظَمَةٍ وَرَغْبَةٍ في الْعُلُوِّ فِي الأَرْضِ، إِذْ يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ.

فالْمَعْنَىٰ: مِنْ أَيْنَ تَحْصُلُ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ الَّتِي تُؤَثِّرُ في قُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ، فَتَجْعَلُهُمْ يفُونَ بِوَعْدِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا، إِذَا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ، وَهُمْ قَدْ أَصَرُّوا عَلَىٰ الابْتِعَادِ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثْنَا بِهِ رَسُولَنَا، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ عَنْ طَرِيقِ رَسُولٍ ظاهِرٍ فِي صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ، ومُظْهِرٍ لِلْحَقِّ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ لِتَبْلِيغِهِ بالْبَيَانِ الْكَافِي، وبالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِين ومُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الإِقْنَاعِ، عَبْرَ عِدَّةِ سِنِينَ نَزَلَتْ فِيها (٦٣) سُورَةً بَلَّغَهُمْ إِيَّاها، وَقَامَ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِهِ تُجَاهَهَا، وَبَعْدَ هٰذِهِ السِّنِين الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا كَلِمَةُ [ثُمَّ] وَصَلُوا إِلَىٰ حَالَةِ الْإِدْبَارِ والابْتِعَادِ مُعَانِدِينَ، وَقَالُوا مُفْتَرِينَ عَلَىٰ رَسُولنَا الَّذِي عَلِمُوا أَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ أَمِين، وأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ: ﴿مُعَلَّمٞ﴾ يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ بَشَرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكُتُبِ أَهْلِ الكِتَابِ ﴿مَّجۡنُونٌ﴾ جُنُونَ عَظَمَةٍ واسْتِعْلَاءٍ، يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

■ قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ⑮ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ⑯﴾:

أي: قال اللهُ لَهُمْ كَلِمَةَ قَضاءٍ أَعْلَمَهُمْ بِهَا بِهـٰذَا الْبَيَانِ الْقُرْآنِي، إِنَّا سَنَكْشِفُ عَنْكُمُ الْعَذَابَ الَّذِي سَنُنْزِلُهُ بِكُمْ اسْتِجَابَةً لِدُعَائِكُمْ وَوَعْدِكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا، وَهـٰذَا الكَشْفُ سَيَكُونُ زَمَنُهُ قَلِيلاً، لِأَنَّكُمْ سَتَعُودُونَ إِلَىٰ شِرْكِكُمْ وَكُفْرِكُمْ فَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَتَجْحَدُونَهُ، وَلَكِنْ نُنْذِرُكُمْ بِأَنَّنَا سَنَنْتَقِمُ مِنْكُمْ، بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيّ لَيْسَ طَوِيلَ الْأَمَدِ، وَتَجِدُونَ هـٰذَا الانْتِقَامَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الكُبْرَىٰ.

وَقَدْ تَحَقَّقَ هـٰذَا الانْتِقَامُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ.

الْبَطْش: التَّنَاوُلُ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَةِ، وَالْأَخْذُ الْقَوِيُّ الشَّدِيد، وَالسَّطْوُ فِي سُرْعَةٍ.

وَوُصِفَتِ الْبَطْشَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بأَنَّها كُبْرَىٰ، مُرَاعَاةً لِحَالَةِ الْمَبْطُوشِ بِهِمْ، فَهِيَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ كُبْرَىٰ، أَمَّا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ مِن الصُّغْرَيَات جِدّاً.

قَلِيلاً: صِفَة لِمَفْعُول مُطْلَق مَحْذُوف، أي: كَشْفاً قَلِيلاً زَمَنُهُ.

إِنَّكُمْ عَائِدُون: أي: إِنَّكُمْ سَتَعُودُونَ إِلىٰ كُفرِكُمْ العنادِي الْجُحُودِيّ، بَعْدَ أَنْ نَكْشِفَ عَنْكُمُ الْعَذَابَ الَّذِي سَنُنْزِلُهُ بِكُمْ.

إِنَّا مُنْتَقِمُونَ: أي: إِنَّا سَنَنْتَقِمُ بَعْدَ أَنْ تَعُودُوا إِلى كُفْرِكم.

الانْتِقَام: المُعَاقَبَةُ عَلَىٰ الذَّنْب.

والمعنى: إِنَّا سَنَنْتَقِمُ مِنْكُمْ وَنُعَاقِبُكُمْ عَلَى كُفْرِكم وَنَقْضِكُمْ وَعْدَكُمْ الَّذي سَتَقُولُونَ فِيهِ: إِنَّا مُؤْمِنُونَ إِذَا كَشَفْتَ عَنَّا الْعَذَابَ يَا رَبَّنَا، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الكُبْرَىٰ.

قُدِّمَ الظَّرْفُ: «يَوْمَ» عَلَىٰ عَامِلِهِ «مُنْتَقِمُونَ» لِلْبَدْءِ بِبَيانِ مَا سَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ بَطْشَةٍ كُبْرَىٰ مُخِيفَةٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وَهٰذَا مِنْ دَواعي تَقْدِيمِ المَعْمُولِ عَلَىٰ عامِلِه، وَيُتَسامَحُ في الظَّرْف مَا لَا يُتَسَامَحُ فِي غَيْرِهِ، كَتَقْدِيمِهِ عَلَىٰ إنَّ واسْمِها وخَبَرِها.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبّر التحليليّ للدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الدُّخان)
الآيات من (١٧ ـ ٣٣)

قال اللهُ تَعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ
إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾
فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ
ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا
بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ
ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ
عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

القراءات:

(١٩) • قرأ نافعٌ، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ آتِيكُمْ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلم.

(٢٠ و٢١) • قرأ يَعْقُوب بإثْبَاتِ يَاءِ المتَكَلِّم فِي: **[أَنْ تَرْجُموني]** وفي: **[فَاعْتَزِلُونِي]** في الوصْلِ والوقف، وكذلِكَ وَرْش فِي الوقف فقط.

وَقَرَأَهُمَا باقي القرّاء العشرة بِحَذْفِ يَاء المتكلّم وصْلاً ووقْفاً.

(٢١) • فتح ورْش يَاءَ المتكلّم في: **[لِيَ فَاعْتَزِلُون]**. وأسْكَنهَا بَاقي الْقُرَّاءِ العشَرَة.

(٢٣) • قرأ نافع، وابْنُ كَثِيرٍ، وأَبو جَعْفر: **[فاسْرِ]** من فِعْل «سَرَىٰ».

وقرأها بَاقِي الْقُرّاء العشرة **[فَأَسْرِ]** مِنْ فِعْلِ «أَسْرَىٰ».

(٢٥) • قرأ ابن كثير، وابْن ذَكْوان، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي: **[وَعِيُونٍ]** بِكَسْرِ الْعَيْن.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاء العشرة: **[وَعُيُونٍ]** بضَمّ العين. والقراءتَانِ لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

(٢٧) • قَرَأَ أَبُو جعْفَر: **[فَكِهِينَ]** أي: مُسْتَمْتِعِينَ بَطِرِينَ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَاكِهِينَ]**: أي: مُسْتَمْتِعِينَ.

وبين القراءتين تَكَامُل، إذْ كانَ بَعْضُهُمْ بَطِراً مُسْتَكْبراً، وكان بَعْضُهُمْ مُسْتَمْتِعاً غَيْرَ بَطِر.

(٢٩) • قرأ أبو عَمْرو: **[عَلَيْهِمِ السَّمَاءُ]** بِكَسْرِ هَاء الضَّمِيرِ وَالمِيمِ بَعْدَها.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ]** بِكَسْرِ هاء الضَّمِيرِ وضَمِّ الْمِيمِ بَعْدَهَا.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ جَانِبٍ مِنْ قِصَّةِ قَوْم فِرْعَوْنَ، وعَدَم اسْتِجابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامِ وعَرْضُ النِّهَايَةِ التَّعِيسَةِ الَّتِي عَاقَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بـها فِرْعَوْنَ وَكُلَّ جُنُودِهِ، إغْرَاقاً بِخَارِقٍ عَظِيمٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعِقَابِيَّةِ الانْتِقَامِيَّةِ.

وفِيهَا بَيَانٌ مُوجَزٌ جِدّاً عَن بَنِي إسْرائيل، بَعْدَ أَنْ أَنْجاهُمُ اللهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ الَّذِي كانوا يُعَانُونَهُ فِي مِصْرَ مُسْتَعْبَدِين.

التدبّر التحليلي:

- قول الله تعالى:

• ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

الفتنة: الامْتِحَانُ والابْتِلَاء، وهُوَ حَالُ كُلِّ الَّذِينَ وَضَعَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الحياة الدنْيا مَوْضع الابْتِلَاء، بَدْءاً من آدَم وأبي الْجِنِّ، حَتَّىٰ آخرِ مُمْتَحَنٍ مِنَ الإنْسِ والْجِنِّ في ظُروفِ الحياة الدُّنْيا.

أي: وَلَقَدْ وَضَعْنَا قَبْلَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةِ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ مَوْضِعَ الامْتِحَان، كَمَا وَضَعْنَا سَائِرَ الأَقْوَام.

وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ هُمُ الْمِصْرِيُّونَ والْأَقْبَاط وَسَائِرُ الْخَاضِعِينَ لِسُلْطَانِ فِرْعَوْنَ فِي مِصْرَ، مَعَ آلِهِ وَمَلَئِهِ وَسَائِرِ جُنُودِهِ مِنْ مِصْرِّيين وغَيْرِ مِصْرِيِّين.

وَجَاءَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ رَسُولٌ كَرِيمٌ هُوَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، ووزِيرُهُ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَام تَابعاً لَهُ فِي رِسَالَتِهِ، وَخَاضِعاً لَهُ فِي قِيَادَتِه، فَذِكْرُ مُوسَىٰ يُغْنِي عَنْ ذكرِ وزيرِهِ هارون.

وَوَصَفَ اللهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام بأَنَّهُ كَرِيمٌ، للثَّنَاءِ عَلَيْهِ بأَنَّهُ جَامِعٌ لِأَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالشَّرَفِ وَالْفَضَائِلِ، وللصِّفَاتِ الرَّفِيعَةِ النفيسَةِ.

الكريم: هو الّذي يَتَرَفَّعُ عَنِ النَّقَائِصِ والدَّنَايا، والمحْمُودُ بالصِّفَاتِ الرَّفيعات النفيسات، والجامع لِأَنْوَاعِ الْخَيْرِ والشَّرَفِ والفضائل.

فَدَعَاهُمْ إلى دِينِ اللهِ الْحَقّ، وإِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُون بِعِبَادَتِهِ أَحداً، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ نَبْذِ شِرْكِيَّاتِهِمْ، وما هُمْ فِيهِ مِنْ ظُلْمٍ وَعُدْوانٍ، وَفُجُورٍ وطُغْيَان، بَعْدَ أَنْ لَم يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ وآلُهُ، باسْتِثْنَاءِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْن، وَزَوْجَتِهِ آسِيَة، وَرُبَّما عَددٌ قَلِيلٌ كَانَ يَكْتُمُ إيمانَهُ خَوْفاً مِن جَبَرُوتِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهِم، وَخَوْفاً مِنْ طُغْيَانِهِمْ، وَمِنِ تَعْرِيضِ أَنْفُسِهِمْ لتَعْذِيبهم.

وَقَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام: أَدُّوا إِلَيَّ وَاجِبَ الطَّاعَةِ والانْقِيَادِ يا عِباد اللهِ، فَأَنَا رَسُولُ رَبِّكُم رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَيْكُمْ، لِأُبَلِّغَكُم بِأَمَانَةِ الدِّين الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بأحْكَامِهِ، فَقَدِ اصْطَفَى رَبُّكُمْ لَكُمُ الدِّينَ، وَأَمَرَكُمْ باتِّبَاعِهِ، وَيُحَذِّرُكُم مِنْ عَذَابِهِ يَوْمَ القِيامَةِ خَالِدِينَ فِي دَار العذاب النَّارِ، إِذَا لَمْ تَسْتجيبوا لِدَعْوتِهِ، فَلَمْ تُؤْمِنُوا وَلَمْ تُسْلِمُوا، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِليكُمْ.

وَقَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام فِي انْطِلَاقَتِهِ بِمِصرَ دَاعِياً إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ: لَا تَعْلُو بِنُفُوسِكُمْ عَلَىٰ اللهِ بَارِئِكُمْ، والْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ دَوَاماً، مُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الإيمانِ بِهِ رَبّاً لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَمُسْتَكْبِرِين عَنِ الإِسْلَامِ وَالانْقِيَادِ لَهُ إِلَهاً لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَإِذَا طَلَبْتُمْ مِنِّي سُلْطَاناً مُبِيناً، أَيْ: برهَاناً عَلَىٰ صِدْقِ رِسَالَتِي، وَبُرْهَاناً عَلَىٰ أَنَّ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَإِنِّي آتِيكُمْ بالسُّلْطَانِ الْمُبِينِ الَّذِي يُوصِلُكُمْ إِلَىٰ الْيَقِينِ العِلْمِيِّ بِأَنِّي رَسُولُ رَبِّكُمْ، وَبِأَنَّ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ هو الْحَقُّ الّذي لا شَكَّ فِيهِ.

هَـٰذِهِ الدَّعْوَةُ الَّتِي انْطَلَقَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، يَدْعُو إِلَيْهَا جَمَاهِيرَ المِصْرِيينَ والْقِبْطِ، وَسَائِرِ الْخَاضِعِينَ لِسُلْطَانِ فِرْعَوْنَ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ فِرْعَونَ يَقُولُ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (غَافِرٍ/ ٦٠ نُزُول) بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ⦗٢٠⦘ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ⦗٢١⦘ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ⦗٢٢⦘ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ⦗٢٣⦘ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ⦗٢٤⦘ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ⦗٢٥⦘ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ⦗٢٦⦘﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ مُخْتَارَاتٍ مِمَّا قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِمَنْ دَعَاهُمْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي مِصْر:

• ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ⦗٢٠⦘ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ⦗٢١⦘﴾:

دَلَّ هَـٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ فِرْعَوْنَ حَرَّضَ سِرّاً جَمَاهِيرَ قَوْمِهِ عَلَىٰ قَتْلِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام رَجْماً بالْحِجَارَةِ، خَوْفاً مِنْ أَنْ يُبَاشِرَ قَتْلَهُ عَنْ طَرِيقِ أَمْرِ جُنُودِهِ بِقَتْلِهِ بِوَسِيلَةِ الْقَتْلِ المعروفَةِ الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا الْمَلك، لِأَنَّهُ كَانَ يَخَافُ مِنْ آيَةِ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ ثُعْبَاناً، أَنْ يَسْتَخْدِمها مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَتَبْتَلِعَ جُنْدَهُ ثُمَّ تَبْتَلِعَهُ وَمَلَأَهُ.

وَكَانَتْ وَسِيلَةُ الْقَتْلِ رَجْماً بالحجارَةِ، هِيَ الْوَسِيلَةَ الَّتِي يُشَارِكُ فِيهَا جَمْعٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يَتوزَّعُ بَيْنَهُمْ جُرْمُ قَتْلِهِ.

وَأَدْرَكَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ قَدْ سَرَتْ فِيهِمْ دِعَايَةُ قَتْلِهِ رَجْماً بالحِجَارَةِ، والاجْتِمَاعِ عَلَىٰ هَـٰذَا إِرْضاءً لِسَيِّدِهِمْ فِرْعَوْنَ، وإِرْضَاءً لِمَلَئِهِ، فَقَالَ لِجُمْهُورِ الْمِصْرِيِّينَ مَا جَاءَ فِي هَـٰذَا البيان.

• ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾: أي: وإنِّي لُذْتُ واعْتَصَمْتُ مُلْتَجِئاً طَالِباً الْحِمَايَةَ والْوِقَايَة.

- ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾: أي: باللهِ الَّذِي هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُم الْمُهَيْمِنُ عَلَيْنَا جَمِيعاً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَهُوَ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ.

- ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾: أي: مِنْ أَنْ تَجْتَمِعُوا عَلَيَّ وَتَرْجُمُونِي.

- ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾: أي: وإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي وَتُسْلِمُوا لي مُنْقَادِين.

- ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾: أي: فاعْتَزِلُوا مَجْلِسِي، وَلَا تَسْتَمِعُوا لِدَعْوَتِي، فَأَنَا لَا أُجبرُ أَحداً، وَلَا أُكرِهُ أحداً علىٰ الإيمانِ بما أَدْعُوا إِلَيْهِ، والانقيادِ لِي مُسْلِماً لِرَبّ الْعَالَمِين، وإِنَّما أُبَلِّغُ عَنْ رَبِّي مَا أَمَرَني بأَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَّاه، وأَنْتُمْ لَكُمْ كامِلُ الْحُرِّيَّةِ فِي الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِي، وعَدَمِ الاسْتِجَابَةِ لَهَا، إِنَّهُ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.

وَرَأَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ مُطِيعُونَ لِفِرعَونَ خاضِعُونَ لِسُلْطَانِهِ، لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَا يُرِيهِمْ، دُونَ مَا يُقْنِعُهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِم، فَدَعَا رَبَّهُ ذاكراً في دُعَائِهِ أَنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَا دَعَا بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: أي: لَا خَيْرَ يُرْجَىٰ فِيهِمْ، فَقَدْ بَلَغُوا دَرَكَةَ الكُفْرِ الْإِجرامِيّ الْعِنَادِيّ، ولَعَلَّ خَيْرَ العِلَاجِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ أَنْ يُبْتَرُوا مِنَ الْمُجْتَمع الإِنْسَانِي.

فَاسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَائِهِ، فَأَمَرَهُ بأَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيل مِنْ مِصْرَ لَيْلاً، وَأَعْلَمَهُ بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيُتَّبَعُونَ بِجَيْشٍ فِرْعَوْني، وأَشْعَرَهُ بأَنَّهُ سَيُنْجِيهِمْ مِنْهُمْ، وَسَيُغْرِقُ الْجَيْشَ الْفِرْعَوْنِيّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِبَيَانٍ مُسْتَقْطَعٍ مِنَ الْحَدَثِ الْمَاضِي:

- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾: فَأَخْرِجْ مِنْ مِصْرَ عِبَادِي بَنِي إِسْرَائِيل لَيْلاً، دُونَ أَنْ يُحِسَّ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّكُمْ تَخْرُجُونَ مَهَاجِرِين.

يُقَالُ لُغَةً: «أَسْرَىٰ بِفَلَانٍ» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ في اللَّيلِ.

لَيْلاً: أي: فِي اللَّيل، وجيءَ بهٰذَا الْقَيْدِ لِتَوْكِيدِ إِخْفَاءِ حَرَكَةِ الْخُرُوجِ، وَذَلِكَ بأَنْ تَكُونَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَالْمِصْرِيُّونَ يَغُطُّونَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

- ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣)﴾: أي: إِنَّ جَيْشَ فِرْعَونَ سَيَتَّبِعُونَكُمْ لِقَهْرِكُمْ. وَسَأَكُونُ مَعَكُمْ هَادِياً وَمُنْجِياً.

وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاء/ ٤٧ نزول) وهُوَ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥)﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هَٰذِهِ الْآيَاتِ فِي مَوْقِعِهَا مِنْ سُورَة (الشُّعَرَاء/ ٤٧ نزول).

وَبَعْدَ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مَكَانِ الْفَلْقِ فِي الْبَحْرِ، يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الدُّخان/ ٦٤ نزول) خِطَاباً لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾: أي: واتْرُكِ الْبَحْر مُنْفَلِقاً سَاكِناً إغْرَاءً لِفِرْعَونَ وَجَيْشِهِ أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ مَكَانِ الْفَلْقِ يُلاحِقُونَكُمْ،

مِنْ أَجْلِ أَنْ نُغْرِقَهُمْ جَمِيعاً قَبْلَ أَنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَىٰ الشَّاطِئِ الآخَر.

الرَّهْوَ: مَصْدَرُ «رَهَا» أيْ: سَكَنَ. ويُوصَفُ بِهِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: «رَاهٍ» أي: سَاكِن. جاء في لسان العرب: «رَهَا الشَّيْءُ، رَهْواً سَكَنَ ـ وَكُلُّ سَاكِنٍ لَا يَتحَرَّكُ رَاهٍ، وَرَهْوٌ ـ والإِرْهَاءُ: الإسكان. والرَّهْوُ ما اطْمَأَنَّ مِنَ الْأَرْضِ وَارْتَفَعَ مَا حَوْلَه ـ وَرَهَا مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ رَهْواً، فَتَحَ. الأصمعي: ونَظَرَ أعرابيٌّ إلى بَعِيرٍ فالجٍ، فقال: سُبْحَانَ الله، رَهْوٌ بَيْنَ سَنَامَيْنِ، أي: فَجْوَةٌ بَيْنَ سَنَامَيْنِ، وهٰذَا من الانْهِبَاط».

أقول: مِنْ هٰذِهِ المعاني الّتِي ذَكَرَهَا عُلَمَاءُ اللُّغَة لِكَلِمَةِ «رَهْو» أرَىٰ أَنَّهَا اخْتِيرَتِ اخْتِياراً دَالًّا عَلَىٰ المعْنَىٰ المراد مَعَ غَايَةِ الإيجاز، فالْمَاءُ الْمُرْتَفِعُ السَّاكِنُ عَلَىٰ صُورَة جَبَلَيْنِ مِنَ الْجَلِيدِ، والانْفِرَاجُ في الْبَحْرِ حَتَّىٰ الْقَاعِ الْيَابِسِ الَّذِي سَلَكَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام وبَنُو إسرائيل، كُلُّ ذٰلِكَ دَلَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ «رَهْو» إذْ مِنْ مَعَانِيهَا السُّكُون، ومِنْ مَعَانِيهَا الانْفِرَاج، وَمِنْ مَعَانِيهَا الانْخِفَاضُ بَيْنَ مُرْتَفِعَيْن.

● ﴿... إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: وَحِينَ يَكُونُ فِرْعَوْنُ وجُنْدُه بَيْنَ الْمَاءَيْنِ الْمُرْتَفِعَيْنِ كَأَنَّهما جبَلَانِ عَظِيمَان، وقَبْلَ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَىٰ الشَّاطِئِ الآخرِ، سَنَضُمُّ عَلَيْهِم الْمَاءَيْنِ الْمُرْتَفِعَيْن، وسَنُغْرِقُهُمْ أَجْمَعِين بِخَارِقَةٍ لَمْ يَشْهَدِ الْبَشَرُ مِثْلَهَا.

الجُنْدُ: العسكر، والأنصار والأعوان، ويجمع على: أجْنادٍ، وجُنُود.

وتحقّقَتِ الْخَارِقَةُ الْعَجِيبَةُ، ودَخلَ فِرْعَوْنُ وَكُلُّ جَيْشِهِ الَّذِي سَاقَهُ وَقَادَهُ لِقِتَالِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، مِن مَكَانِ الْفَرْق، حتَّىٰ إذَا كَانُوا جَمِيعاً بَيْنَ الْمَاءَيْنِ اللَّذِينَ كالطَّوْدَيْنِ أَذِنَ اللهُ لِمُوسَىٰ بِأَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ، لِيَعُودَ إلى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْفَرْق، فَأَجْرَىٰ اللهُ آيَتَهُ،

فَانْضَمَّ الماءُ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ، وأَغْرَقَ بِهِ فِرْعَوْنَ وَجَيْشَهُ جَمِيعاً.

وَتَحدَّثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ، مُعَقِّباً عَلَىٰ انْتِقَامِهِ مِنْهُمْ بالإهْلَاكِ إغْرَاقاً، فجاء في السُّورة مَا يَلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

• ﴿كَمْ﴾ هُنَا خَبَرِيَّةٌ، وَمَعْنَاهَا: عَدَدٌ كَثِير غَيْرُ مُبَيَّنِ الجنْسِ أو النوع، وغَيْرُ مُبَيّنِ المِقْدَار.

• ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾: أي: فِي أَرْضِ مِصْرَ الَّتِي خَرَجُوا مِنْهَا طُغَاةً بُغَاةً ظالِمِينَ، يُلَاحِقُونَ بَنِي إسْرَائِيلَ لِقِتَالِهِمْ وَإِعَادَتِهِمْ إلى الذُّلِّ والاسْتِعْبَاد.

• ﴿... مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وَفِي القراءَةِ الأُخْرَىٰ: [فَكِهِينَ] وَقَدْ سَبَقَ تَوجِيهُهُمَا.

• ﴿كَمْ﴾ لِبَيَانِ جِنْسِ الْعَدَدِ الكَثِير الَّذِي تَرَكُوه، وَالَّذِي دَلَّت عَلَيْهِ «كَمْ» الخبرية.

• [وَجَنَّاتٍ] جَمْعُ «جَنَّة» وَهِي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أشْجَارٍ وَثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وأَنْهَارٍ وَقُصُور.

• ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ هِي عُيُونُ الْمَاءِ الجاري، وَرُبَّما كَانَتْ فُرُوعاً مُشْتَقَّةً مِن النِّيلِ.

• ﴿وَزُرُوعٍ﴾ أي: ومَزْرُوعَاتٍ مختَلِفَاتِ الأصنافِ والأنواع والأَجْنَاس، مفردُها «زَرْعٌ».

• ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: أَيْ: وَمَكَانٍ نَفِيسٍ بَالِغٍ أَحْسَنَ مَا يَطْلُبُونَ أَنْ

يَكُونَ لِقِيامِهِمْ وجُلُوسِهِمْ وَحَرَكَتِهِمْ واسْتِقْرَارِهِمْ، مَادِّيّ لِمَتَاعَاتِ أَجْسَادِهم، ومَعْنَوِيٌّ لِمَتَاعَاتِ نُفُوسِهِمْ.

- ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾: **النَّعْمَةُ**: الرَّفاهِيَة وَطِيبُ الْعَيْشِ، وحُسْنُهُ وَغَضَارَته، والْمَسَرَّةُ، والْفَرَحُ، والتَّرَفُّهُ.

فَاكِهِين: أي: مُسْتَمْتِعِينَ فِيها مُرَفَّهِينَ مَسْرُورين.

فَكِهِينَ: في قراءة أبي جعْفر، أي: مُسْتَمْتِعِينَ بَطِرِينَ مُسْتَكْبِرين، وهذه تُنَاسِبُ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ، وآلَهُ، والمُقَرَّبِينَ مِنْهُمْ.

وَهَـٰذِهِ الأشْيَاءُ الَّتِي تَرَكَهَا فِرْعَوْنُ وَمَنْ كَانَ مَعه، فَأَغْرَقْنَاهُمْ، قَدْ أَوْرَثْنَاهَا مَنْ كَانَ الْوَارِثَ لَهَا فِي مِصْرَ مِنْ أَهْلِيهِمْ وَغَيْرِهِمْ.

- ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: كَـذَلِـكَ الَّـذِي حَـصَـلَ لِفِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مُغْرَقِين، حَصَلَ لِأَمْثَالِهِمْ مِنْ مُجْرِمِي الأُمَم، أَهْلَكْنَاهُمْ وَأَوْرَثْنَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي كَانُوا يَمْتَلِكُونَها قَوْماً آخَرِينَ امْتَلَكُوهَا مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ أَسْلَافِهِم، وَهَـٰذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ.

- ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَمَا حَزِنَ لِهَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ هَلَكَ مَعه، وَلا لِهَلَاك مَنْ أُهْلِكُوا مِنْ مُجْرِمِي الْأُمَم الْأُخرَىٰ الّذِينَ دَلَّتْ عَلَيْهِمْ عِبارَة ﴿كَذَٰلِكَ ۖ﴾ ذُو إِحْسَاسٍ يُحِسُّ بِتَكْوِينِهِ الْفِطْرِيّ بِالْحُزْنِ، عِنْدَ مَوْتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ وَيَفْعَلُونَ الْخير، وَتَنْتَشِرُ مِنْهُمْ أَنْوَارُ رِضْوَانِ اللهِ عَلَيْهِمْ، ذَاتِ التَّأْثِيرِ الْحَسَنِ فِي الْأَحْيَاءِ وفي الأشْيَاءِ.

الْبُكَاءُ عَلَامَةٌ عَلَىٰ الْحُزْنِ، وَذُكِرَ نَفْيُ الْبُكَاءِ كِنَايَةً عَنْ نَفْيِ الْحُزْنِ، وَالْحُزْنُ مَشَاعِرُ أَلَمٍ دَاخِلِيٌّ لَدَىٰ مَنْ جَعَلَ اللهُ فِي فِطْرَتِهِ الإحْسَاسَ بِهَـٰذِهِ المشَاعِرِ.

أَمَّا الْبَشَرُ فَنَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ هَـٰذِهِ المشاعر، وكذلِكَ الْجِنّ، فَأَمَّا الكَفَرَةُ مِنَ الْإِنْس وَالْجِنِّ فَلَا قِيمَةَ لِحُزْنِهِمْ عَلَىٰ هَلَاكِ أَمْثَالِهِمْ، بَلْ حُزْنُهُمْ مِنْ عُقُوبَاتِ اللهِ لَهُمْ، وَأَمَّا المؤمِنُونَ فَيَفْرَحُونَ بِهَلَاكِ الْكَفَرَةِ الْمُجْرِمِين، لِلْخَلَاصِ مِنْ شُرُورِهِمْ وَجَرَائِمِهم، وَكُلُّ ذِي فِطْرَةٍ يَشْعُرُ بَالحُزْنِ مِنْ غَيْرِ الْإِنْسِ والْجِنّ، كالْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِالْحُزْنِ عَلَىٰ هلاكِ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِنَ الَّذِينَ هُمْ أَئِمَّةُ أَعْدَاءِ الله.

ونَفْيُ بُكَاءِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، هُوَ نَفْيُ حُزْنِ كُلِّ ذِي شُعُورٍ بَالْحُزْنِ فِيهما، تُعْتَبَرُ مَشَاعِرُهُ وَتُرَاعَىٰ فِي مَوَازِينِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَمَا هُوَ الأَصْلَحُ وَالْأَنْفَعُ في الوجود.

- ﴿... وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: وَمَا كَانَ الَّذِينَ أُهْلِكُوا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ، مُمْهَلِينَ، مَهْمَا أَلَحُّوا فِي طَلَب الإِمْهَالِ عِنْدَ بَوَادِر نُزُولِ الْعَذَابِ فِيهِمْ، لِأَنَّهُمْ قَدْ سَبَقَ أَنْ أُمْهِلُوا إِمْهَالاً طَوِيلاً، فَلَمْ يَرْتَدِعُوا عَنْ غَيِّهِمْ عَلَىٰ الرُّغْمِ مِمَّا وُجِّهَ لَهُمْ مِنْ إِنْذَارَاتٍ فِي أَزْمَانٍ قَدْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَهَا، وَبَلَغُوا إِلَىٰ دَرَكِ الإِجْرَامِ الْعِنَادِيّ المقْرُونِ باسْتِيقَانِهِمْ بِالْحَقِّ.

الإِنْظَارُ: الإِمْهَال. يُقالُ لغة: «أَنْظَرَهُ إِنْظاراً» أي: أَخَّرَهُ وأَمْهَلَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحدَّثُ بإيجازٍ شَدِيدٍ عَنْ بَنِي إِسْرائيل بِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ إِهْلاكِ فِرْعَوْن وَجُنُودِهِ إغْرَاقاً، فِي بَحْرِ سُوف (= الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ):

- ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾:

التوكيد بعِبَارَة «لَقَدْ» مَرَّتَيْنِ في هَـٰذَا البيان، وهو تَوْكِيدٌ فِيه مَعْنَىٰ الْقَسَم، مُوَجَّهٌ لِلْمَعْنِيِّينَ بالْمُعَالَجَةِ فِي السُّورَةِ، وهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي

مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، لِيُشْعِرَهُمْ اللهُ بِأَنَّهُ سَيُنْجِي رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنِ اضطهادِهم لَهُمْ، وَسَيَخْتَارُهُمْ وَيَرْفَعُ مَكَانَتَهُمْ فَوْقَ الْعَالَمِينَ، وَسَيَنْصُرُهُمْ وَيَفْتَحُ لَهُمُ الْبُلْدَانَ، وَتُخْضِعُ لَهُمْ شُعُوبَ الأَرْضِ، وَسَيُسْقِطُ مِنْ أَجْلِهِمْ الدُّوَلَ الْعُظْمَىٰ «فارس، والرُّوم، والْحَبَشَة» ثُمَّ دُوَلاً أُخْرَىٰ.

أي: وَلَقَدْ خَلَّصْنَا بِهٰذَا الْإِجْرَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِين الْمُذِلِّ، الَّذِي كانُوا يُعَانُونَهُ مُسْتَعْبَدِينَ فِي مِصْرَ، لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ وَسَائِرِ الْمِصْرِيِّين.

وَلَقَدْ اخْتَرْنَا بَنِي إِسْرَائِيل فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ اخْتِيَاراً قَائِماً عَلَىٰ عِلْم بِهِمْ وَبِسَائِرِ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ، لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَىٰ مُوسى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وَتَبْلِيغِهَا للنَّاسِ، وَالقِيامِ بِوَظَائِفِهَا عِلْماً وَعَمَلاً وَقُدْوَةً حَسَنَة، وَفَضَّلْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ عَلَىٰ سَائِرِ الْعَالَمِينَ.

وَلَمْ يَكُنْ اخْتِيَارُهُمْ وَلَا تَفْضِيلِهُمْ عَلَىٰ كُلِّ الْعَالَمِينَ فِي جَمِيعِ أَزْمَنَةِ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِمْ، بِدَلِيلِ أَنَّ اللهَ سَلَبَهُمْ هٰذَا التَّفْضِيلَ، لَمَّا فسقُوا وَفَجَرُوا وَأَدْخَلُوا الْوَثَنِيَّاتِ إِلَىٰ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَحَرَّفُوا فِي دِينِ اللهِ الحَقّ، وَبِدَلِيلِ النَّصِّ في الْقُرْآنِ عَلى أَنَّهُ اخْتَارَ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِمْ إلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَة، وَأَبَانَ أَنَّهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾:

الَّذِي أَرَاهُ أَنَّ هٰذِهِ الآيَاتِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هِيَ آيَاتُ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا امْتِحَانٌ ظَاهِرٌ فِيهِ شِدَّةٌ، لِطَاعَتِهِمْ وامْتِثَالِ أَحْكَامِ رَبِّهِمْ، فِيمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ، وَفِيما حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهَا التَّشْدِيدُ عَلَيْهِمْ فِي أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ عَمَلٌ لِمَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ يَوْمَ السَّبْتِ، وَمِنْهَا التَّشْدِيدُ عَلَيْهِمْ في أَحْكَامِ الطَّهَارَةِ، وَأَحْكَامِ الذَّبَائِحِ، إلى غير ذَلِكَ مِنَ الإصر الَّذِي كان عَلَيْهِم.

فَقَدْ وَصَفَ اللهُ امْتِحَانَ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِذَبْحِ وَلَدِهِ إسْمَاعِيل، وَمُبَاشَرَةَ تَنْفِيذِهِ مَا امْتَحَنَهُ اللهُ بِهِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٥٦ نُزُول):

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾.

ووصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ مَا كانَ فِيهِ بَنُو إسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ إذْ كَانَ آلُ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ العذاب، بِأَنَّهُ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّهِمْ عظيم فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ من القرآن المجيد.

فَدَلَّني هـٰذَا على أنَّ الْبَلَاءَ الْمُبِينَ الْمُرَادَ بِبَعْض الآيَاتِ، هو ما في الآيَاتِ المنزَّلَاتِ في التوراة، الَّتِي فِيها أَحكَامٌ دِينِيَّةٌ مُشَدَّدَةٌ عَلَيْهِم.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التَّدبُّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (٣٤ ـ ٤٢)

قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٤٢)﴾.

تَمْهيد:

فِي آيَات هـٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ عَنْ مُشْرِكي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَوْقِفِهِمْ مِنْ إِنْكَارِ الآخِرَةِ والْبَعْثِ، مع مُعَالَجَتِهِمْ بالإقْنَاعِ، وَبِالْإِنْذَارِ بِيَوْمِ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ مَقَالَةٍ يَقُولُـهَا وَيُكَرِّرُ قَوْلَـها الْمَعْنِيُّونَ بِالْعِلَاجِ في السُّورَةِ، مِنْ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التنزيل:

- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾:
- ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

بِمُنْشِرِينَ: الإنْشَارُ: الإحْيَاءُ بَعْدَ الموت. «أَنْشَرَهُ إِنْشَاراً» أي: أَحيَاهُ بَعْدَ أَنْ أَمَاتَهُ.

يَرُدُّونَ بِهـٰذَا عَلَىٰ مَا جاء في سُورَةِ (غافِر/ ٦٠ نزول) مِنْ بَيانِ أَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ وَهُمْ يُعَذَّبُون فِي النَّار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾: أي: كُنَّا أَمْوَاتاً فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِنَا قَبْلَ أَنْ تَنْفُخَ فِينَا الرُّوحَ، فَأَحْيَيْتَنَا، وَشَهِدْنَا الحياة الدُّنيا، ثُمَّ أَمَتَّنَا فِي آجَالِنَا، ثُمَّ أَحْيَيْتَنَا لِنُلَاقِي عَذَابَنَا يَوْمَ الدِّينِ، لِأَنَّنَا كُنَّا قَدْ كَفَرْنَا بِمَا أَوْجَبْتَ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ.

فَأَعْلَنُوا تَكْذِيبَهُمْ بأَنَّ الْمَوْتَةَ الَّتِي يَمُوتُونَهَا بَعْدَ الحياة الدُّنْيَا هِيَ الْمَوْتَةُ الثَّانِيَةُ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا هِيَ الأُولَىٰ لَا الثَّانِيَة. وأَعْلَنُوا تَكْذِيبَهُمْ بالإحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْت، أي: فَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا حَياةَ إِلَّا الحياةُ الأُولى، وَلَا مَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَهَا.

وطَرَحُوا مُغَالَطَةً جَدَلِيَّةً قَالُوا فِيها للرَّسُولِ وَجَمَاهِيرِ المؤمِنِينَ، فِي

صَيْحَةٍ إعْلَامِيَّة: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: فأحْيُوا آباءَنَا المَيِّتِينَ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين بِنَبَأِ الحياةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

هٰذِهِ مُغَالطَةٌ مَفْضُوحَةٌ سَاقِطَةٌ بِنَفْسِهَا، فالرَّسُولُ والمؤمنون مَعَهُ، يَدْعُونَ إلىٰ الإيمانِ بالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَعْدَ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا كُلِّها، لِكُلِّ الْخَلَائِقِ، وَلَيْسَ فِي دَعْوَتِهِمْ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تُشْعِرُ بِبَعْثٍ لِلأَمْوَاتِ ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، فالمطالَبَةُ بِإِحْيَاءِ آبائِهِمْ خُرُوجٌ عَن الْمَوْضُوع الّذِي يُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ بِهِ، والإحْيَاءُ يَوْمَ القيامَةِ دَلِيلُهُ بُرْهَانٌ عَقْلِيٌّ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ حِكْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ وَضَرُورَةِ تَحْقِيقِ الْجَزاء الْحَكِيم، وَإِلَّا كَانَ خَلْقُ النَّاسِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا عَبَثاً، واللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظمَ سُلْطَانُهُ ـ مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَبَثِ، بَلْ كُل تَصارِيفِهِ فِي كَوْنِهِ حَكيمةٌ، مُطَابَقَةٌ لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ.

يُضَافُ إِلَىٰ الدليلِ العقليّ بيانَاتُ اللهِ الصَّرِيحَةُ فِي كتابِهِ المعجز.

مَرَاحِلُ الْحِوَارِ في القرآن مَعَ مُنْكِرِي الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدّين:

(١) كانَ أئمَّةُ مُشْرِكِي مَكَّة يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَالْحَيَاةَ الأُخْرَىٰ، والدَّارَ الآخِرَةِ، والجزاء الرَّبَّانِيَّ يَوْمَ الدِّين.

وقَدْ غَرَّهُمْ أَنَّ آبَاءَهُم الَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ وَهُمْ عَلَىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ، لم يَتعرَّضُوا فِي الحياة الدُّنْيَا لِعَذَابٍ مِنَ اللهِ عَلَىٰ شِرِكِهِمْ.

وأَنْكَرُوا الْبَعْثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحُجَّةِ الاسْتِبْعَادِ، وعَدَمِ مُشَاهَدَةِ أَمْوَاتٍ مِنْ آبَائِهِمْ يُبْعَثُونَ، ويُحَدِّثُونَهُم عَمَّا شَهِدُوا بَعْدَ الموت.

(٢) حتَّىٰ قَالَ قائِلُهُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ بِشَأْنِ عَظْمٍ نَخِرٍ مِنْ عِظَامِ الموْتَىٰ، مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (يسۤ/ ٤١ نزول):

﴿... قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾: أي: وهي بالِيَةٌ مُتفتِّتَةٌ.

فَعلَّم اللهُ رَسُولَهُ ﷺ الجواب الْبُرْهَانِيّ المفْحِم، فَقَالَ لَهُ فِيها:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾. مع مَا جاءَ بَعْدَ هٰذِهِ الآيَةِ في السُّورَةِ حتَّىٰ آخِرِها.

(٣) فَرَفَضُوا قَبُولَ هٰذَا الْبُرْهَانِ الْعَقْلِي، وأَصَرُّوا على مَوْقِفِهِمْ المكَذِّب بِالْبَعْثِ وَبالجزاءِ يَوْمَ الدِّينِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُم حُجَّةٌ إلّا الاسْتِبْعَادُ والاستغرابُ.

دلَّ علىٰ هذا الموقف مَا جاءَ بَيانُهُ في سُورَة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول). فَقَدْ جاءَ فيها قَوْلُ اللهِ تَعالَى:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

الرُّفات: الْحُطام، والْفُتَاتُ مِنْ كُلِّ مَا تَكَسَّرَ وَانْدَقَّ.

- ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: فَسَيُحَرِّكُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ تَحْرِيكاً دَالًّا عَلَىٰ الثباتِ عِنْدَ مَوْقف المسْتَبْعِدِ المتَعجِّبِ المنْكِر.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّر هٰذَا النَّصِّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول).

(٤) وَمَعَ إفْحَامِهِمْ بالدَّلِيلِ الْبُرْهَانِيِّ اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ إصْرَارِهِمْ عَلَىٰ إنْكَارِ الْبَعْثِ وَالجزاءِ يَوْمَ الدّين، مُدَّعِينَ أَنَّهُ لا تُوجَدُ حَياةٌ أُخْرَىٰ غَيْرُ هٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

جَاءَ بَيَانُ إصْرَارِهِمْ هٰذَا فِي سُورَةِ (الْأَنْعَام/ ٥٥ نزول) فقال اللهُ تَعالَىٰ فِيها:

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

(٥) وَجَاءَت الْأَدِلَّةُ الكَثِيرَةُ في الْقُرآنِ الَّتِي تُشَبِّهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ بإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِها.

(٦) وَبَدَأَتْ فِكْرَةُ الاقْتِنَاعِ بالْبَعْثِ، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذ الجزاء، تَتَسَرَّبُ إِلَىٰ قُلُوبِ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْمُعَانِدِينَ الْجَاحِدِين.

فأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ بَيَانَ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا وهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (غَافِر/ ٦٠ نزول) يَحْكِي دُعَاءَهُمْ لِرَبِّهِمْ يَلْتَمِسُونَ الْخُرُوجَ مِنْ دَارِ العذاب:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾﴾.

أي: كُنَّا أَمْوَاتاً فِي أَرْحَام أُمَّهَاتِنَا قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فينَا وَنَحْنُ أَجِنَّة، فأَحْيَيْتَنَا، وَشَهِدْنَا الْحياةَ الدُّنْيَا، ثُمَّ أَمَتَّنَا، ثُمَّ أَحْيَيْتَنَا لِنُلَاقِيَ جزَاءَنَا يَوْمَ الدِّين.

فزاد شُعُور جَمَاهِيرِ أَتْبَاعِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفرِ، بأَنَّ الْبَعْثَ يَوْمَ الدِّينِ مِنَ الْعَقَائِدِ الَّتِي يَنْبَغِي التَّصْدِيقُ بها.

(٧) عِنْدَئِذٍ خَافَ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ مِنْ أَنْ تَفْلَتَ جَمَاهِيرُهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَيُؤْمِنُوا ويَسْلِمُوا، وَتَسْقُطَ بذلِكَ زَعَامَاتُهُمْ فِي مُجْتَمِعِهِمْ، فَصَارُوا يُرَدِّدُونَ مَقَالَةً إعْلَامِيَّةً يُنْكِرُونَ بِهَا وُجُودَ مَوْتَتَيْن، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونوا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ الْجَنِينَ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ الرُّوح، هُوَ إِنْسَانٌ بِخَرِيطَةِ نَفْسِهِ، لَكِنْ لَا حَيَاةَ لَهُ فَهُوَ مَيِّت، وَجَعَلُوا يُشِيعُونَ هَـٰذِهِ المقَالَةَ الإِعْلَامِيَّةَ لِتَشْوِيهِ صُورَةِ الْبَيَانِ القرآنِي الَّذِي جاءَ في سورة (غافِر/ ٦٠ نزول).

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا مَا جاء في سُورَةِ (الدُّخان/ ٦٤ نزول):

- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦)﴾:

فأذاعُوا وَأَشاعُوا أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ مَوْتَةٌ قَبْلَ الْمَوْتَةِ الَّتِي يَمُوتُهَا النَّاسُ بَعْدَ الْعَيْشِ فِي الْحَياةِ الدُّنيا، وَذَكَرُوا أَنَّها هِيَ الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ لا الثَّانِيَة، فَقالُوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: لَا الثانية.

وأَصَرُّوا عَلَىٰ مَوْقِفِهِمْ فِي حَضِيض إِنْكَارِ البعْثِ والحياةِ الْأُخْرَى، وإِنْكَارِ الجزاءِ عَلَىٰ مَا يَكْتَسِبُهُ النَّاسُ بِاخْتِيَارِهِم الحرّ في رِحْلَةِ الْحَياةِ الدُّنْيا، فَقَالُوا فِي مُغَالَطَةٍ سَاقِطَةٍ لِلرَّسُولِ والمؤمنين مَعَهُ، بأسْلُوبٍ دِعَائِيٍّ إعْلَامِيٍّ: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦)﴾.

وقَدْ سَبَقَ آنِفاً شَرْحُ هٰذَا النصِّ من سورة (الدخان/ ٦٤ نزول).

(٨) وَتواردت عَلَيْهِمُ البياناتُ الْقُرْآنِيَّةُ بأنَّ الله هُوَ الَّذِي يُحْيِي ويُمِيت، فِي نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ سَابِقَةِ التَّنْزِيل لسُورَةِ (الجاثية/ ٦٥ نزول) ومِنْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ إِبْرَاهِيم لِقَوْمِهِ فِي دَعْوَتِهِ لَهُمْ أَخْذاً مِمَّا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاء/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢)﴾.

فَوَجَدُوا لِأَنْفُسِهِمْ ذَرِيعَةً يَتَعَلَّلُونَ بِهَا، زَاعِمِينَ أَنَّ الْمَوْتَ ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، لِتَوَالِي الْأَزْمَانِ فِي الدَّهْرِ، وَلَيْسَ عَمَلاً مِنْ أَعْمَالِ الْخَلْقِ الرَّبانِيِّ الْقَائِمِ عَلَىٰ فَصْلِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ، فَقَالُوا مَا جَاءَ بَيَانُه فِي سُورَة (الجاثية/ ٦٥ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ

مِن عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

فَأَصَرُّوا بِعِنَادٍ غَيْرِ مُقْتَرِنٍ بِدَلِيلٍ فِكْرِي، عَلَىٰ أَنَّهُ لَا تُوجَدُ لَهُمْ حَيَاةٌ إِلّا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيا، وَكَذٰلِكَ سَائِرُ النَّاس، يَمُوتُ مَوْتَىٰ، وَيَحْيَا أَحْيَاءٌ عَنْ طَرِيق التَّنَاسُلِ، وَسَبَبُ الْمَوْتِ تَوَالِي الأَيَّامِ والشُّهُورِ والسِّنين، الَّذِي يَضْعُفُ بِهِ الْأَحْيَاءُ عَنِ الصُّمُودِ لِعَوَارِض الدَّهْرِ، فَيَمُوتُونَ، ضِمْنَ ظَاهِرَةٍ طَبيعِيَّةٍ.

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ هـٰذَا الْقَوْل عَنْ عِلْم قائِم عَلَىٰ التَّجْرِبَةِ والْمُلَاحَظَةِ والدِّرَاسَةِ التَّتَبُّعِيَّةِ لِدَقَائِقِ الْأُمُور، بَل الْمَوْتُ نَتِيجَةُ فِعْلٍ رَبَّانِي مَسْبُوقٍ بِتَقْدِيرٍ وَقَضاءٍ، وَمَا كان لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بإذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً، مُحَدَّدَ الأَجَلِ.

كما أَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَكُونُ إِلّا بِاقْتِرَانِ الرُّوحِ بِالنَّفْسِ، فَالمَوْتُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِانْفِصَالِ الرُّوح عَنِ النَّفْسِ، وَكلٌّ مِن الاقْتِرَانِ والانْفِصَالِ من أفعال الله.

كَمْ مِنْ صَحِيحٍ قَوِيٍّ سَلِيم لَا عِلَّةَ فِي أَعْضَائِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَة، يَمُوتُ دُونَ مَعْرِفَةِ سَبَبٍ لِمَوْتِهِ، إِلَّا أَنَّ اللهَ قَدْ فَصَلَ رُوحَهُ عَنْ نَفْسِهِ.

وكم مِنْ عَلِيلٍ مَرِيضٍ يُحَدِّدُ الأَطِبَّاءُ حَيَاتَهُ بِأَيَّامٍ أو شُهُورٍ، يَعِيشُ فِي عِلَلِهِ سِنِينَ عَدِيدَة، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ الْمَعْلُومُ عِنْدَ رَبِّهِ، انْفَصَلَتْ رُوحُهُ عَنْ نَفْسِهِ، بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ الَّذِي كَانَ قَدْ وَهَبَهُ الحياة.

وَمَزَاعِمُ الَّذِينَ نَسَبُوا الْمَوْتَ إِلَىٰ تَوَالِي الأَيَّامِ من الدَّهْرِ مَزَاعِمُ قائِمَةٌ عَلَىٰ ظَنٍّ تَوَهُّمِيٍّ ضَعِيفٍ، لَا يَتَرَجَّحُ بِهِ رَأْيٌ عِلْمِيٌّ.

وَهـٰؤُلَاءِ الدَّهْرِيُونَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ الْبَيِّنَاتُ، المشْتَمِلَات عَلَىٰ الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ العَقْلِيَّةِ، لَجؤُوا إِلَىٰ مُغَالَطَتِهِمُ السَّاقِطَةِ، فقال للرسول

وللمؤمنين بِفُجُورٍ إِعْلَامِيٍّ: ائْتُوا بآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بِنَبَإِ الْبَعْثِ والحياة بعد الموت.

فَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ بِهُدُوءٍ وَطُمَأْنِينَةٍ وَبُرُودَةِ أَعْصَابٍ فقال له: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴿٢٦﴾﴾.

وعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ وَكُلَّ حَامِلٍ رِسَالَتَهُ مِنْ أُمَّتِهِ فقال تعالى: ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ، مَهْمَا قَامَتْ لِلْإِقْنَاعِ بِهِ قَوَاطِعُ الأَدِلَّةِ، لِأَنَّهُمْ مُتَشَبِّثُونَ بأَهْوَائِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا، الَّتِي يُطَالِبُهُمُ الْحَقُّ بِمُخَالَفَةِ نُفُوسِهِمْ فِيهَا، وهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْطَلِقُوا فِيها فَاجِرِينَ.

(٩) وَلَمَّا لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِمُ الْمُعَالجَاتُ السَّابِقَاتُ ضَرَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ مَثَلاً بعادٍ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ، وأَنَّهُمْ قَالُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلى الحياة بَعْدَ الْمَوْتِ، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ أَنْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ بالصَّيْحَةِ.

دَلَّ عَلَى هٰذَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (المؤمنون/ ٧٤ نُزُول) مُبَيِّناً مَا قَالَهُ مَلأُ قَوْمِ عَادٍ لِجَمَاهِيرِهِمْ صَدّاً لَهُمْ عَنْ دَعْوَةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْإِيمانِ بِيَوْمِ الدِّين:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

متابعة تدبر سورة (الدخان):

بَعْدَ هَـٰذِهِ الدِّرَاسَةِ الْمُعْتَرِضَةِ أَعُودُ إِلَىٰ اسْتِكْمَال تَدَبُّر آيَاتِ الدَّرْس الرابع من دُروس سُورة (الدُّخان).

قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المعالَجِينَ فِي السُّورَةِ، وهُمْ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفرِ في مكَّةَ إِبَّانَ التَّنزِيل.

- ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

تُبَّعٌ: لَقَبٌ كان يُطْلَقُ عَلَىٰ مَنْ يَمْلِكُ جَمِيعَ بِلَادِ الْمَنِ، وهِي: «حِمْيَر، وَسَبأ، وحَضْرَمَوْت».

وذُكِرَ أَنَّ كنْيَتَهُ: «أَبُو كَرِب» وَأَنَّ اسْمَهُ: «أسْعَد» وَأَنَّ سُلْطَانَهُ قَدْ عَظُم، وغَزَا بِلَادَ الْعَرَب، ودَخَلَ مَكَّةَ، ويَثْرِب، وَبَلَغَ العِرَاق.

وَذُكِرَ أَنَّ دَوْلَتَهُ كَانَتْ قَبْلَ البِعْثَةِ المحمَّدِيَّةِ بِنَحْوِ أَلْفِ سَنَة، أَوْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ.

وَجَاءَ في مُسْنَدِ الإمام أحْمَد، عَنِ النَّبيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا تُبَّعاً فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ» وفي رِوَايةٍ: «كَانَ مُؤْمِناً».

ويُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِن هَـٰذِهِ الآيَةِ، أَنَّ تُبَّعاً لَمْ يُهْلَكْ مَعَ قَوْمِهِ الْمُجْرِمِينَ.

فَالْمَعْنَىٰ: أَمُشْرِكُو مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بِعِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفْرِ، خَيْرٌ بِتَكْوِينِهِمُ الذّاتِيّ، أَوْ بِقُوَّتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ، مِنْ قَوْم تُبَّع الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَكْثَرَ عَدَداً، وأَحْسَنَ حَضَارَةً، وَأَوْسَعَ عِلْماً، فَأَهْلَكْنَاهُمْ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ، وَمِثْلُهُمُ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ مِنَ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ، قَوْمُ نُوح، وَقَوْمُ هُودٍ، وَقَوْمُ صَالح، وَقَوْمُ لُوطٍ، وَقَوْمُ شُعَيْبٍ، وفِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، كُلُّ هَـٰؤُلَاءِ قَدْ أَهْلَكْنَاهُم لأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمين،

كَفَرُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوا بِيَوْمِ الدِّين، وَكُفَّارُ مَكَّةَ الْمُجْرِمُونَ المعانِدُونَ لَيْسُوا خَيْراً مِنْ هَـٰؤُلَاءِ الْمُهْلَكِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَإِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُهْلِكَهُمْ أَهْلَكَهُمْ، فَسُنَّةُ اللهِ في عِبَادِهِ وَاحِدَة، كُلُّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ وَعَبِيدٌ مِنْ عِبَادِهِ، وَكُلُّهُم مَوْضُوعُونَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

الاسْتِفْهَامُ في العبارَةِ اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ، أَيْ: لَيْسَ كُفَّارُ مَكَّةَ الْمُعَانِدُونَ الْمُجْرِمُونَ، خَيْراً مِنَ الْمُهْلَكِينَ الْكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ السَّابِقِين، فَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهم يُعَرِّضُونَ أَنفُسَهُمْ لِهَلَاكٍ مُنَاظِرٍ لِلْهَلَاكِ الَّذِي أُهْلِكَ بِهِ الْمُجْرِمُونَ السَّابِقُون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُشِيرُ إِلَىٰ تَنَزُّهِهِ جَلَّ جَلَالُهُ عَنِ الْعَبَثِ واللَّعب، فِي خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ والأرْضَ، ولِهَذَا فإنَّ العَقْلَ يَقْضِي بأَنَّ يَوْمَ الدِّين لِلْحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ، مِنَ الْأمورِ الْيَقِينيَّةِ تَقْتَضِيهَا حِكْمَةُ رَبِّ الْعَالَمِين، وَلَوْلَا وُجُودُ يَوْمِ الدِّينِ فِي خُطَّةِ البارئ، لَكَانَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَمِمَّا بَيْنَهُمَا الإنْسُ والْجِنُّ عَمَلاً مِنْ أَعْمَالِ اللَّعَبِ وَالْعَبَث:

- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المقْبُولِ عقْلاً، أَنَّ يَخْلُقَ اللهُ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ الْقَدِيرُ، مَخْلُوقَاتٍ لَهَا إِرَادَاتٌ ذَوَاتُ حُرِّيَّاتٍ، تَفْعَلُ بِهَا مَا تَشاءُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍ، وَظُلْم وَعُدْوَانٍ، وَكُفْر وَعِصْيَانٍ، وَأَنْ يُسَخِّرَ لَهَا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، دُونَ أَنْ يُتَابِعَ الْمُسِيءَ بِالْعِقَابِ بِالعدْلِ، وَالْمُحْسَنَ بِالثَّوَابِ بالْفَضْلِ.

وبِمَا أَنَّ ظُرُوفَ الحياةِ الدُّنْيَا لَا يَتَحَقَّقُ فِيهَا هَـٰذَا الْأَمْرُ الْحَكِيمُ، فَلَا

بُدَّ مِنْ وُجُودِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ غَيْرَ هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ يَتَحقَّقُ فِيها، وَإِلَّا كَانَ هَذا الْخَلْقُ عَمَلاً بَاطِلاً، وَاللهُ الْكَامِلُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ مُنَزَّهٌ عَنْ هـٰذَا الْعَمَلِ الباطِلِ.

فَأَبَان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَمَا بَيْنَهُما حَالَةَ كَوْنِه لَاعِباً، وَأَبَانَ أَنَّهُ مَا خَلَقَهَا إِلَّا بِالحَقِّ، إذْ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِي كَوْنِهِ حقًّا، مُجَازَاةُ الْمُسِيءِ بِالْعَدْلِ وَلَا سِيمَا إِذَا كَانَ فِي إِسَاءَتِهِ ظُلْمٌ لِلْعِبَادِ، وَمُجَازَاةُ الْمُحْسِنِ بِالْمُكَافَاةِ التِي تُرْضِيهِ.

- ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: ولَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا هَـٰذِهِ الحقيقة، لِئَلَّا يَكُونَ عِلْمُهُمْ بِهَا دَافِعاً لهم إلى الإيمان بها، والعمل بِمُقْتَضَاهَا على خلاف ما يُحِبُّونَ من دُنْيَاهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْفَصْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَنَّهُ الميقاتُ الْمُحَدَّدُ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ، لِكُلِّ الموضوعينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء:

- ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾:

بَعْدَ التَّنْبيهِ على أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ حَقٌّ، تَقْتَضِيهِ صِفَة حِكْمَةِ الله الْعَلِيم الْقَدِير عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ ويَخْتَارُ، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ هُنَا، تَقْدِيمُ لَمْحَةٍ تَفْصِيلِيَّةٍ عَنْ يَوْمِ الدِّين، فيها تَرْهِيب للكافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُجْرِمِينَ.

- ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

الْفَصْل: الْفَرْقُ والتَّمْييزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أو الأَشْياء. ويُقَالُ: «فَصَلَ الحاكِمُ بَيْنَ الْخصْمَيْن» أي: قَضَىٰ بَيْنَهما. و«فَصَلَ فُلَانٌ الْأَمْرَ» أي: قَضَاهُ وأَبْرَمَهُ وَبَتَّهُ. وسَمَّىٰ اللهُ هنا يَوْمَ الدِّين: «يَوْمَ الْفَصْل» لِأَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ

وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يَقْضِي فِيهِ بَيْنَ الْعِبَادِ، الْمُحْسِنِينَ وَالمُسِيئين فِي رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، لِيُجَازِيَهُمْ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالٍ.

الْمِيقَاتُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْوقت المعَيَّنِ لِفِعْلٍ مَا. وَعَلَىٰ الْمَوْعِدِ الَّذِي جُعِلَ لَهُ وَقْتٌ مُحَدَّد. . . وَعَلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي حُدِّدَ لِفِعْلِ شَيْءٍ ما.

وَيَوْمُ الدِّينِ المشْتَمِلُ عَلَىٰ مَكَانِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَعَلَىٰ تَحْقِيقِ الْغَايَةِ مِنْ وَضْعِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، هو يَوْمٌ يَكُونُ فِيهِ فَصْلُ الْقَضَاءِ بَيْنَ مُحْسِنِهِمْ وَمُسِيئِيهم.

أَجْمَعِينَ: تَوْكِيدٌ للضَّمِير فِي ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وهـٰذَا الضَّمِير يَعُودُ عَلَىٰ المكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينَ، وَهُوَ يَشْمَلُ فِي الواقِع كُلَّ الموضُوعِينَ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

- ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾:

لَا يُغْنِي: أي: لَا يَكْفِي، ولَا يَصْرِفُ مِمَّا يَقْضِيهِ اللهُ شَيْئاً.

مَوْلًى: أيْ: قَرِيب ـ حَلِيف ـ مُحِبّ ـ نَاصِر.

فالمعنى: يَوْمَ يَكُونُ الْحُكْمُ للهِ وَحْدَه، فَلَا يَكْفِي أَحَدٌ مِنْ دُون اللهِ أَمْراً لِأَحَدٍ، وَلَا يَصْرِفُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً مِمَّا يَقْضِيهِ اللهُ، مَهْمَا كَانَ قَرِيباً، أو مُحِبًّا، أو نَاصِراً.

وَعَلَىٰ فَرْضِ وُجُودِ تَنَاصُرٍ بَيْنَ عِبَادِ اللهِ يَوْمَئِذٍ، فَإِنَّهُمْ لَا يُنْصَرُونَ، إذاً الأمر أَمْرُ اللهِ، والقضاءُ قَضَاؤُه، وهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عباده، وهُو عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.

- ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: إِلَّا مَنْ شَمَلَتْهُ رَحْمَةُ اللهِ بِسَبَبِ إِيمَانِهِ، وصِحَّةِ نِيَّتِهِ بابْتِغَاءِ طَاعَةِ رَبِّهِ فِي بَعْضِ أَعْمَالِهِ، فَقَدْ يَصْرِفُ اللهُ عَنْهُ بعْضَ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ عِقَابٍ عَلَىٰ

مَعَاصِيهِ، فَيَغْفِرُ لَهُ، أَوْ يَعْفُو عَنْهُ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتٍ وَكَبَائِرَ كَانَ قَدِ ارْتَكَبَهَا فِي الحياة الدُّنيا.

أَمَّا مَنْ مَاتَ كافِراً وَلَوْ بالشِّرْكِ، فإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا تَشْمَلُهُ لِنَجَاتِهِ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النار، لِقَوْلِ اللهِ تبارَكَ وَتَعَالَى، في سُورَةِ (النِّسَاء/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾:

وَبَدَهِيٌّ أَنَّ الشِّرْكَ أَخفُّ دَرَكَات الكُفْرِ وَأَهْوَنُها، والشِّرْكُ نَفْسُهُ ذُو دَرَكَاتٍ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، وأَخَفُّ الشِّرْك عِبادَةُ غَيْرِ اللهِ بِقَصْدِ التَّقَرُّبِ إِلَىٰ اللهِ زُلْفَى، وَهٰذَا كُفْرٌ باللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ.

وجاءَ في آخِرِ الآيَةِ وَصْفُ اللهِ بأَنَّهُ هُو وَحْدَهُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ بِعِزَّته الْغَالِبَةِ يَجزِي بِالْعَدْلِ، مَنْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَجْزِيَهُ بِالْعَدْلِ، وَبِرَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ يَجْزِي بِالْفَضْلِ وبالْعَطَاءِ الْجَزْل، مَنْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَجْزِيَهِ بِهِ، بِشَرْط أَنْ يَكُونَ قَدْ مَاتَ مُؤْمِناً مُسلِماً.

الْعَزِيز: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ الَّتِي لَا تَصُدُّها قُوَّة.

الرَّحِيم: ذُو الرَّحْمَةِ العظيمة الواسِعَة الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ.

ودَلَّ عَلَىٰ الْحَصْرِ تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنَاد مَعَ التوكيد بِضَمِيرِ الْفَصْل فِي: ﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الدُّخان)

الآيات من (٤٣ ـ ٥٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٥٧)﴾.

القراءات:

(٤٥) • قرأ ابن كثير، وحفْص، ورُوَيس: **[يَغْلِي]** وَصْفاً لـ «طعام». وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تَغْلِي]** وَصْفاً لـ «شَجَرَة».

(٤٧) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عامر، ويَعْقُوب: **[فَاعْتُلُوهُ]** بِضَمِّ التاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَاعْتِلُوهُ]** بِكَسْر التاء. والقراءتان لغتان عَرَبِيّتان.

(٤٩) • قرأ الكِسَائِي: **[ذُقْ أَنَّكَ]** أي: لِأَنَّكَ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[ذُقْ إِنَّكَ]** على الابتداء، والْجُمْلَةُ كُلُّها هِي على مَعْنَى التعليل لِنُزُول العذاب به.

(٥١) ● قرأ نافع، وابْن عامر، وأبو جَعْفر: **[مُقَام]** مِنْ فِعْلِ «أَقَامَ» وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مَقَام]** مِنْ فعل «قَامَ».

(٥٢) ● قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكْوَان، وشُعْبَة، وحمزة، والكسائي: **[وَعِيُونٍ]** بِكَسْرِ الْعَين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَعُيُونٍ]** بِضَمّ العيون. وهما لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

تَمْهِيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْس بيانٌ عَنْ شَجَرَةِ الزَّقُّوم في الجحيم، الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا طَعَام الْأَثِيمِ الْغَالي في جرائِمِهِ وآثَامِهِ.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدَيْن مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّين:

المشْهَدُ الْأَوَّل: يَتَضَمَّنُ بَيَانَ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ عَذَاب الْكَافِرِ الْمُجرِمِ في الْجَحِيم.

المشْهَدُ الثَّاني: يَتَضَمَّنُ بَيَانَ بَعْضِ نَعِيمِ المتَّقِينَ فِي جَنَّاتِ النعيم، في مُقَابِلِ بَيَانِ بَعْضِ عَذَاب الْكَافِرِين الْمُجْرِمِين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَرْهِيبَ المكَذِّبين بِيَوْمِ الدِّين، بما أُعِدَّ لَهُمْ من طَعَامٍ يأكلونه في الجحيم:

● ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾:

سَبَقَ في الملْحَق الثاني لِتَدَبُّر سُورَةِ (الواقعة/٤٦ نزول) دِراسَة شَامِلَة

لِكُلِّ مَا جَاءَ في القرآن بشَأْنِ شَجَرَة الزَّقّوم[١].

شَجَرَةُ الزَّقُّوم: صِنْفُ شَجَرٍ في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمِين، لَهُ ثَمَرٌ يَأْكُلُ مِنْهُ الْأَثيمون اضطراراً لِشِدَّةِ جُوعِهِمْ وَعَدَمِ وُجود شيءٍ آخَرَ أَهْوَن مِنْهُ يَأْكُلُونه.

- ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: هو المسْرِفُ الْغَالِي في ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ والْآثَامِ، مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر، فَهُو يَخْتَصُّ بِالْكَافِرِ الْفَاجِر الّذِي كانَ في الحياة الدُّنيا حَيَاةِ الامْتِحَانِ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدّين، وبِكُلِّ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَجْرِي فِيهِ.

أي: إنَّ طَعَامَ الكَفَرَةِ الْمُكَذِّبِينَ بِيَومِ الدينِ المسْرِفين الْغُلَاةِ فِي ارْتكابِ الآثام، يَكُونُ مِنْ صِنْفِ شَجَرٍ يُنْبِتُهُ اللهُ فِي الجحيم اسمه «الزَّقُّوم».

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَأْكُلُهُ هؤلاءِ مِنْ هـٰذَا الصِّنْفِ مِنَ الشَّجَرِ بِقَوْلِهِ:

- ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: فالمأكُولُ مِنْهُ كالمُهل، وَإِذَا دَخَلَ فِي بُطُونِ آكليه صارُوا يَشْعُرُون بأنَّه يَغْلِي فِيها كَغَلْيِ الماء الحارّ.

الْمُهْل: يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَىٰ الْقَطِرَانِ السَّائِلِ، والْمَعْدِنِ الذَّائِب، وَدُرْدِيّ الزّيت (أي: عَكَرِ الزَّيْت).

يَغْلِي: أي: يَفُورُ مِنْ شِدَّةِ الحرارة، يقال لغة: «غَلَتِ الْقِدْرُ، تَغْلِي، غَلْياً وغَلَيَاناً» أي: فَارَت، وطَفَحَتْ بِقُوَّة الحرارة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِفُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ الْأَثِيم وَهُوَ يُجَرُّ إِلَىٰ وَسَطِ

---

(١) انظر هذا المحلّق في المجلّد الثامن في الصحفات من (٥٢٥ ـ ٥٤٠).

الْجَحِيم، وَتُؤْمَرُ مَلَائِكَةُ التَّعْذِيب بِصَبِّ الْمَاءِ الَّذِي يَغْلِي فَوْقَ رَأْسِهِ:

- ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

هٰذَا الْبَيَانُ مُقْتَطَعٌ اقْتِطَاعاً مِنَ الْحَدَثِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّين، وَفْقَ الْأُسْلُوب القرآنِيِّ في الاقْتِطاع مِنَ الماضِي أو المستقبل، وَهُوَ مِنْ رَوائِعِ الاخْتِيَارَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الإبْدَاعِيَّةِ.

سَوْفَ يُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ المكلَّفِينَ أنْ يُوصِلُوا الْأثِيمَ إِلَىٰ دَرَكَةِ عَذَابِهِ في الْجَحِيم:

- ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾: أي: خُذُوهُ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَنْتَظر فِيهِ تَنْفِيذَ قَضَاءِ اللهِ بِشَأْنِهِ، وَهُوَ تَعْذِيبُهُ فِي دَرَكَةِ عَذَابِهِ فِي الْجَحِيم، فَجُرُّوهُ جَرّاً عَنِيفاً مَسْحُوباً عَلَىٰ مَا يُلاقِي جِسْمُهُ مِنْ أَرْضِ الْمَحْشَر.

يُقَالُ لغة: «عَتَلَهُ، يَعْتِلُهُ، وَيَعْتُلُهُ، عَتْلاً» أي: جَرَّهُ جَرّاً عَنِيفاً، وَجَذَبَهُ، وَحَمَلَهُ كَمَا تُحْمَلُ الْأَشْيَاءُ الْمَهِينَة.

وَلَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ المتَدَبِّرُ مَا فِي هٰذَا الْعَتْلِ مِنْ إِهَانَةٍ وَتَحْقِيرٍ وإذْلَالٍ وَتَعْذِيب.

- ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: وَأَوْصِلُوهُ إِلَىٰ وَسَطِ الْجَحِيم واطْرَحُوه، قَالَ الزَّجَّاج: سَوَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ.

- ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾: دَلَّ حَرْفُ الْعَطْف «ثُمَّ» عَلَىٰ وُجُودِ فَاصِلٍ بَعِيدٍ بَيْنَ مَكَانِ انْتِظَارِه فِي الْمَحْشَرِ، وَمَكَانِ تَعْذِيبِهِ فِي وَسَطِ الْجَحِيم.

الجحيم: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّار، وَكُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْوَاةٍ تُسَمَّىٰ جَحِيماً.

- ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾: أي: مِنَ الْمَاءِ الْحَارِّ الَّذِي يَغْلِي، وفيه تَعْذِيبٌ لَهُ. وَلَمَّا كَانَ الْغَرَضُ مِنْ صَبِّ الْحَمِيم فَوْقَ رَأْسِهِ إِيصَالَ الْعَذَابِ إِلَيْهِ، كَانَ التَّعْبِيرُ بالصَّبِّ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيم، أَوْلَىٰ مِنَ التَّعبير بالصَّبِّ مِنَ الْحَمِيمِ الّذِي فِيه عَذَابٌ لَهُ، والإضَافَةُ فِي: ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ هِيَ على تقدير حَرْف «مِنْ» أَيْ: مِنْ عَذَابٍ مِنَ الْحَمِيم.

- ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾: أي: يُقَالُ لَهُ مَعَ صَبِّ الْمَاءِ الْحَمِيم الَّذِي يَغْلِي فَوْقَ رَأسِهِ الّذِي يَعُمُّ بَدَنَهُ وَهُوَ قَائم: ذُقْ هٰذَا الْعَذَابَ الأَلِيمَ الَّذِي سَبَّبَهُ لَكَ كُفْرُكَ بِمَا جَاءَكَ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، إِذْ كُنْتَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ فِي الحياة الدُّنْيا.

وكُفْرُكَ الْعِنَادِيُّ، وَجُحُودُكَ الْحَقَّ سَبَّبَهُ لَكَ تَوَهُّمُكَ أَنْتَ وَحْدَكَ الْعَزِيزُ الْكَريم، فَلَا يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَتَّبِعَ رَسُولاً مِنْ عِنْدِ رَبِّك، وَأَنْ تَعْمَلَ بِكِتَابٍ أَنْزَلَهُ، لِيَعْمَلَ عِبَادُهُ المكَلَّفُونَ بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ بَيَانَاتٍ لَهُمْ، وَأَوَامِرَ وَنَوَاهِيَ، وَلِيَسِيرُوا عَلَىٰ صِرَاطِهِ المستقيم.

الْعَزِيزُ: أَي: الْقَوِيُّ الغالب.

الكَرِيم: أي: الجامِعُ لِأَحْسَنِ صِفَاتِ الرِّجَالِ.

هَكَذَا كَانَ يَتَوَهَّمُ ذَاتَهُ، مِنْ شِدَّةِ غَلَيَانِ عَوامِلِ الْكِبْرِ بِنفْسِهِ، والإعجابِ بِصِفَاتِه، إذْ كَانَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحياة الدُّنْيا.

فَيُقَالُ لَهُ هٰذَا عَلَىٰ سَبِيلِ التَّوْبِيخِ والاسْتِهْزَاءِ، كَمَا كَانَ يَسْتَهْزِئُ بِعِبَادِ اللهِ، وَيَسْتَهِينُ بِهِمْ، وَيَحْتَقِرُهُمْ.

جاء فِي سَبَبِ النُّزُولِ مَا أَخرجَ ٱبْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ أَبُو جَهْلٍ بِرَسُول الله ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ، فَلَمَّا بَعُدَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ».

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو جَهْلٍ قَال: مَنْ تُوعِدُ يَا مُحَمَّد؟.

قال: إِيَّاكَ.

قال: بِمَ تُوعِدُني؟

قَالَ: «أُوعِدُكَ بالْعَزِيزِ الْكَرِيم».

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَلَيسَ أَنَا الْعَزِيزُ الْكَرِيم.

فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآيَات من (٤٣ ـ ٤٩) من سورة (الدُّخان/ ٦١ نزول).

حَصَرَ أَبُو جَهْلٍ وَصْفَي الْعَزِيزِ الْكَرِيم بنفسه بِتَعْرِيفِهِ طَرَفَي الإِسْنَادِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُقَالَ لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ، وَهُوَ يُعَذَّبُ بالْحَمِيم في الجحيم: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، إِهَانَةً وَإِذْلالاً وَتَحْقِيراً وَاسْتِهْزَاءً به.

- ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾: بَعْدَ تَعْذِيب الْأَثِيمين أفراداً، وَخِطَابِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِصُورَةٍ إِفْرادِيَّة خِطَابُ إِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ وَتَحْقِيرٍ وَاسْتِهْزَاءٍ بِهِ، يُوَجَّهُ لَهُمْ خِطَابٌ عَامٌّ، وَهُمْ مُجْتَمِعُون، إِنَّ هٰذَا الْعَذَابَ الَّذِي تَذُوقُونَهُ الْآنَ فِي الْجَحِيم، هُوَ مَا كُنْتُمْ بِهِ فِي رِحلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تُجَادِلُونَ مُكَذِّبِينَ بِهِ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّكُمْ بِجِدَالِكُمْ تُغَيِّرُونَ مِنَ الْوَاقِعِ الْحَقِّ شَيْئاً.

تَمْتَرُونَ: أي: تُجادِلُونَ عَلَىٰ مَذْهَب الشَّكِّ والرِّيبَةِ، لِإِبْطَالِ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّكُمْ، مَعَ أَنَّهُ لَا مِرْيَةَ فِيهِ، أي: لَا شَكَّ فِيهِ.

الْمِرْيَةُ: الْجَدَلُ ـ والشَّكُّ. يُقَالُ لُغَةً: «مَا رَاهُ، مُمَارَاةً، وَمِرَاءً» أي: جَادَلَهُ ونَاظَره. ويقال: «تَمَارَىٰ الْقَوْمُ» أي: تَجادَلُوا.

و«التماري، والْمُمَارَاة» المجادَلَةُ عَلَىٰ مَذْهَبِ الشَّكِّ والرِّيبَةِ، لَا عَلَىٰ مَذْهَبِ الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِّ بُغْيَةَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ والاعْتِرَافِ بِهِ.

يُقَالُ لِلْمُنَاظَرَةِ: «مُمَارَاة» لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ المتَنَاظِرِينَ يَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَ صَاحِبِهِ وَيَمْتَرِيهِ، كَمَا يَمْتَرِي الْحَالِبُ اللَّبَنَ مِنَ الضَّرْعِ.

وأَصْلُ المادَّةِ تَدُور حَوْلَ اسْتِخْرَاجِ الشَّيْءِ بالْمُلَايَنَةِ والإيناسِ، وَمِنْهُ الْمَسْحُ عَلَىٰ ضَرْعِ النَّاقَةِ لِتَأنَس، فَيَدُرَّ لَبَنُها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتْبِعُ التَّرْهِيبَ لِلكَفرَةِ المُكَذِّبِينَ الْأَثِيمِين، بِالتَّرْغِيبِ للمؤمنينَ المتَّقِينِ، الَّذِينَ يُؤَدُّونَ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَيَجْتَنِبُونَ مَا حَرَّمَ:

• ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾:

• ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: **[فِي مُقَامٍ]**.

الْمُتَّقُون: هُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، وهي ذَاتُ دَرَجاتٍ، أَعْلَاهَا دَرجَةُ الَّذِينَ يُؤَدُّون كُلَّ الْوَاجِبَاتِ وَيَتْرُكُونَ كُلَّ المُحَرَّمَاتِ، أَوْ يَكُونُونَ مِنْ أَهْلِهَا بالاسْتِغْفَار والتوبَةِ والْعَفْو والْغُفْرَان. وَأَدْنَاهَا دَرجَةُ الَّذِينَ يَقُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ بالإيمان والإسلامِ الصَّحِيْحَيْنِ الصَّادِقَيْنِ، مَعَ عَمَلٍ صَالِحٍ يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِما.

وفَوْقَ المتَّقِينَ «الْأَبْرَار» وهم أَهْلُ مَرْتَبَةِ «الْبِرّ» وهي ذَاتُ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَات، **والْبِرُّ**: هُوَ التَّوَسُّعُ في أَعْمَالِ الْخَيْرِ المرضِيَةِ للرَّحْمٰن، من نَوَافِلِ العبادَات والْقُرُبَات، ذَوَاتِ الثِّقَلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمِيزان.

وَفَوْق الأبْرَار «الْمُحْسِنُونَ» وَهُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ «الإحْسَان» وهي أيضاً ذَاتُ دَرَجاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، **والإحْسَانُ**: إتْقَانُ الْعَابِدِ عِبادَتَهُ لِرَبِّهِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ بِعَيْنَيْه، يَزِيدُ فِي تَجْوِيدِهَا وَتَحْسِينِهَا لِنَيْلِ رِضْوَانِهِ الْأَعْظَم.

وَقَدْ وَعَدَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَهْلَ الْمَرْتَبَةِ الدُّنْيا: «مَرْتَبَةِ المتَّقِينَ» مِمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي هـٰذَا النَّصّ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الأبْرَارَ والمُحْسِنِينَ مُتَّقُونَ وَزِيَادَة، فَلَا بُدَّ أَنَّ يَكُونَ لَهُمْ مِثْلُ مَا لِلْمُتقِين وَزِيَادَة.

- ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أو ﴿فِي مُقَام أَمِينٍ﴾ **مَقَام**: مَكَانُ قِيَام. **وَمُقَام**: مَكَانُ إِقَامَة. وَكُلٌّ منْ مَكَانِ القيامِ وَمَكَانِ الإقَامَةِ مَوْصُوف بِأَنَّهُ أَمِين.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجَنَةَ يَوْم الدِّينِ دَارُ أَمْنٍ شَامِلٍ، فَلَا خَوْفَ فيها مِنْ شَيْء، وَلَا خَوْفَ فِيها عَلَىٰ شيءٍ، بَلْ كُلُّ مَا يَطْلُبُ أَهْلُهَا فِيها يَحْصُلُ لهم، لَهُمْ فِيها مَا يَدْعُونَ، وَهِي سَلَامٌ دَائِم بِكَلِمَةِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيَّة.

- ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾: أي: يَكُونُ المتَّقُونَ يَوْمَ الدِّينِ فِي مَكَانِ قيامٍ أَمِين، وَفِي مَكَان إِقَامَةٍ دَائِمَةٍ أَمِينٍ، ضِمْنَ مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ جَنَّاتٍ كثيراتٍ، وَعُيُونِ مَاءٍ وَفِيراتٍ، تَتَحقَّقُ بها أنواعُ السَّعَادَات.

إِنَّ دَارَ النَّعِيم الْجَنَّةَ يَوْمَ الدِّينِ ذَاتُ أَقْسَامٍ كثيراتٍ جِدّاً، كُلّ قِسْمٍ مِنْهَا جَنَّةٌ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ كُلّ الصِّفَاتِ المطْلُوبَةِ في جَنَّاتِ النعيم، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنَ التَّفَاضُلِ فِيمَا بَيْنَهَا بِحَسَبِ اسْتِحْقَاقَاتِ نُزَلَائِها، الَّذِينَ تَفَضَّلَ اللهُ عَلَيْهِمْ بأنْ يَكُونُوا مِن أَهْلِهَا بِالإيمانِ وَالْعَمَلِ الصَّالح.

جَنَّاتٍ: جَمْعُ «جَنَّة» وهي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أشْجَارٍ وثمارٍ وزُرُوع وأنْهَارٍ وَقُصُورٍ، وكُلّ مَا يُمْتِعُ النَّفْسَ والْحَوَاس، وَجَنَّاتُ يَوْمِ الدِّين، فِيها النَّعِيمُ الأبَدِيُّ الخَالِدُ، وفيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَر.

وعُيونٍ: هِي عُيُونُ الْمَاءِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ الأَشْجَارِ والْقُصُورِ، إسْعَاداً لِأَهْلِ الْجَنَّة.

- ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

سُنْدُس: نَوْعٌ مِنَ الثياب الرَّقِيقَةِ النَّاعِمَةِ المنْسُوجَةِ مِنَ الْحَرِيرِ، وهِي مِنْ أصْنَافِ «الدِّيبَاج» وتُلْبَسُ غَالِباً مُلَاصِقَةً لِلْبَدَن.

اسْتَبْرَق: نَوْعٌ مِنَ الثياب الْغَلِيظَةِ المنْسُوجَةِ مِنَ الْحَرِير، وهي مِنْ أصْنَافِ «الدِّيباج» أيْضاً، وتُلْبَسُ فَوْقَ ثِيابٍ مِنْ سُنْدُسٍ.

أَقُولُ: ذِكْرُ ثِيابٍ مِنْ سُنْدُسٍ، وَثِيابٍ مِنْ اسْتَبْرَقٍ مِنْ قَبِيلِ التَّقْرِيب إلىٰ الأذْهان، لِأنَّ مَا فِي الْجَنَّةِ أنْفَسُ مِنْ كُلِّ مَا فِي الدُّنيا، بِدَرَجَاتٍ كثيراتٍ جدًّا.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المتَّقِين فِي الْجَنَّةِ بِأَنَّ لَهُمْ مَجالِسَ يَكُونُونَ فِيها مُتَقَابِلِينَ، وَجاءَ فِي نَصٍّ غَيْرِ هَذَا بَيَانُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا.

فَدَلَّ هـٰذَا عَلَىٰ أنَّ المتقين في الْجَنَّةِ لَهُمْ مَجَالِسُ أُنْسٍ وَسُرُور وَأَحَادِيث تَزِيدُ فِي نَعِيمهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أفْهَمُ مِنْ هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ هُنَا أَنَّ أَهْلَ مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ هُم فَوْقَ المتَّقِينَ، وأَهْلَ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ الّذِينَ هُمْ فَوْقَ الْأَبْرَارِ لَهُمْ كالَّذِي هُوَ لِلْمُتقِين، مَعَ زِيَادَاتٍ تُلَائِمُ دَرَجَاتِهِم فِي مَرَاتِبِهِمْ، لِأَنَّهُمْ مُتَّقُونَ وَزِيَادَة، وَجَاءَتِ الْعِبَارَة فِي غَايَةِ الإيجاز الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ الْمُرَادُ بِهَا مِنَ السِّبَاقِ وَمِنَ السِّيَاقِ وَمِنَ التَّدَبُّرِ الْعَمِيق.

- ﴿... وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾: أي: وَقَرَنَّاهُمْ بِزَوْجَاتٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ.

حُور: جَمْعُ «حَوْرَاء» وهي مِنَ النِّسَاءِ الْبَيْضَاء.

عِين: جَمْعُ «عَيْنَاء» وهي ذَاتُ الْعَيْنِ الحسَنَةِ الْوَاسِعَة.

- ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾: أيْ: يَطْلُبُونَ فِي

الْجَنَّاتِ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ يُرِيدُون أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا، فَيَأْتِيهِمْ بِهَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ الْغِلْمَانُ الْمُخَلَّدُونَ، دُونَ إِبْطَاءٍ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ آمِنِينَ مِنْ أَنْ يُؤْذِيَهُمْ الأَكل مِنْهَا مَهْمَا أَكَلُوا، وَحَالَةَ كَوْنِهِمْ آمِنِينَ مِن انْقِطَاعِها، لِأَنَّ فَوَاكِهَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّين لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَة.

يُقَالُ لُغَةً: «دَعَا بِالشّيءِ» أي: طَلَبَ إِحْضَارَه.

- ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾:

حِينَ كَانَ الإِنْسَانُ فِي رَحِمِ أُمِّهِ قَبْلَ أَنْ يَنْفُخَ الْمَلَكُ فِيهِ الرُّوحَ بأَمْرِ الله، كانَ ذَا نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ غَيْرِ مُتَّصِلَةٍ بالرُّوحِ فَهِيَ نَفْسٌ إِنْسَانِيَّةٌ مَيّتَة، وقَبْلَ ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ نَفْساً تُوصَفُ بِالْمَوْتِ، والمَوْتُ الّذِي تَكُونُ فِيهِ كَانَ مُصَاحِباً لِلنَّشْأَةِ، لَمْ تَذُقْهُ النفس.

وَبَعْدَ نَفْخ الرُّوح فِيهَا صَارَتْ نَفْساً إِنْسَانِيَّةَ حَيَّةً.

وَحِينَ يأتي أَجَلُ فَصْلِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ تَذُوقُ هَـٰذِهِ النَّفْسُ الْمَوْتَ، بِمُفَارَقَةِ الرُّوح لها، وَلِهَـٰذَا قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (آل عمران/ ٨٩ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ... ﴿١٨٥﴾﴾.

وَيَوْمَ الْبَعْثِ تَعُودُ الرُّوحُ إِلَىٰ النَّفْسِ الإنْسَانِيّة، فَتَعُودُ للإِنْسانِ الحياة، وَتَبْقَىٰ هـٰذِهِ الْحَيَاةُ خَالِدَة لَا تَتَعَرَّضُ مَعَهَا النَّفْسُ لِأَنْ تَذُوقَ الْمَوْتَ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

فأَهْلُ الْجنَّةِ فِي الْجَنَّةِ لَا يَذُوقُونَ الموْتَ أَبَداً، وَكَذَٰلِكَ قَبْلَ أَنْ يَدْخلُوا الْجَنَّةَ، لَا يَذُوقُون الْمَوْتَ بَعْدَ الْبَعْثِ، إِنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَ الإِحْسَاسَ بالْمَوْتِ إِلَّا عِنْدَ انْفِصَالِ الرُّوح بَعْدَ الأَجَلِ الَّذِي عَاشُوهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، هَـٰذِهِ هِي الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ فِي وُجُودِهِم الَّتِي ذَاقُوا الْمَوْتَ بِهَا.

فَلَا تَعَارُضَ فِي الْبَيَانَاتِ القرآنية، وَباسْتِطَاعَتِنَا أن نَفْهَمَ العبارة القرآنيّة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

لَا يَذُوقُونَ فِي الْجَنَّةِ الْمَوْتَ، لَا يَذُوقونَ الْمَوْتَ فِي وجُودِهِمْ إِلَّا ذَوْقَ الْمَوْتَةِ الْأُولَىٰ الَّتِي ذَاقُوا فِيها الإحْسَاسَ بانْفِصَالِ أَرْوَاحِهِمْ عَنْ نُفُوسِهِمْ.

أَمَّا الْمَوْتَةُ السَّابِقَةُ لَهَا فَقَدْ كَانَتْ مُصَاحِبَةً لِنَشْأَتِهِمْ، لَمْ يَذُوقُوا فِيها طَعْمَ الموْتِ.

إِنَّ الْمَوْتَةَ الْأُولَى الَّتِي ذَاقُوا فِيها طَعْمَ الْمَوْتِ وَأَحَاسِيسَهُ، هِيَ مَا كَانَ بَعْدَ الْحَيَاةِ الْأُولَىٰ فِي الدُّنيا.

ويُمْكِنُ أَنْ نُقَدِّرَ الْعِبَارَة كَما يلي: لَا يَذُوقُونَ فيها الموْتَ، لَا يَذُوقُونَ إِلَّا مَوْتَةَ الْحَيَاةِ الْأُولَىٰ.

وأَرَىٰ أن عِبَارَة ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بَدَلٌ مِنْ عِبَارَة: ﴿فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ وهو مِنَ الْبَدَلِ الْمُبَايِنِ، مَع قَصْدِ كُلٍّ مِنَ الْبَدَلِ والْمُبْدَلِ مِنْهُ، ونظيرُهُ ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ فَمَا بَعْدَ «إِلَّا» بَدَلٌ مِنْ عِبَارَة ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾.

• ﴿... وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾: أي: وَوَقَىٰ اللهُ المتقين علَىٰ اخْتِلَافِ دَرَجاتِهِمْ عَذَابَ الاحْتِرَاقِ بِنَارِ الجحيم، فالْجَحِيم اسْمٌ للنّارِ العظيمة، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ لَهُمْ عَذاب فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ غَيْرُ عَذَابِ الْحَرِيق بالنَّارِ، وَهَٰذَا يَلْتَقِي مَعَ قولِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (اللَّيل/ ٩ نزول):

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾:

أي: لَا يُعَذَّبُ بالْحَرِيقِ فِيها إِلَّا الْأَشْقَىٰ، وَهُوَ الَّذِي كَذَّبَ رَسُولَ رَبِّهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ رَبّه، فَكَانَ بِذَلِكَ كَافِراً.

• ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧﴾: أي: يَنَالُ المتَّقُونَ عَلَىٰ تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِم هٰذَا الثوابَ العظيم فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، بِفَضْلٍ يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، لَا بِعَمَلِهِمْ، فَعَمَلُهُمْ لَا يَصْلُح لِأَنْ يَشْكُرُوا بِهِ رَبَّهُمْ عَلَىٰ أَقَلِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِم، وَلَكِنَّ شَرْطَ هٰذَا التَّفَضّلِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَبِهِمْ وَيُعْلِنُوا إِسْلَامَهُمْ لَهُ مُنْقَادِينَ، غَيْرَ جَاحِدِينَ وَلَا مُشْرِكِينَ.

الْفَوْزُ: النّجاةُ والرِّبْحُ، وَوَصَفَهُ اللهُ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ، لِأَنَّهُ خَلَاصٌ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار، وَظَفَرٌ أَبَدِيٌّ بِالْخُلُودِ السَّعِيدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الخامس من دُرُوس سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التّدبّر التحليليّ للدّرس السّادس من دُروس سُورة (الدُّخان) الآيتان (٥٨) و(٥٩) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُخَاطِبُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ٥٩﴾.

تَمْهِيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْس يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ، بِشَأْنِ القرآن وَتَيْسِيرِه بِلِسَانِهِ الْعَرَبِيّ، وَإِلْمَاحٌ بِبِشَارَتِهِ بِأَنَّهُ مَنْصُورٌ بِنَصْرِ اللهِ لَهُ، وَبِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ المعَانِدِينَ مَخْذُولُون، وبِأَنَّ اللهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لرسولِهِ محمّد ﷺ:

- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾:

هٰذِهِ الآيَةُ مَوْصُولَةٌ بِمَا جَاءَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ عَنِ الْقُرْآن، فَتَكُونُ رَابِطَةً لِآخِرِ السُّورَةِ بأَوَّلِهَا، ومَوْصُولَةٌ بالْحَدِيثِ عَنِ الْمُعَالَجِينَ فِي السُّورة، وهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْك إِبَّانَ التَّنْزيل، باعْتِبَارِ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بالْقُرآنِ كِتَاباً مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ، مع أَنَّهُ أنْزِلَ بِلِسَانِهِمْ، فَهُمْ أَوْلَىٰ النَّاسِ بالتَّبَصُّرِ بِهِ، وَفَهْمِ دَلَالَاتِهِ، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، والافْتِخَارِ بِهِ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ نُنْزِلَ الْقُرْآنَ مُيَسَّراً بِلِسَانٍ آخرَ غَيْر لِسَانِكَ وَلِسَانِ قَوْمِكَ الْعَرَبِيّ، وَلَكِنْ مَا يَسَّرْنَاهُ إِلَّا بِلِسَانِكَ الْعَرَبِيِّ وَهُوَ لِسَانُ قومِكَ، وَلَا سِيما قُرَيشٌ الَّذِينَ كَفرَتْ بِهِ أَئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ، وَقَدْ كَانَ الواجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَيَتَدَبَّرُهُ، وَيَفْتَخِرُ بِهِ.

لِسَانُ الْقَوْمِ: كَلَامُهُمْ وَلُغَتُهُمْ الَّتِي يَنْطِقُونَ بِها للتَّعْبِيرِ عَمَّا يُرِيدُونَ التعبير عنه.

- ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾: أي: خَصَصْنَا تَيْسِيرَهُ وتَسْهيل فَهْمِهِ بِلِسَانِكِ ولِسَانِ قَوْمِكِ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرُوا بَيَانَاتِهِ، عِنْدَ المناسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، والدَّعْوَةِ إِلَيْهَا بَيْنَ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَىٰ فَهْمِهَا وَتَدَبُّر مَعَانِيها، وهٰذَا شَرَفٌ عَظِيمٌ لَهُمْ.

لَعَلَّ: أَصْلُ مَعْنَاهَا التَّرَجِّي، وحِينما تَكُونُ صَادِرَةً عَنِ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فإنَّ مَعْنَىٰ التَّرَجِّي فِيها يُحْمَلُ عَلَىٰ لَازِمِهِ، وهي الرغْبَةُ فِي الشَّيْءِ والرِّضَا عَنْهُ، فالْمَرْجُو مِنَ الْأَشْيَاءِ الحسَنَةِ، مَرْغُوبٌ فِيه، وَيُسْتَقْبَلُ بالرِّضَا.

وتأْتِي كَلِمَةُ «لَعَلَّ» للتَّعْلِيلِ، وَلازِمُ التَّرَجِّي هُنَا أَوْلَىٰ.

وفِعْلُ «يَتَذَكَّر» وَتَصارِيفُهُ وَمَصْدَرُهُ اسْتُعْمِلَ فِي القرآنِ للدَّلالَةِ علَىٰ الْأَثَرِ النَّفسيّ والْقَلْبِيّ لحضُورِ المعْلُومَةِ فِي الذَّاكِرَةِ، اسْتِدْعَاءً مِنْ مَخَازِنِ الْمَعْرِفَةِ فِي دَاخِلِ الإنْسَان، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لَهَا مِنَ الْخَارِجِ، عَنْ طَرِيقِ بَيَانٍ وَارِدٍ، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيّ ذَاتِيّ، أَوْ بتَأْثِير حَدَثٍ، أَوْ ظاهِرَةٍ كَوْنِيَّةٍ، أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ، فَصَارَ هَـٰذَا المرادُ بِمَثَابَةِ مُصْطَلَحٍ قُرْآنِيٍّ كَمُصْطَلَحَاتِ الصَّلاةِ والزَّكَاةِ وَالصِّيام فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعَانِيهَا الدِّينيَّة. وهـٰذَا الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ هُوَ المطْلُوبُ الدِّينِيُّ مِنَ الذِّكْرِ والتَّذَكُّرِ واكْتِسَاب المعارِف الدينيَّة، وهُوَ دافِعٌ لِلسُّلُوكِ الدِّينيِّ الْمُلَائِمِ لَهُ، والمطلُوبِ فيه، مَا لَمْ يُوجَدْ مانِعٌ نَفْسِيٌّ مِن ذٰلِكَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ فِي آخِرِ السُّورَةِ، يُبَشِّرُهُ بأَنَّهُ مَنْصُورٌ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بِصُورَةِ إِلْمَاحِيَّة غَيْرِ صَرِيحَة، وفيها إِلْمَاحٌ بأنهُمْ مَخْذُولُونَ:

● ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾: أي: فانْتَظِرْ يَا مُحَمَّد مَا سَنَفْعَلُهُ بِشَأْنِ هَـٰؤُلَاء، وكَيْفَ نُعَاقِبُهُمْ وَنَنْصُرُكَ وَنَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ مَعَكَ عَلَيْهِمْ.

«رَقَبَ الشَّيْءَ» انْتَظَرَهُ، يُقَالُ لُغَةً: «رَقَبَهُ، يَرْقُبُهُ، رَقْباً، وَرُقُوباً، وَرَقَابَةً» أي: انْتَظَرَه.

«وارْتَقَبَ الشَّيْءَ» أي: انْتَظَرَهُ انْتِظَاراً مَصْحُوباً بِتَكَلُّفٍ وشِدَّةِ مُلَاحَظَةٍ، أَخْذاً مِنْ تاء الافْتِعَالِ فِي فِعْلِ: «ارْتَقَب».

● ﴿... إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾: أي: إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ بِتَدْبِيراتِهِمْ وَمَكَايِدِهِم أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْكَ ومِن الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ. أو مُرْتَقِبُونَ رَيْبَ الْمَنُونِ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْكَ وَمِنْ دَعْوَتِكَ، وهَـٰذَا مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَولِهِ فِي سورة (الطُّورِ/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

رَيْبُ الْمَنُونِ: حَوَادِث الدَّهْرِ الْمُمِيتَة. **والمنونُ**: الموت. يقالُ: هو المنون، وهِيَ المنون.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرْس الْأَخِير مِنْ دُرُوسِ سورة (الدُّخان).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

ملحق: مُستخرَجات بلاغية من سورة (الدُّخان)

تشتمل سورة (الدُّخان) على اختيارات بَلاغيَّة مُتَعَدِّدة، مِنْها ما يلي:

أوّلاً: الاسْتِقْطَاع مِمَّا سَوْفَ يَجْرِي يَوْمَ الدِّينِ وتقديم البيان كَأَنَّهُ يَجْرِي عند التكلّم

ومن أمثلة هذا الْفَنِّ القرآنِيِّ الإبْدَاعِيِّ ما في الآيَاتِ مِنْ (٤٧ ـ ٥٠) في السّورة، وهي قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها بِشأنِ الْكَافِرِ الْأَثِيم، وتَكْلِيفِ مَلَائِكَةِ الْعَذَاب أَنْ يأخذوه إلى وَسَطِ الْجَحِيم:

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثانياً: الإيجاز بالحذف

وفي هذه السورة عِدَّةُ أَمْثِلَةٍ مِنْه:

المثال الأوّل: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في مُعَالَجَةِ المشْرِكِينَ وإقناعِهم بالتوحيد:

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦﴾.

أي: هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُوابِهِ شَيْئاً ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦﴾ بِهَـٰذِهِ الحقيقة.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المعَالَجِينَ في السُّورَة:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑨﴾:

أي: لَكِنْ لَمْ يَتَأَثَّرُوا بِكُلِّ مَا سَبَقَ أَنْ أَقْنَعْنَاهُمْ به، ولا بوسائلِ الترغيبِ والتَّرْهِيبِ وغَيْرِها ﴿بَلْ هُمْ﴾ مُنْغَمِسُونَ ﴿فِي شَكٍّ﴾ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيّتِهِ، وتَوْحِيدِه فِي إِلَهِيَّتِهِ، وهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ مُنْشغِلين بالْأَدْنَىٰ الفاني الزائل، تَارِكِينَ العظيم الباقي الْخَالِدَ والعَمَلَ لَهُ، مُعَرِّضِينَ أَنْفُسَهُمْ للعذاب الخالِدِ يَوْمَ الدّين في الجحيم.

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الحديث عن عَذَاب الجوع الَّذِي سَيُنْزِلُهُ بالْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاةِ الرَّسُول، وهو عذابُ الدُّخان، ودُعَائِهِمْ أَنْ يَكْشِفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ مَعَ وَعْدِهِمْ بِأَنْ يُؤْمِنوا:

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⑫﴾:

أي: يَدْعُونَ رَبَّهُمْ إِذَا نَزَلَ بِهِم عَذَابُ الدُّخَانِ بهذا الدُّعاء المقْرُونِ بالْوَعْدِ بِأَنْ يُؤْمِنُوا إذا كَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَاب.

المثال الرابع: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ أَيْضاً خطاباً لهم:

﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ⑮﴾:

أي: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ﴾ عَنْكُمْ زَمَناً ﴿قَلِيلًا﴾ لَكِنْ لَنْ تَفُوا بِوَعْدِكُمْ ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ⑮﴾ إِلَى كُفْرِكُمْ وشِرْكِكُمْ وفُجُورِكُم.

المثال الخامس: الآيَات من (١٧ ـ ٢٨) فيها مَطْوِيَّاتٌ كَثِيرات دَلَّتْ عَلَيْهَا نُصُوصٌ أُخْرَىٰ مُوزَّعَةٌ فِي سُوَرِ القرآن.

ثالثاً: توكيد الْجُمَلِ الْخَبَرِيَّةِ لِدَواعٍ بَلاغِيَّةٍ تقتَضِي التوكيد

توجَدُ في السُّورَةِ جُمَلٌ خَبَرِيَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِأَنَّ حَالَ المقْصُودِينَ بالْبَيَانِ تَقْتَضِي التوكيد، ومِنْها الأَمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿حمٓ ⦗١⦘ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ⦗٢⦘ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ⦗٣⦘ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ⦗٤⦘ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ⦗٥⦘﴾:

المَقْصُودُونَ بالْجُمَلِ المؤكَّدَةِ فِي هَـٰذِهِ الآيَاتِ هُمُ الكُفَرَةُ المكَذِّبُونَ بالحقائِقِ الَّتِي جَاءَت فيها.

والتوكِيدُ فيها جاء بالقسم في: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ⦗٢⦘﴾ وبالمؤكداتِ: «إِنَّ ـ والجملَة الاسْمِيَّة» فِي: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وفي: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ وفي: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُوجّهاً لِلْمُكَذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّين:

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ⦗٣٨⦘ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ⦗٣٩⦘ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ⦗٤٠⦘﴾:

(١) جاء التوكيدُ في عِبارَةِ: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ بالحصر الَّذي دَلَّ عَلَيْه النَّفي والاسْتِثْناء.

(٢) وَجاء التوكيد في عبارة: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ⦗٤٠⦘﴾ بالمؤكّدَين: «إِنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة».

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⦗٤٢⦘﴾ جاء التوكيد هنا بـ «إنّ ـ والجملة الاسميَّة ـ وضَمِيرُ الفصل».

المثال الرابع: قولُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ نَعِيم المتقين في الجنَّة يوم الدين.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾: جاء التوكيد في هذه العبارة بِتَعْرِيف طَرَفَي الإسْنَادِ مع ضَمِير الفصل.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ وَإسْمَاعاً للمشْرِكِين المكَذِّبين مِنَ العرب:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾: جَاءَ التَّوْكِيد في هٰذِهِ الْعِبَارَة بالْحصْر الّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ أداة «إنَّما» وأَكْتَفِي بهٰذِهِ المسْتَخْرَجَات.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

سُورَةُ الجاثِيَة

٤٥ مصحف ٦٥ نزول

وهي سورة مَكِّيَّة كُلُّها

وهي السورة السادسة من «الحواميم» السَّبْعِ

(١)

نصُّ السُّورة وما فِيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧)
يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
(٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

---

١ ـ • سَكَتَ أبو جعفر عَلَىٰ: (حَا) و(ميم).

٤ و٥ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، ويَعْقُوب: [**آياتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**] ـ [**آياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**] بِنَصْب آياتٍ في الموضِعَيْنِ بالكَسْرَةِ بدلَ الفتحة لِأَنَّهُ مزيد بألف وتاء.
وقَرَأَهُمَا باقي القرّاء العشرة بالرَّفْعِ فيهما على الابتداء.

٥ ـ • قرأ حَمْزة، والكِسَائي، وَخَلَف: [**الرِّيح**] بالإفراد، والمراد جنْس الريح.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**الرِّيَاح**] نظراً إلى أنْواعِهَا.

٦ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كَثير، وأبُو عَمْرو، وحفْص، وأبو جعفر، ورَوح: [**وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**] بياء الغائبين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ**] بِتَاءِ المخاطَبِين. وبَيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ في الأَدَاء البياني.

٩ ـ • قرأ حفص [**هُزُواً**]. وقرأها حمزة، وخَلَف: [**هُزْءاً**]: وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**هُزُؤاً**].

) ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا
مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞
ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ
فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ
شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

---

١١ - • قرأ ابن كثير، وحفصٌ، ويَعْقُوب: [مِنْ رِجزٍ أَلِيمٌ] برَفع «أليم» وصفاً لـ «عَذَابٌ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بجَرِّ [أَلِيمٍ] وصْفاً لـ «رِجزٍ».

١٤ - • قرأ ابنُ عامر، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [لِنَجزيَ قَوْماً]. وقرأها أبو جعفر: [لِيُجْزَىٰ قوماً]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لِيَجْزِيَ قَوْماً].

١٥ - • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تُرْجَعُونَ].

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ بَيَانِي.

﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ
وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾
أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ
وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ
إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ
إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ

---

١٦ ـ • قرأ نافع: [والنُّبُوءَةَ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَالنُّبُوَّةَ]. وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبيان.

٢١ ـ • قرأ حفص، وحَمْزَة، والكِسَائيّ، وخلف: [سَوَاءً] بالنصب. وقرأها باقي القرّاء العشرة [سَوَاءٌ] بالرَّفع.

٢٣ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [غَشْوَةً]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [غِشَاوَةٌ].

ومُؤَدَّىٰ القراءتين واحد.

٢٣ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَذَّكَّرُونَ]: أَصْلُهَا: «تتذكَّرون» أُدْغِمَتِ التاء بالتاء.

مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ
﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا
نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ
قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا
قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ
﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ
﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا

---

٢٨ ـ • قرأ يعقوب: [**كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ**] بِنَصب «كُلَّ». وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَة: [**كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ**] بِرَفع «كُلُّ» وهما وَجْهان نَحْويان.

٣٢ ـ • قرأ حَمْزَة: [**والسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا**] بنصب «السَّاعَة» عطفاً على «وَعْد». وقرأها باقي القرّاء العشرة برفع [**والسَّاعَةُ**] على الابتداء.

٣٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [**يَسْتَهْزُونَ**] في الوصل والوقف. وكذلِكَ حمزة فِي الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**يَسْتَهْزِءُونَ**] في الوصل والوقف.

٣٤ ـ • قرأ السُّوسِي، وأبو جعفر: [**وَمَا وَاهُمْ**] بإبدال الهمزة ألفاً. وكذلِكَ حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَمَأْواهُمْ**] دُون إِبْدَال.

٣٥ ـ • قرأ حفص: [**هُزُواً**].
وقرأها حمْزَةُ، وخَلَفٌ: [**هُزْءاً**].
وقرأها باقي القرّاء العشرة [**هُزُءاً**].

وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ
﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾
وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

---

٣٥ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا]** بالبناء لِلْمَعْلُوم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا]** بالبناءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعله.
أي: فهم لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْرُجُوا.

(٢)

ممّا وردَ بِشَأن سُورَة (الجاثية)

(الجاثية) سادسةُ «الحواميم» السبع، وينْطَبِقُ عَلَيْها مَا وَرَدَ بِشَأنِهِنّ، السَّابقُ ذِكْرُهُ في الرَّقم (٢) من تَدَبُّر «الحواميم» الأرْبع السَّابقات.

(٣)

موضوع سورة (الجاثية)

تكادُ تَكُونُ «الحواميم» السَّبْعُ عَائِلَةً وَاحِدَةً مُفَصَّلَةً إلَىٰ سَبْع سُور، ذَوَاتِ مَلَامِحَ وَقَسَمَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا شَرِيفَاتُ أُسْرَةٍ واحِدَة.

ومَوْضُوعُهُنَّ يَسِيرُ عَلَىٰ خَطٍّ رَئِيسٍ وَاحِدٍ، هو خَطُّ الحديث عَنِ القرآن، ومَوْقِفِ الْكَافِرِينَ مِنْهُ إِبَّانَ التَّنْزِيل، وَمَوْقِفِهِمْ مِنْ توحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّته، ومَوْقِفِهِمْ من الرَّسُولِ ﷺ، وَمن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، وَمِنَ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ وَيَوْمِ الدِّينِ، ومُعَالَجَتُهُمْ بِشَأْنِ مَواقِفِهِم الْمُكَفِّرَة، وَمَا يُلائِمُ ذَلِكَ مِنْ مُرَافِقَات.

(٤)

دُرُوس سورة (الجاثية)

ظهر لي تقسيمُ هذه السورة إلى سبعة دروس:

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ١١).

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ القرآن تنزيلٌ من اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم، فَهُوَ كِتَابٌ عَظيمٌ مُعْجز.

وَفِيها تَنْبيهٌ عَلَىٰ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ على طائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

وفيها تَوْبِيخٌ لِلْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بالقرآنِ وبالرَّسُولِ إِذْ لَمْ يَعْبَؤُوا بآياتِ اللهِ الَّتِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِم، وَهِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَعْظَم بيانٍ مُقْنِعٍ وَمُبَشِّرٍ وَمُنْذِرٍ بأسْلُوبِ الْحَدِيثِ الإقْنَاعِيِّ الَّذي لَيْسَ فَوْقَهُ وَلَا مِثْلَهُ حَدِيثٌ ذُو تَأْثِيرٍ في الْقُلُوبِ والنُّفُوسِ للإيمان بما أَوْجَبَ اللهُ الإيمان به.

وفيها إِنْذَارٌ لِلْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ أَليم مُهين، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ آيَاتِ اللهِ هُزُواً، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمُ الْخُلُودَ فِي جَهَنَّمَ.

الدَّرْس الثاني: الآيَتَان: (١٢) و(١٣).

وفيهما تذكير بِبَعْضِ نِعَمِ اللهِ على النَّاسِ فِي كَوْنِهِ، المشْتَمِلَةِ عَلَىٰ آيَاتٍ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ وشُكْرِه عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِم.

الدَّرْسُ الثالث: الآيتان: (١٤) و(١٥).

وفيهما تَعْلِيمٌ لِلرَّسُول ﷺ، أَنْ يُرْشِدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ أَنْ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالجزاء الرَّبَّانِي إِيذَاءَاتِهِم، فَفَضَائِل أخلَاقِ المؤْمِنِ وَمِنْهَا المغفرة، جُزْءٌ مِن الدَّعْوَةِ الْمُجْدِيَةِ المؤثِّرَة في جَذْبِ الْكَافِرِينَ إلى الإيمانِ والإِسلام، وأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ ثَوَابَ الله العظيمَ الَّذِي أعدَّهُ للدُّعَاةِ الصابِرِين الَّذِينَ يَغْفِرُونَ، وَيَتَجَاوَزُونَ عَنْ إِسَاءَاتِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ.

الدرس الرابع: الآيات من (١٦ ـ ٢٢).

وفي آيات هذا الدَّرسِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ آتَىٰ بَنِي إِسْرَائيل الكِتَاب والْحُكْمَ وَالنُّبوَّة، وأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ نِعَماً كَثِيرة، لِيَحْمِلُوا رِسَالَةَ اللهِ للنَّاس، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا صَالِحِين لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيّة.

فاصْطَفَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحمّداً، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ هِيَ الْأُمَّةَ المختارة لِحَمْلِ خَاتِمَةِ رِسَالَاتِ اللهِ لِلْعَالَمِينَ.

وفيها تَحْذِيرٌ ضِمْنِيٌّ لِلأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْل.

وفيها بَيَانَاتٌ عَنْ قَضَايا مُتَّصِلَةٍ بِالْقَاعِدَةِ الإيمانيَّة.

الدَّرْس الخامس: الآيَات من (٢٣ ـ ٢٦).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْس بَيانٌ عَنِ الكَفَرَةِ المشْرِكِينَ المعالَجِينَ في السُّورَة، وَكَيْفَ اتَّخذُوا آلِهَتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ، فانْطَمَسَتْ بَصَائِرُهم، وَسُتِرَتْ أبْصَارُهم، وأنْكَرُوا الجزاء والْيَوْمَ الآخر، وقالُوا: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتَ وَنَحيا. وَقَالُوا: مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْر، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ البيانيَّة بِشَأْنِ الجزاء لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: ائْتُوا بآبَائِنَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقين.

وهـٰذَا البيان اقْتَرَنَ بِهِ عِلَاجُ الكافِرينَ بالْعِلَاجِ الملائِمِ في هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلَ فيها.

الدَّرس السادس: الآيَات من (٢٧ ـ ٣٥).

وفي آيَات هـٰذَا الدَّرْسِ تَقْدِيمُ لَقَطَاتٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْم الْقِيَامَةِ، وفيها إرهَابٌ لِمَنْ تَلِينُ قُلوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ لِلْمُرْهِبَات، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الترهيب أَحدُ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ الكُبْرَىٰ.

الدَّرس السابع: الآيتان: (٣٦) و(٣٧) آخر السورة.

وفيهما خِتَامٌ بالثناءِ عَلَىٰ اللهِ بِكُلِّ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ حَمْد، وَلَا سيما صفاتُ رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شيء.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (الجاثية)

الآيات من (١ ـ ١١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾.

القراءات:

(١) ● سَكَتَ أبو جعفر على: [مَا] و[ميم].

(٤ و٥) ● قرأ حَمْزَةُ، والْكِسَائي، ويَعْقُوبُ: **[آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقنون]** ـ **[آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]** بِنَصْبِ «آيَاتِ» في الموضِعَيْنِ بِالْكَسْرَةِ بَدَلاً عَن الفتحة لِأَنَّهُ جمع مزيد بألِفٍ وتاء، ولهذا النَّصب تَخْرِيجٌ نَحْوِيٌّ مَقْبُول، وأرىٰ أنّ

في الآيَتَيْنِ حَذْفاً تَقْدُيرُهُ: «وَإِنَّ فِي خَلْقِكُمْ» و«إِنَّ في اخْتلافِ اللَّيْلِ والنهار».

وقرأَهُمَا بَاقي الْقُرَّاء الْعَشَرَةِ بالرفع فيهما على الابْتداء.

(٥) • قرأ حمزة، والكسَائي، وخلف: [الرِّيحَ] بالإفراد، والمراد جنْسُ الريح الشَّامل لِأنواعها.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الرِّيَاحِ] بالْجَمْعِ مُرَاعَاةً لِأَنْواعها.

(٦) • قرأ نَافع، وابْنُ كَثِير، وأبو عمرو، وحفْص، وأبو جَعْفر، ورَوْح: [وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ] بِيَاءِ الغائبين.

وَقَرَأَهَا بَاقِي العشرة: [وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ] بتَاءِ المخاطِبين. وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَاني.

(٩) • قرأ حفص: [هُزُوا]. وقرأها حَمْزَة، وخَلَفَ: [هُزْءاً] وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: [هُزُؤاً].

(١١) • قرأ ابن كثير، وحفص، ويعقُوب: [مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ] بِرَفْع «أليم» وَصْفاً لـ «عَذَابٌ» في الآيَةِ.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاء الْعَشَرَةِ بِجَرِّ [أَلِيمٍ] وَصْفاً لـ «رِجْز».

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ الْقُرآنَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْعَزيزِ الحكيم، فَهُوَ كِتَابٌ عَظِيمٌ مُعْجز.

وفيها تَنْبِيهٌ عَلَىٰ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَفِيهَا تَوْبِيخٌ لِلْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ وَبالرَّسُولِ إِذْ لَمْ يَعْبَؤُوا

بآيَاتِ اللهِ البيانيَّةِ الَّتِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ، وَهِيَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ أعْظَمِ بَيَانٍ مُقْنِعٍ وَمُبَشِّرٍ وَمُنْذِرٍ، بأسْلُوب الحديثِ الإقْنَاعِيّ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ وَلَا مِثْلَهُ حَدِيثٌ ذُو تَأْثِيرٍ في الْقُلُوب والنُّفُوسِ، لِلْإيمان بِما أَوْجَبَ اللهُ الإيمانَ بِهِ، ولِإعْلَانِ الْإِسْلَامِ والانْقِيَادِ والطاعَة.

وَفِيهَا إِنْذَارٌ لِلْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ مُهِينٍ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ آيَاتِ اللهِ هُزُواً، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمُ الْخُلُودَ في جَهَنَّمَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿حمٓ (١)﴾: حَرْفَانِ مِنَ الْحُرُوف المقطَّعَةِ، الواردة فِي أوائِلِ بَعْضِ سُوَرِ القرآنِ المجيد، وَقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا لَدَى تَدَبُّر أَوَّلِ سُورَة (الْقَلم/ ٤ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢)﴾.

هَـٰذِهِ الآيَة مِثْلُ الآيَةِ الَّتِي صَدَّرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهَا سورة (الزمر/ ٥٩ نُزُول) والتَّدَبُّرُ هُنَا مِثْلُ التَّدبُّر هُنَاك.

• ﴿تَنزِيلُ﴾ مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وهو مُكَافِئٌ لِفِعْلِ «أَنْزَلَ إِنْزَالاً» لِأَنَّ الْمُضَعَّفَ وَالمهْمُوزَ في المعْنَىٰ والدَّلالَةِ أَخَوَانِ، ولَمْ أَجِدْ في النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْفَرقِ بَيْنَ «التَّنْزِيلِ» و«الإنْزَالِ» وَقَدْ جَاءَ فِيهَا بالنِّسْبَةِ إلى القرآن الكريم فِعْلُ «نَزَّلَ» وفعل «أَنْزَلَ».

إِنَّهُ لَمَّا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هو الْعَلِيَّ الْأَعْلَىٰ، كانَ كُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ تَنْزِيلاً وَإِنْزَالاً مِنْ عُلُوِّه إِلَىٰ مَا هُوَ دُونَه، وَإِلَىٰ مَنْ هُمْ دُونَهُ، وَكُلُّ أَكْوَانِهِ كَذَلِكَ سواءٌ أكانت أحْيَاءً أَمْ غَيْرَ أَحْيَاء، ومنه:

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

- ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: سمَّىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ ما يُنَزِّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ بَيَانٍ كَلَامِيٍّ في الآيَاتِ والسُّور كِتَاباً، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ علىٰ الرَّسُولِ وعَلَىٰ المؤمنين أَنْ يُدَوِّنُوهُ في كِتَابٍ مَصُونٍ، مَحْفُوظٍ مِن التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ والتَّحْرِيفِ في كَلِمَاتِهِ وحُرُوفِهِ وَآيَاتِهِ وَسُوَرِهِ.

وَتَابَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي القرآنِ تَعْرِيفَهُ بـ «ال» الْعَهْدِيَّة، فَصَارَ يُعْرَفُ بِلَفْظِ «الكِتَاب» وهذا اللفظ أَحَدُ الْعُنْوَانَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِها الْبَيَان الْقَوْلِيُّ، الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ، وَبَعْدَ إِكْمَالِ إِنْزَالِهِ، إِذْ هُوَ فِي الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ مُهَيَّأٌ إِنْزَالُهُ كُلَّه، بِأُسْلُوبِ التَّنْجِيمِ والتَّفْرِيق، مُنْذُ إِنْزَالِ «اقْرأ» حتَّىٰ آخِرِ حَرْفٍ أُنْزِلَ مِنْه.

لفظ «كِتَاب» في الأَصْلِ مَصْدَرُ «كَتَبَ» يُقَالُ لُغَةً: «كَتَبَ، يَكْتُبُ، كَتْباً، وكِتَاباً». وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ «المكْتُوب» مِنْ إِطْلَاقِ الْمَصْدَرِ عَلَىٰ اسْمِ الْمَفْعُولِ.

لفظ «تَنْزِيلِ» مُضَافٌ. وهُو مبتدأ. ولفظ «الْكِتَابِ» مُضَافٌ إِلَيْه، وخَبَرُ الْمُبْتَدأ ما يَلي:

- ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

في هَٰذَا الْبَيانِ رَدٌّ عَلَىٰ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ من صِنَاعَةِ مُحَمَّدٍ وَتَأْلِيفِه، أَوْ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، أَوْ هو أَسَاطِيرُ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِين، أَوْ تَتَنَزَّلُ بِهِ الشَّيَاطِين، أَو غَير هَٰذِهِ مِنْ أَقْوال الْكَافِرِينَ المكَذِّبِينَ الْجَاحِدِينَ، عَلَىٰ الرُّغم مِنْ ظُهُورِ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِين، إِذْ تَحَدَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الإنْسَ والْجِنَّ بأَنْ يَأْتُوا بِمِثْل عَشْرِ سُوَرٍ مِنْهُ مُفْتَرَيَات.

وقَدْ جَاءَ تَمْجِيدُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هُنا بِذِكْرِ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، هما «الْعَزِيز» و«الْحَكِيم».

الْعَزِيز: أي: الْقَوِيُّ الْغَالِبُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَلَا تُكافِئُ قُوَّتَهُ قُوَّةٌ ما، ولَا قُدْرَتَهُ قُدْرَةٌ مَا، فِي أَيِّ شَيْءٍ.

فإذَا أَنْزَلَ كِتاباً مُعجزاً، فإِنَّهُ لَو اجْتَمَعَتِ الْخَلَائِقُ جَمِيعاً عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا، إِذْ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَلَّابُ في كُلِّ شَيْءٍ.

الحكيم: أي: ذُو الْحِكْمَةِ الْجَلِيلَةِ في كُلِّ اخْتِيَارَاتِهِ، فَهُوَ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا الْمُلَائِمَةِ لها تَماماً، ويَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ وأَتْقَنَها وَأَحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ المخْتَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائج.

وَهـٰذَا الاسْمُ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ، يَدُلُّ عَلَىٰ اتِّصَافِهِ ـ جَلَّ جَلَالَهُ ـ بِالْكَمَالِ الْأَقْصَىٰ لِلْحِكْمَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِن اخْتِيَارَاتِهِ وأَفْعَالِهِ وَتَصارِيفِهِ كُلِّها.

وَذِكْرُ هَـٰذَيْنِ الاسْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، بَعْدَ بيان أَنَّ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنْهُ، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ بِعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ يَجْزِي عِبَادَهُ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَيَبْعَثُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لِلْآخِرَةِ، بأَتْقَنِ مَا تَقْضِي بِهِ حِكْمَتُهُ، لِدَارِ نَعِيمِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِدَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾:

كُلُّ مَا فِي الكَوْنِ هُوَ مِنْ آثَارِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سِوَاه، وَكُلُّ شيءٍ في الكَوْنِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عَلَامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ الْخَالِقِ المتَصَرِّف فِيهِ، الْمُتَابِعِ مَعَ أَصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ كُلَّ تَطْوِيرٍ وَتَغْيِيرٍ يُحْدِثُهُ فِيهِ، زِيَادَةً أَوْ نَقْصاً في الذَّاتِ أَوْ في الصِّفات، إِذْ لَا تَغْيِيرَ فِي شَيْءٍ مَا

يَحْدُثُ مِنْ ذَاتِهِ، بَلِ اللهُ الرَّبُّ هُوَ المتَصَرِّفُ فِيهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَهُوَ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

ومِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ الرَّبَّانِيّ لِلْكَافِرِينَ، بأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّ كُلِّ شيءٍ، وَهُو الإِلَهُ الَّذِي لَا إِلَهَ بِحَقٍّ سِوَاه، التَّنْبِيهُ المتَتَابعُ علَىٰ آيَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيها رَبٌّ سِوَاه.

الآيَاتُ: هِيَ الْعَلَامَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَىٰ مَدْلُولٍ مَا.

ومِنْ آيَاتِ اللهِ في الْكَوْنِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ مَا يلي:

(١) **السَّمَاوَاتُ**: بِمَا فِيها مِنْ عَجَائِبَ، وَبِمَا لَهَا مِنْ أَبْعَادٍ لَا تَسْتَطِيعُ أَذْهَانُ النَّاسِ تَصَوُّرَها مَعَ أَنَّها حَقَائِق.

(٢) **الْأَرْض**: بِمَا فِيهَا مِنْ عَجائِبِ بحَارٍ وَجِبَالٍ، وأَنْهَارٍ، وَنَبَاتَاتٍ مُخْتَلِفَاتِ الأَجْنَاسِ والْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ. وبِمَا فِيها من كُنُوزٍ وَفِيراتٍ وَنَافِعَاتٍ، وَخَصَائِصَ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا الَّذِي خَلَقَهَا وَأَتْقَنَ صُنْعَ كُلِّ شَيءٍ فِيها.

(٣) **النَّاسُ في الأرض**: وَخَلْقُهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم.

(٤) **مَا فِي الأَرضِ من أَنْوَاعٍ وأَصْنَافِ الدَّوابِّ الْعَجِيبَة**: وَمَا لَهَا مِنْ صِفَاتٍ وَخَصَائِص. وَهِيَ مُنْبَثَّةٌ فِي الأرْضِ بإِتْقَانٍ عجيب.

(٥) **اخْتِلَافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ**: وَتَدَاوُلُهُما بِنِظَامٍ مُنْضَبِطٍ بَدِيعٍ، لَا يَسْتطيعُ تَحْقِيقَهُ إِلَّا خَالِقُ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ، وَالْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

(٦) **مَا أَنْزَلَ اللهُ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْق**: غَيْثاً، وَضِيَاءً، وَحَرَارَةً، وَمِدَاداً لِلأَرْضِ، تَنْبُتُ بِهَا الزُّرُوعُ والثِّمَارِ وَسَائِرُ الْأَرْزَاقِ النَّافِعَةِ، الشَّامِلَةِ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إليه فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

(٧) **تَصْرِيفُ الرِّيَاحِ**: عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَوَظَائِفِها المسَخَّرَةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَتَدْبِيراتِهِ.

وَهَـٰذِهِ الآيَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ فِي الكَوْنِ مُوَجَّهاتٌ لِأَهْلِ ثَلَاثِ مَرَاتِبَ مِنَ النَّاس.

المرتَبَةُ الدُّنْيَا: مَنْ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إيماناً مَقْبُولاً، دَلَّتْ عَلَيْهِمْ عبارَة: ﴿لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْمرتَبَةُ الوسْطَىٰ: مَنْ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لَأَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَجَةِ الْيَقِينِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، دَلَّتْ عَلَيْهِمْ عِبَارَة: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: **الْيَقِينُ**: الْعِلْمُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَهَذا أَعْلَىٰ مِنْ مُجَرَّدِ الإيمان.

المرْتَبَةُ الْعُلْيَا: مَنْ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَعْقِلُوا حقَائِقَ الْأُمُورِ عَقْلاً دَقيقاً، وَلِأَنْ يَعْقِلُوا أهواءَهُمْ وَشَهَواتِهِمْ بإراداتٍ جَازِمَاتٍ، تَجْعَلُهُمْ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ عبارة: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وَجَاء تَوْزِيعُ أَصْحَابِ هَـٰذِهِ المراتب مُلَائِماً لِمَا ذُكِرَ قَبْلَ كُلٍّ مِنْهُمْ مِنْ آيات.

- فالَّذِينَ لَديهمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إيماناً مَقْبُولاً عِنْدَ ربّهم، يَكْفِيهِمُ النَّظَرُ إِلَىٰ ظَوَاهِرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ. الآية (٣).

- والَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُوقِنُوا يَتفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ النَّاسِ، وفي خَلْقِ الأحْيَاءِ الْأُخْرَىٰ، الآية (٤).

- والَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأن يَعْقِلوا عَقْلاً عِلْميًّا وَعَقْلاً إرَادِيًّا، يَتفَكَّرُونَ في آيَاتِ اللهِ الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا في الآية (٥).

وَقَدْ سَبَقَ في نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ شَرْحُ هَـٰذِهِ الآيَاتِ الَّتِي جاء بَيَانُهَا في هـٰذَا النّصّ (الآيَات من ٣ ـ ٥).

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ الكافِرِينَ بعِنَادٍ.

● ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾:

هَـٰذِهِ الآيَاتُ تَصِفُ حَالَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْقُرْآن الَّذِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ مِنْهُ، إِذْ يُقَابِلُونَهُ بِالْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بأَنَّهُ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِن عِنْدِ الله، وَيَزْعُمُونَ بِشَأْنِهِ مَزَاعِمَ كَوَاذِبَ يَفْتَرُونَهَا اخْتِلاقاً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم، ومِنْهَا قولُهم: «هو شِعْرٌ ـ هُو سِحْرٌ ـ هُوَ مِنْ تأْلِيفِ محمد وأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُون ـ هو أَسَاطِيرُ الْأَوَّلين ـ هو كلامٌ تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِين» إلى غَير هَـٰذِهِ مِنْ أَكَاذِيبَ إِفْكِيَّة يَخْتَلِقُونَهَا اخْتِلاقاً.

إِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ، وَيَفْهَمُونَ دَلَالَاتِها، وَيَسْتَيقِنُونَ أَنَّهَا حَقٌّ مُنَزَّلَةٌ مِن عِنْدِ اللهِ، ثُمَّ يُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بها، مُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الْإِيمانِ بالرَّسُولِ واتِّبَاعِهِ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوها، وحِينَ يَعْلَمُونَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَا فِيهِ وَعِيدٌ لَهُمْ بعَذَاب أَلِيم، أو مَا فِيهِ بَيَانُ فَسَادِ شِرْكِهِمْ، وَأَنَّهُمْ ضَالُّونَ فِي عَقَائِدِهِمْ، وأَنْوَاعِ سُلُوكِهِم الَّتِي هُمْ فِيها طُغَاةٌ بُغَاةٌ أَثِيمُونَ، اسْتَهْزَؤُوا بِهَا وَسَخِرُوا مِنْهَا، لِتَغْطِيَةِ بَصَائِرِ أَتْبَاعِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

فَاسْتَحَقُّوا تَكْرِيرَ إِنْذَارِهِمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ مُهِينٍ عَظِيم، قَدْ أُعِدَّ لَهُم، فَمِنْهُ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ فِي الدُّنْيا، وَمِنْهُ مَا يَنْغَمِسُونَ فِيهِ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الدِّين.

● ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾:

يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِهَـٰذِهِ الْعِبارَة، والمقصودُ بِها إِسْمَاعُ

أئِمَّةِ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ فِي مكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ، فَهُمُ المعانِدُونَ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، والدَّاعُونَ له بيْنَ أتْبَاعِهِمْ.

نُزِّلَتِ الآيَاتُ الْقَرِيبَةُ المتْلُوَّةُ مَنْزلَةَ الْبَعِيدَةِ، فجاءت الإشارة إلَيْهَا بعبارَة: ﴿تِلْكَ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ سُمُوِّها وارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِها بيَاناً، وَمَعَاني، وَبَلَاغَةً، وَإعْجَازاً.

- ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: أيْ: آيَاتُ كِتَابِ اللهِ المنزَّلِ مِنْ لَدُنْهُ مَعَ مُلَاحَظَةِ أَنَّهُ الْعَزِيزُ الحَكِيم، كما جاء في الآية (٢).

- ﴿نَتْلُوهَا﴾: أي: نَجْعَلُ بِأَمْرِنَا جِبْرِيلَ أَمِينَ الْوَحْيِ يُتَابِعُ تَلْقِينَكَ إِيَّاهَا، كَمَا أَنزَلْنَاها، حَرْفاً فَحَرْفاً، وَكَلِمَةً فَكَلِمَة، وَجُمْلَةً فَجُمْلَةً، وآيَةً فَآية.

التِّلَاوَةُ: تَتَبُّعُ المنْطُوقِ مِنَ الْقَوْلِ الْمُعَيَّنِ دُونَ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ وَلَا تَغْيِيرٍ، فإذَا كَانَ هَـٰذَا التَّتَبُّعُ مِنْ مَكْتُوب فَهِيَ قِرَاءة.

- ﴿عَلَيْكَ﴾ أيْ: نَتْلُوهَا عَلَىٰ سَمْعِكَ لِتَحْفَظَهَا فَلَا تَنْسَاهَا، وَلِتُبَلِّغَهَا لِلنَّاسِ كَمَا تَلَقَّيْتَهَا عَنْ طَرِيق أمين الوحْي جِبْريل، فَأَنْتَ تَتْلُوهَا عَلَىٰ النَّاسِ تَبْلِيغاً عَنْ رَبِّكَ، وَلَيْسَ لَكَ فيها شَيْءٌ إِلَّا التَّبْلِيغُ كَمَا أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ.

- ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي: نَتْلُوهَا عَلَيْكَ حَالَةَ كَوْنِهَا مُتَّصِفَةً بالْحَقّ.

الْحَقُّ: هُوَ الشَّيْءُ الثَّابِتُ، فالْعِلْمُ الحقُّ هُوَ المُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ، والْخَبَرُ الْحَقُّ هو الْمُطابِقُ لِوَاقِعِ مَا أُخبِرَ بِهِ عَنْهُ، وَالتَّكْلِيفُ الْحَقُّ هُوَ المطابِقُ لِمُرَادِ اللهِ فِيهِ، وَهُوَ أَحْسَنُ اخْتِيَارٍ يُكَلِّفُهُ اللهُ عِبَادَهُ بأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَالْحُكْمُ الْحَقُّ هُو الْمُطَابِقُ لِحَقِّ المحْكُوم عَلَيْهِ أَوْ لَهُ، والنُّصْحُ الْحَقُّ هُوَ الْمُطَابِقُ لِحَقِّ المنْصُوحِ عَلَىٰ النَّاصِحِ، أَنْ يَدُلَّهُ عَلَىٰ أَفْضَلِ مَا يَجْلُبُ لَهُ نَفْعاً وَيَدْفَعُ ضُرًّا.

- ﴿... فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ⁦(٦)⁩﴾:

إنَّ أَفْضَلَ بَيَانٍ مُؤَثِّرٍ في مَدْعُوٍّ إِلَىٰ شَيْءٍ مَا كان حَدِيثاً، وَلِهَـٰذَا اخْتَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ بَيَانُهُ فِي كِتَابِهِ لِلنَّاسِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ الْحَدِيثِ الهادِئ، إِقْنَاعاً، وَتَرْغِيباً، وَتَرْهِيباً، وجِدَالاً بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن.

ولَمَّا كَانَ كِتَابُ اللهِ القرآنُ أَسْمَىٰ حَدِيثٍ مُعْجِزٍ يُؤَثِّرُ فِي الْعقُولِ والنُّفُوسِ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهَا، وَكَانَ المطْلُوبُ مِنَ الْمَدْعُوِّينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بالْغَيْبِ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّة، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ طَرْحُ السُّؤَالِ التَّالِي:

إذا لَمْ يُؤْمِنْ أئِمَةُ الكُفْرِ، بِحَدِيثٍ صَادِرٍ عَنِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ مُعْجِزَاتٍ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ يَصْدُرُ عَنْ غَيْرِ اللهِ في أَقْوَالٍ لَا إِعْجَازَ فِيهَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي يُدْعَوْنَ إِلَىٰ الإيمان بِهِ؟!!!

سُؤَالٌ لَيْسَ لَهُ إِلَّا جوابٌ وَاحِدٌ، وهو: إِنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مُتَأَثِّرِينَ بِأَيِّ حَدِيثٍ، لِأَنَّهُمْ مُكَابِرُونَ مُعَانِدُون، يَعْرِفُونَ الْحَقَّ ويَرْفُضُونَ الْإِيمانَ بِهِ، وَاتِّبَاعَ مَا يَدْعُوهم إِلَيْهِ هـٰذَا الإيمان، إِذْ هُمْ عُبَّادُ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِ نُفُوسِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

- ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ⁦(٧)⁩﴾.

«وَيْلٌ» كَلِمَةُ عَذَابٍ، وجاء في حَدِيثٍ لَمْ يَصِلْ إلى دَرَجَةِ الصحيح عند أَهْلِ الحديث أَنَّهُ وَادٍ في جَهَنَّم.

- «**أَفَّاك**»: أي: كثير الْإِفْكِ، وهُوَ الكَذِب، وَكَثِيرُ التَّأْفِيك، وهُوَ التَّكْذِيبُ بِالْحَقّ، وكثيرُ الضَّلال والإضْلالِ، ولفظ «أَفَّاك» صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسْمِ الْفَاعِلِ «آفِك».

- «أَثِيـم»: أي: مُسْرِفٌ غَالٍ فِي ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ من الكبائر، ويَخْتَصُّ بِالْكَافِرِ الْفَاجِر.

إنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَا تُؤَثِّرُ فِي جَذْبِهِ إِلَىٰ الإيمانِ بالحقِّ الرَّبَّانِيّ، آيَاتُ اللهِ الَّتِي تُتْلَىٰ عَلَيْهِ، عَلَىٰ الرُّغم مِنْ كَوْنِها حَدِيثاً مُعْجِزاً، لِأَنَّهُ مُكَابِرٌ مُعَانِدٌ جَاحِدٌ، لَا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ بِشَأْنِهِ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ أي: عَذَابٌ شَدِيدٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيم مِثْلِهِ.

جَاءَتِ العبارةُ عَامَّةً، وَالمُعَالَجُونَ فِي السُّورَةِ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ النَّصّ حَتْماً.

وَجَاءَ وَصْفُ الْأَفَّاكِ الْأَثِيمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ حَالٍ مِنْ أحواله بما يلي:

- ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾:

أَيْ: يَسْمَعُ بَعْضَ آيَاتِ اللهِ مِنْ كِتَابِهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ مِنْ أَحَدِ حَمَلَةِ رِسَالَةِ دَعْوَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فَيَتَفَهَّمُهَا وَيَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ فيها حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ يَتَصَارَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْوَائِهِ وَمَطَالِبِ نَفْسِهِ مِنْ دُنْيَاه، فَيُؤْثِرُ الْعَاجِلَةَ عَلَىٰ الْآجِلَةِ، فَيُصِرُّ عَلَىٰ بَاطِلِهِ الَّذِي هُو عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ الْبَغْيِ والظُّلْمِ والْفُجُورِ وَسَائِرِ الآثَامِ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا مُتَلَذِّذاً بها، حَالَةَ كَوْنِهِ مُسْتَكْبِراً عَنِ الإيمانِ بالرَّسُولِ واتِّبَاعِهِ، وَمُتَعَالِياً بِمَرْكَزِهِ الاجْتِمَاعِي الَّذِي يَحْتَلُّهُ وَيَتَفَاخَرُ فِيهِ، بَيْنَ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ، وَيُدْبِرُ عَنِ الْحَقِّ وَعَنْ دَاعِي الْحَقِّ، وَيَنْأَىٰ مُبْتعداً كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا.

فَبَشِّرْهُ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ، تَبْلِيغاً عَنْ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِعَذَابٍ أَلِيم سَوْفَ يَلْقَاهُ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يَنْزِلُ بِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ في الدُّنْيا.

الإِصْرَارُ عَلَىٰ الْأَمْرِ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ وَلُزُومُهُ، وأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ في لُزُومِ الْقَبَائِحِ والْآثَام والثَّبَاتِ عَلَىٰ مُمَارَسَتِها، واعْتِقَادِ الْبَاطِلِ وَالْمُعَانَدَةِ فِي اعْتِنَاقِهِ والدِّفَاعِ عَنْه وَزَعْمِ أَنَّهُ حَقٌّ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ بَاطِلٌ وفَاسِدٌ وشَرٌّ.

أَصْلُ التَّبْشِير: الإخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ ويُفْرِحْ، وَيُسْتَعْمَلُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّهَكُّم فِي الْإِخْبَارِ بِمَا يَسُوءُ مِنْ مَكْرُوهٍ مع قَرِينَةٍ صَارِفَةٍ، كالتَّبْشِيرِ بِالْعَذَاب الْأَلِيم.

الْأَلِيم: أي: المؤلِم «فَعِيل» بمَعْنَىٰ «مُفْعل».

وَجَاءَ وَصْفُ الْأَفَّاكِ الْأَثِيم بالنِّسْبَةِ إلى حَالٍ أخرى مِن أحْواله بما يلي:

- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ... ⑨﴾:

أي: وإذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِ اللهِ الرَّبِّ الجليلِ العظيم شَيْئاً يَسُوؤُهُ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بذَمِّ شِرْكِيَّاتِهِ، وتَقْبِيحِ مَا يمُارِسُهُ مِنْ فُجُورٍ وقبائِح وشُرُور اتَّخذَهَا هُزواً.

«الْهُزْءُ»: السُّخْرِية. وهو مَصْدَرُ فعل «هَزَأَ» يُقَالُ لُغَةً: «هَزَأَ بِهِ، وهَزَأَ مِنْهُ، هُزْءاً، وهُزُؤاً، ومَهْزَأَةً» أي: سَخِرَ مِنْهُ، وَسَخِرَ بِهِ.

أُطْلِقَ الْمَصْدرَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْمَهْزُوءِ بِهِ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ بَعْض آيَاتِ اللهِ الْحقّ، عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، أَيْ: بَالَغَ في هُزْئِهِ حَتَّىٰ جَعَلَ مَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِمَّا يُخَالِفُ هَوَاهُ، ويُخَالِفُ تَحْقِيقَ شَهَوَاتِهِ عَيْنَ الْهُزْءِ، ومِثْلُ هٰذَا الإطْلَاقِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّين، ومِنْهُ رَجُلٌ عَدْلٌ، وامْرَأَةٌ عَاطِفَة.

ونَفْهَمُ أَنَّهُ يَلْجَأُ إِلَىٰ الاسْتِهْزَاءِ بما عَلِمَ مِنْ آيَاتِ اللهِ، ممَّا يخالِفُ أَهْوَاءَهُ وَرَغَباتِهِ مِنْ دُنْيَاه، لِأَنَّهُ وَجَدَهَا حَقًّا، وَلَا يَمْلِكُ حُجَّةً يَخْدَعُ أَتْبَاعَهُ وأَنْصَارَهُ بها، لِيُوهِمَهُمْ أَنَّ مَا جَاءَ في آيات اللهِ بَاطِلٌ، فَيُغَطِّي هَزِيمَتَهُ الْفِكْرِيَّةَ بِوَسِيلَةِ الاسْتِهْزَاءِ المبالَغ بها، وَيُغَشِّي عَلَىٰ بَصَائِرِ أَتْبَاعِهِ وأَنْصَارِهِ بِحَرَكَاتِ الاسْتِهْزَاءِ، حَتَّىٰ لَا يُفَكِّرُوا بِمَا جَاءَ في آيَاتِ كِتَاب، ثِقَةً بِرَأْيِ قَائِدِهِمْ وَزَعِيمِهِمْ فيها، وأَنَّها لَا تَسْتَحِقُّ إِلَّا أَنْ يُهْزَأَ بها.

بَعْدَ هٰذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي البَيَانِ الْقُرْآنِيّ تَوْجِيهُ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ لِهٰذَا الْفَرِيقِ مِنَ النَّاسِ، وهٰذَا الْوَعِيدُ مُوجَّهٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُبَاشَرَةً، دُونَ تَكْلِيفِ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يُخْبِرَهُ بِهِ بَلَاغاً عَنِ اللهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْجيهَ الْمُبَاشِرَ مِنَ اللهِ أَشَدُّ وَأَكْثَرُ تَرْهِيباً، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿. . . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑨ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑩﴾:

أي: أولَئِكَ الْأَفَّاكُونَ الأثيمون الْبُعَداءُ المتَسَفِّلونَ إلىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّار، أُعِدَّ وَدُبِّرَ لَهُمْ، بِتَقْدِيرنَا وَقَضَائِنَا وَحُكْمِنَا عليهم، عَذَابَان، أَحَدُهُمَا مُعَجَّلٌ فِي الدُّنيا وَعِنْدَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الموتِ إِلَىٰ حِين البَعْثِ، والآخَرُ مِنْهُمَا مُؤَجَّلٌ إِلَىٰ يَوْمِ القيامَةِ، يَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الْجَزَاءِ الْأَكْبَر.

أَمَّا الْعَذَابُ الأوّل: فَهُوَ عَذَابٌ مُهِينٌ في الدُّنْيَا، ويُلْحَقُ بِهِ مَا يُلاقُونَ مِنْ عَذَابٍ عِنْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَ الْمَوْتِ لِنُفُوسِهِم، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا: ﴿. . . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑨﴾ أي: عَذَابٌ مُذِلٌّ مُخزٍ لَهُمْ فِيهِ إِهَانَةٌ، وهٰذَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ مَا سَيَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ هَزَائِمَ وَجِرَاحَاتٍ وَقَتْلٍ، بِأَيْدِي فِئَةٍ قَلِيلَةٍ مِمَّنْ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، مِنْ ضُعَفَاءِ المؤمِنين، وينْطَبِقُ على الْعَذَابِ الَّذِي يَكُونُ عِنْدَ الموت، إِذْ تَضْرِبُ مَلَائِكَةُ التَّعْذِيب وُجُوهَهُمْ وأَدْبَارَهُمْ، مَعَ مَا يَكُونُ لَهُمْ مِنْ عَذَابٍ لِنُفُوسِهِمْ مُدَّةَ الْبَرْزَخ.

وأَمَّا الْعَذَابُ الآخَرُ: فَهُوَ مَا سَوْفَ يَكُونُ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيق فِي نَارِ جَهَنم وَأَنْوَاعِ عَذَابٍ أُخرَىٰ فيها، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: مِنْ وَرَائِهِمْ عَذَابُ جهَنَّمَ، الشَّامِلُ لِكُلّ مَا فِيها مِنْ أَنْوَاع تَعْذِيبٍ غَيْرِ الْحَرِيقِ.

عبارَةُ «مِنْ وَرَائِهِمْ» ونَحْوها اسْتُعْمِلَتْ فِي القرآن للدَّلَالَةِ على

المُسْتقْبل، لِأَنَّ المسْتَقْبَلَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ النَّاسِ وغَيْرُ مَشْهُودٍ لَهُمْ، فَهُوَ وَراءَهُمْ، إِذْ هُمْ يَجْلِسُونَ فِي عَرَبَةِ حَيَاتِهِم وَوُجُوهُهُمْ مُتَّجِهَةٌ إِلَىٰ مَا مَضَىٰ مِنَ الطَّرِيق لَا إِلَىٰ مَا سَيَقْطَعُونَهُ مِنْهُ.

وبَعْدَ هٰذَا الوعيد المشْتَمِل عَلَىٰ الْعَذَابَيْنِ اللَّذَيْنِ سَبَقَ شَرْحُهما، قال اللهُ تَعالَىٰ بِشَأْنِهم تَيْئِيساً لَهُمْ مِنَ الْخَلاصِ مِنَ الْعَذَابِ العظيم، الَّذي سَوْفَ يُلاقُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ، جَزَاءَ كُفْرِهِمْ، وَجُحُودِهِمْ، وَمُكَابَرَتِهِم، واسْتِهْزَائِهِم بآيَاتِ رَبِّهم:

- ﴿... وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑩﴾:

- ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم﴾: أي: وَلَا يَكُفُّ وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُم.

- ﴿مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾: أي: مَا كَسَبُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَمْوَالٍ وأَنْصارٍ وَجَاهٍ وسُلْطَانٍ وغَيْرِ ذَلِكَ.

والمعنى: وَلَا يَكُفُّ وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ الله الْمُعَدِّ لَهُمْ، والمقْضِيِّ عَلَيْهِمْ بِهِ شَيْئاً.

- ﴿... وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾: أي: وَلَا يَكُفُّ وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ أيضاً شَيْئاً مِنْ عَذَاب اللهِ الْمُعَدِّ لَهُمْ، والمقْضِيِّ بِهِ عَلَيْهِمْ، أَوْلِيَاؤُهُمُ الَّذِينَ عَبَدُوهُم مِنْ دُونِ اللهِ، أَوْ أَطَاعُوهُمْ واتَّبَعُوهم ونَصَرُوهم واسْتَنْصَرُوا بِهِم، واتَّخذُوهُمْ أَرْبَاباً وآلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ افْتِرَاءً عَلَىٰ الله، لِأَنَّهُم لَا يَملِكُونَ لِأَنفسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ عِنْدَ اللهِ شيئاً، إِذِ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ يَوْمَئِذٍ لله وَحْدَهُ، فَقَد انْتَهَتْ حَيَاةُ الابْتِلَاءِ والتَّمْكِينِ، وَجَاءَتْ حَيَاةُ الْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وسَلْبِ التَّمْكِينِ مِنْ أَيِّ تَصَرُّفٍ إِلَّا بأَمْرٍ مِن اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، والْمَلَائِكَةُ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئاً إِلَّا بأَمْرِ اللهِ وتَمْكِينِهِ، حتَّىٰ الشَّفاعَة لَا تَكُونُ إِلَّا بإِذْنِهِ، وهِيَ مُجَرَّد دُعاءٍ لَا يَمْلِكُ مَعَهَا الشَّافِعُ المأذونُ لَهُ بأَنْ يَشْفَعَ إِلَّا أَنْ يَدْعُو الله مُتَضَرِّعاً.

- ﴿... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾: أي: ولَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ في جَهَنَّم عَذَابٌ عظيم، لِأَنَّهُمْ جَحَدُوا الحقَّ ومَاتُوا وهُمْ جَاحِدُونَ لَه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَاب:

- ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

- ﴿هَٰذَا هُدًى ...﴾: المشَارُ إلَيْهِ باسْم الإشارَة «هذا» القرآنُ الَّذي جَاءَ في صَدْرِ السُّورَةِ بعُنْوَانِ: «الْكِتَابِ» في قول اللهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

«هُدىً» مَصْدَرٌ لِفِعْل: «هَداهُ، يَهْدِيهِ، هُدىً، وَهَدْياً، وَهِدَايَةً، وهِدْيَةً» أي: بَيَّنَ لَهُ وَأَرْشَدَهُ.

جَاءَ وَصْفُ القرآنِ بأَنَّهُ هُدىً عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَة بالْوَصْفِ بالمصْدرِ، إذْ كُلُّ مَا فِيهِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ هِدَايَةٍ، فَهُوَ بِمَثَابَةِ عَيْنِ الْهُدَىٰ.

وَحَسْبُ القرآنِ هـٰذَا الْوَصْفُ العظِيمُ، بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم، وَبَيَانِ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِيهِ حَقٌّ.

- ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ...﴾ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بأَنَّهَا آيَاتُ رَبِّهِمْ، وآيَاتُ اللهِ لَا تَكُونُ إلَّا حَقّاً وَصِدْقاً وَهُدَىٰ ﴿... لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾: أي: لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مِنْ صِنْفِ الرِّجْز.

الرِّجْزُ: كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ أَسْبَابُ تَعْذِيبِ الْمُعَذَّبِينَ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ التَّكْوِيني، فَالطَّاعُونَ قد ثَبَتَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، أَنَّهُ رِجْزٌ عَذَّبَ اللهُ بِهِ أُمَماً كَافِرَةً قَبْلَ بعْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالْوَبَائِيَّاتُ الْكُبْرَى الشَّامِلَةُ رِجْزٌ، وَالإيْدْزُ فِي عَصْرِنَا رِجْزٌ. والْهَيْضَةُ رِجْزٌ، ومَا سَبَّبَ لِلْمِصْرِيينَ عَذَاباً كَبِيراً فِي عَهْدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَدَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رِجْزٌ، وَهَكَذَا.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأوّل من دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٦)

التدبّر التحليلي للدَّرسِ الثاني مِنْ دُروس سُورَةِ (الجاثية) الآيتان (١٢ و١٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

تَمْهيد:

في آيتي هـٰذَا الدَّرس تَذْكِيرٌ بِبَعْضِ نِعَم اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ في كَوْنِهِ، وهي تَشْتَمِلُ على آياتٍ تَدْعُوهُمْ إِلى الإيمان باللهِ، وشُكْرِه عَلَىٰ ما أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِم.

التدبّر التحليلي:

إنَّ مِنَّةَ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِتَسْخِير الْبَحْرِ لَهُمْ، جاءَ التَّنْبِيهُ عَلَيْها لِأَوّل مَرَّةٍ فِي نُجومِ التَّنْزِيلِ، هُنَا فِي الآية (١٢) مِنْ هـٰذَا الدَّرْس.

أَمّا مِنَّةُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ على النَّاس بِتَسْخِير مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ جاءَ فِي الآية (٢٠) من سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) ولَكِنْ جاء هُنَا في الآية (١٣) إضَافَةُ: ﴿... جَمِيعًا مِّنْهُ ...﴾.

التَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لِعَمَل مَا، أَوْ أَمْرٍ مَا، وجَعْلُ المسَخَّرِ مُطَاوِعاً لما يُرادُ بِهِ ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيرِهِ، والمطاوعَةُ هَـٰذِهِ قَدْ تَكُونُ بالطَّبْعِ، كتَسْخِير الْأَشْيَاء غَيْرِ ذَاتِ الحياةِ، وَقَدْ تَكُونُ بالْقُوَّةِ مَعَ التَّذْلِيل، كتَسْخِير الْعَجْماواتِ، وقَدْ تَكُونُ بالاختيار الْحُرِّ لِمَا فِي المطاوعَةِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لِلْمُطَاوِعِ، كَتَسخِير النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضِ في الْأَعْمَالِ والصِّناعات.

وَتَسْخِيرُ الْبَحْرِ جَعْلُه بِالطَّبِيعَةِ الَّتِي فَطَرَهُ اللهُ عَلَيْهَا، سَائِلاً صالحاً لطَفْو الْفُلْكِ والسُّفُنِ عَلَيْهِ، وَجَرْيِها فِيهِ، مُنْتَقِلَةً مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ، حتَّىٰ تَجْتَاز عَلَىٰ ظَهْرِهِ مَسافَاتٍ شَاسِعَاتٍ، عَلَىٰ مِقْدَارِ عِظم الْبَحْرِ مِنْ شَاطِئ إلى شَاطِئٍ آخَرَ بَيْنَ الشَّرقِ والْغَرْب، والشَّمَالِ والجنوب.

وجَرَيَانُ الْفُلْكِ في الْبَحْرِ يَكُونُ بأَمْرِ اللهِ التَّكْوِينِيِّ الَّذِي يُسَيِّرُهَا، كَمَا يُسَيِّرُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ كُلَّ شَيْءٍ يَسَيرُ فِي كَوْنِ اللهِ الكَبِير، ومِنْ تَسْيِيرِه تَسْيِيرُ النَّاسِ في البرّ والْبَحْر، وهُوَ مَا امْتَنَّ اللهُ بِهِ على الناس في سورة (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) بِقَوْله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ... ﴿٢٢﴾﴾.

وجاء في الآية (١٢) من هذا الدَّرْس بَيَانُ ثَلَاثِ حِكَم مِنْ حِكَم اللهِ الْجَلِيلَة في تَصَارِيفِهِ لِكَوْنِه، وتَسْخِيره الْبَحْرَ للنَّاسِ الَّذِين وَاجَهَهُم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالْخِطَاب:

الْحِكْمَةُ الْأُولَىٰ: [لِتَجْرِي الْفَلَك بِأَمْرِهِ] إنْعَاماً مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ النَّاس، إِذْ يُرِيدُونَ الانْتِقَالَ عَلَىٰ مَرَاكِبِ الْبَحْرِ لقضاءِ مَصَالِحَ لَهُمْ، وَلِرَفَاهِيَتِهِمْ وَمَتاعَاتِهِمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ.

الْفُلْك: مَرْكَبُ الْبَحْر، يُطْلَقُ على الواحد، والاثنين، والجمع، ويُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، فيقال: هُو الْفُلْك، وهِي الْفُلْك.

وعِبَارَةُ: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ يُفْهَمُ مِنْهَا أَمْرُهُ التَّكْوِينيُّ المتابع لِكُلِّ تَغْيِيرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعَ أَصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّة.

الْحِكْمَةُ الثَّانِيَة: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي: ولتَطْلُبُوا أرْزَاقَكُم، وَمَصَالِحَ حَيَاتِكُم المخْتلفَة، مِنْ فَضْلِ اللهِ، باسْتِخْدَامِ أَسْبَابِهَا المتَاحَةِ لَكُمْ ضِمْنَ أنظِمَةِ اللهِ السَّبَبِيَّةِ فِي كَوْنِهِ.

يُقَالُ لغةً: «ابْتَغَىٰ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: طَلَبَه.

الْفَضْلُ: الإحْسَانُ ابْتِدَاءً، دون مُقَابل، ودُون رَجَاءِ مُكَافَأَةٍ أَوْ شُكْر.

الْحِكْمَةُ الثالِثَة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: وِلِتَعْرِيفكُمْ بِبَعْضِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكُمْ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَشْكُرُوا اللهَ بالْإِيمانِ، والْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ، وحَمْدِهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، لِيَجْزِيَكُمْ جزَاءً خَالِداً أَبَدِيًّا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، تكُونُونَ بِهِ مُنَعَّمِينَ سُعَدَاءَ.

- قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً للنَّاسِ:

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ... ⑬﴾:

في هٰذَا البيانِ امْتِنَانٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ على الناس، وتَوْجِيهٌ لَهُمْ:

ـ **أَمَّا الامْتِنَانُ**: فَوَاضِحٌ مِنْ ظَاهِرِ الْعِبارَة، إذْ جَعَلَ اللهُ جَلَّ جلالُهُ السَّمَاوَاتِ بِتَرْكِيبِهَا الْعَامِّ، وَنِظَامِ تَكْوِينها مَعَ الْأَرْضِ، مُسَخَّرَاتٍ تَسْخِيراً مُتَرابِطَ الْوَحَدَاتِ، مِنْ أَصْغَرِ الذَّرَّاتِ حَتَّىٰ أَكْبَرِ الْمَجَرَّاتِ، لِيَقْضِي الْمَوْضُوعُونَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ عَلَىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ يَتَحَقَّقُ بِهِ الامْتِحَانُ الْأَمْثَل.

ـ **وأَمَّا التَّوْجِيهُ**: فَتَدُلُّ عَلَيْهِ فِكْرَةُ التَّسْخِيرِ، إذْ مُعْظَمُ المسَخَّراتِ أو جَمِيعُها لَا بُدَّ مِنَ التَّقَيُّدِ بِقَوانِينِ تَسْخِيرِها، واسْتِخْدَامِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَنْظِمَةِ كَوْنِهِ أَسْبَاباً يُحَقِّقُ مِنْ قَنَوَاتِهَا مَا هِيَ مُسَخَّرَةٌ لَهُ.

أَيْ: فابْحَثُوا فِي الكَوْنِ لِتَعْرِفُوا أَسْبَابَ انْتِفَاعِكُمْ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْض، ولِتَسْتَخْدِمُوهَا فِي تَحْقِيقِ مَطَالِبِكُمْ، وهِيَ مِنَ المُفْرَدَاتِ الكَثِيراتِ جِدًّا لامْتِحَانِكُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا.

والمعْنَىٰ: أَنْتُمْ مُمَكَّنُونَ مِنَ التَّوَصُّل إلى الأسْبَابِ الَّتِي إِذَا اسْتَخْدَمْتُموها حَقَّقْتُمْ مَا سَخَّرَ اللهُ لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْض.

وَجَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿جَمِيعًا﴾ دَالَّة عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، خَاضِعٌ لِقَانُونِ التَّسْخِير الرَّبَّانِيِّ للنَّاسِ، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّبَبِيَّة، الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إِلَيْها بِالْبَحْثِ الْعِلْمِيّ وبالتجارب المتَكَرِّرَة.

وجَاءَت عِبَارَة: ﴿مِنْهُ﴾ دَالَّةً عَلَىٰ أَنَّ هـٰذَا التَّسْخِيرَ تَكْرِيمٌ مِنَ اللهِ للنَّاسِ، بَنِي آدَمَ الَّذِي فَضَّلَهُ اللهُ وَذُرِّيَتَهُ بِعِلْمٍ لَمْ يُعْطِهِ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ خلَقَ مِنْ كَائِنَاتٍ ذَوَاتِ إِمْكَانَاتٍ عِلْمِيَّة.

■ وَخَتَمَ اللهُ هـٰذَا الدَّرْس بِقَوْله تَعَالَىٰ:

● ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑬﴾:

أي: إِنَّ فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ، وَتَسْخِير جَمِيعِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، مِنَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ للنَّاسِ، لَعَلَامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَاتِ، وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، وَعَلَىٰ نِعَمِهِ الكَثِيرةِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَعَلَىٰ أَنَّهُمْ مَوْضُوعُونَ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الابْتلاء.

ولَـكِنَّ الَّـذِيـنَ يُـدْرِكُـونَ دَلَالَات هـٰذِهِ الْآيَـاتِ، هُـمُ الْـقَـوْمُ الَّـذِيـنَ يَسْتَخْدِمُونَ مَا وَهَبَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ قُدْرَاتِ تَفْكِيرٍ فِي التَّفَكُّرِ فِيمَا خَلَقَ فِي كَوْنِهِ، وَوَاقع أحوال النَّاسِ يَكْشِفُ أَنَّهَا مُخْتَصَّةٌ بهِمْ، فاللَّامُ فِي ﴿لِقَوْمٍ﴾ هي لَامُ الاخْتِصَاصِ بالنَّظَرِ إِلَىٰ الواقِعِ الْبَشَرِي.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبر التلحيلي للدَّرسِ الثالث من دُروس سورة (الجاثية)

الآيتان (١٤ و١٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

القراءات:

(١٤) ● قرأ ابْنُ عَامِرٍ، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: **[لِنَجْزِيَ قَوْماً]** بِنُونِ المتكلِّم العظيم.

وقرأها أبو جَعْفَر: **[لِيُجْزَىٰ قَوْماً]** بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه، مع نَصْب «قَوْماً» أي: لِيُجْزَىٰ جَزَاءُ اللهِ قَوْماً. يقال لغة: «جَزَىٰ فُلَاناً حَقَّهُ» أي: قضاه.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لِيَجْزِيَ قَوْماً]** أي: لِيَجْزِى الله قوماً.

(١٥) ● قرأ يَعْقُوبُ: **[تَرْجِعُونَ]** بالبناء للمعلوم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة **[تُرْجَعُونَ]** بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ بَيَاني، أي: يُرْجِعُهُمُ الله فَهُمْ يَرْجِعُونَ بالْجَبْرِ.

تَمْهِيد:

في آيَتي هٰذَا الدَّرْس تَعْلِيمٌ مِن الله عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، أَنْ يُرْشِدَ الَّذِينَ آمَنُوا إلَىٰ فَضِيلَةِ أَنْ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالجزاء الرَّبَّانِيّ إيذاءاتِهِمْ، فَفَضَائِلُ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ ومِنْهَا المغفرة، جُزْءٌ مِنَ الدَّعْوَةِ الْمُجْدِيَةِ

المؤثِّرَة، في جَذْبِ الْكَافِرِينَ إِلَىٰ الإيمان والإسلام، وأَنْ يُبَيِّنَ لهم ثوابَ اللهِ الْعَظِيمَ الَّذِي أَعَدَّهُ للدُّعَاةِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ يَغْفِرُونَ وَيَتَجَاوَزُونَ عن إساءَةِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ.

رُوِيَتْ أَخْبَارٌ في أَسْبَابِ نزولِ الآية (١٤) وهي أخبارٌ ضعيفة الأسَانِيد، لَمْ أَرَ من الحِكْمَةِ ذِكْرَهَا، لِأَنَّ فِي الآيَةِ مَا يَدُلُّ على وجُودِ حَدَثٍ أَوْ أَكْثَرَ، وانْدِفَاعَاتِ انْتِقَامٍ في صُدُورِ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ، في هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نزلَتْ فيها السُّورَة، مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْذُونَهُمْ أَذىً شَدِيداً أَوْ يَضْطَّهِدُونَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فأمَر اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُول لِلَّذِينَ آمَنُوا بأمْرٍ إِرْشَادِيٍّ أَنْ يَغْفِرُوا لِلْكَافِرِينَ إِسَاءَاتِهِمْ وَيَسْتُرُوها، وَلَا يُقابِلُوهُمْ عَلَيْهَا بانْتِقَامٍ أَوْ شَتَائِمَ أَوْ تَشْهِيرٍ إِعْلَامِيٍّ، لِأَنَّ الْمَرْحَلَةَ مَرْحَلَةُ كَفٍّ لِلْأَيْدِي، وَكَفٍّ لِلْأَلْسِنَةِ عَنِ الشَّتَائِمِ الشَّخْصِيَّة، واهْتِمَام بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وصِرَاعٍ فِكْرِيٍّ حَوْلَ قَضَايَا الإيمان وقَضَايا الكُفْرِ، بُغْيَةَ تَهْيِئَةِ نُفُوسِ جَمَاهِيرِ الْمُشْرِكِينَ لِحُبِّ الإسْلَامِ، والْعَطْفِ عَلَىٰ ضُعَفَاء الْمُسْلِمِينَ، لِتَسْهُلَ عَلَيْهِمُ الاسْتِجَابَةُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، والدخول في الإسلام.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُوله ﷺ:

- ● ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾:

لم يُخَاطِبِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُون لأذىٰ المشركين وإِسَاءَاتِهِمْ، خطاباً مُبَاشراً، لِئَلَّا يَكُونَ التكْلِيفُ شَدِيداً عَلَيْهِم، ولِأَنَّ الْمَوْضُوعَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ الإدارةُ الْحَكِيمَةُ الرَّشِيدَة، والسِّياسة النافِعَةُ لِمَسِيرَة الدَّعْوَةِ إلىٰ اللهِ في هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها السُّورَة، وبدأَتْ قُلُوبُ جَمَاهِيرِ أَتْباع قَادَةِ المشركين وأَئِمَّتِهِمْ تَنْجَذِبُ إلى الإسلام، وتَعْطِفُ على المظْلُومِينَ مِنْ ضُعَفَاءِ المسْلِمِينَ، وَهٰذِهِ السِّيَاسَةُ هِي مِنْ أَعمالِ الرَّسُول ﷺ

قائِدِ الْمُسْلِمِين يَوْمئِذٍ، فاللهُ عَزَّ وَجلَّ يُوجِّهُهُ لاتّخاذِ هذه السِّياسة النافِعَة، المسَايِرَةِ للطَّوْرِ الّذِي وَصَلَتْ إلَيْهِ مَسِيرَة الدَّعْوَة.

فعل: ﴿يَغْفِرُواْ﴾ مَجْزوم بلام أمْرٍ محذوف، أو بجواب الطلَب في ﴿قُل﴾ على تقدير: قُلْ للّذين آمَنُوا: اغْفِرُوا يَغْفِرُوا.

والْأَوْلى فيما أَرَىٰ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوباً بِأَنْ مُضْمَرَةٍ، أَي: قُلْ لَهُم أَنْ يَغْفِرُوا، فمِنَ المعلوم أَنَّ النَّصْبَ بـ «أَنْ» وهي مُضْمَرَةٌ مُتعدِّدُ الْوُجُوه في الْعَرَبية، فَهِي أَمْكَنُ أَدواتِ النَّصْبِ لِلْفِعْلِ المضارع، تَنْصِبُهُ ظاهِرَةً ومُضْمَرَةً.

الْغَفْرُ: مَعْنَاهُ السَّتْرُ، ويَلْزَمُ مِنْ معْنَىٰ السَّتْرِ عَدَمُ المؤاخذةِ على الذَّنْب، أو الإساءة.

- ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: أي: لِلَّذِين لا يَتَوَقَّعُون مَجِيءَ أَيَّامِ اللهِ الجزائِيَّةِ، التي يَجْزِي فيها بالثوابِ أو بِالْعِقَابِ على حَسَبِ حال الْمُجازَىٰ وَمَا سَبَقَ أَنْ كَسَبَ.

الرَّجَاءُ: هُوَ التَّوَقُّعُ لِلْمَرْغُوبِ فِيهِ، أَو المخوف مِنْهُ، ويُفْهَمُ مِنْهُ فِي كلِّ نَصٍّ بِحَسَبِهِ، فالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَوَقَّعُونَ ثَوَابَ اللهِ وَلَا عِقَابه، وأَيَّامُ اللهِ هي الأيَّامُ التي قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا في خُطّة الابتلاء.

- ﴿... لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ⑭﴾: أي: لِيَجْزِي قَوْماً مُتَّقِينَ بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ مِنْ خَيْرَاتٍ وَصَالِحَات، ولِيَجْزِي قَوْماً عُصَاةً بِمَا كانوا يَكْسِبُونَ مِنْ آثَامٍ وَظُلْمٍ وَسَيِّئات.

وَجزاءُ المتَّقِين عَلَىٰ صَالِحَاتِهِم يَكُونُ بِفَضْلٍ من اللهِ عليهم.

وَجزاءُ الْعُصَاةِ على سَيِّئَاتِهِمْ يَكُونُ بِعَدْلٍ مِن اللهِ، ويَعْفُو عَنْ كثير.

الجزاء: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ بما يُلائِمُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

يَكْسِبُون: أي: يَفْعَلُونَ باخْتِيارِهِمُ الحرّ، من أفْعَالٍ إرادِيَّة جَسَدِيَّةٍ أو نَفْسِيَّة، ومن الأفْعَال النفسِيَّةِ النِّيَّات.

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَشِّراً ومُنْذِراً:

- ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

قانُونُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في الجزاء، لِلْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الابتلاء، يَتَلَخَّصُ بِكُلِّيَّتَيْن:

الْكُلِّيَةُ الأولىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾: أي: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً إرادِيًّا صَالِحاً في مَقَايِيس دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، فَلِنَفْسِهِ جلَبَ ثَوَاباً عَظِيماً يَجْزِيهِ اللهُ بِهِ، تَفضُّلاً مِنْهُ عَلَيْهِ.

الكلّيَّةُ الثّانِيةُ: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ﴾: أي: وَمَنْ أَساءَ بعَمَلِهِ الاخْتِيَاريّ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، فَعلَىٰ نَفْسهِ جَنَىٰ، إذِ اسْتَحَقَّ بِهِ عِقَاباً رَبَّانِيًّا قَدْ يَجْزِيهِ اللهُ عَلَيْهِ بالْعَدْل، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ أحداً، وقَدْ يَغفِرُ اللهُ لَهُ إذا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لَه، لكِنَّ اللهَ لَا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاء.

- ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ زَمَنِ الحياةِ الدُّنْيا حَياةِ الابْتِلَاءِ، تُبْعَثُونَ إِلَىٰ الْحَياةِ الْأُخْرَىٰ ويَكُونُ رُجُوعُكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، لمحاسَبَتِكُمْ على مَا قَدَّمْتُمْ باخْتِيَارِكُم الْحُرِّ فِي حَيَاةِ ابْتِلَائِكُمْ، وفَصْل قضائِهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْكُمْ، كَانَ فِي الحياة الدُّنيا مَوضوعاً مَوْضِعَ الابْتِلَاء، وتَنْفِيذِ جَزَائِهِ بالْفَضْلِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، أو بالْعَدْلِ في دار العذاب النّار.

وبهٰذَا تَمَّ تَدبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التّدبّر التحليليّ للدّرس الرابع من دُروس سورة (الجاثية)

الآيات من (١٦ ـ ٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

القراءات:

(١٦) • قرأ نافع: [والنُّبوءَةَ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَالنُّبُوَّة]. وهُمَا نُطْقَانِ عَربيَّان.

(٢١) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَفٌ: [سَوَاءً] بالنَّصْبِ على أَنَّها مَفْعُول به ثانٍ لـ [نَجْعَلَهُمْ] يقالُ لغة: «جَعَلَ الشيءَ كَذَا» أي: صَيَّرَه.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [سَواءٌ] بالرَّفع عَلَىٰ أَنَّها خَبَرٌ مُقَدَّمٌ و«مَحْيَاهُمْ ومَمَاتُهُمْ» مُبْتَدأٌ مُؤَخر.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرس بَيانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ آتىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ

والْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، وأنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعَمٍ كثيرة، لِيَحْمِلُوا رِسالَةَ اللهِ إلى النَّاس، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا صَالِحِينَ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّة، إذ أَسْرَعَ فِيهِمُ انْتِشارُ الْفَسَادِ، والْوَثَنِيَّاتِ، وأنواعِ الْفُجُور.

فاصْطَفَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، وجَعَلَ أُمَّتَهُ هِيَ الْأُمَّةَ المختارةَ لِحَمْلِ خَاتِمَةِ رِسَالَاتِ اللهِ للعالمين.

وفيها تَحْذِيرٌ ضِمْنِي لِلْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَمَا فعل بَنُو إسرائيل مِنْ قَبْلُ.

وفيها بَيَانَاتٌ عَنْ قَضَايَا مُتَّصِلَةٍ بالقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ بَنِي إسْرَائِيل:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا آتَىٰ بَنِي إسْرَائِيلَ مِمَّا يُوجِبُ عَلَيْهِمْ حَمْلَ رِسَالَةِ اللهِ للنَّاسِ، وأنْ يُحَافِظُوا عَلَيْهَا وَيُبَلِّغُوهَا جِيلاً فَجِيلاً، لَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا وَلَمْ يُحَافِظُوا على دِينِ اللهِ، بَلْ غَيَّرُوا فِيهِ وحَرَّفُوا وبَدَّلُوا وأَدْخَلُوا في عَقَائِدِهِمْ كُفْرِيَّاتٍ وَوَثَنِيَّاتٍ، بَغْياً بَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِما جاءَهُمُ الْعِلْمُ الرَّبَّانِيُّ، وَتَبَلَّغُوهُ عَنْ رُسُلِ الله وأنْبِيائِهِ، وفَهِمُوهُ وَوَعَوْهُ، إلَّا أَنَّهُمْ لَعِبَتْ بِهِمُ الْأَهْوَاء وتحَاسَدُوا وآثَرُوا الْحَياة الدُّنيا، وَتَشَبَّثُوا بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيا وَزِينَاتِهَا وشَهَوَاتِها، ومُغْرِيَاتِها من التَّفَاخُرِ والتكاثر وغَيْرِ ذلِك.

وفيهما بَيَانُ أَنَّ اللهَ سَوْفَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ فيمَا كَانُوا فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ، فَيُصْدِرُ أَحْكَامَهُ بِشَأْن كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَأَحْكَامُهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ تَسْتَتْبِعُ تَنْفِيذَ الجزاء، وَفِي هٰذَا تَلْويحٌ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ لَا يَعْمَلُوا في دِينِ اللهِ مِثْلَمَا عَملَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْلُ، لَئِلَّا يُعَرِّضُوا نُفُوسَهُمْ لِعُقُوبَاتِ اللهِ الْمُعَجَّلَةِ والمؤجَّلَةِ، الَّتِي عَاقَبَ وسَوْفَ يُعَاقِبُ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيل في الدُّنْيا وفي الآخرةِ.

جَاءَ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بيانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ أَتَىٰ بَنِي إِسْرَائِيل، عَنْ طَرِيق الوحْي إلى رُسُلِهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ عُظْمَىٰ هي أُسُسُ جَمِيع رِسَالَاتِ رُسُلِ اللهِ للنَّاسِ:

الأَسَاسُ الأوَّل: الكِتَابُ الرَّبَّانِيُّ المنزَّل.

الأَسَاسُ الثاني: الْحُكْمُ، وهُو فِقْهُ الأمُورِ الْفَاصِلُ بَيْنَ الحقّ والباطل والخير والشرّ.

الأَسَاسُ الثالث: الْبَيِّنَاتُ الْوَاضِحَاتُ مِنَ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيّ الصَّادِرِ عن اللهِ لِلْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلَاء، وهي مشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ مَوَادّ امْتِحَانهم.

وجاء فيهما أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ امْتَنَّ عَلَيْهِمْ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْمِلُوا رِسَالَةَ رَبِّهِمْ لِلنَّاسِ بِمِنَّتَيْنِ عَظيمَتَيْنِ:

الْمِنَّةُ الأُولَىٰ: أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيباتِ، بَعْدَ أَنْ نَصرَهُمْ علىٰ جَبَابِرَةِ أَرْضِ كَنْعَانَ وَمَا حوْلَهَا، فَامْتَلَكُوا خيْرَاتِها، وهِيَ تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً وَثَمَرَاتٍ كَثِيرات وخَيْرَاتٍ وفِيرات.

المِنَّةُ الثَّانِية: أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَضَّلَهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ فِي أَزْمَانِهِمْ، فاصْطَفَىٰ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءَ وَرُسُلاً مُتَعَدِّدِينَ، وأَمَدَّهُمْ بِنَصْرِهِ الْمُبِين، وجَعَلَ مِنْهُمْ مُلُوكاً وَذَوِي سُلْطَانٍ مَكِينٍ.

فَلَمَّا لَمْ يَلْتَزِمُوا بِحَمْلِ رِسَالَةِ اللهِ وأَدَائِهَا، وانْحَرَفُوا عَنْهَا سَلَبَهُمُ اللهُ مَا كانَ قَدْ تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَقَطَّعَهُمْ في الأَرْضِ أُمَماً، وضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ والمسْكَنَةَ.

وَجَعَلَ أُمَّةَ محمّدٍ ﷺ هِيَ الْأُمَّةَ المختارَةَ الْوَارِثَةَ لِحَمْلِ رِسَالَةِ اللهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ حتَّىٰ قِيَامِ السَّاعة.

فَدَلَّ عَلَىٰ الْأُسُسِ الثلاثَةِ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ ... ﴿١٦﴾﴾ وقَوْلُ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾.

فالكِتَابُ: هو التوراة والزَّبُورُ وسَائِرُ الصَّحِيح من كُتُبِ الْعَهْدِ الْقَدِيم عندهم. ثم الإنْجِيلُ، فقد أَنْزَلَهُ اللهُ على «عيسى» عَلَيْهِ السَّلامُ وَهُوَ مِنْ بَنِي إسرائيل.

والْحُكْمُ: وهو فِقْهُ الأُمُور، فَكَانَ مِنْهُمُ الْقُضَاةُ الذينَ يَفْصِلُونَ بَيْنَ الْحَقِّ والباطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرِّ، والْحَسَنِ والْقَبِيحِ مِن الأَعْمَالِ والْأَخْلَاق، وكانُوا يُطَبِّقُون أَحْكَامَ الْعَدْلِ بالاسْتِنَادِ إِلَىٰ مَقَايِيسِ الحقّ.

والْبَيِّنَاتُ مِنَ الْأَمْرِ: هِي الآيَاتُ الواضِحَاتُ المشْتَمِلَاتُ عَلَىٰ أَحْكَامِ الدِّينِ، مِنَ الواجِبَاتِ والْمُحَرَّمَاتِ، والمندُوبَاتِ والمكروهاتِ والمباحَاتِ.

والمرادُ بكلِمَةِ: «الأَمْرِ» من عبارة: ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أَمْرُ اللهِ الصَّادِرُ بِتَحْدِيد أَحْكَامِ الدِّين، لِأَنَّ أَحْكَامَ الدِّينِ تَصْدُرُ بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأَمْرُ اللهِ التَّشْرِيعي له خمسةُ أقْسَام:

القِسْمُ الْأَوَّل: أَمْرٌ بِفِعْل الشَّيْءِ عَلَىٰ سَبِيلِ الإلْزَامِ، وهو الواجب.

القِسْمُ الثَّانِي: أَمْرٌ بِتَرْكِ الشَّيْءِ على سَبِيلِ الإلْزَام، وهو الحرام، وتُسْتَعْمَلُ غالِباً للدَّلَالَةِ عَلَيْهِ عبارَةُ: «لَا تَفْعَلْ» وهذه تُسَمَّىٰ نَهْياً، والنَّهْي في حَقِيقَتِهِ أَمْرٌ بِعَدَمِ الْفِعْل.

الْقِسْمُ الثالث: أمْرٌ بِفِعْلِ الشَّيْءِ على سَبِيلِ التَّرْغيب لا على سَبِيلِ الإلْزَام، وهو المنْدُوبُ.

الْقِسْمُ الرابع: أمْرٌ بِتَرْكِ الشّيْءِ على سبيل التَّرْغيب لَا على سَبِيلِ الإلزام، وهو المكْرُوهُ.

الْقِسْمُ الخامس: أمْرٌ بالتَّخْيِيرِ بَيْنَ فِعْلِ الشَّيْءِ وتَرْكِهِ، وهو المباح، الذي يَسْتَوِي فِيه الفِعلْ والتَّرْكُ بِحُكْمِ الشَّرْعِ الرَّبَّاني.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِضَمِير المتكلّم العظيم:

• ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ فَسَدَ بَنُو إسْرَائِيل، وَصَارُوا غَيْرَ صَالِحِينَ لِحَمْلِ رِسَالَتِنَا للنَّاسِ، اصْطَفَيْنَاكَ وَاصْطَفَيْنَا أُمَّتَكَ يَا مُحَمَّدُ لِحَمْل رِسَالَتِنَا، وَوِرَاثَةِ كِتَابِنَا، فَنَبَّأْنَاكَ، وَبَعَثْنَاكَ رَسُولاً لِلْعَالَمِينَ، وَنُنْزِلُ عَلَيْكَ كِتَابَنَا تِبَاعاً، وآتَيْنَاكَ الْحُكْمَ، وجَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ وَاضِحَةٍ جَلِيَّةٍ ذَاتِ فَيْضٍ للوارِدِينَ، الْقَاصِدِينَ سَعَادَةَ دُنْيَاهُمْ وأُخْرَاهُمْ بِمَرْضَاةِ رَبِّهِمْ، إِذْ يَتَّبِعُونَ أَمْرَهُ الَّذِي فِيهِ بَيَانُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ، وَمَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ، وَمَا يُثَابُونَ عَلَىٰ فِعْلِهِ وَلَا يُعَاقَبُونَ عَلَىٰ تَرْكِهِ وهو المنْدُوبُ، وَمَا يُثَابُونَ على تَرْكِهِ ولا يُعَاقَبُونَ على فِعْلِهِ وهو المكْرُوه، وَمَا هُوَ مُبَاحٌ لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ وأَنْ يَتْرُكُوه.

• ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ...﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إِنْهَاءِ دَوْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ في حَمْلِ رِسَالَتِنَا للنَّاس، واصْطِفَائِنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وتَنْزِيلِ نُجُوم كِتَابِنَا عَلَيْكَ، وإيتَائِكَ الْحُكْمَ الَّذِي بِهِ تَفْقَهُ الحقَّ والباطِل، والْخَيْرَ والشَّرَّ، والصَّالِحَ والْفَاسِدَ، والْحَسَنَ والْقَبِيحَ مِنَ الْأَعْمَالِ والْأَخْلَاقِ ﴿جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾.

الشَّريعة في اللُّغة: هِي مَوْرِدُ الشَّارِبَةِ الّتِي يَشْرَعُهَا النَّاسُ فَيَشْرَبُونَ مِنْهَا، وَرُبَّمَا شَرَّعُوهَا دَوَابَّهُمْ حَتَّى تَشْرَبَ مِنْها، والْعَرَبُ لَا تُسَمِّي مَوْرِدَ الماء شَرِيعَةً حَتَّىٰ يَكُونَ الْمَاءُ فَيْضاً لَا انْقِطَاعَ لَه، وَيَكُونَ ظَاهِراً مَعِيناً لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُنْضَحَ بالدِّلَاءِ، ويُقَالُ لغة: «شَرَعَ الْوَارِدُ، يَشْرَعُ، شَرْعاً» أي: تَنَاوَلَ الْمَاءَ بِفِيهِ. ويقال: «شَرَعَ الْأَمْرَ» أي: أَبَانَهُ وأَظْهَرَهُ وجَعَلَهُ قَرِيبَ التَّنَاوُلِ لِلْقَاصِدِين.

واخْتِيرَ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيّ إِطْلَاقُ لَفْظِ «الشِّرِيعَةِ» اصْطِلاحاً عَلَىٰ مَا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ أحْكَامِ اللهِ لِعِبَادِهِ، فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَهُمْ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، الْمُشْتَمِلِ على الواجِبِ، والحرامِ، والمنْدُوبِ، والمكْرُوهِ، والمباح.

وهٰذَا اخْتِيَارٌ لِلَفْظِ «الشَّرِيعَةِ» حَكِيمٌ، لِمَا فِي هٰذَا اللَّفْظِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَىٰ أَنَّهُ مَوْرِدُ مَاءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الأَحْيَاءُ في الأرض، وعَلَىٰ أَنَّهُ فَيْضٌ لَا انْقِطَاعَ له، وَعَلَىٰ أَنَّهُ ظاهِرٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ قَرِيبُ التَّنَاوُلِ لِلْقَاصِدِين بِأَفْوَاهِهِم لَا بالدِّلَاءِ والْأَوَانِي، وَدِينُ اللهِ الخاتِمُ للنَّاسِ فِيهِ كُلُّ هٰذِهِ الصِّفَاتِ بِمَعْقُولَاتِهِ، وبِنُصُوصِهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ مَفْهُومَاتِهِ، وَتَطْبِيقَاتِهِ الظَّاهِرَةِ الواضِحَةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا اختفاءٌ وَلَا تستر.

- ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾: أي: مِنَ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيّ الَّذِي فِيهِ تَحْدِيدُ أَحْكَامِ اللهِ: «الواجبات، والمحرّماتِ، والمنْدُوبَاتِ، والمكْرُوهَاتِ، والمُبَاحَاتِ».

- ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾: أي: أَطِعْ مَا جَاءَ في الشَّرِيعَةِ الَّتِي جعَلْنَاكَ عَلَيْهَا، إِذْ أَلْزَمْنَاكَ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا مُتَمَكِّناً مِنْهَا، وَمُبَلِّغاً لَهَا، وَدَاعِياً إِلَيْهَا النَّاسَ، واعْلَمْ أَنَّكَ أَوَّلُ الْمَأْمُورِينَ بِطَاعَتِهَا في هٰذِهِ الرِّسَالَةِ الخاتِمَةِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ مِنْ بَعْدِ بِعْثَتِكَ، دَلَّنِي عَلَىٰ هذا وُجُود الْفَاءِ الدالَّةِ عَلَىٰ التَّرِيب والتَّعْقِيب في: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، ومن طاعَتِها الْحُكْمُ بأحْكَامِها.

الاتِّبَاعُ: سَيْرُ التَّابعِ في أَثَرِ المتبُوعِ وَطَاعَتُهُ، واتِّبَاعُ الْبيَانِ الرَّبَّانِيّ يَكُونُ بِالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهِ والْتِزَامِ أَحْكَامِهِ.

● ﴿... وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: وَلَا تَسْتَجِبْ لِدَعَوَاتِ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ، الَّذِينَ تَتَحَكَّمُ بِمَفْهُومَاتِهِمْ في الدِّين وغَيْرِهِ أَهْوَاؤُهم، فَيَدْعُونَكَ لاتِّبَاعِهَا، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ والْعَدْلَ والْخَيْرَ وَفَضَائِلَ الْأَخْلَاقِ والسُّلُوكِ، وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوهَا مُسْتَقْبلاً.

وهٰذَا الْبَيَانُ مُوَجَّهٌ أَيْضاً لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أئِمَّتِهِمْ وعامَّتِهِمْ، فالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ في أعْمَالِهِمْ، وأحْكَامِهِمْ، وفَضَائِلِهِمْ، وأَنْظِمَتِهِمْ، وقوانِينِهِمْ، أَهْوَاءَ أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ وغَيْرِهِمْ، مِمَّا يُخَالِفُ أحْكَامَ اللهِ وشَرَائِعَهُ هُمْ عُصَاةٌ للهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وخَارِجُونَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المُسْتَقِيم.

● ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ...﴾: أي: إِنَّهُمْ لَنْ يَصْرِفُوا عَنْكَ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئاً عَلَىٰ اتّبَاعِكَ أَهْوَاءَهُمْ لَوِ اتَّبَعْتَهَا، مَهْمَا كَانُوا ذَوِي سُلْطَانٍ وَمُلْكٍ، أَوْ جَاهٍ وَمَالٍ، وأعْوَانٍ وأَنْصَارٍ.

● ﴿... وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ...﴾: أي: وَلَا تَتَّخِذْ أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ ظَالِمُونَ فِي مَفْهُومِ الدِّينِ، أَوْلِيَاءَ لَكَ تَنْصُرُهُمْ وَيَنْصُرُونَكَ، إِنَّ الظَّالِمِينَ فِئَةٌ مُنْعَزِلَةٌ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، فَيَنْصُرُ بَعْضُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا بَعْضاً، وَلَا أَحَدَ مِنْهُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْ آخَرَ مِنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئاً إِذَا قَضَىٰ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُ.

● ﴿... وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾: أي: واللهُ هُوَ رَبُّ المتَّقِين، ونَصِيرُهُمْ وَمُتَوَلِّي جَمِيعِ أمُورِهِم في الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ دِينِهِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ، وبشأنِ الكِتابِ الَّذِي هُوَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم:

- ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾:

- ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾: جَمْعُ «بَصِيرَة وهي قُوَّةُ الإِدْرَاكِ والْفِطْنَةُ، والْعِلْمُ، والخبرة، والحجَّةُ، والْعِبْرَةُ، والْبَصِيرَةُ فِي النَّفْسِ كالبَصَرِ بالْعَيْن.

وَمِنْ هٰذِهِ المعانِي لِلْبَصَائِرِ نَسْتَفِيدُ أَنَّ الدِّينَ والكِتَابَ الَّذِي هُوَ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، عَلَىٰ خاتَمِ الأنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عِلْمٍ حَقٍّ، وَعَلَىٰ خِبْرَاتٍ ذَوَاتِ عِبْرَة، وعَلَىٰ حُجَجٍ وَبَرَاهِينَ تَكْشِفُ الْحَقَّ، وتُثْبِتُهُ، وتَكْشِفُ الْبَاطِلَ وتُزْهِقُهُ.

- ﴿وَهُدًى﴾: **هُدىً**: مَصْدَرٌ لِفِعْل: «هَدَاه، يَهْدِيهِ، هُدىً، وَهَدْياً، وهِدَايَةً، وهِدْيَةً» أي: بَيَّنَ لَهُ وأَرْشَدَه.

وَجاء وصْفُ الدِّينِ والكِتَابِ القرآنِ بأَنَّهُ هُدىً عَلىٰ سَبِيلِ المبالَغَةِ بالْوَصْفِ بالمصْدَرِ، إذْ كُلُّ مَا فِيهِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ هِدَايَةٍ، فَهُوَ بِمَثَابَةِ عَيْنِ الْهِدَايَةِ، كَمَا يُقَالُ: «رَجُلٌ عَدْل» و«رَجُلٌ حِلْم».

- ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾: أي: وهٰذَا الدِّينُ، الذي يَدُلُّ عَلَيْهِ الكِتَاب المشْتَمِلُ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ، هُوَ أَثَرٌ عَظِيمٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ بعباده، الَّذِينَ وَضَعَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتاهُمْ، ثُمَّ لِيَجْزِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِحَسَبِ اخْتِيَارَاتِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيَا مِنْ إيمانٍ وَعَمَلٍ ظاهِرٍ وَبَاطِنٍ.

الرَّحْمَةُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ، وهِيَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ نُثْبِتُهَا للهِ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِه، وَمِنْ آثَارِهَا الْعَطَاءُ، والْمَعُونَةُ، والتَّوْفِيقُ، والإِرْشَادُ، والْهِدَايَةُ إِلَىٰ الْحَقِّ والْصِرَاطِ المستقيم، وَإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، والْإِمْدَادُ بِمَا يَسُرُّ، وَيُسَكِّنُ النفس، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَصْعُبُ حَصْرُه.

- ﴿... لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾: أي: لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَسْتَبْصِرُوا بِمَا جَاءَ في كِتَابِ اللهِ القرآنِ، ويُوقِنُوا بِالْحَقِّ الَّذِي جاءَ فِيهِ.

الْيَقِينُ: العِلْم الّذي لَا شَكَّ فِيهِ، وأَدْنَىٰ مَرَاتِبِهِ مَا اعْتَمَدَ عَلَى أدِلَّة نَظَرِيَّةٍ، أَوْ خَبَرِيَّة، يُقَالُ لغة: «أَيْقَنَ الشَّيْءَ، وأَيْقَنَ بِهِ» أي: عَلِمَهُ عِلْماً لَا شَكَّ فِيهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ دَالًّا عَلَىٰ قَانُونِ الجزاءِ لِلْمَوْضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ، بِمُنَاسَبَةِ سَوَابِقِ مَا جَاءَ مِنْ بَيَان في الآيَاتِ من (١٨ - ٢٠).

● ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

● ﴿ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي: اكْتَسَبُوا المكْتَسَبَاتِ السَّيِّئاتِ مِن الأقوال والأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، ومِنْهَا النِّيَّات وَسَائِرُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ والنُّفُوسِ الإِرَادِيَّة.

أي: بَلْ. أَأَنْكَرَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، قَانُونَ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ بالْفَضلِ أَوْ بِالْعَدْلِ، فَحَسِبُوا مُتوهِّمِينَ أَنَّهُمْ وهُمْ كَافِرُونَ وَمُرْتَكِبُونَ السَّيِّئَاتِ، الَّتِي حَرَّمْنَاهَا عَلَىٰ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، المسْتَتْبِعِ لِلْجَزَاءِ عَقْلاً وَبَيَاناً مِنْ لَدُنَّا، أَنْ نَجْعَلَهُمْ مِثْلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طَاعَةً لِأَوَامِرِنَا، وَطَلَباً لِرِضْوَانِنَا وَثَوَابِنَا الْعَظِيمِ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ بِهِ، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ سَوَاءً مُتَسَاوِينَ، فَلَا نَجْزِيهِمْ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَلَا نَجْزِيهِمْ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِمْ بَعْدَ بَعْثِهِمْ.

طُوِي في النَّصِّ ذِكْرُ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، لِأَنَّ أَصْحَابَ هٰذَا الظَّنِّ التَّوَهُّمِيِّ الضَّعِيفِ لَا يُؤْمِنُونَ بالْبَعْثِ وَلَا بِيَوْمِ الدِّينِ، وَذُكِرَ مَمَاتُهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهُ، وهُمْ على يَقِينٍ بِأَنَّهُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ حَتْماً.

إِنَّ الْكَافِرِينَ يُشَاهِدُونَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا بِحَسَبِ مَا يَظْهَر لَهُمْ مِنْ أَحْوَالِ النَّاس، أَنَّ كُلًّا مِنَ المؤمِنينَ وَالْكَافِرِينَ، والمطِيعينَ والْعَاصِينَ،

والْمُحْسِنِينَ والْمُسِيئِينَ، يَتَعَرَّضُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِمَا يُحِبُّونَ وَلِمَا يَكْرَهُونَ، ولِمَا يَسُرُّهُمْ وَلِمَا يَسُوؤهُمْ، ولِمَا يَنْفَعُهُمْ وَلِمَا يَضُرُّهُمْ، فَلَا يُرِيدُونَ إِدْرَاكَ أَنَّ هٰذِهِ المتَضَادَّاتِ وَالمتَنَاقِضَاتِ والمتخالِفَاتِ هِيَ موادُّ امْتِحَانِ كُلِّ إنْسَانٍ بِمَا يُلائِمُهُ، مِنْ صُرُوفِ وَمُتَغَيِّراتِ الْحَياةِ الدُّنيا حَيَاةِ الابْتِلَاء، وَلَا يُرِيدُونَ إِدْرَاكَ أَنَّ الحياة الدُّنيا، بِكُلِّ ظُرُوفِها وَصُرُوفِها دَارُ امْتِحَانٍ، وَأَنَّ مَا بَعْدَهَا يَكُونُ الْجزاءُ، إِذْ يَأْتِي قِسْمٌ مِنْهُ غَيْرُ مُشَدَّدٍ عِنْدَ الْمَوْتِ وَبعْدَ الْمَوْتِ، في مُدَّةِ الْبرزخ الْفَاصِلِ بَيْنَ نِهَايَةِ الْحَيَاةِ الْأُولَىٰ وَبِدَايَةِ الْحيَاةِ الْأُخرَىٰ، ثُمَّ يَكُونُ الْجزاءُ الْأَشَدُّ وَالْأَكْبَرُ وَالْأَعْظَمُ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُسْرِعُون.

فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِم: أَحَسِبَ هٰؤُلَاءِ الكَفَرَةُ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء، أَنَّ حِكْمَتَنَا تَسْمَحُ وَقَدْ خَلَقْنَاهُمْ ذَوي إرَادَاتٍ ذَوَاتِ حُرِّيَّةٍ، بِأَنْ نَجْعَلَ ظُرُوفَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ لِكُلِّ الموضُوعِينَ فِي الحَيَاة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مُسَاوِيَةً لِظُرُوفِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيا، هَلْ يَلِيقُ بِحِكْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ، أَنْ يَكُونَ الْمُحْسِنُونَ والْمُسِيؤونَ سَواءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَاتُهُمْ، وَقَدْ أَتْقَنَ اللهُ كُلَّ شيءٍ صُنْعاً.

إِنَّ هٰذَا لَا يَقْبَلُهُ عَقْلُ عَاقِلٍ رَشِيدٍ، وَإِنَّ حُكْمَهُمْ هٰذَا عَلَىٰ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ حُكْمٌ بَالِغُ السُّوءِ والقباحة.

• ﴿... سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾: أي: سَاءَ سُوءاً شَدِيداً مَا يَحْكُمُونَ بِهِ علَىٰ رَبِّهِمْ، إِذْ يَحْكُمُونَ بأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سَيَجْعَلُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ مُتَسَاوِينَ مع الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات.

سَاءَ، فِعْلٌ يُقَالُ في إِنْشَاء الذَّمّ على سَبِيل المبالغَة، مِثْل: «بِئْسَ» والمعنىٰ على التعجُّب: مَا أَشَدَّ سُوءَ مَا يَحْكُمُونَ بِهِ مِنْ حُكمٍ عَلَىٰ رَبِّهِمْ.

• ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ والْحَالُ أَنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ خَلْقاً مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ الْمُنَاقِضِ لِلْبَاطِلِ، الَّذِي مِنْ مَظَاهِرِهِ الْعَبَثُ وَاللَّعِبُ، وَخَلق ذَوِي الإرادات ذَوَاتِ الْحُرِّيَّةِ مِنَ الْجِنِّ والْإِنْسِ، وجَعَلَ لَهُمْ مِنَ الصِّفَاتِ مَا يُؤَهِّلُهُمْ لِأَنْ يَكُونُوا مُمْتَحنينَ فِي ظُرُوف الحياة الدُّنيا، وَوَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ فِيهَا، لِيَجْزِيَ يَوْمَ الدِّينِ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ في حَيَاةِ امْتِحَانِهَا مِنْ خَيْر أو شر.

«لا يشترط الكوفيون والأَخْفَشُ من الْبَصْرِيين اقتران الْفِعْلِ الماضي بقَدْ إذا وقع في صدر جملة خاليّةٍ وهُوَ الأرجَحُ فيما أرَى».

● ﴿... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: أي: والْحَالُ أَنَّهُمْ فِي مُجَازَاتِهِمْ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً، مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَمَا دُونَهَا.

ـ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَأَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُضَاعَفُ إِلَىٰ عشَرَةِ أَضْعَافٍ إلىٰ سَبْعِينَ ضِعْفاً، إلى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كثيرة، وَيَعْفُو اللهُ عَنْ كَثِيرٍ مِن خَطَايَاهُمْ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُظْلَمُوا؟!

ـ وأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَاجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ، فاللهُ يَجْزِيهِمْ على كُفْرِهِمْ وبَعْضِ كَبَائِرِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوازِمِ كُفْرِهِمْ، فَلَا يُتَصَوَّرُ عقْلاً أَنْ يُظْلَمُوا وَقَدْ عَفَىٰ الرَّبُّ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ في السُّلُوك.

وسَبَقَ تَفْصِيلٌ وافٍ لِكَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بِالْحَقِ، لَدَىٰ تَدَبُّر الآية (٧٣) من سورة (الْأَنْعام/ ٥٥ نزول) فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرَّابع من دُرُوس سورة (الْجَاثِية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التّدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الجاثية)

الآيات من (٢٣ ـ ٢٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٣) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَفٌ: **[غَشْوَةٌ]**.

وَقَرأَهَا بَاقِي القرّاء الْعَشَرَة: **[غِشَاوَة]**.

ومُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ، فاللَّفْظَان لغتان لمعنى واحد.

(٢٣) • قرأ حَفْصٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[تَذَكَّرُونَ]**.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَذَّكَّرُونَ]** أَصْلُها «تتذَكَّرُون» أُدْغِمَتِ التّاءُ بالتّاءِ.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ الكَفَرَةِ المشركينَ المعالَجِينَ فِي هٰذِهِ السُّورَة، وَكَيْفَ اتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ، فانْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ، وسُتِرَتْ أَبْصَارُهُمْ، وَأَنْكَرُوا الجزاءَ والْيَوْمَ الآخِرَ، وَقَالُوا: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا، وَقَالُوا: مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ البيانِيَّة بِشَأْنِ الجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ والبعث، لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ إِلَّا أَنْ يَقُولوا: ائْتُوا بآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقين.

وهـٰذَا البيانُ اقْتَرَنَ بِهِ عِلَاجُ الْكَافِرِينَ بالْعِلَاجِ الْمُلَائِمِ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحلَةِ الَّتِي نزَلَ فِيها.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُخاطِبُ كُلَّ ذِي إِدْرَاكٍ صَالحٍ لِلْخِطَاب بأُسْلُوب الخطاب الإفرادي:

• ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

• ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾؟! يُرادُ بالاسْتِفْهامِ هُنا التَّعْجِيبُ لِلرَّائِي، وتَوْجِيهُ نَظَرِ غَيْرِ الرّائِي حَتَّىٰ يَرَىٰ وَيَعْجَب، إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ والْفِكْرِ والرُّشْدِ، أي: انْظُرْ بِتَفْكِيرٍ وإمْعَانِ نَظَرٍ لِتَرَىٰ.

والمطْلُوبُ النَّظَرُ إِلَيْهِ والتَّفْكِيرُ في شَأْنِهِ، هُوَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هواه، أي: اتَّخَذَ مَعْبُودَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هَوَاهُ، فَهُوَ يُطِيعُ أَوَامِرَ هَوَاهُ ونواهِيَهُ، أو هو يُوَجِّهُ كُلَّ حَرَكَاتِ حَيَاتِهِ لِمَا يَهْوَىٰ مِنْ دُنياهُ، تَعَلُّقاً بِهِ، وانْدِفاعاً نَحْوَه، كَتَوَجُّهِ الْعَابِدِ لِمَعْبُودِهِ، والْعَمَلِ بِمَا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، وَيُرْضِيهِ مِنْه.

إِنَّ قِسْماً مِنَ النَّاسِ يَأْمُرهُ هَوَاهُ بِجَمْعِ الأَمْوَالِ الْوَفِيرَة، فَيُطِيعُ أوامِرَهُ فَيَسْعَىٰ فِي جَمْعِ مَا يَهْوَىٰ وَلَوْ بالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، والْبَغْي والإِثْمِ والطُّغْيان.

وإِنَّ قِسْماً مِنَ النَّاسِ يأمُرُهُ هَوَاهُ بِمُمَارَسَةِ شَهَواتِ الْفَرْجِ، فَيَسْعَىٰ جَهْده لِتَحْقِيقِ شَهَوَاتِهِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ مُحَرَّمَةٍ، وَضَارَّةٍ، ونَاشِرَةٍ لِلْفَسَادِ في الأَرْضِ.

وإِنَّ قِسْماً مِنَ النَّاسِ يأْمُرُهُ هَوَاهُ بِطَاعَةِ زَعِيمٍ أو قائِدٍ أو رَجُل عظيم، مِنْ عُظَمَاءِ أهْلِ الدُّنيا، فَيُطِيعُهُ فِي كُلِّ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ وَمُخَالَفَةِ صِرَاطِهِ المسْتَقِيم، وهـٰذَا يَجْعَلُ بَعْضَ النَّاسِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ مِنْ دُون اللهِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَأْمُرُهُ هَوَاهُ باتِّبَاعِ آبَائِهِ وأجْدَادِهِ فِي عَقَائِدِهِم، وَعِبَادَاتِهِمْ، وَعَادَاتِهِمْ بالتَّقْلِيدِ الأَعْمَىٰ، انْتِصَاراً لَهُمْ، واعْتِزَازاً وافْتِخَاراً بِهِم، فَهُوَ باتِّبَاعِهِمْ يَتَّخِذُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَهَهُ هَوَاهُ، فَهُوَ يَعْبُدُ هَوَاهُ، وَلَا يَعْبُدُ شَيْئاً يَظُنُّ أَنَّ لَهُ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الكَوْنِ مِثْقَالَ ذَرَّة.

والأمْثِلَةُ عَلَىٰ اتِّخَاذِ الْهَوَىٰ إِلَهاً يُطَاعُ ويُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ كَثِيرَةٌ.

وممَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، مُمْتَحَنٌ ضَالٌّ ضَلالاً جَلِيًّا وَاضِحاً، وَلَا بُدَّ أَنْ يَحْكُمَاللهُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ ضَالٌّ، فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ يُضِلُّهُ (أي: يَحْكُمُ عليْهِ بِالضَّلَالِ) عَلَىٰ عِلْم بِحَالِهِ إِذِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الضَّلَالَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ضَالٌّ، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿... وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ...﴾ وَهٰذَا حُكْمٌ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ وهُوَ مَا زَالَ فِي ظُرُوف الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِأنَ حُكْمَ اللهِ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ عِلْم مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِأَنَّهُ ضَلَّ ضَلالاً مَيْؤُوساً مِنْ هِدَايَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَتِهِ الحرَّة، وَلِهٰذَا يَخْتِمُ اللهُ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، ويَجْعَلُ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَة، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

- ﴿... وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ... ﴿٢٣﴾﴾:

الْخَتْمُ: يُرَادُ بِهِ شِدَّةُ الإِقْفَال، ومَنْع الدُّخُول إِلَىٰ الْمُقْفَلِ مِنْ خَارِجِه، وَمَنْعُ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَىٰ خارِجِهِ، عَلَىٰ سَبِيل التَّشْبِيهِ.

أصلُ الْخَتْمِ عَلَىٰ الشَّيْءِ: سَدُّ مَا يُنْفَذُ مِنْهُ إِلَيْهِ سَدّاً مَانِعاً. يُقَالُ لُغَةً: «خَتَمَ عَلَىٰ الْإِنَاء، أَوْ عَلَىٰ بَابِ الْبَيْتِ، يَخْتِمُ، خَتْماً» بِطِينٍ، أَوْ بِشَمْعٍ، أَوْ نَحْوِهِمَا، حَتَّىٰ لَا يَدْخُلَ شَيْءٌ إِلَىٰ المخْتُومِ عليه، ولَا يَخْرُجَ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَكَانَ إِذَا أَرَادَ السُّلْطَانُ أَوِ الْقَاضِي مَنْعَ الدُّخُولِ إلى بَيْتٍ، أَوْ مَحَلٍّ تِجَارِيّ، أغْلَقَ بَابَهُ، وَضَرَبَ عَلَيْهِ الْقُفْلَ، وَجَعَلَ عَلَىٰ الْقُفْلِ طِيناً خَاصّاً، أَوْ شَمْعاً، وخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمٍ خَاصٍّ مَنْقُوشٍ، ورَتَّبَ عِقَاباً مُشَدَّداً عَلَىٰ فَضِّ الْخَاتمِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ أَوْ أَمْرِه.

فجاء التَّعْبِيرُ بالْخَتْم عَلَىٰ السَّمْعِ والْقَلْبِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ سَدِّ مَنَافِذِهِمَا سَدّاً مَانِعاً مِنَ دُخُولِ الْهِدَايَةِ إِلَيْهِمَا، وَهـٰذَا نَتِيجَةُ قَدَرِيَّةِ فِي نِظَامِ اللهِ التَّكْوِينيّ لِنَفْسِ مَنْ يَتَّخِذُ إِلَهَهُ هَوَاهُ، فَهُوَ أَثَرٌ مِنَ آثَارِ اخْتِيَارِ الإِنْسَانِ الْحُرِّ، كَمَنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي النَّارِ باخْتِيَارِه الْحُرِّ أَحْرَقَ اللهُ يَدَهُ ضِمْنَ نِظَامِهِ التَّكْوِينِيِّ الْعَامِّ، وكَمَنْ شَرِبَ سُمًّا قَاتِلاً باخْتِيَارِه الحرِّ، قَتَلَهُ اللهُ ضِمْنَ نِظَامِهِ التَّكْوِينِيِّ العامِّ.

- ﴿... وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ... ﴿٢٣﴾﴾: أي: وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِه غِطَاءً مَانِعاً مِنْ إِدْرَاكِ أَثَرِ رُؤْيَةِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَهـٰذَا أَيْضاً نَتِيجَةٌ لاخْتِيَارِهِ الْحُرِّ، إِذْ جَعَلَ إِلَهَهُ هَوَاه، كالْخَتْمِ عَلَىٰ سَمعهِ وَقَلْبِهِ.

الْغِشَاوَةُ: الْغِطَاءُ الحاجِب. وفي القراءة الأخرى: «**الْغِشْوَةُ**» وَهِي بِمَعْنَىٰ الْغِشَاوَةِ لُغَةً.

- ﴿... فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ ...﴾: اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا يُوجَدُ أَحَدٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ يَحْكُمُ لَهُ بالْهِدَايَةِ، مِنْ بَعْدِ حُكْمِ اللهِ عَلَيْهِ بأَنَّهُ ضَالٌّ بإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ إذ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ.

- ﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾: خاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في صَدْرِ الآيَةِ كُلَّ ذِي إِدْرَاكٍ صَالح للخطاب بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفراديّ، وَخَاطَبَهُمْ فِي آخِرِ الآيَةِ بِأُسْلُوبِ خِطَابِهِ لِجَمَاعَةِ كُلِّ الصَّالِحِينَ لِلْخِطَابِ مِنْ ذَوِي الإِدْرَاكِ وَالْفَهْمِ الْعِلْمِي:

أي: أفَلَا تَعْلَمُونَ هـٰذِهِ الحقائق الَّتِي عَرَضْنَاهَا لَكُمْ فِي هـٰذِهِ الآيَة، وَتَضَعُونَهَا فِي خَزَائِنِ مَعَارِفِكُمُ الصَّحِيحَةِ الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا، وَتَسْتَدْعُونَهَا إِلَىٰ ذَاكِرَتِكُمُ الْحَاضِرَةِ، عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ تَدْعُو إِلَىٰ تَذَكُّرِهَا، لإِيقَاظِ الإيمانِ بِهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ مَقُولَةٍ باطِلَةٍ قالَها مُنْكِرُو الْحَياةِ الْأُخْرَىٰ، يُعَبِّرُونَ بِهَا عَن اعْتِقَادِهِمْ فِي الموْتِ، وأَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ مُرُورِ الزَّمَانِ الَّذِي تَتَنَاقَصُ مَعَهُ قُدُرَاتُ الْحَيِّ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ الحياة:

• ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥﴾:

عُرِفَ أصحابُ هَـٰذِهِ الْمَقُولَةِ بِالدَّهْرِيّين، الَّذِينَ يَرْبِطُونَ التَّغَيُّراتِ فِي الْكَوْنِ بِمُرُور الأزْمَانِ، وَتَحَرُّكِ عَنَاصِرِ الكَوْنِ وَأجْزَائِهِ، ويَزْعُمُونَ أَنَّ مُرُورَ الزَّمَنِ الْمَدِيدِ مَعَ حَرَكَةِ أَجْزَاءِ الْكَوْنِ، هُمَا الْأَمْرَانِ اللَّذَانِ تَحْدُثُ بِهِمَا المخْلُوقَاتُ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، سَوَاءٌ أكانَتْ غَيْرَ ذَوَاتِ حَيَاةٍ، أَمْ كَانَتْ ذَوَاتَ حَيَاةٍ، وَكَذَلِكَ يَكُونُ الْمَوْتُ بِتَنَاقُصِ أَوْ فَقْدِ شُرُوطِ الْحَيَاةِ فِي الْكَائِنِ الْحَيِّ، فَلَا بَعْثَ وَلَا حَيَاةَ أُخْرَىٰ.

• ﴿... وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ ...﴾: أيْ: وَمَا يميتُنا إِلَّا الدَّهْرُ. **الإهْلَاكُ**: الإمَاتَةُ. **والدَّهْرُ**: الزَّمَانُ المتَتابِعُ الَّذِي لَا يُدْرَكُ مِنْهُ إِلَّا الجزْءُ الحاضِر.

إِنَّ فِكْرَةَ إِهْلَاكِ الدَّهْرِ للأحْيَاءِ مُرْتَبِطَةٌ عَقْلاً بِفِكْرَةِ نُشُوءِ الْأَحْدَاثِ فِي الكَوْن، هُمَا فِكْرَتَانِ لَا تَنْفَكُّ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَىٰ، فَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مُرُورَ الزَّمَنِ مَعَ حَرَكَةِ أَجْزَاءِ الكَوْنِ، هُمَا الْمُسَبِّبَانِ فِي الدَّهْرِ لإهْلَاكِ الْأَحْيَاءِ، لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ الدَّهْرَ هُوَ الَّذِي بِهِ تَكُونُ كُلُّ أَحْدَاثِ الكَوْنِ، وَمِنْهَا وُجُودُ الْحَيَاةِ في الْأَحْيَاءِ.

وَهـٰذَا يَدُلُّنَا عَلَىٰ أَنَّ في البيان القرآنِيّ إيجازاً بالحذف، تَقْدِيرُه:

﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ...﴾ فيها، وَمَا يُحْيينا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ﴾ فيها ﴿إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ بتَوَالِي الْأَزْمَانِ وَتَحَرُّكِ أَجْزَاءِ الكَوْنِ الصُّغْرَى، وَحُدُوثِ مُصادفَاتِ التَّلَاؤُمِ وَمُصادفاتِ التَّنَافُرِ بَيْنَ الْأَجْزَاء.

هٰـذِهِ الْفِكْرَةُ هِي الَّتِي قَامَتْ فِي أَذْهَانِ الدَّهْرِيِّينَ، بِصُورَتِهَا الَّتِي تُوهِمُ بأَنَّهَا فِكْرَةٌ مَقْبُولَةٌ فِي الْأَذْهَانِ.

فَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذِهِ الْفِكْرَةَ بِقَوْلِهِ تَعالَىٰ:

- ﴿... وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أيْ: لَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ عِلْمِيٌّ مَهْمَا كَانَ ضَعِيفاً، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَحْدَاثَ الكَوْنِ، وَمِنْهَا الْإِحْيَاءُ والْإِمَاتَةُ، من آثارِ مُرُورِ الزَّمَنِ الطَّوِيلِ وحَرَكَةِ أجْزَاءِ الكَوْنِ الصُّغْرَىٰ.

إِنَّ الحياةَ ظَاهِرَةٌ خارِجَةٌ عَنْ نِظَامِ أجْزَاءِ الكَوْنِ الْمَادِيَّةِ كُلِّهَا، فَهِيَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ أَثَراً مِنْ آثَارِ حَرَكَةِ أجْزَاءِ الكَوْنِ الصُّغْرَىٰ مَهْمَا امْتَدَّ الزَّمَن، بِدَلِيلِ سَلْبِهَا مَعَ وُجُودِ كَامِلِ أجْزَاءِ الْحَيِّ دُونَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْهَا شيء، ومَعَ سَلَامَةِ كُلِّ أعْضَائِهِ مِنْ خَلَلٍ مَا مَهْمَا كان ضَئِيلاً.

وَقَدْ أَجْرَىٰ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ كُلَّ مَا فِي وُسْعِهِمْ مِنْ تَجارِبَ في المختَبَرَاتِ، فما اسْتَطَاعُوا أَنْ يُوجِدُوا خَلِيَّةً واحِدَةً ذَاتَ حَيَاةٍ، مِنْ مَادَّةٍ فِي الكَوْنِ لَا حَيَاةَ لَهَا.

إِنَّ مَقُولَةَ الدَّهْرِيِّينَ طَرْحٌ احْتِمَالِيٌّ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مُطْلَقاً، لَا مِن الْعَقْلِ، وَلَا مِنَ المشْهُودِ في الكَوْنِ الْمُدْرَكِ بالْحَواسّ، وَلَا مِنَ المخْتَبَرَاتِ والتَّجْرِبَاتِ المعْمَلِيَّةِ، وَلَا مِنْ خَبَرٍ صَحِيحٍ يَجِبُ عَقْلاً التَّسْلِيمُ بِهِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الظَّنُّ التَّوَهُّمِيُّ الضَّعِيفُ الَّذِي لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ذُو رَأْيٍ سَدِيدٍ، وَفَهْمٍ رَشِيد.

أَمَّا الإيمانُ بالرَّبِّ الْخَالِقِ الْحَيِّ الْأَزَلِيِّ الأَبَدِيِّ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَدِيرِ، فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي اقْتَرَنَ بالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ مِنَ الْعَقْلِ، وَشَوَاهِدِ الْحِسِّ، والْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ الَّتِي يجبُ عَقْلاً التَّسْلِيمُ بها، وَقَدْ تَوَاطَأَت عَلَىٰ بَيَانها أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ وَكُتُبُهُ الْمُنَزَّلَةُ عَبْرَ التَّارِيخ الْبَشَرِي.

فالإحْيَاءُ والإهْلاكُ وَسَائِرُ أَحْدَاثِ الكَوْنِ وَمُتَغَيِّرَاتِهِ مَظَاهِرُ لإرَادَتِهِ وتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ، وَقَدْ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَ الإِنْسَ وَالْجِنَّ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ:

● ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

إنَّ مِنْ صِفَاتِ مُنْكِري الحياة الأخْرَىٰ بَعْدَ الموْتِ لِلْحِسَابِ، وفصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، أَنَّهُمْ إذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُ اللهِ فِي كِتَابِهِ بَيِّنَاتٍ مُثْبِتَاتٍ أَنَّ الجزاء حَقٌّ، تَشْهَدُ لَهُ بَرَاهِينُ الْعَقْلِ، وأَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ، وأَنَّ الْيَوْمَ الآخِرَ حَقٌّ، فالْخَالِقُ وَاضِعُ خُطَّةِ الْوُجُودِ وَمُنَفِّذُهَا تِباعاً كَمَا قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا، قَدْ أَعْلَمَ الْجِنَّ ثُمَّ الإِنْسَ بأَنَّهُ سَيَجْزِي عِبَادَهُ الَّذِينَ قَضَىٰ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وأَنَّ الجزاءَ الأَمْثَلَ لَهُمْ جَمِيعاً سَوْفَ يَكُونُ في الحياة الأُخْرَىٰ، بَعْدَ أَنْ يَبْعَثَهُمْ مِنْ مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الأَرْض، وأَنَّهُ أَعَدَّ لِهَـٰذَا الجزاء الأَمْثَلِ دَارَيْنِ: إحْدَاهُما لِنَعِيمِ المؤْمِنِينَ المتَّقِينَ، وأُخْرَاهُمَا لِعَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِين، والْعُصَاةِ الْفُجَّار، والظَّالِمِينَ لأَنْفُسِهِمْ.

إنَّ مُنْكِرِي الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، ومُنْكِرِي الجزاءِ يَوْمَ الدِّين، إذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ الَّتي سَبَقَ شَرْحُ مَضمُونِها، لَمْ يَجِدُوا حُجَّةً فِكْرِيَّةً يَحْتَجُّونَ بِهَا، تُسَوِّغُ فِي مَقَايِيسِ الْعُقُولِ إِنْكَارَهُمْ، إِذْ هُمْ مُحَاصَرُونَ فِكْرِيًّا بِمَا يُثْبِتُ قَانُونَ الْجَزاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدِّين، فَيَلْجؤُونَ إِلَىٰ الْمُطَالَبَةِ بإِحْيَاءِ مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِهِمْ، مَعَ أَنَّ الْبَيَانَاتِ الدِّينِيَّةِ فِي كُلِّ مَا أَنزلَ اللهُ مِنْ رِسَالاتٍ عَلَىٰ رُسُلِهِ، لَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ والجزاءَ الأَمْثَلَ سَيَكُونُ فِي ظُرُوفِ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ سَوْفَ يَكُونُ فِي حَيَاةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ إِنْهَاءِ ظُرُوف الحياة الدُّنيا كُلِّهَا، فَلَيْسَ مِنَ المقْبُولِ عَقْلاً الْمُطَالَبَةُ بإحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ فِي هَـٰذِهِ الْحيَاةِ الدُّنْيا، إِذْ قَضِيَّةُ الْجزَاءِ وإِمْكَانِ الْبَعْثِ مِنَ الْقَضَايَا الْعَقْلِيَّة، وَكَشْفُ عَنَاصِرِ الْخُطَّةِ المسْتَقْبِلِيَّةِ مِنَ الْقَضَايَا الْخَبرِيَّةِ الصَّادِقَةِ، الَّتِي يَشْهَدُ بِصِدْقِهَا بُرْهَانُ الْعَقْلِ.

● ﴿... مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: مَا كَانَ رَدُّهُمُ الدِّعَائِيُّ، الَّذِي وَاجَهُوا بِهِ جُمْهُورَ المؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، بِطَرِيقَةٍ دِعَائِيَّةٍ غَوْغَائِيَّة، إِلَّا أَنْ قَالُوا هَـٰذَا الْقَوْلَ، مَعَ أَنَّ هَـٰذَا الْقَوْلَ لَيْسَ حُجَّةً أَصْلاً، وَلَا يَدْخُلُ فِي سُلَّمِ الْحُجَجِ بِشأْنِ هَـٰذَا الموضُوع، وَلَكِنْ سَمَّاهُ اللهُ حُجَّةً مُرَاعَاةً لِحَالِهِمْ ونَقْصِ عُقُولِهِمْ، إِذْ أَوْهَمُوا بِغَوْغائِيَّةٍ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِحُجَّة.

فجاء التَّعْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ التالِي:

● ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

إِنَّهُمْ إِذْ لَمْ يَأْتُوا بِحُجَّةٍ فِي مَقَايِيس الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ التَّعْلِيمِيّ، أَنْ يُخْبَرُوا بالْحَقِيقَةِ الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ واقِعَةً حَتْماً، رَدّاً عَلَىٰ مُطَالَبَتِهِمْ بِإِحْيَاءِ آبَائِهِم.

● ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ...﴾: أي: قُل اللهُ يُتَابِعُ إِحْيَاءَكُم إِلَىٰ آجالِكُم الْمُقَدَّرَةِ لِمَوْتِكُم.

● ﴿... ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ...﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ آجالُ حَيَاتِكُم فِي الدُّنْيَا المقَدَّرَةِ الْمَقْضِيَةِ لَكُمْ يُمِيتُكُمْ، فَلَا أَحَدَ مِنْكُمْ يَسْتَطِيعُ تَأْجِيلَ مَوْتِهِ.

ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ بَعْدَ انْتِهَاءِ ظُرُوفِ هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وبَدْءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ.

- ﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ﴾ مَسُوقِينَ مَحْشُورِين.
- ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكُمْ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، تَمْهِيداً لِتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ الْأَكْبَر.
- ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾: أي: وَيَوْمُ القِيامَةِ هٰذَا لَا شَكَّ في أَنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ وَاقِعاً حَقًّا.
- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا هٰذِهِ الْحقَائِقَ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ عِلْمَهُمْ بِهَا قَدْ يُلْجِمُهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ أَهْوائِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ، وكثيرٍ مِنْ رغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لما فِيها مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ الَّتي تَسْتَتبِعُ الجزاءَ يَوْمَ الدِّينِ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الْخَامِسِ مِنْ دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدّرسِ السّادِسِ من دُروس سورة (الجاثية) الآيات من (٢٧ ـ ٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

القراءات:

(٢٨) • قرأ يَعْقُوبُ: **[كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ]** بِنَصْبِ «كُلَّ» وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَة: **[كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ]** بِرَفْعِ «كُلُّ». والقراءتَانِ وَجْهَانِ نَحْوِيَّان.

(٣٢) • قرأ حَمْزة: **[وَالسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا]** بِنَصْبِ «السَّاعَةَ، عَطْفاً عَلَىٰ «وَعْدَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا]** بِرَفْعِ «السَّاعَةِ» على أَنَّها مُبْتَدأ.

(٣٣) • قرأ أبو جعفر: **[يَسْتَهْزُونَ]** فِي الوصْلِ والْوَقف، وكذَلِكَ حمزة في الوقف.

وقَرأَها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَسْتَهزِءُونَ]** في الوصْلِ والوقف.

(٣٤) • قرأ السُّوسِي، وأَبُو جَعْفر: **[وَمَا وَاهُمْ]** بإبْدَالِ الْهَمْزَةِ ألفاً، وكَذَلِكَ حَمْزَةُ فِي الوقْف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَمَأْوَاهُمْ]** دُون إبدال.

(٣٥) • قرأ حفْصٌ: **[هُزُواً]**.

وقرأَها حمزَةُ، وخَلَفٌ: **[هُزْءاً]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[هُزُءاً]**.

وهِيَ وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ لِنُطْقِ هذه الْكَلِمَة.

(٣٥) • قَرأ حمزة، والْكِسَائي، وخَلَفٌ: **[لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا]** بالبِنَاء لِلْمَعْلُوم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا]** بالْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ.

أي: فَهُمْ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَخْرُجُوا.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذَا الدَّرْس تَقْدِيمُ لَقَطَاتٍ مِنْ أَحْدَاث يَوْم الْقِيَامَةِ، وفيها تَرْهِيبٌ لِمَنْ تَلِينُ قُلُوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ لِلْمُرْهِبَاتِ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ التَّرْهِيبَ أَحَدُ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ الْكُبْرَىٰ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ . . . ٢٧﴾: أي: وَللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وهذا تَعْبِيرٌ عَنْ مِلكِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ، فالسَّمَاوَاتُ تَشْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ في الْكَوْنِ حَوْلَ الأَرْضِ، لِأَنَّهُ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا سَمَاوَاتٌ.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِن تَقْدِيم الْخَبَر: ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ الَّذِي هو مَعْرِفة: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وجِيءَ بِهـٰذَا البيانِ مِنَ الْقَاعِدَة الإيمانِيَّةِ تَمْهِيداً للحديث عَنْ قِيَام السَّاعَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ مُرْهِبَاتٍ، تَهْدِي أُولِي الأَلْبَابِ إِلَىٰ الحقِّ والرُّشْدِ خَوْفاً مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿... وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

الْمُرَادُ بِقِيَامَةِ السَّاعَةِ هُنَا قِيَامُ سَاعَةِ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ لِلْوُقُوف بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ يَكُونُ تَنْفِيذُ الجزاء، عَلَىٰ وَفْقِ الْقَضَاء الرَّبَّانِيِّ بَيْنَ الْعِبَادِ الَّذِينَ كَانُوا في الحياةِ الدُّنْيَا مُمْتَحَنِين.

الْمُبْطِلُونَ: هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بالْبَاطِلِ واتَّبَعُوه، واخْتَارُوا أَنْ يَسْلُكُوا سُبُلَهُ، وكَفَرُوا بِالْحَقِّ ولَمْ يَتَّبِعُوا سَبِيلَهُ، وهُو صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ.

الباطلُ: ضِدُّ الْحَقِّ، وهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَا ثَبَاتَ لَهُ، لِمُخَالَفَتِهِ لِلْوَاقع. وهُو فِي قَضَايَا الدينِ كُلُّ ما كَانَ ضِدَّ مَا أَمر اللهُ بالإيمانِ به، وَكُلُّ مَا خَرَجَ في السُّلُوكِ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم.

الْخَاسِرُ: هُو الْمَغْبُونُ في تِجارَتِهِ، الَّذِي خَسِرَ رَأْسَ مَالِهِ، كُلَّهُ أَوْ بَعْضَهُ، ولَمَّا كَانَ رَأْسُ مَالِ الْإِنْسَانِ فِي وُجُودِهِ ذَاتَهُ، كَانَ بِتَعْرِيضِهِ ذَاتَهُ لِعَذَاب اللهِ ذَا خَسَارَةٍ عُظْمَىٰ، فإِذَا عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْخُلُودِ في عَذَابِ النَّارِ الْأَلِيمِ، كَانَ مِنْ زُمْرَةِ أَخْسَرِ الْخَاسِرِينَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْدِّينِ لِكُلِّ مُؤَهَّلٍ للخطاب.

● ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

الْجُثُوُّ: الْجلُوسُ عَلىٰ الرُّكْبَتَين، ويُطْلَقُ أَيضاً على الْقِيَامِ عَلَى أَطْرَافِ الْأَصَابع، يَقَالُ لُغَةً «جَثَا، يَجْثُو، جَثْواً، وجُثُوّاً، فَهُوَ جاثٍ، وهُمْ جِثِيٌّ، وجُثِيٌّ» أي: جَلَسَ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، أَوْ قَامَ عَلَىٰ أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ.

ولَعَلَّ المعنيَيْنِ مُرَادَانِ، عَلىٰ التَّوْزِيعِ بَيْنَ النَّاسِ، فَمِنْهُمْ جَالِسٌ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ قَائِمٌ علىٰ أَطْرَافِ أصابعِ قَدَمَيْهِ.

والمقْصِدُ مِنْ هٰذَا الْجُثُوِّ الْحُضُورُ في مَحْكَمَةِ الْفَضْلِ والْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ.

والْمُرَادُ بِكُلِّ أُمَّةٍ كُلُّ أُمَّةٍ كَانَتْ مَوْضُوعَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْابْتِلاء.

وقَدْ ثَبَتَ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ كَانَ لَهَا نَذِيرٌ، وَدَلَّ هٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ كَانَ لَهَا كِتَابٌ رَبَّانِيٌّ، فَهِيَ تُدْعَىٰ أَفْرَاداً لِلْحُكْم عَلَيْهَا بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِهَا الرَّبَّانِيّ، الَّذِي تبَلَّغَتْهُ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهَا أو الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

وَيُقَالُ لَهَا: ﴿... ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: تُجْزَوْنَ جَزَاءً مُطَابِقاً لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ سَيِّئَاتٍ وَمُخَالفَاتٍ لِمَا أُمِرتُمْ بِهِ فِي كِتَابِ رَبِّكُمْ.

أَمَّا الْحَسَنَاتُ فَتُثَابُونَ عَلَيْهَا إلى سَبْعمِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعَافٍ كثيرة كمَا جاءَ في نُصُوصٍ أُخرَىٰ، وهٰذَا مِنْ فَيْضِ فَضْلِ اللهِ عَلَىٰ المحسنين.

وَيُقَالُ لَهَا: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وَهُوَ كِتَابٌ جَامِعٌ لِكُلِّ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَيُصَوَّرُ مِنْهُ لِكُلِّ فَرْدٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاتِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُسَلَّمُ نُسْخَةً عَمَّا أَسْلَفَ أَيَّام كَانَ فِي حَيَاةِ الامْتحان.

• ﴿... إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: كُنَّا نُسَجِّلُ بِالتَّصْوِيرِ الْكَامِلِ للظَّاهِرِ والْبَاطِنِ، ولِحَرَكَاتِ الأفْكَارِ والْقُلُوب والنُّفُوسِ، كُلَّ عَمَلٍ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَهُ، وَتُحَاسبُونَ الْيَوْمَ عَلَىٰ كُلِّ عَمَلٍ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَهُ بِإرَادَاتِكُمْ الْحُرَّةِ المختارَةِ، الَّتِي لَا جَبْرَ فِيهَا وَلَا إِكْرَاه، ممَّا هُوَ دَاخِلٌ في امْتِحَانِكُمْ.

الاسْتِنْسَاخُ: طَلَبُ نُسْخَةٍ عَنِ الشَّيْءِ كَامِلَةِ الدِّقَّة، فَلا زِيَادَة فِيهَا عَنِ الْأَصْلِ وَلَا نُقْصَان، ومِنْهُ اسْتِنْسَاخُ الكِتَاب، واسْتِنْسَاخُ صُورَةٍ عَنْ عَمَلٍ مَا، ومِنَ الاسْتِنْسَاخِ تَصْوِيرُ الكِتَابِ بآلَةٍ تُعْطِي صُورَةً دَقِيقَةً عَنْه، وَتَصْوِيرُ

الْمَجَامِعِ والْحَفَلَاتِ بآلَاتِ التَّصْوير، وأعْظَمُ مِنْ كُلِّ ما تَوصَّلَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَيَتَوصَّلُونَ مِنْ آلَاتِ اسْتِنْسَاخِ صُوَرِ الْأَشْيَاءِ، مَا أَوْدَعَ اللهُ فِي كَوْنِهِ مِنْ مُصَوِّرَاتٍ تَسْتَنْسِخُ كُلَّ ظَاهِرٍ وَكُلَّ بَاطِنٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ خَوَاطِرَ الْأَفْكَارِ، وَحَرَكَاتِ الْقُلُوبِ، وَلَوَاعِجَ النُّفُوسِ، وانْدِفَاعَاتِ الشَّهَوَاتِ والأَهْوَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً نَتِيجَةَ مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، وَطَاوِياً ذِكْرَ أَحْداثٍ كَثِيرَة:

● ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)﴾:

فِي هٰذِهِ الآيَاتِ بَيَانُ نَتِيجَةِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات. وبيانُ نتيجةِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مُجْرِمِين.

● **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا مِنَ الصَّالِحَات** مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ إيمانِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ، فَقَدْ دَلَّتِ الآية (٣٠) عَلَىٰ أَنَّ اللهَ يُدْخِلُهُم فِي بَاطِنِ رَحْمَتِهِ، الَّتِي مِنْ آثَارِهَا يَوْمَ الدِّينِ جَنَّتُهُ الْعَظِيمَةُ، الَّتِي فِيهَا النَّعِيمُ الْمُقِيم، والَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

● ﴿... فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ...﴾: أي: فَيُدْخِلُهُمْ فِي آثار صِفَةِ رَحْمَتِهِ، ومِمَّا هو مُدْرَكٌ بَدَاهَةً، أَنَّ الدَّاخِلَ فِي آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ وَمِنْهَا جَنَّتُهُ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُحاطَ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ مَهْمَا صَغر بالسَّعَادَةِ

الْغَامِرَةِ، فَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِكَدَرٍ مَا، وَلَا بِمُنَغِّصٍ ما، وَلَا بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً دَقِيقاً، لَا فِي جَسَدِهِ، وَلَا فِي نَفْسِهِ، وَلَا فِي تَصَوُّرَاتِهِ وَأَوْهَامِهِ، وَلَا فِي أَمَانِيهِ الَّتِي تَمْتَدُّ إلى أَبْعَادِهَا خَيَالَاته.

• ﴿... ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾: **الْفَوْزُ**: النَّجَاةُ مِنْ كُلِّ شَرٍ وَمَكْرُوه ـ والظَّفَرُ بالمطْلُوب المَرْغُوب فِيهِ ـ والرِّبْحُ.

والْمُشَارُ إِلَيْهِ بِعبَارَةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هُوَ الدُّخُولُ فِي رَحْمَةِ اللهِ على مَا سَبَقَ إيضَاحُهُ.

الْمُبِينُ: أي: الْجَلِيُّ الْوَاضِحُ الّذي لا يَخْفَىٰ عَلَىٰ ذِي فِكْرٍ.

في هٰذِهِ الجملة قَصْرٌ مُسْتَفَادٌ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفِي الْإِسْنَادِ، مع ضَمِير الْفَصْل.

أي: ذَلِكَ الدُّخُولُ في رَحْمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، هُوَ وَحْدَهُ الْفَوْزُ الْجَلِيُّ الْوَاضِحُ الَّذِي يُدْرِكُهُ كُلُّ ذِي فِكْرٍ.

• **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مُجْرِمِينَ**: فَقَدَ عَرَضَ النَّصُّ لَقْطَةً مِنْ مُحَاسَبَةِ اللهِ لَهُمْ، وَلَقْطَةً مِنْ ظُهُورِ سَبَب كَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ بِمَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ كُبْرَيَاتٍ، ولَقْطَةً مِنْ مَصِيرِهِمُ الذي صَارُوا إِلَيْهِ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ، وَلَقْطَةً مِمَّا يُقَالُ لَهُمْ بَعْدَ اسْتِقْرَارِهِمْ فِي مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْجَحِيم، وَخِتَاماً مُوَجَّهاً لِكُلِّ صَالِحٍ للخطابِ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِين.

فَهِيَ لَقَطاتٌ أَرْبَعُ، وَبَعْدَها خِطَابٌ عامٌّ بِشَأْنِهِمْ، مُوَجَّهٌ لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ:

اللَّقْطَةُ الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ فِي بَدْءِ مُحَاسَبَتِهِمْ:

• ﴿... أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ

إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

- ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: الفاء في ﴿أَفَلَمْ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ مَحْذُوفٍ مِنَ اللَّفْظِ يُمْكِنُ إدراكُهُ ذِهْناً، والتَّقْدِيرُ: أَكُنْتُمْ مُهْمَلِينَ مَتْرُوكِينَ لِأَنْفُسكمْ، لَا تبلّغُونَ مَطْلُوبَ رَبِّكُمْ مِنكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُهَا فِي كِتَابِي إِلَيْكُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ يَتْلُوهَا رَسُولِي إِلَيْكُمْ، أَوْ أَحَدُ الدُّعَاةِ الْمُبَلِّغِينَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

فإِمَّا أَنْ يُقِرُّوا فَتَقوم الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وإِمَّا أَنْ يُنْكِرُوا وحِينَئِذٍ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مِن شَرِيط حَيَاتِهِمْ في الدُّنْيَا مَا يُثْبِتُ أَنَّهُم كَانَتْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِم آيَاتُ اللهِ رَبِّهِمْ، فَيُعْرِضُونَ عَنْهَا، وَلَا يُبَالُونَ بِهَا، وَلَا يَكْتَرِثُونَ لَهَا، وَيَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، أَوِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي مِنْ أُمَّتِهِ، وَيُؤْتَىٰ بالشُّهُودِ فَيَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ، فَتَدْمَغُهُمُ الْحُجَّةُ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهَا وَلَا إِنْكَارَهَا، وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ:

- ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: فاسْتَكْبَرْتُمْ عَنِ اتِّبَاعِ حَمَلَةِ رِسَالَتِي إِلَيْكُم، رُسُلاً أَوْ مُبَلِّغِينَ عَنْهُمْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهم، وكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ بالكُفْرِ، وبارْتِكَابِ الكَبَائِرِ مِنَ الْآثَامِ الَّتِي زُيِّنَ لَكُمْ الاسْتِمْتَاعُ بِهَا، مِنْ قِبَلِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ والإنْسِ.

الْمُجْرِمُ: هُوَ في اللُّغَةِ المتَعَدِّي بِذَنْبٍ كبير.

وقَدْ يَكْذِبُ بَعْضُهُم فَيَزْعُمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ عِلْمٌ بالآخِرَةِ وَيَوْمِ الدِّين، وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لَهُمْ:

- ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

أَي: وكُنْتُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ إِنَّ اللهَ وَعَدَ بالْجَزَاءِ عَلَىٰ الأَعْمَالِ، وإِنَّهُ

يَكُونُ بَعْدَ الْبَعْثِ إِلَىٰ الحياةِ مَرَّةً أُخرَىٰ، وإِنَّهُ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، وَإِنَّكُمْ سَوْفَ تَقِفُونَ هٰذَا الْمَوْقِفَ بَيْنَ يَدَي رَبِّكُمْ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ يَكُونُ الْجَزَاءُ تَنْفِيذاً لِقَضَائِهِ لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، فاللهُ لَا يُخْلِفُ الميعاد، وَإِنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا بَعْثُ الْمَوْتَىٰ، لَا رَيْبَ فِي قِيَامِهَا وَوُقُوعِ أَحْدَاثِهَا كَمَا جَاءَ فِي بَيَانَاتِ كِتَاب اللهِ، وَبيَانَاتِ رَسُوله، قُلْتُمْ:

مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ، إِذْ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ شَاهَدْنَا في الكَوْنِ أَحْدَاثاً مُشَابِهَةً لِهٰذِهِ التَّفْصِيلات، وَقُلْتُمْ إِنَّ هٰذِهِ الْأَخْبَارَ عَنِ السَّاعَةِ لَا تُفِيدُنَا إِلَّا ظَنًّا احْتِمَالِيًّا لَا يَصِلُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْعِلْم، الَّذِي يَجِبُ الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، واعْتِقَادُهُ، وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ، وَقُلْتُم مَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِين، وَكُنْتُمْ لَا تَعْبَؤُنَ بِبَراهِينِ الْعَقْلِ وَتَتَجَاهَلُونَها، وَكُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ رُسُلَ اللهِ فيما يُخْبِرُونَكُمْ بِهِ، مَعَ أَنَّهُمْ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ بالْمُعْجِزَاتِ الباهراتِ، والْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ.

فَلَا تَنْفَعُكُمُ الْيَوْمَ مَعْذِرَتُكُمْ، إِذْ كُنْتُمْ تَرْفُضُونَ الْحَقَّ مَعَ إِدْرَاكِكُمْ لَهُ، وَاسْتِيقَانِكُمُ الدَّاخِلِيّ بأَنَّهُ حَقٌّ، وَلَكِنْ غَلَبَتْ أَهْوَاؤُكُمْ وَشَهَوَاتُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِرَادَاتِكُمْ الْعَاقِلَةِ باخْتِيَارِكُمْ الْحُرِّ، فَلَا عُذْرَ لَكُمْ تَعْتَذِرُونَ بِهِ الْيَوْمَ فِي مَحْكَمَةِ رَبِّكُمْ.

اللَّقْطَةُ الثَّانِيةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في النَّصِّ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا... (٣٣)﴾: أي: وَعَلِمُوا قَضَاءَ اللهِ بِشَأْنِهِمْ، وعُرِضَتْ عَلَيْهِمْ مَنْزِلُهُمْ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ، وَبَدَا لَهُمْ تَحَقُّقُ جَزَاءِ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم، فَأَصَابَهُمُ الذُّعْرُ والسُّكُوتُ والْيَأْسُ والنَّدَمُ والانْهِيَارُ.

اللَّقْطَةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي النَّصّ: ﴿... وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤)﴾:

- ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: وَلزِمَهُمْ ووَجبَ عَلَيْهِمْ، وَأصَابَهُمْ إصَابَةً مُحِيطَةً بِكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِمْ.

- ﴿مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أيْ: الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا في الحياة الدُّنْيا يَسْتَهْزِئونَ بِهِ، حِينَ كانَ يُوَجَّهُ لَهُمُ الْوَعِيدُ بِهِ والترهِيبُ مِنْهُ.

- ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾: وقِيلَ بِتَكْلِيفٍ مِنَ اللهِ لِلْمَسْؤُولين عَنْ شُؤُونِهِمْ مِنَ الْمَلائِكَةِ أَنْ يُبَلِّغُوهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ.

الْيَوْم نَتْرُكُكُمْ تَتَقَلَّبُونَ فِي الْعَذَابِ الَّذِي قُضِيَ بِهِ عَلَيْكم، مِثْلَمَا كُنْتُمْ فِي الحياةِ الدُّنْيَا قَدْ تَركْتُمُ التَّصْدِيقَ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هٰذَا، وكَذَّبْتُمْ بِهِ، واتَّبَعْتُمْ مَا زُيِّنَ لَكُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

أَصْلُ النِّسْيَانِ في اللُّغَةِ: التَّرْكُ والإِهْمَالِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإنْسَانَ إِذَا تَرَكَ شَيْئاً مُهْمِلاً لَهُ، مُسِحَ هٰذَا الشَّيْءُ مِنْ ذَاكِرَتِهِ، فَلَمْ يَعُدْ يَخْطُرُ عَلَىٰ بَالِهِ، فَغَلَبَ فِي اسْتِعْمَالاتِ النَّاسِ الْمَسْحُ مِنَ الذَّاكِرَة لِمَادَّة «النِّسْيَان».

- ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: وَمَنْزِلُكُمْ الَّذِي تَسْتَقِرُّون فِيهِ دواماً دَارُ الْعَذاب النَّار.

- ﴿... وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: وَمَا لَكُمْ مِنْ مُنْقِذِينَ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُم، أَوْ يَنْصُرونكُمْ بِوِسَاطَةٍ أَوْ شَفَاعَة.

«مِنْ» في عِبارَة ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ زِيدَتْ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي في ﴿وَمَا لَكُم﴾ ولِلتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ كما يَقُولُ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّة.

اللَّقطَة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي النَّصّ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ... ﴿٣٥﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ هٰذِهِ اللَّقْطَةَ الْبَيَانِيَّةَ، تُوجَّهُ لَهُمْ وَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي عَذَابِ النَّارِ، بَعْدَ أَنْ يَضِجُّوا مُتَذَمِّرِينَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ

بِخِطَابٍ مُوَجَّهٍ لجماعَتِهم: ذَلِكُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ الْهَابِطُ إِلَىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ الَّذِي حَاقَ بِكُمْ، هُوَ بِسَبَبِ أَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الامْتِحَانِ، آيات اللهِ الْمُنَزَّلَاتِ لِهِدَايَتِكُمْ، وَبَيَانِ صِرَاطِ رَبِّكُمُ الْمُسْتَقِيمِ، هُزُواً، أي: شَيْئاً يُسْتَهْزَأُ بِهِ ويُسْخَرُ مِنْه.

الْهَزْءُ والْهُزُءُ: السُّخْرِيَة، وَهُمَا مَصْدَرَانِ لِفِعْلِ «هَزِئَ به، وَهَزِئَ مِنْهُ». أُطْلِقَ الْمَصْدَرُ بِمَعْنَىٰ اسْمِ «الْمَفْعُولِ» أي: شَيْئاً يُسْتَهْزَأُ بِهِ، ويُسْخَرُ مِنه.

- ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: وَخَدَعَتْكُمْ زِينَاتُ الحياةِ الدُّنيا، وأَطْمَعَتْكُمْ بالْبَاطِلِ، فَصَرَفَتْكُمْ عَنِ الإيمانِ بالْحَقِّ، وَعَنِ الْعَمَلِ بِمَا يُحَقِّقُ لَكُمُ السَّعَادَةَ الأَبَدِيَّةِ، مُكَذِّبِينَ رَسُولَ رَبِّكُم بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ عَنْه.

الْخِطَابُ الْعَامُّ بِشَأْنِهِمْ الْمُوَجَّهُ لِكُلِّ صَالحٍ لِلْخِطَاب: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النصّ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: فالْيَوْمَ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، لَا يُخْرَجُونَ مِنْ دَار الْعَذَاب النَّار، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كافِرِينَ مُجْرِمِينَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

- ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: وَلَا يُرْفَعُ عَنْهُمُ الْعَتْبُ والْمَلَامُ مَهْمَا دَعَوْا وَتَضَرَّعُوا، وَمَهْمَا صَاحُوا وَأَضَجُّوا مُطَالِبِينَ بالْخَلاصِ وَالْخُرُوجِ مِنْ دَارِ الْعَذاب، إِذْ هُمْ فِيها خَالِدُونَ، بِقَضَاءٍ مُبْرَمٍ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السَّادِس من دُرُوس سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبّر التّحليلي للدّرس السّابع من دُروس سورة (الْجَاثِيَة) الآيتان (٣٦) و(٣٧) آخِرِ السُّورَة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

تَمْهيد:

خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سُورَة (الجاثية) بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ المشْتَمِلَتَيْنِ عَلَىٰ ثَنَاءٍ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، بِطَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، تَذْكِيراً بِعَنَاصِرَ مِنَ الْقَاعِدَةِ الإيمانيَّة، الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

- ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾: أي: فَتَفْرِيعاً عَلَىٰ كُلِّ مَا جَاءَ في السُّورَةِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ.

استفيد الْقَصْرُ مِنْ تَقْدِيمِ المسْنَدِ عَلَىٰ المسْنَدِ إِلَيْهِ فِي جُمْلَةٍ اسْمِيَّة.

والْحَمْدُ للهِ يَتَنَاوَلُ تَمْجِيداً للهِ بِصِفَاتِهِ الْوُجُودِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ ذَاتِهِ، وَبِصفَاتِ أفْعَالِهِ، وَيَتَنَاوَلُ تَنَزُّهَهُ عَنْ كُلِّ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِجَلَالِهِ، فَهُوَ يَشْمَلُ الثَّنَاءَ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، والثَّنَاءَ عَلَىٰ اللهِ بِتَنَزُّهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مَا عَلِمْنَا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَمَا لَمْ نَعْلَم.

اللَّامُ الجارَّةُ في ﴿لله﴾ هِي بِمَعْنَىٰ الْمِلْكِ أو الاخْتِصَاص.

- ﴿. . . رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

كَلِمَةُ «رَبٌّ» هي في الأَصْلِ مَصْدَرُ فِعْلِ «رَبَّ» ومَعْنَاهُ الإِنْشَاءُ المتَدَرِّجُ للشَّيْءِ حَيّاً كَانَ أَمْ غَيْرَ ذِي حَيَاة، وَتَعَهُّدُهُ حَالاً فَحَالاً، وَطَوْراً فَطَوْراً بِحَسَبِ فِطْرَتِهِ وَاسْتِعْدَادَاته.

ثُمَّ اسْتُعِيرَتْ كَلِمَةُ «الرَّبّ» مِنَ الْمَصْدَرِيَّةِ إلى اسْمِ الْفَاعِلِ، فَصَارَتْ تُطْلَقُ كَلِمَةُ «الرَّب» بِمَعْنَىٰ «الْمُرَبِّي».

فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ، وَهُوَ رَبُّ الْأَرْضِ، وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، أي: هُوَ رَبُّ كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

- ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾.

الكِبْرِيَاء: الْمُلْكُ، والْعَظَمَةُ، والاسْتِقْلَالُ بأَنَّ لَهُ الْحُكْمَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ.

أي: وَللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كُلُّ هَـٰذِهِ المعاني الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا لَفْظَةُ الكِبْرِيَاء.

- ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: وهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ الْغَالِبَةُ لِكُلِّ الْقُوَىٰ، والَّتِي لَا تُقَاوِمُهَا قُوَّةٌ، إِذْ كُلُّ الْقُوَىٰ فِي الكَوْنِ مِنْ خَلْقِهِ وإِمْدَادِهِ لَهَا بالْبَقَاءِ.

الْحَكِيم: أي: الَّذِي يُقَدِّر تَقْدِيرَاتِهِ، ويَقْضِي أَقْضِيَتَهُ، ويُجْرِي تَصَارِيفَهُ فِي كَوْنِهِ، بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ، فَيَخْتَارُ أَحْكَمَ الأَشْيَاءِ لِكُلِّ شيءٍ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر سُورة (الْجَاثِيَةِ) عَلَىٰ مَا فَتَحَ اللهُ به عَلَيَّ.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٢)

مُلحَق: مستَخرَجَات بَلَاغيّة مِن سُورَةِ (الجاثية)

تَشْتَمِلُ سُورة (الجاثية) على اختيارات بلاغيّة نفيسة. مِنها ما يلي:

أوّلاً: الاستقطاعُ ممَّا سَوْف يجري يَوْم الدِّين وتقديم البيان كأنَّه يجري عند التكلُّم

ومن أَمْثلَة هـٰذَا الفنّ الإبداعِيّ في السُّورة مَا جاء في الآيات (٢٨ و٢٩ و٣١ و٣٢ و٣٤ و٣٥).

ثانياً:

القصْرُ: وهو تخصيص شيءٍ بِشَيْءٍ بعِبَارَةٍ كَلامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

ومن أَمْثِلَتِهِ في السورة مَا يلي:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ... ﴿١٢﴾﴾.

اسْتُفِيدَ الْقَصْر مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنَاد.

المثال الثاني: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ... ﴿٢٧﴾﴾.

اسْتُفِيدَ الْقَصْر مِنْ تَقْدِيمِ الْمُسْنَد وهو الخبر، على المسند إِلَيْهِ وهو المبتدأ، في جُمْلَةٍ اسْمِية.

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

كسَابقِهِ.

المثال الرابع: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

في هٰذِهِ الآيَة قصران:

الأول: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ وهو كسابِقَيْه.

الثاني: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ دَلَّ عَلَىٰ القصْر تَعْرِيف طَرَفي الإسناد، في جُمْلَةٍ اسميّة.

ثالثاً: إطلاقُ المصْدَر بَدَلَ اسْم الفَاعِل، أو اسم المفْعُول لِلْمُبالَغَةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّ الموصُوف عَيْنُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ المصْدَر

ومِنْ أمْثِلَتِهِ في السّورَة ما يلي:

المثال الأول: قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ مُنْكِرِ الجزاءِ والْيَوْمِ الآخِرِ بإصرارٍ وعِنَادٍ.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾.

هُزُواً مَصْدَرُ «هَزَأَ بِهِ» أُطْلِقَ بِمَعْنَىٰ اسْمِ المفعُولِ، أي: مَهْزُوءاً بِها، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ شِدَّةِ اسْتِهْزَائِهِ حتَّىٰ كأنَ المهزوءَ بِهِ عَيْنُ الْهُزْءِ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ القرآن الْمَجِيد:

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أَطْلَقَ عَلَىٰ القرآنِ أَنَّهُ «بَصائِرُ» وَأَنَّهُ «هُدىً» وَأَنَّهُ «رَحْمَةٌ» وَهِيَ ذَاتُ مَعَانٍ مَصْدَرِيَّة، بِمَعْنَىٰ اسْمِ الفاعل، على سبيل المبالغة حتَّىٰ كأَنَّ القرآن عَيْنُ الْبَصِيرة، وعَيْنُ الْهُدَىٰ، وعَيْنُ الرَّحْمَة.

رابعاً: اسْتِخْدَام الْكَلِمَةِ بِضِدِّ مَعْنَاهَا للتَّهَكُّم

ومن أمْثِلَةِ هٰذَا الْفَنِّ قول الله عَزَّ وَجَلَّ بشأن الْكَافِرِ المستكبر:

﴿. . . فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾:

جاء استعمال: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ بَدَلَ: «فَأَنْذِرْه» تهكُّماً بِهِ.

خامساً: تشبيهُ حَالِ مُمَارِسِ الشيء بحَالِهِ إذا لَمْ يُمارِسْهُ

ومن أَمْثِلَة هٰذَا التشبيه قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الكافِرِ المصِرِّ عَلَىٰ كُفرِهِ مُسْتَكْبراً:

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾.

سادساً: خروج الاستفهام عَنْ أَصْلِ دَلاَلَتِهِ الَّتي هِي طَلَبُ الإِفْهَام

ومن أَمْثِلَتِهِ في السّورَة ما يلي:

المثال الأوّل: قول الله عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ الكَفرَةِ الَّذِينَ لَمْ تُؤَثِّرْ فِي إقْنَاعِهِمْ حَتَّىٰ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ آيَاتُ اللهِ الجليلَةُ:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

المراد بالاستفهام هُنَا النَّفْيُ، أي: لَا يُوجَدُ حَدِيثٌ يُؤْمِنُونَ بِهِ بَعْدَ رَفْضِهِمْ الإيمانَ بالْحَدِيثِ الرَّبَّانِيِّ الْمُعْجز.

المثال الثاني: قول الله عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ مَنِ اتَّخَذَ إلَٰهِهِ هواه:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً . . . ﴿٢٣﴾﴾.

المراد بالاسْتِفْهَامِ هُنَا التَّعْجِيبُ، والْحَثُّ عَلَىٰ الرُّؤْيَةِ لِيَعْجبَ الرائي المتفكّر.

سابعاً:

تَنْزِيلُ الْقَرِيب مَنْزِلَة الْبَعِيد للدَّلاَلَة عَلَىٰ سُمُوِّهِ وارتفاع مَنْزِلَتِهِ الْمَعْنَوِيَّة، أو للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ بُعْدِ مَنْزِلَتِهِ تَسفُّلاً إِلَىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّار.

- فَمِن الأَمْثِلَةِ الّتِي يُرَادُ بِهَا الدَّلَالَةُ على ارْتِفَاع مَنْزِلَةِ القريب المعنويَّة قول الله تَعَالَىٰ بِشَأْنِ آياتِهِ الّتي تُتْلَىٰ على الرسول ﷺ:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿٦﴾﴾.

جَاءَت الإشارة إلى الآيَاتِ القريبة المتْلُوَّة باسْمِ الإشارة الْمَوْضوعِ للبعيد، للدَّلَالَة عَلَىٰ ارْتفاع مَنْزِلَتِها المعنويَّة.

- ومن الأمْثِلَة الّتي يرادُ بها الدَّلَالَةُ عَلَىٰ بُعْدِ مَنْزِلَةِ الْقَرِيب تَسَفُّلاً إِلَىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ من النار قولُ الله عَزَّ وَجَلَّ بشَأْنِ الّذِينَ يَتَّخِذُونَ آيَاتِ اللهِ هُزُواً، وهُمُ الْمُعَالَجُونَ فِي السُّورَة.

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾:

أي: أُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ المتَسَفِّلُون إلى جِهَةِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِن النّار لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ لهم.

ثامناً: توكيد الْجُمْلَةِ الخبرية بالمؤكِّدات لدَاعٍ بَلاغي

فمن أمْثِلَةِ تَوكيد الْجُمَلِ الخبريَّةِ في السُّورَةِ لداعٍ بَلَاغِيّ الأمْثِلَةُ التالية:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

التوكيد بِـ «إنّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللّام المزحْلَقَة» مُوَجَّهٌ لِلْمَدْعُوِّين إلىٰ الإيمان، فَحالُهم يَسْتَدْعي التوكيد.

المثال الثاني: قَوْلُ الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

التوكيد بـ «إنَّ - والجملة الاسميَّة - واللام المزحْلَقة» مُوجَّهٌ لِغَيْرِ المؤمِنِين، لِأَنّ حَالَهُمْ يَسْتَدْعِي التوكيد.

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ بَنِي إسرائيل:

﴿... إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾:

جاء التوكيد بـ «إنَّ - والجملة الاسمية» لإسْمَاعِ بَنِي إسرائيلَ الَّذِينَ خَالَفُوا دِينَ اللهِ، فحالُهُمْ يَسْتَدْعِي التوكيد.

ولِهَذَا التوكيد نظيرٌ في السُّورَة والْمَقْصُودُ بِهِ غَيْرُ الرَّسولِ، بَلْ الدُّعَاة مِنْ أُمَّته (انظر الآية ١٩).

تاسعاً:

مِنَ الفنون البلاغية الَّتِي ظَهَرتْ لي، مَا جاء في السورة من أمْرِ اللهِ رَسُولَهُ أَنْ يَأْمُرَ المؤمنينَ بأَنْ يَغْفِرُوا لِلْكَافِرين الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ إِسَاءَاتِهِم وأذَاهُم، للإشْعَارِ بأَنَّ هٰـذَا الأمْرَ مِنْ خَصَائِص سِياسَةِ القائدِ الإنْسَانِي فِي الأمَّةِ المحمّدِيَّة. (انظر الآية (١٤).

وبهٰذَا انتهىٰ ملحق المستخرجات البلاغية من سورة (الجاثية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

سُورَة الأحقاف

٤٦ مصحف ٦٦ نزول

وهي سورة مَكِيَّة كلُّها
واستثنى بَعْضُهُمْ آيَاتٍ منها وذكر أَنَّها مَدَنية
وهي السورة السابعةُ من «الْحَوَامِيم» السَّبْع

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرشُ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي
بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا
يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا
حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ
عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ
مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ
ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ
وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ
أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا

---

١ - ● سكت أبو جعفر على (حَا) و(ميم) سكْتَةً لطيفة.

٩ - ● قرأ قالون: [وَمَا أَنَآ إِلَّا] بإثبات ألف «أَنا» في الوصل والوقف وله وجهُ الحذف في الوصل.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بحَذْفِ ألفِ «أنا».

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا
وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ
إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ

---

١٢ - • قرأ نافع، والبزّي، وابنُ عامر، وأبو جَعْفَر، ويعقوب: **[لِتُنْذِرَ]** بتاء الخطاب خطاباً للرسول.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لِيُنْذِرَ]** بياء الغائب، والضمير عائد على: «كِتَابٌ مُصَدِّق».

١٣ - • قرأ يَعْقُوب **[فَلَا خَوْفَ]** بفتح الفاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَلَا خَوْفٌ]** بالرَّفْعِ مع التَّنوين. وهما وَجْهَانِ عَرَبِيان.

١٥ - • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، وَيَعْقُوب: **[حُسْناً]**. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[إِحْسَاناً]**.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

١٥ - • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وهشام، وأبو جعفر: **[كَرْهاً]** بِفَتْح الكاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[كُرْهاً]** بضمّ الْكاف، وهما بمعنى واحد لغة.

١٥ - • قرأ يعقوب: **[وَفَصْلُهُ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَفِصَالُهُ]**. والمؤدّى واحد.

١٥ - • قرأ ورش، والبزّي: **[أَوْزِعْنِيَ أَنْ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسكان ياءِ المتكلم.

شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ
أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا
تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن
سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾
وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ
ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ
إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ
أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ
أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ

---

١٦ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائيّ، وخَلَفٌ: [**نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أحْسَن مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ**] بضمير المتكلم العظيم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ**] بالمبنيّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

١٧ ـ • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر: [**أُفٍّ**]. وقرأها ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب: [**أُفَّ**]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أُفِّ**].
وهي لغات لهَٰذِهِ الكلِمَة.

١٧ ـ • قرأ هشام: [**أتَعِدانِّي أَنْ**] مع المدّ المشبع.
وقرأها نَافع، وابْنُ كثير، وأبو جَعْفَر: [**أَتَعِدَانِنِيَ أَنْ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَتَعِدَانِنِي أَنْ**] بإسكان ياء المتكلم.

١٩ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرْو، وهِشَام، وعاصِم، ويعقوب: [**وَلِيُوفِّيَهُمْ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَلِنُوَفِّيَهُمْ**] بنون المتكلّم العظيم.

ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ
خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ
ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا
عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن
مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ
سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ

---

٢١ - ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ أَخَافُ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٢٣ - ● قرأ أبو عمرو: [**وأُبْلِغُكُمْ**] من فعل: «أَبْلَغَ» المهموز.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: [**وَأُبَلِّغُكُمْ**] من فعل: «بَلَّغَ» المضعَّف.

٢٣ - ● قرأ نافع، والبَزّي، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**وَلَٰكِنِّيَ أَرَاكُمْ**] بِفَتحِ ياءِ المتكلّم.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلم.

٢٥ - ● قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخَلَفٌ: [**لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ**].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [**لَا تَرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ**].

٢٦ - ● قرأ أبو جعفر: [**يَسْتَهْزُونَ**] وَصْلاً وَوَقْفاً، وكذلكَ حمزة في الوقف، ولَهُ
تَسْهِيلُ الهمزة بينها وبين الواو، وإبدالُها يَاءً خالصة.

=

أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟
عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٨) وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ
نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا
قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى
ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟
بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن
لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ
بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى
ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً
مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٣٥)

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَسْتَهْزِئُونَ].

٣٣ ـ • وقف يعقوب بهاء السّكتِ علىٰ: [بِخَلْقِهِنَّ].

٣٣ ـ • قرأ يعقوب: [يَقْدِرُ] وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بِقَادِرٍ].

(٢)

ممّا وَرَدَ بشأنِ سُورَة (الأحقاف)

(١) سورة (الأحقاف) سَابعة الحواميم السّبع، وَيَنْطَبِقُ علَيْهَا مَا وَرَدَ بشَأُن هذه الحواميم، فَلْيُرْجَعُ إلىٰ مَا سَبَقَ ذِكْرُه بشَأْنها في سورة (غافر) و(فُصِّلَت) و(الشّورىٰ) ومَا بَعْدَها.

(٢) رَوَىٰ الحاكم بإسْنَادٍ صَحَّحه عن ابْنِ مَسْعُودٍ قَال: أقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ سورة (الْأَحْقَافِ) وأقرأهَا آخَرَ فخَالَفَ قِرَاءَتَهُ، فَقُلْتُ: مَنْ أقْرَأَكَهَا؟.

قال: رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَقُلْتُ: واللهِ لَقَدْ أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ غَيْرَ ذَا.

فأتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَمْ تُقْرِئْنِي كَذَا وَكَذَا؟.

قال: «بَلَىٰ».

وقال الآخر: أَلَمْ تُقْرِئْنِي كَذَا وَكَذَا؟.

قال: «بَلَىٰ» فَتَمعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ، فقال: «لِيَقْرَأْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا مَا سَمِعَ، فإنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بالاخْتِلَافِ».

(٣)

موضوع سورة (الأحقاف)

تَكَادُ تَكُونُ «الحواميم» السَّبع عائِلَةً وَاحِدَةً مُفَصَّلَةً إِلَىٰ سَبْعِ سُور، ذَواتِ مَلامِحَ وَقَسَمَاتٍ مُتَشَابِهاتٍ، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّها شَرِيفاتُ أُسْرَةٍ وَاحِدَة.

ومَوْضُوعُهَا يَسِيرُ على خَطٍّ رَئِيسٍ وَاحِدٍ، هُوَ خَطُّ الحديثِ عَنِ القرآن، ومَوْقِفِ الْكَافِرِينَ مِنْهُ إِبَّانَ التَّنْزِيل، ومَوْقِفِهِمْ من تَوحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَإلَهِيتِهِ، وَمَوْقِفِهِمْ مِن الرَّسُول ﷺ، ومن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وأَتبعُوه، ومِنَ الجزاءِ الرَّبَّانِيِّ وَيَوْمِ الدِّينِ.

وَجَاءَتْ مُعَالَجَتُهُمْ فِي السُّورَةِ مُلَائِمَةً بِحِكْمَةٍ لِمَوَاقِفِهِمْ، ومكَمِّلَةً لِمَا سَبَقَ في الحواميم السِّتِّ السابقة.

(٤)

دُروس سورة (الأحقاف)

بَدَا لي تقسيم هٰذِهِ السُّورةِ إلى (١٤) درساً:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٣).

وفي آيَات هَـٰذَا الدَّرْس بَدْءٌ بالحديث عَنِ القرآنِ مُطَابِقٌ لما جاء في صَدْرِ سُورةِ (الجاثية) السُّورة السَّادِسة مِنَ (الحواميم السَّبع).

وَبَعْدَهُ إِعَادةُ بَيَانِ مَا جَاءَ في الآية (٢٢) من سورة (الجاثية/ ٦٥ نزول) مِن أَنَّ الله خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بِالْحَقّ، ولكنْ جاء في (الأحقاف/ ٦٦ نزول) بِصِيغَة الْحَصْر، مع إضَافَةِ بَيَانِ أَنَّ اسْتِمْرَارَ نظام الحياة الدُّنيا للسَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ مُحَدَّدٌ بِأَجَلٍ مُسَمَّىٰ، وإضافةِ بيان أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْرِضُونَ غَيْرُ عَابِئِينَ بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ إِنْذَارَاتٍ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَكُونُونَ فِيه خَالِدِين.

الدَّرس الثَّانِي: الآية (٤).

وَفِي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَعْلِيمُ حِوَارٍ جَدَلِيٍّ يُحَاوِرُ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وكُلُّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ المشْرِكِينَ حَوْلَ شركائِهِمْ الَّذِينَ يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ الله.

الدرس الثالث: الآيَتَان (٥ و٦).

وفيهما بيانٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُوجدُ أَضَلُّ مِنَ المشْرِكِ الَّذِي يَعْبُدُ مِنْ دونِ اللهِ مَنْ لا يَنْفَعُهُ بشيءٍ، وسَوْفَ يَكُونُ لَهُ عَدُوّاً يَوْمَ القِيامَة.

الدَّرس الرابع: الآيات من (٧ ـ ١٠).

وفي آيَات هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ مَوْقِفٍ مِنْ مَوَاقِفِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيد، ومُبَلِّغِهِ عَنْ رَبِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَعَ تَعْلِيمِ اللهِ رَسُولَهُ أُسْلُوباً حِوَارِيًّا لَهُمْ حَوْلَ مَوْقِفِهِمْ هـٰذَا.

الدرس الخامس: الآيتان (١١ و١٢).

وفيهما بَيَانُ الْمَوْقِفِ الاسْتِكْبَارِيِّ الَّذِي وَقَفَهُ أَئِمَّةُ الشِّرْك وَالكُفْرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، مِنْ ضُعَفَاءِ المؤمِنِينَ، إذْ قَالُوا: لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ الَّذِي يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ خَيْراً مَا سَبَقَنَا هَؤُلَاء الضَّعُفَاءُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ عِلْيَة قَوْمِنَا إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ.

وفيهما تَعْلِيقٌ رَبَّانِيٌّ عَلَىٰ هـٰذَا الموقِفِ مِنْ مَوَاقِفِهِمْ مِن القرآن.

الدرس السادس: الآيتان (١٣ و١٤).

وفِيهِمَا وَعْدٌ رَبَّانِيٌّ مُجْمَلٌ بِالثَّوَابِ العظيم لِلَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا.

الدرس السابع: الآيتان (١٥ و١٦).

وفيهما بَيَانُ وَصِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلْإِنْسان بوالِدَيْه، ووَعْدِ الْوَلَدِ الْبَارِّ بِوالِدَيْهِ بِثَوَابٍ عَظِيمٍ جَزِيلٍ ادَّخَرَهُ اللهُ له.

الدّرس الثامن: الآيات من (١٧ ـ ١٩).

وفيها بَيَانُ حالِ الْوَلَدِ المكَذِّب بِيَوْمِ الدِّينِ العاقِّ لِوَالِدَيهِ المسْتَغِيثَيْنِ اللَّذَيْنِ يَقُولَانِ لَهُ: وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حقّ. فَيَقُولُ لَهُمَا: ما هذا إلّا أساطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

وفِيها بَيانُ جَزَاءِ اللهِ لِلْكَافِرِينَ المكَذِّبين.

الدرس التاسع: الآية (٢٠).

وَفِيا عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الْقِيَامَةِ خاصٌ بالَّذِينَ كَفَرُوا.

الدرس العاشر: الآيَاتُ من (٢١ ـ ٢٦).

وفيها بيانٌ مُوجَزٌ عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام وَقَوْمِه عاد، مُتَكَامِلٌ مَعَ مَا جَاءَ فِي سُوَرِ القرآنِ مِنْ قِصَّةِ هُود عَلَيْهِ السَّلام وقومه.

الدرس الحادي عشر: الآيَتان (٢٧ و٢٨).

وفيهما إنْذَارٌ لِلْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِم مِنْ مُشْرِكِي مَكَّة بأَنَّهُمْ إذا تَمادَوا فِي غَيِّهِمْ أَهْلَكَهُمْ رَبُّهُمْ كَمَا أَهْلَكَ كُفَّارَ أَهْلِ الْقُرَىٰ مِنْ حَوْلِهِمْ، فَمَا نَصَرَتْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كانُوا قَدِ اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ.

الدَّرس الثاني عشر: الآيات من (٢٩ ـ ٣٢).

وَفِيهَا بَيَانُ حَادِثَةِ اسْتِمَاعِ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ القرآنَ من الرسُول ﷺ، وَرُجُوعِهِمْ إلَىٰ قَوْمِهِمْ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، دُعَاةً إلى اللهِ فِي قَوْمِهِمْ مِنَ الْجِنّ.

الدرس الثالث عشر: الآيَتان: (٣٣ و٣٤).

وفيهما بيانٌ إقْنَاعِيٌّ مُوَجَّهٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُنْكِرِي الْبَعْث، مَصْحُوبٌ بإنْذَارِ بِعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

الدرس الرابع عشر: الآية (٣٥) آخر السورة.

وفيها تَوْجِيهٌ للرَّسُولِ ﷺ بأَنْ يَصْبِرَ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْم من الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِه، وبأَنْ لَا يَسْتَعْجِلَ للمعالَجينَ الإهْلَاكَ الَّذِي يَطْلُبُونَ تَعْجِيلَهُ، تَعْبِيراً عَنْ إنْكَارِهِمْ رِسَالَةَ الرَّسُول مُحَمد ﷺ، مَعَ تَهْدِيدِ اللهِ لَهُمْ، وإشْعَارِهِم بأَنَّهُ لَا يُهْلَكُ إهْلَاكاً جماعِيًّا شامِلاً إلَّا الْقَوْمُ الفاسِقُون، المتَوَاطِئُونَ على الكُفْرِ والْفُسُوق.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الأوّلِ من سورة (الأحقاف) الآيات من (١ ـ ٣)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

القراءات:

(١) ● سَكَتَ أبو جعفر على: (حَا) و(ميم) سَكْتَةً لطيفة.

(٢) ● قرأ قَالُون: [وَمَا أَنَا إِلَّا] بإثْبَاتِ ألف «أَنَا» في الْوَصْلِ والوقف، ولَهُ وَجْهُ الحذف في الوصل.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَة بِحَذْفِ ألف «أَنَا» وَصْلاً وَوَقْفاً.

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْس بَدْءٌ بالْحَدِيث عَنِ القرآن مُطَابِقٌ لِمَا جَاءَ فِي صَدْرِ سُورَةِ (الجاثية/ ٦٥ نزول) السّورة السَّادِسة من (الْحَوَامِيم السَّبْع).

وبَعْدَهُ إعَادَةُ بَيَانِ مَا جاء في الآية (٢٢) مِنْ سُورة (الجاثية) مِنْ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بالحقِّ، ولَكِنْ جاء في سورة (الأحْقَاف) بِصِيغَة الْحَصْرِ: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ مع إضَافَةِ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وإضافَةِ بَيَانِ أَنَّ نِظَام الحياةِ الدُّنْيَا للسَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ مُحَدَّدٌ بأجَلٍ مُسَمًّى، وإضَافَةِ بَيَانِ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْرِضُونَ غَيْرُ عَابِئِينَ بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ إِنْذَارَاتٍ بعذابٍ أَلِيمٍ يَكُونُونَ فِيهِ خَالِدِين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾:

هٰذَا الافتِتَاحُ مُطَابِقٌ لِبدَايَةِ سورة (الجاثية/ ٦٥ نزول) فَمَا جاء مِنْ تَدَبُّرٍ هُنَاكَ يُغْنِي عَنِ الْإِعَادَةِ هُنَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾:

سبَقَ تَفْصِيلٌ وافٍ لِكَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بالْحَقِّ لَدَىٰ تَدَبُّرِ الْآية (٧٣) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

وَجاءَ في هَٰذِهِ الآيَةِ إضَافَةُ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: أي: وَمَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ مِنْ كَائِنَاتٍ حَيَّةٍ وَغَيْرِ حَيَّةٍ، فَهِي دَاخِلَةٌ فِي عُمُومِ كَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خَلَقَهَا بالْحَقِّ عَلَىٰ مَا جَاءَ تَفْصِيلُهُ لَدَىٰ تَدَبُّرِ آيَةِ (الأنعام).

وَجَاءَ فِي هَٰذِهِ الآيَةِ إضَافَةُ بَيَانٍ:

- ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: وَجعلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بَقَاءَ نِظَام السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ مُحَدَّداً بِأَجَلٍ مُسَمَّى، فإذَا انْتَهَىٰ أَجَلُ الْبَقَاءِ وَجاءَ أَجَلُ الإنْهاء، هَدَمَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ نِظَامَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ الْمُحَدَّدَةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ لِلْإِنْهَاءِ.

ثُمَّ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ والسَّمَاوَاتُ لِيَوْمِ الْبَعْثِ، وبَدْءِ الحياة الْأُخْرَىٰ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي سُورَةِ (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾.

أي: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ أرضاً أُخْرَىٰ غَيْرَ هَٰذِهِ الْأَرضِ بِصِفَاتِهَا وَشَكْلِهَا، وَقَدْ يَكُونُ التَّبْدِيلُ مع المحافَظَةِ عَلَىٰ ذَرَّاتِهَا وَعَنَاصِرِها. وَتُبَدَّلُ السَّمَاوَاتُ سَماوات أُخرَىٰ غَيْرِ هَٰذِهِ السَّمَاوَات بِصِفَاتِها وأشْكالِها كذلِكَ مع المحافظة عَلَىٰ عَنَاصِرِها، وَاللهُ أَعْلَم، فَتَبْدِيلُ الْعِمَارَة قَدْ يَكُونُ بِهَدْمِهَا وَإِعَادَةِ بِنَائِها بِنِظَامٍ هِنْدَسِيٍّ مُغايِرٍ مَعَ اسْتِخْدَامِ الْعَنَاصِرِ الْمَهْدُومَةِ مِنْهَا، فِي الْبِنَاء الْجَدِيد.

- ﴿. . . وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ③﴾:

أي: وعَلَىٰ الرُّغم مِنْ كَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِسَامِي حِكْمَتِهِ وَعِظِيم قُدْرَتِهِ، خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بالْحَقِّ، وَهَـٰذَا الحَقُّ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنيا حَيَاةُ امْتِحَانٍ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ حَيَاةٍ أُخرَىٰ يَكُونُ فِيها الْحِسَابُ وَفَصْلُ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذُ الجزاء، وَعَلَىٰ الرُّغْم مِنْ تَوْجِيهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْعَظِيم إِنْذَارَاتِهِ الْمُرْهِبَةِ، لِمَنْ يَكْفُرُ بِمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بالإيمانِ بِهِ، عَلَىٰ لِسَانِ رُسُلِهِ المؤيَّدِينَ بالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، فالَّذِينَ كَفَرُوا باللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ، يُعْرِضُونَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، غَيْرَ مُبَالِينَ بإِنْذَارَاتِ اللهِ المرْعبَةِ لِأُولِي الْأَلْبَاب.

وَفي هـٰذَا البيانِ إِشْعَارٌ بِسَفَاهَتِهِمْ وَقِلَّةِ عُقُولِهِمْ وَحَمَاقَتِهِمْ، إِذْ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِمْ أدلةُ الْعَقْلِ، وَلَا الْأَخْبَارُ الَّتِي تَشْهَدُ الآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ، والمعجزاتُ الْبَاهِرَاتُ بِصِدْقِ الرُّسُلِ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَها عَنِ اللهِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنهما، وهُوَ الْعَلِيم الْعَزِيزُ الحكيم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الأول مِنْ دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الأحقاف)

الآية (٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ④﴾.

تَمْهيد:

فِي هٰذِهِ الآيَة تَعْلِيمُ حِوَارٍ جَدَلِيٍّ يُحَاوِرُ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وكُلُّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، المشْرِكِينَ حَوْلَ شُرَكَائِهِم الَّذِينَ يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ الله.

التدبّر التحليلي:

أي: ﴿قُلْ﴾ أيُّها الدَّاعِي إلى الله، وإِلَىٰ الإيمانِ بأَنَّ لَهُ وَحْدَهُ الرُّبُوبِيَّةَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، فَلَهُ وَحْدَهُ الإلَٰهِيَّةَ فِي الْوُجُودِ كُلّه، لِلْمُشْرِكِينَ.

- ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أيْ: أَتَفكَّرْتُمْ تَفْكِيراً سَدِيداً بأَنَاةٍ وتَعَمُّقٍ، حَتَّىٰ أَدْرَكْتُم إِدْرَاكاً عِلمِيّاً يُشْبِهُ الرُّؤْيَةَ الْبَصَرِيَّة.
- ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ بِعِبَادَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الدُّعاءُ لِتَحْقِيقِ الْمَطَالِب والرَّغبَات، فَإِنْ تَوَصَّلْتُم إِلَىٰ أَنَّ لَهُمْ رُبُوبِيَّةَ مَا فِي الكَوْنِ فَأَخبِرُونِي.
- ﴿أَرُونِي﴾ بِمُشَاهَدَةٍ حِسِّيَّةٍ، أَوْ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ فِي رُؤْيَةٍ ذِهْنِيَّةٍ فِكْرِيَّة.
- ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟: أي: مَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي خَلَقُوهُ مِنَ الْأَرْضِ. «ذَا» هُنَا بِمَعْنَىٰ «الّذِي» و«مَا» قَبْلَهَا اسْمُ اسْتِفْهَام.

فالمعنى: مَا هو الشيءُ الَّذِي خَلَقُوهُ مِنَ الْأَرْضِ فَكَانُوا بِهِ شُرَكَاءَ الله فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِلأَرْضِ، حَتَّىٰ يَسْتَحِقُوا أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ اللهِ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ في الْأَرْض.

- ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟: أي: بَلْ. أَرُونِي بِمُشَاهَدَةٍ حِسِّيَّةٍ أَوْ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ السَّمَاوَاتِ، فَلَهُمْ بِهٰذَا الْخَلْقِ مُشَارَكَةٌ للهِ فِي رُبُوبِيّتِهِ لِلسَّمَاءِ، حَتَّىٰ يَسْتَحِقُّوا أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ اللهِ فِي الإلَٰهِيَّة.

إِنَّهُم لَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُثْبِتُوا مُشَارَكَةَ مَا يَعْبُدونَ للهِ فِي رُبُوبِيّتِهِ لِلْأَرْضِ وَلَا لِلسَّمَاءِ، فَاتِّخَاذُهُمْ شُرَكَاءَ للهِ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ قَضِيَّةٌ بَاطِلَةٌ سَاقِطَةٌ مَرْفُوضَةٌ، لَا يَسْتَمْسِكُ بِهَا ذُو عَقْلٍ رَشِيد. وَرَأْيٍ سَدِيد.

بَقِيَ أَنْ يَدَّعُوا أَنَّ اللهَ الَّذِي لَهُ الرُّبُوبِيَّةُ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَهُ الإِلَٰهِيَّةُ وَحْدَه، قَدْ أَمَرَ بِعِبَادَةِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ، ولِدَفْعِ هَٰذَا الادِّعَاءِ الْبَاطِلِ جَاءَ في التَّعْلِيم الْجَدَلِيِّ الرَّبَّانِيِّ ما يلي:

- ﴿... ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾:

أي: أَحْضِرُوا كِتَاباً رَبَّانِيًّا صَحِيحاً أَنْزَلَهُ اللهُ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا القرآنِ، وَفِيهِ مَا يُثْبِتُ ادِّعَاءَكُمُ الْكَاذِبَ، أو فِيهِ أَنَّ اللهَ أَذِنَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ من خَلْقِهِ.

فإنْ لَمْ تَأْتُوا بِنَصٍّ مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ صَحِيحٍ يُثْبِتُ ادِّعَاءَكُمْ، فَأْتُوا بِبَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمٍ صَحِيحٍ مَوْرُوثٍ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ.

أَثَارَة: أي: بَقِيّة. فالأَثَارَةُ مِنَ عِلْمٍ هِيَ الْبَقِيَّةُ الْمَحْفُوظَةُ مِنْ عِلْمٍ صَحِيحٍ مَوْرُوثٍ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ.

وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يأتُوا بِكِتَابٍ صَحِيحٍ وَلَا بأَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ صَحِيح.

- ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: أي: إن ادَّعَيْتُم أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِعِبَادَةِ آلِهَتِكُمْ أو أذن بها، فَأَنْتُمْ كاذِبُونَ لَا تَسْتَطِيعُونَ إِثْبَاتَ ادِّعائِكُمْ.

وبهذا انْتَهَىٰ تدبُّر الدرس الثاني من دُروس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة (الأحقاف)

الآيتان: (٥ و٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ أَنَّهُ لا يُوجَدُ أَضَلُّ مِنَ المشْرِكِ، الّذِي يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ بِشَيْءٍ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ مِنَ الضُّرِّ شَيْئاً، وَسَوْفَ يَكُونُ لَهُ عَدُوّاً يَوْمَ الْقِيَامَة.

التَّدَبُّر التَّحْلِيليّ:

الاسْتِفْهَامُ في: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾؟ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ مَنْ هُوَ أَضَلُّ، لَكِنْ يُوجَدُ مَنْ يُشَارِكُهُ فِي دَرَكَةِ الضَّلَال.

والمعنَىٰ: لَا يُوجَدُ أَكْثَرُ ضَلَالاً مِنَ الَّذِي يَعْبُد مَعْبُوداً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ دُونِ اللهِ، بأيّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوانِ الْعِبادَةِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الدُّعَاءُ لِتَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ دَفْعِ مَكْرُوهٍ، وَالْمَعْبُودُ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَابِدِهِ بِشَيْءٍ طَوَالَ وُجُودِهِ فِي الحياةِ الدُّنْيَا، وعِنْدَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ إِلَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَلَوْ كَانَ الْمَعْبُودُ ذَا حَيَاةٍ مِنَ الإِنْسِ أو الْجِنِّ أو الْمَلَائِكَةِ، إِذْ هُوَ غَافِلٌ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ يَعْبُدُه، فالَّذِينَ يَعْبُدونَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ عِيسَىٰ بشَيْءٍ، لِأَنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْلُبَ لِعَابِدِيهِ نَفْعاً، أَوْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ ضُرّاً، وَهُوَ غَافِلٌ عَمَّنْ يَعبُده لا يَدْرِي عَنْهُ شيئاً، وحِينَ يَعْلَمُ أَنَّ أُناساً يَعْبُدُونَهُ كَانَ مِنْهُمْ مُتَبَرِّئاً، وَعَلَيْهِم سَاخِطاً، وَمِنْهُم نَاقِماً، إِذْ لَا يَرْضَىٰ بِمَا يُسْخِطُ الله رَبَّهُ جلَّ جَلَالُهُ.

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَكَانُوا جُثِيًّا فِي مَحْكَمَةِ اللهِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وجُمِعَ بَيْنَ الْعَابِدِينَ والْمَعْبُودِينَ، مِنْ ذَوِي الحياة، أَمَّا الْأَوْثَانُ فَكَانَتْ رُمُوزاً لِمَعْبُودِين كَانُوا أَحْيَاءَ، وَكَانَ المشْرِكُون يَعْتَقِدُون أَنَّ لَهُمْ أَرْوَاحاً ذَاتَ نَفْعٍ وَدفْعِ ضُرٍّ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، فإِنَّ الْمَعْبُودِينَ يَتبرَّؤُون مِنْ عَابِدِيهِمْ وَيكُونُونَ لَهُمْ أَعْدَاءَ خَوْفاً مِنْ عِقَابِ اللهِ لهم، وَإِنَّ الْعَابِدِينَ يَكُونُونَ أعْدَاءً لِمَعْبُودِيهِمْ، إِذْ لَا يَجِدُونَ عِنْدهُمْ مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ، وَيَسُوؤُهُمْ تَبرُّؤُهُمْ مِنْهُمْ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ لَهُمْ، وكذلِكَ يَكْفُرُ الْمَعْبُودُونَ بِعِبَادةِ عَابِدِيهِمْ لَهُمْ، فَإِنْ كَانُوا صَالِحِينَ قَالُوا لهم: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ وَكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَهْوَاءَكُمْ، وَلَمْ تَكُونوا تَعْبُدُونَنَا حَقًّا، وَلَمْ نَكُنْ عَلَىٰ عِلْمٍ بِعِبَادَتِكُمْ لنا.

الحشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْق.

يُلاحَظُ في الآية (٦) أَنَّهَا تَعْرِضُ مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُو لَقْطَةٌ مِنْ لَقَطَاتِ مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الْأَحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الرابع من دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (٧ ـ ١٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا

تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٨) قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٩) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠)﴾.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ مَوْقِفٍ من مَوَاقِفِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والْكُفرِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، مِنَ الْقُرْآنِ المجيدِ، وَمُبَلِّغِهِ عَنْ رَبِّهِ مُحَمّد ﷺ، مَعَ تَعْلِيمِ اللهِ رَسُولَهُ أُسْلُوباً حِوارِيًّا لَهُمْ حَوْلَ مَوْقِفِهِمْ هَـٰذَا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ والعِنَادِ المعالَجينَ في هَـٰذِهِ السُّورَةِ وَفِي سَائِرِ الْحَوَامِيم السَّابِقَةِ، مُتَحدِّياً بضمير المتكلّمِ العظيم:

- ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ (٧)﴾.

أي: وحِينَ تُتْلَىٰ عَلَىٰ الْمَدْعُوِينَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ في مَكَّة، آيَاتُنَا المنزَّلَاتُ مِنْ كِتَابِنَا، حَالَةَ كَوْنِهَا بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتِ الدَّلَالاتِ، واضِحَاتٍ فِي كَوْنِهَا حَقًّا وَمُنَزَّلَةً مِنْ لَدُنَّا قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهم كُفْراً جُحُودِيًّا عِنَادِيًّا مُوجِهِينَ قَوْلَهُمْ لِلْحَقِّ الَّذِي فَهِمُوهُ مِنْ آيَاتِنَا وَلِتَأْثِيرَاتِهِ في العقول والنُّفُوسِ والضَّمَائِرِ، وَلِسَائِرِ المشاعِرِ الَّتِي تَتَأَثَّرُ بالْقَوْلِ الْحَقِّ الْبَلِيغِ، فَورَ سَمَاعِهِم لَهُ، هَـٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ، لِيَصُدُّوا أَتْبَاعَهُمْ عَنِ التَّأْثِيرِ بِهِ، والاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا آيَاتُنَا.

هَـٰذِهِ الْحَرَكَةُ التَّمْوِيهِيَّةُ الَّتِي يُرَادُ بِهَا الصَّرْفُ والصَّدُّ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي إلى الحقِّ والْهُدَىٰ، مِنَ الْمَكْرِ الَّذِي يَمْكُرُهُ أئِمَّةُ الضَّلَالِ فِي الْأَرْضِ.

«لمَّا» الحينيَّة مِنْ وُجوهها أَنْ تَخْتَصَّ بالْمَاضِي فَتَقْتَضِي جُمْلَتَيْنِ وُجِدَتْ ثَانِيَتُهمَا عِنْدَ وُجُودِ أُولاهُما.

دَلَّ اتِّهَامُهُمْ لآيَاتِ القرآنِ الْبَيِّنَاتِ بأَنَّه سِحْرٌ، عَلَىٰ انبهَارِهِمْ بِمَا فِيهَا مِنْ حَقٍّ وإعْجَازٍ، وَدَهْشَتِهِمْ مِنْ تَأْثِيراتها، لَكِنَّهُمْ وَجَدُوا أَنَّ حِيلَةَ اتِّهَامِهَا بأَنَّها نَوْعٌ مِن أنواع السِّحر، حِيلَةٌ مُنَاسِبَةٌ تَصْرِفُ أَتْبَاعَهُمْ مِنْ جَمَاهِيرِ قَوْمهم عَنِ التَّأَثُّرِ بما فيها من حقٍّ وإعْجَاز.

وَزَادُوا في الادّعَاءِ التَّمْويهِيّ وصْفَهُمْ هـٰذَا السِّحْرَ بأَنَّه سِحرٌ مُبينٌ، أي: سِحْرٌ وَاضِحٌ لِكُلِّ ذِي نَظَرٍ فِكْرِيٍّ أَنَّهُ سِحْرٌ، ولَيْسَ حقيقَةً ذَاتَ تَأْثِيرٍ بِمَا فِيها مِنْ حَقٍّ فِكْرِيٍّ وَإِعْجَازٍ بَيَانِيٍّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْهُمْ، مَعَ تَعْلِيمِ الرَّسُولِ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِم:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾؟: أي: بَلْ أَيَقُولُونَ مُحَمَّدٌ افْتَرَىٰ القرآن الَّذي زَعَمُوا فِي الْقَوْلِ السَّابِقِ أَنَّهُ سِحْرٌ مُبِينٌ؟!

اسْتِفْهَامٌ فِيهِ غَايَةُ التَّعْجِيبِ مِنْ أَمْرِهِمْ والإنْكَارِ عَلَيْهِمْ.

إِنَّهُمْ مُضْطَرِبُونَ في أَمْرِهِمْ، فَبَعْدَ انْدِهَاشِهِمْ مِنْ عَظَمَةِ القرآنِ واتِّهَامِهِمْ لَهُ بأَنَّهُ سِحْرٌ مُبين، وبعد أَنْ تَمُرَّ عَارِضَةٌ تَأَثُّر جَمَاهِيرِهِمْ بِمَا فِي القرآن مِنْ حَقٍّ، وَمَا فِي آيَاتِهِ مِنْ بَيَانٍ بَلِيغٍ مُعْجِز، يَتَحَوَّلُونَ إِلَىٰ إِقْنَاعِ جَمَاهِيرِهِمْ بِأَنَّ مُحمّداً ٱفْتَرَىٰ الْقُرْآن مِنْ عِنْدِهِ، ويَزْعُمُ أَنَّهُ كَلامُ اللهِ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنْ لَدُنْهُ، ويُبَلِّغُه إِيَّاهُ رَسُولُ الْوَحْي جِبْرِيل.

الافْتِرَاء: اخْتِلَاقُ الْكَذِبِ واصْطِنَاعُهُ عَنْ عَمْدٍ.

• ﴿. . . قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ . . .﴾: أي: إِنِ افْتَرَيْتُهُ أَهْلَكَنِي اللهُ وَلَمْ يُمَكِّنِّي مِنْ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ كَلِمَةً مِنْهُ، لِأَنَّنِي مُؤَيَّدٌ مِنَ اللهِ بالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ والمعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، واللهُ لَا يُؤَيِّدُ بآيَاتِهِ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ، فَإِنْ تَوَجَّهَتْ نَفْسُهُ لِأَنْ يَكْذِبَ عَلَيْهِ سَلَبَ حَيَاتَهُ حَتَّىٰ لَا يَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ كَذِباً عَلَيْهِ، أَتَحْسِبُونَ أَنَّ مِنَ الْهَيِّنِ أَنْ يَكْذِبَ رَسُولٌ أو نَبِيٌّ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَقَدْ أَيَّدَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ صَادِقٌ فيما يُبَلِّغُ عَنْهُ.

وإِنْ كُنْتُم تُرِيدُونَ اسْتِدْرَاجِي كَمَا سَبَقَ أَنْ طَلَبْتُم مِنِّي أَنْ أَفْتَرِي علَىٰ رَبِّي شَيْئاً، فَآتِيَكُمْ بِقُرآنٍ غَيْرِ هذا القرآن، فِيهِ مَا يُرْضِيكُمْ مِمَّا يُوَافِقُ مُعْتَقَدَاتِكُمْ وَقَبَائِحَ أَعْمَالِكُمْ، فإِنْ أَرَدْتُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ أَهْلَكَنِي اللهُ، فَلَا تَمْلِكُون لِي مِنْ رَدٍّ مَا يَقْضِي بِهِ اللهُ بِي مِنْ شيءٍ مَهْمَا كَانَ شيئاً قَلِيلاً.

جاء اسْتِعْمَالُ حَرْفِ الشَّرْط «إِنْ» لِلْإِشْعَارِ بأَنَّ افْتِرَاءَهُ عَلَىٰ رَبِّهِ أَمْرٌ مَيْؤُوسٌ مِنْهُ، فَلَا يَطْمَعُوا باسْتِدْرَاجِهِ لِأَنْ يَفْتَرِيَ عَلَىٰ اللهِ شَيْئاً.

وَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ الْمُرَادَ بالْعِبَارَة: فَإِنِ افْتَرَيْتُ قُرْآناً كَمَا تُحِبُّونَ لِأُرْضِيكُمْ، كَمَا سَبَقَ أَنْ طَلَبْتُمْ مِنِّي، إِبَّانَ نزُول سُورَةِ (يونُس/ ١٠ مُصْحَف/ ٥١ نُزُول) فأَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فيها الآيَاتِ من (١٥ ـ ١٧) عَاقَبَنِي اللهُ عِقَاباً شَدِيداً أَدْنَاه أَنْ يُمِتْنِي ويَمْنَعَنِي من أَن أَنْطِقَ بِمَا افْتَرَيْته. وَلَوْ كَانَ مَا أُبَلِّغُكُمْ عَنْ رَبِّي مِن افْتِرَائِي لَافْتَرَيْتُ لَكُم مَا يُرْضِيكُمْ مِنِّي لِتَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِي.

• ﴿. . . هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ . . . ⑧﴾:

تُفِيضُونَ فِيهِ: أَيْ: تَنْدَفِعُونَ فِيهِ بِهِمَّةٍ وَقُوَّةٍ وَحَرَكَةٍ فِيهَا نَشَاطٌ فَوْقَ الْعَادَة.

والمعنَىٰ: أَنْتُمُ الْآنَ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ مَسِيرَةِ دَعْوَتِي بَيْنَكُمْ، تُدَبِّرُونَ وَتَمْكُرُونَ وَتَكِيدُونَ، وَتَنْدَفِعُونَ بِهِمَّةٍ وَقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ، لِإِيقافِ دَعْوَتِي

إِلَىٰ رَبِّي واضْطهادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِي، وَإِسْكَاتِ كَلِمَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ وَلَوْ بِقُوَّةِ السِّلَاحِ والْقِتَالِ والْحَرْبِ.

وَاعْلَمُوا أَنِّي مُتوكِّلٌ عَلَىٰ رَبِّي الَّذِي نَبَّأَنِي وَبَعَثَنِي للنَّاسِ رَسُولاً، وَلَنْ يَتَخَلَّىٰ عَنْ حِمَايَتِي وَحِمَايَةِ مَسِيرَتِي الدَّعَوِيَّةِ، وَحِمَايَةِ المؤمنين الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي، فَهُمْ أَوْلِيَاؤُه وَأَنْصَارُ دِينِهِ، وَهُو نَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيم فِيكُمْ، بِمَا تُدَبِّرُونَ، وَتَمْكُرُونَ، وَتَكِيدُونَ، وَتَنْدَفِعُونَ فِيهِ بِهِمَّةٍ وَقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ، لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَمُقَاتَلَةِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدِيرٌ عَلَىٰ إِحْبَاطِ كُلِّ مَا تُفِيضُونَ فِيهِ، وَرَدِّ كَيْدِكُمْ إِلَىٰ صُدُورِكُمْ، وَجَعْلِكُمُ الْمَخْذُولِينَ الْمَغْلُوبِينَ النَّادِمِينَ.

- ﴿... كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ... ﴿٨﴾﴾.

الباء في [بِهِ] زَائِدَةٌ لِلتَّوْكِيد، أي: كَفى اللهُ.

شَهِيداً: **الشَّهِيدُ**: الحاضِرُ الْمُعَاين.

والمعنى: أؤكِّدُ لَكُمْ أَنَّهُ كَفَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَهِيداً حَاضِراً مُعَايناً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يَعْلَمُ كُلَّ شَيءٍ، فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِنَا خَافِيَةٌ، وَمِنْهَا أَعْمَالُنَا الَّتِي نَنْصُرُ بِها دِينَهُ وَنَدْعُو إِلَيْه، وَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَافِيَةٌ، وَمِنْهَا أَعْمَالُكُمُ الَّتِي تَعْمَلُونَهَا لِمُقَاوَمَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، واضطهادِ المؤمنينَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا سِيمَا المسْتَضْعَفُون مِنْهُمْ.

فَهَلْ تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَتَخَلَّىٰ عَنْ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الشَّهِيدُ الْحَكِيمُ الْقَدِير؟.

إِذَا كُنْتُم أَهْلَ عَقْلٍ وَرُشْدٍ لَمْ تَتَمادَوْا فِي غَيِّكُم.

وفي هٰذِهِ العبارة إلْماحٌ خفِيٌّ إِلَىٰ عُقُوبَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

• ﴿... وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑧﴾: بَعْدَ الإلْمَاحِ إِلَىٰ الْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَة، كانَ مِنَ الحكمَةِ الإطْمَاعُ بِالْمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ، لِمَنْ فِي قَلْبه خَيْرٌ مَا، قَابِلٌ لِأَنْ يَسْتَجِيبَ لِدَعْوةِ الْحَقِّ، وَيَتَخَلَّصَ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَجُحُودٍ، طَمَعاً فِي أَنْ يَغْفِرَ اللهُ سَوَابِقَ كُفْرِهِ وآثَامِهِ، وأَنْ يَشْمَلَهُ بِرَحْمَتِهِ.

الْغَفُور: أي: ذو المغفرة العظيمة الْجَلِيلَةِ، **والمغفرة**: سَتْرُ الذُّنُوب الْمُسْتَلْزِمُ عَدَمَ المؤاخَذَةِ عليها ـ واللَّفْظُ صيغة مبالغة لاسم الفاعِلِ «غافِر» وهو اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

الرَّحِيم: اسم من أسماء اللهِ الحسْنَىٰ، أي: ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فينالُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ مَنْ يَتَعَرَّضُ لِنَفَحاتِهَا وَتَنَزُّلَاتها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً تَعْلِيمَ رَسُولِهِ مَا يُحَاوِرُ بِهِ المقْصُودِين بالْعِلاجِ في السّورة:

• ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ⑨﴾:

الْبِدْعُ: الشيءُ المبْتَدَعُ الّذي لم يَسْبُقْ أَنْ وُجِدَ نَظِيرٌ له.

في هٰذِهِ الآية يُعَلِّمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلْمُعَالَجِينَ في السُّورَةِ وأَمْثَالِهم مِنْ مُنْكِرِي رِسَالَتِهِ أَرْبَعَ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: أيْ: مَا أَنَا الرَّسُولُ الأَوَّلُ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، الْمُبْتَدَعُ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ أَنْ وُجِدَ فِي تَارِيخ البَشَرِ نَظِيرٌ له، بَلْ جَاءَ مِنْ قَبْلِي رُسُلٌ كَثِيرُون كُنْتُمْ تَتَحَدَّثُونَ عَنْهُمْ في مَجَالِسِكُمْ، مِنْهُمْ إبراهيم وإسْمَاعِيل ومُوسَىٰ وهَارُونُ وعِيسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلام وغَيْرُهُمْ: فَمَا الأَمْرُ الَّذِي جَعَلَكُمْ تُنْكِرُونَ

رِسَالَتِي، وادَّعَيْتُمْ أَنِّي افْتَرَيْتُ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ رَبِّي، وقَد آتاني من الآيَاتِ مَا يثْبِتُ أَنِّي نَبِيُّ اللهِ حَقًّا وَصِدْقاً، ورَسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقاً؟!

فَكَيْفَ صَحَّ فِي أَذهَانِكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِرُسُلٍ سَابِقِين، وَتَجْحَدُوا رَسُولاً أجْرَىٰ اللهُ لَهُ آياتٍ وهُوَ فِيكُمْ، وهٰذِهِ الآيَاتُ تَشْهَدُ لَهُ بأَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقًّا وَصِدْقاً؟!

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآية: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾: أي: أَنَا أُبَلِّغُكُمْ مَا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَّاه، وَيَتَوَقَّفُ عِلْمِي عِنْدَ حُدُودِ مَا يُعَلِّمُنِي رَبِّي، وَلَمْ يُعْطِنِي رَبِّي عِلْمَ كُلِّ شيءٍ، فَلَسْتُ أَعْلَمُ أَحدَاثَ مُسْتَقْبَلِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، إلَّا إذا أَنْبَأَنِي اللهُ بِشَيْءٍ مِن ذَلِكَ، وَمِنَ الْأَحْدَاثِ مَا سَأَكْسِبُهُ مُسْتَقْبَلاً، وَمَا يَبْتَلِينِي اللهُ بِهِ، فِي جَسَدِي أَوْ فِي نَفْسِي، وَحَيَاتِي ومَوْتِي، وهٰذَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (لُقْمان/ ٥٧ نزول)

﴿... وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾.

وَكَذَلِكَ مَا أَدرِي مَا يُفعَلُ بِكُمْ فِي أَحْدَاثِ مُسْتَقْبَلِكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا، إلَّا مَايُعْلِمُنِي اللهُ بِهِ عَنْ طَرِيق الوحْي، وأَمَّا مَا أُخبِرُكُمْ بِهِ مِنْ جَزَاءِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الدِّين، فَعِلْمِي بِهِ مَحْدُودٌ بِحُدُودِ مَا أَنْزَلَ ويُنَزِّلُ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، وَتُوجَدُ تَفَاصِيلُ كَثِيرَة لَا أَعْلَمُهَا مَا لَمْ يُعلِمْنِي اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بِشَيْءٍ مِنها.

فَلَا تُطَالِبُونِي بأَنْ أُخبِرَكُمْ بِمَا لَمْ يُعْطِنِي اللهُ بِهِ عِلماً، مَا أَنَا إِلَّا عَبْدٌ للهِ مِثلِكُمْ، اصْطَفَانِي بالنُّبُوَّة، وأمرنِي بِأَنْ أُبَلِّغَكُمْ رِسَالَتَهُ إِلَيْكُمْ وَإِلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِينَ عن طَرِيق المبلغينَ مِنْ أُمَّتِي.

الْقَضِيَّة الثَّالِثَة: دَلَّ عليها قول الله تعالى في الآية: [**إِن أتبع إلا ما**

يوحى إلي]: «إنْ» حرف نَفْي بمعنى «ما» أي: مَا أَتَّبِعُ فِي مَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاهُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ نَفْسِي، وَلَا مَا يَتَوَصَّلُ إلى إِدْرَاكِهِ فِكْرِي وعَقْلِي، وَلَا أَتَّبِعُ أَحداً مِنَ الإِنْسِ أَو الْجِنِّ. فَلَا تَطْمَعُوا فِي أَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَكُمْ أو أَسْتَجِيبَ لِشَيْءٍ مِنْ مَطَالِبِكُمْ، فالدِّينُ دِينُ اللهِ، وأَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْرُجَ عَنْ حُدُودِ رِسَالَتِهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا أَقلَّ مِقْدارٍ، فَلَا تُحَاوِلُوا اسْتِدْرَاجِي وَلَا اسْتِنْزَالي وَكُفُّوا عَنْ إغْرَاءاتِكُمْ لي.

الْقَضِيَّةُ الرابعَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الْآيَة: ﴿... وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾: أي: وَمَا أَنَا بالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ إِلَّا مُنْذِرٌ لَكُم بِعَذَابِ رَبِّكُمْ، بَعْدَ أَنْ دَعَوْتُكُمْ وَتَلَوْتُ عَلَيْكُم مِقْدَاراً كَبِيراً مِنْ آيَاتِ رَبِّكُمْ، وَبَيَّنْتُ لَكُمْ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ، وكَثِيراً مِنْ مَحَاسِنِ الإِسْلَام، وَشَرَحْتُ لَكُم بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ، أَنَّ الشِّرْكَ الَّذِي تَسْتَمْسِكُونَ بِهِ بَاطِلٌ، مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ، وَلِمَا تَقْتَضِيهِ دَلَائِلُ الْعَقْلِ وَبَرَاهِينُهُ، وَبَشَّرْتُكُم بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ إِنْ آمَنْتُمْ، وأَطْمَعْتُكُمْ بِمَغْفِرَةِ اللهِ لِكُلِّ خَطَايَاكُمُ السَّابِقَةِ إِنْ أَسْلَمْتُمْ، وَقَدْ أَدَّيْتُ لَكُم كُلَّ حَلْقَاتِ سِلْسِلَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِي، فَاعْلَمُوا أَنَّ الْحَلْقَةَ الْأَخِيرَةَ مِنْهَا، هِيَ إِنْذَارُكُمْ بِعَذَابِ رَبِّكُمْ الآجِلِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ الله مِنْ انْتِقَامٍ مُعَجَّلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَعْدَ أَنْ وَصَلْتُمْ إلى حَالَةٍ مَيْؤوس مِنْها.

فَالْقَصْر فِي عِبَارَةِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هُو مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ الإِضَافِي، أي: بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ يَا مَنْ وَصَلْتُمْ إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهَا، بَعْدَ مُعَالَجَتِكُمْ بِمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ وَصُنُوفِ العِلَاجِ، مُنْذُ بَدْءِ بِعْثَتِي حَتَّىٰ تَارِيخ نُزُولِ سورة (الأَحْقَاف).

- ▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيمَ رَسُولِهِ مَا يُحَاوِرُ بِهِ المقْصُودِينَ بالْعِلَاجِ في السورة:

- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَفَكَّرْتُمْ تَفْكِيراً سَدِيداً بِعُمْقٍ وَإِمْعَانِ نَظَرٍ، حَتَّىٰ رَأَيْتُمْ بِفِكْرِكُمْ رُؤْيَةً مُشَابِهَةً لِلرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّة، إِنْ كَانَ القرآنُ الَّذِي زَعَمْتُمْ أَنَّنِي افْتَرَيْتُهُ عَلَىٰ رَبِّي هو مِنْ عِنْدِ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً، وَالْحَالُ أَنَّكُمْ كَفَرْتُمْ بِهِ، وهُو لَيْسَ بِدْعاً فِي الكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ فَقَدْ شَهِدَ شَاهِدٌ فَأَكْثَرُ بِلَا حَصْرٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ كِتَابَ التَّوْرَاةِ عَلَىٰ مُوسَىٰ، وأَنْزَلَ كُتُباً عَلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، وهٰذَا الشَّاهِدُ فأَكْثَرُ قَدْ آمَنُوا بالكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ المنَزَّلَةِ عَلَىٰ رُسُلِ اللهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، وَقَدْ كَفَرْتُمْ بما أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولِكُمْ اسْتِكْبَاراً وَجُحُوداً وَمُعَانَدَةً لِلْحَقِّ، وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْيَهُودَ والنَّصَارَىٰ هُمْ أَهْلُ كِتَابٍ رَبَّانِي، كَيْفَ تَكُونُ مُوَاجَهَتُكُمْ لِرَبِّكُمْ لَدَىٰ حِسَابِكُمْ عَلَىٰ الكُفْرِ بِكِتَابِه؟! وَمَا هُوَ الْعُذْرُ الَّذِي تَعْتَذِرُونَ بِهِ، إِذْ رَفَضْتُمُ الإِيمَانَ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِلِسَانِكُمْ، وَهُو هُدىً وَنُورٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ جَمِيعاً؟!

أَفَلَا تَقُومُ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَيَحْكُمُ اللهُ عَلَيْكُمْ بِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ ضَالِّينَ ضَلَالاً إِرَادِيًّا بِاخْتِيَارِكُمُ الْحُرّ، وَبِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ جُحوداً واسْتِكْبَاراً، وتَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّار؟؟!

- ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: إِنَّ اللهَ الحقَّ، الْحَكَمَ الْعَدْلَ، مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَحْكُمَ بِهِدَايَةِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ظُلْماً مِنْ دَرَكةِ الكُفْرِ واسْتِحْقَاقِ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار.

نَفْيُ الْهِدَايَةِ هُنَا يرادُ بِهِ نَفْيُ الْحُكْمِ بِهِدَايَةِ مَنْ ثَبَتَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ بالْكُفْر، وبِجُحُودِ الْحَقِّ عِناداً واسْتِكْبَاراً، واتِّبَاعاً لِلْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ، وَمَطَالِبِ النفْسِ مِن مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَاتِها.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٩)

التدبّر التحليليّ للدرس الخامس من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (١١ و١٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

القراءات:

(١٢) • قرأ نافع، والْبَزِّي، وابْنُ عَامر، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوبُ: [لِتُنْذِرَ] بتاء المخاطب، خطاباً للرّسُول ﷺ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِيُنْذِرَ] بِيَاءِ الْغَائب، والضمير عائِدٌ على: [**كِتَابٌ مُصَدِّقٌ**].

وبَيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد.

تَمْهيد:

فِي آيتي هٰذَا الدّرْس بَيَانُ الموْقِفِ الاسْتِكْبَارِيِّ الَّذي وَقَفَهُ أئِمَّةُ الشِّرْكِ وَالْكُفرِ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَفُقَرَائِهم، إذْ قَالُوا: لَوْ كَانَ القرآنُ الَّذي يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ خيراً، مَا سَبَقَنا هٰؤلَاءِ الضُّعَفَاءُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ لَيْسُوا هُمْ مِنْ عِلْيَةِ قَوْمِنَا إِلَىٰ الإيمان به.

وفيهما بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ بِشَأْنِ هٰذَا الموقِفِ مِنْ مَوَاقِفِهِمْ مِن القرآن المجيد.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ⑪﴾:

أي: وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُوا بالْقُرْآنِ وَبِرسَالَةِ الرَّسُولِ محمَّدِ ﷺ، مُوَجِّهِينَ قَوْلَهُمْ لِوَاقِعِ حَالِ ضُعَفَاءِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمين وَفُقَرَائِهِمْ: لَوْ كَانَ الْقُرْآن خَيْراً، حقًّا وَصِدْقاً، مَا سَبَقَنا هَٰؤلاءِ الضُّعَفَاءُ وَالْفُقْرَاءُ إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ، والاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قَالُوا هَٰذَا الْقَوْلَ بِدَافِعِ الاسْتِكْبَارِ والتَّعَالِي والتَّرفُّعِ عَنْ مُشَارَكَةِ ضُعَفَاء المسْلِمِينَ وفقرائِهِمْ في مِلَّةٍ جَدِيدَةٍ سَبَقُوا إلى الدخول فيها والاستجابَةِ لِدَعْوَةِ داعِيها.

ويخْطُر لي أنّ أصل العبارة: وقالَ الّذِين كفرُوا للّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خيراً مَا سَبَقْتُمونا إِلَيْهِ، وإِذْ أشاعوا مَقُولتهم كان من الإيجازِ الحكيم أنْ تأتي العبارة القرآنيةِ: مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ.

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّهُم إِذِ اسْتَكْبَرُوا وَلَم يَسْتَجيبوا وَلَمْ يَهْتَدُوا بِمَا فِيهِ مِنْ هُدىً إِلَىٰ الْحَقِّ والْخَيْرِ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ فَضَائِلَ عَظِيمَةٍ، فَسَيَقُولُونَ بِشَأْنِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ القرآنُ مِنْ تَوْحِيدٍ وَحَقٍّ يَتَعَلَّقُ بِكَمَالاتِ اللهِ، وَتَنَزُّهِهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ به، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْبَاءِ الآخِرَةِ وَيَوْم الدِّين، والحساب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَالجزاء، والْجَنَّةِ دَارِ المتَّقِين، والنَّارِ دَارِ الْمُجْرِمِينَ: هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ جاءَ فِيمَا سَمِعْنَا مِنْ أَخْبَارِ أَدْيَانٍ سَابِقَةٍ.

الإِفْكُ: افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَنْ عَمْدٍ.

وَوَصَفُوهُ بأَنَّهُ قَدِيمٌ، كَمَا قَالُوا بِشَأْنِهِ فِي مَرَاحِلَ سَابِقَةٍ: أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ، أَيْ: مَكْتُوبَاتٌ مِنْ مَكْتُوبَاتِ الْأَوَّلِينَ نَقَلَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ وادَّعَىٰ أَنَّ اللهَ يُوحِي بِهَا إِلَيْهِ، تَكْذِيباً لِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَته.

تَضَمَّنَتْ عِبَارَة: ﴿... وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ بِعَدَم الاهْتِدَاءِ بما في القرآنِ مِنْ هُدىً، وأَنَّ مَقَالَتَهُمْ حِيلَةٌ جَدَلِيَّةٌ يُرِيدُونَ بها سَتْرَ مَوْقِفِهِمْ الجاحِدِ الظَّالِمِ أَمَامَ جَمَاهِير أَتْبَاعِهِمْ، وإِيْهَامَهُمْ أَنَّ القرآن الَّذِي يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ لَا حَقَّ فِيهِ وَلَا هُدَى، هَـٰذِهِ حَرَكَةٌ إِعْلَامِيَّةٌ يُرَادُ بِهَا الصَّدُّ والصَّرْفُ عَنْ دِينِ اللهِ الْحقّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ بِدْعَا بَيْنَ الْكُتُب الرَّبَّانِية، فقد جَاءَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ التَّوْرَاةُ الَّذِي لَا يَجْحَدُهُ الْمُعَالَجُونَ فِي السُّورَةِ مِنْ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة:

● ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّا أَنزَلْنَا كُتُباً لِهِدَايَةِ النَّاسِ عَلَىٰ عَدَدٍ مِنَ الْمُرْسَلِين، مِنْ قَبْل هـٰذَا الكِتابِ الَّذِي نُنَزِّلُهُ على محمّدٍ نَبِيِّنَا ورَسُولَنَا، ومِنْهَا كِتَابُ مُوسَىٰ وهُو التوراةُ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِمَاماً ورَحْمَةً.

﴿إِمَامًا﴾: **الإمَام**: هُو في اللُّغَةِ مَا يُؤْتَمُّ بِهِ، ومَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، أي: يُتَّبَعُ. فَكَوْنُ التَّوْرَاةِ إِماماً يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ فِي مُدَّةِ وُجُوبِ الْعَمَلِ بِهِ فِي قَضَايَا الْعَقَائِدِ وأُصُولِ الإيمان، وفي قَضَايَا الْأَخْلَاقِ والمعامَلَاتِ الاجْتِمَاعِيَّة، وفي أحكام الحلال والحرام والواجب والمندوب والْمَكْرُوه، وفي كُلِّ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ وَصَايَا.

﴿وَرَحْمَةً﴾: أَيْ: وأَثَراً مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ بِعبادِه، إِذْ يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ ونَجاحُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وفِي الآخِرَة.

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾: أي: وَهَٰذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكُتُبِ السَّابقة، كَمَا سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي الآيَةَ (٩٢) مِنْ سُورَةِ (الأنْعَام/ ٥٥ نزول) وَفِي الآية (٣١) من سورة (فاطر/٤٣ نزول).

والْمُرَادُ بِتَصْدِيقِ الْقُرآنِ الكُتُبَ الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ، تَصْدِيقُ أَنَّ أُصُولَهَا الصَّحِيحَةَ قَبْلَ التَّحْرِيفِ هِيَ مُنَزَّلَةٌ مِن اللهِ حَقاً وَصِدْقاً، وَلَيْسَ الْمُرَادُ تَصْدِيقَ كُلِّ مَا فِيها بَعْدَ التَّحْرِيفِ والتَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ الَّتِي دَخَلَ إليها، بِدَلِيلِ مَا جَاءَ في القرآن مِنْ بَيَانِ تَحْرِيفِ أَهْلِ الكِتابِ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِم فِي الآية (٧٥) من سورة (البقرة/ ٨٧ نزول) وفي الآية (٤٦) من سورة (النساء/ ٩٢ نزول) وفي الآيَتيْن (١٣) و(٤١) من سورة (المائدة/ ١١٢ نزول).

فَلَا يَكُونُ التَّصْدِيقُ لِأَيِّ تَحْرِيفٍ دَخَلَ فِيها.

- ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾: أَيْ: حَالَةَ كَوْنِ هَٰذَا الْقُرْآنِ مُنَزَّلاً بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ لِخَاتِمَةِ كُتُبِهِ لِلنَّاسِ.

وَيُلَاحَظُ فِي هَٰذَا الْبَيَانِ اسْتِثَارَةٌ لاعْتِزَازِ جَاحِدِي كَوْن القرآنِ مُنَزَّلاً مِنْ عِنْد الله، وَهُمْ يُفَاخِرُونَ بِعُرُوبَتِهِمْ وَبِلِسَانِهِمْ أَلَيْسَ مِنْ مَنَازِعِ نُفُوسِهِمْ الَّتِي تَفْخَرُ بِلِسَانِهِمْ أَنْ يُسَارِعُوا إلى الإيمان به، والدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّفَاخُرِ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ؟!

- ﴿لِّيُنذِرَ﴾: أَيْ: الْقُرْآن بِمَا فِيهِ مِنْ إِنْذَارَاتٍ، وفي القراءة الْأُخْرَىٰ: [لتنذر] خِطَاباً لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَىٰ الْمُراد، إِذِ الْقُرْآنُ بِنُصُوصِهِ مُنْذِرٌ، والرَّسُولُ بِبَيَانَاتِهِ المقْتَبَسَةِ مِنَ القرآنِ مُنْذِرٌ.

- ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أي: الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ دَرَكَةِ الْكُفر.

وإِنْذَارُهُمْ يَكُونُ بإعْلَامِهِمْ بأَنَّهُمْ إذا أصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَمَاتُوا عَلَيْهِ كَانُوا يَوْمَ القيامَةِ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّار، مَعَ مَا قَدْ يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الحياة الدُّنيا، إذا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ ذَلِك.

أو لِيُنْذِرَ كُلَّ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ فَمَا دُونَهَا، وَهُمْ مُرْتَكِبُو الكَبَائِرِ بِعِقَابٍ مِنَ اللهِ يُلَائِمُ ظُلْمَ كُلِّ ظَالِمٍ مِنْهُمْ.

- ﴿... وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾:

الْبُشْرَىٰ: اسْمٌ للتَّبْشِيرِ، وهُوَ الإِخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ وَيُفْرِح.

أُطْلِقَتِ «الْبُشْرَىٰ» الّتِي هِيَ بِمَعْنَىٰ «التَّبْشِيرِ» على سَبِيلِ التَّنْوِيعِ فِي الْبَيَانِ الرَّفِيعِ، أي: وَلِيُبَشِّرَ الْقُرآنُ وَلِتُبَشِّرَ يا مُحَمَّد الْمُحْسِنِينَ بالأَجْرِ الْعَظِيم، والثَّوابِ الْجَزِيلِ فِي المَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

أُقِيم اسْمُ المصْدَرِ مَقَامَ الفِعْل، كَمَا يَقُولُ الجواد: أذْبَحُ عَشَرَةَ كَبُوشٍ لِضُيُوفِي لِأُطْعِمَهُمْ وتَكْرِيماً لَهُمْ، أي: وَلأُكَرِّمَهُم.

- ﴿... لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾: وَهُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، أَعْلَىٰ مَرَاتِب الْمُؤْمِنِينَ، وَدُونَهُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، أَمَّا الْمَرْتَبَةُ الدنيا فهِي مرتبَةُ المتَّقِينَ، وَلِكُلٍّ مِنْ هٰذِهِ المراتِبِ دَرجَاتٌ لَا تُحصَرُ، للتَّفَاضُلِ بَيْنَ الأَفْرادِ.

وفِي أَهْلِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بارْتِكَابِ الكَبَائِر، وَهٰؤُلَاءِ مُعَرَّضُونَ لِعِقَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ بِحَسَبِ مَعَاصِيهِمْ، وَيَعْفُو اللهُ عَنْ كَثِير.

وَباسْتِطَاعَةِ المتدبِّرِ أَنْ يَسْتَخْرِجَ المطْوِيَّاتِ الَّتِي تَقْتَضِيها اللَّوازِمُ الْفِكْرِيَّة.

أي: وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ، وللأَبْرَارِ، وللمتَّقِينَ، بِحَسَبِ دَرجَاتِ كُلٍّ مِنْهُم.

أَمَّا مُسْتَحِقُّو العِقَاب مِنْ ظالِمِي المؤمنين فينالُونَ عِقَابَهُمْ عَلَىٰ مَا يَقْضِي بِهِ اللهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ والْخُلُودِ فِي نَعِيمها.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الخامس من دُروس سورة (الأحقاف)

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السادس من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (١٣ و١٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

القراءات:

(١٣) • قرأ يَعْقُوب: [**فَلَا خَوْفَ**] بِفَتْحِ الفاء.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: [**فَلَا خَوْفٌ**] بالرَّفع مَعَ التَّنوين. وهما وَجْهَان عَرَبيان لما بَعْدَ كَلِمَةِ «لا» النَّافِية لِلْجِنْس.

تَمْهيد:

فِي آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْس وَعْدٌ رَبَّانِيٌّ مُجْمَلٌ بالثواب العظيم لِلَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا الله، ثُمَّ اسْتَقَامُوا.

التدبّر التحليلي:

مَا جَاءَ مُجْمَلاً في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، جَاءَ مُفَصَّلاً فِي نُصُوص قرآنِيَّة

كَثِيرة، فَمِنْهَا مَا سَبَقَ تَدَبُّرُهُ مِنْ نُجُومِ التَّنْزِيلِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (الْأَحْقاف) وَمِنْهَا مَا نَزَلَ مِنَ القرآنِ بَعْد هَـٰذِهِ السورة.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾: أي: إِنَّ الَّذِينَ أعْلَنُوا بِصِدْقٍ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ رَبُّهُمْ، فَلَا رَبَّ لَهُمْ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، ومِنْ لَازِمِ إِيمانِهِمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ للهِ إيمَانُهُمْ بأَنَّهُ لَا إِلَهَ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، لِأَنَّ الْعِبَادَةَ حَقُّ الرَّبِّ، وَمَنْ لَا رُبُوبِيَّةَ لَهُ فَلَا إِلَهِيَّةَ له.

اسْتُفِيد القصر من تَعْرِيفِ طَرَفَي الإسناد: «رَبُّنَا اللهُ».

- ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إعْلَانِهِم الإيمانَ والإسلامَ بِصِدْقٍ اسْتَقَامُوا فِي مَسِيرَتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ، سَالِكِينَ صِرَاطَ اللهِ المستقيم، المشْتَمِلَ عَلَىٰ أحْكَامِ الْحَلَالِ والْحَرَامِ والْوَاجِبِ والمنْدُوبِ والمكْرُوه.

إنَّ الاسْتِقَامَةَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ فِي مَسِيرَةِ الْحَيَاةِ، أَشَقُّ عَلَىٰ النَّفْسِ مِنَ الانْدِفَاعِ للقِيَامِ بِعَمَلٍ كَبِيرٍ في سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ في يَوْمٍ أو عِدَّةِ أيَّام.

إِنَّ النَّفْسَ تُصَابُ بالسَّأم والْمَلَلِ مِنْ طُولِ الالْتِزَامِ بِالاسْتِقَامَةِ، فَتَمِيلُ إلى الانْحِرَافِ ذَاتَ الْيَمِينِ أَوْ ذَاتَ الشِّمَال، وَيَشُقُّ عَلَيْهَا أَنْ تَصْبِرَ مَعَ تَتَابُعِ الْأَيَّامِ واللَّيَالِي على الالْتِزَامِ بالاسْتِقَامَة.

وكَلِمَةُ ﴿ثُمَّ﴾ دَلَّتْ عَلَى طُولِ مُدَّةِ الاسْتِقَامَةِ فِي مَسِيرَة حَيَاةِ المؤمِنِ الْمُسْلِم.

- ﴿... فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أُشْرِبَ اسْمُ الموصُول فِي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ معنىٰ الشَّرْط فجاءَتِ الفاء في ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ في جوابِهِ.

أيْ: كُلُّ مَنْ آمَنَ إِيمَاناً صَحِيحاً، وأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ صَادِقاً، وَاسْتَقَامَ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِهِ، فَلَا يَتَسَلَّطُ عَلَيْهِم خَوْفٌ مِنْ مُرْهِبَاتِ

قَادِمَاتٍ مُسْتَقْبَلَاتٍ، لِأَنَّ الله ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ جَعَلَ لَهُمُ الْأَمْنَ مُنْذُ لَحْظَةِ مَوْتِهِمْ، فَلَا يَخَافُونَ مِن عَذَاب وَلَا عِقَابٍ سَيَنْزِلُ بِهِمْ، لِأَنَّ اسْتِقَامَتَهُمْ على صراط اللهِ جعلَتْهُمْ مِنْ أَهْلِ الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنْ دَرَجَاتِ المتَّقِينَ، فَلَمْ يَرْتَكِبُوا كَبَائِرَ الذُّنوب الَّتِي رَتَّبَ اللهُ عَلَيْهَا عِقَاباً، حَتَّىٰ يَخَافُوا مِن عِقَاب اللهِ عَلَيْها، وأَمَّا صَغَائِرُ الذُّنوب فَيَعْفُو اللهُ عَنْهَا، ويُكَفِّرُهَا بِرَحْمَتِهِ.

- ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: أي: وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَىٰ شيءٍ فَاتَهُمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ، لِأَنَّهُمْ يرَوْنَ أَنَّ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ أعظَمُ وَأَجلُّ مِنْ كُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا، من مَتَاعٍ وَزِينَةٍ وَمَحَابِّ نُفُوسهم.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أشِيرَ إِلَيْهِمْ باسْم الإشارة في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع للمشَارِ إِلَيْهِمِ الْبَعِيدِين، للدَّلَالَةِ علىٰ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ، وَعُلُوِّ مَقَامِهِمْ.

أي: أُولَئكَ الْفُضَلَاءُ ذَوُو المنْزِلَةِ وَالْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْمُلَازِمُونَ لَهَا بِفَضْلِ رَبِّهِم، حَالَةَ كَوْنِهِمْ خَالِدِينَ فِيها خُلُوداً أَبَدِيًّا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وهُمْ يَنَالُونَ هـٰذَا الْفَضْلَ الرَّبَّانِيَّ عَلَيْهِمْ جزاءً بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ صَالِحَاتٍ بَاطِنَاتٍ وَظَاهِرَاتٍ، وَعَدَ اللهُ أَنْ يَجْزِيَ عِبَادَهُ عَلَيْهَا بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

ومِنَ الْبَاطِنَاتِ الإيمانُ والنيَّاتُ وأعْمَالُ الْقُلُوبِ المختَلِفَةِ الَّتِي فِيها رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ.

وأَمَّا الظَّاهِرَاتُ فمِنْهَا الْعِبَادَاتُ، والدَّعْوَةُ إلى دِينِ اللهِ، والجهادُ في سَبِيلِ اللهِ بالْأَمْوَالِ والْأَنْفُس، وَأَفْعَالُ الْخَيْرِ الَّتِي دَعَا الإسْلامُ إليها.

أَرَىٰ أَنَّ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ خَاصَّتَانِ بِمُسْتَوْفِي حُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، فِي مَسِيرَتِهِمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، وَيُلْحَقُ بِهِمْ مَنْ تَجَاوَزَ اللهُ عَنْ تَقْصِيرَاتِهِمْ

وَسَيِّئَاتِهِمْ وَغفَر لَهُمْ، فَجَعلَهُمْ بِمَثابَةِ مُسْتَوفِي حُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، وهي أداءُ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَات.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدّرسِ السابع من دُرُوس سورة (الأحقاف)

الآيتان (١٥ و١٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥) أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (١٦)﴾.

القراءات:

(١٥) ● قرأ نَافع، وٱبْنُ كثير، وأَبُو عمْرو، وابْنُ عامر، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: [**حُسْناً**].

وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِحْسَاناً**].

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاء المعْنَىٰ المراد.

(١٥) ● قرأ نَافِعٌ، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وَهِشَامٌ، وأَبُو جعفر: [**كَرْهًا**] بِفَتْح الْكَافِ في الموضعين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**كُرْهاً**] بضمّ الكاف في الموضِعَيْن. وهما بمَعْنًى وَاحِدٍ لُغَةً.

(١٥) • قَرَأَ يَعْقُوب: [**وَفَصْلُهُ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَفِصَالُهُ**].

ومُؤَدَّى القراءتَيْنِ واحد.

(١٥) • قرأ ورْش، والبَزِّي: [**أَوْزِعْنِيَ أَنْ**] بفَتْح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

(١٦) • قرأ حفص، وحمْزَة، والكِسَائيّ، وَخَلَفٌ: [**نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ**].

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ**] بالمْبنِيّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وَمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ وَاحد، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في التَّعْبِير وفي قراءة الجمهور دَلِيلٌ على أنَّ مَا جاء في القرآنِ بالمبنِيِّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ فالفاعلُ فِيه هو الله جلَّ جلالُهُ إذا كان مِمَّا يليق بالله تعالى.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ وَصِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلإِنْسَانِ بِوَالِدَيْه.

وفيهما وَعْدٌ لِلْوَلَدِ الْبَارِّ بوالِدَيْهِ بِثَوَابٍ عَظِيم جَزِيلٍ ادَّخَرَهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لَهُ يَنَالُهُ يَوْمَ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

جاء بشَأْنِ وَصِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ في الْقُرْآنِ المجيد ثَلَاثَةُ نُصُوص:

النّص الأوّل: الآيتَانِ (١٤ و١٥) من سورة (لقمان/ ٥٧ نزول). وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُهُ فِي مَوْضِعِهِ من سُورَةِ (لقمان).

النَّصّ الثاني: الْآيَتَانِ (١٥ و١٦) من سُورَةِ (الْأَحْقاف/ ٦٦) الْجَارِي بِمَعُونَةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ تَدَبُّرها.

النَّصُ الثَّالث: الآية (٨) من سُورَة (الْعَنْكَبُوت/ ٨٥ نزول) وهي قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ فيها:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧﴾.

جَاءَ فِي آيَةِ سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٨٥ نزول): ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾.

وَجَاءَ فِي نَصّ سُورَة (الْأَحْقاف/ ٦٦ نزول): ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ﴾. وفي القراءَة الثَّانِيَةِ: **[حسناً]**.

وَجَاءَ نَصُّ سُورَة (لُقْمان/ ٥٧ نزول) مُطْلَقاً: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ أيُّ لَفْظٍ من اللَّفْظَتَيْنِ.

وَقَدْ تَأَمَّلْتُ تَأَمُّلاً تَدَبُّرِياً فِي هٰذَا الاخْتِيار القرآنيِّ، فَظَهَرَ لِي أَنَّ كَلِمَةَ «حُسْناً» رَاعَتْ حَالَ الْوَالِدَيْنِ الْكَافِرِين، فَمَعْنَىٰ «الْحُسْنِ» هُو مُطْلَقُ الْجَمَالِ، يُقَالُ لُغَةً «حَسُنَ الشَّيْءُ، يَحْسُنُ، حُسْناً» أي: جَمُلَ.

أَمَّا كَلِمَةُ «إِحْسَاناً» فَتَدُلُّ عَلَىٰ إرادَةِ فِعْلِ مَا هُو الأَتْقَنُ والْأَجْوَدُ وَالْأَفْضَلُ، وَهٰذِهِ تُلائِمُ حَالَ الْوَالِدَيْنِ المؤمِنِيْنَ، فالله تَعَالَىٰ يُوصِي بِزِيَادَةِ بِرِّهِمَا وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا بِمَا يُرْضِيهِمَا حقًّا.

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[حُسْناً]**.

يُقَالُ لغة: «وَصَّىٰ، وأوصَىٰ فُلَاناً بالشَّيْءِ» أي: أَمَرَهُ بِهِ وَفَرَضَهُ

عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ ممَّا يُطْلَبُ فِعْلُه، وَنَهَاهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مِمَّا يُطْلَبُ تَرْكُهُ.

والمعنى: وَأَمَرْنَا الْإِنْسَانَ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ، وَبَدْءِ التَّكَاثُرِ الْبَشَرِيّ بأنْ يُعَامِلَ وَالِدَيْهِ بالإحْسَانِ إِلَيْهِمَا، وَزِيَادَةِ بِرِّهِمَا بِمَا يُرْضِيهِمَا إِذَا كَانَا مُؤْمِنين، وَبِأَنْ يُعَامِلَهُمَا بِحُسْنٍ وَيُصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا بِالْمَعْرُوفِ إذا لَمْ يَكُونَا مُؤْمِنَيْنِ.

- حملته أمه كرها ووضعته كرهاً وفي القراءة الْأُخْرَىٰ [**كَرْهاً**] **الْكَرْهُ والْكُرْهُ**: المشَقَّةُ ـ أي: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ مُعْظَم مُدَّةِ حَمْلِهِ لَهُ حَمْلَ مَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ، وَهِيَ رَاضِيَةٌ صَابِرَةٌ حَرِيصَةٌ عَلَىٰ سَلَامَتِهِ، وَوَضَعَتْهُ حِينَ وِلَادَتِهِ وَضْعَ مَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ، وهِي رَاضِيَةٌ صَابِرَةٌ حَرِيصَةٌ عَلَىٰ سَلَامَتِهِ فَرِحَةٌ بِهِ وَلِيداً لها.

- ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ﴾ وفي قراءة يعقوب: [**وَفَصْلُهُ**].

الْفِصَال: فِطَامُ الرَّضِيعِ عَنِ الرَّضَاعِ. وهو الْمُرَادُ بالقراءَةِ الْأُخْرَىٰ: [**وَفَصْلُهُ**] أي: إِبْعَادُهُ عَنْ أَنْ يَرْضَعَ مِنْ ثَدْيَيْ أُمِّهِ، وهـٰذَا الْفَصْلُ فِطَامٌ لَهُ.

جَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ أَدْنَىٰ مُدَّةِ الْحَمْلِ وأَقْصَىٰ مُدَّةِ الرَّضَاعِ بِثَلاثِين شهراً، فَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ (الْبَقَرَة/ ٨٧ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ . . . ﴿٢٣٣﴾﴾: أي: (٢٤) شَهراً، فَبَقِي لِأَقَلِّ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ.

وكان هـٰذَا مِمَّا تَنَبَّهَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ باسْتِنْبَاطِهِ الرائِعِ، رَضِي اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاه، وَرُوِي مِثْلُ هـٰذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاس رضِي اللهُ عَنْهُما.

- ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

يُقَدِّمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هـٰذَا البيان صُورَةٍ عَنِ الإنْسَانِ المؤمِنِ الْمُسْلِمِ، الشَّاكِرِ لِرَبِّهِ، الْبَارِّ بوالدِيْهِ.

أَشُدُّ كُلِّ شيءٍ: اكْتِمَالُ تَنَامِيهِ بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الْقَابِلَةِ للاكْتمال، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾: هـٰذَا الْعُمْرُ هو ذِرْوَةُ اكتمالِ الْأَشُدِّ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَغْلَبِ النَّاس.

والمعنى: وعَمِلَ الْوَلَدُ المؤمِنُ الْمُسْلِمُ الشَّاكِرُ لِرَبِّهِ الْبَارُّ بوالِدَيْهِ الْمُحْسِنُ إِلَيْهِمَا، بِوَصِيَّةِ اللهِ لَهُ، واسْتَمَرَّ شَاكِراً بَارّاً، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ اكْتِمَالَهُ بِحَسَبِ تَكْوِينِهِ الْفِطْرِيّ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَنَضَجَ عَقْلُهُ، وَقَوِيَ إيمانُهُ، وَشَعَرَ بأَنَّ خَطَّ حَيَاتِهِ الصَّاعِدَ بَدَأَ يَنْحَنِي قَلِيلاً قَلِيلاً، تَوَجَّهَ دَاعِياً رَبَّهُ مُسْتَعِيناً بِهِ قَائِلاً:

- ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾: أي: رَبِّ أَلْهِمْنِي واجْعَلْنِي مُولَعاً مُتَعَلِّقاً تَعَلُّقَ حُبٍّ وَرَغْبَة.

- ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾: بالْقِيَامِ بأعْمَالِ التَّقْوَىٰ والْبِرِّ والإحْسَانِ، تَقَرُّباً إِلَيْكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ.

فَدَلَّ هـٰذَا البيانُ عَلَى أنّ مِنَ الْبِرِّ بالْوَالِدَيْنِ، أَنْ يَشْكُرَ الْوَلَدُ اللهَ رَبَّهُ عَلَىٰ مَا أنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ وَالِدَيْه.

- ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾: أي: وأَنْ أَعْمَلَ فَوْقَ وَاجِبِ الشُّكْرِ لَكَ مَكْسَباً مِنَ الْعَمَلِ صَالِحاً تَرْضَاهُ حَتَّىٰ أَنَالَ قُرْباً مِنْكَ يَا رَبّ.

- ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾: أي: وأَكْرِمْنِي بأَنْ تَجْعَلَ لي فِي ذُرِّيَّتِي مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ صَالِحِينَ.

والْمُرَادُ: فَمَنْ اخْتَارَ مِنْ ذُرِّيَّتِي أَنْ يَكُونَ مُؤْمِناً مُسْلِماً، فأَعِنْهُ، وَوَفِّقْهُ حَتَّىٰ يَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

- ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: أي: إِنِّي رَجَعْتُ إِلَىٰ طَاعَتِكَ، رَاجياً أَنْ تَغْفِرَ ذُنُوبِي، وتَكَفِّرَ عَنِّي سَيِّئَاتِي، وتَعْفُو عَنِّي.

- ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أي: وإني مُسْلِمٌ مِن الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ

أعْلَنُوا اسْتِسْلَامَهُمْ لَكَ في أوامِرِكَ وَنَواهِيكَ وَكُلِّ وَصَايَاك.

هُنَا اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ فِي الْبَيَانِ، أَنْ يَذْكُرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الأَجْرَ الْعَظِيمَ الَّذِي رَتَّبَهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ - لِلْأَوْلَادِ الشَّاكِرِينَ لِرَبِّهِمْ، الْبَارِّينَ الْمُحْسِنِينَ إِلَىٰ والِدِيهِمْ، الْحَرِيصِينَ عَلَىٰ صَلَاحِ ذَرَارِيهِمْ، فقال تَعالَىٰ بضمير المتكلِّم العظيم ذي الفضلِ الْجَسِيم:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾:

يقال لغة: «قَبِلَ الشَّيْءَ» أي: أَخَذَهُ عَنْ رِضًى، ويقال: «قَبِلَ اللهُ الدُّعَاءَ» أي: اسْتجَابَهُ. ويقال: «قَبِلَ اللهُ الْعَمَلَ الصَّالح» أي: رَضِيَهُ، ورَتَّبَ عَلَيْهِ الثوابَ الحسَنَ.

ويقال: «تَقَبَّلَ اللهُ الْعَمَلَ الصالح» أي: قَبِلَهُ بِعِنَايَةٍ وَتَكْرِيمٍ وَثَواب جَزِيلٍ، أخْذاً مِنْ صِيغَةِ «تَفعَّلَ» وَقَدْ يُقَالُ: «تَقَبَّلَ مِنْهُ» عَلى مَعْنَىٰ تَقبَّلَ الْعَمَلَ المنْطَلِقَ مِنْه. وقد يُقالُ: «تَقَبَّلَ عَنْهُ» على معْنَىٰ تَقبَّلَ الْعَمَلَ الصَّادِرِ عَنْه.

أي: أولَئِكَ رَفِيعُو المكانَةِ، الْأَوْلَادُ الشَّاكِرُونَ الْبَرَرَةُ بوالِدِيهِمْ، نَتَقَبَّلُ مِنَ الصَّادِرِ عَنْهُمْ مِنْ كَسْبٍ في رِحلَةِ امْتِحَانِهِمْ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا، وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَنَجْعَلُهُمْ فِي أصْحَابِ الْجَنَّةِ، حَالَةَ كَوْنِ ذَلِكَ تَحْقِيقاً لِوَعْدِ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَهُ فِي الحياةِ الدُّنيا.

وأَحْسنُ مَا عَمِلُوا هُوَ فِعْلُ الْوَاجِبَاتِ والمندوبَاتِ والمستَحبَّاتِ، وَتَرْكُ الْمُحرَّمَاتِ والمكْرُوهَاتِ وَمَا هُوَ خِلَافُ الأَوْلَىٰ.

أَمَّا المباحَاتُ بِدُونِ نِيَّةٍ تَرْفَعُ قِيمَتَها، فَلَيْسَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا رِضْوَانُ اللهِ حَتَّىٰ يَتَقَبَّلَهَا الله عَزَّ وَجلَّ.

ويَزِيدُ اللهُ مِنْ فَيْضِ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، فيتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِم، فَلَا يُؤَاخِذُهُمْ عليها.

وبهٰذَا انتهى تَدَبُّر الدّرس السابع مِنْ دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٢)

التدبُّر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (الأحقاف)

الآيات من (١٧ ـ ١٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩)﴾.

القراءات:

(١٧) ● قرأ نَافع، وحفص، وَأبو جَعْفر: [أُفٍّ].

وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ عَامر، ويَعْقُوب: [أُفَّ].

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [أُفِّ].

وهي لُغَاتٌ لِهٰذِهِ الكلمة، وتُنْطَقُ أَيْضاً بِوُجُوهٍ أُخْرَى كثيرة، بضَمّ الهمزة، وبِكَسْرِها، وبِفَتْحِ الفاء وضَمِّها وَكَسْرِها مُنَوَّنَةً وغَيْر مُنَوَّنة، وبإِسْكَانها.

وهي كَلِمَةُ تَضَجُّرٍ وَتَكَرُّهٍ.

(١٧) • قرأ هِشَام: **[أَتَعِدَانِّي أَنْ]** مَعَ المَدِّ المشْبَع.

وقرأها نافع، وابْنُ كثير، وأبُو جَعْفر: **[أَتَعِدَانِنِيَ أَنْ]** بِفَتْحِ ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أَتَعِدَانِنِي أَنْ]** بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

(١٩) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وَهِشَام، وعَاصم، ويَعقُوب: **[وَلِيُوَفِّيهُمْ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلِنُوَفِّيهُمْ]** بنُونِ المتكلم العظيم.

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدرس بيان حَال الْوَلَدِ المكَذِّبِ بِيَوْمِ الدِّينِ، الْعَاقِّ لِوَالِدَيْهِ اللَّذَيْنِ يَسْتَغِيثَانِ اللهَ خَوْفاً عَلَىٰ وَلَدِهِمَا مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النار يَوْمَ الدِّين، وَيَقُولانِ لَهُ: وَيْلَكَ آمِنْ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ. فيقولُ الْوَلَدُ الكافِرُ الْعَاقُّ مَا هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ.

وفيها بيانُ جَزَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ المكذِّبين.

التدبّر التحليلي:

فِي مُقَابِلِ المثَلِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للمؤمِنِ التَّقِيّ الشَّاكِرِ لِرَبِّهِ البارّ بوالدَيْه، الملْتَجِيءِ إِلَيْهِ بالدُّعَاء، الموعُودِ بالأَجْرِ العظيم، وهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ في الدَّرْسِ السَّابع، ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً آخَرَ لِلْوَلَدِ الْكَافِرِ الْعَاقِّ لِوَالِدَيْهِ المؤمِنِينَ الْحَرِيصَيْنِ عَلَىٰ إيمانِ وَلَدَيْهِمَا، وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ أَنْ يُؤْمِنَ، وَيَقُولَانِ لِوَلَدِهِمَا: وَيْلَكَ آمِنْ لِتَنْجُوَ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ يَوْمَ الدِّين، وهُوَ يُصِرُّ عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ بالحياة بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَزْعُمُ أَنَّ أَخْبَارَ السَّاعَةِ وَيَوْم

الْقِيامَةِ أَكَاذِيبُ الْأَوَّلِينَ، الَّتِي لَيْسَ لَهَا أَسَاسٌ صَحِيحٌ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ وَيُوثَقُ بِهِ.

وَقَدْ جاءَ ضَرْبُ المثَلِ بأسْلُوبِ عَرْضِ قِصَّةِ إِنْسَانٍ مَا، عَطْفاً عَلَىٰ قِصَّةِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ المؤمنِ التَّقِيِّ الشَّاكِرِ لِرَبّه، الْبَارِّ بوالِدَيْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى . . . ⑰﴾:

دَلَّ هٰذَا الْبَيَانُ عَلىٰ أَنَّ وَالِدَيْ هٰذَا الإنْسَانِ الْكَافِرِ بِيَوْمِ الدِّينِ، قَدْ جَاهَدَا وَلَدَهُمَا جِهاداً طَوِيلاً رَجاءَ أَنْ يُؤْمِنَ بالْبَعْثِ، والْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، والْجَزاءِ عَلَىٰ مَا يُقَدِّمُ الإنْسَانُ مِنْ عَمَلٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، حَتَّىٰ أَضْجَرَاهُ فَقَالَ لَهُمَا: أُفٍّ لَكُمَا. لَقَدْ أَضْجَرْتُمَانِي.

«أُفٍّ» اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَىٰ «أَتَضجّر». وزادَ هٰذَا الابْنُ الكافِرُ العاقُّ فِي وَقاحَتِهِ فَأَبَانَ أَنَّ تَضَجُّرَهُ مُوجَّهٌ لَهُمَا، فَهُوَ يَقْصِدُهُمَا بِهِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ تَضَجُّرٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.

وبأسْلُوب الاسْتِفْهَام الإنْكَارِيِّ قال لَهُما:

● ﴿. . . أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى . . .﴾:

أي: أَتُصَدِّقَانِ نَبَأَ الْبَعْثِ بَعْدَ الموتِ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، والجزاء، وتُؤْمِنَانِ بِهِ، فَأَنْتُمَا تُحَذِّرَانِ مِنْهُ كَأَنَّكُمَا أَصْحَابُ الْوَعْدِ نَفْسِهِ، فَتَقُولَانِ لِي: إِنَّكَ سَتُخْرَجُ مِنَ الْمَوْتِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وَسَوْف تُحَاسَبُ عَلَىٰ كُفْرِك وَكُلِّ سَيِّئَاتِكَ الَّتِي تَقْتَرِفُهَا فِي الحياةِ الدُّنيا عِنْدَ رَبِّكَ يَوْمَ الدِّين، وَالْحَالُ أَنَّ قُرُوناً كَثِيرَةً قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِي، دُونَ أَنْ يُبْعَثَ مِنْ مَوْتَاهَا أَحَدٌ عَلَىٰ مَا تَذْكُرَانِ فِي أَقْوَالِكُمَا وَنَصَائِحِكُمَا الَّتِي أَضْجَرْتَمَانِي بها.

الْقَرْنُ مِنَ الناس: أَهْلُ زَمَانٍ واحد، وجَمْعُه «قُرون».

- ﴿. . . وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ . . . ⑰﴾:

﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾: أي: يَطْلُبَانِ من اللهِ الْعَوْنَ والنُّصْرَةَ عَلَىٰ إصْلَاحِ وَلَدِهِمَا، رَجَاءَ أَنْ يُؤْمِنَ، لكِنَّ اللهَ لَا يَجْبُرُ أحداً عَلَىٰ الإيمان أو الكُفْرِ، وَهو في رِحْلَةِ امْتِحَان. فإذا آمَنَ أَمَدَّهُ اللهُ بِمَعُونَتِهِ وتَوْفِيقِهِ.

- ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾: **وَيْل**: كَلِمَةُ عذاب، وفيها مَعْنَىٰ الْوَعِيدِ بِخُلُودِ عِقَابِ الله.

أي: إذا لَمْ تُؤْمِنْ حَلَّ بِكَ عِقَابُ اللهِ الشَّدِيد.

- ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: أي: إنَّ الْبَعْثَ يَوْمَ القيامَةِ والحساب، وفَصْلَ القضاء، وتَحْقِيق الجزاء، وَعْدٌ مِنَ اللهِ، وَهُوَ حَقٌّ، فاللهُ لَا يُخْلِفُ الميعاد.

- ﴿. . . فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑰﴾: أي: فيقول الولَدُ الكافِرُ العاقُّ لوالِدَيْه: مَا هَٰذَا الّذِي تَذْكُرانِ عَنِ البعْثِ بَعْدَ الموْتِ، والْيَوْمِ الآخِرِ، والْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، إلَّا أَسَاطِيرُ الأَوّلِين وأكاذِيبُهُمْ وَأَبَاطِيلُهُمْ.

الأساطِير: الأبَاطِيلُ، والأحاديث الّتِي لَا نِظَام لها، وهي جمع «إسْطار، وإسْطَارة، وأسْطُور، وأسْطُورَة».

وَإِذْ كانَ هَٰذَا الكافِرُ العاقُّ لِوَالِدَيْهِ مَثَلاً لَهُ أَشْبَاهُ ونُظَرَاءُ كَثِيرُونَ، كانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيانِ اعْتِبَارُ هَٰؤُلَاءِ زُمْرَةً مُنْفَصِلَةً مُتَمَيِّزَةً مِنْ زُمَرِ أَهْلِ الكُفْرِ، والْحَدِيثُ عَنْ جَزَائِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ باعْتِبَارِهِمْ جماعَةً مُتَمَيِّزَة:

■ فقال الله تَعالَىٰ بِشَأْنِهِم:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ⑱﴾:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الْبُعَداءُ المنْحطُّونَ إلَىٰ جِهَةِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النار.

- ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾: هَـٰذِهِ العبارَةُ وأشباهُها، قَدْ جاءَتْ في القرآنِ الْمَجيدِ بِمَعْنَىٰ تَحقُّقِ كَلِمَةِ اللهِ بِالْعِقَابِ، العاجِلِ مِنْهُ وَالْآجِلِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّين.

أي: ثَبتَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ بِالْعِقَاب. وجاء اسْتِعْمَالُ حرف «على» مُناسِباً لقرار العقاب الَّذِي يَسْقُطُ عَلَيْهِم، كَمَا يَسْقُطُ الْعِقَابُ نَفْسُهُ على المعَاقَبِينَ.

- ﴿... فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ ... ⑱﴾:

أي: وَهُمْ يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابِ المجْرِمِينَ يومَ الدِّين، ضِمْنَ أُمَمٍ كَافِرَةٍ أَمْثَالِهِمْ قَدْ مَضَتْ في تاريخ الْجِنِّ والإنْسِ مِنْ قَبْلِهِمْ، مُنْذُ بَدْءِ رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فِي الْحياةِ الدُّنْيا، وَيَسْتَمِرُّ هـٰذَا حَتَّىٰ آخِرِ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

هـٰذَا البيان من الأدلَّةِ عَلى أنَّ الْجِنَّ مَوْضُوعُونَ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ قَبْلَ الْإِنْسِ، ثُمَّ بَعْدَ خَلْقِ آدمَ وَتَكاثُرِ سُلَالَتِهِ.

- ﴿... إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ⑱﴾: أي: إِنَّهُمْ جَمِيعاً بَعْدَ عُبُورِهِمْ رِحْلَةَ الامْتِحَانِ كَانُوا خَاسِرِينَ أَعْظَمَ خَسَارَة، إذ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَهُمْ أَحْرَارٌ الإيمانَ عَلَىٰ الكُفْر، والضَّلَالَ على الْهُدَىٰ، فكانَ عِقَابُهُمْ خَسَارَةَ كُلِّ شيءٍ حَتَّىٰ نُفُوسِهِمْ، بأنْ صَارُوا في الْعَذَابِ خَالِدِين.

وبياناً لِقَاعِدَةٍ عَامَّةٍ مِنْ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِي جَاءَتِ الآيَةُ التَالِيَة:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ⑲﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ ثَلاثُ فقرات:

الفقرة الأولى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾: أي: وِلِكُلٍّ مَنْ عَبَرَ

رِحْلَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُمْتَحَناً، ووقَفَ يَوْمَ القيامَة مَوْقِفَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاء، دَرَجَةٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ الصَّاعِدَاتِ إِلىٰ الْفِرْدَوسِ الْأَعْلَىٰ بِفَضْلِ الله، أو النَّازِلَاتِ الْهَابِطَاتِ إلى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من النَّارِ بِعَدْلِ الله، وهـٰذِهِ الدَّرَجَاتُ مَأْخُوذَات مِنْ بَعْضِ مَا عَمِلُوا، إِذْ يَعْفُو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كَثِيرِ من السَّيِّئَاتِ فَلَا يُحَاسِبُ عَلَيْها، لِصَاعِدِي الدَّرَجَاتِ أَوْ هَابِطِيها.

الفقرة الثّانية: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي: ولِيُعْطِيَ كُلًّا مِنْهُمْ جَزَاءَ عَمَلِهِ وَافِياً تاماً غَيْرَ مَنْقُوص.

أَمَّا إِتْمَامُ جَزَاءِ الصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ فَيَكُونُ بِحَسَبِ الْوَعْدِ بِمُضَاعَفَةِ الثواب.

وَأَمَّا إِتْمَامُ جَزَاءِ السَّيِّئَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ فَأَقْصَاهُ جَزَاءَ كُلِّ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا. وَجَاءَ فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ بِفَضْلِهِ، فَمِنَ التَّوْفِيَةِ الْعَفْوُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوص.

الْفِقْرَة الثَّالِثَة: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾: أي: وهُمْ جَمِيعاً لَا يُظْلَمُونَ، أَمَّا الْمَجْزِيُّونَ بِالثَّوَابِ فاللهُ يُضاعِفُ ثوابَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ مِثْقَالِ ذَرَةٍ مِنْ خَيْرٍ عَمِلُوهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله. وأَمَّا الْمَجْزِيُّونَ بِالْعِقَابِ فَهُمْ مَهْمَا اشْتَدَّ عِقَابُهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يُعَاقَبُونَ إِلَّا بِالْعَدْلِ التَّام، فإِذَا أُضِيفَ إِلَىٰ هـٰذَا التَّجَاوُزُ عَنْ سَيِّئَاتٍ كَثِيراتٍ، كانَ مِنَ الْبَدَهِيّ أَنَّ الْمُعَاقَبِينَ لَا يُظْلَمُونَ مُطْلَقاً، بَلْ هُمْ يَكُونُونَ مَحْظُوظِين بِتَجَاوُزِ كَثِيرٍ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وعَدَمِ مُؤَاخَذَتِهِمْ عَلَيْهَا.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثامِنِ مِنْ دُروس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس سورة (الأحقاف) الآية (٢٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي آيَةِ هٰـذَا الدَّرس عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَةِ خاصٍّ بالَّذِينَ كَفرُوا.

التدبّر التحليلي:

أي: يُقَالُ لِلّذِينَ كَفرُوا يَوْمَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّارِ وَيَرْوَنَ مَوَاقِعَ دركَاتِهِمْ فيها:

- **[أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا]**: أي: بَذَلْتُمْ كُلَّ طَاقَاتِكُم الْمَادِيَّةِ والْفِكْرِيَّة وَالمعْنوِيَّة، وَكُلَّ جِهادِكُمْ وَمُجاهَدَاتِكُمْ، لِلْحُصُولِ عَلَىٰ لَذَّاتِكُمُ الطَّيِّبَاتِ فِيمَا كُنْتُمْ تَتصَوَّرُونَ، مِنْ لَذَّاتِ الْحياةِ الدُّنْيا، مآكِلِها وَمَشَارِبِهَا وَمَنَاكِحِهَا، وَقُصُورِهَا وَجَنَّاتِهَا وَمُترفَاتِها، وَمَا فِيها مِنْ لَهْوٍ وَلَعِبٍ وَزِينَةٍ وَتَفَاخُرٍ وَتَكاثرٍ.

وَلَمْ تُوَجِّهُوا عَمَلاً مَا لآخِرَتِكُمْ، وَلِمَا فِي الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا مِنْ طَيِّبَاتٍ، حَتَّىٰ الْإيمانَ الَّذِي يُنْجِيكُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار، بَلْ كَفَرْتُمْ وَكَذَّبْتُمْ رُسُلَ رَبِّكُمْ فِيما بَلَّغُوكُمْ عَنْه.

- ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾: أي: وَحَصَلَتْ لَكُمْ لَذَّاتٌ مَا، طَلَبْتُمُوهَا مِنْ

مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا، وَهِيَ لَذَّاتٌ ضَئِيلاتُ الْقِيمَةِ سَرِيعَاتُ الزَّوَالِ، وهٰذَا شَأْنُ كُلِّ مَتَاعٍ، بِخِلَاف النَّعِيم.

- ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾:

الْهُونُ: الخِزْيُ، والذِّلَّة. و«عَذَابُ الْهُونِ» هو الْعَذَابُ الْخَاصُّ المصْحُوبُ بِمَا يُخْزِي الْمُعَذَّبَ وَيُصَغِّرُهُ ويُحَقِّرُه، جَزَاءَ اسْتِكْبَارِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فِي الحياةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

أي: وَيُقَالُ لَهُمْ أيضاً تَفْرِيعاً عَلَىٰ مَا سَبَقَ، ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ وهُوَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ أي: تُقَابَلُ أعْمَالُكُمْ بِمَا يُلائِمُها ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: عَذَابَ الإخْزَاءِ والإذْلَالِ والتَّحْقِير ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا إِذْ كَانَتِ الْأَرْضُ دَارَ امْتِحَانِكُمْ، تُبَالِغُونَ فِي تَكَبُّرِكُمْ عَلَىٰ النَّاس، وَتَكَبُّرِكُمْ عَنِ الإيمانِ بِرُسُلِ رَبِّكُمْ واتِّبَاعِهِمْ، وكُلُّ ذَٰلِكَ بِغَيْرِ حَقٍّ تَعْتَذِرُونَ بِهِ، بَلْ كُنْتُمْ باسْتِكْبَارِكُم مُبْطِلِينَ ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ⑳﴾: أي: وبسبب مَا كُنْتُمْ تَرْتَكِبُونَ مِنْ كَبَائِرِ الآثَامِ والذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي مِنْ دَرَكَاتِ الجرائِمِ والكُفر.

الفِسْقُ: مُصْطَلَحٌ إسْلَامِيٌّ لارتِكَاب المعاصِي، مأخُوذٌ من قَوْلِ العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ، أي: خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتها، ومَعْلُومٌ أَنَّها إذا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا فَسَدَتِ، وسُمِّيَتِ الفأرة فُوَيْسِقَة، لِأَنَّها مُفْسِدَة.

ويُطْلَقُ في المصْطَلح الإسْلَامِيّ عَلَىٰ كُلِّ المعَاصِي مِنْ أَخَفِّ المحرَّمَاتِ إِلَىٰ أَشَدِّها، حتَّىٰ الكُفْرِ بما جاء عن اللهِ جحوداً وَعِنَاداً وإصراراً على الباطِلِ واتِّباعاً للهوى. وأكْثَرُ مَا اسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ المادّةُ في القرآنِ للدّلَالَةِ على الْعِصْيانِ من دَرَكَة الكفر.

وبهٰذَا انْتَهىٰ تَدَبُّر هٰذَا الدَّرْس من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٤)

التدبر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (٢١ ـ ٢٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ (٢١) قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٢٦) ﴾.

القراءات:

(٢١) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأَبُو جَعْفر: [**إِنِّيَ أَخَافُ**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسْكَانِ.

(٢٣) • قرأ أبُو عَمرو: [**وأُبْلِغُكُمْ**] مِنْ فعل: «أَبْلَغَ» المهْمُوز.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وأُبَلِّغُكُمْ**] من فعل: «بَلَّغ» المضعف.

وهما متكافِئَان في المعنَىٰ.

(٢٣) • قرأ نَافع، والْبَزِّي، وأَبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [**وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ يَاء المتكلّم.

(٢٥) • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف: **[لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ]** بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِله.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَا تَرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ]** بالبناء لِلْمَعْلُوم الْمُخَاطَب، أي: لَا تَرَىٰ أيُّها الرَّائي إذا شَهِدْتَ أَرْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ.

(٢٦) • قرأ أبو جَعْفر: **[يَسْتَهْزُون]** وَصْلاً وَوَقْفاً، وكذلِكَ حمزةُ في الوقف، ولَهُ تَسْهِيلُ الْهَمْزَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الواو، ولَهُ إِبْدَالُها يَاءً خَالِصَةً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَسْتَهْزِئُونَ]**.

والقراءتان من اللَّهَجاتِ الْعَرَبِيَّةِ في النُّطْق.

تَمْهيد:

في آيَات هٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ مُوجَزٌ عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ عاد، وهُوَ مُتَكَامِلٌ مَعَ مَا جَاءَ فِي سُوَرِ القرآنِ مِنْ قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ.

التدبُّر التحليلي:

سَبَقَ تَدَبُّر مَا جَاءَ في القرآنِ كُلِّهِ بِشَأْنِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام وقومِهِ عادٍ تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا، في المَلْحَقِ الثاني من مَلاحِقِ تَدَبُّر سورة (هود/ ٥٢) لِذَا أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّر فقراتِ هٰذَا النَّصّ، وهو نَصٌّ يَصِفُ آخِرَ مَسِيرَةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام الدعوية في قومه:

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِكُلِّ صَالحٍ لِلْخِطَاب:

• ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٢١﴾:

النُّذُر: جَمْعُ «المنْذِر» وهو المخْبِرُ بعواقب غَيْرِ سَارَّة.

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي لِهٰذَا البَيَانِ أيَّا كُنْتَ هُود عَلَيْهِ السَّلَام، أخَا قَبِيلَةِ عَادٍ الْعَرَبِيَّةِ نسباً وَلُغَةً، أحْدَاثاً جَرَتْ وَقْتَ أَنْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ الَّذِينَ كَانُوا مُقِيمِينَ بأرْضِ الْأَحْقَاف.

الأحْقَاف: أَرْضٌ تَقَعُ في شَمَالِ «حَضرَمَوْت» ويَقَعُ في شَمَالِ «الْأَحْقَاف» مَا يُسَمَّىٰ «الرُّبع الخَالِي» وفي شَرْقِها «عُمَان» ومَوْضِعُ بِلَادِهِم اليوم رِمَالٌ قَاحِلَةٌ، لَا أَنِيسَ فِيهَا وَلَا دَيَّار، وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ هُو «هُودٌ» عَلَيْهِ السَّلَام.

والْحَالُ أَنَّ هُوداً قَدْ مَضَتِ الرُّسُل المنْذِرُونَ مِنْ قَبلِ بِعْثِته، وكذَلِكَ مَضَتِ النُّذُرُ فِي الْقُرُونِ الَّتِي جَاءَتْ في الأزْمَانِ بَعْدَه.

وقَال هُودٌ لِقَوْمِهِ مِثْلَما قَالَ الَّذِينَ جَاؤوا مِنْ قَبْلِهِ، ومثْلَمَا قَالَ الَّذِينَ جَاؤوا مِنْ بَعْدِه: لَا تَعْبُدوا إِلَّا اللهَ.

وَقَال هُودٌ لِقَومِهِ: فإذا لَمْ تَسْتَجيبوا لي، وقَدْ أَقَمْتُ فيكُمْ زَمَناً مَدِيداً أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يَكُونُ فِيهِ هَلَاكُكُمْ هَلَاكاً جَمَاعِيًّا سَاحِقاً مَاحِقاً.

● ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: قَالَ الْمُتَحَدِّثُونَ عَنْ قَوْمِ «عَادٍ» لِرَسُولِهِمْ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَجِئْتَنَا بِدِينِكَ الْجَدِيدِ لِتَصْرِفَنَا عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِنَا الَّتِي وَرِثْنَا عبادَتَهَا عَنْ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا، وَتُنْذِرُنَا بِعَذَابٍ يُبِيدُنا فِي يَوْمٍ عَظِيمٍ، فَأْتِنَا بِهٰذَا الْعَذَابِ الْمُهْلِكِ لَنَا إِهْلَاكاً جَمَاعِيًّا سَاحِقاً مَاحِقاً إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقين بِوَعْدِكَ الَّذِي تُنْذِرُنَا بِهِ.

الْوَعْدُ: يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَيَكُونُ في الشَّرِّ.

وإنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في كَوْنِكَ نَبِيًّا وَرَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ رَبِّ العالمين. إِنَّهُمْ كَانوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُ كاذِبٌ فِي نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ، فَتَحَدَّوْهُ بأنْ يَأتِيَهُمْ بِمَا يَعِدُهُمْ بِهِ مِنْ إهْلَاكٍ مُكَرَّراً حِيناً فَحِيناً أَوْ ثُمَّ حِيناً.

لَقَدْ أَعْمَتْهُمْ أَهْوَاؤُهم وشَهَوَاتُهُمْ وتَقَالِيدُهُمُ الْعَمْيَاءُ، عَنْ رُؤْيَةِ الحقيقَةِ، فَدَفَعَتْ بِهِمْ ظُنُونُهُمُ الْبَاطِلَةِ إلى هَاوِيَةِ الكُفْرِ والْهَلَاكِ والْعَذَابِ الأَلِيم.

- ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: قال «هُودٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجِيباً قَوْمَهُ عَلَىٰ تَحدِّيهِمْ لَهُ بأنْ يأْتِيَهُمْ بِمَا يَعِدُهُمْ بهِ مِنْ إهْلَاكٍ وَعَذاب، بِثَلَاثِ فقَرَات:

الفقْرَة الْأُولَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: مَا الْعِلْمُ كُلُّهُ إلَّا عِنْدَ الله، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، إنَّنِي لَا أَعْلَمُ إلَّا مَا يُعْلِمُنِي اللهُ بِهِ، وَمِنْهُ عِلْمُ مَتَىٰ يُنزلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُمْ انْتِقَامَهُ، فَهُوَ المنْزِلُ، وَهُوَ الّذِي يُحَدِّدُ وَقْتَ الإنْزَالِ، وَهُوَ الْعَلِيم به.

الفقرة الثانية: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾: أي: وأُعْلِمُكُمْ أَنَّ حُدُودَ رِسَالَتِي قَاصِرَةٌ عَلَىٰ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وأُمِرْتُ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَاه، فَلِلَّهِ الرُّبُوبيَّة الشَّامِلَة، والإِلَهِيَّةُ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيها شَرِيك.

الفقْرَة الثالِثَة: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾: أي: وظَهَرَ لِي بالتَّجْرِبَةِ الطَّوِيلَةِ لَكُمْ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ أُولي أَلْبَاب تُعَالِجُونَ قَضَايَا مَصِيرِكُمْ بِعَقْلٍ وَرُشْد، وَلَكِنّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَسْتَجِيبُونَ لانفِعَالَاتِ غَضَبِكُمْ آناً فَآناً، وقَدْ عَطَّلْتُم مَوَازِينَ عُقُولِكُمْ الَّتِي فَطَرَكُمُ اللهُ عَلَيْهَا.

﴿تَجْهَلُونَ﴾: أصْلُ الْجَهْلِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ العرب: «جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ جَهْلاً» أي: اشتَدَّ غَلَيَانُهَا، ضِدَّ تَحَلَّمَتْ. فالْجَهْلُ تَعْبِيرٌ عَنْ ثَوَرانِ الْغَضَبِ في النَّفْسِ وهَيَجانِهِ، والْعَاقِلُ الرَّصِينُ لَا يَجْهَلُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

عَارِضاً أي: سَحَاباً قَادِماً.

لَمْ يَطُلْ بِهِمُ الزَّمَانُ بَعْدَ أَنْ تَحَدَّوا رَسُولَهُمْ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَام، بأنْ يأتِيَهُمْ بِمَا كَانَ يَعِدُهُمْ بِهِ، حَتَّىٰ رَأَوْا مُقَدِّمَاتِ عَذَابِهِمْ وإهْلاكِهم سَحَاباً مُسْتَقْبِلاً أَوْدِيَتَهُمْ وَمُتَّجِهاً لَهَا، فَحَسِبُوهُ سَحَاباً قَادِماً بِغَيْثٍ، فَقَالُوا: هٰذَا سَحَابٌ سَيُمْطِرُنَا مَطراً نَافِعاً.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ لَمْ يَجِدُوهُ سَحَاباً مُمْطِراً مَطراً نَافِعاً، بَلْ وَجَدُوا أَنَّ مَقَادِيرَ اللهِ تَقُولُ لَهُم: لَيْسَ هٰذَا كَمَا حَسِبْتُمْ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رَسُولَ رَبِّكُمْ، إنَّهُ وَسَائِلُ تَعْذِيبِكُمْ وإهْلَاكِكُمْ. إنَّهُ رِيحٌ عَاتِيَةٌ شَدِيدَةٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ لِأَحْيَائِكُمْ، وهِيَ بِشِدَّتِها وقُوَّةِ سُرْعَتِها تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْمُرُهَا رَبُّهَا أَنْ تُدَمِّرَهُ، هٰذَا مَا كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَهُ وَكُنْتُم تَسْتَهْزِئُونَ بِهِ.

فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهٰذِهِ الرِّيحِ الْعَاتِيَةِ، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ قَائِماً فِي أَرْضِهِمِ إلَّا مَسَاكِنهُمْ، أَمَّا الْأَحْيَاءُ فَأَصْبَحُوا صَرْعَىٰ هَلْكَىٰ، باسْتِثْنَاءِ المؤمنين الَّذِينَ أنْجَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ رَسُولِهِمْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وجعلَهُمْ خَارِجَ مَنَازِلِ العذابِ والْإِهلاك.

● ﴿... كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: كَذَلِكَ الْجَزَاءِ الْعِقَابِيِّ الْوَخِيمِ، نجزي كُلَّ الْمُجْرِمِينَ الكَفَرَةِ، ضِمْنَ قَانُونِ الْعَدْلِ الَّذِي نَجْزِي به.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُخاطِباً الْمُعالَجِينَ في السُّورة، وهُمْ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيلِ مُحذِّراً وَمُنْذِراً:

• ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ مَكَّنَّا عاداً مِنْ قَبْلِكُمْ فِي الَّذِي مَكَّنَاكُمْ فِيهِ يَا مُعانِدِي مَكَّة.

التَّمْكِينُ: الإقْدَارُ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ الموصِلِ إلى تَحْقِيقِ المطْلُوبِ مَعَ التَّثْبِيتِ في الْمَكانِ، والْقُدْرَةِ عَلَىٰ التَّحَرُّكِ فِيهِ.

والمعنى: لَقَدْ كَانَت عَادٌ أكْثَرَ مِنْكُمْ قُدْرَةً وَامْتِلاكاً لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ تَدْفَعُ عَنْهُمُ المخاطِرَ والمهلكاتِ، وأكْثَرَ مِنكُمْ قُدْرَةً عَلَىٰ الحرْبِ، وحيَازَةً لِأَمْوَالِ وَمُمْتَلَكَاتٍ، بِتَقْدِيرنا وَقَضَائِنا.

وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً يَسْمَعُونَ بِهِ مَا يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرِّ، والضَّلَالِ والْهُدَىٰ، وجَعَلْنَا لَهُمْ أبْصاراً يُبْصِرُونَ بِهَا آيَاتِنَا فِي كَوْنِنَا، وآيَاتِ مُعْجِزَاتِنَا، وآيَاتِ جَزَاءَاتِنا، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَفْئِدَةً يُدْرِكُونَ بِهَا مَا يُوصِلُ إلَيْهَا سَمْعُهُمْ مِنْ آيَاتِنَا الْبَيَانِيَّة، وَمَا تُوصِلُ إلَيْهِمْ أَبْصَارُهُمْ مِنْ دَلَائِلِ آياتنا، لَكِنَّهُمْ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَتَقَالِيدَهُمْ الْعَمْيَاءَ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا مِمَّا جَعَلْنَا لَهُمْ مِنْ أَدَوَاتِ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وإدْرَاك، فَلَمْ تَصْرِفْ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِنَا، إذْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِيمَا خُلِقَتْ مِنْ أجْلِهِ، بَلِ اسْتَعْمَلُوا نَوَازِعَ نُفُوسِهِمْ، في الْجُحُودِ بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَدَم الاعْتِرَافِ بِهَا مَعَ عَلْمِهِمْ بأنها حَقٌّ.

وَنَزَلَ بِهِمْ وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ به، حِينَ كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ، فاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُم.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس العاشِرِ من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (٢٧ و٢٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْس خِطَابٌ مُبَاشِرٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلْمُعَالَجِينَ فِي السُّورَةِ، وهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ الجحوديّ الْعِنَادي مِنْ مُشْرِكِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل، وإنْذَارٌ لَهُمْ بأَنَّهُمْ إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وتَمادَوْا فِي غَيِّهِمْ، أَهْلَكَهُمْ كَمَا أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ كُفَّار أَهْلِ الْقُرَىٰ مِنْ حَوْلِهِمْ، فَمَا نَصَرَتْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا قَدِ اتَّخَذُوها مِنْ دُونِ الله.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلْمُعَالَجِينَ في السُّورَةِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بضمير المتكلّم العظيم:

- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

هـٰذَا البيان معطوف على البيان الذي اشْتَمَلَ على ذكْرِ عادٍ قَوْم هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام، وإهْلاكِ اللهِ لهم بِسَبَبِ كُفْرِهِم الجحودي.

- ﴿وَلَقَدْ﴾ تَأْكِيد بالْقَسَمِ المنوي، وبِحَرْفِ قَدْ الَّذِي هُو للتَّحقِيق.

- ﴿أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾: أَنْزَلْنا بِمَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ عَذاباً نُعَذِّبُ بِهِ كُفَّارَ أَهْلِهَا الْمُجْرِمِينَ، ويَكُونُ بِهِ إهْلاكُهُمْ إِهْلاكاً جَماعِيًّا شَامِلاً يَكُونُون بِهِ صَرْعَىٰ.

ونَعْرِفُ مِنَ الْقُرَىٰ المهْلَكَةِ حَوْلَ أَهْلِ مَكَّة قُرىٰ عَادٍ، وثَمُود، وأصحابِ الرَّسِ، وقُرَىٰ قَوْمِ لُوط، وقَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِمَا السَّلام.

أُطْلِقَ لَفظُ الْقُرَىٰ والمرَادُ أَهْلُها عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، أي: لَوْ كَانَتِ الْقُرَىٰ وهِي المبَاني والْمَسَاكِنُ ذَوَات حَيَاةٍ، لَكانَتْ هَالِكَةً مع الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ الْهَالِكِينَ الصَّرْعَىٰ.

- ﴿... وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: وَقَبْلَ أَنْ نُهْلِكَهُمْ نَوَّعْنَا عَلَيْهِم الآيَاتِ البيانيَّة، والإعْجازِيَّة، والتَّذْكِيرِيَّة بإنْزالِ الضَّرَّاءِ بِهِمْ، رغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ أَصْلِ فِطْرَتِهِمْ الإيمانيَّةِ، وَيَنْبذُوا ما هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ وَضَلالٍ وَجَرائِمَ فِي السُّلُوكِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الَّتِي كَانَ رُسُلُنَا يُبَلِّغُونَهُمْ إِيَّاها، وكَذَّبُوهُمْ فِيمَا أَنْذَرُوهُمْ بِهِ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ نُهْلِكَهُمْ إِهْلاكاً جَمَاعِيّاً مُسْتَأْصِلاً، وَأَنْ نُنْجِيَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ المؤمِنِينَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَهُ بِشَأْنِ الْقُرَىٰ الَّتِي أَهْلَكَهَا:

- ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

- ﴿فَلَوْلَا﴾: أي: فَهَلَّا. «لَوْلَا» حَرْفُ تَحْضِيضٍ بمعنى «هلَّا».

- ﴿قُرْبَانًا﴾: قال الكِسَائي: **الْقُرْبَان**: كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ من طَاعَةٍ وَنَسِيكة، وَجَمْعُهُ «الْقَرَابِين».

وقَدْ سَبَقَ أَنْ عَلِمْنَا أَنَّ بَعْضَ المشْرِكِينَ حِينَما سَقَطَتْ ذَرَائِعُهُمْ بِشَأْنِ عِبَادَاتِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، قَالُوا: مَا نَعْبُدُهُم إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ، ويَظْهَرُ أَنَّ هَـٰذِهِ الذَّرِيعَةَ هي مِنَ الذَّرَائِعِ الَّتِي تَمَسَّكَ بِهَا مُشْرِكُو الْقُرَىٰ الْمُهْلَكَة حِينَ أُقِيمَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بأَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَجْلُبُ لَهُمْ نفعاً ولَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضرًّا.

- ﴿إِفْكُهُمْ﴾: **الإِفْكُ**: الْحَدِيثُ والكَلَامُ الكَذِب، ولَوْ لَمْ يَتَعَمَّدْ قَائِلُهُ أَنْ يَكُونَ كَاذِباً.

- ﴿يَفْتَرُونَ﴾: **الافْتِرَاءُ**: اخْتِلَاقُ الْكَذِب واصْطِنَاعُهُ عَنْ عَمْدٍ.

المعنى: فإنْ كَانَ مُشْرِكُو الْقُرَىٰ الْمُهْلَكَةِ صَادِقِينَ فِي ادِّعَائِهِمْ أَنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً، يَعْبُدُونَهُمْ لِيَتَقَرَّبُوا بِعِبَادَتِهِمْ إِلَىٰ اللهِ، فَجَعَلُوهُمْ قُرْباناً آلِهَة، وهٰذَا جَمْعٌ تَنَاقُضِيٌّ بَيْنَ الْعَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ، وَبَيْنَ كَون المعْمُول لَهُ إِلَهاً يُعْبَدُ، فإنْ كَانُوا صَادِقِينَ في ادِّعَاءِ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْفَعُهُمْ فِي مَطَالِبِهِمْ، ومِنْهَا النَّصْرُ، فَهَلَّا اسْتَجَابَتْ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ فَنَصَرَتْهُمْ وَدَفَعَتْ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ، وإهْلَاكَهُ لَهُمْ، وَتَدْمِيرَهُ قُرَاهُمْ.

إِنَّ آلِهَتَهُمْ لَمْ تَنْفَعْهُمْ بِشَيْءٍ، وَلَمْ تَرُدَّ عَنْهُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ شيئاً.

- ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾: أي: بَلْ غَابُوا عَنْهُمْ، وَضَاعُوا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ أَثراً، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الرُّبُوبيَّةِ شَيْءٌ، وَلَا مِنَ الإِلَهِيَّةِ شيء.

- ﴿... وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: وَذَلِكَ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ هُوَ عَاقِبَةُ إِفْكِهِمُ الَّذِي كَانُوا يُرَدِّدُونَهُ مُتَوهِمِينَ أَنَّ آلِهَتَهُم تَنْفَعُهُمْ، وَعَاقِبَةُ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ اخْتِلَاقاً واصْطِنَاعاً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، ظُلْماً وَعُدْوَاناً عَلَىٰ حَقِّ اللهِ الَّذِي لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا إِلَهَ سِوَاه.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الحادي عشر مِنْ دُرُوس سورة (الأحْقَاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٦)

التدبر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (٢٩ ـ ٣٢)

قال اللهُ عزَّ وَجلَّ:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾:

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ حَادِثَةِ اسْتِمَاعِ نَفَرٍ مِن الْجِنِّ القرآنَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَرُجُوعِهِم إِلَىٰ قوْمِهِمْ مِنَ الْجِنِّ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، دُعَاةً إِلَىٰ اللهِ وَمُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِين.

وفيها إشعارٌ للمعالجين في السُّورَة بأَنَّ الْإِسْلَام بدأ يَنْتَشِرُ في فُضَلاء الجنّ، وهم ما زالُوا مُتَشَبِّثِينَ بمَوْقِفِهِمُ العِنَادِيّ الجحوديّ الكُفْرِي على الرغم من كُلِّ الدواعي الداعية لهم إلى الإيمان بالحق الرّبانيّ.

التدبّر التحليلي:

سَبَقَتْ دِرَاسَةٌ شَامِلَةٌ لِلْجِنّ لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الجنّ/ ٤٠ نزول) لِذَا فإنّي أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ مَا يَتَعَلَّقُ بهـٰذَا النّصّ مِنْ سورة (الأحقاف).

لَيْسَ في هـٰذَا النَّصِّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لم يَكُنْ يَعْلَمُ بِحُضُورِهِمْ لَدَىٰ وُفُودِهِمْ إِلَيْهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَا وَرَدَ مِنَ

الْأَحَادِيثِ، الَّتِي جاء فِيها ذِكْرُ وِفَادَةِ الْجِنِّ إلى الرَّسولِ محمّد ﷺ، بخلافِ ما جاء في سُورة (الجنّ).

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِك يَا مُحَمَّدُ هٰذَا الْحَدَثَ الَّذِي جَرَىٰ وَقْتَ صَرْفِ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وأرْسَلْنَاهُمْ إِلَيْك، واذْكُرْهُ فِي بَيَانَاتِكَ الَّتِي تَدْعُو بِها إلى سَبِيلِ رَبِكَ.

ضُمِّنَ فِعْل: «صَرَفَ» معْنَىٰ فِعْل: «أَرْسَلَ» وَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْف «إِلَىٰ» فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن، إِحداهُمَا دَلَّ عَلَيْهَا الْفِعْل في: ﴿صَرَفْنَا﴾ والْأُخْرَىٰ دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارَة: ﴿إِلَيْكَ﴾ وَهذا مِنَ الإيجاز الْبَدِيع في القرآن المجيد.

أَصْلُ فِعْل «صَرَفَ» يُعَدَّىٰ بِحَرْفِ «عَنْ» يُقَالُ لغة: صَرَفَهُ عَنِ الْأَمْر، أَوْ عَنِ الْعَمَلِ. والمناسِبُ للتَّعْدِيَةِ بـ ﴿إِلَيْكَ﴾ في هٰذَا البيان، فِعْل: «بَعَثَ» أَوْ «أَرْسَلَ».

وتَحدَّثَ اللهُ ـ جلَّ جلالُهُ ـ في هٰذَا البيان بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم، للإشْعَارِ بأنَّ هٰذَا الصَّرْفَ وهٰذَا الإرْسَالَ قَدْ كَانَا بِوَسَائِلَ لَطِيفَةٍ خَفِيَّةٍ، لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا الرَّبُّ القديرُ اللَّطِيفُ الْخَبِير.

- ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: النَّفَرُ يُطْلَقُ عَلَىٰ عَدَدٍ مِنَ الرِّجالِ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَىٰ العشَرَة. وَ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بمَحْذُوف هُو صِفَةٌ للفظ ﴿نَفَرًا﴾ أي: كَائِناً مِنَ الْجِنِّ، أَوْ ذَا عِلْمٍ وَمَكَانَةٍ وَفَضْلٍ مِنْ كُبَرَاءِ الْجِنِّ وَسَادَاتِهِم.

- ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: جُمْلَةٌ في مَحَلِّ نَصْبٍ على أَنَّهَا صِفَةٌ لِـ «نَفَراً» أي: نَفَراً مُسْتَمِعِينَ لِلْقُرْآنِ بِعِنَايَةٍ وَقَصْدٍ، ويَدُلُّ عَلَىٰ هٰذَا أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغَتْهُمْ أَنْبَاءُ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَنُزُولِ كِتَابٍ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَانْبَعَثُوا لاسْتِمَاعِ بَعْضِ مَا جَاءَ فِي هٰذَا الكِتَاب، مِنْ تِلَاوَةِ الرَّسُولِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ لِلْإِنْسِ ولِلْجِنّ.

فالمعنَىٰ: نفراً مَوْصُوفِينَ بأَنَّهُمْ مِنَ الجنّ، وبأَنَّهُمْ قَدِمُوا وهم يقْصِدُونَ مِنْذُ بَدْءِ تَوَجُّهِهِمْ اسْتِمَاعَ القرآنِ مِنَ الرَّسُولُ محمّد ﷺ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هٰؤُلَاءِ النَّفَرُ مِنْ فُضَلَاءِ وَعُقَلَاءِ وَسَادَةِ قَوْمِهِمْ مِنَ الجنّ، وَلَعَلَّهُمْ قَدْ وَفَدُوا إلىٰ الرَّسُول ﷺ بِطَلَبٍ مِنْهُمْ، إِذِ انْتَشَرَ بَيْنَ الْجِنِّ أَنَّ رَسُولاً فِي مَكَّةَ أَرْسَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَاباً.

أَمَّا كَيْفَ صَرَفَهُمُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى الرسُول ﷺ، فَلَمْ يَأْتِ فِي النَّصِّ وَلَا فِي بَيَانَاتِ الرَّسُولِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

- ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾: أي: فَحِينَ حَضَرُوا الْقُرْآنَ والرَّسُولُ ﷺ يَتْلُوه، وَشَهِدُوا تِلَاوَتَهُ مِنْهُ.

يُقَالُ لغة: «حَضَرَ فُلَانٌ الْمَجْلِسَ وَنَحْوَهُ» أي: شَهِدَهُ.

- ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾: أي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اسْكُتُوا، وَلَا يَكُنْ مِنْ أَحَدِكُمْ صَوْتٌ ما، حَتَّىٰ نُحْسِنَ الاسْتِمَاعَ.

الإنْصَات: هُو السُّكُوتُ وَعَدَمُ الْكَلَام، وَعَدَمُ إِحْدَاثِ صَوْتٍ مَا بِمَعْنًى أَوْ بِغَيْرِ مَعْنًى. والسَّبَبُ فِي طَلَبِ الإنْصَاتِ تَهْيِئَةُ الْجَوِّ لِلاسْتِمَاعِ الْجَيِّد.

ويُقَالُ لغة: «أَنْصَتَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: أَسْكَتَهُ. ويقال: «أَنْصَتَ الرَّجُلُ» أي: أَحْسَنَ الاسْتِمَاعَ لِلْحَدِيثِ.

- ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾: أي: فَحِينَ أُنْهِيَ المقْدَارُ الَّذِي كَانَ الرَّسُولُ قَدْ عَمَدَ إِلَىٰ تِلَاوَتِهِ مِنَ القرآن.

«**قُضِيَ**» بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَنَائِبُ الْفَاعِلِ ضَمِيرٌ يَعُودُ على القرْآنِ الَّذِي كان الرَّسُول ﷺ يَتْلُوه.

- ﴿... وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: أَدْبَرُوا وَنَأَوْا ذَاهِبِينَ

﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾ مِنَ الْجِنّ ﴿مُّنذِرِينَ﴾: أي: مُبلِّغِينَ أَوَّلاً، وَدَاعِينَ إلى دِينِ اللهِ، ومُبَشِّرِينَ مَنْ آمَنَ بالنَّعِيمِ المقيم في جنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين، وَمُنْذِرِينَ أخيراً مَنْ كَفَرَ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، حَرِيقاً فِي الْجَحِيم.

جَاءَ التَّعْبِيرُ بالإنْذَارِ، وهُوَ آخِرُ فِقْرَةٍ مِنْ فِقَرَاتِ الدَّعْوَةِ إلىٰ دِينِ اللهِ، لِيَدُلَّ باللُّزُومِ الذِّهْنِي عَلَىٰ مَا يَكُونُ قَبْلَهُ مِنْ فِقَرَاتٍ دَعوِيَّة، يَقْتَضِيهَا التَّرْتِيبُ الْحَكِيمُ، في البيان والإعْلَام، والدَّعْوَةِ إلىٰ الدُّخُولِ فِي دِينٍ مُتَكَامِلِ الْبُنْيَانِ، رَاسِخِ الْأَرْكَانِ عَظِيمِ الإتْقَانِ، بِحِكْمَةِ الْحَكِيمِ الدَّيَّان.

الإنْذَارُ: الإعْلَامُ بِمَا هُوَ مَحْذُوفٌ مِنْهُ، ويَجِبُ على أهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ أَنْ يَتَّقُوهُ، وَيَتَّقُوا مُسَبِّبَاتِهِ.

والإنْذَار: التَّحْذِيرُ والتَّخْوِيفُ مِنْ شَرٍّ قَادِم.

- ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾: هٰذَا بَيَانٌ تَمْهِيدِيٌّ لِبَدْءِ دَعْوَتِهِمْ قَوْمَهُمْ مِنَ الجِنّ، وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْجِنَّ أَقْوَامٌ يُشْبِهُونَ فِي تَقْسِيمَاتِهِمْ أَقْوَامَ الإنْسِ.

- ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾: أي: إِنَّا سَمِعْنَا آيَاتٍ مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيّ، أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولٍ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ وَكِتَابِهِ التَّوْرَاةِ.

هٰذَا البيانُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هؤلَاءِ النَّفَرَ مِنَ الْجِنِّ كَانُوا يَهُوداً، لِذِكْرِهِمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام وَكِتَابَهُ، وَعَدَمِ ذِكْرِهِمْ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام والكِتاب الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ.

- ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: أي: مُصَدِّقاً لِمَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّةٍ، ولِلأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ السَّابِقِينَ للرَّسُولِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هٰذَا الكِتَابُ الَّذِي سَمِعْنَا بَعْضَ آيَاتِهِ المنزَّلَاتِ.

الزمَانُ الماضِي هو مَا بَيْنَ يَدَيْ الأحْيَاءِ الْمُدْرِكة، وأمَّا المسْتَقْبَلُ فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ خَلْفَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَجهَلُونه.

• ﴿... يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: يَهْدِي بما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانٍ إِلَىٰ أَصْلَيْنِ رَئِيسَيْن، هما:

الأَصْلُ الأول: الْحَقُّ فِي بَيَانِ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّة، وفي بَيَانِ الْأَخْبَارِ الْمَاضِيَةِ، والْحَاضِرَةِ، والمسْتَقْبَلَةِ، وَفِي بَيَانِ مَا في الكَوْنِ.

الأَصْلُ الثاني: الطَّرِيقُ المستَقِيمُ، وَهُوَ طَرِيقُ سُلُوكِ ذوي الإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ، في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، سَوَاءٌ أَكَانَ سُلُوكاً ظَاهِراً أَمْ سُلُوكاً بَاطِناً.

يُقَالُ لُغَةً: «هَدَىٰ فُلَانٌ فُلَاناً الطَّرِيق. وَهَدَاهُ لَهُ. وَهَدَاهُ إِلَيْهِ» أي: عَرَّفَهُ بِهِ وَبَيَّنَهُ له.

• ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ...﴾: نداءٌ دَعَوِيٌّ بَعْدَ النِّدَاءِ التَّمْهِيدِيّ الْأَوَّل.

أي: يَا قَوْمَنَا أَطِيعُوا دَاعِيَ اللهِ مُحَمّداً فِيما يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ إيمَانٍ وَعَمَلٍ.

يُقَالُ لغة: «أجَابَ فُلَانٌ دَعْوَةَ الدَّاعِي» أي: قَبِلَ دَعْوَتَهُ، وَأَطَاعَهُ، وَحقَّقَ مَا طَلَبَ مِنْه.

وصَفُوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بأَنَّهُ دَاعِي اللهِ، أي: الدَّاعِي المبَلِّغُ دِينَ اللهِ.

وكَذلِكَ وَصَفُوا القرآن بأَنَّهُ دَاعِي الله، أي: الْبَيَانُ الْمُبيِّنُ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ الموضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

فَكُلٌّ مِنْهُمَا يُنَادِي: اسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ اللهِ، وَأَطِيعُوهُ، وَلَا تَعْصُوا، وَنَحْنُ نُنَادِيكُم فَنَدْعُوكُمْ إِلَىٰ قَبُولِ الدَّعْوَةِ، والطَّاعَةِ، والاسْتِجَابَةِ بالإيمان بالحق، وسُلُوكِ الطَّرِيق المستقيم في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدُّنيا.

- ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾: يَعُودُ الضَّمِيرُ في ﴿بِهِۦ﴾ عَلَىٰ الدَّاعِي، وهُوَ يَشْمَلُ الرَّسُولَ وَالقرآن. أَمَّا الرَّسُولُ ﷺ فَلِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ الَّذي يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ كِتَابَهُ، وَبَيَانَاتِ الدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ به. وأَمَّا القرآن فَلِأَنَّهُ كِتَابُ اللهِ المشْتَمِلُ عَلَىٰ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم.

- ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: أي: يَسْتُرْ لَكُمْ بَعْضَ ذُنُوبِكُم بِسَبَبِ الإجَابَةِ والإيمان، وَإِذَا سَتَرَهَا فإِنَّهُ لَا يُحَاسِبُكُم عَلَيْهَا، وَلَا يُجَازِيكُم بِعَذَابٍ على اقْتِرَافِكُمْ لها.

ذَكَرُوا بَعْضَ الذُّنُوبِ احْترازاً مِنَ الذُّنوبِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَا حُقُوقُ العباد.

غَفْرُ الذُّنُوب: سَتْرُها، وَفَوْقَهُ الْعَفْو، وَفَوْقَهُمَا رَفْعُ الْجُناح، وَفَوْقَهَا جَمِيعاً أَنْ يُبَدِّلَ اللهُ سَيِّئَاتِ الْمُذْنِبِ حَسَنَاتٍ.

- ﴿... وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾: أي: وَيَحْمِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم فِي جهَنَّمَ، فَلَا يُعَذِّبُكُمْ بِالْحَرِيقِ فِيها بِسَبَبِ إيمَانِكُمْ، إِذِ الْإِيمَانُ يَكُونُ سَبباً فِي وِقَايَتِكُم مِنْ عَذابِ الحريق.

يقال لُغَةً: «أجَارَ فُلَانٌ فُلَاناً» أَيْ: حَمَاهُ وَحَفِظَهُ، وَدَفَعَ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ، وَوَقَاهُ مِمَّا اسْتَجَارَ بِهِ مِنه.

فالْجِنُّ يُعَذَّبُونَ في النَّارِ كَالإنْسِ، إِذَا كَانُوا مِنَ الْكَافِرِينَ المجرمِينَ.

وَمَنْ أَجارَهُ اللهُ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ لَا مَحالَةَ، سَوَاءٌ أَكَانَ مِنَ الإِنْسِ أَمْ مِنَ الجنّ.

- ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَعْصِ بِعَدَمِ إجابَتِهِ دَعْوَةَ الرَّسُولِ، ودَعْوَةَ القرآن، إلى الْإِيمَانِ والإِسْلام، واتِّبَاعِ الرَّسُول، واتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ لِلْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي الحياة الدُّنْيا مِنْ رَبِّهِمْ.

«مَنْ» اسْم شَرْط جازم «لَا يُجِبْ» هٰذَا الفِعْلُ مَجْزُوم عَلَىٰ أَنَّهُ فِعْلُ الشَّرْطِ، وَجوابُه دَلَّتْ عَلَيْهِ الْعِبَارَة التالِيَة:

- ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: فَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ، مَهْمَا كَانَتْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْهَرَب، واجْتِيَازِ الْمَسَافَاتِ بِسُرْعَاتٍ فَائِقَات، إذْ هو مُحَاطٌ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ الأَبْعَادِ، الَّتِي يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أن يَهْرُبَ إِلَيْهَا، بِقُدْرَاتِهِ الْعِفْرِيتِيَّة.

وَقَدْ جَاءَتْ هٰذِهِ العبارةُ كِنَايَةً عَنْ جَوَابِ الشَّرْط، الَّذِي يَدُلُّ دَلَالَةً مُبَاشِرَةً عَلَىٰ نُزُولِ الْعِقَابِ بِهِ لَا محالَةَ.

والمعْنَىٰ: فَهُوَ مُعَذَّبٌ عَذَاباً شَدِيداً لَا مَحَالَة، فَلَوْ حَاوَلَ الْهَرَبَ لِيَفْلَتَ مِنَ الْعَذَاب، فَلَيْسَ بِمُعْجِزِ الْمَلَائِكَةَ المأْمُورِينَ بالْقَبْضِ عَلَيْهِ، وَبِتَعْذِيبِهِ، وبِإدْخَالِهِ جهَنَّمَ دَارَ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِين، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُعْجِزَ اللهَ هَرَباً، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَمَنَحَهُ قُدْرَاتِهِ الَّتِي يَقْطَعُ بِهَا الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَات، بِسُرْعَاتٍ فَائِقَات.

وجاءتْ عِنَايَةُ هؤلَاءِ النَّفَرِ المؤمِنِينَ مِنَ الْجِنِّ، بالتَّوْجِيهِ فِي دَعْوَتِهِمْ لِقَوْمِهِمْ، لحقيقَةِ أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ رَبَّهُمْ فِي الأَرْضِ، إِذَا أَرَادَ اللهُ مُعَاقَبَتَهُمْ، نَظَراً إلى أَنَّ قَوْمَهُمْ مِنْ صِنْفِ الْجِنِّ الطَّيَّارِين، الذين قَدْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ الْهَرَبِ مِن جُنُودِ الله، بِسَبَبِ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ سُرْعَاتٍ فَائِقَات.

- ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾: أي: وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ نُصَرَاءُ يَنْصُرُونَهُ، فَيَدْفَعُونَ عَنْهُ عَذَابَ اللهِ على مَعْصِيَتِهِ وَكُفْرِه.

الْأَوْلِياء: هُنَا النُّصَرَاءُ الَّذِينَ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ نُصْرَةِ أَتْبَاعِهِم، أَوْ إِخْوَانِهِم، والَّذِينَ كانُوا في أَزْمَانِ الامْتِحَانِ يُحَرِّضُونَ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ عَلَىٰ الإِثْمِ وَالظُّلْمِ وَنَشْرِ الْفَسَادِ فِي الأَرْض.

• ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾: أي: أولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُجِيبُونَ دَاعِي اللهِ الْبُعَدَاءُ عَنْ تَنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِ اللهِ باخْتِيَارِهِم الحرّ، هُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي ضَلَالٍ جَلِيٍّ واضِحٍ.

مُبِين: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» اللّازم بمَعْنَىٰ وضَحَ وظَهَر.

إِنَّ دَعْوَةَ هؤلَاءِ الْفُضَلَاءِ مِنَ الْجِنِّ كانَتْ حَكِيمَةً، إِذِ اخْتَارُوا فِيها التَّوْجِيهَ لِلْكُلِّيّاتِ الكُبْرَى، الّتِي تَقَعُ في الدَّرَجَةِ الْأُولَىٰ مِنَ الْأَوْلَوِيَّاتِ الدَّعَوِيَّةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقّ.

وبهٰذَا انتهى تَدَبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٧)

التدبر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (الأحقاف) الآيتان (٣٣ و٣٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

القراءات:

(٣٣) • وَقف يَعْقُوبُ بهاء السَّكْت على: [**بِخَلْقِهِنَّ**].

(٣٣) • قرأ يَعْقُوبُ: [**يَقْدِرُ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِقَادِرٍ].

والمؤدّىٰ واحِدٌ، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ فِي البيان.

تَمْهيد:

فِي آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ إقْنَاعِيٌّ مُوَجَّهٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُنْكِرِي الْبَعْثِ، مَصْحُوبٌ بإنْذَارٍ بِعَذَابِ النَّارِ يَوْم الدِّين، بأسْلُوب عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ غَيْرُ مُجَرَّدِ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَابِ، مُتَجَاهِلِينَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْض وَكُلَّ الْأَحْياءِ فِيهِمَا ولَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الكَوْن مَوْجُوداً قَبْل خَلْقِهِ، ومِنْهُمُ المعالَجُونَ في السورة:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾:

الْواو في: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ يُمْكِنُ بالتَّأَمُّلِ اسْتِخْرَاجُهُ، أي: أَعَطَّلُوا عُقُولَهُمْ وَجِهَازَ التَّفكيرِ الَّذِي هُوَ مِنْ عَنَاصِرِ تَكْوِينِهِمْ، وَلَمْ يَرَوْا رُؤْيَةً فِكْرِيَّةً تُشْبهُ الرُّؤْيَةَ الْبَصَرِيَّةَ أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شيءٍ، السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا مِن أشْيَاء وأحْياء، ولَمْ يَعْجزْ عَنْ خَلْقِهِنَّ، بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ، كَمَا بَدَأَ خَلْقَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، دُونَ أَنْ يَكُونُوا شَيْئاً مَذْكُوراً؟!!

يُقَالُ لغة: «عَيِيَ، يَعْيَىٰ، عَيًّا، وعِيًّا» أي: عَجزَ.

- ﴿بِقَٰدِرٍ﴾: الْبَاءُ مَزِيدَةٌ لِلتَّوكيد، وَلَفْظُ «قَادِرٍ» خَبَرُ «أَنَّ» مَجْرُورٌ بِحَرْفِ الْجَرِّ الزَّائد لفظاً، وَمَحَلُّهُ الرَّفع.

وَجَوَابُ الاسْتِفهام مَطْوِيٌّ تَقْدِيرُه: بَلَىٰ لَقَدْ رَأَوْا هَـٰذِهِ الحقيقَةَ وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوهَا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم.

وَجَاءت عبارَة: ﴿... بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾: تكذيباً لِمَقُولَةٍ مَطْوِيَّةٍ لَهُمْ، قَالُوا فِيها: لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ.

أي: بَلَىٰ يَبْعَثُ اللهُ الْمَوْتَىٰ فِي الْوَقْتِ المحدَّدِ لِبَعْثِهِمْ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُهُ قَدِيرٌ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُنْذِراً وَمُرْهِباً لِمُنْكِرِي الْبَعْث:

● ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ويُقَالُ لِلّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ النَّارِ وَيَرون مواقِعَهُمْ مِنْ دَرَكَاتِها: أَلَيْسَ هـٰذَا الّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ جُحُوداً؟؟!

استفهام تَوْبِيخٍ وَتَحْسِيرٍ وَتَنْدِيم. فَكَانَ جَوابُهم:

● ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾: أي: بَلَىٰ هـٰذَا حَقٌّ وَأَكَّدُوا اعْتِرَافَهُمْ بالْقَسَم: ﴿وَرَبِّنَا﴾ طَمَعاً فِي أَنْ يُخَفِّفَ اللهُ مِنْ عَذَابِهِمْ، لَكِنَّ اعْتَرَافَهُمْ بَعْدَ الشُّهُودِ لَا يُفِيدُهُمْ شَيْئاً، فَقَدْ مَضَىٰ زَمَنُ الامْتِحَانِ وَجَاءَ يَوْمُ الجزاء.

الباء في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكِيدِ فِي خَبَرِ لَيْسَ.

عِنْدَئِذٍ يَقُولُ لَهُمُ الَّذِين كَانَ قَدْ سَأَلَهُمْ سُؤالَ تَوْبِيخٍ وَتَحْسِيرٍ وَتَنْدِيم ما جَاءَ بَيَانُه في الآيَة:

● ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾:

أي: فَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ فِي جَهَنَّم، بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ في الحياة الدُّنْيا حَيَاةِ الامْتِحَانِ تَكْفُرُونَ بالْحَقِّ كُفْرَ جُحُودٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُم عُذْرٌ بِهِ تَعْتَذِرُونَ.

وَهـٰذَا الْقَوْلُ قَدْ يُقَالُ لَهُمْ قَبْلَ إِلْقَائِهِمْ فِي جَهَنَّم، أَوْ عِنْدَ إِلْقائِهِم فِيها، أَوْ بَعْدَ إِلْقَائِهِمْ وَاسْتِقْرَارِهِمْ فِي مَوَاقِعِهِمْ مِنْها، أو في كُلِّ هـٰذِهِ الْأَحْوَال.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٨)

التدبر التلحيلي للدّرس الرابع عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآية (٣٥) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

تَمْهيد:

في آيَةِ هـٰذَا الدَّرسِ الأخير توجيهٌ للرسُول ﷺ بأنْ يَصْبِرَ كَمَا صَبَرَ أُولوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، وَبِأَنْ لا يَسْتَعْجِلَ لِلْمُعَالَجِينَ الإهْلَاكَ الَّذِي يَطْلُبُونَ تَعْجِيلَهُ، تَعْبِيراً عَنْ إنْكَارِهِمْ رِسَالَتِهِ، مَعَ تَهْدِيدِ اللهِ لَهُمْ، وَإِشْعَارِهِمْ بِأَنَّهُ جلَّ جَلَالُهُ لَا يُهْلِكُ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا شَامِلاً إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ المتواطِئِينَ على الكُفْرِ والْفُسُوق.

التدبّر التحليلي:

جاء بيانُ تَوْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالصَّبْرِ فِي القرآنِ كُلّه، فِي المقولَةِ الثّالِثَةِ من الفصل الأول من الباب الثاني (الصّفات الّتِي

يَجبُ أن يَتحلّىٰ بها حَملَةُ الرِّسالَة)⁽¹⁾ من كِتَابِ «فقْهِ الدَّعْوَةِ إلَىٰ اللهِ وَفِقْه النُّصْحِ والإرْشَادِ والأمْرِ بالمعروف والنَّهْي عَنِ المنكر».

بَعْدَ أَنْ أَبانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، أَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي عَدَم إجْراءِ آيَةٍ إعْجازِيَّةٍ كُبْرَىٰ، بِحَسَبِ طَلَبِ كُبَراء قَوْمِهِ مِنْهُ، لِئَلَّا يَتَعَرَّضَ قَوْمُهُ لِلْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ الكُفرِ بَعْدَ إجْرائِها، وَمُعْظَمُهُمْ لَمْ يَصِلُوا بَعْد إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ إصْلَاحِهِم مَعَهَا عَنْ طَرِيق إرَادَاتِهِمْ الحرَّةِ.

وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ خَطَرَتْ لَهُ خَواطِرُ تَعْجِيلِ عِقَابِ مُسْتَحِقّي الْعِقَابِ مِنْ قَوْمِهِ، دُونَ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ شيئاً مِنْ ذٰلِكَ، فأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هٰذِهِ الآيَة الْأَخِيرَةَ من سُورَة (الأحْقَاف).

أي: فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ: «نُوح، وإبراهيم، وَمُوسَىٰ، وعِيسَىٰ» فَقَدْ لَاقَوْا مِنْ أَقْوامِهِمْ جُحُوداً لِلْحَقِّ وَعِنَاداً شَدِيداً وَلَمْ يَسْأَلُونِي أَنْ أُعَجِّلَ عِقَابِي للمعانِدِينَ المكابِرِين، فَتَأَسَّ بِهِمْ.

وَلَا تَسْتَعْجِلِ لِمُعَانِدِي قَوْمِكَ الإهْلَاكَ الْمُعَجَّلَ الَّذِي يُطَالِبُونَكَ بِهِ، لَا رَغْبَةً فِيهِ، وَلَكِنْ تَعْبِيراً عَنْ تَكْذِيبِكَ في نُبُوَّتِكَ وَرسالَتِكَ وَإِنْذَارَاتِكَ لهم.

أَمَّا الْعَذَابُ الَّذِي وُعِدُوا بِهِ يَوْمَ الدِّينِ فإنَّهُ آتٍ لَا مَحالَةَ إِذَا مَاتُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهِم، وهُمْ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ الموْتِ والْبَعْثِ إلَّا سَاعَةً مِنْ نهارٍ.

- ﴿... بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾:

بَلَاغ: اسْمٌ بِمَعْنَىٰ المَصْدَرِ، الّذِي هُو الإبْلَاغُ أو التَّبْلِيغ.

أي: هٰذَا بَلَاغٌ مِنَ اللهِ عَامٌّ لِكُلِّ المؤمنِينَ لِقَطْعِ تَطَلُّعَاتِ نُفُوسِهِمْ لإِهْلَاكِ جَمَاعَاتِ الْكَافِرِينَ، قَبْلَ أَنْ تَقْتَضِيَ حِكْمَةُ اللهِ الْعَلِيمِ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إهْلَاكَهُمْ.

---

(١) انظر الصفحات من (١٤٢ ـ ١٦٠) من الجزء الأول.

وَقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هـٰذَا البلاغ أَنَّ الإِهْلَاكَ الشَّامِلَ لِقَوْمٍ مِنَ الْأَقْوَامِ إِنَّمَا يَكُونُ حِينَما يَصِيرُ فِسْقُهُمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ أَمْراً عَامًّا شَامِلاً، وحِينما يُمْسِي إِصْلاحُ أَفْرادٍ مِنْهُمْ ميؤوساً مِنْهُ.

وبهـٰذَا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع عشر من دُرُوس سورة (الأحقاف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٩)

ملحق: مُستَخرَجات بلاغيّة من سورة (الأحقاف)

في سورة (الأحقاف) اختيارات بلاغيّة متعدّدة، أستخرج منها ما يلي، وأترك الباقي لِذَوي الاهتمامات الْبَلاغِيَّة.

أوّلاً:

مِنْ خُرُوج الاستفهام عَنْ أَصْل دَلَالته، قولُ الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾.

الاستفهام في ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾؟ يُرادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا أَحَدَ أَضَلُّ مِنْ هـٰذَا الّذِي يَعْبُد آلِهةً لَا تَستَجيبُ لَهُ بِشَيْءٍ إلى يَوْمِ الْقِيامَة، ويَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُونَ أعْدَاءً. فالانقطاعُ مُسْتَمِرٌّ دواماً.

ثانياً: من القصر

١ ـ قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ۝٣﴾.

فِي هـٰذَا الْبَيَان قَصْرٌ بالنَّفْي والاستِثْنَاءِ، وهو قَصْرٌ إضَافِي مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة.

٢ ـ وقول الله عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّم رسوله مَا يقوله لِقومه:

﴿... إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾.

فِي هـٰذَا البيان قصران بالنفي والاسْتثناء، وهما من قبيلِ الْقَصْرِ الإضَافي، ومن قَصْرِ مَوْصوفٍ عَلَىٰ صفة.

ثالثاً: من الكناية

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: إنَّ اللهَ لَا يَحْكُمُ لَكُمْ بالْهِدَايَةِ، لِأَنَّكُمْ ظَالِمُونَ، وَلِأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

رابعاً:

من الاقتطاعِ مِنْ أحداث الماضي أو المستقبل كَأَنَّ الحديثَ يَجْرِي عِنْدَ ساعَة التكلّم:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: يُوجَّهُ لَهُمْ هـٰذَا البيان: ﴿أَذْهَبْتُمْ ... ﴿٢٠﴾﴾.

خامساً:

من التوكيد بِحَرْفِ الجرّ الزائد ما يلي:

١ - ﴿... فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ ... ﴿٢٦﴾﴾.

٢ - ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾﴾.

٣ - ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وأكْتَفِي بهٰذَا القدر، والحمْدُ للهِ على مَعْونَتِهِ، وتوفيقه، وفتحه.

* * *

سُورَة الذاريات

٥١ مصحف ٦٧ نزول

وهي كلُّها مَكِّيَّةٌ باتفاق

(١)

نصّ السورة وما فيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا (١) فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا (٢) فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا (٣)
فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ
(٦) وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ (٧) إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ (٨) يُؤۡفَكُ
عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ (٩) قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ
سَاهُونَ (١١) يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ (١٢) يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ
يُفۡتَنُونَ (١٣) ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ (١٤)
إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ (١٥) ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ (١٦) كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ (١٧)
وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ (١٨) وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ
(١٩) وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ
(٢١) وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ

---

٣ ـ ● قرأ أبو جعفر: [يُسُراً] بضَمِّ السين.
وقرأها باقي القراء العشرة [يُسْراً] بإسْكان السّين.
ومُؤَدّاهما واحد، وهما بمعنى السُّهُولَةِ واللِّين والانقياد وعَدَمِ العُسْر.

١٥ ـ ● قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشعبة، وحمزة، والكِسائيّ: [وَعِيُونٍ] بِكَسْر العَيْن.
وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَعُيُونٍ] بضمّ العين.
وهما لغتانِ عَرَبيتان.

إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ
إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ
مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ
إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ
وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن
طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾
وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ
أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ

---

٢٣ ـ ● قرأ شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلَف: [مِثْلُ] بالرَّفع وصْفاً لـ «حَقٌّ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِثْلَ] بالنَّصبِ على أنَّها حَال.

٢٤ ـ ● قرأ هِشام: [إِبْرَاهَامَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِبْرَاهِيمَ]. وهُمَا نُطْقَان لاسْمِهِ عَلَيْهِ السَّلَام.

٢٥ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائي: [قَالَ سِلْمٌ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قَالَ سَلَام].
ومؤدَّاهُمَا وَاحِدٌ، فالسِّلْمُ والسَّلام كِلاهُمَا تَأْمِينٌ وتَحِيَّة.

٢٧ ـ ● قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.
وهُما نُطْقَانِ عَرَبِيَّان.

أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾
وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ
أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ
يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا
بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى
ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا

---

٤١ ـ • قرأ أبو عمرو: **[عَلَيْهِمِ الرِّيحَ]** بكسر هاء الضمير والميم بَعْدَها.
وقرأها حمزة، والكِسائي، ويعقوب، وخلف: **[عَلَيْهُمُ الرِّيحَ]** بضم هاء الضمير والميم بَعْدَها.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَلَيْهِمُ الرِّيح]** بِكَسْر هَاء الضمير وضمّ الميم بعْدَها.
وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ في النطق.

٤٤ ـ • قرأ الكِسَائي: **[الصَّعْقَةُ]**. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[الصَّاعِقَةُ]**.
الصَّعْقَةُ: الْهَلاكُ.
الصَّاعِقَةُ: العذابُ الْمُهْلِك.
فَمُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ واحد.

٤٦ ـ • قَرأ أَبُو عَمْرو، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[وَقَوْمِ نُوحٍ]** عطفاً على «وَفي ثَمُودَ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَقَوْمَ نُوحٍ]** أي: وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ.

٤٩ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخَلف: **[تَذَكَّرُونَ]** أَصْلُها تَتَذَكَّرُون.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَذَّكَّرُونَ]** بإدغام التاء الثانية بِالذّال.

ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٥١) كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ
هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ (٥٤) وَذَكِّرۡ
فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا
لِيَعۡبُدُونِ (٥٦) مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ
(٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ (٥٩) فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

---

٥٦ و٥٧ و٥٩ ـ ● قرأ يعقُوب بإثبات ياء المتكلّم في [لِيَعْبُدُونِي ـ يُطْعِمُونِي ـ يَسْتَعْجِلُونِي] وصلاً ووقفاً، ولم يُثْبِتْها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ.

٦٠ ـ ● قرأ أبو عمرو ويعقوب: [يَوْمِهِمِ الَّذِي] بِكَسْر هاء الضمير والميم بعدها.
وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [يَوْمِهُمُ الَّذِي] بضمّ هاء الضمير والميم بَعْدها.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَوْمِهِمُ الَّذِي] بِكَسْر هاء الضمير وضم الميم بَعْدها.

(٢)

موضوع سُورة (الذّاريات)

ظهر لي أَنَّ موضوع هٰذِهِ السورة يَدُورُ حَوْلَ مُتابَعَةِ معالَجَةِ مُنْكِري الْبَعْث والجزاء يَوْمَ الدِّينِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، إِذْ يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى مَرْحَلَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهُم مَعَها. وَجاءَت هٰذِهِ المتابَعَةُ بأَفانِينَ وَتَصارِيف مِنَ البيان، ضِمْنَ الكُلِّيَّاتِ العامَّة للمعالجة، رَغْبَةً في أَنْ يتخلَّصُوا بإرادَاتِهِم الحرَّةِ من الكُفْرِ والجحود، وأن يُؤْمِنُوا بالحقّ طَائِعِينَ مُخْتَارِين.

وهَـٰذِهِ التصاريف تدورُ حَوْلَ الإقناع بالحقّ، والترهيب، والترغيب.

ومِنَ الإقْنَاعِ الْعَوْدَةُ إِلَىٰ التنبيهِ على بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، في الأرضِ، وفي الأنْفُسِ، وفي السَّمَاءِ، في مَوْضِعَيْنِ من السورة، ومِنْهَا أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ خَلَقَ مِنْ كُلِّ شيءٍ في الكَوْن زَوْجَيْن، من الأجناسِ والأنواعِ والْأَصْنَافِ.

ومِنَ الترهيب عَرضٌ مُوجَزٌ لِتَعْذِيب وإهْلَاكِ أقوامٍ مُكَذِّبِينَ سَبقُوا في التاريخ: (قوم لوط ـ فرعَوْنُ وجُنُودُه ـ عاد ـ قوم نوح).

وفيه توجيهُ الرَّسُول ﷺ وَكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَجْعَلَ مِن عناصِرِ دَعْوَتِهِ مُطَالَبَةَ غَيْرِ المؤمِنِينَ بأَنْ يَفِرُّوا مِنْ مواقِعِهم الكُفْرِيَّة، الَّتي هِيَ مَواقِعُ تَنَزُّلَاتِ سَخط اللهِ وَغضَبِهِ وَوَسَائِلِ تَعْذِيبِهِ وإهْلَاكِهِ للمجْرِمين، إِلَىٰ الاحْتِمَاءِ بالإيمانِ باللهِ والإسلام لَهُ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبوبيّتِهِ، وإلَهاً لَا شَرِيكَ لَهُ في إلهيته.

وَفِيهِ تَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَهُ بِشَتَائِهِم مِنْ كُبَراء قَوْمِهِ مَسْبُوقُونَ بأَمْثَالِهِم مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَة.

وفيه تَوصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنْ يَتَوَلَّىٰ مُدْبراً بِظَهْرِهِ عَنِ المعَانِدين الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ مَيؤُوسٍ مِنْ إصْلَاحِهِمْ مَعَها عَنْ طَرِيق إرَادَاتِهِم الحرَّةِ، وَأَنْ يُوَجِّهَ تَذْكِيرَهُ لِمَنْ يَرْجُو أَنْ يُؤْمِنُوا وَلَوْ رَجاءً ضَعِيفاً، فَمَخايِلُ الخيْرِ تُلْمَحُ مِنْ بَعْضِ تَصرُّفَاتِهم.

وَخَتَم اللهُ عَزَّ وَجلَّ السُّورَة بِبَيَانِ مَطْلُوبِهِ التكليفيّ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهي أَنْ يَعْبُدوه لَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، لَا أَنْ يرْزُقُوهُ أَوْ يُطْعِمُوه، كَمَا يَتوهَّمُ بَعْضُ المشْرِكِينَ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ آلِهَتِهِمُ الباطلة، وأَتْبَعَهُ بإنْذَارِ الظَّالِمِينَ الْكَافِرِينَ المعانِدِين، بِعَذَابٍ مُعَجَّلٍ، ثُمَّ بِعَذَابٍ أَبَدِيّ في جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين.

(٣)

دُروس سورة (الذَّارِيات)

تشتمل هَـٰذِهِ السورة على (١٣) دَرْساً فِيما ظَهَرَ لي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٦).

وفي هـٰذَا الدَّرس قَسَمٌ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ علىٰ أنَّ الوعْد بالجزاء يَوْمَ الدِّينِ وَعْدٌ صَادِقٌ، وعلَىٰ أَنَّ الْجَزَاءَ سَوْف يَكُونُ يَوْمَ القيامَةِ حَقِيقَةً وَاقِعَةً لَا مَحالَة.

الدرس الثاني: الآيات من (٧ ـ ١٤).

وفي هـٰذَا الدَّرْس قَسَمٌ بِبَعْضِ آياتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ مُوجَّهٌ للكافِرِينَ على أنَّهم لَيسَتْ لَهُمْ وَحْدَةٌ فِكْرِيَّةٌ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا في قَضَايَا الدِّينِ، بَلْ أقوالُهُمْ فيها مُتَخَالِفَةٌ قَدْ يَصِلُ التخالُفُ فيها إلى التَّضَادّ والتَّنَاقُضِ والسَّبَبُ في هـٰذَا اعْتِمَادُهُمْ فِيها عَلَىٰ الظُّنُونِ الضَّعِيفَةِ والأكاذِيبِ، فَهُمْ بِسَبَب هـٰذَا مُبْعَدُونَ عَنْ مَوَاقِعِ الحقِّ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، وَمُنْغَمِسُونَ في أُمُورِ شهواتِهِمْ وأهوائهم سَاهُونَ، ويَتَلَفَّظُونَ لاسْتِبْعَادِ يَوْم الدِّينِ بالسُّؤَالِ عَنْ زَمَنِ وُقُوعِهِ، لكِنَّهُمْ سَوْفَ يَنَالُونَ عَذَابَ تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ذُوقُوا عَذَابَ تَكْذِيبِكُمْ وَكُفْرِكُمْ، وهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ تَعْبِيراً عَنْ إِنْكَارِكُمْ لَه.

الدّرس الثالث: الآيات من (١٥ ـ ١٩).

وفِي هـٰذَا الدَّرسِ عَرْضُ مَشْهَدٍ تَرْغِيبِيٍّ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ، وَهُوَ يَتَعلَّقُ بالمتَّقِينَ الّذِين بَلَغُوا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ بأَعْمَالِهِم فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَهُمْ يُنَعَّمُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ فُيُوضِ عَطاءَاتِهِ.

الدّرس الرابع الآيات من (٢٠ ـ ٢٣).

وفِي هـٰذَا الدَّرس حثٌّ عَلَىٰ التَّفكُّرِ في آياتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإلَـٰهِيَّتِهِ في الأَرْضِ وَفي الأَنْفُسِ، مُوجَّهٌ مِنَ اللهِ بالخِطَابِ الْمُبَاشِرِ للَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ، وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ هِيَ الَّتِي تَرْزُقُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فأَبَانَ اللهُ لَهم أَنَّ رِزْقَهُمْ في السَّمَاءِ بأَوَامِرَ رَبَّانِيَّةٍ، وكَذٰلِكَ مَا يُوعَدُونَ مِنْ جَزَاءٍ بأوامِرِ رَبَّانِيَّة، وأقْسَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِرُبُوبِيَّتِهِ لِلسَّمَاءِ والأَرْضِ، عَلَىٰ أَنَّ هـٰذَا حَقٌّ مُمَاثِلٌ لِمَا يَنْطِقُونَ بأَلْسِنَتِهِمْ في حَرَكَةِ حَيَاتِهِمْ.

الدّرْس الخامس: الآيات من (٢٤ ـ ٣٧).

وَفِي هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لَقَطَاتٍ مُوجَزَاتٍ مِنْ قِصَّةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَإهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ المجْرِمِينَ، لِيَعْتَبِرَ الكَفَرَةُ بِمَنْ سَبَقَهم.

الدرس السادس: الآيات من (٣٨ ـ ٤٠).

وَفِي هـٰذَا الدَّرس عَرْضُ لَقطةٍ مُوجَزَةٍ عَنْ إهْلَاكِ فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ.

الدرس السابع: الآيتان: (٤١ و٤٢).

وَفِي هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجزَةٍ عَنْ إهْلَاك عَادٍ قوم هودٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الثامن: الآيَات من (٤٣ ـ ٤٥).

وفي هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجَزَةٍ عَنْ إهْلَاكِ ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس التاسع: الآية (٤٦).

وفي آيَةِ هـٰذَا الدَّرس بيانُ إهلاكِ قَوْمِ نُوحٍ بِسَبَبِ كونِهِمْ قَوْماً فَاسِقِين.

الدرس العاشر: الآيات من (٤٧ ـ ٤٩).

وَفِي هـٰذَا الدَّرْس يُوجِّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للتَّفكُّرِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ.

الدرس الحادي عشر: الآيتَان (٥٠ و٥١).

وَفِي هـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أسْلُوباً دَعَوِيًّا فِيهِ إبْدَاعٌ فِكْري.

الدرس الثاني عشر: الآيَات من (٥٣ ـ ٥٥).

وَفِي هـٰذَا الدَّرْسِ تَسْلِيَةٌ للرَّسُولِ ﷺ تُجاهَ مَا يَلْقَىٰ مِنْ أذًى وشَتَائِمَ مِنْ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ المعاندين، وَنُصْحٌ لَهُ بأنْ يَتَوَلَّىٰ مُدْبراً عَنْهم، ويُوجَّه تَذْكِيرَهُ بالقرآنِ وَبقضَايا الدِّين لِلَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكَةِ الميْؤُوسِ مِنْ إصْلَاحِهم عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة.

الدرس الثالث عشر: الآيات من (٥٦ ـ ٦٠) آخِر السورة.

وَفِي هـٰذَا الدَّرْسِ الختامِيِّ بَيَانٌ لِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عباده في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياةِ الدُّنْيا، وَهِيَ أنْ يَعْبُدوه.

وَفِيهِ إنْذَارٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بالكُفْرِ بِعَذَابٍ مَا مُعَجَّلٍ، وإنْذَارٌ لَهُمْ بالْعَذَابِ الشَّدِيدِ في جهنَّم يَوْمَ الدِّينِ خَالِدِينَ فِيهِ.

* * *

(٤)

التدبّر التحليليّ للدّرس الأول من دُروس سورة (الذّاريات) الآيات من (١ ـ ٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾.

القراءات:

(٣) • قرأ أبو جعفر: [يُسُراً] بضَمّ السّين.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُسْراً] بإسْكَانِ السِّين.

ومؤدّى القراءتَيْنِ وَاحد، إذْ هُمَا بمَعْنَىٰ السُّهولَة، واللّين، والانقياد، وعَدَمِ الْعُسْر.

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرس قَسَمٌ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنه، عَلَىٰ أنَّ الْوَعْدَ بالجزاءِ يَوْمَ الدِّينِ وَعْدٌ صَادِقٌ، وَعَلَىٰ أَنَّ الجَزَاءَ سَوْف يَكُونُ حَقِيقَةً وَاقِعَةً لَا مَحَالَة.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ①﴾:

الذَّرْوُ: هو الْبَثُّ والنَّشْرُ لِذَرَّاتِ أيّ شَيْءٍ لَهُ دَقَائِقُ صَغِيرَةٌ يُمْكِنُ بَثُّهَا فِي فضاءٍ واسِعٍ، كَبَثِّ وَنَشْرِ الْغُبَارِ والتُّرَابِ، والدقيق، وَذَرَّاتِ الماء، وذَرَّاتِ بُخَارِ الماء، واللّقَاحَاتِ الصُّغْرَىٰ وتوزِيعها عَلَىٰ الْمُلَقَّحَاتِ مِنَ الْأشجار، والأزْهَارِ، والثمَرَاتِ.

ومَعْلُومٌ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ أَنَّ الرِّيَاحَ هِيَ السَّبَبُ فِي هـٰذَا الذَّرْوِ الّذِي يَحْدُثُ فِي الكَوْن.

فلفظ «الذَّارِيَاتِ» هو وَصْفٌ لموصُوفٍ مَحْذُوفٌ يَنْطَبِقُ عَلَىٰ الرِّيَاحِ في ظَاهِرَات الكَوْن.

وجاءَ توكيدُ هـٰذَا الحدث الوصْفِيِّ بالمفْعُولِ المطْلَقِ «ذَرْواً» لِتَفْخِيمِ

شَأْنِ هٰذِهِ الظَّاهِرَة، وآثارِهَا العظيمة في الكَوْنِ نفعاً، أَوْ ضرّاً، نِعْمَةً أَوْ نِقْمَةً. ونظراً إلى عَظَمَةِ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَةِ من ظاهرات قُدْرَة اللهِ وحِكْمَتِهِ في كَوْنِهِ أَقْسَمَ اللهُ بها لتأكِيد صِدْقِ وَعْدِهِ بإِحْيَاءِ النَّاسِ يَوْمَ القيامَةِ، وأَنَّ الدِّينَ وَهُو الجزاء واقعٌ لَا مَحَالَة.

وَقَدْ سَبَقَ في «الملحق الثاني» مِنْ مَلَاحق تدبر سورة (المرسلات/ ٣٣ نزول) دِرَاسَةٌ شَامِلَةٌ تَكَامُلِيَّةٌ للنُّصُوصِ القرآنيَّة المتعَلِّقَةُ بالرِّياح(١)، فَلْيُرْجَعْ إليه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾:

الْوِقْرُ بِكَسْرِ الواو هُو في اللُّغَةِ الشَّيْءُ الثَّقِيل، والعملُ الثَّقِيلُ، وجَمْعُهُ «أَوْقَار».

جَاءَتْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ مَعْطُوفَةً بالْفَاءِ، على مَعْنَىٰ الْقَسَم بِالْحَامِلَاتِ حِمْلاً ثَقِيلاً، وَهـٰذَا قَدْ يَكُونُ مُرَجّحاً لِأَنْ تَكُونَ الْحَامِلَاتُ وِقراً هِيَ الرِّيَاحُ نَفْسُها، إِذْ هِيَ تَحْمِلُ فِي الْجَوِّ السُّحُبَ الثِّقَالَ بِالْمَاءِ، عَلَىٰ أَنَّ السُّحُبَ هِي حَامِلَاتٌ وِقْراً أَيْضاً، وَمَحْمُولَةٌ بالرِّيَاحِ فِي جَوِّ السَّمَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣﴾:

أي: فالجارِيَاتِ جَرْياً يُسْراً هَيِّناً لَيِّناً رَفِيقاً لَا عُسْرَ فِيهِ.

هـٰذَا الْوَصْفُ يَصْلُح أَنْ يَكُونَ للرِّيَاحِ، ويَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ للسُّفُنِ في الْبَحْرِ الَّتِي تُجْرِيها الرِّياح.

---

(١) انظر هذا الملحق في المجلّد الثاني الصفحات من (٦٢١ ـ ٦٦٤).

وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ مِنَ الْعَطْفِ بالْفَاءِ يُرَجِّحُ أَنْ تَكُونَ الرِّيَاحُ هِيَ المرادَة أَيْضاً، إذْ مِنْ صِفَاتِ الرِّيَاح أَنْ تَجْرِيَ أحْيَاناً جَرْياً يُسْراً، وهـٰذَا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

وَكُلُّ هَـٰذِهِ الصِّفَاتِ للرِّيَاحِ مِنْ تَصَارِيفِ اللهِ فيها الدَّالَّاتِ عَلَىٰ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَسَامِي حِكْمَتِهِ، في تقديرِهِ وتَدْبِيره وخَلْقِهِ، فَالْقَسَمُ بِهَا هُو فِي الْحَقِيقَةِ قَسَمٌ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾:

جَاءَ في أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُقَسِّمَاتِ أمْراً أَصْنَافٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، تَقُومُ بِوَظِيفَةِ التَّقْسِيمِ بأمْرِ اللهِ.

وَأَرَىٰ أَنَّ وَصْفَ الرِّيَاحِ بأَنَّهَا مُقَسِّمَاتٌ أَمْراً، مُتَّسِقٌ مَعَ كَوْنِهَا ذَارِيَاتٍ، وَحَامِلَاتٍ وِقْراً، وَجَارِيَاتٍ يُسْراً، لِأَنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي فيها مِنْ تَدْبِيرِ اللهِ، وتَقْدِيرِهِ، وَخَلْقِهِ، فَلَيْسَتْ هِيَ في الحقيقَةِ الَّتِي تَذْرُو، وَلَا الَّتِي تَحْمِلُ، وَلَا الَّتِي تَجْرِي، وَلَا الَّتِي تُقَسِّمُ، والْفَاعل الحقيقيُّ المدبِّر والْمُقَدِّرُ وَالْخَالِقُ هُوَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَالتَّقْسِيمُ الَّذِي يَجْرِي بِالرِّيَاحِ بعدَ الذَّرْوِ، والْحَمْلِ، والْجَرْيِ الْيُسْر، لَهُ وَجُوهٌ كَثِيرَةٌ لَا نَسْتَطِيعُ حَصْرَها، ومِنْهُ تَقْسِيمُ اللِّقَاحَات عَلَىٰ الْأَشْجَارِ والثمراتِ والْأَزْهار، وَتَقْسِيمُ نَوَيَاتِ اللِّقَاحِ عَلَىٰ بُخَار المَاءِ فِي السُّحُبِ لِتَكُونَ حَبَّاتِ مَاءٍ تَنْزِلُ أمْطاراً، وتَقْسِيمُ السُّحُبِ عَلَىٰ الْبِلَادِ الَّتِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يُغِيثَها بالْأَمْطَارِ، وَتَقْسِيمُ المنافِعِ والمضَارِّ عَلَىٰ النَّاسِ بِتَقْدِير اللهِ وَقَضَائِهِ، إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ كثيرة، جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِعِبَارَةِ «أَمْراً».

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾:

هٰذَا هو المُقْسَمُ عَلَيْهِ بالرِّياحِ ذَواتِ الأَوْصَافِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا وَبَيَانُها.

أي: إنَّ الَّذِي تُوعَدُونَهُ بِمُتَابَعَةٍ وَتَكْرِيرٍ، من البعث والْيَوْمِ الآخِرِ والجزاء بدار النعيم أو بدار العذاب، لَوَعْدٌ صَادِقٌ، وَلَيْسَ لِمُجَرَّدِ التَّخْوِيفِ والتَّرْهِيبِ وَالإيهام بأشْيَاءَ لَنْ يَكُونَ لَهَا وُجُودٌ حَقِيقِيٌّ.

وَإِنَّ الدِّينَ وَهُوَ الْجَزَاءُ عَلَىٰ مَا يَكْسِبُهُ الْمَوْضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، لِأَمْرٌ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ الْقِيَامَة.

- ﴿لَوَٰقِعٌ﴾: أي: لَسَوْفَ يَقَعُ فِعْلاً بِتَقْدِيرِنَا وَسُلْطَانِ قَضَائِنَا وخَلْقِنا.

اسم «الفاعل» وهو «وَاقع» مُسْتَعْمَلٌ بَدَلَ الفِعْلِ المضارِع، وهُوَ هُنَا يَدُلُّ عَلَىٰ الاسْتِقْبَال.

وَجَاءَتِ الجمْلَتَانِ في الآيَتَيْنِ (٥ و٦) مُؤَكَّدَتَيْن بالمؤكِّدَاتِ التَّالِيَاتِ:

«إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيَّة ـ واللَّامِ المزَحْلَقَة ـ والْقَسَمِ المسَلَّطِ عَلَيْهِما بالرِّياح».

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (الذَّاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني مِن دُرُوسِ سُورَة (الذاريَات)

الآيات من (٧ ـ ١٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾
قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾

يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ قَسَمٌ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ مُوَجَّهٌ مِنَ اللهِ لِلْكَافِرِينَ، عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَيسَ لَهُمْ وَحْدَةٌ فِكْرِيَّةٌ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا فِي قَضَايَا الدِّين، بَلْ أَقْوَالُهُمْ فِيهَا المعبِّرَاتُ عَنْ مَفْهُومَاتِهِمْ مُتَخَالِفَةٌ، قد يَصِلُ التَّخالُفُ فِيهَا إلَىٰ التَّضادِّ وَالتَّنَاقُضِ، والسَّبَبُ فِي هٰذَا اعْتِمَادُهُمْ فِيها عَلَىٰ الظُّنُونِ الضَّعِيفَةِ والْأَكَاذِيب، فَهُمْ بِسَبَبِهَا مُبْعَدُونَ عَنْ مَوَاقِعِ الْحَقِّ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، وَهُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي أُمُورِ شَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ سَاهُونَ، وَيَتَلَمَّظُونَ لاسْتِبْعَادِ يَوْم الدِّينِ بالسُّؤَالِ عَنْ زَمَنِ وُقُوعِهِ، لَكِنَّهُمْ سَوْفَ يَنَالُونَ عَذَابَ تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَسَوفَ يُقَالُ لَهُمْ: ذُوقُوا عَذَابَ كُفْرِكم فِي نَارِ جهَنَّم، وَهُوَ العذابُ الَّذِي كُنْتُم تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ تَعْبِيراً عَنْ إنْكَارِكُمْ لَهُ، وتَكْذِيبكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ، وَتكْذِيبِكُمْ بِكِتَابِهِ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾﴾:

- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾﴾:

ذَاتِ الْحُبُك: أي: ذَاتِ الطَّرَايِقِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي تَسِيرُ ضِمْنَ حُدُودِهَا النُّجُومُ والكواكِبُ والمجرَّاتُ بإتْقَانٍ عَجِيبٍ مُدْهِشٍ.

الْحُبُك: جَمْعُ «الْحَبِيكَةِ» وهي كُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْ خُصَلِ الشَّعْر، وكُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْ طَرَائِقِ الرَّمْلِ فِيما تَحْبِكُهُ الرِّيَاحُ إذَا جرَتْ عَلَيْهِ، وَكُلُّ طَرِيقَةٍ مِنْ طَرَائِقِ الماءِ المنْبَسِطِ إذا مَرَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ فَجَعَلَتْ عَلَىٰ سَطْحِهِ تَجَاعِيد كأَنَّهَا بِتَموُّجَاتِهَا الدَّقِيقَةِ طَرَائِق.

وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أَنَّهَا ذَاتُ الْخَلْقِ الْمُحْكَمَ المتَمَاسِكِ الْقَوِي.

والمعنى اللُّغَوِيُّ الأَوَّلُ هو الْمُلَائِمُ لِعَظَمَةِ خَلْقِ السَّمَاوات، وهُوَ الْمُطَابِقُ لِمَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ الأَجْرَام الْعُلْيَا فِي السَّمَاوَاتِ، مِنْ أَنَّ كُلَّ الكواكِبِ والنجومِ والمجرَّاتِ تَجْرِي سَابِحَةً فِي أفْلَاكِهَا فِي مَسِيرَاتِهَا ضِمْن نظامٍ مُتْقَنٍ عَجِيبٍ، فَلَا يَصْطَدِمُ بَعْضُها بِبَعْضٍ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيم، مَعَ ضَبْطِ كُلِّ مُتَحَرِّكٍ مِنْهَا بِنِظَامِ الْجَاذِبِيَّةِ المدْهِشَة.

على أنّ المعْنَىٰ الذي جَاءَ عِنْدَ المفَسِّرين هو مِنْ لَوَازِم المعْنَىٰ اللُّغَوِيّ لِلْحُبْك، فكَوْنُ كَوَاكِبِ السَّمَاءِ ونُجُومِهَا ومَجَرَّاتِها ذَوَات طُرُقٍ تَسِيرُ فيها بانْتِظَامٍ رَائِعٍ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُ مَا لَمْ تَكُنِ السَّمَاءُ ذَاتَ خَلْقٍ مُحْكَمِ البناء مُتَمَاسِكٍ قَوِي.

- ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾:

أي: إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ فِي الْأَرْضِ لَيْسَ لَكُمْ وَحْدَةٌ فِكْرِيةٌ جَامِعَةٌ لِعَقَائِدِكُمْ وَمَفْهُومَاتِكُمْ حَوْلَ الْوُجُودِ والْحَيَاةِ والنَّشْأَةِ والْمَصِير، بَلْ أَنْتُمْ فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي تُثْبِتُهُ الْبَرَاهِين والْأَدِلَّة المقبولَةُ فِي مَقَايِيس الْعُقُولِ السَّلِيمَة، وَفِي قَوْلٍ عَامٍّ مُخْتَلِفِ الاتِّجَاهَاتِ مُتَضَارِبٍ وَمُتَضَادٌّ وَمُتَنَاقِضٍ. فَمِنْكُمْ مِنْ يُنْكِرُ وُجُودَ رَبٍّ لِلْكَوْنِ وَيَجْعَلُ تَصَارِيفَ الكَوْنِ تَجْرِي بِنَفْسِهَا دُونَ رَبٍّ يُدبِّر ويُقَدِّرُ وَيَقْضِي وَيَخْلُق، وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِأَرْبَابٍ مُتَعَدِّدين لَوْ كَانَ لَهُمْ وُجُودٌ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ والْأَرْض، وَمِنْكُمْ مَنْ يَجْعَلُ للهِ شُرَكَاءَ فِي إِلَهِيَّتِهِ عَلَىٰ خِلَاف مَنْطِقِ الْعَقْلِ وَأدِلَّتِهِ. وَمِنْكُمْ مِنْ يُنْكِرُ الْجزاءَ الرَّبَّانِيَّ والْيَوْمَ الآخِرِ، وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ لَهُ مَفْهُومَاتٌ مُخْتَلِفَاتٌ عَنْ مَفْهُومَاتِ الْفُرَقَاءِ الآخرِينَ بِشَأْنِ أَنْظِمَةِ السُّلُوكِ فِي الحَيَاةِ، وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ عَمَّا هُوَ خَيْرٌ وَصَالِحٌ وَحَسَنٌ، بَلْ فِيها ضُرٌّ وظُلْمٌ وَعُدْوانٌ وَفَسَادٌ وَإِفْسَادٌ في الأَرْض.

وَسَبَقَ أَنْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ في سورة (ق/ ٣٤ نزول):

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

مَرِيج: كَلِمَةٌ تَدُورُ حَوْلَ المعانِي التالِيَة: «مُلْتَوٍ أَعْوَج، مُلْتَبِسٌ مُخْتَلِطٌ، مُخْتَلِفٌ، مُضْطرب، قَلِقٌ، فَاسِدٌ».

وهُنَا في سورة (الذَّارِيَات/ ٦٧ نُزول) خَاطَبَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ مُؤَكّداً:

- ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾.

جَاءَتْ هٰذِهِ العبارة مُؤَكَّدَة بالمؤكّدَاتِ التَّالِيَاتِ: «الْقَسَم بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ـ إِنَّ ـ الْجُمْلَة الاسْمِيَّة ـ اللَّام المزحْلَقَة».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾:

أي: يُصْرَفُ مِنْكُم عَنْ هٰذَا الْقَوْلِ المخْتَلِفِ الْبَاطِلِ، إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ الَّذِي يَدْعُوكُم رَسُولُ رَبِّكُم إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ واتِّبَاعِهِ، مَنْ صُرِفَ باسْتِجَابَتِهِ لِدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، فَمَنِ اسْتَجَابَ لِقَضَايَا الإيمانِ الكُبْرَىٰ، وَأَسْلَمَ للهِ طَائِعاً مُخْتاراً، أَعَانَهُ اللهُ وَزَادَهُ تَوْفِيقاً، فَصَرَفَهُ عَنْ كُلِّ أَوْهَام وَضَلَالَاتِ الْمُضِلِّينَ فِي الْحَيَاةِ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالْفُرُوعِ وَأَنْوَاعِ السُّلُوكِ، فَلَا تَخْدَعُهُ رَأْسُمَالِيَّة، وَلَا اشْتِرَاكِيَّة، وَلَا شُيُوعِيَّة، وَلَا دِيمقراطِيَّة، وَلَا سَائِرِ الآرَاءِ والمفْهُومَاتِ الْبَاطِلَاتِ مِنْ أَوْضَاعِ النَّاسِ.

فَمَنِ اخْتَارَ سُلُوكَ صِرَاطِ اللهِ سَدَّدَهُ اللهُ، وَصَرَفَهُ عَنِ الْمَيْلِ إِلَىٰ الطُّرُقِ الْجَانِبِيَّة الْخَارِجَةِ عَنْهُ، وَالْمُنْحَدِرةِ إِلَىٰ أَوْدِيَةِ الْفَسَادِ والإِفْسَادِ والْعَذَاب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾.

• ﴿قُتِلَ﴾: أي: لُعِنَ وَطُرِدَ، جاء التَّعْبِيرُ بالقَتْل للدَّلالَة عَلَىٰ مَعْنَىٰ اللَّعْنِ والطَّرْدِ، لِأَنَّ الْقَتْل أَبْلَغُ إِذْ فِيهِ صَرْفُ الْحَيِّ مِنَ الْوُجُودِ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَل فِيهِ شيئاً.

• ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ جمع «الْخَرَّاص» وَهُوَ الكَذَّاب، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الَّذِي يُقَدِّرُ الْأُمورَ بالظَّنِّ الضَّعِيفِ الّذِي لَا يَصِحُّ أَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهِ لإِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ ما، أَوْ نَفْي قَضِيَّةٍ ما، من القضايا ذَوَات الشَّأْن.

• ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ⑪﴾: أي: الَّذِينَ هُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي ضَلَالَةٍ، تَارِكُونَ النَّظر في بَرَاهِين الْحَقِّ وَأَدِلَّتِهِ.

الْغَمْرَة: الضَّلَالَةُ الَّتِي تَغْمُرُ صَاحِبَها. وَتأْتِي بِمَعْنَىٰ الماء الكَثِير الْغَامِرِ لِمَنْ نَزَلَ فِيهِ.

سَاهُون: أي: غَافِلُونَ تَارِكُونَ النَّظَر في براهينِ دَعْوَة الحقِّ الرَّبَّانِيَّة.

• ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ⑫﴾: أي: يَتَعَلَّلُون لإِنْكَارِ يَوْم القِيامَةِ الّذِي يَكُونُ فِيه الْحِسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذُ الجزاءِ الرَّبَّانِي، بالسُّؤَال عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ يَوْمُ الدِّين، وَهُو يَوْم الجزاء الرَّبَّانِيّ.

أَيَّانَ: اسْمُ اسْتِفْهَام يُسْتَفْهَمُ بِهِ عَنِ الزَّمان، وَيُسْتَعْمَلُ فيما يُرَادُ اسْتِعْظَامُهُ، واسْتِغْرَابُهُ، واسْتِبْعَادُه.

جَاءَت هَـٰذِهِ الآيات الثلاث من (١٠ ـ ١٢) للدَّلَالَةِ بأسْلُوب غَيْرِ مُبَاشِرٍ، عَلَىٰ أَنَّ دَاءَ الْمُخاطِبِين، وهُمُ الْكَافِرُونَ المنْغَمِسُونَ فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ، فَلَيْسَ لَهُم وَحْدَةٌ فِكْرِيَّةٌ اعْتِقَادِيَّةٌ جَامِعَة يَرْجِعُ إِلىٰ ثَلَاثَة جُذُور:

الْجَذْرُ الْأَوَّل: الْخَرص، وهُو الكَذِبُ الصُّرَاح، وَاعْتِمَادِ الظُّنُونِ الضعيفَةِ التوهُّمِيَّةِ أَحْيَاناً، في قَضَايَا تَحْتَاجُ بَرَاهِينَ وأَدِلَّةً يَقِينِيَّة تُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينيّ.

الْجذْرُ الثاني: انْغِمَاسُهُمْ في أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ من الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي جعلَهُمْ سَاهِينَ غَافِينَ عَنْ بَرَاهِينِ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وَمَسُوقِينَ إِلَىٰ ضَلَالاتٍ غَامِرَاتٍ لَهُمْ.

الْجذْرُ الثالث: مُحَاوَلَاتُهُمْ لِسَتْرِ انْحِرَافِهِمْ عَنِ الْحَقِّ المؤيَّدِ بالْبَرَاهِين الَّتِي تُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيّ، بِتَوْجِيهِ تَعِلَّاتٍ لَا يَدْعَمُهَا فِكْرٌ سَلِيمٌ يُوهِمُونَ بِهَا أَنَّهُمْ مَعْذُورونَ فِي عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة.

فَأَبَان اللهُ لَهُمُ الْوَعِيدَ بِعَذَابِ الْحَرِيقِ بالنَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، مُقَابِلَ تَعَلُّلِهِمُ الْبَاطِلِ بالسُّؤَالِ عَنِ الزَّمَنِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ فِيهِ، وَهُمْ جَاحِدُونَ اسْتِغْرَاباً، واسْتِبْعَاداً.

فَقَال اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ⑬ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ⑭﴾.

أَصْلُ مَعْنَىٰ الْفَتْنِ: صَهْرُ الشَّيْءِ في النَّارِ لاخْتِبَارِهِ، كَمَا يَفْعَلُ الصَّائِغُ في الذَّهَبِ وَالْفِضَّة، تَقُولُ: «فَتَنَ الصَّائِغُ الذَّهَبَ يَفْتِنُهُ فَتْناً وَفُتُوناً» أي: أَذَابَهُ بالنَّارِ لِيَخْتَبِرَه.

وَمِنَ التَّوَسُّعَاتِ اللُّغَوِيَّة إِطْلَاقُ الفِتْنَةِ عَلَىٰ الإحْرَاقِ بالنَّارِ أَوِ التَّعْذِيبِ بها عِقَاباً. وهٰذَا الْمَعْنَىٰ هُوَ الْمُرَادُ فِي هٰذَا البيان كَمَا يَظْهَرُ.

فَالْمَعْنَىٰ: إِنَّهُمْ سَوْفَ يَتَحَسَّرُونَ وَيَنْدَمُونَ وَلَا يَكُونَ لَهُمْ خَلَاصٌ مِن عَذَابِ رَبِّهِمْ بالْحَريق، يَوْمُ هُمْ عَلَىٰ لَهَبِ النَّارِ يُعَذَّبُونَ، عِقَاباً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ بالْحَقِّ الَّذِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ رَسُولُ رَبِّهِمْ، وَيُقَالُ لَهُمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ بِالْحَرِيقِ: ذُوقُوا عَذَابَكُمْ الَّذِي رَفَضْتُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ حِينَمَا كُنْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدُّنيا. وَيُقَالُ لَهُمْ أَيْضاً: هٰذَا الَّذِي تَذُوقُونَه الْيَوْمَ هُوَ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ تَعْبِيراً عَنْ تَكْذِيبِكُم بِهِ تَكْذِيباً لَا مُسَوِّغَ لَهُ إِلَّا مُجَرَّدُ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَاب دُونَ مُحَاكَمَةٍ عَقْلِيَّةٍ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٦)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس سُورة (الذَّارِيَات) الآيَات من (١٥ ـ ١٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

(١٥) • قرأ ابْن كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشُعْبَة، وَحَمْزَة، والكِسَائي: **[وَعِيُونٍ]** بِكَسْرِ الْعَيْن.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَعُيُونٍ]** بِضَمِّ العين.

وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

تَمْهيد:

فِي هٰذَا الدَّرْس عَرْضُ مَشْهَدٍ تَرْغِيبيٍّ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الْقِيَامَة، خاصٍ بالمتَّقِينَ الَّذِينَ بَلَغُوا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَاتِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْقُرُبَاتِ والنَّوافِلِ، فَوْقَ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، فِي رِحلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا.

وَهٰذَا المشْهَدُ يُقَدِّمُ لَقْطَةً وَجيزَةً مِنْ نَعِيمِهِمْ وَهُمْ يُنَعَّمُونَ فِي جَنَّاتٍ وَعيونٍ، آخِذِينَ مَا آتاهُم رَبُّهُم مِنْ فُيُوضِ عَطاءَاتِهِ.

التَّدَبُّر التحليلي:

جَاءَ في هٰذَا الدَّرْس بَيَانُ لَقْطَةٍ مُجمَلَةٍ مِنْ جَزَاءِ الْمُحْسِنِين، وَهُمْ

أَهْلُ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ أعْلَىٰ مَرَاتِبِ المؤمِنِينَ، وَدُونَها مَرْتَبَةُ الأَبْرَارِ، وَدُونَهُمَا مَرْتَبَةُ المتقين، وهُمْ الَّذِينَ يَقْتَصِرُونَ في صَالِحَاتِهِم عَلَىٰ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، وهِيَ مَرْتَبة ذَاتُ دَرَجَاتٍ كَثيراتٍ بِحَسَبِ الالْتِزَام.

وَلَمَّا كَانَتْ مَرْتَبَةُ التَّقْوَىٰ أُدْنَىٰ مَرَاتِبِ الْمُؤمِنِينَ، وَكَانَ تَحَقُّقُهَا شَرْطاً في الارْتقاءِ إلىٰ مَا فَوْقَهَا، كَانَ الْحَدِيثُ عَنِ المتَّقِينَ مَدْخَلاً إلَىٰ الْحَدِيثِ عَنْ ثَوَابِ الْمُحْسِنِين، لِأَنَّ الْمُحْسِنِينَ هُمْ مُتَّقُونَ وَأَبرَارٌ مع زيادة إحْسَانٍ، وفيه إشْعَارٌ بأنَّ المراتِب الأَدْنَىٰ شُرُوطٌ طَبيعِيَّةٌ للارْتِقَاءِ إلَىٰ المراتِبِ الأَعْلَىٰ.

- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥﴾: أي: إنَّ الَّذِينَ أَدَّوْا حُقُوقَ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، وَزَادُوا عَلَيْهَا مِنَ النَّوافِلِ والْقُرُبَاتِ، حتَّىٰ دَخَلُوا في دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، ثُمَّ زَادُوا مِنْ صَالِحَاتِ الأعْمَالِ حتّىٰ ارْتَقَوْا إلى دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان، هَٰؤُلَاءِ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتٍ سَامِيَاتِ الرِّفْعَةِ، وفي عُيُونٍ كَثِيراتٍ مِنْ لَبَنٍ، وَعَسَلٍ مُصَفًّىٰ، وَمَاءٍ غَيْرِ آسنٍ، وخَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبين.

- ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ﴾ مِنْ أَنْوَاعِ وَصُنُوفِ نَعِيمٍ دَائِمٍ، سُعَداءَ بِمَا بِهِ يَنَعَّمُون.

- ﴿... إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾: أي: إنَّهُم كَانُوا قَبلَ ذَلِكَ إذْ كَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا، مُحْسِنِينَ أَبْرَاراً مُتَّقِينَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان أَنَّهُمْ:

- ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧﴾:

الْهُجُوعُ: النَّوْمُ في اللّيل، يُقَالُ لغة: «هَجَعَ، يَهْجَعُ، هَجْعاً، وَهُجُوعاً» أي: نَام ليلاً.

أي: يَقُومُونَ مُعْظَمَ اللَّيْلِ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَه، وهَٰذَا من مَرْتَبَة الإحْسَان.

- ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾:

أي: فَإِذَا جاءَتْ أَوْقَاتُ السَّحر اجْتَهَدُوا في سُؤَالِ اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ سَوَابِقَ ذُنُوبِهِمْ وَتَقْصِيراتهم. وهٰذَا أيضاً هُوَ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحْسَان، إِذْ يَخَصِّصُونَ آخِرَ اللَّيْلِ للاسْتِغْفَارِ.

الأسْحَارِ: جَمْع «السَّحَر» وَهُوَ أواخِرُ اللَّيْلِ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

وَجاءَ تَوْكِيدُ الصِّفَةِ هَٰذِهِ بِضَمِير الْفَصْلِ «هُمْ».

- ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾:

نَزَلَ هٰذَا قَبْلَ فَرْضِ الزَّكَاةِ بِتَحْدِيدِ مِقْدَارِ الْوَاجِبِ من الأمْوَالِ، وَبِتَحْدِيدِ الْأَنْصِبَةِ الَّتِي تَجِبُ فِيها الزَّكَاة.

فَهُمْ مُحْسِنُونَ إِذْ جَعَلُوا فِي أَمْوَالِهِمْ حَقّاً يَبْذُلُونَهُ لِلسَّائِلِ المسْكِينِ، ولِلْفَقِيرِ الْمَحْرُومِ مِمَّا يَكْفِيهِ وَيَكْفِي مَنْ يَعُولُهُمْ مِنْ أُسْرَتِهِ، وَكَانَ هٰذَا قَبْلَ أن يُنْزِلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ فَرِيضَةَ الزَّكَاةِ الْمُحَدَّدَةِ بِمَقَادِيرِها، وَبالْأَنْصِبَة الَّتِي تَجِبُ فِيها الزَّكَاةِ عَلَىٰ كُلِّ ذِي مَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ بَلَغَ مَا يَمْلِكُ مِنْ مَالِ النِّصَابَ الَّذِي تَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ الزَّكَاة.

هٰذَا الْبيانُ الَّذِي جَاءَ فِي هٰذَا الدَّرْسِ مِنْ أَبْرَعِ وأَدَقِ الْبَيَانَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ مَرَاتِبِ المؤمِنِين، مَعَ دَلَالَاتِ نُصُوصٍ أُخرى:

(١) مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، وهي مَرْتَبَةُ المتقين، ذات الدرجات المتفاضلات.

(٢) ومَرْتَبَةِ الْبِرّ، وهي مَرْتَبَةُ الْأَبْرَار، ذات الدرجات المتفاضلات.

(٣) وَمَرْتَبَةِ الْإِحسَان، وهي مَرْتَبَةُ المحسنين، ذات الدرجات المتفاضلات.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدبُّر الدَّرْسِ الثالِثِ من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الذّاريات) الآيَات من (٢٠ ـ ٢٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

القراءات:

(٢٣) • قرأ شُعْبَة، وَحَمْزَة، والْكِسَائِيّ وَخَلَف: [مِثْلُ] بالرَّفع وَصْفاً لـ «حَقٌّ».

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِثْلَ] بالنَّصْبِ عَلَىٰ أَنَّها حَال.

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرس حَثٌّ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ في آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَإِلَٰهِيَّتِهِ فِي الأرض وَفِي الأنْفُس، وهو مُوجَّهٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالْخِطَاب المباشِرِ لِلَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ، وَيَتوهَّمُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ هِي الَّتِي تَرْزُقُهُمْ مِنْ الْأَرْضِ، فَأَبَانَ اللهُ لَهُمْ أَنَّ رِزْقَهُمْ فِي السَّمَاءِ بِأَوَامِرَ رَبَّانِيَّة، وَكَذَٰلِكَ مَا يُوعَدُونَ مِنْ جَزَاءٍ بِأَوَامِرَ رَبَّانِيَّة. وَأَقْسَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرُبُوبِيَّتِهِ للسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، عَلَىٰ أَنَّ هـٰذَا حَقٌّ مُمَاثِلٌ لِمَا يَنْطِقُونَ بأَلْسِنَتِهِمْ فِي حَرَكَةِ حَيَاتهم.

التَّدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ:

- ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

أي: وتُوجَدُ في الْأَرْضِ المعدَّةِ لإقامَتِكُمْ وَكُلِّ تصاريف حيواتكم، وَتُوجَد في أنْفُسِكُمْ، آيَاتٌ كَثِيرَاتٌ لَا تَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَهَا وَلَا حَصْرَهَا، مَادِّيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ، مَشْهُودَةُ الذَّوَاتِ وغَيْرُ مَشْهُودَةِ الذَّواتِ، وَلَكِنْ لَهَا آثَارٌ ظَاهِرَاتٌ، كَأَجْهِزَةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وأَجْهِزَةِ الْعَوَاطِفَ النفْسِيَّة، وكَقُوَىٰ الجاذِبيَّاتِ في الْأَشْيَاءِ، وكثيرٍ مِنَ الطَّاقَات.

وهَـٰذِهِ الآيَاتُ الكَثِيرَاتُ دَالَّاتٌ عَلَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا شَيءٌ، وَمَتَىٰ ثَبَتَتْ حَقِيقَةُ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبُّ الَّذِي لَا يُشَارِكُهُ شيءٌ وَلَا أَحَدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، كَانَ مِنَ اللَّازِمِ الْعَقْلِيِّ الْبَدَهِيِّ أَنَّهُ لَا إِلَهَ في الوجود كُلِّهِ غَيْرُهُ، فَهُوَ المسْتَحِقُّ وَحْدَهُ لِأَنْ يُعْبَدَ.

وَلِكِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الحقِيقَةِ ويَسْتَمْسِكُ بِهَا، هُمُ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ لِأَنْ يُوقِنُوا بالْحَقِّ الَّذِي تَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ بَرَاهِينُهُ وأَدِلَّتُهُ، وَلِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَتَّبِعُوه.

- ﴿... أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾؟ اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ الْحَثُّ عَلَى الْبَحْثِ والتَّفَكُّرِ في آيَاتِ اللهِ فِي الْأَرْضِ وفي الْأَنْفُسِ، لِلْوُصُولِ إلى الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ الْمُشَابِهِ لِلْعِلْمِ الَّذِي يَحْصُلُ عَنْ طَرِيق الإِدْرَاكِ الْبَصَرِيِّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

كَانَ المشْرِكُونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ هِيَ الَّتِي تَرْزُقُهُمْ، فَأَبَانَ اللهُ أَنَّ رِزْقَ الْأَحْيَاءِ فِي السَّمَاءِ وإِنَّمَا يَتِمُّ بِأَوَامِرَ رَبَّانِيَّةٍ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاء، وَلَيْسَ لِأَحدٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ دُونِ اللهِ فِي السَّمَاءِ تَأْثِيرٌ فِي تَقْدِيرِ الْأَرْزَاقِ والقضاء بها، وَخَلْقِهَا، غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وأَتْبَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَضِيَّةَ مَا يُوعَدُ الموضُوعُون في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلَاء مِن جزاءٍ، وَلَا سِيَّما الجزاءُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْثِ، بِقَضِيَّة الرِّزْقِ، فَأَوامرُ تَحْقِيقِها في أوقاتِها الْمُحَدَّدَة، أَوامِرُ رَبَّانِيَّةٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ كَأَوَامِرِ الْأَرْزَاق.

وأَقْسَمَ اللهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ للسَّمَاءِ والْأَرْضِ، عَلَىٰ أَنَّ مَا ذَكَرَ بِشَأْنِ قَضِيَّتي الرِّزْقِ والجزاءِ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ.

هَلْ تَشْعُرُونَ بشَكٍّ فِي أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ، حينَمَا تُرِيدُونَ أَنْ تُعَبِّرُوا بأفْوَاهِكُمْ وَبِنُطْقِكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا فِي نُفُوسِكُمْ؟!

الجواب: لَا.

كَذَلِكَ قَضِيتَا رِزْقِكُمْ وَمَا تُوعَدُون، لَا أَحَدَ يَتَصَرَّفُ فِيهما إلَّا اللهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - بأَوَامِرَ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ لَدُنْه.

● ﴿... إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: إِنَّهُ لحقٌّ حالَةَ كَوْنِهِ مُشَابِهاً لِنُطْقِكُمْ، بحَسَبِ قراء النَّصْب.

وإِنَّهُ لَحقٌّ مُمَاثِلٌ للنُّطْقِ الذي تَنطقُونه، بِحَسَبِ قراءة الرَّفعِ.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع مُنْ دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الذّارِيَات) الآيَات من (٢٤ ـ ٣٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ

سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ
ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ
إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ
﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ
﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

القراءات:

(٢٤) ● قرأ هِشام: [إِبْرَاهَام].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِبْرَاهِيمَ]. وهُمَا نُطْقَان لاسْمِهِ عَلَيْهِ السَّلام.

(٢٥) ● قرأ حمزة، والكِسَائي: [قَالَ سِلْمٌ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قَالَ سَلام].

ومؤدَّاهُمَا وَاحِدُ، فالسِّلْمُ والسَّلام كِلاهُمَا تَأْمِينٌ وتَحِيَّة.

(٢٧) ● قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.

وهُما نُطْقَانِ عَربيَّان.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْس بَيَانُ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ من قِصَّةِ إبراهيم وقِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وإِهْلَاكِ قَوْم لُوطِ الْمُجْرِمين.

التدبّر التحليلي:

سَبَقَ تَدبُّر آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَدبُّراً تَكَامُلِيًّا مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ

المتعَلِّقَةِ بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وقَوْمِهِ المجرمين، في الْمُلْحقِ الخامس مِنْ مَلَاحِق تَدَبُّر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول)⁽¹⁾، فَأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ فَقَرَاتِ هٰذَا الدَّرْس.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾﴾.

الاستفهامُ بـ «هَلْ» هُنَا يُفِيد معنى: خُذْ أَيُّها المتَلَقِّي حَدِيثَ ضَيْفِ إبراهيم.

«ضَيْف»: يُطلَقُ عَلَىٰ الواحد والاثْنَيْنِ فَأَكْثَر، والمرادُ عَددٌ مِنَ الملائِكَةِ أَرْسَلَهُمُ الله على شكل ضُيوفٍ من البشر، ووَصَفُهُمْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ، إشَارَةً إلَىٰ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بَشراً، بَلْ هُمْ مَلَائِكَة، إذْ جَاءَ وَصْفُ الملائكة في الآية (٢٦) من سُورَة (الأنبِيَاء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بأَنَّهُمْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ.

- ● ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

«إِذْ» بِمَعْنَىٰ «حِين» أي: حِينَ دَخَلُوا عَلَىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

وقَدْ بَدؤُوه بالتَّحِيَّةِ قَائِلِينَ لَهُ: «سَلاماً» أي: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سلاماً، لَفْظُ «سَلاماً» مَفْعُول مطلق لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

- ● ﴿قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾: أي: قَال: تَحِيَّتِي لَكُم: سَلامٌ.

---

(١) انظر المجلد الخامس، الصفحات من (٢٧٩ ـ ٣٥١).

قال الْبَلَاغِيُّونَ: «سَلامٌ» جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ مَع المبتدأ المحذوف. و«سَلاماً» جُمْلَةٌ فِعْلِيَّة مع العامِلِ المحذوف والجملة الاسميَّة أقْوَىٰ وآكَدُ مِنَ الْجُمْلَةِ الفِعْلِيَّة. وعلَىٰ هـٰذَا فَقَدْ رَدَّ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام تَحِيَّةَ الضُّيُوف مِنَ الْمَلَائِكَةِ بأحْسَنَ مِنها.

- ﴿... قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾: أي: أَنْتُم قَوْمٌ لَا أَعْرِفُ أَشْخَاصَكُمْ، وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ أنتُمْ، وَلَكِنْ لَكُمْ عَلَيَّ حَقُّ ضِيَافَتِكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧﴾.

- ﴿فَرَاغَ﴾: أي: فَذَهَبَ بِخِفَّةٍ وَسُرْعَةٍ لِضِيَافَتِهِمْ وإِكْرَامِهِمْ، دُونَ أَنْ يُظْهِرَ عَلَامَاتِ إرادَةِ إِكْرَامِهِم، مِنْ شِدَّةِ مَا لَدَيْهِ مِنْ جُودٍ وَسَخَاءِ نَفْسٍ.

دَلَّت «الفاء» في ﴿فَرَاغَ﴾ على سُرْعَةِ ذَهَابِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ أَهْلِهِ عَقِب قُدُوم الضَّيْفِ إِلَيْهِ، وهُوَ يَجْهَلُ مَنْ هُمْ.

- ﴿... فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦﴾ وَجاء في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بَيَانُ أَنَّهُ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. أي: فجاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ مَشْوِيٍّ بالدَّسِّ فِي النَّارِ، أَوْ فِي حِجَارَةٍ مُحْمَاةٍ بالنَّار.

لَقَدْ كَانَتْ قُطْعَانُ الأبقار هِي المفضَّلَةَ في مَوَاشِيهم، وكانَتْ ثَرْوَةُ إبراهيم ولُوطٍ عَلَيهما السلام من المواشي، وهي تَرْعَىٰ مِنَ الكَلأ المباح.

ومَعْلُومٌ أَنَّ لَحْمَ الْعِجْلِ السَّمين أَطْيَبُ والَذُّ مِنْ لُحُومِ الْأَبْقار الكبيرة.

ودَلت «الفاء» في: ﴿فَجَآءَ﴾ على سُرْعَةِ عَوْدَتِهِ بالْعِجْلِ السَّمِين المشْوِيّ.

ويَظْهَرُ أَنَّ مَطْبَخَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام عِنْدَ أَهْلِهِ قَدْ كَانَ مُسْتَعِدّاً دواماً

لتَقْدِيم الطَّعَامِ المطْهُوّ النَّاضِجِ للضُّيُوفِ الَّذِينَ يأتُونَهُ نَهاراً أوْ ليلاً.

وَدَلَّ جَهْلُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّىٰ تَقْدِيم الطَّعَامِ لَهُمْ بأَنَّهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَة، عَلَىٰ قَابِلِيَّةِ الْمَلَائِكَةِ للتشكُّلِ بالْأَشْكَالِ الْجِسْمَانيّة البشريَّة تَشكُّلاً لَا تُكْشَفُ مَعَهُ حَقِيقَتُهُمْ، حَتَّىٰ عَلَىٰ نَبِيٍّ رَسُولٍ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾؟.

عَرْضٌ بِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الْعِجْلِ السَّمِينِ المشْوِيّ الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِم، وَجَعَلَهُ قَرِيباً مِنْ مَكَانِ جُلُوسِهِم.

وَقَدْ دَلَّ هٰـذَا عَلَىٰ أَنَّ مِنْ فَضَائِلِ الْمُضِيفِ وَكَرَمِهِ فِي الضِّيَافَةِ أَنْ يُقَرِّبَ إِلَىٰ ضُيُوفِهِ مَا يأْكُلُونَهُ وَما يَشْرَبُونَهُ، وَقَدْ كانَ هٰـذَا مِنْ عَادَاتِ الكُرَمَاءِ، قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ النَّاسُ الْخِوَانَ الكَبِيرَ الَّذِي تُوضَعُ حَوْلَهُ الْكَراسي، وَيَصْعُبُ تَقْرِيبَهُ لِلضُّيُوف.

وَهُنَا يُوجَدُ مَطْوِيٌّ جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَة (هود/ ٥٢ نزول) في الآيَة (٧٠) وَهو أَنَّ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَىٰ لَحْمِ الْعِجْلِ وَلَا يَأْكُلُونَ مِنْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: فَأَحَسَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام فِي نَفْسِهِ خَوْفاً مِنْ غَرَضِهِمُ الَّذِي جَاءُوا بِهِ، لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، وَلَمْ يأكُلُوا مِنْ طَعَامِهِ.

قالُوا: لَا تَخَفْ إِنَّا رُسُلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَبَعْدَ أَنْ طَمْأَنُوهُ بَشَّرُوهُ بِغَلَامٍ عَلِيمٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ «سَارَة» من وَرَاءِ الْحِجَابِ إِذْ كَانَتْ تَتَسَمَّعُ مَا يَجْرِي، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِم في ﴿صَرَّةٍ﴾: أي: فِي ضَجَّةٍ وَصَيْحَةٍ، وَأَصْوَاتٍ وَكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَاتٍ، كَعَادَةِ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي فِي طِبَاعِهِنَّ حِدَّةٌ، إِذَا أَثَارَهُنَّ أَمْرٌ جَلَلٌ يَمَسُّهُنّ ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي: فَضَرَبَتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْهَا عَلَىٰ عَادَةِ النِّسَاء.

حَرَكَاتٌ دَلَّتْ عَلَىٰ غَلَيَانٍ فِي نَفْسِهَا، وَهَيَجَانٍ فِي دَاخِلِهَا، بدافِعٍ مِنْ غَيْرَتِهَا أَنْ يَتَزَوَّجَ زَوْجُها إِبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، زَوْجَةً ضَرَّةً لها، صالِحَةً لِأَنْ تَحْمِلَ وَتَلِدَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النِّسَاءَ الذَّكِيَّاتِ الْغَيُورَاتِ يُسَيْطِرُ عَلَيْهِنَّ الاحْتِمَالُ الْمَكْرُوهُ لِنُفُوسِهِنَّ، واسْتِبْعَادُ الاحْتِمَالِ الْمَحْبُوبِ وَلَوْ كَانَ هُو الْأَرْجَىٰ في الْمَوْقِفِ.

- ﴿... وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: أي: كَيْفَ تُبَشِّرُونَ زَوْجِي إِبْرَاهِيمَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ وَأَنَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ لَا أَلِدُ؟!

فَأَعْلَمَهَا الرُّسُلُ أَنَّ الْغُلَامَ الْعَلِيمَ هُوَ وَلَدٌ لَهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: كَذَلِكَ الَّذِي بَشَّرْنَاكُمَا بِهِ قَالَ رَبُّكِ، وَقَوْلُهُ حَقٌّ، فَالْبِشَارَةُ لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِنَا، وَلَيْسَتْ مِنْ أَمْرِنَا، وإِنَّمَا هِي مِنْ عِنْدَ رَبِّكِ وَمِنْ أَمْرِهِ فَلَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ الله، إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الْحِكْمَةُ الْكَامِلَةُ، فَهُوَ الْحَكِيمُ، وَلَهُ الْعِلْمُ الشَّامِلُ الْكَامِلُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شيءٍ، فَهُوَ الْعَلِيمُ وَحْدَه.

- ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: أي: الْكَامِلُ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ في مَوَاضِعِهَا، وَيَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ وَأَتْقَنَهَا وَأَحْسَنَهَا، مِنَ الْأُمُور المختَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائِجَ.

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: أي: الكامِلُ العِلْم، الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً، وبِسَبَبِ كمالِ عِلْمِهِ وَشُمُولِهِ فَهُوَ يَخْتَارُ أَحْكَمَ الْأَشْيَاءِ، ويُصْلِحُ مَا كَانَ سبباً لِلْعُقْم.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: قال إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام فَمَا أَمْرُكُمْ وَمَا شَأْنُكُمْ أَيُّها الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَدْرَكَ أَنَّ لَهُمْ أمراً جَلَلاً عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا به؟؟.

الْخَطْب: في اللُّغَةِ هو الْأَمْرُ والشَّأْنُ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ الْمُخَاطَبَة.

قَالُوا: إِنَّا أُرْسِلْنَا مِنْ رَبِّنَا إِلَىٰ إِهْلَاكِ قَوْم مُجْرِمِينَ وَتَعْذِيبِهِمْ، وَهُمْ بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ يَسْتَحِقُّونَ التَّعْذِيبَ والإِهْلَاكَ الشَّامل.

وَمِنْ وَسَائِلِ تَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِم الشَّامل، أَنْ نُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ، أي: حِجارَةً كَانَ أَصْلُهَا طِيناً فَتَحَجَّر، وَلَعَلَّ تَحَجُّرَهَا كَانَ بِسَبَبِ إِحْمَائِهَا بالنّار، فَهِي مُتَحَجِّرَةٌ مُحْمَاةٌ شَدِيدَة الْحَرَارة. وهُمْ قَوْمُ لُوط عَلَيْهِ السَّلام.

- ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: مُعَلَّمَةً بِعَلَامَاتٍ تَخُصُّ المهْلَكِينَ بِهَا المسْرِفين. وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْمَ لُوطٍ بأَنَّهُمْ مُسْرِفُونَ، أَي: هُمْ غُلَاةٌ مُتَوَغِّلُونَ فِي الضَّلَالِ وَفِعْلِ الجرائم والآثام وَكَبَائِرِ الْفَوَاحِشِ والمنْكَراتِ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾:

طَوَىٰ البيانُ هُنَا أَحْدَاثاً كثيرةً جاءَ تَفْصِيلُها في نُصُوصٍ قرآنيَّةٍ أُخْرَىٰ، واقْتَصَرَ على فِقْرَتَيْنِ مِنْ أَحداثِ إِهْلاكِ قَوْمِ لوط عَلَيْهِ السَّلام.

الفقرة الأولى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فَأَصْدَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَهُ للرُّسُلِ من الملائكَةِ المَكَلَّفِينَ أَنْ يُعَذِّبُوا وَيُهْلِكُوا مُجْرِمي قَوْمِ لُوطٍ، بأَنْ يُخْرِجُوا مِنْ كُلِّ أَرْضِهِمْ حَيْثُ تنزلُ عَلَيْهِمْ وَسَائِلُ التَّعْذِيب والإهلاك، كُلَّ مُؤْمِنٍ صادِقِ الإيمانِ، وهُوَ مَنْ كَانَ مُؤْمِناً بِقَلْبِهِ مُعْلِناً بِصِدْقِ إِسْلَامَهُ وانْقِيادَه.

ولَكِنْ بِالْبَحْثِ والتَّنْقِيبِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وبالاسْتِنَادِ إِلَىٰ عِلْمِ اللهِ الشَّامل، لَمْ يُوجَدْ فِي كُلِّ أَرْضِ هَـٰؤلاءِ الْقَوْمِ غَيْرَ بَيْتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، هُوَ بَيْتُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، قَالُوا: هُو وابْنَتَاهُ، أَوْ بَنَاتُهُ الثَّلاث، أَمَّا امْرَأَةُ لُوطٍ فَقَد كَانَتْ كَافِرَةً وَمَعَ هَوَىٰ قَوْمِهَا فَلَمْ تُحْسَبْ أَنَّها مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَأَهْلَكَهَا اللهُ مَعَ قَوْمِهَا.

الفقرة الثانية: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾:

أي: وَتَرَكْنَا فِي الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ هٰؤلَاءِ المجْرِمُونَ المسْرِفُونَ يَعِيشُونَ فِيها عَلَامَةً بَاقِيَةً دَالَّةً عَلَىٰ مَا أَنْزَلْنَا بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وَتَدْمِيرٍ وَإِهْلَاك، وَهٰذِهِ الآيَةُ يَنْتَفِعُ بِهَا الَّذِينَ يَخافُونَ عَذَابَ اللهِ الْأَلِيم.

لَقَدْ دُفِنَتْ قُرَىٰ قَوْم لُوطٍ، بَعْدَ أَنْ قُلِبَتْ فَجعَلَ اللهُ عَالِيَهَا سَافِلَها، فِي قَاع الْبَحْرِ الميّتِ، فَمَكَانُ إِهْلَاكِهِمْ مَعْرُوفٌ مَشْهُودٌ لِلّذِينَ يَمُرُّونَ بِجَانِبِ هٰذَا الْبَحْر.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الخامسِ من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (الذّاريات) الآيات من (٣٨ ـ ٤٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجَزَةٍ عَنْ إهْلَاكِ فِرْعَوْن وَجُنُودِهِ، إغْرَاقاً فِي الْبَحْرِ.

التدبّر التحليلي:

أي: وفي مُوسَىٰ نبيّنا وَرَسُولِنا آيَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، إذ أرْسَلْنَاهُ برسَالاتنا وَآياتِنَا الْعُظْمَى، الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا مُفَصَّلَةً فيمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ سُوَرٍ قَبْلَ سُورَة الذَّارِيَات، إلى فِرْعَوْنَ، وَكَانَ مُوسَىٰ مَصْحُوباً بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، سُلْطَانِ الْحُجَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ الدَّامِغَةِ، وَسُلْطَانِ الآيَاتِ الْخَوارِقِ الباهِرَات، فَأَدْرَكَهَا فِرْعَوْنُ وَعَرفَ أَنَّها حَقٌّ، وَلَكِنَّهُ أَبَىٰ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ الحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، مُسْتَكْبِراً بِمُلْكِهِ وَجُنُودِهِ، وَتَوَلَّىٰ مُبْتَعِداً مُدْبراً، مُعْتَزاً بِرُكْنِ قَصْرِهِ الْفِرْعَوْنِيّ وَمَالَهُ فِي مِصْرَ مِنْ قُوَّةٍ تَخْضَعُ لِأَمْرِهِ ونَهْيِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَالرُّكْنُ يُطْلَقُ عَلَى الْقُوَّة النَّاصِرَة.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ عَنْ مُوسَىٰ: هـٰذَا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، كَمَا قَالَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ عَنْ رَسُولِ الله مُحَمَّدٍ ﷺ.

يَقُولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِير المتَكَلِّم الْعَظِيم الْجَبَّار: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾: أي: بتدابيرنا الحكيمة إذْ جَعَلْنَاهُ وَجَيْشَهُ يُلاحِقُون بَنِي إسْرَائِيل

الخارجين من مصر ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ فَأَغْرَقْنَاهُمْ جَمِيعاً وقائدهم فرعونُ عاصٍ وهم له تابعون.

النبذُ: طَرْحُ المنبوذِ طَرْحاً مَقْرُوناً باسْتِهَانَةٍ به. **مُلِيمٌ**: أي: عَاصٍ بِما يُلامُ وَيُعَاقَبُ عَلَيْهِ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (الذاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دُروس سورة (الذَّارِيَات)

الآيتان (٤١ و٤٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

القراءات:

(٤١) ● قرأ أبو عمْرو: [**عَلَيْهِمْ الرِّيحَ**] بكسر هاء الضمير والميم بَعْدَها.

وقرأها حمزة، والكِسائي، ويعقوب، وخلف: [**عَلَيْهُمُ الرِّيحَ**] بضم هاء الضمير والميم بَعْدَها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمِ الرِّيح**] بِكَسْر هَاء الضمير وضمّ الميم بعْدَها.

وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ فِي النطق.

تَمْهيد:

في آيَتَي هٰذَا الدَّرْس عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجزَةٍ عَنْ إِهْلَاكِ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وقد سبق تَدَبُّر النصوص القرآنية تَدَبُّراً تكامُلِيًّا بشأنهم في الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (هود/ ٥٢ نزول).

التدبّر التحليلي:

«الرِّيحُ الْعَقِيمُ»: هِيَ الرِّيحُ الّتي لَا تَأْتِي بِمَطَرٍ، بَلْ قَدْ تَأْتِي بِعَذَاب.

«الرَّمِيمُ» البالي المتفتّتِ الّذِي صَارَ غَيْرَ مُتَمَاسِكِ الذَّرَّات.

أي: وَفِي قَبِيلَةِ «عَادٍ» قَوْم النبيّ الرَّسُول «هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام» آيَةٌ لِلْمُعْتَبِرِين، إِذْ عَذَّبْنَا كُفَّارَهُمْ وَأَهْلَكْنَاهُمْ عَلَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا بِشَأْنِهِمْ، فيما أَنْزَلْنَا مِنْ سُوَرٍ قَبْلَ سُورَةِ الذَّارِيَات، وَكَانَتْ وَسِيلَةُ تَعْذِيبِهِمْ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، الَّتِي مَا تَتْرُكُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَبْنِيَةٍ وَغيرِهَا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ مُتَفَتِّتاً كالرِّمَال الناعِمَاتِ، بِشِدَّتِهَا وسُرْعَتِهَا وَقُوَّة تَأْثِيرها، وَلَسْتُمْ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ أَكْرَمَ عَلَىٰ رَبِّكُمْ مِنْ كُفَّارِ عَادٍ، أَوْ كُفَّارِ سَائِرِ الْأُمَم.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السابع من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبر التحليلي للدّرسِ الثامن من دُروس سورة (الذَّارِيَات)

الآيات من (٤٣ ـ ٤٥)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

القراءات:

(٤٤) • قرأ الكِسَائي: [**الصَّعْقَةُ**]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الصَّاعِقَةُ**].

الصَّعْقَةُ: الْهَلَاكُ.

الصَّاعِقَة: العذابُ الْمُهْلِك.

فَمُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ واحد. وهما من التفنّنِ في البيان.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطَةٍ مُوجَزَةٍ عَنْ إِهْلَاكِ «ثمود» قَوْمِ النبيّ الرَّسُول صَالِحِ عَلَيْهِ السَّلَام.

التدبّر التحليلي:

• ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: أي: اسْتَكْبَرُوا مُتَجَاوِزِينَ أَمْرَ رَبِّهِم.

يقال لغة: «عَتَا، يَعْتُو، عُتُوّاً، وَعُتِيًّا، وَعِتِيًّا»: أي اسْتَكْبَرَ وَجَاوَزَ الحدَّ المحتَمَلَ فِي المخالفة. والْعَاتي الطَّاغِيَةُ الْجَبَّارُ المفْسِد.

أي: وفي قَبيلَة «ثَمُود» قَوْم النبي الرسُولِ صالح عَلَيْهِ السَّلَام آيَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، إِذْ أَنْذَرَهُمْ رَسُولُهُمْ بعذابٍ وَإِهْلَاكٍ يَشْمَلُ غَيْرَ مَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ مِنْهُمْ، فَاسْتَكْبَرُوا وَطَغَوْا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَائِلَ التَّعْذِيبِ الْمُهْلِكَةَ لَهُمْ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَسَقَطُوا صَرْعَىٰ، وَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَقُومُوا قِيَاماً مَا، وَحَاوَلُوا التَّخَلُّصَ مِنْ نُزُولِ مَا نَزَلَ بِهِم وَلَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ.

«مِنْ» في «مِنْ قِيامٍ» مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكيد، أَصْلُها فَما اسْتَطَاعُوا قياماً.

وَقَدْ سَبَقَت دِرَاسَةُ النصوص القرآنية المتعلقة بثمود ورَسُولِهِم في الملحق الثالِثِ من مَلَاحِق تَدَبُر سورة (النمل/٤٨ نزول) فَلْيُرْجَع إِلَيْه.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثامن من دُرُوس سورة (الذاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس التاسع من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات) الآية (٤٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

القراءات:

(٤٦) • قَرأ أَبُو عَمْرو، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [وَقَوْمِ نُوحٍ] عطفاً على [وَفي ثَمُودَ] أي: وفي قومِ نوح آية كما في ثمود.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَقَوْمَ نُوحٍ] بالنَّصب، أي: وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ وَفي إِهْلَاكهم آيَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ.

تَمْهيد:

في آية هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ إِهْلَاكِ قَوْمِ نوحٍ بِسَبَبِ أَنَّهُم كانُوا قَوْماً فَاسِقِين.

وقَد سَبَقَ لِي تَدَبُّرُ كُلِّ مَا فِي القرآنِ بِشَأْنِ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومِهِ تَدبُّراً تَكَامُلِيًّا، فِي كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ بعنوان «نوح عَلَيْهِ السَّلام وقومُهُ فِي القرآن المجيد».

التدبّر التحليلي:

أي: وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ كَمَا وَصَفْنَا لَكُمْ فِي سُوَرٍ سَابِقَاتٍ لِسُورَةِ الذَّارِيَات بالطُّوفان الشَّامِلِ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فاسِقِين فِسْقاً مِنْ دَرَكَاتِ الكُفْرِ العناديّ الْجُحُودِي الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ الإِهْلَاكَ الشَّامل، وأَنْجَيْنَا نُوحاً والَّذِينَ آمَنُوا مَعه فِي الْفُلْكِ الَّتِي أَمَرْنَاهُ بأنْ يَصْنَعَها، فَأَتَمَّ صُنْعَها بأعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا.

وهٰذِهِ الآيَةُ مُضافَةٌ إلَىٰ الآيَاتِ الّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا إهْلَاكُ قومِ لُوط، وفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَكُفَّارِ عَاد، وكُفَّارِ ثَمُود.

فاعْتَبِرُوا يَا كُفَّارَ مَكَّة إبَّان التَّنْزِيلِ وجَبَابِرَتَهَا وَعُتَاتها.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (الذاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

التدبر التحليلي للدّرس العاشر من دُرُوس سورة (الذّاريات) الآيات من (٤٧ ـ ٤٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

القراءات:

(٤٩) ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَذَكَّرُونَ]** أصْلُها تَتَذَكَّرُون.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَذَّكَّرُونَ]** بإدغام التاء الثانية بِالذّال.

تَمْهيد:

فِي آيَات هـٰذَا الدَّرْسِ يُوجِّهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ للتَّفَكّرِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، الدَّالّاتِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيّتِهِ وفي إلَٰهِيَّتِهِ.

وهـٰذَا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بِمَا سَبَقَ فِي السُّورَةِ مِنْ دُرُوسٍ تُوَجِّهُ للنظَّرِ والتَّفكُّرِ في آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ.

التدبّر التحليلي:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْجِيهٌ للتفكُّرِ في ثَلاثِ آياتٍ عُظْمَىٰ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ:

الآيَةُ الكَوْنِيَّةُ الْأُولَىٰ: وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للتفكُّر فيها بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾:

يُطْلَقُ البِنَاءُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ بِنَاءِ جِدَارٍ ونحوِهِ، وعلى بِنَاء سَفِينَةٍ بَحْرِية، وَعَلَىٰ بِنَاءِ خِباءٍ، وعَرِيشٍ، وبيتٍ مِنْ شَعَر، وَتوَسَّعَتْ دَلَالَةُ الكَلِمَةِ حتَّىٰ صَارَ يقالُ: بَنَىٰ الطَّعَامُ جِسْمَ فُلَانٍ، أي: عَظَّمَهُ وَنمَّاهُ.

أقول: إنَّ بِنَاء كُلِّ شيْءٍ يَكُونُ بِحَسَبِ الحاجَةِ الدَّاعِيَةِ إليه: فَبُيُوتُ الْعَرَبِ في البوادي تُبْنَىٰ مِن الْجُلُودِ والأصواف والأوبار المنْسُوجَةِ ونَحْوها. والْعَرِيشُ يُبْنَىٰ مِنْ أَخْشَابِ الشَّجَرِ وفُرُوعِهَا وأفْنَانِها. وبُيُوت القرىٰ والمُدُنِ تُبْنَىٰ مِنَ الحجارَةِ والآجُرِّ والطِّينِ وَالجصِّ والْخَشَبِ والإسْمِنْتِ والْحَدِيد ونحوها. والْعَنْكبُوتُ تَبْنِي بَيْتَها مِنْ خُيُوطٍ دَقِيقَةٍ جدّاً تُفْرِزُهَا مِنْ غُدَّةٍ فِي جِسْمِهَا.

فَبِنَاءُ السَّمَاءِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِحَسَبِ نِظَامِ التَّمَاسُكِ بَيْنَ أَجْرَامِهَا، والْغِلَافُ الْجَوِيُّ الْمُحِيطُ بالْأَرْضِ مَبْنِيٌّ كما هُو مُشَاهَدٌ مِنَ الْغَازَاتِ، والمجرَّاتُ مَبْنِيَّةٌ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ بالمناظِير والمجَاهِرِ لِعُلَمَاءِ الْفَلَكِ الرّاصِدِينَ من النُّجُومِ وَالْكَواكِب، وَتَمَاسُكُها حَاصِلٌ بِقَانُونِ الْجَاذِبِيَّةِ غير المَشْهُودَة الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ فيها.

وَقَدْ تَكُونُ مَجْمُوعَةُ مَجَرَّاتٍ مُتَرابِطَةٍ بِنِظَامٍ مَا فِيمَا بَيْنَهَا إحْدَى السَّمَاوَاتِ السَّبعِ الكُبْرَىٰ، وَهَكَذَا تَسَلْسُلاً إلى سَائِرِ السَّماواتِ السَّبْع.

ومِنَ الخيْرِ والأَحْكَمِ للنَّاسِ تَرْكُ هـٰذَا الموضوع لِلْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ الإنْسَانِيِّ وَمَا يَتَوصَّلُ إِلَيْهِ في هـٰذَا المجال، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ ما يَتَوصَّلُ إِلَيْهِ عِلْماً يَقِينيًّا بأدِلَّةٍ صَحِيحَةٍ مَقْطُوعٍ بها.

وَمَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ بِنَاءِ السَّمَاءِ شيءٌ مُذْهِشٌ يَدُلّ عَلَىٰ عَظَمَةِ الخالِقِ الرَّبِّ الّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صُنعاً.

- ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ مَفْعُول بِهِ لِفِعْلٍ مَحْذُوف يُفَسِّرُهُ الْفِعْلُ فِي: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ لِأَنَّهُ اشْتَغَلَ بِضَمِيرِهِ عَنْهُ، وهٰذَا التَّعْبِيرُ فِيهِ تَوْكِيدٌ وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِ السَّمَاءِ ذَاتِ البناء العجيب.

- ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾: يَتَحدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم، لِأَنّ بناء السَّمَاءِ أَمْرٌ عظيمٌ جليل.

- ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾: أي: بِقُوَّةٍ وشِدَّةٍ عظيمتَيْن. يُقَالُ لغة: «آدَ فُلَانٌ، يَئِيدُ، أَيْداً، وآداً» أي: اشْتَدَّ وَقَوِيّ. ويُقَالُ: «رَجُلٌ أَيِّدٌ» أي: عَظِيمُ الْقُوَّة.

وَمِنْ بَدَائِهِ الْعُقُولِ، أَنَّ «السَّمَاءَ» الشَّامِلَ لِكُلِّ السّمَاوَاتِ السَّبْعِ لَا يَتَحقَّقُ إيجادُهَا وَلَا بِنَاؤُها إِلَّا بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ لَا تَصِلُ أَوْهَامُ النَّاسِ إِلى إِدْرَاكِ مَدَاهَا الأَقْصىٰ.

- ﴿... وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: وَإِنَّا لَموسِعُونَ فِيهَا خَلْقاً وَامْتِدَاداً بَعْدَ خَلْقِهَا الْأَوَّل مَعَ تَوَالِي الْأَزْمَان، وَهٰذَا مَا بَدَأَتِ الدِّرَاسَاتُ الْفَلَكِيَّةُ الْمُعَاصِرَةُ تُثْبِتُه.

الآيَةُ الكَوْنِيَّة الثانية: وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلتّفكُّرِ فيها بقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

الْفَرْشُ: الْبَسْطُ والتَّوْسِعَةُ، والْمُرَادُ أَخْذاً مِنَ الواقِعِ المشهود، بَسْطُ كَثِيرٍ مِنْ سُطُوحِ الأَرْضِ لِصَالِحِ سُكْنَىٰ النَّاسِ، وَزِرَاعَتِهِمْ، وَكَثِيرٍ مِنْ مَصَالِحِهمْ عَلَىٰ الأَرْض.

المَاهِدُونَ: يُقَال لغة: «مَهَدَ فُلَانٌ الْفِرَاشَ» أي: بَسَطَهُ ووطَّأَهُ.

فالمعنى: وَبَسَطْنَا أَقْسَاماً مِنْ سُطُوحِ الأَرْضِ بِحَسَبِ مَصَالِحِ النَّاسِ

بَسَطْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ لِهٰذِهِ المنْبَسِطَاتِ مِنَ الأَرْضِ عِنَايَةً مِنَّا بِمَصَالِحِ النَّاسِ عَلَيْهَا.

وهٰذَا الْبَسْطُ والتَّمْهِيدُ لِأَقْسَامٍ مِنْ سُطُوحِ الأرْضِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ نِعَمٍ عَظيمةٍ عَلَىٰ النَّاسِ في الْأَرْضِ.

الْآيَةُ الْكَوْنِيَّةُ الثالِثَة: وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ للتفكّرِ فِيها بِقَولِهِ: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

سَبَقَ التنبيهُ عَلَىٰ هٰذِهِ الآيةِ الكَوْنِيَّةِ العظيمَةِ مِنْ آياتِ اللهِ الإتقانيَّةِ في الآية (٣٦) من سورة (يس/ ٤١ نزول) وهي قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ فيها:

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أَعْلَمَنَا اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهاتَيْنِ الآيَتَيْنِ أنَّ نِظَامَ الزَّوْجِيَّةِ في الكَوْنِ لَيْسَ خَاصاً بِالنَّاسِ، وَلَا بالْأَحْيَاءِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي نَشْهَدُ نِظَامَهَا الزَّوْجِيَّ بَلْ هُوَ نِظَامٌ تَخْضَعُ لَهُ النَّبَاتَاتُ أيضاً، وَتَخْضَعُ لَهُ أَشْيَاءُ أُخْرَىٰ لَا يَعْلَمُهَا الناس.

وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ فِي عَصرِنَا الْحَاضِرِ مِنْهَا عَنْ طَرِيقِ الْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَىٰ التَّجْرِبَةِ وَالْمُلاحَظَةِ، نِظَامَ الزَّوْجِيَّةِ في الذَّرات، ونِظَام الزَّوْجِيَّةِ فِي الكَهْرُبَاء، فَعَرَفْنَا الْمُوجِبَ والسَّالِب، وَنِظَام الزَّوْجِيَّة في المغناطِيس.

والآيَةُ هُنَا فِي سُورَةِ (الذَّارِيَات/ ٦٧ نزول) تُبَيِّنُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ بِعَظِيم قُدْرَتِه خَلَقَ مِنْ كُلِّ شيْءٍ في الكَوْنِ زَوْجَيْنِ، كَمَا تُشَاهِدُونَ نِظَامَ الزَّوْجِيَّةِ فِي الْأَحْيَاءِ.

• ﴿... لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: نُبَيِّنُ لَكُم هٰذِهِ الحقيقَةَ التَّكْوِينيَّةِ رَاغِبِينَ أَنْ تَضعُوهَا فِي ذَاكِرَتِكُمْ أَيُّها المتَلَقُّونَ المتدَبِّرُون، فَكُلَّمَا اكْتَشَفْتُمْ وُجُودَ نِظَامِ الزَّوْجِيَّةِ في شيءٍ جَدِيدٍ كَانَ خَفِيًّا عَلَيْكُمْ تَذَكَّرتُمْ هٰذَا الْبَيَانَ

مِنْ تَنْزِيلِ رَبِّكُمْ في كِتَابِهِ المجيد، فَعَلِمْتُمْ أَنَّ الْقُرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْهُ، فازْدَادَ إيمانُكُمْ بِهِ، وازْدَادَ إِيمانُكُمْ بِصِدْقِ نُبُوَّةِ وَرِسَالَةِ مُبَلِّغِهِ عَنْ رَبِّهِ محمّد بن عَبْدِ الله ﷺ، وازْدَادَ حِرْصُكُمْ عَلَىٰ اتباعِ تَعْلِيمَاتِ الإسْلَام، وأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ فيه.

وارْجِعْ إلى مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُهُ فِي تَدَبر آيَةِ سُورة (يس/ ٤١ نزول) فَفِيهِ بَيَانٌ أَوْسَعُ.

وبهـذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشر من دُرُوس سورة (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (الذَّارِيات) الآيتان (٥٠ و٥١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾.

تَمْهِيد:

فِي هـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أُسْلُوباً دَعَوِيًّا بَارِعاً فِيهِ إبداعٌ فِكْرِيٌّ.

التدبُّر التّحليلي:

الدَّعْوَةُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ أُسْلُوبُهَا الطَّبِيعِيُّ الْمُعْتَادُ: تَعَالَ، أَقْبِلْ، انْظُرْ مَا لَدَيْنَا مِنْ حَقٍّ وَخَيْرٍ وهُدىً.

وَلَكِنْ جَاءَ الْأَسْلُوبُ أَسْلُوبَ داعٍ إِلَىٰ الْفِرَارِ مِنْ خَطَرٍ عَظِيم، وَعَذَابٍ أَلِيمٍ، وَهَلَاكٍ عَمِيم، أي: نَادِ قَوْمَكَ أَيُّهَا الداعيّ فَقُلْ لَهُمْ: فِرُّوا إلى الله.

هَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ الَّذِي يُحَذِّرُ قَوْمَهُ مِنْ خَطَرٍ قَادِمٍ مُداهِمْ.

أَيْ: أَنْتُمْ أَيُّهَا المشرِكُونَ فِي مَوَاقِعِكُمُ الشِّرِكيَّة، يَقْتَرِبُ مِنْكُمْ الْعَذَابُ والْهَلَاكُ شيئاً فَشَيْئاً عَلَىٰ مَا تُمَارِسُونَهُ مِنْ شِرْكٍ وَكُفْرٍ وَجَرَائِمَ، فَفِرُّوا مِنْ هَٰذِهِ الْمَواقِعِ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكُمُ الْعَذَابُ الْمُهْلِكُ الشَّامِلُ، وَفِرارُكُمْ الَّذِي يُنْجِيكُمْ لَا يَكُونُ إِلَّا إلى اللهِ، وَلَا يُدْخِلُكُمْ فِي حِمَىٰ اللهِ إِلَّا بِأَنْ تَنْبِذُوا الشِّرْك، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ.

● ﴿... إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: عِبَارَةٌ جَاءَتْ مُكَرَّرَةً فِي الآيَتَيْنِ، لِتَوْكِيد الدَّعْوَةِ إلى الفِرَارِ مِنْ مَوَاقِعِ الْأَخْطَارِ، تَحْقِيقاً للإنْذار بَعْدَ تأدِيَةِ الوظائفِ السَّابِقَةِ له من تبليغٍ، وبيانٍ، وإقناعٍ، وتبشير.

أي: إنّي نَذِيرٌ لَكُمْ مُرْسَلٌ مِع اللهِ مُبِينٌ فِي إِنْذَارِي وكُلِّ دَعْوَتِي.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الحادي عشر من دُرُوس سورة (الذّارِيات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٥)

تدبُّر الدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الذّارِيات)

الآيَات من (٥٢ ـ ٥٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْس تَهْوِينٌ عَلَىٰ قَلْبِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ وَتَسْلِيَةٌ لَهُ، تُجاهَ مَا يَلْقَىٰ مِنْ أذًى وشَتَائِم من كُبَرَاءِ قَوْمِهِ المعانِدِينَ، وَنُصْحٌ لَهُ بِأَنْ يَتَوَلَّىٰ مُدْبِراً عَنْهُمْ، وَبِأَنْ يُوَجِّهَ تَذْكِيرَهُ بِالْقُرْآن وَبِقَضَايَا الدِّينِ للَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَىٰ دَرَكَةِ الميْؤُوسِ مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَتِهِمُ الحرَّة.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ مُهَوِّناً وَمُسَلِّياً:

- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

لَقَدْ صَارَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَمُعَانِدِيها وَطُغَاتِها إبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الذَّارِيَات) يُرَدِّدُونَ هُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ أَنَّ مُحَمَّداً سَاحِرٌ فِيمَا يَأْتِي بِهِ مِنْ آيَاتٍ خَوارِقَ، وَبَيَانَاتٍ بَاهِرَات يُؤَيِّدُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا، وَمَجْنُونٌ إِذْ يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِين، لَا إِلَىٰ الْعَرَبِ فَقَطْ، فَهَلْ يُرِيدُ أَنْ يَتَّبِعَهُ كُلُّ الْأُمَم فِي الْأَرْضِ وفيهم الدُّوَل العُظْمَىٰ، فارِسُ، والرُّوم، والْحَبَشَةُ، وَغَيْرُهَا، إِنَّ هٰذَا طُمُوحٌ لَا يَدَّعِيهِ إِلَّا مُخْتَلُّ الْعَقْلِ والنَّفْسِ مَجْنُون.

فَوَجَّهَ اللهُ الرَّؤُوفُ الرَحِيمُ لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ عِبارَةَ تَسْلِيَةٍ وَمُوَاسَاةٍ، تَهْوِيناً عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَأَبَانَ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَهُ بأَقْوالِهِمْ وَشَتَائِمِهِمْ قَوْمٌ طَاغُون.

- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: كَذلِكَ الَّذِي وَاجَهَكَ بِهِ يَا مُحَمّدُ كُبَراءُ كُفَّارِ قَوْمِكَ وَمُجْرِمُوهم مِنْ أذًى وَشَتَائِمَ، وَأَنْتَ بَعِيدٌ عَنْهُ بُعْدَ الْحَقِّ عَنِ الْبَاطِلِ، وَاجَهَ أَمْثَالُهُمْ مِنْ كُبَرَاءِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ رُسُلَ رَبِّهِمْ، فَاتَّهَمَ كُلُّ ذَوِي سُلْطَانٍ فِي قَوْمِهِمْ وَذَوِي اسْتِعْلَاءٍ وَطُغْيَانٍ، رَسُولَ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ وَبِأَنَّهُ مَجْنُون، وَيُعَلِّلُونَ شَتَائِمَهُمْ بِأَيَّةِ تعِلَّة تَقْبَلُهَا جَمَاهِيرُهُمُ المقلِّدُونَ لَهُمْ.

- ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ . . . ﴿٥٣﴾﴾؟ اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، لِلانْتِقَالِ إِلَىٰ إِثْبَاتِ الصِّفَةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ السَّابِقِينَ وَالْمُعَاصِرِينَ.

- ﴿. . . بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: لَا لَمْ يَتَوَاصَوْا بِالَّذِي اتَّهَمُوا بِهِ رُسُلَ رَبِّهِمْ، بَلْ هُوَ أَثَرُ طُغْيَانٍ فِي نُفُوسِهِمْ، جَعَلَهُمْ يَرْفُضُون دَعْوَةَ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة المؤيَّدَةَ بِالْبَرَاهِينِ الْقَوَاطِعِ، وَيَشْتُمُونَ رَسُولَ رَبِّهِمْ بِالسِّحْرِ والجنُون.

الطُّغْيَانُ: تَجَاوُزُ الحدِّ الطبيعيِّ المقْبُول، إلى مواقِعِ الضَّرَرِ، والإفْسَادِ، والظُّلْمِ، والْجَوْرِ، والْبَغْي، والْعُدْوَان.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُوصِي رَسُولَهُ بِشَأْنِ هَٰؤُلَاءِ المُسْتَكْبِرِينَ المعانِدِين:

- ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

- ﴿فَتَوَلَّ﴾: فِعْلُ «تَوَلَّ» يأتي بِمَعْنَىٰ «نَأَى» ويأْتِي بِمَعْنَىٰ «أَدْبَرَ».

- ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾: أي: إذا تَوَلَّيْتَ مُدْبِراً عَنْهُمْ فَلَسْتَ بِفَاعِلٍ شَيْئاً تُلَامُ عَلَيْهِ.

الباء في «بِمَلُومٍ» مَزِيدَةٌ للتوكيد.

- ﴿وَذَكِّرْ﴾: **التَّذْكِيرُ**: إِعَادَةُ وَتَكْرِيرُ مَا سَبَقَ الإِعْلَامُ بِهِ، لإِخْرَاجِهِ من مَرَاكِزِ الْمَعْرِفَةِ الْكَامِنَةِ إِلَىٰ سَاحَةِ الذَّاكِرَةِ الحاضِرَةِ المؤثِّرَةِ فِي تَوجِيهِ الإِرَادَة.

- ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: **الذِّكْرَىٰ**: اسْمٌ لِلتَّذْكِيرِ.

- ﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: فإنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ دَاخِلِيٌّ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يَصِلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة.

المعنى: فَتَوَلَّ مُدْبراً عَنْ هَؤلَاءِ المسْتَكْبِرِينَ المعانِدِينَ، وَلَا تُتَابِعْ مُعَالَجَتَهُمْ، تَوْفِيراً لِطَاقَاتِكَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَبْذُلَهَا فِي آخَرِينَ مَطْمُوعٍ فِي اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقّ، فإذَا تَوَلَّيْتَ عَنْ هَـٰؤُلَاءِ فَلَسْتَ بِفَاعِلٍ شَيْئاً تُلَامُ عَلَيْهِ، لِأَنَّكَ قَدْ بَذَلْتَ فِيمَا سَبَقَ كُلَّ مَا يَحْسُنُ أَنْ تَبْذُلَهُ فِي مُعَالَجَتِهِمْ. وَوَجِّهْ تَذْكِيرَكَ لِلَّذِينَ تَطْمَعُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ تَذْكِيرُكَ، إِذْ تَرَىٰ بفراسَتِك لَدَيْهِمْ بِوَارِق الْمَيْلِ للاسْتِمَاعِ إلى دَعْوَةِ الْحَقّ، وَتَشْعُرُ بأَنَّ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَاداً دَاخِلِيًّا لِأَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ يَوْماً ما.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (الذاريات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (الذّاريات) الآيَات من (٥٦ ـ ٦٠) آخِر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

القراءات:

(٥٦ و٥٧ و٥٨) • قرأ يعقُوب بإثبات ياء المتكلّم في [**لِيَعْبُدُونِي ـ يُطْعِمُونِي ـ يَسْتَعْجِلُونِي**] وصلاً ووقفاً، ولم يُثْبِتْها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ.

(٦٠) • قرأ أبو عمرو ويعقوب: [**يَوْمِهِمِ الَّذِي**] بِكَسْر هاء الضمير والميم بعدها.

وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [**يَوْمِهُمُ الَّذِي**] بضمّ هاء الضمير والميم بَعْدَها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَوْمِهِمُ الَّذِي**] بِكَسْر هاء الضمير وضم الميم بَعْدها.

وَهِي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ في النُّطْق.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ الخِتامِيّ للسُّورَةِ بَيَانٌ لِمَطْلُوبِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهِيَ أَنْ يَعْبُدُوه.

وَفِيهِ إنْذَارٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بِالْكُفْرِ بِعَذَابٍ مَا مُعَجَّلٍ، وَإِنْذَارٌ لَهُمْ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ خَالِدِينَ فِيها.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَطْلُوبَهُ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ في رِحْلَةِ امْتِحانهم:

• ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾:

كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُسَيطِرُ عَلَيْهِمْ وَهْمُ أَنَّ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدونَها مِنْ دُونِ اللهِ تَطْلُبُ مِنْ عُبَّادِهَا رِزْقاً، أَوْ طَعَاماً تَنْتَفِعُ مِنْهُ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه،

كَرَائِحَةِ لَحم الْقَرَابِينَ وَدِمَائِها، وَكَانَ هـٰذَا بِتَأْثِير سَدَنَةِ آلِهَتِهِمُ الْوَثَنِيَّةِ، لِأَنَّ هـٰؤُلَاءِ السَّدَنَةَ هُمُ المنتَفِعُونَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَطْعِمَةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا عُبَّادُ الْأَوْثَانِ، فَهُمْ يَصْطَنِعُونَ الْأَكَاذِيبَ الْإِيهَامِيَّةِ الَّتِي يَخْدَعُونَ بِهَا عُبَّاد أَوْثَانِهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ مَطَالِبَهُمْ مِنْ آلِهَتِهِمْ لَا تَتَحَقَّقُ مَا لَمْ يُقَدِّمُوا لَهَا الْقَرَابِينَ مِنَ الْأَرْزَاقِ والْأَطْعِمَة.

فاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ فِي الْبَيَانِ الرَّبَّانِي، أَنْ يُعْلِمَ اللهُ الْجِنَّ الَّذِينَ كَانُوا مُمْتَحَنِينَ قَبْلَ الإنْسِ في الحياة الدُّنْيَا، وأَنْ يُعْلِمَ الْإِنْسَ، بِأَنَّ مَطْلُوبَهُ مِنْ عباده الموضوعين مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، مَقْصُورٌ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْ لَهُ، بالإيمانِ بما أَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وبإعْلَانِ الإسْلَامِ لَهُ في أَوامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ.

وَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ يُعْلِمَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَطْلُبُ مِنْ عِبَادِهِ رِزْقاً وَلَا طَعَاماً، فَهُوَ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحَاجَةِ لِأَيِّ شَيْءٍ في الْوُجُودِ، إِذْ كُلُّ شيءٍ هُو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، فالْأَرْزَاقُ كُلُّهَا مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ يُنْعِمُ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنَ الْإِنْسِ والْجِنّ، وَعَلَىٰ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ ذَاتِ الحاجَة إلى الرِّزْقِ والطَّعَامِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقضائه.

إِنَّ اللهَ الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ الْأَحَدَ الصَّمَدَ، هُو الرَّزَّاقُ الَّذِي يَرْزُقُ كُلَّ ذِي حَاجَةٍ إِلَىٰ الرِّزْقِ، الّذِي يُمِدُّهُمْ بِهِ لِيَمْنَحَهُمُ الْقُوَّة، وهُوَ ذُو الْقُوَّةِ الذَّاتِيَّةِ الْأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ، الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إمْدَاداً مِنْ شَيْءٍ، وَهُوَ الْمَتِينُ الصُّلْبُ، الَّذِي لَا تَتَنَاقَصُ قُوَّتُهُ مَهْمَا فَعَلَ مِنْ أَشْيَاءَ عُظْمَىٰ فِي هـٰذَا الكَوْنِ الكبير الْفَسِيحِ.

كثيرٌ مِنَ النَّاسِ يُخْطِئونَ فِي فَهْمِ قَوْلِ اللهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ فَيَرَوْنَ أَنَّ اللَّامَ فِي ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هِيَ لَامُ التعليل، وَأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْجِنَّ وَالإنْس لِعِبَادَتِهِ، فَعَصَىٰ الْعُصَاةُ مِنْهُمْ

إِرَادَةَ اللهِ فِيهِم، وَهٰذَا المعْنَىٰ مُصَادِمٌ مُصَادَمَةً كُلِّيَّة لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ سُورَة (يس/ ٤١ نزول) فلَوْ كَانَ مُرَادُ اللهِ أَنْ يَكُونُوا عَابِدِينَ، لَكَانُوا جَمِيعاً كَالْمَلَائِكَةِ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، لِأَنَّ إرادَتِه فِي كُلِّ شيءٍ لَا بُدَّ أَنْ تتحقَّقَ.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ نُصُوصِ الابْتِلَاءِ وَجَدْنَاهَا مُتَواطِئَةً عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الإنْسَ وَالْجِنَّ لِيَبْلُوهم، أي: لِيَمتَحِنَهُمْ في ظُرُوف الحياة الدُّنْيا، وَهٰذَا المعنَىٰ نَافِذٌ ومُتَحَقِّقٌ فِي كُلِّ مُؤَهَّلٍ للامْتِحَانِ فِي هٰذِهِ الحياة.

وسَبَبُ الْخَطأِ تَشَبُّثُ الْمُخْطِئِينَ بأَنَّ اللَّامَ فِي: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هِي لَامُ التَّعْلِيلِ، مَعَ أَنَّ هٰذَا الْمَعْنَىٰ هُو أَحَدُ الْمَعَانِي الَّتِي أَوْصَلَهَا عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ إِلَىٰ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَعْنًى لِلَّام الْجَارَة.

وَالْمَعْنَىٰ الَّذِي انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، الْجَامِعُ الَّذِي تَتَكَامَلُ بِهِ النُّصُوصُ، هُوَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْجِنَّ وَالإنْسَ لِيَبْلُوَهُمْ، وَهٰذَا المعنَىٰ نَافِذٌ وَمُتَحَقِّقٌ فِي كُلِّ مُؤَهَّلٍ مِنْهُمْ لِلابْتِلَاءِ، عَلَىٰ وَفْقِ مُرَادِ الله فِيهم، وَالمطْلُوبُ فِي هٰذَا الابْتِلَاءِ هُوَ أَنْ يَعْبُدُوه، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُخَالَفَةَ الْمَطْلُوبِ لَيْسَ فِيهِ مُخَالَفَةٌ لإرَادَةِ اللهِ، إِذْ أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ الْمَوْضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضع الامْتِحَانِ أَنْ يَمْنَحهُم حُرِّيَّةَ الإرادَة، وَمِنْ خِلَالِ هٰذِهِ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا يُكلِّفُهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُطِيعُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْصِي، وَاللهُ بِسُلْطَانِ خَلْقِهِ يَخْلُقُ لَهُمْ مَا يُرِيدُون.

فَاللَّامُ في قولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هِي لَامُ الْمَطْلُوبِ وَلَيْسَتْ لَامَ التَّعْلِيل.

ولِهذا تفصيلٌ مُوسَّعٌ في الملحق الثالث مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّرِ سورة (فَاطِر/ ٤٣ نزول)(١).

- ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: لَسْتُ كآلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي يَتَقَرَّبُ إلَيْها عَابِدُوهَا بالْأَرْزَاقِ والْأَطْعِمَةِ، الَّتِي هِيَ في تَصَوُّرِهِمْ مُحْتَاجَةٌ إِلَيْها، فأنَا الغنيُّ بذاتي عَنْ كُلِّ شيءٍ.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ مِمَّا يُؤْكَلُ وَيُلْبَسُ وَيُشْرَبُ حَتَّىٰ الْهَوَاء، وَكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الْحَيُّ لِحَيَاتِهِ.

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: إِنَّ اللهُ الَّذِي هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ الْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ هُو الرَّزَّاقُ الَّذِي يَخْلُقُ أَرْزَاقَ الْعِبَاد، وَهُوَ ذُو الْقُوَّةِ الْأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَنَاقَصُ حَتَّىٰ تَحْتَاجَ إِمْدَاداً بالرِّزْقِ، وَهُوَ الْمَتِينُ الصُّلْبُ الَّذِي لَا تَتَنَاقَصُ قُوَّتُهُ مَهْمَا فَعَلَ مِنْ أَشْيَاءَ عُظْمَىٰ فِي هٰذَا الْوُجُودِ الْفَسِيحِ، فَخَلْقُهُ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ السَّبْعَ، والكُرْسِيَّ والْعَرْش، وَمِثْلَ هٰذَا الْوُجُودِ كُلِّهِ مَرَّاتٍ بِلَا نِهَايَةٍ لَوْ شَاءَ، لَا يَنْقُصُ مِنْ قُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ وَمَتَانَتِهِ شَيْئاً جَلَّ جَلَالُهُ.

فِي هٰذِهِ الْجُمْلَةِ قَصْرٌ حقيقي بتعريف طَرَفي الإسناد مع ضمير الفصل.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُنْذِراً للظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر في آخِرِ السُّورَة.

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (فاطر ٤٣): «تَوْحِيدُ الرُّبوبية وتوحيد الإلٰهيّة في الدلالَاتِ القرآنية» المجلد السابع. الصفحات من (٢٩١ ـ ٣٥٣) وانظر مَا جَاء في كتاب «ابتلاء الإرَادة بالإيمان والإسلام والعبادة» للمؤلف حول هذا الموضوع ففيه تفصيلات واسعات.

- ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

الذَّنوبُ: الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي يَسْتَخْرِجُ بِهَا السُّقَاةُ الْمَاءَ مِنَ الْبِئْرِ.

فِي الآيَةِ (٥٩) إِنْذَارٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفرِ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل، الَّذِينَ بَلَغُوا دَرَكَةً مَيْؤُوساً مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ مَعَهَا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، بِعَذَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا يَذُوقُونَ آلَامَهُ وَيَكُونُونَ بِهِ هَالِكِينَ، وَصَفَهُمُ اللهُ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُون.

وَلَمَّا كَانَ هٰذَا الْعَذَابُ الْمُهْلِكُ، مِنْ أَمْثَال الْعَذَابِ المألُوفِ فِي الحياة الدُّنْيَا، الَّذِي يَتْبَعُهُ الْمَوْتُ وَلَا يَطُولُ أَمَدُهُ، أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّهُ يُشْبِهُ صَبَّ ذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ حَمِيمٍ يَغْلِي غَلَيَاناً شَدِيداً عَلَىٰ المعذَّبِ، فَيَذُوقُ آلَامَهُ الشَّدِيدَةَ لِمُدَّةٍ لَيْسَتْ طَوِيلَةً، وَيَعْقُبُهُ مَوْتُهُ، وَعِنْدَئِذٍ يَدْخلُ عَتَبَةَ الْآخِرَةِ وَيَكُونُ لَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِثْلُ مَا لِسَائِرِ الْكَافِرِين.

اسْتُعِير لَفْظُ «الذَّنوبِ» لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ المِقْدَارِ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ الْعَذَاب، والَّذِي يَتْبَعَهُ الْهَلَاكُ، وَنَفْهَمُ مِمَّا جَاءَ في سُورَةِ (الدُّخان/ ٦٤ نزول) بِشَأْنِ الْمُعَذَّبِ في جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، وهُو قول الله تعالى:

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾:

أَنَّ مُحْتَوىٰ الذَّنُوب يَشبِهُ مَاءً شَدِيدَ الحرارَةِ يَغْلِي، فَهُو عَذَابٌ يُشْبِهُ الذَّنُوبَ فِي مِقْدَارِهِ، ويُشبِهُ فِي نَوْعِهِ الْعَذَابَ بالْمَاءِ الشَّدِيدِ الْحَارِّ، الَّذِي يَغْلِي إِذَا صُبَّ فَوْقَ رَأسِ المعَذَّبِ الَّذِي يَذُوقُ آلَاماً شَدِيدَةً، وَيَكُونُ بِهِ مَوْتُه.

المعنى: فإِنَّ لَكُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِقْدَاراً مِنَ العذاب فِي الدُّنيا، مُمَاثِلاً لِمَقادِيرِ الْعَذَابِ الَّتِي عُذِّبَ بِهَا أَصْحَابُكُمْ الْمُمَاثِلُونَ لَكُمْ فِي الظُّلْمِ

مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، فَانْتَظِرُوا هـٰذَا العَذَابَ الآتِي لَا مَحَالَة، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا رَبَّكُمْ فِي ظَوَاهِرِ عِبَارَاتِكُمْ، مُسْتَهِينِينَ بِبَلَاغَاتِ رَسُوله.

وقد جَاءَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِي يَتَحَدَّثُ عَنِ الظَّالِمِينَ المعاصِرِينَ للتَّنْزِيل، بِحَدِيثٍ عَنْهُمْ وَهُمْ غَائِبُونَ لِغَرَضِ إِدْخَالِ أَمْثَالِهِمْ مَعَهُمْ، وإِعْرَاضاً عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ مُدْبِرُون وَمُبْتَعِدُونَ، غَيْرُ مُبَالِينَ بِمَا وُجِّهَ لَهُمْ مِن إِنْذَارَاتٍ.

وفي الآية (٦٠) آخِرِ السُّورَة، إِنْذَارٌ مِنْ اللهِ لِأَئِمَةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، ضِمْنَ عُمُوم الَّذِينَ يَمُوتُونَ كَافِرِين بِعَذَابٍ شَدِيد يَوْمَ الدِّينِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يُوعَدُونَهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ آنًا فآناً، وَيُوصَفُ لَهُمْ فِيهَا شِدَّتُهُ وأَهْوَالُهُ، وَأَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِيهِ خَالِدِينَ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ.

- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾:

أي: فَعَذَابٌ شَدِيدٌ لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَافِرُونَ أَخْذاً مِنْ دَلَالَاتِ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

- ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾: أي: مِنْ يَوْم عَذَابِهِمُ الشَّدِيد الذي يَكُونُون خَالِدِينَ فِيهِ، وَهُوَ يَوْمُ الدّين ـ يَوْمُ القيامة ـ يَوْمُ الجزاء الأَكْبر.

- ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾: أي: الّذِي يُوعَدُونَهُ آناً فَآناً فِي نُجُومِ التَّنْزِيل، وَتَتَبُّعُ مَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ مِنْ سُوَرٍ قَبْلَ سُورَةِ (الذَّارِيَات) يَكْشِفُ لِلْبَاحِثِ المتَدَبِّرِ أَنَّ مُعْظَمَ مَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ قَبْلَ هـٰذِهِ السُّورَةِ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الْوَعِيدِ بِعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينَ لِلْكَافِرِينَ، كَمَا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الْوَعْدِ بالنَّعِيم الْخَالِدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر سُورة (الذَّارِيَات) على ما فتح اللهُ به.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، ومنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٧)

ملحق: مُستَخرجات بلاغية من سُورَة (الذَّارِيَات)

في هَـٰذِهِ السُّورَةِ اختيارَاتٌ بَلَاغِيَّة نَفِيسَةٌ، اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا ما يلي:

أوّلاً: مِنَ الاسْتِعَارَة

المثال الأول: في قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ⑪﴾:

اسْتُعِيرَ هُنَا فِعْلُ «قُتِلَ» للدَّلَالَة عَلَىٰ الطَّرْدِ الشَّدِيدِ المبالَغِ فِيهِ.

المثال الثاني: في قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩)﴾:

اسْتُعِيرَ هُنَا لفظ «ذَنُوبِ» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْعَذَابِ المشَابِهِ لِصَبِّ الماء الْحَمِيم الشّدِيدِ الحرارة الَّذِي يَغْلِي، مِنْ فَوْقِ رَأسِ الْمُعَذَّب.

الذَّنُوبُ: الدَّلْو، والْمُرَادُ مَا يَحْوِيهِ مِنْ مَاءٍ حَمِيم شدِيد الحرارة، إذْ يَكُونُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ التَّعْذِيب.

ثانياً: مِنَ الْقَصْر

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)﴾.

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْرُ كُفّارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، عَلَىٰ قَوْلِ كُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ عَنْ رَسُولِ رَبِّهِمْ: سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون، وهو مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة.

وهو قَصْرٌ إضَافِيٌّ، والأداة فِيهِ النَّفْيُ والاسْتِثْنَاءُ.

الْمِثَالُ الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾:

فِي هٰذَا النَّصِّ قَصْران:

الْأَوَّل: قَصْرُ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ الْجِنِ والإنْسِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيَا عَلَىٰ عِبَادَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَزَّ سُلْطَانُهُ ـ وهو قَصْرٌ حَقِيقي.

والأدَاة فِيه النَّفْيُ والاسْتِثْناء، وهُو مِنْ قَصْر موصُوف على صِفَة.

الثَّاني: قَصْرُ صِفَاتِ الرَّزَّاق ذي الْقُوَّةِ الْمَتِين في الوجود كُلِّه على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهو مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصوفٍ، والْأَدَاةُ فِيهِ تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ مَعَ ضَمِيرِ الْفَصْل، وهُو قَصْرٌ حَقِيقي.

ثَالِثاً: مِن الاقْتِطَاع

قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّين وَعَرْضِ مَشْهَدٍ يتعلَّقُ بهم:

- ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

الآية (١٤) مُقْتَطَعَةٌ مِنَ الْحَدَثِ المسْتَقْبِلِيّ وفْقَ المنْهَجِ القرآني المبتكر.

رَابِعاً: من خُروج الاستفهام عَنْ أصْلِ دَلَالَته

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾؟:

أي: اسْتَمِعْ هٰذَا الحديث عَنهم.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الكُفَّارِ المعاصِرين للتَّنْزِيلِ، وكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّالِفَة:

- ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾؟:

أي: مَا تَوَاصَوْا بأَنْ يَقُولَ كَفَرَةُ كُلِّ أُمَّةٍ عَنْ رَسُولِ رَبِّهِمْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونَ، بَلْ هُوَ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظواهِرِ تَشَابُهِ صِفَاتِهِمْ فِي الطُّغْيَان، إِذِ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ مُتَشَابِهَةٌ فِي التَّكْوِينِ.

خامساً: من التوكيد لِوُجُودِ دَاعٍ إِلَيْهِ

المثال الأول: قَول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾:

فِي هـٰذَا النَّصِّ قَسَمَان بِبَعْضِ آيَات اللهِ العظِيمَاتِ فِي كَوْنِهِ تَوْكيداً لحقيقَتَيْن كُبْرَيَيْن، وَمَعَ الْقَسَمَيْنِ التوكيد أيضاً بـ «إِنَّمَا» وبـ «إِنَّ» في مَوْضِعَيْن.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ إِهْلَاكِ «ثَمود».

- ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَة تَوْكِيدُ عُمُومِ النفي بِحَرْفِ الجرِّ الزَّائِدِ «مِنْ».

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

فِي هـٰذَا النَّصّ التوكيد في مَوَاضع:

(١) في: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾: هَـٰذِهِ الجملَةُ بِقُوَّة جُمْلَتَيْنِ لاشْتِغَالِ الفِعْلِ فِي ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ بِضَمِير السَّمَاء الَّذِي أَحْوَجَ لفْظَ «السَّمَاء» إلى تَقْدِير

عَامل يُفَسِّرُهُ الفِعْلُ فِي: ﴿بَنَيْنَـٰهَا﴾، وَهـٰذَا مِنْ أَسَالِيب التوكيد القويَّة.

(٢) وَفِي ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ففي هَـٰذِهِ الجملة التوكيد بـ «إِنَّ - والجملة الاسميَّة - واللَّام المزحْلَقَة».

(٣) وفي: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا﴾ وهـٰذِهِ الجمْلَةُ بِقُوَّةِ جُمْلَتَيْنِ أَيْضاً كالجملَةِ الأولى.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَوْكِيدُ عُمُومِ النفي بِحَرْفِ الجرّ الزّائِد «مِنْ» في مَوْضِعَين.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾:

فِي هـٰذِهِ الآيَةِ تَوْكِيدُ عُمُومِ النَّفي بحرف الجرِّ الزَّايد في ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾.

وأقتَصِر على هَـٰذِهِ المستخرجَاتِ الْبَلَاغِيَّة مِنْ سُورَةِ (الذَّارِيَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

سُورَة الغاشِية

٨٨ مصحف　　٦٨ نزول

وهي كُلُّها مَكِّيَّةٌ باتّفاق

(١)

نصّ السورة وَمَا فيها مِنْ فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾
عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴿٤﴾ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ
﴿٥﴾ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن
جُوعٖ ﴿٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ﴿٨﴾ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ﴿٩﴾ فِي
جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴿١٢﴾
فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾
وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾
وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾
وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ
﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾

---

٤ ـ • قرأ أبو عمرو، وشعبة، ويعقوب: [تُصْلَىٰ] من فعل «صَلاه» المتعدي.
وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَصْلَىٰ] من فِعْلِ «صَلِيَتْ» فهي «تَصْلَىٰ».

١١ ـ • قرأ نَافع: [لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ].
وقرأها ابْنُ كثير، وَأبو عمرو، ورُويس: [لَا يُسْمَعُ فِيها لَاغِيَةٌ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا تَسمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً].

٢٢ ـ • قرأ حمزةُ، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها الباقون: [عَلَيْهِمْ] بِكَسْر الهاء.

٢٢ ـ • قرأ هِشَامٌ: [بِمُسَيْطِرٍ] بالسّين.
وقرأها حمزة بِخُلْفٍ عَنْ خَلَّاد: الصَّادِ زاياً.

=

فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِمُصَيْطِرٍ**] وهو الوجْهُ الثاني لِخَلَّادٍ.

٢٥ ـ ● قرأ أبو جعفر: [**إِيَّابَهُمْ**] بِتَشْدِيدِ الياء، وعلى رأي ابْنِ جني مصدَرٌ مِنْ فِعْل «أَيَّبَ» بِمَعْنَىٰ «رَجَعَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِيَابَهُمْ**] بِتَخْفِيفِ الياء، من فعل «آبَ يَؤُوبُ إِيَاباً» بِمَعْنَىٰ رَجَعَ.

فَمُؤَدَّى القراءتَيْنِ واحد.

(٢)

مِمَّا وَرَدَ بِشَأن سورة (الغاشية)

رَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُه عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَيَوْمَ الجُمُعَةِ «بِسَبِّح اسْمَ رَبِّكَ» و«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة» وَرُبَّمَا اجْتَمَعَا فِي يَوْمٍ واحِدٍ فَقَرأهما.

(٣)

مَوضوعُ سُورَة (الغَاشِيَة)

يَدُور مَوْضُوعُ هٰذِهِ السورة حَوْلَ تقديم مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ القيامة، مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ أَهْلِ النَّارِ، وَمَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ أَهْلِ الجنَّة.

وبَعْدَهُمَا حَثٌّ عَلَىٰ النَّظر التَّفَكُّرِيِّ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ الْبَعْثِ وَأَحْدَاثِ يَوْم الدِّينِ، وَهِيَ لِمَنْ تَفَكَّرَ فِيهَا تَفَكُّراً سَلِيماً، مَاسِحَةٌ أَوْهَامَ تَشَكُّلِهِ فِي قُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة، وإِجْرَاءِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ عَلَىٰ وَفْقِ مُرَادِهِ، وَمَا جَاءَ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، بآيَاتِ كِتَابِهِ المجيد.

وأخيراً يُحَدِّدُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وظيفَتَهُ فِي رِسَالَتِهِ، وَهِيَ أَنَّهُ مُبَلِّغٌ مُذَكِّرٌ بِما أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُبَلِّغَهُ مُبَشِّراً وَمُنْذِراً، وَبما أَمَرَهُ أَنْ يُذَكِّرَ به، وَأَنَّهُ لَيْسَ مُسَيْطِراً عَلَىٰ النَّاسِ وَلَا مُجْبِراً لَهُمْ على الإيمان والإسلام، وَأَنَّ مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَر مَتْرُوكٌ أَمْرُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَهُوَ الَّذِي يُعَذِّبُهُ بِعَدْلِه الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ يَوْمَ الدِّينِ، إذْ سَوْفَ يُعِيدُهُ إِلَىٰ الحياةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيُحَاسِبَهُ، ويَفْصِلَ قَضَاءَهُ بِشَأْنِهِ، وَيُنَفِّذَ فِيهِ جَزَاءَه، كما يُنَفِّذُ جزاءَهُ فِي كُلِّ عباده.

(٤)

دروس سورة (الغاشية)

تشْتَمِل هَـٰذِهِ السُّورَة فيما ظَهَرَ لِي عَلَىٰ ثلاثَةِ دُروس:

الدّرْس الأول: الآيَات من (١ ـ ١٦).

وَفِيهِ عَرْضُ مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامَةِ، مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ أهل النَّار، وَمَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ أهل الجنَّة.

الدَّرس الثاني: الآيَات من (١٧ ـ ٢٠).

وَفِيهِ حَثٌّ عَلَىٰ النَّظَرِ التَّفَكُّرِي بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّة عَلَىٰ قُدْرَةِ الله عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ الْبَعْثِ وَأَحْدَاثِ يَوْم الدِّين، بما فيها من وَعْدٍ وَوَعيد.

الدَّرسُ الثالِث: الآيَات من (٢١ ـ ٢٦) آخر السورة.

وَفِيهِ بيانٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ يُحَدِّدُ لَهُ فِيهِ وَظيفَتَهُ فِي رسالته، وهي التَّبْلِيغُ والتَّذْكِير، وَأَنَّهُ لَيْسَ مُجْبِراً وَلَا مُسَيْطِراً.

أَمَّا الجزاء الْأَكْبَرُ فَيَتَوَلَّاهُ اللهُ يَوْمَ الدِّين.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الأوّل من دُروس سورة (الغاشية) الآيات من (١ ـ ١٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ
(٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ
(٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩)
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ
(١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾.

القراءات:

(٤) • قرأ أبو عمرو، وشعبة، ويعقوب: [**تُصْلَىٰ**] بالبناء لِمَا لم يُسَمَّ فاعله، من فعل «صَلاه» المتعدي.

وَقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تَصْلَىٰ**] من فِعْلِ «صَلِيَ» اللّازم. أي: هو يَحْتَرِق ضِمْنَ نارٍ.

(١١) • قرأ نَافع: [**لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ**].

وقرأها ابْنُ كثير، وَأبو عمْرو، ورُوَيْس: [**لَا يُسْمَعُ فِيها لَاغِيَةٌ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا تَسمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً**].

وهي من التفنُّنِ في الأداء البياني.

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرس عَرْضُ مَشْهَدَيْنِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامة:

المشْهَدُ الأوّل: هُوَ من مشاهِدِ أَهْلِ النَّار، مِنَ الآية (١ ـ ٧).

المشْهَدُ الثاني: هُوَ مِنْ مَشَاهِدِ أَهْلِ الجنة، من الآية (٨ ـ ١٦).

التدبُّر التحليليّ:

- ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ①﴾؟.

الاسْتِفْهَامُ بِـ «هَلْ» هُنَا فِيهِ مَعْنَىٰ الدَّعْوَةِ إِلَى اسْتِماعِ الحدِيثِ المرادِ بَيَانُهُ عَنِ الْغَاشِيَةِ، وفيه مَعْنَىٰ التَّشْوِيقِ إلى هـٰذَا الحديث.

الغاشِية: في اللّغَةِ الغِطَاءُ، ويقال لغة: «غَشِيَ الشَّيْءُ شَيْئاً» أي: غَطَّاه، وجَلَّلَهُ، فَحَجَبَهُ.

وأُطْلِقَ لَفْظُ «الْغَاشِيَةِ» صِفَةً لمؤنَّثَةٍ ذَاتِ صِفاتٍ، مَحْذُوفة، والْمُرَادُ بِهَا أَحْدَاثُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَوَقَائِعها، لِأَنَّهَا تَغْشَىٰ الْخَلَائِقَ وَتَعَمُّهُمْ، فصار لفظ «الْغَاشِيَةِ» اسْماً مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ القيامة.

فالمعنى: اسْتَمِعْ بعنايَةٍ أَيُّهَا المتَلَقِّي أيًا كُنْتَ هـٰذَا الحديث عن الغاشِيَةِ.

إِنَّ النَّاسَ فِي الْغَاشِيَةِ فَرِيقَانِ: فَرِيقٌ مَجْزِيٌّ بالْعَذَابِ على مَا قَدَّمَ فِي رِحلَةِ ابْتِلَائِهِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وفَرِيقٌ مَجْزِيٌّ بالنَّعِيمِ ثَوَاباً عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا.

ـ فَإِلَيْكَ يَا أَيُّهَا المتَلَقِّي لَقْطَةً مِنْ مَشَاهِدِ الْفَرِيقِ الّذِينَ يُجازَونَ بِالْعَذَابِ:

- ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ② عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ③ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ④ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ⑤ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ⑥ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ⑦﴾:

- ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: أي: خاضِعَةٌ، خائِفَةٌ، سَاكِنَةٌ، مُنْكَسِرَة الأبْصارِ تَنْظُرُ إِلَىٰ الْأَرْضِ مِنَ الذِّلَّةِ والضَّعَة.

- ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: أي: تُكَلَّفُ أَنْ تَعْمَلَ أَعْمالاً شَدِيدَةً مُتْعِبَةً تُوصِلُها إلى حَدِّ التَّعَبِ الشَّدِيدِ والإعْيَاء. **النَّصَبُ**: التَّعَبُ الشّدِيدُ إلى حَدِّ الإعياء.

- ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾: أي: تَذُوقُ عَذاب الاحْتِرَاقِ بِنَارٍ حَامِيَةٍ شَدِيدَةِ الْحَرَارَة، فالنَّار ذَاتُ دَرجَاتٍ مِن الْحَرارَةِ بَعْضُهَا أشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، والنَّارُ الحامِيَةُ هِيَ نَارٌ ذَاتُ دَرَجَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ الحرارة.

وَقِرَاءَةُ [**تُصْلَىٰ**]: تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا تُدْخَلُ دَاخِلَ نَارٍ لِتُعَذَّبَ بِمَسِّ لَهَبِهَا، وَبِشِدَّةِ حَرِّها.

- ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾: أي: تُسْقَىٰ سَائِلاً مِنْ عَيْنٍ شَدِيدَةِ الْحَرَارَة، فَهٰذَا شَرابُها الْمُهَيَّأُ لَهَا. يُقَالُ لغة: «أَنَىٰ الماءُ وَنَحْوُه، يَأْنِي، أَنياً، وإِنًى، وَأَنَاةً» فَهُوَ «آنٍ» وهِيَ «آنِيَةٌ» أي: بَلَغَ غَايَةَ الحرارَةِ.

- ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

الضَّرِيع: هُوَ نباتُ الشِّبْرِقِ إِذَا كانَ أخْضَرَ، وهو ذُو شَوْكٍ تَرْعَاهُ الْجِمَالُ وهو يَمْتَدُّ على الأَرْض، وَيُوجَدُ في الحجاز، فإذا يَبِسَ فَهُوَ الضَّرِيع، ويكونُ حينئذٍ سَامّاً.

أُطْلِقَ لَفْظُ «وُجُوه» والْمُرَادُ أصْحَابُها، وهٰذَا مِن إطْلَاقِ الْبَعْضِ وإِرَادَةِ الْكُلِّ، ومعلُومٌ أَنَّ الْوُجُوهَ أفْضَلُ مُمَيِّزٍ يُمَيِّزُ الْفُرُوقَ بَيْنَ الأَفراد.

الْمَعْنَىٰ:

خُذْ أيُّها المتلقِّي الدَّرَّاكُ هٰذِهِ اللَّقْطَة مِنْ مَشَاهِدِ الْفَرِيقِ الَّذِينَ يُجَازَوْنَ بِالْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

إِنَّكَ تَرَىٰ وُجُوهَهُمْ تَتْبَعُهَا أَجْسَادُهُمْ خَاضِعِينَ، خائِفِينَ سَاكِنِينَ، مُنْكَسِرِي الأَبْصَارِ، يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الأَرْضِ مِنَ الذِّلَّةِ والضَّعَةِ، يَكِدُّونَ بأعْمالٍ

شَاقَّةٍ يَتْعَبُونَ بِهَا تَعَباً شَدِيداً إلى حَدِّ الإعْيَاءِ، ويُعَذَّبُونَ دَاخِلَ نَارٍ حَامِيَةٍ شَدِيدَةِ الحرارةِ تَمَسُّ جُلُودَهُمْ بِلَهَبِهَا، فإذا اشْتَدَّ ظَمَؤُهُمْ لَمْ يَجِدُوا إلّا مَاءً أَوْ سَائلاً آخَرَ يَخْرُجُ مِنْ عَيْنٍ، وهُوَ شَدِيدُ الحرارة قَدْ بَلَغَ مِنَ الحرارَةِ غَايَتَهَا، وإِذَا اشْتَدَّ جُوعُهُمْ لَمْ يَجِدُوا طَعَاماً يَأْكُلُونَ مِنْهُ، إِلّا نَبَاتاً مِنْ صِنْفِ نَبَاتِ الضَّرِيعِ، وهٰذَا الطَّعَامُ لا غِذَاءَ فِيهِ يُسْمِنُ الأَجْسَاد، وَلَا يَصْرِفُ جُوعاً.

ـ وإِلَيْكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لقْطَةً مِنْ مشَاهِدِ الْفَرِيقِ الَّذِينَ يُجَازَونَ بالنَّعِيمِ، ثَواباً عَلَىٰ مَا قَدَّموا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنْيا مِنْ صالحات:

- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾:

- ﴿وُجُوهٌ﴾: أَطْلِقَ لفظ «وُجوه» والمرادُ أَصْحَابُها، وهٰذَا مِن إطْلَاقِ الْبَعْضِ وإرادَةِ الكُلِّ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ فَرِيق المعذَّبينَ يَوْم الدِّين.

- ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي: يَوْمَ أَحْداثِ الْغَاشِيَة الَّتِي هِيَ القِيَامَةُ.

- ﴿نَّاعِمَةٌ﴾: أي: نَضِرَةٌ، طَيِّبَةٌ، مُرَفَّهَةٌ، هادِئَةٌ، مُسْتَرِيحةٌ، مَسْرُورَةٌ، فَرِحَةٌ، لَيِّنَةُ الْمَلْمَسِ، بما تَنَالُ مِنْ نَعِيم في جَنَّاتِ النَّعِيم. يُقَالُ لُغَةً للدَّلالَةِ على هٰذِهِ المعاني: «نَعِمَ، يَنْعَمُ، نَعَماً، وَنَعْمَةً، وَنَعِيماً» فهو ناعم، وهي نَاعِمَة.

- ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩)﴾: أي: لِأَجْلِ سَعْيِهَا بِرِحْلَةِ حياةِ الابْتِلَاءِ في الدُّنْيَا بِمَا يُرْضِي الله عَنْها، رَاضِيَةٌ بِثَوَابِ اللهِ الْعَظِيم يَوْمَ الدِّينِ، الَّذِي يَفِيضُ عَلَيْهَا بالنَّعِيم مِنْ كُلِّ مَكَانٍ تُحِسُّ فِيهِ بِلَذَّاتِهِ.

- ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢)﴾: أي: مُقِيمينَ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةِ الْمَكَانِ عالِيَةِ المنْزِلَةِ بِصِفَاتِها النَّفِيسَةِ الرَّفِيعَةِ الْمُمْتَازَة، الْجَامِعَةِ لِكُلِّ وَسَائِلِ النَّعِيمِ المقِيمِ الخالد.

- ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ⑪﴾: أَيْ: إذا كُنْتَ أَيُّهَا المتَلَقِّي مِنْ أَهْلِها.

- ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ⑪﴾و **[لا يسمع فيها لاغية]** بِحَسَب القراءتَيْنِ الْأُخرَيَيْنِ، رُوعِيَ في «لَا تَسْمَعُ» أنْ لفْظَ «لَاغية» مؤنَثٌ، وَرُوعِيَ في «لَا يُسْمَعُ» أنَّ لفظ «لَاغِيَةٌ» مَجَازِيُّ التَّأنيث يجوز فيه التذكير والتأنيث.

- ﴿لَٰغِيَةٗ﴾: أي: كائِنَةٌ لَاغِيَةٌ مِنْ ذَواتِ الصَّوت، اسم فاعل من اللَّغْوِ، وهُوَ مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ كَلَام وَغَيْرِهِ إِذْ لَا فَائِدَة مِنْهُ، وَلَا يَدْخُلُ فِي اللَّغْوِ مَا تَتَلَذَّذُ بِهِ النُّفُوسُ مِنْ أَصْوَاتٍ، كأصْوَاتِ مُغَرِّدَاتِ الطُّيُورِ، وَأَصْوَاتِ الْغِنَاءِ الْجَمِيلِ الَّذِي تَطْرَبُ لَهُ النُّفُوسُ وتَلَذُّه. إِذْ فِي الجنَّةِ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ على قَلْبِ بَشر، وفيها مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُس وتَلَذُّ الْأَعْيُنُ والْأَصْوَاتُ الْحَسَنَةُ الْجَمِيلَةُ مِمَّا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَنَعَّمُ بِهِ.

- ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ⑫﴾: يُرَادُ بِلَفْظِ «عَيْنٍ» جِنْسُ الْعُيُونِ الَّتِي تَتَدَفَّق نَابِعَةً مِنْ مَنَابِعَ في الجنَّةِ، عَلَىٰ كَثْرَةِ أَعْدَادِهَا، وَتَنَوُّع صِفَاتِهَا وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا من أشْرِبَةٍ لِأَهْلِ جنَّاتِ النَّعِيمِ، وأفْرِدَتْ لاشتراكِ أَهْلِ الجنَّةِ بها.

- ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ⑬﴾: **سُرُرٌ**: جَمْعُ «سَرِيرٍ» وهُوَ الْمُضْجَعُ ذُو الْقَوائم الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَرْفَعُهُ عَنِ الْأَرْضِ، ونحوه، وَيُبْسَطُ عَلَيْهِ الْفِرَاشُ اللَّيِّنُ على مِقْدَار المسَطَّحِ مِنْه.

وجُمِعَتِ السُّرُرُ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَكُونَ أفرادُهَا مَخْصُوصَاتٍ لِأَصْحَابِها، فَهِي مُوزَّعَةٌ بَيْنَهُمْ.

وَوُصِفَتْ بِأَنَّها مَرْفُوعَةٌ، لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّ ارْتِفَاعَهَا زَائِدٌ عَلَىٰ مَا يُعْلَمُ مِنَ الْأَسِرَّةِ الَّتِي يَتَّخِذُهَا الْمُلُوكُ، وَأَهْلُ الثراء والرَّفَاهِيَةِ فِي الدُّنيا، وللدَّلَالَةِ علىٰ نَفَاسَتِهَا وارْتِفَاعِ قِيَم ذَواتِها.

- ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ⑭﴾: **أَكْوَابٌ**: جَمْعُ «كُوب» وهُو قَدَحٌ مِنْ

زُجَاجٍ ونَحْوِهِ، مُسْتَدِيرُ الرَّأْسِ، لَا أُذُنَ لَهُ وَلَا عُرْوَة، وَهُوَ مِنْ آنِيَةِ الشَّرَاب.

وَجَاءَ لفظ «أَكْوَاب» مَجْمُوعاً، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ كَثْرَتِها، وَتَنَوُّعِ أشْكَالِهَا وَتَنَوُّعِ مُحْتَوَيَاتِها.

وَوُصِفَتْ بأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ، للدَّلَالَةِ على أَنَّهَا مُهَيَّأَةٌ ومُعَدَّةٌ دواماً، بِحَسَبِ رَغَبَاتِ المنعَّمِينَ بِهَا، وَأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ بالْقُرْبِ مِنْ تَنَاوُلِهِمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُهَا مِنْ أَنْفَسِ مَا تُوضَعُ عَلَيْهِ الْأَكْوَاب.

- ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ⑮﴾: **نَمَارِقُ**: جَمْعُ «نُمْرُق» وهي وِسادَةٌ صَغِيرَةٌ يُتَّكَأُ عَلَيْهَا. وَوُصِفَتْ بِأَنَّهَا مَصْفُوفَةٌ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ كَثْرَتِها وإمْكَانِ التَّنَاوُلِ مِنْهَا بِحَسَبِ حَاجَةِ أهل جَنَّاتِ النعيم إلَىٰ الاتكاءِ عليها.

- ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ⑯﴾: **زَرَابِيُّ**: جَمْعُ «زَرْبِيَّة» وهي الْبِسَاط، والطنْفِسَة مثلّثة الطاء، الّتِي تُنْسجُ مِنْ الصُّوف النَّاعِمِ الملوَّن، وتُفْرَشُ على الأرضِ للزينَة، والْجُلوسِ عليها. ومِنْهَا مَا يُعْرَفُ فِي أيَّامِنا بالسَّجّاد.

مَبْثُوثَة: أي: مُوزَعَةٌ مُفرَّقَةٌ تَوْزِيعاً جَمالِيًّا، على اخْتِلَافِ أجْنَاسِهَا وَأَنْوَاعِهَا وأَصْنَافِهَا ورُسُومِهَا وأشْكَالِ جَمَالِهَا.

جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَاتِ من (٨ ـ ١٦) تَقْدِيمُ لَوْحَةٍ تَصْوِيرِيَّةٍ، لِلَقْطَةٍ فَنِّيَّةٍ مِنَ اللَّقَطَاتِ الْمُخْتَارَاتِ لِلعَرْضِ الْقُرْآنِيّ الْبَيَانِيّ، الَّذِي يَشْتَمِلُ المعروض فِيهِ، عَلَىٰ مَشهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ المنعَّمِينَ في الْجَنَّةِ، وَبَعْضِ الْوَسَائِلِ النَّفِيسَةِ الَّتِي يَكُونُونَ فِيهَا وَبِهَا مُنَعَّمِينَ، تَرْغِيباً فِي الإيمانِ والْعَمَلِ الصالحِ المؤهِّلَيْنِ لِهَـٰذَا الْفَوْزِ الْعَظِيم.

وبهَـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الْأَوَّلُ من دُرُوس سورة (الغاشية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الغَاشية) الآيات من (١٧ ـ ٢٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

تَمْهيد:

فِي هٰذَا الدَّرْسِ حَثٌّ عَلَىٰ النَّظَرِ التَّفَكُّرِيِّ بِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ على قُدْرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، وَعَلَىٰ إِبْدَاعِهِ وَإِتْقَانِ صُنْعِهِ، وَمِنْهَا قُدْرَتُهُ على الْبَعْثِ وَأَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ، بِمَا فيها مِنْ وَعْدٍ بالنَّعِيمِ الْعَظِيمِ، وَوَعِيدٍ بالْعَذَابِ الأَلِيمِ.

التدبّر التحليلي:

الاسْتِفْهَامُ في صَدْرِ هٰذَا الدَّرْسِ بِعِبَارَة ﴿أَفَلَا﴾ يُدْرِكُ المتدبّرُ فِيهِ أَنَّ «الْفَاءَ» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ مِنَ السَّهْلِ اسْتِخْرَاجُه، والتَّقْدِير: أَنْطَمَسَتْ أَبْصَارُ وَبَصَائِرُ مُنْكِرِي تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَمُنْكِرِي الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ وَمَا فِيهِ مِنْ جَزَاءٍ بالثَّوَابِ وَبِالْعِقَاب، فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ بَعْضِ آثَارِ خَلْقِ اللهِ في كَوْنِهِ، وَمِنْهَا خَلْقُ الإِبِلِ، وَرَفْعُ السَّمَاءِ، وَنَصْبُ الْجِبَالِ، وَسَطْحُ الأَرْضِ؟؟.

- ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾:

الْإِبِلُ: هِيَ الْجِمَالُ، وَتُسَمَّىٰ النُّوقُ، وَلفظ: «الْإِبِل» اسْمُ جِنْسٍ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وهُو مُؤَنَّث، فيقالُ: «هِيَ الإِبل» ويُجْمَعُ لفظ «الْإِبِلِ» عَلَىٰ «آبَال» وَيُقَالُ لِلْقَطِيعَيْنِ مِنَ الإِبِلِ: «إِبِلَان».

ويُوصَفُ الْجَمَلُ بأنَّهُ سَفِينَةُ الصَّحْرَاء.

وَيَذْكُرُ عُلَمَاءُ الْأَحْيَاءِ لِلْجَمَلِ صِفَاتٍ وَخَصَائِصَ إتْقَانِيَّةٍ مُدْهِشَة، مِنْهَا مَا يلي:

(١) يُسْتَخْدَمُ الْجَمَلُ فِي قَضَاءِ كَثِيرٍ مِنْ حَاجَاتِ النَّاسِ الْيَوْمِيَّة، ومِنْهَا جَرُّ الْمَحَارِيثِ لإعْدَادِ الْأَرْضِ الزِّرَاعِيَّة وَتَهْيِئَتِهَا للزِّرَاعَة، ونَضْحُ الْمَاءِ مِنَ الْآبَارِ بالسَّوَانِي وَغَيْرِها، وَمِنْهَا حَمْلُ وَنَقْلُ مَا يَحْتَاجُ إلى حَمْلٍ وَنَقْل.

(٢) والجِمالُ مَصْدَرٌ ذُو قِيمَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ مَصَادِرِ الغذاء لسُكَّانِ الصَّحاري، فَيأكُلُون مِنْ لُحُومِهَا وَشُحُومِهَا، وَيَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِها، وَكَذلِكَ لِسُكَّانِ الْمُدُنِ والْقُرَىٰ.

(٣) وفي أَوْبَارِ الْجِمَالِ وَجُلُودِهَا وعِظَامِهَا مَنَافِعُ كثيرةٌ للنَّاس.

(٤) تَفْقِدُ كُلُّ الْجِمَال وَبَرَها فِي فَصْلِ الرَّبِيع، وتَكْتَسِي وَبَراً جَدِيداً فِي فَصْلِ الخريفِ بَعْدَ ذَلِكَ.

(٥) لِلْجَمَلِ عَيْنَانِ وَاسِعَتَانِ عَلَىٰ جَانِبَيْ رَأْسِهِ، ولِكُلِّ عَيْنٍ رُمُوشٌ مُقَوَّسَةٌ تَقِي الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرِّمَالِ إذَا هَبَّتِ الرِّياح. وَلَهُ جُفُونٌ كَثِيفَةُ الشَّعْرِ تَقِي عَيْنَيْهِ مِنْ شَمْسِ الصَّحْرَاءِ، وَلَا تَسْمَحُ بِدُخُولِ ضَوْءٍ زَائِدٍ يُؤْذِيهِمَا.

(٦) وَيَتَكَوَّنُ سَنَامُ الْجَمَلِ في مُعْظَمِهِ مِنَ الشَّحْم، وهُوَ الْمَخْزَنُ الْأَعْظَمُ الَّذِي تَتَزَوَّدُ مِنْهُ غِذَاءَهَا عِنْدَ فَقْدِ الطَّعَامِ الَّذِي تَحْتَاجُ إلَيْهِ في الصَّحْرَاءِ.

(٧) لِلْجَمَلِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْعَيْشِ بِدُونِ مَاءٍ لِأَيَّام كثيرةٍ قَدْ تَصِلُ إلى شُهُورٍ، إذْ يَكْتَفِي بالْمَاءِ الَّذِي يَمتصُّهُ مِنْ طَعَامِهِ الرَّطْب، وهُوَ يَحْتَفِظُ بِمُعْظَمِ مَقَادِيرِ الماءِ في جِسْمِهِ.

إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ أجْسَامِ الْجِمَالِ، المهيَّأَةِ والْمُعَدَّةِ إعْدَاداً تَامَّ الْإِتْقَانِ والإحْكَامِ لِوَظِيفَتِهَا النَّفْعِيَّةِ للنَّاسِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

- ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨﴾:

إِنَّ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ ثَقِيلٍ مِنَ الْأَجْرَامِ مُرْتَفِعٍ في الْجَوِّ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ جُدْرَانٍ أَوْ أَعْمِدَةٍ يُحْمَلُ عَلَيْهَا، عَلَىٰ مَا يُشَاهِدُونَ بِرُؤْيَتِهِمْ السَّاذَجَةِ أَنَّ الْأَرْضَ ثَابِتَةٌ وَأَنَّ الْأَجْرَامَ الْعُلْوِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَحْمُولَةً عَلَيْهَا، وَلَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ في بَالِهِمْ أَنَّ طَاقَةً عُظْمَىٰ هِيَ طَاقَةُ الجاذبيَّة، هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ أَجْرَامَ السَّمَاءِ مُحَافِظَةً عَلَىٰ مَوَاقِعِها.

فَجَاءَتْ هَـٰذِهِ الْآيَةُ حَاثَّةً عَلَىٰ التَّفَكُّرِ بِنَظَرٍ عَقْلِيٍّ، لاكْتِشَافِ عَظَمَةِ الرَّبِّ الْخَالِقِ فِي جَعْلِ أَجْرَامِ السَّمَاءِ الْعُظْمَىٰ مُرْتَفِعةٍ فِي أَبْعَادِ الْفَضَاءِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهَا أَعْمِدَةٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا وَتُثَبِّتُهَا فِي مَوَاقِعِهَا مِنَ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ جَاءَتِ الْبُحُوثُ الْعِلْمِيَّةُ الإنْسَانِيَّةُ، فاكْتَشَفَ النَّاسُ طَاقَةَ الْجَاذِبِيَّةِ الْمَجْهُولَةِ الْهَوِيَّةِ، فَدَلَّ هَـٰذَا الاكْتِشَافُ عَلَىٰ عَظَمَةِ قُدْرَةِ اللهِ فِي الْخَلْقِ، وَعَظِيم إتْقَانِهِ لِمَا خَلَقَ.

- ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩﴾:

نُصِبَتْ: أَيْ: أُعْلِيَتْ عَنْ سَطْحِ الْيَابِسِ من الأَرْض. يُقَالُ لُغَةً: «نَصَبَ الشَّيْءَ» أَيْ: أَقَامَهُ وَرَفَعَهُ، وَمِنْهُ «نَصَبَ الْعَلَمَ، ونَصَبَ الْبَابَ» أَيْ: رَفَعَهُمَا.

والتَّوْجِيهُ لِظَاهِرَةِ الْجِبَالِ، وَكَيْفَ رُفِعَتْ عَنْ سَطْحِ الْيَابِسَةِ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا مِنَ الظَّاهِرَاتِ الْكَوْنِيَّةِ فِي الْأَرْضِ، الْقَائِمَةِ عَلَىٰ حَرَكَاتٍ عَجِيبَاتٍ، ذَوَاتِ إتْقَانٍ فِي الْخَلْقِ، وَتَدْبِيرٍ مُدْهِشٍ، أَدَّىٰ إلى ظُهُورِهَا عَلَىٰ سُطُوحِ الْيَابِسَةِ، وَتَحْقِيقِ مَنَافِعَ جَلِيلَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ لِسُكَّانِ الْأَرْضِ عَلَيْهَا.

وَلِعُلَمَاءِ الْبُحُوثِ الْعِلْمَيَّةِ في الأَرْضِ، دِرَاسَاتٌ كَشَفَتْ لَهُمْ بَعْضَ عَجَائِبِ الإتْقَانِ الرَّبَّانِي، الَّذِي نَتَجَ عَنْهُ ارْتِفَاعُ الْجِبَالِ، وَكَشَفَتْ لَهُمُ المنافِعَ الْفَطْمِيَّةَ لِوُجُودِ الْجِبَالِ فِي الْأَرْضِ.

والْتَقِطْ مِمَّا ذَكَرَهُ عُلَمَاءُ الْأَرْضِيَّاتِ مِنْ مَنَافِعِ الجبالِ، مَا يَلِي:

(١) سَلَاسِلُ الجبالِ هِي المتحكِّمَةُ فِي مُنَاخ وَتَدَفُّقِ مِيَاهِ المناطِقِ الْمُجَاوِرَةِ لها.

(٢) وهِيَ ذِوَاتُ أَسْبَابِ نَافِعَةٍ لِمَا يَعِيشُ عَلَيْهَا مِنْ نَبَاتَاتٍ وَحيَوانَات.

(٣) والْجِبَالُ مَصْدَرٌ عَظِيمٌ لِلْمَعَادِنِ وَلِكَثِيرٍ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْض.

(٤) ولِلْجِبَالِ تَأْثِيرٌ عَلَىٰ نَشَاطَاتِ الإنْسَانِ وَأَسْلُوبِ مَعِيشَتِهِ، فِي تَنَقُّلِهِ، وَمُوَاصَلَاتِهِ، وَأماكِنِ إقَامَتِهِ والتَّرْويح عَنْ نَفْسِهِ.

(٥) والجبالُ تَحْمِي الْيَابِسَةَ مِنَ الانْقِلَابِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَنْتُجَ مِنَ هِيَاجِ الْأَمْوَاجِ فِي الْمِيَاهِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ مَسَاحَتُهَا سَبْعِينَ في المِئَةِ مِنْ عُمُوم مَسَاحَةِ الْأَرْض، وَضِدَّ أَيّ تَقَلُّبَاتٍ كَوْنِيَّةٍ أُخْرَىٰ، ومِنْهَا الْبَرَاكِين.

(٦) وللجبالِ تأثِيرٌ قَوِيٌّ فِي حَرَكَاتِ الْهَواء، وتَسَاقُطِ الْأَمْطَارِ والثُّلُوجِ وَنَحْوِهَا.

(٧) وَللجبالِ تَأْثِيرٌ فِي تَوْفِيرِ الْمِيَاه لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَرَاضِي الْبَعِيدَة، وَهِيَ مَخازِنُ لكثِيرٍ مِنْ مِيَاهِ الْأَرْضِ الْمَحْفُوظَةِ عَلَىٰ شَكْلِ ثُلُوجٍ عَلَىٰ ظُهُورِ بَعْضِهَا، وأَحْوَاضٍ فِي بُطُونِ بَعْضِهَا.

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعَ كبيرة لِسُكَّانِ الْأَرْضِ بِسَبَبِ كَوْنِ الْجِبَالِ مُنْتَصِبَةً بالشَّكْلِ الَّتِي هِيَ عَلَيْهِ في الْأَرْض.

- ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: كَيْفَ سَطَحَ اللهُ وَبَسَطَ وَسَوَّىٰ أَمَاكِنَ كَثِيرَةً مِنَ الْأَرْضِ، لِمَنَافِعِ النَّاسِ وَسُكْنَاهُم وزِرَاعَاتِهِمْ وَكَثِيرٍ مِنْ حَاجَاتِ حَيَواتهم.

يُقَالُ لُغَةً: «سَطَحَ فُلَانٌ الشَّيْءَ، يَسْطَحُهُ، سَطْحاً» أي: بَسَطَهُ وَسَوَاه،

وَيَكْفِي كَوْنُ كَثِيرٍ مِنْ أَمَاكِنِ الْأَرْضِ مَسْطُوحاً، عَلَىٰ كُرَتِهَا للتعبير عَنْهَا بأَنَّها «سُطِحَتْ».

وفي هٰذَا الدَّرْسِ مِنْ الجوانب الأدبِيَّةِ فَنِّيَّةُ تَرْتِيب جُمَلِهِ.

قَدْ يَهْدِفُ تَرْتِيبُ الْجُمَلِ الْقُرْآنِيَّةِ إِلَىٰ عَرْضِ لَوْحَةٍ فَنِّيَّةٍ مِمَّا خَلَقَ اللهُ فِي كَوْنِهِ، حتَّىٰ كَأَنَّهَا رَسْمٌ قَدْ رُوعِيَتْ فِيهِ كُلُّ الشُّرُوطِ الْفَنِيَّةِ الَّتِي تُرَاعَىٰ في الرُّسُوم والصُّوَرِ الرَّفِيعَة، فَتَبْدُو الصُّورَةُ مِثَالاً مُطَابِقَاً لِحَرَكَةِ تَتَابُعِ المشْهَدِ في نَفْسِ الْمُشَاهِدِ.

تَصَوَّرْ أَنَّكَ جَالِسٌ في بَادِيَةٍ في خَيْمَةٍ، كَوَاحِدٍ مِنْ عُرْبَانِ الْبَادِيَةِ، وَأَمَامَكَ سَهْلٌ مُمْتَدٌّ، وبَعْدَهُ سِلْسِلَةُ جِبَالٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَمَرَّتْ قَافِلَةُ جِمَالٍ في هٰذَا السَّهْلِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجِبَالِ.

فَكَيْفَ تَتَنَقلُ نَفْسُكَ فِي هٰذَا المشْهَدِ، بَعْدَ هٰذَا الْحَدَثِ المتَحَرِّكِ المثِير، وهُوَ قَافِلَةُ الْجَمَال.

لَقَدْ تَمَثَّلْتُ هَٰذِهِ الصُّورَةَ فَوَجَدْتُ أَنَّنِي أَتَنَقَّلُ فِي مُتَابَعَتِهَا، مُرَكِّزاً عَلَىٰ بُؤْرَةِ المشْهَدِ مَرْحَلَةً فَمَرْحَلَةً عَلَىٰ الوجْهِ التَّالي:

اللَّقْطَةُ الْأُولى: صُورَةُ قَافِلَةِ الجِمَالِ الَّتِي تَمْشِي مُعْتَرِضَةً في السَّهْلِ المَمْتَدّ، إِذْ كَانَتْ أَوَّلَ لَافِتٍ لِنَظَرِي، بِسَبَبِ الْحَرَكَةِ، وَغَرَابَةِ المشْهَدِ، وَرَغْبَةِ النَّفْسِ في مُتَابِعَةِ مُشَاهَدَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَغِيبَ عَنِ النظر، فَكَانَتْ فِي حِسّي هِيَ بُؤْرَةَ المشْهَدِ الْبَارِز، وَمَا سِوَاهَا كَانَ أَرْضِيَّةً لَهَا.

اللَّقْطَةُ الثَّانِيَة: صُورَةُ السَّمَاءِ مِنْ جِهَةِ الْأُفُقِ الْبَعِيدِ وَرَاءَ الْقَافِلَة، إِذِ اكْتَفَتْ نَفْسِي مِنْ مُتَابَعَةِ التَّركِيزِ عَلَىٰ قَافِلَةِ الْجَمَال، فَتَرَكْتُهَا وَجَعَلْتُهَا مَعَ أَرْضِيَّةِ الصُّورَةِ، وانْتَقَلْتُ إِلَىٰ التَّأَمُّلِ فِي السَّمَاءِ، فَكَانَتِ السَّمَاءُ فِي حِسّي هِيَ بُؤْرَة المشْهَدِ الْبَارِزَة، وَتَوَجَّه بَصَرِي لِلّتَرْكِيزِ عَلَىٰ السَّمَاءِ بَحْثاً وَتَأَمُّلاً، حَتَّىٰ إِذَا اكْتَفَيْتُ مِنْ هٰذَا ظَهَرَتْ فِي شُعُورِي لَقْطَةٌ أُخْرَىٰ.

اللَّقْطَةُ الثَّالِثَة: هِي صُورَةُ الْجِبَالِ المتَتَابِعَةِ، إِذْ أَخَذَتْ تَبْرُزُ فِي حِسِّي، فَتَكُونُ هِي بُؤْرَةَ المشْهَدِ، وَتَوَجَّه بَصَرِي لِلتَّرْكِيزِ عَلَىٰ الْجِبَالِ بَحْثاً وَتَأَمُّلاً فِيها.

وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ النُّفُوسِ لَدَىٰ مُشَاهَدَةِ مَشْهَدٍ مُتَعَدِّدِ الْعَنَاصِرِ، أَنْ تَبْدَأَ بِالْمُتَحَرِّكِ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ إِثَارَةً، ثُمَّ تَنْتَقِلَ إِلَىٰ أَعْلَىٰ المشْهَدِ، ثُمَّ تَتَدَلَّىٰ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّىٰ أَدْنَاه.

ولَمَّا اكْتَفَتْ نَفْسِي مِنَ التَّأَمُّلِ فِي الْجِبَالِ ظَهَرَتْ في شُعُورِي اللَّقْطَةُ الَّتِي وَرَاءَهَا.

اللَّقطة الرابعة: هِي صُورَةُ الْأَرْضِ المنْبَسِطَةِ الممتَدَّةِ أَمَامِي كَأَنَّهَا السَّطْحُ، إِذْ أَخَذَتْ تَبْرُزُ فِي حِسِّي، فَتَكُونُ بُؤْرَةَ المشْهَدِ، وتَوَجَّهَ بَصَرِي للتَّرْكِيزِ عَلَىٰ الْأَرْضِ بَحْثاً وَتَأَمُّلاً فِيها.

عِنْدَئِذٍ عَلِمْتُ الْحِكْمَةَ الَّتِي دَعَتْ إِلَىٰ تَرْتِيبِ الْجُمَلِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي هٰذَا الدَّرْسِ مِنْ دُروس السُّورَةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ تَصْوِيرٍ كَلَامِيٍّ، مُتَابِعٍ لِحَرَكَةِ النَّفْسِ لَدَىٰ مُشَاهَدَةِ مِثْلِ هَٰذِهِ اللَّوْحَةِ الرَّائِعَة.

وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنَّهَا بهٰذَا الترتيب تُقَدِّمُ لَوْحَةً فَنِّيَةً تُطَابِقُ مَا يَحْدُثُ لِمُشَاهِدٍ وَاقِعٍ فِي مِثْلِ هٰذَا المشْهَدِ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني مِنْ دُرُوس سورة (الغاشية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الغاشية)

الآيَات من (٢١ ـ ٢٦) آخِر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٢) • قرأ حَمْزَةُ، ويَعْقُوب: **[عَلَيْهُمْ]** بِضَمِّ الْهَاءِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَلَيْهِمْ]** بِكَسْر الهاء.

وَهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيَّان.

(٢٢) • قرأ هِشَامٌ: **[بِمُسَيْطِرٍ]** بالسّين.

وقرأها حمزةُ بِخُلْفٍ عَنْ خَلَّاد، باشْمَامِ الصَّادِ زاياً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[بِمُصَيْطِرٍ]** بالصَّادِ الخالصَة، وهُوَ الوجْهُ الثاني لِخلَّادٍ.

(٢٥) • قرأ أبو جعفر: **[إِيَّابَهُمْ]** بِتَشْدِيدِ الياء، وهي علىٰ رأي ابْنِ جِنّي مَصْدَرٌ مِنْ فِعْل «أَيَّبَ» بِمَعْنَىٰ «رَجَعَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[إِيَابَهُمْ]** بِتَخْفِيفِ الياء، مِنْ فعل «آبَ، يَؤُوبُ، إِيَاباً» بِمَعْنَىٰ رَجَعَ.

فَمُؤَدَّى القراءتَيْنِ واحد.

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، يُحَدِّدُ لَهُ فِيهِ وَظِيفَتَهُ فِي رِسَالَتِهِ، وهي التَّبْلِيغُ والتَّذْكِير، وأَنَّهُ لَيْسَ مُجْبراً وَلَا مُسَيْطِراً، أَمَّا الجزاء الأَكْبَر فيَتَوَلَّاهُ اللهُ يَوْمَ الدِّين، بَعْدَ البَعْثِ لِلْحَيَاةِ الأُخرى.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

- ﴿فَذَكِّرْ﴾: أيْ: فَأعِدْ مَا سَبَقَ أنْ أعْلَمْتَهُ وَأبْلَغْتَهُ لِقَوْمِكَ مِنَ القرآنِ، وَمِنْ قَضَايَا الدِّين.

- ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾: أي: مَا أنْتَ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَجْمُوعِ قَوْمِكَ فِي مَكَّةَ، إبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، إلَّا مُذَكِّرٌ لِلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ إلى دَعْوَةِ الْحَقِّ، فَقَدْ سَبَقَ أنْ أبْلَغْتَهُمْ، وبَيَّنْتَ لَهُمْ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرآن، وَمَا أُمِرْتَ بِتَبليغِهِمْ إيَّاهُ مِنْ قَضَايَا الدِّين، وَالْآنَ أَنْتَ مَعَ المطْمُوعِ باسْتِجابَتِهِمْ في مَرْحَلَةِ التَّذْكِير.

أَمَّا الميْؤُوسُ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ فَقَدْ سَبَقَ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَات/ ٦٧ نزول) أنْ قُلْنَا لَكَ:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

- ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

الْمُصَيْطِرُ ـ والمسَيْطِرُ: الْمُجْبِرُ الْمُكْرِه.

أي: لَسْتَ مُسَلَّطاً عَلَيْهِمْ لإجْبَارِهِمْ وإكْرَاهِهِمْ على الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقّ، إذْ لَا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ، إنَّ الاسْتِجَابَة للدُّخُولِ فِي الدِّينِ لَا تُقْبَلُ مَا لَمْ تَكُنْ عَنِ اخْتِيَارٍ حُرٍّ، لَا إجْبَارَ فِيهِ وَلَا إكْراه.

أَصْلُ العبارة: لَسْتَ بِمُصَيْطِر عَلَيْهِمْ، فَعِبَارَةُ «عَلَيْهِمْ» مَعْمُول لمصَيْطِر. أي: لَسْتَ مُسَلَّطاً عَلَيْهِمْ تَسَلُّطَ مُجْبِرٍ مُكْرِه.

- ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾:

- ﴿إِلَّا﴾ هُنَا أَدَاةُ اسْتِدْرَاكٍ بِمَعْنَىٰ «لَكِنْ».

- ﴿مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾: مَنْ أدْبَرَ وَنَأَىٰ، وَكَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ، وَبِمَا أَوْجَبَ الإيمانَ بِهِ، والإسْلَامَ لَه.

- ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فَيُدْخِلُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جهَنَّم خَالِداً فِيهَا أبداً، ويُعَذِّبُهُ فِيها الْعَذَابَ الأَكْبَرَ وَهُوَ عَذَابُ الْحَرِيقِ، مَعَ أَنْوَاعِ عَذَابٍ أُخْرَىٰ، جَاءَ فِي نُصُوصِ القرآنِ بَيَانُ بَعْضِهَا.

- ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾:

إِنَّ الْمَوْتَ خُرُوجٌ مِنَ الْوُجُودِ الْحَيِّ لِلْأَحْيَاءِ، وَهُوَ خُرُوجٌ مُؤَقَّت، وَبَعْدَهُ بَعْثٌ وَإِيَابٌ إِلَىٰ الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخرَىٰ، ولَكِنَّ هٰذَا الْإِيَابَ سُوف يَكُونَ إِلَىٰ الدَّارِ الآخِرَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ فِيهَا مُلْكٌ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فإيَابُهُمْ سَوْفَ يَكُونُ إِلَيْهِ وَحْدَه.

ثُمَّ بَعْدَ أَحْدَاثٍ تَكُونُ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ، يُجْمَعُونَ إِلَىٰ مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، وَحينَئِذٍ يَتَوَلَّىٰ اللهُ حِسَابَهُمْ، وفَصلَ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يُسَاقُون إِلَىٰ مَوَاطِنِ جَزَائِهِم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّرُ سُورَة (الْغَاشِيَة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

ملحق: مستخرجات بلاغية من سورة (الغاشية)

في هٰذِهِ السُّورَة اختياراتٌ بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة:

أولاً: مِنْ خُرُوج الاستفهام عَن أَصْل دَلَالَتِهِ

(١) الاسْتِفْهَامُ بحرف الاستفهام «هَلْ» في صَدْرِ السُّورَة، يُرَادُ به الدَّعْوَةُ إلى اسْتِمَاعِ الحديثِ عَنِ الْغَاشِيَةِ مع التَّشْوِيق إلَيْه.

(٢) الاستفهام في: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾؟:

يُرَادُ بِهِ الْحَثُّ عَلَى النَّظَرِ، مَعَ تَلْوِيم المؤهَّلِينَ للنَّظَرِ إذْ لَمْ يَنْظُرُوا، أَوْ لَمْ يَنْتَفعُوا مِنَ النَّظَرِ الَّذِي دَلَّهُمْ عَلَىٰ عَظَمَةِ الرَّبِّ، وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ الْبَعْثِ، وَخَلْقِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين، وإقَامَةِ الجزاء بالفضل أَوْ بِالْعَدْل.

ثانياً: مِنَ الحْذَفِ الَّذِي يُسْتَخْرَج بِقَلِيلٍ مِن التَّأَمُّل

في قوله تَعَالَىٰ في وَصْفِ الجنَّة: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾:

«لَاغية» صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوف تَقْدِيرُه: لَا تَسْمَعُ فِي الْجَنَّة ذَاتُ صَوْتٍ لَاغِيَة، تَنْطقُ بِلَغْوٍ مِن الأَصْوات.

ثالثاً: من الْقَصْر

في قولِ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾:

أي: مَا أَنْتَ في المرحَلَةِ الّتِي بَلَغْتَ إِلَيْهَا إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قَوْمِكَ فِي مَكَّةَ إِلَّا مُذَكِّرٌ لِمَنْ تَأْنسُ مِنْهُمْ قَابِلِيَّةَ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَة الْحَقّ.

وَهٰذَا الْقَصْرُ إضَافِيّ، وَهُوَ مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَة، وَالْأَدَاةِ فِيهِ أَدَاةُ الْحَصْرِ «إِنَّمَا».

رَابِعاً: التوكيد لِوُجُودِ الدَّاعي الْبَلَاغِي إِلَيْهِ

(١) التوكيد بالباء الزائدة في: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢) التوكيد بـ «إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيَّة» في:

- ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.
- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

وبهذا أكْتَفِي من المستخرجات البلاغيَّةِ في سورة (الغَاشية).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَتَوْفِيقِهِ.

سُورَة الكهْف

١٨ مصحف ٦٩ نزول

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّها على الراجح

وقيل توجد آيَات فيها مدنية

(١)

نصُّ السّورة وَمَا فِيها مِنْ فَرْش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ
﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ
أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم
بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن
لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ
زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ
كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟

---

١ ـ • سَكَتَ حَفْصٌ في حالَة الوصل عَلَىٰ ألف عِوَجاً من: **[عِوَجاً قَيِّماً]** سَكْتَةً لَطِيفَةً بِدُونِ تَنَفُّسٍ.

ولم يَسْكُتْها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ:

٢ ـ • قَرَأَ شُعْبَةُ: **[مِنْ لَدْنِهِي]** بإسكان الدّال مع إشْمَامِهَا الضم، وكَسْرِ النون والهاء، وصِلَتِهَا بِيَاءٍ لَفْظِيَّةٍ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مِنْ لَدُنْهُ]**.

٢ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائِي: **[وَيَبْشُرُ]** من فعل «بَشَرَهُ» بمعنَىٰ «بَشَّرَهُ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَيُبَشِّرُ]** من فعل «بَشَّرَهُ» أي: أخبره بما يَسُرُّه ويُفْرِحه.

رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾
فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ
بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ
عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى
﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ
لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞
وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا

---

١٠ ـ • قرأ أَبُو جعفر، وحمزة، وهِشَام: [وَهَيِّي] بياءٍ أخِيرَةٍ ساكِنَةٍ في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَهِيِّئْ] بِهَمزَةٍ سَاكِنَةٍ أخِيرَة وصلاً ووقفاً.

١٦ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر، وحمزة: [فَاوُوا] بألف مَدِّية بَعْدَ الفاء في الوقف فقط.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَأْوُوا] وصلاً ووقفاً.

١٦ ـ • قَرَأَ أبو جَعْفَر: [وَيُهَيِّي].
وكذلك حَمزة، وهشام في الوقف وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَيُهَيِّيءُ].

١٦ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [مَرْفِقاً].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِرْفَقاً]. وهما لغتان عَربيتان.

١٧ ـ • قرأ ابن عامر، ويعقوب: [تَزْوَرُّ].
وقرأها عاصم، وحمزة، والكِسَائي: [تَزَاوَرُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَزَّاوَرُ].

غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ
لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ
ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ
ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾
وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ
لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا
لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ

---

١٧ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [فَهُوَ الْمُهْتَدي] في الوصل.
وكذلك يعقوب في الوصلِ والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَهُوَ الْمُهْتَدِ] بِحَذْفِ الياء في الوصل والوقف.

١٨ ـ • قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [وَتَحْسَبُهُمْ] بفتح السين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَتَحْسِبُهُمْ] بِكَسْرِ السين.
وهما لغتان عَرَبيتان.

١٨ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير: [وَلَمُلِّئْتَ] بتَشْدِيد اللام المكسورة، وهمزة ساكنة بَعْدَها.
وقرأ السُّوسي: [وَلَمُلِيتَ] بلام مَكْسُورَةٍ غير مُشَدَّة، وبإبْدَالِ الهمزة ياءً مَدِّيَّة.
وكذلِكَ قرأ حمزةُ في الوقف.
وَقَرَأها أبُو جعفر: [وَلَمُلِّيتَ] بلام مَكْسُورَةٍ مُشَدَّدَة، وبإبْدَالِ الهمزة ياءً مَدِّيَّة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَمُلِئْتَ] بلام مكسورة غير مُشَدَّدة، وهمزة ساكنة بعدها.

١٨ ـ • قرأ ابن عامر، والكِسَائي، وأبو جعفر، ويعقوب: [رُعُباً] بضم العين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [رُعْباً] بإسكان العين.

١٩ ـ • قرأ أبو عمرو، وشُعْبَة، وحمزة، وخلف، ورَوْح: [بِوَرْقِكُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِوَرِقِكُمْ].

أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ
يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ
فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ
أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم
مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ
سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ
فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا
تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ
وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ

---

٢١ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ]. وقرأها الباقون: [عَلَيْهِمْ].

٢٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسكان.

٢٢ ـ • قرأ يعقوب: [فِيهُمْ].
وقرأها الْبَاقون: [فِيهِمْ].

٢٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبُو جعفر: [أَنْ يَهْدِيَنِي] بإثبات يَاءِ المتكلّم فِي الوصل.
وكذلك ابن كثير، ويعقوب في الوصْلِ والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْ يَهْدِينِ] بحذف ياءِ المتكلم في الوصل والوقف.

هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟
تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى
حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ
لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ
نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ
أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ
كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ
عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ

---

٢٥ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: [ثَلَاثَ مِائَةِ] بكسر تاء مائة دُون تنوين.
وقرأها أبو جعفر: [ثَلَاثَ مِيَةٍ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ثَلَاثَ مِائَةٍ].
٢٦ ـ • قرأ ابْن عامر: [وَلَا تُشْرِكْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَا يُشْرِكْ].
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنَى المراد.
٢٨ ـ • قرأ ابن عامر: [بِالْغُدْوَةِ]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِالْغَدَاةِ]:
٢٩ ـ • قرأ ورْش، والسّوسي، وأبو جعفر: [بِيسَ] بإبدال الهمزة ياءً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِئْسَ].
٣١ ـ • قرأ أبو عَمْرو، ويعقوب: [مِنْ تَحْتِهِمِ الْأَنْهَارُ]. =

يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا
﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ
أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ
أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ
ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا
﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ
هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ
رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ

= وقرأها حمزة، والكسائي، وخلَف: [مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ تَحْتِهِمِ الأَنْهارُ].

٣١ ـ • قرأ أبو جعفر: [مُتَّكِينَ]. وكذلِكَ حَمْزة في الوقف، ولَهُ التَّسهِيلُ أيضاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتَّكِئِينَ].

٣٣ ـ • قرأ نافع، وابنُ كَثِير، وأبو عمْرو: [أُكْلَهَا] بإسكان الكاف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أُكُلَهَا] بضمّ الكاف.
وهُمَا لُغَتَان عَربيتَانِ.

٣٤ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [ثُمْرٌ] بضمّ الثاء وإسكان الميم.
وقرأها عاصم، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [ثَمَرٌ] بفتح الثاء والميم. وقرأ بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ثُمُرٌ] بضم الثاء والميم. وهي لغات.

٣٤ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر، بإثبات ألف «أنَا» من [أَنَا أَكْثَرُ] وصلاً. وقرأ الباقون بِحَذْفِهَا وَصْلاً.
واتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَىٰ إِثْبَاتِها في الوقف.

٣٦ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: [مِنْهُمَا] أي: مِنْ جنَّتَيه.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْهَا] أي: من جنَّتِهِ الجامِعَةِ للجنَّتَيْنِ.

أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا
﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

---

٣٨ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، وَرُوَيس: [لَكِنَّا هُوَ] بإثباتِ الألف وصلاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بحذف الألف وصْلاً.
واتَّفَقُوا على إثباتِها وقْفاً اتباعاً للرَّسم.

٣٨ ـ • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [بِرَبِّيَ أَحَداً] بفَتْحِ ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلّم.

٣٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [أَنَا أَقَلَّ] بإثْبَاتِ ألف «أنا».
وقرأها الباقون بِحَذْفِهَا وَصْلاً.
واتَّفَقُوا على إثباتها وَقفاً.

٣٩ ـ • قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [إِنْ تَرَنِي أَنَا] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً.
وقرأها ابْنُ كثير، ويَعْقُوب كذلِكَ في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِنْ تَرَنِ أَنَا] بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

٤٠ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَنْ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها الباقون بإسكانها.

٤٠ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [يُؤْتِيَنِي] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً.
وكذلِكَ يعقوبُ في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤْتِيَنِ] بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

٤٢ ـ ● قرأ أبو عمْرو: [**بِثُمْرِهِ**].
وقرأها عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [**بِثَمَرِهِ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِثُمُرِهِ**]. ومعهم رُوَيس.

٤٢ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [**بِرَبِّيَ أحَداً**] بِفَتْحِ ياءِ المتكلّم.
وقرأها الباقون بإسكانها.

٤٣ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: [**وَلَمْ يَكُنْ**] بالياء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَلَمْ تَكُنْ**] بالتَّاء.

٤٣ ـ ● قرأ أبو جعفر: [**فِيَةٌ**] بإبدال الهمزة ياء وصلاً ووقفاً.
وكذلِكَ حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فِئَةٌ**].

٤٤ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: [**الْوِلَايَةُ**] بِكَسْرِ الواو.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الْوَلَايَةُ**] بِفَتْحِ الواو.
وَهُمَا لغتان عربيّتَان.

٤٤ ـ ● قرأ أبو عَمْرو، والكِسَائِيُّ: [**الحقُّ**] صفة للوَلَايَة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الحقِّ**] صفةً: «للهِ».

٤٤ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة، وخَلَف: [**عُقْباً**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عُقُباً**].

٤٥ ـ ● قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلف: [**الرِّيحُ**] بالإفراد..
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الرِّيَاحُ**] بالجمع.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ
رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً
وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ
جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا
﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ
يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ
أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ
ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ
أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ

---

٤٧ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: **[تُسَيَّرُ الْجِبَالُ]** بالمبنيّ لما لم يُسَمَّ فاعله.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: **[نُسَيِّرُ الْجِبَالَ]** بضمير المتكلّم العظيم.

٥٠ ـ • قرأ أبو جعفر: **[لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا]** بضمّ تاء «لِلْمَلَائِكَةِ» اتباعاً لجيم «اسْجُدُوا» وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: **[لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا]** على الأصل.

٥٠ ـ • قرأ ورش، والسّوسي، وأبو جعفر: **[بِيسَ]** بإبدالِ الهمزة ياءً.
وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: **[بِئْسَ]**.

٥١ ـ • قرأ أبو جعفر: **[مَا أَشْهَدْنَاهُمْ]**. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: **[مَا أَشْهَدْتُهُمْ]**.

٥١ ـ • قرأ أبو جعفر: **[وَمَا كُنْتَ]** بفتح التاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: **[وَمَا كُنْتُ]** بضم التاء.

مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا
﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ
جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ
وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ

---

٥٢ ـ • قرأ حمزة: [وَيَوْمَ نَقُولُ] بضمير المتكلّم العظيم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَيَوْمَ يَقُولُ].
٥٤ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُرَانِ]. وكذلك حمزة في الوقف.
وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْقُرْآنِ].
٥٥ ـ • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، ويعقوب: [قِبَلًا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قُبُلاً]. ومؤدّى القراءتين واحد.
٥٦ ـ • قرأ حفص: [هُزُواً].
وقرأها حمزة: [هُزْءاً] في الوصل.
وكذلك خلف وَصلاً ووقفاً.
وقرأها حمزة: [هُزاً وهُزْواً] في الوقف وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [هُزُواً].
وهي وُجوهٌ في النطق العربي.

لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ
لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ
لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ
حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ
لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى
ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ
وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ
فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ
ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ

---

٥٨ ـ ● قرأ ورْش، وأبُو جعفر: [يُوَاخِذُهُمْ] بإبدال الهمزة واواً، وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤَاخِذُهم] على الأصل.

٥٩ ـ ● قَرأ شُعْبَةُ: [لِمَهْلَكِهِمْ] مصدر ميمِي لفعل «هَلَكَ» وقرأها حَفْصٌ: [لِمَهْلِكِهِمْ] اسم زمان على وزْنِ «مَفْعِل» وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِمُهْلَكِهِمْ] مَصْدر مِيمي مِنْ فِعل «أَهْلَكَ».

ومُؤَدّى القراءات واحد.

٦٣ ـ ● قرأ حفص: [أَنْسَانِيهُ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْسَانِيهِ] وهما نُطْقَان عَربيان.

٦٤ ـ ● قرأ نَافع، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [نَبْغِي] في الوصل.

وكذلك ابن كثير، ويعقوب، فِي الوصل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَبْغِ] وصلاً وَوَقفاً.

مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ
إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ
بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى
لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ
خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا

---

٦٦ ـ • قرأ نَافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: [**تُعَلِّمَني**] بإثبات ياء المتكلم في الوصل.
وكذلِكَ ابن كثير، ويعقوب، في الوصْلِ والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تُعَلِّمَنِ**] في الوصل والوقف.

٦٦ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [**رَشَداً**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**رُشْداً**].

٦٧ ـ • قرأ حفص: [**مَعِيَ صَبْراً**] بفتح ياء المتكلم، وقرأها الباقون بالإسكان.

٦٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [**سَتَجِدُنِيَ إِنْ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسْكان.

٧٠ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [**فَلَا تَسْأَلَنِّي**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَلَا تَسْأَلْنِي**].
ولابن ذَكوان وجهان في إثبات ياء المتكلم وحذفها وصلاً ووقفاً.

٧١ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلَف: [**لِيَغْرَقَ أَهْلُها**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا**].
وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد.

٧٢ ـ • قرأ حفص: [**مَعِيَ صَبْراً**] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسكان.

٧٣ ـ • قرأ ورش، وأبو جعفر: [**لَا تُوَاخِذْني**] وقفاً ووصلاً. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا تُؤَاخِذْنِي**].

غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا
نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا
﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن
لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا
فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ
قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي
وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ
وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ

---

٧٣ ـ ● قرأ أبو جعفر: [عُسُراً] بضم السين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عُسْراً] بإسكان السّين. وهما لغتان عربيتان.

٧٤ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورُوَيس: [زَاكِيَةً] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [زَكِيَّةً]. والمؤدّى واحد.

٧٤ ـ ● قرأ نافع، وابنُ ذكوان، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُكُراً] بضمّ الكاف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُكْراً] بإسكان الكاف. وهما لغتان بمعنى الأمْرِ الشديد الصعب.

٧٥ ـ ● قرأ حفص: [مَعِيَ صَبْراً] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسكان.

٧٦ ـ ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [مِنْ لَدُنِي]. وقرأها شعبة: [مِنْ لَدْنِي] بإسكان الدال مع إشمامها الضمّ.
وَلَهُ وَجْهٌ آخر وهو اختلاسُ ضمة الدال.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ لَدُنِّي] بِتَشْدِيد النون.

٧٧ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [لَتَخِذْتَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَتَّخَذْتَ].

أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ
أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا
ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ
لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ
قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ
مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ
قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

---

٨١ - • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**يُبَدِّلَهُمَا**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُبْدِلَهُمَا**].

٨١ - • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ويَعْقوب: [**رُحُماً**] بضم الحاء وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**رُحْماً**] بإسكان الحاء.
الرُّحْمُ: **الرُّحُمُ**: الْعَطْفُ والرَّحْمَة.

٨٥ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [**فاتَّبَعَ سَبَباً**] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَأَتْبَعَ سَبَباً**].
اتَّبَعَ، **وأَتْبَعَ**: كِلاهما بمعنى: تَبِعَ.

٨٦ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب: [**حَمِئَةٍ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**حَامِيَةٍ**].
حَمِئَة: أي: ذَاتُ حَمَإٍ وهو الطِّينُ الأسود المنتن.
حَامِيَة أي: شديدة الحرارة.
فبينهما تكامل.

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا
نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ
لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ
ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا
﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى

---

٨٧ ـ • قرأ نافع، وابن ذكوان، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُكُراً] بضم الكاف.

وقرأ بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُكْراً] بإسكان الكاف.

وهما لغتان بمعنى الأمرِ الشّدِيد الصّعْب.

٨٨ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وابْن عامر، وشعبة، وأبو جعْفر: [جَزاءُ الْحُسْنَىٰ] على الإضافة، أي: الجنة الحسنىٰ، أو المثوبَةِ الحسنَىٰ، وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [جَزَاءً الْحُسْنَىٰ]: أي: فله الحسْنَىٰ جزاءً.

٨٩ و٩٢ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: [ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَباً] في الموضعين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً] في الموضعين.

اتَّبَعَ وأَتْبَعَ: كِلاهما بمعنى: «تَبِعَ».

٩٣ ـ • قَرَأَ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وحفص: [السَّدَّيْنِ] بفتح السّين المشَدَّدة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [السُّدَّيْنِ] بضم السّين المشَدَدة.

وهما لُغَتَان، يقال: «سُدّ وسَدّ».

٩٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [يُفْقِهُونَ] بضم الياء وكَسْر القاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَفْقَهُونَ].

وبين القراءتَيْنِ تكامل، إذْ هؤلاء الْقَوْمُ لَا يَعْرِفُونَ لُغَاتِ النَّاس فَلَا يَفْقَهُونَ كَلَامَ الأقوام غيرهم، وَلَهُمْ لُغَةٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ لَا يَعْرِفها غَيْرُهم.

٩٤ ـ • قرأ عاصم: [يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ].

=

ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾
قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا
ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ
مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾
۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ
جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ
كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَاجُوجَ ومَاجوجَ]** بإبْدالِ الهمزة ألفاً في اللَّفْظَتَيْن.
وهما نُطْقَان لاسم هؤلاء القوم.

٩٤ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: **[خَرَاجاً]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[خَرْجاً]**.
الْخَرْجُ والْخَرَاجُ مَا يُبْذَلُ مِنْ مَالٍ أجْراً على عَمَل، أو جزيَةً، أَو نحو ذلك.

٩٤ ـ • قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وشُعبَة، وأَبُو جَعْفر، ويعقوب: **[سُدّاً]**. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سَدّاً]**.

٩٦ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عمرو، وابْنُ عَامر، ويعقوب: **[الصُّدُفَيْنِ]** وقرأها شُعْبة: **[الصُّدْفَيْنِ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[الصَّدَفَيْن]**.
الصَّدَفُ والصُّدْفُ والصُّدُف: لغات بمعنى الجبل وكلّ بناء عظيم مُرْتفع.

٩٨ ـ • قرأ عَاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[دَكَّاءَ]** أي: مُسْتَوِياً بالأرض.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[دكًّا]** مَصْدَرُ «دَكَكْتُه» وهو بمعنى اسم المفعول، أي: مُدْكُوكاً.
الدَّكُّ: الدَّقُّ والتكْسِيرُ والْهَدْم فالمؤدَّى واحد.

أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ
أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾
ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا
﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ
فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ
وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا
حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ
أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ
مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ
فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

---

١٠٢ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [**مِنْ دُونِيَ أَوْلِيَاءَ**] بفتح ياء المتكلم وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان ياء المتكلم.

١٠٤ ـ ● قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [**يَحْسَبُونَ**] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَحْسِبُونَ**] وهما لغتان.

١٠٦ ـ ● قرأ حفص: [**هُزُوًا**].
وقرأها حمزة: [**هُزْءًا**] في الوصل. وكذلك خلف في الوصل والوقف.
وقرأها حمزة في الوقف: [**هُزًا**] و[**هُزْوًا**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**هُزُؤًا**].
وهي وُجوه في النطق.

١٠٩ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخَلَف: [**أَنْ يَنْفَدَ**] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَنْ تَنْفَدَ**].
وهما وجهان جائِزَان عربيًا، لأنَّ لفظ «كلمات» مجازيُّ التَّأنيث.

(٢)

مما ورد بشأن سُورَة (الكهف)

(١) روى مُسْلِمٌ وَأَحْمَد وغيرهما عَنْ أبي الدَّرْدَاء أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال:

«مَنْ حفظ عشْرَ آيَاتٍ من أول سورة الكهف عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال».

وأنّ رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ قرأ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الكَهْف عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال».

(٢) ورَوى البخاريّ ومُسْلِمٌ وَغَيْرُهما عَنِ البراء قال: قرأ رَجُلٌ سُورَة الكَهْفِ، وفي الدَّارِ دَابَّةٌ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَنَظَرَ فإذا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فقال:

«اقْرأْ فُلَانُ، فَإِنَّ السَّكِينَةَ نَزَلَتْ لِلْقُرْآن».

وجاء عند الطبراني أنَّ هـٰذَا الَّذِي كَانَ يَقْرَأُ هُو أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رضي اللهُ عنه.

(٣) وروى ابن مَرْدَوَيْه، والضياء في المختارة، عن عليّ رضي الله عنهُ، قال: قال رسول اللهِ ﷺ:

«مَنْ قرأ الكَهْفَ يَوْمَ الْجُمعَةِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إِلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ تَكُونُ، فإنْ خَرَجَ الدَّجَّالُ عُصِمَ مِنْهُ».

(٤) وروى الطبراني في الأوسط، والحاكم وصحّحهُ، والبيهقي، وغيرهم، عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأَ سُورَة الكَهْفِ كانَتْ لَهُ نُوراً مِنْ مَقَامِهِ إلى مكّة».

إلى غير هذه الأحاديث في فضائل سورة الكهف.

(٣)

مَوضُوع سورة (الكهف)

سورة (الكهف/ ٦٩ نزول) سورة عجيبةٌ ذَاتُ مَوْضوعٍ كُلِّي مُتَشابِكِ الْفُرُوعِ فِي دُرُوسِهَا وَآيَاتِها، وهـٰذَا الموضُوعُ الكُلِّيُّ يَتَعَلَّقُ بقَضَايَا كُبْرَىٰ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمان وَمُشْتَقَّاتٍ مِنْهَا، وَببَعْضِ مَا يُنَاقِضُهَا مِنْ بَاطِلِ الناس.

ولكِنَّ لَهَا خُطُوطاً رَئِيسَةً تَسِيرُ عليها، هي ما يلي:

الْخَطُّ الأوّل: خَطُّ الْقُرانِ المجيد.

- وَيَدْخُلُ في هـٰذَا الْخَطّ تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ أَن يَتْلُوَ مَا أَوْحَىٰ اللهُ إلَيْهِ مِنْه.
- ويَدْخُلُ فِيهِ بيانُ مَا اشتمل عليه القرآن من التصريف والتَّنْويع.
- ويَدْخُلُ فِيه بَيَانُ وظيفَةِ الرَّسُولِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وهِيَ تَبْلِيغ أحكام دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ.
- ويَدْخُلُ فِيهِ بَيَانُ حِكَمِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في مَجَارِي مَقَادِيرِهِ، الّتِي قَدْ يُوهِمُ ظَاهِرُهَا مُخَالَفَةَ أَحْكَام الشَّرْعِ، ومِنْهَا مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ والخضر عليهما السلام.

الخطُّ الثاني: خطُّ الْيَوْمِ الآخر.

- ويَدْخُلُ في هـٰذَا الخطَّ قِصَّةُ أصحاب الكهف.
- ويدخُلُ فيه قِصَّةُ الحوار بين الصَّاحِبَيْن، الغنيّ الكافِرِ بيوم الدّين صاحِبِ الجنَّتين، والفقير المؤمن الداعي إلى دين الله الحقّ.
- ويدخُلُ فِيه مَشَاهِدُ مِنْ مَشَاهِدِ القيامَةِ ويَوْمِ الدِّين، وبَعْضِ أحكامٍ تَتَعَلَّقُ بِهِ.

الخطّ الثالث: خَطُّ الكُفْرِ والْكَافِرِينَ، وبَعْضِ بَيَانَاتٍ تتعَلَّقُ به.

الخطُّ الرابع: تَرْبِيَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بالنِّسْبَةِ إلى عَدَدٍ من القضايا.

- وَيَدْخُلُ فِي هـٰذَا الخطّ مَا يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِ الرَّسُولِ ﷺ وحُزْنِهِ مِنْ أجْلِ الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ قَوْمِهِ.
- ويَدْخُلُ فِيهِ مَا هُوَ مُطَالِبٌ به.
- ويَدْخُلُ فِيه تَعْلِيمَاتٌ دَعَوِيَّةٌ له، وَيُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِه.
- ويَدْخُلُ فِيه التَّأْكِيدُ عَلَىٰ أَنَّ وَظِيفَةَ الرَّسُولِ الْبِشَارَةُ والإِنْذَارُ، بَعْدَ التَّبْلِيغ والبيان والْقِيامِ بوظائِفِ الرِّسَالَةِ المختلفة.
- ويَدْخُلُ فِيه بيانُ أَنَّ من وَظائِفِ الرَّسُولِ تَرْبِيَةَ الدُّعَاة وقادَةِ الفتح الإسْلَامي، مع ضَرْبِ مَثَلٍ تَاريخيٍّ للفاتِحِ المؤمن المسلم، وهُو ذُو القرنَيْنِ.
- وَيدْخُلُ فِيه بَيانَاتٌ مُرَافقاتٌ بِشَأْنِ بَعْضِ الأسْبابِ الَّتِي تَجْعَلُ الْكَافِرِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنِ الإيمان.

الخطّ الخامس: بيان أنَّ الغايَةَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ الابتلاء، مع بياناتٍ تَتعَلَّقُ بِمُشْتَقَاتِ مُلَائِمَاتٍ لبيان هَـٰذِهِ الغاية.

(٤)

دُروس سورة (الكهف)

تفكَّرْتُ في تَقْسِيم السُّورة إلى دُرُوس، فظهر لي أنَّ مِنَ الممْكِنِ تَقْسِيمهَا إلى (١١) دَرْساً:

الدرس الأوّل: الآيَات من (١ ـ ٨).

فِي هٰذَا الدَّرْس إلْماح لخُطُوط موضوع السّورة الخمسة الّتي سبَقَ آنفاً الحديث عَنْها، فَهُوَ بِمَثابَةِ عُنْواناتٍ لهٰذَا الموضوع.

الدرس الثاني: الآيات من (٩ ـ ٢٦).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ بيانُ قصة أصحاب الكهف، وضِمْنَها استطرادات وتعليقاتٌ قَيِّمَةٌ عظِيمَةٌ مِن المفهوماتِ الإسْلَامِيَّةِ الأصول.

ويمكن تَقْسِيمُهُ إلىٰ أرْبَعَةِ فُصُول.

الدّرْسُ الثالث: الآياتُ من (٢٧ ـ ٣١).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ تَوْجِيهاتٌ تَرْبَوِيَّةٌ، وَتَعْلِيمَاتٌ دَعَوِيَّةٌ، مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

الدَّرْسُ الرابع: الآيات من (٣٢ ـ ٤٤).

وفي هٰذَا الدّرْسِ بيانُ قِصَّةِ الحوار بَيْنَ الصَّاحِبَيْنِ:

- الغَنِيُّ الكافِرِ بِيَوْمِ الدِّينِ صاحِبِ الجنتَيْنِ، الّذِي صَارَ بَعْدَ نِكْبَتِهِ مؤمناً.
- والفقير المؤمِنِ الدَّاعِي إلى دِينِ اللهِ الحقّ.

الدَّرْسُ الخامس: الآيات من (٤٥ ـ ٥٠).

وَفِي هٰذَا الدَّرس بَيَانٌ إقْنَاعِيٌّ بِشَأْنِ الحياةِ الدُّنْيا وَنِهَايَتِهَا، مَعَ وَصْفِ بَعْضِ أحداثِ القيامَةِ وَيَوْمِ الدِّين.

الدرس السادس: الآيات من (٥١ ـ ٥٣).

وَفِي هٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ بشأنِ المشركين مَقْرُونٌ بإنْذَارهم بالعقاب الأَلِيمِ يَوْمَ الدِّين.

الدرس السابع: الآيات من (٥٤ ـ ٥٩).

وفي هـٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ بِشَأْنِ اشْتِمَالِ القرآنِ الْمَجِيدِ عَلَىٰ مَا يَكْفِي لْلإِقْنَاعِ، وَبَيَانُ لِعِلَّةِ الْمُعَانِدِينَ النَّفْسِيَّة، وَبَيَانٌ للْغَايَةِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسلِ، وَبَيَانٌ لِمَجَادَلَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ، مع بَيَانَاتِ مُرَافِقَاتٍ مُتَّصِلَاتٍ بما سبق.

الدرس الثامن: الآيات من (٦٠ ـ ٨٢).

وَفِي هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ المقصود بيانُهُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ والْخَضَرِ عَلَيْهِما السَّلَام.

الدّرْسُ التاسع: الآيَات من (٨٣ ـ إلى (يَمُوج في بعض) من الآية ٩٩).

وفي هـٰذَا الدَّرس بَيَانُ المقصود بيانُهُ مِنْ قِصَّةِ ذي الْقَرْنَيْن.

الدَّرْسُ العاشر: الآيَات من منْتَصف الآية (٩٩ ـ ١٠٢).

وفِي هـٰذَا الدَّرس عَرْضُ لقْطَةٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ مَقْرُونَةٍ بِتَلْوِيم وإِنْذَارٍ لِلْكَافِرِينَ.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (١٠٣ ـ ١١٠) آخر السّورة.

وَفِي هذا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ دَعَوِيٌّ موجَّهٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لرسُولِه ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ من أُمَّتِهِ.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي للدّرس الأوّل من دُروس سورة (الكهف) الآيات من (١ ـ ٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ① قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ

أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا
﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا
ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾».

القراءات:

(١) • سَكَتَ حَفْصٌ في حالَة الوصل عَلَىٰ ألف «عِوَجاً» من: **[عِوَجاً قَيِّماً]** سَكْتَةً لَطِيفَةً بِدُونِ تَنفُّسٍ. ولم يَسْكُتْها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ.

(٢) • قَرَأَ شُعْبَةُ: **[مِنْ لَدْنِهِي]** بإسكان الدّال مع إشْمَامِهَا الضّم، وكَسْرِ النون والهاء، وصِلَتِهَا بِيَاءٍ لَفْظِيَّة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مِنْ لَدُنْهُ]**.

(٢) • قرأ حمزة، والكِسَائِي: **[وَيَبْشُرُ]** من فعل «بَشَرَهُ» بمعنَىٰ «بَشَّرَهُ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَيُبَشِّرُ]** من فعل «بَشَّرَهُ» أي: أخبره بما يَسُرَّه ويُفْرِحه.

تَمْهيد:

في هـٰذَا الدَّرْس إلْمَاحٌ لخُطوطِ مَوْضوع السُّورة الخمسة، وهي خطُّ القرآن المجيد.

خطُّ اليوم الآخر.

خَطُّ الكُفرِ والكافِرين.

خَطُّ تَرْبِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بالنسبة إلى عِدَّةِ قَضَايَا.

٥ ـ خطُّ بيان أنَّ الغايَةَ من خَلْقِ النَّاسِ الابتلاء، مع بَيَانَاتٍ تتعلّق بمُشْتَقَّاتٍ مُلَائِمَاتٍ لبيان هَـٰذِهِ الغاية.

فَهُوَ يُشِيرُ إلى عُنْوَانَاتِ مَوْضُوعِ السُّورَة.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا . . . (٢)﴾.

- ﴿ٱلْحَـمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: كُلُّ الْحَمْدِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَدَ بِهِ مَحْمُودٌ مَا، اللهُ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ اسْتِحْقَاقَ اسْتِغْرَاقٍ شَامِلٍ.

- ﴿. . . ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ . . .﴾:

فِي هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ بَيَانُ المناسَبَةِ هُنَا الدَّاعِيَةِ إلى الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِأَنَّ لَهُ كُلُّ الْحَمْد، وهِيَ مُنَاسَبَةُ إِنْزَالِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ المشَرَّفِ بِعُبُودِيَّتِهِ الْكَامِلَةِ لِرَبِّهِ بإرَادَتِهِ الجازِمَةِ، الكِتَابَ الْخَاتِمَ لِكُتُبِ اللهِ للنَّاسِ وَهُوَ الْقُرْآنِ.

فَشَرَّفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِعُبُودِيَّتِهِ الكامِلَةِ لله، ووصَفَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ الكِتَابُ إشَارَةً إلى كَمَالِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْغَايَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي أُنْزِلَ مِنْ أَجْلِهَا، مع الدَّلَالَةَ عَلَىٰ وُجُوبِ تَدْوِينِهِ فِي كِتَابٍ لَا يَتَعَرَّضُ مَعَهُ لِأَيِّ تَغْيِيرٍ أَوْ زِيادَةٍ أَوْ نَقْصٍ، ويلاحظ أنَّ التَّعْبِيرَ بعبارة: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ مِنَ إطلاق الكُلِّ وإرادةِ الْبَعْضِ، أو أنزلَ ما أُنزِلَ مِنْهُ وسَيُنْزِلُ سَائِرَهُ عَلَىٰ وَفْقِ مَا قَدَّرَ وَقَضَىٰ.

- ﴿. . . وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١)﴾:

الْعِوَجُ: بِكَسْرِ الْعَيْنِ عَدَم الاسْتِقَامَةِ في الْأَشْيَاءِ المعنويَّة، كالفِكْر، والقَوْلِ، والمذهب، ومِنْهَاجِ السُّلُوك.

وعَدَمُ الاسْتِقَامَةِ خروج عَنْ صِرَاطِ اللهِ الحقّ، والقرآنُ كُلُّهُ لَا خُرُوجَ لشَيْءٍ فِيهِ عَنِ الحقِّ.

فالمعنَىٰ: أنْزَلَ اللهُ الْقُرْآن وَلَمْ يَجْعَلْ لِشَيْءٍ فِيهِ صِفَةَ الْعِوَجِ عَنِ الحق والصَّوَابِ وَمَا هُوَ الْأَحْكَمُ لِهِدَايَةِ الْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

والأظْهَرُ أَنَّ هَـٰذِهِ الْجُمْلَة حَالِيَّة فيما أرَىٰ.

- ﴿قَيِّمًا﴾: أي: مُسْتَقِيماً لَاعِوَجَ فِيهِ عَنِ الحقِّ والْخَيْرِ وَمَحَاسِنِ السُّلُوك.

جَمَعَ اللهُ فِي هـٰذَا الْبَيَانِ بَيْنَ سَلْبِ الْعِوَجِ وإثْبَاتِ الاسْتِقَامَة للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْقرآنَ مُبيِّنٌ صِرَاطَ الحقِّ المستقيمَ، إذْ قَدْ يُوصَفُ شَيْءٌ مَا بأنَّهُ لَاعِوَجَ لَهُ كالنُّقْطَةِ والْكُرَةِ، لَكِنْ لَا يُوصَفُ بأنَّهُ مُسْتَقِيمٌ، إذْ لَا امْتِدَادَ لَهُ، فجاءَ وَصْفُ الاسْتِقَامَةِ بَعْدَ نَفْيِ الْعِوَجِ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ صِرَاطٌ ذُو امْتِدَادٍ، وَهُوَ وَاقِعُ حَالِ الدِّينِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَىٰ بَيَانِهِ كِتَابُ اللهِ المجيد.

وهـٰذَا من إبْدَاعَاتِ القرآنِ البيانِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.

الإنْذَارُ: الْوَعِيدُ بما هو مَكْرُوه، والإعلامُ بِمَخُوفٍ مِنه.

البأسِ: الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، والشِّدَّةُ في الْحَرْب.

مِنْ لَدُنْه: **لَدُنْ**: ظَرفٌ زَمَانِيٌّ وَمَكَانِيٌّ بمنزلَةِ «عِنْد» إلَّا أَنَّهُ أقربُ مِنْ «عِنْد» وَأخَصُّ مِنْه. وَلَدُنْ مُلَازِمَةٌ للإضافة.

التَّبْشِيرُ: الإخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ وَيُفْرِح.

فالمعْنَىٰ: الحمْدُ للهِ الَّذي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ القرآنَ مُبيِّناً فِيهِ قَضَايَا الدِّين وأحْكَامَهُ، وَحَدَّدَ فِيهِ الصِّرَاطَ المسْتَقِيم لِلْمُوْضُوعِينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وأَبَانَ فِيهِ الْجزَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيُنْذَرَ عَنْ طَرِيقِ كِتَابه وبَلَاغَاتِ رَسُولِهِ الكُفَّارَ والْعُصَاةَ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ يَوْمَ الدِّينِ، ويُبَشِّرَ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ الَّتِي تُرْضِي اللهَ عَنْهُمْ بأجْرٍ حَسَنٍ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِيهِ أبداً في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، عَلَىٰ تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ فيها بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾:

أي: ويُنْذِرُ أيضاً عَنْ طَرِيقِ كِتَابِهِ وبَلَاغَاتِ رَسُولِهِ إنْذاراً خاصًّا غَيْرَ إنْذارِ عُمُوم الْكَافِرين، مُرْتكِبي عَظِيمَةٍ مِنْ عَظِيماتِ الْكُفْرِ، وهُمُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً مِنْ نَسْلِهِ أَوْ بالتَّبَنِّي مِمَّا خلَقَ، وَيَنْطَبِقُ هٰذَا عَلَىٰ النَّصارَىٰ، وبعضِ الْيَهُودِ، وبَعْضِ مُشْرِكِي الْعَرَب الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ الله.

- ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ...﴾: أي: مَا لَهُمْ بِهٰذَا الْقَوْلِ عِلْمٌ مَا وَلَوْ كَانَ مِنْ أَدْنَىٰ دَرَجاتِ الْعِلْم، لَا هم وَلَا آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلِهِم الذين ورِثُوا عَنْهُمْ مَقُولَتهم.

«مِنْ» زيدَت لِتَوْكِيد عُمُومِ النفي، والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

- ﴿... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ ...﴾:

- ﴿كَبُرَتْ﴾: صِيغَةُ «كَبُرَ» على وَزْنِ «فَعُلَ» جارِيَةٌ هنا مَجْرَىٰ «بِئْسَ» في الذَّمّ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالغة، مع زِيَادَةِ مَعْنَىٰ التَّعْجِيب من أَمْرِهم: أي: بِئسَتْ كَلِمَةً كَبِيرَةً شَنِيعَةً تَخْرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ، وأَعْجِبْ بِهِمْ كَيْفَ تَصْدُرُ عَنْهُمْ هٰذِهِ الكَبِيرَةُ الشَّنِيعَةُ، وهِيَ كَذِبٌ مَحْضٌ يَصِفُونَ بِهِ اللهَ رَبَّ

الْعَالَمِينَ، وَخَالِقَ كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَاه، فَهُوَ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ عَنِ الْوَلَدِ وَعَنْ كُلِّ شيءٍ، بِأَنَّ لَهُ وَلَداً.

- ﴿كَلِمَةً﴾: تَمْيِيزٌ للضَّمِيرِ الفاعِلِ المستَتِرِ في «كَبُرَتْ».

- ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: أي: تُخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمُ الصَّغِيرَةِ الْحَجْم كَلِمَةٌ كَبِيرَةٌ جِدًّا، شَدِيدَةُ الْقَبَاحَةِ والشَّنَاعَةِ تَتَفَاقَمُ شَنَاعَتُهَا تَفَاقُماً، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهَا، وتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ مِنْهَا هدّاً(١).

- ﴿... إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾: أي: مَا يَقُولُونَ بِكَلِمَتِهِم الكَبِيرَةِ الشَّنِيعَةِ الَّتِي يُكَرِّرُونَ وَصْفَ الله بِهَا إِلَّا قَوْلاً كَذِباً، افْتَرَاهَا شَيَاطِينُهُمْ وأَخْبَاثُهُمْ، وَقَلَّدَهُمْ في اعتقادِهَا وَتَرْدِيدِها أَتْبَاعُهُمْ ظُلْماً وَعُدْواناً، دُونَ إِذْنٍ لَهُمْ من اللهِ بذلك، ودُون حُجَّةٍ مَقْبُولَةٍ يَعْتَذِرُون بها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ:

- ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾:

- ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾:

كلمة «لَعَلّ» مستعملة هنا بمعنى الإشفاقِ بأسْلُوبِ الاستفهام. **أَسَفاً**: أي: حُزْناً.

وسَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ في سورة (الشعراء/٤٧ نزول) قولُهُ:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾.

---

(١) وكما سَبَقَ أنْ جاء في الآيات من (٨٨ ـ ٩٥) من سورة (مريم/ ٤٤ نزول).

﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾: أي: قَاتِلٌ نفْسَكَ يَا مُحَمَّدُ، أَصْلُ الْبَخْعِ فِي اللُّغَةِ أَنْ يَذْبَحَ الذَّابِحُ ذَبِيحَتَهُ، حَتَّىٰ تَبْلُغَ سكِّينُهُ قَرِيباً مِنْ فَصْلِ الرَّأْسِ كُلِّهِ عَنْ سَائِرِ جَسَدِها.

والنَّظَرُ التَّدَبُّرِيُّ فِي هَـٰذَيْنِ النَّصَّيْنِ يَكْشِفُ أَنَّهُمَا يَتَضَمَّنَانِ تَرْبِيَتَيْنِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ أَمْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْن.

فَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاء/ ٤٧ نزول) كَانَ بِشَأْنِ هَمِّهِ وَحُزْنِهِ وَخَوْفِهِ أَنْ لَا يَكُونَ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ مُؤْمِنِينَ، فَهُوَ حَرِيص أَنْ يُنْزِلَ اللهُ آيَةً من السَّمَاءِ تُطَأْطِئُ لَهَا أَعْنَاقُهُمْ وَيُؤْمِنُوا بِسَبَبِهَا، وَقَدْ قَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ بِشأْنِهِمْ أَنْ لَا يُنْزِلَ هَـٰذِهِ الآيَة.

وَمَا جَاءَ في سورة (الكهف/ ٦٩ نزول) كَانَ بِشَأْنِ مُجَاهَدَةِ الرسُولِ قَوْمَهُ مُجَاهَدَةً مُضْنِيَةً، وَهُمْ مُدْبِرُونَ عَنْهُ يَنْأَوْنَ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَهُوَ يُتَابِعُ آثَارَهُمْ وَيُلَاحِقُهُمْ للتَّأْثِيرِ عَلَيْهِمْ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُ مِنْ أَجْلِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيث، وَهُوَ القرآن كتابُ اللهِ المجيد.

وفي عبارة: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ مَعْنَىٰ الاسْتِفِهَام الْعِتابيِّ، وَقد سَبَقَ أَنْ أوصَاهُ اللهُ بأَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ، إذْ وَصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمْ الْحُرَّة، وذَلِكَ بقوله تَعَالَىٰ في سورة (النجم/ ٢٣ نزول):

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٢٩﴾.

وأَرَىٰ أَنَّ الْفَاءَ فِي ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَخْرَجَ بالتَّأَمُّل، والتقدير:

قَدْ أَدَّيْتَ وَظِيفَتَكَ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ الْوَجْهِ المطْلُوب مِنْكَ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مُعَانِدِي قَوْمِكَ، وَكُنَّا أَوْصَيْنَاكَ بِأَنْ تُعْرِضَ عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا فَأَدْبَرُوا وَنَأَوْا، لَكِنَّكَ مَا زِلْتَ تُلَاحِقُهُمْ، تُتَابِعُ دَعْوَتَهُمْ، وَمُجَاهَدَتَهُمْ، وَتَخْطُو فِي مَسِيرَتِكَ

الدَّعَوِيَّة عَلَىٰ آثَارِهِمْ، حِرْصاً مِنكَ عَلَىٰ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَلَعَلَّكَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ أَسَفاً إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا القرآن، هَوِّنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ الْأَمْرَ، وَلَا تَحْزَنْ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ، فَهُمْ مَوْضُوعُونَ في الْحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ لِإرَادَاتِهِمْ الحرَّة.

أَشْفِقْ على نَفْسِكَ يَا مُحَمَّد مِنْ أَنْ تُعَرِّضَهَا لِلْقَتْلِ بِسَبَبِ الْهَمّ والْغَمّ، مِنْ أَجْلِ قَوْمَ لَمْ يُشْفِقُوا هُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ بِهِ، مع اسْتِيقَانِ قُلُوبِهِمْ مِنْ صِدْقِ نُبُوَّتِكَ وَرِسَالَتِكَ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي تَتْلُوهُ عَلَيْهِم مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَبِمَا أَنَّ رِحْلَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رِحْلَةُ امْتِحَانٍ لِلْمَوْضُوعِينَ فِيهَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِي في البيانِ الْقُرْآنِيِّ بَعْدَ مَا سَبَقَ:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ⑦ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ⑧﴾:

الزِّينَة: مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ، **والتَّزْيِينُ**: جَعْلُ الشَّيْءِ مُلَائِماً لِمَا تَسْتَحْسِنُهُ النفوس، أو تُحِبُّهُ، أو تَشْتَهِيه.

لِنَبْلُوَهُمْ: لِنَخْتَبِرهم، ونَمْتَحِنَهُمْ.

الصَّعِيدُ: وَجْهُ الْأَرْض.

الْأَرْضُ الْجُرُز: هي الَّتِي اسْتُؤْصِلَ مَا عَلَيْهَا مِنْ نَبَاتٍ وَشَجرٍ فَصَارَتْ جَرْداءَ.

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظِيم الْجَلِيلِ مُبَيِّناً أَنَّهُ جَعَل بِحِكْمَتِهِ السَّنِيَّة كُلَّ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ مِمَّا تُحِبُّ النُّفُوسُ امْتِلَاكَهُ، أو الانْتِفَاعُ بِهِ، أو الاسْتِمْتَاعَ بالطَّيِّبِ مِنْهُ، والتَّلَذُّذَ بِمَا يَلَذُّهَا مِنْهُ، أَوِ التَّفَاخُرَ بِهِ، أَو

الاسْتِعْلَاءَ بِهِ والتَّقَوِّي عَلَىٰ النَّاسِ، إلى سَائِرِ مَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعٍ مُحَبَّبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ للنُّفُوسِ، جَعَلَهُ بِحِكْمَتِهِ زِينَةً لِلْأَرْضِ، تَتَعَلَّقُ بِهِ النُّفُوسُ والْقُلُوبُ بِصِفَةٍ عَامَّة.

وَالْغَرَضُ مِنْ هـٰذَا التَّزْيينِ أَنْ يَمْتَحِنَ جَلَّ جَلَالُهُ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وهـٰذَا الامْتِحَانُ يَكُونُ بِمُطَالَبَتِهِمْ بِتَرْكِ كَثِيرٍ مِمَّا يَهْوَوْنَ فِعْلَه، وَفِعْلِ كَثِيرٍ مِمَّا يَهْوَوْنَ تَرْكَهُ، وَكُلُّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَةِ اللهِ فيما يَطْلُبُ مِنْهُمْ فِعْلَهُ أَوْ تَرْكَهُ، وَهـٰذِهِ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي الْتِزَامَ الْحَقِّ وَنَبْذَ الْبَاطِلِ، وفِعْلَ الْخَيْر وتَرْكَ الشّرّ، واخْتِيَارَ الْأَفْضَلِ وَالْأَحْسَنِ وَالْأَرْفَعِ دَرَجَاتٍ في الصُّعُودِ الكَمَالِي فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

وَبِهـٰذَا الاخْتِيَارِ يَظْهَرُ أَيُّ الممتَحَنِينَ أَحْسَنُ عَمَلاً في دَرَجَاتِ الارْتِقَاءِ، وأيُّ الممتَحَنِينَ أَسْوَأُ عَمَلاً في دَرَكَاتِ الانْحِطَاطِ حَتَّىٰ الدَّرْكِ الْأَسْفَل.

جَاءَ الاسْتِغْنَاءُ بِذِكْرِ الشِّقِّ الصاعِدِ، عَنْ ذِكْرِ الشِّقِّ الهابِطِ المنْحِطّ، إذْ يَدُلُّ عَلَيْهِ تَقَابُلُ التَّضادّ.

وَهـٰذَا الامْتِحَانُ يَسْتَتْبِعُ الْحِسَابَ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ، وتَحْقِيقَ الجزاءِ، بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ الرَّبِّ الحكيم الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لهـٰذَا حَيَاةً أُخرَىٰ غَيْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وجَعَلَ فِيها دَارَيْنِ، دَاراً لِلْجَزَاءِ بالثواب وهي جَنَّاتُ النَّعِيم، وَدَاراً لِلْجَزَاءِ بالْعِقَابِ، وَهِيَ النَّارُ ذَاتُ الْعَذَابِ الْأَلِيم، عَلَىٰ دَرجَاتٍ وَدَرَكَاتٍ كُلٍّ مِنْهُمَا.

وَقَبْلَ الْبَعْثِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ سَيُنْهِي اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ نِظَامَ وَظُرُوف الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ:

- ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾:

أي: وَإِنَّا بِعَظَمَةِ قُدْرَتِنَا عَلَىٰ مَا نَشَاءُ، سَنَجْعَل مُسْتَقْبَلاً كُلَّ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ زِينَةً لها، مُسْتَأْصَلاً اسْتِئصَالاً تاماً، حَتَّىٰ يَصِيرَ وَجْهُ الْأَرْضِ خَالِياً مِنْ كُلِّ بِنَاءٍ وَشَجَرٍ وَنَبَاتٍ وَأَحْيَاءٍ، قاعاً صَفْصَفاً مُسْتَوِياً، فَلَا تَرَى في الْأَرْضِ عِوَجاً وَلَا أَمْتاً.

استعمل اسْمُ الفاعل في ﴿لَجَٰعِلُونَ﴾ بِمَعْنَىٰ الْفِعْلِ المضارع الدَّالّ على الاستقبال.

الأرْض الْجُرُزُ: التي اسْتُؤْصِلَ مَا عَلَيْهَا مِنْ شَيءٍ، مِنْ نَبَاتٍ وَشَجَرٍ فَصَارَتْ جَرْدَاءَ.

وَبِهَذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنْ دُرُوس سورة (الكهف)

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الكهف)

الآيات من (٩ ـ ٢٦)

وفِيهِ أَرْبَعَةُ فصول:

الفصل الأول من قِصّةِ أصحاب الكهف

الآيات من (٩ ـ ١٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩) إِذۡ
أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا
(١٠) فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ
ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا (١٢)﴾.

القراءات:

(١٠) ● قرأ أَبُو جعفر، وحمزة، وهِشَام: [**وَهَيِّي**] بياءٍ أخِيرَةٍ ساكِنَةٍ في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَهِيِّئْ**] بِهَمزَةٍ سَاكِنَةٍ أخِيرَةٍ وصلاً ووقفاً.

تَمْهيد:

فِي هَـٰذَا الْفَصْلِ مُلَخَّصٌ وَجِيزٌ لِقِصَّةِ أَصْحَابِ الكَهْف، وهُو بِمَثَابَةِ فاتِحَةٍ فَنِّيَّةٍ للدُّخُولِ في التَّفْصِيلَات المقْصُودِ بَيَانُهَا مِنْ قِصَّتِهِمْ.

قِصَّةُ أَهْلِ الكَهْفِ أَخْذاً مِن المؤرِخِينَ الموثُوقِ بِهِمْ:

كانَ أَصْحَابُ الكهف فِتْيَةً مِنْ أَهَالِي «أَبْسُس» وهِي بَلْدَةٌ مِنْ ثُغُورِ «طَرْسُوس» بَيْنَ حَلَب، وبِلَادِ أَرْمِينِيَةَ وأَنْطَاكِية.

ويظهر أَنَّهم تَنَصَّرُوا تَأَثُراً بالدّعَاةِ إلى النَّصْرَانِيَّةِ الموَحِّدين الَّذِينَ كانُوا يَأْتُونَ إلَىٰ الْبِلَادِ تَحْتَ سِتَارِ صَانِعِي الخيام، فَيَحُطُّونَ رِحَالَهُمْ خَارِجَ مَسَاكِنِهَا، وَيَصْنَعُونَ الخيامَ لِطُلَّابِها، وَيَدْعُونَ إِلَىٰ الإيمان بالله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِلَىٰ نَبْذِ الْوَثَنِيَّاتِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي مُعْظَمِ بِلَادِ الدُّنيا، مَا تَيَسَّرَ لَهُمْ ذَلِكَ مُسْتَخْفِينَ.

وَكَانَ أَهْلُ «أَبْسُس» وثَنِيِّينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَام.

وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ الَّذِينَ آمَنُوا بِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ دِينِ حَقٍّ، فِي زَمَنِ الإمْبراطور «دُوقْيُوس» أو «دُقْيَانُوس» الَّذِي لَمْ يَدُمْ مُلْكُهُ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ واحدة، هي سنة «٢٣٧م» وَكَانَ شَدِيدَ التَّعَصُّبِ لِلْوَثَنِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَشَدِيدَ الكراهِيَّة للنَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي يَنْشُرُهَا دُعَاتُهَا في مُخْتَلِفِ الأَقَالِيم.

وأظْهَرَ هؤلَاءِ الْفِتْيَةُ الَّذِينَ تَنَصَّرُوا كراهِيَتَهُمْ، وَمُقَاوَمَتَهُمْ لِلْوَثْنِيَّةِ الَّتِي هِيَ دِيَانَةُ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ في أَيَّامِهِمْ، فأنْذَرَهُمْ «دُوقْيُوس» إذا لَمْ يَعُودُوا إلى مِلَّةِ قَوْمِهِمْ الْوَثْنِيَّةِ بالتَّعْذِيبِ والْقَتْلِ.

فاتَّفَقَ هؤلاء الْفِتْيَةُ على أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَدِينَةِ «أَبْسُس» وَيَأْوُوا إِلَىٰ كَهْفٍ في جَبَلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المدينة قُرَابَةُ فَرْسَخَيْن، وَهما (٦) أميال، تُقَدَّرُ بنحو (٩,٦) كيلو متراً وزيادة.

وحَاول «دُوقْيُوس» تَنْفِيذَ مَا تَوَعَدَهُمْ بِهِ لَكِنْ عَاجَلَتْهُ مِنِيَّتُه.

وضَرَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ مَوْتَةً مُؤَقَّتَةً، بَعْدَ أَنْ أَوَوْا إلى الكَهْفِ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ إِلَىٰ الْحَياة، بَعْدَ سِنِينَ طَوِيلَة، وَظَنُّوا أَنَّ نَوْمَتَهُمْ لَمْ تَطُلْ أَكْثَرَ مِنْ يَوْمٍ، وَأَحَسُّوا بالحاجَةِ إلى الطَّعَامِ، فأرْسَلُوا واحداً مِنْهُمْ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ طَعَاماً بِفِضَّةٍ مَضْرُوبَةٍ نُقُوداً، فَرَأَى النَّاس غَيْرَ مَنْ يَعْرِفُ، وَرَأَىٰ أَنَّ النُّقُودَ الَّتِي يَتَعَامَلُ بِهَا النَّاسُ على غَيْرِ صُورِ نُقُودِهِم الفِضِيَّة، وبذلِكَ انْكَشَفَ أمْرُهِ وأَمْرُ أصْحَابِهِ، وَكَانَ دِينُ الدَّولَةِ الرُّومَانِيَّةِ قَدْ تَغَيَّرَ، وَصَارَ للدِّيَانَةِ النصرانِيَّة انْتِشَار.

ويَظْهَرُ أَنَّ بَعْضَ رِجالِ الدَّوْلَةِ قَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ الكَهْفِ الَّذِي أَوَىٰ الْفِتْيَةُ إِلَيْهِ، وَرَأَوْا هَٰؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ وَحَادَثُوهُمْ وَعَرَفُوا قِصَّتَهُمْ، وَلَمْ يَطُلْ بِهِمُ الْأَمْرُ، إِذْ أَعَادَهُمُ اللهُ إِلَىٰ الْمَوْتِ.

واخْتَلَطَتْ رِوَايَاتُ مُؤَرِّخِي قِصَّتِهِمْ اخْتِلاطاً يَدْعُو إلى الإعراضِ عَنْهَا، وَعَدَم الثِّقَةِ بِشَيْءٍ مِنْهَا، وَحَسْبُنَا مَا جَاءَ فِي القرآن المجيد بِشَأْنِهِم، وَدَلَالَةِ بَعْثِهِمْ بَعْدَ (٣٠٠) سنَة شَمْسِيَّة، عَلَىٰ بَعْثِ اللهِ الْمَوْتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخاطِبُ كُلَّ مُتَلَقٍّ صَالِحٍ للخطاب:

- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾:

- ﴿أَمْ﴾: يَنْحَلُّ مَعْنَاهَا إلى «بَلْ» الَّتِي هي للإضراب الانْتِقَالِي مع استفهام.

- ﴿حَسِبْتَ﴾: أي: ظَنَنْتَ ظَنًّا تَوَهُّمِيًّا ضَعِيفاً.

- ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾: أيْ: أنْ أصْحَابَ الكَهْفَ المؤمنين الَّذِينَ تَوَفَّيناهُمْ تَوَفِّيَا رُقَادِيًّا مِئَاتٍ مِنَ السِّنين، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ أحْيَاءً فِي الدُّنيا.

- ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: **الرَّقِيم**: أي: المرقُوم بمَعْنَىٰ المكْتُوب، فَهُو يُطْلَقُ على لَوْحٍ كُتِبَتْ عَلَيْهِ كتابَةٌ ما، ويُطْلَقُ عَلَىٰ كِتَابٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ ما.

والرَّاجِحُ أَنَّ المُرَادَ لَوْحٌ مَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ أَسْمَاؤُهُمْ وَبعْض مَا يَتَعلَّقُ بِقِصَّتِهِمْ، وَكَيْفَ تَوَفَّاهُمْ رَبُّهُمْ سِنِينَ كَثِيرَةً ثُمَّ بَعَثَهُمْ.

- ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾: **الْعَجَب**: الأمْرُ الخارِقُ المثِيرُ للدَّهْشَةِ لِغَرَابَتِهِ، يُقَالُ: هـٰذَا أَمْرٌ عَجَبٌ، أي: مُثِيرٌ للدَّهْشَةِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَأْلُوفِ الشَّبِيهِ.

والمعنى: أَتَحْسَبُ تَوَهُّماً أَنَّ قِصَّةَ هؤلَاءِ مُتَمَيِّزَةٌ بِكَوْنِها أَمْراً عَجَباً، مِنْ بَيْنِ سَائِرِ آيَاتِنَا الْعُظْمَىٰ فِي كَوْنِنَا.

إنَّ هـٰذَا الظَّنَّ التَّوَهُّمِيَّ لَا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ، إذْ كُلُّ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ مُثِيراتٌ للدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ الْعُجَاب، وَلَا دَاعِي لَهُ إِلَّا الْغَفْلَةُ عَنْ سَائِرِ آيَاتِ اللهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْفُسِ، وَقَضِيَّةُ الْوَفَاةِ بالرُّقَادِ والْبَعْثِ بَعْدَ مِئَاتِ السِّنِينَ مِنْ صُغْرَيَاتِ آيَاتِ اللهِ، إِنَّ تَحْوِيلَ المادَّةِ الَّتِي لَا حَيَاةَ فِيها إِلَىٰ حَيٍّ لَهُ صِفَاتُ الْأَحْيَاءِ الرَّاقِيَّةِ أعْظَمُ مِمَّا أجْرَاهُ الْخَالِقُ لِأَصْحَابِ الكهْف، على أَنَّ كُلَّ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدْرَتِهِ سَوَاءٌ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ ـ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ بأمْرِ التَّكْوِين.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ⑩﴾.

- ● ﴿إِذْ﴾: ظَرْفٌ للزَّمَنِ الماضِي.

- ● ﴿أَوَى﴾: بمعنى نَزَلَ وسَكَن، يُقَالُ لغةً: «أَوَىٰ المَكَانَ، وأَوَىٰ إِلَيْهِ» أي: نَزَلَ بِهِ وَسَكَنَهُ.

- ● ﴿ٱلْكَهْفِ﴾: تَجْوِيفٌ فِي باطِنِ جَبَلٍ لَهُ مَدْخَلٌ يُدْخَلُ إِلَيْهِ مِنْهُ، وهو أَكْبَرُ وَأَوْسَعُ مِنَ: «الغار». «وال» في لفظ: «الكهف» للجنْسِ.

المعنى: ضَعْ فِي ذَاكِرتِكَ أَيُّها المتَلَقِّي قِصَّةَ الْفِتْيَةِ المؤمِنينَ الّتِي بَدَأَتْ حِينَ أَوَوْا إِلَىٰ الكَهْفِ فِراراً بِدِينِهِم الحقِّ، مِنْ طُغْيانِ الكَفَرَةِ ذوي البأسِ والسُّلْطَانِ، الَّذِينَ تَوَعَّدُوهم بالتَّعْذِيب والْقَتْلِ، إِذَا لَمْ يَعُودُوا إِلَىٰ دينهم الْوَثَنِيّ.

وحِينَ أَوَوْا إلى الكَهْفِ دَعَوْا رَبَّهُمْ قائِلِينَ:

- ● ﴿... رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾:

أي: يَا رَبَّنَا أعطِنَا مِنْ أَقْرَبِ عِنْدِيَّةٍ لَكَ، أَثَرَ رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ تَحْمِينَا بِهَا مِنْ أَعْدَاءِ دِينِكَ، الَّذِينَ تَوَعَّدُونَا بالتَّعْذِيب والْقَتْلِ، لِأَنَّنَا آمَنَّا بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُكَ، وَقُمْنَا نَدْعُو إِلَيْهِ فِي قَوْمِنَا، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا فِي حَيَاتِنَا سُلُوكاً رَشداً، مُوَافِقاً لِمَا يُرْضِيكَ مِنَّا، اعْتِقَاداً، وقَوْلاً، وَعَمَلاً، وخُلُقاً.

الرَّشَدُ، والرُّشْدُ، والرَّشادُ: السُّلُوكُ الْفِكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ، والْعَمَلِيُّ، الموافِقُ لِلْحَقِّ والصَّوَابِ، أو لِمَا هُوَ الأَفْضَلُ والأَحْسَنُ، والأَكْثَرُ نَفْعاً، والأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

وبِهٰذَا الدُّعاء طَلَبُوا الْحِمَايَةَ مِنَ اللهِ، وَطَلَبُوا أَنْ يُهَيِّئَ لَهُمْ سُلُوك

الصِّرَاطِ المسْتَقِيم، الَّذِي يُحَقِّقُونَ بِهِ رِضْوَانَهُ، والظَّفَرِ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ⑪ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ⑫﴾:

- ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾:

الضَّرْب: إلْصَاقُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ بِقُوَّةٍ وعُنْفٍ، وَقَدْ يَنْفُذُ المضْرُوبُ بِهِ إلى عُمْقِ المضْرُوب، كالضَّرْبِ بالسَّيْفِ أو الرُّمْحِ أوِ السِّكِّينِ، أو نحوها.

أي: وَعقِبَ دُخُولِهِمْ إلى الكَهْفِ وَدُعَائِهِمْ، واضطجاعِهِمْ للرّاحَةِ بَعْدَ سَيْرِهِم الطَّوِيل إلَيْهِ، ضَرَبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِمَضْرُوبٍ مَا هُوَ يَعْلَمُهُ، جَعَلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سَبَباً لِإنَامَتِهِمْ إنَامَةً طَوِيلَةً، هِيَ بِمَثَابَةِ الْوَفَاةِ الصُّغْرَىٰ.

وَقَدْ يَكُونُ الْمَضْرُوبُ بِهِ نَافِذاً إلَىٰ مَرَاكِزَ فِي آذَانِهِمْ، تُؤَثِّرُ عَلَىٰ جِهَازِ النَّوْمِ فِي أدْمِغَتِهِمْ، فَتجْعَلُهُمْ يَنَامُونَ نَوْماً عَمِيقاً كَالمُخَدَّرِينَ تَخْدِيراً كَامِلاً لإجراء الجراحَةِ في أَجْسَادِهِمْ.

- ﴿. . . فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾: أي: فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ حَالَةَ كَوْنِهِمْ مضطَجعِينَ في الكَهْفِ، وَجَعَلْنَا هـٰذَا الضَّرْبَ مُسْتَمِراً سِنِينَ ذَوَاتَ عَدَدٍ كَثِيرٍ، بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَفْهُومِ النَّاسِ فِي مُعْتَادَاتِهِمْ.

دَلَّ لَفظ «عَدَداً» عَلَىٰ كَوْنِهِ كثِيراً، إذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَثِيراً لِمَا احْتَاجَ وَصْفُ «سِنينَ» به.

«عَدَداً» مَصْدَرُ «عَدَّدَ الشَّيْءَ» بِمَعْنَىٰ «عَدَّه».

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ السِّنِينَ الكَثِيرَةِ الَّتِي جَعَلْنَاهُمْ فيها رُقُوداً أَيْقَظْنَاهُمْ.

«**الْبَعْث**» من معانيه الإيقَاظُ مِنَ النَّوْم.

- ﴿. . . لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾:

الحزْب: الجماعَةُ المتفقَةُ المتناصِرَةُ على أمْرٍ ما.

- ﴿أَحْصَىٰ﴾: يقال لغة: «أَحْصَىٰ الشّيءَ» أيْ: عَرَفَ مِقْدَارَه. وعند سيبويه وابْن عُصْفُور يجُوزُ أن يكون «أحْصَىٰ» اسْمَ تفضيل إذْ يَجُوزُ عندهما صوغ اسْمِ التفضيل «أفْعَل» من الْفِعْلِ المزيد قياساً مُطَّرِداً.

- ﴿أَمَدًا﴾: **الأَمَدُ**: الغايَةُ والنِّهايَة، فأمَدُ الشيءِ غايتُه ونهايَتُه.

والأمد: الزمن الذي يكُونُ غَايَةَ الأجل، وتَكُونُ عنْدَهُ نِهايَةِ المدَّة، ويُطْلَقُ الْأَمَدُ على الزّمن الذي يَبْدأ عِنْدَ عُمْرُ الشيْءِ الحادث، كوقْتِ مِيلادِ الحيّ. و﴿أَمَدًا﴾ تمييز، وهو من تمييز نِسْبَةِ الفِعْلِ إلى المفعول.

واللُّبْثُ: هُو الإقَامَة في المكان.

وَذِكْرُ «الْحِزْبَيْن» دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِينَ اكْتَشَفُوهُم مِنْ أَهْلِ المدينَةِ، الَّتِي كَانُوا قَدْ فَرُّوا مِنْ طُغْيَانِ جَبَّارِها، قد انْقَسمُوا إلَىٰ فَرِيقين. في تَحْدِيدِ مُدَّةِ رُقُودِهِمْ في الكَهْفِ، أَخْذاً مِنْ أَقْوَالِ أَهْل الكهْفِ، واسْتِنْباطاً مِنْ نُقُودِ الْفِضَّةِ الَّتِي كانَتْ مَعَهُمْ، وَهـٰذَا بَعْدَ أَنْ رَجَعَ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُمْ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ طَعَاماً، وأمَاتَهُمُ اللهُ بَعْدَ إيقاظِهِم، فَفَرِيقٌ مِنَ الْحِزْبَيْنِ كانَ أَقْرَبَ إِلَىٰ إِحْصاءِ الزَّمَنِ الّذِي بَدَأ عِنْدَهُ دُخُولُهُمْ إِلَىٰ الكَهْف.

فالمعنى: ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ بَعْدَ رُقُودِهِمُ الطَّوِيلِ سِنِينَ ذَوَاتَ عَدَدٍ كثيرٍ، لِنَعْلَمَ أَنَّ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ الحِزْبَانِ في أَمَدِ لُبْثِهِمْ في الكَهْفِ؛ بَعْدَ عُثُورِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، مُطَابِقٌ لِمَا سَبَقَ عِلْمُنَا بِهِ، لَمْ يَخْتَلِفْ عَنْهُ فِي شيْءٍ صَغِيرٍ وَلَا كبير، وَهـٰذَا مِنْ خَصَائِصِ الْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ الشَّامِلِ لِمَا كَانَ، وَلِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَلِمَا سَيَكُونُ، وَلِمَا سَوْفَ يَكُونُ، وَلَوْ كَانَ مِنَ اخْتِيَارَاتِ الَّذِينَ مَنَحَهُمْ اللهُ إِرَادَاتٍ حُرَّة.

وقَالَ اللهُ ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: وَلِنُعْلِمَكُمْ بِشُمُولِ عِلْمِنَا السَّابقِ لِمَا تَخْتَارُونَ آنَاً فآناً بإرَادَاتِكُمْ الْحُرَّة، فَقَدْ سَبَقَ عِلْمنَا به، وَيُطَابِقُ عِلْمُنَا بِهِ بَعْدَ الْوُقُوع مَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُنَا، دُونَ أَنْ يَكُونَ مِنَّا جَبْرٌ لإرَادَاتِ ذَوِي الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ في اخْتِيَارَاتِها.

نُعْلِمُكُمْ بهذه الحقيقة المتَعَلِّقَةِ بِشُمُولِ عِلْمِنَا، وَإِنْ كَانت عُقُولُكُمْ عاجِزَةً عَنْ إدْراكها، كَمَا هِيَ عاجِزةٌ عن إدْرَاكِ الأزَلِ والْخَلْقِ مِن العدم، وغيرِ ذَلِكَ ممَّا لَا تَصِلُ عُقُولُكُمْ إلَىٰ إدْراكه.

الفصل الثاني من قصّة أصحاب الكهف

الآيات من (١٣ ـ ١٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾.

القراءات:

(١٦) ● قرأ السُّوسي، وأَبو جعفر، وحمزة: **[فَاوُوا]** بألف مَدِّية بَعْدَ الفاء في الوقف فقط.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَأْوُوا]** بهمزة ساكنة وصلاً ووقفاً.

(١٦) ● قَرَأَ أَبو جَعْفَر: **[وَيُهَيِّي]** وَصْلاً ووقفاً، وكذلك حَمزة، وهشام في الوقف فقط.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَيُهَيِّيءْ**] وصلاً ووقفاً.

(١٦) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [**مَرْفِقاً**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِرْفَقاً**].

وهما لغتان عَرَبِيَّتان بِمَعْنَىٰ الانْتِفَاعِ والاسْتِعَانَةِ.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الْفَصْلِ مَقْطَعٌ تَفْصِيليٌّ أَوَّلُ من قِصَّةِ أَصْحابِ الكَهْف.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلّمِ العظيم الذي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً:

• ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

• ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾: أي: نَحْنُ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِنَا وشُمُولِ عِلْمِنَا كُلَّ شيءٍ كَانَ، أَوْ هُوَ كائِنٌ، أَوْ سَيَكُونُ، نُحَدِّثُكَ بِمَا قَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ نُحَدِّثَكَ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ أَصْحَابِ الكَهْف.

الْقَصُّ: تَتَبُّعُ الأثَرِ شَيْئاً فَشَيئاً. ويُقَالُ لغةً: «قَصَّ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ الْخَبَرَ» أي: حَدَّثَهُ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

• ﴿نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: أي: خَبَرَ أَصْحَابِ الكَهْفِ الْبَارِزَ ذَا الشَّأْنِ مُتَّصِفاً بأنَّهُ حقٌّ.

النَّبَأُ: الْخَبَرُ البارِزُ ذُو الشَّأْنِ الرَّفِيعِ الَّذِي يَشْغُلُ الأَفْكَارَ.

• ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾: أي: إِنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ فِتْيَةٌ.

الْفِتْيَةُ: جَمْعُ «الْفَتَىٰ» وهُو الشَّابُّ أَوَّل شَبَابِهِ بَيْنَ المراهَقَةِ والرُّجُولَة.

• ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾: أي: خَطَوَا بِإِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ الْخُطُوَاتِ الأُولَىٰ في صِرَاطِ الْهُدَىٰ، فَآمَنُوا بِرَبِّهِمْ، وَهٰذَا الإِيمَانُ الصَّحِيحُ هُوَ مِفْتَاحُ الْمَسِيرِ السَّلِيمِ فِي صِرَاطِ الْهُدَىٰ، فزادَهُمُ اللهُ هُدَىٰ بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ لِيُتَابِعُوا الْمَسِيرَ عَلَىٰ صراط اللهِ المستقيم في الْأَقْوَالِ والأَعْمَالِ والنِّيات.

ونَفْهَمُ مِنْ هٰذَا أَنَّ مَنْ بَدَأَ بِإِرَادَتِهِ الحرَّةِ خُطْوَةَ الْإِيمانِ الأولى، فآمَنَ إيماناً صَحِيحاً، زَادهُ اللهُ هُدًى بِمَعُونَتِهِ وتَوْفِيقِهِ وحفْظِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يتابعُ قِصَّة أصْحَاب الكهف:

• ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾:

• ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: الرَّبْطُ عَلَىٰ الْقَلْبِ أو الْقُلُوبِ في دَلَالَات النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّة مَعْنَاهُ التَّثبيتُ والتَّقْوِيَةُ، للتَّحمُّلِ والصَّبْرِ، والثِّقَةِ باللهِ والتَّوكُّلِ عَلَيْهِ، وهُوَ مِنْ قَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ الْقَائِمَةِ عَلَىٰ تَشْبِيهِ الْقَلْبِ بِشَيْءٍ قَابِلٍ للتَّمزُّقِ والتوزُّعِ في الْجِهَاتِ، فَإِذَا أُدِيرَ عَلَيْهِ حَبْلٌ وَرُبط طَرَفَاهُ، مَنَعَهُ هٰذَا الرَّبْطُ من التَّمزُّقِ والتَّوزُّعِ، بِسَبَبِ الضَّوَاغِطِ الْمُمَزِّقَةِ لَهُ مِنْ دَاخِلِهِ، كالْخَوْفِ، والْحُزْنِ، والطَّمعِ، والْحُبِّ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَوَاطِفِ الْمُفَجِّرَة.

• ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: وثَبَّتْنَاهم وَقَوَّيْنَاهُمْ حِينَ قَامُوا بِجُرْأَةٍ وَشَجَاعَةٍ في كُبَرَاءِ قَوْمِهِم المشْرِكِين، دَاعِينَ إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ وإِلَىٰ نَبْذِ الشِّرْكِ، فَقَالُوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، لَا أَوْثَانُكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَها وَتَتَّخِذُونَهَا أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ.

وَهٰذَا يَدْخُلُ فِي عموم: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

وتابَعَ الْفِتْيَةُ المؤمِنُون دَعْوَتَهُمْ فِي كُبَرَاءِ قَوْمِهِم: فقالوا:

- ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

نَفْهَمُ مِنْ هـٰذَا الْبَيان أَنَّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِمْ أَلْزَمُوهم بأنْ يَعُودُوا إِلَىٰ الشِّرْكِ، فقالُوا لَهُمْ بِجُرْأَةٍ وَشَجَاعَةٍ وَثَبَاتٍ وَحَزْمٍ: لَنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِ رَبِّنَا رَبِّ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ إِلَهاً، فاقْطَعُوا أَمَلَكُم بإعادَتِنَا إلىٰ الشِّرْك.

واعْلَمُوا أَنَّنَا إِنْ قُلْنَا بِوُجُودِ إِلَهٍ غَيْرِ رَبِّنَا، فَنُقْسِمُ أننا لَقَدْ قُلْنَا إِذاً قَولاً فِيهِ شَطَطٌ عَظِيمٌ، وَجَوْرٌ، وَظُلْمٌ، وَمُجَاوَزَةٌ لِلْحَقِّ بَعِيدَةٌ.

الشَّطَطُ: الجوْرُ، والظُّلْمُ، وَمُجَاوَزَةُ حَدِّ الحقِّ وَواجِبِ الْعَدْلِ، بإفْرَاطٍ لَا تَقْبَلُهُ العقولُ السَّلِيمَة.

﴿إِذًا﴾: يَقُولُ عُلَماء الْعَرَبِيَّةِ هِي هُنَا لَغْوٌ، لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا مُفْتَقِرٌ إِلَىٰ مَا بَعْدَهَا، وأَقُولُ: هِيَ بِمَعْنَىٰ «حِينَئِذٍ». أي: لَقَدْ قُلْنَا حينَئِذٍ شططاً، نظراً إلى مُخْتَلِفِ اسْتِعْمَالَاتِهَا، واللهُ أعلم.

واسْتُعْمِلَ فِعْلُ «نَدْعُوا» ومُشْتَقاتُهُ في القرآن بِمَعْنَىٰ نَعْبُد كثيراً. لِأَنَّ الدُّعَاءَ بِمَعْنَىٰ طَلَبِ مَرْغُوبٍ فِيهِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هو من العبادة للهِ تباركَ وَتَعَالَىٰ، وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَاتِ، بَعْدَ الإيمان.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً قِصَّةَ أَصْحَابِ الكهف:

- ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنِۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ⑮﴾:

دَلَّ هـٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ فَارَقُوا قَوْمَهُمْ بَعْدَ دَعْوَتِهِمْ بما سَبَقَ بَيَانُه، فَقَالُوا فِي حَدِيثٍ تَبادَلُوهُ بَيْنَهُمْ مُعْتَزِلِينَ جَماهِيرَ قَوْمِهِمُ الْمُشْرِكِين، خُلَاصَتُهُ مَا يلي:

(١) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾: أَيْ: هـٰؤلَاءِ قَومُنا

السُّفَهَاءُ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ رَبِّهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَهُ الحقُّ وَحْدَهُ أَنْ يَعْبُدوه، آلِهَةً يَعْبُدونها لاعْتِقَادِهِمْ بأنَّ لَهَا رُبُوبِيَّةً ما، فَهُمْ يَرْجُونَ أَنْ تَجْلُب لَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَتَدْفَعَ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُم.

(٢) ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾: أي: إِنَّهُم لَمَّا حَاوَرْنَاهُمْ لم يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَأْتُوا بِدَلِيلٍ ما تَقْبَلُهُ العقول، هَلَّا يأْتُونَ بِبُرْهَانٍ وَاضِحٍ عَلَىٰ صِحَّةِ عِبَادَتِهِمْ لِآلِهَةٍ مِنْ دُون الله، حتَّىٰ يَكُونُوا مَعْذُورينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وعِنْدَ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ مِنَ الناس.

- ﴿لَّوْلَا﴾ حَرْفُ تَحْضِيضٍ بِمَعْنَىٰ «هَلَّا».
- ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي: بِحُجَّةٍ بِرْهَانِيَّةٍ واضِحَة.

(٣) ﴿... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾: أي: وإذْ لَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلَىٰ شِرْكِيَّاتِهِم المتَعَلِّقَةِ بِرَبِّهِم رَبِّ السَّمَاوات والْأَرْضِ، فَهُمْ ظَالِمُونَ مِنْ أَخَسِّ دَرَكَاتِ الظُّلْم. وَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ هَـٰذِهِ الفِكْرَةِ بأسْلُوب الاسْتِفْهَام الَّذِي يُرَادُ بِهِ النفي، أيْ: لَا أَحَدَ أَشَدُّ ظُلْماً مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً.

افْتِراءُ الكَذِبِ: اخْتِلَاقُ الكَذِبِ واصْطِنَاعَهُ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ كَذِبٌ مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ والْوَاقِعِ، ومِنْهُ الْتِزَامُ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا بُرْهَانَ له.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً قِصَّةَ أَصْحَابِ الكَهْفِ ومُبَيِّناً مَا قَالُوا:

- ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾:

الاعْتِزَال: الْبُعْدُ والتَّنَحِّي عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي حَصَلَ الاعْتِزَالُ عَنْهُ، مادِّياً أَوْ مَعْنَوِيًّا.

- ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: وَكُلَّ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ مَعْبُودَاتٍ وَمَعْبُودِين، باسْتِثْنَاءِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

- ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾: أي: فَاجْعَلُوا مَسْكَنَكُمْ الَّذِي تُقِيمُونَ فيه، الكَهْفَ المناسِبَ لَكُمْ الَّذِي اخْتَرْتُمْ أَنْ تحتَمُوا بِهِ، حَتَّىٰ لَا يَعْتَدِي عَلَيْكُمْ كُبَرَاءُ قَوْمِكُمْ، الَّذِينَ سَخِطُوا أَنْ تَتْرُكُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ وَثَنِيَّاتٍ، وَتُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَوَعَّدُوكُمْ بالتَّعْذِيبِ والْقَتْل.

- ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: **النَّشْرُ**: الْبَسْطُ والمدُّ، وَتَوْسِيعُ وَجُودِ الشَّيْءِ أَوْ أَجْزَائِهِ فِي أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَة، بِحَسَبِ قُوَّةِ النَّشْرِ، والغايَةِ الَّتِي يَصِلُ إِلَيْها.

أي: فأْوُوا إِلَىٰ الكَهْفِ مُحْتَمِينَ بِهِ، يَبْسُطْ لَكُم رَبُّكُمْ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ مَا يَحْفَظُكُمْ ويَحْمِيكُمْ بِهِ، وَمَا تَطْمَئِنُّ بِهِ قُلُوبُكُمْ مِنْ أَمْنٍ وَراحَةٍ، وَمَا تَطْلُبُونَ مِنْ حَيَاةٍ طَيِّبَةٍ، فَهٰذَا الكَهْفُ بَعِيدٌ عَنْ عُيُونِ أَهْلِ مَدِينَتِكُمْ، وَمَجْهُولٌ لَهُمْ غَيْرُ مَعْرُوفٍ أَنَّهُ مَلْجَأٌ مُنَاسِبٌ لِلْفَارِّين.

- ﴿... وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾: أَيْ: وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ حَيَاتِكُمْ وَرِزْقِكُمْ، بعِنَايَتِهِ بِكُم، وَبِأَلْطَافِهِ الْخَفِيَّةِ، مَا تَرْتَفِقُونَ بِهِ، أَيْ: مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَتَسْتَعِينُونَ بِهِ، فِي حَاجَاتِ حَيَوَاتِكُمْ وَمَطَالِبِكُمْ فيها.

فأنامَهُمُ اللهُ عَزَّ/وَجَلَّ ولَمْ يُحْوجهمْ إِلَىٰ طَعَامٍ وشَرابٍ ونحوهما.

* * *

الفصل الثالث من قِصَّةِ أصحاب الكهف

الآيتان (١٧ و١٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ

وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾.

القراءات:

(١٧) • قرأ ابن عامر، ويعقوب: **[تَزْوَرُّ]**.

وقرأها عاصم، وحمزة، والكِسَائي: **[تَزَاوَرُ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَزَّاوَرُ]**.

(١٧) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأَبُو جعفر: **[فَهُوَ الْمُهْتَدِي]** في الوصل.

وكذلك يعقوب في الوصْلِ والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَهُوَ الْمُهْتَدِ]** بِحَذْفِ الياء وصلاً ووقفاً.

(١٨) • قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: **[وَتَحْسَبُهُمْ]** بفَتْح السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَتَحْسِبُهُمْ]** بِكَسْرِ السين.

وهما لغتان عَرَبيتان.

(١٨) • قرأ نافع، وابْنُ كثير: **[وَلَمُلِّئْتَ]** بتَشْدِيد اللام المكسورة، وهمزة ساكنة بَعْدَها.

وقرأ السُّوسي: **[وَلَمُلِيتَ]** بلام مَكْسُورَةٍ غير مُشَدَّة، وبإبْدَالِ الهمزة ياءً مَدِّيَة. وكذلِكَ قرأ حمزةُ في الوقف فقط.

وَقَرَأها أَبُو جعفر: **[وَلَمُلِّيتَ]** بلام مَكْسُورَةٍ مُشَدَّدَة، وبإبْدَالِ الهمزة ياءً مَدِّيَة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَمُلِئْتَ]** بلامٍ مكْسُورَةٍ غَيْرَ مُشَدَّدَةٍ، وهمزة سَاكِنَةٍ بَعْدَهَا.

(١٨) • قرأ ابن عامر، والكِسَائي، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: **[رُعُباً]** بضم العين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[رُعْباً]** بإسْكَانِ الْعَيْن.

وهُمَا لغتان عَرَبِيَّتان.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الْفَصْلِ وَصْفٌ لِحَالَةِ أصْحَابِ الكَهْفِ، بَعْدَ أَنْ أَلْقَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ الطَّويل.

وَطَوَىٰ النَّصُّ فِي السُّورَةِ بَيَانَ وُصُولِهِمْ إلى الكَهْفِ، وَدُخُولِهِمْ إلَىٰ دَاخِلِهِ، وَاضطِّجاعِهِمْ للرَّاحَةِ، وَإلْقَاءِ النَّوْمِ عَلَيْهِمْ، لإمْكَانِ إدْرَاكِ كُلِّ ذَٰلِكَ بشَيْءٍ مِنَ التَّأَمُّلِ الْفِكْرِيّ.

التَّدَبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِكُلّ صالحٍ لِتَلقِّي الخطاب:

• ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾.

• ﴿تَزَٰوَرُ﴾: أي: تتزاوَرُ، مَأْخُوذٌ مِنَ الزَّوَرِ وَهُو الْمَيْلُ، والمعنىٰ: أَنَّ الشَّمْسَ تَتَمَايَلَ عَنْ كَهْفِهِمْ إِذَا طَلَعَتْ إلَىٰ الْجِهَةِ ذَاتِ الْيَمِين بِحَسَبِ المشارِقِ المختَلِفَةِ، وبِحَسَبِ مَسِيرَتِهَا الْيَوْمِيَة.

• ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾: أي: تَعْدِلُ عَنهُمْ وَتَتْرُكُهم، نقولُ لُغَةً: «قَرَضْتُ المكَانَ» أَيْ: عَدَلْتَ عَنْهُ. أصل الْقَرْضِ: الْقَطْعُ.

والمعنىٰ: أنّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْغُروبِ تَعْدِلُ عَنْ كَهْفِهِمْ إلى الْجِهَةِ ذَاتِ الشِّمَالِ، فَلاَ تُصِيبُهُمْ أشِعَّتُهَا، وتَنْقَطِعُ عَنْهُمْ دُونَ تَدَرُّج.

- ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: أيْ: وهُمْ فِي مَكَانٍ مِنَ الكَهْفِ مُتَّسِعٍ.

الْفَجْوَة: المتَّسَعُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وفَجْوَةُ الدَّارِ سَاحَتُها.

والمعنى: وتَرَىٰ أَيُّهَا المتَلَقِّي أيًّا كُنْتَ إنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَصْلُحُ للرُّؤيَةِ، الشَّمْسَ فِي مَطَالِعِهَا عِنْدَ الشُّرُوق، تَقَعُ عَلَىٰ مَدْخلَ كَهْفِهِمْ قَلِيلاً، وتَمِيلُ عَنْهُ مُتَّجِهَةً إلَىٰ جِهَةِ يَمِينِ الكَهْف، وَإذَا اقْتَرَبَ غُرُوبُهَا تَعْدَلُ عَنْهُمْ وَعَنْ كَهْفِهِمْ مُتَّجِهَةً إلى جِهَةِ شَمَالِ الكَهْف منقطعة انقطاعاً دُونَ تَدَرُّج.

ويمين قُرصِ وجْهِ الشَّمْس يكُونُ إلَىٰ جِهَةِ شِمَال وَجْهِ فَوْهَةِ الكَهْفِ، وبِحَسَبِ سَيْرِ الشَّمْسِ انْطِلَاقاً مِنْ مَشَارِقِهَا يَتَدَرَّجُ مَيْلُ أَشِعَّتِهَا إلَىٰ جِهَةِ يَمِينِ الكَهْف، وقُبَيْلَ غُرُوبها تَنْقَطِعُ أشعَّتُها دُونَ تدرُّجٍ عَنْ مَدْخَلِ الكَهْفِ، وَتَعْدِلُ إلَىٰ جِهَةِ شِمَالِهِ.

هـٰذَا تَحْدِيدٌ لمكانِ الكَهْفِ يَحْتَاجُ إلَىٰ بَيَانِ خَبِيرٍ جُغْرَافِيٍّ، يُلاحِظُ فيه مَشَارِقِ الشَّمْسِ وَمَغَاربها، إذْ لَا يَنْحَصِرُ هـٰذَا الوصف في زَمَنٍ مُعَيَّن من السَّنة.

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: ذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ لِهَؤلَاءِ الْفِتْيَةِ من إيوائِهِمْ إلَىٰ الكَهْفِ، وَإلْقَاءِ النَّوْمِ الطَّوِيل عَلَيْهِمْ، وحِمَايَتِهِمْ مِنْ كُبَرَاء قَوْمِهِمْ الَّذِينَ تَوَعَّدُوهُمْ بالتَّعْذِيب والْقَتْلِ، هو مِنْ آياتِ اللهِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ نُصْرَةِ أَوْلِيَائِهِ وَحِمَايَتِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، بِتَقْدِيراتِهِ وَتَدْبِيراتِهِ وألْطَافِهِ الْخَفِيَّة.

- ﴿... مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ⑰﴾:

أي: مَنْ يَحْكُم اللهُ لَهُ بالْهِدَايَةِ لِأَنَّهُ اهْتَدَىٰ باخْتِيَارِه الْحُرّ، فَهُوَ الْمُهْتَدِي، الَّذِي يَعْتَنِي اللهُ بِهِ، وَيَحْمِيهِ، ويُثِيبُهُ ثَوَاباً عظيماً يُرْضِيهِ، وَمَنْ يَحْكُم اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَةِ، لِأَنَّهُ ضَلَّ باخْتِيَارِه الْحَرِّ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ فِي الْوُجُودِ

كُلِّهِ نَاصِراً يَنْصُرُهُ، فَيَحكُمُ لَهُ بالْهِدَايَةِ، وَيُوَفِّقُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ رَشِيداً فِي مَسِيرَتِهِ في حَيَاتِهِ.

الولي: النَّاصِرِ.

الْمُرْشِد: المسَدِّدُ على طَرِيق الحقّ والخير والصواب، ويرادُ بِهِ هُنَا مَنْ يَحْكُمُ بالرَّشَادِ والْهِدَايَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً:

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ⑱﴾:

● ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾: دَلَّتْ هٰذِهِ العبارَةُ عَلَىٰ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَامَهُمْ مِنْ مَرَاكِزِ النَّوْمِ في أَدْمِغَتِهِمْ، وأَبْقَىٰ أجْفَانَهُم مُنْفَتِحَةً عَنْ عُيُونِهِمْ، حَتَّىٰ إِذَا رَآهُمْ راءٍ مَا حَسِبَهُمْ أيْقاظاً لَا نَائِمِين.

أيْقاظ: جمْع «يَقِظ» وَهُو الصَّاحِي خلاف النَّائم.

رُقُود: جمع «راقِد» وهو النائم.

● ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾: وَدلَّتْ هٰذِهِ العبارَة عَلَىٰ أَنَّ اللهَ أَبْقَاهُمْ أحْياءً في حَالَةِ نَوْم، وَلم يُمِتْهُمْ، إِذْ رُكُودُ الْأَجْسَادِ الحيَّةِ عَلَىٰ جِهَةٍ واحِدَةٍ مُدَّةً طَوِيلةً مِنَ الزَّمَنِ يُعَرِّضُهَا لِلْفَسَادِ فَتَظْهَرُ فيها الْقُرُوحُ، وتَتَكَاثَرُ في قُرُوحها الجراثيم. وهٰذَا التَّقْلِيبُ يُشْعِرُ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أحْياء.

● ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾: أي: جِهَةَ الْيَمِينِ وَجِهَةَ الشِّمَالِ، فَلَفْظُ «ذَاتَ» مَنْصُوبٌ عَلىٰ الظَّرْفِيَّة.

● ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾: **الوصيد**: يُطْلَقُ على فناء الدَّار،

وعلى عَتَبَةِ البَابِ. فَمِنَ المرَجَّحِ أَنْ يَكُونَ كَلْبُهُمْ باسِطاً ذِراعَيْهِ قُرْبَ فُوَّهَةِ الكَهْفِ مِنَ الدَّاخِلِ كَعَادَةِ الكِلَابِ في الْحِرَاسَة.

فَدَلَّ هـٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ لَهُمْ كَلْباً مُصَاحِباً لَهُمْ إذا حَلُّوا أو ارتَحَلُوا.

- ﴿... لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ⑱﴾:

أي: لَو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ أَيُّهَا المطَّلِعُ مِنَ النَّاسِ أَيًّا كُنْتَ، لَوَلَّيْتَ عَنْ مَكَانِ كَهْفِهِمْ تَوَلِّيَ فِرَارٍ خَوْفاً مِنْ شَرٍّ يُصِيبُكَ مِنْ قبلِهم، وَلَمُلِئَتْ نَفْسُكَ مِنْهُمْ رُعْباً.

وَلَّيْتَ: أي: أَدْبَرْتَ وَنَأَيْتَ.

وَلَمُلِئْتَ: وفي القراءة الأُخرىٰ: **ولَمُلِّئْتَ**: بالتَّشْدِيد، أي: لأَصَابَ كُلَّ نَفْسِكَ الرُّعْبُ مِنْهُم، ورُوعِيَ بقراءة التَّشْدِيدِ حَالُ مَنْ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ مِنَ الْمُرْعِبَاتِ.

وأَرَىٰ أَنَّ فِي هـٰذَا الْبَيَانِ كِنَايَةً عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا مُسَلَّحِينَ، عَلَىٰ صِفَةِ قُطَّاعِ الطُّرُقِ الْقَتَلَةِ، الَّذِينَ يَخْشَىٰ النَّاسُ شَرَّهُمْ، فإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ شَخْصٌ مُنْفَرِدٌ مِنَ النَّاسِ، خَافَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ وَيَسْلُبُوهُ، فَهُوَ يَفِرُّ مُبْتَعِداً عَنْ مَكَانِ كَهْفِهِمْ خَوْفاً مِنْ شَرِّهِم.

فِرَاراً: مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ نَائِبٌ عَنْ مَفْعُولٍ مُطْلَقٍ مُبَيِّنٌ لِنَوْعِهِ.

رُعْباً: تَمْيِيزٌ مُحَوَّلٌ عَنِ الْفَاعِلِ، أي: وَلَمَلأَ الرُّعْبُ قَلْبَكَ ونَفْسَك.

* * *

الفصل الرّابع من قصّةِ أصحاب الكهف

الآيات من (١٩ ـ ٢١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا
يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ
إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ
بِكُمۡ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ
وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا (٢٠) وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ
أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا (٢١)﴾.

القراءات:

(١٩) ● قرأ أبو عمرو، وشُعْبَة، وحمزة، وخلف، ورَوْح: [**بِوَرْقِكُمْ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِوَرِقِكُمْ**].

الْوَرِقُ: الفضَّة، وكانَتْ فِضَّتُهُمْ مَسْكُوكَةً نُقُوداً. وإسْكَانُ الرَّاءِ لُغَةٌ أو تخفيف.

(٢١) ● قرأ حمزة، ويعقوب: [**عَلَيْهُمْ**] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ الهاء.

وهُما لغتان.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذَا الْفَصْلِ بَيانُ مَرْحَلَةِ إيقاظِ أَهْلِ الكَهْفِ بَعْدَ سِنِينَ عَدِيدَةٍ مِنْ إنَامَتِهِمْ، واكْتِشَافِ أَمْرِهِمْ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ أهل مَدِينَتهم.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُتَابِعُ قِصَّة أَصْحَاب الكهف بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

• ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: أي: وَكَذَٰلِكَ الْفِعْلِ الْعَجِيب الَّذِي كَانَ مِنَّا، حِينَ أَنَمْنَا أَهْلَ الكَهْفِ سِنِينَ عَدِيدَةٍ، بَعَثْنَاهُمْ، أَيْ: أَيْقَظْنَاهُمْ مِنْ نَوْمِهِمْ بِعَجِيبَةٍ أُخْرَىٰ.

• ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾: أي: لِتَجْرِيَ سِلْسِلَةُ أَحْدَاثٍ تَنْتَهِي بأَنْ يَعْلَمَ الشَّاكُونَ بالْبَعْثِ مِنَ الْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَة لَا رَيْبَ فِيها، وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَوْفَ يُحَاسِبُ عِبادَهُ، وَيَفْصِلُ القضاءَ بَيْنَهُمْ، وَيُنَفِّذُ جَزَاءَهُ.

وأَوَّلُ أَحْدَاثِ هَٰذِهِ السِّلْسِلَة تَسَاؤُلَ أَهْلِ الكَهْفِ فيما بَيْنَهُمْ عَنْ مُدَّةِ لُبْثِهِمْ فِي الكَهْفِ.

• ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ﴾؟: أي: قَالَ قائِلٌ مِنْ أَهْلِ الكَهْفِ لِرِفاقِهِ: كَمْ أَقَمْتُمْ في الكَهْفِ مُنْذُ أَوَيتُمْ إِلَيْهِ؟.

• ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾: دلَّ هَٰذا البيانُ على قَضِيَّتَيْن:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لِنُفُوسِهِمْ إحْسَاسٌ بِمُرُور الزَّمَنِ الطَّوِيلِ وَهُمْ نَائِمُونَ، إِذْ كَانَ تَقْدِيرُهُمْ أَنَّهُمْ لَبِثُوا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَّة: يَظْهَرُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَامَ كَلْبَهُمْ مَعَهُمْ، وَأَيْقَظَهُ مَعَهُمْ، إِذْ لَوْ مَاتَ الْكَلْبُ لَظَهَرَتْ بَقَايَا مِنْهُ تَدُلُّ عَلَىٰ مَوْتِهِ، وَعِنْدَئِذٍ لَا يَقُولُونَ: «لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم»، وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْكَلْبِ أَنْ يَتْرُكَهُمْ فِي هٰذِهِ الْمُدَّةِ الْوَجِيزَةِ.

وجاء في البيان وَصْفُ كَلْبِهِمْ بِأَنَّهُ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالْوَصِيدِ وَهُمْ رُقُود.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ الرَّبَّانِيَّة تتكَامَلُ بإنَامَةِ كَلْبِهِمْ وإيقاظِهِ معهم.

- ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾: إِنَّهُمْ تَرَدَّدُوا مُتَحَيِّرِينَ فِي مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ في الكَهْف، فَكَانَتْ كَلِمَتُهُمْ الْأَخِيرَةُ الَّتِي اتَّفَقُوا عَلَيْهَا جَمِيعاً: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بالْمُدَّةِ الَّتِي لَبِثْتُمُوهَا فِي الكَهْفِ نائِمِينَ.

وَبَعْدَ اسْتِيقَاظِهِمْ مِنْ نَوْمِهِمْ أَحَسُّوا بالْجُوعِ، وَكَانَتْ مَعَهُمْ نُقُودٌ فِضِّيَّةٌ كَانَ قَوْمُهُمْ يَتَعَامَلُونَ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْوُوا إِلَىٰ الكَهْفِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ الطَّعَام.

- ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾:

- ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾: أي: بِنُقُودِكُم الْفِضِّيَّةِ هَـٰذِهِ الَّتِي تَمْلِكُونها.

- ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾: أي: فَلْيَنْظُرْ فِي سُوقِ المدينَةِ أيُّ الْأَطْعِمَةِ فِيهِ أَكْثَرُ نَماءً وَزِيَادَةَ غِذَاءٍ يَصْلُحُ للارْتِفَاقِ بِهِ أَطْوَلَ مُدَّةٍ مِن الزَّمَنِ، وَيَصْلُحُ للادّخار حَتَّىٰ يُغْنِينا عَنْ تَكْرِيرِ الذَّهَابِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لِجَلْبِ طَعَامِنَا. أَوْ أَكْثَرُ طَهَارَةً مِنَ النجاسَاتِ المادِّيَّةِ والمعْنَوِيَّةِ.

الزَّكاةُ: يَدُورُ مَعْنَاهَا في اللُّغَةِ حَوْلَ مَعَانِي النَّمَاءِ والزِّيَادَةِ والطَّهارَةِ، فالنَّماءُ والزِّيَادَةُ يَدُلَّانِ عَلَىٰ وَفْرَةِ مَا فِي الطَّعَامِ مِنْ غِذَاءٍ يُدَّخر، والطَّهارَةُ

تَدُلُّ عَلَىٰ خُلُوِّ الطَّعَامِ من النجاسَاتِ المادِّيَّةِ والمعْنَوِية، الَّتِي تَجعلُهُ مَمْنُوعاً أَوْ مَكْرُوهاً شَرْعاً.

- ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾: **الرِّزْقُ**: مَا يُنْتَفَعُ بِهِ لِجِسْمِ الحيِّ مِنْ طَعامٍ وَغَيْرِهِ. والمرادُ بالرِّزْقِ هُنا طَعَامٌ يأْكُلُونَ مِنْهُ.

- ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: أيْ: وَلْيَكُنْ لَطِيفاً رَفِيقاً في دُخُولِهِ الْمَدِينَةِ وَمُحَاوَلَاتِهِ شِرَاءَ الطَّعَامِ مِنَ الْبَاعَةِ فِيها، فَلَا يُمَاكِسْ وَلَا يُجادِلْ أحداً حَتَّىٰ لَا يَنْكَشِفَ أَمْرُنَا.

- ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾: أي: وَلَا يُعْلِمَنَّ أَدْنَىٰ عِلْمٍ بِكُمْ وَلَا بِمَكَانِ اخْتِفَائِكُمْ أَحداً.

إِنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مَا زَالُوا فِي زَمَنِ الْمَلِكِ الطَّاغِيَةِ الَّذِي تَوَعَّدَهُمْ بالتَّعْذِيبِ والقَتْل، وكَلَّفَ أَهْلَ مَدِينَتِهِ بِرَجْمِهِمْ إِذَا اكْتَشَفُوهُمْ، فَتَوَاصَوْا بَيْنَهُمْ أَنْ يبْقَوْا مُخْتَفِينَ، وَأَوْصَوْا مَنْ يَذْهَبُ مِنْهُمْ لِشِرَاءِ طَعَام لَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، بأنْ يَذْهَبَ مُسْتَخْفِياً، وَيَدْخُلَ سُوقَهَا مُتَلَطِّفاً، وَيَعُودَ بِرِزْقٍ مِنْهَا مُسْتَخْفِياً.

- ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: أي: إنْ يَطَّلِعْ أَهْلُ مَدِينَتِكُمْ عَلَيْكُمْ يُلْزِمُوكُمْ بأَنْ تَعُودُوا عَنْ دِينِكُمُ الَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ دِينِ الْحَقِّ والتَّوْحِيدِ، وَتَدْخُلُوا فِي مِلَّتِهم الْوَثَنِيَّةِ الشِّرْكِيَّة، فإنْ اسْتَجَبْتُمْ لَهُمْ فَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أبداً، وإنْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا لَهُمْ قَتَلُوكُمْ رَجْماً بِالْحِجارَة، وَقَدْ كَانَ الرَّجْمُ بالْحِجارَةِ هُوَ الطَّرِيقةَ المتَّبَعَة قَدِيماً عِنْدَ مِلَلِ أَهْلِ الكُفرِ لِقَتْلِ مَنْ يُفَارِقُ مِلَّتَهُمْ الْبَاطِلَة.

الْفَلَاح: النجاة، والفوز، والظفر، وأَصْلُ الْفَلَاحِ البقاء في النَّعِيمِ والْخَيْرِ.

﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ۝٢٠﴾: أي: فَلَنْ تَنْجُوا، وَلَنْ تفُوزُوا، وَلَنْ تَظْفَرُوا، يَوْمَ القيامَةِ بِجنَّاتِ النعيم، إِذَا تَرَكْتُمْ مِلَّتَكُمْ وَدَخَلْتُمْ في مِلَّتِهِمْ، إذْ تَكُونُونَ عِنْدَ رَبِّكُمْ مِنَ الْخَالِدِينَ أبداً في عَذَابِ النار.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً قِصَّةَ أَصْحَابِ الكَهْفِ بضَمِيرِ المتَكَلِّم العظيم:

● ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ۝٢١﴾:

● ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: وَكَذلِكَ الفِعْلِ الْعَجِيبِ الَّذِي أَنَمْنَا بِهِ أَهْلَ الكَهْفِ سِنينَ عَدِيدَة، والْفِعْلِ الْعَجِيب الَّذِي أَيْقَظْناهُمْ بِهِ بَعْدَ هٰذِهِ السِّنين، جَعَلْنَا أَهْلَ مَدِينَتِهِمْ يَعْثُرُونَ عَلَيْهِمْ، أي: يَعْلَمُونَ بِأَمْرِهِمْ مُصادَفَةً دُونَ قَصْدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَتَبُّعٍ.

ويظهرُ أَنَّ النُّقُودَ الْفِضِّيَّة الَّتِي أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَ بِها مَبْعُوثُ أَهْلِ الكَهْفِ طَعَاماً، غَيْرُ النُّقُودِ الَّتِي صَارَ يَتَعَامَلُ بِهَا أَهْلُ مَدِينَتِهِمْ، فاكْتَشَفَ النّاسُ هٰذَا الْأَمْرَ، وأَطْلَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً على هٰذِهِ النُّقُود واكْتَشَفُوا أَنَّها قَدِيمَةُ الشَّكِّ، وأَنَّ أَهْلَ هٰذِهِ المدينَةِ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنْ قُرابَةِ ثَلاثمائة سنة، وأَنَّ جَالِبَ هٰذِهِ النُّقُودِ يَتَكَلَّمُ بِلَهْجَةٍ وَبَعْضِ كَلِمَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ عَمَّا تَطَوَّرَتْ لَهُ لُغَتُهُمْ الْحَالِيَةُ، وَكَانَتْ قَدِ انْتَشَرَتْ فِي الْمَدِينَةِ الدِّيَانَةُ النَّصْرَانِيَّةُ فِيمَا يَتَرَجَّحُ، وسَقَطَ سُلْطَانُ الْوَثَنِيِّينَ الْجَبابرَةِ.

وإِذْ عَلِمَ مَبْعُوثُ أَهْلِ الكَهْفِ باخْتِلَافِ أَوْضَاعِ الْمَدِينَةِ وأَهْلِهَا، أَعْلَمَهُمْ بِقِصَّتِهِ وَقِصَّةِ أَصْحَابِهِ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَدَهِشُوا، وَحَمَلَ عِلْيَةُ الْقَوْم لَهُمْ طَعَاماً وَانْطَلَقُوا لِمُقَابَلَتِهِمْ فِي كَهْفِهِمْ، ووصَلُوا إِلَيْهِمْ وشَهِدُوهم أَحْيَاءً أَيْقَاظاً، وَحَادَثُوهُمْ، وَعَلِمُوا مِنْهُمْ قِصَّةَ فِرَارِهِمْ بِدِينِهِمْ مِنْ

أَهْلِ مَدِينَتِهِمْ الْوَثَنِيِّين. وَيَظْهَرُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أَمَاتَهُمْ عَقِبَ أَنْ أَعْلَمَ الْقَوْمَ بِقِصَّتِهِمْ، وَشَاعَ خَبَرُهُمْ فِي المدينَةِ.

- ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾:

أي: وَكَذَلِكَ أعْثَرْنا عَلَيْهِمْ أَهْلَ مَدِينَتِهِمْ لِيَعْلَمُوا مِنْ قِصَّةِ إِنَامَتِهِمْ قُرَابَةَ ثَلاثمائة سَنَة، وإيقَاظِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ وَعْدَ اللهِ بالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَفَنَاءِ الأَجْسَادِ وَعْدٌ حَقٌّ وصِدْقٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يُنْهِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا نِظَامَ الْحياةِ الدُّنْيا، وَيُمِيتُ بِهَا جَمِيعَ الأَحْيَاءِ، وكذلِكَ السَّاعَةُ الثَّانِيَةَ الَّتِي يَبْعَثُ اللهُ بِهَا الْمَوْتَىٰ، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء، في الحيَاةِ الأُخْرَىٰ والدَّارِ الآخِرَةِ لَا رَيْبَ فيها، إذْ هِيَ حَقٌّ مُسْتَنِدٌ إلى وَعْدِ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَ لِبَيَانِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ.

وَقَدْ عَلِمَ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةِ وَآمَنَ بِهَا أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشد، وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ نَبَذُوا الْوَثَنِيَّةَ الْقَدِيمَة، وعَظُمَ في قُلُوبِهِمْ شَأْنَ هَـٰؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ، وَمَا أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ حِفْظِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ هنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ عِنْدَه، وَكَيْفَ جَعَلَهُمْ مِثَالاً مَشْهُوداً للبَعْثِ والحياة بَعْدَ الموت.

- ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾:

التَّنَازُعُ: التَّخَالُف، وَمِنْهُ التَّخَالُفُ في الرَّأْي، وَسُمِّيَ تَنَازُعاً لِأَنَّ كُلًّا مِنَ المتَخَالِفين يَنْزِعُ رَأْيَهُ مِنْ مَجْمُوعَةِ الآرَاءِ لِيَجْعَلَهُ هُوَ الرأْيَ السَّائِدَ عَلَىٰ سَائِرِ الآراء.

دَلَّ هَـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ كُبَرَاءَ أَهْلِ مَدِينَتِهِمْ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي أَمْرِ أَهْلِ الكَهْف، واحْتِمَالَاتُ الاخْتِلَاف تَدُور حَوْلَ مَا يَلي:

(١) هَلْ يَنْقُلُونَهُم إِلَىٰ مَقَابِرِ أَهْلِ الْمَدِينَة؟

(٢) هَلْ يَبْنُونَ عَلَىٰ مَدْخَلِ كَهْفِهِمْ بُنْيَاناً، وَيَتْرُكُونَهُم دَاخِلَ كَهْفِهِمْ مَوْتَىٰ، فَرَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ؟

(٣) هَلْ يَبْنُونَ عَلَيْهِمْ مَسْجداً تَكْرِيماً لَهُمْ وَتَذْكِيراً بِقِصَّتِهِمْ، وبِمَكان كَهْفِهِمْ؟

• ﴿... قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾:

أي: قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا بَقِيَّةَ الْمُتَنَازِعِينَ عَلَىٰ أمْرِهِم: لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجداً، واتَّفَقَ الْجَمِيعُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ هٰذَا الرَّأْي.

وانْتَقَلَ سِيَاقُ الْقِصَّةِ إِلَىٰ أَحْدَاثٍ لَاحِقَةٍ بَعْدَ انْتِهَائها.

* * *

الفصل الخَامس من قِصّةِ أصحاب الكهف

الآيات من (٢٢ ـ ٢٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٢) • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسكان.

(٢٢) • قرأ يعقوب: [**فِيهُمْ**]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فِيهِمْ**].

(٢٤) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبُو جعفر: [**أَنْ يَهْدِيَنِي**] بإثبات يَاءِ المتكلّم فِي الوصل، وكذلك ابن كثير، ويعقوب وصلاً ووقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَنْ يَهْدِيَنِ**] بحذف ياءِ المتكلم وصلاً ووقفاً.

(٢٥) • قرأ حَمْزَةُ، والكِسَائِيُّ، وَخَلَفٌ: [**ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ**] بِكَسْرِ تاء «مائةِ» دُونَ تَنْوين.

وقرأها أبو جعفر: [**ثَلَاث مِيَةٍ** سِنِينَ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ**].

(٢٦) • قرأ ابْن عامر: [**وَلَا تُشْرِكْ**] بِتَاءِ المخاطب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَلَا يُشْرِكْ**] بياء الغائب.

وبين القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنَى المراد.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الفصْل تَعْقِيبَاتٌ عَلَىٰ نِقَاطٍ ذات شأنٍ فِي قِصَّةِ أصْحَابِ الكهف.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾:

فِي هٰذَا الْبَيَان تَوصِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِالْعِنَايَةِ بمواضِعِ الفائِدَةِ والنَّفعِ والْعِظَةِ مِنَ الْقِصَّةِ، وَعَدَمِ الْاشْتِغَالِ بِمَا لَا نَفْعَ فِيهِ وَلَا فَائِدَةَ وَلَا عِظَةَ، كَمَعْرِفَةِ عَدَدِ الْجَماعَةِ أَصْحَابِ الْقِصَّة.

وَفِيهِ استِغْلَالُ حَدَثٍ تَارِيخيٍّ خَاصٍّ لِيَدُلَّ عَلَىٰ تَوْجِيهٍ عَامٍّ بِشَأْنِ كُلِّ القِصَصِ التَّاريخيَّة، وَلَا سيما القِصَصُ القرآنيَّة.

فأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ النَّاسَ بَعْدَ سَمَاعِهِمْ مَا نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ بِشَأْنِ أَصْحَابِ الكَهْف، سَيَشْغَلُونَ أَنْفُسَهُمْ بالظُّنُونِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَا تُفِيدُ عِلْماً صحيحاً، فَيَقُول بعضُهم: أَصْحَابُ الكَهْف ثَلَاثَةٌ رَابِعُهمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: أصحاب الكهف خمسةٌ سادِسُهُمْ كلبُهُم، ويقول بَعْضُهُمْ: هم سَبْعَةٌ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ.

- ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾: أي: وَهُـمْ يَـقُـولُـونَ دُونَ دَلِـيـلٍ مَـا يَـدُلُّ عَـلَـىٰ أقوالِهِم، وَلَوْ كَانَ دَلِيلاً ضَعِيفاً، إِنَّهُمْ يَقْذِفُونَ أقوالهم، كَمَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَرْجُمَ هَدَفاً لَهُ فِي ظُلُمَاتٍ دَامِسَاتٍ لَا يَرَىٰ فِيهَا شَيْئاً، وَلَا يَعْلَمُ أَيْنَ يَكُونُ هَدَفُهُ فِيهَا، إِنَّهُ يَرْجُمُ حِجَارَتَهُ بالغيب الَّذي لَا يَعْرِفُ أَيْنَ يَكُونُ فِي هٰذَا الْغَيْبِ الْهَدَفُ الَّذِي يَرْمِي إِلَيْهِ.

وَأَرَىٰ أَنَّ الْوَاوَ فِي عِبَارَةِ ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ اقْتَضَاهَا فَصْلُ الاحْتمالِ الْأَخِيرِ الْمَذْكُورِ عَنِ الاحْتِمَالَيْنِ السَّابِقَيْنِ له، للاشْعَارِ بأَنَّه المذكورُ هُوَ الْأَخِيرَ، وَلَا أَصْلَ لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا وَاو الثمانية.

- ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾:

أي: قُلْ يَا مُحمَّدُ: لَا تَشْغَلُوا أنفُسَكُمْ بِمَعْرِفَةِ عَدَدِ أَشْخَاصِهِمْ، وَلَا بِالْبَحْثِ عَنْ عَدَدِهِمْ فَهُوَ أَمْرٌ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ وَلَمْ يُخْبِرْنَا عَنْ عَدَدِهِمْ لِعَدَمِ الْفَائِدَة مِنْ ذِكْرِ العَدَدِ، مَا يَعْلَمُ عَدَدَ أَشْخَاصِهِمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ.

- ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾:

أي: فَلَا تُجادِلُ فِي أمْرِ عَدَدِهِمْ إلَّا جِدَالاً ظَاهِراً، إنْ وَجَدْتَ أنَّكَ مُحْرَجٌ لِمِثْلِ هٰذَا الْحِوار، وَلَا تَلْتَزِمْ بالرَّأْيِ الّذِي تُرَجِّحُهُ.

- ﴿... وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وَلَا تَسْأَلْ فِي عَدَدِهِمْ مِن الْمُخْتَلِفِينَ فِيهِ أحداً، لِأَنَّ أَقْوالَهُمْ فِيهِ مُتَخَالِفَةٌ بغَيْرِ عِلْمٍ، وَلِأنَّ مَعْرِفَةَ عَدَدِهِم لَا تُفِيدُ في عِظَةٍ وَلَا عِبْرَةٍ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾:

بمُنَاسَبَةِ قَوْل أَصْحَابِ الكَهْفِ بَعْضِهِمْ لِبَعْض:

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾:

وَلَمْ يَقُولُوا: «ويَفْعَلِ اللهُ لَكُم مِنْ أَمْرِكُمْ مَا يَشَاءُ» الَّذِي كانَ هُو الْأَوْلَىٰ بِمِثْلِهِمْ، إِذْ هُمْ فِتْيَةٌ مُؤْمِنُونَ اعْتَزَلُوا قَوْمَهُمْ المشْرِكِين، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ لَا يَفْعَلُ لِعِبَادِهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ، وَقَدْ ضَرَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ الطَّويلَ، وَلَمْ يُهَيِّئْ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ مِرْفَقاً مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَنَحْوِهما كَمَا كَانَ فِي تَصَوُّرِهِم.

بِهٰذِهِ المناسَبَةِ جَاءَ التَّعْقِيبُ التَّعْلِيمِيُّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِه ﷺ، فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمْ، أَنْ يُعَلِّقَ عَلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ مُسْتَقْبلاً، لِأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَمْلِكُونَ تَنْفِيذَ مُرَادَاتِهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَمْ يَشَأ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بِأَنْ يُنَفِّذُوهَا، فإذَا لَمْ يَأْذَنْ بِتَنْفِيذِهَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَنْفِيذَها.

فالْأَدَبُ مَعَ اللهِ فِي السُّلُوكِ، أَنْ يَقُولَ الْمُؤْمِنُ الْمُسْلِمُ إِذَا تَحَدَّثَ بأَنَّهُ سَيَعْمَلُ بَعْدَ لَحْظَةِ التَّكلُّم عَمَلاً مَا: سَأَفْعَلُ كَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ، وإِذَا عَزَمَ عَلَىٰ فِعْلِ شَيْءٍ دُونَ أَنْ يَتَحَدَّثَ بِلِسَانِهِ عَنْهُ، فَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ أَنْ يَجْعَلَ في تَصَوُّرِهِ الذِّهْنِيِّ التَّعْلِيقَ عَلَىٰ مَشيئَةِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وَلَا يَجْرِي فِي كَوْنِهِ إِلَّا مَا قَدَّرَهُ وقضاه، أَوْ أَذِنَ بِهِ لِذَوِي الإِرَادَاتِ الْحُرَّة.

ولمَّا كَانَ مِنَ الْحَرَجِ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ فِي الْعَمَلِ الْيَوْمِيّ المتَتَابعِ، أَنْ يَقُولَ مَعَ كُلّ عَمَلٍ يَوْمِيٍّ يَتَحدَّثُ أَنَّهُ فَاعِلُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، هَوَّنَ اللهُ عَلَىٰ الْمُسْلِم التَّكْلِيفَ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْأَعْمَالِ الْيَوْمِيَّةِ، فَقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ . . . ﴿٢٤﴾﴾.

فأَعْفَاهُ مِنْ هـٰذَا التَّكلِيفِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأَعْمَالِ والأفْعَال الْيَوْمِيَّة:

اسْتُعْمِلَتْ صِيغَةُ «فاعل» في المستقبل كالْفِعْلِ المضَارع.

«غَداً» ظَرْفٌ لِلْيَوْمِ الَّذِي بَعْدَ الْيَوْمِ الحالِي، والمراد هُنَا فَمَا بَعْدَهُ. وَقَدْ يُطْلَقُ هـٰذَا اللّفظ على زَمَنٍ قَادِمٍ بَعِيد.

المعنى: وَلَا تَقُولَنَّ مُشَدِّدِينَ لَكَ النَّهْيَ أَيُّهَا المؤمِنُ الْمُسْلِمُ: إِنِّي سَأَفعلُ ذَلِكَ الْفِعْلَ غداً، أَوْ فِي زَمَنٍ مَا بَعْدَهُ، مُؤَكِّداً عَزْمَكَ بمؤكّداتٍ، إِلَّا مَقْرُوناً قَوْلُكَ بأَنْ يَشَاءَ اللهُ، فالاسْتِثْنَاءُ هو مِنْ عُموم النَّهي، ويتحقَّقُ المطْلُوبُ الدِّينِيُّ بأنْ يَقُولَ: إِنِّي سَأَفعلُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ، بِتَعْلِيقِ الفِعْلِ عَلَىٰ مَشِيئَة اللهِ، أَوْ بِأَيِّ عبارة أُخرَىٰ فِيها هـٰذَا التَّعْلِيق.

- ﴿. . . وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾:

أي: وإِذَا نَسِيتَ أَنْ تُعلِّقَ عَلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ حِينَ تَقُولُ: إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غداً، وَتَذَكَّرْتَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّكَ نَسِيتَ هـٰذَا التَّعْلِيقَ، فَاذْكُرْ رَبَّكَ بِذِكْرٍ يُلائِمُ

حَالَتَكَ حِينَ تَتَذَكَّرَ، كَأَنْ تَقُولَ: لَا شيءَ يَقَعُ في كَوْنِ اللهِ إِلَّا بِتَقْدِيرِه وقَضَائِهِ، أَوْ بإذْنه.

وَحِينَ يَفُوتُكَ مَا عَزَمْتَ عَلىٰ فِعْلِهِ إِذْ لَمْ يَأْذَنِ اللهُ بِفِعْلِهِ، وكُنْتَ حَرِيصاً عَلَىٰ تَحْقِيقِهِ، وَشَدِيدَ الرَّغْبَةِ فِيهِ، فَارْضَ عَنِ اللهِ بِمَا تَمَّ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ، وَفَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ، وَقُلْ: عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِتَحْقِيقِ أَمْرٍ آخر أَقْرَبَ رَشداً مِنْ هـٰذَا الأَمْرِ الَّذِي كُنْتُ حَرِيصاً عَلَيْهِ وَرَاغِباً فِيهِ، وأَكْثَرَ تَحْقِيقاً لِمَا يُرْضِينِي وَيَسُرُّني.

الرَّشَدُ: مَا هُو الأفْضَلُ، وَالْأَحْسَنُ، والْأَكْثَرُ نَفْعاً، والأبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾:

لَقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُدَّةَ لُبْثِ أَهْلِ الكَهْفِ نِيَاماً فِي كَهْفِهِمْ، لِمَا فِي هـٰذَا الْبَيَانِ مِنْ فَائِدَةٍ تَتَعَلَّقُ بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، وَمِنْهَا قُدْرَتُهُ عَلَىٰ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ يَوْمَ القيامَةِ، بخلاف مَا يَتَعَلَّقُ بِعَدَدِ أَشْخَاصِهِمْ، فَقَدْ أَرْشَدَ إِلَىٰ عَدَمِ النَّظَرِ إِلَيْهِ إِذْ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْرِفَتِهِ عِظَةٌ وَلَا عِبْرَةٌ، وَلَا فَائِدَةٌ تُقْصَدُ فِي الدِّين.

وَجَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّعْبِيرِ بَيْنَ التَّارِيخَيْنِ الشَّمْسِيِّ والْقَمَرِي، ففي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ بَيَانُ عَدَدِ السِّنين بِحَسَبِ مقدار السَّنَةِ الشَّمْسِيَّة، وَهُوَ (٣٦٥) يَوْماً تَقْرِيباً، أَمَّا عَدَدُ سِنِي لُبْثِهِمْ نِياماً فِي كَهْفِهِمْ بِحَسَبِ مِقْدَارِ السَّنَةِ القَمَرِية، وهو (٣٥٤) يوماً، فَيَزِيدُ (٩) سِنِينَ مَعَ تَجَاوُزُ الكُسُورِ فتكون (٣٠٩) سنة، وَهـٰذَا مِنْ إِبْدَاعَاتِ القرآنِ المجيد وإيجازَاتِهِ.

وَإِذَا خَالَف هـٰذَا البيانَ الرَّبَّانِيَّ مُخَالِفُونَ فَلَا تَعْبأْ بِهِمْ، وَ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾.

أي: لَهُ وَحْدَهُ عِلْمُ كُلِّ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، الَّذِي هُوَ غَيْبٌ عَنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، أَوْ عَنْ بَعْضِهِمْ، أَمَّا هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَلَا شَيْء فِي الكَوْنِ هُو غَيْبٌ عَنْهُ، بَلْ هُوَ مَشْهُودٌ لَهُ.

- ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ﴾: صيغَةُ «أَفْعِلْ بِهِ» هِي الصِّيغَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ صِيغَتِي التَّعَجُّب: «مَا أَفْعَلَهُ، وأفْعِلْ بِهِ».

والمرادُ باسْتِعْمَالِ صِيغَةِ التَّعَجُّبِ هُنَا الدَّلَالَةُ عَلَىٰ شُمُولِ إِبْصَارِهِ جَلَّ جَلَالُهُ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُبْصَرَ فِي الْوُجُودِ كُلِّه، وشُمُولِ سَمْعِهِ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعَ فِي الْوُجودِ كُلِّهِ، مَعَ كُلِّ أَقَلِّ زَمَنٍ يَمُرُّ، أَيْ: فاعْجَبْ أَيُّهَا المتَلَقِّي مِنْ هـٰذِهِ الْإِحَاطَةِ وَمِنْ هـٰذَا الشُّمول لِبَصَرِ اللهِ وَسَمْعِهِ.

- ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾: أي: إنَّ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ، بِغْيَةَ جَلْبِ نَفْعٍ مِنْهُمْ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ، أَوْ تَحْقِيقِ نَصْرٍ، لَيْسَ لَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ وَلِيٌّ مَا يَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا، أو يَنْصُرُهُمْ إِذَا احْتَاجُوا نصراً.

«مِن» في: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْيِ والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

- ﴿... وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾: وهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُتَفَرِّدٌ فِي كُلِّ تَصارِيفِ حُكْمِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي كَوْنِهِ، فَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أحداً، إِذْ كُلُّ كائنٍ في كَوْنِهِ مَخْلُوقٌ لَهُ، وَهُوَ خَاضِعٌ لِحُكْمِ اللهِ فِيهِ.

حُكْمُ اللهِ: هُوَ قَضَاؤُهُ الَّذِي يَقْضِيهِ عَلَىٰ وَفْقِ تَقْدِيرِهِ إِيجاداً أو إِعْدَاماً، أَوْ تَشْرِيعاً، أو تَكْلِيفاً، أَوْ جَزَاءً، أَوْ غَيرِ ذَلِكَ.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الكهف)

الآيات من (٢٧ ـ ٣١)

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾﴾.

القراءات:

(٢٨) • قرأ ابن عامر: [**بالْغُدْوَةِ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بالْغَدَاةِ**]:

(٢٩) • قرأ ورْش، والسّوسي، وأبو جعفر: [**بِيْسَ**] بإبدال الهمزة ياءً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِيسَ**].

(٣١) • قرأ أبو عَمْرو، ويعقوب: [**مِنْ تَحْتِهِمِ الأَنْهارُ**].

وقرأها حمزة، والكسائي، وخلَف: [**مِنْ تَحْتِهُمُ الأَنْهارُ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ**].

(٣١) • قرأ أبو جعفر: [**مُتَّكِينَ**]. وكذلِكَ حَمْزة في الوقف، ولَهُ التَّسْهِيلُ أيضاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتَّكِئِينَ].

تَمْهيد:

فِي هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْجِيهاتٌ تَرْبَوِيَّة، وَتَعْلِيمَاتٌ دَعَوِيَّةٌ، مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

تَعْطِفُ «الواو» في صَدْرِ هَـٰذِهِ الآيَة على الأمْرِ الرَّبَّانِيِّ لِرَسُولِهِ الَّذِي جاء في الآيَة (٢٦).

- ﴿وَٱتْلُ﴾: أي: واتَّبِعْ، يُقَالُ لغة: «تَلَاهُ، يَتْلُوهُ، تُلُوّاً» أي: تَبِعَهُ، واسْتُعْمِلَ فِي تِلَاوَةِ القرآنِ، بِمَعْنَىٰ النُّطْقِ بِهِ مَعَ تَتَبُّعِ حُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ، وَيُمْكِنُ حَمْلُ التكليفِ على المعنيَيْنِ.

- ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾: أي: لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُبَدِّلَ كَلِمَاتِ رَبِّكَ، تَبْدِيلاً ذَا أَثَرٍ فِي وَاقِعِ الكَوْنِ، وَلَا يَدْخُلُ في التَّبْدِيلِ المنْفِيِّ كَذِبُ الكَذَّابِينَ عَلَىٰ اللهِ وَوَضْعُ الْوَضَّاعِين، فإنَّهُ غَيْرُ ذِي أَثَرٍ فِي كَوْنِ اللهِ وَتَرَاتِيبِهِ وَتَدَابِيرِهِ وَمُسْتَتْبَعَاتِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ الجزائِيَّة.

فَكَلِمَاتُ اللهِ الْخَبَرِيَّةُ لَا مُبَدِّلَ لَهَا تَبْدِيلاً يُغَيِّرُ وَاقِعَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، فِي كُلِّ شيءٍ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً.

وَكَلِمَاتُ اللهِ المبيِّنَاتُ لِمَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ نَافِذَةٌ لَا مَحالَة، وَلَا أَحَدَ فِي الْوُجُودِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَدِّلَ فِيها تَبْدِيلاً ذَا أَثَر، فَحِينَ قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ أَنْ يُنْجَىٰ

مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مَعه، وأنْ يُهْلِكَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ فِي الوجود أَنْ يُبَدِّلَ كَلِمَاتِ اللهِ فِي ذَلِكَ تَبْدِيلاً ذَا أَثَر.

وَكَلِمَاتُ اللهِ في أوامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَتكالِيفِهِ، لَا مُبَدِّلَ لَهَا تَبْدِيلاً ذَا أَثَرٍ.

فَتَكْلِيفُ اللهِ عِبَادَهُ الموضُوعِينَ في الحياة الدّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان الإيمانَ والْعَمَلَ الصَّالِحِ على وَفْقِ مَا أَنْزَلَ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ في ذَلِكَ تَبْدِيلاً ذَا أَثَر، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِعِبَادَةِ عِيسَىٰ وَجَعَلَ يَعْبُدُهُ هُو ومُتَّبِعُونَ، فإنَّهُمْ لَا يَنْجُونَ مِنْ جَزَاء اللهِ العقابِيِّ خُلُوداً في عَذَاب جَهَنَّم يَوْمَ الدِّينِ، فَتَبْدِيلُهُمْ لَا يُغَيِّرُ أَثَرَ كَلِمَاتِ اللهِ في أَوَامِرِهِ ونواهِيهِ وتكالِيفِهِ.

- ﴿... وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾:

﴿مُلْتَحَدًا﴾: أي: مَلْجأً. لِأَنَّ اللاجِئَ يَلْتَحِدُ إليه، يُقَالُ لغة: «الْتَحَدَ إليه» أي: مَالَ إِلَيْهِ وَالْتَجأَ، فَهُوَ مُلْتَحِدٌ، واسْمُ المفْعُول: مُلْتَحَدٌ إِلَيْهِ.

أي: وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِ رَبِّكَ إِذَا لَمْ تَتْلُ مَا أُوحِي إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِهِ، مَلْجَأً تَلْجَأُ إِلَيْهِ، إِذَا أَرَادَ مُعَاقَبَتَكَ عَلَىٰ مُخَالَفَتِه.

هٰذَا الْخِطَابُ مُوَجَّهٌ للرَّسُولِ ﷺ فِي ظَاهِرِ النَّصِّ. وهُوَ فِي مَضْمُونِهِ مُوَجَّهٌ لِكُلِّ الْمَوْضُوعِين في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، لأَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ أَنْ يَتَّبِعُوا مَا أَوْحَىٰ اللهُ لِرَسُولِهِ مِنْ كِتَابِهِ، اعْتِقَاداً وَعَمَلاً، كَمَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مُكَلّف.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ خِطَابَه لِرَسُولِه ﷺ:

- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾:

- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾: أي: واحْبِسْ نَفْسَكَ، يُقَال لغة: «صَبَرَ فُلَانٌ نَفْسَهُ» أي: حَبَسَهَا وَأَلْزَمَهَا أَنْ تَكُونَ صابِرَة بإرادةٍ قَوِيَّة وَعَزْمٍ وَحَزْم.

- ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾: أي: مُصَاحِباً وَمَلازِماً المؤمنين الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ بالمطْلُوبِ مِنْهُمْ مِنْ عِبَادَات، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الدُّعَاءُ بِمَا يَرْغَبُونَ فِيهِ من أُمورِ دُنْيَاهُمْ وأُمورِ آخِرَتِهِم. أُطْلِقَ فِعْلُ «دَعَا يَدْعُو» في الْقُرْآنِ كثيراً بِمَعْنَىٰ العبادة.

- ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾: **«الْغَدَاةُ»** و**«الْغُدوَةُ»**: الوقت مَا بَيْنَ صَلاةِ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ. **«الْعَشِيُّ»**: الْوَقْتُ مَا بَيْنَ صَلاةِ الْعَصْرِ وَغُرُوبِ الشَّمْسِ.

الَّذِي أَرَاهُ أَنَّ الْمَطْلُوبَ أَنْ يَحْبِسَ الرَّسُولُ نَفْسَهُ مُعَلِّماً، وهَادِياً وَدَاعِياً، فِي مُصَاحَبَةٍ وَمُلازَمَةٍ للمؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الْحَرِيصِينَ عَلَىٰ تَلَقِّي الْمَعْرِفَةِ الدِّينِيَّة، مُخَصِصاً لَهُمْ لِقَاءَيْنِ يَوْمِيًّا بِالْغَدَاةِ والْعَشِيّ، مَهْمَا كَانَ وَضْعُ مُحِبّي التَّلَقِّي لِلْمَعْرِفَةِ الدّينِيَّةِ مِنَ الطَّبَقَاتِ الَّتِي يَسْتَكْبِرُ عِلْيَةُ قَوْمِهِ عَنْ أَنْ يُجَالِسُوهم وَيَكُونُوا مَعَهُمْ، لِفَقْرِهِمْ وَلِمِهَنِهِمُ الْوَضِيعَةِ أو لِكَوْنِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ.

- ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: أي: يُرِيدُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ذَاتَهُ جَلَّ جَلالُهُ، لَا يُشْرِكُونَ بِعِبادَتِهِ أَحداً وَلَا شَيْئاً، وَإِفْرادُهُ تَعالَىٰ بالْعِبَادَةِ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُونَ بِهِ رِضْوَانَهُ، وَثَوَابَهُ العظيم.

- ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾: أي: وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ نَظَرَهُمَا عَنْهُمْ، فَتَصْرِفَاهُ عَنْ مُلاحَظَتِهِمْ، والْعِنَايَةِ بِهِمْ، والْعَطْفِ عَلَيهم.

يقالُ لُغَةً: «عَدَا فُلانٌ فُلاناً عَنِ الأَمْرِ» أي: صَرَفَهُ وَشَغَلَهُ عَنْه.

والمرادُ: وَلَا تَجْعَلْ عَيْنَيْكَ تَصْرِفَانِ نَظَرَهُمَا عَنْ مُلاحظَتِهِمْ، والعنايَةِ بِهِمْ، والْعَطْفِ عَليهم، فَهُمْ قَاعِدَةُ بِنَاءِ الأُمَّةِ الإسلاميَّة.

طُوِيَ المفعولُ بِهِ: «نَظَرَهُمَا» لإمكَانِ إِدْرَاكِهِ واسْتِخْرَاجِهِ مِنَ الطَّيّ، وتَقْدِيرِهِ لَدَىٰ التدبُّرِ المتأنّي.

• ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أيْ: تُريدُ إرْضَاءَ أَهْلِ الوجَاهَةِ والْمَالِ والمتْرَفِينَ في حَيَاتِهِمْ، طَمَعاً في أَنْ يَكُونَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدنيا مِنَ الْمُسَاعِدَاتِ عَلَىٰ انْتِشَارِ دَعْوَتِكَ، وَقَبُولِهَا مِنْ جماهِيرِ قَوْمِكَ.

سَبَقَ أَنْ جَاءَ في الآيَةِ (٥٢) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) نَهْيُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ، عَنْ أَنْ يَطْرُدَ عَنْ مَجَالِسِهِ الضُّعَفَاء والفقراء وَذَوي الْمِهَنِ الْوَضِيعَةِ، اسْتِجَابَةً لِطَلَبِ كُبَرَاءِ مُشْرِكي قَوْمِهِ، فقال لَهُ فيها:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ...﴾.

وأطاعَ الرَّسُولُ ﷺ فِيما نَهاهُ اللهُ عَنْهُ، فَلَمْ يَطْرُد أَحداً مِنْ هؤلاء.

وَهُنَا في سُورَةِ (الكَهْف/ ٦٩ نُزُول) زَادَ التكليفُ الرَّبَّانِي للرَّسُول صلوات الله وسلاماتُهُ عَلَيْه، فَأَمَرَهُ اللهُ بأَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ مَعَهُمْ، وَأَنْ يُتَابعَ أَفْرَادَهُمْ بِنَظَرِهِ، مُلاحَظَةً وَعِنَايَةً وَعَطْفاً، وَنَهاهُ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَىٰ زِينَةِ الحياة الدُّنْيَا الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا كُبَرَاءُ قَوْمِهِ، وَلَوْ رَأَىٰ بِاجْتِهَادِهِ أَنَّ اسْتِرْضَاءَ هَـٰؤُلَاءِ الكُبَرَاءِ أَرْجَىٰ لانْتِشَارِ دَعْوَةِ الْحَقِّ فِي جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ.

• ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾:

أي: وَلَا تُطِعْ مَنْ وَجَدْنَا قَلْبَهُ غافِلاً عَنْ ذِكْرِنَا، واتَّبَعَ هَوَاهُ المتَعَلِّقَ بِشَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ وَمَتَاعَاتِهِ مِنْ زينات الْحياةِ الدُّنيا «**وكانَ أَمْرُهُ فُرطاً**»: أي وَكَانَ أَمْرُهُ ظُلْماً، واعْتِدَاءً، وتَرْكاً وَتَجاوزاً لِلْحَقِّ والْخَيْرِ والْوَاجِبِ.

ومعلومُ أَنَّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ المصِرِينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وشِرْكِهِمْ، والمستكْبِرِينَ بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ زِينَةِ الْحَياة الدُّنيا، مُدَنَّسُونَ بالصِّفَاتِ الثَّلَاثِ الْوَارِدَاتِ في هـٰذَا البيان الرَّبَّاني:

(١) فَقُلُوبُهُمْ غافِلَةٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ الْجَلِيلِ العظيم الَّذي يُمِدُّهُمْ في حيواتِهِمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيته.

(٢) وَهُمْ مُتبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَطَالِبَهُمْ مِنْ زِينَاتِ الحياة الدُّنيا.

(٣) وأمُورُهُمْ ظُلْمٌ، واعْتِدَاءٌ، وتَرْكٌ لِلْحَقِّ والْخَيْرِ والْوَاجِب.

وَهٰؤُلَاءِ قَدْ طَالَبُوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بِأَنْ يَطْرُدَ مِنَ الّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، الطَّبَقَةَ الضَّعِيفَةَ الْمَهِينَة، لِيَجْلِسُوا مَعَهُ وَيَسْتَمِعُوا إِلَيْهِ فنهاهُ اللهِ عَنْ طَاعَتِهِمْ بالاسْتِجَابَةِ لمطلبهم.

وَقَدْ سَبَقَ لَدَىٰ تَدبُّرِ الآيَةِ (٥٢) من سورَة (الأنعام/ ٥٥ نزول) مَا رُوِيَ في السُّنَّةِ، مِنْ طَلَبِ بَعْضِ كُبرَاءِ قَوْمِهِ مِنْهُ هٰذَا الطلب، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً وَصَايَاهُ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ بَعْضِ عَنَاصِرِ دَعْوَتِهِ:

● ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾:

● ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ﴾: أي: وقُلْ لِمَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِ الله الَّذِي اصْطَفَاهُ لعباده، ابْتِدَاءً أو تكْرِيراً وتَذْكِيراً: مَا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَاب اللهِ الْقُرْآن، هُو الحقُّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيهِ، المنزَّلُ مِنْ رَبِّكُم لِبَيَانِ مَطْلُوبِهِ مِنْكُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدُّنيا.

● ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾: أي: أَنْتُمْ بالنِّسْبَةِ إلى عَنَاصِرِ امْتِحَانِكُمْ، ذَوُوا إرادَاتٍ حُرَّةٍ مُخَيَّرُونَ فِيهَا لَا مَجْبُورونَ، وَهٰذَا التَّخْيِيرُ مُقْتَرِنٌ بِالْمَسْؤُولِيَّةِ، وَمُسْتَتْبَعٌ بالْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجزاءِ.

فَمَنْ شَاءَ بما آتاهُ اللهُ مِنْ إرَادَةٍ حُرَّةٍ، أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا كَلَّفَ اللهُ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، فَلْيُؤْمِنْ.

ومَنْ شَاءَ بما آتاهُ الله مِنْ إرادَةٍ حُرَّةٍ أَنْ يَكْفُرَ بما كَلَّفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، فَلْيَكْفُرْ.

فَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جَزَاءَ مَنْ يَكْفُرُ الْخُلُودَ في عذاب النّار يَوْمَ القيامة، إِذَا أَنْهَوْا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ كَافِرِينَ.

وَجَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جَزَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ الْخُلُودَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

- ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾:

- ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾: يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلِّمِ الْعَظِيم: «إِنَّا». «أَعْتَدْنَا». أي: أَعْدَدْنَا وَهَيَّأْنَا بِعِنَايَةٍ وإِتْقَانٍ.

- ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: لِلظَّالِمِينَ بِمَعْصِيَةِ مَا أَمَرْنَا عِبَادَنَا بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ مِن دَرَكَاتِ الكُفْرِ.

- ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾: أي: دَارَ عَذَابٍ تَتَوَقَّدُ فِيهَا نَارٌ ذَاتُ تَعْذِيبٍ شَدِيدٍ للظَّالِمِينَ الْكَافِرِين، نُدْخِلُهُمْ فِيهَا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا، فَقَدْ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، أي: سُورها العظيم الْمَانِعُ لِمَنْ هُوَ فِي دَاخِلِهَا مِنَ الْمُعَذَّبِينَ من الْخُرُوجِ مِنْهَا.

السُّرَادِقُ: كُلُّ مَا أَحَاطَ بِشَيْءٍ مِنْ جدارٍ أَوْ سُورٍ ونَحْوِهِمَا.

رَوَىٰ أحمد، والتّرمذي وابْنُ حبان والحاكم وصحّحه وَغَيْرُهُمْ عن أبي سَعِيد الْخُدْرِيّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال:

«لِسُرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ، كَثَافَةُ كُلِّ جدارٍ مِنْهَا مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

- ﴿... وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾:

الاسْتِغَاثَةُ: طَلَبُ الْعَوْنِ لِأَمْرٍ ما.

الْمُهْلُ: يُطْلَقُ على الْقِطْرَانِ السَّائل، وَعَلَىٰ الْمَعْدِنِ الذَّائِب، وَعَلَىٰ عَكَرِ الزَّيْتِ.

• ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾: أي: هو حَارٌ شَدِيدُ الْحَرَارَة، إذَا اقْتَرَبَ مِنْهُ الظَّمْآنُ الْمُعَذَّبُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ شَوَىٰ بُخَارُهُ الحارُّ وَجْهَهُ، كَمَا يُشْوَىٰ اللَّحْمُ عَلَىٰ النَّارِ أَوِ الْبُخَارِ لإنْضَاجِهِ.

• ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾: **بِئْسَ**: فِعْلٌ جَامِدٌ لإِنْشَاء الذَّمِّ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَة. **الشَّرَابُ**: فَاعِلُ «بِئْسَ». أي: بِئْسَ الشَّرَابُ الْمَاءُ الَّذِي يُغَاثُونَ بِهِ الَّذِي يُشْبِهُ الْمُهْلَ.

﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾: **سَاءَ**: كَلِمَةٌ تُقَالُ لإنْشَاءِ الذَّمِّ مِثْل: «بِئْسَ».

الْمُرْتَفَق: كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ للارْتِفَاقِ بِهِ والانْتِفَاعِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ الْجَسَدِ أو النَّفْس.

أي: وسَاءَتْ دَارُ الْعَذَابِ النَّارُ، للارْتِفَاقِ والانْتِفَاعِ بشَيْءٍ مَا مِنْهَا، في كُلِّ أمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ الْجَسَدِ أو النَّفْس.

المعنى: إنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الخالِدِينَ في النَّارِ يَوْمَ الدِّين، يَشْتَدُّ ظَمَؤُهم، فَيَسْتَغِيثُونَ طَالِبِينَ مَاءً يَشْرَبُونَ مِنْهُ، فَيُغَاثُونَ بماءٍ يُشْبِهُ الْقَطِرَانَ أَوْ عَكَر الزَّيْتِ فِي لَوْنِهِ، وَهُوَ حَارٌّ شَدِيدُ الحرارةِ بُخَارُهُ يَشْوِي الْوُجوه الَّتِي تَقْتَرِبُ مِنه، وَالشُّرْبُ مِنْهُ شُرْبٌ كَرِيهٌ فِيهِ تَعْذِيبٌ للشَّارِبِينَ، لَا يَصْبِرُ عَلَىٰ الشَّرْبِ مِنْهُ إلَّا مَنْ كَانَ ظَمَؤُهُ أَشَدَّ تَعْذِيباً لَهُ مَنْ أَنْ يَتَجرَّعَهُ، وَلَا يَقْتَصِرُ الذَّمُّ عَلَىٰ الشُّرْبِ مِنْ شَرَابِ دَارِ العذاب، بَلْ كُلُّ مَا فِي دَارِ الْعَذَابِ مَذْمُومٌ أَبْلَغَ الذَّمّ، مِمَّا يَحْتَاجُ المعَذَّبُونَ أَنْ يَرْتَفِقُوا وَيَنْتفعُوا بِهِ، في كُلِّ أمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ أَجْسَادِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ أصْحَابِ الْجَنَّةِ المنعَّمِينَ فِيها، في مَقَابِلِ بيانِ بَعْضِ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ الخالِدِينَ فيها، ويتحدَّث بِضمير المتكلِّم العظيم.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن

ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: يُؤَكِّدُ رَبُّنَا بـ «إِنّ ـ والجملة الاسميَّة».

أي: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً بِحَسَبِ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عبادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَكَانَ لإِيمانِهِمُ الصَّادِقِ فِي قُلُوبِهِم أَعْمَالٌ صَالِحَاتٌ في سُلُوكِهم الظَّاهِرِ والْبَاطِنِ.

• ﴿... إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾: أي: لَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ عِنْدَنا يُنَاسِبُ عَظَمَةَ رُبُوبِيَّتِنَا، لِأَنَّنَا لا نُضِيعُ أجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً، طَاعَةً لَنَا، وابتغاء مَرْضَاتِنَا.

جُمْلَة: «إِنَّا لَا نُضِيعُ...» واقعة مَوْقِعَ التَّعْلِيلِ لِجُمْلَةٍ مَطْوِيَّة دَلَّتِ الجملَةُ المذكُورَة عَلَيْهَا.

• ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ﴾: أي: إِنَّا لَا نُهْمِلُ أجرَ وَلَا نَجعَلُ مَفْقُوداً مَعْدُوماً.

• ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾: أيْ: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً حَسَناً طَاعَةً لَنَا وابتغاء مَرْضَاتِنَا، وَطَلَباً لِلثَّوَاب الَّذِي وَعَدْنَا بِهِ.

• ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: أي: أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أَصْحَابُ المنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَنَا.

• ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾: أَيْ: لَهُمْ عِنْدَنَا يَوْمَ الدِّينِ جَنَّاتُ إِقَامَةٍ واسْتِقْرَارٍ دَائم وَثَباتٍ. **جَنَّاتُ عَدْن**: هِيَ وَسَطُ الجنَّاتِ(١) دُونَ الفردوس الأعْلَى، وَفَوْقَ مَا دُونَهَا مِنْ جَنَّاتٍ.

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة مريم بشأن جنَّات عَدْن.

- ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: أي: تَجري مِنْ تَحْتِ شُرفَاتِ قُصُورِهِم الْأَنْهَارُ الْمُتَنوِّعَات، مِنْ مَاءٍ، وَلَبَنٍ، وَعَسَلٍ مُصَفًّىٰ، وَخَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبينَ لَا غَوْلَ فيها.

- ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾: أي: يُحلَّوْنَ في جَنَّاتِ عَدْنٍ حُلِيًّا مُنوَّعَةً بَدِيعَةً رَائِعَةً مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ أَنْفَسِ المعادِن.

- ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾:

الثياب الْخُضْر: ثِيابُ أهْلِ جِنَّاتِ عَدْن.

مِنْ سُنْدُسٍ: أي: مِنْ نَوْعِ ثِيَابٍ يُقَالُ لَهُ: «سُنْدُس» وهي ثيابٌ رقيقَةٌ نَاعِمَةٌ مَنْسُوجَةٌ مِنَ الْحَرِير، وهي من أصناف الدِّيباج.

واسْتَبْرَق: أي: وَمِنْ نَوْعِ ثِيابٍ يُقَالُ لَهُ: «اسْتَبْرَق» وهي ثيابٌ غليظةٌ مَنْسُوجَةٌ من الحرير أيضاً، وَهِي أَيْضاً مِنْ أَصْنَافِ الدِّيباج.

- ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: **الأرائك**: جَمْعُ «الْأَرِيكَة» وهي المقْعَدُ المنجَّدُ الْوَثِيرُ. أي: حَالَةِ كَوْنِهِمْ مُتَّكِئِينَ في جَنَّاتِ عَدْنٍ عَلَىٰ الْأَرَائِك. **الاتّكاء**: الْجُلُوسُ بتمكُّنٍ عَلَىٰ مَقْعَدٍ وَثِيرٍ، بصاحِبُهُ غَالِباً وضْعُ الْيَدَيْنِ عَلَىٰ مَا يَحْمِلُهُمَا للرَّاحَة.

- ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾: «**نِعْم**»: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشَاءِ الْمَدْحِ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالغة. «**الثواب**» فَاعِلُ «نِعْمَ». والمخصُوصُ بالْمَدْحِ ثَوَابُهُمْ الّذِي دَلَّ عَلَيْهِ المذكُورَاتُ سَابقاً في الآيَة.

- ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾: أي: وَحسُنَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ مُرْتَفقاً. جاءَتْ هَـٰذِهِ العبارة في مُقَابِلِ وَصْفِ دَارِ العذاب بأَنَّهَا سَاءَت مُرْتَفقاً.

حَسُنَ: كَلِمَةٌ تُقَالُ لإنْشَاءِ المدْحِ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالَغَةِ، مثل: «نِعْمَ».

الْمُرْتَفَقُ: كُلُّ يُحْتاجُ إِلَيْهِ للارْتِفَاقِ والانْتِفَاعِ بِهِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ الْجَسَدِ أَوِ النَّفس.

أي: وَحَسُنَتْ جنَّاتُ عَدْنٍ للارْتِفَاقِ بأيِّ شيءٍ مِنْهَا، فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ مَطَالِبِ الْجَسَدِ أَوِ النَّفْسِ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثَّالِثِ من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٣٢ ـ ٤٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُوله:

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا
نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا
(٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) وَمَآ
أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُۥ
صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
(٣٧) لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ
مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن
يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)
أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ
عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ
تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ
خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)﴾.

القراءات:

(٣٣) • قرأ نَافع، وابْنُ كَثير، وأبو عمْرو: **[أُكْلَهَا]** بإسكان الكاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أُكُلَهَا]** بضمّ الكاف.

وهُمَا لُغتان عَربيتَانِ.

(٣٤) • قرأ أبو عَمْرو: **[ثُمْرٌ]** بضمّ الثاء وإسْكان الميم.

وقرأها عاصم، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: **[ثَمَرٌ]** بفتح الثاء والميم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[ثُمُرٌ]** بضم الثاء والميم. وهي لغات عَرَبِيَّة.

(٣٤) • قرأ نافع، وأبو جَعْفر، بإثْبَات ألف «أَنَا» من **[أَنَا أَكْثَرُ]** في الوصل.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِحَذْفِهَا في الْوَصْل.

واتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَىٰ إِثْبَاتِها في الوقف.

(٣٦) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابن عَامر، وأبو جعفر: **[مِنْهُمَا]** أي: مِنْ جنَّتَيه.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مِنْهَا]** أي: من جنَّتِهِ المنْقَسِمَةِ إلى جنَّتَيْنِ.

(٣٨) • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس: **[لَكِنَّا هُوَ]** بإثباتِ الألف وصلاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بحذف الألف وصْلاً.

واتَّفَقُوا على إثباتِها وقْفاً اتّباعاً للرَّسم.

(٣٨) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[بِرَبِّيَ أَحَداً]** بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلّم.

(٣٩) • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[أَنَا أَقَلَّ]** بإثْبَاتِ ألف «أنا».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِحَذْفِهَا وَصْلاً.

واتَّفَقُوا على إثباتها وَقفاً.

(٣٩) • قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[إِنْ تَرَنِي أَنَا]** بإثبات ياء المتكلّم وصلاً.

وقرأها ابْنُ كثير، ويَعْقُوب كذلِكَ في الوصل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[إِنْ تَرَنِ أَنَا]** بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

(٤٠) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[رَبِّيَ أَنْ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسكانها.

(٤٠) • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[يُؤْتِيَنِي]** بإثبات ياء المتكلّم وصلاً. وكذلِكَ يعقوبُ في الوصل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يُؤْتِيَنِ]** بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

(٤٢) • قرأ أبو عمْرو: **[بِثُمْرِهِ]**.

وقرأها عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: **[بِثَمَرِهِ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ وَمَعَهُمْ رُوَيس: **[بِثُمُرِهِ]** وهي لغاتٌ عَرَبيَّة.

(٤٢) • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: **[بِرَبِّيَ أَحَداً]** بِفَتْحِ ياءِ المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسكانها.

(٤٣) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: **[وَلَمْ يَكُنْ]** بالياء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَمْ تكُنْ]** بالتَّاء.

(٤٣) • قرأ أبو جعفر: **[فِيَةٌ]** بإبدال الهمزة ياءً وصْلاً ووقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فِئَةٌ]**.

(٤٤) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: **[الْوِلَايَةُ]** بِكَسْرِ الواو.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[الْوَلَايةُ]** بِفَتْحِ الواو.

وَهُمَا لغتان عربيّتان.

(٤٤) • قرأ أبو عَمْرو، والكِسَائِيُّ: **[الحقُّ]** صفة للوَلَايَة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[الحقِّ]** صفةً: «لله».

(٤٤) • قرأ عاصم، وحمزة، وخَلَف: **[عُقْباً]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عُقُباً]**.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْس بيانُ قِصَّةِ حِوَارٍ جرَىٰ بَيْنَ صَاحِبَيْن:

• **أحَدُهُمَا**: غَنِيٌّ كَافِرٌ بِيَوْمِ الدِّينِ آتَاهُ اللهُ مِنْ زِينَةِ الحياة الدُّنيا جنَّتَين.

• **والآخر**: فَقِيرٌ مُؤْمِنٌ صَادِقُ الإيمانِ، يَدْعُو إلى دين اللهِ الحقِّ، وَإلى الإيمانِ بالجزاءِ ويَوْم الدِّين.

والْحِوَارُ الدِّينيُّ بَيْنَهُمَا جرَىٰ حَوْلَ قَضِيَّتَيْنِ:

الْقَضِيَّةُ الأُولَى: قضيَّةُ الإيمانِ باللهِ الخالِقِ الرَّبِّ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

وَمِنَ الإشراك باللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ اعْتِقَادُ أَنَّ الْأَسْبَابَ تَفْعَلُ بذاتها، لَا أَنَّهَا بِمَثَابَةِ قَنَوَاتٍ تَسْتُرُ جَرَيَانَ أَفْعَالِ اللهِ فِي الْخَلْقِ بِمُقْتَضَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّرَهُ وَقَضَاه.

القضِيَّةُ الثانِيَة: قَضِيَّةُ الإيمانِ بالْيَوْمِ الآخِرِ، الَّذِي يُحَاسِبُ فِيه اللهُ الَّذِينَ كَانُوا مَوضُوعِينَ في الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا وَأخرُّوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم، وبَعْدَ الْحِسَاب يَفْصِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ القضاءَ بَيْنَهُم، ثُمَّ يُجَازِيهِمْ في جَنَّاتِ النَّعِيم، أَوْ فِي النَّارِ بِعَذَابٍ أَلِيم.

وأَحَدُ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ كَافِرٌ بِهَاتَيْنِ القضيَّتَيْنِ، بتأْثِير الْغُرُورِ بزينَةِ الحياةِ الدُّنيا وَفِتْنَتِها، كُفْراً لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِن اسْتِجَابَتِهِ مَعَهَا إِلَىٰ الْحَقِّ عَنْ طَرِيقِ إرادتِهِ الحرَّةِ، وَهُوَ ذُو ثَرَاءٍ وَسَعَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَزِينَةٍ مِنَ الحياة الدُّنيا تَوَصَّلَ إِلَيْهَا بما اسْتَخْدَمَ مِنْ أَسْبَابٍ هَيَّأَهَا اللهُ لَهُ، وَذُو قُوَّةٍ بأَنْصارِهِ مِنْ أَوْلَادِهِ وَغَيْرِهِم، وَمِمَّا يَمْلِكُ جَنَّةٌ كَبِيرَة، هِي بُسْتَانٌ كبير، يَفْصِلُهُ مِنْ وَسَطِهِ نَهَرٌ جَارٍ، يَتَدَفَّقُ بِلَا انْقِطَاع، فَصَارَ بِمَثَابَةِ جَنَّتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا عَنْ يَمِينِ النهر، والْأُخْرَىٰ عَنْ شِمَالِهِ.

لَقَدْ أَنْسَاهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَهُ بِتَيْسِيرِ الْأَسْبَابِ لَهُ كُلَّ مَا تَحْتَ يَدِهِ مِنْ أَمْوَالٍ وَقُوَّةٍ يَعْتَزُّ بِها.

والرَّجُلُ الآخَرُ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ دَاعِيَةٌ إلى دِينِ اللهِ، حَرِيصٌ عَلَىٰ هِدَايَةِ الضَّالِّين، وإرْشَادِهِمْ إلى صِرَاطِ اللهِ المستقيم، عَقِيدَةً وَعَمَلاً، إِلَّا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُؤْتِهِ سَعَةً مِن المال، وَلَا كَثْرَةً مِنَ الْأَوْلَادِ والْأَنْصَار.

ولَمّا أَتْلَفَ اللهُ للكافِرِ جنَّتَيْهِ آمَنَ باللهِ والْيَوْم الآخر.

التَّدَبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِه فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ فِي تَعْلِيم دَعَوِيّ:

- ﴿۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾:

أي: واضرِبْ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ المعتَزِّينَ الْمُتفَاخِرِينَ بِكَثْرَةِ أَمْوالهم، وقُوَّةِ رِجالِهِمُ الَّذِينَ يَنْصُرُونَهُمْ ضِدَّكَ وَضِدَّ دَعْوَتِكَ وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ واتَّبَعُوك، مَثلاً قِصَّةَ رَجُلَيْنِ: مُؤْمِنٍ فَقِيرٍ دَاعٍ إلى اللهِ، وَكَافِرٍ غَنِيٍّ وَسَّعَ اللهُ في الرزْقِ مِنْ زِينَةِ الحياة الدُّنيا.

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ وَصْفٌ كَلَامِيٌّ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ تَحْدِيدٍ لِخَرِيطَةِ جَنَّتَي الرَّجُلِ الثَّرِيّ، وَمَا فيهما من أشْجَارٍ وَزُرُوعٍ، باسْتِثْنَاءِ المسَاحَةِ والْعَدَدِ.

فالجنَّتَانِ مَزْرُوعَتَان بأشْجَارِ الْعِنَب، ذواتِ العروق والْفُرُوعِ الْمُمْتَدَّةِ، وأَفْضَلُ بَسَاتِينَ الْعِنَبِ مَا كَانَتْ فُرُوعُ أشْجَارِه مُمَدَّدَةً عَلَىٰ عُرُوشٍ مِنَ الْأَخْشَابِ الْمُرْتَفِعَةِ عَنْ الْأَرْضِ بأعْمِدَةٍ، لَكِنْ لَمْ يَأْتِ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ذِكْرُ الْعُرُوش، إنَّمَا جَاءَ في أواخِرِ بيانِ الْقِصَّة ذِكْرُها بِعِبارَة: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ عنْدَ بيانِ إهْلَاكِ ثمرِ الجنَّتَيْنِ.

والْجنتَانِ مَحْفُوفَتَانِ بِأَشْجَارِ النَّخِيلِ الشَّاهِقَةِ، لِتَحْمِيَ أَشْجَارَ الْعِنَبِ مِنَ الرِّيَاحِ الْبَارِدَة، وَمِنْ لَفَحَاتِ الصَّقِيعِ الَّتِي تَأْتِي بِهَا، المتْلِفَةِ لِلثِّمَارِ والْأَزْهَار، ويقولُ اللهُ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بضمير المُتَكَلِّم العظيم:

- ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾: أي: وَأَحَطْنَاهُمَا بِأَشْجَارِ نَخْلٍ. يُقَالُ لغة: «حَفَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ بالشيء» أي: جَعَلَهُ مُحِيطاً بِهِ، وَمُسْتَدِيراً حوْله.

- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾: أي: وَفي المساحَاتِ الْفَارِغَاتِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ جَعَلْنَا زُرُوعاً أَرْضِيَّةً نَافِعَةً لِأَكْلِ النَّاسِ والْأَنْعَام.

- ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾: أي: وَقَدْ وَصَلَتِ الْأَشْجَارُ إلَىٰ كَمَالِ نُضْجِهَا، فآتَتْ فيما سَبَقَ أُكُلَها، أي: ثَمَرَاتِها الَّتِي

تُؤكَلُ مِنهَا، دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِنُقْصَانٍ، فَلَمْ تَظْلِمْ مِنْ أُكُلِهَا شَيْئاً، أي: لَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئاً.

الأُكُل: بضَمِّ الكاف وإسْكَانِها مَا يُؤكَلُ، وأُكُلُ الشَّجَرَةِ جَنَاهَا الَّذِي يُؤكَلُ مِنها.

- ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾: أي: وأَخْرَجْنَا عَيْنَ مَاءٍ تَنْبَعِثُ مِنْهَا الحياةُ بِقُوَّةٍ وَتَدَفُّقٍ، وَشَقَقْنَا لَهُ نهراً يَجْرِي فِيهِ الماء لسُقْيَا الجنتَّيْن.

وسواءٌ حَصَلَ هٰذَا بأَسْبابٍ اتَّخَذَهَا الرَّجُلُ، أَمْ دُونَ أَسْبَابٍ مِنْهُ، فالْأَمْرُ كُلُّهُ قَدْ تَمَّ بِتَقْدِيرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَضائِهِ وخَلْقِهِ.

إنَّ الأَسْبَابَ الإنْسَانِيَّةَ إنَّمَا تَتِمُّ بإقْدَارِ اللهِ وإلْهَامِهِ وَتَوْفِيقِهِ، وهي في الحقيقَةِ آثَارُ فِعْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

- ويُمْكِنُ تَقْسِيمُ قِصَّةِ هٰذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إلى ثَلاثَةِ فُصُول، وخاتِمَةٍ عَقِبَها.

الفصل الأول

مُقدّمة:

يظْهَرُ أَنَّ الرَّجُلَ المؤمِنَ الداعِيَةَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ والْتِزَامِ صِراطِهِ المسْتَقِيم، وقَدْ بَدَأَ يَنْصَحُ مَالِكَ الجنَّتَيْنِ ذَا الْقُوّةِ بأَمْوَالِهِ وأنْصارِه، المفْتُونَ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ زينَةِ الْحَياةِ الدُّنْيا لِيَبْلُوَه، فَيَدْعُوهُ إِلَىٰ الإيمَانِ الْكَامِلِ الصّحِيح باللهِ الْخَالِقِ الرَّبّ، الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شيءٍ فِي الْوُجُود، والَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، حَتَّىٰ الأَسْبَاب فإنَّهَا لَا تُؤَثِّرُ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَالَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، أي: في اسْتِحْقَاقِهِ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ دُونَ شَيْءٍ سِوَاهُ فِي الوجود، وأَخَذَ يُقَدِّمُ لَهُ الْأَدِلَّةَ عَلَىٰ التَّوْحِيد، وَيُبَيِّنُ لَهُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ النَّاسَ فِي هٰذِهِ الحياة الدُّنْيا

لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَملاً، وأَنَّ هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيَا كُلَّها سَتَنْتَهِي بِقِيامِ السَّاعَةِ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ النَّاس إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الحِسَاب، وَفَصْلِ القضاء، ثُمَّ تَنْفِيذِ الجزاء، بالثواب في جَنَّاتِ النَّعِيم، أَوْ بالعقابِ في دَارِ الْعَذَابِ الأَلِيم.

فَرَدَّ عَلَيْهِ ذُو المالِ الواسِعِ المعْتَزُّ بِكَثْرَةِ أَوْلَادِهِ وَنَفَرِه، بقولِهِ له: إِنَّ إِيمَانَكَ بِرَبِّكَ وَطَاعَتَكَ لَهُ لَمْ تَجْلُبْ لَكَ مَالاً كثيراً، وَلَا قُوَّةً وَلَا مَنَعَةً بالْأَوْلَادِ وَالْأَنْصارِ بَيْنَ النَّاس.

فَلَوْ كَانَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ صَحِيحاً لَكَانَ اللهُ قَدْ وَسَّعَ عَلَيْكَ وَمَنَحكَ الْقُوَّة.

أَمَّا أَنَا فَقَدِ اسْتَخْدَمْتُ وَسَائِلِي، وَذَكَائِي، وعِلْمِي، فَصِرْتُ أَكْثَرَ مِنْكَ مَالاً، وأعزَّ نَفراً، وهـٰذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتَجَاوَزُ ظُرُوفَ هَـٰذِهِ الحياةِ وَأَسْبَابِهَا.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ المؤمِنُ قَدْ حَاوَرَهُ حَوْلَ دَلِيلِهِ هَـٰذَا، فَأَبَانَ لَهُ أَنَّ ظُرُوفَ الحياة الدُّنْيَا ظُرُوفُ امْتِحَان، والامْتِحَانُ يَكُونُ بِالْغِنَىٰ والْقُوَّةِ أَحْيَاناً وَلِبَعْضِ النَّاسِ، وَلَيْسَ هـٰذَا تَكْرِيماً مِن اللهِ لَهُمْ، وَيَكُونُ بالتضْييقِ وَعَدَمِ الْقُوَّة أَحْياناً ولِبْعضِ النَّاسِ، وَلَيْسَ هـٰذَا إِهَانَةً لَهُمْ، بَلْ كُلٌّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ للابْتِلَاءِ والامْتِحَان.

إِلَّا أَنَّ ذَا الْغِنَىٰ المعْتَزَّ بأَمْوَالِهِ وَأَوْلَادِهِ وَنَفَرِهِ، والمتفاخِرَ بِكُلِّ ذَلِكَ، لَمْ يَعْبَأْ بِجَوَابِ الرَّجُلِ المؤمِنِ الْقَائِمِ عَلَىٰ الدَّلِيلِ النَّظَرِيِّ الْفِكْرِيِّ الْعِلْمِيِّ، المسْتَنِدِ إِلَىٰ أَدِلَّةِ الإيمان باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ، وَحِكْمَتِهِ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ فِي هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا، لِأَنَّهُ مَفْتُونٌ بِمَا يَمْلِكُ مِنْ زِينَتِها، مَحْجُوبُ الْبَصِيرَةِ عَنْ إِدْرَاكِ الحقيقَةِ، إِذْ أَكْسَبَهُ افْتِتَانُهُ طُغْيَاناً فِي نَفْسِهِ.

وفي مَوْسِمٍ مِنْ مَوَاسِمِ قَطْفِ الثِّمَارِ، كَانَتْ جَنَّتُهُ ذَاتَ ثَمرٍ بَهِيجٍ،

وَكَانَ قَدْ دَنَا قِطَافُهُ، فَتَحَرَّكَتْ نَفْسُهُ بِرَغْبَةِ الافْتِخَارِ عَلَىٰ صَاحِبه المؤمِنِ الدَّاعِيَةِ الَّذِي لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ مِثْلَ مَا آتَاهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ واسْتَصْحَبَهُ، لِيُطْلِعَهُ عَلَىٰ بُسْتَانِهِ، المفْتُونِ بِإِنْشَائِهِ وَإِعْمَارِهِ وإِتْقَانِهِ، ذِي الْجَنَاحَيْنِ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ، وَمِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ، وَذِي النَّهْرِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا، وَالَّذِي يَتَفَجَّرُ جَارِياً مُتَدَفِّقاً شَاقًّا الْبُسْتَانَ إِلَىٰ جَنَاحَيْن، فَكَانَ بِمَثَابَةِ بُسْتَانَيْنِ مُنْفَصِلَيْن، لَكِنْ يَجْمَعُهُمَا سُورٌ عَامٌّ واحِدٌ، فَهُمَا جَنَّتَانِ مُتَفَاصِلَتَانِ، فِي جَنَّةٍ عَامَّةٍ وَاحِدَةٍ ذَاتِ سُورٍ عَامٍّ وَاحِدٍ، وَقَصَدَ مِن اسْتِصْحَابِهِ التَّفَاخُرَ عَلَيْه، وَإِقْنَاعَهُ بأَنَّ نِظَامَ الحياةِ نظام أَسْبَابٍ وَمُسَبَّبَات.

فَلْنُتَابِعْ بالتَّدَبُّر التحليليّ فِقَرَاتِ البيانِ الرَّبَّانِي فِي كِتَابِ اللهِ المجيد.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾:

أي: وَفِي مَجْلِسِ حِوَارٍ بَيْنَهُمَا احْتَجَّ الْغَنِيُّ المفتونُ بمالِهِ والمغْرُورِ بِعِزَّتِهِ بأولاده وخَدَمِهِ، فقالَ فِي حِوَارِهِ محتجّاً وَمُتَفَاخِراً على المؤمِنِ الدَّاعِيَةِ إلى اللهِ، الَّذِي لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ سَعَةً مِنَ الْمَالِ، وَلَا قُوَّةً وَعِزًّا بالأَوْلَادِ وَالْخَدَم، وَكَانَ لَهُ فِي جَنَّتَيْهِ ثَمَرٌ اقْتَرَبَ أَوَانُ قِطَافِهِ، فَقَال لصاحِبِهِ:

- ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾: أي: مَعَ أَنِّي لَا أُومِنُ بِمَا تَدْعُونِي إِلَىٰ الإيمان بِهِ، فَلَوْ كَانَ مَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ حَقًّا لَأَغْنَاكَ رَبُّكَ وأَعَزَّكَ بالْأَوْلَادِ والنَّفَر، وَلَسَلَبَنِي مَا أَنَا فِيهِ مِنْ مَالٍ وعزٍّ.

- ﴿وَأَعَزُّ﴾: أي: وَأَقْوَىٰ وأَغْلَب، تقولُ العرب: «مَنْ عَزَّ بَزَّ» أي: مَنْ غَلَبَ سَلَب.

- ﴿نفَرًا﴾: النَّفرُ الرِّجالُ مِنْ ثَلاثَةٍ إلى عشرة، وكانوا أَوْلادَهُ وَخدمه.

- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ﴾: أَبان اللهُ بِهـٰذَا أَنَّ جَنَّتَيْهِ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ، نظراً إِلَىٰ السُّورِ الواحِدِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا، وَإِذْ كانَ النَّهرُ الْجارِي بَيْنَهُما قَدْ فَصَلَهُمَا، فَهُمَا بهذا الاعتبار جَنَّتَانِ.

وَوَصَفَ اللهُ الرَّجُلَ بِأَنَّهُ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، لأَنَّهُ عَرَّضَ نَفْسَهُ بِكُفْرٍ، لاسْتِحقَاقِ عَذَابٍ أَلِيمٍ خُلُوداً فِي دَار العذاب النَّارِ يَوْمَ الدين، إِذَا لَمْ يَتُبْ وَلَمْ يُؤْمِنْ قَبْلَ مَوْتِهِ، ومِنْ كُفْرِهِ مَا يلي:

(١) أَنَّهُ جَعَلَ الْأَسْبَابَ هِيَ الْفَاعِلِ الحقيقيَّ، جاحداً أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الَّذي يَخْلُقُ مِنْ خِلالِها.

(٢) وَقَدْ أَنْكَرَ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بالْبَعْثِ، والْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

- ﴿... قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾:

هَـٰذِهِ عِبَارَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ عَنَاصِرِ كُفْرِهِ، وهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَخَذَ بِيَدِ مُحَاوِرِهِ المؤمِنِ حَتَّىٰ أَوْصَلَهُ إِلَىٰ بُسْتَانِهِ، وأراهُ ثِمارَهُ مُتَدلِّياتٍ عَلَىٰ أَشْجَارِهَا، وَأَعْلَنَ ابْتِهَاجَهُ وَفَرَحَهُ بِجنَّتِهِ فقالَ لَهُ: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾: أي: مَا أَظُنُّ أَنْ تَهْلكَ هَـٰذِهِ الجنَّةُ في كُلِّ أَزْمَانِ الْمسْتَقْبَلِ وَتَنْقرِضَ، مَا دُمْتُ أَتَّخِذُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَجْعَلُهَا مُسْتَمِرَّةَ الْبَقَاءِ والإنْتَاجِ الْوَفِير.

إِنَّهُ لَمَّا اسْتَبْعَدَ مِنْ تَصَوُّرِهِ أَنَّ الْحَيَاةَ هَـٰذِهِ حَيَاةُ ابْتِلَاءٍ، وَأَنَّ وَرَاءَهَا حَيَاةً أُخْرَىٰ، في دَارٍ هي دَارُ الْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء، تَصَوَّرَ أَنَّ الْوُجُود كُلَّهُ مُنْحَصِرٌ في ظُرُوف هَـٰذِهِ الحياة، وَتَصَوَّرَ أَنَّ هَـٰذَا

النِّظَامَ مُسْتَمِرٌّ فِيها مِنَ الْأَزَلِ إِلَىٰ الْأَبَدِ، عَلَىٰ مَذْهَبِ الدَّهْرِيِّين، وتَصَوَّرَ أَنَّ أَحْدَاثَ هَـٰذِهِ الحياةِ الَّتِي تَجْرِي فِيها خَاضِعَةٌ لِنِظَام الْأَسْبَابِ والْمُسَبَّبَاتِ، فَمَا دَامَ الإِنْسَانُ يَتَّخِذُ أَسْبَابَ الإِنْشَاءِ والتَّعْمِيرِ والتَّرْبِيَةِ والتَّنْمِيَةِ، فإِنَّ الْأَسْبَابَ مُسْتَمِرَّةُ الْعَطَاءِ فِي نِظَامٍ أَبَدِيٍّ لَا انْقِطَاعَ له. وبِمَا أَنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، واتَّخَذَ الْأَسْبَابَ الصَّحِيحَةَ السَّلِيمَةَ الْكَامِلَةَ، لإِنْشَاءِ بُسْتَانِهِ ذي الجناحَيْن، إِنْشاءً كَامِلَ الصِّفَاتِ والشُّرُوطِ التَّنْمَوِيَّةِ وَالْوِقَائِيَّةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُعْطِي عَطَاءَهُ دواماً وافراً غير مَنْقُوص، وهـٰذَا الْأَمْرُ قَدِ امْتَحَنَهُ وأَخْضَعَهُ لِلتَّجْرِبَة خِلَالَ سَنَوَاتِ حَيَاتِهِ السَّابقات.

لِذَلِكَ فَهُوَ لَا يَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ جَنَّتُهُ هَـٰذِهِ أَبداً، مَا دَامَتْ أَسْبَابُ إِمْدَادِهَا بالْبَقَاءِ والتَّجْدِيدِ والتَّحْسِينِ والْحِمَايَةِ مُسْتَمِرَّةً، وَتَصَوَّرَ أَنَّ هـٰذَا هو قَانُونُ الْوُجُودِ الَّذِي لَا يَتَعَرَّضُ لِمَا يُلْغِيهِ مِنْ قُوَّة رَبَّانِيَّةٍ خارِقَة.

وَنَفْيُ الظَّنِّ كُلِّهِ قَوِيِّهِ وَضَعِيفِهِ عَنِ النَّقِيضِ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ النَّقِيضِ الآخَرِ بلا شَكّ، أي: فَهِيَ دَائِمَةٌ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هـٰذَا أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِخُلُودِ نَفْسِهِ، إِلَّا أَنَّ وَهْمَهُ جَعَلَهُ يُؤْمِنُ بِخُلُودِ نظامِ الكَوْنِ، وَنِظَامِ تَعَاقُب صُوَرِ الْحَيَاةِ فِي الْأَرْض.

وَإِذْ سَيْطَرَتْ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِكْرَةُ خُلُودِ هـٰذَا النِّظَامِ الْكَوْنِيِّ بِلَا انْقِطَاع، فَمِنْ لَوَازِمِ هَـٰذِهِ الفِكْرَةِ أَنْ لَا يَظُنَّ أَنَّ السَّاعَةَ الَّتِي حَدَّثَ الرُّسُلُ عَنْهَا، وَأَثْبَتَتْهَا الْكُتُبُ الرَّبَّانِيَّةُ سَاعَةٌ قَائِمَةٌ، لَا سَاعَةُ الإِفْنَاءِ، وَلَا سَاعَةُ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ حَيَاةِ البقاء، فقال:

- ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

وهَـٰذَا النفيُ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ النَّقِيضِ أَيْضاً، وهو أَنَّ السَّاعَة لَنْ تَقُومَ لَكِنَّهُ لَمْ يَجْزِمْ جَزْماً قَاطِعاً بِأَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الحياة بَعْدَ الْمَوْت، فقال:

• ﴿... وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾:

إِنَّهُ أَقْسَمَ مُؤَكِّداً، فاللّامُ في «لَئِنْ» مُوَطِّئَةٌ لِقَسَمٍ مَنْوِيّ، فقال: لَئِنْ أُرْجِعْتُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْت لِيُحَاسِبَنِي رَبِّي عَلَىٰ سَبِيلِ الاحتمال الضعيف الذي دَلَّتْ عليْهِ: «إِنْ» فِي نظامٍ غَيْرِ هَـٰذَا النِّظَامِ المشْهُودِ لِلْكَوْنِ، لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْ هَـٰذِهِ الجنَّةِ مُنْقَلَباً أَنْقَلِبُ إليه.

الْمُنْقَلَبُ: المكانُ الَّذِي يَحْصُل الانْقِلَابُ، أي: الرُّجُوعُ إِلَيْهِ.

أي: فَعِلْمِي وَقُدْرَتِي اللّذَيْنِ جَعَلَانِي أجْمَعُ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاة مَا جَمَعْتُ وأُأَسِّسُ مَا أَسَّسْتُ، وأُنْشِئُ مَا أَنْشَأْتُ، سَيُمَكِّنَانِي مِنْ أَنْ أَكْتَسِبَ أَمْثَالَهَا، إِنْ تَحَقَّقَتْ هَـٰذِهِ الرَّجْعَةُ إِلَىٰ الحياة بَعْدَ الْمَوْتِ، لَكِنَّنِي لَا أَرَىٰ هَـٰذَا فَمَزَاعِمُ الحياة الأُخرىٰ مَزَاعِمُ لَا دَلِيلَ عَلَيْها فِيمَا نُشَاهِدُ مِنْ مَقَابِرِ أَهْلِ الْقُرُونِ الأُولى.

الفصل الثاني

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾:

• ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾:

نُلَاحِظُ بِهـٰذَا أَنَّ المحاور المؤمِنَ حَاوَلَ فِي مُحَاوَرَتِهِ لصاحِبِهِ فِي الْحِوَارِ، المغْرُورِ بما آتاهُ اللهُ مِنْ مَالٍ وَأَنْصار، إِعَادَتَهُ إِلَىٰ المنْطَلَقِ الْأَوَّلِ

لِلْفِكْرِ الإيماني، وهُوَ الإيمانُ بالْخَالِقِ الرَّبِّ، المنْشِئِ لَهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ العظْمَىٰ مِنَ التُّراب.

فَسأَلَهُ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِفْهَام الإنْكَارِيِّ، عَنْ نَظْرَتِهِ إلى النِّظَام السَّبَبِيِّ الَّذِي تَجْرِي بِمُقْتَضَاهُ أَحْدَاثُ الْكَوْنِ وأَطْوَارُهُ، هَلْ هُوَ يُؤْمِنُ بالْأَسْبَابِ مُنْقَطِعَةً عَنِ الرَّبِّ الَّذِي يَخْلُقُ كُلَّ مَا فِي أَحْدَاثِ كَوْنِهِ ضِمْنَ قَنَوَاتِهَا؟!.

أي: إنَّ وُجُودَكَ بِخلْقِ اللهِ قَدْ كَانَ خاضِعاً لنظامِ الْأَسْبَاب، فاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أجْرَىٰ أَسْبَابَ خَلْقِكَ بدْأً مِن التُّراب المختَلِطِ بالماء، إلَىٰ النَّبَاتِ، إِلَىٰ الغذاء، إلى الدِّماء، ثُمَّ إِلَىٰ النُّطْفَةِ، وَتَتَابَعَتْ سِلْسِلَةُ الْأَسْبَابِ حَتَّىٰ صِرْت جَنِيناً، ثُمَّ دَبَّتْ فِيكَ الرُّوحُ بِخَلْقِ اللهِ وأَمْرِه، ثُمَّ يَسَّرَ اللهُ أَسْبَابَ وِلَادَتِكَ، وَتَتَابَعَتْ أَسْبَابُ إِمْدَادِكَ بالْبَقَاءِ حَتَّىٰ صَيَّرَكَ اللهُ طِفْلاً، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً مُكْتَمِلاً، تَتَعَاطَىٰ الْأَسْبَابَ، وَتَتِمُّ الْمُسَبَّبَاتُ بِخَلْقِ اللهِ مِنْ قَنَوَاتِها.

فَاللهُ الْخَالِقُ الرَّبُّ المتابِعُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ العظيمة، مِنْ بَوَاطِنِ الظَّوَاهِرِ السَّبَبِيَّة أَعْمَالَ الْخَلْق، هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ المسَبَّبَاتِ، كَمَا هُوَ خَالِقٌ لِلْأَسْبَاب، وَلَوْلَا خَلْقُهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ وَقُدْرَتُهُ ـ لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنها.

والْأَسْبَابُ لَا تَفْعَلُ بِذَاتِهَا شَيْئاً، لِأَنَّهَا أَشْيَاءُ لَا مَشِيئَةَ لَهَا، وَلَا عِلْمَ وَلَا حِكْمَةَ وَلَا غَايَة، بَيْنَما نُشَاهِدُ أَنَّ كُلَّ أَحْدَاثِ الكَوْنِ وَتَطَوُّرَاتِهِ مُقْتَرِنَةٌ بِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ، وَهُمَا لَا تَكُونَانِ إلّا بِعِلْمٍ وَمَشِيئَة، وَهَـٰذِهِ صِفَاتُ رَبٍّ عَلِيمٍ حَكِيمٍ قدير، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيُختار.

فَهَلْ أنْتَ نَظَرْتَ إِلَىٰ أَطْوَارِ وُجُودِكَ عَلَىٰ أَنَّهَا أَسْبَابٌ فَاعِلَةٌ بِذاتها. غَيْرُ مُسَيَّرَةٍ بِخَلْقِ رَبٍّ خَالِق؟!

وَيَظْهَرُ أَنَّ المفتونَ بِنِظَامِ الْأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ أَخذَ يُرَاوِغُ، وَيَطْرَحُ

الاحْتِمَالَاتِ النظريَّة، ومِنْهَا أَنَّ الْأَسْبَابَ مَشْهُودَةٌ لَنَا فَنُؤْمِنُ بِها، وَكَوْنُ اللهِ هُوَ الرَّبَّ الْخَالِقَ مِنْ بَوَاطِنِ الظواهِرِ السَّبَبِيَّةِ أَمْرٌ غَيْرُ مَشْهُودٍ، وَجَعلَ يَتَهَرَّبُ مِن الإِذْعَانِ لِلْحقّ.

ويَظْهَرُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِوُجُودِ خالِقٍ أَعْلَىٰ، لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي تَتَابُعِ أَحْدَاثِ الكَوْن، وَيَجْعَلُ لَهُ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ، ويَظْهَرُ أَنَّ شِرْكَهُ مِنْ نَوْعِ شِرْكِ فَاعِلِيَّةِ الْأَسْبَابِ بِذَاتِها، فَهُو فِي هَـٰذِهِ القضيَّةِ عَلَىٰ مَذْهَبٍ شَبِيهٍ بِمَذْهَبِ الدَّهْرِيّين.

فَلَمَّا عَلِمَ صَاحِبُهُ فِي الْحِوارِ المؤمِنُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ اعْتِقَادٍ فَاسِدٍ، وَكُفْرٍ بِرَبِّهِ، وَكُفْرٍ بِيَوْمِ الدِّينِ، والجزاء، والحياة الْأُخْرَىٰ، قَالَ لَهُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لمقالِهِ:

- ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾:

أي: لَكِنْ أَنَا لَسْتُ عَلَىٰ مَذْهَبِكَ الْفَاسِد، فأنَا مُؤْمِنٌ باللهِ رَبِّي الَّذِي يَخْلُقُ كُلَّ شَيْءٍ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً مِمَّن لَهُمْ حَيَاةٌ وإرادَةٌ وَعِلْمٌ وَقُدْرَة، فَضْلاً عَنْ أُشْرِكَ بِهِ أَسْبَاباً لَا حَيَاةَ لَهَا وَلَا إرادَةَ وَلَا عِلْماً وَلَا قُدْرَةَ.

- ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾: أَصْلُهَا لَكِنْ أَنَا هُوَ اللهُ رَبّي. لَكِنْ حَرْفُ اسْتِدْرَاكٍ يَسْتَدْرِكُ بِهِ عَلَىٰ اعْتِقَادِ المفْتُونِ بأسْبَابِه، وبما لَدَيْهِ مِنْ مَالٍ وأنْصار، فَيُبَيِّن لَهُ أَنَّهُ يُخالِفُهُ، وَيُؤْمِنُ باللهِ رَبِّهِ.

ضَمِيرُ ﴿أَنَا﴾ في مَحلِّ رَفْعِ مُبْتدأ. و﴿هُوَ﴾ ضَمِيرُ الشَّأْنِ الْعَظِيم مُبْتَدأٌ خَبَرُهُ جُمْلَةُ ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ وَجُمْلَةُ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ خَبرُ: ﴿أَنَا﴾.

فأبانَ الرَّجُلُ المؤمِنُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، اعْتِقَادَهُ بِجُمْلَةٍ عَلَىٰ إيجازِهَا الشَّدِيد فيها عِدَّةُ مُؤَكّدات: «الجملة الاسمية ـ وضَمِيرُ الشأن ـ والخبر المؤلف مِنْ جُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ مُعَرَّفَةِ الطَّرفَيْنِ تُفِيدُ الْقصر».

وبَعْدَ أَنْ أَبَانَ المؤمِنُ الدَّاعِيَةُ اعْتِقَادَهُ المخالِفَ لاعْتِقَادِ مُحَاوِرِهِ الْكَافِرِ، شَرَعَ يَنْصَحُهُ وَيُحَذِّرُه، فقالَ لَه:

- ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾:

أي: وَهلَّا حِينَ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ: هـٰذَا مَا شَاءَهُ اللهُ بِفَضْلِهِ عليَّ، وَلَمْ يَكُنْ بِعِلْمِي وقُدْرَتِي وبأسْبَابِي دُونَ تَقْدِير اللهِ وَقَضَائِهِ وَخلْقِهِ مِنْ باطِنِ الأسْبَاب.

- ﴿لَوْلَآ﴾ هُنَا حَرْفُ تَحْضِيضٍ بِمَعْنَىٰ «هلَّا».

وعبارة «مَا شَاءَ اللهُ» عبارَةٌ مُخْتَزَلَةٌ للتعْبِيرِ عن الإيمان، وللتَّحْصِين. وكَلِمَةُ «مَا» خَبَرُ مُبْتدأ مَحْذُوفٍ تَقْدِيره «هذا» وهي اسْمُ مَوْصُولٍ، والعائد عليه محذوف تَقْدِيره: «شَاءَهُ».

فَمَنْ أعْجَبَهُ شَيْءٌ لَهُ أوْ لِغَيْرِهِ فَلْيُحصِّنْهُ بعبارَة «مَا شَاء الله» إِذْ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ هُوَ الّذِي شَاءَ، وَيَسَّرَ الْأَسْبَاب، وأَجْرَىٰ أَعْمَالَ خَلْقِهِ مِنْ بواطِنِهَا، وبهـٰذَا التَّحْصِينِ يَحْفَظُهُ اللهُ، ويَدْفَعُ عَنْهُ السُّوء، وَيَقِيهِ مِنْ إصَابَاتِ الْعَيْن.

- ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: أي: لَا قُوَّةَ لِأَحدٍ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَلَا قُوَّةَ لِشَيْءٍ مَا، إلَّا بإمْدَادٍ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بالْقُوَّةِ الَّتِي يُسَخِّرُهَا لَهُ، وَيُمَكِّنُهُ من اسْتِخْدَامِهَا.

وَبهـٰذِهِ العبارة يَتَبَرَّأُ المؤمِنُ المسْلمُ مِنْ أَنْ تَكونَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ قُوَّةٌ ما، مَادِّيَّةٌ أَوْ مَعْنَوِيَّةٌ، ويُعلنُ أَنَّ مَا لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ هُوَ مِنْ عَطَاءِ اللهِ وإمْدَادِه وخَلْقِهِ.

- ﴿. . . إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾:

﴿إِن تَرَنِ﴾: إنْ حَرْفُ شَرْطٍ جَازِمٍ «تَرَنِ» أصلُهُ «تَرَني» حُذِفَتْ ياءُ المتكلِّمِ إيجازاً، وَحَذْفُهَا كثيرٌ في لسان العرب، وأمثالُهُ في القرآنِ كثيرة، والْفِعْلِ «تَرَنِ» مجزومٌ بحرْف الشَّرْط، وَعَلامَةُ جَزْمِهِ حَذْفُ آخِرِهِ لِأَنَّهُ مُعْتَلُّ الآخِرِ بالألف.

- ﴿أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾: أي: وأقلَّ مِنْكَ قُوَّةً وَأنْصاراً.

«أنا» تَأْكِيدٌ لِضَمِيرِ المتكلّم المحذوفِ لفظاً، والملاحظ ذهْناً.

«أقلَّ» مَفْعول بِهِ ثان للفعل في «إنْ تَرَنِ».

- ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾: أي: فَمِنَ المُمكنِ احْتِمالاً بالنظر إلَىٰ التَّقَلُّبَاتِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ فِي عِبادِه، أَنْ يُبَدِّلَ اللهُ فَقْرِي، فَيُغْنِيَنِي، فَيُؤْتِيَنِي خيراً مِنْ جَنَّتِكَ.

فعل «عَسَىٰ» يَدُلُّ عَلَىٰ الْأَمْرِ المحْتَمَلِ المرتقب، مثل «لعَلَّ». ويُسْتَعْمَلُ بمعْنَىٰ «التَّرَجّي». لَكِنَّهُ قَدْ يُسْتَعْمَلُ لمطْلَقِ الاحْتِمَالِ المتوقَّع كما هو هُنَا، إذْ لَيْسَ مِنْ خُلُقِ المؤمِنِ المسْلِم أَنْ يَرْجُوَ زَوالَ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ عَبْدٍ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ كَانَ كافراً، فَحِكْمَةُ الله عَزَّ وَجلَّ فِي عِبَاده لَا تُقَابَلُ مِنَ المؤمِنِ المسْلِمِ بِرَجَاءٍ يُشْعِرُ بِحَسَدٍ أَوِ اعْتِرَاضٍ عَلَىٰ تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضائِهِ.

- ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾: أي: ومِنَ الممْكِنِ احْتِمالاً بالنَّظرِ إلَىٰ التَّقَلُّبَاتِ الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ في عبادِه، أَنْ يُرْسِلَ اللهُ عَلَىٰ جَنَّتِكَ مُهْلِكَاتٍ مُتْلِفَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ لَيْلاً فَتُصْبِحَ أَرْضاً خَالِيَةً مِن كُلِّ شَجرٍ وَنَباتٍ، وتُصْبِحَ طِيناً رَغَوِيًّا يَزْلَقُ مَنْ يَضعُ قَدَمَهُ عَلَىٰ أيِّ مَكانٍ مِنها.

ومِنَ الممْكِن احْتِمَالاً أَنْ يُصْبحَ مَاؤُهَا غائِراً في الْأَرْضِ إلَىٰ أعْمَاقٍ، لَا تَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إلَيْهِ وَلَا اسْتِخْرَاجَهُ بِوَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ، فَأَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ طَلَبَهُ، إذْ تَرَىٰ أَنَّكَ عَاجِزٌ عَنِ اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ أَغْوارِهِ.

• ﴿حُسۡبَانٗا﴾: الْحُسْبَانُ في الأصْلِ مَصْدَرٌ كالْحِسَاب، وبما أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ اللهِ بِمِقدار، والمقاديرُ تُقَدَّرُ بالحاسب، أُطْلِقَ الْحُسْبَانُ هُنَا مُراداً بِهِ النَّوازِلُ الْمُهْلِكَةُ والمتْلِفَةُ الَّتِي يُرْسِلُها عَلَىٰ بَعْضِ عِبادِهِ، أَوْ عَلَىٰ بَعْضِ مُمْتَلكاتِهم وأشْيَائِهِم بِحِسَابٍ دقيقٍ، تَأْدِيباً لَهُمْ، أَوْ عُقُوبَةً مُعَجَّلَةً قَبْلَ عُقُوباتِهِ المؤجَّلَةِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّين.

• ﴿صَعِيدٗا زَلَقًا﴾: أي: أَرْضاً خَالِيَةً مِنْ أيِّ شَجَرٍ أَوْ زَرْعٍ، وَطِيناً رَغوِيًّا مُزْلِقاً لَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْأَقْدَام.

الصَّعيد: وَجْهُ الْأَرْضِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّه لَا يَظْهَرُ كُلُّ وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا إِذَا زَالَ كُلُّ مَا فِيها مِنْ شَجَرٍ وَنَباتٍ.

الزَّلَق: المكان المزْلَقَةُ الَّذِي لَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ قَدَمٌ، بِسَبَبِ مَا فِيهِ مِنْ طِينٍ رَغوِيّ.

• ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾﴾:

غَوْرُ كُلِّ شيءٍ عُمُقُهُ، ويُقَالُ لغة: «مَاءٌ غَوْرٌ» أي: ماءٌ غائِرٌ، عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْوَصْفِ بالمصْدَرِ، والماءُ الْغَائِرُ في عُمْقِ الْأَرْضِ قَدْ لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ اسْتِخْرَاجَهُ.

طَلَباً: أُطْلِقَ لفظ الطَّلَب، وَأُرِيدَ الْغَايَةُ مِنْهُ، وهُوَ تَحْصِيلُهُ، والوصُولُ إِلَيْهِ واسْتِخْرَاجُهُ، وهو مِنْ إِطْلَاقِ السَّبَبِ الْمُعبِّر عَنِ الْحَاجَةِ، الَّتِي تَدْفَعُ إِلَىٰ اتِّخاذ سِلْسِلَةِ الأَسْبَابِ، عَلَىٰ المطْلُوبِ الْغَائِيِّ، وَهُوَ اسْتِخْرَاجُ الماءِ والحصُولُ عَلَيْهِ فِي أغْوَارِ الْأَرْض.

دَلَّتْ آيَاتِ هـٰذَا الْفَصْلِ عَلَىٰ أَنَّ الرَّجُلَ المؤمِنَ الْمُسْلِمَ الدَّاعِيَة إِلَىٰ اللهِ، قَدْ نَصَحَ صَاحِبَهُ المفْتُونَ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ أَمْوالٍ وأَوْلَادٍ يَنْصُرُونه، نَصِيحَتَيْنِ كُبْرَتَيْنِ، تَشْتَمِلَانِ عَلَىٰ عِدَّةِ نَصَائِحَ فَرْعِيَّةٍ.

النَّصِيحَةُ الأُوْلى: قالَ لَهُ فِيهَا: هَلَّا إِذْ دَخلْتَ جَنَّتَكَ ذَاتَ الْجَناحَيْنِ عَلَىٰ شَاطِئِ النَّهْرِ الَّذِي يَجْرِي وَسَطَهَا، قُلْتَ: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: أي: هٰذَا الَّذِي أَرَاهُ فِي جَنَّتِي هُوَ شَيْءٌ قَدْ شَاءَهُ اللهُ، فَهُوَ الَّذِي هَيَّأَ لِي الأَسْبَابَ، وَهُوَ الَّذِي أَمَدَّنِي بالْقُوَّةِ لاتِّخاذِهَا. إِنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي اتَّخَذْتُ بِهَا أَسْبَابِي لَمْ تَكُنْ لِي إِلَّا بِخَلْقِ اللهِ، وإمْدَادِه، ومَعُونَتِهِ، وَتَوْفِيقِهِ.

النَّصِيحَة الثانية: قَالَ لَهُ فيها: إِنَّ تَفَاخُرَكَ عَلَيَّ بِكَثْرَةِ أَمْوالِكَ وَأَوْلَادِكَ، تَفَاخُرٌ بأمْرِ غَيْرِ مَضْمُونِ الثَّبَاتِ والدَّوامِ، فَمِنْ سُنَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ أَنَّهُ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، لِيَمْتَحِنَ كُلًّا بِمَا آتاهُ بالشُّكْرِ أَوْ بالصَّبْرِ والرِّضا، وَمَنْ أَعْطاهُ فِي حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ رُبَّمَا سَلَبَهُ مَا كَانَ أَعْطاهُ إِيَّاهُ فِي حِينٍ آخر، وَمَنْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ، رُبَّمَا وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي حِينٍ آخر.

فَلَا يَغُرَّنَّكَ مَا أَنْتَ فِيهِ الآن، إِنَّهُ صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ امْتِحَانك، وَمِنَ الممْكِنِ الَّذِي قَدْ يَحْصُلَ، أَنْ يَشَاءَ اللهُ فَيُعْطِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِك، وَمِنَ الْمُمْكِنِ أيضاً أَنْ يَسْلُبَكَ جَنَّتَكَ بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ الْكَوْنِيّة، الَّتِي نُشَاهِدُ أَمْثَالَهَا في صُرُوفِ الدَّهر.

كَأَنْ يُرْسِلَ عَلَىٰ جَنَّتِكَ نَوازِلَ مِنَ السَّمَاءِ مُهْلِكَةً مُتْلِفَةً مُبِيدَةً، مُقَدَّرَةً بِحُسْبَانٍ دَقِيقٍ لا تُصِيبُ غَيْرَ جَنَّتِكَ، كَلَفَحاتِ صَقِيعٍ، أَوْ لَفَحاتِ سَمُومٍ مُحْرِقَةٍ، أَوْ صَواعِقَ مُحْرِقَة، أَوْ بَرَدٍ شَدِيدٍ مُحَطِّم، لا يُبْقِي مِنَ الْجَنَّةِ شيئاً، فَتُصْبِحَ صَعِيداً، أَرْضاً خَالِيَةً، مِنْ أيِّ شَجَرٍ أَوْ نَباتٍ، قَد اخْتَلَطَ تُرَابُهَا وَنباتُها بِمَا نَزَلَ عَلَيْهَا مِنْ بَرَدٍ وَثَلْجٍ، فَتَصِيرَ زَلَقاً لا تَثْبُتُ عَلَيْهَا الأَقْدَامُ، كَمَا يَحْدُثُ أحْيَاناً فِي بَعْضِ الْبَسَاتِين وَالْغَابَاتِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهَا مُهْلِكَاتٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَهٰذَا أَمْرٌ مُشَاهَدٌ فِي صُرُوفِ الدَّهْرِ وَعُقُوبَاتِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ.

ومِنَ الممْكِنِ أَنْ يُصْبِحَ الماءُ الْجَارِي الَّذِي تُسْقَىٰ مِنْهُ جَنَّتُكَ مَاءً غَوْراً، غائراً في أعْمَاقِ الْأَرْضِ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، وَلَا الْحُصُولَ عَلَيْهِ، وَإِذَا غَارَ الماءُ فِي أعْمَاقِ الْأَرْضِ وأَنْتَ لَا تَمْلِكَ بَدَائِلَ لَهُ، يَبِسَ كُلُّ مَا فِي بُسْتَانِكَ الّذِي تَفَاخِرُ بِهِ، وَتَزْعُمُ أَنَّهُ لَنْ يَبِيدَ أبداً، فَكَمْ مِنْ ماءٍ كَانَ نَهْراً جَارِياً، فَغَارَ فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ، فَيَبِسَتِ الْأَشْجَارُ والزُّرُوعُ الَّتِي كَانَ يَسْقِيهَا.

أَلَيْسَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنَ الاحْتِمَالَاتِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ نَظَائِرِهَا فِي صَرُوفِ الدَّهرِ؟؟.

مَوْقف المغْرُور مِنْ هَاتَيْنِ النّصِيحَتَيْن:

لَكِنَّ الرَّجُلَ المفْتُونَ المعْتَمِدَ عَلَىٰ أَسْبَابِهِ اسْتَمَرَ مَغْرُوراً بِنَفْسِهِ، وَبِمَا يَمْلِكُ مِنْ أَسْبَابٍ، مَخْدُوعاً بالظَّوَاهِرِ، غَيْرَ مُؤْمِنٍ بِأَنَّ مَا هُوَ فِيهِ قَدْ كَانَ بِعَطَاءِ اللهِ لَهُ، لِيَمْتَحِنَهُ فِي ظُرُوف الْحياةِ الدُّنيا.

الفصل الثالث

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾:

مقدّمة:

لقد شَاء اللهُ أَنْ يُعَاقِبَ المغْرُورَ المفْتُونَ بأَسْبَابِهِ عِقَابَ تَأْدِيبٍ، لِيَرُدَّهُ إِلَىٰ صوابه، وَيُوقِظَهُ مِنْ غفواتِهِ، وَيُقَدِّمَ لَهُ مَا يُقْنِعُهُ بالجزاء المؤجّلِ إلى يَوْم الدِّين، فَأَرْسَلَ عَلَىٰ جَنَّتِهِ حُسْبَاناً مِنَ المتلفات أَحَاطَتْ بِكُلِّ ثَمرِهِ فَاتْلَفَتْهُ، كَلَفْحَةِ مِنَ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الْبُرُودَة، الَّتِي تُحَوِّلُ الثَّمَرَاتِ وأَوْرَاقَ

الْأَشْجَارِ والنَّبَاتِ إِلَىٰ جَلِيدٍ مُتْلِفٍ مُهْلِكٍ، فَمِنَ المعْرُوفِ أَنَّ الصَّقِيعَ يُتْلِفُ الثَّمَرَ وأَوْرَاقَ الشَّجَرِ.

وحِينَ أَتْلَفَ اللهُ لَهُ ثِمَارَ جَنَّتِهِ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ مِنْ دُونِ اللهِ يَنْصُرُونَهُ، لَا أَوْلَادُهُ وَلَا خَدَمُهُ الَّذِينَ كَانَ يَعْتَزُّ بِهِمْ وَلَا غَيْرُهم، وَمَا كانَ هُوَ بِقُوَّتِهِ مُنْتَصِراً عَلَىٰ مَقَادِيرِ اللهِ الْعِقَابِيَّةِ.

وَذَهَبَ الرَّجُلُ المغْرُورُ المفْتُونُ إِلَىٰ جَنَّتِهِ صَباحاً كَعَادَتِهِ، فَوَجَدَ كُلَّ ثِمَارِهَا وأَوْرَاقِهَا مُتَفَحِّمَةً بالصَّقِيعِ، فَصَارَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ حَسْرَةً عَلَىٰ مَا انْفَقَ مِنْ أَمْوَالٍ فِي إِعْمَارِ جَنَّتِهِ لاسْتِثْمَارِهَا، وَرآهَا خَاوِيَةً مِنَ الثِّمارِ، مُتَسَاقِطَةَ الْأَغْصَانِ والْعُرُوقِ عَلَىٰ عُرُوشِها، فَقَدْ كَانَتْ ثِمَارُهَا مِنَ الْعِنَبِ في مَوْسِمِ قِطَافِهِ، ومِنَ الْجَيِّدِ في أَشْجَارِ العِنَبِ أَنْ تُمَدَّدَ أغصانُهَا عَلَىٰ عُرُوش، أي: عَلى أخْشَابٍ مُتَفرِّقَةٍ بَيْنَهَا مَساحَاتٌ فَارِغاتٌ، وَهِيَ مَرْفُوعَةٌ عَنِ الأَرْضِ، حَتَّىٰ تَتَدَلَّىٰ عَنَاقِيدُ الْعِنَبِ مِنَ الْأَغْصَانِ، وَتَأْخُذَ الْأَغْصَانُ حَظَّهَا الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّمْسِ والْهَواءِ، وَتكُونُ مَحْمُولَةً عَلَىٰ الْعُرُوشِ.

ومِنْ عَادَةِ الرَّجُلِ العاقِلِ الرَّزِينِ، الَّذِي يَتَحَسَّرُ عَلَىٰ مَا فَقَدَ مِنْ أَمْوَالٍ، أَنْ يَضْرِبَ كَفَّ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ عَلَىٰ كَفِّ الْيَدِ الْيُسْرَىٰ، فَكَفَّ الْيَدِ الْيُسْرَىٰ عَلَىٰ كَفِّ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ بَعْدَ قَلْبِهما، وَهَكَذا بالتَّتَابُعِ يُقَلِّبُهُمَا، وَيَضْرِبُ الْعُلْيَا مِنْهُمَا عَلَىٰ السُّفْلَىٰ تَحسُّراً وَندَماً.

أَمَّا غَيْرُ العاقِلِ الرَّزِينِ فَرُبَمَا بَكَىٰ وَصَاحَ وضَرَبَ رَأْسَ نَفْسِهِ بِيَدِهِ، أَوْ بِشَيْءٍ يَرَاهُ قَرِيباً مِنْهُ.

واتَّعَظَ الرَّجُلُ بِمَا جَرَىٰ لَهُ مِنْ عِقَابٍ تَأْدِيبِيّ، فَصَارَ يَقُولُ مُكَرِّراً: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أحداً، وَيُكَرِرُ حَرَكَةَ تَحَسُّرِهِ وَنَدَمِهِ بِتَقْلِيبِ كَفَّيْهِ وَضَرْبِ الْعُلْيَا مِنْهُمَا عَلَىٰ السُّفْلَىٰ.

وَكَانَتْ هَـٰذِهِ الْعُقُوبَةُ الرَّبَّانِيَّةُ التَّأْدِيبِيَّةُ سَبَبَ تَخَلُّصِهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَسَبَبَ اسْتِمْسَاكِهِ بالإيمان الصَّحيحِ الكامل، ورجْعَتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ تَائِباً مُنِيباً.

التدبّر التحليلي:

- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾: جاءَ الفِعْلُ عَلَىٰ صِيغَةِ المبنيّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ إيجَازاً، لِلْعِلْمِ مِنَ السِّبَاقِ بأنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي عَاقَبَهُ عِقَابَ التَّأْدِيب، فأرْسَلَ عَلَىٰ جَنَّتِهِ مَا يُحِيطُ بِثَمرِهَا مِنَ المتْلِفَاتِ المهْلِكَاتِ، فَأَتْلَفَتْهُ له.

- ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾: دَلَّ هٰذَا البيان عَلَىٰ أَنَّ مُتْلِفَاتِ الثّمار نَزَلَتْ عَلَىٰ جنّتِهِ لَيْلاً، فَأَتْلَفَتْهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَآهَا تَالِفَةً، فَصَارَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ تَحَسُّراً وَنَدماً عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِي إعْمَارِهَا مِنْ أمْوَالٍ، وَجَهْدٍ مِنَ الأَعْمَالِ.

- ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي: والحَالُ أَنَّ جنّتَهُ خَاوِيَةٌ مِنْ ثِمارِهَا، مُتَسَاقِطَةُ الأَغْصَانِ والْفُرُوعِ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، بِسَبَبِ مَا أَصَابَهَا مِنَ الصَّقِيعِ الَّذِي أتْلَفَهَا فَأَفْقَدَهَا مَا فِيهَا مِنْ حَيَاةٍ تَنْهَضُ بِهَا مُتَسامِيَةً فِي السَّمَاءِ.

- ﴿. . . وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾: أي: وَيقُولُ مُكَرِّراً أخْذاً مِنْ دَلاَلَةِ الفِعْلِ المضارع.

- ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾: الَّذِي تَرَجَّحَ لَدَيَّ أنّ «ما» في مِثْلِ هٰذَا التَّعْبِيرِ هي «يا» الّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي النُّدْبَة، فَهُوَ يَنْدُبُ أُمْنِيَّةً فَاتَتْهُ، وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ تَدَارُكِهَا، وهِيَ أمْنِيَّةُ التَّوْبَةِ قَبْلَ نُزُولِ الْعِقَاب.

- ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: حِينما نَزَلَ بِهِ الْعِقَابُ التَّأْدِيبيُّ، لَمْ تَنْفَعْهُ أَوْلاَدُهُ الَّذِينَ كَانَ يَفْتَخِرُ بِكَثْرَتِهِمْ عَلَىٰ صَاحِبِهِ المؤمِنِ الْمُسْلِمِ النّاصِحِ له، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ تَحْمِيهِ مِنْ نُزُولِ عِقَابِ اللهِ في ثَمَرَاتِ جَنَّتِهِ، لِأَنَّ النَّاسَ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَاهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَحْمُوا أنفُسَهُمْ وَلَا غَيْرَهُمْ مِمَّا تَمَّ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ، وَحَانَ وَقْتُ التَّنفيذ.

وَلَمْ يَكُنْ هُوَ مُنْتَصِراً لِنَفْسِهِ بِوَسَائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ، فَقَضَاءُ اللهِ لَا يُعَانَدُ، وَعُقُوبَاتُهُ لَا تُرَدُّ.

التعليقُ الختَامِيّ

جاء في خَاتِمَةِ الدَّرْسِ عَقِبَ الفُصُولِ الثلاثَةِ:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾:

- ﴿هُنَالِكَ﴾: المشَارُ إلَيْهِ يَوْمُ الدِّين.

- ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: بِفَتْحِ الواو وَكَسْرِهَا، بِمَعْنَىٰ المُلْكِ التّامِ الَّذِي لَا تَسْتُرُهُ ظَوَاهِرُ سَبَبِيَّة.

- ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ﴾: أي: للهِ الثَّابِتِ ذي الوجود الأزلِيّ الْأَبَدِي بذاتِهِ الَّذِي يَسْتَحِيلُ في العقل عَدَمُه.

- ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: أي: هُو خَيْرُ عَطاء ثَوابٍ لِلْمُتَّقِينَ والأَبْرَارِ والمحسنين، مِنْ كُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ متاعٍ يَسُرُّ وَيَغُرُّ، وما يَعْقِبُهُ لَهُمْ خَيْرٌ عَاقِبَةً.

العُقُبُ. والْعُقْبُ: بإسْكَانِ القافِ وَضَمِّها، العاقبة.

جَاءَ هٰذَا الختام تَعْلِيقاً عَلَىٰ الظَّوَاهِرِ السَّبَبِيَّة الّتي رَتَّبَهَا اللهُ في كَوْنِهِ لِنِظَامِ الحياة الدُّنيا، حَيَاةِ الامْتِحَانِ، وَمُبَيّناً أَنَّهَا لَنْ يَكُونَ لَهَا وُجُودٌ يَوْمَ الدِّين، في الحياة الأُخرى، بَلْ سَتَكُونُ هُنَالِكَ الْوِلَايَةُ كُلُّهَا ظاهِراً وَبَاطِناً للهِ الحقِّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا فِي الظَّاهِرِ وَلَا فِي الباطن، وَهُوَ خَيْرُ عَطَاءَ ثَواب، وَخَيْرُ مانِحَ عَاقِبَةٍ حَسَنَةٍ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس الرابع من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٤٥ ـ ٥٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا (٤٥) ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا (٤٦) وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا (٤٧) وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا (٤٨) وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا (٤٩) وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا (٥٠)﴾.

القراءات:

(٤٧) ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: **[تُسَيَّرُ الْجِبَالُ]** بالمبنيّ لما لم يُسَمَّ فاعله.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نُسَيِّرُ الْجِبَالَ]** بضمير المتكلّم العظيم.

(٥٠) ● قرأ أبو جعفر: **[لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا]** بضمّ تاء «لِلْمَلَائِكَةِ» اتباعاً لجيم «اسْجُدُوا» وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا]** على الأصل.

(٥٠) ● قرأ ورش، والسّوسي، وأبو جعفر: **[بِيسَ]** بإبدالِ الهمزة ياءً.

وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِئْسَ].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰـذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ إقْنَاعِيّ بِشَأنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَنِهَايَتِها، مَعَ وَصْفِ بَعْضِ أَحْدَاثِ الْقِيَامَةِ وَيَوْمِ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ دِينِ اللهِ مِنْ أُمّتِهِ:

- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾:

بِمُنَاسَبَةِ مَا جَاءَ في الدَّرْسِ الرَّابِعِ بِشأْنِ الرَّجُلَيْنِ المتحاوِرَيْن، واغْتِرَارِ الَّذِي كَانَ كَافِراً قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

ولَمَّا كَانَتْ عِلَّةُ مُعْظَم الْكَافِرِينَ اغْتِرَارُهُمْ بالْحَيَاةِ الدُّنيا، وَمَا فِيها مِنْ زِينَةٍ وَمَتَاعَاتٍ مُحَبَّبَاتٍ لِنُفُوسِ النَّاس، وَمِنْهُمْ المتَمَسِّكُونَ بِشِرْكِهِمْ إبَّانَ التَّنْزِيل.

كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ في عِلَاجِهِمْ الإقْنَاعِيِّ تَشْبِيهِ ظُرُوفِ كُلِّ هٰـذِهِ الْحَيَاةِ الأُولَىٰ، وَكُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِها مِنْ مَكَانٍ وَنِظَامٍ وَتَصَارِيفَ وأحْدَاثٍ، بِمَوْسِمٍ مِنَ الْمَوَاسِمِ الزِّرَاعِيَّةِ المتكَرِّرَة فيها، إذْ تَنْبُتُ الزُّرُوعُ وَتَخْرُجُ الثِّمار، وَتَزْدَهِرُ الأَرْضُ وَتتَزَيَّنُ بِمَا يَخْرُجُ فِيها مِنْ زِينَاتٍ وَكُلِّ شَيْءٍ بَهِيجٍ، ثُمَّ يَنْتَهِي بالاصْفِرَارِ والْيُبْسِ والتَّكَسُّرِ، وَتَأْتِيهِ رِيَاحٌ فَتَنْسِفُهُ، وَتَذْرُوهُ، فَلَا تُبْقِي لَهُ في الْمَكَان الَّذِي نَبَتَ فِيهِ أثراً.

- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أَصْلُ مَعْنَىٰ الضَّرْبِ إلْصَاقُ شيءٍ

بشَيْءٍ بِقُوَّةٍ وَعُنْفٍ، ومِنْهُ ضَرْبُ صَفائح الذَّهَبِ والْفِضَّةِ، لِجَعْلِهَا دَنَانِير وَدَرَاهِمَ مُقَسَّمَةً، وَمَحْفُوراً عَلَيْهَا الْخُطُوطُ والرُّسُومُ الَّتِي وُضِعَتْ لها.

وَحَصَلَ تَوسُّعٌ في معْنَىٰ الضَّرْبِ هـٰذَا، فَصَارَ يُسْتَعْمَلُ في ضَرْب المثَلِ، بِمَعْنَىٰ ذِكْرِ شَبِيهِ الْمُمَثَّلِ لَهُ.

أي: واذْكُرْ للكافِرِينَ شَبِيه الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِكُلِّ ظُرُوفها، أَوْ وَصْف الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

لمَّا قَضَىٰ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ في تَدْبِيرِهِ لِكَوْنِهِ، أَنْ يَجْعَلَ لِلأَحْيَاءَ الْعُلْيَا فِيهِ حَيَاتَيْنِ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا أَلْوَاناً وَظُرُوفاً تُلَائِمُ الْغَايَةَ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَمِنَ الْأَحْيَاءِ الْعُلْيَا الْإِنْسُ والْجِنُّ، وَجَعَلَ اللهُ الْحَيَاةَ الْأُولَىٰ لابْتِلَاءِ المؤَهَّلِينَ للامْتِحَانِ من الجنِّ والإِنْسِ، وَجَعَلَ الْحَيَاةَ الْأُخْرَىٰ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

وَسَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في كتابِهِ الحياةَ الْأُولَىٰ باسم «الحياة الدُّنيا». وسمَّىٰ الحياة الثَّانِيَة باسْم: «الأُخْرَىٰ».

الدُّنيا: مؤنَّثُ «الْأَدْنَىٰ» بِمَعْنَىٰ «الأَقْرَب» من فعل: «دَنَا مِنه، وإِلَيْهِ، ولَه، يَدْنُو» أي: قَرُبَ، يَقْرُب.

وجاء إِطْلَاقُ اسْم «الحَيَاةِ الدُّنْيَا» على الحياة الأولَىٰ، لِأَنَّهَا هِيَ الْحَيَاةُ الملْتَصِقَةُ بالْأَحْيَاءِ فِيهَا، يُبَاشِرُونها زَمَناً فَزَمَناً مَا دَامُوا أَحْيَاءَ فِيهَا، فَهِيَ الْأَقْرَبُ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وهي الْأَدْنَىٰ لهم.

أَمَّا الحياةُ الْأُخرىٰ فَهِيَ آتِيَةٌ لَا مَحالَة، وَكُلُّ آتٍ قَرِيب، فهِيَ قَرِيبةُ بِوَجْهٍ عامٍّ وَلَيْسَتِ الْأَقْرَب.

أَمَّا الْمُشَبَّهُ بِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَقَدْ جَاءَ فِيهِ ذِكْرُ فِقَرَاتٍ ظاهِرَاتٍ مِنْهُ، وَقَبْلَ هـٰذِهِ الفِقَرَاتِ وَبَيْنَهَا وَبَعْدَهَا مَطْوِيَاتٌ كَثِيرَاتٌ مُكَمِّلَاتٌ لِصُورَةِ الْمَوْسِمِ الزِّرَاعِيِّ المشبَّهِ به.

الفقرةُ الأُولَىٰ: وَهِيَ فِقَرةٌ مُتوَسِّطَةٌ مِنْ فِقَرَاتِ جُمْلَةِ أَحْدَاثِ الممثَّلِ به، قَبْلَهَا مَطْوِيَّاتٌ وَبعْدَهَا مَطْوِيَات، دَلَّ عليها، قول الله تعالى:

- ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: كَأَرْضٍ صَالِحَةٍ للإنْبَات، فيها بزُورُ نَبَاتَاتٍ مُنْبِتَّاتٌ فِي تُرْبَتِها، أَنْزَلَ الرَّبُّ الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِ قُدْرَتِهِ وَسَامِي حِكْمَتِهِ مِنَ السَّمَاءِ (أي: من السَّحاب، فَكُلُّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ فَهُوَ في اللُّغَةِ سَمَاء) مَاءً كَانَ في الْأَرْض مَاء ثُم تَبَخَّرَ فَتَجَمَّعَ فَصَارَ سَحَاباً، ثُمَّ أَنْزَلَهُ اللهُ مَاءً طَهُوراً.

الْفِقَرة الثَّانية: وهي فِقَرَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْفِقَرَةِ السَّابِقَةِ مطويّاتٌ، وَبَعْدَهَا مَطْوِيَّات، دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾:

أي: فَصَارَ تُرَابُ الْأَرْض مُبَلَّلاً بالْمَاءِ، فامْتَصَّتْ مِنْهُ ومِنْ عَنَاصِرِ تُرَابِ الْأَرْضِ البُزُورُ الْمُنْبَتَةُ في الْأَرْض، فَأَنْبتَهَا اللهُ وأَخْرجَهَا اللهُ نَبَاتَاتٍ مُخْتَلِفَاتِ الْأَجْنَاسِ، وَالْأَنْواعِ، والْأَصْنَافُ، وَقَدِ اخْتَلَطَتْ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ المياهُ والْعَنَاصِرُ دَاخِلَ النَّبَاتَاتِ مُتَنَامِيَةً، بَدِيعَةً بَهِيجَةً ذَات ثَمَرَات.

الاخْتِلَاطُ: انْضِمَامُ الأشْيَاءِ بَعْضِهَا إِلَىٰ بَعْض، يُقَالُ لغة: «اختَلَطَ الشَّيْءُ بالشَّيْء» أي: انْضَمَّ إليه، وهـٰذَا الاخْتِلَاطُ يَكُونُ عَلَىٰ سَبِيلِ اللِّقَاءِ فقط، كاخْتِلَاطِ الْقَطِيعِ بالْقَطِيعِ. ويَكُونُ على سَبِيلِ الامْتِزاجِ واتِّحادِ الذَّرَّاتِ اتِّحاداً كِيميائيًّا، تَختَلِفُ بِهِ صِفَاتُ الذَّرَاتِ المتّحداتِ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَكُلٌّ مِن الْأَمْرَيْنِ يَحْدُثُ في اخْتِلَاط الماء بَنَبَاتِ الْأَرْض، وَفْقَ نِظَامِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيّ للنَّبَاتَات.

الْفِقْرَة الثالِثَة: وَهِي فِقرةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْفِقْرَةِ الثَّانِيَةِ مَطْوِيَاتٌ كثيرات، وَجَاءَتْ هِي الْأَخِيرَةَ في ضَرْبِ المثل لِأَنَّهَا المقْصُودُ الْأَكْبَرُ مِن ضَرْبِ

المثَلِ، إذْ تُشْبِهُهَا الْمَرْحَلَةُ الأَخِيرَةُ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَقَدْ دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ؛

• ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾: أي: وَبَعْدَ فَصْلٍ اسْتَمْتَعَ النَّاسُ فِيهِ بِنَبَاتِ الْأَرْضِ وَثَمراتِهِ اسْتِمْتَاعاً حَسَناً، وابْتَهَجُوا بِهِ ابْتِهَاجاً سارًّا مُفرِجاً، صَارَ مَا كَانَ يُزَيِّنُ الْأَرْضِ بالرَّونق، وَيَجْعَلُهَا مَلِيئَةً بِالْخُضْرَةِ والنُّضْرَةِ والْخَيْرَاتِ الْحِسَانِ، هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياح.

الْهَشِيم: مَا يَبِسَ مِنَ النَّبَاتِ وَتَكَسَّرَ تَكَسُّراً يَجْعَلُ الرِّيَاحَ تَنْسِفُهُ فَلَا تُبْقِي لَهُ فِي مَوَاضِعه أَثَراً.

تَذْرُوه: أي: تَبُثُّه وَتَنْشُرُهُ، يقال لغة: «ذَرَتِ الرِّيحُ التُّرابَ، تَذْرُوهُ ذَرْواً» أي: أَطَارَتْهُ وَفَرَّقَتْهُ.

وهـٰذَا مِثَالُ الْمَرْحَلَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ كُلِّ الحياةِ الدُّنْيَا وَنِظَامِهَا وأوضَاعِها.

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ شَيْءٍ في هـٰذَا الْوُجُودِ خَاضِعاً لِسُلْطَانِ اللهِ وَتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ بِقُدْرَتِهِ خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآيَة بِقَولِهِ:

• ﴿... وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾: أي: واللهُ فِي الكَيْنُونَةِ الدَّائِمَةِ مِنْ الْأَزَلِ إِلَىٰ الْأَبَدِ مُقْتَدِرٌ عَلَىٰ فِعْلِ وَخَلْقٍ وإِيجادٍ وإِعْدَامِ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُه، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ.

الْمُقْتَدِر: أَيْ: ذُو الْقُدْرَةِ العظيمَةِ الَّتِي يَفْعَلُ بِهَا مَا شَاءُ. وهـٰذَا اللَّفظ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاء الله الحسْنَىٰ.

وَفِي هـٰذَا الْخِتَام تَذْكِيرٌ بِبَعْضِ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ، وَمَا جَاءَ قَبْلَهُ فِي الْبَيَانِ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ هـٰذَا الْعُنْصُرِ الْعَظِيم مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾:

وبُمنَاسَبَةِ قَوْلِ المحاوِرِ لصاحبه الداعِيَةِ إلَىٰ دينِ اللهِ الّذِي سَبَقَ بيانُهُ في الدَّرْسِ الرابع السَّابق: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ اغْتِراراً بِأَمْوالِهِ وَأَوْلَادِهِ وَأنْصارِهِ، جَاءَ هـٰذَا الْبَيَانُ في هـٰذِهِ الآية (٤٦) مُبَيِّناً أنّ الْمَالَ والْبَنِينَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةُ بِفَنَائِهَا، وَأَنَّ الأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ الْمُرْضِيَاتِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، هِيَ ذَاتُ الأَثَارِ الْبَاقِيَاتِ المسْعِداتِ لِفَاعِلِيهَا عِنْدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الدِّينِ، ثَوَاباً مِنْهُ بِحَسَبِ وَعْدِهِ الْكَرِيم، وَأَمَلاً وَفْقَ ذَلِكَ يَطْمَعُ بِنَيْلِهِ السَّابِقُونَ في الْعَمَلِ بمراضِي رَبِّهِمْ جَلَّ جَلالُهُ، وعَظَمِ سُلْطَانه وفضْلُهُ وَجُودُه.

- ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: المالُ الكَثِيرُ الوَفِيرُ، والْبَنُونَ الكَثِيرُونَ، زِينةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْعُظْمَىٰ، الَّتِي يَشْتَرِكُ في طَلَبِهَا وَتَمَنِّيهَا مُحِبُّو هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ اخْتِلافِ طَبَقَاتِهِمْ وَشرَائِحم الاجْتِمَاعِيَّة.

الزِّينَة: كُلُّ مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ، ممَّا تَسْتَحْسِنُهُ النُّفُوس، أَوْ تُحِبُّهُ أَوْ تَشْتَهِيهِ، وهي شيءٌ زَائِدٌ عَلَىٰ مَطَالِبِ الْجَسَدِ والنَّفْسِ الضروريَّة فِي الحياة.

- ﴿... وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾:

إِنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي يَكْسِبُهَا الْمُمْتَحَنُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاة الدُّنْيَا كُلُّهَا بَاقِيَاتِ الأَثَـرِ إِلَىٰ يَـوْمِ الدِّيـنِ، وَهُـي قِسْمَـان: صَـالِحَـاتٌ، وَسيِّئَـاتٌ، فالصَّالِحَاتُ تَسْتَحِقُّ الجزاءَ بالثواب بِفَضْلِ اللهِ وَوَعْدِهِ الْكريم، والسَّيِّئَاتُ تَسْتَحِقُّ الجزاءَ بالْعِقَابِ بَعَدْلِ اللهِ، وَقَدْ يَتفَضَّلُ اللهِ بالْغُفْرانِ أَوَ الْعفْوِ عَنْ بَعْضِها.

فالأعْمَالُ الْبَاقِيَاتُ الأَثَرِ، الموْصُوفَةُ بِأَنَّهَا صَالِحَاتٌ لِأَنَّها مُحقِّقَاتٌ

لِمَرْضَاةِ اللهِ، هِيَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي ثَواباً مِنْ كُلِّ مَا في الحياةِ الدُّنْيَا مِمَّا هُوَ زِينَةٌ لَها. وَهِيَ خَيْرٌ أَيْضاً أَملاً.

الأَمَلُ: الرَّجَاءُ، وأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ هٰذَا اللَّفْظِ في المرغُوب فيه المستَبْعِدِ الحصُولُ عليه.

أي: وَبِمَا أَنَّ النَّاسَ يَشْتَدُّ حِرْصُهُمْ عَلَىٰ وَفْرَةِ الْأَمْوَالِ والْبَنِينَ، لِمَا يأْمُلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ دُنْيَوِيٍّ يأتِيهِمْ مِنْهُمَا، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأعْمَالِ الباقِيَاتِ الصَّالِحَات: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: وهِيَ خَيْرٌ لِتَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ فِيهِ مُسْتَبْعَدِ الحصُولِ عَلَيْهِ من الأموال والبنين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي عَرْضٍ لَقَطَاتٍ مِنْ أَحْدَاثِ إنْهَاء ظُروف الحياة الدُّنيا، وأَحْدَاثِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، اسْتَدْعَتْهَا المناسَبَة، مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلّم العظيم:

- ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨)﴾:

- ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾: أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي أَيًّا كُنْتَ، أَنَّنَا سَنُسَيِّرُ الْجِبَالَ في زَمَنٍ قَادِمٍ مِنَ الْأَزْمَانِ، هُوَ زَمَنُ قِيَامِ سَاعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا⁽¹⁾.

والْمُرَادُ بِتَسْيِيرِ الْجِبَالِ إِزَالَتُهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا مِنَ الْأَرْض، وَإِلْغَاءُ وُجُودِهَا مَنْصُوبَةً فَوْقَ سُطُوحِ الْأَرْض، حَتَّىٰ تَصِيرَ الْأَرْضُ قَاعاً صَفْصَفاً مُسْتَوِياً، لَاعِوَجَ فِيهِ وَلا ارْتِفاعَاتٍ وانْخِفَاضَات.

---

(١) سبق لدى تدبّر سورة (المرسلات/٣٣ نزول) بحث عن الجبال ومَا سَيَجْري فيها مِنْ تغيرات، وهي (١١) مَرْحَلَة، مِنْهَا التَّسْيير.

- ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾: أي: وَتَرىٰ الأَرْضَ أَيُّهَا المتَلَقِّي إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَرىٰ يَوْمَئِذٍ الأَرْضَ كُلَّهَا بَارِزَةً ظَاهِرَةً لَا شَيءَ يَحْجُبُ شيئاً مِن سَطْحِهَا، وَلَا شَيْءَ يَسْتُرُ شيئاً مِنه مِنْ بُنْيَانٍ أَوْ نَباتٍ.

الْأَرْضُ الْبرازُ: هي الأَرْضُ الْفَضاءُ الْوَاسِعَةُ الخالِيَةُ مِنْ كُلِّ ساتِرٍ لَهَا.

- ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾: أي: وَحَشَرْنَا الْخَلَائِقَ الَّذِينَ بَعَثْنَاهُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ بَرْزَخِ الْمَوْت.

الحشْرُ: الْجَمْعُ، والسَّوْق.

- ﴿... فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾: أي: فَلَم نَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحداً لَمْ نَجْمَعْهُ وَلَمْ نَسُقْهُ، لِيَقِفَ فِي الْمَوْقِفِ الخاصِّ لِلْعَرْضِ عَلَيْنا.

- ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وَعُرِضَ مَنْ حَشَرْنَاهُمْ بَعْدَ الْبَعْثِ عَلَىٰ رَبِّكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِبيانِنا فِي كِتَابِنا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ مَصْفُوفِينَ صَفًّا.

الصَّف: الْقَوْمُ المصْطَفُّونَ المنْتَظِمُونَ كالسَّطْرِ المسْتَقِيم، ولفظ «صَفًّا» مَصْدَرُ فِعْلِ «صَفَّ» بِمَعْنَىٰ انتظَمَ على سَطْر، وهـٰذَا المصدر صَالِحٌ لِأَنْ يُطْلَقَ عَلَىٰ صَفٍّ واحِدٍ، وَأَنْ يُطْلَقَ على صُفُوفٍ، لأنَّ مَعْنَىٰ الانْتِظَام مَوْجُودٌ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنها.

والظَّاهِرُ أَنَّ الْمَعْرُوضِينَ يَكُونُونَ صُفُوفاً بِحَسَبِ أَحْوَالِ وصِفَاتِ كُلِّ صَفٍّ مِنْهُمْ.

وَحِينَ يَأْتي عَرْضُ صُفُوفِ الَّذِينَ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بالْبَعْثِ ويَوْمِ الدِّين وَالحياةِ الأُخْرَىٰ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، والجزاء، يَقُولُ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ لَهُم:

- ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾:

لَقَدْ كَانَ مُنْكِرُو الْآخِرَةِ في حَيَاةِ الامْتِحَانِ في الدُّنيا، يُجَادِلُونَ فِي نَبَأِ الْبَعْثِ والْآخِرَة، وَيَجْحَدُونَ اسْتِبعاداً دُونَ دَلِيلٍ تَقْبَلُهُ العقول.

(١) فقال قائِلُهُمْ كَمَا جَاءَ في سُورة (يس/ ٤١ نزول):

- ﴿... مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

فَجاء الجوابُ الرَّبَّانِيّ:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

(٢) وقال قائِلُونَ مِنْهُمْ كَمَا جَاءَ في سورة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول):

- ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾.

(٣) وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذِهِ الحقيقَةَ الْبُرْهَانِيَّة، فَقالَ تبارك وَتَعالَىٰ فِي سُورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ/ ٧٣ نزول):

- ﴿... كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

(٤) وَأَبَانَ تَقْدِيرَهُ وَقَضَاءَهُ فِيها بقولِهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الرّوم/ ٨٤ نزول):

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

فَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في مَوْقِفِ الْعَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِلَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالدَّارَ الْآخِرَة في الحياة الدُّنيا اسْتِبْعَاداً واسْتِغْراباً:

- ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾:

فِيهِ تَذْكِيرٌ لَهُمْ بالْحُجَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُقَالُ لَهُمْ فِي كِتَابِ رَبِّهِمْ، وَعَلَىٰ لِسَانِ رُسُلِهِ، فَلَا يَعْبَؤُونَ بِهَا وَيُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِم، فَهَلْ بَعْدَ إحْيَائِهِمْ وَعَرْضِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ يَسْتَطِيعُون أَنْ يُنْكِرُوا وَاقِعَهُمْ.

والمعنى: لَقَدْ بَعَثْنَاكُمْ، وَخَلَقْنَاكُمْ خَلْقاً جَدِيداً، بَعْدَ أَنْ أَمَتْنَاكُمْ وَأَفْنَيْنَا أجْسَادَكُمْ، إلَّا نَوَاةً صُغْرَىٰ في عَجْبِ ذَنَبِ كلّ واحِدٍ مِنكُم، وأَحْضَرْنَاكُمْ فَجِئْتُمْ إلَىٰ مَوْقِفِ الْعَرْضِ عَلَيْنَا بالتَّكْوِينِ الْجَبْرِي.

وَكَانَ خَلْقُنَا الثاني هٰذَا لَكُمْ مُمَاثِلاً لِخَلْقِنَا لَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة.

- ﴿... بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝٤٨﴾:

أي: لَمْ تَكُونُوا تُصَدِّقُونَ أَنْبَاءَ الْبَعْثِ وَأَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّين، وَلَمْ تكُونُوا تَقْبَلُونَ الحجج الْبُرْهَانِيَّةَ عليها، بَلْ كُنْتُم تَزْعُمونَ تَوَهُّماً وَإيهاماً أَنْ لَنْ نَخلُقَكُمْ خَلْقاً جَدِيداً، وَلَنْ نُحَاسِبَكُم عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، وَنَفْصِلَ الْقَضَاء بَيْنَكُمْ، ثُمَّ نُجَازِيكُمْ بِحَسَبِ أَحْكَامِنَا عَلَىٰ كلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، فِي مَوْعِدٍ زَمَانِيٍّ وَمَكَانِيٍّ نُحَدِّدُهُ لَكُمْ.

الْمَوْعِدُ: هُنَا يُرَادُ بِهِ زَمَانُ الْوَعْدِ، وَمَكَانُهُ، أُطْلِقَ الْمَوْعِدُ عَلَىٰ سَبِيلِ الكِنَايَةِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ سَوَابِقِهِ مِنْ بَعْثٍ وَحَشْرٍ وَعَرْضٍ، وَعَلَىٰ مَا يَكُونُ فِيهِ، وَعَلَىٰ مَا يَتْبَعُ سِلْسِلَةَ الْأَحْدَاثِ مِنْ تَنْفِيذِ الجَزَاء الرَّبَّانِيّ في العباد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً:

- ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾:

هٰـذَا مَشْهَدٌ مِنْ مَشَاهِدِ مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الدِّينِ، يَحْصُلُ بَعْدَ الْعَرْضِ الَّذِي سَبَقَ بَيانُهُ فِي الآية (٤٨) ويَظْهَرُ أَنَّهُ خاصٌّ بالْكَافِرِين، لِأَنَّهُمْ

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ نَادِبِينَ مُتَحَسِّرِينَ، نَادِمِينَ عَلَىٰ مَا أَسْلَفُوا في الْحَيَاةِ الدُّنيا مِنْ كُفْرٍ وعِصْيانٍ، وَبَغْيٍ وطُغْيَان.

جَاءَ في القرآن المجيد بالنِّسْبَةِ إلى صُحُفِ أَعْمَالِ الَّذِينَ كانُوا في الحياة مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ عِدَّةُ نُصُوص:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (التَّكْوِيرِ/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

- ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ⑩﴾:

أي: وُزِّعَتْ عَلَيْهِمْ تَوْزِيعاً إِفْرَادِيًّا، حَتَّىٰ تكُونَ في يَدِ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ صَحِيفَةُ أَعْمَالِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وَسُمِّيَتْ في هٰذَا النَّصّ صُحُفاً، وفي النصُوصِ الْأُخْرَىٰ كُتُباً، والمؤدَّىٰ واحد، ولَعَلَّ الصُّحُف مُلَخَّصَاتُ مَا في الكتب، والله أعلم.

(٢) وقول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

- ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ⑬ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ⑭﴾.

وَهٰذَا النَّصُّ يَدُلُّ بِظَاهِرِهِ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ إنْسَانٍ كَانَ مَوْضُوعاً في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، يُوَزَّعُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ الَّذي سُجلَتْ فِيه أَعْمَالُهُ الإرَادِيَّةُ الَّتِي يُحَاسَبُ عَلَيْهَا يَوْمَ الدِّين فِي المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّة.

(٣) وقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) في وَصْفِ بَعْضِ أَحْدَاثِ يَوْمِ القيامَة خطاباً للنَّاس:

﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ⑱ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ⑲ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ⑳ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ㉑ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ㉒ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ㉓ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ㉔ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ㉕ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا

حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾.

وهٰذَا النّصُّ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَسُوقٍ لِلْعَرْضِ عَلَىٰ اللهِ، والْوُقُوفِ فِي المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّين، يُؤْتَىٰ كِتَابَ أَعْمَالِهِ.

فالْمُؤْمِنُونَ الّذِين يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إِلَىٰ الْجنة، وَلَوْ بَعْدَ أَنْ يَنَالُوا مَا يَسْتَحِقُونَ مِنْ عَذَابٍ عَلَىٰ مَعَاصِيهِمْ، يُؤْتَوْنَ كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بأَيْمَانِهِم.

والَّذِينَ سَيَكُونُ مَصِيرُهُمْ إلى الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ لِكُفْرِهِمْ، يُؤْتَوْنَ كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بِشَمَائِلِهِمْ.

بقِي مَا جاء في سورة (الكهف/ ٦٩) الجاري تَدَبُّرُها وَهُوَ قول اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾:

التَّفكُّرُ في هَـٰذِهِ الآيَةِ بِتَأَمُّلٍ وَأَنَاةٍ يَهْدِي إِلَىٰ أَنَّ هـٰذَا الكِتَابِ كِتَابٌ يَخْتَصُّ بِعُمُومِ المكَذِّبِينَ الكَفرةِ الْمُجْرِمِين الَّذِين قَالَ اللهُ لهم عِنْدَ عَرْضِهِمْ عَلَيْهِ صَفًّا.

- ﴿... لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

وَأَنَّهُ بِمَثَابَةِ لَوْحٍ كَبِيرٍ يُعْرَضُ عَلَيْهِم جَمِيعاً عَرْضاً مُتَتَابِعاً، فَيَرَىٰ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُجْرِمِينَ فِيه تَارِيخَ ذَاتِهِ عَنْ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحياة الدُّنْيا، بالصُّورَةِ والصَّوْتِ وَحرَكَاتِ النَّفْسِ، وَخَوَاطِرِ الْفِكْرِ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ عَقَائِدَ وَنِيَّاتٍ وَرَغَبَاتٍ وَإِرَادَاتِ شَرٍّ أَوْ خَيْرٍ.

- ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: أي: وَوُضِعَ الكِتَابُ الْعَامُّ الشَّامِلُ لِتَارِيخِ حياةِ

الْمُجْرِمِينَ، أَمَامَهُمْ لِيُشَاهِدُوهُ، وَقَدْ يَكُونُ مُقَسَّماً إِلَىٰ لَوْحَاتٍ، حَتَّىٰ يَسْهُلَ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَشْهَدَ اللَّوْحَةَ الْخَاصَّةَ بِهِ، وَلَوْحَاتِ مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَعْرِفَ لَوْحَاتِ تَارِيخِ أَعْمَالِهِمُ الإِرَادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ.

- ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: أَيْ: فَيَكُونُ الكَفَرَةُ الْمُجْرِمُونَ خَائِفِينَ مِنَ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِمَا فِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ إِجْرَامِيَّةٍ، يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهَا الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ، وإِنْ كُنْتَ أَيُّهَا المتَلَقِّي مِمَّنْ يَرَىٰ هٰذَا الْحَدَثَ فإِنَّكَ سَوْفَ تَرَىٰ مَا نُحَدِّثُكَ بِهِ رُؤْيَا عَيْنٍ، فَهُوَ حَقٌّ.

- ﴿وَيَقُولُونَ﴾: بِصِفَةٍ إِفْرَادِيَّةٍ، وَقَدْ يَكُون بِصِفَةٍ جَمَاعِيَّةٍ أَيْضاً مِنْ قِبَلِ بَعْضِ الزُّمَرِ.

- ﴿يَوَيْلَتَنَا﴾: أي: يا مُصِيبَتَنَا العظيمَةَ بالْعَذَابِ الْأَلِيمِ الخالِدِ الذي سَنَلْقَاهُ فِي جهَنَّم، نُدْبَةً وَتَحسُّراً وَتَفَجُّعاً وَنَدَماً، هٰذَا مَا رَأَيْتُهُ فِي مِثْلِ هٰذَا التعبير، **الْوَيْل**: في اللُّغَةِ كَلِمَةُ عَذَاب.

- ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾:

«مَا» اسم استفهام، مُسْتَعْمَلٌ هُنَا بِمَعْنَىٰ التَّعَجُّبِ، واللَّام بِمَعْنَىٰ الاخْتِصَاص.

أي: مَا هِيَ الصِّفَاتُ الْعَظِيمَةُ المثيرَةُ لِأَشَدِّ الْعَجب، الَّتِي لِهَذا الكِتَاب الرَّبَّانِيِّ العجيب، إِذْ كَانَ لَا يَتْرُكُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً مِنْ أَعْمَالِنَا إِلَّا سَجَّلَهَا بإِحْصَاءٍ شَامِلٍ للظَّاهِرِ والباطِنِ.

لَا يُغَادِرُ: أي: لَا يَتْرُكُ. يقالُ لغةً: «غادَرَهُ، مُغَادَرَةً، وَغِدَاراً» أي: «تَرَكَهُ» ويأتي بِمَعْنَىٰ «أَبْقَاهُ».

الإِحْصَاءُ: عِلْمُ مِقْدَارِ الْعَدَدِ، ويُقَالُ: «أَحصَىٰ الكِتَابَ» أي: حَفِظَ جَمِيعَ مَا فِيه. «إِلَّا أَحْصَاهَا» أي: إِلَّا سَجَّلَهَا كَمَا هِي في الْوَاقع.

- ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾: أي: وَوَجدُوا كُلَّ مَا عَمِلُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَاضِراً أَمَامَهُمْ، مَشْهُوداً لَهُمْ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهِ وَدَقَائِقِهِ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ ذَاتُ مَا عَمِلُوا بِظَوَاهِرِهِ وَبَوَاطِنِهِ.

- ﴿... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾: أي: وَيَقْضِي اللهُ بَيْنَهُمْ، وَيُصْدِرُ أَحْكَامَهُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَيَأْمُرُ بِتَنْفِيذِ جَزَاءِ كُلٍّ مِنْهُمْ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً مِثْقَال ذَرَّةٍ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، فِي حُكْمِهِ عَلَيْهِ وَلَا فِي مُجَازَاتِهِ لَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ هٰذَا الدَّرْسِ نُصْحاً لِلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ وَهُمْ فِي حَيَاةِ الامْتِحَان، حَتَّىٰ لَا يَكُونُوا يَوْمَ القِيامَةِ مَعَ الْمُجْرِمِين:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوُّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾:

أي: وَضَعُوا يا مَنْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الحقّ الْمُوَجَّهَةِ لَكُمْ مِنا فِي ذَاكِرَتِكُمْ، قِصَّةَ هٰذَا الْمَثَلِ التَّارِيخيّ، واتَّعِظُوا بالْعِظَاتِ المستفادَاتِ مِنْهُ.

إِنَّهَا قِصَّةُ آدَمَ وَالْمَلائِكَةِ وإِبْلِيسَ الَّذِي انْدَسَ في الملائِكَةِ واعْتَبَرَ نَفْسَهُ واحداً مِنْهُمْ، إِذْ مَكَّنَاهُ مِنْ هٰذَا وَهُوَ فِي تَكْوِينِهِ وَطَبِيعَتِه مِنَ الْجِنِّ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وذُو إرادَةٍ حُرَّةٍ مُمْتَحَنٌ كَسَائِرِ الْجِنِّ الْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، بِخِلَافِ الْمَلَائِكَةِ فإِنَّهُم مَخْلُوقُون مِن النُّورِ، وَمَفْطُورُونَ عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ الملائكَةَ الَّذِينَ انْدَسَّ فِيهِمْ إِبْلِيس بِأَنْ يَسْجُدُوا لآدَمَ، وأَمَرَ إِبْلِيسَ مَعَهُمْ بأنْ يَسْجُدَ لآدم، فَعَصَىٰ أَمْرَ رَبِّهِ وَأَبَىٰ أَنْ يَسْجُدَ مَع

الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ سَجَدُوا جَمِيعاً، وَكَانَ عِصْيَانُ إِبْلِيسِ بِسَبَبِ الكِبْرِ والحسَدِ، وأصَرَّ عَلَىٰ عِصْيَانِهِ عِنْدَ مُحَاكَمَتِه فِي جَلْسَاتٍ ثَلَاثٍ، وَأعْلَنَ تَعَهُّدَهُ بِأَنْ يُغْوِيَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ بما يَسْتَطِيعُ مِنْ وَسَائِلَ، حَتَّىٰ يَجْعَلَ أَكْثَرَهُمْ كَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ وَخَالِدِينَ فِي دَار العذاب النَّارِ يَوْم الدِّين، وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ هَـٰذِهِ الْقِصَّةِ أَخْذاً مِنْ نُصُوصِ القرآنِ كُلِّهِ في مُلْحَقٍ مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورة (ص/ ٣٨ نزول)⁽١⁾.

تَدَبُّر الآية:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾: أيْ: وَضَعُوا أَيُّهَا الْمَعْنِيُّونَ بالبيانِ أَحْدَاثَ هَـٰذِهِ الْقِصَّةِ حِينَ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَلأ الأعْلَىٰ: اسْجُدُوا لآدَم، وأمَرْنَا إِبْلِيسَ مَعَهُمْ بالسُّجُود إِذ كان مُنْدَسًّا فِيهِمْ بِتَمْكِينٍ مِنَّا لَهُ بذلك.

- ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾:

أي: فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ المأمُورُونَ بالسُّجُودِ جَمِيعاً إِلَّا إِبْلِيسَ فإِنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ مع أَنَّهُ كَانَ مَأْمُوراً بالسُّجود مَعَ الملائكة.

كَانَ إِبْلِيسُ قَبْلَ أَنْ يَنْدَسَّ في مَلَائِكَةِ المَلأ الأَعْلَىٰ مِنَ الْجِنِّ الْمَخْلُوقِينَ مِنْ نَار السَّمُوم، فَطَبِيعَتُهُ كَطَبِيعَةِ سَائِرِ الْجِنِّ، ذُو إِرَادَةٍ حُرَّةٍ، وَمَوْضُوعٌ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحان.

فَفَسَقَ إِبْلِيسُ عَاصِياً وَخَارِجاً وَمُبْتَعِداً عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ رَبِّهِ لَهُ بالسُّجودِ لآدم مع الْمَلَائِكَةِ الْمَأْمُورِينَ بِأَنْ يَسْجُدُوا له.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق تدبّر سورة (ص/ ٣٨ نزول) بعنوان: «قصَّة خلق آدم في القرآن المجيد ومَا رَافَقَ خَلْقَهُ مِنْ أحداث» في المجلّد الثالث. الصَّفَحَات من (٦٦٨ ـ ٧٢٩).

الْفِسْق: الْعِصْيَانُ، والتَّرْكُ لِأَمْرِ اللهِ بِعَدَمِ تَنْفِيذِهِ، والْخُرُوجُ عَنِ الحقّ، وهو مصطلَحٌ إسْلَامِيٌّ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً عِنْدَ العرب بهذا المعنىٰ.

• ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾: أي: وَقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ أَنْ أَعْلَمْتُكُمْ يَا عِبَادِي أَنَّهُ تَعَهَّدَ بِأَنْ يُغْوِيَ آدَمَ وَزَوْجَهُ وَذُرِّيَّاتِهِما، وَحَمَلَ فِي نَفْسِهِ الْعَدَاوَةَ الشَّدِيدَةَ لَهُمْ، وَقَدْ جَعَلَ مِنْ وَسَائِلِهِ الدُّخُولَ إِلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مِنْ مَسَالِكِ أهوائِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ وَرَغَبَاتِكُمْ مِنْ زِينَةِ الحياة الدُّنيا.

أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ بَعْدَ أَنْ حَذَّرْتُكُم مِنْهُمْ، أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، تَتَّبِعُونَ وَسَاوِسَهُمْ وَتَسْوِيلاتِهِمْ فِي صُدُورِكُمْ، وَتَنْخَدِعُونَ بِإِطْمَاعِهِمْ لَكُمْ بِالْبَاطِلِ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟؟!

الاستفهام هنا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ وَتَعْجِيبِيٌّ مِن حالِ مُتَّبِعِي عَدُوِّهم.

الْعَدُوّ: ذُو العداوة يُطْلَقُ على المذكَّر، والمؤنَّثِ والواحد والاثنين والجمع.

• ﴿... بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۞﴾: **بئس**: فعل ذَمّ على سَبيلِ المبالغة. أي: بِئْسَ إبْليس وَذُرِّيَّتُهُ للظالِمينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهم وَيَجْعَلُونَهُمْ أَوْلِياء، بدلاً عَنْ وِلَايَةِ اللهِ لهم، الَّذِي يَرْضَىٰ لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا سُعَداء في جنَّاتِ النعيم.

وبهذا انتهى الدرس الخامس من دُروس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبُّر التحليلي للدَّرس السادس من دُروس سورة (الكهف)

الآيات من (٥١ ـ ٥٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾﴾.

القراءات:

(٥١) ● قرأ أبو جعفر: **[مَا أَشْهَدْنَاهُمْ]**. بِضَمِير المتكلِّم العظيم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مَا أَشْهَدْتُهُمْ]** بضمير المتكلّم المفرد..

(٥١) ● قرأ أبو جعفر: **[وَمَا كُنْتَ]** بفتح التاء خطاباً للرَّسُول ﷺ..

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَمَا كُنْتُ]** بضمِّ التاء.

(٥٢) ● قرأ حمزة: **[وَيَوْمَ نَقُولُ]** بِضَمير المتكلّم العظيم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَيَوْمَ يَقُولُ]** أي: وَيَوْمَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُشْرِكين.

تَمْهيد:

فِي آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيانٌ بِشَأْنِ المشركين مَقْرُونٌ بإنْذارِهِم بالعذاب الْأَلِيم يَوْم الدِّين.

وهٰذَا الدَّرْس مَوْصُول بِما جاء في الآية (٤) من السُّورة بشأن الَّذِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً، وَمَوصُولٌ بما جاء في قِصةِ أَهْلِ الكَهْفِ واعْتِزَالِهِمْ

قَوْمَهُم الْمُشْرِكِين، الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً، افتراءً علىٰ اللهِ وَزُوراً.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾﴾:

أي: هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنِّي اتَّخَذْتُ وَلَداً، والَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لِي شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِي، فَجَعَلُوا شُرَكَائِي في رُبُوبِيَّتِي آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي، هَلْ أَحْضَرْتُهُمْ فَشَهِدُوا خَلْقِي للسَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ؟ وَهَلْ أَحْضَرْتُهُمْ فَشَهِدُوا خَلْقِي لِأَنْفُسِهِم، فَكَانُوا مَعَ خَلْقِي لَهُمْ فِي الْأَطْوَارِ الَّتِي مَرُّوا بِهَا حِينَ إِنْشَائِهِم طَوْراً فَطَوْراً، فَيَرَوْنَ كَيْفَ تَكَامَلَ إِنْشَاؤُهُمْ شَيْئاً فَشيئاً، حَتَّىٰ صَارُوا مُكْتَمِلِي الصِّفَاتِ الْجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ، وَبِحُضُورِهِمْ رَأَوْا وَلَداً لِي يُسَاعِدُنِي في أَعْمَالِ رُبُوبِيَّتِي؟ أَو رَأَوْا شُرَكَاءَ لِي يُسَاعِدُونَنِي في أَعْمَالِ خَلْقِي؟.

وَهَلْ كَانُوا مُسَاعِدِين لي فِي رُبُوبِيَّتِي يَعْضُدُونني، ويُؤَازِرُونَنِي؟.

لَكِنَّ الْوَاقِعَ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ يُثْبِتُ أَنِّي مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وَمَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ، وَأَنِّي مَا كُنْتُ مُتَّخِذاً إِيَّاهُمْ مُسَاعِدِينَ لِي في أعْمَالِ خَلْقِي بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِي.

جاء في الْبَيَانِ وَصْفُهُمْ بِعِبَارَةِ ﴿ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ بَدَلَ اسْتِعْمَال الضَّمِير الّذِي يَعُودُ عَلَيْهِمْ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ ادِّعَاءَاتِهِم الكُفْرِيَّةِ ادِّعَاءَاتٌ كَاذِبَاتٌ يُرَادُ بِهَا تَضْلِيلُ السُّفَهَاءِ صِغَارِ العقول من الناس.

- ﴿عَضُدٗا﴾: **الْعَضُدُ**: مَا بَيْنَ الْمِرْفَقِ إِلَىٰ الكَتِف، وَجَاءَ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، للدَّلَالَةَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الإعَانَةِ والمنَاصَرَة. ويُقَالُ لغة: «عَضَدَهُ، يَعْضُدُهُ، عَضْداً» أيْ: أعانَهُ وَنَصَرَه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مشاهِدِ يَوْمِ القيامَة، يَتَعَلَّقُ بالَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ في حَيَاةِ الامْتِحان:

• ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾:

هـٰذَا المشْهَدُ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يُصْدِرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ حُكْمَهُ عَلَىٰ المشْرِكِينَ بأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِهَا، إذْ يَبْقَىٰ لَهُمْ أَمَلٌ قَبْلَ إِصْدَارِ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ، بأنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ عَنْهُمْ فَلَا يَجْعَلَهُم مِنَ الْمُعَذَّبِينَ فِي النَّار، لَكِنْ يَظُنُّونَ ظَنًّا قَوِيًّا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوها، أي: مُخَالِطُوا أدوَاتِ التَّعْذِيبِ فيها بِدُخُولِهَا لِأَنَّ جَرِيمَتَهُمْ هي مِنْ دَرَكَةِ الشِّرْكِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ.

• ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِهـٰذَا الْبيَانِ، هـٰذَا المشْهَدَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الْقِيَامَةِ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِلْمُشْرِكِينَ: نَادُوا الشُّرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَائِي فِي رُبُوبِيَّتِي وَإِلَهِيَّتِي، فَعَبَدْتمُوهُمْ مِنْ دُونِي لِيَجْلُبُوا لَكُمْ مَنَافِعَ في دُنْيَاكُمْ، ويَدْفعُوا عَنْكُمْ مَضارّ.

نَادُوهُمْ لِيَدْفَعُوا عَنكُمْ عَذَابَ رَبِّكُمْ، الَّذِي جَعَلْتُمْ لَهُ شُرَكَاءَ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَيْسَ لَكُمْ عَلَىٰ مَا زَعَمْتُمْ بُرْهان.

• ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾: دَلَّ هـٰذَا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ الْمشْرِكِينَ سَوْفَ يُنَادُونَ الَّذِينَ كَانُوا آلِهَتَهُمْ في الدُّنْيَا، لِيَدْفَعُوا عَنْهُمْ عَذَابَ رَبِّهِم، وَجَاءَ التَّعْبِيرُ باسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ الماضِي اسْتِقْطَاعاً مِنَ الْحَدَثِ المسْتَقْبَلِيِّ، للدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّهُ سَوْفَ يَتَحقَّقُ وُقُوعُهُ مُسْتَقْبلاً يَوْمَ الْقِيَامَة.

فَيُنَادِي عَابِدُ الأَوْثَانِ أَوْثَانَهُ، أَوِ الْمَرْمُوزَ لَهُمْ بأوْثَانهم.

ويُنَادِي عَابِدُو الْجِنِّ مَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنَ الجنّ.

ويُنَادِي عَابِدُو الْمَلَائِكَةِ مَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَة.

ويُنَادِي عَابِدُو عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام يا عِيسَىٰ.

ويُنَادِي عَابِدُو الْعُزَيز يَا عُزَيْر.

ويُنَادِي عَابِدُو بَعْضِ الْعُظَمَاءِ، أَوْ بَعْضِ الصُّلَحَاءِ، مَنْ كَانُوا يَعْبُدُونهم.

فَلَا يَسْتَجِيبُ أَحَدٌ مِمَّنْ كَانُوا مَعْبُودِينَ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ لِمَنْ كانُوا يَجعَلُونَهُمْ شُرَكَاءَ للهِ وَيَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونه.

عِنْدَئِذٍ يَنْكَشِفُ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَتَظْهَرُ خَيْبَتُهُمْ، وَيَسْكُتُونَ أذِلَّاءَ نَادِمِينَ.

- ﴿... وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾:

الْمَوْبِقُ: كُلُّ حَاجِزٍ بَيْنَ شَيْئَيْن، أي: وَأَقَمْنَا بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا، وَبَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا اتَّخَذُوهُمْ شُرَكَاءَ للهِ حَاجِزاً، لِقَطْعِ التَّخَاصُمِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي هٰذَا المشْهَدِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم القيامة.

- ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾: أي: وَرَأَىٰ الْمُجْرِمُونَ المشْرِكُونَ النَّارَ إِذْ كُشِفَتْ لَهُمْ بَعْضُ مَوَاقِعِهَا.

- ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾: أي: فَظَنُّوا ظَنًّا قَوِيًّا أَنَّهُمْ دَاخِلُونَ فيها، وَمُخَالِطُونَ مَا فِيهَا مِنْ عَذَابٍ شَدِيد، لَكِنْ يَبْقَىٰ لَدَيْهِمْ أَمَلٌ ضَعِيفٌ بِأَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ، إِذْ لَمْ تَصْدُر بِحَقِّهِمْ بَعْدُ أَحْكَامُ إِدْخَالِهِمْ فِيهَا خَالِدِينَ، وَلِهٰذَا جَاءَ فِي الْبَيَانِ اسْتِعْمَالُ فِعْلِ الظَّنّ، دُونَ اسْتِعْمَالِ فِعْلِ الْيَقِين.

- ﴿... وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾: أي: وَلَكِنْ بَعْدَ مُحَاكَمَتِهِمْ

وإصْدَارِ أَحْكَامِ اللهِ فيهم، لَمْ يَجِدُوا مَكَاناً يَنْصَرِفُونَ إلَيْهِ، لِيَتَحَوَّلُوا عَمَّا أَحَاطَ بِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ مُلْجَئِينَ إلْجَاءً إلَىٰ الدُّخُولِ في دَارِ الْعَذَابِ النَّار.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السّادِس مِن دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبُّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (الكهف)

الآيات من (٥٤ ـ ٥٩)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)﴾.

القراءات:

(٥٤) • قرأ ابن كثير: [**الْقُرَانِ**]. وكذلك حمزة في الوقف.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الْقُرْآنِ**].

(٥٥) • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، ويعقوب: [**قِبَلًا**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**قُبُلاً**].

ومؤدّى القراءتين واحد.

(٥٦) ● قرأ حفص: [**هُزُواً**].

وقرأها حمزة: [**هُزْءاً**] في الوصل. وكذلك خلف في الوصل والوقف.

وقرأها حمزة: [**هُزاً وهُزْواً**] في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**هُزُءاً**].

وهي وُجوهٌ في النطق العربي.

(٥٨) ● قرأ ورْش، وأبُو جعفر: [**يُوَاخِذُهُمْ**] بإبدال الهمزة واواً، وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُؤَاخِذُهم**] على الأصل.

(٥٩) ● قَرأ شُعْبَةُ: [**لِمَهْلَكِهِمْ**] مصدر ميمِي لفعل «**هَلَكَ**» وقرأها حَفْصٌ: [**لِمَهْلِكِهِمْ**] اسم زمان على وزْنِ «مَفْعِل».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لِمُهْلَكِهِمْ**] مَصْدر مِيمي مِنْ فِعل «**أَهْلَكَ**».

ومُؤَدّى هذه القراءات واحد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ بشَأْنِ اشْتِمَالِ الْقُرآن المجيدِ عَلَىٰ مَا يَكْفِي للإِقْنَاعِ، وَبَيَانٌ لِعِلَّةِ الْمُعَانِدِينَ النَّفْسِيَّةِ، وَبَيَانٌ لِلْغَايَةِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُل، وبَيَانٌ لِمُجادَلَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بالباطِلِ، مَعَ بَيَانَاتٍ أُخْرَىٰ مُرَافِقَاتٍ مُتَّصِلَاتٍ بِمَا سَبَقَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ القرآن المجيد:

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾:

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ باللّام الواقِعَةِ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ وبحرف «قَدْ» الدَّالِّ عَلَىٰ التحقيق.

صَرَّفْنَا: **التَّصْرِيفُ**: التدبيرُ، والتَّنْوِيعُ، والتَّغْيير، واتِّخاذُ مُخْتَلِفِ الْوُجُوهِ الممكنة لِلْوصُولِ إلى الْغَايَةِ المقْصُودَة.

• ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾:

دَلَّ هـٰذَا البَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ إِحْدَىٰ مُعْجِزَاتِ الْقُرآنِ المجيد، وَهِيَ اشْتمالُهُ عَلَىٰ ذِكْرِ نَمُوذَجِ «مَثَلٍ» أَوْ أَكْثَرَ، لِكُلِّ نَوْعٍ أو عَمَلٍ أَوْ تَشْرِيعٍ، أَوْ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ في كَوْنِهِ، ممَّا تَقْتَضِيهِ هِدَايَةُ اللهِ لِعِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهـٰذَا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا قَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنْزَالَهُ مِنَ الدِّينِ حَتَّىٰ إِنْزَالِ سُورَةِ (الكَهْفِ) أَوْ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا سَيُنْزِلُهُ اللهُ مِن قرآنٍ أَيْضاً، إِذْ قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ أَنْ يُنْزِلَهُ كُلَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحمَّدٍ ﷺ.

• ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أي: مِنْ كُلِّ نَمُوذَجٍ هُو فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ صِنْفِهِ، أَوْ نَوْعِهِ، أَوْ جِنْسِهِ، لِقِيَاسِ سَائِرِ أَمْثَالِهِ عَلَيْهِ فِي حُكْمِهِ.

• ﴿. . . وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾:

جَدَلاً: أَصْلُ المجَادَلَةِ في اللُّغَةِ المصارَعَة، يُقَالُ لغة: «جَادَلَ فُلانٌ فُلاناً مُجادَلَةً وَجِدَالاً فَجدَلَهُ» أي: صَارَعَهُ فَغَلَبَهُ.

وأُطْلِقَتِ المجادَلَةُ عَلَىٰ الْمُخَاصَمَةِ الْكَلامِيَّةِ، وَعَلَىٰ المحاورة حَوْلَ فِكْرَةٍ ما، لإِثْبَاتِهَا أَوْ نَفْيِهَا.

أي: وَالْحِكْمَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ أَنْ نُصرِّفَ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ للنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، أَنَّ الإنْسَانِ أَكْثَرُ جَدَلاً مِنْ كُلِّ مُجَادِلٍ في الْوُجُودِ، وَجَاءَ ذِكْرُ «شَيْءٍ» لِإِدَارَةِ التَّعْمِيم الَّذِي يَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ صَالِحٍ لِأَنْ يُجَادِلَ، أَوْ قَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُجَادِلَ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَشْيَاءِ فِي الْوُجُودِ لَا تَمْلِكُ حَيَاةً وَلَا فِكْراً وَلَا قُدْرَةَ تَعْبِيرٍ حَتَّىٰ تُجَادِلَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾:

أي: وَمَا مَنَعَ مُشْرِكي مَكَّةَ وَلَا سِيمَا كُبَرَاؤُهُم الْمُعَانِدُونَ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ الَّذِي أَمَرْنَاهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به، إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ في كِتَابِ رَبِّهِمْ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، ومِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ طَالِبِينَ مِنْهُ أَنْ يَسْتُرَ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنوبِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْهَا، إِلَّا اغْتِرَارُهُم بإمْهَالِنَا لَهُمْ، وَتَأْخِيرِ أَنْ تَأْتِيَهُمْ مِنَّا سُنَّتُنَا باسْتِئْصَالِ كُفَّارِ الْأَوَّلِينَ بِمُهْلِكَاتٍ مُبِيدَاتٍ، أَوْ أَنْ يأْتِيَهُمْ مِنَّا مُتَتَابِعٌ مِنَ الْعَذَابِ غَيْرُ مُسْتَأْصِلٍ، وَتُعَايِنُ وَسَائِلُهُ الْقَادِمَةُ، نَزْلَةً فَنَزْلَةً، وعذاباً فَعَذَاباً.

سَوابِقُ الآيَةِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بالنَّاسِ المِصرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِم مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، ويُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَمْثَالُهُمْ دَواماً.

● ﴿قُبُلًا﴾: جَمْعُ «قَبِيل» كَمَا قَالَ الْفَرَّاءِ، أي: مُتَفَرِّقاً يَتْلُو بَعْضُهُ بَعْضاً مِنْ أنواعِ العذابِ وأصْنافِهِ وَ ﴿قِبَلًا﴾ بِحَسَب القراءة الأخرى، أي: عِيَاناً يُعَايِنُونَ وسَائِلَه.

فَدَلَّتِ القراءتانِ معاً عَلَىٰ التَّفْرِيقِ والتَّنْوِيعِ والمعاينَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾: إنَّ قَصْرَ وظيفة إرْسَالِ الرُّسلِ عَلَىٰ التَّبْشِيرِ والإنْذَارِ، هو قَصْرٌ إضَافِيٌّ، أي: بالْإِضَافَةِ إلَىٰ الإكْرَاهِ والْجَبْرِ، فَلَا إكْرَاهَ وَلَا جَبْرَ في دِينِ اللهِ عِنْدَ جَمِيعِ رُسُلِ اللهِ، وَلَكِنَّهُمْ يُبَلِّغُونَ النَّاسَ دِينَ اللهِ، وَيَتَّخِذُونَ الْوَسَائِلَ لإقْنَاعِهِمْ بِهِ، بَيَاناً وَمُجَادَلَةً وَقُدْوَةً حَسَنَةً، وَيُبَشِّرُونَ مَنْ آمَنَ وأَسْلَمَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَيُنْذِرُونَ مَنْ كَفَرَ وَلم يَسْتَجِبْ لِدَعْوَة الحقّ الرَّبَّانِيَّةِ بالْخُلُودِ فِي عذاب النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

- ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾:

الجدالُ: حِوارٌ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ حَوْلَ قَضِيَّةٍ مَا لإثْبَاتِهَا أَوْ نَفْيِهَا.

بالْبَاطِلِ: أي: بالدَّلِيلِ الْبَاطِلِ، والكلامِ الكَذِبِ الباطل. **والباطِلُ** هُوَ ضِدُّ الْحَقِّ.

الإدْحَاضِ: الإزْلَاقُ عَنْ مَكَانِ الثَّبَاتِ فِي المزَالِقِ إلَىٰ مَكَانِ مُوحِلٍ لَا ثَبَاتَ فيه، واسْتُعِير فِعْلُ «يُدْحِضُ» للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ إخْرَاجِ الْمُحَاوِرِ مِنْ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ إلَىٰ اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ حَقًّا.

المعنى: الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَادِلُونَ دُعَاةَ الْحَقِّ والمؤمِنِينَ بالْبَاطِلِ مِنَ المذاهِبِ والأفْكَارِ وَالأكاذِيبِ وزُخْرُفِ الْأَقْوَال، لِيُزْلِقُوا الْحَقَّ فِي مَزَالِقِ الشُّبُهَاتِ والتَّلْبِيسَاتِ، فَيُزِيلُوهُ عَنْ مَوَاقِعِ ثَبَاتِهِ فِي قُلُوبِ المؤمنين به.

- ﴿... وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾:

أي: وَجعَلُوا آيَاتِ اللهِ الْبَيَانِيَّةَ المشتَمِلَةَ عَلَىٰ بَرَاهِينِ الحقِّ وَأَدِلَّتِهِ شَيْئاً يُسْتَهْزَأ بِهِ، إذْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُقَابِلُوا مَا فِيهَا مِن حُجَجٍ وَبَرَاهِينَ بما يُكَافِئُهَا، بَلْ بأدِلَّةٍ ظاهِرَةِ الْبُطْلَانِ، فَسَتَرُوا عَجْزَهُمْ بإظْهَارِ الْهُزْءِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لإشْعَار أَتْبَاعِهِمْ الْجُهَلَاءِ بأنَّهَا لِشِدَّةِ ضَعْفِهَا لَا تَسْتَحِقُّ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُسْتَهْزَأ بِهَا.

الْهُزْءُ: مَصْدَرٌ، وأُطْلِقَ بِمَعْنَىٰ اسْم «الْمَفْعُولِ» أي: المهْزُوءِ به.

وَجَعَلُوا أيضاً مَا أُنْذِرُوهُ مِنْ عِقَاب اللهِ الْمُعَجَّلِ في الدُّنْيَا، والمؤجَّلِ إلَىٰ يَوْم الدِّين، فِي كِتَابِ اللهِ أَوْ لِسَانِ رَسُولِهِ شيئاً يُسْتَهْزَأُ بِهِ أيضاً، تَعْبيراً عَنْ تكْذِيبِهِمْ بمَا أُنْذِرُوهُ مِنْ عِقَاب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَام في أوَّلِ هَـٰذِهِ الآيَةِ النَّفْيُ، أي: لَا يُوجَدُ أظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ بَعْدَ إبْلَاغِهِ إيَّاهَا، وإعْلَامِهِ بِدَلَالَاتِها، وإدْرَاكِهِ لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقَ، وَمِنْهَا حقَائِقَ المطْلُوبِ الرَّبَّانِيِّ مِنْ عِبَادِهِ، وَحقَائِقُ الْوَعْدِ والْوَعِيدِ العاجِلِ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا والآجِلِ إلَىٰ يَوْم الدِّينِ، فَأعْرَضَ عَنْهَا، أي: أعْطَىٰ عَارِضَ وَجْهِهِ لَهَا اسْتِهَانَةً بِهَا، وَرَفْضاً للاسْتِجَابَةِ لمضْمُونها، وما فيها مِنْ دَعْوَةٍ إلَىٰ الْحَقِّ الرَّبَّاني.

• ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: أي: وَجَعَلَ مَا سَبَقَ أنِ اكْتَسَبَ مِنْ كُفْرٍ وجرائم في جِرَابِ التَّرْكِ والإهْمالِ والنِّسْيَانِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَخْشَ الوعيدَ عَلَيْهَا الَّذي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ رَبِّهِ، إذْ لَمْ يُصَدِّقْ بها.

أَصْلُ النِّسْيانِ التَّرْكُ، ومَعَ طُولِ التَّرْكِ يُمْسَحُ مِنَ الذَّاكِرَة.

• ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾:

يَتَحدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم، فَيُبَيِّنُ أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ جعَلَ عَلَىٰ قُلوب الَّذِينَ أعْرَضُوا عَنْ آيَاتِهِ أغْطِيَةً تَمْنَعُ مِنْ وُصُول مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ من هُدًى إلى عُمْقِهَا، وَتَحْجُبُهَا صارِفَةً لها عَنْ فِقْهِهَا، وفَهْمِهَا

فَهْماً سَدِيداً، وجَعَلَ في آذَانِهِمْ صَمَماً أَوْ قَرِيباً من الصَّمَمِ فَهِي لَا تَسْمَعُ مَا تُذَكَّرُ بِهِ مِنْ آيَاتِنَا.

الأكِنَّة: الأغْطِية، جمع «كِنَان» وهو الغطاء، وكُلُّ شيءٍ يَحْجُبُ شيئاً يَسْتُرُه.

- ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: مَن أَنْ يَفْهَمُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُ رَبِّهِمْ.

الْوَقْرُ: الصَّمَم، أَو ثِقَلٌ شَدِيدٌ في السَّمْعِ قَرِيبٌ مِنَ الصَّمَم.

وَلَيْسَ جَعْلُ الْأَكِنَّةِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَالْوَقْرِ في آذَانِهِمْ أَمراً جَبْرِيًّا فُطِرُوا عَلَيْهِ، إِنَّما هُوَ نَتِيجَةُ كَسْبِهِمُ الإرَادِيِّ الْخَاضِعُ لِسُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي نِظَام كَوْنِهِ.

إِنَّ اتِّبَاعَهُمْ لِأَهْوَائِهِم وشَهَوَاتِهِمْ وَزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَتَأَثُّرَهُمْ بِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلاتِهِمْ وإِطْمَاعِهِم بالْبَاطِلِ، وإِعْرَاضَهُمْ عَنِ الحقِّ الرَّبَّانِيِّ الّذي هَدَتْ إِلَيْهِ آيَاتُ اللهِ، مِنْ آثَارِهِ في سُنَنِ اللهِ السَّبَبِيَّةِ في كَوْنِهِ أَنْ يُغَلِّفَ قُلُوبَهُمْ بِحُجُبٍ كَثِيفَةٍ تَمْنَعُهَا مِنْ فَهْم بَيَانَاتِ اللهِ في آيَاتِهِ، وأَنْ يَجْعَلَ فِي آذَانِهِمْ صَمَماً، أَوْ شِبْهَ صَمَمٍ، فَلَا تَسْمَعَ أَقْوَالِ الحقِّ والْهُدَىٰ، وَلا آيَاتِ اللهِ في كتابِهِ المبينِ.

- ﴿... وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

أي: وإِنْ تَدْعُهُمْ أَيُّهَا الداعِي إلى اللهِ إِلَىٰ أَنْ يَسْتَمْسِكُوا بِهُدَىٰ اللهِ المنزَّلِ فِي كِتَابِهِ، واتَّخَذْتَ مَعَهُمْ كُلَّ وَسَائِلِ الإقْنَاع والترغِيبِ والتَّرْهِيب، فَلَنْ يَهْتَدُوا مُسْتَجِيبينَ لِدَعْوَتِكَ أبداً، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مَحْجُوبَةٌ فِي أكِنَّةٍ، وَلأَنَّ آذَانَهُمْ مُصَابَةٌ بِدَاءِ الصَّمَم فَلَا يَفْقَهُونَ حَقًّا وَلَا خيراً وَلَا هِدَايَةَ، وَهَـٰذَانِ الدَّاءَانِ قَدْ كَانَ بِكَسْبِهِمُ الإرَادِي.

الْهُدَىٰ: ضِدُّ الضَّلَال. **والْهُدَىٰ**: مَصْدَرُ «هَدَاهُ» بمعنَىٰ بَيَّنَ لَهُ وأَرْشَدَ. وَأُطْلِقَ لدَّلَالَةِ على صِراطِ اللهِ المستقيم.

أَبَداً: ظَرْفُ زَمَانٍ للمستقبَل، وَيَدُلُّ على الاسْتِمْرار.

وَلَنْ: أداة نَفْي للمْستقْبَلِ مُؤَكّد بالتَّأْبِيدِ.

و«إذاً» ظهرلي أنها بِمَعْنَىٰ «حِينئِذٍ» إذا كان مَا بَعْدَهَا لا يَسْتَغْنِي عَمَّا قَبْلَهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُطْمِعُ بالتَّوْبَةِ وَيُنْذِرُ المصِرِّينَ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ بالإهْلَاكِ الْمُعَجَّلِ كَمَا أَهْلَكَ كُفَّارَ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ:

● ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾:

أي: وَرَبُّكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِهٰذَا الْبَيَانِ بالْإِيمانِ والتَّسْلِيم، الْغَفُورُ مَغْفِرَةً عَظِيمَةً لِعِبادِه الَّذِين يَتُوبُونَ وَيُؤْمِنُونَ وَيُسْلِمُونَ، وذُو الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ بِالْمُجْرِمِينَ، فَهُو بِرَحْمَتِهِ يُمْهِلُهُمْ إمْهالاً طَوِيلاً، فَلَا يُعَجِّلُ لَهُمُ الْعِقَابَ، رَغْبَةً فِي أنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا ويُنْقِذُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ الْمُعَجَّلِ فِي الدُّنيا الْمَقْرُونِ بعذابٍ أليم، وَمِنَ الْعَذَابِ الْأَبَدِيّ يَوْمَ الدِّينِ فِي دَارِ الْعَذَابِ النَّار، خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ فِيهَا الْعَذَابَ.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الكَفرَةَ الْمُجْرِمِينَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ هٰذِهِ السُّورَة، وَكَذٰلِكَ أمْثَالُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ، بِسَبَبِ مَا كَسَبُوا مِنْ كُفْرِيَاتٍ وَجَرائِمَ، دُونَ أَنْ يُمْهِلَهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ، لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، وَلَأَنْزَلَهُ بِهِمْ، وَلَكَانَتْ مُدَّةُ الإمْهَالِ السَّابِقَةُ كَافِيَةً لِتَحْقِيقِ الْعَدْل.

وَلَكِنْ رَحِمَهُمْ فَلَمْ يُعَجِّلْ لَهُمُ الْعَذَابَ، وَلَمْ يُعْضِهِمْ مِنْ إنْزَالِهِ عَلَيْهِمْ فِي زَمَنٍ لَاحِقٍ، بَلْ لَهُمْ بَعْدَ الإمْهَالِ الَّذِي تَنْقَطِعُ فِيهِ كُلُّ أَعْذَارِهِم وَتعِلَّاتِهِمْ، مَوْعِدٌ يُنْزِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ عَذَابَهُ، وحِينَ يَقْتَرِب هٰذَا الْمَوْعِدُ، وَيَجِدُونَ وَسَائِلَ تَعْذِيبِ اللهِ مُقْبِلَةً إِلَيْهِمْ، لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِ وُصُولِ العذاب

إليهم مَلْجأً يَلْجؤُونَ إِلَيْهِ، وَلَا مَرْجِعاً يَرْجُعُونَ إِلَيْهِ لِيَحْمِيَهُمْ مِنْهُ، إِذْ يَكُونُ العذابُ مُحِيطاً بِهِمْ.

المؤئل: الْمَرْجِع ـ الْمَلْجأُ.

الْمَوْعِد: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَعْد، وعَلَىٰ مَكَانِهِ، وعَلَىٰ زَمَانِهِ وَيشْهَدُ لهٰذِهِ الحقيقة الَّتِي أَبنَّاهَا في الآية (٥٨) مَا أَجْرَيْنَاهُ مِنْ إِهْلَاكِ أُمَمٍ كَافِرَةٍ مُجْرِمَةٍ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ السَّالِفَة، حِينَ انْتَهَىٰ أَجَلُ إِمْهَالِهَا الطَّوِيل، وَجَاءَ مَوْعِدُ إِهْلَاكِهَا:

- ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾: أي: وتِلْكَ أُمَمُ الْقُرَىٰ الكافِرَةِ الْمُجْرِمَةِ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ بِكُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ وَكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، وَاقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا بَعْدَ إِمْهَالِهِمْ إِهْلَاكَهُمْ.

- ﴿... وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾: أي: وَجَعَلْنَا لِهَلَاكِهِمْ، وَلِمَكَانِ هَلَاكِهِمْ، وَلِزَمَانِ هَلَاكِهِمْ، مَوْعِداً مُبَيَّناً بِزَمَانِهِ وَمَكَانِهِ.

وتحقَّقَ إِهْلَاكُهُمْ في الموْعِدِ المحدَّدِ لَهُ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر السّابع الدّرس من دُرُوس سورة (الكهف/ ٦٩ نزول).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليليّ للدّرس الثامن من دروس سورة (الكهف) الآيات من (٦٠ ـ ٨٢)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَءَيْتَ

إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ
سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ
لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ
أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
(٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا (٧٣) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا
لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (٧٤) ۞
قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا
فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا (٧٦) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ
أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ
لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع
عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ
فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً
وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ
لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾:

القراءات:

(٦٣) • قرأ حفص: [أَنْسَانِيهُ] بضمّ هاء الضمير.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْسانِيهِ] بِكَسْرِ هاء الضَّمير. وهما نُطْقان عربيان.

(٦٤) • قرأ نَافع، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: **[نَبْغِي]** بإثبات الياء في الوصل، وكذلِكَ قرأَهَا ابْنُ كثيرٍ ويعقوبُ في الوصْل والوقف.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نَبْغِ]** بحَذْفِ الياء وصْلاً ووقْفاً.

(٦٦) • قرأ نَافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: **[تُعَلِّمَنِي]** بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم في الوصْل، وكذلِكَ قرأها ابن كثير، ويعقوب، في الوصْلِ والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تُعَلِّمَنِ]** بِحَذْفِ الياء في الوصْل والوقف.

(٦٦) • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: **[رَشَداً]** بفتح الراء والشين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[رُشْداً]** بضَمّ الراء وإسْكانِ الشين. وهُمَا لغتان عَرَبيَّتان لمعنى واحِدٍ.

(٦٧) • قرأ حفص: **[مَعِيَ صَبْراً]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلم.

(٦٩) • قرأ نافع، وأَبُو جَعْفر: **[سَتَجِدُنِيَ إِنْ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسْكان.

(٧٠) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: **[فَلَا تَسْأَلَنِّي]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَلا تَسْأَلْني]**.

ولابْنِ ذَكْوان وجهان في إثْبَاتِ يَاءِ المتكلِّم وحَذْفِها وصلاً وَوَقْفاً.

(٧١) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[لِيَغْرَقَ أَهْلُها]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا]**.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد.

(٧٢) ● قرأ حفص: **[مَعِيَ صَبْراً]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ يَاءِ المتكلّمِ.

(٧٣) ● قرأ ورْش، وأبُو جَعْفر: **[لَا تُوَاخِذْني]** وقفاً وَوَصلاً. وكذلك قَرَأَهَا حَمْزَةُ فِي الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَا تُؤَاخِذِني]**.

(٧٣) ● قرأ أبُو جعفر: **[عُسُراً]** بضم السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عُسْراً]** بإسْكانِ السّين. وهُمَا لُغَتَان عَرَبِيّتَانِ.

(٧٤) ● قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبْو جعفر، ورُوَيس: **[زَاكِيَةً]** وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[زَكِيَّةً]**. ومؤدّى القراءَتَيْنِ واحد.

(٧٤) ● قرأ نافع، وابْنُ ذَكْوان، وشُعْبَة، وأبو جعفر، ويعقوب: **[نُكُراً]** بضمّ الكاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نُكْراً]** بإسْكان الكاف. وهُمَا لغتان بِمَعْنَىٰ الْأَمْرِ الشَّدِيدِ الصَّعْبِ.

(٧٥) ● قرأ حفص: **[مَعِيَ صَبْراً]** بفَتْح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسْكَان.

(٧٦) ● قرأ نافع، وأبو جعفر: **[مِنْ لَدُنِي]**. وكذلِكَ قرأها شُعْبَةُ بفتح اللّام وَإسْكَانِ الدّال مع إشْمَامِهَا الضَّمَّ، ولَهُ وجْهٌ آخَرُ وهُو اخْتِلَاسُ ضَمَّةِ الدَّال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مِنْ لَدُنِّي]** بضَمّ الدَّالِ وَتَشْدِيدِ النُّون المكسُورَة.

(٧٧) • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ويَعْقُوب: **[لَتَخِذْتَ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَتَّخَذْتَ]** من فعلٍ: «اتَّخَذَ».

(٨١) • قرأ نافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[يُبَدِّلَهُمَا]** من الفعل المضعف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يُبْدِلَهُمَا]** من فِعل: «أَبْدَلَ». المهْمُوز.

(٨١) • قرأ ابْنُ عامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: **[رُحُماً]** بضَمِّ الحاء وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[رُحْماً]** بإسْكانِ الحاء.

الرُّحْمُ: والرُّحُمُ: الْعَطْفُ والرَّحْمَة ـ (مِنْ لِسَانِ العرب).

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ المقْصُودِ بَيَانُهُ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ والْخَضرِ عَلَيْهِمَا السلام.

مَا جَاءَ في الصَّحِيحَيْنِ بشَأْنِ قِصةِ مُوسَىٰ والْخَضِر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

أَنْقُلُ هُنَا مَا ذَكَرَ الشَّوْكَانِي فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ أَتَمُّ الرِّوَايَاتِ الثابِتَةِ في صَحِيحَي البخاري ومُسْلِم، وهِيَ كما يلي:

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُلْتُ لابْنِ عبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفاً البِكَالِيّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَىٰ صَاحِبَ الْخَضِرِ لَيْسَ مُوسَىٰ صاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيل.

قال ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ الله، حَدَّثَنَا أُبَيُّ بن كعْب، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول:

«إِنَّ مُوسَىٰ قَامَ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيل، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاس أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْداً بِمَجْمعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ فَكَيْفَ لِي بِهِ؟.

قَال: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتاً فَتجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ(١)، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُو ثَمَّ. فَأَخَذَ حُوتاً فَجعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وانْطَلَقَ مَعَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُون، حتَّىٰ أَتَيَا الصَّخْرَةَ، وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا، واضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ في الْبَحرِ، فَاتخَذَّ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً(٢)، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جَرْيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ(٣)، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بالْحُوتِ.

فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّىٰ إِذَا كَانَا مِنَ الْغَدِ، قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

قَال: ولَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ النَّصَبَ حَتَّىٰ جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللهُ بِهِ. فقال لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً، ولِمُوسَىٰ وَفَتَاهُ عَجَباً.

فقال مُوسَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

قَال: فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّىٰ انْتَهَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ.

فقال الخضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟!

قَال: أَنَا مُوسَىٰ.

قال: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيل؟.

قال: نعم. قَالَ: أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً.

---

(١) **المِكْتَل**: زَنْبِيلٌ يُصْنَعُ مِن الْخوص، ويجمع على «مَكَاتِل».

(٢) **السَّرَبُ**: نَفَقٌ فِي الأَرْضِ لَا مَنْفَذَ لَهُ.

(٣) **الطَّاق**: الطَّوق.

قال: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً، يَا مُوسَىٰ، إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَكَ اللهُ لَا أَعْلَمُه.

قال مُوسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

فقال لَهُ الْخَضِر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخضِرَ، فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ⁽¹⁾.

فَلَمَّا رَكِبَا السَّفِينَةَ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا والْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحاً مِنْ أَلْواحِ السَّفِينَةِ بِالْقَدُوم.

فَقالَ لَهُ مُوسَىٰ: قَوْمٌ حَمَلُونا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً⁽²⁾؟

قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

قَالَ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾.

قال: وَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ:

«فَكَانَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَاناً».

قال: وَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ في الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقال لَهُ الْخَضِرِ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْل مَا نَقَصَ هٰذَا الْعُصْفُورُ الَّذِي وَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ مِنْ هٰذَا الْبَحْر.

ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فبيْنما هُمَا يَمْشِيَان على السَّاحِلِ، إِذْ أَبْصَرَ

---

(١) **النَّوْلُ**: أَجْرُ رُكُوب السَّفِينَة.

(٢) أي: لَقَدْ جِئْتَ أَمْراً عَظِيماً مُنْكراً عجيباً.

الْخَضِرُ غُلَاماً يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ.

فَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

قَالَ: وَهَـٰذِهِ أَشَدُّ مِنَ الأُولى.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَـٰمَهُۥ﴾: قال: مَائل.

فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هكَذَا فَأَقَامَهُ.

فَقَالَ مُوسَىٰ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا، ولَمْ يُضَيِّفُونَا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

فقال رَسُولِ الله ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا

قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

أَلْتزِمُ في الْفَهْمِ التَّدَبُّرِيِّ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَن الرَّسُول ﷺ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ.

إِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيل، ويظْهَرُ أَنَّ هٰذَا حِينَ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي التِّيهِ، خِلَالَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً الَّتِي قَضَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ يَتِيهُوا فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ المقَدَّسَةَ مُقَاتِلِينَ.

فَسُئِلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَعْضِ قَوْمِهِ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: الله أَعْلَمُ، أَنَا لَا أَدْرِي.

فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْداً بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.

قال مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي بِهِ؟.

قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتاً فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَل، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، أي: فَهُوَ هُنَاك.

فَأَخَذَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام حُوتاً، فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ لِطَعَامِهِ وَطَعام فَتَاهُ يُوشَعُ بْنِ نُونٍ، الَّذِي كَانَ تِلْمِيذاً وَخَادِماً وَمُرَافِقاً مُوافِقاً، وَقَدْ نَبَّأَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

ثُمَّ انْطَلَقَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُرَافِقُهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُون مُسَافِرَيْنِ، وَقَصْدُ مُوسَىٰ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَينِ لِيَلْقَىٰ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، وهو الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِيَقْتَبِسَ مِنْهُ عِلْماً لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُ، فهي رِحْلَةُ تِلْمِيذٍ لِيتَعَلَّم عِلْماً ليس عِنْدَهُ مِنْهُ مِن إِسْنَادٍ رَبَّانِي.

وتَرَجَّح عِنْدِي أَنَّ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ وَالْخضرِ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، هُوَ مَكَانُ الْتِقَاءِ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ بِخَلِيجِ العَقَبَةِ، فَقَدْ جَاءَ فِي تَقْرِيرٍ لِبَعْثَةٍ عِلْمِيَّةٍ بَيْنَ جَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَجَامِعَةِ أَدنْبرَة الإِنْكِيزِيَّة: أَنَّ مَاءَ الْبَحْرِ فِي خَلِيجِ الْعَقَبَةِ تَخْتَلِفُ خَواصُّهُ وَتَرَاكِيبُهُ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ. واسْتَطَاعَتِ الْبَعْثَةُ بِوَسَاطَةِ قِيَاسِ الأَعْمَاقِ اكْتِشَافَ حَاجِزٍ مَغْمُورٍ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ مِتْرٍ.

وتَابَعَا سَفَرَهُمَا حَتَّى وَصَلَا إِلَىٰ مَكَانٍ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ فِيهِ صَخْرَةٌ وَكَانَا قَدْ تَعِبَا مِنْ طُولِ السَّفَرِ، واشْتَدَّ نُعَاسُهُمَا، فَوَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا.

وَأَحْيَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحُوتَ، فَاضْطَرَبَ فِي المِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ نَفَقاً يَحْجُزُهُ فَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِهٰذَا النَّفَقِ مَنْفَذٌ، وَكَانَ هٰذَا بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ، لِيَكُونَ عَلَامَةً لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامِ.

وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جَرْيَةَ الْمَاءِ حَتَّىٰ لَا يَأْخُذَهُ الْمَوْجُ إِلَىٰ وَسَطِ الْبَحْرِ، فَصَارَ الْمَاءُ عَلَىٰ الْحُوتِ مِثْلَ الطَّوْقِ الْمُحِيطِ بِهِ، فَهُوَ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ.

فَلَمَّا اسْتَيْقَظَا مِنْ نَوْمِهِمَا، نَسِيَ فَتَىٰ مُوسَىٰ «يُوشَعُ بْنُ نُون» الْحُوت، وَلَعَلَّهُ شَاهَدَ سُقُوطَهُ فِي الْبَحْرِ وانْحِبَاسَهُ فِي دَائِرَةِ الْمَاءِ فَنَسِيَ أَيْضاً أَنْ يُخْبِرَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالأَمْرِ.

فَانْطَلَقَا مُسَافِرَيْنِ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، وَيَظْهَرُ أَنَّهُمَا بَدَءَا سَفَرَهُمَا مَعَ الضُّحَىٰ، فَلَمَّا تَعِبَا نَامَا نَوْمَةَ الْقَيْلُولَةِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ، وَبَعْدَ أَنِ اسْتَيْقَظَا تَابَعَا سَفَرَهُمَا، حَتَّىٰ آخِرِ النَّهَارِ وَقِسْمٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَنَامَا كَالَّيْنِ مِنَ التَّعَب.

حَتَّىٰ إِذَا كَانَا مِنَ الْغَدِ، قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفَتَاهُ: «يُوشع بْنِ نون»: آتِنَا طَعَامَ غُدْوَتِنَا، أَيْ: طَعَامَ أَوَّلِ النَّهَارِ، فَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هٰذَا تَعَباً.

فَقَالَ: «يُوشَعُ بْنُ نُونٍ»: أَرَأَيْتَ يَا نبيَّ اللهِ إِذْ أَوَيْنَا إِلىٰ الصَّخْرَةِ ونِمْنَا، فإِنّي نَسِيتُ الْحُوتَ هُنَاكَ، وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ فَمَنَعَنِي أَنْ أَذْكُرَه، والأَمْرُ الْعَجِيبُ أَنَّهُ اضطَّرَبَ فِي المكْتَلِ، وَسَقَطَ في الْبَحْرِ، وَحَبَسَهُ نَفَقٌ فِيه، وَمَاءٌ أَحَاطَ بِهِ كالطَّوْقِ حَتَّىٰ لَا تَأْخُذَهُ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ.

قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي، إِذْ هُوَ المَكَانُ الْمُحَدَّدُ لِلِقَائي بِمَنْ يُعَلِّمُني عِلْمَا لَيْسَ عِنْدِي مِنْهُ.

فَرَجَعَا يَتَتَبَّعَانِ أَثَرَ سَفَرِهِمَا فِي رِحْلَتِهِما، بَعِيداً عَنْ مَكانِ الصَّخْرَةِ الَّتِي كَانَا قَدْ نَامَا عِنْدَهَا نَوْمَةَ الْقَيْلُولَةِ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ، حَتَّىٰ وَصَلَا إِلَيْهَا.

وَيَظْهَرُ أَنَّ الْحُوتَ لَمْ يَكُنْ زَادَهُمَا الْوَحِيدَ مِنَ الطَّعَامِ، فَقَدْ كَانَ مَعَهُمَا غَيْرُهُ مِمَّا يُقِيتُهُمَا.

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾:

- ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾: أي: لَا أَزَالُ مُسْتَمِرّاً فِي سَفَرِي هٰذَا.

- ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: أي: حَتَّىٰ أَصِلَ إلى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ الَّذِي جَعَلَهُ رَبِّي الْمَكَانَ الَّذِي اجْتَمِعُ فِيهِ بالْخَضِرِ الَّذِي آتاهُ اللهُ عِلْماً لَمْ يُؤْتِنِي مِنْهُ.

ومَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ فِيمَا تَرَجَّح عِنْدِي، هُوَ مَكَانُ الْتِقَاءِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ بِخَلِيجِ الْعَقَبَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعْلُوماً أَنَّهُ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْن.

- ﴿... أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾: أي: أو أَنْ أَذْهَبَ مُتَابِعاً سَفَرِي زَمَناً طَوِيلاً حَتَّىٰ يَهْدِيَنِي اللهُ إِلَىٰ مَكَانِ اجْتِمَاعِي بالْخَضِر.

الْحُقُبُ ـ والْحُقْب: المدَّةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الزَّمَنِ. وجمعه «حِقَاب» و«أحْقَاب».

- ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾: أي: فلَمَّا وصَلا مَجْمَعَ الْتِقَاءِ الْبَحْرَيْن.

الْبَيْنُ: يَأْتِي بمعنىٰ الافْتِرَاقِ والتَّباعُد. وَيَأْتِي بِمَعْنَىٰ الاتِّصَالِ والالْتِصَاقِ. فَهُوَ مِنَ الكَلِمَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ الضِّدَّيْنِ، ومَعْنَىٰ الاتِّصَال هُو الْمُنَاسِبُ هُنَا.

- ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: أَيْ: بَعْدَ أَنْ أَوَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، وَوَضَعَا رُؤوسَهُمَا وَنَامَا، واضطرب الْحُوتُ في المكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ وسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، واحْتَبَسَ في النَّفَق، وَأَحَاطَ بِهِ مَاءٌ كالطَّوْقِ، حَتَّىٰ لَا تَأْخُذُهُ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ، كَمَا جَاءَ في الْحَدِيثِ الصَّحيح.

ودَلَّ هٰذَا الْبَيَان عَلَىٰ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي نَامَا فِيهِ هُوَ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْن، لِذَلِكَ تَابَعَ سَيْرَهُ عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ وَمَعَهُ فَتَاهُ.

- ﴿... فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾: أي: فَاتَّخَذَ الْحُوتُ بَعْدَ أَنِ اضْطَرَبَ فِي المكْتَلِ إِذْ أَحْيَاهُ اللهُ وَسَقَطَ في الْبَحْرِ سَبِيلَهُ في الْبَحْرِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ نَفَقاً غَيْرَ نَافِذٍ، لِيَحْبِسَهُ.

السَّرَبُ: نَفَقٌ فِي الْأَرْضِ لَا مَنْفَذَ لَهُ.

وَكَانَ هٰذَا بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ عَلَامَةً لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا رَجَعَ يَقُصُّ الْأَثَرَ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي فَقَدَ فِيهِ الْحُوتَ.

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللهَ أَمْسَكَ عَنِ الْحُوتِ جَرْيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ الْمَاءُ الثَّابِتُ فِي مَكَانِهِ كَالطُّوْقِ الْمُحِيطِ بِهِ المانِعِ لَهُ مِنْ أَنْ تَسْحَبَهُ الأَمْوَاجُ.

- ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾: أي: فَلَمَّا جَاوَزَا مُبْتَعِدَيْنِ عَنْ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْن.

وَجَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُول ﷺ أَنَّهُمَا انْطَلَقَا جَادَّيْنِ في الْمَسِيرِ بَقِيَّة يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ.

- ﴿... قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾:

أي: قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِفَتَاهُ «يُوشع بن نُون»: آتِنَا غَدَاءَنَا.

الْغَدَاء: طَعَامُ الْغُدْوَةِ، وهُوَ الْوَقْتُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ حتَّىٰ طُلُوعِ الشَّمْس.

فَطَلَبَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ «يُوشَع» إحْضَارَ طَعَامِ الْغُدْوَة، وَقَالَ لَهُ: لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هـٰذَا الَّذِي تَابَعْنَا السَّيْرَ فِيهِ تَعَباً.

النَّصَبُ: التَّعَبُ مِنْ مُتَابَعَةِ الْعَمَلِ وَبَذْلِ الْجُهْد.

عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرَ «يُوشَعُ» أَنَّهُ نَسِيَ الْحُوتَ عِنْدَمَا أَوَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ وَنَامَا، عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ:

- ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾:

أي: قَالَ «يُوشَعُ» لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام: أَرَأَيْتَ الْمَكَانَ الَّذِي نَزَلْنَا فِيهِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ، ونِمْنَا عِنْدَهُ، وَلَمَّا اسْتَيْقَظْنَا تَرَكْنَاهُ وَتَابَعْنَا سَفَرَنَا عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْر، فإنّي نَسِيتُ أَنْ أَسْتَخْرِجَ الْحُوتَ مِنَ النَّفَقِ الَّذِي حَبَسَهُ فِي الْبَحْرِ، وأَنْ أَحْمِلَهُ فِي المِكْتَلِ.

وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ بِصَرْفِ ذِهْنِي عَنْ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَنَسِيتُ أَنْ أَذْكُرَ لَكَ الأَمْرَ الْعَجَبَ الَّذِي كَانَ مِنَ الْحُوتِ إِذِ اضطَرَبَ في المِكْتَلِ، وَخَرَجَ مِنْهُ، وَسَقَطَ في الْبَحْرِ، واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في الْبَحْرِ سَرَباً احْتَبَسَ فِيهِ.

قال رسول الله ﷺ في الحديث: «فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَباً ولِمُوسَىٰ وَفَتَاهُ عَجَباً».

- ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾: أي: قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِفَتَاهُ «يُوشع بن نُون»: ذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ؛ وَهُوَ فَقْدُنَا لِلْحُوتِ هُوَ مَا كُنَّا نَطْلُبُهُ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ لَهُ بِشَأْنِ الْتِقَائِهِ بالْخَضِر: «فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ» أي: فالْخَضِرُ هُنَاكَ.

- ﴿... فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾: أي: فَرَجَعَا سَائِرَيْنِ عَلَىٰ آثَارِهِمَا فِي الْأَرْضِ، مُتَتَبِّعَيْنِ هٰذِهِ الآثار شَيْئاً فَشَيْئاً.

تَقُولُ لغة: «قَصَصْتُ الشَّيْءَ، قَصّاً، وقَصَصاً» أي: تَتَبَّعْتَ أَثَرَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً. ويُقَالُ: «قَصَّ آثَارَهُمْ» أي: تَتَبَّعَهَا.

- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾:

أي: فَلَمَّا وَصَلَا إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي فَقَدَا فِيهِ الْحُوتَ، وَجَدَا عِنْدَهُ الرَّجُلَ الَّذِي آتَاهُ اللهُ عِلْماً خَاصًّا لَمْ يُؤْتِ مِنْهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وَهُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَدْ جَاءَتْ تَسْمِيَتُهُ: «الْخَضِر» في أَحَادِيثَ صَحِيحَة. وَجَاء في حديث عند البخاري وَغَيْرِهِ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، عن النبيّ ﷺ أَنَّهُ قَال:

«إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرَ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَىٰ فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فإذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ».

وَوَصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِهِ، أي: المتحقّقِينَ بِعُبُودِيَّتِهِمْ لَهُ. ووَصَفَهُ بأنَّهُ آتاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِه، أي: آثَارَ رَحْمَةٍ رَحِمَهُ بِهَا، وَيَظْهَرُ لِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ، إِذْ كَانَ يُوحَىٰ إِلَيْه، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ رسُولاً، لِأَنّ اللهَ لَمْ يُكَلِّفْهُ أَنْ يَحْمِلَ رِسَالَةً لِلنَّاسِ وَيُبَلِّغَهَا أُمَّتَهُ.

وَقَالَ اللهُ بِشَأْنِهِ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾: أي: عِلْماً خَاصًّا لَمْ نُعَلِّمْهُ الرُّسل.

ويَظْهَرُ لِلْمُتَدَبِّرِ مِنْ خِلَالِ مُرَافَقَةِ مُوسَىٰ لَهُ عَلَيْهِمَا السَّلَام، أَنَّ الْعِلْمَ الْخَاصَّ الَّذِي آتَاهُ اللهُ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَام، عِلْمٌ يَتَعَلَّقُ بِبَعْضِ تَصَارِيفِ اللهِ فِي عِبَادِهِ، وَمِنْهَا مَا ظَاهِرُهُ شَرٌّ مَكْرُوهٌ، وَحَقِيقَتُهُ خَيْرٌ مَحْبُوب، إِذْ يَحْدُثُ نَظِيرُ مَا أَجْرَاهُ الْخَضِرُ بأَمْرِ اللهِ، فِيما يُجْرِيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادِهِ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِه، مِمَّا لَا نَعْلَمُ الْحِكْمَةَ فِيهِ عِنْدَ حُدُوثِهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (البقرة/ ٨٧ نزول):

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾.

وَجَاء في الحديث الصحيح بشأنِ الْتِقَاء مُوسَىٰ بالْخَضِر عليهما السَّلام:

«فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّىٰ انْتَهَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ، فإذا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْب، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟! أي: من أَيْنَ يُوجَدُ بهٰذِهِ الأرضِ السَّلام؟!.

قال: أَنا مُوسَىٰ. قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيل؟ قَالَ: نَعَمْ: أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً».

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً قِصَّةَ مُوسَىٰ وَالْخَضِرِ عَليهما السلام:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)﴾:

الرُّشْدُ ـ والرَّشَدُ ـ والرَّشَاد: السُّلُوكُ الْفِكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ،

والعَمَلِيُّ، الْمُوَافِقُ لِلْحَقِّ والصَّوَاب، أَوْ لِمَا هُوَ الأَفْضَلُ وَالأَحْسَنُ وَالأَكْثَرُ نَفْعاً والأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

جاء طَلَبُ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام من الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَام، بأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَام الَّذِي يَتَضَمَّنُ تَلَطُّفاً فِي الْعَرْضِ، وهٰذَا هُو شَأْنُ أَدَبِ طَالِبِ التَّعَلُّمِ مَهْمَا كَانَ رَفِيعَ الْمَنْزِلَةِ الْعِلْمِيَّةِ، مِنْ مُعَلِّمٍ مَا لَدَيْهِ عِلْمٌ نَافِعٌ يُرِيد أَنْ يَسْتَفِيدَهُ مِنْهُ.

وَعَلِمَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّ مَا عِنْدَ الْخَضَرِ مِنْ عِلْمٍ لَا يُسْتَفَادُ بِجَلْسَةٍ أَو عِدَّةِ جَلْسَاتٍ، بَلْ لَا بُدَّ لِتَحْقِيقِه مِن اتِّبَاعٍ وَمُلَازَمَةٍ، فَقَالَ لَهُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾؟

وَمَعَ عِلْم مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّ الْخَضِرَ لَا يُعَلِّمُهُ إِلَّا مَا فِيهِ رُشْدٌ، لِأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الَّذِي أَعْلَمَهُ بِهِ، وَدَلَّهُ عَلَيْهِ، وَأَوْصَلَهُ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَىٰ أَنْ يُقَيِّدَ مَا يَتَعَلَّمَهُ مِنْهُ بِأَنْ يَكُونَ رُشْداً. وَرُبَّما ذَكَرَ هٰذَا الْوَصْفَ لِيَسْتَبْعِدَ عِلْماً لَا رُشْدَ فِيهِ كَعِلْمِ السِّحْرِ.

- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾؟.

وَجاء في الْبَيَانِ الصَّحيح عن الرسُول ﷺ، أَنَّ الْخَضِرَ قَالَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَام:

«إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً، يَا مُوسَىٰ، إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَكَ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ».

الْخُبْرُ ـ والْخَبْرُ ـ والْخِبْرُ: مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ على حَقِيقَتِهِ ظاهِره وَبَاطِنِه.

أي: إِنَّكَ يَا مُوسَىٰ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً إِذَا اتَّبَعْتَنِي، ورأيت مِنِّي تَصَرُّفَاتٍ قَدْ لَا تُوَافِقُ فِي ظَوَاهِرِهَا مَا يَجِبُ أَنْ يَلْتَزِمَ بِهِ الْمَأْمُورُ بِتَنْفِيذِ

أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لِعِبَادِه، وَأَنْتَ تَرانِي مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُطَالِبِينَ بِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ، وَمِنْ حَقِّكَ أَنْ تَعْتَرِضَ عَلَيَّ فِيها، عَمَلاً بِمَا لَدَيْكَ مِنْ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ، وَلَا عِلْمَ لَدَيْكَ بالْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُنِي أَتصَرَّفُ تَصرُّفاتِي، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَحْمِلُ لِوَاءَ أَحْكَامِ الشَّرْعِ تَصْبِرُ عَلَىٰ تَصَرُّفٍ لَمْ يُحِطْ عِلْمُكَ بالْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ؟!.

- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴿٦٩﴾﴾:

أَعْطَىٰ مُوسَىٰ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، وَعْداً مُعَلَّقاً عَلَىٰ مشيئَةِ اللهِ، وَفْقَ أَدَبِ المؤمنِينَ مَعَ رَبِّهِمْ فِيمَا يَعِدُونَ بِفِعْلِهِ مُسْتَقْبلاً، بِأَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ مَا يَجِدُهُ مِنْ تَصَرُّفَاتِ الْخَضِرِ الَّتِي لَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهَا، وَوَعْداً بأَنْ لَا يَعْصِيَ لَهُ أَمْراً يَأْمُرُهُ بِهِ.

- ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٧٠﴾﴾:

أي: قَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَام: أُوَافِقُ عَلَىٰ أَنْ تَتَّبِعَنِي مُتَعَلِّماً، فَإِن اتَّبَعْتَنِي مُلْتَزِماً بالصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يُخَالِفُ مَا تَعْلَمُ مِنْ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ سَبَبِ فِعْلِي لِشَيْءٍ أَفْعَلُهُ وَأَنْتَ لَا تَرْضَاهُ، حَتَّىٰ أُحْدِثَ أَنَا لَكَ مِنْهُ ذِكْراً بِقَوْلٍ أُبَيِّنَ لَكَ فِيهِ سَبَبَ فِعْلِ مَا فَعَلْتُ مِمَّا هُوَ خَارِجٌ عَنْ حُدُودِ عِلْمِكَ، وَهُوَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي أَوْ عَلَّمَنِي وَأَمَرَنِي بِفِعْلِ مَا فَعَلْتُ.

وتَمَّ الاتِّفاقُ عَلَىٰ أَنْ يَتَّبِعَ مُوسَىٰ الْخَضِر عَلَيْهِمَا السَّلام، ويَظْهَرُ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ صَرَفَ فَتَاهُ «يُوشَع بن نون» لِيَنْطَلِقَ مُتَّبِعاً الخضِرَ عَلَيْهِ السَّلام.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً قِصَّة مُوسَىٰ والخضر عليهما السلام:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا

تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾:

- ﴿فَانطَلَقَا﴾: أي: فَذَهَبَ مُوسَىٰ والْخَضِرُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مُسْرِعَيْنِ بِهِمَّةٍ وَجِدٍّ وَنَشَاطٍ.

انْطَلَقَ: أي: ذَهَبَ مُسْرِعاً جادّاً، وهو مُطَاوِعُ: «أَطْلَقَهُ فَانْطَلَق» وأَصْلُ الإطْلَاقِ التَّحْرِيرُ مِنَ الْقَيْد.

هٰذَا الْبَيَانُ يُشْعِرُ بأَنَّ فَتَىٰ مُوسَىٰ «يُوشع بْن نُون» قَد انْصَرَف عَنْ سَيِّدِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وَلَا يَكونُ هٰذَا إِلَّا بِتَوْجِيهٍ مِنْ مُوسَىٰ.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾:

«ال» فِي لفظ «السَّفِينَة» لِلْجنْسِ.

- ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾؟ اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ، أي: أَشَقَقْتَهَا وَقَطَعْتَ شَيْئاً مِنْهَا. يُقَالُ لُغَة: «خَرَقَ فُلَانٌ الشَّيْءَ، يَخْرِقُهُ، ويَخْرُقُهُ، خَرْقاً». أي: شَقَّهُ وَمَزَّقَهُ.

- ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾: أي: لَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلاً عَجيباً مُنْكراً.

يقالُ لغة: «جاءَ فُلَانٌ الأَمْرَ» أي: فَعَلَهُ.

الإِمْرُ: الْعَجِيبُ الْمُنْكَرُ. يُقَالُ لُغَةً: «أَمْرٌ إِمْرٌ» أي: عجيبٌ مُنْكرٌ.

وَجاءَ في الحديث الصّحيح قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ:

«فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ (أي: بِغَيْرِ أَجْرٍ).

فَلَمَّا رَكِبَا السَّفِينَةَ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا والْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحاً مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بالْقَدُوم.

فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً؟!».

فَدَلَّ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَىٰ أَنَّ الْخَرْقَ قَدْ كَانَ بِقَلْعِ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِها بِالْقَدُوم، وأَصْحَابُ السَّفِينَةِ لَمْ يَعْتَرِضُوا عَلَىٰ فِعْلِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَام، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَهُ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّ لَهُ أَفْعَالاً عَجِيبَةً ذَاتَ غَايَاتٍ حَمِيدَة نَافِعة.

- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾: اسْتِفْهَامٌ عَلَىٰ النَّفْيِ لِيُجِيبَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام بالإِثْبَاتِ فَيَقُول: بَلَىٰ.

- ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾:

دلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقَرَّ بالإِثْبَاتِ، واعْتَذَرَ بالنِّسْيَان، قال الرَّسُولُ ﷺ في الحديث الصّحيح: «فَكَانَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَاناً».

- ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾: أي: لَا تُجَازِنِي عَلَىٰ سُؤَالِي هَـٰذَا بِسَبَبِ نِسْيَانِي، إِذْ نَسِيتُ مَا وَعَدْتُكَ بِهِ مِنَ الصَّبْر.

- ﴿... وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾: أي: وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنْ أَمْرِي مَعَكَ مَا هُوَ شَدِيدٌ عَلَيَّ وَصَعْبٌ عَلَيَّ أَنْ أَلْتَزِمَهُ كَحَالَةِ النِّسْيَان، فإنِّي لَا أُطِيقُ أَنْ أَدْفَعَ عَنِّي حَالَةَ النِّسْيَان.

الْعُسْر، والْعُسُر: الشِّدَّةُ، والصُّعُوبَة، وضِدُّهُ الْيُسْر.

صِيغَتَا: [**لَا تُؤَاخِذْنِي ـ وَلَا تُرْهِقْنِي**] صِيغَتَا الْتِمَاسٍ مَقْرُونٍ بِعُذْرِ النِّسْيان.

فَتَجَاوَزَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ هَـٰذِهِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

وَبَعْدَ هـٰذَا الحدَثِ أَبَانَ الرَّسُولُ ﷺ في الصّحِيح ما يلي:

«وَجاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً. فَقَالَ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْم اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هـٰذَا الْعُصْفُورُ الَّذِي وَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ مِنْ هـٰذَا الْبَحْرِ».

● ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾: وفِي القراءة الأخرى: [**زَاكِيَةً**] أي: طَاهِرَةً بَرِيئَةً مِنَ ارْتكابِ الذُّنوب.

الْغُلَام: الصَّبِيُّ مُنْذُ وِلَادَتِهِ وَحَتَّىٰ سِنِّ الْبُلُوغ.

النُّكْرُ ـ والنُّكُرُ: الْأَمْرُ الشَّدِيدُ الصَّعْبُ ـ المنْكَرُ الْمُسْتَقْبَح.

وَجاءَ في الحديث الصحيح قول الرسُول ﷺ:

«ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَة، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ السَّاحِلِ، إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَاماً يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ».

لَقَدْ كَانَ قَتْلُ الْغُلَام الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ التَّكْلِيفِ مِنْ قِبَلِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَام حَدَثاً كَبِيراً، لَمْ يَتَحَمَّلْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام الصَّبْرَ عَلَيْهِ؛ بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنْ أَحْكَامِ شَرْعِ اللهِ، وَهُوَ غَيْرُ نَاسٍ لِمَا وَعَدَ مِنَ الصَّبْرِ.

لَكِنْ كَانَ شَأْنُ الْخَضِرِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَشَأْنِ مَلَكِ الْمَوْتِ مُنَفِّذاً أَمْرَ اللهِ

لَهُ بِقَتْلِهِ، إِذْ طُبِعَ الْغُلَامُ كافِراً، ولَمْ يَشَأ الله أَنْ يَدْخُلَ الامْتِحَانَ وَهُوَ مَفْطُورٌ عَلَىٰ الكُفْرِ، والشَّرْطُ في الَّذِينَ يُوضَعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي إِرَادَةٍ حُرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَة.

فَقَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَام: أَقَتَلْتَ نَفْساً زكيَّةً طَاهِرَةً مِنَ الذُّنُوبِ إِذْ لَمْ تَبْلُغْ مَبْلَغَ التَّكْلِيفِ، بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلاً مُنْكراً لَا أَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَيْهِ؟!!

لَقَدْ قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هٰذَا الْقَوْلَ مُسْتَنْكِراً ذَاكِراً لِوَعْدِهِ لِلْخَضِرِ بالصَّبْرِ.

بَيْدَ أَنَّ كَوْنَ الْغُلَامِ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ قَدْ طُبِعَ كافِراً مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي آتَاهُ اللهُ الْخَضِرَ وَلَمْ يُؤْتِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِراً، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَاناً وَكُفْراً».

- ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾:

فَزَادَ عَلَىٰ مَقَالَتِهِ السَّابِقَةِ لَهُ عِبارَة ﴿لَّكَ﴾ وَفِي هٰذِهِ الزِّيَادَةِ مَعْنَىٰ تَلْوِيمِ الْخَضِرِ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، إِذْ لَمْ يَلْتَزِمْ بِمَا وَعَدَهُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ تَصَرُّفَاتِهِ، وَعَدَمِ سُؤَالِهِ أَوِ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ، وهو ذاكِرٌ غير ناسٍ.

- ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾:

اعْتَرَفَ مُوسَىٰ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِأَنَّهُ أَخَلَّ بِوَعْدِهِ، وسَأَلَهُ سُؤَالَ مُعْتَرِضٍ ذَاكِرٍ غَيْرِ نَاسٍ، لِأَنَّهُ وَجَدَ أَنَّ قَتْلَ غُلَامٍ لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ التَّكْلِيفِ كَبِيرَةٌ، لَا يَحْتَمِلُ رَسُولٌ مُبَلِّغٌ شَرْعَ اللهِ لِعِبَادِهِ أن يَسْكُتَ عَلَيْهَا صَابِراً.

ثُمَّ تنبَّهَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الَّذِي أجابَ طَلَبَهُ، بأَنْ يَلْتَقِي مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ فِي قَضَايَا لَمْ يُعْطِهِ اللهُ عِلْماً مِنْهَا، فرأىٰ أَنَّهُ تَجَاوَزَ حَدَّه، فَقَالَ لِلْخَضِرِ:

سَامِحْنِي بِهٰذِهِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ نِسْيَاناً، وَإِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ أَقْرَبِ الْقُرْبِ مِنِّي بِمُخَالَفَتِي مَا وَعَدْتُكَ بِهِ، مَا يَجْعَلُ لَكَ عُذْراً بِتَرْكِ مُصَاحَبَتِي.

لَدُن: ظَرْفٌ زَمَانِيٌّ وَمَكَانِيٌّ بِمَنْزِلَة «عِنْد» إِلَّا أَنَّهُ أَقْرَبُ من «عِنْد» وَأَخصُّ مِنْهُ.

- ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾:

جَاءَ في بيانِ الرَّسُولِ ﷺ عن الجدارِ أَنَّهُ مَائِل. وجاء فيه بشَأْنِ إِقَامَةِ الْخَضِرِ لَهُ:

«فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ» أي: لَمْ يَحْتَجْ مِنَ الْخَضِرِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَدْفَعَهُ بِكَفِّهِ، فأقَامَهُ مِنْ مَيَلَانِهِ، وَجَعَلَهُ مُسْتَقِيماً.

- ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾: أي: طَلَبَا مِنْ أَهْلِهَا أَنْ يُطْعِمُوهُمَا عَلَىٰ سَبِيلِ الضِّيَافَةِ المتعَارَفِ عَلَيْهَا بَيْنَ النَّاسِ، فَأَبَوْا جميعاً أَنْ يَضَيِّفُوهُمَا كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ بُخَلَاءَ لَا يُطْعِمُونَ ضَيْفاً يَأْتِيهِمْ.

وجاءَ في بيانِ الرَّسُول ﷺ:

«فَقَالَ مُوسَىٰ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا، وَلَمْ يُضَيِّفُونَا: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لِنَسُدَّ بالأَجْرِ جُوعَنَا.

وَيظْهَرُ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ بَلَغَ مِنْهُ الْجُوعُ مَبْلَغاً كبيراً أَفْقَدَهُ الالْتِزَام بِوَعْدِهِ في هٰذِهِ الْمَرَّة.

- ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾: أي: يُرِيدُ أَنْ يَسْقُطَ، يُقَالُ لغة: «انْقَضَّ الْجِدَارُ» أي: سَقَط.

شُبِّهَ مَيْلُ الْجِدَارِ عَنِ اسْتِقَامَتِهِ، بِفِعْلِ مَنْ يَمِيلُ وَهُو يُرِيدُ أَنْ يَسْقُطَ عَلَىٰ الْأَرْض، واسْتُعِيرَ فِعْلُ «يُرِيدُ» للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ الْمَيْلِ الآيلِ إلى السُّقُوط، وهَـٰذِهِ مِنَ الاسْتِعَارَاتِ الْبَدِيعَةِ فِي البيان، وفيها إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ مَيْلَ الْجِدَارِ قَدْ كَانَ مَيْلاً مُنْذِراً بالسُّقُوط.

- ﴿... قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾: أي: قَال موسَىٰ لِلْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلامُ: لَوْ شِئْتَ لَأَبْلَغْتَ أصْحَابَ الْجِدَارِ أَنْ تُقِيمَهُ لَهُمْ مُقَابِلَ أَجْرِ نَأْكُلُ بِهِ طَعاماً، فَقَدْ بَلَغَ الْجُوعُ مِنَّا مَبْلَغاً مُضْنِياً.

عندئذٍ تَحلَّلَ الخضرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن الْتِزَامِهِ بِمُصَاحَبَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

- ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾:

أي: وَتَمَّ الْفِرَاقُ بَيْنَ الْخَضِرِ ومُوسَىٰ عليهما السلام، وقالَ سَيِّدُنا رَسُول اللهِ ﷺ في الحديث الصّحيح:

«وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا».

- ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بمعْنَىٰ الْبَيْنِ هُنَا الاتِّصَال، أي: هَـٰذَا سَبَبُ مَا عَزَمْتُ عَلَيْهِ مِنْ تَنْفِيذِ فِرَاقِ وَصْلِي مَعَ وَصْلِكَ.

- ﴿... سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾:

التأويل: الإرْجاع، يُقالُ لُغَةً: «أَوَّلَهُ تأْوِيلاً» أي: رَدَّهُ وَأَرْجَعَهُ إِلَىٰ المكانِ الّذِي كانَ فِيهِ.

وَتأْويلُ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَبْدُو في الظاهر أَنَّهَا أَعْمَالٌ مُسْتَنْكَرَة، يَكُونُ بإرْجَاعِ الذِّهْنِ عَنْ تَصوُّرَاتِهِ، وَبيَانِ أَسْبَابِهَا الْخَفِيَّةِ والغايَةِ مِنْ فِعْلها.

أي: سَأُخْبِرُكَ بِأَسْبَاب أفْعَالِي الَّتِي اسْتَنْكَرْتَها، وَلَمْ تَسْتَطِعْ صَبْراً عَلَىٰ السُّكُوتِ عَنْ سؤالِي عَنْهَا، مُخَالِفاً مَا وَعَدْتَنِي بِهِ مِن الصَّبْرِ، وَسَأُخْبِرُكَ بالْغَايَةِ مِنْهَا، قَبْلَ افْتِرَاقِنا.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيّناً الْفَصْلَ الْأَخِيرَ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ والْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وَهٰذَا الْفَصْلُ يَتَضَمَّنُ بيَانَ الْخَضرِ لِمُوسَىٰ تَأْوِيلَ أَفْعَالِهِ الَّتِي أَجْرَاهَا، وَاسْتَنْكَرَهَا مُوسَىٰ بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنْ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ:

● ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

هٰذِهِ التَّأْوِيلاتُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَكْشِفُ أَنَّ عِلْمَهُ الّذي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهُ، ولَمْ يُؤْتِ مِنْهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، عِلْمٌ يَتَعلَّقُ بِبَعْضِ الْغَيْبِيَّاتِ، وَبَعْضِ الْأَوَامِرِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَتعلَّقُ بِتَصارِيفِ اللهِ بِعِبَادِهِ، مِمَّا هُوَ خَفِيٌّ وَهُوَ يَدْخلُ في عُمُومِ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه، وَهُوَ مِمَّا يُكَلِّفُ اللهُ مَلَائِكَتَهُ بِتَنْفِيذِه.

● ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾:

﴿أَمَّا﴾ حَرْفٌ فيه معْنَىٰ الشَّرْط والتَّوْكِيدِ دَائماً، وَفِيهِ مَعْنَىٰ التَّفْصِيلِ

غالِباً. وهـٰذَا الحرفُ نَائِبٌ عَنْ أَداة الشَّرْطِ وَجُمْلَتِهِ، وَيُؤَوِّلُهُ النُّحَاةُ بِقَوْلِهِمْ: «مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ».

- ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾: «ال» في السَّفِينة هُنَا عَهْدِيَّة، أي: الَّتِي رَكِبْنَاهَا وَخَرَقْتُهَا بِقَلْعِ لَوْحٍ مِنْ أَلْواحِهَا.

- ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾: أي: فَهِيَ لِمَسَاكِينَ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، وَيَعْرِفُونَ بَعْضَ تَصَرُّفَاتِي المستَنْكَرَةِ فِي أَوَائِلِهَا والْمَحْمُودَةِ فِي غَايَاتِها.

فعل «كَانَ» يَأتِي بِمَعْنَىٰ الوجُودِ الْحَالِيِّ، وَيُفَسَّرُ بنَحْو مَا ذَكَرْتُ، أي: فَهِي لِمَساكين.

- ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾: أي: لِفُقَرَاءَ يَظْهَرُ من حَالِ مَسْكَنَتِهِمْ أَنَّهُمْ فُقَراء.

ظهر لي من استقراء النُّصُوصِ وسَبْرِ دَلَالَاتِها، أَنَّ الْفَقِيرَ مَنْ كانَ ذَا حَاجَةٍ حقيقيّةٍ لِنَفقاتِهِ، ونفقات مَنْ يَعُولُهُمْ، سواءٌ أكانَ مُعْدَماً أو دُونَ ذلِكَ إلَىٰ ما دُونَ الكِفايَة، ولَكِنْ قَدْ لَا تَكُونُ هَـٰذِهِ الحاجَةُ ظَاهِرَةً عَلَيْهِ، فَيَحْسَبُهُ الجاهِلُ بحَالِهِ غَنِيًّا من تعفُّفِهِ، وأَصْلُ الافْتِقَارِ إلى الشَّيْءِ الحاجَةُ إلَيْه.

وأَنَّ المسْكِينَ هُوَ مَنْ كانَ ظاهِرُ حَالِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ذُو حَاجَةٍ، أو بادّعَائِهِ أَنَّهُ ذُو حاجَة لنَفَقَاتِه، ورُبَّما يَكُونُ في واقِعِ حَالِهِ عَلَىٰ خِلافِ مَا يُظْهِرُ بأقواله أو بأعْمَاله.

فالْمَسْكَنَةُ صِفَةٌ تَظْهَرُ عَلَىٰ الإنْسَان، تُشْعِرُ بأَنَّهُ فَقِيرٌ ذُو حَاجَةٍ، سواءٌ أكان صَادِقاً بِمَسْكَنَتِهِ أَمْ كاذِباً فيها.

وهـٰذَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَقِيرِ والمسْكِينِ هُو مَا يُفْهَمُ مما رُوِي عن ابْنِ عباسٍ، فقد روى ابْنُ المنْذِرِ والنَّحَّاسُ عَنْهُ أَنَّهُ قال: «الْفُقَرَاءُ فُقَرَاءُ المسْلِمِينَ، والْمَسَاكِينُ الطَّوَّافُونَ».

- ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾: أي: فَأَرَدْتُ أَنْ أَجْعَلَ فِيهَا عَيْباً، لِأَحْمِيَهَا وَأَحْمِيَ أصْحَابَهَا مِنْ مَلِكٍ غَاصِبٍ جَبَّارٍ، يَأْخُذُ بالْقَهْرِ كُلَّ سَفِينَةٍ غَيْرِ مَعِيبَةٍ غَصْباً، وَأَصْحَابُهَا يَعْرِفُونَنِي وَلَا يَعْتَرِضُون عَلَىٰ أفْعَالي.

وَسَأَلْتُ رَبِّي، فَأَوْحَىٰ إلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ مَا أَرَدْتُ فِعْلَهُ في السَّفِينَةِ.

- ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾:

- ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾: أَي: وَرَاءَ نِهَايَةِ مَدِّ بَصَرِهِمْ، كَمَا تَقُول: وَرَاء هـٰذَا الْجِدَارِ الّذِي هُوَ أَمَامِي يُوجَدُ كَذا.

الْغَصْبُ: أَخْذُ مَالِ الآخَرِينَ ظُلْماً بالْقَهْرِ والْغَلَبَةِ.

أي: وَيُوجَدُ وَرَاءَ مَا تُدْرِكُ أَبْصَارُهم مَلِكٌ جَبَّارٌ ظَالِمٌ، يأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ تَمُرُّ في مَدَىٰ سُلْطَانِهِ الْبَحْرِيِّ، بالْقَهْرِ والْغَلَبَةِ، إذَا كانَتْ غَيْرَ مَعِيبَةٍ، فَقُمْتُ بإحْدَاثِ عَيْبٍ في سَفِينَتِهِمْ، لَا يُسَبِّبُ إغْرَاقاً لَهَا وَلِأَهْلِهَا، لِأَحْمِيَهَا مِنْ غَصْبِهِ، وَأَعْلَمُ أَنَّ أصْحَابَهَا مَسَاكِين، لَا يَكْفِي دَخْلُ سَفِينَتِهِمْ مَا يَحْتَاجُونَ مِنْ نَفَقَةٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأُسرهم.

- ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾:

جاء في بيان الرسُول ﷺ الَّذي سبَقَ ذِكْرُهُ أَنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبعَ كَافِراً.

وقَدْ دَلَّتْنَا النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ الكَثِيرَة جِدّاً، عَلَىٰ أَنَّ الَّذِينَ يُوضَعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ اعْتِبَاراً مِنْ سِنِّ التَّكْلِيفِ، ذَوُو إرَادَاتٍ حُرَّةٍ وهُمْ غَيْرُ مَجْبُورِينَ بالطَّبْعِ عَلَىٰ إيمَانٍ أَوْ كُفْرٍ.

ونَفْهَمُ مِن هـٰذَا أَنَّ مَنْ طُبعَ عَلَىٰ الكُفْرِ فِي نَشْأَتِهِ لِحِكْمَةٍ يُرِيدُها اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَا يُبْقِيهِ اللهُ حَيّاً حَتَّىٰ يَدْخُلَ سِنَّ التَّكْلِيفِ،

وَهُوَ كَافِرٌ مَجْبُورٌ مَفْطُورٌ عَلَىٰ الْكُفْر، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ وَلَا مِنْ عَدْلِهِ أَنْ يُعَاقِبَ وَيُجَازِيَ عَلَىٰ الْكُفْرِ مَنْ فَطَرَهُ هُوَ عَلَيْهِ.

وَإِذْ عَلِمَ الْخَضِرُ مِمَّا آتَاهُ اللهُ مِنْ بَعْضِ عِلْمِ الْغَيْبِ أَنَّ الْغُلَامَ فُطِرَ كَافِراً، وَهُوَ مَا زَالَ دُونَ سِنِّ التَّكْلِيفِ، اسْتَشَارَ مَنْ يُوحِي إِلَيْهِ مِنْ مَلَكٍ أَوْ أَكْثَر بِأَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُ بِقَتْلِهِ لِئَلَّا يَحْمِلَ أَبَوَاهُ الْمُؤْمِنَانِ مَتَاعِبَ طُغْيَانِ وَلَدِهِمَا وَمَتَاعِبَ كُفْرِهِ، وَهُوَ فِي حَضَانَتِهِمَا وَتَحْتَ رِعَايَتِهِمَا، وَبِأَنْ يَقْبَلَ دُعَاءَهُمْ بِأَنْ يُبْدِلَهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً.

- ﴿زَكَوٰةً﴾: أي: طَهَارَةً وَبَرَاءَةً مِنَ الْكُفْرِ والإثْمِ والْعِصْيان.
- ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: أي: وأَقْرَبَ لِوَالِدَيْهِ عَطْفاً وَشَفَقَةً وَرَحْمَةً. وفي القراءة الأخرى [**رُحُماً**] ومعْنَىٰ القراءتَيْنِ واحد.

فَأَذِنَ اللهُ بِقَتْلِ الْغُلَام، وَسَأَلَ هُوَ وَمَنْ يُوحِي لَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ اللهَ أَنْ يُبْدِلَ وَالِدَيْهِ وَلَداً آخر خَيْراً مِنْ قَتِيلِ الْخَضِرِ زَكَاةً وَأَقْرَبُ لِوَالِدَيْهِ عَطْفاً وَشَفَقَةً وَرَحْمَةً.

وَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ بِقَتْلِ الْغُلَام، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ أَوْحَى لَهُ أَيْضاً بأَنَّهُ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُمْ بِأَنْ يُبْدِل وَالِدَيْهِ خَيْراً مِنْهُ.

فَالْقَضِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ تَصَارِيفِ اللهِ، وَكَانَ الْخَضِرُ فِيهَا مُعَلَّماً عَنْ طَرِيق الوَحْي، وَمَأْمُوراً مِنَ اللهِ بالتَّنْفِيذِ، فَلَا إِشْكَالَ فِي مُخَالَفَةِ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَام، لِمَا فِي الشَّرِيعَةِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ أَحْكَام، وتَلْعَبُ هُنَا أَهْوَاءُ مُدَّعِي عُلُومٍ غَيْبِيَّةٍ، ومُنَفِّذِي أَفْعَالٍ يُرْضُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَمَطَالِبَ نُفُوسِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنْيَا، بِمَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مُتَسَتِّرِينَ بادِّعَاءَاتٍ كَاذِبَاتٍ يَزْعُمُونَ فِيهَا أَنَّ اللهَ آتَاهُمْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ مَا لَمْ يُؤْتِ غَيْرَهُمْ، كَمَا آتَىٰ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ اللهَ أَذِنَ لَهُمْ بارْتِكَاب مُخَالَفَاتٍ شَرْعِيَّةٍ، كَمَا أَذِنَ لِلْخَضِرِ بِقَتْلِ الْغُلَام.

● ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾:

جَاءَتْ هُنَا تَسْمِيَةُ الْقَرْيَةِ الَّتِي اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا باسْم المدينَةِ، لِأَنَّ لفظ القرية يُطْلَقُ لُغَةً عَلَىٰ كُلِّ أَرْضٍ فيها بُيُوتٌ وَمَسَاكِنُ مُجْتَمِعَة، قَلَّتْ أَمْ كَثُرَتْ، وَلَوْ بَلَغَتْ مَدِينَةً عظيمَةً جدًّا.

في حَادِثَةِ السَّفِينَةِ وخَرْقِهَا أَبَانَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّه أَرادَ هُوَ أَنْ يَعِيبَهَا، لِيَحْمِيهَا مِنْ غَضَبِ الْملِكَ الجبّارِ، رَحْمَةً بأَصْحَابِهَا الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يَعْرِفُ أَحْوَالَهُمْ وَهُمْ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ. أي: فَسأَلَ اللهَ أَنْ يَخْرِقَهَا بِقَلْعِ لَوْحٍ مِنْهَا، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ بِأَنْ يَفْعَلَ مَا أَرادَ، فَكَانَ مَا فَعَلَهُ فِيهَا تَنْفِيذاً لِأَمْرِ اللهِ، وَلَمْ يَكُنْ صَادِراً عَنْ أَمْرِهِ، دُونَ أَمْرٍ مِنَ اللهِ لَهُ بِذَلِكَ.

وَفِي حَادِثَةِ الْغِلَامِ وَقَتْلِهِ عَلِمَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ طَرِيقِ الوَحْيِ أَنَّهُ طُبِعَ كَافِراً، وَأَنَّ أَبَوَيْهِ مُؤْمِنَانِ، فَخَشِيَ أَنْ يُحَمِّلَ أَبَوَيْهِ مَتَاعِبَ طُغْيَانِهِ وَكُفْرِهِ، فَرَغِبَ أَنْ يَقْتُلَهُ وَأَنْ يُبْدِلَهُمَا اللهُ خَيْراً مِنْه، وَلَمَّا كَانَ الْقَتْلُ لِغُلَامٍ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ التَّكْلِيفِ أَمْراً مُسْتَنْكَراً جدًّا في مَفَاهِيمِ كُلِّ النَّاس، اسْتَشَارَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَام مَنْ يُوحِي إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بِشَأْنِ قَتْلِهِ وَأَنْ يُبْدِلَ اللهُ وَالِدَيْهِ خَيْراً مِنْهُ، فَتَطَابَقَتْ آرَاءُ الْفَرِيقَيْنِ عَلَىٰ الرَّغْبَتَيْنِ. أي: فَسَأَلَ الْخَضِرُ رَبَّهُ أَنْ يَقْتُلَ الْغُلَامَ وَأَنْ يُبْدِلَ وَالِدَيْهِ خَيْراً مِنْهُ، فَأَوْحَىٰ الله إِلَيْهِ بِأَنْ يَقْتُلَهُ، فَكَانَ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ مِنْ قَتْلِ الْغُلَام تَنْفِيذاً لِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَكُنْ صَادِراً عَنْ أَمْرِه، دُونَ أَمْرٍ مِنَ اللهِ لَهُ بِذَلِكَ.

وَفِي حَادِثَةِ الجِدَارِ المائِلِ وَإِقَامَةِ الخضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ بِيَدِهِ، فَقَدْ عَلِمَ الْخَضِرُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، أَنَّهُ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ في المدِينَةِ، وَأَنَّهُ يُوجَدُ تَحْتَهُ كَنْزٌ قَضَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا إِذَا كَبِرَا وَبَلَغَا أَشُدَّهُمَا، وَأَنْ

يَسْتَخْرِجَاه رَحْمَةً وَعَطاءً مِنْهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْخَضِرِ في هـٰذِهِ الحادِثَةِ إرادَةٌ بِأَنْ يُقِيمَ هـٰذَا الجدار المائل، إِلَّا أَنَّهُ تَلَقَّىٰ أَمْراً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يُقِيمَهُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ امْتِثالاً لِأَمْرِ اللهِ.

لَكِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ شِدَّةِ جُوعِهِ، ورفْضِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ويُطْعِمُوهُمَا، لَمْ يَخْطُرْ في بَالِهِ أَنَّ إقامَةَ الْخَضِرِ لِلْجِدَارِ قَدْ كَانَ بِأَمْرٍ مِن اللهِ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، فَقَالَ لِلْخَضِرِ مُعْتَرِضاً: ﴿... لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾: أَيْ: وَأَقَلُّهُ أَنْ يُطْعِمُونا.

- ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي: وأَمَّا حَادِثَةُ الْجِدَارِ فَهُوَ مِلْكُ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَة، وَيَظْهَرُ أَنَّ هـٰذِهِ الْقَرْيَةَ كَانَتْ كَبِيرَةً يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهَا لفظ «مَدِينَة» فِي عُرْفِ أَهْلِ ذَلِكَ العصر.

والْغُلَامَان كَانَا دُونَ سِنّ الْبُلُوغ.

الْيَتِيمُ: الصغير الذي مَاتَ أبوهُ مِنَ النَّاس، ويَبْقَىٰ يَتِيماً حتَّىٰ يَبْلُغَ الْحُلْم.

- ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: أي: وَكَانَ تَحْتَ الْجِدَارِ مَالٌ مَدْفُونٌ مُخَبَّأٌ لَهُمَا مِنْ أَبِيهِمَا أَوْ مِن أَحَدِ مُوَرِّثِهِمَا، أَوْ مَقْضِيٌّ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِأَنْ يَكُونَ لَهُمَا.

- ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾: أي: وَكَانَ أَبُوهُمَا رَجُلاً صَالِحاً، وَرُبَّما كَانَ قَدْ دَفَنَ الكَنْزَ لَهُمَا، وَسَأَلَ الله أَنْ يَسْتَخْرِجَاهُ، وَيُنْفِقَا مِنْهُ لِحَيَاتِهِما، وَاسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ دُعَاءَ أَبِيهِمَا الرَّجُلِ الصَّالح.

- ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾:

- ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾: أَيْ: أَنْ يَكْتَمِلَ نُضْجُهُمَا الإنْسَانِي. **أَشُدُّ** كُلِّ شَيْءٍ اكْتِمالُ تَنامِيهِ، بِحَسَبِ صِفَاتِهِ القابِلَةِ للاكْتِمالِ.

- ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾: أي: عَطاءً مِنْ رَبِّكَ رَحِمَهُمَا اللهُ بِهِ إكْراماً لِأَبِيهِمَا. أي: فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ بِأَنْ أُقِيمَ الجدَارَ فَأَقَمْتُهُ طَاعَةً لِأَمْرِه.
- ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾: أيْ: وَمَا فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ مِنْ أَحْدَاثِ السَّفِينَةِ والْغُلَامِ والْجِدَار عَنْ إرادَتِي وَرَغْبَتِي، وَإِنَّمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِ اللهِ رَبِّي.

فمِنْهُ مَا رَغِبْتُ فِيهِ فَسَأَلْتُ اللهَ رَبِّي، فَأَذِنَ لِيَ أَنْ أَفْعَلَهُ عَن طَرِيق الْوَحْيِ.

وَمِنْهُ مَا جَاءَ أَمْراً مِنْ رَبِّي دُونَ طَلَبٍ سَابِقٍ مِنِّي، فَفَعَلْتُهُ طَاعَةً وامْتِثَالاً.

- ﴿... ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: الْمُشَارُ إِلَيْهِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ في الآيَات (٧٩) و(٨٠) و(٨١) وبَعْضِ الآيَة (٨٢).

أي: ذَلِكَ تَأْوِيلُ الْأَفْعَالِ الَّتِي بَدَا لَكَ يَا مُوسَىٰ مِنْ ظَاهِرِهَا أَنَّهَا أَفْعَالُ مُسْتَنْكَرَةٌ، أَوْ كَانَ غَيْرُهَا أَوْلَىٰ مِنْهَا كإِقَامَةِ الْجِدَارِ، أَبَنْتُ لَكَ أَسْبَابَهَا الَّتِي كَانَتْ خَفِيَّةً عَلَيْكَ، وأَبَنْتُ لَكَ الْغَايَةَ مِنْ فِعْلِهَا، وَأَبَنْتُ لَكَ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ شَيْئاً مِنْهَا عَنْ أَمْرِي، وَإِنَّمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِ اللهِ رَبِّي بِمَا أَوْحَىٰ إِلَيَّ.

وَهَـٰذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَمْ تَتَحَمَّلْهَا، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَصْبِرَ عَلَيْهَا، فَتَضْبَطَ نَفْسَكَ وتَمْنَعَ لِسَانَكَ مِنَ السُّؤَالِ عَنْهَا، عَلَىٰ خِلَافِ وَعْدِكَ الَّذِي وَعَدْتَنِيهِ في بَدْءِ رِحلَتِنَا.

وَلَـمَّا كَانَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ عَزْمِ الْفِرَاقِ حَالاً أَشَارَ إلَىٰ اسْتِعْجَالِهِ الْفِرَاقَ بِعِبَارَة «تَسطِعْ» بَدَلَ «تَسْتَطِعْ» وَهَـٰذَا مِنَ الْإِيجاز بالْحَذْفِ عَلَىٰ غَيْرِ قِيَاس.

وانْطَلَقَ الْخَضِرُ مُفَارِقاً مُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السّلام.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثامِنِ من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٣)

التدبُّر التحليلي للدّرس التاسع من دُروس سورة (الكهف)

الآيات من (٨٣ ـ ٩٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ﴾:

القراءات:

(٨٥) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: **[فاتَّبَعَ سَبَباً]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشْرَةِ: **[فَأَتْبَعَ سَبَباً]**.

اتَّبعَ، وأَتْبَعَ: كِلَاهما بمعنى: تَبِعَ.

(٨٦) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وحفص، ويعقوب: **[حَمِئَةٍ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[حَامِيَةٍ]**.

«حَمِئَة»: أي: ذَاتُ حَمَأٍ وهو الطّينُ الأسود المُنْتِنُ. «حَامِيَةٍ» أي: شديدة الحرارة، فَبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ فِكْرِيٌّ.

(٨٧) ● قرأ نافع، وابن ذكوان، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: **[نُكُراً]** بضم الكاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نُكْراً]** بإسكان الكاف.

«نُكُراً» و«نُكْراً» لُغَتَانِ بمَعْنَىٰ الأَمْرِ الشّدِيد الصَّعْب.

(٨٨) ● قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وابْن عامر، وشعبة، وأبو جعْفر: **[جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ]** على الإضافة، أي: الجنة الحسنىٰ، أو المثوبَةِ الحسنَىٰ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[جَزَاءً الْحُسْنَىٰ]**: أي: فلَهُ الحسْنَىٰ جزاءً.

(٨٩ و٩٢) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: **[ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَباً]** في الموضِعَيْن.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً]** في الموضعين.

«اتَّبَعَ» و**«أَتْبَعَ»**: كِلاهما بمعنى: «تَبعَ».

(٩٣) ● قَرَأَ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وحفص: **[السَّدَّيْنِ]** بفتح السّين المشَدَّدة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[السُّدَّيْنِ]** بضمّ السّين المشَدَّدة.

وهما لُغَتَان، يقال: «سُدّ» و«سَدّ».

(٩٣) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [**يُفْقِهُونَ**] بضم الياء وكَسْر القاف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَفْقَهُونَ**].

وبين القراءتَيْنِ تكامل، إذْ هُمْ قَومٌ لَا يَعْرِفُونَ لُغَاتِ النَّاس. فَلَا يَفْقَهُونَ كَلَامَ الأقوام غيرهم، وَلَهُمْ لُغَةٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ لَا يَعْرِفها غَيْرُهم.

(٩٤) • قرأ عاصم: [**يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَاجُوجَ ومَاجوجَ**] بإبْدالِ الهمزة ألفاً في اللَّفْظَتَيْن.

وهما نُطْقَان لاسم هؤلاء الْقَوْم.

(٩٤) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [**خَرَاجاً**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**خَرْجاً**].

«**الْخَرْجُ**» و«**الْخَرَاجُ**» مَا يُبْذَلُ مِنْ مَالٍ أجْراً علىٰ عَمَلٍ مَا، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الجزْيَةِ، ونَحْوِ ذَلِك.

(٩٤) • قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وشُعبَة، وأَبُو جَعْفر، ويعقوب: [**سُدّاً**] بِضَمِّ السّين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**سَدّاً**] بِفَتْحِ السين.

وهُمَا لغتان لمعْنًى واحد.

(٩٦) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عمرو، وابْنُ عَامر، ويعقوب: [**الصُّدُفَيْنِ**] وقرأها شُعْبة: [**الصُّدْفَيْنِ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الصَّدَفَيْن**].

«الصَّدَفُ» و«الصُّدْفُ» و«الصُّدُف»: لُغَاتٌ بمعنى «الجبل» وكُلِّ بِنَاءٍ عَظيمٍ مُرْتَفِعٍ.

(٩٨) • قرأ عَاصِم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[دَكَّاءَ]** أي: مُسْتَوِياً بالأَرْض.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[دَكًّا]** مَصْدَرُ «دَكَكْتُه» وهو بمعنى اسم المفعول، أي: مُدْكُوكاً.

الدَّكُّ: الدَّقُّ والتكْسِيرُ والْهَدْم.

فَمُؤَدَّى القراءَتَيْنِ وَاحد.

تَمْهِيد: في آيات هٰذَا الدَّرْس بَيَانُ المقْصُودِ الإعْلام بِهِ مِنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْن.

مَنْ هُوَ ذُو القرنَيْنِ؟

لَيْسَ لَدَيْنَا فِي التَّارِيخ مَا يُحَدِّدُ اسْمَهُ، ولا نَشْأَتَهُ، وَلَا مِنْ أَيِّ قَوْم هُو، وَلَا الزَّمَنَ الَّذِي كانَتْ حَيَاتُهُ فيه، وَقَدْ خَلَّطَ النَّاسُ بِشَأْنِهِ تَخْلِيطَاتٍ لَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ أَسَانِيدَ صَحِيحَة، فينْبَغِي الإعْرَاضُ عَنْهَا، وَعَدَمُ تَسْوِيدِ صَفَحَاتٍ وَلَا أَسْطُرٍ بِذِكْرِهَا.

إِنَّهُ كَمَا جاءَ فِي الْقُرآنِ كَمَا يلي:

(١) مَلِكٌ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ فَاتِح عظيم.

(٢) قَدْ مَكَّنَ اللهُ لَهُ فِي الأَرْض.

(٣) آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كُلِّ شيءٍ يَحْتَاجُهُ لِملْكِهُ وفُتُوحَاتِهِ بِحَسَبِ تَطَوُّرَاتِ الْعَصْرِ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ سَبَباً، يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَىٰ تَثْبِيتِ مُلْكِهِ، وَتَحْقِيقِ طُمُوحَاتِهِ فِي التَّوَسُّعِ والإصْلَاحِ، وإقَامَةِ الْعَدْلِ.

(٤) أَنَّهُ كَانَ يَتَلَقَّىٰ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصَايَا، إِمَّا بالْوَحْي المبَاشِرِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ نَبِيٍّ كَانَ مَعَهُ فِي مَسِيراته، وَعَلى فَرْض أَنَّهُ كَانَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً فَهُوَ نَبِيّ، واللهُ أَعْلَمُ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾:

الْفِعْلُ في: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ دَلَّ عَلَىٰ تَكْرَارِ سُؤَالِهِمْ، لِأَنَّهُ فِعْلٌ مضارع يفيد التكرار كما يقول عُلماءُ البلاغَة.

- ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾: أي: عَنْ قِصَّةِ الملِكِ الفاتِحِ الْمَعْرُوفِ بأَنَّهُ ذُو الْقَرْنين.

وذكَرُوا في سَبَبِ تَسْمِيَتِهِ بذي الْقَرْنَيْنِ عِدَّة آراء، أَقْرَبُها:

(١) أَنَّهُ كَانَ ذَا ضَفِيرَتَيْنِ مِنَ الشَّعَرِ، يُلازِمُ الاعْتِنَاءَ بِهِمَا والمحافَظَة عَلَيْهِمَا، وإِطْلَاقُ لَفْظِ الْقَرْنِ على الضَّفِيرة من شَعَر الرأْسِ إِطْلَاقٌ شَائِعٌ، وَتُسَمَّىٰ أَيْضاً ذُؤَابَة.

(٢) أَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ عَلَىٰ رَأسِهِ خُوذَةً مِنْ نُحَاسٍ لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنَيْ كَبْشٍ.

إلى غَيْرِهما مِنْ أَقْوَالٍ لَا دَلِيلَ عَلَىٰ شيءٍ مِنها، واللهُ أعلم.

وَيَظْهَرُ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانَ قُصَّاصَهُمْ يَحكون حِكَايَاتٍ عَنْ مَلِكٍ عظيم مَشْهُورٍ بأَنَّهُ «ذُو الْقَرْنَيْنِ» فَكَرَّرُوا سُؤَالَهُمْ للرَّسُولِ ﷺ عَنْه، وَلَمْ يثْبُتْ أَنَّ الْيَهُودَ هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا هـٰذَا السُّؤَال، أَوْ قَالُوا لِبَعْضِ كُبَراءِ مَكَّةَ مِنْ معارِفِهِمْ أن يَسْأَلُوا محمَّداً هـٰذَا السُّؤَال.

- ﴿... قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾: أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ للسَّائِلِينَ عَنْ ذي الْقَرْنَيْنِ: سَأَتْلُو مِمَّا سَيُنْزِلُ عَلَيَّ رَبِّي فِي كِتَابِهِ الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِهِ ذِكْراً مَا، بَعْضَ ذِكْرٍ، فلفظ «مِنْ» مِنْ عِبارة: ﴿مِنْهُ﴾ للتَّبْعِيضِ.

أي: سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْ أَخْبَارِهِ بَيَاناً نَافِعاً، يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ ذِكْراً تَتَذَكَّرُونَهُ عِنْدَ المُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لتَذَكُّرِه، لِيَكُونَ هَادِياً لَكُمْ وَنَافعاً وَمُرْشِداً للاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ، وَلِتَعْرِفُوا مِيزَةَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ الْمُصْلِحِ العادِلِ الرَّشِيدِ، الْمَهْدِيّ بِهِدَايَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَالمؤيَّدِ بِتَأْيِيدٍ مِنْ لَدُنْهُ، وَالْمُمَكَّنِ لَهُ فِي الْأَرْضِ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَادِئاً بالْحَدِيثِ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْن:

- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾:

التَّمْكِينُ فِي الْأَرْض: الإِقْدَارُ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ الموصِلِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ المطلوب، مَعَ التَّثبيتِ في مكانِ الْقُدْرَةِ، والإِقْدَارُ عَلَىٰ التَّحرُّكِ فِيهِ بحُرِّيَّة، وأَصْلُهُ مَأْخُوذٌ مِنَ المكان والثبات فيه، فالتَّمْكِينُ فِي المكانِ إِقْدَارٌ عَلَىٰ امْتِلَاكِهِ، وَعَلَىٰ الثَّبَاتِ فِيهِ، مَعَ حُرِّيَّةِ التَّصرُّفِ دُونَ وُجودِ قُوَّةٍ أُخرى مُعَوِّقَةٍ أَوْ غالِبَةٍ.

والتَّمْكِينُ لِمَلِكٍ مَا فِي الْأَرْضِ جَعْلُ مُلْكِهِ قَوِيًّا ثَابِتاً، لَا يَطْمَعُ بِإِزَاحَتِهِ عَنْهُ الطَّامِعُونَ وَلَا المنافِسُونَ، إِذْ لَا يَمْلِكُونَ الْقُدْرَةَ الكافِيَة الْقَادِرَة عَلَىٰ إِزاحَتِهِ، أو التَّغَلُّبِ عَلَيْه.

وَقَدْ دَلَّ هٰذَا الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ مَكَّنَ لِذِي الْقَرْنَيْنِ مُلْكَهُ فِي الْأَرْضِ فَكَانَ مَلِكاً فَاتِحاً امْتَدَّ مُلْكُهُ حَتَّىٰ آخِرِ الْمَعْمُورِ مِنَ الْأَرْضِ فِي اتِّجاهِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، ثُمَّ حَتَّىٰ آخِرِ الْمَعْمُورِ أَوِ الْمُسْكُونِ مِنَ الْأَرْضِ فِي اتِّجاه مَشْرِقِ الشَّمْس.

- ﴿... وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾:

السَّبَبُ: يُطْلَقُ أَصْلاً عَلَىٰ الحبْلِ، ثُمَّ جَرَىٰ التَّعْمِيمُ في الإطْلَاقِ، فَصَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

أي: وآتَيْنَاهُ بِتَقْدِيرنا وقضائِنَا وَخَلْقِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُهُ لِتَثْبِيتِ مُلْكِهِ، وَتَحْقِيقِ طُمُوحَاتِهِ فِي الفُتُوحِ والعِمْرَان، وإقَامَةِ الْحَقِّ والْعَدْلِ، سَبباً يُوصِلُهُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ مَا يَعْزِمُ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا تَطَوَّرَ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي عَصْرِهِ مِنْ وَسَائِلَ وَأَسْبَابٍ، لَا مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلَ وَأَسْبَابٍ وقُوى.

فعُمُومُ عِبَارَةِ: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مَخْصُوصَةٌ بالنَّظَرِ إِلَىٰ زَمَنِهِ بالأَسْبَابِ الَّتِي كَانَ النَّاسُ قَدْ تَوَصَّلُوا إِلَيْهَا في تَطَوُّرِهِمُ الْحَضَارِي، وَمِثْلُ هٰذَا مِمَّا تُخَصَّصُ بِهِ عُمُومَاتُ النُّصُوص.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ ذِي الْقَرْنَيْن:

• ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾:

• ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾: فعل: «**أَتْبَعَ**» يأتي بمَعْنَيَيْنِ:

المعنى الأوَّل: يُقَالُ فيه: «أَتْبَعَ الشَّيْءَ» أي: تَبِعَهُ، سَارَ في أثَرِه، تَلاه.

المَعْنَىٰ الثَّاني: يُقَالُ فِيهِ «أَتْبَعَ فُلَانٌ الشَّيْءَ شَيْئاً آخَرَ» أي: جَعَلَهُ يَتْبَعُهُ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فعَلَىٰ المعْنَىٰ الأَوَّلِ، نَفْهَمُ مِنَ الْعِبَارَةِ أَنَّهُ تبع سَبباً مِنَ الأَسْبَابِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، لِتَحْقِيقِ طُمُوحٍ مِنْ طُمُوحَاتِهِ فِي الْفَتْحِ لِنَشْرِ دِينِ اللهِ فِي الأَرْضِ.

وَعَلَىٰ المَعْنَىٰ الثَّانِي، نَفْهَمُ مِنَ الْعِبَارَةِ أَنَّهُ وَضَعَ هَدَفاً مِنْ أَهْدَافِهِ في الْفَتْحِ، واتَّخَذَ لَهُ سَبباً مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إيَّاهَا، وأَتْبَعَ السَّبَبَ هَدَفَهُ لِتَحْقِيقِهِ.

والْمُرَادُ بالسَّبَبِ جِنْسُ السَّبَب الْمُحقِّقِ لِلْهَدَفِ، إذْ قَدْ يَكُونُ مُؤَلَّفاً مِنْ عِدَّةِ أَسْبَابٍ قَدْ تَكُونُ كَثِيرَةً جدًّا.

فَالسَّبَبُ الَّذِي يَجِبُ اتِّخَاذُهُ لِفَتْحِ الْبِلَادِ وَنَشْرِ الْحَقِّ والْعَدْلِ والْعِمْرَانِ فيها، يَتَأَلَّفُ مِنْ أَسْبَابٍ يَصْعُبُ إحْصَاؤها، مِنْهَا إعْدَادُ الْجُنْدِ وَقَادَتِهِم، وَإعْدَادُ مَرَاكِب الْجُنْدِ مِنْ خُيُولٍ وعَرَبَاتٍ ونحوها. وإعْدَادُ الْأَسْلِحَةِ عَلَىٰ اخْتِلَافِها، وإعْدَادُ مَا يَحْتَاجُهُ الْجُنْدُ مِنْ طَعَامٍ وشِرَابٍ وَذَخَائِر، وَتَهْيئَةُ الطُّرُقَاتِ والْمَسَالِكِ وَالْمَدَاخِلِ وَالْمَخَارِجِ، إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرةٍ يَعْرِفُهَا المتَخَرِّجُونَ مِنَ الْكلِّيَّاتِ الْحَرْبِيَّة، وهَـٰذِهِ تَتَطَوَّرُ بِحَسَبِ الارْتِقَاءِ الْحَضَارِيِّ للشُّعُوبِ.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾: أي: واسْتَمَرَّ يَتَّخِذُ أَسْبَابَهُ وَيَتَّبِعُهَا بِجَيْشِهِ الْعَظِيم، حَتَّىٰ بَلَغَ آخِرَ الْمَأْهُولِ بالسُّكَّانِ مِنْ جِهَةِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، بالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَا كَانَ مَعْلُوماً لِأَهْلِ زَمَانِهِ.

• ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ: **[في عين حامية]**: أي: في عَيْنٍ حَارَّةٍ شَدِيدَةِ الحرارة، وهِي ذَاتُ «حَمإٍ» وهُو الطِّينُ الْأَسْوَدُ الْمُنْتِنُ.

المَرادُ بالْعَيْنِ مَا يَنْبَعُ مِنَ الْأَرْض.

أي: وَتَوَقَّفَ عِنْدَ هَـٰذِهِ الْعَيْنِ، إذْ وَجَدَهَا آخِرَ مَا يَسْتَطِيعُ جَيْشُهُ أَنْ يَعْبُرَهُ مِنَ الأَرْضِ، بالنِّسْبَةِ إلى الطُّرُقِ والْمَسَالِكِ الْمَعْرُوفَةِ فِي زَمَانِهِ.

وَهَـٰذِهِ الْعَيْنُ الكَبِيرَةُ يَأْتِي بَعْدَهَا بَحْرٌ عَظِيمٌ، فَإذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ظَهَر لِلنَّاظِرِينَ أَنَّهَا تَنْغَمِسُ فِي هَـٰذَا الْبَحْرِ، وَلَمَّا كَانَتِ الْعَيْنُ الْحَمِئَةُ تَقَعُ فِي

أَوَائِلِ هٰذَا الْبَحْرِ الْعظِيم، فَلَا بُدَّ أَنْ يَجِدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ، إِذْ يَقَعُ فِي تَصَوُّرِهِ أَنَّ مَدَىٰ الْبَحْرِ امْتِدَادٌ لِلْعَيْنِ الْحَمِئَة.

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ الْعَيْنُ الْحَمِئَةُ تَدَفُّقَاتٍ نِفْطِيَّةً، تَنْبَعُ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ، عِنْدَ سَاحِلِ بَحْرٍ مُحِيط، وَيَأْتِي هٰذَا الْبَحْرُ وَرَاءَهَا، واللهُ أَعْلَم.

- ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾: أي: وَوَجَدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عِنْدَ هٰذِهِ الْعَيْنِ الْحَمِئَةِ قَوْماً كَفَرَةً مُشْرِكين، أَوْ لَا دِينَ لَهُمْ يَعِيشُونَ كالْبَهائم.

- ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾:

يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِير المتكلّم الْعَظِيم أَنَّهُ قَال لِذِي الْقَرْنَيْنِ بِوَحْيٍ مُبَاشِرٍ إِذَا كَانَ نَبِيّاً، أَوْ عَنْ طَرِيقِ نَبِيٍّ مُصَاحِبٍ لَهُ:

يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ أَنْتَ مَأْذُونٌ لَكَ، بِأَنْ تُعَذِّبَ الْكَافِرَ الْمُعَانِدَ مِنْهُم، بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَإِقْنَاعِهِ بِهِ، وَمَأْذُونٌ لَكَ بِأَنْ تَتَّخِذَ فِيهم أَمْراً ذَا حُسْنٍ، بِأَنْ تُمْهِلَ مَنْ تَرَىٰ إِمْهَالَهُ مِنْهم، وَتَتَلَطَّف بِهِ، وتَصْبِرَ عَلَىٰ مُعَالَجَتِهِ، بِحَسَبِ مَا تَرَىٰ مِنْ أَحْوَالِهِ واسْتِعْدَادِه لِأَنْ يُؤْمِنَ مُسْتَقْبَلاً وَيَعْمَلَ صَالِحاً.

- ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾:

لَمَّا أَخَذَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الْإِذْنَ مِنْ رَبِّهِ بِأَنْ يَخْتَارَ بِحِكْمَتِهِ تَعْذِيبَ الْكَافِرِ الْمُجْرِمِ، إِذَا أَصَرَّ عَلَىٰ كُفْرِهِ وإجْرَامِهِ بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحق، أو يَخْتَارَ بِحِكْمَتِهِ إِمْهَالَ مَنْ يَتَوَسَّمُ أَنَّ الإِمْهَالَ قَدْ يَجْعَلُهُ يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، أَبَانَ مَنْهَجَهُ فِي مُعَالَجَةِ هؤُلَاءِ الْقَوْمِ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ، وهٰذَا المنهجُ يَتَلَخَّصُ بمَا يلي:

الْبَنْد الْأَوَّل: أَمَّا مَنْ ظَلَم بِالكُفْرِ وارْتِكَابِ الْجَرائِم الكُبْرَىٰ، بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، فإِنَّنَا أَنَا وَأَرْكَانُ سُلْطَانِي وَمُلْكِي سَنُمْهِلُهُ، ونَمُدُّ

لَهُ أَمَدَ الْمُعَالَجَةِ، عَسَىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ إِلَىٰ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، حَتَّىٰ إذا اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ إِنْهَاءَ إِمْهَالِهِ فإِنَّنا سَنُعَاقِبُهُ تَعْذِيباً وقَتْلاً.

دَلَّ عَلَىٰ الإمْهَالِ الحكيم عِبَارَةُ ﴿فَسَوْفَ﴾ لأنَّ كَلِمَةَ «سَوْف» تَدُلُّ علَىٰ الْأَجَلِ الْبَعِيدِ فيما ظَهر لِي بالاستقراء.

ودَلَّتْ عِبَارَة: ﴿... ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ خَتَمَ حَيَاتَهُ بالإِصْرَارِ عَلَىٰ الكُفْرِ وارْتِكَابِ الْجَرَائِم.

- ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾: أي: عَذاباً شَدِيداً، وهو عَذَابُ الْخُلُودِ في جهَنَّم.

الْبَنْدُ الثَّاني: وَأَمَّا مَنْ آمَنَ، وَبَرْهَنَ عَلَىٰ صِحَّةِ إِيمَانِهِ بِعَمَلٍ صَالح، فَلَهُ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّينِ الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ الْحُسْنَىٰ، جَزَاءً مِنْ رَبِّهِ عَلَىٰ أَنَّهُ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا. وَسَنَقُولُ لَهُ أَنَا وَأَرْكَانُ مُلْكِي وسُلْطَانِي مُبَاشَرَةً دُونَ إِبْطَاءٍ مِنْ أَمْرِنَا الْمَوْصُولِ بالتَّنْفِيذِ، مَا فِيهِ يُسْرٌ وَتَيْسِيرٌ، إِذْ تَكُونُ مَطَالِبُهُ مُجَابَةً بِيُسْرٍ، وَرَغَبَاتُهُ لِحَيَاتِهِ أَوْ لِحَيَاةِ مَنْ يُهِمُّهُ أَمْرُهُمْ مُذَلَّلَةً مُيَسَّرَة. وَتَكُونُ أَوَامِرُنَا التَّكْلِيفِيَّةُ لَهُ ذَاتَ يُسْرٍ، لَا مَشَقَّةَ فِيهَا وَلَا عُسْر.

الْيُسْرَ: في اللُّغَةِ ضِدُّ الْعُسْر، والمادَّةُ تَدُورُ حَوْلَ مَعْنَىٰ اللِّين والانقياد والسُّهُولَة.

وَدَلَّ حَرْف «السِّين» في عبارة: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ عَلَىٰ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْن وكذلِكَ أَرْكَانُ مَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، سَيُعَامِلُونَ مُبَاشَرَةً دُون إِبْطَاءٍ مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً بِكُلِّ أَمْرٍ فِيهِ تَيْسِيرٌ، تَرْغِيباً لَهُ في الثبات عَلَىٰ الإيمانِ والْعَمَلِ الصالح، فَحَرْف السِّين يُسْتَعْمَلُ غَالباً في المستَقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيد، بخلاف حرْف «سَوْف».

الْحُسْنَى: كَثُرَ اسْتِعْمَالُ هٰذَا اللَّفْظِ في القرآنِ بمعنَىٰ الجنةِ، إِذْ هي أَعْظَمُ مَثُوبَةٍ حُسْنَىٰ.

والأرْجحُ أَنَّهَا هي المرادة هُنَا بِعِبَارَة: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي: فَلَهُ الْجَنَّةُ الحسْنَىٰ حَالَةَ كَوْنِهَا جزَاءً عَظِيماً لَهُ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ ذِي الْقَرْنَيْن:

- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾:

- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾: تَحْلِيلُ هَـٰذِهِ العبارة مِثْلُ نظيرَتِهَا السَّابقة: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾: أي: واسْتَمَرَّ يَتَّخِذُ أَسْبَابَهُ وَيَتَّبِعُهَا بِجَيْشِهِ الْعَظِيم، حَتَّىٰ بَلَغَ آخِرَ الْمَأْهُولِ بالسُّكَّانِ مِنْ جِهَةِ مَطْلِعِ الشَّمْسِ، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا كَانَ مَعْلُوماً لَهُ وَلِأَهْلِ زَمَانِهِ.

- ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ كَانُوا يَعِيشُونَ في أَرْضٍ مَكْشُوفَةٍ للشَّمْسِ، وَلَمْ يَكُونُوا قَدْ تَطَوَّرُوا حضَارِيًّا حَتَّىٰ يَبْنُوا الْبُيُوتَ، أَوْ يَسْتُرُوا أَجْسَادَهُمْ بالْجُلُودِ أَوْ بالمنْسُوجاتِ مِنَ الثياب، فَهُمْ أَشْبَهُ بِالْعُرَاةِ عُرْياً كامِلاً.

وَكَانَ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَىٰ مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْقَوْمُ الّذِينَ وَجَدَهُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ حِينَ بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ كُفْراً وارْتِكَابَ جَرائِم، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾:

أي: حَالُ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ مِثْلَ حَالِ الْقَوْمِ الّذِينَ وَجَدَهُمْ حِينَ بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ، وَكَانَ حَالُهُ مَعَ هَـٰؤُلَاءِ مِثْلَ حَالِهِ مَعَ أُولئكَ، وَأَجْرَىٰ فِيهِمْ مَا أَجْرَاهُ فِي أُولَئِكَ.

وَقَدْ أَحَاطَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا كَانَ لَدَيْهِ مِنْ عَمَلٍ وَتصرُّفَاتٍ وَدَعْوَةٍ إلى

دِينِ رَبِّهِ خُبراً، كَمَا أَحَاطَ خُبْراً بِمَا كَانَ لَدَيْهِ بالنسبة إِلَىٰ قَوْمِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ.

«**الْخُبَرُ**» و«**الْخَبَرُ**» و«**الْخِبْرُ**»: مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ ظَاهِرِهِ وبَاطِنِهِ.

والْغَرَضُ مِنْ بَيَانِ هَـٰذِهِ الإحَاطَةِ الرَّبَّانِيَّة بَيَانُ ارْتِبَاطِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ بِجَذْرِ شُمُولِ عِلْم اللهِ كُلَّ شَيْءٍ في الكوْن، فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ، مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ سَوْفَ يُكافأُ على جِهادِهِ في سَبِيلِ اللهِ، عَلَىٰ وَفْقِ مَا يَعْلَمُ مِنْ ظَوَاهِرِ أَمْرِهِ وَبَوَاطِنِها.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيثَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ:

- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ (٩٩)﴾:

- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩)﴾: تَحْلِيلُ هَـٰذِهِ العبارَةِ مِثْلُ نَظِيرَتَيْها السَّابِقَتَيْن.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وفي القراءة الأخرى: [**السُّدَّيْنِ**] بضَمّ السِّينِ، وَهُمَا جَبَلَانِ يَدْخلُ الْغُزَاةُ، وكذلك الأشْرَارُ الْمُفْسِدُونَ مِنَ الطَّرِيقِ الواقِع بَيْنَهُمَا إِلَىٰ السَّاكِنِينَ بَعْدَهُمَا مِن الأقوام.

وَيَظْهَرُ أَنَّهُ اتَّجه حِينَ اتَّبعَ هـٰذَا السَّببَ جِهَةَ الْجَنُوبِ، أَوْ جِهَةَ الشَّمَالِ، في شَرْقِ الْأَرْضِ.

وأَتْرُكُ للجغرافيين الآثَارِيّينَ تَحْدِيدَ مَكَانَ هَـٰذَيْنِ الجبَلَيْنِ مِنَ الأَرْض، تَتَبُّعاً لِلآثار، وَمَوَاقِعِ الْحاجِزِ الَّذِي أقامَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بيْنَهُمَا، وَصِفَاتِ هـٰذا الحاجز، فالْبَحْثُ فِي الْآثَارِ يُعْطِي أحْسَنَ الْمَعْلُومَاتِ إِذَا انْعَدَمَ الْخَبَرُ الصّحيح.

• ﴿... وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣﴾: وفي القراءة الأُخرى: **[لَا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ قَوْلاً]**:

أي: لَهُمْ لُغَةٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ قَلَّ مَنْ يَعْلَمُهَا مِنْ غَيْرِهِمْ من الأَقْوَام، فهم لَا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ، أَيْ: يُفْهِمُونَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأَقْوَام، إذْ قَلَّ فِيهِمْ مَنْ يَعْلَمُ لُغَةً مِنْ لُغَاتِ الْآخَرِين، وَلَا يَكَادُونَ يَفْقَهُون، أَيْ: يَفْهَمُونَ أقوالَ غَيْرِهِمْ مِنَ الأَقْوَام، لِقِلَّةِ مَنْ يَعْرِفُ فِيهِمْ لُغَةً مِنْ لُغَاتِ غَيْرِهِمِ مِنَ الأَقْوَام، حَتَّىٰ يَكُونَ وَسِيطَ تَرْجَمة.

وأشْعَرَ النَّصُّ هـٰذَا، أَنَّ مِنْ عُيُوبِ الشُّعُوبِ وتخلُّفِهَا الحضاريّ أَنْ لَا يَكُونَ فيها مُتَرْجِمُونَ لِلُغَاتِ غَيْرِهِمْ مِنَ الشُّعوب.

أي: وَوَجَدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ، أَنَّ مِنْ دُونِ الْجبَلَيْن اللَّذَيْنَ وَضَعَ فِي خُطَّةِ فَتْحِهِ اجْتِيَازَ الطَّرِيقِ بَيْنَهُمَا، إِلَىٰ مَا وَرَاءَهُمَا مِنَ الْأَقْوَام، قَوْماً قَلَّ جِدًّا مَنْ يَعْرِفُ مِنْهُمْ لُغَةً غَيْرَ لُغَةِ قَوْمِهِ حَتَّىٰ يَفْهَمَ مَا يُقَالُ لَهُ، وَيُفْهِم مَا يُرِيدُ بِقَوْلٍ يَفْهَمُهُ تَرَاجِمَةُ المَلِكِ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ، لٰكِنْ لَمْ يَنْعَدِمْ مُطْلَقاً وُجُودُ بَعْضِ ٱلتَّرَاجِمَةِ الَّذِينَ أَوْصَلُوا إِلَىٰ الْمَلِكِ مَطَالِبَ الْقَوْم، وَأَوْصَلُوا إِلَىٰ الْقَوْمِ أَقْوَالَ الملِكِ لَهُمْ.

• ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤﴾:

• ﴿يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾: نَادَوْه مُسْتَغِيثِينَ، لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ مَلِكٌ صالِحٌ يَدْعُو إلى الحقّ والخير، ويُغِيثُ مَنِ اسْتَغَاثَ به.

- ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: وفـي الـقـراءة الْأُخـرى: **[إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ]** بألِفٍ مَدّيّةٍ بَدَلَ الهمزة الساكِنَة.

ولفْظُ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» اسْمٌ لِقَبيلَتَيْنِ مِنَ الْقَبَائِلِ الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُ في جِهَةِ الشَّرْقِ مِنَ الأَرْض.

ويخْطُر لي أنَّ «ياجُوجَ» اسْمٌ لِجَدِّ إحْدَىٰ القبيلَتَيْن، وأنَّ «مَاجُوجَ» اسم لِأَخِيهِ جَدِّ الْقَبِيلَةِ الثَّانِيَة.

وَكَانَ هَـٰؤُلَاءِ النَّاسُ أشْرَاراً مُفْسِدِينَ، يُغِيرُونَ عَلَىٰ الْأُمَمِ مِنْ حَوْلِهِمْ بخُيُولِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ، فَيَنْهَبُونَ وَيَسْلَبُونَ وَيَقْتُلُونَ وَيُخَرِّبُونَ وَيُتْلِفُونَ المزارِعَ.

- ﴿... فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾:

وجاء في القراءَة الْأُخْرَىٰ **[خَرَاجاً]**: **الْخَرْجُ والْخَرَاجُ**: الأجْرُ عَلَىٰ العَمَل.

سَدّاً وسُدًّا: كَمَا جَاء في قراءَةٍ أُخرى، بِمَعْنَىٰ الحاجِزِ الَّذِي يَفْصِلُ بِصُمُودِ الْمَحْجُوزَ وَرَاءَهُ، مَاءً أَوْ بَشَراً، أو غَيْرَ ذَلِكَ.

عَرضٌ بِتَلَطُّفٍ وَمَسْكَنَةٍ بأسْلُوب الاسْتِفْهَام، إِذْ رَأَوْه مَلِكاً عَادِلاً مُصْلِحاً يُحِبُّ فِعْلَ الْخَيْرِ، ومَنْعَ الشَّرِّ.

أي: فَهَلْ تُسَاعِدُنَا أَيُّهَا الْمِلِكُ الْمُصْلِحَ الْعَادِلُ عَلَىٰ إِقَامَةِ سَدٍّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، يَمْنَعُ غَارَاتِ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» عَلَيْنَا، وَشُرورَهُمْ وإِفْسَادَاتِهِمْ عَنَّا، عَلَىٰ أَن نُقَدِّمَ لَكَ مَا نَسْتَطِيعُ مِنْ أجْرٍ عَلَىٰ هَـٰذَا الْعَمَلِ الْعَظِيم.

- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾:

الرَّدْم: السَّدُّ العظيم.

أي: قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لهم: مَا آتَانِي اللهُ رَبِّي مِنْ تَمْكِينٍ فِي الْأَرْض، وَمَا آتَانِي مِنْ أَسْبَابٍ، خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ لِي مِن أَجْرٍ عَلَىٰ إِقَامَةِ هَـٰذَا السَّدِّ

لَكُمْ، فَلَا تُكَلِّفُوا أنفُسَكُمْ بَذْلَ أجْرٍ لِي، إنِّي سَأَقُومُ بِهـٰذَا الْعَمَلِ الإصْلَاحِيِّ الَّذِي أَحْجُزُ بِهِ شُرُورَ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» عَنْكُمْ، ابْتغاءَ مَرْضَاةِ رَبِّي، وَشُكْراً لَهُ عَلَىٰ مَا آتانِي مِنْ تَمْكِين.

فَأَعِينُونِي لَدَىٰ إقَامَتِي لِهـٰذَا السَّدِّ بِالْقُوَىٰ الَّتِي يَمْلِكُهَا جَيْشِي، بِقُوَّةٍ مِنْ عِنْدِكُمْ، بِعُمَّالٍ وَأَدَاوَاتٍ وَبَهَائِمَ وَحَدِيدٍ، وَبِمَا لَدَيْكُمْ مِنْ قُوَىٰ تَحْتَاجُ إِلَيْهَا إِقَامَةُ هـٰذَا السَّدّ، رَدْماً عَظِيماً مَانِعاً لِمَنْ يُغِيرُ عَلَيْكُمْ مِن «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ».

- ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: آتُونِي مَا عِنْدَكُمْ مِنْ قِطَعٍ حَدِيديَّة كبيرَة.

الزُّبْرَة: الْقِطْعَةُ الْحَدِيدِيَّةُ الضَّخْمَةُ، وَتُجْمَعُ عَلَىٰ «زُبَر».

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾:

يُطْلَقُ لفظ «الصَّدَف» عَلَىٰ الْجبَلِ، فَالصَّدَفَانِ هُمَا الْجَبَلَانِ المتَقَابِلَانِ اللَّذَانِ يُرَادُ إِقَامَةُ السَّدِّ بَيْنَهُمَا حَاجِزاً.

وَيُطْلَقُ «الصَّدَفُ» عَلَىٰ الجانب، وَصَدَفَا الْجَبَلِ جانِبَاه الْمُتَحاذِيَان.

ومعنىٰ «سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْن» عَلَىٰ مَا يَبْدُو لي، شَرَعَ ببناء جِدَارَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا فَرَاغاً، لِيَمْلَأَهُ رَدْماً، بِحِجَارَةٍ وَتُرَابٍ وَحَصَىٰ.

الْمُسَاوَاة: الْمُمَاثَلَةُ، وَيُقَالُ «سَاوَى بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ» أَيْ: جَعَلَهُمَا مُتَمَاثِلَيْن.

- ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾:

الْقِطْرُ: النُّحَاسُ الذَّائِب، وَيُطْلَقُ أيضاً على الرَّصَاصِ الْمُذَاب.

باسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نَسْتَخْرِجَ مِنَ الْمَطْوِيَاتِ في هـٰذَا النَّصّ، أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ أَمَرَ صُنَّاعَهُ وَعُمَّالَهُ أَنْ يَجْعَلُوا فِي الْجِدَارِ الْمُوَاجِهِ لِلْمُفْسِدين «يَاجُوجَ

ومَاجُوجَ» في كُلِّ مِدْمَاكٍ حِجَارَةً وَحَدِيداً، وَأَنْ يَحْمِيَهُ بالنَّارِ حَتَّىٰ يَكُونَ نَاراً، أيْ: كالْجَمْر، وعِنْدَئِذٍ يأمُرُ بِأَنْ يُؤْتَىٰ بذَائِبِ النُّحَاسِ أَوْ بِذَائِبِ الرَّصَاص، فَتُفْرَغَ أَوانِيهِ عَلَيْهِ، لِيَشْتَبِكَ في الْمِدْمَاكِ دَاخِلاً في فَرَاغَاتِه، حَتَّىٰ يَكُونَ بِمَثَابَةِ كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنَ الْحِجَارَةِ الصُّلْبَة، وَقَطعِ الْحَدِيدِ، والنُّحَاسِ، لِئَلَّا يَسْتَطِيعَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ نَقْبَه.

- ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾: أي: قَالَ انْفُخُوا بالمنافيخِ لإيقادِ النَّار، عَلَىٰ مِثْلِ كِيرِ الحدّادين، وهٰذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتي آتاهَا اللهُ لِذِي الْقَرْنَيْنِ.

- ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾:

أي: حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَ زُبَرَ الْحَدِيدِ المتَدَاخِلَةَ بالْحِجَارَةِ حَمْرَاءَ كالْجَمْرِ، قَالَ آتُونِي بِأَوانِي النُّحَاسِ أَوِ الرَّصَاصِ الْمُذَاب، أُفْرِغْهَا عَلَىٰ الطَّبَقَةِ الَّتِي بُنِيَتْ مِنَ الْجِدَار، لِيَتَخَلَّلَ الْفَرَاغَاتِ، فإذَا بَرَدَ كَانَ الْجَمِيعُ بِمَثَابَةِ كُتْلَةٍ وَاحِدَة، مِنْ حِجَارَةٍ وَحَدِيدٍ وَنُحَاسٍ أَوْ رَصَاصٍ مُحِيطٍ بِجَوَانِبِهَا، وَأَتَمَّ ذُو الْقَرْنَيْنِ السَّدَّ بِجِدَارَيْهِ وَرَدْمِ مَا بَيْنَهُمَا.

وَلَمَّا اكْتَمَلَ بِنَاءُ السَّدِّ وارْتَفَعَ ارْتِفَاعاً كَافِياً لِتَكُونَ حَاجِزاً مَانِعاً لِغَارَاتِ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» الْمُدَاهِمَة، أقْبَلَ الْغُزَاةُ الْأَشْرَارُ لِيَدْخُلُوا كَعَادَتِهِمْ مِنَ الْفَرَاغِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، فَحَاوَلُوا تَسَلُّقَهُ فَمَا اسْتَطَاعُوا، وَحَاوَلُوا نَقْبَهُ فَمَا اسْتَطَاعُوا أيْضاً، لِأَنَّهُ مُتَمَاسِكُ الْبُنْيَانِ بالْحَدِيدِ والحجارة، وبالنُّحَاسِ أو الرَّصَاص، الجامِعِ لِكُتْلَتِهِ.

قال اللهُ تَعالَىٰ:

- ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾:

- ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾: أي: فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَعْلُوا السَّدَّ بخُيُولِهِمْ وَدَوَابِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ، لِيغْزُوا مَنْ وَرَاءَه. يُقَالُ لُغَةً: «ظَهَرَ الْبَيْتَ، أو الجِدَارَ، أَوْ نَحْوَهُما» أي: عَلَاه.

﴿... وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾: أي: وَمَا اسْتَطَاعُوا خَرْقَهُ بالْفُؤُوسِ والأزَامِيلِ والْمِرْزَبَّاتِ.

نَقْبُ الجِدَار وَنَحْوِهِ: خَرْقُهُ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ الْجَبَلَيْنِ كَانَا حَاجِزَيْنِ طَبِيعِيَّيْنِ، وَيُمْكِنَ حِمَايَتُهُمَا مِن مُفَاجآتِ الْغُزَاة، وَكَانَ مَا بَيْنَ الْجَبلَيْنِ هُوَ السَّبِيلَ الْوَحِيدُ لِمُدَاهَمَةِ الْغُزَاةِ بِخُيُولِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ وَدَوَابِهِمْ بِصُورَةٍ مُفاجِئَةٍ، والنِّكَايَةِ بالْقَوْمِ الآمِنِينَ الْمُسَالِمِينَ الَّذِينَ اسْتَغَاثُوا بِذِي الْقَرْنَيْنِ.

ولمَّا وَثِقَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِمَّا فَعَلَ لِحِمَايَةِ الَّذِينَ اسْتَغاثُوا بِهِ بَعْدَ أَنْ رَاقَبَ جُنُودُهُ تَحَرُّكَاتِ «يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» وَرَاءَ السَّدِّ:

- ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾: أَي: رَحِمَ بِهِ إِذْ سَخَّرَنِي لِبِنَائِهِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْم المسْتَضْعَفِين. وَقَالَ أيْضاً:

- ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّهُ تَلَقَّىٰ وَحْياً مُبَاشِراً أو عَنْ طَرِيقِ نَبِيٍّ مُصَاحِبٍ لَهُ، بِأَنَّ هَٰذَا السَّدَّ سَيَكُونَ مُتَهَدِّماً مُسْتَوِياً بِالْأَرْضِ في وَقْتٍ قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ، فَقَالَ مَقَالَتَهُ الإيمَانِيَّةَ هَٰذِهِ.

دَكَّاءَ: أي: مُسْتَوِياً بِالْأَرْض. وفي القراءة الأخرى [**دكًّا**]: أي: مَدْكُوكاً مُتَهَدِّماً.

■ وَأَنْهَىٰ اللهُ أَنْبَاءَ ذي القرنيْنِ وياجوج وماجُوجَ بِقَوْله:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ... ﴿٩٩﴾﴾: مَاجَ الْبَحْرُ اضطرب، وماج الْقَوْمُ اخْتَلَفَتْ أُمورُهُمْ واضطربت، أيْ: وأخَذَتْ قَبيلتا ياجوج وماجوج تختَلِفَانِ ويضطرب بعضهم ببعضٍ كالموج.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (الكهف)

الآيات من (بعض ٩٩ ـ ١٠٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

القراءات:

(١٠٢) ● قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأبُو جعفر: **[مِنْ دُونِيَ أَوْلِيَاءَ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ ياء المتكلم.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ انْتِقَالٌ مِنْ بَيَانِ اللَّقَطاتِ المخْتَارَاتِ مِنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَتَرْكِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ بَعْدَ بِنَاءِ السَّدِّ، إِلَىٰ عَرْضِ لَقْطَةٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ القيامَةِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ إِلَىٰ حَيَاةِ الجزاءِ بِنَفْخِ الصُّور، وَهٰذِهِ اللَّقْطَةُ مَقْرُونَةٌ بِتَلْوِيمٍ وَإِنْذَارٍ لِلْكَافِرِين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿. . . وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾:

الصُّورُ: مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، كهيئَةِ الْقَرن، إِحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّة ضَيِّقَة، والأُخرى واسِعَةٌ جدًّا، وباطِنُهُ فَارِغٌ يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ، وَالَّذِي يُؤْمَرُ بالنَّفْخِ فِيه مِنَ المَلَائِكَةِ إسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام.

النَّفخةُ هـٰذِهِ فِي الصُّورِ هِي النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ، نَفْخَةُ الْبَعْثِ الَّتِي تَنْطَلِقُ بِهَا الْأَرْوَاحُ إِلَىٰ أَجْسَادِهَا الَّتِي أَنْبَتَهَا اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ، فَتَدْخُلُ فِيهَا فَتَكُونُ حَيَّةً كامِلَةَ الْحَيَاةِ، لِتُلَاقِي الْحِسَابَ، وَفَصْلَ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذَ الْجزاءِ، إِذَا كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعَةً مَوْضِعَ الابْتِلَاء.

- ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾: أي: فَجمَعْنَا الْخَلَائِقَ بَعْدَ إِحْيَائِهِمْ جَمْعاً حَقِيقِيًّا شَامِلاً، لَمْ نَتْرُكْ مِنْهُمْ في الموتِ دُونَ إِحْيَاءِ أحداً، اسْتُفِيدَ هـٰذَا مِنَ التَّوْكِيد بالْمَصْدر.

وَجاء التَّعْبِيرُ عَنْ هـٰذَا الْحَدَثِ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الماضِي، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ سَوْفَ يَتَحَقَّقُ حَتْماً، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ وَحَدَثَ فِعلاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم:

- ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾:

يُقَالُ لغة: «عَرَضَ فُلَانَ الشَّيْءَ لِمَعْرُوضٍ عَلَيْهِ» أي: أَبرَزَهُ وَأَظْهَرَهُ لَهُ، إِمَّا للتَّرْغيبِ فِيهِ، أَوْ لِلتَّرْهِيبِ مِنْهُ وَتَعْذِيب النَّفْسِ بالذُّعْرِ والْخَوْفِ مِنَ المصِيرِ إِلَيْهِ.

هـٰذَا الْعَرْضُ نَوْعٌ مِنَ التَّعْذِيبِ الابْتِدَائِيِّ التَّمهِيدِيِّ لِلتَّعْذِيبِ بِنَارِهَا عِنْدَ دُخُولِهَا، أَوْ عَرْضِهِمْ عَلَيْهَا كَمَا يُعْرَضُ اللَّحْمُ على النَّارِ لِيُشْوَىٰ.

وأَشَدُّ مِنْ هـٰذَا الْعَرْضِ التَّمْهِيدِيِّ لِلْكَافِرِينَ، مَا يَكُونُ بَعْدَهُ مِنْ عَرْضٍ عَلَيْهَا، إِذْ يَذُوقُونَ بِهِ شَيْئاً مِنْ لَذْعِ حَرَارَتِهَا، وَقَدْ جَاءَتْ عِدَّةُ نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ تُبَيِّنُ عَرْضَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ النَّار.

والتوكيد بالمصْدَرِ ﴿عَرْضًا﴾ يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ عَرْضٌ حَقِيقِيٌّ مُخِيف.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِفُ مَا كَانَ عَلَيْهِ في الدُّنْيَا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ تُعْرَضُ لَهُم جهَنَّمُ عَرْضاً يَوْمَ الدِّين:

- ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾﴾:

أي: الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي الدُّنْيا داخِلَةً فِي غِطَاءٍ عَنْ مُشاهَدَةِ آياتِي فِي كَوْنِي، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ عَظِيم قُدْرَتِي، وإتْقَانِي لِخَلْقِي، وَجَلِيلِ حِكْمَتِي، وَعِلْمِي الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ، وَكثِيرٍ مِنْ صِفَاتِي وأَسْمَائِي الْحُسْنَىٰ، فَهُمْ لَا يَرَوْنَهَا فَلا يَذْكُرُونَنِي وَلَا يُؤْمِنُونَ بِي.

وَالَّذِينَ كَانَتْ آذانُهُمْ مُصَابَةً بالصَّمَم، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعَ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِي وَبَيَانَاتِي المنزَّلَات، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعَ بَيَانَاتِ الدُّعَاةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ الإيمانِ بِي.

إِنَّهُمْ لَمْ يُفطَرُوا كَذلِكَ، فَلَيْسَ مَا كَانُوا فِيهِ أَمْراً جَبْرِيّاً، إِنَّمَا جَلَبُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ بِتَوَلِّيهِمْ عَنِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ وَبَيَانَاتِهِ، وَتَعَلُّقِهِمْ بالْحَيَاةِ الدُّنْيا، وَأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنْهَا، وقَبُولِهِمْ لِوَسَاوِسِ وَتَسْوِيلَاتِ شَيَاطِينِ الإنسِ والجِنّ، الَّذِينَ زَيَّنُوا لَهُمُ الشِّرْكَ، أَوْ أَنَّهُ لَا حَيَاةَ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيا، وأَنَّهُ لَا حِسَابَ، وَلَا فَصْلَ قضاءٍ، وَلَا جَزاءَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ضَلَالَاتٍ، وَهٰذِهِ مِنْ آثَارِهَا بِحَسَبِ أَنْظِمَةِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، أَنْ تَجْعَلَ الْأَعْيُنَ فِي أَغْطِيَةٍ تَحْجُبُهَا عَمَّا يُذَكِّرُ باللهِ وَصِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَتَجْعلُ الآذانَ صَمَّاءَ لَا تَسْمَعُ الْبَيَانَاتِ الْكَلَامِيَّةَ الَّتِي تُذَكِّرُ باللهِ وَصِفَاتِه.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُحَذِّرُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّم:

- ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾﴾:

إِقْنَاعٌ رَبَّانِيٌّ لِلْمُشْرِكِينَ بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَام الدَّالِّ عَلَىٰ سَفَاهَتِهِمْ، وَعَدَمِ اسْتِبْصَارِهِمْ حَقَائِقَ الْأُمُورِ المتَعَلِّقَةِ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلَهِيَّتِهِ.

المعْنَىٰ: إِنَّ الشُّرَكَاءَ الَّذِينَ اتَّخذوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِي، يَعْبُدُونَهُمْ وَهُمْ لَا رُبُوبِيَّةَ لَهُمْ، وَلَا إِلَهِيَّةَ لَهُمْ، فَلَا يَسْتَحِقُّونَ شيئاً مِنَ العبادَة، وَعِبَادَتُهُمْ ظُلْمٌ لِحَقِّي عَلَيْهِمْ، وَكُفْرٌ بِي.

وَشُرَكَاؤُهم لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَإِنْقَاذَهُمْ مِنْ عَذَابِي.

انْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ فَحَسِبُوا أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ سَوْفَ يَنْصُرُونَهُمْ فَيَحْمُونَهُمْ مِنْ عَذَابي، وَشركاؤُهُمْ عِبَادٌ مِنْ عِبَادِي، لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بي.

وَهُنَا يَتَحدثُ جَلَّ جَلَالُهُ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم، فَيَقُول:

- ﴿... إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾:

أَعْتَدْنَا: أي: هَيَّأْنَا بعِنَاية.

جَهَنَّم: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أَعدَّهَا الله عَزَّ وَجلَّ لِيُعذِّبَ بها الْكَافِرِينَ والمجْرِمِينَ والْعُصَاة يوم الدِّين. وهو ممنوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنيث.

لِلْكَافِرين: أي: للَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ لَمْ يَتَدَارَكُوا أَنْفُسَهُمْ بإيمانٍ وَعَمَلٍ صالح.

النُّزُل: مَا يُعِدُّهُ الإنْسَانُ لِضَيْفِهِ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ، ويُطْلَقُ النُّزُلُ على المنْزِل.

وفي اسْتِعْمَالِ لفظ «النُّزُلِ» الَّذِي يُعَدُّ لضِيَافَةِ الضَّيْفِ هُنَا، تَهَكُّمٌ بالَّذِينَ يَزْعُمُونَ مِنَ الكَفَرَةِ ذَوِي الثَّراءِ أَنَّهُمْ إِنْ رَجعُوا إلى رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين فإنَّ لَهُمْ خَيْراً مِمَّا آتاهُمْ في الحياة الدُّنيا.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشِرِ من دُرُوس سورة (الكهف).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٥)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الحادي عشر مِن دُروس سورة (الكهف) الآيات من (١٠٣ ـ ١١٠) آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وَجلَّ:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا (١١٠)﴾:

القراءات:

(١٠٤) ● قرأ ابْن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: **[يَحْسَبُونَ]** بفتح السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَحْسِبُونَ]** بِكَسْرِ السين.

وهُمَا لغتان بِمَعْنَىٰ: يَظُنُّونَ ظَنًّا ضَعِيفاً لَا يُعْتَدُّ بِهِ، ولا يصحُّ عقْلاً الاعتمادُ عَلَيْه.

(١٠٦) ● قرأ حفص: **[هُزُواً]**.

وقرأها حمزة: **[هُزْءاً]** في الْوَصْل. وكذلك خلَفٌ في الوصل والوقف.

وقرأها حمزة في الوقف: **[هُزاً]** و**[هُزْواً]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**هُزُؤاً**].

وهي وُجُوه في النُّطْق.

(١٠٩) ● قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخَلَف: [**أَنْ يَنْفَدَ**] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَنْ تَنْفَدَ**].

وهما وجهان جائِزَان عَربيًّا، لأنَّ لفظ «كلمات» مجازيُّ التَّأْنيث.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ دَعَوِيٌّ مُوجَّهٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً تَعْليميًّا لِرَسُولِهِ ﷺ:

● ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ وَيَا كُلَّ مَنْ يَحْمِلُ رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، لِمَنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ: هَلْ نُخبرُكُمْ بهـٰذَا النَّبأ الْخَطِير؟ بالأَخْسَرِينَ أعْمالاً، الَّذِينَ لَا يُوجَدُ أَكْثَرُ خَسَارَةً مِنْهُمْ لِأَعْمَالِهِمْ مَهْمَا كَانَ شَأْنُها.

الأَخْسَرُون: جمع «الأَخْسَر» اسْم تَفْضِيلٍ مِنْ فِعْل «خَسِر».

وَجَاءَ الجوابُ عَلَىٰ تَقْدِيرِ أَنَّ الْمُخَاطَبِينَ وافَقُوا عَلَىٰ إِنْبَائِهِمْ بِالأَخْسَرِينَ أعْمَالاً، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾:
- ﴿ضَلَّ﴾: أي: ضَاعَ فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ بِشَيْءٍ ما.
- ﴿سَعْيُهُمْ﴾: السَّعْيُ: عَمَلٌ فَوْقَ المشْيِ، وهُوَ عَدْوٌ دُونَ الشَّدّ، ويأتي السَّعْي بِمَعْنَىٰ الْعَمَلِ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ.

أي: الْأَخْسَرُونَ أَعْمالاً يَوْمَ القيامَةِ، هُمُ الَّذِينَ وجَدُوا أَنَّ سَعْيَهُمُ الَّذِي كَانُوا قَدْ سَعَوْهُ في الحياة الدُّنْيَا، لتَحْقِيقِ مَا كَانُوا يَطْمَحُونَ لَهُ مِنْ سَعَادَاتٍ، قَدْ ضَاعَ ضَيَاعاً تَامًّا، فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ نَافِعٌ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَكَانَ حَالُهُمْ حِينَ كانُوا يَسْعَوْنَ في الحياة الدُّنيا، حَالَ طَامِعِينَ بأوْفَرِ سَعَادَاتٍ يُحَقِّقُونَهَا مِنْ سَعْيِهِمْ، إِذْ كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.

فَلَا خَزَائِنُ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ الَّتِي كَانُوا قَدْ جَمَعُوها وَكَنَزُوهَا وَجَدُوا لَهَا أثراً يَنْفَعُهُمْ.

ولَا الْقُصُورُ الْعَظِيمَةُ الْفَخْمَةُ الَّتِي كَانُوا قَدْ عَمَرُوها وَجَدُوا لَهَا أَثَراً يَنْفَعُهُمْ، وَلَا بَقَايَا مِنْهَا تُؤْوِيهِمْ.

ولَا الْجُيُوشُ الَّتِي كَانُوا قَدْ جَنَّدُوها لِحِمَايَتِهِم وَنُصْرَتِهِمْ وَجَدُوا لَهَا أَثَراً يَنْفَعُهُمْ، فَيَصْرِفُ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ.

ولَا المناصِبُ الرَّفِيعَةُ الَّتِي كَانُوا قَدْ تَعاظَمُوا بِهَا على عباد اللهِ، وَجَدُوا لها أثراً يَنْفَعُهُمْ.

وَلَا الْجَنَّاتُ الَّتِي بَذَلُوا لِزِرَاعَتِها، وَأَنْفَقُوا في إنْشَائِهَا أَمْوَالاً وَفِيرَةً، وَأَعْمَالاً مُضْنِياتٍ، وَجَدُوا لَهَا أثراً يَنْفَعُهُمْ.

لَقَدْ ذَهَبَتْ كُلُّهَا كَمَا ذَهَبَ الماضِي الْغَابر، ولَمْ تَبْقَ مِنْهَا إِلَّا ذِكْريات، مُورِثَاتٌ لِلْحَسَرَاتِ، إِذْ ضَاعَ السَّعْيُ فِيهَا دُونَ أَنْ تَبْقَىٰ لَهُ آثَارٌ حَسَنَاتٌ.

فأتْعِسْ بالمغْرُورِينَ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ بِغُرُورِهِمْ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، وَهُمْ كَمَنْ يَحْرُثُ فِي الْبَحْرِ، أَوْ يَكْتُبُ بأصْبَعِهِ في الْهَوَاءِ.

ومِنْ سَعْيِهِم الضَّائِعِ أَعْمالٌ صَالِحَةٌ لَا يَبْتَغُونَ بِهَا رِضْوَانَ اللهِ وَثَوَابَ الآخِرَة، إِنَّما يَفْعَلُونَهَا لِلْمَدْحِ والثَّنَاءِ والشُّهْرَةِ، أَوْ بِعَاطِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ خاصَّةٍ لَا صِلَةَ لَهَا بالقاعِدَةِ الإيمانيَّة لِدِين اللهِ، أو يتوهَّمُونَ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا أَنَّهم مشركون، أو مُبْتَدِعُونَ لَا يَعْمَلُونَ وِفْقَ شريعة الله، كالأخبارِ والرُّهبان، ومَنْ على شاكلتهم.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ سَبَبَ ضَلَالِ سَعْيِهِمْ.

- ● ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾:

- ● ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: المشَارُ إِلَيْهِمْ باسْمِ الإشارَة هٰذَا الموضُوعِ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِم الْبَعِيدين، هُم الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحياة الدُّنيا، أي: أُولَٰئِكَ الْبُعَدَاءُ في اتّجاه الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النار، لَهُمْ وَصْفَانِ من أَوْصَافِ الكفر:

الوصْفُ الأَوّل: دَلَّ عَلَيْه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: إِذْ رَفَضُوا الإيمن بِهَا بَعْدَ إِدْرَاكِها، ومَعْرِفَةِ دَلَالَاتِها، وآياتُ رَبِّهِمْ هِي:

(١) الآياتُ الكونيَّة الدَّالَّاتُ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَات الله العظمىٰ، وأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

(٢) الآيَاتُ البيانيَّةُ المنَزَّلَةُ عَلَىٰ رُسُلِهِ في كُتبِهِ.

(٣) الآيَاتُ الإعجازِيَّةُ الدَّالَّاتُ على صِدْقِ رُسُلِهِ المبلِّغِين عنه.

(٤) الآيَات الجزائيَّةُ الدَّالَّاتُ عَلَىٰ رُكْنِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ مِنْ أَرْكان الْإِيمَانِ فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبادِهِ.

الوصف الثاني: دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾: وَكَفَرُوا بِلِقَائِهِ

يَوْمَ الدِّينِ، أي: وَكَفَرُوا بالْبَعْثِ والْيَوْمِ الآخر، والْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، والجزاء، وكَفَرُوا بالجنَّةِ وَمَا فِيها مِنْ نَعِيم، وَكَفَرُوا بالنَّارِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَذَاب.

أي: وَبِسبَبِ كُفْرِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ انْطَلَقُوا في الحياة الدنيا وراء أهوائِهِم، وشهواتِهِم، وَلَذَّاتِهِمْ، ومطالِبِهِمْ نفوسِهِمْ من مَتَاعَاتِ الدُّنيا، لَا يَعْبَؤُونَ بطاعَةِ رَبِّهِم، وابتغاءِ مَرْضَاتِهِ، واجتياز رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيَا بنجاحٍ وفلَاحٍ وفَوْزٍ بالنَّعِيمِ المقيم.

وَبِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ عَمَلٌ صَالِحٌ يُثَابُونَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ أعْمالٌ صَالِحَةٌ يُثِيبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ مِثْلِهَا بِشَرْطِ الإيمانِ، فإِنَّ اللهَ يُبْطِلُهَا لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوهَا طَاعَةً لَهُ، وَلَا تَقَرُّباً إِلَيْهِ، ولا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الآيَة:

- ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾: أي: فَبطَلَتْ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يُثَاب عَلَيْهَا المؤمِنُ. وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُحَقِّقُ الغَايَةَ السَّارَّةَ مِنْهُ فَقَدْ حَبِطَ، أي: بَطَلَ.

وَإِذَا حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لَمْ يَبْقَ في صَحَائِفِهِمْ إِلَّا السَّيِّئَاتُ، وَهِيَ لَا مُقَابِلَ لَهَا مِنَ الحَسَنَاتِ حَتَّىٰ تُوزَنَ مَعهَا، في مِيزَانِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، فَلَا يُقِيمُ اللهُ الْجَلِيلُ الْعَظِيم لَهُمْ وَزْناً يَزِنُ بِهِ حَسَنَاتِهِمْ وَسَيِّئَاتِهِم، دَلَّ عَلَىٰ هذا قول اللهِ تَعَالَىٰ في الآيَةِ:

- ﴿. . . فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾:

الوَزْن: مَصْدَرُ: «وَزَنَ الشَّيْءَ» أي: قَدَّرَهُ بِوَسَاطَةِ الميزان.

أي: فَلَا نُنْشِئُ لَهُ عَمَلِيَّةَ وَزْنٍ نَزِنُ بها حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ، إِذْ يَأْتي يَوْمَ القيامَةِ لَيْسَ لَهُ حَسَنَات تُوزَنُ في كِفَّةِ الحسنات.

• ﴿نُقِيمُ﴾: أي: نُنْشئُ ونُحْدِث، يُقالُ لغة: «أَقَامَ الشَّيْءَ» أي: أَنْشَأَهُ مُوَفِّياً حَقَّهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُشِيراً إِلَىٰ جَزَائِهِمْ يَوْم القيامَة:

• ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾:

• ﴿ذَٰلِكَ﴾: المشارُ إِلَيْهِ فِيمَا أَرَىٰ مَنْزِلُهُمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ القِيامَة، وَفِيهِ صُوَرٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْعَذَابِ الّذِي سَوْفَ يُعَذَّبُونَهُ بَعْدَ دُخُولِهِم دارَ عَذَابهم وَوُصُولِهِمْ إِلَىٰ مَوْقِعِهِمْ، واللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد.

• ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: خَبَرُ ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: مَنْزِلُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِي دَارِ عَذَابِهِمْ، الَّذي فِيهِ صُورٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْعَذَابِ الَّذِي سَوْفَ يُعَذَّبُونَهُ يَوْمَ الدِّين هُوَ جَزَاؤُهُمْ.

• ﴿جَهَنَّمُ﴾: بَدَلٌ أَوْ عَطفُ بيان، والمَعْطُوفُ عَلَيْهِ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ باعْتِبَارِ أَنَّهُ يَكُونُ فيها، أي: جَزَاؤُهُمْ عَذَابٌ فِي جَهَنَّم.

وقد سبَقَ قَرِيباً بَيَانُ جهَنَّم.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَبَبَ اسْتِحْقَاقِهِمْ هـٰذَا الجَزَاءَ الأَلِيمَ، بقوله فِي الآيَة:

• ﴿... بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾:

أي: بِسَبَبِ كُفْرِهِم واتِّخَاذِهِمْ آيَاتِي وَرُسُلِي شَيْئاً مَهْزُوءاً بِهِ.

«الباء» معناها السبب. «مَا» مَصْدَرِيَّة، تُؤَوَّلُ مَعَ مَا بَعْدَهَا بِمَصْدَر. أي بِسَبَبِ كُفْرِهم.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ مَعْطُوف عَلَىٰ ﴿كَفَرُواْ﴾ فَلَهُ حُكْمُ التَّأْوِيلِ بِمَصْدَر.

أي: وَبِسَبَبِ اتِّخَاذِهِم بِمَعْنَىٰ: «جَعْلِهِمْ». ﴿ءَايَٰتِي﴾: أي: آيَاتِي

الْبَيَانِيَّةَ المنزَّلاتِ عَلَىٰ رُسُلِي ﴿هُزُوًا﴾: مَصْدَرٌ اسْتُعْمِل بِمَعْنَىٰ اسْمِ المفْعُولِ، أي: مَهْزُوءاً بِها وَمَسْخُوراً مِنْها، وإطلاقُ المصْدَرِ بِمَعْنَىٰ اسْمِ المفْعُولِ أَبْلَغُ مِنْ اسْتِعْمَالِ اسْم المفْعُول.

وَلَا بُدَّ أَنْ نُلاحِظَ أَنَّ النَّصَّ هُنَا يَتَحَدَّثُ عَنْ كُلِّ الْكَافِرِينَ مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللهُ لَهُمْ رُسُلاً، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ آياتٍ بَيِّنَاتٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في التَّعْلِيم مُبَيِّناً ثَوابَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات، في مُقَابِلِ بَيَانِهِ جزاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا واتَّخذُوا آيَاتِهِ ورُسُلَهُ هُزُواً:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾:

- ﴿الْفِرْدَوْسِ﴾ وَسَطُ الجنَّةِ وأَعْلَاهَا، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ، ومِنْهُ تُفَجَّرُ أنْهارُ الجنَّة. وأصْلُ كَلِمَةِ «الْفِرْدوس» البستانُ الجامعِ لِكُلِّ مَحاسِنِ الْبَساتين.

روى البخاريّ ومُسْلِمٌ وغيرهُما مِنْ حديث أبي هريرة، قال: قال رسُولُ اللهِ ﷺ:

«إذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فإنَّهُ وسَطُ الْجَنَّةِ، وأَعْلَىٰ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰن، ومِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّة».

وروى أحمد، والترمذي، والحاكم والبيهقيُّ، عَنْ عُبادَةَ بن الصَّامِتِ، أَنَّ النبيّ ﷺ قَالَ:

«إنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجة، كُلُّ دَرَجَةٍ مِنْهَا مَا بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، والْفِرْدَوْسُ أَعْلاهَا دَرَجَةً، ومِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ العَرْشُ، ومِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبعَةُ، فَإذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فاسْأَلُوهُ الْفِرْدوسَ».

- ﴿نُزُلًا﴾: النُّزُلُ مَا يُعِدُّهُ الإنْسَانُ لِضَيْفِهِ.

• ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾: أي: لَا يَبْغُونَ انْتِقَالاً عَنْهَا. **الْحِوَلُ**: الانْتِقَالُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ مَوْضِعٍ.

المعنى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً كامِلاً صَادِقِينَ فِيهِ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الَّتِي طَلَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْمَلُوهَا، وأَدَّوْهَا وَافِيَةً، ثَبَتَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلَ ضِيَافَةٍ لَهُمْ مِنَ اللهِ رَبِّهِمْ، جزاءَ إيمانِهِمْ وصَالِحَاتِ أَعْمَالِهِمْ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ خالِدِينَ فيها لا يَبْغُونَ تَحوُّلاً عَنْها، لِأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهَا أَقَلُّ مِنْها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في التعليم الدَّعَوِيِّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا (١٠٩)﴾:

الْمِدَاد: كُلُّ سَائِلٍ يُكْتَبُ بِهِ.

الْمَدَدُ: مَا يُمَدُّ بِهِ الشَّيْءُ مِنْ إِضَافَةٍ وَزِيَادة، سَبَقَ في سورة (لقمان/ ٥٧ نزول) حَوْل مَوْضوع هَٰذِهِ الآيَة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٢٧)﴾:

عِلْمُ الله جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَحَاط بكلِّ شيء واجِب الْوُجُودِ، وَمُسْتَحِيلِ الْوُجُود، وَجَائِزِ الْوُجود مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا هُو كائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ وَمَا سَوْف يَكُونُ.

وَلِكُلِّ مَعْلُومَةٍ مَشْمُولَةٍ بِعِلْم اللهِ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ اللهِ تَدُلُّ عَلَيْهَا، وَتَقْرِيباً لِأَذْهَانِ النَّاسِ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هَـٰذِهِ الكَلِمَاتِ لَوْ كُتِبَتْ بِمِدَادٍ مَا، يُعَادِلُ بُحُورَ الدُّنْيَا لَنَفِدَتْ هَـٰذِهِ الْبُحُورُ دُونَ أَنْ تَسْتَوْعِبَ الكِتَابَةُ كَلِمَاتِ اللهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ مُتَفَاصِلَاتٍ مِنَ المعَانِي.

وَلَكِنْ مَا هِيَ الْحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ الإمْدَادِ بِسَبْعَةِ أَبْحُرٍ في آيَة سُورَة (لُقْمَان/ ٥٧ نزول) والاكْتِفَاءِ بالإمْدَادِ بِبَحْرٍ مِثْلِ بَحْرِ الدُّنيا، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ لَا تَنْفَدُ كَلِمَاتُ اللهِ؟

ويَخْطُرُ لي في الإجابَةِ عَلَىٰ هذا السؤال مَا يلي:

إنَّ آيَةَ سورة (لُقْمان) أَبَانَتْ أَنَّ بَحْرَ الدُّنْيَا يُمِدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ، لَوْ كَانَتْ مِداداً لِأَقْلَام يَكْتُبُ بِهَا النَّاسُ فيما يَسْتَعْمِلُونَ مِنْ أَقْلَامٍ، لَنَفِدَتِ الْأَبْحُرُ السَّبْعَةُ، دُونَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ الله.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَقْلَامَ النَّاسِ المصْنُوعَةَ مِنَ الْأَشْجَارِ، تَحْمِل رُؤُوسُهَا مِنَ الْمِدَادِ مِقْدَاراً يَزِيدُ كثيراً عَنِ الكِتَابَةِ بِمِثْلِ رُؤُوسِ إِبَرِ النَّحْلِ، أو الكِتابَةِ بِوَسائِلَ أُخْرَىٰ أَكْثَر صِغَراً وَدِقَّةً.

فجاءَتْ آيَةُ سُورَة (الكهف/ ٦٩ نزول) بَعْدَهَا خَالِيَةً مِنْ ذِكْرِ الْأَقْلَامِ الَّتِي تُصْنَعُ مِنَ الشَّجَرِ، مَعَ الاكْتِفَاءِ بالإمْدَاد بِبَحْرٍ مِثْلِ بَحْرِ الدُّنيا، لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ إِمْكَانِ اتِّخَاذِ وَسِيلَةِ كِتَابَةٍ لَا تَسْتَهْلِكُ مِنَ الْمِدَادِ إِلَّا نَحو رُبْعِ مَا تَسْتَهْلِكُ الْأَقْلَامُ الْمَعْرُوفَةُ للنَّاسِ أَوْ أَقَلَّ.

فَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ، والْبَيَانُ فِيهما بَيَانٌ تَقْرِيبيٌّ لِأَذْهَانِ النَّاسِ، واللهُ أعلم.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي التَّعْلِيم الدَّعوِيّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾:

يَأْمُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِأَنْ يُبَيِّنَ للنَّاسِ ثَلَاثَ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ تَكوِينِ خَلْقِهِ لَيْسَ إِلَّا إِنْسَاناً بشراً، لَا مَلَكاً كَمَا يَطْلُبُ الْمُشْرِكُونَ، وَلَا فَوْقَ ذَلِكَ، دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: مَا أَنَا بالنِّسْبَةِ إِلى تَكْوِيني إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، آكُلُ كما يَأْكُلُ النَّاسُ، وأَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ النَّاسُ، وأَمْشِي في الْأَسْوَاقِ لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِ حَيَاتي، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَحَاجَاتِي في الْحَيَاةِ كَسَائِرِ حَاجَاتِ النَّاسِ، وَلَا أَدَّعِي أَنِّي مَلَكٌ، أَوْ لِي طَبِيعَةٌ تُخَالِفُ طَبِيعَةَ سَائِرِ الْبَشَرِ بالنِّسْبَةِ إِلى أَصْلِ تَكْوِيني.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ نبيٌّ وَرَسُولٌ يُوْحَىٰ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ لِلْعِبَادِ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، هُوَ اللهُ رَبُّهُمُ الَّذِي لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ سواه، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ قول اللهِ تَعَالَىٰ لرسوله فِي الآيَة: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي: لَا مَعْبُودَ لَكُمْ بِحَقٍّ إِلَّا مَعْبُودٌ وَاحِدٌ هُوَ المسْتَحِقُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وهُوَ اللهُ خَالِقُكُمْ وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَوَاماً.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النَّاسَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وَأَنَّهُم مَجزِيُّون عَلَىٰ مَا يَخْتَارُون بِإِرداتِهِمْ الْحُرَّةِ مِن اعْتِقَادٍ أَوْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أَوْ باطِنٍ، وَأَنَّ الجزاءَ الْأَوْفَىٰ يَكُونُ يَوْمَ الدِّين بَعْدَ الْبَعْثِ، فَمَنْ كَانَ يَتَوَقَّعُ أَنَّهُ سَوفَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيُحَاسِبَهُ، وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِ، وَيُنَفِّذَ فِيهِ جَزَاءَهُ بالْفَضْلِ أو بالْعَدْلِ، وَأَنَّهُ أَعَدَّ لِلْجَزَاءِ دَارَيْنِ: دَاراً لِلنَّعِيم هِي الْجَنَّة، وَدَاراً لِلْعَذَابِ هِيَ النَّار، فَلْيَعْمَلْ عَملاً صَالِحاً يُرْضِي بِهِ اللهَ رَبَّهُ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَتِهِ أَحداً لِيَقِي نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ النَّار، وَلِيَظْفَرَ بِالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

دَلّ على هَـٰذِهِ الْقَضِيَّة بمَنْطُوقِ اللَّفْظِ وَلَوازِمِهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآيَة:

- ﴿. . . فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾:

﴿يَرْجُوا۟﴾: أي: يَتَوَقَّعُ، الرَّجَاءُ في اللُّغَةِ التَّوَقُّعُ لِمَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ مَكْرُوهٍ مَخُوفٍ مِنْهُ.

- ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: أَيْ: ممَّا دَعا اللهُ إِلَىٰ عَمَلِهِ فِعلاً أَوْ تَرْكاً، إلْزَاماً أَوْ تَرْغِيباً.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر سُورَة (الكهف)

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٦)

ملحق: مستَخرَجَات بلاغية من سورة (الكهف)

توجد في سورة الكهف اختياراتٌ بلاغيَّة نَفِيسَةٌ وكثيرةٌ، اسْتَخْرَجْتُ مِنْها ما يلي:

أولاً: فنيَّةُ عرضِ لَمَحَاتٍ مِن الْقِصَةِ بارِزَاتٍ مُوجَزَاتٍ ثُمَّ تَفْصِيلُ مَا يُرَادُ تَفْصِيلُهُ منها

من الفنون البديعة في عَرْضِ القصص إيرادُ مُوجَزٍ عَامٍّ يَدُلُّ عَلَىٰ أبْرَزِ عَنَاصِرِهَا الكُبْرَىٰ، ثُمَّ إتْبَاعُ هٰذَا الموجزِ بالتَّفْصِيلِ المرادِ ذِكْرُهُ، ومِنْ هٰذَا مَا جَاءَ في قِصَّةِ أَهْلِ الكهف.

- فالإيجاز العامُّ جَاءَ في الآيات مِن (٩ ـ ١٢).
- وتفصِيلُ المرادِ تَفْصِيلُهُ مِنَ القِصَّة، جاء في الآيَات من (١٣ ـ ٢٦).

ثانياً: من فُنُونِ البلاغَةِ: «الإيجازُ بالحذْف»

ومِنْ أمثلتِهِ في سورة (الكهف) ما يلي:

المثال الأول: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾:

جملة: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ دلَّتْ على جُمْلَةٍ مَطْويَّةٍ مَحْذُوفَةٍ، وَهَـٰذِهِ المذكُورَةُ واقِعَةٌ مِنَ المحذوفَةِ موقع التعليل، ويُمْكِنُ تقدير المحذوفَةِ بنحو: «لَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ عندنا» أي: لِأَنَّنا لَا نُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عملاً.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ... ﴿٣٩﴾﴾:

عبارة: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مُخْتَزَلَةٌ بِأُسْلُوب الحذف مِنْ عبارة: «هـٰذَا مَا شَاءَهُ الله» أَوْ نَحْوِهَا.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾:

أي: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ إحـاطَـةَ إِهْـلَاكٍ وَإِتْـلَاف ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ يَضْرِبُ عُلْيَاهُمَا عَلَىٰ سُفْلَاهُمَا حَسْرَةً وَنَدماً ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ مِنْ ثِمَارِهَا وَمُتَسَاقِطَةُ الْأَغْصَانِ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

ثَالثاً: من الفنون البلاغية «الاستعارة»

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الاسْتِعَارَةِ فِي هـٰذِهِ السورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ ... وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ... ﴿٥٦﴾﴾:

اسْتُعِير الفِعْل في ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ وهُو في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ: «لِيُزْلِقُوا» للدَّلالَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ إِخْراجِ المحاوِرِ الْخَصْم مِنَ الحقِّ الَّذِي هو عَلَيْهِ، إلى اعْتِقَادِ الباطل، بِوَسِيلَةٍ تُشْبِهُ الإِزْلَاقَ في المزالق.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ مُوسَىٰ والخضرِ عَلَيْهِمَا السلام:

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ... ۝٧٧﴾:

استعير فعل «يُرِيدُ» للدّلَالَة به على الميْلِ الآيلِ إلى السُّقُوط، ومعلوم أنَّ الجدار لَيْسَ لَهُ إرادة. وهـٰذِهِ من الاستعارات الْبَدِيعة القائِمَةِ عَلَىٰ تَشْبِيهِ غَيْرِ الحيّ بذِي حياةٍ وإرادَة.

رابعاً: اعتنىٰ البلاغيّون بالْقَصْر الحقيقي والإضافي

ومن أمثلة الْقَصْر في هَـٰذِهِ السورة ما يلي:

المثال الأوّل: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِين قالوا: اتَّخَذَ اللهُ ولَداً:

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾:

عبارة: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ فيها قَصْرٌ بالنَّفْي والاستِثْنَاءِ، وَهُوَ قَصْرٌ إضَافِي، أي: بالإضَافَةِ إلَىٰ قَوْلِهِمُ الَّذِينَ يَنْسُبُونَ فِيهِ الْوَلَدَ إلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ ... ۝٦٥﴾:

فِي هـٰذَا البيان قَصْرٌ بالنَّفْي والاسْتِثْنَاءِ، وهُو قَصْرٌ إضَافِي، أي: بالإضَافَةِ إلَىٰ تَصَوُّرِ أَنَّهُمْ مُجْبِرُونَ مُكْرِهُونَ.

خامساً: من الفنونِ البلاغيَّةِ اسْتِعْمَالُ الاسْتِفْهَامِ فِي غَيْرِ طَلَبِ الإفْهام

ومن أمثلته في هَـٰذِهِ السورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾؟:

استفهامٌ يُرَادُ به النفي، أي: لَا تَحْسَبْ أنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ هِيَ المثيرة وَحْدَهَا للعجب من جُمْلَةِ آياتنا، إذْ كُلُّ آياتِنَا في كَوْنِنَا مُثِيراتٌ لِعَجب العقلاء.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾؟:

ونظيرُه قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ... ﴿٥٧﴾﴾:

أي: لَا أَحَدَ أَظْلَم مِنْ هذا، وَلَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هـٰذَا، بَلْ هـٰذَانِ الفريقان هُمَا مِنْ أَظْلَمِ الظَّالِمِينَ.

فالاستفهام يُرادُ بِهِ النفي.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ المحاوِرِ المؤْمِنِ:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾؟:

الاستِفْهام مُسْتَعْمَلٌ في الْإِنْكَار عَلَىٰ صاحِبِهِ، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ إبْلِيس خطاباً للنَّاس:

﴿... أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾؟:

الاستفهام في هـٰذَا البيانِ إنْكَارِيٌّ تَوْبيخِيٌّ تَلْويمي.

سادساً: ممَّا اعْتَنَىٰ بِهِ الْبَلَاغِيُّونَ اشْتِمَالُ الجملة على التوكيد لِدَاعٍ بلاغي

ومن أمثلته في السورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً:

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ... ⑤﴾:

جاء التوكِيدُ في هٰذَا البيانِ بزيادة حرف «مِنْ» والغرض توكيدُ عُمُوم النفي والتنصيصُ عَلَيه.

ونظيره: ﴿... مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ ... ㉖﴾.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ⑦ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ⑧﴾:

في الآية (٧) جَاءَ التوكيد بـ «إِنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة» وفي اسْتِعْمَالِ ضَمِيرِ المتكلّم العظيم معنى التوكيد أيضاً.

وكذلِكَ في الآية (٨) مع إضافة التوكيد «باللَّام المزحْلَقَة» لِأَنَّ مضْمُونَهَا يَحْتَاجُ زِيَادَةَ تَوْكيد.

المثالث الثالث: قول الله تَعالَىٰ، حكايَةً لِقَوْلِ المحاور المؤمن:

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ㊳﴾:

جاء التوكيد في عبارته بالمؤكدات: «الجملة الاسمية ـ ضمير الشَّأن ـ الخبر المؤلف مِنْ جُمْلَةٍ مُعَرَّفَةِ الطَّرَفَيْن تُفِيدُ الْقَصْر».

وأكتفي بهذه المستخرجات، والحمد لله على معنوته، ومَدَدِه، وتوفيقه، ومنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

سُورَةَ النحل

١٦ مصحف ٧٠ نزول

وهي مكّيَّةٌ كلُّها في قول الجمهور
وقيل: إلّا الآيَات الثلاث الأخيرة
منها فهي مدنية

(١)

نص السورة وَمَا فيها من فرشِ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾
يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ
أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ
مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ
لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ
فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ
أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ
رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا

---

١ و٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[عَمَّا تُشْرِكُونَ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَمَّا يُشْرِكُونَ]**. وبين القراءتين تكامل بياني.

٢ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس: **[يُنْزِلُ الْمَلاَئِكَةَ]** من فعل «أَنْزَلَ» المهموز وقرأها روح: **[تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ]** من فعل «نَزَّلَ» المضعف. والمؤدّىٰ واحد.

٢ ـ • قرأ يعقوب: **[فَاتَّقُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاتَّقُونِ]** بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

٧ ـ • قرأ أبو جعفر: **[بِشَقِّ الأَنْفُسِ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[بِشِقِّ الأَنْفُسِ]** شِقٌّ وشَقٌّ: الْجَهْدُ والمشقة.

٧ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص وأبو جعفر: **[لَرَؤُوفٌ]**. =

وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ
وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ
تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ
وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي
سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ
حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ
مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ
رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾
وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَرَؤُوفٌ]**.

١١ - • قرأ شعبة: **[نُنبِتُ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يُنبِتُ]**.

١٢ - • قرأ ابن عامر: **[والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ]**.
وقرأها حفص: **[والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ]**.

١٤ - • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكِسائي، وأبو جعفر. **[وَهْوَ]** بإسكان الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَهُوَ]** بضم الهاء.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ
﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ
يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ
﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم
مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ
أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم
بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ
ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ
﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ

---

١٧ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَذَّكَّرُونَ].

٢٠ ـ • قرأ عاصم، ويعقوب: [يَدْعُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَدْعُونَ].

٢٦ ـ • قرأ أبو عمرو: [فَخَرَّ عَلَيْهِمِ السَّقْفُ].
وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [فَخَرَّ عَلَيْهُمُ السَّقْفُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ].
وكلٌّ مِنْهُمْ على أَصْلِهِ في الوقف، فحَمْزَةُ وَيَعْقُوبُ بِضَمِّ الهاء، والباقُون بِكَسْرِها.

٢٧ ـ • قرأ يَعْقُوب: [يُخْزِيهُمْ] و[فِيهُمْ] بضم هاء الضمير فيهما. وقرأها باقي=

كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ
وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ
أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ
أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ
وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ
يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ
يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُۙ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا

= القراء العشرة [يُخْزِيهِمْ] و [فِيهِمْ] بِكَسْرِ هاء الضمير فيهما.

٢٧ - • قرأ نافع: [تُشَاقُّونِ] بِكَسْرِ النون. أي: تُشَاقُّونَني وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تُشَاقُّونَ] بفتح النُّون.

٢٨ و٣٢ - • قرأ حمزة، وخلف: [يَتَوَفَّاهُمْ] في الموضعين.
وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَتَوَفَّاهُمْ].
وهما وجهان عَربيان جائزان.

٣٣ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [أَنْ يَأْتِيَهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنْ تَأْتِيَهُمْ].
وهما وجهان عَرَبِيَّان جائزان.

كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن
دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ
إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا
أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ
وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ
بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي
يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾
إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

---

٣٤ ـ • قرأ أبو جعفر: [يَسْتَهْزُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَسْتَهْزِئُونَ].

٣٦ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: [أَنِ اعْبُدُوا] بكَسْرِ النون.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنُ اعْبُدُوا] بضمِّ النون، مُراعاةً لضَمِّ باء «اعْبُدُوا».

٣٧ ـ • قَرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [لَا يَهْدِي] أي: لَا يَحْكُمُ بالْهِدَايَة مَنْ يُضِل.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا يُهْدَىٰ] أي: لَا يُهْدَىٰ عَلَيْهِ.

٤٠ ـ • قرأ ابْنُ عامر، والكسائي: [كُنْ فَيَكُونَ] بِنَصْبِ «يَكُونَ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [كُنْ فَيَكُونُ] بالرَّفع، أي: فهو يكون.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا
حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ
صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا
رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ
﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا
نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا
يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾
أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ

---

٤١ ـ • قرأ أبو جعفر: [لَنُبَوِّيَنَّهُمْ] وكذلِكَ حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَنُبَوِّئَنَّهُمْ].
وهما وجهان عَربيانِ في النطق.
٤٣ ـ • قرأ حفص: [نُوحِي].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُوحَىٰ].
٤٣ ـ • قرأ ابْنُ كثير، والكسائي، وخلف: [فَسَلُوا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاسْأَلُوا] وهما وجهان عَربيان.
٤٤ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.
٤٥ ـ • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [بِهِمِ الْأَرْضَ] بكسر الهاء والميم.
وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [بِهُمُ الْأَرْضَ] بضم الهاء والميم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِهِمُ الْأَرْضَ] بِكَسْرِ الهاء وضم الميم.
٤٧ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [لَرَؤُوفٌ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَرَؤُفٌ].
وهما وجهان عربيان في النطق.
٤٨ ـ • قرأ حَمْزَة، والكِسَائِي، وخلف: [أَوَ لَم تَرَوْا].
=

إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ
سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾
يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ
لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾
وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ
﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ
تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ
يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا
كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا
يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ
كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ
هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَوَ لَمْ يَرَوْا].
وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

٤٨ ـ • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [تَتَفَيَّؤُا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَتَفَيَّؤُا].

٥١ ـ • قرأ يعقوب: [فَارْهَبُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَارْهَبُونِ] بحذف ياء المتكل وصلاً ووقفاً.

ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن
دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا
يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ لَا جَرَمَ
أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ
مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى
بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن
ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى

---

٦١ ـ • قرأ ورش، وأبو جعفر: [يُوَاخِذُ] و[يُوَخِّرُهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤَاخِذُ] و[يُؤَخِّرُهُمْ].
٦٢ ـ • قرأ نَافع: [مُفْرِطُونَ].
وقرأها أبو جعفر: [مُفَرِّطُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُفْرَطُونَ].
٦٣ ـ • قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [فَهْوَ] بإسكانِ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَهُوَ] بِضَمِّ الهاء.
٦٦ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وشعبة، ويعقوب [نَسْقِيكُمْ].
وقرأها أبو جعفر: [تَسْقِيكُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُسْقِيكُمْ] من فعل: «أَسْقَىٰ».

ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى
مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا
يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ
بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ
عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ
﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ
أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

---

٦٨ ـ • قرأ ورشٌ، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: **[بُيُوتاً]** بضم الباء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[بِيُوتاً]** بِكَسْرِ الياء. وهما لغتان.

٦٨ ـ • قرأ ابن عامر، وشُعْبَة: **[يَعْرُشُونَ]** بضمّ الراء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَعْرِشُونَ]** بِكَسْرِ الراء.

وهما لغتان عربيتان لمعنى واحد.

٧١ ـ • قرأ شعبة، ورُويس: **[تَجْحَدُونَ]** بتاء الخطاب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَجْحَدُونَ]** بياء الغيبة.

وبين القراءتَيْنِ تكاملٌ في الأَداء البياني.

۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن
رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ
يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ
ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ
كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي
هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ
غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ
أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ
أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ
إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ

---

٧٦ - • قرأ قَالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: **[وَهْوَ]** بإسْكان الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَهُوَ]** بضمّ الهاء.

٧٨ - • قرأ حمزة: **[مِنْ بُطُونِ إِمِّهَاتِكُمْ]** بِكَسْرِ الهمزة والميم المشدّدة فِي حَالة الوصل ببطون.

وقرأها الكِسائي: **[إِمَّهَاتِكُمْ]** بكَسْر الهمزة وفتح الميم المشدّدة في حالَةِ الوصل أيضاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أُمَّهَاتِكُمْ]** بضم الهمزة وفتح الميم المشددة في حالَتَي الوصْلِ وعَدَمِهِ.

٧٩ - • قرأ ابْنُ عَامر، وحمزة، ويعقوب، وخلف: **[أَلَمْ تَرَوْا]** بتاء الخطاب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أَلَمْ يَرَوْا]** بياء الغيبة.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا
وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ
تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ
نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ
لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾
وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا
ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ

---

٨٠ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [بُيُوتِكُمْ] بضمّ الباء. وكذا: [بُيُوتاً].

وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِيُوتِكُمْ] و[بِيُوتاً] بكسر الباء.

٨٠ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [ظَعَنِكُمْ] بفتح العين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ظَعْنِكُمْ] بإسكان العين.

٨٦ ـ • قرأ أبو عمرو: [إِلَيْهِمِ الْقَوْلَ] بكسر الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [إِلَيْهُمُ الْقَوْلَ] بضم الهاء والميم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ] بكَسْر الهاء وضمّ الميم.

وهم على أصُولِهِمْ في الوقف، فحمْزَة، ويعقوب بضمّ الهاء، والباقون بِكَسْرِها.

لَكَـٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا
كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ
نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ
بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ
بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا
وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ
﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا
تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ
أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن
يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ

---

٨٩ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.

٩٠ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَذَّكَّرُونَ] أصلُها «تتذكّرون» أُدْغِمَتِ التّاء الثانية بالدّال.

تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ
ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ
هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا
عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ
مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ
مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ

---

٩٦ ـ • قرأ ابن كثير: [بَاقِي] في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بَاقٍ] في الوصل والوقف، ووافقهم ابن كثير في حالة الوصل.

٩٦ ـ • قرأ ابنُ كثير، وعاصم، وأبو جعفر: [وَلَنَجْزِيَنَّ] بالنون. وأحَدُ وَجْهَيْنِ لابن ذكوان.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَيَجْزِيَنَّ] بالياء، وهو الوجهُ الثاني لابن ذكْوان.

٩٨ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [قَرَاتَ] وكذلِكَ حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قَرَأْتَ].

٩٨ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُرَانَ]. وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْقُرْآنَ].

١٠١ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [بِمَا يُنْزِلُ] من فعل «أنزل». =

مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن
رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ
لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ
لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ
مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ
وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن
كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ
بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ

= وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ العَشَرَةِ: [بِمَا يُنَزِّلُ] من فعل «نَزَّلَ».
أَنزَلَ ونَزَّلَ مُتكافِئَان.

١٠٢ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُدْسِ] بإسْكان الدَّال.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْقُدُسِ] بضم الدّال. وهما لغتان.

١٠٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [يَلْحَدُونَ] بفتح الياء والحاء من فعل «لَحَدَ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُلْحِدُونَ] بضم الياء وكَسْرِ الحاء، من فعل «أَلْحَدَ».
وهُما لغتان، أي يميلون عن الحق.

١٠٤ ـ • قرأ أبو عمْرو: [لَا يَهْدِيهِمِ اللهُ] بكسر الهاء والميم.
وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوبُ: وخلف: [لَا يَهْدِيهُمُ اللهُ] بضمّ الهاء والميم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ] بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.
وضَمَّ هَاءَ الضمير في الوقف يعقوب.

١٠٦ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [فَعَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَعَلَيْهِمْ] بكَسْرِ الهاء.

ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ
وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ
إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي
كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ
وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ
ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ
بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ
يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ
ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ
﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ

---

١١٠ ـ ● قرأ ابن عامر: [فَتَنُوا].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [فُتِنُوا].

١١٥ ـ ● قرأ أبو جعفر: [المَيِّتَةَ] بتَشْدِيدِ اليَاءِ مَكْسُورَةً.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [المَيْتَةَ] بإسكان الياء.

أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ
ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ
وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ
وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ
كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾
وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ
أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ

---

١١٥ ـ • قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: [فَمَنِ ٱضْطُرَّ].
وقرأها أبو جعفر: [فَمَنُ ٱضْطِرَّ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَمَنُ ٱضْطُرَّ].
وهي وجوه عَرَبِيةٌ من الأداء.

١٢٠ و١٢٣ ـ • قرأ هشام: [إبْرَاهَام] في الموضعين.
وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إبْرَاهِيمَ].

١٢١ ـ • قرأ قنبل، ورُوَيس [سِرَاطِ] وبإشمام الصاد زاياً خلفٌ عن حمزة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [صِرَاطٍ].

يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ
وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ
مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ
وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ
مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم
مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

---

١٢٧ ـ ● قرأ ابن كثير: [فِي ضِيقٍ] بكسر الضاد.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِي ضَيْقٍ] بفتح الضاد.
وهما لغتان والمعنى واحد.

١٢٧ ـ ● قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَلَيْهِمْ] بكَسْرِ الهاء.

(٢)

موضوع سورة (النحل)

ظَهَرَ لِي أنَّ موضوعَ سورة (النحل/ ٧٠ نزول) قائم على عرض موجزاتٍ مُكَثَّفَاتٍ، لِكَثِيرٍ مِن كلّيّاتِ القضايا الّتي سَبَقَ إنْزالُها في السُّوَرِ قَبْلَ هَـٰذِهِ السُّورَةِ بدءاً مِنْ بدايات التَّنْزيل. وهَـٰذِهِ القضايا تَتَعَلَّقُ بوحدانيَّة اللهِ فِي رُبُوبيته وإلهيَّتِهِ والأدِلَّةِ عليهما، وتتعلّقُ بعَرْضِ نِعَمِ اللهِ على عبادِهِ، وبقانون الجزاء الرَّبَّاني المؤجَّلِ إلى يَوْمِ الدِّين، والمعَجَّلِ منه في الحياة الدُّنيا، وبِعَرْضِ مواقف الكافِرِين من هذه القضايا، ومعالجتهم بما يلائم حالَهُمْ في المرحلَة الَّتِي أُنْزِلَتْ فيها السّورة.

ومن هذه القضايا التحذيرُ من التدخُّلِ البَشَرِي في أحكام التحليل والتحريمِ الدّينيَّة، إذْ هي مِنْ خَصَائِصِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في رُبُوبيّتِهِ وإلَٰهِيَّتِهِ لعباده، ومنها وَصَايَا أوصَىٰ اللهُ بها رسُولَهُ ﷺ، ووصَايا أوصَىٰ اللهُ بها المؤمنين.

وجاء عَرْضُ هَـٰذِهِ الموجزات المكثَّفَاتِ حَوْلَ هَـٰذِهِ القضايا بأسْلُوب المراوحَةِ تَرْكاً وَرُجُوعاً، مع الاسْتِفَادَةِ من مُنَاسَبَاتٍ مُلَائِمَاتٍ لِبَيَانِ حَقائِقَ خارِجَةٍ عَنِ الْخُطُوطِ الكُبْرَىٰ الَّتِي سَارَتْ عَلَيْها آياتُ السُّورَةِ وَفِقراتُها.

(٣)

دروس سورة (النحل)

من الصَّعْب عَلَىٰ المتَدَبِّر أَنْ يُقَسِّمَ هَـٰذِهِ السُّورَة إلى دُرُوسٍ مُتَفَاصِلَةٍ تَفَاصُلاً واضِحاً لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْه، إلَّا أَنَّني اجْتَهَدْت في تَقْسِيمها إلىٰ دُورسٍ وصلت إلى (٢٨) دَرْساً، وهي الدروس التالية:

الدرس الأول: الآيتان (١ و٢).

وفي آيَاتِيْ هـٰذَا الدَّرْسِ مَلَامِحُ الْخُطُوط العامَّةِ الكُبْرَىٰ لموضوع السُّورَةِ.

الدرس الثاني: الآيات من (٣ ـ ٢٣).

وَفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ طائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكَوْنِهِ، وإلَٰهِيَّتِهِ لعباده، وإنْعَامَاتِهِ عَلَيْهِمْ بِنِعَمٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَهَا، وقد جاء فيها ذِكْرٌ مُوَجَزٌ لِلْعَدِيدِ مِنْ نِعَمِهِ على عباده.

وفيها استفادةٌ مِن بعض المناسبات لبيانِ قضايَا إقناعِيَّة، وقضَايَا هِيَ مِنْ حَقائق الدِّينِ الكُبْرَىٰ، مَعَ الْمَاحَاتٍ لمطويَّاتٍ تتَّصِلُ بها.

الدرس الثالث: الآيات من (٢٤ ـ ٢٩).

وفي هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لقْطَةٍ مِنْ كُفْرِ المشركين المنكرين لمَا أنْزَلَ الله على رسُوله ﷺ، والعامِلين عَلَىٰ إضْلَالِ مَنْ يَتَأَثَّر بهم، مَعَ تَحْذِيرِهِمْ مِنْ عقابَيْنِ مُعَجلٍ في الدنيا وَمُؤَجّلٍ إلىٰ يَوْم القيامة.

الدرس الرابع: الآيات من (٣٠ ـ ٣٢).

وفيه عرض لَقْطَةٍ تتعلَّقُ بالمؤمنين المتقين بِشَأْنِ مَا أَنْزَلَ اللهُ على رَسُوله، مع بَيَانِ بَعْضِ مَا يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّاتِ عَدْن، وَمَا يُسْتَقْبلُونَ بِهِ مِنْ تَحِيَّةٍ وتكْرِيم.

الدرس الخامس: الآيتان (٣٣) و(٣٤).

وفِيهِ معالجة الكَفَرَة المعانِدِين بالإنْذَارِ بعذاب عند الموت، أَوْ باسْتئصَالِ بمُعَذِّبَاتٍ مُهْلِكَاتٍ، كَمَا أَنْزَلَ اللهُ بالْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ من كُفَّارِ القرونِ السَّابقة.

الدرس السادس: الآية (٣٥).

وَفِي هـٰذِهِ الآية عَرضُ جَدَلِيَّةٍ مِنْ جَدَليَّاتِ المشْرِكينَ، تَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَقُولَةِ أَنَّ النَّاسَ مَجْبُورُونَ في الحياة الدُّنيا غَيْرُ مُخَيَّرِينَ.

مع الرَّد عَلَيْهِمْ بأَنَّهم يَفْتَرُونَ على اللهِ الكذِب.

الدرس السابع: الآية (٣٦).

وفيها بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً، فأجْرَىٰ فِيهم سُنَّتَهُ في عباده الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامْتحان.

الدرس الثامن: الآية (٣٧).

وفيها تَرْبِيَةٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ مَنْ يَحْرِصُ عَلَىٰ هُدَاهُمْ.

الدرس التاسع: الآيات من (٣٨ ـ ٤٠).

وفيه بيان عقيدة المشركين الكَفَرَةِ بِشَأْنِ إنْكارِهِم للْبَعْثِ، مع الرَّدّ عليهم.

الدرس العاشر: الآيتان (٤١) و(٤٢).

وَفِيهِ بيانٌ بشأنِ الَّذِينَ هَاجَرُوا في سبيل اللهِ.

الدرس الحادس عشر: الآيتان (٤٣) و(٤٤).

وَفِيهِ بيان أنَّ كُلَّ الرَّسُلِ السَّابقين كانُوا رِجالاً من الناس، وخَصَّهُمُ اللهُ بأَنْ أَوْحَىٰ إلَيْهِم.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٤٥ ـ ٤٧).

وفيه تهديد الكافِرين باحْتِمَالَاتِ الْعِقَابِ بالْخَسْفِ، أو غيره من أنواع العقاب الرَّبَّانِي.

الدَّرْس الثالث عشر: الآيات من (٤٨ ـ ٥٠).

وَفِيهِ إقْنَاعُ الكافِرِينَ بالسُّجُودِ للهِ كَمَا تَسْجُدُ لَهُ الأشْيَاءُ والدَّوابُّ والملائكة.

الدَّرْس الرابع عشر: الآيات من (٥١ ـ ٥٥).

وَفِيهِ قول الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده يأمُرُهُمْ بتوحيدِهِ بالعبادة، ويُحَذِّرُوهُمْ مِن عِقابه ويُبيّنُ لَهُمْ أنَّ لَهُ كلَّ مَا في السّماوات والأَرْض، وأنّ كُلَّ النِّعَمِ التي يتمتَّعُونَ بِهَا هي من الله، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ صفاتِ الإنسان الجحود.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٥٦ ـ ٦٢).

وَفِيهِ بيانُ افتراءِ المشركين الأحكام على الله، وادّعاؤُهُمْ أنَّ الملائكة بنات الله. وفيه معالجتهم بالإنْذَارِ بعقاب الله.

الدرس السادس عشر: الآيتان (٦٣) و(٦٤).

وَفِيهِ بيانُ أَنَّ أُمَماً كثيرة من قَبْلِ أُمَّةِ محمّد ﷺ، قَدْ أَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ رُسُلاً فزيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعْمالَهُمْ، وأنَّ اللهَ أَعَدَّ لهم عذاباً أليماً يُعَذِّبُهُمْ بِهِ يَوْم الدّين.

وَفِيهِ بَيَانُ وَظيفَةٍ مِنْ وَظَائِفِ رَسُولِهِ محمّد ﷺ في هذه الرِّسَالَةِ الخاتِمَة، وهي أنْ يُبيّن للناس الَّذِين اخْتَلَفُوا فِيهِ، ويُبيِّنَ لَهُمْ أَنَّ القرآن هُدىً ورحمة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

الدرس السابع عشر: الآيات من (٦٥ ـ ٧٢).

وَفِيهِ عَوْدٌ إِلَىٰ عَرْضِ بَعْضِ نِعَم اللهِ عَلَىٰ عباده، وهم لا يؤدُّونَ واجب الشكر عليها، بل يَجْحَدُونَ، وَيَكْفُرونَ بها، ويُؤْمِنُونَ بالباطل.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٧٣ ـ ٧٦).

وَفِيهِ معالجة للمشركين بِحُجَجٍ إقناعِيَّة تُلامِسُ نُفُوسَهُمْ وَمَشَاعِرَهُمْ.

الدرس التاسع عشر: الآيتان (٧٧) و(٧٨).

وَفِيهِ بيانُ شُمُولِ عِلْم اللهِ كُلَّ شيء، ومِنْهُ أَمْرُ السَّاعَةِ، أَمَّا النَّاس فقد أَخْرَجَهُمُ اللهُ مِنْ بُطُونِ أَمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شيئاً، وَمَنَحَهُمْ وسَائِلَ اكْتِسَاب الْعِلْمِ والمعرفَةِ بقَدَر، رغْبَةً في أنْ يَشْكُرُوا.

الدرس العشرون: الآيات من (٧٩ ـ ٨٣).

وَفِيهِ عَوْدٌ إِلَىٰ عَرْضِ بعْضِ آيَاتِ اللهِ في كونه، وبَعْضِ نِعَمِهِ على الناس، وتوصِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مَسْؤُولاً عند رَبِّهِ إِلَّا عَنِ الْبَلَاغِ المبِينِ.

الدرس الحادي والعشرون: الآيات من (٨٤ ـ ٨٩).

وَفِيهِ عَرْضُ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يوم القيامَةِ، وهي تَتَعَلَّقُ بِبَعْضِ أَحْوَالِ الكافِرِينَ يومئذٍ.

الدرس الثاني والعشرون: الآيَات من (٩٠ ـ ٩٧).

وَفِيهِ بيان وَصَايَا من اللهِ لِعِبَادِه، وهي من قضايا الدين الذي اصطفاهُ لهم في رحلة امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

الدرس الثالث والعشرون: الآيات من (٩٨ ـ ١٠٥).

وَفِيهِ بيان بشأن القرآن، ووساوس الشيطان وأعماله الإغوائيّة.

الدرس الرابع والعشرون: الآيات من (١٠٦ ـ ١١١).

وَفِيهِ بيان بشَأْنِ الكُفْرِ بَعْدَ الإيمان، وبيانٌ بِشَأْنِ المهاجرين الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وصَبَرُوا.

الدَّرْس الخامس والعشرون: الآيتان: (١١٢ و١١٣).

وَفِيهِ بيان بشَأْنِ كُفَّارِ مكَّة، ومَعالَجَتِهِمْ بِبَعْضِ المصائب الَّتِي أَنْزَلَهَا الله بهم.

الدَّرْسُ السادس والعشرون: الآيات من (١١٤ ـ ١١٩).

وفِيهِ توجيه للنَّاس بأنْ يَأْكُلُوا ممَّا رزَقَهُمُ اللهُ حَلَالاً طيّباً، ويَشْكُرُوا نِعْمَتَهُ عليهم، مع بيان المحرَّمَاتِ من المطاعم، والتحذير من التحليل والتحريمِ افتراءً علىٰ الله.

الدَّرس السابع والعشرون: الآيات من (١٢٠ ـ ١٢٤).

وفِيهِ ضَرْبُ مثل للشاكِرِينَ بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلام، وفِيهِ أمْرٌ للرَّسُول محمّد ﷺ باتِّبَاع مِلَّتِهِ.

الدرس الثامن والعشرون: الآيَات من (١٢٥ ـ ١٢٨) آخر السورة.

وفِيهِ عرض بعض وَصايا من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، في الدعوة، والعقاب، والصَّبر، وغيرها، ويُلْحَقُ بالرسول حَمَلَةُ رِسالَتِهِ من أمَّتِهِ وسائرُ المسلمين.

(٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (النحل)

الآيتان (١) و(٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

القراءات:

(١) ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[عَمَّا تُشْرِكُونَ]** بتاء الخطاب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَمَّا يُشْرِكُونَ]** بياء الغيبة.

وبين القراءتين تَكاملٌ في الْأَدَاء البياني، فبتاء الخطاب يُخاطب اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المشركين. وبياء الْغَيْبَةِ يَتَحَدَّثُ الله عَزَّ وَجلَّ عن المشركين لِغَيْرِهِم.

(٢) ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورُوَيْس: **[يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ]** من فعل «أَنْزَلَ» وبنصب «الملائكة» أي: يُنْزِلُ اللهُ الملائِكَةَ وقرأها رَوْح: **[تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ]**: أي: تتنزَّلُ الملائِكَةُ بأمرِ الله.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ]** من فعل «نَزَّلَ» المضعف، وبنصب «الملائكة» أي: يُنَزِّلُ اللهُ الملائكة.

أي: إِنَّ اللهَ يُنَزِّلُهَا فَهِي تَتَنَزَّلُ طَاعَةً لِأَمْرِه. فمؤَدَّىٰ القراءات واحد.

(٢) ● قرأ يعقوب: **[فَاتَّقُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فاتَّقُونِ]** بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

تَمْهيد:

مع ما في آيَتي هـٰذَا الدَّرْسِ من قَضَايَا ففيهما مَلامِحُ تَدُلُّ ضِمْناً على الْخُطُوطِ العامَّةِ الكُبْرَى لموضوع سورة (النحل).

ففي هـٰذَا الدَّرْسِ إلماحٌ إِلَىٰ خطِّ الحديثِ عن اللهِ جلَّ جلاله، وعن آياتِهِ في كوْنه، ونِعَمِهِ الكثيرة عَلَىٰ عباده.

وإلماحٌ إلى خط الإنْذار بِمُعَجَّلِ الْعِقَاب لمسْتَحِقِّيه، ومؤجَّلِهِ إلى يوم القيامة.

وإلْمَاحٌ إِلَىٰ خَطِّ الحديث عَنِ المشْرِكِينَ وَمَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مِنْ بَاطل، وَجَدَلِيَّاتِهِم بالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ.

وإِلْمَاحٌ إِلَىٰ خَطِّ الدِّينِ وإِنْزَالِ بَيَانَاتِهِ عَلَىٰ الْمُرْسَلِينَ بوساطَةِ الملائِكَةِ المخْتَارِينَ لِحَمْلِ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وإِبْلَاغِهَا لِمَنْ يَصْطَفِي مِنْ عِبَادِهِ. مَعَ ذِكْرِ الكُلِّيَةِ الْعُظْمَىٰ لِهـٰذَا الدِّين، والتَّنْبِيهِ عَلَىٰ التكليف المستتْبَعِ بالْجَزَاء، إِذِ النَّاسُ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيا مُمْتَحنُونَ، مُكَلَّفُونَ، ثُمَّ هُمْ مَجْزِيُّونَ عَلَىٰ مَا يَكْتَسِبُونَ بِإِرَادَاتِهِم الحرَّة يَوْم الدِّين.

التدبّر التحليلي:

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً مُبَاشراً للمْشِركين، الَّذِينَ كَانُوا إِبَّانَ التَّنْزِيلِ يَسْتَهْزِئُونَ بِإِنْذَارَاتِ الرَّسُولِ لَهُمْ بعقَابٍ مُعَجَّلٍ، مُكَذِّبِينَ بِهِ، فَيُطَالِبُونَ بِإِنْزَالِهِ تَعْبِيراً عَنْ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ، لَا رَغْبَةً مِنْهُمْ فيه:

- ● ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ . . .﴾:

أي: قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ وَحَدَّدَ وَقْتاً قَرِيباً لِعِقَابِكُمْ، عَلَىٰ كُفْرِكُم وشِرْكِيَّاتِكُم وَمُعَانَدَتِكُمْ، وَمُعَادَاتِكُمْ لِرَسُولِ رَبِّكُم وَللدِّينِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، وأَمَرَهُ بِإِبْلَاغِكُمْ إِيَّاه.

يُسْتَعْمَلُ الْفِعْلُ الماضِي لِلشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَحْدُثْ بَعْدُ، للدَّلَالَةِ على قُرْبِ حُدُوثِه، كَقَوْلِ المؤذِّنِ في الْإِقَامَةِ: قَدْ قَامَتِ الصَّلاة.

عَلَىٰ أَنَّ المقدَّرَ المقْضِيَّ حُدُوثُهُ بتقدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَحْدُث حَتْماً، في الوقْتِ الْمُحَدَّدِ له، فَهُوَ بِمَثَابَةِ الْأَمْرِ الذي وقَعَ.

والمرادُ بأَمْرِ اللهِ هُنَا أَمْرُ اللهِ الْقَدَرِيُّ، بِمُعَاقَبَةِ المشْرِكِينَ المعانِدِين الْمُكَذِّبِينَ بِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ عِقَابٍ بَلَاغاً عَنْ رَبِّهِ، أَخْذاً من القرائن.

وَعَلَىٰ هـٰذَا يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ [**أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ**] مَعْنَىٰ صَدَرَ أَمْرُ اللهِ، مَع الدَّلَالَةِ علَىٰ اقْتِرَابِ وَقْتِ التَّنْفِيذِ.

- ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: أي: فَلَا تُكَذِّبُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَهْزِئُوا بِهِ، بأسْلُوبِ تَحَدِّي الرَّسُولِ بِأَنْ يَطْلُبَ مِنْ رَبِّهِ تَعْجِيلَهُ.

وَفِي هـٰذَا تَعْرِيضٌ ضِمْنِيٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَا يَطْلُبُوا مِنْ رَبِّهِمْ تَعْجِيلَهُ، رَغْبَةً مِنْهُمْ في الانْتِصَارِ عَلَىٰ مضطهِديهِمْ من المشْرِكين، فَتَصَارِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بعِبادِه لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً.

الاستعجال: طَلَبُ تَعْجِيلِ الْأَمْرِ الموعُودِ بِهِ قَبْلَ أَوانِهِ، أَوْ طَلَبُ تحقيق الشيء قَبْلَ الْوَقْتِ الَّذِي قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ الحكيمةُ بتَحْقِيقِهِ فِيهِ.

- ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: وفي القراءة الأخرى: [**عَمَّا تُشْرِكُونَ**] خطاباً للكافِرينَ إبَّانَ التَّنْزِيل.

أي: تَنَزَّهَ وَتَقَدَّس اللهُ وَعَلَا عُلُوّاً لَا حُدُودَ لَهُ عَنِ الشِّرْكِ وَعَمَّا يَجْعَلُ المشْرِكُونَ بِهِ مِنْ شُرَكَاءَ لَه، وعَمَّا تَجْعَلُونَ أَنْتُمْ أَيُّها المشركُونَ المخاطَبُون إِبَّانَ التَّنْزِيل مِنْ شُرَكَاءَ لَهُ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وتنزّه عن أن يكون له شريكٌ أو شُرَكاء، فكُلُّ مَا سواه خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾:

الملائِكَة: أي: الَّذِينَ هم سُفَراء الْوَحْي الرَّبَّانِيّ للأنبياء والْمُرسَلِين، فيما يتعلَّقُ بأمُور الدين وقضاياه. والْمَعْرُوف فُي نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَة أَنَّ أَمِينَ الْوَحْي لِلْأَنْبياءِ والْمُرْسَلِينَ هُو جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، ولَكِنَّ الآيَةَ هَـٰذِهِ تُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي يَنْزِلُ بالْوَحْي من أمْرِ اللهِ على الأنبياءِ والمرْسَلِين مَلَائِكَةٌ، والأَصْلُ حَمْلُ اللَّفْظِ على ظَاهِرِهِ، وقد يكُونُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو رَئِيسَ هـٰذَا الصِّنْفِ مِنَ الْمَلَائِكَة، إِذْ لمَّا قَصَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام، أَفْرَدَهُ بقولِهِ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) خطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾.

وكذلِكَ في الآيات من (١٩ ـ ٢١) من سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

فَلَا يمْنَعُ أَنْ يَكُونَ رُسُلُ الْوَحْي الرَّبَّانِيّ فِي تَارِيخ الرِّسَالَات عَدَداً من الملائِكَة، وأَنْ يَكُونَ جبريلُ رَئِيسَهُمْ.

- ● ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾: الْمُرَادُ بالرُّوح هُنَا مَا تَكونُ بِهِ الحَيَاةُ الأَبَدِيَّةِ السعيدة، من إيمان، وإسْلام، والْتِزَام بشَرَائِعِ اللهِ وَوَصَايَاهُ لعباده، وهُوَ الدِّينَ الَّذِي اصْطَفَاه اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِلَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابتلاء. أُطْلِقَ عَلَيْهِ لفْظُ «الرُّوحِ» لأنَّهُ نَظِيرُ الرُّوحِ الَّتِي إِذَا الْتَقَتْ بالنَّفْسِ الميِّتَةِ صَارَتْ حَيَّةً.

والمؤمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ المتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ يَكُونُونَ يَوْم القيامَةِ في جَنَّاتِ النَّعِيم أحْيَاءً حَيَاةً حَقِيقِيَّةً سَعِيدَة.

أَمَّا الكافرون فَهُمْ مُعَذَّبُونَ دَواماً، لَا يَمُوتُونَ مَوْتاً مُرِيحاً، وَلَا يَحْيَوْنَ حَياةً فيها أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الرَّاحَة، فَهُمْ مَحْرُومُونَ من الحياةِ الَّتِي يُرْغَبُ فيها، ومَحْرُومُونَ مِنَ الموْتِ المريحِ لَهُمْ مِنْ عذابِهِم.

وسبق في الآية (١٥) من سُورَة (غافر/ ٦٠ نُزول) إطلاق لفظ «الروح» على ما أُطْلِقَ عليه هُنا، وكذَلِكَ فِي الآية (٥٢) من سورة (الشورى/ ٦٢ نزول).

- ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: أَيْ: بالرُّوحِ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ، الصَّادِرِ مِنْ أَمْرِه مُبَاشَرَةً، كَمَا يَصْدُرُ مِنْ أَمْرِ مُبَاشَرَةً الرُّوحُ الَّتِي تكُونُ بِهَا حَيَاةُ الْأَنْفُسِ بَعْدَ تَكْوِينِ طَبْعَاتِهَا في الأَرْحَام.

وأَمْرُ اللهِ التَّكْوينيُّ يَكُونُ بِكَلِمَةِ: «كُنْ». وأَمْرُ اللهِ التَّشْرِيعيُّ يكُونُ بإِنْزَالِ الشَّرَائِع والبيانَاتِ والأَحْكَام. وأَمْرُ اللهِ القضائِيُّ يَكُونُ بإِصْدَارِ أَحْكَامِ القضاء وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ جَزَاءٍ. وأَمْرُ اللهِ التَّكْلِيفِيُّ يَكُونُ بِتَوجِيهِ التَّكْلِيفِ لِلْمَأْمُورِ به.

أي: يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِتَعَالِيمِ الدِّينِ مِنْ أَمْرِهِ.

- ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾: أَبَانَ الْوَاقِعُ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بِالْوَحْيِ الدِّيني عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ والمرسلين، لِأَنَّ اللهَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ عِبَادِهِ لِلْوَحْيِ إليهم، فهو ينَزِّلُ الملائكةَ عليهم لِيُوحُوا إليهم.

وَمَعْلُومٌ عقلاً وشَرْعاً أَنَّ مَشيئَةَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، إِذْ هُوَ يخْتَارُ بِحِكْمَتِهِ أَحْسَنَ البدائِلِ الْمُمْكِنَةِ عَقْلاً، فَحِينَ يَعْلَمُ أَنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ أَهْلٌ لِأَنْ يَصْطَفِيَهُ لِلنُّبُوَّةِ أَوْ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَصْطَفِيَ نَبِيًّا أَوْ رَسُولاً، وَكَانَ هـٰذَا الْعَبْدُ هُوَ الأَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ للاصطفاء اصْطَفَاهُ، فَتَكُونُ مَشِيئَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُطَابِقَةً لِحِكْمَتِهِ.

- ﴿... أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢)﴾:

أيْ: وَمَضْمُونُ الْوَحْيِ: أَنْ أَبْلِغُوا أَقْوَامَكُمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، وأَنْذِرُوهُمْ بِعَذَابٍ خَالِدٍ يَوْمَ القِيامَةِ فِي جَهَنَّمَ، إِذَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ شَرِيكاً أَوْ أَكْثَرَ، وَمُرُوهُمْ نَاصِحِينَ لَهُمْ بِأَنْ يَتَّقُوا عَذَابَ الله رَبِّهِمْ بطاعَتِهِ.

وقد جاء اخْتِصَارُ هَٰذِهِ المعانِي بقولِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْياً لِرُسُلِه:

- ﴿... أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢)﴾.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرس الأوّل من دُروس سورة (النحل)

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتحِهِ.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٣ ـ ٢٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ
مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)
وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)
وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)
وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ
يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾:

القراءات:

(٣) ● قرأ حمزة والكسائي، وخلف: **[عَمَّا تُشْرِكُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَمَّا يُشرِكُون]** بياء الغائبين.

(٧) ● قرأ أبو جعفر: **[بِشَقِّ الأَنْفُسِ]** بفتح الشّين.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[بِشِقِّ الأَنْفُسِ]** بِكَسْرِ الشين.

شِقّ ـ وشَقّ: بكسر الشين وفَتْحِها، الْجَهْدُ والمشقة.

(٧) ● قرأ نافع، وابْن كثير، وابْنُ عامر، وحفص وأبو جعفر: **[لَرَؤُوفٌ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَرَؤُفٌ]**.

وهما نطقان عَرَبيان للكلمة.

(١١) ● قرأ شُعْبَة: **[نُنْبِتُ]** بنُونِ المتكلِّم العظيم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يُنْبِتُ]** أي: يُنْبِتُ الله.

(١٢) ● قرأ ابْنُ عَامر: **[والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِه]**.

وقرأَهَا حفص: **[والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بأَمْرِه]** أيْ: وسَخَّرَ اللهُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَكُمْ، والنُّجومُ مُسَخَّرَاتٌ بأمْرِهِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأمْرِهِ]** وهي وُجُوهُ إعرابيَّة جَائزة.

(١٤) ● قرأ قَالُون، وأبو عَمْرو، والكِسائي، وأبو جعفر. **[وَهْوَ]** بإسكان الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَهُوَ]** بضم الهاء.

(١٧) ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تذَكَّرُونَ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَذَّكَّرُونَ]** أصلها «تتَذَكَّرُونَ» أدْغِمَتِ التاء بالذال.

(٢٠) ● قرأ عاصم، ويعقوب: **[يَدْعُونَ]** بياء الغائبين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَدْعُونَ]** بتاء المخاطِبينَ.

تَمْهِيد:

فِي هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنه، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي إلَٰهِيَّتِهِ لِعِبَادِه، وعَلَىٰ إنْعَامَاتِهِ عَلَيْهِمْ بِنِعَمٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَها.

وقد جاء فِيهِ مُوجَزَاتٍ لِلْعَدِيدِ مِنْ نِعَمِهِ على عباده.

وجاء فيه استفادةٌ مِنْ بَعْضِ المناسَبَاتِ لِبيانِ قضايَا إقْنَاعِيَّة، وَقَضَايَا هِيَ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ الكُبْرَىٰ، مَعَ إلْمَاحَاتٍ لمطْوِيَّاتٍ تَتَّصِلُ بها.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾.

الْحَقّ: هو الشَّيْءُ الثَّابِتُ الَّذِي لَيْسَ وَهْمَاً وَلَا خِدَاعاً، وَلَا أَخْيِلَةً مُوهِمَةً لِلْحَوَاسِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا وُجُودٌ في الواقِعِ، ويقابِلُهُ الْبَاطِلُ الَّذِي يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ الْأَوْهَام وخداع الْحَوَاسّ، كالسِّحْرِ الَّذِي يَسْحَرُ أَعْيُنَ النّاسِ، فَيُرِيهَا صُوَراً لِأَشْيَاءَ لَا وُجُودَ لَهَا فِي الواقع.

والحقُّ: مَا كَانَ إيجادُهُ لغَايَةٍ حَكِيمَةٍ يُدْرِكُها الْعُقَلَاءُ، ويَدْرِكُونَ أَنَّهَا مِنْ كَمَالِ الْمُوجِدِ، أَمَّا إِيجادُ شيءٍ مَا أَوْ فِعْلُ شيءٍ مَا دُونَ غَايَةٍ حَكِيمَةٍ تُقْصَدُ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الكَمَالِ، فَهُوَ عَبَثٌ يَتَنَزَّهُ عَنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ والرُّشْدِ والتَّصَرُّفِ الحكيم.

فالحقُّ في حدود هٰذَا الْمَفْهُومِ يُقَابِلُهُ الْعَبَثُ.

وضِمْنَ هٰذَيْنِ الْمَفْهُومَيْنِ لِلْحِقِّ نُدْرِكُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالَهُ ـ خَلَقَ السَّمَاوات والأرضَ وَمَا فِيهما وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أشياءَ وأحياءَ مُتَّصِفاً وَاقِعُهَا بِأَنَّهُ حَقٌّ ثَابِتٌ، وليْسَ وَهْماً، وَلَا خِدَاعاً لِلْحَوَاسِ.

ونُدْرِكُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ خَلَقَهَا خَلْقاً مُتَّصِفاً بِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ، وَلَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ عَبَثاً، وَهٰذِهِ الْغَايَةُ الحكِميَةُ حَقٌّ يمَجِّدُهُ أَهْلُ الْعَقْلِ السَّدِيد، والتَّصَرُّفِ الحكِيمِ الرَّشِيد.

وَنُدْرِكُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ خَلَقَ مَخْلُوقَاتِ كَوْنِهِ مُتَّصِفَةً بِصِفَاتٍ دالَّاتٍ عَلَىٰ صِفَاتِ خَالِقِهَا الْجَلِيلَةِ، وَعَلَىٰ كثِيرٍ مِنْ أَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، ومِنْهَا

عِلْمُهُ، واخْتِيارُه الحكيمُ في مَشِيئَتِهِ، وَقُدْرَتُهُ الَّتِي يَخْلُقُ بها مَا يَشَاءُ مخْتاراً، واتْقَانُهُ الباهِرُ لِمَا يَخْلُق، وإبْدَاعُهُ لمَا يَخْلُقُ علَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، إلى سائِرِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ فيها، الّتِي يَلْزَمُ عَنْهَا وَحْدَانِيَّتُهُ في إلَهِيَّتِهِ.

فَهِيَ آيَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ الحقائِقِ الإيمانِيَّةِ، الَّتِي كَلَّفَ اللهُ عَبَادَهُ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ وَوَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ أَنْ يُؤْمِنُوابها، وهَـٰذِهِ الآيَاتُ في الكَوْنِ هِي من الحقِّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيهِ وَلَا عَبَث.

ونُدرِكُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ ما خَلَقَ الإنْسَ والجِنَّ بصِفَاتِهِم الَّتِي هُمْ عَلَيْها، إلَّا لِيَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في ظُرُوفِ الحَياةِ الدُّنيا، ثُمَّ لِيَجْزِيَهُمْ عَلَىٰ وَفْقِ أَعْمَالِهِم، وَهـٰذَا الجزاءُ يَكُونُ يَوْمَ القيامَةِ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْخَلْقَ لِتَحقيقِ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ العظيمةِ السَّامِيَةِ خَلْقٌ مُتَّصِفٌ بالْحَقِّ عَلَىٰ مَعْنَيَيْهِ، وَلَوْلَا تَحْقِيقِ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ لَكَانَ خَلْقُ الإنْسِ والْجِنِّ عَمَلاً باطلاً، وعَبَثاً يَتَنَزَّهُ الْخَالِقُ عَنْهُ.

هل تَقْبَلُ العقولُ السَّلِيمَةُ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، ويُسَخِّرَ لَهُ مَا فِي الْأَرْضِ والسَّمَاءِ، فَهُوَ يَتَصَرَّفُ بالْأَشْيَاءِ ضِمْنَ قوانِينها وأَنْظِمَتِهَا باخْتِيارِهِ الْحُرّ، وَهـٰذَا التَّصَرُّفُ يَنْجُمُ عَنْهُ ظَالِمٌ وَمَظْلُومٌ، وَذُو غِنًى وَمَحْرُومٌ، ومُسِيءٌ ومُحْسِنٌ، وَكَافِرٌ ومُؤْمِنٌ، وتَقِيٌّ وَمُجْرِمٌ، ومُفْسِدٌ ومُصْلِح، ثُمَّ لَا يكونُ بَعْدَ ذَلِكَ حِسَابٌ، وَلَا فَصْلُ قَضَاءٍ وَلَا جزاء؟؟!.

إنَّهُ تَمكِينٌ لَذِوي القوة من أنْ يَكُونَ الباطل هو العزيز الفائق، وأنْ يَكُونَ الحقُّ هُو الزاهِق.

- ﴿... تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾:

أي: وبما أنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بالْحَقِّ، ومن الحقِّ دَلَالَةُ خَلْقِهِ لَهُمَا علىٰ أَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ

غَيْره، فَلَا إلَه بِحَقٍّ إلَّا هُو، ومِنَ الحقّ دَلَالَةُ خَلْقِهِ للنَّاسِ عَلَىٰ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا بِالْإيمانِ بِهِ رَبًّا وَاحداً لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإلَهاً وَاحِداً لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ، فَقَد تَعَالَى اللهُ عُلُوّاً كَبِيراً، وَتَسَامَىٰ تَسامِيًّا عَظِيماً، عَمَّا يُشْرِكُ المشْرِكُونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ بِإلَٰهِيَّتِهِ فَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً اتَّخَذُوهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ:

- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾:

النُّطْفَةُ: هِيَ إحْدَىٰ أَطْوَارِ خَلْقِ الإنْسَانْ، وهي نُقْطَةُ الْمَاءِ الصُّغْرَىٰ الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ تَلْقِيحِ الْحُوَيْنِ مِنْ مَنِيِّ الذَّكَرِ لِلبُيَيْضَةِ المسْتَقْبِلَةِ لَهُ، والمنْفَصِلَةِ عَنْ مَكَانِ نَشْأَتِهَا فِي الْمَرْأَةِ عِنْدَ بَدْءِ الطَّرِيقِ إلَىٰ الْحَمْلِ، وَتَحَوُّلِهَا إلَىٰ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ.

والنُّطْفَةُ تُطْلَقُ لُغَةً على الْقَلِيلِ مِنَ الماء الصَّافِي، وعَلَىٰ الْقَطْرَةِ من الماء أو الْعَرَق، وعَلَىٰ الدَّفْقَةِ مِنَ المنِيِّ.

- ﴿... فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾:

أي: وَمَرَّ في أَطْوَارِ خَلْقِهِ طَوْراً بَعْدَ طَوْرٍ، فَلَمَّا اكْتَمَلَ فَاجَأَ بأَنَّهُ مُخَاصِمٌ شَدِيدٌ المخاصَمَةِ، وَمُبِينٌ في التعبير عَنْ حُجَجِهِ الْخِصَامِيَّة.

والمعنى: أَنَّ الإنْسَانَ مع عِلْمِهِ بأَنَّهُ كَانَ نُطْفَةً مَهِينَةً حقيرةً، ومُشَاهَدَتِهِ نَفْسَهُ فِي كثيرٍ مِنْ أطْوَارِ خَلْقِهِ حَتَّىٰ اكْتِمالِهِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ إرَادَةٌ فَاعِلَةٌ فِي إنْشَائِهِ، وَكَانَ هَٰذَا دَلِيلاً عَلَىٰ الخالِقِ الربّ، الْمُمِدِّلَهُ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَمَّا اكْتَمَلَ وَصَارَ قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يُجَادِلَ وَيُخَاصِمَ، وَيُقَدِّمَ الْحُجَجَ بأَقْوَالٍ مُبِينَةٍ مُزَخْرَفَة، صَارَ خَصِيماً مُجَادِلاً يُجَادِلُ فِي اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَٰهِيَّتِهِ بالْبَاطِلِ، لِيُدْحِضَ بِهِ الْحَقَّ، وَقَدْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ نَصِيراً لِحَقِّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِه، بالحجج الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي دَلَّتْهُ

عَلَيْهَا آيَاتُ اللهِ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وَفِي نَفْسِهِ وَأَنْفُسِ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ.

الْخَصِيم: المخاصِمُ المجادِلُ المنَازِعُ لِنَفْسِهِ أو لِغَيْرِهِ في خُصُومَةٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، بِحَقٍّ أَوْ بِبَاطِلٍ.

والمرادُ هُنَا في الآيَةِ أَخْذاً مِنَ القرائِنِ، أَنَّهُ خَصِيمٌ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضَ الحقِّ الرَّبَّانِي، وينْصُرَ الْبَاطِلَ والمبْطِلِين، والكُفْرَ والْكَافِرِينَ، والشِّرْكَ والْمُشْرِكينَ.

الْمُبِين: أي: الْمُعَبِّرُ عَمَّا فِي نَفْسِهِ بِوُضُوحٍ، مِنْ فِعْلِ: «أَبَانَ فُلَانٌ الشَّيْءَ إِبَانَةً فَهُوَ مُبِينٌ» أَيْ: أَظْهَرَهُ وَأَوْضَحَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بيان بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ وهِي مِنْ نِعَمِهِ على النَّاس:

• ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾:

الأنعام: هي الأموال الراعية، وهي الإبلُ، والْبقَرُ، والْغَنَمُ، ضَأْنُها ومعزُها. ولفظ الأنعام يُذكَّرُ ويُؤَنَّثُ.

يَمْتَنَّ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهٰذَا البيان عَلَىٰ النَّاسِ بأنَّهُ خَلَقَ الْأَنْعَامَ لَهُمْ، أَيْ: لمصَالِحِمْ وَلِحَاجَاتِهِمْ ومَنَافِعِهِمْ في حياتهم.

الإبل: اسْمٌ للجِمَالِ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لفظه، ويطلق على الأُنْثَىٰ «ناقَة» وجَمْعُها: «نَاق، ونُوق، وأَيْنُق، وأنْواق».

وقد وصَفَ عُلَماءَ الأحياء الجملَ بما يلي:

(١) حيوانٌ ضَخْمُ الجثَّة، قويُّ الجسم، يَعِيشُ في الصَّحراء، يُمْكِنُهُ

السَّفَرُ إلى مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ عَبْرَ الصَّحَارِي الحارَّة الجافَّةِ الْمُحْرِقَةِ، مُكْتَفِياً بالْقَلِيلِ مِنَ الْمَاءِ والطَّعَام.

(٢) تَسِيرُ الجمالُ فوق الرِّمَالِ الناعِمَةِ بِيُسْرٍ وخِفَّةٍ.

(٣) تَسْتَطِيعُ الجمالُ نَقْلَ الْأَثْقَالِ والأمْتِعَةِ مِنْ مكانٍ إلى أَخَرَ في الطُّرُقِ الصَّعْبَة، فَهِي تُسَاعِدُ الإنْسَانَ الَّذِي يَعِيشُ في الصَّحْراء في كَثِيرٍ مِنْ أَوْجُهِ الْحياة.

(٤) من مِيَزِ الْجَمَلِ أَنَّهُ يَحْمِلُ طَعَامَهُ في ظَهْرِهِ، إذْ يَخْزِنُ فِيهِ كَمِّيَّاتٍ من الغِذَاءِ في شَكْلِ الدُّهْنِ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْهُ السَّنَام، ومِنْ هٰذَا السَّنَامِ يَجِدُ الطَّاقَةَ اللَّازِمَة لَهُ مَتَىٰ تَعذَّرَ وُجُودُ الطَّعَام.

(٥) يُسْتَخْدَمُ الْجَمَلُ في جَرِّ المحارِيثِ، وفي السَّواقي لِرَفْعِ المِيَاهِ من الآبَارِ ونحوها.

(٦) والجمالُ مَصْدَرٌ لغذاء سُكّانِ الصحاري، فَهُمْ يأْكُلُونَ من لحومها، ويشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِها، ويُذِيبُونَ بَعْضَ شُحُوم أَسْنِمَتِها ويَسْتَعْمِلُونَها في طَهْيِ أطْعِمَتِهِم، ويَسْتَخْدِمُونَ مِنْ مُشْتَقَّاتِ أَلْبَانِها أطْعِمَةً مخْتَلِفَة، كالأجبان، والأَلْبَانِ الرّائبة، واسْتِخْرَاج السَّمْنِ والزُّبْدِ كَسَائِرِ ألبان الأنعام.

(٧) وتُسْتَخْدَمُ أوبارُ الجمال في صُنْعِ الحشَايا، وأصناف من الألْبِسَةِ، وأنواع النّسيج الْغَلِيظ لِلْبُسْطِ والخِيَام.

(٨) وتُصْنَعُ مِنْ جُلُودِ الجمالِ الأحْذِيَةُ والحقَائبُ والسُّرُوج والأحْزِمَةُ الْقَوِيَةُ ونَحْوُها.

(٩) وَتُصْنَعُ مِنْ عِظَام الجِمَالِ بعضَ أنواعِ الْحُلِيِّ والْأَوَاني.

(١٠) وَيُسْتَفادُ مِنْ رَوْثِ الإبلِ سَمَادٌ وَوَقُود.

(١١) وَلِلْجَمالِ صِفَاتٌ جَسَدِيَّةٌ تُلَائِمُ عَيْشها في الصَّحارِي، وتَحْمِيهَا

مِنْ كَثِيرٍ من عَوَارِضِ الرِّيَاحِ والرِّمَالِ والشَّمْسِ الحارَّة، وهٰذَا من إتقان الصُّنْعِ الرَّبَّانِيِّ، ومِنْ آيَاتِهِ في كَوْنه، ومِنْ نِعَمِهِ على عباده.

البقر: نَوْعُ حيوانٍ يَشْمَلُ عَدَداً مِنَ الأَصْنَاف الَّتِي تَدْعَىٰ الْبَقَرِيَات، وذكَرُ البقر يُسَمَّى «ثَوْراً» ومِنَ البَقَرِ صِنْفٌ يُسَمَّىٰ «الْجَامُوس». وللأبقار سُلَالَاتٌ وَأَصْنَافٌ مُتَعَدِّدَة، وتُسَمَّىٰ صِغار البَقَرِ عُجولاً.

وتوصَفُ الأبقار بما يلي:

(١) أَكْثَرَ حَيَوَانَاتِ المزَارِعِ أَهَمِّيَّةً عِنْدَ النَّاس، وهي من الحيوانات المجتَرَّة.

(٢) والأَبقارُ ذَوَاتُ أَجْسَامٍ قَوِيَّة، تُسْتَخْدَمُ في جرّ المحاريث، وفي السَّواقي لِرَفْعِ المياه من الآبَار ونحوها، وفي إدارة حِجَارَةِ الطَّواحِين، وفي كَثِير من الأعمال الشَّاقَّةِ القائِمَةِ على الجرِّ والسَّحْبِ.

(٣) والأَبْقَارِ مَصْدَرٌ عَظِيمٌ لِلْغَذَاءِ، فالنَّاسُ يأكُلُونَ مِنْ لُحُومِهَا، وَيَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِها، وَيَأْكُلُونَ مِنْ مُشْتَقَّاتِ أَلْبَانِها الْجُبْنَ، والزُّبْدَ، والسَّمْنَ، ونحَوْها.

(٤) وتُصْنَعُ مِن جُلُودِ الأَبْقارِ أَحْسَنُ الْجُلُودِ الْقَوِيَّة، لِصُنْعِ الحقائب، والأَحْذِيَة، والسُّرُوج، والأَحْزِمَةِ القوية، ونحوها.

(٥) ولَا يكادُ يُوجَدُ شَيْءٌ في الأَبْقار لَا يُنْتَفَعُ بِه، من قُرونها، إلى أَذْنَابها، إلى أظْلَافها.

(٦) تَعْتَبَرُ الأبقار في العالم أعظم مصادر اللّحوم والأَلْبَانِ ومشتقاتهما، بَعْدَ أَنْ اسْتَخْدَمَ النَّاسُ في تَرْبِيَتِها في حَظَائِرَ أَحْسَنَ الوسائِل تغْذِيَةً وحمايَةً صِحِّيَّةً وانْتِقَاءً لأفْضَلِ السُّلَالَاتِ وتَهْجِيناً.

الضَّأْن: صنف من «الغنم»:

من أكثر الحيوانَاتِ الّتي اسْتَأْنَسَها الإنْسانُ، لِأَنَّهَا الْأَلْيَنُ والأقْرَبُ إلى إمْدَاده بالْغِذَاءِ، والكِسَاء، والْجُلُودِ الَّتِي تُتَّخَذُ مِنْها أَدَوَاتُ حِفْظِ الْماءِ والدُّهُونِ وغَيْرِهَا، والَّتِي يُتَّخذُ مِنَهَا فُرُشٌ مُحْتَفِظَةٌ بصُوفِهَا.

وذكَرَ عُلَماءُ الْأَحْيَاءِ مِنْ خَصَائِصِها ما يلي:

(١) تُنْتِجُ الْأَغْنَامُ الضَّأْنِيَّةُ اللَّحْمَ، والصُّوفَ، والْجُلُودَ.

(٢) يُسْتفاد مِنْهَا خَامَاتٌ أَولِيَّةٌ لِلْعَدِيدِ مِنَ المنْتَجاتِ الثَّانَوِيَّة، مِثْلِ الْغِرَاء، والدُّهنِ، والشَّحْمِ، والصَّابُون، ومَوَادّ التَّجْمِيل، والْخُيُوطِ المسْتَخْدَمَةِ في مضَارِبَ كُرَةِ المضرب.

(٣) كانَ عِمَادَ التَّرْبِيَةِ الحيَوانِيَّةِ في كثير من الأرْضِ الْعَرَبِيَّة ومنْطِقَةِ الشَّرْق الْأَوْسَط، وآسْيَا، لِمَا تُمِدُّ بِهِ مِنْ مَنَافِعَ كثيرَة للنَّاس.

الماعِز: صِنْفٌ مِنَ «الْغنم» والماعز الواحد من «المعْزِ» للذكر والأنثى ويطلَقُ عليه لفظ «المِعْزَىٰ» وهو أيضاً من أكْثَر الحَيَوَانَاتِ الَّتِي اسْتَأْنَسَها الإنسان، وقسْمٌ من الماعِز لَا يَزَالُ غَيْرَ مُسْتَأْنَسٍ، وهو يعيشُ في البراري والجبالِ والأماكِنِ الوعْرة.

وجاء في وصْفِ «الماعز» ما يلي:

(١) حَيَوَان مُجْتَرّ، يُمِدُّ النَّاسَ بالحليب، واللّحم، والشعر، والجلود.

(٢) يَبْلُغ عَدَدُ سُلاَلاَتِ الْمَاعِزِ الْمسْتَأْنَسَةِ نحو (٣٠٠) سلالَة، وكثير مِنهَا ذُو أَهَمِّيَّةٍ تِجَارِيَّةٍ.

(٣) تَحْتَلُّ «المعْزُ» المرتَبَةَ الثالِثَةَ عَلَىٰ مسْتَوَىٰ العالم في إنْتَاجِ الحليب، بَعْدَ الأبْقار والْجَامُوس.

(٤) حَلِيب «الْمَعِز» أَسْهَلُ هَضْماً مِنْ حَلِيب الأبقار، وَلِهٰذَا صار

مَصْدراً مُفَضَّلاً لغذاء الأطفال ولِكِبَارِ السِّنِّ، وللمصاحبين بأمراض الْمَعِدة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ.

• ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾:

يَرَىٰ النُّحَاةُ أَنَّ لفظ «الأَنْعَام» هُنَا مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ يُفَسِّرُهُ الفعل في ﴿خَلَقَهَاۗ﴾ لِأَنَّ هـٰذَا الفِعْلَ اشْتَغَلَ عَنْ نَصْبِهِ بِنَصْبِ ضَمِيرِهِ، ويَرَوْنَ في مِثْلِ هـٰذَا التعبير توكِيداً، إذ جَاءَتِ الْجُمْلَةُ بِقُوَّةِ جُمْلَتَين، إذ التقدير: خَلَقَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ.

وَكَوْنُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْأَنْعَامَ للنَّاسِ هُوَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، ومِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ.

وَجَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَفْصِيلُ بَعْضِ مَا في الْأَنْعَام من نِعَمٍ عَلَىٰ النَّاس.

• ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾: الدِّفْءُ ضِدُّ الْبَرْدِ، أَيْ: لَكم في الأنْعَامِ مَا يُدْفِئُ أَجْسَادكُمْ ويَقِيها مِنَ الْبَرْدِ، فَصُوفُ الْغَنَمِ، وأشْعَارُ الْمِعْزَىٰ، وَوَبَرُ الإبِلِ مَوَادُّ عَظِيمَةٌ يأْخُذُ مِنْهَا النَّاسُ مَا يُدْفِئُهُمْ، وكَذَلِكَ جُلُودُ جَمِيع الْأَنْعَامِ.

• ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: أي: وَلَكُمْ في الْأَنْعَام مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا مَا تَوصَّلْتُمْ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَمِنْهَا مَا سَتَكْتَشِفُونَهُ بالْبَحْثِ الْعِلمِيّ وَالتّجْرِبَة.

• ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: أيْ: وَمِنْ لُحُومِهَا، وَشُحُومِهَا، وَدُهْنِهَا، وَبَعْضِ عِظَامِها، وَمُشْتَقَّاتِ أَلْبَانِهَا تَأْكُلُونَ، فيكُونُ مَا تَأْكُلونَ مِنْهَا غِذاءً وَقُوَّةً لَكُمْ، وَلَذَّةً تَسْتَمْتِعُونَ بها في حَيَاتِكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَفْصِيلَ بَعْضِ مَا فِي الْأَنْعَامِ مِنْ نِعَمِهِ على النَّاس.

• ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ۝٧﴾:

لمَّا كَانَ الْجَمالُ أَحَدَ مَطالِبَ أَنْفُسِ النَّاس في الحياة، إِذْ فَطَرَهَا اللهُ عَلَىٰ حُبِّ الْجَمالِ وَالتَّعلُّقِ بِهِ، والاسْتِمْتَاعِ بما يَلَذُّ الحواسَّ مِنْ مَنْظُوراتٍ وَمَسْمُوعاتٍ وَغَيْرِهَا، خَلَقَ اللهُ الأَنْعَامَ لِلنَّاسِ مُتَّصِفَةً بِصِفَاتٍ جَمالِيَّةٍ كَثِيرَةٍ، يَسْتَمْتِعُ النَّاسُ بِهَا حِينَ يُخْرِجُونَهَا سَارِحَةً إِلَىٰ المراعي فِي النَّهار، وحِينَ يُعِيدُونَها إِلَىٰ أَمْكِنَةِ مُرَاحِهَا مَسَاءً.

- ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾: أي: حِينَ تَرُدُّونَ أَنْعَامَكُمْ في الْعَشِيِّ إِلَىٰ مُرَاحِها، وَهُوَ المأْوىٰ الَّذِي تَأْوِي إِلَيْهِ الماشِيَةُ فِي الْعَشِيِّ للرَّاحَةِ، هٰذَا هُوَ إراحَتُها، وقُدِّمَتْ على سَرْحِهَا لِأَنَّهَا في الْعَشِيِّ تَكُونُ أَنْضَرَ، مَلِيئة الْبُطون.

- ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: أي: وحينَ تَسرَحُونَ الأنْعَامَ بالْغَدَاةِ لِتَرْعَىٰ فِي المراعِي. يقالُ لُغَةً: «سَرَحَ الرَّاعِي مَاشِيَتَهُ، يَسْرَحُهَا، سَرْحاً، وسُرُوحاً» أي: أسامَهَا فجعَلَهَا تَرْعَىٰ مِنَ الْكَلأ كيْفَ شَاءَت.

- ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ...﴾:

الأَثْقال: يَأْتِي جَمْعاً لِلَفْظِ «الثِّقْل» وهُوَ الحِمْلُ الثَّقِيل، وَجَمْعاً لِلَفْظِ «الثَّقَلِ» وهُوَ الْمَتَاع.

وَيُحمَلُ لَفْظ «أثْقَال» هُنَا عَلَىٰ المعْنَيَيْن، فَهِيَ تَحْمِلُ الْأَحْمَالَ الثَّقِيلَة، وَتَحمِلُ أَمْتِعَةَ النَّاس، وَيَنْطَبِقُ كُلٌّ مِنْهُمَا انْطِبَاقاً ظاهراً عَلَىٰ الإِبلِ، وقد تُسْتَخْدَمُ الأَبْقَارُ لِلْجَرِّ، وهُو نَوْعٌ مِع الْحَمْلِ عَلَىٰ مَا تَجُرُّهُ الأَبْقار.

- ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ وفي القراءة الأُخرَىٰ [**بشَقِّ الْأَنْفس**]: أي: بِمَشَقَّةِ الأنفُسِ وَتَعَبِهَا الشَّدِيد.

المعنى: وَمِنْ نِعَم اللهِ عَلَيْكُمْ أَيُّها النَّاسُ، أَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْأَنْعامِ مُسَخَّرَةً لِحَمْلِ أَثْقَالِكُمْ إِلَىٰ مَا تَقْصِدُونَ مِنْ بَلَدٍ لَمْ تَكُونوا بَالِغِيهِ لولا مَا سَخَّرَ لَكُمْ بأَحْمَالِكُمْ وأَثْقالِكُم إلَّا بِمَشَقَّةٍ عَظِيمَةٍ، وَمَتَاعِبَ جَسِيمَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ بَيَانِ امْتِنَانِهِ عَلَىٰ النَّاسِ بالأَنْعَام:

• ﴿... إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾:

أي: هـٰذَا الامْتِنَانُ والتَّفَضُّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ آثَارِ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ هُمَا الرَّأْفَةُ والرَّحْمَةُ، فَمِنْ أَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ أَنَّهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ رَؤوف، ورَحِيم.

الرَّؤوف: والرَّؤُف: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، مَأْخُوذٌ مِن الرَّأْفَةِ، وهِيَ شِدَّةُ الرَّحْمةِ، ومِنْ آثَارِ رَأفَتِهِ بِعبَادِه الإِنْعَامُ عَلَيهِمْ بِجَلَائِلِ النِّعَمِ وَدَقَائِقِهَا، وَتَعَهُّدُهُمْ بعِنَايَتِهِ وجُودِهِ وإِحْسَانِهِ، وعَفْوِهِ وغفْرَانِهِ.

الرَّحيم: اسْمُ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، مَأْخُوذُ مِنْ صِفَةِ رَحْمَتِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وهِيَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ نُثْبِتُهَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ على مَا يَلِيقُ بجلَاله، وَمن آثارها الْعَطاءُ والمعُونَةُ والتوفيقُ وإزالَةُ الْبُؤْسِ، والإِمْدادُ بِمَا يَسُرُّ مِنْ خَيْر.

وَيُقَاسُ عَلَىٰ تَسْخِيرِ اللهِ الأَنْعَامَ لِلنَّاسِ لِتَحْقِيقِ مَنَافِعَ كَثِيرَةٍ لَهُمْ، وَمِنْهَا حَمْلُها لِأَثْقَالِهِمْ، مَا سَخَّرَ لَهُمْ فِي طَبَائِعِ الأَشْيَاءِ مِنْ مُسَخَّرَاتٍ يَصِلُونَ إِلَىٰ الاسْتِفَادَةِ مِنهَا، أَوْ يَصِلُونَ إِلَىٰ صُنْعِهَا بِمَا وَهَبَهُمُ اللهُ مِنْ قُدْرَاتِ بَحْثٍ عِلْمِيٍّ وتَجَارِبَ، وَيَدْخُلُ في عُمُوم هـٰذِهِ المسَخَّرَاتِ مُكْتَشَفَاتٌ وَقُدْرَاتٌ عَظِيمَاتٌ مَا كَانَ النَّاسُ يَعرِفُونَ شَيْئاً مِنها، وَمِنْهَا الْمُرْكَبَاتُ العظيمَاتُ الأَرْضِيَّة، والْجَوِيَّة، والْبَحْرِيَّةِ الَّتِي تَوَصَّل إِلَيْهَا النَّاسُ، ونُشَاهِدُ الكَثِيرَ مِنْهَا في عَصْرِنَا.

ويَدْخُلُ في عُمُوم هَـٰذِهِ المسَخَّرَتِ مُكْتَشَفَاتٌ كثيراتٌ تُمِدُّ الْعُمران، والأَلْبِسَةَ ووسَائِلَ رَفاهِيَةٍ للنَّاس، وغير ذلك.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً ذِكْرَ بَعْضِ نِعَمِهِ عَلَىٰ النَّاس خطاباً لَهُمْ:

- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾:

يَمْتَنُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الناسِ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بما أنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ إِذْ خَلَقَ لَهُمُ الْخَيْلَ والبِغَالَ والْحَمِيرَ لِيَرْكَبُوها، وَلِتَكُونَ زِينَةً لَهُمْ، وبأَنَّهُ سَيَخْلُقُ لَهُمْ بَعْدَ عَصْرِ تَنْزِيلِ الْقُرآن مَرَاكِبَ وَزِينَاتٍ لَا يَعْلَمُونَها إِبَّانَ التَّنْزِيل، وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ هـٰذَا قَدْ حَصَلَ بِمَا أَلْهَمَ الله النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ والتجارب، وَبِمَا سَخَّرَ لَهُمْ فِي كَوْنِهِ مِنْ قُوىً وَخَصَائِصَ، وَصَارَ كَثِيرٌ مِنْهَا أَشْيَاءَ مَشْهُودَةً وَمُسْتَخْدَمَة بِصُورَةٍ مُذْهِلَةٍ.

الخيل: نوْعٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُسْتَأنَسَةِ، وَاحِدُهَا «الْفَرَس» فالْخَيْلُ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ. والْفَرَسُ يُطْلَقُ على الذَّكَرِ والْأُنْثَىٰ مِنْ هـٰذَا النَّوْعِ وَجَمْعُهُ «الْأَفْرَاس» ويُجْمَعُ لَفْظُ «خَيْل» عَلَىٰ «أَخْيَالٍ» و«خُيُول».

وَهـٰذَا النَّوْعُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ جَاءَ في وَصْفِهِ مَا يلي:

(١) كانَتِ الْخُيُولُ في الماضِي أكْثَرَ الْحَيَوَانَاتِ فَائِدَةً للنَّاسِ في أسْفَارِهِمْ، مِنْ ناحِيَةِ كَوْنِهَا أَسْرَعَ وَآمَنَ طَرِيقَةٍ للسَّفَرِ بِرّاً.

(٢) وَكَانَت الْوَسِيلَةَ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الصَّيَّادُون لِمُطَارَدَةِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُرَادُ صَيْدُهَا وهم عَلَىٰ ظُهُورِها.

(٣) والْخُيُولُ هِيَ أفْضَلُ وَسَائِلِ مُمَارَسَةِ رِيَاضَةِ الْفُرُوسِيَّةِ والتَّدَرُّبِ عَلَيْها، وَهـٰذِهِ الْمِيزَةُ مَا زَالَتْ مُسْتَمِرَّةً في الْعَالم.

(٤) والْخُيُولُ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَسُلَالَاتِها ذَاتُ قُوَّةٍ مُتفوِّقَة، لِلْجَرِي بِسُرْعَةٍ، وجُرْأَةٍ، ومُطَاوعَةٍ لفَارِسها، بِلَمَسَاتٍ تُعَلِّمُها، وتُدَرِّبُ عليها.

(٥) وللخيول سَمْعٌ حَادٌّ، وهي تَلْتَقِطُ الأصْوَاتَ مِن أيِّ اتِّجاه.

الْبَغْل، وجمْعُه «الْبِغَال».

حيوان أَلِيفٌ هجين، يَنْتَجُ مِنْ تَزَاوُج أنْثَىٰ الْخَيْلِ معَ ذَكَرِ الحِمار.

وقد كانت الْبِغَال في الماضي، من حيوانَاتِ الْعَمَلِ المفضَّلَةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ العالم، وقَامَ بَعْضُ المهتَمِّين بِتَرْبِيَةِ أنواعٍ مِنَ الْحَمِيرِ الضَخْمَة، لاسْتِيلَادِ بِغَالٍ كَبِيرَةِ الحجم، وَذَاتِ قُوَّةٍ مُتفَوِّقَة.

وَالْبِغَالُ لَهَا شَبَهٌ بالْخُيُولِ وَشَبَهٌ بالْحَمِير، لأَنَّها مُهَجَّنَةٌ مِنْهما.

ويَمْتَازُ الْبَغْل بالْجُرْأة والإقدام وَمُقَاوَمَةِ الْأَمْرَاضِ بصُورَةٍ جيِّدَة، وَإِنَاثُ الْبِغَالِ لَا تَلِدُ إِلَّا في حَالَاتٍ نَادِرَاتٍ جدّاً.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْبَغْلَ أكْثَرُ دَأباً عَلَىٰ الْعَمَلِ الزَّائِدِ مِنَ الْحِصَان.

الْحِمَارُ: وَجَمْعُهُ «الْحَمِير».

حَيوانٌ ثَدْيِيٌّ مُسْتَأْنِسٌ شَبِيهٌ بالْحِصَان، وشبيهٌ بالْحِمَارِ الْوَحْشِيّ.

وَكَانَ الْحِمَارُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الرُّكُوبِ، والْحَمْلِ، والْجَرِّ، وخادِماً مُطِيعاً في الْمَزَارِع والْبَسَاتِينِ والْبُيُوتِ الْقَدِيمة.

فقد كَانَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ، قَبْلَ أَنْ يُلْهِمَ اللهُ النَّاسَ صُنْعَ آلَاتِ الرُّكُوبِ، والْحَمْلِ، والْجَرِّ: ومَا زَالَ الْحِمَارُ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ سُكَّانِ الْبَوادِي، وبعض سُكَّانِ الْقُرَىٰ والْمُدُن.

- ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾: أي: وَخَلَقَ اللهُ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الْخَيْلَ، والْبِغَالَ، والْحَمِيرَ، لِتَرْكَبُوها في تَحْقِيقِ مَصَالِحِ وَمَنَافِعَ كَثِيرةٍ لكم، وَلِتَكُونَ زِينَةً لَكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بامْتِلَاكِها، وإذا رَكِبْتُموها.

والاقتصار عَلَىٰ ذِكْرِ هَاتَيْنِ المنْفَعَتَيْنِ لِلْخَيْلِ والبغَالِ والْحَمِير، لَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُنْتَفعُ بها إِلَّا بهما، بَلْ يدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المخاطِبين إِبَّانَ التَّنْزِيلِ قَدْ كَانَتْ هَاتَانِ المنْفَعَتَانِ هُمَا الْمَقْصُودَ الأعظم لَدَيهم مِنْهَا.

- ﴿... وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾: أي: ويَخْلُقُ حَاضِراً ومُسْتَقْبلاً

مَخْلُوقَاتٍ لَا تَعْلَمُونَها، ومِنْهَا مَا يُلْهِمُ اللهُ النَّاسَ اكْتِشَافَ خَصَائِصَ وَطَاقَاتٍ في كَوْنِهِ، يُصْنَعُ بِهَا مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ النَّاس، وظهر هذا في مَرَاكِبِ الْبَرِّ والْبَحْرِ والْجَوِّ الَّتِي لَمْ تَكُنْ معلومَةً لِلنَّاس.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾:

- ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ **القَصْدُ**: الاعْتِدَالُ في الأمْرِ دُون إفْرَاطٍ ولَا تَفْرِيطٍ. **السَّبِيل**: كُلُّ مَا جَاءَ في القرآن من لفظ «سبيل» مفرداً، فالمراد به صراط اللهِ المستقيم، المشتمل على الْعَقَائِدِ والشرائعِ والأحكام الدِّينيَّة(١).

وعبارَةُ ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ من إضَافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصوف، أي: السَّبِيلُ الَّذِي هو قَصْدٌ لَا خرُوجَ فِيهِ عن الاعْتِدَالِ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ، وَلَا مِنْ ذَاتِ الشِّمَال.

وصِرَاطُ اللهِ لِعِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ هُو كَذَلِكَ، وَكُلُّ مَا هُوَ مُنْحَرِفٌ عَنْه، أَوْ خَارِجٌ عَنْ خَطِّ اسْتِقَامَتِهِ فهو جَائِرٌ.

الجائِرُ: في اللُّغَةِ هو المائل، الظالم، الْخَارِجُ عَنْ سَوَاء السبيل. بِمُنَاسَبَةِ مَا جَاءَ في الدَّرْسِ الأَوَّل، بشَأْنِ الدِّينِ الذي اصْطَفَاهُ اللهِ لعباده الّذِينَ وضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان، وسَمَّاهُ اللهُ جَلَّ جلالُهُ رُوحاً، لِأَنَّهُ سَبَبَ الحياة السَّعِيدَة لَهُمْ، مع مَا جَاء في هٰذَا الدَّرْسِ الثاني من امْتِنَان اللهِ عليهم بطَائفَةٍ مِنْ نِعَمِهِ، جَاءَتْ هَٰذِهِ الآية (٩) مشْتَمِلَةً عَلَىٰ بَيَانِ ثَلَاثِ قضايا موصولَاتٍ بالدّينِ وبالموضوعين مَوْضِعَ الامتحان في الحياة الدُّنيا.

القضية الأولى: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾:

---

(١) انظر المُلْحَقَ الرابع من ملاحق تدبُّرِ سُورَةِ (الفاتحة/ ٥ نزول).

أي: بما أنَّ الله جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هو الخالِقُ الرَّبُّ الَّذِي يَمُدّ كُلَّ شيءٍ في الكوْنِ بتَصاريفِ رُبُوبِيَّتِهِ، وهو الْحَكِيمُ الّذِي وَهَبَ الّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابتلاءِ، الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤهِّلُهُمْ لِأَنْ يَكُونُوا مُمْتَحَنِين، فالحِكْمَةُ السَّامِيَةُ تَقْضِي بأنْ يَكُونَ هُوَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ المتَكفِّلَ وَحْدَهُ بِبَيَانِ الْعَقائِدِ والشَّرَائِعِ والْأَحْكَام وَالْأَوَامِرِ والنَّواهِي، الَّتِي جعَلَهُمْ مُمْتَحنِين تُجاهَها، والَّتِي هِيَ تَعَالِيمُ الدِّين وأحْكامُهُ، وسَمَّاهَا اللهُ الصِّرَاطَ المستقيم، في كثيرٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وجاء بيانُها هُنَا تَحْتَ عُنوان: ﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ومِنْ لَطَائِفِ بَيَانَاتِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ أَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ مُلْزَماً بِأَنْ يُبَيِّنَ لِعِبَادِهِ قَصْدَ السَّبِيلِ (أي: الصِّرَاطَ المستقيم) وهُوَ الدِّينُ الَّذِي اصْطَفاهُ لَهُمْ. ونَظِيرُهُ بَيَانُ أَنَّهُ حرَّمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الظُّلْمَ، إلى غَيْرِهِمَا مِنْ نظائر.

ومِنْ لَوَازِمِ بَيَانِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ لنُفُوسِ الموضوعين فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضع الامْتِحَانِ، وهُمْ مَوْهُوبُونَ إرَادَاتٍ حُرَّة هِيَ مَنَاطُ الابْتِلَاء، أَنْ يَكُونَ قِسْمٌ مِنْ هَـٰذِهِ النُّفُوسِ مُلْتَزِماً بِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عبادِه في صِرَاط اللهِ المستقيم، وأَنْ يكونَ قِسْمٌ مِنها جائراً خارِجاً عَنْ سَوَاء الصراط.

القَضِيَّةُ الثَّانِيَة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾:

أي: ومِنَ النفوسِ الموضُوعَةِ في الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ نُفُوسٌ جَائِرَةٌ ظَالِمَةٌ، لَا تَلْتَزِمُ بِمَطْلُوب اللهِ مِنها، في صِرَاطِهِ المستقيم، فَهِيَ تَسْتَحِقُّ عِقَابَ اللهِ يَوْمَ الدِّين عَلَىٰ عِصْيَانِهَا.

ويَلْزَمُ عَقْلاً مِنْ كَوْنِ بَعْضِ هَـٰذِهِ النفوس جَائِرَةً أَنْ يَكُونَ بَعْضُهَا الآخَرُ غَيْرَ جَائر، فَهِيَ باسْتِقَامَتِهَا عَلَىٰ صِرَاط اللهِ المستقيم تَسْتَحِقُّ ثَوابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الدِّين عَلَىٰ طَاعَتها لِرَبِّهَا.

القضيَّة الثَّالثة: دَلّ عليها قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

أي: ولَوْ شَاءَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ، أَيُّهَا الموضوعُونَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، لَسَلَبَكُمْ إِرَادَاتِكُمُ الْحُرَّة، ولَجَعَلَكُمْ مَجْبُورِينَ لَا اخْتِيَارَ لَكُمْ، وحِينَئِذٍ فإنَّ حِكْمَتَهُ تَقْضِي بأَنْ يَجْعَلَكُم جَمِيعاً مَهْدِيين، كالملائكة، إذْ لَا يَجْعَلُ الرَّبُّ الْجَلِيلُ بِحِكْمَتِهِ حَيًّا مَجْبُوراً عَلَىٰ الكُفْرِ والضَّلالة، إِنَّهُ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِه الكفر.

وسَلْبُكُمْ إرَادَاتِكُمْ الحرَّةَ يُلْغِي حِكْمَةَ ابْتِلَائِكُمْ في ظُرُوفِ الحياة الدنيا، فلا تَزْعُمُوا أَنَّكُم مَجْبُورُون، ولَا تَطْلُبُوا مِن اللهِ رَبِّكُم أَنْ يَهْدِيَ بِالْجَبْرِ هِدَايَةَ خَلْقٍ وَتَكْوِينٍ الضَّالِينَ الْكَافِرِينَ، والمجْرِمِينَ الظَّالِمِين. أَمَّا الْهِدَايَةُ بِمَعْنَىٰ الإِعْلَامِ والدَّلَالَةِ عَلَىٰ الحقِّ والبَاطل، والخيْرِ والشّرِ، وبَيَانِ الصِّرَاطِ المستقيم الموصل إلىٰ جَنَّاتِ النَّعِيم، فَقَدْ بعَثَ بِهَا رُسُلَهُ، وأَنْزَلَ بها كُتُبَهُ، وهُوَ ما دَلَّتْ عَلَيْهِ القَضِيَّةُ الأولَىٰ من هَـٰذِهِ الآية (٩).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ عَوْداً إلى بَيَانِ بَعْضِ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، التي تَسْتَوْجِبُ الإيمانَ به، والإِسْلَامَ لَهُ، وَشُكْرَهُ بِطَاعَتِهِ، في فِعْلِ مَا أَمَرَهُمْ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَاهُمْ عَنْ فِعْلِيه.

• ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾:

• ﴿هُوَ﴾: هـٰذَا الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ الَّذِي بَدَأَتِ السُّورَةُ بالْحَدِيث عَنْهُ.

• ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: يَمْتَنُ اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ بالماء، مع الإِشَارَةِ إِلَىٰ نِظَامِ تَدْبِيرِهِ الْعَجِيبِ بِإِنْزَالِهِ مِنَ السَّحَابِ مَاءً حُلْواً طَهُوراً

نَافِعاً، بَعْدَ تَصْعِيدِهِ بُخَاراً مِنَ البحار والأنْهار وَكُلِّ مَكَانٍ يُوجَدُ فِيهِ عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْض، مُنَقًى مِن الأمْلَاحِ غَيْرِ النَّافِعَةِ في الشَّرَابِ، ومِنَ الشَّوَائِبِ المفْسِدَةِ لَهُ، فَيَكُونُ في الْجَوِّ سَحَاباً يُسَيِّرُهُ اللهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَيُنْزِلُ مِنْهُ الْمَاءَ حَيْثُ يَشَاءُ.

- ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾: أيْ: لَكُم أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ (أي: مِنَ السَّحَابِ الَّذِي بَسَطَهُ بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْض) شَرَابٌ عظيم النَّفْع طَاهِرٌ طَهُورٌ، هُوَ أَحَدُ مَوَادِّ الحَياةِ الكُبْرَىٰ. **الشَّرَابُ**: اسْمٌ لِمَا يُشْرَبُ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وصنف.

- ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⑩﴾: أي: وَلَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِن الْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاء شَجَرٌ، يَكُونُ الماءُ سَبَباً فِي نَبَاتِهِ وَنَمَائِه، فأَنْتُم فِيهِ تَجْعَلُونَ أَنْعَامَكُمْ وَدَوَابَّكُمْ آكِلاتِ النَّبَاتَاتِ تَرْعَىٰ مَا تَشَاءَ مِنْهُ مِمَّا هُوَ سَبَبُ مَنافِعِكُمْ مِنها.

وطَوىٰ النَّصُّ مَنَافِعَ النَّاسِ مِنَ الشَجر، لِبَدَاهَةِ الْعِلْم بِهِ، وللتَّنْبِيهِ عَلَىٰ تَخْصِيصِهِ بالذِّكْرِ في مَواضِعَ أخرَىٰ من القرآن المجيد.

الشَّجَرُ: كُلُّ نَباتٍ يَقُوم عَلَىٰ سَاقٍ صُلْبَة. وقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلّ نَباتٍ، ولو لَمْ يَكُنْ قَائماً عَلَىٰ سَاقٍ صُلْبَة.

يقال لغة: «سَامَتِ الْأَنْعَامُ» أي: مَشَتْ تَرْعَىٰ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ مِنْ نَبَاتَاتِ الأرض. ويقال: «أَسَام الرَّاعِي أنْعامَهُ» أي: جَعَلَهَا تَرْعَىٰ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ مِنْ نَبَاتَاتِ الْأَرْض، فَدَفَعَ بِهَا لِتَسُومَ.

- ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ . . .﴾:

جاء في هٰذَا الْبَيَانِ تَعْمِيمُ الزَّرْع الشَّامِلِ لِكُلِّ مَا يَنْبُتُ في الْأَرْضِ، مِنْ بُزُورٍ أَوْ جُذُورٍ أَوْ فُطُورٍ، وَيَكُونُ الْمَاءُ سَبَباً مِنْ أَسْبَابِ نَبَاتِهِ وَنُمُوِّهِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ مُسْتَوىٰ كَمالِهِ، وبَعْدَهُ جَاءَ تَخْصِيصُ الزَّيْتُونِ والنَّخِيلِ والأعْناب

بالذِّكْرِ لِمَا فِي هَـٰذِهِ الأشْجَارِ مِنْ مَنَافِعَ عَظِيمَةٍ غِذَائِيَّةٍ وَدَوائِيَّةٍ وغَيْرِهَا، وَبَعْدَهُ جَاءَ تَعْمِيمُ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، بما فيها الْأَزْهَارُ الَّتِي يَمْتَصُّ النَّحْلُ رَحِيقَها، فَقَدْ سَمَّاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ثَمَرَاتٍ مَهْمَا كانت صَغِيرَةً وَدَقِيقَةً.

- ﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑪﴾:

أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَا بَعْضَ معالِمِهِ البارزة، وهِيَ تُمَثِّلُ مَرَاحِلَ قَلِيلَةً جدّاً مِنْ مَراحِلِ الْخَلْقِ في دَوْرَةِ سُقْيا الْمَاءِ وإنْبَاتِ النَّبَاتِ، ذَكَرْنَا مِنها إنْزَالَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وأتْبَعْنَاهُ بِذِكْرِ بعض منافِعِهِ، وبِذِكْرِ كَوْنِهِ وَسِيلَةً من الْوَسَائِلِ لِإِنْبَاتِ النَّبَاتَاتِ المخْتَلِفَاتِ، لَآيَةً عَظِيمَةً عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ وعظيم حِكْمَتِهِ، واتْقَانِهِ لما يخْلُقُ، وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء، وَهَـٰذِهِ الآيَةُ يُدْرِكُ عَنَاصِرَهَا المتفكِّرُونَ.

وقَدْ تَحدَّثَ عُلَمَاءُ النَّبَاتَاتِ عَنْ خَصَائِصِ وفوائِدِ الزَّيتُونِ والنَّخِيلِ والْعِنَبِ، فَعَلَىٰ الْبَاحِثِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَا كَتَبَهُ المختَصُّونَ بالدِّرَاسَاتِ النَّبَاتِيَّةِ، لِيَكُونَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ بِمَا فِي هَـٰذِهِ المخلوقَاتِ الْجَلِيلَةِ النَّفْعِ للنَّاسِ مِنْ آيَاتٍ دَالَّات عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، فقد تَكُونُ هَـٰذِهِ الْبَصِيرَةُ دَافِعَةً لَهُ إِلَىٰ الإيمان، والإسلام، والْعَمَلِ بمراضِي الله.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَان بَعْضِ مِنَنِهِ عَلَىٰ عِبَاده:

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⑫﴾:

وقرأ ابْنُ عَامر: **[وَالشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ]** وهي على الاسْتِئْنَافِ بدْءاً من: **[والشَّمْسُ]**.

وفي قراءة جُمْهُورِ القراء: **[والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأمْرِهِ]** وهي علىٰ العطف على اللَّيْلِ والنهار.

أما قراءة حفص الأولىٰ، فَهِيَ عَلَىٰ الاسْتِئْنَاف بدءاً من [**والنُّجُوم**].

ولم أَرَ فِي هَـٰذِهِ القراءات إِلَّا اسْتِخْدَامَ وُجُوهٍ عَرَبية جَائِزَة.

التَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لعَمَلٍ مَا، أَوْ أَمْرٍ ما، وجَعْلُ الشيءِ مُطاوعاً لِمَا يُرَادُ بِهِ ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيرِه، وَتَسْخِيرُ هَـٰذِهِ المسَخَّرَاتِ المذكُوراتِ فِي الآية تَسْخِيرٌ جَبْرِيٌّ بسُلْطَانِ القضاءِ والْقَدَر.

وقد سبق في نجوم التَّنْزِيل امتنان اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ باللَّيْل والنهار، وبيانُ أَنَّهُمَا آيتان من آياته، وجاء هُنَا بَيَانُ تَسْخِيرِهِما لعبادِه في الأرض.

وسَبَقَ أيضاً في الآية (١٣) من سورة (فاطِر/٤٣ نزول) بيان تسخير اللهِ للشَّمْسِ والْقَمَرِ. وكذلِكَ في الآية (٥) من سورة (الزمر/٥٩ نزول).

وسبق أنْ جاء فِي الآية (٥٤) من سورة (الأعراف/٣٩) بيانُ تَسْخِير اللهِ النُّجُومَ، مَعَ تَسْخِيرِهِ الشَّمْسَ والْقَمَر لعباده.

فَلْيُرْجَعْ إلى تَدَبُّرِ هَـٰذِهِ النُّصُوص.

وهـٰذَا التَّسْخِيرُ لِهـٰذِهِ الآيَاتِ الكونيَّةِ الكُبْرَىٰ ذَوَاتِ النَّفْعِ العظيم، كائِنٌ بأمْرِ اللهِ التكْوينيّ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وفِي هَـٰذِهِ المسَخَّرَاتِ العظْمَىٰ لِآيَاتٌ جَلِيلَاتٌ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِن صِفَاتِ اللهِ وأَسْمَائِهِ، وَعَلَىٰ عِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، ورحْمَتِهِ لَهُمْ في حياة الابتلاء.

- ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: إنَّ في ذَلِكَ التَّسْخِيرِ لِهـٰذِهِ المخْلُوقَاتِ الكُبْرَىٰ لعَدَداً مِنَ الآيَات الدَّالَّاتِ عَلَىٰ صِفَاتٍ جَلِيلاتٍ من صِفَاتِ اللهِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، يتوصَّلُ لَهَا الَّذِينَ يعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيًّا وَعَقْلاً إرادِيًّا، فبالْعَقْلِ الْعِلْمِي يُدْرِكُون دَلالَاتِ هَـٰذِهِ الآيَاتِ، ويَحْتَفِظُونَ بما أَدْرَكُوهُ فِي ذَاكِرَاتِهم، وَبِالْعَقْلِ

الإرَادِي يُوَجِّهُونَ إراداتِهِمْ لِلْعَمَلِ بِمَا تَقْتَضِيهِ المعارِفُ الَّتِي تَوَصَّلُوا إِلَيْهَا، واحْتَفَظُوا بِها.

جاء توكيد هٰذِهِ الجملة بالمؤكداتِ: «إنَّ، والجملة الاسمية، واللّام».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَان بَعْضِ مِنَنِهِ عَلَىٰ عباده ومخاطِباً لَهُم:

● ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

ذَرَأ: يأتي بِمَعْنَىٰ «خَلَقَ» وبِمَعَنَىٰ «بَثَّ» وكلا المعنيَيْنِ مرادان، فاللهُ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ خَلَق لِعِبَادِهِ فِي الأَرْض ونَشَرَ فِيها عَنْ طَرِيقِ الذُّرِّيَّةِ مَخْلُوقَاتٍ كَثِيرَاتٍ مخْتَلِفَاتِ الأَولْوَان.

اللَّوْنُ: هو في الأَصْلِ صِفَةُ جِسْمِ الشيء مِن كونِهِ أبيضَ أو أحمر أو أخْضَرَ أو أسْوَدَ أو غير ذلك. وقَدْ سَبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّر الآيَتَيْنِ (٢٧ و٢٨) مِنْ سُورَة (فَاطِر/٤٣ نزول) بَيَان مَا يَكْفِي عَنِ الأَلْوَان.

ويُطْلَقُ اللَّوْن تَوَسُّعاً عَلَىٰ النَّوْعِ أو الجِنْسِ أوِ الصِّنْفِ، فَيُقَالُ مثلاً أَلْوانُ الأَطْعِمَةِ، أي: أنواعُها وأصْنَافُها وأجْنَاسُها.

وكِلَا المعْنَيَيْنِ يَصِحُّ أَنْ يُرَادَا، والواقِعُ يَدُلُّ عَلَىٰ هٰذَا.

● ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي ذَرَأَهُ اللهُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ، أَيُّهَا الموضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، لَآيَةً جَلِيلَةً عَظِيمَةً دَافِعَةً لِقَوْم يَتَذَكَّرُون مِنْكُم، أَنْ يَعْمَلُوا مَعَ كُلِّ تَذَكُّرٍ لِلَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، مَا يَقْتَضِيهِ وَاجِبُ شُكْرِ اللهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ، وَواجِبُ طَاعَتِهِ فِي أَوَامِرِهِ ونَوَاهِيهِ.

ففِعْلُ «يَتَذَكَّرُ» فِي الدَّلالاتِ القرآنِيَّةِ بِمَثَابَةِ مُصْطَلَحٍ يُرَادُ بِهِ الأَثَرُ النَّفْسِيُّ والقَلْبِيُّ فِي السُّلُوكِ الدِّيني مِنْ حُضُورِ المَعْلُومَةِ فِي الذَّاكِرَة.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ متابِعاً بَيَانَ بَعْضِ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِباده:

- ● ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: واللهُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ، وقَدْ سَبَقَ قَرِيباً بَيَانُ معْنَىٰ التَّسْخِير.

وقد أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ أرْبَعِ مِنَنٍ امْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ في الحياة الدُّنيا مِنْ تَسْخِيرِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وَهَـٰذِهِ المنَنُ تُنَبِّهُ عَلَىٰ وَاجب شُكْرِهِ عَلَيْهَا:

المنَّةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: أي: لتَسْتَخْرِجُوا مِنَ الأَحْيَاءِ الْبَحْرِيَّةِ أحْياءً ذَوَاتَ لَحْمٍ طَرِيٍّ تَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَفِي هـٰذَا اللَّحمِ مَنَافِعُ لَكُمْ وَطَيِّبَاتٌ تَسْتَمْتِعُونَ بِالْأَكْلِ مِنها.

الطَّرِيُّ: الْغَضُّ اللَّيِّنُ. يُقَالُ لُغة: «طَرِيَ، يَطْرَىٰ، طَرَاوَةً، وطَرَاءَةً» و«طَرُوَ، يَطْرُو، طَرَاوَةً، وطَرَاءَةً، وَطَرَاءً» فَهُوَ طَرِيٌّ» أي: غَضٌّ لَيِّنٌ.

ومَعْلُومٌ أَنَّهُ يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبِحَارِ أَلْيَن اللُّحُومِ لِلآكلين.

المنَّةُ الثَّانِيةُ: دلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾:

الْحِلْيَةُ: والْحَلْيُ: مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ مِنْ حِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ، أو مَصُوغٍ من المعَادِنِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

تَلْبَسُونَهَا: أَصْلُ «اللُّبْسِ» سَتْرُ الْجِسْمِ أَو بَعْضِهِ بِثَوْبٍ ما أو بنَحْوِهِ، ثُمَّ جَرَىٰ التَّعْمِيمُ حَتَّىٰ شَمَلَ لُبْسَ خَاتَم في إصْبَعٍ، ولُبْسَ عِقْدٍ مِنْ سِلْسِلَةٍ دَقِيقَةِ الصُّنعِ جدًّا فِي الْجِيدِ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنْ الْبِحَارَ يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤُ، والْمَرْجَان، وغيرها مِمَّا يَتَزَيَّنُ بِهِ الناس.

وخُوطِبَ الذُّكُورُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ مِنْ بابِ التَّغْلِيب، أي: ويَلْبَسُهَا إِنَاثُكُمْ.

المنَّةُ الثالثَةُ: دلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾:

الْفُلْك: مَرْكَبُ البحر، ويُطْلَقُ على الواحد، والاثنين، والجمع، ويُذَكَّرُ ويُؤَنَثُ، فيقال: هو الفلك، وهي الْفُلْك.

مَوَاخِرَ جَمْع «مَاخِرَة» أي: تَجْرِي شَاقَّةً الْمَاءَ شَقًّا، يقالُ لغة: «مَخرَتِ السَّفِينَةُ، تَمْخُرُ، مَخْراً، ومُخُوراً» أي: جرَت تَشُقُّ الماء.

أي: وتَرَىٰ أَيُّهَا الرّائِي أَيًّا كُنْتَ، أَنَّ اللهَ امْتَنَّ عَلَىٰ عبادِهِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ بالْمَرَاكِبِ الْبَحْرِيَّةِ، التي تَجْرِي في الماء فَتَشُقُّهُ شَقًّا، لِقَضَاءِ كَثِيرٍ مِنْ حَاجَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ عَلَىٰ ظُهورِها.

جاء بَيَانُ هَـٰذِهِ المنَّةِ الثَّالِثَةِ مُغَايراً فِي أُسْلُوبِهِ لِلأُسْلُوب الّذِي جاء فيه ذِكْرُ المنَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْن، إيثَاراً للتَّنْوِيعِ، ولِمَا فِي عِبارَةِ ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ مِنْ إِبْدَاعٍ في اخْتِيارِ الصُّورَةِ المقَدَّمَةِ في عَرْضِ المنَّةِ الرَّبَّانِيَّة.

المنَّةُ الرابِعَة: دلَّ عَلَيْهَا قوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾:

أي: وَلِتَبْتَغُوا مَكَاسِبَ ومَنَافِعَ وَمَصَالِحَ وَحَاجَاتٍ في صُدُورِكُمْ، مِنْ فَضْلِ اللهِ، بِرُكُوبِهَا والسَّفَرِ أَو التَّجْوَالِ وأَنْتُمْ آمِنُونَ عَلَىٰ ظُهُورِهَا تُوَجّهونَها حَيْثُ تُرِيدُونَ، طَامِعِينَ في أَنْ يَتَفَضَّلَ اللهُ عَلَيْكُمْ بِتَحْقِيقِ مَا تَقْصِدُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ومِنْهَا المكاسِبُ التِّجاريّة.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ الآية:

- ﴿... وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑭﴾: أي: وَرَغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ تَشْكُرُوا لِتَنْجُوا مِنْ عَذَاب الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ الْمُجْرِمِينَ، وَلِتَنَالُوا ثواب الشَّاكِرين في جنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

كلمة «لَعَلَّ» أصْلُ معناها التَّرَجِّي والتَّوَقُّعُ، وهٰذَا المعْنَىٰ لا يَلِيقُ بِمَنْ أَحَاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً، ولمَّا كَانَ بَعْضُ مَا يُرْجَىٰ مَرْغُوباً فِيهِ كَانَ حَمْلُ «لَعَلَّ» على معْنَىٰ الرَّغْبَةِ هُوَ المناسِبَ بِمِثْلِ هٰذَا التَّعْبِير.

الشُّكْرُ: مقابَلَةُ إِنْعَامِ المنْعِمِ بما يُرْضِيهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْك.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَيَانَ بَعْضِ نِعَمِهِ على عبادِهِ في كَوْنِهِ:

- ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑮ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ⑯﴾:

رَوَاسِيَ: أي: جِبَالاً رَاسِيَاتٍ ثَابِتَاتٍ في أَعْمَاقٍ مِنْ تَحْتِ سَطْحِ الأَرْضِ. **الرَّاسِي**: الثَّابِتُ الرَّاسِخ.

- ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: أيْ: مَنْعَ أَنْ تَتَحَرَّكَ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِكُمْ، وتَضْطَّرِبَ بِكُمْ، يقال لغة: «مَادَ الشَّيْءُ، يَمِيدُ، مَيْداً، ومَيَدَاناً» أي: تَحَرَّكَ واضْطرب.

عِبَارَةُ ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ حِينَ أرْسَى الجِبَالَ فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ الْأَرْضِ، أَلْقَاهَا إِلْقَاءً بِنَقْلِهَا مِنْ مَوَاضِعَ في الْأَرْضِ، وَطَرْحِهَا في الْأَمْكِنَةِ الْمُخْتَارَةِ لِغَوْصِهَا ضِمْنَ قِشْرَةِ الْأَرْضِ، والضَّغْطِ عَلَيْهَا كَمَا تُضْرِبُ الْأَوْتَادُ لِتَدْخُلَ فِي بَاطِنِ الْأَرْض، وبِتَوَالِي الضُّغُوطِ غاصَتِ الجبَالُ الّتِي أُلْقِيت، حَتَّىٰ صَارَ الْغَائِصُ مِنْهَا والمثَبِّتُ لِقِشْرَةِ الأرضِ من الْمَيْدَان أكْثَرَ مِنَ الظَّاهِرِ فَوْقَ سَطْحِ الْأَرْضِ مِنها.

• ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾: أي: وشَقَّ في الأرْضِ أنْهاراً، وأَجْرَىٰ فِيها الْمَاءَ الْحُلْوَ لِمَنافِعِكُمُ الكَثِيرَةِ مِنْهُ.

• ﴿... وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥﴾: وَجَعَلَ لَكُمْ فِي سَطْحِ الْأَرْضِ طُرُقاً قَابِلَةً لِأَنْ تَسْلُكُوها، رَغْبَةً فِي أَنْ تَصِلُوا بِسُلُوكِهَا إِلَىٰ مَا تُرِيدُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ مِن الْبُلْدَانِ، أَوْ مَواضِعَ مِنَ الْأَرْضِ لَكُمْ رَغَباتٌ في أَنْ تَصِلُوا إِلَيْهَا.

• ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: أيْ: وَجَعَلَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ عَلامَاتٍ تُمَيِّزُ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ، حَتَّىٰ لَا تَلْتَبِسَ عَلَيْكُمْ مَواضِعُهَا، وهٰذَا مُشَاهَدٌ في اخْتِلَافِ صِفَاتِ كُلِّ قَسْمٍ مِنَ الْأَرْضِ عَنْ غَيْرِهِ من الأقْسَام.

• ﴿... وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾: أي: وَجعَلْنا في نُجُومِ السَّمَاءِ عَلامَاتٍ تَوَصَّلَ إِلَىٰ مَعْرِفَهَا أولُوا النَّظَرِ الْعِلْمِيِّ، فَهُمْ يَهْتَدُونَ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ، لِتَحْدِيدِ اتِّجَاهَاتِهِمْ والطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُونها.

وقَدْ سَبَقَ في سورة (الأنْعام/ ٥٥ نزول) ذِكْرُ هٰذِهِ المنَّةِ مِنْ مِنَنِ اللهِ عَلَىٰ عِبادِهِ في الْأَرْض، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها خطاباً لعباده:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٩٧﴾:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ فِي مُحاكَمَةٍ إِقْنَاعِيَّةٍ للمشْرِكين بَعْدَ الْعَرْضِ الموسَّعِ لبَعْضِ ظَواهِرِ خَلْقِهِ فِي كَوْنِهِ، وَبِأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الْحِوارِيّ:

• ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾؟:

أي: هٰذَا الَّذِي نَبَّهْنَاكُمْ عَلَيْهِ مِنْ ظَوَاهِرِ خَلْقِ اللهِ في كَوْنِهِ يُثْبِتُ عظَمَةَ الرَّبِّ الْخَالِقِ، وَعَظَمَةَ صِفَاتِهِ، وَسُمُوَّ حِكْمَتِهِ، وَواسِعَ فَضْلِهِ عَلَىٰ عِبادِهِ.

وأَنْتُمْ تَجْعَلُونَ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلَهِيَّتِهِ، وَكُلُّ مَا تَدَّعُونَ مِنْ شُرَكَاءَ لَهُ لَا يَخْلُقُ واحِدٌ مِنْهُمْ شَيْئاً، فَحَاكَمُوا أَنْفُسَكُمْ.

اللهُ الرَّبُّ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فِي الكَوْنِ، أَفَيَصِحُّ في عُقُولِكُمْ، أنْ تَدَّعُوا أَنَّ مَنْ لَا يَخْلُقُ شَيْئاً مُسَاوٍ لِخَالِقِ كُلِّ شَيءٍ في الكَوْن، في الرُّبُوبِيَّةِ أَوِ الإِلَهِيَّة.

• ﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾: أي: أَفَلَا تَضَعُونَ هَـٰذِهِ الحقيقَةَ في مواضِعِ تَذَكُّرِكُمُ الواعِي الْعَامِلِ، حَتَّىٰ تكُونَ بَاعِثَةً لَكُمْ لِأَنْ تُدْرِكُوا أَنَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ شِرْكٍ بَاطِلٍ وَاضِحُ الْبُطْلَانِ، فَتَنْبِذُوه، وَتُؤْمِنُوا بالْحَقِّ، وتُعْلِنُوا إسْلَامَكُمْ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَتَعْمَلُوا بِمَا أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ لِهِدَايَتِكُمْ وهِدَايَةِ كُلِّ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَعْلِيقاً عَلَىٰ ما سَبَقَ أَنْ ذَكَرَ مِنْ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وإِطْمَاعاً لِلْعُصَاةِ مِنْهُمْ بالغُفْرَانِ إذَا استَغْفَرُوا وتابوا، ومُخَاطِباً لَهُمْ:

• ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: ذَكَرَ اللهُ لَكُمْ فِي آيَاتٍ سَابِقَاتٍ بَدْءاً مِنَ الآيَةِ (٣) بَعْضَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الموضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، ولَوْ اجْتَهَدْتُمْ فِي عَدِّ مُفْرَدَاتِ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَهَا، لِخَفَاءِ مُعْظَمِهَا عَلَيْكُمْ، ولِكَثْرَتِهَا كَثْرَةً تَفُوقُ اسْتِطَاعَتَكُمْ عَلَىٰ الإِحْصَاء.

إحْصَاءُ الشَّيْءِ: عِلْمُ مِقْدَارِهِ الْعَدَدِيّ.

• ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: أي: نِعَمَهُ الَّتِي تَفَضَّلَ وَيَتَفَضَّلُ بِهَا دَوَاماً عَلَيْكُمْ، المفْرَدُ النَكِرَةُ إِذَا أُضِيفَ إِلَىٰ مَعْرِفَةٍ صَارَ بِقُوَّةِ الْجَمْعِ، فعِبَارَة: «نِعْمَةَ اللهِ» تَدُلُّ عَلَىٰ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ «نِعَمَ اللهِ».

وَيَا أَيُّهَا المشْرِكُونَ الَّذِينَ قَامَتْ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْكُمْ بِبُطْلَانِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وَيَا أَيُّهَا الْعُصَاةُ مِنْ كُلِّ دَرَكَاتِ المعاصِي الخفيفَةِ والثّقِيلَةِ، الصَّغَائِرِ والكَبَائِرِ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِذَا آمَنْتُمْ واسْتَغْفَرْتُمْ وتُبْتُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقَدْ سَبَقَ كثيراً تَحْلِيلُ نَظِيرِ هَـٰذِهِ الْعِبَارَة.

أي: فَتَدَارَكُوا أنفُسَكُمْ قَبْلَ مَوْتِكُمْ.

- ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ⑲﴾:

اقْتَضَىٰ الْإِطْمَاعُ بِرَحْمَةِ اللهِ إِشْعَارَهُمْ بانْتِقَامِهِ الْعَادِلِ، بِأُسْلُوبِ ذِكْرِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَقَدْ خَاطَبَهُمْ بِهـٰذَا كَمَا خَاطَبَهُمْ بالَّذِي جاء في الآيَةِ السابقة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ شُرَكَاءِ المشْرِكِينَ مُؤَكِّداً مَا جَاءَ فِي الآيَةِ (١٧) ضِمْناً، مَعَ الالْتِفَاتِ عَنْ خِطَابِ المشْرِكِين:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ⑳ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ㉑﴾: وفي القراءة الأخرى: **[تدْعُونَ]** خطاباً للمشركين.

أي: والَّذِينَ يَعْبُدُون مَعْبُودِين أَوْ مَعْبُودَاتٍ مِنْ دُونِ اللهِ كَانُوا أَحْيَاءً فَمَاتُوا، مَا كَانُوا يَخْلُقُونَ شَيْئاً، بَلْ كَانُوا هُمْ يَخْلَقُون خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ مَعَ تَوَالِي أَزْمَانِ بَقَائِهِمْ فِي الْحَيَاةِ.

وَهُمُ الْآنَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ مَتَىٰ يُبْعَثُونَ لِيَوْم الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الْجزَاء، فَأَمْرُهُمْ كَأَمْرِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ مَاتُوا مَهْمَا كَانُوا فِي حَيَوَاتِهِمْ صُلَحَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ عِبَادَهُ بِشَأْنِ أَنَّ الْإِلَـٰهَ الْحَقَّ إِلَـٰهٌ واحِد، وأَنَّ الْإِيمانَ بالْآخِرَةِ عُنْصُرٌ أَسَاسٌ من عَنَاصِرِ سَلَامَةِ الْإِنْسَانِ ونجاتِهِ، بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ عَلَىٰ أَنَّ الإلَـٰهَ واحِدٌ.

- ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

- ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾: أي: بَعْدَ الْبَيَانَاتِ السَّابِقَاتِ بِشَأْنِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ والإِلَٰهِيَّةِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، والحجج الْبُرْهَانِيَّةِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ، صَارَ مِنَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ تَوْكِيداتٍ في الْجُمْلَة: «إِلَٰهُكُمُ الْحَقُّ أَيُّهَا الْعِبَادُ الموْضُوعُونَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ إِلَٰهٌ واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ».

- ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾:

فِي هَٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ أَنَّ مَنْ كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، واتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْهُ، وعَنِ الْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ وعَنِ اتِّبَاعِهِ، تَتَحَجَّرُ قُلُوبُهُمْ فَلَا تُدْرِكُ الْحَقَّ بَلْ تكُونَ مُنْكِرَةً لَهُ، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ كُلِّ الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي تُقَامُ لِأَجْهِزَةِ الإِدْرَاكِ لَدَيْهِمْ، وَهَٰذَا يَجْعَلُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ، فَلَا يَخافُونَ عِقَابَ اللهِ فيها، وَحِينَ يَنْعَدِمُ الْخَوْفُ مِنْ عِقَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ تَنْمُو فِي النَّفْسِ الإنْسَانِيَّةِ غَالِباً عَوَامِلَ فِعْلِ الشّرّ، باتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ والشَّهوَاتِ والْغَرَائِزِ، والنَّهَم لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِهَا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، والْبَصِيرَةُ عَمْيَاء.

- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

فِي هَٰذِهِ إِشْعَارٌ بِأُسْلُوبِ الكِنَايَةِ فِيهِ تَرْهِيبٌ مِنْ عِقَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارَةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكِيدِ الْكَلَام وَتَوْثِيقِهِ، فَهِيَ بِمَنْزِلَة: «حَقًّا ـ لَا بُدَّ ـ لَا مَحَالَة ـ لَا شَكَّ» وَأَصْلُ معْنَىٰ «الْجَرْم» الْقَطْع.

وبِمَا أَنَّ اللهَ لَا يحِبُّ المسْتَكْبِرِينَ وهُوَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يَعْلِنُونَ، فَهُمْ مُرَشَّحُونَ لِعِقَابِ اللهِ الشَّدِيدِ يَوْمَ الدِّين.

وبهَٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثّاني من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّتِهِ، وَفَتْحِه.

(٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (النحل)

الآيات من (٢٤ ـ ٢٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٧) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٢٨) فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾:

القراءات:

(٢٦) • قرأ أبو عمْرو: [**فَخَرَّ عَلَيْهِمِ**] بِكَسْرِ هَاء الضمير والميم بَعْدَها.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويَعْقُوب، وخلف: [**فَخَرَّ عَلَيْهُمُ**] بضَمّ هاء الضَّميرِ والميم بَعْدَها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَخَرَّ عَلَيْهِمُ**] بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.

(٢٧) • قرأ يَعْقُوب: [**يُخْزِيهُمْ**] و[**فِيهُمْ**] بضم هَاء الضمير فيهما.

وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِكَسْرِ هَاءِ الضَّمِيرِ فيهما.

(٢٧) • قرأ نَافع: [**تُشَاقُّونِ**] بِكَسْرِ النون. أي: تُشَاقُّونَنِي.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تُشَاقُّونَ**] بفَتْح النُّون.

(٢٨) ● قرأ حَمْزَة، وَخلف: **[يَتَوَفَّاهُمُ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَتَوفَاهُمُ]**.

وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَتَوَفَّاهُمُ]**.

وهما وجهان عَربيان جائزان.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ كُفْرِ المشْرِكِينَ المنْكِرِينَ لِمَا أنزل اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ محمّد ﷺ، والْعَامِلِينَ عَلَىٰ إِضْلَالِ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ، مَعَ تَحْذِيرِهِمْ مِنْ عِقَابَيْنِ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا، وَمُؤَجَّلٍ إِلَىٰ يَوْمِ القيامَة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَئِمَةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ الَّذِينَ يُضِلُّونَ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ مِنْ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ:

● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾:

أي: وإِذَا قِيلَ لِأَئِمَّةِ الشِّرْكِ الْمُضِلِّينَ: مَا الَّذِي أَنْزَلَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ رَسُولِهِ محمَّد ﷺ، أَهُوَ كِتَابٌ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟.

قَالُوا: أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ، أي: لَمْ يُنْزِلْ رَبُّنَا كِتَاباً عَلَىٰ محمد، والّذِي يتْلُوهُ محمَّدٌ، وَيزْعُمُ أَنَّهُ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّنَا، هُوَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين. واسْتِعْمَالُ [إِذَا] يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُكَرِّرُونَ إجَابَتَهُمْ حِينَ سُؤالهم.

عبارَة: «أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ» لَهَا مَعْنيان:

المعنى الأول: أبَاطِيل وأحَادِيثُ لَا نِظَامَ لَهَا، ولفظ «أَسَاطِير» جَمْعُ: «إِسْطَار» و«إِسْطَارَة» و«أُسْطُور» و«اسْطُورَة».

المعنى الثاني: مَكْتُوبَاتُ الأوَّلِينَ وَمَسْطُوراتُهم، قَالَ أبو عُبَيْدَة: جُمِعَ «سَطْر» عَلَىٰ «أسْطُر» ثُمَّ جُمِعَ «أسْطُر» عَلَىٰ «أسَاطير».

وَكُلٌّ مِنْ هَـٰذَيْن المعنَيَيْنِ مُرَادٌ لَهُمْ، فَالْعَامَّة الْجَهَلَةُ مِنْ جَمَاهِيرِهِم يُفْهِمُونَهُمْ أنَّ القرآنَ أبَاطِيلُ وَأحَادِيثُ لَا نِظَامَ لَهَا. وأَهْلُ الْفَهْمِ والرَّأي مِنْ جَمَاهِيرهِمْ يَزْعُمُونَ لَهُمْ أنَّ مُحَمَّداً يَنْقُلُ مَا يَأتِي بِهِ مِنْ مَكْتُوبَاتِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، كالتَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ.

- ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ ... ﴿٢٥﴾﴾

أيْ: يَفْعَلُونَ هـٰذَا مُعَانِدِينَ وَرَافِضِينَ الاعْتِراف بالْحَقِّ، لِتَكُونَ عَاقِبَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنْ يَحْمِلُوا أوْزَارَهُمْ كامِلَةً، وَأنْ يَحْمِلُوا مِنْ أوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ مَا كَانُوا هُمُ السَّبَبَ فِي إضْلَالِهِمْ بِهِ، وهؤلَاءِ الأتْبَاعُ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ تبِعُوا أئِمَّتَهُمْ تَقْلِيداً وهُمْ جاهِلُونَ، غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَىٰ إدْرَاكِ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُ اللهِ في كِتَابِهِ، عَلَىٰ أنَّهُمْ مُذْنِبُون كَفَرَةٌ لِأنَّهُمْ رَفَضُوا الْإيمانَ بِمَا أدْرَكُوا أنَّهُ الْحَقُّ مِنْ أرْكَانِ الإيمان.

الأوْزَار: جمع «الْوِزْر» وهُوَ في اللُّغَةِ الْحِملُ الثَّقِيل، ولَمَّا كَانَ ارْتِكَابُ الذَّنْبِ وفِعْلُ الإثْم مِمَّا يَتَحَمَّلُ بِهِ الإنْسَانُ حِمْلاً ثَقِيلاً، أُطْلِقَ عَلَىٰ الذَّنْبِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ المكلَّفُ المخْتَارُ المسْؤُولُ عَنْ أعْمَالِهِ الإدَارِيَّة.

يقال لغة: «وَزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، ووَزْراً، وزِرَةً» أي: حَمَلَ حِمْلاً ثَقِيلاً، أوِ ارْتَكَبَ ذَنْباً كبيراً ثقيلاً، فَهُوَ «وَازِرٌ» وَهِيَ «وَازِرَة».

- ﴿... أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾: «ألَا» هُنَا أداة اسْتِفْتَاح، وتَنْبِيهٍ، وتَحْقيق. «سَاءَ» فِعْلٌ لإنْشَاءِ الذَّمّ على سَبِيلِ المبالغة، مع الدَّلَالة عَلَىٰ معنى التعْجيب، أي: مَا أسْوأ مَا يَحْمِلُونَ من آثَام كُبْرَىٰ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً الحديث عَنْ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ والتَّضْلِيل:

• ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

الْمَكْرُ: تَدْبير أمْرٍ مَا فِي خَفَاء، يَكُونُ في الْخيْرِ، ويكُونُ في الشَّرّ، والمَكْرُ هُنا مُسْتَعْمَلٌ في الْمَكْرِ الَّذِي يَكُونُ في الشّرّ، لِأَنَّه تَدْبيرٌ لِلصَّدِّ عَنْ دِينِ اللهِ الْحَقِّ مِنْ قِبَلِ أَئِمَّة الْكُفْرِ الْمُضِلِّيلَ.

الْقَوَاعِدُ: جمع «القاعِدَة» وهي الأَسَاسُ. ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾: أي: مِنَ الْأُسس.

حَيْثُ: اسْمُ مَكَانٍ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ الضَّمِّ، في مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَىٰ أَنَّهُ ظَرْف مَكَان.

الْخِزْيُ: الذُّلُّ والْهوان، والافْتِضَاحُ بالقَبَائِحِ والسَّيِّئَاتِ والآثَامِ الْمورِثَة لِلْخجل الشَّديد مِنها. والْوُقُوعُ في الْعَذَاب.

تُشَاقُّونَ: أي: تُخَالِفُونَ وتُعَادُونَ رُسُلَ رَبِّكُمْ والمؤمنينَ المسْلِمِينَ. قَال الزَّجَّاج: الشِّقَاقُ العداوة بَيْنَ فَرِيقَيْنِ والخلاف بَيْنَ اثْنَيْن، سُمِّى شِقَاقاً لِأَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ مِنْ فِرْقَتِي العداوة قَصدَ شِقًّا، أيْ: نَاحِيَةً غَيْرَ شِقِّ صَاحِبِهِ.

• ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: قَدْ مَكَرَ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والتَّضْلِيلِ الَّذِينَ سَلَفُوا في الْقُرُون الأُولَىٰ، مِنْ قَبْلِ أئِمَّة الشِّرْكِ والكُفْرِ والتَّضْلِيلِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ فِي مَكَّة، باتِّخَاذِ التَّدْبِيرَاتِ الصَّادَاتِ عن دِينِ اللهِ الحقّ.

• ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾:

أي: فَأَتَىٰ أَثَرُ أَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِتَدْمِيرِ أَبْنِيَتِهِمْ عَلَيْهِمْ وإهْلاكِهِمْ،

فَزَلْزَلَ هَـٰذِهِ الْأَبْنِيَةَ بَدْءاً مِنْ قَوَاعِدِهَا، فَخَرَّ مُتَفَكِّكاً مِنْ أَثَرِ الزِّلْزَالِ سَقْفُ كُلِّ بِنَاءٍ عَلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ مِنْهُمْ، وَكَانَ بِذَلِكَ تَدْمِيرُ أَبْنِيَتِهِمْ كُلِّهَا وَإِهْلَاكُهُمْ جَمِيعاً، بَعْدَ أَنْ نَالُوا مِنَ الْعَذَابِ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِعَدْلِ اللهِ.

- ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

أي: وأتَىٰ كُفَّارَ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ الْمُشَابِهِينَ لِأَئِمَّةِ كُفَّارِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، الْعَذَابُ الَّذِي وَصَلَتْ إِلَىٰ أَجْسَادِهِمْ وَسَائِلُهُ مِنْ أَمْكِنَةٍ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهَا سَتَأْتِيهِمْ مِنْهَا.

ومِنَ الاحْتِمَالَاتِ الَّتِي لَمْ يَكُونُوا يُدْخِلُونَهَا فِي حُسْبَانِهِمْ أَنْ تَتَفَجَّرَ بَرَاكِينُ مُدَمِّرَةٌ ومُعَذِّبَةٌ لَهُمْ مِنْ تَحْتِ أَبْنِيَتِهِمْ.

- ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ... ﴿٢٧﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ، وَبَعْثِهِمْ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَعْرِضُهُمُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ، خَزَايَا أَذِلَّاءَ مُهَانِينَ فِي مَوْقِفِ حِسَابِهِمْ.

- ﴿... وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ... ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وَيَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَهُمْ: أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمْتُمُوهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شُرَكَائِي فِي رُبُوبِيَّتِي وَإِلَهِيَّتِي، والَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ رَسُولِي والمؤمِنِينَ فِيهِمْ، فَتَجْعَلُونَ أَنْفُسَكُمْ فِي شِقِّ عُبَّادِ آلِهَتِكُمْ المشْرِكِينَ بِرَبّكم، في مُقَابِلِ شِقّ الرَّسُولِ والمؤمنين الَّذِينَ كَانُوا يُبَيِّنُونَ لَكُمْ أَنَّ أَرْبَابَكُمْ وآلِهَتَكُمْ باطِلَة، وأَنَّ إيمَانَكُمْ بِهَا كُفْرٌ باللهِ رَبِّكُمُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هو.

- ﴿... قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

عبارة مُقْتَطَعَةٌ مِمَّا سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ أَنْ يَشْهَدَ أَهْلُ الْمَحْشَرِ مَا يَجْرِي لِلْكَافِرِين مِنْ خِزْيٍ وَسُوءٍ.

أي: وَيَوْمَئِذٍ يَقُول الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ إِنْسٍ وجِنٍّ مُؤْمِنِينَ، وَمَلَائِكَةٍ: إِنَّ الْخِزْيَ والذُّلَّ والْهَوَانَ الْيَوْمَ، والسُّوءَ، على الَّذِينَ كَانُوا فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ كَافِرِينَ بِمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

السُّوءُ: كُلُّ أَمْرٍ قَبِيحٍ مَكْرُوه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ عُمُومِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ كُفَّاراً فِي بَيَانٍ مُسْتَأْنَفٍ:

● ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: الّذِينَ تَتوفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي آجَالِهِمْ بَعْدَ رِحْلَةِ الابْتِلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بالكُفْرِ، وعِنْدَهُمْ خَوْفٌ مِمَّا هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ يُعْلِنُونَ اسْتِسْلَامَهُمْ وَخُضوعَهُمْ، ويُحَاوِلُونَ التَّنَصُّلَ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ سَيِّئَةٍ لَمْ يَكُونُونَ يُجاهِرُونَ بِها، فَيَقُولُونَ: مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ.

فيَأْتِيهِمُ الْجَوَابُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ مِنْ رَبِّهِمْ عَنْدَ مُحاكَمَتِهِمْ فِي مَوْقِفِ حِسَابِهِمْ: بَلَىٰ كُنْتُمْ كَفرَةً، وَكَانَتْ أَعْمَالُكُم سَيِّئَةً مُلَائِمةً لِكُفْرِكم، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَا تَخفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُم خَافِيَةٌ مَهْمَا كَانَتْ سِرّاً فِي نُفُوسِكُمْ.

فَحُكْمُ اللهِ الْيَوْمَ عَلَيْكُم بِأَنَّكُم كَافِرُونَ، وَتَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ في جَهَنَّم دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِين.

● ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

عبارَةٌ مُقْتَطَعَةٌ مِمَّا سَوْفَ يُقَالُ لَهُم، على وفْقِ أَسْلُوبِ الاقْتِطاع فِي القرآنِ المجيد، الَّذِي هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ الْبَدِيعَةِ.

أي: فَادْخُلُوا بِحَسَبِ دَرَكَاتِكُمْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها.

- ﴿... فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

بِئْسَ: فِعْلٌ جَامِدٌ لِإِنْشَاءِ الذَّمِّ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَة.

مَثْوىٰ: أي: مَكَانُ إِقَامَة.

المتَكَبِّرِينَ: أي: الَّذِينَ كَانَ كِبْرُهُمْ هُوَ الدَّافِعَ لَهُمْ لِعَدَمِ الإِيمَانِ باللهِ وكتابِهِ ورسُولِهِ، ولِعَدَمِ الْإِسْلَامِ للهِ واتِّبَاعِ الرَّسُول ﷺ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (النَّحْل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (النحل)
الآيات من (٣٠ ـ ٣٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ
ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

القراءات:

(٣٣) • قرأ حمزة، وخلف: [يَتَوَفَّاهُمْ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَتَوَفَّاهُمْ].

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيّان جائزان.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ لَقْطَةٌ تَتعلَّقُ بالمؤمِنِينَ المتَّقِينَ بِشَأْنِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ، مع بَيَانِ بَعْضِ مَا يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ فِي جنَّاتِ عَدْن، وَمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِنْ تَحِيَّةٍ وَتَكْرِيم.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المؤمِنِينَ المتَّقِين:

- ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ ... (٣٠)﴾:

جَاءَ هٰذَا البَيَان بِشَأْنِ المتَّقِين فِي مُقَابِلِ مَا جَاءَ بِشَأْنِ أئِمَّة الشِّرْكِ والتَّضْلِيل، في الآية (٢٤): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾:

فالكَفَرَةُ المشْرِكُونَ المعانِدُونَ قَالُوا بِشَأْنِ القرآن: هو أَسَاطِير الأَوَّلين.

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا واتَّقَوْا فَقَالُوا بِشَأْنِ الْقُرْآنِ حِينَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ﴾: أي: مَا الَّذِي أَنْزَلَهُ رَبُّكُمْ فِي كِتَابِهِ: ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾: أي: قَالُوا أَنْزَلَ رَبُّنَا فِي كِتَابِهِ خَيْراً عَظِيماً.

فالْفَرِيقَانِ عَلَىٰ طَرَفَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ فِي مَوَاقِفِهِمَا مِنَ الْقُرْآنِ المجيد.

إِنَّ عبارة ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِ.

أَمَّا عِبَارَةُ المتقين: ﴿خَيْرًا﴾ فَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ فِيهِ خَيْرٌ عظيم.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَعْقِيباً عَلَىٰ مَقالَة المؤمنِينَ المتَّقِين:

- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ

يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

فِي هٰذَا الْبَيان وَعْدٌ مِنَ اللهِ الكَرِيمِ الْجَوادِ ذِي الْفَضْلِ لِلْمُحْسِنِينَ أَصْحَابِ مَرْتَبَةِ الإِحسَانِ، ولِعُمُومِ المتَّقين.

أَيْ: الَّذِينَ أَحْسَنُوا فَبَلَغُوا بِأَعْمَالِهِم الصالِحَة مَرْتَبَةَ الإِحْسَانِ، لَهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيا مِنْ رَبِّهِم مَقَادِيرُ حَسَنَةٌ تَسُرُّهُمْ. ولَكِنْ لَهُمْ في الآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ خَيْرٌ عَظِيمٌ يَفُوقُ كُلَّ تَصَوُّرَاتِهِمْ.

- ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾: أَيْ: ولَدارُ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وهي الْجَنَّةُ، ذَاتُ الْأَقْسَامِ الكَثِيرَةِ الَّتِي يُعْتَبَرُ كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا جَنَّةً مُكْتَمِلَةَ الْعَنَاصِرِ المطْلُوبَةِ فِيها:

- ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: هَٰذِهِ عِبارَةُ ثَنَاءٍ عَلَىٰ دَارِالمتَّقِين، جَاءَتْ فِي مُقَابِلِ ذَمِّ مَكَانِ إِقَامَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ، في الآيَة السَّابقة: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَمْنَحُ الْمُحْسِنِينَ مِنْ عُمُومِ دَارِ المتَّقِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ﴾:

جَنَّاتُ عَدْنٍ هِيَ أَقْسَامٌ ذَاتُ مُسْتَوىً رَفِيعٍ مِنْ عُمُومِ دَارِ المتقين، وَهِي فَوْقَ أَقْسَامِ جَنَّاتِ المتَّقِينَ الْعَادِيِّين، ودُونَ مَنَازِلِ الْفِرْدَوس الأَعْلَىٰ الَّتِي هي لِذَوِي الدَّرَجاتِ الْعُلْيا مِنَ الْمُحْسِنِينَ والْأَبْرار.

ومعْنَىٰ: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: جَنَّاتُ ثَبَاتٍ واسْتِقْرَارٍ دَائِم، وهُو عُنْوَانٌ مُخْتَارٌ لِوَسَطِ الجنَّاتِ.

وَمِنْ صِفَاتِ جنَّاتِ عَدْن أَنَّها تَجْرِي مِنْ تَحتِ قُصُورِهَا أَوْ مِنْ تَحْتِ

شُرُفَاتِ قُصُورِهَا الأنْهَارِ، وهِي أَنْهَار الماء، واللَّبَنِ، والْخَمْرِ الَّتِي لَا غَوْلَ فيها، والْعَسَلِ المصَفَّىٰ، وَمِنْ صِفَاتِ جَنَّاتِ عَدْنٍ أَنَّ لِأَهْلِهَا مَا يَشَاءُونَ فِيها مِنْ كُلِّ يَشْتَهُونَهُ وَيَتَمَنَّوْنه.

• ﴿... كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: كَذٰلِكَ يَجْزِي اللهُ عُمُومَ المتَّقِينَ بجَنَّاتٍ فِيهَا شَبِيهُ جَنَّاتِ عَدْنٍ في الصِّفَاتِ العامَّةِ مع تَفَاضُلٍ في الدَّرَجَاتِ والصِّفَاتِ، وهيَ دُونَ جَنَّاتِ عَدْنٍ.

وتَابَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الحديثَ عَنْ عُمُومِ المتَّقِينَ بقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾: وفي القراءة الأُخرى: [**يَتَوَفَّاهُمُ**]:

أي: كَذَلِكَ يَجزِي اللهُ المتَّقِينَ الَّذِينَ تَتوفَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ المكلَّفُونَ أَنْ يَقْبِضُوا أَرْوَاحَهُمْ حَالَةَ كَوْنِهِمْ طَيِّبِينَ مِنْ رِجْسِ الكُفْرِ بِرَبِّهِمْ.

الطَّيِّبُ: فِي اللُّغَةِ ضِدُّ الْخَبِيثِ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الطَّاهر، والظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ طَاهِرُونَ مِنْ رِجْسِ الكُفر عَلَىٰ اخْتِلَاف دَرَجَاتِهِمْ فِي سُلَّم التَّقْوى.

وَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ حِينَ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحُهُمْ تَكْرِيماً وإِينَاساً وتَبْشِيراً بِالْأَمْنِ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» وَيُبَشِّرُونَهُمْ بأَنَّهُمْ سَوْفَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقولُونَ لَهُمْ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تعْمَلُونَ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ أَرْضَتْ عَنْكُمْ رَبَّكُمْ، فَهُوَ يُحَقِّقُ لَكُمْ بِفَضْلِهِ وَعْدَهُ الكَرِيمَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ بِعَمَلِكُمْ حَقٌّ عَلَىٰ رَبِّكُمْ ذِي الفضْلِ أَنْ يُدْخِلَكُمْ بِهِ الْجَنَّةَ، ولكِنَّ رَبَّكُمْ تَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِوَعْدِهِ الْكَرِيم، فَأَنْتُم تَدْخُلونَ الْجَنَّةِ بِفَضْلِ الله» دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا المعنىٰ قَوْلُ الرَّسُول ﷺ في الحديثِ الصَّحِيحِ:

«سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، واعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ أَحدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال:

«وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ».

أَقُولُ: إِنَّ أَعْمَالَ الْعَبْدِ مَهْمَا صَلَحَتْ، وكانَتْ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ، فإِنَّها لَا تُكافِئ جُزْءاً يَسِيراً مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع مِنْ دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الخامس من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٣٣) و(٣٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

القراءات:

(٣٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**أَنْ يَأْتِيَهُمْ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَنْ تَأْتِيَهُمْ**].

وهُمَا وجهان عَرَبِيَّان جائزان.

(٣٤) • قرأ أبو جعفر: [**يَسْتَهْزُونَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَسْتَهْزِئُونَ**].

تَمْهيد:

فِي آيَتَي هـٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةُ الكَفَرَةِ الْمُعَانِدِينَ بالإنْذَارِ بِعَذَابٍ عِنْدَ الْمَوْتِ، أو باسْتِئْصَالٍ بِمُعَذِّبَاتٍ مُهْلِكَاتٍ، كَمَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَة.

التدبّر التحليلي:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾؟: أي: هَلْ يَنْتَظِرُ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ والتَّضْلِيلِ في مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل.

- ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: أيْ: إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ المكَلَّفُونَ أَنْ يَقْبِضُوا أَرْوَاحَهُمْ، فَيُعَذِّبُوهُمْ بِضَرْبِ وُجُوهِهِمْ وأَدْبَارِهِمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ.

دلَّ عَلَىٰ هـٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في سورة (الْأَنْفَال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) في وَصْفِ أَحْدَاثِ غَزْوَةِ بَدْر:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ⑸⓪﴾:

أي: ويقُولُونَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ الَّذِي تَخْلُدُونَ بِهِ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

- ﴿... أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ ...﴾: أي: أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ باسْتِئْصَالِهِمْ بِإهْلَاكٍ جَماعِيٍّ مَقْرُونٍ بِعَذابٍ أَلِيم.

- ﴿... كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ...﴾: أي: كَذَلِكَ الْفِعْلِ الَّذِي يَفْعَلُهُ هَؤُلَاءِ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، فَعَلَ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ المضِلُّونَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَة، فَأَهْلَكَهُمُ الله إهْلَاكاً شَامِلاً مَقْرُوناً بِعَذَابٍ أَلِيم.

- ﴿... وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ③③﴾: أي: وما ظَلَمَهُمُ اللهُ حِينَ أَنْزَلَ بِهِمُ الْعَذَابَ الْمُهْلِكَ الْمُدَمِّرَ الْمُسْتَأْصِل، فَقَدْ

أَبَانَ اللهُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يفْعَلُوهُ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَرْكُهُ، وحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ بِالْعَذَابِ الْمُسْتَأْصِلِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِمْ، فاسْتَهْزَؤُوا بما أَنْذَرَهُمْ بِهِ الرُّسُل، وَعَانَدُوا وأَصَرُّوا عَلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ وَرُسُلِه، فَكَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ كَمَنْ قيل له: هذه نَارٌ مُحْرِقَةٌ قَاتِلَةٌ، فَدَخَلَ فيها.

- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: فَأَصَابَ أَعْمَاقَهُمْ عِقَابُ سَيِّئَاتِ مَا عَمِلُوا. وَأَحَاطَ بِهِمْ وَلَزِمَهُمْ الْإِنْذَارُ الَّذِي كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ يُدَمِّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَأْصِلَهُمْ اسْتِئْصَالاً مُقْتَرِناً بِتَعْذِيب.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرس الخامس من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبُّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (النحل) الآية (٣٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

تَمْهيد:

فِي هَـٰذِهِ الآيَة عَرْضُ جَدَلِيَّةٍ مِنْ جَدَلِيَّاتِ المشْرِكِينَ، تَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَقُولَةِ أَنَّ النَّاسَ مَجْبُورُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا غَيْرُ مُخَيَّرِين، وهُمْ فِي هـٰذَا كَاذِبُونَ.

التدبّر التحليلي:

سَبَقَ أنْ جاءَ في نُجُومِ التَّنزِلِ قولُ اللهِ تَعالَىٰ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾:

وقَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ في سُورَة (الزُّخْرُف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول) بِشَأْنِ مَقُولَةٍ قالَها المشْرِكُونَ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

(١) أنْزَلَ اللهُ آيَةَ (الأنْعام) وفِيها بَيانُ أَنَّ أئِمَةَ الشِّرْكِ والكُفْرِ المعالَجِينَ فِي مَكَّة إبّانَ التَّنْزِيلِ، سَيَتَعَلَّلُونَ بالْجَبْرِ وسَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَفْطُورُونَ بِخَلْقِ اللهِ الْجَبْرِيّ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا مُشْرِكِينَ، وكذَلِكَ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ، وفَطَرَهُمْ عَلَىٰ أَنْ يُحَرِّمُوا أشْياءَ مِنَ الْأَنْعَامِ وغَيْرِهَا، لِذَلِكَ فَهُمْ غَيْرُ مَسْؤُولِينَ عِندَ اللهِ عَمَّا هُمْ مَجْبُورِينَ عَلَيْهِ مِنْهُ.

وأَنَّهُمْ سَيُعَبِّرُونَ عَنْ هَـٰذَا الْجَبْرِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ﴾ أي: بَلْ شَاءَ أَنْ نَكُونَ مُشْرِكِينَ نَحْنُ وَآباؤُنَا، وَشاءَ أَنْ نُحَرِّمَ مَا حَرَّمْنا، وَفَطَرَنَا عَلَىٰ هَـٰذَا بالْخَلْقِ الْجَبْرِي، فَلا مَسْؤولِيَّةَ عَلَيْنا فِيما نَحْنُ عَلَيْهِ عِنْدَ رَبِّنا.

فَكَذَّبَهُمُ اللهُ فيما سَيَدَّعُونَهُ، وَقَالَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ﴾ إِذْ عَاقَبْنَاهُمْ مُعَذَّبِينَ ومُهْلِكِينَ وعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُم: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

(٢) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ آيَةَ سُورَة (الزُّخْرُف) فَأَبَانَ فِيهَا أَنَّهُمْ صَرَّحُوا بِتَعَلُّلِهِمْ بالْجَبْرِ، وأَنَّهُمْ قَالُوا فِعْلاً بِشَأْنِ شُرَكَائِهِم الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ يُثْبِتُ ادِّعَاءَهُمْ، وَأَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ، فَقَال تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾.

فَجَاءَ الرَّدُّ في آيَةِ سُورَةِ (الزُّخْرُفِ) مُشَابِهاً للرَّدِّ الّذِي جاء في آيَةِ سُورَةِ (الأَنْعَام).

(٣) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ آيَةَ سُورَة (النَّحْلِ) الَّتِي يَجْرِي تَدَبُّرُها، فَأَبَانَ فِيهَا أَنَّهُمْ كَرَّرُوا تَعَلُّلَهُمُ الْكَاذِبَ بالْجَبْرِ فجاء فيها قولُ اللهِ تبارك وَتَعَالَىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾.

أي: ما عَبَدْنَا من دون جَبْرِهِ لَنَا من شيء، ولا حَرَّمْنَا من دُونِ جَبْرِهِ لنا من شيءٍ.

وهِي مُحَرَّماتُهُمُ الْبَاطِلَاتُ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا فِي سُورَةِ (الأنْعَام).

يَظْهَرُ أَنَّ مَقُولَتَهُمُ الْجَبْرِيَّةَ هَـٰذِهِ انْخَدَعَ بِهَا أَتْبَاعُهُمْ وقَبِلُوهَا، فَكَرَّرُوهَا لِتَزْيِينِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ بَاطِلٍ، وَمَا يَفْتَرُونَهُ مِنْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ.

فَجَاءَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ التَّعْقِيبِيُّ في آيَةِ سُورَة (النَّحْلِ) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ إِشْعَارٌ بِمَا جَاءَ في آيَةِ (الأنْعام) أي: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ... (١٤٨)﴾.

وقال اللهُ لَهُمْ فِي آيَةِ سورة (النَّحل):

- ﴿... فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: لَيْسَ الرُّسُلُ وَفِي خاتِمَتِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ مُطالِبِينَ بإجْبارِكم وَتَحْوِيلكُمْ مِع الكُفْرِ إلى الإيمان، ومِنَ الضَّلَالِ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، بَلْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِي رِسَالَاتِهِمْ إِلَّا أَنْ يُبَلِّغُوا مَا أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ بِتَبلِيغِهِ لِعِبادِه.

أَمَّا الْجَزاءُ عَلَىٰ الْقُبُولِ أَو الرَّفْضِ لِبَلَاغَاتِ الرُّسُلِ، فاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ هُو الَّذِي يَتَوَلَّاه.

وَفِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ تَلْوِيحٌ ضِمْنِيٌّ، بِأَنَّ اللهَ سَيُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ عِنَادِهِمْ، وإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الكُفرِ الَّذِي لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ، بَلْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ فِيهِ حُجَّةُ اللهِ الْبَالِغَةِ.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبُّر التحليلي للدَّرس السابع من دُروس سورة (النحل) الآية (٣٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

القراءات:

(٣٦) • قرأ أبو عمْرو، وعَاصِمٌ، وحَمْزَةُ، ويَعْقُوبُ: **[أَنِ اعْبُدُوا]** بكَسْرِ النون.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أَنُ اعْبُدُوا]** بضمِّ النون، مُراعاةً لضَمّ باء «اعْبُدُوا».

التدبّر التحليلي:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُعَالَجِينَ في السُّورَةِ مِنْ مُشْركي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بَهبَارَةِ «لَقَدْ» المبْنِيَّةِ عَلَىٰ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ مع حَرْفِ «قَدْ» الدَّالِّ عَلَىٰ التحقيق، بقولِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ...﴾:

الْأُمَّةَ: تُطْلَقُ في الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ عَلَىٰ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمَعُهَا صِفَاتٌ، أَو خَصَائِصُ، أَوْ رَوَابِطُ مُتَمَيِّزَة.

فكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ بَعَثَ اللهُ فِيهَا رَسُولاً لِيُبَلِّغَهَا رِسَالَةَ رَبِّهِ، فَهِيَ أُمَّةُ بَلَاغ رَسُولِهَا الْمَبْعُوثِ فيها.

الرَّسُول: هُوَ نَبِيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ومَأْمُورٌ بِأَنْ يُبَلِّغَ أُمَّتَهُ رِسَالَةَ رَبِّهِ إليهم.

وعبارةُ: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ تَشْمَلُ أُمَمَ الأَرْضِ جَمِيعاً، حَتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الّذي جَعَلَهُ اللهِ رَسُولاً لِلنَّاسِ جَمِيعاً مُنْذُ بِعْثَتِهِ إِلَىٰ آخِرِ إِنْسَانٍ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ قَبْلَ قِيامِ السَّاعَة.

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ أَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي عَاشَتْ فِي عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ كَانَ آدَمُ رَسُولَهَا، وَأَنَّ الْأُمَمَ الَّتِي تَفَاصَلَتْ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَدْ أَرْسَلَ لَهَا رُسُلاً.

أَمَّا نُوحٌ عَلَيْهِ فَقَدْ كانَ أَوَّلَ الرُّسُلِ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ الكِبَارِ، سَبَقَهُ رُسُلٌ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أُولِي الْعَزْمِ، ومِنْهُمْ «شيث» و«إدْريس» عَلَيْهِمَا السَّلَام.

- ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

الطَّاغُوت: كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ الله (يستَوِي فِيهِ الواحِدُ وغَيْرُه والمذَكَّرُ والمؤنَّثُ) ويُجْمَعُ عَلَىٰ «طَوَاغِيت» وعلىٰ «طَواغٍ».

ومعناهُ لغةً: «كثيرُ الطُّغيان» فَيُطْلَقُ عَلَىٰ الشيطانِ، والكاهنِ، والساحرِ، وبَيْتِ الصَّنَم.

أي: وَكَانَ عُنْوَانُ رِسَالَةِ كُلِّ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ أُمَّتِهِ:

«اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، واجْتَنِبُوا كُلَّ طَاغُوتٍ يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْخُرُوجِ عَنْ صِرَاطِ رَبِّكُمْ المشْتَمِلِ عَلَىٰ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْكُمْ فِي عِبَادَتِهِ».

- ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾: أي: فَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَنْ اسْتَجَابَ لدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّهِ واتَّبَعَ الْحَقَّ، فَحَكَمَ اللهُ لَهُ بِالْهِدَايَة، فَجَعَلَهُ مَهْدِيًّا، وَقَضَىٰ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيم.

- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: أي: ومِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُول رَبِّهِ، ولَمْ يَتَّبِعِ الْحَقَّ، فَثَبَتَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ الَّتِي سَلَكَ سُبُلَهَا باخْتِيَارِهِ الحرّ، اتِّبَاعاً لِأَهْوَاءِ نَفْسِهِ، وشَهَواتِهَا، ونزَعَاتِهَا، وَنَزَغَاتِها، وَتَأَثُّراً بتَضْلِيلَاتِ المضِلِّينَ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنّ.

وإِذْ ثَبَتَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ باخْتِيارِهِ الْحُرِّ، حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَة، فَجَعَلَهُ ضَالاً ضِمْنَ فِئَة الضَّالِين، وَقَضَىٰ عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ مِنَ المعَذَّبِينَ في الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

ومِنَ الْأُمَم مَنْ قَضَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ بأَنْ يُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً مُسْتَأْصِلاً، مُقْتَرِناً بِعذَابٍ.

وَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُعَالَجِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ مُلَوِّحاً لَهُمْ باحْتِمَالِ إِهْلَاكِهِمْ، وَمُعَامَلَتِهِمْ مُعَامَلَةَ مَنْ أَهْلَكَهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ إِهْلَاكاً مُقْتَرِناً بِالْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَحِقُونه، فَقالَ لَهُمْ:

- ﴿... فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَوْلِكُمْ، فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَرْضَ ثَمُود، وأَرْضَ عَاد، وأَرْضَ قَوْمِ لُوط، وَغَيْرَهَا، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكَذِّبِي رُسُلِ رَبِّهِمْ، والْمُكَذِّبِينَ بِمَا بَلَّغُوهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ، وَهٰذِهِ الْعَاقِبَةُ قَدْ كَانَتْ تَدْمِيراً لِبُلْدانِهِم، وَإِهْلَاكاً شامِلاً لَهُمْ، مَقْرُوناً بِتَعْذِيبِ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّعْذِيبِ مِنهم.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السابع من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن من دُروس سورة (النحل) الآية (٣٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

القراءات:

قرأ عَاصِمٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**لَا يَهْدِي**].

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا يُهْدَىٰ**].

تَمْهيد:

في آيَةِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَرْبِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ مَنْ يَحْرِصُ عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ.

التدبّر التحليلي:

كَانَ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَىٰ هِدَايَةِ قَوْمِهِ، وَلَا سِيمَا أَهْلُ مَكَّةِ، فَأَبَانَ اللهُ لَهُ في نُصُوصٍ متعَدِّدَة أَنَّ وَظِيفَتَهُ تَبْلِيغُ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ، لَا تَحْوِيلُ مَنْ يَدْعُوهم إلى دينِ اللهِ الحقِّ مِنَ الكُفرِ والشِّرْكِ، إِلَىٰ الْإِيمَانِ الصحيح، وَتَوحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ.

وَلَكِنِ اسْتَمَرَّ رَسُولُ الله ﷺ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَىٰ هِدَايةِ قَوْمِهِ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُيْئِسَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مِنْ تَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ هَـٰذِهِ، إِذْ خَلَقَ اللهُ النَّاسَ في الْحَياةِ الدُّنْيا ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ ليَبْلُوَهُم فِيمَا آتاهُمْ، ولَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِين.

ومَعْلُومٌ أَنَّ مِنْ نَتَائِجِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادة أَنْ يَخْتَارَ كُلُّ ذِي إرادَةٍ حُرَّةٍ مَا يَشَاءُ لِنَفْسِهِ، مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، مِنْ هِدَايَةٍ أَوْ ضَلَالَةٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ:

- ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: **[لَا يُهْدَىٰ]**.

أيْ: إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ قَوْمُكَ كُلُّهُم يا مُحَمَّدُ مَهْدِيِّينَ فَلَا تَطْمَعْ بِأَنْ يَتَحَقَّقَ لَكَ مَا تَحْرِصُ عَلَيْهِ.

- أَمَّا مِنْ جِهَتِهِمْ فَإِنَّ رَبَّكَ خَلَقَهُمْ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَبْلُوَهُم فِيمَا آتاهُمْ، وَلَا تَسْتَطِيع أَنْ تكُونَ مُجْبِراً لَهُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضُهُمْ لِنَفْسِهِ أَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ الْهِدَايَة، وَأَنْ يَخْتَارَ آخَرُونَ مِنْهُمْ لِنفْسِهِ سُبُلَ الضَّلَالَةَ.

- وأَمَّا مِنْ جِهَةِ رَبِّكَ، فَإِنَّ رَبَّكَ لَا يَجْعَلُهُمْ مَجْبُورِينَ بَعْدَ اخْتَارَ أَنْ

يَجْعَلْهُمْ مُخَيَّرِينَ لِيَمْتَحِنَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدنيا، إِذْ لَوْ جَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ لَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الْهِدَايَة، وتُلْغَىٰ حِينَئِذٍ حِكْمَةُ الامْتِحَان.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَا يَحْكُمُ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ وَهُمْ ضَالُّونَ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَكُونُ مُتَنَاقِضاً فَيَحْكُمَ بِهِدَايَةِ مَنْ حَكَمَ عَلَيْهِ بالضَّلَالَة لِأَنَّهُ فِي واقِعِ حَالِهِ ضَالٌّ.

وَحِينَ يَقْضِي رَبُّكَ بِتَنْفِيذِ عِقَابِهِ لَهُمْ فَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِين يَنْصُرُونَهُمْ فَيَحْمِيهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ بالْعَدْلِ.

وأَمَّا بالنِّسْبَةِ إلى قِرَاءَةِ: [لَا يُهْدَىٰ] فَهِي عَلَىٰ مَعْنَىٰ: أَنَّهُ لَا يُوجَدَ أَحَدٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُمَ بِهِدَايَةِ مَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلالَة، إِذْ لَا حُكْمَ إِلَّا للهِ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثامِن من دُرُوس سورة (النَّحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٢)

التدبُّر التحليلي للدّرس التاسع من دُروس سورة (النحل)
الآيات من (٣٨ ـ ٤٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

القراءات:

(٤٠) • قرأهَا ابْنُ عَامر، والكسائي: [كُنْ فَيَكُونَ] بنصْبِ «يكونَ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [كُنْ فَيَكُونُ] بالرفْعِ، أي: فَهُو يكونُ.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ عَقِيدَة المشْرِكِينَ الكَفَرَةِ، بِشَأْنِ إنْكَارِهِمُ الْبَعْثِ، مَعَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ.

التَّدبُّر التَّحْلِيلي:

إنَّ أئِمَّةَ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيلِ، بَعْدَ أَنْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ الْبَرَاهِينُ الْعَقْلِيَّةُ بِشَأْنِ ضرورةِ الْبَعْثِ يَوْمَ القيامَةِ لِتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِي، فِي سَوَابِقِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَبَعْدَ أَنْ أُسْقِطَتْ تَشْكِيكَاتُهُمُ الَّتِي لَا حُجَّةَ فِيها إلَّا مُجَرَّدُ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَابِ والتَّعَجُّبِ، لَمْ يَجِدُوا شَيْئاً يُقَوُّونَ بِهِ ادّعَاءَهُمُ الْبَاطِلَ، إلَّا أَنْ يَحْلِفُوا الْأَيْمَانَ المشَدَّدَةَ المغلَّظَةَ بِأَنَّ اللهَ لَا يَبْعثُ مَنْ يَمُوت، لِتَثْبِيتِ أتْبَاعِهِمْ فِي تَبعِيَّتِهِمْ لَهُمْ فِي كُفْرِيَّاتِهِمْ.

فاقتضَتِ الْحِكْمَةُ الْجَدَلِيَّةُ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ بِنَفْيِ مَقُولَتِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ، وَبَيَانِ أَنَّ أَيْمَانَهُمْ المغلَّظَة المشَدَّدَةَ ذَرَائِعُ بَاطِلَةٌ، أَقْسَمُوا بِهَا مُؤَكِّدِينَ مَقُولَتَهُمُ الْكَاذِبَةِ، لِإيهَامِ أتْبَاعِهِمْ بِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ فِيمَا زَعَمُوا.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾:

أي: وأَقْسَمَ أَهْلُ الْكُفْرِ والشَّر التَّضْلِيل، فِي مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل، غَايَةَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَيْمَانٍ، مُؤَكَّدَةٍ مُشَدَّدَةٍ يَقْبَلُهَا ويثِقُ بِهَا أَتْبَاعُهُمْ وَمُقَلِّدُوهم، عَلَىٰ أَنَّ اللهَ لَا يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، لِيُحَاسِبَهُ، ويَقْضِيَ بِشَأْنِهِ، ويَجْزِيَهُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

جَهْدُ الشَّيْءِ: يَأْتِي فِي اللُّغة: بمعْنى نِهايَتِهِ وَغَايَتِهِ، وبمعَنَىٰ وُسْعِهِ وَطَاقَتِهِ، ويَأْتِي الْجَهْدُ بِمَعَنَىٰ المشَقَّةِ.

فَكَانَ من الْحِكْمَةِ في الرَّدِّ الرَّبَّانِيّ عَلَىٰ نَفْي صِدْقِهِمْ، وَبيَانِ افْتِرَائِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهم، وَتَمَادِيهِمْ بِأَنْ أَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، أَنْ يَقُول اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

- ﴿... بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا... ٣٧﴾:

أي: بَلَىٰ، سيبعثُ اللهُ الْمَوْتَىٰ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَحْقِيقِ الجزاء، وَهٰذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ أَلْزَمَ بِهِ نَفْسَهُ لِتَحْقِيقِ حِكْمَتِهِ.

- ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾:

أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يُعْرِضُونَ ويَصُدُّون عَنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ الْحَقِيقَةِ المؤيَّدَةِ بِالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ، وَتَوَاطُؤُ البياناتِ الرَّبَّانِيَّةِ عَلَيْها، في رِسَالَاتِهِ لِعِبَادِهِ، فَهُمْ لَا يَرْغَبُونَ في أَنْ يَعْلَمُوها.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾:

أي: بَلَىٰ لَيَبْعَثَنَّ اللهُ الْمَوْتَىٰ، لِيُبَيِّنَ لِلَّذِينَ كَانُوا مَوْضوعِينَ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، كُلَّ الَّذِي كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، مِنْ عَقَائِدَ حَوْلَ أُصُولِ الدِّين، وَحَوْلَ شَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوه، وَمَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتْرُكُوه، وَمَا كَانَ يَفْعَلُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ، وَمَا كَانَ يَتْرُكُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ، وبَعْدَ الْبَيَانِ يُحَاسِبُهُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا باخْتِيَارِهِمُ الْحُرِّ مِنْ خَيْرٍ كَانُوا مُكَلَّفِينَ أَنْ يَعْمَلُوه، وعَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ الّتِي عَمِلُوها مِن شَرٍّ باخْتِيَارِهِم الْحُرِّ كَانُوا مُكَلَّفِينَ أَنْ يَتْرُكُوه، ويَقْضِي بيْنَهُمْ

بالْحَقِّ، ثُمَّ يُجَازِي كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا قَضَىٰ بِهِ لَهُ أو قَضَىٰ بِهِ عَلَيْهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وحِينَئِذٍ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا باللهِ وكتابِهِ وَرَسُولِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَاذِبِينَ، ومِنْهُ كَذِبُهُمْ فِي قَوْلِهِم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللهِ في الْخَلْقِ تَعْقِيباً عَلَىٰ قَضِيَّةِ الْبَعْثِ إلى يَوْمِ الدِّينِ، بِضَمِيرِ المتكلّمِ العظيم:

● ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: مَا نَحْتَاجُ إِذَا أَرَدْنَا إِيجَادَ مَعْدُومٍ أَوْ إِعْدَامَ مَوْجُودٍ، أَوْ تَغْييراً لِأَيِّ شيءٍ فِي الكَوْنِ كُلِّهِ، إِلَّا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ، فَيَكُونُ مُرَادُ اللهِ عَلَىٰ مَا تَمَّتْ بِهِ إرادَةُ الله.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

التدبُّر التحليلي للدَّرس العاشر من دُروس سورة (النحل)

الآيتان (٤١) و(٤٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

القراءات:

(٤١) ● قرأ أَبُو جَعْفَر: [لَنُبَوِّيَنَّهُمْ] وكذلِكَ حمْزَة فِي الوقْف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرةِ: [لَنُبَوِّئَنَّهُمْ].

وهما وجهان عَرَبِيَّانِ في النُّطق.

تَمْهيد:

في آيَتِي هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ الله، وَمَا لَهُمْ مِنْ ثَوَابٍ حَسَنٍ فِي الدُّنْيَا، وأَجْرٍ عَظِيمٍ فِي الآخِرَة، بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ وتَوَكُّلِهِم عَلَىٰ رَبِّهِمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾:

الهِجْرَةُ، والْهُجْرَة: الخروجُ من أرضٍ إلَىٰ أرضٍ أُخْرَىٰ للإقَامَةِ فيها.
والْمُهَاجَرَةُ: هِي عِنْدَ الْعَرب خُروجُ الْبَدَوِيّ مِنْ بَادِيَتِهِ إلَىٰ الْمُدْنِ.

وكُلُّ مُنْتَقِلٍ مِنْ مَكَانِ إقَامَتِهِ في قَوْمٍ، إلَىٰ الإقَامَةِ في قَوْمٍ آخَرينَ فَقَدْ هَاجَرَ قَوْمَه، أي: تباعَدَ عَنْهُمْ يُقَاطِعُهُمْ ويُقَاطِعُونه.

والْهِجْرَةُ، والْمُهَاجَرَةُ: فِي الْإِسْلَامِ تَرْكُ دَارِ الكُفرِ الَّتِي يُضطَّهَدُ فيها الْمُسْلِمُون، إلَىٰ أَرْضٍ يَكُونُونَ فِيهَا آمِنِينَ.

وَجَاءَ فِي كُتبِ السِّيرَةِ النَّبوِيَّةِ أَنَّ بَعْضِ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ هَاجَرُوا إلَىٰ الْحَبَشَةِ بإذْنٍ من الرَّسُولِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُضْهَدُونَ فِي مَكَّة، ثُمَّ إنَّ بَعْضَهُمْ هَاجَرُوا مُتَتابِعِينَ إلَىٰ الْمَدِينَةِ بِتَوْجِيهِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَامُوا بِنَشْرِ

الإسْلَام، ثُمَّ هَاجَرَ الرسُول ﷺ إِلَيْهَا بأَمْرٍ مِنَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَفِي هَـٰذِهِ الآيَةِ وَعْدٌ كَرِيمٌ، مِنَ الرَّبِّ الْعَظِيمِ، لِلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ بَعْدِمَا ظُلِمُوا، وهُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ قَبْلَ نُزُولِ هَـٰذِهِ السورة، بِثَوَابَيْنِ: ثَوَابٍ دُنْيوِيٍّ مُعجَّل، وثَوَابٍ أُخْرَوِيٍّ عَظِيم.

• ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ ...﴾: أي: والَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ فِي سَبِيلِ اللهِ وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، تَارِكِينَ بَلَدَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ فيها، وأَهْلَهُمْ، لِيَتَخَلَّصُوا مِنَ الظُّلْمِ والاضطِّهادِ الَّذِي كَانَ جَبَابِرَةُ مُشْرِكِي مَكَّةَ يُعَامِلُونَهُمْ بهما، وليكُونُوا آمِنِينَ عَلَىٰ دِينِهِمْ وعِبَادَاتِهِم، ولِيَكُونوا دُعَاةً إِلَىٰ الإِسْلَامِ فِي مُهَاجَرِهِمْ إِذَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَكُونُوا فِيهِ دُعَاةً إليه.

ويُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَمْثَالُهُمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ فَسُنَّةُ اللهِ في عباده وَاحِدَة.

• ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾: أي: هاجَرُوا في سَبِيلِ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا فِعْلاً، وَلَمْ يَجِدُوا وَسِيلَةً يَكُفُّونَ بِهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ظُلْمَ الطُّغَاةِ الْبُغَاةِ الْمُتَجَبِّرِينَ مِن أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾: أي: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنيا مَباءَةً حَسَنَةً تَرْضِيهِمْ.

يُقَالُ لُغَةً: «بَوَّأَ فُلَانٌ فُلاناً مَنْزِلاً» أي: هَيَّأَهُ وأَعَدَّهُ لَهُ، وأنْزَلَهُ فيه. والْمَبَاءَةُ الْمَنْزِلُ الَّذِي يُنْزَلُ بِهِ، وَيَكُونُ مَكَانَ إِقَامَة نَزِيلِهِ. ويُلْحَقُ بالمنْزِلِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ النَّزِيلُ فِيهِ، من أَمْنٍ ورِزْقٍ وَرَاحَةٍ، وحُرِّيَّةِ حَرَكَةٍ، إِذْ وُصِفَتِ الْمَبَاءَة المحذُوفَةُ لفظاً والمقدَّرَةُ ذِهْناً بأَنَّهَا حَسَنَةٌ.

• ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾: أي: المباءة الحسَنَةُ أَجْرٌ مُعَجَّلٌ يُقَدِّرُهُ اللهُ لَهُمْ وَيَقْضِيهِ، وَهـٰذَا قَدْ حَصَل فِعْلاً لِلَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَىٰ الْحَبَشَةِ، ثُمَّ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَىٰ الْمَدِينَة، ويَحْصُلُ دواماً للمهاجِرِينَ الصَّادِقين المخلصين.

وَلَأَجْرُ اللهِ الَّذِي يُفِيضُهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الدِّينِ في الحياة الآخِرَةِ بَعْدَ الْبَعْثِ، أَكْبَرُ كِبراً لَا يَسْتَطِيعُونَ تَصَوُّرَهُ فِي مُخَيِّلَاتهم.

• ﴿... لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ كِبَرَ هٰذَا الْأَجْرِ لَكَانُوا فَرِحِينَ سُعَدَاءَ مَهْمَا نَالُوا فِي هِجْرَتِهِمْ مِنْ مَتَاعِبَ، وَلَا يَكُونُ فِي نُفُوسِهِمْ حُزْنٌ عَلَىٰ وَطَنٍ وَمَسَاكِنَ وأَمْوَالٍ وأَهْلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَحَابَّ تَرَكُوهَا بِسَبَبِ هِجْرَتِهِمْ.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَاجَرُوا بالصَّبْرِ وبالتَوَكُّلِ على رَبِّهِمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَىٰ مَا نَالَهُمْ مِنْ أذىً وَظُلْمٍ، وَصَبَرُوا عَلَىٰ تَرْكِ مَا يُحِبُّونَ في وَطَنِهِمْ، وهُمْ في كُلِّ أَحْوَالِهِم وَمَطَالِبِهِمْ في حَيَاتِهِمْ على اللهِ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ مُسْلِّمِينَ أُمُورَهُمْ إليه.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٤٣) و(٤٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لرسوله ﷺ والمقصُود إفْهَامُ المشرِكِينَ والرَّدُّ عَلَيْهِمْ في اعْتِرَاضِهِمْ عَلَىٰ كَوْنِهِ بَشَراً من النَّاس.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

القراءات:

(٤٣) • قرأ حفْصٌ: [**نُوحِي**] بِضَمِير المتكلّم العظيم.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُوحَىٰ**] ببناء الفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وهي على معنَىٰ أنَّ الله العظيم الجليل هو الَّذِي يُوحِي.

(٤٣) • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائي، وخَلَف: [**فَسَلُوا**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَاسْأَلُوا**].

وهُمَا وَجْهَان عَرَبيان.

(٤٤) • قرأ حمزة، ويعقوب: [**إِلَيْهُمْ**] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ الهاء.

تَمْهِيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ رَدٌّ ضِمْنِيٌّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اعْتَرَضُوا عَلَىٰ كَوْنِ الرَّسُولِ بَشَراً رَجُلاً، يَأْكُلُ الطعام ويَمْشِي في الْأَسْوَاقِ وَيَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، زَاعِمِينَ وَمُوهِمِينَ أَتْبَاعَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ للنَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَلَكاً، أَوْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ مَلَكٌ يَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً.

وقد دَلَّ هـٰذَا الدَّرْسِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مَا زَالُوا يَقُولُونَ هَـٰذِهِ المقولَة، ويُرَدِّدُونَها، مع سَبْقِ الرَّدِّ عَلَيْهَا في نجوم التَّنْزِيل، ومِنْهُ مَا جَاء في الآية (٧) من سورة (الفرقان/ ٤٠ نزول)(١).

---

(١) انظر الملحق الثالث مِنْ مَلاحِق تدبر سورة (يس/ ٤١ نزول): «بيانُ اعْتِرَاضِ الأُمَمِ عَلَىٰ بَشَرِيَّةِ الرُّسُل».

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

• ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: إِنَّ أَئِمَّةَ الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّةَ يَعْتَرِضُونَ عَلَىٰ كَوْنِكَ بَشراً مِنَ الْبَشَرِ، وَرَجُلاً مِنَ النَّاسِ، تَعِلَّةً لِرَفْضِ كَوْنِكَ رَسُولاً مُرْسلاً من اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين مَعَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ أَرْسَلَ رُسُلاً بَشراً مِنْ قَبْلِكَ، وَكَانُوا رِجالاً مِنَ النَّاس، ومِنْهُمْ إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ـ عَلَيْهِمَا السلام ـ فَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِهَؤُلَاءِ رُسُلاً مَعَ أَنَّهُمْ لم يَكُونُوا إِلَّا رِجَالاً مِنَ النَّاسِ يُوحَىٰ إِليهم، ثُمَّ يَجْحَدُونَ رِسَالَتَك، وَآياتُ صِدْقِهَا دَامِغَةٌ لهم بالمعجزات الباهرات، وَبآيَاتِ القرآنِ الْمَجِيدِ الَّذِي أعْجَزَ اللهُ بِهِ الإِنْسَ والْجِنَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

وَبَعْدَ خطابِ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ الْتَفَتَ الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ إِلَىٰ المعْنِيِّينَ بإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهم، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لهم:

• ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾:

هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ مُعْتَرِضَةٌ اعْتِنَاءً بِتَوْجِيهِ الْخِطَابِ للمشْرِكِينَ المتَذَرِّعِينَ لِكُفْرِهِمْ بِتَعِلَّةِ بَشَرِيَّةِ الرَّسُول، بِغْيَةَ إقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ مِنْ خِلَالِ مُعْتَقَدَاتِهِم...

أَهْلُ الذِّكْرِ: هُمْ أَهْلُ الكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ السَّابقَة، اليهودُ، والصَّابئَةُ، والنَّصارَىٰ.

أي: فإِنَّكُم إذَا سَأَلْتُمُوهُمْ قَالُوا لَكُمْ: إِنَّ رُسُلَنَا كَانُوا رِجَالاً بَشَراً مِثْلَنَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيهِمْ فَجَعَلَهُمْ أنبِيَاءَ، وأَرْسَلَهُمْ إِلَىٰ أُمَمِهِمْ رُسُلاً، وَلَمْ يَكُونُوا مَلَائِكَةً.

- ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: على افْتِرَاضِ أَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةَ، مَعَ أَنَّكُم تَعْلَمُونَها، وَتَتَجاهَلُونَها للتَّمَسُّكِ بِتَعِلَّتِكُمُ الباطلة. «إِنْ» الشَّرْطِيَّة تُسْتَعْمَلُ في المشْكُوكِ فِيه، وفِي الْمَعْلُوم خِلافُهُ.

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ...﴾: أي: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ، أَرسَلنَاهُمْ مَصْحُوبِينَ بالْبَيِّنَاتِ والزُّبُرِ.

بالْبَيِّنَات: أي: بالآيات الْبَيِّنَات الْبَاهِرَات، وهِيَ المعْجِزَاتُ الخوارق الَّتِي يُؤَيِّدُ اللهُ بِهَا صِدْقَ رُسُلِهِ.

والزُّبُر: أي: والكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ المنزَّلَةِ على الرُّسُلِ. **الزُّبُرِ**: جَمْعُ «الزَّبُورِ» وهو الكتابُ المَزْبُورِ، أي: المكتوب. سَمَّاهَا اللهُ «زُبُراً» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ المطْلُوبَ كِتَابَتُها بإتْقَانٍ، لِحِفْظِها مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ والتَّحْرِيف.

وبَعْدَ هـٰذَا خاطَبَ اللهُ رَسُولَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

أي: وأنْزَلْنا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ الَّذِي هُو ذِكْرُ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ لِلأُمَمِ، لِتبَيِّنَ مِنْهُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، مِنْ عَقَائِدِ، وأَخْلَاقٍ، وشرائِعَ وأَحْكَامٍ، وَقَضَايَا هِيَ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ.

أَمَّا مَا فِي هـٰذَا الذِّكْرِ مِنْ قَضَايَا حَقَائِقِ الْوُجُودِ الَّتِي لَيْسَتْ هِيَ مِنْ قَضَايَا الدِّين، فَلَسْتَ يا مُحَمَّدُ مُكَلَّفاً أَنْ تُبَيِّنَها للنَّاسِ، وَقَدْ جَعَلْنَاهَا ضِمْنَ هـٰذَا الذِّكْرِ الْعَظِيم رغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ يَتَفَكَّرُوا فِيهَا، وَيَنْتَفِعُوا بِهَا، وتَكُونَ شواهِدَ عَلَىٰ أَنَّ القرآن مُنَزَّلٌ مِن لَدُنَّا.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الحادي عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمَنِّهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٥)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٤٥ ـ ٤٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

القراءات:

(٤٥) • قرأ أبُو عَمْرو، ويَعْقُوب: [**بِهِمِ الأَرْضَ**] بكسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكِسَائي، وخلف: [**بِهُمُ الأَرْضَ**] بضمّ الهاءِ والميم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِهِمُ الأَرْضَ**] بكَسْرِ الهاء وضم الميم.

(٤٧) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [**لَرَؤُوفٌ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَرَؤُفٌ**].

وهُما وَجْهَانِ عَرَبيّانِ في النُّطْق.

تَمْهيد:

فِي آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَهْدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ باحْتِمالَاتِ عِقَابِهِمْ بالْخَسْفِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ عِقَابٍ وَوَسَائِلِهِ في الكَوْنِ، واللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ . . .﴾: «الفاء» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ يُمْكِنُ مُلَاحَظَتُهُ ذِهْناً وتَقْدِيرُه: أَمَلَكَ الَّذِينَ مَكَرُوا السّيِّئَاتِ تَصَارِيفَ الكَوْنِ، أَوْ كَانَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ مِمَّنْ بِيَدِهِ مِلْكُ كُلِّ شَيْءٍ وَتَصْرِيفُ الكَوْنِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، بِأَنَّهُمْ سَالِمُونَ مِنْ أَحْدَاثِ الكَوْنِ الْمُهْلِكَةِ، المقْتَرِنَةِ بالتَّعْذِيبِ فَأَمِنُوا؟؟.

إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ تَصَارِيفَ الكَوْنِ، وَلَيْسَ لَدَيْهِم عِلْمٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِأَنَّهُمْ سَالِمُونَ مِنْ عَذَابِهِ، فلْيَتَرَقَّبُوا نُزُول عَذَاب اللهِ عَلَيْهِمْ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ.

• ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: **المَكْرُ**: تَدْبِيرُ أَمْرٍ في خَفَاء، يَكُونُ فِي الخَيْر، ويَكُونُ في الشَّرّ. ومَكْرُهُمْ السّيِئَاتِ هُوَ تَدْبِيرُ أُمُورِهِمْ فِي خَفَاءٍ، قَاصِدِينَ بِمَكْرِهم السَّيِّئَاتِ ضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، إِذْلَالَهُمْ، والتّخلُّصَ مِنْهُمْ وَمِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحق، وقَاصِدِينَ إِيقَافَ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة.

ولفظ «السَّيِّئَاتِ» يَشْمَلُ كُلَّ مَا هُوَ قَبِيحٌ وَشَرٌّ يَسُوءُ مَنْ قُصِدَ بِهِ، وَيَسُوءُ أَهْلَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والْخَيْرِ.

وأرى أَنَّ الْفِعْلَ في «مَكَرُوا» قَدْ ضُمِّنَ معْنَىٰ الفِعل في: «قَصَدُوا» أو في: «فَعَلُوا» فعُدِّيَ تَعْدِيتَهُ، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، وهٰذَا التَّضْمِينُ مِنْ بَدَائِع القرآن الْمَجِيد. وقَدْ يَكُونُ عَلَىٰ معْنَى: مَكَرُوا الْمَكَرَاتِ السَّيِّئَات.

• ﴿. . . أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ . . .﴾:

ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هـٰذَا الْبَيَانِ أَرْبَعَةَ احْتِمَالَاتٍ كُلِّيَّةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِهْلَاكُهُمْ وَتَعْذِيبُهُمْ بواحِدٍ منها، وهي:

الاحْتِمَالُ الأَوَّلُ: دَلَّ عَلَيْهِ قول الله تعالَىٰ: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾:

أي: وإذَا خَسَفَ بِهِمُ الْأَرْضَ عَذَّبَهُمْ بهـٰذَا الْخَسْفِ، وَأَهْلَكَهُمْ وَطَمَرَهُمْ فِي بَاطِنِهَا، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الحياة الدنيا.

الاحْتِمَالُ الثاني: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: أَوْ يَأْتِيَهُمْ مَا يَكُونُ بِهِ عَذَابُهُمْ مِنْ مَكَانٍ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ مِنْه، كأنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْ دَاخِلِ أَجْسَادِهِمْ، كَكَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي تَنْتَشِرُ دَاخِلَ أَجْسَادِهِمْ وَيَكُونُ بِهَا عَذَابُهُمْ الشَّدِيدُ، وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْهُمْ، وَكَأَنْ يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ وأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ، كَأَوْلَادِهِم وأَزْوَاجِهِمْ.

الاحْتِمَالُ الثَّالِث: دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

التَّقَلُّبُ في الْأُمُور: تَصَرُّفُ المتَقَلِّبِ فيها كَيْفَ يَشاء. **والتَّقَلُّبُ في الْبِلَادِ**: تَنَقُّلُ المتَقَلِّبِ فِيهَا حُرّاً آمِناً.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي: فَمَا هُمْ بِمُفْلِتِينَ هَارِبِينَ سَابِقِينَ لَا يُدْرَكُونَ، بَلْ نَقْبِضُ عَلَيْهِمْ قَبْضَ إِهْلَاكٍ مَعَ تَعْذِيب.

فالْمَعْنَىٰ: أَوْ يَأْخُذَهُمْ وَيَقْبِضَ عَلَيْهِمْ قَبْضَ إِهْلَاكٍ مَعَ تَعْذِيبٍ، في حَالِ تَقَلُّبِهِمْ فِي حَرَكَةِ حَيَاتِهِمْ لِقَضَاءِ مَصَالِحِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ فِي أَوْطَانِهِمْ أو في أَسْفَارِهِمْ آمِنِينَ، فَإِذَا جَاءَتْهُمْ وَسَائِلُ تَعْذِيبِ اللهِ لَهُمْ المتْبُوعِ بإهْلَاكِهِمْ

فإنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ هَرباً، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ إفْلَاتاً مِنْ قَبْضَةِ تَعْذِيبِ اللهِ وإهْلَاكِهِ إيَّاهُمْ.

الاحْتِمَال الرابع: دلَّ عَلَيْهِ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾:

أي: أَوْ يَقْبِضَ عَلَيْهِمْ قَبْضَ تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ حَالَةَ كَوْنِهِم يَتَخَوَّفُونَ وَيتَوَقَّعُونَ الْمَصَائِبَ والْبَلَايَا، كَأَحْوَالِ الْحُرُوب، وأَحْوَالِ النَّقْصِ في الْأَمْوَالِ والْأَنْفُسِ والثَّمَرَاتِ، وأَحْوَالِ الْعَوَاصِفِ الْعَاتِيَةِ، والرِّيَاحِ الطَّاغِيَةِ فِي الْبَرِّ أَوْ فِي الْبَحْرِ، وأحْوَالِ السُّيُولِ الْجَارِفَة، والْبَرَاكِينِ الثَّائِرَة، والزَّلَازِلِ المدَمِّرَة.

يُقَالُ لُغةً: «خَوَّفَهُ بِمَعْنَىٰ فَزَّعَهُ فَتَخَوَّفَ» فَفِعْلُ: «تَخَوَّفَ» مُطَاوِعُ فِعْل «خَوَّفَهُ» ويُقَالُ لُغَةً: «تَخوَّفَ الشَّيْءَ» أي: تَنَقَّصَهُ.

وَمَعْنَىٰ الْخَوْفِ هُوَ الْمُلَائِمُ لِذِكْرِ الاحْتِمَالَاتِ الثَّلَاثِ السَّابِقَاتِ فِيما أَرَىٰ.

وُخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذَا الدَّرْسِ بِقَوْله خِطَاباً للنَّاس:

- ﴿... فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾:

الرَّؤُوف: اسْمٌ مِنْ أَسْماءِ اللهِ الحسْنَىٰ، مأخُوذٌ مِنَ الرأفَةِ، وَهِيَ شِدَّةُ الرَّحْمَة.

الرَّحِيم: اسْمٌ من أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وهي صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ آثارِهَا الإنْعَامُ والإحْسَانُ وَدَفْعُ السُّوءِ.

أي: لَمْ يُعَجِّلْ رَبُّكُم بِمُعَاقَبَةِ الَّذِينَ مَكرُوا السَّيِّئَاتِ، بِسَبَبِ أَنَّهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ رَؤُوفٌ ورَحِيمٌ بِعِبَادِه.

وَجاءَتْ هـٰذِهِ العبارَةُ مُؤَكَّدَةً بـ «إنَّ ـ والملة الاسميَّة ـ واللَّامُ المزحْلَقَة». للإشْعَارِ بِأَنَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ لَمْ يُؤَخِّرْ عِقابَهُمْ إهْمالاً، بَلْ رَأْفَةً

بِهِمْ وَرَحْمَةً لَهُمْ، وَلِيُعْطِيَهُمْ أَوْسَعَ مُدَّةِ إِمْهَالٍ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا وَيُقْلِعُوا عَنْ مَكْرِهِم السَّيِّئَاتِ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٤٨ ـ ٥٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾:

القراءات:

(٤٨) ● قرأ حَمْزَة، والكِسَائِي، وخلف: [أَوَ لَم تَرَوْا].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَوَ لَمْ يرَوْا].

وبَيْنَ القراءَتَين تكامُلٌ فِي الأداءِ الْبَيانِي.

(٤٨) ● قرأ أبُو عمرو، ويعقوب: [تَتفَيَّؤُا] بالتاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَتفَيَّؤُا] بالياء.

وهُمَا وَجْهان عَرَبيان جَائِزَان.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ إِقْنَاعُ الْكَافِرِينَ بالسُّجودِ للهِ كَمَا تَسْجُدُ لَهُ الْأَشْيَاءُ والدَّوَابُّ والْمَلائِكَةُ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ السُّجُودِ لِرَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [**أَوَ لَمْ تَرَوْا**]: و[**تتفَيَّؤُا**].

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾: «الواو» عاطِفَةٌ مِنْ قبِيلِ عَطْفِ مَوْضُوعٍ على مَوْضوع، وأُخِّرَتْ عَنِ الهمزة لِأَنَّ الاسْتِفْهَامَ لَهُ الصَّدَارَةُ فِي الْعَرَبِيَّة.

والمرادُ بالرُّؤْيَةِ الرُّؤْيَةُ الْبَصَرِيَّةُ، الَّتِي يَجِبُ عَلَىٰ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ أَنْ يُتْبِعُوهَا بالرُّؤْيَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْهَادِيَةِ إِلَىٰ حقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ في كَوْنِ اللهِ الْعَجيب.

- ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾: أي: إِلَىٰ كُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ذِي جِسْمٍ حَاجِبٍ للضَّوْءِ، وهـٰذَا يَشْمَلُ الْأَشْيَاءَ وَالْأَحْيَاءَ، ومِنَ الْأَحْيَاءِ النَّاسُ، ومِنَ النَّاسِ الكَفَرَةُ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ السُّجُودِ لِرَبِّهِمْ.

لَقَدْ جعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي قَوَانِينِ كَوْنِهِ أَنَّ الْأَجْسَامَ ذَاتَ الكَثَافَةِ، تَحْجُبُ الضَّوْءَ عَنِ اخْتِرَاقِهَا والنَّفَاذِ فِيهَا إِلَىٰ الجهَةِ المقابِلَةِ لِجهَةِ الضَّوْءِ، لِيَكُونَ لَهَا ظِلٌّ سَاقِطٌ عَلَىٰ الْأَرْضِ سَاجِدٌ كُلُّهُ لِرَبِّهِ تَطَؤُهُ الْأَقْدَام، فَفِي الصَّباحِ يَكُونُ ظِلُّهُ مُمْتَدّاً عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَىٰ جِهَةِ الْغَرْبِ، وبَعْدَ الزَّوَالِ يَفِيءُ ظِلُّهُ فَيَمْتَدُّ عَلَىٰ الْأَرْضِ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَىٰ جِهَةِ الشَّرْقِ، تَبَعاً لِحَرَكَةِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ مُنْذُ إِشْرَاقِهَا حَتَّىٰ غُرُوبِهَا.

- ﴿... ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾:

الْفَيْء: الظِّلُّ بَعْدَ الزَّوال يَنْبَسِطُ إلَىٰ جِهَةِ الشَّرْق. يُقَالُ لُغَةً: «فَاءَ الظِّلُّ» أي: رَجَعَ مِنْ جَانِبِ المغْرِبِ إلَىٰ جَانِبِ المشْرِقِ.

وَصِيغَةُ: «يَتَفَيَّأُ» فيها مَعْنَىٰ الْحَرَكَةِ المتدَرِجَةِ شَيْئاً فَشَيْئاً.

سُجْداً: جَمْعُ «سَاجِدٍ».

فَدَلَّ هٰذَا عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَذَلَّ المسْتَكْبِرِينَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، بِجَعْلِ ظِلَالِهِمْ قَبْلَ زَوَالِ الشَّمْسِ، وَبَعْدَ زَوَالِهَا إذْ يَفِيء إلَىٰ جِهَةِ الشَّرْقِ، سَاجِدَةً مُنْبَطِحَةً عَلَىٰ الْأَرْضِ تَدُوسُهَا الأقْدَامُ، وهم داخِرُونَ، أذِلَّاءُ صَاغِرُون، وهَـٰذِهِ إِحْدَىٰ ظَواهِرِ خُضُوعِ الْأَجْسَادِ لِبَارِئِهَا.

ولو شَاء اللهُ لجعَلَ أجْسَادَ النَّاسِ غَيْرَ حَاجِبَةٍ للضِّيَاء، وحينئذٍ لَا يَكُونُ لَهَا ظِلَالٍ، لَكِنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - جَعَلَها ذَاتَ ظِلَالٍ لِيُشْعِرَهَمْ بإيمَاءٍ خَفِيٍّ أَنَّ ظِلَالَهُمْ سَاجِدَةٌ عَلَىٰ الْأَرْضِ لَه، بِالْقَهْرِ والْجَبْرِ، كَمَا أَنَّ أجْسَادَهُمْ خَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِهِ إيجاداً وإعْدَاماً وَتَصَارِيف بالْقَهْرِ والْجبْر، والْعَاقِلُ الرَّشِيدُ يَجْعَلُ مَا يَمْلِكُ بإرَادَاتِهِ مُنْسَجِماً مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مَجْبُورٌ، تَجْرِي مَقَادِيرُ اللهِ عَلَىٰ وَفْقِ قَضَائِهِ وَقَدَرِه، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَلَا يَشِذُّ عَنْهَا مُسْتَكْبِراً.

وجَاءَت عبارة ﴿ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ للدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ حَيْثُ اتَّجَه، وَجَدَ في النَّهَارِ ظِلَّهُ وظِلَّ الْأَشْيَاءِ مِنْ حَوْلَهُ يَتَفَيَّأُ مُتَدَرِّجاً، فإذا الْتَفَتَ إلَىٰ جِهَةِ يَمِينِهِ وأَيْمَانِهِ وَجَدَ هٰذَا السُّجودِ لِظِلِّهِ وَلِظِلِّ الْأَشْيَاءِ في النَّهَارِ ذِي الشَّمْسِ المشْرِقَة، وَإِذَا الْتَفَتَ إلَىٰ جِهَةِ شِمَالِهِ وَشَمَائِلِهِ وَجَدَ هٰذَا السُّجُودَ، فَمِنَ الْخَيْرِ لَهُ أَنْ يَكُونَ فِي حَرَكَتِهِ الإرادِيَّةِ سَاجِداً مَعَ السَّاجِدِين، وأَنْ يَجْعَلَ مَا هُوَ فِيهِ مُخْتَارٌ مِثْلَ مَا هُوَ فِيهِ مَجْبُور.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾:

بَعْدَ أَنْ أَبَانَ اللهُ أَنَّ ظِلَالَ الْأَجْسَادِ ذَاتِ الكَثَافَةِ وَمِنْهَا أَجْسَادُ النَّاسِ جَمِيعاً، تَكُونُ عَلَىٰ سُطُوحِ الْأَرْضِ سَاجِدَةً لِرَبِّهَا، وَهِي تَدُلُّ بِأُسْلُوبِ الإِيمَاءِ لِلْمُسْتَكْبِرِينَ الَّذِينَ لَا يَسْجُدُونَ لِرَبِّهِمْ، أَنَّ ظِلَالَ أَجْسَادِهِمْ سَاجِدَةٌ للهِ رَبِّهَا بِالْجَبْرِ، وَإِنِ اسْتَكْبَرَتْ إِرَادَاتُهُمْ عَنْ جَعْلِ أَجْسَادِهِمْ تَسْجُدُ للهِ طَائِعِينَ خَاضِعِينَ.

أَبَانَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ يَسْجُدُ للهِ سُجُوداً لَا نُدْرِكُ نَحْنُ كَيْفِيَّتَهُ.

وأَبَانَ ـ تَبارَكَ وَتعالَىٰ ـ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَسْجُدُونَ لَهُ جَمِيعاً خَاضِعِينَ لِعَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، فَلَا يُوجَدُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَسْتَكْبِرُ عَنِ السُّجُودِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَبَانَ ـ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَخَافُونَ عِقَابَ رَبِّهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَهُمْ بِخَوْفِهِمْ يَخْضَعُونَ وَيَذِلُّونَ لَهُ.

وأَبَانَ ـ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَفْعَلُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ، فَلَا يَعْصُونَهُ فِي شَيْءٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، قَلِيلٍ أو كَثِيرٍ.

أي: فَمِنَ الْعَقْلِ والْحِكْمَةِ والرُّشْدِ والانسِجَامِ مَعَ الْكَوْنِ كُلِّهِ، أَنْ لَا يَشِذَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِذْ أَعْطَاهُمْ رَبُّهُمْ إِرَادَاتٍ حُرَّةً لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ، فَيَسْتَكْبِرُوا عَنِ السُّجُودِ للهِ رَبِّهِمْ، خُضُوعاً لَهُ وَذُلًّا، بَعْدَ الإِيمانِ الصَّحِيحِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٧)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الرابع عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٥١ ـ ٥٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

القراءات:

(٥١) • قرأ يعْقوب: [فَارْهَبُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وَصْلاً ووقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَارْهَبُونِ] بِحَذْفِ يَاءِ المتكلّمِ وَصْلاً وَوَقْفاً.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ قَوْلٍ قَالَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ، وَوَجَّهَهُ لِكُلِّ عِبَادِهِ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الْحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، بِشَأْنِ بَعْضِ كُلِّيَّاتٍ كُبْرَىٰ مِنْ كُلِّيَّاتِ الدِّين، وَبِشَأْنِ بَعْضِ صِفَاتِ النَّاسِ في حَالَةِ مَسِّهِمُ الضُّرَّ وَلُجوئِهِمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لِيَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ، فإذَا كَشَفَهُ عَنْهُمْ إذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ، لِيَتَهَرَّبُوا مِنْ وَاجِبَاتِ إيمَانِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَوَاجِبَاتِ شُكْرِهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ إِلَٰهَيْنِ اثْنَين.

- ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾:

دَلَّ البيانُ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ المقْصُودِينَ بالْمُعَالَجَةِ فيها هُمُ الْمَجُوسُ من الْفُرْس، وَمَنِ اتَّبعَ دِينَهُم مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَب، ومِنْهُمْ بَعْض بَنِي بَكْر بْنِ وائل، وَبَعْض بَنِي تَمِيم، وكَذَلِكَ مَنِ اتَّبعَ دِينَهُمْ مِنَ الْأُمَم الْأُخْرَى.

فالْمَجُوسِيَّةُ قَائِمَةٌ عَلَىٰ إِثْبَاتِ إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ: إِلَهٍ لِلْخَيْرِ، وَهُوَ النُّور، وإِلَهٍ للشَّرِّ، وَهُو الظُّلْمَة.

فإِلَهُ الْخَيْرِ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا الْخَيْرُ والإِنْعَامُ والإِحْسَان. وإِلَهُ الشَّرِّ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا الشَّرُّ والضُّرُّ والإِيذاءُ والإِيلَام.

واسْمُ إِلَهِ الْخَيْرِ عِنْدَهُمْ: «يَزْدَانْ».

واسْمُ إِلَهِ الشَّرِّ عِنْدَهُمْ: «أَهْرُمُنْ».

ويَظْهَرُ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِيمَا قَبْلَ الإِسْلَامِ بَيَاناً مُوَجَّهاً لِلْمَجُوسِ فِيهِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لَهُمْ: لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ، فاعْتِقَادُكُم بإِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ اعْتِقَادٌ بَاطِلٌ فَاسِدٌ، إِنَّما الإِلَهُ الْحَقُّ إِلَهٌ واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِين، وَهُوَ أَنَا، فَإِيَّايَ وَحْدِي فَارْهَبُونِي، وَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئاً، وَلَا تُشْرِكُوا بِي أحداً، وَلَا تَرْهَبُوا إِلَه الشَّرِّ الَّذِي زَعَمْتُمُوه، فهو بَاطِلٌ لَا وُجُودَ له.

وَجَاءَ تَوْكِيدُ «إِلَٰهَيْنَ» بِعِبَارَة «اثْنَيْنِ» لْلإِشْعَارِ بِأَنَّ المقْصُودِين بالْبَيَانِ هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بإِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ، وهُمُ الْمَجُوسُ، وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ فَآمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنَ بِهِ مَجُوسُ الْفُرْسِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: والله الذي هُوَ الإلَهُ الواحد الذي لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ خَلْقاً ومِلْكاً كُلُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْض، لَا يُشارِكُهُ في خَلْقِهَا وَمِلْكِهَا والتَّصَرُّفِ فيها أحد.

وَلَهُ أيضاً وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الدِّينُ وَاصِباً، أيْ: حَالَةَ كَوْنِهِ دَائِماً ثَابِتاً.

الْوَاصِبُ: الثَّابِتُ الدَّائِمُ الْوَاجِبُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ في حَالٍ من الأَحْوَال.

الدِّينُ: الطَّاعَةُ والانْقِيَادُ الْكَامل.

إِنَّهُ لمَّا كَانَ اللهُ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ والمتَصرِّفَ في كُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكَ كُلِّ شَيءٍ، كَانَ مِنْ حقِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يُطِيعُوهُ وينْقَادُوا لَهُ دَائِماً، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ في الْوَجُودِ كُلِّهِ حَقٌّ عَلَىٰ الْعِبَادِ في أَنْ يُطِيعُوه وَيَنْقَادُوا لَهُ، مَا لَمْ يأمُرْ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ بِطَاعَتِهِ والانْقِيَادِ له.

- ﴿... أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾: أَيْ: أَفَبَعْدَ هٰذَا البيانِ الْجَلِيِّ تَتَّقُونَ عِقَابَ إِلَهِ الشَّرِّ الَّذِي جَعَلْتُمُوهُ إِلَهاً كَذِباً وافْتِرَاءً عَلَىٰ الله، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ دَلِيلٌ يُثْبِتُ إِلَهِيَّتِهِ، ويُثْبِتُ صِحَّةَ تَخَوُّفِكُمْ مِنْهُ وَصِحَّةَ أَنْ تَتَّقُوا عِقَابَهُ وَتَرْهَبُوه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ للمعْنِيِّينَ بالمعالَجَة، وهُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بإلَهَيْنِ اثْنين:

- ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ... ﴿٥٣﴾﴾: أي: إِنَّكُمْ تَجْعَلُونَ مَا تَسْتَمْتِعُونَ بِهِ مِنْ نِعَم هُوَ مِنْ إِنْعَام إِلَهِ الْخَيْرِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ: فِي مُقَابِلِ إِلَهِ الشَّرِّ الَّذِي تَرْهَبُونَهُ فَتَعْبُدُونَهُ اتِّقَاءَ شَرِّه، مَعَ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ بِكُمْ هِيَ مِنْ فَضْلِ اللهِ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ، ولَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا مِنْ إِلَهِ الْخَيْرِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وُجُودٌ إِلَّا فِي أَوْهَامِكُمْ.

• ﴿... ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

تَجْأَرُون: تَدْعُونَ وَتَسْتَغِيثُونَ، رافِعِين أَصْوَاتَكُمْ بالدُّعاء، تَسْأَلُونَ الله أَنْ يَكْشِفَ عَنْكُمْ الضُّرَّ.

أي: إِنَّكُمْ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ هُوَ مِنْ فَضْلِ إِلَه الْخَيرِ عَلَيْكُمْ، الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ، وهو بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، لَكِنَّكُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضُرُّ في أَنْفسِكُمْ أَوْ أَمْوَالِكُمْ أو أَرْزَاقِكُمْ، فإِنَّكُمْ تَجأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ رَبِّكُمْ، لِيَكْشِفَ عَنْكُمْ مَا مَسَّكُمْ مِنْ ضُرٍّ، لِأَنَّهُ لَا مُجِيبَ لَكُمْ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا هُو، فِيمَا سَبَقَ مِنْ تَجارِبِكُمْ.

• ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ... ﴿٥٥﴾﴾:

أي: ثُمَّ إِذَا اسْتَجابَ اللهُ رَبُّكُمْ دُعاءَكُمُ الَّذِي جَأَرْتُمْ بِهِ إِلَيْهِ، رَحْمَةً وَرَأْفَةً بِكُمْ، فَاجَأَ فَرِيقٌ مِنْكُمْ فَأَعْلَنُوا شِرْكَهُمْ بِرَبِّهِم الْمُهَيْمِنِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِم، وفي كُلِّ الكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِم، فَجَعَلُوا يَنْسُبُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْهُمْ إِلَىٰ الإِلَهِ الْبَاطِلِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ، أو إلى أَسْبَابٍ يَجْعَلُونَها مُنْفَصِلَةً عَنْ إِرَادَةِ اللهِ وَقَضَائِهِ، يَفْعَلُونَ هَـٰذَا لِأَجْلِ أَنْ يَكْفُرُوا جَاحِدِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، حَتَّىٰ لَا يَلْتَزِمُوا بما يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِ اللهِ رَبِّهِمْ، والْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ عَلَىٰ مُرَادِهِ، في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ.

هـٰذَا الموقِفُ الجُحُودِيُّ الإِشْرَاكِي اسْتَدْعَىٰ أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ بِأُسْلُوبِ الإِلْتِفَات مُهَدِّداً وَمُتَوَعِداً:

• ﴿... فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: فَتمتَّعُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بِمَا أَنْعَمَ اللهُ رَبُّكُم بِهِ عَلَيْكُمْ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ الدِّينِ تحقيقَ مَا تُوعَدُونَ بِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ فِي الْجَحِيم، خالِدِينَ فِيها، جَزَاءَ كُفْرِكُمْ بِرَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِين، وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ، لَكِنَّكُمْ تَجْحَدُون.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع عشر من دُرُوس سورة (النَّحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(١٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٥٦ ـ ٦٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ
(٥٦) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ
ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ (٥٨) يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ
عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ
مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٦٠) وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ
بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا
يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٦١) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ
ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ (٦٢)﴾:

القراءات:

(٦١) • قرأ وَرْش، وأبو جعفر: [**يُوَاخِذُ**] و[**يُوخِّرُهُمْ**] بإبدال الهمزة واواً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُؤَاخِذُ**] و[**يُؤَخِّرُهُمْ**].

(٦٢) • قرأ نَافع: [**مُفْرِطُونَ**] بِكَسْرِ الراء، من فعل «أَفْرَطَ» أي: متجاوزُون حُدُود الحقّ والخير بِغُلَوّ.

وقرأها أبو جعفر: [**مُفَرِّطُونَ**] بِتَشْدِيد الرَّاءِ مَكْسُور وفتح الفاء، أي: مُفَرِّطُونَ بما يجب عليهم تُجاهَ رَبّهم، وهو نظير «مُفْرِطُونَ» إلّا أنه من المضعَّف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مُفْرَطُونَ**] بِفَتْحِ الراء، أي: مُقَدَّمُون لِعَذَاب النَّار، بِسَبَبِ غُلُوِّهِمْ في الكُفْرِ والْجُحُودِ.

تمْهيد:

فِي آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ افتراء المشْرِكِينَ الأحْكامَ عَلَىٰ اللهِ، فِيمَا هُوَ من خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ. وفيها بَيَانُ ادّعَائِهِمْ أَنَّ الْمَلاَئِكَةَ بَنَاتُ الله، وفيها مُعَالَجَتُهُمْ بالإنْذَارِ بِعِقَابِ الله.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ بَعْضِ افْتِرَاءَاتِ المشركين:

● ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: وَيَجْعَلُ المشْرِكُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ لَهُمْ رُبُوبيَّةً وَلَا إلَهِيَّةً، وإنَّما اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ افْتراءً عَلَيْه، نَصِيباً مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ رَبُّهُمْ، فَيَتَقَرَّبُونَ لِآلِهَتِهِمْ الْبَاطِلَةِ بالْقَرَابين، وَبالْأَرْزَاقِ الَّتِي يَسْطُو عَلَيْهَا سَدَنَةُ هَـٰذِهِ الآلِهَةِ، وَيُحَرِّضُونَ المشْرِكينَ عَلَىٰ بَذْلِها، ويَضَعُونَ أَكَاذِيبَ انْتِفَاعِ المشْرِكِين فِي مَطَالِبِ حَيَاتِهِمْ، إذَا هُمْ بَذَلُوا لِآلِهَتِهِمْ مِنَ الْأَوْثَانِ القرابِينَ مِنَ الذَّبائِح، والْأَرْزَاق مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ، وَالْأَمْوَالَ من الذَّهَبِ والْفِضَّة.

النَّصِيب: الحظُّ من أيّ شيء.

لَقَدْ كَانَ الواجِبُ أَنْ يَبْذُلُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ اللهُ رَبُّهُمْ، في وُجُوهِ الْخَيْرِ الَّتِي دَعَا عِبَادَهُ لِلْبَذْلِ فِيها، لَا أَنْ يَبْذُلُوا فِيما جَعَلُوهُ إلَهاً مِنْ دُونِ اللهِ، افْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ وكُفراً بِهِ، وَهـٰذَا مِمَّا شَدَّد اللهُ عَزَّ وَجلَّ التَّحْذِيرَ مِنْهُ، وَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين لِأَنَّهُ كُفرٌ بِهِ، فَمَنْ مَاتَ عَلَىٰ شِرْكِهِ، كانَ يَوْمَ الدِّين فِي عَذَاب جهنَّمَ من الخالِدِين.

وَتَشْدِيداً في التَّحْذِيرِ مِنَ الشِّرْكِ وَلوازِمِهِ في السُّلُوكِ، تَوَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِخِطَابِهِم عَلَىٰ طريقَةِ الالْتِفَاتِ، فَقَالَ لَهُمْ مُؤَكِّداً.

- ﴿... تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُمْ بِعِبارَةِ ﴿تَاللَّهِ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُمْ سَوف يُسْأَلُون يَوْمَ القيامَةِ في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ في الحياةِ الدُّنيا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، في قَضَايَا الدِّين الَّتِي هي مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ.

وفي ذِكْرِ السؤالِ كِنَايَةٌ عَنْ لَوَازِمِهِ، من الْحُكْم عَلَيْهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ، ثُمَّ تَنْفِيذِ الجزاء الَّذِي صَدَرَ بِهِ الْحُكْمُ الرَّبَّانِي، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ الْخُلُودُ في عذاب النار لِأَنَّهُمْ بافْتِرَائِهِمْ عَلَىٰ اللهِ رَبِّهِمْ كَانُوا كافِرِين، وماتُوا عَلَىٰ ذَلِكَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ كَبِيرَةٍ أُخْرَىٰ مِن افْتِرَاءَاتِ المشْرِكين على ربِّهم:

- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

زَعَمَتْ بَعْضُ قبائلِ الْعَرَبِ أَنَّ الْمَلائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، وذُكِرَ مِنْهما: «كِنَانَةُ» و«خُزَاعَةَ» فقالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِهِم مُلَوِّماً ومُعَجِّباً مِنْ افترائِهِمْ على اللهِ رَبِّهم:

- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي: ويَجْعَلُونَ للهِ بالافْتِرَاءِ الْقَوْلِيّ والاعْتِقَادِيّ للهِ رَبِّهِمْ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ الْبَنَاتِ، إِذْ يَقُولُون: الْمَلائِكَةُ بَنَاتُ الله.

وَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَقُولَتَهُمُ الْكَاذِبَةَ هَـٰذِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تَنَزَّهَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ عَنْ فِرْيَتِهِمْ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَة السُّقُوطِ والْبُطْلَان، فالْخَالِقُ الأَزلِيُّ الأَبَدِيُّ لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ بالوجوب الْعَقْلِيّ.

سُبْحان: اسْمٌ عَلَمٌ لمعْنَىٰ البراءة والتَّنْزِيهِ.

وهو في مَوْضِعِ المصْدَرِ، والْأَصْل في العبارة: أَسبِّحُهُ تَسْبِيحاً.

- ﴿... وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾: أي: وَلَهُمْ يَطْلُبُونَ مَا يَشْتَهُونَ، وَمَا يَشْتَهُونَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُم أَوْلَادٌ ذُكُورٌ يَعْتَزُّونَ بِهِمْ، وَيَكُونُونَ لَهُمْ عَوْناً في الْحَيَاة، فَكَيْفَ يَجْعَلُونَ للهِ رَبِّهِمُ البنات، وهُمْ يَرْغَبُونَ في الْبَنِينَ الذكور رغبة شدّيدة.

يُقَالُ لغة: «اشْتَهَىٰ الشَّيْءَ» أي: اشْتَدَتْ رَغْبَتُهُ فِيهِ.

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾:

أي: وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ الله، إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِأَنَّهُ وُلِدَتْ لَهُ مِنْ زَوْجَتِهِ مَوْلُودَةٌ أُنْثَىٰ اسْوَدَّ وَجْهُهُ مِنْ هٰذَا الْخَبَرِ، فَظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَلَامِحُ كُدْرَةٍ فيها سَوَادُ، عَلَامَةً عَلَىٰ كَرَاهِيَتِهِ لِمَا بُشِّرَ بِهِ، وظَلَّ طَوَالَ نَهَارِهِ كَئِيباً مُسْوَدَّ الْوَجْهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «ظَلَّ نَهَارَهُ يَفْعَلُ كَذَا» لَا يُقَالَ هٰذَا إِلَّا فِي النَّهَار. وَقَدْ يِسْتَعْمَلُ «ظَلَّ» بمعنى الدَّوام، فيقال: «ظَل فُلانٌ عَلَىٰ طَاعَتِهِ» بِمَعْنَىٰ دَاوَمَ عَلَيْها.

- ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: وَهُوَ مُمْسِكٌ عَلَىٰ مَا امْتَلَاتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ غَيْظٍ أو كراهِيَةٍ أَوْ غَضَبٍ. يُقَالُ لغة: «كَظَمَ السِّقَاءَ يَكْظِمُهُ» أي: مَلَأَهُ وسَدَّ فَاه. واخْتِيرَ في الآية اسْتِعْمَال كَلِمة: «بُشِّرَ» للدَّلَالَةِ على أَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَبِرَ الخبر بَشَارَةً سارّة.

- ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ...﴾: أي: يَسْتَخْفِي وَيَسْتَتِرُ مِنْ مَعَارِفِهِ مِنْ قَوْمِهِ، مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، حَتَّىٰ لَا تَظْهَرَ قَسَمَاتُ وَجْهِهِ الْكَالِحَةُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ كَرَاهِيَةٍ لِمَا أُخْبِرَ بِهِ مِنْ مَوْلُودَةٍ لَهُ أُنْثَىٰ.

- ﴿... أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ ... ۝٥٩﴾:

الْهُون: الْخِزْيُ والذِّلَّة.

يَدُسُّهُ: أي: يُخْفِيهِ وَيسْتُرُه. وَدَسُّهُ في التُّرَاب هو قَتْلُهُ وأداً في تُرَابِ الْأَرْض، كعَادَةِ بَعْضِ الْعَرَب في الجاهليّة.

أي: تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ حِينَ يُبَشَّرُ بمولُودَةٍ لَهُ أُنْثَىٰ بِحَدِيثَيْنِ وعَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ أَحَدَهُمَا:

الْحَدِيث الْأَوَّل: أَيُمْسِكَ هٰذَا الَّذِي أُخْبِرَ بِهِ عَلَىٰ تَحمُّلِ خِزْيٍ وَذِلَّةٍ في مَعَارِفِهِ مِنْ قَوْمِهِ، فَلَا يَتَخَلَّصُ مِنْهُ بالْقَتْلِ وأداً فِي تَرابِ الْأَرْضِ؟!

الحديث الثاني: أَمْ يَدُسُّهُ فَيُخْفِيهِ وَيَسْتُرُهُ وَأداً فِي تَرَاب الأرض، ويَتَخَلَّصُ مِنْهُ، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ بَيْنَ قَوْمِهِ خَزْيَانَ مُنْكَسِراً، لِأَنَّ قَوْمَهُ يُعَيِّرُونَهُ أَبَا الْبَنَاتِ؟؟.

وَفِي آخِرِ هٰذَا الْبَيَانِ بِشَأْنِ بَعْضِ مَفَاهِيمِ الْجَاهِلِيَّة قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿... أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩﴾:

«أَلَا» أَدَاةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتَنْبِيهٍ، وتَحْقِيق.

«سَاءَ» فِعْلٌ يُقَالُ فِي إِنْشَاءِ الذَّمِّ عَلَىٰ سَبِيلِ المبالغة.

﴿مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي: سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ مِنْ أَحْكَام جاهِلِيَّةٍ لَا عَقْلَ فِيها وَلَا رُشْدَ، وَلا عَدْلَ وَلَا حِكْمَة، إِذْ يُفَضِّلُونَ الذُّكُور من المواليد، وَيَكْرَهُونَ أَنْ تُولَدَ لَهُمُ الإناث، مع أَنَّ نِظَامَ تَناسُلِ الْأَبْنَاءِ في الْكَوْنِ بِحَسَبِ تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ لَا يَتَحقَّقُ إِلَّا بالذُّكُورِ والْإِنَاثِ، فالذُّكُورُ أشِقَّاءُ الإِنَاثِ، والْإِنَاثُ شَقِيقَاتُ الذُّكُور فِي نِظَامِ تَكَاثرِ الْأَحْيَاء.

وَمَا لَهُمْ يُفَضِّلُونَ الإنَاثَ في الْأَنْعَام على الذّكور، أَلِأَنَّ الْإِنَاث يَلِدْنَ الْأَنْسَالَ الكَثِيرَةَ الْمُرْبِحَةَ لَهُمْ، أَمَّا الذُّكُورُ فَيَكْفِي الْوَاحِدُ مِنْهَا لِتَلْقِيحِ قَطِيعٍ مِنْ نَوْعِهِ؟

إِنَّ أَحْكَامَهُمُ الجاهِلِيَّةِ مِنْ أَسْوَأ الْأَحْكَامِ وأقْبَحِهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً أَنَّ سَببَ كَبَوَاتِ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ في أحْكَامِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وَمَا فيها جزاء:

• ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾:

السَّوْء: بفتح السِّينِ، اسْمٌ للضُّرِّ، وسُوءِ الْحَالِ، والْعَذَاب.

و﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي: وَصْفُ سُوءِ الْحَالِ، وسُوءِ الْمَصِيرِ، وسُوءِ الضُّرِّ الَّذِي أُعِدَّ لَهُمْ وسُوءِ الْعَذَاب.

وَقَدْ جَاءَ فِي هَـٰذِهِ الْآيَةِ الحديثُ عَنِ المشْرِكِينَ الَّذِينَ سَبَقَ في الآيَاتِ من (٥٦ ـ ٥٩) بَيَانُ بَعْضِ كَبَائِرِهِمُ الكُفْرِيَّة بِعُنْوانِ، الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَة، لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا بالْآخِرَةِ لَمْ يَسْقُطُوا فِي هَـٰذِهِ الكَبَائِرِ الكُفْرِيَّةِ، والْأَحْكَامِ الشَّنِيعَةِ ذَاتِ الْقُبْحِ الشَّدِيد.

والمعنى: لِهٰؤلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ وَلِأَمْثَالِهِمْ، وصْف السَّوْءِ، إِذْ سَوْفَ يَكُونُ مِنْ وَصْفِهِمْ أَنَّهُمْ في أسْوأ حَالٍ، وأسْوأ مَصِيرٍ، وأسْوأ عَذَابٍ، إِذَا لَمْ يَتُوبُوا بَلْ مَاتُوا عَلَىٰ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِيَّاتهم.

• ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أي: وللهِ الَّذِي جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ ظُلْماً وعُدْواناً، وافْتِرَاءً عَلَىٰ مَا يَجِبُ لَهُ مِنْ صِفَاتٍ، والَّذِي زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُه، الْوَصْفُ الأَعْلَىٰ فِي كُلِّ شيءٍ، في ذَاتِهِ، وَفِي صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّة، وَفِي أَفْعَالِهِ الحكيمةِ، وفي أسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ. إِذْ لَهُ الكمالُ كُلُّهُ، وهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ.

• ﴿... وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾: أي: وهُوَ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ الْقَادِرُ عَلَىٰ عِقَابِ مَنْ يَشَاءُ عِقَابَهُ مِنْ عِباده الْعُصَاةِ الْمُجْرِمِين، وهُوَ

الْحَكِيمُ فِيما يَشاءُ ويَخْتَارُ، وَقَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ إِمْهَالَ الْعُصاةِ الْمُجْرِمِينَ، فَيُؤَخِّرُ عِقَابَهُمْ بِحِكْمَتِهِ، لِيَمْنَحَهُمْ أَقْصَىٰ زَمَنٍ يُرَاجِعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ، فَيُؤْمِنُوا وَيَتُوبُوا وَيُقْلِعُوا عَنْ كَبائِرِهم الكُفْرِيَّةِ، وَيَعْمَلُوا من الصَّالِحَات.

فَمِنَ حِكْمَتِهِ أَنْ لَا يُعَجِّلَ للنَّاسِ مُؤَاخَذَتَهُ لَهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِم، وبَيَاناً لِهٰذَا قالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في الآية التالِيَة.

• ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: وَلَوْ يُتابِعُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مُؤَاخَذَةَ النَّاسِ بِالْعِقَابِ، بِسَبَبِ ظُلْمِهِمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ التَّعْذِيبَ والإهْلَاكَ، مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ تَدِبُّ عَلَيْها، حتَّىٰ الْأَحْياءِ الَّتِي لَمْ تُوضَعْ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحان.

إِنَّ إِهْلَاكَ الْأَحْياءِ الْأُخْرَىٰ مَعَ النَّاسِ فيما لَوْ أَرادَ اللهُ إِهْلَاكَ النَّاسِ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ دَوابِّ الْأَرْضِ مَخْلُوقَةٌ لِأَجْلِ النَّاسِ، فَإِذَا أُهْلِكَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ لِهٰذَا الْأَحْياءِ غَايَةٌ حَكِيمَةٌ يَبْقَوْنَ بِسَبَبِهَا في الْوُجُودِ في الحياة الدُّنيا.

وَلَكِنْ يُؤَخِّرُ اللهُ بإمْهَالِهِ الْحَكِيم مُؤَاخَذَةَ النَّاسِ الظَّالِمِينَ، إِلىٰ أَجَلٍ مُحَدَّدٍ مُسَمًّى عِنْدَه، فإذا اقْتَرَبَ أَجَلُ مُؤَاخَذَتِهِم بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ اللهِ - جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - فإِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ تَأْخِيرَ نُزُولِ عَذَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ لَحْظَةً وَاحِدَة، وَإِذَا كَانَ فِي الْأَجَلِ مُهْلَةٌ فإِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ تَعْجِيلَ إِنْزَالِ عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ لَحْظَةً واحِدَة.

اسْتَأْخَرَ: أي: «تَأَخَّرَ» لُغَةً.

اسْتَقْدَمَ: أي: «تَقَدَّمَ» لُغَةً.

وقد جاء في الآية (٣٤) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) نَظِيرُ هَـٰذِهِ العبارة: ﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فَلْيُرْجَعْ إِلَىٰ تَدَبُّرِهَا.

والمرادُ بالسَّاعَةِ أَقَلُّ مُدَّةٍ زَمَنِيَّة، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحَدِّدُ آجَالَ الأشياءِ، بأَقَلِّ الأَزْمَانِ الَّتِي تَبْدأُ عِنْدَها أَحْدَاثُ كَوْنِهِ، وبأَقَلِّ الْأَزْمَانِ الَّتِي تَنْتَهِي عِنْدَهَا.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُضِيفُ بَيَانَ بَعْضِ قَبَائِحِ المشركينَ الكَفَرَةِ المجرمين:

- ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

وفي قراءة [**مُفْرِطُونَ**]. وفي قراءة أخْرَىٰ: [**مُفَرِّطُونَ**].

أَبَانَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ كَبِيرَتَيْنِ شَنِيعَتَيْنِ من افتراءاتِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِم:

الكَبِيرة الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾: أي: ويَجعَلُونَ بالادّعَاءِ الكاذِبِ المفترىٰ للهِ الْأَزَلِيِّ الأَبَدِيِّ الواحِدِ الْأَحَدِ الْفَرْد الصَّمَدِ الَّذِي لم يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ مِنَ الصِّفَاتِ مَا يَكْرَهُونَ نَظِيرَهُ لِأَنْفُسِهِمْ. ويجعَلُونَ في سَبِيلِهِ من القرباتِ ما يَكرهون نظيره لأنفسهم.

- إِنَّهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شَرِيكٌ فِي سُلْطَانِهِمْ، أَوْ مُمْتَلَكَاتِهِمْ، ويَزْعُمُونَ أَنَّ للهِ شَرِيكاً أَوْ شُرَكاء في رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ في إِلَهِيَّتِهِ.

- وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ بالْقَرَابِين وَبالْعَطَايَا مِمَّا رَزَقَهم اللهُ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ شَيئاً مِنْهَا للهِ وَشيئاً مِنْهَا لِأَصْنَامِهِمْ، عَلَىٰ سَبِيلِ العبادة، وَهُمْ يَكْرَهُونَ مِثْلَ هَـٰذَا لِأَنْفُسِهِمْ فِيما يُقَدِّمُهُ عَبِيدُهُمْ لَهُمْ من تكْرِيمٍ أَوْ تعظيمٍ وَتَبْجِيلٍ، فَإِذَا أَشْرَكُوا مَعَهُمْ أَحَداً مِنْ أَتْبَاعِهِمْ بِذَلِكَ غَضِبُوا.

- وَإِذَا بَدَا لَهُمْ أَنْ يَبْذُلُوا شَيْئاً مِنْ أَمْوالِهِمْ في سَبِيلِ اللهِ لِلْفُقَرَاءِ والمساكينِ وذَوِي الضَّرُورَاتِ وَذَوِي الحاجَاتِ، بذَلُوا أَخَسَّ وأَرْذَلَ وأَرْدَأَ مَا يَمْلِكُون، وهُمْ يَكْرَهُونَ مِثْلَ هٰذَا لِأَنْفُسِهِم.

الكبيرة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي: وَيَدَّعُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ادّعاءً كَاذباً أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ الْمَنْزِلَةَ الْحُسْنَىٰ في الجنَّة، إِنْ صَحَّ خَبَرُ البَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ، وخَبَرُ الْجَنَّةِ والنَّار، قِياساً علىٰ مَا هُمْ فِيهِ مُفَضَّلُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَجَاءَ التَّعْبِيرُ بأنّ أَلْسِنَتَهُمْ تَصِفُ الْكَذِبَ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ فَرْضِ صِدْقِ الْخبرِ فِيهِ المنزلَةَ الْحُسْنَىٰ في الْجَنَّة، وَهُوَ فيما أَرَىٰ عَلَىٰ تَقْدِيرِ: وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْوَصْفَ الكَذِبَ، وَهُوَ وَصْفُ حَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ فَرْضِ صِحَّةِ خَبَرِ يَوْمِ الدِّينِ، إِذْ يَقُولُونَ: إِنَّ لَنا عِنْدَ رَبِّنَا الْحُسْنَىٰ، وإِنَّنَا سَنَكُونَ أَنْعَمَ حَالاً مِمَّا نَحْنُ الْآنَ عَلَيْهِ في الدُّنيا. نظير قولِ صَاحِبِ الجنَّتَيْنِ لِمُحَاوِرِهِ المؤمِنِ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُ جوارِهِمَا في سُورَةِ (الكهف/ ٦٩ نزول):

- ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

وَجَاءَ التَّعْلِيقُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ ادِّعَائِهِم الْكَاذِب بِبَيَانِ نَقِيضِ مَا زَعَموا فقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الْآيَة:

﴿... لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

- ﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكِيدِ الْكَلام وَتَوْثِيقِهِ، فهي بِمَنْزِلَةِ «حقًّا ـ لَا بُدَّ ـ لَا شَكَّ ـ لَا مَحالَة» وَأَصْلُ مَعْنَىٰ الْجَرْمِ الْقَطْعُ. أَي: لَيْسَ حَالُهُمْ كما يَزْعُمون، بَلِ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ لَهُمُ النار يُعَذَّبُونَ فِيهَا خَالِدِينَ.

● ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾: أي: وَأَنَّـهُـمْ مُـقَـدَّمُـونَ عَـلَـىٰ غَـيْـرِهِـمْ فـي دُخُـولِ النَّارِ، لِفَرْطِ غُلُوِّهِمْ في الكُفْرِ الْجُحُودِيِّ الْعِنَادِي.

● ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرِطُونَ﴾ في قراءة نافع، أي: غالُون مُتَجاوِزُونَ كُلَّ حُدُود الْحَقِّ والْخَيْرِ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تُجَاه رَبِّهِم، وكذلِكَ قراءة أبي جعفر: [مُفَرِّطُونَ].

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الخامس عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٩)

التدبُّر التحليلي للدَّرس السادِس عشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٦٣) و(٦٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

القراءات:

(٦٣) ● قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [فَهْوَ] بإسْكان الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَهُوَ] بِضَمِّ الهاء.

تَمْهيد:

فِي آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ أُمَماً كثيرةً مِنْ قَبْلِ أُمَّةِ محمّد ﷺ، قَدْ

أَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ رُسُلاً، فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، وأَنَّ اللهَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً يُعَذِّبُهُمْ بِهِ يَوْمَ الدِّين.

وفيها بَيَانُ وَظِيفَةٍ مِنْ وَظَائِفِ رَسُولِ اللهِ محمّد ﷺ فِي هَـٰذِهِ الرِّسَالَةِ الخاتمة، وهِيَ أَنْ يُبَيِّنَ للناسِ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ في قضايا الدِّين، ويُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ القرآن هُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنون.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لأمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وَخطاباً له:

- ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾:

التوكيد بالْقَسَم ﴿تَٱللَّهِ﴾ وبعبارة ﴿لَقَدْ﴾ مُوَجَّهٌ لِلْيَهُودِ والنَّصَارىٰ والصَّابِئِينَ، ولكُلّ المِلَلِ الَّتِي لَهَا بَقَايَا بَعْدَ بِعْثَةِ الرسُول محمَّد ﷺ، مِن الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ أَرْسَلَ اللهُ لَهُمْ رُسُلاً.

أي: نُقْسِمُ وَنُؤَكِّدُ أَنَّنا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحمّد، وفي مُقَدّمَتِهِمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ والصَّابِئُون، فاسْتَجَابَ مَنِ اسْتَجَابَ مِنْهُمْ لِرُسُلِنَا في دَعَوَاتِهِم إِلَىٰ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبَادِنَا فِي الحياة الدُّنيا.

ثُمَّ انْحَرَفَ خَلْفُهُمْ عَنْ صِرَاطِنَا المسْتَقِيمِ إيماناً، وإِسْلَاماً، واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ والْأَهْوَاءَ وَرَغَبَاتِ نفوسِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنيا، فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، فانْسَاقُوا مَعَ الشَّيْطَانِ في تَزْيِينَاتِه، حَتَّىٰ خَرَجُوا عَنْ صِرَاطِنَا المستَقِيم.

فَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْهُم بَعْدَ بِعْثَتِك، فالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ في الحَيَاةِ الدُّنيا، يَسُوقُهُمْ أَوْ يَقُودُهُمْ إِلَىٰ حَضِيضِ سَخَطِ اللهِ عَلَيْهِم، حَتَّىٰ يَكُونُوا مِنَ الخالِدِينَ في عَذَاب السَّعِير.

وِلَايَةُ الشيطان لَهُمْ هِي وِلَايَةُ آمِرٍ وَنَاهٍ وَدَاعٍ إلى الشُّرُور والْآثام، لَا وِلَايَةُ مُحبٍّ وَنَاصِرٍ.

- ﴿... وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾: أي: وَلَهُمْ مِنَ الصِّفَاتِ الملَازِمَةِ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ أليمٌ، يُعَذَّبُونَهُ في الْجَحِيم، بِحَسَبِ دَرَكَاتِهِمْ الْمُعَادِلَةِ لِجَرَائِمِهِمُ الَّتِي أجْرَمُوهَا في حياةِ الابْتِلَاءِ في الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

فِي هَٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَصْرِ إِنْزَالِ الكِتَابِ الذي هو القرآن عَلَىٰ غَرَضَيْنِ رَئِيسَيْن:

الْغَرْضُ الْأَول: أَنْ يُبَيِّنَ الرَّسُولُ ﷺ، وحَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، للمنتَمِينَ إِلَىٰ الْمِلَلِ السَّابِقَةِ الَّتِي حَرَّفَهَا أَتْبَاعُهَا عَنْ أُصُولِها، الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ عَنِ الْحَقِّ المنزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَىٰ الرُّسُلِ السَّابقين، لِيَعْلَمُوا مَا هُم عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ خارجٍ عَمَّا أنْزَلَ اللهُ، فَعَسَىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ مِنْهُمْ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والْخَوْفِ من اللهِ، فَيُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا وَيَتَّبِعُوا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ الخاتم محمّد ﷺ.

دَلَّ عَلَىٰ هَٰذَا الْعَرْضَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ﴾.

الْغَرْض الثاني: أَنْ يَكُونَ القرآنُ هُدىً ورَحْمَةً لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ، لِأَنْ يُؤْمِنُوا بالْحَقِّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللهِ الْخَاتِمُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِين، وَهَٰذَا يَشْمَلُ النَّاسَ جَمِيعاً بَعْدَ بِعْثَةِ الرسول.

دَلَّ عَلَىٰ هَٰذَا الغرض قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: وهُوَ هُدىً يَهْدِي إلى صِرَاطِ اللهِ المستقيم الذي يوصِلُ سالِكِيهِ إلى جَنَّات النَّعيم يَوْمَ الدِّينِ.

وهُوَ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ يَرْحَمُ بِهَا مَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاه وعَمِلَ بأَحْكَامِهِ، فَيصْرِفُ عَنْهُ شَقَاءَ الدُّنْيا وَعَذَابَ الآخِرَةِ، ويَجْعَلُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ في جَنَّاتِ النّعيم.

وفعل: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فِعْلُ مُضَارِعٌ يَصْلُحُ لِلْحَالِ والاسْتِقْبَال، وبالنِّسْبَةِ إلى دَلَالَتِهِ عَلَىٰ الاستقبال يُحْمَلُ عَلَىٰ المعنىٰ الَّذِي ذَكَرْتُهُ آنفاً، وهو أَنَّ القرآن هُدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إذا عَرَفُوا الْحَقّ والْخَيْرَ وفَضَائِلَ السُّلُوك.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السادس عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٠)

التدبُّر التحليلي للدّرس السابع عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٦٥ - ٧٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً

لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

القراءات:

(٦٦) • قرأ نافع، وابن عامر، وشعبة، ويعقوب **[نَسْقِيكُمْ]** من فعل: «سَقَىٰ».

وقرأها أبو جعفر: **[تَسْقِيكُمْ]** أي: الأنعام.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نُسْقِيكُمْ]** من فعل: «أَسْقَىٰ».

(٦٨) • قرأ ورْشٌ، وأبو عمْرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: **[بُيُوتاً]** بضمّ الباء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[بِيُوتاً]** بِكَسْرِ الياء. وهما لغتان.

(٦٨) • قرأ ابن عامر، وشُعْبَة: **[يَعْرُشُونَ]** بضمّ الرّاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَعْرِشُونَ]** بِكَسْرِ الراء.

وهما لغتان عربيتان لمعنًىٰ واحد.

(٧١) • قرأ شعبة، ورُويس: **[تَجْحَدُون]** بتاء الخطاب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَجْحَدُون]** بياء الغيبة.

وبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تكَامُلٌ في الْأَدَاء البياني.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَوْدٌ إلى عَرْضِ بَعْضِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عباده، وهُمْ لَا يُؤَدُّونَ وَاجِبَ الشُّكْرِ عليها، بل يَجْحَدُونَها، ويَكْفُرُونَ بها، وَيُؤْمِنُونَ بِالْبَاطِلِ، وَيَتَّبِعُونَ سُبُلَ الضَّلَال.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً نِعْمَةَ إنْزَالِ الماء من السَّماء وإحياء الْأَرْضِ بِهِ بَعْد مَوْتِها:

- ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

إنَّ نِعْمَةَ إنْزَالِ الماء من السَّمَاء، أي: من السَّحَابِ لِأَنَّ كُلَّ مَا عَلَا فأَظَلَّ فَهُو سماء، ونِعْمَةَ إحْيَاءِ الْأَرْضِ بِهِ بالنَّبَاتَاتِ بَعْدَ مَوْتِها، بِيُبْسِ النَّبَاتَات السَّابِقَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِيها، وَتَحَطُّمِهَا وَتَفَرُّقِها، وصَيْرُورَةِ الْأَرْضِ تُرَاباً وَصُخُوراً جافَّةً قَاحِلَةٍ، مِنْ آيَاتِ اللهِ الظَّاهِرَة فِي كَوْنِهِ، الَّتِي لَا يَحْتَاجُ اسْتِدْعَاؤُهَا للتَّصَوُّرِ الحاضِرِ إلَّا التَّذْكِيرَ عَنْ طَرِيقِ السَّمَاع.

فَمَنْ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يَسْمَعُوا مَا يَتَعَلَّقُ بالتَّذْكِير بآيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، كفَاهُمْ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: لَاحِظُوا مَا فِي هَـٰذِهِ النعمِ مِنْ آيَاتِ اللهِ.

وقَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ تَدَبُّر نَظِيرِ مَا جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَة عِدَّة مَرَّات.

انظر الآية (٩٩) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول). والآية (٥٣) من سورة (طه/ ٤٥ نزول). والآية (٦٠) من سورة (النمل/ ٤٨ نزول. والآية (١٠) من سورة (لقمان/ ٥٧ نزول). والآية (٢٧) من سورة (فاطر/ ٤٣ نزول). والآية (١١) من سورة (الزخرف/ ٦٣ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيّناً نِعْمَةَ اللَّبَنِ الَّذِي يُخرِجُهُ مِنْ بُطُونِ الْأَنْعَام خِطَاباً للنَّاس:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

الأَنْعَام: الْأَمْوَال الراعية، وهي الْإِبلُ، والبقر، والْغَنَم، وتَدْخُلُ الْمَعْزُ في الغنم، ولفظ «الأنْعَام» يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وَقَدْ جَاءَ هُنَا في الآيَةِ تَذْكِيرُهُ.

- ﴿لَعِبْرَةً﴾: تَأْتِي الْعِبْرَةُ في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ «الْعَجَب» وأَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا المعْنَىٰ هُوَ الْمُلَائِمُ في هَـٰذِهِ الآية.

الْفَرْثُ: مَا يَكُونُ في الْكَرِشِ مِنْ مَأْكُولٍ لَمْ يَتِمَّ هَضْمُهُ وإخراجُهُ رَوْثاً.

- ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾: أي: حَلِيباً نَقِيّاً لَا أَثَرَ فِيهِ مِنْ دَمٍ أَوْ فَرْثٍ.
- ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: طَيّباً لَذِيذاً، سَهْلَ الْمُرُورِ فِي الْحَلْقِ والانْحِدَارِ إِلَىٰ الْمَعِدَة.

المعنى: وَإِنَّ لَكُمْ في الْأَنْعَامِ لَأَمْراً عجباً، هُوَ أَنَّنَا بِقُدْرَتِنَا الْعَظِيمَة، وحِكْمَتِنَا السَّامِيَةِ، وأَلْطَافِنَا الْعَجِيبة، نُخْرِجُ لَكُم مِنْ بُطُونِهَا لَبَناً طَيّباً لَذِيذاً، سَهْلَ الْمُرُورَ في الْحَلْقِ والانْحِدَارِ إِلَىٰ الْمَعِدَة، مُسْتَخْلِصاً مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ، ودَمٍ.

فَوَجَّهَتْ هَـٰذِهِ الآيَة إِلَىٰ هَـٰذِهِ الْعَجِيبَةِ مِنْ عَجَائِبِ الْخَلْقِ، وهِيَ اسْتِخْلَاصُ اللَّبَنِ السَّائِغِ للشَّاربينَ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً نِعْمَةَ أُخرَىٰ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِباده:

- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: وأنْعَمَ اللهُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِثَمَرَاتِ النَّخِيلِ، وثَمَرَاتِ الْأَعْنَاب، وأَنْتُمْ تَتَّخِذُونَ مِنْ بَعْضِ هَـٰذِهِ النِّعَم الجَلِيلَةِ عَلَيْكُمْ سَكَراً غَيْرَ حَسنٍ، أَخْذاً مِنْ إشَارَةِ «وَرِزْقاً حَسَناً» وَهَـٰذِهِ الآيَةُ كَانَتْ بِدَايَةً فِي الإشْعارِ بأَنَّ السَّكَرَ مَوْضُوعٌ في قائِمَة مَا سَيُحَرَّمُ في الإسلام.

السَّكَرُ: اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُسْكِرُ مِنْ خَمْرٍ وَشَرَابٍ ما.

والرِّزْقُ الْحَسَنُ كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ من ثَمَر النَّخِيلِ وَثَمَرِ أشجارِ الْعِنَب، في الْأَكْلِ والشُّرْبِ، وَمَا يُصْنَعُ مِنْهُمَا، باسْتِثْنَاءِ السَّكَرِ غَيْرِ الْحَسَنِ، وَباسْتِثْنَاء مَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْذِي، ضِمْنَ قاعِدَةِ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَار» وَهـٰذَا مَعْرُوفٌ مِنْ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

وتقديرُ الآيَةِ: وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأعْنَابِ لَكُمْ عِبْرَةٌ أيْضاً، إذْ جَعَلَ اللهُ فِي نِظَام كَونِهِ أنْ يُصْنَعَ من ذَٰلِكَ سَكَرٌ غَيْرُ حَسَنٍ لِلشُّرْبِ، وَهُوَ حَسَنٌ لِمَنَافِعَ أُخرَىٰ، وَأَنْ يؤْكَلَ، وَيُصْنَعَ مِنْهُ مَآكِلُ وَمَشَارِبُ حَسَنَة، وأَنْتُم تَتخِذُونَ مِنْ هـٰذَا المخْلُوقِ لِمَنَافِعِكُمْ سَكَراً غَيْرَ حَسَنٍ تَشْرَبُونه، وَتَتَّخِذُونَ مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً.

وَلَمَّا كَانَ إِدْرَاكُ هـٰذَا يَحْتَاجُ قُوَّة عَاقِلَةً تُدْرِكُ دَقَائِقَ صُنْعِ اللهِ الْعَلِيم القدير، ولمَّا كَانَ كَفُّ الْأَنْفُسِ عَنِ السَّكَرِ غَيْرِ الْحَسَنِ يَحْتَاجُ عَقْلاً إرادِيًّا حَازِماً، قالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في آخِرِ الآيَةِ:

- ﴿. . . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾: ويَظْهَرُ أَنَّ المرادُ بالْعَقْلِ هُنَا الْعَقْلُ الْعِلْمِيُّ، والْعَقْلُ الإراديّ، فبالْعَقْلِ الْعِلْمِيِّ، يُدْرِكُون عَظَمَةَ إتْقَانِ الصُّنْعِ الرَّبَّانِيّ، وبالْعَقْلِ الإرَادِيّ يَكُفُّونَ نُفُوسَهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، وهُوَ غَيْرُ حَسَنٍ لمآكِلِهم ومَشَارِبِهِمْ، وَلَوْ كَانَتْ تَتَطَلَّبُهُ شهواتُهم وأهْوَاؤُهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً عَجِيبَةً مِنْ عَجَائِب خَلْقِهِ وهِيَ النَّحْلُ، وهَـٰذِهِ الْعَجِيبَةُ تُنْتِجُ عَسَلاً مُخْتَلِفَ الْأَلْوَانِ، وفِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاس، وهُوَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِبادِهِ:

- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾: هَـٰذَا الخطابُ مُوَجَّهُ لِكُلِّ فَرْدٍ صالحٍ لِلخِطَابِ بأسْلُوب الخِطَابِ الإفرادي.

وَلفظ الوحي في العربية يَدُلُّ عَلَىٰ مَعَانٍ مُتعدِّدَة مِنها: «الكِتَاب ـ الكِتَابَة ـ الإشَارَةُ السَّرِيعَة ـ الإلْهَامُ في دَاخِلِ النَّفْسِ ـ الكلامُ السَّرِيعُ الخفيّ ـ إلْقَاءُ المعْنَىٰ في القَلْبِ».

والوحْيُ إلى النَّحْلِ يُنَاسِبُهُ مِن هَـٰذِهِ المعاني الإلْهَامُ في دَاخِلِ النَّفْسِ، مَعَ تكْوِينٍ فِطْرِيٍّ يُلائِم، واسْتِعْدَادٍ لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاه.

النَّحْل: اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ واحِدُهُ «نَحْلَة» ولَفْظُه «مُؤَنَّث» يقال هَـٰذِهِ النحْلِ.

ويَصِفُ عُلَمَاءُ الأَحْيَاءِ النَّحْلَ المنْتِجَ لِلْعَسَلِ بِصِفَاتٍ تَدُلُّ عَلَىٰ عَجَائِبَ مُذْهِلَة مِنْ إتْقَانِ صَنْعَةِ الْبَارِي ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وعظيمِ قُدْرَتِهِ، وعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وسَامِي حِكْمَتِهِ.

إنَّ هَـٰذِهِ الْحَشَرَةَ المنْتِجَةَ لِلْعَسَلِ لمنَافِعِ النَّاسِ، مِنْ رَحِيقِ الْأَزْهَارِ، فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللهِ الْجَلِيلَاتِ مَا يُدْهِشُ وَيُذْهِلُ أَذْكَىٰ أَذْكِيَاءه الْبَشر، وتَلْخِيصُ مَا فَصَّلَهُ عُلَمَاءُ الأَحْيَاءِ بِشَأْنِهَا يَحْتَاجُ عِدَّة صَفَحَات.

واقْتَصَرَ البيانُ الْقُرْآني عَلَىٰ ذِكْرِ بَعْضِ ظَوَاهِرِ سُلُوكِ هَـٰذِهِ الحشَرَة العجيبَةِ، بإلْهَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَىٰ مَا يَخْرُجُ مِن بُطُونِها مِنْ شَرابٍ مُخْتَلِفِ الأَلْوَانِ، وفِيهِ شفاءٌ للنَّاس.

- ﴿... أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: وأوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحلِ علَىٰ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ في التَّدبُّر، وَحْياً إلْهَامِيًّا مَضْمُونُهُ: أَنِ اتَّخِذِي لِلْمَمالِكِ الَّتِي تُكوِّنِينَها بُيُوتاً، هَـٰذِهِ الْبُيُوتُ تُسَمَّىٰ خَلَايَا النَّحل، وَهِي تَتَأَلَّفُ مِنْ حُجَرٍ سُدَاسِيَّةِ الْبِنَاءِ مِنْ شَمْعٍ خَاصٍّ تَجْلُبُهُ مِنْ بَعْضِ الْأَشْجَارِ وَتُصَنِّعُهُ، وَتَبْنِي بِهِ هَـٰذِهِ الْحُجَرَ السُّدَاسِيَّةَ الشَّكْلِ المتْقَنَةَ الصُّنْعِ، لِتَخزنَ بِهَا الْعَسَل، وَاجْعَلِي هَـٰذِهِ الْبُيُوتَ فِي الْجِبَالِ، أَوْ فِي الشَّجَر، أو فِيمَا يَعْرِشُ النَّاسِ، أَيْ: فيمَا يبْنِي النَّاسُ مِنْ أَبْنِيَةٍ، من خَشَبٍ، أَوْ حَجَر، أو طِين، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

يُقَالُ لغة: «عَرَشَ، يَعْرِشُ، ويَعْرُشُ» أي: بَنَىٰ بِنَاءً مِنْ مَادَّةٍ ما وَجَعَلَ لَهُ سَقْفاً، وَيُقَالُ: «عَرَشَ الكَرْمَ» أي: صَنَعَ لَهُ عَرْشاً، أَوْ عَرِيشاً مِنْ خَشَبٍ أَوْ غَيْرِهِ لِتَمْتَدَّ فُرُوعُهُ عَلَيْه.

- ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ ... ﴿٦٩﴾﴾:

أَطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَفْظُ «الثَّمرات» عَلَىٰ كُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ أشْجَارِ الْأَرْضِ ذاتِ السَّاق وغيرِ ذات السَّاقِ، ممّا يأْكُلُ النَّاسُ أَوْ غَيْرُ النَّاسِ، ومِنْهُ الزَّهرُ والنَّوْرُ الّذِي تأْكُلُ النَّحلُ مِنْ رَحِيقِهِ، وَغَيْرُ النَّحْلِ من الْحَشَرَاتِ.

- فالْعِنَبُ، والتَّمر، والطَّلح، والتُّفَّاحُ، والْبُرْتُقَالُ، والمشْمِشُ، مِن الثَّمرات.

- واليقْطِينُ، والبطيخ، والخيار والقِثَّاء، والباذِنْجَانُ، ونحوها مِنَ الثَّمَرَات.

- والْوُرُودُ، والأَزْهَارُ، وَنَوْرُ الْأَشْجَارِ وَسائِرِ النَّبَاتَاتِ من الثَّمَرَات.

أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَبْنِي بُيُوتَكِ، كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمرَاتِ لِتَصْنَعِي عَسَلاً نَفِيساً فِي بُطُونِكِ، وَتَحْتَفِظِي بِهِ في حُجُراتِ بُيُوتِك، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَكُلِي مِمَّا يَتَيَسَّرُ لَكِ الْأَكْلُ مِنْهُ لِحَيَاتِك، إِنَّ الْعَسَلَ النَّفِيسَ لَا يَكُونُ إِلَّا مُشْتَقاً

مِنْ رَحِيقِ الأزهار المنتَشِرَة عَلَىٰ سُطُوح الْأَرْضِ فِي النباتَاتِ المختلفات، ونُلَاحِظُ فِي هـٰذَا أَنَّ النَّحْلَ مُلْهَمٌ مِنَ اللهِ أَنْ يَسْعَىٰ بَعِيداً عَنْ أماكِنِ بُيُوتِهِ ليأكُلَ مِنْ رَحِيقِ الْأَزْهَار والنَّوْرِ المنتشِرِ في أَمَاكِنِ تَوَزُّعِهِ في نَبَاتَاتِ الْأَرْض المخْتَلِفَةِ الأنواع والأصناف.

وَجاءَتْ عبارة: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ﴾ مُرَتَّبَةً بالتَّعْقِيبِ بالْفَاءِ عَلَىٰ: ﴿ثُمَّ كُلِي﴾: أي: ثُمَّ ابْدَئِي بالْأَكْلِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ الَّتِي تُوجَدُ حَوْلَ بُيُوتِكِ، وأَتْبِعِي ذَلِكَ بالتَّعْقِيب، فَاسْلُكِي بَعِيداً عَنْ بيوتِكَ سُبُلَ رَبِّكِ في جَوِّ الْأَرْضِ مُذَلَّلَةً سَهْلَةً، يُسَاعِدُكِ عَلَىٰ سُلُوكِها الطَّيَرَانُ بأجْنِحَتِك، لِتَنْتَقِي مَا يَطِيبُ فِي لِسَانِكِ مِنْ رَحِيقِ النَّوْر والْأَزْهَارِ النَّابِتَةِ عَلَىٰ نَبَاتَاتِ الْأَرْضِ.

وهـٰذَا مُلَاحَظٌ في سُلُوكِ النَّحْلِ حِينَما تَنْتَشِرُ مُفَارِقَةً بُيُوتَها لانْتِقَاءِ مَا تَخْتَارُ مِنْ رَحِيقِ الْأَزْهَارِ الَّتِي تَأْكُلُ مِنها وَتَخْزِنُهُ في مَعِدَةٍ خَاصَّةٍ بِصِنَاعَة الْعَسَلِ، فإذَا رَجَعَتْ إِلَىٰ بُيُوتِهَا أَخْرَجَتْهُ فَجَعَلَتْهُ فِي حُجُرَاتِ خَلِيَّتِها، الْخَاضِعَةِ لِسُلْطَانِ مَلِكَةِ الْخَلِيَّة، وهِيَ نَحْلَةٌ كَبِيرَةٌ أنثَىٰ.

السُّلُوك: الدُّخول في الشَّيْء، والْعُبُورُ وَسَطَهُ.

السُّبُل: الطُّرُقُ، وَدَلَّ هـٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ فِي الْجَوِّ طُرُقاً تَسْلُكُهَا ذَوَاتُ الْأَجْنِحَةِ الَّتِي تَطِيرُ بها.

وَبِمَا أَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِلْكٌ للهِ الرَّبِّ خالِقِ كُلِّ شَيْءٍ، قالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ وَلَعَلَّهَا تُدْرِكُ مَعْنَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكُلِّ شيءٍ، أَوْ لِتَثْبِيتِ هـٰذِهِ الْحَقِيقَةِ في أذْهَانِ مُتَلَقِّي هذا البيان مِنْ ذوي الْعِلْمِ.

- ﴿ذُلُلًاۚ﴾ أي: مُمَهَّدَةً سَهْلَةَ السُّلُوك، مُفْرَدُهَا «ذَلُول» و«ذَلُولَة».

وَبَعْدَ هـٰذَا وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وظيفَتَها النَّفْعِيَّةِ لِلنَّاسِ فقال تَعَالَىٰ:

- ﴿... يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ... ﴿٦٩﴾﴾:

أي: يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا بِخَلْقِ اللهِ وإتْقَانِ صُنْعِهِ لِهٰذِهِ الحشَرَةِ العجيبة، شَرَابٌ لِمَا فِيهِ مِنْ سُيُولَة هُو الْعَسَل.

قال علماءُ الْأَحْيَاء: قَدْ جعَلَ الله للنَّحْلَةِ مَعِدَة خَاصَّةً لِتَجْمِيعِ الرَّحِيقِ فيها، وصِنَاعَةِ الْعَسَل، فَإِذَا صَارَ عَسَلاً أخْرَجَتْهُ مِنْ فَمِهَا، وَصبَّتْهُ فِي حُجْرَةٍ من حُجُرَات الْخَلِيَّةِ الَّتِي تَنْتَمِي إلَيْهَا، إذْ مَلِكَتُهَا أُمُّهَا.

وهـٰذَا الشَّرَابُ «الْعَسَل» مُخْتَلِفُ ألْوانُه، فمِنْهُ الْأَبْيَضُ، أو الْقَرِيبُ من البياض، ومِنْهُ الْأَصْفَرُ، وَمِنْهُ الْأَشَدُّ صُفْرَة، وَمِنْهُ الْقَرِيبُ إلى السَّوَاد، ومِنْهُ الْأَسْوَدُ، وَهـٰذَا الاخْتِلاف يَتْبَعُ صِنفَ النَّحْلِ وَعُمْرَهُ، وَمَرْعَاه.

وَيَتْبَعُ اخْتِلَافَ أَلْوَانِهِ اخْتِلَافُ خَصَائِصِهِ الْغِذَائِيَّةِ والْعِلَاجِيَّة، وَتَكْشِفُ التَّجَارِبُ والْمُخْتَبَرَاتُ الْعِلْمِيَّةُ هَـٰذِهِ الْخَصَائِص.

- ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾: أَيْ: يُوجَدُ في أَنْواعِ الْعَسَلِ وأصْنَافِهِ شِفَاءٌ مَا لِبَعْضِ أَمْرَاضِ النَّاسِ، إِذَا اسْتُعْمِلَ بالْمَقَادِيرِ الَّتِي أَثْبَتَتِ التَّجرِبَاتُ أَنَّ الله عَزَّ وَجلَّ قَدْ جعَلَ فِيهَا شفاءً.

ويَفْهَمُ بَعْضُ المتَعَجّلِينَ مِنْ هـٰذِهِ الْعِبَارَةَ أَنَّ فِي الْعَسَلِ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَهـٰذَا خَطأٌ فِي فَهْم النَّصّ، فَكَلِمَةُ «شِفَاء» نَكِرَةٌ يَكْفِي فِي تَحَقُّقِ دَلَالَتِها وُجُودُ شِفَاءٍ في الْعَسَلِ لِبَعْضِ الْأَمْرَاضِ مِنْ أَمْرَاضِ النَّاس، وَلَيْسَ فِي الْعِبَارَة دَلِيلٌ مَا علىٰ أَنَّهُ يُوجَدُ في الْعَسَلِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ أمْرَاضِ النَّاس.

وَنَتجَ مِنْ سُوءِ فَهْم هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ، اعْتِقَاداً بِأَنَّ النَّصَّ مِنْ كَلَام اللهِ، وَهُوَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، أَنَّ بَعْضَ الْمَرْضَىٰ الَّذِينَ لَا يُنَاسِبُهُمْ الْعَسَل، تَدَاوَوْا بِهِ تَدَاوِياً سَيِّئاً فَكَانَ قَاتِلاً لهم، أَوْ زَائِداً فِيما هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرَاضِ.

وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذَا البيان عَنِ النَّحْلِ وَمَا يَخْرجُ مِنْ بُطُونِهِ بِقَولِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿. . . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾:

أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي وُصِفَتْ بِهِ النَّحْلُ لَآيَةً عَظِيمَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، يَنْتَفِعُ بِهَا قَوْمٌ يَتَفَكَّرُونَ فِي آيَاتِ اللهِ الَّتِي بَثَّهَا فِي كَوْنِهِ، أَوْ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَتَفَكَّرُوا إِذَا نُبِّهُوا إِلَيْهَا، وَذُكِّرُوا بِها، وَهَـٰذَا التَّفَكُّرُ يَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَيُسْلِمُونَ لَهُ، أَوْ يَزِيدُ فِي إيمانِهِمْ والْتِزَامِهِمْ بِالسُّلُوكِ الإِسْلَامِيّ على صراط اللهِ المستقيم.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُبَيِّنُ بَعْضَ ظَوَاهِرِ قُدْرَتِهِ، وَاخْتِيَارَاتِهِ الْحَكِيمَةِ فِي أَعْمَارِ النّاسِ المختلِفَة، الَّتِي سَتَنْتَهِي بالموتِ حَتْماً فِي هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيَا:

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٧٠﴾:

الخطابُ مُوَجَّهٌ في هَـٰذِهِ الآيَةِ لِلنَّاسِ جَمِيعاً فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ:

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾: أي: أَوْجَدَكُمْ أَحْيَاءً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شيئاً مَذْكُوراً، وَخَلْقُكُمْ إِنَّمَا تَحَقَّقَ بِتَقْدِيرِهِ وقَضَائِهِ، وَعَظِيم قُدْرَتِهِ، وعِلْمِهِ الشَّامِلِ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شيءٍ، وحِكْمَتِهِ السَّامِيَّة، إِذْ أَعْطَىٰ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ طَبْعَتَهُ الْخَاصَّةَ به.

- ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾: أَيْ: ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ المُقَدَّرَةِ لِحَيَاتِكُمْ، في رِحْلَةِ ابْتِلَائِكُمْ فِي هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا، يُمِيتُكُمْ.

«تُوَفَّىٰ اللهُ فُلَاناً» أي: أَعْطَاهُ غايَة الزَّمَنِ المقَدَّرِ لَهُ أَنْ تَكُونَ رُوحُهُ مُتَّصِلَةً بِنَفْسِهِ، وَبِالْفَصْلِ الْكَامِلِ يَحْدُثُ الْمَوْت، وبالْفَصْلِ الجزئيّ يَحْدُثُ النَّوْم.

- ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا . . .﴾:

أي: وبَعْضُكُمْ يُعَمَّر حَتَّىٰ يُنَكَّسَ في الْخَلْقِ، وَيُرْجَعَ بِهِ مِنَ الدَّرَجاتِ الَّتِي ارْتَقَىٰ إلَيْهَا، حَتَّىٰ يَصِلَ إلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُر، لَكِيْ يَصِلَ إلَىٰ خَرَفٍ زَائِدٍ لَا يَعْلَمُ فِيهِ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ نَالَهُ فِي حَيَاتِهِ شَيْئاً، وَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ سَلْبِ ذَوِي الْقُدُرَاتِ قُدْراتِهِمْ إذَا شَاءَ، وَعَلَىٰ سَلْبِ ذَوِي الْعُلُومِ عُلُومَهُمْ إِذَا شَاءَ، فَلَا يَتَعَاظَمَنَّ أَحَدٌ بِقُدْرَتِهِ، وَلَا يَتَفَاخَرَنَ أَحَدٌ بِوَاسِعِ عِلْمِهِ، فَقُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ عَطَاءٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَنْ أَعْطَىٰ ووَهَبَ، قَادِرٌ عَلَىٰ سَلْبِ مَا وَهَبَ، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ.

وَخَتَمَ اللهُ الْآيَةِ بقولِهِ: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٧٠﴾: أي: إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ لَا يَتَعَرَّضُ عِلْمُهُ للنقص وقَدِيرٌ لا تَتَعَرَّضُ قُدْرَتُهُ لِلنَّقْصِ وبِقُدْرَتِهِ المقرونَةِ بِعِلْمِهِ الشَّامِلِ يَفْعَلُ فِي كَوْنِهِ وعِبَادِهِ مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ حِكْمَتَهُ فِي تَفْضِيلِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ، وَيَبْنِي عَلَيْهِ حُجَّةً إِقْنَاعِيَّةً لِإِبْطَالِ الشِّرْكِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ المشرِكُون:

● ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٧١﴾:

نِظَامُ اللهِ في الْخَلْقِ قَائِمٌ عَلَىٰ التَّفاضُل لَا على التَّسَاوِي، فَلَا تَسَاوِيَ بَيْنَ وَرَقَتَيْن مِنْ شَجَرَةٍ واحدةٍ تَسَاوِياً مُتطابقاً، وَلَا تَسَاوِيَ بَيْنَ ثَمرَتَيْنِ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَة تَسَاوِياً مُتطابقاً، إذْ لِلْخَالِقِ إرادة حَكِيمَةٌ خاصَّةٌ فِي كُلِّ شيءٍ يَخْلُقُه.

ومِنْ ظَواهِرِ هٰذَا النظام في التَّفَاضُلِ تَفْضِيلُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ في الرِّزْق، وَهٰذِهِ ظَاهِرَةٌ مُشَاهَدَةٌ فِي النَّاسِ، وهي تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَرْزَاقَ النَّاسِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقضائِهِ، مَعَ مَا يَقُومُ به الْأَمْثَالُ مِنْهُمْ مِنْ عَمَلٍ في الكَسْبِ مُتَناظِر.

ومِنْ صُوَرِ هٰذَا النِّظَام في الْخَلْقِ التَّفَاضُلِي وُجُودُ أرِقَاءَ مِنَ النَّاسِ مَمْلُوكِينَ، وَوُجُودُ مَالِكِينَ لَهُمْ، حِينَ يَكُونُ في النَّاسِ سَادَةٌ وَعَبِيد، وَوجُودُ خَدَمٍ مُسْتَأْجَرِينَ، وَمَخْدُومِينَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَىٰ مَنْ يَخْدُمُونَهُمْ.

واسْتِفَادَةً مِنْ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَةِ في النَّاسِ لِقَضِيَّةٍ عَظِيمَةٍ هِي مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الكُبْرىٰ، هِي إبْطَالُ قَضِيَّةِ الشِّرْكِ مِنْ أَسَاسِهَا قِيَاساً عَلَىٰ مَا فِي طَبَائِعِ الناس.

إنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ وَمَالِكُهُ وَرَبُّهُ، وَذُو السُّلْطَانِ المطْلَقِ عَلَيْهِ، وَمَا يَزْعُمُهُ المشْرِكُونَ مِنْ أَرْبَابٍ وآلِهَةٍ هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَعَبِيدٌ مِن عَبِيدِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُون شُرَكَاءَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إلَهِيَّتِهِ.

إنَّ أَحداً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللهُ بالرِّزْقِ الواسع، وعِنْدَهُ أرْقَاءُ عَبيدٌ لَهُ يَمْلِكُ رِقَابَهُمْ، لَا يَقْبَلُ وَلَا يَرْضَىٰ بِأَنْ يُرَدَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ رِزْقِ اللهِ عَلَى عَبِيدِهِ وأرِقَائِهِ حَتَّىٰ يَكُونُوا مَعَهُ مُتَساوِينَ شُرَكَاءه.

فَكَيْفَ تَدَّعُونَ مَا هُو أَشَدُّ من هٰذَا لِرَبِّكُمْ أيُّهَا المشركون؟!!.

- ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾:

هَـٰذِهِ مُعْتَرِضَةٌ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ تَقْدِيمِ دَلِيلٍ إقْنَاعِيٍّ لإبْطَالِ مَقُولَاتِ المشركين، وَيَرْجِعُ الْبَيَانُ متَّصِلاً بِما قَبْلَهَا. فيقول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿... أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٧١﴾:

أي: وَاللهُ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُ الْعِبَادَ وَيُفَضِّلُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ في الرِّزْقِ، وَالشَّاكُّونَ في هَـٰذِهِ الحقيقة يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَكْسِبُونَ أرْزَاقَهُمْ بِمَهَارَاتِهِمْ وَعِلْمٍ عِنْدَهُم، والمشْرِكُونَ يَزْعُمونَ أَنَّ لآلِهَتِهِمْ تَأْثِيراتٍ غَيْبِيَّةً فِي

أَرْزَاقِهِمْ، وَهٰذَا مِنْ هَؤلَاءِ وَمِنَ هٰؤلَاءِ جُحُودٌ بِنِعْمَةِ اللهِ رَبِّهِمْ عليهم.

الاسْتِفْهَامِ فِي هَـٰذِهِ العبارَة لِلتَّوْبِيخ والتَّقْرِيعِ والتَّلْويم، إذْ أَدِلَّة رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ، وَأَنَّهُ الخالِقُ الرازِقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، ظَاهِرَةٌ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ سليم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ آياتِهِ فِي خَلْقِ النَّاسِ وَبَعْضَ نِعَمِهِ عليهم في خِطَاب مُبَاشِرٍ لهم:

• ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾: يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهٰذَا النَّاسَ جَمِيعاً.

أَزْواجاً: أَيْ: قَرِينَاتٍ مِنَ النِّسَاءِ تَنكِحُوهُنَّ عَلَىٰ وَفْقِ شَرْعِ اللهِ.

مِنْ أَنْفُسِكُمْ: لَقَدْ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَوَّاءَ مِنْ ضِلَعِ آدَمَ، فَهِي مُشْتَقَّةٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَبِمَا أَنَّ الْبَشَرَ أَنْسَالٌ مِن آدمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَالنِّسَاءُ مِنْ أَنْفُسِ بَنِي آدم، لِأَنَّهُمْ جَمِيعاً مُشْتَقُّونَ مِنْ نَفْسٍ واحِدَة.

وفي كَوْنِ النِّسَاءِ مِنْ أَنْفُسِ الرِّجَالِ حِكْمَةٌ تَلَاؤمِيَّةٌ عَظِيمة، وَهِيَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ.

• ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: أي: وَجَعَلَ لَكُمْ ضِمْنَ نِظامِ التَّنَاسُلِ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ مِنَ النِّسَاءِ بَنِينَ، أي: وبنات، وحَفَدَة.

وَحَفَدة: الراجِحُ أَنَّ المرادَ بالْحَفَدَةِ أَوْلَادُ الأَوْلَاد، ومُفْرَدُهُ «حَافِد».

• ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أيْ: وَرَزَقَكُمْ فِي حَيَواتِكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ فيها فِي رِحْلَةِ امْتِحَانٍ، مِنْ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ، وادَّخَرَ سَائِرَ الطَّيِّبَاتِ المثْلَىٰ لِجَنَّاتِ النَّعيم يَوْمَ الدِّين.

فالمآكِلُ والْمَشَارِبُ والْمَلَابِسُ والْمَسَاكِنُ والْمَنَاكِحُ وَسَائِرُ ما يَطِيبُ ويَلَذُّ لِلإِنْسَانِ هُوَ مِنَ الطَّيِّبَات.

وبما أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ هِيَ الَّتِي تَرْزُقُهُمْ، وَبِمَا أَنَّ السَّبَبِيّيِنَ يَجْعَلُونَ كُلَّ مَا يَنَالُونَهُ مِنْ نِعَمِ اللهِ هُوَ مِنْ تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ تَأْثِيراً ذَاتِيّاً، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ فِي آخِرِ الْآيَةِ مُؤَنِّباً وَمُوَبِّخاً بأسْلُوب الاسْتِفْهَام:

- ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾.

أيْ: أَنْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ الْجَلِيَّةِ فِي الْوُجُودِ، فَهُمْ بِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ، فَيَجْعَلُونَ مَالِلَّهِ لِشُرَكَائِهِمْ الباطِلَة، أَوْ لِلْأَسْبَابِ تَارِكِينَ مُسَبِّبَها، وَبِنِعْمَةِ اللهِ الدَّائِمَةِ عَلَيْهِمْ هُمْ يَكْفُرُونَ؟!!.

الاستفهامُ تَأْنِيبيٌّ تَوْبِيخِيٌّ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَهُمْ آلِهَةٌ يَعْبُدُونَها، وللمشْرِكِينَ السَّبَبِيّينِ، الَّذِينَ يَتَشَبَّثُونَ بِظَوَاهِرِ الْأَسْبَابِ، وَيَنْسَوْنَ مُسَبِّبَهَا الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيّ.

والفاء تعْطِف عَلَىٰ مطويّ جاء في التدبُّر تقديره.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السابع عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢١)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن عشر من دُروس سورة (النحل)

الآيات من (٧٣ ـ ٧٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٧٤) ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا

فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾»:

القراءات:

(٧٦) • قرأ قَالُونُ، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جَعْفَر: **[وَهْوَ]** بإسْكان الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَهُوَ]** بضَمّ الهاء.

وهُمَا نُطْقَانِ عَربيان.

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْسِ مَعالَجَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ بِحُجَجٍ إقْنَاعِيَّةٍ تُلَامِسُ نُفُوسَهُمْ وَمَشَاعِرَهُمْ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشركِين:

• «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾»:

أي: ويَعْبُدُ المشرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَعْبُودَاتٍ، لَا تَمْلِكُ لَهُمْ أَنْ تُقَدِّمَ مِنْ أَجْل حَيَواتِهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً مِنَ الرِّزْق، لَا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَلَا مِنَ الْأَرْض، لِأَنَّهَا لَا تَخلُقُ شَيْئاً في الْوُجُودِ كُلِّهِ حَتَّىٰ تَمْلِكَهُ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْلِكَ شَيْئاً مِنْ خَلْقِ اللهِ إلّا بإذْنِهِ وتَمْلِيكه.

أَمَّا الْأَوْثَانُ فَظاهِرٌ أَنَّها لَا تَمْلِكُ شَيْئاً، لِأَنَّها عَدِيمَةُ الْحَيَاةِ، وَأَمَّا ما

تَرْمُزُ إِلَيْهِ الْأَوْثَانَ مِنْ أَمْوَاتٍ، فَهُمْ مَيِّتُونَ لَا يَمْلِكُونَ لِلْأَحْيَاء شَيْئاً، وَأَمَّا مَا تَرْمُزُ إِلَيْهِ مِنْ أَحْيَاءٍ فَهُمْ مَمْنُوعُونَ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ عَنْ إِعَانَةِ عَابِدِيهِمْ، إِذَا كَانُوا مِنَ الْجِنّ أو الشَّيَاطِين، وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ إِذَا كَانُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ مِنْ عباد اللهِ الصَّالِحِين، بَلْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لَهم، وَيُعَادُونَهُمْ.

﴿شَيْئًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿رِزْقًا﴾ أي: مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً شيئاً مَهْمَا قَلّ، وأُخِّرَ هٰذَا الْبَدَلُ لإتْمَامِ بَيَانِ أَنَّ هٰذِهِ الْآلِهَةِ لَا تَمْلِكُ لِعَابِدِيهَا رِزْقاً لَا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَلَا مِنَ الْأَرْضِ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ الْحَدِيثَ عَنِ المشْرِكِينَ مُخَاطِباً لَهُمْ:
- • ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: فَلَا تَصْنَعُوا يَا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ بِأَوْهَامِكُمْ وَتَخَيُّلَاتِكُمْ الَّتِي لَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ الْوَاقِعِ وَلَا سَنَدَ لَهَا مِنْ عِلْم اللهِ الْأَزَلِيّ الْأَبَدِيٍّ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا فِيهِما وَمَنْ فيهما رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْأَمْثَالِ وَالْأَشْبَاهَ، وَلَا تَقِيسُوا عَلَيْهَا آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَصْنَعُوا لِهٰذِهِ الْآلِهَةِ رُمُوزاً مِنْ أَوْثَانِكُمُ الحقِيرَةِ الَّتِي لَا تكُونُ مِنْ ذَوِي عَقْلٍ وَرُشْدٍ وحِكْمَةٍ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ ذَاتِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وَلَا تَعْلَمُونَ مَبْلَغَ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ، فَلَا تَقْدُرُونَهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

والْتَزِمُوا بِمَا جَاءَكُمْ عَنِ اللهِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ بالنِّسْبَةِ إلى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ حَقِيقَةَ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فَاطْرَحُوا عَنْ تَصَوُّرَاتِكُمْ وَمُخَيِّلَاتِهِمْ كُلَّ مَا تَتَوَهَّمُونَ عَنِ اللهِ رَبّ العالمين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنِ الْمُشْرِكِينَ بأسْلُوبٍ إقْنَاعِيّ تَعْلِيماً لداعي الحقّ:

• ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

هٰذَا مَثَلٌ في تعليم جَدَلِي يُنَاظِرُ بِهِ دَاعِي الْحَقِّ الْمُشْرِكِينَ بِشَأْنِ آلِهَتِهِمُ الْبَاطِلَة.

هَلْ يَسْتَوِي الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ الَّذي لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ يَتَصَرَّفُ بِهِ، وَلَا يَمْلِكُ شيئاً يُنْفِقُ مِنْهُ في السِّرِّ أَوْ في الْعَلَنِ، مَعَ مَالِكِهِ ذِي الرِّزْقِ الْوَاسِعِ الْحَسَنِ، وَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وجَهْراً؟؟

إِنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ بالْبَدَاهَةِ.

وكَذَلِكَ كُلُّ الْعَبِيدِ الْمُمَاثِلِينَ لِهٰذَا الْعَبْدِ، لَا يَسْتَوُونَ مَعَ مَالِكِيهِمْ الْمُمَاثِلِينَ لِهٰذَا الْمَالِكِ، فَالْقَضِيَّةُ كُلِّيَّةٌ لَا شُذُوذَ فِيها.

إِذَنْ. فَكَيْفَ تُسَوُّونَ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ عِبَادَ اللهِ الْمَمْلُوكِين لَهُ، الَّذِينَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا باللهِ، وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً يَتَصَرَّفُونَ بِهِ بِأَنْفُسِهِمْ دُونَ تَقْدِيرٍ مِنَ اللهِ وَقَضَاء، كَيْفَ تُسَوُّونَهُمْ باللهِ خالِقِهِمْ وَالْمُهَيْمِنِ عَلَيْهِمْ دَواماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنْتُمْ لَا تَقْبَلُونَ فِي مَفَاهِيمِكُمُ الْبَشَرِيَّة مَا هو دُونَ ذَلِكَ بِكَثِير، بَيْنَ الْعَبِيدِ الْمَمْلُوكِين، وَالسَّادَةِ الْمَالِكِينَ، مَعَ أَنَّ أَشْخَاصَ بَعْضِ الْعَبِيد قَدْ تَكُونُ صِفَاتُهُمْ أَفْضَلَ مِنْ سَادَاتِهِمْ.

كَيْفَ تُسَوُّونَ عِبَادَ اللهِ باللهِ، فَتَتخِذُونَ مِنْهُمْ أَرْبَاباً وآلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ للهِ، وَهٰؤُلَاءِ الْعِبَادُ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً.

حُجَّةٌ إِقْنَاعِيَّةٌ لَيْس لَدَىٰ المشْرِكينَ دَفْعٌ لَهَا، وَلَا قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْجِدَالِ بِشَأْنِها.

وَهُنَا يَقُولُ مُنَاظِرُ المشْرِكِينَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: الْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ الانْتِصَارِ بِحُجَّةِ اللهِ الْبَالِغَة.

﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾: أي: فَهَلْ يَنْتَفِعُ الْمُشْرِكُونَ بِهٰذَا الدَّلِيل، فَيَنْبِذُوا الشِّرْكَ وَمَفاهِيمَهُ الْبَاطِلَة؟. الجواب: لَا بَلْ أَكْثَرُهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ، لِأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضاه مُخَالِفِينَ أَهْوَاءَهُمْ وشهواتِهم وَوَلَاءَاتِهم الْعَمْيَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً الْحَدِيثَ عن المشركين بأسْلُوبٍ إقْنَاعِيٍّ تَعْلِيماً جَدَلِيًّا لِدَاعي الحق:

● ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾:

هٰذَا مَثَلٌ آخَرُ في تَعْلِيم جَدَلِيٍّ لِدَاعِي الْحَقِّ يُنَاظِرُ بِهِ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ آلِهَتِهِم الْبَاطِلَة، وَيَظْهَرُ أَنَّ هٰذَا الْمَثَلَ يُقْصَدُ بِهِ إسْقَاطُ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا المشْرِكُونَ مِنْ كُلِّ اعْتِبَارٍ، لِأَنَّهَا لَا تَنْطِقُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَىٰ شيءٍ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَحَرَّكَ بأنْفسِهَا، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ أَنْفُسِهَا ضُرّاً وَلَا أذىٰ، وَلَا تَكْسِيراً وَتَحْطِيماً، وَقَدْ جَاءَ الْمَثَلُ مُخَفَّفاً.

إِنَّهُمَا رَجُلَانِ لَا يُوجَدُ عَاقِلٌ يَحْكُمُ بِتَسَاوِيهِما.

أَمَّا أَحَدُهُمَا فَهُوَ:

(١) أبْكَمُ لَا يَنْطِقُ بِكَلِمَة.

(٢) وَعَاجِزٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ شيئاً.

(٣) وَكَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاه، أَيْ: لَا يَقُومُ لِنَفْسِهِ بشيء، بَلْ يَقُومُ لَهُ بِحَاجَاتِهِ مُتَوَلِّي أُمُورِهِ، حَتَّىٰ الْغُبَارُ لَا يَسْتَطِيعَ أَنْ يَمْسَحَهُ عَنْ جَسَدِه.

(٤) أَيْنَمَا وَجَّهْتَهُ لِعَمَلٍ مَا لَآيَاتِ بِخَيْر.

وَأَمَّا الْأَخَرُ فَهُوَ:

(١) عَالِمٌ عَاقِلٌ رَشِيدٌ مِنْطِيقٌ، يَأْمُرُ بالْعَدْلِ.

(٢) ذُو سُلُوكٍ فِي الْحَيَاةِ مُتَفَوّقِ الْفَضْلِ، يَسِيرُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم.

هَلْ يَسْتَوِي هـٰذَان الرَّجُلَانِ في مَفَاهِيمِكُمْ أَيُّهَا المشْرِكُونَ؟

إِنَّكُمْ لَا بُدَّ أَنْ تَقُولُوا: لَا يَسْتَوِيَان، إِذَنْ فَكَيْفَ تُسَوُّونَ فِي الْإِلَـٰهِيَّةِ بَيْنَ أَوْثَانِكُمْ الْجَامِدَةِ الَّتِي لَا يُرْجَىٰ خَيْرٌ مِنْهَا، وَلَا يُخْشَىٰ ضُرٌّ مِنْهَا وَبَيْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ خَالِقِ الكَوْنِ والمتَصَرِّفِ بِكُلِّ شيءٍ فِيهِ والمحيط بكُلِّ شيءٍ علماً.

وبهـٰذَا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدّرس من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٢)

التدبُّر التحليلي للدّرس التاسع عشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٧٧) و(٧٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

القراءات:

(٧٨) ● قرأ حمزة: [مِنْ بُطُونِ إِمِّهاتِكُمْ] بِكَسْرِ الهمزة والْمِيم المشَدَّدَةِ فِي حَالَة الوصْل بِبُطُون.

وقرأ الكِسَائي: [إِمَّهَاتِكُمْ] بِكَسْر الهمزة وفَتْحِ الميم المشدّدة في حَالَةِ الوصل أيضاً.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أُمَّهَاتِكُمْ**] بِضَمّ الْهَمْزَةِ وَفَتْح الميم المشدّدة في حالَةِ الوصْلِ وعَدَمِهِ.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ كُلَّ شيءٍ، ومِنْهُ أَمْرُ وَقْتِ قيامِ السَّاعَة.

أَمَّا الناسُ فَقَدْ أَخْرَجَهُمُ اللهُ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شيئاً، وَمَنَحَهُمْ وَسَائِلَ اكِتِسَابِ الْعِلْمِ والْمَعْرِفَةِ بِقَدَر، رَغبَةً فِي أَنْ يَشْكُرُوا رَبَّهُمْ عَلَىٰ مَا وَهَبَهُمْ فِي حَيَوَاتِهِمْ مِنْ نِعَم.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧﴾:

العالَمُ يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْن:

الْقِسْمُ الأول: عالَمُ شَهادَة، أي: قَابِلٌ لِأَنْ يَشْهَدَهُ وَلَوْ بَعْضُ الْكَائِنَاتِ القادِرَاتِ عَلَىٰ شَهَادَة شيءٍ مَا بِإدْرَاكِهِ وَالإحْسَاسِ بِوُجُودِ، وَإِذَا جَعَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ ذَوَاتِ الإِدْرَاكِ والإِحْسَاسِ تَشْهَدُ شيئاً مَا فِي كَوْنِهِ، فَهُوَ مَشْهُودٌ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ بداهَةً.

الْقِسْمُ الثَّاني: عَالَمُ غَيْبٍ، أي: غَيْرُ قَابِلٍ لِأَنْ يَشْهَدَهُ أَحَدٌ مِمَّنْ خَلَقَ اللهُ أَوْ مِمَّا خَلَقَ الله.

الْغَيْبُ: كُلُّ مَا غَابَ عَنْ إدْرَاكِ الْكَائِنَاتِ اللَّوَاتِي لَهَا قُدْرَاتٌ عَلَىٰ إدْرَاكِ شَيْءٍ ما، بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ.

وَالْغَيْبُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ والْعِلْمِ بِهِ مِنْ خَصَائِصِ عِلْمِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِي الْعِلْمِ بِهِ أَحَدٌ، وَبِهَـٰذَا نَفْهَمُ قَوْلَ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وللهِ وَحْدَهُ عِلْمُ كُلِّ غَيْب السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، فَمِنْ خَصَائِصِ عِلْمِ اللهِ عِلْمُ كُلِّ الْغَيْبِ، الَّذِي لَا يُدْرِكُ أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ عِلْمَ شيءٍ مِنْه.

وَمِمَّا هُوَ غَيْبٌ لَمْ يُعْلِم اللهُ بِهِ أَحداً مِنْ خَلْقِهِ، مَلَكاً وَلَا رَسُولاً، وَلَا غَيْرَهُمَا، عِلْمُ وَقْتِ قِيَامِ سَاعَةِ إِنْهَاءِ الحياة الدُّنْيا وإِنْهَاءِ نِظَامِ الْكَوْنِ، تَمْهِيداً لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، وَنِظَامِ الحياة الْأُخْرَىٰ، وَقَد جاء بيانُ هـٰذَا فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ سَبَقَتْ فِي نُجُومِ تَنْزِيل الْقُرآنِ المجيد.

وجاء في هَـٰذِهِ الآيَةِ إِضَافَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ الله تَعَالَىٰ:

- ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾:

أي: وَمَا أَمْرُ أَحْداثِ السَّاعَةِ الَّتِي فِيها تَدْمِيرُ ظُرُوف حَيَاةِ الابْتلاء كُلِّها، بِكُلِّ مَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ كَائناتٍ بالنِّسْبَةِ إلى الزَّمَنِ الَّذِي تتحَقَّقُ فِيهِ، إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَر.

لَمْحُ الْبَصَرِ: هُو النَّظْرَةُ السَّرِيعَةُ الَّتِي يَرَىٰ فِيهَا المبصِرُ شيئاً ما.

- ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: أي: أَوْ هُوَ أَقْرَبُ مِنْ مَسَافَةِ زَمَنِ لَمْح الْبَصَرِ، فإذا كَانَ لَمْحُ الْبَصَرِ يَكُونُ في ثَانِيَةٍ، فإِنَّ أَحْدَاثَ قِيامِ السَّاعَةِ تَكُونُ فِي جُزْءٍ مِنَ الثَّانِيَة.

- ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾: أي: إِنَّ الله عَـزَّ وَجَـلَّ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُهُ عَظِيمُ الْقُدْرَةِ، وَلَوْ كَانَ إِحْدَاثَ كَوْنٍ مِثْلِ هـٰذَا الْكَوْنِ أَوْ أَعْظَمَ مِنْهُ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ بِشَأْنِ اكتِسَابِهِم لِلْعِلم الَّذِي لم يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنْهُ شيء:

- ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

خَلَق اللهُ عَزَّ وَجلَّ كُلَّ إِنْسَانٍ في بَطْنِ أُمِّهِ وَجِهَازُ الْعِلْم والْمَعْرِفَةِ عِنْدَهُ خَالٍ مِن عِلْمِ أيِّ شيء، وَهَكَذَا نِظَامُ خَلْقِ النَّاسِ حَتَّىٰ آخِرِ مَخْلُوقٍ مِنْ بَنِي آدمَ فِي الحياة الدُّنيا، ويَسْتَمِرُّ هَكَذَا حَتَّىٰ يُولَدَ وَيُحرُجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ بِأَلْطَافِ الله وعِنَايَتِهِ وَتَدْبِيره.

وَقَدْ زَوَّدَ اللهُ الإِنْسَانَ بِأَدَوَاتِ اكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ فِي جَسدِهِ، وهِيَ تَبْدأ بالْعَمَلِ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ.

وفِي مُقَدِّمَةِ هَـٰذِهِ الْأَجْهِزَةِ السَّمْع، وبَعْدَهُ الْأَبْصَار ثُمَّ الْفُؤَادُ الْعَامِلُ فِي دَاخِلِ الإِنْسَانِ بالتَّمْيِيز، والتَّحْلِيلِ والتَّرْكِيب، وربْط الْعِلَلِ بِمَعْلُولاَتِهَا، والْأَسْبَابِ بِمُسَبَّبَاتِها، وَقِيَاسِ الْأَشْبَاهِ والنَّظَائِرِ عَلَىٰ بَعْضِهَا، واسْتِخْرَاجِ الْكُلِّيَّاتِ مِن اسْتِقراء الْجُزْئيات، وَهـٰذَا الْفُؤَادُ يَنْطَبِقُ عَلَىٰ جِهَازِ التَّفْكِيرِ والْفَهْمِ والْعَقْلِ.

أَمَّا السَّمْعُ فَهُوَ أَوَّلُ أَدوَاتِ الاتِّصَالِ بِالْعَالَم الْخَارِجيّ حَوْلَ الْوَلِيد، والمسْمُوعَات تَأْتِي إِلَىٰ الْأُذُنِ مِنْ كُلِّ مُحِيطِ الْكُرَةِ الْهَوَائِيَّة حَوْلَهَا، وَلَعَلَّ هـٰذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْ إِلَىٰ ذِكْرِهِ فِي البيان الْقُرْآنِيّ مُفْرداً، لَا مَجْمُوعاً.

وَأَمَّا الْبَصَرُ فَهُو ثَانِي الأَدَوَاتِ الْفُضْلىٰ للاتِّصالِ بالْعَالَم الْخَارِجي، حَوْلَ الْوَلِيد، والْمُبْصَرَاتُ لَا تَأْتِي إِلَىٰ الْعَيْنِ مِن كُلِّ مُحِيطِ الْكُرَةِ الْهَوَائِيَّةِ حَوْلَ مَوْضِعَها مِنَ الرَّأْسِ، بَلْ تَأْتِي مُجَزَّأَةً بِحَسَبِ اتِّجَاهِ الْعَيْن، ولعَلَّ هـٰذَا مِنَ الأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْ إلى ذِكْرِ الْبَصَرِ في الْبَيَانِ الْقُرْآنِيّ مَجْمُوعاً.

وأَمَّا الْأَفْئِدَةُ فَهِيَ ثَالِثُ الْأَدَوَاتِ الْعَامِلَةِ لِاسْتِقْبَالِ صُورَ الْعَالَم مِنْ خَارِجِ النَّفْسِ وَدَاخِلِها، والاحْتِفَاظِ بها، والتمييز بيْنَها، وتَحْلِيلِها وَتَرْكِيبِها،

وربْطِ الْعِلَلِ بِمَعْلُولَاتها، والْأَسْبَابِ بِمُسَبَّباتها، وقياسِ الْأَشْبَاهِ والنَّظَائِرِ عَلَىٰ بَعْضِها، واسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَام عَلَىٰ بَعْضِ الْأَشْياء، واسْتِخْرَاجِ الْكُلِّيَّاتِ مِن اسْتِقْرَاءِ الْجُزْئِيَّاتِ، ولَعَلَّهَا فِي دَاخِلِ الذِّهْنِ فُصُوصٌ مُتخصِّصَةٌ، كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا ذُو وَظِيفَةٍ هُوَ مُتَخَصِّصٌ فيها، ولَعَلَّ هٰذَا من الْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَتْ إِلَىٰ ذِكْرِ الْفُؤَادِ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ مَجْمُوعاً بِلَفْظِ الْأَفْئِدَة الموجُودَةِ في الدِّمَاغ.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ الْآيَة: ﴿... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾: أي: وَجَعَلَ اللهُ لَكُمُ السَّمْعَ والْأَبْصَارَ والْأَفْئِدَةِ رَغْبَةً فِي أَنْ تَشْكُرُوا بالإيمان، والْإِسْلَام، والْعَمَلِ الصَّالِحِ، حَتَّىٰ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع عشر من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٣)

التدبُّر التحليلي للدّرس العشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٧٩ ـ ٨٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم

بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

القراءات:

(٧٩) ● قرأ ابْنُ عَامر، وحمزة، ويعقوب، وخلف: [**أَلَمْ تَرَوْا**] بتاء الخطاب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَلَمْ يَرَوْا**] بياء الغيبة.

وبَيْنِ القراءتَيْن تكامُلٌ في الْأَدَاءِ البياني.

(٨٠) ● قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**بُيُوتِكُمْ**] بضمّ الباء. وكذا: [**بُيُوتاً**].

وقَرأَهُما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِيُوتِكُمْ**] و[**بِيُوتاً**] بكَسْرِ الباء.

(٨٠) ● قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: [**ظَعَنِكُمْ**] بفتح الْعَين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**ظَعْنِكُمْ**] بإسْكَان العين.

الظّعَنُ. والظّعْنُ: بفتح الْعَيْن وإسْكانها السَّفر.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰـذَا الدَّرْسِ عَوْدٌ إلَىٰ عَرْضِ بعض آيَاتِ اللهِ في كونه، وبَعْضِ نِعَمه عَلَىٰ النّاس، وَتَوصِيَةٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله بأَنَّهُ لَيْسَ مَسْؤولاً عِنْدَ رَبِّهِ إلّا عَنِ الْبَلَاغِ المبين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ آيَةَ الطّيْرِ الَّتِي تَطِيرُ فِي جَوِّ السَّمَاء.

• ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

الطَّيْرُ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «الطَّائر».

التَّسْخِيرُ: جَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ ضِمْنَ قَانون تَسْخيره.

الْجَوُّ: الْفَضَاء بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْض.

الطَّيْر مِنْ عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُسَاكِنَةِ للنَّاسِ في الْأَرْض، وقد ذكر عُلَمَاءُ الْأَحْيَاءِ أَنَّهُ يُوجَدُ نحو «٩٣٠٠» نوعٍ مِنَ الطَّيْر، وأَصْغَرُها طائر النَّحْلِ الطَّنَّان الَّذِي يَصِلُ طُولُهُ إِلَىٰ نَحْو خَمْسة سنتيمتر، وأَكْبَرُها النَّعَامُ، الَّذِي يَصِلُ ارتفاعُهُ إلى حوالي (٢,٥م).

وأَشْكَالُ الطُيُورِ وأَلْوَانُها وَرُسُومَاتُها وَسُلُوكُ كُلِّ نَوعٍ مِنها، ووظَائِفُهُ النَّفْعِيَّةُ مِنَ العجائب الْمُدْهِشَةِ، وَيَكَادُ أَصْحَابُ الذَّوْقِ الرفيع لَا يَمَلُّونَ مِنْ مُتَابَعَةِ مُشَاهَدَتِها، وَلَا سيما إِذَا جُمِعَتْ أنواعٌ مِنْهَا كثيرةٌ فِي حَدِيقَةِ الطُّيُور.

إِنَّ تَقْلِيب الصَّفَحَاتِ الجامِعَاتِ لِكَثِيرِ مِنْ رُسُومَاتِ كثير من أَنْواعِهَا، يَسْتَأْثِرُ بِإِعْجَابِ النفوس إِلَىٰ حَدِّ الدَّهْشَة، فَكَيْفَ بها إذا كانَتْ حَيَّةً تُمَارِسُ أَنْواعَ سُلُوكَها بِحُرِّيَّةٍ تَامَّة.

وكثير مِنَ الطُّيور ولَهَا أَصْوَاتٌ جَمِيلَةٌ تُحِبُ النُّفُوسُ الاسْتِمَاعَ إِليها، وَلَا سِيمَا الْمُغرِّدَة.

المعنى: أَلَمْ يَرَ الْغَافِلُونَ عَنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، والْجَهَلَةُ المشْرِكُونَ، نَاظِرِينَ بِأَعْيُنِهِمْ إِلَىٰ أنواع الطُّيُور وأَصْنَافِهَا وأَنْواعِ سُلُوكِهَا، أَلَمْ يَرَوْا مُشَاهِدِينَ طَيَرَانَهَا مُسَخَّرَاتٍ لِإِمْتَاعِ النَّاسِ وَمَنافِعِهِمْ بتَسْخِيرِ اللهِ الرَّبِّ الْجَلِيلِ العظيم لها.

مَا يُمْسِكُهُنَّ في جَوّ السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ الَّذِي جَعَلَ في نِظَامِ خَلْقِهَا

الْأَجْنِحَة، الّتِي هي من الرِّيشِ الّذِي يُسَهِّلَ حَمْلَ الْهَوَاءِ لها، وَيَسْهُلُ عَلَيْهَا تَحْرِيكُهَا وَبَسْطُها وَقَبْضُها، وجَعَلَ فِي الْهَوَاء قُدْرَة حَمْلِ الْأَشْيَاءِ ضِمْنَ نِظَامٍ مُعَيَّن، ويصاحِبُ كُلَّ ذَلِكَ خَلْقُ اللهِ وعِنَايَتُهُ.

وخَتَمَ اللهُ الآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: إِنَّ فِي الطُّيُور وطَيَرَانِهَا والْجَوِّ الّذِي تَطِيرُ فِيهِ، لَآيَاتٍ كَثِيراتٍ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عَظِيمِ صِفَاتِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، وإتْقَانِ صُنْعِهِ، وإِبْدَاعِهِ لِمَا خَلَقَ، يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا وَيَنْتَفِعُ بِهَا في الإيمان، والإسلام، وَصَالِحِ الْعَمَل، الْقَوْمُ الّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ، ويَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً بَعْضَ نِعَمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا:

● ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾:

يُخَاطِبُ الله عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ وأَهْلَ الْبَوَادِي مُمْتَنًّا عَلَيْهِم، بِالْبُيُوتِ الَّتِي أَقْدَرَهُمْ عَلَىٰ بَنَائِهَا وَسُكْنَاهَا آمِنِينَ، وعلى أَنْ هَيَّأَ لَهُم أَنْ يَصْنَعُوا مِنْ جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتاً صَالِحَةً لِلْحَمْلِ والنَّقْلِ إِلَىٰ أمْكِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، تَتوافَرُ فِيهَا حَاجَاتُهُمْ، وَحَاجَات أنْعَامِهِمْ وَدَوَابِّهِم.

ويُخَاطِبُهُمْ مُمْتَنًّا عَلَيْهِم بأَنْ دَبَّرَ لَهُمْ فِي خُطَّةِ الْخَلْقِ، وَهَيَّأَ لَهُمْ مِمَّا تُنْتِجُهُ جُلُودُ الْأَنْعَام مِنْ أصْوَافٍ يَقُصُّونَها مِنَ الضّأْنِ من الْأَغْنَام، وَأَوْبَارٍ يَجْمَعُونَهَا مِنْ جُلُودِ الْإِبل، وَأَشْعَارٍ يقُصُّونَها مِنَ المعْزِ من الْأَغْنَام، وَيَصْنَعُونَ مِنْ ذَلِكَ أَثَاثاً لِبُيُوتِهم، وَمَتَاعاً يَسْتَمْتِعُونَ بِهِ إِلَىٰ حِينِ بِلَاهُ، وهـٰذَا الْمَتَاعُ يَشْمَلُ الثِّيَابَ والْحِبَالَ وَسَائِرَ مَا يُصْنَعُ مِنْ خُيُوطِ الْأَصْوَافِ والْأَوْبَارِ والْأَشْعَار.

الأثاث: جمعٌ مُفْرَدُه «أَثَاثَة» والأثَاثُ يُطْلَقُ عَلَىٰ مَتَاعِ الْبَيْتِ الَّذِي يُفْرَشُ فيه، أَوْ يُتَّخَذُ فِيهِ لِلْجُلُوسِ، والنَّوْم، والزينة، وعَلَىٰ أَدَوَاتِ المطَاعِم والمشَارِبِ وَسَائِرِ الحاجات، ويُطْلَقُ أيْضاً عَلَىٰ الأَمْوَالِ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَا تُنْقَلُ، وعَلَىٰ الأمْوَالِ المتحَرِّكة الَّتِي تُنْقَل.

تَسْتَخِفُّونَها أي: تَجِدُونها خَفِيفَةً فِي الْحَمْلِ حِينَمَا تَنْتَقِلُونَ مِنْ سُكْنَىٰ أَرْضٍ إِلَىٰ سُكْنَىٰ أَرْضٍ أُخرَىٰ أَصْلَحَ لِمَنَافِعِكُمْ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي انْتَقَلْتُمْ مِنْها.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾: أي: يَوْمَ سَفَرِكُمْ إِذْ تَحمِلُونَها مَعَكُمْ، وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ إِذْ تُحِبُّونَ أَنْ تَبَدِّلُوا أَمْكِنَتَهَا إِلَىٰ أَمْكِنَةٍ قَرِيبَةٍ أَحْسَنَ مَوْقِعاً أَوْ أَكْثَرَ رَاحَةً وَنَفْعاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ نِعَمِهِ علىٰ النّاسِ مُخاطِباً لهم:

• ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

ظِلَالاً: جَمْعٌ فَرْدُهُ «ظِلٌّ».

أَكْنَاناً: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «كِنٌّ» وهو كُلّ مَا يَرُدُّ الْحَرَّ والْبَرْدَ من الأَبنِيَةِ والمغارَاتِ ونَحْوِهَا.

سَرَابِيلَ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «سِرْبَال» الْقَمِيصُ، وكُلُّ مَا يُلْبَسُ، والدِّرْعُ.

• ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾: أي: ثِيَاباً تَقِيكُم أَذَىٰ الْحَرِّ، وتَقِيكُمْ أَيْضاً أَذَىٰ الْبَرْدِ، فَدَرجَةُ الْحَرَارَة، إِذَا ارْتَفَعَتْ كَانَتْ حَرًّا، وإذا نَزَلَتْ كَانَتْ بَرْداً.

• ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾: أي: دُرُوعاً تَقِيكُمْ في الْحَرْبِ بَأْسَ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ، فَلَا تَصِلُ السُّيُوفُ والرِّمَاحُ والسِّهَامُ إِلَىٰ جَسَدِ مَنْ يُضْرَبُ بِشَيْءٍ مِنْها. **والبأسُ**: الشِّدَّةُ في الحرب.

وَمِنْ هٰذَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَصْنَعُهُ النَّاسُ هُوَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ خَلَقَ فِيهِمْ مَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ صُنْعِ مَا يَصْنَعُونَ، وَجَبَلَ الْأَشْيَاءَ بالتَّسْخِيرِ مُطَاوِعَةً لِأَنْ يَصْنَعُوا مِنْهَا وَبِهَا مَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ أَنْ يَصْنَعُوه.

• ﴿... كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: كذَلِكَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَكُمْ فِيمَا مَضَىٰ، سَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ، فَيُمَكِّنُكُمْ مِنْ صُنْعِ أَشْيَاءَ لَا حَصْرَ لَهَا فِي الْعُصُورِ الْقَادِمَةِ بَعْدَ عَصْرِ التَّنْزِيل.

وَهٰذَا مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ صِنَاعَاتٍ مُذْهِلَةٍ بإِلْهَامِ اللهِ لَهُمْ، وَتَسْهِيلِ وَتَذْلِيلِ المسَخَّرَاتِ في الكَوْنِ لَهُمْ، حَتَّىٰ تَأْخُذَ الأَرْضُ زُخْرُفَها وَتَتَزَيَّنَ وَيَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا، عِنْدَئِذٍ يأتي أَمْرُ اللهِ قيام السَّاعة.

• ﴿... لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ تُؤْمِنُوا بالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ لَكُمْ فِي كِتَابِهِ، وَفِي أَنْ تُسْلِمُوا مُنْقَادِينَ لَهُ في شرائِعِهِ وأَحْكَامِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ:

• ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أي: فإِنْ أَدْبَرَ وابْتَعَدَ الَّذِينَ تُبَلِّغُهُمْ مَا أَمَرَكَ اللهُ بِتَبْلِيغِهِ مِنْ آياتِ كتابِهِ، وَتَعَالِيمِ دِينه، وَأَحْكَام شَرِيعَتِهِ لعباده في حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ.

- ﴿... فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾: أي: فَمَا عَلَيْكَ مِنْ واجِبٍ إِلَّا أَنْ تُبَلِّغَهُمْ بَلاغاً مُبِيناً وَاضحاً مَا أَمَرَكَ اللهُ رَبُّكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ إِيَّاه، وَلَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُحَوِّلَ أَحَداً مِنْهُمْ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإيمانِ والإِسْلَام، إِنَّهُمْ يَتَحَمَّلُونَ مَسْؤُولِيَّاتِ أَنْفُسِهِمْ وَاخْتِيَارَاتِهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهَا.

- ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾: أيْ: إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِم، بِتَأَمُّلَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّة، وَبِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ فِي القرآن الْمَجِيد، وَبِمَا أَبَنْتَ لَهُمْ وَشَرَحْتَ يا مُحَمَّدُ فِي بَيَانَاتِكَ وَتَذْكِيرِكَ لَهُمْ، وَنُمْهِلُهُمْ كَثِيراً رَغْبَةً فِي أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، لِيُنْقِذُوا أَنفُسَهُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَاب النار يَوْمَ الدِّينِ، ثُمَّ بَعْدَ الإِمْهَالِ الطَّوِيلِ يُنْكِرُونَ أَنَّها مِنْ نِعَمِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِم، وَيَنْسبُونَ بَعْضَهَا إِلَىٰ الْأَسْبَابِ الماديَّة الكَوْنِية، وَيَنسبُونَ بَعْضَهَا إِلَىٰ مَهَارَتِهِمْ وَعِلْم عِنْدَهم، وَيَنْسبُونَ بَعْضَهَا إِلَىٰ شُرَكَائِهِمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّهِم.

- ﴿... وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ عِناداً وَجُحُوداً، الَّذِينَ يَسْتُرُونَ الْحَقَّ بالشُّبُهَاتِ، وَالْأَكَاذِيبِ والْأَبَاطِيل، مع عِلْمِهِمْ أَنَّ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِم.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس العشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٤)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات مِنْ (٨٤ ـ ٨٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

القراءات:

(٨٦) • قرأ أبو عمْرو: [**إِلَيْهِمِ الْقَوْلَ**] بكَسْرِ الهاء والميم.

وقرأها حمزة، والكسائيّ، ويَعْقُوبُ، وخَلف: [**إِلَيْهُمُ الْقَوْلَ**] بِضَمِّ الهاء والميم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ**] بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.

وهِي وُجُوهٌ مِنْ وُجُوهِ النُّطْقِ الْعَرَبي.

(٨٩) • قرأ حمزة، ويعقُوب: [**عَلَيْهُمْ**] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ الْهَاء.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرَضُ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَة، وأكْثَرُهَا يَتعَلّقُ بِبَعْضِ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ يَوْمَئِذٍ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: وضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ، يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً يَشْهَدُ عَلَيْهِم بِأَنَّهُ بَلَّغَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ إِلَيْهِم، كَمَا أَمَرَهُ الله، وَهـٰذَا الشَّهِيدُ الْأَوَّلُ هُوَ النَّبِيُّ الرَّسُولُ الَّذِي أَرسَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ إِلَيْهِمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ فِي الدُّنْيَا، فَدَلَّ هـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بالْيَوْمِ فِي الآيَةِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْمَوْقِفَ مَوْقِفُ حِسَاب النَّاسِ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي دُنْيَاهُمْ لِآخِرَتِهِمْ.

وبَعْثُ الشَّهِيدِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ يَكُونُ بإخْرَاجِهِ مِنْ زُمْرَةِ الرُّسُلِ، وَإرْسَالِهِ وإحْضَارِهِ إِلَىٰ مَحكَمَةِ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّة، لِيُؤَدِّي شَهَادَتَهُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ بأنَّهُ بَلَّغَ الرِّسَالَة، وأَدَّىٰ الْأَمَانَة، وَنَصَحَ الْأُمَّة، وَلَمْ يُقَصِّرْ فِي تَأْدِيَةِ وَظَائِفِهِ الَّتِي كُلِّفَهَا، وَرُبَّمَا يُقَدِّمُ وَسَائِلَ إثْبَاتِ ذَلِك، إِذْ تُصْحَبُ شَهَادَتُهُ بِصُوَرٍ مُطَابِقَةٍ تَماماً لِمَا قَامَ بِهِ مِنْ وَظَائِفِ رسالَتِهِ، وَتُعْلَنُ عَلَىٰ المشْهُودِ عَلَيْهِمْ، بالصَّوْتِ وَالصُّورَةِ، وَكُلِّ حَرَكَاتِ الْفِكْرِ والنَّفْسِ وَالْمَشَاعِرِ، مع صُوَرِ مَوَاقِفِ المشْهُودِ عَلَيهِمْ كَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا، وَمَا كَانَ يَتَلَقَّاهُ مِنْ أُمَّتِهِ بِكُلِّ التفاصِيلِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ الدَّقِيقَة.

فإذَا قَدَّمَ شَهَادَتَهُ مَعَ وَسَائِلِ إِثْبَاتِها، وَقَدَّمَ المؤمِنُونَ بَعْدَهُ شَهَادَاتِهِمْ،

وَلَمْ يَبْقَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَا يَعْتَذِرُونَ بِهِ بِصُورَةٍ جماعِيَّة، يُحَاوِل بَعْضُهُمْ أَنْ يَقَدِّمُوا أَعْذَاراً كَاذِبَةً وَاضِحَةَ الكَذِب، فَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ، وَنظراً إلى الْفَاصِلِ الطَّوِيل بَيْنَ تَقْدِيم شَهادَةِ الرَّسُول مع تقديم وَسَائِلِ إِثْبَاتِها، وَتَقْدِيم بَعْضِ المؤْمِنِينَ شَهَادَاتِهِمْ وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ جاء العطف بحرف العطف «ثُمَّ» الَّتِي تَدُلُّ بِالْوَضْعِ اللُّغَوِيِّ على التَّرْتِيب مَعَ التَّرَاخِي، في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بِأَنْ يَعْتَذِرُوا بأعْذَارٍ كَاذِبَاتٍ، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا المطويّ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الْمُرْسَلَات/ ٣٣ نزول):

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

- ■ قول اللهِ تَعَالَىٰ في آخِرِ الآيَةِ:

- ● ﴿... وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾: أي: وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ طَلَبُ رَفْعِ الْعَتْبِ عَنْهُمْ، بَلِ الْجُرْمُ الْعَظِيمُ لَاصِقٌ بِهِمْ وَلَا بُدَّ أَنْ يُعَاقَبُوا عَلَيْهِ خُلُوداً فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، لِأَنَّهُ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الْعِنَادِيّ الْجُحُودِي.

يُقَالُ لغة: «اسْتَعْتَبَ الْعَبْدُ الْمُذْنِبُ الْعَاصِي مِنْ سَيِّدِه» أي: طَلَبَ رِضَاه باعْتِرَافٍ أَوْ غَيْرِهِ، لَكِنَّ الَّذِينَ كَفَروا لَا يُسْتَعْتَبُونَ يَوْمَ الحساب، أي: لَا يُسْمَحُ لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا رِضَا رَبِّهِمْ عَنْهُمْ بِاعْتِرَافٍ، أَوْ دُعَاءٍ وَتَضَرُّعٍ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ كُفْراً عِنَادِيًّا جُحُودِيًّا، وَمَاتُوا عَلَىٰ كُفْرِهم.

الْعَتْبُ: اللَّوْمُ وَالتَّثْرِيبُ عَلَىٰ الذَّنْب.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً عَرْضَ بَعْضِ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين.

- ● ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ مَكَانَ عَذَابِهِمْ فِي جَهَنَّمَ،

وَوَسَائِلَ الْعَذَابِ الْمُرْهِبَةِ لِلْقُلُوبِ، مِنْ أَعْظَم مُسْتَوِيَاتِ الرَّهْبَةِ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ مَشَاعِرِ الذُّعْرِ الشَّدِيد، وإِذَا طَلَبُوا تَخْفِيفَ الْعَذَابِ فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ وَإِذَا طَلَبُوا تَأْخِيرَ وقْتِ إِلْقَائِهِمْ فِي جهَنَّم فَهُمْ لَا يُنْظَرُونَ.

الإنْظَار: التَّأْخِيرُ والإمْهَال، يقالُ لغة: «أَنْظَرَ فُلَاناً» أي: أَخَّرَهُ وأَمْهَلَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ متابِعاً عَرْضَ بَعْضِ لقَطاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدين:

• ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

• ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾: أَيْ: مَعْبُودَاتِهِمْ الَّتِي كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله، وَأَرَىٰ أَنَّهُمْ رَأَوْا مَا كَانَتْ تَرْمُزُ إِلَيْهِ أَصْنَامُهُمْ مِن مَلَائِكَةٍ أَوْ جِنٍّ، أَوْ أُنَاسٍ صَالِحِينَ مَاتُوا، أَوْ زُعَمَاءَ كَانَتْ لَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ زَعَامَاتٌ ذَاتُ سُلْطَانٍ، فَاتَّخَذُوا لَهُمْ أَصْناماً صَارُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهُمْ بِعِبَادَتِهَا يَعْبُدُونَ مَنْ تَرْمُزُ إِلَيْهِ في الْغَيْبِ.

• ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾: أي: قالُوا رَبَّنَا هٰؤلَاءِ آلِهَتُنَا الَّذِينَ أَضلُّونا، فَكُنَّا نَعْبُدُهُمْ مِنْ دُونِكَ بِسَبَبِ مَا فَتَنُونَا بِهِ مِنْ وَسَائِلِ إِضْلَالٍ، فاجْعلْ عَذَابَ كُفرِنَا عَلَيْهِمْ إِذْ هُمُ السَّبَبُ في إِضْلَالِنا.

وقَدْ سَبَقَ في سُورَة (الأعْراف/ ٣٩ نزول) في الآية (٣٨) أَنَّ المشْرِكِينَ يُحَاوِلُونَ وهُم في النَّارِ يُعَذَّبُونَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُؤْتِيَ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ فيقول الله لَهُمْ: لِكُلٍّ مِنْكُم مِثْلُ جرائِمِهِ مِنْ عَذَابِ النار.

وَهُنَا فِي آيَةِ (النحل/ ٧٠ نزول) يُحَاوِلُ المشْرِكُونَ أَنْ يُلْقُوا التَّبِعَةَ عَلَىٰ شُرَكَائِهِمْ، وَهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿... فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

أي: فَأَسْرَعَ شُرَكَاؤُهُم لِدَفْعِ تُهمة إضْلَالِ عَابِديهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ بِعُنْفِ إِلْقَاءِ الْحَجَرِ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لِدَمْغِهِمْ، قَائِلِينَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ، نَحْنُ مَا أَضْلَلْنَاكُمْ وَلَكِنْ كُنْتُمْ قَوْماً ضَالِّين.

• ﴿... وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ...﴾: أرىٰ أنَّ هـٰذا الإلْقاءَ يَصْدُرُ مِنَ الْمَعْبُودِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إضْلَالٌ في الدنيا لِعَابِدِيهِمْ، إذْ يُعْلِنُونَ بِسُرْعَةِ فَائِقَةِ الاسْتِسْلَامَ الْكَامِلَ للهِ وَلِحُكْمِهِ، مُنْتَظِرِينَ إثْبَاتَ بَرَاءَتِهِمْ مِنْ إضْلَالِهِمْ لِعَابِدِيهم، وَهـٰذا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ وعَلَىٰ الصَّالِحِينَ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ كَانُوا يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهُمْ عَنْ عَابِدِيهم غافِلُونَ، أَوْ لَا يَعْلَمُونَ شيئاً.

أَمَّا إبْلِيسُ وَالشَّيَاطِينُ، فإِنَّهُمْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنَ التَّأْثِير عَلَىٰ عَابِدِيهم، إذْ جَاءَ في غَيْرِ هـٰذَا مِنَ النُّصوص، أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقُول لِعَابِدِيهِ: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلَّا أَنْ دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لي.

وَأَمَّا الطُّغَاةُ مِنَ الْبَشَرِ فَعَابِدُوهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ في الجرائِمِ العظْمَىٰ، وَيَنَالُ كُلٌّ مِنْهُمْ جَزاءَهُ بِمِقْدَار جَرَائِمِهِ.

وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ عبارة: ﴿... وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ...﴾ عَلَىٰ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ تُكَذِّبُهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، يُلْقُونَ الاسْتِسْلَامَ لِحُكْمِ اللهِ رَبِّهِمْ فيهم، إذْ لَا يَجِدُونَ لِأَنْفُسِهِمْ حُجَّةً يَحْتَجُّونَ بها، وَقَدْ لَزِمَتْهُمْ جَرائِمُهُمُ الْعُظْمَىٰ، وَلَزِمَهُمُ الجزاءُ عَلَيْهَا خُلُوداً في عَذَاب النَّار.

• ﴿... وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾: أي: وَضَاعَ مِنْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ أثَراً، كُلُّ شيءٍ كَانُوا يَفْتَرُونَهُ فِي قَضَايَا الدِّين، فَلَمْ يَجِدُوا أَنَّ آلِهَتَهُمْ الَّذِينَ لَهُمْ وُجُودٌ قَدْ نَفَعُوهُمْ بِشَيْءٍ بَلْ تَبَرَّؤوا مِنْهُمْ، وأَمَّا الآلِهَةُ

الَّتِي لم يَكُنْ لَهَا وُجودٌ فَهِيَ أَوْهَامٌ باطِلَةٌ، وأَسْمَاءٌ سَمَّوْها لَا حَقِيقَةَ لها.

يَفْتَرُونَ: أي: يَفْتَرُونَهُ كَذِباً وَزُوراً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَزَادُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ صَدَّهُمْ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَهُمْ كُفَّارٌ وَدُعَاةٌ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَىٰ الكُفْر:

• ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

أي: الَّذِينَ كَفَرُوا كُفراً إرادِيًّا بالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَسْتُرُونَ كَوْنَهُ حَقًّا، بِحِيَلِهِمْ، وأكاذِيبِهِمْ، وَزُخْرُفِ أَقْوالِهِمْ، وَأَضَافُوا إِلَىٰ كُفْرِهِم العنادِيِّ الْجُحُودِيِّ صَدَّهُمْ عَنْ سَبيلِ اللهِ وَصَرْفَ النَّاسِ عَنْهُ، بِوَاسَائِلِهِمُ الشَّيْطَانِيَّة.

الصَّدُّ: يُسْتَعْمَلُ لَازِماً وَمُتَعَدِّياً، وَمَا في الآيَةِ هُنَا مِنَ المتَعَدِّي. يُقَالُ لُغَةً: «صَدَّ دَاعِي الْبَاطِلِ النَّاسَ، يَصِدُّهُمْ وَيَصُدُّهُمْ صَدّاً عَنِ الْحَقِّ». أي: مَنَعَهُمْ وَصَرَفَهُمْ عَنْه.

• ﴿... زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾: أي: زِدْنَاهُمْ عَذاباً عَلَىٰ صَدِّهِمْ غَيْرَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، الَّذِي يُفْسِدُونَ بِهِ أَفْكَارَ النَّاسِ وعُقُولَهُمْ وَنُفُوسَهُمْ، وَيَجْعَلُونَهُمْ يَكْفُرُونَ بالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْبَاطِلِ، فَوْقَ الْعَذَابِ الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِكُفْرِهِمْ.

﴿... بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾: فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ بَيَانُ سَبَبِ زِيَادَةِ تَعْذِيبِهِمْ. إِنَّهُمْ لَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَىٰ اخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ سُبُلَ الكُفْرِ والضَّلَالِ، بَلْ وَظَفُوا أَنفُسَهُمْ ضِمْنَ جُنُودِ إِبْلِيسَ، فاخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مُضِلِّينَ، بَعْدَ اخْتَارُوا أَنْ يَكُونُوا ضَالِّين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ:

- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ يَا مُحَمَّدُ هٰذَا الْحَدَثَ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْحِسَاب، يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شهيداً، مُخْرَجِينَ لَهُ مِنْ زُمْرَةِ الرُّسُلُ، وَنَحْضِرُهُ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةِ، لِيُؤَدِّيَ شَهَادَتَهُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ، بِأَنَّهُ بَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وأَدَّىٰ الأَمَنَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وهُو مِنْ أَنْفُسِهِم.

وَجِئْنَا بِكَ يَا مُحَمَّدُ يَوْمَ الْحِسَابِ، شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ بَلَّغْتَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّكَ، وَأَدَّيْت لَهُمُ الْأَمَانَة، وَنَصَحْتَهُمْ، في مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا.

أُعِيدَ بَيَانُ بَعْثِ الشَّهِيدِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ تَوْطِئَةً لِخِطَابِ الرَّسُولِ ﷺ بأَنَّهُ يَشْمَلُهُ هٰذَا الْبَعْث، وزِيدَ في المَكَرَّرِ أَنَّهُ مِنْ أَنفُسِ أُمَّتِهِ نَسباً أَوْ لُغَةً أَوْ إِقَامَةً وانْتِماءً.

رُوِيَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ إِذَا تَلَىٰ هٰذِهِ الآيَةَ فَاضَتْ عَيْنَاهُ، واللهُ أعلم.

- ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ الكِتَابَ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ مُتَصِفاً بأَرْبَعِ صِفَات:

الصِّفَةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ قَضَايَا الدِّينِ الكُبْرَىٰ الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبادِنَا الْمَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، أَمَّا التَّفْصِيلَاتُ، والْجُزْئِيَاتُ، فَتُفْهَمُ بالاسْتِنْبَاطِ والْقِيَاسِ وَبَيَانَاتِ الرسُولِ.

تِبْيَان: مَصْدَرُ «بَيَّنَ الشَّيْءَ، يُبَيِّنُهُ، تَبييناً، وتِبْيَاناً» أي: أَظْهَرَهُ، وأَوْضَحَهُ.

الصِّفَةُ الثانِيةُ: كَوْنُهُ هُدىً، أي: يَهْدِي النَّاسَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمُوصِلِ مَنْ سَلَكَهُ إِلَىٰ السَّعَادَةِ والْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

الصِّفَةُ الثالِثَة: أَنَّهُ رَحْمَةٌ، أيْ: أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، إِذْ جَعَلَ لَهُمْ فِيهِ هِدَايَةً وَإِرْشَاداً إِلَىٰ مَا يُسْعِدُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وآخِرَتِهِمْ.

الصِّفَةُ الرابعَة: أَنَّهُ بُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الْمُنْقَادِينَ لِأَوَامِرِ رَبِّهِمْ وَنَوَاهِيهِ، إِذْ فِيهِ مَا يُبَشِّرُهُمْ بِالْخُلُودِ السَّعِيدِ في جَنَّاتِ النَّعِيم، الَّتِي فيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشر.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرْسِ الحادي والعِشْرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٥)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٩٠ ـ ٩٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَآءَ

ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾:

القراءات:

(٩٠) ● قرأ حفْصٌ، وحمْزَة، والكِسَائي، وَخَلف: **[تذَكَّرُونَ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَذَّكَّرُونَ]** أصْلُها «تَتَذَكَّرُون» أُدْغِمَتِ التّاء الثَّانِية بالذَّال، وهذا الإدْغَام أحَدُ الْوُجُوه الجائزة عَرَبيًّا.

(٩٦) ● قرأ ابن كثيرٍ: **[بَاقِي]** في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[بَاقٍ]** في الوصْل والوقف، ووافَقَهُم ابن كثير في حالةِ الوصل.

(٩٦) ● قرأ ابْنُ كثير، وَعَاصم، وأبُو جَعفر: **[وَلَنَجْزِيَنَّ]** بالنُّون. وهو أَحَدُ وَجْهَيْنِ لابْن ذَكوان.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَيَجْزِيَنَّ]** بالياء، وهُوَ الْوَجْهُ الثاني لابْن ذَكْوَان.

تَمْهيد:

فـي آيـاتِ هـٰذَا الـدَّرسِ بيـانُ وَصَـايَـا مِـنَ اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ لِـعِـبَـادِهِ الموضوعِينَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، وهِيَ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِعِبَادِهِ وَهُمْ في حَيَاةِ الابْتِلَاء:

• ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾:

اشْتَمَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَة عَلَىٰ بَيَانِ ثَلاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ السُّلُوكِ الْفَاضِلِ الْحَسَنِ أَمَرَ اللهُ بِهَا. وَثَلاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الرّذَائِلِ والقَبَائِحِ نَهَىٰ اللهُ عَنْهَا.

أ ـ أَمَّا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي هَـٰذِهِ الآية فهِي:

(١) **الْعَدْلُ**، وهُوَ إِعْطَاءُ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَمِنْهُ الْحُكْمُ بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْخُصَمَاء، دُونَ جَوْرٍ وَلَا خُرُوجٍ عَنِ الْقِسْطَاسِ المستقيم، ومِنْهُ الْعَدْلُ فِي السُّلُوكِ الدِّيني دُونَ إفراطٍ وَلَا تَفْرِيط، ومِنْهُ الْعَدْلُ فِي سائِرِ أنواعِ السُّلُوك، وَجَاءَ في بيانَاتِ الرَّسُولِ ﷺ مَا يلي: إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

وَجَاءَ في الْبَيَانِ القرآني، قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الْأَنْعام/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ . . . ١١٥﴾.

فالْكَلِمَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ الْخَبَرِيَّةُ صِفَتُهَا الصِّدْقُ، وغَيْرُ الْخَبَرِيَّةِ صِفَتُهَا الْعَدْلُ.

(٢) **الإِحْسَان**: وَقَدْ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَ إِلْزَام وإيجاب بالإِحْسَانِ لِلْوَالِدين، وأَمَرَ الرُّسُلَ في كثيرٍ مِنْ أُمُورِ الدَّعْوَةِ بالْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ.

وأَمَرَ النَّاسَ بالإِحْسَانِ أَمْرَ تَرْغِيب، فَهُوَ مِنَ النَّوافِلِ لَا من الواجبات.

الإحْسَان: جَاءَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِ الرسُولِ ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاه».

وَمَرْتَبَةُ الإحْسَانِ في السُّلُوكِ الإسْلَامِيّ أَعْلَىٰ المراتب، ودُونها مَرْتَبَةُ الْبِرِّ، وَدُونَ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ مَرْتَبَةُ التَّقْوَىٰ، وَتَكُونُ بِفِعْلِ الواجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ عُمُومِ المؤمنين الْمُسْلِمين.

(٣) **إيتَاءُ ذِي الْقُرْبَىٰ**: وَهُوَ صِلَةُ الْأَقْرِبَاءِ والْأَرْحَامِ بِمَا يَسُرُّهُمْ مِنْ عطاء.

وإيتاء ذي الْقُرْبَىٰ يَنْقَسِمُ إلَىٰ قِسْمَيْن:

- قِسم مَفْرُوض، وَهُوَ مَا يَدْخُلُ في النَّفَقَةِ الواجِبَةِ لَهُمْ، كالنفَقَةِ الواجِبَةِ عَلَىٰ الَّذِينِ لَا يَمْلِكُونَ مَا يَسُدُّونَ بِهِ حَاجَاتِ حَيَاتِهِمْ مِنَ الْأَوْلَادِ والْوَالِدين.

- وَقِسْم مَنْدُوب إلَيْهِ غَيْر واجِب، وهو بِرُّ الْأَقْرَبِينَ بِمَا يَسُرُّهُمْ مِمَّا هُوَ زَائِدٌ عَلَىٰ حَاجَاتِ حَيَاتِهِم.

ب ـ وأَمَّا مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ فِي هَـٰذِهِ الآيَة، فهي:

(١) **الْفَحْشَاء**: وَهِيَ ارْتِكَابُ الكَبَائِرِ المتَعَلِّقَةِ بالْفُرُوجِ، كَالزِّنا، وَإتيانِ الذُّكُور، والْبَهَائِم، والنَّهْيُ عن الفَحْشَاءِ نَهْي تَحْرِيم.

(٢) **المنْكَر**: وهُوَ كُلُّ أنْكَرَهُ الشَّرْعُ وَنَهَىٰ عَنْهُ نَهْي تَحرِيم، كأكْلِ أمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطل، وظُلْم النَّاسِ في حُقُوقِهِمْ، والْغِشّ، والْغِيبَةِ والنّمِيمَة، واتِّهام النَّاسِ بالْفَوَاحِش الَّتِي لَمْ يَشْهَدْ بِهَا أَرْبَعَةَ شُهُود.

(٣) **الْبَغْي**: وَهُوَ الْعُدْوَانُ عَلَىٰ حُقُوقِ النَّاسِ وَسَلْبَهَا بالْقُوَّةِ المسَلَّحَةِ وبالْقَهْرِ.

وَخَتَمَ اللهُ الآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

يَعِظُكُمْ: أي: يأمُرُكُم أَمْراً مَقْروناً بِتَرْغِيبٍ وَتَرْهيب.

الْوَعْظُ: النُّصْحُ بالفِعْلِ أَوْ بالتَّرْكِ المقْرُونُ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أَو الرَّهْبَةِ.

- ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ تَتَذَكَّرُوا فَتَعْمَلُوا بِمَا وَعَظَكُمْ رَبُّكُمْ بِهِ. يُرَادُ بالتَّذَكُّرِ في الاسْتِعْمَالِ القرآنِي: الأثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِحُضُورِ المعْلُومَةِ فِي الذَّاكِرَة، مِن الْمَعْلُومَاتِ المطْلُوبَاتِ في الدِّين، وَهٰذا الأَثَرُ يَدْفَعُ إلىٰ مُمارَسَةِ السُّلُوكِ الدينيِّ المطلوب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ خِطَابَ عِبَادِهِ وهُمْ في حَيَاةِ الابْتِلَاءِ:

- ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

- ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾: أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ بالْوَفَاءِ بِعَهْدِ الله، وهو تَحْقِيقُ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ وافِياً تامًّا غَيْرَ مَنْقُوصٍ، وهو يَتَضَمَّنُ النَّهْي عَنِ الإخْلَافِ فِيهِ، لِأَنَّ الأَمْرَ بِشَيْءٍ مَا نَهْيٌ عَنْ ضِدّه.

الْعَهْدُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مَوَاثِيق. ويُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَوَ نَهَىٰ عَنه. وَيُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ الْعَبْدُ تُجاهَ رَبِّهِ كالْمُبَايَعَاتِ مَعَ الرَّسُول ﷺ، ومِنَ الْعَهْدِ مَعَ اللهِ الدُّخُولُ فِي الإسْلَام، لِأَنَّهُ عَهْدٌ مَعَ اللهِ عَلَىٰ الالْتِزام بِفِعْلِ أوامِرِ اللهِ فِي الدِّين، وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ، وَمُتَابَعَةِ مَسِيرَةِ الْحَياةِ عَلَىٰ صِراطِهِ الْمُسْتَقِيم، وَهٰذَا الْعَهْدُ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ عَهْدُ اللهِ، لِأَنَّهُ عَهْدٌ مَعه جَلَّ جَلَالَهُ ـ وأَمَّا مَا يَكُونُ بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مَوَاثِيق فَهِيَ تُوَثَّقُ غالِباً بِالْأَيْمَانِ باللهِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ جَعْلِ اللهِ كَفِيلاً، فَإذَا لَمْ

يَفِ الْمُعَاهِدُ بِعَهْدِهِ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِعُقُوبَةِ اللهِ إِذْ جَعَلَ اللهَ بالْيَمِينِ بِهِ كَفِيلاً لَهُ.

وَظَاهِرٌ أَنَّ هـٰذَا التَّكْلِيفَ يَشْمَلُ كُلَّ الْعُهُودِ الموثَّقَةِ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَخْتَصُّ بِالْعُهُودِ الَّتِي كَانَ الدَّاخِلُونَ فِي الْإِسْلَامِ يُبايعُونَ الرَّسُولَ ﷺ فيها عَلَىٰ السَّمْعِ والطَّاعَةِ، وَغيرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا يُبَايِعُونَهُ عَلَيْهِ، وَقَدْ جَاءَ بَيَانُهَا فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ صَحِيحَة.

وَظَاهِرٌ أَيْضاً أَنَّ المُرَادَ مَا يُعَاهِدُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ فِعْلاً، أَخْذاً مِنْ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾.

أَمَّا أَوامِرُ اللهِ وَنَوَاهِيهِ الّتِي لَمْ تُسْبَقْ بالْعَهْدِ عَلَىٰ السَّمْعِ والطَّاعَةِ فِيهَا، فَهِيَ لَا تَدْخُلُ ضِمْنَ عُمُومِ هـٰذَا الْبَيَانِ، وَلَكِنْ تَجِبُ طَاعَةِ اللهِ فِيها بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَٰهِيَّتِهِ لِعِبادِه.

- ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾:

نَقْضُ الْأَيْمَان يَكُونُ بِعَدَمِ تَحْقِيقِ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ الْحَالِفِ.

أَمَّا الْأَيْمَانُ الَّتِي تَكُونُ لِتَوْثِيقِ الْعُهُودِ، فَيَجِبُ الوفاء بها وعَدَمُ نَقْضِهَا حَتْماً، إِذْ تَرْتَبِطُ بِهَا حُقُوقٌ تَعَاقُدِيَّةٌ مع غَيْرِ الْحَالِفِ.

وَأَمَّا الْأَيْمَانُ الَّتِي يَلْتَزِمُ بِهَا الْحَالِفُ لِنَفْسِهِ بأمْرٍ مِنَ الْأُمُور، وَلَا تَكُونُ مِنَ الْعُهُودِ، فَقَدَ صَحَّ فِيهَا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ قَوْلُهُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيراً مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ».

وَقَوْلُهُ:

«وَاللهِ لَا أَحْلِفُ عَلَىٰ يَمِينٍ فَأَرَىٰ غَيْرَهَا خَيراً مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي».

جَاءَ فِي هـٰذَا الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ إِطْلَاقُ الْيَمِينِ عَلَىٰ الْمَحْلُوفِ عَلَيهِ لَا

عَلىٰ لفظ الْيَمِينِ باللهِ أو بصِفَةٍ مِن صِفَاتِهِ أو اسمٍ من أسْمَائِهِ الحسْنَىٰ.

وَعَلَىٰ هـٰذَا يَكُونُ نَقْضُ الْأَيْمَانِ عَدَمَ تَحْقِيقِ مَا عَزَمَ عَلَىٰ فِعْلِهِ أو تَرْكِهِ الْمُسْلِمُ، وَأَكَّدَ عَزْمَهُ بالْحَلِفِ باللهِ أَوْ بِاسْمٍ مِن أَسْمَائِهِ، أَوْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ.

فَتَأتِي عبارَة: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ دَالَّةً عَلَىٰ مَعْنَىٰ تَوْكِيدِ المعْزُومِ عَلَىٰ فِعْلِهِ أو تَرْكِهِ بالْحَلِفِ. وبناءً عَلَىٰ هـٰذَا لَا حَاجَةَ لِلتَّأْوِيلَاتِ الناجِمَاتِ عَنْ فَهْمِ التَّوْكِيدِ لِلَفْظِ الْحَلِفِ بِتَشْدِيدِهِ وَتَغْلِيظِهِ بِالتَّكْرِيرِ، أَوْ بِغَيْرِهِ مِن عِبَارَاتِ التَّوْثِيقِ بِالْحَلِفِ، مِثْل: «واللهِ وَبالله وَتَالله» فَتَوْكِيدُ الْمَعْزُومِ عَلَىٰ فِعْلِهِ أَوْ تَرْكِهِ يَكُونَ بِقَسَمٍ واحِدٍ.

- ﴿... وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾:

أي: وَقَدْ جعَلْتُمُ اللهَ بِسُلْطَانِهِ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً لَكُمْ، إِذْ أقْسَمْتُمْ بِهِ، وَعَرَّضْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لِعُقُوبَتِهِ الشَّدِيدَةِ إِذَا لَمْ تَفُوا بِمَا عَاهَدْتُمْ عَلَيْهِ، أَوِ الْتَزَمْتُمْ بِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ ثُمَّ لَمْ تكَفِّرُوا عَنْ أَيْمَانِكُمْ.

الكفِيلُ: الضَّامِنُ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْمُتَابِعُ لِمَن وَكَلَ إِلَيْهِ الانْتِصَارَ لِمَنْ عَاهَدَه، أو عِقَابَ مَنِ الْتَزَمَ بِأَمْرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إذا لَمْ يُؤَدِّ ما وجب عليه.

- ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾: أي: وبما أَنَّهُ الممْتَحِنُ الملْتَزِمُ بِمُجَازَاةِ عِبادِهِ، بالفضْلِ أَوْ بِالْعَدْلِ، فاحْذَرُوا عِقَابَهُ عَلَىٰ مُخالَفَةِ مَا أَوْجَبَهُ عَلَيْكُمْ، اعْلَمُوا أَنَّهُ يعْلَمُ كُلَّ مَا تَفْعَلُونَ مِنْ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ مَهْمَا اسْتَخْفَيْتُم.

- ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ... ﴿٩٢﴾﴾:

قيل: كانَتْ امْرأَةٌ بِمَكَّةَ تُسَمَّىٰ خَرْقَاءَ مَكّة، كانَتْ تَغْزِلُ فإذا أبرَمَت غَزْلَهَا نَقَضَتْهُ.

نَقْضُ الْحَبْلِ أَوْ الْغَزْلِ حَلُّ طَاقَاتِهِ، فَكُلُ خَيْطٍ مُبْرَمٌ يُسَمَّىٰ من الْحَبْلِ قُوَّةً.

أَنْكَاثاً جَمْعُ «نِكْث» وَهوَ الْخيْطُ الْخَلَقُ مِنْ صُوفٍ أَوْ شَعَرٍ أَوْ وَبَرٍ يُنْقَضُ، ثُمَّ يُعَادُ فَتْلُهُ وإبْرَامُه.

وَالْمَرْأَةُ المشَبَّهُ بِهَا كانَتْ تَغْزِلُ وَتُبرِمُ غَزْلَها، وَيَكُونُ غَزْلُهَا قُوَّةً مُبْرَمَةً، ثُمَّ تَأْتِي إلَىٰ مَا أَبْرَمَتْهُ وجَعَلَتْهُ قُوَّةً صَالِحَةً مُبْرَمَةً مِن عِدَّةِ قُوىٰ، نَقَضَتْهُ فَجَعَلَتْهُ أَنْكَاثاً خُيُوطاً مَحْلُولَةً غَيْرَ مُبْرَمَة.

أي: وَلَا تَكُونُوا بِعَدَمِ الْوَفَاءِ بِعَهْدِ اللهِ إذَا عَاهَدْتُم، وبِنَقْضِ الأيمانِ بَعْدَ تَوْكِيدها، كالمرأةِ الْخَرْقَاءِ الْحَمْقَاءِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِمَا جَعَلَتْهُ قُوَّةً مُبْرَمَةً مِنْ عِدَّةِ قُوىٰ أنْكَاثاً، أي: خُيُوطاً مَحْلُولَةً لا قُوَّةَ لها.

فَدَلَّ بِهـٰذَا المثَلِ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي لَا يَفِي بِعَهْدِهِ الموثَّقِ باليمين بالله، أوْ يَنْقُضُ مَا عَزَمَ عَلَىٰ فِعْلِهِ أوْ تَرْكِهِ وَأَكَّدَهُ بِالْيَمِينِ دُونَ كفَّارةٍ، إنْسَانٌ ناقِصُ الْعَقْلِ أَحْمَقُ سَفِيهٌ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعُقُوبَةِ اللهِ، إذْ لَمْ يُؤَدِّ مَا جَعَلَ الله كَفِيلاً لَهُ فِيهِ بأيْمَانِهِ.

- ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ . . .﴾.

دَخَلاً: أي: مَكراً وَخَدِيعَةً وَغِشًّا وَفساداً.

ذُكِرَ أَنَّ قُرَيْشاً كَانُوا إذَا رَأَوْا أَنَّ أعَادِيَ حُلَفَائِهِمْ أَكْثَرُ شَوْكَةً وَقُوَّةً، نَقَضُوا عَهْدَهُمْ مَعَ حُلَفَائِهِمْ وَحَالَفُوا أَعْدَاءَهُمْ، وَغَرَضُهُمْ مِنْ هـٰذَا أَنْ تَكُونَ أُمَّتهُمْ أرْبَىٰ مِنْ غَيْرِهَا، أي: أَكْثَرَ عَدَداً مِنْهَا، وأكْثَر قُوَّةً وَمَالاً، وَهـٰذَا غَرَضٌ تَنَافُسِيٌّ بَيْنَ الْأَمَمِ، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ غَرَضاً يُقْصَدُ عِنْدَ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ، بل مِنْ عَادَاتِ أهل الجاهلية.

أَمَّا إذَا كانَ الْغَرَضُ التَّعَاوُنَ عَلَىٰ رَفْعِ الظُّلْمِ، أَوْ مُسَاعَدَةِ ذَوِي

الْحَاجَاتِ، أَوْ نَشْرِ الْحَقِّ والْفَضِيلَةِ، فَهُوَ غَرَضٌ مَقْبُولٌ فِي الدِّينِ، وَيَحْسُنُ نَقْضُ الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِهِ.

أي: تَتَخِذُونَ أَيْمَانكُمْ مِنْ وَسَائِلِ المَكْرِ والْخَدِيعَةِ والغِشِّ، فَتَنْقُضُونَهَا لِأَجْلِ تَنافُسَاتٍ جاهِلِيَّةٍ، مِنْهَا أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِي أَكْثَرَ مِن أُمَّةٍ عَدَداً وَقُوَّةً وَمَالاً، مَعَ أَنَّ الْجَمِيعَ عِبَادُ اللهِ.

• ﴿... إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ...﴾: أي: إِنَّ تَكْوِينَ الْأُمَمِ مُتَفَاضِلِينَ مِمَّا ابْتلاكُمْ اللهُ بِهِ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيا، فَلَا تَنْقُضُوا عُهُودَكُمْ المؤكَّدَةَ بالْأَيْمَانِ، مِنْ أَجْلِ نَزَعَاتٍ وَتَفاخُراتٍ وَوَلَاءَاتٍ جاهِلِيَّة، لَا تَخْدُمُ غَرَضاً مِنَ الأغْرَاضِ النَّبِيلَةِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي فِيها خَيْرٌ يُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُرَغِّبُ فيها، كَرَفْعِ الظُّلْمِ، وفِعْلِ المعروف، ومُسَاعَدَةِ الفقراءِ والْمَسَاكِينِ والمسْتَضْعَفِينَ وَذَوِي الضَّرُورَاتِ والحاجَات.

• ﴿... وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: وَتَأَكَّدُوا لَيُبَيِّنَنَّ اللهُ لَكُم يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ الْحِسابِ، كُلَّ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا حَياةِ الابْتِلَاءِ مِنْ أَعْمَالٍ وعَقَائِدَ وَنِيَّاتٍ، تَمْهِيداً لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَكُمْ، وَالْحُكْمِ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْكُمْ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ جَزَاءٍ بالثَّوابِ أَوْ بِالْعِقَابِ، ثُمَّ يَكُونُ تَنْفِيذُ الْجَزَاءِ عَلَىٰ وَفْقِ الْقَضَاءِ الرَّبَّانِي.

اللَّام في: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ مُوطِّئَةٌ لِلْقسمِ كما يَقُول النحاة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً أَنَّهُ خَلَقَ النَّاسَ ذَوِي اخْتِيَارَاتٍ حُرَّة، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ، وَحِينَئِذٍ يَجْعَلُهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً مَهْدِيِّينَ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَوَجَّهَ فِيهِ الْخِطَابَ لِلنَّاسِ:

• ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: لَقَدْ خلقَكُمُ اللهُ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرّة، وَلَو شَاءَ لَسَلَبَكُمْ حُرِّيَّة إرَادَاتِكُمْ، ولَجَعَلَكُمْ مَجْبُورِينَ، وَلَوْ جَعَلَكُمْ مَجْبُورِينَ لجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً مَهْدِيِّينَ لَا ضَالَّ فِيكُمْ، وَلَكُنْتُمْ كَالْمَلَائِكَةِ.

وَإِذْ جعَلَكُمْ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَمْتَحِنَكُمْ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، كَانَ مِنْ لَوَازِمِ حُرِّيَّاتِ إرَادَاتِكُمْ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضُكُمْ سبيل الْهُدَىٰ، وأَنْ يَخْتَارَ آخَرُونَ مِنْكُمْ سُبَلَ الضَلَالِ اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهم وَنزَعَاتِهِمُ الجانِحَة، وَنزَغَاتِ شَيَاطِينِهِمْ.

وَبِناءً عَلَىٰ اختيارَاتِكُمُ المختلِفَةِ بَيْنَ الْخَيْرِ والشَّرِّ، يَحْكُمُ اللهُ بِمَشِيئَتِهِ الْحَكِيمَةِ عَلَىٰ مَنْ ضَلَّ بِالضَّلَالِ، وَيَحْكُمُ بِمَشِيئَتِهِ لِمَنِ اهْتَدَىٰ بالهِدَايَةِ، فِي مَحْكَمَةِ الْفَضْلِ والْعَدْلِ يَوْمَ الْحِسَابِ.

وَعِنْدَ مُحَاسَبَتِكُمْ، أُأَكِّدُ لَكُمْ أَنَّكُم لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ، لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ، وإصْدَارِ أحكَامِ الْعَدْلِ بَيْنَكُمْ، الَّتِي تَسْتَتْبِعُ الجزاء.

وَيغْلَطُ الكَثِيرُونَ فِي فَهْمِ هَـٰذِهِ الآيَةِ وأشباهِهَا، فَيَحْمِلُونها عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْجَبْرِ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَ عِبَادِهِ وهُمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء.

- ● ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

سبق فِي الْآيَة (٩٢) النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَيْمَانِ دَخَلاً، أيْ: مَكْراً وَخَدِيعةً وَغِشًّا وَفَسَاداً، لِنَقْضِ الْعُهُودِ والْأَحْلَافِ فيها لِمَقَاصِدَ جَاهِلِيَّةٍ، مِنْهَا أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ أَكْثَرَ مِنْ أُمَّةٍ عَدَداً وقُوَّةً وَمَالاً، وَنَحْوِ هَـٰذَا مِمَّا

يَتَفَاخَرُونَ فِيهِ، وأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ ذَلِكَ خُرْقٌ وَحَمَاقَةٌ وَنَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَسَفَاهَة، كَحَالَةِ المرأة الْخَرْقَاءِ الْمُصَابَةِ بِجُنُونِ مَا، الَّتِي تَنْقُضُ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً.

وَجاء في الآية (٩٤) نَهْيٌ يَخُصُّ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِي الإسْلام، وَيُبَايِعُونَ عَلَىٰ نُصْرَتِهِ ونُصْرَةِ المؤمنِين، مُوَثِّقِينَ بَيْنَهُمْ بِمَا يَحْلِفُونَ مِنْ أَيْمانٍ، ثُمَّ يَتَعَرَّضُونَ لِفِتْنَةٍ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بإغْرَاءَاتٍ مَادِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ، فَتَمِيلُ نُفُوسُهُمْ لِنَقْضِ بَيْعَتِهِمْ والارْتِدَادِ عَنِ الإسْلَام، طمعاً فِيمَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ مَنَافِعَ دُنْيوِيَّة، فَنَزَلَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ مُثَبِّتاً لَهُمْ بأسْلُوبَيْ التَّرْغِيب والتَّرْهِيب.

فَمَا جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا يَتَعَلَّقُ بِعَهْدِ الدُّخُولِ في الإسْلَام، والمبايَعَةِ عليه، وَتَحَرُّكِ بَعْضِ النُّفُوسِ للارْتدادِ عَنْهُ، طمعاً فِي منافِعَ دُنويَّةٍ عِنْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

الْأَمْران مُخْتَلِفَانِ، وفي كُلٍّ مِنْهُمَا تُتَّخَذُ الأيمانُ دَخلاً، مَكْراً وَغِشًّا وَخَدِيعَةً، وعُنْصُراً قَابِلاً لِلْفَسَادِ السَّرِيعِ مَعَ أَنَّهُ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ والواجب عُنْصُرٌ مُوَثِّقٌ لِلْعُهُودِ، والْبَيْعَات.

فالمعنى:

وَلَا تَتَّخِذُوا أيمانَكُمْ أيَّها الدّاخِلُونَ في الْإسْلَامِ والْمُبَايِعُون عَلَيْهِ أيْمَانَ غِشٍّ وَفَسَادٍ، قَابِلَةً للنَّقْضِ، والرِّدَّةِ عَنِ الإسْلام، إذْ يَنْجُمُ عَنْهَا إنْزِلَاقٌ إلَىٰ شَرٍّ عظيم، تَذُوقُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا سُوءاً تَكْرَهُونَهُ، بِسَبَبِ إعْرَاضِكُم وانْصِرافِكُمْ عَنِ الْحَقِّ الّذِي هُو سَبَبُ سَعَادَتكم، وعَنْ سَبِيلِ اللهِ الموصِلِ إلى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النّعِيم، ثُمّ يكُون لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ القيامَةِ فِي جَهَنَّمَ دارِ الْمُجْرِمِين.

وَلَا تَغُرَّنَّكُمْ عُرُوضُ الْكَافِرِينَ المضِلِّينَ بِمَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ، فَتَبِيعُوا عَهْدَ الله

الَّذِي دَخَلْتُمْ بِهِ في الإسْلَام، مُقَابِلَ ثَمَنٍ قَلِيلٍ يُقَدِّمُهُ لَكُمُ أئِمَّةُ الكُفْرِ المضِلُّون، فَالّذِي أَعَدَّهُ اللهُ لِلثَّابِتِينَ عَلَىٰ الإيمانِ والإسلام هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وهُوَ يَجْعَلُكُمْ تَثْبُتُونَ عَلَىٰ إِيمَانِكُمْ وإسْلَامِكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ تُدْرِكُوهُ وَتَعْلَمُوه وَتُؤْمِنُوا بِهِ.

وَخَاطَبَ اللهُ النَّاسَ بِأَنَّ كُلَّ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ مَالٍ وَمَنَافِعَ وَمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا يَنْفَدُ بانْتِهَاءِ آخِرِ شَيْءٍ مِنْهُ وَفَنَائِهِ، وَمَا عِنْدَ اللهِ مِمَّا ادَّخَرَهُ لِلْمُتَّقِينَ والأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ بَاقٍ لَا نَفَادَ له، وأقْسَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بأَنَّهُ سَوْفَ يَجْزِي الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَىٰ الثَّبَاتِ عَلَىٰ إيمَانِهِمْ وإسْلَامِهِمْ، كَمَا عَاهَدُوا اللهَ عِنْدَ الدُّخُولِ في الْإِسلَام، وَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِمُ المغْرِيَاتُ وَلَا المؤذِيَات، وَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وأَحْسَنُ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ هِي الْفَرَائِضُ والنَّوَافِلِ، أَمَّا الْمُبَاحَاتُ فَقَدْ يُثِيبُهُمْ عَلَيْهَا إِذَا كَانَتْ مَقْرُونَةً بنِيَّةٍ صَالِحَةٍ تُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجلَّ، أَمّا المعاصِي والمخالَفَاتُ فَيَنْطَبِقُ عَلَيْهَا أَنَّهَا سَيِّئَاتٌ، وَالْأَحْسَنُ مِنْهَا الْمُبَاحَات والنوافِلُ والْوَاجِبَات.

• ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾: أي: وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ أَيْمَانَ غِشٍّ دَاخِلٍ في ثَنَايَا أَعْمَالِكُمْ وَمَقَاصِدِكُمْ مِنْها، فَتَكُونَ سَهْلَةَ النَّقْضِ إِذَا اقْتَضَتْ مَصَالِحُكُمْ، نَقْضَهَا.

• ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾: أي: فَتَزْلَقَ قَدَمٌ مَا مِنْ أَقْدَامِكُمْ في مَزَالِقِ الكُفْرِ والرِّدَّةِ، فَتَجُرَّ مَعَهَا كُلَّ جَسَدِ صَاحِبِهَا بَعْدَ ثُبُوتِهَا عَلَىٰ صِرَاطِ الحقِّ والْهُدَىٰ. فالْغِشُّ فِي الْأَيْمَانِ عِنْدَ تَوْثِيقِ الْعُهُودِ عِلَّةٌ مُزْلِقَةٌ فِي شَرٍّ عظيم، وَجُرْمٍ جَسِيم، والواجِبُ يَقْتَضِي سَلَامَةَ الْأَيْمَانِ مِنْ أَنْ تَكُونَ دَخلاً، حتَّىٰ لَا تَكُونَ في الْأَنْفُسِ عِلَّةً مُزْلِقَةً إلى مَا تُذَمُّ عُقْبَاه.

• ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾: أيْ: وتَنَالُوا يَا مَنْ زَلَّتْ أَقْدَامُكُمْ أَشَدَّ الإحْسَاسِ بِمَا تَكْرَهُونَ مِنَ آلَام مَا تُعَاقَبُونَ بِهِ، بِسَبَبِ مَا أَعْرَضْتُمْ وانْصَرَفْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ الموصِلِ إلى جَنَّاتِ النَّعِيم.

• ﴿... وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾: أي: وسَوْفَ يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ عَظِيمٌ تُعَذَّبُونَ بِهِ في الجحيم، عَقَاباً لَكُمْ عَلَىٰ رِدَّتِكُمْ إِلَىٰ الكُفر أعْظمِ الجرائم.

• ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أيْ: وَلَا تَسْتَجِيبُوا لِمَنْ يُضِلُّكُمْ مِن أئِمَّة الكُفْرِ، فَتُوَافِقُهُمْ عَلَىٰ نَقْضِ عَهْدِ اللهِ والارْتِدَاد عَنِ الإسْلَامِ، مُقَابِلَ ثَمَنٍ قَلِيلٍ مِنْ مَحَابِّكُمْ مِنَ الحياة الدُّنيا.

إِنَّ هٰذَا الأَمْرَ يُشْبِهُ عَقْدَ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ، فاسْتُعِيرَ لَفْظُ الشِّرَاءِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ الْبَيْعِ أيْضاً، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الموافقةِ عَلَىٰ نَقْضِ الْعَهْدِ مُقَابِلَ بَذْلِ مَتَاعٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا المادِّيَّة أو المعْنَوِيَّة.

• ﴿... إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾: أي: إنَّ الَّذي هو عِنْدَ اللهِ مُعَدٌّ للثَّابِتِينَ عَلَىٰ إيمانِهِمْ وإسْلَامِهِم الَّذِي عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ يُبْذَلُ لَكُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا مُقَابِلَ ارتدادكم، إِنْ ارْتَدَدتم. وهٰذَا يَجْعَلُكُمْ لَا تَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونه، فَثِقُوا بِهِ واعْمَلُوا بِمُقْتَضَاه.

• ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾: أي: كُلَّ مَا عِنْدَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَذْهَبُ ويفْنَىٰ، وَمَا عِنْدَ اللهِ، وَهُوَ مَا ادَّخَرَهُ لعبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَاقٍ، لَا يَتَعَرَّضُ لِلنَّفَادِ والانْتِهاءِ إِذْ هُوَ مُتَجَدِّدٌ دَوَاماً بِلَا نِهَايَةٍ.

• ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾:

اللّام في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ مُوطِّئَةٌ لِلْقَسَم، أي: وأَقْسِمُ لَأُعْطِيَنَّ الَّذِينَ ثَبَتُوا عَلَىٰ الإيمَانِ والإسْلَامِ، وَصَبَرُوا عَلَىٰ عَدَمِ التَّأَثُّرِ بالْمُغْرِيَات، وعَدَمِ التَّأَثُّرِ بالْمُرْهِبَاتِ والمؤذِيَاتِ مِنْ قِبَلِ أئِمَّةِ الكُفْرِ، أَجْرَهُمْ عَلىٰ صَبْرِهِمْ فَنَجْزِيهِمْ ثَواباً بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مِنَ الْوَاجِبَاتِ والنَّوَافِلِ والْقُرُبَات والْمُبَاحَات الْمَقْرُونَاتِ بِنِيَّاتٍ صَالِحَاتٍ، وَهٰذِهِ هِي

أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَهُمْ يُجْزَونَ بها. أَمَّا المباحَت بدُونِ نِيَّاتٍ صَالِحَاتٍ، والْخَطَايَا فَلَا يُؤْجَرُونَ عَلَيْهَا، ويَعْفُو اللهُ بِرَحْمَتِهِ عمَّا يَشَاءُ الْعَفْو عَنْهُ مِنها.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾:

خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذَا الدَّرْسِ، بِبَيَانِ بَنْدٍ مِنْ بُنُودِ قَانُونِ الْجَزَاءِ، وَهُوَ الْجَزَاءُ بالثَّوَاب.

فَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ فِي دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ، فَلَهُ ثَوابان:

(١) ثَوَابٌ مُعَجَّلٌ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ أَنْ يُحْيِيه اللهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ضِمْنَ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعَوَارِضِها.

ومِنْ أَعْظَم طَيِّبَاتِ الحياة الدُّنْيَا الرِّضَا عَنِ اللهِ فيما تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُهُ، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً ويَعْمَلُ أعْمَالاً صَالِحَةً، وَكَانَ رَاضِياً عَنِ اللهِ فيما تَجْرِي به مَقَادِرُه، فَهُوَ في حَيَاةٍ طَيِّبَةٍ.

ومَنْ كَانَ سَاخِطاً عَلَىٰ مَا تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُ اللهِ فَهُوَ في حَياةٍ بَئِيسَةٍ تَعِيسَة.

(٢) وَثَوَابٌ عَظِيمٌ مُؤَجَّلٌ إلى يَوْم الدِّين، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هَـٰذِهِ العبارة لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآيَة (٩٦) السابقة.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني والعشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٢٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٩٨ ـ ١٠٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ
سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ
رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى
يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

القراءات:

(٩٨) • قَرَأَ السُّوسي، وأبو جَعْفَر: [قَرَاتَ] وكذلِكَ حمزةُ في الوقف.

وقَرَأَها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قَرَأْتَ].

(٩٨) • قرأ ابن كثير: [الْقُرَانَ]. وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الْقُرْآنَ].

(١٠١) • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: [بِمَا يُنْزِلُ] من فعل «أَنْزَلَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِمَا يُنَزِّلُ] من فعل «نَزَّلَ».

أَنْزَلَ ونَزَّلَ مُتكافِئان، فالْمَهْمُوزُ أخو المضَعَّف.

(١٠٢) ● قرأ ابن كثير: [**الْقُدْسِ**] بإسْكان الدَّال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الْقُدُسِ**] بضَمّ الدّال. وهُما لغتان.

(١٠٣) ● قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**يَلْحَدُونَ**] بفتح الياء والحاء مِنْ فِعْلِ «لَحَد».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُلْحِدُونَ**] بضم الياء وكَسْرِ الحاء، من فعل «أَلْحَدَ».

وهُما لغتان، أي يَمِيلون عن الحقّ.

(١٠٤) ● قرأ أبو عَمْرو: [**لَا يَهْدِيهِم اللهُ**] بكَسْرِ الهاء والميم بَعْدها.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوبُ: وخلف: [**لَا يَهْدِيهُمُ اللهُ**] بضمّ الهاء والميم بعْدها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ**] بكَسْرِ الهاء وضَمّ الْمِيم بَعْدَهَا.

وضَمَّ هَاءَ الضمير في الوقف يعقوب.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ بِشَأْنِ الْقُرْآن، وبِشَأْنِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وأَعْمَالِهِ الإغْوَائِيَّة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بأسْلُوب الخطاب الإفرادي لِكُلِّ صَالِحِ لِلْخِطاب من المسلمين:

وأوّلُهُم الرسُول ﷺ:

- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

«الفاء» في ﴿فَإِذَا﴾ عاطِفَةٌ عَلَىٰ مَا جَاءَ في الآية (٨٩): ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾:

أي: فَإِذَا أَرَدْتَ يَا مُحَمَّدُ وَيَا مُسْلِمٌ أَيًّا كُنْتَ أَنْ تَشْرَعَ بِقِرَاءَةِ الْقُرآنِ مِنْ صَحِيفَةٍ مَكْتُوبَةٍ، أَوْ مِنْ صَحِيفَةِ ذَاكِرَتِكَ، فَقُلْ: أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم، لِتَمْنَعَ بِهَٰذِهِ الاسْتِعَاذَةِ باللهِ، عَنْ فِكْرِكَ وَنَفْسِكَ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلاتِهِ وَمَا يَنْزَغُ بِهِ مِنْ شُبُهَات، فإِنَّكَ إِذَا اسْتَعَذْتَ باللهِ صَانَكَ وَحَمَالك.

الاستعاذَة: الاعتصام والالْتِجَاءُ إِلَىٰ المسْتَعَاذِ به، والاستعاذة باللهِ هِيَ الاستعاذَةُ النَّافِعَةُ فِي الوجُودِ كُلّه.

الشَّيْطَان: اسم جنْسٍ يقَعُ عَلَىٰ كُلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ مِنَ الجنّ والإنس، وإبْلِيسُ إمَامُ الشَّيَاطِين ورَئِيسُهم. والمرادُ هنا الشيطانُ مِنَ الجنّ.

الرَّجِيم: أي: المَلْعُونُ المطْرُود.

- ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

السُّلْطان: القوّة والْقَهْر. والحجَّةُ والبُرْهان. والوِلَايَةُ والْمُلْك.

التوكُّل على الله: الاسْتِسْلَامُ إليه، وتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ وتحقيق ما يَرْجو المتوكِّل إليهِ، مع القيام بالأسباب المستطاعة المادّية والمعنويَّة، طاعةً لِأَمْرِهِ ونَهْيِه.

وجاء تقديم المعمول ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ على عامِلِهِ ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ لإفادةِ الْقَصْرِ والاختصاص.

المعنى: إنَّ الشَّيْطَانَ مِنَ الجنِّ لَيْسَ لَهُ سُلْطانُ قُوَّةٍ وَوِلَايَةٍ، وَلَا سُلْطانُ حُجَّةٍ وبُرْهَانٍ، عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً بِمَا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ في الإسْلام، وكانُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَتَوَكَّلُونَ.

- ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: مَا سُلْطانُهُ المؤثِّر بالْوِلَايَةِ إلَّا عَلَىٰ الَّذِينَ يَجْعَلُونَهُ وَلِيًّا لَهُمْ، إذْ يَتَّبِعُونَ الْأَهْوَاءَ والشَّهَوَاتِ والشُّبُهَاتِ ورَغباتِ نُفُوسِهِمُ الجامِحَةِ الجانِحَة.

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ هُمْ بِسَبَبِ إغْوَاءَاتِهِ مُشْرِكُونَ يَعْبُدون آلِهَةً مِنْ دُون اللهِ.

أَوْ وكذلِكَ الَّذِينَ اتَّخذُوا الشَّيْطان مَعْبُوداً لَهُمْ فَجَعَلُوهُ في عِبادَتِهِمْ لَهُ شَرِيكاً للهِ سُبْحَانَه، دَلّ عَلَىٰ هـٰذَا قول اللهِ تَعالَىٰ في سورة (يس/ ٤١ نزول) تَعْبِيراً عَمَّا سَوْفَ يَقُولُ لِبَنِي آدَمَ يَوْمَ القِيامَة:

﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

ومَعْلُومٌ أَنَّ عِبادَة الشَّيْطانِ مِنَ الشِّرْكِ بالله، تَعالَىٰ الله وَتَنَزَّهَ وَتَبارَكَ، وَتَبَرّأ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ ما.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

نَسْخُ الْأَقْوالِ والتَّكالِيفِ مِنَ الْأَعْمالِ، بِحَسَبِ تَغَيُّراتِ الْأَحْوالِ، مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الحِكْمَةُ السَّامِيَة.

وَقَدْ أَجْرَى اللهُ عَزَّ وَجلَّ بَعْضَ النَّسْخ، فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ شَرَائِعِهِ وَمِنَ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا لَاحِقًا، عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ في الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ، فِي رِسَالَاتِهِ لِرُسُلِهِ، وَفِي الرِّسَالَةِ الوَاحِدَةِ أَيْضاً.

وَعَلَّمَنا بِهٰذَا أَنْ نُغَيِّرَ أَنْظِمَتَنَا وَقَرَارَاتِنَا، إِلَىٰ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ وَالْأَفْضَلُ بِحَسَبِ تَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ، وَتَطَوُّرِ الْأَوْضَاعِ الْبَشَرِيَّةِ.

وَلَكِنَّ الْجَاهِلِينَ بِحِكْمَةِ التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ في النُّصُوصِ والْأَحْكَامِ مِنَ الْكَافِرِين، يَتَّخِذُونَ تَبْدِيلِ آيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ، وَجَعْلِهَا فِي مَكَانِ آيَةٍ انْتَهَتِ الْمَصْلَحَةُ مِنْ تَوْجِيهِ ما اشتملتْ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانٍ، أو من الْعَمَلِ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ عَمَلٍ، ذَرِيعَةً لاتِّهَامِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ يَفْتَرِي عَلَىٰ رَبِّهِ.

بدَأ النّصُّ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾ وجاء بَعْدَهُ التَّصْرِيح باسْم الله ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ الْأَزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ الْعَلِيمَ الْحَكِيمَ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ بما يُنَزِّلُ وَيُبَدِّل.

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾: أي: قَالَ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والضَّلَالِ للرَّسُولِ ﷺ: مَا أَنْتَ إِلَّا مُفْتَرٍ تَفْتَرِي على رَبّك.

الافتراء: اخْتِلَاقُ الكَذِب.

- ﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾: أي: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَسْتَ بِمُفْتَرٍ عَلَىٰ رَبّكَ، بَلْ أَكْثَرُ الْكَافِرِينَ جَاهِلُونَ، لَا يَعْلَمُونَ مَا هُوَ الْحَقُّ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَفْضَلُ، وَلَا يَرْغَبُونَ فِي أَنْ يَعْلَمُوا، لِئَلَّا يُؤَثِّرَ عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ فِي الشُّعُورِ بِأَنَّهُمْ ضَالُّونَ، بِسَبَبِ اتِّبَاعِهِمْ أهواءَهم وَشَهَوَاتِهِم وَرَغَبَاتِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنْيَا، وبِسَبَبِ تَأَثُّرِهِمْ بِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلاتهم.

وَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ مَا يُجِيب مُتَّهِمِيهِ بالافْتِراء عَلَىٰ اللهِ فَقَالَ لَهُ:

• ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ مِنْ لَدُنِ اللهِ رَبِّي مُتَّصِفاً بِالحق، رُوحُ الْقُدُسِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، فَإِنْ كَانَ لَدَيْكُمْ مَا تُجَادِلُونَ بِهِ حَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ القرآن فَهَاتُوا مَا عِنْدَكُمْ، أَمَّا أَنْ تَتَذَرَّعُوا بِتَعِلَّاتٍ لَا دَلِيلَ فِيها عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا تَزْعُمونَ، فَهُوَ مِنَ السَّفَاهَةِ الَّتِي لَا يَتَذَرَّعُ بِهَا أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشد.

رُوحُ الْقُدْس: أي: رُوحُ الطُّهْرِ مِنَ الأَرْجاسِ المادِّيَّةِ والمعنويّة.

الْقُدْس والْقُدُس: الطهارة.

وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام بأَنَّهُ رُوحُ الْقُدُس. لِأَنَّهُ رُوحٌ صَادِرٌ بأَمْرِ التكْوِينِ الرَّبَّانِيّ، خَالٍ مِنْ طَبْعَةِ نَفْسٍ ذَاتِ أهواءٍ وشَهَوَاتٍ، وطاهِرٌ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ مَادّيّ أَوْ مَعْنَوِي.

• ﴿... لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾:

أي: حَصَلَ تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ مُنَجَّماً، قَابِلاً لِتَبْدِيلِ آيَةٍ اقْضَتِ الْحِكْمَةُ السَّامِيَةُ جَعْلَهَا مَكَانَ آيَةٍ اقتضَتِ الْحِكْمَةُ السَّامِيَةُ عَدَمَ اسْتِمْرارِها، لِحِكَمٍ ثلاث:

الْحِكْمَةُ الأُولَىٰ: تَثْبِيتُ قُلُوبِ المؤمِنِينَ، إِذْ يَشْعُرُونَ أَنَّ الْوَحْيَ الرَّبَّانِيَّ عَلَىٰ صِلَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ مَعَ الرَّسُولِ.

الْحِكْمَةُ الثانية: أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ هُدىً تَعْلِيمِيًّا مُتَتابعاً بتَكَامُلٍ.

الْحِكْمَةُ الثَّالِثَة: أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ، بِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ بُشْرِيَاتِ بالنَّصْرِ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ، مَعَ النُّجُومِ المتتابِعَةِ التَّنْزِيلِ، وفَتْحٍ مُبِينٍ عَظِيمٍ، تُفْتَحُ عَلَيْهِمْ بِهِ خَيْرَاتُ الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الرَّدَّ عَلَىٰ شُبُهَاتِ أَئِمَّةِ الشرْكِ والكُفْرِ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل:

• ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾:

جَاءَ عِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَعْيِين هٰذَا الإِنْسَانِ الْبَشَرِ الَّذِي زَعَمَ المشْرِكُونَ أَنَّهُ يُعَلِّمُ مُحمّداً الْقُرْآنَ، أَخْذاً مِمَّا يَعْلَمُ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الكِتَاب، مَا يلي:

(١) قيل: هو «جَبْر» غُلَامُ الفاكِهِ بن المغيرة، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلم.

(٢) وقيل: هو «يَعِيش» عَبْدٌ لِبَنِي الْحَضْرَمِيِّ، وَكَانَ يَقْرأ الكُتُبَ الْأَعجميَّة.

(٣) وقيل: هو غُلَامٌ لِبَنِي عَامِرِ بنِ لُؤَيّ.

(٤) وقيل: هما غلامان: «يَسَار» و«جَبْر» وَكَانَا صَيْقَلِيَّيْنِ، يَعْمَلَان السُّيوف، وَكَانَا يَقْرآنِ كِتَاباً لِقَوْمِهما، وقيل: يَقْرآنِ التوراة والإنجيل.

(٥) وقيلَ: «بَلْعَام» وَكَانَ يَقْرَأ التَّوْرَاة.

(٦) وَقيل: «أَبُو مَيْسَرة» وَكَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيًّا يتَكَلَّمُ بالرُّومية، وفي روايَةٍ أنّ اسْمَهُ «عَدَّاس».

واللهُ أَعْلَمُ، وَلَيْسَ مِنَ الْمَطْلُوبِ مَعْرِفَةُ اسْمه، فقد أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ رَجُلٌ أَعْجَمِيٌّ، لَا يُحْسِنُ تَكَلُّمَ اللِّسَانِ الْعَربي.

وقد رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

• ﴿... لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: إِنَّ مِنْ عَنَاصِرِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ مَا فِي بَيَانِهِ الْعَرَبِيّ الرَّفِيعِ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ فُصَحَاءُ الْعَرَبِ وَبُلَغَاؤُهُمْ مُنْفَرِدِينَ أو مُجْتَمِعِينَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وَلِسَانُ الَّذِي يَمِيلُونَ إِلَيْهِ زَاعِمِينَ أَنَّهُ يُعَلِّمُ محمّداً القرآن لِسَانٌ أَعْجَمِيٌّ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْطِقَ بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ فُصْحَىٰ، فَكَيْفَ يَكُونُ قَادِراً على تَعْلِيمِ الرَّسُولِ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ الْمُبِينَ الْمُعْجِزِ.

هٰذَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا زَعْمٌ هُرَاءٌ سَاقِطٌ، لَا يَقْبَلُهُ مَنْ لَدَيهِ مقدار قَلِيلٌ من الْفِكْرِ والْفَهْم.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

أي: اعْلَمُوا أَيُّهَا الـمشَكِّكُونَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ المجيد المعْجِزِ، بِتعِلَّاتٍ سَاقِطاتٍ لَيْسَ لَهَا قِيمَةٌ فِكْرِيَّةٌ تَصْلُحُ لِتَوْجِيهِ شُكُوكٍ بها، أَنَّ اللهَ سَوْفَ لَا يَحْكُمُ لَكُمْ بالْهِدَايَةِ، إِذَا لَزِمْتُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ بَاطِلٍ، وأَنَّ اللهَ بَعَدْلِهِ سَوْفَ يَجْزِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَذَابٍ أَلِيم في نار جَهَنَّمَ خالِدِينَ، ضِمْنَ قَانُونِ الْجَزَاءِ الَّذِي وَضَعَ بِحِكْمَتِهِ عَنَاصِرَه.

إِنَّ كُلَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللهِ لَا يَحْكُمُ اللهُ بِهِدَايَتِهِمْ، وَلَهُمْ عِنْدَهُ يَوْم الدِّينِ عَذَابٌ أَلِيم.

وَإِنَّكُمْ اتَّهَمْتُمْ رَسُولَ رَبِّهِم الْأَمِينَ الصَّادِقَ بالافْتراءِ عَلَىٰ اللهِ، وهو لَمْ يَفْتَرِ عَلَىٰ رَبِّهِ حَرْفاً واحداً، إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الكَذَّابُونَ الْمُفْتَرُونَ.

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَىٰ اللهِ، هُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللهِ، وأُولَئِكَ وَحْدَهُمْ هُمَ الْكَاذِبُونَ أَخَسَّ الكَذِبِ الْمُوصِلِ إلى عَذَاب الدَّرْك الْأَسْفَلِ مِنَ النار، لِأَنَّهُمْ يَفْتَرُونَ علَىٰ اللهِ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّ القرآن يَفْتَرِيه محمَّدٌ عَلَىٰ رَبِّهِ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرس الثالث والعشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٢٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع والعشرين من دُروس سورة (النّحل) الآيات من (١٠٦ ـ ١١١)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾:

القراءات:

(١٠٦) ● قرأ حمزة، ويعقوب: [فَعَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَعَلَيْهِمْ] بكَسْرِ الهاء.

(١١٠) ● قرأ ابن عامر: [فَتَنُوا].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فُتِنُوا].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰـذَا الدَّرْسِ بَيانٌ بِشَأْنِ الكُفْرِ بَعْدَ الإيمانِ، وبيانٌ بِشَأْنِ الْمُهَاجِرين، الّذِين هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِمَا فُتِنُوا، إِذْ تَعرَّضُوا لِتَعْذِيب المشْرِكِين واضطهادِهِمْ لهم، ثُمَّ جاهَدُوا في سبيل اللهِ وَصَبرُوا.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾:

إنَّ الارْتِدَادَ عَنِ الإسْلَامِ مِنْ أعْظَمِ الجرائِم، وأعْظَمِها عَذَاباً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

وَقَدْ جَاءَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بَيَانٌ تَفْصِيلِيٌّ عَنِ الْمُرْتَدِّ حَقِيقَةً، وعَنِ الْمُرْتَدِّ ظاهِراً لِيَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنْ تَعْذِيب ذَوِي سَلْطَةٍ، يُكْرِهُونَهُ عَلَىٰ أَنْ يَكْفُرَ بَعْدَ أَنْ آمَنَ وأَعْلَنَ إسْلامَه.

فَأَبَانَ هٰذَا النَّصُّ أَنَّ مَنْ كَفَرَ باللهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ، أي: ومن بَعْدِ إعْلَانِهِ الدُّخُولَ في الإسْلام، باسْتِثْنَاءِ الْمُكْرَهِ ذِي الْقَلْبِ المطْمَئِنِّ بالْإيمان، فَقَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ غامراً لَهُ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وهو أشَدُّ أَحْوَالِ النِّقْمَةِ، وَلَهُ يَوْمَ الدِّين عَذَابٌ عَظِيمٌ في جَهَنَّم خَالِداً فِيها بلا نهاية، إذَا مَاتَ وهُوَ عَلَىٰ رِدَّتِهِ.

وأَبَانَ هٰذَا النَّصُّ سَبَبَ رِدَّتِهِ وَكُفْرِهِ بَعْدَ الْإيمَانِ، هو أَنَّهُ أَحَبَّ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حُبًّا شَدِيداً جعَلَهُ يتعَلَّقُ بِهَا، وَيُؤْثِرُهَا عَلَىٰ الْآخِرَة، بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ عَنَاصِرَ الْإيمَانِ، وَتَذَوُّقِهِ شَيْئاً مِنْ حَلاوَتِهِ، وَبَعْدَ مَعْرِفَتِهِ أَنَّ دِينَ اللهِ حَقٌّ.

وأبانَ هٰذَا النَّصُّ سَبَبَ إحْبَاطِ اللهِ سَابِقَ إيمانِهِ، والْحُكْم عَلَيْهِ بما خَتَمَ بِهِ حَيَاةَ امْتِحَانِهِ، وَهُوَ الكُفْرُ الَّذي شَرَحَ بِهِ صَدْرَه، هٰذَا السَّبَبُ هو أَنَّ اللهَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، أَيْ: لَا يَحْكُمُ بِهِدَايَةِ كَافِرٍ مَا أَنْهَىٰ حَيَاةَ امْتِحَانِهِ بالكُفْرِ والإصْرَارِ عَلَيْهِ.

كلمةُ «مَنْ» فِي عِبارَة ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ اسْمُ مَوْصُولٍ تَضَمَّنَ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ، وهو مبتدأ.

وعبارة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ أي: مِنْ بَعْد إيمانِهِ بِقَلْبِهِ وإعْلَانِهِ الإسْلَام الَّذي هُو شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ إيمَانِهِ، مَا لَمْ يُوجَدْ مَانِعٌ قَاهِرٌ مِنْ هٰذَا الإعْلَان، وهٰذَا قَدْرٌ لَازِمٌ، لِبَيَانِ أَنَّهُ مُرْتَدٌّ، وَيكْفِي للحكم عليه بالرِّدّة أنْ يَكْفُرَ بِقَلْبِهِ، كأنْ يَكْفُرَ بِقَلْبِهِ ويَسْتَمِرُّ مُنَافِقًا ـ مُتَظاهِراً بالإيمان والإسلام.

وعبارة: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ خَبَرٌ لِلْمُبْتَدأ، وجاءت الفاء فِيهِ لتضمُّن «مَنْ» مَعْنَىٰ الشَّرط، وأعيد الضّمير أوّلاً بالأفراد باعتبار لفظ «مَنْ» وبَعْدَه أُعِيدَ الضمير بالجمع بِاعتبار معنى «مَنْ».

وجاءت عِبَارَةُ ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ بَياناً مُعْتَرِضاً لاسْتِثْنَاءِ مَنِ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ بِلِسَانِهِ وَهُوَ مُكْرَهٌ، وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ، ولَكِن مَنْ ارْتَدَّ مُكْرَهاً ثُمَّ شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْراً فَهُوَ مُرْتَدٌّ ظاهِراً وباطِناً، ويَشْمَلُهُ حُكْمُ الْمُرْتَدِّ، وَلَا يَشْمَلُهُ الاسْتِثْنَاء: فَعِبَارَةُ: ﴿وَلَٰكِن﴾ اسْتِدْرَاكٌ عَلَىٰ الاسْتِثْنَاءِ، ولَيْسَ من المعقول أَنْ يَجْتَمِعَ مَا جَاءَ في الاسْتِدْرَاكِ مَعَ مَا جَاءَ في الاسْتِثْنَاءِ في وقْتٍ واحِدٍ للتناقض، فَمَنْ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإيمانِ مُتَمَكِّنٌ مِنْ مَقْعَدِهِ فِيهِ، لَا يَكُونُ في الوقْتِ نَفْسِهِ شَارِحاً بالكُفْرِ صَدْرَه، فَلَا بُدَّ مِنْ حَمْلِ الْعِبارَة عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَمِرَّ عَلَىٰ طُمَأْنِينَتِهِ، بَلْ أَثَّرتْ عَلَيْهِ مُغْرِيَاتُ الدُّنيا وفاتِنَاتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ، فانْطَمَسَتْ بَصِيرَتُهُ، وشَرَحَ بالكُفْرِ مَعَ الْفَوَاتِنِ صَدْراً، وطَابَتْ نَفْسُهُ بِمَفْهُومَاتِ الكُفْرِ، إذْ تَأْتِي شَيَاطِينُ الإنْسِ والْجِنِّ فَتُزَيِّنُهَا لَهُ.

ومِنَ الَّذِينَ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ تَقِيَّةً لِيَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ عَذَابَ مُكْرِهِيهِ مِنَ المشرِكِينَ عَلَىٰ الكُفْرِ «عَمَّارُ بن يَاسِرٍ» فَقَدْ رَوَىٰ عبد الرّزاق، وابن سعد،

وابن جرير، والحاكم وصَحَّحهُ، وغَيْرُهُمْ، أنَّ المشْرِكِينَ أخَذُوا «عمَّارَ بن ياسر» فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّىٰ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، فتَرَكُوه، فلَمَّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، قال لَهُ:

«مَا وَرَاءَكَ؟» قال: شَرٌ، مَا تُرِكْتُ، حَتَّىٰ نِلْتُ مِنْكَ وذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ.

قال: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟». قال: مُطْمئِنًّا بالإيمان. قال: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ».

فَأَذِنَ الرَّسُولُ ﷺ لَهُ أَنْ يُعْلِنَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ كُفْرِهِ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُ قَلْبُهُ مُطْمئِناً بالإيمان.

وليس هٰذَا الإذْنُ خَاصاً بِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، بَلْ هُوَ عامٌّ، وهو بيانٌ نَبَوِيٌّ لما جاء في قول اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ نَفْسِهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ من آثَارِها الانْتِقَامُ والْعُقُوبَةُ.

- ﴿شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾: **الشَّرْح:** يأتي بمَعْنَىٰ الْبَسْطِ والتَّوْسِعَة، **والمعنى:** لَمْ يَضِقْ صَدْرُهُ بالكُفرِ، ولَمْ يَجِدْ بِهِ حَرَجاً، بَلْ بَسَطَ صَدْرَهُ وَوَسَعَه لِيَسْتَقِرَّ فِيهِ الكُفرِ، بِسَبَبِ مَا جلَبَ إِلَيْهِ الكُفْرُ مِنْ رَغَبَاتِ نَفْسِهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ولَذَّاتِها وَمُغْرِيَاتِها.

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: أي: ذَلِكَ الْغَضَبُ مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَالْعَذَابُ العظيم لَهُمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ أحَبُّوا مَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حُبًّا شَدِيداً، وآثَرُوها على الآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ مقيم لا يَنَالُونَهُ إِلَّا بالإيمانِ بما أمَرَ اللهُ بالإيمان بِهِ، وتَعَامُوا عما فيها مِنْ عَذَابٍ عَظِيم أعْتَدَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ.

اسْتَحَبُّوا: أي: أحبُّوا بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، أخذاً من صيغة: «اسْتَفْعَلَ». وضُمِّنَ فِعْلُ ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ مَعْنَىٰ فِعْلِ: «آثَرُوا» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْفِ «عَلَىٰ» وهٰذَا التَّضْمِينُ مِنْ إبْدَاعَاتِ القرآن، وهو كثيرٌ فيه.

● ﴿... وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾: أي: وَذَلِكَ الْغَضَبُ مِن اللهِ عَلَيْهِمْ والْعَذَابُ الْعَظِيمُ لَهُمْ يَوْم القيامَةِ بِسَبَبِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هُوَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنْ حِكْمَتِهِ واختياراتِهِ أَنْ يَحْكُمَ للكافِرِينَ بالْهِدَايَةِ وَهُمْ ضَالُّونَ، فاللهُ أحْكَمُ الْحَاكِمِين، وَهُوَ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بالْحَق، إنَّ مَنْ كَانَ مُتصِّفاً بالْهِدَايَةِ حَكَمَ اللهُ لَهُ بالْهِدَايَة، ومَنْ كَانَ مُتَّصِفاً بالضَّلَالَةِ حَكَم اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابِعاً بَيَانَهُ بِشَأْنِ الْمُرْتَدِّين:

● ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: الطَّبْعُ في الماديَّاتِ الملْمُوسَةِ كالْخَتْم، وقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ، إِذَا أَرْسَلُوا رَسَائِلَ، وأَرَادُوا الْمُحَافَظَة عَلَىٰ سِرِّيَّةِ مَا فيها، أقْفلُوها بإحْكَام، وَوَضَعُوا عِنْدَ مَكَانِ إقْفَالِهَا طِيناً خَاصًّا، يَطْبَعُونَ عَلَيْهِ خَاتَمَهُمُ الْخَاصَّ بهم، فَيَجِفُّ الطِّينُ وَمِثَالُ الْخَاتَمِ عَلَيْهِ مطْبُوعٌ، فَلا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ مَا فِي دَاخِلِ الرِّسَالَةِ إِلَّا بِكَسْرِ خَاتَمِ الطِّين.

وعَلَىٰ سبيل التوسُّع فِي التَّعْبِيرِ بِنَقْلِ مَا هُوَ لِلْمَادّيَاتِ إلَىٰ المعنويَّات، جاء في القرآنِ التَّعْبِير بالطَّبْع وَالْخَتْم، للدَّلالَةِ أَنَّ المطْبُوعَ عَلَيْهِ والمخْتُومَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُلُوبِ والسَّمْعِ والْأَبْصارِ مَحْجُوبٌ عَنْ إدْرَاكِ أيِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَا هِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْه.

فالطَّبْعُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ يَحْجُبُهَا عَنْ إدْرَاكِ مَا يَهْدِيهَا إلَىٰ حَقَائِقِ الإيمان، وَحقَائِقِ الْقَضَايَا الإسْلَامِيَّةِ ذَوَاتِ الْأَدِلَّةِ الْبُرْهَانِيَّة.

والطَّبْعُ عَلَىٰ السَّمْعِ يَحْجُبُهَا عَنْ إِدْرَاكِ البيانَاتِ الرَّبَّانِيَةِ المنَزَّلَةِ فِي كِتَابِهِ، لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ تَعَلُّقاً كَامِلاً بِمَا يَتَّصِلُ بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا.

والطَّبْعُ عَلَىٰ الأبْصَارِ يَحْجُبُهَا عَنْ مُشَاهَدَةِ الْجَوَانِبِ الَّتِي تَدُلُّهَا على آيات اللهِ في كَوْنِهِ، الْهَادِيَةِ إِلَىٰ الإيمانِ والإسلام.

وطَبْعُ اللهِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وسَمْعِهِمْ وأبْصَارِهِمْ لَا يكونُ بِصُورَةٍ جَبْرِيَّةٍ ابْتِدَاءً، وإِنَّمَا يَكُونُ نتيجةَ مَا يَكْسِبُونَ بإراداتِهِم الحِرَّة، من أَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ باطِنَةٍ يَتَوَلَّدُ عَنْهَا الطَّبْعُ بِمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللهِ في قَوانِينِ الأسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ، كَمَنْ يَضَعُ يَدَهُ في النَّارِ، إِذْ يُحْرِقُهَا اللهُ لَه.

- ﴿... وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾:

الْغَفْلَةُ عَنِ الشَّيْءِ: انْصِرَافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ، مَعَ وُجُودِهِ فِي مَجَالِ الإدْرَاكِ، أَوْ وُجُودِ أَدِلَّتِهِ وإمْكَانِ إدْرَاكِهِ لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِف أو السَّهْو، الَّذِي هُو بمَثَابَةِ إِطْبَاقِ الجفْنَيْنِ عَنْ الْعَيْنَيْن.

أي: وَأولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ تنَزُّلَاتِ رَحَمَاتِ اللهِ، الَّذِي كَفُروا مِنْ بَعْدِ إيمانِهِمْ، إِذِ اسْتَحَبُّوا الحياة الدُّنيا وآثَرُوهَا عَلَىٰ الآخِرَةِ، هُمْ بالْحَصْرِ والْقَصْرِ أَشَدُّ النَّاسِ غَفْلَةً عَمَّا هُوَ سَبَبُ سَعَادَتِهِمْ وَعَمَّا هُو سَبَبُ شقائِهِمْ في حَيَاةِ الْخُلُود.

- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكِيد الْكَلَامِ وَتَوْثِيقِهِ، فهي بِمَنْزِلَة: «حَقًّا ـ لَا بُدَّ ـ لَا شَكَّ ـ لَا مَحَالَة» وأصْلُ معنى: «جَرَمَ» قَطع.

أي: مِنَ المؤكَّدِ قَطْعاً أَنَّ هَؤُلَاءِ الْغَافِلِينَ، سَوْفَ يَكُونُونَ هُمُ مَعَ أَمْثَالِهِمْ الْخَاسِرِينَ كُلَّ شَيْءٍ، إِذْ سَوْفَ يَكُونُونَ في أَخَسِّ وأَحَطِّ دَرَكَةٍ مِنْ دَرَكَاتِ الْخَاسِرِينَ، النَّادِمِينَ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُمْ من ارْتِدَادٍ عَنِ الإيمان إِلَىٰ

الكُفْرِ، وَعَلَىٰ مَا حَوَّلُوا اخْتِيَارَهُمْ عَنْهُ بِإرَادَاتِهِمُ الحرَّةِ تَعَلُّقاً بِمَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا وزِينَتِها، مَعَ أَنَّهَا متاعُ الْغُرُور.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْمُهَاجِرِينَ في سبيله:

- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾﴾: وفي قراءة ابْنِ عامر: [فَتَنُوا].

اخْتِيرَ الْعَطْفُ بحرف «ثُمَّ» للإشْعَارِ بِأَنَّ المتحدَّث عَنْهُمْ بَعْدَهَا أَصْحَابُ رُتْبَةٍ عِنْدَ اللهِ رَفِيعَة، بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنِ المرْتَدِّينَ الْخَاسِرِينَ أصْحَابِ الدَّرَكَةِ الْوَضِيعَةِ، وَهُوَ مِنْ عَطْفِ مَوْضُوعٍ عَلَىٰ مَوْضوعٍ.

تَعَرُّضُ أصْحَابِ الرَّسولِ ﷺ لأَنْوَاعٍ مِنَ التَّعْذِيب والاضطهادِ بأيْدِي أئِمَّةِ المشْرِكِين:

جَاء فِي سِيرَةِ «ابن هِشَام» عن ابن إسحاق: أنَّ «سَعِيدَ بْنَ جُبَيْر» قال: قُلْتُ لعبد الله بْن عَبَّاسٍ: أَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَبْلُغُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَذَابِ مَا يُعْذَرُونَ بِهِ في تَرْكِ دِينِهِم؟.

قال: نَعَمْ وَاللهِ، إنْ كَانُوا لَيَضْرِبُونَ أَحَدَهُمْ، وَيُجِيعُونَهُ، وَيُعَطِّشُونَهُ حَتَّىٰ مَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَوِيَ جَالِساً[1] مِنْ شِدَّةِ الضُّرِّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ، حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمْ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، حَتَّىٰ يَقُولُوا لَهُ: اللَّاتُ والْعُزَّىٰ إلَٰهُكَ مِنْ دُونِ اللهِ؟ فَيَقُولُ: نعم. حَتَّىٰ إِنَّ الْجُعَلَ لَيَمُرُّ بِهِمْ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَهَذَا إِلَٰهُكَ مِنْ دُونِ اللهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. افْتِدَاءً مِنْهُمْ مِمَّا يَبْلُغُونَ مِنْ جَهْدِهِ.

تَوْجِيهُ الرَّسُول ﷺ لِلْهِجْرَةِ إلَىٰ الْحَبَشَةِ مَنْ كَانَ يُعَذَّبُ مِنْ أَصْحَابِهِ:

جاء في سيرة «ابن هِشَامٍ» عن ابن إسْحَاق:

---

(١) أي: ما يَقْدِرُ أنْ يَعْتَدِلَ جالِساً، رافعاً ظَهْرَهُ عَنِ الأَرْض.

فَلَمَّا رَأَىٰ رَسُولُ الله ﷺ مَا يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِن الْبَلَاءِ، وَمَا هُوَ فِيهِ مِن العافِيَة، بِمَكَانِهِ مِنَ اللهِ ومِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالب، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ، قَالَ لَهُمْ:

«لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَىٰ أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكاً لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّىٰ يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجاً مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ».

فَخَرَجَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ، وفِرَاراً إِلَىٰ اللهِ بِدِينِهِمْ، فَكَانَتْ أَوَّلَ هِجْرَةٍ في الْإِسْلَام.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَـٰذِهِ الآية (١١٠) من السُّورة نَزَلَتْ بِمُنَاسَبَةِ هَـٰذِهِ الْهِجْرَةِ الَّتِي هَاجَرَهَا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ إلى الْحَبَشَةِ، مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ، وفِرَاراً إِلَىٰ اللهِ بِدِينِهِمْ، فآوَاهم اللهُ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ آمِنِينَ، مُدَّةَ هِجْرَتِهِمْ.

وهَـٰذِهِ الْآيَةُ تُؤْخَذُ عَلَىٰ عُمُومِهَا، وَلَا تُحْمَلُ عَلَىٰ خُصُوصِ السَّبب، فَكُلُّ مَنْ هَاجَرَ في سَبِيلِ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنَ في دِينِهِ في وَطَنِهِ مِنْ قِبَلِ كَفَرةٍ بَاغِينَ ظَالِمِينَ، ثُمَّ جَاهَدَ وَصَبَرَ وَلَمْ تُغَيِّرْ أَحْدَاثُ الْهِجْرَةِ شيئاً فِي قَلْبِهِ وإيمانِهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ وَأَحَاطَهُ بِرَحْمَتِهِ.

وَتَشْمَلُ قراءةُ ابْنِ عَامِر: ﴿فَتَنُواْ﴾ مَنْ كَانَ لَهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ تَعْذِيبٌ لِبَعْضِ الْمسْلِمِينَ لِيَعُودُا إِلَىٰ الشِّرْكِ، ثُمَّ أَسْلَمَ وهَاجَرَ، ثُمَّ جَاهَدَ وصَبَر.

- ﴿... **إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾**﴾: أي: لَغَفُورٌ كثيرُ المغْفِرَةِ لَهُ، رَحِيمٌ بِهِ يَغْمُرُهُ بِعَطَايَاهُ الْمُسْعِدَةِ لَه، الَّتي هِيَ مِنْ آثار رَحْمَتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً لَقَطاتٍ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ تَأْكِيداً أَوْ تَأْسِيساً:

- ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾:

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّهَا المتلَقِّي لِبَيَانَاتِ رَبِّكِ، هَـٰذِهِ الْقَضَايَا الثَّلاثَ الَّتِي سَوْفَ تَحْدُثُ يَوْمَ الْقِيَامَة:

الْقَضِيَّةُ الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾: أي: تَأْتِي كُل نَفْسٍ كَانَتْ مَوْضُوعَةً في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ عَلَىٰ مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْل الْقَضَاء في المحْكَمَةِ الرَّبَّانِيَّة، لَا مُحَامِيَ عَنْهَا، بَلْ هِيَ الَّتِي تُسْأَل عَمَّا أَسْلَفَتْ في الحياة الدُّنْيَا، وهِيَ الَّتِي تُجَادِلُ دِفَاعاً عَنْ نَفْسِهَا، إِنْ كَانَ لَدَيْهَا مَا تُجَادِلُ بِهِ دِفَاعاً عَنْ نَفْسِهَا، لِتَقْدِيم عُذْرِهَا فيما ارْتَكَبَتْهُ مِنْ خَطَايَا.

الْقَضِيَّة الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾: أي: وتُعْطَىٰ كُلُّ نَفْسٍ عَمِلَتْ صَالِحاً أَجْرَ مَا عَمِلَتْ وَافِياً غَيْرَ مَنْقُوصٍ، عَلَىٰ وَفْقِ مَا سَبَقَ بِهِ الْوَعْدُ الرَّبَّانِيُّ المنَزَّلُ في كِتَابِهِ، والمبيَّنُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُوله.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾: أي: وَكُلُّ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا مُمْتَحَنِين لَا يُظْلَمُونَ شيئاً مُسِيؤُوهُمْ وَمُحْسِنُوهُمْ، فالمسِيؤونَ مِنْهُم يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالْعَدْلِ ويَتَجَاوَزُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فَهُمْ بِهـٰذَا لَا يُظْلَمُونَ مِثْقَالَ ذَرَّة. والمحسِنُونَ مِنْهُمْ يَحْكُمُ اللهُ لَهُمْ بالفَضْلِ، وَيُضَاعِفُ لَهُمْ أَعْدَادَ حَسَنَاتِهِم، وتُضَاعِفُ لَهُمْ أُجُورَهُمْ عَلَيْهَا إِلَىٰ سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، فَكَيْفَ بَعْدَ هـٰذَا يُتَصَوَّرُ أَنَّهُم يُظْلَمُون.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع والعشرون من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيتان (١١٢ - ١١٣)

قال اللهُ عزَّ وَجَلَّ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ بِشَأْنِ كُفَّارِ مَكَّة، وَمُعَالَجتِهِمْ بِبَعْضِ المصَائِبِ الَّتِي أنْزَلَهَا بِهِمْ، والرَّسُولُ ﷺ يَدْعُوهُمْ إلَىٰ الإسْلامِ بِحِكْمَةٍ وَحِلْمٍ وَصَبْرٍ كثير.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

جاء في أخبار السِّيرةِ النَّبويَّةِ أنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، وأَبَوْا إلَّا خِلافَهُ، وَكَانَ قَدْ صَبَرَ عَلَىٰ مُعالَجتِهِمْ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ الدَّعَوِيَّة الحكِيمة، دَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام في مِصْرَ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنْ جُوعِهِمْ «الْعِلْهِز» وهُوَ وَبَرُ الْبَعِيرِ يُخْلَطُ بِدَمِهِ إذَا نَحَرُوه.

ورُويّ أنَّ الرَّسولَ ﷺ قَال في دُعَائِهِ عليهم:

«اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَر، واجْعَلْها عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُف» فَابْتَلُوا بالْقَحْطِ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْعِظَام.

وذَهَبَ أكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَىٰ الْمُرَادَ بالْقَرْيَةِ الَّتِي ضَرَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا الْمَثَلَ هِي مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ حِينَ اسْتَعْصَىٰ أَهْلُهَا عَنْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَيَقْبَلُوا دَعْوَتَهُ، بَلْ شَاقُّوهُ وَقَاوَمُوا دَعْوَتَهُ، واضْطَّهَدُوا وَعَذَّبُوا مَنْ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ شَوْكَةٌ، وَلَا عُزْوَةٌ تَحْمِيهِمْ.

أقُول: وَضَرْبُ المثَلِ بِمَا نَزَلَ بِأَهْلِ مَكَّةَ لَهُ صِفَةُ التَّعْمِيمِ عَلَىٰ كُلِّ أَشْبَاهِهِ في غَابِرِ الزَّمِنِ، ومُسْتَقْبَلِهِ، إِذْ يَأتِي ضَرْبُ المثَلِ لِلْقِيَاسِ عَلَيْهِ، وهُوَ أَحَدُ أَفْرَادِ كُلِّيَّةٍ عَامَّة، هي مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبَادِهِ.

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾: أيْ: وَصَنَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في تَدَابِيرِ تَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ لِمُجَازَاةِ عِبَادِهِ مُجَازَاةً تَأْدِيبِيَّةً تَحْذِيرِيَّة، مَثلاً وَاقِعِيًّا قَرِيباً، هـٰذَا الْمَثَلُ هُوَ مَا أَنْزَلَهُ بأهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، بَلْ شَاقُّوهُ وَقَاوَمُوهَا كِبْراً وَعِنَاداً.

- ﴿قَرْيَةً﴾ الْقَرْيَةُ تُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مُجمَّعٍ سَكَنِي صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ جِدّاً.

- ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾: الْمُرَادُ بالْقَرْيَةِ أَهْلُهَا وَسُكَّانها، وَهَكَذَا كَانَ حَالُ أَهْلِ مَكَّةَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ يَأْتِيهِمْ رِزْقُهُمْ رَغداً مِن كُلِّ مَكَانٍ.

- لَقَدْ كَانُوا آمِنِينَ، والنَّاسُ يُتَخَطَّفُونَ مِنْ حَوْلِهِمْ، قَضَىٰ اللهُ لَهُمْ بالأَمْنِ، مِنْ أَجْلِ بَيْتِهِ الْحَرام في بَلَدِهِمْ مَكَّةَ المكَرَّمَة.

- وَكَانُوا مُطْمَئِنِّين، أي: سَاكِنِينَ بِراحَةٍ واسْتِقْرَار، خَالِينَ مِمَّا يُقْلِقُهُمْ وَيُزْعِجُهُمْ. **الطَّمْأْنِينَة**: السُّكُونُ بِراحَةٍ خَالِيَةٍ مِمَّا يُقْلِقُ.

- وَكَانَتْ تَأْتِيهِمْ أَرْزَاقُهُمْ كثِيرةً وَاسِعَةً طَيِّبَةً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ مَجْلِبُونَ مِنْهُ عَادَة أَرْزَاقَهُمْ، أَوْ تُجْلَبُ مِنْهُ الْأَرْزَاقُ إلى أَرْضِ الْحِجَاز.

الرَّغَدَ والرَّغْدُ: الكثير الطَّيِّبُ الْوَاسِعُ الرَّفِيهُ.

- ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾: أي: جَحَدَتْ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَشْكُرْهَا بِالْإيمانِ بوَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلَهِيَّتِهِ، وكَذَّبتْ رَسُولَهُ، وَكَذَّبَتْ بالكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ.

أَنْعُمْ: جَمْعُ «نِعْمَة».

- ﴿... فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

اسْتُعِيرَ فِعْل «أذَاق» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الإحْسَاسِ الشَّدِيد بألَم الْجُوعِ وألَم الْخَوْفِ، إذْ حَاسَّةُ الذَّوْقِ أَشَدُّ الْمَوَاضِعِ إحْسَاساً بِمَا يُلَامِسُها. وأُطْلِقَ الذَّوْقُ عَلَىٰ القريّة والمراد أهْلُها، وهو من إطلاق المحَلّ وإرَادَةِ الْحَالِّ فيهِ.

واسْتُعِيرَ اللِّبَاسُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْجُوعَ كَانَ الْإحْسَاسُ بِهِ إحْسَاساً شَامِلاً لِجَسَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، كَشُمُولِ اللِّبَاسِ السَّابغ، وللدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْخَوْفَ كَانَ الإحْسَاسُ بِهِ إحْسَاساً شَامِلاً أَيْضاً.

وَهٰذَا التَّعْذِيبُ بِالْمَصَائِبِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَوَارِضِ مَصَائِبِ الدُّنْيَا، قَدْ كَانَ تَعْذِيباً تَأْدِيبيًّا، وَتَذْكِيرِيًّا بالْعَذَابِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ الدِّينِ، لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ.

وَسَبَبُهُ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ، وَجرَائِمَ بِتَعْذِيب المؤمِنِينَ: ﴿... بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ «الباء» سَبَبِيَّة، أي: بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ.

- ▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيثَ عَنْهُمْ:

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ بِعِبَارَة «لَقَدْ» أَنَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولٌ أَرْسَلَهُ اللهُ رَبُّهُمْ إِلَيْهِمْ، مَصْحُوباً بالآيَاتِ البيِّنَاتِ الشَّاهِدَاتِ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولِ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً.

وَهُوَ مِنْهُمْ نَسَباً، وَلُغَةً، وَنَشْأَةً، يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعِفَّتَهُ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيم، وَقَدْ عَلِمُوا مِنْ صِفَاتِهِ ومِنْ سُلُوكِهِ فِي مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وَصِدْقاً، فَكَذَّبُوهُ جُحُوداً وَعِنَاداً واسْتِكْبَاراً.

فَأَخَذَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَذَابُ الْجُوعِ والْخَوْفِ، والْحَالُ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ظُلْماً عَظِيماً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الْجُحُودِيِّ الْعِنَادِيِّ الاسْتِكْبَارِي.

الْأَخْذ: أَصْلُهُ الْقَبْضُ عَلَىٰ الشَّيْءِ، وبالتَّوسُّعِ صَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ مَا يُؤْخَذُ لَهُ الشَّيْءُ، وَعَلَىٰ هٰذَا المعْنَىٰ جَاءَ إِطْلَاقُ الْأَخْذِ فِي الْقُرْآنِ فِي نُصُوصٍ كَثِيرة، فَمِنَ الأَخْذِ الْعِقَابُ التَّأْدِيبِيُّ الْجُزْئِيُّ، ومِنَ الْأَخْذِ الْإِهْلَاكُ الاسْتِئْصَالِيُّ الشَّامل.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الخامس والْعِشْرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٩)

التدبُّر التحليلي للدّرس السادس والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (١١٤ ـ ١١٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ

لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩)﴾:

القراءات:

(١١٥) ● قرأ أبو جعفر: [**الميّتَة**] بتَشْدِيدِ الْيَاءِ مَكْسُورَة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الْمَيْتَة**] بإِسْكَانِ الْيَاء.

(١١٥) ● قرأ أبو عَمْرو، وعاصِمٌ، وحمْزَة، ويَعْقُوب: [**فَمَنِ ٱضْطُرَّ**].

وقرأها أبو جعفر: [**فَمَنُ ٱضْطِرَّ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَمَنُ ٱضْطُرَّ**].

وهي وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ من الْأَدَاء.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ توجِيهٌ للنَّاسِ بأنْ يَأْكُلوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ حَلالاً طَيّباً، وَيَشْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ، مَعَ بَيَانِ المحرَّمَاتِ مِنَ المطاعم، وَمَعَ التّحْذِيرِ من التحليل والتَّحْرِيمِ افْتِرَاءً عَلَىٰ الله.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً للنَّاسِ بَعْدَ ضَرْبِ المثَلِ بأصْحَابِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا بأنْعَمِ اللهِ في الآية (١١٢):

● ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)﴾:

أي: فَلَا تكُونُوا أمْثَالَ أصْحَابِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِين، بَلْ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ فِي كَوْنِهِ حَسْبَ اختياراتِكُمْ، حَالَةَ كَوْنِ مَا تَخْتَارُونَهُ حَلالاً طَيِّباً، أي: لَيْسَ مِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ مِنْ مَطَاعِمَ، وَلَيْسَ مِنَ الْخَبَائِثِ أَوِ الْأَشْيَاءِ الضَّارَّةِ غَيْرِ الطَّيِّبَةِ، واجْعَلُوا مَا تَنْتَفِعُونَ وَتَسْتَمْتِعُونَ بِهِ مِنْ رِزْقِ اللهِ لَكُمْ مُقْتَرِناً وَمَتْبُوعاً بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَٰهِيَّتِهِ، وَتَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شيئاً.

- ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ مَنْصُوبَانِ عَلَىٰ الحاليّة، أي: فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ، بِقَيْدِ كَوْنِهِ حَلالاً طَيِّباً.

الْحَلَال: مَا أَحَلَّهُ اللهُ لِعِبَادِه.

الطَّيِّبُ: ضِدُّ الْخَبِيثِ المسْتَقْذَر، وضِدُّ الضَّارِّ والمؤْذِي.

- ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: الشُّكْرُ مُقَابَلَةُ المنعِمِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. ويَدْخُلُ فِيهِ الْإِيمَانُ والْإِسْلَامُ، والْحَمْدُ، والطَّاعَةُ، والتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَا شَرَعَ مِنْ نَوَافِل.

- ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: أي: إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مُشْرِكين فأَنْتُمْ لَا تَعْبُدُونَ شيئاً غَيْرَهُ سُبْحانه.

اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِن تَقْدِيم المعْمُولِ: ﴿إِيَّاهُ﴾ على عامِلِهِ: ﴿تَعْبُدُونَ﴾.

العِبَادَةُ: الخضوعُ، والطَّاعةُ، والقيامُ بما يُرْضِي المعْبُودَ، وتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا حَرَّمَ عَلَىٰ النَّاسِ مِنَ الْمَطَاعِمِ الَّتِي يَأْكُلُ النَّاسُ مِنها:

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

أي: مَا حَرَّمَ اللهُ فِيمَا سَبَقَ عَلَيْكُمُ الْأَكْلَ مِنْ أَجْسَادِ الْأَحْيَاءِ غَيْرِ الإنْسانِيَة الَّتِي تَأْكُلُونَ مِنْهَا إِلَّا أَرْبَعَةَ مُحَرَّمَات:

الْمُحَرَّمُ الْأَوَّل: الْمَيْتَة، وهي كُلُّ بَهِيمَةٍ مَاتَتْ بَانْتِهَاءِ أَجَلِهَا، دُونَ ذَبْحٍ أَوْ قَتْلٍ أَوْ صَيْدٍ.

الْمُحَرَّمُ الثَّانِي: الدَّم، وهو الدَّمُ السَّائل، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَأْخُذُونَ الدَّمَ السَّائِلَ وَيَمْلَؤُونَ بِهِ بَعْضَ أمْعَاءِ الْبَهَائِمِ، ويُجَفِّفُونَهُ، ثُمَّ يَشْوُونَهُ أَوْ يَطبُخُونَهُ وَيَأْكُلُونه.

وقَدْ جَعَلَ اللهُ فِي كُلِّ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ أَكْلَ الدَّمِ مُحَرَّماً.

الْمُحَرَّمُ الثَّالث: لَحْمُ الْخِنْزِير، بِرِّيًّا كَانَ، أَمْ أَهْلِيًّا يُرَبَّىٰ في الحظائِر، والابْتِعَادُ عَنِ الْأَكْلِ مِنْ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ عِبَادَةٌ للهِ تَعَالَىٰ، ولَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنْهُ، وَلَوْ عُولِجَ بالْوَسَائِلِ الصِّحِّيَّةِ حَتَّىٰ صَارَ سَلِيماً مِنْ كُلِّ تَأْثِيرٍ ضَارٍّ أَوْ مُؤْذٍ لِصِحَّةِ الآكِلينَ مِنْهُ.

الْمُحَرَّمُ الرابع: مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ، أي: أعْلَنَ ذَابِحُهُ أَنَّهُ يُقَدِّمُهُ قُرْبَاناً لِغَيْرِ اللهِ، أَصْلُ معْنَىٰ إهْلَالِ الذَّابِحِ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ ذَاكِراً اسْمَ مَنْ يُقَدِّمُ ذَبِيحَتَهُ قُرْبَاناً له، وَهٰذَا مِنْ عِبَادَاتِ المشْرِكِينَ لِغَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَجَعَلَهُ اللهُ مُحَرَّماً، لِأَنَّ الْأَكْلَ مِنْهُ إقرارٌ لِعِبَادَةٍ مِنْ عِبَادَاتِ المشْرِكين.

ورخَّصَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُضطرّ بِأَنْ يَأْكُلَ مِن هٰذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ، بِشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ بَاغِياً وَلَا عَادِياً، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿... فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾:

أي: فَمَنْ جاعَ جُوعاً شَدِيداً، وَلَمْ يَجِدْ طَعَاماً يَأْكُلُهُ إلَّا شَيْئاً مِنْ هٰذَا الْمُحَرَّمَاتِ، فَأَكَلَ مِنْهَا مَا يَسُدُّ بِهِ ضَرُورَتَهُ، لَمْ يُؤَاخِذْهُ اللهُ عَلَىٰ مَا فَعَلَ، بَلْ جَعَلَ لَهُ رُخْصَةً فِي هٰذَا.

وَجاءَت عِبارَة: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ كِنايَةً عَنْ أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُ وَيَرْحَمُهُ وَلَا يُؤَاخِذُهُ عَلَىٰ ما فَعَلَ، لِأَنَّهُ أَخَذَ بالرُّخْصَةِ بِمِقْدَارِ ضَرُورَتِهِ.

ولَكِنَّ هٰذِهِ الرُّخْصَةَ الرَّبَّانِيَّةَ مَشْرُوطَةٌ بِشَرْطَيْن:

الشَّرْطُ الْأَوَّل: أَنْ لَا يَكُونَ المضطَرُّ باغِياً، أي: أَنْ لَا تَكُونَ مَعْصِيَتُهُ للهِ هِي الَّتِي أَوْصَلَتْهُ إِلَىٰ حَالَةِ الاضْطِرار الَّتِي هُو فيها.

الْبَغْيُ: تجاوُزُ الْحدِّ، والظُّلْمُ. **والْبُغَاةُ**: قُطّاعُ الطُّرُقِ ظُلْماً وعُدْواناً، وَالْخارِجُونَ عَلَىٰ الدَّوْلَةِ الإسْلامِيَّةِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

فَمَنْ سَافَرَ لِيَعْصِي اللهَ في سَفَرِهِ، فَلَا رُخْصَةَ لَهُ. وعِصَابَاتُ قُطَّاعِ الطُّرُقِ الْبُغَاةُ لَا رُخْصَةَ لهم، والْخَارِجُونَ عَلَىٰ الدَّوْلَةِ الإسْلامِيَّةِ بِغَيْرِ حَقٍّ لَا رُخْصَةَ لَهُمْ.

الشّرْطُ الثّاني: أَنْ لَا يَكُونَ المضْطَرُّ عَادِياً. **الْعَادِي**: هُوَ الَّذِي يَتَجاوَزُ حَدَّ الْحَقّ، وَحَدُّ الرُّخْصَةِ هُنَا أَنْ يَأْكُلَ الْمُرَخَّصُ لَهُ بِمِقْدَارِ مَا يَدْفَعُ بِهِ اضْطِرَارَه، فإِذَا جَاوَزَ حَدَّ الرُّخْصَةِ وَجَعَلَ يَستَزِيدُ مِنَ الأَكْلِ لإِرْضَاءِ شَهْوَتِهِ لِلطَّعَام، وَرَغْبَةِ نَفْسِهِ بالشِّبَعِ الزائِدِ عَنِ الحدّ، فَهُوَ عَادٍ يَأْكُلُ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ أَكْلَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَدْ تَجَاوَزَ حُدُودَ الرُّخْصَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشأْنِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ في التحليلِ والتحريم مُخَاطِباً لهم:

- ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾:

- ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾)

كَانَ لِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَحْكَامٌ فِي الْمَطَاعِمِ افْتَرَوْهَا عَلَىٰ اللهِ، فَأَحَلُّوا بَعْضَهَا بِأَهْوَائِهِمْ وَحرَّمُوا بَعْضَهَا بأَهْوَائِهِمْ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ هٰذَا لَدَىٰ تَدبُّرِ الدَّرْسِ (٣١) من سورة (الأنْعَام/ ٥٥ نزول).

إِذَا قَالَ القَائِلِ: هٰذَا حَلَالٌ، فإِنَّهُ يَصِفُهُ بِالْحِلِّ، وَإِذَا قَالَ: هٰذَا حَرَامٌ، فَإِنَّهُ يَصِفُهُ بالْحُرْمَةِ.

والتَّحْلِيلُ والتَّحْرِيمُ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلَٰهِيَّتِهِ لِعِبادِهِ، فإذا كَانَ الْوَاصِفُ الَّذِي يَصِفُ شَيْئاً مَا بأَنَّهُ حَلَالٌ، أَوْ بِأَنَّهُ حَرَامٌ، لَيْسَ لَهُ فِيهِ عَنِ اللهِ خَبَرٌ صَادِقٌ، وَلَا دَلِيلٌ نَصبَهُ اللهُ لِمَعْرِفَةِ حُكْمِهِ، فَهُوَ كَاذِبٌ يَفْتَرِي عَلَىٰ اللهِ فيما هُوَ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيّتِهِ وإِلَٰهِيَّتِهِ، وقولُهُ: هٰذَا حَلَالٌ، وَهٰذَا حَرَامٌ وَصْفٌ كَذِبٌ يَقُولُهُ بِلِسَانِهِ.

فالمعنى: وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْوَصْفَ الكَذِبَ مِنْ أَحْكَامٍ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلَٰهِيَّتِهِ: هٰذَا الشيء حَلَالٌ، وَهٰذَا الشَّيْءُ الْآخَرُ حَرام.

- ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: أي: لِيَكُونَ مِنْ نَتِيجَةِ وَصْفِكُمْ افْتِرَاؤُكُم الكَذِب عَلَىٰ اللهِ، فالَّامُ في ﴿لِّتَفْتَرُوا۟﴾ لَيْسَتْ لَامَ التَّعْلِيلِ إِنَّما هِيَ لَامُ الْعَاقِبَةِ.

- ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾: أي: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ عَنْ عَمْدٍ، أَوْ يُؤَدِّي تَصرُّفُهُمْ إِلَىٰ نَتِيجَةٍ فِيها افْتِرَاءُ الْكَذِب عَلَىٰ اللهِ، لَا يُفْلِحُونَ.

- ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾: أي: لَا يَنْجُونَ مِنْ عَذَاب الله، ولا يفوزون ولا يظفرون. وأَصْلُ الفلاح البقاءُ في النَّعِيم.

- ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾: أي: إِنَّ تَدخُّلَهُمْ فِي أَحْكَامِ التَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ الَّتِي هِيَ مِنْ خَصَائِصِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، قَدْ يَسْتَفِيدُونَ

مِنْهُ شيئاً مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، لَكِنْ وَصَفَهُ اللهُ بِأَنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ، إِذْ هُوَ قَلِيلُ الْقِيمَةِ، وَقَلِيلُ الْمِقْدَار مُعَرَّضٌ للزَّوالِ السَّرِيع، وَهَكَذَا كُلُّ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا.

وَهٰؤُلَاءِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُعَدٌّ لَهُمْ يُعَذَّبُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِمُشَارَكَتِهِمْ للهِ فيما هُوَ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ الْحَصْرَ الَّذِي جَاءَ في الآيَةِ (١١٥) عَامٌّ فِي غَيْرِ الْيَهُودِ الَّذِينَ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِم فَوْقَهَا مُحَرَّمَاتٍ أُخْرَىٰ هِي مِن الطَّيِّبَاتِ بِسببِ ظُلْمٍ كَبِيرٍ كَانَ مِنْهُمْ:

- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

سَبَقَ أَنَّ قَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلى رَسُولِهِ فِي سُورَة (الأنعَام/ ٥٥ نُزُول) تَفْصِيلَ مَا حَرَّمَهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ خَاصَّةً، زِيَادَةً عَلَىٰ الْمُحَرَّمَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي حَرَّمَهَا عَلَىٰ النَّاسِ فِي رِسَالَاتِهِ، وهو مَا جَاءَ في قوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾:

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّرُ هَٰذِهِ الآيَةِ فِي مَكَانِهَا مِنْ سُورَةِ (الأنْعَام).

- ﴿... وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم مُبَيِّناً أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ مَا ظَلَمَ الْيَهُودَ بِتَشْدِيدِ أَحْكَامِ التَّحْرِيم عَلَيْهِمْ، وإِنَّمَا كَانَ هٰذَا بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ الْمُبَالَغِ فِيهِ، فَهُمْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ في الحقيقةِ. إذ تَسَبَّبُوا لِأَنْفُسِهِمْ بالتَّشْدِيدِ عليهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُطْمِعاً عِبادَهُ بالْغُفْرَانِ والرَّحْمَةِ إذَا تَابُوا وأَصْلَحُوا:

• ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ الْبَيَانَاتِ السَّابِقَاتِ الْمُرْهِبَاتِ نُطْمِعُ التَّائِبِينَ الْمُصْلِحِينَ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ بِالْغُفْرَانِ والرَّحْمَةِ الْعَظِيمَة، مَهْمَا طَالَتِ الْمُدَّةُ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ فِيهَا السَّيِّئَاتِ.

السُّوءُ: كُلُّ قَبِيحٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، والمرادُ هُنَا مَا هُوَ قبيحٌ وَمَكْرُوهٌ شَرْعاً.

بِجهَالَة: مُتَّصِفاً بانْدِفَاعٍ نَفْسِيٍّ غَيْرِ رَشِيد، كشَهْوَةٍ، أَوْ غَضَبٍ، أَوْ رَغْبَةٍ جَامِحَة جانِحَةٍ، تُغَشِّي عَلَىٰ الْبَصِيرَةِ.

وأَصْلَحُوا: أَيْ: فَعَلُوا مَا هُوَ صَالِحٌ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ أو اعْتِقَاد.

• ﴿... إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾: أي: إِنَّ رَبَّكَ لَكَثِيرُ الْغُفْرَانِ لَهُمْ، ووَاسِعُ الرَّحْمَةِ الَّتِي يَرْحَمُهُمْ بِها، مِنْ بَعْدِ تَوْبَتِهِم.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدبُّر الدّرس السادس والعشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٣٠)

التدبُّر التحليلي للدّرس السابع والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيَات من (١٢٠ ـ ١٢٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً

وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)﴾:

القراءات:

(١٢٠ و١٢٣) ● قرأ هِشَام: [إِبْرَاهَام] في الموضِعَيْن.

وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِبْرَاهِيمَ].

وَهُمَا نُطْقَانِ مَعْرُوفَانِ في الْعَرَبِ لِسَيِّدِنَا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام.

(١٢١) ● قرأ قُنْبُل، ورُوَيس [سِرَاطٍ].

وقَرَأَهَا خَلَفَ عَنْ حَمْزَة بإشمام الصّاد زاياً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [صِرَاطٍ] بالصّاد الخالِصَة.

تَمْهيد:

فِي هٰذَا الدَّرْسِ ضَرْبُ مَثَلٍ للشَّاكِرِينَ بإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، وفِيهِ أَمْرٌ للرَّسُولِ محمّد ﷺ باتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِفُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام:

● ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بـ «إِنّ ـ والْجُمْلَةَ الاسْمِيَّة» أَنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، كَانَ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مَا يلي:

الصِّفَة الأولىٰ: أَنَّهُ كَانَ أُمَّةً وَحْدَه، إِذْ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ فِي أَوّلِ نَشَأَتِهِ غَيْرُهُ، فَحَمَلَ عِبْءَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التوحِيدِ ونَبْذِ الْوَثَنِيَّة وَحْدَه.

الْأُمَّة: تُطْلَقُ في الاسْتِعْمَالِ القرآنيِّ عَلَىٰ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمُعها صِفَاتٌ، أَوْ خَصَائِصُ، أَوْ روابط مُتَمَيِّزَة. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْفَرْد الوَاحِدِ المتَمَيِّز بِصِفَاتٍ لَا يُشَارِكُهُ فيها غَيْرُهُ لفظ أُمَّة.

الصِّفَة الثّانية: أَنَّهُ كَانَ قَانِتاً لله، أي: عابداً لله، مُطِيعاً خاضِعاً لَهُ، يَذِلُّ لَهُ فِي عِبادَتِهِ.

الصِّفَة الثالِثة: أَنَّهُ كَانَ حَنِيفاً، أي: كَانَ مائِلاً عَنْ كُلِّ الأَدْيَانِ الباطِلَة، المائِلَةِ عَنْ صِرَاطِ الحقِّ والْهُدَىٰ، وَهٰذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بالاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ ذِي الصِّراط المستقيم، لِأَنَّ كُلَّ الأَدْيَانِ والْمِلَلِ الباطِلَة مَائِلَةٌ عَنْهُ إلى جهات مختلفاتٍ، مَائِلَاتِ السَّاحَات اللَّوَاتِي لَيْسَتْ عَلَىٰ الصِّراطِ المستقيم.

الصِّفَة الرَّابِعَة: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ المشْرِكين، فَقَدْ كَانَ لَا يُشْرِكُ باللهِ أَرْبَاباً، وَلَا آلِهَةً، وَلَا أَسْبَاباً، بَلْ كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ مَحْكُومٌ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لَهُ، إيجاداً وَإعداماً وَتَصَارِيفِ وَتغييرَاتٍ وَحَرَكَاتٍ وَسَكَنَات.

الصِّفَة الْخَامِسَة: أَنَّهُ كَانَ شَاكِراً لِأَنْعُم اللهِ عَلَيْه، قَائِماً على مِقْدَارِ اسْتِطَاعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ بِمَا يُطْلَبُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَاكِراً وجوباً أو نَدْباً.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إِنْعَام الْمُنْعِم بما يُرْضِيهِ، من اعْتِقَادٍ، أَوْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، أَوْ قَوْلٍ، فَيَدْخُلُ فِي الشُّكْرِ الحمد.

الصِّفَة السَّادِسة: أَنَّ اللهَ اجتبَاه، أي: اخْتَارَهُ واصْطَفَاهُ مِنْ عِبادِهِ، فَجعَلَهُ نَبِيًّا يُوحَىٰ إِلَيْه، ثُمَّ جعَلَهُ رَسُولاً يُبَلِّغُ النَّاسَ عَنْ رَبِّهِ مَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ.

الصِّفَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ اللهُ هَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، فَعَلَّمَهُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ صِرَاطَهُ المسْتَقِيمَ، وهُوَ مَا اشتَمَلَ عَلَىٰ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وهو الصِّرَاطِ الموصِلُ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعيم يَوْمَ الدِّين.

الصِّفَة الثامِنَة: أَنَّ اللهَ آتَاهُ فِي الْحياةِ الدُّنْيَا حَسَنَةً، أي: عَطَايَا حَسَنَة، فَنَصَرَهُ عَلَىٰ نمرود العِرَاق، وَاخْتَارَ لَهُ مُهَاجِراً حَسَناً في بلادِ الشَّام الَّتِي بَارَكَ اللهُ فيها، وَمَنَحَهُ مَعِيشَةً حَسَنَةً بِصِحَّةٍ وسَلَامَةٍ مَعَ عُمْرٍ مَدِيدٍ، وذِكْرٍ حَسَنٍ بَيْنَ النَّاس، وطُمَأْنِينَةِ قَلْبٍ ورِضاً كامِلٍ عَنْ رَبِّهِ.

فِي عِبَارَة ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ﴾ الْتِفَاتٌ مِن الْحَدِيثِ بِالْغَيْبة إِلَىٰ التَّكَلُّم بِضَمِيرِ المتَكَلِّم العظيم، لِلْإِشْعَارِ بِجَزِيلِ الْعَطَايَا الْحَسَنَةِ الَّتِي آتاهُ اللهُ إِيَّاها، وأَجَلُّهَا مَشَاعِرُ السَّعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَدَفَّقُ عَلَىٰ جَوَانِبِ نَفْسِهِ.

الصِّفَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ اللهَ حَكَمَ لَهُ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا بأَنَّهُ في الْآخِرَةِ مِنْ زُمْرَةِ الصَّالِحِينَ، وأَكَّدَ هَـٰذِهِ الصِّفَةَ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ بالمؤكّدات: «إِنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ واللَّامُ الْمُزَحْلَقَة».

الصَّالح: هو الخالي من الفساد الْكُلِّيّ والجزئي.

وقد جاءَ في القرآن لَفْظُ «الصَّالِحِينَ» وَصْفاً لِلْمُرْسَلِين، والْأَنْبِياء، والمؤمِنِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ويُسَارِعُونَ فِي الخيراتِ.

وأدْخَلَ اللهُ في الصَّالِحِينَ الْأَوَّابِينَ الَّذِينَ إذَا فَعَلُوا بَعْضَ المعَاصِي والمخالَفَاتِ رَجَعُوا إلَىٰ رَبِّهِمْ بالتَّوْبَةِ والاستغفار عَلَىٰ وجْهِ السُّرعة، ولَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ ذلِكَ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ إبراهيمَ وَعَصْرِه، وَبَعْدَ أَهْلِ الكِتَابِ أتْبَاعِ مُوسَىٰ، وأَهْلِ الكِتَابِ أتْبَاعِ عِيسَىٰ، جَعلْنَاكَ يَا مُحمّدُ نَبيًّا وأوْحَيْنا إلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْمِلَلِ الْبَاطِلَة، ومُسْتَقِيماً عَلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ والصِّرَاط الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هَدَيْنَاهُ إلَيْهِ، وَمَا كَانَ إبْرَاهِيمُ فِي يَوْمٍ مِنْ حَيَاتِهِ مِنَ المشْرِكين، فاحذَرْ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَتَأَثَّرَ بِقَوْمِكَ فِي شَيْءٍ مِنْ شِرْكِيَّاتِهِمْ، فإبْرَاهِيمُ قَدْ نَشَأَ فِي قَوْمٍ مُشْرِكين ولَمْ يَتَأَثَّرْ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ شِرْكِيَّاتِهِمْ.

وأصُولُ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ محمّداً ﷺ أَنْ يَتَّبِعَهَا بَعْدَ أَنْ جَعَلَهُ نَبِيًّا هِيَ تَوْحِيدُ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلَهِيَّتِهِ، وَعِبَادَتُهُ بالْمَوْرُوثَاتِ الصَّحِيحَةِ عَنْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، كالصَّلَاةِ، ومِنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ الْمَوْرُوثَةِ عَنْهُ، الالْتِزَامُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاق، والالْتِزَامُ بالْحَقِّ والْعَدْلِ، ونُصْرَةِ المظْلُوم، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا تَتَّفِقُ عَلَيْهِ الْعُقُول.

ثُمَّ لَمَّا بَعَثَهُ اللهُ رَسُولاً شَرَعَ يُنْزِلُ عَلَيْهِ أُصُولَ دِينِ الإسْلَام، وشَرَائِعَهُ، وَأَحْكَامَهُ، فِي نُجُومِ التَّنْزِيل تِبَاعاً حتَّىٰ هَـٰذِهِ السُّورَةِ، وَتَتَابَعَ ذَلِكَ حَتَّىٰ آخِرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ فِي حَيَاتِهِ.

وَلِئَلَّا يَتَّبِعَ النَّبِيُّ ﷺ الْيَهُودَ فِي يَوْمِهِم الأسْبُوعِي، الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، قَالَ اللهُ لَهُ:

- ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: لَمْ يَكُنْ الْيَوْمُ الأُسْبُوعِيُّ فِي مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ يَوْمَ السَّبْتِ، بَلْ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي أَتَمَّ اللهُ فِيهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَعَدَلَ الْيَهُودُ عَنْهُ ابْتِدَاعاً مِنْهُمْ إلى يَوْمِ السَّبْتِ، وَزَعْماً مِنْهُمْ أَنَّ الْيَوْمَ السَّابِعَ هُوَ الَّذِي ارْتَاحَ فِيهِ اللهُ مِنْ بَعْدِ أَيَّامِ التَّعَبِ الَّتِي خَلَقَ فِيها الْخَلْقَ، وَقَدْ كَذَبُوا فِي هٰذَا، وجَعَلُوا السَّبْتَ هُوَ الْيَوْم الَّذِي يرتاحُونَ فِيهِ مِن أعْمَالِ الدُّنيا، فَفَرضَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، وشَدَّدَ عَلَيْهِمْ تَحرِيمَ الْعَمَلِ فِيهِ، وَأَرادَ النَّصارَىٰ مُخَالَفَةَ الْيَهُودِ فَجعَلُوا الأَحَدَ يَوْمَهُمُ الأُسْبُوعِيّ.

فالمعْنَىٰ: مَا جُعِلَ السَّبْتُ وَأَحكَامُهُ المشَدَّدَةُ إلَّا عَلَىٰ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ بابْتِدَاعِهِمْ عَمَّا كَانَ لَهُمْ فِي مِلَّةِ إبْرَاهِيم، وإنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُم بَيْنَهُمْ فِي كُلِّ مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتِلفُونَ عَنْ دِينِ اللهِ ابْتِدَاعاً وَتَحْرِيفاً.

رَوىٰ البخاريُّ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ:

«نَحنُ الآخَرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيامَة، بَيْدَا أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هٰذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِم (أي: يَوْمُ الجُمُعَة) فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَع، الْيَهُودُ غداً، والنّصارَى بَعْدَ غَدٍ».

وَروىٰ مُسلِمٌ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ وَحُذَيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهما، قالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«أَضلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ للنّصارَىٰ يَوْمُ الأَحَدِ، فَجاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ والسَّبْتَ والأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القيامة، نَحنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيامَةِ، والمقْضِيُّ بَيْنَهُم قَبلَ الْخَلائق».

أَضَلَّ اللهُ: أي: وَجَدَهُمْ ضَالِّينَ بابتداعَاتهم.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السابع والعشرين من دُرُوس سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

(٣١)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (١٢٥ ـ ١٢٨) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾:

القراءات:

(١٢٧) ● قرأ ابن كثير: [فِي ضِيقٍ] بكسر الضَّاد.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِي ضَيْقٍ] بفتح الضاد.

وهُمَا لُغَتَانِ والمعْنَىٰ واحد.

(١٢٧) ● قرأ حمزة، ويعقوبُ: [عَلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَلَيْهِمْ] بكَسْرِ الهاء.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ وَصَايَا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُوجَّهَةٍ لِرَسُولِهِ محمّدٍ ﷺ، في الدَّعْوَةِ، والْعِقَاب، والصّبر، وغيرها، ويُلْحَق بالرَّسُولِ حَمَلَةُ رِسَالَتِه وسائِرُ المسلمين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُخَاطِبُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ:

• ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾:

يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ الْعُنْوَانَاتِ الكُبْرَىٰ لِمِنْهَاجِ الدَّعْوَةِ إلىٰ سَبِيلِهِ، وهِيَ: الحِكْمَةُ، والموعظَةُ الحسَنَةُ، والمجادلَةُ الْحِوَارِيَّةُ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنَ، وفيما يلي بَسْطُ هَـٰذِهِ الْعُنْوَانَاتِ الكبرى بإيجاز:

الدَّعْوَةُ بالْحِكْمَة: الْحِكْمَةُ هِيَ وَضْعُ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الّذِي يُوجِبُهُ الْعَقْلُ، أَوْ تَكْشِفُهُ التَّجْرِبَةُ، وَتَتَحقَّقُ بِهِ الْغَايَةُ المقْصُودَةُ مِنَ الأَمْرِ، بأقَلِّ كُلْفَةٍ وأَقْصرِ زَمَنٍ مُمْكِنَيْن.

فَمِنَ الْحِكْمَةِ مُخَاطَبَةُ الإنْسَانِ بِمَا يُقْنِعُهُ، كإقَامَةِ الحجج الْبُرْهَانِيَّةِ لَهُ بِمِقْدَارِ مَدَارِكِهِ، مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ، وَمِنَ الحسِّيَاتِ، ومِنْ قَوَاطِعِ الْخَبَرِيَّاتِ.

ومِنَ الْحِكْمَةِ إِجْرَاءُ التَّجَارِبِ لَهُ الَّتِي تُعْطِي النَّتَائِجَ الَّتِي يُرَادُ إِقْنَاعُهُ بها.

ومِنَ الْحِكْمَةِ وَضْعُ الاحْتِمَالَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ أَمَامَهُ، وجَعْلُهُ يُفَكِّرُ بِنفْسِهِ، ويَطْرَحُ مِنَ الاحْتِمَالَاتِ مَا هُوَ مَرْفُوضٌ عقْلاً، وَمَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَمَالَهُ شُبْهَةُ دَلِيلٍ لَا تَقوىٰ عَلَىٰ إثْبَاتِهِ، ثُمَّ يُوازِنُ بَيْنَ الْبَقَايَا إِذَا كَانَ ذَا عَقْلٍ وَرُشْدٍ، فَيَتَرَجَّحُ لَدَيْهِ الْحَقُّ الَّذِي يَدْعُوهُ إِلَيْهِ الداعي إلى الله، أَوْ يُسْهُلُ عَلَىٰ الدَّاعِي حِينَئِذٍ إِقْنَاعُهُ.

ومُنَافِيَاتُ الْحِكْمَةِ أُمورٌ كَثِيرَةٌ جِدّاً، مِنْهَا ما يلي:

(١) السّبَابُ والشّتَائِم، والْفَظَاظَة والْغِلَاظَةُ فِي الأَقْوَالِ والحركات والأعْمَال.

(٢) تَوْجِيه الأوامر والنواهي الصّارِمَة.

(٣) اهتمام الدّاعِي بالانْتِصَارِ لِنَفْسِهِ.

(٤) التشْهِيرُ بِأَسْمَاءِ الْعُصَاةِ، والنُّصْحُ الْعَلَنِيُّ لِأَشْخَاصٍ بأعْيَانِهِمْ.

(٥) الاستِهْزَاءُ والسُّخْرِيَةُ بآرَاءِ الآخِرِينَ وَحِوَارَاتِهِم.

إلى غير ذلك مِنْ أُمُورٍ كثيرة جَاء ذكْرُهَا في كتابي «فقه الدعوة إلى الله»⁽¹⁾.

الدَّعْوَة بالموعظة الحَسَنَة: الموعظة الحسَنَةُ هِي النُّصْحُ بالفِعْلِ أو بالتَّرْكِ المقرونُ بما يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أوِ الرَّهْبَةَ في النَّفْسِ، للانْتِفَاعِ بالنُّصْحِ، واتِّبَاعِ مَا هَدَىٰ إلَيْهِ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

قال ابْنُ سِيدَة مِنْ أئمة اللُّغَة: «الوَعْظُ تَذْكِيرُكَ للإنْسَانِ بِمَا يُلَيِّنُ قَلْبَهُ مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ».

وقَدْ قَيَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذِهِ الْمَوعِظَة بِأَنْ تَكُونَ حَسَنَة، أي: حَسَنَةً فِي أسْلُوب عَرْضَها، مَقْبُولَةً فِي نُفُوسِ مَنْ تُوَجَّهُ لَهُم.

الدَّعْوَةُ بالْجِدَال بالَّتِي هِيَ أحْسَن: الْجِدَالُ حِوَارٌ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ ادِّعَاءٍ مِنْ فَرِيقٍ، واعْتِرَاضٍ مِنْ فَرِيقٍ آخر، واسْتِدْلَالٍ لِلْإِقْنَاع، وطَعْنٍ في الدَّلِيلِ، وَدفْعٍ للطَّعْنِ، إلى غير ذَلِكَ مِنْ أُصُولِ المناظراتِ الْجَدَلِيَّة.

والمطْلُوبُ مِنَ الدَّاعِي إلى سَبِيلِ اللهِ أَنْ يُجَادِلَ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، أي: بالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَهَـٰذِهِ الطريقة تشْمَلُ بِعُمُومِهَا الْأَسَالِيبَ الْفِكْرِيَّةِ والأسَالِيبَ الْقَوْلِيَّة.

فالمطْلُوبُ مِنَ الدَّاعِي الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ في مُجَادَلَتِهِ عَلَىٰ حَالَةٍ أَرْقَىٰ وأحْسَنَ باسْتِمرْارٍ من الحالَةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا مَنْ يجادِلُهُ، أَدباً وتَهْذِيباً، وقَوْلاً وَفِكْراً.

---

(١) انظر الصفحات من (٦١٠ ـ ٦١٢) من الجزء الأول من الكتاب المذكور.

- ﴿... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾:

أي: وتَابِعْ دَعْوَةَ مَنْ لَمْ تُثْبِتِ التَّجْرِبَةُ الطَّوِيلَةُ أَنَّهُم مَيْؤُوسٌ مِنِ اسْتِجَابَتِهِم عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّة، وَلَا تَتَأَثَّرْ بالأَمَارَاتِ الآنِيَّةِ دُونَ تَجْرِبَةٍ فِي مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ضَلَالاً غَيْرَ مُقْتَرِنٍ باسْتِعْدَادٍ مِنْ عُمْقِ نَفْسِهِ للاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الحقِّ وَلَوْ بَعْدَ حِين، وهو وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِمَنْ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبلاً مِنَ الْمُهْتَدِينَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، فعِلْمُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ هُوَ للهِ رَبِّكَ وَحْدَه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ وللمؤمنين بأسْلُوب خِطَاب الجَماعَة:

- ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

سَبَقَ في الآيَةِ (١٠٦) أَنَّ بَعْضَ المؤمِنِينَ كَانُوا يُكْرَهُونَ مِنْ قِبَلِ بُغَاةِ المشْرِكِينَ عَلَىٰ الكُفْر بالتعذيب، وسَبَقَ في الآية (١١٠) بَيَانُ أَنَّ بَعْضَ المؤمِنِينَ كَانُوا يُفْتَنُونَ فِي دِينِهِمْ بِتَعْذِيبِ بُغَاةِ الْمشْركين لَهُمْ.

فجاءَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيانُ حَقِّ الَّذِينَ كانُوا يُكْرَهُونَ وَيُفْتَنُونَ فِي دِينِهِمْ، بأَنْ يَقْتَصُّوا مِنْ ظالِمِهِمْ بالْعَدْلِ، والْعَدْلُ هُوَ مُعاقَبَتُهُمْ بِمِثْلِ مَا كَانُوا يعَامِلُونَهُمْ بِهِ، إِذَا تَمَكَّنُوا مِنْ مُعاقَبَتِهِمْ بِتَمْكِينِ اللهِ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

ولَكِنَّ فَضَائِلَ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمَا هُوَ الأَرْجَىٰ لِتَأْلِيفِ قُلُوبِ النَّاسِ وَتَحْبِيبِهِمْ بِالْإِسْلَام وَالدُّخُولِ فِيهِ، إعْجَاباً بِمَكارِمِ أَخْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ الإِسْلَامَ دِينُ حَقٍّ وَفَضَائِلَ، تَدْعُو إِلَىٰ الصَّبْرِ والتَّجَاوُزِ عَنْ مُعَاقَبَةِ الظَّالِمِينَ حِينَ التَّمَكُّنِ مِنْ مُعَاقَبَتِهِمْ.

- ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾: أي: وَمَعَ تَرْغِيبنَا لَكُمْ بالصَّبْرِ والتَّجَاوُزِ، إِنْ أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ مُعاقَبَةِ مَنْ كَانَ فَتَنَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ بِوَسَائِلِ التَّعْذِيبِ، وفي استعمال (إِنْ) هُنَا إشعارٌ بأَنّ المرغُوبَ فِيهِ أَنْ لَا تُعاقبوا.

- ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾: أي: فَعَاقِبُوا مَنْ كَانَ عَذَّبَكُمْ لِأَنَّكُمْ آمَنْتُمْ وأَسْلَمْتُمْ، بِمِثْلِ مَا عَاقَبَكُمْ بِهِ لِأَنَّكُمْ فَارَقْتُمْ دِينَ قَوْمِكُمْ، وَشَتَمْتُمْ آلِهَتَهُمْ، وَسَفَّهْتُمْ أحْلَامَهُمْ، وَلَا تَزِيدُوا عَلَىٰ ذَلِكَ، فالْعَدْلُ يَقْتَضِي الْعِقَابَ بالمثْلِ.

- ﴿... وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾: أي: وأُقْسِمُ لَكُمْ لَئِنْ صَبَرْتُمْ فتَجَاوَزْتُمْ عَنْهُمْ وَلَمْ تُعَاقِبُوهُمْ، وَقَدَّمْتُمْ صُورَةً حَسَنَةً عَنْ مَحَاسِنِ الإِسْلَامِ، وَمَكَارِمِ أخْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ لَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِذْ تَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الصَّابِرِينَ، فَتُوَفَّوْنَ أجْرَكُمْ بِغَيْرِ حِسَاب، كَمَا سَبَقَ بَيَانُ هـٰذَا في الآية (١٠) من سورة (الزُّمر/ ٥٩ نزول).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُوصِي رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِعِدَّةِ وَصَايَا.

- ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾:

رَخَّصَ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ بالْمُعَاقَبَةِ، وحَثَّهُمْ عَلَىٰ الصَّبْر، وأَلْزَمَ رَسُولَهُ بِالصَّبْرِ، فأَمَرَهُ أَمْرَ إِلْزَام وإيجاب فقال لَهُ:

- ﴿وَٱصْبِرْ﴾: أي: فِي مُتَابَعَةِ دَعْوَتِكَ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَلَا تَمَلَّ وَلَا تَيْأَسْ، وَلَا تُعَاقِبْ مَنْ كَانَ يُؤْذِيكَ مِنَ المشْرِكِينَ مُتَشَفِّياً لِنَفْسِكَ.

- ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: أي: وَمَا يَتَحقَّقُ لَكَ الاتِّصَافُ بالصَّبْرِ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ، فاسْتَعِنْ بِهِ حَتَّىٰ يُمِدَّكَ بِمَا يَجْعَلُكَ صَابِراً في أَشَدِّ الْأُمُورِ الَّتِي تَشُقُّ عَلَىٰ نَفْسِكَ.

- ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: أي: وَإِذَا وَجَدْتَ مَنْ تَحْرِصُ عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ مُوغِلِينَ فِي مَتَاهَاتِ ضَلَالَاتِهِمْ، فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ ذَوُوا إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانٍ في الحياة الدُّنْيَا، وَقَدْ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ دُونَ جَبْرٍ سُبُلَ الضَّلَالِ بَعْدَ تَعْرِيفِهِمْ بِصِرَاطِ الحَقِّ والْهُدَىٰ، واسْتِيقَانِ قُلُوبِهِمْ بأَنَّهُ صِرَاطُ الْحَقِّ والْهُدَىٰ.

- ﴿... وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾: أي: وَلَا تَكُنْ في كَرْبٍ وأَلَمٍ نَفْسِيٍّ ضَاغِطٍ عَلَيْهَا، مِمَّا يُدَبِّرُونَ فِي الْخَفَاءِ ضِدَّكَ وَضِدَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَضِدَّ مَسِيرَتِكَ الدَّعْوِيَّة، فَرَبُّكَ مُتَوَلٍ أَمْرَكَ، وَمُحْبِطٌ مَا يَمْكُرُونَ.
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾: أي: وَمَعَ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ هُمْ فَوْقَ المتَّقِينَ وَدُونَ الْمحسنين.

ومَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ كَانَ نَاصِراً لَهُ، وَمُحبطاً مَكْرَ أَعْدَائِهِ وَمَكَايِدَهُمْ، فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَلَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ وَيَكِيدُون.

الْمَعِيَّةُ المرادَةُ هنا مَعِيَّة عِنَايَةٍ وحفظٍ ونُصْرَة.

وبهٰذا انْتَهىٰ تَدَبُّرُ سُورَةِ النَّحْلِ.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٣٢)

ملحق: مستخرجات بلاغيّة من سورة (النحل)

فِي هَـٰذِهِ السُّورة اخْتِيَارَاتٌ بَلَاغِيَّةٌ كثيرةٌ، مِنْهَا الاختيارات التاليات:

أولاً: التّعْبِيرُ بِصِيغَة الفِعْلِ الماضِي عَمَّا سَيَأْتِي مُسْتَقْبَلاً

للدَّلَالَة على قُرْبِ وُقُوعِهِ، أو تَحَقُّقِ صُدُورِ الْقَضَاءِ بأنَّهُ وَاقِعٌ فِي الْمَوْعِدِ المقَدَّرِ له.

فجاء في صَدْر السورة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ... ١﴾:

أي: اقْتَرَبَ وُقُوعُ أَمْرِ اللهِ بِمُعَاقَبَةِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ، الّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَ مَا أَوْعدَهُمْ الرَّسُول بِهِ مِن عَذَابٍ، للإِشْعَارِ بأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَهُ فِي إيعادِهِ، وَفِي كُلِّ نُبُوَّتِهِ ورسَالَتِهِ.

ثانياً: من الاستعارة

وهي عند علماء البيان اسْتِعْمَالُ لفظ ما في غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ في اصْطِلَاحٍ بِهِ التخاطِبِ، لِعَلَاقَةِ المشابَهَة، مَعَ قَرِينَةٍ صارفَةٍ عَنْ إرادة المعنَىٰ الموضوع لَهُ في اصطلاح بِهِ التخاطب.

ومن الاستعارة في السُّورَة قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَة اسْتِعَارَتَان:

الاستعارة الأولى: اسْتُعِير فعل: «أَذاقَ» للدّلالَةِ عَلَىٰ الإحْسَاسِ الشّدِيد بآلام الْجُوع، وآلَام الْخَوْفِ في النَّفْسِ، لأنَّ حَاسَّةَ الذَّوقِ أشَدُّ الْحَواسِ إدْرَاكاً لِمَا يُلامِسُهَا مِنْ طُعُومٍ مُخْتَلِفَة.

الاستعارة الثانية: اسْتُعِيرَ «اللّبَاس» للدّلاَلَةِ عَلَىٰ أنْ الإحْسَاسَ بالْجُوعِ كَانَ إحَساساً شامِلاً لِبَطْنِ كُلِّ واحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ، كَشُمُولِ اللّباس السَّابِغِ، وللدّلاَلَة على أنَّ الْإِحْسَاس بالْخَوْفِ كَانَ إحْسَاساً شَامِلاً لِلْقَلْبِ والنَّفْسِ.

ثالثاً: من المجاز المرسل

وهو المَجازُ الَّذِي تَكُونُ الْعَلاَقَةُ فِيهِ بَيْنَ المعْنَىٰ الحقيقي والْمَعْنَىٰ المجازي، الّذِي اسْتُعْمِلَ اللَّفْظ للدّلاَلَةِ بِهِ عَلَيْهِ أمراً غَيْرَ المشابهة، أو قائماً على التوسُّعِ في اللُّغَةِ دُونَ ضَابِطٍ مُعَيَّنٍ.

ومن المجاز المرسَلِ في السّورة مَا يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فأتَىٰ أَثَرُ أَمْرِ اللهِ التَّكْوِينِيِّ بِتَدْمِيرِ بُنْيَانِهِمْ مِنْ أُسُسِهِ الَّتِي هي قواعِدُه، فَزَلْزَلَهُ فَخَرَّ عَلَيْهِمْ كُلُّ سَقَفٍ في أَبْنِيَتِهِمْ فَكَانَ بذلِكَ هَلَاكُهُمْ.

المثال الثاني: قول الله تَعَالَىٰ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ... ﴿١١٢﴾﴾:

أي: وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً أَهْلَ قَرْيَةٍ، وهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْمَحَلِّ وإرَادَةِ الْحَالِّ فِيهِ.

رابعاً: من الاستقطاع

وهو ما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ النَّصُّ مِنْ تَصْوِيرِ الحدَثِ الماضِي، أو الحدَثِ الآتي في المسْتَقْبَلِ، كَأَنَّهُ حَدَثٌ آنِيٌّ يَجْرِي الآنَ عِنْدَ التَّكَلُّم، والصُّوَرُ التَّمْثِيلِيَّةُ المسْتَقْطَعَةُ مِنَ الماضِي أو المسْتَقْبَل، يُؤْتَىٰ بِكُلِّ ظُرُوفها الزَّمَانِيّة والْمَكَانِيَّة وبأَحْدَاثِها، فَتقَدَّمَ كأَنَّهَا أَحْدَاثٌ قَائِمَةٌ فِعْلاً، للإِشْعَارِ بأَنَّهَا حَقَائِقُ قَدْ حَدَثَتْ فِعْلاً في الماضي، أَوْ لَا بُدَّ أَنْ تَحْدُثَ مُسْتَقْبلاً.

ومِنْ أَمْثِلَةِ الاسْتِقْطَاعِ في السُّورة ما يلي:

المثالُ الأوّل: ما في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالنسبة إلى المشركين يَوْمَ القيامَة:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

إنَّ عبارة ﴿قَالَ﴾ وَمَا بَعْدَهَا حَتَّىٰ آخِرِ الآيَةِ مُسْتَقْطَعَةٌ مِمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ مُسْتَقْبلاً يَوْمَ القيامَة، وَمُقَدَّمَةٌ كَأَنَّ مَضْمُونَهَا حَدَثَ في الماضي، أو يَحْدُثُ الآنَ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ القيامة:

﴿فَادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

كلامٌ مُسْتَقْطَعٌ مِمَّا سَوْفَ يُقَال لَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ حِينَ يُسَاقُونَ لإِلْقَائِهِم في دَار عَذَابِهِمْ.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِلرَّسُول ﷺ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ . . . ﴿٨٩﴾﴾:

إنَّ عِبَارة: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ عبارةٌ مُسْتَقْطَعَةٌ مِمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ يَوْمَ القيامَة، وَمُقَدَّمَةٌ كَأَنَّ مَضْمُونَها يَحْدُثُ الْآن.

خامساً: من الكناية

وهِي اللّفظ المستَعْمَل فِيما وُضِعَ لَهُ في اصطلاح التخاطب للدّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ معنًى آخَرَ لازِمٍ لَهُ، أوْ مُصَاحِبٍ له، أو يُشَارُ بِهِ عادةً إلَيْهِ، لما بَيْنَهُمَا مِنَ الملابَسَة.

ومن أمْثِلَةِ الكناية في هَـٰذِهِ السّورة ما يلي:

المال الأول: قول الله تَعَالَىٰ:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾:

في هـٰذِهِ العبارة كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّ اللهَ سَوْفَ يُحَاسِبُهُمْ، ويَفْصِلُ القضاءَ بَيْنَهُمُ، ويُجازِيهِمْ.

المثال الثاني: قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ العبارة نظير ما في سابقتها، وعدَمِ مَحَبَّة اللهِ المستكْبِرِينَ كِنَايَة عَنْ إبْعَادِهِمْ عَنْ مَواطِنِ تَنَزُّل رَحَمَاتِهِ.

وفي السُّورَة أمْثِلَةٌ كثيرة مُشابهة، منها:

١ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

٢ ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

٣ ـ ﴿... وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

٤ ـ ﴿... وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

سادساً: من الإيجاز

وهُو التعبيرُ عن المراد بِكلام قصير ناقصٍ عن الألْفَاظِ الَّتِي يُؤَدَّىٰ بِهَا عادة في مُتَعَارَفِ النَّاس، مع وفائِهِ بالدَّلَالَةِ عَلَىٰ المقصود، وهُو يَنْقَسِمُ إلىٰ إيجازِ الْقِصَر، وإيجاز الحذف.

ومن أمْثِلَةِ الإيجاز في السورة ما يلي:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ... ﴿١٥﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ إيجازٌ بالحذف، والتقدير: وألْقَىٰ في الأَرْضِ رَواسي «مَنْعَ» أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: فَهُمْ يُضِلُّونَ بِقَوْلِهم هـٰذا مَنْ يَتَأثَّر بِهِمْ مِنْ أتباعِهِمْ، دل عَلَىٰ هذا: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟

أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

ففي هٰذَا البيان إيجازٌ بالحذفِ كما هُو ظاهر.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بشَأْنِ مُنْكِري الْبَعْث:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: بَلَىٰ سَوْفَ يَبْعَثُ اللهُ الموتَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا. وهذا مِنَ الإيجاز بالحذف.

المثال الرابع: قول الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ... ﴿٤١﴾﴾:

أي: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وأَمْوَالِهِمْ سَالِكِينَ فِي سَبِيلِ ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ.

وهٰذَا مِنَ الإيجاز بالْحَذْف.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ... ﴿٤٥﴾﴾:

أي: انْطَمَسَتْ بَصَائِرُ الَّذِينَ مَكَرُوا المكرَاتِ السَّيِّئَاتِ فَأَمِنُوا مِنْ أنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْض؟!. وهذا من الإيجاز بالحذف.

المثال السادس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ... ﴿٤٨﴾﴾:

أي: أَعَشِيَتْ أَبْصارُهُمْ وَلم يَرَوا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيء؟!

المثال السابع: قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿... أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

أي: أنْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ فَهُمْ بالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ، وبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ؟!

المثال الثامن: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَبَكُمْ إرَادَاتِكُمْ الحرَّةِ وَلَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَة مَهْدِيَّة، وَلِكِنْ مَا شَاءَ اللهُ ذَلِكَ، بَلْ جَعَلَكُمْ ذوي إرَادَاتٍ حرَّةٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتَاكُمْ، وَنَتِيجَةٍ لِمَا تُقَدِّمُونَهُ في امْتِحَانَاتِكُمْ يُضِلُّ الله عِنْدَ مُحاسَبَتِكُمْ وَفَصْلِ قَضَائِهِ بَيْنَكُمْ بِمَشيئتِهِ الحكيمة مَنْ ضَلَّ مِنْكُمْ، ويَهْدِي بِمَشيئَتِهِ الْحَكِيمَةِ مَنِ اهْتَدَىٰ مِنْكُمْ.

سَابعاً: مِنْ خُرُوج الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْل دَلاَلَتِهِ

يَسْتَغْنِي الْبُلَغَاءُ بِعِبَارَاتِ الاسْتِفْهَامِ عَن ذِكْرِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَدلُّ دَلاَلَةَ صَرِيحَةً عَلَىٰ مَا يُرِيدُونَ التعبير عَنْهُ مِنَ المعاني، وَقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاءُ الْبَلاَغَةِ نَيِّفاً وَثَلاَثِينَ مَعْنَىٰ يَخْرُجُ الاسْتِفْهَامُ عَنْ حَقِيقَتِهِ للدَّلاَلَة عَلَيْهَا، دُونَ حَصْرٍ فيها.

ومِنْ خُرُوج الاسْتِفْهَامِ عَنْ دَلاَلَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ في السّورَةِ أَمْثِلَةٌ كَثِيرة، منها ما يلي:

(١) ﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

الاستفهام هنا للحَثّ على التذكُّر، والتَّلْويم على عَدَمِهِ.

(٢) ﴿... فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾:

المراد بالاستِفْهَامِ هُنَا النفيُ، أي: ما عَلَىٰ الرُّسُلِ إلَّا الْبَلَاغُ الواضِحِ.

(٣) ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾؟.

الاستفهام هنا للتعْجِيب مِنْ أمْرِهم، وَلِتَلْوِيهِمْ والتَّثْرِيبِ عَلَيْهِمْ.

(٤) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ... ﴿٤٨﴾﴾؟.

المرادُ بالاستِفْهام هُنَا التَّنْبِيهُ، وَلَفْتُ النّظَر، والحثُّ على التفكّر.

(٥) ﴿... أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

المراد بالاسْتِفْهَامِ هنا التَّلْوِيمُ والتَّعْجِيبُ مِنْ أَمْرِهم.

(٦) ﴿... أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾؟:

(٧) ﴿... أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؟:

يراد بالاسْتِفْهَامِ في هَٰذَيْنِ المثالَيْن، التَّلْوِيمِ والتعجيبُ مِنْ أمْرِهم، كَسَابِقِهِما.

ثامِناً: مِنَ الْقَصْر

وهو تَخْصِيصُ شيءٍ بِشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وفي السُّورَةِ أمْثِلَةٌ كثيرة مِنْ أمْثِلَة الْقَصْرِ، ومِنْهَا الأَمْثِلَةُ التَّالِيَة:

(١) ﴿... أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾:

فيها قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوفٍ قصراً حَقِيقِيًّا بالنفي والاستِثْنَاء.

(٢) ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ... ﴿٩﴾﴾:

أي: وعلى اللهِ وَحْدَهُ قَصْدُ السَّبِيل، وهو من قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ

مَوْصوف قصراً حَقِيقِيّاً، بِتَقْدِيمِ الْخَبَرِ عَلَىٰ المبتدأ الْمَعْرِفَة بالإضافة.

(٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ... ﴿١٠﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ العبارة قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ موصوفٍ قصراً حقيقِيّاً بِتَعْرِيفِ طَرَفَي الإِسْنَاد.

(٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ... ﴿٤٣﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ العبارة قَصْرُ الإِرْسَال على رجالٍ من الناس قصراً حقِيقيّاً بالنفي والاسْتِثْنَاء.

(٥) ﴿... إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾:

في: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قَصْرُ الأُلُوهِيَّة عَلَىٰ رَبٍّ واحدٍ قصراً حقيقيّاً بأداة «إنما».

وفي: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ طَلَبُ قَصْرِ الرَّهْبَةِ عَلَىٰ أن تَكُونَ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ قَصْراً إِضَافِيًّا، بِتَقْدِيمِ المعْمُول عَلَىٰ عامله.

(٦) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ العبارة قَصْرُ تكليفِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَىٰ البلاغ المبين، وهو قَصْرٌ إِضَافِيٌّ بأداة «إِنَّمَا».

وتُوجَدُ أَمْثِلَةٌ مُشَابِهَةٌ لِهَـٰذِهِ الأَمْثِلَة في السُّورَةِ تُقَاسُ عَلَيْها.

تاسِعاً: التَّوْكِيد في الْجُمَلِ لِوُجُودِ الدَّاعِي الْبَلَاغِي لِتَوْكِيدها

والأَمْثِلَةُ عَلَىٰ هـٰذَا كثيرة في السُّورَةِ من السَّهْلِ اسْتِخْرَاجُها، واذْكُرُ مِنْهَا ما يلي:

(١) ﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾:

التوكيد بـ: «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللّام المزَحْلَقَة».

(٢) ﴿... فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

التوكيد بِلَام الابتداء.

(٣) ﴿... وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾:

التوكيد بلام الابْتِدَاء في مَوْضِعَيْن.

(٤) ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

التوكيد بالقَسَم، وبِعبارَة «لَقَدْ».

إلَىٰ غَيْرِ هَـٰذِهِ من أمْثِلَةٍ كثيرة.

وأقْتَصِرُ إلَىٰ هَـٰذِهِ المسْتَخْرَجَات من الاختيارات الْبَلَاغِيَّةِ فِي سورة (النحل).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

سُورَة نوح

٧١ مصحف ٧١ نزول

وهي سورة مَكّيَّةٌ كُلُّها

(١)

نصّ السّورة ومَا فيها من فَرْش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ① قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ② أَنِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ
أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ
④ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ⑤ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ
إِلَّا فِرَارٗا ⑥ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ
فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ⑦ ثُمَّ
إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ⑧ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا
⑨ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ⑩ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ⑪ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل
لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ⑫ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ⑬ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ

---

٣ ـ • قرأ يعقوب **[وأطِيعُوني]** بإثبات ياء المتكلّم، وصْلاً ووقفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَأَطِيعُون]**.

٦ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جَعْفَر: **[دُعَائِيَ إلّا]** بفَتْح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

٩ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: **[إِنِّيَ أَعْلَنْتُ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا
﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ
ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾
وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا
خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا
﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾
إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا
﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

---

٢١ ـ ● قرأ ابْن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وَخَلَف: [وَوُلْدُهُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَوَلَدُهُ].

٢٣ ـ ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [وُدًّا] بضم الواو.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَدًّا] بفتح الواو.
وهما نُطْقَان عَرَبِيان.

٢٥ ـ ● قرأ أبو عَمْرو: [مِمَّا خَطَايَاهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ].

٢٨ ـ ● قرأ هِشَام، وحفص: [بَيْتِيَ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

(٢)

مَوضُوعُ سُورَة (نوح)

موضوع هَـٰذِهِ السّورَة يَتَلَخَّصُ بِأَنَّهَا فُصُولٌ مِنْ قِصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ.

(٣)

دُروس سُورَة (نوح)

تَنْقَسِمُ سورة (نوح) عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ خَمْسَةِ دُروس، يُمَثِّلُ كُلُّ دَرْس مِنْهَا فَصْلاً مِنْ فُصُولِ قِصَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ الَّتِي جَاءَ عَرْضُهَا فِي السُّورَة.

الدَّرسُ الأول: الآية الأولى.

وهـٰذَا الدَّرسِ يُبيِّنُ فَصْلَ تَكْلِيفِ «نوحٍ» عَلَيْهِ السَّلَام تَبْلِيغَ رِسَالَتِهِ قَوْمَهُ.

الدرس الثاني: الآيات من (٢ ـ ٤):

وهـٰذَا الدَّرسِ يَتَضَمَّنُ بيان فَصْلِ قيام نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَأْدِيَةِ الرِّسَالَة التي أَمَرَهُ الله بِأَنْ يُبَلِّغَهَا لقومه.

الدّرس الثالث: الآيات من (٥ ـ ٢٤).

وفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ مَا قَامَ بِهِ تُجَاهَ قَوْمِهِ، وشَكْوَاهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ له.

الدَّرْس الرابع الآية (٢٥).

وفِي هَـٰذِهِ الآية بَيان عَاقِبَة كفار قوم نُوح في الدُّنيا والآخِرَة.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) آخر السورة.

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرس بيانُ دُعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَام، على جَمِيعِ كُفَّارِ

الأرض بالإهْلَاكِ، ودُعائِهِ بالمغفرة لوالِدَيْهِ، ولمن دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِناً، ولجميع المؤمنين والمؤمِنَات.

(٤)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (نوح)

الآية (١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①﴾.

التدبّر التحليلي:

هٰذَا الدَّرْسِ يَتَضَمَّنُ بيانَ فَصْلِ تَكْلِيفِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ قَوْمَه.

- ﴿إِنَّآ﴾ يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم، وَمُؤكّداً بـ «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة» لِأَنَّ التَّوْكِيدَ مُسَلَّطٌ عَلَىٰ كُلّ مَا جَاءَ في السُّورَةِ مِنْ قِصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلام مَعَ قَوْمِهِ.

والْمَقْصُودُ مُعَالَجَةُ أَئِمَّة الكُفرِ والشِّرْكِ الْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِين فِي مَكَّةِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، وإِنْذَارُهُمْ بِعِقَابٍ مِنَ اللهِ شَدِيدٍ، فَقَدْ عَاقَبَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَوْمَ نُوحٍ بِطُوفَانٍ عظيم.

وينْسَحِبُ هٰذَا الْعِلَاجُ عَلَىٰ كُلِّ أَمْثَالِهِمْ إِذَا تَدَبَّرُوا قِصَّةَ نوحٍ وقَوْمِهِ.

- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾: أي: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ فَجَعَلْنَاهُ نبيًا، ثُمَ بَعَثْنَاهُ رَسُولاً إِلَىٰ قَوْمِهِ، لِيُبَلِّغَهُمْ دِينَ اللهِ لَهُم، فَقَامَ بما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ حَلِيماً صَابِراً، يُتَابِعُ قَوْمَهُ بالبيانِ والتذكيرِ والنُّصْحِ والإرْشَادِ والموعِظَةِ الْحَسَنَة، فَلَمْ تُجْدِ فيهم وَسَائِلُهُ طَوالَ قُرونٍ.

فَكَلَّفَهُ الله أنْ يُنْذِرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ مِنْ رَبِّهِمْ، إذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ عِنَادِهِم، واسْتِكْبَارِهِمْ، وعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ في الآيَةِ خِطَاباً له عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿... أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١)﴾:

﴿أَن﴾: تَفْسِيرِيَّةٌ بِمَنْزِلة «أي» وما بَعْدَهَا تَفْسِيرٌ لِمَا أَرْسَلَ اللهُ بِهِ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنِ اسْتَعْصَوْا وعَانَدُوا عِنَاداً شَدِيداً، واسْتَكْبَرُوا وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً.

الإنْذَار: الإعْلَامُ بِأَمْرٍ يُخَافُ مِنْهُ، للتَّحْذِير مِنْ وُقُوعِهِ، باتِّخَاذِ أَسْبَاب تَفَادِيهِ والْخَلَاصِ مِنْه.

- ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: عِقَابٌ مُؤْلِمٌ إيلاماً شَدِيداً لِلْمُعَذَّبِينَ الَّذِينَ لَا يُحَقِّقُونَ المطْلُوبَ الرَّبَّانِيَّ مِنْهُمْ.

والمعنى: أَرْسَلْنَا نُوحاً بِمَضْمُونِ هٰذَا البيان وَبِلَوَازِمِهِ الفِكْرِيَّة، والْمَعْلُومَةِ فِي كُلِّ رِسَالَاتِ الرُّسُلِ، بدأ مِن أَوَائِلِ التَّبْلِيغ، حَتَّىٰ أواخِرِ الإنْذَارِ.

وقَدْ دَلَّتْنَا النُّصُوصُ المختَلِفَةُ الْمُوَزَّعَةُ فِي القرآنِ المجيد، عَلَىٰ أَنَّ الإنْذَارَ عُنْوانٌ لِآخِرِ فِقْرَةٍ مِنْ فِقَرَاتِ التَّبْلِيغِ الْمَطْلُوبِ في دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لعباده.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (نوح).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٥)

التَّدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني من دُروس سورة (نوح)

الآيات من (٢ ـ ٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾:

القراءات:

(٣) • قرأ يَعْقُوب: [**وَأَطِيعُونِي**] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَأَطِيعُونِ**] بِحَذْفِ يَاء المتكلّم.

تَمْهيد:

تُمَثِّلُ آيَاتُ هـٰذَا الدَّرْسِ فَصْلاً مُوجزاً مِنْ قِيامِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام بِتَأْدِيَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ في قَوْمِهِ، الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بأدائها.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢)﴾:

دَلَّتْ هـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلامُ أدّى رِسَالَتَهُ الَّتِي بَعَثَهُ اللهُ بِها، فَقَدْ جَاءَ فِيها المطَابَقَةُ بَيْنَ مَضْمُونِ التَّكْلِيفِ في: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ وَبَيْنَ قَوْلِهِ لِقَوْمِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مَعَ مُلاحَظَةِ اللّوازِمِ الَّتِي هِيَ مَضَامِينُ الدِّين السَّابِقَةُ للإِنْذَار.

وَفِي عبارَةِ ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مَعْنَىٰ أَنَّ رِسَالَتَهُ كَانَتْ في عَصْرٍ خَاصَّةً بِقَوْمِهِ.

- ﴿مُّبِينٌ﴾ اسْم فاعل من فعل «أبَان» وهو يَأْتي لازماً ومُتَعَدِّيًا، أي: ظاهر واضِحُ، ومُظْهِرٌ مُوضِحٌ، فَهُوَ في ذَاتِهِ صَلَوات اللهِ عَلَيْهِ واضِحٌ مَكْشُوف، لَيْسَ لَهُ بَاطِنٌ يُخَالِفُ ظاهره، وهُو أيضاً مُبِينٌ لحقائق الدِّينِ وشرائِعِهِ وَمُوضِحٌ لها، ومبِينٌ لِلْحَقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشّرّ، والْحَلَالِ والحرام، وغير ذٰلِكَ ممَّا جاءَ بِهِ الدِّين.

وهٰذَا ممَّا امْتَازَ بِهِ رُسُلُ اللهِ، وامْتَازَتْ بِهِ رِسَالَاتُهُمْ، الْوُضُوحُ والإيضاح.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في حِكَايَةِ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

- ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾:

بَعْدَ إِنْذَارِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ بِعَذَابٍ أَلِيم إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، أَبَانَ لَهُمْ ثَلَاثَ قضايا، مُفَسَّرَة بِمَا جاء بَعْدَ «أَنْ» التَّفْسِيرِيَّة:

الْقَضِيَّةُ الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: اعْبُدُا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَدْ كَانَ قَوْمُهُ وَثَنِيِّينَ مُشْرِكين، يَعْبُدون أوثانَهُمْ الَّتِي سَيَأْتِي ذِكْرُهَا في السُّورَة.

العبادة: الخضوع، والطاعَة، وأداءُ مَا يُرْضِي الْمَعْبُودَ، وتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ.

القضية الثَّانِيَّة: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: أي: واتَّقُوا عقابَ الله، عَلَىٰ الكُفرِ بِهِ، وَمَعْصِيَتِهِ، والكُفْرِ بِرَسُولِهِ، وبما أَنْزَلَ عَلَيْه، واتَّقُوا عِقَابَهُ عَلَىٰ ما أَنْتُم فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وَقَبَائِحِ أخْلَاقٍ، وسَيِّئَاتِ سُلُوك، فَهُوَ عَزِيزٌ حكِيمٌ، يَحْكُمُ بالْعَدْلِ، وَهُوَ مُنْتَقِمٌ قَدِير.

الْقَضِيَّة الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْها: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: أي: وأَطِيعُونِي بالاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِي إِيَّاكُمْ إِلَىٰ دِينِ رَبِّكم.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُول مِنَ الْفُرُوضِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ عَلَىٰ كُلِّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولاً، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (النِّساء/ ٤ مصحف/ ٩٣ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وأَبَانَ لَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ إِذَا حَقَّقُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَطْلُوبَ اللهِ مِنْهُمْ فِي الْقَضَايَا الثَّلَاث، كافَأَهُمُ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِمُكَافَأَتَيْنِ:

الْمُكَافَأَةُ الْأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: أي: يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ بَعْضَ ذُنُوبِكُمْ، وَهِيَ الذُّنُوبُ الَّتِي ارْتَكَبْتُموها في حَقِّ رَبِّكُمْ عَلَيْكُم، أَمَّا حُقُوقُ الْعِبادِ فَلَهَا شَأْنٌ آخَرُ، إِذْ قاعِدَةُ الْعَدْلِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ حُقُوقِ الْعبادِ تَقْتَضِي الْقِصَاصَ، أو اسْتِرْضَاءَ الْخَصْمِ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ.

يَغْفِرْ: مجزوم على أَنَّهُ جوابُ الطلب. وكذلِكَ: **يُؤَخِّرْ**.

الْمُكَافَأَةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: دَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَىٰ هَـٰذَا الْبَيَانَ كَانَ في أَوَاخِرِ دَعْوَةِ نُوحٍ فِي قَوْمِهِ، وَبَعْدَ إِنْذَارِهِ لَهُمْ بِإِهْلَاكٍ شَامِلٍ مَقْرُونٍ بِعَذَابٍ أَلِيم من اللهِ رَبِّهِمْ.

أي: وَيَرْفَعُ عَنْكُمْ الْعَذَابَ والإِهْلَاكَ الشَّامِلَ، وَيُؤَخِّرُكُمْ في الحياةِ الدُّنْيا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى مُحَدَّدٍ بِتَقْدِيرِه وقَضائِهِ، لِكُلِّ حَيٍّ مِنْكُمْ، وهُوَ الْأَجَلُ الَّذِي قُضِيَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مُنْذُ قَضَىٰ اللهُ خَلْقَهُ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا.

وَهَـٰذَا الْأَجَلُ الْمقَدَّرُ المقضيُّ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضائِهِ إِذَا جَاءَ فإِنَّهُ لَا يُؤَخَّرُ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّة قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآية (٤) من هذا الدَّرْس:

- ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾:

هَـٰذِهِ العبارة دَلَّتْ عَلَىٰ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ عَامَّة، أي: إِنَّ أَجلَ أيِّ شيءٍ ذِي أَجَلٍ قَدْرَهُ اللهُ وَقَضاهُ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ لَا يُؤَخَّرُ عَنْ وَقْتِهِ.

وَتَمَنَّىٰ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَنْ يَعْلَمُوا هٰذِهِ الحقائِقَ الَّتِي أبَانَها لَهُمْ. عِلْماً يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، فَيُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا، فقال لَهُمْ:

- ﴿... لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾ «لَوْ» هُنَا مِنْ حُرُوف التَّمَنِّي، وَلَهَا نظائر في القرآن المجيد.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (نوح).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثالث من دُرُوس سورة (نوح)
الآيات من (٥ ـ ٢٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي
كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا
وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ
إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
(١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ
لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥)
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧)
ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا
مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا
خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا
وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا (٢٤)﴾:

القراءات:

(٦) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جَعْفَر: **[دُعَائِيَ إِلَّا]** بفَتْحِ ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

(٩) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: **[إِنِّيَ أَعْلَنْتُ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِها.

(٢١) • قرأ ابْن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وَخَلَف: **[وَوُلْدُهُ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَوَلَدُهُ]**.

الْوُلْدُ والْوَلَدَ يُطْلَقَانِ على المفرد وغيره والمذكَّرِ وغَيْرِهِ، فَهُمَا بِمَعْنَىٰ واحد.

(٢٣) • قرأ نافع، وأبو جَعْفر: **[وُدًّا]** بضمّ الواو.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَدًّا]** بفتح الواو.

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيَّان.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰـذَا الدَّرْسِ ذِكْرُ مُوجَزِ مَا أَبَانَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ، بِشَأْنِ مَا قَامَ بِهِ تُجاهَ قَوْمِهِ في رِسَالَتِهِ. وَشَكْوَاهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لَهُ، وَعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَته. وفيه مَقُولَتَان.

المقولَةُ الْأُولى: وفيها حِكَايَةُ قِصَّةِ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ.

المقولَةُ الثانِية: وفيها حِكَايَةُ شَكْوَاهُ مِنْ مَعْصِيَةِ قَوْمِهِ لَهُ، وَعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَحْكِي مُوجَزَ دُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ جلَّ جَلَالُهُ:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾:

أي: قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دُعَائِهِ لِرَبِّهِ.

رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي إلى الإيمان والإسْلَام، وعبادَتِكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ فِي رُبُوبِيَّتِكَ وَلَا فِي إِلَهِيَّتك، في مُخْتَلِفِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي رَأَيْتُ مِنَ المناسِبِ مُوَاجَهَتَهُمْ فِيها بِدَعْوَتي، ونُصْحِي، وَتَبْلِيغِي الدِّينَ الَّذِي أَمَرْتَنِي بِأَنْ أُبَلِّغَهُمْ إيّاه، وَتَذْكِيرِهِمْ بِهِ، لَيْلاً وَنَهاراً، قياماً بأداءِ الرِّسَالَةِ الَّتِي حَمَّلْتَنِي مَسْؤُولِيّاتِها، وكَلَّفْتَنِي وَظَائِفَهَا.

فَكَان عَلَيْهِ السَّلَامُ يَغْشَىٰ قَوْمَهُ جَمَاعَاتٍ وأفراداً في اللَّيْلِ والنَّهارِ بِلَا كَلَلٍ وَلَا مَلَلٍ، فَيَدْعُوهم إلى سبيلِ رَبِّهِ بالْحِكْمَةِ والموعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَيَعْرِضُ عليهم رِسَالَتَهُ، وَيُبَلِّغُهُمْ ما أَمَرَهُ اللهُ بأنْ يُبَلِّغَهُمْ إيّاه مِنْ قَضَايا الدِّين، وَيُبَلِّغُهُمْ وَعْدَ اللهِ وَوَعِيدَه، وَيُذَكِّرُهُمْ بِآيَاتِ اللهِ فَيَتْلُوها عَلَيْهِم.

وقَدْ صَبَرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ قَوْمِهِ صَبْراً عَظِيماً، في أَزْمَانٍ مَدِيدَةٍ، وَبأسَالِيبَ عَدِيدَة.

لَكِنَّ دَأْبَهُ الطَّوِيلُ فِي دَعْوَتِهِ قَوْمَهُ، لَمْ يَكُنْ لَهُ أَثَرُ اسْتِجَابَةٍ فِي نُفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِم، وَكُلَّمَا زَادَهُمْ دَعْوَةً زَادُوا فِراراً منْهُ عَلَيْهِ السَّلام، وَزَادُوا هُرُوباً وابْتِعَاداً عَنْ الْمَكَانِ الَّذِي يَدْعُوهُمْ فِيهِ.

الْفِرَار: أَشَدُّ مَا يَسْتَطِيعُ الْعَدَّاءُ مِنْ جَرْيِ ابْتِعَاداً عَنِ الشيء الَّذِي أَثَارَ خَوْفَهُ وَذُعْرَه.

فجاء التَّعْبِيرُ بالْفِرَارِ كِنَايةً عَنْ أَشَدِّ صُورِ عَدَمِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَام.

وَقَال نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَصْفِ النُّفُورِ الذي كَانَ يُقَابِلُهُ قَوْمُهُ بِهِ كُلَّمَا دَعَاهُمْ إلَىٰ دين اللهِ الحق:

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ للتَّخَلُّصِ مِنْ وَثَنِيَّاتِهِمْ وَكُفْرِيَّاتِهِمْ وَقَبَائِحِهِمُ الْخُلُقِيَّة والسُّلوكِيَّة، وإلَىٰ الإيمان والإسْلَامِ بِصِدْقٍ، لِتَغْفِرَ لَهُمْ سَوابِقَ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ضَلَالَاتِ قَابَلُوا دَعْوَتِي لَهُمْ بِعَمَلَيْنِ مِنَ الْأَعْمَالِ الماديَّةِ الْجَسدِيَّةِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ رَفْضِهِمْ أَنْ يَسْتَمِعُوا لِأَقْوالي، وَيَشْهَدُوا وُجُودِي قَرِيباً مِنْهم.

العمَل الأول: أَنْ يَضَعُوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ، حَتَّىٰ لَا يَسْمَعُوا كَلَامِي، وَلِيُشْعِرُوني بأنّني أَقُولُ أَقْوَالِي الْمُوَجَّهَةَ لَهُمْ في الْهَوَاءِ لِغَيْرِ سَامِعٍ لها، فالأَوْلَىٰ لِي أَنْ لَا أُتْعِبَ نَفْسِي بالتَّحَدُّثِ إِلَيْهِمْ وهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، وَلِيُشْعِرُوني بأنَّ أَقوالي صَارَتْ مَحفُوظَةً لَدَيْهِمْ مُكَرّرة، فَنُفُوسُهُمْ تَشْمَئِزُّ مِنْها، وَتَتَقَزَّزُ مِنْ سَمَاعِها، فيجبُ عليَّ أَنْ أَنْصَرِفَ عَنْهُمْ، إِذْ هُمْ يَزْدَرونَني، وَيَسْتَهِينُونَ بِي.

الْعَمَلُ الثاني: أَنْ يَسْتَغْشُوا ثِيَابَهُمْ، أي: أَنْ يَجْعَلُوا ثِيَابَهُمْ أَغْشِيَةً وأغْطِيَةً عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، لئلا يَرَوْهُ، ولِيُشْعِرُوه بالإدْبَار عَنْهُ إدْباراً كُلِّيًّا، وَبِأَنَّهُمْ عَنْهُ فِي حِجَابٍ، وبأنَّهُ صَارَ ثَقِيلَ الظِّلِّ كَرِيهاً لَدَيْهِمْ، فَهُمْ يَنْفِرُون مِنْ رُؤْيَةِ وَجْهِه.

واسْتَمَرَّ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُوهُمْ صَابراً مُحْتَسِباً أَجْرَهُ عِنْدَ اللهِ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ لِمَا يُلاقِيهِ مِنْهُمْ، وغَيْرُ عَابِئٍ بما يُقَابِلُونَهُ بِهِ.

وأَبَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ أَنَّهُ كُلَّما دَعَاهُمْ إِلَىٰ دِينِ الله الحقّ، أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَوَثَنِيَّاتِهِمْ، واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً شَنيعاً مُسْرِفاً.

- ﴿وَأَصَرُّوا﴾: أي: لَزِمُوا بعِنَادٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وشِرْكٍ وآثَام.

يُقَالُ لُغَةً: «أَصَرَّ فُلَانٌ عَلَىٰ الْأَمْرِ» أَيْ: لَزِمَهُ وَثَبَتَ عَلَيْهِ، وأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ في الآثام والْقَبَائِح.

- ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾: أي: وَتَكَبَّرُوا تَكَبُّراً فَاحِشاً مُسْرِفاً قَبِيحاً مُؤْذِياً، مُتَعَالِينَ رَافِضِينَ قَبُول دَعْوَةِ الحقّ، اسْتُفِيدَ غُلُوُّهُمُ الشَّنِيعُ في كِبْرِهِمْ من صِيغَة «اسْتَفْعَل».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً حِكَايَةَ مُوجَزِ دُعَاءِ نُوحٍ رَبَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:

- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ⑧ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ⑨ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ⑩ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ⑪ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ⑫﴾:

جَاءَ الْعَطْفُ بِحرف العطْف «ثُمَّ» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْفَاصِلِ الزَّمَنِيِّ بَيْنَ المجاهَدَة الْأُولَىٰ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا الآيَات من (٥ ـ ٧) وبَيْنَ الجاهدة الّتي تَدُلُّ عَلَيْهَا الآية (٨) والمجاهدة الثالِثة الَّتِي دلَّت عليها الآيَات بدءاً من الآية (٩).

إِنّ المجاهَدَة الْأُولَى كانَتْ بأُسْلُوبِ الْعَرْضِ العادِيِّ بِرِفْقٍ ولُطْفٍ عَلَىٰ أفرادِهِمْ وجَمَاعَاتِهم فَنَالَهُ مِنهُمْ مَا نَالَهُ مِنْ نُفُورٍ وفرارٍ، وجَعْلِ أَصَابِعِهِمْ في آذانهم، وَتَغْطِيَةِ وُجوهِهِمْ بثِيابهم، وإصرارِهِمْ على كُفْرِهِمْ وشِرْكِيَّاتِهِمْ وسَيِّئَاتِ أعمالِهِمْ، واسْتِكْبَارِهِم اسْتِكْبَاراً شَنيعاً.

أَمّا المجاهَدَة الثَّانِيَةُ: فَقَدْ كَانَتْ بأسْلُوبِ الْخُطَبِ في المجامِعِ، وَرَفْعِ الصَّوْتِ بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ، دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارةُ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ⑧﴾.

يقال لغة: «جَهَرَ الرَّجُلُ بِكَلَامِهِ، أو دُعائِهِ، أَوْ صَوْتِهِ، أو قراءتِهِ، يَجْهَرُ، جَهْراً، وجِهاراً» أَيْ رَفَعَ بِذَلِكَ صَوْتَهُ، فَصَوْتُهُ جَهِير.

وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ صارَ يَقِفُ فِي مَجَامِعِ قَوْمِهِ وضِمْنَ جماهِيرِهِمْ خَطِيباً يَدْعُو إلى دينِ اللهِ الحقّ، فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ، حَتَّىٰ يُسْمِعَ جَمَاهِيرَهُمْ دَعْوَته.

وأَمّا المجاهَدَة الثَّالِثَة: فَقَدْ كَانَتْ بِأُسْلُوب المراوحَةِ بين الإعْلَانِ إذَا اقْتَضَتِ الْحِكَمَةُ الإعْلَان، والإسْرَارِ إذا اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الإسْرَار.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المجاهَدَةِ الثالِثَةِ عبارة: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾.

- ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾: أي: دَعَوْتُ أفرادهم وجماعَاتِهِمْ عَلانِيةً، وذَلِكَ بأُسْلُوبِ التَّحَدُّثِ الْعَلَنِيِّ بَيْنَ النَّاسِ، وهُو غَيْرُ أسْلُوب الْخُطابَة، إنَّهُ أسْلُوبٌ هَادِئٌ، يَتَحَمَّلُ السُّؤال والجواب، والمناقَشَةَ والمجادَلة، والأَخْذَ والرَّدّ والمراجعَاتِ والمدَاخَلاتِ.

- ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾: أي: دَعَوْتُ أفراداً مِنهُم بأُسْلُوب الْحَدِيثِ السِّرّي، وذَلِكَ لِأَنّ بَعْضَ النَّاسِ يَكْرَهُونَ أَنْ يُوَجَّهُ لَهُم النُّصْحُ أو التَّعْلِيمُ بَيْنَ النَّاسِ بِطَرِيقَةٍ عَلَنِيَّة، وَيَتَقَبَّلُون ذلِكَ إذا كان بِطَرِيقَةٍ سِرِّيَّة.

وقَدِ اتَّخَذَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هٰذَا الأسْلُوب مع من كَانَ يَرَىٰ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يُوَجَّهُوا أَوْ يُعَلَّمُوا أَوْ يُنْصَحُوا أَوْ يُدْعَوْ بِطَرِيقةٍ عَلَنِيَّة، فَهُمْ لَا يَسْتَجِيبونَ لِدَعْوَةِ الْحَقِ إذَا دُعُوا بأسْلُوبٍ عَلَنِيّ، إذْ هُو في تَصَوُّرِهِم يَنْقُصُ مِن مَكَانَاتِهِمْ لَدَىٰ الجماهير الَّتِي تُعَظِّمُ مِنْ شَأْنِهِم، وَتَراهُمْ عُظَمَاءَ في أَفْكَارِهِم وآرائِهِمْ ومَفَاهِيمِهِمْ وَتَصرُّفَاتِهِم، فَكَيْفَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَاعٍ يَدْعُوهُمْ، إِلَىٰ تَرْكِ مَا هُمْ عَلَيْهِ، مِنْ مُعْتَقَداتٍ وَمَفْهُومَات، وأنواعِ سُلُوكٍ في الحياة.

وَجَاء تَوْكِيد فعل «أَسْرَرْتُ» بالمفْعُولِ المطْلَقِ «إسْراراً» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَىٰ أَنْ لَا يَسْمَعَ حَدِيثَهُ مَعَهُمْ أَحَدٌ، وعَلَىٰ أَنَّهُ يَسْتَمِرُّ كاتِماً حَدِيثَهُ الَّذِي كَانَ يُسِرُّ بِهِ إليهم، لَا يَنْشُرُهُ وَلَا يَتَحَدَّثُ به للنَّاس،

لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَىٰ إلى التَّأْثِير فيهم، وقَدْ يَكُونُ المرادُ أيضاً إسْرَاراً شَدِيداً مُبَالَغاً فِيهِ مَقْرُوناً بالْحيطَةِ الشَّدِيدَة.

مَا يُسْتَفَادُ مِنْ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمه:

باسْتِطَاعَةِ المتدبّر أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ دَعْوَة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، كَانَتْ ذَاتَ ثَلَاثِ مراحِل:

المرحَلَةُ الأولىٰ:

كانَتْ دَعْوَتُهُ لِقَوْمِهِ فِيها بأسْلُوبِ الْبَثِّ الْعَامّ، في كُلِّ الْأَوْقَاتِ الَّتِي يَحْسُنُ انْتِهَازُهَا لِدَعْوَةِ قَوْمِهِ من لَيْلٍ أَوْ نهارٍ، إذْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلام يَغْشَىٰ الْأَفْرَادَ فَيَدْعُوهم، ويَغْشَىٰ الْجَمَاعَاتِ فَيَدْعُوهم، فَيَعْرِضُ حَقَائِقَ الدِّينِ، وَيُبَيِّنُهَا، ويَشْرَحُهَا، ويُقِيمُ الحجج، ويَنْصَحُ، ويُرَغِّبُ وَيُخَوِّفُ مِن عِقَابِ اللهِ، وَيُذَكِّرُ منْ آنٍ إلى آخرَ بِمَا كَانَ قَدْ أبَانَهُ وشَرَحَه، وَيُتَابِعُ بِكُلِّ مَا أوتِيَ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَىٰ المجاهَدَةِ والإقْنَاعِ والجدال بالَّتِي هي أحْسَن.

المرحَلَةُ الثَّانية:

كانَتْ دَعْوَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ فيها تَتَّسِمُ بأسْلُوبِ التَّصَدِّي لِلْخَطَابَةِ، بالصَّوْتِ الْجَهِيرِ في الْمَجَامِعِ وَالْمَحَافِلِ الَّتِي يَتَيَسَّرُ لَهُ أَنْ يَخْطُب فِيها.

ومِمَّا لَا يَخْفَىٰ أَنَّ الْخَطَابَةَ يَدْخلُ فِيها مَعَ الإقْنَاعِ الْفِكْرِيِّ أُسْلُوبُ الموعِظَةِ الْحَسَنَةِ بالتَّرْغِيب والتَّرْهِيب، وأُسْلُوبُ اسْتِخْدَام الْقِصَصِ والْأَمْثَال، وفُنُونُ الْقَوْلِ الْمُحَرِّكِ لِلْعَوَاطِفِ والمثِير للانْفِعَالَاتِ الَّتِي تُهَيِّئُ الْمُنَاخَ النَّفْسِيَّ للاسْتِجَابَةِ، وَيدْخُلُ فِي الْخَطَابَةِ تَنْوِيعُ أَسَالِيب الْأَدَاء والْعَرْضِ لِلْأَفْكَارِ الَّتِي يُرَادُ عَرْضُهَا، وَتَصْرِيفُ لَهَجَاتِ الصَّوْتِ وَنَغَمَاتِهِ بِمَا يُلَائِمُ المضَامِينَ الْفِكْرِيَّة، مَا بَيْنَ تَرْقِيقٍ وَتَحْزِين، أَوْ إثَارَةٍ وَتَهْيِيجٍ، وَدَغْدَغةٍ طَيِّبَةٍ لمخْتَلِفِ انْفِعَالَاتِ النَّفْسِ.

وفِي الْخَطَابَةِ كَمْ يَجُودُ بَخيل، وكَمْ يَنْدَفِعُ جَبَانٌ بِشَجَاعَةٍ، وَكَمْ يَبْكِي ضَاحِكٌ، وَيَضْحَكُ باكٍ، وَكَمْ يَفْرَحُ حَزِين، وَيَحْزَنُ فَرْحَان، وَكَمْ يَتَسَلّى مَهْمُومٌ، وَيُصَابُ بالْهَمِّ الشَّدِيدِ سَالٍ.

وَفِي لِسَانِ الْخَطِيبِ الْمُفَوَّهِ الْحَكِيم أَدَوَاتُ التَّسْخِينِ والتَّبْرِيدِ للنُّفُوسِ والْقُلُوبِ والْأَفْكَارِ وقيادَتُها بامْتِلَاكِ الْمَشَاعِرِ.

الْمَرْحَلَةُ الثالثة:

وَكَانَتْ دَعْوَة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الْمَرْحَلَةِ الثَّالِثَةِ تَتّسِمُ بِمُمَارَسَةِ أُسْلُوبَيْنِ رَئِيسَيْن:

الأسْلُوبُ الْأَول: الإعْلَانُ لِمَنْ كَانَ يَرَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامَ أَنَّ الإعْلَانَ لَا يُنَفِّرُهُمْ أفراداً أو جماعات.

الأسْلُوبُ الثاني الإسرَارُ لِمَنْ كَانَ يَرَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام أنّ الإعْلَانَ يُنَفِّرُهُمْ عَنِ الاسْتِمَاعِ لِدَعْوَة الحق، إذْ كَانَ يَزُورُهُمْ في بُيُوتِهِم، أو مَتَاجِرِهم، أو مَصَانِعِ مِهَنِهِمْ، أو مزارِعِهِم، أو أماكِنِهِم الْخَاصَّة، فَيحَادِثُهُمْ سِرّاً بِحَسَبِ مُسْتَوَيَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّة، وصِفَاتِهِم النَّفْسِيَّة، ويَدْعوهم إلى الإيمان بدِينِ الله الحقّ، والإسْلَامِ لله بِتَحْقِيقِ مَطْلُوب اللهِ عَزَّ وَجلَّ مِنهم.

وَأَبَان نوحٌ عَلَيْهِ السَّلام في دُعائِهِ لِرَبِّهِ، وهو أَعْلَمُ بأمْرِهِ مِنْهُ، إلّا أنَّ نُوحاً يُقَدِّمُ فِي بيانِهِ عُذْرَه، أُمّهَاتِ عُنْوَانَاتِ الْمَوْضُوعَاتِ الّتِي كَانَ يَدْعُو قَوْمَهُ في أُطُرِها.

- **دَلَّ عَلَىٰ الْعُنْوَانِ الرّئيسِ الأَوّل:** قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في حِكَايَةِ بيان نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ⑫﴾:

بَعْدَ دَعْوَة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأُولَى لِقَوْمِهِ، وإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الكُفْرِ والْفُسُوقِ والْعِصْيَانِ، واسْتِكْبَارِهِمْ مُتَرَفِّعِينَ عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولِ رَبِّهِمْ إليهم، صَارُوا عَلَىٰ عِلْمٍ بِمَضْمُونِ دَعْوَتِهِ، غَيْرَ خَالِي الأذْهَانِ مِنْ مَعْرِفَةِ أَرْكَانِ الإيمان، وأَرْكَانِ الإِسْلَامِ، وقواعِدِ الدِّينِ الكُبْرَىٰ، ولَمْ يَبْقَ لَهُمْ عُذْرٌ بَعْدَ التَّبْلِيغِ.

وَصَارُوا كَفَرَةً مُذْنِبِينَ عَنْ إرَادَةٍ جَازِمَةٍ وَتَصْمِيم، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ أَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَفَرَةٌ عُصَاةٌ مُذْنِبُونَ.

لِهَـٰذَا تَحَوَّلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام مَعَ قَوْمِهِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ مَبَادِئ الإيمانِ، وأَرْكانِ الإِسْلَامِ، وقَوَاعِدِ الدِّينِ الكُبْرَى إلىٰ بَيَانِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الإِقْلَاعِ عَنِ الذُّنوبِ الَّتِي هُمْ غَارِقُونَ فِيها مِنَ الكُفْرِ والشِّرْكِ، إِلَىٰ كُلِّ مَا دُونَهُمَا مِنْ فُسُوقٍ وعِصْيَان.

- ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ⑩﴾:

أي: فَقُلْتُ لَهُمْ: اطْلُبُوا مِنَ اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَكُم ذُنُوبَكُمْ.

ومِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ ذَنْبِهِ، إِلَّا مَنْ صَحَّ إيمانُهُ وَأَقْلَعَ عَنْ ذُنُوبِهِ.

إِذَنْ: فَهُو عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وفُسُوقٍ وعِصْيَانٍ، ويَدْعُوهُمْ إلى طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ مِنْ رَبِّهِم الْمُمِدِّ لَهُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً بَعْدَ ذَلِكَ.

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾: أي: مِنْ صِفَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الدَّائِمَة، أَنَّه كَثِيرُ المغْفِرَة لِعِبَادِهِ.

غَفَّار: مِنْ صِيَغِ المبالَغَة، وَوَصْفُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِصِيَغِ المبالَغَةِ لَا مُبالَغَةَ فِيهِ، بَلْ هِيَ الصِّيَغُ الأَقْرَبُ في البيانِ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ البالِغَةِ الْغَايَة في كَمَالَاتها.

واسْتِعْمَال فعل «كَانَ» هو للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الكَيْنُونَةِ المسْتَمِرَّةِ والْوُجُودِ الدَّائم، وَهَكَذَا سَائِرُ النُّصُوصِ الَّتِي اسْتُعْمِلَ فيها فِعْلُ «كَانَ» بالنِّسْبَةِ إلَىٰ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

واسْتَعْمَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام عبارَة: ﴿رَبَّكُمْ﴾ لِأَنَّ رُبُوبِيَّةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَهُمْ دَائِمَةٌ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَىٰ إيمانِهِمْ بها، بخلافِ عبارَة «إلَهم» أي: مَعْبُودكُمْ، إذ هُمْ لَا يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ دَوَاماً بِنِعَم لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَهَا، ويَعْبُدُونَ آلِهَةً لَا تَنْفَعُهُمْ وَلَا تَضُرُّهُم، أَوْ لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ إلَّا فِي أَوْهَامِهِم.

- ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ⑫﴾:

دلَّ هـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا أَهْلَ دُنْيا وَشَهَواتٍ، وَكَانُوا شَدِيدي التَّعَلُّقِ بالْأَمْوَالِ والْبَنِين، والْجَنَّاتِ والْأَنْهَارِ.

فَكَانَ مِنْ مَوَاعِظِهِ الحسَنَة لهم إِطْمَاعُهُمْ بأَنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا وأَسْلَمُوا واسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ وأطاعُوهُ، وسَّعَ عَلَيْهِمْ مَا يَطْلُبُونَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ إِطْمَاعٌ بِحَقٍّ لِأَنَّهُ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبَادِهِ.

- ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪﴾:

أي: فإنْ تُؤْمِنُوا وتُسْلِمُوا وَتَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم وَتُطِيعُوهُ يُرْسِلِ الْأَمْطَارَ عَلَىٰ بِلَادِكُمْ غَزِيرَةً وَافِرَةً.

وجاء اسْتِعْمَالُ فِعْلِ «يُرْسِل» لما في الإرْسالِ مِنْ مَعْنَىٰ تَأْدِيَةِ الْمُرْسَل وَظِيفَةً كَلَّفَهُ مَنْ أَرْسَلَهُ أَنْ يُؤَدِّيَهَا، وَحَدَّدَ لَهُ عَمَلَهُ فِيها، وَهـٰذَا مَا يُسَمَّىٰ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَدِيعِ «الْإِرْدَاف» إِذِ الْأَصْلُ أَنْ يُقَالَ نحو «يُنْزِلَ»(١).

---

(١) **الإِرْدَاف**: هو عند علماء البديع. اختيار لفظ بَدَلَ لفظ آخر هو الأَصْلُ في تأْدِيَةِ المعنى الأَصْلِي، لِغَرَضٍ بَلَاغِيّ.

وجاء إطْلَاق لفظ «السَّماء» عَلَىٰ الْأمْطارِ لِأنَّها كَانَتْ فِي جِهَةِ الْعُلْوّ سَحاباً، فَهِي سَمَاء، إذْ كُلُّ مَا هُوَ في جِهَةِ الْعُلُوّ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ سُكَّانِ الْأَرْض سَماء لُغَةً، وَكُلُّ مَا عَلاكَ فَأظَلَّكَ فَهُوَ سَماءٌ لُغَةً لَكَ، وإطْلَاق لفظ «السَّماء» عَلَىٰ ما ينزلُ مِنها من المجاز المرسل.

- ﴿عَلَيْكُم﴾: أي: عَلَىٰ أَرْضِكُمْ وَبِلَادِكُمْ وَمَزَارِعِكُمْ، لِمَنَافِعِكُمْ وَسُقْيَاكُمْ، وسُقْيَا أَنْعَامِكُمْ وَدَوَابِّكُمْ.

- ﴿مِّدْرَارًا﴾: أي: كثيراً غزيراً، يُقَالُ لُغةً: «سَحَابٌ مِدْرارٌ» أي: كثيرُ السَّحِّ والإمْطار. ولفظ «مِدْراراً» مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الحالِيَّة.

- ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾:

المالُ والْبَنُونَ مِنْ أُولَىٰ مَطَالِبِ الإنْسَانِ فِي الحياة الدُّنْيا، وهُمَا مُزَيَّنَانِ للنَّاسِ فيها.

وقُدِّمَتْ الأمْوَال عَلَىٰ البنين، لِأَنَّ نُفُوسَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، كانَ تَعَلُّقُهَا بِالْأَمْوَالِ يَحتَلُّ الْمُرْتَبَةَ الأُولى، أو لمراعَاة انْسِيَابِ السَّبْكِ في الْجُمْلَة.

أَمَّا مُعْظَمُ النَّاسِ فالْأَوْلَوِيَّاتُ عِنْدَهُمْ يُعَبِّرُ عَنْهَا قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النِّسَاء/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

ونَظِيرُ تَقْدِيم المالِ عَلَىٰ البنينَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴿٤٦﴾﴾.

فلعَلَّ بَعْضَ النَّاسِ يُقَدِّمُونَ في الْأَوْلَوِيَّاتِ المال، وآخَرِينَ يُقَدِّمُونَ في الْأَوْلَوِيَّاتِ الْبَنِينَ.

- ﴿... وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ⑫﴾:

الْجَنَّاتُ والْأَنْهَارُ مِنْ مَطَالِب الرَّفَاهِيَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

جَنَّاتٍ: أي: بَسَاتين فِيها أصْنَافُ الْأَشْجَارِ والزُّرُوعِ، وفِيهَا مُخْتَلِفُ الثمرات، مَعَ مَا يُرافِقُهَا مِنْ أنْعَامٍ ودَوابّ.

أنْهاراً: أي: لإمْتَاعِ نُفُوسِكُمْ وأعْيُنِكُمْ بها، ولسُقْيا الْأَشْجار والزُّرُوع.

وقُدِّمَتِ الجنّاتُ عَلَىٰ الأنهار، مُراعَاةً لاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ الجنَّاتُ تُسْقَى بالْأَمْطَارِ دُونَ أنهار، ومَعَ ذٰلِكَ تَكُونُ الْأَنْهَارُ مَطْلَباً جَمَالِيًّا بَدِيعاً، ولِتَحْقِيقِ مَنَافِعَ أُخْرَى غير سُقْيا الْجَنَّات.

وكُرِّرَتْ عِبَارَة: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ لِنَوْعٍ مِنَ الجمالِ اقْتَضَاهُ التَّوازُمُ الْإيقاعِيُّ في الْجُمَل، ولِأَنَّ جَعْلَ الْأَنْهَارِ يَكُونُ مِنْ خزَّانَاتٍ فِي الجبالِ بَعِيداتٍ عَنْ مَوَاقِعِ الجنَّاتِ، فَهُمَا جَعْلَانِ مُنْفَصِلان.

- **ودَلَّ عَلَىٰ الْعُنْوَانِ الرَّئِيس الثاني**: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في حِكَايَةِ بَيَانِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ:

- ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑬ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑭﴾؟:

- ﴿مَّا لَكُمْ﴾؟ اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ تَعَجُّبِيٌّ، وَجَّهَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ. وهٰذِهِ العبارة جُمْلَةٌ مِنْ مُبْتَدإٍ وخَبَر. أي: مَا الصَّارِفُ أَوِ الْبَاعِثُ لَكُمْ، أَوِ الْمُفْسِدُ لِعُقُولِكُمْ وَأَفْكَارِكُمْ وَمَدَارِكِكُمْ وقُلُوبِكُمْ وَنُفوسِكُمْ.

- ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾: أيْ: لَا تَتَوَقَّعُونَ للهِ عَظَمَةً وَقُدْرَةً عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ بِكُمْ مَا يَشَاءُ مِن عِقَابٍ عَلَىٰ الكُفْرِ والإشْرَاكِ بِهِ، وعَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ فِي

أَوَامِرِهِ ونَوَاهِيه، وعَدَم الاسْتِجَابَةِ لِرَسُولِهِ وعَدَمِ قَبُولِكُمْ الْبَلاَغَاتِ الَّتِي بَلَّغَكُمْ إيَّاهَا عَنْه.

الرَّجَاءُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ التَّوَقُّعِ لِمَا هُوَ مَحْبُوبٌ أَوْ مَرْغُوبٌ فِيهِ، أَوْ لِمَا هُوَ مَكْرُوهٌ ومَخُوفٌ مِنْهُ.

والْوَقَارُ: يأتي في اللَّغَةِ لِعِدَّةِ مَعَانٍ، والْمُنَاسِبُ مِنْهَا هُنَا الْعَظَمَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، ومِنْ عَظَمَتِهِ قُدْرَتُهُ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاء.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾: أي: والْحَالُ أَنَّهُ خَلَقَكُمْ خَلْقاً مُتَدَرِّجاً أَطْواراً، مِنْ تُرَاب، إلى غذاءٍ، إِلَىٰ نُطْفَةٍ، إِلَىٰ عَلَقَةٍ، إِلَىٰ مُضْغةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ، إِلَىٰ جَنِينٍ، إِلَىٰ طِفْلٍ، وهكذا.

أَطْوَاراً: جَمْعُ «طَوْر» وكَلِمَةُ «طَوْر» تَأْتِي بِمَعْنَىٰ الحالِ والْوَصْفِ المتَمَيِّزِ بِخَصَائِصِهِ وَمَقَادِيرِهِ، فمَثلاً:

(١) يَخْلُقُ اللهُ الشَّيْءَ أَوَّلاً مِنَ التراب، فيكُونَ نباتاً «هذا طَوْرٌ».

(٢) ثُمَّ يَتَغَذَّى مِنْهُ الإنْسَان، فَيَجْعَلُ مِنَ الغِذَاءِ دَماً «وهذا طَوْر».

(٣) ثُمَّ يَخْلُقُ اللهُ مِنَ الدَّم نُطْفَةً (وهذا طَوْرٌ ثالث).

(٤) ثُمَّ يَخْلُقُ اللهُ مِنَ النُّطْفَةِ عَلَقَةً (وهذا طورٌ رابع).

(٥) ثُمَّ يَخْلُقُ اللهُ مِنَ الْعَلَقَةِ مُضْغَةً «وهٰذَا طَوْرٌ خَامِسٌ».

وَهَكَذَا تَتَبَايَعُ الْأَطْوَار حَتَّىٰ يَكُونَ الْجَنِينُ إِنْسَاناً سَوِيًّا، فَخَلْقُ الشيء في صِفَاتٍ مُتَحَوِّلَاتٍ مِنْ وَضْعٍ إِلَىٰ وَضْعٍ هُوَ خَلْقٌ فِي أَطْوَار.

والْخَلْقُ ضِمْنَ نِظَام الْأَطْوَارِ يُنَبِّهُ دواماً عَلَىٰ التَّفَكُّرِ في صِفَاتِ الْخَالِقِ الْمُدَبِّر الحكيم الْعَلِيم الْقَدِير، إِذْ كُلُّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ الْخَلْقِ يُوَجِّهُ أَنْظَار المتَفَكِّرِينَ لِعَمَلِ الْخَالِقِ فِي إِحْدَاثِ طَوْرٍ فِي الْخَلْقِ بَعْدَ طَوْرٍ، وَلَوْ بَقِيَ الْخَلْقُ عَلَىٰ طَوْرٍ واحِدٍ دَواماً لَمَا حَدَثَ مِثْلُ هٰذَا التَّنبيهِ، ولَبَدا للنَّاظِرِينَ إِلَيْهِ أَنَّ وَضعَهُ الطَّبِيعيَّ الدَّائِمَ هَكَذَا، فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ خَالِقاً.

فالْمَعْنَىٰ: أيُّ شَيْءٍ حَصَلَ لِعُقُولِكُمْ، وأفْكَارِكُمْ، وَمَدَارِكِكُمْ، وقُلُوبِكُمْ، ونُفُوسِكُمْ، فَأَفْسَدَهَا، وَصَرَفَهَا عَنْ إدْرَاكِ عَظَمَةِ اللهِ فِي كُلِّ شيء، وَمِنْهَا قُدْرَتُهُ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ فِيكُمْ مَا يَشَاءُ، فَهُوَ يُعَاقِبُكُمْ بِعَظَمَتِهِ كما أَوْعَدَكُمْ عَلَىٰ كُفرِكُمْ ومَعَاصِيكُمْ، فَأَنْتُمْ لَا تَتَوَقَّعُونَ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِكُمْ نِقْمَتَهُ، وَيُهْلِكَكُمْ فِي الدُّنيا، ويُعَذِّبَكُمْ في دَارِ عَذَابِهِ يَوْمَ القيامَة. وَلَا تَتَوقَّعُونَ ثَوَابَهُ الْعَظِيمَ، وأَنْ يُدْخِلَكُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ إِذَا آمَنْتُمْ وَأَسْلَمْتُمْ وعَمِلْتُمْ مِنَ الصَّالِحَات، كَمَا وَعَدَكُمْ فِيما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ؟؟.

أَغُشِيَ عَلَىٰ مَدَارِكِكُمْ فَصِرْتُمْ لَا تُدْرِكُونَ دَلَائِلَ آيَاتِ اللهِ المشْهُودَةِ والْمَسْمُوعَة، فَلَا تَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ، وَلَا تَطْمَعُونَ فِي ثَوَابِهِ الْعَظِيم يَوْمَ الدِّين، وهُمَا مِنْ آثَارِ عَظَمَتِهِ وَقُدْرَته وَجَلَالِهِ «= وَقَارِه» والحالُ أَنَّهُ قَدْ خَلَقَكُمْ خَلْقاً مُتَدرِجاً أَطْوَاراً يُدُلُّكُمْ فِيهِ دواماً عَلَىٰ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وكَمَالِ حِكْمَته.

• **ودَلَّ عَلَىٰ الْعُنْوَانِ الرَّئِيسِ الثّالث:** قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بيان نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام لِقَوْمِهِ:

• ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)﴾:

• ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾: أي: قَالَ لَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام: أَلَمْ تَروا هَـٰذِهِ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ المتْقَنَةَ الْعظيمَة في السَّمَاوَاتِ وفي الْأَرْضِ؟

اسْتِفْهَامٌ فِيهِ معْنَىٰ الحثِّ عَلَىٰ التَّفكُّر فِي هَـٰذِهِ الظَّاهِرَاتِ الْعَجِيبات، والتَّلْوِيم عَلَىٰ عَدَمِ التفكُّرِ فيها تَفَكُّراً هَادِيًا إلَىٰ عَظَمَةِ صِفَاتِ الرَّبِّ الخالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ، وسَمَتْ حِكْمَتُهُ، وبَهَرَ إتْقَانُهُ صُنْعَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَه.

فَهَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ تَتَابُعُ تَصَارِيفِ الْخَلْقِ فيها بإتْقَانٍ تَامٍّ

دُونَ خالِقٍ عَظِيم لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الكَمَالِ، الَّتِي مِنْهَا الْعِلْمُ الشَّامل، والْقُدْرَةُ العظيمَةُ المكافِئَةُ لِتَصْرِيفِ هَـٰذِهِ الْمُكَوَّنَاتِ العظْمَىٰ، والْحِكْمَةُ البَالِغَةُ، والْعَدْلُ والعِنَايَةُ والرَّحْمَة؟!.

هَلْ يُمْكِنُ عَقْلاً أَنْ تَكُونَ خَاضِعَةً لِتَصَارِيفِهِ فيها، مِنْ أَصْغَرِ ذَرَّةٍ إِلَىٰ أَكْبَرِ مَجَرَّةٍ بإتْقَانٍ كاملٍ بَدِيعٍ حَكِيم، دُونَ أَنْ تَكُونَ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ، وأثراً مِنْ آثار صَنْعَتِهِ؟!

هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ خَلْقُ الإنْسَانِ فِي هـٰذَا الكَوْنِ الْعَظِيم عَبَثاً وبَاطلاً؟!

أَلا يَدُلُّ هـٰذَا الْخَلْقُ الأَوَّلُ عَلَىٰ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْهُ ابْتِلَاءُ الإنسانِ فِي ظُرُوفِ هَـٰذِهِ الْحَيَاة؟!

أَلا يَحْكُمُ الْعَقْلُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ خَلْقٍ آخَرَ يَتَحَقَّقُ فِيهِ الْحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، والجزاء؟!

إنَّ الاسْتِدْلَالَ بِظَاهِرَاتِ خَلْقِ اللهِ في الأَنْفُسِ، وفي السَّمَاوَاتِ، وفي الأَرْضِ، عَلَىٰ حَقِّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِه، وعَلَىٰ إدَانَتِهِمْ ومُحَاسَبَتِهِمْ ومجازَاتِهِمْ يَوْم الدِّين، إنَّما يَتِمُّ باتِّبَاع السِّلْسِلَةِ الْفِكْرِيَّة الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها، وكَثِيرٌ مِنْهَا مَطْوِيٌّ في النّصّ، لِأَنَّ اللُّزُومَاتِ الْفِكْرِيَّةَ تَدُلُّ عَلَيْهَا.

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾؟؟!

طِبَاقاً: اسْمُ مَصْدَرٍ، يُقَالُ لُغَةً «طَابَقَهُ، مُطَابَقَةً، وطِبَاقاً» والمطابَقَةُ في اللُّغَةِ الموافقة، والتَّساوِي، تَقُول لغة: «طَابَقْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْن» أي: جعلْتَهُمَا عَلَىٰ حَذْوٍ وألْزَقْتَهما. وتَقُولُ أيضاً: «طَابَقْتُ بَيْنَ الْقَمِيصَيْنِ، أو بَيْنَ الثَّوْبَيْن» أي: لَبِسْتَ أَحَدَهُمَا عَلَىٰ الآخر.

وقد جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ طِبَاقاً، أي: جَعَلَ بَعْضَهَا

فَوْقَ بَعْضٍ بِتَتابُع، كَثَوْب فَوْقَهُ ثَوْبٌ آخَرُ وَهَكَذا إلى سَبْعَةِ أثْوابٍ، أَوْ مِثْلَ كُراتٍ مُتَداخِلاتٍ، فَالْكُرَةُ الْوُسْطَىٰ فَوْقَها كُرَةٌ أُخْرَىٰ حَوْلَها، وَهَكَذا إلَىٰ سَبْعِ كُراتٍ، كُلُّ كُرَةٍ تالِيَةٍ تُحِيطُ بالْكُرَةِ الدَّاخِلَةِ فيها.

وَلفظ «طِباقاً» مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الحالِيَّة، أو عَلَىٰ تَضْمِينِ فِعْل «خَلَقَ» معنى فِعْل «جَعَلَ» والتقدير: خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ فَجَعَلَها طِباقاً.

ولَا بُدَّ أنْ تَكُونَ ظَاهِرَةُ خَلْقِ اللهِ السَّمَاوَاتِ سَبْعاً طِباقاً مَعْلُومَةً وَلَوْ بِصُورَةٍ إجْمَالِيَّةٍ، لدَىٰ الَّذِينَ يَلْفِتُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْظَارَهُمْ إلَيْهَا مِنْ قَوْمِهِ، باعْتِبَارِ كَوْنِهَا مِنَ القضايا المسَلَّمَةِ لَدَيْهِم، إذْ هِي مِنْ بَقَايَا المَوْرُوثَاتِ الَّتِي وَرِثَتْها الْبَشَرِيَّةُ عَنْ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فالنَّبِيّين والمؤمنينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، أو أَنْ تَكُونَ مِنَ الأمُور الَّتِي أَقَامَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمُ الدَّلِيلَ عَلَيْهَا حَتَّىٰ سَلَّمُوا بها، وبَعْدَ ذَلِكَ أَرَادَ أَنْ يَنْقُلَهُمْ إلَىٰ الإقْنَاعِ بما لَمْ يُسَلِّمُوا بِهِ، بالاسْتِنَادِ إلى مَا سَلَّمُوا بِهِ.

لَكِنَّ كَوْنَ السَّمَاوَاتِ سَبْعاً، وَكَوْنَهَا طِباقاً أمْرَانِ خَبَرِيَّانِ لَا يَمْلِكُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَدِلَّةً إقْنَاعِيَّةً عَلَيْهِمَا مِنَ الظَّواهر المشْهُودَة، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَا مِنْ مَوْرُوثَاتِ عَقَائِدِهم.

وسُؤَالُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ عَنْ كَيْفِيَّةِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ الطِّبَاقِ، هُوَ سُؤالٌ لَهُمْ عَنْ إتْقَانِهَا الْبَدِيع، الظَّاهِرَة آثَارُهُ فِي المشَاهدَاتِ المتكَرِّرَاتِ مَعَ تَوَالِي الْأَزْمَانِ فِي سَاعَات اللَّيْلِ والنَّهار دَوَاماً، لانْتِزَاعِ اعْتِرَافِهِمْ بِكَمَالِ صِفَاتِ الرَّبِّ الْخَالِق، والانْتِقَالِ مِنْهَا إلَىٰ حَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ، وَمَسْؤُولِيَّتِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيَا تُجَاهَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُه ـ فَإلَىٰ قَانُونِ الإدانَةِ عَلَىٰ المكْتَسَبَاتِ الإرادِيَّةِ فِي الحياة الدُّنْيا، بالْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء، فَإلَىٰ الْإِيمَانِ بِيَوْمِ الدِّين.

- ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾:

هُمَا نِظَامَانِ مُخْتَلِفَانِ، فَجَعْلُ الْقَمر يُعْطِي نوراً لَهُ نِظَامٌ في الْكَوْنِ مُخْتَلِفٌ عن نظام الشَّمْسِ، وجَعْلُ الشَّمْسِ تُعْطِي ضِياءً كالسِّرَاجِ لَهُ نِظَامٌ آخَرُ في الكَوْن مُخْتَلِفٌ عَنْ نِظَامِ الْقَمر، فَهُمَا جَعْلَانِ يُلَائِمُهُمَا فِي الْبَيَانِ تَكْرِيرُ فعل «جَعَل».

وكَوْنُ الْقَمَرِ والشَّمْس في السَّمَاوَاتِ حَقِيقَةٌ مَشْهُودَةٌ للنَّاسِ جَمِيعاً، ولمَّا كَانَتِ الأَرْضُ فِي مَوْقِعٍ مِنَ الكَوْنِ تُحِيطُ بِهِ السَّمَاءُ الدُّنْيَا، وفَوْقَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَحوْلَهَا تَتَسَلْسَلُ سَائِرُ السَّمَاوَاتِ، كَانَ مِنَ الْبَدَهِيِّ أَنْ يَكُونَ الْقَمَرُ والشَّمْسُ في السَّمَاوَاتِ، إذ السَّمَاءُ الدُّنْيَا واقِعَةٌ فِي بَاطِنِ السَّمَاءِ الثانية، وهِيَ في الثَّالِثَة، وهكَذا، فَمَا هُوَ في الْأَدْنَىٰ مِنْهَا هُوَ فيها جَمِيعهَا بالنظَرِ إِلَىٰ التداخل.

ومن الْمُلَاحَظِ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ لَفَتَ أَنْظَارَ قَوْمِهِ إلى أنّ الْقَمَرَ نُور، وإِلَىٰ أَنَّ الشَّمْسَ سِرَاج، أيْ: تُشْبِهُ السِّراجَ بالنّظَرِ إلى كَوْنِهَا كُتْلَةً نَارِيَّةً، ذَاتَ أَشِعَّةٍ حارَّةٍ تَنْبَعِثُ مِنْهَا مُمْتَدَّةً إِلَىٰ مَسَافَاتٍ بَعِيدَاتٍ عَنْهَا فِي الكَوْنِ، وقِسْمٌ عَظِيمٌ مِنْهَا يَصِلُ إِلَىٰ الْأَرْض.

ويَظْهَرُ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ النُّورِ والسِّرَاجِ ذِي الشُّعْلَةِ الملتَهِبَة.

إِنَّهُمْ إِذَا جلَسُوا في نُورِ الْقَمرِ طَوَالَ لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ لَمْ يَشْعُرُوا بِأَيَّةِ حَرَارَةٍ لِنُورِهِ الَّذِي يَمْتَدُّ إِلَيهِمْ، بخلَاف مَا لَوْ جَلَسُوا في النَّهَارِ فِي ضِيّاءِ الشَّمْسِ، فإِنَّهُم يَشْعُرُونَ بالْحَرَارَة، وقَدْ تَصِلُ إِلَىٰ حَدٍّ لَذْعِ أجْسَادِهِمْ، لما يَفْعَلُ السِّرَاجُ المشْتَعِلُ بالنّار، فإِنَّهُ يُعطِي ضِيَاءً مَصْحُوباً بِحَرَارَةٍ وَشُعْلَتُهُ تُحْرِق مَنْ مَسَّها.

وهـٰذَا الَّذِي كَانَ قَوْمُ نُوحٍ يُدْرِكُونَهُ بالحسِّ، دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَلَىٰ عِلْمٍ بِتَفْسِيره، وتَحْدِيدِ أسبابِهِ، هُوَ مِنْ ظَوَاهِرِ عِنَايَةِ اللهِ بِخَلْقِهِ، إِذْ يُدْرِكُون

أَنَّهُمْ بِحاجَةٍ إلى ضِيَاءٍ حَارٍّ يَبْعَثُ بالْحَرارَةِ باتِّجاهِ الْأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ حَياةِ النَّاسِ فِيها، فَهِيَ الْوَقُودُ الضَّرُورِيُّ لِلْحَياةِ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، ويُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ بِحاجَةٍ إِلَىٰ مُدَّةٍ رَاحَةٍ مِنْ وَطْأَةِ حَرارَةِ الشَّمْسِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ اللَّيْلَ الَّذِي تَغِيبُ فِيهِ الشَّمْسِ، ويُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ بِحاجَةٍ في اللَّيْلِ إِلَىٰ نُورٍ بَارِدٍ، لَا تُصَاحِبُهُ حَرارَةُ أَشِعَّةٍ مُنْبَعِثَةٍ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْقَمَرَ.

أَلَيْسَ كُلُّ هـٰذَا التَّدْبِيرِ في الكَوْنِ لِسُكَّانِ الْأَرْضِ مِنْ عِنَايَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالنَّاس، ومِنَ الآيَات الدَّالَّاتِ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ وجَلالِهِ وَوَقارِه؟!

هـٰذَا مَا لَفَتَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْظَارَ قَوْمِهِ إِلَيْهِ.

أَمَّا التَّفْسِيرُ الْعِلْمِيُّ لِكَوْنِ الْقَمَر يُعْطِي نُوراً، وكَوْنِ الشَّمْسِ تُعْطِي ضِياءً مِثْلَ السِّرَاج، فمتَىٰ وَصَلَ النَّاسُ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ أَدْرَكُوا أَنَّ الْبَيَانَ الدينيَّ قَدْ أَلْمَحَ إِلَيْهِ مُنْذُ عَهْدِ نُوح عَلَيْهِ السَّلام، لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّ الدِّينَ حَقٌّ، وأَنَّ كُلَّ بَيانَاتِهِ صِدْقٌ، فَمُنَزِّلُ الدِّينِ عَلَىٰ لِسَانِ الرُّسُلِ هُو خالِقُ الكَوْنِ والْعَلِيمُ بِهِ.

السِّرَاج: هُوَ فِيمَا يَعْرِفُ النّاسُ شَيْءٌ يُوقَدُ فَيُعْطِي شُعْلَةَ نَارٍ مُضِيئة، والشَّمْسُ فِي حَقِيقَتِها الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاء بَعْدَ أُلوف السّنين مِنْ عَصْرِ نُوحِ عَلَيْهِ السَّلَام، كُرَةٌ نَارِيَّةٌ كُبْرَىٰ، سَابِحَةٌ فِي السَّمَاء، فاتَّفَقَ الْإِلْمَاحُ في البيان الديني مَعَ مَا تَوَصَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَعَارِفُ الإنْسَانِيَّةُ بَعْدَ أُلوفِ السّنين.

وَأَمَّا النُّورُ: فَكَاشِفٌ للظُّلْمَةِ، والنَّاسُ يُفَرِّقُونَ مُنْذُ عَهْدِ نُوح عَلَيْهِ السَّلام بَيْنَهُ وَبَيْنَ الضِّيَاءِ الحارّ الَّذِي يَنْبَعِثُ مِنَ النَّارِ المشْتَعِلَة، إِذْ كَانَ النَّاسُ يَعْرِفُونَ أنْواراً بارِدَةً لَا حَرارَة فيها، أقْرَبُها إلى النَّاسِ الْبُدَائِيين مَا يُشَاهِدُونَهُ مِن انْعِكَاسِ الْأَضْوَاءِ عَنِ الْأَشْيَاءِ الصَّقِيلَةِ الْعَاكِسَةِ لِلنُّورِ، كالمِرْآة، وهَـٰذِهِ الكَوَاشِفُ للظُّلْمَةِ المنْعَكِسَةُ بارِدَةٌ لَا حَرارَةَ لها.

والْقَمَرُ في حَقِيقَتِهِ جِسْمٌ فِي السَّمَاءِ يَعْكِسُ ضِيَاءَ الشَّمْسِ المنْصَبّ

عَلَيْهِ، فَيأْتِي إِلَىٰ الأَرْضِ نوراً، فاتَّفَقَ الإِلْمَاحُ في البيان الديني مَعَ مَا تَوَصَّلَتْ إِلَيْهِ المعارِفُ الإِنْسَانِيَّة بَعْدَ أُلوف السنين.

فمعْنَىٰ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾: وجَعَلَ الْقَمَرَ في السَّماوَاتِ عاكِساً نُوراً، أَوْ باثًّا نوراً، أَوْ ذَا نُورٍ.

ومعنى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾: وجَعَلَ الشَّمْسَ فِيهِنَّ كالسِّرَاجِ، وهـٰذَا مِنَ التَّشْبِيهِ البليغ، أو وجَعَلَ الشَّمْسَ فِيهِنَّ سِراجاً كَوْنِيًّا كَبِيراً يُنَاسِبُ حَجْمَ الأَرْضِ وحَاجَاتِها إِلَىٰ مَا تَبُثُّهُ الشَّمْسُ من أشِعَّةٍ ضَوْئِيَّةٍ تَصِل إِلَيْها.

- ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾:

أبانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ في تِلْكَ القرون الْقَدِيمَةِ من قُرُون الْبَشَرِيَّة حَقِيقَتَيْنِ تَتعلَّقَانِ بالنَّاسِ:

الحقيقة الأولى: نَشْأَة النَّاسِ مِنَ الأَرْض.

الحقيقة الثانية: بَعْثُ النَّاسِ إِلَىٰ الحياة، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وفَنَاءِ أجْسَادِهم وعَوْدَتِها إِلَىٰ تَرَابِ الأَرْضِ، فَتَكُونَ فِيها مِنْ عَنَاصِرِها.

إِنَّ مِنَ العجيب أَنْ يَذْكُرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ أَنَّ اللهَ أَنْبَتَهُمْ مِنَ الأَرْضِ نَباتاً، وأَنْ يَلْفِتَ أَنْظَارَهُمْ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِي هَـٰذِهِ الحقيقَةِ الَّتِي هِيَ مِنَ الحقائِقِ الَّتِي يَصْعُبُ جدًّا عَلَىٰ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّحِيقَةِ في القِدَمِ أَنْ يُدْرِكُوها، وقَدْ يَعْتَبِرُونَ ذِكْرَهَا مِنَ التَّخْرِيفِ والتَّخْلِيطِ، لَكِنَّ الْفِكْرَ الدِّينِيَّ مُتَقدِّمٌ دَائماً.

إِنَّنا في عُصُورِنَا الَّتِي ارتقَتْ فِيها الْعُلُومُ الكَوْنِيَّةُ لا نَجِدُ صُعُوبَةً فِي إِدْرَاكِ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَة، لِأَنَّنا صِرْنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْجَنِينَ إِنَّما يَتَكَوَّنُ بِخَلْقِ اللهِ مِنَ النُّطْفَةِ، وأَنَّ النُّطْفَةَ إِنَّما تَتَكَوَّنُ بِخَلْقِ اللهِ مِنَ الدَّمِ، وأَنَّ الدَّمَ في أَجْسَادِ

النَّاسِ إِنَّمَا يَتَكَوَّنُ بِخَلْقِ اللهِ مِنَ الطَّعَامِ والشراب، وأنَّ الطَّعَامَ الَّذِي يَأْكُلُهُ النَّاسُ مِنَ الْحَيَوَانِ أو النباتِ مَصْدَرُهُ نَبَاتُ الْأَرْض، وأنَّ المصْدَرَ لِكُلِّ ذَلِكَ التُّرَابُ والماء.

فَهَلِ الشُّعُوبُ الْبُدَائِيَّةُ كانَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِفَهْمِ كُلِّ هٰذَا والاقتناع بِهِ، إذَا شَرَحَهُ لَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلامُ؟

ولعَلَّ هٰذِهِ الْمَعْرِفَةَ كانَتْ مِنَ المعارف المتوارَثَةِ بَيْنَ النَّاسِ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ النبيّين عَلَيْهم السلام، فَنُوحٌ سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ قَوْمَهُ بِمَعَارِفَ هُمْ مُسَلِّمُونَ بها، ولَا يُجَادِلُونَ فِيهَا؟

فَمَعْنَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ⑰﴾ والله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً وفْقَ نظامٍ خاصٍّ جارٍ ضِمْنَ تَسَلْسُلِ أَطْوَارٍ مُتَتَابِعَة.

وبَعْدَ أَنْ أبانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ أطْوَارَ النَّشْأَةِ الْأُولَىٰ مِنَ الْأَرْضِ بخَلْقِ اللهِ، أَخْبَرَهُمْ عَنِ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ صَائِرُونَ إليه.

أَمَّا الْمَوْتُ فَكُلُّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ، إِذْ هُوَ أَمْرٌ مَشْهودٌ مُتَكَرِّرُ الْوُقُوعِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَتَوَقَّعُهُ آجِلاً أَوْ عَاجِلاً.

وأَمَّا فَنَاءُ الْأَجْسَادِ وَعَوْدَتُهَا إلى تَرَابِ الْأَرْضِ، حتَّىٰ تَكُونَ جُزْءاً داخِلاً في أَجْزَاءِ الْأَرْض الَّتِي كَانَ مِنْهَا بَدْءُ خَلْقِهِمْ، فَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ أَيْضاً، وَيَشْهَدُونَهُ فِي مَقَابِرِ مَوْتَاهُمْ، ولَكِنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لَفَتَ أَنْظَارَ قَوْمِهِ إِلَيْهِ بِقولِهِ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ لِيُهَيِّئَ أَذْهَانَهُمْ إِلَىٰ حَقِيقَةِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، مِنَ الْأَرْضِ نَفْسِهَا الَّتِي خُلِقَتْ أَجْسَادُهُمْ مِنْهَا أَوَّلاً، ثُمَّ أُعِيدَتْ إِلَيْهَا حَتَّىٰ كانَتْ فيها ذَرَّاتٍ تُرَابِيَّة.

أي: فالَّذِي خَلَقَ أجْسَادَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ابْتِدَاءً، وأعادَكُمْ إِلَيْهَا إِمَاتَةً فإِفْنَاءً، قادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ إخْرَاجاً هَيِّناً عَلَيْهِ، وَيُعِيدَكُمْ إِلَىٰ الحياة، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

وأبانَتِ النُّصوصُ الدِّينِيَّةُ فِي الإِسْلَام، أَنَّ هـٰذَا الإِخْرَاجَ للنَّاسِ مِنَ الْأَرْض، يَكُونُ مِثْلَ إِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنْهَا، من النَّوَيَات الَّتِي لَا تَفْنَىٰ، والَّتِي تَكُونُ مَحْفُوظَةً فِي عَجْبِ الذَّنب، وفي كُلٍّ مِنْهَا طَبْعَةُ الإِنْسَانِ بِكُلِّ صِفَاته.

فَقَضِيَّةُ الْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّينِ من الحقائِقِ الَّتِي بَلَّغَهَا جَمِيعُ رُسُلِ اللهِ أَمَمَهُمْ، إِذْ هِيَ دَاخِلَةٌ ضِمْنَ بَرْنَامَجِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ، مُنْذُ قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ بأَنْ يَخْلُقَ النَّاسَ لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾:

- ﴿بِسَاطًا﴾: أي: كالْبِسَاطِ في سُطُوحِهَا عَلَىٰ دائِرَةِ كُرَتِهَا، فَالْأَرْضُ ذَاتُ سُهُولٍ مُنْبَسِطَةٍ واسِعَةٍ، وذَاتُ سُطُوحٍ مُخْتَلِفَةٍ، صَالِحَةٍ لِلْحَرْثِ والزَّرْعِ واتِّخَاذِ المزارعِ والْبَسَاتِين الواسِعَةِ فيها، ولإِقَامَة الْمُدُنِ والْقُرَىٰ، وشَقِّ الطُّرُقِ الَّتِي تُقَرِّبُ الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَات.

فَلَيْسَتْ كُلُّ الْأَرْضِ جِبالاً ذَواتَ رُؤُوسٍ عَالِيَة، وَوِدْيَانٍ وأَغْوَارٍ سَحِيقَة، ولَيْسَتْ هِي كَظَهْرِ الْقُنْفُذ، بَلْ هِيَ بِسُطُوحِهَا المنْبَسِطَةِ صَالِحَةٌ لِتَسْهِيلِ مَصَالِحِ النّاسِ عليها، ولَوْ كَانَتْ عَلَىٰ غَيْرِ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ، لاشْتَدَّ عَلَىٰ النَّاسِ فِيهَا اتِّخَاذُ سُبُلِ الْحَيَاةِ والرِّزْقِ، والتَّنَقُّلِ في أَرْجَائِهَا عَلَىٰ ظَهْرِهَا.

- ﴿لِتَسْلُكُوا﴾: أي: لِتَدْخُلُوا وَتَعْبُرُوا، يُقَال لُغَةً: «سَلَكَ الطَّرِيقَ أَوِ الْمَكَانَ، وَسَلَكَ بِهِ، وسَلَكَ فِيهِ» أي: دَخَلَهُ وَنَفَذ.

- ﴿سُبُلًا﴾: جمع «سبيل». **والسَّبِيلُ**: هو الطريق سواءٌ أكانَ ضَيِّقاً أَمْ وَاسعاً. وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الطَّرِيق في الْأَرْضِ اليابِسَة، وعَلَىٰ الطَّريق في البحر، وعَلَىٰ الطَّريق في الجوّ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الطَّرِيق الماديّ الحسِّيّ، وعَلَىٰ الطَّريق المعْنَوِيّ الْفِكْري.

- ﴿فِجَاجًا﴾: جَمْعُ «فَجّ» **والْفَجّ**: هو الطَّريق الواسع.

أي: لِتَسْلُكُوا مِنَ الْأَرْضِ طُرُقاً مُخْتَلِفَةً وَاسِعَة، فجيء بِلَفْظِ «سُبُلاً» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْأَنْوَاعِ، وجيء بلفظ «فِجاجاً» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ السَّعَة.

وهُنَا نُلَاحِظُ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَرْشَدَ قَوْمَهُ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ في ظَوَاهِرِ عِنَايَةِ اللهِ بِعِبَادِه، إذ هَيَّأَ لَهُمْ في الْأَرْضِ سُبُلَ مَعَاشِهِمْ وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ الكَثِيرَة، فَتَتَبُّعُ سِلْسِلَةِ دَلِيلِ عِنَايَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ يَهْدِي أُولي الْأَلْبَابِ إِلَىٰ واجباتِ العِبَادِ تُجَاهَ رَبِّهِمْ، إِذْ يَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ الإيمان بِهِ، والإِسْلَام له، وعِبَادَتِهِ عَلَىٰ الْوَجْهُ الَّذِي يُرْضِيهِ، والْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ، والطَّمَعِ في ثوابِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً حِكَايَةَ مُوجَزِ دُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام رَبَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، في فِقْرَةٍ تَتَضَمَّنُ شَكْوَاهُ مِنَ اسْتِعْصَاءِ قَوْمِهِ عَلَيْهِ، وعَدَمِ اسْتِجابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، وتَشَبُّثِهِمْ بِعِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ:

● ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآياتِ يَذْكُرُ نُوحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في شَكْوَاه لِرَبِّهِ مِنْ قَوْمِهِ سِتَّ قضايا:

القضية الأولى: أَنَّ قَوْمَهُ عَصَوْهُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ.

القضية الثانية: أَنَّ جماهير قَوْمِهِ اتَّبَعُوا كُبَرَاءَهُم وَسَادَتَهُمْ من أصْحَاب الْأَمْوَالِ الْوَفِيرَةِ، والْأَوْلَادِ الكثيرين.

القضيّة الثالِثَة: أَنَّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً عَظِيماً، لِيَصُدُّوا الجماهير عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، واتّباعِهِ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ.

القضيَّة الرابعة: أَنَّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ نَهَوْا جَمَاهِيرَهُمْ عَنْ تَرْكِ عِبَادَةِ آلِهَتِهِم الْوَثَنِيَّة، ولا سيما كِبَارُها. «وَدٌّ ـ وسُوَاع ـ ويَغُوث ـ ويَعُوق ـ ونَسْر».

القَضِيَة الخامِسَة: أَنَّ هؤلَاء الكُبَرَاء قَدْ أَضَلُّوا كثيراً بِمَكْرِهِمْ وسُلْطَانِهِمْ، ومُخْتَلِفِ وَسَائِلهِم.

الْقَضِيَّة السادسة: قَضِيَّةٌ مَطْوِيَّةٌ دَلَّ عَلَيْهَا دُعَاءُ نُوحٍ علىٰ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾.

شَرْحُ هَـٰذِهِ القضايا السِّتّ:

شَرْحُ الْقَضِية الأُولى: هَـٰذِهِ القضيَّة دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾:

أي: لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِأَيِّ أَمْرٍ دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ، مِمَّا أَمَرْتَنِي بِأَنْ أقوم بِهِ في رِسَالَتِي إِليهم، فَقُلْتُ لهم: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ـ واتَّقُوا عِقَابَهُ ـ وأَطِيعُونِي باعْتباري رَسُولَ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ.

شَرْح القضيّة الثانية: هَـٰذِهِ القضيَّة دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿١٢﴾﴾:

الْوَلَدُ والْوُلْدُ: كُلُّ مَا وُلِدَ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ الذَّكر والأُنْثىٰ، الواحِدُ والمثَنَّىٰ، والجمع، ويُجْمَعُ عَلَىٰ «أَوْلَاد» و«وِلْدَة».

أي: إِنَّ جَمَاهِيرَ قَوْمِي اتَّبعُوا كُبرَاءَهُم وَسَادَاتِهِمْ الَّذِينَ احْتَلُوا مَراكِزَ السِّيَادَةِ بَيْنَ قَوْمِي بِأَمْرين هما: أَمْوَالُهُمْ، وأَوْلَادُهُمْ.

لَكِنَّ زِيَادَةَ أَمْوَالِهِم وَأَوْلَادِهِمْ، واسْتِغْنَاءَهُمْ بِذَلِكَ، لَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً، والطُّغْيَانُ زَادَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ خَسَاراً، فَوْقَ الْخَسَارِ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ بِكُفْرِهِمْ، الَّذِي يَشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ قَوْمِي، إِذْ هُمْ قَدْ تَحَمَّلُوا إِثْمَ ضَلَالِهِمْ أَنْفُسِهِمْ، وإِثْمَ الأَعْمَالِ الَّتِي أضَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ، فَحَمَلُوا بِذَلِكَ مَعَ آثَامِهِمْ مِثْل آثَام مَنْ ضَلُّوا بِسَبَبِهِمْ.

فجاءَ في النَّصِّ الاكتفاءُ بِذِكْرِ زِيادَة الْخَسَارِ الَّذِي هو نَتِيجَةُ الأَعْمَالِ

الطُّغْيَانِيَّة عَنْ ذِكْرِ هَـٰذِهِ الأعْمَال الَّتِي طَغَوْا بها، لِأَنَّ ذِكْرَ النَّتِيجَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ مُقَدِّمَاتِها، وذِكْرُ الْمُسَبَّبِ يَدُلُّ عَلَىٰ سَبَبِهِ أو أسْبابِهِ.

وهـٰذَا مِنْ أسَالِيبِ القرآن، الَّتِي يَكْتَشِفُ دَلَالَتَهَا مَنْ تَدَبَّرَ القرآنَ بِعُمْقٍ وأناةٍ، وفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ.

شَرْحُ القضيَّة الثالثة: هَـٰذِهِ القضيَّةُ دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وَمَكَرَ هَـٰؤُلَاءِ القَادَةُ الكُبَرَاءُ بأمْوَالِهِمْ وَأوْلَادِهِمْ في الإغْوَاءِ والطُّغْيَانِ مَكْراً عَظِيمَ الكِبَر.

﴿كُبَّارًا﴾: صِيغَةٌ مِنْ صِيَغِ الْمُبَالَغَة السَّمَاعِيَّةِ النَّادِرَة، وهي صيغَةُ مبالَغَةٍ لِلَفْظِ «كبير».

الْمَكْرُ: هُو تدبيرُ أَمْرٍ مَا في خَفَاءٍ، بِشَرٍّ أو بخير، لَكِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَدْ مَكَرُوا بِشَرّ، إِذْ لَمْ تَزِدْهُمْ أمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِلَّا خَسَاراً.

ويَظْهَرُ أَنَّ الْمَكْرَ الَّذِي مَكَرُوه يَتَعَلَّقُ بِتَزْيِينِ الشِّرْكِ والْكُفْرِ لِأَتْبَاعِهِمْ، وإقْنَاعِهِمْ بِبُطْلَانِ مَا يَدْعُوهُمْ إلَيْهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإقْنَاعِهِمْ بالْتِزَام مَا وَرِثُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ مِنْ شِرْكٍ وعبادَةِ أَوْثَانٍ، وفِسْقٍ وفُجُورٍ وَظُلْمٍ وطُغْيَان، وعاداتٍ وقَبَائِحَ وَمُنْكَرَاتٍ.

شَرْحُ القضيَّةِ الرابعة: هَـٰذِهِ القضيَّةُ دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾:

أي: وَقَالَ هَـٰؤُلَاءِ السَّادَةُ الكُبَرَاءُ لِأَتْبَاعِهِمْ مُؤَكِّدِينَ لَهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ الْخُصوص بِأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَتْرُكُوا دِينَ آبَائِهِمْ، في عبادَةِ آلِهَتِهِمْ مِنَ الْأَوْثَان، وَلَا سيما كِبَارُهَا، وهي: «وَدّ ـ سُواع ـ ويَغُوث ـ وَيَعُوق ـ ونَسْر».

روى البخاري في صَحِيحِهِ عن ابْنِ عباسٍ أَنَّهُ قال(١): صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كانَتْ فِي قَوْمِ نُوح في الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدّ فَكَانَتْ لِكَلْب بِدُومَةِ الجندل(٢) ـ وأَمَّا سُوَاع: فكانَت لِهُذَيْل(٣). وأَمّا يَغُوث: فكانَت لِمُرَاد، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْف بالْجُرْف عِنْدَ سَبأ. وأَمّا يَعُوق: فَكَانَتْ لِهَمْدان(٤). وأمّا نَسْر: فَكَانَتْ لِحمير، لآل ذي الْكَلَاع. أسْماء رجالٍ صالِحِينَ مِنْ قَوْم نُوح، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إلَىٰ قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِم التي كَانُوا يَجْلِسُونَ فيها أنْصَاباً، وَسَمُّوهَا بأسْمائِهِمْ، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِخَ الْعِلْمُ عُبِدَت».

وَاللهُ أعْلَم كَيْفَ جُلِبَتْ إلى الْعَرَب فَعَبَدُوها.

شَرْحُ القَضيَّة الخامسة: هذه القضيَّة دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾:

أي: وَقَدْ أَضَلَّ هٰؤلَاءِ السَّادَةُ الكُبَراءُ في قَوْمِهِمْ إضْلَالاً كثيراً، بِتَأْثِيرِهِ عَلَىٰ أتْبَاعهم، إذْ كان لِأَعْمَالِهِمْ وَلِأَقْوَالِهِمُ الإغْوَائِيَّة المضَلِّلَةِ عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَثَرٌ كبيرٌ في إضْلَالِ هَؤلَاءِ الْأَتْبَاعِ، وفي إبْعَادِهِم عن الْحَقِّ الرَّبَّانِيّ في المتاهَاتِ المختلفات.

شَرْحُ القَضِيَّةِ السَّادِسة: هَـٰذِهِ القضيَّة دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾:

لَيْسَ مِنَ المعْقُولِ أنْ يَدْعُو رَسُولٌ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِهِ بِأَنْ يَزِيدَهُمُ اللهُ ضَلَالاً جَبْرِيًّا عَنِ الدِّين.

وقَدْ ظَهَرَ لِي رَبْطاً بقول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الشُّعَراء/٤٧ نزول) حِكَايَةً لما قَالَهُ قَوْمُ نُوحٍ لَهُ:

---

(١) انظر الحديث رقم (٤٩٢٠) وشرحه في فتح الباري لابن حجر.

(٢) مدينة مِن الشَّام ممّا يلي العراق.

(٣) كانَ بمكانٍ لِهُذَيل يقالُ لَهُ «رُهَاط» من أرض الحِجاز مِنْ جهة السَّاحل.

(٤) بلاد همدان باليمن.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾.

أنَّ نُوحاً عَلَيْهِ لمَّا رَأى أَنَّ قَوْمَهُ لَمْ يَهْتَدُوا بَعْدُ إِلَىٰ طَرِيقَةٍ مَقْبُولَةٍ لَدَىٰ جَمَاهِيرِهِمْ يُنَفِّذُونَ فيها مَا تَوَعَّدُوه بِهِ، إِذْ أَضَلَّهُمُ اللهُ عَنْ أَنْ يَجِدُوا الطَّرِيقَةَ المناسِبَةَ، طَوَىٰ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَضِيَّةَ التَّهْدِيدِ هَـٰذِهِ، وأَضْمَرَهَا في نَفْسِهِ، وَدَعَا دُعَاءً يَتَّصِلُ بِهَا فَقَالَ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾: أي: وهَدَّدُونَا بالرَّجْمِ فَأَضْلَلْتَهُمْ يَا رَبِّ عَنِ التوصُّلِ إِلَىٰ طَرِيقَةٍ تَقْبَلُهَا جماهِيرُهم، فَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَوَدُّونَ قَتْلَنَا للتَّخَلُّصِ مِنَّا بالْقَتْلِ إِلَّا ضَلَالاً عَنِ الاهْتِدَاء إلى ما يُرِيدُون.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (نوح).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (نوح) الآية (٢٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾:

القراءات:

- قرأ أبو عَمْرو: [**مِمَّا خَطَايَاهُمْ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ**].

وكُلٌّ مِنْهُمَا جَمْعُ «خَطِيئَة».

تَمْهيد:

في آيَة هٰـذَا الدَّرْسِ بَيَانُ عَاقِبَةِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ في الدنْيَا والآخِرَة.

التدبّر التحليلي:

- ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾: «مِن» في «مِمَّا» حرف جرٍّ مَعْنَاهُ التعليل، ولفظ «ما» حرفٌ زَائدٌ لِتَوْكِيدِ معْنَىٰ التعليل.

أقول: لِمَ لَا يَكُونُ اسْماً بِمَعْنَىٰ: «شيءٍ عظيم» فكثيراً ما يَسْتَعْمِلُهُ الْعَرَبُ كذلِكَ، مثل «ما» في «نِعِمّا». وعلى هـٰذَا يكون «خَطِيئاتِهِمْ» بدلاً مِنْ لفظ «مَا» في «مِمَّا». أي: بِسَبَبِ شَيْءٍ عَظِيمٍ جدًّا هُو خطيئَاتُهُمُ الشَّنِيعَةُ الفظيعَةُ المتَنَوعَة أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً.

- ﴿أُغۡرِقُواْ﴾: جاء البيان هُنَا مُوجزاً، إذْ سَبَقَ تَفْصِيلُ إغراقِهِم في سُورَة (هود/ ٥٢ نزول) في الآيات من (٣٦ ـ ٤٤).

- ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾: أي: فَأُدْخِلُوا يَوْمَ القيامَةِ نَارَ جهَنَّمَ، وَجاءَ الْعَطْفُ بالفاء التي تقتضي الترتيبَ مَعَ التَّعْقِيب، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ عقِبَ مَوْتِهِمْ بالإغْرَاقِ، تَلَقَّتْ نُفُوسُهُمْ وَهُمْ في مُدَّةِ البرزَخِ عَذاباً مِنْ نَوْعِ الْعَذَابِ بِمَسِّ لَهَبِ النَّار، ولِأَنَّهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ لَا يَكُونُ لِدَيْهِمْ إحْسَاسٌ بِفَاصِلٍ زَمَنِيٍّ بَيْنَ الْمَوْتِ والبَعْثِ، وعِنْدَئِذٍ يُسَاقُونَ بِسُرْعَةٍ وَيُحكَمُ عَلَيْهِمْ بِعَذَابِ النَّارِ، فَيُكَبُّونَ فِيها، فبالنظر إلى إحْسَاسِهِمْ يَكُونُ إدْخَالُهُمْ في النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَقِبَ إغْرَاقِهِمْ.

إنَّ الْمَوْتَىٰ لَا يُحِسُّونَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ مَهْمَا طَال، وحِينَ بَعْثِهِمْ يَقُولُونَ: مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا، أي: من مَكَانِ نَوْمِنَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ.

- ﴿... فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وَحَكَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِمْ بِعَذَابِ النَّار، فَأُدْخِلُوا فيها قَهْراً،

وبَحَثُوا عَنْ آلِهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، لِيَنْصُرُوهُمْ فَيَدْفَعُوا عَنْهُمْ عَذَابَ رَبِّهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّ زُعَماءَهُمْ وَكُبَراءَهُمْ في الدُّنْيا يُسْحَبُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ سَحْباً مِنْ قَبْلِهِمْ، وَبَحَثُوا عَمَّنْ يَنْصُرُهُمْ فَيَحْمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ نَارِ جَهَنَّمَ، فَلَمْ يَجِدُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً، أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجلَّ فَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي قَضَىٰ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس من دُرُوس سورة (نوح).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (نوح) الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

القراءات:

(٢٨) ● قرأ هِشَام، وحفص: [بَيْتِيَ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإِسْكَانها.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بيانُ دُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ جمِيعِ كُفَّارِ الْأَرْضِ بالإِهْلَاكِ، وَبَيَانُ دُعَائِهِ بالمغفرةِ لوالِدَيْهِ، ولِكُلِّ مَنْ دَخلَ بَيْتَهُ

مُؤْمِناً، ولِجَمِيعِ المؤمنين والمؤمِنَاتِ، وبيانُ دُعائِهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ في كُلِّ الْأَرْضِ بِأَنْ لَا يَزِيدَهُمُ اللهُ إِلَّا هَلَاكاً حَتَّىٰ لَا يُبْقِيَ مِنْهُمْ أحداً، وَعَذَاباً يكونُ عَادَة مُصَاحِباً لِإِهْلَاكِهِم.

التدبّر التحليلي:

من حُسْنِ التدبر أَنْ نَتَفَكَّرَ في دُعَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام في هـٰذَا الدَّرْسِ الأخير من هـٰذِهِ السُّورَة، ضِمْنَ نَظْرَةٍ تَكَامُلِيَّةٍ مَع مَا جَاء فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ مِنْ قِصَّتِهِ في غَيْرِ هَـٰذِهِ السُّورَة، ممَّا يَرْتَبِطُ ولَوْ بِوَجْهٍ مَا في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ.

أولاً: أَوْرَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذَا الدُّعَاءَ الَّذِي دَعَا بِهِ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، بَعْدَ أَنْ أَبَانَ أَنَّهُ قَدْ أَغْرَقَ قَوْمَهُ، باسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ في السَّفِينَةِ مُؤْمِنِين.

ثانياً: سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورة (هود/ ٥٢ نزول) بَيَانُ أَنَّه أَوْحَىٰ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا مَنْ آمن، فقد جاء فيها قَوْل اللهِ تَعالىٰ:

- ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾.

فَدَلَّ هـٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ قَضَاءَ اللهِ بالْإِغْرَاقِ لَمْ يَكُنْ اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، وإِنَّمَا هو قَضَاءٌ رَبَّانِيٌّ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ لِكُلِّ شيءٍ، وحِكْمَتِهِ في تَدْبِيرِ شُؤُونِ عِبَادِهِ، وعَلَىٰ مَا بَيَّنَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ في الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْمَوْجُودِينَ أَوْ ذَرَارِيهِمْ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ قَبْلَ هـٰذَا البيان، وهـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ انْتِهَاءِ الْحِكْمَةِ مِنْ بَقَائِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهِيَ الامْتِحان.

وَلِئَلَّا يَتَدَخَّلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَسْأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِمْهَالَ قَوْمِهِ، بدافِعٍ مِنْ رَحْمَتِهِ وحِلْمِهِ، على الرُّغْم مِنَ الْقُرُون الْعَدِيدَة الَّتِي صَبرَ عَلَيْهِمْ فيها قَالَ اللهُ لَهُ فِي هٰذَا النَّصّ من سورة (هود/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾: أي: وَلَا تُخاطِبْنِي طَالِباً إِمْهَالَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِكَ، إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ قَضَاءً مُبْرَماً لَا مَرَدَّ له.

مِنْ هٰذَا نُدْرِكُ أَنَّ دُعَاءَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدَّرْسِ الْأَخِير من سُورَة (نوح/ ٧١ نزول): ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ الطُّوفَانِ، وَلَمْ يَكُنْ خَاصّاً بِكُفَّارِ قَوْمِهِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ لَهُ بِشَأْنِهِمْ: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

مِنْ هٰذَا نُدْرِكُ أَنَّ هٰذَا الدُّعَاءَ قَدْ كَانَ بَعْدَ الطُّوفَانِ، وبَعْدَ اسْتِقْرَارِهِ هُو والَّذِينَ مَعَهُ مُؤْمِنِينَ عَلَىٰ اليابِسَة، بَعْدَ الرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ عَلَىٰ السَّفِينَةِ الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بِأَنْ يَصْنَعَهَا.

ويَبْدُو أَنَّهُ وَقَعَ في تَصَوُّرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام احْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ كُفَّارِ قَوْمِهِ نَجا مِنَ الْغرَقِ بارْتِقَاء جَبَلٍ عَالٍ لَمْ يَغْمُرْهُ الماء، أَوْ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ. فقَالَ:

- ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾:

أي: رَبِّ أَهْلِكْ جَمِيعَ كُفَّارِ قَوْمِي، وَلَا تَدَعْ في الحياةِ مِنْهُمْ أحداً.

- ﴿دَيَّارًا﴾: أي: أحداً. وهٰذَا اللَّفْظُ لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا في النفي، وهُوَ مِنْ «دَارَ يَدُور». وَأَصْلُ «دَيَّار» قَبْلَ التَّصْرِيف «دَيْوَار» عَلَىٰ وَزْن «فَيْعَال» قُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً وأُدْغِمَتْ فِي الياء.

- ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾:

أي: إِنَّكَ يَا رَبِّ إِنْ تَذَرْهُمْ أَحْيَاءً وأَنْجَيْتَهُمْ من الْغرَق، يُضِلُّوا

عِبَادَكَ في أَمَاكِنَ مِنَ الأَرْضِ لَمْ يَغْمُرْهَا الطُّوفان، وإِنْ تَوَالَدُوا فإِنَّهُمْ لَا يَلِدُونَ إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً، فتَجْرِبَتِي الطَّوِيلَةُ مَعَهُمْ كَشَفَتْ لي أَنَّهُمْ يَقْهَرُونَ ذَرَارِيَهُمْ عَلَىٰ اتِّبَاعِ طَرِيقَتِهِمْ، ويُحِيطُونَهُمْ بِبيئَةٍ فَاسِدَةٍ مُفْسِدَةٍ تَجْذِبُ كُلَّ نَاشِئٍ فيها ويَعيشُ بَيْنَ أفرادِهَا إِلَىٰ مَا هِي فِيهِ من شَرٍّ وكُلِّ قَبِيحٍ ومُنْكر، من فِكْرٍ، وخُلُقٍ، وقَوْلٍ وعَمَل.

• ﴿كَفُورًا﴾: الفاجِرُ المنْبَعِثُ بِقُوَّةٍ لارْتِكَاب الجرائم، والآثام، والْعِصْيَان، والفُسُوق والظلْم والطُّغْيَان.

• ﴿كُفَّارًا﴾: أي: مُبالِغاً في كُفْره، جُحُوداً للحق، وتَغْطِيَةً لِأَدِلَّتِهِ بِالْأَكاذيب، والمغالطات، والجدالِ بالْبَاطِل، المزَيَّنَةِ بِزُخْرُفٍ مِنَ القَوْلِ.

• ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾:

أخيراً تَذَكَّرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَوَيْهِ المؤمِنَيْنِ، وَتَذَكَّرَ سَائِرَ المؤمِنِينَ الَّذِينَ دَخلُوا بَيْتَهُ فِي بَلَدِهِ قَبْلَ الطُّوفان، ومِنْهُمْ مَنْ مَاتَ قَبْلَ الطُّوفان ولم يَرْكَبْ معه في الْفُلْكِ، ونظر إِلَىٰ مَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمِنِينَ والمؤمِنَاتِ، وإلى سَائِرِ المؤمنين والمؤمِنَاتِ، ونَظَرَ إِلَىٰ نَفْسِهِ عَلَيْهِ السَّلَام، ورَأَىٰ أَنَّ مُهِمَّتَهُ قَدِ انْتَهَتْ، ولَعَلَّهُ تَصَوَّرَ أَنَّ أَجَلَهُ قد اقْتَرَبَ فَقَال عَلَيْهِ السَّلَامُ دَاعِياً.

• ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾: فَبَدَأَ بِنَفْسِهِ إِذْ هِيَ الْأَحَقُّ بِدُعائِهِ، وسَأَلَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ تَقْصِيراتٍ فِي حَقِّ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، الَّتِي هو من أهلها.

• ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾: فَدَعَا أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِوَالِدَيْهِ الَّذِينَ مَاتَا عَلَىٰ الإيمان.

• ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾: فَدَعَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمغْفِرَة لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِناً، وَيَظْهَرُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَدْخُلُونَ بَيْتَهُ لِيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ أُصُولَ الدِّينِ وَشَرَائِعَهُ وأَحْكَامَهُ وتَطْبيقاتِهِ.

- ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۖ﴾: وَدَعَا بالمغفرة لِكُلِّ المؤمنين والمؤمِنَاتِ، وَهٰذَا تَعْمِيمٌ يَشْمَلُ كُلَّ المؤْمِنِينَ، بَعْدَ تَخْصِيصِ نَفْسِهِ، وَوَالِدَيْهِ، ومَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ مُؤْمِناً، وهُو بِقُوَّةِ تَكْرِيرِ الدُّعاء لِكُلِّ مَنْ سَبَقَ، مَعَ سَائِرِ المؤمنين.

ودَعَا عَلَىٰ الظَّالمِينَ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ التَّبَارُ الْهَلَاكُ. أي: زِدْهُمْ هَلَاكاً وَلَا تَزِدْهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ. وَأَرَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بالْهلاكِ الَّذِي هُوَ الموْت الْعَذَابُ المرافِقُ للإهْلَاكِ الَّذِي يَكُونُ لِلْمُجْرِمِين، فالمعْنَىٰ وَلَا تَزِدِ الظالِمِينَ إلَّا عَذَاباً.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر سورة (نوح) والحمد لله على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتوفيقه، ومنته، وفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

ملحق: مُستخرَجات بَلاَغيّة من السّورة

مِمَّا في سورة (نوح) من اختيارات بلاغية المستخرجات التاليّات:

(١) في عبارة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ... ①﴾ التوكيد بـ «إن ـ والجملة الاسمية ـ وضَمير المتكلِّم الْعَظِيم».

(٢) وفي عبارة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ②﴾ التوكيد بِـ «إِنَّ ـ والجملة الاسمية».

(٣) وفي عبارة: ﴿... وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ⑦﴾ تَوْكيد بالمفْعُول المطلق، مع إيجاز بالحذف، إذ التقدير: واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً مُسْرفاً شَنِيعاً.

(٤) وفي عبارة: ﴿... وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ٩﴾ توكيد بالمفْعُولِ المطلق مع إيجاز بالحذف، إذِ التَّقْدير: وأسْرَرْتُ لَهُمْ إسْراراً شَدِيداً مُبالغاً فِيهِ، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ أَحْوالُ المسْتَكْبِرين.

(٥) وفي عبارة: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ١١﴾ إطْلَاق السَّماءِ وإرادة المطَرِ الّذي يَنْزِلُ مِنها، وهو من المجاز المرسل، وفي اختيار فعل «يُرْسِل» بَدَلَ «يُنْزِل» إرْدَافٌ عِنْدَ عُلماءِ البديع.

(٦) وفي عبارة: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٤﴾ إيجازٌ بالحذف، أي: وقد خَلَقَكُمْ خلْقاً مُتطَوِّراً أطْواراً، طَوْراً، فطَوْراً.

(٧) وفي عبارة: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ١٥﴾ خُرُوج للاسْتِفْهام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ، إلَى مَعْنَىٰ لَفْتِ النظر، والْحَثِّ على الرُّؤية.

(٨) وفي عبارة: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧﴾ إيجاز بالحذف، والتقدير: والله أنبت مادَّة بناء أجسادِكُمْ من الأرض نباتاً مُتْقَناً، فَكَانَ غِذَاءً، فكان دَماً، فكان نُطفاً، فكانَتْ أجِنَّةً، فَكَانَتْ أَنَاسِيَّ مُكْتَمِلَةً.

(٩) وفي عبارة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ١٩﴾ الإيجاز بالحذف والتَّشبيه الْبَلِيغُ، والتقدير: واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مَوَاضِعَ كَثِيرةً في الْأَرْضِ الَّتِي تَعِيشُونَ عليها، وكُلُّ مَوْضِعٍ مِنْهَا كالْبِسَاط.

(١٠) وفي عبارة: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ٢١﴾ إطْلَاقُ المسَبَّبِ وإرادة السَّبب، وهو من المجاز المرسل، والتقدير: واتَّبعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلَّا عِصْيَاناً وَكُفْراً، وَفَسَاداً وإفْساداً، وضَلَالاً وإضْلَالاً، سَبَّبَتْ لَهُ خَساراً عَظِيماً عِنْدَ رَبِّهِ.

(١١) وفي عبارة: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾: إطْلَاقُ التَّبار ومَعْنَاهُ الْهَلَاكُ، والْهَلَاكُ الْمَوْتُ، وَإرادَةِ مَا هُو سَببُهُ مِنْ عَذَابٍ يَكُونُ عِنْدَ إهْلَاكِ

الْمُجْرِمِينَ. وهـٰذَا مِنْ إطْلَاقِ الْمُسَبَّبِ وإرَادَةِ سَبَبِهِ وهو العذابُ الْمُهْلِك، وهُوَ من المجاز المرسَل.

وأكْتَفِي بهـٰذِهِ المسْتَخْرَجَاتِ الْبَلاغية من سورة (نوح)

وبهـٰذَا تَمَّ مَا فتح اللهُ بِهِ عَلَيّ حَوْل هـٰذِهِ السُّورَةِ العظيمة مِنْ تَدَبُّر وَمُسْتَخْرَجَاتِ مِنَ البلاغة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

خاتمة المجلّد الثالث عشر من كتاب معارج التّفكُّرِ وَدَقَائِق التّدبّر

كتَبْتُ هـٰذَا المجلّدِ بِفَضْلِ اللهِ الْوَهَاب وَمَعُونَتِهِ وفَيْضِ عطائِهِ، انْتِزَاعاً مِنْ بَرَاثِنِ الْمَرَضِ، والْعِلَاجِ الْيَوْمِيِّ بِوَخزَاتِ الإِبَر في الْعَضَلِ صَبَاحاً ومَساءً، إذْ يَجْعَلُنِي طريحاً عَلَىٰ السَّرِيرِ أو عَلَىٰ الْبِسَاطِ، لَا أَقْوَىٰ عَلَىٰ عَمَلِ ما مُعْظَم الوقت، فإبْرَةُ الصَّبَاحِ قَدْ تَطرَحُنِي خَمْسَ سَاعَاتٍ أَوْ أَكْثَرَ لَا أَقْوَىٰ فيها عَلَىٰ الْعَمَلِ وَلَكِنْ دُون آلآم، وَإِبْرَةُ أَوَائِلِ اللَّيْلِ قَدْ تَطْرَحُني إلى نَحْوِ صلاةِ الْفَجْرِ كذلك.

ومُقْتَطَفَاتٌ مِنَ الْوَقْتِ فِي الْأَثْنَاءِ كانَتْ تَشُدُّني فيها مَعُونَةُ اللهِ رَبِّي إِلَىٰ الْعَمَلِ بِعَجْزٍ جَسَدِيّ غَيْرِ مَصْحُوبٍ بِعَجزٍ فِكْرِي لِكِتَابَةِ صَفْحَةٍ أَوْ صَفْحَتَيْنِ أَو أكْثَرَ أحْيَاناً.

وَهـٰذَا الْعِلَاجُ هو مِنْ ظُهُورِ خَلْفٍ لِسَرَطَانِ الْقُولُون، الَّذِي أكْرَمَنِي اللهُ رَبِّي باستِئْصَالِ الظَّاهِرِ مِنْهُ في الْقُولون وَفي الكَبِد، عَلَىٰ يَدِ الماهِرِ البارِعِ، الجرَّاحِ العظيم، النَّصُوحِ النَّفَّاعِ: «البروفسور» الكبير الدكتور «خَلِيل سَلْمَان». والَّذي عُولجتُ بَعْدَه بالكِيماوِيّ سِتَّة أشْهرٍ بمُتَابعَةِ وَعِنَايَةِ وَمُرَاقبَةِ الاسْتِشَارِيّ الْأَلْمَعِيِّ النَّفَّاعِ الدُّكْتور «عَامر رَضْوي». أجزَل اللهُ مَثُوبَتَهُما، فِي أنفُسِهِمَا وفِيمَنْ يُحِبَّان، وَرزَقَهُما كَمالَ الْعَافِيَة حَتَّىٰ انْتِهَاءِ آجالِهِما في الحياة الدُّنْيَا، وكَمالَ الْعَافِيةِ في آخِرَتِهما، حَتَّىٰ يَنالَا المنازِلَ الرَّفِيعَةَ في جنَّاتِ عَدْنٍ بُلُوغاً إلى الفردوس الأعْلَىٰ.

والعلاج الذي أعالج به الآنَ من خَلْفِ السَّرَطان، إبَرٌ يَوْمِيّةٌ في الضُّحَىٰ وفي أوائل اللّيل، مع وَخَزَات إِبَرٍ أخْرَىٰ في مواعِيدَ محدَّدة، في خُطَّةِ الْعِلَاج المقترحة، وَمَا زِلْتُ أُعَالَجُ بهـٰذَا العلاج مُنْذُ أكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْهُر، إلَّا أَنَّ الانْطِرَاحَ الَّذِي كُنْتُ أُعَاني مِنْهُ مَعَ اسْتِعْمَالِ الْعِلَاجِ، قَدْ صَرَفَ اللهُ مُعْظَمَهُ عَنِّي بِعَطْفِهِ وَلُطْفِهِ.

فالْحَمْدُ كُلُّهُ للهِ رَبِّي عَلَىٰ ما ابْتَلَىٰ، وعَلَىٰ مَا وَهَبَ، وأدْعُوه بِتَضَرُّعٍ وَذُلٍّ وانْكِسَارٍ:

رَبِّ أَوْزِعْنِي، وأَعِنِّي، واقْضِ لي أَنْ أشْكُرَ نِعْمَتَك الَّتِي أنْعَمْتَ بها عَلَيَّ وعَلَىٰ مَنْ أُحِبُّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالحاً تَرْضَاهُ، وَأَنْ تُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَنْ تَجْعَلَنِي مِن أهْلِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَىٰ بِفَضْلِكَ، مَعَ خَاتَمِ النَّبِيّينَ والْمُرْسَلِينَ مُحَمّدٍ سَيّدِنَا وَسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ والآخِرِين ﷺ، وَعلى آلِهِ وصَحْبِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ أَجْمَعِين.

وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ كِتَابَةِ هـٰذَا المجلّد الثالث عشر، يوم الثلاثاء ١٩ ربيع الْأَوّل من سنة ١٤٢٤ هجرية و٢٠/٥/٢٠٠٣م.

وآخِرُ دُعَائي: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين، وسلامٌ على عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ.

عبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني

الفهرس

الموضوع الصفحة

(٦٤)

سُورة الدخان

٤٤ مصحف ٦٤ نزول

(١) نصُّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٧

(٢) مِمَّا وَرَدَ بشَأْن سورة (الدُّخان) ١٠

(٣) موضوع سورة (الدُّخان) ١١

(٤) دُروس سورة (الدُّخان) ١١

(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (١ ـ ٨) .. ١٣

- القراءات ١٤
- تَمْهيد ١٤
- التدبّر التحليلي ١٤

- ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ ١٤
- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ ١٥
- ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ ٢٠

(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (٩ ـ ١٦) .. ٢٢

- القراءات ٢٣
- تَمْهيد ٢٣
- التدبّر التحليلي ٢٣

الموضوع **الصفحة**

- ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩)﴾ ٢٣
- ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤)﴾ ٢٤
- ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦)﴾ ٢٧

(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (١٧ ـ ٣٣) ٢٨

- القراءات ٢٨
- تَمْهيد ٣٠
- التدبّر التحليلي ٣٠

- ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَٱعْتَزِلُونِ (٢١)﴾ ٣٢
- ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢)﴾ ٣٣
- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾ ٣٣
- ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩)﴾ ٣٦
- ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٢) وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ (٣٣)﴾ ٣٨

(٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (٣٤ ـ ٤٢) ٤٠

- تَمْهيد ٤١
- التدبّر التحليلي ٤١

الصفحة

الموضوع

- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٣٧)﴾ ٤٨
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾ ٤٩
- ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٤٢)﴾ ٥٠

(٩) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس من دُروس سورة (الدُّخان) الآيات من (٤٣ ـ ٥٧) ٥٣

ـ القراءات ٥٣

ـ تَمْهيد ٥٤

ـ التدبّر التحليلي ٥٤

- ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦)﴾ ٥٤
- ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾ ٥٦
- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٥٧)﴾ ٥٩

(١٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السادس من دُروس سورة (الدُّخان) الآيتان من (٥٨) و(٥٩) آخر السورة ٦٤

ـ تَمْهيد ٦٤

ـ التدبّر التحليلي ٦٥

- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨)﴾ ٦٥
- ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾ ٦٦

(١١) ملحق: مُسْتَخْرَجاتٌ بلاغيّة من سورة (الدُّخان) ٦٧

الموضوع **الصفحة**

(٦٥)
سُورة الجاثية
٤٥ مصحف ٦٥ نزول

(١) نصُّ السُّورَة وما فيها مِنْ فَرْشِ القراءات ٧٣

(٢) ممَّا ورَدَ بِشَأْن سورة (الجاثية) ٧٧

(٣) مَوْضوع سُورة (الجاثية) ٧٧

(٤) دُروسُ سُورَةِ (الجاثية) ٧٨

(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الأوّل من دُروس سورة (الجاثية) الآيات من (١ ـ ١١) ٨٠

- القراءات ٨٠
- تَمْهيد ٨١
- التدبّر التحليلي ٨٢

- ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (٢)﴾ ٨٢
- ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٣) وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٥)﴾ ٨٤
- ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ (٦) وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ (٧) يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (٩) مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)﴾ ٨٧
- ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾ ٩٤

(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني من دُروس سورة (الجاثية) الآيتان: (١٢) و(١٣) ٩٥

- تَمْهيد ٩٥
- التدبّر التحليلي ٩٥

- ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (١٢)﴾ .. ٩٥

الموضوع الصفحة

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ ٩٥

(٧) **التدبّر التحليلي للدّرْس الثَّالِثِ من دُروس سورة (الجاثية) الآيات من (١٤) و(١٥)** ٩٩

- **القراءات** ٩٩
- **تمْهيد** ٩٩

- ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤﴾ ١٠٠
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١٥﴾ ١٠٢

(٨) **التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع مِنْ دُروس سورة (الجاثية) الآيات من (١٦ ـ ٢٢)** ١٠٣

- **القراءات** ١٠٣
- **تمْهيد** ١٠٣
- **التدبّر التحليلي** ١٠٤

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٧﴾ ١٠٤
- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩﴾ ١٠٧
- ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحْمَةٞ لِّقَوْمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ ١١٠
- ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۢ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٢﴾ ١١١

(٩) **التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس مِنْ دُروس سورة (الجاثية) الآيات من (٢٣ ـ ٢٦)** ١١٤

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ١١٤
- تَمْهيد ١١٤
- التدبّر التحليلي ١١٥

- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ١١٥
- ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ١١٨
- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ١٢١

(١٠) التدبّر التحليلي للدّرس السّادس مِنْ دُروس سورة (الجاثية) الآيات من (٢٧ ـ ٣٥) ١٢٢

- القراءات ١٢٣
- تَمْهيد ١٢٤
- التدبّر التحليلي ١٢٤

- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ١٢٤
- ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ١٢٥
- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ١٢٧

(١١) التدبّر التحليلي للدّرس السّابع مِنْ دُروس سورة (الجاثية) الآيتان من (٣٦) و(٣٧) آخر السورة ١٣٣

الموضوع **الصفحة**

- تَمْهيد ١٣٣
- التدبّر التحليلي ١٣٣
- ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦﴾ ١٣٣
- ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧﴾ ١٣٣

(١٢) ملحق: مُسْتَخْرَجَات بلاغيَّة مِنْ سُورَةِ (الجاثية) ١٣٥

(٦٦)

سُورة الأحقاف

٤٦ مصحف ٦٦ نزول

(١) نَصُّ السُّورَة ومَا فِيها مِنْ فَرْشِ القراءات ١٤٣

(٢) مِمَّا وَرَدَ بِشَأْن سورة (الأحقاف) ١٤٨

(٣) موضوع سورة (الأحقاف) ١٤٨

(٤) دُروس سورة (الأحقاف) ١٤٩

(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الأول مِنْ دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (١ ـ ٣) ١٥٢

- القراءات ١٥٢
- تَمْهيد ١٥٢
- التدبّر التحليلي ١٥٢
- ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ ١٥٢
- ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ ١٥٣

(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثّاني من دُروس سورة (الأحقاف) الآية (٤) ١٥٤

- تَمْهيد ١٥٥
- التدبّر التحليلي ١٥٥
- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤﴾ ١٥٥

(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (٥) و(٦) .. ١٥٧

- تَمْهيد ١٥٧

الموضوع **الصفحة**

- التدبّر التحليلي ١٥٧

- ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ (٦)﴾ ... ١٥٧

(٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع من دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (٧ ـ ١٠) ١٥٨

- تَمْهيد ١٥٩

- التدبّر التحليلي ١٥٩

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ ١٥٩
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٨)﴾ ١٦٠
- ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)﴾ ١٦٣
- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠)﴾ ١٦٦

(٩) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (١١) و(١٢) ١٦٧

- القراءات ١٦٧

- تَمْهيد ١٦٧

- التدبّر التحليلي ١٦٨

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١)﴾ ١٦٨
- ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)﴾ ١٦٩

(١٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السادس من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان: (١٣) و(١٤) ١٧٢

- القراءات ١٧٢

- تَمْهيد ١٧٢

الموضوع الصفحة

- التدبّر التحليلي ١٧٢

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾ ١٧٢
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٤)﴾ ١٧٢

(١١) التدبّر التحليلي للدّرْس السّابع من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (١٥) و(١٦) ١٧٥

- القراءات ١٧٥

- تَمْهيد ١٧٦

- التدبّر التحليلي ١٧٦

- نُصوص وصِيَّةِ الله هـٰذَا الإنْسَان بوالِدَيهِ في القرآن ١٧٧

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾ ١٧٨
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ (١٦)﴾ ١٨٠

(١٢) التدبّر التحليلي للدّرْس الثامِن من دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (١٧ ـ ١٩) ١٨١

- القراءات ١٨١

- تَمْهيد ١٨٢

- التدبّر التحليلي ١٨٢

- ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٧)﴾ ١٨٣
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ (١٨)﴾ ١٨٤
- ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩)﴾ ١٨٥

(١٣) التدبّر التحليلي للدّرْس التاسع من دُروس سورة (الأحقاف) الآية (٢٠) ١٨٧

الموضوع **الصفحة**

- تَمْهيد ١٨٧
- التدبّر التحليلي ١٨٧
- ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ (٢٠)﴾ ١٨٧

(١٤) التدبّر التحليلي للدّرْس الْعَاشِر من دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (٢١ ـ ٢٦) ١٨٩
- القراءات ١٨٩
- تَمْهيد ١٩٠
- التدبّر التحليلي ١٩٠
- ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ (٢١)﴾ ١٩٠
- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٢)﴾ ١٩١
- ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ (٢٣)﴾ ١٩٢
- ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٢٥)﴾ ١٩٣
- ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٢٦)﴾ ١٩٤

(١٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الحادي عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (٢٧) و(٢٨) ١٩٥
- تَمْهيد ١٩٥
- التدبّر التحليلي ١٩٥
- ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (٢٧)﴾ ١٩٥
- ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٢٨)﴾ ١٩٦

الموضوع **الصفحة**

(١٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآيات من (٢٩ ـ ٣٢) ١٩٨

ـ تَمْهيد ١٩٨

ـ التدبّر التحليلي ١٩٨

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ١٩٩
- ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ ٢٠١
- ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ .. ٢٠٢
- ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ ٢٠٣

(١٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآيتان (٣٣) و(٣٤) ٢٠٥

ـ القراءات ٢٠٥

ـ تَمْهيد ٢٠٦

ـ التدبّر التحليلي ٢٠٦

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ ٢٠٦
- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ٢٠٧

(١٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع عشر من دُروس سورة (الأحقاف) الآية (٣٥) آخر السورة ٢٠٨

ـ تَمْهيد ٢٠٨

ـ التدبّر التحليلي ٢٠٨

- ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ٢٠٩

(١٩) مُلْحق: مُسْتَخْرَجات بلاغية من سورة (الأَحْقاف) ٢١٠

الموضوع **الصفحة**

(٦٧)
سُورة الذّارِيَات
٥١ مصحف ٦٧ نزول

(١) نصّ السورة ومَا فيها مِنْ فَرْشِ القراءات ٢١٥
(٢) موضوع سورة (الذّاريات) ٢١٨
(٣) دروس سورة (الذَّاريات) ٢٢٠
(٤) التدبّر التحليلي للدّرْس الأول من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (١ ـ ٦) ٢٢٢
ـ القراءات ٢٢٣
ـ تَمْهيد ٢٢٣
ـ التدبّر التحليلي ٢٢٣
• ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا (١)﴾ ٢٢٣
• ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا (٢)﴾ ٢٢٤
• ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا (٣)﴾ ٢٢٤
• ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا (٤)﴾ ٢٢٥
• ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ (٦)﴾ ٢٢٦
(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (٧ ـ ١٤) ٢٢٦
ـ تَمْهيد ٢٢٧
ـ التدبّر التحليلي ٢٢٧
• ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ (٧) إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ (٨)﴾ ٢٢٧
• ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ (٩)﴾ ٢٢٩
• ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ (١١) يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ (١٢)﴾ ٢٢٩
• ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ (١٣) ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ (١٤)﴾ ٢٣١
(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (١٥ ـ ١٩) ٢٣٢
ـ القراءات ٢٣٢

الموضوع **الصفحة**

- تَمْهيد ٢٣٢
- التدبّر التحليلي ٢٣٢
- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٥) ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (١٩)﴾ ٢٣٢

(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (٢٠ ـ ٢٣) ٢٣٥
- القراءات ٢٣٥
- تَمْهيد ٢٣٥
- التدبّر التحليلي ٢٣٥
- ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ ٢٣٥
- ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾ ٢٣٦

(٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (٢٤ ـ ٣٧) ٢٣٧
- القراءات ٢٣٨
- تَمْهيد ٢٣٨
- التدبّر التحليلي ٢٣٨
- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧)﴾ ٢٣٩
- ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾ ٢٤١
- ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾ ٢٤١
- ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٣٠)﴾ ٢٤٢
- ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ ٢٤٣
- ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧)﴾ ٢٤٣

الموضوع **الصفحة**

(٩) التدبّر التحليلي للدّرْس السّادِس من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (٣٨ ـ ٤٠) ٢٤٥

ـ تَمْهيد ٢٤٥

ـ التدبّر التحليلي ٢٤٥

- ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾ ٢٤٥

(١٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السابع من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (٤١) و(٤٢) ٢٤٦

ـ القراءات ٢٤٦

ـ تَمْهيد ٢٤٧

ـ التدبّر التحليلي ٢٤٧

- ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٤٧

(١١) التدبّر التحليلي للدّرْس الثّامِن من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (٤٣ ـ ٤٥) ٢٤٧

ـ القراءات ٢٤٨

ـ تَمْهيد ٢٤٨

ـ التدبّر التحليلي ٢٤٨

- ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ٢٤٨

(١٢) التدبّر التحليلي للدّرْس التاسع من دُروس سُورة (الذاريات) الآية (٤٦) ٢٤٩

ـ القراءات ٢٤٩

ـ تَمْهيد ٢٤٩

ـ التدبّر التحليلي ٢٤٩

- ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ٢٤٩

(١٣) التدبّر التحليلي للدّرْس العاشر من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (٤٧ ـ ٤٩) ٢٥٠

الموضوع **الصفحة**

ـ القراءات ٢٥٠

ـ تَمْهيد ٢٥٠

ـ التدبّر التحليلي ٢٥١

- ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ ٢٥١
- ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ (٤٨)﴾ ٢٥٢
- ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ ٢٥٣

(١٤) التدبّر التحليلي للدّرْس الحادي عشر من دُروس سُورة (الذاريات) الآيتان (٥٠) و(٥١) ٢٥٤

ـ تَمْهيد ٢٥٤

ـ التدبّر التحليلي ٢٥٤

- ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٥٠) وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٥١)﴾ ٢٥٤

(١٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني عشر من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (٥٢ ـ ٥٥) ٢٥٥

ـ تَمْهيد ٢٥٦

ـ التدبّر التحليلي ٢٥٦

- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ (٥٤) وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٥٥)﴾ ٢٥٦

(١٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث عشر من دُروس سُورة (الذاريات) الآيات من (٥٦ ـ ٦٠) آخر السورة ٢٥٨

ـ القراءات ٢٥٩

ـ تَمْهيد ٢٥٩

ـ التدبّر التحليلي ٢٥٩

- ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ (٥٦) مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ (٥٨)﴾ ٢٥٩

الموضوع الصفحة

- ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ٢٦٣

(١٧) ملحق: مستخرجات بَلاغِيَّة من سورة (الذّاريات) ٢٦٥

(٦٨)

سُورة الغاشية

٨٨ مصحف ٦٨ نزول

(١) نصُّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٢٧١

(٢) مِمَّا وَرَدَ بشَأْن سورة (الغاشية) ٢٧٢

(٣) موضوع سورة (الغاشية) ٢٧٢

(٤) دُرُوس سورة (الغاشية) ٢٧٣

(٥) التدبّر التحليلي للدَّرْس الأوّل من دُروس سُورة (الغاشية) الآيات من (١ ـ ١٦) .. ٢٧٤

ـ القراءات ٢٧٤

ـ تَمْهيد ٢٧٤

ـ التدبّر التحليلي ٢٧٥

- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ ٢٧٥
- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ . ٢٧٥
- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ ٢٧٧

(٦) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثاني مِنْ دُروس سورة (الْغَاشية) الآيات من (١٧ ـ ٢٠) ٢٨٠

ـ تَمْهيد ٢٨٠

ـ التدبّر التحليلي ٢٨٠

- ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ ٢٨٠
- ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ ٢٨٢

الموضوع الصفحة

- ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ ٢٨٢
- ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ ٢٨٣

(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث مِنْ دُروس سورة (الْغَاشية) الآيات من (٢١ ـ ٢٦) آخر السورة ٢٨٥

ـ القراءات ٢٨٦

ـ تَمْهيد ٢٨٦

ـ التدبّر التحليلي ٢٨٦

- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ ٢٨٦
- ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ ٢٨٨

(٨) ملحق: مستخرجات بلاغية من سورة (الْغَاشية) ٢٨٨

(٦٩)

سُورة الكهف

١٨ مصحف ٦٩ نُزول

(١) نَصُّ السُّورَةِ وما فيها من فرش القراءات ٢٩٣

(٢) مِمَّا وَرَد بِشَأْن سورة الكهف ٣١٠

(٣) موضُوع سُورَةِ (الكهف) ٣١١

(٤) دُروس سورة (الكهف) ٣١٢

(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الأول مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (١ ـ ٨) ٣١٤

ـ القراءات ٣١٥

ـ تَمْهيد ٣١٥

ـ التدبّر التحليلي ٣١٦

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ ٣١٦
- ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ ٣١٧

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا (٥)﴾ ٣١٨
- ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا (٨)﴾ ٣١٩

(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٩ ـ ٢٦) وفيه أربعة فصول ٣٢٣

الفصل الأول من قصة أصحاب الكهف (الآيات من ٩ ـ ١٢) ٣٢٣

ـ القراءات ٣٢٤

ـ تمْهيد ٣٢٤

قِصّة أصْحَاب الكهفِ أخْذاً مِنْ المؤرخين الموثوق بهم ٣٢٤

ـ التدبّر التحليلي ٣٢٥

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ ٣٢٦
- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا (١٠)﴾ ٣٢٧
- ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا (١١) ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا (١٢)﴾ ٣٢٨

الفصل الثّاني مِن قِصّةِ أصحاب الكهف الآيات من (١٣ ـ ١٦) ٣٣٠

ـ القراءات ٣٣٠

ـ تمْهيد ٣٣١

ـ التدبّر التحليلي ٣٣١

- ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى (١٣)﴾ ٣٣١
- ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا (١٤)﴾ ٣٣٢
- ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا (١٥)﴾ ٣٣٣

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ ٣٣٤

الفصل الثالث من قصّة أصْحَاب الكَهْف الآيتان (١٧) و(١٨) ٣٣٥

ـ القراءات ٣٣٦

ـ تَمْهيد ٣٣٧

ـ التدبّر التحليلي ٣٣٧

- ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ ٣٣٧
- ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ . ٣٣٩

الْفَصْلُ الرابعُ مِنْ قِصَّة أصْحَاب الكهف الآيات من (١٩ ـ ٢١) ٣٤١

ـ القراءات ٣٤١

ـ تَمْهيد ٣٤١

ـ التدبّر التحليلي ٣٤٢

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾ ٣٤٢
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ ٣٤٥

الفَصْل الخامس مِنْ قِصَّةِ أصْحَاب الكهف الآيات من (٢٢ ـ ٢٦) ٣٤٧

ـ القراءات ٣٤٧

ـ تَمْهيد ٣٤٨

ـ التدبّر التحليلي ٣٤٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾ ٣٤٨
- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾ ٣٥٠
- ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾ ٣٥٢

(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٢٧ ـ ٣١) ٣٥٤

- القراءات ٣٥٤
- تمْهيد ٣٥٥
- التدبّر التحليلي ٣٥٥

- ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ ٣٥٥
- ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ ٣٥٦
- ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ ٣٥٩
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ٣١﴾ ٣٦١

(٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٣٢ ـ ٤٤) ٣٦٤

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ٣٦٥

- تَمْهيد ٣٦٧

- التدبّر التحليلي ٣٦٨

• ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا (٣٣)﴾ ٣٦٩

• تقسيم قِصَّة هٰذين الرَّجُلَيْنِ إلىٰ ثلاثة فُصُولٍ وخاتِمة عَقِبها ....

الفصل الأَوَّل ٣٧٠

- مقدّمة ٣٧٠

- التدبّر التحليلي ٣٧٢

• ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ ٣٧٢

الْفَصْل الثاني ٣٧٥

• ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا (٤١)﴾ ٣٧٥

الفصل الثالث ٣٨٢

• ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣)﴾ ٣٨٢

- مُقَدّمة ٣٨٢

- التدبّر التحليلي ٣٨٤

التَّعْلِيق الْخِتامِيُّ ٣٨٥

• ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)﴾ ٣٨٥

الموضوع **الصفحة**

(٩) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٤٥ ـ ٥٠) ٣٨٦

ـ القراءات ٣٨٦

ـ تَمْهيد ٣٨٧

- ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ
فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا (٤٥)﴾ ٣٨٧
- ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا (٤٦)﴾ . ٣٩١
- ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا (٤٧) وَعُرِضُواْ
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم
مَّوۡعِدٗا (٤٨)﴾ ٣٩٢
- ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ
أَحَدٗا (٤٩)﴾ ٣٩٥
- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا (٥٠)﴾ ٣٩٩

(١٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السادس مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٥١ ـ ٥٣) ٤٠٢

ـ القراءات ٤٠٢

ـ تَمْهيد ٤٠٢

ـ التدبّر التحليلي ٤٠٣

- ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ
عَضُدٗا (٥١)﴾ ٤٠٣
- ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا
(٥٢) وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا (٥٣)﴾ ٤٠٤

(١١) التدبّر التحليلي للدّرْس السَّابع مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٥٤ ـ ٥٩) ٤٠٦

ـ القراءات ٤٠٦

الموضوع **الصفحة**

ـ تَمْهيد ٤٠٧

ـ التدبّر التحليلي ٤٠٨

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ . ٤٠٨
- ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ ٤٠٩
- ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ ٤٠٩
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ .. ٤١١
- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ ٤١٣

(١٢) التدبّر التحليلي للدّرْس الثامن مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٦٠ ـ ٨٢) ٤١٤

ـ القراءات ٤١٥

ـ تَمْهيد ٤١٨

ـ مَا جاء في الصّحِيحَيْنِ بِشأْن قِصّة مُوسَىٰ والخضر عليهما السلام ٤١٨

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ ٤٢١
- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ ٤٢٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (٧٤) ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾ ٤٣٠
- ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾ ٤٣٧

(١٣) التدبّر التحليلي للدّرْس التاسع مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٨٣ ـ ٩٩) ٤٤٤
- ـ القراءات ٤٤٤
- ـ تمْهيد ٤٤٧
- ـ التدبّر التحليلي ٤٤٨
- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣)﴾ ٤٤٨
- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤)﴾ ٤٤٩
- ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ ٤٥٠
- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)﴾ ٤٥٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ . . . (٩٩)﴾ ٤٥٥

(١٤) **التدبّر التحليلي للدّرْس العاشِر مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (٩٩ ـ ١٠٢)** ٤٦١

- ـ **القراءات** ٤٦١
- ـ **تَمْهيد** ٤٦١
- ـ **التدبّر التحليلي** ٤٦١
- ﴿. . . وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾ ٤٦١
- ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)﴾ ٤٦٢
- ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾ ٤٦٣
- ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)﴾ . ٤٦٣

(١٥) **التدبّر التحليلي للدّرْس الحادي عشر مِنْ دُروس سورة (الكهف) الآيات من (١٠٣ ـ ١١٠) آخر السورة** ٤٦٥

- ـ **القراءات** ٤٦٥
- ـ **تَمْهيد** ٤٦٦
- ـ **التدبّر التحليلي** ٤٦٦
- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا (١٠٦)﴾ ٤٦٦
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨)﴾ ٤٧١

الموضوع الصفحة

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا (١٠٩)﴾ ٤٧٢
- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا (١١٠)﴾ ٤٧٣

(١٦) ملحق: مُسْتَخْرَجات بَلاغِيَّة من سورة (الكهف) ٤٧٥

(٧٠)

سُورة النحل

١٦ مصحف ٧٠ نزول

(١) نَصُّ السُّورَةِ وما فيها من فرش القراءات ٤٨٣

(٢) موضُوع سُورَةِ (النّحل) ٤٩٩

(٣) دُروس سورة (النحل) ٥٠٠

(٤) التدبّر التحليلي للدّرْس الأول مِنْ دُروس سورة (النحل) الآيتان (١) و(٢) .. ٥٠٥

- القراءات ٥٠٥
- تَمْهيد ٥٠٦
- التدبّر التحليلي ٥٠٦

- ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾ ٥٠٦
- ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢)﴾ ٥٠٨

(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٣ ـ ٢٣) ٥١٠

- القراءات ٥١١
- تَمْهيد ٥١٢
- التدبّر التحليلي ٥١٣

- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣)﴾ ٥١٣
- ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤)﴾ ٥١٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٥) وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (٦) وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٧) وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٨)﴾ ٥١٦
- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ (٩)﴾ ٥٢٥
- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١)﴾ ٥٢٧
- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (١٢)﴾ ٥٢٩
- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ (١٣)﴾ ٥٣١
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (١٤)﴾ ٥٣٢
- ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥) وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ (١٦)﴾ ٥٣٤
- ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)﴾ ٥٣٥
- ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٨) وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ (١٩)﴾ ٥٣٦
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ (٢٠) أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ (٢١)﴾ ٥٣٧
- ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ (٢٣)﴾ ٥٣٨

(٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٢٤ ـ ٢٩) ٥٣٩

ـ القراءات ٥٣٩

الموضوع **الصفحة**

ـ تَمْهيد ٥٤٠

ـ التدبّر التحليلي ٥٤٠

• ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ ٥٤٠

• ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٧)﴾ ٥٤٢

• ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٢٨) فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾ ٥٤٤

(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٣٠ ـ ٣٢) . ٥٤٥

ـ القراءات ٥٤٥

ـ تَمْهيد ٥٤٦

ـ التدبّر التحليلي ٥٤٦

• ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣١) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٣٢)﴾ ٥٤٦

(٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٣٣) و(٣٤) ٥٤٩

ـ القراءات ٥٤٩

ـ تَمْهيد ٥٥٠

ـ التدبّر التحليلي ٥٥٠

• ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٣٣)﴾ ٥٥٠

• ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٤)﴾ ٥٥١

الموضوع **الصفحة**

(٩) التدبّر التحليلي للدّرْس السادس من دُروس سورة (النحل) الآية (٣٥) ٥٥١
- تَمْهيد ٥٥١
- التدبّر التحليلي ٥٥٢
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ ٥٥٢
(١٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السّابع من دُروس سورة (النحل) الآية (٣٦) ٥٥٤
- القراءات ٥٥٥
- التدبّر التحليلي ٥٥٥
- ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِى كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ ٥٥٧
(١١) التدبّر التحليلي للدّرْس الثّامن من دُروس سورة (النحل) الآية من (٣٧) .. ٥٥٧
- القراءات ٥٥٧
- تَمْهيد ٥٥٧
- التدبّر التحليلي ٥٥٨
- ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ ٥٥٨
(١٢) التدبّر التحليلي للدّرْس التّاسع من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٣٨ ـ ٤٠) ٥٥٩
- القراءات ٥٦٠
- تَمْهيد ٥٦٠
- التدبّر التحليلي ٥٦٠
- ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ ٥٦٠
- ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ ٥٦١
- ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ ٥٦٢

الموضوع **الصفحة**

(١٣) التدبّر التحليلي للدّرْس العاشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان من (٤١) و(٤٢) ٥٦٢
- القراءات ٥٦٣
- تَمْهيد ٥٦٣
- التدبّر التحليلي ٥٦٣
- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ٥٦٣

(١٤) التدبّر التحليلي للدّرْس الحادي عشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٤٣) و(٤٤) ٥٦٥
- القراءات ٥٦٦
- تَمْهيد ٥٦٦
- التدبّر التحليلي ٥٦٧
- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ٥٦٧
- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ٥٦٨

(١٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٤٥ ـ ٤٧) ٥٦٩
- القراءات ٥٦٩
- تَمْهيد ٥٦٩
- التدبر التحليلي ٥٧٠
- ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ٥٧٠
- ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ ٥٧٢

(١٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٤٨ ـ ٥٠) ٥٧٣

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ٥٧٣
- تَمْهيد ٥٧٤
- التدبّر التحليلي ٥٧٤

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)﴾ ٥٧٤

• ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾ ٥٧٥

(١٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٥١ ـ ٥٥) ٥٧٧

- القراءات ٥٧٧
- تَمْهيد ٥٧٧
- التدبّر التحليلي ٥٧٧

• ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١)﴾ ٥٧٨

• ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾ ٥٧٨

• ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)﴾ ٥٧٩

• ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ ٥٨٠

(١٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٥٦ ـ ٦٢) ٥٨١

- القراءات ٥٨١
- تَمْهيد ٥٨٢
- التدبّر التحليلي ٥٨٢

• ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾ ٥٨٢

• ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾ ٥٨٣

• ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)﴾ .. ٥٨٦

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٥٨٧
- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ٥٨٨

(١٩) التدبّر التحليلي للدّرْس السّادس عشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٦٣) و(٦٤) ٥٩٠

- القراءات ٥٩٠
- تَمْهيد ٥٩٠
- التدبّر التحليلي ٥٩١

- ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ ٥٩١
- ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٥٩٢

(٢٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السّابع عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٦٥ ـ ٧٢) ٥٩٣

- القراءات ٥٩٤
- تَمْهيد ٥٩٥
- التدبّر التحليلي ٥٩٥

- ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ٥٩٥
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ ٥٩٦
- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ٥٩٦
- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ٥٩٨

الموضوع الصفحة

- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ ٦٠٢
- ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ ٦٠٣
- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٦٠٥

(٢١) التدبّر التحليلي للدّرْس الثامن عشر من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٧٣ ـ ٧٦) ٦٠٦

- القراءات ٦٠٧
- تمْهيد ٦٠٧
- التدبّر التحليلي ٦٠٧

- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ٦٠٧
- ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ٦٠٨
- ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ٦٠٩
- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ ٦١٠

(٢٢) التدبّر التحليلي للدّرْس التاسع عشر من دُروس سورة (النحل) الآيتان (٧٧) و(٧٨) ٦١١

- القراءات ٦١١
- تمْهيد ٦١٢
- التدبّر التحليلي ٦١٢

- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ ٦١٢

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ ٦١٤

(٢٣) التدبّر التحليلي للدّرْس العشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٧٩ ـ ٨٣) ٦١٥

ـ القراءات ٦١٦

ـ تَمْهيد ٦١٦

ـ التدبّر التحليلي ٦١٦

- ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ ٦١٧
- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ .. ٦١٨
- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ ٦١٩
- ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ ٦٢٠

(٢٤) التدبّر التحليلي للدّرْس الحادي والعشرين من دُروس سورة (النحل) الآيات من (٨٤ ـ ٨٩) ٦٢٢

ـ القراءات ٦٢٢

ـ تَمْهيد ٦٢٣

ـ التدبّر التحليلي ٦٢٣

- ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤﴾ ٦٢٣
- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥﴾ ٦٢٤
- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧﴾ ٦٢٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ (٨٨)﴾ ٦٢٧
- ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَىۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ (٨٩)﴾ ٦٢٨

(٢٥) التدبّر التحليلي للدّرس الثاني والعشرين من دُروس سورة (النحل)

الآيات من (٩٠ ـ ٩٧) ٦٢٩
- **القراءات** ٦٣٠
- **تمْهيد** ٦٣٠
- **التدبّر التحليلي** ٦٣١
- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡىِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾ ٦٣١
- ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (٩٢)﴾ ٦٣٣
- ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٩٣)﴾ ٦٣٧
- ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٩٤) وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٩٦)﴾ ٦٣٨
- ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٩٧)﴾ ٦٤٢

(٢٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث والعشرين من دُروس سورة (النحل)

الآيات من (٩٨ ـ ١٠٥) ٦٤٣
- **القراءات** ٦٤٣

الموضوع **الصفحة**

- تَمْهيد ٦٤٤
- التدبّر التحليلي ٦٤٤
- • ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ ٦٤٥
- • ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾ ٦٤٦
- • ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ ٦٤٩
- • ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٠٥)﴾ ٦٥٠

(٢٧) التدبّر التحليلي للدّرس الرابعِ والعشرين من دُروس سورة (النحل)

الآيات من (١٠٦ ـ ١١١) ٦٥١

- القراءات ٦٥١
- تَمْهيد ٦٥١
- التدبّر التحليلي ٦٥٢
- • ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠٧)﴾ ٦٥٢
- • ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٠٩)﴾ ٦٥٥
- • ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)﴾ ٦٥٧
- تَعَرُّضُ أصْحاب الرسول لأنواعِ مِنَ التعذيب في مكّة ٦٥٧
- توجيه الرَّسُول من كَانَ يُعَذَّبُ من أصحابِهِ للهجرة إلى الحبشة ٦٥٧

الموضوع **الصفحة**

- ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾ ٦٥٨

(٢٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامسِ والعشرين من دُروس سورة (النحل)
الآيتان (١٢) و(١٣) ٦٦٠
ـ تَمْهيد ٦٦٠
ـ التدبّر التحليلي ٦٦٠
- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ . ٦٦٠
- ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١١٣)﴾ ٦٦٢

(٢٩) التدبّر التحليلي للدّرْس السادس والعشرين من دُروس سورة (النحل)
الآيات من (١١٤ ـ ١١٩) ٦٦٣
ـ القراءات ٦٦٤
ـ تَمْهيد ٦٦٤
ـ التدبّر التحليلي ٦٦٤
- ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)﴾ ٦٦٤
- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)﴾ ٦٦٥
- ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)﴾ ٦٦٧
- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ ٦٦٩
- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩)﴾ ٦٧٠

(٣٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السابع والعشرين من دروس سورة (النحل)
الآيات من (١٢٠ ـ ١٢٤) ٦٧٠

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ٦٧١
- تَمْهيد ٦٧١
- التدبّر التحليلي ٦٧١
- ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٢١) وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢)﴾ ٦٧١
- ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٢٣)﴾ ٦٧٤
- ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ (١٢٤)﴾ ٦٧٥

(٣١) التدبّر التحليلي للدّرْس الثامِنِ والْعِشْرِين من دُروس سورة (النحل)
الآيات من (١٢٥ ـ ١٢٨) آخر السورة ٦٧٦

- القراءات ٦٧٦
- تَمْهيد ٦٧٦
- التدبّر التحليلي ٦٧٦
- ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ (١٢٥)﴾ ٦٧٧
- ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ (١٢٦)﴾ ٦٧٩
- ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ (١٢٨)﴾ آخر السورة ٦٨٠

(٣٢) ملحق: مستخرَجات بلاغِيَّة من سورة (النحل) ٦٨١

(٧١)

سُورة نوح

٧١ مصحف ٧١ نزول

(١) نَصُّ السُّورَةِ وما فيها من فرش القراءات ٦٩٣

(٢) موضُوع سُورَةِ (نوح) ٦٩٥

(٣) دُروس سورة (نوح) ٦٩٥

الموضوع **الصفحة**

(٤) التدبّر التحليلي للدّرْس الأول من دُروس سورة (نوح) الآية (١) ٦٩٦
• ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١)﴾ ٦٩٦
(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني من دُروس سورة (نوح) الآيات من (٢ ـ ٤) ٦٩٨
ـ القراءات ٦٩٨
ـ تَمْهيد ٦٩٨
ـ التدبّر التحليلي ٦٩٨
• ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٢)﴾ ٦٩٨
• ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤)﴾ ٦٩٩
(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث من دُروس سورة (نوح) الآيات من (٥ ـ ٢٤) ... ٧٠١
ـ القراءات ٧٠٢
ـ تَمْهيد ٧٠٢
ـ التدبّر التحليلي ٧٠٣
• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا (٥) فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا (٧)﴾ ٧٠٣
• ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا (٩) فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا (١٠) يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا (١١) وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا (١٢)﴾ ٧٠٥
ـ ما يُسْتَفاد مِنْ دَعْوَةِ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ ٧٠٧
• ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا (١٣) وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا (١٤)﴾ ٧١٢
• ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا (١٥) وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا (١٩) لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا (٢٠)﴾ ٧١٤
• ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا (٢١) وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا (٢٢) وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا (٢٣) وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا (٢٤)﴾ ٧٢٢

الموضوع **الصفحة**

(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع من دُروس سورة (نوح) الآية من (٢٥) ٧٢٦
- القراءات ٧٢٦
- تَمْهيد ٧٢٧
- التدبّر التحليلي ٧٢٧
• ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥﴾ ٧٢٧
(٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس من دُروس سورة (نوح) الآيات من (٢٦ - ٢٨) آخر السورة ٧٢٨
- القراءات ٧٢٨
- تَمْهيد ٧٢٨
- التدبّر التحليلي ٧٢٩
• ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ ٧٣٠
(٩) مُلْحق: مُسْتَخْرَجت بَلاغِيَّةٌ مِن السّورة ٧٣٢
- خاتمة المجلّد الثالث عشر من كتاب: «مَعَارج التفكّر ودَقَائِق التَّدبُّر» ٧٣٥
- الفهرس ٧٣٧

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تفسيرٌ تدبُّريٌّ للقرآن الكريم بحسب ترتيب النُّزُول
وِفْقَ منهج كتاب «قواعد التَّدبُّر الأمْثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ»

المجلَّد الرَّابع عشر

تفسير سُوَر

إبراهيم/ ٧٢ الأنبياء/ ٧٣ المؤمنون/ ٧٤ السَّجْدَة/ ٧٥
الطُّور/ ٧٦ الملك/ ٧٧ الحاقّة/ ٧٨ والمعارج/ ٧٩

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

الطّبعَة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

جميع حقوق الطّبع محفوظة للمؤلّف

تُطلب جميع كتبنا من :
دَارُ القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَة إبراهيم

١٤ مصحف ٧٢ نزول

وهي سورةٌ مكّيةٌ كُلُّها

وقيل إلّا الآيتين (٢٨) و(٢٩) فَمَدَنيتان

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ
ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ
مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى
ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي
ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ
لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ
أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم
بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ
﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ

---

١ ـ • سَكَتَ أبو جَعْفَر على الأَلِفِ، واللاّم، والرّاءِ، فقرأَهَا: (أَلِفْ ـ لَامْ ـ رَا).

١ ـ • قرأ قُنْبُل، ورُوَيس: [سِرَاطِ]، وقرأَهَا خَلَفٌ عَنْ حَمْزَة بإِشْمَامِ الصَّادِ زايا.
وقرأها باقي القراء العشرة [صِرَاطِ] بالصّاد الخالِصَة.

١ ـ ٢ • قرأ نَافع وابن عامر، وأَبُو جَعفر: [الْحَمِيدِ اللهُ] بِرَفع الهاء وصْلاً؛ وابتداءً.
وقرأها رُوَيس: بِرَفْعِها في الابْتداء وخَفْضِها في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء وَصْلاً وابْتِداءً.

أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ
أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ
وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟
أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ
يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ
أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾
۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ
رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن

---

٩ و١٠ • قرأ أبو عمرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكانِ السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رُسُلُهُمْ] بضمّ السّين.

١٠ ـ • قرأ ورش، وأبو جعفر: [وَيُوَخِّرَكُمْ] وصْلاً ووقفاً. وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَيُؤَخِّرَكُمْ] في الحالَيْن.

١١ ـ • قرأ أبو عمرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكانِ السّين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [رُسُلُهُمْ] بضمّ السين.

يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا
نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ
ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي
مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ
ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ
﴿١٤﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ
جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ
يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ
وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ
أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمۡ

---

١٢ ـ ● قرأ أبو عَمْرو: [سُبْلَنا] بإسْكانِ الباء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [سُبُلَنا] بضمّ الباء.

١٣ ـ ● قرأ أبو عمْرو: [لِرُسْلِهِمْ] بإسْكان السّين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِرُسُلِهِمْ] بضمّ السّين.

١٤ ـ ● قرأ يَعْقُوب: [وَعِيدِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.
وقرأها وَرْشٌ كذلِكَ في الوقف فقط. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَعِيدِ] بحذف ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

١٨ ـ ● قرأ نَافع، وأبو جَعْفَر: [الرِّيَاحُ] بالجمع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الرِّيحُ] بالإفراد.

تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ
وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ
لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا
فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا
ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ
﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ
ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن
دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن
قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

---

١٩ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ]**، وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: **[خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ]**.

١٩ - • قَرَأَ أبو جَعْفَر: **[إِنْ يَشَا]** في الوصل والوقف. وكذلِكَ حمزة، وهشام في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[إِنْ يَشَأْ]**.

٢٢ - • قرأ حفص: **[لِيَ عَلَيْكُمْ]** بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكَانِ: **[لِي عَلَيْكُمْ]**.

٢٢ - • قرأ حمزة: **[بِمُصْرِخِيِّ]** بِكَسْرِ الياءِ المشدّدة.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[بِمُصْرِخِيَّ]** بفتح الياء المشدّدة.

٢٢ - • قرأ أبو عمرو، وأبو جعفر: **[أَشْرَكْتُمُونِي]** بإثبات ياء المتكلم وصْلاً.
وكذلِكَ قرأها يَعْقُوب وصْلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَشْرَكْتُمُونِ]** بحَذْفِ ياء المتكلّم.

بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ
مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي
ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ
ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا
يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا
وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ
فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ

---

٢٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو: **[أُكْلَهَا]** بإسْكان الكاف.
وقَرأها باقي القرّاء العشرة: **[أُكُلَهَا]** بِضمّ الكَاف.
وهما لغتان.

٢٦ ـ • قرأ أبو عمْرو، وعَاصِم، وحمزة: **[خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ]** بِكَسْرِ التَّنوين. وَكَذلِكَ ابْنُ ذكْوان بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَكَذلِكَ يعقوب في الوصل. وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة بضمّ التنوين في الوصل، وهو الوجهُ الثاني لابن ذكوان.

٢٩ ـ • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبُو جعفر: **[وَبِيسَ]**.
وكذلك قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَبِئْسَ]**.

٣٠ ـ • قرأ ابْن كثير، وأبو عمْرو، ورُوَيْس: **[لِيَضِلُّوا]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[لِيُضِلُّوا]** وبين القراءتين تكَامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد.

٣١ ـ • قرأ ابْنُ عامر، وحمزة، والكسائي، ورَوْح: **[قُلْ لِعِبَادِيْ الَّذِينَ]** بإسكان ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي القراء العشرة بفَتْحِ ياء المتكلم.

ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ
لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن
تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ
﴿٣٤﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي
وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ
ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ
بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ

---

٣١ ـ • قرأ ابنُ كَثير، وأبو عمرو، ويَعْقُوبُ: [لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ]. وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ].
وهُمَا وَجْهَانِ نَحْوِيَّانِ جَائِزَان.

٣٥ ـ • قرأ هِشَام: [إِبْرَاهَامُ].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [إِبْرَاهِيمُ]. وهما نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ.

٣٧ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثيرٍ، وأبُو عَمرو، وأبُو جَعْفر: [إِنِّيَ أَسْكَنْتُ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ بالإِسْكَانِ.

٣٧ ـ • قرأ هشامُ بِخُلْفٍ عَنْهُ [أَفْئِيدَةً]، وقرأها باقي القراء العشرة [أَفْئِدَةً]. وهو الوجْهُ الثَّاني لِهِشام.

٣٧ ـ • قرأ حَمْزَةُ، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضَمّ هاء الضمير.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ].

تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ
إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى
ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ
ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾
رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾
وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا
يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ
يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ
نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ

---

٤٠ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو جَعْفر: **[دُعَائِي]** بإثبات ياء المتكلم وَصْلاً.

وَكَذلِكَ قرأها البزّي، ويَعْقُوب وصْلاً وَوَقْفاً، وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[دُعَاءِ]** وصْلاً ووقفاً.

٤٢ ـ • قرأ عَاصم، وابْنُ عَامر، وحمزة، وأبو جعفر: **[وَلَا تَحْسَبَنَّ]** بِفَتْحِ السّين.

وقرأها باقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَا تَحْسِبَنَّ]** بِكَسْرِ السّين.

وهُمَا لغتان لمعنًى واحد، وهو الظَّنُّ التوهُّمِيُّ الضعيف.

٤٤ ـ • قرأ أبو عمْرو: **[يَأْتِيهِمِ الْعَذَابُ]** بِكَسْرِ ميم «يأتيهم». وكَسْرِ الهاء قَبْلَهَا.

وقرأها حمزة، والكِسَائِي، ويعقوبُ، وخَلَف: **[يَأْتِيهُمُ الْعَذَابُ]** بِضَمِّ الهاء والميم بعدها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ]** بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم بَعْدَهَا.

ويَعْقُوبُ عَلَىٰ أَصْلِهِ في ضَمّ الْهَاءِ وقفاً.

مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ
وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ
ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ
تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ
﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾
سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ
كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا
بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ
أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

---

٤٦ ـ • قرأ الكِسَائِي: [لَتَزُولُ]. وقرأها باقي الْقُرَّاء العشرة: [لِتزولَ].

٤٧ ـ • قرأ عَاصِمٌ، وابْنُ عَامر، وحمزة، وأبُو جعفر: [فَلَا تَحْسَبَنَّ] بفتح السِّين. وقرأها باقِي القراء العشرة: [فَلَا تَحْسِبَنَّ] بِكَسْرِ السين. وسبق في الآية (٤٢) التوجيه.

(٢)

موضوع سورة (إبراهيم)

يَدُورُ مَوْضُوعُ سورة إبراهيم حَوْلَ بَيَانِ وَظِيفة القرآنِ وَوَظِيفَةِ الرَّسُول في النَّاس، وهِيَ إخْرَاجُ المسْتَجِيبِينَ مِنْهم مِنْ ظُلُمَاتِ الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلَالَاتِهِ اعْتِقَاداً وسُلُوكاً، إِلَىٰ نُورِ الْإيمانِ بالْحَقِّ الرَّبَّانِي وصِرَاطِهِ المسْتَقِيم اعْتِقَاداً وَسُلُوكاً. وبَيَانِ مُتَعَلِّقَاتٍ بهٰذَا الْخَطِّ العظيم تَارِيخيًّا وَتَرْبَويًّا وَفِكْرِيًّا تتَنَاوَلُ

عِدَّةَ قَضايا هِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ الدّينيَّةِ الكُبْرَىٰ، أو هِيَ مِنْ سُنَنِ اللهِ في عباده.

مع تَبْشِير المؤمنين، وإنْذَارِ الْكَافِرِينَ.

(٣)

دُرُوسُ سورة (إبراهيم)

ظَهَرَ لِي أَنَّ هَـٰذِهِ السُّورَةَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ تِسْعَةِ دُروس، وهي على الوجه التالي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٤).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بيانُ وظيفة القرآن، ووظيفَة الرَّسُولِ فِي النَّاسِ، وَهِيَ إخْرَاجُ المستَجِيبينَ مِنْهُمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ؛ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور، أي: من ظُلُمات الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلاَلاَتِهِ اعْتِقَاداً وسُلُوكاً، إلىٰ نُورِ الإيمانِ بالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ وصِرَاطِهِ المسْتَقِيمِ، اعتقاداً وسُلُوكاً.

وفيها وَعِيدُ الكافِرِينَ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ، لأَنَّهُمْ آثَرُوا الحياة الدُّنيا علىٰ الآخِرَة، ولِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَلَىٰ إضْلَالِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ، وإبْعَادِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ.

وفيها بيانُ أنَّ اللهَ جلَّ جَلاَلُهُ مَا أَرْسَلَ في تَارِيخ البشريَّة مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ، فمحَمَّدٌ ﷺ أرْسَلَهُ اللهُ بِلِسَانِ قومه الْعَرَبِ.

الدرس الثاني: الآيَات من (٥ ـ ٨).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ بأنَّ اللهَ جَلَّ جَلاَلُهُ أرْسَل مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بآيَاتِهِ البيانيَّة، وَكَلَّفَه أَنْ يُخرِجَ قَوْمَهُ (أي: مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُ مِنْهُمْ) مِنَ الظُّلَمَاتِ إلَى النور. وأَنْ يُذَكِّرَهُمْ آناً فَآناً بأَيَّامِ اللهِ.

وفيها بيانُ بَعْضِ مَا قَالَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِقَوْمِهِ بَنِي إسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ أنجاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ آلِ فِرْعَونَ.

الدرس الثالث: الآيَات من (٩ ـ ١٨).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ إبَّانَ التّنزيل، وَلَا سِيمَا أئمّتُهُمْ الْمُضِلُّونَ الْمُعَانِدُونَ المسْتَكْبِرُون، وَفِي هَـٰذِهِ المعالَجَةِ تَذْكِيرُهُمْ بِمَا كَانَ لِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وثمود، والَّذِينَ من بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إلَّا الله، وبيان ما كان منهم مِنْ جَدَلِياتٍ لِرُسُلِهِم، وَكَيْفَ أَنَّ الله بَعَدْلِهِ عَذَّبَهُمْ وأَهْلَكَهُمْ إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، مع ما أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ أبَدِيٍّ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ القيامة، وَكَيْفَ خَابَتْ أَعْمَالُهُمْ.

وتنطبقُ هذه المعالجةُ عَلَىٰ أمْثَالِهِمْ في كُلِّ عَصْرٍ لَاحقٍ.

الدرس الرابع: الآيات من (١٩ ـ ٢٣).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ خطابٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ صَالِحٍ للخطابِ بأنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض بالحقِّ قادِرٌ علىٰ أَنْ يَذْهَبَ بالنَّاسِ جَمِيعاً وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيد، أي: فالْبَعْثُ الموعُودُ بِهِ حَقٌّ.

وفيها انتقال سَرِيعٌ لِتَقْدِيمِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ.

وَفِيها عَرْضُ حِوارٍ بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا ضُعَفَاء أَتْبَاعاً لِأَئِمَّتِهِم الَّذِينَ كانُوا في الدُّنيا مُسْتَكْبِرِين، وفي هـٰذَا الْحِوَارِ مَعْنَىٰ الْخُصُومَة.

وفيها ما يُجِيبُ بِهِ الشَّيْطَانُ مَنْ ضَلُّوا بِوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلاته، إذْ يَقُول لهم: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.

وفيها بيانُ إِدْخَالِ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تحتها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها بإذْن رَبِّهِمْ.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٤ ـ ٢٦).

وفي آيات هذا الدّرس بَيَانُ مَثَلِ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، وَمَثَلِ كَلِمَةٍ خَبِيثَة.

الدرس السادس: الآيات من (٢٧ ـ ٣٠).

وَفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ، بَيَانُ تَثبيتِ اللهِ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الدُّنْيَا وفي الْآخِرَة.

أمَّا الظَّالِمُونَ الْكَافِرُونَ فَلَا تَثْبيتَ لَهُمْ، بَلْ يُضِلُّهُمُ اللهُ، فقد بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ بقيادَتِهِمْ لَهُمْ دَارِ الْبَوَار (وهُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الْأَبَدِيُّ) وهي جَهَنَّم، ومِنْ تَضْلِيلِهِمْ أَنَّهُمْ جعَلُوا للهِ أَنْدَاداً شُرَكَاءَ لَهُ.

الدَّرْس السّابع: الآيات من (٣١ ـ ٣٤).

في آيات هـٰذَا الدَّرسِ ما يلي:

(١) أمَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ بأنْ يأمُرَ عِبَادَ اللهِ المؤمنينَ بأنْ يقيموا الصلاة، وبأنْ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ الله.

(٢) بيان أنّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الرَّزَاقُ من السّماء، وهُو المسَخِّرُ لِلْفُلْكِ، والمسَخِّرُ لِلأَنْهارِ، وللشَّمْسِ والقمر دائبيْنِ، ولِلَّيْلِ والنَّهارِ، وهو الذي آتاهُمْ ممَّا سَأَلُوه.

(٣) ذَكَّرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ النَّاسَ بأنَّهُمْ إنْ يَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا يُحْصُوها، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ الإنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّار.

الدَّرْس الثامن: الآيات من (٣٥ ـ ٤١).

وفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ أدْعِيَةٍ دَعَا بها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام في مُنَاسَبَاتٍ وأزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، تَذْكِيراً لِلْمُعَالَجِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، بما كان عَلَيْهِ أَبُوهُمْ إبراهيمُ وَوَلَدُهُ إسْمَاعِيلُ عَلَيْهِما السَّلَامُ من نَبْذٍ للأصْنام، وَمُقَاوَمَةٍ لَها.

الدَّرْس التاسع: الآيات من (٤٢ ـ ٥٢) آخر السورة.

وفِي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ عِلْمِهِ بِمَا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، وَأَنَّهُ يُؤَخِّرُهُمْ إلى يوم القيامة.

وَفِيهَا تكليفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمَّداً ﷺ أنْ يُنْذِر كُفَّارَ قَوْمِهِ باحْتِمَال أن يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَذَاباً مُهْلِكاً لهم، مَعَ بَيَانٍ عَنْ عَذَابِ يَوْم القيامة.

وفي الآية الْأَخِيرَة تَعْرِيفٌ عَامٌّ بِشأْنِ الْقَضَايَا الَّتِي جاءت في السُّورَةِ.

* * *

(٤)

التدبر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (١ ـ ٤)

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ① ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ③ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ④﴾:

القراءات:

(١) • سَكَتَ أبو جعفر على الألف، واللّام، والراء، فقرأها «ألف ـ لاَم ـ را».

(١) • قرأ قُنْبل، ورُويس: [سِرَاطِ]. وقرأها خلف عَنْ حمزة بإشْمَام الصاد زاياً.

وقرأها باقي القراء العشرة: [صِرَاطِ] بالصّاد الخالِصَة.

(١ ـ ٢) ● قرأ نَافع وابْنُ عامر، وأَبُو جَعفر: [**الْحَمِيدِ اللهُ**] بِرَفع الهاء وصْلاً؛ وابتداءً. وقرأها رُويس: بِرَفْعِها في الابْتداء وخَفْضِها في الوصل. وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء وَصْلاً وابْتِداء، على أنها بَدَلٌ من العزيز الحميد.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بيانُ وظيفةِ القرآنِ، وَوَظِيفَةِ الرَّسُول ﷺ فِي النّاس، وهِي إخْرَاجُ المستجيبين منْهم لدعوة الحقّ الرَّبَّانية، مِنَ الظُّلُماتِ إلَىٰ النّور، أي: من ظُلُمَاتِ الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلَالاتِهِ اعتقاداً وسُلُوكاً، إلى نُور الإيمانِ بالْحَقِّ الرَّبَّانِيّ، وصراطه المستقيم اعتقاداً وسُلُوكاً.

وفيها وَعِيدُ الكافرين بعذابٍ شَديدٍ، لأَنَّهُمْ آثَرُوا الحياة الدُّنيا عَلَىٰ الآخِرَة، ولأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ على إضْلَالِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لهم، وإبْعَادِهم عَنْ سَبِيلِ الله.

وفِيهَا بَيَانُ أنَّ اللهَ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ مَا أَرْسَلَ في تَارِيخ البشريَّةِ مِنْ رَسُولٍ إلّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ الَّذِينَ هُمْ في الصَّفِّ الْأَوَّلِ من المدْعُوِّين، فمحمَّدٌ ﷺ أَرْسَلهُ اللهُ بِلِسَانِ قَوْمِهِ الْعَرَب، لِيَحْمِلَ المستجيبونَ مِنْهُمْ رِسَالَتَهُ إلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِينَ بِلُغَاتِهِمْ.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ بضمير المتكلم العظيم:

● ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ① ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ . . . ②﴾.

● ﴿الٓرۚ﴾ هذه من الحروف المقطّعَةِ الواردة في أَوَائِلِ بَعْضِ السُّور،

وَقَدْ سَبَقَ بيانُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِها في أوّل سورة (القلم/ ٤ نزول) فَلْيُرْجَعْ إلَيْهِ.

- ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾: أي: مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ البيانيَّة، هُوَ كِتَابٌ أَنْزَلْنَا بَعْضَهُ إِلَيْكَ، وَسَنُنْزِلُ سَائِرَهُ، الَّذِي تَمَّ بِتَقْدِيرِنَا وَقَضَائِنَا أَنْ نُنْزِلَهُ، فَهُوَ بِحُكْمِ المنزَلِ، لأنَّ مَا قَضَىٰ اللهُ فِعْلَهُ مُسْتَقْبَلاً مُتَحَقِّقُ الْوُقُوعِ حَتْماً، وَمَا هُوَ مُتَحَقِّقُ الوقُوعِ مُسْتَقْبَلاً يَصِحُّ التعبيرُ عَنْهُ بأنَّهُ وَقَعَ.

مَنْ أَطْلَقَ قَذِيْفَةً بِتَسْدِيدٍ دَقِيقٍ جدًّا، يُقَالُ بِشَأْنِهِ أَصَابَ الْهَدَف، وَلَوْ كَانَتْ قَذِيفَتُهُ سَائِرَةً فِي الْجَوِّ لَمْ تَصِلْ بَعْدُ إِلَىٰ هَدَفِها.

- ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾:

أي: لتُخْرِجَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَتِكَ وَيَتَّبِعُ آيَاتِ هٰذَا الكتاب، مِنَ الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلَالَاتِهِ فِي الْفِكْرِ وَفِي السُّلُوكِ، الَّتِي تُشْبِهُ الظُّلُمَاتِ؛ إِلَىٰ الإيمَانِ بالْحَقِّ الْمُنَزَّلِ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِلَىٰ الالْتِزَامِ بِصِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم في الْفِكْرِ وفي السُّلُوكِ، وهُمَا يُشْبِهَانِ النُّور.

ففي استعمال الظُّلُماتِ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنْوَاعِ الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلَالَاتِهِ، واسْتِعْمَالِ النُّور للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الإيمانِ وصِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم الواحِدِ، اسْتِعَارَتَانِ أَصْلُهُمَا تَشْبِيهٌ حُذِفَتْ مِنْهُ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ وَوَجْهُ الشَّبَهِ والمشَبَّهُ، وبقِيَ المشَبَّهُ بِهِ، وَهُمَا الظُّلُمَاتُ والنور.

ولَمَّا كَانَ خُرُوجُ المستَجِيبينَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ عَملاً إِرَادِيًّا مِنْ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَكَانَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُهَيْمِناً عَلَىٰ كُلِّ الْوُجُودِ فِي كُلِّ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وفي كُلِّ تَصَارِيفِهِ، كَانَ تَمْكِينُ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ مِنَ الْقِيَام بِأَعْمَالِهِمْ خَاضِعاً لإذْنِهِ، فَجَاءَتْ عِبَارَةُ: **[بِإِذْنِ رَبِّهِمْ]** قَيْداً دَالًّا عَلَىٰ هٰذِهِ الحقيقة.

أَمَّا الْأَعْمَالُ الَّتِي تَظْهَرُ دُونَ تَوَسُّطِ ذِي إِرادَةٍ حُرَّةٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، فَهِيَ تَتِمُّ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ بِصِفَةٍ جَبْرِيَّةٍ، وَبِإِذْنِهِ إذا كان لَهَا قَانُونٌ ثَابت.

وَكُلُّ مَأْذُونٍ بِهِ أَوْ مَجْبُورٍ لَا يَتَحَقَّقُ فِي الْوَاقِعِ إِلَّا بِخَلْقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

- ﴿... إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾:

هَـٰذِهِ العبارة بَدَلٌ مِنَ النُّورِ، فَهِيَ كَاشِفَةٌ لِلْمُرَادِ بالنور، وأُعِيدَ الجارُّ ﴿إِلَىٰ﴾ لِتَوْكِيدِ أَنَّ المعْنِيَّ بالنُّورِ هُوَ صِرَاطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللهِ، الذي لَهُ مُلْك مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأرض.

لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، بِمُقْتَضَىٰ قراءة الجمهور، وجاءت القراءَةُ الأخرى بالرَّفْعِ عَلَىٰ الْقَطْعِ، وجَعْلِ لفظ الجلالَةِ خَبراً لِمُبْتَدإٍ محذوف، والتقدير: هُوَ اللهُ.

- ﴿... وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾:

«وَيْلٌ» كَلِمَةُ عَذَاب، وتُسْتَعْمَلُ فِي التَّحْذِيرِ والتَّهْدِيدِ، فَيُقَالُ لِمَنْ يُوَجَّهُ لَهُ الإِنْذَارُ: «وَيْلٌ لَكَ».

وَجَاءَتْ عِبارَةُ ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بَيَاناً لِلْمُنْذَرِ بِهِ الَّذِي جاءَ مُجْمَلاً فِي: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

ووَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكَافِرِينَ بِقَوله تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾:

جاء في هَـٰذِهِ الآيَةِ وصْفُ الْكَافِرِين ـ الْمُنْذَرِينَ بعَذَاب شديد في الآيَة السابقة ـ بثَلَاثِ صِفَات:

الصفة الأولى: أَنَّهُمْ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الآخِرَة، أي: يُحِبُّونَ الحياة الدُّنْيَا حُبًّا شَدِيداً وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَىٰ الآخِرَة.

ضُمِّنَ فِعْلُ «يَسْتَحِبُّونَ» معْنَىٰ فعل «يُؤْثِرُونَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحرف «على».

هَـٰذِهِ الصِّفَةُ تَجعَلُهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ المنزَّلَات، ويكْفُرُونَ بالجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ ويَوْمِ الدِّين، ويَكْفُرُونَ بِرُسُلِ اللهِ، تَعَلُّقاً بِمَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا وَزِينَاتِها.

الصِّفَةُ الثَّانية: أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، أي: يَمْنَعُونَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ اللهِ، ويَصْرِفُونَهُ عَنِ الاقتراب مِنْهُ، بِدِعَايَاتِهِمْ وَوَسَائِلِهِم التَّضْلِيلِيَّة، فَهُمْ ضَالُّونَ ومُضِلُّونَ.

الصفة الثَّالِثَة: أَنَّهُمْ يَبْغُونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُهُمْ في الْحيَاةِ وَسُبُلُ غَيْرِهِمْ سُبُلاً عِوَجاً، أي: عَوْجَاءَ غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ عَلَىٰ الحقّ والخير والْهُدَىٰ.

الْعِوَجُ: مصْدَر فِعْل «عَوِجَ، يَعْوَجُ، عِوَجاً» أي: مَالَ وانْحَرَفَ عَنِ الْحَقِّ والخير والْهُدَىٰ، **فالْعِوَجُ** بِكَسْرِ الْعَيْن عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ في الْأَشْيَاءِ المعْنَوِيَّة: الفكرِيَّة، والْقَوْلِيَّةِ، والنَّفْسِيّة، والسُّلُوكِيَّة.

أَمَّا الْعَوَجُ بفَتْح العين فهو: الْمَيْلُ والانعِطَافُ في الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُدْرَكُ بِالْحَوَاس، وهو أيضاً مَصْدَرُ: «عَوِجَ، يَعْوَجُ، عَوَجاً»، فَيُقَالُ: في القضيب عَوَجٌ، وفي الطَّرِيقِ عَوَجٌ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّهُمْ بِسَبَبِ اتِّصَافِهِمْ بِهَـٰذِهِ الصِّفَاتِ الْخَسِيسَاتِ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، فقال تَعَالَىٰ في آخِرِ الآيَةِ:

- ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ③﴾: أي: أُولَـئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ تَنَزُّلَاتِ الرَّحْمَةِ، المنْحَطُّونَ فِي الدَّرَكَاتِ: فِي ضَلَالٍ وَضَيَاعٍ بَعِيدٍ عَمَّا يُحَقِّقُ لَهُمُ النَّجاةَ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، الَّذِي يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِيهِ بِجَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجْرِمِينَ.

الضَّلَالُ المرادُ هُنَا هُوَ: الضَّيَاعُ في المتاهَاتِ والْمَهَالِكِ والْأَعْمَالِ الْبَاطِلَة وأنواعِ السُّلُوكِ الإجرامي.

ولمَّا كَانَ مِنَ الاعْتِرَاضَاتِ الَّتِي قَدْ يُوَجِّهُهَا الَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولُوا: لِمَاذَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ باللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، مَعَ ادّعَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ بأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، أَلَيْسَ مِنَ الْأَحْسَنِ أَنْ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانٍ أعْجَمِيٍّ أَوْسَعَ انْتِشَاراً في النَّاسِ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بضمير المتكلّم العظيم:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾:

أي: وَمَا أَرْسَلْنَا فيما سَبَقَ مِنْ تَارِيخ النَّاسِ مِنْ رَسُولٍ فِي قَوْمٍ، هُمْ قَوْمُهُ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِمْ، وَلَدَيْهِ اسْتِطَاعَةُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ دِينَ اللهِ وَمَا يُنْزِّلُ إِلَيْهِ مِن آياتِ كِتَابِهِ؛ مَا أَرْسَلْنَاهُ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَلْفَاظَ وَمَعَانِيَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ، وَلِيُبَيِّنَ لَهُمْ مَطْلُوبَاتِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ في الدِّين الَّذِي اصْطَفَاهُ للنَّاس.

وَالْمُؤَهَّلُونَ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ مِنْ قَوْمِهِ، مِنَ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُ مِنْهُمْ لِدَعْوَتِهِ، يَقُومُونَ بِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ لِلْأَقْوَام الْآخَرِينَ بِلُغَاتِهِمْ وأَلْسِنَتِهِمُ الَّتِي يَتَكَلَّمُونَ بِهَا، كَمَا فَعَلَ رُسُلُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّبْعُونَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَىٰ الْأَقَالِيم فِي جِهَاتِ الْأَرْضِ، فَخَاطَبُوا النَّاسَ بأَلْسِنَتِهِمْ، وَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ دِينِ رَبِّهم، بِبَرَكَةِ دَعْوَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ أَنْ يَتَكلَّمُوا بألْسِنَتِهِمْ، وَكَمَا فَعَلَ الدُّعَاةُ المؤهَّلُونَ مِنْ قَوْمِ محمّد ﷺ، إِذْ بَلَّغُوا دِينَ اللهِ لِلنَّاسِ بأَلْسِنَتِهِمِ الَّتِي تَعَلَّمُوهَا أَوْ كَانَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ بِها.

قَولُ الله تَعَالَىٰ:

- ﴿... فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ...﴾:

أي: وَبَعْدَ أَنْ يَقُومَ الرَّسُولُ أَوْ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ بالتَّبْلِيغِ المطْلُوب مِنْهُمْ، يَنْقَسِمُ المبَلَّغُونَ إلى قِسْمَيْن:

(١) الْقِسْمُ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وَهَؤُلَاءِ يُضِلُّهُمُ اللهُ بِمَشيئَتِهِ الحكيمة، أي: يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بالضَّلَالِ.

(٢) والْقِسْمُ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، وَهَؤلَاءِ يَهْدِيهِمُ اللهُ بِمَشِيئَتِهِ الحكيمَة، أي: يَحْكُمُ لَهُمْ بالْهِدَايَةِ.

وَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَةِ يَجْزِيهِ بِعِزَّتِهِ ضِمْنَ قواعِدِ الْعَدْلِ الحكيمة.

ومَنْ يَحْكُمُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ يَجْزِيهِ ثَواباً جَزِيلاً بِحِكْمَتِهِ، ضِمْنَ واسِعِ فَضْلِهِ وَفَيْضِ عَطاياهُ.

﴿... وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾: أي: وهو القويُّ الغالِبُ، الحكيمُ في عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرسِ الْأَوَّل من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتحِهِ.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُروس سورة (إبراهيم)
الآيات من (٥ ـ ٨)

قال الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ

شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

تمهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بآياتِهِ الْبَيَانِيَّة، وكَلَّفَهُ أَنْ يُخرِجَ قَوْمَهُ (أي: مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُ مِنْهُمْ)، مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَأَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ آناً فَآناً. فَوَظِيفَتُهُ مِثْلُ وَظِيفَةِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ، الَّتِي جاء بيانُهَا في الدرس الأوّل من هذه السُّورة.

وفيها بيانُ بَعْضِ مَا قَالَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيل بَعْدَ أَنْ أَنْجَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ آل فِرْعَوْنَ، وَهٰذَا مِنْ تَذْكِيرِهِمْ بِأَيَّامِ اللهِ الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بأَنْ يُذَكِّرَهُمْ بها.

التّدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بِضميرِ المتكلّم العظيم:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ...﴾: وَنُؤكِّدُ لَكُم أَيُّها المتَلَقُّونَ وَأَيُّها المعَالَجُونَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بعبارَة: **[لَقَدْ]** أَنَّنا بِحِكْمَتِنا وَسُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِنا أرسَلْنَا مُوسَىٰ مَصْحُوباً بِآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّة، كما أَرْسَلْنَا محمَّداً ﷺ إليكُم بِآياتِ الكتابِ المبينِ، فَسُنَّتُنَا فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ للنَّاسِ واحِدَة، إِذْ هِيَ الاختيارُ الأَحْكَمُ. «لَقَدْ» فيها مؤكِّدان: لامُ القسم، وحَرْفُ التحقيق.

• ﴿... أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ...﴾: أي: وأمَرْنَاهُ أمْراً تفْسِيرُهُ: أَنْ أَخْرِجِ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور، وهٰذَا نَظِيرُ قولِنَا لمُحمّدٍ ـ ﷺ ـ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، في الآية الأولى، فمَا سَبَقَ مِنْ تَدَبُّرٍ لهذا البيان يَنْطَبِقُ عَلَىٰ: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

• ﴿... وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ...﴾: يُرادَ بعبارَة «أيَّام الله» الأيَّامُ الْعُظمَىٰ الَّتِي أَهْلَكَ اللهُ بِهَا الجبابِرَة والكَفَرَةَ المجرمين، وأَنْجَىٰ فِيهَا رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلام وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ المؤمِنِينَ، ومِنْ هَـٰذِهِ الْأَيَّامِ: فَلْقُ الْبَحْرِ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام وَمَعَهُ بنو إسْرَائِيل، وَتَنْجِيَتُهُمْ بخَارِقٍ عجيبٍ لَمْ تَسْبِقْ لَهُ سَابِقَةٌ فِي تَاريخ النَّاسِ، وإغْرَاقُ فِرْعَوْنَ وَكُلِّ مَنْ مَعَهُ مِنْ آلِهِ وَجُنُودِهِ وجَيْشِهِ الكَبِيرِ الْمَجْمُوعِ مِنْ أَرْجَاءِ مِصْر.

ويَظْهَرُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيل وَهُمْ فِي التّيه، قَدْ بَعُدَ عَهْدُهُمْ بِخَارِقَةِ فَلْقِ الْبَحْرِ، حَتَّىٰ صَارَتْ غَيْرَ ذَاتِ حَيَاةٍ فِي ذَاكِرَاتهم، فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام بأنْ يُذَكِّرَهُمْ بِأَيَّام الله.

التذكير: إعَادَةُ ذِكْرِ مَا سَبَقَ الْعِلْمُ به، لإخْرَاجِهِ مِن مَرَاكِزِ المعْرِفَةِ الكامِنَة، إلى سَاحَةِ الذَّاكِرَةِ الحاضِرَةِ المؤثِّرَةِ في تَوْجِيهِ الإرادَة.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾: أي: إنَّ فِي إخْرَاجِهِمْ إخْرَاجاً فِكْرِيًّا مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَىٰ نُورِ الْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ الحقّ، وَفِي تَذْكِيرِهِمْ بِأيَّام اللهِ لَآيَاتٍ هَادِيَاتٍ إِلَىٰ تَثْبِيتِ الإيمان، وتَرْسِيخ الالْتِزَامِ بالإسْلَامِ، وَتَنْبِيهِ الإرادَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْعَاقِلَ الرَّشِيدَ؛ يَخْتَارُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنْيا؛ مَا يَجْعَلُهُ يَرْتَقِي في دَرَجَاتِ جَنَّاتِ النَّعِيم، رَغْبَةً في الْوُصُولِ إِلَىٰ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَىٰ مِنْهَا، بمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ قِيَاماً بِمَرَاضِي اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

وَلَا يَنْتَفِعُ مِنْ هَـٰذِهِ الْآيَاتِ الْهَادِيَاتِ الانْتِفَاعَ الْأَسْمَىٰ إِلَّا مَنْ يَتَحَلَّىٰ بِصِفَتَيْنِ جَلِيلَتَيْنِ:

الصِّفَة الْأُولَىٰ: أَنْ يَكُونَ صَبَّاراً، أَيْ: كَثِيرَ الصَّبْرِ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ النُّفُوسِ، الْمُحَقِّقَةِ لِمَرْضَاةِ اللهِ، مِنْ فِعْلِ الواجباتِ والمنْدُوبَاتِ وَنَوَافِلِ العبادات والْقُرُبَاتِ الخاليَةِ من الْغُلُوّ والابْتِداع، وتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالْمَكْرُوهَات، وَمَا هُوَ خِلَافُ الْأَوْلَىٰ، مِمَّا يُتَقَرَّبُ بِتَرْكِهِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالى، بِشَرْطِ عَدَمِ الْغُلُوّ والابْتِدَاعِ.

وكثيرَ الصَّبْرِ على المصَائِبِ وَالْمَكَارِهِ مِمَّا يَبْتَلِي اللهُ بِهِ عِبَادَه.

الصِّفَة الثّانية: أَنْ يَكُونَ شَكُوراً، أي: كَثِيرَ الشُّكْرِ لِرَبِّهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا العباد.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ الْمُنْعِمِ عَلَىٰ نِعَمِهِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ شيءٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ قَوْل.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديثَ عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾:

نَفَّذَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ مِنْ تذكير قومِهِ بَنِي إِسْرائيل، بأَيَّام اللهِ، بِدَليلِ أَنَّهُ ذَكَّرَهُمْ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ إِذْ أَنْجاهم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بإخراجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَفَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وَإِغْرَاقِ عَدُوِّهم وَجَيْشِهِ وَرَاءَهُمْ.

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ...﴾: أي: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ، حِينَ قَالَ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ لِقَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيل وَهُمْ فِي التِّيهِ، بَعْدَ أَنْ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدُ مُنْذُ خَرَجُوا مِنَ الْبَحْرِ بالخارِقَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْعَجِيبة.

- ﴿... ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ ... ﴿٦﴾﴾:

أي: ضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمُ الْحَاضِرَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَىٰ اخْتِيَارِ الأَعْمَالِ الْمُلَائِمَةِ لِمَا يَكُونُ حَاضِراً فَاعِلاً فِيها؛ نِعْمَةَ اللهِ الْعَظِيمَةَ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكُمْ، حِينَ أَنْجَاكُمْ مِنْ ظُلْمِ آلِ فِرْعَوْنَ لَكُمْ، بِإِخْرَاجِكُمْ مِنْ مِصْرَ في اتِّجَاهِ بَحْرِ سُوف، وَمُلَاحِقَةِ فِرْعَوْنَ بِجَيْشِهِ الكَبِيرِ لَهُمْ، وَفَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، حَتَّىٰ عَبَرُوا مِنْ مَكَانِ الْفَرْقِ على الْيَابِسَةِ، وَخَرَجُوا مِنَ الشَّاطِئِ الآخَرِ، وَعَبَرَ فِرْعَوْنُ بِجَيْشِهِ وَرَاءَهُمْ مِنْ مَكَانِ عُبُورِهِمْ، ثُمَّ لَمَّا كَانُوا جَمِيعاً في دَاخِلِ مَكَانِ الْبَحْرِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ مِنَ الماءِ، ضَمَّ اللهُ مَاءَ الْبَحْرِ عَلَيْهِم فَأَغْرَقَهُمْ جَمِيعاً، وَأَخْرَجَ اللهُ بَدَنَ فِرْعَوْن إِلَىٰ الشَّاطِئِ لِيَرَاهُ النَّاسُ صَرِيعاً.

وقَدْ كَانَ آلُ فِرْعَوْنَ في مِصْرَ يَفْعَلُونَ مَا يلي:

- ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾: أي: يُحَمِّلُونَكُمْ وَيُكَلِّفُونَكُمْ وَيُنْزِلُون بِكُمْ سُوءَ العذاب.

سُوءُ الْعَذَابِ: أَشَدُّهُ، وَشَاقُّهُ، وَمُؤْلِمُهُ، وأَكْثَرُهُ عُنْفاً وَظُلْماً. وهو من إِضَافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصوف، وأصل الكلام: الْعَذَابُ السُّوء.

والسُّوءُ: اسْمٌ جَامِعٌ لمختلف الآفَاتِ.

- ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾:

وَجَاءَ فِي سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) خِطَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها لِأَجْيَالِ بني إِسْرَائيل بقوله:

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾﴾.

يُلاحَظُ أَنَّهُ جَاءَ في سورة (إبراهيم/ ٧٢ نزول): ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾،

وفي سُورَة (الْأَعْرَاف/ ٣٩ نزول): ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، ويَظْهَرُ لي من هٰذَا التَّنْويعِ فِي الْبَيَانِ أَنَّ الْقَاعِدَةَ الْعَامَّةَ كَانَتْ تَذْبيحاً بِأَداةٍ حَدِيدِيَّةٍ حَادَّةٍ، كالسِّكِّين، ولَكِنْ إِذَا لَمْ تُوجَدْ أَدَاةٌ حَادَّةٌ كان الْقَتْلُ بأَيَّةِ وَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ، كَالْخَنْق، والضَّرْبِ بِحَجرٍ عَلَىٰ مَقْتل.

فالمعنى: ويُذَبِّحُونَ مَوالِيدَكُمْ مِنَ الذُّكُور، لِئَلَّا يَكْثُرَ رِجَالُكُمْ فَيَكُونُوا خَطَراً عَلَىٰ قُوَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ الْعَسْكَرِيَّة. وكانُوا يَسْتَبْقُونَ مواليِدَكُمْ مِنَ الْبَنَاتِ اللَّوَاتِي سَيَكُونُ مَصِيرُهُنَّ أَنْ يَكُنَّ نِسَاءً أَحْيَاءً، فَلَا يَذْبَحُونَهُنَّ، وَلَا يَقْتُلُونَهُنَّ بِوسِيلَةٍ أُخرىٰ.

يُقَال لغة: «اسْتَحْيَا الْأَمِيرُ الْأَسِيرَ» أي: اسْتَبْقَاهُ حَيًّا فَلَمْ يَقْتُلْهُ.

والغرضُ مِنِ اسْتِحْيَائِهِنَّ اسْتِعْبَادُهُنَّ، وَتَكْلِيفُهُنَّ الْخَدَمَاتِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، ومعْلُومٌ أَنّ كَثْرَةَ النِّسَاءِ لَا تُشَكِّلُ خطراً عَلَىٰ قُوَّةِ آل فِرْعَوْنَ الْعَسْكَرِيَّةِ فِي مِصْر.

إِطْلَاقُ كَلِمَةِ: «نِساء» على المواليد من البنات؛ هو مِنَ المجاز المرسَلِ، وهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ اللَّفْظِ عَلَىٰ الشَّيْءِ باعتبار مَا سَيؤُول إِلَيْهِ، والْغَرَضُ هُنَا الدَّلَالَةُ على أنَّ اسْتِحْيَاءَ الْبَنَاتِ يُرَادُ بِهِ أَنْ يَكُنَّ في المستقبل نساءً صَالِحَاتٍ للاسْتِعْبَادِ والْخَدَمَاتِ، وغَيْرِ ذَلِكَ.

وعبارة: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ مِنْ عَطْفِ الخاصّ على الْعَامِّ فيما يظهر، وهو: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، وَهٰذَا المعنَىٰ مُضَافٌ عَلَىٰ مَا جاءَ في سُورَةِ (الْأَعْرَافِ/ ٣٩ نزول)، إِذْ جاءَتِ العبارَةُ فِيها بَدَلَ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ، أَمَّا الْعَطفُ فَقَدْ يَحمِلُ مَعْنَىٰ التَّغايُرِ، فَيَكُونُ سُوءُ الْعَذَابِ شَيْئاً، وتَذْبِيحُ الْمَوالِيدِ الذُّكُورِ واسْتِعْبَادُ المواليد الْإِنَاثِ شيئاً آخَرَ.

• ﴿... وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ⑥﴾: أي: وفي ذَلِكُمُ الَّذِي جَرَىٰ لَكُمْ فِي مِصْرَ امْتِحَانٌ لَكُمْ عَظِيمٌ مِنْ رَبِّكُمْ، الَّذِي كَافَأَكُمْ عَلَىٰ الصَّبْرِ

عَلَيْهِ، بِأَنْ أنْجَاكُمْ بخارِقَةٍ عظِيمَةٍ، وبِأَنْ فَضَّلَكُمْ عَلَىٰ أهْلِ زَمَانِكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَان مَا قَالَهُ مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِقَوْمِهِ بَنِي إسْرَائِيلَ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾:

- ﴿تَأَذَّنَ﴾: أي: أَعْلَمَ.

- ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾: أيْ: أُقْسِمُ لَئِنْ آمَنْتُمْ وَأسْلَمْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ نِعَمِي عَلَيكُمْ.

المعنى: وَضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمُ الْعَامِلَةِ الْحَاضِرَةِ ذَاتِ الْأَثَرِ التوجيهيِّ، مَا أَعْلَمَكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ بِهِ حِينَ قَالَ لَكُمْ: أُقْسِمُ لَكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعَمِي عَليكُمْ بِالإيمان والإسْلَامِ، اعْتِرَافاً بِرُبُوبيَّتِي، وإذْعَاناً لإلَهِيَّتِي؛ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ نِعَمِي. وأُقْسِمُ لَكُمْ لَئِنْ كَفَرْتُمْ فَجَحَدْتُّمْ نِعَمِي وَوَحْدَانِيَّتِي في رُبُوبِيَّتِي وفي إلَهِيَّتِي؛ لَأُعَذِّبَنَّكُمْ ضِمْنَ أحْكَامِ الْعَدْلِ الَّتِي قَدَّرْتُهَا وَقَضَيْتُهَا فِي مُجَازَاتِي لِعِبَادِي، الذينَ وَضَعْتُهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلاء، إذْ جَعَلْتُهُمْ مُخَيَّرِينَ وَمُؤَهَّلِينَ للامْتحان الَّذِي أَمْتَحِنُهُمْ بِهِ.

دَلَّ هـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَبَقَ أنْ أعْلَمَ بَنِي إسْرَائِيل بما دلَّتْ عَلَيْهِ هـٰذِهِ الآية.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ مَا قَالَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لقوْمِهِ بَنِي إسرائيل:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾:

أي: وَقَالَ مُوسَىٰ ـ عَليهِ السَّلَام ـ لِقَوْمِهِ بَنِي إسْرَائِيلَ فِي بَعْضِ بيَانَاتِهِ

لَهُمْ وَهُمْ فِي التِّيهِ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ تَكْفُرُوا باللهِ وَبِكِتَابِهِ وَبِرَسُولَيْهِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ، وَبِمَا أَنْزَلَ مِنْ حَقَائِقَ دِينِيَّةٍ لِهِدَايَتِكُمْ، فإنَّكُمْ لَنْ تُؤَثِّرُوا عَلَىٰ اللهِ بِشَيْءٍ، لِأَنَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ وبِصِفَاتِهِ عَنْ إيمانِكُمْ بِهِ، وَبِأَيِّ شَيْءٍ طَلَبَ مِنْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ، وَهُوَ مَحْمُودٌ في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَلَا شَيْءَ في الْوُجُودِ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَمِنْ وَظَائِفِ الْمَلَائِكَةِ الدَّائِمَةِ أَنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُقَدِّسُونَ له.

جاءَتْ عِبارَة: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑧﴾ دَالَّةً بأسْلُوبٍ كِنَائِي، عَلَىٰ أَنَّ كُفْرَ كُلِّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَوِي الإراداتِ الْحُرَّة؛ لَا يُؤَثِّرُ عَلَىٰ اللهِ بِشَيْءٍ، فَهُوَ فِي ذَاتِهِ وفي صِفَاتِهِ غَنِيٌّ.

وَلفظ «حَميد» هنا «فعيل» بمعنَىٰ «مَفْعول». وقد جاء في البيانِ القرآني على أنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ، وأنّ الْمَلَائِكَةَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُقَدِّسُونَ له.

وقَدْ جَاءَ التعبيرُ عَنْ مَضْمُونِ هٰذَا القول الّذِي قالَهُ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِقَومِهِ بني إِسْرَائِيل، في سِتَّةِ نُصُوصٍ قُرآنِيَّة، مِنْهَا: ما سَبَقَ أَنْ جَاءَ في سُورَة (هود/ ٥٢ نزول) بياناً لِقَوْلِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

إِنَّ الْكَافِرِينَ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً لِأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَغَنِيٌّ حَمِيد.

وعبارة: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑧﴾ مُؤَكَّدَةٌ بالمؤكّدات.

«إِنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ ولام الابْتداء المزحْلَقَة لِخَبَرِ إنّ».

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرسِ الثاني من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد للهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (إبراهيم)

الآيات من (٩ ـ ١٨)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ
أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ
(٩) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ
رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا
كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١)
وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ
عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ
يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ
(١٧) مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ
لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨)﴾:

القراءات:

(٩ و١٠) ● قرأ أبو عمْرو: [**رُسْلُهُمْ**] بإسْكان السِّين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**رُسُلُهُمْ**] بضمّ السين.

(١٠) • قرأ وَرْشٌ، وأبو جعفر: **[وَيُوَخِّرَكُمْ]** وصْلاً ووقفاً.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَيُؤَخِّرَكُمْ]** وَصْلاً ووقفاً.

(١١) • قرأ أبو عمْرو: **[رُسْلُهُمْ]** بإسْكَانِ السِّين.

وقرأها باقِي القرّاءِ العشرة: **[رُسُلُهُمْ]** بِضَمِّ السّين.

(١٢) • قرأ أبو عَمْرو: **[سُبْلَنَا]** بإسْكانِ الباء.

وقرأها باقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سُبُلَنَا]** بضَمّ الباء.

(١٣) • قرأ أبو عَمْرو: **[لِرُسْلِهِمْ]** بإسْكَانِ السِّين.

وقرأها باقِي القرّاء العشرة: **[لِرُسُلِهِمْ]** بِضَمِّ السّين.

(١٤) • قرأ يعقوب: **[وَعِيدِي]** بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف. وقرأ ورشٌ كذلِكَ في الوقف فقط.

وقرأهَا بَاقِي القرّاءِ العشرة: **[وَعِيدِ]** بحذف ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

(١٨) • قرأ نَافع، وأبو جَعْفر: **[الرِّيَاحُ]** بالجمع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[الرِّيحُ]** بالإفراد.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلْكَافِرِينَ إبَّانَ التنْزيل، ولا سيما أئمَّتُهُمُ الْمُضِلُّونَ المعَانِدُونَ المسْتَكْبِرُونَ، وفي هَـٰذِهِ المعالَجَةِ تَذْكِيرُهُمْ بِمَا كَانَ لِقَوْمِ نُوحٍ وعادٍ وثمود، والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إلَّا اللهُ، وبيانُ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِن جَدَلِيَّاتٍ لِرُسُلِهِمْ، وَكَيْفَ أنّ الله بِعَدْلِهِ عَذَّبَهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ إهْلَاكَ اسْتِئصالٍ، مع ما أعَدَّ لَهُمْ من عَذَابٍ أَلِيمٍ أَبَدِيٍّ في جهَنَّم يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَيْفَ خابَتْ أَعْمَالُهُمْ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخاطبُ الكَفَرَةَ المعالَجِينَ إبَّانَ التنزيل، وهو موجَّهٌ دواماً لكُلِّ أمْثَالِهم:

• ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾:

• ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾؟: اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ تقريرُهم على الْإِثْبَاتِ، أي: بَلَىٰ لَقَدْ أَتَاكُمْ، والْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِلْكَافِرِينَ.

• ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: أي: نَبأُ إهْلَاكِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ، وَهُوَ خَبَرٌ عَظِيمٌ ظَاهِرٌ، يُحَرِّضُ نُفُوسَ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ لِلاسْتجابَةِ لِدَعْوَةِ الحقِّ، الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا رَسُولُ رَبِّكُمْ.

• ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾: وقَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ تَفْصِيلُ لقَطَاتٍ مُتَكَامِلَاتٍ مِنْ قِصَصِهِمْ مَعَ رُسُلِ رَبِّهم، وَكَانَ كُفْرُهُمُ الْعِنَادِي الْأَحْمَقُ سَبَبَ تَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

• ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: وَقَدْ سَبَقَ أن جَاءَ الْبَيَانُ عَنْهُمْ مجملاً في قول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (غافر/ ٦٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٧٨﴾.

ومعلومٌ أنَّ الَّذِينَ لَمْ يَقُصَّ اللهُ نَبأً مُفَصَّلاً عَنْهُمْ مِنَ الرُّسُلِ قَدْ أُرسِلُوا إلَىٰ أَقْوَام لَمْ يَقُصَّ اللهُ عَنْهُمْ نَبأً، فَهُمْ لَا يَعْلَمُهُمْ مِنْ كُتَّابِ تاريخِ النَّاسِ أو رُواته أَحَدٌ، لكنَّ اللهَ يعلمهم عِلْماً شَامِلاً، وفيما أنبأَ به كِفَايَةٌ عمَّا لَمْ يُنْبِئْ به.

• ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي: جاءتْهُم رُسُلُهُم الْمُرْسَلُونَ إِلَيْهِم مِنْ رَبِّهِمْ، مَصْحُوبِينَ بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الواضِحَاتِ، وهِي قسمان:

الأَوَّل: خوارقُ عَادَاتٍ وَمُعْجِزَاتٌ كُبْرَىٰ مُثْبِتَاتٌ صِدْقَ رُسُلِ رَبِّهِمْ.

الثاني: آيَاتٌ بَيَانِيَّةٌ كَلَامِيَّةٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ أُصُولِ الدِّينِ وقواعِدِه وَأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، وَمَطْلُوبَاتِ اللهِ مِنْ عِبادِهِ فِي حياة الامْتِحَان، مع مَا يرافِقُها مِنْ وسَائِلِ إقْنَاعٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيب وتَرْبِيَةٍ.

• ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: هَـٰذِهِ العبارة دَلَّتْ بأسْلُوبِ الكِنَايَةِ، عَلَىٰ أَنَّ أَقْوَامَ الرُّسُلِ رَفَضُوا الاستماعَ لِبَيَانَاتِهِمُ الدَّاعِيَةِ إلى دِينِ اللهِ الْحَقّ، لِأَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِكُفْرِيَّاتِهِمْ، وأنْوَاعِ سُلُوكِهِمْ الْمُلَائِمَةِ لِكُفْرِيَّاتِهِمْ، وَمَفْهُومَاتِهِم الْبَاطِلَاتِ، وَتَعَلُّقِهِمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَاتِها، وَإِيثَارِهِمْ إِيَّاهَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ.

إِنَّ مُحَدِّثَ النَّاسِ بِشَأْنِ قَضَايَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وهو واقِفٌ بَيْنَهُمْ؛ يَسْتَعْمِلُ فِي الْغَالِبِ يَدَيْهِ لِلَفْتِ أنْظارِهِمْ إِلَىٰ أَقْوالِهِ ومَعَانِيهَا، في الإِثْبَاتِ، والنَّفْيِ، والاسْتِفْهَامِ، وَالْجَمْعِ، والتَّفْرِيقِ، والْعَدَدِ، والارتفاعِ، والانخفاضِ، والْجِهَاتِ السِّتّ، والإشَارَةِ إِلَىٰ شَيْءٍ، إلى غَيْرِ هَـٰذِهِ من المعاني الَّتي تُساعِدُ حرَكَاتُ الْيَدَيْنِ عَلَىٰ إدْرَاكِهَا بِسُرْعَةٍ.

وحِينَ يُوَجِّهُ بَعْضُ حُضُورِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ أَسْمَاعَهُمْ وَأَنْظَارَهُمْ إلى تَفَهُّم دَعْوَتِهِمْ، يَغْتَاظُ قَادَةُ الْقَوْمِ وَكُبَرَاؤُهُمْ، فَيَقُومُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ الرَّسُولِ فَيَأْمُرُهُ بالسُّكُوتِ والانْصِرَافِ، فَإِذَا تَابَعَ الرَّسُولُ دَعْوَتَهُ أَمْسَكَ سَفِيهُ الْقَوْمِ بِيَدِ الرَّسُولِ الَّتِي يُشِيرُ بِهَا، وَرَدَّهَا إِلَىٰ فِيهِ بِعُنْفٍ، وَرُبَمَا أَدْخَلَ بَعْضَ أَصَابِعِها فِيهِ لِيُسْكِتَهُ.

هَـٰذِهِ الْحَرَكَةُ صَارَتْ حَرَكَةً يُكَنَّىٰ بِهَا عَنْ رَفْضِ الاسْتِمَاعِ لِدَعْوَةِ الداعي، وَرَفْضِ دَعْوَتِهِ كُلِّهَا.

• ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾: أي: وَقَالُوا مُؤَكِّدِينَ بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة» لِرُسُلِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ: كَفَرْنَا بِتَوْحِيدِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَبِتَوْحِيدِ إِلَهِيَّتِهِ، وَبِكُلِّ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ مِنْ مَفْهُومَاتٍ تَقُولونَ: إِنَّهَا دِينُ اللهِ للنَّاسِ. أي: نَرْفُضُ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا، وَنَتَّبِعَ مَا فِيهَا من أوامِرَ وَنَوَاهِي وَوَصَايا.

• ﴿... وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾: أي: وَإِنَّا لَفِي مُحِيطٍ مِنَ الشَّكِّ، نُفُوراً مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ، وَهَـٰذَا الَّذِي تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ الْمُخَالِفُ لِدِينِ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا؛ يُوقِعُنَا فِي الرَّيْبِ مِنْ غَايَتِكُم مِنْ دَعْوَتِكُمْ، إِذْ نُقَدِّرُ أَنَّكُم جِئْتُمْ بِهَا لِتَحْتَلُّوا مَرْكَزَ الرِّئَاسَةِ، والقيادة، والسُّلْطَةِ الأُولَىٰ في الْبِلَادِ، والْمُلْك.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً رَدَّ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام عَلَىٰ أَقْوامهم وَرَدَّ الْأَقوام على رُسُلِهِم عَلَيْهِم السَّلَام:

• ﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾:

لَمَّا كَانَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ لِدَعْوَةِ جَمِيعِ رُسُلِ اللهِ الْإِيمَانَ باللهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْمُهَيْمِنِ عَلَىٰ كُلِّ مَا سِوَاهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، كَانَ الْحِوَارُ الْفِكْرِيُّ مَعَ الْمُخَالِفِينَ فِي قضايا الدِّين، يَجِبُ أَنْ يَبْدأَ مِنَ الْأَصْلِ الْأَوَّلِ في الْفِكْرِ الدِّينِيِّ الحقِّ، وهُوَ الاتِّفَاقُ بَيْنَ المتَحَاوِرَيْنِ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

• ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خَالِقِ وَمُوجِدِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَفْقَ نِظَامِ الْفَطْرِ وَالْفَلْقِ.

الْفَطْرُ: الشَّقُّ والْإِخْرَاجُ مِنَ الْبَاطِنِ.

وقَدِ اخْتَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ خَلْقُهُ ضِمْنَ نِظَامِ الْفَطْرِ، لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شيءٍ هِيَ الْعَدَم، فَاللهُ هُوَ الْمُوجِدُ مِنَ الْعَدَمِ.

• ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾:

أي: إنَّ دَعوَتَنا لَكُمْ لَيسَتْ دَعْوَةً مِنَّا، إذْ نَحْنُ رُسُلُ رَبِّكُم، فَهِيَ دَعْوَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، يَدْعُوكُمْ إلى الإيمانِ بِالْحَقِّ وإِلَىٰ الإِسْلامِ لَهُ، وَإِلَىٰ سَائِرِ قَضَايَا الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لعباده، لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمُ الْمَاضِيَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِحقُوقِهِ عَلَيْكُمْ، فإذَا غَفرَهَا لَكُم حَكَمَ لَكُمْ بِالْهِدَايَةِ، فَصِرتُمْ مِنْ مُسْتَحِقِّي دُخُولِ جَنَّتِهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَالْخُلُودِ في سَعَادَةٍ أَبَدِيَّةٍ وَنَعِيم مُقِيم.

أَمَّا الذُّنُوبُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ غَيْرِ اللهِ عَلَيْكُمْ؛ فَيُطَبَّقُ عَلَيْكُمْ فِيها قَانُونُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِي، وَهُوَ الْقِصَاصُ أَوْ مُسَامَحَةُ أَصْحَابِ الْحُقُوق.

وَبِسَبَبِ إيمانكم وإسلامِكُمْ؛ يَرْفَعُ عَنْكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَ من تَعْذِيبٍ وإِهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ، وَيُؤَخِّرُ كُلًّا مِنْكُمْ إِلَىٰ أَجَلِ بَقَائِهِ فِي الْحَيَاةِ، الْمُسَمَّىٰ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ، وَالّذِي يُؤْمَرُ بِكِتَابَتِهِ الْمَلَكُ حِينَ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ.

■ فَكَانَ مِنْ شَأْنِ أَقْوَامِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام أَنْ يَتَهَرَّبُوا مِنَ الْحِوَارِ حَوْلَ الأَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ أُصُولِ الدِّين، ويَفْتَعِلُوا حِواراً حَوْلَ عَدَمِ صَلاحِيَّةِ الْبَشَرِ لِأَنْ يَكُونُوا رُسُلاً للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكُلِّ مَا فيهما:

• ﴿... قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾:

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾: أي: والْبَشَرُ لَا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يَتَلَقَّوْا بَيَانَاتٍ عَنِ اللهِ، وَيَكُونوا رُسُلاً للهِ يَحْمِلُونَ رِسَالَةً عَنْهُ إِلَىٰ النَّاس، وَقَدْ جَاءَ في القرآن رَدٌّ لِهٰذَا الاعْتِرَاضِ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ، وعلى أَلْسِنَةِ عَدَدٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَقَدْ سَبَقَتْ دِرَاسَةُ هٰذَا الموضوع في مُلْحَقٍ خاصٍّ⁽¹⁾.

---

(١) انظر الملحق الثالث من مَلَاحِق تدبُّر سورة (يسٓ): «بَيَانُ اعْتِرَاضِ الْأُمَمِ عَلَىٰ بَشَرِيَّةِ الرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام».

«إِنْ» في «إِنْ أَنْتُمْ» حَرْفُ نفي بمعنى «ما».

- ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: أي: تريدون أَنْ تَصْرِفُونَا عَنْ عِبادَةِ مَا كَانَ يَعْبُدُ آباؤُنَا مِنْ آلِهَةٍ، لِغَرَضٍ في نُفُوسِكُمْ، كَأَنْ تَحْتَلُّوا باتِّباعِ النَّاس لَكُمْ في هٰذَا الدِّينَ مَرَاكِزَ الرِّئَاسَةِ والسِّيَادَةِ والْمُلْكِ، ومِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الاسْتِيلاءُ عَلَىٰ الأَمْوَالِ، والْحُصُولُ على مَا تَبْغُونَ مِنْ لَذَّاتٍ وَشَهَوَاتٍ، كَمَا يَفْعَلُ المُلوكُ ذَوُو السُّلْطَانِ فِي الْأَرْضِ.

- ﴿... فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾: أي: فَأتُونَا بخارِقٍ مِنَ الآيَاتِ الكِبَارِ يَكُونُ بُرْهَاناً لكُم عَلَىٰ أَنَّكُم أَنْبِيَاءُ اللهِ، خالِقِ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ، وَرُسُلٌ مُرْسَلُونَ مِنْهُ لِتُبَلِّغُوا النَّاسَ مَطْلُوبَ اللهِ مِنْ عباده.

وَكَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُؤْتِي رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام مِنَ المعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، بالمقْدَارِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ أَقْوَامَهُمْ اسْتَيْقَنُوا بِهِ مِن عُمْقِ قُلُوبِهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِم السَّلَام صَادِقُونَ في نُبُوَّاتِهِمْ وَفِي رِسَالَاتهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا رَدَّ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام عَلَىٰ أقوامِهِمْ:

- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

أجابَتِ الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام أَقْوامَهُمْ بإجاباتٍ مُفَصَّلاتٍ إِلَىٰ سِتِّ قَضَايَا:

القَضِيَّةُ الأُولى: قَالُوا فِيها لِأَقوامِهِمْ: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾:

أي: نَعَمْ، مَا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدمَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ أَبِي الْبَشَرِ، وَلَكِنَّ اللهَ فَضَّلَ بَعْضَ الْبَشَرِ عَلَىٰ بعضٍ، فَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ

سُلْطَانُهُ، وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ، وسَمَتْ حِكْمَتُهُ ـ يَمُنُّ بالتَّفْضِيلِ بِالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَشيئَتُهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، ومِنَ الْهَيِّنِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنْ يُوحِي إِلَىٰ إِنسَانٍ بَشرٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَأَنْ يُحَمِّلَهُ رِسَالَةً، وَيُكَلِّفَهُ أَنْ يُبَلِّغَهَا لِقَوْمِهِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ.

هَلْ في هٰذَا مَا يَتَعَارَضُ مَعَ قَانُونٍ عَقْلِيٍّ؟؟.

أَلَيْسَ اللهُ الْخَالِقُ بِقُدْرَتِهِ الْمُصَاحِبَةِ لِحِكْمَتِهِ كُلَّ ذَرَّةٍ مِن ذَرَّاتِ الكَوْنِ، وكُلَّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ الْأَحْيَاءِ، وكُلَّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ كُلِّ إِنْسَانٍ؛ قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يُوحِي مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ.

مَا هُوَ الأَمْرُ الْمُنَافِي لِقَضِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ في هٰذَا الْأَمْرِ؟؟.

أَتَعْتَرِضُونَ عَلَىٰ اخْتِيَارٍ اخْتَارَهُ رَبُّكُم دُونَ أَنْ تَكُونَ لَكُم حُجَّةٌ تَقْبَلُهَا الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ؟!!.

الْمَنُّ: الإنْعَامُ والإحْسَانُ والتَّفَضُّلُ بالْعَطَاء.

القضية الثانية: قَالَ فِيها الرُّسُل عَلَيهِم السَّلام لِأَقْوامِهِم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾:

أي: وَمَا ثَبَتَ لَنَا مِنَ التَّمْكِينِ الرَّبَّانِيِّ لِقُدْرَاتِنَا؛ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بآيَةٍ خارِقَةٍ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الباهراتِ، تَكُونُ بُرْهَاناً عَلَىٰ أَنَّنَا صَادِقُونَ في ادِّعَاءِ أَنَّنَا أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ، إِلَّا بِأَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَنَا بِذَلِكَ، فَالإِذْنُ إِذْنُهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، والْخَلْقُ خَلْقُهُ، وإِذَا عَلِمَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ أَنَّكُمْ صَادِقُونَ فِي طَلَبِ الْبُرْهَانِ عَلَىٰ أَنَّنا أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ، وَإِذَا قَدَّمَ لَكُم هٰذَا السُّلْطَانَ آمَنْتُمْ وَأَسْلَمْتُمْ، فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سَيُقَدِّمُ لَكُم ذَلِكَ لإِقْنَاعِكُم بِأَنَّنَا أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ.

فَمَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ؛ مَا جَعَلَ أُمَّتَهُ

يَسْتَيْقِنُونَ مِنْ عُمْقِ قُلُوبِهِمْ أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حَقًّا، لَكِنَّ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ.

السُّلْطَان: الآيَةُ الخارقة المعجزة ـ الحجَّةُ والْبُرْهَان.

القضية الثالثة: قَال فيها الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلام لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ⑪﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارة عَلَىٰ أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِم السَّلَام تَعَرَّضُوا مِنْ قِبَل كُبَرَاءِ أقوامِهِمْ؛ للتَّهْدِيدِ بِمَا يُؤْذِيهِمْ أَوْ يَضُرُّهم فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوالِهِمْ أَوْ أَهْلِيهِمْ، فَقَالُوا: تَوَكَّلْنَا عَلَىٰ اللهِ رَبِّنَا فِي أمْرِ حِمَايَتِنَا وَحِفْظِنَا، وَصَرْفِ الضُّرِّ وَالْأَذَى عَنَّا، وَعَلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمِنُونَ جَمِيعاً، لِيَحْمِيَهُمْ وَيَحْفَظَهُمْ وَيَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ مَنْ يُرِيدُ بِهِمْ شرًّا وضُرًّا وسُوءاً.

القضية الرابعة: قالَ فِيها الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾:

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَىٰ أَنَّ بَعْضَ أَتْبَاعِ كُلِّ رَسُولٍ مِنْهُمْ؛ وجَدُوا أَنْفُسَهُمْ ضُعَفَاءَ، لَا يَمْلِكُونَ حِمَايَةَ أَنْفُسِهِمْ مِنْ جَبَابِرَةَ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا لِرَسُولِهِمْ: كَيْفَ يَحْمِينَا التَّوكُّلُ الْقَلْبِيُّ عَلَىٰ اللهِ، وكُبَرَاءُ كُفَّارِ قَوْمِنَا يَمْلِكُونَ الْقُوَّةَ الْمُسَلَّحَةَ، والْأَنْصَارَ الكَثِيرِينَ، وَالْجُنُودَ المطيعِينَ لِأَوَامِرِ سَادَتِهِمْ وقَادَتِهِمْ؟.

فقالَتْ رُسُلُهُمْ عَلَيْهِم السَّلام لَهُمْ: إِنَّ اللهَ هو الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ آمَنَّا بِهِ، وَنُهَدَّدُ بما يَسُوؤنَا مِنْ أَجْلِ إيمانِنَا وإسلَامِنَا، أَفَلَيْسَ مِنْ كَمَالِ إِيمَانِنَا بِسُلْطَانِهِ العظيم أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَحْمِيَنَا وَيَنْصُرنَا؟، وَلَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ يجلبُ لَنَا الْوَهْنَ وَيَسُدُّ عَلَيْنَا سُبُلَ النَّجاةِ مِنْ كَيْدِ كُفَّارِ أقوامِنَا، وَقَدْ هَدَانَا رَبُّنَا سُبلَنَا، مِنْهَا سَبِيلُ الْهِجْرَة، وَمِنْهَا سَبِيلُ إِعْدَادِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ، لِمُوَاجَهَةِ قُوَّاتِ أَعْدَائِنَا إِذَا تَحَرَّكُوا

لِقِتَالِنَا، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وَمِنْهَا: السُّكُوتُ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ تَعَالى مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ بِأُسْلُوبٍ عَلَنِي، والاشْتِغَالُ بأسْلُوبِ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّة، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سُبُلٍ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ اسْمُه فِي كُلِّ سَبِيلٍ مِنْ هَـٰذِهِ السُّبُلِ يَجْعَلُ لَنَا مَخَارِجَ يَقْضِي اللهُ لَنَا فِيهَا بِالْفَرَجِ، ومِنْ سُنَّةِ اللهِ جَلَّ شأْنُه أَنْ يَنْصُرَ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ.

القضيَّة الخامسة: قَالَ فِيهَا الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾:

أي: ونُؤَكِّدُ لكم مُقْسِمينَ يَا كُفَّارَ أَقْوَامِنَا أَنَّنَا سَنَصْبِرُ عَلَىٰ إِيْذَائِكم لَنَا، وَلَا نُقَابِلُكُمْ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ مَلَكْنَا الْقُوَّةَ عَلَىٰ مُعَاقَبَتِكُمْ بِالْعَدْلِ، لِأَنَّ حِرْصَنَا عَلَىٰ إيمانِكُمْ وإسْلَامِكُمْ، وَنَجَاتِكُمْ مِنَ الْخُلُودِ في عَذَابِ النَّار، أَشَدُّ مِنْ رَغَبَاتِ نُفُوسِنَا بالتَّشَفِّي مِنْكُمْ، إِذْ كَانَ إِيْذَاؤُكُم لَنَا عُدْواناً بِغَيْرِ حَقٍّ.

القضيَّة السَّادِسة: أَعْلَنَ فِيهَا الرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام قَوْلَهُمْ: ﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ونَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ لِيَرْزُقَنَا الصَّبْرَ، وَيُعينَنَا عَلَيْهِ، وَيُثِيبَنَا بِأَجْرٍ حَسَنٍ يَكُونُ مُكَافَأَةً لَنَا عَلَىٰ صَبْرِنَا، وَعَلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكِّلونَ، لِأَنَّهُ هُو التَّوكُّلُ النَّافِعُ، وكُلُّ تَوَكُّلٍ عَلَىٰ غَيْرِ اللهِ تَوَكُّلٌ ضَائِعٌ لَا يَنْفَعُ المتوكِّلَ بشيء.

في هَـٰذِهِ العبارة بَيَانٌ وَدَعْوَةٌ إلى الْإيمان باللهِ والتوكُّلِ عَلَيْهِ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالى مُتَابِعاً بَيَانَ قِصَّةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام مَعَ أقوامِهِمْ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ ... ﴿١٣﴾﴾:

دَلَّ هـٰذَا الْبَيَانُ عَلى أنَّ الْخِصَامَ قَدِ اشْتَدَّ بَيْنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام وأقْوَامِهِمْ، إِذْ ضَاقَتْ صُدُور أقْوَامِهِمْ عَنْ تَحَمُّلِ مُتَابَعَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام بوسَائِلَ مُخْتَلِفَةٍ؛ دَعْوَتَهُمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، بَيْنَ جَماهِيرِهِمْ، وَلَوْ فِي السِّرِّ دَاخِلَ الْبُيُوتِ، فَأَنْذَرَ الكُبرَاءُ والْقَادَةُ في الأَقْوَام الرُّسُلَ عَلَيْهِم السَّلَام مُقْسِمِينَ بِالْإِخْرَاجِ طَرْداً مِنْ أرْضِهِمْ، ومَعَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، إِذَا لَمْ يَعُودُوا عَنْ دِينِهِم الْجَدِيدِ، وَيَدْخُلُوا فِي مِلَّةِ قَوْمِهِمْ دُخُولاً جَدِيداً بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنْهَا، وهذا بِحَسَبِ التَّصَوُّرِ الظَّاهِرِ لِلْأَقْوَام بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام، لَكِنَّ رُسُلَ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام لَمْ يَكُونُوا مُنْذُ نَشْأَتِهِمْ دَاخِلِينَ فِي مِلَلِ أقْوَامِهِمْ، أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم فَكَانُوا دَاخِلِينَ في مِلَلِ أقْوَامِهِمْ، فَيُقَالُ بِشَأْنِهِمْ: «حَتَّىٰ تَعُودُوا».

ضُمِّنَ فِعْل: «تَعُودُوا» مَعْنَىٰ فِعْلِ: «تَدْخُلُوا»، فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْفِ «في».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مبيّناً ما أَوْحَاهُ إِلَىٰ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام بَعْدَ التهديد الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ أقوامُهُمْ:

● ﴿... فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ⑬ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ⑭ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ⑮ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ⑯ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ⑰﴾:

أي: فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام رَبُّهُمْ مُؤَكِّداً مُقْسِماً: لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ الكَفَرَةَ مِنْ أَقْوَامِكُمْ، الَّذِينَ أَنْذَرُوكُم بِالْإِخْرَاجِ والطَّرْدِ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الأَرْضَ الَّتِي أَنْذَرُوكُم بِالإخْرَاجِ مِنْهَا، وَمَعَكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِكُمْ واتَّبَعُوكُم، بِمَعْنَىٰ: وَلَنُمَكِّنَنَّكُمْ مِنْ أنْ تَسْكُنُوها إِذْ يَكُونَ لَكُمُ السُّلْطَانُ عَلَيْهَا، بَعْدَ إِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِكُمْ.

﴿. . . ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾: في هَـٰذِهِ العبارة تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ ـ أي: مَا وَعَدْنَا بِهِ الرُّسُلَ مِنْ إهْلَاكِ الظَّالِمِينَ مِنْ أقْوَامِهِمْ، وإسْكَانِهِمُ الأرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ومَعَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهُمْ، هُوَ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِي، فَهِيَ تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِي وأعْلَنَ إسْلَامَهُ وَطَاعَتَهُ وانْقِيَادَهِ، وخَافَ قِيَامَهُ يَوْمَ الدِّينِ فِي مَحْكَمَتِي مُحَاسِباً، وَحَاكِماً لِعِبَادِي أَوْ عَلَيْهِمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ فَضْلِي أَوْ عَدْلِي، وَخَافَ وَعِيدِي الَّذِي أَنْذَرْتُ بِهِ الكُفَّارَ والْعُصَاةَ الْمُسْرِفين في مَعَاصِيهِمْ، أي: فَهُوَ يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ وبِيَوْمِ الدين.

- ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾:

اسْتفْتَحُوا: أي: سَأَلُوا اللهَ أَنْ يَقْضِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ وَلَا سِيما الجبابِرَةُ مِنْهُمْ، ويَلْزَمُ مِنْ قَضَاءِ اللهِ الحكيم، أَنْ يَنْصُرَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ. فالفتح على هـٰذا هو النَّصر.

فالمعنى: وسَأَلَ الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام اللهَ رَبَّهُمْ أَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ، الَّذِينَ دبَّرُوا أَنْ يُخْرِجُوهُمْ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، بِالْقُوَّةِ المسَلَّحَةِ.

- ﴿. . . وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾:

خَابَ: أي: ذَهَبَتْ أَعْمَالُهُ الَّتِي عَمِلَهَا، وَتَدْبِيرَاتُهُ الَّتِي دبَّرَهَا، لِتَحْقِيقِ مُرَادِهِ؛ سُدىً، لَمْ تَنْفَعْهُ بِشَيْءٍ.

الْجَبَّار: المتكبّر، العاتي، المتَسَلِّطُ بالْقُوَّة، الَّذِي يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ بغير حقٍّ، مُسْتَخْدِماً الْقُوَّةَ الْقَاهِرَة.

العنيد: الشَدِيدُ الرَّفْضِ لِلْحَقِّ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ بِالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ، والشّدِيدُ في الإصْرَارِ على رأْيِهِ، أو اعْتِقَادِه، أَوْ مَذْهَبِهِ، أَوْ سُلُوكِهِ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ بُطْلَانُهُ بالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ.

فالْمَعْنَىٰ: وذهبَتْ سُدىً أَعْمَالُ وَتَدْبِيرَاتُ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ عَاتٍ مُتَسَلِّطٍ بالْقُوَّةِ، شَدِيدِ الرَّفْضِ لِلْحَقِّ وإنْ ظَهَرَ لَهُ بِالْبُرْهَانِ أَنَّهُ حَقٌّ، وَشَدِيدِ الإِصْرَارِ على باطِلِهِ وإنْ ظَهَرَ لَهُ بُطْلَانُهُ بِالْبُرْهَانِ، مِنْ كُفَّارِ أَقْوَام الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام، فَلَمْ يَكُنْ لِمُخَطَّطَاتِهِمْ، وَتَدْبِيراتِهِمْ، وَأَعْمَالِهِمْ، أَثَرٌ يَنْفَعُهُمْ في رَفْعِ عَذَابِ اللهِ عَنْهُمْ، وإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَ عِقَابِ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ كَافِرٍ:

- ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾: أي: سَوْفَ يَكُون مَصِيرُهُ يَوْمَ القيامَةِ الْخُلُود في جهَنَّمَ دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمِين.

جاء التعبيرُ بِعِبَارَةِ: «مِنْ وَرَائِهِ»؛ لِأَنَّ المسْتَقْبَلَ بالنِّسْبَةِ إلى المخْلُوقِينَ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ أَحْدَاثَ مُسْتَقْبَلِهِمْ، يَقَعُ وَرَاءَهُمْ ولَيْسَ لِأَبْصَارِهِم رُؤْيَةٌ مَا لَهُ، إِنَّهُمْ يرَوْنَ الْحَالَ والْمَاضِي فَقَطْ، دُونَ المسْتَقْبَلِ، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَاكِبِ مَرْكَبَةٍ تَسِيرُ إِلَىٰ الشَّرْقِ، ووَجْهُهُ فِيها مُوَجَّهٌ جِهَةَ الْغَرْب، إِنَّهُ يَرَىٰ مَا يَقْطَعُ وَمَا قَطَعَ مِنْ جِهَةِ الْغَرْب، وَلَا يَرَىٰ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ شَيْئاً لِأَنَّهُ يَقَعُ وَرَاءَه، لَا أَمَامَهُ.

جَهَنَّم: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النّار الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ فيها الْكَافِرِينَ والْعُصَاة المجْرِمِينَ يَوْمَ الدّين، ولفظ «جهنم» ممنوعٌ من الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيث. ويقال لغة: «بِئْرٌ جِهِنَّم» أي: بَعِيدَةُ الْقَعْرِ.

﴿... وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾﴾:

الصَّدِيد: الْقَيْحُ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْ فَسَادِ الْجُرْحِ.

أي: ويُسْقَىٰ حِينَ يَشْتَدُّ ظَمَؤُهُ مِنْ مَاءٍ يُشْبِهُ الصَّدِيدَ، كَرِيهِ الطَّعْمِ كَرِيهِ المنظر.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ... ﴿١٧﴾﴾:

يَتجرَّعُهُ: أيْ: يَتكَلَّفُ ابْتِلاعَهُ وهُوَ كَارِهٌ طَعْمَه ورَائِحَتَهُ.

يُسِيغُهُ: أي: يَبْتَلِعُهُ ويَجْعَلُهُ يَنْحَدِرُ إلَىٰ مَعِدَته.

فالْمَعْنَى: يَتجرَّعُ الْماءَ الَّذي يُشْبِهُ الصَّدِيدَ بِتَكَلُّفٍ وهُوَ كَارِهٌ لَهُ، وَلَا يَقْتَرِبُ مِنْ إسَاغَتِهِ، بَلْ يَبْتَلِعُهُ كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَبْتَلِعُ الطِّينَ والرَّملَ وَمَوَادَّ أُخْرَىٰ ثَقِيلَةٍ خَشِنَةٍ، لَا تُسْتَسَاغُ إلَّا بِصُعُوبَةٍ وَإِيلَام.

- ﴿... وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ...﴾:

أي: وَيَأْتِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ المعَذِّبَةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ من حَوْلِهِ فِي جَهَنَّم، مَا يَكْفِي كُلُّ واحِدٍ منها لِأَنْ يُمِيتَ، لَوْلَا أَنَّ الْحَيَاةَ الْأُخْرَىٰ لَا مَوْتَ فِيهَا، فَقَدْ ذُبِحَ الْمَوْتُ عَلَىٰ أَوَّلِ الصِّرَاط، فَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، وَلَكِنَّهُ يُعَذَّبُ عَذَاباً يَكْفِي لِلإمَاتَةِ لَوْ كَانَ نِظَامُ الموْتِ مَا زَالَ سَارِياً، مِيتَاتٍ بِعَدَدِ الْمُعَذِّبَاتِ الَّتِي تَصِلُ إلَيْهِ.

- ﴿... وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ⑰﴾:

أي: ويَأْتِيهِ بَعْدَ هَـٰذَا الْعَذَابِ في مُسْتَقْبَلِ بَقَائِهِ في جَهَنَّمَ؛ عَذَابٌ غَلِيظٌ آخَرُ، وَهَكَذَا مَعَ كُلِّ زَمَنٍ لَاحِقٍ.

عَذَابٌ غَلِيظ: أي: شَدِيدُ الإيْلَام. أَصْلُ الْغَلِيظ في اللُّغَةِ خِلَافُ الرَّقيق، والْعَصَا الْغَلِيظَة هِيَ الثَّقِيلَةُ الْعَظِيمَةُ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِفُ أَعْمَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام:

- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ⑱﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَشْبِيهٌ تَمْثِيلِيٌّ رائِعٌ لِأَعْمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، الَّتِي أَرَادُوا بِهَا مُقَاوَمَةَ دَعْوَةِ الرُّسُلِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ وَصِرَاطِهِ المسْتَقِيم، إِنَّ مَثَلَهُمْ

كَمَثَلِ مَنْ جَمَعُوا حَطَباً كَثِيراً وأَوْقَدُوا ناراً عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا جَمَعُوا مِنْ حَطَبٍ، فَأَطْفَأَ اللهُ نَارَهُمْ، فَصَارَتِ الْبَقَايَا رَمَاداً، فَأَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ الرَّمَادِ رِيحاً شَدِيدَةً مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا رِيَاحٌ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، أيْ: ثَارَتْ فِيهِ رِيَاحٌ عَاصِفَةٌ تَحْمِلُ الْعَصْفَ (وهو النبات اليابِسُ، وَوَرَقُ الشجر) فَتَدُورُ بِهِ وَتَرْمِيهِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ.

فَحمَلَتِ الرِّيَاحُ الْعَاصِفَةُ الرَّمَادَ، وَسَفَّتْهُ وَنَسَفَتْهُ، فَلَمْ يَبْقَ لِأَعْمَالِهِمْ أَثَرٌ مَا، وَخَابَ سَعْيُهُمْ، وَخَسِرُوا كُلَّ مَا أَنْفَقُوهُ فِيمَا مَكَرُوه وَدَبَّرُوهُ وَكَادُوهُ مِنْ أَعْمَالٍ، حَتَّىٰ صَارُوا لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَحْصُلُوا عَلَىٰ شَيْءٍ كَانُوا يَرْجُونَهُ مِمَّا كَسَبُوه بأَعْمَالِهِمْ، وَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ بِمُعَاقَبَةِ اللهِ لَهُمْ ضَالِّينَ ضَلَالاً بَعِيداً، مُعَذَّبِينَ عَذَاباً شَدِيداً، نَادِمِينَ عَلَىٰ كُلِّ مَا فَعَلُوا.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثالِثِ من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (١٩ ـ ٢٣)

قال الله عزّ وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

القراءات:

(١٩) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [**خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**].

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ**].

(١٩) • قرأ أبو جَعْفَر: [**إِنْ يَشَا**] في الوصْل والوقف، وكذلِكَ حمزة، وهِشام في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِنْ يَشَأْ**].

(٢٢) • قَرَأَ حَفصٌ: [**لِيَ عَلَيْكُمْ**] بِفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسْكان: [**لِيْ عَلَيْكُمْ**].

(٢٢) • قرأ حمزة: [**بِمُصْرِخِيِّ**] بِكَسْرِ الياء المشدّدة.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**بِمُصْرِخِيَّ**] بِفَتْحِ الياء المشَدَّدَة.

(٢٢) • قرأ أبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**أَشْرَكْتُمُونِي**] بإثْبات يَاء المتكلّمِ وصْلاً، وَكَذَلِكَ قَرَأَها يَعْقُوبُ وَصْلاً وَوَقْفاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَشْرَكْتُمونِ**] بِحَذْفِ ياء المتكلّم.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ خِطابٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ بِأَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَذْهَبَ بِالنَّاسِ جَمِيعاً ويَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، أي: فالْبَعْثُ الْمَوْعُودُ بِهِ حَقٌّ.

وفِيها انْتِقَالٌ سَرِيعٌ لِتَقْدِيمِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَة.

وفِيهَا عَرْضُ حِوَارٍ بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا ضُعَفَاء أتْباعاً لِأَئِمَّتِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُسْتَكْبِرِينَ، وفي هـٰذَا الحوار مَعْنَىٰ الْخُصُومَة.

وَفِيهَا مَا يُجِيبُ بِهِ الشَّيْطَانُ مِنْ ضَلُّوا بِوَسَاوِسِه وَتَسْوِيلاتِهِ، إذْ يَقُولُ لَهُمْ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

وفيها بَيَانُ إدْخَالِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها بإذْنِ رَبِّهِمْ.

التَّدبُّرُ التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بأسْلُوب الْخِطَاب الإفراديّ لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَاب:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: أَلَم تَرَ بِفِكْرِكَ أيُّهَا الرائي المتفكّرُ المتدبّر في خَلْقِ اللهِ أَنَّ اللهَ ـ جَل جَلالُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُه ـ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مُتَّصِفاً خَلْقُهُ لَهُمَا بِالْحَقِّ.

وفي القراءة الْأُخرى: أَنَّ اللهَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ بالْحَقِّ.

والمرادُ بِالحقِّ هُنَا مَا كَانَ إيجَادُهُ لِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ يُدْرِكُها الْعُقَلَاء، وَيُدْرِكُونَ أَنَّهَا مِنْ كَمَالِ الْمُوجِد، أَمَّا إيجادُ شيءٍ مَا، أَوْ فِعْلُ فِعْلٍ مَا دُونَ غَايَةٍ حَكِيمَةٍ تُقْصَدُ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْكَمالِ، فَهُوَ عَبَثٌ يَتَنَزَّهُ عَنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ والرُّشْدِ والتَّصرُّفِ الْحَلِيم.

وقد سبَقَ تَدبُّرُ نَظِيرِ هـٰذَا البَيَانِ بِتَوسُّعٍ، لَدَى تَدبُّرِ الآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ سُورة (النَّحْلِ/ ٧٠ نزول) فَلْيُرْجَعْ إِلَيه.

ولمَّا كَانَ خَلْقُ اللهِ لِكُلِّ مَا خلَقَ مَسْبُوقاً بِمَشِيئَتِهِ الْحَكِيمَةِ؛ كَانَ عَلَىٰ ذِي الْعَقْلِ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ إِنْ يَشَأْ أَنْ يُذْهِبَ قَوْماً أَوِ النَّاسَ جَمِيعاً؛ يُذْهِبْهُمْ مِنْ وُجُودِهِمْ فِي الْحَيَاةِ، وإِنْ يَشَأْ أَنْ يَأْتِيَ بِمَخْلُوقَاتٍ جَدِيدَةٍ غَيْرِ الَّذِينَ أذْهَبَهُمْ مِنْ حَيَواتِهِمْ، إِلَىٰ الْفَنَاءِ، أو إِلَىٰ الْعَدَمِ الْكُلِّي؛ فَعَلَ فَجَاءَ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

هٰذَا ما نَفْهَمُهُ مِنْ قولِ اللهِ تَعَالَىٰ في الآيَةِ:

- ﴿... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾: أي: إِنْ يَشَأْ أَنْ يُذْهِبَكُمْ يا أَيُّهَا الْقَوْمُ، أَوْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مِنْ وُجُودِكُمْ ذِي الْحَيَاةِ؛ أذْهَبَكُمْ، وَجَاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ جَدِيدٍ، مُمَاثِلٍ لِخَلْقِكُمْ، أخذاً مِنْ دَلَالَة لفظ «جَدِيد».

الْخَلْقُ: المخْلُوقُ، ويُطْلَقُ هٰذَا اللفظ علَىٰ النَّاسِ.

- ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وَمَا ذَلِكَ الأَمْرُ، وهُوَ إِذْهَابُكُمْ والإِتْيَانُ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ؛ عَلَىٰ اللهِ بِصَعْبٍ ولا شاقٍّ، بَلْ هُوَ هَيِّنٌ عَلَيْهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «عَزَّ الأَمْرُ عَلَىٰ فُلَانٍ» أي: اشْتَدَّ، وشَقَّ، وصَعُبَ.

وجاء في العبارة تَوْكيد النَّفْي بحَرْف الجرِّ الزَّائدِ «الباء» في: «بِعَزِيز».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِانْتِقَالٍ سَرِيعٍ إِلَىٰ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ خَلْقٌ جَدِيدٌ للنَّاس لِلْحِساب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتنفِيذِ الجزاء:

- ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾:

- ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: أي: وظَهَرَ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ جَمِيعاً، في مَوْقِفٍ جَامِعٍ عَلَىٰ أَرْضِ الْمَحْشَرِ، لِمَا يَقْضِي اللهُ بِهِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفَ لِنَفْسِهِ بشيءٍ، فالْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ مُلْكُهُ، وَالْحُكْمُ حُكْمُهُ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ أَمْرُه.

الْبَرَازُ: الْمَكَانُ الْفَضَاءُ مِنَ الْأَرْضِ الْوَاسِعُ الْبَعِيدُ، وإذا خَرَجَ الخارِجُ إِلَىٰ ذَلِكَ المكانِ يُقَالُ بِشَأْنِهِ: «بَرَزَ، يَبْرُزُ، بُرُوزاً» أي: خَرَجَ إِلَىٰ الْبَرَاز، وأَرْضُ الْمَحْشَرِ يَوْمَ القيامَةِ أَرْضٌ فَضَاءٌ واسِعَةٌ جِدًّا، وبَعِيدَةُ الْأَطْرَاف.

جَمِيعاً: حَالٌ.

أي: وأَجْرَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سُؤَالَ الْعِبادِ، وَفَصَلَ قَضَاءَهُ بِشَأْنِهِمْ.

- ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾: أي: فَقَالَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ضُعَفَاءَ تَابِعِينَ قَادَتَهُمْ وَسَادَتَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ.

- ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾: أيْ: لِلَّذِينَ كَانُوا اسْتَكْبَرُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بأمْوَالِهِمْ، وَبِمَا كَانَ قَدْ فَضَّلَهُمُ اللهُ بِهِ لِيَبْلُوَهُمْ فِي ذَوَاتِهِمْ، وَفِي أَنْصَارِهِمْ وَجُنُودِهم:

- ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾:

أي: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ أَتْبَاعاً نَسِيرُ في أَثَرِكُمْ، وَنَتَّبِعُ أوامِرَكُمْ، وخُطُواتِكُم، فَهَلْ أَنْتُمْ تَصرِفُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ، بَعْدَ أَنْ صَدَرَتْ أَحْكَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا بالْعَذَاب.

«مِنْ» في: «مِنْ شَيْءٍ» مَزِيدَة لِتَوْكِيدِ عُمُومِ «شيءٍ» أي: أي شيءٍ.

تَبَعاً: أي: أتباعاً، ولَفْظُ «تَبَع» بمَعْنَىٰ تابع، يقالُ للواحِدِ والْجَمْعِ، ويُجْمَعُ عَلَىٰ أتْبَاع.

مُغْنُونَ عَنَّا: أي: صَارِفُونَ عَنَّا، أصْل معنى «أغْنَاهُ»: كَفَاه. وحِينَ تَكُونُ عِنْدَ الحاجة إلى دفع مَكْرُوه يُضَمَّنُ الْفِعْلُ مَعْنَىٰ الكَفِّ والصَّرْفِ فَيُعَدَّى تَعْدِيَتُهُ بحرف «عَنْ»، فيقال: «أَغْنِ عَنَّا شَرَّكَ» أي: كُفَّهُ واصْرِفْه عَنَّا.

- ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: قَالَ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ مَتْبُوعِينَ فِي الدُّنْيَا: لَوْ حَكَمَ اللهُ الْيَوْمَ لَنَا بِالْهِدَايَةِ لَكُنَّا باتِّبَاعِكُمْ لَنَا فِي الدُّنْيَا هَدَيْنَاكُمْ، وَلَكِنْ حَكَمَ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بالضَّلَالِ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عُذْرٌ باتِّبَاعِنَا، بَلْ كُنْتُمْ تَتَّبِعُونَ أَهواءَكُمْ وَشَهَواتِكُمُ الَّتِي وَجَدْتُمُوها عِنْدنَا وَفِي مَسَالِكِ غَوَايَتِنَا.

فَسَوَاءٌ عَلَيْنَا الْيَوْمَ أجزِعْنَا وَأَظْهرْنَا سَخَطَنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنا بالصِّيَاحِ وَالْعَوِيلِ والْبُكَاءِ، أَمْ صَبَرْنَا وَصَمَتْنَا، مَا لَنَا مِنْ مَكَانٍ نَحِيدُ وَنَعْدِلُ وَنَهْرُبُ إِلَيْهِ.

يقال لغة: «حَاصَ عَنِ الشيءِ، يَحِيصُ، حَيْصاً، ومَحِيصاً، وحَيَصَاناً» أي: حَادَ عَنْهُ وَعَدَل.

لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: أي لِلّذِين كانوا غُلَاةً مُبَالِغِينَ فِي تَكَبُّرِهِمْ، بِمَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ مَالٍ وَصِفَاتٍ يَتَكَبَّرُونَ بِهَا عَلَىٰ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ قَائِدَ غَوَايَةٍ وَتَضْلِيلٍ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ في الدُّنْيَا، فَمِنْ شَأْنِ الَّذِينَ كَانَ الشَّيْطَانُ في الدُّنْيَا قَدْ أَضَلَّهُمْ وَأَغْوَاهُمْ، أَنْ يُوَجِّهُوا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ السَّبَبَ في إغوائهمْ وإضْلَالِهِمْ، فَلْيَحْمِلْ عَنْهُمْ نَصِيباً مِنْ الْعَذَابِ الَّذِي قُضِيَ بِهِ عَلَيْهِمْ. فَيُدَافِعُ الشَّيْطَانُ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا جَاء في الآيَةِ التَّالِيَة:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى

وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾:

الشيطان: اسْمُ جنْسٍ يَقَعُ عَلَىٰ كُلّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمرِّدٍ مُفْسِدٍ مِنَ الجنِّ والإنْسِ. وإبْلِيسُ إمَامُ الشَّيَاطِين ورَئِيسُهُمْ. وهُوَ عَلَىٰ وَزْنِ «فَيْعَال»، من فِعْل «شَطَنَ» أي: بَعُدَ.

- ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: أَيْ: لمَّا أُنْهِيَ أَمْرُ حُكْم اللهِ بَيْنَ الْعِبَادِ.

- ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: مَفْعُول مُطْلَقٌ مُبَيِّنٌ لِلنَّوعِ، وهُوَ كَوْنُهُ حَقًّا لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا بَاطِلَ، وهو من إضَافَةِ الموصُوفِ إلى الصِّفَةِ، أي: الْوَعْدَ الْحَقَّ.

- ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: أي: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ قُوَّةٍ تُجْبِرُكُمْ وَتُلْغِي إرادَاتِكُمْ الْحُرَّةَ.

- ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾: أي: وَمَا كَانَ لِي مِنْ عَمَلٍ إلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ سُبُلِ الضَّلَالَةِ والْغَوَايَةِ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي باخْتِيَارِكُمْ الْحُرّ، دُونَ إكْرَاهٍ وَلَا إجْبَارٍ، فَأَنْتُمْ تَتَحَمَّلُونَ عَاقِبَةَ اخْتِيَارِكُمْ تَحمُّلاً كَامِلاً.

- ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾: أي: فَلَا تَلُومُونِي عَلَىٰ غَوَايَتِكُمْ وَضَلَالِكُمْ، ولُومُوا أَنْفُسَكُمْ، إذْ أَنْتُمُ الَّذِينَ جَنَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ باخْتِيَارِكُمْ الْحُرِّ، إذِ اسْتَجَبْتُمْ لِدَعْوَتِي إيَّاكُمْ أَنْ تَسْلُكُوا سُبُلَ الضَّلَالِ.

- ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾: مَا أَنا بمغيثِكُمْ، وما أَنْتُمْ بِمُغِيثِيَّ. **الْمُصْرِخ**: المغيث، الَّذِي يَسْمَعُ صُرَاخ المستغيث بِهِ فَيُغِيثُه.

- ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾: أي: إنِّي كَفَرْتُ باتِّخَاذِكم لي شَرِيكاً للهِ في إلَهِيَّتِهِ، فَأَطَعْتُمُونِي في دَعْوَتِي، وَلَمْ تُطِيعُوا اللهَ بارِئَكُمْ وَمُمِدَّكُمْ دَوَاماً بعطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ. ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾: أي بإشْرَاكِكُمْ إيَّايَ.

وهٰذَا الْمَعْنَىٰ مِنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قول الله تَعَالَىٰ في سورة (يس/٤١ نزول) حكايَة لمَا سَوْفَ يَحْدُثُ يَوْم القيامَة:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾:

فجعلَ اللهُ طاعةَ الشَّيْطانِ في وَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ عِبادَة لَهُ، وَمُشارَكَةً للهِ في إلَهِيَّتِهِ.

• ﴿... إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾: بَيانٌ مِنَ اللهِ عزَّ وَجلَّ بأنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ أدنَىٰ دَرَكَاتِ الكُفْرِ فَمَا هُوَ أَحَطُّ مِنْهَا وَأَخَسُّ؛ لَهُمْ عَذابٌ أليمٌ مُعَدٌّ لَهُمْ، يَنالُونَهُ حينَ حُلُولِ أَجَلِهِ يَوْمَ الدِّينِ، والبيان يقضي بأَنَّهُمْ أُدْخِلُوا في دَارِ العَذَابِ ليذوقوا فيها جزاءهم بالعدلِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بشأنِ ثوابِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَوْم الدِّين، بِعِبارَةٍ تَحْكِي بَياناً مُقْتَطعاً مِمَّا سَوفَ يَحْدُثُ لَهُمْ بِفَضْلِ اللهِ:

• ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: وفي مُقابِلِ إدْخالِ أَهْلِ النَّارِ في النَّارِ لِيَذُوقوا جزاءَهُمْ عَذاباً أليماً، أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ الْمُرْضِيَاتِ رَبَّهُمْ عَنْهُمْ؛ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ شُرُفَاتِ قُصُورِهَا أَوْ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا الأَنْهَارُ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ خَالِدِينَ فِي التَّنَعُّمِ بِأَنْوَاعِ نَعِيمِهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، وَحَالَ كَوْنِ تَحِيَّةِ الْمَلائِكَةِ لَهُمْ فيها، وتَحِيَّةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: سَلَامٌ.

السَّلَامُ: السَّلَامَةُ وَالأَمْنُ الدائمانِ مَعَ النَّعِيمِ الَّذِي لَا يَنْقَطع.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (إبراهيم)
الآيات من (٢٤ ـ ٢٦)

قال الله عَزَّ وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٥) • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عمْرو: **[أُكْلَهَا]** بإسْكان الكاف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أُكُلَهَا]** بِضمِّ الكاف.

وهُمَا لغتان.

(٢٦) • قرأ أَبُو عَمْرو، وعَاصِم، وحَمْزة وَيَعْقُوب: **[خبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ]** بِكَسْرِ التَّنْوِينِ.

وَكَذَلِكَ ابْنُ ذَكْوَان وقُنْبل بِخُلْفٍ عَنْهُما.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة بِضَمِّ التَّنْوِين في الوصل، وهُو الوجْهُ الثّاني لابْنِ ذَكْوَان وَقُنْبل.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ مَثَلِ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، وَمَثَلِ كَلِمَةٍ خبيثة.

التَّدَبُّر التَّحْلِيلِي:

• ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أي: انْظُرْ نَظَرَ تَفَكُّرٍ عَمِيقٍ وَتَدَبُّرٍ دَقِيقٍ أَيُّهَا المتَلَقِي

لِهٰذَا البَيانِ مِنْ رَبِّكَ، فالاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ تَحْرِيضي عَلَىٰ التَّفَكُّر الْعَمِيقِ والتَّدَبُّر الدَّقيق فِيمَا سيُعْرَضُ مِنْ بَيَان.

- ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: أي: تَفكَّرْ فِي الكَيْفِيَّةِ الْوَصْفِيَّةِ لِلْمَثَلِ الْآتِي:

- ﴿... كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

يَضْرِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَثَلاً لِلْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ؛ بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي لَهَا أَصْلٌ ثَابِتٌ فِي الْأَرْضِ، إِذْ هِيَ ذاتُ جُذُورٍ مُتَغَلْغِلَةٍ فِي الْأَعْمَاقِ، تَمْتَصُّ الْغِذَاءَ للشَّجَرَةِ مِن الْمَاءِ والتُّرَاب، فَيَصْعَدُ فِي قَنواتٍ مِنَ الْجُذُورِ إِلَىٰ السَّاقِ، فَإِلَىٰ الْفُرُوعِ الصَّاعِدَة فِي الْجَوِّ الَّذِي هُوَ سَمَاءٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَإِلَىٰ الْأَوْرَاقِ والْأَفْنَانِ والثَّمَرَاتِ، فَهِي تُؤْتِي النَّاسَ أُكُلَهَا، وهُوَ مَا يُؤْكَلُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرَاتٍ، كُلَّ حِينٍ مِنْ فُصُولِ إِنْتَاجِهَا، بإذْنِ رَبِّهَا مُدَبِّرِ نَمَائِهَا وَعَطَائِهَا، ضِمْنَ قَانُونِ إِنْتَاجِهَا الَّذِي قَدَّرَهُ بِحِكْمَتِهِ وَقَضَاهُ لَها.

وأولَىٰ الشجراتِ بالمثَلِ في بِلَادِ الْعَرَبِ إِبَّانَ التَّنْزِيل: النَّخْلَة.

كذلِكَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ حَقٍّ مُؤَيَّدٍ بالْبُرْهَان، أَوْ تَهْدِي إِلَىٰ خَيْرٍ أَوْ فَضِيلَةٍ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُرْضِي اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ.

وفي رَأْسِ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ كَلِمَةُ الإيمانِ باللهِ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ، وَكَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وكلماتُ سُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ للهِ، واللهُ أَكْبَر، وَكُلُّ كَلِمَةٍ فيها تَنْزِيهٌ للهِ، أَوْ كَلِمَةُ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الثَابِتَةِ في القرآن أَوِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، والآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْهَادِيَةُ إِلَىٰ حَقٍّ أَوْ خَيْرٍ أَوْ فَضِيلَةٍ؛ كُلُّهَا كَلِمَاتٌ طيِّبَات.

إِنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ ذَاتُ أَصْلٍ ثَابِتٍ، إِذْ لَهَا جُذُور كَجذُورِ الشَّجَرَةِ

الطَّيِّبَةِ، وهَـٰذِهِ الْجُذور مُتَغَلْغِلَةٌ فِي حَقَائِقِ الْعِلْمِ الرَّبَّانِيّ، وَلَها فَرْعٌ صَاعِدٌ فِي سَمَاءِ السُّلوكِ الإنْسانيّ، تَجْعَلُ المؤمِنَ بِهَا الْمَهْدِيَّ بَهَدْيِهَا ذَا أَعْمَالٍ نَافِعَةٍ، وصَاحِبَ امْتِدَادَاتٍ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، كَفُرُوعِ شَجَرَةٍ وَارِفَةِ الظِّلَالِ، جَمِيلَةِ الأَفْنَانِ وَالْأَوْرَاقِ، كَثِيرَةِ الثَّمَرَاتِ النَّافِعَاتِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ مِنْ أَحْيَانِ إِنْتَاجِهَا بِإِذْنِ رَبِّهَا، وافراً كثيراً عَلَىٰ وَفْقِ قَانُونِ إِنْتَاجِهَا.

- ﴿... وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ... ﴿٢٥﴾﴾: أي: لِتَقْرِيبِ حَقَائِقِ الْمَعْرِفَةِ الصَّحِيحَةِ النَّافِعَةِ إِلَىٰ أذْهَانِهِمْ وَمَدَارِكِ عُقُولِهِمْ.

- ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرُوا حَقَائِقَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الْمُثْمِرِ الْهَادِي إلى الرُّشْدِ والسَّدَادِ، فَيَكُونَ دَافِعاً لَهُمْ إلى سُلُوكٍ يُسْعِدُهُمْ في دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، وَيُنْجِيهِمْ مِنْ عَوَاقِبِ سُلُوكِ السُّبُلِ المنْحَرِفَةِ الْبَعِيدَةِ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

- ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾:

الخبيث: ضِدُّ الطَّيِّب، وهو الذي لَا خَيْرَ فِيهِ، وربما يكون ضارّاً.

- ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: قُطِعَتْ قَطْعاً كَامِلاً، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا جِذْرٌ مَا فِي الْأَرْضِ يَمْتَصُّ مَاءً وَلَا غِذاءً، فَهِيَ حَطَبٌ خبيثٌ يَضُرُّ وَلَا يَنْفع.

- ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: أي: لَيْسَ لَهَا مَكَانٌ تَسْتَقِرُّ فِيهِ وَتَثْبُتُ، بَلْ تَسْقُطُ حَطَباً غَيْرَ مُثْمِر، وَلَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ وَلَا اسْتِقْرَارٌ، إِذْ هِي مُنْقَطِعَةٌ فَلَا شَيْءَ يَجْعَلُهَا تَثْبُتُ مُسْتَقِرَّة.

القَرَارُ: المكانُ المنخفض، يَجْتَمِعُ فِيه الماءُ ويَسْتَقِرُّ فِيهِ. ومَصْدَرُ «قَرَّ، يَقِرُّ، قَرَاراً بالْمَكَانِ» أي: أقام فِيهِ مُسْتَقِرّاً مُطْمَئِنًّا.

وبهذا يَضْرِبُ اللهُ مَثلاً لِلْكَلِمَةِ الخبيثَةِ بشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ مُتَصَوَّرَةٍ ذِهْناً، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ لَهَا وُجودٌ في أشجارِ الْأَرْضِ، وهَـٰذِهِ الشَّجَرَةُ الخبيثَةُ مَقْطُوعَةٌ مِنْ فَوْق الْأَرْض عَنْ جُذُورِهَا، فِهِيَ لَا تَسْتَمِدُّ مَاءً وَلَا غِذَاءً، فَلَا يَكُونُ لَهَا خُضْرَةٌ وَلَا نُضْرَة، وإِنْ بَقِيَ مِنْهَا صُورَةُ شَيْءٍ فَهِيَ سَاقِطَةٌ علَىٰ الأرض لَا نَفْعَ فيها وَلَا وَرَق وَلَا ثَمَرَ، وإِنْ يَصْلُحْ مِنْهَا شيءٌ فَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْحَرِيق بِنَارِ يَوْم الدّين.

والكَلِمَةُ الخبيثَةُ هِيَ كَلِمَةُ الكُفْرِ باللهِ أو بِصِفَاتِهِ أو بأسمائِهِ الحسْنَى أو بأفعاله، أو بِكِتَابِهِ، أَوْ بِرُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام، أو بِحَقِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وكَلِمَةُ الْبَاطِلِ، والكَلِمَةُ الداعِيَةُ إِلَىٰ كُفْرٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ إِثْمٍ أَوْ فُسُوقٍ أَوْ عِصْيَانٍ لِلْمَلَكِ الدَّيَّانِ، والْكَلِمَةُ الدَّاعِيَةُ إِلَىٰ اتِّبَاعِ الشَّيْطان، ونَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كَلِمَاتٍ.

فَكُلُّ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ هِيَ كَشَجرَةٍ خَبِيثَةٍ مُتَخَيَّلَةٍ مَقْطُوعَةِ الصِّلَةِ بِمَا يُمِدُّهَا مِنْ مَاءٍ وَغِذَاءٍ، ضَارَّةٍ غَيرِ نَافِعَة، لَا وَرَقَ لَهَا وَلَا ثَمَرَ.

إِنَّ الْكَلِمَةَ الْخَبِيثَةَ مَقْطُوعَةُ الصِّلَةِ بِمَا يُمِدُّهَا مِنْ الْعِلْمِ الرَّبَّانِي، الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ، والَّذِي لَا يُمِدُّ إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْخَيْرِ والنُّورِ والْهِدَايَةِ إِلَىٰ مَا يُوصِلُ إلى السَّعَادَة الْأَبَدِيَّة، مَنِ اهْتَدَىٰ بِهَا، واتَّبَعَ صِرَاطَهَا، وَعَمِلَ بِمَا تُرْشِدُ إِلَيْهِ.

هـٰذَا التّشبيهُ التَّمْثِيلِيُّ الَّذِي جَاءَ بَعْضُهُ مُصرَّحاً بِهِ، وطُوِيَ سَائِرُهُ فِي طَيَّاتِ النَّصِّ؛ مِنْ رَوَائِعِ التَّشْبِيهَاتِ الْقُرْآنِيَّة، الَّتِي يَسِيحُ ذِهْنُ الْأَدِيبِ اللَّمَّاحِ فِي الْخَبَايَا المطْوِيَّةِ فِي مَثَانِيهَا.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الخامس من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبُّر التحليلي للدرس السَّادِس من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٢٧ ـ ٣٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾:

القراءات:

(٢٩) • قرأ ورش والسُّوسِي، وأَبُو جَعْفر: **[وَبِيسَ]** وَكَذَٰلِكَ قرأها حَمْزَة فِي الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَبِئْسَ]**.

(٣٠) • قرأ ابْنُ كَثِيرٍ، وأَبُو عَمْرو، وَرُوَيْس بخلف عنه: **[لِيَضِلُّوا]**: أي: لتكُونَ عَاقِبَةُ جَعْلِهِمْ للهِ أَنْداداً أَنْ يَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ الله.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ وهُوَ الوَجْهُ الثَّاني لرُوَيْس: **[لِيُضِلُّوا]**: أي: لِيُضِلُّوا مَنْ يَسْتَجِيبُ لهم عَنْ سَبِيلِ الله.

وَبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعْنَىٰ المراد.

تَمْهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ تَثْبِيتِ اللهِ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الدنيا وفي الآخِرَةِ.

أَمَّا الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفرِ فَلَا تَثْبِيتَ لَهُمْ، بَلْ يُضِلُّهُمُ اللهُ، فَقَدْ

بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، وَأَحلُّوا قَوْمَهُمْ بِقِيَادَتِهِمْ لَهُمْ دَارَ الْبَوَار (وهو الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الْأَبَدِيُّ) وهِي جَهَنَّم، وَمِنْ تَضْلِيلِهِمْ أَنَّهُمْ جعَلُوا للهِ أَنْدَاداً شُرَكَاءَ لَهُ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ ثَلَاثِ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾:

أَفْهَمُ من هـٰذَا الْبَيَان أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يُثَبِّتُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً صَحِيحاً صَادِقاً؛ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَحْتَاجُونَ فِيها إِلَىٰ تَثْبِيتٍ، وَهُمْ في الحياة الدُّنْيا، كَتَثْبِيتِهِمْ وهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله، وكَتَثْبِيتِهِمْ في ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ وَهُمْ يَبْذُلُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ في الْمَبَرَّاتِ والْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ.

وَكَتَثْبِيتِهِمْ عَلَىٰ الْإِيمانِ كُلَّمَا تَعَرَّضُوا لِهَزَّاتٍ مُزَلْزِلَاتٍ لِلْقُلُوبِ والنُّفُوس، وأَتَمُّهَا تَثْبِيتُهُمْ عَلَىٰ الْإِيمانِ قَبْلَ نَزْعِ أَرْوَاحِهِمْ عِنْدَ اقْتِرَابِ آجَالِهِمْ، لِتَكُونَ وَفَاتُهُمْ عَلَىٰ إيمانٍ صحِيحٍ كامِلٍ.

أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فيَكُونُ تَثْبِيتُهُمْ على الْإيمانِ عِنْدَ سُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ المكَلَّفِينَ بِسُؤَالِ الْمَوْتَىٰ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، عن دِينِهِمْ، ورَسُولِهِمْ، والكِتَابِ المنَزَّلِ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وَرُبما في مَوَاقِفَ أُخْرَىٰ اللهُ أَعْلَمُ بها.

أَمَّا مَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ بأُولَىٰ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، ويُطْلَقُ عَلَيْهَا حَالَةُ الدَّفْنِ في الْقَبْرِ، فَقَدْ جاءَ بِشَأْنِها أَحَادِيثُ مِنْهَا الصَّحِيحَةُ وَمِنْهَا دُونَ ذَلِكَ:

رَوَىٰ البخاري بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ في قَبْرِهِ، وَتَوَلَّىٰ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هٰذَا الرَّجُلِ، لِمُحَمْدٍ ﷺ؟. فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً. وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هٰذَا الرَّجُلِ؟، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ».

وَجَاءَ في أَحَادِيث أُخْرَىٰ مِنْهَا عَنِ البراء بن عازب عِنْدَ أَبِي دَاوُد وأَحْمَد وَغَيْرَهما، عَنِ النبيِّ ﷺ، أَنَّ الميّتَ بَعْدَ دَفْنِهِ فِي قَبْرِهِ، يُسْأَلُ فيقالُ له: «مَنْ رَبُّكَ؟. وَمَا دِينُكَ؟. وَمَنْ نَبِيُّكَ؟».

قَالَ: «ويَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَام. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ وَصَدَّقْتُ. قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَىٰ الْجَنَّةِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا. وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِه...

قَالَ: وإِنَّ الْكَافِرَ ـ فَذَكَرَ مَوْتَهُ ـ، قَالَ: وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي. فَيَقولَانِ لَهُ: مَا هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّماءِ، أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَىٰ النَّار، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا. قَالَ: وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ...».

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ ...﴾:

أَيْ: ويَحْكُمُ اللهُ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ بالضَّلَالِ، وأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إِلَىٰ مَقَاعِدِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، بَعْدَ إِصْدَارِ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّين.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ تَثْبِيتِ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا والْآخِرَة، وَبَعْدَ الْحُكْمِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ بالضَّلَالِ، وباسْتِحْقَاقِ الْخُلُودِ فِي عَذَاب النَّارِ.

وَنَفْهَمُ مِنْ هٰذَا أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُنْعِمُ بِفَضْلِهِ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً صَحِيحاً صَادِقاً بالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وَبِمَا تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يُنْعِمَ بِهِ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ نَعِيمٍ، بِحَسَبِ الدَّرَجَةِ الَّتِي قَضَىٰ بِأَنْ يَكُونَ فِيهَا مِنْ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ المئة.

ويُعَذِّبُ الظَّالِمِينَ بِعَدْلِهِ عَلَىٰ وَفْقِ مَشِيئَتِهِ الْحَكِيمَةِ، بِحَسَبِ الدَّرَكَةِ الَّتِي قَضَىٰ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فيها، من دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ.

وَمَشِيئَةُ اللهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، بِفَضْلِهِ إِنْعَاماً، وبِعَدْلِهِ تَعْذِيباً وإِيلَاماً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: انْظُرْ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِبَيَانِ رَبِّكَ بِفِكْرِكَ المتأمِّلِ المتَدَبِّرِ، إلى

الكَفَرَةِ الجاحِدِينَ الْمُشْرِكِينَ، الّذِينَ بَدَّلُوا مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ، بالإيمانِ والْإِسْلامِ والْعَمَلِ بمَراضِيهِ، فَجَعَلُوا مَكَانَهُ كُفْراً وجُحُوداً لِنِعَمِ اللهِ الكثيرَةِ عَلَيْهِمْ، فَنَسَبُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نِعَمِ اللهِ إلى عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ وَمَهَارَاتِهِمْ في الكَسْب، وإِلَىٰ آلِهَتِهِمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي اتَّخَذُوها افْتِرَاءً عَلَىٰ حَقِّ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِهِ، وهِيَ لَا تَنْفَعُهُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ بِشَيْءٍ، وَدَعَوْا جَمَاهِيرَ قَوْمِهِمْ إِلَىٰ سُبُلِ الكُفْرِ والضَّلَالِ الَّتِي سَلَكُوهَا، فَاتَّبَعَتْهُمْ جَمَاهِيرُهُمْ دُونَ أَنْ يُحَاكِمُوا اتِّبَاعَهُمْ لَهُمْ بِآرَاءٍ سَدِيدَةٍ، وعُقُولٍ رَشِيدَةٍ، وإِنَّما وَثِقُوا بِقِيَادَاتِهِم ورِئاسَاتِهِم لَهُمْ فَاتَّبَعُوهم، فَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ باتِّبَاعِهِمْ لَهُمْ فِي الْكُفْرِ والضَّلَالِ دَارَ الْبَوَارِ، أي: دَارَ مُعَاقَبَةِ أَهْلِ الْفَسَادِ باختيارِهِمُ الْحُرّ، وهي جَهَنَّمُ الَّتِي يَحْتَرِقُونَ بِنَارِهَا يَوْمَ الدِّينِ.

- ﴿... وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨﴾: أي: دَارَ مُعَاقَبَةِ أَهْلِ الْفَسَادِ والإفْسَادِ في الأَرْض.

الْبَوَارُ: مَصْدَرُ «بَارَ، يَبُورُ، بَوْراً، وَبَوَاراً» أي: هَلَكَ، أَوْ كَانَتْ نَتَائِجُ عَمَلِهِ خيْبَةً، فَلَمْ يُحَقِّقِ المقْصُودَ مِنْهُ، فَدَارُ البَوَارِ هِيَ دَارُ الخيبَةِ فِي كُلِّ شيءٍ، وجاءَ عَطْفُ الْبَيَانِ مُبَيِّناً كَوْنَ دَار الْبَوَارِ:

- ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾:

جَهَنَّمُ: هِي الدَّارُ الْمُعَدَّةُ لِعَذَابِ المجْرِمينَ يَوْمَ الدين.

يَصْلَوْنَهَا: أي: يُعَذَّبُونَ بالاحْتِرَاقِ بنارِهَا، كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهم بَدَّلَهُمُ اللهُ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقوا العذاب.

وَبِئْسَ الْقَرار: أي: وَسَاءَ سُوءاً ـ لَا يُوجَدُ أَشَدُّ مِنْهُ ـ مَكَانُ إقَامَتِهِمْ واسْتِقْرَارِهِمُ الْأَبَدِيِّ فيها.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: أي: وجَعَلُوا للهِ مُمَاثِلِينَ ونُظَرَاءَ لَهُ، فِي رُبُوبِيَّتِهِ أو في إِلَهِيَّتِهِ، فَعَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ.

- ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: أي: لِيُضِلُّوا مَنْ يَسْتَجِيبُ لهم ويَتَّبِعُهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وهذا شَأنُ الْقَادَةِ والأَئِمَّةِ الْمُغْوِينَ المضِلِّينَ.

- و[**ليضلوا عن سَبيلِ اللهِ**] في قراءة ابْنِ كثير، وأبي عَمْرو، وَرُوَيس، أي: لِيَبْتَعِدُوا فِي مَتَاهَاتِ الْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ وَمَتَاعَاتِهِمْ من الْحياةِ الدُّنْيا ضَالِّينَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ المستقيم.

- ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الداعي إلى سَبِيلِ رَبِّكَ، تَمَتَّعُوا بِمَتَاعَاتِكُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا، فَإِنَّ الْمَصِيرَ الَّذِي سَوْفَ تَصِيرُونَ إِلَيْهِ هو عَذاب النَّار يَوْمَ الدِّين، إذا لم تَتُوبُوا إلى بَارِئِكُمْ قَبْلَ مَوْتِكُمْ، وفي هٰذَا وَعِيدٌ عظيم لهم بالمصير التَّعِيسِ الذي سَوْفَ يُلاقُونه.

مَصِيرُ الْأَمْرِ: مُنْتَهَاهُ وعَاقِبَتُهُ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٣١ ـ ٣٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾:

القراءات:

(٣١) • قرأ ابْنُ عامر، وحَمْزة، والكسائي، ورَوْح: **[قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ]** بإسْكانِ ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِفَتْحِ ياء المتكلم.

(٣١) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، ويَعْقُوب: **[لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ]**.

وهما وَجْهَانِ نَحْوِيَّانِ جَائِزَانِ في «لَا» النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ إِذَا تَكَرَّرَت، ضِمْنَ خَمْسَةِ وُجُوه جَائِزَة.

تَمْهِيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْسِ مَا يلي:

(١) أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ بأَنْ يَأْمُرَ عِبَادَ اللهِ المؤمنين؛ بأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاة، وبِأَنْ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ.

(٢) بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُوَ الرَّزَّاقُ مِنَ السَّمَاءِ، وهُوَ المسخِّرُ لِلْفُلْكِ، والمسَخِّرُ لِلْأَنْهَارِ وللشَّمْسِ والْقَمَرِ دائِبَيْنِ، ولِلَّيْلِ والنَّهَارِ، وهو الَّذِي آتاهُمْ مِمَّا سَأَلُوه.

(٣) ذَكَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ بِأَنَّهُمْ إِنْ يَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا يُحْصُوها، وأَبَانَ لَهُمْ أَنّ الإنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.

التدبُّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

• ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّد، ويَا كُلَّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا فَشَرَّفْتُهُمْ بِعُبُودِيَّتِهِمْ لي بِسَبَبِ إيمانِهِمْ؛ لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ المفروضَةَ فِي أَوْقَاتِها الْخَمْسِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ فُرِضَتْ فِي لَيْلَةِ الإسْرَاءِ والمِعْرَاجِ، كَمَا جَاءَ بَيَانُهُ مُفَصَّلاً في الدَّرْسِ الأَوَّلِ من دُرُوس سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول).

• ﴿يُقِيمُواْ﴾: أي: «لِيُقِيمُوا» مَجْزُومٌ بِلَامِ أَمْرٍ محذوفَةٍ تَخْفِيفاً، إِذْ جَاءَتِ الْعِبَارَةُ بَعْدَ تَكْلِيفِ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُول لِعِبَادِهِ المؤمنين، وعُطِفَ عَلَيْهِ.

• ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ بالْجَزْمِ أَيْضاً.

• ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: لَمْ تَكُنِ الزَّكَاةُ بأَنْصِبَتِهَا وَمَقَادِيرِهَا قَدْ فُرِضَتْ في المرحَلَةِ المكيَّةِ مِنْ مَسِيرَةِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّة، وإِنَّما جَاءَ فيها التَّرْغِيب في الإِنْفَاقِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ، والحثُّ عَلَيْهِ، والْأَمْرُ بِهِ أَمْراً عَامًّا غَيْرَ مُحَدَّدِ المقدار، وتَحْسِينُهُ، وذَلِكَ فيما يلي:

(١) في الآية (٤٧) من سورة (يسٓ/ ٤١ نزول).

(٢) وفي الآية (٢٩) من سورة (فاطر/ ٤٣ نزول).

(٣) وفي الآية (٥٤) من سورة (القصص/ ٤٦ نزول).

(٤) وفي الآية (٣٩) من سورة (سبأ/ ٥٨ نزول).

(٥) وفي الآية (٣٨) من سورة (الشورى/ ٦٢ نزول).

(٦) وفي الآية (٧٥) من سورة (النحل/ ٧٠ نزول).

(٧) وفي الآية (٣١) من سورة (إبراهيم/ ٧٢ نزول) الْجَارِي تَدَبُّرُهَا.

أَفْهَمُ مِنْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَة أَنَّ الله يَأْمُرُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَأْمُرَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَمْرَ إِلْزَام، بِأَنْ يُنفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ رَبُّهُمْ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، دُونَ تَحْدِيدِ مِقْدَار مَا يُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، تَمْهِيداً وَتَوْطِئَةً لِمَا سَيَنْزِلُ مِنْ تَحْدِيدٍ فِي الْمَرْحَلَةِ الْمَدَنِيَّةِ، وَفْقَ أُسْلُوبِ التَّدَرُّجِ فِي تَنْزِيلِ أَحْكَامِ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ.

سِرّاً: أي: دُونَ إِظْهَارٍ للنَّاسِ، بَلْ يَكُونُ بَيْنَ المنْفِقِ والمنْفَقِ عَلَيْهِ، أَوْ بَيْنَ المنْفِقِ وَبَيْنَ المشْرُوعِ الْعَامّ، الَّذِي يُوضَعُ فِيهِ الْمَالُ بِصُنْدُوقٍ عَامٍّ لَا يُعْرَفُ اسْمُ مَنْ يَضَعُ فِيهِ صَدَقَتَهُ، وَمَا بَذَلَهُ فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ رَبِّهِ.

وَعلانَيَّةً: أي: ظَاهراً لَا خَفَاءَ فِيهِ، يَرَاهُ مِنْ شَهِدَ الإنْفَاقَ.

وفي تقديم السِّرّ على الْعَلَانِيَةِ إِشْعَارٌ بِتَفْضِيله لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ، وأقربُ إِلَىٰ الإخْلَاصِ للهِ فِيهِ.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حَالَانِ لِلْإِنْفَاقِ.

- ﴿... مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾:

خِلَال: جمع «خُلَّة» وهو الصّدِيق (يسْتَوِي فِيهِ المذكَّرُ والمؤنَّثُ والمفرد والجمع)، ويُقَالُ: «خُلَّةُ الإنْسَانِ» أَهْلُ مَوَدَّتِهِ، و«خُلَّةُ الرَّجُلِ» زَوْجَتُهُ، والجمع: «خِلَال».

أي: من قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ هُوَ يَوْمُ الْقِيامَةِ، يَوْمُ الجزاء الأكبر، وهُوَ يَوْمٌ لَا يَمْلِكُ فِيهِ مَنْ كَانَ مَوضوعاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا موضِعَ الامْتِحَانِ؛ مَا يَفْتَدِي بِهِ مِنْ عَذَابِ الله إِنْ كَانَ قد حُكِمَ عَلَيْهِ بالْعَذَابِ، ولا ما يَشْتَرِي ما يَتَمَنَّى مِنْ ثَوَابِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، ولا يَكُونُ لَهُ مُحِبُّونَ أنْصارٌ يَدْفَعُونَ عَنْهُ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ اللهِ بِشَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا إِلَّا بِإِذْنِ الله، أَوْ يَجْلُبُونَ لَهُ شَيْئاً مِنْ ثوابِ اللهِ فِي الْجَنَّةِ بِشَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا إِلَّا بإِذْنِ الله، وضِمْنَ قَانُونِ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ.

وَجَاءَ التَّعْبيرُ عَن انْعِدَامِ مَا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ يُفْتَدَىٰ بِهِ عَذَابُ اللهِ من مال، أَوْ يُشْتَرَىٰ بِهِ مَا يُتَمَنَّىٰ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ بالمال؛ بعبارَة: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ إِذْ هُوَ مِثَالٌ مِنَ الأَمْثِلَةِ الْكُبرَىٰ الَّتِي تَتَدَاولُ فِيهَا الأَمْوَالُ.

وَجَاءَ التعبير عَنِ انْعِدَام مَا يُتَوَهَّمُ أَنْ يُسْتَنْصَرَ بهم أَوْ يُسْتَشْفَعَ بِهِمْ بِعِبَارَة: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾: أي: وَلَا أَصْدِقَاءُ وَلَا أَهْلُ مَوَدَّةٍ يَنْصُرُونَ، أَوْ يَشْفَعُونَ، إِذْ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ يَوْمَ الدِّينِ إِلَّا بإِذْنِ الله.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ مُمْتَنّاً عَلَيْهِمْ بِبَعْضِ نِعَمِهِ الَّتِي خَلَقَهَا لهم:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾:

في هَٰذِهِ الآيات الثلاث بَيَانُ تسع قضايا:

القَضِيَّةُ الأُولى: جاء التعبيرُ عَنْهَا بِقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أي: اللهُ هُو الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِكُلِّ مَا فِيهَا، وَخلَقَ الأَرْضَ بِكُلِّ مَا فِيها، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ إِمَّا هُو تَابعٌ لِلْأَرْضِ وإِمَّا هو تَابعٌ للسَّماء، ولمَّا كَانَ الكَوْنُ كُلُّهُ مُنْحصِراً فِي الأَرْضِ وفِيمَا حَوْلَ الأَرْضِ مِنْ سَمَاوَاتٍ؛ كَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ خَالِقاً كُلَّ شَيْءٍ، والمرادُ بالْخَلْقِ هُنَا الإبْداعُ مِنَ الْعَدَم عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَق، وَيَدْخُلُ فِيهِ: إِعْطَاءُ الأشياءِ صُوَرَهَا، وَهَـٰذَا الْخَلْقُ مِنَ الْعَدَمِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

القضيَّة الثانية: جاء التعبير عنها بِقَولِ الله تعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾:

أي: وَأَنْزَلَ ماءً مِنَ السَّحابِ الَّذِي هُوَ سَماءٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَهُوَ بُخارُ الْماءِ الصّاعِدُ من الأَرْض، والمتجمِّع سَحاباً، والَّذِي يَهْطُلُ أَمْطاراً ضِمْنَ نِظَامٍ قَدَّرَه اللهُ وَقَضاه بحِكْمَتِهِ.

والماءُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ مِنَ السَّحَابِ يَخْتَلِط بِتُرَابِ الأَرْض، فَتَنْبُتُ بِهِ نَبَاتَاتُ الأَرْضِ، فَتَخْرُجُ مِنْهَا ثَمرَاتٌ مُخْتَلِفَاتٌ رِزْقاً للنَّاس.

لفظ «مِنْ» في ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لِلتَّبْعِيض، لِأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ثَمَرَاتٍ هُوَ بَعْضُ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ ثَمَرَاتٍ، فَفِي الْجَنَّةِ ثَمراتٌ كثيراتٌ جدًّا لَا وُجودَ لِنَظِيراتِهَا فِي الأَرْض.

القضيَّة الثالِثَة: جاء التعبيرُ عَنْهَا بِقَوْلِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾:

إِنَّ نِظَامَ الطَّفْوِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ وقَضَاهُ في كَوْنِهِ؛ يَنْتُجُ عَنْهُ أَنْ يَحْمِلَ الْمَاءُ مَرَاكِبَ تَجْرِي فِيهِ، وَهَـٰذَا مِنْ تَسْخِيرِ اللهِ لعبادِه، وحينَما تَجْرِي فإِنَّمَا تَجْرِي بِأَمْرِه، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَشَأْ أَنْ تَجْرِيَ فَإِنَّهَا تَتَوَقَّفُ.

التَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لأَمْرٍ ما، وجَعْلُ الشيء مطاوعاً لِمَا يُرَادُ بِهِ أَوْ مِنْهُ ضِمْنَ قانون تَسْخِيرِه.

وَسَبَقَ فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ بَيَانُ مَنَافِعِ النَّاسِ مِنْ تَسْخِير الْفُلْكِ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِ رَبِّها.

القضيَّة الرابعة: جاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بقول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: وسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ لِتَسْتَقُوا مِنْهَا، وَلِتُسْقُوا مِنْهَا أَنْعَامَكُمْ وَدَوَابَّكُمْ وزُروعَكُمْ وأشجارَكُمْ، ولِتَسْتَخْرِجُوا مِنْهَا لَحماً طَرِيًّا، وَلَكُمْ فيها مَنَافِعُ كثيرة أُخْرَىٰ.

القضية الخامِسَة: جاء التعبير عَنْها بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾:

أي: وسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً عَلَىٰ أَرْضِكُمْ فِي النَّهار، كَثِيرَةَ الْمَنَافِعِ لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الْقَمَرَ بِنِظَامِهِ الْخَاصِّ كثير المنافِعِ، يَسِيرانِ ضِمْنَ نِظَامٍ ثابتٍ، وَعَادَةٍ لَا تَخْرِمُ لَحْظَةً واحِدَة.

الدّأب: العادة والسُّنَّة المتَّبَعَةُ الَّتِي تَتَكَرَّرُ بلا تغْيير مع الجدِّ والاجتهاد.

القضية السادسة: جاء التعبير عَنْها بقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾:

وقد سبق في نجوم التنزيل بيان منافع اللّيل والنهار للناس، فالليل للسكون والراحة، والنهار للعمل.

الْقَضِيَّةُ السَّابِعَة: جاء التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِقَوْلِ اللهِ تَعَالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ القضيَّةُ عَلَىٰ آيَة اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ، من آيَاتِ اللهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ وجُودِهِ، فَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا سَأَلَ اللهَ رَبَّهُ أَمْراً مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ، في مَالٍ أو صِحَّةٍ وَعَافِيَة، أَوْ أَمْنٍ، أَوْ خَلَاصٍ مِنْ مَكْرُوه؛ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ بَعْضَ دُعَائِهِ له، لِيُبَيِّنَ له أَنَّهُ رَبٌّ مَوْجُودٌ في الْغَيْبِ عَنِ الحواسِ، ويُجِيبُ دُعَاءَ المضْطَرِّ إذا دَعَاه.

الْقَضِيَّةُ الثامِنَةُ: جاء التعبيرُ عَنْهَا بِقَوْلِ اللهِ تَعَالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾:

أي: وإنِ اتَّجَهَتْ أفْكَارُكُم لِعَدِّ نِعْمَةِ اللهِ (أي: نِعَمِهِ الكثيرة عَلَيْكُمْ) لَا تُحْصُوهَا، أي: لَا تَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَها عَدًّا، لَا تَفْصِيلاً وَلَا جُمْلَةً، أَدْنَاهَا نَفَسٌ واحِدٌ تَتَنَفَّسُونَهُ.

وَهَـٰذِهِ النِّعَمُ الكَثِيرَةُ، مِنَ اللهِ رَبِّكُم عَلَيْكُمْ، تَسْتَوْجِبُ أَنْ تَشْكُرُوه

عَلَيْهَا بالْإِيمانِ والإسلام والْعِبَادَة، بِمَا يُحِبُّ أَنْ تَعْبُدُوه بِهِ، مِنْ طَاعَاتٍ وقُرُبَاتٍ وَنَوَافِلِ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تُرْضِيه.

الْقَضِيَّةُ التاسِعة: جاء التعبيرُ عَنْهَا بِقَوْل اللهِ تعالى: ﴿... إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: إنَّ الْإِنْسَان لَكثِيرُ الظُّلْمِ لِنَفْسِهِ ولِغَيْرِهِ، ولَكثِيرُ كُفْرَانِ وجُحُودِ نِعَم اللهِ رَبِّهِ عَلَيْهِ، فَبِظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ يَرْتَكِبُ الكَبَائِرَ الكُبْرَىٰ فَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعِقَابِ اللهِ الشّدِيد له، وَبِكَثْرَةِ كُفْره جُحُوداً لِنِعَم اللهِ يَخْرُجُ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، فَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْحِرْمَانِ مِنْ زِيَادَةِ نِعَم اللهِ عَلَيْه.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السَّابع من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دروس سورة (إبراهيم)

الآيات من (٣٥ ـ ٤١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن

ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

القراءات:

(٣٥) • قرأ هشام: [**إِبْرَاهَامُ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**إِبْرَاهِيمُ**].

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبيان.

(٣٧) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ أَسْكَنْتُ**] بِفَتْحِ يَاءِ المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

(٣٧) • قرأ هِشامٌ بخُلْفٍ عَنْه: [**أَفْئِيدَةً**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَفْئِدَةً**] وهو الوجه الثاني لِهِشام.

(٣٧) • قرأ حَمْزَةُ، ويعْقُوب: [**إِلَيْهُمْ**] بِضمِّ هَاءِ الضمير.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ هَاء الضمير.

(٤٠) • قرأ ورشٌ، وأبو عمْرو، وحمزة، وأبو جعفر: [**دُعَائِي**] بإثبات يَاءِ المتكلم وصلاً. وكذلِكَ قَرأها الْبَزّي، ويعقوب وصْلاً ووقفاً.

وَقَرَأَهَا بَاقِي القراء العشرة: [**دُعَاءِ**] بحذف يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ وصْلاً ووَقْفاً.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ أَدْعِيَةٍ دعا بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام في مُنَاسَبَاتٍ وأزمَنَةٍ مُخْتَلِفَة، تَذْكِيراً لِلْمُعَالَجِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَبُوهُمْ إبراهيم وولَدُهُ إسْمَاعِيل عَلَيْهِمَا السَّلام؛ مِنْ نَبْذٍ لِلأَصْنَامِ، وَمُقَاوَمَةٍ لَهَا.

التدبُّر التحليلي:

بَعْضُ الْأَدْعِيَةِ الَّتِي دَعَا بِهَا إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ جَاءَ مُتَأَخِّراً فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ، مع أَنَّهَا مُتَقَدِّمَةٌ زَمناً عَلَىٰ أَدْعِيَةٍ جاءَت بِحِكْمَةِ اللهِ مُتَقَدِّمَةً في تَرْتيب آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ، إِذْ رُوعِيَ في التَّرْتِيبِ تَقْدِيمُ مَا هُوَ الأَوْلَىٰ بِالتَّقْدِيم بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المَضْمُونِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيات، فَمَا يَتَعَلَّقُ بقَضَايَا الدِّينِ الْكُبْرَىٰ قُدِّمَتِ الآيَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَيْها، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام وخُصُوصِ ذُرِّيَّتِهِ وَوَالِدَيْهِ والمؤمِنِينَ أُخِّرَتْ الآيَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَيْهَا.

فَلْنُتَابعْ تَدَبُّرَ الْآيَاتِ عَلَىٰ وَفْقِ تَرْتِيبِهَا فِي النّصّ:

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِي لِكَلامِ رَبِّكِ أدْعِيَةَ إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ حِينَ قَالَ فِيها:

أولاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾: المرادُ بِهٰذَا الْبَلَدِ مَكَّةُ المكَرَّمَةُ، زادَها اللهُ تَشْرِيفاً وتعظيماً.

دلَّ هٰذَا الدُّعَاءُ عَلَىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانَ فِيهَا حينَ دَعَا هٰذَا الدُّعاء، إِذْ قَالَ: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾. وقَد اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام، فجعل مَكَّةَ بَلَداً آمِنا بِحُكْمِ الشَّرْعِ، وآمِناً مِنَ الكوارِثِ الكُبْرَىٰ كالزَّلَازِلِ والْبَرَاكِينِ وَنحوهما، وحِينَ أَرَادَ أَبْرهَةُ بِمَكَّةَ شرًّا أَهْلَكَهُ اللهُ وَأَهْلَكَ جَيْشَهُ، وَسَلَّمَ مَكَّةَ مِنْ شَرِّهِمْ.

ثانياً: ﴿... وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: ونَحِّنِي وأَبْعِدْنِي، وَنَحِّ بَنِيَّ وأَبْعِدْهُمْ عَنْ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنام.

وَقَدْ حَمَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام وأَبْنَاءَهُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَام، فَكَانَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام نَبِيًّا رَسُولاً، وكان إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَام نَبِيًّا رَسُولاً، ولَمْ يُعْلَمَ أَنَّ أَبْنَاءَه مِنْ «قَطُّورَة» في مَدْيَنَ بَعْدَ سَارَةَ كَانَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَابِدَ وَثَنٍ.

وَلَا أَفْهَمُ أَنَّ الْمُرَادَ كُلُّ الذُّكُورِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فَقَدْ ظَهَرَ الشِّرْكُ فِي أَهْلِ مَكَّة وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَظَهَرَ الشِّرْكُ في أَهْلِ مَدْينَ وَكَثِيرٌ مِنْهم مِنْ ذُرِيَّتِهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ، وظَهَرَ الشِّرْكُ فِي بَنِي إِسْرَائِيل بَعْدَ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَام.

ثالثاً: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾:

أيْ: رَبِّ إِنَّ الْأَصْنَامَ وَالْفِتْنَةَ بِمَا تَرْمُزُ إِلَيْهِ؛ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ، فَافْتُتِنُوا بِعِبَادَتِها، تَوَهُّماً مِنْهُمْ أَنَّ عِبَادَتَهَا تَنْفَعُهُمْ فِي مَطَالِبِ دُنْيَاهم، أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

رَبِّ فَمَنْ تَبِعَنِي عَلى التوحيد، والإيمان الصحيح، واتَّبَعَنِي في الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُرْضِيكَ مِنْ عِبَادِكَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ جَمَاعَتِي، وَمِنْ أُمَّتِي المسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِي، وَمَنْ عَصَانِي فَكَفَرَ، أَوْ عَصَانِي بِمَا هُوَ دُونَ الكُفْرِ، فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ تَعْلَمُ أَنَّ حِكْمَتَكَ تَقْتَضِي أَنْ تَغْفِرَ لَهُ، وَإِنَّكَ تُعَاقِبُ بَعَدْلِكَ؛ مَنْ كَفَرَ بالشِّرْكِ أَوْ بِغَيْرِهِ، إِذْ تَقْضِي حِكْمَتُكَ بِأَنْ تُنْزِلَ بِهِ عِقَابَكَ.

طَوَىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في اللَّفْظِ مَا يُشِيرُ إلىٰ الْعِقَابِ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّ الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلك لِمَنْ يَشَاءُ.

رابعاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

دَلَّتْ عبارة: ﴿رَّبَّنَآ﴾ بِضَمِيرِ المتكَلِّمِ ومَعهُ غَيْرُهُ؛ عَلَىٰ أَنَّ هٰذَا

الدُّعَاءَ كَانَ مَعَ إِبْرَاهِيم فِيهِ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلام، ورُبَّما بَعْض أَوْلَادِ وَلَدِه.

• ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾: أي: إِنِّي أسْكَنْتُ بَعْضَ ذُرِّيَّتِي مِن إسماعيل. فحَرْفُ «مِنْ» للتَّبْعيض. أَمَّا ذُرِّيَّتُهُ مِنْ إِسْحَاقَ ـ عَلَيْهِمَا السَّلامُ ـ فَكَانَتْ في أَرْضِ الشَّام. ثُمَّ كَانَتْ لَهُ ذُرِّيَّةٌ بَعْدَ سَارَة في أَرْضِ مَدْين.

• ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾: هُوَ الْوَادِي الذي فيه الآنَ الكَعْبَةُ المشَرَّفَة والْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، وَمَا حَوْلَهُمَا إِلَىٰ الْجِبَالِ الْمُحِيطَة، وَكَانَ حينَئِذٍ خَالِياً مِنْ زَرْعٍ أَرْضِيٍّ، وخَالِياً مِنَ الأَشْجَارِ، ولا أَرَىٰ أَنَّ أَرْضَهُ لَمْ تَكُنْ صَالِحَةً لِلزَّرْع.

• ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾: يَظْهَرُ أَنَّ هٰذَا الدُّعَاءَ قَدْ كَانَ بَعْدَ أَنْ بَوَّأَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام مَكَانَ البيْتِ المحرّم، مَعَ احْتِمَالِ أَنَّ الله أَعْلَمَهُ بِوُجُودِ مَكَانِ بَيْتِهِ الْمُحَرَّمِ فِي هٰذَا الْوَادِي، مُنْذُ وضَعَ إِسْمَاعِيلَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ فِيهِ مع أُمِّهِ هَاجَرَ، قَادِماً بِهِ وَهو طِفْلٌ مِنْ أَرْضِ الشَّام.

الْمُحَرَّم: أيْ: ذُو الْحُرْمَةِ والْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ، والْمَمْنُوعُ مِمَّنْ يُريد بِهِ شرًّا، باعْتِبَارِهِ بَيْتاً لِعِبَادَةِ اللهِ، فَهُوَ يُرِيدُ مَحْوَهُ أَوْ صَرْفَ النَّاسِ عَنْهُ مُحَارِباً بِمَا يَفْعَلُ دِينَ اللهِ الحقِّ.

• ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أَسْكَنْتُ هُنَا بَعْضَ ذُرِّيَّتِي؛ لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّم، ولِيَكُونُوا الْقُدْوَةَ لِلنَّاسِ فِي إِقَامَةِ الصَّلاةِ، وعِبَادَتِكَ عَلَىٰ الوجْهِ الَّذِي يُرْضِيكَ.

• ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾:

الْأَفْئِدَة: الْقُلُوب، أَوْ عُمْقُهَا كَمَا يَظْهَرُ لِي.

تَهْوِي إِلَيْهِم: أي: تَمِيلُ إِلَىٰ حُضُورِ بَلَدِهِمْ بِقُوَّة، كَمَا يَهْوِي الشَّيْءُ

مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ. وهـٰذَا هُوَ الْمُشَاهَدُ فِي مَيْلِ قُلُوبِ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ لِزِيَارَةِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ والكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ، لِأَدَاءِ مَنَاسِكِ الحجّ أَوِ الْعُمْرَةِ، والصَّلَاةِ في المسْجِدِ الحرام، والطَّوَافِ فِيهِ حَوْلَ الكَعْبَةِ، صَانَهَا اللهُ، وَزَادَهَا شَرَفاً وَتكْرِيماً.

- ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

أيْ: وارْزُقْهُمْ بِأَنْ تُجْلَبَ إِلَىٰ بَلَدِهِمُ الَّذِي لَا زَرْعَ فِيهِ؛ مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَرَاتِ الَّتِي تُنْتَجُ فِي الْبِلَادِ ذَاتِ الزُّرُوعِ والثمراتِ الوفيرات، وأثَرُ هـٰذَا الدُّعَاءِ ظاهِرٌ مُشَاهَدٌ، إِذْ تُجْبَىٰ دواماً إِلَىٰ مَكَّةَ مِنْ كُلِّ أَنْواعِ الثَّمَرَاتِ بِفَضْلِ اللهِ، وَبِبَرَكَةِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام.

وقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَة (القصص/ ٢٨ نُزُولِ) بِشَأْنِ أَهْلِ مَكَّة:

﴿... أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

- ﴿... لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: رَاجِياً أَوْ رَاغِباً أَنْ يَشْكُرُوا نِعَمَكَ الكثيرةَ عَلَيْهم، بالإيمان والإسْلَام والأعْمَالِ الصَّالِحَة الَّتِي تُرْضِيكَ عَنْهُمْ.

خامساً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾:

دَلَّتْ عِبَارَةُ: ﴿رَبَّنَآ﴾ هُنَا أَيْضاً على أَنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام كَانَ يَدْعُو ومَعَهُ غَيْرُهُ، كَوَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام، وأَوْلَادِه وَزَوْجَتِهِ.

- ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ﴾: أي: فَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا الَّتِي نُخْفِيهَا وَخَطَايَانَا الَّتِي نُعْلِنُهَا. فَطَلَبُ المغفرة هو لازمُ الاعْتِرَافِ بِعِلْمِ اللهِ لِمَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.

- ﴿... وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾:

في هَـٰذِهِ العبارة أثنَىٰ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيء، فَمَا يَخْفَىٰ على اللهِ مِنْ شَيْءٍ في الْأَرْضِ، وَلَا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ حَوْلَ الْأَرْضِ الَّذِي هُوَ سَمَاءٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا.

«مِنْ» في عبارَة: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لِتَوْكِيدِ اسْتغراقِ عُمُوم النفي والتنصيصِ عَلَيْهِ.

سادساً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾:

حَمِدَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام بهذا الدُّعَاءِ اللهَ الَّذِي وَهَبَ لَهُ مَعَ الكِبَرِ وَلَدَهُ إسْمَاعِيلَ، وَوَلَدَهُ إسْحَاق عَلَيْهما السَّلَام، اسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ الَّذِي دَعَاهُ إياه، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: أي: فَإِذَا شَاءَ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُجِيب دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ أجابَهُ، وَقَدْ أَجَابَ اللهُ دُعَائِي.

«على» في عِبَارَةِ: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ بمعنى «مَعْ»، أي: مَعَ الكِبر.

وجاء في الدُّعَاءِ تقديم إسْمَاعيل عَلَيْهِ السَّلَام على إسْحَاق عَلَيْهِ السَّلَام، مُرَاعَاةً لِكِبَرِ سِنِّ إِسْمَاعِيلَ بالنِّسْبَةِ إلى سِنِّ إسْحَاق عليهما السلام.

سابعاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾:

دَعَا إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ لِنَفْسِهِ بِأَنْ يَجْعَلَهُ مُقِيمَ الصَّلَاةِ المطْلُوبَةِ مِنْهُ إلْزَاماً أَوْ تَرْغِيباً، وَدَعَا مِثْلَ ذَلِكَ لِبَعْضِ ذُرِّيَّتِهِ، لَا لِكُلِّهِم، أَيْ: لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ، فَهؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُ اللهُ دُعَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ أَجْلِهِمْ، إِذْ بَدَؤُوا الْخُطْوَةَ الْوَاجِبَةَ عَلَىٰ إِرَادَةِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ، وهِي خُطْوَةُ الْإِيْمَانِ وإعْلَانِ الإسْلَام، فَدَخَلُوا بِهَا صِرَاطَ اللهِ المستقيم، فَمَنْ يَعْلَمُ اللهُ صِدْقَهُمْ في إيمانِهِمْ وإسْلَامِهِمْ؛ قَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ بِأَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَ جَدِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِشَأْنِهِمْ، فَيُوَفِّقَهُمْ لإِقَامَةِ الصَّلَاة.

إقَامَةُ الصَّلَاة: الْمُدَاومَةُ والْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا في أَوْقَاتِهَا، وأَدَاؤُهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الشَّرْعِيّ المطْلُوب فيها، وبهـٰذَا تكُونُ مُسْتَقِيمَةً لَا عِوَجَ فيها.

ثامناً: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾:

دَلَّ هـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جمع مِنْ أَهْلِهِ وأَوْلَادِهِ وأَحْفَادِهِ مَنْ جمَعَ، وَدَعَا لِنَفْسِهِ وَلَهُمْ بِمَا هُوَ خيرٌ وصَلَاحٌ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْهَىٰ مَا فَصَّلَهُ فِي دُعَائِهِ الَّذِي بَدَأَهُ بِعِبَارَةِ: ﴿رَّبَّنَآ﴾ قَالَ دَاعِياً: وَتَقَبَّلْ دُعَائِي، أي: واجْعَلْ دُعَائِي مَقْبُولاً عِنْدَكَ، فَأَنْتَ تَسْتَجِيبُ مِنْهُ مَا تَشَاءُ بِحِكْمَتِكَ السَّنِيَّةِ.

تاسِعاً: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ هـٰذَا الدُّعَاءَ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُفَارِقَ أَبُوهُ الْحَيَاةَ كَافِراً غَيْرَ مُؤْمِنٍ، أَمَّا أُمُّهُ فَيَظْهَرُ أَنَّها قَدْ آمَنَتْ.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ: (التوبَة/ ١١٣ نزول):

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾.

لَمْ يَأْتِ في هـٰذَا النَّصِّ ذِكْرٌ لِوَالِدَتِهِ الَّتِي دَعَا اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهَا مَعَ والِدِهِ، فَدَلَّ هـٰذَا عَلَىٰ أَنَّها كَانَتْ مُؤْمِنَة، بخلافِ حَالِ أبيهِ.

وحِينَ خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمِنِينَ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِأَنْ يَتَّخِذُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام وَالَّذِينَ مَعَهُ أُسْوَةً لَهُمْ؛ اسْتَثْنَىٰ مِنْ هـٰذِهِ الأُسْوَةِ قَوْلَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، فَلَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِمُؤْمِنٍ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لِكَافِرٍ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ، كَوَالِدَيْهِ، أَوْ وَلَدِهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الْمُمْتَحِنَة/ ٩١ نزول) خِطَاباً لِلْمُؤْمِنِينَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّد ﷺ:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟

مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

- ﴿... يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾: أي: يَوْمَ يَتَحَقَّقُ الْحِسَابُ، وَفَصْلُ القضاءِ، فِي مَحْكَمَةِ الفضلِ والْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ القيامَة، تَمْهِيداً لِتَنْفِيذِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ يَوْمَئِذٍ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمْ، أَوْ فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثامِنِ من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٢)

التدبّر التحليلي للدّرس التاسع من دُرُوس سورة (إبراهيم)

الآيات من (٤٢ ـ ٥٢) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى

ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

القراءات:

(٤٢) • قرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر: **[وَلَا تَحْسَبَنَّ]** بفتح السين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَلَا تَحْسِبَنَّ]** بِكَسْرِ السين.

وهُما لُغَتان لمعنًى واحد، وهو الظَّنُّ التَّوهُّمِيُّ الضعيفُ.

(٤٤) • قرأ أبو عمْرو: **[يَأْتِيهِمِ الْعَذَابُ]** بِكَسْرِ الهاء والميم بَعْدَهَا.

وقرأها حمزة، والكسائيّ، ويَعْقُوبُ، وخلف: **[يَأْتِيهُمُ الْعَذَابُ]** بضمّ الهاء والميم بَعْدَها.

ويعْقُوبُ علىٰ أصْلِهِ في ضَمّ الْهَاءِ وَقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ]** بِكَسْرِ الهاء وضم الميم بَعْدَها.

(٤٦) • قرأ الكِسَائيُّ: **[لَتَزُولُ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لِتَزُولَ]**.

(٤٧) • قرأ عاصم، وابْنُ عامر، وحمزة، وأبو جعفر: **[فَلَا تَحْسَبَنَّ]** بفتح السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَلَا تَحْسِبَنَّ]** بِكَسْرِ السين.

وهُمَا لغتان لمعنى واحد، وهو الظَّنُّ التَّوهُّمِيُّ الضعيف.

تَمْهيد:

في آياتِ هٰذا الدَّرْسِ بيانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ عِلْمِهِ بِما يَعْمَلُ الظّالمون، وأَنَّهُ يُؤَخِّرُ حِسابَهُمْ وَعِقَابَهُمْ إلى يَوْمِ القيامَة.

وفيها تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ أَنْ يُنْذِرَ كُفَّارَ قَوْمِهِ، باحْتِمَالِ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَذَاباً مُهْلِكاً لَهُمْ، مع بَيَانٍ جَلِيٍّ عَنْ عَذَابِ يَوْمِ القيامَة.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ بأسلوب الخطاب الإفرادي:

- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣)﴾:

مَادَّة «حَسِبَ، يَحْسَبُ، ويَحْسِبُ» هي عِنْدَ أهل اللُّغَة بمعنى: «ظَنّ»، ومن اسْتِقْرَاء هٰذَا الْفِعْلِ في القرآن، مَعَ تَدَبُّر مَعَانِيهِ؛ تَبَيَّنَ لِي أَنَّه قد اسْتُعْمِل للدَّلَالَةِ على الظَّنِّ التوهُّمِيِّ الضَّعيف، الَّذي يجب طَرْحُهُ واسْتِبْعَادُه.

غَافِلاً: الْغَافِلُ هو الْمُنْصَرِفُ عَنْ مُلَاحَظَةِ وَمُرَاقَبَةِ الشَّيْءِ مَعَ وُجُودِهِ في مَجَالِ إدْرَاكِهِ لَهُ. والْغَفْلَةُ عَنْ أَيِّ شيءٍ في الوجود سواءٌ أكان كَبِيراً أَمْ صَغِيراً مُتَنَاهِياً في الصِّغَرِ؛ مِنَ المسْتَحِيلِ أَنْ يَتَّصِفَ اللهُ بِهَا، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

- ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾: لَا يُهْمِلُ عِقَابَهُمْ، وإنَّما يُمْهِلُهُ.

- ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، إِذْ تَشْخَصُ فِيهِ أَبْصَارُ

أَهْلِ الْمَحْشَرِ. يُقَالُ لغة: «شَخَصَ فُلَانٌ بَصَرَهُ، وَشَخَصَ بِبَصَرِه» أي: فَتَحَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَطْرِفْ بِهِمَا، مُتَأَمِّلاً مُنْدَهِشاً مَبْهُوتاً، أَوْ خَائِفاً مَذْعُوراً.

- ﴿مُهْطِعِينَ﴾: **مُهْطِع**: اسم فَاعِل من فِعْل «أَهْطَعَ». وقد جاء عند أَهْلِ اللُّغَةِ فِي مَعْنَىٰ هـٰذَا الفعل: «أَقْبَلَ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِبَصَرِهِ فَلَمْ يَرْفَعْهُ ـ نَظَرَ في ذُلٍّ وخُشُوع ـ أَقْبَلَ مُسْرِعاً خَائِفاً ـ مَدَّ عُنُقَهُ وَصَوَّبَ رَأْسَهُ، أي خَفَضَهُ وَأَمَالَهُ ـ أَسْرَعَ في الْعَدْو».

- ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أي: مُطَأْطِئِي رُؤوسِهِمْ شاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ في ذُلٍّ وخُضُوعٍ وخُشُوع.

- ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: **الطَّرْف**: تَحَرُّكُ جَفْنِ الْعَيْنِ. أي: لا يَرْجِعُ جَفْنُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَىٰ الانْطِبَاقِ بَعْدَ أَنْ شَخَصَ بَصَرُه.

- ﴿... وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وأَفْئِدَتُهُمْ خَالِيَةٌ، فَقَدَتْ قُواهَا الإِدْرَاكِيَّةَ كُلَّها مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ المَوْقِفِ.

جَاءَ فِي هـٰذَا البيان النَّهْيُ عَنْ تَوَهُّمِ أَنَّ اللهِ غَافِلٌ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، أي: النَّهْي على تَوَهُّم أنّ اللهَ تعالى مُهْمِلٌ لِعِقَابهم.

إِنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ يُمْهِلُ وَلَا يُهْمِل، إِنَّهُ يُؤَخِّرُ عِقَابَ الظَّالِمِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّة وَمَا حَوْلَهَا إِبَّانَ التَّنْزِيلِ إِلَىٰ يَوْمِ القيامَة.

وَقَدَّمَ هـٰذَا البيانُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ أَحْوَالِ الظَّالِمِينَ الكَفَرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وهُمْ في الْمَحْشرِ ذَاهِلُونَ مُنْدَهِشُونَ خَائِفُونَ أَذِلَّاءُ خَاشِعُون سَاكِنُونَ، مَادُّونَ أَعْنَاقَهُمْ مُطَأْطِئُونَ رُؤوسَهُمْ مع إمَالَةِ ذُلٍّ وانْكِسَار، لَا تَنْطَبِقُ أَجْفَانُهُمْ مِنْ شِدَّةِ شُخُوص أَبْصَارِهِم، وأَفْئِدَتُهُمْ فَاقِدَةٌ قواهَا الإِدْرَاكِيَّة، مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ الْمَوْقِفِ الَّذِي هُمْ فِيهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ من أمّته:

- ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾:

- ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: أي: بِعَذَابٍ مُؤَجَّلٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، مَعَ احْتِمَالِ إِنْزَالِ عَذَابٍ مُعَجَّلٍ فِيهِمْ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ بِهِ هَلَاكُهُمْ إِلَىٰ حَدِّ الاسْتِئْصَال.

والمرادُ بالنَّاسِ الَّذِينَ يُوجَّهُ لَهُمُ الإنْذَارُ: الْكَافِرُونَ الْمُجْرِمُونَ، وقَدْ يَشْمَلُ الإنْذَارُ عُصَاة المؤمنين بعقابٍ عَلَىٰ مَقَادِيرِ مَعَاصِيهِمْ.

- ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾: أي: يَوْمَ يَأْتِي مَا يَكُون بِهِ تَعْذِيبُهُمْ وَإِهْلَاكُهُمْ مِنْ وَسَائِلَ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ صَارَ قَرِيباً مِنْهُمْ، يَشْتَدُّ هَلَعُهُمْ وَفَزَعُهُمْ، وَهٰذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَذَابِ المعَجَّل الَّذِي أُنْذِرُوا بِهِ.

- ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾: أي: فيقُول الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ دركَةِ الْكُفْرِ: رَبَّنَا أَخِّرْ تَعْذِيبَنَا وَإِهْلَاكَنَا، وأمْهِلْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَسْتَطِيعُ فِيهِ أَنْ نُجِيبَ دَعْوَتَكَ إِلَىٰ الإيمانِ والإسْلَام، نُجِبْ دَعْوَتَكَ، فَنُؤْمِنُ وَنُسْلِمُ، وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ باتِّبَاعِ خَاتِمِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ عبْدِ اللهِ ﷺ.

إنّ اتبَاعِ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ اتِّبَاعٌ لِكُلِّ رُسُلِ اللهِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلَام.

فَيَأْتِيهِمُ الجوابُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْمَأْمُورِين بتعْذِيبهمْ وَالَّذِينَ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَهُمْ عِنْدَ إِهْلَاكِهِمْ، إِذْ يَقولُونَ لهم:

- ﴿... أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: أَلَمْ تُكَذِّبُوا رُسُلَ رَبِّكُمْ حِينَ أَنْذَرُوكُمْ بِعَذَابِهِ الْمُعَجَّلِ والمؤجَّل،

وأقْسَمْتُمْ عَلَىٰ أَنَّكُمْ سَتَدُومُونَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ حَتَّىٰ تَأْتِيكُمْ آجالُكُمْ، وَلَيْسَ لِلنِّعَمِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنْ زَوَالٍ بِعِقَابٍ مِنَ اللهِ لَكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ، وَمُقَاوَمَةٍ لِدِينِهِ وكتابِهِ، ومُعَادَاةٍ لِرُسُلِهِ.

الزّوال: هُو في اللُّغَةِ تَحُوُّلُ الشَّيْءِ وانْتِقالُهُ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ.

إِنَّهُمْ أقْسَمُوا عَلَىٰ أَنَّهُمْ ما لَهُمْ مِنْ تَحَوُّلٍ عَنْ أَحْوالِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا بِعُقُوبَةٍ مِنَ اللهِ لَهُمْ، وَكَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ بِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنْ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ.

- ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ...﴾:

أي: وَتَقُولُ المَلائِكَةُ لهم أَيْضاً: وسَكَنْتُمْ في مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، فَعُذِّبُوا وأُهْلِكُوا، وَلَمْ تَتَّعِظُوا بِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِ اللهِ لَهُمْ، وَمِثْلُ هٰذَا الْقَوْلِ يُوَجَّهُ لِلَّذِينَ سَكَنُوا فِي مَسَاكِنِ الفراعِنَة، وَمَسَاكِنِ الكفرَةِ الَّذِينَ بَقِيَتْ لَهُمْ مَسَاكِنُ تُسْكَنُ في الشام والعراق وغيرها.

وَتَقُول الْمَلائِكَةُ لَهُمْ أَيْضاً تَبْلِيغاً عَنْ رَبِّهِمْ:

- ﴿... وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ...﴾:

أي: وَتَبَيَّنَ لَكُمْ بِمُشَاهَدَةِ آثَارِ الْمُهْلَكِينَ الكَفَرَةِ، كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ مِنْ إِهْلَاكٍ وَتَدْمِيرٍ بَعْدَ تَعْذِيبٍ مُؤْلِمٍ.

- ﴿... وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَضَرَبْنَا لَكُمْ بالبيانات في كِتَابِنَا، وَعَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِنَا، أَمْثَالَكُمُ الكَفَرَة، وَكَيْفَ أهْلَكْنَاهم، وَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ، كَقَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، وَعَادٍ، وثَمُودَ، وَفِرْعَوْنَ وَجَيْشِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾:

وفي قراءة الكِسَائي: [وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ].

المكْرُ: تَدْبِيرُ أَمْرٍ في خَفَاءٍ بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍ، أَمَّا مَكْرُ الكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَجزَاءِ اللهِ فيها؛ فَمُعْظَمُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا في شَرٍّ، وأَمَّا مَكْرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ وَجَزَاءِ اللهِ فِيها فَيَكُونُ مكراً في خير.

- ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ...﴾: أيْ: وَقَدْ مَكَرَ الْمُهْلَكُونَ السَّابِقُونَ مَكْرَهُمُ الشَّدِيدَ، لِقَمْعِ دَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلَام، وللتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم.

- ﴿... وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ...﴾: أي: وَكَانَ عِنْدَ اللهِ عِلْمُ مَكْرِهِمْ، بِكُلِّ تَفْصِيلَاتِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ وَمَرَاحِلِهِ، كَانَ عِنْدَ اللهِ الْمَمْكُورِ بِدِينِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَام وبِكِتَابِهِ؛ صُورَةٌ كَامِلَةٌ عَنْ مَكْرِهِمْ، فَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدِيرٌ على إِحْبَاطِ كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ لِتَحْقِيقِ مَا مَكَرُوه.

- ﴿... وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾:

أي: وعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ، فَاللهُ مُحْبِطٌ أَعْمَالَهُمْ وَرَادٌّ مَكْرَهُمْ إِلَىٰ نُحورِهِمْ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ كَافِياً مِنْ شِدَّتِهِ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ، فَاللهُ أَشَدُّ قُوَّةً وأَعْظَمُ بَأْساً، وهُمْ لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

- [وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُوْلُ مِنْهُ الْجِبَالُ] بِقِرَاءَةِ الكِسَائِيِّ:

«إِنْ» هي المخففة مِنَ الثقيلَة. واللام في [لَتَزولُ] هي: الفارقة بَيْنَها وبين «إِنْ» النَّافِية. وعبارة [لَتَزولُ مِنْهُ الْجِبَالُ] تُمَثِّلُ شِدَّة مَا أَعَدُّوا مِنْ مَكْر، فَقَدْ أَعَدُّوا بِهِ غَايَةَ مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ عَمَلٍ لتحقيق غَايَتِهِمْ، وَكَانَ مَكْرُ فِرْعَوْنَ وآلِهِ بَالِغاً، فَلَوْ وَجَّهَهُ لِإِزَالَةِ جِبَالٍ مِنْ حَوْلِ مَدِينَتِهِ لَكَانَ كَافِياً، وَقَدْ جاءَت المعْجِزَةُ الرَّبَّانِيَّة فَأَبْطَلَتْ كُلَّ مَكْرِهِ وَكَيْدِهِ، وأغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ وآلَه وكُلَّ جَيْشِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بأسْلُوب الْخِطَابِ الْإفرادي الموجَّهِ لِكُلِّ مَنْ هو صالِحٌ لتلقِّي الخِطَاب:

- ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾:

سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ وَعْدِ اللهِ بِأَنْ يَنْصُرَ رُسُلَه عَلَيْهِم السَّلام، وهُوَ بَيَانٌ يَحْكِي اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِيهِ مَا سَبَقَ فِي تَاريخِ النَّاسِ مِنْ هٰذَا الْوَعْد، وَمِمَّا سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ مِنْهُ؛ قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (غافر/ ٦٠ نُزُول) مُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم ومُؤَكِّداً:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

المعنَىٰ: فَلَا تَتوهَّمَنَّ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلامِ رَبِّكَ مَهْمَا كَانَ التَّوَهُّمُ ضَعِيفاً؛ أَنَّ اللهَ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالَّذِي بِيدِهِ مَلَكُوتُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُخْلِفُ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام مَا وَعَدَهُمْ مِنْ نَصْرٍ عَلَىٰ أعْدَاءِ رِسَالَتِهِ الَّتِي أَرْسَلَهُمْ بِهَا، وَحَمَّلَهُمْ واجِبَ تَبْلِيغِهَا، وَواجِبَ اتِّخَاذِ مَا يَلْزَمُ للإقْنَاعِ بِمَضَامِينِهَا، وَتَرْغِيبِ وَتَرْهِيبِ الَّذِينَ لَا يَكْفِيهِمُ الاقْتِنَاعُ بالحقِّ الرَّبَّانِي، مُحَاصَرَةً مِنْ كُلِّ جوانبهم الداخِلِيَّةِ الَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ عَلَىٰ إرَادَاتِهِم واخْتِيَارَاتِهِم السُّلُوكَ المنْجِي مِن عَذَابِ رَبِّهِمْ، والمسْعِدَ لَهُمْ سَعَادَةً أَبَدِيَّةً فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

- ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾:

أَيْ: إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ غَالِبٌ بِعِزَّتِهِ، وَهُوَ ذُو انْتِقَام، فَهُوَ يُعَاقِبُ بِالْعَدْلِ عَلَىٰ الذُّنُوب، إِلَّا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَغْفِرَ مَا دُونَ كَبِيرَةِ الشِّرْكِ.

الانْتِقَامُ: الْمُعَاقَبَةُ عَلَىٰ الذَّنْبِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾:

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

أي: ضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلامِ رَبِّكَ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ والسَّمَاوَاتُ غَيْرَ السَّمَاوات، وهٰذَا يَكُونُ يَوْم القيامَة.

وقَد اشْتَغَلَ المفَسِّرُونَ في تَعْيينِ هَل التَّغْيِيرُ يَكُونُ في الذَّاتِ أَوْ فِي الصِّفَاتِ، وَرَجَّحَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التغييرَ يَكُونُ في الذَّاتِ، ورَجَّحَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التغيير يَكُون في الصِّفَاتِ.

أقول: إنَّ كُلّاً مِنْهُمَا يُوصَفُ بأنَّهُ تَبْدِيلٌ، ولَيْسَ أَحَدُهُمَا بأدَلَّ عَلَىٰ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ مِنَ الْآخر، لِأَنَّ الله ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَتْ قُدْرَتُه ـ إذَا أَرَادَ شَيْئاً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ فيكون، سواءٌ أكان إيجاداً مِنَ الْعَدَمِ المطلَقِ، أَمْ تغْييراً في صِفَاتِ الموجود، أمْ إعْدَاماً لِلْمَوْجُودِ وَتَبْدِيلاً لَهُ بِمَوْجُودٍ آخر، فالكلُّ بالنِّسْبَةِ إلى قُدْرَة اللهِ العظيمةِ سَواءٌ، والأشياءُ الَّتي نَجْهَلُهَا مِنْ أُمُور الدنيا والآخرة أكْثَرُ مِن التي نعلَمُهَا.

والَّذِي يُفيدُهُ الْبَيَانُ هُنَا أَنَّ صِفَاتِ الْأَرْضِ، وَوَضْعَهَا، وَهَيْئَتَهَا؛ تَكُونُ مُخَالِفَةً لِمَا هِيَ عَلَيْهِ في الحياة الدُّنيا، وكَذَلِكَ السَّمَاوَاتُ بِنُجُومِهَا، وَكَواكِبِهَا، وحَرَكَةِ أَجْرَامِهَا، وَنِظام تَرَابُطِهَا، وأقْسَامِها، تَكُونُ مُخْتَلِفَةً عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَكُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ بِقُدْرَةِ وحِكْمَةِ العَلِيمِ الخبير الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلْماً، وَلَا يُعْجِزُهُ خَلْقُ شيءٍ يُرِيدُه.

بَعْضُ أَحَادِيث بِشَأْنِ تَبْدِيل الْأَرْضِ غَيْرَ الْأَرْض والسَّمَاوَات:

(١) روى البخاري ومُسْلِمٌ مِنْ حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُول:

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ على أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ».

الأرض الْعَفْرَاء: هي الْأَرْض الْبَيْضَاءُ الَّتِي لَمْ تُوطأ.

كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ: أي: كَرَغيفِ خُبْزٍ مِنَ الدَّقِيقِ الْأَبْيَضِ الْحُوَارَىٰ.

(٢) وروى البخاري ومُسْلِمٌ مِنْ حديثِ أبي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

«تكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً واحِدَةً يَتَكَفَّؤُها الْجَبَّارُ بيدِهِ».

يَتَكَفَّؤُهَا: أي: يُقَلِّبُهَا، كَمَا يُقَلِّبُ الخبازُ رَغِيفَ الْخُبْزِ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُ في الْفُرْن.

- ﴿... وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وَظَهَرَ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان جَمِيعاً، في مَوْقِفٍ جَامِعٍ على أَرْضِ المحشَرِ؛ لِمَا يَقْضِي اللهُ بِهِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِم، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفَ لِنَفْسِهِ بِشَيْءٍ، فَالْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ مُلْكُهُ، والْحُكْم حُكْمُهُ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ أَمْرُه.

الْبَرَازُ: المكان الفضاء الواسِعُ الْبَعِيدُ، ويقالُ: «بَرَزَ فُلان» أي: خَرَجَ إلى الأرض الْبَراز.

الْوَاحِدِ: أي: الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ.

الْقَهَّار: أي: الْغَالِبُ الْمُجْبِرُ عَلَىٰ مَا يُرِيد، وهو اسم من أسماء اللهِ الحسنى.

- ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾:

الْمُجْرِم: هو المعتدي بذَنْبٍ كبير، ولفْظُ الْمُجْرِمِينَ في القرآن جَاءَ

عُنْواناً مُقَابِلاً لِلْمُسْلِمِينَ، وَوَصْفاً للكافِرِينَ، وللمعذّبين في النار.

مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ: **الْقَرَنُ**: الْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ الْأَسِيرُ. يُقَالُ: قَرَنَ الْأَسِيرَ بالْحَبْلِ، أي: شَدَّهُ بِهِ، ويُقَالُ: «قَرَّنَهُ» أي: شَدَّدَ عَلَيْهِ الوثَاقَ. ويُقَالُ: «قَرَنَ الْأَسِيرَ بِالْأَسِيرِ» أي: جَمَعَهُمَا في وَثَاقٍ واحِدٍ.

الْأَصْفَاد: هِيَ السَّلاسِلُ والْأَغْلَالُ، مُفْرَدُهَا: الصَّفَدُ، والصِّفَادُ.

سَرَابِيلُهُمْ: جمع «سِرْبال»، وهوَ الْقَمِيصُ وَكُلُّ مَا يُلْبَسُ.

مِنْ قَطِرَانٍ: **الْقَطِرَان**: مَادَّةٌ سَوْدَاءُ سائِلَةٌ لَزِجَةٌ تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْخَشَبِ، وهِيَ شَدِيدَة الاشْتِعَال، تُطْلَىٰ بِهَا الْإِبلُ من الجَرَب.

وَتغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ: أي: تُغَطِّي وُجُوهَهُمُ النَّارُ تَعْذِيباً لَهُمْ.

المَعْنَىٰ: وَتَرَىٰ أَيُّهَا المتَلَقِّي إنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ الْمُعَذَّبِينَ في دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين؛ مَشْدُودِينَ في السَّلاسِلِ والْأَغْلَالِ، وَمُقَرَّنِيْنَ مع نُظَرَائِهِمْ في وَثَاقٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ طُلِيَتْ أَجْسَادُهُمْ بِالْقَطِرَانِ، فَكَانَ الْقَطِرَانُ بِمَثَابَةِ ثِيَابٍ لَهُمْ، وَيُلَامِسُ وُجُوهَهُمْ لَهَبُ النَّارِ.

- ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾:

أي: اعْلَمْ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلام رَبِّكَ؛ أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ الَّذِي تُبَدَّلُ فِيهِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ، وَتُبَدَّلُ السَّمَاوَاتُ غَيْرَ السَّمَاوَاتِ، وَيَبْرُزُ الَّذِينَ كَانُوا في الحياةِ الدُّنْيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، في مَوْقِفٍ جَامِعٍ عَلَىٰ أَرْضِ الْمَحْشَرِ، مُنْتَظِرِينَ مَا يَقْضِي الله بِهِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، وَيُحْكَمُ عَلَىٰ الْمُجْرِمِينَ وَيُسَاقُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، وَيُكَبُّونَ فِيهَا، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ الْمُجْرِمِينَ ـ فِيهِ تُقَامُ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ الربَّانِيَّةُ:

لِيَجْزِيَ الله كُلَّ نَفْسٍ جَزَاءً مُسَاوِياً مَا كَسَبَتْ ضِمْنَ قَانُونِ الْعَدْلِ

بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ السَّيِّئَاتِ الْمَقْرُونِ بِعفْوٍ عَنْ كثير مِنْها، وضِمْنَ عَطَاءات الْفَضْلِ بالنِّسْبَةِ إلى الْحَسَنَاتِ، الَّتِي قَدْ تَصِلُ إلى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ إلى أَضْعَافٍ كَثيرَةٍ جِدًّا، يَمْنَحُهَا اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ.

وَتَأْخِيرُ مَنْ لَمْ يَصِلُوا إلىٰ دَرَكَةِ الْمُجْرِمِينَ فِي الْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ؛ لَا يُؤَثِّرُ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ شَيْئاً، لِأَنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، فَهُو قَدِيرٌ عَلَىٰ أَنْ يُحَاسِبَهُمْ جَمِيعاً فِي سَاعَةٍ واحِدَةٍ، دُونَ أَنْ يَنْقُصَ أَحداً شَيْئاً مِنْ حَقِّهِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خِتَامِ هَـٰذِهِ السُّورة، وهُو آخِرُ الدَّرسِ الْأَخِير مِنْ دُرُوسها:

- ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾:

المشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ كُلُّ مَا جَاءَ في آيَاتِ السُّورَةِ مِنْ بَيَانَاتٍ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ قَضَايا دِينيَّة.

وهَـٰذِهِ الآيَةُ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تَكُونَ هِيَ الدَّرْسَ الأخيرَ من دُرُوس السُّورة، إذ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ تَلْخِيصٍ كُلِّيٍّ لِمَا جَاءَ في كُلِّ آيَاتِ السُّورة.

بَلَاغ: البلاغ اسْمٌ بمَعْنَىٰ الْمَصْدَر الَّذِي هو الإبْلاغُ أو التَّبْليغ، وهو إيْصَالُ رِسَالَةٍ مَا إلىٰ مَنْ وُجِّهَتْ له.

فَمَا جَاءَ في سورة (إبراهيم) بَلَاغٌ يَتَضَمَّنُ قَضَايا دِينِيَّة، وهَـٰذِهِ الْقَضَايَا مُوَجَّهَةٌ لِلنَّاسِ، لِكَيْ يَعْلَمُوهَا وَيَعْمَلُوا بِمَا تَدْعُوهُمْ إلَىٰ الْعَمَلَ به.

- ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾: أي: وَلِيُنْذَرُوا بِمَا جَاءَ فِي هـٰذَا الْبَلَاغِ مِنْ إنْذَارَاتٍ بِعِقَاب اللهِ الْمُعجَّلِ والْمُؤَجَّلِ إلى يَوْم القيامَةِ.
- ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي: وَلِيَعْلَمُ النَّاسُ مِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ

هـٰذَا الْبَلَاغُ؛ أَنَّمَا الإِلَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إِلَهٌ واحِدٌ فَقَط، هو اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنِ اتَّخَذَ إِلَهاً مِنْ دُونِهِ يَعْبُدُهُ كَانَ مُشْرِكاً كافِراً بِرَبِّهِ، وَيَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ في عَذَابِ النَّار يَوْم الدين.

- ﴿... وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾:

الأَلْبَاب: العقول الواعِيَةُ الدَّرَّاكَةُ، الَّتِي تَعْقِلُ الْمَعَارِفَ فَتُمْسِكُ بِها، وَتَعْقِلُ النَّفْسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ. **واللّب**: الْعَقْلُ الْخَالِصُ مِنَ الشَّوَائِب، فَأُولُو الأَلْبَاب هُمْ أَصْحَابُ هَـٰذِهِ الْعُقُول.

والمرادُ بالتَّذَكُّرِ في الاسْتِعْمَالَاتِ القرآنِيَّةِ الأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ مِنْ حُضُورِ الْمَعْلُومَةِ في الذَّاكِرَةِ الْعَامِلَةِ الدَّافِعَةِ للسُّلُوكِ الدِّينيّ الْمُلَائِمِ لَهَا، والمَطْلُوبِ فِيها.

فالْمَعْنَىٰ: ولِيَكُونَ في أَنْفُسِ أُولي الأَلْبَابِ وقُلوبِهِمْ وسُلُوكِهِم؛ الأَثَرُ النَّافِعُ مِنْ حُضُورِ الْمَعْلُومَةِ في الذَّاكِرَةِ الْعَامِلَةِ الدَّافِعَةِ للسُّلُوكِ الدِّينيِّ المَلَائِمِ لَهَا، والمطْلُوبِ فيها.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ سورة (إبراهيم) عليه السَّلَام.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

الملحق الأول

مُستَخرَجَات بَلَاغية مِن سورة (إبراهيم)

أولاً: من التشبيه المرَكب المُسَمَّىٰ «التَّمْثِيل»:

وهو التَّشْبيه الّذِي يكُونُ عَلَىٰ شَكْلِ لَوْحَةٍ تُصَوِّرُ أَكْثَر مِنْ مُفْرَدٍ، وَوَجْهُ الشَّبَهِ فِيهِ لَا يَكُون مَأْخُوذاً مِنْ مُفْرَدٍ بِعَيْنِهِ، بَلْ يَكُونُ مأخوذاً مِنْهُ

وَمِنْ غَيْرِهِ، أَوْ مِنَ الصُّورَةِ الْعَامَّةِ دُونَ تَقَابُلِ مُفْرَدَاتٍ بالمشبَّه بِمُفْرَدَاتٍ فِي المشَبَّهِ بِهِ.

ومِنْ تَشْبيه (التَّمْثِيلِ) في هذه السورة مَا يَلِي:

المثال الأوّل: قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾. وفي القراءة الأخرىٰ: [**اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ**].

فِي هَـٰذِهِ الآية تَشْبيهٌ مَأْخُوذٌ مِنْ مُتَعَدِّدٍ بَيْنَ المشَبَّهِ والمشَبَّهِ بِهِ، فالمشَبَّهُ أعْمَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّتِي قَامُوا بِهَا، وَأَعَدُّوا بِهَا وَسَائِلَهُمْ، لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، والتَّخَلُّصِ مِنْ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام، ومِن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهُمْ؛ بِقَوْمٍ أَوْقَدُوا نَاراً عَظِيمَةً لِيُحْرِقُوا بِهَا قُرَىً، ومُدُناً، وَمَصَانِعَ، وَجَنَّاتٍ، وَثَرواتٍ، وَبَشراً، فَأَطْفَأَ اللهُ نَارَهُمْ، وَجَعَلَ حَطَبَهُمْ رَمَاداً، ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيحاً عَاصِفَةً مِنْ جهاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، فَدَخَلَتْ قَوِيَّةً شَدِيدَةً في الرَّمَادِ فَاحْتَمَلَتْهُ وَوَزَّعَتْ ذَرَّاتِهِ بِعُنْفٍ في جِهَاتٍ مُتَبَاعِدَاتٍ مِنْ شَرْقِ الأرضِ وغَرْبِها وشمَالِهَا وَجَنُوبِها، فَلَا أحدَ يَسْتَطِيعُ مِنْ أَصْحَابِ الرَّمَادِ أَنْ يَلْتَقِطَ مِنْهُ شَيْئاً.

وكَذَلِكَ أَعْمَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام؛ أَحْبَطَهَا اللهُ وَبَدَّدَها، فَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ علَىٰ اسْتِعْمَالِ شيءٍ ممَّا سَبَقَ أَنْ كَسَبُوهُ بأعْمَالِهِم مِنْ وَسَائِلَ.

وذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي دَعَاهُمْ إلى مُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام، وخَيْبَتِهِمْ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمْ، وإهْلاكِ اللهِ لَهُمْ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ؛ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ جدًّا عَمَّا يُحَقِّقُ لَهُمُ النَّجاة، ومَا كَانُوا يَطْمَعُونَ بِهِ لِلذَّاتِهِمْ، وشَهَوَاتِهِمْ، وَمَتَاعَاتِهِم مِنَ الحياة الدُّنيا.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾:

فِي هٰذَا النَّصِّ تَشْبيهانِ هُمَا مِنْ تَشْبِيهِ (التَّمْثِيلِ) إذْ وَجْهُ الشَّبَهِ مُنْتَزَعٌ مِنْ متعدّد.

فالتَّشْبِيهُ الأَوَّل: هُوَ تَشْبيه كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ بِشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثابتٌ مُتَغَلْغِلُ الجذُورِ في الأَرْضِ.

فالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ حَقٍّ مُؤَيَّدٍ بالْبُرْهَانِ، أَوْ تَهْدِي إِلَىٰ خَيرٍ أَوْ فَضِيلَةٍ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجلَّ، مِثْل كلمة: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ هي ذَاتُ أَصْلٍ ثَابِتٍ، إِذْ لَهَا جُذُورٌ كَجُذُور الشَّجَرَةِ الطّيّبَةِ، وهذه الجذور مُتَغَلْغِلَةٌ فِي حَقَائِقِ الْعِلْمِ الرَّبَّانِي، ولَهَا فَرْعٌ صَاعِدٌ في سُلُوكِ المؤمِنِ بِها.

فهي كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، إِذْ لَهَا أَصْلٌ ثَابِتٌ في الْأَرْضِ ذُو جَذُورٍ مُتَغَلْغِلَةٍ في الْأَعْمَاقِ، تَمْتَصُّ الْغِذَاءَ لِلشَّجرَةِ من الماء والتراب، فَيَصْعَدُ بخَلْقِ اللهِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ الشَّجَرَةِ، فَهِيَ تُؤْتِي مَا يُؤْكَلُ مِنْهَا مِنْ ثَمرات، كُلَّ حِينٍ مِنْ فُصُوْلِ إنْتَاجِها بإذْنِ ربِّها.

والنَّخْلةُ هي أولَىٰ الشَّجَرَاتِ بالْمَثَلِ فِي بِلَادِ العَرَبِ إبَّانَ التَّنْزِيْلِ.

والتَّشْبِيهُ الثَّانِي: هُوَ تَشْبيهُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ بِشَجرَةٍ مُتَخَيَّلَةٍ خَبِيثَةٍ، قُطِعَتْ قَطْعاً كَامِلاً مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ، فَمَا لَهَا مَكَانٌ تَسْتَقِرُّ فِيهِ، وَلَيْس لَهَا مَا يُغَذِّيهَا لِنَمَاءٍ أَوْ ثَمَرٍ، وَلَيْسَ فِيها نَفْعٌ لِذِي حَيَاةٍ، بَلْ هِيَ ضَارَّةٌ سَامَّةٌ خَبِيثَةٌ.

وكذلِكَ الْكَلِمَةُ الخبيثَةُ، مثلُ كَلِمَةِ الكُفْرِ الَّتِي تُودِي إلى الْخُلُودِ في عَذَاب النَّار.

ثانياً: من الكناية في السُّورة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ⑨﴾:

عبارة: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ تَدُلُّ بأسلوب الكِنَايَةِ؛ علَىٰ أَنَّ أَقْوَامَ الرُّسُلِ رَفَضُوا الاسْتِمَاعَ إلى بَيَانَاتِ رُسُلِهِمْ عَلَيْهِم السَّلَام، الدَّاعِيَةِ إلى دِينِ اللهِ الحقّ.

وذَلِكَ لِأَنَّ مُحَدِّثَ النَّاسِ بِشَأْنِ قَضَايَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وهو واقِفٌ بَيْنَهُمْ؛ يَسْتَعْمِلُ في الغالِبِ يَدَيْهِ لِلَفْتِ أَنْظارِهِمْ إِلَىٰ أَقْوَالِهِ ومعانيها، في الإِثْبَاتِ، والنَّفْي، والاستفهام، والْجَمْعِ، والتَّفْرِيق، والْعَدَدِ، والارْتِفَاع، والانخفاضِ، والْجِهَاتِ السّتّ، والإشارة إِلَىٰ شيءٍ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ من المعاني الَّتِي تُسَاعِدُ حَرَكَاتُ الْيَدَيْنِ عَلَىٰ إِدْرَاكِهَا بِسُرْعَةٍ.

وحِينَ يُوَجِّهُ بَعْضُ حضُورِ دَعْوَتِهِمْ أَسْمَاعَهُمْ وأَنْظَارَهُمْ إلى دَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلَام؛ يَغْتَاظُ قَادَةُ الْقَوْمِ وَكُبَرَاؤُهُم، فَيَقُومُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ الرَّسُولِ فَيَأْمُرُهُ بالسُّكُوتِ والانْصِرَاف، فَإِذَا تَابَعَ الرَّسُولُ دَعْوَتَهُ أَمْسَكَ سَفِيهُ الْقَوْمِ بِيَدِ الرَّسُولِ الَّتِي يُشِيرُ بها، ورَدَّهَا إلى فَمِهِ بِعُنْفٍ، ورُبَّما أَدْخَلَ بَعْضَ أَصَابِعِها فِيهِ لِيُسْكِتَهُ.

هَـٰذِهِ الحركَةُ صالِحَةٌ لِأَنْ يُكَنَّىٰ بِهَا عَنْ رَفْضِ الاسْتِمَاعِ إلى دَعْوَةِ الداعي، ورفضِ دَعْوَتِهِ كُلِّها.

ثالثاً: من الاستعارة فِي السُّورَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ①﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ اسْتِعَارَتَان:

الاسْتِعَارَةُ الأولَىٰ: اسْتِعْمَالُ الظُّلُمَاتِ للدَّلَالَة بِهَا عَلَىٰ أَنْوَاعِ الكُفْر وسُبُلِ ضَلَالَاتِهِ، لِأَنَّ هَـٰذِهِ تُشْبِهُ الظُّلُمَاتِ فِي فِكْرِ الْإِنْسَانِ وقَلْبِهِ ونَفْسِهِ وَسُبُلِهِ الَّتِي يَتَخبَّطُ فِي مَسِيرَتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ عَلَىٰ أَوْحَالِهَا وعَقَبَاتِهَا وَحُفَرِها ومَخَاطِرِها.

الاستعارة الثانية: اسْتِعْمَالُ النُّورِ للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ الإيمانِ بالْحَقِّ، وصِرَاطِ اللهِ المستقيم الواحد، فالْحَقُّ الْجَلِيُّ يُشْبِهُ النُّور، والصِّراطُ الْمُسْتَقِيمُ الواضِحُ لِسَالِكِيه يُشْبِهِ النُّورَ أَيْضاً.

فاسْتُعِيرَ المشَبَّهُ به للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ المشبَّهِ.

رابعاً: من التعبير عمَّا سَيَأْتِي مُسْتَقْبلاً بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الماضِي، باعْتِبَارِ أَنَّهُ مُتحقِّقُ الْوُقُوعِ في المستقبل، ومَا سَيؤُول إِلَيْهِ أَمْرِهِ، قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ فيها:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ . . . ①﴾:

لـم يَكُنْ قَدْ أُنْزِلَ إِبَّانَ نُزُولِ سُورَة (إبراهيم) كُلُّ الْقُرْآنِ، ولَكِنَّ خُطَّةَ الله عَزَّ وَجلَّ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تَتحقَّقَ مُسْتَقْبلاً؛ أَنْ يُنْزِل إلى رَسُولِهِ ﷺ كُلَّ القرآنِ، فَجاءَ إطْلَاقُ الإنْزَالِ عَلَىٰ كُلِّ الكتابِ، باعْتِبَارِ مَا سَيؤُولُ إِلَيْهِ الأَمْرُ، بالنَّظَرِ إِلَىٰ خُطَّةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ. وهذا من المجاز المرسل.

خامساً: من المجاز المرسَل في السُّورة قَوْل الله عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ⑥﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ إِطْلَاق كَلِمَةِ: «نِسَاء» على المواليد من البناتِ، وهـٰذَا من المجاز المرسَلِ، وَهُو مِنْ إِطْلَاقِ اللَّفْظِ علىٰ الشَّيْءِ باعْتِبَارِ مَا سَيؤُولُ إليه.

والْغَرَضُ هُنَا الدَّلَالَةُ عَلَىٰ أَنَّ اسْتِحْيَاءَ الْبَنَاتِ، بِمَعْنَىٰ إبْقَائِهِنَّ فِي الْحَيَاةِ وَعَدَمِ قَتْلِهِنَّ؛ يُرَادُ بِهِ أَنْ يَكُنَّ فِي المستَقْبَلِ نِسَاءَ صَالِحَاتٍ للاسْتِعْبَادِ، وللخدمة، ولِغَيْرِ ذَلِكَ.

سادساً: من الْإِيجَازِ بالْحَذْفِ في السورة قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ . . . ﴿٩﴾﴾:

أي: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ إِهْلَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِكُمْ.

سابعاً: من خُروج الاستفهام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ مَا يَلِي ـ مما جاء في السُّورَة:

(١) قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . . . ﴿٢٤﴾﴾:

أي: انظر نَظَرَ تَفكُّرٍ عَمِيقٍ، وتَدَبُّرٍ دَقِيقٍ.

ففي هذا الاسْتِفْهَامِ حَثٌّ وتَحْرِيضٌ عَلَىٰ النظر التَّفَكُّرِيّ.

(٢) قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾:

الاستفهام في هَـٰذِهِ الآيَةِ اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمْرِهِمْ.

وأَكْتَفِي بهَـٰذِهِ المسْتَخْرَجَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ مِنْ سُورَةِ (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٤)

الملحق الثاني

الباب الأول

إبراهِيمُ عَلَيْهِ السّلاَمُ في القرآن

أولاً: النُّصوصُ القرآنيَّةُ الَّتي جاءَ فِيها ذكر إبراهيم عليه السلام:

النصّ الأول: الآيات من (١٢٤ ـ ١٣٦) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ
وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا
وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ
لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا
وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ
أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ
وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ
وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٨)
رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ
نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُۥ
رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ
إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ
وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ

أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾.

النّصُّ الثاني: الآية (١٤٠) من سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾.

النَّصُّ الثّالث: الآية (٢٥٨) من سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٥٨)﴾.

النَّصُّ الرَّابع: الآية (٢٦٠) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.

النصّ الخامس: الآيتان (٣٣ و٣٤) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نُزُول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾.

النَّصُّ السَّادِس: الآيات من (٦٥ ـ ٦٨) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٦٥) هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٦٨)﴾.

النّصّ السابع: الآيتان: (٨٤ و٨٥) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ مسلم:

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٨٥)﴾.

النّصّ الثامن: الآيات من (٩٥ ـ ٩٧) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٩٥) إِنَّ

أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ (٩٦) فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٧)﴾.

النصّ التاسع: الآيتان (٥٤ و٥٥) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ أَهْلِ الكِتَاب:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾.

النصّ العاشر: الآية (١٢٥) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)﴾.

النَّصُّ الحادي عشر: الآية (١٦٣) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِه محمّد ﷺ:

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا (١٦٣)﴾.

النّصّ الثاني عشر: الآيات من (٧٤ ـ ٨٧) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٧٩) وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ (٨٢) وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (٨٣) وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٥) وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٦) وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٨٧)﴾.

النّصّ الثالث عشر: الآية (١٦١) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٦١)﴾.

النصّ الرابع عشر: الآية (٧٠) من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)﴾.

النصّ الخامس عشر: الآيتان (١١٣ و١١٤) من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾.

النصّ السادس عشر: الآيات من (٦٩ ـ ٧٦) من سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ

ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾.

النصّ السابع عشر: الآيتان (٥ و٦) من سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ حكايَةً لِقَوْلِ يَعْقُوب لوَلَدِهِ يُوسف عليهما السلام:

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾.

النّص الثامن عشر: الآية (٣٨) من سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِصَاحِبَيْهِ في السِّجْن:

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾.

النص التاسع عشر: الآيات من (٣٥ ـ ٤١) مِنْ سُورَة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ حِكَايَةً لِبَعْضِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ

ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ (٤١)﴾.

النصّ العشرون: الآيات من (٥١ ـ ٦٠) من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

قال الله عَزَّ وَجلَّ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ (٥١) إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٥٧) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ (٥٨) إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٥٩) إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ (٦٠)﴾.

النصّ الحادي والعشرون: الآيات من (١٢٠ ـ ١٢٣) من سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

قال الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٢١) وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٢٣)﴾.

النصّ الثاني والعشرون: الآيات مِنْ (٤١ ـ ٥٠) من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

قال اللهُ عزَّ وَجلَّ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا (٤١) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا (٤٦) قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا (٤٧) وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا (٤٨) فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا (٤٩) وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا (٥٠)﴾.

النصّ الثالث والعشرون: الآية (٥٨) من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بَعْدَ ذِكْرِ عَدَدٍ مِن الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلام:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ (٥٨)﴾.

النصّ الرابع والعشرون: الآيات من (٥١ ـ ٧٣) من سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢) قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٥٤) قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ

وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦) وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩) قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣)﴾.

النَّصّ الخامس والعشرون: الآيتانِ (٢٦ و٢٧) من سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

قال الله عزَّ وَجلَّ:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾.

النّصّ السّادس والعشرون: الآيتان (٤٢ و٤٣) من سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

قال اللهُ عزَّ وَجلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣)﴾.

النصّ السَّابع والْعِشْرونَ: الآية (٧٨) من سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ خطاباً للَّذِينَ آمَنُوا:

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)﴾.

النص الثامن والعشرون: الآيات من (٦٩ ـ ٨٩) من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾.

النَّصُّ التاسع والعشرون: الآيتان (١٦ و١٧) من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾.

النصّ الثلاثون: الآيتان (٣١ و٣٢) من سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٢)﴾.

النصّ الحادي والثلاثون: الآية (٧) من سورة (الْأَحْزَاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسوله محمدٍ ﷺ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (٧)﴾.

النصّ الثاني والثلاثون: الآيات من (٨٣ ـ ١١٣) من سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عقِبَ بَيَانٍ مُوجَزٍ جدًّا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ

مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ
عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ
خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا
فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ
فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ
صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾
وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾
كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ
مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾.

النّصّ الثالث والثلاثون: الآيات من (٤٥ ـ ٤٧) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ
أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

النَّصُّ الرابع والثلاثون: الآية (١٣) من سورة (الشُّورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا
وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ
مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

النصّ الخامس والثلاثون: الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) من سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نُزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾.

النصّ السادس والثلاثون: الآيات من (٢٤ ـ ٣٤) من سورة (الذّارِيات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٣٠) ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾.

النصّ السابع والثلاثون: الآيات من (٣٦ ـ ٤٢) من سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشأْنِ الكافِرِ الَّذي تَوَلَّىٰ وأَعْطَىٰ قَلِيلاً وأَكْدَىٰ:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾.

النصّ الثامن والثلاثون: الآية (٢٦) من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

النصّ التاسع والثلاثون: الآيات من (٤ ـ ٦) من سورة (الممتَحنَة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِلَّذِينَ آمَنُوا برسالَة محمّد ﷺ:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

النص الأَرْبَعُون: الآيتان (١٨ و١٩) من سورة (الأَعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَعْقِيباً عَلَىٰ آيات جاءتْ في السورة:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

* * *

ثانياً: موجز تاريخي عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام عِنْد المؤرّخين:

(١) ولادة إبراهيم عليه السلام ونَشْأَته:

وُلدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في مدينة «أُور الكلْدَانِيِّينَ» كما ذكر كاتبو «قاموس الكتاب المقدس».

ومكان «أور» الْيوم خرائِبُ تُدْعَىٰ «المغبَّر» في مُنْتَصف المسَافَةِ بَيْنَ «بغداد» وبين «الخليج الْعَربي»، ويقالُ لَهُ عِنْدَ غَيْرِ الْمُسْلِمِين «الخليج الفارسي»، وهي على مَسافة (١٠) أميال، شَرْقي مَجْرَىٰ نَهْرِ الْفُرَاتِ في عَصْرِنا.

وقَدْ دَلَّتِ الكُشُوفُ الحديثَة على أنَّ مَدِينَة «أور» مُؤَسَّسَةٌ مِنْ قَبْلِ مِيلَادِ إبراهيم ونَشْأَتِهِ فيها بَنحْوِ أَلْفِ سَنَةٍ أَوْ أَكْثر، وأَنَّها كانَتْ مَرْكَزاً لِمَدِنيَّةٍ رَاقِيَةٍ بِحَسَبِ مُسْتَوَىٰ المدُنِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ القديم.

وقَدِ امْتَدَّ سُلْطَانُ دَوْلَةِ مَدِينَةِ «أُور» قَدِيماً حَتَّىٰ شَمَلَتَ مُعْظَم أَرْضِ مَا بَيْنَ النَّهْرين، وأَنَّها كانَتْ مَرْكَزاً كَبِيراً للتجارة.

(٢) قَوْمُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام كانُوا مِنَ الصَّابِئِينَ الَّذِينَ دخل إليهم شِرْكُ عِبَادَةِ النجوم:

جَاءَ عِنْدَ مُؤَرِّخِي أَدْيَانِ الْأَمَم؛ أَنّ قَوْمَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام كانُوا مِنَ الصَّابِئين، الّذِين كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ بَعْضَ الكواكبِ لَهَا تَأْثِير رُبُوبِيَّةٍ فِي أَحْدَاثِ الْأَرْضِ، فيتَّخِذُونَ أَصْنَاماً عَلَىٰ هَيْئَاتٍ يَتَخيَّلُونَها لها.

وَكَانَ مِنْ أَوْثَانِهِمْ الْوَثَنُ «نَانَار» = «إلَه الْقَمَر»، وزَوْجَتُهُ «ننجال»، وَكَانَتْ لَهُمْ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ يَعْبُدُونها.

وبَقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُجَاهِدُ في الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ ونَبْذِ الشِّرْكِ فِيما بَيْنَ النَّهْرينِ، حتَّىٰ بَلَغَ عُمْرُهُ قُرَابَة (٧٥) عَاماً.

(٣) زواجه:

تَزَوَّج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام من «سَارَة» وكانت ذَاتَ حُسْنٍ، إِلَّا أَنَّها بَقِيَتْ عقيماً حَتَّىٰ صَارَتْ عَجُوزاً، ثم وهبها اللهُ إسحاق عَلَيْهِ السَّلام، وَهِيَ

مع زَوْجِهَا مُهَاجِرَيْن إلى أَرْضِ الكَنْعَانِيين مِنْ بِلَادِ الشَّام، وكان عُمْرُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام (١٠٠) سنَة، وكانَ عُمْر «سَارَة» (٩٠) سَنَة، وتحقَّقَ حَمْلُها وَوِلَادَتُهَا بخارِقٍ للْعَادَةِ، اسْتِجَابَةً لِدُعَاءِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

وكَانَ قَدْ وُلِدَ لَهُ «إسْمَاعِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ «هَاجَرَ» المصْرِيَّة، الْأَمَةِ الَّتِي وَهَبَتْهَا لَهُ «سَارَةُ»، عَسَىٰ أَنْ يُنْجِبَ مِنْهَا وَلَداً يَكُونُ عِوَضاً عَمَّا حُرِمَتْ مِنَ الْأَوْلَادِ بِسَبَبِ عُقْمِهَا، وقَدْ صَارَتْ عَجُوزاً.

(٤) هِجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ أَرْضِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْن:

بَعْدَ جهادٍ طَوِيلٍ في الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللهِ الحقّ فيما بَيْنَ النَّهْرَيْنَ، وبَعْدَ تَوَالِي أَحْدَاثٍ عظيمَة جَرَتْ لَهُ مَع قَوْمِهِ وَمَلِكِهِمْ؛ هَاجَرَ مُتَوجّهاً إِلَىٰ أَرْضِ الكَنْعَانِيين في بِلَادِ الشَّامِ (= فلسطين) بِتَوْجِيهٍ مِنَ اللهِ، فَنَزَلَ في «حَارَان» وَكَانَ مَعَهُ فِي هجْرَتِهِ زَوْجَتُهُ «سارة» وأَبُوه، وابْنُ أخِيهِ «لُوطٌ» مُؤْمِناً بِهِ، وَغَيْرُهُمْ، وأَقَام في «حَارَانَ» مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وفِيها مَاتَ أَبُوه «آزر» كافِراً علَىٰ مَذْهَبِ قَوْمه المشْرِكِين.

ثُمَّ رَحَلَ مَعَ مَنْ مَعَهُ إلى أَرْضِ الكَنْعَانِيينَ بِتَوْجِيهِ مِن اللهِ الحكيم الْعَلِيم، وأَقَامَ أَوّلاً في: «شَكِيم = نابلس».

ثُمَّ رَحَلَ إلى مِصْرَ مع زَوْجَتِهِ «سَارَة» وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ مُلُوكِ الرُّعَاة، وهُمُ الْعَمَالِيق، ويُسَمِّيهِمُ الرُّومان «هِكْسُوس».

قالوا: واسْمُ فِرْعَوْن مصر حينئذٍ «سِنَانُ بن عُلْوان»، وقيل: اسمُهُ: «طُوليس»، واللهُ أعلم.

وَقَدْ حَاوَلَ فِرْعَوْنُ مِصْرَ أَنْ يُعَاشِر «سَارَة» معاشرة الزَّوْجَاتِ، فَعَصَمَهَا اللهُ عَزَّ وَجلَّ بدُعَاءِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام ودُعَائِها، إِذْ كَانَ كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنْهَا تَيَبَّسَتْ أَعْضاؤُه ولَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً، فَقَالَ لِلَّذِينَ جَاءُوا

بِهَا إِلَيْهِ: لَقَدْ جِئْتُمُونِي بِشَيْطَانَةٍ لَا بإِنْسَانَة، قَالوا وأَعْطَاهَا هَدَايا، وَمَنَحها جارِيَةً مَصْرِيَّةً خَادِمَةً لها اسْمُها «هَاجَر» = «آجَر».

وبَعْدَ أَنْ يَئِسَتْ «سَارةُ» مِنَ الْوَلَدِ، وصَارَتْ عَجُوزاً؛ وَهَبَتْ زَوْجَهَا «هَاجَر» لِيُنْجِبَ مِنْهَا وَلَداً، فَأَنْجَبَ «إسماعيل» عَلَيْهِ السَّلَام، فاشْتَدَّتْ غَيْرَةُ «سَارة» فَطَلَبَتْ مِنْ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أَنْ يُبْعِدَ «هاجَرَ» وَوَلَدَهَا «إسْماعِيل» عَلَيْهِ السَّلَام عَنْ كُلِّ الأَرْضِ الَّتِي هُمْ فِيها في فلسْطِين، فأَوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ أن يَأْخُذَهُمَا إِلَىٰ وادِي مَكَّة الْبَلَدِ الْحَرام، لِتَأْسِيسِ شَعْبٍ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ فِيهِ مِنْ وَلَدِهِ «إسْمَاعِيل» عَلَيْهِ السَّلَام، فَرَحَلَ بِهِمَا إِلَىٰ وَادِي مَكَّةَ، وَتَرَكَهُمَا فِيهِ، عَلَىٰ مَا جَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ، الَّذِي سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ ذِكْرُه.

وَصَارَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يَزُورُ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام آناً ثُمَّ آناً، يَتَفَقَّدُ أَحْواله، واخْتَتَنَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام وهو ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً بالْقَدُومِ.

(٥) وَجَاء في الإِصْحَاح (٢٥) من سفر التكوين عند أهل الكتاب؛ أَنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام تَزَوَّجَ بَعْدَ وَفَاةِ «سَارَة» زَوْجَةً اسْمُها «قَطُورَة»، فَوَلَدَت لَهُ (٦) أولاد، هم: «زِمْرَان، وَيَقْشَان، وَمدَان، وَيَشْبَاق، وشُوحا، ومَدْيَان».

وإلى مَدْيَان هذا «وهو مَدْيَنُ ابْنُ إبراهيم «عَلَيْهِ السَّلَام» يُنْسَبُ «أَهْلُ مَدْيَنَ» الَّذِين أَرْسَلَ اللهُ إليهم «شُعَيْباً» عَلَيْهِ السَّلَام.

(٦) وَلَمَّا بَلَغَ عمْرُ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَام (١٧٥) سنة خَتَمَ اللهُ حَيَاتَهُ في أَرْضِ فلسطين، ودُفِنَ في مَدِينَةِ الْخَلِيل «= حَبْرُوْنَ»، وَكَانَ اسْمُهَا فِي الأَصْلِ «قَرْية أَرْبع»، في المغارَةِ المقام عليها الآن مَقَام الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، وتُعْرَفُ بِمَغَارَةِ الأَنْبِيَاء.

* * *

ثالثاً: الدِّرَاسَة التَّكامُلِيَّة للنُّصُوصِ القرآنِيّة الَّتِي جاء فيها ذِكْرُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام ويُمْكِنُ تَقْسِيمُها إلى اثْنَيْ عشَر فَصْلاً:

الفصلُ الأوَّل

كان إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام قبل نُبوَّتِهِ مِن شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيهِ السَّلَام

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣)﴾:

الشيعة: كُلُّ قَوْمٍ أَوْ جَمَاعَةٍ من النَّاسِ لَهُمْ أَمْرٌ واحِدٌ هُمْ مُتَّفِقُون عَلَيْهِ، أَوْ لَهُمْ مَذْهَبٌ واحِدٌ يَسِيرُونَ عَلَيْهِ، أَو لَهُمْ مِلَّةٌ واحِدَةٌ يُؤْمِنُونَ بِها ويَتَّبِعُونَ أَحْكَامَهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا فِي زَمَنٍ واحِدٍ.

دلَّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في هٰذَا النَّصِّ: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣)﴾:

أي: مِنْ شِيعَةِ نُوح عَلَيْهِمَا السلام عَلَىٰ أَنَّهُ مَا زَالَتْ أُصُولُ الدِّينِ الّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْجُودَةً لَدَىٰ بَعْضِ النَّاسِ، وَكَذٰلِكَ بَعْضُ الْعِبَادَاتِ كالصَّلَاةِ، وَبَعْضُ الأَخْلَاقِ كالصِّدْقِ والْأَمَانَةِ، وَبَعْضُ أنواعِ السُّلُوكِ الاجْتِمَاعِيّ والْآدَابِ، وَقَدْ تَلَقَّاهَا إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ بِهَا، فآمَنَ بِهَا والْتَزَمَها، فَكَانَ بِذَلِكَ مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وأَتْبَاعِ مِلَّتِهِ قَبْلَ أَنْ يَصْطَفِيَهُ اللهُ لِلنُّبُوَّة، فَلَمْ يَتَّبِعْ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ شِرْكِيَّاتِ قَوْمِهِ مُنْذُ نَشْأَتِهِ.

وكانَتْ أَسَالِيبُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام الْجَدَلِيَّةُ مَعَ قَوْمِهِ مِنْ نَوْعِ مجارَاةِ قَوْمِهِ مُجَارَاةً ظَاهِرَةً، لِيَنْتَقِلَ مِنْهَا إلى نَقْضِ عَقَائِدِهِم الشِّرْكِيَّة بالْحُجَجِ

الدامِغَة، وإبْطَالِ اعْتِقَادِهِمْ في رُبُوبِيَّةِ بَعْضِ النُّجُومِ وإلٰهِيَّتِهَا، وإبْطَالِ عبَادَاتِهِمْ لَهَا ولِلأَوْثَانِ مُطْلقاً.

الفصل الثاني
اجتِبَاءُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام للنُّبُوَّةِ والرِّسَالة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢)﴾.

وبَعْدَ هٰذَا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في السّورَةِ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِقَولِهِ:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾.

وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام في هٰذَا النَّصِّ بِتِسْعِ صِفَاتٍ:

الصِّفَةُ الأُولى: أَنَّهُ كَانَ أُمَّةً وحْدَه، إذْ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِ غَيْرُهُ، فَحَمَلَ عَبْءَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التوحِيدِ، ونَبْذِ الْوَثَنِيَّةِ وَحْدَه.

الأُمَّة: تُطْلَقُ في الاسْتِعْمَالِ القرآنِيِّ عَلَىٰ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمَعُها صِفَاتٌ، أَوْ خَصَائِصُ، أَوْ روابِطُ مُتَمَيِّزَةٌ، وَقَدْ يُطْلَقُ على الْفَرْدِ الواحِدِ المتَمَيِّزِ بِصِفَاتٍ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ لفظ «أُمَّة».

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ كَانَ قانِتاً للهِ، أي: عَابداً للهِ، مُطِيعاً خاضِعاً لَه، يَذِلُّ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ.

الصِّفَةُ الثالثة: أَنَهُ كَانَ حَنِيفاً، أي: كَانَ مَائِلاً عَنْ كُلِّ الأَدْيَانِ البَاطِلَةِ، المنْحَرِفَةِ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ، وهٰذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بالاسْتِقَامَةِ على دِينِ اللهِ الحقِّ ذي الصِّرَاطِ المسْتَقِيم، لِأَنَّ الأَدْيَانَ والْمِلَلَ

الْبَاطِلَةَ مائِلَةٌ عَنْهُ إِلَىٰ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، مَائِلَاتِ السَّاحَاتِ اللَّوَاتِي لَيْسَتْ على الصِّرَاطِ المسْتَقِيم.

الصِّفَة الرابِعَة: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ المشْرِكِين، فَقَدْ كَانَ لَا يُشْرِكُ باللهِ أَرْبَاباً، وَلَا آلِهَةً، وَلَا أَسْبَاباً، مُنْذُ نَشْأَتِهِ، بَلْ كَانَ يُؤْمِنُ بأَنَّ كُلَّ شيءٍ في الوجود مَحْكُومٌ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لَهُ، إيجاداً، وإعداماً، وتَصارِيفَ، وتغييراتٍ، وحَرَكَاتٍ، وسَكَنَاتٍ.

الصِّفة الخامسة: أَنَّهُ كَانَ شَاكِراً لِأَنْعُم اللهِ عَلَيْهِ، قَائماً على مِقْدَارِ اسْتِطَاعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ، بِمَا يُطْلَبُ مِنْهُ أَنْ يكونَ شاكراً لَهُ وُجُوباً أو نَدْباً.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إِنْعَامِ المنعِم بمَا يُرْضِيهِ من اعْتِقَادٍ، أَوْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، أَوْ قَوْلٍ، فَيَدْخُلُ في الشُّكْرِ: الحمْدُ اللِّسَانِيُّ.

الصِّفَة السادسة: أنّ الله اجْتَبَاهُ، أي: اخْتَارَهُ واصْطَفَاهُ مِنْ عباده، فَجَعَلَهُ نَبِيًّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ثُمَّ جعَلَهُ رَسُولاً مُكَلّفاً أَنْ يُبَلِّغَ النَّاس عَنْ رَبِّهِ مَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ.

الصِّفَةُ السابِعَة: أَنَّ اللهَ هَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، فَعَلَّمَهُ عَنْ طَرِيقِ الوحي صِرَاطَهُ المستقيم، وهو مَا اشْتَمَلَ عَلَىٰ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، وهُو الصِّرَاطُ الْمُوصِلُ سَالِكِيهِ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

الصِّفَةُ الثَّامِنَة: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ آتَاهُ في الحياة الدُّنْيا حَسَنَةً، أي: عَطَايَا حَسَنَةً، فَنَصَرَهُ عَلَىٰ نمرودِ الْعِرَاق، واخْتَارَ لَهُ مُهَاجَراً حَسَناً في بلادِ الشَّامِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فيها، وَمَنَحَهُ مَعِيشَةً حَسَنَةً بِصِحَّةٍ وَسَلَامَةٍ وَغِنًى واسِعٍ مِنَ المواشِي، مع عُمْرٍ مَدِيدٍ وَقُوَّةٍ، وذِكْرٍ حَسَنٍ بَيْنَ النَّاسِ، وطُمَأْنِينَةِ قَلْبٍ ورِضاً كامِلٍ عَنْ رَبِّهِ.

الصِّفَة التاسِعَة: أَنَّ اللهَ حَكَم لَهُ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا بِأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ زُمْرَةِ الصَّالحين.

الصَّالِحُ: هُوَ الْخالِي مِن الْفَسَادِ الْكُلِّيِّ والْجُزْئي.

الفصل الثالث

ابتِلَاءُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إبراهِيم عَلَيهِ السّلَام بِتكاليفَ إعداداً لَهُ لِحَملِ رِسالَتِهِ

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سُورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: وَضعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّها المتلَقِّي لكَلام رَبِّك؛ أَنَّ حِكْمَتَهُ قَضتْ بأَنْ يَمْتَحِنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِكَلِمَاتٍ، تَتَضَمَّنُ تَكَالِيفَ تَكْشِفُ أَهْلِيَّتَهُ لِأَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلنَّاسِ، فَأَدَّىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ التَّكَالِيفُ الرَّبَّانِيَّةُ لَهُ، أَدَاءً تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوص.

وَإِذِ اجْتَازَ الامْتِحَانَ بِنَجَاحٍ تَامٍّ نَالَ فِيهِ الدَّرَجَةَ العظْمَىٰ؛ قَالَ اللهُ لَهُ: إِنِّي جَاعِلُكَ للنَّاسِ ـ مِنْ بَعْدِكَ ـ إِمَاماً، فَكَانَ إِماماً لِلأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلَام مِنْ بَعْدِهِ، وَظَهَرَ هـٰذَا فِي رِسَالَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَدْ أَمَرَهُ اللهُ بِأَنْ يَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام حنيفاً، وأَمَرَ المؤمِنِينَ في الإِسْلَام بِذَلِكَ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي أُمِرُوا باتّبَاعِهِ هُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَمَّاهُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ.

الإِمَامُ: مَا يُؤْتَمُّ بِهِ، ومَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، أي: يُتَّبَعُ.

قال إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾؟، أَيْ: هَلْ يَكُونُ مِنْهُمْ إِمَامٌ.

فقال اللهُ لَهُ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، أي: سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ أَئِمَّة، وَلَكِنَّ عَهْدَ اللهِ لَكَ بِهـٰذَا لَا يَصِلُ الظَّالِمِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ مِنْهُ شَيْءٌ، إِذْ سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ مُسْلِمُونَ وَظَالِمُونَ، والظَالِمُونَ غَيْرُ مُؤَهَّلِين لِلإِمَامَة.

يَقَالُ لغة: «نَالَ فُلَانٌ فُلَاناً الْعَطِيَّةَ» أي: أَعْطَاهُ إِيَّاهَا.

يُعَلِّمُنَا اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهٰذَا الْبَيَانِ أَنَّ اخْتِيَارَ إِنْسَانٍ مَا لِأَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلنَّاس، يَجِبُ أَنْ يُسْبَقَ باخْتِبَارٍ كَاشِفٍ، يَكْشِفُ أَهْلِيَّتَهُ لِأَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلنَّاسِ، فِي الموضُوعِ الَّذِي يُخْتَارُ لِأَنْ يَكُونَ فِيهِ إِمَاماً.

فاللهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيم، الخبيرُ بِنُفُوسِ عِبادِهِ، إِذْ هُوَ خَالِقُهُمْ، والمطّلِعُ دَواماً عَلَىٰ كُلِّ أَعْمَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، وَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ سَرَائِرِهِمْ خَافِيَةٌ؛ قَدِ اخْتَبَرَ عَبْدَهُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلِمَاتٍ تَتَضَمَّنُ تَكَالِيف خاصَّةً، وَهٰذِهِ التَّكَالِيفُ كواشِفُ، فإِذَا أَتَمَّهُنَّ بِأَنْ أَدَّىٰ التَّكَالِيف بِنَجاحٍ تَامٍّ؛ اسْتَحقَّ أَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلنَّاسِ، إِذَا اخْتَارَهُ اللهِ لِهٰذِهِ الإِمَامَة.

وَحِينَ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عَنْ ذُرِّيَّتِهِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُ: هٰذَا الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتُكَ بِهِ إِمَاماً للنَّاسِ لَا أُعْطِيهِ للظَّالِمِينَ مِن ذُرِّيَّتِكَ.

الفصل الرابع

مَرَاحِلُ دَعوَةِ إبراهيم عَلَيهِ السَّلامُ إلَى دِينِ اللهِ الحَقِّ في قَومِهِ

(١) مَرْحَلَةٌ من مَرَاحِلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام الدَّعَوِية:

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾:

الرُّشْدُ: السُّلُوكُ الْفِكْرِيُّ والنَّفْسِيُّ والْخُلُقِيُّ والْعَمَلِيُّ الموافِقُ لِلْحَقِّ والصَّوَاب، أو لما هُوَ الْأَفْضَلُ والأَحْسَنُ والْأَكْثَرُ نَفعاً، والْأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَر.

أي: وَلَقَدْ آتَيْنَا إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام رُشْدَهُ من قَبْلِ إرْسَال مُحَمّدٍ ﷺ وإِنْزَالِ القرآنِ عَلَيْهِ.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

- ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؟ أي: مَا حَقِيقَةُ هَـٰذِهِ الأَصْنَام والأَوْثَانِ الَّتِي تَنْحِتُونَهَا مِنَ الْحِجَارَةِ، أَوْ تَصْنَعُونَهَا مِنْ غَيرِ الحجارَةِ، حَتَّىٰ تَسْتَحِقَّ مِنْكُمْ أَنْ تَعْبُدوهَا بِأَلْوَانٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، كالملازِمَةِ، والطَّوافِ، والدُّعَاءِ، والرّكوعِ، وتقديمِ القرابين.

- ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾: أي: الَّتِي أَنْتُمْ لِأَجْلِ عِبَادَتِهَا مُقِيمُونَ عِنْدَهَا ومُلَازِمُونَ الْمَكَانَ الَّذِي تَضَعُونَهَا فِيهِ.

يُقَالُ لغة: «عَكَفَ فِي المكانِ يَعْكُفُ، ويَعْكِفُ، عَكْفاً، وعُكُوفاً» أي: أَقَامَ فِيهِ ولَزِمَهُ. وقَدْ صَارَ الْعُكُوفُ شَكْلاً مِنْ أشْكَالِ الْعِبَادَةِ لله أَوْ لِغَيْرِهِ، وَلَا يُشْتَرَطُ في الْعُكُوفِ أَنْ يَكُونَ لِلْعِبَادَةِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ لِحَاجَاتٍ فِي النَّفْسِ، كالاسْتِئْنَاسِ والرَّاحَةِ والاسْتِمْتَاعِ بالجمال.

- ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: قَالُوا: نَحْنُ نَعْبُدُهَا بِهـٰذَا الْعُكُوفِ تَقْليداً لِآبَائِنَا، إِذْ وَجَدْنَاهُمْ لَهَا عَابِدِينَ.

- ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾: أي: قَالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ أَجْرَىٰ هـٰذَا الْحِوَارَ مَعَهُمْ: لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ بِعِبادَتِكُمْ لِهـٰذِهِ التَّمَاثِيلِ، وَكَانَ آبَاؤُكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ بِعِبادَتِهَا؛ فِي ضَيَاعٍ عَنْ صِرَاطِ الحقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وَاضِحٍ جَلِيٍّ، فَلَيْسَ لِهـٰذِهِ التماثيل رُبُوبِيَّةٌ وَلَا إِلٰهِيَّة.

فَدَهِش أَبُوهُ وَقَوْمُهُ مِنْ مُوَاجَهَتِهِ لَهُمْ بِحَزْمٍ وَثِقَةٍ مِمَّا قَالَ لَهُمْ، إِذْ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي ضَلَالٍ وَضَيَاعٍ عَنْ صِراطِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وهـٰذَا الضَّلَالُ مُبِينٌ، أي: جَلِيٌّ وَوَاضِحٌ.

- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: قَالُوا لَه:

يَا إبْرَاهِيمُ أَأَنْتَ جَادٌّ فِيمَا قُلتَ، أَمْ قُلتَ مَا قُلْتَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُزَاحِ، تُرِيدُ أَنْ تَلْعَبَ بِأَعْصَابِنَا وَتَسْتَثِيرَنَا؟، أجِئْتَنَا بالْحَقِّ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ؟.

- ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾: أي: قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: أنا لَست مِنَ اللَّاعِبِينَ، بَلْ أَنَا جَادٌّ، وَقَدْ جِئْتُكُمْ بالْحَقِّ، فَرَبُّكُمُ الَّذِي يَرْزُقُكُم وَيُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ، وَيُجْرِي تَصَارِيفَهُ فِيكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ، وَيُؤْتِيكُم مِمَّا تَسْأَلُونَهُ؛ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، المتَصرِّفُ دواماً فِيهِمَا بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ والْمُهَيْمِنُ دَوَاماً عَلَيْهِمَا، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمَا إبْدَاعاً وَفْقَ نِظَامِ الْفَطْرِ مِنَ الْبَاطِنِ، الَّذِي هُوَ فِي الحقيقَةِ خَلْقٌ مِنَ الْعَدَمِ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ عُمْقِ بَاطِنِ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الْعَدَمُ لَا مَحَالَة.

وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمُ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ شُهُوداً فِكريًا مَقْرُوناً بالْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّة، وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الَّذِينَ يُعْلِنُونَ شَهَادَتَهُمْ بِهِ، شَهَادَةً باللِّسَانِ مُطَابِقَةً لِمَا فِي الْفُؤَادِ مِنْ إيمَانٍ رَاسِخِ الْأَرْكَانِ، ثَابِتِ الْبُنْيَان.

وَأَضْمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في نَفْسِهِ عَزْمَهُ الْمُوثَّقَ بالْيَمِينِ عَلَىٰ أَنْ يُحَطِّمَ أَصْنَامَهُمْ، انْتِصَاراً لِرَبِّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، كَمَا جَاءَ في الآيَةِ (٥٧) من سُورَةِ (الْأَنْبِيَاء).

* * *

(٢) مَرْحَلَةٌ مِنْ مراحل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام الدَّعَوية:

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الشُّعَرَاء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نُزُول) خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ يُعَلِّمُهُ أَنْ يَتْلُوَ على المشركين:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ

أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧)
ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى
يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ
صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ
أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾:

- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩)﴾: أي: واتْلُ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ مُشْرِكِي قَوْمِكَ نَبأَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، إِذْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في الرُّبُوبِيَّةِ والإلَهِيَّة، وَإِلَىٰ نَبْذِ الأَوْثَانِ وَكُلِّ أَنْواعِ الشِّرْكِ، وَكُلِّ مُفرزَاتِهِ في العَقَائِدِ والمَفَاهِيمِ والسُّلُوك، فَقَدْ كَانَتْ حَالَتُهُمْ تُشْبِهُ حَالَةَ مُشْرِكي قَوْمِكَ، فَإِبْرَاهِيمُ والِدُ جَدِّهِمْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِما السَّلَام، وَهُوَ الَّذِي أَعْلَمَهُ اللهُ بِمَكَانِ الكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ، أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ، والَّتِي يَرْتَبِط بِهَا مَجْدُهُمْ بَيْنَ العَرب، وهُوَ الَّذِي بَنَاهَا مَعَ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِما السَّلَام.

وَبيِّنْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ كَانَ عَدُوّاً لِلْأَوْثَانِ الَّتِي كَانَ قَوْمُهُ يَعْبُدُونها، وهَاجَرَ مُفَارِقاً لَهُمْ، وَقَدِمَ إلَىٰ وادِي مَكَّةَ بِأَمْرِ اللهِ، وَتَرَكَ فِيهِ وَلَدَهُ إِسماعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام مَعَ أُمِّهِ هَاجَرَ، لِيُؤَسِّسَ أُمَّةً مُؤْمِنَةً بِتَوْحِيدِ الرَّبِّ، وبِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، ثُمَّ أَقَامَ بِنَاءَ الكَعْبَةِ لِلتَّوْحِيدِ وَمُحَارَبَةِ الْوَثَنِيَّةِ بِكُلِّ أَشْكَالِهَا وَصُوَرِهَا.

تِلَاوَةُ القرآن: النُّطْقُ بِكَلِمَاتِهِ مع تَتبُّعِ حُرُوفِهِ كما أَنْزَلَهُ اللهُ، فَإِذَا كَانَ تَتَبُّعاً لِلْمَكْتُوبِ فَهِيَ قِراءة.

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠)﴾: أي: ٱتْلُ عَلَىٰ مُشْرِكي

قَوْمِكَ قِصَّةَ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ، مَا تَعْبُدُونَ؟.

بَدَأ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعْوَتَهُ لِأَبِيهِ فَقَوْمِهِ بِسُؤَالِهِمْ عَمَّا يَعْبُدون، لِيَسْتَفْهِمَ مِنْهُمْ عَنْ حَقِيقَةِ الأَصْنَام الَّتِي يَعْبُدونها، ولِيَعْرِفَ مَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ صِفَاتٍ لَهَا تَسْتَحِقُّ عِنْدَهُمْ أَنْ تُعْبَدَ بِحَسَبِ مَفْهُومَاتِهِمْ، أَوْ لِيَكْشِفَ لَهُمْ جَهْلَهُمْ وَسَفَاهَتَهُمْ فِي عِبادَتِها.

وَبَدْؤُهُ بِأبِيهِ الْتِزامٌ مِنْهُ بِمَنْهَجِ الْحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، إِذْ تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ الْبَدْءَ بالْأَقْرَبِينَ، فَمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ فِي الْقُرْبِ، حَتَّىٰ قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأَقْوَامِ، الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ.

- ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؟: أي: مَا حَقِيقَةُ مَا تَعْبُدون، كَلِمَةُ «ما» اسْتفهامِيَّة يُسْتَفْهَمُ بِها عَنْ غَيْرِ ذِي الْعِلْم، ويُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنْ صِفَاتِ ذِي الْعِلْمِ، وَمِنْ صِفَاتِهِ حَقِيقَةُ ذَاتِهِ وَمَاهِيَّتُها.

فَسَأَلَهُمْ إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عَنْ حَقِيقَة ذَاتِ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونها، وعَنِ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤَهِّلُهَا لِأَنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ.

- ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾: أي: فَأَجَابُوهُ عَلَىٰ سُؤَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَيَانِ أَعْيَانِ ذَواتِ مَعْبُوداتِهِمْ، وَأَنَّهَا أَصْنَامٌ مَصْنُوعَةٌ مَنْحُوتَةٌ مِنْ حِجَارَةٍ، أو مِنْ جَامِدَاتٍ أُخْرَىٰ، وَهِيَ مُصَوَّرَةٌ بِصُوَرِ بَعْضِ النَّاسِ، أَوْ بَعْضِ الحَيَوَانَاتِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُوَرٍ.

لَمْ يَفْهَمْ أَبو إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ وَقَوْمُهُ أَنَّهُ يَسْأَلُهُمْ عَنْ حَقِيقَتِها، وعَنِ صِفَاتِهَا الَّتِي تُؤَهِّلُهَا لِأَنْ تُعْبَدَ، فَأَجَابُوهُ عَنْ ذَوَاتِها، وعَنْ نَوْعِ عبادَتِهِمْ لها. ومَعْلُومٌ أَنَّ عِبادَةَ الْأَصْنَامِ تَكُونُ بِتَقْدِيمِ القرابِينِ لها، أو الركوعِ والسُّجُودِ لها، أو الطَّوافِ حَوْلها، أو الْعُكُوفِ عَلَيْهَا، أو التَّمَسُّحِ بِها، أو سُؤالِها بالدُّعاء.

- ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾: أي: فَنُدَاوِمُ عَلَىٰ عِبادَتِها بالْعُكُوفِ، وهو

مُلَازَمَةُ الْإِقَامَةِ عِنْدَها، مُقْبِلِينَ عَلَيْهَا إقْبال العَابِدِ عَلَىٰ الْمَعْبُود.

- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾:

دلَّ هـٰذَا البيان علىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كَانَ يَعْلَمُ مِنْ حَالِ قَوْمِهِ أَنَّهُمْ يَعْبُدون أصْنَامَهُمْ بالدُّعاء، وأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ عِبادَتَهُمْ لَهَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً وَتَدْفَعُ عَنْهُمْ ضراً، فَطَرَحَ عَلَىٰ أَبِيهِ فَقَوْمِهِ سُؤَالَيْنِ:

السؤال الأول: هَلْ تَسْمَعُكُمْ أَصْنَامُكُمْ حِينَ تَدْعُونَهُمْ لِمَطَالِبِ حَيَاتِكُمْ، مِنْ رِزْقٍ، ونَصْرٍ، وَذُرِّيَّةٍ، وأَمْنٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَطَالِبِ الحياة.

السؤال الثاني: هَلْ تَنْفَعُكُمْ أَصْنَامُكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِيُحَقِّقُوا لَكُمْ نَفْعاً؟.

هَلْ يَضُرُّونَكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لاسْتِرْضَائِهِمْ حَتَّىٰ لَا يَضُرُّوكُمْ؟. أَوْ هَلْ يَضُرُّونَ أَعْدَاءَكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِإِنْزَالِ الضَّرَرِ بِهِمْ؟.

سُؤَالَانِ تَابَعَ بِهِما إِبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنَاظَرَتَهُ لِقَوْمِهِ، الَّتِي بَدَأَهَا بالسُّؤَالِ الأَوَّل: مَا تَعْبُدُونَ؟.

هـٰذَا مَنْهَجٌ جَدَليٌّ حَكِيمٌ يُبَاشِرُ الْمَوْضُوعَ مِنْ أَقْرَبِ السُّبُل، ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ عَجَزُوا عَنْ إِثْبَاتِ أَنَّ أَصْنَامَهُمْ تَسْمَعُ دُعَاءَهم، وَعَجَزُوا عَنْ إِثْبَاتِ أَنَّهَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً أَوْ ضُرّاً، أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً، فَأَجابُوا بِمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الآيَةِ التَّالِيَة:

- ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: لَا نَسْتَطِيعُ إِثْبَاتَ أَنَّهَا تَسْمَعُ دُعَاءَنا، وَلَا نَسْتَطِيعُ إِثْبَاتَ أَنَّها تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ، بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ الْفِعْلِ الَّذِي نَفْعَلُهُ مِنْ عِبَادَاتٍ لها، فَنَحْنُ عَلَىٰ آثَارِ آبَائِنَا سَائِرُونَ، وَلَهُمْ مُقَلِّدُونَ.

وبِهـٰذَا كَشَفَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ؛ أَنَّهُمْ على باطلٍ واضِحِ الْبُطْلَانِ، نظراً إِلَىٰ أَنَّ تَقْلِيدَ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ دَلِيلاً

بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، لاحْتِمَالِ أَنَّهُمْ كَانُوا جَاهِلِينَ، أَوْ كَانُوا عَلَىٰ ضَلَالَةٍ يَتَّبِعُونَ فِيها الْأَهْوَاءَ، أَوْ كَانُوا مُتَأَثِّرِينَ بِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلاتِهِمْ.

عِنْدئذٍ رَأَىٰ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْمنَاظَرَةِ أَنْ يُعْلِنَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ، أَنَّ كُلَّ مَعْبُودَاتِهِمْ وَمَعْبُودَاتِ آبَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ رَبّ الْعَالَمِينَ أَعْدَاءٌ لَهُ، إِذْ لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤَهِّلُهَا لِأَنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ، وعِبَادَتُهَا عُدْوَانٌ عَلَىٰ حَقِّ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ في أَنْ لَا يُعْبَدَ شَيْءٌ وَلَا كَائِنٌ مَا مِنْ دُونِهِ، إِذْ لَا إِلَهَ بحَقٍّ إِلَّا هُوَ، فَهُوَ وَحْدَهُ رَبُّ كُلِّ شيءٍ سِوَاه.

فقال لهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في المناظَرَة، مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: أَتَفَكَّرْتُم تَفَكُّراً سَلِيماً سَدِيداً، فَرَأَيْتُم بِعُقُولِكُم وَقُلُوبِكُم بُطْلَانَ مَا كُنْتُم أَنْتُم وَآبَاؤُكُم الْأَقْدَمُونَ، تَعْبُدُونَهُم مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا زِلْتُم أَنْتُم تَعْبُدُونَهُم تَقْلِيداً لِآبَائِكُم فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لِي، لِأَنَّهُم بَاطِلٌ لَيْسَ لَهُم مِنَ الإلَهِيَّةِ وَصْفٌ مَا، وأَنَا أَعْتَبِرُ كُلَّ بَاطِلٍ عَدواً لي، أَكْفُرُ بِهِ، وأُعَادِيهِ، وأُقَاتِلُهُ، ومِنَ اللَّازِمِ الْفِكْرِيِّ لِمُعَادَاةِ الباطِلِ، مُعَاداةُ أَنْصَارِهِ المؤمِنِينَ بِهِ، والدَّاعِينَ إِلَيْهِ.

ووصَفَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ آبَاءَهُمْ بالْأَقْدَمِينَ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْأَقْدَمِيَّةَ لَا تُعْطِي الْبَاطِلَ مَشْرُوعِيَّةَ الْبَقَاءِ، ولا تُكْسِبُهُ شَيْئاً مِنْ صِفَاتِ الحقّ، فالباطِلُ أَزَلاً بَاطِلٌ أبداً، والْبَاطِلُ لِذَاتِهِ فِيمَا مَضَىٰ، بَاطِلٌ دَوَاماً في الماضِي، والحاضِرِ، والمستقبل.

ولـمَّا كَانَ قَوْمُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مُشْرِكِينَ، يَعْبُدُونَ أَصْنَامَهُمْ

ويُعْبُدُونَ أيضاً رَبَّ العالَمِينَ، كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَسْتَثْنِي فيقول:

﴿... إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾: أي: إِلَّا الْمَعْبُودَ المتَّصِفَ بأنَّهُ رَبُّ العالَمِينَ.

وَقَدْ أبان عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، مَا جَاءَ في الآيَاتِ التاليات:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾:

فذكر إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هـٰذَا مِنْ صِفَات رُبُوبِيَّة اللهِ رَبِّ العالَمِين، الَّتِي لَهُ بِها ارْتِبَاطٌ شَدِيدٌ فِي حَيَاتِهِ ثَمَانِي ظَواهِر:

الظَّاهِرَة الْأُولَى: أَنَّهُ خَلَقَهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ شيئاً مَذْكُوراً فقال عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾: أي: الَّذِي حدَّدَ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ فِيَّ، وابْتَدَعَنِي مِنَ الْعَدَم.

الْخَلْق يأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَيَيْنِ: **التقدير**، بإِعْطَاءِ الْأَشْيَاءِ مَقَادِيرَها؛ **والابتداع** على غَيْرِ مِثَالٍ سَبَق، والإيجاد من الْعَدَم. وهـٰذَان المعْنَيَانِ مُرَادَانِ هُنَا.

الظَّاهِرَة الثانية: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ يَهْدِيهِ لِتَنْفِيذِ الْأَعْمَالِ الْمُحقِّقَةِ لِلْأَغْرَاضِ منها، وهَـٰذِهِ الْهِدَايَةُ تَشْمَلُ كُلَّ تَصرُّفَاتِهِ الإرادِيَّة الْجَسَدِيّة والنَّفْسِيَّة، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ يَهْدِينِ، ومِنْ هَـٰذِهِ الهدايَةِ هِدَايَةُ اللهِ الطِّفْلَ كَيْفَ يَرْضَعُ ثَدْيَ مُرْضِعَتِهِ، بَعْدَ أَنْ أعطَىٰ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ فَمِهِ المقدارَ الحكيمَ الْمُلَائِمَ للرَّضَاع.

الظَّاهِرَة الثالِثَة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُطْعِمُهُ، فقالَ عَلَيْهِ

السَّلَامُ: ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾. فاللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَخْلُقُ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ، وَيَخْلُقُ وَسَائِلَهَا فِي كَوْنِهِ.

الظَّاهِرَة الرابعة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُو وَحْدَهُ الَّذِي يَسْقِيهِ الماء وأنواعَ شَرَابَاتٍ أُخرى، فقال عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَيَسْقِينِ﴾ عطفاً على: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى﴾ ومَعْلُومٌ أَنَّ رَبَّ العالَمِين هو الَّذِي خَلَقَ الماء وسائر أنواع الْأَشْرِبَة.

الظَّاهِرَة الْخَامِسَة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ الَّذِي يَشْفِيهِ إِذَا مَرِض، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

وقَدْ تَأَدَّبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع رَبِّهِ، فَلَمْ يَنْسُبْ إِلَيْهِ الْقَضَاءَ بالْمَرَضِ الَّذِي هُوَ مِنْ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ لِيَبْلُوَ بِهِ عباده.

إِنَّ الشِّفَاءَ مِنْ عَوَارِضِ الْأَمْرَاض، لَا يَكُونَ إِلَّا بِقَدَرٍ مِنَ اللهِ وقضاء، فإذا قَضَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالشِّفَاء أَلْهَمَ الطَّبِيبَ الدَّوَاءَ الَّذِي جَعَلَهُ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ سَبباً للشِّفَاءِ.

الظَّاهِرَة السّادسة: إِنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ الَّذِي يُمِيتُهُ حِينَ يَأْتِي الأَجَلُ المقَدَّرُ لإِمَاتَتِهِ، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى﴾: عطفاً علىٰ: ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾: أي: وهو وَحْدَهُ الَّذِي يُمِيتُنِي.

إِنَّ الإِمَاتَةَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، إِذْ يَتَحَقَّقُ الْمَوْتُ بِفَصْلِ الرُّوحِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَمْرِ اللهِ عَنِ النَّفْسِ الَّتِي فِيهَا طَبْعَةُ الْكَائِنِ الحيِّ، كَمَا تَكُونُ الحياة بِوَصْلِهَا بِالنَّفْسِ، وَكُلٌّ مِنَ الْوَصْلِ والْفَصْلِ إِنَّما يَكُونُ بِخَلْقِ اللهِ وفِعْله.

الظَّاهِرَةُ السَّابعة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُعِيدُهُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ يَوْمَ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ فِي الْآخِرَة، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾. أي: وَيُحْيِي جَمِيعَ النَّاس، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، بالثواب، وبالْعِقَاب.

الظَّاهِرَة الثامِنَة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَطْمَعُ إِبْرَاهِيم في أَنْ يَغْفِرَ لَهُ خَطِيئَتَهُ يَوْمَ الدِّين، فَلَا غَافِرَ لِذُنُوبِ من آمَنَ وأَسْلَمَ إِلَّا هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

مِنْ حِكْمَةِ إبراهيمَ الدَّعَوِيَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ عَرَضَ عَقِيدَتَهُ الإيمانِيَّةَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ، لِيَسْتَثِيرَ فِيهِمُ الرَّغْبَةَ فِي مُنَاظَرَتِهِ بِشَأْنِها، وعِنْدَئِذٍ يُقَدِّمُ حُجَجَهُ الْبُرْهَانِيَّةَ حَوْلَ مَا يُبْدُونَهُ مِنْ شُكُوكٍ بِشَأْنِهَا.

وأَتْبَعَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام بَيَانَهُ لِمَا يُؤْمِنُ بِهِ بِشَأْنِ الْقَضَايَا الَّتِي عَرَضَهَا، بِدُعَاءٍ دَعَا بِهِ رَبَّهُ رَبَّ الْعَالَمِين، فَقَال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

عَنَاصِرُ هٰذَا الدُّعَاءِ تُؤَكِّدُ إيمانَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بِيَوْمِ الدِّينِ إيماناً لَا شَكَّ يُخَالِطُهُ، وَلَا شُبْهَةَ تُلَامِسُه.

ودُعَاؤُهُ رَبَّهُ بهٰذَا الدُّعَاءِ أَمَامَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ، هو في الحقيقة مِنْ أُسْلُوبِ الدَّعْوَةِ غَيْرِ المباشِرَةِ إِلَىٰ الإيمان بِمِثْلِ مَا يُؤْمِنُ هُوَ بِهِ.

وفي هٰذَا الدُّعَاء الذي دَعَا بِهِ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام ستَّةُ مَطَالِب:

المطلب الأوّل: قولُهُ في دُعَائِهِ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾:

الحكْمُ: فِقْهُ الْأُمور، ومَعْرِفَةُ الْحَقِّ والْبَاطِلِ وحُدُودِ كُلٍّ مِنْهما، ومَعْرِفَةُ الْخَيْرِ والشَّرِّ وحُدُودِ كُلٍّ منهما، ومَعْرِفَةُ الحسَنِ والسَّيِّىءِ وَحُدُودِ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَمَعْرِفَةُ الْجَمِيلِ والْقَبِيحِ في السُّلُوكِ الإرادِيِّ وحُدُودِ كُلٍّ منهما.

وبِنَاءً عَلَىٰ فِقْهِ الْأُمُورِ يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أَحْكَامَهُ الْعِلْمِيَّةَ وأَحْكَامَهُ الْقَضَائِيَّةَ مُطَابِقَةً لِلْحَقِّ والْخَيْرِ والْفَضِيلَة.

ويَدْخُلُ فِي إيتائِهِ الحُكْمَ إيتَاؤُهُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ تَقْدِيم الْحُجَجِ الدامِغَةِ، والْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ لِجَدليَّاتِ الْمُبْطِلِينَ والمُرَاوِغِينَ، وَمُحَاصَرَتِهِمْ مِنْ كُلِّ مَهْرَبٍ فِكْرِي.

وقَدْ آتَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حُجَّتَهُ الدَّامِغَةَ لِقَوْمِهِ، أَهْلِ الْبَاطِلِ والشِّرْك، وَقَدْ ظَهَرَ هٰذَا فِي مُجادَلَته لِقَوْمِهِ ولِمَلِكِهِمْ نُمْرُود إِذْ بَهَتَهُ بِجَدَلِيَّاتِهِ له.

ولَمْ أَفْهَمْ مِنْ لَفْظِ «الْحُكْم» هُنَا مَعْنَىٰ النُّبُوَّةِ، لِأَنَّ سَوابِقَ هٰذَا الدُّعَاءِ تُشْعِرُ بأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، مِنْ مَوْقِعِ كَوْنِهِ نَبِيًّا وَرَسُولاً، عَلَىٰ أَنَّ النُّبُوَّةَ تَأْتِي اصْطِفَاءً مِنَ اللهِ وَلَا تَأْتِي بِطَلَبِ الْعَبْدِ لها.

الْهِبَة: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِن الْأَعْوَاضِ والْأَغْرَاض.

المطلَبُ الثاني: قَوْلُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في دُعَائِهِ: ﴿... وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: واجْعَلْنِي أَلْحَقُ الصَّالِحِينَ السَّابِقِينَ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ قَبْلِي، مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ، فَإِذَا لَحِقْتُهُمْ سِرْتُ مَعَهُمْ سَابِقاً فِي الْخَيْرَاتِ الَّتِي تُرْضِيكَ، وصِرْتُ مِنْ أَهْلِ الكمالِ في الصَّلَاحِ.

الصَّلَاحُ: ضِدُّ الْفَسَاد، والصَّالِحُ هُوَ الْخَالِي مِنَ الْفَسَادِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ المعاصِيَ في السُّلُوكِ الدِّيني مِنَ الْفَسَادِ.

المطلب الثالث: قولُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَائِهِ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: واجْعَلْنِي دَوَاماً حَتَّىٰ آخِرِ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ كَامِلِي الصَّلَاحِ، حَتَّىٰ يَكُونَ لِي ثَنَاءٌ حَسَنٌ صَادِقٌ مُطَابِقٌ لِوَاقِعِ حَالِي فِي الْآخَرِينَ مِنَ النَّاسِ، بمُقْتَضَىٰ سُنَّتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ.

﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: أي: ثَنَاءً صَادِقاً لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ وَلَا زِيَادَةَ عَنْ وَاقِعِ الْحَالِ الَّذِي تَجْعَلُنِي فِيهِ. أُطْلِقَ لَفْظُ «لِسَان» وأرِيدَ بِهِ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ الَّذِي يَنْطِقُ اللِّسَانُ به، وإضَافَةُ «لِسَانٍ» إلَىٰ «صِدْقٍ» مِنْ إضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إلَىٰ صِفَتِهِ، وهٰذَا من الوصْفِ بالمصْدَر، للدَّلَالَةِ على المطَابَقَةِ التَّامَّةِ بَيْنَ الثَّنَاءِ والصِّدْقِ فِيهِ.

وقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في هٰذَا فَكَانَ كامِلَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ كَمَالِ الصَّلَاحِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ لِسَاناً صِدْقاً في الْآخِرِينَ.

المطلب الرابع: قولُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دُعَائِهِ لِرَبِّهِ: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾:

وَرَثَة: جمع «وَارِث» وهُوَ مَنْ يَصِيرُ إلَيْهِ مَا كَانَ لِغَيْرِهِ مِنْ مَالٍ، أوْ مَجْدٍ، أو غَيْرِهِمَا، دُونَ عِوَض.

وَقَدْ عَلِمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام، أَنَّ دُخُولَهُ جَنَّةَ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ، إِنَّمَا يَكُونُ بِفَضْلِ اللهِ، لا بأعْمَالِهِ مَهْمَا كَانَتْ صَالِحَةً، فَطَلَبَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَتفَضَّلَ عَلَيْهِ، فَيَجْعَلَهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمَ بِفَيْضِ عَطَاءَاتِهِ، وبهذا يكونُ ميراث الجنّة بِمَعْنَىٰ الْهِبَة بلا عِوَض.

المطلَب الخامس: قولُهُ في دُعَائِهِ: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾. وقَدْ عَذَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهذا الدُّعَاءِ لِأَبِيه الكافر، إذ كان بناءً على مَوْعِدَةٍ وعَدَهَا إيّاه، فَلَمَا تَبيّنَ لَهُ أَنّهُ عُدُوٌّ للهِ تبرّأ مِنْهُ.

المطْلَبُ السادس: قَوْلُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دُعَائِهِ لِرَبِّهِ: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾:

الْخِزْيُ: يُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ عِدَّةِ معانٍ، وهي: الوقُوعُ في الشَّرِّ

وَالْعَذَابِ، والْمَصَائِبِ، والْبَلَايَا، والافْتِضَاحُ بالقَبَائِحِ والسَّيِّئَاتِ والآثَام الْمَكْتُومَةِ، الْمُورِثَةِ لِلْخَجَلِ الشَّدِيدِ مِنها، والاسْتِحْيَاءُ بِمَا يَنْزِلُ مِنْ ذُلٍّ وَهَوَانٍ، وهَـٰذِهِ المعانِي صَالِحَةٌ كُلُّهَا لِأَنْ تَكُونَ مُرَادَةً هُنَا.

أي: واحْفَظْنِي رَبِّ واعْصِمْنِي مِمَّا يَكُونُ سَبَباً فِي خِزْيِي عَلَىٰ أيِّ مَعْنَىً مِنَ هَـٰذِهِ الْمَعَانِي، وَهَـٰذِهِ الْعِصْمَةُ تَكُونُ بإعَانَتِهِ وتَوْفِيقِهِ حَتَّىٰ يُدَاوِمَ على الاسْتِقَامَةِ الكامِلَةِ على صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، اعْتِقاداً، وعَمَلاً، وقَوْلاً، ونِيَّةً، وكُلَّ سُلُوكٍ يَخْضَعُ لِإِرَادَتِهِ.

وأَتَمَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام استعْطَافَهُ لِرَبِّهِ في دُعَائِهِ بِوَصْفِهِ لِيَوْمِ الْبَعْثِ بأنَّهُ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُون.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾: أي: لَكِنْ مَنْ أَتَىٰ اللهَ يَوْمَ القيامَةِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ مِنْ أمْرَاضِ الكُفْرِ والمعَاصِي، فإنَّ أعْمَالَهُ الصّالِحَةَ الَّتِي كَسَبَهَا بِقَلْبِهِ السَّلِيمِ تَنْفعه عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّين.

* * *

(٣) مَرْحَلَةٌ أُخْرَىٰ مِنْ مَرَاحِلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّعَوِيَّة:

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (العنكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾:

- ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾: أي: وأَرْسَلْنَا إبراهيمَ عَطْفاً عَلَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ في الآية (١٤) من السورة.
- ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا

المتَلَقِّي لِآيَاتِ كِتَابِ رَبِّكَ، مَا نُبَيِّنُهُ لَكَ بِشَأْنِ إِبْرَاهِيمَ، حِينَ قَالَ لِقَوْمِه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ بِدَلِيلِ مَا جَاءَ فِي النَّصِّ مِنْ تَحْذِيره الشَّدِيدِ مِنَ الشِّرْكِ وعِبَادَةِ الأَوْثَان.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: أي: واتَّقُوا عِقَابَ اللهِ وعَذَابَهُ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وضَلَالَاتٍ سُلُوكِيَّةٍ نَفْسِيَّةٍ وَجَسَدِيَّةٍ هي مِنْ مُفْرَزَاتِ الشِّرْكْ.

- ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑯﴾: أي: ذَلِكُم الَّذِي هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بالْعِبَادَة، واتِّقَاءُ عِقَابِهِ وعَذَابِهِ، خَيْرٌ لَكُمْ في دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ تُجَاهَ اللهِ رَبِّكُمْ، وتَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَىٰ هٰذَا الْعِلْمْ مُؤْمِنِينَ به.

- ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾:

أي: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِلَّا أوثاناً تَصْنَعُونَهَا بأَيْدِيكُمْ، لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَنْطِقُ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: أي: مَا تَفْتَرُونَ في ادِّعَاءِ الْإِلَهِيَّة لِمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا كَذِباً، فَلَا إِلَهِيَّةَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا للهِ رَبِّ العالَمِين.

تَخْلُقُونَ: أي: تَصْنَعُونَ افْتِرَاءً.

إِفْكاً: أيْ: كَذِباً.

- ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ...﴾:

أي: إِذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ آلِهَتَكُمْ لِتَرْزُقَكُمْ فاعْلَمُوا أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ أَنْ تَرْزُقَكُمْ أَقَلَّ رِزْقٍ.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِمَّا يُؤْكَلُ وَيُلْبَسُ وَيُشْرَبُ، وكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الحيُّ لِحَيَاتِهِ.

﴿... فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑰﴾:

أي: فَاطْلُبُوا عِنْدَ اللهِ بالدُّعَاءِ الرِّزْقَ، واعْبُدُوه وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بالدُّعَاء وبِغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُرْضِيهِ، واشْكُرُوا لَهُ مَا يُمِدُّكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمٍ، وذَلِكَ بالْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ والإيمان بأنَّهُ لَا رَبَّ فِي الوجودِ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: سَتُبْعَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، وإِلَىٰ حِسَابِ اللهِ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذِ جَزَائِهِ تُرْجَعُونَ.

* * *

(٤) مَرْحلة أخرى من مراحِلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّعَوِيَّة:

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾:

تمهيد:

كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دَعْوَتِهِ، أَنَّهُ بَدَأَ بِأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَهٰذَا تَعْلِيمٌ رَبَّانِيٌّ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَإِلَىٰ صِرَاطِهِ المستقيم، فَقَدْ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ رَسُولَهُ مُحمّداً خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أَجْمَعِينَ.

واهْتِمَاماً بالْقِيَام بِهٰذِهِ السِّيَاسَةِ الدَّعَوِيَّةِ الْحَكِيمَةِ الرَّشِيدَةِ، أَلَحَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ أَبِيهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلى دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وإِلَىٰ نَبْذِ اتِّخَاذِ الْأَوْثَانِ وَعِبَادَتِها، وَنَوَّعَ لِأَبِيهِ أَسَالِيبَ الإِقْنَاعِ، وقَدَّمَ له البراهِينَ وَحُجَجاً مُخْتَلِفَةً، واسْتَعْطَفَهُ واسْتَلَانَهُ، وتَخَضَّعَ لَهُ، وَتَرَفَّقَ بِهِ وَعَاشَرَهُ بإحْسَانٍ، ولَمْ يُقَابِلْهُ بِمَا يَكْرَهُ.

وحِينَ طَلَبَ مِنْهُ أبوهُ أَنْ يَهْجُرَهُ إِلَىٰ حِينٍ، اسْتَجَابَ لِطَلَبِهِ، وَوَعَدَهُ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ رَبَّهُ، قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مُصِرٌّ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ عَدُوّاً لله، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

ونَفْهَمُ مِنْ هٰذَا النَّصِّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَضْجَرَ أَبَاهُ فِي دَعْوَتِهِ لَهُ، مَقْرُونَةً بِالْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْمُقْنِعَةِ، رجَاءَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ، فَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ النَّاجِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ الْخَالِدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَنَفْهَمُ أَنَّ الضَّجَرَ قَدْ أَوْصَلَ الْأَبَ إِلَىٰ أَنْ يُهَدِّدَ ابْنَهُ إِبْرَاهِيمَ النَّاصِحَ لَهُ، والْمُلِحَّ عَلَيْهِ بالنَّصِيحَةِ، وبِإقَامَةِ الحجج الْبُرْهَانِيَّةِ المقْنِعَةِ، فَيَتَوَعَّدَهُ بالرَّجْم، فقال لَهُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لَأَقْتُلَنَّكَ بِوَسِيلَةِ الرَّجْمِ بالْحِجَارَة.

ويَظْهَرُ أَنَّ هٰذَا التَّهْدِيدَ قَدْ صَدَرَ مِنَ الأَبِ وَهُوَ فِي حَالَةِ ضِيقِ صَدْرٍ، إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَىٰ حُجَجِ ابْنِهِ الْبُرْهَانِيَّةِ بِمَا يُزَيِّنُ تَقْلِيدَهُ الْأَعْمَىٰ فِي شِرْكِيَّاتِهِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ ضِيقَ الصَّدْرِ يُوَلِّدُ غَضَباً، وَمَعَ الْغَضَبِ تَصْدُرُ عِبَارَاتُ التَّهْدِيدِ الَّتِي قَدْ تَصِلُ إِلَىٰ التَّهْدِيدِ بالْقَتْلِ.

وَيَظْهَرُ أَيضاً أَنَّهُ لَمَّا سَكَتَ عَنْ أَبِيهِ غَضَبُهُ تَرَاجَعَ عَنِ التَّهْدِيدِ بالرَّجْمِ، وَطَلَبَ مِن ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَهْجُرَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ، فَقَالَ لَهُ: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾: **الْمَلِيُّ**: المدَّةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الزَّمَنِ.

وَيَظْهَرُ أَيْضاً أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَشْعَرَ مِنْ قَوْلِ أَبِيهِ لَهُ: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ وَعْداً ضِمْنِيًّا بِأَنْ يُرَاجِعَ نَفْسَه، وَيَتَفَكَّرَ فِي الْأَمْرِ، وَيَتَّخِذَ

تَدَابِيرَ يَتَخَلَّصُ بِهَا مِنْ ضَغْطِ بِيئَتِهِ الاجْتِمَاعِيّة. فَوَعَدَهُ بأَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ رَبَّهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾: أي: إِنَّ رَبِّي كَانَ بِي لَطِيفاً، وَكَانَ لِي مُكْرِماً، وَكَانَ ذَا عِنَايَةٍ بي، فَأَرْجُو أَنْ يَسْتَجِيبَ لي إذَا دَعَوْتُهُ طَالِباً مِنْهُ أَنْ يَغْفِرَ لك.

التدبر:

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لآيَاتِ كِتَابِ رَبِّكَ أَيّاً كُنْتَ، خَبَراً مُنَزَّلاً فِي الكتاب (= القرآن الكريم) فَاحْفَظْهُ، وَتَدَبَّرْهُ، واسْتَذْكِرْهُ عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لِتَنْتَفِعَ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادَاتٍ جَلِيلَات، وَتَوْجِيهَاتٍ إِلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ.

اذْكُرْ نَبِيَّ اللهِ وَرَسُولَهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، في صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ، وفي أَخْبَارِ دَعْوَتِهِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَأَسَّىٰ بها الدُّعَاةُ إِلَىٰ اللهِ، وإلى صِرَاطِهِ المسْتَقِيم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾: **صِدِّيقٌ**: عَلَىٰ وَزْنِ «فِعِّيل» مِنْ صِيَغِ الْمُبَالَغَةِ والتَّكْثِير، ولَهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ نَظَائِرُ مَسْمُوعَةٌ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا، مِنْها: «خِرِّيت» وَهُوَ ذُو الْحِذْقِ بالطُّرُقِ والْمَسَالِكِ، ومِنها: «ضِلِّيلٌ» وهُوَ كَثِيرُ الضَّلَالِ والتَّضْلِيلِ.

الصِّدِّيق: هُوَ عَظِيمُ الصِّدْقِ في أَقْوالِهِ، وَعَظِيمُ الصِّدْقِ في أَفْعَالِهِ وأَعْمَالِهِ، فَلَا يُنَافِقُ بِهَا وَلَا يُرائي. والصِّدْقُ في الأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ويأتِي الصِّدِّيق بِمَعْنَىٰ كَثِير التَّصْدِيقِ بِمَا يَأْتِي مِنْ بَيَانَاتٍ عَنِ الوحْي

الصَّادِق، فَلَا يَشُكُّ في شَيْءٍ مِنْهَا، مَهْمَا كَانَ غَرِيباً عَجِيباً، إِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ الْعَقْلِيَّة، ولهذا وُصِفَ أَبُو بَكْرٍ رضي اللهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ صِدِّيق.

﴿نَبِيًّا﴾: النَّبِيُّ عَبْدٌ اصْطَفَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَحْيِ إِلَيْه.

النُّبُوَّة: هِيَ في اللُّغَةِ مَأْخُوذَةٌ مِنَ النَّبَأ وهُوَ الْخَبَرُ البارِزُ، أَوْ مِنَ «النَّبْوَةِ» وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ. وهي في الاصْطِلَاحِ الشَّرعي، اصْطَفَاءُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْداً مِنْ عِبادِهِ بالْوَحْيِ إِلَيْهِ.

فالنَّبِيُّ مُنَبَّأٌ بِبَيَانَاتٍ وأَخْبَارٍ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْي، وَمُنَبِّئٌ بِمَا تَلَقَّاهُ عَنْ طَرِيق الْوَحْي.

وَجَاءَ إِثْبَاتُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولٌ في نُصُوصٍ قرآنِيَّةٍ أُخْرَىٰ، وتُفْهَمُ رِسَالَتُهُ مِنْ هٰذَا النَّصِّ بَدَلَالَةِ اللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ لِقِيَامِهِ بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ.

- قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾؟: أي: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي هٰذَا الْحَدَث.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: لَقَدْ تَلَطَّفَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام مَعَ أَبِيهِ، فَخَاطَبَهُ بِتَذَلُّلٍ وَخُضُوعٍ وإِشْعارٍ بِارْتِفَاعِ مَنْزِلَةِ أَبِيهِ بالْأُبُوَّةِ، فَنادَاهُ بأَدَاةِ النِّداء الْمَوْضُوعَةِ لِنِداءِ الْبَعِيدِ، وَوَضَعَ بَدَلَ يَاءِ المتكلّم تَاءَ التَّأْنِيثِ الَّتِي يَسْتَعْطِفُ بِهَا رِقَّتَهُ الَّتِي يُشَارِكُ الْأُمَّ بِهَا، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: يَا أَبِي الَّذِي هُوَ مِثْلُ أُمِّي في الشَّفَقَةِ عَلَيَّ والرَّحْمَةِ بِي، إِنَّ مِنَ الْبِرِّ بِكَ أَنْ أَنْصَحَكَ وَأَدُلَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ وَصِراطِ الْهُدَىٰ، وأَنْ أُحَذِّرَكَ مِنْ عَذَابِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذْ يُحَاسِبُ عِبَادَهُ، ويَقْضِي بَيْنَهُمْ، وَيُجَازِيهِمْ يَوْمَ الدِّين.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾؟؟

اسْتِفْهَامٌ اسْتِفْسَارِيٌّ، واسْتِنْكَارِيٌّ، وَتَعَجُّبِيٌّ.

أي: يَا أَبتِ، هَلْ لَكَ مَقْصِدٌ يَتحقَّقُ لَكَ، بِعِبَادَتِكَ أَوْثَاناً جامِدَةً، لَا تَسْمَعُ دُعَاءَكَ، وَلَا تُبْصِرُ ذَاتَكَ، وَلَا تَنْفَعُكَ بِنَافِعَةٍ، وَلَا تَصْرِفُ عَنْكَ شيئاً مِمَّا تَكْرَهُ؟؟!.

هٰذَا السُّؤال لَا يُمْكِنُ أَنْ يُجِيب عَلَيْهِ عَاقِلٌ إِجَابَةً صَحِيحَةً، إِلَّا بأنْ يَقُول: وَجَدْتُ قَوْمِي وَآبَاءَهُمْ يَعْبُدُونَ هَـٰذِهِ الْآلِهَةَ مِنَ الْأَوْثَانِ فَعَبَدْتُها، مُسْتَبْعِداً عَنْ تَصَوُّرِي أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ ضَلَالَة.

عِنْدَئِذٍ انْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ اتِّخَاذِ وَسِيلَة إِقْنَاعِ أبيه بالحقّ الَّذي يَدْعُوهُ إِلَيْهِ، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾:

كرَّرَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام اسْتِعْطَافَهُ لِأَبِيهِ بقولِهِ له: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ وَأكَّدَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي يَسْعَىٰ إِلَيْهِ الْعُقَلَاءُ الراشِدُونَ، مَا لَيْسَ عِنْدَ أَبِيهِ مِنْه.

وهُنَا لَا بُدَّ أَنْ تَجْرِيَ مُحَادَثَةٌ بَيْنَهُمَا، يُثْبِتُ فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام لِأَبِيهِ الْعِلْمَ الَّذِي جَاءَهُ، بِشَأْنِ الرُّبُوبِيَّةِ والإِلَهِيَّةِ، وحَقِّ اللهِ الرَّبِّ عَلَىٰ عِبَادِهِ في أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَته أَحداً وَلَا شَيْئاً، وأنَّ مَنِ اتَّخذَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، جَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْخَالِدِينَ يَوْمَ الدِّينِ في عَذَابِ نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَا بُدَّ أنْ يَكُونَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ أَبَانَ لِأَبِيهِ أَرْكَانَ الإيمانِ بالْحُجَّةِ والْبُرْهَان.

ومِنَ الواضِحِ أنْ لَا يَجِدَ الْأَبُ الْمُشْرِكُ كَلَاماً يَصِحُّ في الْعُقُولِ، يَنْقُضُ بِهِ أَدِلَّةَ الْابن الرَّسُولِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، بِشَأْنِ أَرْكَانِ العقيدة الإِيمانِيَّة، في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِه، وَبِشَأْنِ أُسُسِها الْعَقْلِيَّة، وَجُذُورِهَا الْوِجْدَانِيَّة.

وبانْقِطَاعِ الْأب، وعَجْزِهِ عَنْ مُتَابَعَةِ المنَاظَرَةِ المنْطِقِيَّةِ المقْبُولَةِ فِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَجَدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّ مِنَ الْمُنَاسِبِ عِنْدَ هـٰذَا الموقِفِ الْحَرِجِ عَلَىٰ أَبِيهِ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ مَخْرَجاً، فَقَال له:

﴿... فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: إِنَّ القاعِدَةَ الإيمانِيَّةَ مُلْزِمَةٌ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ سَوِيٍّ بالإيمانِ بِها، وبِنَاءً عَلَىٰ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ يَأْتِي السُّلُوكُ الظَّاهِرُ والباطِنُ، فانْطِلاقاً مِنَ الْحَقِّ الَّذِي تَأَلَّفَتْ مِنْهُ أَرْكَانُ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة، لَا يَكُونُ السُّلُوكُ الَّذِي تُوجِبُهُ هَـٰذِهِ الْأَرْكَانُ إِلَّا عَلَىٰ صراطٍ سَوِيّ.

الصِّرَاطُ: هُوَ الطَّرِيقُ الواضِحُ الْمُيَسَّرُ السَّهْلُ، الَّذِي لَا تُوجَدُ فِيهِ عَقَبَاتٌ وَلَا عراقيلُ وَلَا مَوَانِعُ.

السَّوِيُّ: هو المستوي المعتدل، الذي لا اعْوِجَاجَ فِيهِ ولا انْحراف، ولا مُرتَفِعاتٍ ولا منخفضات.

وقد جاء في نُصُوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ إطْلَاق لفظ «الصِّراط» عَلَىٰ الشَّرائِعِ والْأَحْكَامِ، والنَّصائِحِ والْوَصَايا، وسَائِرِ البياناتِ والتعليمات الدِّينيَّة للنَّاسِ، على سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، حتَّىٰ صَارَ مُصْطَلحاً دِينِيًّا دالًّا عَلَىٰ ذَلِكَ.

﴿أَهۡدِكَ﴾: يُقَالُ لغة: «هَدَاهُ الطَّرِيقَ، وَهَدَاهُ إِلَيْهِ» أي: بَيَّنَهُ وَأَوْضَحهُ لَهُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَيْهِ، وأعْلَمَهُ بِهِ.

ولَمَّا كَانَتِ الْهِدَايَةُ إِلَىٰ الصِّرَاطِ السَّوِيّ، لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا باجْتِنَابِ سُبُلِ الضَّلَالِ، وَلَمَّا كَانَ السَّيْرُ في سُبُلِ الضَّلَالِ هُوَ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ الْعَدُوِّ لِبَنِي آدَمَ، وَكَانَتْ هَـٰذِهِ الطَّاعَةُ للشَّيْطَانِ مِنَ الْعِبَادَةِ الْمُنَاقِضَةِ لِعِبَادَةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَالَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيه:

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾﴾:

فَأَبَانَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام لِأَبِيهِ أَنَّ عِبادَة الأَوْثَانِ، هِيَ فِي الحقيقَةِ عِبادَةٌ للشَّيْطَانِ الَّذِي أَوْحَىٰ بِهَا، وأَمَرَ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ الإنْسِ بِتَزْيين عِبادَتِها، وعِبَادَةُ الأَوْثَانِ تَجُرُّ إلَىٰ ضَلالاتٍ كَثِيرَاتٍ، وشُرُورٍ مُفْسِدَاتٍ لِلأَفْرَادِ والمجتمعات.

وأبان إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ أَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ شَدِيدَ الْعِصْيَانِ للرَّحْمٰنِ، وشَدِيدَ التَّمَرُّدِ عَلَىٰ أوامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، مُنْكِراً إلَهِيَّتَهُ الَّتِي تَقْتَضِيهَا عَقْلاً رُبُوبِيَّتُهُ.

وَذَكَرَ مِنْ أسماء اللهِ الحسْنَىٰ اسْمَهُ الرَّحْمَن، لِيُحَرِّكَ وِجْدَانَهُ وَعَاطِفَتَهُ الخيِّرَةَ نَحْوَ رَبِّهِ، الَّذِي يَرْحَمُهُ فَيُمِدُّهُ بالْحَيَاةِ والرِّزْقِ والصِّحَّةِ، وبِكَثِيرٍ مِنَ مَحَابِّهِ، والَّذِي تُرْجَىٰ رَحْمَتُهُ دَواماً، والَّذِي يغْفِرُ لِلتَّائِبِينَ إلَيْهِ، ويَعْفُو عَنْهُمْ بِرَحْمَتِهِ.

الْعَصِيُّ: هُوَ الشَّدِيدُ الْعِصْيَان. وهٰذَا اللفظ من صِيَغِ المبالَغَةِ.

وَبَعْدَ هٰذَا الأسْلُوبِ التَّنْفِيرِيِّ مِنْ عبادَةِ الشَّيْطان، رأى إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُحَذِّرَ أَبَاهُ مِنْ عَذَابِ الرَّحْمٰنِ المعَجَّلِ، بِسَبَبِ شِرْكِهِ، مَعَ احْتِفَاظِهِ بالأُسْلُوبِ الاسْتِعْطَافِيِّ الرَّفِيقِ، فقال لَهُ:

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾:

أي: يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ مِنْ طُولِ إِصْرَارِكَ عَلَىٰ الشِّرْكِ، أَنْ يَمَسَّكَ فِي حَيَاتِكَ الدُّنْيَا عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ، فَتَكُونَ بِذَلِكَ مِنَ المحْكُوم عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَجَمَاعَتِهِ وَحِزْبِهِ، الَّذِينَ يَمَسُّهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ عَذَابٌ عِقَابِيٌّ مُعَجَّلٌ، قَبْلَ الْعَذَابِ الْعِقَابِيِّ الأَكْبَرِ يَوْمَ الدِّين.

دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مُرادَهُ الْعَذَابُ المعَجَّلُ فِعْل: ﴿أَخَافُ﴾ المشْعِرُ بالظَّنّ، وَفِعْلُ: ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ دُونَ: «أَنْ يُنْزِلَ بِكَ» واسْتِعْمَالُ اسْمِ اللهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دُونَ اسمِهِ: «المنْتَقِم الْجَبَّار».

فَقَالَ الأَبُ المشْرِكُ لابْنِهِ إبْرَاهِيمَ النَّبِيِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَام مَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُ:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾:

دَلَّ هٰـذَا الرَّدُّ عَنْ حَالَةِ غَضَبٍ خَرَجَ فِيهَا الْأَبُ عَنْ مِزَاجِهِ السَّوِيِّ، إذْ وَجَدَ نَفْسَهُ مَغْلُوباً، مَهْزُوماً فِكْرِيًّا وَنفْسِيًّا، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعِدًّا أَنْ يَنْبِذَ تَقَالِيدَهُ الْبَاطِلَةَ لِقَوْمِهِ وَآبَائِهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً غَيْرَ التَّهْدِيدِ بِالرَّجْمِ، مُسْتَخْدِماً سُلْطَتَهُ الْأَبَوِيَّةَ، وأَنَّ ابْنَهُ خَاضِعٌ لَهُ بَارٌّ بِهِ.

لَكِنَّهُ لَمَّا بَرَدَتْ جَذْوَةُ غَضَبِهِ طَلَبَ مِنِ ابْنِهِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام أَنْ يَهْجُرَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً، لِئَلَّا يَكُونَ بَيْنَهُمَا احْتِكَاكٌ مَا فِي مَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاه.

﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾: أي: أَتَارِكٌ أَنْتَ آلِهَتِي، ومُخَالِفٌ لِي فِي دِينِي وَفِي عِبَادَتي؟؟!!

يقال لغة: «رَغِبَ عَنِ الشَّيْءِ» أي: تَرَكَهُ زُهْداً فِيهِ، أو إنْكَاراً له.

ويقال لغة: «رَغِبَ في الشَّيْءِ» أي: أَرَادَهُ وَحَرِصَ عَلَيْهِ، أَوْ طَمِعَ فِيهِ.

ونَفْهَمُ مِنَ الإطْنَابِ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ ﴿أَنتَ﴾ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْهُ إشْعَارُ الْأَبِ ابْنَهُ إبْرَاهِيم، بِأَنَّهُ مِنَ المسْتَغْرَبِ مِنْهُ وَهُوَ البَارُّ الْحَرِيصُ عَلَىٰ بِرِّ أبيهِ، أَنْ يَرْغَبَ عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِهِ، وَيَسْلُكَ سَبِيلاً غَيْرَ سَبِيلِهِ، أي: مِثْلُكَ أَنْتَ لَا يَفْعَلُ هٰـذَا.

وكَانَ غَضَبُ الْأَب قَدْ بَلَغَ ذِرْوَتَهُ، فَقَالَ لِابْنه مُؤَكِّداً بالْقَسَم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: أي: لَأَطْرُدَنَّكَ أَوْ لَأَقْتُلَنَّكَ رَجْماً بالْحِجَارَةِ إنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ دَعْوَتِكَ إِلَىٰ نَبْذِ عِبَادَةِ آلِهَتِي مِنَ الْأَوْثَانِ.

وَيَظْهَرُ أَنَّهُ بَعْدَ هٰـذَا التَّهْدِيدِ بَرَدَ غَضَبُهُ، وأدْرَكَ أَنَّ ابْنَهُ لَنْ يَنْتَهِيَ عَمَّا

نَهاهُ عَنْهُ، فَأَتْبَعَ كَلامَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿... وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ أي: واهْجُرْنِي مُبْتَعِداً عَنِّي زَمَنًا طَوِيلاً.

وَشَعَرَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ بِتَنازُلِ حِدَّةِ غَضَبِ أبِيهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ إِذَا اسْتَجابَ لِطَلَبِهِ فَهجَرَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَانِ، تَرَاجَعَ عَنْ إصْرارِهِ وعِنادِهِ، وَصارَ أَلْيَنَ وَأَطْوَعَ وأَكْثَرَ تَقَبُّلاً لِلْحَقِّ، فَقَالَ لِأَبِيهِ مَا جَاءَ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ التَّالِي:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانُ أَرْبعِ قَضَايا وَجدَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام مُلائِمَةً وَحَكِيمَةً في هٰذَا الموْقف:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام لِأَبِيهِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾: أي: أُعْلِنُ مُفَارَقتِي لَكَ اسْتِجَابَةً لِأَمْرِكَ، فَأَقُولُ لَكَ: سَلامٌ عَلَيْكَ مُكَرَّماً مُبَجلاً.

القضيَّةُ الثانية: قَوْلُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام لِأَبِيهِ: ﴿... سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾:

في هٰذِهِ العبارَةِ وَعْدٌ مِنْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام لِأَبِيهِ، بأَنَّهُ سَيَسْأَلُ اللهَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ.

وقَدْ وَفَّىٰ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ بِوَعْدِهِ لِأَبِيهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، إِذْ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَلِينَ قَلْبُهُ، وَيَنْبِذَ الشِّرْكَ، وَيُؤْمِنَ بالدِّينِ الحقّ، فَلَمَّا تَبيَّنَ لَهُ أَنَّ أَبَاهُ مُقِيمٌ عَلى كُفرِهِ بإصْرَارٍ وَعِنادٍ، وَأَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِذْ لَا يَجُوزُ لِمُؤْمِنٍ باللهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِمشْرِكٍ، وَلَوْ كَان ذَا قُرْبَىٰ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾: أي: إِنَّ رَبِّي كَانَ لَطِيفاً بِي، مُكرِماً لي، ذا عِنَايَةٍ خَاصَّةٍ بِتَحْقِيقِ مَطَالِبِي، والْإِحْسَانِ إِلَيَّ.

الْقَضِيَّة الثَّالِثَة: قَوْل إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام لِأَبِيهِ، ولِلَّذِينَ مَعَهُ مِنْ أُسْرَتِهِ الملازِمِينَ لِشِرْكِهِمْ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

أي: مَا دُمْتُمْ مُلَازِمِينَ لِشِرْكِكُمْ، غَيْرَ مُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِي، فَإِنَّ الْمَنْهَجَ الدَّعَوِيَّ يَقْتَضِي مِنِّي أَنْ أَعْتَزِلَكُمْ، وأَعْتَزِلَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونَ اللهِ، بألْوَانٍ مِنْ الْعِبَادَاتِ، وَمِنْهَا العبادةُ بالدُّعَاءِ.

القَضِيَّة الرابعة: قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿... وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا (٤٨)﴾:

أي: وَحِينَ أَعْتَزِلَكُمْ سَأُتَابِعُ مَعَ غَيْرِكُمْ عِبَادَةَ رَبِّي، بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِهِ الحقِّ، ومُقَاوَمَةِ كُلِّ بَاطِلٍ وَكُفْرٍ وضَلَالٍ عَنْ سَبيلِ الْهُدَىٰ والرَّشاد، عَسىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِي مُسْتَجِيبُونَ مِن الذينَ أَدْعُوهم، وَعَسىٰ أَنْ لَا أَكُونَ خَائِباً فِي دَعْوَتِي.

* * *

(٥) مَرْحَلَة أُخرىٰ من مَرَاحِلِ إِبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلَام الدَّعَوِيَّة:

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأَنْعَام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ

ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾:

تَمْهيد:

في هَـٰذِهِ المرحلَةِ الدَّعَوِيَّة، اشْتَدَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ أَبِيهِ، فِي اسْتِنْكَارِهِ لِمَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ تَلَطَّفَ بِهِ في المرحَلَةِ السَّابِقَةِ الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا في سورة (مريم/ ٤٤ نزول).

وفِي هَـٰذِهِ المرحلَةِ الدَّعَوِيَّةِ تَدَرَّجَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام مَعَ قَوْمِهِ فِي إِسْقَاطِ رُبُوبِيَّةِ أيِّ كَوْكَبٍ أَوْ نَجْمٍ في السَّمَاءِ، وفي إِسْقَاطِ إِلَهِيَّتِهِ، إِذْ كَانَ قَوْمُهُ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ بَعْضَ الكَوَاكِبِ والنُّجُوم لَهَا تَأْثِيرُ رُبُوبِيَّةٍ فِي أَحْدَاثِ الْأَرْضِ، فَيَتَّخِذُونَ لَهَا أَصْناماً عَلَىٰ هَيْئَاتٍ يَتَخَيَّلُونَهَا لَها، وَيَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وَكَانَ مِنْ أَوْثَانِهِم: «إِلَهُ الْقَمَرِ نَانَار» وزَوْجَتُهُ «ننجال».

تَدَبُّرُ هـٰذَا النَّصّ:

قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾:

﴿ءَازَرَ﴾: يَدُلُّ ظَاهِرُ الآيَةِ على أَنَّ اسْمَ أبي إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ لفظُ

«آزر» ويَبْدُو أَنَّهُ كَانَ هُوَ المعْرُوفُ بِهِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وجاء في كُتُبِ الإسْرَائِيلِيِّينَ أَنَّ اسْمَ أَبِيهِ «تَارَح».

وأقْرَبُ احْتِمَالَاتِ الْجَمْعِ أَنَّ أَصْلَ اسْمه: «تَارَحَ»، ولُقِّبَ بَعْدَ ذلك بِلَفظِ: «ءَازَر». ولمَّا دَعَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا جَاءَ في هـٰذَا النَّصّ، كَانَ اللَّفْظُ المشْهُورُ بِهِ بَيْنَ عَشِيرَتِهِ هو لفظ: «ءَازَر»، فاخْتَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذِكْرَهُ بذلِكَ، وَيُؤَيِّدُ هـٰذَا الْفَهْمَ قراءَةُ يَعْقُوب بِضَمِّ راء «ءَازرُ» عَلَىٰ أَنَّهُ مُنَادَىٰ مُفْرَد عَلَم.

والاستفهامُ في: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟! اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ فِيهِ شِدَّة، لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ في بدايَةِ دَعْوَتِهِ لِأَبِيهِ، بَلْ سَبَقَتْهُ دَعْوَةٌ مُشْبَعَةٌ بالتَّلَطُّفِ والتَّحَبُّبِ وخَفْضِ الْجَنَاحِ.

المعنى: وَضعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِآيَاتِ الْقُرْآنِ المجيد، ما أَبَانَهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبيه، إِذْ قَالَ له: أَتَصْنَعُ أصْناماً بِيَدِكَ، مُتَّخِذاً إِيَّاهَا آلِهَةً تَعْبُدُهَا أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَتَجْعلُونَهَا شُرَكَاءَ للهِ في إِلَهِيَّتِهِ؟!!

إِنَّ هـٰذَا لَأَمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ جدًّا، وَمُنَافٍ لِمَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ مِنَ الْخَلَلِ، الْمُجَافِيَةِ لِمَزَالِقِ الزَّلَلِ.

إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ الْمُشْرِكِينَ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ تَائِهِينَ فِي ضَلَالٍ وضَيَاعٍ مُبِين وَاضِحٍ، لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ صَحِيحٍ، ونَظَرٍ سَلِيم.

قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾:

مَلَكُوت: صِيغَةٌ مِنَ الْمِلْكِ، وهِيَ مَصْدَرٌ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ التَّعْظِيمِ والتفْخِيم. **والْمِلْكُ**: يَسْتَلْزِمُ السُّلْطَانَ والعِزَّةَ والْقُدْرَةَ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ الْكَامِلِ، والْأَمْرِ والنَّهْي.

الْمُوقِن: العالِمُ بالشَّيْءِ عِلْماً لَا شَكَّ فِيهِ.

المعنىٰ: وَكَذَلِكَ الْفَهْمِ الَّذِي فَهَّمْنَاهُ إِبراهِيمَ بِشَأْنِ بُطْلَانِ عَبادَةِ الْأَصْنَامِ، وأَنَّ عَابِدِيها في ضَلَالٍ مُبِينٍ، كُنَّا نُرِي بِتَتَابُعٍ مُتَجَدِّدٍ إبراهيم بِفِكْرِهِ مِلْكَنَا الْعَظِيمَ لِكُلِّ عَنَاصِرِ وَأَجْزَاءِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، ونُرِيهِ سُلْطَانَنَا وعِزَّتَنَا وَقُدْرَتَنَا على التَّصَرُّفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فيهما، لِيَكُونَ ذَا حُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ يُثْبِتُ بِهَا أَنَّهُ لَا رُبُوبِيَّةَ فِي الكَوْنِ إِلَّا لَنَا، وَلَا إِلَهِيَّةَ فِي الكَوْنِ إِلَّا لَنَا، وَلِيَكُونَ هُوَ فِي ذَاتِهِ مِنَ الْمُوقِنِينَ بِذَلِك، الْعَالِمِينَ عِلْماً لَا يُخَالِطُهُ وَلَا يَمَسُّهُ شَكٌّ.

تَدَرُّجُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِإِبْطَالِ عبادة الكواكِبِ والنُّجُومِ في دَعْوَتِهِ:

قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُحَدِّثاً عَنْ أسْلُوب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام في دَعْوَتِه:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: فَحِينَمَا أظْلَمَ عَلَىٰ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً في السَّمَاءِ، مِنَ الكواكِبِ الَّتِي يَعْتَقِدُ قَوْمُهُ أَنَّ لَهُ رُبُوبِيَّةً ما، فَيَعْبُدُونَهُ بسبب ذَلِكَ، وَيَتَّخِذُونَ لَهُ صُورَةً مِنَ الْأَوْثَانِ يَعْبُدُونها، قَالَ: هٰذَا رَبِّي. عَلَىٰ سَبِيلِ الطَّرْحِ الاحْتِمَالِي، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الاعْتِقَادِ الْجَازِم، فَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَرَبُّهُمَا، فَهُو رَبِّي الَّذِي تَجِبُ عَلَيَّ عِبادَتُهُ.

فَلَمَّا أَفَلَ (أي: غاب) قَالَ: لَا أُحِبُّ اتِّخاذَ رَبٍّ هُو مِنَ الآفِلِينَ، الَّذِينَ يَظْهَرُونَ وَيَغِيبُونَ وَلَا أُحِبُّ عِبادَةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

ذَكَرَ الكَوَاكِبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِجَمْعِ الْعُقَلَاءِ، مُرَاعَاةً لاعْتِقَادِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ أَرْبَابٌ عَالِمَةٌ حَيَّةٌ، تَتَصَرَّفُ بِأَحْدَاثِ مَا فِي الإنْسَانِ، وَفي سَائِرِ الْأَحْدَاثِ في الْأَرْضِ.

قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ دَلِيلاً عَلَىٰ عَدم صِحَّةِ كَوْنِ شَيْءٍ مَا رَبًّا، أَنْ يَتَعَرَّضَ بَعْدَ ظُهُورِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ لِلْأُفُولِ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ فَلَا تَكُونُ لَهُ إِلَـٰهِيَّةٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه، إِلَّا أَنْ يَأْمُرَ الرَّبُّ الْحَقُّ بِعِبَادَتِهِ، وَهَـٰذَا لَمْ يَكُنْ فِي رِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ صَحِيحَة.

ونفهم من اسْتِدْلَالِ إِبْرَاهِيمَ هَـٰذَا: أَنَّهُ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: إِنَّ مَنْ يَحْضُرُ فَيُرَىٰ وَيَغِيبُ فَلا يُرَىٰ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ حُضُورُهُ وغِيابُهِ بإرادَتِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ إِرادَتِهِ.

فَإِنْ كَانَ بِإِرَادَتِهِ فَهُوَ إِنَّما يَحْضُرُ لِيُصَرِّفَ أَحْوَالَ مَرْبُوبِيهِ ذَوِي الحاجَةِ الدَّائِمَةِ لِرُبُوبِيَّتِهِ، لَكِنَّهُ إِذَا غَابَ لَمْ يَكُنْ لِمَرْبُوبِيهِ حَظٌّ مِنْ تَصَارِيفِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَيَفْسُدُ بذَلِكَ نِظَامُ الْخَلْقِ، فَدَلَّ هَـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي يَغِيبُ بَعْدَ حُضُورٍ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَبًّا، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ إِلَهاً يُعْبَدُ.

وإِنْ كَانَ حضُورُهُ وغيابُهُ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ فَهُوَ بالْبَداهَةِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا إِلَهاً، وهذا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ نِظَامُ الكواكِبِ والنجومِ جميعاً في السَّمَاءِ، إِنَّهَا تَظْهَرُ وَتَغِيبُ بِغَيْرِ إراداتٍ لَهَا، فَهِيَ جَمِيعُهَا مَرْبُوبَةٌ لِرَبٍّ واحِدٍ، يَخْضَعُ لِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ كُلُّ مَوْجُودٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْض.

هَـٰذَا الدَّلِيلُ نَفْسُهُ اسْتَخْدَمَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام، حِينَ انْتَقَلَ فِي تَدَرُّجِهِ بَحْثاً عَنْ الرَّبِّ الْمُهَيْمِنِ عَلَىٰ الْوُجُودِ كُلِّهِ، إِلَىٰ رُؤْيَةِ الْقَمَرِ البازِغِ، فَرُؤْيَةِ الشَّمْسِ الْبَازِغَةِ، وهَـٰذَا ما جاء بيانُهُ في قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بشَأْنِهِ:

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

البازغ: الَّذِي بَدَأَ طُلُوعُهُ.

أي: فَلَمَّا غابَ الْقَمَرُ قَالَ مِثْلَما قَالَ حِينَمَا غابَ الكَوْكَبُ الَّذي رَآهُ في لَيْلَةٍ سَابِقَةٍ، وأَتْبَعَ هٰذَا بقولِهِ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي إِلَىٰ الحقيقَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ أُؤمِنَ بِهَا، لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ الضَّائِعِينَ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقِّ بِشَأْنِ الرَّبِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ أُومِنَ بِهِ، وأَنْ أَعْبُدَهُ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ شيئاً.

وَحِينَمَا غَابَتِ الشَّمْسِ أَعْلَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ بأَنَّ كُلَّ مَعْبُودَاتِهِمْ مِنَ الكواكِبِ والنُّجُومِ ومِنْهَا الشَّمْسُ والْقَمَرُ، لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا إِلَهاً.

وقال لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ شُرَكَاءَ للهِ في رُبُوبِيّتِهِ، أو في إِلَهِيَّتِهِ.

وقال لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلام، مَا جَاءَ بَيَانُهُ في الآية التَّالِيَة:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

أي: أُأَكِّدُ لَكُمْ أَنِّي جَعَلْتُ وَجْهِي في إيمَانِي وَفِي عِبَادَتِي للهِ، الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ كُلَّها وَفَطَرَ الْأَرْضَ، حَالَةَ كَوْنِي مَائِلاً عَنْ كُلِّ انْحِرَافَاتِ المشْرِكِين، إِلَىٰ الالْتِزَام بِصِرَاطِ الحقِّ المسْتَقِيم الْقَائِمِ عَلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ، وأقولُ لَكُم: مَا أَنَا مِنَ الْمشْرِكِين.

عندئذٍ بَدَأَ الْمُجَادِلُونَ مِنْ قَوْمِهِ يُجَادِلُونَهُ وَيُحَاجُّونَهُ رَغْبَةً فِي إِثْبَاتِ صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ.

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ . . . ﴿٨٠﴾﴾:

الْمُحَاجَّةُ: المجادَلَةُ، يُقَالُ لغة: «حَاجَّهُ، يُحَاجُّهُ، مُحَاجَّةً، وَحِجَاجاً» أي: جادَلَهُ.

أي: أَتُحَاجُّونِّي في اللهِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ بِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ به سُلْطاناً، وَقَدْ هَدَانِي بالدَّلِيلِ الْبُرْهَانِي إلى أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ؟؟!.

فَلَجؤُوا إِلَىٰ تَخْوِيفِهِ مِنْ آلِهَتِهِمْ أَنْ يُنْزِلُوا بِهِ ضُرّاً، فقال لهم:

﴿... وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

أي: وَمَهْمَا خَوَّفْتَمُونِي بِضُرٍّ يَأْتِينِي مِنْ آلِهَتِكُمْ الَّتِي جَعَلْتُموهَا شُرَكَاءَ للهِ؛ فَإِنِّي لَا أَخَافُ أَنْ يَنْزِلَ بِي ضُرٌّ أَوْ أذىً مِنْ جِهَتِهَا.

إِنَّهُ لَا يَأْتِينِي ضُرٌّ أَوْ أذىً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبِّي شيئاً مِن ذلك، وَمَشِيئَتُهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَقَدْ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَمْرٌ.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أَفَلَا يُؤَثِّرُ فِيكُمْ هَـٰذَا التَّذْكِيرُ لَكُمْ بالْحَقِّ، الموجود في أعْمَاقِ قُلُوبِكُمْ عَنِ اللهِ رَبِّكُمْ، فَيَدْفَعَكُمْ إلى نَبْذِ مَا أَنْتُمْ مُنْغَمِسُونَ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وإِلَىٰ الْبُعْدِ عَنْ كُلِّ مُجَادَلَةٍ بالبَاطِلِ، وَيُحَرِّضُكُمْ عَلَىٰ الإيمانِ باللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وأَنَّهُ لَا ضَارَّ فِي الوجُودِ وَلَا نَافِعَ إِلَّا هو.

وقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ أيضاً باسْتِفْهَامٍ تَعَجُّبِيٍّ مِنْ تَخْوِيفِهِمْ لَهُ:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ ... ﴿٨١﴾﴾؟؟!.

أي: وفي أَيَّةِ حَالَةٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَخَافُ ضُرّاً أَوْ أذىً يَنْزِلُ بِي مِن قِبَلِ أَرْبَابٍ وآلِهَةٍ جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ للهِ زُوراً وَكَذِباً، وهِيَ لَا حَقِيقَةَ لَهَا فِي رُبُوبِيَّةٍ وَلَا إِلَهِيَّة، وَأَنْتُمْ لَا تَخَافُونَ عَذَابَ اللهِ رَبِّكُمْ الَّذِي جَعَلْتُمْ لَهُ

شُرَكَاءَ، دُونَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْكُمْ حُجَّةً تَحْتَجُّونَ بِهَا عِنْدَه، حِينَما يُحَاسِبُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ؟؟!.

وبَعْدَ هـٰذَا الاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ مِنْ أَمْرِهِمْ، قَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿. . . فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: فَأَخْبِرُونِي يَا قَوْم: أيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَنا أَمْ أَنْتُمْ؛ أَكْثَرُ اسْتِحْقَاقاً للظَّفَرِ بالأَمْنِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟؟. أَوْ إِنْ كُنْتُمْ حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمُوا الحقّ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ بَاطِلِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ مُنْغَمِسونَ فِيهِ.

وَأَخيراً أَبَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَنَّ الَّذِينَ لَهُمُ الْأَمْنُ بِفَضْلِ اللهِ رَبِّهِمْ؛ هُمُ المهتَدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَخْلِطُوا إِيمانَهُمْ بِشِرْكٍ، فقال لهم:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: إِنّ الأَحَقَّ بالأَمْنِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا إيمَاناً صَحِيحاً صَادِقاً باللهِ رَبِّهِمْ ذَاتاً وَصِفَاتٍ، وَلَمْ يَخْلِطُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْم مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر، كالشِّرْكِ بالله، إِذِ الشِّرْكُ ظُلْمٌ عظيم، أَوْ مِنْ درَكَةِ كَبَائِرِ الإِثْمِ كالْقَتْلِ بغَيْرِ حَقٍّ.

أولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ رَفِيعُوا المكانَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، هُمُ الَّذِينَ يَحْصُلُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَمْنُ مِنْ مَخَاوِفِ عَذَابِ النَّارِ، بِتَسْلِيم اللهِ لَهُمْ، وَحِفْظِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ والْعَفْوِ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، وَزَحْزَحَتِهِمْ عَنِ النَّارِ، وإِدْخَالِهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيم، وهُمْ مُهْتَدُونَ مَحْكُومٌ لَهُمْ بالْهِدَايَةِ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَة.

وأَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام بِقُوَّةِ الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ، وبارْتِفَاعِ دَرَجَاتِهِ الَّتِي جَعَلَتْهُ مُتَمَيِّزاً في تَارِيخ الْبَشر، وإِمَاماً للنَّاسِ في الفضائِلِ الفكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ والسُّلُوكِيَّة، وقَدْ رَفَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذِهِ الدَّرَجاتِ لِعِلْمِهِ بِهِ، وَحِكْمَتِهِ في وَضْعِ الأَشْيَاءِ في مَوَاضِعِها، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

وأبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ما وَهَبَهُ مِنْ ذُرِّيَّةٍ صَالِحَةٍ مُحْسِنَةٍ، هُمْ مِنَ الرُّسُلِ الصَّالِحِينَ المتَمَيِّزِينَ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

(٦) مَرْحَلَةُ دَعْوَةِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مَلِكَ قَوْمِهِ الطَّاغِيَةَ نُمْرود:

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾:

أي: ألم تَرَ نَاظِراً بِفِكْرِكَ إِلَىٰ هذا الملكِ الكافِرِ الجبّارِ المراوغ المغالط.

﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾: قيل في نَسَبِهِ: هو نِمْرُودُ بْنُ كُوش، وإنَّ جَدَّهُ الأَعْلَىٰ حَام بنُ نُوح عَلَيْهِ السَّلام⁽¹⁾. وقيل: هو صَيَّادٌ جبَّارٌ، ومَلِكٌ قديرٌ، وهو مُؤسِّس الأُسْرَةِ الحاكِمَةِ في «بَابل» و«أَرَكَ» و«أَكَّد» و«كَلْنَة» فِي أَرْض «شِنْعَار».

---

(١) انظر سِفر التكوين (١٠).

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام دَخَلَ عَلَىٰ مَلِكِ قَوْمِهِ «نِمْرُودْ» الجبَّار، وَدَعَاهُ إِلَىٰ الإيمانِ باللهِ رَبِّهِ وَرَبِّ العالَمِينَ، وإِلَىٰ نَبْذِ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِيرَاثُ مِلَّةِ قَوْمِهِ، فَرَفَضَ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، واتَّخَذَ وَسِيلَةَ المغَالَطَةِ حِينَ قَالَ «نِمْرُودُ» لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: أي: هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ نَفْساً مِنْ مَادَّةٍ لا حَيَاةَ لَهَا، فَيَنْفُخُ فِيهَا الرُّوحَ، فَتَكُونُ بِخَلْقِ اللهِ نَفْساً ذَاتَ حَيَاةٍ، بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، وهُوَ الَّذِي يُمِيتُ الْأَحْيَاءَ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِهِمْ، بِنَزْعِ الْأَرْوَاحِ الَّتِي كانُوا بِهَا أَحْيَاء.

فاتَّخَذَ «نِمْرُودُ» أُسْلُوب الْمُغَالَطَةِ خَارِجاً عَنْ أَصْلِ معْنَىٰ الإحياء والإمَاتَةِ في بيانِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام، فقال نِمْرُود:

﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾: أي: أُحْضِرُ إِنْسَاناً حَيًّا، فَأَضْرِبُ رَقَبَتَهُ بالسَّيْفِ فَأُمِيتُهُ، وأحْضِرُ إِنْسَاناً مَحْكُوماً عَلَيْهِ بالْمَوْتِ لِجُرْمٍ ارْتَكَبَهُ، فَأَعْفُو عَنْهُ وأُطْلِقُ سَرَاحَهُ، فَأَكُونُ بِهـٰذَا قَدْ أَحْيَيْتُهُ.

فأَدْرَكَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يُرَاوِغُ عَنِ الحقيقة، لِيُقْنِعَ مَنْ حَوْلَهُ فِي مَجلِسِهِ الْمَلَكِيِّ، أَنَّهُ انْتَصَرَ عَلَىٰ الرَّسُولِ الَّذِي يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ وإلى صِرَاطِهِ المسْتَقِيم.

فَلَمْ يَشَأْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يَكْشِفَ حِيلَةَ «نِمْرُودَ» فِي مُرَاوَغَتِهِ، حَذَرَ أَنْ يُتَابِعَ «نِمْرُودُ» التَّهَرُّبَ مِنْ مَسَالِكَ فِكْرِيَّةٍ في قَضِيَّةِ تَحْدِيدِ الْمَعْنَىٰ المقْصُودِ بالْحَيَاةِ والْمَوْت، فَانْتَقَلَ إِلَىٰ ظَاهِرَةٍ هِيَ مِنْ خَلْقِ اللهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ «نِمْرُودُ» أَنْ يُرَاوِغَ فيها.

فقال لَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾:

أي: فإِنَّ اللهَ الَّذِي هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ مِنْ نِظَامِهِ في الخَلْقِ أَنْ يَأْتِي بالشَّمْسِ صَبَاحاً مِنَ المشْرِقِ، فَإِنْ كُنْتَ يا «نِمْرُودُ» رَبّاً قَادِراً عَلَىٰ أَنْ

تَتَصَرَّفَ فِي الْكَوْنِ تَصَرُّفَ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، فاجْعَلِ الشَّمْسَ تُشْرِقُ صَباحاً مِنَ المَغْرِبِ بَدَلَ أَنْ تَبْزُغَ صَباحاً مِنَ المشْرِق.

- ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: أي: دُهِشَ واحْتَارَ، وانْقَطَعَ عَنْ مُتَابَعَةِ الْحِوَار، وَظَهَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَلَبَهُ في المناظَرَةِ.

- ﴿... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾: أي: واللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، لِلْخَلاصِ مِنَ المآزِقِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِم، إِذْ يُقَاوِمُونَ دِينَهُ الْحَقَّ، سَواءٌ أكانَتْ مآزِقَ فِكْرِيَّةً، أم مَآزِقَ مَادِّيَّةً.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ «نِمْرُودُ» قَدْ حَقَدَ على إبراهيم، وَوَضَعَ في نَفْسِهِ تَدْبيرَ خُطَّةِ التَّخلُّصِ مِنْهُ بالقَتْل، كَشَأْنِ كُلِّ كافِرٍ طاغِيَةٍ جَبَّارٍ.

ودَلَّتْ عِبارَةُ: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ كَانَ من الواجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ نِعْمَةَ اللهِ عليه بالملْكِ فَيُؤْمِنَ، لَا أن يَكُونَ كفَّاراً جحوداً عَنِيداً. ودَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ الملْكَ عَطاءٌ من اللهِ لِبَعْضِ عِبادِه.

* * *

الفصل الخامس

حِرصُ إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام على أَن يَصِلَ إِلَىٰ كَمالِ اليَقِين لِيَطمَئِنَّ قَلبُهُ فِي قَضِيَّةِ إِحيَاءِ المَوتَىٰ

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾:

- ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾: أي: أَمِلْهُنَّ إِلَيْكَ، وَقَرِّبْهُنَّ إِلَيْكَ، ويُفْهَمُ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ما يَلِي:

ثُمَّ اذْبَحْهُنَّ وَجزِّئْهُنَّ أجزاءً صُغْرَىٰ، واخْلِطْ هَـٰذِهِ الْأَجْزَاءَ خَلْطاً كَامِلاً، حَتَّى تَكُونَ بِمَثَابَةِ عَجِينَةٍ وَاحِدَة، ثُمَّ قَسِّمْ هَـٰذِهِ الْعَجِينَةَ الْمُخْتَلِطَة إِلَىٰ أَجْزَاء، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْ حَوْلِ الْوَادِي الَّذِي أَنْتَ فِيهِ جُزْءاً، ثُمَّ ارْجِعْ إِلَىٰ مَكَانٍ مَا مِنْ بَطْنِ الْوَادِي، ثُمَّ ادْعُ الطُّيُورَ الَّتِي ذَبَحْتَهَا وَجزَّأْتَهَا، وَخَلَطْتَ أجْزَاءَهَا وَجَعَلْتَهَا بِمَثَابَةِ عَجِينَةٍ واحِدة، فإنَّهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً، كُلُّ طَيْرٍ مِنْهَا يَأْتِيكَ بِكَامِلِ وَصْفِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ تَذْبَحَهُ وَتُجَزِّئَهُ، وَتَخْلِطَهُ مَعَ أَجْزَاءِ الطُّيُورِ الْأُخْرىٰ.

ويَظْهَرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَجْرَىٰ التَّجْرِبَةَ، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ طُمَأْنِينَةً تَامَّةً.

دلَّتِ النُّصوصُ الْقُرْآنِيَّة عَلَىٰ أَنَّ الْعِلْمَ لَهُ ثَلاثُ مَرَاتب:

المرتبَةُ الدُّنْيَا: مَرْتَبَةُ عِلْم الْيَقِين، وهَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ تَكْفِي لِتَحقُّقِ الإيمَانِ الصَّحِيحِ المقبولِ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وعِلْمُ الْيَقِينِ هُو الْقَائِمُ عَلَىٰ الدَّلِيلِ الْعَقْلِي، أو الْخَبَرِ الصَّادِقِ الْقَطْعِيِّ.

المرْتَبَةُ الْوُسْطَىٰ: مرْتَبَةُ عَيْنِ الْيَقِينِ، وَهَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ تَقُومُ عَلَىٰ الشُّهُودِ والْمُعَايَنَةِ، بَعْدَ الدَّلِيلِ الْعَقْلِي، أَوِ الْخَبَرِ الصَّادِقِ الْقَطْعِيِّ، فَاشْتَرَكَتِ الْمُشَاهَدَةُ بالْعَيْنِ، مَعَ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الْكَافِي لِلعِلْمِ، أو مع الْخَبَرِ الصَّادِقِ الْقَطْعِيّ، أَوْ مَعَهُمَا.

والعِلْمُ الْقَائِمُ عَلَىٰ عَيْنِ الْيَقِينِ أَشَدُّ قُوَّةً وَثَبَاتاً؛ مِن الْعِلْمِ الْقَائِمِ عَلَىٰ مُجَرَّدِ الْيَقِينِ بالدَّلِيلِ العقلِيِّ أَوِ الْخَبَرِ الصَّادِقِ الْقَطْعِيِّ.

الْمَرْتَبَةُ الْعُلْيَا: مَرْتَبَةُ حَقِّ الْيَقِينِ، وهَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ تَقُومُ عَلَىٰ اشْتِرَاكِ الإِدْرَاكِ الْعَقْلِي؛ والإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ ذِي الأَثَرِ الْمَادِّيِّ فِي الْجَسَد.

فالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالنَّارِ دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الدِّينِ، تَصْدِيقاً لِلأَخْبَارِ الدِّينيَّةِ الصَّحِيحَةِ الصَّادِقَة؛ لَدَيْهِمْ عِلْمُ اليقين.

والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَا بَعْدَ أَنْ يَشَاهِدُوهَا بِأَعْيُنِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لَدَيْهِمْ عَيْنُ الْيَقِينِ.

والَّذِينَ يَدْخُلُونَهَا وَيُعَذَّبُونَ بَعَذَابِهَا يَوْمَ الدِّينِ، وَيذُوقُونَ آلامَ عَذَابِهَا؛ لَدَيْهِمْ حَقَّ الْيَقِين.

وقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُؤْمِناً إِيمَاناً رَاسِخاً بِأَنَّ اللهَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ، وَكَانَ إِيمَانُهُ مُسْتَنِداً إلى مَرْتَبَةِ: «عِلْمِ الْيَقِينِ» تَصْدِيقاً لِخَبَرِ الْوَحْي.

وأَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَكُونَ إيمانُهُ مُسْتَنِداً إِلَىٰ عَيْنِ الْيَقِينِ، فَيُشَاهِدَ بِعَيْنَيْهِ حَدَثاً وَاقِعيًّا يَكُونُ فِيهِ إِحْيَاءٌ لِلْمَوْتَىٰ.

فَقَالَ لِرَبِّهِ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ وكان طَلَبُهُ هٰذَا لَيْسَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُؤْمِنَ، إِذْ كَانَ مُؤْمِناً كَامِلَ الإيمانِ المطلوب مِنْه، بالاسْتِنَادِ إلى عِلْمِ الْيَقِينِ الَّذِي لَدَيهِ، وَلَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ مَرْتَبَةُ عَيْنِ الْيَقِين.

فَسَأَلَهُ رَبُّهُ وَهُوَ الْخَبِيرُ بِمَا فِي نَفْسِهِ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟: أي: أَلَمْ تَعْلَمْ عِلْماً كَافِياً لِلْإِيمانِ، وَلَمْ تُؤْمِنْ بِأَنِّي أُحْيِي المَوتَى؟، ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾: أي: بَلَىٰ لَقَدْ عَلِمْتُ عِلْماً مِنْ مَرْتَبَةِ «عِلْم الْيَقِينِ»، وَآمَنْتُ إِيمَاناً عَلَىٰ مِقْدَارِ «عِلْمِ الْيَقِينِ» الَّذِي لَدَيّ، وأُرِيدُ أَنْ أَرْتَقِيَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ «عَيْنِ الْيَقِينِ» لِيَزْدَادَ إِيماني، ويَصِلَ قَلْبِي إِلى الطُّمَأْنِينَةِ، وَهِيَ السُّكُونُ الْمُرْتَخِي الَّذِي لَا يُصَاحِبُهُ تَوَفُّزٌ، ضِمْنَ قَاعِدَةِ زِيَادَةِ الإيمانِ وَنَقْصِهِ، وَلَوْ كَانَ إِيمَانَ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِين.

فأَجَابَ اللهُ طَلَبَهُ: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً﴾ أي: مُخْتَلِفَةَ الْأَنْوَاعِ أَوِ الْأَشْكَالِ ﴿مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ثُمَّ اذْبَحْهُنَّ وَجَزِّئْهُنَّ وَاخْلِطْ هَٰذِهِ الْأَجْزَاءَ خَلْطاً كَامِلاً ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

وَأَجْرَىٰ التَّجْرِبَةَ، وَدَعَا الطُّيُورَ الَّتِي ذَبَحَها، فَأَقْبَلْنَ إِلَيْهِ مُسْرِعَةً تَسْعَىٰ.

﴿... وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾: أي: واعْلَمْ أَنَّ الله قَوِيٌّ غَالِبٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يُرِيدُهُ، وَحَكِيمٌ في اخْتِيَارَاتِهِ، لَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا هُوَ حَكِيمٌ.

* * *

الفصل السّادِس

عزمُ إبراهيم عَلَيهِ السّلَامُ أَن يُحطّمَ أَصْنَامَ قَومِهِ فِي مَكَانٍ جامِعٍ لها ثُمّ تنفِيذُهُ مَا عَزَمَ عَلَيه

كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنْذُ مَرَاحِلِ دَعْوَتِهِ الْوسْطَىٰ؛ قَدْ عَزَمَ في نَفْسِهِ أَنْ يُحَطِّمَ أَصْنَامَ قَوْمِهِ فِي مَكَانٍ جَامِعٍ لَهَا، وصَارَ مع مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ يَتَرَقَّبُ الْفُرْصَةَ الْمُوَاتِيَةَ، الَّتِي يَكُونُ فِيهَا قَوْمُهُ خَارِجَ مَدِينَتِهِمُ الَّتِي فِيهَا بَيْتُ أَصْنَامِهِمُ الأَكْبَرُ.

دَلَّ على هٰذَا الْعَزْمِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِمَا دَار في نَفْسِهِ مِنْ فِكْرَةٍ عَزَمَ عَلَىٰ تَنْفِيذِهَا، حِينَما يَجدُ الْفُرْصَةَ السَّانِحَةَ، بَعْدَ حِوَارٍ جَرَىٰ بَيْنَهُ وبَيْنَ أبيهِ وَقَوْمِهِ، في سورة (الْأَنْبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

الكيد: التَّدْبيرُ الَّذِي فِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّهُ، ويطْلَقُ على الحرْب، وعلى إعْدَادِ وَسَائِلِها، وَعَلَىٰ الحيلة.

وَكَانَ مَا دَبَّرَهُ وَعَزَمَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ، تَحْطِيمَ أَصْنَامِهِمْ في المَكَانِ الكَبِيرِ الجامع لأنْوَاعها.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾: أي: في الْيَوْم الَّذي تَكُونُونَ فِيهِ بَعِيدِينَ عَنْ مَدِينَتِكُمْ، وَخارِجِينَ مُدْبِرِينَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ أَسْوَارِهَا، أو عَمَّا حَوْلَهَا مِنْ مَزَارِع، إِذْ تَكُونُ مَدِينتكُمْ خَالِيَةً مِمَّن يُرَاقِبُ مَا يَجْرِي فِي بَيْتِ أَصْنَامِكُمْ.

وَكَانَ لَهُمْ يَوْمُ عِيدٍ يَخْرُجُونَ فِيهِ مِنْ مَدِينَتِهِمْ إِلَىٰ مَكَانٍ واسِعٍ جَامِعٍ، بَعِيدٍ عَنْ حُدُودِها، يَفْعَلُونَ فِيهِ مَا يَفْعَلُ النَّاسُ فِي أَعْيَادِهِمْ مِنْ لَهْوٍ ولَعِبٍ وَزِينَةٍ وأَكْلٍ وَشُرْبٍ وَنَحوِ ذَلِكَ.

وسَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ اللَّيَالِي، الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ أَعْيَادِهِمُ الْكُبْرَىٰ، الَّتِي يَخْرُجُ فِيهَا كُلُّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِلْمُشَارَكَةِ فِي هٰذَا الْعِيد.

فَأَقَامَ حِوَاراً بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَقَومِهِ، وَنَظَرَ بَعْدَهُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي سَقِيمٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْرُجَ مَعَكُمْ إِلَىٰ عِيدِكُمْ وَالْمُشَارَكَةِ فِيهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: ضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي جِهَادَ إِبْرَاهِيمَ الدَّعْوِيَّ، حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مُسْتَنْكِراً وَمُنْتَقِداً بِشِدَّةٍ عِبَادَتَهُمْ أَوْثَاناً هُمْ يَنْحِتُونَهَا أَوْ يَصْنَعُونَهَا بِأَيْدِيهِم، وهِيَ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَرَىٰ وَلَا تُجِيبُ وَلَا تَعْقِلُ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

- ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾: مَا الَّذِي تَعْبُدُونَه، وهٰذَا الاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ تَثْرِيبِيٌّ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِظْهَارِ الْعَجَبِ الشَّدِيدِ مِنْ سَفَاهَتِهِمْ وَنَقْصِ عُقُولِهم.
- ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾؟!:

الإفْكُ: الإفْكُ الكَذِبُ قولاً كَانَ أَمْ عَمَلاً، فمنْ صَنَعَ صَنماً وَجَعَلَهُ إلَهاً يَعْبُدُهُ، فَقَدْ عَمِلَ كَذِباً، لِأَنَّهُ جَعَلَ مَا لَيْسَ لَهُ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ شَيْءٌ، وَلَا مِنَ الإلَهِيَّةِ شَيْءٌ، إلَهاً يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

فالمعْنَىٰ: أَتَتَّخِذُونَ أَصْنَاماً وَتَجْعَلُونَهَا آلِهَةً تُعْبَدُ إفْكاً وكَذِباً عَلَىٰ الله، الَّذِي لَهُ وَحْدَهُ فِي كُلِّ الْوُجُودِ الرُّبُوبِيَّة، فَلَهُ وَحْدَهُ الإلَهِيَّةَ، وتُرِيدُونَ بِعِبَادَتِكُمْ لَهَا أَنْ تَجْلُبَ لَكُمْ نفعاً، أَوْ تَدْفَعَ عَنْكُمْ ضُرًّا.

- ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾:

أي: فَمَا ظَنُّكُمْ الَّذِي تَظُنُّونَهُ بِرَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً؟؟. أَتَظُنُّونَ أَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَكُمْ عِبَادَتَكُمْ لِغَيْرِهِ، وأَنْ تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكاً مِمَّا خَلَقَ؟!.

أَتَظُنُّونَ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ غَيْرُ عَالِمٍ بِمَا تَصْنَعُونَ، وَبِمَا فِي نُفُوسِكُمْ تُضْمِرُونَ؟؟!.

أَتَظُنُّونَ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يُحْصِي عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمُ الإرادِيَّة الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَة، وَلَا يُحَاسِبُكُمْ وَلَا يُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الدِّينِ؟!.

اسْتَعْمَلَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام التعْبِيرَ بالظَّنِّ هُنَا، لِأَنَّ قَوْمَهُ لَا يَمْلِكُونَ ظَنًّا مُؤَيَّداً بِدَلِيلٍ ما، يُخَالِفُ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَنَبْذِ الشِّرْكِ، والْتِزَامِ صِرَاطِ الله المستقيم.

أَمَّا عِبَادَتُهُمْ لآلِهَتِهِمْ فَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ عَقَائِدَ خُرَافِيَّةٍ تَقْلِيدِيَّةٍ، لَا يُزَيِّنُهَا ظَنٌّ مَقْبُولٌ فِي أَذْهَانِ الْعُقَلَاءِ، بَلْ هِيَ أَوْهَامٌ صَارَتْ عَقَائِدَ بالتَّقْلِيدِ الأَعْمَىٰ.

وبَعْدَ أَنْ جَاهَدَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ جِهَاداً دَعَوِيًّا فِيهِ شِدَّةٌ وشَيْءٌ مِنَ الْعُنْفِ التَّلْوِيمِيِّ؛ تَحَرَّكَتْ فِيهِ عَزِيمَتُهُ أَنْ يُحَطِّمَ أَصْنَامَهُمْ، وَقَدْ سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ الَّتِي يَتَرَقَّبُهَا.

- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

حَرَكَةٌ ذَكِيَّةٌ بَارِعَةٌ، أَوْهَمَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ عَشِيرَتِهِ؛ أَنَّهُ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ فِي النَّظَرِ إِلَىٰ حَرَكَاتِ النُّجُومِ، دُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إِنِّي أَسْتَطْلِعُ حَرَكَاتِها، وَأَتْبَعَ هَـٰذِهِ الْحَرَكَةَ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾: أي: مَرِيض، وَمَرَضِي يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَخْرُجَ مَعَكُمْ فِي يَوْمِ عِيدِكُمْ.

فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُ اسْتَطْلَعَ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ النُّجُومِ أَنَّهُ سَيَكُونُ غداً مَرِيضاً سَقِيماً، يَمْنَعُهُ سَقَمُهُ مِنْ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمْ لِيَلْهُوَ وَيَلْعَبَ وَيُشَارِكَ قَوْمَهُ فِي يَوْمِ عِيدِهِمْ.

قَولُهُ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ إِحْدَىٰ الكَذِبَاتِ الثَّلَاثِ اللَّائِي احْتَسَبَهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الشفاعَةِ الَّذِي رواه البخاري وَمُسْلِمٌ⁽¹⁾. مَعَ أَنَّ ثِنْتَيْنِ مِنْهَا كَانَتَا فِي ذَاتِ اللهِ، وهما قَوْلُهُ: «إِنِّي سقيمٌ»، وقوله: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرهُمْ هَذَا»، أَمَّا الثالِثَةُ فَقَولُهُ لِلْمَلِكِ الْجَبَّارِ حِينَ أَرَادَ امْرَأَتَهُ «سَارَة» هِيَ أُخْتِي، يَعْنِي أُخْتَهُ فِي الإِسْلَامِ، إِذْ مِنْ عَادَةِ هَـٰذَا الْمَلِكِ أَنْ يَقْتُلَ أَزْوَاجَ مَنْ تُعجِبُهُ مِنَ النِّسَاءِ.

فَقَبِلَتْ عَشِيرَتُهُ عُذْرَهُ، وَخَرَجُوا مَعَ النَّاسِ إِلَى عِيدِهِمْ، وَبَقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام في الْمَدِينَةِ لَا يُرَاقِبُهُ فِيهَا أَحَدٌ.

- ﴿... فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

أي: فَخَرَجَ أَهْلُهُ وَعَشِيرَتُهُ نَائِينَ عَنِ المكانِ الذي كَانَ هُوَ فِيهِ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ، جَاعِلِينَ وُجُوهَهُمْ إِلَىٰ جِهَةِ مَكَانِ العِيدِ، وَجَاعِلِينَ أَدْبَارَهُمْ، أي ظُهُورَهُمْ؛ إِلَىٰ جِهَةِ الْمَدِينَةِ.

---

(١) انظر حديث الشفاعة في الصفحات (٤١٤ ـ ٤١٦)، من المجلّد (٨)، الملحق الثاني «حَوْل الشفاعَة يَوم الدين وأنواعِها».

فَلَمَّا فَرَغَتِ الْمَدِينَةُ مِنْ مُرَاقِبي بَيْتِ أصْنَامِ قَوْمِهِ تَوَجَّهَ بِعَزِيمَةٍ قَوِيَّة، لِتَنفِيذِ تَحْطِيمِ الْأَصْنَام.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾:

﴿فَرَاغَ﴾: أي: فَأَسْرَعَ بِخِفَّةٍ وَنَشَاطٍ يَسِيرُ يَمِيناً وَشِمالاً، وَيَحْذَرُ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ بَيْتِ الْأَصْنَام.

فَقَدَّمَ لِلْأَصْنَامِ طَعَاماً، وَرُبَّمَا وَجَدَهُ عِنْدَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: أَلَا تَأْكُلُون؟. خاطبَ الْأَصْنَامَ بِخِطَابِ الْجَمَاعَةِ الذُّكُور، إِذْ هِي عَلَىٰ صُورِ ذُكُور، وَيَعْتَقِدُ عُبَّادُهَا أَنَّهَا تُدْرِكُ عِبادَة عُبَّادِهَا لَهَا، وَتَعْلَمُ نِيَّاتِهِمْ.

وَحَادَثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأَصْنَامَ فَلَمْ تُجِبْهُ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُون؟.

إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأَسْئِلَتِهِ لِلْأَصْنَامِ يَسْخَرُ مِنْهَا، وَيَهْزَأُ بِهَا، مُحْتَقِراً لَها، إِذْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا حِجارَةٌ أَوْ أَخْشَابٌ لَا حَيَاةَ لَهَا فَهِيَ لَا تَتَكَلَّمُ، وَإِنَّمَا نَحَتَهَا السُّفَهَاءُ عَلَىٰ صُوَرِ أَحْيَاءٍ، وَصَارُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ.

وَهُنَا ثَارَ غَضَبُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَعَزَمَ عَلَىٰ تَحْطِيمِها، بأداةٍ أَوْ بِغَيْرِ أَداة:

- ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾:

أيْ: فَأَسْرَعَ بِخِفَّةٍ وَحِدَّةٍ وَنَشَاطٍ يَضْرِبُهَا ضَرْباً قَوِيًّا بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، فَهِيَ الْيَدُ الْأَقْوَىٰ عِنْدَهُ، وهِيَ الْيَدُ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا فِي الْأُمُورِ الشَّرِيفة، فَكَسَّرَهَا إِلَّا وَثَناً كَبِيراً فيها، فَجَعَلَهَا جُذَاذاً، أي: قِطَعاً مُكَسَّرَة.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَنبِياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

الْجُذَاذُ: المقطَّعُ الْمُكَسَّرُ.

أي: فَجَعَلَ الأَصْنَامَ قِطَعاً مُكَسَّرَةً باسْتِثْنَاءِ أَكْبَرِهَا، لَمْ يُكَسِّرْهُ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ فَيَسْأَلُوهُ: مَنْ كَسَّرَ سَائِرَ الأَصْنَام؟، فَلَا يَجِدُوا عِنْدَهُ جَوَاباً، فَيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ بَاطِلٍ، بِدَلِيلٍ عَمَلِيٍّ إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ كَبِيرُ الأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَها مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهَا تجلُبُ نفعاً أَوْ تَدْفَعُ ضُرّاً؛ أَنْ يُعْلِمَهُمْ بِمَنْ كَسَّرَ وَحَطَّمَ سَائِرَ الأَصْنَامِ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُدَافِعَ عَنْهَا، وَيَحْمِيَهَا مِنَ التَّحْطِيم والتَّكْسِير.

وحِينَ عَادَ قَوْمُهُ مِنْ عِيدِهِمْ وَجَدُوا أَصْنَامَهُمْ فِي الْبَيْتِ الكَبِيرِ لَهَا جُذَاذاً، باسْتِثْنَاءِ أَكْبَرِهَا حَجْماً، أَوْ أَكْبَرِهَا فِي الإِلَٰهِيَّة، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُمْ عَلَىٰ مَنْ كَسَّرَ وحَطَّمَ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله، فَتَسَاءَلُوا فِيما بَيْنَهُمْ: مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا؟.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الأَنْبِيَاءِ) أَيْضاً:

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: فَاجْتَمَعَ عِلْيَةُ الْقَوْمِ وَكُبَرَاؤُهُمْ بَعْدَ أَنْ شَهِدُوا أَصْنَامَهُمْ مُحَطَّمَةً، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ فَعَلَ هٰذَا التَّحْطِيمَ بآلِهَتِنَا؟، إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ المتجاوِزِينَ حُدُودَ الْحَقِّ والْوَاجِبِ، فَأَكَّدُوا قَوْلَهُمْ بـ: «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللَّامِ المزحْلَقَة».

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ بِسُوءٍ، وأَنَّهَا آلِهةٌ بَاطِلَةٌ، يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيم.

قَالَ قَادَةُ قَوْمِهِ: فَأْتُوا بِهِ، وأَحْضِرُوهُ عَلَىٰ أعْيُنِ النَّاسِ الَّذِينَ تَجْمَعُونَهُمْ لِهٰذَا الْغَرَضِ، لِيَشْهَدُوا مُسَاءَلَتَنَا لَهُ، وَمَا نَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ، إِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَطَّمَ أَصْنَامَهُمْ.

وَهُنَا يأتي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الصَّافَات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾:

أي: فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ الْمَأْمُورُونَ بإحْضَارِهِ يُسْرِعُونَ، يُقَالُ لغة: «زَفَّ، يَزِفُّ، زَفًّا، وَزُفُوفاً، وَزَفِيفاً» أي: أَسْرَعَ.

فَأَحْضَرُوهُ لِيُسَائِلُوهُ بِحُضُورِ جَمْعٍ مِنَ النَّاسِ، فإذَا ثَبَتَ أَنَّهُ هُوَ الْفَاعِل؛ حَكَمُوا عَلَيْهِ بِمَا يَشَاءُونَ مِنْ حُكْمٍ شَدِيدِ الْقَسْوَة.

وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الْأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

أَيْ: قَالَ قَوْمُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ بِلِسَانِ مَنْ يَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ مِنْ كُبَرَائِهِمْ وَقَادَتِهِمْ: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا التَّحْطِيمَ والتَّكْسِيرَ بآلِهَتِنَا مِنَ الْأَصْنَامِ يَا إِبْرَاهِيمُ؟؟.

قَالَ مُسْتَهْزِئاً بِهِمْ وَمُسْتَخِفًّا بِعُقُولِهِمْ: لَا، بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا الَّذِي لَمْ يَمَسَّهُ تَكْسِيرٌ وَلَا تَحْطِيمٌ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.

لَقَدْ هَزَّ عُقُولَهُمْ وَأَجْهِزَةَ الإدْرَاكِ فِيهِمْ هَزّاً عَنِيفاً بِهٰذِهِ الإجَابَةِ، وَلَا سِيما قَوْلُهُ لهم: فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.

فَرَجَعُوا إِلَىٰ عُمْقِ أَنْفُسِهِمْ يُحَاكِمُونَهَا، إِذِ اكْتَشَفُوا أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَتَكلَّمُ، وَلَا تُجِيبُ عَلَىٰ أَسْئِلَةِ عَابِدِيها، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ أَنْفُسِهَا التَّكْسِيرَ والتَّحْطِيمَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَوْ قَالُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي مُحَاكَمَةٍ دَاخِلِيَّةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنفُسِهِمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ باتِّخَاذِ آلِهَةٍ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَنْطِقُ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِيَ أَنْفُسَهَا، مِمَّنْ يُرِيدُ تَكْسِيرَهَا وَتَحْطِيمَها.

لَكِنَّهُمْ بَعْدَ هٰذِهِ الْمُحَاكَمَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِأَنْفُسِهِمْ؛ رَجَعَتْ عَوامِلُ كِبْرِهِمْ، وانْتِصَارِهِمْ لِسَوَابِقِ اخْتِيَارَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ؛ تَنْفُخُ فِي صُدُورِهِمْ، فَانْقَلَبَتْ مَفَاهِيمُهُمُ الَّتِي قَوَّمَهَا التَّنْبِيهُ الإِبْرَاهِيمِيُّ، فَنُكِسُوا عَلَىٰ روؤسِهِمْ.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أَيْضاً:

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

أُطْلِقَتْ عِبَارَة: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، لِلدَّلَالَةِ بِهَا عَلَىٰ انْقِلَابِ مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُقَوِّمَهَا وَيَجْعَلَهَا سَوِيَّةً مُعْتَدِلَةً غَيْرَ مُنَكَّسَةٍ؛ تَنْبِيهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا.

التَّنْكِيسُ: قَلْبُ الشَّيْءِ، وجَعْلُ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، أَوْ جَعْلُهُ يَمِيل شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَىٰ أَسْفَلِهِ.

نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ: أي: قُلِبُوا فَجُعِلَتْ رُؤُوسُهُمْ فِي مَوَاضِعِ أَقْدَامِهِمْ، وَجُعِلَتْ أَقْدَامُهُمْ غايَةَ ارْتِفَاعِ أَجْسَادِهِمْ إِلَىٰ الأَعْلَىٰ، عَلَى عَكْسِ الْوَضْعِ الطَّبِيعِيِّ لِلْأَجْسَادِ.

شُبِّهَ انْقِلَابُ مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ الْبَاطِلِ بِحَالَةِ تَنْكِيسِهِمْ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ، وَاسْتُعِيرَ هٰذَا التَّنْكِيسُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ انْقِلَابِ مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ الْبَاطِل.

ودَلَّ العطْفُ بِحَرْف العطف «ثُمَّ» عَلَىٰ أَنَّهُمْ بَقُوا مُدَّةً عَلَىٰ حَالَةِ

الرُّشْدِ الَّتِي أَوْصَلَهُمْ إِلَيْهَا التَّنْبِيهُ الإبْرَاهِيمِيُّ، لَكِنَّهُمْ بَعْدَ هَـٰذِهِ المدَّةِ رَجَعُوا إِلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ شِرْكِيٍّ وَثَنِيٍّ.

وَقَالُوا لإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾: أي: فَكَيْفَ تُطَالِبُنَا أَنْ نَسْأَلَهُمْ؟!!، أَتَسْخَرُ مِنَّا وَتَسْتَهْزِئ بِنا وَنَحْنُ كُبَرَاءُ قَوْمِكَ؟؟.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (الصَّافَات/ ٣٧ مُصْحَف/ ٥٦ نزول) في حِكَايَةِ مَا قَالَهُ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: قَالَ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمه مُجَاهِداً جِهَاداً دَعَوِيًّا بِشَجَاعَةٍ تَامَّةٍ، وبأسْلُوب الاسْتِفْهَام الاسْتِنْكَارِيِّ التَّلْوِيمِيّ الَّذِي فِيهِ تَسْفِيهٌ لِعُقُولهم: أَتَعْبُدُونَ حِجَارَةً وَصُخُوراً أَنْتُمْ تَنْحِتُونَهَا وَتُصَوِّرُونَهَا عَلَىٰ صُوَرِ أَحْيَاءٍ، وَتَجْعَلُونَهَا شَرِيكَةً للهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّهُ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ كُلَّ مَا تَعْمَلُونَ، وَمِمَّا تَعْمَلُونَ أَصْنَامُكُمُ الَّتِي تَنْحِتُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ، وَأَيْدِيكُمْ لَا تَعْمَلُ إِلَّا بِالْقُوَّةِ الَّتِي يُمِدُّكُمْ بِهَا، وَفِي حُدُودِ الْمِنَحِ الَّتِي يَهَبُكُمْ إِيَّاهَا.

أَفَتَعْبُدُونَ الْمَخْلُوقَ الَّذِي لَا رُبُوبِيَّة لَهُ، وَتَجْعَلُونَهُ شَرِيكاً للهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ؟!!!.

إِنَّ عِبَادَتَكُمْ لِأَصْنَامِكُمْ سَفَاهَةٌ مَا دُونَهَا سَفَاهَة.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الْأَنْبِيَاء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) مُتَمِّماً مَا قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

«أُفٍّ»: كَلِمَةُ تَضجُّرٍ وَتَكَرُّهٍ، وَهِيَ اسْم فِعْلٍ مُضارِعٍ بِمَعْنَىٰ أتَضجَّر، أيْ: أتَضجَّرُ مِنْ شِدَّةِ تَقَذُّرِ نَفْسِي طَرِيقتَكُم الْباطِلَةَ، الدَّالَة عَلَىٰ سَفاهَةِ المسْتَمْسِكِينَ بِهَا.

وكَلِمَةُ «أُفٍّ» أُوَجِّهُهَا لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله.

المعنى: قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلَّذِينَ يُسَائِلُونَهُ فِي مَجْلِسِ مُسَاءَلَتِهِ وَمُحَاكَمَتِهِ، بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ لَدَيهِمْ أَنَّهُ هُوَ مُحطِّم أَصْنَامِهِمْ:

أَبَلَغَتْ سَفَاهَتُكُمْ وَغَبَاوَتُكُمْ وَحَمَاقَتُكُمْ غايَاتِهَا، فأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُون اللهِ المهيْمنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ مَا لَا يَنْفَعكُمْ نَفْعاً أَقَلَّ نَفْعٍ، وَلَوْ كَانَ شيئاً حَقِيراً، وَلَا يَضُرُّكُمْ أَقَلَّ ضُرٍّ، فَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَصْنَامَكُمْ لِيَنْفَعُوكُمْ بِشَيْءٍ تَرْغَبُونَ فِيهِ، أَوْ لِيَدْفَعُوا عَنْكُمْ ضُرّاً تَحْذَرُونَهُ، وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا دَفْعَ ضُرٍّ.

أُفٍّ أُوَجِّهُهَا لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَقَدْ أَضْجَرْتُمُونِي مِنْ قَذَارَةِ أَعْمَالِكُمْ، وَقَذَارَةِ أَصْنَامِكُمْ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا آلِهَةً تَعْبُدُونها.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: أي: أَنْطَمَسَتْ بَصَائِرُكُمْ، وَذَهَبَتْ مِنْ رُؤوسِكُمْ عُقُولُكُمْ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ، لَا عَقْلاً عِلْمِيًّا، وَلَا عَقْلاً إِرادِيًّا؟!.

فَبَلَغَ الْغَضَبُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يُسَائِلُونَهُ وَيُحَاكِمُونَهُ مَبْلَغَهُ الْأَقْصَىٰ، فَطَالَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً أَنْ يُحَرِّقُوهُ.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَىٰ أَنْ تُعَاقِبُوهُ مُعَاقَبَةً رَادِعَةً لِكُلِّ مَنْ يُخَالِفُ دِينَكُمْ وَدِينَ آبَائِكُمْ، وَتُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَمَا فَعَلَ إِبْرَاهِيم.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (الصَّافَات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾:

دَلَّ هَـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ رَأيَهُمْ قَدِ اسْتَقَرَّ بَعْدَ التَّشَاوُرِ عَلَىٰ تَحْرِيقِهِ، وَأَنْ يَكُونَ هـٰذَا التَّحْرِيقُ ضِمْنَ بُنْيَانٍ يَبْنُونَهُ لِهـٰذَا الْغَرَضِ، كَجِدَارٍ دَائِرِيٍّ يُرَىٰ مِنْ أعْلاَهُ كَبِئْرٍ مَطْوِيَّة، وَأَنْ يَمْلَؤُوهُ حَطباً، وَيُوقِدُوا هـٰذَا الحطَبَ، حَتَّىٰ يكُونَ جَمْراً وَنَاراً مُلْتَهِبَةً، وأنْ يُلْقُوهُ فِيها بِحضُورِ جُمْهُورٍ مِنْ قَوْمِهِ، لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ، فَفَعلُوا.

الْجَحِيم: كُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ في مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

وقَدْ فَعَلُوا مَا اسْتَقَرَّ رَأيُهُمْ عَلَيْهِ فَقَذَفُوهُ أَمَامَ جُمْهُورٍ من قَوْمِهِ، وأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ الَّتِي صَنَعُوها.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَة (الْأَنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نُزُول):

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: فَلَمَّا قَذَفُوهُ وكَادَ يَصِلُ جَسَدُهُ إِلَىٰ الْجَحِيم، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فَتَحوَّلَتْ بِأمْرِ اللهِ التَّكْوِينيّ مِنْ نَارٍ مُحْرِقَةٍ قَاتِلَةٍ ضَارَّةٍ أَوْ مُؤْذِيَةٍ؛ إِلَىٰ مِثْلِ نُورٍ بَارِدٍ لَا حَرَارَةَ فِيهِ، وَهَبَطَ إِلَىٰ بَاطِنِ الْجَحِيم في الصُّورَةِ مَحْمُولاً بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ أَلْيَنِ وأَنْعَم مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ جَسَدٌ، فَوَصَلَ إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي قَذَفُوهُ إِلَيْهِ سَالِماً لَمْ يَنَلْهُ ضُرٌّ وَلَا أَذىً.

وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ في سورة (الصَّافَاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

أي: فَأَرَادَ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ، وَذَوُو السُّلْطَانِ فِيهِمْ؛ كَيْداً يَنْزِلُ بِهِ، عُقُوبَةً

لَهُ عَلَىٰ تَكْسِيرِ أَصْنَامِهِمْ وَتَحْطِيمِهَا، لِيُحَافِظُوا عَلَىٰ مَكَانَاتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الأَعْلَوْنَ، الَّذِينَ لَا يَسْمَحُونَ بِأَنْ يَعْلُوَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِمْ عَلَيْهِم.

فَلَمَّا أَجْرَىٰ اللهُ الْخَارِقَةَ الْعُظْمَىٰ بِجَعْلِ النَّارِ بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام انْتَصَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عَلَىٰ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ وَذَوِي السُّلْطَانِ فِيهِمْ، وَظَهَرَ لِلْجَمِيعِ أَنَّهُ عَلَىٰ حَقٍّ، وأَنَّهُ هُوَ الأَعْلَىٰ، وَأَنَّ قَوْمَهُ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ بَاطِلٍ، وَأَنَّ ذَوِي السُّلْطَانِ والْقُوَّةِ فِيهِمُ الأَسْفَلُونَ لَا الأَعْلَوْنَ، إِذْ خَابَ كَيْدُهُمْ، وارْتَدَّ بالْهَزِيمَةِ إِلَىٰ عُقُولِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ وَمِلَّتِهِمُ الْبَاطِلَةِ.

وَخَرَجَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ النَّارِ يَمْشِي بَيْنَ قَوْمِهِ مُنْتَصِراً، مُعْتَزّاً بِرَبِّهِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ الْكَافِرِينَ ـ مَهْمَا عَلَتْ مَكَانَتُهُ ـ أَنْ يَمَسَّهُ بِسُوءٍ.

وَتَحَدَّثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ هَـٰذِهِ النَّتِيجَةِ المخْزِيَةِ لِقَوْمِهِ المشركين، بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سورة (الأَنْبِياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

فَأَبَانَ النَّصُّ هَـٰذَا أَنَّ اللهَ جَعَلَ الَّذِينَ كَادُوا إِبْرَاهِيمَ لِيُحَرِّقُوهُ: الأَخْسَرِينَ مِنْ كُلِّ قَوْمِهِمْ، وَدُونَهُمْ في الْخَسَارَةِ المشْرِكُونَ مِنْ عَامَّتِهِمُ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ إِصْدَارَ قَرَارِ التَّحْرِيقِ.

وَأَبَانَ النَّصُّ السَّابِقُ الَّذِي جاء في سُورَةِ (الصَّافَات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) أَنَّ اللهَ جَعَلَهُمُ الأَسْفَلِين، ومِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ النَّصَّيْنِ نَفْهَمُ أَنَّ مُصْدِرِي قَرَارِ تَحْرِيقِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلام هُمُ الأَعْلَوْنَ فِي قَوْمِهِ فَجَعَلَهُمُ اللهُ الأَسْفَلِينَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَرْبَحُوا بِتَحْرِيقِهِ زِيَادَةَ رِفْعَةٍ فِي مُجْتَمَعِهِمْ، فَجَعَلَهُمُ اللهُ الأَخْسَرِين، فَتَكَامَلَ النَّصَّانِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَا أُرِيدَ بَيَانُهُ.

وَلَمَّا أَتَمَّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَأْدِيَةَ رِسَالَتِهِ فِي قَوْمِهِ، أَتَاهُ الْوَحْيُ بِأَنْ يُهَاجِرَ إِلَىٰ أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِ قَوْمِهِ.

وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٩٩﴾:

أي: وَقَالَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ؛ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِكُمْ أُهَاجِرُ إِلَيْها، يَخْتَارُهَا لِي رَبِّي.

قَالُوا: هَلْ تَعْرِفُهَا؟، قَالَ: سَيَهْدِينِي رَبِّي الَّذِي أَمَرَنِي بالْهِجْرَةِ، أَوْ أَذِنَ لِي بِهَا.

وَيَبْدُو أَنّ «نُمْرُودَ» وأَرْكَانَ سُلْطَانِهِ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهِ غِيلَةً وفي الخفاء، بَعْدَ أَنْ هُزِمُوا فِي تَدْبِيرِ قَتْلِهِ تَحْرِيقاً وَعَلَانِيَةً عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاس، فَنَجَّاهُ اللهُ، وَيَسَّرَ لَهُ أَمْرَ الْهِجْرَة، دُونَ أَنْ يَنَالَهُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ سُوء.

* * *

وكان لا بُدَّ أَنْ يُعْلِنَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام تَبَرُّأَهُ مِنْ شِرْكِيَّاتِ قَوْمِهِ، ولوازِمِهَا في السُّلُوك، وَيُوصِيَ بِهَا ذُرِّيَّتَهُ، وَيَجْعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبه.

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الزُّخْرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٨﴾:

بَراء: مَصْدَرٌ يُخْبَرُ بِهِ، ويُوصَفُ بِهِ، مِثْل: «بَرِيء».

الْبَرِيء: هُو المبتَعِدُ كُلَّ الْبُعْدِ، الطَّاهِرُ غَايَة الطَّهارَة مِمَّا تَبَرَّأَ مِنْه.

والشِّرْكُ مِنْ أَشْنَعِ النَجاسَاتِ المعنويَّة، فالمؤمِنُ الحريصُ على نجاتِهِ وفَوْزِهِ، يَتَبَرَّؤُ مِنَ الشِّرْكِ وَمِنْ آلِهَةِ المشْرِكِين.

أي: واذْكُرُوا يَا أَبْنَاءَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إبراهيم عَلَيْهِما السَّلَام حِينَ قَالَ

إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام جَدُّكُمْ لِأَبِيهِ وَقَوْمِه: إِنَّنِي بَرَاءٌ مِنْ كُلِّ مَا تَعْبُدُونَ، إِلَّا مِن عِبَادَةِ الَّذِي فَطَرَنِي، فَخَلَقَنِي بَعْدَ أَنْ لَمْ أَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، وإِذْ هَدَانِي إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ رَبّاً لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي طوالَ مَسِيرَتِي في حَيَاتِي إِلَىٰ مَا فِيهِ سَعَادَتِي العاجِلَةِ والآجِلَةِ.

وَجَعَلَ هَـٰذِهِ الْكَلِمَةَ، وَهِيَ كَلِمَةُ الْبَرَاءَةِ مِمَّا يَعْبُدُ المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ؛ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ، أي: في ذُرِّيَّتِهِ، فَأَوْصَى أَوْلَادَهُ بِهَا، وكَلَّفَهُمْ أَنْ يُوصُوا بِهَا ذُرِّيَّاتِهِمْ، جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، وأَنْ يَلْتَزِمُوا بِمَضْمُونها، وأَنْ تَكُونَ وَسِيلَةً تَهْدِي إِلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَنْ خَرَجَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ إِلَىٰ شَيءٍ مِنَ الشِّرْكِيَّاتِ، أَوْ كَبَائِرِ الإثْمِ.

* * *

الفصل السّابع

هجرة إبراهيم عَلَيهِ السّلَام إلى الأرض المقدسة في فلسطين

جاء عند مؤرخي أَهْلِ الكتاب أَنَّ هِجْرَةَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام مِنْ بلادِ قَوْمه «مَا بَيْنَ النَّهْرَين» كانَتْ عَلَىٰ مَرَاحِلَ.

لَكِنَّ الْقُرْآنَ قَفَزَ عَنِ المراحِلِ، ليتَحَدَّثَ عَنِ المقْصُودِ بَيَانُهُ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾:

لَقَدْ هاجَرَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِهِ وعَشِيرَتِهِ، وَمِنْهُمْ أَبُوهُ الْكَافِرُ، الَّذِي مَاتَ فِي «حَارَان» إحدَىٰ الْبُلْدَانِ الَّتِي كَانَتْ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ فِيهَا إِقَامَةٌ مُدَّةً مِنَ الزَّمنِ.

وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَبرزَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ أَنَّهُ نَجَّاهُ وَلُوطاً عَلَيْهِما السَّلام، للدَّلَالَةِ عَلى أَنَّهُمَا كَانَا مَقْصُودَيْنِ بالْقَتْلِ غِيلَةً وَفِي السِّرِّ، مِنْ قِبَلِ «نُمْرُودَ»

وأَرْكَانِ سُلْطَانِهِ، وَدَلَّ هـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ ابْنَ أخِيهِ «لُوطاً» عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ مُعْلِناً إيمانَهُ بِعَمِّهِ إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَام، وَكَانَ مُعْلِناً مُنَاصَرَتَهُ لَهُ ودِفَاعَهُ عَنْهُ وَعَنْ أَعْمَالِهِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نُبِّئَ حِينَئِذٍ فِيما يَظْهَرَ، بَلْ جَاءَتْهُ النُّبُوَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ حِينَما اسْتَقَرَّ فِي الْأَرْضِ المقَدَّسَةِ مَعَ عَمِّهِ.

وَالْأَرْضُ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فِيها هِيَ بِلَادُ الشَّامِ حَوْلَ المسْجِدِ الْأَقْصَىٰ.

وطُوِيَتْ فِي نَصِّ الآيَةِ مَرَاحِلُ رِحْلَةِ الْهِجْرَة، لِأَنَّها بِمَثَابَةِ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَىٰ المقْصُودِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وهو الاسْتِقْرَارُ في أَرْضِ الْبِلَادِ المقَدَّسَة، لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فيها وفِيمَا حَوْلَها.

ولَمَّا اسْتَقَرَّ «إبْرَاهِيمُ» وابْنُ أَخِيهِ «لُوطٌ» عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةُ، سَأَلَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام رَبَّهُ أَنْ يَهَبَهُ وَلَداً مِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ كَانَتْ زَوْجَتُهُ «سَارَة» امرأَةً عَجوزاً وَعَاقِراً لَمْ تُنْجِبْ لَهُ وَلَداً، وَقَدْ تَجَاوَزَتِ السَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِها.

* * *

الفصل الثامن

هِبَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبرَاهِيمَ عَلَيهِ السَّلَام الذُّرِّيَّةَ فِي شَيخُوخَتِهِ

لَمَّا وَصَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَنْ مَعَهُ، إِلَىٰ الْأَرْضِ المقَدَّسَةِ فِي بِلَادِ الشَّام، دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَهَبَهُ وَلَداً مِنَ الصَّالِحِينَ، فَوَهَبَهُ مِنْ أَمَتِهِ الْمِصْرِيَّةِ «هَاجَرَ» وَلَداً سَمَّاه «إِسْمَاعِيل» وَكَانَ عُمْرُ «إِبْرَاهِيمَ» عَلَيْهِ السَّلَام عَلَىٰ مَا ذَكَرَ الإِسْرَائِيلِيُّون (٨٦) سَنَة، وَبَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ فِي أَرْضِ كَنْعَان بِعَشْرِ سنين.

وَدَلَّ البيانُ القرآني عَلَى أَنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام؛ دَعَا رَبَّهُ بأَنْ يَهَبَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ فِي الْأَرْضِ الَّتِي هَدَاهُ اللهُ إليها، وهِيَ الْأَرْضُ الْمُبَارَكَةُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ، الذي أُسِّسَ فيما بَعْدُ.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الصَّافَاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) حِكَايَةً لِدُعَاءِ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ، واسْتِجَابَةِ اللهِ دُعَاءَه:

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾:

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠)﴾: أي: رَبِّ هَبْ لِي وَلَداً مِنْ ذُرِّيَّتِي يَكُونُ صَالِحاً مِنَ الصَّالِحِينَ.

فَجَرَتْ أَحْدَاثٌ في رِحْلَاتِهِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ أَرْضٍ فيها مَلِكٌ جَبَّارٌ، إِذَا أَبْلَغَهُ جُنودُهُ بامْرَأَةٍ حَسْنَاءَ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، وَقَتَلَ زَوْجَها إِذَا كَانَ لَهَا زَوْج.

فَأَبْلَغَهُ جُنُودُهُ بُوجُودِ امْرَأَةٍ حَسْنَاءَ في أَرْضِهِ هِيَ «سَارَة» زَوْجَةُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فاسْتَدْعَاهُمَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ إِلَىٰ قَصْرِهِ، فَقَالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام لَهَا: إِذَا سَأَلَكِ عَنِّي فَقُولِي: هو أخِي، وأَنَا أَيْضاً أَقُولُ إِذَا سَأَلَنِي عَنْكِ: هِيَ أُخْتِي. فَلَمَّا الْتَقَاهُمَا ذَكَرَا لِلْمَلِكَ مَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ.

فأَدْخَلَ الْمَلِكُ «سَارَةَ» إِلَىٰ حَيْثُ يَبْتَغِي بِهَا أَنْ يُعَاشِرَهَا مُعَاشَرَة الْأَزْوَاجِ لِلزَّوجات، وَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام يُصَلِّي، وَيَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يَعْصِمَهَا مِنْه.

فَلَمَّا أَرَادَ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ أَنْ يَمَسَّهَا عَصَمَهَا اللهُ مِنْهُ ثَلاث مَرَّاتٍ بِعِلَلٍ نَزَلَتْ كَادَتْ تَقْتُلُهُ، فَسَأَلَهَا أَنْ تَدْعُو لَهُ وَهُوَ يَكُفُّ عَنْهَا، فَدَعَتْ لَهُ، فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ، وَأَهْدَاهَا هَدَايا، وَصَرَفَهَا، وَكَانَ مِمَّا أَهْدَاهَا

جاريةٌ مِصْرِيَّةٌ، اسْمُهَا «هَاجَرُ»، ثُمَّ أَهْدَتْهَا «سَارَةُ» لِزَوْجِهَا «إِبْرَاهِيمَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِينْجِبَ مِنْهَا وَلَداً.

فَدَخَلَ بِهَا عَلَيْهِ السَّلَام، فَبَشَّرَهُ اللهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ مِنها، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾: أي: فَبَشَّرَهُ اللهُ عَنْ طَرِيق الوحْي؛ بأَنَّ هَاجَرَ سَتَلِدُ لَهُ غُلاماً، مِنْ صِفَاته الْخُلُقِيَّةِ أَنَّهُ إِنْسَانٌ حَلِيمٌ.

وقَدْ حَقَّقَ اللهُ لَهُ مَا بَشَّرَهُ بِهِ، فَلَمَّا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ «هَاجَرُ» سَمَّاهُ «إِسْمَاعِيلَ»، وهو اسْمٌ عِبْرِيٌّ مَعْنَاهُ: «يَسْمَعُ الله». وَكَانَ أَوَّلَ ذُرِّيَّتِهِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ (٨٦) سَنَةَ، وَهُوَ سِنٌّ شَيْخُوخَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ، لَكِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ رَجُلاً قَوِيًّا عَاشَ (١٧٥) سَنَةً.

وأَنْجَبَ عِدَّةَ أَوْلَادٍ وَكَانَ عُمُرُهُ أَكْثَرَ مِن (١٠٠) عام من زَوْجَةٍ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ «سَارَة» اسْمُهَا «قَطُّورَة»، أَحَدُهم «مَدْيَان» جدُّ أَهْلِ مَدين.

وَجَرَتْ أَحْدَاثٌ نَقَلَ فِيهَا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بأمْرِ رَبِّهِ «إِسْمَاعِيلَ» عَلَيْهِ السَّلَام مع أُمِّهِ «هَاجَرَ» إِلَىٰ أَرْضِ مَكَّة، وَكَانَتْ وَادِياً لَا زَرْعَ فِيهِ، وبأَمْرِ اللهِ تَرَكَ الطِّفْلَ وَأُمَّهُ عِنْدَ مَكَانِ بَيْتِ اللهِ الحرام، وَسَيأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَفْصِيلُ هٰذَا فِيمَا صَحَّ عَنِ النبيِّ ﷺ مِنْ أَحَادِيث.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: فوهَبْنَاهُ الْغُلَامَ الَّذِي بَشَّرْنَاه بِهِ، وَنَشَأَ الْغُلَامُ «إسماعيل» عَلَيْهِ السَّلَام نَشْأَةً صَالِحَةً فِي مَكَّة عِنْدَ بَيْتِ اللهِ الحرام، وَكَانَ أبوه «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَعَهَّدُ زِيَارَتَه حيناً ثُمَّ حِيناً.

وَلَمَّا بَلَغَ «إسْمَاعيل» عَلَيْهِ السَّلَام السِّنَّ الَّتِي يَسْتَطِيعُ فِيهَا أَنْ يَسْعَىٰ

مع أَبِيهِ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَام مُجَاهِدَيْنِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقّ، وَتَعْلِيمِ النَّاسِ فِي الأَرْضِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام أُسُسَ الإيمان، وأَحْكام السُّلُوكِ، وَفَضَائِلَ الأَخْلَاقِ والآدَاب.

أَصْلُ السَّعْيِ: الْعَدْوُ، وهُوَ فَوْقَ المشْيِ الْعَادِي، ويُفِيد معْنَىٰ الْهِمَّةِ فِي الْعَمَلِ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ.

لَمَّا بَلَغَ «إِسْمَاعِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ هَـٰذِهِ السِّنَّ، وكانَ أَبُوهُ عِنْدَهُ فِي مَكَّةَ فِي إِحْدَىٰ زِيَارَاتِهِ لَهُ، قَالَ لَهُ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾:

بُنَيّ: تَصْغِيرُ لفظ «ابْني»، وهو مِنْ تَصْغِيرِ التَّحَبُّبِ.

أي: يا بُنَيَّ الْحَبِيبَ لِقَلْبِي؛ إِنَّ رُؤْيَا تَتَكَرَّرُ عَلَيَّ، فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّنِي مَأْمُورٌ مِنَ اللهِ رَبِّي وَرَبِّكَ بِأَنْ أَذْبَحكَ.

دلّ على تكرار الرُّؤيا اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ المضارِعِ «أَرَىٰ»، ولَوْ كَانَتْ رُؤْيا واحِدَةً لجاء التعْبيرُ: إِنِّي رَأَيْتُ.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، وفي القراءة الأُخرى: [**فَانْظُرْ مَاذَا تُرِي**]:

أي: فَانْظُرْ مَا الَّذِي تَراهُ أَنْتَ لِنَفْسِكَ، وانْظُرْ مَا الَّذِي تُقَدِّمُهُ لِي مِنْ رَأْيٍ.

فَأَسْرَعَ «إِسْمَاعِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَيِّناً لِأَبِيهِ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَام مَا رَآهُ لِنَفْسِهِ وَمَا يُرِيهِ لِأَبِيهِ:

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

فَهِم «إِسْمَاعِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الرُّؤيَا الَّتِي رَآهَا أبوه عِدَّةَ مَرَّاتٍ، تَتَضَمَّنُ تَكْلِيفاً رَبَّانِيًّا يَأْمُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ «إِبْراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ «إِسْمَاعِيلَ» عَلَيْهِ السَّلَام، الَّذِي صَارَ قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يَسْعَىٰ مُجَاهِداً مع أَبِيهِ للدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَتَبْلِيغ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبادِهِ، فَقَالَ لِأَبِيهِ مُتَذَلِّلاً

خَاضِعاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، وَطَمْأَنَ الابْنُ أَبَاهُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ طَائِعاً مُسْتَسْلِماً مُسْتَجِيباً لِأَمْرِ اللهِ، وَبِأَنَّهُ سَيَكُونُ صَابِراً مِنْ أَهْلِ الإِحْسَانِ الصَّابِرِين، إِذْ كانَ قَدْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ الاسْتِعْدَادَ للاسْتِسْلَامِ التَّامّ، وَلَكِنْ عَلَّقَ أَمْرَ صَبْرِهِ عَلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ، الْتِزَاماً بِالْوَاجِبِ الدِّينيّ فِي الْوَعْدِ بِعَمَلٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ، واسْتِعَانَةً باللهِ، وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ، حَتَّىٰ يُمِدَّهُ بالصَّبْرِ المطْلُوبِ فِي مِثْلِ هَـٰذَا الموقِفِ الْعَصِيبِ، فَقَالَ لِأَبِيهِ: ﴿... سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، وقَدَّمَ التَّعْلِيقَ عَلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الْوَعْدِ بالصَّبْرِ لِأَنَّ التعْلِيقَ عَلَى مَشيئَةِ اللهِ مُرْتَبِطٌ مُبَاشَرَةً بالإِيمَانِ، أَمَّا الصَّبْرُ فَهُوَ مَطْلُوبٌ فِي السُّلُوكِ مِنْ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ.

وَحِينَ اطْمَأَنَّ الأَبُ «إِبْرَاهِيمُ» إلى أَنَّ الابْنَ «إِسْمَاعِيلَ» عَلَيْهِما السَّلَام سَيَكُونُ مُسْتَسْلِماً كَامِلَ الاسْتِسْلَامِ لِقِيَامِ أَبِيهِ بِذَبْحِهِ طَاعَةً لِأَمْرِ الله، وأَسْلَمَ «إِبْرَاهِيمُ» عَلَيْهِ السَّلَام أَمْرَهُ لِرَبِّهِ، كَابحاً كُلَّ عَوَاطِفِهِ نَحْوَ وَلَدِهِ، حِينئِذٍ أَقْدَمَ الْأَبُ لِلقِيَامِ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، واسْتَجَابَ الابْنُ لِلأَمْر، وَبَاشَرَ كُلٌّ مِنهما مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُ، عِنْدَ هَـٰذِهِ اللَّحْظَةِ الْحَرِجَةِ جَاءَ الْأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بالتَّوَقُّفِ عَنِ التَّنفِيذ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: فحِينَ أَسْلَمَ الْأَبُ والابْنُ أَمْرَهُمَا للهِ عَزَّ وَجلَّ، طَاعَةً لَهُ، وامْتِثالاً لِأَمْرِهِ.

وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ: أي: وأَلْقَىٰ الْأَبُ ابْنَهُ عَلَىٰ عُنُقِهِ وَخَدِّهِ بشِدَّةٍ، وجَعَلَ جَبِينَهُ، أي: أَحَدَ جَانِبَيْ جَبْهَتِهِ؛ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَقَبَضَ عَلَىٰ مَقْبِضِ سِكِّينِهِ لِيَذْبَحهُ.

وإِذْ أَتَمَّا امْتِحَانَهُمَا بِنَجَاحٍ بَاهِرٍ؛ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّة أَنْ يُوقِفَ اللهُ التَّنْفِيذَ، فَلَمْ يَكُنْ فِي تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ أَنْ يَذْبَحَ إبراهيم وَلَدَهُ

إسْمَاعِيل عَلَيْهِما السَّلام، إِنَّمَا كَانَ الْغَرَضُ امْتِحَانَهُمَا، وَقَدْ نَجَحَا في الامْتِحَانِ نجاحاً مِنَ الدَّرَجَةِ الْقُصْوَىٰ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

إنَّ إيقَافَ تَنْفِيذِ الذَّبحِ بِأَمْرٍ رَبَّانِيٍّ، رُبما كَانَ مُوَجّهاً مِنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام، تَبِعَهُ نِداءٌ تَفْسِيرُهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤيا، أي: إِنَّ التَّكْلِيفَ فِي الرُّؤيَا كَانَ ذَا حَدٍّ يَقِفُ قَبْلَ تَنْفِيذِ الذَّبْحِ بِإِدْخَالِ حَدِّ السِّكِّينِ فِي المذْبَحِ مِنَ الرَّقَبَةِ، وَقَدْ طَابَقَ مَا فَعَلَهُ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا جَاءَ فِي الرُّؤْيَا التَّكْلِيفِيَّةِ فَصَدَّقَهُ، وَبِهٰذَا انْتَهَتْ حُدُودُ التَّكْلِيفِ، وقد كان هو وابْنُهُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ تَسْلِيماً للهِ، وانْتَهَتْ بِمَا فَعَلا حُدُودُ التَّكْلِيفِ.

﴿... إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾: أي: قَدَّرْنَا وَقَضَيْنَا وَأَمَرْنَا بإيقافِ عَمَلِيَّةِ الذَّبحِ جَزَاءً مُرْضِياً لِلأَبِ وابنِهِ، وسَارًّا لِقُلُوبِهِمَا، وَكَذٰلِكَ الْجَزَاءِ السَّامِي الَّذِي أَنْعَمْنَا بِهِ عَلَيْهِمَا؛ نَجزِي سَائِرَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ مِثْل إِحْسَانِهِمَا.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾: أي: إِنَّ هٰذَا الامْتِحَانَ الْقَاسِيَ الَّذِي امْتَحَنَّا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وإسْماعِيلَ؛ لَهُوَ الامْتِحَانُ الْجَلِيُّ الظَّاهِرُ، الَّذِي اجْتَازَهُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِنَجَاحٍ بَاهِرٍ.

جاء وَصْفُ البَلاءِ بأنَّهُ مُبِينٌ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ ذِي فِكْرٍ.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾: أي: وفَدَيْنَا إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام إِذْ أَوْقَفْنَا الذَّبحَ عِنْدَ بِدَايَتِهِ؛ بِذِبْحٍ عَظِيم، أي: بِمَذْبُوحٍ عَظِيم.

رُوِيَ عَنْ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بِكَبْشٍ أَبْيَض أعيَنَ أَقْرَنَ قَدْ

رُبط بِسَمُرَةٍ، أيْ: بِشَجَرَةٍ مِنْ أشْجَارِ السَّمُر⁽¹⁾.

وَيظْهَرُ أَنَّهُ أُمِرَ بِأَنْ يَذْبَحَ هـٰذَا الكَبْشَ الْعَظِيمَ الجُثَّة بيْنَ الكِبَاشِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ فِداءً لِذَبْحِ وَلَدِهِ، فَأَخَذَ الكَبْشَ مِنْ مَرْبَطِهِ وَذَبَحَهُ عَلَيْهِ السَّلَام.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١﴾:

هـٰذَا السَّلَامُ عَلَىٰ إبراهيمَ هو تَحِيَّةٌ يَدْعُو بِهَا المرْسَلونَ وأَتْبَاعُهُمْ، وَقَدْ أَوْصَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالسَّلام عَلَىٰ كُلِّ الْمُرْسَلِينَ، فِي نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، وَللدَّاعِي بِهذا الدُّعَاءِ لِمَنْ أوصَىٰ اللهُ بالسَّلامِ عَلَيْهِم أَجْرٌ يُضَاعِفُهُ اللهُ بِفَضْلِهِ.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بِأَنَّهُ مِنَ المؤمِنِينَ كَامِلِي الإيمان، مِنْ عِبَادِهِ المشَرَّفِينَ بِعُبُودِيَّتِهِمُ الكَامِلَةِ لَهُ.

ثُمَّ بَشَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَةَ» الْعَجُوزِ الْعَقِيم بِوَلَدٍ يُسَمِّيهِ «إسْحَاق»، وَبِأَنَّهُ سَيَكُونَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ.

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في آخِرِ هـٰذَا النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نُزُول):

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ۝١١٣﴾:

نَبِيًّا: أي: يُصْطَفَىٰ لِلنُّبُوَّة.

مِنَ الصَّالِحِين: أي: مِنْ أَهْلِ كَمَالِ الإيمانِ والْعَمَلِ الصَّالح.

الْبَرَكَة: الكَثْرَةُ مِن كُلِّ خَيْر.

---

(١) **السَّمُر**: نَوعٌ مِنْ أنواعِ شَجَرِ الطَّلْحِ، تَرْعَاهُ الإبل.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَنَاسَلَ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمَا بِأَنَّهُمْ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ أَوْ دَرَكَاتٍ، فَأَفْضَلُهُمْ مُحْسِنٌ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ. وأَحَطُّهُمْ دَرَكَةً ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ واضِحٌ فِي انْحِطَاطِهِ إِلَىٰ أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وسائِرُهُمْ على دَرَجَاتٍ أَوْ دَرَكَاتٍ، بَيْنَ الأَعْلَيْنَ والأَسْفَلِينَ.

وَجَاءَ فِي آخِرِ النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَة (الأَنْبِيَاء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣)﴾:

أي: وَوَهَبْنَا لَهُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ «إِسْماعِيلُ» مَعَهُ السَّعيَ «إِسْحَاقَ» مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الْعَجُوزِ الْعَقِيم بِخَارِقَةٍ لِلْعَادَة، ثُمَّ وَهَبْنَا لَهُ «يَعْقُوب» حَفِيداً لَهُ مِنْ وَلَدِهِ «إِسْحَاقَ» بَعْدَ أَنْ كَبِرَ «إِسْحَاقُ» وَتَزَوَّجَ، فَكَانَ نَافِلَةً زَائِدَةً عَلَىٰ الْبُشْرَىٰ لَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، فَكَانَ «يَعْقُوبُ» نَبِيًّا مِن الصَّالِحِينَ ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢)﴾: أي: وكُلًّا مِنْ إِبراهيم، ولُوطٍ، وإِسْحَاقَ، ويَعْقُوبَ ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ، جَعَلْنَا بِتَوفِيقِنَا وعِصْمَتِنَا صَالِحِينَ؛ لاسْتِحقَاقِهِمْ هَـٰذِهِ المرتبَةَ الرفيعَةَ.

ومِنْ مِنَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أئِمَّةً يُؤْتَمُّ بِهِمْ، إِذْ جَعَلَهُمْ رُسُلاً يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ بِوَصْفِ كَوْنِهِمْ رُسُلاً، يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ بِأَمْرِهِ، ومِمَّا أَوحَىٰ بِهِ إِلَيْهِمْ: الأَمْرُ بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وهِيَ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْمَلُوهَا، فِي السُّلُوكِ النَّفْسِيِّ وَفِي السُّلُوكِ الظاهِرِ، والأَمْرُ بإِقَامَةِ الصَّلَاةِ للهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ والأَمْرُ بإِيتاءِ الزَّكَاةِ.

وَوَصَفَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُمْ كَانُوا لِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَٰهِيَّتِهِ عَابِدِينَ.

وَفِي آخِرِ النَّصِّ الَّذِي جاءَ فِي سُورَةِ (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) المتضمِّنِ عَرْضَ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ دَعْوَةِ «إِبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا (٤٩) وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا (٥٠)﴾:

أَيْ: فَلَمَّا هَاجَرَ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلام مِنْ أَرْضِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ، وَوَصَلَ إِلى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فِيها، وهي مِنْ أَرْضِ الكنْعَانِيِّينَ «فلسطين» وَبعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ فِيها؛ وَهَبَ اللهُ لَهُ «إِسْحَاقَ» مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» بخَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ، ثُمَّ وَهَبَ لَهُ حَفِيداً مِنْ وَلَدِهِ «إِسْحَاق» هُوَ «يَعْقُوب»، وَقَدْ جَعَلَهُمَا اللهُ نبيَّيْنِ، وَجَعَلَ لَهُمَا ثَنَاءً حَسَناً عَلِيًّا، تَتَحَدَّثُ بِهِ الأَلْسِنَةُ الصَّادِقَةُ.

بُشْرَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بإِسْحَاق عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة»:

جَاءَ بَيَانُ هَـٰذِهِ الْبُشْرَىٰ فِي أَرْبَعَةِ نُصُوصٍ مِنَ الْقُرْآنِ المجيد، مُتَكامِلَةٍ فِيمَا بَيْنَهَا، وهي في سورةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول)، وفي سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول)، وفي سورة (الذَّارِيات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول)، وفي سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول).

- قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ ... (٦٩)﴾:

فعل «جاء» يُستَعْمَلُ لازماً مثل «جاءَ الرَّجُل»، ويستَعْمَل مُتَعدِّياً، مِثْل: «جَاءَ النَّبَأُ الرَّجُلَ»، وَعلى هـٰذَا جاءَ هُنَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ، فلفظ «إبراهيم» هُنَا مَفْعُولٌ بِهِ للفِعْلِ في ﴿جَآءَتۡ﴾.

والْمُرادُ بعِبَارَةِ ﴿رُسُلُنَا﴾ الْمَلائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ لِتَبْشِيرِ «إِبراهيمَ» عَلَيْهِ السَّلام وزَوْجَتِهِ الْعَقِيم «سَارَة» بِوَلَدٍ مِنْهُمَا اسْمُهُ «إِسْحَاقَ» ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ.

وقَدْ جَاءُوه عَلى صُوَرِ رِجَالٍ بَشَرٍ لَا يَعْرِفُهُمْ، فالملائكة قادِرُونَ علَىٰ التَّشكُّلِ بأشكالٍ جسمانية.

﴿قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾: بَدَؤُوه بالتَّحِيَّةِ قَائِلِينَ لَه: «سلاماً»، أي: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سَلَاماً. فلفظ «سَلاماً» مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

قال: «سَلَامٌ» أي: تَحِيَّتِي لَكُمْ: «سَلَامٌ».

قال البلاغِيُّون: «سَلَامٌ» جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ مع المُبْتَدأ المحذوف المقدَّرِ ذهْناً، و«سَلَاماً» جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ مَعَ الْعَامِلِ المحذوف، والجملَةُ الاسْمِيَّةُ أقْوىٰ وآكَدُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، لِأَنَّ في خَبَرِ الْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ ضَمِيراً يَعُودُ على المبْتَدأ، فَفِيهَا إسْنَادان، وعلَىٰ هٰذا فَقَدْ كَانَ رَدُّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّحِيَّةَ بأحْسَنَ مِنْهَا.

وَهُنَا يَأْتِي مَا جَاءَ في سُورَةِ (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بإضَافَةِ كَوْنِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام قَدْ جَاءُوا إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام عَلَىٰ أَنَّهُمْ ضُيُوفٌ مُكْرَمُون، وأنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام قَالَ لَهُمْ ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

الاستِفْهَام بـ «هل» هُنَا يُفِيدُ مَعْنَىٰ: خُذْ أَيُّهَا المتَلَقِّي حديثَ ضَيْفِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

«ضَيْف»: يُطْلَقُ على الواحد والاثْنَيْن فأكثر، والمراد عَدَدٌ مِنَ الملائِكَةِ أرْسَلَهُمُ اللهُ عَلَىٰ شَكْلِ ضُيُوفٍ مِنَ البشر، ووَصَفَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ، إشَارَةً إلَىٰ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بشراً، بَلْ هم مَلَائِكَة، إذْ جَاءَ وَصْفُ الْمَلَائِكَةِ في الآية (٢٦) من سورة (الْأَنْبِياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بِأَنَّهُمْ عِبادٌ مُكْرَمُون، وَرُبَّما كَانَتْ ثِيَابُهُمْ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ على صُورَةِ ثِيابِ قَوْمٍ ذَوِي كَرَامَةٍ في قَوْمِهِمْ.

﴿... قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: أَنْتُمْ قَوْمٌ لا أَعْرِفُ أَشْخَاصَكُمْ، وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ، وَلَكِنْ لَكُمْ عَلَيَّ حَقُّ ضِيَافَتِكُمْ.

قالَ اللهُ تَعَالَىٰ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: فَذَهَبَ بِخِفَّةٍ وسُرْعَةٍ لِضِيَافَتِهِمْ، وهو يَجْهَلُ كَوْنَهُمْ مَلائِكَةً، وَلَمْ يَظْهَرْ بِحَرَكَتِهِ عَلَامَاتُ إِرَادَة إِكْرَامِهِمْ، فَمَا أَبْطَأَ عَنْ مَجِيئِهِ بِعِجْلٍ مَشْوِيٍّ بالدَّسِّ فِي النَّارِ، أَوْ فِي حجارَةٍ مُحَمَّاةٍ بالنَّار.

المرادُ بنَفي اللُّبْث هُنَا: عَدَمُ الإبْطَاءِ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ مُطْلَقاً، مِنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ إِحْضَارِهِ ضِيَافَته.

اللُّبْث: فِي اللُّغَةِ: الإقَامَةُ في المكان.

حنيذ: أي: مَشْوِيٌّ بالدَّسِّ في النَّار، أو في حِجَارَةٍ مُحَمَّاةٍ بالنَّار.

وَجاء في سورة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿فَرَاغَ﴾ أي: فذهَبَ بخِفَّةٍ وسُرْعَةٍ لِضِيَافَتِهِم وإكْرَامِهِمْ، دُون أنْ يُظْهِرَ عَلَامَاتِ إِرَادَةِ إِكْرَامِهِمْ، مِنْ بَالِغِ مَا لَدَيْهِ مِنْ جُودٍ وَسَخَاءِ نَفْس.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾: جاءَ وصْفُ الْعِجلِ هُنَا بأنَّهُ سَمِينٌ، وسبق في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بَيَانُ أَنَّهُ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ، فَتَكَامَلَ النَّصَّانِ في بَيَانِ أَنَّ الْعِجْلَ سَمِينٌ ومَشْوِيٌّ.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

عَرْضٌ بِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الْعِجْلِ السَّمِينِ المشْوِي، الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، وَجَعَلَهُ قَرِيباً مِنْ مَكَانِ جُلُوسِهِمْ.

دلَّ هٰذَا عَلَىٰ أَنَّ مِنْ فَضَائِلِ الْمُضِيفِ وَكَرَمِهِ فِي الضِّيَافَةِ؛ أَنْ يُقَرِّبَ لِضُيُوفِهِ مَا يَأْكُلُونَهُ وَيَشْرَبُونَهُ، وَقَدْ كَانَ هٰذَا مِنْ عَادَاتِ الكُرَمَاء، قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ النَّاسُ الْخِوَانَ الكَبِيرَ الّذِي تُوضَعُ حَوْلَهُ الكراسِي، ويَصْعُبُ تَقْرِيبُهُ للضُّيُوف.

وَهُنَا يَأْتِي مَا جَاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

ويأتي هُنَا أَيْضاً قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

فَأَضَافَ النَّصُّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول) أَنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَىٰ أَيْدِي الضُّيُوفِ لَا تَصِلُ إِلى الْعِجْلِ الْحَنِيذِ السَّمِينِ، وَلَا يَأْكُلُونَ مِنْهُ فَنَكِرَهُمْ، أَي: اسْتَنْكَرَ تَصَرُّفَهُمُ الَّذِي هُوَ عَلَىٰ غَيْرِ عَادَةِ الضُّيُوف، بَلْ هُوَ عَادَةُ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَشَرٌّ، وَلَمْ يَخْطُرْ في بالِهِ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، إِذْ كَانَ مَظْهَرُهُمْ لَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي: وأَحَسَّ فِي نَفْسِهِ خَوْفاً مِنْ غَرَضِهِم، الَّذِي جَاءُوا مِنْ أَجْلِهِ، إِذْ هُمْ بَشَرٌ بِحَسَبِ الظَّاهِر.

وَقَالَ لَهُمْ أخذاً ممّا جَاءَ فِي سُورَة (الحجر/ ٥٤ نزول): ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

فأجَابُوهُ: أخذاً ممّا جاءَ في سُورة (هود/ ٥٢ نزول): ﴿... قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)﴾.

وجَاءَ فِي سُورَة (الذاريات/ ٦٧ نزول) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾:

يُلاحَظُ فِي هَـٰذِهِ النُّصُوصِ: أَنَّ مَا طُوِيَ فِي نَصٍّ مِنْهَا ذُكِرَ فِي نَصٍّ آخَرَ، فهِيَ فِيما بَيْنَهَا مُتكَامِلَةٌ غَيْرُ مُكَرَّرَةٍ تَكْرِيراً تَطابُقِيًّا، وَهـٰذَا مِنْ إبداعَاتِ الْقُرْآنِ الْبَيَانِيَّةِ.

وجاء في سُورَة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦)﴾:

أي: إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَام عَلِيم يَأتِيكَ مِنْ زَوْجِكَ «سَارَة»، فَنَحْنُ مَلائِكَةٌ، رُسُلٌ مُرسَلُونَ مِنْ رَبِّكَ، لِنُقَدِّمَ لَكَ هَـٰذِهِ الْبِشَارَة.

قال مُسْتَفْهِماً مِنْ أَمْرِ هَـٰذِهِ الْبِشَارَةِ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ والشَّيْخُوخَةُ مُضْعِفَةٌ عَادَةً عَنِ الإنجاب. «على» هنا بمنى «مع».

أي: أبَشّرْتُمونِي وَقَدْ صَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْكِبَرِ تَماسٌّ، ولم يَقُلْ أصَابَنِي الكِبَرُ، إِذْ مَا زَالَتْ لَدَيْهِ قُوَّةٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى الإنْجاب.

ويَظْهَرُ أَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَجرَحَ مَشَاعِرَ زَوْجَتِهِ الْوَاقِفَةِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَتسَمَّعُ الْحِوارَ، بأنّ السَّبَبَ فِي عَدَمِ الإنْجابِ مِنْهَا وَلَيْسَ مِنْهُ، فهي عَجُوزٌ عَقِيم.

ورُبما وَقَعَ في ظَنِّهِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ سَيأْمُرُهُ بأنْ يَتزَوَّجَ امْرَأَةً ذَاتَ اسْتِعْدَادٍ للإنْجاب، ومِثْلُ هـٰذَا الظّنِّ وقعَ في نَفْسِ زَوجَتِهِ «سَارَة».

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟. أي: فَبِأَيِّ سَبَبٍ لَدَيَّ أَمْلِكُهُ يَكُونُ مِنْ آثارِهِ أَنْ أُنجِبَ؟.

فَلَمْ يُجِيبُوهُ عَنِ السَّبَبِ، وإِنَّما أجابُوهُ عَلَىٰ ظاهِرِ عِبَارَتِهِ، لَا عَلَىٰ مُرَادِهِ مِنْهَا:

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: بَشَّرْنَاكَ بِخَبَرٍ عَنِ اللهِ مُتَّصِفٍ بالْحَقِّ الَّذِي سَيَتَحَقَّقُ حَتْماً، فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ الْيَائِسِينَ.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾؟:

أي: لَا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ الجاهِلُونَ بِقُدْرَةِ الله عَلَىٰ فِعْلِ مَا يَشَاءُ وَخَلْقِ مَا يَشَاءَ. يُراد بالاستفهام هنا النفي.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: وامْرَأَتُه «سَارَةُ» قَائِمَةٌ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحِوَارَ، فَضَحِكَتْ لَمَّا عَلِمَتْ مَا جَاءَ فِي الْبُشْرَىٰ لِزَوْجها «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلام.

وَبَعْدَ ضَحِكِهَا الَّذِي كَانَ ضَحِكَ اسْتِغْرَابٍ وَتَعَجُّبٍ، وَخَوْفٍ مِنْ أن يَكُونَ الْمَبَشَّرُ بِهِ مِن امْرأَةٍ غَيْرِهَا؛ يَأْتِي قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فِي سُورَة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُه «سَارَةُ» من وراءِ الْحِجَابِ، إِذْ كَانَتْ تَتَسَمَّعُ مَا يَجْرِي، وَدَخلَتْ عَلَيْهِمْ في «صَرَّةٍ» أي: فِي صَيْحَةٍ وَضَجَّةٍ، وأصْوَاتٍ وَكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَاتٍ كَعَادَةِ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي في طِبَاعِهِنَّ حِدَّةٌ، إِذَا أثَارَهُنَّ أَمْرٌ جَلَلٌ يَمَسُّهُنَّ.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي: فَضَرَبَتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْهَا عَلَىٰ عَادَةِ النِّسَاءِ.

﴿... وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: أي: كَيْفَ تُبَشِّرُونَ زَوجي إبْرَاهِيمَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ، وَأَنَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ لَا أَلِدُ.

فَأَعْلَمَهَا الرُّسُلُ أَنَّ الْغُلَامَ الْعَلِيمَ وَلَدٌ لَهَا، وَهُنَا يأتي مَوْقِعُ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (هود/ ٥٢ نزول):

﴿... فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾:

هـٰذَا بَيَانٌ صَادِرٌ عَن اللهِ عَزَّ وَجلَّ، اسْتُعْمِلَ فِيهِ ضَمِيرُ المتكلِّم العظيم الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، ويَخْلُقُ مَا يُرِيدِ، للإشْعَارِ بأنَّ بِشارَة الملائِكَةِ لَهَا، إنَّمَا كَانَتْ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، فَهِيَ بِشَارَةٌ مِنْهُ تَبارَكَ وَتعالَىٰ، إذِ الْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ والأَمْرُ أَمْرُهُ.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: أصْلُها: «يَا وَيْلَتِي» قُلِبتْ كَسْرَةُ التَّاءِ فَتْحةً، وقُلِبَتِ الياءُ ألِفاً، وهـٰذَا أَحَدُ الوجوه العربيّة في المنادى المضَافِ إلَىٰ يَاء المتكلّم.

وكلمة «وَيْلِ» هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ التَّعَجُّبِ، أي: يَا عَجَباً عظيماً.

أي: يَا عَجَباً أَأَلِدُ وَأَنَا امْرَأَةٌ عَجوزٌ، وَهـٰذَا بَعْلِي إبراهيمُ حَالَةَ كَوْنِهِ شَيْخاً؟!!.

وَقَالَتْ كَمَا جَاءَ في سُورَةِ (الذَّارِيَاتِ/ ٦٧ نزول): ﴿... عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

وَجَاءَ في هَـٰذِهِ السُّورَة أَنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالُوا لها مَا جاء في البيان التالي:

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

وَجَاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: قَالُوا: كَذَلِكَ الَّذِي بَشَّرْنَاكُمَا بِهِ قَالَ رَبُّكِ، وقولُهُ حَقٌّ، فالْبِشَارَةُ لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِنَا، وَلَيْسَتْ مِنْ أمرِنا، وإِنَّمَا هِيَ مِنْ عِنْدِ رَبِّكِ وَمِنْ أَمْرِهِ، فَلَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللهِ، إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الْحِكْمَةُ الْكَامِلَةُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، فَهُوَ الْحَكِيم، وهُوَ وَحْدَهُ ذُو الْعِلْمِ الشَّامِلِ الْكَامِلِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ الْعَلِيمُ وَحْدَهُ.

وقالوا لَهَا أيضاً: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ وأَنْتِ امْرَأَةٌ فَاضِلَةٌ وَزَوْجَةُ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ، وعِشْتِ فِي بَيْتِ نُبُوَّةٍ زَمَناً مَدِيداً، وَتَلَقَّيْتِ مَفَاهِيمَ الْإِيمَانِ طَوَالَ هَـٰذِهِ المدَّةِ، فَكَيْفَ تَعْجَبِينَ مِنْ حُدُوثِ شيءٍ هُوَ مِنْ شَأْنِ اللهِ، قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وأَصْدَرَ بِهِ أَمْرَهُ، عَلَىٰ أَنْ يُنَفَّذَ في حِينِهِ، وَأَنْتِ تُؤْمِنِينَ بأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِذَا أَرَادَ شيئاً فإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: «كُنْ» فَهُوَ يَكُونُ عَلَىٰ وَفْقِ أَمْرِ اللهِ التَّكْوِينِي.

واعْلَمِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَخْرِقَ سُنَّتَهُ إِكْرَاماً لَكُم يَا أَهْلَ بَيْتِ «إبراهيم» شَيْخِ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ مِنْ بَعْدِهِ، فَأَفَاضَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَرَكَاتِهِ.

﴿... إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾: فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ ثَنَاءٌ عَلَىٰ اللهِ ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ بِصِفَتَيْنِ مُلَائِمَتَيْنِ لِفُيُوضِ عَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ، وَمَا يَمْنَحُهُ بَعْضَ عِبَادِهِ مِنْ زِيَادَاتِ الخيرِ.

حَمِيد: أي: كَثِير الْحَمْدِ لِأَهْلِ طاعَتِهِ والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَحَابِّهِ. والْمَحْمُودُ كثيراً بِصِفَاتِ ذَاتِهِ، وبصفات أفعالِهِ، في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ.

مَجِيد: أي: كَرِيمٌ شَرِيفٌ عَلِيٌّ عَظِيمٌ ذُو خَيْرٍ كَثِيرٍ.

■ وبَعْدَ أَنِ انْتَهَتْ أَحْدَاثُ الْبُشْرَىٰ، لَاحَظَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام من

حَرَكَاتِ وَوُجُوهِ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام؛ أَنَّ عَلَيْهِمْ وَظِيفَةً رَبَّانِيَّةً يُرِيدُونَ الانْصِرَافَ لِتَأْدِيَتِها.

وهُنَا يأتي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الذَّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام ولِمَا أَجابَهُ به الرُّسُل من الملائكة:

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾.

وموقع قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٢)﴾:

مِنَ الغابِرِين: الغابر: الماكث الّذِي لَا يَتَحوَّل، أي: مِنَ الْمُهْلَكِين مع قَوْمِهَا. **والغابر**: الذَّاهِبُ الماضِي الذي لَا يَبْقَىٰ لَهُ وُجود، أي: مِنَ الماضِينَ الْمُهْلَكِينَ مع قَوْمِها.

فالمعنيان يَنْطَبِقَانِ عَلَيْهَا، والمقْصُودُ مِنْ دَلَالَتَيْهِمَا وَاحِدَة.

وَمَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٦٠)﴾:

ومَوْقِعُ قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾:

فمَا جَاءَ في سورة (الذَّارِيَات/ ٦٧ نزول):

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾؟؟:

أي: قَالَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام للرُّسُلِ مِنَ الملائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلام: فَمَا أَمْرُكُم وَمَا شَأْنُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟؟، إِذْ أَدْرَكَ أَنَّ أَمراً جَلَلاً عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِهِ.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: قَالُوا: إِنَّا أُرسِلْنَا مِنْ رَبِّنَا إِلَىٰ إِهْلاكِ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ وَتَعْذِيبِهِمْ، وهُمْ قَوْمُ لُوط عَلَيْهِ السَّلام، وبِسَبَبِ كَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ من الدَّرَكَةِ الْقُصْوَىٰ في الانْحِطَاطِ الإجْرَامِي، يَسْتَحِقُّونَ التَّعْذِيبَ والإهْلاكَ الشَّامل.

وَمِنْ وَسَائِلِ تَعْذِيبِنَا لَهُمْ وَإِهْلاكِنَا إِيَّاهُمْ أَنْ نُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ، أي: حِجَارَةً كَانَ أَصْلُهَا طِيناً فَتَحَجَّرَ، وَلَعَلَّ تَحَجُّرَهَا كَانَ بِسَبَبِ إِحْمَائِهَا بالنَّار، حَالَةَ كَوْنِ هَـٰذِهِ الْحِجَارَةِ مُعَلَّمَةً بِعَلَامَاتٍ تَخُصُّ الْمُهْلَكِينَ الْمُسْرِفِين، الْغُلَاةِ الْمُتَوَغِّلِينَ فِي الضَّلَالِ وفِعْلِ الْجَرَائِمِ والْآثَامِ وَكَبَائِرِ الْفَوَاحِشِ والمنْكَرَات.

ومَا جَاءَ فِي سُورة (الْعَنْكَبُوت/ ٨٥ نزول):

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: وَحِينَ انْتَهَىٰ مَوْضُوع الْبُشْرى بإسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب ـ عَلَيْهِما السَّلام ـ، وَسَأَلَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام عَنْ خَطْبِهِمْ؛ قَالُوا إِنَّا

مُهْلِكُو أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ الْجَامِعَةِ لِقُرَىٰ قَوْمِ لُوط ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا حَتَّىٰ هَـٰذِهِ السَّاعَةِ ظَالِمِينَ ظُلْماً يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ الإهْلَاكَ والتَّعْذِيب.

قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ فِيهَا لُوطاً، وهُوَ نبيٌّ ورسُولٌ.

قالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا، لَنُنَجِّينَّهُ وأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فإِنَّهَا عَلَىٰ مَذْهَبِ وَمِلَّةِ قَوْمِهَا، فَسَيَشْمَلُهَا الإهْلَاكُ، وَسَتَكُونُ مِنَ الذَّاهِبِينَ بالإهْلَاكِ، وَمِنَ الْبَاقِينَ في أرْضِ الْعَذَابِ والإهلاك، فَلَا تَخْشَ عَلَىٰ لُوطٍ والمؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُ.

وَمَا جَاء في سورة (الحجر/ ٥٤ نزول):

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

أي: إِلَّا لُوطاً وآلَهُ فإِنَّنَا لَا نُهْلِكُهُمْ، بَلْ نُنَجِّيهِمْ أجْمَعِينَ، مِنَ الْعَذَابِ والْهَلَاكِ، إِلَّا امْرأَتَهُ لِأَنَّهَا عَلَىٰ مِلَّةِ قَوْمِهَا.

﴿قَدَّرۡنَآ﴾ يَظْهَرُ أَنَّهُ بَيَانٌ صَادِرٌ عَنِ الله تَعالى، أي: قَدَّرْنا وَقَضَيْنا أَنْ تَكُونَ امْرَأَتُهُ مِنَ الْغَابِرِينَ الْمُهْلَكِينَ مَعَ قَوْمِهَا لِأَنَّهَا كَافِرَةٌ وَعَلَىٰ هَوَىٰ قَوْمِهَا.

وَبدأ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام يَتَوَسَّطُ بِتَأْجِيلِ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام رَجاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا.

وَمعا جعاءَ فِي سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿ٱلرَّوۡعُ﴾: الْفَزَعُ، وهو الْخَوْفُ الَّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثَارُ نُفُورٍ فِي حَرَكَاتِ الْجِسْمِ، واسْتِعْدَادٌ لِدَفْعِ المفزوع مِنْه.

أي: فحِينَما ذَهَبَ عَنْ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام الْخَوْفُ الَّذِي أَثَارَهُ أَنَّ ضُيُوفَهُ لَمْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِ، وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ هُوَ وزَوْجَتُهُ «سَارة»، وَتَلَقَّىٰ نَبأَ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وَكَانَتْ نَفْسُهُ قَدْ هَدَأَتْ؛ شَرَعَ يُجَادِلُ رُسَلَنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، لِرَفْعِ الْعَذَاب والإهْلَاكِ عَنْهُمْ وَلو إِلَىٰ حِينٍ.

سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ حِوَارَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام للرُّسُلِ مِن الملائِكَةِ بِشَأْنِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام وَرَغْبَتِهِ فِي تَأْخِيرِ تَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهِمْ: مُجَادَلَةً لَهُ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّهُ هو الّذِي أَرْسَلَهُمْ، وَكَلَّفَهُمُ الْقِيَامَ بِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِهِمْ، وَلَا نَعْلَمُ عَنِ المعْصُومِ كَيْفَ كَانَتْ مُجَادَلَةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ للرُّسُلِ مِن الْمَلَائِكَةِ.

وقَدْ أَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، بِثَلَاثِ صِفَاتٍ جَلِيلات فَقَالَ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ مُؤكّداً بثَلَاث أَدوَاتِ تَوْكيد:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾:

حلِيم: أي: ذو أَنَاةٍ، قادِرٌ عَلَىٰ ضَبْطِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْغَضَب، أو عِنْدَ حُلُولِ مَكْرُوه، يَعْقِلُ بإرادَةٍ قَوِيَّةٍ نَوازِعَ نَفْسِهِ، ويَعْفُو وَيَصْفَحُ.

أَوّاه: أي: رَحِيمٌ، رَقِيقُ الْقَلْب، كَثِيرُ الْحُزْنِ، كَثِيرُ التَّضَرُّعِ إلَىٰ اللهِ، والْمُحافَظَةِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ.

مُنِيب: أي: ذُو رُجُوعٍ إِلَىٰ اللهِ دَواماً، بِقَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وَفِكْرِهِ.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾:

أي: يا إبْرَاهِيمُ أعْطِ لِهٰذَا الأَمْرِ الَّذِي تَوَجَّهَتْ نَفْسُكَ لَهُ، شَفَقَةً عَلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ: عَارِضَك (أي: جَانِبَ وَجْهِكَ)، فَشَفَاعَتُكَ فِيهِمْ غَيْرُ مُسْتَجابَة.

وَنُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ لَنَا بِتَنْفِيذِ التَّعْذِيبِ والإهلَاكِ، وَهٰذَا أَمْرٌ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحالَة، وهو غَيْرُ مَرْدُودٍ، إذْ لا رَادَّ لِقَضَاءِ اللهِ الْمُبْرَمِ.

الفصل التاسع

تأسِيسُ إبراهيمَ عَلَيهِ السَّلَام شَعباً مُؤمِناً في مكَّة بِوَلَدِه إسماعيل عَلَيهِ السَّلَام

لَمَّا وَلَدَتْ «هَاجَرُ» ابْنَهَا «إِسْمَاعِيل» عَلَيْهِ السَّلَام وَكَانَ أَوَّلَ ذُرِّيَّةِ «إِبْرَاهِيم» عَلَيْهِ السَّلَام؛ رَأَتْ «سَارَةُ» زَوْجَةُ «إبراهيمَ» عَلَيْهِ السَّلَام تَعَلُّقَ الأَبِ بابْنِهِ الوحيدِ مِنْ «هَاجَرَ» الَّتِي كانَتْ أَمَتَهَا، فَوَهَبَتْهَا لِزَوْجِهَا لِيُنْجِبَ مِنْهَا وَلَداً، إِذْ كَانَتْ هِيَ عَجُوزاً عَقيماً، فَثَارَتْ غَيْرَتُهَا، وَطَلَبَتْ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يُبْعِدَ الْوَلَدَ وأُمَّهُ إِبْعَاداً كُلِّيًّا عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا.

فَاسْتَفْتَىٰ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهُمَا إِلَى وَادِي مَكَّةَ، حَيْثُ مَكَانُ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ فِي الأَرْضِ، مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَدْ عَفَتْ آثَارُهُ مُنْذُ قُرُونٍ، وَصَارَ قِطْعَةً مَجْهُولَةً فِي بَطْنِ وَادِي مَكَّة عَلَىٰ شَكْلِ تَلَّةٍ مِنَ التراب.

فَأَخَذَهُمَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام وَسَافَرَ بِهِمَا مِنْ أَرْض كَنْعَان (= فِلسطين) بأَمْرِ رَبِّهِ، وَهِدَايَةٍ مِنَ اللهِ لَهُ عَنْ طَرِيق الْوَحْي، حَتَّىٰ وَصَلُوا إِلَىٰ الْوَادِي الَّذِي لَا زَرْعَ فِيهِ وَلَا مَاءَ، وَفِيهِ مَكَانُ بَيْتِ اللهِ المحرَّم.

مكّة والبيت الحرام فيها:

(١) جاء في الْأَخْبارِ أَنَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَمَكَّةَ أَوَّلُ مَا بَرَدَ مِنْ قِشْرَةِ الْأَرْضِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا كُتْلَةً نَارِيَّةً مُلْتَهِبَةً كالشَّمْسِ، فَمَكَّةُ هِيَ بِمَثَابَةِ سُرَّةِ الْأَرْضِ.

وصَوَّرَ الجغرافيُّونَ المسلِمُونَ الْبَيْتَ المحرَّم ومكَّةَ في وَسَطِ المعْمُورِ مِنَ الْأَرْض، واعتَبَرُوا مكَّة سُرَّة الْأَرْضِ.

(٢) وأجْرَىٰ المعْهَدُ القومي لِلْبُحُوثِ الْفَلَكِيَّة والْجُيُوفِيزِيقيَّة بالْقَاهِرَةِ؛

دراسَاتٍ مُوسَّعَةً، فَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الكَعْبَةَ المشَرَّفَةَ تُمَثِّلُ مَرْكَزَ الْأَرْض.

وأَوْضَحَتِ الدِّرَاسَةُ الَّتِي أشْرَفَ عَلَيْهَا الدكتور «مسلم شَلْتوت» الأستاذُ بالمعْهَد، وَنَشَرَتْهَا صَحِيفَةُ الْأَهْرَام المِصْرِيَّة؛ أَنَّ مَكَّةَ المكرَّمَةَ، وكَعْبَتَهَا المشَرَّفَةَ: هُمَا مَرْكَزٌ لِدَائِرَةٍ نِصْفَ قُطْرِهَا (٨٠٠٠ ك م) تَمُرُّ بأَطْرَافِ الْقَارَّاتِ القديمَة: «آسْيَا، وأَفْرِيقيا، وأَوْرُبَّا». كَمَا أَنَّهَا أَيْضاً مَرْكَزٌ لِدَائِرَةٍ نِصْفُ قُطْرِهَا (١٣٠٠٠ك م) تَمُرُّ بأَطْرَافِ الْقَارَّاتِ الْجَدِيدَة: «أَمْرِيكَا الشَّمَالِيّه، وأَمْرِيكَا الْجَنُوبِيَّة، وأسْترالْيا، والمتَجَمِّدَةِ الجنوبيّة».

وأشَارَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَىٰ أَنَّهُ مِنَ المحْتَمل أَنْ تَكُونَ مَكَّةُ المكرَّمَةُ مَرْكَزَ الْيَابِسَةِ قَبْلَ تَزَحْزُحِ الْقَارَّاتِ وانْفِصَالِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فِي الْعُصُورِ الْجُيُولُوجِيَّةِ السَّحِيقَةِ.

(٣) وأبان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في القرآن المجيد أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ فِي الْأَرْضِ لِعِبَادَتِهِ بَيْتُ اللهِ المحرَّم فِي مَكَّة المكَرَّمَة، وهُو الكَعْبَة المشرّفة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ورَوى البخاري ومُسْلِمٌ عَنْ عَبد اللهِ بن عَبَّاسٍ رَضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ هـٰذَا الْبَيْتَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

ورُوِي أَنَّ أَوَّلَ بِناءٍ لَهُ كَانَ مِنْ قِبَلِ مَلَائِكَةٍ أُمِرُوا بِبِنَائِهِ.

ورُوِي أَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَسَّسَهُ ورفَعَ قواعِدَهُ وَصَلَّىٰ فِيهِ، وطاف حَوْلَهُ: آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَام، حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ الطُّوفَانَ، فَصَارَ مَكَانُ الْبَيْتِ دَارِساً لَا تَظْهَرُ فِيهِ أَيُّ آثارٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهـٰذِهِ الروايَةُ أرجَحُ فيما أرىٰ.

ثُمَّ أَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بمكانِهِ عَنْ طَرِيق الْوَحْي، وأَمَرَهُ بِرَفْعِ قَواعِدِهِ مَعَ وَلَدِهِ إِسْماعِيلَ عَلَيْهِ السلام، وهـٰذَا مَا ثَبَتَ في القرآنِ الْمَجِيدِ والسُّنَّةِ المطَهَّرَة.

تدبُّر النصوص القرآنية:

أولاً: قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾:

- ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾: أي: أَنْزَلْنَاهُ فِيهِ، بَعْدَ أَنْ هَيَّأْنَاهُ لَهُ، وأَعْلَمْنَاهُ بِهِ وَبِحُدُودِهِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ، وهو مَكَانُ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

- ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾: أي: وقِفْ رَافِعاً صَوْتَكَ مُنَادِياً، فِي النَّاسِ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَنِ نِدَائِكَ، والَّذِينَ سَيَتَتَابَعُونَ أَجْيَالاً، جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَة، فإنَّ رَبَّكَ سَيُوصِلُ أَثَرَ نِدَائِكَ فِي أذانِكَ إِلَىٰ قُلُوبِ المؤْمِنِينَ، فَيُحَرِّكُهَا إِلَىٰ تَلْبِيَةِ النِّدَاءِ، فَيَحُجُّونَ إِلَىٰ هـٰذَا الْبَيْتِ، فَيَطُوفُونَ حَوْلَهُ، وَيُصَلُّونَ عِنْدَهُ، وَيُؤَدُّونَ مَنَاسِكَهُمُ الَّتِي شَرَعَهَا رَبُّكَ لِعِبَادَتِهِ فِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا.

- ﴿رِجَالًا﴾: أي: مُشَاةً عَلَىٰ أرْجُلِهِمْ.

- ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: أي: وَعَلَىٰ كُلِّ مَرْكُوبٍ ضَامِرٍ قَلِيلِ اللَّحْم مِنْ طُولِ السَّفَرِ، يُقَالُ: «جَمَلٌ ضامِرٌ، وناقَةٌ ضَامِرٌ وضَامِرَة».

- ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: **الْفَجُّ**: الطَّرِيقُ الواسِعُ. **عَمِيق**: أي: بَعِيدُ الْمَسَافَةِ، طَوِيل.

المعنى: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلقِّي لبيانِ رَبِّكَ في القرآن؛ حين هَيَّأْنَا لإِبْرَاهيم ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ مَكَانَ الْبَيْتِ المحرَّم، وأعْلَمْنَاهُ بِهِ، وأنْزَلْنَاهُ فِيهِ، لِيُؤَسِّسَ في مَكَّةَ أُمَّةً مُؤْمِنَةً تَعْبُدُ رَبَّهَا وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شيئاً، جدُّهَا وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ الَّذِي تَرَكَهُ عِنْدَ مَكَانِ البيْتِ المحرّم، هُوَ وأُمُّهُ «هَاجر» بوحْيٍ من الله.

وأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ حِينَ أَمَرْنَاهُ بِرَفْعِ قواعِدِ الْبَيْتِ مَعَ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيل ـ عَلَيْهِما السَّلام ـ، أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً، فَلَا تَتَّخِذَ عِنْدَ الْبَيْتِ أَثَراً يُمْكِنُ أَنْ يُتَذَرَّعَ بِهِ لِعِبَادَةِ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِي، كَصُورَةِ إِنْسَانٍ أو مَلَكٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ: أَنْ طَهِّرْ بَيْتِيَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ مَادِّيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ، لِلطَّائِفِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَنِي بالطَّوَافِ حَوْلَ بَيْتِي، والَّذِينَ يَعْبُدُونَنِي بالصَّلَاةِ فِيهِ أَوْ عِنْدَه، الْقَائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ.

القَائِمُونَ: هُمُ الَّذِينَ يَقُومُونَ فِي الصَّلاةِ، إذ القيام أَحَدُ أَرْكَانها.

الرُّكَّعُ: جَمْعُ «رَاكِع»، وهم الَّذِينَ يَرْكَعُونَ في الصَّلَاة، إِذِ الرُّكُوعُ أَحَدُ أَرْكَانِها.

السُّجُود: جمْعُ «ساجد»، وهم الَّذِينَ يَسْجُدُونَ في الصلاة، إذ السُّجُودُ أَحَدُ أَرْكَانها، ويَكُونُ السُّجُودُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ على الْأَرْضِ، وأصل السُّجُودِ في اللُّغَة: الْخُضُوعُ والتَطَامُنُ، وغَايَتُهُ وَضْعُ الْجَبْهَةِ عَلَىٰ الْأَرْضِ.

وَأَمَرَهُ اللهُ بِأَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَقَفَ على مُرْتَفعٍ مِنَ الْأَرْضِ وَنَادَىٰ بأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ إِلَىٰ بَيْتِهِ فَحُجُّوا، فَأَوْصَلَ اللهُ أَثَرَ نِدائِهِ إِلَىٰ قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيُحَرِّكُهَا إِلَىٰ تَلْبِيَةِ نِدَاءِ اللهِ الَّذِي نَادَاهُ إِبْرَاهِيمُ بأمرِ اللهِ، فيقول: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، فَيأْتُونَ مُشَاةً رَاجِلِينَ أَوْ رُكْبَاناً، لِيُؤَدُّوا مَناسِكَهُمْ عِنْدَ بَيْتِ اللهِ الحرام.

ثانياً: وقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ (٤١)﴾:

تَمْهيد:

ظَهَرَ لِي أَنّ هَـٰذِهِ الآيَاتِ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ عَرْضِ أَدْعِيَةٍ دَعَا بِهَا إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ في مُنَاسَبَاتٍ وأَزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَقَدْ تَكُونُ مُتبَاعِدَةً أيضاً، تَذْكِيراً لِلْمُعَالَجِينَ فِي سِبَاقِ السُّورَةِ وَسِيَاقِهَا مِنْ أَهْلِ مَكَّة، بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَبُوهُمْ إِبْرَاهِيمُ وابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مِنْ نَبْذٍ للأَصْنَامِ وَمُقَاوَمَةٍ لها.

وَبَعْضُ هَـٰذِهِ الْأَدْعِيَةِ الَّتِي دَعَا بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قَدْ جَاءَ مُتَأَخِّراً في تَرْتِيب هَـٰذِهِ الآيَاتِ، مَعَ أَنَّهَا مُتقَدِّمَةٌ زَمَناً عَلَىٰ أدْعِيَةٍ جَاءَتْ بِحِكْمَةِ اللهِ مُتَقَدِّمَةً، إذْ رُوعِيَ فِي التَّرْتِيبِ تَقْدِيمُ ما هُوَ الْأَوْلَىٰ بالتَّقْدِيم، بالنِّسْبَةِ إلى المضْمُونِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْه الآيَات، فَمَا يَتَعَلَّقُ بِقَضَايا الدِّينِ الكُبْرَىٰ قُدِّمَتِ الآيَاتُ الدالَّاتُ عَلَيْهَا، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِ إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلام وخُصُوصِ ذُرِّيَّتِهِ وَوَالِدَيْهِ والمؤمنين أُخِّرَتِ الآيَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَيْهَا.

التدبّر التحليلي:

قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥)﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكِ أيُّها الْمُتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ أَدْعِيَة إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَال فيها، مُشِيراً إِلَىٰ مَكَّةَ إِذْ كَانَ فِيها عِنْدَ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ:

(١) ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾: فَدَعَا لِمَكَّةَ بالأَمْنِ، وَقَد اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام، فَجعَلَ مَكَّةَ بَلَداً آمِناً بِحُكْمِ الشَّرْعِ، وَآمِناً مِنَ الكوارِث الكُبْرَىٰ، كالزَّلَازلِ، والْبَرَاكِينِ، ونحوهما، وحِينَ أَرَادَ أَبَرَهَةُ بِمَكَّةَ شَرّاً أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ وبِجَيْشِهِ بَلَاءً عظيماً، وإهْلَاكاً شنيعاً، إِذْ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أبابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِّيلٍ، فَجعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُول.

(٢) ﴿... وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: وَنَحِّنِي وأَبْعِدْنِي، وَنَحِّ بَنِيَّ وَأَبْعِدْهُمْ عَنْ أَنْ نعْبُدَ الأَصْنَام.

وَقَدْ اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ فِي إِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلام، فكانَا نَبِيَّيْنِ وَرَسُولَيْن، وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ أحداً مِنْ أَبْنَائِهِ مِنْ «قَطُورَة» في مَدْين قَدْ كَانَ مُشْرِكاً.

أَمَّا مَنِ انْحدَرَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بَعْدَ أَبْنَائِهِ فَقَدْ ظَهَرَ فيهم الشِّرْكُ، فَظَهَرَ أَنَّ المرادَ بِأَبْنَائِهِ أَبْنَاؤُهُ الْمُبَاشِرُونَ، لَا كُلُّ ذُرِّيَّاتِهِ الذُّكور.

(٣) ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: رَبِّ إِنَّ الأَصْنَامَ والْفِتْنَةَ بِمَا تَرْمُزُ إِلَيْهِ؛ ضَلَلْنَ كَثيراً مِنَ النَّاس، فَافْتُتِنُوا بِعِبَادَتِها، تَوَهُّماً مِنْهُمْ أَنَّ عِبادَتَها تَنْفَعُهُمْ فِي مَطَالِبِ دُنْيَاهُمْ، أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

رَبِّ فَمَنْ تبِعَنِي عَلَىٰ التوحِيدِ، والْإيمانِ الصَّحِيح، واتَّبَعَنِي في الْأَعْمَال الصالِحَة الَّتِي تُرْضِيكَ مِنْ عِبادِكَ؛ فإِنَّهُ مِنْ جَمَاعَتِي ومِنْ أُمَّتِي المسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِي. وَمَنْ عَصَانِي فَكَفَرَ، أَوْ عَصَانِي بما هُوَ دُونَ الكُفْرِ؛

فإنَّكَ غفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ تعْلَمُ أَنَّ حِكْمَتَكَ تَقْتَضِي أَنْ تَغْفِرَ لَهُ، وإنَّكَ تُعاقِبُ بِعَدْلِكَ مَنْ كَفَرَ بالشِّرْكِ أَوْ بِغَيْرِهِ، إِذْ تَقْتَضِي حِكْمَتُكَ بِأَنْ تُنْزِلَ بِهِ عِقَابَكَ.

طَوَىٰ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام في اللَّفْظِ مَا يُشيرُ إلى العقاب، لِعِلْمِهِ بأنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

(٤) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

دَلَّتْ عبارة ﴿رَبَّنَا﴾ عَلَىٰ أَنَّ هـٰذَا الدُّعَاء كَانَ مَعَ إبراهيم فِيهِ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ عليهما السَّلام، ورُبَّما بَعْضُ أَوْلَادِ وَلَدِه.

- إِنِّي أَسْكَنْتُ بَعْضَ ذُرِّيَّتي مِنْ إِسْمَاعِيلَ، بوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، هُوَ وَادِي مَكَّةَ، إِذْ كَانَ خَالِياً مِنْ زَرْعٍ وأشجار كثيرة، عِنْدَ بَيْتِكَ المحرَّمِ ذِي الْحُرْمَةِ والمكانَةِ الرَّفِيعَة، والممنوع مِمَّنْ يُرِيدُ بِهِ شرًّا.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ هُنَا بَعْضَ ذُرِّيَّتي لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، وَلِيَكُونوا الْقُدْوَةَ لِلنَّاسِ في إِقَامَةِ الصَّلاةِ، وَعِبَادَتِكَ عَلَىٰ مَا يُرْضِيكَ.

فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَمِيلُ إِلَىٰ حُضُورِ بَلَدِهِمْ بِقُوَّةٍ كَمَا يَهْوِي شَيْءٌ مَا مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ هذا الدُّعاء.

وارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ، بِأَنْ تُجْلَبَ إِلَىٰ بَلَدِهِمْ مِنْ أَنواعِ الثمرات، الَّتِي تُنْتَجُ في الْبِلَادِ ذَاتِ الزُّرُوعِ والثمرَاتِ الْوَفِيرات، وقد اسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذَا الدُّعاء.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: راجياً أَوْ رَاغِباً أَنْ يَشْكُروا نِعَمَكَ الكَثِيرَة عليهم، بالإيمان، والإسلام، والأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُرْضِيكَ عَنْهم.

(٥) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾:

يُثْنِي إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على رَبِّهِ عَزَّ وَجلَّ بِهَـٰذِهِ الْآيَةِ، لِيَسْتَدِرَّ عَفْوَهُ وَغُفرَانَهُ، لِنَفْسِهِ وَلِمُشَارِكِيهِ في الدُّعَاءِ، أي: فَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا الَّتِي نُخْفِيهَا وَخَطَايَانَا الَّتِي نُعْلِنُهَا، فَعِلْمُكَ رَبَّنَا مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ.

(٦) ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾:

حَمِدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهـٰذَا الدَّعَاءِ اللهَ عَزَّ وَجلَّ، الَّذِي وَهَبَ لَهُ مَعَ الْكِبَرِ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ، وَوَلَدَهُ إِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلَام، استجابَةً لِدُعَاءِ دَعَاهُ إِيَّاه، وَأَثْنَىٰ علىٰ اللهِ بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: أي: فَإِذَا شَاءَ رَبِّي بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُجِيب دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ أجابَهُ، وَقَدْ أَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ دُعَائي.

وذَكَرَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إسْمَاعِيلَ أَوَّلاً، لِأَنَّهُ أَسْبَقُ مِيلَاداً مِن إِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلَام، وجاء عند الإِسْرَائيلِيينَ أَنَّ «إِسْحَاقَ» وُلِدَ لإبراهيم عَلَيْهِما السَّلَام من زَوْجَتِهِ «سَارَةِ» وَكَانَ عُمْرُ «إبراهيم» ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ (١٠٠ سنة) وَكَانَ عُمْرُ «سَارَة» (٩٠ سنة). أَمَّا «إِسْمَاعِيل» فَقَدْ وُلِدَ لإبراهيم عَلَيْهِما السَّلَام بَعْدَ أَنْ صَارَ عُمْرُهُ (٨٦ سنة)، فإِسْمَاعِيلُ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلَام بنحو (١٥ سنة).

(٧) ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾:

دَعَا إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ لِنَفْسِهِ بِأَنْ يَجْعَلَهُ مُقِيمَ الصَّلَاةِ المطلوبَةِ مِنْهُ إِلْزاماً أَوْ تَرْغِيباً، وَدَعَا مِثْلَ ذَلِكَ لِبَعْضِ ذُرِّيَّتِهِ، أي: للمؤمِنِينَ المسلمين المتقين منهم.

إقامَة الصَّلاة: المداومَةُ والمواظبَةُ عَلَيْهَا في أَوْقَاتِها مع الوفاءِ بِحُقُوقِها.

(٨) ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠)﴾: أي: رَبَّنَا واجْعَلْ دُعَائِي مَقْبُولاً عِنْدَكَ، تَسْتَجِيبُ مِنْهُ مَا تَشَاءُ بِحِكْمَتِكَ السَّنِيَّةِ.

(٩) ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ (٤١)﴾:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: أي: يَوْمَ تُحَاسِبُ عِبَادَكَ يَوْمَ القيامة.

وقَدْ دَعَا لِأَبِيه بالمغْفِرَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ بِمَوْتِهِ كَافراً، فَلَمَّا تبيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تبرّأَ مِنْهُ، كما سَيأْتِي تفصيلهُ إِنْ شَاءَ الله تَعالى.

ثالثاً: وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا

وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾:

قول اللهِ تَعالَىٰ:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ . . . ﴿١٢٥﴾﴾: وقرأ نافع، وابْنُ عامِرٍ: **[وَاتَّخَذُوا]**.

المثَابَةُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُثَابُ إِلَيْهِ، أي: يُرْجَعُ إِلَيْهِ مَرَّةً فَمرَّة.

وأَمْناً: أيْ: وَمَكَانَ أَمْنٍ لِمَنْ زَارَهُ أو لجأ إِلَيْهِ، والْمُرَادُ الكَعْبَةُ وَكُلُّ الْحَرَمِ المكيِّ مِنْ حَوْلِهَا.

أي: وَضَعُوا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ أَيُّهَا الْمُتَلَقُّونَ لِبَيَانِ رَبِّكُمْ؛ حِينَ جَعَلْنَا بِسُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِنَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ (= الكَعْبَةَ المشَرَّفَةَ) مَوْضِعاً يَرْجِعُ النَّاسُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَيْهِ، لِعِبَادَتِنَا عِنْدَهُ بالطَّوَافِ والصَّلَاةِ والاعْتِكَافِ وَسَائِرِ صُوَرِ الذِّكْرِ لِصِفَاتِنَا وَأَسْمَائِنَا وَأَفْعَالِنَا الْحَكِيمَة، وآيَاتِنَا المنزَّلَاتِ، وَآيَاتِنَا فِي كَوْنِنَا الَّذِي أَتْقَنَّا فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

وضَعُوا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ؛ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ وَكُلَّ حَرَمِ مَكَّةَ مِنْ حَوْلِهِ مَكَانَ أَمْنٍ لِكُلِّ زَائِرِيهِ وَقَاصِدِيهِ والمقِيمينَ فِيهِ.

واتَّخِذُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ المقِيمُونَ فِي مَكَّةَ والزَّائِرُونَ، مِنْ قُرْبٍ وَوَرَاءِ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - الَّذِي كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ حِينَ ارْتَفَعَ بِنَاءُ الكَعْبَةِ عَنْ طُولِ قَامَتِهِ، وهُوَ حَجَرٌ مُنَاسِبٌ جلَبَهُ إِسْمَاعِيلُ لِأَبِيهِ - عَلَيْهِما السَّلَام - لِيَقِفَ عليه؛ اتّخذوه مُصَلّىٰ، ولَمَّا كَانَ هـٰذَا الْحَجَرُ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ حَجْمُهُ مُصَلًّى؛ كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَفْهَمَ بِأَذْهَانِنَا مِنَ اتِّخَاذِهِ مُصَلّىٰ أَنْ نُصَلِّيَ وَرَاءَهُ أَوْ فِي مَكَانٍ نُشَاهِدُهُ فِيهِ، لِنَتَذَكَّرَ بَعْدَ الطَّوافِ شَيْخَ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامَ الصَّالِحِينَ مِنْ بَعْدِهِ، وعَمَلَهُ الْمَجِيدَ الَّذِي بَنَىٰ بِهِ

بَيْتَ اللهِ الْحَرَامَ، ونُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَنَقْتَدِيَ به في صَالحاتِ أَعْمَالِهِ، فَمِلَّةُ الإِسْلَامِ هِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، إِذْ كَانَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِين. وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**واتَّخَذُوا**]: أي: ونَفَّذَ بَعْضُ المؤمنين المسْلِمِينَ هٰذَا الأمْرَ، فاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إبراهيم مُصَلَّىٰ.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾:

﴿وَعَهِدْنَآ﴾: يُطْلَقُ الْعَهْدُ عَلَىٰ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَوْ نَهَىٰ عَنْه، ويُطْلَقُ على الوصِيَّة، وعلى غَيْرِ ذٰلِكَ، والمعْنَىٰ هُنَا: ووصَّيْنَا وأَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ بِأَمْرٍ، تفْسِيرُهُ: طَهِّرا بَيْتِيَ الْمُحَرَّمَ في مكَّة مِنَ الْأَرْجَاسِ الْمَعْنَوِيَّةِ كالشِّرْكِ وَظَوَاهِرِهِ ولوازِمِهِ وكُلِّ مَا يُوصِلُ إِلَيْهِ أَوْ يَكُونُ دَلِيلاً عَلَيْه، وَمِنَ الْأَرْجَاسِ المادِّيَّةِ، وهِيَ النَّجَاسَاتُ والْأَقْذَارُ وَكُلُّ مَا تَشْمَئِزُّ مِنْهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأَوْسَاخِ، لِئَلَّا يَتَأَثَّرَ بالشِّرْكِيَّاتِ وَبالْقَذَارَاتِ والنجاسَاتِ الطَّائِفُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ عِبَادَةً لِرَبِّهِمْ بالطَّوَافِ، والْعَاكِفُونَ الْمُلَازِمُونَ الْإِقَامَةَ حَوْلَ الْبَيْتِ، يَتَأَمَّلُونَ آلاءَ رَبِّهِمْ وَيَذْكُرُونَهُ وَيَتْلُونَ آياتِهِ. والرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ.

الرُّكَّع: جَمْعُ «الرَّاكِعِ»، وَهُوَ الَّذِي يُحْنِي ظَهْرَهُ عِبَادَةً لِرَبِّهِ تعالى.

السُّجُود: جَمْعُ «السَّاجد»، وهو الَّذِي يضَعُ رُكْبَتَيهِ ويَدَيْهِ وَجَبْهَتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ عِبادَةً لِرَبِّهِ تَعالى.

وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عِبَادَاتِ الطَّوَافِ والاعْتِكَافِ والصَّلَاةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ الْقِيَامِ والرُّكُوعِ والسُّجُودِ؛ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمَعْرُوفَةِ في الرِّسَالَاتِ الربانِيَّةِ السَّابِقَةِ لِرِسَالَةِ الإسلام.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٢٦)﴾:

سَبَقَ في النَّصّ الَّذِي من سورة (إبراهيم/ ٧٢ نزول) أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام دَعَا رَبَّهُ لِأَهْلِ مَكَّةَ الْبَلَدِ الحرَامِ بِأَنْ يَرْزُقَهُمْ مِن الثمرات، دُونَ أنْ يَجْعَلَ هـٰذَا الرِّزْقَ خَاصًّا بِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ.

أمّا في هـٰذَا الدُّعَاء فَقَدْ جاءَ فِيهِ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ﴾.

فَدَلَّ عَلَىٰ أنَّ هـٰذَا الدُّعَاءَ قَدْ جاءَ مُتَأَخِّراً زَمَناً عَنِ الدُّعَاء السَّابِق، إذْ رَأَىٰ أَنْ لَا يَدْعُوَ لِلْكافِرِينَ بالرِّزْقِ من الثمرات.

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام عن طَرِيق الوحْي: وأَرْزُقُ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، لِأَنَّهُ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء، وأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً مُدَّةَ حَيَاتِهِ المقَدَّرَةِ الْمَقْضِيَّة له، ثُمَّ أَجْعَلُهُ بالْقَهْرِ والْجَبْرِ يَوْمَ الدِّينِ مَسُوقاً إلى عَذَابِ النَّارِ، وَبِئْسَ هـٰذَا الْمَصِيرُ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ إِلَيْهِ.

أَمَّا الدُّعَاءُ لِمَكَّةَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ بالْأَمْنِ فَقَدْ كَرَّرَهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَكْرِيراً تَطَابُقِيًّا.

﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: أي: أُلْجِئُهُ بِالْجَبْرِ والْقَهْر.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٨)﴾:

﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: جمع «القاعِدَة»، وهِي من البناء أَسَاسُهُ. ورَفْعُ القواعِدِ

تَطْوِيلُهَا بالْبِنَاءِ عَلَيْهَا حَتَّىٰ يَكُونَ مَا فَوْقَهَا جِدَاراً أَوْ جُدُراً مُتَطَاوِلَةً إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ.

أي: وَضَعُوا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ أَيُّهَا المتَلَقُّونَ لآيَاتِ رَبِّكُمُ الْبَيَانِيَّة؛ وَقْتاً كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَرْفَعُ فِيهِ هُوَ وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ - عَلَيْهِما السَّلام - بِأَمْرِ اللهِ؛ بِنَاءَ الكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ عَلَىٰ الأُسُسِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي كَانَ الْبِنَاءُ الْقَدِيمُ مَبْنِيًّا عَلَيْهَا قَبْلَ انْدِثَارِهِ بِالطُّوفَانِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَنْهَدِمُ بها الْمَبَانِي، وَتَخْتَفِي بِهَا آثَارُهَا.

وَمَعَ قِيامِهِمَا بِبنَاءِ الكَعْبَةِ بانِياً لِجُدْرانِهَا، وَجَالِباً للحجارَةِ وَمُعَاوِناً فِي أَعْمَالِ الْبِنَاءِ، كَانَا يَدْعُوانِ اللهَ رَبَّهُمَا قَائِلَيْن: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا مَا نَقُومُ بِهِ مِنْ طَاعَتِك فِي بِنَاءِ بَيْتِكِ الْمُحَرَّم، وَفِي غَيْرِهِ مِن الطَّاعَات، وَتَقَبَّلْ مِنَّا مَا نَدْعُوكَ مِنْ دَعَوَاتٍ، وَمَا نَذْكُرُكَ بِهِ مِن أَذْكَارٍ وَتَأَمُّلاتٍ بالْقُلُوبِ والْأَفْكَارِ، إِنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ السَّمِيعُ دَواماً لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ، وَإِنَّكَ أَنتَ وَحْدَكَ الْعَلِيمُ دَوَاماً لِكُلِّ مَا يُعْلَمُ، ومِنْ ذَلِكَ كُلُّ أَقْوالِنَا مَهْمَا كَانَتْ خَفِيَّة، وكُلُّ أَعْمَالِنَا الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ مَهْمَا كَانَتْ خَفِيَّةً.

رَبَّنَا واجْعَلْنَا بِتَوْفِيقِكَ لَنَا، وَهِدَايَتِك لِلْمُؤَثِّرَاتِ عَلَىٰ اخْتِيَارَاتِنَا؛ مُسْلِمَيْنَ مُسْتَسْلِمَيْنِ لَكَ، نُطِيعُكَ بِفِعْلِ مَا تَأْمُرُنَا بِهِ، وَتَرْكِ مَا تَنْهَانَا عَنْهُ، وَنُؤَدِّي مَا تُحِبُّ مِنْهَا بِرَغْبَةٍ وَحُبٍّ لِمَا نُؤَدِّيه، فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَبالْيَوْم الْآخِرِ وَمَا أَعْدَدْتَ لِلْمُطِيعِينَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ مِنْ ثَوَابٍ جزِيلٍ، وَمَا أَعْدَدْتَ فِيهِ لِلْعُصَاةِ الْمُذْنِبِينَ مِنْ عِقَابٍ بالْعَدْلِ.

رَبَّنَا وَاجْعَلْ بَعْضَ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَوْجَبْتَ عَلَىٰ عِبَادِكَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، بتَحْبِيبِكَ الإِسْلَامَ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ، وبِتَزْيِينِهِ فِي نُفُوسِهِمْ.

رَبَّنَا وَأَرِنَا مَنَاسِكِنَا وَهِيَ أَعْمَالُ عِبادَتِنَا لَكَ عِنْدَ بَيْتِكَ المحَرَّمِ، بِحَجٍّ

أَوْ عُمْرَةٍ أَوْ غَيْرِهِمَا، رُؤْيَةً بَصَرِيَّةً حَتَّىٰ نُشَاهِدَهَا وَنُقَلِّدَهَا، فالإِرَاءَةُ الْبَصَرِيَّةُ أَيْسَرُ طُرُقِ الْمَعْرِفَةِ لِلْأَشْيَاءِ الْعَمَلِيَّة، ولهٰذَا جَاءَ فِي البيان النَّبويّ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي ـ خذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ».

الْمَنَاسِكُ: الْعِبَادَاتُ جمع «مَنْسَك»، واشْتَهَرَ إِطْلَاقُ المناسِكِ علىٰ العباداتِ الخاصَّةِ بالْحَجِّ والْعُمْرَةِ، ومِنْهَا الذَّبَائِحُ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا إلىٰ الله، لِيَأْكُلَ مِنْهَا الفقراءُ والمساكِينُ وخَدَمُ الْقَوْمِ، وغَيْرُهُمْ.

رَبَّنَا: وَتُبْ عَلَيْنَا بالْعَفْوِ والْغُفْرَانِ وفُيُوضِ عَطَاءَاتِكَ.

تَابَ: هُوَ في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ «رَجعَ»، فَتَوْبَةُ الْعَبْدِ تَكُونُ بِعَزْمِهِ على الرُّجُوعِ إلى طَاعَةِ رَبِّهِ، وَتَوْبَةُ اللهِ عَلَىٰ عبْدِهِ تكُونُ بِقَبُولِ تَوْبَةِ عَبْدِهِ وَرُجُوعِهِ إلى فُيُوضِ عَطَاءَاتِهِ، وإِعَادَة عَبْدِهِ إلى مَنَازِلِ القرب.

﴿... إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾: أي: إِنَّكَ رَبَّنَا أَنْتَ وَحْدَكَ كَثِيرُ التَّوْبَةِ عَلَىٰ عِبادِكَ، كَثِير الرَّحْمَةِ بِهِمْ.

قول الله تَعَالَىٰ يُتَابعُ بَيَانَ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهُمَا يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾:

أدْرَكَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّ المجتمَعَ الْمَكِّيَّ الَّذِي يَأْخُذُ عَنْهُمَا تَعَالِيمَ دِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، عَقَائِدَهُ وقواعِدَهُ وَمَا يَجِبُ فعله أو يُسْتَحْسَنُ، وَمَا يَجِبُ تَرْكُهُ أَوْ يُسْتَحْسَنُ؛ لَا يَكْفِي لِنَقْله والْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ وتَتَابُعِ تَبْلِيغِهِ لِلْأَجْيَالِ، وَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَىٰ الْعَمَلِ به.

فَقَالَا في دُعَائِهِما: رَبَّنَا وابْعَثْ فِي الْأُمَّةِ الكَبِيرَةِ الَّتِي سَوْفَ تَعْظُمُ فِي الْأَرْضِ الْعَرَبِيَّةِ، قَاعِدَتُهَا ذُرِّيَّةُ إِسْمَاعِيل عَلَيْهِ السَّلَام؛ رَسُولاً مِنْهُمْ، وَهٰذَا

الرَّسُولُ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ كِتَابِكَ الَّذِي سَتُنْزِلُهُ عَلَيْهِ، بِحَسَبِ سُنَّتِكَ فِي جَمِيعِ رُسُلِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ الَّذِي سَتُنْزِلُهُ، لِيَحْفَظُوهُ، وَيُحْسِنُوا آدَاءَهُ، وَلِيَفْهَمُوا مِنْهُ مَا يَتَعَلَّقُ بِعَقَائِدِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ، وَلِيَكْتُبُوهُ، وَلِيَنْقُلَهُ جِيلٌ إِلَىٰ جِيلٍ من بَعْدِهِ.

ويُعَلِّمُهُمُ الحِكْمَةَ: وهِيَ كُلُّ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ قَوْلٍ، وفِعْلٍ، وَخُلِقٍ، وإِقْرَارٍ. وأَصْلُ الْحِكْمَةِ وَضْعُ الأشياء في مَوَاضِعِهَا الْمُلَائِمَةِ لها.

وَيُزَكِّيهِمْ بِوَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ تَزْكِيَةً تُطَهِّرُهُمْ مِنَ الْأَرْجَاسِ النَّفْسِيَّة والْأَرْجَاسِ السُّلُوكِيَّة، وَتَزْكِيَةً تُنَمِّيهِمْ بالْعَمَلِ بِمَرَاضِي اللهِ تعالى، وبالْتِزَامِ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ والنِّيَّاتِ والْأَعْمَال الصالحة الظاهِرَةَ والْبَاطِنَة.

وفي آخِرِ دُعَائِهِمَا أثْنَيَا عَلَىٰ رَبِّهِما بِقَوْلِهِما:

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾: أي: إِنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ رَبَّنَا الْقَدِيرُ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ، الْغَالِبُ لِكُلِّ قُوَّةٍ مُضَادَّةٍ أَوْ مُعَارِضَةٍ، الْحَكِيمُ فِي اخْتِيَارَاتِكَ فِي كُلِّ مَا تُقَدِّرُهُ وَتَقْضِيهِ، فَنَحْنُ نَدْعُوكَ وَنُفَوِّضُ لَكَ لِتَخْتَارَ بِحِكْمَتِكَ مَا تَشَاءُ.

وَقَدْ حقَّقَ اللهُ دُعَاءَهُمَا فَبَعَثَ مُحَمّداً ﷺ، مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ـ عليهما السلام ـ، فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، وَجَعَلَهُ خاتم الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِين، وَرَسُولاً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

رَغِبَ عَنِ الشيء: أي: تَرَكَهُ زَاهِداً فِيهِ أَو كَارِهاً لَهُ، أَوْ مُنْكِراً، ضِدُّ: رَغِبَ فِي الشَّيْءِ، أَيْ: أَرَادَهُ مُحِبًّا له، أَوْ مُعْجَباً بِهِ.

سَفِهَ نَفْسَهُ: أي: حَمَلَهَا عَلَىٰ السَّفَهِ (وهُو نُقْصَانُ الْعَقْلِ والطَّيْشُ)، بِاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ، والتقالِيدِ الْعَمْيَاء، أو عَلَىٰ تَضْمِينِ فِعْلِ «سَفِهَ» مَعْنَىٰ فِعْلِ «خَسِرَ»، والتَّقْدِير: سَفِهَ خَاسِراً نَفْسِهِ.

فالمعْنَىٰ: وَمَنْ يَتْرُكُ كَارِهاً أَوْ مُنْكِراً مِلَّةَ إبراهيم الْقَائِمَةَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ، وفِعْلِ الْخَيْرَاتِ والْتِزَام الْفَضَائِلِ؛ إِلَّا مَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ «السَّفَاهَةِ باتِّبَاعِهِ أَهْوَاءَ نَفْسِهِ وَتَقَالِيدَهُ الْعَمْيَاء؟!!.

اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ هٰذَا الإنْسَانِ الطَّائِشِ نَاقِصِ الْعَقْلِ الَّذِي يَخْتَارُ بِإِرَادَتِهِ الحُرَّةِ أَنْ يَكُونَ سَفِيهاً.

وأَثْنَىٰ اللهُ عَلَى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأَنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - اصْطَفَاهُ بالنُّبُوَّة والرِّسَالَةِ لِصِفَاتِهِ الكَمَالِيَّةِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ هٰذَا الاصْطِفَاء وجَعَلَهُ إمَاماً، وجَعَلَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ الْكَامِلِينَ فِي صِفَاتِ الصَّلاح.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُتَابِعاً الحديثَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

الْإِسْلَام: الانْقِيَادُ والْخُضُوعُ والطَّاعَةُ لِلْأَوامِرِ والنواهي.

أي: وَضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمْ أَيُّهَا الْمُبَلَّغُونَ بَيَانَاتِ رَبِّكُمْ فِي آيَاتِ كِتَابه جَوَابَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: «أَسْلِمْ». فَكَانَ جَوَابُهُ السَّرِيعُ دُونَ انْتِظَارٍ وَلَا تَأَخُّرٍ: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» مُنْقَاداً خاضِعاً مُطِيعاً لِأَوَامِره وَنَوَاهِيهِ.

وفي هٰذَا تَوْجِيهٌ لِلَّذِينَ يَتَفَاخَرُونَ بِأَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، ولِلَّذِينَ يَعْتَزُّونَ بِأَنَّهُمْ عَلَىٰ مِلَّتِهِ، أَنْ يَتَّبِعُوهُ فَيُسْلِمُوا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مُنْقَادِينَ، خَاضِعِينَ، مُطِيعِينَ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيه، الَّتِي يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهَا رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ خاتم رُسُلِهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، الَّذِي هُو مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَالَّذِي

بَعَثَهُ اللهُ بِحِكْمَتِهِ، واسْتَجابَ بِبَعْثَتِهِ الدُّعاءَ الَّذي دَعَا به إبْراهِيمُ وإسْمَاعِيلُ عَلَيْهِما السَّلَام، الَّذِي قَالَا فِيهِ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

وسَبَقَ تَدَبُّر هَـٰذِهِ الآيَةِ آنِفاً.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديث عَنْ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانُ وَصِيَّةِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لِبَنِيهِ بِأَنْ يُسْلِمُوا للهِ رَبِّ الْعَالَمِين، وَوَصِيَّةِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَام لِبَنِيهِ بِأَنْ لا يُشْرِكُوا باللهِ في عباداتِهِمْ إلَـهاً آخر، وبأَنْ يَكُونُوا للهِ وَحْدَهُ مُسْلِمِينَ مُنْقَادِينَ خاضِعِينَ مُطِيعينَ.

أي: وَوَصَّىٰ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنِيهِ بِأَنْ يُسْلِمُوا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فالضَّميرُ في ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ يَعُودُ عَلَىٰ الْقَضِيَّةِ في عبارَة: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فَهِيَ الْقَضِيَّةُ الْعُظْمَىٰ مِنْ قَضَايا السُّلُوكِ الدِّيني في رحْلَةِ امْتِحَانِ اللهِ النَّاسَ في الحَياةِ الدُّنْيا.

فَقَالَ كُلٌّ مِنْ إبراهِيمَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِما السَّلَام لِبَنِيهِ: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

أي: يَا أَبْنَائِي إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اخْتَارَ لَكُمْ ولِجَمِيعِ النَّاسِ بالاصْطِفَاءِ؛ عَقَائِدَ الإيمانِ وأَرْكَانَ الإسْلام وَسَائِرَ التَّكَالِيفِ مِنَ الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي، فَآمِنُوا بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا، وأَسْلِمُوا لَهُ مُنْقَادِينَ، خَاضِعِينَ، مُطِيعِينَ لأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، واسْتَمِرُّوا عَلَىٰ إيمَانِكُمْ وإسْلامِكُمْ

طَوَالَ حَيَاتِكُمْ، فَلَا تُبَدِّلُوا وَلَا تُغَيِّرُوا مَا دَامَتْ لَكُمْ أَنْفَاسٌ تَتَنَفَّسُونَها فِي الْحَيَاةِ الدنْيا، وَبِذَلِكَ لَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُؤْمِنُون مُسْلِمُون.

جَاءَتِ الْكِنَايَةُ عَنْ هٰذَا بِعِبَارَةِ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: أي: فَلَا تَجْعَلُوا الْمَوْتَ يَنْزِلُ بِكُمْ إِلَّا فِي حَالَةِ كَوْنِكُمْ مُسْلِمِينَ، وَقَدْ جَاءَ الاسْتِغْنَاءُ بِعِبارَةِ: ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ عَنِ التَّصْرِيحِ بِأَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، لِأَنَّ الإِسْلَامَ الصَّحِيحَ المقْبُولَ عِنْدَ اللهِ، لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ قَاعِدَةِ إِيمَانٍ صَادِقٍ صَحِيحٍ.

واسْتَوْثَقَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَبْنائِهِ عَنْ طَرِيق السُّؤَالِ مِنْهُ والجوابِ مِنْهُمْ، بَعْدَ أَنْ وصَّاهُمْ:

قال يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِيه: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ولِمَنْ تُسْلِمُونَ؟.

قالُوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ إِلَهاً واحِداً لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ مُنْقَادُونَ خَاضِعُونَ مُطِيعُون.

وأَدْخَلُوا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضِمْنَ آبَائِهِ مَعَ أَنَّهُ عَمُّهُ لِكَثْرَةِ إطلاقِ لفظة «الْأَب» عَلَىٰ الْعَمّ احْتِراماً وَتَوْقِيراً، وَلِدُخُولِهِ ضِمْنَ عُمُومِ الْآبَاءِ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ.

وَلِلتَّنْوِيعِ في الْأُسْلُوبِ الْبَيَانِي جَاءَ التَّعْبِيرُ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾، بَعْدَ أَنْ كَانَ الْأُسْلُوب: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾، أي: بَلْ مَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ الْمَوْتُ، وَشَعَرَ بِأَنَّهُ فِي السَّاعَاتِ الْأَخِيرَةِ مِنْ عُمْرِهِ، فَاسْتَوْثَقَ مِنْ بَنِيهِ عَمَّنْ يَعْبُدُونَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَأَبَانُوا لَهُ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مُوَحِّدُونَ مُسْلِمُونَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

«أَم» بمعنى «بل» مع استفهام، والمراد بالاستفهامِ النفي مع التوبيخ على الافتراء.

وَفِي بَيَانِ هَـٰذِهِ الحادِثَةِ تَوْبِيخٌ ضِمْنِيٌّ لِلْيَهُودِ المفْتَرِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيل وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والْأَسْبَاط عَلَيْهِم السَّلام كَانُوا يَهُوداً. ولِلنَّصَارَىٰ المفْتَرِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ كَانُوا نَصَارَىٰ.

هَـٰذِهِ فِرْيَةٌ يُكَذِّبُهَا التَّارِيخُ، ويُكَذِّبُهَا الْوَاقِعُ، فالْيَهُودِيَّةُ والنَّصْرَانِيَّةُ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَعْدَهُمْ بِقُرُون كَثِيرةٍ، فَكَيْفَ تَهُونُ عَلَيْهِمُ الوقاحَةُ الْمَفْضُوحَةُ فَيَزْعُمُونَ أَنَّ هَـٰؤُلَاء كَانُوا هُوداً أَوْ نَصارَىٰ؟!!.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُخَاطِبُ مُعَاصِرِي التَّنْزِيلِ مِنَ الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ، بِشَأْنِ افْتِرَائِهِمْ عَلَىٰ مَنْ سَبَقَ مِن رُسُلِ اللهِ، الَّذِينَ كَانُوا في التَّارِيخِ الْبَشرِي قَبْلَ الْيَهُودِيَّةِ والنَّصْرَانِيَّة:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾:

أي: تِلْكَ الْجَماعَةُ مِنَ الرُّسُلِ الصَّالِحِينَ أُمَّةٌ قَدْ مَضَتْ وَذَهَبَتْ مَعَ انقضاءِ الْقُرُونِ الَّتِي كَانَتْ فيها، وهَـٰذِهِ الأمَّةُ الصَّالِحَةُ الْفَاضِلَةُ المصْطَفَاةُ لَا يَنْفَعُكُمُ الانتِمَاءُ إِلَيْهَا ما لَمْ تَعْمَلُوا مِثْلَ أعْمَالِهَا، أَوْ تَقْتَدُوا بها، أَوْ تُسْلِمُوا مِثْلَ إسْلَامِهَا، وتُؤْمِنُوا مِثْلَ إيمانها.

هَـٰذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي سَلَفَتْ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، لَهَا مَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ وعَمَلٍ صَالح وجِهادٍ في سَبِيلِ رَبِّها، وأنْتُم أَيُّهَا المنْتَمُونَ إِلَيْهِمْ، والمفتَخِرُونَ بِهِمْ، والمفْتَرُونَ عَلَيْهِم؛ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ مِنْ أعْمالٍ صَالِحَةٍ وأعْمَالٍ سَيِّئَة، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ يَوْمَ الدِّينِ في مَوْقِفِ الحسَاب وفَصْلِ الْقَضَاءِ؛ عَنْ أَعْمَالِكُمْ أَنْتُمْ، وتُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا، لِأَنَّ المسْؤولِيَّةَ عِنْدَ رَبِّكُمْ مَسْؤُولِيَّةٌ شَخْصِيَّة، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَلَا تَنْفَعُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ صَالِحَاتُ أَعْمالِهِمْ، فَاطْرَحُوا الْأَوْهَامَ، واعْلَمُوا حُدُودَ مَسْؤُولِيَّاتِكُمْ واعْمَلُوا ضِمْنَ حُدُودِ دَوَائِرِها.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ الْحَدِيث عَنْ افْتِرَاءَاتِ الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ

وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾»:

أي: وقَصَرَ الْيَهُودُ الْهِدَايَةَ عَلَىٰ اتِّبَاعِ الْيَهُودِيَّةِ الْمُحَرَّفَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ، فَقَالُوا لِغَيْرِ الْيَهُودِ مِنْ عَرَبٍ وغَيْرِ عَرَبٍ: كُونُوا هُوداً تَهْتَدُوا.

هُود: جَمْعٌ، مُفْرَدُهُ «هَائِد»، أي: كُونُوا يَهُوداً.

وقَصَرَ النَّصَارَىٰ الْهِدَايَةَ عَلَىٰ اتِّبَاعِ النَّصْرَانِيَّةِ الْمُحَرَّفَةِ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ الْقُرْآن، فقالوا لِغَيْرِ النَّصَارَىٰ مِنْ عَرَبٍ وغَيْرِ عَرَبٍ: كُونُوا نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا.

فادَّعَىٰ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنَّهُ عَلَىٰ الْحَقّ، وأَنَّ الْهِدَايَةَ مُنْحَصِرَةٌ باتِّبَاعِ الْمِلَّةِ الَّتِي هُو عَلَيْهَا، مَعَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُحَرَّفٌ دَخَلَ فِيهِ بَاطِلٌ كَثِيرٌ جدّاً، وَلَمْ يَبْقَ كَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِم السَّلام، وَلَا كَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ عِيسَىٰ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِه عَلَيْهِ السَّلام في آخِرِ عُهُودِ بَنِي إِسْرَائِيل.

فجاء التكليفُ الرَّبَّانِيُّ للرَّسُول مُحَمَّد ﷺ، ولِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ وَدِينِ اللهِ الحقِّ مِنْ أُمَّتِهِ؛ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

«... قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾»:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ وَيَا كُلَّ دَاعٍ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَى دِينِ اللهِ الْحَقِّ خَاتِمَةِ رِسَالَاتِ اللهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ: لَا نَكُونُ يَهُوداً وَلَا نَكُونُ نَصَارَىٰ عَلَىٰ مَا فِي هَاتَيْنِ الْمِلَّتَيْن مِنْ تَحْرِيفٍ وتَبْدِيلٍ دَخَلَ إِلَيْهِمَا، وَلَمْ يَبْقَيَا عَلَىٰ أُصُولِهِمَا الصَّحِيحَةِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَلْ نَكُونُ مُتَّبِعِينَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيم - عَلَيْهِ السَّلَام - حَالَةَ كَوْنِهِ حَنِيفاً مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْأَدْيَانِ الْعَوْجَاءِ الْمُجَافِيَةِ لِصِرَاطِ الحَقِّ والرُّشْدِ والْهُدَىٰ، ومُلْتَزِماً صِرَاطَ اللهِ المسْتَقِيم، وَمَا كَانَ

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ المشْرِكِينَ ذَوِي أخفِّ دَرَكاتِ الشِّرْكِ في رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَلَا فِي إلَهِيَّتِهِ.

إِنَّ الْمِلَلَ الْمُحَرَّفَةَ عَنْ أُصُولِهَا الصَّحِيحَةِ قَدْ صَارَتْ بالتَّحْرِيفِ باطِلَةً، وَهِيَ لَا تَخْلُو مِنْ شِرْكٍ في إلَهِيَّةِ اللهِ، بِمَا دَخَلَ فِيها مِنِ افْتِراءٍ عَلَىٰ اللهِ في الْأَحْكَامِ، وَأَمَّا الْمِلَلُ الْوَضْعِيَّةُ فَالشِّرْكُ فِيهَا وَاضِحٌ فِي رُبُوبِيَّةِ اللهِ أَوْ فِي إلَهِيَّتِهِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ بِطَاعَةِ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَجَاءَ التَّكْلِيفُ الرَّبَّانِيُّ لِسَائِرِ المسْلِمِينَ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾:

إِنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ الْإِيمَانُ الْحَقُّ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ وبأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا؛ مَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِالْإِيمَانِ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ الصادقين عَلَيْهِم السَّلَام، وَجَاءَ فِي هَـٰذِهِ الْآيَةِ ذِكْرُ بَعْضِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ كُتُباً أَوْ صُحُفاً وَتَعَالِيمَ وَبَيَانَاتٍ، وَجَاءَ فِيها ذِكْرُ سَائِرِ النَّبِيِّينَ إجْمَالاً.

وجاء في الآية التَّنْوِيعُ في التَّعْبِير في «وَمَا أُنزِلَ» و«مَا أُوتِي» بِفَنِّيَّةٍ بَلاغِيَّةٍ لإِثَارَةِ الانْتِباه، والمؤدَّىٰ واحِدٌ، فَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وعيسَىٰ والنَّبِيُّونَ عَلَيْهِم السَّلَام قَدْ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ لَدُنِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الحكِيمِ.

وأَرَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأَوْلَادِ أَوْلَادِهِ تَسلْسُلاً مع الْأَجْيَال، فَقَدْ قَطَّعَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً، وَكَانَ فِيهِمْ رُسُلٌ وأَنْبِيَاء، فَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ في سورة (الْأَعْرَاف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ ... ١٦٠﴾.

ولَا أَرَىٰ أَنَّ اسْمَ «الْأَسْبَاطِ» خَاصٌّ بأوْلَادِ يَعْقُوبَ الاثْنَي عَشَرَ، فَقَدْ أَوْقَعَ هٰذا التَّخْصِيصُ فِي وَهْمِ أَنَّ كُلَّ هٰؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ أَنْبِيَاءُ، وَلَا دَلِيلَ عَلَىٰ نُبُوَّةِ غَيْرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَرَسُول.

قولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لَا نُفرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ وَغَيْرِهِ مِنْهُمْ، طُوِيَتْ عبارة: «وَغَيْرِهِ» إيجازاً، لِسُهُولَةِ اسْتِخْرَاجِهَا بِقَلِيلٍ مِنَ التَّأَمُّلِ، إِذْ لَفْظُ «أَحدٍ» مُفْرَدٌ غَيْرُ قَابِلٍ للتَّفْرِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.

والْمُرَادُ بِنَفْيِ التَّفْرِيقِ: نَفْيُ التَّفْرِيق في الإيمَانِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُسَاوِياً لِلْإِيمَانِ بِغَيْرِهِ مِنْهُمْ، إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ مُصْطَفَى مِنَ اللهِ.

أَمَّا فِي التَّفْضِيلِ فَقَدْ فَضَّلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بَعْضَ الرُّسُلِ وَبَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَىٰ بَعْض، وَكَذٰلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَمِنْهَا الاتِّبَاعُ في الشَّرَائِعِ والْأَحْكَام، إِذْ نَحْنُ مُكَلَّفُونَ أَنْ نَتَّبعَ آخِرَ تَنْزِيلٍ رَبَّانِيٍّ، وَهُوَ مَا أُنْزِلَ عَلَىٰ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ والمرسَلِينَ ﷺ، إِذَا كَانَ مَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مُخَالِفاً لِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولٍ قَبْلِهِ، فَمَا عَلَيْنَا إِلّا أَنْ نُؤْمِنَ بِذَلِكَ الرَّسُول إيماناً اعْتِقَادِيًا، وأَنْ نَعْمَلَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ لِرُسُلِ اللهِ وأَنْبِيائِهِ ﷺ.

وَجَاءَ التَّعْلِيقُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ مَا جَاءَ في الآيَتَيْنِ (١٣٥) و(١٣٦) بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾:

أي: فَإِنْ آمَنَ الْمَقْصُودُونَ بالْعِلَاجِ في هٰذِهِ الآيَاتِ بِمِثْلِ مَا أَعْلَنْتُمُ الإيمَانَ بِهِ كَمَا عَلَّمْنَاكُمْ؛ فَقَدِ اهْتَدَوْا، إِذ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ دُخُولَ أَوَّلِ أَبْوابِ الْهِدَايَةِ، وَهُوَ بَابُ الْإِيمانِ الصَّادِقِ الصَّحِيح.

وإِنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مُبْتَعِدِينَ غَيْرَ مُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَةِ الإيمان، فَمَا هُمْ إِلَّا فِي شِقَاقٍ.

الشِّقَاقُ: الْعَدَاوَةُ والْخِلَافُ، ويَلْزَمُ عَنْهُمَا تَدْبِيرُ الْمَكَايِدِ الْحَرْبِيَّة. يُقَالُ لغة: «شَاقَّهُ، مُشَاقَّةً، وشِقَاقاً»، أي: خالَفَهُ وعَادَاه.

قَال الزَّجَّاج: الشِّقَاقُ: العداوة بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، والْخِلَافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، سُمِّيَ ذَلِكَ شِقَاقاً: لِأَنَّ كُلَّ فَريقٍ مِنْ فِرْقَتَي الْعَدَاوَة قَصَدَ شِقًّا، أي: نَاحِيَةً غَيْرَ شِقِّ صَاحِبِهِ.

ولَمَّا كَانَ مِنْ لَوَازِمِ الشِّقَاقِ في الْعَلَاقَاتِ الْبَشَرِيَّةِ تَدْبِيرُ المَكَايِدِ؛ وَعَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمِنِينَ بِأَنَّهُ سَيَكْفِيهِمْ مَكَايَدَ أَعْدَائهِمْ وشُرُورَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿... فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾، أي: السَّمِيعُ لِمَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ ضِدَّكُمْ، الْعَلِيمُ بِمَا يُدَبِّرُونَ مِنْ أَعْمَالٍ يَقْصِدُونَ بِهَا الإِضْرَارَ بِكُمْ، وَمُقَاوَمَةَ دَعْوَتِكُمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّكُمْ، وإلى صِرَاطِهِ المسْتَقِيم. والسَّمِيعُ لِدُعَائِكُمْ أَنْ يَكْفِيَكُمْ مَكَايِدَهُمْ وَشُرُورَهُمْ، والْعَلِيمُ بِمَا تَقُومُونَ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ تُرْضِيهِ، ومِنْهَا مُجَاهَدَتُكُمْ فِي الدَّعْوَةِ إلى دِينِهِ الحقّ، وإِلَىٰ صِرَاطِهِ المسْتَقِيم.

وجاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) نَظِيرُ مَا جَاءَ في الآيَة (١٣٦) مِنْ سورة (البقرة/ ٨٧ نزول) وسَبَقَ تَدَبُّرها، أَمَّا التعليق الرَّبَّانِيُّ فِي سُورَة (آل عمران/ ٨٩ نزول) فَهُوَ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

ومعلومٌ أنَّ الإِسْلَامَ للهِ مِلَّةُ إِبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وهُو الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ أَتْبَاعَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الفَصلُ العَاشر

أَهلُ الكِتَاب ومَزَاعِمُهُم بِشَأنِ إِبراهيم عَلَيهِ السَّلَام

زَعَمَ الْيَهُودُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَهُودِيّاً، وَزَعَمَ النَّصَارَىٰ أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا، وَهُمَا زَعْمَانِ بَاطِلَانِ سَاقِطَانِ مُنَاقِضَانِ للواقِعِ التَّارِيخيّ، فالْيَهُودِيَّة مَنْسُوبَةٌ إِلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام سَابِقٌ لَهُ فِي التَّارِيخِ بأَكْثَرَ مِنْ (٤٠٠ سنة)، والنصرانِيَّةُ مَنْسُوبَةٌ إِلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ سَابِقٌ لَهُ فِي التَّارِيخ بأَكْثَر من (١٨٠٠ سنة)، ومَدُّوا أُكْذُوبَتَهُمْ هَـٰذِهِ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، والأَسْباط عَلَيْهِم السَّلَام.

أَفَيُنْسَبُ السَّابِقُ فِي تَارِيخِ الوجودِ إِلَى اللَّاحِقِ؟!!. إِنَّ هـٰذَا لَأَمْرٌ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ بَاطِلٍ مَفْضُوحٍ وَوَقَاحَةٍ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ أَخَسِّ النَّاسِ وأَرَاذِلِهِمْ.

■ وَقَدْ خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْيَهُودَ والنّصارَىٰ فِي هـٰذَا الشَّأنِ بِقَولِهِ تَعَالَىٰ في سُورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾:

فَعلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَه ﷺ وَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ إِقْنَاعَهُم بأمْرَيْنِ:

الأَمْرُ الأَوَّل: أَنَّ اللهَ أَبَانَ فِيمَا أَنْزَلَ فِي الْقُرآنِ عَلَىٰ خاتم رُسُلِهِ ﷺ؛ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مِنْ شيعَةِ نُوحٍ عَلَيْهِما السَّلَام، وَكَانَ أُمَّةً وَحْدَهُ، وَكَانَ حَنِيفاً مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْمِلَلِ الباطِلَةِ، وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ في يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِهِ، بَلْ كَانَ مُسْلِماً للهِ فِي كُلِّ أُمُورِهِ، مُنْقَاداً لِرَبِّهِ تعالى، خاضِعاً لَهُ، مُطِيعاً لَهُ فِي كُلِّ أَوَامِرِهِ وَنواهِيهِ.

فَهَلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ فِي

كِتَابِهِ بِشَأْنِهِ، وَبِشَأْنِ الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ، وَمِلَّتَيْهِمَا، أَمِ اللهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ، والْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً؟؟.

الْأَمْرُ الثَّانِي: إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ وُجُودُه فِي التَّارِيخِ؛ أَسْبَقَ مِنْ وُجُودِ الْيَهُودِ، وَمِنْ وُجُودِ مِلَّةٍ تُسَمَّىٰ الْيَهُودِيَّة، وأَكْثَرَ سَبْقاً مِنْ وُجُودِ النَّصَارَىٰ، ومِنْ وُجُودِ مِلَّةٍ تُسَمَّىٰ النَّصْرَانِيّة، فَكَتَمْتُمُ الشَّهَادَةَ بِهٰذِهِ الحقيقَةِ الَّتِي لَا تَخْفَىٰ، وادَّعَيْتُمْ نَقِيضَهَا، فَزَعَمْتُمْ أَنَّ إِبراهيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - السَّابِقَ فِي الْوُجُودِ تَابِعٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْيَهُودِ، أَوْ تَابِعٌ مِنْ أَتْبَاعِ النَّصَارَىٰ، فَأَنْتُمْ بِهٰذَا قَدِ ارْتَكَبْتُمْ كَبِيرَةً مِنْ كَبَائِرِ الظُّلْم، الَّذِي هُوَ مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْم، لِمَا فِيهِ مِنِ افْتِرَاءٍ عَلَىٰ اللهِ سبحانه، وَكَتْمِ شَهَادَةٍ هِيَ عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ رَبِّكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ كُتُبٍ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾؟، إِنَّهُ قَدْ يُوجَدُ مُشَارِكٌ لَهُ فِي دَرَكَةِ الظُّلْم، وَلَكِنْ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنْهُ، فالظُّلْمُ المتَعَلِّقُ بِحُقُوقِ ذَاتِ اللهِ أَوْ صِفَاتِهِ أَوْ أَفْعَالِهِ أَوْ أَخْبَارِهِ أَوْ بَيَانَاتِهِ؛ مِنْ دَرَكَةٍ سَحِيقَةٍ سَوَاء.

﴿... وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾: أي: فَتَرَقَّبُوا عِقَابَهُ الشَّدِيدَ عَلَىٰ ظُلْمِكُمُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْم، وَقَدِ ادَّخَرَهُ لَكُمْ فَهُوَ نَازِلٌ بِكُمْ لَا مَحالَة يَوْمَ الدِّين، إِلَّا إِذَا تُبْتُمْ، وآمَنْتُمْ بالْحَقِّ، وَسَأَلْتُمْ رَبَّكُمْ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ.

▪ ولَمَّا اسْتَمَرَّ الْيَهُودُ والنَّصارَىٰ يُرَدِّدُونَ أُكْذُوبَتَهُمْ بِشَأْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، فالْيَهُودُ اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ تَرْدِيدِ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا، والنصارَىٰ اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ تَرْدِيدِ أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا؛ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ قَوْلَهُ فِي سُورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ وكُلَّ داعٍ إِلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَهْلِ الكِتَاب:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا

مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: نِداءٌ يُوجَّهُ لِلْيَهُودِ ولِلنَّصارىٰ، فَهُمُ الْمَعْرُوفُونَ فِي النَّاسِ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بأَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتاب.

﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾؟:

أي: لِمَ تُجادِلُونَ فِي إِبْراهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ مُقَدِّمِينَ فِي جِدالِكُمُ الْحُجَجَ الْباطِلَةَ السَّاقِطَةَ، إِذْ يَزْعُمُ الْيَهُودُ مِنكُمْ أَنَّهُ كانَ يَهُودِيًّا، وَيَزْعُمُ النَّصارىٰ مِنْكُمْ أَنَّهُ كَانَ نَصْرانِيًّا، والحالُ أَنَّ التَّوْرَاةَ الَّتِي يَعْتَبِرُها الْيَهُودُ مَصْدَرَ الْيَهُودِيَّة، والْإِنْجِيلَ الَّذِي هُوَ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ للنَّصرانِيَّة؛ لَمْ يُنزِلْهُما اللهُ عَزَّ وَجلَّ إلَّا مِنْ بَعْدِ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ؟!، فَما قِيمَةُ مُجادَلَتِكُمْ وَمُحاجَّتِكُمْ بالْحُجَجِ الْباطِلَةِ السَّاقِطَةِ؟!.

كُفُّوا يا أَهْلَ الكِتابِ عَنْ هٰذا الْهُراءِ، وَدَعُوا هٰذِهِ السَّفاهَة.

﴿... أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾: أي: أَفَتُصِرُّونَ عَلَىٰ الْبُهْتانِ الْمُبِينِ المفْضُوحِ، فَلَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيًّا حقِيقَةَ ما أَنْتُمْ تَفْتَرُونَهُ، وَلَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً إِرادِيًّا نُفُوسَكُمْ عَنِ اتِّباعِ الْهَوَىٰ، والمكابَرَةِ في الباطِلِ بِعنادٍ وَوَقاحَةٍ وَسَفَاهَة؟!!.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾: «ها» حَرْفُ تَنْبِيهٍ. «أَنْتُمْ» مُبتدأ.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: «ها» حَرْفُ تَنْبِيهٍ. «أُولاءِ» اسْمُ إشارَةٍ خَبَرٌ لِلْمُبْتَدأ.

﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أي: جادَلْتُمْ جِدالاً بِالْبَاطِلِ فِيمَا لَكُمْ بِهِ أَصْلُ عِلْمٍ يُسَوِّغُ لَكُمْ أَنْ تُجادِلُوا بِشَأْنِهِ، مُتَّخِذِينَ ذَرائِعَ تُمَكِّنُكُمْ مِنْ أَنْ تَرَاوِغُوا بِهَا، مُبْتَعِدِينَ عَنِ الْحَقِّ، وأَنْ تَضَعُوا عَلَيْهَا طِلاءً مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ، وأَنْ تُؤَوِّلُوا بِهَا نُصُوصَ التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ كما يَحْلُو لَكُمْ وَيُحَقِّقُ لَكُمْ مَا تُرِيدُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وزِينَتِهَا.

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؟!: أي: فَلِمَ تَتَّخِذُونَ الْجِدَالَ وَتَقْدِيمَ الْحُجَجِ الْبَاطِلَةِ دَيْدَنَكُمْ، حَتَّىٰ فِي الْقَضَايَا الَّتِي تَجْهَلُونَهَا وَلَيْسَ لَكُمْ بِهَا عِلْمٌ مُطْلَقاً، وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَمَّا يُهِمُّكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ، فَصَارَ الْجِدَالُ والاحْتِجَاجُ بِالْبَاطِلِ صِفَةً مِنَ الصِّفَاتِ الملَازِمَةِ لَكُمْ، وعادَةً مِنَ الْعَادَاتِ الَّتِي تَجِدُونَ فِي مُمَارَسَتِهَا لَذَّةً مِنْ لَذَّاتِكُمْ، فَأَنْتُمْ تَلْهُونَ بِالْجِدَالِ وَتَلْعَبُونَ، لَا تَقْصِدُونَ بِهِ إِحْقَاقَ حَقٍّ وَلَا إِبْطَالَ بَاطِلٍ، بَلْ قَدْ يَسُرُّكُمْ بِهِ أَنْ تُبْطِلُوا حَقًّا، وأَنْ تُحِقُّوا بَاطِلاً؟!!. إِنَّكُمْ تَجْعَلُونَ الْمُحَاجَجَةَ بِالْبَاطِلِ مَلْهَاةً مِنْ مَلَاهِيكُمْ، عَلَىٰ خِلَافِ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والْفَضْلِ والْحِكْمَةِ.

﴿... وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾: أي: والله يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، فَيَعْلَمُ مَا تُضْمِرُهُ نُفُوسُكُمْ، وَمَا تَسْتَخْفُونَ بِهِ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَمَا تَقْصِدُونَهُ مِنْ جَدَلِيَّاتِكُمْ بِالْبَاطِلِ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مِقْدَارَ مَا أَخْفَاهُ لَكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، يُنْزِلُهُ بِكُمْ يَوْمَ الدِّينِ جَزَاءَ كُفْرِكم.

وبَعْدَ هٰذَا الْبَيَانِ التَّعْلِيمِيِّ لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أمتِهِ، تَوجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَاب، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾:

أي: إِنَّ اللهَ رَبَّكُمُ الْمُحِيطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً يُنَبِّئُكُمْ بأنَّ إبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ الَّذِي اجْتَبَاهُ واصْطَفَاهُ، وجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ النُّبُوَّةَ

والْكِتَاب؛ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا كما يَزْعُمُ الْيَهُودُ، وَلَا نَصْرَانيًّا كَمَا يَزْعُمُ النَّصَارَىٰ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْمِلَلِ الْبَاطِلَةِ، ومُلْتَزِماً صِرَاطَ رَبِّهِ المستقيم، وَكَانَ مُسْلِماً لِرَبِّهِ إِسْلَاماً كَامِلاً، مُنْقَاداً، خاضِعاً، مُطِيعاً طَاعَةً تَامَّةً لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ. وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ أيَّ شِرْكٍ فِي رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلَهِيَّتِهِ.

وَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ:

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾:

أيْ: إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالانْتِمَاءِ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، والافْتِخَارِ بِهِ، وَمُوالَاتِهِ، وَمُنَاصَرَةِ مِلَّتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا؛ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ مِنَ الرُّسُلِ والْأَنْبِيَاءِ كإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَيُوسُفَ عَلَيْهِمُ السَّلَام، وكالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَإِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِوِلَايَةِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ خَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ ﷺ، هٰذَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، ولْيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ وَلِيُّهُمْ يَشْمَلُهُمْ بِوِلايَتِهِ، إِذْ هُوَ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - وَلِيُّ جَمِيعِ المؤمِنِينَ الصَّادِقِينَ.

أَمَّا الْكَافِرُونَ فَلَيْسَ لَهُمْ وَلِيٌّ يَنْصُرُهُمْ أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ شرّاً.

الْوَلِيّ: الناصِرُ، والْمُحِبُّ، والْمُعِينُ، والسَّيِّدُ، والمنْعِمُ.

* * *

الفَصلُ الحادي عشر

الإسلَامُ امتِدَادٌ لِمِلّةِ إبرَاهِيم عَليهِ السّلَام

أولاً: تَكْلِيفُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ خاتم الأَنْبياء والمرْسَلِينَ بأَنْ يَقُولَ مُعْلِناً أَنَّهُ امْتِدَادٌ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الأَنْعَامِ/ ٥ مصحف/ ٥٥ نزول) خِطَاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ يَا مَنْ جَعَلْنَاكَ خَاتِمَ الْمُرْسَلِينَ، وَرسُولاً للنَّاسِ أَجْمَعِينَ: إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا الْتِوَاء، حالَة كَوْنِهِ دِيناً مُشْتَمِلاً عَلَىٰ مَبَادِئَ وَحَقَائِقَ وَفَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ، وَضَوَابِطَ للسُّلُوكِ النَّفْسِيِّ وَالْجَسَدِيّ قَيّمَةٍ، أي: مُسْتَقِيمَةٍ اسْتِقَامَةً تَامَّةً، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا قَيِّمَةٌ فَذَّةٌ، تُقَوِّمُ بِهَا مَا يَقْتَرِحُهُ النَّاسُ مِنْ بَدَائِلَ، فَتَكْشِفُ مَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ وعُيُوبٍ ومُخَالَفَاتٍ لِمَا تَقْتَضِيهِ سَعَادَةُ النَّاسِ فِي الْعَاجِلَةِ والآجِلَة، وَجَمِيعُهَا قِيَمٌ عَظِيمَةٌ مُتَّصِفَةٌ بالْحَقِّ والْخَيْرِ والْحُسْنِ والْجَمَالِ والْكَمَالِ. وحَالَةَ كَوْنه مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وكَوْنُ مَا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ ﷺ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو باعْتِبَارِ أَنَّ دِينَ اللهِ لعباده وَاحِدٌ فِي أُصُولِهِ وَعَقَائِدِهِ وأَخْلَاقِهِ وكُلِّيَاتِهِ السُّلُوكِيّة.

وَفِي هٰذَا إِعْلَامٌ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ بِأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُخَالِفٌ لِمَا وَرِثَهُ أَجْدَادُهُمُ الْأَقْدَمُون، مِنْ دِينِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

ثانياً: تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رسُولَهُ ﷺ أَنْ يَدْعُو أَهْلَ الكِتَابِ إلى اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

ثالثاً: أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ أَتْبَاعِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْخَاتِمَة، بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَة (الشُّورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى

ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾:

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الَّذِي شرعَهُ مِنَ الدِّينِ لِلْمُؤْمِنِينَ المسلمين في الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَة؛ شامِلٌ مَا وَصَّىٰ به نُوحاً عَلَيْهِ السَّلام، وَمَا وَصَّىٰ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وعِيسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلام، وَلَكِنْ أضافَ إِلَىٰ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلام مَا أَوْحَاهُ إِلَىٰ محمَّدٍ خاتَمِ الْمُرْسَلِين ﷺ، فَخَصَّهُ فِيهِ بِزِيَادَاتٍ عَلَىٰ ما أوصَىٰ بِهِ نوحاً عَلَيْهِ السَّلام، مَعَ شُمُولِهِ ما وصَّىٰ بِهِ إبراهيمَ ومُوسَىٰ وعيسَىٰ عَلَيْهِم السَّلام، ويَظْهَرُ أَنَّ اللهَ قَدْ خصَّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وعِيسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالذِّكْرِ، إِذْ خصَّ كُلًّا مِنْهُمْ بِوصَايَا فِيها زِيَاداتٌ عَلَىٰ مَا جَاءَ عِنْدَ غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام. أَمَّا رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَدْ جمَعَ اللهُ لَهُ كُلَّ مَا أَوْصَىٰ بِهِ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلام، وَزَادَهُ مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ عَلَىٰ وَجْهِ الْخُصُوص.

ونُوصِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ في الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ بِأَنْ تُقِيمُوا الدِّينَ بالمواظَبَةِ عَلَىٰ مَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ فِيهِ، وأَنْ تَجْعَلُوهُ مُسْتَقِيماً عَلَىٰ صِرَاطِ رَبِّكُمْ، وَنُوصِيكُمْ بِأَنْ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ إلى أَحْزَابٍ وفِرَقٍ وَمَذَاهِبَ.

﴿... كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ...﴾: أي: كَبُرَ عَلَىٰ نُفُوسِ قَومِكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِمَا تَدْعُوهُمْ إِليه، وشَقَّ وَثَقُلَ عَلَيْهِمْ تَحَمُّلُهُ إِذْ رَأَوْهُ شَيْئاً كَبِيراً.

﴿... ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ...﴾: أي: اللهُ يصْطَفِي مُقَرَّباً إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ، ومعلومٌ أَنَّ مَشيئَتَهُ لا تُفارِقُ حِكْمَتَهُ، فَمَنْ يَعْتَرِضُ من المشرِكِين عَلَىٰ اجتِبَاءِ اللهِ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ فَهُو جاهِلٌ بِحِكْمَةِ رَبِّهِ أَوْ جَاحِدٌ لَهَا.

﴿... وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾: أي: وَيَهْدِي إِلى سُلُوكِ السَّبِيلِ الموصل إلى رِضوانِهِ وَمَنَازِلِ الْقُرْبِ إِلَيْهِ مَنْ يَرْجِعُ إلى طَاعَتِهِ والخضُوعِ لَهُ آناً فآناً.

رابعاً: خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين بِرِسَالَة محمَّدٍ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾:

- قرأ عاصم: [**أُسْوَةٌ**] بِضَمِّ الهمزة. وَقَرَأَهَا باقي القراء العشرة: [**إِسْوَةٌ**] بِكَسْرِ الْهَمْزَة. وهُمَا لُغَتَان.

الْأُسْوَةُ: الْقُدْوَةُ الَّذِي يُقْتَدَىٰ بِهِ.

لمَّا بَلَغَ الْخِلَافُ والصِّرَاعُ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ قومِهِ المشرِكِينَ ذِرْوتَهُ مِنْ جهةٍ أُخْرَىٰ، وصَارَ التعايشُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ أَمْراً صَعْباً، وَتَوَجَّهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام لِلْهِجْرَةِ وَمُفَارَقَةِ قَوْمِهِ وَبِلَادِهِمْ وجَمِيعِ أَرْضِهِمْ، وَرُبَّمَا قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَتُهَاجِرُ يا إِبْرَاهِيمَ أَنْتَ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ بَلَدِكَ وَتُفَارِقُ قَوْمَكَ؛ فَقَالَ لَهُمْ هُو والَّذِينَ مَعَهُ: إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾: أي: كَفَرْنَا بِأَنَّنَا مِنْكُمْ وَبِأَنَّكُم مِنَّا، فَلَا وِلَايَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَكَفَرْنَا بِأَنَّ لَكُم عَلَيْنَا حَقَّ الْقَوْمِيَّةِ أَوْ حَقَّ الْقَرَابَةِ أَوْ حَقَّ الْمُوَاطَنَة، وَكَفَرْنَا بِمَا تُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ باطِلٍ.

﴿... وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ...﴾:

أي: فَنَحْنُ أَعْدَاؤُكُم وَأَنْتُمْ أَعْدَاءٌ لَنَا، وَنَحْنُ نُبْغِضُكُم بُغْضاً أَبَدِيًّا، حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْتُم تُبْغِضُونَنَا لِأَنَّنَا نُقَاوِمُ شِرْكَكُمْ، وَنُحَطِّمُ أَصْنَامَكُمْ.

هـٰذَا الْمَوْقِفُ الإيمَانِيُّ الْعَظِيمُ، مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومِن الَّذِينَ مَعَهُ، المَقْرُونُ بِصَلَابَةٍ جِهَادِيَّةٍ وَقُوَّةِ عَزِيمَةٍ؛ مَوْقِفٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَجْعَلَ المتَّصِفِينَ بِهِ قُدْوَةً حَسَنَةً لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ. فَأَوْصَىٰ اللهُ المؤمنينَ الْمُسْلِمينَ فِي الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ بِأَنْ يَتَّخِذُوا إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام والَّذِينَ مَعَهُ أُسْوَةً حَسَنَةً لَهُمْ فِي هـٰذَا الموقِفِ الإيمانيّ الْجِهَادِيّ الْعَظِيم. وكَانَ هـٰذا بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ إلى المدينَةَ، وَبَدَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ مُشْرِكِي مَكَّةَ الْعَدَاوَةُ والْبَغْضَاء، وَقَامَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ وغَزَواتٌ، وَصَارَتْ لِلْمُسْلِمِينَ دَوْلَةٌ بِقِيادَة رَسُولِ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَكُنْ ذٰلك حِينَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ ضُعَفَاء وَتَحْتَ سَطْوَةِ قُوَّةِ الْمُشْرِكِينَ، واضْطِّهَادِهِمْ لَهُمْ.

وَلِئَلَّا يَقْتَدِيَ الْمُسْلِمُونَ بالْخَطَأِ الَّذِي وَقَعَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذْ وَعَدَ أَبَاهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ مَعَ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ كافِراً لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ وَلَدِهِ لَهُ أَنْ يَنْبِذَ الشِّرْكَ والأَصْنَامَ، ويُؤْمِنَ باللهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إلَهِيَّتِهِ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ:

﴿... إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ...﴾: أي: فَلَا تَقْتَدُوا بِهِ فِي هَـٰذِهِ أَخْذاً بِعُمُومِ تَوْصِيَتِنَا لَكُمْ بالاقْتِدَاءِ بِهِ، فَنَحْنُ لَا نُبِيحُ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِكَافِرٍ.

وفي النَّصِّ عَلَىٰ هـٰذَا الْحُكْمِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾:

أي: مَا كَانَ مُبَاحاً للنَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا، وَمَا كَانَ مُبَاحاً لِلَّذِينَ آمَنُوا،

فِي كُلِّ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ عَلَىٰ رُسُلِنَا؛ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْكَافِرِينَ أَعْدَاءِنَا مِنْ دَرَكَةِ أَهْوَنِ الشِّرْكِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ دَرَكَاتِ الكُفْرِ، وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ، كَأَبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، وَأَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ بِالْمَوْتِ أَوْ بِالْإِصْرَارِ الْعَنِيدِ عَلَىٰ الكُفْرِ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عُذْرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ المشْرِكِ؛ بِأَنَّهُ كَانَ بِسَبَبِ مَوْعِدَةٍ سَبَقَ أَنْ وَعَدَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام لِأَبِيهِ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، طَمَعاً مِنْهُ فِي أَنْ يُؤْمِنَ وَيُسْلِمَ بَعْدَ طُولِ مُعَالَجَةٍ وَمُعَاشَرَةٍ بِالْمَعْرُوفِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا فَعَلَ مُخَالِفاً حُكْماً شَرْعِيًّا كَانَ قَدْ تَبَلَّغَهُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، وَمَا فَعَلَهُ كَانَ اجْتِهَاداً مِنْهُ لَمْ يُوافِقْ فِيهِ وَجْهَ الصّواب.

وأخيراً أَكَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الثَّنَاءَ عَلَىٰ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِأَنَّهُ أَوَّاهٌ حَلِيمٌ.

الْأَوَّاهُ: أي: الرحيم، الرقيق القلب، الكَثِيرُ الحُزْن الَّذِي يَتَأَوَّهُ كَثِيراً مِنَ الشفقة، أو عند الخوف من اللهِ، ويُلازِمُ هٰذِهِ الصِّفَاتِ كثرة التَّضَرُّعِ للهِ، والمحافظة على طاعته، والتَّقَرُّب إِلَيْهِ بمَحابِّهِ.

حَلِيم: أي: كثير الْحِلْمِ والْأَنَاةِ، بطيءُ الغَضَب، وهٰذِهِ الصِّفَةِ هِيَ من صِفَاتِ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ.

خامساً: وَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا أَتْبَاعَ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ بِقَوْلِهِ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نُزُول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ

وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾:

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَتْبَاعِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْخَاتِمَةِ؛ أَنَّهُ مَا جَعَلَ عَلَيْهِمْ فِي الدِّينِ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ خَاتَمُ رُسُلِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ حَرَجٍ مَا، أي: مِنْ ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فِي التَّكَالِيف، بَلْ فِيهِ فُسْحَةٌ وَيُسْرٌ.

وَأَبَان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ أَنَّ هَـٰذَا الدِّينَ الَّذِي لَا حَرَجَ فِيهِ هُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ هُو سَمَّاهُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ دَعَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَائِلاً، كَمَا جَاءَ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾:

فالإِسْمَاعِيليُّونَ مِنَ الْعَرَبِ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإسْماعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلام، فإذَا أَضفْنَا إِلَىٰ هـٰذَا قَوْلَهُمَا فِي دُعَائِهِما عَقِبَ الآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

وَقَدْ جَاءَ هـٰذَا الرَّسُولُ رَسُولاً للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ اسْمَ الْمُسْلِمِينَ تَسْمِيَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكُلِّ مُتَّبِعِي الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّتِي بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا مُحَمّداً ﷺ.

أَمَّا كَوْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَباً لِكُلِّ الَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا أَتْبَاعِ الرَّسُولِ الخاتِمِ ﷺ، فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، فالْعَرَبُ المسْتَعْرِبَةُ هم ذُرِّيَّةُ إِسْمَاعِيلَ، فَأَبُوهُمْ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِما السَّلام، وذُرِّيَّةُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَبُوهُمْ إِبْرَاهِيمُ

عَلَيْهِم السَّلَام، وَبَقَايَا أَهْلِ مَدْيَنِ أَبُوهُمْ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، وَكُلُّ مَنْ آمَنَ وأَسْلَمَ مِنْ سَائِرِ شُعُوبِ الْأَرْضِ يُعْتَبَرُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَثَابَةِ أَبٍ لَهُمْ يَقْتَدُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَ مِلَّتَهُ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرِيصاً عَلَىٰ تَخْلِيصِ النَّاسِ جَمِيعاً مِنَ الشِّرْكِ ومِنْ كُلِّ صُوَرِ الكُفْرِ، وَعَلَىٰ نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ النَّار يَوْمَ الدِّين.

التدبّر السّريع للنصّ:

قَوْلُ اللهِ تَعَالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾﴾:

الرُّكُوعُ والسُّجُودُ أَبْرَزُ الْأَرْكانِ الْعَمَلِيَّةِ في الصَّلَاةِ، فَجاءَ الاقْتِصَارُ عَلَىٰ ذِكْرِهِمَا، والْمَقْصُودُ سَائِرُ أَعْمالِ الصَّلَاةِ الْقَوْلِيَّةِ، والْقَلْبِيَّةِ، والْجَسَدِيَّة.

﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾: أي: واخْضَعُوا لِرَبِّكُمْ وأَطِيعُوهُ وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا يُرْضِيهِ مِنْ عباداتٍ، واجِبَات أَوْ مَنْدُوبَاتٍ، في سُلُوكِكُمُ النفْسِيِّ والْفِكْرِيِّ والْجَسَدِي والْمَالِيّ، واجْعَلُوا عِبَادَتَكُم لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾: أي: وافعَلُوا مَا هُوَ خَيْرٌ تَتَّفِقُ الْعُقُولُ عَلَىٰ أَنَّهُ خَيْرٌ، وَلَوْ لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ بَيَانٌ خَاصٌّ مِنْ رَبِّكُمْ، كَإِقَامَةِ المسْتَشْفَيَاتِ، وَتَذْلِيلِ الطُّرُقَاتِ وَشَقِّهَا، وبِنَاءِ الْجُسُورِ، وَمَشَارِيعِ الْمِيَاهِ والرَّيِّ النَّافِعَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكَادُ يُحْصَىٰ، وَتَتَّفِقُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنَ الخير.

﴿... لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾: أي: رَغْبَةً مِنَّا في أَنْ تُفْلِحُوا، وَرَجَاءً مِنْكُمْ في أَنْ تُفْلِحُوا فِي دُنْيَاكُمْ وآخِرَتِكُمْ.

الْفَلَاحُ: الظّفَرُ بِمَا هُوَ مَحْبُوبٌ مَرْغُوبٌ فِيهِ، والْفَوْزُ بِنَعِيمِ الْآخِرَةِ، وأَصْلُ الْفَلاحِ الْبَقَاءُ في النَّعِيم والْخَيْر.

قولُ الله تعالى:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ

مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ :

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ : أي : وَجاهِدُوا فِي الْعَمَلِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ تَعالى، قَائِمِينَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْكُم مِنْ أَعْمَالٍ ظاهِرَةٍ وَباطِنَةٍ، الْجِهادَ الصَّادِقَ الْمُخْلِصَ الْمُحَقِّقَ لِمَا يَطْلُبُهُ اللهُ مِنْكُمْ مِنْ مُجاهَدَةٍ، فَهٰذَا هُوَ حَقُّ الْجِهادِ فِي سَبِيلِ ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ تَعالى.

الجهادُ: بَذْلُ غَايَةِ الطَّاقَةِ لَدَىٰ الْقِيامِ بِعَمَلٍ مَا، كَأَنَّ الْعَمَلَ واقِعٌ بَيْنَ مُتَصارِعَيْنِ مُتَغَالِبَيْنِ.

حَقُّ الْجِهادِ: أي: الْجِهادُ الْحَقُّ، فَهُوَ مِنْ إِضافَةِ الصِّفَةِ إِلى الموصُوفِ، والجهادُ الحَقُّ: هُوَ الصَّادِقُ المخْلِصُ الَّذِي تُبْذَلُ فِيهِ غَايَةُ الطَّاقَة.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ : أي: اللهُ هُوَ الَّذِي اصْطَفَاكُمْ واخْتَارَكُمْ، يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَتْبَاعُ رِسالَةِ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، فَجَعَلَكُمْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ لَكُمْ الْأُمَّةَ المصْطَفَاةَ، المكَلَّفَةَ أَنْ تَحْمِلُوا رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتُبَلِّغُوها لِلنَّاسِ، كَمَا أَنْزَلَهَا الله عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ : سَبَقَ آنِفاً تَدَبُّرُ هٰذَا الْبَيان.

﴿وَفِى هَٰذَا﴾ : أي : وَفِي هٰذَا الدِّينِ الْخَاتِمِ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ بِتَسْمِيَةِ اللهِ رَبِّكُمْ لَكُمْ.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ : أي : اجْتَبَىٰ رَسُولَكُمْ ﷺ لِلنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ؛ لِيَكُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ شَهِيداً عَلَىٰ مَنْ تَبَلَّغَ مِنْكُمْ مَا أُمِرَ ﷺ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ مِنْ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ، وَقَضَايَا دِينِ اللهِ

لِعِبَادِهِ، وَلِتُبَلِّغُوا أَنْتُمْ مَا تَبَلَّغْتُمُوهُ مِنْ رَسُولِكُمْ ﷺ، أو تَبَلَّغْتُمُوهُ بالْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ عَنْهُ ﷺ، جيلاً فجيلاً، وَلِتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاس فِيمَا بَلَّغْتُمُوهُمْ إِيَّاهُ، فَقَدْ جَعَلَكُمُ اللهُ باجْتِبَائِهِ لَكُمْ شُهُوداً عُدُولاً، تُقْبَلُ شَهَادَتُكُمْ عَلَىٰ النَّاسِ عِنْدَ رَبِّكُمْ، فِيمَا أَدَّيْتُمُوهُ مِنْ بَلَاغ.

وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَهَاوُنَ الْأُمَّةِ الإسْلَامِيَّةِ بِتَبْلِيغِ دِينِ رَبِّهَا تَعالى للنَّاسِ؛ مَعْصِيَةٌ جَمَاعِيَّةٌ بِتَرْكِ فَرْضٍ مِنْ فُرُوضِ الكِفَايَةِ عَلَيْهَا.

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: هٰذَانِ الرُّكْنَانِ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ قَدْ أَوْلَاهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنَايَةً عَظِيمَةً بِتَكْرِيرِ الْأَمْرِ بِهِمَا فِي كِتابه.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: أي: والْتَجِئُوا إِلَىٰ اللهِ مُتَّحِدِين، واحْتَمُوا بِحِمَاهُ بالإيمانِ بِهِ، والإسْلَامِ له، والْعَمَلِ بمراضِيهِ مع كَمَال التوحيد، لِيَعْصِمَكُمْ وَيَحْفَظَكُمْ.

﴿... هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾: أي: هو الذي يَحْمِيكُمْ بِوِلايَتِهِ، وَيُفِيضُ عَلَيْكُمْ فُيُوضَ عَطاءاتِه، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ الَّذِي يُحِيطُكُمْ بِوِلَايَتِهِ لَكُمْ، ونِعْمَ النَّصِيرُ لَكُمْ.

سَادِساً: وَوَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الخطابَ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ صَالِحَةٍ لِأَنْ يُراد بها النَّاسُ جَمِيعاً، فقال تَعَالَىٰ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾:

اسْتِفْهَامٌ بـ «مَنْ» الاسْتِفْهَامِيَّةِ وَيُرَادُ بِهِ النَّفْيُ هُنَا، أي: لَا يُوجَدُ أَحْسَنُ دِيناً مِنْ عَبْدٍ أَسْلَمَ قِيادَةَ وَجْهِهِ للهِ فَانْقَادَ لَهُ مُطِيعاً خَاضِعاً، يَأْتَمِرُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَيَنْتَهِي عَمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، والْحَالُ أَنَّهُ مُحْسِنٌ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، يَعْبُدُ اللهَ كَأَنَّهُ يراهُ، واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام حَنِيفاً مَائِلاً عَنْ كُلِّ مِلَلِ النَّاسِ الكُفْرِيَّة، ومُلْتَزِماً صِرَاطَ اللهِ المستقيم.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ جَاءَ بَيَانُ أُصُولِهَا، وَقَوَاعِدِهَا، وأنْوَاعِ سُلُوكِهَا الظاهِرِ والْبَاطِنِ، فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ الْخَاتِمِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مع زِيَادَةِ تَفْرِيعَاتٍ وَتَفْصِيلاتٍ لَا تَخْرُجُ عَنِ الْأُصُول الْكُلِّيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا مِلَّةُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ أَنَّهُ اتَّخَذَ إِبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام خَلِيلاً، أي: عَبْداً نَالَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ مَرْتَبَةَ الْخُلَّةِ، وهي أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ مَحَبَّةِ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُحْسِنِين.

وَلِرَسُولِ اللهِ محمَّد ﷺ مِنْ هَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةِ أَعْظَمُ الدَّرَجَاتِ، إِذْ خَصَّهُ اللهُ بالشَّفَاعَةِ العظْمَىٰ يَوْمَ الدِّينِ، مِنْ دُونِ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ.

* * *

الفصلُ الثاني عشر

مُتفرّقَات فيها بَيَانٌ مَا عَن إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام

أولاً: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَيَانِ اصْطِفَائِهِ بَعْضَ عباده في التَّارِيخِ الْبَشَرِي، في سُورَة (آلِ عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

فِي هـٰذَا النَّصِّ بَيَانٌ لِمَفَاصِلَ كُبْرَىٰ مِنْ شَجَرَةِ المصْطَفَيْن الأخيار من الأنبياء والْمُرْسَلِين عَلَيْهِم السَّلَام.

- **فالْمُصْطَفَىٰ الأوّل**: آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومِنْ سُلَالَتِهِ عَدَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِين عَلَيهِم السَّلَام، مِنْهم شيث، وإدْريس عليهما السلام.

- **والمصْطَفَى الثَّانِي**: نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، ومِنْ سَلَالَتِهِ عَدَدٌ من الأنبياءِ والْمُرْسَلِين، مِنْهُمْ هُود، وصَالح عليهم السَّلام، وأنبياء ورُسُلٌ كَثِيرُونَ لَمْ يَقْصُصِ اللهُ عَلَيْنَا شيئاً مِنْ قَصَصِهِم.

• **والمصْطَفى الثالِث**: إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام، ويُلْحَقُ بِهِ آلُهُ، ومِنْهُمْ إسْمَاعِيلُ، وإسْحَاق، ويَعْقُوب عَلَيْهِم السَّلام، وجاء التَّعْبِيرُ بعبارة: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: لِلْعِلْم بأنَّ إبْرَاهِيمَ إمَامُ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِم السَّلام، فَنَابَتْ هَـٰذِهِ العبارةُ عَنْ عِبَارَة: «وَإبْرَاهِيمَ وآلِهِ»، ومُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ آلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

• **والمصْطَفى الرابع**: «مُوسَىٰ» عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَعَهُ أَخُوهُ «هَارُون» عَلَيْهِ السَّلَام، ومِنْ ذُرِّيَّةِ أبيهِمَا «عِمْرَانَ = عِمْرام» كُلُّ أَنْبِيَاءِ بَنِي إسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِم السَّلَام، فَجَمَعَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَحْتَ عُنْوان: «آل عِمْران».

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: على النَّاسِ أَجْمَعِينَ، أي: اصْطَفَاهُمْ وَفَضَّلَهُمْ على سَائِرِ النَّاسِ، لِعِلْمِهِ بِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلام.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ شَجَرَة المصْطَفِينَ مِنَ الأنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلام هُمْ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْض، فَمَنْ بَعْدَ آدَمَ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم عَلَيْهِ السَّلام، ومَنْ بَعْدَ نُوحٍ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوح عَلَيْهِ السَّلام، وَفَرْعٌ عَظِيمٌ مِنْ بَعْدِ إبراهيم كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلام.

وقَدْ سَبَقَ في تَدَبُّرِ سُورة (مريم/ ٤٤ نزول) عِنْدَ تَدَبُّرِ الآيَةِ (٥٨) مِنها؛ أَنَّنِي ذَكَرتُ أَنَّ كُلَّ الأَنْبِيَاءِ من بَعْدِ إبراهيم ولوط عليهما السَّلام هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلام، لكِنْ بَدَا لِيَ الآنَ احْتِمَالُ وُجُود أنبياء ورُسُلٍ من غير فَرْعِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام، مَعَهُ وبَعْدَهُ، وهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نوح عَلَيْهِ السَّلام.

فَمِنَ المحتمل أَنَّهُ وُجِدَ أنبياءُ ورسُلٌ لَمْ يُذْكَرُوا فِي الْقُرْآنِ، هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، في أُمَمٍ وَشُعُوبٍ، في حَيَاةِ إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ بَعْدَ حَيَاتِهِ وقَبْلَ خاتم النبيِّينَ ﷺ، دُونَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلام.

هـٰذَا مَا فَهِمْتُهُ الآن مِنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ نُوحٍ وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلامُ في سُورَةِ (الْحَدِيد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ والله أعلم.

فَوُجُودُ أنْبِياء ورُسُلٍ في شُعُوبٍ وَأُمَمٍ مُخْتَلِفَةٍ، في زَمَنِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام أَوْ بَعْدَ زَمَنِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وقَبْلَ خَاتِمِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، مِنْ غَيْرِ ذُرِّيَّةِ إبْراهيم عَلَيْهِ السَّلام؛ لَا يَتَعارَضُ مَعَ هَـٰذِهِ الآيَةِ، لِأَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، وَلَا تَدُلُّ الآيَةُ عَلَىٰ قَصْرِ الْأَنْبِياءِ والْمُرْسَلِينَ بَعْدَ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام عَلَىٰ أَنَّهُمْ جَمِيعاً مِنْ ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام.

ثانياً: أبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَدَداً مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام في سورة (مَرْيم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول)، ومِنْهُمْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام، وقَالَ بِشَأْنِهِمْ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾:

سبق تَدَبُّر هَـٰذِهِ الآيَةِ في مَوْضِعِهَا مِنْ سُورَةِ (مريم/ ٤٤ نزول) فلْيُرْجَعْ إليه.

ثالثاً: أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ أَوْحَىٰ إلى رَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ كَمَا أَوْحَىٰ إلى الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، لِلْإعْلام بِأَنَّهُ لَيْسَ بِدْعاً مِن الرُّسُل، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لَهُ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بضَمِير المتكلّم العظيم:

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾:

ولِحِكْمَةٍ يَذْكُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في بَعْضِ النُّصُوصِ أسْمَاءَ بَعْضِ الرُّسُلِ، ويَطْوِي ذِكْرَ آخَرِينَ، وَقَدْ يَكُونُونَ مِنَ الْبَارِزِينَ مِنْهُمْ وَمِنْ أُولِي الْعَزْمِ، وَلَعَلَّ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَرْتَبِطَ المتدبِّرُ مَعَ كُلِّ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ واحِدٍ، لِيَفْهَمَهَا فَهْماً تَكَامُلِيًّا، وَلِئَلَّا تَكُونَ النُّصُوصُ فِي مواضِعِها مُكَرَّرَاتٍ تَكْرِيراً تَطابُقِيًّا.

رَابعاً: وأبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِه مُحمّدٍ ﷺ لِيُسَلِّيَه؛ أَنَّ أَقْوامَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام مِنْ قَبْلِهِ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، ومِنْهُمْ قَوْمُ إِبْراهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَال تَعالَىٰ لَهُ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣)﴾.

خامساً: وأبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ أَخذَ مِنَ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِم السَّلام مِيثَاقَهُمْ، وذَكَرَ بالتفصيلِ بَعْضَهُمْ وَمِنْهُمْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فقال تَعالَىٰ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (٧)﴾:

الميثَاقُ: هو الْعَهْدُ المؤكَّدُ الْمُوَثَّقُ المثبَّتُ بِمَا يمْنَعُهُ مِن التَّفَلُّت. والميثاق الغليظ: هُوَ المقوَّىٰ المشَدَّدُ.

ويَظْهَرُ أَنَّ الميثاقَ الَّذِي أَخذَهُ اللهُ مِنَ النبيِّيْنَ عَلَيْهِم السَّلام عُموماً، ومِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ محمّد ﷺ؛ هُوَ مَا جاءَ بَيانُهُ فِي الآياتِ الثَّلاثِ من أوّلِ سورة الأحزاب:

(١) أنْ يَتَّقُوْا اللهَ.

(٢) أَنْ لَا يُطِيعُوا الْكَافِرِينَ والمنَافِقِينَ فِي شَيْءٍ يخالِفُ مَا أمرهم الله به، أَوْ نَهاهُمْ عَنْه.

(٣) أَنْ يَتَّبِعُوا مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

(٤) أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَىٰ اللهِ فِي كُلِّ أُمُورِهِم.

وجَاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) قَولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾:

إصْرِي: أي: عَهْدِي الموثَّق المشدَّد.

فَدلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ النَّبِيِّين عَلَيْهِم السَّلَام، ويُلْحَقُ بِهِم الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ؛ أَنْ يُؤْمِنُوا بالرَّسُولِ محمد ﷺ، إِذَا بَعَثَهُ اللهُ وَهُمْ أَحْيَاء، وأَنْ يَنْصُرُوه، ويَكُونُوا مِنْ أَتْبَاعِهِ.

سَادِساً: حَسَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعَرَبَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام، لِأَنَّ اللهَ بَعَثَ مِنْهُمْ خَاتَمَ المرسَلِينَ محمّد بن عبد اللهِ ﷺ، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ العظِيمَ الْقُرْآنَ المجيد، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ قَوْلَهُ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بِشَأْنِهِمْ:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾:

أي: بَلْ أَيَحْسُدُونَ النَّاسَ أَبْنَاءَ عَمِّهِمْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّ اللهَ بَعَثَ مِنْهُمُ الرَّسُولَ الخاتِمَ - ﷺ - لِلأَنْبِيَاء والْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلَام، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكتابَ الْمَجِيدَ، أَعْظَمَ كُتُبِهِ؟؟. استفهام فِيهِ مَعْنَىٰ التوبيخِ، لاعتراضِهِمْ على حِكْمَةِ اللهِ في عَطَاءَاتِهِ لِبَعْضِ عباده.

فقد آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ فَرْعِ إِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ عَلَيْهِما السَّلَام الكِتَابَ الشَّامِلَ للتَّوراةِ والزَّبُورِ والْإِنْجِيلِ، وآتَيْنَاهُمُ الْحِكْمَةَ وَهِيَ مَا أُوتِيَهُ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِم السَّلَام مِنْ عِلْم وَهِدَايَةٍ وَحَقَائِقَ زَائِدَةٍ عَلَىٰ مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ والزَّبُورِ والإنْجِيل، وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً، وهُوَ مَا آتَىٰ اللهُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَذُيول مُلْكِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا.

فَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وبِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ

أَعْرَضَ عَنْهُ ونَأَىٰ، أَوْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ، كَافِراً حَسَداً وجُحُوداً، وهَؤُلَاءِ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ فِي جَهَنَّمَ، وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ ناراً مُتَوَقِّدَةً شَدِيدَةَ اللَّهَبِ لِتَعْذِيبِ الْكَافِرِينَ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي كُفْرِهِمْ.

سابعاً: وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الْمَرْتَبَةَ الرَّفِيعَةِ الَّتِي ارتَقَىٰ إِلَيْهَا كُلٌّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وإِسْحَاقَ، ويَعْقُوبَ عَلَيْهِم السَّلَام، لِأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ هِيَ الْمَالِئَةَ دَواماً لِسَاحَةِ ذِكْرَاهُمْ وَتَصَوُّرَاتِهِمْ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

ثامناً: وَذَكَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ والمنافِقَاتِ وَسَائِرَ الكُفَّارِ بالْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا بِكُفَّارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، ومِنْهُمْ قَوْمُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (التَّوْبَة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

الْمُؤْتَفِكَات: أي: المنْقَلِبَات، وهِيَ قُرَىٰ قَوْمِ لُوط، الَّتِي جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَالِيَهَا سَافِلَهَا.

تاسعاً: لَمَّا رَأَىٰ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الرُّؤيَا وَهُوَ طِفْلٌ، وقَصَّهَا على أَبِيهِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَام؛ بَشَّرَهُ بِبُشْرَيَاتٍ، مِنْهَا: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ سَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلَام مِنْ قَبْلُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ

نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

عَاشراً: وحِينَ قَامَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَشَاطٍ دَعَوِيٍّ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَهُوَ في السِّجْنِ فِي مِصْرَ؛ قَالَ لِصَاحِبَيْهِ في السِّجْنِ:

﴿... إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

فَذَكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دَعْوَتِهِ اسْمَ جَدِّهِ إبراهيم، وأَتْبَعَهُ بِجَدِّهِ إِسْحَاق، وأَبِيهِ يَعْقُوب عَلَيْهِم السَّلَام.

حادِيَ عشر: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُبَيِّناً أَنَّ مَا جَاءَ في سُورَة (الأَعْلَىٰ/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول)، أَوْ بَعْضَ مَا جَاءَ فِيهَا مِمَّا يُدْرِكُ الْعَقْلُ أَنَّهُ مِمَّا تَشْتَرِكُ بِبيانِهِ الرِّسَالَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ كُلُّها:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

ثاني عشر: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِي أَقْبَلَ فَأَسْلَمَ إِسْلاماً ضَعِيفاً ثُمَّ تَرَاجَعَ بِمُؤَثِّرٍ يَسِيرٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُتَمَكِّناً في مَوْقِفِهِ مِنَ الإِسْلَام، فَكَفَرَ:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

* * *

الباب الثاني

بعض مَا جَاءَ في السُّنَّةِ بِشَأْنِ إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام

جاء في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ ذِكْرُ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ وَرِوَايَاتٍ، اخْتَرْتُ مِنْهَا مَا يلي:

الحديث الأَوَّل:

رَوَىٰ البخاريُّ ومُسْلم عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَات، ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ: قَولُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وَقَالَ: «بَيْنَا هُو ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، إِذْ أَتَىٰ عَلَىٰ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَة، فَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَا هُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَـٰذِهِ؟. قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَىٰ سَارَةَ فَقَالَ: يَا سَارَةُ لَيْس عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، وإِنَّ هَـٰذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأُخِذَ، فَقَالَ: ٱدْعِي اللهَ وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللهَ فَأُطْلِقَ. ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ٱدْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَال: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بإِنْسَان، وَإِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وهُوَ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ، مَهْيَا؟، قَالَتْ: رَدَّ اللهُ كَيْدَ الْكَافِرِ، أَوْ الْفَاجِرِ، فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَر».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ. (يُرِيد العربَ المستعربة).

وجاء في رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيّ:

«. . . فَأُرْسِلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ (أي: تَتَوَضَّأُ) وتُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا

عَلَىٰ زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِهِ(١).

قَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي، وَتَقُول: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَىٰ زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ هٰذَا الْكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِهِ(١).

فقالَت: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ فَيُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَة.

فَقَالَ: وَاللهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَاناً، أَرْجِعُوهَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَأَعْطُوهَا آجَرَ (أي: هَاجَرَ).

فَرَجَعَتْ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَتْ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللهَ كَبَتَ الْكَافِرَ وأَخْدَمَ وَلِيدَةً»(٢).

الحديث الثاني:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولَ الله ﷺ:

«اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً بالْقَدُّومِ».

وفي رِوايَةٍ: «بالْقَدُومِ»، أيْ: بآلَةِ «القَدُّومِ»، المعروفة عند النَّجَّارِين.

الحديث الثالث:

روى البخاريُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ:

---

(١) أي: صَارَ يُصَوِّتُ ويُرَدِّدُ النَّفَس فِي خَيَاشِيمِهِ كالمخْنُوق، وصَارَ يَضْرِبُ بِرِجْلِهِ مَا هُوَ قَرِيبٌ مِنها، بِحَرَكَاتٍ غَيْرِ إرَادِيَّة.

(٢) كَبَتَ الكافر: أي: غاظهُ وأذلَّهُ وأخزاه. والوَلِيدَة: الأمَة، أي: وأعطاني أمَةً تَخْدُمُني.

«أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ⁽¹⁾ مِنْ قِبَلِ أُمّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقاً لِتُعَفِّي أَثَرَهَا عَلَىٰ سَارَةَ.

ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّىٰ وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ⁽²⁾ فَوْقَ زَمْزَمَ في أَعْلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَاباً مِنْ تَمْرٍ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّىٰ إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقاً، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَـٰذَا الْوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَاراً، وجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا.

فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَـٰذَا؟. قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ.

فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ⁽³⁾ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ من سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف).

وجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الماء، حَتَّىٰ إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاء عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّىٰ، أو قال يَتَلَبَّطُ⁽⁴⁾، فانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ مِنَ الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوادِيَ تَنْظُرُ، هَلْ تَرَىٰ

---

(١) **المِنْطَقُ**: مَا يُشَدُّ به الوَسَطُ، ويظْهَرُ أَنَّهَا كَانَتْ تُعَلِّقُ عَلَيْهِ قُمَاشاً طَوِيلاً يَجُرُّ وَرَاءَهَا عَلَىٰ الأَرْضِ، فَيُعَفِّي أَثَرَ خَطْوِهَا عَلَىٰ سَارَة.

(٢) **الدَّوْحَة**: الشَّجَرَةُ الكبيرة.

(٣) **الثَّنِيَّةُ**: الطَّرِيقُ فِي الجَبل.

(٤) **يَتَلَبَّطُ**: أي: يَضطَرِبُ على الأرضِ مِنْ شِدَّةِ ظَمَئِهِ.

أَحداً، فَلَمْ تَرَ أحداً، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا[١]، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنْسَانِ الْمَجْهُودِ، حَتَّىٰ جَاوَزَتِ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَىٰ أَحَداً، فَلَمْ تَرَ أَحَداً، فَفَعَلَتْ ذٰلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَٰلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا».

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَىٰ الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتاً، فَقَالَتْ: صَهٍ (تُرِيدُ نَفْسَها). ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضاً، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ، (أي: مَا تُغِيثُنَا به).

فإِذَا هِيَ بالملَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَم، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أو قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّىٰ ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ، وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَغْرِف.

قال ابْنُ عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: قَالَ النبيُّ ﷺ:

«يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أو قال: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْناً مَعِيناً»[٢].

قال: فَشَرِبَتْ، وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ، لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِي هٰذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ.

وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعاً مِنَ الأَرْضِ كالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ.

فَكَانَتْ كَذٰلِكَ حَتَّىٰ مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمْ، أو أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ

---

[١] **الدِّرْع**: قَمِيصُ المرأة، أَوْ ثَوْبُها.

[٢] أي: لكانَتْ زَمْزَمُ عَيْنَ مَاءٍ جارٍ عَلَىٰ وجْهِ الأرض.

جُرْهُمْ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّة، فَرَأوا طَيْراً عَائِفاً(١)، فَقَالُوا: إِنَّ هٰذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَىٰ مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهٰذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ(٢)، فإذَا هُمْ بالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا.

قال: وأُمُّ إسْمَاعِيلَ عِنْدَ الماء، فَقَالُوا: أتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟.

فَقَالَتْ: نَعَمْ، ولَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ في الماء. قَالُوا: نَعَم.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«فَأَلْفَىٰ ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الأُنْسَ».

فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ(٣) وأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ.

فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بَشَرٌّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فإذَا جَاءَ زَوْجُكِ، فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شيئاً، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحدٍ؟. قَالَتْ: نعم، جاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، وسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟. قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ويَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكَ

---

(١) **الطير العائف**: هُو الَّذِي يَحُومُ حَوْلَ الْمَاء.

(٢) **جَرِيًّا أو جَرِيَّيْنِ**: أي: رَسُولاً أو رسُولَيْن.

(٣) **وأنْفَسَهُمْ**: أي: وَصَارَ أكْثَرَهُمْ نَفَاسَةً وأعظَمَهُمْ قدراً.

أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَىٰ.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟، وسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَىٰ اللهِ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟، قَالَتِ: اللَّحم. قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟، قَالَتِ: الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ في اللَّحْمِ والماء.

قَالَ النبيُّ ﷺ:

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ».

قال: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ.

قَالَ: فإذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، ومُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟. قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامُ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ.

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحت دَوْحَةٍ قَرِيباً مِنْ زَمْزَم، فَلَمَّا رآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بالْوَلَدِ، والْوَلَدُ بالوالِدِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟، قَالَ: وأُعِينُكَ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِي هَا

هُنَا بَيْتاً، وأشارَ إِلَىٰ أَكَمَةٍ⁽¹⁾ مُرْتَفِعَةٍ عَلَىٰ مَا حَوْلَهَا.

قَالَ: فَعِنْدَ ذَٰلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْت، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بالْحِجَارَة، وإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّىٰ إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَـٰذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي، وإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَة، وهُمَا يَقُولَانِ: ﴿... رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾⁽²⁾.

قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّىٰ يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وهُمَا يَقُولَانِ:

﴿... رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

الحديث الرابع:

رَوى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّة. فَقَالَ رسُول الله ﷺ: «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

الحديث الخامس:

روى البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿... كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾⁽³⁾. وأَوَّلُ مَنْ يُكْسَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيم، وَإِنَّ أُنَاساً مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ⁽⁴⁾: ﴿... وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

---

(١) **الأَكَمَة**: تَلَّةٌ مُرْتَفِعَة.

(٢) (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

(٣) (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

(٤) وهو عيسى عليه السلام (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول).

الحديث السادس:

رَوَىٰ البخاري عن ابن عباسٍ رضي اللهُ عَنْهما قَالَ: «كَانَ آخِرَ قَوْلِ إبْرَاهِيم حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّار: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ».

الحديث السّابع:

روى الإمام أحمدُ في مُسْنَدِه عَن ابْنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عَنْهُمَا، أنْ رسُول الله ﷺ قَالَ:

«إنَّ جِبْرِيلَ ذَهَبَ بِإبْرَاهِيمَ إلَىٰ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فَسَاخَ، ثُمَّ أَتَىٰ الْجَمْرَةَ الْوُسْطَىٰ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فَسَاخ، ثُمَّ أَتَىٰ الْجَمْرَةَ الْقُصْوَىٰ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فَسَاخ».

الحديث الثامن:

روى البخاريُّ عَنْ أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِي ﷺ، قَالَ:

«يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَىٰ وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وغَبرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ.

ثُمَّ يُقَالُ: يَا إبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجلَيْكَ؟، فَيَنْظُرُ، فإذا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ».

أي: فإذا بِأَبِيهِ قَدْ مُسِخَ فَصَارَ عَلَىٰ صُورَةِ ذَكَرِ ضَبُعٍ مُلْتَطِخٍ بالنجاسَةِ والْقَذَارة.

الحديث التاسع:

روى مسلم عن جُنْدُبٍ رَضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُول:

«إِنِّي أبْرَأ إلى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فإنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخذَ إبراهيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً».

* * *

سُورَة الأنبياء

٢١ مصحف ٧٣ نزول

وهي سورة مَكّيّة

(١)

نص السُّورة وما فيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ (١) مَا
يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ
(٢) لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا
بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ (٣) قَالَ
رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٤)
بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا
بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ (٥) مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ

---

٢ ـ ● قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جَعْفر: [مَا يَاتِيهِمْ]، وكذلك قرأها حَمْزَة فِي الوقف.
وقرأها يَعْقُوب: [مَا يَأْتِيهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مَا يَأْتِيهِمْ].

٣ ـ ● قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر: [أَفَتَاتُونَ]، وكذلك قرأها حَمْزَةُ في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَفَتَأْتُونَ].

٤ ـ ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [قَالَ رَبِّي].
وقرأها باقي القراء العشرة: [قُلْ رَبِّي].

٥ ـ ● قرأ ورش، والسّوسي، وأبو جعفر: [فَلْيَاتِنَا]، وكذلك قرأها حمْزَة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: [فَلْيَأْتِنَا].

أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا
نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)
وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ
(٨) ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا
ٱلْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا
بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (١١) فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا
يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ (١٣) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت
تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى
ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)
وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

---

٧ ـ • قرأ حفص: [نُوحِي إِلَيْهِمْ].
وقرأها حمزة، ويَعْقُوبُ: [يُوحَىٰ إِلَيْهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ].

٧ ـ • قرأ ٱبْن كثير، والكِسَائي، وخلَف: [فَسَلُوا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاسْأَلُوا].

١٢ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [بَاسَنَا]، وكذَلِكَ قَرَأَهَا حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بَأْسَنَا].

عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ
﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ
فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ
﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ
بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا
مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ
مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ
﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ
ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ
إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي

---

٢٤ ـ • قرأ حفص: [مَنْ مَعِيَ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

٢٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [نُوْحِي إِلَيْهِ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُوحَىٰ إِلَيْهِ].

٢٥ ـ • قرأ يعقوب: [فَاعْبُدُونِي] بإثبات ياء المتكلم، وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَاعْبُدُوْنِ] بحذف ياء المتكلم.

٢٨ ـ • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير.
وقرأها بَاقِي القراء العَشَرَةِ: [أَيْدِيهِمْ] بِكَسْرِ هَاءِ الضَّمِيرِ.

٢٩ ـ • قرأ نافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ إِلَٰهٌ] بفَتْحِ يَاءِ المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلم.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا
فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا
مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا
لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ
نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ
﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ

---

٣٠ ـ • قرأ ٱبْن كثير: [أَلَمْ يَرَ] بدون الواو العاطفة بَعْدَ همزَة الاستفهام.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَوَ لَمْ يَرَ] بإثبات الواو العاطفة.

٣٠ ـ • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جَعْفر: [يُومِنُون]، وكذلك قرأها حمزة في الوقف. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤْمِنُونَ].

٣٤ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عَامِر، وشعبَة، وأبو جعفر، ويعقوب: [مُتَّ] بضمّ الميم، وهو لغة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِتَّ] بِكَسر الميم، وهو لغة.

٣٥ ـ • قرأ يعقوب: [تَرْجِعُوْنَ] بالمبني للمعلوم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تُرْجَعُوْنَ].
أي: يُرْجعكُمُ اللهُ إلى الحياة فَأَنْتُمْ تَرْجِعُون بالجبر.

٣٦ ـ • قرأ حفص: [إِلَّا هُزُواً].
وقرأها حمزة، وخلف: [إِلَّا هُزْءاً].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَّا هُزُءاً].

كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا
تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن
وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾
بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ
يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ
سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم
بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم
مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا
يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ
مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ

---

٣٧ ـ • قرأ يعقوب: **[فَلَا تَسْتَعْجِلُونِي]** بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ]** بحذف ياء المتكلم.

٣٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[عَنْ وُجُوهِهُمُ النَّار]** بضم هاء الضمير.
وقرأها أبو عمرو، ويعقوب: **[عَنْ وُجُوهِهِمِ النَّارَ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ]** بِكَسْر هاء الضمير.
وهذا كلّه عند الوصل، وأما عند الوقف فالجميع على كَسْرِ الهاء وإسْكان الميم.

٤١ ـ • قرأ أَبو عَمْرو، وعَاصم، وحمزة، ويعقوب: **[وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ]**. بكسر دال «لقد».
وقرأها أبو جعفر وَصْلاً: **[وَلَقَدُ اسْتُهْزِيَ]**، ووقف بإسكان الياء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ]** بضم دال «لقد».
ووقف حمزة وهشام بإبدال الهمزة يَاءً ساكنَةً.

٤٤ ـ • قرأ أبو عمرو: **[عَلَيْهِمِ الْعُمُرُ]** بكسر الميم من «عليهم» وكسر الهاء.
وقرأها حمزة، والكِسَائيِ، ويعقوبُ، وخلف: **[عَلَيْهُمُ الْعُمُرُ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ]** بكسر الهاء وضم الميم من «عليهم». وهذا كله عند الوصْل، وأمّا عند الوقف: فحمزة ويعقوب بضم الهاء وإسكان الميم، ووقف الباقون بكسر الهاء وإسكان الميم.

أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾
قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا
يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ
يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ
خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ
رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ
مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ
رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا
هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا
عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾

---

٤٥ ـ • قرأ ابن عامر: [وَلَا تُسۡمِعُ الصُّمَّ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَا يَسۡمَعُ الصُّمُّ].
٤٧ ـ • قرأ نَافع، وأبو جعفر: [مِثۡقَالُ] بالرفع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِثۡقَالَ] بالنَّصب.
٤٨ ـ • قرأ قُنبُل: [وَضِئَآءٗ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَضِيَآءٗ].

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟
سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ
أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا
فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ
فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ
لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ
وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ
وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا
وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ
﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ
﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا

---

٥٨ ـ • قرأ الكسائي: [جِذاذاً].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [جُذَاذًا] وهما لغتان.
٦٣ ـ • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائي، وخلف: [فَسَلُوهُمْ]. وكذٰلك قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاسْأَلُوهُمْ].
٦٧ ـ • قرأ نَافع، وحفص، وأبو جعفر: [أُفٍّ].
وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ عَامر، ويعقوب: [أُفَّ].
وقَرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أُفِّ].

صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ
إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ
لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ
فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥
وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ
ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧ وَدَاوُۥدَ
وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ
وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا
ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ
وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم
مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ

---

٧٣ ـ • قرأ يعقوب، وحمزة: [إِلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.

٨٠ ـ • قرأ ابْن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [لِتُحْصِنَكُمْ].
وقرأها شعبة، ورُويس: [لِنُحْصِنَكُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِيُحْصِنَكُمْ].

٨٠ ـ • قرأ السّوسي، وأَبُو جَعْفر: [بَاسِكُمْ]. وكذلِكَ قرأها حمزة في الْوَقْف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بَأْسِكُمْ].

٨١ ـ • قرأ أَبُو جَعْفَر: [الرِّيَاحَ] بالجمع، للدّلالة على الأنواع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الرِّيحَ] بالإفراد، على أَنّه اسم جنس، وهُوَ يَشْمَلُ أنواع الرّياح.

تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ
عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ
وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾
وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ
إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي
ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ
نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي

---

٨٣ ـ • قرأ حمزة: [**مَسَّنِيْ الضُّرُّ**] بإسكان ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مَسَّنِيَ الضُّرُّ**] بفتحِ ياء المتكلّم.

٨٧ ـ • قرأ يَعْقُوب: [**يُقْدَرَ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**نَقْدِرَ**].

٨٨ ـ • قرأ ابن عامر، وشعبة: [**نُجِّي المؤمنين**].
وقرأ بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**نُنْجِي المؤمنِينَ**].

٨٩ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**وَزَكَرِيَّا إِذْ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَزَكَرِيَّاءَ إِذْ**]، وسَهَّل الهمزة الثانية نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورُوَيس.
وقرأها بالتحقيق: ابنُ عَامر، وشُعْبَة، ورَوْح.

فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ
يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي
ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ
﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ
أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم
بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ
﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ
يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ
أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا
بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ

---

٩٢ ـ • قرأ يعقوب: [فَاعْبُدُونِي] بإثبات ياء المتكلّم، وصلاً ووقفاً.
وَقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاعْبُدُونِ] بحذفِ ياء المتكلّم.

٩٥ ـ • قرأ شُعْبَة، وحمزة، وخلف، [وَحِرْمٌ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَحَرَامٌ].

٩٦ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [فُتِّحَتْ] بتشديدِ التاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فُتِحَتْ].

٩٦ ـ • قرأ عاصِمٌ: [يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ].

هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ
فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ
لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ
حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا
يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ
ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ
ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ
إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ
ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي
هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ

---

١٠٣ ـ ● قرأ أبو جعفر: [**لَا يُحْزِنُهُمُ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا يَحْزُنُهُمُ**].

١٠٤ ـ ● قرأ أبو جعفر: [**تُطْوَىٰ السَّمَاءُ**].
وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**نَطْوِي السَّمَاءَ**].

١٠٤ ـ ● قرأ حفص، وحمزة، والكِسائي، وخلف: [**لِلْكُتُبِ**] بالجمع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لِلْكِتَابِ**] بالإفراد.
والمؤدَّىٰ واحد.

١٠٤ ـ ● قرأ السُّوسي، وأبو جعفر، والأصبهاني عن وَرْش: [**بَدَانا**] وصلاً ووقفاً.
وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقِي الْقُرَّاء العَشَرَةِ: [**بَدَأْنَا**].

١٠٥ ـ ● قرأ حمزة، وخلف: [**في الزُّبُور**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**في الزَّبُورِ**].

١٠٥ ـ ● قرأ حمزة وَصْلاً: [**عِبَادِيْ الصَّالِحُونَ**] بإسْكان ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بفتح ياء المتكلم.

لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ
عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾
وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ
ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

---

١١٢ ـ • قرأ حفص: [قَالَ رَبِّ احْكُمْ].
وقرأها أبو جعفر: [قُلْ رَبُّ احْكُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قُلْ رَبِّ احْكُمْ].
١١٢ ـ • قرأ ابن ذكوان بخلف عنه: [يَصِفُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَصِفُونَ].

(٢)

مما وَرَدَ في السنة بشَأن سورة (الأنبياء)

روى البخاريُّ وغَيْرُهُ عَنْ عبد الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَال: «بنو إسْرائيل (أي: الإسراء)، والكهفُ، ومَرْيمُ، وطه، والأنْبِيَاءُ، هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ، وهُنَّ مِنْ تِلَادِي».

مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَل: أي: من الكرام الأول.

التِّلَاد: المالُ الأصْلِيُّ الْقَدِيم، والمراد من عبارة «مِنْ تِلَادِي»: مِنْ نَفِيسِي الْقَدِيمِ الَّذِي أمْتَلِكُهُ.

(٣)

موضوع سورة (الأنبِيَاء)

يَدُور مَوْضُوعُ هَـٰذِهِ السُّورَة حَوْلَ بَيَانِ واقِع حَالِ كُفَّارِ مَكَّة ومَنْ

حَوْلَهَا إِبَّانَ التَّنْزِيل، بِشَأْنِ القرآن، والرَّسُول ﷺ، والْيَوْمِ الْآخِرِ وجزائِهِ الْأكبر، وبِشَأْنِ الجزاء المعَجَّل الْمَوْعُودِ به.

ويَدُورُ حَوْلَ مُعَالَجَتِهِمْ بِمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ التَّرْبَوي، القائم عَلَىٰ البيان المقرون بالْحُجَّةِ والبرهان، والإقناعِ العقْلِيّ بالحقّ، والترغيب والترهيب، والحِوار الْجِدَالِيِّ بالَّتِي هِي أَحْسَنُ، ومَطالَبَةِ الْكَافِرِينَ المكذِّبِينَ بِمَا جَاءَ في رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِتَقْدِيم بُرْهَانِهِمْ، إذا كان لَدَيهم بُرْهَانٌ يَدُلُّ على صِحَّة مَا يَعْتَقِدُونَ.

ويَدُورُ حَوْلَ التعريف بحَقَائِقَ فِكْرِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ هي مِنْ مَفْهُومَاتِ الدِّينِ، وتقديم حقائق كَوْنِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ أن القرآن حَقٌّ، وظَواهِرَ كونية تَشْهَدُ بأَنْ هٰذَا الدينَ حَقٌّ.

وفي السورة عَرْضٌ لمحَاتٍ مُوجَزَاتٍ عن طَائِفَة من المرسلين عَلَيْهِم السَّلام، تُبيِّنُ أَنَّهُمْ قَدْ حَمَلُوا رِسَالَةً ربَّانِيَّةً، ذَاتَ أُصُولٍ وقواعِدَ كليَّةٍ واحِدَةٍ، وأَنَّ أُمَّتَهُمْ أُمَّةٌ واحِدَةٌ.

(٤)

دروس سورة (الأنبياء)

ظهر لي إمْكانُ تَقْسِيم هَـٰذِهِ السُّورَةِ إِلَىٰ (٢٤) دَرْساً.

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٩).

وفي آيات هـٰذَا الدّرس إنْذَارٌ لِأَئِمَةِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا، بِأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ حِسَابُهُمْ وَعِقَابُهُمْ، وهم غَافِلُونَ لاعِبُونَ، لَاهُونَ، دُعَاة للتَّنْفِيرِ مِن الاستجابةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ، بمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ الدِّعَائِيَّةِ الإغْرَائِيَّة الإيهامِيَّةِ الزُّخْرُفِيّة.

وَفِيهَا تَوصِيَة الرَّسُولِ ﷺ بأنْ يَقُولَ لَهُمْ: رَبِّي يَعْلَمُ مَا تَقُولُونَ،

وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ عِقَاباً شَدِيداً لافترائِكُمْ عَلى الحق الَّذِي بَعَثَ الله بِهِ رَسُولَهُ ﷺ.

وفيها بيانٌ رَبَّانِيٌّ عَنْ حَالَتِهِمُ الَّتِي بَلَغُوا بِها الدَّرَكَةَ الْمَيْؤُوسَ من إصْلاحِهِمْ مَعَهَا عن طَرِيقِ إرَادَاتِهِمْ الحرَّة. وبيان عَنْ كَوْنِ الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ مِثْلَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ في الْوَحْيِ إلَيْهِ، وفي بَشَرِيَّته، وَكَيْفَ نَصَرَ اللهُ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام وأَهْلَكَ الكَفَرَةَ الْمُسْرِفِين في كُفْرِهِمْ وعِنَادِهم.

الدَّرس الثاني: الآيات من (١٠ ـ ١٥).

وَفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ بأَنَّهُ أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُهُم، مَعَ حَثِّهِمْ عَلَىٰ أَنْ يَعْقِلُوا.

وفيها إنْذَارٌ لَهُمْ بإهْلَاكِهِمْ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ، كَمَا فَعَلَ رَبُّهُمْ بِكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَة.

الدرس الثالث: الآيَات من (١٦ ـ ٢٤).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ مَقْرُونٌ بِحُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ؛ بأَنَّ خَلْقَ السَّماءِ والأَرْضِ لَيْسَ لَعِباً ولَا لَهْواً، بَلْ هُوَ لِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ، هِيَ امْتِحَانُ الناسِ فِي ظُرُوفِ الحَياةِ الدُّنْيَا، وهـٰذَا الامْتِحَانُ يَسْتَتْبِعُ الجَزَاء الْأَكْبَرَ يوم الدين.

وفيها مُنَاقَشَةُ المشركين في شِرْكِيَّاتِهِمْ، وَمَا يَفْتَرُونَهُ مِنْ بَاطل على اللهِ بَارِئهم، والمهيمن عليهم دواماً بِصِفَاتِ رُبُوبيته.

وفيها تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ وكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ أَنْ يُطَالِبَهُمْ بِبُرْهَانِهِمْ عَلَىٰ مَا يَفْتَرُونَ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ، مِنْ دَلِيلٍ عَقْلِي أَوْ دَلِيلٍ نَقْلِيّ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ السَّابِقين.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (٢٥ ـ ٢٩).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ خِطابٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله ﷺ بأَنَّ

وَحْيَ اللهِ إِلَيْهِ نظير وَحْيِهِ إلى الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، لإِسْمَاعِ المكَذِّبين هَـٰذِهِ الحقيقة دُونَ مُخَاطَبَتِهِمْ بها.

وفيها عَرْضُ قَوْلِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الله اتَّخَذَ وَلَداً، افْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ، وذٰلك بادِّعائِهم أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، مَعَ بَيَانِ واقع حَالِ الملائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام.

الدَّرس الخامس: الآيات من (٣٠ ـ ٣٣).

وفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ ذِكْرُ حقيقةٍ عِلْمِيَّةٍ كَوْنِيَّةٍ كبرىٰ، هَلْ تَوصَّلَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ إلى مَعْرِفَتِهَا، أَمْ لَمْ يَتَوَصَّلُوا إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا حَتَّىٰ الآنَ؟، وَهِي أَنَّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ كَانَتَا كُتْلَةً واحِدَةً عُظْمَىٰ فَجَزَّأَهَا اللهُ إِلَىٰ أَجْزَاء، وَجَعَلَ مِنْهَا نُجُوماً وَجَعَلَ مِنْهَا كَوَاكِبَ، وَمَجَرَّاتٍ.

وفيها بيان أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيّ، مع بيان ظَواهِرَ كَوْنِيَّة أُخْرَىٰ، فيها دَلَالَةٌ عَلَىٰ كمالِ حِكْمَةِ اللهِ الدالَّة عَلَىٰ أن الله خَلَق الناس لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

الدرس السادس: الآيات من (٣٤ ـ ٤١).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةُ أئِمَّةِ المشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ مَوْتَ الرَّسُولِ ﷺ للتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَتِهِ، بأُسْلُوبِ خِطَابِ الرَّسُول ﷺ مع الإعْرَاضِ عَنْهُمْ وإسْمَاعِهِمْ بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشر، وإعْلَامِ الرسول ﷺ بأَنَّ الله بِسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ لَمْ يَجْعَلْ لِبَشرٍ مِنْ قَبْلِهِ الْخُلْدَ في الحياة الدُّنيا، ويَقُولُ الله عَزَّ وَجلَّ له: ﴿... أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وفِيهَا بيانُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ فِي هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا، وأَنَّ الحَيَاةَ الدُّنيا رِحْلَةُ امْتِحَانٍ بما يَرَاهُ النَّاس شَرًّا وبِمَا يَرَوْنَهُ خَيْراً، وأَنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ بَعْثاً إِلَىٰ الحياة الأُخرى، تَرْجِعُ فِيهِ الْخَلَائِقُ إلى رَبِّها، لِلْحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

وفِيهَا بَيَانُ مَوْقِفِ أئِمَّةَ الكُفرِ والشِّرْكِ إبَّانَ التَّنْزِيلِ مِنْ إنْذَارَاتِ الرَّسُولِ ﷺ لهم، وهُوَ مَوْقِفُ الاسْتِهْزَاءِ بِهَا وبالرَّسُول ﷺ الّذي يُنْذِرُهُمْ، مَعَ طَلَبِهِمْ تَعْجِيلَ تَحْقِيقِها تَعْبيراً عَنْ تَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ بها.

وفيها بيان أنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ.

وفيها مُعَالَجَتُهُمْ بالتَّرْهِيبِ، وبقياسِهِمْ عَلَىٰ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْقُرونِ السَّابِقَة.

الدرس السابع: الآيات من (٤٢ ـ ٤٧).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ الله مِنْ أُمَّتِهِ؛ أسْلُوبَ حِوارٍ إقْنَاعِيّ، بِشَأنِ رُبُوبيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ في الوجُودِ كُلِّه، وَبِشَأنِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي لَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

وفيها بَيَانُ وَاقِعِ حَالِ المشْرِكِينَ، إذْ طَالَتْ مُدَّةُ إمْهَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، مَعَ لَفْتِ نَظَرِهِمْ إلَىٰ بَعْضِ أَدِلَّةِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ، الَّتِي تَكْشِفُ لِأَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ عَظَمَةَ اللهِ في تَصَارِيفِهِ لِكَوْنِهِ.

وفِيها تَعْلِيم الرَّسُول ﷺ أنْ يَقُول لَهُمْ: إنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بالْوَحْيِ مِنْ رَبِّي، وَلَا أُنْذِرُكُمْ مِنْ عِنْدِي، مع بيان اللهِ بأنَّهُمْ بِمَثَابَةِ الصُّمِّ تُجاهَ إنْذَارَاتِ رَبِّهِمْ لهم.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَة يُرْهِبُ أُولي الألْبَاب.

الدرس الثامن: الآيات من (٤٨ ـ ٥٠).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لَقْطَةٍ مُخْتَارَةٍ مِنْ قِصَّة مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام بِشَأْن الكتاب الذي آتاهُمَا اللهُ إيَّاهُ، وبَيَانُ أَنَّ القرآنَ ذِكْرٌ مُبَارَكٌ.

الدَّرْس التاسع: الآيَات من (٥١ ـ ٧٣).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وَهِي تَتَعَلَّقُ بِفَصْلٍ مِنْ فُصُولِ دَعْوَتِهِ إلى دِينِ اللهِ الْحَقِّ فِي قَوْمِهِ.

الدَّرْس العاشر: الآيتان (٧٤) و(٧٥).

وفيهما عرض لقطة من قصة لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الحادي عشر: الآيتان (٧٦) و(٧٧).

وفيهما عَرْض لقطة من قِصَّةِ نُوح عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٧٨ ـ ٨٢).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لقْطَاتٍ مِنْ قِصّتَي دَاود وسليمان عليهما السلام.

الدَّرْس الثالث عشر: الآيتان (٨٣) و(٨٤).

وفيهما عَرْضُ لقْطَةٍ مِنْ قِصَّةِ أيوب عليه السلام.

الدَّرْس الرابع عشر: الآيتان (٨٥) و(٨٦).

وفيهما ذِكْرُ إسْمَاعِيل، وإدْرِيسَ، وذِي الكِفْلِ، مع بيان موجز عنهم عليهم السَّلام.

الدرس الخامس عشر: الآيتان (٨٧) و(٨٨).

وفيهما لقطة مُوجَزَةٌ مِنْ قِصَّةِ ذِي النون (= يُونس عَلَيْهِ السَّلَام).

الدرس السادس عشر: الآيتان (٨٩) و(٩٠).

وفيهما ذِكْرُ زَكَرِيا عَلَيْهِ السَّلَام، واسْتِجَابَةِ دُعَائِهِ.

الدَّرسُ السابع عشر: الآية (٩١).

وفيها ذِكْرُ مَرْيَمَ عليها السلام، ولمحة من قصَّة حَمْلِها بعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٩٢ ـ ٩٤).

وفيها بيان أنَّ أُمَمَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أُمَّةٌ واحِدة، لَكِنَّ النَّاسَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ علىٰ خِلَافِ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ به.

وفيها بيان عاقِبَةِ كُلِّ عَامِلٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ وكَسْبِهِ.

الدرس التاسع عشر: الآية (٩٥).

وفيها بيان عَنْ حَالَةِ الْقُرَىٰ الْمُهْلَكَة، إِذْ لَمْ تُهْلَكْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَصَلَتْ إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الْحُرَّة.

الدرس العشرون: الآيتان (٩٦) و(٩٧).

وفيهما بيان عَنْ فَتْحِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ، واقْتِرَابِ الوعْدِ الحق.

الدرس الحادي والعشرون: الآيات من (٩٨ ـ ١٠٠).

وفيها خطابٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ مَعَ مَعْبُودَاتِهِمْ حَصَبُ جَهَنَّم.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِن مَشَاهِدِ تَعْذِيبِهِمْ يَوْمَ الدِّين.

الدرس الثاني والعشرون: الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤).

وفيها بَيَانٌ بِشَأْنِ المؤمِنِينَ النَّاجِينَ يومَ الدّين، يَوْمَ يَطْوِي اللهُ السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجل لِلْكُتب.

الدرس الثالث والعشرون: الآيتان (١٠٥) و(١٠٦).

وفيها بَيَانُ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عبادُ اللهِ الصَّالِحُونَ.

الدرس الرابع والعشرون: الآيات من (١٠٧ ـ ١١٢) آخر السورة.

وفيها خطابٌ للرَّسول ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ في بَعْضِهَا كُلُّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَفِي هٰذَا الْخِطَاب تَعْلِيمٌ دَعوِيّ، يُنَاسِبُ المرحَلَةَ الَّتِي نزلَتْ فيها السُّورة.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (الأنبياء)

الآيات من (١ ـ ٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ (٥) مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ (٩)﴾.

القراءات:

(٢) ● قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جَعْفر: [**مَا يَاتِيهِمْ**] وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها يعقوب: [**مَا يَأْتِيهُمْ**] بالهمزَةِ المحقّقة مع ضمّ هاء الضمير.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مَا يَأْتِيهِمْ**] بالهمزة مع كَسْرِ هاء الضمير.

(٣) • قرأ ورْش، والسُّوسِيّ، وأبو جَعْفر: **[أَفَتَاتُونَ]** وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَفَتَأْتُونَ]**.

(٤) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[قَالَ رَبِّي]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[قُلْ رَبِّي]**.

وبينهما تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

(٥) • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر: **[فَلْيَاتِنَا]**، وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَلْيَأْتِنَا]**.

(٧) • قرأ حفص: **[نُوحِي إِلَيْهِمْ]**.

وقرأها حمزة، ويعقوب: **[يُوحَىٰ إِلَيْهُمْ]**.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: **[يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ]**.

(٧) • قرأ ابْن كثير، والكسائي، وخلف: **[فَسَلُوا]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاسْأَلُوا]**.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ إِنْذَارٌ لِأَئِمَّةِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا إِبَّانَ التَّنْزِيل، بِأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ حِسَابُهُمْ وعقابُهُمْ وهُمْ غَافِلُونَ لَاعِبُونَ، لَاهُونَ، دُعَاةٌ للتَّنْفِير من الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُول محمَّدٍ ﷺ، بمخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ الدِّعَائِيَّة الإِغْرَائِيّة الإيهَامِيّة الزُّخْرُفِية.

وفيها تَوْصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بأنْ يَقُولَ لَهُمْ: رَبِّي يَعْلَمُ مَا تَقُولُونَ، وسَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ عِقَاباً شَدِيداً، لافْتِرَائِكُمْ على الحقّ الّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وأنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ.

وفِيهَا بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ عَنْ حَالَتِهِمْ الّتِي بَلَغُوا بِهَا الدَّرَكَةَ الميْؤُوسِ مِنْ إصْلَاحِهِمْ مَعَهَا عن طَرِيقِ إرَادَاتِهِمْ الحرَّة، وبَيَانٌ عَنْ كَوْنِ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ مِثْلَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ في الْوَحْيِ إلَيْهِ، وفي بَشَرِيَّتِهِ، وأَنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُ كَما نَصَرَ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام مِنْ قَبْلِهِ، وأَهْلَكَ الكَفَرَة الْمُسْرِفِينَ في كُفْرِهِمْ وعِنَادِهم.

التدبر التحليلي:

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ①﴾:

المراد بالنَّاس في هَـٰذِهِ الآيَةِ فيما يَظْهَرُ: أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيلِ، بِدَلِيلِ وصْفِهِمْ في هَـٰذِهِ الآيَةِ وفي الآيَتَيْنِ بَعْدَهَا؛ بأَوْصَافٍ تَكْشِفُ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُرَادُونَ.

والْمُرَادُ باقْتِرَابَ حِسَابِهِمْ فِيمَا ظَهَرَ لِي؛ اقْتِرَابُ تَنْفِيذِ مُحَاسَبَتِهِمْ عَلَىٰ جَرَائِمِهِمْ، وإصْرَارِهِمْ بعِنَادٍ على الكُفْرِ وجُحُودِ الْحَقِّ، وتَنْفِيذِ مَا يَتْبَعُ مُحَاسَبَتَهُمْ مِنَ القَضَاءِ بِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِهِمْ، لِبُلُوغِهِمْ دَرَكَةً لَا يَسْتَجِيبُونَ مَعَهَا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ مَهْمَا أُمْهِلُوا، فَقَدْ أُمْهِلُوا إمْهَالاً طَوِيلاً مُنْذُ بَدْءِ الْبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ حَتَّىٰ نُزُولِ هَـٰذِهِ السُّورة، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ إنْذَارُهُمْ باقْتِرَابِ حِسَابِهِمْ والْحُكْم عَلَيْهِمْ بالتَّعْذِيبِ والإهْلَاكِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَدْ تَحَقَّقَ هَـٰذَا فِعْلاً فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا صَنَادِيدُ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ العِنَادِيِّ الْجُحُودِي لِلْحَقِّ، على الرُّغْمِ مِنْ ظُهُورِ أَدِلَّتِهِ، وَوُضُوحِ بَرَاهِينِهِ، وسُقُوطِ ذَرَائِعِ المشْرِكِينَ، وافْتِضَاحِ إصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الْبَاطِلِ.

وقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَالَ هَـٰؤُلَاءِ الْمَعْنِيِّينَ بِعُنْوَانِ النَّاسِ بِعِدَّةِ صِفَاتٍ، أَوَّلُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿. . . وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ①﴾: أي: اقْتَرَبَ لِهَؤُلَاءِ حِسَابُهُمْ وَلَوَاحِقُهُ، باقْتِرَابِ الزَّمَنِ الَّذِي يَتَحَقَّقُ فِيهِ، فَهُمْ إبَّانَ

نُزُولِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ في نَحْوِ الْخُمُسِ الْأَخِيرِ مِنَ الْعَهْدِ الْمَكِيِّ، وَكَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَىٰ فِي أَوَائِلِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ.

اقْتِرَابُ الشَّيْءِ: دُنُوُّهُ، بِتَنَاقُصِ الْمَسَافَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا اقْتَرَبَ لَهُ، أو قِلَّتِهَا، وهَـٰذِهِ الْمَسَافَةُ قَدْ تَكُونُ زَمَانِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ مَكَانِيَّةً، فَاقْتِرَابُ مَوْسِمٍ مِنَ الْمَوَاسِمِ كَمَوْسِمِ الْحَجِّ؛ يَكُونُ بِقِلَّةِ الزَّمَنِ الْبَاقِي لَهُ. واقْتِرَابُ السَّفِينَةِ لِلْمِينَاء يَكُونُ بِقِلَّةِ الْفَاصِلِ الْمَكَانِيِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الميناء.

﴿فِي غَفْلَةٍ﴾: أي: مُنْغَمِسُونَ في غَفْلَةٍ، ومُحَاطُونَ بِهَا. **الْغَفْلَة**: هِيَ انْصِرَاف الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَةِ الشَّيْءِ مَعَ وُجُودِهِ فِي مَجَالِ الْإِدْرَاكِ، أَوْ وُجُودِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾: أي: يُعْطُونَ لاقْتِرَابِ حِسَابِهِمْ عَارِضَهُمْ، أي: جانِبَهُمْ، وهو مَنْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبَار. **والإعْرَاضُ عَنِ الشيء**: يُكَنَّىٰ بِهِ عَنْ عَدَمِ تَوْجِيهِ الْحَوَاسِّ لإدْرَاكِهِ، مَرْئِيًّا أَوْ مَسْمُوعاً أَوْ مَلْمُوساً.

وَجَاءَ في الآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ مُتَابَعَةُ تَفْصِيلِ حَالِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾:

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي حَالُهُمْ عَلَيْهَا وقَدِ اقْتَرَبَ حِسَابُهُمْ ولَوَاحِقُهُ، هِيَ: أَنَّهُمْ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيَانٍ قُرآنِيٍّ مُحْدَثِ التَّنْزِيلِ، تَلَاهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ محمَّدٌ ﷺ؛ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ مُنْصَرِفَةً أَذْهَانُهُم عَنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ ومَرَامِيه.

اللَّعِبُ: ضِدُّ الْجِدِّ، ويُقَالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً لَا يُقَدِّمُ لَهُ نَفْعاً:

إِنَّمَا أنْتَ لَاعِبٌ، وكَذَلِكَ الَّذِي يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِعَمَلٍ ذي نَفْعٍ ضَئِيلٍ، تَارِكاً عَمَلاً مُيَسَّراً لَهُ ذَا نَفْعٍ عَظِيمٍ كَثِيرٍ.

كَلِمَةُ ﴿ذِكْرٍ﴾ جَاءَتْ فِي الْقُرآنِ لِلدَّلَالَةِ بِهَا عَلَىٰ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيد، لِأَنَّ المطْلُوبَ بَعْدَ تَلَقِّي الْقُرْآنِ وتَفَهُّم مَعَانِيهِ؛ أَنْ يَبْقَىٰ فِي النَّفْسِ ذِكْراً يُسْتَدْعَىٰ عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ دَاعِيَةٍ إلى سَاحَةِ التَّذَكُّرِ الْحَاضِرِ، أَوْ تُسْتَدْعَىٰ المعاني الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا.

فَحَالُ هَؤُلَاءِ المعنيّين؛ أَنَّهُمْ كُلَّمَا جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ قُرْآنٌ مُحْدَثُ التَّنْزِيلِ تَلَاهُ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ؛ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِمَا لَا نَفْعَ فِيهِ، أَوْ نَفْعُهُ قَلِيلٌ ضَئِيلٌ، دُونَ أَنْ يَصِلَ مَا اسْتَمَعُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَىٰ مَرَاكِزِ التَّفْكِيرِ لَدَيْهِمْ، اسْتِهَانَةً بِهِ، وانْصِرَافاً كُلِّيًّا عَنْهُ، غَيْرَ عَابِئِينَ بالْمَعَانِي الَّتِي دَلَّ أَوْ يَدُلُّ عَلَيْهَا، وسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ تَكُونُ لَاهِيَةً بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا، وَمَطَالِبِ نُفُوسِهِمْ مِنْ زِينَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا. فَهُمْ في حَالَةِ لَهْوِهِمْ بِهَـٰذِهِ الْأُمُور تَكُونُ تَصَرُّفَاتُهُمْ لَعِباً.

أو هم فعلاً مَشْغُولون باللَّعِبِ، كالنَّرْدِ، وَنَحْوِه.

الصِّفَة الثالِثَة الَّتِي حَالُهُمْ عَلَيْهَا وَقَدِ اقْتَرَبَ حِسَابُهُمْ وَلَوَاحِقُه، هِيَ: أَنَّ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ ظُلماً شَنِيعاً؛ يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ سِرّاً، بِقَضِيَّتَيْنِ لِنَشْرِهِمَا نَشْراً إِعْلَامِيًّا.

الْقَضِيَّةُ الْأُولَى: هَلْ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ؟، وإِذَا كَانَ بَشَراً مِثْلَكُمْ فَلِمَاذَا اسْتَكْبَرَ عَلَيْكُم بِأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، ويُرِيدُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْآمِرَ والنَّاهِي لَكُمْ باسْمِ الدِّينِ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ يَتَلَقَّاهُ عَنْ رَبِّكُم رَبِّ الْعَالَمِينَ.

ولِتَغْلِبُوهُ فِكْرِيًّا أَشِيعُوا بَيْنَ جَمَاهِيرِكُم أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُ سَائِرِ الْبَشَرِ، وَلَيْس لَهُ مِيزَةٌ خَاصَّةٌ تُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ، وَرَسُولاً مِنْ رُسُلِهِ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ: ﴿هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؟؟.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: إنَّ مَا يَتْلُوهُ مِنْ كَلَامٍ ذِي تَأْثِيرٍ عَلَى الْقُلُوبِ والنفوس بِبَلاغَتِهِ ومَعَانِيهِ وأسَالِيبِهِ الْعَجِيبَةِ، ويَقُولُ: هـٰذَا الكَلَامُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ يُوحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ؛ لَا سَبِيلَ لِصَرْفِ جَمَاهِيرِكُمْ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا: هـٰذَا نَوْعٌ مِنْ أَنْواعِ السِّحْرِ يؤَثِّرُ بِهِ عَلَيْكُمْ، وأَنْ تَقُولُوا لِجَمَاهِيرِكُمْ: أَتَأْتُونَ محمّداً ـ ﷺ ـ لتَسْمَعُوا مِنْهُ مَا يَسْحَرُكُمْ بِهِ مِنْ كَلَام، وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ والْخَوارِقِ الْعُظْمَىٰ مَا يُثْبِتُ أَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ، هـٰذَا مِنْكُمْ سَفَاهَةٌ وَنُقْصَانُ عَقْلٍ، وبهـٰذَا تَصُدُّونَ جَمَاهِيرَ قَوْمِكُمْ عَنِ الذَّهَابِ إِلَيْهِ والاسْتِمَاعِ إلى الْكَلَامِ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ.

دل على هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟؟.

أي: أَفَقَدْتُم عُقُولَكُمْ وتَقْدِيرَكُمْ لِلأُمُورِ حَقَّ قَدْرِهَا فَأَنْتُمْ تَأْتُونَ محمّداً ـ ﷺ ـ لِتَسْمَعُوا مِنْهُ مَا يَسْحَرُكُمْ بِهِ مِنْ كَلَام، وأَنْتُم تُبْصِرُونَ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

النَّجْوَىٰ: الإِسْرَارُ بالْحَدِيث. ويُطْلَقُ لفظ «النَّجْوَىٰ» على المتناجين، وهو من الوصْفِ بالمصْدَرِ.

وإِسْرَارُهُمْ بالنَّجْوَىٰ؛ يَدُلُّ عَلَىٰ شِدَّةِ إخفاء الظَّالِمِينَ مِنْ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ تَنَاجِيَهُمْ، حَتَّىٰ لَا يَفْتَضِحُوا بَيْنَ جَمَاهِيرِهِمْ بالتَّآمُرِ عَلَىٰ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ ظُلْماً وَعُدْواناً، وحتَّىٰ لَا تُدْرِكَ جماهيرهم مَبْلَغ مَكْرِهِمْ، فَلَا يَسْتَجِيبُوا لِدِعَايَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ الْفَاجِرَة.

و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بَدَلٌ من واو الجماعةِ في ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾:

في قراءة حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلف.

وفي قراءة باقي القرّاء العشرة: [**قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ** .... ۝٤]:

وبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ المعنَىٰ الْمُرَاد، أي: قَالَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: [قُلْ: رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ...] الآية. فاسْتَجَابَ الرَّسُول ﷺ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وإذِ اسْتَجَابَ [قَالَ: رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ...] الآية.

فِي هٰذَا التَّعْلِيم الرَّبَّانِيِّ الَّذِي نَفَّذَهُ الرَّسُول محمَّدٌ ﷺ؛ إِنْذَارٌ لِأَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، بأَنَّ اللهَ رَبَّهُ سَيُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ مَوْقِفِهِمْ مِنْهُ، وَمِنْ دَعْوَتِهِ وَمِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، فَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يَعْلَمُ كُلَّ قَوْلٍ يُقَالُ في السَّمَاءِ والأَرْضِ، وهُوَ وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ مَا يُعْلَم، وَمِمَّا يَسْمَعُهُ أَقْوَالُهُمْ، وَمِمَّا يَعْلَمُهُ أَعْمَالُهُمُ الكَيْدِيَّةُ لِدِينِهِ وكتابِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ والمؤمِنِينَ.

فَلْيَنْتَظِرُوا نِقْمَتَهُ، فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، وهو الْحَكَمُ الْعَدْلُ الْحَكِيمُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، وَهٰذِهِ تُفْهَمُ باللُّزُومِ الْفِكْرِيِّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ بَيَان أقوالِهِمُ المعبِّرَةِ عَنْ تَكْذِيبِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْقُرْآنِ المجيد:

● ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾:

إِنَّ أئمَّةَ الكُفْرِ والشِّرْكِ لَمْ يَقْتَصِرُوْا فِي مَجْمُوعِهِمْ عَلَىٰ الطَّعْنِ في القرآنِ بأنَّهُ مِنْ قَبِيلِ السِّحْر؛ بَلْ أَضَافُوا إِلَيْهِ الطَّعْنَ بثَلاثِ شَتَائِمَ وجَّهُوهَا لَهُ.

الشَّتِيمَةُ الْأُولَى: أَنَّهُ أضغَاثُ أَحْلَامٍ، وأضْغَاثُ الأَحْلَام: مَا كَانَ مِنْهَا مُلْتبساً مضطرباً مُخْتَلِطاً بَعْضُهُ بِبَعْض. وأَصْلُ الضِّغْثِ: قَبْضَةٌ مُخْتَلِطَةٌ من حشيش وأعْوَادٍ.

أي: بعضُ مَا يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ وَيَقُولُ هُوَ كَلَامٌ أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ؛ يُشْبِهُ الْأَحْلَامَ الملْتَبِسَةَ المخْتَلِطَةَ، الَّتِي لَا يُفْهَمُ لَهَا تَعْبِيرٌ وَلَا تَأْوِيل.

وغَرَضُهُمْ مِنْ هٰذَا صَرْفُ جَماهِيرِهِمْ عَنْ تَفَهُّم آيَاتِ الْقُرآنِ الْمَجِيدِ، زَاعِمِينَ أَنَّهَا كَالْأَحْلَامِ الملْتَبِسَةِ الَّتِي اخْتَلَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَلَا يَصِحُّ إِشْغَالُ الْأَذْهَانِ بِتَفَهُّمِ الْمُرَادِ بِهَا، والْبَحْثِ عَنِ المَعَانِي الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا، وهـٰذَا يَقُولُونَهُ لِلَّذِينَ لَا يُحْسِنُونَ تَفَهُّمَ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، وإِدْرَاكَ الرَّوابِطِ الذِّهْنِيَّةِ بَيْنَ جُمَلِهِ.

الشَّتِيمَةُ الثَّانِيةُ: أَنَّ مُحَمّداً ـ ﷺ ـ يَأْتِي بِهـٰذَا الكَلَامِ الَّذِي يَتْلُوهُ: مِنْ عِنْدِهِ، أو بِالتَّعَاوُنِ مَعَ غَيْرِهِ، أو بِالنَّقْلِ عَنْ كُتُبٍ سَابِقَةٍ، ويَزْعُمُ كَذِباً أَنَّ اللهَ يُوحِي بِهِ إِلَيْهِ.

الافْتِرَاء: اخْتِلَاقُ الْكَذِبِ واصْطِنَاعُهُ عَنْ عَمْد.

الشتيمة الثالِثَة: أَنَّ مُحَمّداً ـ ﷺ ـ شَاعِرٌ، فَالأَقْوالُ المؤثِّرَةُ فِي نُفُوسِ بَعْضِ مُسْتَمِعِي مَا يَتْلُوهُ عَلَىٰ النَّاسِ؛ هِي مِنْ أَنْواعِ الشِّعْرِ الَّذِي أُوتِي مَوْهِبَتَهُ، ويَبْتَعِدُ فِيهِ عَنْ نِظَامِ الشِّعْرِ وأَوْزَانِهِ، لِغَايَةٍ فِي نَفْسِهِ يُرِيدُ تَحْقِيقَها بَيْنَ قَوْمِهِ، وبَيْنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ.

ولِإِقْنَاعِ جَمَاهِيرِهِمْ بِأَنَّ مُحَمَّداً ـ ﷺ ـ يَفْتَرِي عَلَىٰ رَبِّهِ، وبِأَنَّهُ لَيس نَبِيًّا وَلَا رَسُولاً؛ قَالُوا: إِنْ كَانَ رَسُولاً حَقًّا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ خَارِقَةٍ عَظِيمَةٍ مُعْجِزَةٍ، كَمَا أُرْسِلَ الرُّسُلُ السَّابِقُونَ مُؤَيَّدِينَ بالمعجزات الكِبَارِ، كَعَصَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وَنَاقَةِ صَالحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وإِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ والْأَبْرَصِ له عَلَيْهِ السَّلَام.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُومِئُ إِلَىٰ أَنَّ المعْنِيِّينَ بالْعِلَاجِ؛ قَدْ وَصَلُوا أَوْ كَادُوا يَصِلُونَ إِلَىٰ الدَّرَكَةِ الَّتِي تَقْضِي الْحِكْمَةُ بِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِهِمْ، فَلْيَرْتَقِبُوا تَحْقِيقَ مَا أُنْذِرُوا بِهِ، وَلَو اسْتَجَبْنَا لِمَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ آيَاتٍ كِبَارٍ فَلَنْ يُؤْمِنُوا كَمَا فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ:

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾:

أي: مَا آمَنَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ كَافِرَةٍ؛ طَلَبُوا مِنْ رَسُولِهِمْ آيَةً عَظِيمَةٍ، فَاجْرَيْنَاهَا لِرَسُولِنَا كَمَا طَلَبُوا، فَعَذَّبْنَاهُمْ وَأَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا مَعَ إِجْرَائِنَا الآيَةَ العُظْمَىٰ.

أَفَهؤلَاءِ الْمَعْنِيُّونَ بالْعِلَاجِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ سَيُؤْمِنُونَ إنْ آتَيْنَا رَسُولَنَا مُحَمّداً ـ ﷺ ـ آيَةً عظْمَىٰ كَمَا طَلَبُوا؟!، إِنَّ التَّجْربَةَ لِكُفَّارِ الْقُرَىٰ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ كَانَ كُفْرُهُمْ كُفراً جُحُودِيًّا عِنَادِيًّا؛ تَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ هَـؤُلَاءِ الْمُعَالَجِينَ الْمُشَابِهِينَ لِلسَّابِقِينَ فِي كُفْرِهِمُ الجحوديّ الْعِنَادِيّ؛ لَنْ يُؤْمِنُوا وَلَوْ آتينا رَسُولَنَا ـ ﷺ ـ آيَةً عُظْمَىٰ، فإجْرَاؤُهَا عَبَثٌ يَسْتَدْعِي إِهْلَاكَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا عَاداً وَثَمُودَ وفِرْعَوْنَ وآلَهُ وَجَيْشَهُ.

هَـٰذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ، أَمَّا أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ المعانِدُونَ الْجَاحِدُونَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ؛ فَسَيَكُونُ إِهْلَاكُهُمْ انْتِقَائِيًّا، إِذْ مَا زَالَ غَيْرُهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِلْإِيمانِ، وَسَيُؤْمِنُونَ مَتَىٰ زَالَتْ ضَوَاغِطُ الزَّعَامَاتِ الكافِرَةِ الْفَاجِرَةِ الطَّاغِيَةِ عَنْ رُؤُوسِهِمْ، وَهـٰذَا مَا تَحقَّقَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، إِذْ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً.

«مِنْ» في: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾: مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْيِ واسْتِغْرَاقِهِ كُلَّ الْقُرَىٰ الْكافِرَة.

وأُطْلِقَ لفظ «قَرْيَةٍ» والمرادُ أَهْلُها، وهـٰذَا مِنْ إِطْلَاقِ المحَلّ وإرادَةِ الْحَالِّ بِهِ، فَهُوَ مِنَ المَجَازِ المُرْسَلِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً مُعَالَجَةَ المعنيّين بالْعِلَاجِ إبَّانَ التَّنْزِيلِ، بأُسْلُوبِ خِطَابِ الرَّسُول ﷺ:

● ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾:

سَبَقَ فِي الآيَةِ (٣) بيانُ أَنَّ المعنيِّينَ بالْعِلَاجِ قَالُوا لِجَمَاهِيرِهِمْ لصَدِّهِمْ عَنِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؟!، فرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بأسْلُوبِ خِطاب الرَّسُولِ ﷺ أَوّلاً فبِخطَابِهِمْ عقِبَ ذٰلِكَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، وفي الْقِرَاءَة الأُخْرَىٰ: [يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ]، أي: نُكَلِّف رُسُلَ الوَحْي مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام بِأَمْرِنا؛ أَنْ يُوحُوا إِلَيْهِم مَا نَأْمُرُهُمْ بِهِ.

والْمَعْنَىٰ: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ إِلَّا بَشَراً رِجَالاً، نُكَلِّفُ رُسُلَ الْوَحْيِ مِنْ مَلَائِكَتِنَا؛ أَنْ يُوحُوا إِلَيْهِمْ مَا نُرِيدُ إبْلَاغَهُمْ إيَّاهُ.

فَلَسْتَ يَا مُحَمَّدُ بِدْعاً بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ، حَتَّىٰ يَتَعَلَّلَ المعانِدُونَ الجاحِدُونَ بِبَشَرِيَّتِكَ، وَبِأَنَّكَ تَأْكُلُ الطَّعَامَ، وتَمْشِي في الأَسْوَاقِ لِاكْتِسَابِ رِزْقِكَ.

وَتَوَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُعَانِدِينَ الْجَاحِدِينَ الصَّادِّينَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ مِنْ جَمَاهِيرِهِمْ؛ فَقَالَ لَهم: ﴿... فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾: أي: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْم بِتَارِيخِ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام عَنْ بَشَرِيَّتِهِمْ، إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا بَشَراً رِجَالاً، فَضَّلَهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ بالْوَحْي إِلَيْهِمْ لِعِلْمِهِ بِهِمْ.

وفي اسْتِعْمَال «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الرُّسُلَ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلَام كَانُوا بَشراً رِجَالاً، ولَكِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ بَشَرِيَّة مُحَمَّدٍ ﷺ تَعِلَّةً يَخْدَعُونَ بِهَا ويُغَرِّرُونَ الْجَهَلَةَ مِنْ جَمَاهِيرِهِمْ.

وَقَولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾: دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ أئِمَّة الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ مَا زَالُوا يُرَدِّدُونَ مَقَالَتَهُمُ الَّتِي حكَاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ في سُورَةِ (الْفُرْقَانِ/ ٤٢ نزول) بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ... ۝٧﴾.

فَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِم بِبَيَانَ أَنَّ كُلَّ رُسُلِهِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلام كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَام.

أي: وَمَا جَعَلْنَا الرُّسُلَ السَّابِقِينَ وَفْقَ نِظَامِ جَسَدٍ حَيٍّ لَهُ صِفَاتُ الْأَحْيَاءِ، وَهُمْ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ؛ بَلْ كَانُوا أَجْسَاداً حَيَّةً لَهَا صِفَاتُ الْأَجْسَادِ الْحَيَّةِ، وَكَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَام، فَهُمْ بَشَرٌ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَتَزَوَّجُونَ النِّسَاء، ولهم سائر صفات البشر.

الجَسَدُ: الجِسْمُ، وهُوَ مَالَهُ طُولٌ وعَرْضٌ وعُمْقٌ، ومِنْهُ ما هُو ذُو حَيَاة، ومِنْهُ مَا هُوَ غَيْرُ ذِي حَياةٍ كَجِسْمِ الْوَثَنِ.

وتقتَضِي بِشَرِيَّتُهُمْ أَنْ يَمُوتُوا فِي ظُرُوف الحياة الدنيا، وأنْ لَا يَكُونُوا فِيها خَالِدِينَ، فَقالَ تَعالَى: ﴿... وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ۝٨﴾: أي: وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ فِي الحياةِ الدُّنْيا، وهـٰذَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

وطَمْأَن اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ والمؤمِنِينَ؛ بِأَنَّهُ سَيُهْلِكُ أَعْدَاءَهُمْ، وَسَيُحَقِّقُ مَا وَعَدَهُمْ مِنْ نَصْرٍ وَنَجَاةٍ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ لَهُمْ، بأسْلُوب بَيَانِ سُنَّتِهِ الَّتِي حقَّقَها لِرُسُلِهِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلَام، ولِأَعْدَائِهِم الْكَافِرِينَ الْمُسْرِفين في كُفْرِهِمْ وعِدَائِهِم لِلْحَقِّ ودُعَاتِهِ والمؤمنين به، فَقَالَ تَعالَىٰ:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾:

أي: وَبَعْدَ مُدَّةِ إِمْهَالٍ كَافِيَةٍ لِلْكَافِرِينَ المسْرِفِينَ؛ صَدَقْنَا رُسُلَنا ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ الْوَعْدَ، بِتَحْقِيقِ مَا كُنَّا وَعَدْنَاهُمْ، فَأَنْجَيْنَاهُمْ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ وَمَا دَبَّرُوه مِنْ شَرّ، وَأَنْجَيْنَا مَنْ نَشَاءُ وهم المؤمِنُونَ أَتْبَاعُ الرُّسُل ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ، ومَنْ قَضَتْ حِكْمَتُنَا بأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ الإهْلَاكَ، وأهْلَكْنَا بِوَسَائِلِنَا الكَفَرَةَ الْمُسْرِفِين.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأَوَّل من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الأنبياء)
الآيات من (١٠ ـ ١٥)

■ قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

القراءات:

(١٢) • قرأ السُّوسِي، وأبو جعْفر: **[بَاسَنَا]** بإبْدَال الهمزة ألفاً.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقَرَأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[بَأْسَنَا]**.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِين بأنَّهُ أنْزَلَ إِلَيْهِمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُهُمْ، مَعَ حَثِّهِمْ عَلَىٰ أَنْ يَعْقِلُوا.

وفيها إِنْذَارٌ لَهُمْ بالتَّعْذِيبِ والإهْلَاكِ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ عِنَادِيٍّ جُحُودِي، وعِدَاءٍ لِدِينِ اللهِ وَلِرَسُوله ﷺ وِلِلْمُؤْمِنِين، كَمَا فَعَلَ رَبُّهُمْ بِكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ.

التدبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ ﷺ، وَكَذَّبُوا

بِالْقُرْآنِ الَّذِي يُوحِي اللهُ بِهِ إِلَيْهِ، وجَحَدُوا الْحَقَّ الْجَلِيَّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ دِينُ اللهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ:

- ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: أُقْسِمُ لَكُمْ مُحقِّقاً أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي نُوحِي بآيَاتِهِ وسُوَرِهِ إِلَىٰ رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ؛ هو آيَةٌ عُظْمَىٰ أَجَلُّ مِنَ الآيَاتِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي تُطَالِبُونَ بِأَنْ يُؤْتَىٰ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ مِثْلَهَا. فُهِمَ هٰذَا مِنَ الرَّبْط بَيْنَ هٰذِهِ الآيَةِ وبَعْضِ مَا جَاءَ في الدَّرْسِ الأَوَّل من السّورة.

وأُقسِمُ لَكُمْ مُحقِّقاً أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ لِخَيْرِكُمْ فَفِيهِ ذِكْرُكُمْ، أي: فِيهِ مِنَ الْحَقَائِقِ وَالْهِدَايَةِ إِلَىٰ سَعَادَةِ النَّاسِ مَا يُوجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَدَبَّرُوه، وتَحْفَظُوا مَعَانِيَهُ فِي ذَاكِرَاتِكُمْ، وَتَسْتَدْعُوا مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يُلَائِمُهَا لِلْعَمَلِ بِهِ، والاهْتِدَاءِ بَهَدْيِهِ. وَفِيهِ شَرَفٌ عَظِيمٌ لَكُمْ، إِذْ أُنزِلَ بِلُغَتِكُمْ وَعَلَىٰ رَسُولٍ هُوَ مِنْكُمْ، لُغَةً وَنَسَباً، فَهُوَ مِنْ قُرَيشٍ، فَلِمَاذَا لَا تَفْتَخِرُونَ بِهِ وبالكِتَاب الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ؟.

- ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾: أي: أَغَلَبَتْكُم أَهْوَاؤُكُم، وَدوافِعُ كِبرِكُمْ، وَتَقَالِيدُكُمُ الْعَمْيَاءُ، وَنُفورُكُمْ مِنَ الالْتِزَام بِدِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لعبادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، فَجَعَلَكُمْ ذَلِكَ لَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيًّا حَقَائِقَ هٰذَا الدِّينِ، وَلَا تَعْقِلُونَ نُفُوسَكُم عَقْلاً إِرَادِيًّا عَنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا وكِبْرِهَا وَتَقَالِيدِهَا الْعَمْيَاء.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُلَوِّحُ بإِنْذَارِ الْمُعَالَجِينَ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهم:

- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

«كَمْ» هُنَا خَبَرِيَّة تَدُلُّ عَلَىٰ عَدَدٍ كثيرٍ مُبْهَم الْقَدْرِ والْجِنس، ولِذَلِكَ فَهِيَ تَحْتَاج إلى تَمْييزٍ، وتمْييزُهَا هُنَا: ﴿مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾.

﴿قصَمْنَا﴾: أصْلُ الْقَصْمِ: الكَسْرُ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ انْفِصَال، وَيُسْتَعْمَلُ الْقَصَمُ بِمَعْنَىٰ الإهْلَاكِ، وهـٰذَا المعْنَىٰ هُوَ المُرَادُ هُنَا.

والمرادُ بـ ﴿قَرْيَةٍ﴾: أهْلُهَا وَسُكَّانُها، وهو مَجَازٌ مُرْسَلٌ مِنْ إطْلَاقِ المَحَلِّ وإرادَةِ الْحَالّ بِهِ.

أي: وعَدَداً كثيراً مِنَ الْقُرَىٰ قَصَمْنَاهَا قَصْمَ تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ، وهَـٰذِهِ الْقُرَىٰ كَانَتْ ظَالِمَةً ظُلْماً شَنِيعاً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الْعِنَادِيّ الْجُحُودِي، المصْحُوبِ بالكَيْدِ الشَّدِيدِ ضِدَّ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، وضِدَّ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام والْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، كَحَالِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، الْمَعْنِيِّينَ بالْعِلَاجِ في السُّورَة.

وبَعْدَ أَنْ أَهْلَكْنَا هَـٰذِهِ الْقُرَىٰ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ؛ أَنْشَأْنَا قَوْماً آخَرِينَ، حَلُّوا أَمَاكِنَ الْمُهْلَكِينَ، مِنْ سُلَالَاتِ أَقْوَامٍ لَمْ يُهْلَكُوا، إِذْ لَمْ تَدْعُ الْحِكْمَةُ إِهْلَاكَهُمْ.

الإنْشاءُ: الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكَامُلِ المتَدَرِّج غَالِباً.

أَمَّا الكُفَّارُ سُكَّانُ الْقُرَىٰ الَّتِي صَدَرَ الْأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا أَحَسُّوا بِأَنَّ عَذَابَ اللهِ الشَّدِيدِ تُقْبِلُ وَسَائِلُهُ نَحوهُمْ، وَنَحْوَ قُرَاهُمْ، صَارُوا يركُضُونَ هَرَباً مِنْ قُرَاهُمْ وَمَسَاكِنِهِمْ في كُلِّ اتِّجَاهٍ، خَوْفاً مِنْ أَنْ تَحِلَّ عَلَيْهِمُ الْمُعَذِّبَاتُ المهْلِكَات، وَكَانَ هَرَبُهُمْ هـٰذَا مُفَاجِئاً.

الْبَأْس: شِدَّةُ الْعَذَابِ، والْحَرْبُ.

الإحْسَاسُ: الإدْراك بالْحَوَاسِّ أَوْ بَعْضِهَا، وهي حَوَاسُّ الْبَصَرِ والسَّمْعِ، واللَّمْسِ، والشَّمّ، والذَّوْق.

فَيُقَالُ لَهُمْ بِلِسَانِ حَالِ القَدَرِ والْقَضَاء، الَّذِي يَجْرِي تَنْفِيذُهُ بالْقَهْرِ الرَّبَّانِيِّ: لَا تَرْكُضُوا هَرَباً مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ وَإِهْلَاكِهِ لَكُمْ، فَأَنْتُمْ هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ.

وَيُقَال لَهُمْ أَيْضاً عَلَىٰ سَبِيلِ التَّهكُّم: ﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾: أي: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا إِذَا نَزَلَ بِكُم عَذَابُ رَبِّكُم وإهْلَاكُهُ لَكُمْ، أَنْ تَرْجِعُوا لِأَنَّكُمْ سَتَكُونُونَ هَلْكَىٰ.

الْمُتْرَف: الكثيرُ الاسْتِمْتَاعِ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ مَتَاعَات الحياة الدُّنْيَا.

﴿... لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ⑬﴾: اسْتِكْمَالٌ لِعِبَارَةِ التَّهَكُّم، أي: وَلَنْ تُسْأَلُوا عَنْ سَبَبَ مَا نَزَلَ بِكُمْ مِنْ تَعْذِيبٍ لَكُمْ، وَتَدْمِيرٍ لِمَسَاكِنِكُمْ ولِكُلِّ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ، لِأَنَّكُمْ واقِعُونَ فِي قَبْضَةِ التَّعْذِيب والإهْلَاكِ الرَّبَّانِيَّةِ، فَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ شَيْءٍ وَلَا تُجِيبُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ.

ويَكُونُ قَوْلُكُمْ الَّذِي تُرَدِّدُونَهُ اعْتِرَافاً بِجَرَائِمِكُمْ: إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، وبِسَبَبِ ظُلْمِنَا الشَّدِيدِ، مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الْعَنِيدِ؛ يُعَاقِبُنَا اللهُ جَل جَلَالُهُ بِتَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ⑭ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ⑮﴾:

﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: عِبَارَةٌ نُدْبَةٍ تَحْمِلُ مَعْنَىٰ التَّفَجُّعِ، والتَّحَسُّرِ، والْحُزْنِ، والتَّوَجُّعِ، كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: يَا عَذَابَنَا الشَّدِيدَ؛ هَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَنْصَرِفَ عَنَا، إِذَا اعْتَرَفْنَا بِجَرائِمِنَا قَائِلِينَ: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾: أي: فَمَا زَالَتْ عِبارة: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دُعَاءَهُمْ الَّذِي يُكَرِّرُونَهُ، يَسْتَعْطِفُونَ بِهِ رَبَّهُمْ أَنْ يَرْفَعَ مَا أَنْزَل بِهِمْ بِاعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ، ولَكِنْ بَعْدَ بَدْءِ نُزُولِ العِقَابِ الرَّبَّانِيِّ لَا يَرْفَعُ عِقَابَهُ الدُّعَاءُ.

الدَّعْوَىٰ: مَصْدَرٌ كَالدُّعَاءِ، مِنْ فعل: «دَعَا يَدْعُو».

• ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾: أي: حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ كالزَّرْعِ الْمَحْصُودِ بالمنْجَلِ ونَحْوه، مُترامِينَ هَلْكَىٰ عَلَىٰ الْأَرْض.

الْحَصِيدُ: الْمَحْصُودُ مِنَ الزَّرْعِ بالمنْجَلِ ونَحْوِهِ.

خَامِدِين: أي: قَتْلَىٰ كَجَمْرٍ كَانَ مُلْتَهِباً فَأُطْفِئَ فَصَارَ فَحْماً خَامِداً بَارِداً، أو صار رَماداً.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثّاني من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التّدبُّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس سورة (الأنبياء)
الآيات من (١٦ ـ ٢٤)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

القراءات:

(٢٤) • قرأ حفص: [مَن مَّعِيَ] بِفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مَقْرُونٌ بِحُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ؛ بِأَنَّ خَلْقَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لَيْسَ لَعِباً وَلَا لَهْواً، بَلْ هُوَ لِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ، هِيَ امْتِحَانُ النَّاسِ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وهـٰذَا الامْتِحَانُ يَسْتَتْبِعُ الْجَزَاءَ الأَكْبَرَ يَوْمَ الدِّين.

وفيها مُنَاقَشَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي شِرْكِيَّاتِهِم، وما يَفْتَرُونَ مِنْ بَاطِلٍ عَلَىٰ اللهِ بَارِئِهِمْ، والْمُهَيْمِنِ عَلَيْهِمْ دَواماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وفيها تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ وَكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ أَنْ يُطَالِبَهُمْ بِبُرْهَانِهم عَلَىٰ مَا يَفْتَرُونَهُ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ، مِنْ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، أَوْ دَلِيلٍ نَقْلِيٍّ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ السَّابِقِين عَلَيْهِم السَّلَام.

التدبُّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُبَيِّناً أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ تَأْبَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الإِنْسَ والْجِنَّ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ، يَخْتَارُونَ بِهَا خَيْراً أَوْ شَرّاً، في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا؛ دُونَ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ حَيَاةٌ أُخْرَىٰ يَكُونُ فِيهَا حِسَابٌ، وفَصْلُ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيذُ جَزَاء، وإلَّا كَانَ هـٰذَا الْخَلْقُ لَعِباً وَلَهْواً، وَقَدْ تَنَزَّهَ الْبَارِي ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عَنِ اللَّعِب واللَّهو:

• ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧﴾:

أي: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَحْيَاءٍ وَمِنْهَا الإِنْسُ والْجِنُّ ذَوُو الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ، الْمُمَكَّنُونَ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ والشَّرّ، والإيمَانِ

والكُفرِ، والنَّفعِ والضُّرِّ، والظُّلْم والعُدْوانِ، والبَغْي والطُّغْيَانِ، وقتْلِ وَتَعْذِيبِ الأَبْرِيَاءِ، وأكْلِ حُقُوقِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ، وَبَذْلِ الْعَوْنِ والْعَطَاءِ، وإنفَاقِ الْمَالِ فِي نَفْعِ النَّاسِ، والإصْلَاح، إلَىٰ سَائِرِ الْمُتَضَادَّاتِ والمُتَنَاقِضَات؛ مَا خَلَقْنَا ذَلِكَ لَاعِبِينَ وَلَا لَاهِين، دُونَ أَنْ يَكُونَ هـٰذَا الْخَلْقُ لامْتِحَانِ ذَوي الإرَادَاتِ الْحُرَّة، ودُونَ أَنْ يَسْتَتْبِعَ هـٰذَا الامْتِحَانُ الْحِسَابَ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذَ الجزاء.

اللّعِب: ضِدُّ الْجِدّ، وَيُقَالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عملاً دُونَ هَدَفٍ يَقْصِدُهُ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والكمَالِ: إنَّمَا أنْتَ لَاعِبٌ، وكَذَلِكَ مَنْ يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِعَمَلٍ ذِي نَفْعٍ ضَئِيلٍ حَقِير، وهو قادِرٌ في الْوَقْت نَفْسِهِ عَلَىٰ أَنْ يَقُومَ بِعَمَلٍ ذِي نَفْعٍ جَلِيلٍ كَبِيرٍ؛ يُقَالُ لَهُ: إنَّمَا أَنْتَ لَاعِبٌ.

اللَّهْوُ: الاشْتِغَالُ بضَئِيلِ الْقِيمَةِ انْصِرَافاً عَمَّا يَجِبُ تَوْجِيهُ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ.

إنَّ الْخَالِقَ الْمُبْدِعَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، وهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، وَحَكِيمٌ فِي كُلِّ اخْتِيَارَاتِهِ؛ مِنَ المسْتَحِيلِ عَقْلاً أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَ والْجِنَّ عَبَثاً، وَأَنْ يَكُونَ لَاعِباً أَوْ لَاهِياً بِخَلْقِهِ لَهُمَا، دُونَ قَصْدِ امْتِحَانِهِمَا فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدنْيا، وإتْبَاعِ هـٰذَا الامْتِحَانِ بالْجَزاءِ بالْعَدْلِ أَوْ بالْفَضْلِ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ أَيُّها الكَفَرَةُ المشْرِكُونَ الآخِرَةَ والجزاءَ؟!.

وَيُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَوْ أَرادَ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ أَنْ يَتَّخِذَ لَهْواً أَوْ لَعِباً، (ولَنْ يُرِيدَ)؛ لَمَا فَعلَ ذَلِكَ فِي عِبَادٍ يَفْرَحُونَ وَيَحْزَنُونَ، وَيَتَأَلَّمُونَ وَيُسَرُّونَ، وَيَغْضَبُونَ وَيَرْضَوْنَ، وَيَسْعَدُونَ وَيَشْقَوْنَ، إلَىٰ سَائِرِ الْمَشَاعِرِ المتناقِضَةِ والمتَضَادَّة، الَّتِي يَتَعَرَّضُونَ لَهَا فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ، دُونَ غَايَةٍ حَكِيمَة، بَلْ لو شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ لَفَعَلَهُ بِمَخْلُوقَاتٍ عِنْدَهُ لا أَحَاسِيسَ لَهَا وَلَا مَشَاعِرَ وَلَا حَيَاةَ، وَلَيْسَ لَهَا صِفَاتُ الإنسِ والْجِنّ، فَكَيْفَ تَغْفُلُونَ عَنْ هَـٰذِهِ الحقيقة؟!!.

• ﴿... إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾: أي: إنْ كُنَّا فَاعِلِينَ عَلَىٰ سَبِيلِ الافْتِرَاضِ الاحْتِمَالِيِّ الَّذِي نَتَنَزَّهُ عَنْهُ، وَلَا نَفْعَلُهُ أيضاً.

اسْتُعْمِلَتْ «إنْ» الشَّرْطِية للدَّلالَة عَلَىٰ أَنَّ هٰذَا الاحْتِمَالَ مَرْفُوضٌ أيْضاً، لأنَّهُ يَتَنَافَىٰ مَعَ كَمَالِ صِفَاتِ الرَّبِّ الْأَزَلِيِّ الْأَبَدِيِّ، فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ؛ لَا يَلْهُو وَلَا يَلْعَبُ وَلَا يَعْبَثُ، بَلْ كُلُّ أفْعَالِهِ حَكِيمَةٌ ذَواتُ غَايَاتٍ سَامِيَاتٍ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ تَعْقِيباً عَلَىٰ الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ السَّابِقَةِ فِي الآيَتَيْنِ (١٦) و(١٧):

• ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾:

الْقَذْفُ: رَمْيُ شَيْءٍ ثَقِيلٍ كَحَجَرٍ، أَوْ حَدِيدَة، بقُوَّةٍ مِن الْقَاذِفِ، وَقَد اسْتُعِيرَ الْقَذْفُ هُنَا لِتَقْدِيمِ الْحُجَّةِ الحقِّ بِقُوَّةٍ تُزْهِقُ الْبَاطِلَ، وَتَكْشِفُ أَنَّهُ بَاطِلٌ لَا ثَبَاتَ لَهُ.

• ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي: بِبَيَانِ الْحَقِّ حُجَّةً لإزَالَةِ الْبَاطِلِ وجَعْلِهِ مضْمَحلًّا بِسُرْعَةٍ، فالْعُقُولُ الَّتِي تُدْرِكُ الْحَقَّ وَلَدَيْهَا الاسْتِعْدَادُ لِلْإيمانِ به؛ تَطْرُدُ الْبَاطِلَ عَنْهَا بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ.

• ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾: أي: فَيَشُجُّهُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ دِمَاغَهُ وَيُخرِجَهُ مِنْ رَأْسِهِ. وَهٰذَا عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، إِذْ شُبِّهَ انْتِصَارُ الْحَقِّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ؛ بِمَنْ يَقْتُلُ خَصْمَهُ بِأُسْلُوبِ شَجِّهِ، وإِخْرَاجِ دِمَاغِهِ مِنْ رَأْسِهِ.

• ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾: أي: فَإِذَا الْبَاطِلُ زَائِلٌ بِسُرْعَةٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَبَاتٌ أَوْ قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْمُقَاوَمَةِ.

• ﴿... وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: وَلَكُمْ أَيُّهَا الكَفَرَةُ

الَّذِينَ تُنْكِرُنَ الْبَعْثَ والْيَوْمَ الآخِرَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، مِنْ أَجْلِ مَا تَصِفُونَ رَبَّكُمْ بِهِ مِمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ.

المعْنَىٰ: لَا نَدَعُ الْبَاطِلَ الَّذِي تُرَوِّجُونَهُ أَيُّهَا المبْطِلُونَ بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ، وَهُوَ مُضَادٌّ أَوْ مُنَاقِضٌ لِلْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبَادِنَا؛ لَا نَدَعُهُ يَنْتَشِرُ دُونَ أَنْ نُزْهِقَهُ بالْبُرْهَانِ الدامِغِ، بَلْ نَقْذِفُ بِبَرَاهِينِ الْحَقِّ عَلَىٰ رَأْسِهِ ذِي الدِّمَاغِ الْفَاسِدِ، فَيَكْسِرُ رَأْسَهُ، وَيُخْرِجُ دِمَاغَهُ، وَيَجْعَلُهُ قَتِيلاً زَاهِقاً زَائِلاً بِسُرْعَةٍ، فَلَا يَقْبَلُهُ إِلَّا الْفَاسِدُونَ الْمُجْرِمُونَ الكَفَرَةُ بِالْحَقِّ الْجَلِيِّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُ مَالِكُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وأَنَّ مَنْ عِنْدَه وهم الْمَلَائِكَة لَا يَفْتُرُون عَنْ عِبَادَتِهِ:

● ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

«مَنْ» اسْمٌ مَوْصُولٍ خاصٌّ بِذِي الحياة والْعِلْمِ غالباً، فَمَنْ في السَّمَاوَاتِ: الملائكة، ومَنْ في الْأَرْضِ: الإنْسُ والْجِنُّ وقسْمٌ مِنَ الملائِكَةِ، ومَنْ عِنْدَ اللهِ: هُمْ أَهْلُ الْمَلأِ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْمَلَائِكَة، كَجِبْرِيلَ، وإِسْرَافِيلَ، ومِيكَائِيل، ومَلَكِ الْمَوْت، ونَحْوِهِمْ.

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾: أي: لَا يَتْعَبُونَ، وَلَا يَمَلُّون.

﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾: أي: لَا يَنْقَطِعُونَ عَنْ تَسْبِيحِهِمْ، وَلَا يَسْكُنُ نَشَاطُهُمْ بِفُتُورٍ يَعْرِضُ لَهُمْ.

المعنى: ولله مِلْكُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِن الْأَحْيَاءِ ذوي العلم، وَلَهُ مِلْكُ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَحْيَاءِ ذوي العلم، وجاء في نُصُوصٍ أخرىٰ أَنّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْض مِنْ أَحْيَاء وأشياء.

ومَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَلأ الأَعْلَىٰ لَا يَسْتَكْبِرُونَ مُمْتَنِعِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ عِبَادَات، وَلَا يَتْعَبُونَ وَلَا يَمَلُّونَ، فَهُمْ يُسَبِّحُونَ اللهَ دَواماً فِي كُلِّ أَجْزَاءِ دَوْرَةِ الزَّمنِ، وَلَا يَنْقَطِعُونَ عَنْ تَسْبِيحِهِمْ، وَلَا يَسْكُنُ نَشَاطُهُمْ بِفُتُورٍ يَعْرِضُ لَهُمْ، فَقَدْ مَنَحَهُمُ اللهُ فِي تَكْوِينِهِم الْقُدْرَةَ عَلَىٰ التَّسْبِيحِ الدَّائِمِ، والرَّغْبَةَ الدَّائِمَةَ فِيهِ، كَمَا مَنَحَ النَّاسَ الرَّغْبَةَ فِي التَّنَفُّسِ الدَّائِمِ، لارْتِبَاطِ الحياة بِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُحَاوِر المشْرِكِين لإقْنَاعِهِمْ بِفَسَادِ شِرْكِهِمْ:

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

«أم» هَـٰذِهِ مُنْقَطِعَة، وَمَعْنَاهَا يَنْحَلُّ إلى استفهام مع إضْرَاب انْتِقَالِيٍّ، والاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ، يُنْكِرُ الْمَوْلَىٰ عليهم بِهِ أَنْ يَتَّخِذُوا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ.

• ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾: أي: هُمْ يُحْيُونَ الْمَوْتَىٰ، يُقَالُ لغة: «نَشَرَ اللهُ الْمَيِّتَ، يَنْشُرُهُ، نَشْراً، ونُشُوراً، وأَنْشَرَهُ إنْشاراً» أي: أَحْيَاهُ بَعْدَ الْمَوْتِ.

أي: إضرَاباً عَنْ مَقَالَاتِ المشْرِكِينَ السَّابِقَةِ، وعَنْ مَوَاقِفِهِمُ الضَّالَّة مِنَ الْقُرآنِ ومِنَ الرَّسُولِ ـ ﷺ ـ؛ أَتَّخَذَ الْمُشْرِكُونَ آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ إحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ؟!.

إِنَّ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ، فَهَلْ أَحْيَا شَيْءٌ مِنْهَا مَيْتاً، وبَعَثَهُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْت؟!.

لَكِنَّ اللهَ خَالَقَ الكَونِ كُلِّهِ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ، فَقَدْ مَكَّنَ رَسُولاً مِنْ رُسُلِهِ وهو عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ بإذْنِ رَبِّهِ، وَأَحْيَا قَتِيلَ بَنِي إسْرَائِيلَ لِيُخْبِرَ عَنْ قَاتِلِهِ، وَأَحْيَا الْعُزَيرَ بَعْدَ أَنْ أَمَاتَهُ مِئَةَ عَام، وَأَحْيَا حِمَارَهُ وَأَرَاهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى، وأَحْيَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام الطُّيُورَ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي ذَبَحَهَا وَخَلَطَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وجَعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً، ثُمَّ دَعَاهُنَّ فَجِئْنَ إلَيْهِ سَعْياً.

وَجَاءَ في نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ بَيَانُ أَنَّ آلِهَةَ المشْرِكِينَ لَا تَمْلِكُ شَيْئاً وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنفَعُ، وهُنَا جَاءَ بَيَانُ أَنَّهَا لَا تُحْيِي الْمَوْتَىٰ، لِقَطْعِ كُلِّ طَرِيقٍ عَلَىٰ دَعَاوَىٰ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ آلِهَتِهِمْ.

وَجَاءَ التَّوْكِيدُ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ «هُمْ» في عِبَارَةِ: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾، وهُوَ تَوْكِيدٌ لِنَفْيِ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ إحْيَاءِ الموتَىٰ، إذْ جَاءَ تَحْتَ عُمُومِ الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِيِّ.

- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا . . . ﴿٢٢﴾﴾:

أي: لَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ والْأَرْضِ آلِهَةٌ حَقِيقِيَّةٌ يَصِحُّ أَنْ تُعْبَدَ، إِذْ هِيَ أَرْبَابٌ أَوْ لَهَا رُبُوبِيَّاتُ خَلْقٍ أَوْ تَصَارِيفُ في الْكَوْنِ؛ لَفَسدَتِ السَّمَاءُ والْأَرْضُ، وَلَمْ تَبْقَيَا عَلَىٰ صَلَاحِهِمَا الدَّائِمِ المسْتَمِرِّ، وَنِظَامِهِمَا الضَّابِطِ لِكُلِّ أَصْغَرِ جُزْءٍ مِنْهُمَا مَوْقِعاً، وَحَرَكَةً، وَتَأَثُّراً وَتَأْثِيراً.

والسَّبَبُ المؤدِّي لِهَـٰذَا الْفَسَادِ أَنَّ الْآلِهَةَ الْأَرْبَابَ، الَّتِي لَهَا قُدُرَاتٌ عَلَىٰ أَنْ تَتَصَرَّفَ بِمَرْبُوبِيهَا بإرَادَاتٍ حُرَّةٍ غَيرِ مَجْبُورَةٍ بِمُقْتَضَىٰ رُبُوبيَّاتِهَا الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تكُونَ فِي صِفَاتِها إرَادَاتٌ ذَوَاتُ حُرِّيَاتٍ لَا حَجْرَ عَلَيْهَا وَلَا مُجبرَ لَهَا؛ مِنْ غَيرِ الْمُمْكِنِ عَقْلاً أَنْ تَتَّفِقَ إرَادَاتُها الْحُرَّةُ عَلَىٰ أَنْ تَتَصَرَّفَ بِمَا لَهَا رُبُوبِيَّةٌ عَلَيْهِ؛ تَصَرُّفَاتٍ مُتَطَابِقَاتٍ في كُلِّ شيء.

فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُ الآلِهَةِ الْأَرْبَابِ إنْقَاذَ بَنِي إسْرَائِيلَ بِفَلْقِ الْبَحْرِ لِمُوسَىٰ

عَلَيْهِ السَّلَام بِمُعْجِزَةِ الْعَصَا، وإغْرَاقَ فِرْعَوْنَ وآلِهِ وجَيْشه فِي مَكَانِ الْفَرْقِ؛ وَلَمْ يُرِدْ هٰذَا إلَهٌ رَبٌّ آخرُ، وَهُمَا مُتكَافِئَانِ في الرُّبُوبِيَّةِ، فَأَيُّ الرَّبَّيْنِ تتحقَّقُ إرَادَتُهُ؟!.

هُنَا لَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ فَسَادٌ عَظِيمٌ نَتِيجَةَ تَضَارُبِ وَتَعَارُضِ الإرادَتَيْنِ لِلرَّبَّين، وَيَتَفَاقَمُ الْأَمْرُ إذَا كَانُوا آلِهَةً أَرْبَاباً.

وهٰذَا مِثَالٌ لِحَدَثٍ جُزْئِيٍّ فِي مَكَانٍ مِنَ الكَوْن، مع الْعِلْمِ بأَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ وَحْدَةٌ مُترابِطَةٌ، فَكَيْفَ إِذَا تَصَوَّرْنَا مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ احْتِمَالَاتِ التَّعَارُضِ والتَّنَاقُضِ بَيْنَ إِرَادَاتِ الْآلِهَةِ الأَرْبَابِ، ذَوِي الْقُوىٰ المتكافِئَةِ فِي رُبُوبِيَّاتِها، والْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مُرَادَاتِها؟!.

● ﴿... فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: فتَنَزَّهَ اللهُ الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ رَبُّ الْعَرْشِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وأعْظَمُ مِنْهَا، عَمَّا يَصِفُ المشرِكُونَ مِنْ أنَّ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وهُوَ الّذي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أيِّ وَصْفٍ مِنْهُمَا.

ومِنْ صِفَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّهُ لَا أَحَدَ يَسْأَلُهُ لِيُحَاسِبَهُ عَمَّا يَفْعَلُ، فَهُو الْقَهَّارُ الْجَبَّارُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، دُونَ خَوْفٍ مِنْ سُؤَالٍ وَحِسَابٍ وَجزَاءٍ، ولكنَّ كُلَّ أفْعَالِهِ حكِيمَةٌ مُطَابِقَةٌ لِلْعَدْلِ أو الْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ والإكْرَام، والْجُود والإحسان.

الْعَرْشُ: مَخْلُوقٌ أعْظَمُ مِن السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَهُوَ فَوْقها وَمُحِيطٌ بِها، وهُوَ خاضِعٌ لِرُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعالى.

● ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: لَا أَحَدَ يَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَفْعَلُ مُحَاسِباً لَهُ على أفْعَالِهِ واختياراته، ﴿وَهُمْ﴾: أي: وكُلُّ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ مَا

يَفْعَلُونَ؛ يُسْأَلُونَ عَمَّا يَفْعَلُونَ بإرَادَاتِهِمْ، ويُحَاسَبُونَ عَلَيْهِ، ويُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِهِ، لِمُجَازَاتِهِمْ، مَا لم يَغْفِرِ اللهُ لَهُمْ أَوْ يَعْفُ عَنْهُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يُطَالِبَ المخَالِفِينَ بِبُرْهَانِهِمْ عَلَىٰ مَا يَدَّعُونَ:

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

«أمْ» هُنَا مُنْقَطِعَةٌ نَظِيرُ سَابِقَتِهَا.

أي: إضْرَاباً عَنِ اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً أرْبَاباً؛ أَتَّخَذُوا آلِهَةً لَيْسُوا أَرْبَاباً، ولَكِنْ أَمَرَ الرَّبُّ الْوَاحِدُ الأَحَدُ بِعِبَادَتِهِمْ أَوْ أَذِنَ بِعِبَادَتِهِمْ لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ، إِذْ لَا يَصِحُّ عِبادَةُ مَنْ لَيْسَ رَبًّا إِلَّا بإذْنٍ مِنَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

إذا كانَتْ هَـٰذِهِ دَعْوَاهُمْ؛ فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد أَوْ يَا دَاعِياً إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ؛ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ الرَّبَّ الَّذِي لَا رَبَّ في الوجود سُواه؛ أَمَرَكُمْ بِعِبَادَةِ آلِهَتِكُمْ فِي كِتَابٍ مُنَزَّلٍ أَو أذِنَ لَكُمْ به.

هـٰذَا الْقُرْآنُ ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّىٰ آخِرِ حَيَاةِ النَّاسِ فِي الأرض، وَهـٰذَا عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي، فَهَلْ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللهِ الصَّحِيحَةِ النِّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الله أَمَرَ أَوْ أَذِنَ بِعِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ؟. إِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا، وبهـٰذَا تَسْقُطُ ذَرَائِعُهُمْ كُلُّهَا.

وجاء التعليقُ الرَّبَّانِيّ بِبَيَانِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ لَا يُرِيدُونَ اسْتِمَاعَ براهين الْحَقّ.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرس الثالث من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الأنبياء)

الآيات من (٢٥ ـ ٢٩)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

القراءات:

(٢٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**نُوحِي إِلَيْهِ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُوحَىٰ إِلِيهِ**] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

(٢٥) • قرأ يَعْقُوب: [**فَاعْبُدُونِي**] بإِثْبَاتِ يَاءِ المتكلِّم وصْلاً ووقفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَاعْبُدُونِ**] بِحَذْفِ يَاءِ المتكلِّم.

(٢٨) • قرأ يَعْقُوب: [**أَيْدِيهُمْ**] بضَمّ هَاءِ الضّمِير.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَيْدِيهِمْ**] بِكَسْرِ هَاءِ الضمير.

(٢٩) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعْفَر: [**إِنِّيَ إِلَهٌ**] بِفَتْحِ يَاء المتكلّم.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسكانِ ياءِ المتكلم.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُوله ﷺ؛ بِأَنَّ

وَحْيَ الله إِلَيْهِ نَظِيرُ وحْيِهِ إِلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، لإِسْمَاعِ المكذِّبِينَ هَـٰذِهِ الحقيقة دُونَ مُخَاطَبَتِهِمْ بِهَا.

وفيها عرضُ قَوْلِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللهَ اتَّخَذَ وَلَداً، افتراءً عَلَىٰ اللهِ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، مَعَ بَيَانِ وَاقِعِ حَالِ الْمَلَائِكَة.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُوله محمّد ﷺ بِضَمِير المتكلّم العظيم:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾. وفي القراءة الأخرى: **[إِلَّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ]** بالبناء لما لم يسمّ فاعله، أي: يُوحَىٰ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَوْ بأمْرِ رَبّه.

«مِنْ» في: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النفي.

بَعْدَ نَفْي وُجُودِ آلِهَةٍ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في الآية (٢٤)، ومُطَالَبَةِ المشْرِكِينَ بِتَقْدِيم بُرْهَانِهِمْ على مَا يَزْعُمُونَ، وهم عاجِزُونَ عَنْ تَقْدِيم بُرْهَانٍ ما؛ أَبان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُخَاطِباً رَسُولَهُ ﷺ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم؛ أَنَّهُ مَا أَرْسَلَ رَسُولاً مَا مِنْ قَبْلِهِ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ إِلَّا كَانَ يُوحِي إِلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ الْوَحْي أَوْ عَنْ غَيْرِ طَرِيقِ رَسُولِ الْوَحْي مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَضِيَّتَيْنِ:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ يُعْبَدُ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَة: الْأَمْرُ بِعِبَادَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾.

والظاهر أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ هـٰذَا الْبَيَانِ إِسْمَاعُ الكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ بِأُسْلُوب خطاب الرسُول ﷺ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ فِرْيَةِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ اتَّخَذَ وَلَداً وَزَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِم السَّلَام بَنَاتُ اللهِ تَعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

هٰذَا النَّصُّ يُبيِّنُ أَنَّ بَعْضَ النَّاس زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِم السَّلام بَنَاتُ الله، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، أَوْ أَنْ تَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ تُنجِبُ مِنْهُ أَوْلاداً، فالرَّبُّ الْأَزَلِيُّ الأَبدِيُّ يَسْتَحِيلُ عَقلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ كُفُؤاً أَحَدٌ، أَو أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مِمَا خَلَقَ زَوْجَةً أَوْ وَلَداً. **الْوَلد**: يُطْلَقُ عَلَىٰ الذَّكرِ والأُنْثىٰ.

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ قَبِيلَةَ خُزَاعَةَ (مِنْ سُكَّانِ ضَواحِي مَكَّةَ) كانَتْ تَزْعُمُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِم السَّلام بَنَاتُ الله، أُمَّهَاتُهنَّ مِنْ سَروات الْجِنّ، أَيْ: مِنْ أَشْرَافِ الْجِنّ، وذَوِي الْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ فيهِمْ.

وَكَانَ عَلَىٰ اعْتِقَادِهِمْ الْبَاطِلِ هٰذَا بَعْضُ الْعَرَب، ومِنْهُمْ بَعْضُ الْقُرَشِيِّينَ.

- ﴿سُبْحَانَهُ﴾: أَيْ: تَنَزَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ ولد.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِم السَّلام لَيْسُوا أَوْلاداً للهِ فقال تعَالَىٰ:

﴿... بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: لَيْسُوا أَوْلاداً للهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَتَنَزَّهَتْ ذَاتُهُ وَصِفَاتُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، بَل الْمَلائِكَةُ عَلَيْهِم السَّلام عِبَادٌ مِنْ عِبَادِ الله، فَهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَمَمْلُوكُونَ لَهُ، وَقَدْ جَعَلَهُمْ مُكْرَمِينَ، أَي: ذَوِي مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ، وَمُنَزَّهِينَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ بَارِئِهِمْ، إِذْ فَطَرَهُمْ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، فَهُمْ لَا يَعْصُونَهُ، وَبِأَمْرِهِ - جل جَلَالُهُ - يَفْعَلُونَ أَفْعَالَهُمْ فِي كَوْنِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «أَكْرَمَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: رَفَعَ مِقْدَارَهُ، وأَعْظَمَهُ، وَجَعَلَ لَهُ مِيزَةً ذَاتَ فَضْل.

- ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾: أي: لَا يَقُولُونَ قَوْلاً إِلَّا إِذَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِأَنْ يَقُولُوهُ، وإذا كَانُوا لَا يَقُولُونَ قولاً مَا إِلَّا بِأَمْرِهِ؛ فَهُمْ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلاً مَا إِلَّا بِأَمْرِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، من بابِ أَوْلَىٰ.

- ﴿... وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: وَكُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِم السَّلَام فإِنَّهُمْ يَعْمَلُونَهُ بِأَمْرِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

جاء في هَـٰذِهِ العِبَارَةِ التَّصْرِيحُ بِمَا فُهِمَ مِنَ العِبَارَةِ السَّابِقَةِ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ.

- ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ...﴾: أي: يَعْلَمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَاضِيَ كُلِّ شَيْءٍ، لِكُلِّ زَمَنٍ مِنْ أَزْمَانِ وُجُودِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهم، فَهُوَ الْوَاقِعُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، ويَعْلَمُ مُسْتَقْبَلَ كلِّ شَيْءٍ، لِكُلِّ زَمَنٍ مِنْ أَزْمَانِ وُجُودِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهم، فَهُوَ الْوَاقِعُ خَلْفَهُمْ إِذْ هُوَ غَيْبٌ عَنْهُم.

- ﴿... وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ...﴾: أي: وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام، لِأَحَدٍ مِنَ الْعُصَاةِ الموضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ اللهُ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ.

وجاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ؛ أَنَّ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللهِ لِأَحَدٍ لَا تَكُونُ إِلَّا بإِذْنِهِ، وَمِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الدَّلَالَتَيْنِ نَفْهَمُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ شَفَاعَةَ أَحَدٍ لِأَحَدٍ؛ مَا لَمْ يَكُنِ المشْفُوعُ لَهُ قَدِ ارْتَضَىٰ تَعالى أَنْ يُشْفَعَ لَهُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ قَدْ أَذِنَ لِلشَّافِعِ بِأَنْ يَشْفَعَ لَهُ، فَهُمَا شَرْطَانَ.

وفِي هـٰذَا تَيْئِيسٌ لِمُؤَلِّهِي الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام، مِنِ اتِّخَاذِ عِبَادَتِهِمْ ذَرِيعَةً للانْتِفَاعِ بِشَفَاعَتِهِمْ، إِذْ هُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا بإِذْنِ رَبِّهِمْ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ اللهُ أَنْ يَشْفَعُوا له.

- ﴿... وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

الْخَشْيَةُ مِنَ اللهِ: خوفٌ مَصْحُوبٌ بِتَعْظِيمٍ وَمَهَابَةٍ، وَقَدْ يَقْتَرِنُ بها الحبُّ والإجلال.

مُشْفِقُون: أي: خَائِفُونَ حَذِرُونَ.

أي: والمَلَائِكَةُ مِنْ إجْلَالِ رَبِّهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ لَهُ، وَمَهَابَتِهِمْ مِنْهُ، وَحُبِّهِمْ لَهُ، وَخَوْفِهِمْ مِنْ سُلْطَانِهِ وَجَبَرُوتِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ خَائِفُونَ حَذِرُونَ.

- ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وَمَنْ يَقُلْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللهِ لِيَعْبُدَهُ مَنْ يَنْخَدِعُ بِقَوْلِهِ، فَذَلِكَ المنحَطُّ فِي دَرَكَاتِ الْإِثْمِ نَجْزِيهِ عَذَاباً فِي جَهَنَّمَ خَالِداً فِيها أَبداً.

كَذَلِكَ الْجَزَاءِ الأليم الْخَالِدِ في جَهَنَّمَ نَجْزِي كُلَّ الظَّالِمِينَ، مِنْ دَرَكَةِ هٰذَا الظُّلْمِ الشَّنِيعِ الَّذِي يَدَّعي فِيهِ الظَّالِمُ أَنَّهُ إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللهِ، مَهْمَا كَانَ قَبْلَ ادّعَائِهِ ذَا مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ مُفَضَّلَةٍ عِنْدَ رَبِّهِ، مَلَكاً، أَوْ نَبِيًّا، أَوْ رَسُولاً، ولَكِنَّ هَٰؤلَاءِ مَعْصُومُونَ بِعِصْمَةِ اللهِ عَنْ ارْتِكَابِ مِثْلِ هٰذَا الظُّلْمِ الشَّنِيعِ.

وبهٰذَا انتهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابعِ من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٣٠ ـ ٣٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا

مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

القراءات:

(٣٠) • قرأ ابْنُ كثير: [أَلَمْ يرَ] بِدُون الواو العاطفة بَعْدَ هَمْزَةِ الاستفهام.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَوَ لَمْ يرَ] بإثبات الواو العاطفة.

(٣٠) • قرأ ورش، والسُّوسي، وأَبُو جَعْفر: [يُومِنُونَ]، وكذلِكَ قَرَأَهَا حَمْزَة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤْمِنُونَ].

تَمْهيد:

فِي آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ ذِكْرُ حَقِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ كَوْنِيَّة كُبْرَىٰ: هَلْ تَوَصَّلَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا، أَمْ لَمْ يَتَوَصَّلُوا إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا حَتَّى الآن؟، وَهِيَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ كَانَتَا كُتْلَةً واحِدَةً عُظْمَىٰ، فَجَزَّأَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ أَجْزاءٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا مَجَرَّاتٍ، وَنُجُوماً، وكواكب.

وفيها بَيَانَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ مِنَ الماء كُلَّ شيءٍ حَيٍّ، مع بيانِ ظَوَاهِرَ كَوْنِيَّةٍ أُخْرَىٰ، فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ كَمَالِ حِكْمَةِ اللهِ الدَّالَّةِ علىٰ أَنَّ الله خَلَقَ النَّاسَ لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً حَقِيقَةً مِنَ الحقائق الكَوْنِيَّةِ، وَمُنبِّهاً عُلَمَاءَ الْكَوْنِيَّاتِ عَلَيْهَا رَغْبَةً فِي أَنْ تَدْفعَهُمْ إلى الإيمان:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿رَتْقًا﴾: **الرَّتْقُ في اللُّغَة**: إِلْصاقُ عَناصِرِ الشَّيْءِ بَعْضِهَا بِبَعْض، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ بَيْنَهَا خَلَلٌ يُفْسِدُ التَّماسُكَ بَيْنَها، وَوَحْدَتَهَا الْكُلِّيَّةَ.

يُقَالُ لُغَة: «رَتقَ الشَّيْءَ، يَرْتِقُهُ، ويَرْتُقُهُ، رَتْقاً» أي: سَدَّ الْخَلَلَ بَيْنَ عَناصِرِهِ، وَجعَلَهَا مُلْتَئِمَةً. ويقالُ: «رَتِقَ الشَّيْءُ، يَرْتَقُ، رَتَقاً» أي: انْسَدَّ والْتَأَمَ.

﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾: أي: كَانَتا مَرْتُوقَتَيْنِ مُجْتَمِعَتَيْنِ كُتْلَةً عَظِيمَةً غَيْرَ مُقَسَّمَةٍ وَلَا مُفَصَّلَة، أُطْلِقَ المصْدَرُ بِمَعْنَىٰ اسْم المفعول.

والْفَتْقُ: ضِدُّ الرَّتْقِ، ومِنْ صُوَرِ الْفَتْقِ تَجْزِئَةُ الشَّيْءِ الْمُجْتَمِعِ، وَتَقْسِيمُهُ إِلَىٰ أَقْسَامٍ وأَجْزَاء مُتَفَاصِلَةٍ مُتَباعِدَةٍ.

أي: أَمَا زَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عُلَمَاءِ الْكَوْنِيَّاتِ؛ بَعِيدِينَ عَنْ إِدْرَاكِ أَدِلَّةِ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا كُتْلَةً واحِدَةً مُجْتَمِعَةً، فَفَتَقْنَاهُمَا وَقَسَّمْنَاهُمَا إِلَىٰ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَمَجَرَّاتٍ كَثِيرَاتٍ فِيهَا بَلَايِينُ النُّجُومِ والْكَواكِب، ومِنْهَا الأَرْضُ، وَلَمْ يَرَوْهَا رُؤْيَةً فِكْرِيَّةً عِلْمِيَّةً، تَهْدِيهِمْ إِلَىٰ الإيمانِ بِرُبوبِيَّةِ اللهِ وإِلَهِيَّتِهِ، وإِلَىٰ الإيمانِ بِأَنَّ محمّداً - ﷺ - عَبْدُ اللهِ وَنَبِيُّهُ وَرَسُولُهُ، وإِلَىٰ الإيمانِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم.

ولَسْتُ أَدْرِي هَلْ وَصَلَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ هَـٰذِهِ الحقيقَةِ الكَوْنية، أَمْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا؟؟.

وفي القراءة الأُخرى: [**أَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا...**] دون حرف عطف بَعْدَ همزة الاستفهام.

هَـٰذِهِ القراءَةُ يُقْصَدُ بِهَا الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى أَدِلَّةٍ يُدْرِكُونَ بِهَا أَنَّ

السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا كُتْلَةً وَاحِدَةً مُجْتَمِعَةً، فَقَسَّمَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى مَجرَّاتٍ وَنُجُومٍ وكواكب. والاسْتِفْهَامُ فيها اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ عَلَىٰ الَّذِينَ أَدْرَكُوا هَـٰذِهِ الحقيقة ولَمْ تَهْدِهِمْ إِلَىٰ الإيمان باللهِ وكتابِهِ ورَسُولِهِ ﷺ.

- ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ...﴾:

ثَبَتَ بالنَّصِّ الصَّرِيحِ الْجَلِيِّ أَنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ خَلَقَهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ ـ مِنَ الطِّينِ، أي مِنَ الْمَاءِ والتُّرَابِ، وهُوَ حَيٌّ مُمْتَازٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ، ويَدْخُلُ فِي عُمُومِ: ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

وَهـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المرادَ بِالْعِبَارَةِ هُنَا أَنَّ الماءَ هُوَ المادَّةُ الْأَكْثَرُ فِي بِنَاءِ كُلِّ ذِي حَياةٍ، حتَّىٰ النَّبَاتِ الْحَيِّ النَّامي، وأَنَّهُ لَا حَيَاةَ بِدُونِ مَاءٍ، وَلَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ: ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ الْمَلَائِكَةُ والْجِنُّ، فالْمَلَائِكَةُ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ، والْجِنُّ خُلِقُوا مِنْ نَارٍ، وقَدْ ثَبَتَ هـٰذَا فِي نُصُوصِ القرآنِ والسنة. فالمرادُ كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ مِنَ المشْهُودِ للنَّاسِ في الأرض.

وقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ أَنَّ ثُلُثَيْ جِسْمِ الإنْسَانِ مُكَوَّنٌ مِنَ الماء، وأنَّ كُلَّ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ تَتَكَوَّنُ غَالِباً مِنَ الْمَاءِ، وأنّ بَعْضَ الثمراتِ فيها مِنَ الْمَاءِ بِنِسْبَةِ (٨٠٪).

فَوُجُودُ الْمَاءِ بِنِسْبَةٍ عُظْمَىٰ في الْكَائِنَاتِ الحيَّةِ يُلائِمُهُ أَنْ يُقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْأَحْيَاء مَتَىٰ فَقَدَتْ مِيَاهَهَا فَقَدَتْ حَيَاتَها، فالماءُ فِيها شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ حَيَاتِها.

- ﴿... أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾: اسْتِفْهَامٌ فِيهِ تَلْوِيمٌ لِلّذِينَ كَفَرُوا وَلَمْ يُؤْمِنُوا إذا عَرَفُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقَهُمَا اللهُ، وَعَرَفُوا أَنَّ اللهَ جَعَلَ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ نَفَخَ فِيهِ روحَ الْحَيَاةِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ بضمير المتكلّم العظيم:

● ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ بيانُ خَمْسِ آياتٍ مِنْ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ:

الآية الكونيّة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾:

سبَقَ أنْ جَاءَ التَّنْبيهُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآيةِ مِنْ آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّةِ في السّور التالية: «المرسلات/ ٣٣ الآية (٢٧) ـ ق/ ٣٤ الآية (٧) ـ النمل/ ٤٨ الآية (٦١) ـ لقمان/ ٥٧ الآية (١٠) ـ فصلت/ ٦١ الآية (١٠) ـ النحل/ ٧٠ الآية (١٥)».

أي: وَجَعَلْنَا بِقُدْرَتِنَا الْعَظِيمَةِ وَحِكْمَتِنَا السَّامِيَة فِي الْأَرْضِ جِبَالاً رَوَاسِيَ ثَابِتَاتٍ رَاسِخَاتٍ، مَنْعَ أَنْ تَتَحَرَّكَ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ وَتَضْطرِبَ بِهِم.

يقال لُغَةً: «مَادَ الشيْءُ، يَمِيدُ، مَيْداً، وَمَيَداناً» أي: تَحَرَّكَ واضطَرَبَ.

الآيَةُ الكونيّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾:

فِجَاجاً: جَمْعُ «فَجٍّ»، وهو الطَّرِيقِ الواسِعُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ.

سُبُلاً: جمْعُ «سَبِيلِ»، وهو ما وَضَحَ مِنَ الطَّرِيق وصَلَحَ لِلْعُبُورِ عَلَيه.

أي: وجَعَلْنَا في الأرض طُرُقاً واسِعَةً بَيْنَ الجبالِ، وهَـٰذِهِ الفِجَاجُ تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ سُبُلاً يَتَّخِذُهَا النَّاسُ لِسُلُوكِهَا، ورغْبَةً فِي أَنْ يَهْتَدُوا إلى الأمَاكِنِ الَّتِي يَقْصِدُونَ الوصُولَ إِلَيْهَا.

الآية الكونيَّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله تَعالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

تَرَجَّح لَدَيَّ أَنَّ الْمُرَادَ بالسَّمَاءِ هُنَا الْغِلَافُ الغازي حَوْلَ الأَرْضِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ يُسَمَّىٰ في اللُّغَةِ سَمَاءً.

وَيَنْطَبِقُ عَلَىٰ الْغِلَافِ الغازي حَوْلَ الأَرْضِ أَنَّهُ كالسَّقْف، وَهَـٰذَا السَّقْفُ مَحْفُوظٌ مِمَّا يُفْسِدُه وَيُغَيِّرُ نِظَامَهُ مِنَ الْقُوَىٰ الكَوْنِيَّةِ الكُبْرَىٰ، وَهُوَ حَافِظٌ لِلْأَرْضِ مِنْ أَشِعَّةٍ ضَارَّةٍ تَأْتي من الشَّمْسِ وغَيْرِهَا مِنَ النُّجُوم، وَحَافِظٌ لِلْأَرْضِ مِنَ النَّيَازِكِ والأَجْرَام الَّتِي تَنْجَذِبُ إِلَيْهَا، إِذْ تَحْتَرِقُ وَهِيَ هَاوِيَةٌ، فَتَتَجَزَّأُ فتَتَلاشَىٰ أَوْ تَصِلُ إِلَىٰ الأَرْضِ غَيْرَ ذَاتِ أَثَرٍ مُدَمِّر.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا مُعْرِضُونَ عَنْ الاسْتِفَادَةِ مِنْ آيَاتِ اللهِ في السَّمَاء، لِلْإِيمانِ بأَنَّ اللهَ الْعَزِيزَ الْعَلِيمَ الْحَكِيمَ قَدْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، وامْتَنَّ عَلَىٰ عِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ، إِذْ جَعَلَ حَوْلَ دَارِ إِقَامَتِهِمْ فِي الأَرْضِ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَحَافِظاً لَهُمْ مِمَّا تُطْلِقُهُ الأَجْرَامُ الكَوْنِيَّةُ مِنْ قَوَاتِلَ وَمُهْلِكَاتٍ وَضَارَّاتٍ وَمُؤْذِيَاتٍ.

الآية الكونيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾:

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ التَّدْبِيرَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي نَتَجَ عَنْهُ ظَاهِرِيًّا اللَّيلُ والنَّهَارُ؛ هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله فِي كَوْنِهِ.

وقد سبَقَ في نجوم التَّنْزِيلِ التَّنْبِيهُ على هَـٰذِهِ الآيَة الكَوْنِيَّةِ فِي عِدَّةِ نُصُوص، وسبق بيانُ مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ بِشَأْنِهَا.

الآية الكونية الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: وهُوَ الَّذي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ المقْرُونَةِ بحِكْمَتِهِ وعظيم رَحْمَتِهِ لِعِبَادِهِ، وعِلْمِهِ الَّذِي أحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ الشَّمْسَ والْقَمَرَ.

وقَدْ سَبَقَ فِي نُجُوم التَّنْزِيلِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ آيَتي الشَّمْسِ والقمر، في عِدَّةِ نُصُوصٍ، وسَبَقَ بَيَانُ مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ بِشَأْنِهِمَا.

وذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ صِفَاتِ الشَّمْسِ والْقَمَرِ؛ أَنَّهُمَا يَدُورَانِ سَبْحاً فِي أَفْلَاكٍ مُحَدَّدَةٍ لَهُمَا فِي السَّمَاء.

وقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ بِضَمِيرِ مَنْ يَعْلَمُ ويَعْقِلُ، لِأَنَّ ضَبْطَ سَبْحِهِمَا في أَفْلَاكِهِمَا عَبْرَ الدُّهور، دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَا لِخَلَلٍ يُخْرِجُهُمَا عَنِ النِّظَام المقدَّرِ المقْضِيّ لَهُمَا؛ إِنَّمَا هُوَ بِخَلْقِ الْعَلِيم الحكِيم الْقَدِيرِ، فانْضِبَاطُ سَبْحِهِمَا دُونَ خَلَلٍ يُشْبِهُ انْضِبَاطَ ذوي الْعِلْمِ والْعَقْلِ، مَعَ أَنَّ الْفَاعِلَ لِذَلِكَ فِيهِمَا هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، لَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرُ يُشْبِهُ أَفْعَالَ ذوي الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ الْعُلَمَاءِ الْعُقَلَاءِ الضَّابِطِينَ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الخامس من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التَّدبر التحليلي للدَّرسِ السادس من دُرُوس سورة (الأنبياء)

الآيات من (٣٤ ـ ٤١)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِلنَّاسِ بضمير المتكلّم العظيم:

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم

بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٦) خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١)﴾:

القراءات:

(٣٤) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وابْنُ عَامِر، وشعبة، وأبو جَعْفر، ويعقوب: [**مُتَّ**] بضَمّ الميم، وهو لغة مطابقَةٌ للقياس.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِتَّ**] بِكَسْرِ الميم، وهو لغة سماعيّة.

(٣٥) • قرأ يعْقُوب: [**تَرْجِعُونَ**] بالمبني للمعْلُوم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تُرْجَعُونَ**].

أي يُرْجِعُكُم اللهُ إلى الحياة فأنْتُم تَرْجِعُونَ بالْجَبْرِ.

(٣٦) • قرأ حفص: [**إلَّا هُزُواً**].

وقرأهَا حمزة وخلف: [**إلَّا هُزْءاً**].

وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إلَّا هُزُءاً**].

(٣٧) • قرأ يَعْقُوبُ: [**فَلَا تَسْتَعْجِلُونِي**] بإثْبَاتِ ياء المتكلّمِ في الوصْل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**] بحذف ياء المتكلّم.

(٣٩) • قرأ حمزَةُ، والكِسَائِي، وخَلَف: [**عَنْ وُجُوهِهُمُ النَّارَ**] بضم هاء الضَّمِير.

وقرأها أبو عمر، ويعقوب: [**عَنْ وُجُوهِهِمِ النَّارَ**].

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ]** بِكَسْرِ هَاءِ الضمير.

وهَـٰذا كلّه عِنْد الوَصْل، وأمَّا عِندَ الوقْفِ فَالجميعُ على كَسْرِ الهاء وإسْكَان الميم.

(٤١) ● قرأ أبُو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، وَيعقوب: **[وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ]**. بِكَسْرِ دال «لَقَد».

وقرأهَا أبُو جَعْفر وَصْلاً: **[وَلَقَدُ اسْتُهْزِيَ]**: بالياء بدل الهمزة.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ]** بضمِّ دالِ «لَقَدْ».

ووقف حمزة، وهِشَامٌ، بإبْدَالِ الهمزة يَاءً سَاكِنَةً.

تَمْهِيد:

فِي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرسِ مُعَالَجَةُ أئِمَّةِ المشْرِكِينَ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ مَوْتَ الرَّسُولِ ﷺ، للتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَتِهِ، بأُسْلُوبِ خِطَابِ الرَّسُولِ ﷺ مَعَ الإعْرَاضِ عَنْهُم، وإسْمَاعِهِمْ بأسْلُوبٍ غَيرِ مُبَاشِرٍ، مَعَ إعْلَامِ الرَّسُولِ ﷺ بأنَّ اللهَ بِسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ لَمْ يَجْعَلْ لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِهِ الْخُلْدَ فِي الحياة الدُّنْيَا، ويقُولُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿... أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وَفِيهَا بَيَانُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموْتِ في هَـٰذِهِ الْحَياة الدنيا، وأَنَّ الحياة الدُّنْيَا رِحْلَةُ امْتِحَانٍ بِمَا يَرَاهُ النَّاسُ شَرًّا، وبِمَا يَرَوْنَهُ خَيراً، وأنَّ بَعْدَ الموتِ بَعْثاً إلى الحياةِ الأُخْرَىٰ، تَرْجِعُ فيها الْخَلَائِقُ إلى رَبِّهَا، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجَزَاء.

وفيها بَيَانُ مَوْقِفِ أئِمَّةِ الكُفرِ والشِّرْكِ إبَّانَ التَّنْزِيلِ مِنْ إنْذَارَاتِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُمْ، وَهُوَ مَوْقِفُ الاسْتِهْزَاءِ بِهَا وبالرَّسُولِ ﷺ الَّذِي يُنْذِرُهُمْ، مع طَلَبِهِمْ تَعْجِيلَ تَحْقِيقِهَا تَعْبِيراً عَنْ تَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ بها.

وَفِيها بَيَانُ أَنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ.

وفيها مُعَالَجَتُهُمْ بالتَّرْهِيبِ، وَبِقِيَاسِهِمْ عَلَىٰ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ الْمَاضِية.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُوله ﷺ وإسْمَاعاً لمتربّصِي موته من أئِمَّة المشْرِكِينَ إبَّانَ التَّنْزِيل بضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

• ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾. وفي قِرَاءَة يعقوب: **[تَرْجِعُونَ]**.

دلَّ مَا جَاءَ فِي الآيَةِ (٣٤) على أَنَّ أَعْدَاءَ الرَّسُولِ ﷺ، مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ؛ صَارَتْ نُفُوسُهُم تُحَدِّثُهُمْ بِأَنْ يَنْتَظِرُوا مَوْتَهُ، فَإِذَا مَاتَ تَخَلَّصُوا مِنْ دَعْوَتِهِ، ومِنَ الدِّينِ الْجَدِيدِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ، وَفَرَّقَ بِهِ اجْتِمَاعَهُمْ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَلَوَازِمِ الشِّرْكِ فِي السُّلُوكِ.

فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ كَاشِفَةً لَهُمْ ولِلْمُسْلِمِينَ مَا تُحَدِّثُهُمْ بِهِ نُفُوسُهُم، مع الْعِلَاجِ المناسِبِ لِهَـٰذِهِ الحالَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا إِبَّانَ تَنْزِيلِ سُورَة (الأنْبِيَاء/ ٧٣).

ثُمَّ صَارُوا يَتَحَدَّثُونَ صَراحَةً بِهَـٰذِهِ الْأُمْنِيَةِ إِبَّانَ نُزُول سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول)، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها قَوْلَهُ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وقد جَاءَ الْعِلَاجُ في سُورَةِ (الْأَنْبِيَاء/ ٧٣ نزول) بِبَيَانِ أَنَّ الرَّبَّ بِحِكْمَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَضَىٰ أَنْ يَجْعَلَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِلامْتِحَان، وَأَنْ تَكُونَ قَصِيرَةً لِلْمُمْتَحَنِينَ، وأَنْ تَنْتَهِيَ بالْمَوْتِ، وأَنْ تَكُونَ بَعْدَهَا رَجْعَةً إِلَىٰ حَيَاةِ الْخُلُودِ، وفي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ يَكُونُ الْحِسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقُ الْجَزاء، على مَا قَدَّمَ الْمُمْتَحَنُونَ في الحياة الدُّنْيَا مِن عَمَلٍ صَالِحٍ فِيه طاعَةٌ للهِ، أَوْ عَمَلٍ فَاسِدٍ فِيهِ مَعْصِيَةٌ للهِ.

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾: أي: وَمَا جعلْنا لِبشَرٍ مُنْذُ عَهْدِ أَوَّلِ الْبَشَرِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَام، حَتَّىٰ زَمَنِكَ الَّذِي تَعِيشُهُ؛ الْخُلْدَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَكُلُّ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ النَّاسِ قَدِ اسْتَوَفَىٰ نَصِيبَهُ الْمُقَدَّرَ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ هَـٰذِهِ، حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، وبانْتِهَاءِ أَجَلِهِ فِيهَا أَمَتْنَاه، لِنَبْعَثَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ مَعَ سَائِرِ المبْعُوثِينَ.

وَقَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ مُتَحدِّثاً عَنْ مُنْتَظِرِي مَوْتِهِ مِنْ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ:

• ﴿... أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ۝٣٤﴾: أي: أَفإِنْ مِتَّ يَا مُحَمَّدُ عَقِبَ انْتِهَاءِ أَجَلِكَ المقَدَّرِ لَكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا؛ أَفَهُمْ وَحْدَهُمْ الْخَالِدُونَ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فِي الحياةِ الدُّنيا، دُونَ سَائِرِ الْبَشَرِ المقْضِيِّ عَلَيْهِمْ بالْمَوْتِ؟.

استفهامٌ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: إِنَّهُمْ كَسَائِرِ الْبَشَرِ سَيَمُوتُونَ في آجَالِهِمُ المقَدَّرَةِ لَهُمْ، وَسَوْفَ يُبْعَثُونَ إلى الحياة الأُخرىٰ مَعَ سَائِرِ الْمَبْعُوثِين، فَلَا يَطْمَعْ طَامِعٌ مِنْهُمْ بِأَنْ يَكُونَ خالِداً في ظُرُوفِ هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

وَجاءَ الْعِلَاجُ في سورة (الطور/٧٦ نزول) بتَعْلِيم الرسُولِ ﷺ أَنْ يقولَ لَهُمْ: ﴿تَرَبَّصُوا﴾: أي: انْتَظِرُوا إِنِي مَعَكُمْ مِنَ المنتظِرينَ مَا يَقْضِي اللهُ لَنَا.

رَيْبُ المنُون: حوادِثُ الدَّهر المميتَةُ.

وأتبعَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الْبَيَانَ فِي سُورَةِ (الأنبياء/٧٣) بقولِهِ تَعالَىٰ:

• ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ... ۝٣٥﴾:

هـٰذَا بَيَانُ قَانُونٍ رَبَّانِيٍّ عَامٍّ، تَمَّ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضاؤُه، فَجعَلَ بِهِ كُلَّ النُّفُوسِ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الأُولَىٰ؛ لَا بُدَّ أَنْ تَذُوقَ الْمَوْتَ بَعْدَ انْتِهَاءِ آجَالِهَا المقَدَّرَةِ المقضيَّةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ.

النَّفْس: هِيَ الطَّبْعَةُ المقدَّرَةُ المقضيَّةُ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ قَضَىٰ اللهُ أَنْ يَجْعَلَهُ حَيًّا، وفِيهَا خَرِيطَةُ تَكْوِينِهِ، وكُلُّ صِفَاتِهِ الَّتِي سَيَكونُ عَلَيْهَا وهُوَ حَيٌّ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ النَّفْس ذَاتَ حَيَاةٍ نَفَخَ فِيها الرُّوحَ، والروحُ مَخْلُوقٌ رَبَّانِيٌّ يَكُونُ بأمْرِ اللهِ التَّكْويني، ومَتَىٰ اتَّصَلَ بالنَّفْسِ كَانَتِ النَّفْسُ كائِناً حَيًّا، فالرُّوحُ بِمَثَابَةِ الطَّاقَةِ الَّتِي يَعْمَلُ بِهَا جِهَازُ النَّفْسِ أَعْمَالَهُ وفْقَ خَرِيطَةِ تَكْوِينِهِ، وحِينَ تَنْفَصِلُ هَـٰذِهِ الطَّاقَةُ عَنِ النَّفْسِ تَذُوقُ النَّفْسُ الْمَوْتَ.

ولِكُلِّ المخْلُوقَاتِ الحيَّةِ مِنْ أَعْلَىٰ الْمَرَاتِبِ إِلَىٰ أَدْنَاهَا نُفُوسٌ بِحَسَبِهَا، كُلُّ مَلَكٍ لَهُ نَفْسٌ، ويَكُونُ حَيًّا باتِّصَالِهَا بالرُّوح الَّتِي يَخْلُقُهَا اللهُ لَهُ بأمْرِ التَّكْوِينِ مُبَاشَرَةً، وتَذُوقُ الْمَوْتَ بانْفِصالِ الرُّوحِ عَنْهَا. وكَذَلِكَ كُلُّ إِنْسَانٍ، وكُلُّ جِنِّيٍّ، وكُلُّ ذِي حياة حَتَّىٰ الحشَرَاتُ والميكرُوبَاتُ والْفَيْرُوسَات، وَمَا دُونَ ذَلِكَ إِنْ وُجِدَ.

فالأَحْيَاءُ الدُّنْيَا، وَمَا فَوْقَهَا مِنَ الْمَرَاتِبِ، حَتَّىٰ أَحْيَاءُ الملأ الأعْلَىٰ مِنَ الملائِكَةِ، كإِسْرَافِيل، ومِيكَائِيل، وجِبْرَائِيلَ؛ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ نَفْسٌ خَاصَّةٌ بِهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَذُوقَ هَـٰذِهِ النَّفْسُ الْمَوْتَ بانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنْهَا عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِ حَيَاتِهَا الأُولَىٰ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَة، وهِيَ حَيَاةُ خُلُودٍ لِبَعْضِ الأَحْيَاءِ، ولا سيما مَنْ كَانَ مَوْضُوعاً في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

وبَعْدَ هـٰذَا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الحرَّةِ الموضوعِينَ في الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿... وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

- ﴿وَنَبْلُوكُم﴾: أي: وَنَخْتَبِرُكُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِذْ أَنْتُمْ فِيهَا مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

- ﴿بِٱلشَّرِّ﴾: أي: بِمَا تَرَوْنَهُ شَرّاً مِمَّا تَكْرَهُونَ كالْمَرَضِ، والْفَقْرِ،

والذُّلّ، وَنقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ والأَنْفُسِ والثَّمراتِ، وكَمَوْتِ مَنْ هُوَ عَزِيزٌ ويُعْتَبَرُ مَوْتُهُ مُصِيبَةً لَكُم، وَمَا تَرَوْنَهُ شَرّاً هُوَ في تَقْدِيرِنَا وقضائِنَا خَيْرٌ، لِأَنَّ الامْتِحَانَ يَقْتَضِي اخْتِبَارَ الممتحَنِ بِمَا يَسُوؤُهُ، وهٰذَا فِي الحقِيقَةِ خَيْرٌ، لِأَنَّهُ يُوصِلُ إلَىٰ كَشْفِ نَفْسِ الْمُمْتَحَنِ، فَهُوَ فِي مَقَايِيس الامْتِحَانِ خَيْرٌ.

- ﴿وَٱلْخَيْرِ﴾: أي: وَنَبْلُوكُمْ بِمَا تَرَوْنَهُ خَيْراً مِمَّا تُحِبُّونَ، كالصِّحَّةِ، والْقُوَّةِ، والْغِنَىٰ، والْعِزّ، والاسْتِمْتَاعِ باللَّذَّاتِ والسَّارَّات.

- ﴿فِتْنَةً﴾: أَيْ: ابْتِلَاءً، فَهُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مِنْ مَعْنَىٰ الْفِعْلِ، لِتَوْكِيدِ مَعْنَىٰ الابْتِلَاء.

فالابْتِلَاءُ بالْمَكَارِهِ هو لاخْتِبَارِ الصَّبْرِ والرِّضا عَنِ اللهِ والالْتِجَاءِ إلَىٰ اللهِ بالدُّعاء.

والابْتِلَاءُ بالمحَابّ والسَّارَّاتِ هو لاخْتِبَارِ الشُّكْرِ، والثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ بالْمَحَامِدِ، والإيمانِ الْعَمِيقِ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ بالإيجادِ والإِمْدَادِ، والحياةِ، وفَضَّلَ بالإنْسَانِيَّة، ورزَقَ، وعافَىٰ وأَمْتَعَ، وابْتَلَىٰ لِيَمْتَحِنَ.

- ﴿... وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: وسَنُمِيتُكم، ثُمَّ نَبْعَثُكُمْ، وإِلَىٰ حِسَابِنَا، وفَصْل قَضَائِنَا، وَتَنْفِيذِ جَزَائِنَا؛ نُرْجِعُكُمْ بِالْبَعْثِ، فَتَرْجِعُونَ بالْجَبْرِ، فَلَا تَمْلِكُونَ عِناداً وَلَا قُدْرَةً عَلَىٰ الْمُمَانَعَةِ.

وكانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ الْعَوْدُ إلَىٰ خِطَابِ الرَّسُولِ ﷺ، لِيُعْلِمَهُ بأنَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِمَا يُؤْذِيهِ به أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ: فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ:

- ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: وَإِذَا رَءَاكَ أَئِمَّةُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا رَسُولَنَا يا مُحَمَّدُ؛ ما يَتَّخِذُونَكَ

إلَّا إنْسَاناً مُسْتَهْزَأً بِهِ، قَائِلِينَ لِأَتْبَاعِهِم: أَهَذَا الَّذِي لَا مَالَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ؛ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا كَمَا كَانَ آبَاؤُكُم يَعْبُدُونَهَا بِسُوءٍ، وَيَلُومُكُمْ عَلَىٰ عِبَادَتِهَا، وهِي مِيرَاثُ قَوْمِكُم الدِّينِي.

«إِنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بِمَعْنَىٰ «مَا».

والاسْتِفْهَامُ في ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى . . .﴾؟: اسْتِفْهَامُ اسْتِهْزَاءٍ وسُخْرِيَةٍ.

• ﴿. . . وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: والْحَالُ أَنَّهُمْ بالذِّكْرِ الْمُنَزَّلِ مِنَ الرَّحْمٰنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الكِتَابِ الْمُعْجِزِ الَّذِي هُو هُدًى ونُورٌ؛ هُمْ كَافِرُونَ.

إِنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ بالرَّسُولِ ﷺ، لِأَنَّهُ يَذْكُرُ أَوْثَانَهُم الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ بِسُوءٍ، في حَالِ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بالْحَقِّ الْجَلِيِّ الواضِحِ، الْهَادِي إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ، والْمُنَزَّلِ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْعَزِيزِ الحكيمِ الرَّحْمٰن.

ضَمِيرُ الْفَصْلُ فِي: ﴿هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ جِيءَ بِهِ لِتَوْكِيدِ كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ لَا يَكْفُرَ بِهِ، وفي هـٰذَا تَلْوِيمٌ شَدِيدٌ ضِمْنِيٌّ لَهُمْ، وإِيماءٌ إلى سَفَاهَتِهِمْ وقِلَّةِ عُقُولهم.

وانْتَقَلَ الْبَيَانُ فِي هـٰذَا الدَّرْسِ إِلَىٰ الْحَدِيثِ عَنِ اسْتِعْجَالِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ مَا أُنْذِرُوا بِهِ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

بَدَأَتْ هَـٰذِهِ الآيَاتِ بِبَيَانِ أَنَّ نَفْس الإنْسَانِ خُلِقَتْ مِنْ عَجَلٍ، فَهُوَ عَجُولٌ بِفِطْرَتِهِ.

الْعَجَلُ: السُّرْعَةُ، وهِيَ خِلَافُ الْبُطْءِ.

وَمَا فِي الإنْسَانِ مِنْ فِطْرَةِ السُّرْعَةِ؛ تَجْعَلُهُ يَسْتَعْجِلُ الشَّيءَ قَبْلَ أَوَانِهِ، وَتَحْرِمُهُ مِنْ فَضِيلَةِ الأَنَاةِ والْحِلْم، ومِنْ فَضِيلَةِ إتْقَانِ أعْمَالِهِ الَّتي يَحْتَاجُ إتْقَانُهَا إلَىٰ زَمَنٍ طَويلٍ، وهو باسْتِعْجَالِهِ يُرِيدُ اخْتِصَارَ هٰذَا الزَّمنِ، فَتَأْتِي أَعْمَالُهُ نَاقِصَةً وَغَيْرَ مُتْقَنَة.

وَجَاءَ في سورة (الْإِسْرَاء/ ٥٠ نزول) بَيَانُ أَنَّ الْإِنسَانَ عَجُول، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فيها:

﴿. . . وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ⑪﴾.

وَمَا جَاء في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣) الجاري تَدَبُّرُهَا؛ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الْعَجَلَةَ فِي نَفْسِ الإنْسَانِ، كالْمَاءِ والتُّرَابِ فِي جَسَدِهِ، فَهِيَ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْمُحَرِّكَةِ لمطَالِبِهِ وأعْمَالِهِ.

إنَّ الإنْسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْ جَسَدٍ ونَفْس، أَمَّا الْجَسَدُ فَقَدْ أَبَانَ اللهُ أَنَّ عُنْصُرَهُ مَخْلُوقٌ مِنَ الْمَاءِ والتُّرَابِ، وأَمَّا النَّفْسُ فَدَلَّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ عَلَىٰ أَنَّ السُّرْعَةَ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي كُوِّنَتْ نَفْسُ الإنْسَانِ مِنها، لِأَنَّ السُّرْعَةَ من صِفَاتِ النَّفْسِ لا مِنْ صِفَاتِ الْجَسَدِ.

على أنَّ صِفَاتِ النَّفْسِ الَّتِي كُوِّنَتْ مِنْهَا كثيرة، مِنْها أَنَّ الْإِنْسَانَ ضَعِيفٌ، ومِنْهَا أَنَّ الإنْسَانَ قَتُورٌ، ومِنْهَا أَنّ الإنْسَانَ كَفُورٌ جَحُودٌ، ومِنْهَا أَنَّهُ هَلُوع.

وهَـٰذِهِ صِفَاتٌ غَالِبَاتٌ عَلَىٰ مُعْظَم النّاس، وهُمْ مطالبون بضَبْطِ نُفُوسِهِم بِمَا وَهبهم الله مِن إراداتٍ حرَّة قادرةٍ عل الضبط المطلوبِ من ذوي العقل والرأي السديد والإيمان الصادق.

وقَدْ جَاءَ بيانُ أَنَّ الإنْسَانَ خُلِق مِنْ عَجلٍ تَوْطِئَةً لِبَيَانِ اسْتِعْجَالِ أَئِمَّةِ

الكُفْرِ والشِّرْكِ تَحْقِيقَ مَا أُنْذِرُوا بِهِ فِي كِتَابِ اللهِ، وعلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿... سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾: أي: سَأُرِيكُمْ آيَاتي الجزائيَّة المؤجَّلَ مِنْهَا إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، والْمُعَجَّلَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا.

وَغُلُوّاً فِي تَعَلُّلِهِمْ للتَّكْذِيبِ بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ؛ صَارُوا يُكَرِّرُونَ سُؤَالَهُمْ عَنِ الزَّمَنِ الَّذِي يَتَحقَّقُ فِيهِ وَاقِعاً، مَا وُعِدُوا خَبَراً بِأَنَّهُ سَيَتَحَقَّقُ مُسْتَقْبلاً، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: وَيَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ ولِلْمُؤْمِنِينَ كُلَّمَا أَخبَرُوهم بِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ: في أيِّ زَمَنٍ يَتَحقَّقُ هٰذَا الْوَعْدُ، إِنْ كَانَ مَا تُخْبِرُونَ بِهِ خبراً صَادِقاً؟!.

إِنَّهُمْ مِنْ حَمَاقَتِهِمْ يَجْعَلُونَ صِدْقَ الْوَعِيدِ مُرْتَبِطاً بِالتَّعْرِيفِ بِوَقْتِ تَنْفِيذِهِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَنْ يَعِدُ بِعِقَابٍ مِنَ الْبَشَرِ إِنَّمَا يُنَفِّذُهُ فَجْأَةً وَمُبَاغَتَةً، وَلَا يُخْبِرُ عَنِ الزَّمَنِ الَّذِي يُحَقِّقُ فِيهِ عِقَابَهُ وانْتِقَامَهُ، فَمَا بَالُهُمْ يَجْعَلُونَ هٰذَا السُّؤَالَ الَّذِي يُكَرِّرُونَهُ تَعِلَّةً لِلتَّكْذِيبِ بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ؟!!.

وَبَدَأَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلَاجَهُمْ بِتَقْدِيمِ لَقْطَةٍ مِنْ واقِعِ تَعْذِيبِهِمْ الَّذِي سَوْفَ يُلَاقُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُخْبَرُونَ خَبَراً صَادِقاً، وَلَكِنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا صِدْقَ الْخَبَرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مُصَدِّقِينَ مَا سَوْفَ يَحْصُلُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، حِينَ يُلْقَوْنَ في النَّارِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكُفُّوا عَنْ وُجُوهِهِمْ لَهَبَ النَّارِ، فَضْلاً عَنْ سَائِرِ مُقَدَّمِ أَجْسَادِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكُفُّوا عَنْ ظُهُورِهِمْ لَهَبَ النَّارِ، فَضْلاً عَنْ سَائِرِ مُؤَخَّرِ أَجْسَادِهِمْ.

وكَفُّ النَّارِ عَنْهُمْ يَكُونُ بِجَعْلِهَا تَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَلَا تَمَسُّهُمْ، كَكَفِّ الْأَيْدِي عَنْ قِتَالِ الأعْدَاءِ يَكُونُ بِضَمِّهَا وَإِبْعَادِهَا عَنْ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِمْ بأذى أَوْ بِمَا يَسْتَثِيرُهُمْ للقيامِ بأعْمَالٍ قِتَالِيَّةٍ.

فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَ عَذَابِ النَّارِ عَنْهُمْ، وإذَا أَرَادُوا الاسْتِنْصَارَ بِمَنْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُنْصَرُونَ، إِذْ لَا يُوجَدُ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وبَعْدَ تقديم لَقْطَةٍ سَرِيعَةٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينَ؛ تَحَدَّثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ مُعَجَّلِ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: ولْيَعْلَمُوا أَنَّ عُقُوبَاتِنَا الْمُعَجَّلَةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا نُعْلِمُهُمْ بِزَمَنِ وُقُوعِها، بَلْ تَأْتِيهِمْ مُفَاجَأَةً دُونَ إِشْعَارٍ سَابِقٍ، فَتَبْهَتُهُمْ، إِذْ يَسْكُتُونَ مُنْقَطِعِينَ مُتَحَيِّرِينَ مُنْدَهِشِينَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا عَنْهُمْ، وَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُنْظِرَهُمْ وَيُؤَخِّرَ عِقَابَهُمْ لِيُؤْمِنُوا، فَلَا يُسْتَجَابُ لهم.

﴿بَغْتَةً﴾: أي: مُفَاجَأَةً دُونَ إشعارٍ سَابق، يُقال لغة: «بَغَتَهُ، يَبْغَتُهُ، بَغْتاً، وبَغْتَةً» أي: فَجَأَهُ، وبَهَتَهُ.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾: يَقال لغة: «بُهِتَ فُلان» أي: نَزَلَ بِهِ مَا يُسْكِتُهُ وَيَجْعَلُهُ مُتَحَيِّراً مُنْدَهِشاً.

وبَعْدَ هٰذَا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ مُسَلِّياً لَهُ، وَمُطَمْئِناً لَهُ بِأَنَّ اللهَ نَاصِرُهُ وَمُنْزِلٌ بِأَعْدَائِهِ السَّاخِرِينَ بِهِ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، وفي هٰذَا إِسْمَاعٌ لِلَّذِينَ كَفروا بِأَنَّ اللهَ سَيُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً مُعَجَّلاً:

- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾:

جاء تَوْكِيدُ هـٰذَا الْبَيَانِ بِلَامِ الْقَسَمِ، و«قَدْ» الدَّالَّةِ عَلَىٰ التَّحْقِيقِ، مُرَاعَاةً لِحَالِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْإِنْذَارَاتِ، اسْتِهْزَاءً يُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ بها.

- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: أيْ: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ كَثِيرِينَ مِنْ قَبْلِكَ، مِنْ قِبَلِ أَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ بِمَا أَنْذَرُوهُمْ بِهِ بَلَاغاً عَنْ رَبِّهِمْ.

- ﴿... فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾:

يُقَالُ لُغَةً: «حَاقَ بِهِ الشَّيْءُ» أي: أَصَابَهُ وَأَحَاطَ بِهِ. و«حَاقَ بِهِ الْأَمْرُ» أي: لَزِمَهُ، وَوَجَبَ عَلَيْه، «حَاقَ، يَحِيقُ، حَيْقاً، وحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً».

المعنَىٰ: فَبَعْدَ الإمْهَالِ الطَّوِيلِ الَّذِي قَضَتْ بِهِ حِكْمَةُ اللهِ؛ أَصَابَ الَّذِينَ سَخِرُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ ـ مُحِيطاً بِهِمْ ـ الْعِقَابُ الَّذِي أُنْذِرُوا بِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلَام، والَّذي كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ تَكْذِيباً بِهِ، وهُوَ الْعِقَابُ الْأَلِيمُ الْمُهْلِكُ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (الأنبياء)

الآيات من (٤٢ ـ ٤٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ

أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

القراءات:

(٤٤) • قرأ أبو عمرو: [**عَلَيْهِمِ الْعُمُرُ**] بِكَسْرِ الهاء والميم من «عَلَيْهِمِ».

وقرأها حمزة، والكِسَائِيُّ، ويَعْقُوبُ، وخَلَف: [**عَلَيْهُمُ الْعُمُرُ**] بضم الهاء والميم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ**] بِكَسْرِ الْهَاءِ وضَمّ الميم من «عليهم».

وهَـٰذا كلّه عِنْدَ الوَصْل، وأمّا عِنْدَ الوَقْف: فحمزة، ويعقوب بضم الهاء وإِسْكانِ الميم، ووَقَفَ البَاقُون: بكسر الهاء وإسكان الميم.

(٤٥) • قرأ ابْن عامر: [**وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ**].

(٤٧) • قرأ نَافِعٌ، وأبو جَعْفَر: [**مِثْقَالُ**] بالرَّفع، على أنّ «كان» تامَّة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِثْقَالَ**] بالنَّصْبِ، على أن «كَانَ» نَاقِصة.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْس تَعليمٌ من الله عَزَّ وَجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ؛ أُسْلُوبَ حِوارٍ إِقْنَاعِيٍّ، بِشَأْنِ رُبُوبيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشارِكُهُ فيها أَحَدٌ فِي الوجُودِ كُلِّهِ. وبِشَأْنِ آلِهَةِ المشْرِكِينَ الَّتِي لَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

وفيها بيانُ واقع حالِ المشْركِينَ، إذْ طَالَتْ مُدَّةُ إمْهَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، مَعَ لَفْتِ نَظَرِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ أَدِلَّةِ اللهِ الكَوْنِيَّة، الَّتِي تَكْشِفُ لِأَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ عَظَمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَصَارِيفِهِ لِكَوْنِهِ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ أَنْ يَقُولَ لِأَئِمَةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ الَّذِينَ طَالَ إمْهَالُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لهم: إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بالْوَحْي مِنْ رَبِّي، وَلَا أُنْذِرُكُمْ مِنْ عِنْدِي، مع بَيَانِ اللهِ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ بِمَثَابَةِ الصُّمِّ تُجَاهَ إِنْذَارَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ يُرْهِبُ أُولِي الأَلْبَاب.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ ﷺ:

• ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾؟: أي: مَنْ يَحْفَظُكُمْ؟.

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: أي: وَلَا هُمْ مِنَّا يُحْفَظُونَ أو يُجَارُونَ.

المعنى: قُلْ لِلْكَفَرَةِ المشْرِكِينَ المكَذِّبِينَ بِهٰذَا الدِّينِ: مَنْ يَحْفَظُكُمْ باللَّيْلِ والنَّهَارِ مِنْ حَوَادِثِ رَبِّكُمُ الرَّحْمَنِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ بِكُمْ مَا تَكْرَهُونَ مِنْ مَصَائِبَ في أجسَامِكُمْ، أَوْ فِي أَهْلِكُمْ أَو أَوْلَادِكُمْ، أَو فِيمَنْ تُحِبُّونَ مِنَ النَّاسِ، أَوْ فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ فِي أَمْوَالِكُمْ، أَوْ في غَيْرِ ذٰلِكَ؟.

إِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُجِيبُوا عَلَىٰ هٰذَا السُّؤَالِ، بِأَنَّ أَحَداً يَحْفَظُهُمْ باللَّيْلِ والنَّهَارِ مِنْ حَوَادِثِ رَبِّهِم الرَّحْمٰنِ إذا أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ.

• ﴿... بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: إِنَّهُمْ لَا

يَكْتَرِثُونَ، وَلَا يُبَالُونَ بِمَا يُطْرَحُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُؤَالٍ يُذَكِّرُهُمْ باللهِ وسُلْطَانِهِ عَلَىٰ كَوْنِهِ، وَتَصَارِيفِهِ، فَيُعْرِضُونَ عَنْ الإجَابَةِ على السُّؤَالِ السَّابِقِ، لِأَنَّهُمْ دَوَاماً عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ، لَا يَشْغَلُونَ أفْكَارَهُمْ ونُفُوسَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ بِشَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ اللهِ وآيَاتِهِ في كَوْنِهِ.

الإعْرَاض: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الْإِقْبَالِ والْإِدْبَار، ويَكُونُ مَعَهَا انْصِرَافُ النَّفْسِ انصِرَافاً كُلِّيًّا عَمَّا أَعْرَضَ الإنْسَانُ عَنْهُ.

• ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾:

«أَمْ» هِي للإضْرَاب الانْتِقَالِيِّ مُضَمَّنَةً مَعْنَىٰ الاسْتِفْهام. أي: بَلْ، أَلَهُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِ رُبُوبِيَّتِنَا الْمُهَيْمِنَةِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ في الوجُود، وهَـٰذِهِ الآلِهَةُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ أَنْ نُنْزِلَ بِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ مِنْ مصائِبَ ونَكَبَاتٍ؟، وهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ نَصْرَ أَنْفُسِهَا مِنَّا، إنْ أرَدْنَا إبَادَتَهَا أَو إهْلاَكَها، ولَيْسَ لَهَا مِنَّا حَافِظٌ يَحْفَظُهَا، وَلَا مُجِيرٌ يُجِيرُهَا.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبيِّناً عِلَّتَهُمُ النَّفْسِيَّةَ، وَمُقَدِّماً شَاهِداً كَوْنِيًّا عَلَىٰ فَسَادِ تَصَوُّرَاتِهِمْ:

• ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ (٤٤)﴾:

يَتَحدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم مُصَدِّراً بَيَانَهُ بإضْرَابٍ انْتقَالِيٍّ بِحَرْفِ «بل»، فَيُبَيِّنُ أَنَّ عِلَّةَ المعَالَجِينَ النَّفْسِيَّةَ؛ أَنَّهُمْ اغْتَرُّوا بِطُولِ الْمُدَّةِ الَّتِي مَتَّعْنَاهُمْ فِيهَا ومَتَّعْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ آبَاءَهُمْ دُونَ أَنْ نَسْلُبَ مِنْهُمُ النِّعْمَةَ، ونُنْزِلَ بِهِمُ النِّقْمَةَ، مع الْتِزَامِهِمْ بِشِرْكِهِمْ وَلَوَازِمِهِ فِي السُّلُوكِ، فَزَعَمُوا أَنَّ طُولَ الزَّمَنِ وهُمْ مُعَافَوْنَ مِنْ نِقْمَتِنَا وشَدِيدِ عَذَابِنَا إمْهَالاً لَهُمْ بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَتِنَا؛ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ حَالَهُمْ سَيَسْتَمِرُّ فِي عَافِيَةٍ، وَسَيَبْقَىٰ لَهُمْ وَاقِعُ التَّفَوُّقِ

على الرَّسُولِ ﷺ وعَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ في الْأَمْوَالِ وَفِي الْقُوَّةِ الْقِتَالِيَّةِ، فإذا اضطرُّوا إِلَىٰ مُحارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ بِمُقْتَضَىٰ تفَوُّقِهِمْ.

لَا يَغْتَرُّوا بِطُولِ مُدَّةِ عَافِيَتِهِمْ إِمْهَالاً لَهُمْ حَتَّىٰ بُلُوغِهِمْ دَرَكَةَ الْيَأْسِ مِنْ إِيمَانِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّةِ، فَإِنَّ مِنْ سُنَّتِنَا فِي كَوْنِنَا أَنْ نَجْعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ أَجلاً، مَهْمَا طَالَتْ مُدَّةُ هٰذَا الْأَجَلِ.

ومِنَ الْأَمْثِلَةِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ السُّنَّةِ؛ حَرَكَةُ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ الَّتِي تَضْرِبُ الْيَابِسَةَ عِنْدَ الشَوَاطِئِ، وبِمُرُورِ الزَّمَنِ الطَّوِيلِ يَمْتَدُّ الْبَحْرُ عَلَىٰ الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ، فَيَظْهَرُ لِلْمُلَاحِظِينَ ذَوِي الْفِكْرِ الْعِلْمِيِّ؛ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْقُصُ الْأَرْضَ الْيَابِسَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا الَّتِي تَصْطَدِمُ بِهَا أَمْوَاجُ الْبَحْرِ، وَهَـٰذِهِ الظَّاهِرَةُ الكَوْنِيَّةُ لَا تَظْهَرُ بِمُرُور عَشَراتِ السِّنِينَ للنَّاسِ الْعَادِيِّينَ، بَلْ تَحْتَاجُ أَجْيَالاً وقُرُوناً، فَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ...﴾؟!:

دَعْوَةٌ لِأَذْكِيَاءِ الْغَافِلِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَحْثِ فِي الكَوْنِيَّاتِ؛ أَنْ يُلَاحِظُوا آجَالَ مَا يَحْدُثُ فِي الكَوْنِ مِنْ أَحْدَاثٍ جِسَامٍ ضِمْنَ سُنَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ، لِيُدْرِكُوا أَنَّ إِمْهَالَ مُسْتَحِقِّي عَذَابَ اللهِ وعِقَابِهِ مُتَّسِقٌ مَعَ سُنَّةِ اللهِ فِي الْآجَالِ، فَلَا يَغْتَرُّوا بِطُولِ مُدَّةِ الإمْهَال.

فالمعْنَىٰ: أَمَا زَالَ المؤهَّلُونَ لِإِدْرَاكِ حِكْمَتِنَا السَّامِية فِي الآجَالِ غارقين فِي غفَلَاتِهِمْ، فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ الْيَابِسَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا الْمُلَاصِقَةِ لِلبِحَارِ، فَنَضْرِبُهَا بِأَمْوَاجِ الْبِحَارِ، وحَرَكَةِ الْمَدِّ والْجَزْرِ في أَزْمَانٍ طَوِيلَةٍ، فَنَنْقُصُ الْأَرْضَ الْيَابِسَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا، فَيَتَّسِعُ سَطْحُ الْبَحْرِ أَخْذاً مِنْ مَسَاحَةِ سَطْحِ الْيَابِسَةِ عِنْدَ الشَّوَاطِئِ.

فَطُولُ مُدَّةِ الزَّمَنِ جُزْءٌ مِنْ أَعْمَالِ هـٰذَا النَّقْصِ المتتابع، ولَكِنْ لَا يَظهَرُ هـٰذَا النَّقْصُ لِلنَّاسِ إِلَّا بَعْدَ قُرُون.

● ﴿... أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: إذَا كَانَ لِكُلِّ حَدَثٍ في سُنَّتِنَا أَجَلٌ قَدْ يَطُولُ وَقَدْ يَقْصُرُ، وقَدْ قَدَّرْنَا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ والْمُسْلِمِين مَعَهُ؛ هُمُ الْغَالِبِينَ لِأَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة وفيما حَوْلَهَا.

أَفَبَعْدَ هٰذَا التَّقْدِيرِ المقْضِيِّ مِنَّا يَتَصَوَّرُ الكَفَرَةُ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَكُونُوا هُمُ الْغَالَبِينَ لِرَسُولِنَا ـ ﷺ ـ ولِلْمُسْلِمِينَ؟!. إِنَّهُمْ وَاهِمُونَ مَغْرُورُونَ جاهِلُونَ بِسُنَّتِنَا فِي كَوْنِنَا، وَلَا يَقْبَلُونَ مَعْرِفَة الْحَقِيقَةِ مِنْ بَيَانَاتِنَا الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهَا رَسُولُنَا المؤيَّدُ مِنَّا بِمُعْجِزَاتِنَا وآيَاتِنَا الْبَاهِرَات.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَقُولُهُ لِلْمُعَالَجِينَ الْمُعَانِدِينَ المكَذِّبين، مَعَ بَيَانِ إِصَابَةِ أَسْمَاعِهِمْ بالصَّمَم بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا الدِّينِ، والإِنْذَارِ بِعِقَابِ اللهِ للمسْتَحِقِّينَ عِقَاباً وعَذَاباً مِنَ اللهِ الْعزيزِ المنْتَقِمِ الْجَبَّارِ:

● ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

وفي قراءة ابن عامر: **[وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ]**.

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُعَالَجِينَ مِنْ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ وأَتْبَاعِهِمْ: إِنِّي لَا أُنْذِرُكُمْ مِنْ عِنْدِي، فَأَنَا لَا أَمْلِكُ إِنْذَارَكُمْ، إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِمَا أَتَلَقَّاهُ مِنَ الْوَحْي عَنْ رَبِّي رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي بِيَدِهِ فِعْلُ مَا يَشَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وخَلْقُ مَا يَشَاءُ، وإِهْلَاكُ مَنْ يَشَاء، ومُعَاقَبَةُ مَنْ يَشَاءُ، وَمُكَافَأَةُ مَنْ يَشَاءُ، وَنَصْرُ مَنْ يَشَاءُ، وخَذْلُ مَنْ يَشَاءُ.

ولكنْ لَا يَسْمَعُ نِدَاءَكَ وَدُعَاءَكَ الْمُصَابُونَ بِدَاءِ الصَّمَمِ عَنْ سَمَاعِ دُعَاءِ مَنْ يُنْذِرُهُمْ بِعِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ، لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاهُ، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ، وللدِّينِ كُلِّهِ مُكَذِّبُونَ، إِذْ هُمْ مَفْتُونُونَ بِمَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا وزِينَتِهَا، وتَحقِيقِ لَذَّاتِهِمْ وأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا.

وأُقْسِمُ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ مَسًّا غَيْرَ شَدِيدٍ؛ نَفْحَةٌ خَفِيفَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِهٰذَا الْبَيَانِ؛ لَيَقُولُنَّ شَاكِينَ تَعَاسَتَهُمْ ومُعْتَرِفِينَ بِذُنُوبِهِمْ: يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ.

الْإِنْذَارُ: الْإِخْبَارُ بِعَاقِبَةٍ فِيهَا شَرٌّ لِمَنْ يُوَجَّهُ له.

الدُّعَاء: النِّدَاءُ ورَفْعُ الصَّوْتِ بأمْرٍ مَا.

الْمَسُّ: تَوْصِيلُ شَيْءٍ إِلَىٰ جِسْمٍ بِلَا شِدَّةٍ، وبه يَحْصُلُ إحْساسٌ خَفِيف.

نَفْحَةٌ: نَسْمَةٌ قَلِيلَةٌ، أَوْ مِقْدَارُهَا مِنْ أَيِّ شيءٍ.

يَا وَيْلَنَا: أي: يَا حُزْنَنَا الشَّدِيدَ، ويَا تَوَجُّعَنَا ويَا تَفَجُّعَنَا مِمَّا نَزَلَ بِنا مِنْ عَذَابٍ.

﴿... إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: إِنَّا نَسْتَحِقُّ عَذَابَ رَبِّنَا لِأَنَّنَا كُنَّا ظَالِمِينَ ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً لَقْطَةً مِنْ لَقَطَاتِ مَوْقِفِ الْحِسَابُ وفَصْلِ القضاء يَوْمَ الدِّين، ومُتَحَدِّثاً بِضَمِير المتكلِّم الْعَظِيم:

• ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

وفي قراءة نافع، وأبي جَعْفر: [**وَإِن كَانَ مِثْقَالُ**] بالرَّفْع، عَلَىٰ أَنَّ «كَانَ» تَامَّةٌ، ولفظ «مِثْقَال» فاعل.

سبَقَ في الملْحَق الثالثِ مِنْ مَلَاحِق تَدَبُّر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) بَيَانُ مَا يَكْفِي حَوْل الْوَزْنِ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدين.

وَضْعُ الْمَوَازِينِ: إحْضَارُهَا وإيجادُهَا في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة.

الْمَوَازِينَ: جَمْعُ الْمِيزَان، وأَفْهَمُ مِنْ دَلَالَةِ الْجَمْعِ تَعَدُّدَ أَفْرَادِهَا، وَتَعَدُّدَ أَنْواعِهَا، فَلِلْأَعْمَالِ الْجَسَدِيَّة مَوَازِينُ بِحَسَبِ أنواعِهَا، ولِلْأَعْمَالِ الْفِكْرِيَّةِ مَوَازِين بِحَسَبِ أَنْوَاعِهَا، ولِلنِّيَّاتِ والْإِرَادَاتِ وسَائِرِ أَعْمَالِ النَّفْسِ مَوازِينُ بِحَسَبِ أنواعِهَا، ولِقُوَّةِ الإيمانِ وضَعْفِهِ وَكَثَافَتِهِ وَرِقَّتِهِ مَوَازِين.

وكُلُّ ذَلِكَ لِإِظْهَارِ كَمَالِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ لِلْعِبَادِ الَّذِينَ يُحَاسَبُونَ ويُفْصَلُ الْقَضَاءُ بِشَأْنِهِمْ.

القِسْط: الْعَدْل، وهو مِن المصَادِر الَّتِي يُوصَفُ بها الواحد والجمع، وقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الموازِينَ الَّتِي يَضَعُهَا لِحِسَابِ النَّاسِ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ يَوْمَ الدِّينِ بِأَنَّهَا مَوَازِينُ عَادِلَةٌ تُحَقِّقُ كَمَالَ الْعَدْلِ لِكُلِّ مَنْ يُوزَن له.

المعْنَىٰ: ونَضعُ بِمَا لَنَا مِنْ رُبُوبِيَّةٍ عَظِيمَةٍ يَوْمَ القيامَة الموازِينَ الْعَادِلَة لِحِسَابِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحياةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان، فَلَا تُظْلَمُ يَوْمَئِذٍ نَفْسٌ شَيْئاً بالنَّقْصِ مِنْ حَسَنَاتِها، أَوِ الزِّيَادَةِ فِي سَيِّئَاتِها، وإِنْ كانَتِ الزِّيادَةُ في السَّيِّئَاتِ أو النَّقْصُ من الحسناتِ شَيْئاً قَلِيلاً جِدّاً، فَكُلُّ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ نَأْتِي بِهِ وَنَزِنُهُ بالْمِيزَانِ الْمُلَائِمِ لِنَوْعِهِ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ نُحَاسِبُ كُلَّ إِنْسَانٍ بِحَسَبِ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِبِينَ﴾: أي: وكَفَىٰ بِنَا عَادِّينَ، ومُحْصِينَ، ومُقَدِّرِينَ لِكُلِّ شَيْءٍ كَبِيراً كَانَ أَمْ صَغِيراً وَدَقِيقاً.

الباء في ﴿بِنَا﴾: حَرْفُ جرٍّ زَائِدٍ في الفاعِلِ الْمُظْهَر، وهَـٰذِهِ الزِّيَادَةُ تأتي كثيراً بَعْدَ «كَفَىٰ». أي: ونَحْنُ نَكْفِي عَنْ كُلِّ حَاسِبٍ، حَالَةَ كَوْنِنَا حَاسِبِينَ، بالْجَمْعِ، مُرَاعَاةً لِضَمِير المتكلِّم الْعَظِيم.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرس السَّابعِ من دُرُوس سورة (الأَنْبِيَاءِ).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٢)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثامن من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٤٨ ـ ٥٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

القراءات:

(٤٨) • قَرَأَ قُنْبُل: [وَضِئَاءً] وَهِي لَهْجَةٌ مِنَ اللَّهَجات.

• وَقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَضِيَاءً]، وهو مصْدَرٌ لِفِعْلِ «ضَاءَ» بمَعْنَىٰ: أَنَارَ وأشْرَقَ.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لَقْطَةٍ مُخْتَارَةٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ وهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ بِشَأْنِ الكِتَابِ الَّذِي آتاهُمَا اللهُ إيَّاه، تَمْهِيداً لِبَيَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ خَاتَمَ أنبيائِهِ ورُسُلِهِ ﷺ، ويُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيها المكذِّبينَ بقوله: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؟، بِأُسْلُوب الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِيِّ التَّلْوِيمِيّ.

التدبُّر التحليلي:

يوجِّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخِطَابَ بِضَمِيرِ المتَحَدِّثِ العظيم، لِمُعَالَجَةِ مُكَذِّبِي الرَّسُولِ ﷺ والمكَذِّبينَ بالذِّكْرِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ، وهو القرآن المجيد، فَيُؤَكِّدُ لَهُمْ بالْقَسَمِ المنوِيِّ، وبـ «قَدْ» أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ آتَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِما السَّلام الْفُرْقَانَ وضِيَاءً وذِكْراً

لِلْمُتَّقِينَ، وكَذَلِكَ أَنْزَلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ الْقُرْآنَ ذِكْراً مُبارَكاً ثَرَّ الْمَعَانِي والدَّلالاتِ، وخَاطَبَ المكَذِّبِينَ الكَفَرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿... أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!: دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُذْرٌ فِي هٰذَا الإنْكارِ، وقَدْ سَبَقَهُ التوراةُ الَّتِي أَنزَلَها عَلَىٰ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ، وأَنْتُمْ مُعْتَرِفُونَ بِهٰذِهِ الْحَقِيقَةِ، وتَذْكُرُونَ أَنَّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ رَسُولَانِ أَرْسَلَهُمَا اللهُ إِلى بَنِي إِسْرَائِيل، وأَنْزَلَ عَلَيْهِما كِتَاباً فِيهِ التَّعَالِيمُ الدِّينِيَّةُ، وَفِيهِ مَا يَجِبُ عَلَىٰ المؤمنين بموسَىٰ وَهَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وأَنْ يَعْمَلُوا بِهِ طَاعَةً لِرَبِّهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

- ﴿وَلَقَدْ﴾: الْوَاوُ عَاطِفَةٌ مَوْضُوعٍ عَلَىٰ مَوْضُوعٍ، و«اللَّام» واقِعَةٌ فِي جوابِ قَسَمٍ مَنْوِي، و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيقٍ، وهٰذَا التوكِيدُ يُلائِمُ حَالَ مُكَذِّبِي الرَّسُولِ ﷺ، المكَذِّبِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ المجيد.

- ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾: أي: آتَيْنَاهُمَا بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِنا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْي.

- ﴿... ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾، ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كِتَابَ التَّوْرَاةِ بِأَوْصَافٍ وَصَفَهُ بِها، وهِيَ هُنَا ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ:

الصِّفَةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُ «فُرْقَان»، وهٰذَا اللَّفْظُ مَصْدَرُ «فَرَقَ»، يُقَالُ لُغَةً: «فَرَقَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوِ الْأَشْيَاءِ، يَفْرُقُ، فَرْقاً، وفُرْقاناً» أي: فَصَل مُمَيِّزاً بَيْنَهُمَا. ويُقَال: «فَرَقَ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ» أَيْ: حَكَمَ وفَصَل.

وقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كِتَابَ التوراة بأَنَّهُ فُرْقَان، لِأَنَّهُ يَفْرِقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرِّ، والْهُدَىٰ والضَّلَال، والرَّشَادِ والْغَيِّ، والْحَلَالِ والْحَرَامِ، وسَائِرِ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لِعِبادِهِ الْمُطَالَبِينَ بالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهِ.

الصِّفَةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ «ضِيَاءٌ»، أي: لَهُ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ في ظُلُماتِ الْجَهْلِ والْغَوَايَةِ، لِمَعْرِفَةِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

ونَسْتَفِيدُ مِنْ كَوْنِهِ ضِيَاءً أَنَّ فِيهِ أَنْوَارَ عِلْم تَهْدِي إِلَىٰ الحقِّ وصراطِ اللهِ المسْتَقِيم، وأَنَّ فِيهِ حَرَارَةَ إِنْذَارٍ بِعَذَابِ اللهِ الأَلِيم، لِلْكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ الْمُعْرِضِينَ. فالضِّيَاءُ فِيهِ نُورٌ وَحَرَارَةٌ، ولِهٰذَا سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الشَّمْسَ ضِيَاءً، وسَمَّىٰ الْقَمَرَ نُوراً.

الصِّفَةُ الثَّالِثَة: أَنَّهُ «ذِكْرٌ»، أي: يَجِبُ أَنْ يَتَبَلَّغَهُ الْمَأْمُورُونَ بِأَنْ يَحْمِلُوهُ ويَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ، وأَنْ يَتَفَهَّمُوا مَعَانِيَهُ وَيَتَدَبَّرُوهَا، وأَنْ يَضَعُوهَا فِي ذَاكِرَاتِهِمْ، وَأَنْ يَتَذَكَّرُوا مِنْهَا فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يَلَائِمُها، لِلْعَمَلِ بِهَا طَاعَةً للهِ، وَسَعْياً لِنَيْلِ رِضْوَانِهِ.

وَأَبَانَ الله عَزَّ وَجلَّ أَنَّ الَّذِينَ اسْتَفَادُوا مِنْ كَوْنِ كِتَابِ التوراةِ فُرْقَاناً، وضِيَاءً وذِكْراً؛ هُمُ المتَّقُونَ، فَقَالَ تَعالَىٰ:

- ﴿... لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

المتَّقُونَ: هُمُ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عِقَابِ اللهِ وعَذَابِهِ وقَايَةً مِنَ الْإِيمَانِ والإِسْلَام والطَّاعَة، بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ به وتَرْكِ ما نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، فَيَقِيهِمُ اللهُ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، ويَجْزِيهِمْ بالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ سُعَدَاءَ مُنَعَّمِينَ.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾: هُمُ الَّذِينَ يَخَافُونَ عِقَابَ رَبِّهِمْ وعَذَابَهُ وهُوَ بالغيب بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ حَوَاسِّهِمُ الظَّاهِرَة، لَكِنَّهُمْ مُوقِنُونَ بِذَاتِهِ وَبِصِفَاتِهِ الحسْنَىٰ، مِنْ أَدِلَّةِ الْفِكْرِ السَّدِيدِ، والْعَقْلِ الرَّشِيد، وَخَوْفُهُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ وعِقَابِهِ مَمْزُوجٌ بإجْلَالِهِ وإِعْظَامِهِ وإِكْبَارِهِ وَحُبِّهِ، فالْخَشْيَةُ مِنَ اللهِ فِي الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ فِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَىٰ هٰذِهِ المَعَانِي.

وعالَمُ الْغَيْبِ: هُوَ كُلُّ مَا غَابَ عَنْ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ لِلْمَخْلُوقَاتِ، وَلَهُ وُجُودٌ قَابِلٌ لِأَنْ يُدْرَكَ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ لَوْ أُوتِيَتِ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ إِدْرَاكِهَا.

أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَكُلُّ مَا فِي الكَوْنِ مَشْهُودٌ لَهُ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

- ﴿... وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾: أيْ: وهُمْ مُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وبالْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ وَمَا فِيهَا مِنْ جَزَاءٍ وَخُلُودٍ، وَيَوْمُ الدِّينِ وَمَا فِيهِ يَكُونَ بَدْؤُهُ بِسَاعَةِ الْبَعْثِ، الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْمَوْتَىٰ بِخَلْقِ اللهِ وأَمْرِهِ التَّكْوِينِي، مِنَ الْأَمَاكِنِ الَّتِي لَمْ تَفْنَ فِيهَا آخِرُ حَافِظَةِ طَبْعَةِ نُفُوسِهِمْ، مِنْ ذَرَّاتِ أَجْسَادِهِمْ.

وبِمَا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهٰذَا الْيَوْمِ وَبِمَا يَجْرِي فِيهِ مِنْ جَزَاءٍ؛ فَإِنَّهُمْ مُشْفِقُونَ دَوَاماً، خَائِفُونَ مِن ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ عِقَابَ اللهِ عَلَيْهَا، فَيُحَاوِلُونَ دَوَاماً الالْتِزَامَ بِطَاعَتِهِم لِرَبِّهِمْ عَلَىٰ مِقْدَارِ اسْتِطَاعَتِهِمْ.

السَّاعَة: يُرَادُ بِهَا هُنَا سَاعَةُ الْبَعْث.

مُشْفِقُونَ: أَيْ: خَائِفُونَ مِنَ الجزاءِ الْعِقَابِيِّ، الَّذِي تَجْرِي أَحْدَاثُهُ في الْيَوْمِ الَّذِي يَبْدَأُ بِسَاعَةِ بَعْثِ الموتى، بَعْدَ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ الَّذِي بَلَّغَهُ لِلنَّاسِ آخِرُ أنبياءِ اللهِ وَرُسُلِهِ ﷺ، خِطَاباً لِلْمُنْكِرِينَ المكذِّبين:

- ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

- ﴿وَهَٰذَا﴾: أي: القرآنُ الَّذِي يُبَلِّغُهُ رَسُولُنا مُحَمَّد ـ ﷺ ـ.

- ﴿ذِكْرٌ﴾: أي: يَجِبُ أَنْ تَتَبَلَّغُوهُ، وَتَتَفَهَّمُوا مَعَانِيَهُ وَتَتَدَبَّرُوا دَلَالَاتِهِ، وَأَنْ تَضَعُوهَا في ذَاكِرَاتِكُمْ، وَأَنْ تَتَذَكَّرُوا مِنْهَا فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يُلَائِمُهَا، لِلْعَمَلِ بِهَا طَاعَةً لَنَا، وَسَعْياً لِنَيْلِ رِضْوَانِنَا.

- ﴿مُبَارَكٌ﴾: أي: ذُو بَرَكَةٍ زَائِدَةٍ عَلَىٰ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ التَّوْرَاةِ. **والْبَرَكَةُ**: هِيَ النَّمَاءُ والزِّيَادَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فِي الْحِسِّيَّاتِ والْمَعْنَوِيَات.

ومَعْنَىٰ كَوْنِ الْقُرْآنِ مُبارَكاً أَنَّهُ لَا تَنْضَبُ فُيُوضُ مَعَانِيهِ، وأَنَّهُ ذُو خَيْرَاتٍ كَثِيراتٍ جِدًّا، فِكْرِيَّةٍ، ونَفْسِيَّةٍ، وشِفَائِيَّةٍ، وغَيْرِ ذَلِكَ.

- ﴿أَنزَلْنَهُ﴾: أي: أَنْزَلْنَاهُ عَلَى رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ بِطَرِيقِ الْوَحْي.

- ﴿... أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾: أي: أَمْرُكُمْ أَيُّهَا الكَفَرَةُ الْمُشْرِكُونَ أَمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ جِدّاً، فِيهِ بُعْدٌ كَثِيرٌ عَنِ الْحَقِّ والرُّشْدِ، أَمَا زِلْتُمْ على ضَلَالِكُم القديم، فَأَنْتُمْ تُنْكِرُونَ القرآن، وتُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ المبلّغَ لَهُ، مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمُ مِنَ التَّوْرَاةِ، وأَكْثَرُ مِنْهُ بَرَكَةً وَخَيْراً، وأَنْتُمْ تَدَّعُونَ أَنَّكُمْ أَهْلُ عَقْلٍ وَرَأْيٍ سَدِيدٍ وَعَمَلٍ رَشِيد؟!!.

الاسْتِفْهَامُ هُنَا يَحْمِلُ مَعْنَىٰ الإنْكَارِ الشَّدِيدِ، والتَّوْبِيخ، والتثْرِيبِ، والإشْعَارِ بأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ الجزاءَ الْعِقَابِيَّ في الدُّنْيَا والآخِرَة.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثامِنِ من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

التدبُّر التحليلي للدّرس التاسع من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٥١ ـ ٧٣)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا

بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ
وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ
﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ
﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟
يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟
عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ
كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾
وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ :

القراءات:

(٥٨) ● قرأ الكِسَائِي: **[جِذَاذاً]** بِكَسْرِ الجيم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[جُذَاذاً]** بضمّ الجيم.

وهُمَا لُغَتَان.

(٦٣) ● قرأ ابْنُ كَثِير، والكِسَائِي، وخَلَف: **[فَسَلُوهُمْ]**. وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاسْأَلُوهُمْ]**.

وهُمَا لغتان.

(٦٧) • قرأ نَافِعٌ، وحَفْص، وأَبُو جَعْفر: [أُفٍّ].

وقرأها ابن كثير، وابن عامر، ويَعْقُوب: [أُفَّ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أُفِّ].

وهي لُغَاتٌ مِنْ أَصْلِ لُغَاتٍ عَشْرٍ لَهَا.

(٧٣) • قرأ يَعْقُوب، وحمزة: [إِلَيْهُمْ] بضَمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، وهِيَ تَتَعَلَّقُ بِفَصْلٍ مِنْ فُصُولِ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ فِي قَوْمِهِ.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ القرآنِيَّةِ المتَعَلِّقَةِ بِقِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، في الملْحَقِ الثّانِي مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّرِ سُورَةِ (إبراهيم/ ٧٢ نزول).

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١﴾:

الرُّشْدُ: السُّلُوكُ الْفِكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ، والْعَمَلِيُّ؛ الموافِقُ لِلْحَقِّ والصَّوَاب، أَوْ لِمَا هُوَ الأَفْضَلُ والأحْسَنُ والأَكْثَرُ نَفْعاً، والأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

أَيْ: وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلِ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ وإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَرْحَلَةً مِنْ مَرَاحِلِ مسيرة إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّعَوِيَّة:

• ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

بَدَأَ بِدَعْوَةِ أَبِيهِ قَبْلَ دَعْوَةِ سَائِرِ قَوْمِهِ، عَمَلاً بالمنْهَجِ الدَّعَوِيِّ الْأَمْثَل، الَّذِي يَسْتَدْعِي دَعْوَةَ الْأَقْرَبِينَ مِنْ أَهْلِهِ قَبْلَ غَيْرِهم.

• ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؟: أي: مَا حَقِيقَةُ هَـٰذِهِ التَّمَاثِيل مِن الأَصْنَامِ والْأَوْثَانِ، الَّتِي تَنْحِتُونَهَا مِنَ الْحِجَارَةِ، أَوْ تَصْنَعُونَهَا مِنْ غَيْرِ الْحِجَارَة، حَتَّىٰ تَسْتَحِقَّ مِنْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوها بأَلْوَانٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، كالْمُلازَمَةِ، والطَّوَافِ، والدُّعَاءِ، والرُّكُوعِ، وتَقْدِيمِ الْقَرَابِين.

• ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾: أي: الَّتِي أَنْتُمْ لِأَجْلِ عِبَادَتِهَا مُقِيمُونَ عِنْدَها، ومُلَازِمُونَ الْمَكَانَ الَّذي تَضَعُونَهَا فِيهِ.

يُقَالُ لُغَة: «عَكَفَ في المكان يَعْكُفُ، ويَعْكِفُ، عَكْفاً، وعُكُوفاً» أي: أقامَ فِيهِ ولَزِمَهُ، ولَا يُشْتَرَطُ في الْعُكُوفِ أَنْ يَكُونَ لِلْعِبَادَةِ لغةً.

وقَدْ صَارَ الْعُكُوفُ شَكْلاً مِنْ أَشْكالِ الْعِبَادَةِ للهِ أَوْ لِغَيْرِهِ.

• ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: قال أَبُو إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام وَمَنْ وَجَّهَ لَهُمُ السُّؤال مِنْ قَوْمِه: نَحْنُ نَعْبُدُهَا بِهـٰذَا الْعُكُوفِ تَقْلِيداً لِآبَائِنا، إِذْ وَجَدْنَاهُمْ لَهَا عَابِدِين.

• ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾: أي: قال إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ أَجْرَىٰ هـٰذَا الْحِوَارَ مَعَهُمْ: لَقَدْ كُنْتُمْ

أَنْتُم بِعِبادَةِ هَـٰذِهِ التَماثِيلِ، وَكَانَ آبَاؤُكُم مِنْ قَبْلِكُمْ بِعِبادَتِهَا؛ في ضَيَاعٍ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، واضِحٍ جَلِيٍّ، إِذْ لَيْسَ لِهَـٰذِهِ التَّماثِيلِ رُبُوبِيَّةٌ وَلَا إِلَهِيَّة.

فَدَهِشَ أَبُوهُ وَقَوْمُهُ مِنْ مُواجَهَتِهِ لَهُمْ بِحَزْمٍ وَثِقَةٍ مِمَّا قَالَ لَهُمْ، إِذْ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُم مُنْغَمِسُون فِي ضَلَالٍ وَضَيَاعٍ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وَهـٰذَا الضَّلَالُ مُبين، أي: جَلِيٌّ وَوَاضِحٌ.

• ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: قَالُوا لَه مُتَعَجِّبِينَ مِنْ طَرِيقَتِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَأَنْتَ جَادٌّ فِيمَا قُلْتَ، أَمْ قُلْتَ مَا قُلْتَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُزَاحِ تُرِيدُ أَنْ تَلْعَبَ بأعْصَابِنَا، وتُرِيدُ أَنْ تَسْتَثِيرَ انْفِعَالَنَا؟. أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ؟.

• ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾: أي: قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام لَهُمْ: أَنَا لَسْتُ مِنَ اللَّاعِبِينَ، بَلْ أَنَا جَادٌّ، وَقَدْ جِئْتُكُم بالْحَقِّ، فَرَبُّكُمُ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ، وَيُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فِيكُمْ، وَيُجْرِي تَصَارِيفَهُ بِكُمْ، بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيُؤْتِيكُمْ مِمَّا تَسْأَلُونَهُ، هُو رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، المتَصَرِّفُ دَوَاماً فيهما بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، والمهَيْمِنُ دواماً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فيهما. وهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمَا إِبْدَاعاً وَفْقَ نِظَامِ الْفَطْرِ مِنَ الْبَاطِنِ، الَّذِي هُوَ في الحقيقةِ خَلْقٌ مِنَ العَدَمِ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ عُمْقِ بَاطِنِ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الْعَدَمُ لَا مَحالَة.

• ﴿... وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾: أي: وَأَنا عَلَىٰ ذَلِكُم الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ شُهُوداً فِكْرِيًّا مَقْرُوناً بالْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّة، وَمِنَ المؤمِنِينَ بِهِ الَّذِينَ يُعْلِنُونَ شَهَادَتَهُمْ بِهِ، شَهَادَةً بِاللِّسَانِ مُطَابِقَةً لِمَا فِي الْفُؤَادِ مِنْ إيمانٍ، رَاسِخِ الأَرْكَانِ، ثَابِتِ الْبُنْيَانِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَحْكِي مَا حَدَّثَ بِهِ إِبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ نَفْسَهُ فِيما

أرَىٰ، دُونَ أَنْ يُسْمِعَ مُحَاوِرِيهِ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْطِيمِ أَصْنَامِهِمْ:

- ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

تَاللهِ: قَسَمٌ بِحَرْف «التَّاء»، وهو خاصٌّ بالدُّخُول على لَفْظِ الجلالَة.

الكَيْدُ: التَّدْبِيرُ الَّذِي فِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّهُ، ويُطْلَقُ الكَيْدُ عَلَىٰ الحرب، وعلَىٰ إعداد وَسَائِلِهَا، وعلَىٰ الْحِيلَةِ.

وكَانَ مَا عَزَمَ عليه إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَفْسِهِ، وَدَبَّرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ؛ أَنْ يُحَطِّمَ أَصْنَامَهُمْ في الْمَكَانِ الكَبِيرِ الْجَامِعِ لأنْوَاعِهَا.

- ﴿... بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾: أي: في الْيَوْمِ الَّذِي تَكُونُونَ فِيهِ بَعِيدِينَ عَنْ مَدِينَتِكُمْ، وخَارِجِينَ مُدْبِرِينَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ أَسْوَارِهَا، أَوْ عَمَّا حَوْلَهَا مِنْ مَزَارِعَ، إِذْ تَكُونُ مَدِينَتُكُمْ خَالِيَةً مِمَّنْ يُرَاقِبُ مَا يَجْرِي فِي بَيْتِ أَصْنَامِكُمْ.

وكان لَهُمْ يَوْمُ عِيدٍ يَخْرُجُونَ فِيهِ مِنْ مَدِينَتِهِمْ إِلَىٰ مَكَانٍ واسِعٍ جامِعٍ، بَعِيدٍ عَنْ حُدُودِهَا، يَفْعَلُونَ فِيهِ مَا يَفْعَلُ النَّاسُ في أَعْيَادِهِمْ مِنْ لَهْوٍ ولَعِبٍ وَزِينَةٍ وأَكْلٍ وشُرْبٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وسَنَحَتْ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام الْفُرْصَةُ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّام أعْيَادِهِمُ الكُبْرَىٰ، الَّتِي يَخْرُجُ فيها كُلُّ أَهْلِ المدينَةِ لِلْمُشَارَكَةِ فِي هٰذَا العيد، فَنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجُومِ فَقَالَ: إِنِّي سَأَكُونُ غَداً سَقِيماً لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُشَارِكَ فِي هٰذَا الْعِيدِ الْقَوْمِي.

فَأَسْرَعَ في اليوم الَّذِي خَرَجَ فِيهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ عِيدِهِمْ، فَلَمَّا رَأَىٰ الْمَدِينَةَ خَالِيَةً مِنْ أَيِّ رَقِيبٍ يُرَاقِبُ حَرَكَتَهُ؛ ذَهَبَ إِلَىٰ بَيْتِ أَصْنَامِهِمْ، فَدَخَلَهُ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ، وَجَعَلَ يُحَطِّمُ الْأَصْنَامَ باسْتِثْنَاءِ أَكْبَرِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا فَعَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأوْثَانِهِمْ:

- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

[**الْجُذَاذُ**]: المقَطَّعُ الْمُكَسَّرُ. وكذلك [**الْجِذَاذُ**] بكسر الجيم.

أي: فَجَعَلَ الأَصْنَامَ قِطَعاً مكَسَّرَةً، باسْتِثْنَاءِ أَكْبَرِهَا، لَمْ يُكَسِّرْهُ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ فَيَسْأَلُوه: مَنْ كَسَّرَ سَائِرَ الأَصْنَامِ، فَلَا يَجِدُوا عِنْدَهُ جَوَاباً، فَيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ بَاطِلٍ، بِدَلِيلٍ عَمَلِيٍّ، إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ كَبِيرُ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهَا تَجْلُب نَفْعاً أَوْ تَدْفَعُ ضُرّاً؛ أَنْ يُعْلِمَهُمْ بِمَنْ حَطَّمَ سَائِرَ الأَصْنَامِ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُدَافِعَ عَنْهَا، ويَحْمِيَهَا مِنَ التَّحْطِيمِ والتَّكْسِيرِ.

وَحِينَ عَادَ قَوْمُهُ مِنْ عِيدِهِمْ وَجَدُوا أَصْنَامَهُمْ فِي الْبَيْتِ الكَبِيرِ لَهَا جُذَاذاً، باسْتِثْنَاءِ أَكْبَرِهَا حَجْماً، أَوْ أَكْبَرِهَا فِي الإِلَٰهِيَّةِ، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُمْ عَلَىٰ مَنْ كَسَّرَ وَحَطَّمَ أَصْنَامَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ تَعالى، فَتَسَاءَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا؟.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: فَاجْتَمَعَ عِلْيَةُ قَوْم إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكُبَرَاؤُهُمْ، بَعْدَ أَنْ شَاهَدُوا أَصْنامهمْ مُحَطَّمَةً، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ فَعَلَ هٰذَا التَّحْطِيمَ وَالتَّكْسِيرَ بِآلِهَتِنَا؟، ﴿... إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾: أي: المتجاوِزِينَ حُدُودَ الْحَقِّ والْوَاجِبِ الَّذِي يُؤْمِنُ قَوْمُنَا بِهِ. فأكَّدُوا قَوْلَهُمْ بالمؤكّدات: «إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيَّة ـ واللَّام المزحْلَقَة»، أي: بالمساوِيَاتِ لها في لُغَتِهِمْ.

فقال بَعْضُهُمْ: سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ بِسُوءٍ، وَيَقُول: إِنَّهَا آلِهَةٌ بَاطِلَة، وهٰذَا الْفَتَىٰ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيم.

قَالَ قَادَةُ قَوْمِهِ: فَأْتُوا بِهِ، وأحْضِرُوهُ عَلَىٰ أعْيُنِ النَّاسِ الَّذِينَ تَجْمَعُونَهُمْ لِهٰذَا الْغَرَضِ، لِيَشْهَدُوا مُسَاءَلَتَنَا له، وَمَا نَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ، إِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَطَّمَ أصْنَامَهُمْ.

فَأَحْضَرَهُ الجنودُ لِيَسْأَلَهُ الْقَادَةُ بِحُضُورِ جَمْعٍ مِنْ قَوْمِهِ، وكَانَ هٰذَا فِي بيتِ أصْنَامِهِمْ الَّذِي جرَىٰ فِيهِ التَّحْطِيمُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: قَالَ قومُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ بِلِسَانِ مَنْ يَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ مِنْ كُبَرَائِهِمْ وَقَادَتِهِمْ: أأنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا التَّحْطِيمَ والتَّكْسِيرَ بآلِهَتِنَا مِنَ الْأَصْنَامِ يَا إِبْرَاهِيمُ؟؟.

قَالَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْتَهْزِئاً بِهِمْ وَمُسْتَخِفًّا بِعُقُولِهِمْ: لَا، بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا الَّذِي لَمْ يَمَسَّهُ تَكْسِيرٌ وَلَا تَحْطِيمٌ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.

لَقَد هَزَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عُقُولَهُمْ وَأَجْهِزَةَ الإدْرَاكِ فِيهِمْ هَزّاً عَنِيفاً بِهٰذِهِ الإجَابَةِ، وَلَا سِيمَا قَوْلُهُ لَهُمْ: فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.

تَحَدَّثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَصْنَامِهِمْ كَأَنَّهَا عُقَلَاءُ مُرَاعَاةً لاعْتِقَادِ قَوْمِهِ فيها.

فَرَجَعُوا إِلَىٰ عُمْقِ أَنْفُسِهِمْ يُحَاكِمُونَهَا، إِذْ كَشَفُوا أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَتَكَلَّمُ وَلَا تُجِيبُ عَلَىٰ أَسْئِلَةِ عَابِدِيهَا، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ أَنْفُسِهَا التَّكْسِيرَ والتَّحْطِيمَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَوْ قَالُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي مُحَاكَمَةٍ دَاخِلِيَّةٍ

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ باتِّخاذِ آلِهَةٍ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَنْطِقُ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِيَ أَنْفُسَهَا مِمَّنْ يُرِيدُ تَكْسِيْرَهَا وَتَحْطِيمَهَا.

لكِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ رَجَعَتْ عَوَامِلُ كِبْرِهِمْ، وانْتِصَارِهِمْ لِسَوَابِقِ اخْتِيَارَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، تَنْفُخُ في صُدُورِهِمْ، فَانْقَلَبَتْ مَفَاهِيمُهُمُ الَّتِي قَوَّمَهَا التَّنْبِيهُ الإبْرَاهِيمِيُّ، فَنُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِم، إِذْ صَارَ أَعْلاهُمْ وَهُوَ مَوْضِعُ جِهَازِ الْعِلْمِ فيهم؛ في مَوْضِعِ أَقْدَامِهِمْ، وهٰذَا انْتكاسٌ جعَلَهم أضلَّ من الأنْعَام.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

جَاءَ إطْلَاقُ عبارةِ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، للدَّلَالَةِ بِهَا عَلَىٰ انْقِلَاب مَفَاهِيمهمْ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُقَوِّمَهَا وَيَجْعَلَهَا سَوِيَّةً مُعْتَدِلَةً غَيْرَ مُنَكَّسةٍ؛ تَنْبِيهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا.

التَّنْكِيسُ: قَلْبُ الشَّيْءِ، وجَعْلُ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، أَوْ جَعْلُ أَعْلَاهُ يَمِيلُ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَىٰ أسْفَلِهِ.

نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ: أي: قُلِبُوا فَجُعِلَتْ رُؤُوسُهُمْ فِي مَوَاضِعِ أَقْدَامِهِمْ، وَجُعِلَتْ أَقْدَامُهُمْ في مَوَاضِعِ رُؤُوسِهِمْ، عَلَىٰ عَكْسِ الْوَضْعِ الطبيعيِّ للنَّاس.

شُبِّهَ انْقِلَابُ مَفاهِيمِهِمْ إِلَىٰ الْبَاطِلِ؛ بِحَالَةِ تَنْكِيسِ رُؤُوسِهِمْ، واسْتُعِيرَ هٰذَا التَّنْكِيسُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ انْقِلَابِ مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ الْبَاطِلِ.

ودَلَّ الْعَطْفُ بِحَرْفِ العطْفِ «ثُمَّ» عَلَىٰ أَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا مُدَّةً مُتَراخِيَةً

عَلَىٰ حَالَةِ الرُّشْدِ الَّتِي أَوْصَلَهُمْ إليها التَّنبِيهُ الإبْرَاهِيمِيُّ، لَكِنَّهُمْ بَعْدَ هَـٰذِهِ المدَّةِ رَجَعُوا إِلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ شِرْكِيٍّ وَثَنِيٍّ، مُحَافَظَةً عَلَىٰ مَرَاكِزِ زَعَامَاتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ، وَقِيَادَتِهِمْ لهم.

وقَالُوا لإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿... لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾: أي: فَكَيْفَ تُطَالِبُنَا بِأَنْ نَسْأَلَهُمْ؟!، أَتَسْخَرُ مِنَّا وَتَسْتَهْزِئ بِنَا وَنَحْنُ كُبَرَاءُ قَوْمِكَ وَسَادَاتُهُمْ وَذَوُو السُّلْطَانِ فيهم؟؟.

- ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

فَأَعْلَنَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتِنْكَارَهُ الشدِيدَ لِعِبَادَتِهِمْ مَعْبُودَاتٍ لَا تَنْفَعُهُمْ شَيْئاً، وَلَا تَضُرُّهُمْ شَيْئاً، بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الإِنْكَارِي.

وأَتْبَعَهُ بِكَلِمَةِ التَّضَجُّرِ والتَّكَرُّهِ يُوَجِّهُهَا لَهُمْ وَلِمَا يَعْبُدُونَ.

«**أُفٍّ**»: كَلِمَةُ تَضَجُّرٍ وَتَكَرُّهٍ، وهي اسْمُ فِعْلٍ مُضَارِعٍ بِمَعْنَىٰ أَتَضَجَّر، أي: أَتَضَجَّرُ مِنْ شِدَّةِ تَقَذُّرِ نَفْسِي طَرِيقَتَكُمُ الْبَاطِلَةَ، الدَّالَةِ عَلَىٰ سَفَاهَةِ المسْتَمْسِكِينَ بها، وهَـٰذِهِ الْكَلِمَةُ «أُفٍّ» أُوَجِّهُهَا لَكُم ولِكُلِّ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ.

فالمعْنَىٰ: قَالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلَّذِينَ يُسَائِلُونَهُ في مَجْلِسِ مُحَاكَمَتِهِ، بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ هُوَ مُحَطِّمُ أَصْنَامِهِمْ: أَبَلَغَتْ سَفَاهَتُكُمْ وَغَبَاوَتُكُمْ وَحَمَاقَتُكُمْ غَايَاتِهَا الْمُنْكَرَةَ؟!.

فَأَنْتُم تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ أَقَلَّ نَفْعٍ، وَلَا يَضُرُّكُم أَقَلَّ ضُرٍّ.

إِنَّكُمْ تَعْبُدُونَ أَوْثَاناً عَلَىٰ تَوَهُّمِ أَنَّهَا تَجْلُبُ لَكُم نَفْعاً ما، أَوْ تَدْفَعُ

عَنْكُمْ ضُرّاً ما، وَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا دَفْعَ ضُرّ.

«**أُفٍّ**» أُوَجِّهُهَا لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَقَدْ أَضْجَرْتُمُونِي مِنْ قَذَارَةِ أَعْمَالِكُمْ، وَقَذَارَةِ وَحَقَارَةِ أَصْنَامِكُمْ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوها آلِهَةً تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ.

- ﴿... أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾: أي: انْطَمَسَتْ بَصَائِرُكُمْ عَنْ إِدْرَاكِ الحقِّ الْجَلِيِّ، وَذَهَبَتْ مِنْ رُؤُوسِكُمْ عُقُولُكُمْ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ، لَا عَقْلاً عِلْمِيًّا، وَلَا عَقْلاً إِرَادِيًّا.

فَبَلَغَ الْغَضَبُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يُسَائِلُونَهُ وَيُحَاكِمُونَهُ مَبْلَغَهُ الْأَقْصَىٰ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِمْ:

- ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ حَرِّقُوهُ، وانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ الَّتِي حَطَّمَهَا ظُلْماً وَعُدْواناً، إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَىٰ أَنْ تُعَاقِبُوهُ مُعَاقَبَةً رَادِعَةً لِكُلِّ مَنْ يُخَالِفُ دِينَكُمْ وَدِينَ آبَائِكُمْ، وَتُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَمَا فَعَلَ إِبْرَاهِيمُ.

وأَعَدُّوا مَا يَلْزَمُ لِتَحْرِيقِهِ، وَقَامُوا بالتَّنْفِيذِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً كَيْفَ حَمَىٰ نَبِيَّهُ وَرَسُولَهُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام:

- ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: فَلَمَّا قَذَفُوهُ إِلى النَّارِ الَّتِي أَعَدُّوهَا لَهُ، وَكَادَ يَصِلُ جَسَدُهُ إِلَىٰ الْجَحِيمِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، فَتَحَوَّلَتْ بِأَمْرِ اللهِ التَّكْوِينِيِّ مِنْ نَارٍ مُحْرِقَةٍ قَاتِلَةٍ ضَارَّةٍ أَوْ مُؤْذِيَةٍ؛ إِلَىٰ مِثْلِ نُورٍ بَارِدٍ لَا حَرَارَةَ فِيهِ، وَهَبَطَ إِلَىٰ بَاطِنِ الْجَحِيمِ في الصُّورَةِ، مَحْمُولاً بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ أَلْيَنِ وأَنْعَمِ مَا

يُحمَلُ عَلَيْهِ جسَدٌ، فَوَصَلَ إِلَىٰ المكَانِ الَّذِي قَذَفُوهُ إِلَيْهِ سَالِماً، لَمْ يَنَلْهُ ضُرٌّ وَلَا أذًى.

وانْتَصَرَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ عَلَىٰ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ وَذَوِي السُّلْطَانِ فِيهِمْ، وظَهَرَ للْجَمِيعِ أَنَّهُ عَلَىٰ حَقٍّ، وَأَنَّهُ هُوَ الأَعْلَىٰ، وأَنَّ قَوْمَهُ المشْرِكِينَ عَلَىٰ بَاطِلٍ، وَأَنَّ ذَوِي السُّلْطَانِ والْقُوَّةِ فيهم هُمُ الأَسْفَلُون.

وخَرَجَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ النَّارِ يَمْشِي بَيْنَ قَوْمِهِ مُنْتَصِراً، مُعْتَزّاً بِرَبِّهِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ الْكَافِرِينَ أَنْ يَمَسَّهُ بِسُوءٍ، مَهْمَا عَلَتْ مَكَانَتُهُ.

■ وَتَحدَّثَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَنْ هَـٰذِهِ النَّتِيجَةِ المخْزِيَةِ لِقَوْمِهِ المشركين، بقوله تَعالَىٰ:

- ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾: أي: فَجعَلْنا مَنْ أَرادَ بِهِ كيداً بالتَّحْرِيقِ، وَهُمْ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ وقَادَتُهُمْ؛ الأَخْسَرِين، ودُونَهُمْ فِي الْخَسَارَةِ سَائِرُ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ بِشأْنِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام إصْدَارَ قَرَارِ التَّحْرِيق.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ «نُمْرُودَ» وَأَرْكَانَ سُلْطَانِهِ عَزَمُوا عَلَىٰ قَتْلِ إبراهيمَ ولُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ غِيلَةً، وفي الخَفَاء، بَعْدَ أَنْ هُزِمُوا فِي قَتْلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام تَحْرِيقاً وَعَلَانِيَةً عَلَىٰ أعْيُنِ النَّاسِ، وأَمَّا لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ به والمجاهِرِينَ بِنُصْرَتِهِ، وهُوَ ابْنُ أخيهِ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ لِإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِأَنْ يُهَاجِرَ هُوَ وَلُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ فِيهَا، وهِيَ أَرْضُ فِلَسْطِينَ، وَمَعَهُمَا مَنْ يُرِيدُ مُصَاحَبَتَهُمَا، فَقَدِ انْتَهَتْ وَظِيفَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي بِلَادِهِ، بَعْدَ أَنْ جَرَتْ أَحْدَاثُ عَزْمِ قَوْمِهِ عَلَىٰ تَحْرِيقِهِ، ونجاتِهِ بِمُعْجِزَةٍ رَبَّانِيَّةٍ خارِقة.

ولمَّا عَزَمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ تَنْفِيذِ الْهِجْرَةِ يَسَّرَ اللهُ لَهُ ولِلُوطٍ عَلَيْهِما السَّلَام سُبُلَ نَجاةٍ، وَمَعَهُمَا مَنْ صَاحَبَهُمَا مِنْ عَشِيرَتِهِمَا.

وانْتَهَتِ الْهِجْرَةُ بَعْدَ سِنِينَ وَمَرَاحِلَ إِلَىٰ الاسْتِقْرَار في الْأَرْض التي بَارَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ، وِهيَ بِلَادُ الشَّامِ حَوْل الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ.

وَوَهَبَ اللهُ لَهُ بَعْدَ «إِسْمَاعِيلَ» عَلَيْهِ السَّلَام مِنَ الْأَمَةِ الْمِصْرِيَّةِ «هَاجَرَ» إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَام، مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الْعَجُوزِ الْعَقِيمِ بِخارِقَةٍ رَبَّانِيَّةٍ اسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ، ثُمَّ وَهَبَهُ حَفِيداً مِنِ ابْنِهِ «إِسْحاق» هُوَ «يَعْقُوبُ» عَلَيْهِما السَّلَامُ، فَكَانَ نَافِلَةً زَائِدَةً عَلَىٰ الْبُشْرَىٰ لَهُ بإِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَام نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، كَمَا جَاءَ في الآية (١١٢) من سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٥٦ نزول)، فَكَانَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَام نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ أَيضاً.

ومِنْ مِنَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ جعَلَهُمْ أَئِمَّةً يُؤْتَمُّ بِهِمْ، إِذْ جَعَلَهُمْ رُسُلاً يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ بِوَصْفِ كَوْنِهِمْ رُسُلاً، يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ بأَمْرِهِ.

ومِمَّا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِمْ:

(١) الْأَمْرُ بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَهِيَ الأعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْمَلُوهَا، في السُّلُوكِ النَّفْسِيِّ، والسُّلُوك الظَّاهر.

(٢) الأمْرُ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ للهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ، والمرادُ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ المدَاوَمَةُ والْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا فِي أَوْقَاتِهَا المبيَّنَةِ في أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وأَدَاؤُهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَطْلُوبِ فيها، أي: جَعْلُهَا مُسْتَقِيمَةً، وَخَالِصَةً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

(٣) الأمْرُ بإيتاءِ الزَّكَاةِ، وهُوَ إنْفَاقُ مَا فَرَضَ اللهُ فِي الْأَمْوَالِ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينَ، وَلِنَشْرِ دِينِ اللهِ والْجِهَادِ في سَبِيلِهِ.

• ﴿... وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ۝٧٣﴾: أي: وَكَانُوا في حَيَاتِهِمْ لَنَا وَحْدَنَا عَابِدِينَ، لَا يُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِنَا أَحَداً وَلَا شَيْئاً يُفْسِدُ صَفَاءَ الإِخْلَاصِ لَنَا فِي عِبَادَاتِهِم.

الْعِبَادَة: هِي الْخُضُوعُ، والطَّاعَةُ، وفِعْلُ مَا يُرْضِي الْمَعْبُودَ، وَتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ، ورَأْسُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ بِالْغَيْبِ، لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِ الدُّنْيَا والآخِرَة.

والعبادة لَا تَكُونُ صَحِيحَةً إِلَّا أَنْ تَكُونَ لِلرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهَا، لِأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ، الْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فِي الكَوْنِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّرُ الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (الْأَنْبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٧٤ و٧٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ۝٧٤ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٧٥﴾:

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ لَقْطَةٌ مُوجَزَةٌ مِنْ قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام فِي ذَاتِهِ وَمَعَ قَوْمِهِ، وَمَا أَثَابَهُ اللهُ بِهِ، وَمَا وَصَفَهُ به.

وقد سَبَقَ تَدَبُّرُ هٰذَا النَّصِّ تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ القرآنِيةِ المتعلِّقَة بِلُوطٍ ابْنِ أخِي إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، في الْمُلْحَقِ الْخَامِسِ مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول)، بعنوان: «دراسة تَكَامُلِيَّةٌ للنُّصُوصِ بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ في القرآن».

التدبّر التحليلي:

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتَكَلِّمِ الْعَظِيم فَيَذْكُرُ فِي هٰذَا الدَّرْسِ خَمْسَ قَضَايَا:

القضيّة الأولَىٰ: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ آتَىٰ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ حُكْماً.

الْحُكْمُ: هُوَ فِقْهُ الأُمُور، وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ والْبَاطِلِ وحُدُودِهِمَا، وَمَعْرِفَةُ الْخَيْرِ والشَّرِّ وَحُدُودِهِمَا، والْحَسَنِ والسَّيّءِ وحُدُودِهِمَا، والْجَمِيلِ والْقَبِيحِ وَحُدُودِهِما.

وبناءً عَلَىٰ هٰذَا يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أَحْكَامَهُ الْعِلْمِيَّةَ والْقَضَائِيَّة.

القضِيَّة الثَّانِيَة: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ آتَىٰ لوطاً عَلَيْهِ السَّلَام عِلْماً، أي: عِلْماً صَحِيحاً حَقًّا نَافِعاً للدُّنْيَا والآخِرَةِ، وأَعْظَمُ الْعِلْمِ مَا يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا الدِّينِ، وبالآخِرَةَ ذَاتِ الحياة الأَبَدِيَّةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَها.

ومِنَ الْعِلْم الَّذِي آتَاهُ إِيَّاهُ مَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام.

فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَام رَسُولاً إِلَىٰ أَهْلِ سَدُوم، وكانَتْ قُرَاهُمْ في مَكَانِ الْبَحْرِ الميّتِ فِي فِلِسْطِين، قَبْلَ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللهُ وَيَقْلِبَ بِلَادَهُمْ عالِيَها سافِلَهَا.

القضيّة الثَّالِثَة: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ نَجَّاهُ مِنْ أَهْلِ سَدُوم الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ الْخَبائِثَ، وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، بِوَقَاحَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ إِلَىٰ غَايَتِهَا، وبِنِسْبَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا نَظِيرٌ فِي تَارِيخ النَّاسِ.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَ سَدُوم بِقَوْلِهِ: ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

السُّوء: كُلُّ مَا هُوَ قَبِيحٌ وَمُسْتَنْكَر.

الْفِسْقُ: الْعِصْيَانُ والْخُرُوجُ عَنِ الْحَقِّ والْوَاجِب وَأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ. وَهُوَ مُصْطَلَحٌ إِسْلَامِيٌّ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَب: «فَسقَتِ الرُّطَبَةُ» أي: خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا تَعَرَّضَتْ لِلْفَسَادِ السَّرِيع.

الْقَضِيَّة الرَّابِعَة: أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَثَابَ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ، فَهُوَ مَشْمُولٌ بِهَا مِنْ كُلِّ جِهَاتِ أَجْزَائِهِ الْكُبْرَىٰ والصُّغْرَىٰ، المادِّيَّةِ والْمَعْنَوِيَّةِ، ومِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ جَنَّتُهُ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

القضِيَّة الْخامِسة: ثَنَاءُ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ على لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ مِن الصَّالِحِينَ عِنْدَه.

لفظ «**الصَّالِحِينَ**» جاءَ في القرآنِ وصْفاً لِلْأَنْبِيَاء والْمُرْسَلِين عَلَيْهِم السَّلام، وَوَصْفاً لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَأَدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الصَّالِحِينَ الْأَوَّابِين، الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا بَعْضَ الْمَعَاصِي والْمُخَالَفَاتِ رَجَعُوا إلى رَبِّهِمْ بالتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ عَلَىٰ وَجْهِ السُّرْعَةِ، وَلَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ ذَلِكَ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشر من دُرُوس سورة (الْأَنْبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِه.

* * *

(١٥)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الحادي عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٧٦ و٧٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطة مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام مَعَ قَوْمِهِ في التَّارِيخ.

والدِّرَاسَة الشَّامِلَة التَّكامُلِيَّة للنُّصُوصِ القرآنِيَّة المتعلِّقَةُ بنوحٍ عَلَيْهِ السَّلام وقَوْمِهِ؛ قَدْ آتاني اللهُ كِتَابَتَهَا فِي كِتَابٍ خاص، بِعُنْوَان: «نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ وقَوْمُهُ في الْقُرآنِ الكَرِيم» فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

التدبّر التحليلي:

﴿وَنُوحًا﴾ بالنَّصب، عَطْفاً عَلَىٰ: ﴿وَلُوطًا﴾، في أوّلِ الدَّرْس السَّابِقِ.

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ هٰذَا الْمُوجزَ من قِصَّةِ نُوح عَلَيْهِ السَّلام مَعَ قَوْمِهِ أَيُّهَا المتلَقِّي، حِينَ نَادَانَا دَاعِياً مِنْ قَبلِ مَنْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام؛ أَنْ نُنْجِيَهُ وَنُنْجِيَ أَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ الْعَظِيم الَّذِي أَنْزَلَهُمْ بِهِ قَوْمُهُمْ بِالْقَتْلِ، وَحَذَّرُوا نُوحاً عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْ مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ تَعالى فيهم.

الكَرْب: الحزنُ والْغَمُّ يَأْخُذُ بالنَّفسِ، كَأَنَّ حَبْلاً أُبْرِمَ عَلَيْهَا وَشُدَّ شَدًّا مُؤْلِماً، وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هٰذَا الكَرْبَ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ، إِذْ كَانَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ شَدَّدُوا الضَّغْطَ عَلَيْهِ وعَلَىٰ أَهْلِهِ.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دُعَاءَهُ، فَنَجَّيْنَاهُ وَنَجَّيْنَا أَهْلَهُ مِنْ كَيْدِ قَوْمِهِمْ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهُمْ، بِأَلْطَافِنَا الْخَفِيَّة، وَنَصَرْنَاهُ حَامِينَ لَهُ مِنَ الْقَوْم الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الإِعْجَازِيَّةِ، وآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْهِ، وَهُمْ قَوْمُهُ عَلَيْهِ السَّلام الَّذِينَ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً، واسْتَمَرَّ مُنْذُ بِعْثَتِهِ حَتَّىٰ أَوَاخِرِ إِقَامَتِهِ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقّ، ونَبْذِ الشِّرْكِ وعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، ومِنَ المسْتَجِيبِينَ لَهُ أَهْلُهُ باسْتِثْنَاءِ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنائِه عَلَيْهِ السَّلَام، فإِنَّهُ كَانَ كَافِراً مُعْتَزِلاً، فَقَالَ اللهُ لَهُ بِشَأْنِهِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، حِينَ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلام لِرَبِّهِ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾. وبِاسْتِثْنَاءِ زَوْجَتِهِ أيْضاً، الَّتي مَاتَتْ كَافِرَة.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ:

- ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ... ﴿٧٧﴾﴾:

السُّوء: كُلُّ مَا هُوَ قبيحٌ مِنْ فِكْرٍ، أو اعْتِقَادٍ، أَوْ خُلُقٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ شيءٍ مَادِّيٍّ كَرِيهٍ.

وإضَافَة لفظ «قَوْم» إلى لفظ «سُوءٍ» يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ حَرَكَاتِهم الاخْتِيَارِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ تَكَادُ تَنْحصِرُ بِمَا هُوَ قبيحٌ، فَلَا خَيْرَ فِيهم، وَلَا عِلَاجَ لَهُمْ إِلَّا الإِهْلَاكُ والإِبَادَةُ الْعَامَّة، وَلِهَذَا أَهْلَكَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَبَادَهُمْ بالطُّوفَان الْعَامّ، فَقَالَ بِشَأْنِهِمْ:

- ﴿... فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءِ أَحَدٍ مِنْهُم.

أَجْمَعِينَ: حالَ من أغْرقْنَاهُم.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الحادِي عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٦)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الأنبياء)

الآيات من (٧٨ ـ ٨٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ (٨١) وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ (٨٢)﴾:

القراءات:

(٨٠) • قرأ ابْن عَامر، وَحفص، وأَبُو جَعْفر: **[لِتُحْصِنَكُمْ]**.

وقرأها شُعْبة، وَرُوَيْسٌ: **[لِنُحْصِنَكُمْ]**.

وَقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعشَرَةِ: **[لِيُحْصِنَكُمْ]**.

وفي هَٰذِهِ الْقِرَاءَات تكَامُلٌ في الْأَدَاءِ البياني مع تَفَنُّنٍ في التَّعْبير.

(٨٠) • قرأ السُّوسي، وأبو جعْفر: **[بَاسِكُمْ]**. وكذلِكَ قَرَأَهَا حمزة في الْوَقف.

وقرأها بَاقِي القراء العشرة: **[بَأْسِكُمْ]**.

(٨١) • قرأ أبو جَعْفرٍ: **[الرِّيَاحَ]**، بالْجَمْعِ للدَّلَالَة عَلَىٰ الأنْواع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[الرِّيحَ]**، بالإفراد على أَنَّهُ اسْمُ جِنْسٍ، وهو يَشْمَلُ أَنْواعَ الرِّيَاح.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرسِ عَرْضُ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ من قِصَّتِيْ دَاوُد وسُلَيْمان عَلَيْهِمَا السَّلام في حَيَاتَيْهِما.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّر الآيَات من: (٧٨ ـ ٨٠) مِنْ هذا الدَّرْسِ تَدبُّراً تَكامُلِيًّا في الْمُلْحَقِ الثَّالِثِ مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورة: (ص/ ٣٨ نزول):

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ عَطْفاً عَلَىٰ مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ في السُّورَةِ من رُسُل عَلَيْهِم السَّلَام:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ بيانُ ثَلَاثِ قَضَايَا:

الْقَضِيَّةُ الأُولَى: حُكْمُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في حَادِثَةِ تَعَدٍّ مِنْ غَنم بَعْضِ الْقَوْمِ عَلَىٰ حَرْثِ آخَرِينَ فَأَفْسَدَتْهُ كُلَّهُ، فَعَلِمَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحُكمِ أَبِيهِ، فَرَأَىٰ رَأْياً آخَرَ، فَأَقَرَّهُ أَبُوهُ عَلَيْهِ، ورَجَعَ عَنْ حُكْمِهِ.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَة: بَيَانُ تَسْخِيرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ مَعَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ يُسَبِّحْنَ، بِقَضَاءٍ سَابقٍ وَتَنْفِيذٍ لَاحِقٍ.

القضيَّة الثالِثَة: امْتِنَانُ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِتَعْلِيمِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام صِنَاعَةَ الدُّرُوع الواقِيَاتِ في الحَرْب، من السُّيُوفِ والرِّمَاحِ والسِّهَام ونَحْوِهَا، وَهـٰذَا العِلْمُ قَدْ أَخَذَهُ النَّاسُ عَنْهُ فَانْتَفَعُوا بِهِ، فَوَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللهَ عَلَيْهِ.

● **أَمَّا الْقَضِيَّةُ الأولى**: فَقِصَّتُهَا جَمْعاً مِمَّا روى الطَّبَرِيُّ بأَسَانِيدِهِ عَن

ابْنِ مسعودٍ وابن عَبّاس رضي اللهُ عَنْهُمَا في رِوَايَاتٍ مُتَعَدِّداتٍ؛ أَنَّ أَصْحَابَ غَنَمٍ تَرَكُوا غَنَمَهُمْ لَيْلاً دُونَ حِراسَةٍ وَلَا رِعَايَةٍ، فَدَخَلَتْ هَـٰذِهِ الْغَنَمُ فِي أَرْضٍ مَحْرُوثَةٍ مَبْذُورة قَدْ نَبَتَ زَرْعُهَا، فَأَكَلَتْ مَا أَكَلَتْ مِنَ الزَّرْعِ وأَفْسَدَتْ سَائِرَهُ.

فَتَرَافَعَ الْخَصْمَانِ بِقَضِيَّتِهِمَا إِلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَحَقَّقَ مِنْ وُقُوعِ الْحَادِثَةِ، ويَظْهَرُ أَنَّهُ رَأَىٰ أَنَّ قِيمَةَ الْغَنَمِ تُسَاوِي قيمَةَ مَا أَكَلَتِ الْغَنَمُ وأفْسَدَتْ مِنَ الزَّرْعِ.

فحَكَمَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلام بِدَفْعِ الْغَنَمِ كُلِّهَا لِأَصْحَابِ الزَّرْعِ تَعْوِيضاً لَهُم، بِسَبَبِ أَنَّ أَصْحَابَ الْغَنَمِ تَرَكُوا غَنَمَهُمْ لَيْلاً دُونَ حِمَايَةٍ وَلَا رِعَايَةٍ، حَتَّىٰ كَانَ مِنْهَا عُدْوَانٌ عَلَىٰ زَرْعِ أَصْحَابِ الحرْث، فأَكَلَتْ مِنْهُ مَا أَكَلَتْ، وأَفْسَدَتْ سَائِرَهُ.

وَعلِمَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَام بِحُكْمِ أَبِيهِ وَكَانَ فَتًى يَافِعاً مُلْهَماً ذَا فَهْمٍ وحِكْمَةٍ، فَقَالَ لأَبِيهِ: أَرَىٰ أَنْ يَكُونَ الْقَضَاءُ غَيْرَ الَّذِي قَضَيْتَ. فقال داوُدُ عَلَيْهِ السَّلام: كَيْفَ؟.

قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْحَرْثَ لَا يَخْفَىٰ على صَاحِبِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ فِي كُلِّ عَامٍ، فَلَهُ مِنْ صَاحِبِ الْغَنَمِ أَنْ يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِهَا وَأَصْوَافِهَا وأَشْعَارِهَا، حَتَّىٰ يَسْتَوْفِيَ ثَمَنَ الْحَرْث، فإِنَّ الْغَنَمَ لَهَا نَسْلٌ في كُلِّ عام.

وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام قَالَ: تُدْفَعُ الْغَنَمُ لِأَهْلِ الزَّرْعِ، يَسْتَثْمِرُونَ أَلْبَانَهَا وأَصْوَافَهَا وأَوْلَادها، وتُدْفَعُ الأَرْضُ لِأَهْلِ الْغَنَم، يَبْذُرَنَ لِأَهْلِ الحرْثِ مِثْلَ حَرْثِهِمْ، فَإِذَا بَلَغَ الْحَرْثُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ؛ أَخَذَ أَصْحَابُ الْحَرْثِ حَرْثَهُمْ، وَرَدُّوا الْغَنَمَ إِلَىٰ أَصْحَابِهَا.

فَقَالَ دَاوُدُ لابْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلام: قَدْ أَصَبْتَ، الْقَضَاءُ كَمَا قَضَيْتَ.

فألْغَىٰ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلام قَضَاءَهُ الْأَوَّلَ، وَحَكَمَ بِمَا قَضَىٰ بِهِ ابْنُهُ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَام، وَلَمْ يَجِدْ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَا هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَىٰ كَمَالِ الْعَدْل، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّ وَلَدِهِ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَام.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ . . . ﴿٧٨﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الـمتَلَقِّي قِصَّةَ دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عَلَيْهِما السَّلَام الَّتِي كَانَتْ وَقْتَ حُكْمِهِمَا فِي قَضِيَّةِ الْحَرْثِ.

الحرث: هُوَ الْعَمَلُ فِي الْأَرْضِ لاسْتِنْبَاتِ زَرْعِهَا، أَوْ غَرْسِ شَجَرِهَا، وَيُطْلَقُ الْحَرثُ أَيْضاً عَلَىٰ الزَّرْعِ النَّابِتِ نَفْسِهِ، كَمَا ذَكَرَ الزَّجَّاج.

قال الأزهري: **الْحَرْثُ**: قَذْفُكَ الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ لازْدِرَاعٍ، **والْحَرْثُ**: الزَّرْعُ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿. . . إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ . . . ﴿٧٨﴾﴾:

أي: يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ فِي قِصَّةٍ حَدَثَتْ حِينَ نَفَشَتْ فِي الْحَرْثِ غَنَمُ الْقَوْمِ. (ال) في: [**الْقَوْم**] للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْجِنْسِ فقط.

﴿نَفَشَتْ﴾: أي: رَعَتْ لَيْلاً دُونَ راعٍ، يُقَالُ لُغَةً: «نَفَشَتِ الإبِلُ، أو الْغَنَم، أَوْ نَحْوُهُما، تَنْفُشُ، وَتَنْفِشُ، نَفْشاً، ونُفُوشاً» أي: انتَشَرَتْ لَيْلاً فَرَعَتْ دُونَ رَاعٍ، والواحِدُ منها «نَافِش».

ويقالُ لغة: «أَنْفَشَ الراعِي مَاشِيَتَهُ» أي: أَرْسَلَهَا لَيْلاً تَرْعَىٰ وَنَامَ عَنْها.

فإذَا فَعَلَتِ الْمَاشِيَةُ مِثْلَ ذَلِكَ نَهاراً قَالَ الْعَرَبُ: «هَمَلَتْ»، ولَا يَقُولُونَ: «نَفَشَت».

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بضَمِيرِ المتكَلِّمِ العظيم:

- ﴿... وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨﴾:

فِي هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ بَيَانٌ لِإحْدَىٰ مُفْرَدَاتِ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ عَامَّةٍ، مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهِيَ شُهُودُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ شَيْءٍ، ولِكُلِّ حَدَثٍ يَحْدُثُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ.

الشَّاهِدُ: الحاضِرُ الْعَالِمُ بالمشْهُودِ.

وهَـٰذِهِ الْقَضِيَّةُ الْكُلِّيَّةُ الْعَامَّةُ قَدْ جَاءَ بَيَانُهَا فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ، مِنْهَا قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَة (الْبُرُوج/٢٧ نزول):

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾:

وشُهُودُ اللهِ هُو حُضُورُهُ مُحِيطاً بِعِلْمِهِ ومُرَاقَبَتِهِ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ وأَتَمِّه.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ... ۝٧٩﴾:

أي: فَفَهَّمْنَا الْقَضِيَّةَ والْحُكْمَ الْأَقْرَبَ لِكَمَالِ الْعَدْلِ فِيها سُلَيْمَانَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ، وهَـٰذَا التَّفْهِيمُ مِنَ اللهِ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ كَانَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِلْهَامِ الرَّبَّانِيِّ، بِمَعُونَةٍ غَيْرِ مُدْرَكَةٍ بالْحِسِّ، لَكِنْ يَظْهَرُ أَثَرُهَا بِحُصُولِ الْفَهْمِ.

الْإِلْهَامُ: شَيْءٌ خَفِيٌّ غَيْرُ الْوَحْيِ الْمَعْرُوفِ لِلْأَنْبِيَاءِ والرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام.

فَقَدَّمَ سُلَيْمَانُ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ لِأَبِيهِ دَاوُدَ عليهما السلام، فَقَبِلَهُ وقَضَىٰ بِهِ، عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

وأَثْنَىٰ اللهُ عَلَيْهِمَا بِقَوْلِهِ: ﴿... وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ... ۝٧٩﴾:

سبق آنفاً فِي تَدَبُّرِ الآية (٧٤) بِشَأْن لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيَانُ مَعْنَىٰ الْحُكْمِ والْعِلْم، وأقولُ هُنَا: أَبْرَزُ مَعَانِي الْحُكْم فِقْهُ الأمور، وحُسْنُ الإدَارَة، والْقَضَاءُ بالْعَدْل، وأمَّا الْعِلْمُ فَهُوَ سُلَّمٌ لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، قَابِلٌ لِأَنْ يَتَنَامَىٰ دواماً.

وَجاءَ التَّنْكِيرُ فِي كَلِمَتَيْ: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ لِلْإِشْعَارِ بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ آتاهُمَا مِقْداراً مَا مِنَ الْحُكْمِ والْعِلْمِ، كَانَا فِيهِ مُتَفَوِّقَيْنِ عَلَىٰ نَظَرَائِهِمَا في زَمَانِهِمَا.

أَمَّا كَمَالُ الْحُكْم والْعِلْم فَهُوَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبَشَرَ كُلَّهُمْ لَمْ يُؤتَوْا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً، وكَمَالُ الْحُكْمِ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَىٰ شُمُولِ الْعِلْم.

- **وأَمَّا الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَةُ** فَقَدْ جاءَ بَيَانُهَا فِي قَوْلِ اللهِ تعالى:
- ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

التَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لِعَمَلٍ مَا، أَوْ أَمْرٍ مَا، وجَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ، ضِمْنَ قَانُونِ التَّسْخِير الرَّبَّاني له، بالطَّبْعِ والْفِطْرَةِ، أو بالْقُوَّةِ والإلْزَامِ والْقَهْر، أو بالاخْتِيَار الحرّ، لما في المطاوعَةِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لِلْمُطَاوِع.

وَمَسْأَلَةُ تَسْخِير الْجِبَالِ والطَّيْرِ مَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ سَبَقَ بَيَانُهَا لَدَى تَدبُّر الآيَتَيْنِ (١٨) و(١٩) من سورة (ص/٣٨ نزول)، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه.

ويَدُلُّ قَوْلُ اللهِ في الآيَة: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وقَضَاهُ بالأَمْرِ التَّكْوِيني، فَتَحَقَّقَ في الْوَاقِعِ التنفيذُ على وَفْقِ سَابِقِ التَّقْدِيرِ والقضاء.

- **وأَمَّا الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ** فَقَدْ جاءَ بَيَانُهَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

اللَّبُوس: اسْمٌ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ مَا يُلْبَسُ سَاتِراً لِكُلِّ الْجِسْمِ أَوْ بَعْضِهِ، وجَمْعُهُ «اللُّبُس». ويُطْلَقُ: «اللَّبُوس» عَلَىٰ الدِّرْعِ، وهُو المرادُ هُنَا.

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾: **الْبَأْسُ**: الْحَرْبُ، والشِّدَّةُ فِيهِ، أي: لِتَقِيَكُمْ وَتَحْمِيَ أَجْسَادَكُمْ مِنْ ضَرَبَاتِ سُيُوفٍ ورِمَاحٍ وَسِهَامِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَرْبِ، ورَغْبَةً فِي سَلَامَتِكُمْ.

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ ثَلَاثِ أَفْكَارٍ ذَاتِ شَأْنٍ:

الْفِكْرَة الأُولَىٰ: أنَّ صُنْعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ للدُّرُوعِ ذَاتِ الزَّرَدِ؛ قَدْ كَانَ بِتَعْلِيمٍ مِنَ اللهِ تَعَالى لَهُ، كَمَا عَلَّمَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلامُ صُنْعَ الْفُلْكِ.

الْفِكْرَةُ الثَّانِيَة: أنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَمْتَنُّ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِتَعْلِيمِهِمْ عَنْ طَرِيقِ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام؛ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ إِحْصَانِهِمْ، مِنْ شُرُورِ حَرْبِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَلَمْ يَذْكُرِ اللهُ أَنَّهُ عَلَّمَ عِبَادَهُ عَنْ طَرِيقِ الوحْي صِنَاعَةَ أدواتِ الْقِتَالِ، مَعَ أَنَّهُ هو الَّذِي خَلَقَ فِي عِبَادِهِ مَا يُوصِلُهُمْ إِلَىٰ صُنْعِ كُلِّ شَيْءٍ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ صُنْعِهِ بِمَا وَهَبَهُمْ.

الْفِكْرَةُ الثالِثَة: دَعْوَةُ اللهِ عِبَادَهُ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَىٰ نِعْمَةِ هِدَايَتِهِمْ إِلَىٰ وَسَائِلِ سَلَامَتِهِمْ، فَقَال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿... فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾: اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِه التَّرْغيب في الشُّكْرِ، والْحَثُّ عَلَيْهِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بضمير المتكلّم العظيم إشعاراً بِمِيزَة ما آتىٰ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

وفي قراءةِ أبي جَعْفر: [**الرِّيَاحَ عَاصِفَةً**]، للدَّلالَة على الأنواع، وبالإفرادِ: [**الريحَ**]: اسْمُ جنْسٍ شامل لكلِّ أنواعِهَا.

أي: وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ الرِّيحَ والرِّيَاحَ حالَةَ كَوْنها عَاصِفَةً.

الرِّيح العاصِفَةُ: هِيَ الَّتِي اشْتَدَّ هُبُوبُهَا حَتَّىٰ صَارَتْ تَحْمِلُ الْعَصْفَ فَتَدُورُ بِهِ وَتَرْمِيهِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ. **العَصْفُ**: نَبَاتُ الْأَرْضِ اليابِسُ، وَوَرَقُ الزَّرْع.

وَجَاءَ في سُورَة: (سَبأ/٥٨ نزول) بَيَانُ مِنَّةِ اللهِ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام بأَنَّهُ آتاهُ «الرِّيحَ»، وفي قراءَةِ أبي جَعْفر: «الرِّيَاحَ»، غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُهَا شَهْرٌ، فقال تَعالَىٰ فيها:

- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ... ⑫﴾.

وَجَاءَ في سُورَة: (ص/٣٨ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ㊱﴾:

وفي قراءَة أَبِي جَعْفَر: [**الرِّيَاحَ**].

فَمَا جَاءَ في سُورَة: (ص/٣٨ نزول) دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ سَخَّرَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام أنواعَ الرِّيَاح، فَهِيَ تَجْرِي بأمْرِهِ لَيِّنَة حَيْثُ قَصَدَ وأراد.

رُخَاءً: أي: لَيِّنَةً غَيْرَ شَدِيدَة.

حَيْثُ أَصَابَ: أي: حَيْثَ قَصَدَ وأراد.

وَمَا جَاء في سُورَة: (سَبأ/٥٨ نزول) دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ سَخَّرَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام أنواعَ الرِّيَاح بِسُرْعَةٍ يُقَدَّرُ غُدُوُّهَا بِشَهْرٍ لِقَافِلَةِ الْمُسَافِرِين، وَيُقَدَّرُ رَوَاحُهَا بِشَهْرٍ لِقَافِلَةِ الْمُسَافِرِين.

الْغُدُوُّ: الذَّهَابُ في وَقْتِ الْغُدْوَة، وهُوَ مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْس.

الرَّواح: السَّيْرُ في الْعَشِيِّ، وهُوَ في الْغَالِبِ مِنْ وَقْتِ الْعَصْرِ إلى الْغُرُوب.

ومَا جَاءَ في سُورَةِ: (الأنبياء/ ٧٣ نزول) دَلَّ عَلى أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ سَخَّرَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام الرِّيحَ الشَّدِيدَة الْعَاصِفَةَ، فَهِي تَجْرِي بأمْرِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فِيها، وهي أَرْضُ الشَّام حَوْلَ مَكَانِ الْمسَجِدِ الأقْصَىٰ، أيْ: وتَجْرِي بأمْرٍ مِنْ هَـٰذِهِ الْأَرْضِ إلى حَيْثُ أَرَادَ وَأَمَرَهَا أَنْ تَجرِيَ إِلَيْهِ.

فَكَانَ لسُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهـٰذَا التَّسْخير الرَّبَّانِي سُلْطَانٌ عَلَىٰ الرِّيَاحِ، فَهِيَ تَتَحَرَّكُ بأمْرِهِ في سُرْعَةٍ، غُدُوّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْر، إِذَا أَرَادَ أَنْ تَكُونَ سَرِيعة، وتَجْرِي رُخَاءً بأمْرِهِ إذَا أَرَادَ أَنْ تَكُونَ لَيِّنَةً غَيْرَ شَدِيدَةٍ، وتَجْرِي قَوِيَّةً عَاصِفَةً حيثما يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ عَاصِفَةً، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ يُرِيد أَنْ تَكُونَ عَاصِفَةً في وَجْهِ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ فِي الْحَرْب، وكذَلِكَ في الْأَحْوَالِ الَّتِي يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ عَاصِفَةً شَدِيدة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿... وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١﴾: أَيْ: وَلَـمْ يَـكُـنْ يَـخْـفَـىٰ عَلَيْنَا أَيُّ تَصَرُّفٍ مِنْ تَصَرُّفَاتِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام فِيمَا سَخَّرْنَا لَهُ، وهـٰذَا دَاخِلٌ فِي كُلِّيَّةٍ عَامَّةٍ هِيَ: «أَنَّنَا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ مِمَّا تَشْمَلُهُ دائِرَة العلم».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾:

أيْ: وكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ بِسُلْطَانِنَا مِنْ أَنْ يَعْصُوهُ ويَخْرُجُوا عَنْ طَاعَتِهِ.

وجاء في سُورَة: (ص/٣٨ نزول) بَيَانُ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ، فَمَنْ عَصَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ سُلْطاناً عَلَيْهِمْ أَنْ يَشُدَّهُمْ أَذِلَّاءَ بِالسَّلَاسِلِ الْمُلَائِمَةِ لِطَبِيعَتِهِمْ، وأَنْ يَأْمُرَ بِتَعْذِيبِ مَنْ يَشَاءُ تَعْذِيبَهُ مِنْهم، فَقَالَ تَعَالَىٰ فيها:

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

الشَّيَاطِينُ: هُمْ كَفَرَةُ الجِنّ، وهُمْ جُنُودُ إبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ.

المعنى: وَمِنَ الشَّيَاطِينِ سَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ بِسُلْطَانٍ جَعَلْنَاهُ لَهُ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ يَسْتَخْدِمُ مِنْهُمْ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ فِي الْبِحَارِ لاسْتِخْرَاجِ مَا يَشَاءُ اسْتِخْرَاجَهُ مِنها. ويسْتَخْدِمُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ فِي أَعْمَالِ البناء، والْحَمْلِ والنَّقْلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالٍ هِيَ أَقَلُّ مَشَقَّةً من الْغَوْصِ في البحار.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام سُلْطَاناً عَلَىٰ مَنْ سَخَّرَهُمْ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَمَنْ عَصَاهُ مِنْهُمْ قَيَّدَهُمْ فِي الأَصْفَادِ، وَأَدَّبَهُمْ بالإِذْلالِ والتَّعْذِيب.

مُقَرَّنِين: أي: مَشْدُودِين.

فِي الأَصْفَادِ: أي: في السَّلاسِلِ والأَغْلال، مُفْرَدُها: «الصَّفَد»، و«الصِفَاد».

وهكذا خَصَّ اللهُ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلام بِمُلْكٍ عَظِيمٍ كَانَ لَهُ بِهِ سُلْطَانٌ مَا عَلَىٰ الرِّياح، وسُلْطَانٌ عَلَىٰ بَعْضِ شياطِينِ الجنّ.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٧)

التدبُّر التحليليّ للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (الأنبياء)

الآيتان: (٨٣ و٨٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

القراءات:

(٨٣) ● قرأ حمزة: [**مَسَّنِيْ الضُّرُّ**] بإسْكان ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مَسَّنِيَ الضُّرُّ**] بفتْحِ ياءِ المتكلم.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْض لَقْطَةٍ مُوجَزَةٍ مِنْ قِصَّةِ أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلام.

وقد سَبَقَ في تدبّر سورة (ص/٣٨ نزول) في الصّفحات من (٥٧٦ ـ ٥٨٦)[1] تَدَبُّرُ مَا جَاءَ في القرآن الْمَجِيدِ عَنْ أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلامُ تَدَبُّراً تكامُلِيًّا، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه.

التدبّر التحليلي:

لَقَدِ ابْتَلَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلام في جَسَدِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ بَلَاءً عَظِيماً، وطَالَتْ مُدَّةُ بَلَائِهِ، وَجَعَلَ الشَّيْطَانُ يُوَسْوِسُ لَهُ دَواماً لِيُخْرِجَهُ عَنْ صَبْرِهِ عَلَىٰ بَلَائِهِ، لكنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أَفْرَغ عَلَيْهِ صَبْراً عَظِيماً اشْتَدَّ مِنْهُ غَيْظُ الشيطان.

---

[1] المجلّد الثالث.

ونَادَىٰ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلام رَبَّهُ مُسْتَعِيذاً بِهِ من الشيطان، فقال في دُعَائِهِ مَا جَاء بَيَانُهُ في سُورَة (ص/٣٨ نزول) بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾:

النُّصْبُ: التَّعَبُ والمشقَّةُ والإعياء. والمرادُ بالْعَذَابِ: الْعَذَابُ النَّفْسِيُّ الَّذِي مَسَّهُ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطان.

ثُم نَادَى عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ لِيَرْفَعَ عَنْهُ بَلَاءَه، وقال في دُعَائِهِ مَا جَاء بيانُهُ في سُورَة (الأنبياء/ ٧٣ نزول) بقول اللهِ تعالىٰ:

- ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِبَيَانِ رَبِّكَ؛ مَا دَعَا بِهِ أَيُّوبُ - عَلَيْهِ السَّلام - رَبَّهُ لِيَرْفَعَ عَنْهُ الضُّرَّ الَّذِي مَسَّهُ وَطَالَ أَمَدُهُ فِيهِ، حِينَ قَالَ في دُعائِهِ لِرَبِّهِ:

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بِفَتْحِ الهمزة مِنْ «أَنّي»، على تقدير حَذْف حرف الجرّ «الباء». وَتَأَدَّبَ مع رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ بعبارة: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ»، ولَمْ يَقُلْ: «أَصَابَنِي الضُّرُّ»، مع أَنَّه فَقَدَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَصِحَّتَهُ. فالْمَسُّ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الإحْسَاسِ الْخَفِيفِ بالشَّيْءِ الْمُلَاصِقِ.

وعبارَةُ: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فِيهَا دَلَالَةٌ بالكِنَايَةِ عَنْ طَلَبِ رَفْعِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ بَلَاءٍ وضُرٍّ.

فاسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَهُ، وزَادَهُ مِنْهُ فَضْلاً، وَقَالَ فِي بَيان هٰذَا بضمير المتكلِّم العظيم:

- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾: أي: دُعَاءَهُ الَّذِي دَعَاهُ بأسْلُوبِ الكِنَايَةِ في اللفظ. ومعْنَىٰ «اسْتَجَابَ لَهُ»: قَبِلَ تَحْقِيقَ مَا طَلَبَ في دُعائِهِ.

﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾: أي: فأزلْنا ما نَزَلَ بِهِ من ضُرٍّ، وَهُوَ سُوءُ الْحَال في جَسَدِهِ.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: أي: وَرَدَدْنَا وأَوْصَلْنَا إِلَيْهِ أَهْلَهُ الَّذِينَ كَانَ قَدْ سَلَبَهُمْ غُزَاةٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: أي: رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ذَاتَ أَثَرٍ في إيصالِ مَا وَهَبْنَاهُ إِلَيْهِ.

﴿... وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾: الذِّكْرَى: اسْمٌ للتَّذْكِير، أي: وَتَذْكِيراً مِنَّا لِلْعَابِدِينَ بالصَّبْرِ، بأنَّ عَاقِبَتَهُمْ أَنْ نُزِيلَ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا بِهِمْ مِنْ بَلَاءٍ، وَأَنْ نَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِنَا عَطَاءَاتٍ تُرْضِيهِمْ.

وَيُرْجَعُ في النَّظَرَاتِ التَّكَامُلِيَّةِ بَيْنَ نَصِّ سورة (الأنبياء/ ٧٣) ونَصِّ سورة (ص/ ٣٨) إلى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ في سورة (ص/ ٣٨)، في المجلَّدِ الثالِثِ مِنْ هٰذَا الكتاب.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّرُ الدّرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع عشر من دروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٥ و٨٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

تَمْهيد:

فِي آيَتَي هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مُوجَزٌ جدًّا عَنْ ثَلَاثَةِ رُسُلٍ تَجْمَعُهُمْ صِفَةُ الصَّبْرِ، وهم: «إسْماعِيلُ» و«إدْرِيسُ» و«ذُو الكِفل» عَلَيْهِ السَّلَام.

وَأَبَانَ اللهُ أَنَّهُ أَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

التدبّر التحليلي:

إسْمَاعِيل عَلَيْهِ السَّلَام: هو الابْنُ الْبِكْرُ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، من هاجر المصريَّة، الَّتِي وَهَبَهَا فِرْعَوْنُ مِصْرَ لِسَارَةَ زَوْجَةِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فَوَهَبَتْهَا سَارَةُ لِزَوْجِهَا إبراهيم، فوَلَدَتْ لَهُ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِما السَّلَام، وسَافَرَ بِهِمَا فَأَسْكَنَهُمَا بِمكَّة بأمْر اللهِ، ولمَّا كَبِرَ وبَلَغَ أَشُدَّه، اصْطَفَاهُ اللهُ فَجَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولاً.

إدْرِيس عَلَيْهِ السَّلَام: ذكر المؤرخون عَنِ الإسْرَائِيلِيِّيْنَ: أَنَّ «إدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَام» هُوَ: أَخْنُوخُ بْنُ يَارِدَ بْنِ مَهْلَلْئِين بْنِ قَيْنَانَ بْنِ أَنُوش بْن «شِيثٍ» عَلَيْهِ السَّلَام بن آدم عَلَيْهِ السَّلَام، وذَكَرُوا أَنَّ شِيثاً كَانَ نَبِيًّا رَسُولاً، وأَنَّ اللهَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَاباً يُسَمَّىٰ «صُحُفَ شِيث» واللهُ أَعْلَم.

وذكر المؤرخُون أَنَّ أُمَّةَ السِّرْيَان أقْدَمُ الْأُمَم، وأَنَّ مِلَّتَهُمْ هِيَ: مِلَّةُ الصَّابِئِينَ، نِسْبَةً إلى «صَابئ»، أحد أولاد «شيث» عَلَيْهِ السَّلَام.

وذكَرَ الصَّابِئُونَ أَنَّهُمْ أَخَذُوا دِينَهُمْ عَنْ «شِيثٍ» و«إدْرِيسَ» عَلَيْهِمَا السَّلَام، وأَنَّ لَهُمْ كِتَاباً يَعْزُونَهُ إلىٰ «شِيثٍ»، ويُسَمُّونَهُ «صُحُفَ شِيثٍ».

قال المؤرخون: «إدْريسُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بالْقَلَمِ، وأوَّلُ من نظر في النجوم والحساب، وأَوَّلُ مَنْ خَاطَ الثياب⁽¹⁾.

ذو الكِفل عَلَيْهِ السَّلَام: قال أَهْلُ التاريخ: هو ابْنُ أَيُّوب عَلَيْهِ

---

(١) انظر بقيَّة البيان عن إدْريس عَلَيْهِ السَّلَام في الصفحات من (٥٤٢ ـ ٥٤٨) من المجلّد السّابع، عند تدبر الآيتين (٥٦ و٥٧) من سورة (مريم/ ٤٤ نزول).

السَّلَام، واسْمُهُ فِي الْأَصْلِ «بِشْر»، وقَدْ بَعَثَهُ اللهُ بَعْدَ أيوب عَلَيْهِ السَّلَام، وسمَّاه «ذَا الْكِفْل»، وكَانَ مُقَامُهُ في الشَّام، وأهْلُ دِمَشْقَ يَتَنَاقَلُون أنَّ لَهُ قَبْراً في جَبَلِ قاسِيُونَ، واللهُ أعْلَم.

والقرآنُ المجيد لَمْ يَزِدْ عَلَىٰ ذِكْرِ اسْمِهِ في عِدادِ المرْسَلِينَ، ولَمْ أقِفْ عَلَىٰ تَرْجَمَةٍ مَبْسُوطَةٍ له.

ورُوي عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّه عَلَيْهِ السَّلام كَانَ قَدْ تَكَفَّلَ لِبَنِي قَوْمِهِ أَنْ يَكْفِيَهُمْ أَمْرَهُمْ، ويَقْضِي بَيْنَهُم بالْعَدْلِ، فَسُمِّيَ: «ذَا الْكِفْل».

وقد أبان اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ هَٰؤلَاءُ الرُّسُلِ الثَّلاثَة عَلَيْهِم السَّلام مَا يلي:

(١) أَنَّهُمْ كَانُوا في حَيَوَاتِهِمْ مِنَ الصَّابِرِينَ في طاعاتهم، وعَلَىٰ مَا يَنْزِلُ بهم من أنواع بَلاءٍ.

(٢) أَنَّ اللهَ أَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ، فَهُمْ سُعَدَاءُ في رحْمَتِهِ الْمُحِيطَةِ بِكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِمْ.

(٣) أَنَّهُمْ مِن زُمْرَةِ الصَّالِحِين. وقَدْ سَبَقَ قَرِيباً شَرْحُ (الصَّالِحِينَ) في الاستعمالات القرآنية.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرس الرابع عشر من دُروس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٩)

التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٧ و٨٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

القراءات:

(٨٧) ● قرأ يَعْقُوب: [**لَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ**]، أي: لَنْ يُضَيَّقَ عَلَيْه.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**]، أي: لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ.

(٨٨) ● قرأ ابْنُ عَامر، وشُعْبَة: [**نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**].

تَمْهيد:

فِي آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ لَقْطَةٌ مُوجَزَةٌ مِنْ قِصَّةِ ذي النُّون (= يُونُسَ) عَلَيْهِ السَّلَام.

وقَدْ سَبَقَ في دَاخِلِ تَدَبُّر سورة (الصَّافَّات/٥٦ نزول) دراسَةٌ تَكامُلِيّة للنُّصُوصِ القرآنِيَّةِ بِشَأْنِ يُونس عَلَيْهِ السَّلام، عند تَدَبُّرُ الآيات من (١٣٩ ـ ١٤٨) من السُّورة، فَلْيُرْجَعْ إليْهَا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلَام رَبّكَ هـٰذَا الْمُوجزَ مِنْ قِصَّةِ ذي النُّون (وهو يُونُس عَلَيْهِ السَّلام)، حِينَ ذَهَبَ تَارِكاً قَوْمَهُ «أَهْلَ نِينَوَىٰ» مُغَاضِباً لَهُمْ، إِذْ دَعَاهُمْ طَوِيلاً إِلَىٰ دِينِ اللهِ فما اسْتَجَابُوا لَهُ، فَأَنْذَرَهُمْ بِعَذَابٍ مِنَ اللهِ، وَفَارَقَهُمْ اجْتِهَاداً مِنْهُ، دُونَ أَنْ يَتَلَقَّىٰ مِنْ رَبِّهِ إِذْناً أو أمْراً بِمُفَارَقَتِهِمْ، ظَانًّا أَنَّ اللهَ لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ، فَيُؤَاخِذَهُ عَلَىٰ مُفَارَقَتِهِ قَوْمَهُ دُونَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِهـٰذِهِ الْمُفَارَقَة.

ذَكَرَهُ اللهُ بعُنْوان: «ذَا النُّون»، أي: صَاحبَ النُونِ الَّذِي الْتَقَمَهُ في البحر.

النُّون: اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ الْحُوتِ، ولَعَلَّهُ صِنْفٌ خاصٌ مِنْ أَصْنَافِ الْحِيتَانِ الْعُظْمَىٰ.

مُغَاضِباً: أي: هاجراً قَوْمَهُ، ومُتَبَاعِداً عَنْهم، أَوْ جَرىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُم مُجادَلَاتٌ شَدِيداتٌ أغْضَبَتْهُ مِنْهُمْ، وأغْضَبَتْهُمْ مِنْه.

- ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: أي: فَظَنَّ باجْتِهَادٍ مِنْهُ أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ فَنَجْعَلَهُ مُلْزَماً بالأمْرِ أو بالإذْنِ الصَّرِيحِ بِمُفَارَقَةِ قَوْمِهِ، باعْتِبَارِهِ نَبيًّا رَسُولاً يُوحَىٰ إِلَيْهِ.

ولَمَّا ذَهَبَ عَنْ قَوْمِهِ مُغاضِباً لَهُمْ، تَوجَّهَ جِهَةَ سَاحِلِ الْبَحْرِ لِينْتَقِلِ إلَىٰ بلدِهِ عَلَىٰ مَرْكَبَةٍ بَحْرِيَّةٍ، تُقَرِّبُهُ إلَىٰ مَنَازِلِ أَهْلِهِ، فَوَجَدَ فُلْكاً مُناسِباً، فَتَفَاوَضَ مَعَ أَصْحَابِهِ عَلَىٰ أَنْ يُرْكِبُوهُ مَعَهُمْ، فوافَقُوه عَلَىٰ طَلَبِهِ فَأَرْكَبُوهُ.

وطَوَتِ النُّصُوصُ القرآنِيَّةُ بَيَانَ أَنَّ الْبَحْرَ هَاجَ وَمَاجَ، وأَنَّ أَصْحَابَ الْفُلْكِ وَرُكَّابَهَا خَافُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ مِنَ الْغَرَقِ، فَقَرَّرُوا أَنْ يُجْرُوا قُرْعَةً لإِسْقَاطِ مَنْ تَقَعُ الْقُرْعَةُ عَلَيْهِ.

فَأَجْرَوا الْقُرْعَةَ فَخَرَجَ سَهْمُ «يُونُس عَلَيْهِ السَّلام» بأَنَّهُ هُوَ الرجُلُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بِأَنْ يُلْقَىٰ في الْبَحْر، دَلّ عَلى هـٰذَا مَا جَاء في سورة (الصافات/ ٥٦ نزول).

فَأَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حُوتاً عَظِيماً فَالْتَقَمَهُ، أي: فَجَعَلَهُ كَلُقْمَةٍ فِي جَوْفِ فَمِهِ.

وَحِينَ وَجَدَ يونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ بِمَثَابَةِ لُقْمَةٍ فِي فَم حُوْتٍ عَظِيم، وَوَجَدَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَذْكُرَ اللهَ وَيُسَبِّحَهُ وَيدعُوَهُ؛ اسْتَغَلَّ قُدْرَتَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ

بالتَّسْبيحِ والذِّكْرِ والدُّعاء والاعْتِرَافِ بِذَنْبِهِ، إِذْ فَارَقَ قَوْمَهُ دُونَ إِذْنٍ صَرِيحٍ مِنْ رَبِّهِ.

هُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

- ﴿... فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾:

أي: فَنَادَىٰ رَبَّهُ وَهُوَ مُحَاطٌ بِظُلْمَةِ جَوْفِ فَم الحوتِ، وظُلْمَةِ اللَّيلِ، وظُلْمَةِ الْغَيْمِ فَوْقَ سَطْحِ الْبَحْرِ، بالنِّداءِ الذي يُفَسِّرُهُ ما يلي:

(١) ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾: أي: رَبِّ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ في الْوُجُودِ كُلِّهِ؛ إِلَّا أنْتَ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الرَّبُّ الَّذِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ.

(٢) ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: أي: تَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ شَرِيك، وَتَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ ما لَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِكَ وإِلَٰهِيَّتِكَ، وَتَنَزَّهْتَ عَنْ أَنْ تُجْرِي مُقَادِيرَكَ دُونَ أَنْ تَكُونَ مُتَّصِفَةً بِكَمَالِ الْحِكْمَة.

(٣) ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: أُأَكِّدُ اعْتِرَافِي بِذَنْبِي، إِذْ ذَهَبْتُ مُغَاضِباً قَوْمِي الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِي، دُونَ أَنْ أَتَلَقَّىٰ أَمْراً أَوْ إِذْناً مِنْكَ بانْصِرَافِي عَنْهُمْ، وَقَدِ اخْتَرْتَنِي رَسُولاً لَهُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾:

أي: فَقَبِلْنَا أَنْ نُجِيبَ لَهُ دُعَاءَه، وَخَلَّصْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ الَّذِي كَانَ فِيهِ فِي جَوْفِ فَم الْحُوتِ، فَقَدَّرْنَا أَنْ يَلْفِظَهُ الْحُوتُ عَلَىٰ اليابِسَةِ قَرِيباً مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَفَعَلَ.

ومِثْلَ هَٰذَا التَّخْلِيصِ مِنَ الْغَمِّ نُخَلِّصُ سَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ، ضِمْنَ سُنَّتِنَا فِي تَصارِيفِنَا بِعِبَادِنا.

وأحيل القارئ عَلَىٰ مَا جَاءَ في تَدَبُّر سُورَة (الصَّافَات/ ٥٦ نزول) بِشَأْنِ «يُونس عَلَيْهِ السَّلَام».

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الخامس عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٠)

التدبُّر التحليلي للدّرس السادس عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٩ و٩٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

القراءات:

(٨٩) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [وَزَكَرِيَّآ إِذْ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَزَكَرِيَّاء إِذْ].

وسَهَّل الهمزة الثَّانِيَة: نافعٌ، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جَعْفر، ورُوَيس.

وقرأَهَا بالتَّحْقِيقِ: ابْنُ عامر، وشُعْبَةُ، ورَوْح.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰـذَا الدَّرْسِ ذِكْرُ النبيّ الرَّسُولِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَام، واسْتِجَابَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَه بأنْ تكُونَ لَهُ ذُرِّيَّة.

وقَدْ سَبَقَ في الآيات الأُولى من (٢ ـ ١٥) من سورة (مَرْيم/ ٤٤ نزول) بَيَانٌ مُفصَّلٌ عَنْ دُعَاءِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلام، واسْتِجَابَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ دُعَاءَهُ، مَعَ دِرَاسَةٍ تكَامُلِيَّةٍ للنُّصُوصِ القرآنيَّة المتعلِّقَةِ بِهِ عَلَيْهِ السَّلام، فَلْيُرْجَعْ إليه(١) فَفِيه الاسْتِيعابُ المنْشُود.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لكلام رَبِّكَ وَبَيَانَاتِهِ؛ قِصَّةَ النبيّ الرَّسُولِ «زَكَرِيَّا» ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ حِينَ نَادَىٰ رَبَّهُ دَاعِياً طَالِباً أَنْ لَا يَتْرُكَهُ فَرْداً مُنْقَطِعاً، مَحْرُوماً مِنَ الذُّرِّيَّةِ في شَجَرَةِ نَسَبِهِ، كَفَرْعٍ انْتَهَىٰ الامْتِدَادُ مِنْ جِهَتِهِ عِنْدَهُ، فَصَارَ وَحِيداً فَرِيداً مُنْقَطِعاً، بَيْنَمَا تَمْتَدُّ الْفُرُوعُ الأُخْرَىٰ في شَجَرَةِ النَّسَبِ بالذَّراري مِنْ كُلِّ جوانب الشَّجَرَةِ.

ضَعْ هٰذَا في ذَاكِرَتِكَ لِتَسْتَفِيدَ مِنْهُ الْعِبْرَةَ والْعِظَةَ، وحِكْمَةَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ في تَلْبِيَةِ مَطَالِبِ عِبَادِهِ الصالِحِين.

وأثْنَىٰ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخِرِ دُعَائِهِ على رَبِّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أي: وأَنْتَ خَيْرُ مَنْ تَرْجِعُ كُلُّ الأَشْيَاءِ والأَحْيَاءِ إلى مَحْضِ مُلْكِهِ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَىٰ جَدُّك، وعَظُمَ سُلْطَانُكَ.

لفْظُ «الْوَارِثِ» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَحْضِ مِلْكِهِ كُلُّ شَيْءٍ جَعَلَ هُو لبَعْضِ عِبَاده تَمَلُّكاً صُورِيًّا له، وعَلَىٰ أَنَّهُ تَعُودُ إِلَيْهِ الأَشْيَاءُ الْمَمْلُوكَةُ هِيَ وَمَالِكُوهَا، مَعَ أَنَّ الحقيقَةَ أَنَّ مِلْكَ اللهِ لِلأَشْيَاءِ كُلِّهَا مُسْتَمِرٌّ لَا يَنْقَطِعُ، فَاللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هُو

---

(١) انظر الصفحات من (٣٧٦ ـ ٤١٢) من المجلد السابع من هذا الكتاب.

الْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ الْبَاقِي، الَّذِي يَرْجِعُ إلى مَحْضِ مِلْكِهِ وَتَصرُّفِهِ كُلُّ شَيْءٍ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بضمير المتكلّم العظيم:

- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

أي: فَقَبِلْنَا أَنْ نُحَقِّقَ لَهُ طَلَبَهُ في دُعَائِهِ، فَأَجْرَيْنَا المقادِيرَ الَّتِي تَحَقَّقَ بها أَنْ وَهَبْنَا لَهُ وَلَداً ذَكراً سَمَّيْنَاهُ يَحيَىٰ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ عَاقِراً فَأَصْلَحْنَاهَا لَهُ، وَجعَلْنَاهَا قَابِلَةً لِأَنْ تَحْمِلَ وَتَلِدَ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ سَبَبَ خَرْقِهِ لِلْعَادَةِ في إصْلاحِ زَوْجِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا أُسْرَةً صَالِحَةً تَقِيَّةً نَقِيَّةً فَقَالَ تَعَالَىٰ:

(١) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: أي: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ مِنَ الْأَقْوَالِ والْأَفْعَالِ والنيّاتِ والْأَخْلَاقِ.

(٢) ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾: أي: وَيَدْعُونَنَا فِي حَالَتَيْ الرَّغَبِ والرَّهَبِ، فإِذَا رَغِبُوا دَعَوْنَا لِتَحْقِيقِ مَا رَغِبُوا فِيهِ، وإِذَا رَهِبُوا دَعَوْنَا لِنَحْمِيَهُمْ مِمَّا رَهِبُوا مِنْهُ.

أي: وَيَدْعُونَنَا رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ.

(٣) ﴿... وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾: أي: وكانُوا لَنَا خَاضِعِين، خائِفين، سَاكِنِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ وَصَلواتِهِم.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السادس عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢١)

التدبُّر التحليلي للدّرس السابع عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآية (٩١)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

تَمْهيد:

في هَـٰذِهِ الآية حَدِيثٌ مُقْتَضَبٌ جدًّا عَنْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السّلام، وحَمْلِهَا بِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، بِخَارِقَةٍ للعادة دُونَ مُعَاشَرَةِ ذكر، إِذْ أَرْسَلَ اللهُ لَهَا فِي خَلْوَتِهَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَفَخَ في جَيْبِ صَدْرِهَا نَفْخَةً أَوْصَلَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ رَحِمِهَا، وعَقَدَ فِيهِ خَلِيَّةَ الْجَنِينِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ لِلْعَالَمِينَ، وبِهَـٰذِهِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَة اكْتَمَلَتْ فِي خَلْقِ النَّاسِ الآيَاتُ كُلُّهَا، إِذْ خَلَقَ اللهُ آدم عَلَيْهِ السَّلَام مِنَ الطِّينِ مُبَاشَرَةً مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ ولا أُنْثَىٰ، وخَلَقَ حَوَّاء مِنْ ذَكَرٍ دُون أُنْثَىٰ، وخَلَقَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام مِنْ أُنْثَىٰ دُونَ ذَكَرٍ، وخَلَقَ ويَخْلُقُ سَائِرَ النَّاسِ ضِمْنَ نظامِ التَّزَاوُجِ بَيْنَ الذُّكُورِ والإِنَاث.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر الآيَات من (١٦ ـ ٤٠) من سورة (مَرْيم) بَيَانٌ مُفَصَّلٌ بِشَأْنِ مَرْيَمَ وَحَمْلِهَا بِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السلام، مَعَ تَدَبُّرٍ تَكَامُلِيٍّ لِلنُّصُوصِ الْقرآنِيَّةِ المتَعَدِّدَةِ الْوَارِدَةِ بِشَأْنِهَا فِي مُخْتَلِفِ السُّور، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه.

التَّدبُّر التحليلي:

- ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ هَـٰذِهِ اللَّقْطَةَ مِنْ قِصَّة مَرْيَمَ الَّتِي صَانَتْ فَرْجَهَا وحَفِظَتْهُ مِن ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ والذُّنُوبِ، وهَـٰذِهِ شَهَادَةٌ مِنَ اللهِ لَهَا بِكَمَالِ عِفَّتِهَا،

وطَهَارَتِهَا، وحِفْظِهَا لِنَفْسِها مِنْ مُعَاشَرَةِ أيِّ رَجُلٍ، وَلَوْ كَانَتْ مَخْطُوبَةً له.

• ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾: أي: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا جِبْرِيلَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ كَمَا جَاءَ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ فَنَفَخَ فِيهَا، أي: في جَسَدِهَا مِنْ جَيْب دِرْعِها على صَدْرها، أو مِنْ مَكَانٍ آخر، نَفْخَةً سَلَكَتْ بأمْرِ اللهِ طَرِيقها إلىٰ فَرْجِها فَمَكَانِ حَمْلِها، فَتَمَّ بِأَمْرِنَا وَخَلْقِنَا حَمْلُهَا بِعِيسىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ.

• ﴿... وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾: أي: وجَعَلْنَا بِقُدْرَتِنَا عَلَىٰ مَا نَشَاءُ مَرْيَمَ إِذْ حَمَلَتْ بِغَيْرِ ذَكر، وابْنَهَا إِذِ انْعَقَدَ في بَطْنِ أُمِّهِ دُونَ أبٍ، بِنَفْخَةٍ نَفَخَهَا مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَتِنَا فِي جَسَدِهَا بأمْرٍ مِنَّا، وبِتَقْدِيرٍ وَقَضَاءٍ مِنَّا، وجَعَلْنَا ابْنَهَا فِي حَيَاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ؛ آيَةً عَظِيمَةً مِنْ آيَاتِنَا لِلْعَالَمِين، حَتَّىٰ يَعْلَمُوا أنَّا نَفْعَل في كَوْنِنَا مَا نَشَاء، فإذا شِئْنَا أَنْ نَخْرِقَ عَادَةً مِنْ عَادَاتِنَا خَرَقْنَاهَا، لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّا عَلَىٰ فِعْلِ مَا نَشَاءُ قَادِرُونَ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السابع عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٢)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٩٢ ـ ٩٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

القراءات:

(٩٢) • قرأ يعْقُوب: **[فَاعْبُدُونِي]** بإثْبَاتِ يَاء المتكلّم وصلاً ووقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاعْبُدُونِ]** بِحَذْفِ ياء المتكلّم.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرسِ بيانُ أَنَّ أُمَّةَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ أُمَّةٌ واحِدَةٌ، ولَكِنَّ النَّاسَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ خِلَافِ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ.

وفيها بيانُ أَنَّ عَاقِبَةَ كُلِّ عَامِلٍ تكون بِحَسَبِ عَمَلِهِ وَكَسْبِهِ.

التدبّر التحليلي:

بِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ (١٤) رسُولاً في السُّورَة مَعَ مُوجَزاتٍ مُخْتَزَلَاتٍ مِنْ قِصَصِهِمْ؛ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في الآية (٩٢) مِنْ هـٰذَا الدَّرسِ؛ أَنَّهُ خَاطَبَهُمْ وَكَذٰلِكَ سَائِرُ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام: بأَنَّهُمْ رُسُلُ أَمَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، ولَيْس كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَسُولاً لِأُمَّةٍ خاصَّةٍ بِهِ، مُنْفَصِلَةٍ عَنْ سَائِرِ الْأُمَمِ.

فالدِّينُ عِنْدَ اللهِ الإسْلَامُ، وكُلُّ مَوْضُوعٍ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في هـٰذِهِ الحياة الدُّنْيَا مُطَالَبٌ مِن اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَكُونَ مُسْلِماً، وأَنْ يَكُونَ وَاحِداً مِنَ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ.

وعَلَىٰ مَدَىٰ التَّاريخ الْبَشَرِيّ وَظُرُوفِهِ المتَقَلِّبَة؛ اصْطَفَىٰ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ رُسُلاً، يُبَلِّغُونَ مِنْ دِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ للنَّاسِ، وَهُوَ الإسْلام؛ مَا يُلائِمُ تَطَوُّرَهُمْ الْبَشَرِيِّ، فِكْرِيًّا واجْتِمَاعِيًّا.

إنَّ الدِّينَ بأُسُسِهِ الْكُلِّيَّةِ وَاحِدٌ، وإنَّ الرَّبَّ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ، وَإِنَّ النَّاسَ جَمِيعاً سُلَالَةُ إِنْسَانٍ واحِدٍ هو «آدمُ» عَلَيْهِ السَّلام، وإِنَّ الْبعْثَ والْحِسَابَ وفَصْلَ الْقَضَاءِ الرَّبَّانِيّ أمورٌ خَاضِعَةٌ لِنِظَام رَبَّانِيٍّ واحِدٍ، وفي الآخِرَة دَارَانِ، دَارُ نَعِيمٍ، وَدَارُ عَذَابٍ، والْمُمْتَحَنُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يُجَازَوْنَ فِيهِما عَلَىٰ سواء.

وعَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ جاءَهُم رَسُولٌ؛ أَنْ يُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللهِ ورسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام، دُونَ تَفْرِيقٍ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وغَيْرِهِ، إِذْ هُمْ جَمِيعاً أَنْبِيَاءُ اللهِ ورُسُلُهُ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ خَلْقِهِ، للنُّبُوَّةِ، أو للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ.

فَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام جَمِيعاً بِقَوْلِهِ:

- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾:

فَأَقْوَامُ الرُّسُلِ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ واحِدَةٌ، ورَبُّهُمْ رَبٌّ واحِدٌ هو رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَهُمْ مُطَالَبُونَ بِعِبَادَتِهِ، مُسْتَسْلِمِينَ لِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، أَوْ يَنْهَاهُمْ عَنْهُ.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾:

النِّداءُ في هَـٰذِهِ الآيَةِ للرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام، ولِكُلِّ قَوْمٍ آمَنُوا بواحِدٍ منهم، وَوَجَّهَ اللهُ لَهُمُ الْأَمْرَ بِأَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ، ويُفْهَمُ مِنْ وصْفِ مَا يَأْكُلُونَ مِنْهُ: بالطَّيِّبَاتِ؛ أَنْ يَجْتَنِبُوا الأَكْلَ مِنَ الْخَبَائِث. وَوَجَّهَ اللهُ لَهُمُ الْأَمْرَ بِأَنْ يَعْمَلُوا صَالِحاً، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَمَلِهِ، كإقامِ الصَّلَاة، وإيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَنَشْرِ دِينِ اللهِ والدَّعْوَةِ إِلَيْه، وَتَأْدِيَةِ النَّفَقَةِ الواجِبَةِ لمسْتَحِقِّيها، وكُلُّ شيءٍ أمَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ بِتَرْكِهِ أَوْ نَهَىٰ عَنْ فِعْلِهِ، فَكَفُّ النَّفْسِ عَنْ فِعْلِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ عَمَلٌ صالِحٌ، يُثِيبُ اللهُ عَلَيْهِ.

﴿... إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾: أي: إِنِّي بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيَّ مِنْ أعْمَالِكُمْ شَيْءٌ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ مُمَارَسَاتٍ لِأَشْيَاءَ، أو كَانَتْ تُرُوكاً لأشْيَاءَ. فإذَا كَانَتْ مِنَ الصَّالِحَاتِ فَلَكُمْ عِنْدِي ثَوابٌ عَلَيْهَا، يُلَائِمُ عَظَمَتِي وجَلَالِي وَجُودِي وَكَرَمي.

وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ مِنْ عَهْدِ آدم حَتَّىٰ بِعْثَةِ آخِرِ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلام هِيَ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ واحِدَةٌ، غَيْرُ مُتَفَاصِلَةٍ بالانْتِمَاءِ إِلَىٰ رُسُلِهَا، الَّذِينَ بَعَثْتُهُمْ لِتَبْلِيغ دِينِي الَّذِي اصْطَفَيْتُهُ للنَّاسِ أَجْمَعِين.

وَأَنَا رَبُّكُمْ جَمِيعاً فَاعْبُدُونِي، واتَّقُوا مَعْصِيَتِي وَمُخَالَفَتِي، فإذا عَبَدْتُمُونِي بما أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، أَدْخَلْتُكُمْ يَوْم الدِّينِ فِي جَنَّتِي وأَثَبْتُكُمْ ثَوَاباً عَظِيماً، وإِذَا عَصَيْتُمُونِي فَلَمْ تَتَّقُوا عِقَابِي عَاقَبْتُكُمْ عِقَاباً أَلِيماً، وجَعَلْتُ مُسْتَحِقِّي الْخُلُودِ في الْعَذَابِ الأَلِيم: خَالِدِينَ فِي النَّار.

لَكِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ مُتَّبِعُوا الرُّسُلِ ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ الَّذِينَ حَرَّفُوا في دِينِ اللهِ؛ أَمْرَ اللهِ لَهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا أُمَّةً رَبَّانِيَّةً واحِدَةً، يَعْمَلُونَ بِمَا يَأْتِي به الرَّسُولُ اللَّاحِقُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ دِينِ اللهِ لَهُمْ.

فَتَعَصَّبَ الصَّابِئُونَ للدِّينِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إِلَىٰ صَابِئ، على مَا دَخَلَ فِيهِ مِنْ تَحْرِيفٍ وَنِسْيَانٍ، وَكَأَنَّ الدِّينَ دِينُ صابِئٍ، ولَيْسَ دِينَ اللهِ للنَّاس.

وتَعَصَّبَ الْيَهُودُ للدِّينِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إلى مُوسَىٰ وهارون عَلَيْهِما السَّلام، على مَا دَخَلَ فِيهِ مِنْ تَحْرِيفٍ وَنِسْيَان، وكأَنَّ الدِّينَ دِينُ مُوسى وهَارُونَ عَلَيْهِما السَّلام، ولَيْسَ دِينَ اللهِ للنَّاسِ.

وَتَعَصَّبَ النَّصَارَىٰ للدِّينِ المحرَّفِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إلى عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وَكَأَنَّ الدِّينَ دِينُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، ولَيْسَ دِينَ اللهِ للنَّاس.

وَحجَبَ الْمُتَعَصِّبِينَ مِنْ أَتْبَاعِ هَـٰذِهِ الأَدْيَانِ تَعَصُّبُهُمُ الْبَاطِلُ؛ عَنِ اتِّبَاعِ خَاتَمِ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ ﷺ، الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ رَسُولاً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَأَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ قَافِلَةِ الأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْوَاحِدَة، الَّتِي بَدَأَتْ فِي عَهْدِ آدم عَلَيْهِ السَّلام، واسْتَمَرَّتْ حَتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الأَنْبِياءِ والْمُرْسَلِين، وَسَتَسْتَمِرُّ مَا دَامَ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، يَتَّبِعُ دِينَ اللهِ الَّذِي بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ محمَّدُ بْنُ عَبْد الله، عَلَيْهِ أَفْضَل الصلاةِ وأَتَمُّ التَّسْلِيمِ، ويُؤْمِنُ

بِجَمِيعِ الْأَنْبِياءِ والْمُرْسَلِين، صَلَواتُ اللهِ وَسَلَامَاتُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، لَا يُفَرِّقُ فِي الْإِيمانِ بَيْنَ أَحَدٍ وآخَرَ مِنْهم، وَلَكِنْ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَىٰ آخِرِ تَنْزِيلٍ أَنْزَلَهُ اللهُ لِعِبَادِه، مُبَيِّناً تَعَالِيمَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِلنَّاس.

وإيجازاً لِهٰذَا الْوَاقِعِ الَّذِي خَالَفَ به أتْبَاعُ الْأَدْيَان أَمْرَ اللهِ بِأَنْ يَكُونُوا أُمَّةً رَبَّانِيَّةً واحِدَة؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

- ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ... ﴿٩٣﴾﴾: أَيْ: وجَعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَلَاءَاتٍ لِأَدْيَانِهِمُ الْمُحَرَّفَةِ، وتَفَاصَلُوا فيما بَيْنَهُمْ أمماً مُتَفَرِّقَة، وأحْزَاباً مُتَعَادِيَةً مُتَخَالِفَة، وَخَرَجُوا عَنْ صِرَاطِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الواحِدَة.

وَأَنْذَرَهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّينِ بأُسْلُوبٍ كِنَائِيٍّ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿... كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وَزَادَ الْأَمْرَ بَيَاناً فِي سُورَةِ (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) فَقَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

- ﴿زُبُرًا﴾: أي: قِطَعاً مُتَفَرِّقَةً خَارِجَةً عَنْ صِرَاطِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيةِ الواحدة، أَيْ: قِطَعاً. **الزُّبْرَة**: القِطْعَةِ مِنَ الحَديدة، والجَمْع: زُبَر. **والزُّبُر**: جَمْعُ زَبُور وهو: الكتابُ المزْبور، أيْ: المَكْتوب.

- ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾: **الحِزْبُ**: الْجَمَاعَةُ الْمُتَّفِقَةُ المتَنَاصِرَةُ عَلَىٰ أَمْرٍ مَا، والجماعَةُ الَّذِينَ تَشَاكَلَتْ مَبادِئُهُم وأهْوَاؤُهُمْ.

- ﴿فِى غَمْرَتِهِمْ﴾: **الغَمْرَةُ**: الضَّلَالَةُ الَّتِي تَغْمُرُ صَاحِبَهَا.

أي: فَتَقَطَّعَ الْمُنْتَمُونَ إِلَىٰ الرُّسُلِ ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قِطعاً مُتَفَرِّقَةً خَارِجَةً عَن الأمَّةِ الواحدة، وَكَوَّنُوا أَحْزَاباً مُتَعادِيَةً

مُتَخالِفَةً فِي مَبادِئِها وَأَهْوائِها، وكُلُّ حِزْبٍ مِنْهُمْ فَرِحُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ تَحْرِيفَاتٍ فِي دِينِ اللهِ، يُرْضُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ، وتَجْعَلُ لِقَادَتِهِمُ الدِّيْنِيِّينَ زَعَامَاتٍ وَمَصَالِحَ وَمَنَافِعَ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا هُوَ لَهُمْ فِي دِينِ اللهِ الْحَقِّ، قَبْلَ التَّحْرِيفِ الَّذِي غَيَّرُوا بِهِ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ.

وتوجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ ولِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، بأسْلُوب الْخِطَاب الإفْرادِي؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾: أي: فاتْرُكْهُمْ في ضَلَالَتِهِمُ الْغَامِرَةِ لَهُمْ مِنْ كُلِّ جَوانِبِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ، تَسْقُطُ بالْفَتْحِ الإسْلَامِيِّ فِيهِ عُرُوشُهُمْ، وَتَنْدَحِرُ جُيُوشُهُمْ، أو حَتَّىٰ حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ تَنْتَهِي فِيهِ آجالُهُمْ، ويَلْقَوْنَ فِيهِ عَذَابَ رَبِّهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً غُرُورَهُمْ بِمَا يُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدنيا، كالمال والْبَنِينَ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيما آتاهم:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ... ﴿٥٦﴾﴾؟؟:

أي: أيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، لِنَبْلُوَهُمْ بها، ومِنْهَا الْمَالُ والْبَنُونَ؛ أَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّنَا نُسَارِعُ فِي مَنْحِهِمْ مَا يُحِبُّونَ مِنْ خَيْرَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ إكْراماً لَهُمْ وإنْعاماً، لِأَنَّهُمْ مُفَضَّلُونَ عِنْدَنا؟!.

لَا يَتَوَهَّمُوا هٰذَا التَّوَهُّمَ الْبَاطِلَ، فَإنَّ مِنْ حِكْمَتِنَا فِي دُنْيَا الامْتِحَانِ أَنْ نُمْلِيَ لِلظَّالِمِينَ، وَنُمِدَّهُمْ بِعَطَاءَاتِنَا، ثُمَّ نُعَاقِبَهُمْ عَلَىٰ جَرائِمِهِمْ عِقَاباً أَلِيماً.

وَأَبَانَ جَلَّ جَلالُهُ وَعَزَّ سُلْطَانُهُ؛ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّ إمْدادَهُمْ بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا؛ لَيْسَ دَلِيلاً عَلَىٰ إكْرامِنَا وإنْعامِنَا لَهُمْ، بَلْ هِيَ سُنَّتُنَا فِي امْتِحَانِنَا لِعِبادِنَا، فَقَالَ تَعالى:

﴿... بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾: **الشُّعُورُ**: أدْنَىٰ دَرَجاتِ الْعِلْمِ بالشَّيْءِ، ونَفْيُ الشُّعُورِ بالشَّيْءِ نَفْيٌ لِلْعِلْمِ بأدْنَىٰ دَرَجاتِ المعْرِفَةِ بِهِ.

أَمَّا بَقِيَّةُ النَّصِّ الَّذِي جاء في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول) فَهُوَ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

- ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

هَـٰذِهِ الآيَةُ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ بَعْض بُنُودِ قَانُونِ الجزاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدِّينِ، أَيْ: فَمَنْ يَعْمَلْ فِي الحياةِ الدُّنْيا ـ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ ـ شَيْئاً مِنَ الصَّالِحَاتِ، الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِعَمَلِهَا، أَوْ رَغَّبَ فِيهِ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِناً مُسْتَوْفِياً شُرُوطَ الْإِيمانِ المنْجِي عِنْدَ اللهِ؛ فَهُوَ سَعْيٌ يَشْكُرُهُ اللهُ لَهُ، وَلَا يَكْفُرُ مِنْهُ شيئاً، وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي سِجلِّ أعماله، تكتُبُهُ الملائكة بأَمْرِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثامن عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٣)

التدبُّر التحليلي للدّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآية (٩٥)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

القراءات:

- قرأ شُعْبَةُ، وحمزَةُ، وخلف: [وَحِرْمٌ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَحَرَامٌ].

حِرْمٌ وَحَرَامٌ كِلَاهُمَا بِمَعْنَىٰ: «المنع».

التَّدبُّر التَّحْلِيلي:

عَلِمَ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ الَّذِينَ قَضَىٰ أَنْ يُهْلِكَهُمْ؛ قَدْ وصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ مِنَ الكُفْرِ الْعِنَادِيّ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِن أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ إِلَىٰ مُسْتَوىٰ الْمَطْمُوعِ في اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، فَكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ تَنْفِيذِهَا ضِمْنَ سُنَّةِ اللهِ في تَصَارِيفِهِ بِعِبَادِه؛ أَنْ يُهْلِكَهُمْ، كَمَا أَهْلَكَ كُفَّارَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وَكُفَّارَ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكُفَّارَ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

ضِمْنَ هـٰذَا المعْنَىٰ يَنْبَغِي أَنْ نَفْهَمَ هـٰذِهِ الآيَةَ الَّتِي هِي دَرْسٌ مُنْفَصِلٌ مِنْ دُرُوسِ هـٰذِهِ السُّورَة.

فالْمَعْنَىٰ: وَمَنْعٌ عَلَىٰ أَهْلِ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، الميؤُوسِ مَعَهُ: مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ، أَنْ لَا نُهْلِكَهُمْ ضِمْنَ سُنَّتِنَا فِي تَصَارِيفِنَا بِعِبَادِنَا، بِسَبَب أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَىٰ مُسْتَوَىٰ المطْمُوعِ في استجابتهم عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّةِ، فَحَقَّ أَن نُهلِكَهُمْ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس العشرين من دُروس سورة (الأنبياء)

الآيتان (٩٦ و٩٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾:

القراءات:

(٩٦) ● قرأ ابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوبُ: **[فُتِّحَتْ]** بِتَشْدِيدِ التَّاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فُتِحَتْ]**.

يَظْهَرُ أَنَّ قِراءة «فُتِّحَتْ» رُوعي فيها حَال الَّذِينَ يُصَابُونَ بِبَلَاءٍ عَظِيمٍ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، إِذَا انْسَاحُوا نَحْوَ الشُّعُوبِ الْأُخْرَىٰ بِشُرُورِهِمْ.

وأَنَّ قراءة «فُتِحَتْ» رُوعِي فيها حَالُ الَّذِينَ يَكُونُ مُصَابُهُمْ بِشُرُور يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ غَيْرَ ذِي شِدَّةٍ عَظِيمَة.

(٩٦) ● قرأ عَاصِمٌ: **[يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ]** بهَمْزَةٍ سَاكِنَةٍ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَاجُوجُ ومَاجُوجُ]**.

ويَظْهَرُ أَنَّهُمَا نُطْقَانِ مَعْرُوفَانِ عِنْدَ الْعَرَبِ لِهؤلَاءِ الأقْوام.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ فَتْحِ يَأْجُوجَ ومأْجُوجَ، وعَنِ اقْترابِ الْوَعْدِ الْحَقِّ، وهو قِيامُ سَاعَةِ إِمَاتَةِ الأحياء وتَغْيِيرِ نِظَام الْحَيَاة الدُّنيا.

التدبّر التحليلي:

سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي سورة (الكهف/ ٦٩ نزول) حَدِيثٌ عَنْ يأجُوجَ ومأجُوجَ، وإقامَةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ السَّدَّ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ قَوْمٍ كَانُوا يُعَانُونَ أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ مِنْ شُرُورِهِمْ وإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْض.

وهُنَا في سُورَة (الْأَنْبِيَاء/ ٧٣ نزول) جاء حَدِيثٌ عَنْ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ وفَتْحِهِمْ، أي: فَتْحِ الْحَوَاجِزِ الرَّبَّانِيَّة الْقَائِمَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَقْوَامِ، وعَنِ انْسِيَاحِهِمْ مُفْسِدِينَ فِي الأرض، وهـٰذَا يَكُونُ مِن عَلَامَات اقْتِرَابِ قِيَامِ الْقِيَامَةِ، الَّتِي يَكُونُ بِها إِنْهاءُ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

وجاء في هـٰذِهِ السُّورَة بَيَانُ أَنَّهُمْ حِينَ يُفْتَحُونَ، وَيَنْسَاحُونَ فِي الْأَرْضِ خَارِجَ حُدُود بِلَادِهِمْ؛ يَنْسِلُونَ مِنْ كُلِّ حَدَب، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

- ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حَرْفٌ تَبْتَدِئُ بَعْدَهُ الْجُمَلُ الاسْمِيَّةُ والْفِعْلِيَّةُ، لَا عَمَلَ لَهُ، وَيُسَمَّى حَرْفَ ابْتِدَاء.

- ﴿إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾: فَتْحُ الْأَقْوَامِ يُشْبِهُ فَتْحَ حَوَاجِزِ الْأَنْهرِ، الَّتِي تَجْعَلُهَا تَتَدَفَّقُ سَيْلاً هَدَّاراً.

- ﴿... وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

الْحَدَبُ: هُوَ مَا ارْتَفَعَ وَغَلُظَ مِنَ الْأَرْضِ.

﴿يَنسِلُونَ﴾: أي: يُسْرِعُون. **والنَّسَلَانُ**: مِشْيَةُ الذِّئْبِ إِذَا أَسْرَعَ. وهو الْإِسْرَاعُ في المشْي دُون السَّعْي.

أي: ويَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ، حِينَ يُفْتَحُونَ وَيَنْسَاحُونَ خَارِجَ حُدُودِ بِلَادِهِمْ؛ يَكُونُونَ مُسْرِعِينَ للسَّلْبِ والنَّهْبِ والقَتْلِ والإفسادِ في الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ، إِذْ يَنْصَبُّونَ لِلْقِيَام بِشُرُورِهم انْصِبَاباً.

وَبَعْدَ أَنْ يَنْسَاحَ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدُونَ الْهَمَجُ الْأَشْرَارُ، يَكُونُ الْوَعْدُ الْحَقُّ بقيام سَاعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ قَدِ اقْتَرَب، فَفَتْحُ يَأْجوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ أَمَارَاتِ اقْتِرَابِ هَـٰذِهِ السَّاعة.

وعِنْدَئِذٍ تَشْخَصُ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ذُعْراً مِنْ قِيام السَّاعَة، وفي بيان هـٰذَا قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

- ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: يُقَالُ لُغَةً: شَخَص فُلَانٌ بِبَصَرِهِ، أي: فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَلم يَطْرِفْ بهما دَهْشَةً أَوْ خَوْفاً.

- ﴿يَوَيْلَنَآ﴾: أي: يَقُولُونَ مُتَحَسِّرِينَ مُتَفَجِّعِينَ حَزِينِينَ، خَائِفِينَ مِنْ مَصِيرِهِمْ: يَا وَيْلَنَا، أي: مَا أَشَدَّ مُصِيبَتَنَا، وَمَا أَسْوَأَ مَصِيرنا.
- ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾: أي: قَدْ كُنَّا غَارِقِينَ في غَفْلَةٍ، نَافِرِينَ مِنْ أَحَادِيثِ السَّاعَةِ وَقِيَامِها، غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَخْبَارَ الْمُرْسَلِينَ عَنْهَا.

جَاءَتِ التَّعْدِيَةُ بحرف «مِنْ» على تَضْمِينِ الْغَفْلَةِ مَعْنَىٰ النُّفُور.

والْغَفْلَةُ عَنِ الشيْءِ: هي الانْصِرَافُ الْحِسِّيُّ والفِكْرِيُّ عَنْ مُلَاحَظَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ، مَعَ وُجُودِهِ في مَجَالِ الإدْرَاكِ، أَوْ وُجُودِ أدِلَّتِهِ، وإمْكَانِ إدْرَاكِ ذَلِكَ لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِفِ أَوِ السَّهْوِ الَّذِي هُوَ بِمَثَابَةِ إِطْبَاقِ الْجَفْنَيْنِ عَلَىٰ الْعَيْنَيْن، وَمَا تُطْلَبُ رُؤيَتُهُ حَاضِرٌ في مَجَال النظر.

والمعرضُ عَنِ الإيمانِ بقيام السّاعَة شَغَلَتْهُ أهواؤه وشهواتُه في الحياة الدُّنيا؛ عَنِ التَّبَصُّرِ بِمَصِيرِهِ، والجزاء الرَّبَّانِي الَّذِي سُوف يُلَاقِيهِ.

وَبَعْدَ رُجُوعِهِمْ إِلَىٰ عُمْقِ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ يُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ، جاحِدِينَ الْحَقَّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ بَرَاهِينُ الْعَقْل، والنُّصُوصُ المنزَّلَةُ في كِتَابِ رَبِّ الْعَالَمِين، للنَّاسِ أَجْمَعِين، فَيَقُولُونَ مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

وأَوْلَىٰ مَا نَفْهَمُ بِهِ الْمُرَادَ مِنْ فَتْحِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَأَنَّهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ؛ مَا جَاءَ في الحديثِ الَّذِي رَواهُ مُسْلِمٌ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَان رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وَفِيهِ ذِكْرٌ للدَّجَال، ونُزُول عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّماء، وقَتْلهِ لَهُ بِبَابِ لُدٍّ، وَفِيهِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ إِلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشَأْنِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوج، وفيما يلي المقْطَعُ المتَعَلِّقُ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ:

«فبينَمَا هُوَ (أي عيسى عَلَيْهِ السَّلَام) كَذَلِكَ، إِذْ أَوْحَىٰ اللهُ إلى عِيسَىٰ: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَاداً لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحرِّزْ[1] عِبَادِي، إِلَىٰ الطُّورِ.

---

[1] أي: فبالِغْ بِحِفْظِ عِبَادِي المؤمنين، وخُذْهُمْ إلىٰ الطّور.

وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيها، ويَمُرُّ أَوَاخِرُهُمْ فيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَـٰذِهِ مَرَّةً ماء.

وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وأصْحَابُهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْراً مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ.

فَيَرْغَبُ⁽¹⁾ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وأصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ⁽²⁾ في رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَىٰ (أي: قَتْلَىٰ) كَمَوْتِ نَفْسٍ واحِدَة.

ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وأصْحَابُهُ إِلَىٰ الأَرْض، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ ونَتْنُهُمْ.

فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسىٰ وأصْحَابُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُخْت⁽³⁾، فَتَحْمِلُهُمْ، فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَراً لَا يَكُنُّ⁽⁴⁾ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَر، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ، حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كالزَّلَفَةِ⁽⁵⁾.

ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، ويَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا⁽⁶⁾، ويُبَارِكُ اللهُ فِي الرِّسْل (أي: في اللَّبَن)، حَتَّىٰ إِنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ⁽⁷⁾ مِنَ النَّاسِ، واللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، واللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لِتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ.

---

(١) أي: فَيَدْعُو ويَدْعُوا أصْحَابُهُ مَعَه رَبَّهُمْ.

(٢) **النغف**: دُودٌ يَكُونُ فِي أنوف الإبِلِ والغنم.

(٣) **الْبُخْت**: الإبل الخُرَاسَانية، وهي طويلة الأعْنَاق.

(٤) **لَا يَكُنُّ مِنْهُ**: أي: لَا يَسْتُرُ وَلَا يمْنَعُ مِنْهُ.

(٥) **كالزَّلَفَة**: أي: كالْمِرْآة.

(٦) **بِقِحْفِهَا**: أي: بِنِصْفِ قِشْرَتها.

(٧) **الفئام من الناس**: أي: الجماعَةُ مِنْهُم. **واللِّقْحَة**: اللَّبُون.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحاً طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلم، ويَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاس، يَتَهَارَجُونَ فيها تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ».

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس العشرين من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٥)

التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٩٨ ـ ١٠٠)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ مَعَ مَعْبُودَاتِهِمْ حَصَبُ جهَنَّم.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ تَعْذِيبِهِمْ يَوْمَ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً للمشْرِكِينَ عُبَّادَ الأَصْنَامِ والأَوْثَان:

• ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

الْحَصَبُ: صِغَارُ الْحِجَارَةِ، والْحَطَبُ، وكُلُّ مَا يُلْقَىٰ في النَّار مِنْ وَقُود.

- ﴿إِنَّكُمْ﴾: أي: يَا أَيُّهَا المشْرِكُونَ عُبَّاد الأَصْنَامِ.
- ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: ممَّا لَا يَعْلَمُ وَلَا يَعْقِلُ، وهي الأَصْنَامُ والأَوْثَان، فلَفْظُ «مَا» اسْمُ مَوْصُولٍ مَوْضُوعٌ في الأصْل لِمَا لَا يَعْقِلُ، وقَدْ يُرَادُ بِهِ العاقِلُ مَعَ غَيْرِهِ تَغْلِيباً، ولكِنَّ المُرَادَ هُنا مَا لَا يَعْقِل، أَمَّا مَنْ يَعْقِلُ لَا يَدْخُلُ جهَنَّمَ، إِلَّا إِذَا كَانَ رَاضِياً بِأَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ الله.
- ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: أيْ: أَنْتُمْ وَقُودٌ مِنْ وَقُودِ جَهَنَّمَ، كلَّما نَضِجَتْ جُلُودُكُمْ تَتَجَدَّدُ، وهٰذَا الْوَقُودُ يَتَعَذَّبُ باحْتِرَاقِهِ واشْتِعَالِهِ، وأَصْنَامُكُمْ كَصِغَارِ الْحِجارَةِ الَّتِي هِي مِنْ وَقُودِ جهَنَّمَ، أَمَّا كِبَارُ الْحِجارَةِ الَّتي هِيَ مِنْ وَقُودِ جَهَنَّم كذٰلك، فَهِيَ صُخُورٌ عَظِيمَةٌ قَدْ تكُونُ الصَّخْرَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا بِمَثَابَةِ جَبَل.

وَجَاءَ في سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قولُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً للكافِرِين:

﴿... فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وَجاءَ في سُورَةِ (التَّحْرِيم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) خِطَاباً للَّذِين آمَنُوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

وَجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفرُوا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾﴾.

هَـٰذِهِ النُّصُوصُ مِنَ السُّورِ الّتِي سَبَقَ بَيَانُها؛ مُكَمِّلَةٌ لِمَا جَاءَ في الآية (٩٨) مِنْ سُورَة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

- ﴿... أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾: وُرُودُ الْمَكَانِ: الإشْرَافُ عَلَيْه، وقَدْ يُصَاحِبُهُ الدُّخُولُ فيه، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا، لِأَنَّ الْخِطَابَ مُوَجَّهٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ حَصَبُ جهنَّم، يُقَالُ لُغَةً: «وَرَدَ الْمَكَانَ، وَوَرَدَ عَلَىٰ الْمَكَانِ» أي: أشْرَفَ عَلَيْهِ، دخَلَهُ أَوْ لَمْ يَدْخُلْه. يُقَالَ: «وَرَدَ، يَرِدُ، وُرُوداً» أي: حَضَر.

و﴿لَهَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿وَارِدُونَ﴾، أَصْلُ العبارة: «أَنْتُمْ وَارِدُونَـهَا»، ولِمُرَاعَاةِ رُؤُوسِ الآيَاتِ؛ قُدِّمَ الْمَعْمُولُ فَضَعُفَ عَمَلُ الْعَامِلِ «وارِدُونَ»، فجِيءَ بِلَامِ التقوية، وأدْخِلَتْ عَلَىٰ الضمير «لَهَا».

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَوْقِفاً مِنْ مَوَاقِفِ يَوْمِ الدِّينِ وَمَشْهَداً مِنَ مَشَاهِدِه، بَعْدَ إدْخَالِ المشْرِكِينَ وأَصْنَامِهِمْ فِي جَهَنَّم، وَهَـٰذَا المشْهَدُ يُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ بِالْعِبَارَةِ الَّتِي جَاءَتْ في قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

أي: لَوْ كَانَ هَـٰؤُلَاءِ الأَصْنَامُ آلِهَةً حَقًّا مَا وَرَدُوا جَهَنَّمَ وَدَخَلُوهَا حَصَباً، وَكَانُوا وَقُوداً مِنْ وَقُودِهَا.

وَجَاءَ التَّعْلِيقُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ المشْرِكِينَ وأَصْنَامِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾: أي: وَكُلٌّ مِنَ المشْرِكِينَ وأَصْنَامِهِمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشْرِكِينَ وَهُمْ فِي جَهَنَّم:

- ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

الزَّفِيرُ: إِخْرَاجُ النَّفَسِ مِنَ الصَّدْرِ بِقُوَّةٍ حَتَّىٰ الغَايَةِ، بَعْدَ مَلْءِ الصَّدْرِ

بِهِ. وَضِدُّهُ: «الشَّهِيقُ»، فَهُوَ أخْذُ النَّفَسِ بِقُوَّةٍ إلى دَاخِلِ الصَّدْرِ، حَتَّىٰ امْتِلَاءِ الرِّئَتَيْنِ بِهِ.

وَلَا يَكُونُ زَفِيرٌ إلَّا وَيَعْقُبُهُ شَهِيق، وإيجازاً فِي التعبير جاء في الآيَةِ ذِكْرُ الزَّفِيرِ فقط، لِيَفْهَمَ المتَدَبِّرُ أنَّ المعَذَّبِينَ في نَار جَهَنَّمَ، وَمِنْهُمُ المشْرِكُونَ عُبَّادُ الأصْنَامِ؛ لَهُمْ فيها زَفِيرٌ وشَهِيقٌ.

والمطْوِيُّ هُنَا جَاءَ مُصَرَّحاً بِهِ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (هود/ ٥٢ نزول):

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾:

● ﴿... وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾: أي: وهِمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ مَا يُمْتِعُ وَيَسُرُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ، أَمَّا مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْعَوِيلِ والصُّرَاخِ وَأصْوَاتِ قَذَائِفِ النَّارِ، وَتَفَجُّرَاتِ المتَفَجِّرَاتِ فِيها، ومِثْلِ قَوْلِ اللهِ لَهُمْ، وَهُوَ مَا جَاءَ في سُورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾؛ فَهُوَ مِمَّا يَزِيدُ في عَذَابِهِمْ، وَلَا يُحِبُّونَ أنْ يَسْمَعُوهُ، وَهُوَ لَدَىٰ التَّدْقِيقِ لَيْسَ سَمَاعاً.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (طه/ ٤٥ نزول) بِشَأْنِ حَالِ الْمُجْرِمِ وَهُوَ يُعَذَّبُ في جَهَنَّم:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: لَا يَمُوتُ فِيهَا مَوْتاً مُرِيحاً مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يَحْيَا فِيهَا حَيَاةً ذَاتَ رَاحَةٍ مِنَ الْعَذَابِ، فَنَفْيُ الحياة عَنْهُ نَفْيُ حَيَاةٍ خَالِيَةٍ مِنْ الْعَذَاب.

وَكَذَلِكَ لَا يَسْمَعُونَ سَمَاعاً مُمْتِعاً أَوْ مُؤْنِساً، بَلْ يَسْمَعُونَ سَمَاعاً يَزِيدُ فِي عَذَابِهِمْ، وَهٰذَا لَيْسَ فِي الحقيقَةِ سَمَاعاً، بَلْ هُوَ تَعْذِيب.

وبِهٰذَا انتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الحادي والعِشْرِينَ من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني والعشرين من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ (١٠١) لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٠٤)﴾:

القراءات:

(١٠٣) • قَرأ أبو جَعْفر: [**لَا يُحْزِنُهُمُ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا يَحْزُنُهُمُ**].

قال الجوهري: «حَزَنَهُ الأمْرُ» لُغَةُ قُرَيش. و«أَحْزَنَهُ الأَمْر» لُغَةُ تميم، اهـ، والمعنى واحد، **الْحُزْنُ**: ضِدُّ الْفَرَحِ والسُّرُور.

(١٠٤) • قرأ أبو جَعْفر: [**تُطْوَىٰ السَّمَاءُ**]، وهي على معنى أنَّ الله يَطْوِيها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**نَطْوِي السَّمَاءَ**] بِضَمير المتكلّم العظيم.

(١٠٤) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**لِلْكُتُبِ**] بالْجَمْع.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لِلْكِتَابِ**] بالإفراد.

والمؤدَّىٰ واحد، لأن المراد بالكتاب الجنسُ.

(١٠٤) • قرأ السُّوسِي، وأبُو جَعْفر، والأصبهاني عن وَرْش: [بَدَانَا] وصلاً ووقفاً.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بَدَأْنَا].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ بِشَأْنِ المؤمنينَ النَّاجِينَ يَوْمَ الدِّين مِنْ دُخول النَّار، يَوْمَ يَطْوِي اللهُ السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتب.

وقَدْ كَانَ المتبادر أَنْ أَجْعَلَ هـٰذَا الدَّرْسَ مُلْحقاً بالدَّرْسِ الحادي والْعِشْرِين، إلَّا أَنِّي آثَرْتُ هـٰذَا الْفَصْل، إذْ لَمْ أرْتَحْ إِلَىٰ مَا وَسَّعَ فِيهِ بَعْض المفَسِّرينَ مِنْ بَيَانِ سَبَبِ النُّزُولِ، ومجادَلَةِ «ابْنِ الزِّبَعْرَىٰ» الرَّسُولَ ﷺ حَوْلَ كَوْنِ بعضِ الْمَعْبُودِين مِن الملائِكَةِ، وبَعْضِ الْبَشَرِ الصَّالِحِينَ. إِذْ هُمْ لَا يَدْخُلُونَ فِي: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، لِأَنَّ «مَا» لَا تَقَعُ عَلَىٰ ذِي الْعِلْمِ والْعَقْل، ومِثْلُ هـٰذَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ عَرَب الحجاز، وَلا سيما أَهْلُ مَكَّة.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يَعْصِمُهُمُ اللهُ مِنْ عَذَاب جَهَنَّمَ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾:

الْحَسِيسُ: مَصْدَرٌ لِفِعْلِ «حَسَّ الشَّيْءَ، وَحَسَّ بِهِ» أي: أَدْرَكَهُ بإحْدَىٰ حوَاسِّهِ. فَمَعْنَىٰ ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾: لَا يَسْمَعُون صَوْتاً مِنْهَا تُدْرِكُهُ فِي الْعَادَةِ حَاسَّةُ السَّمْعِ، بِسَبَبِ بُعْدِهِمُ الشَّاسع عَنْهَا، وَهُمْ يُنَعَّمُونَ في جَنَّاتِ النعيم.

والْمَعْنَىٰ فِيما أَرَى: إِنَّ المؤمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَجَاءَتْهُم

الْبِشَارَةُ عِنْدَ مَوْتِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، بِأَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَلَا يَدْخُلُونَهَا، فَسَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْبِشَارَةُ الْحُسْنَىٰ بِهَـٰذَا، قَبْلَ الْحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، يَوْمَ الدِّينِ؛ أُولَـٰئِكَ الْفُضَلَاءُ رَفِيعُو المنزلَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ؛ عَنْ جَهَنَّمَ مُبْعَدُونَ، وَفِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يُنَعَّمُونَ، وَحِينَ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ يُنَعَّمُونَ؛ لَا يَطْرُقُ سَمْعَهُمْ صَوْتٌ مَا مِمَّا يُسْمَعُ عَادَةً مِنْ أَصْوَاتِ جَهَنَّمَ وَأَصْوَاتِ الْمُعَذَّبِينَ فِيها، لِئَلَّا يَتَكَدَّرُوا بِسَمَاعِ هَـٰذِهِ الْأَصْوَاتِ المزْعِجَةِ.

وهُمْ فيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ؛ مُنَعَّمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَخَالِدُونَ خُلوداً أَبَدِيًّا فيها.

وَلَا يَتَعَارَضُ هَـٰذَا مَعَ مَا جَاءَ في الآيَتَيْنِ (٧١ و٧٢) من سورة (مريم/ ٤٤ نُزُول) بِشَأْنِ وُرُودِ المؤمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ عَلَىٰ جَهَنَّمَ، لِأَنَّ مَا جَاءَ فِيهِمَا هُوَ الْوُرُودُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، الَّذِي يُضْرَبُ عَلَىٰ وَسَطِ أَعْلَىٰ جَهَنَّمَ مِنْ حَافَّةٍ إِلَىٰ الْحَافَّةِ الْمُقَابِلَةِ لَهَا، فَهُو بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِن رَبِّهِمُ الحسْنَىٰ يَكُونُ وُرُودُهُمْ جهَنَّمَ وُرُودَ إِشْرَافٍ سَرِيعٍ قَبْلَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ، كَمَا سَبَقَ لَدَى تَدَبُّر هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ في سورة (مريم/ ٤٤ نزول)، وَلَا يُصَاحِبُهُ شَيْءٌ مِمَّا يُعَكِّرُ صَفْوَهُمْ أَوْ يُؤْذِيهِمْ.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: هَـٰذَا البيانُ يَتَعَلَّقُ بِحَالِ المؤمنينَ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ في الدُّنْيَا، بَعْدَ صُدُور الْحُكْمِ بِدُخُولِهِمُ الجنَّةَ، وَأَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الدُّخُولِ في دَارِ الْعَذَابِ النَّار.

هَـٰؤُلَاءِ الْفُضَلَاءُ ذَوُو المنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ؛ قَدْ سَبَقَتْ لَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَبَعْدَ مَوْتِهِمْ الْبُشْرَىٰ الْحُسْنَىٰ، بِأَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الدُّخُولِ في النَّار، وبأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيم، وَقَدْ جَاءَ هَـٰذَا فِي الصَّحِيحِ الْقَطْعِي مِنَ النُّصُوصِ الدِّينِيَّة، فَلَا مَجَالَ لِلْعُدُولِ عَنْه.

الْحُسْنَىٰ: وَصْفٌ لِذَاتِ صِفَةٍ هِي الأَحْسَنُ مِنْ غَيْرِهَا، وَأَوْلَىٰ مَا نُقَدِّرُه «الْبُشْرَىٰ»، أي: سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْبُشْرَىٰ الحسْنَىٰ.

- ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾: أي: أولٰئِكَ الْفُضَلاءُ ذَوُو المنازِلِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَنا عَنْ جَهنَّمَ مُبْعَدُون إبْعاداً سَحِيقاً.

- ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾: أي: لَا يَسْمَعُونَ صَوْتاً مِنْهَا تُدْرِكُهُ في الْعَادَةِ حَاسَّةُ السَّمْعِ، لِئَلَّا تَشْمَئِزَّ نُفوسُهُم مِنْ سَمَاعِ أصْوَاتٍ كَرِيهَةٍ مِنْ جَهَنَّم.

- ﴿... وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾: أي: وهُمْ خَالِدُونَ خُلُوداً أَبَدِيًّا لا نِهَايَة لَهُ، فِي مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ كُلِّ مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ، مِنْ كُلِّ جِنْسٍ، وَكُلِّ نَوْعٍ، وَكُلِّ صِنْف.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ هَـٰؤُلَاءِ الْفُضَلاءِ ذَوِي المنازِلِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين:

- ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾:

الْحُزْنُ: مَشَاعِرُ أَلَم في النَّفْسِ طَوِيلِ الأمَدِ، بِسَبِبِ مَحْبُوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فِيهِ قَدْ فَاتَ، أَوْ بِسَبَبِ مَكْرُوهٍ نَازِلٍ أَوْ مُتَوقَّعِ النُّزُولِ، كالْحُزْنِ عَلَىٰ مَحْكُومٍ عَلَيْه بالْقَتْل.

الْفَزَعُ: الْخَوْفُ والذُّعْرُ الّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثَارُ نُفُورٍ في حَرَكَاتِ الْجِسْمِ. والْفَزَعُ الأَكْبَرُ يَكُونُ عَقِبَ بَعْثِ النَّاسِ لِتَلَقِّي أَحْدَاثِ وَوَقَائِعِ يَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الْجَزَاءِ الأَكْبَرِ، فَالْكَافِرُونَ وَمُرْتَكِبُو كَبَائِرِ الإثم؛ يَفْزَعُونَ مِمَّا سَيُلَاقُونَ مِنْ جَزَاءٍ كَانُوا قَدْ أُنْذِرُوهُ. والمقصِّرُونَ يَحْزَنُونَ إذْ يَنْجَلِي لَهُمْ بِوُضُوحٍ عِنْدَ مُشاهَدَةِ بَعْضِ الأحْداثِ أَنَّهُمْ فَوَّتُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ثَواباً عَظِيماً، كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ السَّهْلِ عَلَيْهِم أَنْ يَظْفَرُوا بِهِ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا تَحَمَّلُوا مُخَالَفَةَ نُفُوسِهِمْ فِي تَرْكِ أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ مِن الصَّعْبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتْرُكُوها، أَوْ في فِعْلِ أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوهَا.

أَمَّا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْبُشْرَىٰ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الْبُشْرَيَاتِ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَبَعْدَه؛ فَإِنَّهُمْ في أَمْنٍ نَفسيٍّ تَامٍّ، فَلَا تُفْزِعُهُمُ الْأَحْدَاثُ الْجَسِيمَاتُ المثِيرَاتُ لِلْفَزَعِ الْأَكْبَرِ في قُلُوبِ وَنُفُوسِ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ أَنَّهُمْ فَوَّتُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَجراً عَظِيماً فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، فَقَدْ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ أَحْسَنُ الْبُشْرَيَاتِ بأَحْسَنِ الثَّوَابِ الْعَظِيم.

- ﴿... وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

- ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: أي: وَتَلْقَاهُمْ مَلَائِكَةُ التَّكْرِيم، وَرُبَّمَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ المَلأِ الْأَعْلَىٰ، بِحَفَاوَةٍ وَتَكْرِيم، عَامِدِينَ قَاصِدِينَ لِقَاءَهُمْ آناً فَآناً، أَخْذاً مِنْ صِيغَةِ «تَفَعَّلَ» الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ التَّكَلُّفِ والتَّدَرُّج، وَتُحْمَلُ (ال) في «الْمَلَائِكَةِ» عَلَىٰ أَهْلِ الكَمَالِ فيهم.

- ﴿... هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾: أي: تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ حِينَ تَتَلَقَّاهُمْ: هـٰذَا يَوْمُكُمُ الْعَظِيمُ الَّذِي سَتَكُونُونَ فِيهِ سُعَدَاءَ أبداً في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي كُنْتُمْ في الدُّنْيَا تُوعَدُونَهُ.

وَهـٰذَا التَّلَقِّي قَدْ يَكُونُ قَبْلَ دُخُولِهِم الجنَّة، وَيَكُونُ أَيْضاً عِنْدَ دُخُولِهِم الْجَنَّة، وَيَكُونُ أَيْضاً وَهُمْ فِيهَا زِيَادَةً في الإينَاسِ والتَّكْرِيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ بَعْضَ بَيَانٍ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بضمير المتكلّم العظيم:

- ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

- ﴿نَطْوِى﴾: الطَّيُّ ضَمُّ بَعْضِ الشيء عَلَىٰ بَعْضٍ، أَوْ لَفُّ بَعْضِ الشَّيْءِ فَوْقَ بَعْض.

﴿ٱلسِّجِلِّ﴾: يَطْلَقُ عَلَىٰ الْكَاتِبِ، وَعَلَىٰ الْكِتاب.

أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مِنَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ الْأُولَىٰ، والَّتِي يَتِمُّ بِهَا إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ أَنْ يَطْوِي اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ السَّمَاءَ كُلَّهَا، الشَّامِلَةَ لِلسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا فِي دَاخِلِهَا مِنْ أَشْيَاءَ، وَمِنْهَا كُرَةُ الْأَرْضِ، كَطَيِّ الْكَاتِبِ لِلْكِتَابِ أَوْ لِلْكُتُب، فَيَضُمُّ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْض، أَوْ يَلُفُّ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَيُنْهِي كُلَّ نِظَامِهَا الْقَائِمِ الآن.

وَبَعْدَ ذَلِكَ يُؤَسِّسُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ كَوْناً جَدِيداً لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، فَيُعِيدُ بِنَاءَ الكَوْنِ الْجَدِيدِ لِهَـٰذِهِ الْحَيَاةِ، كَمَا بَدَأَ أَوَّلَ خَلْقٍ لِلْحَيَاةِ الْأُولَىٰ، وَلَا يَشْمَلُ هَـٰذَا الجَنَّة والنار.

وهَـٰذَا الْأَمْرُ الَّذِي يُخْبِرُ به اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَهُ وَعْداً، عَلَيْهِ أَنْ يُحَقِّقَهُ لَا مَحَالَة، إِنَّهُ ـ عَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَا يُخْلِفُ الْمِيعاد، وإِنَّهُ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتْماً.

﴿... إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾: أي: إِنَّا سَوْفَ نَكُونُ فَاعِلِينَ هَـٰذَا مُسْتَقْبَلاً، فَفِعْلُ «كَانَ» مُسْتَعْمَلٌ هُنَا بِمَعْنَىٰ الاسْتِقْبَال، وهَـٰذَا أَحَدُ اسْتِعْمَالَاتٍ أَرْبَعَةٍ لِفِعْلِ «كان»، وهي: «الماضي، والْحَال، والاسْتِقْبَال، والاسْتِمْرَار».

وبهَـٰذَا تَمَّ تَدَبُّرُ الدّرس الثاني والعشرين من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٧)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثالث والعشرين من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (١٠٥ و١٠٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

القراءات:

(١٠٥) • قَرَأَ حمزَةُ، وخَلَف: **[فِي الزُّبُورِ]**، وهو جمعٌ مُفْرَدُهُ: «الزِّبْرُ»، وهُوَ المكْتُوب، فمعنى «الزُّبور»: الكُتُب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فِي الزَّبُورِ]**، ومعناهُ في اللُّغَةِ: الكِتَابُ المزْبُور، يقال لغة: «زَبَرَ الكِتَابَ» أي: كَتَبَهُ، أو أَتْقَنَ كتابته. وغَلَبَ إِطْلَاقُ لَفْظِ «الزَّبُور» عَلَىٰ الكتاب الَّذِي آتاهُ اللهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام.

فبين القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ، أي: في كِتَابِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، وفي كُتُبٍ أُخرَىٰ مِنْ كُتُبِ بَنِي إِسْرَائيل.

(١٠٥) • قرأ حمزة وَصْلاً: **[عِبَادِيْ الصَّالِحُونَ]** بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِفَتْحِ يَاءِ المتكلّم.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنّ الأَرْض(وهيَ الأَرْضُ الْمُقَدَّسَة فِي الشَّام حَوْلَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ = فِلِسْطِين) يَرِثُها عِبَادُ اللهِ الصَّالِحُونَ، المؤمِنُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاة، ويَعْمَلُونَ بأَحْكَامِ شَرِيعَةِ اللهِ لِعِبَادِهِ، ويَعْبُدونَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شيئاً.

التدبّر التحليلي:

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً خَبراً تَارِيخيًّا سَيأْتِي مَسْبُوقاً بِتَقْدِيرِهِ وقَضَائِهِ، فَهُوَ أَمْرٌ حَتْمِيٌّ التَّحْقيقِ:

- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

- ﴿وَلَقَدْ﴾: اللّامُ وَاقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ، ولفظ «قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيق، وهٰذَا التوكيد مُوَجَّهٌ للشَّاكِّينَ، والْمُنْكِرِينَ.

- ﴿كَتَبْنَا﴾: الكِتَابَةُ تَكُونُ لِمَعْلُوم سَابقٍ لَهَا، وهٰذَا الْمَعْلُومُ إِذَا كَانَ مُتَضَمِّناً خَبَراً عَمَا سَيَحْصُلُ أَوْ سَوْفَ يَحْصُلُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَصَائِصِ الْعِلْم الرَّبَّانِيّ، وَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ، وَكُلُّ مَعْلُوم رَبَّانِيّ عَنِ المسْتَقْبَلِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحقَّقَ عَلَىٰ وَفْقِ مَا سَبَقَ بِهِ الْعِلْمِ.

- ﴿فِى ٱلزَّبُورِ﴾: أي: فِي الكِتَابِ الَّذِي آتاهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَام، أخذاً مِنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول):

﴿. . . وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

وَقِراءَةُ: [فِي الزُّبُورِ]: أي: فِي كُتُبٍ أُخْرَىٰ مِنْ كُتُبِ بَنِي إِسْرائيل غير كتاب دَاوُد عَلَيْهِ السَّلام؛ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هٰذَا المكْتُوبَ الْعِلْمِيَّ مَوْجُودٌ أَيْضاً فِيما يُنْسَبُ إِلَىٰ غَيْرِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام مِنْ أنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ كُتُبٍ، غَيْر كتاب موسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلام.

- ﴿. . . مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾: أي: مِنْ بَعْدِ التَّوْرَاةِ الَّتِي كَتَبْنَا فِيهَا هٰذَا النَّبأَ الْخَبرِيَّ المسْتَقْبِلِيّ، فَقَدْ سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ التَّوْرَاةَ في القرآن: «ذِكْراً»، كَمَا سَمَّىٰ الْقُرْآنَ «ذِكْراً».

- ﴿. . . أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

مِنَ الْمُرَجَّحِ بِلَا شُبْهَةٍ أَنَّ الْمُرَادَ بالْأَرْضِ هِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَة حَوْل الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ، وهِي فِلِسْطِينُ، وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي كَانَ قَدْ وَعَدَ اللهُ بِهَا بَنِي إسْرائيل، وَلَكِنْ جَعَلَ مِيرَاثَها مِنْ بَعْدِ فَسَادِهِمْ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ وَعْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأن يَمْنَحَهُمْ إِيَّاهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الْمَائِدَة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾:

فَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي يَعْتَنِي البيانُ الرَّبَّانِيُّ بِأَنْ يَكْتُبَهُ فِي التَّوراةِ، وفي الزَّبُور، وَفِي كُتُبٍ أُخرَىٰ مِنْ كُتُبِ أنبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائيل عَلَيْهِم السَّلَام، لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ عَطَاءَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ لَهُمْ لَيْسَ عَطَاءً دَائِماً، إِنَّما هُوَ عَطَاءٌ مَشْرُوطٌ بِأَنْ يَكُونُوا صَالِحِينَ لإِقَامَةِ دِينِ اللهِ، فإِذَا فَسَدُوا سَلَبَهَا اللهُ مِنْهُمْ وَأَوْرَثَهَا عِباداً صَالِحِينَ غَيْرَهُمْ، لِإِقَامَةِ دِينِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَهٰذَا هُوَ الَّذِي تَحَقَّقَ فِي تَارِيخِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَة، فَلَقَدْ مَنَحَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا أَيَّام «طَالُوت»، واسْتَمَرَّتْ تَحتَ سُلْطَانِهِمْ فِي عَهْدَي دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وَزَمَنٍ لَيْسَ بِطَوِيلٍ بَعْدَ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَام، فَلَمَّا فَسَدُوا سَلَبَهَا اللهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَلَّمَهَا لِلنَّصَارَىٰ فَلَمْ يَكُونُوا صَالِحِينَ، ثُمَّ سَلَّمَهَا لِعِبادِه الصَّالِحِينَ الْمُسْلِمِينَ، فِي عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَبَعْدَ قُرُونٍ فَسَدَ حَالُ سُكَّانِهَا الْمُسْلِمِينَ، فَغَلَبَهُمُ النَّصَارَىٰ، وَبَعْدَ قَرْنٍ أَوْرَثَهَا اللهُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَهْدِ صَلَاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِي رَحِمَهُ الله وَجِهَادِهِ المظفر.

وَهَكَذَا يَبْقَىٰ مِيرَاثُ هٰذِهِ الْأَرْضِ لِعِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، مَهْمَا تَآمَرَ

الْعَالَمُ الْكَافِرُ عَلَىٰ انْتِزَاعِهَا مِنْهُمْ، وَيَكُونُ تَسْلِيطُ اللهِ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِيها؛ بِسَبَبِ مَعَاصِيهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم.

والْعِبَادُ الصَّالِحُونَ الْوَارِثُونَ لَهَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاة، وَيَعْمَلُونَ بأحْكَامِ شَرِيعَةِ اللهِ لِعِبَادِهِ، وَيَعْبُدُونه لَا يُشْرِكُون بِعِبَادَتِهِ شيئاً.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ بَيَانِ وَارِثِي الْأَرْضِ المقَدَّسَة:

- ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾: أي: إِنَّ فِي هَٰذَا الْبَيَانِ بِشَأْنِ وَارِثِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فِي بِلَادِ الشَّام؛ لَبَلَاغاً يَنْتَفِعُ بِدَلَالَتِهِ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ حَرِيصُونَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا عَابِدِينَ لِرَبِّهِمْ، وَمُحَافِظِينَ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْ لَهُ بِمَا يُرْضِيهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ، وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُونَ مُؤَهَّلِينَ لِأَنْ يُورِثَهُمُ اللهُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فِي بِلَادِ الشَّام. وحِينَ لَا يَكُونُونَ صَالِحِينَ وَعَابِدِينَ رَبَّهُمْ بِمَا يُرْضِيهِ؛ فَإِنَّ اللهَ يَسْلُبُهُمُ الميرَاث، وَيُمَكِّنُ أُمَماً أُخْرَىٰ مِنَ التَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ وَطَرْدِهِمْ، كَمَا سَلَّطَ اللهُ «نَبُوخَذْ نَصر» عَلَىٰ الْيَهُودِ فَسَاقَهُمْ عَبِيداً إِلَىٰ بِلَادِهِ، وأَخْرَجَهُمْ مِنْ فِلَسْطِينَ كَقُطْعَانِ الْبَهَائِمِ مُعَذَّبِينَ.

ويَلْمَحُ المتدبِّرُ الْمُتَعَمِّقُ إِشْعَاراً ضِمْنِيّاً لِلْمُشْرِكِينَ في مَكَّةَ، بِأَنَّ عِبَادَ اللهِ الصَّالِحِينَ هُمُ الَّذِينَ سَيَكُونُون الوارثِينَ لَهَا بَعْدَ حين.

وبِهَٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثَالِثِ والعشرين من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع والعشرين من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (١٠٧ ـ ١١٢) آخِر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

القراءات:

(١١٢) ● قرأ حفصٌ: [**قَالَ رَبِّ احْكُمْ**]، بالفعل الماضي وكَسْرِ الباءِ المشدَّدَةِ.

وقرأها أبو جَعْفر: [**قُلْ رَبُّ احْكُمْ**]، بِفِعْلِ الأمر وضمّ الباءِ المشدَّدَةِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**قُلْ رَبِّ احْكُمْ**]، بِفِعْلِ الأمْر وكَسْرِ الباءِ المشَدَّدَة.

بَيْنَ «قَال» و«قُلْ» تكامُلٌ فِكْرِي، أي: قَالَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ «قُلْ»، فنفَّذَ الْأَمْرَ، فَ «قَالَ»، وهذه قراءَة حفص.

و«رَبِّ» و«رَبُّ» وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جائِزَان.

● قَرَأَ ابنُ ذَكْوان بِخلف عَنْهُ: [**يَصِفُونَ**].

وَقَرَأَهَا بَاقي القُرَّاء العَشَرةِ: [**تَصِفُونَ**].

تَمْهيد:

في هَـٰذِهِ الآيَـاتِ مِنْ هَـٰذَا الدَّرْسِ الَّذِي هُوَ آخِرُ دُرُوس السُّورة؛ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، يَتَضَمَّنُ تَعْلِيماً دَعوِيًّا يُنَاسِبُ الْمَرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها هَـٰذِهِ السُّورة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بضَمِير المتكلِّمِ العظيم:

● ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾:

أي: وَمَا اصْطَفَيْنَاكَ نَبِيًّا نُوْحِي إِلَيْكَ، وما اخْتَرْنَاكَ رَسُولاً لِلإِنْسِ والْجِنِّ، وَخَاتماً لِلأَنْبياءِ ولِلْمُرْسَلِين؛ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

كَلِمَةُ «رَحْمَةً» مَنْصُوبَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا حَال، وصَاحِبُ هَـٰذِهِ الحال إِمَّا أَنْ يَكُونَ فَاعِلُ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾، وَهو «نَا»، أو المفْعُول به وهو «كَ».

فَعَلَىٰ أَنَّ صَاحِبَ الْحَالِ «نَا» ضَمِيرُ المتكلِّم العظيم؛ فالْمَعْنَىٰ أَنَّ إِرْسَالَ اللهِ لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ؛ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَثَراً مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ لِلْعَالَمِين.

الرَّحْمَة: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَة، وهي صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ نُثْبِتُهَا للهِ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ مَا يليق بِجَلَالِهِ وعظيم صِفَاتِهِ الحسنى، ومِنْ آثَارِهَا الْعَطَاءُ، والمعُونَةُ، والتَّوْفِيقُ، وإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، والإِمْدَادُ بِمَا يَسُرُّ، إِلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَحَابِّ الْعِبَادِ.

وَعَلَىٰ أَنَّ صَاحِبَ الحال «ك» ضَمِير الخطاب للرَّسُولِ ﷺ؛ فالمعنَىٰ أَنَّ رَسُولَ اللهِ محمّداً ﷺ هُوَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِين، أي: راحِمٌ لَهُمْ رَحْمَةً مِنْ أَسْمَىٰ دَرَجَاتِهَا الْبَشَرِيَّة، بِسَبَبِ حِرْصِهِ الشَّدِيدِ عَلَىٰ أَنْ يُنْقِذَ الْعَالَمِينَ مِن شَقَاء الدُّنْيَا، وَعَذَابِ اللهِ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْم الدِّين، وعَلَىٰ أَنْ يَظْفَرُوا بالنَّعِيمِ الأَبَدِيّ الْخَالِدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين.

وَهو أَيْضاً بِمَثَابَةِ رَحْمَةٍ لَهُمْ لِأَنَّهُ يَحمِلُ لَهُمْ وَيُبَلِّغُهُمْ أَعْظَمَ دِينٍ، ذي هِدَايَةٍ مُثْلَىٰ تُنْجِيهِمْ إِذَا اتَّبَعُوهَا وَعَمِلُوا بِمَا جَاءَ فِيها مِنْ شَقَاء الدُّنْيا

وَعَذَابِ الآخِرَة، وَتُظْفِرُهُمْ بالسَّعَادَةِ الأبَدِيَّةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدِّين.

• ﴿... لِلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾: أُطْلِقَ لَفظُ الْعَالَمِينَ في الْقُرآنِ عَلَىٰ كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأُطْلِقُ على الملائِكَةِ والْإِنْسِ والْجِنِّ فقط، وأُطْلِقَ عَلَىٰ الْإِنْسِ فقط، وأُطْلِقَ عَلَىٰ الإِنسِ والْجِنّ، وَهٰذَا الإطْلَاقُ الْأَخِيرُ هُوَ المناسِبُ هُنَا واللهُ أَعْلَمُ، لِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ الإِنْسِ والْجِنِّ مِنْ بَعْدِ بِعْثَتِهِ، ولا يُوجَدُ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ رِسَالَتَهُ ﷺ تَزِيدُ على هذا الحد.

والقصر في الآية بالنفي والاستثناء قَصْرٌ إِضَافِي عَلَىٰ مَا يَظهر.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُكَلِّفُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُوَجِّهَ بَيَاناً دَعوِيًّا للإنس والجنّ:

• ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: قُلْ لِمَنْ تُبَلِّغُهُم دِينَ اللهِ لَهُم بِشَأْنِ الإلَهِيَّة: مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي الَّذِي بَعَثَنِي رَسُولاً لِلْعَالَمِين، حَوْلَ مَوْضُوع الآلِهَةِ المتَعَدِّدَةِ والإلَٰهِ الْوَاحِدِ؛ مَا إِلَٰهُكُمُ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ رَبٌّ لَكُمْ، وَلَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ في الوجُودِ كُلِّهِ؛ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ هُوَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿... فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾: أي: فَهَلْ تُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ الرَّبَّانِي، وَهَلْ تُسْلِمُونَ للهِ رَبِّكُمْ، فَتَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شيئاً.

فِي هَٰذِهِ الْجُمْلَةِ دَعْوَةٌ إِلَىٰ الْإيمانِ المطْوِيِّ ضِمْنَ الدَّعْوَةِ إلى الإِسْلَام، بِأَرَقِّ أسْلُوبٍ وَأَلْطَفِهِ، وَهُوَ أُسْلُوبُ الْعَرْضِ بالاسْتِفْهَامِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يتابعُ التَّعْلِيم الدَّعوِيَّ للرَّسُولِ ﷺ:

• ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أي: فَإِنْ أَدَارُوا لِدَعْوَتِكَ ظُهُورَهُمْ وابْتَعَدُوا، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا وَأَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِيَّاتِهِمْ.

- ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: **آذَنْتُكُمْ**: أي: أَعْلَمْتُكُمْ.

عَلَىٰ سَوَاءٍ: أي: عَلَىٰ أَمْرٍ هُوَ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أي: مُسْتَوٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، لَا نُعْطِيكُمْ فِيهِ إِلَّا مَا تُعْطُونَنَا أَنْتُمْ فِيهِ.

ولَدَىٰ التَّفَكُّرِ في هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا السُّورَة، مِنْ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ الْمَكِيَّةِ الَّتِي قَارَبَتْ على الانْتِهَاء؛ نُدْرِكُ أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يَحْسُنُ أَنْ يُعْلَنَ بَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ والْمُسْلِمِينَ مِنْ جِهَة، وبَيْنَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْك مِنَ الْجِهَةِ الْمُقَابِلَة، هُوَ الإعْلَامُ بالْمُقَاطَعَةِ والْمُفَاصَلَةِ والشِّقَاقِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَقَدِ اسْتَنْفَدَتْ دَعْوَةُ الْحَقِّ مُعْظَمَ وَسَائِلِهَا، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُلَايَنَةِ جَدْوَىٰ، وَصَارَ إعْلَانُ الْمُفَارَقَةِ والْمُفَاصَلَةِ والْمُقَاطَعَةِ، هو الأَمْرُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُلْجَأَ إِلَيْهِ.

فالْمَعْنَىٰ: فَقُلْ يا مُحَمَّدُ لِأَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة: لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ بَعْدَ الْعِلَاجِ الطَّوِيلِ إِلَّا الإِدْبَارُ والابْتِعَادُ والمُشَاقَّةُ، لِهَـٰذَا أعلَمْتُكُم بِشِدَّةٍ أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَىٰ أَمْرٍ سَوَاءٍ مِنَ الْمُقَاطَعَةِ والْمُفَاصَلَةِ والشِّقَاقِ، فَلَا تَلَاقِيَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَنَا عَلَىٰ مَائِدَةٍ دَعَوِيَّةٍ، لَقَدِ اتَّخَذْتُمُونَا أَعْدَاءً، فَنَحْنُ نُعَامِلُكُم بالْمِثْلِ فَنَتَّخِذُكُم أَعْدَاءً.

- ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

إِنَّ إِعْلَانَ المفَاصَلَةِ والمقاطَعَةِ والشِّقَاقِ، بَيْنَ فِئَةِ المؤمنين المسْلِمِينَ، وبَيْنَ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ هَـٰذِهِ السُّورَة؛ يُحَرِّكُ نُفُوسَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ أَنْ يَقُولوا لِلرَّسُولِ ﷺ: إِذَا كُنْتَ قَدْ يَئِسْتَ مِنَ اسْتِجَابَتِنَا لِدَعْوَتِكَ، وَأَعْلَنْتَ مُفَاصَلَتَنَا وَمُقَاطَعَتَنَا والإعْرَاضَ عَنْ دَعْوَتِنَا؛ فَمَتَىٰ يَتَحَقَّقُ مَا كُنْتَ تُنْذِرُنَا بِهِ مِنْ عِقَابِ اللهِ المعَجَّلِ فِي الدُّنْيَا، بَعْدَ أَنْ

أَنْهيْتَ مُتَابَعَتَنَا بِدَعْوتِكَ، والإلْحَاحَ عَلَيْنَا بِتَذْكِيرِكَ وَتَحْذِيرِكَ وإِنْذَارِكَ وَفُنُونِ إِقْنَاعَاتِكَ وَتَرْغِيباتِكَ وَتَرْهِيبَاتكَ؟؟.

فَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لهم:

﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

«إِنْ» حَرْفُ نَفْيٍ، أي: ومَا أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُنْذَرُونَهُ مِنْ وَعِيدٍ بِعِقَابِ اللهِ لَكُمْ.

والمعْنَىٰ: لَسْتُ أَنَا الْمُنْذِرَ لَكُمْ بالْعِقَابِ، وإِنَّمَا الْمُنذِرُ لَكُمْ خَالِقُكُمْ وَرَازِقُكُمْ، رَبُّ الْعَالَمِينَ، وهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ الْوَعِيدَ بِعِقَابِكُمُ الْمُعَجَّلِ فِي الدُّنْيَا، فَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ وَقْتِ تَنفِيذِ هٰذَا الْعِقَابِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ لَمْ يُعْلِمْنِي بِهِ.

- ﴿تُوعَدُونَ﴾: **الْوَعْدُ**: هُو الإخْبَارُ بِمَا تَمَّ الْعَزْمُ على فِعْلِهِ في المستقبل، يَكُونُ فِي الخير، وفي الشَّرِّ، يقالُ لُغَةً: «وَعَدَهُ بِنَفْعٍ وَوَعَدَهُ بِضُرٍّ».

أَمَّا الْوَعِيدَ والإِيْعَادُ فَهُمَا فِي الشَّرِّ خَاصَّةً.

واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ رَبَّكُمُ الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مَا تُوعَدُونَ؛ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ مَا تُعْلِنُونَهُ وَمَا تَكْتُمُونَهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي التَّعْلِيم:

- ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

الْجَهْرُ بالْقَوْلِ: رَفْعُ الصَّوْتِ بِهِ، فَيَسْمَعُهُ الْقَرِيبُ مِنْهُ، وضِدُّهُ كَتْمُ الْقَوْلِ.

المعنى: وَقُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ: إِنَّ اللهَ رَبَّكُمْ يَعْلَمُ الْقَوْلَ الَّذِي تَجهَرُونَ بِهِ، فَتَرْفَعُونَ بِهِ أَصْوَاتَكُمْ، وَيَعْلَمُ الْقَوْلَ الَّذِي يَجْهَرُ بِهِ كُلُّ قَائِلٍ، وَيَعْلَمُ الْقَوْلَ الَّذِي تَكْتُمُونَهُ فِي نُفُوسِكُمْ وَلَا تُظْهِرُونَهُ، وَكُلَّ قَوْلٍ يَكْتُمُهُ كَاتِمٌ فِي نَفْسِهِ.

أي: يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وغَيْرَ الْمَجْهُورِ بِهِ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَكُلَّ مَا يَكْتُمهُ غَيْرُكُمْ، وَمَا يَكْتُمونَهُ هُوَ: تَسَاؤُلُهُمْ عَنْ عَدَمِ تَنْفِيذِ اللهِ مَا أَنْذَرهم به.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ التَّعْلِيم الدَّعَوِيّ لِلرَّسُول ﷺ:

• ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾:

أي: وَمَا أَدْرِي لَعَلَّ إِمْهَالَ اللهِ لَكُمْ، وَتَأْخِيرَ تَنْفِيذِ عِقَابه؛ هُوَ تَطْوِيلٌ لِمُدَّةِ امْتِحَانِكُمْ، وَمَتَاعٌ لَكُمْ إِلَىٰ حِينٍ، بِمَا قَسَمَ لَكُمْ أَنْ تَسْتَمْتِعُوا بِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُحِبُّونَهَا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فِتْنَةٌ لَكُمْ: أي: امْتِحَانٌ لَكُمْ واخْتِبَارٌ.

وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِين: أي: وانْتِفَاعٌ بِلَذَّاتِ الحياةِ الدُّنيا إلى حِينِ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ فِيها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيمَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

هَـٰذِهِ قراءةُ حفص، وقرأها جُمْهُورُ الْقُرَّاء الْعَشَرَة: **[قُلْ]**، أي: قال اللهُ لَهُ: **[قُلْ]**، فَنَفَّذَ الْأَمْرَ الرَّبَّانِي، بِدَلالَةِ قِرَاءَةِ حَفْصٍ: **[قَالَ]**.

• ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾: **احْكُمْ بالْحَقِّ**: أَيْ: اقْضِ بالحقِّ، فالْحُكْم بالشَّيْءِ عَلَىٰ الشَّيْءِ؛ هُوَ القضاءُ بِهِ عَلَيْهِ.

والمعنىٰ: رَبِّ احْكُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ من قَوْمِنَا بالْحَقِّ. ويَلْزَمُ مِنَ الْحُكْم بِالْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ تَنْفِيذُ هـٰذَا الْحُكْم ضِمْنَ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، لِيَعْتَبِرَ بِهِ أُولُو العقُولِ، ولِتَرْتَفِعَ بِهِ رَايَةُ الإِسْلام، وَيَعْلُو بِهِ المؤمِنُونَ الْمُسْلِمُون عَلَىٰ بَاطِلِ الكُفْرِ وَالْكَافِرِين، وَكُلُّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَةِ اللهِ، بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وخَلْقِهِ.

وقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ رَسُوله ﷺ، فَنَصَرَ المؤمِنِينَ المسْلِمِينَ عَلَىٰ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّة، بِمَعْرَكَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، ولَعَلَّهَا لَمْ تَمْضِ ثَلَاثَ سِنِينَ أَوْ أَقلّ على دُعَاءِ الرَّسُولِ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾.

وعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ بِشَأْنِ عَقَائِدِهِمُ الشِّرْكِيَّةِ والكُفْرِيَّةِ خِتَاماً لِلْحَدِيثِ مَعَهُمْ:

- ﴿... وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

أي: وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الَّذِي بَلَغَتْ رَحْمَتُهُ غَايَةَ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ رَحْمَةٍ؛ الْمُسْتَعَانُ على مَحْوِ إبْطَالِ مَا تَصِفُونَهُ مِنْ بَاطِلٍ، بادِّعَاءِ أَنَّ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيّتِهِ أَوْ فِي إلَهِيَّتِهِ، وبادِّعَاءَاتٍ أُخْرَىٰ بَاطِلات، إِذْ تُحِلُّونَ بَعْضَ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَتُحَرِّمُونَ بَعْضَ مَا أَحَلَّ، وَتُشَارِكُونَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَعَانَ فُلَانٌ فُلَاناً، واسْتَعَانَ بِهِ»: أي: طَلَبَ عَوْنَهُ.

- ﴿... عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾: أي: عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ اللهَ رَبَّكُمْ بِهِ مِنْ صِفَاتٍ بَاطِلَاتٍ، لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِن الْعَقْلِ، وَلَا مِنْ تَنْزِيلٍ رَبَّانِي.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع والعشرين مِنْ دُرُوس سورة (الأنبياء) وهو الدرس الأخير مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٩)

ملحق: مُستَخرَجات بَلَاغِيّة مِن سورة (الأنبياء)

تُوجَدُ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣ نزول) اختيارات بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ باسْتِخْرَاجِ مَا يلي منها:

أوّلاً: مِنَ الإيجاز بِالحذْفِ الأمْثِلَةُ التالية:

المثَالُ الأول: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

(الواو) في ﴿أَوَلَمْ﴾ عاطِفَةٌ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ مَطْوِي يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ ذهْنا. والتقدير: أَمَا زَالَ الَّذِينَ كَفرُوا مِنْ عُلَمَاءِ الكَوْنِيَّاتِ؛ بَعِيدِينَ عَنْ إِدْرَاكِ أَدِلَّةِ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ كانتَا كُتْلَةً واحِدَةً مُجْتَمِعَةً، فَفَتَقْنَاهُمَا وَقَسَّمْنَاهُما إِلَىٰ سَبْع سَمَاوات، ومَجَرَّاتٍ كَثِيراتٍ فِيها بَلَايينُ النُّجُومِ والكَوَاكب ومِنْهَا الأَرض، وَلَمْ يَرَوْهَا رُؤيَةً فِكْرِيَّةً عِلْمِيَّةً تَهْدِيهِمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلَهِيَّتِهِ، وأَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ المُحيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ... ﴿٣١﴾﴾:

أي: وَجعَلْنَا فِي الْأَرْضِ جبالاً رَوَاسِيَ مَنْعَ أَنْ تَمِيد بِكُمْ.

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أَخْبِرُونا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد لِلْمُشْرِكين: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ﴾

أَحْدَاثٍ يُرِيدُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ بِهَا، لَكِنَّهُمْ لَا يُبالُونَ بِأَنْ يُجِيبُوا عَلَىٰ هـٰذَا السُّؤال ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ دَواماً، لَا يَشْغَلُونَ أَفْكَارَهُمْ بِشَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِهِ وَآيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

الفاءُ فِي ﴿أَفَلَا﴾ تَعْطِفُ عَلى محذوفٍ مَطْوِيٍّ من السَّهْلِ إِدْرَاكُهُ وَتَقْدِيرُه، أي: أَمَا زَالَ المؤهَّلُونَ لإِدْرَاكِ حِكْمَتِنَا السَّامِيَةِ فِي الآجَالِ غَارِقِينَ فِي غفلَاتِهِمْ، فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرضَ اليابِسَةَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرَافِهَا الْمُلَاصِقَةِ لِلْبِحَارِ، فَنَضْرِبُهَا بِأَمْوَاجِ البحار وحَرَكَةِ المدِّ والْجَزْرِ في أَزْمَانٍ طويلة، فَتَنْقُصُ الْأَرْضَ اليابِسَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا، فَيَتَّسِعُ سَطْحُ الْبَحْر.

المثال السادس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَة لِقَوْلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: أَبَلَغَتْ سَفَاهَتُكُمْ وَغَبَاوَتُكُمْ وَحَمَاقَتُكُمْ غَايَاتِها، فَأَنْتُمْ تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ.

المثال السابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لقومه:

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

الفاء في: ﴿أَفَلَا﴾ تَعْطِفُ على محذوف مَطْوِيّ، والتقدير: أَنْطَمَسَتْ بَصَائِرُكُمْ عَنْ إِدْراكِ الحقِّ الْجَلِيِّ، وذَهَبَتْ مِنْ رُؤوسِكُمْ عُقُولُكُمْ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيًّا، وَلَا عَقْلاً إِرَادِيًّا.

المثال الثامن: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ وهِمْ يُعَذَّبُونَ في جَهَنَّم:

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: لَهُمْ فِيها زَفيرٌ وشَهِيقٌ، لِأَنَّهُ لا يَكُونُ زفِيرٌ إلّا ويتْبَعُهُ شَهِيقٌ.

ثانياً: مِنَ المجازِ الْمُرْسل:

قول الله تَعَالَىٰ:

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

وقول للهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾:

جَاءَ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ إِطْلَاقُ لفظ «القرية»، والمرادُ أَهْلُهَا، وهـٰذا مِنْ إطْلاقِ المحَلِّ وإرَادَةِ الْحَالِّ فِيهِ، فَهُوَ مِن المجازِ المرسَل.

ثالثاً: من الاسْتِعَارَة:

المثال الأوّل: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . . . ﴿١٨﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ اسْتُعِيرَ فِعْلُ «نَقْذِفُ»: لِتَوْجِيهِ بَيَانِ الْحَقِّ، فِي حِوَارٍ جِدَالِي، وفِعْلُ «يَدْمَغُهُ» أي: يَكْسِرُ رَأسَهُ ويُخْرِجُ دِمَاغَهُ: لإبْطَالِ الْبَاطِلِ بِبُرْهَانِ الْحَقّ.

والاسْتِعَارَتَانِ قَائِمَتَانِ عَلَىٰ تَشبيهِ حُجَّةِ الْحَقِّ بِقَذِيفَة قَاتِلَة، وَتَشْبِيهِ الْبَاطِلِ بِرَأْسِ حَيوانٍ خَبِيثٍ إِذَا أَصابَتْهُ قَذِيفَةٌ قَاتِلَةٌ كَسَرَتْهُ وَأَخْرَجَتْ دِمَاغَهُ، وَجَعلَتِ الْحَيوان صَرِيعاً.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ مُحَاوِرِي إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عِلْيَةِ قَوْمِهِ:

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

لَقَدْ جَعَلَهُمْ بَيَانُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام يُدْرِكُون أَنَّهُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ، بَعْدَ أَنْ هَزَّ عُقُولَهُمْ هَزّاً عَنِيفاً.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ سَوَائِهِمْ، بَلِ رَجَعُوا إِلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِن شِرْكٍ عِنَادِي، فَشَبَّهَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ حَالَهُمْ بالَّذِينَ انْقَلَبُوا فَصَارَتْ رُؤُوسُهُمْ في مَوَاضِعِ أَقْدَامِهِمْ، وَصَارَتْ أَقْدَامُهُمْ فِي مَوَاضِعِ رُؤُوسِهِمْ.

وجَاءَتِ اسْتِعَارَة عِبارَةِ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ رُجُوعِهِم إلى مَا كانُوا عَلَيْهِ مِن بَاطِلٍ، وإصْرَارِ عَلَيْه بِعِنَاد، وعلى انْقِلَاب مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ الباطل.

رابعاً: مِنَ القصر:

المثال الأوّل: قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ إبَّانَ التنزيل، إذا اسْتَمَعُوا مَا يَنْزِلُ مِن آياتٍ قُرْآنِيَّةِ:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآية قَصْرُ اسْتِمَاعِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ لِمَا يَنْزِلُ مِنَ القرآنِ؛ عَلَىٰ اسْتِمَاعِهِمْ لَهُ في حَالَةِ كَوْنِهِمْ يَلْعَبُونَ.

وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ بِالنَّفْي والاسْتِثْناء.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِضَمِير المتكلّم العظيم فَلِلْمشركِينَ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَصْرِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ السَّابِقِينِ لِخَاتَم المرْسَلِين عَلَيْهِم السَّلام عَلَىٰ كَوْنِهِمْ رِجالاً.

وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌّ بالنَّفْيِ والاسْتِثْناء.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِضَمِيرِ المتكلِّمِ العظيم:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَصْر إِرْسَالِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ لِخَاتَم الْمُرْسَلِين عَلَيْهِم السَّلام عَلَىٰ كَوْنِ الْمُوحَىٰ إِلَيْهِمْ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

وهو قَصْرٌ إضَافِيٌّ، أي: بالإضَافَةِ إلى ادّعَاءَاتِ المشْرِكِين. وهو قَصْرٌ بالنفي والاسْتِثْنَاءِ.

المثال الرابع: قول الله تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ... ۝٣٦﴾:

أي: مَا يَتَّخِذُونَكَ إلَّا مَهْزُوءاً بِهِ، وهُوَ قَصْرٌ إضَافِيٌّ بالنفي والاسْتِثْنَاء.

المثال الخامس: قول الله تَعَالَىٰ خِطاباً لرسُولِهِ ﷺ بضمير المتكلّم العظيم:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآية بَيَانُ قَصْرِ إرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَىٰ كَوْنِهِ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ.

ويظهَرُ أَنَّهُ مِنْ قبيلِ الْقَصْرِ الإضَافِيّ، إِلَّا إِذَا كَانَ مَفْهُومُ الرَّحْمَةِ يَشْمَلُ كُلَّ وَظَائِفِ الرَّسُولِ وَمَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُ في رِسَالَتِهِ.

المثال السادس: قول الله تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّهُ لَا إِلَهَ لَكُمْ إِلَّا إِلَهٌ واحِدٌ، هَذَانِ قَصْرَانِ، أوّلُهُمَا قَصْرٌ إِضَافِيّ، والْقَصْرُ الثَّانِي قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ.

خامساً: مِنْ خُرُوجِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ:

المثال الأوّل: قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ أئمّة الكُفْرِ والشِّرْكِ طَعْناً فِي رسالَةِ الرَّسُول ﷺ:

﴿... هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾:

فِي هٰذَا الْقَوْلِ اسْتِفْهَامانِ:

الاستفهامُ الْأَوّلُ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، هٰذَا الاسْتِفْهَامُ يُرَادُ بِهِ النَّفْي، أي: فَلَا يَصِحُّ عقلاً أن يكون رسولاً لله رب العالمين.

الاستفهامُ الثاني: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، هذا الاستفهامُ تَحْذِيريٌّ وتَلْوِيميٌّ من قِبَلِ أئمة الكُفْرِ لجماهيرِهم.

المثال الثاني: قول اللهِ تَعالَىٰ:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾؟:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟: اسْتِفْهَامٌ، يُرَادُ بِهِ التَّلْوِيمُ والتَّثْرِيبُ والْحَثُّ على أنْ يَعْقِلُوا.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المشركين:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾؟:

الاستفهامُ في «أم» استفهامٌ إنكاريٌّ تَوْبيخي.

ونَظِيرُهُ قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ ... ﴿٢٤﴾﴾؟.

المثال الرابع: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَحْكِي قَوْلَ المشركينَ اسْتِهْزَاءً بالرَّسُولِ ﷺ:

﴿... أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ...﴾؟:

الاسْتِفْهَامُ فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ اسْتِفْهَامُ اسْتِهْزَاءٍ وسُخْرِيَةٍ.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا:

﴿... أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾؟:

اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَنْ يَكُونُوا هُمُ الْغَالِبِينَ.

المثال السَّادِس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟:

الاسْتِفْهَامُ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ اسْتفهامٌ إنْكَارِيٌّ تَلْوِيمِيٌّ.

المثال السابع: قولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لِقَوْمِهِ فِي حِوَارٍ دَعَوِيّ:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾؟:

الاسْتِفْهَامَانِ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ تَلْوِيمي.

المثال الثامن: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في بَيَانِ بَعْضِ صفاتِ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾؟ : استِفْهَامٌ يرادُ بِهِ التَّرْغِيبُ في الشُّكْرِ والْحَثُّ عَلَيْهِ.

المثال التاسع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً تَعْلِيميًّا لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨﴾؟ :

عبارة: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ عَرْضٌ بِلُطْفٍ ورِفْقٍ بأسْلُوب الاسْتِفْهَام.

وأَكْتَفِي بِهٰذِهِ المسْتَخْرَجَات، مَعَ وُجُودِ كثيرٍ غيرِها في السورة.

وَبِهٰذَا انْتَهَىٰ هٰذَا الْمُلْحَق والحمدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

سُورَة المؤمنون

٢٣ مصحف ٧٤ نزول

وهي سورة مَكِّيَّةٌ كُلُّها

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ
﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ
مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ
ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ
رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾
وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ
فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ
مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ

---

٨ ـ ● قرأ ابن كثير: [**لِأَمَانَتِهِمْ**] بالإفراد.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لِأَمَانَاتِهِمْ**] بالجمع.
والمؤدّى واحد.

٩ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: [**صَلَاتِهِمْ**] بالإفراد.
وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**صَلَوَاتِهِمْ**] بالْجَمْع.

١٤ ـ ● قرأ ابْن عَامِر، وشُعْبَة: [**عَظْماً**] بالإفراد، و[**الْعَظْمَ**] بالإفراد.
وقَرَأَهُمَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عِظَاماً**] بالجمع، و[**الْعِظَامَ**] بالْجَمْع.

أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم
بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ
﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ
ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً
تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ
لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن
قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ

---

٢٠ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [سِيناء] بكَسْرِ السين.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشرَةِ: [سَيْناء] بفَتْحِ السين.

٢٠ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورُوَيس: [تُنبِتُ] من فعل «أنبَتَ» وقرأها باقي القُرَّاءِ العَشرَةِ: [تَنْبُتُ] مَنْ فعل «نبَتَ».

٢١ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وشعبة، ويعقوب: [نَسْقِيكُمْ].
وقرأها أبو جعفر: [تَسْقِيكُمْ]، وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشرَةِ: [نُسْقِيكُمْ].
وفي هذه القراءات تَفَنُّنٌ.
والمؤدّى وَاحد.

٢٣ ـ • قرأ الكِسَائِي، وأبو جعفر: [مِنْ إلَهٍ غَيْرِهِ].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشرَةِ: [مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ].

شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾
قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ
ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُۙ فَٱسۡلُكۡ
فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ
ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا
مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ
ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ
أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ
ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ

---

٢٦ ـ • قرأ يَعْقُوب: [كَذَّبُونِي] بإثْبَات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [كَذَّبُونِ] بحذف ياء المتكلم مع ملاحظتها ذِهْناً.

٢٧ ـ • قرأ حَفْصٌ: [مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ] بِتَنْوِين لام «كلٍّ»، وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ].

٢٩ ـ • قَرَأَ شعبة: [مَنْزِلاً].
وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُنْزَلاً].

٣٢ ـ • قرأ يَعْقُوب: [فِيهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِيهِمْ] بكسر الهاء.

٣٢ ـ • قرأ أبو عمْرو، وعاصم، وحمزة، ويَعْقوب: [أَنِ اعْبُدُوا] بكَسْرِ النون.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنُ اعْبُدُوا] بضمّ النون.

٣٢ ـ • قرأ الكِسائي، وأبو جعفر: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ].

مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ
مِمَّا تَشۡرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ
(٣٤) أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ
(٣٥) ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ (٣٧) إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ
ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠)
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا
تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ

---

٣٥ ـ • قرأ نَافِع، وحفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [مِتُّمْ].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ الْعشرَةِ: [مُتُّمْ].
وهما وجهان عَربيان.

٣٦ ـ • قرأ أبو جعْفَر: [هَيْهَاتِ هَيْهَاتِ] بِكَسْر التاءِ فيهما.
وقرأهُمَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: [هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ] بفَتْح التَّاء فيهما.

٣٩ ـ • قرأ يعقوبُ: [كَذَّبُونِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: [كذَّبُونِ] بحذف ياء المتكلّم مع ملاحظتِها ذهْناً.

٤٤ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [رُسْلَنَا] بإسكان السين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رُسُلَنا] بضمِّ السّين.

٤٤ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [تَتْراً] بالتنوِينِ وصلاً، وبإبْدالِهِ ألِفاً وقْفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: [تَتْرَا] وصْلاً ووقْفاً.

مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ
فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ
بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ
وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا
عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ
وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ (٥٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ
مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٥١) وَإِنَّ
هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓاْ
أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرۡهُمۡ فِي
غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ

---

٥٠ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم: **[رَبْوَةٍ]** بفتح الراء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[رُبْوَةٍ]** بِضَمِّ الراء.

٥٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: **[وأَنَّ هَٰذِهِ]** بفتح همزة «أنَّ». وقرأها ابنُ عامر: **[وأَنْ هَٰذِهِ]** بفتح الهمزة وإسكان النون.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَإِنَّ هَٰذِهِ]**.

٥٢ ـ • قرأ يعقوب: **[فَاتَّقُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاتَّقُونِ]** بحذف ياء المتكلّم مع مُلاحَظَتِها ذِهْناً.

٥٣ ـ • قرأ يعقوب، وحمزة: **[لَدَيْهُمْ]** بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَدَيْهِمْ]** بِكَسْرِ الهاء.
وهُما لغتان.

٥٥ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: **[أَيَحْسَبُونَ]** بِفَتْحِ السّين.
وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أَيَحْسِبُونَ]** بِكَسْرِ السين.
وهُما لغتان.

وَبَنِينَ ۙ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ
مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا
وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ
فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ
﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا
تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ
عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا
تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ
يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن
فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾

---

٦٤ ـ • قرأ يعقوب: [مُتْرَفِهُمْ]، بضم الهاء.
وقرأها بَاقِي الرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتْرَفِيهِمْ]، بكسر الهاء

٦٧ ـ • قرأ نَافع: [تُهْجِرُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَهْجُرُونَ].

٧١ ـ • قرأ يعقوب: [فِيهُنَّ] بضَمّ الهاء، ووقف عَلَيْهَا بِهَاءِ السَّكْتِ بخُلْفٍ عَنْه.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِيهِنَّ] بِكَسْرِ الهاء.
وهُمَا لُغَتَان.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (٧٤) ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا
بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا
عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ
ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ
قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا
مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ

---

٧٢ ـ • قرأ ابْنُ عامر: [خَرْجاً فَخَرْجُ].
وقرأها حمزة، والكِسَائيُّ، وخلف: [خَرَاجاً فَخَرَاجُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [خَرْجاً فَخَرَاجُ].

٧٢ ـ • قرأ قَالون، وأبو عمرو، والكِسَائِيُّ، وأبُو جَعْفر: [وَهْوَ] بإسْكان الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَهُوَ] بضَمِّ الهاء.
وهما لغتان.

٧٣ و٧٤ • قرأ قنبل بخلفِ عنه، ورُويس: [إِلَىٰ سِرَاطِ] وَ [عَنِ السِّرَاطِ]. وقرأ الأولى خلفٌ عن حمزة: بإشْمَام الصّادِ صَوْتَ الزَّاي. وقرأ الثَّانِية بِإشْمامِ الصاد صوت الزاي: حمزة بخلف عن خلاد.
وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَىٰ صِرَاطِ] و[عَنِ الصِّرَاطِ]. وهو الثاني لقنبل، ولخلاد.

٧٧ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ:[عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.

٨٢ ـ • قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلف: [مِتْنَا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتْنَا].

وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ
ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ
بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن
كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ
أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا
كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا
بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ
ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا
تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾
ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

---

٨٥ - • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَذَكَّرُونَ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَذَّكَّرُونَ]**، أصْلُهَا «تتذكَّرون».

٨٧ - • قرأ أبو عَمْرو، ويعقوب: **[سَيَقُولُونَ اللهُ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سَيَقُولُونَ للهِ]**.

٨٩ - • قرأ أبو عمْرو، ويعقوبُ: **[سَيَقُولُونَ اللهُ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سَيَقُولون للهِ]**.

٩٢ - • قرأ نَافع، وشُعْبَة، وحَمْزة، والكِسَائِي، وأبو جعفر، وخلف: **[عَالِمُ الْغَيْبِ]** برفع «عالم».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَالِمِ الْغَيبِ]** بِجَرِّ «عالم».
وهما وجهانِ نَحْوِيّانِ جائزان.

وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى
ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن
ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ
وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا
ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ

---

٩٨ ـ • قرأ يعقوب: [**يَحْضُرُونِي**] بإثبات يَاء المُتَكَلِّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَحْضُرُونِ**] بحذف ياء المتكلِّم مع مُلَاحَظَتِهَا ذِهْناً.

٩٩ ـ • قرأ يعقوب: [**ارْجِعُونِي**] بإثبات ياء المتكلّم وصْلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**ارْجِعُونِ**] بحذف ياء المتكلم مع ملاحَظَتِها ذهْناً.

١٠٠ ـ • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر: [**لَعَلِّيَ أَعْمَلُ**] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ ياء المتكلّم.

١٠٦ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**شَقَاوَتُنَا**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**شِقْوَتُنَا**]، وهُمَا لغتان.

١٠٨ ـ • قرأ يعقوب: [**وَلَا تُكَلِّمُونِي**] بإثبات ياء المتكلِّم وَصْلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَلَا تُكَلِّمُونِ**] بحذف ياء المتكلّم مع مُلَاحَظَتِها ذهْناً.

فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ
خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم
مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ
ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾
قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن
لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا
خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ
ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ
إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ
خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

---

١١٠ - ● قرأ نَافع، وحمزة، والكِسَائي، وأبو جعفر، وخلف: **[سُخْرِيًّا]** بضمّ السين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سِخْرِيًّا]** بِكَسْرِ السين.

١١١ - ● قرأ حمزة، والكسائي: **[إِنَّهُمْ هُمُ]** بِكَسْرِ همزة «إنَّ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أَنَّهُمْ هُمُ]** بفتح همْزَة «أنَّ»، وبَيْنَهُمَا تكامل.

١١٢ - ● قرأ ابن كثير، وحمزة، والكِسَائي: **[قُلْ كَمْ لبِثْتُمْ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ]**.

١١٣ - ● قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائيّ، وخَلفٌ، ووقفًا حمزة: **[فَسَلِ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاسْأَلِ]**، وهُمَا وَجْهَان عَرَبِيان.

١١٤ - ● قرأ حمزة، والكِسَائي: **[قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ]**.

١١٥ - ● قرأ حمزة، والكِسَائيُّ، ويعقوب، وخلف: **[لَا تَرْجِعُونَ]** بفتح التاء وكَسْرِ الجيم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَا تُرْجَعُونَ]** بضمّ التاء وفتح الجيم.

(٢)
مِمّا وَرَدَ في السُّنَّة بِشَأنِ سورة (المؤمنون)

روى الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُه مِنْ حَدِيث أنَسٍ عن النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ قال: تَكَلَّمِي، فَقَالَت: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ».

(٣)
مَوضوع سُورَةِ (المؤمِنُون)

ظَهَرَ لِي أَنّ بُؤْرَةَ مَوْضُوعِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ بَيَانُ الْغَرَضِ مِنْ خَلْقِ الإنسان، مَعَ وَصْفِ بَعْضِ مَرَاحِلِ خَلْقِهِ، وَمَسِيرَتِهِ فِي رِحْلَتِهِ الأبديَّة باختياره الحرّ، إلَىٰ سَعَادَتِهِ، أَوْ شَقَاوَتِه، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِهِ ابْتِلَاؤُهُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ مَجَازَاتُهُ يَوْمَ الدِّين، يَوْم الْخُلُود الْأَبَدِيّ.

ودَارَ حَوْلَ هَـٰذِهِ الْبُؤْرَةِ بَيَانَاتٌ تَتَعَلَّقُ بها:

(١) فجاء فيها بَيَانُ فَلَاحِ المؤمِنِينَ، مع ذِكْرِ أَوْلَىٰ صِفَاتِهِمْ السُّلُوكِيَّة الْعَمَلِيَّة بالْبَيَان.

(٢) وَجَاء فيها بيانُ بَعْضِ مَراحِلِ خَلْقِ الإنْسَانِ حَتَّىٰ جَعْلِهِ فِي أَحْسَنِ تقويم، مع الإلْمَاحِ إلى مَسِيرَتِهِ فِي مُدَّةِ ابْتلائه، وبَيَانُ إماتَتِهِ، وبَعْثِهِ، ليلقىٰ جزاءَهُ على ما قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ باخْتِيَارِهِ الْحُرّ.

(٣) وَجَاءَ فيها عَرْض بَعْض آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، وعَرْضُ لَقَطَاتٍ مُوجَزَاتٍ مِن قِصَصِ بَعْضِ الرُّسل، تَمْهيداً لِبيانِ أَنَّ أَقْوَامَ الرُّسُلِ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَاحِدَة.

(٤) وجاء فِيهَا بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ الذين يُسَارِعُونَ في الخيرات، وذِكْرٌ بإيجاز للظالمين الذين هُمْ فِي غَمْرَة، مع بيان عِقَابِ اللهِ لِمترفِيهم عقاباً مُعَجَّلاً، وكَيْفَ يُوَاجِهُونَ هـٰذَا العِقَابَ المعجَّل.

(٥) وَجَاءَ فيها بَيانَاتٌ أخرى، كُلُّهَا ذَاتُ صِلَةٍ بِبُؤْرَةِ مَوْضُوع السورة.

(٤)

دروس سُورَة (المؤمِنُون)

بَدَا لي أنّ هَـٰذِهِ السُّورة يُمْكِنُ تَقْسِيمُها إلَىٰ (١٥) دَرساً كَمَا يلي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ١١).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ فَلَاحِ المؤمِنِينَ، مَعَ ذِكْرِ أَوْلَىٰ صِفَاتِهِمُ السُّلُوكِيَّة الْعَمَلِيَّةِ الكُبْرَىٰ بالْبَيان، وهِيَ صِفَاتٌ تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْق إيمانِهِمْ.

الدرس الثاني: الآيات من (١٢ ـ ١٦).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ بَعْضِ مَرَاحِلِ خَلْقِ الإنْسَانِ من سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، حَتَّىٰ جَعْلِهِ سَوِيًّا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم.

ثم بَعْدَ مُرُورِهِ مَرْحَلَةَ ابْتِلَائِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ يُمِيتُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ يَبْعَثُهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ لِيَلْقَىٰ حِسَابَهُ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، وَجَزَاءَهُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ.

الدرس الثالث: الآيات من (١٧ ـ ٢٢).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وبَعْضِ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ.

الدرس الرابع: الآيات من (٢٣ ـ ٣٠).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقَطَاتٍ مُوجَزَاتٍ من قصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الخامس: الآيات من (٣١ ـ ٤١).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقَطَاتٍ مُوجَزَاتٍ من قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ عَادٍ، دُونَ تَصْرِيح بِذِكْرِ اسْمِ هُود عَلَيْهِ السَّلَام واسْمِ قَوْمه.

الدرس السادس: الآيات من (٤٢ ـ ٤٤).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مُجْمَلٌ عَنْ رُسُلٍ أَرْسَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام لِعِدَّةِ أقوام.

وعَنْ رُسُلٍ تَتَابَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَهْلَكَ أَقْوَامَهُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوهم بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

الدرس السابع: الآيات من (٤٥ ـ ٤٩).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ إيجازٌ في لَقَطاتٍ لِقِصَّةِ موسَىٰ وهَارُون عَلَيْهِما السَّلام، وإرْسَالِهِمَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ، مع بَيَانِ إِيتَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كتابَ التَّوْرَاة رَغْبَةً فِي هِدَايَةِ الَّذِينَ كَلَّفَهُمُ اللهُ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ.

الدرس الثامن: الآية (٥٠).

وفيها لَقْطَةٌ عَنْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمِّهِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السلام، وإيوائِهِمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قرارٍ ومَعِينٍ.

الدرس التاسع: الآيات من (٥١ ـ ٥٦).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خَاطَبَ الْمُرْسَلِينَ جَمِيعاً بِأَنَّ أَقْوَامَهُمْ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ واحِدَة، لَكِنَّ أقوامَهُم لَمْ يَعْمَلُوا بِهٰذَا التكليف الرَّبَّانِي، بَلْ تَفَرَّقُوا إِلَىٰ أَحْزَابٍ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، مع تَوْصِيَةِ الرَّسُولِ ﷺ بأَسْلُوبِ يُعَامِلُهُمْ بِهِ.

الدرس العاشر: الآيات من (٥٧ ـ ٦٧).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ لِصِفَاتِ الذين يُسَارِعُونَ في الخيرات.

وفيها ذِكْرٌ بإيجازٍ للظَّالِمِينَ الّذِينَ هُمْ في غَمْرَةٍ، مَعَ بَيَانِ عِقَابِ اللهِ لِمُتْرَفِيهِمْ، وَكَيْفَ يُوَاجِهُونَ هٰذَا الْعِقَاب.

الدَّرْسُ الحادي عشر: الآيات من (٦٨ ـ ٧٧).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ حَالِ الْكَافِرِينَ المشركين إبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، وحَالِ الرَّسُولِ ﷺ مَعَهُمْ.

الدَّرْس الثاني عشر: الآيَاتُ من (٧٨ ـ ٨٣).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لَمْحَةٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ والحياة الْأُخْرَىٰ حَقٌّ، مَعَ عَرْضِ قَوْلِ مُنْكِرِي ذَلِكَ.

الدَّرْس الثالث عشر: الآيات من (٨٤ ـ ٩٢).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ حِوَاراً جَدَلِيًّا يُحَاوِرُ بِهِ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَكَةَ الميْؤُوس مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ.

وهَدَفُ هٰذَا الحوار إثْبَاتُ مِلْكِيَّة اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلأَرْضِ وَمَنْ فيها، وإثْبَاتُ رُبُوبِيَّةِ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِلسَّمَاوَاتِ والْعَرْشِ الْعَظِيم، وَأَنَّ بِيَدِهِ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْء.

وفيها بَيَانُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَعَ تَقْدِيمِ حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ على رُبُوبِيّةِ اللهِ الواحِدَة، المسْتَلْزِمَةِ أَنَّهُ هُوَ الإلَهُ الَّذِي لَا إلَهَ في الوجُود كُلِّه غَيْرُه.

الدرس الرابع عشر: الآيات من (٩٣ ـ ٩٨).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ تَعْلِيمَاتٍ تُلائِمُ الْمَرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا السورة.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٩٩ ـ ١١٨) آخر السورة.

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ لَقَطاتٌ مِنْ أَحْدَاثٍ تَبْدأ عِنْدَ الْموت، ثُمَّ

تَكُونُ بَعْدَ الْبَعْث، ثُمَّ مَا يَلْقَىٰ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ، وَمَا يُقَالُ لَهُمْ، وَمَا يُجِيبُونَ بِهِ، وَمَا يُرَدُّ بِهِ عَلَيْهِم.

وفيها بَيَانُ مَا يُسْأَلُهُ المبْعُوثُونَ عَنْ مُدَّةِ بَقَائِهِمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

وفيها بَيَانٌ إقْنَاعِيٌّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ ضَرُورَةِ الْيَوْمِ الآخِرِ، مَعَ إِنْذَارٍ لِلْمُشْرِكِينَ بأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يَقُول: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (١ ـ ١١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾:

القراءات:

(٨) • قرأ ابْن كَثير: [**لأمَانَتِهِمْ**] بالإفراد، وهو اسْمُ جِنسٍ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لِأَمَانَاتِهِمْ**] بالجمع.

والمؤدّى واحد.

(٩) • قرأ حَمْزَة، والكِسَائي، وخلَف: [صَلَاتِهِمْ] بالإفراد، وهو اسْمُ جنس.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [صَلَواتِهِمْ] بالجمع، والمؤدّىٰ وَاحد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ فَلَاحِ المؤمنين، مع ذكْرِ أولَىٰ صِفَاتِهِم السُّلُوكِيَّةِ الْعَمَلية الكُبْرَىٰ بالْبَيان، وهي في السُّلُوك مِن آثَارِ صِدْقِ إيمانِهِمْ، وصِحَّةِ يقينِهِمْ باللهِ وباليَوْمِ الآخر.

وجاء فِي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ مَا رَوَاه الإمَامُ أحمد، وعبد الرزَّاق، والترمِذِيُّ، والنَّسَائِيُّ، والحاكِمُ وصَحَّحه، وغَيْرُهم عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال:

(كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْوَحْيُ؛ يُسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ يَوْماً، فَمَكَثْنَا سَاعَةً، فَسُرِّيَ عَنْهُ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَقال:

«اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وأعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَارْضَ عَنَّا».

ثُمَّ قَالَ:

«لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الجنَّةَ».

ثُمَّ قرأ:

«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ....» حتَّىٰ خَتَمَ الْعَشْر).

أُطْلِقَ عَلَيْهَا عشر: بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ تَتِمَّةٌ فِي المعْنَىٰ للعَاشِرة.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾: «قَدْ» حرْفُ تَحْقِيقٍ وتوكيد.

«أَفْلَحَ»: أي: فاز ونجا وظَفِرَ، وأَصْلُ الْفَلَاحِ الْبَقَاءُ في النَّعِيمِ والخير. قالَ الأزهَرِي: وإِنَّما قِيلَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مَفْلِحُون: لِفَوْزِهِمْ بِبَقَاء الْأَبَدِ، أي: سُعَداء.

فالمعنى: قَدْ فَازَ المؤمِنُون بما يُرِيدُونَ، وظَفِرُوا بنَعِيمِ الْآخِرَةِ الأبَدِي.

والمؤمِنُونَ: هُمُ الَّذِينَ صَدَّقُوا وأَذْعَنُوا بِقُلُوبِهِمْ، واتَّجَهَتْ عَوَاطِفُهُمْ للتَّسْلِيمِ الْكَامِلِ، بِكُلِّ مَا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ في الإسلام، فَصَارَتْ إِرَادَاتُهُمْ تَتَوَجَّهُ بِدَوافِعَ مِنْ إيمانِهِم.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ بَعْضَ صِفَاتِ المؤمنين في السُّلُوكِ الظَّاهر:

- ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾:

أي: الَّذِينَ يُؤَدّونَ صَلاتَهُمْ مِنَ الْفَرَائِضِ والنَّوافِلِ، ويَكونُونَ خاشعين فيها.

الْخُشُوع: السُّكُونُ، والْخُضُوعُ، والْخَوْفُ، والتَّذَلُّل.

والْخَاشِع: الَّذِي يَرْمِي بِبَصَرِهِ إِلَىٰ الْأَرْض، ويَخْفِضُ طَرْفَه.

وأَصْلُ الْخُشُوعِ وَصْفٌ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ سُكُوناً وخُضُوعاً للهِ وَخَوْفاً مِنْهُ، فَيَكُونُ لَهُ في الظَّاهِرِ سُكُونٌ وخُضُوعٌ وخَفْضُ طَرْفٍ إِلَىٰ الْأَرْض.

ويَدُلُّ عَلَىٰ هٰذَا مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ سعيد بن المسيّب؛ رَأَىٰ رَجُلاً كَثِير الْحَرَكَةِ فِي الصَّلاةِ، فقال: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هٰذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ».

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِ المؤمنين في السُّلوك الظاهر:

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾:

اللَّغْوُ: مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ من كلامٍ وغَيْرِهِ، إذْ لَا فَائِدَةَ مِنْه.

ومِنَ اللَّغْوِ إضَاعَةُ الْوَقْتِ بِمُشَاهَدَة لاعِبي كُرَةِ الْقَدَم في مُنَافَسَاتِهِمْ، وَنَحْوِهِمْ مِنَ اللَّاعِبين، ومُشَاهَدَةُ التَّمْثِيلِيَّات الَّتِي لَا فَائِدَةَ مِنْهَا إلَّا التَّسْلِيَةُ وإضَاعَةُ الْوَقْت.

مُعْرِضُونَ: الإعْرَاضُ حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَال والإدْبار، أي: يَكُفُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إضَاعَةِ أَوْقَاتِهِم بأيّ لَغْوٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ يُرْجَىٰ مِنْهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِ المؤمِنِينَ في السُّلُوك الظَّاهر:

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾: الْمُرَادُ بالزَّكَاةِ هُنَا بَذْلُ المالِ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ، مِنْ فُضُولِ الْأَمْوَالِ الَّتِي يَمْلِكُهَا المؤمِنُ.

وقَدْ جَاءَت الدَّعْوَةُ إِلَىٰ تَأْدِيَةِ الزَكَاةِ مِنَ الْأَمْوَالِ مُنْذُ أوائِلِ الْعَهْدِ الْمَكِّي، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ دَعْوَةً إِلَىٰ الْبَذْلِ مِنْ فُضُولِ الْأَمْوَالِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ، الَّتِي أَوْصَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يَبْذُلَ ذَوُو السَّعَةِ المؤمِنُونَ فيها، دُونَ تَحْدِيدِ المقْدَارِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَمْوَال، وَدُونَ تَحْدِيدِ الزَّمَنِ الَّذِي إِذَا مَضَىٰ وَجَبَتْ عَقِبَهُ الزَّكاة، لِأَنَّ فَرْضَ الزَّكَاةِ الَّتِي هِي رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ، مَعَ تَحْدِيد مَقَادِيرها، والْأَنْصِبَةِ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا زَكَاةُ الْأَمْوال؛ قَدْ كَانَ فِي أوائِلِ الْعَهْدِ الْمَدَنِي، فَكُلُّ ما كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ إِلَىٰ بَذْلِ الْأَمْوَالِ في وجُوهِ الْخَيْر.

ولفْظُ «الزَّكَاةِ» يُطْلَقُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ مَعْنَيَيْنِ: الطَّهارَةِ، والنَّماء، وَتَأْدِيَةُ الزَّكاة تُطَهِّرُ النُّفُوسَ مِنْ دَاءِ الشُّحّ، وتُطَهِّرُ الْمَالَ مِمَّا أَوْجَبَ اللهُ فِيهِ مِنْ بَذْلٍ في وُجُوهِ الْخَيْر، ويُكَافِئُ اللهُ عَلَيْهَا بِتَنْمِيَةِ أموال الْبَاذِلِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَيُضَاعِفُ الله بِفضْلِهِ ثَوابَ الْبَاذِل أَضْعَافاً مُضَاعَفَة.

وقد جَاءَ فِي القرآن ذِكْرٌ للزَّكَاةِ عَلَىٰ لِسَانِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أَوْصَاهُ بالصَّلَاةِ والزَّكاة، وَكَانَ هٰذَا حِينَ أَنْطَقَهُ اللهُ وَهُوَ طِفْلٌ (الآيات من ٢٩ ـ ٣٣ من سورة مَرْيم).

وَجَاءَ فِيهِ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يأمُرُ أَهْلَهُ بالصَّلَاةِ والزَّكَاة (الآية ٥٥ من سورة مريم).

فالزَّكَاةُ مِنْ شَرَائِعِ اللهِ في الرِّسَالَاتِ السَّابقاتِ.

- ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾: أي: لِتَأْدِيَةِ الزَّكَاةِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فاعِلُون، اللَّامُ لَامُ التقوِيَة، لِتَقَدُّمِ المعْمُولِ عَلَىٰ الْعَامِلِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَان بَعْضِ صِفَاتِ المؤمنين في السُّلُوك الظَّاهر:

- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾:

الْفُرُوج: جَمْعُ «فَرْج» وهُو العضْوُ التَّنَاسُلِيُّ مِنَ الرَّجُلِ، والْعُضْوُ التَّنَاسُلِيُّ مِنَ الْمَرْأَة، ولَكِنَّ الْحَدِيثَ هُنَا عَنِ الرِّجَال، وَجَاء في الْقُرْآن تَخْصِيصُ النساء بالذِّكْر في الآية (٣٥) من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول).

حِفْظُ الشَّيْء: يَكُونُ بِصِيَانَتِهِ، وَبِالمواظَبَةِ عَلَىٰ رِعَايَتِهِ، وكَفِّهِ عَمَّا يَجْلُبُ ضَرَراً أَوْ أذىً، ومَنْعِهِ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ في الْمُوبقاتِ الْمُهْلِكَات.

وحِفْظُ الْفُرُوجِ في الدِّينِ يَكُونُ بِصِيَانَتِهَا وإمْسَاكِهَا عَنْ فِعْلِ مَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها، كالزِّنَا، وإتْيَانِ الذُّكُورِ شَهْوَةً مِنْ دُوْنِ النِّسَاءِ، وإتْيَانِ الْبَهَائِمِ، وإتيان النِّسَاء في أَدْبَارِهِنَّ.

- ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾:

أي: والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، مِنْ إتْيَانِ أَحَدٍ ـ أُنْثَىٰ أَوْ ذَكَرٍ ـ شَهْوَةً؛ إِلَّا قَصْراً عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ بِعَقْدٍ شَرْعِيّ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنْ إِمَاءٍ، فإنَّهُمْ إذَا جَامَعُوا زَوجَاتِهِمْ أَوْ إِمَاءَهُمْ، عَلَىٰ الْوَجْهِ المأذُونِ بِهِ شَرْعاً؛ فإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.

وقد اتَّفَقَتِ الدُّوَلُ عَلَىٰ إلْغاء نِظَام الرَّقِيقِ، فَلَا وُجُودَ اليومَ لِلْإمَاءِ، وهٰذَا أَمْرٌ حَسَنٌ، لِأَنَّ الإسْلَامَ حَثّ عَلَىٰ عِتْقِ الأرِقَّاء بِصُورَةٍ إفْرادِيَّةٍ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ إلْغَاءُ نِظَام الرَّقِيقِ مِنْ طَرَفِ المسْلِمينَ فَقَط، بَيْنَمَا هو أَحَدُ شَرَائِعِ الْأُمَمِ والشُّعُوبِ غَيْرِ الْمُسْلِمَة، فإذا حَارَبُونَا لَمْ يَخْشَوْا على أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُسْتَرَقَّ فَيَكُونَ عَبْداً فِي أَيْدِي المسلمين.

مَلُومِينَ: جَمْعُ «مَلُوم»، وهُوَ اسْمُ «مَفْعُولٍ»، من فعل «لَامَهُ»، أي: وجَّهَ لَهُ لَوْماً على ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ.

- ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾:

أي: فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ الْحَدِّ الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، فأَرَادَ مُعَاشَرَةَ غَيْرِ زَوْجَتِهِ أوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ مِنَ النِّسَاءِ، في فُرُوجٍ أَوْ أَدْبَارٍ؛ فَأُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ الْعُصَاةُ المتَسَفِّلُونَ: هُمُ الْعَادُونَ الظَّالِمُونَ، الْمُتَجَاوِزُونَ لِلْحَدِّ المأذُونِ بِهِ شَرْعاً فِي السُّلُوكِ الإرادي.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِ المؤمنين في السُّلُوكِ الظَّاهِرِ:

- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ⑧﴾:

الْأَمَانَةُ: تُطْلَقُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ الْوَفَاءِ، وتُطْلَقُ على الْوَدِيعَة.

فَكُلُّ مَا يُسْتأْمَنُ الإنسانُ عَلَيْهِ، مِنْ قَوْلٍ، أَوْ سِرٍّ، أو خَبَرٍ، أو تَكْلِيفٍ؛ هُوَ أَمَانَة، والْوَفَاءُ بِتَحْقِيقِ مَطْلُوبِ مَنِ اسْتَأْمَنَهُ: أَمَانَةٌ، وهـٰذَا هُوَ حِفْظُهَا وَرِعَايَتُهَا.

وَكُلُّ وَدِيعَةٍ تُوضَعُ عِنْدَ الإنْسَانِ هِيَ أَمَانَة، ورعايَتُهَا تَكُونُ بِحِفْظِها، وَتَأْدِيَةِ مَطْلُوبِ صَاحِبِ الْوَدِيعَةِ بِشَأْنِهَا.

وبالتَّوَسُّعِ في مَفْهُومِ الْأَمَانَةِ؛ نُلَاحِظُ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ أَعْطَىٰ الْإِنْسَانَ الإرَادَةَ الْحُرَّةَ، وَجعَلَهَا أَمَانَةً عِنْدَهُ، وكَلَّفَهُ أَنْ لَا يَخْتَارَ بِهَا مَا فِيهِ مَعْصِيَةٌ لَهُ، فِي السُّلُوكِ الْبَاطِنِ والظَّاهر، وَحَذَّرَهُ إِذَا اخْتَارَ معصيتَهُ مِنَ الْعِقَابِ العادل عَلَيْهَا، وأَطْمَعَهُ إِذَا اخْتَارَ طَاعَتَهُ في مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ؛ بِأَنْ يَجْزِيهِ ثواباً عَظِيماً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وعظيم سُلْطَانه، يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّاتِ النعيم، مع بَعْضِ ثوابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا، إِذا اقتضت حِكْمَتُهُ ذلك.

وكُلُّ جَارِحَةٍ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَة، والجَوارحِ الباطِنَةِ؛ هِي أَمَانَةٌ عِنْدَهُ، لِأَنَّهَا مِلْكٌ للهِ، وَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ وَدِيعَةٌ عِنْدَهُ، وَجَعَلَ لاسْتِخْدَامِهَا وَالانْتِفَاعِ بِهَا شُرُوطاً، وَكُلُّ مُخَالَفَةٍ لِهـٰذِهِ الشُّرُوط خِيَانَةٌ لِلأَمَانَةِ.

العَهْدُ: يُطْلَقُ الْعَهْدُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ كُلِّ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مَوَاثِيقَ، وَيُطْلَقُ على الوصيَّة، وعلى اليمين، وعلى الوفاء، وعلى الْحِفَاظِ ورِعَايَةِ الْحُرْمَةِ، والْأَمَان.

ويُطْلَقُ الْعَهْدُ عَلَىٰ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ الْعَبْدُ تُجاهَ رَبِّهِ، كالمبايعَاتِ مع الرسُولِ ﷺ.

أمّا الْعَهْدُ بَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وبَيْنَ عِبَادِهِ المكلّفِينَ المَوْضُوعِينَ في الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان؛ فَقَدْ تَضمَّنَ مَا يلي:

(١) أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ، عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ المبلِّغِينَ عَنْهُ، المؤيَّدِينَ مِنْهُ بالْمُعْجِزَاتِ والآيَاتِ الْبَاهِرَات، مُعْتَرِفِينَ مُذْعِنِينَ.

(٢) أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ سِوَاهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

(٣) أَنْ لَا يَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ، بِطَاعَتِهِ والاسْتِجَابَةِ لِوَسَاوِسه واتِّبَاعِ خُطُوَاتِهِ.

فَمَنْ قَالَ: «لَا إلَه إلّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» مُؤْمِناً بِهَا قَلْبُهُ؛ فَقَدْ أَعْطَىٰ اللهَ عَهْداً بِكُلِّ ذَلِكَ، وَهٰذِهِ بَيْعَةٌ بَيْنَ الإنْسَانِ وَرَبِّهِ، وَهُوَ مُطَالَبٌ بالْوَفَاءِ بها.

﴿رَٰعُونَ﴾: أي: حَافِظُونَ، بِمُقْتَضَىٰ حُقُوق الْأَمَانَاتِ، وحُقُوقِ الْعَهْد، يُؤَدُّونَ وَاجِبَاتِ الأمَانَاتِ والْعُهُود، ويَجْتَنِبُونَ مَا نُهُوا عَنْهُ فيها.

رِعَايَةُ الشَّيْءِ: تَكُونُ بِحِفْظِهِ، وبالْقِيَامِ بِمَا يَلْزَمُ له من حِمَايَةٍ وَنَمَاءٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِ المؤمِنِينَ في السُّلُوكِ الظَّاهر:

- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾:

أي: والَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِم الْخَمْسِ الْمفْرُوضَةِ فِي كُلِّ يَوْم وَلَيْلَةٍ، يُحَافِظُونَ عَلَىٰ أَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا بِشُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا، ما اسْتَطَاعُوا إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبيِّنُ ثَوَابَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّاتِ النعيم:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾:

الْوَارِثُ: آخِذُ الشَّيْءِ دُونَ عِوَضٍ، مِمَّنْ كَانَ مَالِكاً لَهُ فَسُلِبَتْ مِلْكِيَّتُهُ بِموتٍ أَوْ غَيْرِهِ، كالْمَغْلُوبِ فِي الْقِتَالِ يَأْخُذُ الْغَالِبُ مَا كَانَ مِلْكاً لِلْمَغْلُوب مِيرَاثاً.

والميراثُ عَطاءٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للوارث، لِأَنَّ مِلْكَ كُلِّ شيءٍ فِي الْوُجُودِ هُوَ للهِ خَالِقِ كُلِّ شيءٍ في الوجود سِوَاهُ، وهُوَ عَطاءٌ بِدُونِ عِوَض.

وحِينَ يَمُوتُ الميِّتُ تَصِيرُ كُلُّ مُمْتَلكَاتِهِ الَّتِي يَمْتَلِكُهَا امْتِلَاكاً صُورِيًّا بِتَمْلِيكِ اللهِ لَهُ؛ خَالِيَةً مِنْ مِلْكِ غَيْرِ اللهِ لَهَا، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذا مِيرَاثاً لَهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: (آل عمران/ ٣ مصحف) الآية (١٨٠).

وقَدْ وَزَّعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ مِلْكاً لِلْمَيِّتِ مِيرَاثاً لِمَنْ جعَلَ لَهُمُ الْحُقُوقَ فِي تَرِكَتِهِ.

والمؤمِنُونَ الَّذِينَ جَاءَتْ صِفَاتُهُمْ فِي الآيات من (٢ ـ ٩) جَعلَهُمُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ أعظَمَ الْوَارِثِينَ يَوْمَ الدِّينَ، إِذْ يَجْعَلُهُمْ في الْفِرْدَوسِ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيم خالِدِينَ بِلَا نِهَايَة.

وأُلَاحِظُ فِي هٰذَا الْمِيرَاثِ مَعْنَيَيْن:

المعْنَىٰ الأول: أَنَّهُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ مِنْ غَيْرِ عِوَض، لِأَنَّ مَا يُقَدِّمُهُ المؤمِنُونَ مَهْمَا قَدَّمُوا؛ لَا يُكافِئُ نِعْمَةَ حَاسَّةٍ مِنْ حَوَاسِّهِمُ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِمْ في الدُّنيا. فالجزاءُ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ فِي الدُّنْيَا، هُوَ فَيْضُ عَطَاءٍ مِنَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ.

الْمَعْنَىٰ الثَّانِي: أَنَّ اللهَ أَعَدَّ لِكُلِّ عِبادِهِ في الْفِرْدَوسِ أَنْصِبَةً يَنَالُونَهَا إِذَا حَقَّقُوا فِي أَنْفُسِهِمْ شُرُوطَ الظَّفَرِ بِها.

ولَكِنَّ أَكْثَرَ الْعِبادِ لَا يُحَقِّقُونَ شُرُوطَ الظَّفَرِ بِهَا، فَيَمْنَحُ اللهُ أَنْصِبَتَهُمُ الْمُقَدَّرَة لِلَّذِينَ حَقَّقُوا فِي أَنْفُسِهِمْ شُرُوطَ الظَّفَرِ بِالْفِرْدَوس، بفضل الله.

الْفِرْدَوْس: رَبْوَةٌ فِي الجنَّة، وأَوْسَطُهَا، وأفْضَلُهَا، وأعْلَىٰ مَنَازِلِهَا. ولَفْظُهُ يُذَكَّرُ وَقَدْ يُؤَنَّثُ.

روى البخاري ومسلم عَنْ أبي هريرة قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ، وأعْلَىٰ الْجَنَّة، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمن، ومِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».

وروى الإمام أحْمَدُ، والترمِذِيُّ، والحاكِمُ، والبيهقيُّ، وغيرهم، عَنْ عبادة بْنِ الصامِتِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرجَةٍ، كُلُّ دَرجَةٍ مِنْهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، والفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، ومِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْش، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَة، فإذَا سَأَلْتُمُوا اللهَ فاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوس».

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (١٢ ـ ١٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾:

القراءات:

(١٤) • قرأ ابن عامر، وشُعْبة: **[عَظْماً]** بالإفراد. و**[الْعَظْمَ]** بالإفراد.

وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عِظاماً]** بالجمع. و**[الْعِظَامَ]** بالجمع.

والمؤدىٰ واحد، لِأَنَّ الإفرادَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الجنس.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ بَعْضِ مَرَاحِلِ خَلْقِ الإنْسَانِ من سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، حَتَّىٰ جَعْلِهِ سَوِيًّا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم.

ثُمَّ بَعْدَ مُرُورِهِ مَرْحَلَةَ ابْتلَائِهِ في الحياة الدُّنيا؛ يُمِيتُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ يَبْعَثُهُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ، لِيَلْقَىٰ حِسَابَهُ وَفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، وَجَزَاءَهُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُشِيراً إِلَىٰ أَطْوَارِ خَلْقِ الإنْسَانِ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام وحَوَّاء:

• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾:

«الواو» هُنَا عَاطِفَةُ مَوْضُوعٍ عَلَىٰ مَوْضُوعٍ، و«اللّامُ» في ﴿لَقَدْ﴾ واقِعَةٌ فِي جواب قَسم مَنْوي. و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيقٍ يُفِيدُ زِيَادَةَ التوكيدِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقسم.

يَتحَدَّثُ رَبُّنا بِضَمِير المتكلِّم الْعَظِيم بِعِبَارَةِ: ﴿خَلَقْنَا﴾، لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ عَظَمَةِ هـٰذَا الْخَلْقِ تَدْبيراً وَتَقْدِيراً وَقَضَاءً، وَتَنْفِيذاً وَمُتَابَعَةً مع أصْغَرِ وَحْدَةٍ زَمَنِيَّةٍ تَمُرُّ فِيها أَطْوَارُ خَلْقِ الإنْسَان، ثُمَّ حَيَاتُهُ، ثُمّ مَوْتُهُ ثُمَّ بَعْثُهُ، وَمَا يَجْرِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ مَا لَا نِهَايَة لَهُ.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾: السُّلالَةُ مَا اسْتُلَّ مِنَ الشَّيْءِ وانْتُزِعَ بِرِفْقٍ، كانْتِزَاعِ الشَّعْرَةِ مِنَ الْعَجِينِ الطَّرِيِّ اللَّيِّن. وَهَكَذَا تُسْتَلُّ أغْذِيَةُ النَّبَاتَاتِ مِنَ الطِّينِ، أي: مِن الماءِ المخْتَلِطِ بِعَنَاصِرِ تُرَاب الأَرْض، ضِمْنَ نِظَام عَجِيبٍ يَشْتَمِلُ عَلى آيَاتٍ مُعْجِزَاتٍ بَاهِرات. وَهَكَذَا تُسْتَلُّ عَنَاصِرُ بِنَاءِ الْأَجْسَادِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ ضِمْنَ نِظَام عجيبٍ مُذْهِشٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ آيَاتٍ مُعْجِزَاتٍ باهِرَاتٍ، وَهَكَذَا تُسْتَلُّ النُّطْفَةُ المنوِيَّةُ مِنَ الْجَسَدِ ضِمْنَ نِظَامِ عَجِيبٍ مُذْهِشٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ آيَاتٍ مُعْجِزَاتٍ بَاهِرَات.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَطْوَارِ خَلْقِ الْإِنْسَان:

- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾:

النُّطْفَةُ: والنُّطَافَةُ: في اللُّغَة القليل من الماء، والمرادُ بالنُّطْفَةِ هُنَا مَنِيُّ الرَّجُلِ.

فِي قَرَارٍ: أيْ: في مَكَانٍ يَثْبُتُ فِيهِ الشَّيْء، وهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَثْبُتُ فِيهِ جُزْءٌ صَغِيرٌ مِنَ النُّطْفَةِ بَعْدَ تَلْقِيحِهَا لِبُيَيْضَةِ الْمَرْأَةِ، في جِدَارِ الرَّحِمِ بِعِنَايَةِ اللهِ وَرِعَايَتِهِ.

مَكِينٍ: أي: ثَابِتٍ مُتَمَكِّنٍ بأَلْطَاف اللهِ مِن المكَانِ الّذِي هُوَ فِيهِ، وَإِذَا كَانَ الْقَرَارُ الَّذِي تُجْعَلُ فِيهِ النُّطْفَةُ مَكِيناً كَانَتْ هِي ثَابِتَةً فِيهِ بِعِنَايَةِ اللهِ وحِفْظِهِ.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَطْوَارِ خَلْقِ الإِنْسَانِ:

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾:

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾: أي: وبَعْدَ أَنْ جَعَلَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ ـ النُّطْفَةَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، وَمَرَّ فَاصِلٌ زَمَنِيٌّ نِسْبِيٌّ؛ أَظْهَرَ مِنْ

أَطْوَارِ الْخَلْقِ أَنْ خَلَقَ النُّطْفَةَ عَلَقَةً، وَقَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَىٰ طَوْرِ الْعَلَقَةِ مَرَّتْ فِي أَطْوَارٍ بِعَدَدِ أَصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي مَرَّتْ فِيهَا مَا بَيْنَ النُّطْفَةِ والْعَلَقَةِ، وكَذَٰلِكَ مَا بَيْنَ كُلِّ طَوْرٍ وَطَوْرٍ ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِظُهُورِهِ.

الْعَلَقَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ الدَّمِ الْغَلِيظِ الْمُتَمَاسِكِ. **والْعَلَق**: اسْمٌ جَمْعِيٌّ لِلْعَلَقَة.

- ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: أي: وَلَمْ يَمْضِ فَاصِلٌ زَمَنِيٌّ طَوِيل؛ إِذْ جَاءَ طَوْرُ خَلْقِ اللهِ الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، أي قِطْعَةً فِيها تَمَاسُكٌ مَا كاللَّحْمِ.

الْمُضْغَةُ: الْقِطْعَةُ الَّتِي تُمْضَغُ مِنْ لَحْمٍ وَغَيْرِهِ.

- ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾: أيْ: وَعِقِبَ وُصُولِ الْجَنِينِ إِلَىٰ طَوْرِ الْمُضْغَةِ؛ خَلَقَ اللهُ المضْغَةَ عِظَاماً، وهَـٰذَا مَا يُمْكِنُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ مُتَابِعُو الْبَحْثِ في الأَجِنَّةِ.

- ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾: أي: وعَقِبَ وُصُولِ الْجَنِينِ إِلَىٰ الطَّوْرِ الَّذِي تَكَوَّنَ بِهِ عِظَاماً، كَسَا اللهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ الْعِظَامَ لَحماً.

- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾: أيْ: وبَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ نِسْبِيٍّ أَنْشَأَ اللهُ ـ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ ـ الْجَنِينَ خَلْقاً آخر، وَيَظْهَرُ أَنَّ هـٰذَا الْخَلْقَ الآخَرَ هُوَ نَفْخُ الرُّوحِ فِيهِ، وجَعْلُهُ إِنْسَاناً، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَنْمُو نُمُوّاً شبيهاً بِالنُّمُوِّ النَّبَاتِي.

- ﴿... فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾:

فَتبارَكَ: أي: فتنامَىٰ، وَتَزَايَدَ، وَتَعَاظَمَ، بالْإِطْلَاق الْعَام، فَوْقَ كُلِّ مَا يَصِفُهُ الواصِفُونَ مِنْ كَمَالات، وهو علَىٰ وَزْنِ «تَفَاعَلَ» مِنَ الْبَرَكَة، وهِيَ في اللُّغَةِ الزِّيَادَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: أي: أَحْسَنُ المصَوِّرِينَ والْمُقَدِّرين.

الْخَلْقُ: يأتي قي اللُّغَةِ بِمَعْنَيْين:

المعنى الأوّل: التقديرُ، وهو إعْطَاءُ أجزاءِ الشَّيْءِ مَقَادِيرَهَا بإحكام، وعلى هٰذَا المعْنَىٰ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي خِطَابِهِ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ... ﴿١١٠﴾﴾.

المعنى الثاني: ابْتِدَاعُ الشَّيْءِ على غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وإيجادُهُ مِنَ الْعَدَم، وهٰذَا المعْنَىٰ لَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

ولِعُلَمَاءِ الأحْيَاءِ مِنْ مُخْتَلِفِ التَّخَصُّصاتِ دِرَاسَاتٌ مُسْتَفِيضاتٌ حَوْلَ إتْقَانِ خَلْقِ الإنْسَانِ، والْأَطْوَارِ الّتِي يَمُرُّ خَلْقُهُ بها، وَمَا جَاءَ فِي الْقُرآنِ مُطَابِقٌ لِلْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ الّتِي تَوَصَّلَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ إلَيْها.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ مَسِيرَة وُجُودِ النَّاس:

- ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: ثُمَّ إنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بَعْدَ انْتِهَاءِ مَا قُدِّرَ لِكُلٍّ مِنْكُمْ مِنْ حَيَاةٍ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا، حَيَاةِ الابْتِلَاءِ لَمَيِّتُونَ.

جاء توكِيدُ هٰذِه العبارة بالمؤكّدَاتِ: «إنَّ ـ والجملَة الاسمية ـ واللام المزَحْلَقَة»، مع أنَّ الْمَوْتَ حَقِيقَةٌ لَا يَجْحَدُهَا إنْسَانٌ لَدَيه أدْنَىٰ إدْرَاك.

ويَبْدُو لِي أنَّ الدَّاعِيَ لِهٰذَا؛ التَّنَاظُرُ بَيْنَ هٰذِهِ الآية وبين الآية (١٦)، والْإِشْعَارُ بأنَّ الْمَوْتَ حَدَثٌ مَقْصُودٌ فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ، لِيَكُونَ بَعْدَهُ فَاصِلٌ بَرْزَخٌ بَيْنَ الموتِ والْبَعْث، ثُمَّ يَأْتِي الْبَعْثُ للحياة الْأُخرىٰ الْأَبَدِيَّةِ، حَيَاةِ الجزَاءِ الْأَكْبَر.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ أيضاً:

- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: ثُمَّ إِنَّكُمْ أيُّها النَّاسُ بَعْدَ مُرُور مُدَّة الْمَوْتِ الْمُقَدَّرَةِ في خُطَّةِ التَكْوِين؛ تُبْعَثُونَ لِتُلاَقُوا ظُرُوفَ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ الأَبْدِيَّة، الَّتِي يَكُونُ فيها الْحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، وتَحْقيقُ الجزاء، وأَحْدَاثٌ قَدَّرَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَضَاهَا، كَالْحَشْرِ، والْوَزْنِ، والصِّرَاط، وغَيْرِ ذَلِكَ.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث مِن دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (١٧ ـ ٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

القراءات:

(٢٠) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جَعْفر: [سِينَاءَ] بِكَسْرِ السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [سَيْنَاءَ] بِفَتْحِ السِّين.

(٢٠) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، ورُويس: [تُنْبِتُ] مِنْ فعل «أَنْبَتَ». وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَنْبُتُ] مِنْ فِعْلِ «نَبَتَ».

(٢١) • قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وشُعْبَة، ويَعْقُوب: [نَسْقِيكُمْ] من فعل «سَقَاهُ». وقرأها أبو جَعْفَر: [تَسْقِيكُمْ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُسْقِيكُمْ] مِنْ فعل «أسْقَاهُ».

وفي هَـٰذِهِ القراءات تَفَنُّنٌ، والمؤدَّىٰ واحِد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ في كونه، وبَعْضِ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَى عباده من رِزْقٍ وغيره، تَذْكِيراً لَهُمْ بأنْ يُقَابِلُوا نِعَمَهُ بالشُّكْرِ.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطَاباً لِلنَّاسِ وَمُبَيِّناً بَعْضَ آيَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ في كَوْنِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ:

• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ⑰﴾.

• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾: سبق نَظِيرُهَا فِي بَدْءِ الدَّرْس الثاني.

• ﴿فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾: أي: سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، سمَّاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا طَرَائِقَ، لِأَنَّ بَعْضَهَا يُحِيطُ بِبَعْضٍ، والْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ فَوْقَ شَيْءٍ آخَرَ: طَرِيقَةً.

الطَّرَائِقُ: جَمْعُ الطَّرِيقَةِ، وهُو الطريق. **والطَّرَائِقُ**: الطَّبَقَاتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْض.

وَكَوْنُهَا فَوْقَ النَّاسِ؛ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي يَسْكُنُهَا النَّاسُ تُحِيط

بِهَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا، وأنَّ السَّمَاء الثانِية تُحِيطُ بالسَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَهَكَذَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْمُحِيطَةِ بالسَّمَاءِ السَّادِسَةِ.

وفي تَصْوِيرٍ تَخَيُّلِيٍّ تقْرِيبيٍّ يُمْكِنُنا أَنْ نَضَعَ الصُّورَةَ التَّالِيَة:

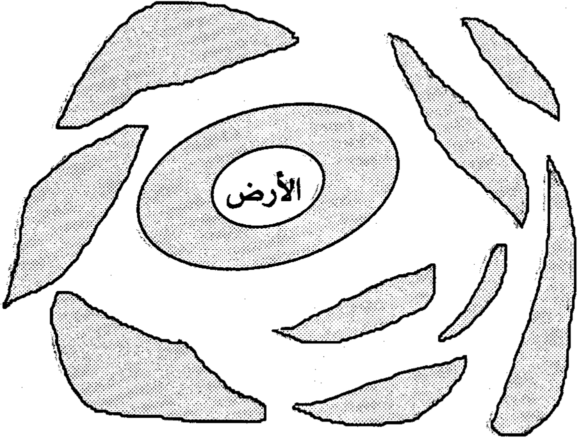

مجموعة مَجَرَّاتٍ ذَاتُ نِظَامٍ حَرَكي لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللهُ تُمَثِّلُ السَّمَاءَ الأولى.

فالسَّماء الأولى تُمَثِّلها مَجرّات لا يَعْلَم عددها إلّا الله، وبعدها مَجَرَّاتٌ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللهُ ذَاتُ نِظَامٍ حَرَكِيٍّ تُمثِّلُ السَّمَاء الثَّانِيَة.

وَهَكذَا إلى غايَةِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وفي كُلِّ مَجرَّةٍ مِنَ النُّجُوم العظمَىٰ مَا لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُ إلّا الله، يُقَدِّر بَعْضَهَا عُلَمَاءُ الكَوْنِياتِ بالملايين، ويُقَدِّرُونَ بَعْضَهَا بالمِلْيارَاتِ، واللهُ أعلمُ.

• ﴿... وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾: أي: وَمَا كُنَّا عَمَّا خَلَقْنا مِنْ هٰذَا الخَلْقِ الْعَظِيم بِكُلِّ مَا فِيهِ غَافِلِينَ، بَلْ نُتَابعُ تَسْيِيرَهُ بِتَقْدِيرِنَا وَقُدْرَتِنَا، مِنْ أَصْغَرِ وَحْدَةٍ ذَرِّيَّةٍ فِيهِ إِلَىٰ أَكْبَرِ مَخْلُوقٍ فِيهِ، مَعَ أَصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ، واسْتِمْرَاراً مَعْ مُرورِ الزَّمَنِ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ أَعْمَالَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُطَابِقَةٌ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ، المشْمُولَةِ بِعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً ذِكْرَ بَعْضِ آيَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ في كَوْنِهِ:

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

صَارَ مِنَ الْبَدَهِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ أَنَّ الْمَاءَ يَنْزِلُ مِنَ السَّحَابِ بَعْدَ تَبَخُّرِهِ مِنْ مِيَاهِ الْأَرْضِ، وتَجَمُّعِهِ سُحُباً، وَمَعْلُومٌ فِي اللُّغَةِ أَنَّ السَّحَابَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سُكَّانِ الْأَرْضِ سَمَاء، لِأَنَّ كُلَّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ يُطْلَقُ عَلَيْهِ لفظ: «سَمَاء».

وَهَـٰذِهِ الظَّاهِرَةُ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَجِيبَةِ فِي كَوْنِهِ، وهي مِنْ نِعَمِهِ الْجَلِيلَةِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَقَدْ جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ الإِعْلَامُ بِثَلَاثِ قَضَايَا ذَاتِ شَأْنٍ في المفْهُومَاتِ الدِّينِيَّة:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ اقْتَضَتْ أَنْ يُنْزِلَ الْمَاءَ فِي كُلِّ مَوْقِعٍ مِنَ الْأَرْضِ بِقَدَرٍ سَبَقَ به تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُه، مُلَائِماً لِحِكْمَةِ ابْتِلَائِهِ عِبَادَهُ، وإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ.

بِقَدَرٍ: أي: بِمِقْدَارٍ مُحَدَّدٍ، وتَدْبِيرٍ حَكِيم.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيةُ: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُهُ ـ أَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ، فِي تَجَاوِيفَ فِي بَاطِنِهَا، وَعَلَىٰ سَطْحِهَا فِي بُحَيْرَاتٍ عَظِيمَاتٍ وأَنْهَارٍ كَبِيرَةٍ، تُسَهِّلُ عَلَىٰ النَّاسِ الانْتِفَاعَ بِهِ في مَنَافِعَ كَثِيرَةٍ، مَعَ اخْتِزَانِهِ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ، وإِلْهَامِ النَّاسِ وَسَائِلَ اسْتِخْرَاجِهِ مِنْهَا.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَة: التَّنْبِيهُ المؤكَّدُ عَلَىٰ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَتْ قُدْرَتُه ـ لَعَظِيمُ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ أَنْ يَذْهَبَ بالْماء، فَلَا يَسْتَطِيعَ النَّاسُ لَهُ طَلَباً، مَعَ شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ فِي حَيَواتِهِمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿... وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾. فَإِذَا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَرْضِ مَاءَهَا؛ تَعَرَّضَ الْأَحْيَاءُ فِيهَا لِلْهَلَاك، وهـٰذَا أَمْرٌ يَسِيرٌ عَلَىٰ اللهِ الحكيم الْعَلِيمِ القدير.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ آثَارِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بالْمَاءِ فِي الأَرْضِ، وَهَـٰذِهِ الآثَارُ مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ:

- ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑲ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ⑳﴾:

أي: فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِالْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلْنَاه مِنَ السَّمَاءِ بَسَاتِينَ مِنْ نَخِيلٍ وأعْنَابٍ وغيرهما مِنَ الشَّجَرِ، وَهَـٰذِهِ الْجَنَّاتُ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ تَتفَكَّهُونَ بِهَا، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ قُوتاً لِبِنَاءِ أَجْسَادِكُمْ وإِمْدَادِهَا بالْقُوَّةِ والْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ.

وأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِالْمَاءِ أَيْضاً شَجَرَةً مُبَارَكَةً، كَانَتْ في أَصْلِ إِنْشَائِهَا تَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ طُورِ سِيْنَاءَ، ثُمَّ زَرَعَهَا النَّاسُ بالتَّوْسِيعِ الزِّراعِي في مُعْظَمِ بِلَادِ الشَّامِ، ثُمَّ فِي بِلَادٍ كَثِيرَةٍ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً فِيها، وهِيَ شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ الَّتِي تَنْبُتُ مُلْتَبِسَةً بالدُّهْنِ، وهو الْمَعْرُوف بزَيْتِ الزَّيْتُونِ، الَّذِي تَدْهَنُونَ بِهِ شُعُورَكُمْ وأجْسَادَكُمْ، لِمَا فِيهِ مِنْ مَنَافِعَ لَهَا، والَّذِي تَأْكُلُونَ مِنْهُ بِمِقْدَارِ صَبْغِ خُبْزِكُمْ وصَبْغِ كَثِيرٍ مِنْ أَطْعِمَتِكُمْ، وَلَا تَأْكُلُونَ مِنْهُ كَمَا تَأْكُلُونَ الْخَبْزَ، وغَيْرَهُ مِنَ الثَمَرَاتِ الَّتِي تُؤْكَلُ وَتُمْضَغ.

- ﴿فَأَنشَأْنَا﴾: **الإنْشَاءُ**: الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكَامُلِ المتَدَرِّجِ غَالِباً.

- ﴿جَنَّـٰتٍ﴾: جَمْعُ «جَنَّةٍ»، وهي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أشْجَارٍ وثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وأَنهار، وقَدْ تَكُونُ فِيهَا قُصُورٌ. وتُطلَقُ «الْجَنَّاتُ» عَلَىٰ الحدائِقِ والْبَسَاتِينِ المكْتَظَّةِ بالأشجار، فهي سَاتِرَةٌ لِمَا تَحْتَهَا.

وأَصْلُ مَادَّةِ «جَنَّ» تَدُورُ حَوْلَ مَعْنَىٰ السَّتْر.

- ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾: «**النَّخْلُ**» و«**النَّخِيلُ**» اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ، واحِدُهُ «النَّخْلَة»، وهيَ شَجَرَةٌ مَعْرُوفَة، وثَمَرُ مَا يُثْمِرُ مِنْهَا: الْبَلَحُ والتَّمر.

وقَدْ ذُكِرَتْ هُنَا الشَّجَرَةُ لِتَشمَلَ المثمِرَ مِنَ النَّخْلِ، وغَيْرَ المثمِرِ، وهُوَ مَا يَكُونُ للزينَةِ ولِمَنَافِعَ أُخرَىٰ غَيْرِ الْأَكْلِ مِنْهَا.

وتُعْتَبَرُ شَجَرَةُ النَّخِيلِ مِنْ أعْظَمِ الأشْجَارِ نَفْعاً للنَّاسِ غِذَاءً وفَاكِهَةً وادِّخاراً، وأعْمِدَةً، ويُصْنَعُ مِنْ أَلْيَافِهَا حِبال، ومِنْ أَوْرَاقِهَا سُفَرٌ وأَدَوَاتُ حِفْظٍ، وَمِنْ جَرِيدِهَا أعْوَادٌ وعِصِيٌّ وغَيْرُ ذَلِكَ، وَلَا شَيْءَ فِي شَجَرِ النَّخْيْلِ إِلَّا يُنْتَفَعُ بِهِ.

وَكَانَ شَجَرُ النَّخِيلِ عِمَادَ حَيَاةِ عَرَبِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَربية.

- ﴿وَأَعْنَابٍ﴾: «أعْنَاب» جمع «عِنَب»، وهو ثَمَرُ الشَّجرِ الَّذِي يُسَمَّىٰ كَرْماً. وقَدْ ذُكِرَ هُنَا الثَّمَرُ، دُونَ ذِكْرِ اسْمِ الشَّجَرِ، لِأَنَّ أَجَلَّ مَنَافِعِ هَـٰذِهِ الشَّجَرةِ يكُونُ فِي ثَمرِهَا. وروىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«لَا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ».

- ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑲﴾:

- ﴿فَوَٰكِهُ﴾: جَمْعُ «فَاكِهَةٍ»، وَهِيَ تُطْلَقُ غَالِباً عَلَىٰ الثِّمارِ الَّتِي تُؤْكَلُ لِلتَّلَذُّذِ بِطُعُومِهَا، لَا لِتَحْصِيلِ الْقُوتِ مِنْهَا.

وهـٰذَا التَّفَكُّهُ يَحْصُل بالْأكْلِ مِنَ ثِمَارِ النَّخِيلِ ومِنَ الْعِنَبِ، ويَحْصُلُ بالْأَكْلِ مِنْ ثَمَرَاتِ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ الَّتِي تُوجَدُ دَاخِلَ الْجَنَّاتِ مَعَ النَّخِيلِ والْأَعْنَابِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ عَدَداً.

- ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: أي: ومِنَ النَّخِيلِ والْأَعْنَابِ وَمِمَّا في الجنَّاتِ مِنْ زُرُوعٍ؛ تَأْكُلُونَ مَا هُوَ قُوتٌ لَكُمْ يُمِدُّكُمْ بالْقُوَّةِ وبالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ بِنَشَاطٍ وهِمَّةٍ.

- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ⑳﴾:

أي: وَأَنْشَأْنَا لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ طُورِ سَيْنَاءَ، وَهَـٰذِهِ الشَّجَرَةُ تَنْبُتُ مُخْتَلِطَةً ثِمَارُهَا بِالدُّهْنِ، أي: بِمَادَّةٍ زَيْتِيَّةٍ دَسِمَةٍ يُدْهَنُ بِهَا الشَّعَرُ والْجِسْمُ، ويُؤْكَلُ مِنْهَا بِمِقْدَارِ صِبْغٍ لِلْخُبْزِ، أَو نَحْوِهِ مِمَّا يُؤْكَلُ مَغْمُوساً بالزَّيْتِ.

رَوَىٰ التِّرمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنْ عُمَر بْنِ الْخَطَّابِ، وعَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«كُلُوا الزَّيْتَ وادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَة».

قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ مَعَ أَنَّنَا نُلاحِظُ أَنَّ شَجَرَ الزَّيتُونِ مُنْتَشِرٌ فِي بِلَادِ الشَّام، وفي تُرْكِيَا، وفي اليونان، وفي الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ وَتُونُس، وإِسْبَانِيَا، والْجزائِرِ، وغَيْرِهَا، ويَظْهَرُ لي تَأْيِيدُ فِكْرَةِ أَنَّ أَوَّلَ أَرْضٍ خَرَجَتْ مِنْهَا أَشْجَارُ الزَّيتُونِ هي أَرْضُ طُورِ سَيْنَاء، ومِنْهَا بَدَأَ النَّاسُ يَنْشُرُونَ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ، ويَتَوَالَىٰ نَشْرُهَا مِنْ أَرْضٍ إِلَىٰ أرضٍ وَرَاءَهَا، بَحسَبِ اهْتِمَامِ الناسِ بالفائِدَةِ الْعَظِيمَةِ لِأَشْجَارِ الزَّيْتُون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً بَعْضَ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ ونِعَمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ:

• ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ النَّاسَ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم مُذَكِّراً لَهُمْ بآيَةِ خَلْقِهِ الأنْعَام، وَمَا فيها مِنْ مَنَافِعَ لَهُمْ، وآيَةِ إِلْهَامِهِ أنْ يَصْنَعُوا الْفُلْكَ لِيَرْكَبُوا عَلَيْهَا، ولِتَجْرِيَ فِي الْمَاءِ، وَتَنْقُلَهُمْ وَأَشْيَاءَهُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ يَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ.

• ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾: أي: وإِنَّ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ في الأَنْعَامِ الَّتِي خَلَقْنَاهَا لَكُمْ لَعِبْرَةً. يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَىٰ بـ «إنّ ـ والْجُمْلَةِ الاسمية واللَّام المزَحْلَقَةِ» مَا تَضَمَّنَهُ هـٰذَا البيان.

الْأَنْعَامُ: هِيَ الأَمْوَالُ الرَّاعِيَةُ: «الإِبلُ، والبَقَرُ، والْغَنَمُ وتَدْخُلُ فِي الْغَنَمِ المعز»، وَلفظ «الأَنْعامِ» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث.

- ﴿لَعِبْرَةً﴾: أي: لآيَةً تَعْبُرُونَ عَلَىٰ دَلَالاتِهَا إِذَا تَفكَّرْتُمْ، فَتُوصِلُكُمْ إِلَىٰ إِدْرَاكِ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ ربّكُمْ، وشُمُولِ عِلْمِهِ كُلَّ شيء، وإتْقَانِ صُنْعِهِ كُلَّ شيء، وإِنْعَامِهِ عَلَى عباده، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ.

- ﴿نُّسْقِيكُم﴾ بضَمِّ النُّونِ مِنْ فِعْلِ «أسْقَىٰ» وفي قراءة أُخْرَىٰ: [نَسْقِيكُمْ] مِنْ «سَقَىٰ»، والمعْنَىٰ واحدٌ. وفي قراءةٍ ثَالِثَةٍ: [تَسْقِيكُمْ] أي: تَسْقِيكُم الأَنْعَامُ.

- ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾: أي: مِمَّا تَحتَوِيهِ بُطُونُهَا، وهو اللَّبَنُ الَّذِي يُخْرِجُهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ أَثْدَائِهَا، ويَسْتَخْلِصُهُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدمٍ لَبناً سَائِغاً للشَّارِبين.

- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾: أي: وَلكُمْ في الأَنْعَامِ مَنَافِعُ كَثيرة، إِذْ يَنْتَفِعُ النَّاسُ مِنْ أَصْوَافِهَا، وأَشْعَارِهَا، وأَوْبَارِها، وجُلُودِهَا، وعِظَامِهَا، وَكُلِّ شَيْءٍ في أَجْسَامِهَا، غَيْرِ الأَكْلِ مِنْ لُحُومِهَا وشُحُومِهَا، والشُّرْبِ مِنْ أَلْبَانِهَا.

- ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: أي: ومِنَ الأَنْعَام تَأْكُلونَ، وهُوَ مَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ مِنْ لُحُومِهَا وَشُحُومِهَا، وَمَا لَانَ لَهُمْ مِنْ غَضَارِيفِهَا وبَعْضِ عِظَامِهَا، وَنَقْي عِظَامِهَا وهُو المخُّ.

- ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أيْ: وَعَلَىٰ بَعْضِ الأَنْعام تُحْمَلُونَ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَإِنْعَامَاتِهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ ذَلَّلَهَا لَكُمْ، وَهِيَ الإِبِلُ، وَالْبَقَرُ، حِينَ تَجُرُّ بأَكْتَافِهَا مَرَاكِبَ تَرْكَبُونَهَا فَتَكُونُ حامِلَةً لَكُمْ وَلأَثْقَالِكُمْ، وَنَاقِلَةً لَكُمْ إِلَىٰ مَا تُرِيدُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ. وهَـٰذِهِ مِنْ نِعَم اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ في الأَنْعَامِ، مَعَ اسْتِخْدَامِهَا فِي الْحَرْثِ والنَّضحِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَذْلِيلِ صِعَابٍ.

وأَمَّا الْفُلْكُ فَقَدْ أَلْهَمَكُمْ رَبُّكُمْ صِنَاعَتَهَا، فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وَعِنَايَتِهِ وحِفْظِهِ يَحْمِلُكُمْ عَلَيْهَا جارِيَةً فِي الْمَاءِ إِلَىٰ بِلَادٍ لَمْ تكُونُوا بالِغِيهَا إِلَّا بِشَقِّ الأَنْفُسِ، ويَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ عَلَيْهَا، وَلَوْ شَاءَ لأَغْرَقَكُمْ أَنْتُمْ وَمَا تَصْحَبُونَ، وَلأَهْلَكَكُمْ، وَلَكِنَّهُ يَحْمِيكُمْ بِرَحْمَتِهِ وعِنَايَتِهِ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ، وحِينَ تَقْتَضِي مَشيئَتُهُ عِقَابَكُمْ بإِهْلَاكٍ جَمَاعِيٍّ فإِنَّهُ يُغْرِقُكُمْ وَمَا تَصْحَبُونَ، وَيُغْرِقُ فُلْكَكُمْ.

الْفُلْكُ: مَرْكَبُ البحر، يُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَاحِدِ والاثنين والجمع، ويذكر ويُؤَنَّثُ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الرابع من دُروس سورة (المؤمِنون) الآيات من (٢٣ ـ ٣٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن

مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

القراءات:

(٢٣) • قرأ الكِسَائِي، وأبو جَعْفر: **[مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ]**: بجرّ «غيرِهِ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ]**: بِرَفعِ «غيرُه».

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جَائزان.

(٢٦) • قَرَأَ يَعْقُوب: **[كَذَّبُونِي]**: بإِثْبَاتِ ياء المتكلم في الوصْلِ والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[كَذَّبُون]**: بِحَذْفِ ياء المتكلم مع مُلاحَظَتِها ذِهْناً.

(٢٧) • قرأ حفصٌ: **[مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ]**: بِتَنْوِينِ لام «كُلٍّ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ]**: على إضافة «كلّ» لـ «زَوْجَيْنِ».

(٢٩) • قرأ شُعْبَةُ: **[مَنْزِلاً]**: وهو اسم مكان النزول، من فِعْلِ: «نَزَلَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مُنْزَلاً]**: وهو اسْمُ مكان النزول، من فعل «أنْزَل»، أو هو مَصْدَرٌ مِيميٌّ، أي: إنْزَالاً.

تَمْهِيد:

في آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وفي الكِتاب الّذي فَتَحَ اللهُ بِهِ عَلَيَّ بِعُنْوانِ: «نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلام وقومُهُ في القرآنِ المجيد» دِرَاسَةٌ تَدبُّرِيَّةٌ تَكَامُلِيَّةٌ لِهٰذَا النَّصِّ مَعَ سَائِرِ

النُّصُوص الْقُرآنِيَّة المتَعَلِّقَةِ بِنُوحٍ وَقَوْمِهِ عَلَيْهِ السَّلَام، فأقْتَصِرُ هُنَا عَلى تَحْلِيلِ آيَاتِ هٰذَا الدَّرْس.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلّم العظيم الدَّالّ عَلَىٰ عَظَمَةِ صِفَاتِهِ:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

- ﴿وَلَقَدْ﴾ سَبَقَ نظيرُهَا فِي السُّورَةِ مَعَ التَّحْلِيل، والعطف هو مِنْ قَبِيل عَطْفِ مَوْضُوعٍ عَلَىٰ مَوْضوع.

- ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: أي: أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ، فَنَبَّأْنَاهُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَرْسَلْنَاهُ، وَهٰذَا يُفْهَمُ باللُّزُوم الذِّهْنِي، فَالإِرْسَالُ الرَّبَّانِيُّ يَكُونُ لِمَنْ يَصْطَفِيهِ اللهُ فَيُوحِي إِلَيْهِ، فَيَجْعَلُهُ نبِيًا، ثُمَّ يُكَلِّفُهُ أَنْ يَحْمِلَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَيُبَلِّغَهَا كَمَا يَأْمُرُه.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مُكَلَّفاً أَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ لِجَمِيعِ النَّاسِ، بَلْ كَانَ مُكَلَّفاً أَنْ يُبَلِّغَهَا لِقَوْمِهِ فَقَط، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ مَضْمُونَ رِسَالَتِهِ صَالِحٌ لِعُمُومِ النَّاس.

ونَتسَاءَلُ: هَلْ كَانَ قَوْمُهُ كُلَّ النَّاسِ في عَصْرِهِ، أَمْ كَانُوا بَعْضَ النَّاس؟.

أقول: لَا نَمْلِكُ إجابَةً مُحَدَّدَةً تَسْتَنِدُ إِلَىٰ ما لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الاحْتِمَالُ المضْعِفُ لَهَا، لَكِنْ جَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ ذُرِّيَّةَ نُوحٍ كَانُوا هُمُ الباقين بَعْدَهُ عَلَيْهِ السَّلَام.

- ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: أي: اعْبُدُوا الله

وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، لِأَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، والْعِبَادَة حَقُّ الرَّبِّ الَّذِي هُوَ رَبُّ الْعالَمِين.

أَمَّا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ فَهِيَ لَيْسَتْ بآلِهَةٍ تُعْبَدُ، إِذْ هِيَ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا، وصُوَرٌ صَوَّرْتُمُوهَا، وَأَوْثَانٌ نَحَتُّمُوهَا بأَيْدِيكُمْ، لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفعُ.

• ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾: لفظ «مِنْ» حرف جَرٍّ زَائِدٍ، جِيءَ بِهِ للتَّنْصِيصِ عَلَىٰ الْعُمُومِ المنفي، ولفظ «إِلَهٍ» مُبْتَدأٌ مَجْرُورٌ لفظاً بحَرْفِ الْجَرِّ الزائد، مَرْفُوعٌ مَحَلًّا، ولفظ «غَيْرُ» نَعْتٌ للفظ «إِلَهٍ» مُراعىً فِيهِ المحلُّ، أَوْ بَدَلٌ، وفي قراءَة «غَيْرِه» بالْجَرِّ رُوعِيَتْ الْحَرَكَةُ الَّتِي اقتضاها حَرْفُ الْجَرِّ الزائِدِ فِي لفظ «إِلَهٍ».

• ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: عَرْضٌ رَفِيقٌ بأَسْلُوبِ الاسْتِفْهام، يَتَضَمَّنُ دَعْوَتَهُمْ إِلَىٰ اتِّقَاءِ عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ، مَع ما قَدْ يَحْمِلُ مِنْ تَعَجُّبٍ واسْتِغْرَابٍ واسْتِنْكَارٍ.

أي: إذَا لَمْ تُؤْمِنُوا باللهِ، وَلَمْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَزَلَ بِكُمْ عِقَابُهُ وَعَذَابُهُ يَوْمَ الدِّينِ، مع عَذَابٍ وعِقَابٍ قَدْ يَنْزِلُ بِكُمْ فِي الدُّنْيَا. فالرُّشْدُ والْعَقْلُ يَقْتَضِيَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَتَّقُوا ذلِكَ بالْإِيمانِ بأَنَّ اللهَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوجُودِ غَيْرُه، وبِأَنَّهُ هُوَ الإِلَهُ الواحِدُ الأَحَدُ، الَّذِي لَا إِلَهَ بِحَقٍّ فِي الْوجُودِ كُلِّهِ غيره، وبالتَّعْبِيرِ عَنْ إيمانِكُمُ الصَّادِقِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَه.

العبادة: هِيَ الخضُوعُ والطَّاعَةُ على مِقْدَار الاسْتِطَاعَةِ، والْقِيَامُ بِما يُرْضِي الْمَعْبُود، وَتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ. ورأسُ العبادَةِ الدُّعَاءُ بالغيب، لتحقيق مَطَالِبِ الدُّنْيَا والْآخِرَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبيِّناً مَقَالَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام لِرَفْضِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ:

• ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾:

• ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: هُمْ سَادَةُ الْقَوْمِ وَكُبَرَاؤُهُمْ وَوُجَهَاؤُهُمْ وأَعْيَانُهُم الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ الْعَامَّة.

• ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾: هَٰذِهِ الْعِبَارَةُ قَدْ تَكُونُ وَصْفاً تَقْيِيدِيًّا لِلْقَائِلِينَ مِنْ مَلَإِ قَوْم نُوح عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَدْ تَكُونُ وَصْفاً كاشِفاً، والاحْتِمَالُ الْأَوَّلُ هُو الْأَرْجَحُ فِيما أَرَىٰ، لِأَنَّ الْقَوْلَ الَّذِي قَالُوهُ لَا يَقُولُونَهُ إِلَّا إِذَا كَانُوا كَافِرِينَ، وهَٰذَا يَدُلُّ على أنّ بَعْضَ مَلَأِ قَوْمِهِ قَد آمَنُوا به، وَبِمَا دعاهم إِلَيْهِ.

• ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: أي: قَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا لجماهِيرِهِمْ مَا هَٰذَا الّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ نبيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ وَرُسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ كَمَا تَأْكُلُونَ، ويَشْرَبُ كَمَا تَشْرَبُونَ، وَيَتَزَوَّجُ كَمَا تَتَزَوَّجُونَ، ويَعْمَلُ لِكَسْبِ رِزْقِهِ كَمَا تَعْمَلُونَ، وهَٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ مُؤَهَّلاً لِأَنْ يَكُونَ نَبِيًّا يَتَلَقَّىٰ الْوَحْيَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا أَنْ يَكُونَ رَسُولاً يُبَلِّغُنَا مَا يَأْمُرُهُ بِأَنْ يُبَلِّغَنا إِيَّاه.

وأشاروا إلى نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ باسْمِ الإشارة «هَٰذَا» للإشْعَارِ بِأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ باحْتِرَام وإكْبَار، ازْدِرَاءً بِهِ، وسُخْرِيَةً مِنْهُ، لِيَصُدُّوا جَمَاهِيرَهُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ.

• ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: **التَّفَضُّلُ**: تَكَلُّفُ الْفَضْلِ، والْفَضْلُ في اللُّغَةِ: الزِّيَادَةُ، وشاعَ في زِيَادَةِ الشَّرَفِ والرِّفْعَةِ والمكانَةِ الاجْتِمَاعِيّة.

زَعَمَ مَلأُ قَوْمِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَام - الَّذِينَ كَفَرُوا لِجَمَاهِيرِهِمْ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ يُرِيدُ بادِّعَاءِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ أَنْ يَكُونَ ذَا فَضْلٍ عَلَيْهِم بِصِفَةٍ لَا

يَمْلِكُونَ نَظِيرَها، وَهَـٰذِهِ الصِّفَةُ تَجعَلُهُ سَيِّداً عَلَيْهِمْ، وَقَائِداً لَهُمْ، وآمِراً نَاهِياً مُطَاعاً، يَسْتَمِدُّ سُلْطَانَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيَفْرِضُ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ مَا يُرِيدُ، وهو غير صادِقٍ في رِسَالَتِهِ، إذْ هُوَ كَاذِبٌ في ادِّعائِهِ.

• ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾: أي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُرسِلَ رُسُلاً إِلَىٰ النَّاسِ يُبَلِّغُونَ عَنْهُ دِينَهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً، وَلَمْ يُرسِلْ رُسُلاً بَشراً، زَاعِمِينَ وَمُوهِمِينَ أَنَّ هـٰذَا هُوَ مَا تَقْضِي به الْحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّة، أَوْ هـٰذَا هُوَ الأَمْرُ الْمُمْكِنُ الَّذِي تَقْبَلُهُ الْعُقُول.

وأَمَّا أَنْ يُرْسِلَ رَسُولاً بَشَراً فَهـٰذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَلَا مَقْبُولٍ، وَمُدَّعِي الرِّسَالَةِ مِنَ الْبَشَرِ هُوَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ، تَتَهَيَّأُ لَهُ أُمُورٌ يَزْعُمُ بِهَا أَنَّهُ رَسُولٌ، أَوْ هُوَ كَذَّابٌ يفْتَرِي عَلَىٰ اللهِ.

إِنَّهُمْ يَتَنَاقَضُونَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ في قَبُولِ هـٰذَا التَّوَهُّم، إِذْ قَبِلُوا أَنْ يَتَلَقَّىٰ الْمَلَائِكَةُ عَنِ اللهِ، مَعَ أَنَّ الْمَلَائِكَةِ خَلْقٌ مِنْ خلْقِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ الْقَادِرَ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَلَائِكَةً لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِلتَّلَقِّي عَنْهُ؛ كَيْفَ لَا يَكُونَ قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَ هـٰذَا الاسْتِعْدَادِ في بَعْضِ خَلْقِهِ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ يَصْطَفِيهِمْ بالنُّبُوَّةِ، ثُمَّ يُكَلِّفُهُمْ أَنْ يَكُونُوا رُسُلاً إِلَىٰ أَقْوَامِهِمْ.

• ﴿... مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: ما وَصَلَتْ أَخْبَارٌ إلى أَسْمَاعِنَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ سَبَقَ فِي تَارِيخِ أَجْدَادِنَا الْقُدَمَاء؛ أَنْ جَاءَهُمْ رُسُلٌ مِنَ الْبَشَرِ يُبَلِّغُونَ عَنِ اللهِ مَا جَاء بِهِ نُوح عَلَيْهِ السَّلَام.

إِنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ بِهـٰذِهِ الْمَقُولَةِ إِضَافَةَ دَلِيلٍ تَارِيخِيٍّ يَشْهَدُ لادِّعَائِهِمْ بِأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يَكُونُوا رُسُلاً للهِ، وأَنَّ اللهَ لَمْ يَشَأْ إِرْسَالَ رُسُلٍ إِلَىٰ الناسِ.

وهـٰذَا الدَّلِيلُ سَاقِطٌ لَا تَنْهَضُ بِهِ حُجَّةٌ، لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَىٰ ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا بِإِرْسَالِ رُسُلٍ سَابِقِينَ.

إِنَّهُمْ لَوْ صَدَقُوا لَمَا كَانَ دَلِيلاً علَىٰ عَدَمِ إِرْسَالِ رُسُلٍ قبل نوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، فَكَمْ مِنْ أَخْبَارٍ ضَاعَتْ فِي التَّارِيخِ، وَلَا سِيمَا في الْقُرُونِ الأولَىٰ الَّتِي لَمْ تكُنِ الأخْبَارُ فِيهَا تُدَوَّنُ في الكُتُب.

وقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ انْحرَفَتْ عَنْ دِينِ اللهِ الحقِّ؛ إِلَّا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا رَسُولاً مُنْذِراً، اسْتِكْمَالاً لِحِكْمَةِ الابْتِلَاءِ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وَلَا أَقلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيها نَبِيٌّ أَوْ مُبلِّغُون يُبَلِّغُونَهَا رِسَالَةَ رَسُولٍ سَابِق.

إِنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ بالْأَخْبَارِ السَّابِقَةِ؛ لَا يَقْتَضِي أَنَّ مَا تَتَضَمَّنُهُ الأخْبَارُ غَيْرُ مَوْجُودٍ في الْوَاقِعِ والحقيقَة.

• ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾: «إِنْ» حرف نَفْي مِثْلُ «مَا». «جِنَّةٌ» أي: جُنُون، يُقَالُ لُغَةً: «جُنَّ، جَنًّا، وجُنُوناً، وجِنَّةً، ومَجَنَّةً» أي: زَالَ عَقْلُهُ.

عبارة: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ بِصِيغَةِ المصْدَرِ المُنَكَّرِ؛ دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا أَنْ يَقُولُوا: هو مَجْنُونٌ جُنُوناً مُطْبِقاً، بَلْ مَا فِيهِ هُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الجنون، وقَدْ يَعْنُونَ جُنُونَ الْعَظَمَةِ وَحُبِّ الاسْتِعْلَاءِ.

والْقَصْرُ في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ هو مِنْ قَصْرِ الموصُوفِ على الصِّفَةِ، وهُو مِنْ نَوعِ الْقَصْرِ الإضَافِي.

• ﴿... فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾: فَتَرَبَّصُوا: أي: فَتَرَيَّثُوا وانْتَظِرُوا. يقال لغة: «رَبَصَ بالشَّيْءِ رَبْصاً، وَتَرَبَّصَ بِهِ تَرَبُّصاً» أي: انْتَظَرَ بِهِ خَيْراً أَوْ شَرّاً.

المعنى: فَانْتَظِرُوا بِهِ إِلىٰ حِينٍ مَا شَيْئاً نَخْلُصُ بِهِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ، ومِنْهَا انْتِظَارُ مَوْتِهِ، في زَمَنٍ سَيَأْتِي.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً لَقْطَةً مِنْ أَوَاخِرِ مَسِيرَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام الدَّعَوِيةِ، وَيَأْسِهِ مِنِ اسْتِجَابَةِ قَوْمِهِ لِدَعْوَتِهِ، وَتَهْدِيدِ قَوْمِهِ لَهُ وِلِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهِ بالرَّجْمِ:

• ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)﴾: أي: قال: رَبّ انْصُرْني بِسَبَبِ تكْذِيبِهِمْ لي. «ما» في ﴿بِمَآ﴾: مَصْدَرِيّة.

وسَكَتَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام؛ عَنْ تَعَرُّضِهِ وتَعَرُّضِ أَهْلِهِ لِتَهْدِيدِ قَوْمِهِ لَهُمْ بالرَّجْمِ تَأَدُّباً مع اللهِ، وتَسْلِيماً لِمَا يُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَا أَمَرَ بِهِ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْ يَصْنَعَ الْفُلْكَ، مَعَ تَوَابعِ صِنَاعَتِهِ لَهُ:

• ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)﴾:

• ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾:

الْفَاءُ في ﴿فَأَوْحَيْنَآ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ، أي: فَاسْتَجَبْنَا دُعَاءَهُ، وَقَدَّرْنَا نَصْرَهُ وَقَضَيْنَاهُ، واخْتَرْنَا إِهْلَاكَ قَوْمِهِ الظَّالِمِينَ بِوَسِيلَةِ الإغْرَاقِ، وأَعْلَمْنَاهُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (أَخْذاً مِنْ نُصُوصٍ قرآنِيَّةٍ أُخرى)، وأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنا.

«أَنْ» في الْعِبارَةِ: تَفْسِيرِيَّةٌ، وَهِيَ بمعنَىٰ «أَيْ»، وهِي الَّتِي يَسْبِقُهَا مَعْنَىٰ الْقَوْلِ دُونَ حُرُوفه.

أَصْلُ الصُّنْعِ الْعَمَلُ، واشْتَهَرَ في الدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ الَّذِي يَتَطَلَّبُ

خِبْرَةً وَمهَارَةً ما، ومَعْلُومٌ أَنَّ بِنَاءَ سَفِينَةٍ تَجْرِي فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ، وتَحْمِلُ بَشَراً وَبَهائِمَ وَمَوَادَّ تَموِينِيَّةً، وَتَتَعَرَّضُ لِهُطُولِ أمْطَارٍ غَزِيرَةٍ عَلَيْهَا كَأَفْوَاهِ الْقِرَبِ، وَيَتَقَاذَفُهَا مَوْجٌ كالْجِبَالِ؛ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَهارَةٍ صِناعِيَّةٍ رَفِيعَةٍ جِدًّا، يُبَاشِرُهَا ذُو خِبْرَةٍ عَالِيَةٍ فِي الْهَنْدَسَةِ والْبِنَاءِ والتَّفْصِيلِ والتَّرْكِيبِ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ إحَاطَةٍ بالتَّوجِيهِ والتَّسْدِيدِ التَّامَّيْنِ، حَذَراً مِنْ وُقُوعِ الْخَلَلِ أو الْخَطَأِ الَّذِي قَدْ يُودِي بركَّابِ السَّفِينَةِ إِلَىٰ الْغَرَقِ السَّرِيعِ، باعْتِبَارِ أَنَّ المطْلُوبَ صُنْعُهُ عَمَلٌ مُبْتَكر، لَمْ يَخْضَعْ لتجارِبَ، وإِنَّمَا يُصْنَعُ لِيَكُونَ هُوَ وَسِيلَةَ النَّجاةِ مُبَاشَرَةً بَعْدَ إتْمَامِ الصُّنْعِ.

ومع أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلام قَدْ كَانَتْ لَهُ خِبْرَةٌ بالنّجارةِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ سُفُناً بَحْرِيَّة، وَلَا كَانَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عِلْمٌ بالسُّفُنِ في زَمَانِهِ، لِهَـٰذَا كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ يُوحِيَ اللهُ إِلَيْهِ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِصُنْعِهَا، وأَنْ يُحَاطَ بالْعِنَايَةِ والْمُرَاقَبَةِ والتوجِيهِ والحفظ مِن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، دَلَّ عَلَى هـٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ أي: بِعِنَايَتِنَا وَمُرَاقَبَتِنَا الدَّائِمَةِ لَكَ، وَوَحْينَا إِلَيْكَ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَهُ.

الْفُلْكُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَرْكَبَةٍ بَحْرِيَّةٍ تَجْرِي فِي الماء، ولفظ «الْفُلْكِ» يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وَيُسْتَعْمَلُ لِلْوَاحِدِ والْجَمْعِ.

- ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡ ....﴾:

وَقرأ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ: [مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ] بإضَافَةِ لفظ «كُلِّ» إلى «زَوْجَيْنِ»، أي: مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ مِنْ أَصْنَافِ الْبَهائِم اثْنَينِ، وَلَا تَحمِلْ أَكْثَر، فالاثنانِ ذكَرٌ وأنْثَىٰ مَعَ الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَكْفِيانِ للتَّكَاثُرِ فيمَا بَعْدُ.

والتَّنْوِينُ في لفظ «كُلٍّ» عَلَىٰ قِرَاءة حفْصٍ عِوَضٌ عَنِ المضَافِ إِلَيْهِ المحذوف.

- ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: أي: فَإذا جاءَتْ مُقَدِّمَاتُ تَنفِيذِ أَمْرِنا بإهْلاكِ ظالمِي قَوْمِكَ غَرَقاً:

- ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: **التَّنُور**: هُوَ الْفُرْنُ الَّذِي يُخْبَزُ فِيهِ، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بن أبي طالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: أَنَّ التَّنُّورَ وَجْهُ الْأَرْضِ، وَجَاءَ فِي اللُّغَةِ أَنَّ كُلَّ مَفْجَر مَاءٍ تَنُّورٌ، وَكُلُّ هٰذِهِ الْمَعَانِي صَالِحَةٌ.

أي: وَفَارَتِ الْعُيُونُ فَوَرَاناً زَائِداً عَنْ عَادَتِها، وَفَارَ وَجْهُ الأرْضِ بِالْمَاءِ مِنَ المواقِعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَتَفَجَّرُ فيها عُيُونُ الْمَاءِ، حَتَّىٰ الْأَمَاكِنُ الْبَعِيدَةُ عَنْ مَوَاطِنِ الْعُيُونِ، كالمخابزِ فَارَت أَيْضاً بالماء.

يقال لغة: «فَارَ الْمَاءُ، يَفُورُ، فَوْراً، وَفَوَرَاناً» أي: خَرَجَ مِنَ الأرضِ وَجَرَىٰ مُتَدَفِّقاً، فَهُوَ «فَوَّارٌ».

- ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾: أي: فَأَدْخِلْ فِي الْفُلْكِ بانْتِظَامٍ وإِحْكَامٍ.

- ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾: أي: مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّتِي يُهِمُّكَ حَمْلُهُ للتَّكَاثُرِ عِنْدَ الْهُبُوطِ مِنَ الْفُلْكِ إِلَىٰ الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ؛ زَوْجَيْنِ، أَحَدُهُمَا ذَكَرٌ والآخَرُ أُنْثَىٰ.

- ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾: أي: واسْلُكْ فِي الْفُلْكِ أَهْلَكَ كُلَّهُمْ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ الصَّادِرُ عَنَّا بِأَنَّهُ مِنَ الْمُغْرَقِينَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ وَبَقِيَ عَلَىٰ دِينِ قَوْمِهِ، وَدَلَّ نَصٌّ في القرآنِ المجيد؛ عَلَىٰ أَنَّ أَحَدَ أَوْلَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ نَسَباً، لَكِنَّهُ بِكُفْرِهِ قَطَعَ حَقَّهُ في أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

- ﴿... وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: وَلَا تُخَاطِبْنِي يَا نُوحُ فِي رَفْعِ هٰذَا العِقَابِ عَنْهُمْ، أَوْ إِمْهَالِهِم، أَوِ التخفيف عنهم، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَأَمْرُ إِهْلَاكِهِمْ جَمِيعاً صَارَ قَضَاءً مُبْرَماً، وَطَرِيقَةُ إِهْلَاكِهِمْ سَتَكُونُ إغراقاً بالماء، مَعَ أَنَّهُمْ فِي بَرٍّ آمِنٍ مِنَ الْغَرَقِ بِحَسَبِ الْعَادَة.

• ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: فَإِذَا حَصَلَ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ الاسْتِقْرَارُ الْمُلَائِمُ المسْتَوِي الّذِي لَا يَجْعَلُ بَعْضَ جَوَانِبِ الْفُلْكِ أثقَلَ مِنْ مُقَابِلِهِ، لِتَكُونَ عِنْدَ الْجَرْيِ مُسْتَوِيَةً عَلَىٰ الماءِ، وأَخَذَتْ تَجْرِي مُسْتَوِيَةً؛ فَاذْكُرِ اللهَ بالثناءِ عَلَيْهِ، واحْمَدْهُ فَقُلْ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا بِتَدْبِيرِهِ وَعِنَايَتِهِ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، أَيْ: مِنْ دَرَكَةِ أَشْنَعِ الكُفْرِ مَعَ تَهْدِيدِ رَسُولِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِ السَّلَام وَتَهْدِيدِ أَهْلِهِ بالرَّجْم، للتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَنَبْذِ الشِّرْكِ والأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

نَجَّانَا: أي: خَلَّصنا وَأَنْقَذَنا.

• ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وقُلْ يا نُوحُ رَبِّ أنزِلْنِي (أي: أنا وَمَنْ مَعِيَ) مُنْزَلاً مُبارَكاً (أي: مَكَانَ إِنْزَالٍ مُبارَكٍ، وإِنْزَالاً مُبارَكاً فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَنا)، وأَنْتَ رَبِّ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ لِلْعِبَادِ ـ إِذَا شِئْتَ ـ الْخَيْرَ الكَثِيرَ لَهُمْ.

عبارة: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ عِبَارَةُ ثَنَاءٍ عَلَىٰ اللهِ تَتَضَمَّنَ دُعَاءً بأَنْ يُنْزِلَهُمْ بَعْدَ الرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ خَيْرَ مَكَانِ نُزُولٍ وَخَيْرَ إِنْزَالٍ.

• ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: إِنَّ فِيمَا عَرَضْنَاهُ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام وَقَوْمِهِ فِي هَـٰذِهِ السُّورَة؛ آيَاتٍ عَدِيداتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ طائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ الْعَظِيمَة، وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، ومِنْهَا حِكْمَتُهُ فِي امْتِحَانِ عباده، وفي مجازاتِهِمْ بالْعَدْلِ وَبالفضل.

لَمُبْتَلِينَ: أي: لِمُمْتَحِنِينَ عِبَادَنَا جميعاً مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ وَمَنْ آمَنَ حَتَّىٰ رُسُلُنَا، «وَإِنْ» هَـٰذِهِ المخفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَة، واللام هي الفارقة بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّافِيَة.

وبهـٰذا انتهى تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الخامس من دُروس سورة (المؤمِنُون)

الآيات من (٣١ ـ ٤١)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١)﴾.

القراءات:

(٣٢) ● قرأ يعقوب: [**فِيهُمْ**] بضَمِّ الْهَاءِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فِيهِمْ**] بِكَسْرِ الهاء.

(٣٢) ● قرأ أبو عمْرو، وعاصم، وحمزة، ويَعْقُوبُ: [**أَنِ اعْبُدُوا**] بِكَسْرِ النُّون.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَنُ اعْبُدوا**] بِضَمِّ النُّون.

(٣٢) ● قرأ الكِسَائِيُّ، وأَبُو جَعْفر: [**مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ**] بجر (غيره) مراعاة للفظ «إِلَه».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**] بِرَفْعِ (غيره) مراعاة لِمَحَلِّ «إِلَه».

(٣٥) • قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكِسائي، وخلف: **[مِتُّمْ]**، وهي لغةٌ مَسْمُوعَة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مُتُّمْ]** على القياس.

فالقراءتان وجهان عَرَبيان.

(٣٦) • قرأ أبو جَعْفَر: **[هَيْهَاتِ هَيْهَاتِ]** بِكَسْرِ التاءِ فيهما.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ]** بِفَتْحِ التاء فيهما.

وهما وَجْهَانِ عَرَبيان.

(٣٩) • قرأ يَعْقُوب: **[كَذَّبُونِي]** بإثباتِ ياء المتكلّم في الوصْلِ والوقف.

وقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[كَذَّبُونِ]** بحذف ياء المتكلّم مع ملاحظتِها ذهْناً.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لقَطاتٍ مُوجزَاتٍ مِنْ قصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقَوْمِهِ عادٍ، دُونَ تَصْرِيحٍ بذكْرِ اسْمِ هود عَلَيْهِ السَّلَام واسم قَوْمِه.

وقَدْ سَبقَتْ دِرَاسَةُ هـٰذَا الدَّرْسِ دِرَاسَة تَدَبُّرِيَّة تكامُلِيَّة؛ في المُلْحَقِ الثَّانِي مِنْ مَلَاحِقِ تَدبّر سورة (هود/ ٥٢ نزول).

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ مَنْ أَنْشَأَهُمْ بَعْدَ إِهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام الكَفَرَة:

• ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: وَبَعْدَ إِهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وَمُرُورِ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ مِنَ الدَّهْرِ؛ أَنْشَأْنَا قَرْناً آخَرِين، يُطْلَقُ «الْقَرْنُ» ويُرَادُ بِهِ أَهْلُ زَمَانٍ واحِدٍ، لِأَنَّهُمْ اقْتَرنُوا معاً فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.

وكُلُّ قَوْمٍ لِرَسُولٍ عَاشُوا في زَمَانِهِ هُمْ قَرْنُهُ. دلَّ عَلى مُرُورِ مُدَّةٍ غير قصِيرَةٍ حرف العطف «ثُمَّ».

وهَؤُلَاءِ هُمْ «عَادٌ» قَوْمُ النَّبِيِّ الرَّسُولِ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَام.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِم:

• ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: [**مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ**] مُرَاعَاة لِحَرَكَة حَرْفِ الجرّ الزّائد في: [**مِنْ إِلَهٍ**].

أي: فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ نَسباً ولُغَةً وَمَكَانَ إِقَامَةٍ هو «هُودُ عَلَيْهِ السَّلَام»، بِرِسَالَةٍ كَلَّفْنَاهُ فِيها أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُه، وأَنْ يَقُول لَهُمْ وَاعِظاً وَمُحَذِّراً لَهُمْ مِن عِقَابِ رَبِّهِمْ عَلَىٰ شِرْكِيَّاتِهِمْ وَلَوَازِمِ شِرْكِيَّاتِهِمْ في السُّلُوكِ الظَّاهِرِ والْبَاطِنِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، بِعَرْضٍ مَشُوبٍ بِتَلْوِيمٍ إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ لَقَطَاتٍ مِنْ مُوجَزِ قِصَّةِ هود عَلَيْهِ السَّلام مع قَوْمِهِ:

• ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

المَلأُ: أَشْرَافُ الْقَوْمِ وأَعْيَانُهُمْ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَلأَ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام بثلاثِ صِفَاتٍ:

الصِّفَة الأُوْلَىٰ: أَنَّهُم كَفَرُوا كُفراً إِرَادِيًا، بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ حَقٍّ أَدْرَكُوا أَنَّهُ حَقٌّ، بالبراهين الَّتِي قُدِّمَتْ لَهُمْ، بِشأْنِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ الواحِدِ الأَحَدِ، وأَنَّهُ الإِلَهُ الَّذِي لَا إِلَهَ بِحَقٍّ غَيْرُهُ.

الصِّفَةُ الثانِيَة: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِيَوْمِ الدِّينِ، والْحَيَاةِ الآخِرَةِ، ولِقَاءِ اللهِ فيها لِلْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتَحْقِيقِ الجزاء.

الصِّفَةُ الثالِثَة: أَنَّهُمْ كَانُوا مُتْرَفِينَ قَدْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، فَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بها.

المترف: هو الكثيرُ الاسْتِمتَاعِ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، ويأتي لفظ «الْمُتْرَفِ» بمَعْنَىٰ الْبَطِرِ المسْتَكْبِرِ.

الواو في: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ تَعْطِفُ على مَحْذوف، وهو كُلُّ مَا قَالُوهُ في قِصَّتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِم، ورفْضِهِمُ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ، قَبْلَ أَنْ يَتَوَجَّهُوا لِجَمَاهِيرِهِمْ، بُغْيَةَ صَدِّهِمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَة هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

أي: وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ عَادٍ لِجَمَاهِيرِهِمْ: مَا هٰذَا الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّكُمْ وَيَأْتِيكُمْ بِبَلَاغَاتٍ عَنْهُ؛ إِلَّا بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ مِنْ طعَام، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ مِنْهُ مِنْ شَرَاب، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَسُولاً يَتَلَقَّىٰ عَنِ اللهِ الْأَوَامِرَ والنَّوَاهِي والتَّعليمَاتِ، إِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ مَلَكاً مِنَ الملائكةِ.

هٰذِهِ مَقُولَةٌ تَضْلِيلِيَّةٌ كاذِبَةٌ، بَلِ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَىٰ الْبَشَرِ بَشَراً مِثْلَهُمْ.

وَقَالُوا لجماهِيرِهِمْ أيضاً:

- ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: وَنُقسِمُ لَكُمْ بِأَنَّكُمْ أَيُّهَا الْجَمَاهِيرُ إِنْ أَطَعْتُمْ واتَّبَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ نَبْذِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ وَأَجْدادُكُمْ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ، وَتَرْكِ عَادَاتِكُمْ وَتَقَالِيدِكُمْ الْمَوْرُوثَةِ؛ إِنَّكُمْ حينَئِذٍ لَخاسِرُونَ.

عِبَارَاتٌ مَشْحُونَاتٌ بالْمُؤَكِّدَاتِ بُغْيَةَ الْإِقْنَاعِ بِالْبَاطِلِ الَّذِي يُرِيدُ كُبَرَاءُ عَادٍ إِقْنَاعَ جَمَاهِيرِهِمْ بِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابعاً بَيانَ مَقَالاتِ مَلأ عَادٍ لِجَمَاهِيرهم بُغْيَة صَدِّهِمْ عَنِ الاسْتِجابَةِ لِدَعْوَةِ رَسُولِهِمْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: وَقَالَ مَلأُ قَوْم هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام لِجَمَاهِيرِهِمْ بأُسْلُوب الاسْتِفْهَام الإنْكَارِيّ الاسْتِهْزَائي: أَيَعِدُكُمْ وَعْداً عَجِيباً مُسْتَغْرَباً بَعِيداً عَمَّا يُقْبَلُ في الْعُقُولِ، فَيَذْكُرُ لَكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ، وَدُفِنْتُمْ في قُبُورِكُمْ، وَبَلِيَتْ أَجْسَادُكُمْ، وَصِرْتُمْ تُراباً وعِظاماً نَخِرَةً بالِيَةً؛ سَوْف تُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءً، وَتُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ، لِتُلاقُوا حِسَابَ رَبِّكُمْ، وَحُكْمَهُ فِيكُمْ، ثُمَّ لِيُجَازِيَكُم عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ؟؟!.

وقَالُوا: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

هَيْهات: اسم فِعْلٍ مَاضٍ بمَعْنَىٰ «بَعُدَ»، أي: مَا تُوعَدُونَهُ مِنَ الْبَعْثِ والحياة الأُخْرَىٰ أَمْرٌ مُسْتَغْرَبٌ مُسْتَبْعَدٌ لَا تُصَدِّقُهُ الْعُقُول.

وَبَعْدَ هـٰذَا الاستِبْعَادِ الَّذِي لَا يَقْتَرِنُ بِحُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ؛ تَصَوَّرُوا أَنَّ جَمَاهِيرَهُمْ اقْتَنَعُوا بِمَقَالَتِهِمْ، فَقَالُوا لَهُمْ جازِمِينَ: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا، يَمُوتُ مَنْ يَمُوتُ فيها، وَيَحْيَا مَنْ يَحْيَا فِيها فَقَطْ، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ لِلْعَيْشِ في ظُرُوفِ حَياةٍ أُخْرَىٰ.

وَشَعَرَ مَلأُ «عَادٍ» أَنَّهُمُ اسْتَحْوَذُوا عَلَىٰ نُفُوسِ جماهِيرِهِمْ فَقَالُوا لَهُمْ بِشَأْنِ رَسُولهِمْ «هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام»:

• ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: مَا هُوَ إِلَّا رَجُلٌ كَاذِبٌ فِي ادِّعَائِهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِين به، وَلَا بِمُسْلِمِينَ له.

ضُمِّنَ لفظ «مُؤْمِنِينَ» الذي يُعَدَّى بالباء؛ معنى لفظ «مُسْلِمِينَ» الذي يُعَدَّىٰ باللَّام، فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، فجاءت العبارة: ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ بإيجازٍ شَدِيدٍ نِهَايَةَ عَادٍ بإهْلَاكِهِمْ، وَدُعَاءَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ بأَنْ يَنْصُرَهُ كَمَا دَعَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ قبل:

● ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ لِقَوْمِهِ، بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنْ إيمَانِهِمْ واسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ: رَبِّ انْصُرْني بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لي.

فقال اللهُ لَهُ وَحياً: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ أُأَكِّدُ لَكَ أَنَّهُمْ يُصْبِحُونَ نَادِمِينَ، إِذْ يَأْتِيهِمْ عَذَابُنَا في الصَّبَاحِ. لفظ «مَا» بَعْدَ «عَنْ» في ﴿عَمَّا﴾ حَرْف زَائِدٌ لِتَوْكِيدِ قِلَّةِ الزَّمَن.

ونَزَلَ بِهِمْ عِقَابُ اللهِ فِي الْوَقْت المقَدَّرِ لإهْلَاكِهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ مَعَ الرِّيَاحِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَىٰ أَرْضِهِمُ الصَّيْحَةُ الْعُظْمَىٰ، وهِيَ صَوْتٌ عَظِيمٌ مُهْلِكٌ، وتُطْلَقُ الصَّيْحَةُ على الْعَذَابِ، وَكَانَ أَخْذُهَا لَهُمْ مِنَ الحياةِ مَعَ تَعْذِيبِهِمْ أَخْذاً بالْحَقِّ، إِذْ كَانُوا ظَالِمِينَ.

● ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾: أي: فَجَعَلْنَاهُمْ بَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ مِثْلَ الْغُثَاء، وَهُوَ مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ رَغْوَةٍ وَمِنْ فُتَاتِ الْقُمَامَاتِ والْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَحْمِلُهَا السَّيْل.

● ﴿... فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾: أي: فَطَرْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ مِنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرس الخامس مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبُّر التحليلي للدَّرس السادس من دُروس سورة (المؤمِنُون)

الآيات من (٤٢ ـ ٤٤)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(٤٤) ● قرأ أَبُو عَمْرو: **[رُسْلَنَا]** بإسْكَانِ السّين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[رُسُلَنَا]** بِضَمّ السِّين.

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبِيّان.

(٤٤) ● قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأَبُو جَعْفَر: **[تَتْراً]** بالتَّنْوين وصلاً، وبإبْدَالِهِ أَلِفاً وَقْفاً.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَتْرَا]** وصْلاً وَوقْفاً.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مُجْمَلٌ عَنْ رُسُلٍ أَرْسَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام لِعَدَدٍ مِنَ الْأَقْوَام، وعَنْ رُسُلٍ تَتَابَعَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَكَ أَقْوَامَهُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوهُمْ وَرَفَضُوا الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِمْ، وَكَانَ إِهْلَاكُهُ لَهُمْ مِنْ آثَارِ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شيء، وهُوَ عَلَىٰ مَا يَشاءُ قَدِير.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أيْ: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي أَهْلَكْنَا بِهِ عاداً قَوْمَ «هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام» أَنْشَأْنَا قُروناً مُتَعَدِّدِينَ آخِرِينَ.

القَرْنُ: هو من الناس أَهْلُ زَمَانٍ واحد، وَكُلُّ قَوْمِ رَسُولٍ عَاشُوا في زَمَانِهِ هُمْ قَرْنُهُ.

وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ هَـٰذِهِ الْقُرُونِ رُسُلاً، فَكَذَّبُوهُمْ، وَكَفَرُوا بِمَا جَاءُوهم بِهِ وَحَيْاً مِنْ لَدُنَّا، فَاسْتَحَقُّوا الإِهْلَاكَ كَمَا أَهْلَكْنَا عَاداً، فَأَهْلَكْنَاهُمْ، أشار إِلَىٰ هـٰذَا قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

هـٰذَا الاسْتِعْمَالُ جاء في الآية (٥) من سورة (الحجر/ ٥٤ نزول) بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِيها: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾.

وسَائِرُ نظائرِهِ جَاءَتْ في مَعْرِضِ إِهْلَاكِ مُسْتَحِقِّي الإِهْلَاكِ مِنْ أقوام الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام.

والمعنىٰ: لِكُلِّ أُمَّةٍ كافِرَةٍ قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ إِهْلَاكَها بِكُفْرِها، وَتَكْذِيبِها رُسُلَ رَبِّها؛ لَا بُدَّ أَنْ يُهْلِكَهَا في الْوَقْتِ الَّذِي قَدَّرَهُ لإِهْلَاكِهَا، دُونَ تَقْدِيمٍ أَوْ سَبْقٍ، وَلَا تَأْخِير.

اسْتَأْخَرَ: طَلَبَ تَأْخِيرَ مَا حَلَّ أَجَلُهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بضمير المتكلّم العظيم:

- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

تَتْراً وتَتْرَىٰ: يُقَال لغة: «جَاءُوا تَتراً، وجَاءُوا تَتْرَىٰ» أي: متواتِرِينَ، وأصْلُهُ من «وَتَرَ»، والتتابُعُ يُقْصَدُ بِهِ تتابُعٌ مع فَاصِلٍ زَمَنِي بَيْنَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ وآخر.

أي: وَبعْدَ مُدَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ من الزَّمَنِ الَّذِي أَهْلَكْنَا بِهِ قُروناً كَذَّبَتْ رُسُلَ رَبِّهِمْ وَكَفَرُوا بِمَا جَاءَوهُمْ بِهِ؛ أَنْشَأْنَا أُمَمَا مُتَعَدِّدَةً، وأرسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً تَتْرَىٰ مُتَتَابِعِينَ مَعَ فَوَاصِلَ زَمَنِيَّة، فَكَانَ مِنْ شَأْنِ هَـٰذِهِ الأُمَمِ أَنَّهُمْ كُلَّمَا جَاءَت أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ مُتَتَابِعِينَ، وأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ في الإِهْلَاكِ بَعْضاً.

• ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾: أي: وَلَمْ نُبْقِ أثراً لِأَجْسَادِهِمْ، فَصَارُوا أَحَادِيثَ تُرْوَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْهُمُ الرُّوَاةُ الإخْبَارِيُّونَ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الْحَيَاةِ.

• ﴿... فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: فَطَرْداً مِنْ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ مُوجَّهاً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ، أي: لَيْسَ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا وَيَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، مَهْمَا أُمْهِلُوا، إِذْ بَلَغُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيق إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السَّادِس من دُرُوس سورة (المؤمِنُون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبُّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (المؤمنون)

الآيات من (٤٥ ـ ٤٩)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ إيجازٌ فِي لَقَطاتٍ مُختَزَلَاتٍ لِقِصَّةِ موسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وإِرْسَالِهِمَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، مَعَ بَيَانِ إيتَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كِتَابَ التَّوْرَاةِ رَغْبَةً فِي هِدَايَةِ الَّذِينَ كَلَّفَهُمُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ شَرَائِعَ وأَحْكَام.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي أَهْلَكْنَا فِيهِ أُمَمًا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلَنَا تَتْرَىٰ، كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوه، أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ابن عمران وَأَخَاهُ هَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ مَصْحُوبَيْنِ بآيَاتِنَا التِّسع، وهي: «١ ـ العصا ٢ ـ اليد ٣ ـ القُمَّل ٤ ـ الضَّفَادع ٥ ـ الدّم ٦ ـ الطوفان ٧ ـ الجراد ٨ ـ السِّنون وهي سنوات الجدْبِ والْقَحْطِ ٩ ـ نَقْص الثمرات».

- ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾: أَيْ: وَحُجَّةٍ بُرْهَانِيَّةٍ وَاضِحَةٍ تَكْشِفُ صِحَّةَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مُوسَىٰ وهَارُون عَلَيْهِما السَّلَام، وَفَسَادَ مَا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ وَمِنْ وَرَائِهِمَا الْمِصْرِيُّون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً:

- ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وهُوَ مَلِكُ مِصْرَ في زَمَانِ مُوسَىٰ وهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وإِلَىٰ مَلَئِهِ، وهُمْ وُزَرَاؤُه وأَعْوَانُهُ في سُدَّةِ الْحُكْمِ، وَمُسْتَشَارُوه، وَعِلْيَةُ قَوْمِهِ، ويُلْحَقُ بِهِمْ سَائِرُ الْمِصْرِيِّين، لِأَنَّ دِينَهُمْ تَابِعٌ لِدِينِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ.

- ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: أي: فامْتَنَعُوا عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ مُعَانَدَةً وَتَكَبُّراً، واشْتَدُّوا فِي تَكَبُّرِهِمْ.

- ﴿... وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾: أيْ: وَكَانُوا قَوْماً قَدْ وَضَعُوا أنْفُسَهُمْ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ جُنُودٍ مُطِيعِينَ، وَأَمْوَالٍ كَثِيرةٍ، وَقُصُورٍ وَجَنَّاتٍ؛ مَوْضِعاً عالِياً رَفِيعاً جِدًّا بَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ، وَفَوْقَ الإسْرَائِيلِيِّينَ الَّذِينَ جَعلُوهُمْ عَبيداً لَهُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً:

- ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: فقال فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ بأُسْلُوب الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِيِّ الاسْتِكْبَارِيّ: أَنُؤْمِنُ مُسْلِمِينَ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَهُمَا مُوسَىٰ وهَارُونُ، وَإِنْ جَاءَا بآياتٍ عَظِيمَاتٍ تُثْبِتُ صِحَّةَ ادِّعَائِهِما، وَصِحَّةَ الدِّينِ الذي يَدْعُوانِ إِلَيْهِ؛ والحالُ أَنَّ قَوْمَهُمَا وهُمْ بَنُو إِسْرَائيل لَنَا عَابِدُونَ مُسَخَّرُونَ لِخِدْمَتِنَا؟؟!!.

فَكَذَّبُوهُمَا اسْتِكْبَاراً وعِنَاداً مُصِرِّينَ عَلَىٰ باطِلِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمُ الْعَمْيَاء.

- ﴿... فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾: أي: فَاقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا أَنْ نُهْلِكَهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ، كَمَا أَبَنَّا في غَيْرِ هٰذَا الموضِعِ مِنَ الْقُرْآن، ومِنْهُ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ، فَكَانُوا مِنْ زُمَرِ الْمُهْلَكِينَ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ فِي تَارِيخ النَّاس، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا الصَّادِقِينَ المؤيَّدِينَ مِنَّا بالآيات الْبَيِّنات.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: وَنُقْسِمُ لَكُمْ مُؤَكِّدِينَ أَيُّها النَّاسُ الَّذِينَ تَتَلَقَّوْنَ بيَانَنا هٰذا؛ أَنَّنا

آتَيْنَا مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ الكِتَابَ، وَهُو كِتَابُ التَّوْرَاةِ، بَعْدَ إهْلَاكِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وجُنْدِهِ بآيَةِ فَلْقِ الْبَحْر، رَغْبَةً في أَنْ يَهْتَدِيَ بَنُو إسْرَائِيلَ بِمَا جَاءَ فِيهِ من هِدَايَةٍ للنَّاسِ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السَّابعِ من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٢)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثامن من دُروس سورة (المؤمِنُون)

الآية (٥٠)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾:

القراءات:

(٥٠) ● قرأ ابْن عامر، وعَاصِمٌ: [رَبْوَةٍ] بفَتح الراء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [رُبْوَةٍ] بضَمِّ الراء.

رَبْوَة، وَرُبْوَة، وَرِبْوَة: مَا كَانَ مُرْتَفِعاً مِن الْأَرْض ارْتِفَاعاً لَا يَصِلُ إِلىٰ مُسْتَوىٰ جَبَل، فالْقِرَاءَتانِ نُطْقَانِ عَربيان.

تَمْهيد:

في آية هـٰذَا الدَّرْسِ لقْطَةٌ عَنْ عِيسَىٰ وأُمِّهِ مَريَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وإِيوائِهِمَا إلى رَبْوةٍ ذَاتِ قَرارٍ ومَعِينٍ.

التدبّر التحليلي:

الْقَرَار: المكَانُ الَّذِي يَثْبُتُ فِيهِ الشيءُ، ومَصْدَرُ «قَرَّ» بمَعْنَىٰ أَقَامَ، وبِمَعْنَىٰ سَكَنَ واطْمَأَنَّ.

- ﴿وَمَعِينٍ﴾: أي: وَمَاءٍ جَارٍ يَسْهُلُ التَّنَاوُلُ مِنْه كَنَهَرٍ، أَوْ جَدْوَلٍ.

الْمَعْنَىٰ: وَجَعَلْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيم فِي حَمْلِ أُمِّهِ بِهِ دُونَ أَنْ يَمَسَّ أُمَّهُ ذَكَرٌ في زَوَاجٍ أَوْ غَيره؛ آيَةً مِنْ آيَاتِنَا الْمُخَالِفَةِ لِسُنَّةِ التَّنَاسُل.

وَتَعَرَّضَ الأَطْفَالُ الصِّغَار لِأَوَامِرِ قَتْلٍ في بَيْتِ لَحْم مِنْ قِبَلِ «هِيرُودُس» مَلِكِ فِلِسْطِين بِمُوَافَقَةِ رُوما، خَوْفاً مِنْ أنْ يَظْهَرَ وَلَدٌ مِنْ ذُرِّيَّةِ دَاوُدَ وَيَتَرَبَّعَ عَلَىٰ عَرْشِ الْبِلادِ.

فَأَجْرَىٰ اللهُ أَلْطَافَهُ الْخَفِيَّةَ، فَأَخْرَجَ عِيسَىٰ وأمَّهُ عَلَيْهِمَا السَّلَام مِنَ النَّاصِرَةِ، فَجَعَلَهُمَا يَأْوِيَانِ إِلَىٰ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ نَقِيِّ الرِّيَاح، حَسَنِ الإِقَامَةِ، وَفِيهِ مَاءٌ مَعِينٌ يَسْهُلُ التَّنَاوُلُ مِنْهُ، خَارِجَ أَمْكِنَةِ التَّخَوُّفِ عَلَيْهِ مِنْ قَتَلَةِ «هِيرُودُس».

وَقَدْ جَاءَ فِي بَيَان مَوْضِعِ هَـٰذِهِ الرَّبْوة عِدَّة أقوال:

(١) قيل: هُوَ في دمَشق.

(٢) وقيل: هُو الرَّمْلَةُ مِنْ فِلِسطِين.

(٣) وقيل: هُو في مصر.

والقولُ الْأَخِيرُ يُوافق مَا جَاء في الإنْجِيلِ المنسُوبِ إلى «مَتَّىٰ»، وفي الإنْجِيلِ المنْسُوب إِلَىٰ «بَرْنَابا».

وَلَمَّا بَلَغَ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام مِنَ الْعُمْرِ سَبْعَ سِنِين، وَكَانَ قَدْ هَلَكَ «هِيرُودُس»؛ رَجَعَ مَعَ أُمِّهِ إِلَىٰ النَّاصِرَة.

ولمَّا بَلَغَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ عُمْرِهِ؛ سَافَرَ مَعَ أُمِّهِ إِلَىٰ بَيْتِ المقْدسِ، ودَخَلَ وَسَطَ الْعُلَمَاءِ، وَصَارَ يُحَاجُّهُمْ في مُخَالَفَاتِهِمْ للشَّرِيعَةِ الَّتِي أَوْحَىٰ اللهُ بها لمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثامِنِ من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَتَيْسِيرِهِ.

* * *

(١٣)

التدبُّر التحليلي للدَّرس التاسع من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (٥١ ـ ٥٦)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ (٥٦)﴾:

القراءات:

(٥٢) ● قرأ نافعٌ، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو: **[وأَنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ]** بفتح همزَة «أَنَّ»، أي: واعْلَمُوا أَنَّ.

وقرأها ابْنُ عَامِرٍ: **[وأَنْ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ]** بفَتْحِ الهَمْزَةِ وإسْكَانِ النون، عَلَىٰ أَنَّهَا المخَفَّفَةُ مِنَ الثقيلة، واسْمُهَا ضَمِير شأنٍ محذوف.

وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ]** علىٰ أَنَّها جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ.

(٥٢) ● قرأ يَعْقُوب: **[فَاتَّقُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاتَّقُونِ]** بِحذْفِ ياء المتكلّم مع مُلاحَظتِها ذِهْناً.

(٥٣) ● قرأ يَعْقُوب، وحمزة: **[لَدَيْهُمْ]** بِضَمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَدَيْهِمْ]** بِكَسْر الهاء.

وهُمَا لُغَتَان.

(٥٥) ● قرأ ٱبْنُ عَامِرٍ، وعَاصم، وحمزة، وأَبُو جعفر: [**أَيَحْسَبُونَ**] بفتح السّين.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَيَحْسِبُونَ**] بِكَسْرِ السّين.

وَهُمَا لغتان عَرَبِيَّتَان والمعنىٰ وَاحِدٌ، وهُوَ الظَّنُّ الضعيف السَّاقط.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بيانُ أَنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خاطَبَ الْمُرْسَلِينَ ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ جَمِيعاً بِأَنَّ أقوامُهُمْ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَاحِدَة، لَكِنْ أَقْوَامَهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بهـٰذَا التكْلِيفِ الرَّبَّانِي، بَلْ تَفَرَّقُوا إِلَىٰ أَحْزَابٍ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون، مَعَ تَوصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحمّداً ﷺ بِأُسْلُوبٍ يُعَامِلُهُمْ بِهِ.

وَقَدْ سَبَقَ فِي الآيَةِ (٩٢) مِنْ سُورَةِ (الْأَنْبِياء/ ٧٣ نزول) بَيَانٌ مُوجَزٌ لِمَضْمُونِ هـٰذَا الدَّرْسِ، وَجَاءَ فِي هـٰذَا الدَّرْسِ من سورة (المؤمِنُون) بَيانٌ أَوْسَع.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ نِدَاءَ لِلرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام ويُلْحَقُ بِهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا بهم وَاتَّبَعُوهم:

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

أَيْ: كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وهِيَ الَّتِي أَحْلَلْتُهَا لَكُمْ، فَهِيَ بِذَواتِهَا طَيِّبَات، وهِي بجَعْلِهَا حَلالاً طَيِّبَاتٌ طِيباً مَعْنَوِيًّا، فاجْتَمَعَتْ فِيهَا مِيزَتَان.

الطيِّبُ: ضِدُّ الخبيث. وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّاسِ الخبائِثَ، وهِيَ الأشياءُ الْقَذِرَةُ والضَّارَّة، والطَّيِّبُ مِنَ المآكِلِ مَا هُو لَذِيذٌ لَا ضَرَرَ فِيهِ.

- ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾: أي: واعْمَلُوا عَمَلاً صَالِحاً مِنْ كُلِّ شيءٍ لَهُ احْتِمَالَانِ: عَمَلٌ صَالِحٌ، وعَمَلٌ فَاسِدٌ.

والْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ كُلُّ مَا يُحِبُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْمَلُوه، والْعَمَلُ غَيْرُ الصَّالِحِ هو كُلُّ عَمَلٍ نَهَىٰ اللهُ عِبَادَهُ عَنْ أَنْ يَعْمَلُوهُ.

- ﴿... إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾: فِي هَـٰذِهِ العبارة كِنَايَةٌ عَنِ التَّرْغِيبِ بِفِعْلِ الصَّالِحَات، والترهِيب مِنْ فِعْلِ غَيْرِ الصالحاتِ التي نَهَىٰ اللهُ عنها، طمعاً بِثَوَابِهِ وخوفاً مِنْ عِقَابه، إِذِ العليمُ بالأعْمَالِ الْجَوادُ الْعَدْلُ قَدْ أَعَدَّ لعباده ثواباً وعِقَاباً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً نِدَاءَه لجميع الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام وَمَعَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم:

- ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَـٰذِهِ الآيَةِ مَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَهُ في سُورَةِ (الْأَنْبِياء/ ٧٣ نزول) مَعَ تَكَامُلٍ بَيْنَهُمَا، وهُو قَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ فيها:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: فَاعْبُدُونِي وَحْدِي، وَلَا تُفَرِّقْكُمُ الْأَهْوَاءُ والْعَصَبِيَّاتُ والْأَنَانِيَّاتُ، وَمَتَاعَاتُ الْحَيَاة الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا عِقَابِي، فإِنَّكُم إِذَا تَفَرَّقْتُمْ، وَلَمْ تعمَلُوا بِأَمْرِي بِأَنْ تَكُونُوا أُمَّةً وَاحِدَةً: عَاقَبْتُكُمْ، وَهَـٰذَا الْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوا الرَّسُولَ اللَّاحِقَ كَمَا اتَّبَعُوا الرَّسُولَ السَّابِقَ، إِذْ هُم جَمِيعاً أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَيَعْبُدُونَ رَبًّا واحداً.

فالمعنى: وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ مِنْ عَهْدِ آدَم حَتَّىٰ بِعْثَةِ آخِرِ الْمُرْسَلِينَ مُحمَّد بْن عَبْدِ اللهِ عَلَيهِ وعَلَيْهِم أَفْضَلَ الصَّلاةِ وأَتَمَّ التَّسليم؛ هِيَ أُمَّةٌ وَاحِدَة، غَيْرُ مُتَفَاصِلَةٍ بالانْتِمَاءِ إِلَىٰ رُسُلِهَا الَّذِينَ بَعَثْتُهُمْ لِتَبْلِيغِ دِينِي الَّذِي اصْطَفَيْتُهُ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

وَأنَا رَبُّكُمْ جَمِيعاً، فَاعْبُدُونِي وَحْدِي جَمِيعاً وَلَا تَعْبُدوا غَيْرِي، واتَّقُوا مَعْصِيَتِي وَمُخَالَفَتِي، فإذا عَبَدْتُمُونِي بِفِعْلِ مَا آمُرُكُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ؛ أَدْخَلْتُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّتِي، وَأَثَبْتُكُمْ ثَوَاباً عَظِيماً، وَإِذَا عَصَيْتُمُونِي بِتَرْكِ مَا آمركُمْ بِهِ، أَوْ فِعْلِ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، فَلَمْ تَتَّقُوا عِقَابِي؛ عَاقَبْتُكُمْ عِقَاباً أَلِيماً، وجَعَلْتُ مُسْتَحِقِّي الْخُلُودِ في الْعَذَابِ الْأَلِيم خَالِدِينَ في النَّار.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ بَيَانَ حَالِ أَقْوَام الرُّسُلِ ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ، إِذْ تَفَرَّقُوا فَلَمْ يَلْتَزِمُوا بِمَا أَمَرَهُمُ اللهِ بِهِ مِنْ أَنْ يَكُونُوا أُمَّةً واحِدَةً رَبَّانِيَّة:

- ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾:

- ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾: أَيْ: تَفَرَّقُوا، وبَالَغُوا في تَقْطِيعِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ جَامِعاً لَهُمْ عَلَىٰ أُمَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ واحِدَة.

- ﴿زُبُرٗاۖ﴾: أَي: قِطَعاً مُتَفَرِّقَةً خَارِجَةً عَنْ صِرَاطِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّة الواحدة. **زُبُراً**: أَيْ: قِطَعاً. **الزُّبْرة**: القطعة من الحديدة، والجمع: زُبَر. **والزُّبُر**جَمْعُ «زَبُورٍ» وَهُوَ: الكِتَابُ المزْبُور. أي: المكتوب.

أي: تَفَرَّقُوا كَتَفَرُّقِ الكُتُبِ ذَاتِ المضامِينِ الْمُتَضَادَّةِ.

- ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾: الحزبُ: الجماعَةُ المتَّفِقَةُ المتَنَاصِرَةُ عَلَىٰ أَمْرٍ مَا، والجماعَةُ الَّذِينَ تَشَاكَلَتْ مَبادِئُهُمْ وَأَهْوَاؤُهُمْ.

أي: فَتَقَطَّعَ المنْتَمُونَ إِلَىٰ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام قَبلَ بِعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ؛ فَجعَلُوا أمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قِطعاً مُتَفَرِّقَةً، خارِجَةً عَنِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيةِ الواحِدَة، وكَوَّنُوا أَحْزَاباً مُتَعَادِيَةً مُتَخَالِفَةً فِي مَبَادِئها وَأَهْوَائِهَا، وَكُلُّ حِزْبٍ مِنْهُم مُؤْمِنُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ بَاطِلٍ، وَفَرِحُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ تَحْرِيفَاتٍ فِي دِينِ اللهِ، يُرْضُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَتَجْعَلُ لِقَادَتِهِم الدِّينِيِّينَ زَعَامَاتٍ وَمَصَالِحَ وَمَنَافِعَ، لَيْسَ شيءٌ مِنْهَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يُطَالِبُوا بِهِ فِي دِينِ اللهِ الْحَقّ، قَبلَ التَّحْرِيفِ الَّذِي غَيَّرُوا بِهِ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ.

فَتَعَصَّبَ الصَّابِئُونَ لِلدِّينِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إِلَىٰ «صَابِئ» على مَا دَخَلَ فِيهِ مِنْ تَحْرِيفٍ وَنِسْيَانٍ، وَكَأَنَّ الدِّينَ دِينُ صَابِئ، وَلَيْسَ دِينَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ للنَّاس.

وَتَعَصَّبَتِ الْيَهُودُ لِلدِّينِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ وهارون ـ عَلَيْهِما السَّلام ـ، عَلَىٰ مَا دَخَلَ فِيهِ مِنْ تَحْرِيفٍ وَنِسْيَان، وَكَأَنَّ الدِّينَ دِينُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ، وَلَيْسَ دِينَ اللهِ رَبِّ العالَمِينَ للنَّاسِ.

وكَذٰلِكَ فَعَلَتْ فِرَقُهُمْ.

وَتَعَصَّبَ النَّصَارَىٰ للدِّينِ المحرَّفِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إِلَىٰ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وَكَأَنَّ الدِّينِ دين عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، ولَيْسَ دِينَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ للنَّاس، وكذٰلِكَ فَعَلَتْ فِرَقَهُمْ.

وَحَجبَ المتعصِّبينَ مِنْ أَتْبَاعِ هَـٰذِهِ الأديَانِ وفِرَقِهَا تَعَصُّبُهُمُ الْبَاطِلُ؛ عن اتِّبَاعِ خَاتَمِ الأنبياء والمُرسَلِينَ ﷺ، الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولاً للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَأَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ قَافِلَةِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْوَاحِدَة، الَّتِي بدَأَتْ في عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام، واسْتَمَرَّتْ حَتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، خَاتَمَ الأنبياء والمرْسَلِينَ، وسَتَسْتَمِرُّ مَا دَامَ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، يَتَّبعُ دِينَ اللهِ الَّذِي بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ، وَأَتَمّ التَّسْلِيم، وَيُؤْمِنُ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامَاتُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، لَا يُفَرِّقُ فِي الإيمانِ بَيْنَ أَحَدٍ وآخَرَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَىٰ آخِرِ تَنْزِيلٍ أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ، مُبَيِّناً تَعَالِيمَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، وَكَلَّفَهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ.

وَقَدْ دَبَّ دَاءُ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ إِلَىٰ بَعْضِ الْفِرَقِ المنْتَمِيَةِ إِلَىٰ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ ﷺ، فَحَرَّفَ قَادَتُهُمْ فِي دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَتَعَصَّبُوا لِتَحْرِيفَاتِهِمْ، وَكَانَتْ لَهُمْ فِرَقٌ خَارِجَةٌ عَنِ الإِسْلَامِ الْحَقّ، وَلَا تَدْخُلُ فِيهم المذاهِبُ الاجْتِهَادِيَّة في الْفُرُوع، في أُمُورٍ أَذِنَ اللهُ بالاجْتِهَادِ فيها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ بِشَأْنِ الَّذِينَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً:

- ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

- ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾:

الْغَمْرَة: الضَّلالَةُ الَّتِي تَغْمُرُ صَاحِبَهَا.

أي: فَاتْرُكْهُمْ فِي ضَلالَتِهِمُ الْغَامِرَةِ لَهُمْ مِن كُلِّ جوانِبِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ من الدَّهْرِ تَسْقُطُ بالْفَتْحِ الإسْلَامِيِّ عُرُوشُهُمْ، وَتَنْدَحِرُ جُيُوشُهُمْ، أو حَتَّىٰ حِينٍ من الدَّهْرِ تَنْتَهِي فِيهِ آجالُهُمْ وَيَلْقَوْنَ فِيهِ عَذَابَ رَبِّهِم بَعْدَ مَوْتِهِمْ، إذْ هُمْ مَيْؤُوسٌ مِنِ اسْتِجَابَتِهِم الحرَّةِ لدَعْوَةِ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، بَعْدَ أَنْ تَلَقَّوْا بَيَانَاتِ الْقُرْآنِ فيما سَبَقَ مِنْ نُجُومِ التَّنْزِيلِ.

- ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: أيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، لِنَبْلُوهُمْ بها، ومِنْهَا الْمَالُ والْبَنُون؛ أيَتَوَهَّمُونَ أَنَّنَا نُسَارِعُ فِي مَنْحِهِمْ مَا يُحِبُّونَ مِنْ خَيْرَاتِ الحياة الدُّنْيَا؛ إكراماً لَهُمْ وإِنْعَاماً، لأَنَّهُمْ مُفَضَّلُونَ عِنْدَنا.

لَا يَتَوَهَّمُوا هٰذَا التَّوَهُّمَ الْبَاطِلَ، فَإِنَّ مِنْ حِكْمَتِنَا فِي دُنْيَا الامْتِحَانِ أَنْ نُمْلِيَ للظَّالِمِينَ، وَنُمِدَّهُمْ بِعَطَاءَاتِنَا، حَتَّىٰ يتمادَوْا في ظُلْمِهِمْ فَتَقُومَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عُذْرٌ ما.

- ﴿... بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾: أَيْ: بَلْ لَمْ نُمِدَّهُمْ بِمَا يُحِبُّونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدّنيا إكْرَاماً لَهُمْ وإِنْعَاماً، إِنَّمَا نُمْلِي لهم، وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ يُمْتَحَنُون، لِأَنَّهُمْ فِي وَحْلِ شَهَوَاتِهِمْ غارِقُون.

الشُّعُور: أدْنَىٰ دَرَجَاتِ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ، ونَفْي الشُّعُورِ بالشَّيْءِ نَفْيٌ لِلْعِلْمِ بِهِ بأدْنَىٰ دَرَجَاتِ المعْرِفَةِ به.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (المؤمنون)

الآيات من (٥٧ ـ ٦٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ
﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا
إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ
هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ
إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

القراءات:

(٦٤) ● قرأ يعقوب: [مُتْرَفِيهُم] بضم الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتْرَفِيهِمْ] بكسر الهاء.

(٦٧) ● قرأ نافع: [تُهْجِرُونَ] من فِعْل «أَهْجَرَ» أي: قَالَ الْهُجر والقبيح من القول.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَهْجُرُونَ] من فعل «هَجَرَ» ويظهر أنه لُغَةٌ بمَعْنَىٰ «أَهْجَر» أي: قال قولاً سَيِّئاً قَبِيحاً، ورُبَّما كان فاحِشاً.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ لِصِفَاتِ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ في الخيرات، وفيها ذِكْرٌ بإيجازٍ للظَّالِمِينَ الَّذِينَ هُمْ في غَمْرَةِ الضَّلَالِ، مَعَ بَيَانِ عِقَابِ اللهِ لِمُتْرَفِيهِم، وكَيْفَ يُواجِهُونَ هـٰذَا الْعِقَابَ، وهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أنفُسِهِمْ شيئاً مِنْه.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ صِفَاتِ المؤمنين الَّذِينَ يُسَارِعُونَ في الخيرات:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١)﴾:

الْخَشْيَةُ مِنَ اللهِ: خَوْفٌ مَصْحُوبٌ بِتَعْظِيمٍ وَإِجْلَالٍ كَبِيرَين، وقَدْ يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ: الْحُبُّ، الَّذِي يَغْرِسُهُ ويُنَمِّيهِ شُعُورُ الْعَبْدِ بوافِرِ إنْعَامَاتِ اللهِ عَلَيْهِ.

• ﴿مُشْفِقُونَ﴾: أي: خَائِفُونَ حَذِرُونَ دواماً مِنْ عِقَابِهِ.

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)﴾: أي: والَّذِينَ هُمْ بآيَاتِ رَبِّهِمُ الْبَيَانِيَّةِ في الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ يُؤْمِنُونَ دواماً في الْحَالِ والاسْتِقْبَالِ، فَلَا يَشُكُّونَ فِي شَيْءٍ مِنْها، وإيمانُهُمْ بِهَا يَجْعَلُهُمْ يُدْرِكُونَ وُجُوبَ عَمَلِهِمْ بِمَا فِيهَا مِنْ تَكَالِيف، فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾: أي: لَا يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ شَيْئاً، مِنْ بَشَرٍ، أو مَلَائِكَةٍ، أَوْ جِنٍّ، أَوْ مَا لَا حَيَاة لَهُ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْأَسْبَابَ تَعْمَلُ دُونَ مُسَبِّبِهَا، بَلْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ قَنواتِ الأسْبَاب.

• ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠﴾: أي: والَّذِينَ يُؤْتُونَ مِنَ الأعْمَالِ الصَّالِحَاتِ مَا آتَوْا، ومِنْهَا بَذْلُ الصَّدَقَاتِ وَعَطَاءَاتُ الْمَالِ، أي: ويَجْتَنِبُونَ مَا يَجْتَنِبُونَ مِنْ أَعْمَالٍ سَيِّئَاتٍ، طَاعَةً للهِ، وَالحالُ أَنَّ قُلُوبَهُمْ وَجِلَةٌ خَائِفَةٌ مِنَ التَّقْصِيرَاتِ فِي أَدَاء الواجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، أو خَائِفَةٌ مِنَ عَدَمِ الإخْلَاصِ المَطْلُوبِ فِيما يَفْعَلُونَ وفيما يَتْرُكُون، ويَضَعُونَ نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ يَوْمَ القيامَةِ، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصْلِ قَضَائِهِ بَيْنَهُمْ، وَمُجَازَاتِهِمْ.

فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَجْمَعُوا في دَاخِلِ قُلُوبِهِمْ ونفوسِهِمْ هَـٰذِهِ الصّفات:

(١) أَنَّهُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُون.

(٢) أَنَّهُمْ بآياتِ رَبِّهِمْ البيانِيَّةِ في كتابهِ يُؤْمِنون.

(٣) أَنَّهُمْ لَا يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ شيئاً.

(٤) أَنَّهُمْ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَيَتْرُكُون مَا يَتْرُكُون مِنْ أَعْمَالٍ سَيِّئَة؛ والحالُ أَنَّ قُلوبَهُمْ وَجِلَةٌ خَائِفَةٌ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤَدُّوا حَقَّ اللهِ عَلَيْهِمْ كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِم.

قَالَ اللهُ بِشَأْنِهِمْ:

• ﴿أُولَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝٦١﴾:

أي: أُولَئِكَ الْفُضَلَاءُ مِنَ المؤمنين؛ قَدِ اجتمعت في قُلُوبِهِم ونُفُوسِهِمْ عَوامِلُ إيمَانِيَّةٌ بَاعِثَةٌ تَجعَلُهُمْ يُسَارِعُونَ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ دُونَ وُجُودِ مُحَرِّضَاتٍ تُحَرِّضُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيُسَارِعُون في تَركِ الْمُحَرَّمَاتِ دون وُجُود مُحَرِّضَاتٍ تُحَرِّضُهُمْ على ذلك، فَمَا لَدَيْهِمْ مِن الْعَوامِلِ الإيمانِيَّةِ الباعِثَةِ؛ تَكْفِيهِمْ لِأَنْ تُوَجِّهَهُمْ تِلْقَائِيًّا لِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ وَتَرْكِ السَّيِّئَات، وَتَجعَلُهُمْ سَابِقِينَ لَهَا.

الخيرات: جَمْعُ «الْخَيْرَة»، وهِيَ الْفَاضِلَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ «آتَىٰ، يُؤْتي» بمَعْنَىٰ: فَعَل عملاً يَراهُ صَالحاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيّناً قَاعِدَةً مِنْ قَواعِدِ تَكْلِيفِ الْعِبادِ، ومبيّناً تَسْجِيلَ أَعْمَالِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، ومُبَيّناً قَاعِدَةً مِنْ قَواعِدِ قانون الجزاء:

• ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

• ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾: أي: وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً ما حِينَ نُكَلِّفُهَا بِفِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ؛ إِلَّا بِمِقْدَارِ طَاقَتِهَا واسْتِطَاعَتِهَا، وإِلَّا بِمِقْدَارِ جِدَتِها مِنْ مَالٍ أَوْ قُوَّة، وَهٰذَا المرادُ مِنْ الْوُسع.

التَّكْلِيف: الإلْزَامُ بِمَا فِيهِ كُلْفَةٌ علَىٰ فَاعِلِهِ أَوْ تَارِكِهِ. **والْكُلْفَة**: هِيَ المشَقَّةُ في الفِعْلِ أَوْ فِي التَّرْك.

• ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ﴾: أي: وَفِي رِحْلَةِ امْتِحَان الْعِبَادِ المكَلَّفِينَ نُسَجِّلُ عَلَيْهِمْ كُلَّ أَعْمَالِهِمْ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ وَمِنْهَا نِيَّاتُهُمْ وَأَحَادِيثُ نُفُوسِهِمْ، وَمُكْتَسَبَاتُهُمْ الإرادِيَّةُ فِي قُلُوبِهِم.

وعِنْدَ الْحِسَابِ نَعْرِضُ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ كِتَابَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بالْحَقِّ كَمَا تَنْطِقُ أَشْرِطَةُ تَسْجِيلِ الصَّوْتِ والصُّورَةِ، مُضَافاً إِلَيْهَا حَرَكَاتُ النَّفْسِ وَخَوَاطِرُ الْفِكْر، وكُلُّ عَمَلٍ إِرَادِيٍّ بَاطِنٍ، كالْحَسَدِ وإِرَادَةِ الشَّرِّ.

• ﴿... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: وعِنْدَ إِصْدَارِ الْأَحْكَام عَلَيْهِمْ لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّة، فَلَا يُزَادُ فِي ذُنُوبِ الْمُذْنِبِ أَصْغَرَ ذَنْبٍ، بَلْ يَعْفُو اللهُ عَنْ كثير، وَلَا يُنْقَصُ مِنْ صَالِحَاتِ المؤمِنِ المتَّقِي أَصْغَرُ عَمَلٍ صَالِحٍ مَهْمَا قَلَّ، بَلْ يضاعَفُ لَهُ الْعَمَلُ والْأَجْرُ عَلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَضْعَافاً كثيرةً جدًّا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبانِيَّةِ، على الرُّغْمِ مِنْ طُولِ مُدَّةِ الْعِلَاجِ في نُجُومِ التَّنْزِيل:

- ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

الْغَمْرَة: الضَّلالَةُ الَّتِي تَغْمُرُ صَاحِبَهَا.

أي: بَلْ قُلُوبُ هَـؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ الْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ؛ مُنْغَمِسَةٌ فِي ضَلَالَةٍ غَامِرَةٍ لَها، وَهِي ضَلَالَةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ بالْحَقِّ ومُعَادَاتِهِ وَمُعَادَاةِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ، والْعَمَلِ عَلَىٰ التَّخلُّصِ مِنْ رَسُولِ رَبِّهِمْ، والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، وَلَوْ بِوَسِيلَةِ الْحَرْب.

فَهُمْ بَعِيدُونَ بُعْداً شَاسِعاً مِنْ مَنْزِلَةِ صِفَاتِ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ في الْخيْرَاتِ وهُمْ لَهَا سَابِقُونَ، بِسَبَبِ انْغِمَاسِهِمْ في الكُفْرِيَّاتِ والجرائِمِ الْكُبْرَىٰ، دلَّ عَلَىٰ هـٰذَا: ﴿فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

وَلَهُمْ أَعْمَالٌ قَبِيحَةٌ مِنْ دُونِ الكُفْرِيَّاتِ الَّتِي هُمْ في غَمْرَةٍ مِنْهَا، كَظُلْمِ النَّاسِ، وَأَكْلِ حُقُوقِهِمْ بِالْبَاطِلِ، وَكالْفَوَاحِشِ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بطن، ونَحْوِ ذلِكَ مِنَ الكَبَائِرِ الَّتِي هِي دُونَ الكُفْرِ أخَسِّ الدَّرَكَاتِ وأقْبَحِهَا.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُنْذِراً لِهَؤُلَاءِ بالْعَذَابِ والإهْلَاكِ، في نِهَايَةِ مَرَاحِلِ امْتِحَانِهِمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

- ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حَرْفٌ تَبْتَدِئُ بَعْدَهُ الْجُمَلُ، وتُسَمَّىٰ الابْتِدَائِيَّة، وللفظ «حَتَّىٰ» وجُوهٌ أُخرَىٰ عِنْدَ النحاة.

- ﴿إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾:

المتْرَفُون: هُمُ الَّذِينَ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ في الرِّزْق والمالِ ومَتَاعَاتِ

الحياة الدُّنيا، ليَبْلُوهم، فَكَانُوا بِهِ ذَوِي رَفاهِيَةٍ زَائدة، وَرُبَّمَا جَعَلَهُمْ ذَلِكَ مُسْتَكْبِرِينَ بَطِرِينَ.

أي: حَتَّىٰ حِينِ نَأْخُذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مُتْرَفُونَ وَنَقْبِضَ عَلَىٰ مَوَاطِنِ الآلَامِ مِنْهُمْ بالْعَذَابِ، الَّذِي نُهْلِكُهُمْ بِهِ.

- ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾: أي: يُفَاجِئُونَ بِأَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ مُسْتَغِيثِينَ ضَارِعِينَ، داعِينَ أَنْ يَرْفَعَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَاب.

- ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾: أي: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ مُسْتَغِيثِينَ لِكَشْفِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ، إِنَّ كَلِمَةَ الْعَذَابِ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْكُمْ، فَلَنْ تَجِدُوا مُغِيثاً يُغِيثُكُمْ وَلَا نَاصِراً يَنْصُرُكُمْ، فَيَحْمِيكُمْ مِنْ عَذَابِنَا الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ بِكُمْ.

- ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

النُّكُوصُ: الرُّجُوعُ إِلَى خَلْفٍ. **نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**: أي: رَجَعَ إِلَىٰ جِهَةِ عَقِبَيْهِ. **الْعَقِبُ**: عَظْمُ مُؤَخَّرِ الْقَدَمِ.

أي: قَدْ كَانَتْ آيَاتِي الْبَيَانِيَّةُ مِنْ كِتَابي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ مِنْ قِبَلِ رَسُولي، أَوْ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَكُنْتُمْ تَرْفُضُونَ الاسْتِمَاعَ إِلَيْهَا، وَتُدْبِرُونَ عَنْهَا، وَتَرْجِعُونَ إِلَىٰ جِهَةِ أَعْقَابِكُمْ، كُفْراً بِهَا، وَتَكْذِيباً لِرَسُولِي الَّذِي بَلَّغَهَا عَنِّي.

- ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

- ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾: أي: مُسْتَكْبِرِينَ عَلَىٰ الرَّسُول الّذِي كَانَ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ كِتَابي، وَمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ. ضُمِّنَ فِعْلُ اسْتَكْبَرَ مَعْنَىٰ فِعْلِ «اسْتَهْزَأ»، فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، وجَرَىٰ هذا في اسْمِ الفاعل، فأَغْنَتْ هَـٰذِهِ التَّعْدِيَةُ عَنْ عبارَتَيْنِ، وهـٰذَا مِنْ إيجازَاتِ الْقُرْآنِ الرَّفِيعَة.

- ﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ وفي قراءة نَافع [تُهْجِرُونَ].

السَّامر: المتَسَامِرُونَ، الَّذِينَ يَتَحَادَثُونَ فِي مَجَالِسِ سَمَرِهِمْ لَيلاً.

تَهْجُرُونَ: أي: تَقُولُونَ الْهُجْرَ، وَهُوَ القبيحُ مِنَ الْقَوْلِ، طَعْناً في آيَاتِ كِتَابِ رَبِّكُمْ، وَطَعْناً فِي رَسُولِهِ وفي كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ دِينِ اللهِ الحقّ.

أي: وكُنْتُمْ تَسْتَمتِعُونَ في مَجَالِسِ سَمَرِكُمْ بالطَّعْنِ بالقرآن وبالرَّسُول وبكُلِّ الدِّينِ الّذِي جاءَكُمْ بِهِ، بالْأَقوالِ الْقَبِيحَةِ السَّيِّئَةِ، وَبِمُخْتَلِفِ صُوَرِ الْهُجْرِ مِنَ الْقَوْل.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشر من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٥)

التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (المؤمِنون) الآيات من (٦٨ ـ ٧٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

القراءات:

(٧١) ● قرأ يَعْقُوبُ: **[فِيهُنَّ]** بِضَمّ الهاء، ووقف عَلَيْهَا بِهَاءِ السَّكْتِ بِخُلْفٍ عَنْه.

وقرأها بَاقِي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[فِيهِنَّ]** بِكَسْرِ الهاء.

ضم الهاء وكَسْرُ الهاء لُغَتَان.

(٧٢) ● قرأ ابْن عامر: **[خَرْجاً فَخَرْجُ]**.

وقرأها حَمْزَةُ، والكِسَائِي، وَخَلَف: **[خَرَاجاً فَخَرَاجُ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[خَرْجاً فَخَرَاجُ]**.

الْخَرْجُ، والْخَرَاجُ: الضّرِيبة أَو الإِتَاوَةُ الَّتِي تُفْرَضُ على النّاسِ، فالمعنىٰ واحد.

(٧٢) ● قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وَأَبُو جَعْفر: **[وَهْوَ]** بإِسْكان الهاء.

وقرأهَا باقي القراء العشرة: **[وَهُوَ]** بضمّ الهاء.

وهُما لغتان.

(٧٣ و٧٤) ● قرأ قُنْبل بِخُلْفٍ عَنه، ورُوَيس: **[إِلَىٰ سِرَاطٍ]** و**[عَنِ السِّرَاطِ]**. وقرأهُمَا خَلَفٌ عَنْ حَمْزَةَ: بإِشْمَامِ الصَّادِ صَوْت الزاي. وقَرأَ الثَّانِيَة بِإِشمامِ الصاد صوتُ الزَّاي حمزة بِخَلف عَن خلّاد.

وقرأهُمَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[إِلَىٰ صِرَاطٍ]** و**[عَنِ الصِّرَاطِ]**. وهو الثاني لقنبل، ولخلّاد.

(٧٧) ● قرأ حمزة، ويعقوب: **[عَلَيْهُمْ]** بضم الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[عَلَيْهِمْ]** بكسر الهاء.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ حَالِ الْكَافِرِينَ المشْرِكِينَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة، وَحَالِ الرَّسُول ﷺ مَعَهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْمُعَالَجِينَ الْمُعَانِدِينِ الْمُصِّرِّينَ على كُفرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الكُفرِ والشِّرْكِ إِبَّانَ التَّنْزِيل:

● ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآياتِ حوارٌ يَتَناوَلُ تِسْعَ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾: الفاء في ﴿أَفَلَمْ﴾ فَصِيحَة، تَعْطِفُ على محذوف.

أي: أَنْطَمَسَتْ بَصَائِرُهم وأَذْهَانُهُمْ وعُقُولُهُمْ، بِغشَاوَاتٍ من أهوائِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ، وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنْيا، وَسَوَابِقِ مَفَاهِيمهم الضَّالَّة، فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ في سوابقِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَكَانَ يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُنَا، وَيُتَابِعُ تَذْكِيرَهُمْ به؟!!.

وَتَدَبُّرُ الْقَوْلِ يَكُونُ بِفَهْمِ الْعَنَاصِرِ والْأَجْزَاءِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا، وبِتَتَبُّعِ اللَّوَازِمِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَلْزَمُ عَنْهُ حَتَّىٰ نِهَايَاتِهَا وَأَدْبَارِهَا، وأَواخِرِهَا.

إِنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوا مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ تَدَبُّراً كَمَا يَنْبَغِي لاقْتَنَعُوا بأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُن رَبّ الْعَالَمِينَ.

الْقَضِيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾: أي: بَلْ: أَجاءَهُمْ مِنَ دِينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ؟!، إِنَّهُمْ إِذَا ادَّعَوْا هـٰذَا فَهُمْ كَاذِبُونَ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ

جَاءَهُمْ وَأَسَّسَ لَهُمْ قَوَاعِدَ الدِّينِ وَشَعَائِرَ العباداتِ رَسُولَانِ جَلِيلَانِ هُمَا إِبْرَاهِيمُ وابْنُه إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلام، واسْتَمَرَّ دِينُ اللهِ الْخَالِي مِنَ الشِّرْكِ والْوَثَنِيَّاتِ؛ زَمَناً طَوِيلاً هُوَ السَّائِدَ في مَكَّة والْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّة، حَتَّىٰ جَلَبَ الْأَوْثَانَ «عَمْرُ بْنُ لُحَيّ»، وَكَانَ أَوَّل مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام، وَدَعَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوثَان.

القضيَّة الثالِثة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾: أي: بَل: أَلَمْ يَعْرِفُوا الرَّسُولَ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ؟!! مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ـ ﷺ ـ، الَّذِي نَشَأَ بَيْنَهُمْ قَبْلَ بِعْثَتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عَرَفُوا فِيهَا أَنَّهُ أَعْظَمُ النَّاسِ خُلُقاً، وَأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِين، وأَنَّهُ الْجَوادُ الكَرِيم، إلى سَائِرِ صِفَاتِ الكَمَالِ الْبَشَرِيِّ، وهُمْ لَا يُنْكِرُونَ هٰذَا.

إِنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا رَسُولَهُمْ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ بِكَمَالَاتِهِ، فَهَلْ يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُكَذِّبُوهُ بِرِسَالَتِهِ، وَبِبَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَكْذِبْ عَلَىٰ النَّاسِ فِي حَيَاتِهِ في كَبِيرَةٍ وَلَا صَغِيرَةٍ؟!!.

القضيّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ الله تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾: **الجِنَّةُ**: الْمُرَادُ بِهَا هُنَا «الْجُنُون».

أَيْ: بَلْ: أيقُولُونَ بِهِ جُنونٌ؟!، وهُوَ أَعْقَلُ النَّاسِ، وأَكْثَرُهُمْ ذَكَاءً، وحَسْبُهُ أَنَّهُ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ أَعْظَمَ بَيَانٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَظِيمٍ، وَمَفْهُومَاتٍ دَقِيقَاتٍ جدًّا.

القضيَّة الخامسة: دَلَّ عليها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾: أي: لَقَدْ عَرَفُوا مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِن حَقٍّ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مُطَابِقٌ لِمَا جَاءَ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ فِي رِسَالَةِ إسماعِيلَ بْنِ إبراهيمَ عَلَيْهِما السَّلَام، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ مِنْ أَعْقَل النَّاسِ وأَكْثَرِهِمْ ذَكَاءً وفَهْماً وفِطْنَة، فَهَـٰذِهِ أُمُورٌ مُسْتَيقِنُونَ بِهَا في قُلُوبِهِم،

فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا هُوَ الباعِث عَلَىٰ الْكُفْرِ والتَّكْذِيب. بَلْ جاءَهُمْ بالْحَقِّ الذي يُخَالِفُ أهواءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِ نُفُوسِهِمْ، وأكْثَرُهُمُ الضاغِطُونَ عَلَىٰ بَقِيَّةِ مُجْتَمَعِهِمْ لِهٰذَا الحقِّ كَارِهُونَ، فَهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِقَبُولِهِ، وَتَرْكِ مَا هُمْ مُنْغَمِسُونَ فِيهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا المسْخِطَةِ للهِ رَبِّهِمْ.

الْقَضِيَّة السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ...﴾:

أي: وَلَوِ اتَّبَعَ اللهُ الْحَقُّ أهْوَاءَهم ـ ولَنْ يَتَّبِعَها ـ لَفَسدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فيهِنَّ، مِنْ مَلَائِكَةٍ وإنْسٍ وجِنٍّ، لأَنَّ أهْوَاءَ النَّاسِ لَا حُدُودَ لَهَا، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأَهْوَاءِ مَا يَتَعَارَضُ مَعَ أَهْوَاءِ الآخَرِينَ، وَلَنَجَمَ عَنْ ذَلِكَ مَا يَنْجُمُ عَنْ تَعَدُّدِ الأَرْبَابِ، وَهُوَ فَسَادٌ فِي نِظَامِ الكَوْنِ كُلِّهِ، وَفَسَادٌ فِي نِظَامِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

لَكِنَّ اللهَ الحقَّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّبِعَ أَهْوَاءَ النَّاس، بَلْ يَخْتَارُ بِحِكْمَتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ مَا يُحَقِّقُ صَلَاحَهُ، وَيَمْنَعُ عَنْهُ الْفَسَادَ، وَكَذَلِكَ مَا يَخْتَارُهُ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ وَشَرَائِعِهِ وَتَعْلِيمَاتِهِ.

القضيَّة السابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بالْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ ذِكْرُهُمْ فِي كُلِّ الْقَضَايَا الَّتِي تَنْفَعُهُمْ في دُنْيَاهُمْ وَآخِرتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ عَانَدُوا فَهُمْ عَمَّا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذِكْراً مُذَكِّراً لَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ في عَاجِلِ أَمْرِهِمْ وَآجِلِهِ: مُعْرِضُونَ.

الإِعْرَاض: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَال والإدْبَار، وهو يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ مُبَالَاتِهِمْ وعَدَمِ تَوَجُّهِهِمْ لِلانْتِفَاعِ بشَيْءٍ مِنَ القرآن المنَزَّلِ لِهِدَايَتِهِمْ وهدايَةِ الناسِ أَجْمَعِينَ.

القضيَّةُ الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

أي: بَلْ أَتسْأَلُهُمْ مَالاً مُقَابِلَ تَعْلِيمِهِمْ وهِدَايَتِهِمْ وَتَزْكِيَتِهِمْ وقِيَادَتِهِمْ عَلَىٰ صِرَاطِ الْحَقِّ المسْتَقِيم؟؟!.

إِنَّكَ لَمْ تَسْأَلْهُمْ، وَلَا تَسْأَلُهُمْ مَالاً، وَلَا أَجْراً وَلَا خَرَاجاً تَفْرِضُهُ عَلَيْهِم، لِأَنَّكَ عَلَىٰ يَقِينٍ كامِلٍ بِأَنَّ أَجْرَ رَبِّكَ الَّذِي أَعَدَّهُ لَكَ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَالٍ يَجْمَعُهُ الْجَامِعُونَ في الحياة الدُّنْيَا.

- ﴿... وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٧٢﴾: أي: وأمَّا رِزْقُكَ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ في الحياة الدُّنْيَا؛ فَاللهُ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُهُ، وهُوَ خَيْرُ الرازِقِينَ.

إِنَّ هٰذَا الْخِطَابَ الْمُوَجَّهَ لِلرَّسُولِ ﷺ فِي الظَّاهِرِ؛ يُرَادُ بِهِ إِسْمَاعُ المكَذِّبِينَ الكَفرَةِ، الَّذِينَ يَتوَهَّمُونَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَقْصِدُ مِنْ دَعْوَتِهِ سُلْطَاناً وَمَالاً وَفِيراً يَجْمَعُهُ بِحَسَبِ عَادة الملُوكِ والسَّلاطِين والأُمَرَاء مَعَ شُعُوبِهِم.

الْقَضِيَّة التاسِعَة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٧٣﴾:

أي: وأمَّا مَضْمُونُ دَعْوَتِكَ؛ فَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ يُوهِمُ أَنَّكَ تَسْعَىٰ لِمُلْكٍ وسُلْطَانٍ واسْتِعْلَاءٍ فِي الْأَرْضِ، أَوْ تَسْعَىٰ لامْتِلَاكِ أَمْوَالٍ يَسْعَىٰ لامْتِلَاكِهَا الْمُلُوكُ والسَّلاطِينُ، أو تَسْعَىٰ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَا تَشْتَهِي مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، أَنْتَ أَوَّلُ سَالِكِيهِ والمُلْتَزِمِينَ بِحُدُودِهِ لَا تَحِيدُ عَنْهُ، فَلا تَتَجَاوَزُهُ فِي كُلِّ أَعْمَالِك الاختيارية.

أَكَّدَ الله الجملَة بـ «إنّ ـ والجملةُ الاسْمِيَّة ـ واللَّامِ المزحْلَقَةِ».

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً بَعْضَ صِفَاتِ الكَفرَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة:

- ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ٧٤ وَلَوْ

رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيات بَيَانٌ لِأَرْبَعِ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الكافِرِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ جَزَاءٍ، عَلَىٰ مُكْتَسَبَاتِ النَّاسِ الإرادِيَّة في الحياة الدُّنيا:

الصِّفَة الأولى: دَلَّ عَلَيها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

- ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾: أي: لَمَائِلُونَ مُنْحَرِفُون.

أي: فَمِنْ صِفَاتِ الكَفرَةِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وبالحياةِ الآخِرَةِ الْمُعَدَّةِ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيةِ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء؛ أَنَّهُمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيمِ الَّذِي أَبَانَهُ فِي كِتَابه وبَلَّغَهُ رَسُولُهُ ﷺ، وهُوَ صِرَاطُ اللهِ لِسُلُوكِ النَّاسِ الإرادِيّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ؛ لَمَائِلُونَ مُنْحَرِفُونَ إِلَىٰ سُبُلِ الْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ والضَّلَالات، الّتِي يَنْزَلِقُ فِيهَا سَالِكُوهَا إِلَىٰ عَذَابِ النَّار.

الصفة الثَّانِيَة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

- ﴿لَّلَجُّوا۟﴾: أي: لَثَبَتُوا مُلَازِمِينَ مَا هُمْ فِيهِ.

- ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: **الطُّغْيَانُ**: هُو التجاوُزُ عَنِ الْحَدِّ المحتَمَلِ في الْعِصْيَان، إلى مَواقع الضَّرَرِ والإِفْسَادِ والظُّلْمِ والْجَوْرِ والْعُدْوان.

- ﴿يَعْمَهُونَ﴾: **الْعَمَهُ**: التَّحَيُّرُ، والتَّرَدُّدُ، وانْطِمَاسُ البصيرة، وهُوَ فِي الْبَصِيرَةِ كالْعَمَىٰ فِي الْبَصَر.

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ المعْنِيِّينَ بالْعِلَاجِ؛ كَانُوا فِي حَالَةِ ضُرٍّ وَبُؤْسٍ، وَرُبَّمَا كَانَ هـٰذَا هُوَ الجوعُ الذي نَزَلَ بِهِمْ، فأَكَلُوا «الْعِلْهِز»⁽¹⁾.

فالمعْنَىٰ: وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ فَأَزَلْنَا عَنْهُمْ مَا يُعَانُونَ مِنْ ضُرٍّ؛ لَمَا تَرَكُوا قَبَائِحَهُمْ، وَلَمَا تَابُوا إلى بَارِئِهِمْ، بَلْ لثَبَتُوا مُلَازِمِينَ كُفْرَهُمْ غَارِقِينَ فِي طُغْيَانِهِم الْغَالِينَ فِيهِ، وَلَاسْتَمَرُّوا يَعْمَهُونَ وَيَتَحَيَّرُونَ فيما يخْتَارُونَ مِنْ مَسَالِكَ يُرْضُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، كالْعُمْيِ الّذِينَ يَسِيرُونَ فِي أَرْضٍ وَعِرَةٍ لَا مَسَالِكَ فيها تَهْدِيهِمْ.

الصِّفَةُ الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

- ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾: أي: فَمَا ذَلُّوا وَلَا خَضَعُوا لِرَبِّهِمْ.
- ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: وَمَا يَتَذَلَّلُونَ وَمَا يَخْضَعُونَ داعِينَ أَنْ يُزِيلَ اللهُ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ.

يَصِفُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ حَالَةً أَخَذَ فِيهَا المعنيِّين بالْعِلَاج بِعَذَابٍ لَيْسَ بِشَدِيد، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ تَذَلُّلٌ لِرَبِّهِم وَلَا تَضَرُّعٌ لَهُ بالدُّعَاءِ، لِأَنَّهُمْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ مَا نَزَلَ بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عَوَارِضِ الدَّهْرِ وتَقَلُّبَاتِهِ، وَلَيْسَ تَذْكِيراً لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الَّذِي لَا يَجْرِي شَيْءٌ في الكَوْنِ إِلَّا بأَمْرِهِ أو بإِذْنِهِ وعِلْمِهِ.

الصِّفَةُ الرابعة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

- ﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: سَاكِتُون، يَائِسُونَ، نَادِمُون.
- ﴿حَتَّىٰٓ﴾: ابْتَدَائِيَّة. وهي حرف يَدْخُلُ عَلَىٰ الْجُمَلِ الاسْمِيَّة والْفِعْلِيَّة.

---

(١) **الْعِلْهِز**: الدَّمُ المجَمَّدُ يُخْلَطُ بالْوَبَرِ ويُشْوَىٰ علىٰ النَّار.

والمَعْنَىٰ: حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنْ أبواب الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ التَّحَمُّلِ: أَبْلَسُوا، سُكُوتاً، ويَأْساً، ونَدَماً، مُدْرِكِين أَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ، فِي غُلُوِّهِمْ بِمَا يُسْخِطُ اللهَ عَلَيْهِمْ، وَيُنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الْمُهْلِكَ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الحادي عشر من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٦)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني عشر من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (٧٨ ـ ٨٣)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

القراءات:

(٨٢) ● قرأ نَافع، وحفْص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَفْ: **[مِتْنَا]** بكسر الميم. وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مُتْنَا]** بِضَمِّ الميم.

تَمْهيد:

في آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لَمْحَةٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ والحياة الْأُخْرَىٰ حقٌّ، مَعَ عَرْضِ قَوْلِ منكري ذَلِكَ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِمُنْكِرِي الْبَعْث:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: كَيْفَ تُنْكِرُونَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاء، الَّذِي أنبأكُمْ بِهِ خَالِقُكُمْ وَبَارِئُكُمْ، وهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ بإيجَادٍ مُتَدَرِّجٍ: السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ، وَهِيَ أَعْظَمُ الأَجْهِزَةِ الَّتِي فَضَّلَكُمُ اللهُ بِهَا عَلَىٰ كَثِيرٍ من خَلْقِهِ تَفْضِيلاً كَثِيراً؟!!

فالسَّمْعُ: أي: أدَاتُهُ، وهو جِهَازٌ عَجِيبُ الْخَلْقِ والصُّنْعِ في دَاخِلِ الدِّمَاغ، يُوصِلُ إِلَيْهِ الْمَسْمُوعَاتِ أجهِزَةٌ عَجِيبَةُ الصُّنْعِ في الأذُنِ، وَمُوصِلَاتٌ دَقِيقَاتٌ جِدًّا، بَيْنَ الأُذُنِ وَجِهَازِ السَّمْعِ في الدِّمَاغِ.

والأَبْصَارُ: مَرَاكِزُ إدْرَاكٍ لِلْمَرْئِيَّاتِ فِي دَاخِلِ الدِّمَاغ، وتُوصِلُ إِلَيْهَا صُوَرَ المرْئِيَّاتِ: الأَعْيُنُ ذَوَاتُ الصُّنْعِ الْعَجِيبِ، وَمُوصِلَاتٌ دَقِيقَاتٌ جدًّا بَيْنَ الأَعْيُنِ وَمَرَاكِزِ إدْرَاكِ صُوَرِ الْمَرْئِيَّاتِ في دَاخِلِ الدِّماغ.

والأَفْئِدَة: وَهِيَ مَرَاكِزُ فَهْم الأُمُورِ والقضايا، وَتَحْلِيلِ عَنَاصِرِهَا وَتَرْكِيبِهَا، واسْتِنْتَاجِ قَضَايَا أُخْرَىٰ تَلْزَمُ عَنْهَا، بالتَّفْكِيرِ والتَّأَمُّل، وَإِبْدَاعِ صُوَرٍ جَدِيدَةٍ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ قُدْرَاتِ تَخَيُّلٍ واسِعَةٍ امْتَازَ بِهَا إِبْدَاعُ خَلْقِ الإِنْسان.

وهَـٰذِهِ الأَجْهِزَةُ والأَدَوَاتُ تَتَطَلَّبُ مِنْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا بَارِئَكُمْ عَلَيْهَا بالإيمان بِهِ وبِعَظِيم صِفَاتِهِ، وبالاسْتِجَابَةِ لِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وبِفِعْلِ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وبِتَرْكِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، وبِتَصْدِيقِ ما أَنْبَأَكُمْ بِهِ مِنَ الْبَعْثِ، وَيَوْمِ الدِّينِ، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَحْقِيقِ الجزاء.

ولَكِنَّكُمْ قَلِيلاً جداً تَشْكُرُونَ، إنِ اتَّجهَتْ قُلُوبُكُمْ ونُفُوسُكُمْ لِشُكْرِهِ، لِأَنَّكُمْ تُؤْثِرُونَ تَلْبِيَةَ أَهْوَائِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، وَمَتَاعَاتِكُمْ مِنَ الحياة الدُّنْيَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِمُنْكِرِي الْبَعْث:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠﴾:

• ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: خَلَقَكُمْ فِي الأَرْض، ويأتي الذَّرْءُ بِمَعْنَىٰ الْبَثِّ والتَّكْثِيرِ عَنْ طَرِيقِ الذُّرِّيَّة.

• ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: أي: وَإِلَىٰ حِسَابِهِ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَحْقِيقِ جَزَائِهِ؛ يَبْعَثُكُمْ وَيَحْشُرُكم إِلَىٰ مَوَاقِفِ حِسَابِكُمْ، يَوْمَ القيامَة.

الحشْرُ: هُوَ السَّوْقُ والْجَمْعُ.

أي: فَالَّذِي ذَرَأَكُم فِي الأَرْضِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَكُمْ وَيَحْشُرَكم لِمَوَاقِفِ حِسَابِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا مَجَالَ للتَّشَكُّكِ فِي هٰذَا، وَقَدْ أَنبأَكُمْ به فِي آيَاتِ كِتَابِهِ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ المؤيَّدِ مِنْهُ بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَات.

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَلَا أَحَدَ في الوجُودِ كُلِّهِ يُحْيِي سِوَاه، وَلَا أَحَدَ فِي الْوُجُودِ يُمِيتُ بِفَصْلِ الرُّوحِ عَنْ ذِي الحياة سواه، أَمَّا مَا يَتَّخِذه الناس مِنْ أَسْبَابِ قَتْلٍ: فَهِيَ بِتَقْدِيرِ اللهِ وإِذْنِهِ، وَلَكِنَّ الإمَاتَةَ لَا تَكُونُ حَقِيقَةً إِلَّا مِنَ اللهِ.

• ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾: أيْ: وَلَهُ وَحْدَهُ كُلُّ مَا يَجْرِي مِنْ مُخْتَلِفَاتٍ في اللَّيْلِ والنَّهارِ، تَقْدِيراً وَخَلْقاً وفِعْلاً، فَلَا يَجْرِي فِي كَوْنِ اللهِ إِلَّا مَا يُقَدِّرُه الله وَيَقْضِي به، أَوْ يَأْذَنُ باخْتِيَارِ الْعَبْدِ لَهُ، وَلَكِنَّ التَّنْفِيذَ لَا يَكُونُ إِلَّا بخَلْقِ اللهِ وَفِعْلِهِ.

• ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠﴾: أي: أَسُلِبَتْ مِنْكُم عُقُولُكُم فَأَنْتُم لَا تَعْقِلُونَ حَقَائِقَ الأُمُور بأجْهِزَةِ الْعِلْمِ والإِدْرَاكِ لَدَيْكُمْ، وَضَعُفَتْ إرادَاتُكُم

فَأَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ أَنْ تَعْقِلُوا نُفُوسَكُمْ عَنْ أهوائِكُم وشَهَوَاتِكُمْ الَّتِي تَنْزَلِقُ بِكُمْ إِلَىٰ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ؟!!.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ:

• ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

لَمْ يَجِدُوا إِلَّا تَرْدِيدَ عِبَارَةِ الاسْتِغْرَابِ والتَّعَجُّب الَّتِي كَانُوا يَقُولُونَهَا وَكَانَ مُنْكِرُوا الْبَعْثِ مِنْ قَبْلِهِمْ يُرَدِّدُونها.

اسْتِفْهَامُهُمْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الاسْتِفْهَام التَّعَجُّبِيِّ الاسْتغرابِيِّ الَّذِي لَا يَقْتَرِنُ بِدَلِيلٍ مَا، فَهُوَ لَا قِيمَةَ لَهُ فِي مُنَاظَرَةٍ عَقْلِيَّةٍ.

• ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾: أي: لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ عَلَىٰ لِسَانِ الرَّسُولِ بأَنَّنَا سَنُبْعَثُ يَوْمَ القِيامَةِ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاء، وَوُعِدَ آباؤُنا هٰذَا الْوَعْدَ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْ هٰذَا الْوَعْدِ حَتَّى الآنَ شيء.

إنَّ هٰذَا الْقَوْلَ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مُغَالَطَةٍ لَا يَتَذَرَّعُ بها إِلَّا صِغَارُ الْعُقُول، فالْوَعْدُ مُقَيَّدٌ بِأَنَّ الْبَعْثَ سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْوَعْدَ لَمْ يَتَحَقَّقْ.

إِنَّ عُمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا يَنْحَصِرُ بِعُمْرِ قَوْمٍ وَلَا عِدَّةِ أقوام، ولا يَنْحَصِرُ بِعُمْرِ أُمَّةٍ وَلَا بِأَعْمَارِ عِدَّةِ أُمَم، إِنَّ عُمْرَ الْحَيَاةِ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَوْعِبَ كُلَّ مَنْ قَضَىٰ اللهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مُمْتَحَنِينَ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، وَهؤُلَاءِ لَمْ يَنْتَهِ بَعْدُ إِيجَادُهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيَا، فاسْتِعْجَالُ الْبَعْثِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ إِيجادُ النَّاسِ، اسْتِعْجَالٌ للشَّيءِ قَبْلَ أَوانِهِ، وهو أَمْرٌ مُنَافٍ لِمَنْطِقِ الْعَقْلِ وَمَقَايِيسِهِ.

وبَنَوا عَلَىٰ مَقُولَتِهِمُ السَّاقِطَةِ قَوْلَهُمْ الْفَاجِرَ:

• ﴿... إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: مَا هَٰذَا النَّبَأُ عَنِ الْبَعْثِ إِلَّا أَبَاطِيلُ الْأَوَّلِينَ وَأَكَاذِيبُهُمْ.

وبهٰذَا انْتهىٰ تَدبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (٨٤ ـ ٩٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

القراءات:

(٨٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**تَذَكَّرُونَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تَذَّكَّرُون**]، أَصْلُهَا «تتَذكَّرُونَ».

(٨٧ و٨٩) • قرأ أَبُو عَمْرو، ويَعْقُوبَ: [**سَيَقُولُونَ اللهُ**].

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**سَيَقُولُونَ لله**].

(٩٢) ● قرأ نافع، وشعبة، وحَمْزَة، والكسائي، وأبو جَعْفر، وخلف: [**عَالِمُ الْغَيْبِ**] برفع لفظ «عالم»، على أَنَّهُ خَبَرٌ لمبتدأ محذوف تقديرهُ «هُو».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَالِمِ الْغَيْبِ**] بجر لفظ «عالم»، على أنه صِفَةٌ للفظ الجلالة في [**سُبْحَانَ الله**].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ حِواراً جَدَلِيًّا، يُحَاوِرُ بِهِ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَكَة الميْؤُوسِ مِنَ اسْتِجَابَتِهِمْ عَن طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة.

وهَدَفُ هـٰذَا الحوار إثْبَاتُ مِلْكِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْأَرْضِ ومَنْ فيها، وإثْبَاتُ رُبُوبِيَّةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِلسَّمَاوَاتِ والْعَرْشِ الْعَظِيم، وأنَّ بِيَدِهِ ـ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ.

وفيها بَيَانُ أَنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا هُو، مع تقديم حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ عَلَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَحْدَهُ، المسْتَلْزِمَةِ أَنَّهُ هُوَ الإلَهُ الَّذِي لا إلَهَ بِحَقٍّ في الْوُجُودِ كُلِّهِ غَيْرُه، تَبَارَكَتْ صِفَاتُهُ، وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ حواراً جَدَلِيًّا، ويُلْحِقُ بالرَّسُول ﷺ كُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

● ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

هـٰذَا الْحِوَارُ يَتَضَمَّنُ سُؤَالاً لِلْمُشْرِكِينَ، وهـٰذَا السُّؤَال يَسْتَدْعِي أَنْ يُجِيبُوا عَلَيْهِ لِإِلْزَامِهِمْ بالْحَقّ.

السُّؤال: مِلْكُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا لِمَنْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟.
فإِنْ قَالُوا: هَـٰذِهِ مِلْكُ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونَ اللهِ. عِنْدَئِذٍ يتَسَنَّىٰ لِلْمُحَاوِرِ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: هَلْ آلِهَتُكُمْ هِي الَّتِي خَلَقَت الْأَرْض وَمَنْ فِيها وَمَا فِيها، حَتَّىٰ تَكُونَ هِي الْمَالِكَة؟!، فَإِنْ كَانَتْ هِيَ الْخَالِقَة؛ فَأَثْبِتُوا هـٰذَا بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، وأَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ دَلِيلاً عَقْلِيًّا يُثْبِتُهُ، أَوْ قَدِّمُوا لَنَا شَاهِداً حِسِّيّاً يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ آلِهَتَكُمْ تَخْلُقُ شَيْئاً فِي الْأَرْضِ، أَوْ فِيمَا عَلَيْهَا مِن أَحْيَاء.

وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُقَدِّمُوا شَاهِداً حِسِّيًّا عَلَىٰ هـٰذَا، إِلَّا أَوْهَاماً بَاطِلَةً تَسْقُطُ بأَدْنَىٰ حُجَّةٍ.

عِنْدَئِذٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ ذَوُو الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ مِنْهُم بأَنَّ اللهَ هُوَ خَالِقُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا، وَالْخَالِقُ هُوَ الْمَالِكُ حَتْماً، وَهُوَ الَّذِي لَهُ التَّصَرُّفُ والْحُكْم.

- ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾: دَلَّ حَرْفُ السِّينِ عَلَىٰ أَنَّ الْإِجَابَةَ الصَّحِيحَةَ لَيَسَتْ جَاهِزَةً لَدَيْهِم، وَإِنَّمَا يُوصِلُ إِلَيْهَا حِوَار جَدَلِيٌّ بُرْهَانِيٌّ يَقُومُ بِهِ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ.

فإِذَا وَصَلَ مَعَهُمْ إِلَىٰ هـٰذَا الاعْتِرَافِ، قَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ في نِهَايَةِ التَّعْلِيم:

- ﴿. . . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾؟!!: أي: أَتَسْتَهِينُونَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَضَعُونَ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةَ فِي ذَاكِرَاتِكُم بَعْدَ الاقْتِنَاعِ بِهَا، لِتُبْعِدَ عَنْ أَذْهَانِكُمْ أَوْهَامَ الشِّرْكِ، وَأَوْهَامَ التَّعَلُّقِ بآلِهَةٍ مُفْتَرَاةٍ عَلَىٰ اللهِ لَا تَمْلِكُ أَنْ تَتَصَرَّفَ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَمَا عَلَيْهَا؟!!.

الاسْتِفْهَامُ هُنَا تَحْضِيضِي، وَقَدْ يَدُلُّ عَلَىٰ تَلْوِيمِ المكابِرِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ شِرْكِيَّاتِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ التَّعْلِيمَ لِحِوَارٍ آخر عَلَىٰ مَنْهَجِ الْحِوَارِ السَّابق:

● ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾: وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**سَيَقُولُونَ اللهُ**]:

أُسْلُوبُ هٰذَا الْحِوَارِ مُنَاظِرٌ لِلْحِوَارِ السَّابق، وهٰذَا السُّؤَالُ يَسْتَدْعِي أَنْ يُجِيبُوا عَلَيْهِ لإِلْزَامِهِمْ بِالْحَقِّ.

أَمَّا عَلَىٰ قِرَاءَةِ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾: فَفِي السؤال مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم، ولِمَنْ يَرْجِعُ مِلْكُهُمَا؟.

إِنَّهُمْ تُجَاه هٰذَا السُّؤَالِ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَزْعُمُوا أَنَّ رُبُوبِيَّةَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرُبُوبِيَّةَ الْعَرْشِ الْعَظِيم لآلِهَتِهِمْ، فَهُمَا مِلْكٌ لَهَا، لِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ مِنَ المشْرِكِينَ يَزْعُمُ مِثْلَ هَـٰذَا الزَّعْم، بَلْ هُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ رُبُوبِيَّة آلِهَتِهِمْ قَاصِرَةٌ عَلَىٰ بَعْضِ أَحْدَاثٍ في الْأَرْضِ، أَمَّا أَحْدَاثُ السَّمَاوَاتِ والْعَرْشِ والتَّغْيِيرَاتُ فيهما فَهِي للهِ رَبّ الْعَالَمِين.

إِنَّ الرُّبُوبِيَّةَ صِفَةٌ تَشْمَلُ كُلَّ تَصَارِيفِ الْخَالِقِ الرَّبّ لِمَنْ هُوَ تَحْتَ سُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِهِ، فِي كُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ، وفي كُلِّ سَكْنَةٍ مِنْ سَكَنَاتِهِ، وفِي كُلِّ تَغْيِيرٍ في ذَاتِهِ أَوْ فِي صِفَاتِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغْلُوَ مُشْرِكٌ فَيَزْعُمَ أَنَّ رَبًّا مَا مِنْ دُونِ اللهِ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم.

وَإِذَا تَلَجْلجَ المسْؤُولُ المشْرِكُ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُجِيبُ جَوَاباً سَوِيًّا؛ اسْتَطَاعَ الْمُحَاوِرُ لَهُ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ؛ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ «الرَّبِّ»، وأَنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا للهِ رَبِّ الْعَالَمِين، الْمُهَيْمِنِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ.

وبَعْدَ الشَّرْحِ الْحِوَارِيِّ الَّذِي يُقْنِعُ بِهِ الدَّاعِي إلى اللهِ الْمُحَاوِرِينَ المشْرِكِينَ بالْحقّ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ ذَوُو الرَّأْيِ والْعَقْلِ مِنْهُمْ بأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ؛ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ العظيم وَمَالِكُهُمَا. وَبَيْنَ بِدَايَةِ الْحِوَارِ والْإِلْزَام بالحق زَمَنٌ عَبَّرَتْ عَنْهُ السِّينُ في:

- ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ في قراءة جُمْهُورِ القراء، وَ [**سَيقُولُونَ اللهُ**] فِي قِرَاءَةِ أَبِي عَمْرٍو، ويَعْقُوب، أي: اللهُ رَبُّهُمَا.

عِنْدَئِذٍ يَتَسَنَّىٰ للدَّاعِي إلى اللهِ أَنْ يَقُولَ لهم مَا جَاءَ في نِهَايَةِ التَّعْلِيمِ:

- ﴿... أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾؟!: أي: أَفَقَدْتُمْ مَدارِكَكُمْ فَلَا تَتَّقُونَ عِقَابَ رَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذْ تَجْعَلُونَ شُرَكَاءَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ؟!!.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ التَّعْلِيمَ الْحِوارِيَّ عَلَىٰ مَنْهَجِ الْحِوَارَيْنِ السَّابِقَيْن:

- ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

وفي قراءة أبي عمْرو، ويَعْقُوبَ: [**سَيقُولُونَ اللهُ**]:

الْمَلكُوتُ: صِيغَةٌ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْمُلْكِ للتَّعْظِيمِ والتَّفْخِيمِ، **والْمُلْكُ**: هُو السُّلْطَانُ، والْعِزَّةُ، والْقُدْرَةُ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ الْكَامِلِ الشَّامِلِ، ولصاحِب الْمُلْكِ الْأَمْرُ والنَّهْي.

أي: قُلْ أَيُّهَا الداعِي إلى اللهِ لِلْمُشْرِكِين:

مَنْ بِيَدِهِ مُلْكُ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ، وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُجِيرُ فَيَحْمِي مَنِ اسْتَجَارَ بِهِ، وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ يُجِيرُ عَلَيْهِ مَنْ قَضَىٰ عَلَيْهِ بِعِقَابٍ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ هـٰذَا السُّؤَالِ وأَبْعَادَ دَلَالَاتِهِ؟؟!!.

هـٰذَا السُّؤَالُ أَعَمُّ وَأَشْمَلُ مِنَ السُّؤَالِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْحِوَارُ الْأَوَّل، وَأَعَمُّ وأَشْمَلُ مِنَ السُّؤَالِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْحِوارُ الثَّانِي.

إِنَّ مُلْكَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ سِوَىٰ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْمِلْكَ أيضاً؛ أَعَمُّ مِنْ مِلْكِيَّةِ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا، وَأَعَمُّ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ الْمُهَيْمِنَةِ بِصِفَاتِهَا عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ والْعَرْشِ الْعَظِيم.

يُضَافُ إِلَىٰ هـٰذَا الْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ عَلَىٰ حِمَايَةِ مَنِ احْتَمَىٰ بِهِ، وإِجَارَةِ مَنِ اسْتِجَارَ بِهِ، وَأَنَّ أَحداً لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِيَ وَيُجِيرَ مَنْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُ.

والإجابَةُ على هـٰذَا السُّؤَالِ بِعبَارَةِ ﴿لِلَّهِ﴾ أو بِعِبَارَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ لَا تُبْقِي ذَرِيعَةً لِلْمُشْرِكِينَ يَتَذَرَّعُونَ بها لِتَحْسِينِ شِرْكِهِمْ وَتَزْيِينه.

وَلَنْ يَجِدَ المشرِكُونَ الْمُنَاظِرُونَ في الإجابَةِ عَلَىٰ هـٰذَا السُّؤَالِ؛ إِلَّا أَنْ يَتَلَجْلَجُوا، وَيَتَهَرَّبُوا إِلَىٰ قَضَايَا جَانِبِيَّةٍ لَا تَتَّصِلُ بِمَوْضُوعِ السُّؤَال.

عِنْدَئِذٍ يَجِدُ المنَاظِرُ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ مَا يَشْرَحُهُ بالتَّفْصِيلِ وبالاسْتِنَادِ إلى الْمَرْحَلَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ لِلْحِوَارِ، وبِمَا يَشْرَحُهُ بالتَّفْصِيلِ يُقْنِعُ الداعي إلى اللهِ الْمُحَاوِرِينَ الْمُشْرِكِينَ بِالْحَقِّ، أَوْ يُسْكِتُهُمْ إِسْكَاتَ إِلْزَام، وَلَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ ذَوُو الرَّأْيِ والْعَقْلِ مِنْهُمْ فَيَقُولَ: إِنَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ، وَهُوَ مَالِكُ كُلِّ شيءٍ، وهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ: هُوَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِين.

وَبَيْنَ بِدَايَةِ الْحِوَارِ والْإِلْزَام بِالْحَقِّ زَمَنٌ عَبَّرَتْ عَنْهُ السِّينُ فِي ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فِي قِرَاءَةِ جُمْهُورِ الْقُرَّاءِ، و**[سَيقُولُونَ اللهُ]** في قِرَاءَةِ أَبِي عَمْرٍو، وَيَعْقُوب، أي: اللهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، وعلىٰ قراءة الجمهور: للهِ يَرْجِعُ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَليه.

عِنْدَئِذٍ يَتَسَنَّىٰ لِلدَّاعِي إلى اللهِ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ مَا جَاءَ فِي نِهَايَةِ التَّعْلِيم:

● ﴿... فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾: أي: فمِنْ أَيْنَ تُسْحَرُونَ عَنْ إِدْرَاكِ هـٰذِهِ الْحَقِيقَةِ فَتُصْرَفُونَ عَنْهَا مُتَأَثِّرِين بِضَلَالَاتِ وَزُخْرُفِ أَقْوَالِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ المضِلِّين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَعْقِيباً عَلَىٰ بَاطِلِ المشْرِكين:

- ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾: أي: لَا شيءَ عِندَ المشْرِكِينَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبأَ بِهِ أَوْ يُلْتفَتَ إِلَيْهِ، بَلِ الْحَقُّ مَا جِئناهُمْ بِهِ في آيَاتِ كِتَابِنَا، وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِنَا، وَإِنَّهُمْ في كُلِّ مَفْهُومَاتِهِمُ الشِّرْكِيَّةِ وَدَعَاوَاهُمْ بِشَأْنِ وُجُودِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ لَكَاذِبُون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْقِيب عَلَىٰ بَاطِلِ الكَفَرَةِ المشْرِكِين:

- ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

- ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾: أي: مَا جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَفْسِهِ وَلَداً يُعِينُهُ وَيُشَارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَنَفْيُ الْوَلَدِ يَقْتَضِي نَفْيَ أَكْثَرَ مِن ولد.

وجاءت «من» زَائِدَة لَتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

إِنَّ وَلَداً يَنْفَصِلُ عَنْ ذَاتِ اللهِ يَتَنَافَىٰ عَقْلاً مَعَ أَزَلِيَّةِ اللهِ وأَبَدِيَّتِهِ، فالأَزَلِيُّ الأَبَدِيُّ لَا يَتَغَيَّرُ، وَالمتَغَيِّرُ لَا يَكُونَ أَزَلِيًّا وَلَا أَبَدِيًّا، وهُوَ لَا يَلِدُ وَلَا يُولَدُ، والَّذِي يَلِدُ أَوْ يُولَدُ لَا يَكُونُ أَزَلِيًّا وَلَا أَبَدِيًّا.

واتِّخَاذُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَلَداً بالتَّبَنِّي نَقْصٌ يَتَنَزَّهُ عَنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، إِنَّ كُلَّ شيءٍ في الكَوْنِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ مُتَابِعٌ أَعْمَالَ الْخَلْقِ فِيهِ مِنْ أَصْغَرِ ذَرَّةٍ إِلَىٰ أَكْبَرِ مَجَرَّةٍ، حَتَّىٰ الْعَرْشِ، فَمِنْ أَيْنَ تَأْتِي الحاجَةُ لاتِّخَاذِ وَلَدٍ بالتَّبَنِّي.

- ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾: «من» مِثْلُ سَابِقَتِهَا زِيدَتْ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

أي: وَمَا كَانَ مَعَ اللهِ إِلَهٌ هُوَ رَبٌّ خَالِقٌ، أَمَّا مَا يَتَّخِذُ النَّاسُ مِنْ آلِهَةٍ فَهِيَ بَاطِلَةٌ، إِذْ لَيْسَ لَهَا رُبُوبِيَّةٌ وَلَا خَلْقٌ، بَلْ هِي مُفْتَرَاةٌ مَكْذُوبَةٌ عَلَىٰ اللهِ، جلَّ جَلَالُهُ وَشَمَلَ سُلْطَانُهُ كُلَّ شَيْءٍ.

- ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾:

أي: لَوْ كَانَ مَعَ اللهِ الرَّبّ الْأَزَلِيِّ الأَبَدِي؛ آلِهَةٌ هِيَ أَرْبَابٌ خَالِقَةٌ، مِنْ حقِّهَا أَنْ تُعْبَدَ؛ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ هُوَ رَبٌّ خَالِقٌ بِمَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي خَلَقَهَا مِنْ أَشْيَاءَ وأَحْيَاء، وانْتَحَىٰ بِهَا نَاحِيَةً مِنَ الْفَرَاغِ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي أَبْعَادِ مَا بَعْدَ السَّمَاوَاتِ والْعَرْشِ وَكُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ فِي هـٰذَا الكَوْنِ، الْخَاضِعِ لِنِظَام وَحْدَةٍ مُتَمَاسِكَةٍ مِنْ أقْصَىٰ الكَوْنِ إِلَىٰ أَقَاصِيهِ، وَلَجَعلَ لِمَخْلُوقَاتِهِ كَوْناً مُنْفَصِلاً عَنْ كَوْنِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَحِينَ تَتَفَاصَلُ الْآلِهَةُ الأَرْبَابُ، ويَكُونُ لِكُل وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَوْنٌ في الْفَرَاغِ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ وَرَاءَ هـٰذَا الكَوْنِ الَّذِي هُوَ خَلْقُ اللهِ ومِلْكُهُ؛ فَسَيَحْصُلُ بَيْنَ الْآلِهَةِ الْأَرْبَابِ ذَوَاتِ الْأَكْوَانِ المتَفَرِّقَةِ؛ تَنَافُسٌ وَصِرَاعَاتٌ تُفْضِي إِلَىٰ أَنْ يَعْلُوَ بَعْضُهُمُ الْأَشَدُّ قُوَّةً عَلَىٰ بَعْضِهِم الْأَضْعَفِ، وتَنْتَهِي الصِّرَاعَاتُ بِغَلَبَةِ الْأَقْوَىٰ، وبقاءِ رَبٍّ واحِدٍ في الْوُجُودِ، وَهُوَ الإِلَٰهُ الواحِدُ الْأَحد لَا شَرِيكَ له.

هَـٰذِهِ حُجَّةٌ فِكْرِيَّةٌ لِإِقْنَاعِ المشْرِكِينَ بِبُطْلَانِ وُجُودِ آلِهَةٍ بِحَقٍّ، هِيَ أَرْبَابٌ، إِلَّا اللهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

- ﴿. . . سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾: أي: تَـنَـزَّهَ اللهُ الـرَّبُّ الْخَالِق الَّذِي لَا إِلَهَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ مَا فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ، وَهـٰذَا مَا يَصِفُهُ بِهِ المشْرِكُونَ، إِذْ يَصِفُونَ اللهَ تَعَالَىٰ بِأَنَّ لَهُ في الْوُجُودِ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ في رُبُوبِيّتِهِ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

- ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

الْغَيْبُ: مَا غَابَ عَنْ مُشَاهَدَةِ المخْلُوقَاتِ وإِدْرَاكَاتِهِمْ.

الشَّهَادَة: مَا يَشْهَدُهُ بَعْضُ المخْلُوقَاتِ، وَلَوْ كَان غَيْباً بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَخْلُوقَاتٍ أخرىٰ.

أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا شَيْءَ هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ هُوَ مَشْهُودٌ له، حَتَّىٰ نَوَاةِ الذَّرَّةِ، والْأَلِكْتْرُونَاتِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَهَا، وَمَا هُوَ أَصْغَرُ مِنْ ذلك.

فالمعنى: تَنْزِيهاً للهِ عَمَّا يَصِفُ المشْرِكُونَ، كَيْفَ يَدَّعُونَ أَنَّ للهِ شُرَكَاءَ وَهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، وَهُوَ عَالِمُ الْغَيْب بالنِّسْبَةِ إلى المخْلُوقَاتِ، وَعَالِمُ الشَّهَادَةِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ؟!!، وَمِنَ الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المخْلُوقَاتِ مَا وَرَاءَ هٰذَا الكَوْنِ كُلِّهِ، فَإِنْ كَانَتْ تُوجَدُ آلِهَةٌ هِيَ أَرْبَابٌ لَكَانَ عَالِماً بِهَا.

- ﴿... فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾: أي: فَتَسَامَىٰ وَتَرَفَّعَ اللهُ الرَّبُّ الإِلَٰهُ الْحَقُّ عَمَا يُشْرِكُ المشْرِكُونَ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثالث عشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع عشر من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (٩٣ ـ ٩٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾:

القراءات:

(٩٨) • قرأ يَعْقُوب: [يَحْضُرُونِي] بإِثْبَاتِ يَاءِ المتَكلِّمِ وَصْلاً وَوَقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَحْضُرُونِ**] بِحَذْفِ يَاءِ المتكلِّم مَعَ مُلَاحَظَتِهَا ذِهْنًا.

تَمْهِيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ تَعْلِيمَاتٍ تُلَائِمُ الْمَرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها السُّورَة.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ:

- ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ إِلْمَاحٌ ضِمْنِيٌّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ بِأَنَّهُ سَيُرِيهِ مَا يَعِدُ أَئِمَّةَ الكُفْرِ والشِّرْكِ والضَّلَالِ المعانِدِينَ الْمُكَابِرِينَ، الَّذِينَ يُشَاقُّونَ الرَّسُولَ ـ ﷺ ـ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، ويَحْرِصُونَ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهُمْ بِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ تُتَاحُ لَهُمْ، وقَدْ حَصَلَ هٰذَا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَىٰ بِفَضْلِ اللهِ وَتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ.

- ﴿قُل رَّبِّ﴾: دُعَاءُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِكَلِمَةِ: «رَبِّ» هُوَ الأَدَبُ فِي دُعَاءِ الرَّبِّ وَنِدَائِهِ، وَهُوَ الأَدَبُ الَّذِي الْتَزَمَ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام في أَدْعِيَتِهِم بِاسْتِثْنَاءِ أَحْوَالٍ نَادِرَةٍ جِدًّا يَقُولُ فِيهَا الدَّاعِي: «يَا رَبِّ»، ويكون في ذات اللهِ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ.

- ﴿... إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾: «إِمَّا» هِي مُرَكَّبَةٌ مِن «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ وَحَرْف «مَا» الْمَزِيدِ للتَّوكيد، وَلِذَا جاء تَوكِيدُ فِعْلِ الشَّرْطِ بِنُونِ التوكيد الثَّقِيلَة.

أي: رَبِّ إنْ تُرِنِي مَا يُوعَدُ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ؛ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي عِنْدَ إِنْزَالِ عِقَابِكَ وَتَعْذِيبِكَ بِهِمْ ضِمْنَ الْمَكَانِ الَّذِي تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ فِيهِ وَسَائِلَ عِقَابِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ.

وَفِي تَكْرِيرِ لَفْظِ «رَبِّ» دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ يَحْسُنُ بِالّذِي يَدْعُو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدُعَاءٍ ذِي فِقَرَاتٍ؛ أَنْ يُكَرِّرَ قَبْلَ كُلِّ فِقْرَةٍ مِنْهُ عِبَارَةَ «رَبِّ»، لِمَا فِي هـٰذَا التَّكْرِيرِ مِنْ تَجْدِيدٍ لِلْإِيمانِ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعالى، وإِعْلَانِ خُضُوعٍ وَذُلٍّ لَهُ وَتَضَرُّعٍ، وهـٰذَا أَدْعَىٰ للاسْتِجَابَةِ.

وَفِي عِبَارَةِ: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ مَعْنَىٰ الدُّعَاءِ بِأَنْ يُرِيَهُ اللهُ ذَلِكَ دُونَ تَصْرِيحٍ بِهـٰذَا الطَّلَبِ، فَفِي الْفِقْرَتَيْنِ مَطْلُوبَانِ، وَقَبْلَ كُلِّ مَطْلُوبٍ مِنْهُمَا عِبَارَة إِيمانٍ وَخُضوعٍ وَذُلٍّ وَتَضَرُّعٍ للرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وأَطْمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يُرِيَهُ بِأَشَدِّ أَعْدَاءِ دَعْوَتِهِ مَا يُوعَدُونَ مِنْ عِقَابٍ وإِذْلَالٍ وإِهْلَاكٍ، فَقَالَ لَهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ مُؤَكِّداً:

- ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

جاء في هـٰذِهِ العبارة التَّوْكِيدُ بـ «إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسمية ـ واللَّام المزحْلَقَة».

وَيَظْهَرُ لِي أَنَّ المقْصُودَ بِهـٰذَا التَّوكِيدِ إسْمَاعُ الكَفَرَةِ المعانِدِينَ الظَّالِمِين، الموعُودين بالْعِقاب.

الوعْدُ: يَكُونُ بالخير، ويَكُونُ بالشَّرّ، والْمُرادُ هُنَا الْوَعْدُ بالشَّرّ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ يُتَابِعُ تَعْلِيمَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: إِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ هَؤُلَاءِ بِأَفْعَالِهِمْ أَوْ بِأَقْوَالِهِمْ؛ فَلَا تُقَابِلُ سَيِّئَاتِهِمْ

بِسَيِّئَاتٍ، بَلِ ادْفَعِ السَّيِّئَةَ الَّتِي تَنَالُكَ مِنْهُمْ؛ بِالخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

إِنَّ الدَّفْعَ بِالخَصْلَةِ الْأَحْسَنِ يَهْدِمُ مِنْ عُنْفِ قَبِيحَتِهِمْ، وَيَجْعَلُهُمْ يَتَوَقَّفُونَ عَنْ مُتَابَعَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ بِأَقْبَحَ مِنهَا، وسَيَجْزِيهُمُ اللهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّون، إِذْ هُو عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَبِمَا يَقُولُون.

- ﴿... نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾: أي: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يُؤْذُونَكَ بِهِ مِنْ أقوالٍ يَصِفُونَكَ بها مِنْ كُلِّ ذي علم، كَمَا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يُؤْذُونَكَ بِهِ مِنْ أَفْعَالٍ مِنْ كُلِّ عَلِيم، وَنَحْنُ بِحِكْمَتِنَا نُمْهِلُهُمْ إِلَىٰ الْوَقْتِ المقدَّرِ لِعِقَابِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتابعُ تَعْلِيمَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾:

حِينَ يُؤْذَىٰ الإِنْسَانُ مَهْمَا كَانَ ذَا خُلُق عَظِيم مِنَ الْبَشَرِ؛ قَدْ تَتَأَثَّرُ نَفْسُهُ، وَقَدْ تُحَدِّثُهُ بِأَنْ يَنْتَقِمَ لِنَفْسِهِ، وَلِئَلَّا يَتعرَّضَ الرَّسُول ﷺ لهذا ونحْوِهِ أعْطَاهُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ دُعَاءَ الْوِقَايَةِ مِنْ مِثْلِ هٰذَا، فَعَلَّمَهُ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِرَبِّهِ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَسْتَعِيذَ بِهِ مِنْ حُضُورِهِمْ وَلَوْ لَمْ يَتَأَثَّرْ بِهَمَزَاتِهِمْ.

هَمَزَاتُ الشَّيَاطِينِ: خَاطِرَاتُهُمُ الَّتِي يُخْطِرُونَهَا فِي نَفْسِ الإنسانِ وفِكْرِهِ وقَلْبِهِ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع عشر من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٩)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الخامس عشر من دُروس سورة (المؤمنون)

الآيات من (٩٩ ـ ١١٨) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا
تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ
فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٠٢) وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ (١٠٣) تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١٠٤) أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ
عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا
ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا
تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ
خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ (١١٠)
إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (١١١) قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ
إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا
لَا تُرۡجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ
(١١٦) وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ
لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨)﴾:

القراءات:

(٩٩) • قرأ يَعْقُوبُ: [ارْجِعُونِي] بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم وصلاً وَوَقْفاً.
وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ارْجِعُونِ] بحذف ياء المتكلّم مع مُلاحظتها ذِهْناً.

(١٠٠) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر: **[لَعَلِّيَ أَعْمَلُ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ ياء المتكلّم.

(١٠٦) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[شَقَاوَتُنَا]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[شِقْوَتُنَا]**.

الشِّقْوَةُ، والشَّقَاوَةُ: الشَّقَاءُ، والتَّعَاسَةُ وسُوء الحال، والضَّلَال، وهـٰذَا المعنى الأخيرُ هو المناسِبُ هُنَا فيما أَرَىٰ.

(١٠٨) • قرأ يعقوب: **[وَلَا تُكَلِّمُونِي]** بإثبات ياء المتكلِّم وَصْلاً ووقفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَا تُكَلِّمُونِ]** بحذْفِ ياء المتكلّم مع مُلَاحَظَتِها ذهْناً.

(١١٠) • قرأ نَافع، وحمزة، والكِسَائي، وأبو جعفر، وخلف: **[سُخْرِيًّا]** بضَمّ السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سِخْرِيًّا]** بِكَسْرِ السين.

سُخْرِيًّا، وسِخْرِيًّا: لُغَتَانِ بمعنًى واحِدٍ، وهُوَ الْهُزْءُ والسُّخْرِيَة.

(١١١) • قرأ حمزة، والكسائي: **[إِنَّهُمْ هُمُ]** بِكَسْرِ همزة «إنَّ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أَنَّهُمْ هُمُ]** بفتح همْزَة «أَنَّ»، وبين القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في المعنى.

(١١٢) • قرأ ابن كثير، وحَمْزَة، والكِسَائي: **[قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ]**.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ]**.

(١١٣) • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائيّ، وخَلفٌ، وَوَقْفاً حَمزة: **[فَسَلِ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاسْأَلِ]**.

وهما وَجْهَانِ عَرَبيَّانِ.

(١١٤) • قرأ حمزة، والْكِسَائي: **[قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ]**.

(١١٥) • قرأ حمزة، والكِسَائيُّ، ويعقوب، وخلف: **[لَا تَرْجِعُونَ]** بفتح التاء وكَسْرِ الجيم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَا تُرْجَعُونَ]** بضمّ التاء وفتح الجيم.

وبينهما تكامُلٌ في الأداء البياني.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ الأخير مِنْ دُرُوس السورة:

(١) لَقَطَاتٌ من أحداثٍ تبدأ عِنْدَ الموت، وأحداثٍ تَكُونُ بَعْدَ الْبَعْث، وأحداثٍ تَكُونُ حِينما يَدْخُلُ الّذِين خَسِرُوا أنفسهم في جهنّم، وَبَعْضِ مَا يُقَالُ لَهُمْ فيها، وَمَا يُجِيبُونَ بِهِ، وَمَا يُرَدُّ بِهِ عَلَيْهِم.

(٢) بَيَانُ مَا يُسْأَلُهُ الْمَبْعُوثُونَ عَنْ مُدَّةِ بَقَائِهِمْ في الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

(٣) بَيَانٌ إِقْنَاعِيٌّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشأْنِ ضَرُورَةِ الْيَوْمِ الآخِر، مع إِنْذَارِ المشْرِكِينَ بأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ.

(٤) تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يقول:

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١١٨﴾.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ أَنْهَوْا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَافِرِينَ، مُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّين:

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ وفي قراءة: [**ارْجِعُونِي**]:

«**حَتَّىٰ**»: هُنَا ابْتِدَائِيَّة يُبْتَدَأُ بَعْدَهَا بِجُمْلَةٍ ما.

أيْ: حِينَ يَجِيءُ أَحدَهُمُ الْمَوْتُ وَيَرَىٰ مَلَائِكَةَ التَّعْذِيبِ الْمُخِيفَةَ، وَتَنكَشِفُ عَنْهُ الْحُجُبُ، وَيَرَىٰ مَكَانَهُ مِنْ جَهَنَّمَ؛ يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ فِي الدُّنْيَا، لِيُؤْمِنَ إِيمَاناً صَحِيحاً صَادقاً، وَيَعْمَلَ أَعْمَالاً صَالِحَةً يَدْفَعُهُ إلى عَمَلِهَا إيمَانُهُ، فَيَقُولُ في نَفْسِهِ مُتَذَلِّلاً خاضعاً مُعْتَرِفاً بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وَعَظِيم سُلْطَانِهِ: رَبِّ ارْجِعُونِي (يُخَاطِبُ رَبَّهُ بِضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ الْعَظِيم)، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَعمَلَ عَمَلاً صَالِحاً يُرْضِيكَ فيما تَرَكْتُ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ مَجَالَات عَمَلٍ صالحٍ.

لكِنْ فَاتَ الأَوَانُ، وانْتَهَىٰ زَمَنُ الامْتِحَان، وَدَخَلَ الميِّتُ عَتَبَةَ الْآخِرَةِ، وَشَاهَدَ مِنْهَا مَشَاهِدَ تَجعَلُهُ يُؤمِنُ بِكُلِّ ما كَانَ يَكْفُر بِهِ، وَيُكَذِّبُ بِهِ إِيمَانَ شُهُودٍ، لَا إيمَاناً بالْغَيْبِ اسْتِنَاداً إِلَىٰ براهِينِ الْعَقْلِ، وَقَدْ كَانَ المطْلُوبُ مِنْهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ عقْلَهُ وَيُؤْمِنَ بِالْغَيْبِ.

إنَّ الإِيمَانَ المبْنِيَّ عَلَىٰ الشُّهُودِ الْحِسِّيِّ لَا قِيمَةَ لَهُ فِي اخْتِبَارِ إرادَةِ الإنْسَانِ.

ويَأْتِي الرَّدُّ الرَّبَّانِيُّ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾:

«كَلَّا» كَلِمَةُ زَجْرٍ فِيهَا مَعْنَىٰ التَّوْبِيخِ والتَّحْسِيرِ والتَّنْدِيم، وأرَىٰ أَنَّهَا أو مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَعْنَاهَا تَصِلُ إِلَىٰ نَفْسِ الْكَافِرِ الَّذِي طَلَبَ إِرْجَاعَهُ إلى ظُرُوفِ حَيَاةِ الامْتِحَانِ.

أما عبارَةُ: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا تَصِلُ إِلى الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِهِ، **والمعنَىٰ**: أَنَّهَا كَلِمَةٌ صَادِرَةٌ عَنْهُ غَيْرُ مَسْبُوقَةٍ مِنَّا باحْتِمَالِ أَنْ نَسْتَجِيبَ طَلَبَهُ فِيها أَوْ فِي أَمْثَالِهَا، بَعْدَ انْتِهَاءِ كُلِّ ظُرُوفِ امْتِحَانِهِ، ودُخُولِهِ مَرَاحِلَ أَزْمَانِ الْجزَاءِ.

ورَغْبَةُ الْكَافِرِ أَنْ يَقْضِي اللهُ لَهُ باسْتِئْنَافِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ حَتَّىٰ تَمَنِّيهِ أَنْ يَكُونَ تُرَاباً؛ قَدْ جَاءَ بِشَأْنِهَا عَشْرَةُ نُصُوصٍ مُتَكامِلَةٍ فِيما بَيْنَهَا، وهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ عَشْرَة مَوَاقِفَ في عَشْرِ مَرَاحِلَ بَدْأً مِنْ مَوْقِفِهِ عند الموت، حتَّىٰ تَمَنِّيه أن يكُون تُرَاباً وَهُوَ في جهنم وقَدْ سَبَقَتْ دِراسة هذا⁽¹⁾.

- ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: وَمِنْ وَرَاءِ الموْتَىٰ، وَمُشَاهَدَاتِهِمُ الَّتِي يَشْهَدُونَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَعَقِبَهُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ وَعَلَيْهِمْ؛ فَاصِلٌ يَسْتَمِرُّ زَمَنُهُ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، لِيُلَاقُوا أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الْجزاء الْأَكْبَر.

كُلُّ زَمَنٍ مُسْتَقْبَلٍ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مُسْتَقْبَلَهُمْ هو وراءَهُمْ لِأَنَّ ظُهُورهم مُوجَّهَةٌ له.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ أَحْدَاثِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ:

- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

أيْ: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةُ الْبَعْث بَعْدَ انْتِهَاءِ الْبَرْزَخِ الفاصِلِ بَيْنَ الموتِ والْبَعْثِ؛ خَرَجَ المبْعُوثُونَ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا

---

(١) انظر الملحق الثامن من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/٣٩ نزول) في المجلد الخامس.

مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ لِمُلَاقَاةِ حِسَابِهِمْ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، وَتَنْفِيذِ الجزَاءِ الَّذِي قَضَىٰ بِهِ اللهُ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِم، فإنَّهُمْ فِي ذَٰلِكَ الْيَوْمِ لَا يَجِدُونَ أَنْسَاباً نَافِعَةً لَهُمْ، إذْ يَأْتِي كُلُّ وَاحِدٍ إِلَىٰ رَبِّهِ فَرْداً، لِيُحَاسِبَهُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ نَفْسِهِ بأَنَّهُ مِنْ سلالَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوْ أَبٌ أَوْ جَدٌّ لِرَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلام، بَلْ رُبَّمَا كَانَ حِسَابُهُ وَعذَابُهُ أَشَدَّ إِذْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَقَدْ كَانَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِمَا جَاءَ بِهِ وَخالَفَهُ كُفْراً وعِناداً، واتِّبَاعاً لِلْهَوَىٰ وإيثاراً لِمَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَوَلَدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وآزَرَ وَالِدِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام.

- ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي: وَلَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً أَنْ يُعِينَهُ، أَوْ يَدْفَعَ عَنْهُ شيئاً، مَهْمَا كَانَتِ الْقَرَابَةُ بَيْنَهُمْ قَرِيبَةً، لأَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ مَشْغُولٌ بِهُمُومِ نَفْسِهِ، وَقَدْ تَحْدُثُ مَوَاقِفُ يَفِرُّ فِيها المرْءُ من أَقْرَبِ أَقْربَائِهِ وَأَحْبَابِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ في سورة (عَبَسَ/ ٢٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾:

الصُّور: مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ كَهَيْئَةِ الْقَرْنِ، إِحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّة ضَيِّقَةٌ نِسْبِيًّا، وَالْأُخْرَىٰ وَاسِعَةٌ جِدًّا، وَبَاطِنُهُ فَارِغٌ، يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ، فَيُصْدِرُ صَوْتاً بِحَسَبِهِ، وَلَهُ مَلَكٌ عظِيمٌ يُؤْمَرُ بالنفخ فيه نَفْخَةَ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيا، ونَفْخَةَ الْبَعْثِ.

والنَّفْخُ فِي الصُّورِ الْمُرَادُ هُنَا هُوَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَة نَفْخَةُ الْبَعْثِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

- ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

- ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: **أَفْلَحَ**: أي: نَجا وفَازَ وظَفِرَ، وأَصْلُ الْفَلَاحِ: الْبَقاءُ في النَّعِيمِ والْخَيْر.

- ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: تَمَسُّ وُجُوهَهُمُ النَّار فَتُحْرِقُهَا إِحْراقاً غَيْرَ مُنضِجٍ لِلحُومِهَا وَعِظَامِهَا، أَمَّا جُلُودُهُمْ فَكُلَّمَا نَضِجَتْ بَدَّلَهُمُ اللهُ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا عذابَ الْحَرِيق.

- ﴿كَٰلِحُونَ﴾: **الْكَلَحُ**: شِدَّةُ الْعُبُوسِ في الوجْهِ مَعَ تَقَلُّصِ عَضَلَاتِهِ، **والْكَالِحُ**: مَنْ قَصُرَتْ شَفَتُهُ أَوْ شَفَتَاهُ عَنْ أَسْنَانِهِ، ومِثْلُ هٰذَا يَحْدُثُ مِنْ لَفْحِ النَّارِ لِلْوَجْهِ.

جاء ذكر «الْمَوازِينِ» في العبارَتَيْنِ مَجْمُوعاً، وأرَىٰ أَنَّ الْجَمْعَ يرادُ بِهِ الدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّهَا مَوَازِينُ مُتَنَوِّعَةٌ تُنَاسِبُ صُنُوفَ الْأَعْمَالِ وأنواعَها، الْقَلْبِيَّةِ، والنَّفْسِيَّةِ، والْفِكْرِيَّةِ، والْجَسَدِيَّة، ثُمَّ تُجْمَعُ نَتَائِجُ حِسَابَاتِ الموازين، وتُبْنَىٰ عَلَيْهَا أَحْكَامُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّة.

وطَرِيقَةُ الْوَزْنِ فِي مَوَازِينِ يَوْمِ الدِّينِ؛ تَعْتَمِدُ على ثِقَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَمَّا الْأَعْمَالُ السَّيِّئَة والْأَعْمَالُ الْحِيادِيَّةُ الَّتِي لَا تُصَنَّفُ مع الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَلَا مَعَ الأعْمَالِ السَّيِّئَةِ؛ فَهِي سَالِبَةٌ خَفِيفَةٌ، أَوْ طَائِشَةٌ إِلَىٰ جانِبِ السَّلْبِ، فَهِيَ لَا وَزْن لَهَا، والْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ ذَاتُ وَزْنٍ سَالِب.

والْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يَكْسِبُهُ الإنْسَانُ بإرَادَتِهِ الْحُرَّةِ، مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ، وَتَحُلُّ مَحَلَّ رِضىً مِنْهُ، فَتَشْمَلُ الإيمانَ الصَّحِيحَ الصَّادِقَ، والنِّيَّاتِ، والْأَفْكَارَ، وَحَرَكَاتِ النُّفُوسِ الْإِرَادِيَّةِ، وَتَشْمَلُ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ الَّتِي هِي مِنْ آثَارِ الإيمانِ، والمقْرُونَةَ بِالْإِخْلَاصِ للهِ تَعَالَىٰ، مع الْتِزَامِ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ(١).

---

(١) انظر تتمة هذا التحليل ما جاء في تَدَبّر سورة (القارعة/ ٣٠ نزول).

وأُطْلِقَتْ كَلِمَةُ «الْمَوَازِينِ» وأُرِيدَ بِهَا مَا يُوزَنَ بِهَا، لِأَنَّ مَا يُوزَنُ بِهَا هُوَ الَّذِي يَثْقُلُ وَيَخِفُّ، وهٰذَا مِنْ قبيلِ المجاز الْمُرْسَل، فهو مِنْ إطْلَاقِ الْمَحَلِّ وَإِرَادَةِ مَا يَحُلُّ بِهِ.

المعْنىٰ: فَمَنْ ثَقُلَتْ أَعْمَالُهُ الصَّالِحَةُ لَدَىٰ وَزْنِهَا فِي مَوَازِينِ مَا اكْتَسَب مِنْ أَعْمَالٍ إرَادِيَّةٍ، في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا؛ فَأُولَٰئِكَ الْفُضَلاءُ رَفِيعُوا المنزلَةِ عِنْدَ رَبِّهِم؛ هُمُ الْمُفْلِحُونَ النَّاجُونَ الْفَائِزُونَ الظَّافِرُونَ فِي جَنَّاتِ النعيم، عَلَىٰ دَرَجَاتِهِمُ الَّتِي مُنِحُوهَا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا.

وَمَنْ خَفَّتْ أَعْمَالُهُ إِذْ كَانَتْ سَيِّئَةً أَوْ حِيادِيَّةً لَدَىٰ وَزْنِهَا فِي مَوازِينِ مَا اكْتَسَبَ مِنْ أَعْمَالٍ إرَادِيَّةٍ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا؛ فَأُولَٰئِكَ الْبُعَدَاءُ المتَسَفِّلُونَ بِمَا اكْتسبُوا الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ؛ مُقِيمُونَ دائماً وَأَبَداً فِي جَهَنَّمَ، يُعَذَّبُونَ فِيها بأنواعٍ مِنَ الْعَذَابِ، أَشَدُّهَا عَذَابُ الْحَرِيق، إِذْ تَمَسُّ وُجُوهَهُم وَسَائِرَ أَجْسَادِهِمْ تَبَعاً لِوُجُوهِهِمْ؛ النَّارُ فَتُحْرِقُهَا إِحْرَاقاً غَيْرَ مُنْضِجٍ لِلُحُومِهَا وَعِظَامِهَا، وهُمْ فِي جَهَنَّمَ كَالِحُونَ، تَقَبَّضَتْ عَضَلَاتُ وُجُوهِهِمْ عُبُوساً وَكَرْباً، وَقَصُرَت بالْحَرِيقِ شِفَاهُهُم عَنْ أَسْنَانِهِمْ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ خَسَارَةَ الإنْسَانِ نَفْسَهُ أَشَدُّ أنواعِ الْخَسَارَات.

وقَدْ جَاءَت إِعَادَةُ الضَّمِيرِ عَلَىٰ «مَنْ» في العبارَتَيْنِ بالإفْرَادِ أَوَّلاً مُرَاعَاةً لِلَفْظ «مَنْ»، وَأُشِيرَ إِلَيْهَا بِلَفْظِ «أُولَٰئِكَ» في الْعِبَارَتَيْنِ بَعْدَ ذَلِك مُرَاعَاة لمعْنَاهَا، إِذْ لفظ «مَنْ» الموصُولَة: مِنْ أَلْفَاظِ الْعُمُوم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْوَالِ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ خَفَّتْ مَوَازِينُهم:

● ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا

ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (١١١)﴾:

آيَاتٌ فِيها بَيَانُ حِوَارٍ بَيْنَ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وبَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وهُمْ يُعَذَّبُونَ فِيها، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَلامُ اللهِ يَصِلُهُمْ؛ وإِمَّا أَنْ يُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ الْمَلائِكَةُ الْمُكَلَّفُونَ أَنْ يُشْرِفُوا عَلَىٰ تَعْذِيبِهِمْ فِي جَهَنَّمَ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي جَهَنَّمْ، وَرُبَّما كَانَ هٰذَا جَوَاباً لِتَضَرُّعِهِمْ أَنْ يُخَفِّفَ اللهُ عَنْهُمْ الْعَذَاب:

- ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥)﴾:

أي: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي البيانِيَّةُ الْمُنَزَّلَةُ، وَهِيَ مِنْ كِتَابِي لِلنَّاسِ؛ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ، مِنْ قِبَلِ رَسُولِي، أَوْ مِنْ قِبَلِ مُبَلِّغِي رِسَالَتِهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَكُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ تُكَذِّبُونَ بِهَا رَسُولِي الَّذِي بَلَّغَهَا، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ تَأْيِيدِي لَهُ بالآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ الْمُثْبِتَاتِ صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ.

فَيُجِيبُونَ بِمَضْمُونِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ في قول الله تعالى:

- ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ (١٠٦)﴾:

جَاءَ التَّعْبِيرُ بالْفِعْلِ الْمَاضِي؛ للدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُم سَوْفَ يَقُولُونَهُ بِدُونِ شَكٍّ، وَهُوَ مِنْ عِلْمِ اللهِ الشامِلِ لِمَا كَانَ، وَلِمَا يَكُونُ، وَلِمَا سَوْفَ يَكُونُ، وَهُوَ بِمَثَابَةِ الأَمْرِ الَّذِي تَحَقَّقَ وُقُوعُهُ فِي الْمَاضِي، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الواقِعُ عَلَىٰ خِلافه.

الشِّقْوَة: الشَّقَاءُ، وهو الْعُسْرُ والتَّعَبُ، والشِّدَّةُ، والضَّلال. **والشَّقِي**: التَّعِيسُ غير السعيد.

- ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾: أيْ: غَلَبَتْ عَلَى إرَادَاتِنَا ضَلَالَتُنَا الَّتِي اتَّبَعْنَا بِهَا أَهْوَاءَنَا وَشَهَوَاتِنَا وَمَتَاعَاتِنَا مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَجَلَبَتْ لَنَا التَّعَاسَةَ وَسُوءَ الْحَالِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ الآن.

واعْتَرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا:

- ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾: أي: وَكُنَّا فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ قَوْماً ضَالِّينَ ضَلَالاً إرَادِيًا، لَمْ نَكُنْ فِيهِ مَجْبُورِين.

وطَمِعُوا إِذْ مُكِّنُوا مِنَ الْحِوَارِ مَعَ رَبِّهِمْ، وَبَعْدَ إعْلَانِهِم الاعْتِرَافَ عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً ضَالِّين؛ أَنْ يُخْرِجَهُمُ اللهُ مِنْ جَهَنَّمَ وَيَسْتَأْنِفُوا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ إِذَا دَعَوْهُ بِذُلٍّ وَتَضرُّع، فَقَالُوا كَمَا جَاءَ فِي الْبَيَانِ:

- ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾:

أي: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ جَهَنَّمَ، وَأَرْجِعْنَا إِلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، لِنَعْمَلَ الْأَعْمَالَ الَّتِي تُرْضِيكَ عَنَّا، فَإِنْ عُدْنَا إِلَىٰ مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ، فَإِنَّا ظَالِمُونَ ظُلْماً مِنْ أَخَسِّ الدَّرَكَاتِ، وَنَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ.

لَقَدْ تَوَهَّمُوا أَنَّ اللهَ إِذَا أَرْجَعَهُمْ إِلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ فإنَّهُ يُرْجِعُهُمْ ويُبْقِي فِي ذَاكِرَاتِهِمْ مَا شَاهَدُوه مِنْ أَحْدَاثِ الآخِرَةِ وَعَذَابِ جَهَنّم، إنَّ ظُرُوفَ امْتِحَانِهِمُ الْمُسْتَأْنَفِ سَتَكُونُ مُمَاثِلَةً لِامْتِحَانِهِمُ الْأَوَّلِ تماماً، وَهٰذَا يَقْتَضِي أَنْ يَمْسَحَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ ذَاكِرَاتِهِمْ كُلَّ مَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَحْدَاثِ الْآخِرَةِ وَعَذَابِ جَهَنَّمَ، وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُونَ مِثْلَ مَا كَانُوا فِي حَيَاةِ الْإمْتِحَانِ الْأَوَّلِ، وَعِنْدَئِذٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعُودُوا إِلَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ نُهُوا عَنْهُ، فَلَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنْ إعَادَتِهِمْ، إنَّ اخْتِيَارَهُمُ الثَّانِي سَيَكُون مُطَابِقاً لاخْتِيَارِهِمُ الْأَوَّل.

لِهٰذَا يُجِيبُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْبَيَانُ التَّالِي:

- ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾:

الْخَاسِئُ: الذَّلِيلُ الْمَطْرُودُ الْمُبعْدَ.

أي: كُونُوا أَذِلَّاءَ مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ مِنْ وَاسِعِ رَحْمَتِي، تُعَذَّبُونَ فِي جَهَنَّمَ، وَلَا تُكَلِّمُونِي بِدُعَاءٍ وَلَا بِتَلْفِيقِ أَعْذَارٍ.

وَأَقَامَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِنُظَرَائِهِمْ مِنْ عِبَادِهِ فِي وَضْعِهِمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي الْحَياةِ الدُّنيا، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ فِي الكُفْرِ والْعِنادِ والْتِزامِ الْبَاطِلِ، بَلْ آمَنُوا واسْتَغْفَرُوا وَسَأَلُوا اللهَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ، بَيْنَمَا كَانَ الْجَهَنَّمِيُّونَ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ وَيَسْتَهْزِئون بهم، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ:

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (١١١)﴾:

أي: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي الَّذِينَ وَضَعْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، لَهُمْ تَقْصِيرَاتٌ وَمَعاصٍ وَذُنُوب إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِين إِيماناً صَحِيحاً صَادِقاً؛ يَقُولُون: رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَوْجَبْتَ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ ولَكِنَّنَا ارْتَكَبْنَا خَطَايَا، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا خَطَايَانَا، وارحْمنَا بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ، فَاجْعَلْنَا يَوْمَ الدِّينِ مِنَ الْفَائِزِينَ فِي جَنَّتِكَ النَاجِينَ مِنْ عَذَاب النار.

الفوز: يَأْتِي بِمَعْنَىٰ الظَّفَرِ، والنَّجَاةِ مِنَ الشَّرِّ، وبِمَعْنَىٰ الرِّبْحِ.

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ أَيُّهَا الجَهَنَّمِيُّونَ وَأَنْتُمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ مَسخُوراً مِنْهُمْ، مُسْتَهْزَأً بِهِمْ، لِتَصُدُّوهُمْ عَنِ الصراطِ المسْتَقِيم وَتَرُدُّوهُمْ إِلَىٰ الكُفْرِ وارْتِكَاب أَشْنَعِ الكَبَائِرِ وأقْبَحِهَا، فَصَبَرُوا عَلَىٰ اسْتِهْزَائِكُمْ بِهِمْ، وَفَرِحْتُمْ أَنْتُمْ بأَنَّهُ يُوجَدُ بَشَرٌ تَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ، وَجرَّكُمْ فَرَحُكُمْ وَسُرُورُكُمْ بالتَّعَالِي مُسْتَهْزِئِينَ عَلَىٰ بَشَرٍ أَمْثَالِكُمْ؛ حَتَّىٰ صِرْتُمْ لَا تُفَكِّرُونَ بِذِكْرِي، وَيُعْجِبُكُمْ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَضْحَكُوا مِنْهُمْ، وَتؤْذُوهُمْ فِي نُفُوسِهِمْ، وَحَسُنَ في نُفُوسِكُمْ أَنْ تَسْتَمِرُّوا كَافِرِينَ مُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ.

هٰؤُلَاء: إِنِّي بِعَفْوِي ورَحْمَتِي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا جزَاءَاتٍ تُلَائِمُ أَوْضَاعَهُمْ، وَأَنْزَلْتُهُمْ مَنَازِلَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ بِحَسَبِ مَا قَدَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ عَمَلٍ، وَكُنْتُمْ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ لَهُمْ فَوْزٌ عِنْدِي، فَخَيَّبْتُ ظَنَّكُم الْبَاطِلَ، وأَثْبَتُّ أَنَّهُمْ هُمُ الفائِزُونَ لَا أَنْتُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْوَالِ أَهْلِ النَّارِ بَعْدَ الْبَعْث:

• ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾:

وَجَاءَ في قراءةٍ أُخرَىٰ: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

وَجَاءَ أَيْضاً: ﴿قُلْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾:

يَبْدُو أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ المكَلَّفِينَ أَنْ يُشرِفُوا عَلَىٰ سَوقِهِمْ وإِلْقَائِهِمْ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ؛ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَنْ مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، فإِذَا سَمِعَ إِجَابَتَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُم تَعْلَمُون.

فجاءَتْ قراءَة «قُلْ» و«قَالَ» في الآية (١١٢)، وقراءة «قُلْ» و«قَالَ» في الآيَة (١١٤) دَالَّةً علَىٰ هـٰذَا، أي: قَالَ اللهُ لَهُ: «قُلْ»، فَنَفَّذَ الْأَمْرَ الرَّبَّانِيَّ و«قَالَ».

أَيْ: قَالَ الْمَلَكُ المكَلَّفُ الْمَأْمُورُ بالْإِشْرَافِ عَلَىٰ سَوْقِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ كَثِيرُونَ: كَمْ أَقَمْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِين بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ؟.

فَيُجِيبُونَ بِحَسَبِ مَا يَتَصَوَّرُونَ، لِأَنَّ الْإِحْسَاسَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ مَهْمَا طَالَ يَكُونُ مُلْغًى مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَالسَّاعَةُ وَمِلْيَارَاتُ الْقُرُونِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ إِحْسَاسِهِمْ سَوَاء، وَنَحْنُ نَشْهَدُ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ هـٰذَا فِي الْعَمَلِيَّاتِ الجراحِيَّةِ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ تَخْدِيرٍ.

إِنَّهُمْ يُجِيبُونَ بِحَسَبِ تَصَوُّرِهِمْ السَّائِلَ لَهُمْ مِنَ الملائِكَةِ فيَقُولُونَ لَهُ:

- ﴿لَبِثْنَا﴾: أَيْ: أَقَمْنَا بِحَسَبِ تَصوُّرِنَا، لِأَنَّنَا كُنَّا فَاقِدِينَ الإحْسَاسَ بِمُرُورِ الزَّمن، يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم، فَلَا تَسْأَلْنَا نَحْنُ، وَلَكِنِ اسْأَلِ الْعَادِّينَ الْقَادِرِينَ عَلَىٰ الإحْسَاسِ بِمُرُورِ الزَّمَنِ مِنَ الأَحْيَاءِ، كَأَهْلِ الْمَلأِ الأَعْلَىٰ مِنَ الْمَلائِكَةِ.

فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمَأْمُورُ بِسُؤَالِهِمْ:

- ﴿... إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾:

أي: مَا لَبِثْتُمْ مَهْمَا طَالَ زَمَنُ مُكْثِكُمْ مَوْتَىٰ فِي بَاطِنِ الأَرْضِ إِلَّا زَمَناً قَلِيلاً بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَزْمَانِ الدَّهْرِ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْخُلُود الَّذِي سَتَخْلُدُونَهُ فِي الآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ قَادِرِينَ عَلَىٰ إِدْرَاكِ هَـٰذِهِ الحقيقة فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ، لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَتُؤْمِنُونَ بِأَنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ وَمُجَازَوْنَ جَزَاءً خَالِداً في أَزْمَانٍ مُتَوَالِيَاتٍ لَا نِهَايَةَ لها.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً لَهُمْ وَهُمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ:

- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾:

الْعَبَثُ: الْعَمَلُ فِيمَا لَيْسَ لَهُ فَائِدَةٌ تُرْجَىٰ، وَلَا غَايَةٌ يَقْصِدُ تَحْقِيقَهَا الحُكَمَاءُ، أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ، فَكَيْفَ يُتَّهَمُ بِالْعَبَثِ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!.

إِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ حَيَاةٌ أُخرَىٰ، يَتَحقَّقُ فِيهَا جَزَاءُ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان؛ لَكَانَ خَلْقُ ذَوِي الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا عَبَثاً مِنَ الْعَبَثِ الَّذِي يَتَنَزَّهُ الخالِقُ الْبَارِئ عَنْهُ، وَتَصَوُّرُ هَـٰذَا مِنْ قِبَلِ الممتَحَنِينَ اتِّهَامٌ للهِ بِمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ عَقْلاً بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ كُفْرٌ شَنِيعٌ بِصِفَاتٍ جَلِيلَاتٍ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ القيامة.

المعنى: أَفقَدْتُم قُدْرَاتِ التَّفْكِيرِ الَّتِي خَلقْتُها فِيكُمْ، وَحَكَّمْتُمْ أَهْوَاءَكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، فَتَوَهَّمْتُمْ أَنَّنَا لَمْ نَخْلُقْكُمْ إِلَّا عَمَلاً عَبَثاً، لَيْسَ مُسْتَتْبَعاً بِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ هِيَ الجزاءُ بَعْدَ حَيَاةِ الامْتِحَان.

وَتَوَهَّمْتُمْ أَنَّكُمْ لَا تُرْجعُونَ إِلَيْنَا فِي حَيَاةٍ أُخْرَىٰ لِنُحَاسِبَكُمْ، وَنَفْصِلَ الْقَضَاءَ بَيْنَكُمْ، وَنُجَازِيَكُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ أَوْهَامَكُمْ، وَجَحَدْتُمُ الْحَقَائِقَ الْكُبْرَىٰ، وَكَذَّبْتُمْ رَسُولِي فِيما بَلَّغَ عَنِّي.

وبَعْدَ هٰذَا الْبَيَانِ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ أَنَّه تَعَالَىٰ وَتَسَامَىٰ عَنْ تَصَوُّرَاتِ الْكَافِرِينَ بِيَوْم الدِّينِ، وَهُوَ الْمَلِكُ لِلْوُجُودِ كُلِّهِ، الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ فِي كُلِّ شيءٍ والسُّلْطَانُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ، وَهُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ مِنَ الْأَزَلِ بِلَا بِدَايَةٍ، إِلَىٰ الْأَبَدِ بِلَا نِهَايَةٍ، بِذَاتِهِ وَبِكُلِّ صِفَاتِهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَتَنَزُّهه عَنِ صِفَاتِ النُّقْصَانِ، وَبِمَا أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيم، فَهُوَ وَحْدَهُ المسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هو.

الْعَرْش: مَخْلُوقٌ أَعْظَمُ فَوقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمُحِيطٌ بها، ورُوِيَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فِلَاةٍ وَاسِعَة.

الكَريم: الْجَامِعُ لِكُلِّ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُلَائِمَةِ لِخَلْقِهِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمُحِيطاً بها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشركينَ، رَبْطاً بِمَا جَاءَ بِشَأْنِهِمْ فِي أَثْنَاءِ السُّورَة:

• ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

أي: وَمَنْ يَعْبُدْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخرَ غَيْرَهُ، وَهٰذَا الإِلٰهُ لَا بُرْهَانَ لَهُ يُثْبِتُ بِهِ رُبُوبِيَّتَهُ وَإِلٰهِيَّتَهُ؛ فإِنَّمَا حَسَابُهُ يَوْمَ الدِّينِ عِنْدَ رَبِّهِ عَلَىٰ كُفْرِهِ خُلُوداً في

عَذَابِ الْجَحِيم، لِأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ، أي: لَا يَنْجُونَ، وَلَا يَفُوزُونَ، وَلَا يَظْفَرُونَ بِمَا يُرِيدُون، بَلْ هم في الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ خَالِدُون. ومَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ برهان يَدُلُّ على وجودِ إِلَٰهٍ حقّ غيرِ اللهِ تبارك وَتَعَالىٰ.

جُمْلَةُ: ﴿... إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾: وَقَعتْ مَوْقِعَ التَّعْلِيلِ لِمَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ عبارةُ: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ ودالَّةً عَلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في خِتَامِ السُّورَةِ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ:

- ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

أي: وَقُلْ آناً فَآناً أَوْ ثُمَّ آناً: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، مَا أَعْلَمُ مِنْهَا وَمَا لَا أَعْلَمُ، وَارْحَمْنِي بِرَحْمَتِكَ الواسِعَة فِي كُلِّ أحْوَالي، وَفِي كُلِّ شُؤُونِي، وَأَنْتَ رَبِّ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، إِذْ تَمْنَحُ رَحْمَتَكَ عِبَادَكَ عَلىٰ وَفْقِ حِكْمَتِكَ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الخامس عشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمنون)، وَتَمَّ تَدَبُّرُ السورة كلها.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٢٠)

ملحق: مُستَخرَجات بلَاغِيّة مِن سُورَةِ (المؤمنون)

يوجَدُ في سورة (المؤمنون) اخْتيارَاتٌ بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، تَفضَّلَ اللهُ عَلَيَّ باسْتِخْرَاجِ ما يلي منها:

أوّلاً: من الْقَصْر:

وهو تَخْصِيصُ شيءٍ بِشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

وفي السورة مِنْهُ عِدَّة أَمْثِلَة، مِنها ما يلي:

المثال الأول:

▪ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ كُفَّارِ مَلأَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام عَنْهُ لجماهيرِهم:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ... ٢٤﴾:

أي: قالوا: لَيْسَ نُوحٌ إِلَّا بَشَراً مِثْلَكُمْ، فَلَيْسَ هُو نَبِيًّا وَلَا رَسُولاً. وهو قَصْرٌ إِضَافِي، بالنفي والاسْتِثْنَاءِ.

ونظيره قولُهُمْ بِشَأْنِه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ... ٢٥﴾:

أي: مَا هو إِلَّا رَجُلٌ بِهِ نُوعُ جُنُونٍ.

وهو أيضاً قَصْرٌ إِضَافِيٌّ، بالنَّفْي والاسْتِثناء.

المثال الثاني:

▪ قول الله تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام لِقَوْمِهِ «عاد» يدعوهُمْ إلى التوحيد:

﴿... مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ... ٣٢﴾:

أي: لَيْسَ لَكُمْ إِلَهٌ حَقٌّ هُو رَبّكُمْ غَيْرُ اللهِ رَبّ العالمين.

وهو قَصْرٌ حقِيقي، بالنَّفْي والاستِثْنَاءِ.

المثال الثالث:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ مَلأِ «عَادٍ» لجماهِيرِهِمْ بِشَأْنِ الْبَعْث:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ٣٨﴾:

فِي هـٰذَا النَّصّ قصران:

الأوّل: بَيَانُهُ: مَا هِي إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنيا، فَلا بَعْثَ لِلْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتَنْفِيذ الجزاء. وَهُو قَصْرٌ حقيقي، مَعْنَاهُ: لا حَيَاةَ لَنا غَيْرُ هَـٰذِهِ الحياة. وهو ادّعاء كاذبٌ مِنهم. وأداة القصر: النفي والاستثناء.

الثَّاني: بَيَانُهُ: مَا هُو «أي: هُود عَلَيْهِ السَّلَام» إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً. وهو قَصْرٌ إضَافِيٌّ بالنَّفْي والاسْتِثْنَاء.

«إنْ» حرفُ نَفْي في المثالَيْن.

المثال الرابع:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ ... ﴿٦٢﴾﴾:

أي: تَكْلِيفُنا لِكُلِّ نَفْسٍ مَقْصُورٌ عَلَىٰ أَنَّهُ ضِمْنَ حُدُودِ طاقَتِهَا.

وهو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ بالنَّفْي والاسْتِثْنَاء.

المثال الخامس:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً بَعْضَ أفْعَالِ رُبُوبِيَّتِهِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ... ﴿٨٠﴾﴾:

أي: كُلُّ هَـٰذِهِ الظواهِرِ مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا مِنْ أَفْعالِ اللهِ. وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ. وأَدَاتُهُ تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾، أي: لا غَيْرُه.

المثال السادس:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِمُنْكِري الْبَعْث:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾:

أي: أَتَوَهَّمْتُمْ أَنَّا ما خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا عَبثاً، فَقَصَرْتُمْ خَلْقَنَا لَكُمْ عَلَىٰ أَنَّهُ عَبَثٌ مِنَ الْعَبَث، لَيْسَ لَهُ غَايَةٌ حَكِيمَة.

وهُو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ بادّعَاءٍ كَاذِب. وأَدَاتُه «أَنَّمَا».

المثال السابع:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

أي: فَمَا حِسَابُهُ إِلَّا عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَة، وهو قَصْرٌ حقيقي، وأَدَاتُه «إِنَّمَا».

ولِهَـٰذِهِ الأَمْثِلَة نَظَائِرُ في السُّورَةِ.

ثانياً: من تَنْزيل القريبِ مَنْزِلَةَ الْبَعِيد ارتفاعاً أَوْ تَسَفُّلاً:

ومن أَمْثِلَتِهِ في السُّورَة ما يلي:

المثال الأول:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات مِنَ المؤمنين:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: أُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عُلُوّاً فِي مَنَازِلَ رَفِيعَةٍ بِرّاً وإِحْسَاناً؛ يُسَارِعُونَ في الخيرات.

المثال الثاني:

- قَوْلُ الله تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المفْلِحِينَ، وَبِشَأْنِ الْخَاسِرِين:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: فأولَٰئِكَ رَفِيعُوا المنزلَةِ جدًّا عِنْدَ رَبِّهِمْ هُمُ الْمُفْلِحون.

وأولَٰئِكَ الْبَعِيدُونَ فِي اتِّجَاهِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من النار هُمُ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ.

ثالثاً: مِنَ الإيجاز:

مِنْ أمْثِلَة الإيجاز في السورة، ما يلي:

المثال الأول:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

الفاء مِنْ عبارة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف مِن السَّهْلِ إدْرَاكُهُ ذهْناً، أي: أَلَيْسَ لَدَيْكُمْ مَشَاعِرُ خَوْفٍ مِنْ عِقَابِ اللهِ رَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي تَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلَٰهِيَّتِهِ، فَأَنْتُم لَا تَتَّقُونَ عِقَابَهُ الشَّدِيد.

ونظيرها قَوْل هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ «عاد» في الآية (٣٢).

المثال الثاني:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في حِكَايَةِ مَا قَالَهُ لنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام:

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا . . . ﴿٢٧﴾﴾:

أي: أن اصْنَعِ الْفُلْكَ مُسَدَّداً وَمَحْمِيًّا بِمُرَاقَبَتِنَا لَكَ بأعْيُنِنَا، ومُوَجَّهاً ومُعَلَّماً بِوَحْيِنَا.

المثال الثالث:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ الْمُتْرَفِين إذا أنزل اللهُ بِهِمْ عَذابَهُ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أوّلاً: ضُمِّنَ فِعْل: «تُنْصَرُونَ» مَعْنَىٰ فِعْلِ: «تُحْمَوْنَ» فَعُدِّي تَعْدِيتَهُ، فأغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، وهـٰذَا مِنَ الإيجاز البديع في القرآن.

والمعنى: فَأَنْتُمْ لَا تُنْصَرُونَ وَلَا تُحْمَوْنَ مِنْ عَذَابنا.

ثانياً: وَضُمِّنَ اسْمُ الفاعل: «مُسْتَكْبِرِين» مَعْنَىٰ اسم الفاعل: «مُسْتَهْزِئِينَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ.

والمعنى: مُسْتَكْبِرِينَ على الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلَام، ومُسْتَهْزِئِينَ بِهِ.

المثال الرابع:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الكَفَرَةِ السَّابِقِ ذِكْرُهُمْ:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ . . . ﴿٦٨﴾﴾:

الفاء في عبارَة: ﴿أَفَلَمْ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ يَسْهُلُ على المتدبّر أَنْ يُدْركه.

والمعنى: أَنطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ، وأذْهَانُهُمْ، وعُقُولُهُمْ، بِغشَاوَاتِ أهوائِهِم وشهواتِهِم وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، وسَوَابِقِ مَفَاهِيمِهِمُ الضَّالَّةِ، فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْل الَّذِي أنزلْنَاهُ في سَوَابِقِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ.

ولِهـٰذِهِ الأمْثِلَةِ نَظَائِرُ فِي السُّورَةِ يَسْهُلُ على المتدبّر اسْتِخْرَاجُهَا.

رابعاً: من التوكيد لوُجُودِ مَا يَدْعو إلَيْهِ بَلَاغِيًّا:

في هَـٰذِهِ السورة أمْثِلَةٌ كثيرةٌ مِنْهُ، أقْتَصِرُ على اسْتِخراج مَا يلي منها:

المثال الأول:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ وحتى الآية (١١):

جَاءَ التوكيد فِي هـٰذَا النصّ بحرف «قَدْ» الّذِي يَدُلُّ عَلى التَّحْقِيق مَعَ التَّوْكِيد، والداعي إلَى التوكِيدِ كَوْنُ الموعُودينَ بِالْفَلَاحِ هم المؤمِنُونَ على اخْتِلَافِ مراتِبِهِمْ ودَرَجَاتِهِمْ مِنْ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الأبْرَارِ، فما دُونَ ذَلِكَ قَلِيلاً مِنْ دَرَجَات مَرْتَبَةِ المتقين، وَأَحْوَالُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ تَحْتَاج تَوْكيداً.

المثال الثاني:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ وحتَّى الآية (١٦).

ونَظِيرُه قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ۝١٧﴾ وحتى الآية (٢٠):

جَاءَ التوكيدُ بعبارة ﴿لَقَدْ﴾، فاللَّام في جواب قَسَم مَنْوِيّ، و«قَدْ» حَرْفُ تَوْكِيدٍ وتحقيق، والداعي إلى التوكيد فيهما أنّ الْبَيَانَ مُوَجَّهٌ لِغَيْرِ المؤمنين، فحالَاتُهُمْ تَسْتَدْعِي تَوْكِيداً.

المثال الثالث:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

عبارة: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ مُؤَكدة بالمؤكدات: «إنّ - والجملة الاسمية - واللّام المزحْلَقَة».

والداعي إلَىٰ التوكيد هُنَا أَنَّ المخَاطَبِينَ الأوّلين بالْبيَانِ: الْكَافِرُون.

ونظيرهُ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ... ﴿٢١﴾﴾.

المثال الرابع:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

جَاءَ التوكيد بِعِبَارَة ﴿لَقَدْ﴾ لِأَنَّ المعْنِيّين بالخطاب: مُنْكِرُو رِسَالة محمّد ﷺ، فحالَتُهُمْ تَسْتَدْعِي تَوْكِيدَ الخبر لَهُمْ.

المثال الخامس:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في خِطَابِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿... وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

في عبارة: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ التوكيد بـ «إنَّ - والجملة الاسميَّةِ» لأنَّ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ ذَا رَأْفَةٍ كَبِيرَةٍ، وَحِلْم عَظِيم، وَرَجَاءٍ بأنْ يَسْتَجِيب بَعْضُ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ مِنْهُمْ، فحالُهُ تَسْتَدْعِي التوكيدَ لَهُ بأنَّ كُلَّ كُفَّارِ قَوْمِهِ مُغْرَقُون، لئَلَّا يَسْأَلَ رَبَّهُ إمْهالَهُمْ.

المثال السادس:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلرُّسل عَلَيْهِم السَّلَام:

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾:

جَاءَ التوكيدُ بـ «إِنَّ - والْجُملَة الاسْمِيَّة» لِأَنَّ المَعْنِيِّينَ بالْخِطَابِ تَعْرِيضاً: أتباعُ الرَّسُلِ المكَلَّفُونَ أَنْ يَكُونوا أُمَّةً واحِدَةً.

المثال السابع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

جَاءَ التوكيد في الآيَتَيْنِ بـ «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللام المزحْلَقَة» لِأَنَّ الْمَعْنِيِّينَ بالْخِطَاب تَعْرِيضاً: الَّذينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَتِهِ، وَلَا يُؤْمِنُون بالآخِرَة.

ولِهَـٰذِهِ الْأَمْثِلَةِ نَظَائِرُ في السُّورَةِ، تَرَكْتُهَا لاسْتِخْرَاج المتَدَبِّر ذي الدراسة الْبَلَاغِيَّة.

وبِهَـٰذَا أَكْتَفِي بِشَأْنِ اسْتِخراجَاتِ بَلاغِياتِ السُّورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

سُورَةَ السَّجْدَةَ

٣٢ مصحف ٧٥ نزول

وهي سورة مَكّيّة ولم يَصِحَّ اسْتثناء
بعض آيات مِنها وَجَعْلُهَا مَدَنِيَّة

(١)

نصّ السورة وَمَا فيها من فَرْشِ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾
أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ
أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ
عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ
﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي
يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ
ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ
خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن
سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ
وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾
وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ

---

٧ ـ • قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكِسَائِي، وخلف: **[خَلَقَهُ]** فِعلاً ماضياً.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشرَةِ: **[خَلْقَهُ]** مَصْدراً لفعل «خلَق».
والمؤدّىٰ واحد.

١٠ ـ • قرأ نافع، والكِسَائِي، ويعقوب: **[أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ إِنَّا]**. =

رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ
بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ
نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا
نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ
هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ
وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ
إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾
إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ
ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ
﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ
﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ

= وقرأها ابنُ عامر، وأبُو جَعْفر: [إِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْض أَئِنَّا]. وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا].

ومُؤَدَّىٰ هَـٰذِهِ القراءات واحد، وهي من التفنّنِ في البيان.

١١ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ].

وقَرَأَهَا بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [تُرْجَعُونَ].

وَبَيْنَ القراءتَيْنِ تكاملٌ في الأداء البيانيّ، أي: يُرْجِعُكُمُ الله، فَتَرْجِعُونَ بالجَبْر.

١٧ ـ • قرأ حمزة، ويَعْقُوب: [مَا أُخْفِيْ] بإسْكَانِ الياء. وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [مَا أُخْفِيَ] بِفَتْحِ الياء.

أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ
ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ
مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ
مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ
أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ
ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا
يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ
فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ
﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ .

---

٢٠ ـ • قرأ: [وَقِيلَ] بِإِشْمَام كسْرةَ القاف الضمّ: هِشَام، والكِسَائي، ورُوَيس.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالياء الخالِصَة.

٢٤ ـ • قَرَأَ حمزة، والكسائي، ورُويس: [لِمَا صَبَرُوا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَمَّا صَبَرُوا].
وبين القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في أداء المعْنَىٰ الْمُرَاد.
أي: جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً حِينَمَا صَبَرُوا، ولِأَجْلِ أَنَّهُمْ صَبَرُوا.

(٢)

ممّا ورد في السُّنّة بشأن سورة (السجدة)

(١) روى البخاري ومُسْلم عَنْ أَبي هُرَيرة: أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأ فِي صَلاَةِ الْفَجرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ بـ «أَلَم تَنْزِيل السَّجْدة» و«هَلْ أَتَىٰ عَلى الإنْسَان».

(٢) وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيرة قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَنَامُ حَتَّىٰ يَقْرأ «أَلَم تَنْزِيل السَّجْدة» و«تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ».

وَرُوِيَتْ أَحَادِيث أُخَرُ فِي فَضْلِ قراءة «السَّجْدة».

(٣)

موضوع سورة (السّجدَة)

مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ الْمُشْرِكِينَ المكَذِّبينَ بالْقُرآنِ ويَوْمِ الدِّين، وبيانُ أَنَّ النَّاسَ في الحياة الدُّنْيَا مُخْتَارُون أحرار.

وبيان بَعْضِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَحَلَّىٰ بِهَا المؤمِنُون، وتَقْدِيم لَقْطَةٍ مِنْ تَارِيخِ رِسَالَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وأَنَّ اللهَ آتَاهُ كتاب التوراة لِيَكُونَ هُدىً لبني إسْرَائيل، وفيها إلْمَاحٌ إلى أن القرآن أنْزَلَهُ اللهُ لِيَكُونَ هُدًى لِلْعَالَمِينَ بَعْدَ بِعْثَةِ محمد ﷺ.

وبيانٌ عَن الكُفَّارِ الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، مع بعض مُنَاقَشَةٍ لَهُمْ، وَإِجَابَتِهِم عَلَىٰ بَعْض أسْئِلَتِهِم السَّاقِطَةِ، وتوجيه الرَّسُولِ ﷺ لما يَنْبَغِي أنْ يَتَصَرَّفَهُ مَعَهُمْ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ التي نَزَلَتْ فيها السّورة.

(٤)

دروس سورة (السّجدَة)

بالتَّأَمُّلِ بدا لي أَنَّ السُّورة هَـٰذِهِ تَنْقَسِمُ إِلى سِتَّة دروسٍ كما يلي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٩).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عن القرآن، وادّعاء الكافِرِينَ بأن الرسُولَ محمّداً ﷺ افْتَرَاهُ عَلَىٰ رَبِّهِ، مع الرَّدِّ عليهم، بما يُنَاسِبُ المرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فيها السُّورة.

وفيها بَيانُ بَعْضِ ظَواهِرِ خَلْقِ اللهِ في كوْنِهِ، وبَعْضِ صِفَاتِهِ، ومِنْهَا خَلْقُ الإنْسَان، وأنَّ قليلاً مَا مِنَ النَّاسِ يَشْكُرون.

الدرس الثاني: الآيات من (١٠ ـ ١٢).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيانُ مَقَالَةِ الْمُكَذِّبِينَ بالْبَعْثِ، مع عِلاجِهِمْ بِبَيَانِ الْحَقِّ، والترهِيبِ بِعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة.

الدرس الثالث: الآيتان (١٣ و١٤).

وفيهما بَيَانُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ النَّاسَ ذوي حُرِّيَّةٍ في اخْتِيَارِ سُلُوكِهِم الإرَادِي، إذْ وَضَعَهُمُ اللهُ بِهِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدنيا، فَمَنِ اخْتَارَ في حَيَاةِ امْتِحَانِهِ؛ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ المكَذِّبينَ بما جَاءَ مِن عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، عَلى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ؛ كَانَ مِن الخالِدِينَ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين.

الدرس الرابع: الآيات من (١٥ ـ ٢٢).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيانُ بَعْضِ صِفَاتِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللهِ جَلّ جَلَالُهُ، مَعَ بَيَانِ ثوابِهِم العظيم عند الله يَوْمَ الدِّين.

وَفِيها بَيان الفرق الشَّاسع بَيْنَ من كان مُؤْمِناً ومَنْ كانَ فَاسِقاً.

الدرس الخامس: الآيتان (٢٣ و٢٤).

وفيهما ضَرْبُ مَثَلٍ تَاريخيٍّ لِلْمُكَذِّبين بالرَّسُول ﷺ، وبالقرآن؛ بأَنَّ الله

قَد أَرْسَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام وَآتَاهُ كِتَابَ التَّوْرَاةِ، وجَعَلَهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيل، فإِرْسَالُ الرُّسُلِ وإِنْزَالُ الكُتُبِ مِنْ سُنَنِ اللهِ في عبادِهِ الَّذِينَ وضَعَهُمْ في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

الدرس السادس: الآيات من (٢٥ ـ ٣٠) آخر السورة.

وفيها مُعَالجة للكافِرين بالإنْذَار والترهيب، وبالإِقْنَاع. وفيها بَيَانُ سُؤَالِهِمْ عَنْ زَمَنِ نَصْرِ الرَّسُول ﷺ والمؤمنِينَ عَلَيْهِمْ، وَمُعَالَجَتُهُمْ بالترهيب.

وفيها تَوْصِيَةٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ بأَنْ يُعْرِضَ عَنِ المكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِين، وبأَنْ يَنْتَظِرَ وَلَا يَسْتَعْجِلَ طَلَبَ الانْتِصَارِ عَلَيْهِمْ.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (السجدة)

الآيات من (١ ـ ٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ④ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑥ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ⑨﴾:

القراءات:

(٧) • قرأ نَافِع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: **[خَلَقَهُ]** فِعلاً مَاضِياً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[خَلْقَهُ]** مَصْدَراً لِفِعْلِ «خَلَقَ».

ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ القرآنِ، وادّعَاءِ الكافِرِينَ بِأَنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ افْتَرَاهُ على رَبِّهِ، مع الرَّدّ عَلَيْهِمْ بِمَا يُنَاسِبُ الْمَرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا السُّورَة.

وَفِيها بَيَانُ بَعْضِ ظَوَاهِرِ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فِي كَوْنِهِ، وَبَعْضِ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَة، ومِنْ ظَوَاهِرِ خَلْقِهِ: خَلْقُ الإِنْسَان.

وفيها أَنَّ قَلِيلاً مَا مِن النَّاسِ يَشْكُرُونَ اللهَ تَعَالى عَلَىٰ مَا أَوْلاَهُمْ مِنْ نِعَمِهِ الكثيرة العظيمة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾:

• ﴿الٓمٓ ۝١﴾: هٰذِهِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي بَعْضِ أَوَائِلِ السُّوَر. وقَدْ سَبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّرِ أَوَّلِ سُورَة (الْقَلَمْ/ ٤ نزول) بَيَانُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

• ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾:

المرادُ بِالْكِتَابِ الْقُرآنُ، وَقَدْ بَدَأَتِ السُّورَةُ بِبَيَانِ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ عَلَىٰ

مُحمَّدٍ ﷺ، وَلَيْسَ كَلاماً مِنْ كَلامِهِ وَلَا عَملاً مِنْ أَعْمَالِهِ، وَلَا مَنْقُولاً مِنْ كِتَابٍ سابق.

ولفظ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مُبْتَدأ مَعرَّفٌ بالإضَافَةِ إلى الكِتَاب، وخَبَرُهُ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: كَائِنٌ هـٰذَا التَّنْزِيلُ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كُلِّ الْعَالَمِينَ، اللَّفْظِ الشَّامِلِ: لِلْمَلائِكَةِ، والإِنْسِ، والْجِنِّ، وَكُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ في كوْنِهِ، مِنْ أَقَاصِيهِ إِلَىٰ أَقَاصِيهِ.

- ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِ لَا شَكَّ فِيهِ، فالرَّيبُ هو الشَّكُّ.

ونَفْيُ الشَّكِّ عَنِ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَىٰ مَعْنَيَيْن:

الْمَعْنَىٰ الْأَوَّل: أَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنْ بَيَانٍ هُوَ حَقٌّ، فَلَيْسَ في قَضِيَّةٍ مِنْ قَضَايَاهُ بَاطِلٌ، أو مَشْكُوكٌ فِيها، لِتَرَدُّدِهَا بَيْنَ الْبَاطِلِ والْحَقِّ، لَدَىٰ النظر الْفِكْرِيّ الْمُتَجَرِّدِ غَيْرِ المتَأَثِّرِ بالْأَهْوَاء.

وهـٰذَا المعْنَىٰ تَشْهَدُ لَهُ نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ كَثِيرَة، مِنْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ في سورة (النِّسَاء/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

الْمَعْنَىٰ الثَّاني: أَنَّ الْقُرْآنَ لا شَكَّ فِي كَوْنِهِ مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، وَهـٰذَا المعْنَىٰ يُفْهَمُ باللُّزُومِ الْفِكْرِي، ويَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ كُلَّ بَيانٍ جاءَ فِيهِ هُوَ حَقٌّ، إِذْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدَ النَّاسُ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً عَنْ مُطابَقَةِ الْحَقِّ فِي بَيَانَاتٍ كثيراتٍ مِنْ بَيَانَاته.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾:

- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾: أي: بَلْ: أَيَقُولُ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ والتَّكْذِيبِ إِبَّانَ إِنْزَالِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ، وَقَبْلَ إِنْزَالِهَا:

مُحَمَّدٌ قَد افْتَرَىٰ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِه ونَسَبَهُ إلى رَبِّهِ، فَلَيْسَ هُوَ كَلاماً مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

فَخَاطَبَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ لِيُسْمِعَهُمْ بقوله:

- ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أي: لَمْ يَصْدُقُوا في ادِّعَائِهِمْ، بَلْ كَذَبُوا، وَلَمْ يَتَأَثَّرُوا بِأَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ حَقّ، وهـٰذَا لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانَ مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّكَ، فَهُمْ مُعَانِدُونَ جَاحِدُونَ.

- ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ﴾:

﴿نَّذِيرٍ﴾: هُنَا اسْمٌ لِلإِنْذَارِ مَصْدَرِ أَنْذَرَ. **والإِنْذَارُ**: الإعْلامُ والإِخْبَارُ بِعَوَاقِبَ غَيْرِ سَارَّة، كَشَرٍّ قَادِمٍ، أَوْ عُقُوبَةٍ عَلَىٰ مُكْتَسَبٍ إرادِيٍّ، مِنْ قَوْلٍ أو عَمَلٍ أو اعْتِقَاد.

الْمَعْنَىٰ: لِتُبَلِّغَ وَتُعَلِّمَ وَتَعِظَ وَتُنْذِرَ قَوماً الشَّيْءَ الَّذِي سَبَقَ أَنْ أَتَاهُمْ مِنْ تَعَالِيمِ الدِّينِ، وإِنْذَارٍ بِعَذَابِ اللهِ لِمَنْ كَفَرَ وَكَذَّبَ وَعَصَىٰ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ إِلَيْهِمْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إبراهيمَ عَلَيْهِمَا السَّلام، واسْتَمَرَّ مُتَوَارَثاً فِيهِمْ، حَتَّىٰ أَدْخَلَ الْوَثَنِيَّةَ فِي مُجْتَمَعِهِمْ «عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ».

هـٰذَا مَا صَحَّ عِنْدِي فِي هـٰذَا الْمَوْضُوعِ، وسَبَقَ أَنْ أَوْضَحْتُهُ بِتَوْفِيقِ اللهِ لَدَىٰ تَدَبُّر سُورَة (يس/ ٤١ نزول) عند الآية (٤) مِنها.

- ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ يَهْتَدُوا باخْتِيَارِهِم الْحُرِّ، دُونَ جَبْرٍ، إِذْ هُمْ مَوْضُوعُونَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

«لَعَلَّ» مُسْتَعْمَلَةٌ بِمَعْنَىٰ الرَّغْبَةِ هُنَا، لَا بِمَعْنَىٰ التَّرَجِّي، لِأَنَّ الْبيان صَادِرٌ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والتَّرَجِّي لَا يَلِيقُ بِعِلْمِهِ الشَّامِلِ وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ آثَارِ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ في كَوْنِهِ:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾:

أي: اللهُ عَزَّ وَجلَّ هُوَ وَحْدَهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، هِيَ أَقْسَامٌ زَمنِيَّةٌ سَمَّىٰ اللهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ ـ كُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا يَوْماً.

لمَّا كَانَتِ الْأَيَّامُ تَخْتَلِفُ مَقَادِيرُ أَزْمَانِهَا، فَلِأَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمٌ خَاصٌّ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِكُلِّ كَوْكَبٍ يَوْمٌ بِحَسَبِ دَوْرَتِهِ حَوْلَ نَفْسِهِ باتِّجَاهِ مَنْبَعٍ ضَوْئي، وَلَهُ مِقْدَارٌ خَاصٌّ بِهِ، وَلِلْمَجرَّةِ الَّتِي نَحْنُ وَمَجْمُوعَتُنَا الشَّمْسِيَّةُ جُزْءٌ صَغِيرٌ مِنْهَا يَوْمٌ، وَلِهٰذَا الْيَوْم مِقْدَارٌ مع الزَّمَنِ خَاصٌّ بِهِ، حَتَّى عُمُرُ الحياة الدُّنْيَا كُلِّهَا يَوْمٌ، وحَتَّىٰ كُلُّ أَزْمَانِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا يَوْم؛ لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ باسْتِطاعَتِنا تَحْدِيدُ مِقْدَارِ زَمَنِ الْيَوْمِ مِنَ الْأَيَّام السِّتَّةِ، الَّتِي خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِيهَا السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا أَخْذاً مِنَ النُّصُوص.

• ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: دلَّ حرف «ثُمَّ» عَلَىٰ أَنَّ الاسْتِوَاءَ على الْعَرْشِ قَدْ كَانَ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ عَنْ خَلْقِ السَّمَاواتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّام.

جاء في القرآن بيانُ أَنَّ اللهَ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وبَيانُ أَنَّ اللهَ ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾.

الاسْتِواءُ: في اللُّغَة الاسْتِقَامَةُ والاعْتِدَالُ. ويقال لُغَةً: «**اسْتَوَىٰ عَلَىٰ كَذَا**» أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ فَوْقَهُ. ويقال: «**اسْتَوَىٰ إِلَىٰ فِعْلِ كَذا**» أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ مُتَوَجِّهاً لِفِعْلِهِ، قَاصِداً إِلَيْهِ لَا يَلْوِي عَلَىٰ شَيْءٍ آخر.

ويقال لغة: «**اسْتَوَىٰ فُلَانٌ عَلَىٰ سَرِيرِ الْمُلْكِ**» أي: تَوَلَّىٰ تَصْرِيفَ شُؤُونِ مَمْلَكَتِهِ.

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ نَفْسَهُ بأَنَّهُ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ، وقَدْ كَانَ اللهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ تبَارَكَ وَتعَالَىٰ بِأَنَّهُ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَسوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوات.

إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بأَنَّهُ اسْتَوَىٰ، فَنَحْنُ نُثْبِتُهُ ضِمْنَ حُدُودِ مَا أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وَنَقُولُ: هُوَ اسْتِوَاءٌ يَلِيقُ بِذَاتِهِ، سُبْحَانَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْوَاصِفُونَ، ضِمْنَ حُدودِ مُدْرَكَاتِهِم الْقَاصِرَاتِ الضَّئِيلَاتِ الَّتي لَا تَصِلُ إِلى إِدْرَاك ذَاتِهِ، إِذْ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخبير.

وأَحْسَنُ بَيَانٍ حَوْلَ الاسْتِوَاء الَّذِي وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ به نَفْسَهُ؛ ما قَالَهُ الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ:

«الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ».

الْعَرْش: مَخْلُوقٌ أَعْظَمُ فَوْق السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمُحِيطٌ بِها. وَرُوِيَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ بالنِّسْبَةِ إلى الكرسيّ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ في أرض فَلَاةٍ واسِعَةٍ، والكرسيّ بالنسبة إلى العَرْش كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ في أَرْض فَلَاةٍ واسِعَة.

- ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾:

الخطاب في: ﴿مَّا لَكُم﴾ لِكُلِّ النَّاسِ وفي مُقَدِّمَتِهِمْ الكَفَرَةُ المشْرِكُون.

- ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: أي: مِنْ غَيْرِ اللهِ الَّذِينَ هُمْ جَمِيعاً دُونَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

- ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾: أي: لَيْسَ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَلِيٌّ مَا يَتَوَلَّىٰ أُمُورَكُمْ بِعَوْنِهِ، وَإِمْدَادَاتِهِ، وَجَلْبِ الْخَيْرِ لَكُمْ، وَدَفْعِ الضُّرِّ عَنْكُمْ، وَنَصْرِكُمْ، وحِمَايَتِكُمْ، وَرِزْقِكُمْ، وَمُتَابَعَةِ خَلْقِهِ لَكُمْ في أَطْوَارِكُمْ آناً فَآنا، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكُمْ مِمَّا هُوَ مِنْ أَعْمَالِ الْوَلِي، وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَفِيعٍ يَشْفَعُ لَكُمْ، إِذْ لَا شَفِيع إِلَّا بإِذْنِهِ.

«مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٍ جيءَ بِهِ لِتَوْكِيد عُمُومِ النَّفْي والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

• ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾: أي: أَحُرِمْتُم مِنَ الإدْرَاكِ السَّوِيّ، والْفَهْم الصَّحِيحِ النَّافِعِ المؤثِّرِ في الاعْتِقَادِ وَتَوْجِيهِ السُّلُوكِ الإرَادِيّ، فَلَا تَضَعُونَ هَـٰذِهِ الْحَقَائِقَ فِي ذَاكِرَاتِكُمْ، ثُمَّ تَتَذَكَّرُونَهَا عِنْدَ المناسَبَاتِ الداعِيَاتِ، فَتَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَاهَا، الْتِزَاماً بِمَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ بِمَرَاضِي رَبِّكُمْ، وَتَحْقِيقِ بَعْضِ الشُّكْرِ لَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً مَا سَبَقَ:

• ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾:

• ﴿يُدَبِّرُ﴾: **التَّدْبِير**: إعْدَادُ الْخُطَطِ الدَّقِيقة السَّلِيمَةِ الَّتِي تَكْفُلُ أَحْسَنَ الأعْمَالِ، بَدْءاً مِنْ بدايَتِهَا حَتَّىٰ أَواخِرِهَا، وتَكْفُلُ أَحْسَنَ النتائِجِ بَعْدَ أَوَاخِرِهَا.

• ﴿ٱلْأَمْرَ﴾: أي: كُلَّ الْأَمْرِ المتَعَلِّقِ بِالْخلْقِ وَتَغْيِيرِ وَتَصْرِيفِ كُلِّ شيءٍ فِي الذَّوَاتِ والصِّفَاتِ، والْحَرَكَاتِ والسَّكَنَاتِ، وَسَائِرِ الْأَحْدَاثِ المتَغَيِّرَةِ والثَّابِتَةِ زِيَادَةً وَنَقْصاً وإيجاداً وإعْدَاماً، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

• ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ كُلَّهُ المنْبَثَّ الأفراد، بَدْءاً مِنْ أَوَّلِ السَّمَاءِ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ وَحَتَّىٰ غايَةِ مَرْكَزِ الْأَرْض.

• ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾: أي: ثُمَّ يَعْرُجُ صَاعِداً إِلَيْهِ أَثَرُ تَدْبِيرِهِ بِالْبَيَانِ والْوَصْفِ الشَّامِلِ لِلذَّوَاتِ والصِّفَاتِ وَكُلِّ شَيْءٍ.

• ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾: أَفْهَمُ مِن هَـٰذَا أَنَّ صَحِيفَةَ التَّدْبِيرِ تَشْمَلُ أَحداثَ يَوم مِقْدارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مِمَّا يَعُدُّ النَّاس، تُنَزَّلُ إِلَىٰ الْمَلائِكَةِ الْمَأْمُورِينَ بِتَنْفِيذِ أَحداثِ هَـٰذَا التَّدْبِيرِ، ثُمَّ بَعْدَ التَّنْفِيذ

تَعْرُجُ صَاعِدَةً آثَارُ التَّدْبِيرِ إِلَيْهِ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ إِنْزَالِ صَحِيفَةِ التَّدْبِيرِ وَبَعْدَ إِنْزَالِهَا، وأَثْنَاءَ تَنْفِيذِ مَا جَاءَ فِيها، وَبَعْدَ تَنْفِيذِ كُلِّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِهَا، وَلَكِنَّ سُنَّتَهُ فِي كَوْنِهِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ تَصْرِيفٍ فِيهِ خَاضِعاً لِنِظَامِ الْأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ، وهُوَ الْفَعَّالُ الْحَقِيقِيُّ فِي الكَوْنِ مِنْ خِلَالِ قَنَواتِ الْأَسْبَاب.

وَصَحِيفَةُ التدبيرِ وَعُرُوجُ آثَارِ مَا جاءَ فِيهَا إِلَيْهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ؛ تَشْمَلُ أَحْدَاثَ زَمَنِ يَوْمٍ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مِمَّا يَعُدُّ النَّاسِ، أي: نحو (٣٦٥٠٠) يَوْم مِنْ أَيَّامِ النَّاسِ بِحَسَبِ النِّظَامِ الشَّمْسِيّ، أَوْ نَحو (٣٥٤٠٠) يَوْمَ من أَيَّامِ النَّاسِ بِحَسَبِ النِّظَامِ الْقَمَرِي، وهٰذَا لِجُزْءٍ مِنَ الكَوْنِ يَبْدأ مِنْ مُحِيطِ السَّماءِ الْعُلْيَا حتى مركز الأرض.

فعْل «كان» في عبارة: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ يُرَادُ بِهِ الكَيْنُونَةَ المسْتَمرة.

هٰذَا البيان يُعلِّمُنا أنْ نتخذ تدبيرات مُحْكَمَةً لِدُوَلِنَا ولقضايانا الْعَامَّةِ يَجْرِي تنفيذُهَا خِلَالَ سنواتٍ عَديدات، وقد توَصلت الدول إلَىٰ مَا يُسَمُّونَهُ مثلاً الْخطَّة الْخَمْسِيَّة للإصْلَاحِ الاقْتِصَادِي أَوْ لِغيره من مشاريع.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِهِ وظواهِرِ خَلْقِهِ:

● ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾:

● ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ الْبَعِيدُ جِدًّا بِذَاتِهِ عَنْ إِدْرَاكِ كُلِّ مَا خَلَقَ وَمَنْ خَلقَ مِنْ ذَوِي الإِدْرَاك.

● ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: أي: عَالِمُ كُلِّ مَا هُوَ غَيْبٌ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ أَوْ بَعْضِهِمْ، وَكُلِّ مَا هُوَ مَشْهُودٌ لَهُمْ.

أَمَّا اللهُ تَعالَىٰ فَلا شَيْءَ فِي كَوْنِهِ هُوَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ غَيْبٌ.

• ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: الْقَوِيُّ الْغَالِبُ لِكُلِّ الْقُوَىٰ فِي الوجُودِ كُلِّهِ، لِأَنَّهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُلْغِيَ وُجُودَهَا إِذَا شَاءَ.

• ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: العظيم الرَّحْمَة، الَّذِي وسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَيَنَالُ مِنْهَا مَنْ تَعَرَّضَ لِنَفَحاتِها أَوْ فُيُوضَاتِهَا.

• ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: أي: الَّذِي جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مَخْلُوقاً حَسَناً بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْوَظِيفَةِ الَّتِي أَعَدَّهُ في كَوْنِهِ لَهَا.

وَفِي الْقِرَاءَةِ الأُخْرَىٰ: [**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**]: أي: الّذِي أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ إِذْ جَعَلَهُ مَخْلوقاً حَسَناً بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الوظيفة الَّتِي أَعَدَّهُ في كَوْنِهِ لَهَا. ﴿خَلْقَهُۥ﴾ بَدَلَ مِنْ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ وَهُو مِن نَوْعِ بَدَلِ الاشْتِمَالِ.

• ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾: وهو الإنْسَانُ الأَوَّلُ أبو الْبَشَرِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾:

النَّسْلُ: الْوَلَدُ والذُّرِّيَّة.

السُّلَالَة: مَا اسْتُلَّ مِنَ الشَّيْءِ وانْتُزِعَ بِرِفْقٍ، كانْتِزَاعِ الشَّعْرَةِ مِنَ الْعَجِينِ الطَّرِيِّ اللَّيِّنِ.

• ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾: أي: مِنَ الْمَنِيِّ، فَهُوَ في نَظَرِ النَّاسِ مَاءٌ مُمْتَهَنٌ حَقِيرٌ لَا يَعْبَؤُونَ بِهِ، ولَكِنْ جَعَلَهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ حَاوِياً لِبُزُوْرِ الذُّرِّيَّةِ، الَّتِي يَلْتَقِي وَاحِدٌ مِنَ الْمَلايِينِ في نُطْفَةٍ يَقْذِفُهَا الذَّكَرُ؛ بِبُيَيْضَةٍ يُفْرِزُهَا مِبْيَضُ الأُنْثَىٰ، فَيُكَوِّنُ اللهُ مِنْهُمَا الْجَنِين.

• ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾: أَيْ: ثُمَّ فِي أَطْوَارٍ مِنَ الْخَلْقِ

جَعَلَهُ جنيناً فِي بَطْنِ أُمِّهِ سَوِيًّا، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ الَّتِي هي خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ بأمْرِ التَّكْوِينِ الْمُبَاشِرِ الصَّادِرِ عَنْهُ، والَّذِي لَمْ يُؤْخَذْ مِنْ مَخْلُوقٍ سَابقٍ.

إضَافَةُ «الرُّوح» إِلَىٰ اللهِ هِي عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْمِلْكِ، لَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ الاشْتِقَاقِ مِنْ ذَاتِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَتَوَهَّمُ صِغَارُ الْعُقُول، إذْ كُلُّ مَخْلُوقٍ للهِ هُوَ مِلْكٌ لَه.

- ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾:

كَانَ الْكَلَامُ بأسْلُوب الْحَدِيثِ عَنِ الغائب، فَصَارَ فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ الْتِفَاتٌ إلَىٰ أسْلُوبِ خِطَابِ النَّاس.

السَّمْعَ: أي: أَدَاتُهُ الَّتِي تَجعَلُ الْحَيَّ يَسْمَعُ، وهو جِهَازٌ عجيب الْخَلْقِ والصُّنْعِ في داخِلِ الدِّمَاغ، يُوصِلُ إِلَيْهِ الْمَسْمُوعَاتِ أَجْهِزَةٌ عجيبَةُ الصُّنْعِ في الأُذْن، ومُوصِلَاتٌ دَقِيقات جداً بَيْنَ الأُذْنِ وَجِهَازِ السَّمْعِ في الدِّمَاغ.

الأَبْصَار: هي مراكِزُ إدْرَاكٍ لِلْمَرْئِيَّاتِ في دَاخِلِ الدِّمَاغ، وتوصِلُ إِلَيْهَا صُوَرَ الْمَرْئِيَّاتِ الأَعْيُنُ ذَوَاتُ الصُّنْعِ العجيبِ، ومُوصِلَاتٌ دَقيقَاتٌ جدًّا بَيْنَ الأَعْيُنِ وَمَرَاكِزِ إدْرَاكِ صُوَرِ الْمَرْئِيَّاتِ في دَاخِلِ الدِّمَاغ.

الأَفْئِدَة: هِيَ مَرَاكِزُ فَهْمِ الأُمُورِ والقضايا، وتَحْلِيلِ عَنَاصِرِهَا وَتَرْكِيبِهَا، واسْتِنْتَاج قَضَايَا أُخرَىٰ تَلْزَمُ عَنْهَا، بالتَّفْكِيرِ والتَّأَمُّلِ، وإبْدَاعِ صُورٍ جَدِيدَةٍ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ قُدْرَاتِ تَخَيُّلٍ واسِعَةٍ امْتَازَ بِهَا إبْدَاعُ خَلْقِ الإنْسَان.

وهَـٰذِهِ الأَجْهِزَةُ والأَدوات تَتَطَلَّبُ مِنْكُم أَنْ تَشْكُروا رَبَّكُمْ الَّذِي جَعَلَهَا لَكُمْ، فَتُؤْمِنُوا بِهِ، وبِعَظِيم صِفَاتِهِ، وأنْ تَسْتَجِيبُوا لِمَا يَدْعُوكُمْ إلَيْهِ وبِفِعْلِ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وبِتَرْكِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، ولَكِنَّكُمْ:

- ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ أي: فَوَاقِعُ حَالِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ يُثْبِتُ أَنَّكُمْ

شُكْراً قَلِيلاً جدًّا تشكُرُونَ رَبَّكُم. **قَلِيلاً**: صِفَةٌ لِمَفْعُولٍ مُطْلَق مَحْذُوف مُقَدَّم على فعله. و«**ما**» كلِمَةٌ إبْهَامِيَّة لِتَوْكِيدِ الْقِلَّة. وهذا القليلُ ينحَصِرُ بالمؤمنين.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (السَّجْدَة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (السجدة) الآيات من (١٠ ـ ١٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾:

القراءات:

(١٠) ● قرأ نَافع، والكِسَائي، ويعقوب: [**أَئِذَا ضَلَلْنَا في الْأَرْضِ إِنَّا**].

وقرأها ابْن عامر، وأبو جعفر: [**إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَئِذَا ضَلَلْنَا في الأَرْضِ أئِنَّا**].

ومُؤَدّىٰ هٰـذِهِ القراءات وَاحِد، وهِيَ مِنَ التَّفَنُّنِ في البيان.

(١١) ● قَرَأَ يَعْقوب: [**تَرْجِعُونَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تُرْجَعُونَ**].

وبين القراءتين تكامُلٌ فِي الْأَدَاءِ البياني، أي: يُرْجِعُكُمُ اللهُ، فتَرْجِعُونَ بالْجَبْر.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ مَقَالَةٍ مِنْ مَقَالَاتِ المكَذِّبِينَ بالبعث، مع عِلَاجِهِمْ بِبَيانِ الحقّ، والتَّرْهِيبِ بعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ في مَوْقِفِ الْحِسَاب.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَذْكُرُ مَقَالَةً مِنْ مَقَالَاتِ مُنْكِرِي البعث، وقَدْ سَبَقَ في الدَّرس السابق بَيَانُ ادّعَائِهِمْ أَنَّ محمّداً ـ ﷺ ـ افْتَرَىٰ القرآن على رَبّه:

- ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ . . . ⑩﴾؟!.

- ﴿ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ضَاعَتْ ذَرَّاتُ أَجْسَادِنَا فِي تُرابِ الْأَرْض الواسِعَة.

وقَدْ سَبَقَ أَنْ أَبَانَ اللهُ لَهُمْ رَدّاً عَلَىٰ هـٰذَا الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِي، الَّذِي لَا حُجَّةَ مَعَهُ غَيْر مُجَرَّدِ الاسْتِغْرَابِ والاسْتِبْعَادِ؛ بقولِهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿. . . كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ⑩④﴾.

وظاهِرٌ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِي الإعَادَةِ إِعَادَةُ كُلِّ ذَرَّاتِ الأَجْسَادِ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ عَزَّ وَجلَّ قَدِيرٌ عَلَىٰ مَايشاءُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يُرِيدُهُ.

وتَشْبِيهُ الْإِعَادَةِ بالْبَدْءِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنّ النَّوَاةَ الْأُولَىٰ الَّتِي أُنْشِئَ الإنْسَانُ عَلَيْهَا؛ هِيَ الَّتِي يُنْشِئُ اللهُ عَلَىٰ نَظِيرِهَا مِنْ مُشْتَقَّاتِهَا جَسَدَ الإنْسَانِ حِينَ إِعَادَتِهِ بِالْبَعْثِ لِيَحْيَا الْحيَاةَ الْأُخْرَىٰ، هـٰذَا مَا دَلَّتْ عِدَّةُ نُصُوصٍ، إِذْ يُنْبِتُهُ اللهُ مِنَ النَّوَاة الَّتِي تَبْقَىٰ في عَجْبِ الذَّنَبِ لَا تَفْنَىٰ.

فَلْيَدَع المشَكِّكُونَ الأَوْهَامَ الَّتِي يَطْرَحُونَهَا لِلتَّشْكِيكِ بالْبَعْثِ وَالْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ.

فَمُنْكِرُو الْبَعْثِ يُشَكِّكُونَ بإمْكَانِهِ بأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ الاسْتِغْرَابِيّ، فَيَقُولُونَ: أَئِذَا مِتْنَا وَفَنِيَتْ أَجْسَادُنَا وَصَارَتْ ذَرَّاتٍ ضَائِعَاتٍ فِي تُرَابِ الْأَرْضِ؛ أَئِنَّا لَنُبْعَثُ خَلْقاً جَدِيداً مُطَابِقاً لِمَا كُنَّا عَلَيْهِ فِي الحياة الأولَىٰ؟؟!!، إِنَّ هٰذَا مُسْتَبْعَدٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُل.

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿... بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾: أي: لَيْسُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْبَعْثَ مُسْتَحِيلٌ عقلاً، فَفِي سَوَابِقِ التَّنْزِيلِ أَنْزَلْنَا مَا أَقْنَعَهُمْ بِأَنَّ رَبَّهُمْ قَدِيرٌ عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَهُمْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ يُمِيتَهُمْ، وَيُفْنِي أَجْسَادَهُمْ، بَلْ هُمْ لَا يرِيدُونَ أَنْ يَلْقَوْا رَبَّهُمْ لِيُحَاسِبَهُمْ، ويَفْصِلَ قَضَاءَهُ بَيْنَهُمْ، وَيُجَازِيَهُمْ عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ وَلَوَازِمِهِ فِي السُّلُوكِ، الَّذِي يُرْضُون بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، فَهُمْ يَسْتُرُونَ بَرَاهِينَ الْجَزَاءِ وحِكْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ، وَيَكْفُرُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ، الَّذِي يَكُونُ فِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ الْحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وَتَنْفِيذُ الجزاء.

أَصْلُ الكَفرِ: السَّتْر، والكُفْرُ: جُحُودُ الْحَقِّ، ويكُونُ بِسَتْرِ أَدِلَّتِهِ وَبَرَاهِينِهِ، بِالْأَدِلَّةِ الواهِيَةِ وبِزُخْرُفِ الْقَوْل الخادِعِ لصِغَارِ الْعُقُول.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

● ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾:

بما أَنَّ مُنْكِرِي الْبَعْثِ لَمْ يَأْتُوا بِجَدِيدٍ بِشَأْنِ إِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ، غَيْرَ مُجَرَّدِ الاسْتِفْهَام التَّعَجُّبِيّ الاسْتِغْرَابِي، فالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي الاقْتِصَار عَلَىٰ إِخْبَارِهِمْ بالْحَقِيقَةِ، بَدْأً مِن انْتِهَاءِ حَيَاتِهِمُ الدنْيا بِالْمَوْتِ، حَتَّىٰ غَايَةِ لِقَاءِ رَبِّهِمُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ حسابُهُمْ وفَصْلُ القضاءِ بَيْنَهُمْ.

أي: قُلْ لَهُمْ يا مُحمَّدُ، ويا أَيُّهَا الداعي إلى اللهِ من أُمَّتِهِ:

- ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾: أي: يَدَعُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَيَواتِكُمُ المقَدَّرَةَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْكُمْ حَتَّىٰ يَسْتَوْفِيَها تَامَّةً، وفي لَحْظَةِ اسْتِيفَائِهِ لَهَا؛ يَنْزِعُ رُوحَهُ مِنْ جَسَدِهِ ونَفْسِهِ، فَتَذُوقُ نَفْسُهُ الْمَوْت، ويَصِيرُ جَسَدُهُ خَالِياً مِنَ الْحَيَاةِ، لَا حَرَكَةَ لَهُ وَلَا فِكْرَ وَلَا مَشَاعِرَ وَلَا إِحْسَاسَ بِشَيْءٍ مَا، ويَصِيرُ سَائِراً فِي أَطْوَارِ الْفَنَاءِ، بِسَبَبِ انْفِصَالِ رُوحِهِ عَنْ نَفْسِهِ.

وَجَرىٰ الاسْتِعْمَالُ على إِطْلَاقِ الوفَاةِ عَلَىٰ الموْتِ، وإِطْلَاقِ التَّوَفِّي عَلىٰ الإِمَاتَةِ بِفَصْلِ الرُّوحِ عَلَىٰ النَّفْسِ.

وأَرَىٰ أَنَّ أَصْلَ المعْنَىٰ تَرْكُ الْحَيِّ يَسْتَوْفِي أَجَلَ بَقَائِهِ في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيا، فَإِذَا اسْتَوْفَىٰ أَجلَه فَصَلَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ لِهَـٰذِهِ الْغَايَةِ رُوحَهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَيَصِيرُ الْحَيُّ مَيْتاً.

وَمَلَكُ الموْتِ يُرَادُ بِهِ صِنْفُ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِفَصْلِ الْأَرْوَاحِ عَنِ النُّفُوسِ، وَلَمْ يَأْتِ في النُّصُوصِ الدِّينيَّةِ ذِكْرُ اسْمِ رَئِيسِ هـٰذَا الصِّنْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، والمشْهُورُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ النَّاس أَنَّهُ «عِزْرَائِيل» لَا يُعْرَفُ لَهُ أَصْلٌ مَقْبُولٌ يُسْنَدُ إِلَيْهِ.

وقَدْ جَاءَ في القرآن ذِكْرُ مَنْ يقُومُ بِفَصْلِ أَرْوَاحِ الأَحْيَاءِ عن نُفُوسِهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مجْمُوعاً، فقال اللهُ تَعالَىٰ في سُورَةِ (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾.

- ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾: أي: الَّذِي وُكِّلَ بِأَمْرِ اللهِ بِأَنْ يَنْزِعَ أَرْوَاحَكُمْ عَنْ نُفُوسِكُمْ.

- ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾: أَيْ: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ

الْفَاصِلِ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ تُرْجَعُونَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ، لِيُحَاسِبَكُمْ ويَفْصِلَ الْقَضَاءَ بَيْنَكُمْ، ويُنَفِّذَ مَا يَقْضِي به مِنْ جَزَاءٍ بالْعَدْلِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ الْمُجْرِمِينَ ومِنْهُمْ مُنْكِرُو الْبَعْثِ الَّذِينَ يَدُورُ الدَّرْسُ حَوْلَ عِلَاجِهِمْ:

• ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ⑫﴾:

• ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: أي: مُطَأْطِئُو رُؤوسِهِمْ يُحْنُونَهَا إِلَىٰ الْأَسْفَلِ مِنَ الذُّلِّ والانْكِسَارِ والْخُضُوعِ.

أي: وَلَوْ تَرَىٰ أَيُّهَا الرَّائِي أَيًّا كُنْتَ؛ حِينَ يَكُونُ الْمُجْرِمُونَ ومِنْهُمْ مُنْكِرُو الْبَعْثِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ نَاكِسِي رؤوسِهِمْ يَخْفِضُونَهَا ويُحْنُونَهَا إِلَىٰ الْأَسْفَلِ ذُلًّا وانْكِسَاراً وَخُضُوعاً، ويَدْعُونَ رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: رَبَّنَا أَبْصَرْنَا أَحْدَاثاً جَسِيمَةً عَظِيمَة مُخِيفَةً مِمَّا سَيَلْقَاهُ الكافِرُونَ الجاحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وسَمِعْنَا مِنْ زَفِيرِ جهَنَّمَ وَشَهِيقِهَا وأَصْوَاتِهَا الْمُرْعِبَةِ؛ مَا جَعَلَ قُلُوبَنَا تَكُونُ عَلَىٰ يَقِينٍ مِمَّا كُنَّا نَكْفُرُ بِهِ وَنُكَذِّبُ بِهِ، فَارْجِعْنَا إِلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ نَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً عَلَىٰ وَفْقِ مَا تَأْمُرُنَا بِهِ أَوْ تَنْهَانَا عَنْهُ.

لَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ رَفَضَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ دُعَاءً مُمَاثِلاً لِهٰذَا الدُّعَاءِ.

لِأَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، إِذْ يُرَدُّونَ إِلَىٰ مِثْلِ مَا كَانُوا فِيهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تَمَاماً، لَا يَذْكُرُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ شَيْئاً، لِتَكُونَ ظُرُوفُ امْتِحَانِهِمْ مُتَسَاوِيَةً.

وجواب «لَوْ» محذوف إيجازاً، ومِنَ السَّهْلِ تقديرُهُ، أي: لَتَرَيَنَّ المجْرِمِينَ في حالَةِ مَهَانَةٍ وذلٍّ وذعْرٍ شديد يُثِيرُ الحسْرة عَلَيْهِمْ.

وَبِهٰذَا انْتَهَىٰ تدبر الدرس الثاني من دُرُوس سورة (السَّجْدَة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثالث من دُروس سورة (السَّجدَة) الآيتان (١٣ و١٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾:

تَمْهيد:

في آيَتَي هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ النَّاسَ ذَوي إراداتٍ حُرَّةٍ، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهُمْ ضِمْنَ ظُرُوف هـٰذِهِ الحياة الدُّنْيا، إِذْ وَضَعَهُمُ اللهُ فيها مَوْضِعَ الامْتِحان، فَمَنِ اخْتَارَ في حَيَاةِ امْتِحَانِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ المكَذِّبينَ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ المؤيَّدِ بالآيَاتِ الْبَيِّناتِ والْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَات؛ كَانَ مِنَ الْخَالِدِينَ في جهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣﴾:

أي: وَلَوْ شِئْنَا لَسَلَبْنَا كُلَّ نَفْسٍ ذَاتِ إِرادَةٍ حُرَّةٍ مَوضُوعَةٍ في الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ إِرادَتَها الْحُرَّةَ فَجعَلْنَاها مَخْلُوقاً مَجْبُوراً، وَحِينَئِذٍ نَخْتَارُ أَنْ نُؤْتِيَ كُلَّ نَفْسٍ هُداهَا بِالْجَبْرِ، كَمَا خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ مَهْدِيِّينَ لا يَعْصُونَ وَلَا يَفْعلُونَ شَرّاً، وَلَا نَخْتَارُ أَنْ نَخْلُقَ نَفْساً مَجْبُورَةً عَلَىٰ الضَّلالَةِ

وفِعْلِ الشَّرِّ، وأمَّا الشَّيَاطِينُ فَهُمْ مَرَدَةُ كَفَرَةِ الْجِنّ، وَهُمْ مِنْ ذَوِي الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

وَلَكِنْ لَمْ نَشَأْ أَنْ نَسْلُبَ ذَوِي الإرَادَاتِ الحرَّةِ الموضوعينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ إرَادَاتِهِمْ، فَهٰذَا مُخَالِفٌ لِحِكْمَتِنَا مِنْ خَلْقِهِمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَجْتَازُوا مُدَّةَ حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ مُخْتَارِينَ لِنَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتَيْنَاهُمْ، ولِنَكْشِفَ اخْتِيَارَاتِهِمْ فِي ظُرُوف الْحَيَاةِ الدُّنيا، ولِنُجَازِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِحَسَبِ اخْتِيَارَاتِهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهَا.

أَمَّا الْكَافِرُونَ الْمُجْرِمُونَ المكَذّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينَ؛ فَلَأَمْلَأَنَّ جهَنَّمَ مِنْهُمْ جِنًّا وإِنْساً، خالِدِينَ فِيهَا يُعَذَّبُونَ.

وطَوَىٰ النَّصُّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا يَلِي: وَلأُسْعِدَنَّ المؤمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، بِحَسَبِ مُكْتَسَبَاتِهِمُ الإرادِيَّةِ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، بِفِعْلِ مَا أَمَرْتُهُمْ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَيْتُهُمْ عَنْ فعلِهِ.

- ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾: أي: وَلِكِنْ ثَبَتَ الْقَوْلُ الصَّادِرُ مِنِّي، فلا اسْتِئْنَافَ فِيهِ وَلَا رَجْعَةَ عَنْهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديثَ عَنِ الْجَهَنَّمِيِّينَ:

- ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ «ذُوقُوا» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الإِحْسَاسِ بالأَلَم النَّفْسِيِّ والأَلَمِ الْجَسَدِيّ، لِأَنَّ حِسَّ الذَّوْقِ من أَشَدِّ الْحَوَاسِّ إدْرَاكاً لِلْمُحَسَّاتِ.

- ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا تَرَكْتُمْ. أَصْلُ مَعْنَىٰ النِّسْيَانِ في اللُّغَةِ التَّرْك.

أي: فَذُوقُوا الإحْسَاسَ بآلَامِ وُقُوفِكُم أَذِلَّاءَ خَائِفِينَ مَذْعُورِينَ،

مُطَأْطِئِي رُؤُوسِكُمْ، تَدْعُونَ رَبَّكُمْ أَنْ يَسْتَأْنِفَ حَياة ابْتِلَائِكُمْ، فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ، بِسَبَبِ تَرْكِكُمُ الْعَمَلَ لِلِقَاءِ رَبِّكُمْ لِيُحَاسِبَكُمْ، وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِمُجَازَاتِكُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هٰذَا، يَوْمِ الْقِيَامَة.

وَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ: إِنَّا تَرَكْنَا الْعِنَايَةَ بِكُمْ وشُمُولَكُمْ بِرَحْمَتِنَا، فِي مُقَابِلِ تَرْكِكُمُ الإيمانَ والْعَمَلَ بِمَا يُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة.

ويَقُولُ اللهُ لَهُمْ مُخْزِياً ومُعَذِّباً: ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ أَيْضاً فِي جَهَنَّمَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالٍ اعْتِقَادِيَّةٍ وَنَفْسِيَّة، وأَعْمَالٍ جَسَدِيَّةٍ ذَاتِ تَوْجِيهٍ إِرَادِيٍّ جَاحِدٍ لِرُبُوبِيَّةِ اللهِ الواحِدَة، ولإِلٰهِيَّتِهِ الَّتِي لَا شَرِيكَ لَهُ فيها.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرسِ الثَّالِثِ من دُرُوس سورة (السَّجْدة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع مِن من دُروس سورة (السَّجدة)
الآيات من (١٥ ـ ٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ (١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ

ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

القراءات:

(١٧) • قرأ حمزة، ويَعْقُوب: **[مَا أُخْفِيْ]** بإسْكَانِ الياء عَلى أَنَّهُ فعلٌ مضارع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مَا أُخْفِيَ]** بِفَتْحِ الياء على أَنَّهُ فِعْلٌ مَاضٍ.

(٢٠) • قرأ هِشَام، والكِسَائِي، ورُويس: **[وَقِيلَ]** بِإِشْمَامِ كَسْرَة القاف الضمّ.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالْيَاءِ الْخَالِصَة.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَات اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، مع بيان ثوابِهِم العظيم عند اللهِ يَوْمَ الدِّين.

وفيها بيانُ الْفَرْقِ الشَّاسِعِ بَيْنَ مَنْ كَانَ مُؤْمِناً ومَنْ كَانَ فَاسِقاً.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً بَعْضَ صِفَاتِ المؤمِنِينَ المرْتَقِينَ في دَرَجَاتِ مَرْتبَتَي الْبِرّ والإحْسَان:

• ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾:

• ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أي: لَا يُؤمِنُ بآيَاتِنَا المنَزَّلَةِ فِي كِتَابِنَا، إيماناً مِنْ دَرَجَاتٍ رَفِيعَاتٍ فَوْقَ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، فَهِيَ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتبَتَي الْبِرِّ والْإِحْسَانِ.

فالْقَصْر بأَدَاةِ «إِنَّمَا» قَصْرٌ عَلَىٰ تَقْدِيرِ مَطْوِيَاتٍ في النَّصّ، أي: إِنَّمَا يُؤْمِنُ هـٰذَا الإيمانَ الْعَظِيمَ بِآيَاتِنَا الْمُنَزَّلَاتِ في كِتَابِنَا؛ هم الَّذِينَ يَتَحَلَّوْنَ بالصِّفَاتِ السِّتّ التَّالِيَات:

الصِّفَةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾:

أي: هُم المؤمِنُونَ الْمتَّقُونَ الَّذِينَ ارْتقَوْا فَوْقَ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، وَتَدَرَّجُوا فِي دَرَجَاتِ مَرْتَبَتَي الْبِرِّ والإحْسَان، فإِذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ اللهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَدَبَّرُوا مَعَانِيَهَا، ونَفَذَتْ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَشَاعِرُ الْإِحْسَاسِ بِعَظَمَةِ اللهِ وَجَلَالِهِ؛ خَرُّوا سُجَّداً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خاضِعِينَ مُتَضَرِّعِينَ فِي عِبادَةٍ صادِقَةٍ لَهُ، تُعَبِّرُ عَنْ مَبْلَغِ إيمَانِهِمْ الْعَظِيمِ به جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وأرَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ الصِّفَةَ مِنْ صِفَاتِ الْأَبْرَارِ أَوِ الْمُحْسِنِينَ، غَفَلَ المتدبِّرون عَنْهَا، وغَفَلَ المؤمِنُونَ عنها، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ السُّجُودِ عِنْدَ مَوَاضِعِ السَّجَدَاتِ في القرآن.

- ﴿خَرُّوا۟﴾: أي: أَسْرَعُوا في خَفْضِ رُؤُوسِهِمْ وَأَجْسَادِهِم لِوَضْعِ جِبَاهِهِمْ عَلَىٰ الأَرْضِ، خُضُوعاً للهِ وَذُلًّا.

يُقَالُ لُغَةً: «خَرَّ الْمَاءُ يَخِرُّ وَيَخُرُّ خَرّاً» أي: سَقَطَ مِنْ عُلْوٍ إِلَىٰ سُفْلٍ بِلَا تَوَقُّف.

- ﴿سُجَّدًا﴾: جَمْعُ «سَاجِدٍ»، وهو في الشَّرْعِ مَنْ يَضَعُ جَبْهَتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ عبادَةً للهِ عَزَّ وَجلَّ.

أي: خَرُّوا حالَةَ كَوْنِهِمْ هَاوِينَ لِيَكُونُوا سَاجِدِينَ عِبادَةً لِرَبِّهِم وإجْلالاً وإعْظَاماً وشُكْراً.

التَّذْكِير بآيات الله: هُوَ تكْرِيرُ تِلَاوَتِهَا آناً فَآناً عَلَىٰ مَنْ سَبَقَ أَنْ تَبَلَّغَهَا وَآمَنَ بها.

الصِّفَة الثَّانِيَة: أَنَّهُمْ يُسبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ إِذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِهِ فِي كِتَابِهِ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الصِّفَة قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ عَطْفاً عَلَىٰ: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾.

وهـٰذَا التَّسْبِيحُ قَدْ يَكُونُ فِي حَالَةِ سُجُودِهِم، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ.

أي: وَنَزَّهُوا رَبَّهُمْ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ به مِنْ صِفَات، وَهـٰذَا التَّسْبِيح مَقْرُونٌ بِحَمْدِهِ بِكُلِّ صِفَاتِ الكَمَالِ الَّتِي هِي لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَسَمَتْ صِفَاتُهُ الْحُسْنَىٰ.

فالبَاءُ الْجَارة في: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هي بِمَعْنَىٰ الْمُلَابَسَة، أي: تَسْبِيحاً مُمْتَزِجاً بِحَمْدِهِ وَمُلَابساً له، فالتنْزِيهُ والْحَمْدُ بِصِفَاتِ الكَمَالِ مُجْتَمِعَانِ مُمْتَزِجَان.

تَسْبِيحُ اللهِ: تنزيهُهُ وتَقْدِيسُهُ عَنْ كُلِّ مَا لا يَلِيقُ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

حَمْدُ اللهِ: الثَّنَاءُ عَلَيْهِ بِكُلِّ مَا يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ صِفَاتٍ جَلِيلَاتٍ وَأَسْمَاءٍ حُسْنَىٰ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ وَطاعَتِهِ فِيما جَاءَ في آيَاتِ كِتَابِهِ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهِي وَتَرْغِيباتٍ بأفْعَالٍ وَتُرُوك.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥﴾: أي: وهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ مُمْتَنِعِينَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ.

الاسْتِكْبَارُ: التَّرَفُّعُ والتَّعَالِي، والامْتِنَاعُ عَنْ طَاعَةِ مَنْ تجبُ طاعَتُهُ.

الصِّفَةُ الرابعة: أَنَّهُمْ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ المضَاجِعِ، لِيَعْبُدوا رَبَّهُمْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، بِالصَّلَاةِ وبالذِّكْرِ وبتلاوَةِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وبالدُّعَاءِ، وَهَـٰذِهِ الصِّفَةُ هِي مِنْ صِفَاتِ الْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ، لِأَنَّ قِيَام اللَّيلِ في

النَّوَافِلِ لَيْسَ مِنْ مَرْتَبَةِ المتَّقِينِ، بل هو من مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ وَمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِين.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

- ﴿تَتَجَافَىٰ﴾: أي: تَتَبَاعَدُ بتَكَلُّفٍ رَغْبَةً فِي العبادة والْأَجْر العظيم.

- ﴿جُنُوبُهُمْ﴾: **الْجُنُوب**: جَمْعُ «جَنْبٍ»، والْجَنْبُ مِنْ كُلِّ شيءٍ نَاحِيَتُهُ، وشِقُّهُ، ولِلإنْسَانِ جَانِبَانِ أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ والْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، والنائِمُ في الغالب يَنَامُ عَلَىٰ أَحَدِ جَنْبَيْهِ.

- ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: **المضاجِعُ**: جَمْعُ «الْمَضْجَع»، وَهُوَ مَوْضِعُ الْجَنْبِ عَلَىٰ الْأَرْضِ، أَوْ عَلَىٰ شيءٍ مَا كَخَشَبَةٍ أَوْ سَرِيرٍ أو نحوهما.

الصِّفَةُ الخامسة: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فِي أَحْوَالِ الْخَوْفِ، لِيَصْرِفَ عَنهُمْ مَا يَخَافُونَ مِنْهُ، وَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ في أَحْوَالِ الطَّمَعِ، لِيُؤْتِيَهُمْ مَا يَطْمَعُونَ فِيهِ، وَمَا يُحِبُّونَ الاسْتِمْتَاعَ بِهِ مِن مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَمَا يُحِبُّونَ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِ يَوْمَ الدِّينِ مِن سَعَادَةٍ أَبَدِيَّةٍ فِي جَنَّاتِ النعيم، وأَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ النَّارِ، وَمَا يُقَرِّبُ إِلَيْهَا مِن اعتقادٍ أو قَوْلٍ، أو عمل.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِمْ خائِفِين، وَحَالَةَ كَوْنِهِمْ طَامِعِين.

استُعْمِلَ المصْدَرُ في مَوْقِعِ اسْم الْفَاعل. واستُعْمِلَ الفِعْلُ الْمُضَارِعُ «**يدْعون**»: للدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَجَدُّدِ دُعَائِهِمْ في كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، لأَنَّ الإنْسَانَ في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ خائِفاً، وإِمَّا أَنْ يَكُونَ طَامِعاً، وإِمَّا أَنْ يَكُونَ خَائِفاً وَطَامِعاً معاً.

الصفة السادسة: أَنَّهُمْ يُنفِقُونَ آناً فآناً مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ مِنْ رِزْقٍ، في سُبُلِ الْخَيْرِ وَمَرْضَاةِ اللهِ، وهو يَشْمَلُ المآكِلَ، والمشَارِبَ، والمسَاكِنَ،

والْأَكْسِيَةَ، والْأَدْوية، والمرَاكِبَ، وَسَائِرَ مَا يَحْتَاجُهُ الإنْسَانُ حَاجَةً حَقِيقيَّةً فِي الحياة الدُّنْيا، مِمَّا أَحَلَّ اللهُ وَأَذِنَ بالاسْتِمْتَاع بِهِ، ويتوسَّعُونَ في هٰذا الإنْفَاق.

دلَّ علـى هَـٰذِهِ الـصِّـفَـة قـولُ اللهِ تَـعَـالَـىٰ: ﴿... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ⑯﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُشِيراً إِلَىٰ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَخْفَاهُ لِهٰذِهِ الزُّمْرَةِ مِنَ الْأَبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ:

- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ⑰﴾:

﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: أي: مِنْ سُرُورٍ ونَعِيم وَرِضاً، يقالُ لغة: «قَرَّتْ عَيْنُ فُلَان» أي: بَرَدَتْ، واسْتُعْمِلَ هٰذَا التَّعْبِيرُ كِنَايَةً عَن السُّرُور والرِّضا.

أي: هٰؤُلَاء الْأَبْرَارُ والْمُحْسِنُونَ مِنَ المؤمِنِينَ؛ قَدَّرَ اللهُ لَهُمْ ثَواباً عَظِيماً فَوْقَ مَا جَاءَ التَّصْرِيحُ بِهِ في آياتِ الْقُرْآنِ المجيد، وهٰذَا الثَّوَابُ الْعَظِيمُ الذي قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ اللهُ لَهُمْ، وهم يَظْفَرُونَ بِهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ؛ قَدْ أُخْفِيَ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ، وَهُوَ لَا يُعْلَمُ مِنْ قبل مَلَكٍ وَلَا إِنْسٍ وَلَا جِنٍّ إِلَّا حِينَ يُسْعِدُ اللهُ بِهِ هَـٰذِهِ الزُّمْرَةَ يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّاتِ النَّعِيم، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ قَبْلَ ذَلِكَ هٰذَا الجَزَاءَ العظيم الَّذِي أَخْفَاهُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ.

روىٰ البخاريّ ومُسْلم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قال:

«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ».

- ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ⑰﴾: أي: بسبب مَا كانوا في الحياة الدنيا يَعْمَلُونَ مِنْ صالحات جاءَ بيَانُها في صفاتِهِم السِّتِّ الَّتي سبق شَرْحُها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً نَفْيَ التَّسَاوِي بَيْنَ المؤمِنِينَ والْفَاسِقِين الكَفَرَةِ:

● ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

الفاسِق: العاصِي، والمخالِفُ لِأَوَامِرِ اللهِ وَنَواهِيهِ، والْخَارِجُ عَنِ الْحَقِّ، وهُوَ مصْطَلَحٌ إسْلَامِيٌّ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً عِنْدَ العرب.

ولِلْفِسْقِ دَرَكَاتٌ أخَسُّهَا يَكُونُ بالكُفْرِ باللهِ وبما جاء عن اللهِ جُحُوداً وعِناداً وَإِصْرَاراً عَلَىٰ الْبَاطِلِ واتِّبَاعِ الْهَوَىٰ.

والْمُرَادُ بالْفَاسِقِ فِي هٰذَا النَّصّ: هو مَنْ كَانَ فِسْقُهُ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّار يَوْمَ الدِّين.

المأوى: المكَانُ والمنْزِلُ الَّذِي يُنْزَلُ فِيهِ وَيُسْكَنُ، وعبارة: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: أي: جَنَّاتُ الْمَكَانِ الَّذِي أُعِدَّ لَهُمْ لِيأْوُوا إليه، ويَنْزِلُوا فِيهِ، في سُكْنَىٰ أَبَدِيَّةٍ.

● ﴿نُزُلًۢا﴾: **النُّزُل**: مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لِضَيْفِهِ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ، ونُقِلَ عَنِ الزَّجَّاجِ: أَنَّ النُّزُلَ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْمَنْزِل.

فالْجَنَّاتُ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِضُيُوفِهِ الَّذِينَ يُكَرِّمُهُمْ يَوْمَ الدِّين، بِسَبَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ إيمان وَعَمَل يُرْضِيهِ.

والفاء في ﴿أَفَمَن﴾ تَعطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف من السَّهْلِ تقديره.

المعنى: أَفُقِدَ الْعَدْلُ الرَّبَّانِيّ، وفُقِدَتْ حِكْمَةُ اللهِ في الْجَزاءِ، فَيَسْتَوِي فِي جَزَاءِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ؛ مَنْ كَانَ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ مُؤْمِناً بِمَا أَمَرَ اللهُ بالإيمانِ بِهِ؛ وَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يُؤْمِنُ بِمَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالإيمان به؟؟!.

إِنَّ المؤمنِينَ وَالفاسِقِينَ الْكَافِرِينَ؛ لَا يَسْتَوون في حِكْمَةِ اللهِ السَّامِيَة، وعَدْلِهِ فِي الْجزَاء.

• ﴿أَمَّا﴾ حَرْفٌ فِيهِ معْنَىٰ الشَّرط والتَّوْكِيدِ، وفِيهِ هُنَا معْنَىٰ التَّفْصِيل، وَهِي نَائِبَةٌ عَنْ أَدَاةِ الشَّرْطِ وجُمْلَتِهِ.

أي: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أَمَرَ اللهُ بالإيمان به وَعَمِلُوا مِنَ الصَّالِحَاتِ مَا يُعَبِّرُ عَنْ صِدْقِ إيمَانِهِمْ وصِحَّتِهِ؛ فَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ أَرْضُهَا مَسْكَنُهُمُ الأبَدِيُّ الْخَالِدُ، وفيها ضِيَافَةُ اللهِ العظيمَةُ لَهُمْ، وَهٰذَا قَدْ أُعِدَّ لَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ مِنْ صَالِحَاتٍ تُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ.

وأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا بالكُفرِ بِمَا أَمَرَ اللهُ بالْإِيمَانِ بِهِ، ويَلْزَمُ مِنْ كُفْرِهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا السَّيِّئَاتِ الكَبِيرَاتِ؛ فَقَدْ قَضَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَكُونَ مَكَانُ إِقَامَتِهِم دَارَ الْعَذَابِ النَّارَ يَوْمَ الدِّينِ. وَهُمْ يُحَاوِلُونَ الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ، لَكِنَّهُمْ كُلَّما أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا؛ أُعِيدُوا إِكْراهاً حَتَّىٰ يَكُونُوا فِي وَسَطِهَا، ويُقَالُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُعِيدُونَهُمْ فيها: ذُوقُوا عَذَابَ النَّار الَّذِي كُنْتُمْ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ بِهِ تُكَذِّبُونَ عِناداً وإصراراً على الباطل، واتّباعاً لِشَهَوَاتِ نُفُوسِكُمْ، ورَغَبَاتِهَا من متاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً بَيَانَ عَذَاب الّذِين فَسَقُوا مِنْ دَرَكَةِ الكُفر:

• ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾:

• ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾: اللام واقِعَةٌ فِي جواب قَسَم مَنْوي، فالْفِعْلُ مُؤكَّدٌ بِقَسَم مُقَدَّرٍ، وبِنُونِ التَّوْكِيدِ الثَّقِيلَة. أي: ونُقْسِمُ لَنَجْعلَنَّهُمْ يَذُوقُونَ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ.

• ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: أي: من الْعَذَابِ الأَقْرَب، وهُو مَا يُنْزِلُهُ اللهُ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ في الحياة الدُّنْيَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ، وطُوِيَ في النَّصِّ

وَصْفُ هـٰذَا الْعَذَابِ بِأَنَّهُ أصْغَرُ، لِدَلَالَةِ مُقَابِلِهِ الأخْرَوِيِّ إِذْ جَاءَ وَصْفُهُ بأَنَّهُ الْعَذَابُ الأكْبر.

- ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: **دُونَ**: ظَرْفُ مَكَانٍ مَنْصُوب، ومَعْنَاهُ هُنَا: «قَبْل». والمرادُ بالْعَذَابِ الْأَكْبَرِ عَذَابُ الآخِرَة.

المعنى: ونُقْسِمُ لَنَذِيقنَّهُمْ بَعْضَ الْعَذَابِ الْأَقْرَبِ الْأَصْغَرِ وهُمْ فِي الحياةِ الدُّنْيَا، قَبْلَ إِذَاقَتِهِمُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ في الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينَ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ رُشْدِهِمْ، فَيُؤْمِنُوا بِمَا أَوْجَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، ويَعْمَلُوا مِنَ الصَّالِحَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِ إِيمَانِهِمْ وصِحَّتِهِ فِي قُلُوبِهِم.

كَلِمَةُ «لعَلَّ» في عبارة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ مَحْمُولَةٌ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرَّغْبَةِ، لَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ التَّرجِّي والتَّرقُّب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَعْقِيباً عَلَىٰ ذِكْرِ أَحْوَالِ الْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِ اللهِ البيانِيّة الْمُنَزَّلَةِ مِنْ لَدُنْهُ:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

اسْمُ الاسْتِفْهَامِ في عِبارَةِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ، وهـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ مُشَارَكَةِ آخَرِينَ لَهُ في الْأَظْلَمِيَّةِ، لَكِنْ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنْهُ.

مُنْتَقِمُونَ: أي: مُعَاقِبُونَ، يقال لُغَةً: «انْتَقَمَ، يَنْتَقِمُ، انْتِقَاماً مِنَ المذنب» أي: عَاقبه.

المَعْنَىٰ: وَلَا أَحدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ سَبَقَ لَهُ أَنْ تَبَلَّغَ آيَاتِ رَبِّهِ، وَذُكِّرَ بِهَا آناً فَآناً، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا اتّباعاً لِأَهْوَاءِ نَفْسِهِ وشَهَوَاتِهَا وَمَتَاعَاتِهَا مِنَ الْحَيَاةِ

الدُّنيا، فَصَارَ بِإِعْرَاضِهِ مُجْرِماً يَسْتَحِقُّ أَنْ يَنْتَقِمَ اللهُ مِنْهُ، وَإِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ سَوْفَ يَنْتَقِمُ مِنْهُ يَوْمَ الدِّينَ.

وبهٰذَا انتهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (السَّجدة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس من دُرُوس سورة (السَّجدة)

الآيتان (٢٣ و٢٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

القراءات:

(٢٤) • قرأ حمزة، والكِسَائي، ورُوَيس: [**لِمَا صَبَرُوا**].

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَمَّا صَبَرُوا**].

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاءِ المعْنَىٰ المراد. أي: جَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً حِينَمَا صَبَرُوا، ولأَجْلِ أَنَّهُمْ صَبَرُوا.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ ضَرْبُ مَثَلٍ لِلْمَكَذِّبِينَ بالرسُول ﷺ، وبالْقُرْآنِ؛ بأَنَّ اللهَ أَرْسَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وآتَاهُ كِتَابَ التوراة، وَجَعَلَهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيل، فإِرْسَالُ الرُّسُلِ وإِنْزَالُ الكُتُبِ مِنْ سُنَنِ اللهِ في عِبَادِهِ الّذِينَ وَضَعَهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

وفيهما إطْمَاعٌ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالرَّسُولِ محمّد ﷺ وبالْقُرْآنِ بِأَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِ اللهِ، إِذَا صَبَرُوا وَكَانُوا بآيَاتِ اللهِ يُوقِنُونَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً لمكَذِّب الرَّسُولُ محَمَّدٍ ﷺ، ولِلْمُكَذِّب بالقرآنِ في خِطَابِ مُوَجَّهٍ لَهُ:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾:

وضَحَ لي بَجَلَاءٍ أَنَّ الخِطَابَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ مُوجَّهٌ لِمَنْ يُكَذِّبُ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ، ويُكَذِّبُ بِالقرآن، أو يُعْرِضُ عَنْ آياتِهِ نُفُوراً مِنَ الْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فيها، فَمَضْمُونُ هـٰذَا الْخِطَابِ مَعَ مُلَاحَظَةِ سَوَابِقِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ هـٰذَا الَّذِي وضَحَ لي.

• ﴿وَلَقَدْ﴾: اللَّام واقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَنْوِيّ، و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيقٍ وَتَوْكِيد، و«الواو» تَعْطِفُ مَوْضُوعاً عَلَىٰ مَوْضُوعٍ، وهـٰذَا التَّوْكِيدُ يُلائِمُ أَنْ يَكُونَ البيانُ المؤكَّدُ بِهِ مُوَجهاً لِلْمُكَذِّبِ أو الشَّاكّ.

• ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ أي: فِي شكٍّ، ومجادَلَةٍ.

المَعْنَىٰ: وَيَا أَيُّهَا الْمُنْكِرُ رِسَالَةَ مُحمّدٍ، والمكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ؛ لَقَدْ بَعَثْنَا مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ ومِنْ قَبْلِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ؛ رسُولاً عَظِيماً هُوَ مُوسَىٰ، وآتَيْناهُ كِتَابَ التَّوْرَاةِ، وَجَعَلْنَا هـٰذَا الكِتَابَ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيل، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِمُوسَىٰ والتَّوْرَاةِ فِي مُجْتَمَعِكَ الْعَرَبِي، وإِنْ كُنْتَ عَلَىٰ شَكٍّ فِي مُوسَىٰ والتَّوْرَاةِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّكَ سَوْفَ تَلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَعْلَمُ حِينَئِذٍ يَقِيناً أَنَّا أَرْسَلْنَاهُ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِ التَّوْرَاةَ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيل، وَلَا تَكُنْ في شَكٍّ مِنْ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةِ وَفِي مُجَادَلَةٍ حَوْلَهَا، فَهِيَ بَيَانٌ مِنْ رَبِّكَ عَمَّا سَوْفَ يَكُونُ حَتْماً.

فإنْ كَانَ عِنْدَكَ فِكْرٌ قِيَاسِيٌّ سَلِيمٌ فَقِسْ إرْسَالَنَا لِمُحَمَّدٍ، وإنْزَالَنَا الْقُرْآنَ عَلَيْهِ هُدىً لِلْعَالَمِينَ؛ عَلَىٰ مَا سَبَقَ مِنْ سُنَّتِنَا فِي عِبَادِنَا وَمِنْهَا إرْسَالُ مُوسَىٰ وَإنْزَالُ كِتَابِ التوراة عَلَيْهِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ مَا كَرَّمَ اللهُ بِهِ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ بمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام والتوراةِ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ، إطْمَاعاً لِمَنْ يُؤْمِنُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وبالْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ؛ بِأَنْ يُكَرِّمَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّكْرِيم، بأنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِه:

• ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾: وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[لِمَا صَبَرُوا]**: أي: لِأَجْلِ صَبْرِهِمْ.

أي: وَجَعَلْنَا مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ أئِمَّةً يُقْتَدَىٰ بهِمْ، ويَهْدُونَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ بالْبَيَانَاتِ الرَّبَّانِيَّة الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ بِالْفِعْلِ أَوْ بالتَّرْكِ، وَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً حِينَمَا صَبَرُوا ولِأَجْلِ أَنَّهُمْ صَبَرُوا عَلَىٰ فِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْ فِعْلِهِ، وَصَبَرُوا في مَجَالِ دَعْوَتِهِم إلَىٰ اللهِ، وأَمْرِهِمْ بالمعروفِ ونَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، ونُصْحِهِمْ وَإرْشَادِهِمْ، وَلِأَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا بآيَاتِنَا فِي كِتَابِ التوراةِ يُوقِنُون.

الْيَقِينُ: الْعِلْمُ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ وَلَا يُدَاخِلُهُ شَكٌّ.

وَفِي هٰذَا إطْمَاعٌ لِلّذِينَ يُؤْمِنُون بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُوقِنُونَ بآيَاتِ اللهِ فِي الْقُرْآنِ؛ أَنَّهُمْ إذَا بَلَغُوا مُسْتَوَىً يَسْتَحِقُّونَ بِهِ أَنْ يَكُونوا أئِمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ يَجْعَلُ مِنْهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ في الإسْلَامِ والْمُسْلِمِين.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الخامس من دُرُوس سورة (السجدة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبُّر التحليلي للدَّرس السَّادس من دُروسِ سورة (السَّجدة) الآيات من (٢٥ ـ ٣٠) آخر السورة

قال الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ معالجة للكافِرينَ بالإنْذارِ والترهيب، وبالإقناع، وفيها بَيَانُ سُؤَالِهِمْ عَنْ زَمَنِ نَصْرِ الرَّسُولِ ـ ﷺ ـ والمؤمِنِينَ عَلَيْهم، مَعَ مُعالَجتِهِمْ بالتَّرْهِيب.

وفِيهَا تَوصِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ بِأَنْ يُعْرِضَ عَنِ المكذِّبِينَ الْمُعانِدِينَ، وبِأَنْ يَنْتَظِرَ وَلَا يَسْتَعْجِلَ طَلَبَ الانْتِصَارِ عليهم.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُنْذِرُ الْكَافِرِينَ بِمَا سَيُلَاقونَهُ يَوْمَ القِيَامَة، ويُخَاطِبُ بِهِ كُلَّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ بِأَسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفرادي:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾:
- ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾: أَصْلُ «الْفَصْلِ»: الْفَرْقُ والتَّمْييزُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ أَوْ أَشْيَاءَ، ولمَّا كَانَ قَضَاءُ الْحَاكِمِ بَيْنَ خَصْمَيْنِ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ الْفَصْلِ بَيْنَهُما سُمِّيَ حُكْمُهُ وَقَضَاؤُهُ فَصْلاً.

فَمَعْنَىٰ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾: يَقْضِي بَيْنَهُمْ وَيُبْرِمُ قَضَاءَهُ وَيَبُتُّهُ، مُبَيِّناً حُكْمَهُ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿... فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: فيما كَانُوا في الحياة الدُّنْيَا حَيَاةِ الامْتِحَانِ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، مِنْ حَقٍّ وباطِلٍ، وخَيْرٍ وشَرٍّ، وَطَاعَةٍ للهِ ومَعْصِيَةٍ لَهُ، وأفْعَالٍ حَسَنَةٍ وأفْعَالٍ قَبيحَةٍ سَيِّئَةٍ.

ويَلْزَمُ مِنْ فَصْلِ اللهِ قَضَاءَهُ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ عَنِ المَطْلُوبِ الرَّبَّانِيِّ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ؛ أَنْ يُنَفِّذَ بِحِكْمَتِهِ جَزَاءَهُ، فَهُوَ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِهِ عَلَىٰ وَفْقِ دَرَكَاتِهِمُ الَّتِي كانوا عَلَيْهَا.

كما يَجْزِي كلَّ واحِدٍ مِنَ المؤمِنِينَ المتَّقِينَ بِحَسَبِهِ، عَلَىٰ وَفْقِ دَرَجَاتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا.

أي: إنَّ رَبَّكَ يا أَيُّهَا المتَلَقِّي الصَّالِحُ لِلْخِطَابِ؛ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَفْصِلُ قَضَاءَهُ بَيْنَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، وَكَذَّبُوا رَسُولِي، وَكَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ؛ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ الْبَعْثِ، فِي كُلِّ مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ عَنْ مَطْلُوبِي مِنْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا، وبَعْدَ فَصْلِ قَضَائِي فِيهِمْ، أَجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِهِ، عَلَىٰ وَفْقِ الدَّرَكَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا وَمَاتَ عَلَيْهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً عِلَاجَ الكَفَرَةِ المكَذِّبين:

• ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

• ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: أيْ: أَوَ لَمْ يُبَيِّنْ لهم، يُقَالُ لغة: **«هَدَيْتَ لَهُ»** أي: بَيَّنْتَ لَهُ.

«الواو» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ، أي: أَمَا زَالُوا جاهِلِينَ بِسُنَّةِ اللهِ فِي عِبادِهِ، وَلَمْ يُبَيِّنِ اللهُ لَهُمْ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْقُرُونِ الماضِيَةِ أَهْلَكَهُمْ رَبُّهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، فَهُمُ الآنَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ كَأَرْضِ ثَمُودَ، وأَرْضِ قوم لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، وأَرْضِ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلام، حِينَ يُسَافِرُونَ إِلَىٰ الشَّامِ أَو إِلَىٰ مصر.

إِنَّ في مَوَاطِنِ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ وَبَقَاءِ بَعْضِ آثارِهِمْ فِيهَا لَآيَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ سُنَّةِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ فِي إِهْلَاكِ الكافِرِينَ المكَذِّبِينَ، الَّذِينَ أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ عِناداً واتِّباعاً لِأَهْوَاءِ نُفُوسِهِمْ وشَهَوَاتِها.

الْقَرْنُ مِنَ الناس: أَهْلُ زَمَانٍ واحِدٍ، وسُمُّوا في اللُّغَةِ قَرْناً لِأَنَّهُمُ اقْتَرَنُوا مَعاً فِي ذَٰلِكَ الزَّمَانِ.

- ﴿... أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾: «الفاء» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ مَطْوِي، أي: أَهُمْ صُمٌّ فَلَا يَسْمَعُونَ أَخْبَارَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، وأَنَّ اللهَ أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ عِنادِهِم، وإِصْرَارِهم على الكُفْرِ بِوحْدَانِيَّةِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ، وتَكذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً عِلَاجَ الْكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ مُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكَلِّمِ الْعَظِيم:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

- ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: أي: إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي اسْتُؤْصِلَ ما عَلَيْهَا مِنْ نَبَاتٍ وشَجَرٍ فَصَارَتْ جَرْدَاءَ.

الْمَعْنَىٰ: أعَمُوا أَوْ هُمْ غَافِلُونَ، وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ بِسَوْقِ السُّحُبِ وإِنْزَالِ الْأَمْطَارِ مِنْها، أَوْ بِسَوْقِ مِيَاهِ الْأَنْهَارِ والجَداوِلِ والْعُيُونِ، إِلَىٰ الْأَرْضِ الجرْداءِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا نَبَاتٌ وَلَا أَشْجَارٌ، فَنُخْرِجُ بالْمَاءِ الَّذِي

جَعَلْنَاهُ سَبَباً لِنَباتِ الزَّرْعِ زَرعاً مُخْتَلِفَ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ، وهٰذَا الزَّرْعُ الَّذِي نُنْبِتُهُ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَسَائِرُ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَأْكُلُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، ويَأْكُلُونُ مِنْهُ هُمْ أَنْفُسُهُمْ وَسَائِرُ النَّاسِ.

- ﴿... أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾؟؟!: أي: أَنْطَمَسَتْ أَبْصَارُهُمْ، فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ هٰـذِهِ الظَّوَاهِرَ مِنْ آيَاتِنَا الْعَظِيْمَةِ فِي كَوْنِنَا الَّذِي هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِنَا، وَكُلُّ حَدَثٍ فِيهِ هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِنَا، وَلَوْ أَنَّهُمْ تَفَكَّرُوا فيما تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا فِي كَوْنِنَا، وَأَرَادُوا الإيمَانَ بالْحَقِّ وَنَجَاةَ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِنَا، لَآمَنُوا بِرُبُوبِيَّتِنَا الَّتِي لَا شَرِيكَ لَنَا فيها، وبإلٰهِيَّتِنَا الَّتِي لَا شَرِيكَ لَنَا فِيها، وَلَآمَنُوا بِرَسُولِنَا، وبالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِ، ولاجْتَهَدُوا في طاعَتِنَا بِفِعْلِ مَا أَمَرْنَاهُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَيْنَاهُمْ عَنْهُ، على مِقْدَارِ مَا يَسْتَطِيعُونَ، أَوْ يتَيَسَّرُ لَهُمْ مِمَّا يُعَبِّرُونَ بِهِ عَنْ صِدْقِ إيمانهم.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً عِلَاجَ الكَفَرَةِ المكَذِّبين:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

- ﴿ٱلْفَتْحُ﴾: يُرَادُ بِهِ هُنَا نَصْرُ الرَّسُولِ ﷺ والمؤمِنِينَ على الكَفَرَةِ الْمُكَذِّبِين.

لَقَدْ فَهِمَ الكَفَرَةُ المكَذِّبُونَ، مِنْ طَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ؛ أَنَّ اللهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِم، وهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ المشْرِكِينَ هُمُ الْجَمَاعَةُ الْأَقْوَىٰ عُدَّةً وَعَدَداً، فَصَارُوا يُكَرِّرُونَ عَلَىٰ جَمَاعَاتِ الْمُؤْمِنِينَ سَاخِرِينَ ومُسْتَهْزِئين قولَهُمْ: متَىٰ يَكُونُ هٰـذَا النَّصْرُ لَكُمْ عَلَيْنَا، وَأَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ مِنْ وَسَائِلِهِ عُدَّةً وَلَا عَدَداً، بَلْ نَحْنُ مَالِكُو هٰـذِهِ الوسَائِلِ، وَلَوْ نَهَضْنَا لِحَرْبِكُمْ فإنَّنا نَسْتَأْصِلُكُمْ.

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ الإشارَةُ إلى تَحْدِيدِ زَمنٍ يَتَحَقَّقُ فِيهِ نَصْرُ

الرَّسُولِ ﷺ والمؤمنِينَ عَلَيْهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ يَوْمُ النَّصْرِ مُفَاجَأَةً غَيْرَ مُنْتَظَرَةٍ.

فَعلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ مُؤْمِنٍ بأسْلُوب الْخِطَاب الإفرادِيِّ أَنْ يَقُولَ لَهم:

- ﴿... يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: إِنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ الَّذِي قَضَىٰ اللهُ أَنْ يَنْصُرَنَا فِيهِ عَليكُمْ؛ سَتَجِدُونَ فِيهِ أَنْفُسَكُمْ تَحتَ سُلْطَانِ عِقَابِ اللهِ، وَمَنْ يَخْطُرُ لَهُ أَنْ يُنْقِذَ نَفْسَهُ يَوْمَئِذٍ بالإيمان فإنَّ الإيمَانَ يَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَلَا يَرْفَعُ عَنْهُ عُقُوبَةَ اللهِ، وَمَنْ يَدْعُو مِنْكُمْ رَبَّهُ أَنْ يُمْهِلَهُ لِيُؤْمِنَ ويُسْلِمَ ويَعْمَلَ صَالِحاً؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ، إذ انْتَهَتْ مُدَّةُ الامْتِحَانِ وَجَاءَتْ مُدَّةُ الْجَزَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ مُؤْمِنٍ مِنْ أَصْحَابِهِ بِأُسْلُوبِ الْخِطَابِ الْإِفْرَادِي؛ التَّصَرُّفَ الْحَكِيمَ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا الكَفَرَةُ الْمُكَذِّبُونَ، وعِنْدَ هـٰذَا الموقِفِ الَّذِي صَارُوا يُكَرِّرُونَ فِيهِ سُؤَالَهُمْ عَنْ زَمَنِ نَصْرِ الرَّسُولِ ﷺ والمؤمِنِينَ الْمُسْلِمينَ عَلَيْهِم:

- ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

- ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: **الإعْرَاضُ**: وسَطٌ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبار، أي: أَشْعِرْهُمْ بِأَنَّكَ غَيْرُ مُهْتَمٍّ لَهُمْ، وَغَيْرُ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِمْ، وَلَا تُجادِلْهُمْ، حَتَّىٰ لَا تَسْتَثِيرَهُمْ فَيُعِدُّوا الْعُدَّة لِمُحَارَبَتِكَ ومُحَارَبَةِ أصْحَابِك.

- ﴿وَٱنتَظِرْ﴾: أي: وانْتَظِرِ الْيَوْمَ الَّذِي نُحَقِّقُ فِيهِ نَصْرَكَ وَنَصْرَ أَصْحَابِكَ عَلَيْهِمْ، مُوقِناً بِأَنَّ يَوْمَ نَصْرِكُمْ قَادِمٌ لَا مَحَالَة.

- ﴿... إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وَسَنُثَبِّطُهُم عَنْ أَنْ يَتَحَرَّكُوا لِقِتَالِكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ قُوَّةً تُقَاوِمُونَهُمْ بِها، ونَجْعَلُهُمْ يَنْتَظِرُونَ الْفُرَصَ الْمُلَائِمَة للتَّخَلُّصِ مِنْكُمْ، فِي حِينِ أَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ فِي الْوَاقِعِ عِقَابَنَا لَهُمْ بِنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَتْلِ صَنَادِيدِهِمْ وَجَبَابِرَتِهِمْ.

وقد حَصَلَ هٰذَا في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ بتَأْييدِ اللهِ وَنَصْرِهِ الْمُبين.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السّادِس وهو الدرس الأخير مِنْ سورة (السَّجدَة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

ملحق: مستخرجات بلاغيّة مِن سورة (السجدة)

مِنَ الاختيارات البلاغيَّة في هَـٰذِهِ السورة ما يلي:

أولاً: من التوكيدِ لِوُجُودِ دَاعٍ بَلَاغِيّ له، قول الله تعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾:

«مِنْ» في: ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٍ جِيءَ بِهِ لتَوْكِيدِ اسْتِغْرَاقِ النَّفْي في: ﴿مَّا لَكُم﴾ والتّنصيصِ عَلَيْهِ.

والدَّاعِي البلاغيّ أَنَّ المعْنِيِّينَ بالْخِطَابِ مُشْرِكُون.

ثانياً: من خروج الاستِفْهَام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ في الوضْعِ اللُّغَوِيّ:

مَا جاء في قول اللهِ تَعَالَىٰ حكايَة لِقَوْلِ مُنْكِري الْبَعْث:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾:

الاسْتِفْهَام في: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ تَعَجُّبِيٌّ اسْتِغْرَابِيٌّ يراد بِهِ النَّفْيُ والإنْكار.

أي: لا يُمْكِنُ أنْ نُخْلَقَ خَلْقاً جَدِيداً بَعْدَ فَنَاءِ أَجْسَادِنا، وهم في هٰذَا مُكَابرونَ لا يحتَجُّونَ إِلَّا بالاستغراب.

ثالثاً: من الإيجاز بالحذف عِدَّةُ أَمْثِلَةٍ في السورة:

المثال الأول:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾:

في عبارة: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ إيجازٌ بالحذف، فالْفَاء فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف، أي: أَحُرِمْتُمْ مِنَ الإِدْرَاكِ السَّوِيّ، والْفَهْمِ الصَّحِيحِ النَّافِعِ المؤثِّرِ في الاعْتِقَادِ وَتَوْجِيهِ السُّلُوك الإرَادِي، فَلَا تَضَعُونَ هَـٰذِهِ الحقائِقَ فِي ذَاكِرَاتِكُمْ، ثُمَّ تَتَذَكَّرُونَهَا عِنْدَ المناسَبَاتِ الداعِيَاتِ، وَتَعْمَلُونَ بِمَا تَدْعُوكُم إِلَيْه.

المثال الثاني:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾:

«بل» من عبارة: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ محذوفٍ مَطْوِيّ، أي: لَيْسُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْبَعْثَ مُسْتَحِيلٌ عَقْلاً، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أقْنَعْنَاهُمْ بالْحَقِّ، بَلْ هُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَلْقَوْا رَبَّهُمْ لِيُحَاسِبَهُمْ وَيُجَازِيَهُمْ، فَهُمْ يَسْتُرُونَ بَرَاهِينَ الجزاء، وَيَكْفُرُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ.

المثال الثالث:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ... ﴿١١﴾﴾:

أي: يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الموت الذي وُكِّل بِفَصْلِ أَرْواحِكُمْ عَنْ نُفُوسِكُمْ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ في الحياة الدُّنْيا.

المثال الرابع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ... ﴿١٢﴾﴾:

جواب «لَو» محذوف، من السَّهْل عَلَىٰ المتدبّر تقديره: أي: لَتَرَيَنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي حَالَةِ مَهَانَةٍ وَذِلَّةٍ وَذُعْرٍ شَدِيدٍ يُثِيرُ مَشَاعِرَ الْحَسْرَةِ عَلَيْهِم.

المثال الخامس:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: وَلَوْ شِئْنَا لَسَلَبْنَا كُلَّ نَفْسٍ ذَاتِ إِرَادَةٍ حُرَّةٍ إِرَادَتَها الْحُرَّة، فَجَعَلْنَاهَا مَخْلُوقاً مَجْبُوراً، وحِينَئِذٍ نَخْتَارُ أَنْ نُؤْتِي كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا بالجبر، كَمَا خَلَقْنَا الْمَلَائِكَة مَجْبُورِينَ عَلَىٰ أنْ يَكُونُوا مَهْدِيّينَ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون.

المثال السادس:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾﴾:

أي: إنَّمَا يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا إيماناً مُتفَوِّقاً مِنْ مُسْتَوَىٰ الْأَبْرَارِ أو الْمُحْسِنِينَ الّذينَ. . . .

المثال السابع:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر.

المثال الثامن:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ سَبَقَ أَنْ تَبلَّغَ آياتِ رَبِّهِ، وَتَفَهَّمَها وآمَنَ بِهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ ضَعُفَ ارْتِبَاطُهُ بها، وذُكِّرَ بها آناً فآناً مِنْ قِبَلِ المذَكِّرين، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ، فَصَارَ بإعراضِهِ مُجْرِماً.

المثال التاسع:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الكَفَرَةِ المعانِدِين:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

«الفاء» في عبارة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ تَعْطِفُ عَلى مَحْذُوف مَطْوِيّ، تقديره: أَهُمْ صُمٌّ فَلَا يَسْمَعُونَ أَخْبَارَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِين.

المثال العاشر:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشَأْنِ الكَفَرَةِ المعانِدِينَ أَيْضاً:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

«الواو» في عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف، تقديره: أَعَمُوا أَوْ هُمْ غَافِلُونَ وَلَمْ يَرَوا.

و«الفاء» في عبارة: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ تَعْطِفُ على محذوفٍ أيضاً، تقديره: أَنْطَمَسَتْ أَبْصَارُهُمْ فَهُم لَا يُبْصِرُون.

وبِهـٰذَا أَكْتَفِي اسْتِخْرَاجاً لِلْبَلَاغِيَّاتِ المختارَاتِ في السُّورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

سُورَة الطور

٥٢ مصحف ٧٦ نزول

وهي كُلُّها سورة مكيَّةٌ بلا خلاف

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ
ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ
عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ
مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ
﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ
جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾
أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا
تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ
ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ
وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ

---

١٨ ـ ● قرأ أبو جعفر: [فَكِهِينَ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاكِهِينَ].

الْفَكِهُ، والفاكِهُ: يَدُلَّانِ على معنى واحد. وهو الناعم الْفَرِحُ الْمَسْرُور.

عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ
ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ
رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ
فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ
لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ
﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ

---

٢١ ـ • قرأ أَبُو عَمْرو: [**وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ**].
وقَرَأَهَا ابْنُ عَامر، ويعقوب: [**واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ**].
وفي هذه القراءات تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

٢١ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ**] بالجمع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**] بالإفراد.
ومؤدَّى القراءتَيْنِ واحد.

٢١ ـ • قرأ ابْنُ كثير ـ بِخُلْف عن قنبل ـ: [**أَلِتْنَاهُمْ**] بكَسْر اللام. وقرأها قنبل بوجهه الثاني: [**وَمَالِتْنَاهُمْ**]..
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَلَتْنَاهُمْ**] بفَتْح اللام.
ويظهر أَنَّ فتح اللام وكَسْرَها لغتان.
والمعنى: نَقَصْنَاهُمْ.

٢٣ ـ • قرأ ابْنُ كَثِير، وأبو عمْرو، ويَعْقوب: [**لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ**].

٢٨ ـ • قرأ نَافع، والكِسَائِي، وأبو جعفر: [**نَدْعُوهُ أَنَّه**] بفَتْحِ همزة «أنّ»، أي: لأَنَّهُ.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**نَدْعُوهُ إِنَّهُ**] بِكَسْرِ همزة «إنَّ»، على الاستئناف.
وبين القراءتين تكَامُلٌ في أداء المعنى المراد.

بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ
﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ
أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا
يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ
خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ
ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم
بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ
أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ
﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ
إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يَلۡقَوۡاْ يَوۡمَهُمُ

---

٣٢ ـ • قرأ أبو عَمرو: **[أَمْ تَأْمُرْهُمْ]**. بخُلْفٍ عن الدُّورِي، والوجْهُ الثاني للدُّوريّ اخْتِلَاسُ ضَمَّةِ الراء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ العَشَرَةِ: **[أَمْ تَأْمُرُهُمْ]**.

وكلُّ قارئ على أَصْلِهِ مِن الإبْدَالِ وعَدَمِهِ.

٣٧ ـ • قرأ هِشَام: **[المسَيْطِرُونَ]**. ولخلَف عن حمزة بإشْمَام الصَّادِ صوت الزاي. ولقنبل، وابن ذكوان، وحفص: بالسين والصاد. ولخَلّاد: بالإشمام والصّاد.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ العَشَرَةِ: **[المصَيْطِرُونَ]** بالصاد الخالصة.

٤٥ ـ • قرأ أبو جَعْفَر: **[يَلْقَوا]**. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ العَشَرَةِ: **[يُلَاقُوا]**.

ومؤدّى القراءتَيْنِ واحد.

ٱلَّذِى فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

---

٤٥ ـ • قرأ ابْنُ عَامِرٍ، وَعَاصِم: [يُصْعَقُونَ] بالمبني لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَصْعَقُونَ].
أي: يُصْعَقُونَ، فَهُمْ يَصْعَقُونَ.

(٢)

ممّا وَرَد في السُّنَّةِ بِشَأنِ سورة (الطور)

(١) رَوَىٰ البخاري ومُسْلِمٌ وغَيْرُهُمَا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ الله عَنْه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرأ في المغْرِب بالطُّور.

(٢) وروى البخاريُّ وغَيْرُهُ عَنْ أمّ سَلَمَة رَضِيَ الله عَنْهَا: «أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَىٰ جَنْبِ الْبَيْتِ بالطُّورِ وكِتَابٍ مَسْطُورٍ».

أي: يَقْرَأ بِسورَة «الطُّورِ وكِتَابٍ مَسْطُور».

(٣)

موضوع سورة (الطُّور)

يَدُور موضوع سورة (الطور) حَوْلَ مُعَالَجَةِ المكذِّبينَ بِيَوْم الدِّين، والمكذِّبين بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ وبِالْقُرآن، ومُعَالَجَةِ جَاحِدِي الرَّبّ جَلَّ جَلَالُه، ومُدَّعِي أَكَاذِيبَ اعتقادِيَّة تُنَاقِضُ مَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنُوا به، وَمُعَالَجَةِ مُرِيدِي تَدْبير الكَيْدِ للتَّخَلُّصِ من الرَّسُولِ ﷺ ومن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، ومُعَالَجَةِ المشْرِكِينَ بالإنْذَارِ بالإِهْلَاك.

وفي خِتام السُّورَةِ تَوْصِيَةٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ بالتَّصَرُّفِ الحكيم الّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتصَرَّفَهُ مع الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ المعانِدِين، فِي مُوَاجَهَةِ المواقِفِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ وقَبْلَهَا، وَهُو تَرْكُهُم يُمْعِنُونَ فِي كُفْرِيّاتِهِمْ، والاشْتَغَالُ بِغَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ لم يَبْلُغُوا دَرَكَةَ الميْؤُوسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّة.

(٤)

دروس سورة (الطّور)

ظهر لي أَنَّ هَـٰذِهِ السورة يمكن تقسيمُهَا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ دُروس:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٢٨).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْكِيدُ تَحْقِيقِ البعْثِ والقيامَةِ ويَوْم الدِّين، مَعَ تَقْدِيمِ بَعْضِ مَشَاهِدَ من يَوْمِ الدِّينِ للكافِرين، وبعْضِ مَشَاهِدَ لِلْمُتَّقِين.

الدرس الثاني: الآيات من (٢٩ ـ ٤٤).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْجيه الرَّسُول ﷺ لِأَنْ يُتَابعَ تَذْكِيرَهُ مَنْ لَمْ يَصِلُوا إلى دَرَكَةِ مَيْؤُوسٍ مَعَها مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عن طَرِيق إرَادَاتِهِمُ الحرّة، مَعَ معالَجَةِ الْكَافِرِينَ بِشَأْنِ عِدَّةِ قَضَايَا.

الدرس الثالث: الآيات من (٤٥ ـ ٤٩) آخر السورة.

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بما يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَرَّفَهُ؛ تُجاهَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنِ اسْتِجابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة، مَع بَيَانِ الدَّواء الديني الَّذِي عَلَيْهِ ﷺ أَنْ يُدَاوِيَ نَفْسَهُ بِهِ.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (الطور)

الآيات من (١ ـ ٢٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ
﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ
مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا
﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ
﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ
وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ
أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ
مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا
كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾:

القراءات:

(١٨) • قرأ أبو جَعْفَر: **[فَكِهِينَ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاكِهِين]**.

الْفَكِهُ، والفَاكِهُ: يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنىً واحِدٍ، وهو الناعم الْفَرِحُ المسْرُور.

(٢١) • قرأ أبو عمْرو: [**وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ**].

وقرأها ابْن عامر، ويعقوب: [**وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ**] بالإفراد.

(٢١) • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وابْنُ عَامِر، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [**أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ**] بالْجَمع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**] بالإفراد.

ومؤدَّى القراءتَيْنِ واحد.

(٢١) • قرأ ابْنُ كَثِير ـ بخُلْف عن قنبل ـ: [**أَلِتْنَاهُمْ**] بِكَسْرِ اللَّام.
وقرأها قنبل بوجْههِ الثّاني: [**وَمَالِتْنَاهُمْ**].

وقرأَها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَلَتْنَاهُم**] بفتح اللام.

ويظهر أَنَّ كَسْرَ اللَّام لغة، ومعناهُما واحد.

(٢٣) • قرأ ابْن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [**لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا لَغْوٌ فيها وَلَا تَأْثِيمٌ**].

وهما وَجْهَانِ عَربيانِ جائِزَانِ عند النحاة.

(٢٨) • قرأ نافع، والكِسَائي، وأَبُو جَعْفر: [**نَدْعُوهُ أَنَّهُ**] بفتح همزة «أنَّ»، أي: لأَنَّهُ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**نَدْعُوهُ إِنَّهُ**] بِكَسْرِ همزة «إنَّ»، على الاسْتِئْنَاف.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاءِ المعْنَىٰ المراد.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْكِيدُ تَحْقِيق الْبَعْثِ والقيامَةِ ويَوْم الدين، مع تقديم بَعْضِ مَشَاهِدَ مِنْ يَوْمِ الدّينِ للكافِرين، وبعضِ مَشاهِدَ للمتّقِين.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾:

(١) أقْسَمَ رَبُّنا ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ بالطُّورِ الّذي كَلَّمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِجانِبِهِ، تَعْظِيماً لِشَأْنِهِ، إذِ اخْتارَ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ أَحَدَ الْأَمْكِنَةِ الْعُظْمَىٰ لِوَحْيِهِ لِرَسُولِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وسَبَقَ أَنْ أَقْسَمَ بِهِ فِي سُورَةِ (التّين/ ٢٨ نزول) مع ثَلاثَةٍ مِنْ مَهابِطِ الْوَحْي، هي: بِلَادُ التِّينِ، وبِلَادُ الزَّيتونِ، والبلَدُ الأمِينُ (مَكَّةُ المكرَّمة).

وجبل الطور يُسَمَّىٰ عند الإسْرائيليِّين جبل «سِيناء»، ويُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْم «جَبَلِ حُوريب»، ويرَىٰ بَعْض الباحثين أَنَّهُ المعروف الآن بجبلِ مُوسَىٰ. وهـٰذَا الجبل يُوصَفُ بِأَنَّهُ عظيم الارتفاع، ومن غَيْرِ المُمْكِنِ تَسَلُّقُهُ، لأَنَّهُ حَادُّ الصخور، وشَدِيد الانْحِدَارِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُ أَنْ يُطِيلَ النَّظَرَ إِلَيْهِ دُونَ أَنْ تُؤْلِمَهُ عَيْنَاهُ لِأَنَّهُ شَدِيد التوهُّجِ الضَّوئي⁽¹⁾.

(٢) وأَقْسَمَ رَبُّنَا ـ فيما أَرَىٰ ـ بالتوراة، تَحْتَ عُنْوان: ﴿وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾ أي: في كِتَابٍ مَكْتُوبٍ أَسْطُراً، **فالسَّطْرُ**: الصَّفّ مِنْ كُلِّ شيءٍ.

---

(١) انظر: «قاموس الكتاب المقدس»، عند مادّةِ «سيناء».

- ﴿فِي رَقٍّ﴾: **الرَّقُّ**: جِلْدٌ رَقيق يُكْتَبُ عَلَيْهِ، وكان يُخْتَار غالِباً مِنَ الْجُلُودِ لِلْكِتابَةِ عَلَيْهَا، وخَاصَّةً جُلُودُ الْغِزْلَان، لِرِقَّتِهَا وَبَيَاضِهَا.

- ﴿مَنْشُورٍ﴾: أَيْ: مَبْسُوطٍ غَيْرِ مَطْوِيٍّ بِلَفِّ بَعْضِهِ عَلَىٰ بَعْضٍ لفَّاً دائِرِيًّا، أَوْ غَيْرَ ذَٰلِكَ.

وذِكْرُ عِبارَةِ: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ بَعْدَ الْقَسَمِ بالطُّورِ يُرَشِّحُ أَنْ يَكُونَ كِتَابَ التَّوْرَاةِ الَّذِي آتَاهُ اللهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام. وَوَصْفَهُ بأَنَّهُ مَسْطُورٌ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ غَيْرِ مَطْوِيٍّ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ الكِتَابُ الأَصْلِيُّ الَّذِي كَانَ قَبْلَ التَّحْرِيفاتِ الَّتِي أَدْخَلَهَا الْيَهُودُ، وأَنَّهُ كانَ مَسْطُوراً فِي رَقٍّ، وَكَانَ مَنْشُوراً باسْتِطَاعَةِ كُلِّ قَارِئٍ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ وَيقْرأه، أَمَّا بَعْدَ أَنْ أَدْخَلَ الْيَهُودُ فِيهِ تَحْرِيفاتِهِمْ، فَصَارُوا يكْتُبُونَ كِتَابَهُمْ في كُتُبٍ، وَكَانَ أَحْبَارُهُمْ هُمُ الْأَوْصِياءَ عَلَيْهَا، فَيُظْهِرُونَ مِنْهَا مَا يُرِيدُونَ إظْهَارَهُ، لموافَقَتِهِ لِأَهْوَائِهِمْ، ويُخْفُونَ مِنْهَا مَا يُرِيدُون إخْفاءَه، وَلَا يَجْعَلُونَهَا مَنْشُورَةً يَقْرأُهَا كُلُّ قَادِرٍ عَلَىٰ الْقِرَاءَة، لِئَلَّا تُكْتَشَفَ تَحْرِيفَاتُهُمْ.

أقسَمَ رَبُّنَا بالتوراة كما أقسم بالقرآن المجيد، وبالقرآن ذِي الذِّكْرِ.

(٣) وأَقْسَمَ رَبُّنَا بالْبَيْتِ الْمَعْمُور، وهو بَيْتٌ فِي السَّمَاءِ السابِعَةِ يَدْخُلُهُ فِي كلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَعْبُدُونَ اللهَ بِزِيَارَتِهِ، وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ، وقَدْ صَحَّ هٰذَا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، فَلَا مَجَالَ لِلْعُدُولِ عَنْهُ.

- رَوَىٰ ابْنُ جَرِير، وابْنُ المنْذِرِ، والحاكِمُ وصحَّحه، والْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الإيمان، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُول اللهِ ﷺ:

«الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَة».

- وَرَوَىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ وغَيْرُهُمَا أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قال في حَدِيث الإِسْرَاء، بَعْدَ مُجَاوَزَتِهِ إلى السَّمَاءِ السَّابِعة:

«... فَرُفِعَ لِي الْبَيْتَ الْمَعْمُور، فَسَأَلْتُ جِبريلَ فَقال: هٰذا البَيْت المَعْمور، يُصلّي فيه كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجوا لَمْ يَعُودوا إِلَيْهِ، آخَرَ مَا عَلَيْهِم...».

(٤) وأقْسَمَ رَبُّنَا بالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وهِيَ السَّمَاءُ، وقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاءَ بأَنَّهُ رَفَعَهَا، ومِنْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ فِي سورة (الغاشية/ ٦٨ نزول):

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾:

وقول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الرَّحْمن/ ٩٧ نزول):

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾.

وقول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الرعد/ ٩٦ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴿٢﴾﴾.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّمَاءَ بِمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِب، آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، تَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا، لِمَا فِيها مِن دَلَالَاتٍ عَلَىٰ كثيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْعُظْمَىٰ وأسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

(٥) وَأَقْسَمَ رَبُّنَا بالْبَحْرِ الْمَسْجُور، أي: الْمُمْتَلِئِ مَاءً وَعَجَائِبَ مِنْ عَجَائِبِ الْخَلْقِ، وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ تَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بها.

وَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُ فِي دَلَالَةِ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ: بَحْرُ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ آيَةٌ مَشْهُودَةٌ لِلنَّاسِ فيها، وَيَدْخُلُ فِي عُمُومِ دَلَالَةِ الْبَحْرِ الْمَسْجُور: مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ بَحْرٍ أَوْ بِحَارٍ مَمْلُوءَةٍ مَاءً وَعَجَائِبَ مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِ اللهِ فيها.

أَمَّا الْمُقْسَمُ عليه بالطُّورِ، وبالتَّوْرَاةِ، وبالبيْتِ الْمَعْمُور، وبالسَّماءِ، وبالْبَحْرِ الْمَسْجُور: فَهو قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾:

أي: إِنَّ جَزاءَ رَبِّكَ بالْعَذَابِ لِمُسْتَحِقِّي الْعَذَابِ لَأَمْرٌ سَيقَعُ لَا مَحالَةَ.

واقْتَصَرَ النَّصُّ عَلَىٰ ذِكْرِ الجزاءِ بِالْعَذَابِ لِأَنَّ المعْنِيِّينَ بالْخِطَابِ المؤكَّدِ بالأقْسَامِ العظْمَىٰ هُمُ الكَفَرَةُ المعانِدُونَ المكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين.

أَمَّا المؤمِنُونَ المصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ؛ فَهُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ بأنَّ جَزاءَهُمْ بالنَّعِيمِ المقيم لَوَاقِعٌ حَتْماً، فَهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ خبراً جَدِيداً، وَلَا تَوْكِيداً لِهَٰذَا الْخَبَرِ بالأَقْسَام.

- ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾: أي: لَا يُوجَدُ دَافِعٌ ما يَدْفَعُهُ، لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ يَوْمَئِذٍ للهِ، فَلا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ أَمْراً قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضاه، وَلَا أَحَدَ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بإذْنِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَقَطَتَيْنِ مِنْ أَحْدَاثِ مُقَدِّمَاتِ يَوْم الدِّينِ، الَّذِي يُجازَىٰ فِيهِ الكَفَرَةُ المُكَذِّبُونَ بِعَذَابِ رَبِّهِمْ، رَبِّ الْعَالَمِين، فَقالَ تَعالَىٰ:

- ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾:

الْمَوْر: التحرُّكُ والتدافُعُ والاضطرابُ كالأمْواجِ فِي الْبَحْرِ الثَّائِرِ، أو كالْغَلَيَانِ الشَّدِيدِ في الْقِدْرِ العظيمَةِ، الَّتِي يُطْبَخُ فِيهَا الطَّعَامُ المقطَّعُ قِطعاً.

أي: يَوْمَ يَكُونُ مِنْ أَحْدَاثِهِ فِي بِدَايَاتِهِ، لِتَبْدِيلِ صِفَاتِ السَّمَاءِ غَيْرَ السَّمَاءِ، وتَبْدِيلِ صِفَاتِ الْأَرْضِ غَيْرَ الْأَرْض؛ أَنْ تَتَحَرَّكَ أَجْرَامُ السَّمَاءِ وَتَتَدَافَعَ وَتَضْطَرِبَ وَتَجْرِي فِي غَيْرِ مَجَارِيها، وَتَسِيرَ فِي غَيْرِ مَسِيرَاتِها، وهَٰذَا الْمَوْرُ يَكُونُ فيها شَدِيداً، وَأَنْ تَسِيرَ الجبالُ بِتَسْيِيرِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَهَا، تَمْهِيداً لِبَثِّهَا وَتَفْتِيتِهَا، وَجَعْلِ الأرضِ مُسَطَّحاً مُسْتَوِياً مِنْ أَقْصَاهَا إلى أقْصَاهَا.

- قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُتَابِعاً:

• ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾:

أي: فَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الدِّينِ لِلْمُكَذِّبين بالبعْثِ، والْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنْ حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وَجزَاءٍ، فِي جَنَّةٍ عَظِيمَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ المتقينَ المصَدِّقينَ، وَفي نارٍ عظيمة لِلْكَافِرِينَ المجرمين المكَذِّبين، الَّذِينَ جَحَدُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلام وكَذَّبُوهُمْ فِيمَا بَلَّغُوا عَنْهُ، مع أَنَّهُمْ مُؤَيَّدُونَ مِنْ رَبِّهِم بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ والْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَات، ويَمْلِكُونَ بُرْهَانَ الْعَقْلِ وَشَوَاهِدَ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ العظيمِ لِتَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

«وَيْلٌ»: كَلِمَةُ عذاب، وفيها معْنَىٰ الوعِيدِ بحُلولِ عِقَابِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ. وَوَرَدَ أَنَّ كَلِمَةَ «وَيْل» اسْمٌ عَلَمٌ عَلَىٰ وادٍ في جَهنَّم. وهي هُنَا في الآيَةِ مبتدأ، وخَبَرُهُ: «لِلْمُكَذِّبين».

• ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢)﴾:

• ﴿فِي خَوْضٍ﴾: أَصْلُ «الْخَوْضِ» المشْيُ في الماء وتَحْرِيكُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي التَّلَبُّسِ في الْأَمْرِ والتَّصَرُّفِ فِيهِ.

والْخَوْضُ مِنَ الكَلامِ مَا فِيهِ الْكَذِبُ والبَاطِل. ويُقَال: «خاضَ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ» أي: خلَطَه.

أي: إِنَّ مِنْ صِفَاتِ الكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ؛ أَنَّهُمْ في تَصَرُّفَاتِهِمُ الحياتِيَّةِ يَخُوضُونَ عَلَىٰ غَيْرِ هُدَىٰ، كَمَنْ يَخُوضُ فِي الْمَاءِ فَيُعَكِّرُهُ بالطِّينِ الراسِبِ في القاعِ، وقد يكون طيناً أسودَ، فيُفْسِدُ صَفَاءَ الماء، والمرادُ خَوْضُهُمْ في ارْتِكَابِ المحَرَّمَاتِ والشُّرُور وأَنْوَاعِ الضُّرِّ والأَذَىٰ، وَهُمْ فِي خَوْضِهِم عَلَىٰ

غَيْرِ هُدىً يَلْعَبُونَ، فَلَا يَعْمَلُونَ أَعْمَالاً لَهَا نَتَائِجُ نَافِعَةٌ لَهُمْ، بَلْ نَتَائِجُهَا ضَارَّةٌ لَهُمْ فِي النَّظَرِ الْبَعِيدِ.

وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ⑬﴾:

الدَّعُّ: الدَّفْعُ الشَّدِيدُ العنيفُ بِجَفَاءٍ وَغِلْظَة.

أي: يَوْمَ يُدْفَعُونَ دَفْعاً عَنِيفاً بِجَفَاءٍ وَغِلْظَةٍ، إلى أبْوابِ نَارِ جَهَنَّمَ لِقَذْفِهِمْ فيها، وهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ شيْئاً.

وَحِينَ إِيصَالِهِمْ إِلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ السَّائِقُونَ لَهُمْ بأسْلُوبِ الدَّعِّ:

- ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑯﴾:

أي: هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تكذِّبُونَ الْأَخْبَارَ عَنْهَا، وَأَنَّهَا حَقٌّ لَا رَيبَ فِيهِ، وتَزْعُمُونَ لِجَمَاهِيرِكُمْ أَنَّ الرَّسُولَ يَسْحَرُ النَّاسَ بِأَقْوَالِهِ، لِيُقْنِعَهُمْ بِأَنَّ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ حقٌّ؛ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ الْيَوْمَ، أَمْ أَنْتُم عُمْيٌ لَا تُبْصِرُونَ.

- ﴿ٱصْلَوْهَا﴾: أي: لِتَمَسَّ نَارُهَا جُلُودَكُمْ وَتُحْرِقَهَا، وَكُلَّما نَضِجَتْ بَدَّلَكُمُ اللهُ جُلُوداً غَيْرَهَا، لِتَذُوقوا العذاب الّذِي تُحِسُّونَهُ في أَجْهِزَةِ الإحْسَاسِ الَّتِي جعَلَهَا اللهُ في جُلُودِكُمْ.

- ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾: أي: فَلَنْ يُخفَّف عَنْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْعَذَابِ إِذَا جزِعْتُمْ وَأَعْلَنْتُمْ ضَجَرَكُمْ، فاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمُ الصَّبْرَ أَوْ عَدَمَ الصَّبْرِ، فَالْأَمْرَانِ مُسْتَوِيَان بالنسبَةِ إلى العذاب.

• ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑯﴾: أي: مَا تُجْزَوْنَ إلَّا مُطابِقَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ سَيِّئَاتٍ وَقَبَائِحَ اعْتِقَادِيَّةٍ وسُلُوكِيَّةٍ نَفْسِيَّةٍ وظاهِرَةٍ جَسَدِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ لَقَطَاتٍ مِنْ ثَوَابِ المتّقِينَ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم:

• ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ⑰ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ⑱ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑲ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ⑳﴾:

• ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: وَهُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ عَلَىٰ دَرَجَاتِهِمُ المتَفَاضِلَةِ فِيهَا، وَكَمَالُ التَّقْوَىٰ يَكُونُ بِفِعْلِ كُلّ الواجِبَاتِ، وَتَرْكِ كُلِّ المُحَرَّمَاتِ، وَقَدْ يُوصِلُ إِلَىٰ كَمَالِ التَّقْوَىٰ التوبَةُ والاستغْفَارُ، ومَغْفِرَةُ اللهِ وَتَوْبَتُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ.

• ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾: أَيْ: يُقِيمُون دَوَاماً بِلَا نِهَايَةٍ فِي جَنَّاتٍ، هِي أَقْسَامٌ مِنْ عُمُومِ الْجَنَّةِ الْعُظْمَىٰ.

الجنة: مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أَشْجَارٍ وَثِمَارٍ وَزُرُوع وأَنْهَارٍ وَقُصُورٍ، وَكُلِّ مَا يُمْتِعُ الأَنْفُسَ والحواسَّ، وهِيَ يَوْمَ الدِّينِ مَا يُحَقِّقُ كُلَّ أَنْوَاعِ السَّعَادَاتِ بالنَّعِيمِ المقيم الْخَالِدِ الّذِي لَا يَنْقَطِعَ.

• ﴿وَنَعِيمٍ﴾: أي: وفي مُحِيطٍ بِهِمْ ممَّا يَجْعَلُهُمْ يَتَنَعَّمُونَ بِكُلِّ مَا يُحِبُّونَ وَيَشْتَهُونَ مِنْ لذَّاتٍ وَمسَرَّاتٍ وَأنواعِ سَعَادَاتٍ، وَقَدْ جَاءَ في القرآنِ تَخْصِيصُ لَذَّاتِ الآخِرَةِ باسْم «نعيم»، وتخصيص لَذَّاتِ الدّنيا باسم «متاع»؛ للفَرْقِ الكبيرِ بَيْنَهُما.

• ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾: أي: مُنَعَّمِين، فَرِحين، مَسْرُورِين، يَتَنَاوَلُونَ لَذَّاتِهِمْ طَيّبَةً بِهَا نُفُوسُهُمْ، مُعْجَبِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ طَيّبَاتٍ وَأَنواعِ سَعَادَات.

• ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾: هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ تُشْعِرُ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ خَطَايَا كَثِيرَةٍ، كَانَ قَدِ ارْتَكَبَهَا بَعْضُهُمْ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ يَسْتَحِقُّونَ بِخَطَايَاهُمْ عَذَاباً مَا فِي الجَحِيمِ، فَغَفَرَهَا اللهُ رَبُّهُمْ لَهُمْ، وَوَقَاهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ عَذَابٍ مَا فِي الْجَحِيمِ.

ويُقَالُ لَهُمْ تكْريماً:

• ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⁽١٩⁾﴾:

• ﴿هَنِيٓـًٔا﴾: أي: سَائِغاً لَذِيذاً، يُقَالُ لغة: «هَنِئَ الطَّعَامُ، أَوِ الشَّرابُ، يَهْنَأُ، هَنَأً، وَهَنَاءَةً» أي: سَاغَ، وَلَذَّ.

أي: كُلُوا أنْواع وأصْنَافَ مَأْكُولَاتٍ مُتَنَوِّعَاتٍ طَيِّبات، واشْرَبُوا أنواعَ وأصْنَافَ مَشْرُوبَاتٍ مُتَنَوِّعَاتٍ طَيِّبَاتٍ، أَكْلاً سَائِغاً لَذِيذاً طَيِّباً، بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أعْمَالٍ صَالِحَةٍ اعْتِقَادِيَّةٍ وَخُلُقِيَّة ونَفْسِيَّةٍ وسُلُوكِيَّةٍ، بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَة، ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّكُمْ، وَطَلَباً لِثَوابِهِ العظيم، إذْ كُنْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا.

• ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾:

• ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: **المتكِئُ**: هُوَ مَنْ يَسْتَوِي قَاعِداً عَلَىٰ وِطَاءٍ مُتَمَكِّناً. **الاتكاءُ**: هُوَ الْجُلُوسُ بِتَمكُّنٍ عَلَىٰ مَجْلِسٍ وَثِيرٍ، وَيُصَاحِبُهُ غالِباً وَضْعُ الْيَدِ أَوِ الْيَدَيْنِ عَلَىٰ مَا يَحْمِلُهُمَا لِلرَّاحَة.

• ﴿سُرُرٍ﴾: جَمْعُ «سَرِير»، وهُوَ الْمَضْجَعُ ذُو الْقَوَائِمِ الأَرْبَعَةِ، الَّتِي تَرْفَعُهُ عَنِ الأَرْض، ونَحْوُه، وَيُبْسَطُ عَلَيْهِ الفِرَاش اللَّيِّنِ على قَدْرِ الْمُسَطَّحِ مِنْهُ.

وهـٰذِهِ الْأَسِرَّةُ مَصْفُوفَةٌ بِهَدَفِ جَعْلِ المتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَتَحَادَثُونَ، وَيُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَهُمْ سُعَدَاءُ بِمَا يُنَعَّمُونَ بِهِ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ.

• ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وَزَوَّجْنَا المتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ بِزَوْجَاتٍ حُورٍ عينٍ.

الْحُور: جمع «الْحَوْرَاء»، وهي مِنَ النِّسَاءِ الْبَيْضاء.

الْعِين: جمع «الْعَيْنَاء»، وهي من النِّسَاءِ ذَاتُ العَيْنِ الْحَسَنَةِ الواسِعَة.

وقَدْ ظَهَرَ لي أَنَّ كُلَّ مَا يُذْكَرُ في القرآنِ مِنْ نَعِيمٍ للرِّجَالِ مِن أَهْلِ الجنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ؛ فَلِلنِّسَاءِ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ نَظِيرُهُ عَلَىٰ مَا يَشْتَهِينَ، وَذِكْرُ الرِّجَالِ لَا يُفِيدُ التَّخْصِيصَ، بَلْ تَطْوِي النُّصُوصُ كُلُّهَا معنَىٰ: ولِلنِّسَاءِ كَذَلِكَ عَلَىٰ مَا يَشْتَهِينَ مِمَّا يُلائِمُ أُنُوثَتَهُنَّ.

وَكَذَلِكَ مَا يُذْكَرُ في القرآنِ المجيدِ مِنْ عَذَابٍ للرِّجَالِ مِن أهْلِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين؛ فَلِلنِّسَاءِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ نَظِيرَهُ عَلَىٰ مَا يُلَائِمُ دَرَكَتَهُنَّ فيها.

وكُلُّ بَيَانٍ يَتَحَدَّثُ عَنِ الرِّجَالِ فالنِّسَاءُ مَشْمُولَاتٌ بِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ بِطَبِيعَتِهِ مِنْ خَصَائِصِ الرِّجَالِ لَا تُشَارِكُ فِيهِ النِّسَاءُ، وَلَا تُشَارِكُ بِمِثْلِهِ أو نَظِيرِه أو مُقَابِلِهِ، أو جَاءَ في النَّصِّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ التَّخصِيصِ صَرَاحَةً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ ذُرِّيَّاتِ الَّذِينَ آمَنُوا وإلْحَاقِ اللهِ لَهُمْ بأُصُولِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَنَعِيم:

• ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾:

وفي قراءة: [**ذُرِّيَّاتِهِمْ**] بالجمع، ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

وفي قراءة: [**وَأَتْبَعْنَاهُمْ**]: أي: فاتَّبَعَتْهُمْ وأتْبَعْنَاهُمْ مَعُونَةً وَتَوْفِيقاً وإلْهَاماً بتَزْيِينِ اتِّبَاعِهِمْ لهم، فَبَيْنَ القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

• ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ﴾: أي: وَمَا نَقَصْنَا الأُصُولَ الَّذِينَ

أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ إيناساً لَهُمْ وإكْراماً وإسْعَاداً؛ مِنْ ثَوَابِ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ بِهٰذَا الإلْحَاقِ، وليس المرادُ بِالْإلْحَاقِ إعْطَاءَهُمْ مَنَازِلَ تُسَاوِي مَنَازِلَ أُصولِهم، بل المرادُ مُشَارَكَتُهُمْ لهمْ في مَنَازِلِهِم الواسِعَة جدًّا.

يُقَالُ لُغَةً: «أَلَتَ الشَّيْءَ، يَأْلِتُهُ، أَلْتاً» أي: نَقَصَهُ.

ودَلَّتْ قِرَاءَة ابْنِ كَثِيرٍ عَلَىٰ أَنَّهُ يُوجَدُ أيضاً: «أَلِتَ الشَّيْءَ، يَأْلَتُهُ» مِنْ باب «عَلِمَ يَعْلَمُ» والمعنى واحد.

و«مِنْ» في «مِنْ شَيْءٍ» مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي والتنْصِيصِ عَلَيْهِ.

أي: والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا بإيمانِهِمْ صَالِحَاتٍ اسْتَحقُّوا بِهَا مَنَازِلَ ودَرَجَاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ في الجنَّةِ، واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ بإيمَانٍ صَحِيحٍ مَقْبُولٍ اسْتَحَقُّوا بِهِ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ مُجَازَاتِهِمْ بِبَعْضِ العقوباتِ؛ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ، إينَاساً وإِكْراماً وإسْعَاداً لهم، وَجَعَلْنَاهُمْ مَعَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمُ الْمُرْتَفِعَاتِ، دُونَ أَنْ نَنْقُصَ هَـٰؤُلَاءِ الْأُصُولَ مِنْ ثَوابِ أَعْمَالِهِمْ شَيْئاً، فَمَنَازِلُهُمْ واسِعَةٌ جِدًّا، والنَّعِيمُ فِيهَا يَكْفِي أصْحَابَ الْمَنَازِلِ مَعَ الْمَلَايِينِ مِنْ أَمْثَالِهِمْ وأَمْثَالِ ذُرِّيَّاتِهِمْ، فأدْنَىٰ أَهْلِ الجنَّةِ نَصيباً مِنْهَا يَتَّسِعُ لِضُيوفٍ كَثِيرينَ يُعَدُّونَ بِمِئَاتِ الملايين.

- ﴿... كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾:
- ﴿بِمَا كَسَبَ﴾: أي: بِمَا فَعَلَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا.
- ﴿رَهِينٌ﴾: أي: مَحْبُوسٌ، وهُوَ مِنَ الشُّيُوعِ في الاسْتِعْمَال.

المعنى: كُلُّ امْرِئٍ اجْتَازَ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنْيا، وَكَانَ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ فِيهَا أعْمالاً يُجَازَىٰ عَلَيْهَا بالْعِقَاب، فإنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحْبَسُ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ، عِقَاباً أَوْ غُفْرَاناً، فَإِذَا عُوقِبَ أَوْ غَفَرَ اللهُ لَهُ بِحِكْمَتِهِ، أُفْرِجَ عَنْهُ وَأُدْخِلَ الجنَّةَ بِفَضْلِ اللهِ.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الجمْلَةُ بِطَرِيقٍ إيمَائِيّ؛ عَلَىٰ أَنَّ المُلْحَقِينَ مِن الذُّرِّيَّاتِ بأصُولِهِمْ ذَوِي الدَّرَجَاتِ الْمُرْتَفِعَاتِ في جَنَّاتِ النَّعِيم؛ كانُوا مَحْبُوسِينَ بِمَا كَسَبُوا مِنْ خَطَايا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، حَتَّىٰ قَضَىٰ اللهُ بِشَأْنِ كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ بالْعِقَابِ أَوْ بالْغُفْرَان، وَحَتَّىٰ نُفِّذَ فِيهِ قَضَاءُ اللهِ.

هَـٰذِهِ الآية (٢١) جاءَتْ مُعْتَرِضَةً ضِمْنَ بَيانِ اللَّقَطاتِ الْمُخْتَارَاتِ مِنْ ثَوَاب المتَّقِينِ الَّذِينَ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ فِي جَنَّاتٍ ونَعِيمٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ اللَّقَطاتِ المختارات مِنْ ثواب المتقين:

- ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾:

- ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾: أي: وَتَابَعْنَا إِيتَاءَهُمْ زِيادَاتٍ، إِمْدَاداً لَهُمْ بِفَاكِهَةٍ عَلَىٰ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، وَلَحْم عَلَىٰ أَنْوَاعِهِ وأَصْنَافِهِ، مِمَّا، يَشْتَهُونَ أَكْلَهُ مِنْهُمَا، وأشْهَىٰ اللُّحُوم لحمُ الطَّيْرِ.

- ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

- ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ أي: يتجَاذَبُونَ في الجنَّةِ مِنْ إيناسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ.

- ﴿كَأْسًا﴾: **الكَأْسُ**: الْقَدَحُ مَا دَامَ فِيهِ الخَمْرُ، فإذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ خَمْرٌ فَهُو «كُوب».

- ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾: أي: لَا يُوجَدُ عِنْدَ شُرْبِهِمْ لَهَا كَلَامٌ لَا يُعْتَدُّ بِهِ، وَلَا دَلَالَةَ لَهُ وَلَا مَعْنًى يُقْصَدُ بِهِ، كَمَا يَكُونُ عِنْدَ شُرَّابِ خُمُورِ الدُّنْيا مِنْ لَغْوٍ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عُقُولَهُمُ الضَّابِطَةَ لِتَصَرُّفَاتِهِمْ مَسْلُوبَةٌ، بخلاف خَمْرِ الجنَّةِ فَفِيهَا لَذَّةُ الْخَمْرِ عَلَىٰ أَكْمَلِ صِفَاتِهَا، وَلَكِنْ لَيْسَ فِيها غَوْلٌ يَغْتَالُ الْعُقُولَ، كَخَمْرِ الدُّنيا، ويَجْعَلُ شَارِبِيها تَنْطَلِقُ مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ سَفاسِفُ أقوالٍ، ولَغْوٌ لَا نِظَامَ لَهُ، وبَاطِلٌ ومُنْكَر.

• ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾: أيْ: وَلَا يَتَّهِمُ شَارِبُوهَا بَعْضُهُمْ بَعْضاً بالْإِثْمِ، بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنيا، فإِنَّ شَارِبيها قَدْ يَصِلُونَ إِلَىٰ حَالَةٍ مِنْ فَقْدِ التوازُنِ الْعَقْلِي إِلَىٰ أَنْ يَشْتُمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً باتِّهَامِهِ بارْتِكَابِ الْإِثم.

• ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: ويَطُوفُ عَلَيْهِمْ لِخِدْمَتِهِمْ غِلْمَانٌ مَمْلُوكُونَ لَهُمْ، وَيُطِيعُونَهُمْ عَلَىٰ مَا يُرِيدُونَ، وَهُمْ مِنَ الْحُسْنِ فِي جَمَالِ جُلُودِ أجْسَادِهِم: كاللُّؤلُؤِ المكْنُونِ، على اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ الرائِعَةِ، صفاءً، وبَرِيقاً، ولَمَعَاناً، ونُعُومَة.

• ﴿غِلْمَانٌ﴾: أي: خَدَمٌ، جمع «غُلَام»، ويَكُونُ غَالِباً دُونَ سِنِّ الْبُلُوغ.

اللُّؤْلُؤُ: هوَ الحبُّ النَّفِيسُ الّذِي يَخْرُجُ مِنْ صِنْفٍ مِنَ الأصْدَافِ، وتُصْنَعُ مِنْهُ عُقُودٌ جميلَةٌ نَفِيسَةٌ غالِيَةُ الأَثْمانِ، ولَهُ أَلْوَانٌ بَيْضَاءُ غَالِباً، يُمازِجُهَا مَا يُشْبِهُ الْأَشِعَّةَ ذَاتَ الْأَلْوَانِ الْبَهِيَّة.

المكْنُون: أي: المحفُوظ المسْتُورُ الَّذِي لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أَيْدِي الْعَابِثِينَ، ولم يَتعرَّضْ لِمَا يُغَيِّرُ صَفَاءَهُ، وَنَقَاءَهُ، ودَرجَةَ جَمَالِهِ، مِنْ عَوَارِضَ مُخْتَلِفَةٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يَحْكِي مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ مُحَادَثَةِ بَعْضِ المتَّقِينَ لِبَعْضٍ وَهُمْ فِي جَنَّاتٍ ونَعِيمٍ:

• ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾:

• ﴿مُشْفِقِينَ﴾: أي: خَائِفِينَ حَذِرِينَ، يقالُ لغة: «أشْفَقَ فُلَانٌ مِنْ أَمْرٍ ما» أي: خَافَهُ وحَذِرَ مِنْهُ.

• ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾: **الْمَنُّ**: الإنْعَامُ، والإحْسَانُ، يُقَالُ لغة: «مَنَّ عَلَيْهِ» أي: أَنْعَمَ عَلَيْهِ نِعْمَةً طَيِّبَةً، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِعَطِيَّة.

- ﴿وَوَقَىٰنَا﴾: أي: وحَمَانَا، وَحَفِظَنَا، وَصَانَنَا، وصَرَفَ عَنَّا.

- ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾: أي: عَذَابَ الرِّيحِ الحارَّةِ الَّتِي تَنْفُذُ فِي مَسَامِّ الْجِسْمِ.

المعنى: وأقْبَلَ بَعْضُ المتّقِينَ، الَّذِينَ هُمْ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيم، يَطْرَحُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي مَجْلِسِ مُحَادَثَةٍ بَيْنَهُمْ؛ أَسْئِلَةً تَتَعَلَّقُ بأَحْوَالِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْهَا فِي الْحَيَاة الدُّنيا، وهَلْ كَانُوا يَشْعُرُونَ بأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ المنْزِلَةَ العظِيمَةَ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا بِفَضْلِهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وبما أَنَّهُمْ أَصْحَابُ مَنَازِلَ مُتَمَاثِلَةٍ، وَقَدِ اجْتَمَعُوا في زِيَارَةٍ لِأَحَدِهِم، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جَوَابُ سُؤَالِهِمْ واحِداً.

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: قَالُوا: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، إِذْ كُنَّا نُمَارِسُ حَيَوَاتِنَا فِي أَهْلِنَا؛ مُشْفِقِينَ خَائِفِينَ مِنْ أَنْ نُجازَىٰ عَلَىٰ الخَطَايَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا، وأَنْ لَا يَشْمَلَنَا غُفْرَانُ اللهِ لَها وَتَجاوُزُهُ عَنِ الْمُجَازَاةِ عَلَيْهَا لِكَثْرَتِهَا، وَلَكِنَّا مَا كُنَّا نَخَافُ أَنْ يُعَذِّبَنَا رَبُّنَا بالْحَرِيقِ بِلَهَبِ النَّارِ مُبَاشَرَةً لِأَنَّنَا مُؤْمِنُونَ، لَكِنْ قَدْ نُعَذَّبُ بالسَّمُوم في دَارِ العذَابِ وهو عَذَابُ الرِّيحِ الحارَّةِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي المَسَامِّ، لاستِحْقَاقِنَا هٰذَا بِحَسَبِ خَطَايَانَا.

- ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾: أَيْ: فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِأَنْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا بِأَنْ تَجَاوَزَ عَنْ مُجازَاتِنَا عَلَىٰ خَطَايَانَا.

- ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾: أي: وصَرَفَ عَنَّا عَذَاب السَّمُوم الّذِي كُنَّا نَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِ خَطَايَانَا، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ رَبُّنَا بِفَضْلِهِ ما كُنَّا نَدْعُوه مِنْ غُفْرَانٍ لِخَطَايَانَا، وَنَدْعُوهُ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ مُجازَاتِنا عَلَيْهَا.

- ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾: أي: إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ فِي الحَيَاةِ

الدُّنْيَا نَدْعُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا، فَاسْتَجَابَ لَنَا فَمَنَّ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُوم.

- ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾:

الْبَرُّ: أي: ذو الْعَطَاءِ الواسِعِ، والفَضْلِ الْجَزِيل، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَمْنَحُ عَطَاءَهُ جميع النَّاسِ مُحْسِنهُمْ ومُسِيئَهُمْ.

الرحيم: أي: ذو الرَّحْمَةِ الواسِعَة، الَّذِي يُنْعِمُ على عباده بالنِّعَمِ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (الطور).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الطور)

الآيات من (٢٩ ـ ٤٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(٣٢) • قَرَأَ أبو عمْرو: [**أمْ تَأْمُرْهُمْ**] بخُلْفٍ عن الدُّوري، والْوَجْهُ الثاني للدُّوري: اخْتِلَاسُ ضَمَّةِ الراء. ولعَلَّ الإسكانَ والاخْتِلَاس تخفيفٌ مِنْ تَوَالِي الضَّمَّاتِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَمْ تَأْمُرُهُمْ**].

وكُلُّ قَارئٍ علىٰ أَصْلِهِ مِنَ الإبْدَالِ وعَدَمِهِ.

(٣٧) • قرأ هِشَام: [**المسَيْطِرُونَ**]. ولخَلَف عن حمزة: بإشْمام الصّاد صوت الزاي. ولقُنبل، وابن ذكوان، وحفص: بالسّين والصاد. ولخلّاد: بالإشْمام والصَّاد.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الْمُصَيْطِرُونَ**] بالصاد الخالِصَة.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ ما يلي:

١ ـ توجِيهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ؛ لِأَنْ يُتَابعَ تَذكِيرَهُ مَنْ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحُرَّةِ.

٢ ـ مُعَالَجَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْكَافِرِينَ بشأنِ عِدَّةِ قَضَايَا هُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِهَا إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورة، مِنْهَا مَا هُو قَدِيمٌ يُصِرُّونَ عَلَيْهِ، ومِنْهَا مَا هُوَ حَدِيثٌ كإِرَادَةِ الكَيْدِ للتَّخلُّصِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ ومِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أشَاعَ أئِمَّةُ مُشْرِكِي مَكَّةَ في جَمَاهِيرِهِم لِصَدِّهِم عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ أنَّ مُحمَّداً كَاهِنٌ، وأشَاعُوا أنَّهُ مَجْنُون، وأشَاعُوا أنَّهُ شَاعِرٌ إذَا مَاتَ انْتَهَىٰ تَأْثِيرُهُ في الَّذِينَ يَتَأثَّرُونَ بالشِّعْرِ مِنْ قَوْمِنا.

الْكَاهِنُ: الذي يُخبِرُ بالغيبيّات، ويَعْتَقِدُ العَرب أنّ مِنَ الكَهَنَةِ من لَهُ صِلَةٌ بِجِنٍّ يُخْبِرُونَهُ بغَيْبِيَّاتٍ، أو يَتَعَاطَىٰ التَّنْجِيم بِرَبْطِ حَوَادِثِ الْأَرْض بَحَرَكَاتِ النجوم.

الْمَجْنُونُ: المسْتُورُ الْعَقْل، أو الذَّاهِبُ الْعَقْل، أو الفاسِدُ الْعَقْل.

نَتَرَبَّصُ: أي: نَنْتَظِرُ بصَبْر.

رَيْبُ الْمَنُونِ: أي: حوادثُ الدَّهْرِ الْمُمِيتَةُ.

أَحْلَامُهُمْ: أي: عُقُولُهُمْ.

طَاغُونَ: أي: متجاوزُونَ حَدَّ الْعِصْيَانِ والظُّلْم والْبَغِي المألُوفِ عِنْدَ الْجُنَاةِ، غُلُوًّا وإسْرافاً في ارْتِكَابِ الآثَامِ والْعُدْوَانِ عَلَىٰ الْحَقِّ، كَطُغْيَانِ الْمَاءِ الْمُهْلِكِ الْمُدَمِّر.

فَأَبَانَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ قَائِلاً: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾: أي: مَا أَنْتَ بِمَا أنعمَ بِهِ رَبُّكَ عَلَيْكَ مِنَ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ، فالكَهَنَةُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، والْمَجْنُونُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ كَلَامٌ يَعْجِزُ الْعُقَلَاءُ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ أبنيَةً وَمَعَاني.

وَالْغَرَضُ مِنْ خِطَابِ الرَّسُولِ ﷺ بِهٰذَا؛ إِسْمَاعُ مُفْتَرِي هَٰذِهِ الإشَاعَاتِ الإعْلَامِيَّةِ الْبَاطِلَةِ وَمَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ مِنْ جَمَاهِيرِ المشْرِكِينَ، مَعَ تَطييبِ نَفْسِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّ مَا هُوَ فِيهِ: مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ.

وَقَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِبَيَانٍ مُوَجَّهٍ لِجَمِيعِ المؤَهَّلِينَ لاسْتِمَاعِ الْخِطَابِ وفَهْمِهِ، مِنْ خِلَالِ تَوْجِيهِهِ للرَّسُولِ ﷺ:

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾: أي: بَلْ؛ أَيقُولُونَ فِي تَنَاقُضَاتِهِمْ وَتَخَبُّطِهِمْ فِي الظُّلُمَاتِ، وهُمْ يُذِيعُونَ المفْتَرَيَاتِ لِصَدِّ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ عَنِ التَّأَثُّرِ بِالْبَيَانِ القرآنِيِّ الرَّبَّانِيّ: مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ نَصْبِرُ عَلَيْهِ زَمَناً، وَنَنْتَظِرُ أَنْ تَنزِلَ بِهِ بَعْضُ حَوَادِثِ الدَّهْرِ الْمُهْلِكَةِ الْمُمِيتَةِ، وحِينئذٍ نَتَخَلَّصُ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ، وَيَتَفَرَّقُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي مُجْتَمَعِنَا تَأْثِيرٌ مَا، لِضَعْفِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ.

فقال اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِرَسُولِهِ ﷺ مُعَلِّماً:

• ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: قُلْ لَهُمْ: انْتَظِرُوا بِصَبْرٍ مَوْتِي، فَإِنِّي مَعَكُمْ مُنْتَظِرٌ بِصَبْرٍ تَحْقِيقَ وَعْدِ رَبِّي، بِأَنْ يَنْصُرَنِي عَلَيْكُمْ، وَبِأَنْ يَنْصُرَ دَعْوَتِي حَتَّىٰ تَصِلَ إلى كُلِّ قَوْمٍ وَكُلِّ أُمَّةٍ، وَأَنْ يَنْصُرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي.

وَكَانَ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ الَّذِينَ يُرَوِّجُونَ هَـٰذِهِ الإشاعَاتِ الإعْلَامِيَّةَ الْبَاطِلَة؛ يُوصَفُونَ بأَنَّهُمْ أَهْلُ الْأَحْلَام والْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ، فَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ؛ أَنْ يُبَيِّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ إشَاعَاتِهِمُ الإعْلَامِيَّةَ؛ تَتَنَافَىٰ مَعَ مَا يُوصَفُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ أَهْلُ أَحْلَامٍ وعُقُولٍ راجِحَةٍ، فَقَالَ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَام بَيْنَ أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا مَرْفُوضٌ مُسْتَنْكَرٌ، والْآخَرُ هُوَ الْوَاقِعُ الَّذِي يَشْهَدُ لَهُ سُلُوكُهُمُ الْجَاحِدُ لِلْحَقِّ، والظَّالِمُ لَهُ بِطُغْيَان:

• ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: بَلْ، بإضْرَابِ انْتِقَالِيّ؛ أَتَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ (أي: عُقُولُهُمُ الرَّاجِحَةُ) بِهـٰذَا الْبَاطِلِ، الَّذِي يُشِيعُونَهُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمُ الْحَقِّ الْمُعْجِز، إنَّ هَـٰذِهِ الْإِشَاعَاتِ لَا تَصْدُرُ عَنْ ذَوِي عُقُولٍ رَاجِحَةٍ، وَنُفُوسٍ ذَاتِ سُلُوكٍ سَوِيّ رَشِيدٍ، فَهُمْ إِمَّا أَنْ يَكُونُوا سُفَهَاءَ لَيْسَ لَهُمْ عُقُولٌ سَلِيمَةُ الإدْرَاكِ؛ وإِمَّا أَنْ يَكُونُوا ذوي نُفُوسٍ بَاغِيَةٍ ظَالِمَةٍ مُجْرِمَةٍ،

فَهُمْ قَوْمٌ طاغُونَ، مُجْتَمِعُونَ فِي صِفَاتِهِمُ النَّفْسِيَّةِ وَمُتَوَاطِئُونَ عَلَىٰ الطُّغْيَانِ.

وبما أَنَّهُمْ مَعْرُوفُونَ فِي مُجْتَمِعِهِمْ بِأَنَّهُمْ ذَوُو أَحْلَامٍ وعُقُولٍ راجِحَةٍ؛ فَقَدِ انْطَبَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، ووصَفَهُمْ اللهُ بالطُّغْيانِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ إِشَاعَاتِهِمُ الإعْلَامِيَّةِ بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ والْقُرْآنِ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

- ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾: أي: ادَّعَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ وهُوَ لَيْسَ كلامَ اللهِ، فَهُوَ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ عَلَىٰ اللهِ.

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾: أي: بل؛ أيَقُولُونَ: إِنَّ محمّداً تَقَوَّلَ القرآنَ عَلَىٰ اللهِ، مُدَّعِيًا أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، وهُو لَيْسَ بِكَلَامٍ مُنَزَّلٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

فأبان اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ عِلَّتَهُمُ النَّفْسِيَّةَ لَيْسَتِ الشَّكَّ في أَنَّ القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ بَلْ عِلَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لا يُرِيدُوْنَ أَنْ يُؤْمِنُوا، لِأَنَّ الإِيمَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿... بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: بَلْ عِلَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يؤمِنوا، واقتضَىٰ الْبَيَانُ هُنَا أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ رَبُّهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِ آياتِ القرآن، إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ في قَوْلِهِمْ: إِنَّ القرآن صِنَاعَةٌ بَشَرِيَّةٌ، وَتَقَوُّلٌ بَشَرِيٌّ على الله، فقال تَعَالَىٰ:

- ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: لَوْ كَانَ القرآنُ صِنَاعَةً بَشَرِيَّةً تَقَوَّلَهُ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ عَلَىٰ رَبِّهِ كَمَا يَزْعُمُونَ كاذِبِينَ؛ فَهُمْ بَشَرٌ ويفْتَخِرُونَ بِأَنَّهُمُ الْفُصَحَاءُ والْبُلَغَاءُ وأَصْحَابُ

العقولِ الرّاجحَةِ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ مُنْفَرِدِينَ أو مُجْتَمِعِينَ إِنْ كَانُوا صادِقِينَ فِيمَا يَدَّعُونَ.

وأَعْرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ مُواجَهَتِهِمْ بهٰذَا الْخِطَابِ، لِيَكُونَ خِطاباً عَامًّا فِيهِ تَحْرِيضُ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ عَلَىٰ مُطَالَبَتِهِمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِبَيَانٍ مُوجَّهٍ لِمُنْكِرِي وجُودِ رَبٍّ لِهٰذَا الكَوْن، ومِنْهُمُ الدَّهْرِيُّونَ مِنَ الْعَرَبِ، الَّذِينَ يَقُولُون: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾:

• ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: بَل؛ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ خَالِقٍ رَبٍّ لِهٰذَا الكَوْنِ؛ أَلَمْ يُفَكِّرُوا في أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَوْجُودِينَ بَشَراً أَحْيَاءً، وَخُلِقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَكَانُوا بَشَراً أَحْيَاءً، فَكَيْفَ خُلِقوا؟؟!!.

• ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾؟: أي: أَتَحَوَّلُوا مِنَ الْعَدَمِ الْعَامِّ المطْلَقِ دُونَ مُوجِدٍ فَصَارُوا بشَراً أَحْيَاءً.

إِنَّ مِنَ الأَوَّلِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ أَنَّ مِن المسْتَحِيلِ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْعَدَمُ الْعَامُّ المطْلَقُ إِلَىٰ كَائِنٍ مَوْجُودٍ، وكُلُّ مَوْجُودٍ بِصِفَاتٍ تُخَالِفُ صِفَاتِ الأَشْيَاءِ الَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا كَانَتْ صِفَاتُهُ عَدَماً، وتَنْطَبِقُ عَلَيْهَا اسْتِحَالَةُ التَّحَوُّلِ الذَّاتِي، وَكُلُّ مَادَّةٍ سَابِقَةِ الْوُجُودِ لا تَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ التَّحْوِيلِ المُتْقَنِ ذِي الْغَايَةِ الحَكِيمَةِ.

• ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؟: أَيْ: أَمْ هُمْ حِينَ كَانُوا عَدَماً خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ، فَحَوَّلُوهَا مِنَ الْعَدَمِ إِلَىٰ الوجود، وَهٰذِهِ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلاً لا يَقْبَلُهَا مَنْ لَدَيْهِ أَقَلُّ الْقُدْرَاتِ الْفِكْرِيَّة.

• ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾؟: أي: بَل؛ أَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ، فَلَيْسَ لَهَا رَبٌّ خَالِقٌ مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ الْوُجُودِ كُلِّهِ.

لكِنَّ هـٰذَا الادِّعَاءَ لَا يَدَّعِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ مُنْكِرِي وجُودِ اللهِ الْخَالِقِ رَبِّ العالمين.

- ﴿. . . بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾: أي: بَـلْ لَا يُـرِيـدُونَ أَنْ يُـوقِـنُـوا بالْحَقِّ، مَهْمَا اقْتَضَتِ الْحُجَجُ والْبَرَاهِينُ الْقَطْعِيَّةُ الْعَقْلِيَّةُ أَنْ يُوقِنُوا بِهِ، لِأَنَّهُمْ مُنْسَاقُونَ إِلَىٰ الْبَاطِلِ والضَّلَالَاتِ بأهْوَائِهِم وشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا.

- ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾؟: أي: بَل أَسْتَغْنَوْا عَنِ الْإِيمانِ بوَحْدَانِيَّةِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلَهِيَّتِهِ، لِأَنَّ خَزَائِنَ رَبِّكَ أَيُّهَا الْعَاقِلُ الرَّشِيدُ مِنْ كُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ في حَيَوَاتِهِمْ؛ هِيَ عِنْدَهُمْ وَفِي مُتَنَاوَلِ أيْدِيهِمْ، مَعَ أَنَّنَا لِتَنْبِيهِهِمْ كُلَّمَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا حَجَبْنَا عَنْهُمْ بَعْضَ خَزَائِنِنَا، فَلَا نَسْقِيهِمْ مَاءً أَحْيَاناً، وَلَا نُنْبِتُ لَهُمْ زَرْعاً أَحْيَاناً، وَنُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مَا يَكْرَهُونَ أَحْيَاناً.

- ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾؟: أي: بل: أَهُمُ الْمُسَيْطِرُونَ عَلَىٰ تَصَارِيف الْكَوْنِ، والْقَدَرِ والْقَضَاءِ فِيهِ؟؟!!.

وهـٰذَا أمْرٌ لَا يدَّعُونَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُذْعِنُوا للهِ فِي تَصَارِيفِهِ في كَوْنِهِ، وفي قَضَائِهِ وقَدَرِهِ، إِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ لِأَنْفُسِهِمُ النَّجَاةَ والْفَوْزَ بِجَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ.

- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾؟:

أي: بل: أَعِنْدَهُمْ عِلْمُ مَا يَقْضِيهِ اللهُ، وَتُبَلِّغُهُ مَلَائِكَةُ التَّبْلِيغِ فِي السَّمَاءِ لِمَلَائِكَةِ التَّنْفِيذِ في الْأَرْضِ عِنْدَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَكَانَ شَيَاطِينُ الْأَرْضِ يَتَرَاكَبُونَ لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ قَبلَ بِعْثَةِ محمّدٍ ﷺ، ويُبَلِّغُونَ مَا اسْتَرَقُوهُ لِأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ، فَمُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ بِبَعْثَتِهِ، كَمَا جَاءَ في سُورَةِ (الجن).

أَفَلهـٰؤُلَاءِ الكَفَرَةِ سُلَّمٌ يَصْعَدُونَ فِيهِ حَتَّىٰ يَصِلُوا إلى مَقَاعِدِ اسْتِرَاقِ

السَّمْعِ في السَّمَاءِ، وَبِهِ يَعْلَمُونَ أَحْدَاثاً مُسْتَقْبِلِيَّةً يَفْتِنُونَ بِهَا مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ مِنَ الناس.

إِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَهُ مِثْلُ هٰذَا السُّلَّم، وهُوَ يَسْتَرِقُ السَّمْعَ كَمَا كَانَ الْجِنُّ يَفْعَلُونَ قَبْلَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ؛ فَلْيَأْتِ بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ تُثْبِتُ صِحَّةَ اسْتِمَاعِهِ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ ذَلِكَ وَلَوْ فِي عَصْرِ أَجْهِزَةِ الاتِّصَالَاتِ الصَّوْتِيَّةِ اللَّاسِلْكِيَّة.

وَخَاطَبَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُثَرِّباً وَمُسَفِّهاً عُقُولَ الَّذِينَ يَزْعُمونَ أَنَّ المَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ:

• ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: بَلْ: أَتَزْعُمُونَ افْتِرَاءً عَلَىٰ رَبِّكُمْ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ فِي كَوْنِهِ أَنَّ أَوْلَادَ اللهِ هُمْ بَنَاتٌ، وهُمُ الْمَلَائِكَة، وأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ بَنَاتٌ، وتُحِبُّونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ أولَادٌ ذُكُور، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُكُمْ بالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ.

وَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ، وَسِيلَةً لإِثْبَاتِ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْأَلْهُمْ أَجْراً عَلَىٰ دَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَىٰ الحقِّ، حَتَّىٰ يَنْفِرُوا مِنَ الاسْتِجَابَةِ لَهُ خَوْفاً مِنْ تَحمُّلِ ثِقَلِ الْأَجْرِ الَّذِي يُطَالِبُهُمْ بِهِ، قال تبارَكَ وَتَعَالَىٰ له:

• ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: بل: أَتَسْأَلُهُمْ أجْراً مَادِّيًا أَوْ مَعْنَوِيًا عَلَىٰ دَعْوَتِكَ إِياهُمْ إلى سَبِيلِ رَبِّكِ، فَهُمْ مِنْ خَوْفِ تَحمُّلِ مَغْرَمٍ يَنْفِرُونَ، لِئَلَّا يَكُونُوا بِتَحمُّلِهِ مُثْقَلِينَ.

الْمَغْرَم: الْغَرَامَة، وهِيَ الْخَسَارَة.

وَتَحَدَّثَ اللهُ عَنْهُمْ بِخِطَابٍ عَامٍّ مُوَجَّهٍ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ رَشِيد، فَقَالَ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ:

• ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: بل: أَعِنْدَهُمْ تدبيرُ الْغَيْبِ

المسْتَقْبَلِيّ، فَهُمْ يُقَدِّرُونَ وَيُدَبِّرُونَ مَا يَشَاءُونَ لِأَنْفُسِهِمْ آمِنِينَ، ويَكْتُبُونَ مَا قَدَّرُوا لَهَا، غَيْرَ خَائِفِينَ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ قَدَرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُونَ، وَمِنْهُ هَلَاكُهُمْ وَتَعْذِيبُهُمْ عَلَىٰ كُفْرِيَاتِهِمْ، وَلَوَازِمِهَا فِي السُّلُوكِ.

وَتَحَدَّثَ اللهُ عَنْهُمْ أَيْضاً، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: بَل: أَيُرِيدُونَ كَيْداً يَكِيدُونَهُ ضِدَّ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ هُمُ الْمَكِيدُونَ حَقًّا، الَّذِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ أَشَدُّ مَا يَكْرَهُونَ، وِيُسَلِّمُ اللهُ دِينَهُ وَرَسُولَهُ ﷺ والمؤمِنِينَ وَيَنْصُرُهُمْ عَلَيْهِم.

الكَيْدُ: التدبيرُ الخفيُّ أو الظَّاهِرُ بِحَقٍّ أَوْ بِبَاطِلٍ، وفِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه، ويُطْلَقُ الكَيْدُ على الحرْبِ، وإعدادِ وسائِلِها، وعَلَىٰ الْحِيلَة، وعلَىٰ كُلِّ تَدْبِيرٍ يُحَقِّقُ لِصَاحِبِهِ النَّصْرَ أَو النَّجاة، أَوْ يُرَادُ بِهِ ذلك.

وتَحَدَّثَ اللهُ عَنْهُمْ أيضاً، فَقَالَ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ:

- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: بَل: أَلَهُم إِلَٰهٌ هُوَ رَبٌّ غَيْرُ اللهِ، فَهٰذَا الإِلَٰهُ يَحْمِيهِمْ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعِقَابِهِ، وِيَمْنَحُهُمْ مَا يُرِيدُونَ؟!.

فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ هُوَ إِلَٰهٌ بِحَقٍّ غَيْرُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وتَنَزَّهَ اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَٰهِيَّتِهِ.

وَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الْعِلَاجِيَّةُ إِنْذَارَهُمْ بِعَذَابٍ وَإِهْلَاكٍ مُعَجَّلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، كَمَا أَهْلَكَ اللهُ وَعَذَّبَ كُفَّارَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ.

فَتَحَدَّثَ اللهُ عَنْهُمْ أَيْضاً، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

- ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: وَإِنْ يَرَوْا جِرْماً عَظِيماً سَاقِطاً عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ لِتَعْذِيبِهِمْ

وإهْلَاكِهِمْ؛ لَاسْتَمَرُّوا فِي أَوْهَامِهِمُ الكُفْرِيَّة، وَلَمْ يَخْطُرْ في بالِهِمْ أَنَّهُ عِقَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هَابِطٌ عَلَيْهِمْ، حَتَّىٰ يَذُوقُوا عَذَابَ اللهِ وَعِقَابَهُ.

وقَبْلَ ذَلِكَ يَقُولُونَ: هـٰذَا سَحَابٌ مَرْكُومٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، فَظَهَرَ لِأَعْيُنِنَا كَأَنَّهُ كُتْلَةٌ صَخْرِيَّةٌ سَوْدَاءُ، وَلَيْسَ هُو إِلَّا سَحَاباً نُغَاثُ بِهِ.

وقَدْ جَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هـٰذَا الدَّرْسِ مُعْظَمَ كُفْرِيَّاتِ أَهْلِ الكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ، الَّذِينَ هُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الطور).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الطور)
الآيات من (٤٥ ـ ٤٩) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾:

القراءات:

(٤٥) • قرأ أبو جعفر: [**يَلْقَوْا**].

وقرأهَا بَاقِي القراء العشرة: [**يُلَاقُوا**].

ومُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحِدٌ.

(٤٥) • قرأ ابْنُ عَامِرٍ، وعاصِمٌ: [يُصْعَقُونَ] بالمبني لما لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَصْعَقُونَ].

أي: يُصْعَقُونَ، فَهُمْ يَصْعَقُونَ.

تَمْهِيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْصِيَةُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَرَّفَهُ تُجَاهَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة.

وفيهَا بَيَانُ الدَّوَاءِ النَّفْسِيِّ والدِّينيِّ؛ الَّذِي عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ أَن يُدَاوِي نَفْسَهُ بِهِ، لِيَمْنَحَهُ اللهُ الْمَدَدَ والْعَوْنَ، ويَصْرِفَ عَنْهُ ما يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لِلنُّفُوسِ في مِثْلِ الوضْعِ الّذِي هو فِيهِ من ضِيقِ صَدْرٍ واكْتِئَاب.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ الَّذِينَ بَلَغُوا دَرَكَةَ الميْؤُوسِ مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة:

• ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

• ﴿فَذَرْهُمْ﴾: أي: فاتْرُكْهُم. أمَاتَ الْعَرَبُ مَاضِي هـٰذَا الفعل، وهو «وَذَرَ»، وأماتُوا مَصْدَرَهُ، وهُوَ «وَذْراً»، وَكَذٰلِكَ لم يَسْتَعْمِلُوا مِنْهُ اسم الفاعل، وهو «واذِر».

وأبْقَىٰ الْعَرَبُ مِنْ هَـٰذِهِ المادَّةِ فِعْلَيِ المضارِعِ والْأَمْر: «يَذَرُ» و«ذَرْ».

• ﴿يُصْعَقُونَ﴾: أي: يُهْلَكُونَ، فَيَكُونُونَ هَالِكِينَ مَوْتَىٰ، فَهُمْ بِذَلِك

﴿يُصْعَقُونَ﴾: أي: يَموتُون. ويأتي فعل «صَعِقَ» بِمَعْنَىٰ غُشِيَ عَلَيْهِ، ولَكِنَّ المرادَ هُنَا أَنَّهُم يَمُوتُون.

- ﴿كَيْدُهُمْ﴾: أي: تَدْبِيرُهُمُ الَّذِي دَبَّرُوهُ ضِدَّ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ والمؤمِنِينَ، للتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ وَلَو بِالْحَرْب.

المعنى: فاتْرُكْهُمْ يا مُحَمَّدُ حَتَّىٰ يَسْتَقْبِلُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي قَضَىٰ اللهُ أَنْ يَمُوتُوا فِيهِ، فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ كَيْدُهُمُ الَّذِي كَادُوهُ قَبْلَ مَوْتِهِمْ شَيْئاً، وَلَا يُوجَدُ مِنْ قَوْمِهِمُ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ مِثْلِ كُفْرِهِمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ فَيَحْمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ مِنْ قِبَلِ نَاصِرٍ ما، لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ وَحْدَهُ، بَعْدَ انْتِهَاءِ رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيانَهُ بِشَأْنِ الَّذِينَ أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَتْرُكَهُمْ:

- ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

ذَكَرَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِوَصْفِهِمْ بَدَلَ أَنْ يُكَنِّيَ عَنْهُمْ بالضَّمِيرِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ سَبَبَ تَعْذِيبِهِمْ هُوَ ظُلْمُهُمُ الْعَظِيمُ بالكُفْرِ باللهِ، وجُحُودِ حَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، والتَّمَرُّدِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ.

أَيْ: وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وَمِنْهُمْ المتَحَدَّثُ عَنْهُمْ فِي سِيَاقِ النَّصِّ عَذَاباً يَمَسُّونَ آلَامَهُ قَبْلَ مَوْتِهِمْ، وَهُوَ دُونَ عَذَابِهِمْ في الْآخِرَة، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ هُوَ عُقُوبَةٌ مِنَ اللهِ لَهُم، بَلْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُ مِنْ عَوَارِضِ الدَّهْرِ الطَّبِيعِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ رَسُولَهُ ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

- ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾:

هـٰذَا هُو النَّصُّ الخامس عشر بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُول الَّذِي يَأْمُرُ اللهُ فِيهِ رَسُولَهُ ﷺ بالصَّبْرِ، وَجَاءَ فِيهِ التَّعْبِيرُ بِعِبَارَة: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾: أَيْ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكَمَ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُخَيَّرِينَ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عملاً، وحَكَمَ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ أَنْ يُرْسِلَ لَهُمْ رُسُلاً مِنْهُمْ لِيُبَلِّغُوهُمْ مَطَالِبَ اللهِ مِنْهُمْ، وَأَنْ يَقُومُوا بِنُصْحِهِمْ وإِرْشَادِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ إِلى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، وَأَنْ يَتَّخِذُوا مَا يَمْلِكُونَ مِنْ وَسَائِلَ لإِقْنَاعِهِمْ بالحقِّ رَغْبَةً في اسْتِجَابَتِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، وهـٰذَا سَيُعَرِّضُ الرُّسُلَ إِلَىٰ أذىً كثيرٍ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، خَوْفاً عَلَىٰ زَعَامَاتِهِمْ في قَوْمِهِمْ أَنْ تُنْتَزَعَ مِنْهُمْ، وَكُلُّ هـٰذَا مِنْ لَوَازِمِ حُكْمِ اللهِ بِتَقْدِيرِهِ وقضائِهِ، فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ وَيُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ فقال لَهُ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾.

وتَلْطِيفاً لِهـٰذَا الأَمْرِ الّذِي فِيهِ شِدَّةٌ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُ ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾: دَلَّتْ هـٰذِهِ الْعِبَارَةُ بأسْلُوبِ الكِنَايَةِ؛ عَلَىٰ طَمْأَنَتِهِ ﷺ بِأَنَّهُ مَحْرُوسٌ بِحِرَاسَةِ اللهِ، مَحْفُوظٌ بِحِفْظِهِ، لَا يَنَالُهُ مِنْ أَذَىٰ أَعْدَاءِ رِسَالَتِهِ وَدَعْوَتِهِ مَا يَضُرُّهُ، فَلْيَصْبِرْ عَلَىٰ أَذىً لَا يَصِلُ إِلَىٰ عُمْقِ النَّفْسِ مُؤْلِماً لَهَا بِشِدَّة، فَهُوَ مُحَاطٌ بِكُلِّ أَعْيُنِ رَبِّهِ الْحَارِسَةِ، وَبِقُدْرَتِهِ الحافِظَة.

وَقَدْ جَاءَ في النّصّ الخامس بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ قَوْلُ اللهِ لَهُ في سورة (ق/ ٣٤ نزول):

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾:

- **قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**: وَهـٰذَا الْوَقْتُ يَمْتَدُّ مِنْ بَعْدِ صَلاَةِ الْفَجْرِ حَتَّىٰ طُلُوعِ الشمس.
- **وقَبْلَ غُرُوب الشمس**: وهـٰذَا الوقْتُ يَمْتَدُّ مِنْ بَدْءِ اصْفِرَار الشَّمْسِ حَتَّىٰ غُرُوبها.

- **وأثْنَاءَ اللَّيْل**: وَهـٰذَا يَكُونُ فِي وَقْتٍ مَا أَوْ أَكْثَر مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ المغْرِب حَتَّىٰ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

- **وأَدْبَارَ السُّجُودِ**: أي: وعَقِبَ كُلِّ صَلَاة.

وجاء في النّصّ الحادي عشر بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ؛ قَوْلُ اللهِ لَهُ في سورة (غَافر/ ٦٠ نزول):

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٥٥﴾:

فَأَضَافَ هـٰذَا النصّ أَمْرَ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لِذَنْبِهِ، أَمَّا الْعَشِيُّ والإِبْكَار؛ فَهُمَا تَوْكِيدٌ لِمَا جاء في النّصّ الخامِسِ الّذِي هو مِنْ سُورَةِ (ق/ ٣٤ نزول): ﴿... وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩﴾.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ النَّصَّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الطور/٧٦ نزول) فقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

- ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾:

فَأَضَافَ هـٰذَا النَّصُّ إِلَىٰ مَا سَبَقَ مَا يلي:

(١) التَّسْبِيحَ عِنْدَ حَرَكَةِ كُلِّ قِيام.

(٢) التسْبِيحَ عِنْدَ السَّحَرِ فِي وَقْتِ إِدْبَارِ النُّجُوم.

إِنَّ دَوَاءَ التّسْبِيحِ لِمُعَالَجَةِ ضِيقِ النَّفْسِ، والْكَرْبِ الَّذِي يَضْغَطُ عَلَيْهَا؛ أَفْضَلُ عِلَاجٍ يَسْتَعْمِلُهُ الْمُؤْمِنُ الذَّاكِرُ لِرَبِّهِ.

والتَّعْبِيرُ المأثُورُ فِي هـٰذَا:

سُبْحَانَ اللهِ ـ سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ـ سُبْحَانَكَ اللّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ.

وتَعْبِيرُ الاسْتِغْفَارِ: أَسْتَغْفِرُ الله.

وَمَا زَادَ مِنْ ذِكْرٍ وَدُعَاءٍ مَأْثُورٍ فَهُوَ خَيْر، مِثْل: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، عَمِلْتُ سُوءاً وَظَلَمْتُ نَفْسِي، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي لأَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الطُّور) وهُوَ خِتَامُ السّورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

ملحق: مستخرجات بَلاغِيّة من سُورة (الطور)

في هَـٰذِهِ السورة من الاختيارات البلاغيّة أمْثِلَة مُتَعَدِّدَة، أَقتَصِرُ مِنْهَا على مَا يلي:

أوّلاً:

من التَّوْكِيدِ لِوُجُودِ الدَّاعِي إليه: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بِدايَةِ السورة مُقْسِماً بِبَعْضِ مَا لَهُ فِي دِينِ اللهِ مَكَانَةٌ رَفِيعَةٌ، وَبَعْضِ آيَاتِ خَلْقِهِ فِي كَوْنِهِ؛ على أنَّ عَذَابَهُ لِمُسْتَحِقِّي الْعَذَاب مِنْ عِبَادِهِ المجْرِمِينَ لأَمْرٌ وَاقِعٌ لَا مَحالَة، وَهـٰذَا التَّوْكِيدُ مُوجَّهٌ لِلْكَفرَةِ المكَذِّبِينَ، وللشَّاكِّين، فقال تَبارَكَ وَتَعالَىٰ:

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾.

ثانياً:

مِنْ فُنون المنْهج الْبَيَانِيِّ في القرآنِ: اسْتِقْطَاعُ النُّصُوصِ مِنْ أَزْمَانِهَا

المسْتَقْبَلِيَّة، وعَرْضُهَا بألْفَاظِهَا دُونَ الإشَارَة إلَىٰ أنَّهُ سَيكُونُ كَذا فِيمَا سَوْفَ يَأْتِي مِنْ أَحْدَاث.

ومِنْ أَمْثِلَةِ هٰذَا الفَنّ الَّذِي لَمْ يُسْبَقِ القرآنُ إِلَىٰ مِثْلِهِ مِنْ قِبَلِ الْبُلَغَاءِ؛ الأمْثِلَةُ التَّالِيَة:

المثال الأول:

مَا جَاءَ في قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

المثال الثاني:

مَا جَاءَ في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

المثال الثالث:

مَا جَاءَ في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في الحديث عن المتقين أصحاب الجنَّة:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

وأكتَفِي بِهٰذِهِ المستخرجَاتِ البلاغيَّةِ لِهٰذَا الملْحَق.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

سُورَة الملك

٦٧ مصحف ٧٧ نزول

وتسمى سورة تبارك
وهي سورة مكيّة كلُّها

(١)

نصّ السورة وما فيها مِن فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ
﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ
مِن تَفَوُّتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ
كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ
﴿٦﴾ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ
﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ
إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ

---

٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [تَفَوُّتٍ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَفَاوُتٍ].
والمُؤدّى فيما أرىٰ واحد.

٤ ـ • قرأ أبو جعفر: [خَاسِياً] في الوصل والوقف، والأَصْبَهاني عَنْ وَرْش،
وقرأها حمزة كذلِكَ في الوقف.
وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [خَاسِئاً].

مَا كُنَّا فِىٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ
كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ
وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ
فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ
حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ
وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ
هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا
فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَلۡ لَّجُّواْ

---

١١ - • قرأ الكسائي، وابن وَرْدان بخلفهما، وابن جَمّاز: **[فَسُحُقاً]** بضم الحاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَسُحْقاً]** بإسْكان الحاء. وهو الثَّاني للكسائي، وابن وردان.
وهُمَا لغتان في مصدر فِعْلِ «سَحِقَ»، بمَعْنَى: بَعُدَ أَشَدَّ الْبُعْد.

١٧ - • قرأ ورْش: **[نَذِيري]** في الوصل، وكذلك قرأهَا يَعْقُوب في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نَذِيرِ]** بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف.

١٨ - • قرأ ورْشٌ: **[نكِيري]** في الوصل، وكذلك قرأ يعقوب في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نكِيرِ]** بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

٢٠ - • قرأ السوسي: **[يَنْصُرْكُمْ]** بإسكان الراء، واختلاس ضمّتها، والدوري بالإسكان، والاختلاس، والضمّة الكاملة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَنْصُرُكُمْ]**.

فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن
يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ
ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ
هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن
مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ
هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ
مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

---

٢٧ ـ • قرأ يَعْقُوب: **[تَدْعُونَ]**. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَدَّعُونَ]** بتَشْدِيد الدّال.

٢٨ ـ • قرأ حمزة: **[أَهْلَكَنِي اللهُ]** بإسْكَانِ ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرة بفتح ياء المتكلم.

٢٨ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كَثير، وأبو عَمرو، وابْنُ عَامِرٍ، وحفص، وأبو جعْفر: **[وَمَنْ مَعِيَ أَوْ]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

٢٩ ـ • قرأ الكِسَائي: **[فَسَيَعْلَمُونَ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَسَتَعْلَمُونَ]**.
وبينهما تكامل في الأدَاء البياني، إحداهما بالخطاب، والأخرى بالغيبة.

(٢)

ممّا وَرَد في السنة بِشأنِ سُورة (الملك)

(١) روى أحْمَد، وأبو داود، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابْنُ ماجه، والحاكم وصحَّحه، عَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا هِي إِلَّا ثَلَاثُونَ آيَة شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّىٰ غُفِرَ لَهُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ . . .». قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن.

(٢) وروىٰ النَّسائيُّ وصحَّحَهُ، عن رافعِ بْن خَدِيجٍ وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُما؛ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول:

«أُنْزِلَتْ عَلَيَّ سُورَة (تَبارَكَ) وَهِيَ ثَلاثُونَ آيَةً جُمْلَةً واحِدَة، وهِيَ الْمَانِعَةُ فِي الْقُبُور».

أي: الّتِي تَمْنَعُ عن الْمُواظِبِ عَلَىٰ تِلاوَتِهَا والمؤمِنِ بِهَا عَذابَ الْقَبْر.

(٣) ورُوِي عن ٱبْنِ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما؛ عَنِ النبيّ ﷺ قولُه بشأن سورة (تبارك):

«لَوَدِدْتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي».

(٣)

موضُوعُ سُورَةِ (المُلك)

يَدُور مَوْضُوعُ هَـٰذِهِ السُّورَة حَوْلَ مُعَالَجَةِ الكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ بِيَوْم الدِّينِ، فِي عِدَّةِ قَضَايَا مِنْ كُفْرِيَّاتِهِمْ، بأَسَالِيبَ بَيَانِيَّةٍ رَائِعَةٍ مُعْجِزَةٍ، تَهُزُّ الْقُلُوبَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ مِنْ جُذُورِهَا، وَتُحِيطُ بالنُّفُوسِ الَّتِي لَمْ تَمُتْ إحْسَاسَاتُها وَمَشَاعِرُهَا.

(٤)

دُروس سورة (الملك)

هَـٰذِهِ السُّورة تَصْلُحُ لِأَنْ تَكُونَ بِمَثَابَةِ دَرْسٍ واحِدٍ لأنَّ آيَاتِهَا مُتَعَانِقَةٌ تَعَانُقاً مُتَدَاخِلاً.

وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إلى دَرْسَيْن:

الدَّرْس الأول: الآيات من (١ ـ ٢٢):

وفي آياتِ هـٰذَا الدَّرسِ مُعالَجَةٌ مُباشِرَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَفَرَةِ والمشْرِكِينَ بِشَأْنِ طائِفَةٍ مِنْ قَضَايَا كُفْرِيَّاتِهِم.

الدرس الثاني: الآيات من (٢٣ ـ ٣٠) آخر السورة:

وفي آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ أَنْ يُتابعَ مُعالَجَةَ المَقْصُودِينَ بالْمُعالَجَةِ في السُّورَةِ، بِمَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فِيها.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الأول مِن دَرسَي سورة (الملك) الآيات من (١ ـ ٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا

لِأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾
وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن
رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ
تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ
نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ
فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا
ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا
ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ
وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:

القراءات:

(٣) • قرأ حمزة، والكِسَائِي: **[تفوُّتٍ]**.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تفاوُتٍ]**.

والمؤدَّىٰ فيما أرَىٰ وَاحِدٌ.

(٤) • قرأ أبو جَعفر: **[خَاسِياً]** في الوصل والْوَقف، والأصبهاني عن وَرْش، وقرأها حمزة كذلِكَ فِي الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[خَاسِئاً]**.

(١١) • قرأ الكِسَائِي، وابن وَرْدان بخلفهما، وابن جمّاز: **[فَسُحُقاً]** بضمّ الحاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَسُحْقاً]** بإسكان الحاء. وهو الثّاني للكسائي، وابن وَرْدَان.

سُحْقاً، وسُحُقاً: لغتان في مَصْدَرِ «سَحِقَ»، بمَعْنَىٰ بَعُدَ أَشَدَّ الْبُعْد.

(١٧) • قرأ ورش: **[نَذِيرِي]** في الوصل، وكذلِكَ قرأها يَعْقُوبُ في الوصل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَذِيرِ] بحذف ياء المتكلّم في الوصْلِ والوقف.

(١٨) • قرأ ورش: [نَكِيرِي] في الوصل، وكذلِكَ قَرأَهَا يَعْقُوبُ في الوصل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَكِيرِ] بِحَذْفِ ياء المتكلّم في الوصْلِ والوقف.

(٢٠) • قرأ السوسيّ: [يَنْصُرْكُمْ] بإسكان الراء، واختلاس ضمّتها، والدوري بِالإسْكان، والاختلاس، والضمّة الكاملة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَنْصُرُكم].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ مُبَاشِرَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَفَرَةِ والمشركين، بِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنْ قَضَايا كُفْرِيَّاتِهِمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ① ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ②﴾:

• ﴿تَبَارَكَ﴾: أَي: تَنَامَىٰ، وَتَزَايَدَ، وَتَعَاظَمَ اللهُ، بالإطْلَاقِ الْعَامّ، فَوْقَ كُلِّ مَا يَصِفُهُ الواصِفُونَ مِنْ كَمَالَات.

ولفظ «تَبَارَكَ» على وزَنِ «تفاعَلَ» مِنَ الْبَرَكَةِ، وهي في اللُّغَةِ: النَّمَاءُ والزِّيَادَةُ في الحسِّيَّات أو المعنويَاتِ. رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ البركةَ الكَثْرَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ.

- ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: **الْمُلْكُ، والْمَلْكُ، والْمِلْكُ**: حِيَازَةُ الشَّيْءِ، والانْفِرَادُ بِحَقِّ التَّصَرُّفِ فِيهِ، وكذلك السُّلْطَانُ على الْحَيّ الْمُرِيدِ بالْأَمْرِ والنَّهْيِ وَبِكُلِّ مَا يَسُرُّهُ أَوْ يَسُوؤُه، وَيُطْلِقُ قُدْرَاتِهِ أَوْ يُقَيِّدُها.

والذي بيده الملك هو الله جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

أي: بِيَدِهِ الْقَادِرَةِ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: لَهُ الْمُلْكُ، والْمَلْكُ، والْمِلْكُ.

أَمّا بِمَعْنَىٰ الحِيَازَةِ والانْفِرَادِ بِحَقِّ التَّصَرُّفِ؛ فاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ سِوَاهُ، ورَبُّ كُلِّ شيءٍ سِوَاهُ، فِي الْوُجُودِ كُلِّه، وتَمَلُّكُ الْعِبَادِ لِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ نَاتِجٌ عَنْ تَمْلِيكَ اللهِ ذَلِكَ لَهُمْ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ إِقْدَارٌ عَلىٰ الانْتِفَاعِ ولَيْسَ تَمْلِيكاً حَقِيقِيًّا، لِأَنَّهُمْ وَمَا أَقْدَرَهُمُ اللهُ على الانْتِفَاعِ بِهِ مِلْكٌ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كَمَنْ يَضَعُ لِحِصَانِهِ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ وَمَأْواه.

وَأَمّا بمَعْنَىٰ السُّلْطَانِ على الأحياء المريدين؛ فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ وَحْدَهُ الْمَلِكُ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَلَهُ السُّلْطَانُ الْحَقِيقِيُّ عَلَىٰ كُلِّ الأحياء الْمُرِيدِينَ، إِذْ هُمْ مَخْلُوقُونَ لَهُ، وهُمْ عَبِيدُه.

وبِحِكْمَتِهِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ؛ يُؤْتِي تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ مُلْكاً صَغِيراً جُزْئِيًّا لَهُ شَبَهٌ فِي بَعْضِ أَفْرَادِهِ بِالْمُلْكِ الْحَقِيقيّ الَّذِي هُوَ لَهُ؛ بَعْضَ عِبَادِهِ فِي مجتَمَعَاتِ النَّاسِ، نظراً إلى أنَّ حَيَاة الابْتِلَاءِ حَيَاةُ أَسْبَابٍ وَمُسَبَّبَات.

- ﴿. . . وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾: أي: وهو ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ على كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُهُ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ قَدِيرٌ، إيجاداً أَوْ إعداماً، أَوْ تَغْيِيراً، أو تَحْوِيلاً، أَوْ أَيَّ تَصَرُّفٍ مَهْمَا كَانَ عَظِيماً أَوْ دَقِيقاً.

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾:

أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهـٰذا أَنَّ الْمَوْتَ أَثَرُ خَلْقٍ رَبَّانِيّ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ أَثَرُ خَلْقٍ رَبَّانِيّ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ ظَهَرَ لَنَا أَنَّ الْحَيَاةَ تَكُونُ باتِّصَالِ الرُّوحِ بالنَّفْسِ، وأَنَّ الْمَوْتَ يَكُونُ بانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْس، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْوَصْلَ مُسَاوٍ لِلْفَصْلِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا فِي الْوُجُودِ عَمَلٌ مِنْ أعْمَالِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيّ، وذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، مَهْمَا كان حَالُ هَـٰذِهِ النَّفْسِ فِي كَوْنِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، إِذْ كُلُّ نَفْسٍ سِوَىٰ اللهِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ.

وأبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِ الْمَوْتِ والحياة، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ النَّاسِ؛ ابْتِلَاؤُهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا، وَجَاءَ في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ أَنَّ الْجِنَّ مِثْلُ الإنْسِ ابْتِلَاءً وَجزَاءً، وَقُدِّمَ الموتُ على الحياة للإشعارِ بأَنَّ الموْت تكون بعْدَهُ الحياة الأخرى.

- ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾: لِيَمْتَحِنَكُمْ وَلِيَخْتَبِرَكُمْ ويَكْشِفَ بِابْتِلَائِكُمْ أَيُّكُمْ أحْسَنُ عَملاً، وَيُجَازِيَ كُلَّ فَرْدٍ مِنْكُم بِحَسَبِ دَرَجَتِهِ في عَمَلِهِ خِلَالَ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ.

وطَوَىٰ النَّصُّ مَا يُقَابِلُ عِبَارَة: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ وهي عِبَارَةُ: «وَأَيُّكُمْ أَسْوَأُ عَملاً».

وَمِنَ الْمُظْهَرِ وَالْمَطْوِيّ وَوَاقِعِ حَالِ الْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ نَفْهَمُ أَنَّ ذَوِي الأعْمَالِ الْحَسَنَةِ يَتَفَاضَلُونَ في الدَّرَجَاتِ مِنْ أَدْنَاهَا إلى قِمَّتِهَا الَّتِي يَصِلُ إِلَيْهَا أَئِمَّةُ الْمُرْسَلِينَ، وَنَفْهَمُ أَنَّ ذَوِي الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ يَتَنَازَلُونَ في الدَّرَكَاتِ حَتَّىٰ أَخَسِّهَا وَأَحَطِّهَا، الَّتِي يَنْحَطُّ إِلَيْهَا إِبْلِيسُ وَشَيَاطِينُهُ وأَتْبَاعُهُ مِنْ مُجْرِمِي الإنْسِ.

ونَفْهَمُ مِنْ صِفَتَي الْعَدْلِ والْفَضْلِ للهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ؛ أَنَّ لِكُلِّ أَصْحَابِ دَرجَةٍ مِنَ الْجَزَاءِ بالْفَضْلِ مَا يُلَائِمُ دَرجَتَهُمْ، وَأَنَّ لِكُلِّ أَصْحَابِ دَرَكَةٍ مِنَ الْجَزَاءِ بالْعَدْلِ مَا يُلَائِمُ دَرَكَتَهُمْ.

أَمَّا الْجَزَاءُ الأَوْفَىٰ بالْفَضْلِ فَفِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وأَمَّا غَايَةُ الْجَزَاءِ الحكِيم بالْعَدْلِ ففي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، وَقَدْ أَعَدَّهُمَا اللهُ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِيَوْمِ الدِّينِ.

• ﴿... وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾: أي: وهو تبَارَكَ وتَعَالَىٰ ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَة، يُجَازِي الْمُسِيئِينَ بِعِزَّتِهِ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ كُلَّ ذُنُوبِهِ أَوْ بَعْضَهَا.

الْعَزِيزُ: أي: الْقَوِيّ الْغَالِبُ، الَّذِي لَا تُعَارِضُ وَلَا تُقَاوِمُ قُوَّةٌ فِي الْوُجُودِ قُدْرَتَه.

الْغَفُور: أي: الكَثِيرُ المغْفِرَةِ بِسَتْرِ ذُنُوبِ عِبَادِهِ وخَطَايَاهُمْ، أَصْلُ معنى «الْغَفْرِ»: السَّتْرُ، وَصِيغَةُ «غَفُورٍ» صِيغَةُ مُبَالَغَة، وهِي بالنِّسْبَةِ إلى اللهِ تَبارَكَ وَتعَالَىٰ تَدُلُّ عَلَىٰ أقْصَىٰ مَا يَلِيقُ بِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ آثارِ خَلْقِهِ في كَوْنِهِ:

• ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾:

تَكَرَّرَ في القرآنِ بيانُ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاواتٍ مُرْتَفِعَاتٍ عَالِيَاتٍ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سُكَّانِ الأَرْض، وأَمَّا كَوْنُهُنَّ طِباقاً:

فَقَدْ سَبَقَ أَنْ جاء في سورة (نوح/ ٧١ نزول) أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾؟؟!:

طِباقاً: اسم مَصْدَر، يُقَالُ لُغَةً: «طَابَقَهُ، مُطَابَقَةً، وَطِبَاقاً»، والمطابَقَةُ في اللُّغَةِ: الْمُوَافَقَة، والتَّسَاوِي، تَقُولُ لُغَةً: «طَابَقْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْن» أي: جَعَلْتُهُمَا عَلَىٰ حَذْوٍ وَأَلْزَقْتُهُمَا، وَتَقُول: «طَابَقْتُ بَيْنَ الْقَمِيصَيْنِ، أَو بَيْنَ الثَّوْبَيْنِ» أي: لَبِسْتَ أَحَدَهُمَا علىٰ الآخر.

وقَدْ جعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ طِبَاقاً، أي: جعَلَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ بِتَتابُعٍ، كَثَوْبٍ فَوْقَهُ ثَوْبٌ آخَرَ، وَهٰكَذَا إِلَىٰ سَبْعَةِ أثْوَابٍ، أَوْ مِثْلَ كُرَاتٍ مُتَدَاخِلَاتٍ، فَالْكُرَةُ الوُسْطَىٰ فَوْقَهَا كُرَةٌ أُخْرَىٰ حوْلَهَا، وَهٰكَذَا إِلَىٰ سَبْعِ كُرَاتٍ، كُلُّ كُرَةٍ تَالِيَةٍ تُحِيطُ بالْكُرَةِ الدَّاخِلَةِ فيها.

المعنى: الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ والْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً؛ هُوَ الَّذي خَلَقَ في كَوْنِهِ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَجعَلَهَا طِبَاقاً.

- ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ... ③﴾: وفي القراءة الأخرَىٰ: [**مِنْ تَفَوُّتٍ**]:

التفاوُتُ: التَّبَايُنُ والاخْتِلَاف.

والتَّفَوُّت: الاخْتِلَافُ والاضطراب.

الْمَعْنَىٰ: مَا تَرَىٰ أَيُّهَا النَّاظِرُ الْبَاحِثُ الْمُدَقِّقُ، فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ خَلَقَهُ فِي كَوْنِهِ؛ مِنْ تَبَايُنٍ واخْتِلَافٍ أَوِ اضْطِرابٍ وَتَخَلْخُلٍ عَنْ قُصْوَىٰ دَرَجاتِ إِتْقَانِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فَكُلُّ مَخْلُوقَاتِ اللهِ بَالِغَةٌ قُصْوَىٰ دَرَجاتِ إِتْقَانِهَا لِمَا خُلِقَتْ لَهُ، فَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا تَبَايُنٌ وَلَا تَنَاقُضٌ وَلَا اضْطِرَاب، وَلَا نُقْصَانٌ عَنْ كَمَالِ إِتْقَانِهَا لِمَا خُلِقَتْ لَهُ، ضِمْنَ نِظَامِ الْكَوْنِ التَّكَامُلِيِّ الْقَائِمِ عَلَىٰ وَحْدَةِ خُطَّةٍ عَامَّةٍ شَامِلَةٍ، كُلُّ جُزْءٍ فِيهَا يُؤَدِّي وَظِيفَتَهُ أَكْمَلَ أَدَاءٍ وَأَتْقَنَهُ، كَآلَةٍ عَظِيمَةٍ ذَاتِ أَجْزَاءٍ لَا يَعْلَمُ مِقْدَارَ أَعْدَادِهَا إِلَّا خَالِقُهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْأَجْزَاءِ مَوْضُوعٌ بِإِحْكَامٍ وَإِتْقَانٍ، فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُؤَدِّي فِيهِ وَظِيفَتَهُ أَحْسَنَ أَدَاء، دُونَ خَلَلٍ أَوِ اضْطِرَابٍ أَوْ تَبَايُنٍ وَتَنَاقُضٍ وَتَبَاعُدٍ عَنْ مَكَانِهِ.

- ﴿... فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④﴾:

- ﴿مِن فُطُورٍ﴾: أي: مِنْ شُقُوق، جَمْعُ «فَطْر».

- ﴿كَرَّتَيْنِ﴾: أي: رُجُوعاً مَرَّتَيْن، **الكَرَّة**: واحِدَة الْكَرِّ، وَهُوَ: الإعادَةُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة.

- ﴿خَاسِئًا﴾: **الْخَاسِئُ**: الذَّلِيلُ المطْرُودُ الْمُبْعَدُ.

- ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾: أي: وهُوَ كَالٌّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُتَابِعَ وَيُدَقِّق، إِذْ لَا يَجِدُ في مَخْلُوقَاتِ اللهِ مَا هُوَ دُونَ كَمَالِ الإتْقَانِ، مَهْمَا اتَّخَذَ مِن أَدَوَاتٍ تُكَبِّرُ الْأَشْيَاءَ الصَّغِيرَةَ مَلَايِينَ الْمَرَّاتِ، وتُقَرِّبُ الْأَشْيَاءَ الْبَعِيدَةَ فِي أَبْعَادِ السَّمَاءِ لِلْمُشَاهَدَةِ الْبَصرِيَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّهَا فِي مَدَىٰ خُطُواتٍ.

المعنى: فَأَعِدْ مُشَاهَدَتَكَ الْبَصَرِيَّةَ، وانْتَظِرْ مُتَأَنِّياً بَاحِثاً مُدَقِّقاً، واتَّخِذْ مَا شِئْتَ مِنْ مَجَاهِرَ مُكَبِّرَةٍ لِلصُّغْرَيَات، ثُمَّ كَرِّرْ مُشَاهَدَتَكَ بِتَعْظِيم المكَبِّرَاتِ وَتَحْسِينِهَا، وَاعْلَمْ أَنَّ بَصَرَكَ في آخِرِ مُحَاولَاتِ بَحْثِكَ وَتَدْقِيقِكَ رَاغِباً في أَنْ تَشْهَدَ تَفَاوتاً أَوْ تَفَوُّتاً فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ؛ يَنْقَلِبْ رَاجعاً إِلَيْكَ حَالَةَ كَوْنِهِ ذَلِيلاً عَاجِزاً، وَكَالًّا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَجِدَ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مَا هُو دُونَ كَمَالِ الإتْقَانِ.

إِنَّ رِجَالَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، الْعَاكِفِينَ عَلَىٰ مُشَاهَدَةِ الجراثِيمِ والمكْرُوبَاتِ بالمكَبِّرَاتِ العظيمَةِ لِلصُّغْرَيَاتِ؛ وَجَدُوا أَنَّ عَوالِمَ الصَّغَائِرِ عَوالِمُ مُتْقَنَةٌ غَايَةَ الإتْقَانِ، فَلَا تَفَاوُتَ فِيهَا وَلَا تَفَوُّتَ، وَلَا تَبَاعُدَ عَنْ كَمَالِ الإتْقَانِ بِأَقَلِّ مَسَافَةِ تَبَاعُد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّنْبِيهَ عَلَىٰ بَعْضِ آيَاتِهِ الْجَلِيلَةِ في كَوْنِهِ:

- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾:

- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾: يُؤَكِّدُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ بالْقَسَم المنوِيّ وبحرف «قَدْ» أَنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، وَهِيَ الغِلَافُ الْغَازِيُّ الْمُحِيطُ بالْأَرْض بِمَصابيح.

التَّزْيِينُ: التَّحْسِينُ والتَّجْمِيلُ.

بِمَصَابِيحَ: جَمْعُ «مِصْباحٍ»، وهُوَ السِّرَاجُ المضِيءُ، أطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ النُّجومِ وعلَىٰ الشُّهُبِ الَّتِي تُرَىٰ في السَّمَاءِ الدّنْيا اسم «مَصَابِيح» لِمَا فِيها مِن إضَاءَةٍ ذَاتِ زِينَة.

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾: أي: وَجعَلْنَا قِسْمَ الشُّهُبِ مِنْهَا رُجُوماً يُرْجَمُ بِهَا الشَّيَاطِينُ، لِطَرْدِهِمْ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنَ الملائكة، وهِيَ نَيَازِكُ مُنْبَثَّةٌ فِي الْفَرَاغِ فَوْقَ الْغِلَافِ الغازي المحيط بالْأَرْض، وهَـٰذِهِ الشُّهُبُ ذَاتُ وَظِيفَتَيْنِ:

الوظيفة الأولى: وَظيفة المشَارَكَةِ فِي تَزْيين السَّماءِ الدُّنْيَا للنَّاظِرِينَ فِي الأَرْض.

الوظيفَةُ الثَّانِيَة: وَظِيفَةُ مُلَاحَقَةِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، الَّذِينَ يَصْعَدُونَ مُتَرَاكِبِينَ إِلَىٰ عَنَانِ السَّمَاءِ، لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِن الملائكة، وقَدْ سَبَقَ بَيَانُ هـٰذَا لَدَىٰ تَدَبُّرِ سورة (الجنّ/ ٤٠ نزول).

أدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الشُّهُبَ ضِمْنَ عُمُومِ المصَابِيحِ لِمَا فِيهَا مِنْ زِينَةٍ، وَهِيَ الَّتِي جَعَلَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ مِنْ وَظائِفِهَا الغيبيَّةِ عَنْ إِدْرَاكِ النَّاس؛ أَنَّهَا رُجُومٌ للشَّياطِين.

- ﴿... وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾: أي: وَأَعْدَدْنا وَهَيَّأْنا بِعِنَايَةٍ مُشَدَّدَةٍ للشَّياطِين عَذَابَ السَّعِير، يُعَذَّبُونَهُ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

السَّعِير: النَّارُ، وقِيلَ: لَهَبُ النَّار.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بَعْدَ بَيَانِ مَا أَعْتَدَهُ للشَّيَاطِينِ، بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ بِوَجْهِ مَا مِنْ وُجُوهِ الكُفْر، عَطْفاً عَلَىٰ مَا جَاءَ في الآيَةِ الْخَامِسَة:

- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ

لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَاتِ عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، الْخَاصَّةِ بالْكَافِرِينَ بِرَبِّهم.

• ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: أي: ولِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ بِوَجْهٍ مَا مِنْ وُجُوه الكُفْر، كَتَكْذِيبِ رَسُولِهِ ﷺ، وكالتَّكْذِيب بِكتَابه، وَكالتَّكْذِيبِ بيَوْمِ الدِّينِ الَّذِي أَعَدَّهُ فِي خُطَّةِ التَّكْوِين لِلْجَزَاءِ، وَكإِنْكَارِ إِلَهِيَّتِهِ وَحقِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوه، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوه الكُفر؛ لِهؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابٌ بالْعَدْلِ خَالِدٌ فِي جَهَنَّمَ.

جَهَنَّم: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ دَارِ العذاب الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ بها الْكَافِرِينَ والْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّينِ، وهُو مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيث، ويُقَالُ لُغَةً لِلقَعْرِ البَعِيدِ: جهَنَّم. وبِئْرٌ جَهَنَّمٌ: أي: بَعِيدَةُ الْقَعْرِ.

وعَذَابُ جهنَّمَ أَشَدُّهُ عَذَابُ الْحَرِيقِ بِلَهَبِهَا، ومِنْ عَذَابِهَا السَّمُومُ الرِّيحُ الْحَارَّةُ الَّتِي تَنْفُذُ في مَسَامِ الأَجْسَادِ، وَعَذَابُهَا ذُو دَرَكَاتٍ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ بِحَسَبِ أَحْوَالِ مُسْتَحِقِّي الْعَذَابِ فِيهَا من العصاة.

• ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: **بِئْسَ**: فِعْلٌ لإِنْشَاءِ الذَّمِّ على سَبِيلِ المبالَغَةِ، وَفَاعِلُهُ «الْمَصِيرُ»، أي: بِئْسَ الْمَكَانُ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، وبِئْسَ الْحَالُ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، مِنْ فِعْلِ «صَارَ إِلَىٰ كَذَا» أي: انْتَهَىٰ إِلَيْهِ.

• ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾:

الشَّهِيقُ: أَخْذُ النَّفَسِ بِقُوَّةٍ إِلَىٰ دَاخِلِ الصَّدْرِ حَتَّىٰ امْتِلَاءِ الرِّئَتَيْنِ بِهِ، شُبِّهَ بِهِ أَخْذُ جهَنَّمَ الرِّيحَ مِنْ أَمَاكِنِ الرِّيحِ فِيهَا أَوْ مِنْ خَارِجِهَا إِلَىٰ بَاطِنِهَا

بِقُوَّةٍ، حَتَّىٰ يَمْتَلِئَ بَاطِنُهَا بِهَـٰذِهِ الرِّيحِ، ومِنَ نِظَامِ الكَوْنِ أَنَّ دُخُولَ الرِّيحِ إِلَىٰ بَاطِنِ شيءٍ مَا بِقُوَّةٍ يُعْطِي صَوْتاً خَاصّاً مُشَابِهاً لِشَهِيقِ الإِنْسَانِ إِلَّا أَنَّهُ أَشَدُّ.

- ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾: أي: وهِي في حَالَةِ شِدَّةِ اشْتِعَالِ النّار فيها، يُقَالُ لغة: «فَارَتِ النَّار» أي: اشْتَدَّ اشْتِعَالُهَا.

المعْنَىٰ: إِذَا أُلقِيَ الَّذِينَ كَفرُوا وَصَارُوا دَاخِلَ جَهَنَّمَ سَمِعُوا لَهَا صَوْتاً يُشَابِهُ صَوْتَ الشَّهِيقِ، إِلَّا أَنَّهُ شَهِيقٌ يُنَاسِبُ حَجْمَهَا وَكبر جَوْفِهَا، وهُوَ صَوْتٌ مُخِيفٌ مُرْعِبٌ إِرْعَاباً شَدِيداً.

- ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾: أي: تَكَادُ جَهَنَّمُ تَتَقَطَّعُ أَوْصَالُ دَاخِلِهَا مِنْ شِدَّةِ الْحَرَارَةِ لِتَنْفَجِرَ.

شُبِّهَتْ حَالَةُ الضَّغْطِ الحَرَارِي في دَاخِلِ جَهَنَّمَ بِالْغَيْظِ الشَّدِيدِ الَّذِي يُحِسُّ بِهِ المغْتَاظُ غَيْظاً شَدِيداً، وَهـٰذَا مِنْ رَوائِعِ التَّشبيهات، واسْتُعِيرَ لفظ «الْغَيْظِ» لِحَالَةِ الضَّغْطِ الحراريِّ الشَّدِيدِ دَاخِلَ جِبَالٍ وصُخُورٍ فِي جَهَنَّمَ.

- ﴿... كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾؟؟:

الْفَوْج: الْجَمَاعَةُ من النَّاس.

خَزَنَتُها: أي: الْمَلَائِكَةُ المكَلَّفُونَ حِرَاسَةَ أَبْوابِ جَهَنَّم.

المعنى: كُلَّمَا أُلْقِيَ في جَهَنَّمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ حَكَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ فِي جَهَنَّمَ؛ سَأَلَهُمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ المأْمُورُونَ بِحِرَاسَةِ أبْوابِ جَهَنَّمَ مِنَ المَلَائِكَة: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ صَادِقُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ رَبِّكُمْ بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، والْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَات، فَبَلَّغُوكُمْ مَطْلُوبَ اللهِ مِنْكُمْ فِي رِحلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَانَ آخِرُ أَمْرِهِمْ مَعَكُمْ أَنْ شَدَّدُوا فِي إِنْذَارِكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، وبِأَنَّهُ أَعْتَدَ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً فِي هَـٰذِهِ النَّارِ الَّتِي أُلْقِيتُمْ لِتُعَذَّبُوا فِيهَا بالْحَرِيقِ خَالِدِينَ؟؟.

- ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾:

أي: قَالُوا: بَلَىٰ، قَدْ جَاءَنَا رُسُلٌ صَادِقُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ رَبِّنَا بالْآيَاتِ الْبَيِّنَات، والمعجزاتِ الباهراتِ، فَبَلَّغُونَا مَطْلُوبَ اللهِ مِنَّا، وأَبَانُوا لَنَا أَنَّ الحَياةَ الدُّنْيَا رِحْلَةُ امْتِحَانٍ، وأَنَّها تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ، ثُمَّ نُبْعَثُ لاسْتِقْبَالِ حَيَاةٍ أُخرَىٰ يَكُونُ فِيهَا حِسَابٌ، وفَصْلُ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيذُ جَزَاءٍ في إحْدَىٰ دَارَين: فالجزاء بالْعِقَابِ يَكُونُ في النَّارِ، والجزاءُ بالثَّوابِ يَكُونُ فِي الجنَّة.

فَلَمْ نَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُلِ رَبِّنَا، وَكَذَّبْنَاهُمْ فيمَا بَلَّغُونَا عَنْهُ، وَقُلْنَا لَهُمْ: مَا نَزَّلَ اللهُ الرَّبُّ خَالِقُ الكَوْنِ وَمُدَبِّرُ أُمُوره مِنْ شَيْءٍ، واتَّهَمْنَاهُمْ بالضَّلَالِ الكَبِيرِ، وقُلْنَا لَهُمْ: مَا أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ، وَقالُوا فِي اعْتِرَافِ بِذُنُوبِهِمْ: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ مَا نَصَحَنَا بِهِ رُسُلُ رَبِّنَا سَمَاعاً مُؤَثِّراً في اسْتِجابَةٍ إيمَانِيَّةٍ وعَمَلِيَّة، أَوْ لَوْ كُنَّا نَعْقِلُ نُفُوسَنَا بإرَادَةٍ حَازِمَةٍ قَوِيَّةٍ عَنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِنَا وَشَهَوَاتِنَا وَمَتَاعَاتِنَا مِنْ زِينَةِ الْحَياةِ الدُّنْيَا؛ مَا كُنَّا فِي ضِمْنِ أَصْحَابِ السَّعِير، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّون الْخُلُودَ فِي عَذَابِ جَهَنَّم.

وَهُنَا يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اعْتِرَافَهُمْ بِذَنْبِهِمْ ويَقْضِي عَلَيْهِمْ بالْبُعْدِ الشَّدِيدَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾:

- ﴿فَسُحْقًا﴾: أيْ: فَبُعْداً شَدِيداً.

أي: فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمُ العظمَىٰ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ بِهَا الْخُلُودَ في عَذَابِ النَّارِ، فَبُعْداً شَدِيداً سَحِيقاً مُوَجَّهاً لِأَصْحَابِ النّار.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْب:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾﴾:

يُؤَكِّدَ اللهُ بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة» أَنَّ المؤمنِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وهُمْ مُلْتَبِسُونَ بِغَيْبِ حَوَاسِّهِمْ عَنْهُ، وَمُكْتَفُونَ بالإيمانِ بِعَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ إيمَاناً فِكْرِيًّا؛ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ مَغْفِرَةٌ مَا لِذُنُوبِهِمْ بِحَسَبِ مُقْتَضَيَاتِ حِكْمَتِهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عِنْدَهُ يَوْمَ الدِّينِ أَجْرٌ كَبِير في جَنَّاتِ النَّعِيم.

- ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾: أي: يَخَافُونَ خَوْفاً مَمْزُوجاً بإِعْظَامٍ وَإِكْبَارٍ وإِجْلَالٍ وَحُبّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ كُلَّ الصَّالِحِينَ المؤهَّلِينَ لِخِطَابِهِ مِنْ عِبَادِهِ:

- ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾:

الإِسْرَارُ بالْقَوْلِ: إِخْفَاؤُهُ وعَدَمُ رَفْعِ الصَّوْتِ بِهِ.

الْجَهْرُ بالْقَوْلِ: رَفْعُ الصَّوْتِ بِهِ حَتَّىٰ يَسْمَعَهُ الْجُلَسَاء وَنَحْوُهم.

المعنى: سواءٌ بالنِّسْبَةِ إلى عِلْم اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِأَقْوالِكُم أَنْ تُسِرُّوهَا وأَنْ تَجْهَرُوا بِهَا، إِنَّهُ ـ جلَّ جَلالُهُ وأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شيءٍ ـ عَلِيمٌ بِصَاحِبَةِ الصُّدُورِ الَّتِي تُلازِمُهَا وَلَا تُفارِقُهَا، كالنِّيَّاتِ من الأعْمَالِ، والإرَادَاتِ، والْحُبِّ والْكَرَاهِيَةِ، وَمَا يَظْهَرُ إِنَّمَا هِيَ آثَارٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا دَلَالَةً عَقْلِيَّةً، وقَدْ تَكُونُ الآثَارُ كَاذِبَاتٍ، فَتَسْقُطُ دَلَالَاتُها.

كَيْفَ لَا يَعْلَمُ ـ جلَّ جَلالُهُ ـ ذَوَاتِ الصُّدُورِ، وهُوَ خَالِقُ مَنْ لَهُمُ الصُّدُورُ، وخالِقُ نُفُوسِهِمْ وقُلُوبِهِمْ وكُلِّ صِفَاتِهَا وقُدُرَاتِها؟!.

- ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾؟!:

اللَّطِيفُ: أي: الَّذِي تَدْخُلُ آثارُ صِفَاتِهِ وَمِنْهَا آثَارُ صِفَةِ عِلْمِهِ كُلَّ شَيْءٍ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً دَقِيقاً، وَخَفِيًّا عَمِيقاً.

الْخَبِيْر: أي: الْعَلِيمُ بِالدَّقَائِقِ والصِّفَاتِ البَاطِنَة عِلْماً على سبيل الشُّهُودِ والْحُضُورِ المصَاحِبِ لِكُلِّ أجْزَاءِ الْعَمَلِ ظَواهِرِهِ وَبواطِنِهِ، والشَّاهِدُ لِكُلّ الظَّواهِرِ والبواطن.

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾:

- ﴿ذَلُولًا﴾: أيْ: سَهْلَةً مُيَسَّرَةً لِقَضَاءِ المصَالِحِ عَلَيْهَا، لَا عَسِرَةً وَلَا صَعْبَةً كَجِبَالٍ ذَاتِ شَوَاهِقَ كالْمِسَلَّات، بَلْ فيهَا سُهُولٌ وَوِدْيَانٌ وَجِبَالٌ يَسْهُلُ ارْتِقَاؤُهَا، وَتَمْهِيدُهَا، وبِنَاءُ الْقُصُورِ عَلَيْهَا.

- ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾: **المنْكِبُ**: ناحِيَةُ كُلِّ شيء، والمرتَفِعُ مِن الْأَرْض، وَجَمْعُهُ «الْمَنَاكِب».

- ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾: أي: وَإِلَىٰ حِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ؛ الإحْيَاءُ بَعْدَ الموْتِ، يَوْمَ الْقِيَامَة. **النُّشُور**: الإحياءُ بَعْدَ الموتِ.

المعنى: اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُهُ ـ هُو الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أيُّها النَّاسُ ـ رُبَمَا بَعْدَ أطْوَارٍ مِنَ التَّكْوِينِ ـ الأرْضَ سَهْلَةً مُيَسَّرَةً لِقَضَاءِ مَصَالِحِكُمْ عَلَيْهَا. وإِذْ جَعَلَهَا كَذلِكَ فَامْشُوا في نَوَاحِيهَا الْمُرْتَفِعاتِ مِنْهَا، كالتِّلَالِ والْجِبَالِ الصُّغْرَىٰ والكُبْرَىٰ، عَامِلِينَ فِي اكْتِسَابِ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ رِزْقِ اللهِ الَّذِي يُيَسِّرُهُ لَكُمْ، من حَيوانٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ زَرْعٍ فَكُلُوا مِنْهُ وانتفعوا به، واحْرِصُوا أنْ يَكُونَ حَلالاً طَيِّباً، وَلَا تَغْفُلُوا عَنْ كَوْنِكُمْ فِي حَيَاةِ ابْتِلَاءٍ تُخْتَبَرُ فيها إرَادَاتُكُمُ الْحُرَّةُ، في الْتِزَامِ مَرَاضِي اللهُ عَلَىٰ دَرَجَاتِهَا، أو الانْحِدَارِ في مَسَاخِطِ اللهِ عَلَىٰ دَرَكَاتِهَا، واعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُحَاسَبُونَ عَلَىٰ مَا تُقَدِّمُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، وَمَجْزِيُّون عَلَيْهِ بِحَسَبِهِ خَيْراً أَوْ شَرّاً، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ يَبْعَثُكُمْ رَبُّكُمْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْت، واعْلَمُوا أَنَّ نُشُورَكُمْ سَوْفَ يَكُونُ إلى حِسَابِ اللهِ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ مُوجِّهاً خِطَابَهُ لِلْكَافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جاءَهُمْ عَنْهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾:

• ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: أي: فَإِذَا هِيَ تَتَحَرَّكُ وَتَضْطَرِبُ وَتَتَدَافَعُ أجْزَاؤهَا، وتختَلِطُ أوْصَالُ أَجْسَادِكُمْ بالأجْزَاءِ المتحرّكة المضطربَةِ مِنَ الأَرْضِ.

• ﴿حَاصِبًا﴾: أي: رِيحاً تَحْمِلُ التُّرَابَ والْحَصْبَاءَ (صِغَارَ الحجارة)، فَتَضْرِبُ بها الأشياء، فَيُصِيبُ اللهُ بِهَا مَنْ يَشَاء.

• ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾: أي: كَيْفَ إِنْذَارِي لَكُمْ.

• ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي: كَيْفَ إِنْكَارِي، وكَيْفَ عِقَابِي، **النَّكِير**: يأتي بِمَعْنَىٰ الإنْكَارِ، وبِمَعْنَىٰ الْعِقَابِ.

• ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: أي: باسِطَاتٍ أجْنِحَتَهَا إِذْ يَكُونُ رِيشُ كُلِّ جَنَاحٍ مُصْطَفًّا رِيشَةً إلى جَانِبِ رِيشَةٍ بِنظَامٍ بَدِيعٍ، يَجْعَلُ الرِّيحَ في الْجَوِّ يَحْمِلُ الطَّيْرَ وَلَوْ تَوَقَّفَتْ عَنْ تَحْرِيكِ أَجْنِحَتِهِنَّ، وَهٰذَا مِنْ إِبْدَاعِ خَلْقِ اللهِ وإِتْقَانِ صُنْعِهِ.

• ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: أي: وَيَقْبِضْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ، فَيَجْمَعْنَ رِيشَهَا إِلَىٰ جِهَةِ صُدُورِهِنَّ، وهٰذَا مِنْ إبْدَاعِ خَلْقِ اللهِ وإتقان صُنْعِهِ.

- ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمۡ﴾: أي: عَسكَرٌ لَكُمْ، يُقَالُ: «هذا جُنْدٌ» بالإفراد، لِأَنَّ لفظ «جُنْدٍ» مُفْرَدٌ، مِثْل: جَيْش، وحِزْب، وجَمْعُ «جُنْدٍ» أَجْنَاد.

- ﴿فِي غُرُورٍ﴾: أي: مُنْغَمِسُونَ فِي خَدِيعَةٍ، وطَمَعٍ بالباطل، **الْغُرور**: مَصْدَر «غَرَّهُ»، يُقَالُ لُغَةً: «غَرَّهُ، يَغُرُّهُ، غَرّاً، وغُروراً، وغِرَّةً» أي: خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بالْبَاطِلِ.

- ﴿بَل لَّجُّواْ﴾: أي: بَلْ ثَبَتُوا مَلَازِمِينَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ إصْراراً عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ.

- ﴿فِي عُتُوٍّ﴾: أي: في اسْتِكْبَارٍ وَتَجَاوُزٍ في سُبُلِ الضُّرِّ والشَّرِّ والْفَسَادِ. **الْعَاتي**: الجبَّارُ، والشَّدِيدُ الدُّخُولِ في الْفَسَادِ والشَّرِّ.

- ﴿وَنُفُورٍ﴾: **النفور**: الإعْرَاضُ والصَّدُّ والابْتِعَادُ كَحَالَةِ الْمَذْعُورِ الشَّارِد.

المعنى: يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الكَفَرَة المكَذِّبِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ مواقِفِهِمُ الكُفْرِيَّةِ، مُقْنِعاً، وَمُوبِّخاً، ومُنْذِراً، فيقُولُ لَهُم:

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ أَنْ يَخسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ، فَيُغَيِّبَكُمْ فِي بَاطِنِهَا، فإِذَا هِي تَتَحَرَّكُ وَتَضْطَرِبُ وتتدافَعُ أَجْزَاؤها، فَتَخْتَلِطُ أَوْصَالُ أَجْسَادِكُمْ بِهَا، إِذْ هِيَ تَمُور.

بَلْ؛ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً، رِيحاً تَحْمِلُ التُّرَابَ وَصِغَارَ الحجارَةِ، فَيُعَذِّبَكُمْ بِهَا ضَرْباً وإِهْلَاكاً.

إذا أصْرَرْتُم عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِن كُفْرِيَّاتٍ، وَخَسَفْتُ بِكُمُ الْأَرْضَ، أَوْ أَرْسَلْتُ عَلَيْكُمْ حَاصِباً مِنْ فَوْقِكُمْ، فَعَذَّبْتُكُمْ ثُمَّ أَهْلَكْتُكُمْ؛ فَسَتَعْلَمُونَ قَبْلَ مَوْتِكُمْ كَيْفَ كانَ إِنْذَارِي لَكُمْ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ مُجْرِمِين، وَتَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ في عَذَابِ النَّارِ الَّتِي

أَعْتَدْتُهَا لِلْكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ، وَقَدْ كُنْتُ أَنْبَأْتُكُم بِهٰذَا فِي رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ.

وَتَوَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُلْتَفِتاً عَنهُمْ، وَمُخَاطِباً أَهْلَ الْعَقْلِ والْفِكْرِ والرُّشْدِ، بِشَأْنِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ مُؤَكِّداً بالْقَسَمِ الْمَنْوِي وبحرف «قد»:

- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾: أي: وأُقْسِمُ لَقَدْ كَذَّبَ كُفَّارُ قُرُونٍ سَابِقَاتٍ مِنْ قَبْلِهِمْ رُسُلِي وبِمَا بَلَّغُوهُمْ عَنِّي؛ فَعَذَّبْتُهُمْ بِمُهلِكَاتٍ سَاحِقَاتٍ مَاحِقَاتٍ، فتفكَّرُوا كَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي وَعِقَابي.

وَتَابَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحَدِيث عَنْهُمْ فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾:

أي: أفقَدُوا أبْصَارَهُمْ وَلَمْ يَرَوا نَاظِرِينَ إلى الطَّيْرِ حَالَةَ كَوْنِهِنَّ في جَوِّ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ، وَهُنَّ صَافَّاتٍ باسِطَاتٍ أجْنِحَتَهُنَّ، وَيَقْبِضْنَ أَجْنحَتَهُنَّ أَحْيَاناً، وَلَمْ يَتفكَّرُوا لِيَعْلَمُوا حَقِيقَةَ أَنَّهُ مَا يُمْسِكُهُنَّ فِي جَوِّ السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ الرَّحْمَنُ الَّذِي أتقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنعاً، وَمِنْ إِتْقَانِ صُنْعِهِ أَنْ جَعَلَ نِظَامَ الْهَوَاءِ يَحْمِلُ الطَّيْرَ في جَوِّ السَّمَاء، وظَهَرَ في عصرِنَا أَنَّهُ يَحْمِلُ الطَّائِرَاتِ الكُبْرَىٰ بِلُطْفِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وإتْقَانِ صُنْعِهِ في كَوْنِهِ.

- ﴿... إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾: أي: فَهُوَ بإحَاطَةِ بَصَرِهِ كُلَّ شَيْءٍ؛ يَحْمِي بِرَحْمَتِهِ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ مَا يَطِيرُ في جَوِّ السَّمَاءِ، وَمَنْ تَحْمِلُهُ المراكِبُ الطَّائِرَة في جَوِّ السَّمَاء، وإذَا شَاءَ أسْقَطَ مَا شاء وَمَنْ شاء.

واقتضت حِكْمَةُ التَّنْوِيع في تَوْجِيهِ الْخِطَاب الْعَوْدَةَ إلى خِطَاب الكافِرِينَ المكَذِّبِينَ بِمَا جَاءَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ:

• ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: بَلْ مَنِ الَّذي تُشيرُونَ إلَيْهِ باسْمِ الإشارَةِ: «هٰذَا»، وتَزْعُمونَ أنَّهُ جُنْدٌ لَكُمْ مُتَوَحِّدُ الْقُوَّة كجَيْشٍ مُترابِطٍ بِنِظَام واحِدٍ، ولَهُ قُدْرَةٌ عَلَىٰ أَنْ يَنْصُرَكُمْ وَهُوَ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ، إِذَا أَرادَ الرَّحْمٰنُ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُعامِلَكُمْ بالْعَدْلِ، ويُنْزِلَ بِكُمْ عَذابَهُ وعِقَابَهُ وَأَنْ يُهْلِكَكُمْ؟؟!!.

اسْتِفْهَامٌ لَا يَسْتَطِيعُونَ الإجابَةَ عَلَيْهِ، إِذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ مَنْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ قَائِلِينَ: هٰذَا جُنْدٌ لَنَا يَنْصُرُنَا إِذا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَنَا وَيُهْلِكَنَا. ولِهٰذَا جَاءَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِي عَقِبَ الاسْتِفهام بقول الله تَعالَىٰ:

• ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾: أي: مَا الْكَافِرُونَ إِلَّا مُنْغَمِسُونَ في مُحِيطٍ بِهِمْ، مِنْ خِدَاعٍ لَهُمْ وَإِطْمَاعٍ بالْبَاطِلِ.

وتَابَعَ اللهُ تبارَكَ وَتَعالَىٰ تَوْجِيهَ خِطَابِهِ لهم بِشَأْنِ رِزْقِهِمْ: فَقَالَ لَهُمْ مَا مَعْنَاهُ: بَلْ؛ مَنِ الَّذِي تُشِيرُونَ إِلَيْهِ باسْمِ الإشَارَةِ: «هٰذَا»، وَتَزْعُمُون أَنَّهُ يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ الرَّحْمٰنُ عَنْكُمْ بِحِكْمَتِهِ الرِّزْقَ وأَسْبَابَهُ، وهُو مِنْ حَاجَاتِكُمُ الْيَوْمِيَّةِ الضَّرُورِيَّة؟؟!!.

اسْتِفْهَامٌ لَا يَسْتَطِيعُونَ الإجابَةَ عَلَيْهِ، إذ لَيْسَ لَدَيهِم مَنْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ قَائِلِينَ: هٰذَا الَّذِي يرْزُقُنَا إِنْ أَمْسَكَ الرَّحْمٰنُ بِحِكْمَتِهِ عَنَّا رِزْقه.

ولِهٰذَا جاءَ البَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَقِبَ الاسْتِفْهَامِ بِقَولِ اللهِ تَعالَى:

• ﴿... بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾: أي: لَا يَكُونُ مِنْهُمْ إِجَابَةٌ مَا عَلَىٰ السؤال، بَلْ يُعَانِدُونَ ثَابِتِينَ مُلازِمِين مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ إِصْرَاراً عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، ويكُونُ مِنْهُمْ عُتُوٌّ، اسْتِكْبَارٌ، وَتَجَاوُزٌ في سُبُلِ الضُّرِّ والشَّرِّ والْفَسَادِ والإفْسَاد، ويَكُونُ مِنْهُمْ نُفورٌ عَنِ الْهُدَىٰ والحَقِّ الرَّبَّانِيِّ والخيْرِ،

كَحالَةِ المذْعُورِ الشَّارِد، لكِنَّهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ مُعانِدُونَ كَارِهُون قَبُولَ الْهُدَىٰ والاسْتِجَابَة لِدَعْوَةِ الْحَقّ.

وبَعْدَ أنْ جاءَ فِي هـٰذَا الدَّرْسِ مِنَ السُّورَةِ أدِلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ، وأَدِلَّةٌ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ المشْهُودَة، وهَـٰذِهِ الأَدِلَّةُ ذَاتُ دَلَالاتٍ بُرْهَانِيَّةٍ وإقْنَاعِيَّةٍ عَلَىٰ جُمْلَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّب الْخَالِقِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ، وبَعْدَ أنْ جاءَ فِيها مُحاصَرَةٌ لِنُفُوسِ الْمُكَذِّبِينَ بالرَّغَبِ والرَّهَبِ مِنْ مُخْتَلِفِ جَوَانِبِهَا، حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ لِذِي فِكْرٍ سَلِيمٍ، ولُبٍّ حَصِيفٍ واعٍ؛ مَهْرَبٌ مِنْ هـٰذَا الْحِصَارِ الْفِكْرِي والنَّفْسِيّ:

عِنْدَ هـٰذَا الموقِفِ نُلَاحِظُ أَنَّ الْبَيَانَ الْأَدَبِيَّ الْبَلِيغَ الرَّفِيعَ؛ يَتَوَجَّهُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ لم يُؤَثِّرْ فِيهِ هـٰذَا الْحِصَارُ الْفِكْرِيُّ المقْنِعُ لأرْبَابِ الْعُقُولِ وأُولِي الألْبَاب، وَلَا هـٰذَا الْحِصَارُ النَّفْسِيُّ الْمُحَرِّكُ لِمَحَاوِرِ الرَّغَبِ والرَّهَبِ فِي النَّفْسِ الْإنْسَانِيَّةِ؛ فَهُوَ كالدَّوابِ الَّتِي تَمْشِي على أَرْبَعٍ أَوْ كَالْأَنْعَام، وَعَلَيْهِ أَنْ لَا يَضَعَ نَفْسَهُ في نَوْعِ الْبَشَرِ الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللهُ، فَخلَقَهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، وجَعَلَ لَهُمْ قَامَاتٍ مُنْتَصِبَاتٍ، وَرُؤُوساً مُرْتَفِعَةً، لِأَنَّ مَكَانَهُ إِذْ هَـٰذِهِ حَالَتُهُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ اللَّوَاتِي تَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ، خافِضَ الرأسِ مُكِبًّا على وَجْهِهِ، ضِمْنَ قُطْعَانِ الْأَنْعَامِ والدَّوابِّ الَّتِي تَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَع.

لَكِنَّ النَّصَّ القرآنِيَّ الْبَلَاغِيَّ الْأَدَبِيَّ الرَّفِيعَ لَمْ يَقُلْ عِنْدَ هـٰذَا الموْقِف: فَمَنْ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ هـٰذَا الْحِصَارُ الْفِكْرِيُّ والنَّفْسِيُّ فَهُوَ مِنَ الْحَمِير أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الدَّواب، أَو فَهُوَ مِنَ الْبَقَرِ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَنْعَام.

بَلْ طَوَىٰ النَّصُّ هـٰذَا الْحُكْمَ التَّشْبِيهِيَّ، وَقَدَّمَ ما يُشِيرُ إِلَيْهِ إِشَارَةً بَارِعَةً يُدْرِكُهَا الذَّكِيُّ باللَّمحِ، عَلَىٰ طَرِيقَةِ تَساؤلٍ طَرَحَهُ لانْتِزَاعِ الاعْتِرَافِ بِنَفْيِ التَّساوِي بَيْنَ الإنْسَانِ المفكِّرِ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي حَيَاتِهِ بِمُقْتَضَىٰ فَهْمِهِ

السَّلِيم لِلْأُمُورِ؛ وَبَيْنَ الدَّوابّ الَّتِي تَمْشِي عَلَىٰ أَرْبعٍ، والْأَنْعَامِ الَّتِي تَتَدافَعُ في قُطْعَانِهَا عَلَىٰ غَرَائِزِهَا وَشَهَوَاتِهَا.

وقَدْ جَاءَ فِي هٰذَا التَّسَاؤُلِ اسْتِخْدَامُ إحْدَىٰ الظَّوَاهِرِ الَّتِي هِيَ مِنْ خَصَائِصِ الدَّوابّ والْأَنْعَام، وهي ظَاهِرَةُ مَشْيِهَا عَلَىٰ أَرْبَعٍ وَأَعْنَاقُهَا وَرُؤوسُهَا مُتَطَامِنَةٌ، فَهِيَ مُكِبَّةٌ عَلَىٰ وُجُوهِهَا.

وَلَمْ يُذْكَرْ في التَّسَاؤُل لَفْظُ الدَّوَابِّ أَوِ النَّعَمِ، وَلَا مَا يُقَابِلُهُ مِثْل لفْظِ النَّاسِ أَوِ الْبَشَرِ، بَلْ جَاءَ فِيهِ لَقْطَةٌ لِجَانِبٍ جُزْئِيٍّ مِنَ الصُّورَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ النَّوْعِ غَيْرِ الإنْسَانِيّ، ولقْطَةٌ وَصْفِيَّةٌ أُخْرَىٰ لِجَانِبٍ جُزْئيٍّ مِنَ الصُّورَةِ المقابِلَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ النَّوْعِ الإنساني.

وَذَلِكَ لِأَنَّ ذِكْرَ لَقْطَةٍ تَصْوِيرِيَّةٍ مَا هِيَ مِنْ خَوَاصِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ كَافِيَةٌ لِأَنْ تَدُلَّ عَلَيْهِ في الْأَسَالِيب الأدَبِيَّةِ الْبَلاغِيَّةِ الرَّاقِيةِ البارِعَةِ المهَذَّبَة، ويُعْطِيهَا الْبَلَاغِيُّونَ عُنْوان «الكِنَاية».

■ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي طَرْحِ التَّسَاؤُلِ لانْتِزَاعِ الاعْتِرَافِ الدّالِّ عَلَىٰ المقْصُودِ، دُونَ تَوْجِيهِ الْخِطَابِ لمخاطبٍ أو مُخَاطَبِينَ مُعَيَّنِينَ:

- ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:
- ﴿مُكِبًّا﴾: أي: يَمْشِي مُنَكِّساً رَأسَهُ كَمَا يَمْشِي الْحِمَارُ والثَّورُ لَا كَمَا يَمْشِي الإنْسَان، يقال لغة: «أَكَبَّ الرَّجُلُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يُكِبُّ إكْبَاباً» أي: نَكَّسَ رَأْسَهُ.

ويظْهَرُ لِلْمُتَدبِّرِ مِنَ التَّقابُلِ المتَبَايِنِ بَيْنَ مَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ؛ وَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم؛ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِن التَّخَالُفِ في الأمُورِ التالِيَة:

(١) أَنّ الثَّانِي يَمْشِي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، بِخِلَافِ الأَوَّل المكِبِّ

عَلَىٰ وَجْهِهِ، إِذْ هو تائِهٌ ضَالٌّ لَا يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ طَرِيقاً مُسْتَقِيمَةً واضِحَة.

(٢) أَنَّ الثَّانِي يَمْشِي سَوِيًّا عَالِماً طَرِيقَهُ مُشَاهِداً لَهُ، بِخِلَاف الْأَوّل، فَهُوَ يَمْشِي غَيْرَ سَوِيٍّ، وهُوَ مُكِبٌّ عَلَىٰ وَجْهِهِ لَا يَرَىٰ طَرِيقَهُ.

(٣) أَنَّ الثّانِي يُتَابِعُ سَيْرَهُ دُونَ عَثَرَاتٍ، لِأَنَّهُ يَمْشِي سَوِيًّا مُشَاهِداً طَرِيقَهُ، وَعَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم غَيْرِ مُتَعَرِّجٍ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ أو مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ، وَلَيْسَ في سَطْحِهِ ارْتِفَاعَاتٌ وانخفاضَاتٌ وحُفَرٌ وَعَقَبَاتٌ وَمَسَاقِط، بخلاف الأول، إذْ هُو يُتابِعُ سَيْرَهُ فِي مَتَاهَاتِهِ فَيَتَعَرَّضُ إِلَىٰ عَثَرَاتٍ كثيراتٍ يَنْكَبُّ فِيهَا عَلَىٰ وَجْهِهِ، لأنَّهُ يَمْشِي غَيْرَ سَوِيٍّ، وَلَا يُشَاهِدُ طَرِيقَهُ مُشَاهَدَةً تَامَّةً، وَمَتَاهَاتُهُ لا اسْتِقَامَة فِيهَا، بَلْ هِيَ مُتَعَرِّجَةٌ وفيها ارْتِفَاعَاتٌ وانْخِفَاضَاتٌ وحُفَرٌ وعَقَبَاتٌ وَمسَاقِطُ وَمَزَالِق.

فَأَيُّ المتقابِلَيْنِ أَهْدَىٰ؟!.

سُؤَالٌ لَا يَحْتَاجُ جَوَاباً يُصَرَّحُ بِهِ لبداهَتِهِ، وهَكَذَا كَانَ الاخْتِيَارُ الْبَلاغِيُّ القرآني.

الشَّرحُ الأدبيّ:

(١) عبارة: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ تَدُلُّ بِلَقْطَتِهَا التَّصْوِيرِيَّة عَلَىٰ الدَّوابّ والنَّعَم، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَمْشِي مُكِبَّةً عَلَىٰ وُجُوهِهَا، أي: تَمْشِي وَوُجُوهُهَا مُكِبَّةٌ غَيْرُ مُرْتَفِعَةٍ، وَصُورَةُ الْوَجْهِ المكبِّ فِي اتِّجاهِ الأَرْضِ لِمَاشٍ عَلَيْهَا تَسْتَدْعِي في الذِّهْنِ تِلْقَائِيًّا أَنَّ وَرَاءَهَا جِسْمَ حِمَارٍ أَوْ بَغْلٍ أَوْ ثَوْرٍ أَوْ نَحوِهَا مِنَ الدَّوابّ والنَّعم لَا تَفْهَمُ وَلَا تَعِي دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الْكَلَامِيَّةِ الْفِكْرِية، وَلَا تَقْتَنِعُ بالْبَيَانَاتِ الْخَاصَّةِ بِنَوْعِ الإِنْسَانِ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم.

واسْتِخْدَامُ كَلِمَةِ «مَنْ» الْخَاصَّةِ بِالْعُقَلَاءِ؛ يُشْعِرُ بِأَنَّ المقْصُودَ بالْوَصْفِ

إنْسَانٌ مَسَخَ نَفْسَهُ بِتَوَلِّيه عَنْ آياتِ اللهِ وبياناتِهِ، وَعَدَمِ اسْتِجابَتِهِ لِوَسَائِلِ مُحاصَرتِهِ الْفِكْرِيَّةِ والنَّفسِيَّة، فَجعَلَهَا بِمَثابَةِ وَاحِدٍ مِنْ قُطْعَانِ الدَّوابِّ أو النَّعم.

(٢) وعِبَارَةُ: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ تَدُلُّ بِلَقْطَتِهَا التَّصْويريَّة عَلَىٰ إنْسَانٍ خَلَقَهُ اللهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، وتَدُلُّ ضِمْناً عَلَىٰ خَصَائِصِه الْفِكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّة.

(٣) وعِبَارَةُ: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تَدُلُّ عَلَى المقصودِ مِنْ طَرْحِ التَّسَاؤُلِ الْهَادِفِ إِلَىٰ نَفْي التَّسَاوِي بَيْنَ النَّوعَيْنِ.

ونَفْيُ التَّسَاوِي لَيْسَ المقْصُودُ مِنْهُ مُجَرَّدَ التَّبَايُنِ في الصُّورَةِ الْخَلْقِيَّةِ بَيْنَ مُكبٍّ عَلَىٰ وَجْهِهِ وَمَاشٍ نَاصِبِ الْقَامَةِ سَوِيٍّ، ولكِنْ بَيْنَ مَاشٍ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يُوصِلُهُ إِلَىٰ الْغَايَةِ السَّعِيدَةِ المنْشُودَة بِمُوَجِّهٍ مِنْ عَقْلِهِ ومِنَ الهداية الرَّبَّانِية؛ وَمَاشٍ عَلَىٰ غَيْرِ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، فَهُوَ يَتَخَبَّطُ فِي المتاهَاتِ، ويَضِلُّ فِي السُّبُلِ، وَلَا يَصِلُ إِلَىٰ غايَتِهِ السَّعِيدَةِ المنْشُودَةِ.

واكْتَفَىٰ النَّصُّ بِذِكْرِ المشْي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم بِجانِبِ نَاصِبِ الْقَامَةِ السَّويّ عَنْ ذِكْرِ مُقَابِلِهِ، إِذِ الصُّورَةُ في الْمُقَابِلِ تَدُلُّ عَلَى ضِدِّهَا في المقَابِلِ الآخَرِ، لِأَنَّ الطَّرْحَ قَدْ بَدَأَ بِتَسَاؤلٍ يَعْرِضُ في مَضْمُونِهِ نَفْي التَّسَاوِي بَيْنَ مُتَبَايِنَيْن.

وقَدْ فَهِمْنَا بالذَّكَاء ضِمْنَ أَسْلُوبِ التَّقَابُلِ بَيْنَ الصُّوَرِ المتَضَادَّةِ أَنَّ الكَلَامَ عَلَىٰ تقدير:

أفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا على وَجهِهِ كالدَّوَابِّ والْأَنْعَامِ يتخبَّطُ في السُّبُلِ عَلَىٰ غَيْرِ هُدَىٰ؛ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا نَاصِبَ الْقَامَةِ مَرْفُوعَ الرَّأْسِ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم يُوصِلُهُ إلى سَعَادَتِهِ عَلَىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ وَأَقْوَمِهِ.

واكْتَفَىٰ النَّصُّ أيْضاً بِدَلَالَة عبارة: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ في النَّوْعِ

الأوّل؛ عَنْ ذِكْرِ عِبارَةِ: «نَاصِبَ القَامَةِ مَرْفُوعَ الرأس» في النَّوْعِ الثَّانِي، لِأَنَّ التَقابُلَ بَيْنَ النَّوْعَيْن هُوَ تَقابُلُ تَضادٍّ في الصِّفَاتِ.

واكْتَفَىٰ النَّصُّ أيْضاً بِدَلَالَةِ عبارة: ﴿سَوِيًّا﴾ في النَّوْعِ الثَّانِي؛ عَنْ ذِكْرِ ضِدِّهَا في النَّوْعِ الْأَوَّل.

فَإِذَا أَرَدْنَا إبْرازَ الْمَطْوِيّاتِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا النَّصُّ بإشَارَاتِهِ، وَبِلَوَازِمِهِ الْفِكْرِيَّة، وبِمُقْتَضَىٰ التَّقَابُلِ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ في صِفَاتِهِما المتَضادَّةِ، وَمَا لَا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَهُ بِمُقْتَضَىٰ التقابُلِ والتَّكامُلِ، وَجَدْنَا أنْفُسَنَا أَمَامَ الْبَيَانِ التَّحْلِيلِيِّ التَّالِي:

أَفَمَنْ مَسَخَ نَفْسَهُ واحِداً مِن الدَّوابِّ أو الْأَنْعَامِ، فَصَارَ كالَّذِي يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ، يَتَخَبَّطُ في السُّبُلِ والمتاهَاتِ على غَيْرِ هُدىً، ضَالًّا عَنِ الصِّراطِ الْمُسْتَقِيم، بِسَبَبِ تَوَلِّيهِ عَنْ آيَاتِ اللهِ وَبَيَانَاتِهِ، وَرَفْضِهِ لِوَسائِلِ إقْنَاعِهِ الْفِكْرِيِّ والنَّفْسِيِّ الَّتِي قَدَّمَهَا لَهُ الْقُرْآنُ المجيد؛ أَكْثَرُ هدايَةً تُوصِلُهُ إِلَىٰ مَا يَتَمَنَّىٰ مِنْ وُجُودِهِ فِي الحياة؛ أَمَّنْ أَبْقَىٰ لِذَاتِهِ إنْسانِيَّتَهُ الْعَاقِلَةَ الرَّشِيدَة، فَهُوَ يَمْشِي نَاصِبَ الْقَامَةِ مَرْفُوعَ الرَّأس عَلَىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ، يُوصِلُهُ إِلَىٰ ما يَتَمَنَّىٰ مِنْ وُجُودِهِ في الْحَيَاة.

إِنَّ الجوابَ الْحَتْمِيَّ لِهٰذَا التَّسَاؤُلِ الَّذِي يُجِيبُ به أولو الألْبَاب هُوَ مَا يلي:

إِنَّ النَّوْعَ الثَّانِي هُوَ الْأَهْدَىٰ لَا مَحالَة، أَمَّا النَّوْعُ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ ضَالٌّ تَائِهٌ غَبِيٌّ كَالْأَنْعَامِ أَوْ هُوَ أَضَلُّ سَبِيلاً.

وَجَاءَت عِبارَة: ﴿أَهْدَىٰ﴾ الَّتِي قَدْ تَدُلُّ عَلَىٰ المشَارَكَةِ في أَصْلِ الْهِدَايَةِ انْسِجاماً مَعَ حَالِ المشَبَّهِ بِهِ، إِذِ الدَّوَابُّ والْأَنْعامُ لَهَا هِدَايَةٌ ما بِغَرَائِزِها.

أَمَّا الإنْسَانُ الَّذِي مَسَخَ نَفْسَهُ بِرَفْضِهِ آيَاتِ اللهِ البيِّنَاتِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ

سَبِيلاً مِنَ الْأَنْعَام، لِأَنَّهُ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ، وَتَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، فَلَيْسَ لَهُ هِدَايَةٌ ما، وَقَدْ تُرِكَ فَهْمُ هٰذَا لِذَكَاءِ المتَدَبِّرِ لِمَرَامِي النَّصّ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الْأَوَّلِ من دُرُوس سورة (الْمُلْك).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دَرسَي سورة (المُلك)

الآيات من (٢٣ ـ ٣٠) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ (٣٠)﴾:

القراءات:

(٢٧) • قرأ يَعْقُوب: [**تَدْعُونَ**] دون تَشْدِيد الدال.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تَدَّعُونَ**] بتَشْدِيدِ الدَّال.

(٢٨) • قرأ حمزة: [**أَهْلَكَنِي اللهُ**] بإسْكَان يَاءِ المتكلّم.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَهْلَكَنِيَ اللهُ**] بِفَتْحِ يَاءِ المتكلّم.

(٢٨) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وحفص، وأبو جعفر: [وَمَنْ مَعِيَ أَوْ] بِفَتْحِ ياءِ المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ ياء المتكلّم.

(٢٩) • قرأ الكِسَائي: [فَسَيَعْلَمُونَ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَسَتَعْلَمُونَ].

وبَيْنَهُمَا تَكَامُلٌ فِي الأَدَاءِ البياني، فإحداهما بالخِطَاب، والأُخرَىٰ بالغيبة.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحمّداً ﷺ أَنْ يُتَابعَ مُعَالَجَةَ المقْصُودِينَ بالْمُعَالَجَةِ في السُّورة، بمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ في هـٰذَا الدَّرْسِ، ويُلْحَقُ بالرَّسُول ﷺ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُوله ﷺ:

• ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

• ﴿أَنشَأَكُم﴾: **الإنْشَاء**: هُو الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكامُلِ المتدَرِّج غالِباً، كَمَا يَنْبُتُ الزَّرْعُ ويَتَكَامَلُ نَماؤُهُ شيئاً فَشَيْئاً.

• ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾: أي: وَخَلَقَ لَكُم أَجْهِزَةَ إِدْرَاكِ الأَصْوَاتِ، بَدْءاً مِنَ الآذَانِ فالْمُوصِلاتِ إِلَى مَرَاكِزِ إِدْرَاكِ الأَصْوَاتِ فِي الدِّمَاغِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ أَنْ تَسْمَعُوا مَا يَصِلُ إلى آذَانِكُم مِنْ أَصْوَاتٍ.

• ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾: أي: وَخَلَقَ لَكُم أَجْهِزَةَ إِدْرَاكِ الْمَرْئِيَّاتِ، بَدْءاً مِنَ

الْأَعْيُنِ، فالْمُوصِلَاتِ إِلَىٰ مَرَاكِزِ إِدْرَاكِ صُورِ الْمَرْئِيَّاتِ في الدِّمَاغِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ أَن تَرَوْا مَا يَصِلُ إِلَىٰ أَعْيُنِكُمْ، فَمَرَاكِزِ إِدْرَاكِ صُورِ الْمَرْئِيَّاتِ في أدْمِغَتِكُمْ.

- ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ﴾: أي: وخَلَقَ لَكُمْ فِي دَاخِلِ ذَوَاتِكُمْ مَرَاكِزَ التَّفْكِيرِ والتَّحْلِيلِ والتَّرْكِيبِ وإِدْرَاكِ المعانِي، والْقَضَايَا الْعَقْلِيَّةِ والحُكْم عَلَىٰ القضايا بالإثباتِ أو النَّفْي أو التوقف، والقدرَةِ عَلَىٰ إِدْرَاكِ الحقّ والْبَاطِلِ، والخير والشرّ، والْحَسَنِ والقبيح، وَجَعَلَ لَكُمُ الْقُدْرَةَ في أَدْمِغَتِكُمْ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِهَـٰذِهِ الأَعْمَالِ التَّفْكِيرِيةِ، واسْتِخْدَامِ الْأَفْئِدَةِ فيما خُلِقَتْ له.

- ﴿ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: يَأْتِي فِعْلُ «ذَرأَ» بِمَعْنَىٰ: «خَلَقَ»، ويأتي بِمَعْنَىٰ: «بَثَّ»، فَمَعْنَىٰ: ﴿ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عَلَىٰ هَـٰذَا: كَثَّرَكُمْ عَنْ طَرِيقِ الذُّرِّيَّة، قَالُوا: كَأَنَّ الذَّرْأَ مُخْتَصٌّ بِخلْقِ الذُّرِّيَّة.

المعنى: يُعَلِّمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمَّداً ﷺ، ويُلْحِقُ بِهِ حَمَلَةَ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ أَنْ يَقُولَ فِي دَعْوَتِهِ لِلْإِيمَانِ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ الْوَاحِدَةِ:

اللهُ رَبُّكُمْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ بإِحْدَاثٍ مَصْحُوبٍ بالتَّكَامُلِ المتَدَرِّجِ في أَطْوَارِ خَلْقِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، حَتَّىٰ صِرْتُمْ أَغْذِيَةً، فَدِمَاءً، فَنُطَفاً فِي ظُهورِ آبائِكُمْ وَبُيَيْضَاتٍ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ، فَأَجِنَّةً فِي الْأَرْحَام، ثُمَّ أَخْرَجَكُمْ مِنْهَا أَطْفَالاً، وَنَمَّاكُمْ حَتَّىٰ صِرْتُمْ رِجالاً ونِسَاءً مُكْتَمِلِي الْخَلْقِ.

وهُوَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ وَهُوَ يُنْشِئُكُمْ أَجْهِزَةَ السَّمْعِ الَّتِي تَسْمَعُونَ بِهَا الأَصْوَات.

وهو تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ وَهُوَ يُنْشِئُكُمْ أَجْهِزَةَ الإِبْصَارِ الَّتِي تَرَوْنَ بِهَا الْمَرْئِيَّات.

وهو تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ وَهُوَ يُنْشِئُكُمْ أفْئِدَتَكُمُ الَّتِي هِي أَجْهِزَةُ عُلُومِكُمْ وَمَعَارِفِكُمْ، وَمَرَاكِزُ أَحْكَامِكُمْ عَلَىٰ الْقَضَايَا الْفِكْرِيَّةِ بالإِثْبَاتِ

والنَّفْي أو التوقف، ومَرَاكِزُ إدْرَاكِكُمْ لِلْحَقِّ والباطل، والخير والشَّرّ، والْحَسَنِ والقبيح.

فَاشْكُرُوا رَبَّكُمْ عَلَىٰ مَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْكُمْ بالإيمان بِهِ، وبالْعَمَلِ بِما يُرْضِيهِ عَنْكُمْ. ولَكِنَّكُمْ وَإِنْ شَكَرْتُمْ فَقَلِيلاً مَا تَشْكِرُون، لِأَنَّكُمْ لَا تُدْرِكُون كثرة نِعَم اللهِ عَلَيْكُمْ، وَلَا تَسْتطيعُونَ إحْصاءَها.

- ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: أي: شُكراً قَلِيلاً جِدّاً تَشْكُرون، فَلَفْظ ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمفعُولٍ مُطْلَقٍ مَحْذُوفٍ مُقَدَّمٍ عَلَىٰ فِعْلِهِ، ولفظ ﴿مَّا﴾ إبْهَامِيَّةٌ لِتَوْكِيدِ الْقِلَّةِ.

وقُلْ لهم أيْضاً:

اللهُ رَبُّكُمْ هُوَ الَّذِي بَثَّكُمْ فِي الْأَرْضِ، وكَثَّرَكُمْ عَنْ طَرِيقِ الذُّرِيَّةِ والتَّنَاسُلِ.

واعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ والابْتِلَاءِ، مِنْ قِبَلِ رَبِّكُمُ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَذَرَأَكُمْ، وَأَنَّكُمْ مُطَالَبُونَ بإيمانٍ صَحِيحٍ صَادِقٍ، وبِعَمَلٍ بِمَرْضَاةِ رَبِّكُمْ يُعَبِّرُ عَنْ صِحَّةِ إيمانِكُمْ وصِدْقِهِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَجزِيُّونَ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا، وهٰذَا الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ بَعْثِكُمْ أَحْيَاءً، خارِجِينَ مِنْ أَجْدَاثِكُمْ لِمُلَاقَاةِ حِسَابِ رَبِّكُمْ وَفَصْلِ قَضَائِهِ وتَنْفِيذِ جَزَائِهِ، حِينَ إلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

الْحَشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْق.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيمَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وَيَقُولُ المكذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين لكَ يَا مُحَمَّد ولِلَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَاتَّبَعُوكَ، وَيُكَرِّرُونَ قَوْلَهُمْ تَكْرِيراً إعْلَامِيًّا، لِصَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عَنِ الإيمانِ والإسلام: مَتَىٰ يَكُونُ يَوْمُ الدِّينَ يَوْمُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَر الَّذِي يَعِدُ دِينُكُمْ بِهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي الإِخْبَارِ بِهِ عَنْ رَبِّكُمْ؟؟.

فَأَجِبْهُمْ قَائِلاً لَهُمْ: مَا عِلْمُ يَوْمِ الدِّينِ إِلَّا عِنْدَ اللهِ، فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ في الوجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ مَتَّىٰ تَقُومُ سَاعَةُ إِنْهَاءِ ظُرُوف الْحَيَاة الدُّنْيَا، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ تَعَالَىٰ في الوجُودِ كُلِّهِ مَتَىٰ تَكُونُ سَاعَةُ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، وَمَتَىٰ يَكُونُ بَدْءُ يَوْمِ الدِّينِ، واعْلَمُوا أَنَّ نَبَأَ قِيَام السَّاعَةِ الْأُولَىٰ، وقيام السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي هِيَ سَاعَةُ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ؛ نَبَآنِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَمَا أَنَا إِلَّا مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، وَلَمْ يُعْطِنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمَ الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ هٰذَا الْوَعْدُ.

إِنَّنِي رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا يَأْمُرُنِي بِأَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَّاه، وَقَدْ بَلَّغْتُكم مَا أَنْزَلَ عَلَيَّ مِنْ فِقَرَاتِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ في الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِلَّا فِقْرَةُ إِنْذَارِكُم بِمَا أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرَكُم به، فَمَا أَنَا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هٰـذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي أَصْرَرْتُمْ فِيهَا على رَفْضِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ رَبِّكُمْ لَكُمْ، بَعْدَ مُعَالَجَاتٍ كَثِيراتٍ لَكُمْ خِلَال مَسِيرَتِي الدَّعَوِيَّةِ؛ مَا أَنَا إِلَّا مُنْذِرٌ لَكُمْ مُبِينٌ بِعَذَابِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ عَذَابٍ قَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يُعَذِّبَكُمْ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُقَدِّمُ مَشْهداً أَوَّلِيًّا مِنْ مَشَاهِدِ تَعْذِيبِهِمْ:

- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾: وَجَاءَ في القِرَاءة الْأُخْرَىٰ: **[تَدْعُونَ]**.

العبارةُ جَاءَتِ اسْتِقْطَاعاً مِمَّا سَوْفَ يَكُونُ في المسْتَقْبَلِ، وَقُدِّمَتْ بِفَنِّيَّةٍ بَدِيعَة كَأَنَّهَا أَمْرٌ وَقَعَ في الْمَاضِي.

المعْنَىٰ: فَلَمَّا رَأَوْا مَا كَانُوا قَدْ وُعِدُوهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ؛ ظَهَرت عَلَىٰ وُجُوهِهِمُ الْكَآبَةُ الدَّالَّةُ على اسْتِيَاءِ نُفُوسِهِمُ الشَّدِيدِ مِمَّا هُمْ مُلاقُوهُ مِنْ عَذَابٍ، وَقِيْلَ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ السَّائِقَةِ لَهُمْ إلى النَّارِ بِعُنْفٍ وشِدَّة: هـٰذَا الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ، وكُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَذِبٌ، وَأَنَّهُ لَا صِحَّة لِيَوْم الدِّين، وَلَا صِحَّةَ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْت، وهـٰذَا الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ تَدْعُونَ أَنْ يُعَجِّلَ لَكُمْ، إعْلَاماً بِأَنَّهُ كَذِبٌ، وأَنَّ نَبَأَهُ بَاطِل.

«لَمَّا» حينيَّة، وهي ظَرْفٌ تَخْتَصُّ بالماضِي، ويَكُونُ جَوابُهَا فِعْلاً مَاضِياً.

«زُلْفَةً» أي: قُرْباً، بمعنَىٰ «قَرِيباً»، أُطْلِقَ المصدر بمعنى مَا يَحْدُث مِنْهُ القرب.

- ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي: ظَهَرَتِ الكَآبَةُ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ وَكَانُوا يَكْفُرُونَ بِهِ، وَهـٰذِهِ الكَآبَةُ تَكْشِفُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ من اسْتِيَاءٍ شَدِيدٍ، وَخَوْفٍ مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ.

- ﴿بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: أي: تُكَذِّبُونَ بِهِ، وَتَدَّعُونَ أَنَّهُ نَبَأٌ كَاذِب.

- ﴿بِهِۦ **تَدْعُون**﴾: أي: كُنْتُمْ تَدْعُونَ تَعْجِيلَهُ لَكُمْ، على سَبِيلِ التَّكْذِيبِ بِهِ، إِذْ كُنْتُم تَرَوْنَهُ نَبَأً كَاذِباً لَا صِحَّةَ له.

في التَّعْبِيرَيْنَ حَذْفٌ مِنَ السَّهْلِ عَلَىٰ المتَدَبِّر اكْتِشَافُهُ، بِمُسَاعَدَةِ الْقَرَائِنِ السَّابِقَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً تَعْلِيمَ رَسُولِهِ ﷺ بَعْدَ فَاصِلِ الآية (٢٧):

- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٢٨﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: يَا مَنْ تَتَمَنَّونَ مَوْتِي، وقُلْتُم نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ

الْمَنُونِ، لِتَتَخَلَّصُوا مِنِّي وَمِنْ دَعْوَتِي وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي؛ تفَكَّرُوا لِتَرَوا بِعُقُولِكُمْ إِنْ أَمَاتَنِي اللهُ وَأَمَاتَ الَّذِينَ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ رَحِمَنَا فَتَرَكَ كُلَّ واحِدٍ مِنَّا إلى أَجَلِهِ المقَدَّرِ له، وأَرَاحَكُمْ مَوْتُنَا مِنَّا؛ أَفَيَحْمِيكُمْ هَلَاكُنَا مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَهُوَ عَذَابٌ شَدِيدٌ أَلِيمٌ.

أَخْبِرُونِي: مَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ وَأَنْتُم مِنْهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم مُعَدٍّ لَهُمْ، وَيُعَذَّبُونَهُ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، مَعَ احْتِمَالِ تَعْذِيبِهِمْ عَذاباً مُعَجَّلاً في الدُّنْيَا، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ ذَٰلِكَ؟؟!.

يقالُ لغة: «أَجارَ فُلَانٌ فُلاناً» أي: حَمَاهُ، وحَفِظَهُ، وَوَقَاه، وَدفَعَ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيمَ رَسُولِهِ ﷺ وَمَعَهُ المؤمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ:

● ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: قُلْ لِلْمَعْنِيِّينَ بالْعِلاجِ فِي هَـٰذِهِ السُّورَة: أَيُّهَا الْوَاقِفُونَ مِنّا ومِنْ دَعْوَتِنَا مَوْقِفَ الْعِدَاءِ وإِرَادَةِ التَّخَلُّصِ مِنَّا وَلَوْ بالْقِتَالِ؛ اللهُ رَبُّنَا هُوَ وَحْدَهُ الرَّحْمٰنُ الَّذِي يَرْحَمُ أَوْلِيَاءَهُ فَيَحْمِيهِمْ، وَيَرُدُّ كَيْدَ أَعْدَائِهِمْ إِلَىٰ نُحُورِهِمْ، ونَحْنُ آمَنَّا بِهِ الإيمَانَ المطْلُوبَ مِنَّا، وعَلَيْهِ وَحْدَهُ تَوَكَّلْنَا لِيَرُدَّ عَنَّا كَيْدَ مَنْ يُرِيدُنا بِسُوءٍ أو ضُرٍّ أَوْ أذىً.

وأَنْتُمْ تَتَّهِمُونَنَا بِأَنَّنَا فِي ضَلَالٍ، فَسَتَعْلَمُونَ حِينَ يَنْزِلُ بِكُمْ عَذَابُ رَبِّكُمْ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِنَّكُمْ سَتَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ مُنْغَمِسِينَ في ضَلَالٍ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ، وَهـٰذَا الضَّلَالُ مُبِينٌ واضِحٌ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ التَّعْلِيم:

● ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾:

● ﴿غَوْرًا﴾: يُقَالُ لُغَةً: «مَاءٌ غَوْرٌ» أي: غائِرٌ في أَعْمَاقِ الْأَرْض، وصفٌ بالمصْدَرِ.

- ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾: **الماء الْمَعِينُ**: هُو السَّهْلُ السَّائِلُ، والجارِي سَاقِيَةً، أَوْ نهراً.

أي: قُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ رَبَّكُمْ هُوَ الَّذِي يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ سَهْلِ التَّنَاوُلِ، سَهْلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ مِنَ الآبَارِ، ومِنْهُ أَنْهُرٌ وَجَدَاوِلُ وَسَوَاقِي.

أَخْبِرُونِي: إِنْ عَاقَبَكُمْ رَبُّكُمْ فَجَعَلَ مَاءَكُمْ غَائِراً فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ، فَأَصْبَحْتُمْ فَوَجَدْتُموهُ غَوْراً (أي: غَائِراً)؛ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ مِنْ دُونِ رَبِّكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ، وَهُوَ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ حَيَاتِكُمْ، لِأَنْفُسِكُمْ، ولِدَوَابِّكُمْ، وَلِأَنْعَامِكُمْ، ولِزُرُوعِكُمْ، ولِأَشْجَارِكُمْ؟؟.

إِنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ مِنْ دُونِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يَأْتِي بِمَاءٍ مَعِينٍ، إِذَا جَعَلَ اللهُ الْمَاءَ غَائراً في أَعْمَاقِ الْأَرْض.

والْغَرَضُ مِنْ هٰذَا السُّؤَالِ انْتِزَاعُ اعْتِرَافِهِمْ بأَنَّهُ لَا أَحَدَ مِنْ دُونِ اللهِ يَأْتِيهِمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ، وَهٰذَا مِنْ أَدِلَّةِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ للهِ عَزَّ وَجلَّ، الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ عَقْلاً تَوْحِيدُ الإِلَهِيَّةِ له، وعِنْدَئِذٍ يَلْزَمُهُمْ عَقْلاً نَبْذُ شِرْكِيَّاتِهِمْ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثَّاني من دُرُوس سورة (الْمُلك)، وهُوَ آخِرُ السُّورَة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

ملحق: مُستخرجَات بلَاغِيّة مِن سُورَةِ (الملك)

أَقْتَصِرُ في اسْتِخْرَاجَاتِ الْبَلَاغِيَّاتِ مِنْ هٰذِهِ السُّورَةِ على مَا لَمْ يَتَكَرَّرْ في السُّوَرِ كثيراً، ومِنْهَا ما يلي:

أولاً:

مِنْ فُنُونِ المنْهَجِ البيَانِي في القرآن؛ اسْتِقْطَاع النُّصُوصِ مِنْ أزْمَانِهَا المستقْبَلِيَّةِ، وعَرْضُهَا بألْفَاظِهَا دُونَ الإشارَةِ إلَىٰ أَنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ كَذا فِيمَا يَأْتِي مِنْ أَحْدَاث، ومِنْ أمْثِلَتِهِ في السُّورة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ رُؤْيَةِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ مَنَازِلَ عَذَابِهِمْ فِي الجحيم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: هـٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ وَتَدَّعُونَ أَنَّهُ لَنْ يَكُون.

ثانياً:

مِنَ الْفُنُونِ الْبَلاغِيَّةِ التَّنْوِيعُ في الْبَيَانِ بَيْنَ الْخِطَابِ والْغَيْبَةِ، مَعَ أَنَّ الْبَيَانَ يَتَعَلَّقُ بالَّذِينَ كَفَرُوا، نَجِدُ هـٰذَا في الْآيَاتِ من (١٦ ـ ٢١): «أَأَمِنْتُمْ ـ أَمْ أمِنْتُمْ ـ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ـ أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْر ـ أَمَّنْ هـٰذَا الّذِي هُو جُنْدٌ لَكُمْ ـ أَمَّنْ هـٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُم».

ثالثاً:

من التشبيه المكْنِي؛ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:

شُبِّهَ الضَّالُّ بالدَّوَابِّ والْأَنْعَامِ، إذْ رُمِزَ إليها بشيءٍ مِنْ لوازِمها.

وبهـٰذَا أنْتَهِي من المستخْرَجَاتِ البلاغية.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

سُورَةُ الحاقّةِ

٦٩ مصحف ٧٨ نزول

وهي كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ بِلَا خلاف

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ
ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾
وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ
فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ
﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى
ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً
﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ
وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ

---

٩ ـ • قرأ أَبُو عَمْرو، والكِسَائِي، ويعقُوب: [وَمَنْ قِبَلَهُ].
وقرأَهَا بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [وَمَنْ قَبْلَهُ].

٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [بالْخَاطِيَةِ]. وكذا قرأها حَمْزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [بِالْخَاطِئَةِ].

١٢ ـ • قرأ نَافع: [أُذْنٌ] بإسْكان الذال.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [أُذُنٌ] بِضَمِّ الذَّال.

ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ
أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي
مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ
﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي
ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ
أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ
﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ
فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ
ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا
يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا
طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ
بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ
﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ

---

١٨ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**لَا يَخْفَىٰ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا تَخْفَىٰ**].

٤١ ـ • قرأ ابنُ كثير، ويعقوب، وابنُ عَامر بخُلفٍ عَنِ ابن ذَكْوان: [**يُؤْمِنُون**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تُؤْمِنُونَ**]. وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

٤٢ ـ • قرأ ابنُ كثير، ويعقوب، وابنُ عَامر بخلف عن ابنِ ذكوان: [**يَذَّكَّرُون**] بياء الغيبة مع تَشْديد الذال.
وقرأها حفصٌ، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**تَذَكَّرُون**] بِتَخْفِيفِ الذال.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تَذَّكَّرُونَ**] بتاء الخطاب وتَشْدِيد الذّال، وهو الوجْهُ الثاني لابن ذَكْوَان.

قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا
بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ
(٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ
(٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ
ٱلْعَظِيمِ (٥٢):

(٢)

مما ورد في السنة بشأن سورةِ (الحاقّة)

رَوَىٰ الطّبَراني عَنْ أبي بَرْزَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كان يَقْرأ في الْفَجْرِ بالْحَاقَّةِ وَنَحْوها.

(٣)

موضوع سورة (الحاقّة)

يَدُور الْبَيَانُ في سُورَة (الحاقَّة) حَوْلَ يَوْمِ القيامَةِ الَّذِي جَاءَ نَبَؤُهُ فِي القرآن، وأَمْثِلَةٍ مِنْ إِهْلَاكِ المكَذّبين بِهِ، وبَعْضِ لَقَطاتٍ مِمَّا سَوْفَ يَجْري فِيهِ، والْقَسَمِ بِكُلِّ ما خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مَعَ مُرَافِقَاتٍ تَفْصِيلِيَّةٍ قَضَتِ الْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ ذِكْرَهَا.

(٤)

دروس سورة (الحاقة)

ظَهَرَ لِي أَنَّ هَـٰذِهِ السُّورَة يُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إلى ثَلاثَة دُرُوس:

الدَّرس الأول: الآيات من (١ ـ ١٢).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ إهْلَاكِ بَعْضِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا سَوْفَ يَجْرِي فِيهِ مِنْ أحداث.

الدَّرس الثاني: الآيات من (١٣ ـ ٣٧).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ مَا سَوْف يَحْدُثُ قَبْلَ الْحِسَابِ وفَصْلِ القضاءِ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ أَحْدَاثٍ كَوْنِيَّةٍ، وَبَعْدَهَا لَقَطاتٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ المتعلّقَةِ بالَّذِينَ كانوا مَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

الدرس الثالث: الآيات من (٣٨ ـ ٥٢) آخر السورة.

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ يَتَعلَّقُ بالقرآنِ الَّذِي اشْتَمَلَ على أنْبَاءِ يَوْمِ الدين، وأَنَّهُ تنزيل رَبّ العالمين.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الأول مِن دُروس سورة (الحاقّة)
الآيات من (١ ـ ١٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلْحَآقَّةُ (١) مَا ٱلْحَآقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ
بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ
عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ
وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ
حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ (١٢)﴾:

القراءات:

(٩) ● قرأ أبو عَمْرو، والكِسَائي، ويعقوب: **[وَمَنْ قِبَلَهُ]**.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَمَنْ قَبْلَهُ**].

(٩) ● قرأ أبُو جَعْفر: [**بِالْخَاطِيَةِ**]، وكذَا قرأها حَمْزَة في الوقف.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**بِالْخَاطِئَةِ**].

(١٢) ● قرأ نَافع: [**أُذْنٌ**] بإسْكانِ الذَّال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أُذُنٌ**] بِضَمِّ الذَّال.

وهما لُغتَان.

تَمْهِيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضٌ لإِهْلَاكِ بَعْضِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَوْمِ الدِّينِ، وما سَوْف يَجْرِي فِيهِ مِنْ أَحْدَاثٍ، باعْتِبَارِ أَنَّ التَّكْذِيبَ بِيَوْمِ الدِّين؛ هُوَ الباعِثُ الْأَكْبَرُ لانْطِلَاقِ الإِنْسَانِ عَاتِياً جبَّاراً فاجراً في الحياة الدُّنيا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿ٱلْحَآقَّةُ ① مَا ٱلْحَآقَّةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ③﴾:

● ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾: اسْمُ «فاعل» وصْفاً لِمُؤَنَّثَة مِنْ فِعْل: «حَقَّ الْأَمْرُ، يَحِقُّ، حَقًّا، وحَقَّةً، وحُقُوقاً» أيْ: ثَبتَ أَنَّهُ لَا شَكَّ فِيهِ، فَهُوَ أَمْرٌ وَقَعَ وُجُوداً أَوْ هُوَ وَاقِعٌ وُجُوداً، أَوْ سَيَقَعُ في الوجود حَتْماً بِلَا رَيب.

والمرادُ بِلَفْظِ «الْحَاقَّةِ» هُنَا الْقِيَامَةُ وَأَحْدَاثُهَا وَكُلُّ مَا يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ الجزَاءِ الْأَكْبَرِ مِنْ أُمُورٍ جِسَامٍ كُبْرَىٰ، فَهِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي قَدَّرَهَا اللهُ وَقَضَاهَا فِي خُطَّةِ الْوُجُودِ، لِلْحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجزاء.

- ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾: اسْتِفْهَامٌ تَعْجيبيٌّ مِنْ عَظَمَةِ أَحْدَاثِ الْقِيَامَةِ، والْيَوْمِ الْآخِرِ، والْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، ومَا يَجْرِي فِيهَا وَمَا يَكُونُ فِيها بَعْدَ الْبَعْث.

أي: أعْظِمْ مُتَعجِّباً أَيُّهَا المتفَكِّرُ الرَّشِيدُ؛ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ «الْحَاقَّةِ» مِنْ أَحْدَاثٍ وَكَائِنَاتٍ وَدَارٍ لِلْمُتَّقِينَ، وأُخْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ، وبَعْثٍ، وحَشْرٍ، وحِسَابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتَنْفِيذِ جَزَاء.

- ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾: «**وَمَا أَدْرَاكَ**» أي: وأيُّ شيءٍ أَعْلَمَكَ؟، فَلَفْظ «**مَا**» اسْمُ اسْتِفْهَامٍ يُسْتَفْهَمُ بِهِ عَنْ حَقِيقَةِ الشيءِ وماهِيَّتِهِ، وهِي جُمْلَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ مُبْتَدأ وخَبَرٍ.

«**مَا الْحَاقَّة**»؟! أَيْ: أَيَّةُ كَائِنَاتٍ وأَحْدَاثٍ جِسَامٍ؛ سَوْفَ يَشْهَدُ الْمَوْضُوعُونَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بَعْدَ الْبَعْثِ إِلَىٰ الحياة الْأخرى، وهي جُمْلَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ مُبْتدأ، هو: «مَا» الاسْتِفْهَامِيَّةُ التَّعْجِيبيَّةُ، وخبرٍ هو: «الْحَاقَّةُ».

وجملة «مَا الْحَاقةُ» في مَحَلِّ نَصْبٍ سَدَّتْ مَسَدَّ مَفْعُولَيْنِ، والتَّقْدِير: وَمَا أَدْرَاكَ مُعْلِماً إِيَّاكَ عَظَمَةَ الحاقَّةِ وَجَسَامَةَ أَحْدَاثِهَا.

والاسْتِفْهَامُ في عبارة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ وكذلِكَ نظيرُهُ فِي مِثْلِها؛ يَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ نَفْيِ عِلْمِ الْمُخَاطَبِ بِمَا هُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أي: أَنْتَ لَا تَدْرِي مَهْمَا انْطَلَقَ بِكَ الْخَيَالُ في الْمَدَىٰ الَّذِي بَلَغَتْهُ في العظَمَةِ الكُبْرَىٰ: الْحَاقَّة، إِلَّا إِذَا أَعْلَمْنَاكَ بِذَلِكَ، أَوْ أَشْهَدْنَاكَ مَشَاهِدَهَا، وفي هـٰذَا دَلَالَةٌ كَافِيَةٌ عَلَىٰ أَنَّ عَظَمَتَهَا فَوْقَ مَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ تَصَوُّرَه.

وقد تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ المجيدِ مِثْلُ هـٰذَا الاسْتِعْمَالِ حَتَّىٰ صَارَ مَعْلُوماً أَنَّهُ أَسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ التَّعْظِيمِ والتَّكْبِيرِ والتَّعْجِيب.

ولدىٰ التحليل التَّدَبُّرِي يَظْهَرُ أَنَّهُ صِيغَةٌ مِنْ صِيَغِ التَّعْجِيب القرآنِيَّةِ الْمُبْتَكَرَةِ، ضِمْنَ أُصُولِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيّ، وهِيَ أَبْلَغُ مِنْ صِيغَتَي التَّعَجُّبِ والتَّعْجِيبِ: «مَا أَفْعَلَهُ»! و«أَفْعِلْ بِهِ»!.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾:

جاء في المُلْحَقِ الثَّالِثِ لِتَدَبّر سورة (النمل/ ٤٨ نزول) دِراسةٌ تكامُلِيَّةٌ للنُّصوصِ القرآنِيَّة بشَأْنِ صالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقَوْمِهِ ثَمُود، وسَبَقَ في عِدَّةِ مَوَاضِعَ تَعْرِيفٌ بصالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وبقَوْمِهِ، فَلْيُرْجَعْ إليه.

وَجَاءَ في المُلْحَقِ الثَّانِي لِتَدَبُّر سورة (هُود/ ٥٢ نزول) دِرَاسَةٌ تَكَامُلِيَّةٌ لِلنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ بِشَأْنِ هُود عَلَيْهِ السَّلَام، وقومِهِ عَاد، وسبق فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ تَعْرِيف بِهُود عَلَيْهِ السَّلَام وبِقَوْمه، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

وأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَحْلِيلِ فِقَرَاتِ هَـٰذِهِ الآيَاتِ.

• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾: **القارعة**: سَبَقَ في سُورَة (القارعة/ ٣٠) بَيَانُ أَنَّ الْمُرَادَ بالْقَارِعَةِ الْقِيَامَةُ. وأَصْلُ لَفْظِ «الْقَارِعَة» اسم «فاعل»، مِنْ فِعْلِ «قَرَعَهُ، يَقْرَعُهُ»، بمعْنَىٰ ضَرَبَهُ بِالْعَصَا، أو بِالمِقْرَعَة.

أي: كَذَّبَتْ قَبِيلَةُ: «ثَمُود» وقَبِيلَةُ: «عَادٍ» بالْقِيَامَةِ، فَكَذَّبُوا رَسُولَيْ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوا بِمَا بَلَّغَ كُلٌّ مِنْهُمَا قَوْمَهُ، وَهُوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يُبَلِّغَهُمْ إِيَّاه، فاسْتَحَقَّ كُفَّارُ كُلٍّ مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ التَّعْذِيبَ والإهْلَاكَ الشَّامِلَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمَا مَا عَذَّبَهُمَا بِهِ وَأَهْلَكَهُمَا إهْلَاكاً شَامِلاً سَاحِقاً مَاحِقاً، فَأَبَادَهُمَا إِبَادَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وأَعَدَّ لَهُمَا الْعَذَابَ الأَكْبَرَ يَنَالُونَهُ فِي الآخِرَة.

• ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾: «الفاء» عاطِفَةٌ عطفاً تفريعيًّا عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ بِالْقَارِعَة. و«أَمَّا» حَرْفٌ فِيهِ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ والتوكيدِ دائماً، والتَّفْصِيلِ غَالِباً، والتَّفْصِيلُ فِي هَـٰذَا النّصِّ واضحٌ.

• ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: أي: فَأُهْلِكُوا بالصَّيْحَةِ الطَّاغِيَةِ الَّتِي تَجاوَزَتْ غَايَةَ الصَّيْحَاتِ الْمُعْتَادَاتِ اللَّاتِي لَا تُهْلِكُ، وَطَغَتْ حَتَّىٰ صَارَتْ صَيْحَةً مُهْلِكَة.

وَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ «الطَّاغِيَةَ» أُرِيدَ بِها الصَّيْحَة مَا جَاءَ في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بِشَأْنِهِمْ:

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

• ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾:

• ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾: الرِّيحُ الصَّرْصَرُ هِيَ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ الْبُرُودَةِ، الْقَوِيَّة السَّرِيعَة، الَّتِي تَصْطَدِمُ بِالْأَشْيَاءِ، فَتَنْطَلِقُ بِهَا أَصْوَاتٌ يَتَوَاتَرُ فِيها مَا يُشْبِهُ حَرْفي الصَّادِ والرَّاءِ، فَسُمِّيَتْ صَرْصَراً.

• ﴿عَاتِيَةٍ﴾: أي: طَاغِيَةٌ مُتَجَاوِزَةٌ حُدُودَ السَّلَامَةِ والاحْتِمَالِ، فَهِيَ مُدَمِّرَة.

• ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾: أي: سَخَّرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هَـٰذِهِ الرِّيحَ الصَّرْصَرَ مُسَلَّطَةً عَلَيْهِمْ لِتَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ.

التَّسْخِير: جَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ، ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيره.

• ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾: أُطْلِقَ الْيَوْمُ وَأُرِيدَ بِهِ النَّهارُ.

وبِالتَّأَمُّلِ الْحِسَابِيِّ نُدْرِكُ أَنَّ هَـٰذَا التَّسْخِيرَ بَدَأَ مَعَ فَجْرِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، وَاسْتَمَرَّ حَتَّىٰ غُرُوبِ شَمْسِ الْيَوْمِ الثَّامِنِ، فَتَكُونُ بَيْنَهُمَا سَبْعُ لَيَالٍ.

• ﴿حُسُومًا﴾: أي: مُتَتَابِعَةً مُتَوَالِيَةً فِي إِنْزَالِ الْعَذَابِ بِهِم، ومِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْسِمَ مَادَّتَهُمْ وَتَسْتَأْصِلَهُمْ.

أَصْلُ الْحَسْم: الْقَطْعُ. يُقَالُ لُغَةً: «حَسَم الْعِرْقَ» أي: قَطَعَهُ وَكَوَاه، لِئَلَّا يَسِيلَ الدَّمُ مِنْهُ.

وَلفظ: «حُسُوم» هو جَمْعُ «حَاسِم»، مثل «شاهد» و«شُهُود».

• ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾: أي: فَتَرَىٰ أَيُّهَا الرَّائي لَوْ كُنْتَ شَهِدْتَ إِهْلَاكَهُمْ في الْأَيَّامِ واللَّيَالِي ذَوَاتِ الرِّيحِ الْحسُومِ كُفَّارَ عَادٍ صَرْعَىٰ، أَيْ: هَلْكَىٰ.

• ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: أي: كَأَنَّهُمْ أُصُولُ نَخْلٍ فَارِغَةٍ، شُبِّهُوا بِهَا لِتَصْوِيرِ حَالَةِ بُطُونِهِمُ الَّتِي بُقِرَتْ وَخَرَجَ مَا فِيهَا، فَصَارَتْ خَاوِيَةً.

• ﴿... فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ⑧﴾: أي: فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ أَيُّهَا الْبَاحِثُ عَنْهُمْ في أَرْضِهِمْ مِنْ آثَارٍ بَاقِيَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِهِ عَلَىٰ النَّاس؟؟، لَقَدْ صَارَ كُلُّهُ مُتَبَّراً تَتْبِيراً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ بَعْضِ الْمُهْلَكِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَة:

• ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ⑨ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ⑩﴾:

• ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾: أي: وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأُمَمِ بَعْدَ عَادٍ وَثَمُودَ.

وفِي الْقِرَاءَة الْأُخْرَىٰ: **[وَمَنْ قِبَلَهُ]**: أي: وَمَنْ هُمْ في جِهَةِ فِرْعَوْنَ، ويُطِيعُونَهُ ويتّبِعُونَهُ، فَبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاءِ المعْنَىٰ المراد.

• ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ﴾: هِيَ قُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والْمُرَادُ أَهْلُهَا. والمُؤْتَفِكَات جمع: مُؤْتَفِكَة أي: المنقلبة. الائتفاك: عند أهل العربيّة هو: الانقلاب.

• ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾: أي: بالْأَعْمَالِ مِنَ الْعَقَائِدِ والنِّيَاتِ وأَنْوَاعِ السُّلُوكِ الَّتِي تُوصَفُ بأَنَّهَا خَاطِئَة. يُقَال لُغَةً: «خَطِئَ، يَخْطَأُ، خَطأً، وَخَطْأً» أي: أَذْنَبَ وَعَصَىٰ، ومَجِيئُهُم بالْخَاطِئَةِ إِدَانَةٌ لَهُمْ بالذُّنُوب والمعاصي الكُبْرَىٰ.

أي: وَهَـٰؤُلَاءِ كَانُوا مُذْنِبِينَ ذُنُوباً كُبْرَىٰ يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِهَا أَنْ يُعَذَّبُوا وَيُهْلَكُوا.

- ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾: تَفْرِيعٌ عَلَىٰ كَوْنِهِمْ جاءُوا بِالْخَاطِئَة، وَبَيَانٌ لِذَنْبِهِمُ الكَبِير.

أَيْ: فَعَصَىٰ كُلُّ قَوْمٍ مِنْهُمْ رَسُولَ رَبِّهِمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء.

- ﴿... فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ⑩﴾: أي: فَقَبَضَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمُ الكُبْرَىٰ لِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِهِمْ قَبْضَةً زَائِدَةً فِي شِدَّتِهَا وَعُنْفِهَا، نَامِيَةً فِي مَظْهَرِها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُشِيراً إِلَىٰ إهْلَاكِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام بالطُّوفَان:

- ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ⑪ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ⑫﴾:

أي: إِنَّا لمَّا بَدَأْنَا تَنْفِيذَ مَا قَدَّرْنَاهُ من طُغْيَانِ الماء فَوْقَ كُلِّ حُدُودِ السَّلَامَةِ لِمَنْ هُمْ عَلَىٰ الأَرْضِ، لإِهْلَاكِ كُفَّارِ قَوْمِ نوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ بالطُّوفانِ؛ حَمَلْنَاكُمْ دَاخِلَ ظُهُورِ أَجْدَادِكُم الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فِي السَّفِينَةِ الْجَارِيَةِ، الَّتِي صَنَعَهَا نُوحٌ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، لِنُنْجِيَهُ وَنُنْجِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ.

دَلَّ هَـٰذَا الْخِطَابُ لِلنَّاسِ فِي هَـٰذِهِ السُّورَةِ؛ عَلَىٰ أَنَّ النَّاسَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام مُنْحَدِرُونَ مِنَ الَّذِينَ رَكِبُوا مَعَهُ فِي الْفُلْكِ، وَدَلَّ نَصٌّ آخَرُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ مِنْ بَعْدِ الطُّوفَان، فهم من ذُرِّيَّةِ نوح عَلَيْهِ السَّلام.

- ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾: أي: لِنَجْعَلَ لَكُم نَجَاةَ نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ وَنَجَاةَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ في الْفُلْكِ؛ قِصَّةً تَارِيخِيَّةً تُذَكِّرُ بِمَا فَعَلْنَا مِنْ إهْلَاكِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا بِعِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الكُفْرِ الإِهْلَاكَ الشَّامِلَ،

وَبِمَا فَعَلْنَا مِنْ تَنْجِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّىٰ أَنْزَلْنَاهُمْ مَنْزِلاً مُبَارَكاً، عَقِبَ انْتِهَاءِ الْغَرَضِ مِن حَادِثَةِ الطُّوفَان.

«تَذْكِرَةً»: مَصْدَرُ فِعْلِ «ذَكَّرَ». واسْتُعْمِلَ المصْدَرُ بمَعْنَىٰ اسْمِ الْفَاعل، أي: مُذَكِّرَةً. والتَّذْكِيرُ: إعادَةُ الْفِكْرَةِ آناً فآناً للعَمَلِ بمقْتَضَاهَا.

- ﴿... وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾: أُطْلِقَتِ الأُذُنُ وأُرِيدَ بها جِهَازُ السَّمْعِ، لِأَنّ الْأُذُنَ أَدَاةُ تَوْصِيلِ المسْمُوعَاتِ إِلَىٰ مَرْكَزِ السَّمْعِ في الدِّمَاغ، وهو مِنَ النفس.

أي: وَلِتُدْرِكَ هَٰذِهِ الْقِصَّةَ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا نَفْسٌ وَاعِيَةٌ، ولتَحْفَظَهَا وَتَفْهَمَهَا وَتَعْمَلَ بِمُقْتَضَىٰ دَلَالَاتِهَا.

يقال لُغَةً: «وَعَىٰ فُلَانٌ الْأَمْرَ» أي: أَدْرَكَهُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ.

ويقال: «وَعَىٰ فُلانٌ الْحَدِيث» أي: حَفِظَهُ، وفَهِمَهُ، وَقَبِلَهُ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (الحاقّة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني من دُروس سورة (الحاقّة)

الآيات من (١٣ ـ ٣٧)

قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ
وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا
مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا

بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾:

القراءات:

(١٨) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**لَا يَخْفَى**].

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا تَخْفَى**].

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرسِ بيَانُ بَعْضِ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ قَبلَ الْحِسَاب، وَفَصْلِ القضاء يَوْمَ الدِّينِ مِنْ أَحدَاثٍ كَوْنِيَّةٍ، وبَعْدَهَا لَقَطاتٌ من الْأَحْدَاثِ المتعلِّقة بالَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

التدبّر التحليلي:

- ▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾:

الصُّور: مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ كَهيئَةِ الْقَرْنِ، إِحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّةٌ ضَيِّقَةٌ، وَالْأُخْرَىٰ وَاسِعَةٌ جِدًّا وباطِنُهُ فَارِغٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ، فَيُصْدِرُ صَوْتاً بِحَسَبِ قُوَّةِ النَّفْخِ، وَلَهُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يُؤْمَرُ بالنَّفْخِ فِيهِ نَفْخَةَ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثُمَّ يُؤْمَرُ بالنفخ فِيهِ نَفْخَةَ الْبَعْثِ.

والمشهور أَنَّ اسْمَ الْمَلَكِ العظيم الَّذِي يُؤْمَرُ بالنفخ في الصور: «إِسْرافيل»، ولكِنْ لم أَجِدْ هـٰذَا في حديث صحيح، بَلْ جَاء في حديثٍ وصَفَهُ عُلَمَاءُ الحديث بالضعف.

- ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾: **الدَّكُّ**: الدَّقُّ والدَّفْعُ حَتَّىٰ تَسْوِيَةِ الْمَدْكُوكِ بالأرْضِ، أي: فَتُدَقُّ الأرضُ والجبالُ الّتي عَلَيْهَا، حَتَّىٰ تَكُونَ كالْبِسَاطِ المنْشُور.

- ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾: سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أحْدَاثَ الْبَعْثِ والقيامَةِ: الواقِعَةَ، أي: وقعَتِ الواقِعَةُ العظيمَةُ جِدًّا، ووُقُوعُهَا: وُجُودُ أَحْدَاثِهَا في الواقع.

المعنىٰ: فَحِينَ يُنْفَخُ في الصُورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، وسَبَقَهَا أَنْ حُمِلَتِ الْأَرْضُ والْجِبَالُ فَدُقَّتَا دَقَّةً وَاحِدَةً لِجَعْلِ سَطْحِ الْأَرْضِ سَطْحاً مُسْتَوِياً مِنْ أقْصَاهَا إِلَىٰ أَقْصَاهَا، لَا ارْتِفَاعَ فِيهَا وَلَا انْخِفَاضَ، وَلَا عِوَجَ، تَهْيِئَةً مُنَاسِبَةً لِظُهُورِ الْأَحْيَاءِ المبْعُوثَةِ عَلَىٰ سَطْحِها ظُهُوراً تامًّا مُنْكَشِفاً؛ فَحِينئذٍ تَكُونَ الواقِعَةُ الْعُظْمَىٰ قَدْ بَدَأَتْ تَتَتَابَعُ أَحْدَاثُهَا، فَيُبْعَثُ الأحْيَاءُ، وَيُحْشَرُونَ، وَيُمَيَّزُ الْمُجْرِمُونَ عَنِ المتَّقِينَ، وتُوَزَّعُ كُتُبُ الْأَعْمَال، ثُمَّ تَقُومُ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّة، وفي آخِرِهَا يُسَاقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَراً، وَيُسَاقُ المحْكُومُ عَلَيْهِمْ بالْعَذَابِ إلى دَارِ الْعَذَابِ زُمَراً.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْدَاثِ الْوَاقِعَةِ العظْمَىٰ:

- ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾:

انْشِقَاقُ السَّمَاءِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَرْفَعُ نِظَام الجاذِبِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ أمْرِهِ وتَكْوِينِهِ، والَّتِي تُمْسِكُ أَجْرَامَهَا فِي مَوَاقِعِ مَسِيراتِهَا في أفْلاكِها، فإذَا رَفَعَ الْجَاذِبِيَّةَ انْشَقَتِ السَّمَاءُ وَأَخَذَتْ أَجْرامُهَا تَبْتَعِدُ عَنْ مَسِيرَاتِها، وهٰذَا تَمْهِيدٌ لِتَبْدِيلِ يَحْدُثُ فِي السَّمَاءِ، بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وخَلْقِهِ، كَمَا يَحْدُثُ تَبْدِيلٌ آخَرُ في الْأَرْضِ.

- ﴿... فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ⑯﴾: أي: فالسَّماءُ حِينَ انْشِقَاقِهَا تَكُونُ ضَعِيفَةَ التَّمَاسُكِ، يُقَالُ لغة: «وَهَىٰ الحَائِطُ» أيْ: تَشَقَّقَ وهَمَّ بالسُّقُوطِ.

لَكِنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُمْسِكُ بأجْرَامِهَا، وَيَجْعَلُ لَهَا نِظاماً آخَرَ غَيْرَ النِّظَامِ الَّذِي كانَتْ عَلَيْهِ في الدُّنْيَا.

- ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾: **الأرْجاءُ**: الأنْحاءُ، أي: وتَكُونُ المَلائِكَةُ مُوَزَّعِينَ عَلَىٰ أَرْجاءِ السَّماءِ وأنْحائِهَا بَعْدَ انْشِقَاقِها، «ال» في المَلَك: للجنس، فيعُمُّ كلّ الملائكة.

- ﴿... وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ⑰﴾: أي: ويَحْمِلُ الْعَرْشَ مِنْ فَوْقِ المَلَائِكَةِ الْمُوَزَّعِينَ عَلَىٰ أرْجاءِ السَّماءِ ثَمانِيَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْعِظام.

ودَلَّ هـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ المراد بالسَّماءِ كُلُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْع.

- ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ⑱﴾: أي: يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ أَيُّهَا الْمَوْضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحانِ عَلَىٰ رَبِّكُمْ، لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فِي نُفُوسِكُمْ وَصُدُورِكُمْ وقُلُوبِكُمْ، حَتَّىٰ مَا كُنْتُمْ فِي الحياة الدُّنْيا تَعْمَلُونَ.

هـٰذِهِ واقِعَةُ الْعَرْضِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ يَوْم القِيامَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْدَاثِ الواقِعَةِ العظْمَىٰ بشأنِ أصحاب اليمين:

- ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ⑲ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ⑳ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ㉑ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ㉒ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ㉓ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ㉔﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَاتِ وصْفُ حَالِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، الَّذِينَ يُؤْتَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بِأَيْمَانِهِمْ، بِشَارَةً لَهُمْ بأَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ.

- ﴿أَمَّا﴾: حَرْفٌ فِيهِ معنى الشرطِ والتوكيدِ دائماً، ومعنى التفصيل غَالِباً كما هُنا.

- ﴿هَآؤُمُ﴾: «ها» اسْم فعل أمْر بمعنى «خُذْ»، والهمْزَةُ جَرَىٰ تَصْرِيفها تَصْرِيفَ كافِ الْخِطَابِ فِي «هَاكُمْ»، والميم علامَة الجمع.

الهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ وفي ﴿حِسَابِيَهْ﴾ هي «هَاءُ» السَّكْتِ، وهِيَ هُنا مِنَ الْمَواضِعِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تُجْلَبُ لآخِرِ الْكَلِمَةِ فِيهَا هَاءُ السَّكْت جوازاً غالباً، ووجُوباً فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ، عَلَىٰ مَا ذَكَرَ النُّحَاة، وذلِكَ عِنْدَ الوقف.

- ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: **العِيشَةُ**: الْحَيَاةُ، يُقَالُ لُغَةً: «عاشَ، يَعِيشُ، عَيْشاً، وعِيشَةً، ومَعِيشاً، ومَعَاشاً، وعَيْشُوشَةً».

رَاضِيَة: **الرِّضا**: هو الشُّعُورُ بالارْتِيَاحِ، والاكْتِفَاءِ، والْقَبُولِ، وتحْقِيقِ المطْلُوبِ، أَوْ إِدْرَاكُ ذَلِكَ في النَّفْسِ.

وَجَاءَ وَصْفُ الْعِيشَةِ بِأَنَّهَا رَاضِيَةٌ مَعَ أَنَّ الرَّاضِيَ صَاحِبُهَا؛ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْمَجَازِ، بِنِسْبَةِ الشَّيْءِ إِلَىٰ غَيْرِ مَا هُوَ لَهُ لِعَلَاقَةٍ مِنْ عَلَاقَاتِ الْمَجَازِ، وهِي هُنَا عَلَاقَةُ الشَّيْءِ بِصَاحِبِهِ، فَإِذَا كَانَ الإنسانُ رَاضِياً كَانَتْ حَيَاتُهُ رَاضِيَةً سَعِيدَةً.

- ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾: كَانَ هـٰذَا المؤمِنُ يَتَرَدَّدُ فِكْرُهُ بَيْنَ ظَنَّيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يُحَاسَبَ عَلَىٰ خَطَايَاهُ، والظَّنُّ الآخَرُ أَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْ خَطَايَاهُ، وَيُدْخِلَهُ الجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَاب.

فَلَمَّا وَجَدَ أَنَّهُ فِي زُمْرَةِ الَّذِينَ تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهم؛ قَالَ: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ، وَظَنَنْتُ أَنْ يُدْخِلَنِي اللهُ الجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فتفضَّلَ اللهُ عليّ.

ويُلْحَقُ بِهِ مَنْ يُحَاسِبُهُ حِسَاباً يَسيراً، ويعْفُو الله عَنْهُ، وكذَلَكِ مَنْ

يُطَهِّرُهُ بشيءٍ مِنَ الْعِقَابِ، ثُمَّ يُدْخِلُهُ فِي جَنَّتِهِ، فَيَجْعَلُهُ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ.

وقَدْ يَكُون الأمْرُ عَلَى خِلاف هٰذَا فيُحَاسِبُهُ اللهُ كما ظَنَّ وَلَا يَكُون مِنَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجنة بغير حساب.

- ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: فِي جَنَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ هِي قِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِ الْجَنَّةِ العظمَىٰ، الّتِي يُعْتَبَرُ كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا جَنَّةً مُتَكَامِلَةَ الصِّفَاتِ الْمُسْعِدَةِ لِأَصْحَابِهَا.

- ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: أي: ثِمَارُ أَشْجَارِهَا قَرِيبَةٌ مِنْ قَاطِفِيهَا.

قُطُوفٌ: جَمْعُ «قِطْفٍ»، وهُو مَا يُقْطَفُ مِنَ الثَّمر.

دانِيَةٌ: أي: قَرِيبَةٌ، يُقَالُ لُغَةً: «دَنَا مِنْهُ، وَدَنَا إِلَيْهِ، وَدَنَا لَهُ، يَدْنُو، دُنُوًّا، وَدَنَاوَةً» أي: قَرُبَ، فهو دانٍ، وهِيَ دَانِيَة.

- ﴿هَنِيٓـًٔا﴾: أيْ: سَائِغاً لَذِيذاً.

المعنى: وَيُعْطَىٰ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ كُتُبَ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ:

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ مُبْتَهِجاً فَرِحاً لِمَنْ حَوْلَهُ مِنْ مَعَارِفِهِ فِي الْمَوْقِفِ؛ هَاكُمُ اقْرَؤوا كِتَابِي، فَقَدْ تَجَاوَزَ اللهُ عَنْ خَطَايَايَ، وَسَيُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، أَوْ سَيُحَاسِبُنِي حِسَاباً يَسِيراً، أَوْ يُطَهِّرُنِي تَطْهِيراً غَيْرَ شَدِيد.

وكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنِي سَأُلَاقِي حِسَاباً مُشَدَّداً أُنَاقَشُ فِيهِ عَلَىٰ كُلِّ خَطَايَايَ الكُبْرَىٰ، لَكِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ سَيُجْزَىٰ بِحَيَاةٍ يَكُونُ فِيهَا رَاضِياً رِضًى تَامًّا فِي جَنَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ في اتِّجَاهِ وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَهَـٰذِهِ الجنَّة تَكُونُ ثِمَارُ أَشْجَارِهَا قَرِيبَةً مِنْ قَاطِفِيهَا.

وتَقُولُ لَهُ ولنُظَرائِهِ مَلائِكَةٌ يُكَلَّفُونَ أَنْ يُكَرِّمُوهُمْ: كُلُوا مَا يَطِيبُ ويَلَذُّ لَكُمْ مِنْ مَأْكُولٍ، وَاشْرَبُوا مَا يَطِيبُ لَكُم وَيَلَذُّ مِنْ مَشْرُوب سَائِغاً لَذِيذاً هَنِيئاً بِسَبَبِ مَا أَسْلَفْتُم مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ رَضِيَ اللهُ بِها عَنْكم، لِأَنَّكُم عَمِلْتُمُوهَا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، فِي الْأَيَامِ الْخَالِيَةِ الْمَاضِيَةِ، إِذْ كُنْتُمْ فِي رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْدَاثِ الواقِعَةِ العظمىٰ بشَأْنِ أصْحَابِ الشِّمَال:

● ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ (٣٧)﴾:

«الهاء» في: ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ وفي: ﴿حِسَابِيَهْ﴾ وفي: ﴿مَالِيَهْ﴾ وفي: ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ هي «هاء» السَّكْت.

● ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾: تَمَنٍّ مع تَفَجُّعٍ وَتَحَسُّرٍ وَخَوْفٍ شَدِيد.

● ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾: أي: يَا لَيْتَ الْمَوْتَةَ الَّتِي مِتُّهَا بَعْدَ الحياةِ الدُّنْيا؛ كانَتِ الْمَوْتَةَ الْقَاضِيَةَ عَلَىٰ وُجُودِي قَضَاءً أَبدِيًا، ويَا لَيْتَنِي لَمْ أُبْعَثْ.

● ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾: **السُّلْطَان**: يَأْتِي بِمَعْنَىٰ الْقُوَّة والْقَهْر، وَبِمَعْنَىٰ الحجَّةِ والْبُرْهَان، وبمَعْنَىٰ الْمُلْكِ والوِلَايَةِ عَلَىٰ النَّاس.

وَهٰذَا البائِسُ الْحَزِينُ الصَّائِرُ إِلَىٰ عَذَابِ جَهَنَّم؛ يَقُولُ بِحَسَبِ حَالِهِ الَّتِي كان عَلَيْهَا فِي الدُّنيا، فإِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُوَّةِ والقَهرِ؛ قَالَ: فَنِيَ

مُبْتَعِداً عَنّي كُلُّ مَا كَانَ لِي مِنْ قُوَّةٍ وقَهْر. وإنْ كانَ مِنْ أَصْحَابِ الحجَّةِ والْجدَلِ قَالَ: فَنِيَ مُبْتَعِداً عَنّي كُلُّ ما كُنْتُ أُحَاجِجُ بِهِ وأجَادِلُ، فَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ لِلْعِيَانِ، وأسْكَتَ الْوَاقِعُ كُلَّ لِسَان. وإنْ كَانَ مِنْ أصْحَابِ الْمُلْكِ والْوِلَايَةِ على الناس قالَ: فَنِيَ مُبْتَعِداً عَنِّي مُلْكِي، وصِرْتُ كَأَقَلِّ النَّاسِ وَأَضْعَفِهِمْ مَنْبُوذاً، لَا أَحَدَ يَعْبأُ بِأَمْرِي أَوْ نَهْيِي، بَلْ الجميع يَنْظُرُونَ إِلَيّ نَظَرَ احْتِقَارٍ وإهَانَةٍ وإذْلَالٍ.

- ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾: أي: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِلْمَلَائِكَةِ الْمَأْمُورِينَ بِتَعْذِيبِهِ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾: أي: خُذُوهُ فَاجْعَلُوا الْغُلَّ مُحِيطاً بِرَقَبَتِهِ، **الْغُلّ**: طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جِلْدٍ، يُجْعَلُ فِي عُنقِ الْأَسِيرِ ونحوه، أَوْ في يَدَيْهِ، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُ المغْلُولِ إِلَىٰ عُنُقِهِ وتُطوَّقَانِ بالْغُلّ، وَتُعْقَدُ بالْغُلِّ سِلْسِلَةٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ غَيْرِهِ لِجرِّهِ بِذَلِكَ.

يُقَال لغة: «غَلَّهُ، يَغُلُّهُ» أي: وَضَعَ الْغُلَّ فِي عُنُقِهِ، أَوْ يَدِهِ.

- ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَمرُّوا بِهِ مَغْلُولاً مُهَاناً فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ؛ أَدْخِلُوهُ فِي الْجَحِيمِ لِيَحْتَرِقَ بِنَارِهَا.

يُقَالُ لُغَةً: «أَصْلَاهُ النَّارَ، وأَصْلَاهُ بِهَا وَفِيهَا، وكذَلِكَ صَلَّاهُ» أَيْ: أَدْخَلَهُ فِي النَّارِ لِيَحْتَرِقَ بِلَهَبِهَا وبِجَمْرِهَا.

- ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾: يُقَالُ لُغَةً: «سَلَكَ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ» أي: أَدْخَلَهُ فِيهِ وَجَعَلَهُ يَعْبُرُهُ، وَإِدْخَالُ هَـٰذَا الْكَافِرِ المعذَّبِ في السِّلْسِلَةِ؛ يَجْعَلُنَا نُدْرِكُ أَنَّهَا سِلْسِلَةٌ مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ، فَهِيَ أَنَابِيبُ حَدِيدِيَّةٌ مَوْصُولٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وفْقَ نِظَامِ السَّلَاسِلِ، فَهِيَ تَتَحَرَّكُ مِثْلَ تَحَرُّكِ السَّلَاسِلِ، وَتُحْمَىٰ فِي الْجَحِيمِ هَـٰذِهِ السِّلْسِلَةُ، وَيُسْلَكُ الْمُعَذَّبُ فِي هَـٰذِهِ الْأَنَابِيبِ الْمُحْماةِ زِيَادَةً فِي تَعْذِيبِهِ.

يقال لُغَةً: «ذَرَعَ الثَّوْبَ وَنَحْوَهُ، ذَرْعاً» أي: قَاسَهُ بالذِّرَاعِ، فَمَعْنَىٰ: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾: قِيَاسُهَا مِقْدَارُ سَبْعِينَ ذِرَاعاً.

• ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤)﴾:

أي: إِنَّهُ كَانَ جَاحِداً كَنُوداً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَدْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ باللهِ العظيم رَبِّهِ الْمُمِدِّ لَهُ بالنِّعَم الَّتِي لَا يُحْصِيهَا جُحُوداً، وَقَدْ كَانَ مُسْتَيقناً فِي قَلْبِهِ بالْحَقِّ، لَكِنَّهُ كان جَحُوداً بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ المختارَة، وَاسْتَمَرَّ طَوَالَ حَيَاةِ امْتِحَانِهِ كَافِراً كُفْرَ جُحُودٍ حَتَّىٰ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ كَافِرٌ.

وَكَانَ قَاسِيَ الْقَلْبِ جَافَّ الْعَاطِفَةِ تُجَاهَ البَائِسِينَ مِنَ الْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ، فَلَا يَمُدُّ يَدَ الْعَوْنِ لَهُمْ، وَلَا يَحُضُّ النَّاسَ بِلِسَانِهِ عَلَىٰ إِطْعَامِ الْمِسْكِينِ الْجَائِعِ.

• ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥)﴾: أي: فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ وَهُوَ يَوْمُ الدِّين، هٰهُنَا فِي دَارِ عَذَابِهِ فِي جَهَنَّمَ؛ قَرِيبٌ يَعْطِف عَلَيْهِ، أَوْ يُوَاسِيهِ بِمَشَاعِرِ أَلَمٍ، إِذْ لَا يَسْتَحِقُّ هٰذِهِ المشاعِرَ.

الْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ الَّذِي تَوَدُّهُ وَيَوَدُّكَ. إِنَّ القرابَاتِ والمَوَدَّاتِ والصَّدَاقَاتِ؛ تَنْقَلِبُ إِلَىٰ عَدَوَاتٍ إِذَا كَانَ أَصْحَابُهَا كُفَّاراً، فَلَا يَشْفَقُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ قَرِيبِهِ وَلَا خَلِيلِهِ.

• ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)﴾: أي: وَلَيْسَ لَهُ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ لِيَسُدَّ جُوعَهُ في الْجَحِيمِ؛ إِلَّا صِنْفُ طَعَام سَيِّئٍ كَرِيهٍ يُضْطَرُّ إِلَىٰ الْأَكْلِ مِنْهُ، سَمَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «غِسْلِيناً»، ولَمْ يَأْتِ عَنِ الرَّسُول ﷺ وَصْفٌ لِنَوْعِ هٰذا الطَّعام، فَلَيْس لَنَا أَنْ نُحَدِّدَهُ بِمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ المفَسِّرِينَ، وَحَسْبُنَا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّهُ طَعَامٌ غَيْرُ مُسْتَسَاغ، بَلْ هُو سَيِّئٌ كَرِيهٌ تَنْفِرُ مِنْهُ الْأَذْوَاقُ، فَإِذَا اضْطُرَّ المعَذَّبُ إِلَىٰ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ أَكَلَ مِنْهُ وَهُوَ كَارِهٌ، يَتَعَذَّبُ بِأَكْلِهِ مِنْهُ، إِذْ أَلَمُ الجوعِ أَشَدُّ مِنْ أَلَمِ الأكل منه.

• ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ (٣٧)﴾: أي: لَا يَأْكُلُ مِنْ غِسْلِينَ فِي الْجَحِيمِ إِلَّا الْمُذْنِبُونَ ذُنُوباً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر. يُقَالُ لُغَة: «خَطِئَ، يَخْطَأُ، خَطَأً، وَخِطْأً» أي: أَذْنَبَ عَنْ عَمْدٍ.

وأرى أن «غِسْلِيناً» أهْوَنُ أكْلاً مِنْ طَلْعِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم الَّتِي تَنْبُتُ في أصْلِ الْجَحِيمِ، ويُضْطَرُّ إِلَىٰ الأكْلِ مِنْهَا كِبَارُ الْمُجْرِمِين، وأَشَدُّ من الضَّرِيعِ الَّذِي لا يُسْمِنُ ولَا يُغْنِي من جوع.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الحاقة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثالث من دُروس سورة (الحاقة) الآيات من (٣٨ ـ ٥٢) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾:

القراءات:

(٤١) ● قرأ ٱبْن كثير، ويعقُوب، وابْنُ عامر بخُلْفٍ عن ابن ذكوان: **[يُؤْمِنُونَ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تُؤْمِنُونَ]**، وهُوَ الوجْهُ الثاني لابْن ذَكوان.

(٤٢) ● قرأ ابْنُ كثير، ويعقُوب، وابْنُ عامر بخُلْفٍ عن ابن ذكْوان: **[يَذَّكَّرُونَ]**، بياء الغيبة مع تشدِيد الذال.

وقرأهَا حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلَف: [**تَذَكَّرُونَ**]، بِتَخْفِيفِ الذَّال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تَذَّكَّرُونَ**]، بتاء الخِطَابِ، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان مَعَ تَشْدِيد الذَّال.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ يَتَعَلَّقُ بالقرآن الّذي اشْتَمَلَ عَلَىٰ أَنْبَاءِ يَوْمِ الدين، وأَنَّهُ تَنْزِيلٌ من رَبّ العالمين.

التدبّر التحليلي:

- ▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ:

- ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٣)﴾:

- ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ (٣٩)﴾:

في القاعِدَةِ «الْعِشْرِينَ» مِنَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهَا عَلَيَّ، فِي كِتَابِ: «قَوَاعِدُ التَّدَبُّر الْأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ»؛ ظَهَرَ لِي أَنَّ الْقَسَمَ المنْفِيَّ فِي الْقُرْآنِ بحَرْفِ النَّفْي «لَا» هُوَ أَسْلُوبٌ بَيَانِيٌّ مُبْتَكَرٌ لِلدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّ الْمَوْضُوعَ الَّذِي يُرَادُ تَوْكِيدُهُ بِواسِطَةِ الْقَسَمِ بالْمُقْسَمِ بِهِ المختارِ مَعَ حَالِ الْمُخَاطَبِينَ يَقْتَضِي اقْتِضَاءَيْنِ:

- أَحَدُهُمَا يَسْتَدْعِي الْبَيَانُ فِيهِ: الْقَسَمَ بِالْمُقْسَمِ بِهِ المختار لِتَوْكِيدِ الْخَبَرِ الّذِي هو المقْسَمُ عَلَيْهِ.

- والْآخَرُ يَسْتَدْعِي الْبَيَانُ فِيهِ عَدَمَ الْقَسَم، مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الْمَخَاطَبُونَ

الْمُقْسَمُ لَهُمْ؛ يَجْهلُونَ قِيمَةَ الْمُقْسَمِ بِهِ، فَهُمْ لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْقَسَمِ تَوْكِيداً.

لَكِنْ قَدْ يَأْتِي وَلَوْ بَعْدَ قُرُونٍ؛ مَنْ يَصِلُونَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ قِيمَةِ الْمُقْسَمِ بِهِ، بِوَسائِلِهِمُ الْعِلْمِيَّة.

فَكَانَ الْحَلُّ المبْتَكَرُ فِي أَسَالِيب الْبَيَانِ الْقُرْآنِيَّة؛ اخْتِيَارَ أَسْلُوبِ ذِكْرِ لفظ «الْقَسَمِ»، وَذِكْرِ «الْمُقْسَمِ بِهِ» تَنْبِيهاً عَلَيْهِ، مَعَ سَبْقِهِ بِأَدَاةِ النفي، كَمَا فِي النَّصِّ هُنَا.

إِنَّ المخاطَبِينَ إِبَّانَ التَنْزِيلِ الَّذِينَ يُرَادُ تَوْكِيدُ الْخَبَرِ لَهُمْ، وهُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين؛ لَا يَعْرِفُونَ قِيمَةَ مَا لَا يُبْصِرُونَ مِمَّا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي كَوْنِهِ، وَلَا يَعْرِفُونَ قِيمَةَ كَثِيرٍ مِمَّا يُبْصِرُونَ، فَلَوْ قِيلَ لَهُمْ: أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ؛ لَقَالُوا: وَمَاذَا فِيمَا لَا نُبْصِرُ مِنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ حَتَّىٰ يَكُونَ صَالحاً لِلْقَسَمِ بِهِ؟! لَكِنْ تَوَصَّلَ عُلَمَاءُ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ فِي الكَوْنِيَّاتِ؛ إِلَى اكْتِشَافِ أَنَّ مَا لَا يُبْصِرُهُ النَّاسُ بأَعْيُنِهِمْ مِنْ أَجْزاءِ الكَوْنِ أَعْظَمُ إِبْدَاعاً وَإِتْقَاناً وإِدْهَاشاً مِمَّا يُبْصِرُون، وَهَـٰؤُلَاءِ يُدْرِكُون قِيمَةَ الْقَسَم بِمَا لَا يُبْصِرُ النَّاسُ بأَعْيُنِهِمْ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْقَسَمِ توكيداً، فَحَالُ هَـٰؤُلَاءِ يَقْتَضِي الْقَسم.

والْحَلُّ الْبَدِيعُ أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾: أي: إِنَّ الْقُرْآن لَقَوْلٌ نَطَقَ بِهِ؛ رَسُولٌ مِنَ الملائِكَةِ كريمٌ هُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، وبَلَّغَهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَرْفاً فَحَرْفاً، وَكَلِمَةً فَكَلِمَةً، وآيَةً فَآيَةً، كَمَا تَلَقَّاهُ عَنْ رَبِّهِ وَحْياً.

كَرِيمٍ: أي: محمُودٌ بالصِّفَاتِ الرَّفِيعَةِ، جَامِعٌ لِأَنْوَاعِ الخير والشَّرَفِ

والْفَضَائِلِ، مُتَرَفِّعٌ عَنِ النَّقَائِصِ والدَّنَايا، لَا يَعْصِي اللهَ بِشَيْءٍ ويَفْعَلُ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ.

وَكَانَ يُرَاجِعُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام الْقُرْآنَ مَع الرَّسُولِ محمَّد ﷺ في رَمَضَان لِلتَّأَكُّدِ مِنْ حِفْظِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُ، مَعَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهَبَهُ ذَاكِرَةً لَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُنْسِيَهُ إِيَّاه.

- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ . . .﴾: أي: ولَيْسَ الْقُرْآنُ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، كَمَا تُشِيعُونَ أيها المكَذِّبُونَ، افْتِرَاءً عَلَىٰ الحقِّ، لتَصُدُّوا جَمَاهِيرَكُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، الَّتِي تَدْعُوكُمْ لِلدُّخُولِ في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ رَبُّكُمْ لِعِبَادِهِ في حَيَاةِ الابْتِلَاء.

- ﴿. . . قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾: أيْ: إيمَاناً قليلاً جدًّا تُؤْمِنُونَ، فَهُوَ لَا يُؤَثِّرُ في قُلُوبِكُمْ فَيُوَجِّهُ إرَادَاتِكُمْ إِلَىٰ اتِّبَاعِ الْهُدَىٰ وسُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

وقد سَبَقَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ تَحْلِيلُ مِثْلِ هَـٰذِهِ العِبارَةِ.

- ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: وَلَيْسَ الْقُرْآن بِقَوْلِ كَاهِنٍ كَمَا تُشِيعُونَ أيها المكَذِّبُون، افْتِراءً عَلَىٰ الْحَقِّ، لِتَصُدُّوا مَنْ يَقْبَلُ قَوْلَكُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة.

وَلَكِنَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ تَذَكُّراً قَلِيلاً جِدًّا مُوَجِّهاً لَكُمْ لِسُلُوكِ سَبِيلِ الْهُدَىٰ، وصِرَاطِ اللهِ المستقيم.

- ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: الْقُرْآنُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، أَوْحَىٰ بِهِ إِلَىٰ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام، وَبَلَّغَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام رَسُولَنَا مِنَ الْبَشَرِ مُحَمَّداً ﷺ.

فآمِنُوا بِهَـٰذِهِ الحقيقة، وادْخُلُوا في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ لِعِبَادِهِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْبَيَانَ بِشَأْنِ القرآن بضَمِيرِ العظمة:

• ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ (٤٧)﴾:

يُقال لغةً: «تَقَوَّلَ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلانٍ قَوْلاً» أي: قَالَ قَوْلاً نَسَبَهُ إِلَيْهِ افْتِرَاءً وكَذِباً، فَهُوَ قَوْلٌ مُخْتَلَقٌ. **والأقاويل**: جَمْعُ الأَقْوَال.

الْوَتِينُ: الشِّرْيَانُ الرَّئِيسُ الَّذِي يُغَذِّي جِسْمَ الإِنْسَانِ بالدَّمِ النَّقِيِّ الْخَارِجِ مِنَ الْقَلْبِ.

جَاءَ فِي سُورَةِ (الطُّور/ ٧٦ نزول) بَيَانُ أَنَّ المشركين الْمُكَذِّبِينَ اتَّهَمُوا الرَّسُولَ ﷺ بِأَنَّهُ تَقَوَّلَ الْقُرآنَ عَلَىٰ رَبِّهِ فَقَال تَعَالَىٰ فيها:

﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ (٣٣)﴾:

فَجَاءَ هُنَا فِي سُورَةِ (الحاقة/ ٧٨ نزول) بَيَانُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَقَوَّلَ عَلَيْنَا وَلَوْ بَعْضَ الْأَقَاوِيل، ولَوْ كَلِمَةً أَوْ حَرْفاً، لِأَنَّنَا سَنُسْكِتُهُ فَوْراً ثُمَّ نُمِيتُهُ بِقَطْعِ وَتِينِهِ.

ولَوْ هَمَّ أَنْ يَتَقَوَّلَ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ عَلَىٰ عَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِنَا لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الكَون بَعْضَ الأقاويل، مَهْمَا قَلَّ؛ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أَخْذاً مُسْكِتاً مَانِعاً لَهُ مِنَ النُّطْقِ حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ أَحَدٌ ذَلِكَ مِنه، وَلَشَدَدْنَا عَلَيْهِ هـٰذَا الْأَخْذَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ عِقَاباً لَهُ، ثُمَّ لَأَمَتْنَاهُ بِقَطْعِ وَتِينِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فَهُوَ مَعْصُومٌ، وَلَمْ يَسْبِقْ لَهُ طَوَالَ حَيَاتِهِ أَنْ فَعَلَهُ، بِدَلِيلِ أَنَّنَا لَمْ نُعَاقِبْهُ فَلَمْ نَأْخُذْ مِنْهُ بالْيَمِينِ، وَلَمْ نَقْطَعْ مِنْهُ الوتِينَ.

• ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ (٤٧)﴾: أي: فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مُنْفَرِدِينَ وَلَا مجتمعين قادرون عَلَىٰ أَنْ تَحْجُزُوا عَنْهُ عُقُوبَتَنَا لَهُ، لَوْ أَنَّهُ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاويل.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديث عَنِ الْقُرْآنِ الْمَجِيد:

● ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾:

● ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾: **التَّذْكِرَة**: الْوَسِيلَةُ الَّتِي يُسْتَذْكَرُ بِهَا الشَّيْءُ، كَبِطَاقَةِ الدَّعْوَة، والرَّتِيمَةِ، ونَحْوِ ذَلِكَ.

أي: وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَوَسِيلَةٌ تُذَكِّرُ بِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ، وهِيَ في الْوَاقِعِ تُذَكِّرُ المؤمنِينَ الْمُسْلِمِينَ المتَّقِينَ، الْحَرِيصِينَ عَلَىٰ وِقَايَةِ نُفُوسِهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ.

● ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾: يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم، فَيُؤَكِّدُ لَهُمْ أَنَّهُ تبارَكَ وتَعَالَىٰ؛ يَعْلَمُ أَنَّ زُمْرَةً مِنْهُمْ مُكَذِّبُونَ؛ بِأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُهُ ﷺ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهُ، وَهَٰؤُلَاءِ المكَذِّبُونَ لَا يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ وَسِيلَةً تُذَكِّرُهُمْ بِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ في حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ، فَهُمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ اللهِ الشَّدِيدِ خُلُوداً في الْجَحِيم.

● ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾: **الْحَسْرَةُ**: شِدَّةُ الْحُزْنِ مَعَ النَّدَمِ عَلَىٰ مَا فات.

أي: وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَحَسْرَةٌ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ بِهِ، وبِمَنْ بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ ﷺ. وَهَٰذِهِ الْحَسْرَةُ الْمُسَلَّطَةُ عَلَيْهِمْ لا تَظْهَرُ مِنْهُمْ وَهُمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء، بَلْ تَظْهَرُ يَوْمَ الدِّينَ حِينَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَتَسْتَمِرُّ مُصَاحِبَةً لَهُمْ حَتَّىٰ يُشَاهِدُوهَا، وَحَتَّىٰ يُلْقَوْا فِيهَا، وحِينَ يَكُونُون خَالِدِينَ فِي عَذَابِها. يَقُولُونَ: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمينَ مُتَّقِينَ نَتَّخِذُ الْقُرْآنَ تَذْكِرَةً تُذَكِّرُنَا دَوَاماً بِمَطْلُوبِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مِنَّا.

● ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾: أي: وإِنَّ الْقُرْآنَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَعْلَىٰ مراتِبِ الْعِلْمِ، وَهُوَ الْعِلْمُ المؤَيَّدُ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ مِنْ وَسِيلَةٍ خَبَرِيَّةٍ،

وَمُشَاهَدِيَّة، وإدْرَاكِيَّة بِسَائِرِ وَسَائِلِ الإدْرَاكِ الْفِكْرِيّ، والنَّفْسِيّ، والْإحْسَاسِيّ، وَهَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ تُسَمَّىٰ مَرْتَبَة «حَقّ الْيَقِينِ»، وَدُونَهَا مَرْتَبَةُ «عَيْنِ الْيَقِين»، ودُونَهُمَا مَرْتَبَةُ «عِلْم الْيَقِين».

- ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾: أي: فاذْكُرِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ، باسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الْحُسْنَىٰ، تَنْزِيهاً لَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَنَابِهِ، وَهـٰذَا يَتَضَمَّنُ تَمْجِيدَهُ بِكُلِّ صِفَاتِهِ العظْمَىٰ وَكُلّ أسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

جاء في لِسَانِ العرب، ورَوَىٰ الْأَزْهَرِيُّ بِإِسْنَادِهِ؛ أَنَّ ابْنَ الْكَوّا سَأَلَ عَلِيًّا رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ عَنْ «سُبْحَانَ اللهِ»، فَقَالَ: كَلِمَةٌ رَضِيَهَا اللهُ لِنَفْسِهِ، فَأَوْصَىٰ بِهَا.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الحاقة) وهو آخِرُهَا.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

ملحق: مُستَخرَجَات بَلَاغِيّة من سورة (الحاقّة)

أولاً:

من تَشْبِيه مُدْرَكٍ بالحسّ بِمُدْرَكٍ بالحسّ قولُ اللهِ تَعالَىٰ يشَبِّهِ أجْسَادَ هَلْكَىٰ عاد:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾:

أي: تُشبهُ أَجْسَادُهُمْ الْهَلْكَىٰ وَقَدْ بُقِرَتْ بُطُونُهُمْ وخَرَجَ مَا فِيهَا فَصَارَتْ خَاوِيَة؛ أُصُولَ نَخْلٍ مَرْمِيَّةٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ يَابِسَةٍ فَارِغَة.

هٰذَا التشبيه ذُكِرَ فِيهِ الْمُشَبَّهُ، والمُشَبَّهُ بِهِ، وأَدَاةُ التَّشْبِيهِ، ولَمْ يُذْكَرْ فِيهِ وَجْهُ الشَّبَهِ، فَهُوَ من قسم «التَّشْبِيهِ الْمُرْسَلِ الْمُجْمَل».

ثانياً:

من الاستفهام الذي يرادُ به النَّفْي قول الله تَعَالَىٰ بشأنِ كُفَّارِ قَوْمِ عَادٍ بَعْدَ إِهلَاكهم:

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾: أي: فَلَا تَرىٰ أَيُّهَا الْبَاحِثُ عَنْ أثارِهِمْ مِنْ بَاقِيَة، إِذْ أُبِيدَتْ أَوْ طُمِرَتْ.

ثالثاً:

من الاسْتِعَارَةِ وَصْفُ أَخْذَةِ اللهِ لِبَعْضِ المهْلَكِينَ بِأَنَّهَا أَخْذَةٌ رابِيَة، فقال تَعَالَىٰ:

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾:

اسْتُعِيرَتْ كَلِمَةُ «رَابِيَة» للدَّلَالَةِ بِهَا عَلَىٰ أَنَّهَا أَخْذَةٌ عظيمة كُبْرَىٰ.

رابعاً:

من المجاز بإسْنَادِ الْفِعْلِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ إلى غير ما هُوَ لَهُ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ مَنْ أُوتِي كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ يَوْم الدِّينِ:

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢﴾:

وُصِفَتْ عِيشَتُهُ في الجنَّةِ بأنَّهَا رَاضِيَةٌ، وَهُوَ في الحقيقة الرَّاضِي، لِأَنَّ عِيشَتَهُ جُزْءٌ مِنْ وُجُودِهِ، والْعَلَاقَةُ بَيْنَ الجزْءِ والْكُلِّ عَلَاقَةٌ يُسْتَخْدَمُ مَعَهَا هٰذَا المجاز.

خامساً:

من الاسْتِقْطَاعِ الرَّائِعِ: اسْتِقْطَاعُ النُّصُوصِ مِنْ أَزْمَانِهَا المستقبَلِيَّة، وَعَرْضُهَا بألْفَاظِهَا دُونَ الْإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ كَذَا فِيما سَوْف يكُونُ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمَ الدِّين، ومِنْ أمْثِلَتِهِ في السورة ما يلي:

المثال الأول:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في عَرْضِ مَا سَوْفَ يُقَالُ لِأَصْحَاب اليمينِ في الجنَّة:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

المثال الثاني:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي بَيَانِ مَا سَوْفَ يُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المقْضِيِّ عَلَيْهِ بِعَذَابٍ مُشَدَّدٍ في الْجَحِيمِ:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾.

سَادِساً:

من توكيد الْجُمْلَةِ الخبريَّةِ لِدَاعٍ بلاغي مَا فِي النُّصُوصِ التالية:

١ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

فِي هـٰذَا النَّصّ التوكيد بالْقَسَمِ للكَفَرَةِ الّذِين يُكَذِّبُونَ بِأَنّ القرآن تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمين.

٢ ـ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ التَّوْكِيدُ بالمؤكِدَات: «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة»، والمؤكَّدُ لَهُمُ المكذِّبُونَ بِأَنَّ القرآن تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

٣ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾:

في كُلِّ آيَةٍ مِنْ هَـٰذِهِ الآيات تَوْكيد بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحْلَقَة»، لِأَنَّ المَقْصُودِينَ الْأَوَّلِينَ بالْخِطَابِ: الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ القرآن تَنْزِيلٌ مِنْ رَبّ العالَمِين.

وأَكْتَفِي بِهَـٰذِهِ المسْتَخْرَجَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ مِنْ هَـٰذِهِ السُّورَة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

سُورَةُ الْمَعارج

٧٠ مصحف ٧٩ نزول

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا بِلَا خِلَاف

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ
ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ
كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ
﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾
يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

١ - • قرأ نافع، وابْن عامر، وأبو جعفر: **[سَالَ]** بإبْدَال الهمزة ألفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سَأَلَ]**.
وَوَقَفَ حَمْزَة بالتسهيل.

٤ - • قرأ الكِسائِي: **[يَعْرُجُ]** بالياء.
وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَعْرُجُ]** بالتَّاء.
وَهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جَائِزَان.

١٠ - • قرأ أَبُو جَعْفر والبزّي بخلف عنه: **[وَلَا يُسْأَلُ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَا يَسْأَلُ]** بفتح الياء. وهو الوجه الثاني للبزيّ.

١١ - • قرأ نافع، والكِسَائِيّ، وأبو جَعْفَر: **[يَوْمَئِذٍ]**.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَوْمِئِذٍ]**.

جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾
تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ
هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا
﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾
وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾
إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾
إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ
ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ
كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم
مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ

---

١٦ ـ ● قرأ حفص: [نَزَّاعَةً] بالنصب.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَزَّاعَةٌ] بالرفع.

٣٢ ـ ● قرأ ابن كثير: [لِأَمَانَتِهِمْ] بالإفراد.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِأَمَانَاتِهِمْ] بالجمع.

٣٣ ـ ● قرأ حفص، ويعقوب: [بِشَهَادَاتِهِمْ] بالجمع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِشَهَادَتِهِمْ] بالإفراد.

حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا
كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ
ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ :

٤٢ ـ • قرأ أبو جعفر: [يَلْقَوْا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُلاَقُوا].

٤٣ ـ • قرأ حَفص، وابْنُ عَامِر: [نُصُبٍ] بضمّ النُّون والصّاد.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَصْبٍ] بفتح النون وإِسْكانِ الصَّادِ.
والمعنى واحد، وهو ما يُنْصَبُ لِيُعْبَدَ من دُون الله.

(٢)
موضوع سورة (المعارج)

يَدُور موضوع هَـٰذِهِ السورة حول العَذَابِ الحتْمِيّ للكافِرِ الّذِي يُنْهِي رِحْلَةَ امْتِحَانِهِ بالكُفْرِ ويَلْقَىٰ رَبَّهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي الحياة الدُّنْيَا كَافِراً. وحَوْلَ وَصْفِ الإنْسَانِ بِأَنَّهُ هَلُوعٌ باسْتِثْنَاءِ المؤمنين المتَّصِفِينَ بِتَطْبِيقِ مَطْلُوبَاتِ اللهِ الكُبْرَىٰ منهم. وَحَوْلَ بَيَانِ بعض أحوال فِئَةٍ مِن الْكَافِرِينَ حِينَ مواجَهَتِهِمْ للرَّسُولِ ﷺ، وطَمَعِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ إِنْ كَانَتْ تُوجَدُ حَيَاةٌ أُخْرَىٰ، ومعالَجَةِ اللهِ لَهُمْ بالإنْذَارِ، وَتَوْصِيَةِ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَذَرَهُمْ يَخُوضُوا ويَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُنْهُوا حَيَاتَهُمْ كافِرِينَ، فالْمَعنِيُّونَ مَيْؤوسٌ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّة.

(٣)
دُروس سورة (المعارج)

ظَهَرَ لِي أنَّ هَـٰذِهِ السورة تَنْقَسِمُ إِلى ثَلَاثَةِ دُروس:

الدَّرس الأوَّل: الآيات من (١ ـ ١٨):

وفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرسِ بَيَانُ العذاب الْحَتْمِي للكافِرِينَ الَّذِينَ يمُوتُون وَهُمْ كَافِرُونَ، مَعَ تَكْلِيفِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنْ يَصْبِرَ صَبْراً جميلاً، ومع مُعَالَجَةِ الْكَافِرِينَ بِشَأْنِ اسْتِبْعَادِهِمُ الآخِرَة ونُزُولَ الْعَذَابِ بالْكَافِرين.

الدرس الثاني: الآيات من (١٩ ـ ٣٥):

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرسِ بَيَانُ أَنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً، باسْتِثْنَاءِ المؤمنين المتَّصِفِينَ بِتَطْبِيقِ مَطْلُوبَاتِ اللهِ الكُبْرَىٰ مِنْهُمْ.

الدّرس الثالث: الآيات من (٣٦ ـ ٤٤) آخر السورة:

وفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ أَحْوَالِ فِئَةٍ من الكافِرِينَ في مُواجَهَتِهِم للرسول ﷺ ومُعَالَجَتِهُمْ بالإنْذَارِ، وتَوْصِيَةُ الرَّسُول ﷺ بأنْ يَذَرهُمْ لأنهم مَيْؤُوسٌ منهم.

(٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (المعارج)

الآيات من (١ ـ ١٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِي
ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ
(٤) فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا (٧) يَوۡمَ تَكُونُ
ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (٩) وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠)
يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢)
وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ (١٣) وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥)
نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ (١٨)﴾:

القراءات:

(١) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: **[سَالَ]** بإبْدَال الهمزة ألفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سَأَلَ]**.

ووقف حَمْزَةُ بالتَّسْهِيلِ.

(٤) • قرأ الكِسَائي: **[يَعْرُجُ]** بالْيَاءِ.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَعْرُجُ]** بالتَّاء.

وهما وجهان عَرَبيَّان جَائِزَان.

(١٠) • قرأ أَبُو جَعْفر، والبزّي بخلف عنه: **[وَلَا يُسْأَلُ]** بضمّ الياء، أي: وَلا يُسْأَلُ حَمِيمٌ عَنْ حميم، بنزع الخافض.

وقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ، وهو الوجه الثاني للبزّي: **[وَلَا يَسْأَلُ]** بفتح الياء، وهي ظاهرة.

(١١) • قرأ نافع، والكِسَائِي، وأَبُو جَعْفر: **[يَوْمَئِذٍ]** على بناء لفظ «يوم».

• وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَوْمِئِذٍ]** على الإعراب.

وهما وجهان عَرَبيّان جائِزان، فيوم اسم زمان مبهم مُضاف يجوز فِيهِ الإعرابُ، ويجوز فِيهِ البناء.

(١٦) • قرأ حفص: **[نَزَّاعَةً]** بالنَّصْبِ، على أَنَّهَا حال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نَزَّاعَةٌ]** بالرّفع، على أنها بَدَلٌ من **[لَظَىٰ]**، أو على تقدير: هِيَ نَزَّاعَةٌ.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ الْعَذَابِ الحتْمِيّ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَافِرُون، مَعَ مُعَالَجَتِهِمْ بِشَأْنِ اسْتِبْعَادِهِمُ الآخِرَة، ونزولِ الْعَذَابِ بالْكَافِرين.

وفيها تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بأنْ يَصْبِرَ صَبْراً جَمِيلاً.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾:

يَجُوزُ في العربية تَعْدِيَةُ فِعْل «سأل» بحرف «عَنْ» وَحَرْف «الباء»، وهي بمَعْنَىٰ «عن»، لَكِنِّي أرَىٰ أَنَّ ﴿بِعَذَابٖ﴾ مَعْمُولٌ لِمَطْوِيٍّ في الْجُمْلَةِ، والتَّقْدِيرُ: سَأَلَ سَائِلٌ فَرْدٌ أَوْ أَكْثَرُ، مُكَذِّباً ومُسْتَهْزِئاً بِعَذَابٍ واقِعٍ حَتْماً، وهـٰذَا الْعَذَابُ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ مِنَ اللهِ ربِّ الْعَالَمِينَ.

والسُّؤَالُ التَّكْذِيبِيُّ الاسْتِهْزَائِي يَكُونُ بِنَحْوِ قَوْلِهِمْ: أَيُوجَدُ عَذَابٌ لِلْكَافِرِينَ بِمُحَمَّدٍ وَبالْقُرْآنِ، وهـٰذَا الْعَذابُ يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَفَنَاءِ الْأَجْسَادِ، وبَعْدَ الْبَعْثِ مِن الْأَرْض للحياة الْأُخْرَىٰ؟؟!.

إِنَّهُ نَبَأٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُكَذَّبَ بِهِ وَيُسْتَهْزَأَ بِهِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُصَدِّقَهُ ذُو عَقْلٍ وَفَهْمٍ صَحِيحٍ، إِذْ هُوَ مُسْتَبْعَدٌ عَنْ مَدَارِكِ الْعُقُولِ بُعْداً شَاسِعاً.

وذَكَرَ المفَسِّرُونَ أَسْمَاءَ بَعْضِ هَـٰؤُلَاءِ وهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ، وَلَيْسَ مِمَّا يَعْنِي الْمُتَدَبِّرَ مَعْرِفَةُ أَسْمَاءِ السَّائِلِينَ، بل يَكْفِي الْعِلْمُ بِأَنَّ السُّؤَالَ التَّكْذِيبِيَّ الاسْتِهْزَائِيَّ قَدْ وُجِّهَ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ العنادِي.

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾:

أي: إِنَّ الْعَذَابَ المخصَّصَ لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ يُوَجَّهُ الْقَضَاءُ بِهِ، والْأَمْرُ بِتَنْفِيذِهِ؛ مِنَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَلَا رَادَّ لَهُ.

المعارج: هي المصاعِدُ، وهي مخلوقاتٌ غَيْبِيَّةٌ بالنِّسْبَةِ إلى سُكَّانِ الْأَرْض.

وَحسُنَ بَعْدَ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ؛ إضَافَةُ الإعْلَامِ بِأَنَّ لِمَلَائِكَتِه مَعَارِجَ غَيْرَ مَشْهُودَةٍ، فَهِيَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إلى غَيْرِ الْمَلَائِكَة، تَعْرُجُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ والرُّوحُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَة، وَقَدْ يكونُ الْعُرُوجُ إِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ خَاصّاً بِصِنْفٍ من الملائِكَةِ، وهُمْ مَلائِكَة الملأ الأعْلَىٰ.

كَلِمَةُ «يَوْم» مستعملَةٌ بِمَعْنَىٰ الْحِينِ والزَّمن، في مُعْظَمِ آيَاتِ القرآن، وَجَاءَ فِي القرآنِ الْمَجيدِ ذِكْرٌ لِأَيَّامٍ مُخْتَلِفَةٍ أَطْوَالُهَا الزَّمَنِيَّةُ، فَيَوْمُ الدِّينِ يَوْمٌ يَبْدَأُ بِالْبَعْثِ وَهُوَ لَا نِهَايَةَ لَهُ إِذْ يُصَاحِبُهُ الْبَقَاء الدائم.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الحج/ ١٠٣ نزول) قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾:

وَيظْهَرُ أَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يُدَبِّرُ اللهُ لَهُ تَقْدِيراتِهِ وقَضَاءَاتِهِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيا، وهٰذَا مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَة (السَّجدة/ ٧٥ نزول) في قول الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هٰذِهِ الآيَةِ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ سورة (السجدة/ ٧٥ نزول)، أَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي جَاءَ في سُورَة (المعارج/ ٧٩ نزول) فَهُوَ يَوْمٌ آخرُ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَة، وَهُوَ يَوْمٌ تَعْرُجُ فِيهِ الْمَلائِكَةُ وَمِنْهُمْ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، فِي مَعَارِجَ رَبَّانِيَّةٍ، مُخَصَّصَةٍ لِعُرُوجِهِمْ صُعُوداً إِلَيْهِ وَنُزُولاً لِتَنْفِيذِ مَا

يَأْمُرُهُمْ بِهِ، وَقَدْ يَكُونُ الصُعُودُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ فِي هَـٰذِهِ الْمَعَارِجِ والنُّزُولُ مِنْهَا إِلَىٰ مَوَاقِعِ التَّنْفِيذِ بأَقَلَّ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ، إِذِ الآيَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ حَرَكَةَ عُرُوجِهِمْ وَنُزُولِهِمْ تَكُونُ فِي يَوْمٍ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَة، وَلَا نَدْرِي بَعْدَ انْتِهَاءِ هَـٰذِهِ المدَّةِ مَاذَا يَفْعَلُ اللهُ بِهَـٰذِهِ المعارج، هَلْ يُجَدِّدُ لَهَا يَوْماً آخر، أَوْ يُحْدِثُ فِي كَوْنِهِ نِظاماً آخَرَ؟؟.

إِنَّ الْأَمْرَ أَمْرُهُ، وَالتَّقْدِيرَ تَقْدِيرُهُ، والْقَضَاءَ قَضَاؤُهُ، وذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ «الرُّوحَ» وهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام للإعْلَام بِأَنَّهُ يَعْرُجُ مِنْ هَـٰذِهِ الْمَعَارِجِ كَسَائِرِ الْمَلَائِكَةِ، ولَيْسَ لَهُ نِظَامٌ آخرُ خاصٌّ بِهِ دُونَ الْمَأْذُونِ لَهُمْ بِالْعُرُوجِ إِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

- ● ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾:

لمَّا كَانَ سُؤَالُ السَّائِلِ الْمُكَذِّبِ بِعَذَابِ الْكَافِرِينَ مُتَضَمِّناً تَكْذِيبَ الرَّسُولِ ﷺ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَهـٰذَا يُسَبِّبُ للرَّسُول ﷺ أَلَماً نَفْسِيًّا؛ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ أَنْ يُوصِيَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنْ يَصْبِرَ صَبْراً جَمِيلاً، والصَّبْرُ الْجَمِيلُ هُوَ الصَّبْرُ المقْتَرِنُ بالرِّضَا عَنِ اللهِ، والَّذِي لَا يُصَاحِبُهُ تَذَمُّرٌ نَفْسِيٌّ أَوْ شَكٌّ فِي حِكْمَةِ اللهِ، بَلْ يُصَاحِبُهُ مَزِيدُ ذِكْرٍ وَتَسْبِيحٍ وَعِبَادَةٍ آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ، وَمَزِيدُ نَشَاطٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، والنُّصْحِ والْإِرْشَاد.

الصَّبْر: قُوَّةٌ مِنْ قُوَىٰ الإرادةِ، تُمَكِّنُ الإنْسَانَ مِنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ لتَحَمُّلِ المتاعِبِ والمشَقَّاتِ والمؤلِمَاتِ، وَضَبْطِهَا عَنِ الانْدِفاع بعَوَامِلِ الضَّجَرِ، والجزَعِ، والسَّأَمِ، والْمَلَلِ، والْعَجَلَةِ، والرُّعُونَةِ، والْغَضَبِ، والطيْشِ، والْخَوْفِ، والطَّمَعِ، والْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ والْغَرَائِز.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ● ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧﴾: أي: إِنَّ المكَذِّبِينَ

المسْتَهْزِئِينَ بِنَبأ عَذَابِ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ لِلْكَافِرِينَ؛ يَرَوْنَ هٰذَا الْعَذَابَ يَوْمَ الدِّين أَمْراً مُسْتَبْعَداً مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ وُقُوعُهُ، لٰكِنَّهُمْ وَاهِمُونَ، إذْ نَرَاهُ نَحْنُ بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ قَرِيباً، فَحِكْمَتُنَا السَّامِيَةُ مُنَزَّهَةٌ عَنْ أَنْ تَجْعَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْكَافِرِينَ المجْرِمِينَ سَوَاءً في الحياةِ الدُّنْيَا، وَفِيمَا بَعْدَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُجَازَىٰ الْكَافِرُونَ الْمُجْرِمُونَ بِالْعَذَابِ، وَأَنْ يُجَازَىٰ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ بالنَّعِيمِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ لَقَطَةً مِنْ ظَاهِرَاتِ التَّغْيِيرات في الكَوْنِ، ولَقَطَاتٍ مِمَّا سَوْفَ يَكُونُ لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَة:

● ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ⑧ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ⑨ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ⑩ يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ⑪ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ⑬ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ⑭﴾:

الْمُهْل: الْقِطْرَانُ السَّائل ـ والْمَعْدِنُ الذَّائِب.

الْعِهْنُ: الصُّوف المصْبُوغُ أَلْواناً.

الْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ الَّذِي تَوَدُّهُ وَيَوَدُّكَ، والْخَلِيلُ الصَّدِيق.

الْفَصِيلَةُ: الْعَشِيرَةُ الأَقْرَبُونَ الَّذِينَ يَضُمُّونَهُ فِي النَّسَبِ وَيَأْوِي إليهم.

يُبَصَّرُونَهُمْ: أي: يَجْعَلُهم اللهُ يَرَوْنَهُمْ بِأَبْصَارِهِمْ.

المعنى: إنَّ عَذَابَ الكافِرِينَ الْمُكَذِّبِين بالآخِرَةِ؛ يَصِيرُ قَرِيباً جدّاً يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كالْقِطْرَانِ السَّائل، أو الْمَعْدِنِ السَّائل، وتَكُونُ الجبالُ كالصُّوفِ المصْبُوغ أَلْواناً، تَمْهِيداً لِنَسْفِهَا وَتَسْوِيَتِهَا بالأَرْضِ.

وحينَ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَيُبْعَثُ الْمَوْتَىٰ؛ لَا يَسْأَلُ قَرِيبٌ مِنَ الْكُفَّارِ قَرِيباً لَهُ أَنْ يُسَاعِدَهُ فِي رَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُ، لِأَنَّهُ يَعْلَم يَوْمَئِذٍ أَنّ أَحداً لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَاعِدَ أَحداً، إذِ الأَمْرُ كُلُّهُ للهِ وَحْدَهُ، لا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي كَبِيرٍ وَلَا فِي

صَغِير، مَعَ أَنَّهُمْ يُبَصَّرُونَ أقْرِبَاءَهُمْ، وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّ أَقْرِبَاءَهُمْ يَمْلِكُونَ مُسَاعَدَتَهُمْ لَاسْتَغَاثُوا بهم، لَكِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ عِلْماً قَطْعِيّاً أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ إعَانَتِهِمْ وَإِغَاثَتِهِمْ بِشَيْءٍ، فَلَا يَسْأَلُونَهُمْ.

وَيَوَدُّ الْمَجْرِمُ يَوْمَئِذٍ مُتَمَنِّياً: لَوْ يُقَدِّمُ فِدَاءً يَفْتَدِي بِهِ مِنْ عَذَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْخَاصِّ بالْكَافِرِينَ:

١ ـ بِبَنِيهِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ.

٢ ـ وبِصَاحِبَتِهِ الَّتِي كَانَتْ قَرِينَتَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

٣ ـ وَبأَخِيهِ الَّذِي كَانَ نَصِيرَهُ في الحياة الدُّنيا.

٤ ـ وبِعَشِيرَتِهِ الأَقْرَبين، الَّذِينَ يَضُمُّونَهُ فِي النَّسَبِ، ويَأْوِي إِلَيْهِم.

٥ ـ وبِمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً.

إِذَا كَانَ هٰذَا الْفِدَاءُ مَقْبُولاً، وَمُنْجِياً لَهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ زَاجِراً، ومُقَرِّراً وُقُوعَ عَذَابِهِ فِيهِ بأسْلُوبِ غَيْرِ مُبَاشر:

● ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ⑮ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ⑯ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ⑰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ⑱﴾:

لَظَىٰ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ، وهُوَ عَلَمٌ لَا يُنَوَّنُ.

الشَّوَىٰ: قِحْفُ الرأسِ، وَظاهِرُ الْجِلْدِ.

أَدْبَرَ: أَعْطَىٰ ظَهْرَهُ لِلشَّيءِ، بِمَعْنَىٰ رَفْضَ الاسْتِجَابَة لِدَعْوَةِ الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلَام.

وَتَوَلَّىٰ: أي: ابْتَعَدَ بَعْدَ أَنْ أَدْبَرَ، مُنْطَلِقاً فِي حَيَاتِهِ على كُفْرِيَّاتِهِ.

كَلَّا: أداة زَجْرٍ، أي: لَا تَطْمَعْ بِفِدَاءٍ ولا بِغَيْرِهِ مِمَّا تَحْسِبُ أَنَّهُ قَدْ يُخَفِّفُ عَنْكَ مِنَ الْعَذَابِ شيْئاً.

وبعْدَ زَجْرِهِ يَكْشِفُ البيانُ أَنَّهُ سَيكُون مِنْ أَهْلِ لَظَىٰ، الَّتِي تُحْرِقُ الْجِسْمَ فَتَنْزِعُ قِحْفَ الرَّأْسِ وَظَاهِرَ الْجِلْدِ، ولَظَىٰ تَدْعُو بِلِسَانِ حَالِهَا لِيُعَذَّبَ فِيهَا؛ مَنْ كَانَ قَد أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ عَنْ دَعْوَةِ الحقّ، وَجَمَعَ مَالاً كثيراً فَمَلأَ أَوْعِيَةَ المال.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (المعارج).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٥)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (المعارج)

الآيات من (١٩ ـ ٣٥)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ
ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ
أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ
هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَـٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ
وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم
بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ
مُّكْرَمُونَ (٣٥)﴾:

القراءات:

(٣٢) • قرأ ابْن كثير: [لِأَمَانَتِهِمْ] بالإفراد، واكْتَسَبَ معْنَىٰ الجمعيَّةِ بالإضافة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِأَمَانَاتِهِمْ] بالْجمع.

فمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

(٣٣) • قرأ حفص، ويعقوب: [بِشَهَادَاتِهِمْ] بالجمع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِشَهَادَتِهِمْ] بالإفراد.

ومُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُزُوعاً، وإذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، أيْ: يُحِبُّ الحياة الدُّنيا ويُؤْثِرها، باسْتِثْنَاءِ المؤْمِنين المتّصِفِينَ بِتَطْبِيقِ مَطْلُوبَاتِ اللهِ الكُبْرَىٰ مِنْهُمْ في حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً فِطْرَةً فُطِرَ عَلَيْهَا الإنْسَانُ:

• ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾:

دلَّ هـٰذَا الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ أَنَّ مِنَ الْفِطَرِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا الإنْسَانُ، وَتَرَكَ نَفْسَهُ دُونَ مُقَوِّمٍ مِنْ دِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ؛ كَانَ مِنَ المكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وبِعَذَابِ اللهِ فِيهَا، وانْطَلَقَ مَعَ أَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَمَتَاعَاتِهِ مِنَ الحياةِ الدُّنْيَا، دُونَ وَازِعٍ يَزَعُهُ، وَلَا رَادِعٍ يَرْدَعُهُ.

هَـٰذِهِ الفِطْرَةُ هِيَ أَنَّهُ هَلُوعٌ، وَجَاءَ فِي هـٰذَا الْبَيَانِ شَرْحُ كَوْنِهِ هَلُوعاً، فَهُوَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ، أيْ: مَا يَرَاهُ فِي حَيَاتِهِ شَرّاً؛ كَانَ شَدِيدَ الْجَزَعِ لَا صَبْرَ لَهُ، وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ، أَيْ مَا يَرَاهُ فِي حَيَاتِهِ خَيْراً، كالسَّعَةِ مِنَ الْمَالِ والْوَفْرَةِ مِنَ الْأَرْزَاقِ؛ كَانَ شَدِيدَ المنْعِ والإمْسَاكِ والشُّحّ.

جَزُوع: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعل «جَازع» أي: كثير الجزَع.

مَنُوع: صيغَةُ مُبالَغَةٍ لاسم الفاعل «مَانِع» أيْ: كَثِيرُ المنْعِ والإمْسَاكِ.

وَلَدَىٰ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ لِلْجَزُوعِ المنُوعِ نَجِدُ أَنَّ سَبَبَهُمَا حُبُّ الدُّنْيَا وَشِدَّةُ التَّعَلُّقِ بِهَا، والْحِرصُ عَلَىٰ اسْتِمْرَارِ الحياةِ فِيها، فَإِذَا مَسَّهُ مَسًّا مَا يَراهُ شَرّاً، كَخَسارَةٍ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَجَائِحَةٍ أَتْلَفَت بَعض مَا عِنْدَهُ مِنْ ثَمَرَاتٍ، وَمَرَضٍ نَزَلَ بِهِ؛ كَانَ جَزُوعاً، حِرْصاً عَلَىٰ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَتَاعَاتِهِ مِنْهَا، وَلَذَّاتِهِ، وَمُرْضِيَاتِ أَهْوَائِهِ وشَهَوَاتِهِ. وَإِذَا مَسَّهُ مَسًّا مَا يَرَاهُ خَيْراً، كَأَرْبَاحٍ تِجَارِيَّة، وَوَفْرَةِ مُنْتَجَاتٍ زِرَاعِيَّةٍ، وَزِيَادَةِ أُجُورٍ عَلَىٰ أَعْمَالٍ صِنَاعِيَّةٍ؛ كَانَ مَنُوعاً شَحِيحاً لَا يَبْذُلُ مِنْ مَالِهِ فِي سُبُلِ الْخَيْرِ، حِرْصاً عَلَىٰ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَتَاعَاتِهِ مِنْهَا، وَلَذَّاتِهِ، وَمُرْضِيَاتِ أَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ.

وَمُعَدِّلُ هَـٰذِهِ الْفِطْرَةِ فِي الإنْسَانِ وَمُقَوِّمُهَا وَمُوَجِّهُهَا لِسُلُوكِ صِراطِ اللهِ المسْتَقِيمِ؛ هُوَ مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الاسْتِثْنَاءِ التالي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

قولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾: يَطْوِي قَبلَ الْمُسْتَثْنَىٰ فِيهِ رُكْنَ الْإِيمَانِ والإسْلَام، ويُفْهَمُ هَـٰذَا بالْلُّزُومِ الْعَقْلِيِّ، إِذْ لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ للهِ غَيْرُ مَسْبُوقَةٍ بِالْإِيمانِ بِكُلِّ أَرْكَانِ الإيمانِ، وبِإِعْلَانِ الإسْلَامِ للهِ وَطَاعَتِهِ فِي أَوَامِرِهِ ونواهيه.

أي: إلَّا الْمُؤْمِنينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمُ الْخَمْسِ الْمَفْرُوضَةِ دائِمُونَ، يُؤَدُّونَهَا كَمَا فَرَضَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في أَوْقَاتِهَا.

وَهـٰذَا مَعْنَىٰ كَوْنِهِمْ دَائِمِينَ عَلَىٰ صَلاتِهِم، وَلَيْسَ المرادُ بالدَّوَام اسْتِغْرَاقَ كُلِّ أَوْقَاتِهِمْ بالصَّلَاةِ، فالمرادُ بالدَّوَامِ المواظَبَةُ عَلَىٰ أداء العمل المفروض.

إنَّ صِفَةَ المَداومَةِ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ هِي **الصِّفَةُ الأُولَىٰ** بَعْدَ الإيمانِ والإِسْلَامِ، لِلْمُسْتَثْنَىٰ مِنْ وَصْفِ «هَلُوع».

الصِّفَةُ الثَّانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: والَّذِينَ يَجْعلُونَ في أَمْوَالِهِمُ الَّتِي رَزَقَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا مِنْ فَضْلِهِ؛ مِقْداراً مَعْلُوماً حقًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَبْذُلُوهُ لِلسَّائِلِ والْمَحْرُوم، وهـٰذَا كَانَ قَبْلَ نُزُولِ فَرْضِ الزَّكَاةِ، وبيان الْمِقْدَارِ الْوَاجِب بَذْلُهُ لِلأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ مِنَ الأَمْوَال، إِذْ كَانَ نزول فَرْضِ الزَّكاة في الْعَهْدِ الْمَدَنيّ، وهَـٰذِهِ السُّورَةُ مَكِيَّةٌ.

وَهـٰذَا الحقُّ المعلومُ لم يَذْكُرِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِقْدَارَهُ فِي هـٰذَا النَّصِّ، وتَرَكَهُ لِأَرْيحيَّةِ المؤمنِ الْمُسْلِمِ المداوِمِ عَلَىٰ صَلَاتِهِ.

وَكَانَ هـٰذَا الْبَيَانُ بِمَثَابَةِ التَّمْهِيدِ التَّدَرُّجِيّ فِي أَحْكَامِ وشرائِعِ الإِسْلَامِ الْخَاصَّة فِي النَّفقَاتِ الْوَاجِبَةِ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ.

السَّائل: هو الَّذِي يَسْأَلُ النَّاسَ صَدَقَاتِ أَموَالِهِمْ، مُبْدِياً فَقْرَهُ وَحَاجَتَهُ إِلَىٰ طَعَامِهِ وَطَعَام أُسْرَتِهِ وَضَرُورِيَّاتِ حَيَاتِهِمْ.

المحْرُومُ: هُوَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ صَدَقَاتِهِمْ تَعَفُّفاً، مَعَ أَنَّهُ مَحْرُومٌ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ؛ مِمَّا يَكْفِيهِ لِحَاجَاتِهِ وَحَاجَاتِ أُسْرَتِهِ، لِيَمْتَحِنَ بِحِرْمَانِهِ ذَوِي الغنى.

الصِّفَة الثالثة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾: والَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِنَبَأِ يَوْمِ الدِّين، أي: يَوْمِ الجزَاءِ الأَكْبَرِ، عَلَىٰ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَلَىٰ لِسَانِ رُسُلِهِ، وَفِي خَاتِمَتِهِمْ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ سَيِّدُ الْمُرْسَلِين صلَّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

فَهُمْ لَا يَشُكُّونَ فِي نَبَأٍ جَاءَ في كَلَام اللهِ الحقِّ صَغِيرٍ وَلَا كَبيرٍ، وَلَا يَشُكُّونَ فِي نَبأٍ صَحِيحٍ حقٍّ جَاءَ فِي كَلَامِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أَنْبَاءِ يَوْمِ الدين.

الصِّفة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾:

إِنَّ كُلَّ بَنِي آدمَ خَطَّاؤُونَ، والقَاعِدَةُ الْعَدْلِيَّةُ الرَّبَّانِيَّة تُفِيدُ أَنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَغْفِرَ اللهُ وَيَتَجَاوَزَ عَنِ الجزاءِ بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ، لَكِنَّ هـٰذَا أمْرٌ غَيْرُ مَضْمُونٍ، فَقَدْ يَغْفِرُ بِرَحْمَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَقَدْ لَا يَغْفِرُ بِحِكْمَتِهِ، وَلِذَا فَإِنَّ المؤمِنَ يَبْقَىٰ مُشْفِقاً، أَيْ: خَائِفاً مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ جزَاءَ خَطَايَاهُ، لِأَنَّ عَذَابَ اللهِ عَلَىٰ الْخَطَايَا غَيْرُ مَأْمُونٍ أَنْ لا يَتَحَقَّقَ بِغُفْرَانِ اللهِ وَتَجاوُزِهِ عَنِ الْخَطَايَا، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُعَاقِب.

الصِّفَة الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾:

- ﴿حَٰفِظُونَ﴾: أي: لَا يَعْصُونَ اللهَ بِفُرُوجِهِمْ بِقَضَاءِ شَهْوَتِهَا فِي غَيْرِ مَا أَذِنَ اللهُ به، وحفظ الشيء يكون بِصِيَانَتِهِ، وبالمواظبة على رِعَايَتِهِ، وكَفِّهِ عَمَّا يَجْلُبُ ضَرراً أَوْ أذىً، ومَنْعِهِ مِنْ أن يَسْقُطَ فِي الموبقاتِ الْمُهْلِكَاتِ.
- ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾: هُنَّ الرَّقِيقاتُ مِنَ النِّسَاءِ، وَقَدْ كَانَ هـٰذا أَيَّامَ انْتِشَارِ الرِّقِّ في المجْتَمَعَاتِ، أَمَّا بَعْدَ أَنِ اتَّفَقَتِ الدُّوَلُ عَلَىٰ إِلْغَائِهِ؛

فَلَا أَرِقَّاء، وَلَا رَقِيقَات، وهـٰذَا أَمْرٌ حَسَن، لِأَنَّ الإسْلَامَ حَثَّ عَلى عِتْقِ الأرِقَّاءِ إفراديًّا.

- ﴿غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾: أي: غَيْرُ مُذْنبين، وغَيْرُ مُرْتكِبِينَ مَا يُلَامُون عليه.

- ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾: أي: فأولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ المتَجَاوِزُونَ حُدُودَ مَا أَحَلَّ اللهُ، والْمُرْتَكِبُونَ لِمَا حَرَّمَ، وفي العبارة قَصْرٌ بِتَعْرِيف طَرَفي الإسْناد.

- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ ۝٢٩﴾: حفظ الفروج في الدِّينِ يَكُونُ بِصِيَانَتِهَا وإمْسَاكِهَا عَنْ فِعْلِ مَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيها، كالزِّنَا، وإتْيَانِ الذُّكُورِ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، وإتْيَانِ الْبَهَائِم، وَإتْيَانِ النِّسَاءِ في أَدْبَارِهِنَّ.

- ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٣٠﴾:

أَيْ: والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، مِنْ إتْيَانِ أَحَدٍ أُنْثَىٰ أَوْ ذَكَرٍ شَهْوَةً، إلَّا قَصْراً عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ بِعَقْدٍ شَرْعِيٍّ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنْ إمَاء، فإنَّهُمْ إذَا جَامَعُوا زَوْجَاتِهِمْ أَوْ إمَاءَهُمْ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَأْذُونِ به شَرْعاً فَإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ وغَيْرُ مُذْنبين.

- ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٣١﴾:

أي: فَمَنِ ابْتَغَىٰ طَالِباً قَضَاءَ شَهْوَةِ فَرْجِهِ وَرَاءَ ذَلِكَ الْحَدِّ الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ لِعِبَادِه، فَأَرَادَ مُعَاشَرَةَ غَيْرِ زَوْجَتِهِ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ مِنَ النِّسَاءِ، فِي فُرُوجٍ أَوْ أَدْبَارٍ؛ فَأُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ الْعُصَاةُ المتَسفِّلُونَ هُمُ العَادُونَ الظَّالِمُونَ، المتجاوِزُونَ لِلحَدِّ المَأْذُونِ بِهِ شَرْعاً فِي السُّلُوكِ الإرادِي.

الصفة السادِسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٣٢﴾:

الْأَمَانَةُ: تُطْلَقُ في اللُّغَةِ على الْوَفَاءِ، وَتُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَدِيعة، فَكُلُّ مَا يُسْتَأْمَنُ الإنسَانُ عَلَيْهِ مِن قولٍ، أَوْ سِرٍّ، أَوْ خَبَرٍ، أَوْ تَكْلِيفٍ؛ هُوَ أَمَانَةٌ، والْوَفَاءُ بِتَحْقِيقِ مَطْلُوبِ مَنِ اسْتَأْمَنَهُ أَمَانَه، وهٰذَا هُوَ حِفْظُهَا وَرِعَايَتُها.

وَكُلُّ وَدِيعَةٍ تُوضَعُ عِنْدَ الإنْسَانِ هي أَمَانَة، وَرِعَايَتُهَا تَكُونُ بِحِفْظِهَا، وَتَأْدِيَةِ مَطْلُوبِ صَاحِبِ الْوَدِيعَةِ بِشَأْنِهَا.

وَبالتَّوَسُّعِ فِي مَفْهُومِ الْأَمَانَةِ؛ نُلَاحِظُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ أعْطَىٰ الإنْسَانَ الإرَادَةَ الْحُرَّةَ، وَجَعَلَهَا أَمَانَةً عِنْدَهُ، وكَلَّفَهُ أَنْ لَا يَخْتَارَ بِهَا مَا فِيهِ مَعْصِيَةٌ له، فِي السُّلُوكِ الْبَاطِنِ والظَّاهِرِ، وَحَذَّرَهُ إِذَا اخْتَارَ مَعْصِيَتَهُ مِنَ الْعِقَابِ الْعَادِلِ عَلَيْهَا، وأَطْمَعَهُ إِذَا اخْتَارَ طَاعَتَهُ فِيما أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ؛ بِأَنْ يَجْزِيَهُ ثَوَاباً عَظِيماً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيم سُلْطَانِهِ، يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، مَعَ بَعْضِ ثَوابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِك.

وَكُلُّ جَارِحَةٍ فِي الإنْسَانِ مِنَ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَة، والْجَوَارِحِ الباطِنَة؛ هِي أَمَانَةٌ عِنْدَهُ، لِأَنَّهَا مِلْكٌ للهِ، وَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ وَدِيعَةً عِنْدَه، وَجَعَلَ لاسْتِخْدَامِهَا والانْتِفَاعِ بِهَا شُرُوطاً، وَكُلُّ مُخَالَفَةٍ لهٰذِهِ الشُّرُوطِ خِيَانَةٌ لِلْأَمَانَة.

الْعَهْد: يُطْلَقُ الْعَهْدُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ كُلِّ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مَوَاثِيق، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَصِيَّة، وَعَلَىٰ الْيَمِينِ، وَعَلَىٰ الْوَفاءِ، وَعَلَىٰ الْحِفَاظِ وَرِعَايَةِ الْحُرْمَة، وعَلَىٰ الأمَان.

ويُطْلَقُ الْعَهْدُ عَلَىٰ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ الْعَبْد تُجاه رَبِّه، كالْمَبايَعَاتِ مع الرَّسُولِ ﷺ.

أَمَّا الْعَهْدُ بَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ وَبَيْنَ عِبادِهِ المكَلَّفِينَ الْمَوْضُوعِينَ في الْحَياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ فَقَدْ تَضَمَّنَ مَا يلي:

(١) أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبِصِفَاتِهِ العظْمَىٰ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، وَبِما جَاءَ مِنْ

عِنْده، عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام الْمُبَلِّغِينَ عَنْهُ، المؤَيَّدِينَ مِنْهُ بِالْمُعْجِزَاتِ والآياتِ الْبَاهِرَاتِ، مُعْتَرِفِينَ مُذْعِنِينَ.

(٢) أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ سِواهَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

(٣) أَنْ لَا يَعْبدُوا الشَّيْطَانَ، بِطَاعَتِهِ والاسْتِجَابَةِ لِوَسَاوِسِهِ واتِّبَاعِ خُطُواتِهِ.

فَمَنْ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» مُؤْمِناً بِهَا قَلْبُهُ؛ فَقَدْ أَعْطَىٰ اللهَ عَهْداً بِكُلِّ ذَلِكَ، وَهَـٰذِهِ بَيْعَةٌ بَيْنَ الإنْسَانِ وَرَبِّهِ، وَهُوَ مُطَالَبٌ بالْوَفَاءِ بها.

- ﴿رَٰعُونَ﴾: أي: حَافِظُونَ، بِمُقْتَضَىٰ حُقُوقِ الْأَمَانَاتِ، وحُقُوقِ الْعَهْدِ، يُؤَدُّونَ وَاجِبَاتِ الْأَمَانَاتِ والْعُهُودِ، ويَجْتَنِبُونَ مَا نُهُوا عَنْهُ فِيهَا.

رِعَايَةُ الشيء: تَكُونُ بِحِفْظِهِ، وَبِالْقِيَامِ بِمَا يَلْزَمُ لَهُ مِنْ حِمَايَةٍ وَنَمَاء.

الصِّفَةُ السَّابِعَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

الشَّهَادَةُ: حُضُورُ حَدَثٍ مَا وَالْعِلْمُ بِمَا جَرَىٰ فِيهِ، ومَنْ حَضَرَ الْحَدَثَ فَقَدْ حَمَلَ شَهَادَةً تَتَضَمَّنُ عِلْماً بِمَا كَانَ فِيهِ.

وَقَدْ يَكُونُ المشْهُودُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عِلْم فِيهِ إِثْبَاتُ حَقٍّ مَا لإِنْسَان مَا، ولِصَاحِبِ الْحَقِّ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ الشَّاهِدِ أَنْ يَشْهَدَ لَهُ بِمَا عَلِمَ، ويُخْبِرَ بِمَا شَهِدَ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وعَلَىٰ الشَّاهِدِ أَنْ يَقُومَ بِشَهَادَتِهِ مُخْبِراً بِمَا رَأَىٰ أَو سَمِعَ.

وقَدْ يَتَوَقَّفُ إِثْبَاتُ الْحَقِّ عِنْدَ الْقَاضِي أَوْ عِنْدَ الْمُحَكَّمِينَ عَلَىٰ أَنْ يَقُومَ الشَّاهِدُ بِمَا شَهِدَ، وعِنْدَئِذٍ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَ شَهَادَتَهُ، دُونَ إِضْرَارٍ

بِهِ فِي نَفَقةٍ أَوْ غيرِهَا، وَيَتحمَّلُ نَفَقَةَ إحْضَارِهِ إِلَىٰ مَجْلِسِ القضاءِ صَاحِبُ الْحَقِّ، أَوْ تَتحمَّلُ الدَّوْلَةُ هَـٰذِهِ النَّفَقَةَ ضِمْنَ مُقْتَضَياتِ المصلحة العامَّة.

فالمؤمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ المصَلُّونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمُ الْمَفْرُوضَةِ مُوَاظِبُونَ؛ مِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ بِشَهَادَاتِهِمُ الَّتِي تُثْبِتُ حَقًّا أَوْ تَنْفِي اتِّهاماً قَائِمُونَ يُؤَدُّونَهَا وَهُمْ يَتَّقُونَ اللهَ عِنْدَ أَدَائِهَا، فَلَا يَزِيدُونَ عَلَىٰ مَا شَهِدُوا في حُضُورِهِمْ شَيْئاً، وَلَا يَنْقُصُونَ مِنْهُ شَيْئاً يَعْلَمُونَهُ.

الصِّفَةُ الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: والَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمُ الْخَمْسِ الْمَفْرُوضَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ يُحَافِظُونَ عَلَىٰ أَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا بِشُرُوطِهَا وأَرْكَانِهَا، مَا اسْتَطَاعُوا إلى ذَلِكَ سَبِيلاً.

ونُلَاحِظُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ في أَوَّلِ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دائِمُونَ، وفي آخِرِ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، فَمَا الْحِكْمَةُ مِنْ هَـٰذَا الْإِجْرَاءِ؟.

يَبْدُو لِي أَنَّ الصَّلَاةَ والْمُدَاوَمَةَ عَلَىٰ الْمَفْرُوضِ مِنها، والْمُحافَظَةَ عَلَيهَا؛ مِمَّا أَوْلَاهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عِنَايَةً خاصَّةً، إِذْ هِيَ الْمُعَبِّرَةُ عَنْ صِلَةِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ بِصُورَةٍ مُتَجَدِّدَة، وهِيَ بِمَثَابَةِ الإزارِ والرِّدَاءِ، اللَّذَيْنِ يَقِي الْمُؤْمِنُ الْمُسْلِمُ بِهِمَا سَائِرَ صِفَاتِهِ في السُّلُوكِ، لِيَلْتَزِمَ بِطَاعَةِ اللهِ فِيهَا مَا دَامَ مَدَاوِماً وَمُحَافِظاً عَلَىٰ صِلَتِهِ بِرَبِّهِ فِيهَا، وَلهـٰذَا جَاءَ في الْبَيَانِ الرَّبَّانِيِّ اعْتِبَارُهَا أُولَىٰ صِفَاتِ المؤمِنِ الْمُسْلِمِ وأُخْرَاهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي خَاتِمَةِ هـٰذَا الدَّرْسِ الثَّانِي مُبَيِّناً الجزاء الْعَظِيمَ الَّذِي أَعَدَّهُ يَوْمَ الدِّينِ لِهَـٰؤُلَاءِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ المداوِمِينَ الْمُحَافِظِينَ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمُ المفروضَة:

- ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: أولَئِكَ رَفِيعُوا المكانَةِ عِنْدَ

رَبِّهِمْ سَوف يَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ بِنَعِيمٍ أَبَدِيٍّ هم فِيهِ فِي جَنَّاتٍ بِحَسَبِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ، وهُمْ فِيهَا مُكْرَمُونَ.

مُكْرَمُون: أي: مُفَضَّلُونَ مَوْضُوعُونَ في أَمَاكِنِ تَفْضِيلٍ وَتَعْظِيم، وَيُقَدَّمُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَسُرُّهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ التَّكْرِيمِ والتَّعْظِيم.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثَّانِي من دُرُوس سورة (المعارج).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثَّالِثِ من دُروس سورة (المعارج) الآيات من (٣٦ ـ ٤٤) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(٤٢) • قرأ أبُو جَعْفر: [**يَلْقَوْا**]، مِنْ فعل: «لَقِيَهُ»، بمعنى اسْتَقْبَلَهُ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُلاَقُوا**]، مِنْ فعل: «لاَقَاهُ»، بمعنى قَابَلَه، فَمُؤَدَّىٰ القِرَاءَتَيْنِ وَاحد.

(٤٣) • قرأ حفص، وابْن عَامِرٍ: [نُصُبٍ] بضَمِّ النُّونِ والصَّاد.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَصْبٍ] بفتح النُّون وإسْكَانِ الصَّاد.

النَّصْبُ، والنُّصُب: مَا نُصِبَ وَعُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ، فالْقِرَاءَتَانِ بمعنَىٰ وَاحِدٍ.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ أَحْوَالِ فِئَةٍ مِنَ الْكَافِرِينَ إبَّانَ التَّنْزِيل، في مُوَاجَهَتِهِم للرَّسُول ﷺ.

وَفِيهَا تَوْصِيَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَذَرَهُمْ، لِأَنَّهُمْ مَيْؤُوسٌ مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَن طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة، والحِكْمَة الابْتِلَائِيَّةُ فِي الحياة الدُّنْيا تَقْتَضِي عَدَمَ جَبْرِهِمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾:

• ﴿قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾: أي: مَادِّينَ أَعْنَاقَهُمْ وَمُصَوِّبِينَ رُؤُوسَهُمْ نَحوَكَ، وَأَنْتَ تَدْعُو إِلَىٰ دِينِ اللهِ وَتَتْلُو آيَاتِهِ.

• ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾ أي: فَمَا لَهُمْ جَمَاعَاتٌ عَنْ يَمِينِكِ وعَنْ شِمَالِكَ مُهْطِعِينَ نَحْوَكَ.

عِزِين: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «عِزَة»، وهِيَ الْفِرْقَةُ مِنَ النَّاسِ، جُمِعَ جَمْعَ مُذَكَّرٍ سَالِمٍ إلْحَاقاً بِهِ عَلَىٰ غَيْرِ قِيَاس.

ذَكَرَ طَائِفَةٌ مِنَ المفسِّرينَ أَنَّ المشْرِكِين (أي: أئِمَّتَهُمْ) كَانُوا يَجْتَمِعُونَ جَمَاعَاتٍ عَنْ يَمِينِ الرَّسُولِ ﷺ وشِمَالِهِ، وَيَسْتَمِعُونَ كَلَامَهُ ويُكَذِّبُونَه، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، ويقُولُونَ: لَئِنْ دَخَلَ هٰؤُلَاءِ الْجَنَّةَ كَمَا يَقُولُ مُحَمَّد؛ فَلَنَدْخُلَنَّهَا قَبْلَهُمْ، وَلَيَكُونَنَّ لَنا فِيهَا أكْثَرُ مِمَّا لَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذَا الْبَيان.

إِنَّ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَرْفَعُ فِي تَكْوِينِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذْ فَضَّلَهُمُ الْخَالِقُ فِي الحياةِ الدُّنْيَا، بِأَمْوَالِهِمْ وَمَكَانَاتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ عَلَىٰ المؤمنينَ أتْبَاعِ مُحَمَّد ـ ﷺ ـ، فَلَئِنْ صَحَّ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّد ـ ﷺ ـ بِشَأْنِ الْبَعْثِ والحياة الْأُخْرَىٰ، والجنَّةِ والنَّار؛ فَلَا بُدَّ ـ في زعمهم ـ أَنْ يُدْخِلَهُمُ اللهُ الْخَالِقُ يَوْمَ الدِّينِ الْجَنَّةَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ أَكْثَرُ مِمَّا يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّد ـ ﷺ ـ، لِأَنَّ اللهَ مَيَّزَهُمْ فِي الْخَلْقِ وفي الَّذي وَهَبَهُمْ إِيَّاهُ من أَمْوَالٍ وَمَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ في حَيَوَاتِهِمْ.

فَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَكُونَ التَّعْقِيبُ الرَّبَّانِي مُلَائِماً لِمَا تَوَهَّمُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ:

- ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

أَيْ: أيُّ شَيْءٍ هُوَ لِهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا مُسْتَكْبِرِينَ بامْتِيَازِ ذَوَاتِهِمْ، الأمْرُ الَّذِي جَعَلَهُمْ يُقْبِلُونَ يَا محمَّدُ إِلى مَجَالِسِكَ الدَّعَوِيَّةِ مُهْطِعينَ، ويَجْلِسُونَ عَنْ يَمِينِكَ وَشِمَالِكَ جَماعاتٍ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ قَائِلِينَ: لَئِنْ دَخَلَ هٰؤُلَاءِ الجنَّةَ كَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ، فَلَنَدْخُلَنَّهَا قَبْلَهُمْ، وَلَيَكُونَنَّ لَنا فِيهَا أَكْثَرُ مِمَّا لَهُمْ؟؟!.

- ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾: اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِن طَمَعِهِمْ هذا. أي: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُمْ هٰذَا الطَّمَعُ، وهُمْ كَافِرُونَ باللهِ رَبِّهِمْ، وبِكِتَابِهِ، وَبِرَسُولِهِ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي أَعَدَّ جَنَّةَ نَعِيمٍ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وأَسْلَمَ واتَّقَىٰ؟!!.

وَأعَدَّ دَارَ عَذَابٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وأَدْبَرَ وَتوَلَّىٰ عَنْ دَعْوَةِ رَسُولِهِ ﷺ.

● ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ۝٣٩﴾: أي: إِنَّا خلقْنَاهُمْ مِثْلَما خَلَقْنَا سَائِرَ النَّاسِ ومِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، مُتَسَلْسِلٍ مِنْ مَاءٍ وَطِين، وَلَيْسَتْ لَهُمْ مِيزَةٌ مَا عَلَىٰ غَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ، أَمَّا التَّوْسِعَةُ لَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ، وَتَمْيِيزُهُمْ بِمَكَانَةٍ يَحْرِصُ عَلَيْهَا طُلَّابُ الزَّعَامَات؛ فالْمَقْصُودُ مِنْ ذَٰلِكَ اخْتِبَارُهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيَا، أَيكُونُونَ مِنَ المؤمِنِينَ، أم مِنَ الْكَافِرِين؟، أَيَكُونُونَ مِنَ الْجَاحِدِينَ أَمْ مِنَ الشَّاكِرِين؟.

وإِذْ أثْبَتُوا أَنَّهُمْ كَافِرُونَ جَاحِدُونَ كَانَ الْعَدْلُ يَقْتَضِي خُلُودَهُمْ فِي عَذَابِ النَّار.

ويُقْسِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِقَسَمٍ مَنْفِيٍّ بحرف النَّفْي «لَا» مُرَاعَاةً لاعْتِبَارَيْنِ سَبَقَ بَيَانُهُمَا عِنْدَ تَدَبُّرِ قولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩﴾ من سورة (الْحَاقَّةُ/ ٧٨ نزول) فَيَقُول عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٤١﴾:

لَمْ يَكُنِ الْمُخَاطَبُونَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ يَعْلَمُونَ أَنَّ لِلشَّمْسِ مَشَارِقَ وَمَغَارِبَ، بِحَسَبِ حَرَكَةِ الْأَرْضِ الدَّوَرَانِيَّة، بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَكَانَ الْقَسَمُ بِرَبِّ المشَارِقِ والْمَغَارِبِ غَيْرَ مُفِيدٍ لَهُمْ تَوْكِيداً، فَكَانَتْ مُرَاعَاتُهُمْ تَقْتَضِي نَفْيَ الْقَسَمِ بِالْمَشَارِقِ والمغَارِب، لَكِنْ سَيَأْتِي مَنْ يُدْرِكُ هَـٰذِهِ الحقِيقَةَ مِنْ حَقَائِقَ نِظَامِ الكَوْن، فَكَانَ الْحَلُّ ذِكْرَ الْقَسَمِ بِرَبِّ المشَارِقِ والْمَغَارِب، ونَفْيَ الْقَسَمِ بِحَرْفِ النَّفْي «لا»، فَهُوَ يُقْسِمُ لِمَنْ يُفِيدُهُ الْقَسَمُ تَوْكِيداً، وَلَا يُقْسِمُ لِمَنْ لَا يُفِيدَهُ الْقَسَمُ التوكيد.

والْخَبَرُ المؤكّدُ بالْقَسَمِ؛ هُوَ قُدْرَةُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِ بَشَرٍ خَيْرٍ في تَكْوِينِ

ذَوَاتِهِمْ؛ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْتَزِّينَ بتَمَيُّزِهِمْ عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ فُقَرَاءِ المؤمِنِينَ المسلمين.

- ﴿... وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾: أي: لَا أَحَدَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ يَسْبِقُنَا غَالباً لَنا فِيمَا نُرِيدُهُ ونُقَدِّرُه وَنَقْضِيهِ، أَوْ مُعْجِزاً لَنا عَنْ فِعْلِ مَا نُرِيد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُوصِي رَسُولَهُ ﷺ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجرَت مُعَالَجَتُهُمْ في السُّورَة، وَبَلَغُوا أَخَسَّ دَرَكَاتِ الإجْرَامِ والْعِنَادِ والإصرارِ عَلَىٰ الْبَاطِلِ:

- ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

ذَرْهُمْ: أي: دَعْهُمْ واتْرُكْهُمْ غَيْرَ عَابِئٍ بِهِم، فهم ميؤوسٌ مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة.

يَخُوضُوا: أَصْلُ الْخَوْضِ الْمَشْيُ في الماءِ وَتَحْرِيكُهُ، وَبِهَٰذَا يَتَكَدَّرُ بالْوَحْلِ الَّذِي هو مُتَرَسِّبٌ في أسْفَلِهِ، ومن التَّوَسُّعِ اسْتِعْمَالُ الْخَوْضِ في التَّصَرُّفَاتِ السَّيِّئَةِ والضَّارَّةِ، وفي ارْتِكَابِ الكبائِرِ مِنَ الإثم.

الْأَجْدَاث: القبور، واحِدُهَا «جَدَثٌ».

النُّصُب: مَا نُصِب لِيُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ.

يُوفِضُونَ: يُسْرِعُون.

تَرْهَقُهُم ذِلَّةٌ: أي: تَغْشَاهُمْ وَتَعْلُو عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ آثَارُ ضَعْفٍ وَهَوَانٍ وانْكِسَار.

المعنى: فَدَعْ يَا مُحَمَّدُ هَٰؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ،

والميؤوسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرادَاتِهِمُ الحرَّة، واتْرُكْهُمْ غير عَابِئٍ بِهِمْ، وَوَجِّهْ مُجَاهَدَتَكَ لِلْمَطْمُوعِ باسْتِجابَتِهِمْ.

دَعْ يَا مُحَمَّدُ هَؤلَاءِ يَخُوضُوا في ارْتِكَابِ قَبائِحِهِمْ، والإنْطِلَاقِ مَعَ كُفْرِيَّاتهمْ وَلَوَازِمِهَا في السُّلُوكِ الإجْرَامِيّ.

ودَعْ يَا مُحَمَّدُ هَـٰؤُلَاءِ يَتَحَرَّكُونَ فِي حَيَوَاتِهِمْ تَحَرُّكَ اللَّاعِبِينَ، الَّذِينَ يَسْتَغْرِقُونَ مُعْظَمَ أَوْقَاتِ فَرَاغِهِمْ مِنْ عَمَلٍ جَادٍّ مُفِيدٍ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُم بِلَعِبٍ لا خَيْرَ فِيهِ.

دَعْهُمْ حَتَّىٰ يُوَاجِهُوا أَحْدَاثَ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَهُ وهو يَوْمُ الدِّينِ يَوْمُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ، وَهُوَ يَكُونُ بَعْدَ بَعْثِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ مِنْ مَدَافِنِهِمْ سِرَاعاً، كَأَنَّهُمْ يُوفِضُونَ مُسْرِعِينَ إِلَىٰ أَوْثَانِهِمُ الَّتِي كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وَيُسْرِعُونَ إِلَىٰ عِبَادَتِهَا مُؤْمِنِينَ بِأَنَّ عِبَادَتَهَا تَنْفَعُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ.

لَكِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْرِعُونَ بالْجَبْرِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ، تَغْشَاهُمْ وَتَعْلُو وُجُوهَهُمْ آثَارُ ذُلٍّ وانْكِسَارٍ وَهَوَانٍ، خَوْفاً مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ فِي الْجَحِيمِ، لِيَذُوقُوا آلَامَ الْحَرِيقِ، والْعَذَابِ الْأَبَدِي الَّذِي يُعَذَّبُونَهُ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ جحوداً وعِنَاداً مَعَ وُضُوحِ الْحَقِّ لَهُمْ.

ويَخْتِمُ اللهُ البيان بِقَوْلِهِ: ﴿... ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثَّالِثِ من دُرُوس سورة (المعارج) وَهُوَ آخِرُ السُّورَة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

ملحق: مُستَخرَجات بَلَاغِيَّة مِن سورة (المعارج)

في هَـٰذِهِ السُّورَة اختيارات بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، مِنْهَا ما يَلِي:

أوّلاً:

من التّشْبِيهِ «المرْسَلِ المجمَلِ» في مَوْضِعَيْن قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾:

في هَـٰذَينِ التشبيهَيْنِ ذِكْرُ المشَبَّهِ، وأَدَاةِ التَّشْبِيهِ، دُونَ ذِكْرِ وَجْهِ الشبه. ومثل هذا قولُهُ تَعَالَىٰ:

﴿... كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾.

ثانياً:

تنزيلُ المخلُوقِ الَّذِي لَا عَقلَ لَهُ وَلَا حَيَاةَ مَنْزِلَةَ الْعَاقِلِ الْحَيِّ الْمُدْرِكِ، وَمِنْهُ تَنْزِيلُ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْزِلَةَ ذِي الحياة والْعَقْلِ والإرَادَةِ والنُّطْقِ، في قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ «لَظَىٰ» اسْم من أسْمَاءِ دَارِ الْعَذَابِ جَهَنَّم:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۝١٨﴾:

أي: تَدْعُوا أَنْ يُعَذَّبَ فِيهَا هـٰذَا الْكَافِرُ، أي: هي مُعَدَّةٌ لِهـٰذَا التَّعْذِيبِ.

ثالثاً:

تَعْرِيفُ الْكَلِمَةِ بِبيانٍ فِي النَّصِّ، ومِنْهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾: فتعريف الهلوع، هو ما جاءَ في الآيَتَيْنِ بَعْدَه.

رابعاً:

مِنَ الاسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبيّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ فِئَةٍ من الْكَافِرِينَ:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾﴾.

وأكْتَفِي بهـٰذَا والحمد لله على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وَتَوْفِيْقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

خاتمة المجلَّد الرابع عشر مِنْ كتاب معارج التفكُّر وَدَقَائق التدبّر

مع وَخَزَاتِ الإبَرِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا وَكَثْرَةِ انْطِراحي على الْأَرْضِ أو على السَّرِيرِ؛ قَضَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِفَضْلِهِ ومِنَّتِهِ أَنْ يُنْهِيَ لِي كِتَابَةَ هٰذَا الْمُجَلَّدِ الرّابع عَشَر المشْتَمل على تدبُّر السُّوَر التالية:

(١) إبراهيم.

(٢) الأنبياء.

(٣) المؤمِنُون.

(٤) السَّجْدَة.

(٥) الطُّور.

(٦) الْمُلْك.

(٧) الحاقّة.

(٨) المعارج.

فالحمْدُ للهِ الْجَلِيلِ الْوَهَّابِ عَلَىٰ مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وأعَانَنِي وأَمَدَّنَي حَتَّىٰ أَتَمَّ لِي تَدَبُّرَ هَـٰذِهِ السُّوَرِ، وكِتَابَةَ هـٰذَا الْمُجَلَّد إِنَّهُ جوادٌ كَرِيمٌ مَنَّان.

وصَلَّىٰ اللهُ وسَلَّمَ عَلَىٰ خَاتَمِ الأنبياء والمرسلين مُحمَّدِ بن عَبْدِ اللهِ وَعَلَىٰ سائر الأنبياء والْمُرْسَلِين.

وَكَانَ الْفَراغُ مِنْ كِتَابَةِ هـٰذَا المجلَّد في يَوْمِ الإِثْنَيْنِ ٣٠ رمضان سنة ١٤٢٤هـ، الموافق لـ ٢٤ تشرين الثاني ٢٠٠٣م.

عبد الرحمن حبنكه الميداني

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

سورة إبراهيم

١٤ مصحف ٧٢ نزول

(١) نصّ السُّورة وَمَا فِيها مِنْ فَرْش القراءات ٧
(٢) موضوع سورة (إبراهيم/ ٧٢ نزول) ١٤
(٣) دُروس سورة (إبراهيم) ١٥
(٤) التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (١ ـ ٤) .. ١٨
- القراءات ١٨
- تمهيد ١٩
- التدبّر التحليلي ١٩
- ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ . . . ٢﴾ ١٩
- ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾ ٢١
- ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ٣﴾ ٢١
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ ٢٣
(٥) التدبّر التَّحليلي للدَّرْس الثاني من دُرُوس سورة (إبراهيم) الآيات من (٥ ـ ٨) ٢٤
- تمهيد ٢٥
- التدبُّر التحليلي ٢٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ ٢٥
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ ٢٧
- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ .. ٣٠
- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ ٣٠

(٦) التدبُّر التحليلي للدَّرْس الثالث منْ دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من(٩ ـ ١٨) ٣٢

- ـ القراءات ٣٢
- ـ تمهيد ٣٣
- ـ التدبُّر التحليلي ٣٤
- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ ٣٤
- ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ ٣٦
- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ ٣٨
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ﴾ ٤١
- ﴿. . . فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ ٤٢

الموضوع **الصفحة**

• ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ (١٨)﴾ ٤٥

(٧) التدبُّر التحليلي للدَّرْس الرابع مِنْ دُرُوس سورة (إبْراهيم) الآيات من (١٩ ـ ٢٣) ٤٦

ـ القراءات ٤٧

ـ تمهيد ٤٧

ـ التدبُّر التحليلي ٤٨

• ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ (٢٠)﴾ ٤٨

• ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ (٢١)﴾ ٤٩

• ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٢)﴾ ٥١

• ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ (٢٣)﴾ ٥٣

(٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الْخَامِس من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٢٤ ـ ٢٦) ٥٤

ـ القراءات ٥٤

ـ تمهيد ٥٤

ـ التدبُّر التحليلي ٥٤

• ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٢٤) تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ ٥٥

• ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ (٢٦)﴾ ٥٦

الموضوع **الصفحة**

(٩) التدبّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٢٧ ـ ٣٠) ٥٨
- القراءات ٥٨
- تمهيد ٥٨
- التدبُّر التحليلي ٥٩

• ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (٢٧)﴾ ٥٩

• ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ (٣٠)﴾ ٦١

(١٠) التدبّر التحليلي للدّرس السّابعِ من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٣١ ـ ٣٤) ٦٣
- القراءات ٦٤
- تمهيد ٦٤
- التدبُّر التحليلي ٦٤

• ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ (٣١)﴾ ٦٥

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ (٣٣) وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ (٣٤)﴾ .. ٦٧

(١١) التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٣٥ ـ ٤١) ٧٠
- القراءات ٧١
- تمهيد ٧١
- التدبُّر التحليلي ٧٢

• ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ (٣٥)﴾ .. ٧٢

الموضوع الصفحة

- ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾ ٧٣
- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ ٧٣
- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨)﴾ ٧٥
- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩)﴾ ٧٦
- ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠)﴾ ٧٦
- ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ (٤١)﴾ ٧٧

(١٢) التدبّر التحليلي للدّرس التاسعِ من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٤٢ ـ ٥٢) آخر السورة ٧٨

ـ القراءات ٧٩

ـ تمهيد ٨٠

ـ التدبُّر التحليلي ٨٠

- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣)﴾ ٨٠
- ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ (٤٥)﴾ ٨٢
- ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ (٤٦)﴾ ٨٣
- ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤٧)﴾ ٨٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)﴾ . ٨٥
- ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ (٥٢)﴾ ٨٩

(١٣) الملْحق الأوَّل: مُسْتَخْرجات بَلَاغِيَّةٌ مِنْ سُورَة (إبراهيم) ٩٠

(١٤) الملحقُ الثاني: إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن والسُّنَة ٩٦

سورة الأنبياء

٢١ مصحف ٧٣ نزول

(١) نص السّورة وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْشِ القراءات ٢٤٣

(٢) مِمَّا وَرَدَ في السُّنَّةِ بشأن سُورَةِ (الأَنْبِيَاء) ٢٥٤

(٣) مَوْضُوعُ سورة (الأَنْبِياء) ٢٥٤

(٤) دُروسُ سُورَةِ (الأنبياء) ٢٥٥

(٥) التدبّر التحليلي للدَّرْس الأَوَّلِ من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (١ ـ ٩) ٢٦١

ـ القراءات ٢٦١

ـ تمهيد ٢٦٢

ـ التدبُّر التحليلي ٢٦٣

- ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)﴾ ٢٦٣
- ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)﴾ ٢٦٤
- ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)﴾ ٢٦٦
- ﴿بَلْ قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ افْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥)﴾ ٢٦٧
- ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ ٢٦٨

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا
تَعۡلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ (٨)
ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٩)﴾ ٢٦٩

(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (١٠ ـ ١٥) ٢٧٢

ـ القراءات ٢٧٢

ـ تمهيد ٢٧٢

ـ التدبُّر التحليلي ٢٧٢

• ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (١٠)﴾ ٢٧٣

• ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ (١١) فَلَمَّآ
أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ (١٢) لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ
وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ (١٣) قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلۡكَ
دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (١٥)﴾ ٢٧٣

(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث من دُروس سورة (الأَنْبياء) الآيات من
(١٦ ـ ٢٤) ٢٧٦

ـ القراءات ٢٧٧

ـ تمهيد ٢٧٧

ـ التدبُّر التحليلي ٢٧٧

• ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦) لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا
لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧)﴾ ٢٧٧

• ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا
تَصِفُونَ (١٨)﴾ ٢٧٩

• ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ
(١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ (٢٠)﴾ ٢٨٠

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ (٢١) لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ
لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ
(٢٣) أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ
بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ (٢٤)﴾ ٢٨١

الموضوع **الصفحة**

(٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع مِنْ دُرُوسِ سورة (الْأنبياء) الآيات من (٢٥ ـ ٢٩) ٢٨٥
ـ القراءات ٢٨٥
ـ تمهيد ٢٨٥
ـ التدبُّر التحليلي ٢٨٦
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ ٢٨٦
- ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ٢٨٧
(٩) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامسِ مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيات من (٣٠ ـ ٣٣) ٢٨٩
ـ القراءات ٢٩٠
ـ تمهيد ٢٩٠
ـ التدبُّر التحليلي ٢٩٠
- ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ٢٩١
- ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ٢٩٣
(١٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السادس مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيات من (٣٤ ـ ٤١) ٢٩٥
ـ القراءات ٢٩٦
ـ تمهيد ٢٩٧
ـ التدبُّر التحليلي ٢٩٨
- ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ٢٩٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٦)﴾ ٣٠١
- ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)﴾ ٣٠٢
- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١)﴾ ٣٠٥

(١١) التدبّر التحليلي للدّرْس السّابع مِنْ دُروسِ سورة (الْأنبياء) الآيات من (٤٢ _ ٤٧) ٣٠٦
- القراءات ٣٠٧
- تمهيد ٣٠٧
- التدبّر التحليلي ٣٠٨
- ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾ ٣٠٨
- ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤)﴾ ٣٠٩
- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٤٦)﴾ ٣١١
- ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ (٤٧)﴾ ٣١٢

(١٤) التدبّر التحليلي للدّرْس الثامن مِنْ دُروسِ سورة (الْأنبياء) الآيات من (٤٨ _ ٥٠) ٣١٤
- القراءات ٣١٤
- تمهيد ٣١٤
- التدبُّر التحليلي ٣١٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨)﴾ ٣١٥
- ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩)﴾ ٣١٦
- ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾ ٣١٧

(١٣) التدبّر التحليلي للدّرْس التاسِع مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيات من (٥١ ـ ٧٣) ٣١٨

- ـ القراءات ٣١٩
- ـ تمهيد ٣٢٠
- ـ التدبُّر التحليلي ٣٢٠

- ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١)﴾ ٣٢٠
- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢) قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦)﴾ ٣٢١
- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾ ٣٢٣
- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾ ٣٢٤
- ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩) قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)﴾ ٣٢٤
- ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤)﴾ ٣٢٥
- ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ ٣٢٦
- ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨)﴾ ٣٢٨
- ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾ ٣٢٨

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣)﴾ ٣٢٩

(١٤) التدبّر التحليلي للدّرس العَاشِر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيتان (٧٤ ـ ٧٥) ٣٣١

ـ تمهيد ٣٣٢

ـ التدبُّر التحليلي ٣٣٢

• ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥)﴾ ٣٣٣

(١٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الحادي عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيتان (٧٦ ـ ٧٧) ٣٣٤

ـ تمهيد ٣٣٤

ـ التدبُّر التحليلي ٣٣٤

• ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾ ٣٣٥

(١٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني عَشَر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيات من (٧٨ ـ ٨٢) ٣٣٦

ـ القراءات ٣٣٦

ـ تمهيد ٣٣٧

ـ التدبُّر التحليلي ٣٣٧

• ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠)﴾ ٣٣٧

الموضوع **الصفحة**

- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ (٨١) وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ (٨٢)﴾ ٣٤٢

(١٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٣ ـ ٨٤) ٣٤٦

ـ القراءات ٣٤٦

ـ تمهيد ٣٤٦

ـ التدبُّر التحليلي ٣٤٦

- ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣)﴾ ٣٤٧
- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ (٨٤)﴾ ٣٤٧

(١٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٥ ـ ٨٦) ٣٤٨

ـ تمهيد ٣٤٩

ـ التدبُّر التحليلي ٣٤٩

- ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٦)﴾ ٣٤٩

(١٩) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٧ ـ ٨٨) ٣٥٠

ـ القراءات ٣٥١

ـ تمهيد ٣٥١

ـ التدبُّر التحليلي ٣٥١

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٧)﴾ ٣٥١
- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ ٣٥٣

(٢٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السّادِس عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٩ ـ ٩٠) ٣٥٤

الموضوع **الصفحة**

ـ القراءات ٣٥٤
ـ تمهيد ٣٥٤
ـ التدبُّر التحليلي ٣٥٥
• ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ٣٥٥
• ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ ٣٥٦
(٢١) التدبّر التحليلي للدّرْس السابع عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآية (٩١) ٣٥٧
ـ تمهيد ٣٥٧
ـ التدبُّر التحليلي ٣٥٧
• ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ ٣٥٨
(٢٢) التدبّر التحليلي للدّرْس الثامن عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيات من (٩٢ ـ ٩٤) ٣٥٨
ـ القراءات ٣٥٩
ـ تمهيد ٣٥٩
ـ التدبُّر التحليلي ٣٥٩
• ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ ٣٦٠
• ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ٣٦٢
• ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ ٣٦٤
(٢٣) التدبّر التحليلي للدّرْس التاسع عشر مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآية (٩٥) ٣٦٤
ـ القراءات ٣٦٤
ـ التدبُّر التحليلي ٣٦٥
• ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ٣٦٥
(٢٤) التدبّر التحليلي للدّرْس العشرين مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيتان (٩٦ ـ ٩٧) ٣٦٥

الموضوع **الصفحة**

ـ القراءات ٣٦٦

ـ تمهيد ٣٦٦

ـ التدبُّر التحليلي ٣٦٦

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ (٩٦)﴾ ٣٦٧
- ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٩٧)﴾ ٣٦٧

(٢٥) التدبّر التحليلي للدّرس الْحَادِي والْعِشْرينَ مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيات من (٩٨ ـ ١٠٠) ٣٧٠

ـ تمهيد ٣٧٠

ـ التدبُّر التحليلي ٣٧٠

- ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨)﴾ ٣٧٠
- ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٩٩)﴾ ٣٧٢
- ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ (١٠٠)﴾ ٣٧٢

(٢٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثاني والعشرين مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤) ٣٧٤

ـ القراءات ٣٧٤

ـ تمهيد ٣٧٥

ـ التدبُّر التحليلي ٣٧٥

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ (١٠١) لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ (١٠٢)﴾ ٣٧٥
- ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾ ٣٧٧
- ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٠٤)﴾ ٣٧٨

(٢٧) التدبّر التحليلي للدّرس الثالِثِ والعشرين مِنْ دُرُوسِ سورة (الأنبياء) الآيتان (١٠٥ ـ ١٠٦) ٣٨٠

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ٣٨٠
- تمهيد ٣٨٠
- التدبُّر التحليلي ٣٨١
- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ ٣٨١
- ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ ٣٨٣

(٢٨) التدبّر التحليلي للدّرس الرابع والعشرين من دُرُوس سورة (الأنبياء) الآيات من (١٠٧ ـ ١١٢) ٣٨٤

- القراءات ٣٨٤
- تمهيد ٣٨٤
- التدبُّر التحليلي ٣٨٥
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ ٣٨٥
- ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾ .. ٣٨٦
- ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ ٣٨٦
- ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ ٣٨٧
- ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾ ٣٨٩
- ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ ٣٨٩

(٢٩) مُلْحَق: مُسْتَخْرَجَات بلاغيَّة مِنْ سُورة (الأَنبياء) ٣٩٠

سورة (المؤمنون)

٢٣ مصحف ٧٤ نزول

(١) نص السّورة وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْشِ القراءات ٤٠١

(٢) مِمَّا وَرَدَ في السُّنَّةِ بشأن سُورَةِ (المؤمنون) ٤١١

(٣) مَوْضُوعُ سورة (المؤمنون) ٤١١

(٤) دُروسُ سُورَةِ (المؤمنون) ٤١٢

(٥) التدبّر التحليلي للدّرس الأوّل مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (١ ـ ١١) ٤١٥

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ٤١٥
- تمهيد ٤١٦
- التدبُّر التحليلي ٤١٧
- ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (١)﴾ ٤١٧
- ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ (٢)﴾ ٤١٧
- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ (٣)﴾ ٤١٨
- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ (٤)﴾ ٤١٨
- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ (٦)﴾ ٤١٩
- ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ (٧)﴾ ٤١٩
- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ (٨)﴾ ٤٢١
- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (٩)﴾ ٤٢٢
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١)﴾ ٤٢٢

(٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثاني مِنْ دُروس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (١٢ _ ١٦) ٤٢٤
- القراءات ٤٢٥
- تمهيد ٤٢٥
- التدبُّر التحليلي ٤٢٥
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ (١٢)﴾ ٤٢٥
- ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ (١٣)﴾ ٤٢٦
- ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ (١٤)﴾ ٤٢٦
- ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ (١٦)﴾ ٤٢٨

(٧) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (١٧ _ ٢٢) ٤٢٩
- القراءات ٤٢٩
- تمهيد ٤٣٠

الموضوع **الصفحة**

ـ التدبُّر التحليلي ٤٣٠

• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ (١٧)﴾ ٤٣٠

• ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ (١٨)﴾ .. ٤٣٢

• ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ (٢٠)﴾ ٤٣٣

• ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾ ٤٣٥

(٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٢٣ ـ ٣٠) ٤٣٧

ـ القراءات ٤٣٨

ـ تمهيد ٤٣٨

ـ التدبُّر التحليلي ٤٣٩

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣)﴾ ٤٣٩

• ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)﴾ ٤٤١

• ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)﴾ ٤٤٤

(٩) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٣١ ـ ٤١) ٤٤٨

ـ القراءات ٤٤٨

ـ تمهيد ٤٤٩

ـ التدبُّر التحليلي ٤٤٩

الموضوع **الصفحة**

• ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ ٤٤٩
• ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ... ٤٥٠
• ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ٤٥٠
• ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ٤٥٢
• ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ ٤٥٣
(١٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السادس مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٤٢ ـ ٤٤) ٤٥٤
ـ القراءات ٤٥٤
ـ تمهيد ٤٥٤
ـ التدبُّر التحليلي ٤٥٤
• ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ٤٥٥
• ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ٤٥٥
(١١) التدبّر التحليلي للدّرْس السَّابع مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٤٥ ـ ٤٩) ٤٥٦
ـ تمهيد ٤٥٧
ـ التدبُّر التحليلي ٤٥٧
• ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ ٤٥٧
• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ٤٥٧
• ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ٤٥٨

الموضوع الصفحة

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾ ٤٥٨

(١٢) التدبّر التحليلي للدّرْس الثامن مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآية (٥٠) ٤٥٩

ـ القراءات ٤٥٩

ـ تمهيد ٤٥٩

ـ التدبُّر التحليلي ٤٥٩

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ ٤٥٩

(١٣) التدبّر التحليلي للدّرْس التاسع مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٥١ ـ ٥٦) ٤٦١

ـ القراءات ٤٦١

ـ تمهيد ٤٦٢

ـ التدبُّر التحليلي ٤٦٢

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ ٤٦٢

- ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢)﴾ ٤٦٣

- ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)﴾ ٤٦٤

- ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ ٤٦٦

(١٤) التدبّر التحليلي للدّرْس العاشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٥٧ ـ ٦٧) ٤٦٧

ـ القراءات ٤٦٧

ـ تمهيد ٤٦٨

ـ التدبُّر التحليلي ٤٦٨

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ (٦١)﴾ ٤٦٨

- ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)﴾ ٤٧٠

- ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ (٦٣)﴾ ٤٧١

الموضوع **الصفحة**

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ (٦٤) لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ (٦٧)﴾ ٤٧١

(١٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الْحَادِي عشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٦٨ ـ ٧٧) ٤٧٣

- القراءات ٤٧٤
- تمهيد ٤٧٤
- التدبُّر التحليلي ٤٧٥

• ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٦٨) أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٠) وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ (٧١) أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٧٣)﴾ ٤٧٥

• ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (٧٤) ۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ (٧٧)﴾ ٤٧٨

(١٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني عشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٧٨ ـ ٨٣) ٤٨١

- القراءات ٤٨١
- تمهيد ٤٨١
- التدبُّر التحليلي ٤٨٢

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ (٧٨)﴾ ٤٨٢

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٨٠)﴾ ٤٨٣

• ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ (٨٢) لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٨٣)﴾ ٤٨٤

الموضوع الصفحة

(١٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث عشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٨٤ ـ ٩٢) ٤٨٥
ـ القراءات ٤٨٥
ـ تمهيد ٤٨٦
ـ التدبُّر التحليلي ٤٨٦
- ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥)﴾ ٤٨٦
- ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧)﴾ ٤٨٨
- ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾ ٤٨٩
- ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٩٠)﴾ ٤٩١
- ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾ ٤٩١

(١٨) التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع عشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٩٣ ـ ٩٨) ٤٩٣
ـ القراءات ٤٩٣
ـ تمهيد ٤٩٤
ـ التدبُّر التحليلي ٤٩٤
- ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ (٩٥)﴾ ٤٩٤
- ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)﴾ ٤٩٥
- ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨)﴾ ٤٩٦

(١٩) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس عشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُونَ) الآيات من (٩٩ ـ ١١٨) آخر السورة ٤٩٧
ـ القراءات ٤٩٧

الموضوع **الصفحة**

- تمهيد ٤٩٩
- التدبُّر التحليلي ٤٩٩
• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (١٠٠)﴾ ٥٠٠
• ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٠٢) وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (١٠٣) تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١٠٤)﴾ ٥٠١
• ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (١١١)﴾ ٥٠٤
• ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ (١١٦)﴾ ٥٠٩
• ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (١١٧)﴾ ٥١٠
• ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨)﴾ ٥١١
(٢٠) مُلْحق: مُسْتَخْرَجات بلاغيَّة مِنْ سُورة (المؤمنون) ٥١١

سورة السَّجْدَة

٣٢ مصحف ٧٥ نزول

(١) نص سُورة (السَّجْدة) وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْشِ القراءات ٥٢٣
(٢) مِمَّا وَرَدَ في السُّنَّةِ بشأن سُورَةِ (السَّجْدة) ٥٢٦
(٣) مَوْضُوعُ سورة (السَّجْدَة) ٥٢٦

الموضوع **الصفحة**

(٤) دُروسُ سُورَةِ (السَّجْدَة) ٥٢٦

(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الأَوَّلِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (السَّجْدة) الآيات من (١ ـ ٩) ٥٢٨

- القراءات ٥٢٩
- تمهيد ٥٢٩
- التدبُّر التحليلي ٥٢٩

- ﴿الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢)﴾ ٥٢٩
- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ (٣)﴾ ٥٣٠
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)﴾ ٥٣٢
- ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ ٥٣٤
- ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ (٩)﴾ ٥٣٥

(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (السَّجْدة) الآيات من (١٠ ـ ١٢) ٥٣٨

- القراءات ٥٣٨
- تمهيد ٥٣٩
- التدبُّر التحليلي ٥٣٩

- ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢ﴾ ٥٣٩
- ﴿. . . بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ ٥٤٠
- ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ (١١)﴾ ٥٤٠
- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ ٥٤٢

الموضوع **الصفحة**

(٧) التدبّر التحليلي للدّرس الثّالث مِنْ دُروسِ سُورَةِ (السَّجْدَة) الآيَتان (١٣ ـ ١٤) ٥٤٣

- تمهيد ٥٤٣
- التدبُّر التحليلي ٥٤٣

• ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ ٥٤٣

• ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ ٥٤٤

(٨) التدبّر التحليلي للدّرس الرابع مِنْ دُروسِ سُورَةِ (السَّجْدة) الآيَات من (١٥ ـ ٢٢) ٥٤٥

- القراءات ٥٤٦
- تمهيد ٥٤٦
- التدبُّر التحليلي ٥٤٦

• ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥)﴾ ٥٤٦

• ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾ ٥٤٦

• ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ ٥٥٠

• ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ (١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾ ٥٥١

• ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ ... ٥٥٢

• ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾ ٥٥٣

(٩) التدبّر التحليلي للدّرس الخامس مِنْ دُروسِ سُورَةِ (السَّجْدة) الآيَتان (٢٣ ـ ٢٤) ٥٥٤

الموضوع **الصفحة**

ـ القراءات ٥٥٤

ـ تمهيد ٥٥٤

ـ التدبُّر التحليلي ٥٥٥

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٣)﴾ ٥٥٥

• ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ .. ٥٥٦

(١٠) التدبّر التحليلي للدّرْس السّادِس مِنْ دُروسِ سُورَةِ (السَّجْدة) الآيات من (٢٥ ـ ٣٠) آخر السورة ٥٥٧

ـ تمهيد ٥٥٧

ـ التدبُّر التحليلي ٥٥٧

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾ ٥٥٧

• ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ ٥٥٨

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ ٥٥٩

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)﴾ ٥٦٠

• ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾ ٥٦١

(١٠) مُلْحَق: مُسْتَخْرَجات بلاغِيَّة مِنْ سُورة (السَّجْدَة) ٥٦٢

سورة الطور

٥٢ مصحف ٧٦ نزول

(١) نص السّورة وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْشِ القراءات ٥٦٩

(٢) مِمَّا وَرَدَ في السُّنَّةِ بشأن سُورَةِ (الطّور) ٥٧٢

(٣) مَوْضُوعُ سورة (الطّور) ٥٧٢

(٤) دُروسُ سُورَةِ (الطّور) ٥٧٣

(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الأوّل مِنْ دُرُوسِ سُوْرَة (الطّورِ) الآيات من (١ ـ ٢٨) . ٥٧٤

الموضوع **الصفحة**

ـ القراءات ٥٧٤

ـ تمهيد ٥٧٦

ـ التدبُّر التحليلي ٥٧٦

• ﴿وَٱلطُّورِ (١) وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ (٢) فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ (٣) وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ (٤) وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ (٥) وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ (٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ (٨) يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا (٩) وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا (١٠)﴾ ٥٧٦

• ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ (١٢) يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ (١٥) ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٦)﴾ ٥٨٠

• ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (١٨) كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ (٢٠)﴾ ٥٨٢

• ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ (٢١)﴾ ٥٨٤

• ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ (٢٤)﴾ ٥٨٦

• ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨)﴾ ٥٨٧

(٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثاني مِنْ دُروسِ سُوْرَة (الطّورِ) الآيات من (٢٩ ـ ٤٤) ... ٥٨٩

ـ القراءات ٥٩٠

ـ تمهيد ٥٩٠

ـ التدبُّر التحليلي ٥٩٠

• ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ (٢٩) أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ (٣٠) قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (٣٢)﴾ ٥٩٠

الموضوع **الصفحة**

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ (٣٤)﴾ ٥٩٣
- ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ ٥٩٤
- ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾ ٥٩٥
- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨)﴾ ٥٩٥
- ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ (٣٩)﴾ ٥٩٦
- ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠)﴾ ٥٩٦
- ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١)﴾ ٥٩٦
- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ (٤٢)﴾ ٥٩٧
- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾ ٥٩٧
- ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤)﴾ ٥٩٧

(٧) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث مِنْ دُرُوسِ سُورَة (الطّورِ) الآيات من (٤٥ - ٤٩) آخِر السورة ٥٩٨

- القراءات ٥٩٨
- تمهيد ٥٩٩
- التدبُّر التحليلي ٥٩٩

- ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦)﴾ ٥٩٩
- ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)﴾ ٦٠٠
- ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ (٤٩)﴾ ٦٠٠

(٨) مُلْحَق: مُسْتَخْرَجَات بلاغِيَّة مِنْ سُورة (الطّور) ٦٠٣

سورة المُلْك «تبارك»

٦٧ مصحف ٧٧ نزول

(١) نص السّورة وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْشِ القراءات ٦٠٧

الموضوع **الصفحة**

(٢) مِمَّا وَرَدَ في السُّنَّةِ بشأن سُورَةِ (الملك) ٦١٠
(٣) مَوْضُوعُ سورة (الملك) ٦١٠
(٤) دُروسُ سُورَةِ (الملك) ٦١٠
(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الأوّل مِنْ دُرُوسِ سورة (الملك) الآيات من (١ ـ ٢٢) ٦١١
ـ القراءات ٦١٢
ـ تمهيد ٦١٣
ـ التدبُّر التحليلي ٦١٣
- ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢)﴾ ٦١٣
- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ ٦١٦
- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥)﴾ ٦١٨
- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٦) إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١٠) فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١١)﴾ ٦٢٠
- ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٤) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ (١٥)﴾ ٦٢٣
- ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)﴾ ٦٢٥

الموضوع الصفحة

• ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ ٦٣٠

(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثّاني مِنْ دُرُوسِ سورة (الملك) الآيات من (٢٣ ـ ٣٠) آخر السورة ٦٣٤

ـ القراءات ٦٣٤

ـ تمهيد ٦٣٥

ـ التدبُّر التحليلي ٦٣٥

• ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ٦٣٥

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ ٦٣٧

• ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ٦٣٨

• ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ ٦٣٩

• ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ ٦٤٠

• ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ ٦٤٠

(٧) مُلْحَق: مُسْتَخْرَجات بلاغيَّة مِنْ سُورة (الملك) ٦٤١

سُورة الحاقّة

٦٩ مصحف ٧٨ نزول

(١) نص السّورة وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْشِ القراءات ٦٤٥

(٢) مِمَّا وَرَدَ في السُّنَّةِ بشأن سُورَةِ (الحاقَّة) ٦٤٧

(٣) مَوْضُوعُ سورة (الحاقة) ٦٤٧

(٤) دُروسُ سُورَةِ (الحاقة) ٦٤٧

(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الأول مِنْ دُرُوسِ سورة (الحاقة) الآيات من (١ ـ ١٢) ٦٤٨

ـ القراءات ٦٤٨

ـ تمهيد ٦٤٩

ـ التدبُّر التحليلي ٦٤٩

الموضوع **الصفحة**

- ﴿ٱلْحَاقَّةُ (١) مَا ٱلْحَاقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ (٨)﴾ ....
- ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)﴾ ٦٥٣
- ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ (١٢)﴾ .. ٦٥٤

(٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثّاني من دُروس سورة (الحاقَّة) الآيات من (١٣ ـ ٣٧) .. ٦٥٥

- تمهيد ٦٥٦
- القراءات ٦٥٦
- التدبُّر التحليلي ٦٥٦

- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥)﴾ ٦٥٦
- ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)﴾ ٦٥٧
- ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ (١٩) إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ ٦٥٨
- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ (٣٧)﴾ ٦٦١

(٧) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الحاقة) الآيات من (٣٨ ـ ٥٢) آخر السورة ٦٦٤

- القراءات ٦٦٤
- تمهيد ٦٦٥
- التدبُّر التحليلي ٦٦٥

الموضوع **الصفحة**

- ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٣)﴾ ٦٦٥
- ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ (٤٧)﴾ ٦٦٨
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ (٤٨)﴾ ٦٦٩
- ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩)﴾ ٦٦٩
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٥٠)﴾ ٦٦٩
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ (٥١)﴾ ٦٦٩
- ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ (٥٢)﴾ ٦٦٩

(٨) مُلْحَق: مُسْتَخْرَجَات بلاغيَّة مِنْ سُورة (الْحَاقَّة) ٦٧٠

سورة المعارج

٧٠ مصحف ٧٩ نزول

(١) نص السّورة وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْشِ القراءات ٦٧٧

(٢) مَوْضُوعُ سورة (المعارج) ٦٧٩

(٤) دُروسُ سُورَةِ (المعارج) ٦٧٩

(٤) التدبّر التحليلي للدّرس الأول مِنْ دُرُوسِ سورة (المعارج) الآيات من (١ ـ ١٨) ٦٨٠

ـ القراءات ٦٨١

ـ تمهيد ٦٨١

ـ التدبُّر التحليلي ٦٨٢

- ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢)﴾ ٦٨٢
- ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤)﴾ ٦٨٢
- ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥)﴾ ٦٨٤
- ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا (٧)﴾ ٦٨٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ (١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤)﴾ ٦٨٥
- ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ (١٨)﴾ ٦٨٦

(٥) التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني مِنْ دُروس سورة (المعارج) الآيات من (١٩ ـ ٣٥) ٦٨٧

ـ القراءات ٦٨٧

ـ تمهيد ٦٨٨

ـ التدبُّر التحليلي ٦٨٨

- ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)﴾ ٦٨٩

(٦) التدبّر التحليلي للدّرْس الثالث مِنْ دُرُوس سورة (المعارج) الآيات من (٣٦ ـ ٤٤) آخر السورة ٦٩٦

ـ القراءات ٦٩٦

ـ تمهيد ٦٩٧

ـ التدبُّر التحليلي ٦٩٧

- ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾ ... ٦٩٧
- ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾ ٦٩٩
- ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٤٤)﴾ ٧٠٠

(٧) مُلْحَق: مُسْتَخْرَجَات بلاغِيَّة مِنْ سُورة (المعارج) ٧٠٢

ـ خاتِمة المجلّد الرابع عشر ٧٠٤

ـ فهرس المجلد الرابع عشر ٧٠٥

معارج التفكر ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

المجلد الخامس عشر

تفسير سور
النبأ/٨٠ النازعات/٨١ الانفطار/٨٢ الانشقاق/٨٣
الروم/٨٤ العنكبوت/٨٥ المطففين/٨٦ ومقدمات سورة البقرة/٨٧

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطَّبعَة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

جَميع حُقوق الطَّبع مَحفُوظة لِلمؤلِّف

تُطلب جميع كتبنا مِن :
دَار القَلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشّاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَار البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سورة النبأ (عَمَّ)

٧٨ مصحف ٨٠ نزول

وهي سورة مكيَّة

(١)

نص السورة وما فيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ
﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ
مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا
﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا
﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا
﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ
يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا
﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا

---

١ ـ • وقف البزّي ويعقوبِ بخُلْفٍ عَنْهُما بهاء السَّكْت علىٰ: **[عَمَّ]** فقرآها «عَمَّهْ».

٢ ـ • وقف حمْزة بالتسهيلِ مع المدّ والقصر في: **[يتَسَاءلُونَ]**.

٣ ـ • وقف حمزة، وهشام بخُلْف عَنْهُ في: **[عَنِ النَّبَإِ]** بإبْدَالِ الْهمزة ألِفاً، وبتسهيلِها بالرَّوم فهُمَا وَجْهَان.

١٩ ـ • قَرأَ عَاصِم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[وفُتِحَت]** بِكَسْرِ التَّاءِ دُونَ تَشْدِيد. ووافَقَهُمُ الأعْمَش.

وقرأها باقي القُرَّاءِ الْعَشرة: **[وَفُتِّحَتْ]** بكسر التّاءِ مع التَّشْدِيد.

﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا
بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾
إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾
وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا
﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾
وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ
عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ
مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا
مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ
ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ
ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

---

٢٢ ـ • وقف حمزة بالتسهيل في: [**مَآباً**].

٢٣ ـ • قرأ حَمْزَةُ، وروح: [**لَبِثِينَ**].
وقرأها باقي القُرّاء العشرة: [**لَابِثِينَ**].

٢٥ ـ • قرأ حفصٌ، وحمزة، والكسائي، وخلَف: [**وَغَسَّاقاً**] بتشدِيد السِّين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَغَسَاقاً**].

٣٥ ـ • قرأ الكِسَائي: [**وَلَا كِذَاباً**].
وقرأها باقي القراءة العشرة: [**وَلَا كِذَّاباً**].

٣٧ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبُو عمْرو، وأبو جعفر: [**رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ**].
وقرأها ابْنُ عامر، وعاصم، ويعقوب: [**رَبِّ السَّمَاواتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ**]. . وقرأها باقي القراء العشرة: [**رَبِّ السَّماوات والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ**].

(٢)

موضوع سورة النبأ (عمّ)

يَدُورُ موضوعُ سُورَةِ النَّبأ حَوْلَ تَسَاؤُلِ المكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ ويَوْمِ القيامَةِ، ويَوْمِ الدِّينِ؛ عَنْ هَـٰذا النبإ الْعَظِيم الّذِي لَمْ يطِبْ لَهُمْ أَنْ يُصَدِّقوا بِهِ، لِأنَّ إيمانَهُمْ بِهِ يَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ تَرْكِ كَثِيرٍ مِنْ شَهَواتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحيَاةِ الدُّنْيا، وإلى نَبْذِ شِرْكيَّاتِهِمْ ومُعْتَقَداتِهِمْ الْبَاطِلَاتِ الْمَوْرُوثَاتِ عَنْ آبائِهِمْ وأَجْدَادِهِمْ، وإلىٰ عَدَم اتِّبَاعِهِمْ أهْوَاءَهُمُ الْمُخالِفَةَ لِتَعالِيم دِينِ اللهِ الْحَقِّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ محمَّدٌ ﷺ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ بَيَانَاتِهِ الَّتِي يُنَزِّلُهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِهِ المجيد.

ويَدُورُ مَوْضُوعُ السُّورَةِ حَوْلَ مُعَالَجَةِ هـٰؤلَاءِ المكذِّبين بِيَوْم الدِّين، بالأدِلَّةِ الكَوْنِيَّة الدَّالَّةِ عَلَىٰ كَمالِ قُدْرَةِ اللهِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ أنَّ الْبَعْثَ وَيَوْمَ الدِّينِ وَكُلَّ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ فِيهِ مِنَ الأُمُورِ الهيِّنَةِ عَلَيْهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وبتَقْدِيم صُورَةٍ فيهَا بَيَانُ بَعْضِ عَذَابِ الطَّاغِينَ المكَذِبينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وصُورَةٍ فِيهَا بَيَانُ بَعْضِ نَعِيمِ المتّقين.

(٣)

دروس سورة (النبأ)

يَظْهَرُ للمتَدَبِّر أَنَّ هـٰذه السُّورة يَحْسُنُ تَقْسِيمها إلى خَمْسَةِ دُرُوس، وهٰذِهِ الدُّرُوسُ الْخَمْسَةُ مُتَرابِطَةٌ فيمَا بَيْنَها ضِمْنَ مَوْضوعٍ واحد.

الدَّرسُ الْأَوَّل: الآيات من (١ ـ ١٦).

وفي آياتِ هذا الدَّرس بَيَانُ تَساؤُل المكَذِّبينَ بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين عَنْهُمَا، بُغْيَةَ الوصُولِ إِلَىٰ دَلِيلٍ مَا يَتَّخِذُونَهُ ذَرِيعة تُوهِمُ أَنَّهُمْ عَلَىٰ صَوَابٍ فِي تكْذِيبهِمْ، وإقناعِ أتباعِهِمْ بأَنَّ الْبَعْثَ ويَوْمَ الدّينِ لَا حَقِيقَةَ لَهُمَا.

واقْتَرنَ هَـٰذَا البيانُ بالتَّنْبِيهِ علَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنه، وَهـٰذِهِ

الآيَاتُ تَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيم قُدْرَةِ اللهِ، وكَمَالِ حِكْمَتِهِ، فالبعْثُ ويَوْمُ الدِّينِ مِنْ قضايا الحقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ.

الدرس الثاني: الآيات من (١٧ ـ ٢٠).

وفي آيات هذا الدَّرسِ بَيَانُ لَقَطاتٍ بِشَأْنِ يَوْمِ الدّين، وأَحْدَاثٍ جِسَامٍ تجري قَبْلَهُ.

الدرس الثالث: الآيات من (٢١ ـ ٣٠).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرسِ عَرْضُ لَقَطاتٍ عَنْ جَهَنَّمَ، وبَعْضِ أَحْوالِ المعَذَّبينَ فِيها، مَعَ بَيَانِ سَبَبِ تَعْذِيبِهِمْ، وأن اللهَ عزَّ وجلّ أَحْصَىٰ كلَّ شيءٍ وكَتَبَهُ فِي كِتاب.

الدرس الرابع: الآيات من (٣١ ـ ٣٧).

وفي آيات هذا الدَّرس بيَانُ لَقَطاتٍ عَنْ ثواب المتّقين في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين.

الدرس الخامس: الآيات من (٣٨ ـ ٤٠) آخر السورة.

وفي آيات هذا الدّرسِ بيَانُ بَعْضِ قَضَايَا عن يَوْمِ الدِّين، مع إِنْذَارِ المكذّبين بعذَابٍ قَرِيبٍ يكُونُ يَوْم الدّين.

* * *

(٤)

التدبر التحليليّ للدّرس الأول مِن دُرُوسِ سُورة (النبأ)

الآيات من (١ ـ ١٦)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا (٦) وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ

مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾:

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ بَيانُ تَساؤُلِ المكَذِّبينَ بالْبَعْثِ ويَوْم الدِّينِ عَنْهُما، بُغْيَةَ الْوُصُولِ إلى دَلِيلٍ مَا يَتَّخِذُونَهُ ذَرِيعَةً للإِيهَام بِهِ أَنَّهُمْ عَلَىٰ صَوَابٍ فِي تَكْذِيبِهِمْ، وَلإِقْنَاعِ أَتْبَاعِهِمْ بأنَّ البَعْثَ وَيَوْمَ الدِّينِ لَا حقيقةَ لَهُمَا.

واقْتَرَنَ هـٰذَا الْبَيَانُ بالتَّنْبيهِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ فِي كَوْنِه، وهـٰذِهِ الآيَاتُ تَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ، وكَمَالِ حِكْمَتِهِ، فَالْبَعْثُ وَيَوْمُ الدِّينِ مِنْ قضايَا الْحَقِّ الّذِي لَا شَكَّ فِيه.

التَّدبّر التحليلي:

- قول اللهِ تَعَالَى:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾:

- ﴿عَمَّ﴾: أَصْلُهَا «عَنْ مَا»؟، فعَنْ حَرْفُ جَرٍّ، و«مَا» اسْمُ استفهام، ويَجِبُ حَذْفُ أَلِفِها لفْظاً وَخطّاً إذا دَخَلَ عليها حَرْفُ جرٍّ، ويَجِبُ إِبْقَاءُ الفتْحَةِ دَليلاً عَلَيْها كما هُنَا «عَمَّ». والمعنى عَنْ أَيِّ شَيْءٍ.

- ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾: أي: يَسْأَلُ بَعْضُ المكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ بَعْضاً.

- ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾: جَاءَتْ هـٰذِهِ الآيَةُ بَيَاناً لِلشَّيْءِ الّذِي يَتَسَاءَلُ عَنْهُ المكَذّبُونَ بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ، أي: هُمْ يَتَساءَلُونَ عَنِ الْخَبَرِ العظيم الّذِي هُوَ الْبَعْثُ إِلَىٰ الحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ، وأَحْدَاثُ يَوْمِ الدِّينِ الْعُظْمَىٰ.

وَيَظْهَرُ لِي أَنَّ تَسَاؤُلَهُمْ عَنِ النَّبأ العظيم وَهُمْ مُكَذِّبُونَ بِهِ، وَمُنْكِرُونَ لَهُ؛ هُو تَحَادُثُهُم فِيمَا بَيْنَهُمْ، إِذْ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَمَّا يُرِيدُونَ تَرْوِيجَهُ مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ، لإقْنَاعِ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ بأنَّ الْبَعْثَ وَيَوْمَ الدِّينِ وأَنْبَاءَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَجْرِي فِيهِ أُكْذُوبَةٌ افْتَرَاهَا مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِه، ولَيْسَ لَهَا في الواقِعِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ في المسْتَقْبَلِ حَقِيقَةٌ مَا.

- ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾: أي: الَّذِينَ هُمْ فِي النَّبَأِ الْعَظِيم مُخْتَلِفُونَ مَعَ حقيقَتِهِ وَوَاقِعِهِ، فَهُمْ يُنْكِرُون أَنَّ لَهُ حَقِيقَةً سَوْفَ تَقَعُ، جُحوداً وَتَكْذِيباً للرَّسُولِ ﷺ المؤيَّدِ من اللهِ بالمعجزاتِ الخارِقَاتِ، والآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وهُوَ بَيَانٌ عَنْ أَمْرٍ سَوْفَ يَقَعُ حَتْماً، لِأَنَّهُ خَبَرٌ عَنِ اللهِ رَبِّ العالَمِينَ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وهُوَ الْعَلِيمُ الخبير الحكيم، والْقَدِيرُ على أنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وهُوَ مَدَبِّرُ كُلِّ شَيْءٍ في الكوْنِ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا ولِلْآخِرَةِ.

والَّذِينَ هُم فيهِ مُخْتَلِفُون بينَ شاكِّينَ؛ وبَيْنَ مُسْتَيقِنِينَ في قُلُوبِهِمْ جاحِدِينَ مُنْكِرِينَ ظُلْماً وَعِنَاداً ومُكَابَرَةً بالْبَاطِلِ.

- ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾:

﴿كَلَّا﴾ كَلِمَةُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، وهي موجَّهَةٌ لِلْمُكَذِّبينَ بالْبَعْثِ وَيَوْم الدِّينِ، أي: فَلْيَرْتَدِعْ ولْيَنْزَجِرِ المكذِّبُونَ بالْبَعْثِ ويَوْمِ الدِّينِ ومَا يَجرِي فِيهِ، مِمَّا أَعَدَّهُ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ خالِقُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ومُدَبِّرُ كُلِّ شَيْءٍ فيها بحِكْمَتِهِ، فَهٰذِهِ الموْعُودُ بِهَا حَقٌّ سَوْفَ يَحْصُلُ حَتْماً.

المعْنَى: كلَّا سيَعْلَمُونَ عِنْدَ النَّزْعِ أنَّ الآخِرَةَ ومَا يَجْرِي فيها حَقٌّ إِذْ تَنْكَشِفُ لَهُمْ مَقَاعِدُهُمْ فِي جَهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ عِنْدَ نَزْعِ أَرْوَاحِهِمْ، ثُمَّ بَعْدَ الْمَوْتِ وعِنْدَ الْبَعْثِ، سَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ مِنْ أَحْدَاثِ الْبَعْثِ والْآخِرَةِ حَقٌّ لَا رَيْبَ فيهِ، إِذْ يَشْهَدُونَ مِنْ أَحْوَالِ الآخِرَةِ بَعْضَ مَا

كَانُوا يُكَذِّبُونَ به، شُهُوداً يَجْعَلُهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُ جُحُوداً ولَا إنْكاراً، ويَقِيسُونَ عَلَيْهِ سَائِرَ أحْدَاثِ الآخِرَةِ، الَّتِي جَاءَ النَّبَأُ عَنْهَا فِي كِتَابِ اللهِ وَفي بيانَاتِ رسُولِهِ ﷺ.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ⦗٦⦘ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ⦗٧⦘ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ⦗٨⦘ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ⦗٩⦘ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ⦗١٠⦘ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ⦗١١⦘ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ⦗١٢⦘ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⦗١٣⦘ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ⦗١٤⦘ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ⦗١٥⦘ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ⦗١٦⦘﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ الْقَصِيراتِ التَّذْكِيرُ بِتِسْعِ آيَاتٍ مِنْ آيات اللهِ الكونيَّة العظيمة، لِمَا فِيهَا مِنْ دَلَالَاتٍ عَلَىٰ عَظِيمِ قُدرَةِ اللهِ، وسَامِي حِكْمَتِهِ، وشُمُولِ عِلْمِهِ، وإحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلماً، وَمَنْ أَدْرَكَ هٰذِهِ الْحَقَائِقَ عَلِمَ أَنَّ النَّبَأَ الْعَظِيمَ الَّذِي أخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ رَبِّ العالمين ـ جَلَّ جَلَالَهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ المتعَلِّقَ بالْبَعْثِ والْيَوْمِ الآخِرِ؛ نَبَأٌ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، فخالِقُ الْحَيَاةِ الأُولَىٰ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ؛ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْلُقَ النَّاسَ سُدىً، دُونَ أَنْ يُحَاسِبَهُمْ وَيُجَازِيَهمْ، وَإذْ لَا يَتَحَقَّقُ الجزَاءُ الْأَوْفَىٰ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، فَلَا بُدَّ بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ وعَظِيمِ قُدْرَتِهِ وشُمُولِ عِلْمِهِ كُلَّ شَيْءٍ؛ مِنْ أَنْ يَكُونَ قدْ وَضَعَ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ التَّي قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا إيجادَ ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ، يَتَحَقَّقُ فيها الجزاءُ بالْفَضْلِ لِمَنْ أَحْسَنَ وَأَطَاعَ، والجزاءُ بالْعَدْلِ لِمَنْ أساءَ وعصَىٰ.

وفيما يلي شَرْح مُوجَزٌ لِهـٰذِهِ الآياتِ الكَوْنِيَّةِ التِّسعِ، الَّتِي سَبَقَ التَّنْبيهُ عَلَيْها في نُجُومِ التَّنْزِيل، والاسْتِدْلَالُ بِهَا على طَائِفَةٍ من صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ وأسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، وصِدْقِ ما أنْبَأَ بِهِ عَنْ بَعْضِ الْغُيُوبِ، ومِنْهَا الْبَعْثُ والْحَياةُ الأُخْرىٰ الْأَبدِيَّةِ، ومَا أَعَدَّ اللهُ فيها مِنْ دَارٍ لِنَعِيم المتقين، ودار لِعَذَابِ الْمُجْرِمِينَ، والْعُصَاةِ والمذنبين.

الآيَةُ الكَوْنِيَّة الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾:

اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ انْتِزَاعُ إِقرارِ الْمَخَاطَبِينَ المكَذِّبِينَ بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ بأنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ الأَرْضَ مِهاداً، صَالِحَةً لإِقَامَةِ النَّاسِ عَلَيْهَا بِيُسْرٍ وسُهُولَةٍ، وتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِمْ، وَمَنَافِعِهِمْ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، وهِيَ مَصَالِحُ وَمَنَافِعُ جَلِيلَةٌ وكثيرَةٌ يَصْعُبُ حَصْرُها.

الْمِهَاد: الْمَكانُ الْمُمَهَّدُ الْمُوَطَّأ، ويَأْتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ الْفِرَاش، ويَأْتِي بِمَعْنَىٰ الْأَرْضِ المنْخَفِضَةِ المسْتَوِية.

ولَيْسَ الْمُرَادُ أنّ الْأَرْضَ كُلَّها كالْفِرَاشِ، بَلْ فيها مَسَاحَات كَثِيراتٌ جِدّاً صالحاتٌ لِانْتِفَاعِ النَّاسِ بِسُطُوحِها بِيُسْرٍ وسُهُولَةٍ، ولِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهم عَلَىٰ ظَهْرِها، وَلَوْ جَعَلَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ كظَهْرِ الْقُنْفُذِ لَكَانَتْ إقامَةُ النَّاسِ عَلَيْها وتحقيقُ مَصَالِحِهِمْ صَعْبَةً عَسِيرَة.

فجَعْلُ اللهِ الأرْضَ مِهاداً مِن نِعَمِ اللهِ علَىٰ عبادِه، ومِنْ آثارِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

والاسْتِفْهَامُ في الآيَةِ مُسَلَّطٌ عَلَىٰ جُمْلَةٍ مَنْفِيَّةٍ، وجَوابُهُ يكُونُ بِكَلِمَةِ «بَلَىٰ»، أي: بَلْ جَعَلْتَهَا رَبَّنَا مِهَاداً، وهُو مِنْ نِعْمَتِكَ عَلَىٰ عبادِكَ سُكَّانِ الْأَرْض.

الآيَةُ الكَوْنِيَّةُ الثَّانِيَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾: أي: أولَمْ نَجْعَلِ الْجِبالَ أَوْتَاداً، فهي كالْأَوْتاد.

إنَّ الله جَلَّتْ حِكْمَتُهُ جَعَلَ الْجِبَالَ فِي الأرضِ مُثَبِّتَاتٍ لِقِشْرَةِ الْأَرْضِ، حِمَايَةً لَهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بسُكانِها، ومَنْعَ أَنْ تَتَحَرَّكَ وَتَضطَّرِبَ بِهِمْ، مَعَ مَا فِي الجبالِ مِنْ مَنَافِعَ كثِيرَةٍ للنَّاسِ في الأَرْض.

الأوْتَادُ مُثَبِّتَةٌ لِلْخِيَامِ عِنْدَ نَصْبِهَا، تَحْفَظُهَا مِنَ الاضطراب ومِنَ التَّسَاقُط، فأبَانَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّ الْجِبَالَ كالأوْتادِ مُثَبِّتَةٌ لِقِشْرَةِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ تَتَحَرَّكَ وَتَضطرب ويَحْدُثَ فِيها خَسْف.

وسبَقَ في نجوم التنْزِيلِ بَيَانٌ أَوْسَعُ عَنْ مَنَافِعِ الجبال للناس.

الآية الكَوْنِية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى خِطَاباً للنَّاسِ وَمِنْهُمُ المكَذِّبُونَ بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾:

يأتي الْخَلْقُ بِمَعْنَىٰ الإيجادِ من الْعَدم، وهـٰذا مِنْ خَصَائِصِ قُدْرَةِ اللهِ جَلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

ويأتي الْخَلْقُ بمعْنَىٰ التَّقْدِيرِ، وهُوَ إِعْطاءُ أجْزَاءِ الشَّيْء مَقَادِيرَهَا بإحْكَام، وهـٰذا قَدْ مَكَّنَ اللهُ النَّاسَ مِنْهُ، ومِنْهُ قَوْلُ اللهِ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام الوارد في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۝١١٠﴾.

سبَقَ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قول اللهِ تَعالَىٰ:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾.

وَأَظْهَرَ التَّدَبُّرُ الْمَقْرُونُ بِمَا تَوَصَّلَتْ إِلَيْهِ الْعَلُومُ الإِنْسَانِيَّةُ؛ أَنَّ مِنْ نِظَامِ اللهِ جَلَّ جَلاَلُهُ فِي كَوْنِهِ؛ أَنَّهُ جَعَلَ مَا خَلَقَ فِي كَوْنِهِ مِنْ أَصْنَافٍ خاضِعاً لنظَامِ الزَّوْجِيَّة، لِيتفرَّدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالْوَحْدَانيةِ.

ومِنَ الزَّوْجِيَّةِ الذُّكُورُ والإِنَاث، في النَّبَاتَاتِ، وفي الْأَحْيَاءِ، ومِنَ الزَّوْجِيَّةِ السَّالِبُ والْمُوجَبُ في الكَهْرُبَاءِ، وفي المغناطِيس، وفي الذَّرَّات، إلى غيرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا نَعْلَمُ.

الزَّوْج: هُو في اللُّغَةِ خِلَافُ الْفَرْد، وكُلُّ شَيْئَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ هُمَا زَوْجانِ، وَلَو كانَا مُخْتَلِفَيْنِ غَيْرَ مُتَشَاكِلَين، وجمع الزَّوْجِ أَزْواج.

ويأتي الزَّوْجُ فِي اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ الصِّنْف مِنْ كُلِّ شيءٍ، ويُجْمَعُ على أزْواج.

فَمَعْنَىٰ: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾: يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ زَوْجِيَّةِ الذُّكُورِ والإناثِ ونحوهما.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ أَيْضاً عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْأَصْنَافِ، إذ النَّاسُ أصْنَافٌ مَعَ وحْدَةِ النَّوْعِ، ففِيهِمُ الْبِيضُ، والسُّودُ، والصُفْرُ، وغيرُ ذَلِكَ، وفِيهِمْ الْأَصْنَافُ ذَوُو الْأَشْكَالِ المخْتَلِفَةِ في وُجُوهِهِمْ، وفي حُجُومِهِمْ، وفي أطوَالِهِمْ فَمِنْهُمُ الطِّوَالُ الْعمالِقَةُ، وفِيهِمُ الْأَقْزَامُ، وفيهم مَنْ هُمْ بَيْنَ الطِّوَالِ والْأَقْزَامِ عَلىٰ اخْتِلَافٍ فِي مَقَادِيرِ أَطْوَالِهِمْ، وفي النَّاسِ عَبَاقِرَةٌ، وأذْكِياءُ وأغْبِياءُ وبُلْهٌ، ومَنْ هُمْ بَيْنَ ذَلِكَ، إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أصْنَافٍ، مَعَ وَحْدَةِ أصُولِ مُخَطَّطِ الْخَلْقِ الْعَامّ.

واخْتِيارُ خَلْقِ النَّاسِ أَزْواجاً مظْهَرٌ عَظِيمٌ مِنْ مظَاهِرِ حِكْمَةِ اللهِ في الْخَلْقِ، مِنْهَا أَنْ يَتَّخِذَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً، ومِنْهَا أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مُبَاشِرٌ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ، ويُعْطِي كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ الْخَاصَّ بِهِ الّذِي يَنْفَرِدُ بِهِ عمَّا سِوَاه، فالأفرادُ لَا تَطَابُقَ بَيْنَهُمْ.

الآيَة الكَونيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾:

السُّبَات: الرَّاحَة، أي: وجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ رَاحَةً لَكُمْ.

إِنَّ مَا يُحْدِثُهُ الْعَمَلُ فِي سَاعَاتِ الْيَقَظَةِ فِي الْجِسْمِ، ويُسَبِّبُ لَهُ شُعُوراً بالتَّعَبِ والإِعْيَاءِ، هُوَ يَزُولُ في سَاعَاتِ النَّوْمِ.

وللأطِبَّاءِ دِرَاسَاتٌ مُوَسَّعَةٌ حَوْلَ تَأْثِيرِ الْعَمَلِ في الْجِسْمِ عِنْدَ الْيَقَظَةِ، وَتَأْثِيرِ النَّوْمِ فِي إزَالَةِ مَا يَشْعُرُ به الإنْسَانُ بالتَّعَبِ والإعْيَاءِ، مِنْ مَوادّ تُفْرَزُ أثْنَاءِ الْعَمَلِ الْمُجْهِدِ وتُزَالُ عِنْدَ النَّوْمِ.

وهٰذا مِنْ نِعَمِ اللهِ الكَثِيرةِ عَلَىٰ عِبَادِه.

الآية الكونية الخامِسَة: دلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾:

أي: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ سَاتراً كاللِّبَاسِ الّذي يَسْتُرُ الأَجْسَامَ، ولِلَّيْلِ مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ لِلْأَحْيَاءِ، وَيُقَرِّرُ عُلَمَاءُ الطِّبِّ الْباحِثُونَ؛ أنَّ اللَّيْلَ أفْضَلُ الأَوْقَاتِ لِلنَّوْمِ، الَّذي يُعْطِي الْجِسْمَ الرَّاحَةَ مِنْ مَتَاعِبِ الْعَمَلِ الْمُجْهِدِ، وَرُبَّما كَان هٰذا دَاعِياً لِذِكْرِ اللَّيْلِ عَقِبَ ذِكْرِ النَّوْمِ.

الآيَةُ الكَوْنِيَّة السادسة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾:

الْمَعَاش: مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ «عَاشَ، يَعِيشُ، عَيْشاً»، والعيشُ الْحَيَاة.

والمعنى: وجعَلْنَا النَّهَارَ زَمَاناً يَكْتَسِبُ فِيهِ النَّاسُ ما بِهِ تكُونُ اسْتِمْرَارُ حَيَاتِهِمْ، إِذِ الْقُوتُ مِنَ الأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا الْفَاطِرُ الْحَكِيمُ مَادَّةً لِاسْتِمْرَارِ حَيَاةِ الأَحْيَاء إلى آجَالِهَا المقَدَّرة بِتَقْدِير اللهِ وَقَضَائِهِ.

ومَعْلُومٌ أنَّ النَّهَارَ أفْضَلُ الأزْمَانِ ليكْتَسِبَ النَّاسُ فيه أَقْواتَهُمْ وأَرْزَاقَهُمْ وَمَعايشَهُمْ.

وفِي هٰذا الْبَيَانِ تَوْجِيهٌ ضِمْنِيٌّ لِجَعْلِ النَّهَارِ هُوَ الزَّمَانَ المفَضَّلَ لاكْتِسَابِ الْمَعَايش.

أُطْلِقَ فِي الآية لفظ «المعَاشِ» الَّذِي هو «الْحَيَاة» عَلَىٰ مَا بِهِ يَكُونُ

اسْتِمْرَارُ الحياة، وهٰذا مِنْ إطْلَاقِ الْمُسَبَّبِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ السَّبَبُ، وهذا مِنَ المجاز الْمُرْسَلِ.

الآيَةُ الكَوْنِيَّةُ السابِعَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

المُرَادُ بِالسَّبْعِ الشِّدَادِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، إذْ أجْزَاؤُهَا قَوِيَّةٌ ومُثَبَّتَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا تَثْبِيتاً مَتِيناً لَا تَحِيدُ عَنْهُ، وإِنْ كَانَتْ تَدُورُ فِي مَدَارَاتِهَا، وَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ عَظِيم قُدْرَةِ اللهِ، وإتْقَانِ صُنْعِهِ، مَعَ تَأْدِيَتِهَا وَظَائِفَ نَفْعِيَّةٍ جَلِيلَةٍ لِسُكَّانِ الْأَرْضِ، وَهٰذا مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، وعِنَايَتِهِ العظيمَةِ بِهِمْ.

شِدَادِ: جَمْعُ «شَدِيدَة» وهِي الْقَوِيَّةُ الْمَتِينَةُ.

الآية الكَوْنِيَّة الثامِنَة: دل عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾:

المراد بالسِّرَاجِ الْوَهَّاجِ الشَّمْسُ، فَهِيَ كَوْكَبٌ نَارِيٌّ مُلْتَهِبٌ، أَطْلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْهَا لفظ «سِرَاج» لِأَنَّهَا نَارِيَّةٌ كَالسِّرَاجِ الَّذِي يُوقِدُهُ النَّاسُ في الْأَرْضِ، ذي الضِّيَاءِ والْحَرَارَة.

السِّرَاج: المصْبَاحُ الزَّاهِرُ الَّذِي يُعْطِي ضِيَاءً وَحَرَارة بنارِهِ، ويُوقَدُ بأَنْواعٍ مِنَ الْوَقودِ، ومِنْهَا الزَّيت، وإطلاق السراج على الشمس هو من قبيل الاستعارة.

ولا يخفىٰ ما للشمس من فوائد جليلةٍ، لِسُكَّانِ الأرض، وقد سبَقَ بيانٌ عن الشمس وفوائدها في الآية (٦١) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

وهَّاجاً: أي: كثيرَ التوقُّد، يقال لُغةً: «وهَجتِ النَّارُ، تَهِجُ» أي: اتَّقَدت.

الآية الكونيَّةُ التّاسعة: دل عَلَيها قول اللهِ تَعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ⑭ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ⑯﴾:

الْمُعَصِرَات: السَّحَائِبُ تَعْتَصِرُهَا الرِّيَاحُ بالْمَطر.

مَاءً ثَجَّاجاً: أي: شَدِيدَ الانْصِبَابِ مُتَتَابعَ الْهطلانِ.

جنَّاتٍ: جمع «جَنَّة»، وهو لفظ يُطْلَقُ علَىٰ مَا يَحْتَوِي أشجاراً وزرُوعاً وثماراً وأنهاراً وقُصُوراً، ومَا يُمْتِعُ النَّفْسَ والحَواس دُونَ شَرْطِ اجْتِمَاعِهَا.

أَلْفَافاً: جَمْعُ «لِفّ»، ويُطْلَقُ عَلَىٰ البسْتَانِ المجتَمعِ الشَّجَر، يُقَال: «حَدِيقَةٌ لِفٌّ» أي: مُلْتَفَّةُ الأَشْجَارِ والنَّبَاتِ.

المعنى: وأَنْزَلْنا مِنَ السُّحُبِ الثِّقَالِ الْحَامِلَةِ لِبُخَارِ الْمَاءِ، الْقَابِلِ لِأَنْ يَتحوَّلَ مَطراً بِرِيَاحٍ خَاصَّةٍ؛ مطراً شَدِيدَ الانْصِبَابِ مُتَتَابعَ الْهَطلانِ، فَنَسْقِي بِهِ أَرْضاً غَيْرَ ذَاتِ نَبَاتٍ، لَكِنَّ فِيهَا بُزُرَ نَبَاتَاتٍ مُخْتَلِفَاتِ الأَصْنَافِ، وجُذْرَ نَبَاتَاتٍ صَالِحَةٍ للنَّبَاتِ، فَنُخْرِجُ بماء الْمَطرِ حَبّاً مُخْتَلِفَ الأَصْنَافِ لِمَنَافِعكُمْ أَيُّها النَّاس، ونَبَاتاً مختلف الأَصْنَافِ، وَجَنَّاتٍ مُجْتَمِعَةَ الأَشْجَارِ وأنواعِ النَّبَاتَات، فهِي أَلْفَاف.

قُدِّمَ الْحَبُّ لِأَنَّ فِيهِ مَا هُو قُوتُ النَّاسِ الّذِي يُدَّخَر، وَفِيهِ بَرَكَةٌ عَظِيمَة، ونَفْعٌ جَليلٌ، وذُكِرَ بَعْدَهُ النَباتُ الْجَامِعُ لِصُنُوفِ مَا تُخرِجُ الأَرْضُ مِنْ شَجَرٍ ونَحْوِه، وذُكِرَ بَعْدَهُمَا الْجَنَّاتُ الْجَامِعَاتُ لِكُلّ مَا فِي الْبَسَاتِينِ مِنْ رِزْقٍ وَمَتاعٍ جَمَالِي.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأول مِنْ دُرُوس سورة (النبأ).

والحمدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٥)

التَّدَبُّر التحلِيلي للدرس الثاني من دُروس سورة (النَّبأ) الآيات من (١٧ ـ ٢٠)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾:

القراءات:

(١٩) • قرأ عَاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [وَفُتِحَت] بِكَسْرِ التَّاء دُون تَشْدِيد، ووافَقَهُم الأَعْمَش.

وقرأهَا باقي الْقُرَّاءِ العشَرَة: **[وَفُتِّحَت]** بِكَسْرِ التَّاءِ مع التَّشْدِيدِ.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْس بَيَانُ لقَطاتٍ عَنْ جهنَّم، وبَعْضِ أَحْوالِ المَعذَّبِينَ فيها، مَعَ بَيَانِ سَبَبِ تَعْذِيبِهِمْ.

التدبّر التحليلي:

يَوْمُ الفَصْل: هو يَوْمُ القيامَةِ الَّذِي يَفْصِلُ اللهُ فِيهِ بَيْنَ الْعِبَادِ، مُحْسِنِيهِمْ ومُسِيئِيهِمْ، ويَحْكُمُ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ.

الْفَصْلُ في اللُّغَةِ: هو الْفَرْقُ والتَّمْيِيزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أو الْأَشْيَاءِ، ويُقَالُ: «فَصَلَ الحاكِمُ بَيْنَ الْخَصْمَيْن» أي: قَضىٰ. ويقالُ: «فصَلَ الأَمْرَ» أَيْ: قَضاه وأَبْرَمَهُ وبَتَّهُ. و«الْقَوْلُ الْفَصْل» هُو الْقَوْلُ الْبَيِّنُ الواضِحُ، والْقَوْل الْمُبْرَمُ المقْطُوعُ به.

يقال لغة: «فَصَل، يَفْصِلُ، فَصْلاً وفُصُولاً».

ميقاتاً: الميقات: الوقتُ الْمُعَيَّنُ لِفِعْلٍ ما، والمَوْعِدُ الَّذي جُعِلَ لَهُ وقْت، والموضِعُ الَّذِي جُعِلَ لِشَيْءٍ ما يُفْعَلُ عِنْدَه.

الصُّور: مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ كَهَيْئَةِ الْقَرْن، إحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دائِرِيَّةٌ ضَيِّقَة، والْأُخْرَىٰ واسِعَةٌ جدّاً، وباطِنُهُ فَارغ يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ، فَيُصْدِرُ صَوْتاً بِحَسَبِهِ. ولَهُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يُؤْمَرُ بالنَّفْخِ فِيهِ نَفْخَةَ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثُمَّ نَفْخَةَ الْبَعْثِ. والمشْهُورُ أَنَّ اسْمَ صَاحِب الصُّورِ إسْرافِيلُ عليه السَّلام، ولم أَجِدْ هٰذِهِ التَّسْمِيَةِ فِي حَدِيثٍ صحيح، لكِنْ ورَدَتْ في حديثٍ وُصِفَ بأَنَّهُ ضَعِيف.

أفواجاً: جمعُ «فَوْج» وهو يُطْلَقُ على جماعَةٍ مِنَ النَّاسِ يَقْدَمُونَ بِسُرْعَة.

سَرَاباً: **السَّرَابُ**: مَا يُرَىٰ في نِصْفِ النَّهَارِ مِن اشْتِدَادِ الْحَرِّ كالْمَاءِ فِي المفَاوِزِ يَلْصَقُ بالْأَرْضِ، ولَيْسَ مَاءً، بَلْ هُو مَنْظَرٌ وهْمِيٌّ مِنْ تَأْثِيرِ الْأَشِعَّةِ يَخْدَعُ الْأَبْصَار فَتَحْسَبُهُ ماءً.

المعنى: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ وهو يَوْمُ القِيامَةِ الّذِي يَفْصِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ فِيهِ بَيْنَ الْعِبادِ، فَيَحْكُمُ لِمُحْسِنِيهِمْ بالثَّوابِ الْعَظِيم بِمُقْتَضَىٰ فَضْلِهِ، ويَحْكُمُ عَلَىٰ مُسِيئِيهِمْ بالْجَزَاءِ الْأَلِيم بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِهِ، ويَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ؛ هُوَ يَوْمٌ ذُو وقْتٍ مُعَيَّنٍ مُحَدَّدِ الزَّمَنِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ، وَيَتَحَقَّقُ فِيهِ الْوَعْدُ الرَّبَّانِيُّ بِجَزَاءِ الْمَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحان.

ويَكُونُ ابْتِدَاؤُهُ حِينَ يَنْفُخُ في الصُّورِ الملَكُ العَظِيمُ، الَّذِي جَعَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ وَظَائِفِهِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهِ، النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ وهِي نَفْخَةُ الْبَعْثِ، فَيأْتِي الَّذِين كَانُوا فِي الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعِين مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ إلَىٰ حِسَابِ رَبِّهِمْ وَفَصْلِ قَضَائِهِ أَفْوَاجاً مُسْرِعِينَ.

وتَكُونَ السَّمَاءُ قَدْ فُتِحتْ فَكَانَتْ أَبْواباً، تَنْزِلُ مِنْهَا مَلائِكَةُ السَّمَاءِ

لِحُضُورِ مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي الْمَحْشَر، وَتَكُونُ الجِبَالُ في الأَرْضِ قَدْ سُيِّرَتْ وَذَهَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها، فَكَانَ مَوْضِعُ كُلِّ واحدٍ مِنْهَا كالسَّرَابِ تُرَىٰ فِيهِ مَوَاضِعُ جِبَالٍ، دُونَ أن يكُونَ عَلَيْهَا جبالٌ حَقِيقِيَّة.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الثاني من دُروس سورة (النبأ).

والحمْدُ للهِ على معونته، ومَدَدِه، وتوفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (النبأ)

الآيات من (٢١ ـ ٣٠)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾:

القراءات:

(٢٢) • وقف حمزة بالتسهيل في: ﴿مَـَٔابًا﴾.

(٢٣) • قَرَأ حمزة، ورَوْح: [لَبِثِينَ].

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: ﴿لَّٰبِثِينَ﴾.

وهُمَا بمَعْنَىً واحِدٍ، يُقَال لغة: «لَبِثَ فِي المكان، يَلْبَثُ، لَبْثاً، وَلُبْثاً، فهُوَ لَابِثٌ، وَلَبِثٌ» أي: أَقَامَ فِيهِ.

(٢٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلَفَ: ﴿وَغَسَّاقًا﴾ بِتَشْدِيدِ السِّين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَغَسَاقاً**] دون تشديد السِّين.

الْغَسَّاقُ والْغَسَاقُ: مَا يَسِيلُ مِنْ جُلُودِ أَهْلِ النَّار من أثر الْحَرِيقِ. أو سَائل أصْفَرُ يُشْبِهُ الماء الأصْفَرَ الّذِي تُفْرِزُهُ الْجُلُودُ إذا تَقَرَّحَتْ أَوِ احْتَرَقَتْ.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْس عَرْضُ لَقَطاتٍ عَنْ جهَنَّمَ، وبَعْضِ أَحْوَالِ المعذَّبينَ فيها، مَعَ بَيَانِ سَبَبِ تَعْذِيبهم، وأن الله أحْصَىٰ كُلَّ شيءٍ وكَتَبَهُ فِي كِتَاب.

التدبّر التحليلي:

- ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾: أي: إِنَّ جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابِ الْعُصَاةِ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الدِّين؛ جَعَلَها اللهُ عزَّ وجلَّ مَوْضِعاً لِمُرَاقَبَةِ أَهْلِ موقفِ الْحِسَابِ والجزَاءِ ورَصْدِهِمْ، مُقْتَرِبينَ مِنْهَا، أَوْ مَارِّينَ عَلَىٰ الصِّراط الَّذِي هُوَ جِسْرٌ عَلَىٰ مَتْنِهَا، فَمَنْ حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِأَنْ يُعَذَّبَ فيها جُذِبَ إِلَيْهَا وَأُدْخِلَ فِيها.

الْمِرْصادُ: هو في اللُّغَةِ طَرِيقُ، أَوْ مَوْضِعُ الرَّصْدِ والْمُرَاقَبة، يُقَالُ لُغَةً: «رَصَدَهُ، يَرْصُدُهُ، رَصْداً، وَرَصَداً» أي: قَعَدَ لَهُ على الطَّرِيق يَرْقُبُه.

- ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾: أي: وإِنَّ جَهَنَّمَ جَعَلَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ مَرْجعاً يَرْجِعُ إِلَيْهِ بَعْدَ الموْتِ والْبَعْثِ الطَّاغُونَ، وهُمُ المتجاوزونَ الْحُدُودَ المحتَمَلَةَ لِلظُّلْم والعِصْيان، والْبَغْي والْعُدْوَان، ومُجَافاةِ الحقِّ غُلُوّاً وإسْرَافاً في ارْتِكَابِ الآثَامِ، والعُدْوانِ علَىٰ الحقّ. **الْمَآب**: الْمَرجع.

- ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾: أي: مُقِيمِينَ فِي جَهَنَّم أزْمَاناً طَوِيلَةً لا نِهَايَةَ لَهَا، إِذَا كَانُوا كَافِرِينَ مُجْرِمِين، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا الْخُلُودِ في جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ كَثِيرَةٌ، فَتُحْمَلُ الأَحْقَابُ هُنا على أحْقَابٍ مُتَتَابِعَةٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْكَافِرِينَ.

أحْقَاب: جَمْعُ «حُقُبٍ» و«حُقْبٍ»، ويُطْلَقَانِ في اللُّغَةِ عَلَىٰ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مِنَ الزَّمَنِ.

- ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾:

أي: لَا يَذُوقُ الطَّاغُونَ فِي جَهَنَّمَ بَرْداً يَخفِّفُ عَنْهُمْ شِدَّة حَرِّها، ولَا يَذُوقُونَ فِيها شَرَاباً ما إلَّا شَرَاباً حَارّاً شَدِيدَ الْحَرَارَةِ، وإلَّا سَائِلاً أَصْفَرَ يُشْبِهُ الماءَ الأَصْفَرَ الَّذِي تُفرزُهُ الْجُلُودُ إِذَا تَقَرَّحَتْ أَو احْتَرَقَتْ، أو هُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ جُلُودِ أَهْلِ النَّارِ مِنْ أَثَرِ الاحْتَراقِ بِلَهَبِ النَّارِ. وَهُمْ يُعَذَّبُونَ بِهٰذَا الْعَذَاب، جَزَاءَ مَا اكْتَسَبُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ فِي الحياةِ الدُّنْيا مِنْ آثامٍ وَجرائِمَ وكُفْرٍ وَتكْذِيبٍ بمَا بَلَّغَهُمْ رُسُلُ رَبِّهِمْ عليهم السلام مِنْ آيَاتٍ مُنَزَّلَاتٍ.

قيل: **الْبَرْدُ**: النَّوْم.

الْحَمِيمُ: الْمَاءُ الْحَارُّ الشَّدِيدُ الْحَرَارَةِ.

الْغَسَّاق، والْغَسَاق: سَبَقَ البيانُ عَنْهُمَا في القراءات.

جَزاءً وِفَاقاً: **جَزَاءً**: مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ حَال، أَوْ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف، أَيْ: يُجْزَوْنَ جزاءً مُوَافِقاً لِأَعْمَالِهِمْ، فَوِفَاقاً صِفَةٌ لِـ«جَزَاءً»، وَلفظ «وِفَاق» مَصْدَرُ فعل «وَافَقَ»، يُقَالُ لُغة: «وافَقَ فُلَانٌ بَيْنَ الشَّيْئَينِ، مُوَافَقَةً وَوِفَاقاً» أي: لَاءَمَ بَيْنَهُمَا، وَقَدِ اسْتُعْمِلَ هُنَا بِمَعْنَىٰ اسْمِ الفاعل، فالجزاءُ الْوِفَاقُ هُوَ الجزاءُ بالْعَدلِ.

- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾: أي: لَا يَتَوَقَّعُونَ أَنَّهُمْ سَوْفَ يُحَاسَبُونَ عَلَىٰ مَا يَكْتَسِبُونَ مِنْ أَعمَالٍ في الدُّنْيا، وَسَوْفَ يُجازَونَ عَلَيْها مِنْ

قِبَلِ رَبّ الْعَالَمِينَ يَوْمَ الدِّينِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بالْبَعْثِ وَلَا بِيومِ الدِّين، واسْتَدْرَجَتْهُمْ أَهْوَاؤُهُم وشَهَوَاتُهُمْ وشَيَاطِينُ الإنْسِ والْجِنِّ إِلَىٰ ارْتِكَابِ الجرائم الَّتِي تَجْعَلُهُمْ خَالِدِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾: أيْ: وَكَذَّبُوا بآياتِنَا الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَىٰ رُسُلِنَا تَكْذِيباً شَدِيداً. **كِذَّاب**: مَصْدَرُ فِعْلِ «كَذَّبَ»، كالتَّكْذِيب.

- ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ۝٢٩﴾: أي: وأَحْصَينَا كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ إِحْصَاءَ عِلْماً وَكِتَاباً، بِعِلْم وَكِتَابَةٍ لِهذَا الْمَعْلُوم.

«كُلَّ شَيْءٍ» مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ، دَلَّ عَلَيْهِ فِعْل «أَحْصَىٰ» إِذْ اشْتَغَلَ عَنْهُ بِضَمِيرِه، وَهٰذا مِنْ أَسَالِيب تَأْكِيدِ الْجُمْلَةِ الْخَبرِيَّةِ.

الإِحْصَاء لِلشَّيْءِ: هُو الْعِلْمُ بِمِقْدَارِهِ الْعَدَديّ.

وظاهِرٌ أن هذهِ الجملةِ مُعْترضةٌ، لبيَانِ أنَّ أَعْمَالَ العِبادِ مَعْلُومَةٌ مُحْصاة.

- ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾:

هـٰذا البيانُ مُقْتَطعٌ مِنْ حَدَثٍ مستَقْبَلِيٍّ سَوفَ يَكُونُ يَوْم الدِّينِ، إذْ يُقَالُ لِأَهْلِ جهَنَّمَ: فَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ فيها، مَعَ أَنْوَاع عَذَابِ غَيْرِه، فَلَنْ نَزِيدَكُمْ بَعْدَمَا أَنْتُمْ فِيهِ من عَذَابٍ إِلَّا عَذاباً مِنْ أنواعِ الْعَذَابِ الَّذِي ذُقْتُمُوه، أَوْ أنْواعِ عَذَابٍ أُخْرىٰ.

جَاءَ تَشْبِيهُ الإحْسَاسِ بألَم الْعَذَابِ بالذَّوَاقِ لِتَقْرِيب مِقْدَارِ الإحْسَاسِ بِهِ، لِأَنَّ حَاسَّةَ الذَّوْقِ مِنْ أَشَدِّ الْمَواضِعِ إِحْسَاساً بِمَا يُلامِسُهَا، واسْتُعِيرَ فِعْلُ «ذُوقُوا» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنْواعِ الإحْسَاسِ بالْأَلَم.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرس الثالث مِنْ دُروس سورة (النبأ).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

* * *

(٧)

التدبرّ التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (النّبَأ) الآيات من (٣١ ـ ٣٧)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾:

القراءات:

(٣٥) • قرأ الكِسَائِي: [**وَلَا كِذَاباً**] بتخفيف الذال.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ بتَشْدِيد الذَّال.

(٣٧) • قرأ نَافع، وابنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأَبُو جعفر: [**رَبُّ السَّماواتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما الرَّحْمَنُ**].

وقرأَهَا ابْنُ عَامر، وعاصم، ويعقوب: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

وَقَرَأَهَا باقي القراء العشرة: [**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنُ**].

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرسِ بَيَانُ لَقَطاتٍ مِنْ ثَوابِ المتقين، في جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

التدبُّر التحليلي:

في مُقَابِلِ بَيَانِ بَعْضِ عَذَابِ الطَّاغِينَ جاءَ بَيَانُ بَعْضِ نَعِيمِ المتّقِين، علَىٰ وَفْقِ المنْهَجِ المتَّبَعِ في القرآن.

وهذا البعض إذا جُمِعَ مع سَائِرِ مَا جاء في القرآن فَإنَّ الصور تَتكامَلُ، لعذاب الطاغين، ولنعيم المتقين.

- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾: أي: إنَّ لِلمتَّقِينَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا؛ ظَفَراً، ورِبْحاً، ونَجاةً مِنَ الشَّرِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْجَزَاءِ الأَكْبَرِ.

المتَّقُون: هُمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِقَابَ اللهِ على الكُفْرِ وكَبَائِرِ الإِثْم، بِفِعْلِ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِيمَانٍ وعَمَلٍ صالح، وتَرْكِ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَقَائِدَ وأَعْمَالٍ نَفْسِيَّةٍ وَظَاهِرَةٍ غَيْرِ صَالِحَة.

مَفَازاً: مَصْدَرُ فِعْلِ «فَازَ»، يُقَالُ لغة: «فَازَ الْمُتَّقِي، يَفُوزُ، فَوْزاً، ومَفَازاً، ومَفَازَةً» أي: ظَفِرَ، ورَبِحَ، ونَجا مِنَ الشَّرّ.

- ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾:

حَدَائِق: جمْعُ «حَدِيقَة»، وهيَ كُلُّ أَرْضٍ ذَاتِ شَجَرٍ مُثْمِرٍ أَحاطَ بِهَا حَاجِز.

أَعْنَاب: جَمْعُ «عِنَبٍ»، وهو ثَمَرُ الكَرْمِ وهُوَ طَرِيٌّ، وَهُوَ مِمَّا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْحَدَائِقُ، خُصَّ بالذِّكْرِ لِعَظِيم نَفْعِهِ، ولأنَّهُ مِنْ كُبْرَيَاتِ الطَّيبّاتِ فَاكِهَةً وغِذاءً.

الكواعِبُ الأَتْرَاب: **كواعِب**: جمع «كَاعِبٍ»، وهي الفَتَاةُ الَّتِي نَهَدَ ثَدْيُهَا، أي: بَرزَ ولَمْ يَتَدَلَّ. **أَتْرَاب**: جَمْعُ «تِرْب»، وَهُوَ الْمُمَاثِلُ فِي السِّنّ. والْمُرَادُ بالكَوَاعِبِ الأَتْرَابِ الْفَتَيَاتُ اللَّوَاتِي هُنَّ مُتَمَاثِلاتٌ في الْعُمْر في جَنَّاتِ النَّعِيم، أَنْشَأَهُنّ رَبُّ الْعَالَمِينَ للمتَّقِينَ فِيهَا، وهُنَّ الْحُورُ الْعِينُ اللَّواتي يَنْتَظِرْنَ أَزْواجَهُنَّ مِنْ أَهْلِ التَّقْوىٰ في الدُّنيا.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤﴾: **الْكَأْسُ**: الْقَدَحُ مَا دَامَ فِيهِ الْخَمْرُ، فإذَا لَمْ يكُنْ فِيهِ خَمْرٌ فَهُوَ «كُوب». والكَأْسُ الدِّهَاقُ هي: الْمُمْتَلِئَةُ المتَتَابِعَةُ عَلَىٰ شَارِبِيها، والصَّافِيَةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الشَّوَائِب.

والمرادُ بالكأسِ الجنْسُ، فهي بقُوَّة الجمع، مجتمِعَةً أَوْ مُتَتابِعَة.

- ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥﴾: أي: لَا يَسْمَعُ المتَّقُونَ فِي الْجنَّةِ الَّتِي جاءَتِ الكِنايَةُ عَنْهَا؛ بِذِكْرِ بَعْضِ مَا فِيها مِمَّا يَتنعَّمُ بِهِ أصْحَابُهَا؛ لَغْواً، وَلَا يَسْمَعُونَ حَدِيثاً كَذِباً، ولَا مَنْ يُكَذِّبُهُمْ.

اللَّغْوُ: مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَغَيْرِه، إذْ لَا فَائِدَة مِنْهُ، ويُطْلَقُ اللَّغْوُ عَلَىٰ الكَلَامِ الَّذِي يَنْطَلِقُ ولَا يُرَادُ بِهِ مَعْنَاه.

الكِذَّابُ: مَصْدَرُ فِعْلِ «كَذَّبَ» كالتَّكْذِيب.

إنَّ الْجَنَّةَ دَارُ النَّعِيمِ الْخَالِصِ مِنَ الشَّوائِب، فَلا يتَلاءَمُ مَعَها أن يكُونَ فيها لَغْوٌ وَلَا تَكْذِيبٌ مِنْ بَعْضِ مَنْ فيها عَلَىٰ بَعْض.

وما جاء في الآيات من (٣٢ ـ ٣٤) بَدَلُ اشتمالٍ من ﴿مَفَازًا﴾.

- ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾: أي: يتَنعَّمُ المتَّقُونَ بِهٰذا الثَّوابِ الْعَظِيم فِي جَنَّاتِ النَّعِيم؛ حَالَة كَوْنِهِ جَزَاءً يَنَالُونَهُ مِنْ رَبِّكَ أَيُّها المَتلقِّي لِهذَا الْبَيَان، بِحَسَبِ وَعْدِهِ الْكَرِيم الّذي تَفضَّلَ به، وحَالَةَ كَوْنِهِ عَطَاءً مِنْ مَحْضِ فَضْلِهِ، وَحِسَاباً يَجْرِي تَقْدِيرُه بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ صَالِحَات في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا.

أَوْ يُجْزَوْنَ بهٰذا الثَّوابِ العظيم جزاءً مِنْ رَبِّكَ أَيُّها المتَلَقِّي لِهٰذا الْبَيَان، بِحَسَبِ وَعْدِهِ الكَرِيم الَّذي تَفضَّلَ به، ويُعْطَوْنَهُ بِفَضْلِهِ عَطَاءً مِنْ مَحْضِ فَضْلِهِ، وحِسَاباً يَجْرِي تَقْدِيرُهُ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ صَالِحَاتٍ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدّنيا. وعلى هٰذا فـ«جزاءً» و«عَطاءً» و«حِسَاباً» كلٌّ مِنْهَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذوف.

- ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾:

أي: جزاءً مِنْ رَبِّكَ رَبِّ السَّماوَاتِ والأرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا المتَصَرِّفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فيها يَوْمَ الدِّين، كَمَا هو حَالُهَا في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

خَاضِعَةً لسُلْطَانِ تَصرُّفِهِ فيها، تبارَكَ اسْمُهُ، وعزَّ سُلْطَانُهُ، فَلَا يُوجَدُ شيءٌ فيها إلَّا بِتَقْدِيرِهِ وقَضَائِهِ، أَوْ بإِذْنِهِ، وتَحقُّقُهُ فِي الْوُجُودِ يَكُونُ بِخَلْقِهِ.

وَوَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ نَفْسَهُ بأَنَّهُ الرَّحْمٰن؛ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ ـ جَلَّ جَلَالَهُ ـ مَصْحُوبَةٌ بِرَحْمَتِهِ، ونَفْهَمُ أَنَّ رَحْمَتَهُ لِمُسْتَحِقِّي الْعِقَابِ تَكُونُ بالتَّجاوُزِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وبِعَدَمِ مُؤَاخَذَتِهِمْ عَلَيْها.

وَأَهْلُ الْمَوْقِفِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً، أي: لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُخَاطِبَ اللهَ بِشَيْءٍ لِنَفْسِهِ، أَوْ لِغَيْرِه يَوْمَئِذٍ، إلَّا إِذَا مَلَّكَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ذَلِكَ بِأَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِسُؤَالِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ شَفَاعَةُ الشُّفَعَاءِ الْمأْذُونِ لَهُمْ بِشَكْلٍ عَامٍّ أَنْ يَشْفَعُوا، ضمْنَ حُدُودٍ مُعَيَّنَة.

قراءة «رَبِّ» و«الرَّحْمٰنِ» هي على الإتباع لـ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

وقراءة «رَبُّ» و«الرَّحْمٰنُ» هي على القطع وتقدِير: «هو».

وقراءة «رَبِّ» و«الرَّحْمٰنُ» هي على إتْباع «رَبِّ» وقَطْعِ «الرَّحْمٰنُ».

وهي وجُوهٌ جائزةٌ عَرَبيّاً.

وبهذا انْتَهىٰ تَدبُّرُ الدَّرس الرابع مِنْ دُروس سورة (النبأ).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِه.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (النبأ) الآيات من (٣٨ ـ ٤٠) آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرسِ بَيَانُ بَعْضِ قضايا عَنْ يَوْمِ الدِّينِ، مع إنْذَارِ المكَذِّبينَ الطَّاغِينَ بِعَذَابٍ قَرِيبٍ يَكُونُ يَوْمَ الدِّين.

التدبر التحليلي:

- ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾:

إنَّ يَوْمَ الدِّينِ الَّذِي جرَىٰ الحديث عَنْهُ فِي دُرُوسِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ؛ من أَحْدَاثِهِ أَنَّهُ يَقُومُ الرُّوحُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامَ والْمَلَائِكَةُ مُصْطَفِّينَ، بَيْنَ يَدَي اللهِ، سَاكِتِينَ صَامِتِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَ، لِيُقِيم الرَّبُّ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مَحْكَمَةَ مُحَاسَبَةِ عِبَادِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وإصْدَارِ أحْكَامِهِ الْعَدْلِيَّة أو الفَضْلِيّةِ بشَأْنِهِمْ. إِنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ بِشَفَاعَةٍ لِأَحدٍ أَوْ بِغَيْرِ شَفَاعَة، إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ اللهُ الرَّحْمٰنُ بِرَحْمَتِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَبِشَرْطِ أَنْ يَقُولَ كَلَاماً صَوَاباً، فَهُمَا شَرْطَانِ:

(١) إذْنُ اللهِ الرَّحمنِ لَهُ بأَنْ يَتَكَلَّمَ.

(٢) أَنْ يَقُولَ صَوَاباً، أي: كلاماً حَقّاً.

الصَّوابُ: السَّدَادُ، والْحَقُّ.

- ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الْيَوْمُ الْعَظِيمُ المنْزِلَةِ؛ هُوَ وَحْدَهُ الْيَوْمُ الْحَقُّ الذي لَا يَشُوبُهُ بَاطِلٌ مَا، إِذْ كُلُّ الْأَمْرِ فِيهِ للهِ وَحْدَهُ، ولَا يَكُونُ مِنَ اللهِ إِلَّا الْحَقُّ. استفيد الْحَصْرُ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْناد.

بِخِلَافِ يَوْمِ الْحياةِ الدُّنْيَا، فَفِيهِ بَاطِلٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمَوْضُوعِينَ فِيهِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، إِذْ مَنَحَهُمُ اللهُ إِرَادَاتٍ حُرَّةً، ولَهُمْ أهواء وشَهَوات مُنَاقِضَاتٌ لِلْحَقِّ.

فَمَنْ شَاءَ بِإِرَادَتِهِ الحرَّةِ اتَّخَذَ إِلَىٰ لِقَاءِ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّين؛ تَوْبَةً نَصُوحاً، وعَمَلاً صَالِحاً، وإيمَاناً حَقاً صَادِقاً، وَنِيَّاتٍ مُخْلِصَاتٍ في ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ رَبِّه، وحِينئِذٍ يكون قَدِ اتَّخَذَ إلى ربِّهِ مَرْجعاً يكُونُ فِيهِ سَعِيداً سَعَادَةً أَبَدِيَّةً فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

المآبُ: الْمَرْجعُ، مِنْ فعل: «آب، يؤُوبُ» أيْ: رَجَعَ، ومَعْلُومٌ أنَّ الآخِرَةَ يَكُونُ فيها رجُوعٌ إلَىٰ الحياة بَعْدَ الْمَوْت.

• ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾:

يُخَاطِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ الطَّاغِينَ المكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّين بِضَمِيرِ المتكَلِّمِ العظيمِ فيَقُولُ لَهُمْ: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ...﴾:

الإنْذَارُ: الْإعْلَامُ بِمَا هُوَ مَخُوفٌ مِنْهُ، وإنْذَارُ اللهِ الطَّاغِينَ المكَذِّبين؛ يُفْهَمُ مِنْهُ إعْلَامُهُمْ بِمَا رَتَّبَ عَلَىٰ جرائِمِهِمْ، مِنْ عِقَابٍ شديدٍ وَعَذَابٍ أَلِيمٍ لهم، إذَا لم يتوبُوا ولم يُقْلِعُوا عَنْ كُفْرِياتِهِمْ وجرَائِمِهِمْ قبل مَوْتِهم.

وَوَصَفَ اللهُ هـٰذَا الْعَذَابَ بِأَنَّهُ قَرِيب مع أَنَّهُ يَكُونُ يَوْمَ الدين بَعْدَ الْبَعْث؛ لِأَنَّ الحياة الدُّنْيَا لكلِّ واحدٍ مِنْهُمْ قصيرَةٌ، وهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ يُمْسَحُ مِنْ إحْسَاسِ نُفُوسِهِمْ إدْرَاكُ الزَّمَن، وعِنْدَ الْبَعْثِ يَشْعُرُونَ بأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ الموْتِ والْبَعْثِ إلَّا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم.

• ﴿... يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ...﴾: أي: عَذَاباً قَرِيباً يَكُونُ يَوْمَ يَنْظُر الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ مِنْ عَمَلٍ في رِحْلةِ امْتِحَانِهِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا.

ولَا أرِيدُ أنْ أحْمِلَ النَّظرَ عَلَىٰ قِرَاءَةِ كِتَابِهِ، فَهذا التَّعْبِيرُ قَدْ قَرَّبَتْ لَنَا دَلَالَتَهُ المكْتَشَفَاتُ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا عُلَمَاءُ التَّصْوِير، وعَرْضِ الصُّوَرِ في أَجْهِزَةِ «التِّلِفِزْيُون» و«الكمبيوتَر»، إذْ يُشَاهِدُ الإنْسَانُ بِبَصَرِهِ صُورَةَ الْحَدَثِ

الْمَاضِي كَامِلَةً، بكُلِّ مَا اشْتَمل عَلَيْهِ مِنْ حَرَكاتٍ، مُلَوَّناً بألْوَانِ الأشْيَاءِ كَمَا كَانَتْ عَلَيْه.

وَيَزِيدُ مَا يَرَىٰ فِيهِ عَمَلَهُ يَوْمَ الدِّينِ، أَنَّهُ يَرَىٰ مَا كَسَبَتْ أو اكْتَسَبَتْ نَفْسُهُ مِنْ أَعْمَاقِهَا مِنْ أَعْمَالٍ إرادِيَّة يُحَاسَبُ عَلَيْهَا.

- ﴿... وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾:

يَالَيْتَني: عبارة تَمَنٍّ مَقْرُونٍ بِتَوَجُّعٍ مِمَّا هُو فيه مِنْ عَذَاب.

أي: يَوْمَ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُبْعَثْ وَكُنْتُ تُرَاباً إِلَىٰ الْأَبَدِ، وَحِينَ يَرَىٰ الْبَهَائِمَ بَعْدَ أَنْ يُجْرِيَ اللهُ عزَّ وجلَّ الْقِصَاصَ الْعَادِلَ فيما بَيْنَها ويقُولَ لَهَا: كُونِي تُرَاباً، فَتَمُوتُ وتَكُونُ تُرَاباً، يَقُولُ الْكَافِرُ: يالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً مِثْلَ هَـٰذِهِ الْبَهَائِم وَلَمْ أَكُنْ إِنْسَاناً.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الْخَامِسِ مِنْ دروس سُورَة (النبأ)، وهو الدَّرْسُ الْأَخِيرُ مِنْها.

والحَمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

ملحق: مُستَخرَجَاتٍ بلاغية مِن سورة (النبأ)

في هـٰذِهِ السورة اختياراتٌ بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، ومنها ما يلي:

أولاً:

من مَنْهَج البيانِ القرآني استقطاعُ النُّصُوصِ مِنْ أَزْمَانِهَا الماضِية أو المستَقْبَلة، وعَرْضُهَا بألْفَاظِها دُونَ الإشارة إِلَىٰ أَنَّهُ كَانَ كَذَا فيمَا مَضَى، أَوْ سَيَكُونُ كذا فِيمَا سَيَأْتي.

ومِنْ أمْثِلةِ هذا الاستقطاع في هذه السورة: قَولُ اللهِ عزَّ وجلَّ حِكَايَةً لِمَا يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ يَوْم القيامَةِ بَعْدَ بيانٍ يتَعلَّقُ بِهِمْ:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

إنَّ عِبارَةَ: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ مُسْتَقْطَعَةٌ مِنَ الْحَدَثِ المسْتَقْبَلِيِّ الّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، دُونَ الإشارة إلَىٰ أَنَّ هـٰذا سَوْفَ يَكُونُ فِي المسْتَقْبَل.

ثانياً:

من خُروج الاسْتِفْهَام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ وهو طَلَبُ الإفْهَامِ إلَىٰ مَعَانٍ أُخرَىٰ قول اللهِ عزَّ وجلَّ في السورة:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾ وحتَّىٰ الآية (١٦).

لَيسَ المُرادُ بالاسْتِفْهام في هذا النَّصّ طلبَ الإفهام، بَلِ المرادُ الإعْلَامَ بالحقائِقِ المسْؤولِ عَنْها بالاسْتِفْهَام، وانْتِزَاعَ اعْتِرافِ المخاطَبِينَ المكَذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّين، تَمْهِيداً لإقْناعِهم بِقُدْرةِ اللهِ وَحِكْمَتِه.

ثالثاً:

مِن الْقَصْر وهُوَ تخصيصُ شيءٍ بعبارَةٍ كَلامية تَدُلُّ عليه؛ ومِنْهُ في السُّورَةِ ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ بشَأْنِ أصْحابِ النَّارِ الطَّاغِين:

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾:

أي: لَا يَذُوقونَ فيها شراباً إلَّا شَراباً حَارّاً شَدِيدَ الحرارة، وإلَّا

سَائِلاً أصْفَرَ يُشْبِهُ الماءَ الأَصْفَرَ الَّذِي تُفْرِزُهُ الْجُلُودُ إِذَا تَقَرَّحَتْ أَوِ اخْتَرَقَتْ.

والقصْرُ في هذا البيانِ قَصْرٌ حقيقيٌّ، أَدَاتُهُ النَّفْيُ والاسْتِثْناء.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ بشَأْنِ يَوْم القيامة:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾:

جاء في هٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَصْرِ الْكَلَامِ يَوْمَ الْقِيامَةِ على الَّذِين أَذِنَ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ بِأَنْ يَتَكَلَّمُوا وَقالُوا حَقّاً.

والْقَصْرُ في هٰذا البيانِ قَصْرٌ حقيقيٌّ، أَدَاتُهُ النَّفْيُ والاسْتِثْناء.

المثال الثالث: قول اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ يَوْم القيامة أيضاً:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾:

جاء في هذا البيان قَصْرُ الْيَوْمِ الْحَقِّ عَلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ الذي يَكُونُ كُلُّ أمْرٍ فِيه للهِ وَحْدَه.

والْقَصْرُ في هٰذا البيانِ قَصْرٌ حقيقيٌّ، أَدَاتُهُ تَعْرِيفُ طَرَفَيِ الإسْنَاد في: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾.

رابعاً:

من توكيد الخبر بمُؤَكِّدٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ المؤكِّدَاتِ لِدَاعٍ أَوْ أَكْثَرَ مِن الدَّوَاعِي الْبَلَاغِيَّة، ومِنْهُ في السُّورةِ مَا يلي: ـ والدَّاعي البلاغي فيها أنَّ المقصودينَ بالْخِطَابِ مُكَذِّبون بيوم الدِّين فهم يَحْتَاجُونَ توكيداً ـ:

(١) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾:

جاء التوكيد هنا بـ«إنَّ ـ والْجُملَةِ الاسْمِيَّة».

(٢) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾:

جَاءَ التوكيد هنا بـ«إِنَّ - والجملَةِ الاسمية».

(٣) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾:

جاء التوكيدُ هنا بـ«إِنَّ - والجملة الاسمية».

(٤) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾:

جَاءَ التوكيد هنا بِـ«إِنّ - والجُمْلَةِ الاسْمِيَّة».

(٥) ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ... ﴿٤٠﴾﴾:

جاءَ التوكيد هنا بـ«إِنَّ - والْجُمْلَةِ الاسمية».

وأكْتَفِي بهٰذِهِ المستخرجاتِ البلاغية من سورة (النبأ).

والحمدُ للهِ على مَعُونَتهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

سورة النّازِعَات

٧٩ مصحف ٨١ نزول

وهي سورة مَكِّيَّة بلا خلاف

(١)

نصّ السُّورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا (٢) وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا
(٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا (٤) فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا (٥) يَوۡمَ تَرۡجُفُ
ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ (٨)
أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ (١٠)
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ (١١) قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ (١٢)
فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (١٤) هَلۡ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ٱذۡهَبۡ
إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهۡدِيَكَ

---

١٠ ـ ١١ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ عامر، والكسائي، ويعقوب: [**أئِنَّا... إذَا**].
وقرأها أبو جعفر: [**إنَّا... أئِذَا**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**إئِنَّا... أئِذا**].

١١ ـ ● قرأ شعبة، وحمزة، والكِسَائي بِخُلْف عن الدوريّ، ورُويس، وخلف: [**نَاخِرَةً**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**نَخِرَةً**].
نَاخِرَة، ونَخِرَة: لفْظَانِ لمعنىً واحِدٍ، وهما بمعنى بالية، متفتتة.

١٦ ـ ● قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [**طُوَىٰ**].
وقرأها باقي القراءة العشرة: [**طُوىً**]. وأمَالَه وَقْفاً: حمزى، والكسائي وخلف.
ووقف يعقوب على: [**بالْوَادِ**] بزيادة ياءٍ ساكنة.

١٨ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو جعفر، ويعقوب: [**إلَىٰ أَنْ تَزَّكَّىٰ**] بِتشْدِيدِ الزّاي.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**إلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ**] بفتح الزاي دُونَ تَشْدِيد.

إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ (١٩) فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ
(٢١) ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ
ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ
لِّمَن يَخۡشَىٰٓ (٢٦) ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمۡكَهَا
فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ
دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا (٣١) وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا
(٣٢) مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٣) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ (٣٤)
يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦)
فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ
ٱلۡمَأۡوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ
(٤٠) فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ (٤١) يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا
(٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤) إِنَّمَآ
أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً
أَوۡ ضُحَىٰهَا (٤٦)

---

٣٩ ـ • قرأ الأصبهاني، وأبو عمرو بخلفه، وأبو جعفر: [**الْمَاوَىٰ**] بإبدال الهمزة ألفاً مدِّيَّة. وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف، وقرأها الباقون: [**الْمَأْوَىٰ**]. وكذلك في الآية الأخرى.

٤٣ ـ • وقف البزّي على [فِيمَ] بهاء السّكْتِ بخُلْفٍ عَنْهُ، وكذلِكَ يعقوبُ بخلْف عنه.

٤٥ ـ • قرأ أبُو جعفر: [مُنْذِرٌ] بالتّنْوين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [مُنْذِرُ] بالرّفع دُونَ تَنْوين على الإضافة.

(٢)

موضوع سورة (النّازعات)

يدور موضوعُ هـٰذِه السُّورة حَوْلَ قَسَمٍ بِسُلْطَانِ اللهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - في تَسْخِيره أَصْنَافاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لِتَنْفِيذِ تَدْبِيرِهِ الّذِي قَدَّرَهُ وقَضَاهُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، ومِنْهُمْ نَازِعُو أَرْواحِ الْكَافِرِينَ بِشِدَّةٍ وإغْرَاقٍ، وَمِنْهم نَاشِطُو أَرْواحِ المؤمِنينَ بِيُسْرٍ وسُهولَةٍ وَرِفق، وَمِنْهُمُ السَّابِحُونَ فِي الْأَجْواءِ، فَالسَّابِقُونَ بِلَا تَوانٍ ولَا تباطُؤٍ لِتَنْفِيذِ أَوامِرِ اللهِ لَهُمْ، لِلْقِيَام بِالْأَعْمَالِ الَّتِي يُكَلَّفُونَها فِي أَوْقَاتِهَا الْمُحَدَّدَة، وعَلَىٰ وفْقِ التَّدْبِيرِ الرَّبَّانِيِّ لَهَا فِي خُطَّةِ الْخَلْق.

والْمُقْسَمُ عَلَيْهِ أَنَّ الْبَعْثَ بَعْدَ الْموتِ حَقٌّ، وَأَنّ يَوْمَ الدِّينِ وكُلَّ أَحْدَاثِهِ الَّتِي أَنْبَأَ بِهَا الله جلّ جلاله حَقٌّ.

مَعَ عَرْضِ فِقَرَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِنَفْخَةِ إِنْهَاءِ ظُروفِ الحياة الدُّنيا، ونَفْخَةِ الْبَعْثِ، ولَمْحَةٍ مِنْ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ المَكذِّبين بَعْدَ الْبَعْثِ من ذُعْرٍ وذُلّ، وبَيَانٍ لِمَا كَانُوا يَقُولُونَهُ في الحيَاةِ الدّنْيَا مِنِ استِبْعَادٍ للبَعْثِ وَيوْم الدين، وإنْكَارٍ لهما، مَقرُونٍ بِبَيَانٍ أَنَّ بَعْثَهُمْ جمِيعاً يَكُونُ بِزَجْرَةٍ صَوْتِيَّةٍ وَاحِدَةٍ.

وفيه شاهدٌ تَاريخيٌّ يَتَضمَّنُ إِهْلَاكَ اللهِ - عزَّ وجلَّ - لِبَعْضِ الْكَافِرِينَ، المكَذِّبينَ بِيَوْم الدِّين، وهُوَ إِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِه بالإغْرَاقِ، الَّذي كَانَ أَثَرَ مُعْجِزَةٍ عُظْمَىٰ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

وفيه إقناعٌ لِلْكافِرِينَ بِقُدْرَةِ اللهِ - عزَّ وجلَّ - علَىٰ بَعْثِهِمْ بَعدَ مَوْتِهم، من خِلَالِ عَرْضِ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنه.

وفِيهِ عَرْضُ لَقَطاتٍ مُوجَزَاتٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ يَوْمَ الدِّين، فَمِنْهَا مَا هُوَ مُرْهِبٌ للكافِرِينَ الطَّاغِين، ومِنْهَا مَا هُوَ مُطْمِعٌ للمؤْمِنينَ المتقين.

وفيه عَرْضُ تَعِلَّةِ الكَافِرِينَ بِسُؤَالِهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الوقتِ الّذِي تَقُومُ فِيهِ السَّاعَة، وجاء بَعْدَهُ بَيَانُ اللهِ تعالى لِرَسُولِهِ ﷺ بأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَكُونَ مَعْنِيّاً بالإجابةِ علَىٰ سُؤَالِهِم، فقد سَبَقَ أَنْ أَبَانَ اللهُ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ أَنَّ وقْتَ السَّاعة مِمَّا أخفاهُ اللهُ عَنْ كُلِّ خَلْقِهِ، فَلَا تَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً، وأنَّ وظيفة الرَّسُولِ ـ عليه السلام ـ الإنْذَارُ بها، وأنّ الناسَ حِينَ يَرْونَ أحداثَ الْبَعْثِ يَشْعُرُونَ كأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْث إِلَّا مِقْدَارَ نَوْمَةٍ قَبْلَ الظُّهْرِ، أَوْ نَوْمَةٍ بَعْدَ الظُّهْرِ.

(٣)

دُرُوسُ سورة (النّازِعَات)

وضَحَ لدَيَّ أنَّ هـٰذِهِ السُّورَة يُمْكِنُ تَقْسِيمهَا إلى سِتَّة دروس: وهي دُرُوسٌ مُتَعَانِقَةٌ فيما بَيْنها ضِمْنَ وَحْدَةِ مَوْضُوعِهَا.

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٥).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْس أقْسَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأصْنَافٍ من الْمَلَائِكَةِ الْخَاضِعَةِ لِسُلْطَانِهِ، وتَنْفِيذِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ فِي كَوْنِهِ، عَلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ بَعْدَ الْموتِ حَقٌّ، وعلَىٰ أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ وَكُلَّ أَحْدَاثِهِ الَّتِي أنبَأَ بِهَا حَقٌّ.

الدرس الثاني: الآيات من (٦ ـ ١٤).

وفي آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ فِقَرَاتٍ تَتَعَلَّقُ بنَفْخَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا في الصُّور، ونَفْخَةِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، مَعَ عَرْضِ لَمْحَةٍ مِنْ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ المكَذِّبينَ بَعْدَ الْبَعْثِ مِنْ ذُعْرٍ وذُلٍّ، وبيانٍ لمَا كَانوا فِي الحياةِ الدُّنيا يَقُولُونَهُ من اسْتِبْعَادٍ واسْتِغْرَابٍ لِلْبَعْثِ وَيَوْم الدين، وَإِنْكَارٍ لهما، مَقْرُونٍ بِبَيَانِ أَنَّ بَعْثَهُمْ جَمِيعاً يَكُونُ بِزَجْرَةٍ صَوْتِيَّةٍ واحِدَة.

الدرس الثالث: الآيات من (١٥ ـ ٢٦).

وفي آيات هٰذا الدَّرسِ بَيَانُ شَاهِدٍ تَارِيخِيٍّ يتضَمَّنُ إهْلَاكَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ لِبَعْضِ الْكَافِرِينَ المكَذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّين، وهُو إهْلَاكُ فِرْعَوْنَ وجنودِه بالإغْرَاقِ، الَّذِي كَانَ أثَرَ مُعْجزَةٍ كُبْرَىٰ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، إذْ فَلَقَ اللهُ لَهُ الْبَحْرَ، وأنْجَىٰ بني إسْرَائيل بعُبُور مَكانِ الْفَلَقِ، وأغْرَقَ بَعْدَهم فِرْعَوْنَ وكلَّ جنودِه.

الدرس الرابع: الآيات من (٢٧ ـ ٣٣).

وفي آياتِ هٰذا الدَّرْسِ إقْنَاعٌ لِلْكَافِرينَ بِقُدْرَةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ على بَعْثِهِم بَعْدَ مَوْتِهِمْ، من خِلال عَرْضِ بَعْضِ آياتِهِ في كوْنِهِ، الَّتي هِي أشَدُّ خَلْقاً مِنْ إعَادَتِهِمْ إلَىٰ الحياة بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَفَنَاءِ أجْسَادِهم.

الدَّرْس الخامس: الآيات من (٣٤ ـ ٤١).

وفي آياتِ هٰذا الدَّرْس عَرْضُ لَقَطَاتٍ مُوجزَاتٍ من الأحْدَاثِ الَّتي سوْفَ تَكُونُ يَوْم الدِّين، فَمِنْهَا مَا هُوَ مُرْهِبٌ للكافِرِينَ، ومنها مَا هُوَ مُطْمِعٌ لِلْمُؤْمِنِينَ المتقين.

الدَّرْسُ السادس: الآيات مِن (٤٢ ـ ٤٦) آخر السورة.

وفي آياتِ هٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ تَعِلَّةِ الْكَافِرِينَ المكَذِّبين بالبَعْثِ ويَوْم الدِّين، بسُؤَالِهِمْ رسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الوقْتِ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ السَّاعَةِ، وجَاءَ بَعْدَهُ بَيانُ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ لِرَسُولِهِ ﷺ بِأنَّهُ لَا يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ مَعْنِيّاً بالإجَابَةِ على سُؤَالِهِمْ، فَقَدْ سَبَقَ أنْ أبَانَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ؛ أنَّ وَقْتَ السَّاعَةِ ممَّا أخْفَاهُ اللهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ خَلْقِهِ، فَلَا تَأْتِي إلَّا بَغْتَةً، وأنَّ وظيفَةَ الرَّسول ﷺ أنْ يُنْذِرَ بِهَا وبِمَا يُجْرِيهِ الله بَعْدَهَا يَوْمَ الدِّينِ مِنْ حِسَابٍ، وفَصْلِ قضاءٍ، وتنفيذِ جَزَاء، وأنَّ النَّاس حينَ يَرَوْنَ أحْدَاثَ الْبَعْثِ يشْعُرون كأنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا في الْأَرْضِ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إلَّا مِقْدَارَ نَوْمَةٍ قَبْلَ مُنْتَصَفِ النهار، أَوْ نَوْمَةٍ بَعْدَ مُنْتَصَفِ النهار.

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (النازعَات)

الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾:

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرس أَقْسَمَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بِأَصْنَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَاضِعَةِ لِسُلْطَانِه، وتَنْفِيذِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ فِي كَوْنِهِ، عَلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ حقٌّ، وعَلَىٰ أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ وَكُلَّ أَحْدَاثِهِ الَّتِي أنبأَ بِهَا حَقٌّ.

التدبّر التحليلي:

- قول الله تعالى:

- ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾:

يُقْسِمُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بِصِنْفٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ ذَوِي الوظِيفَةِ الخطِيرَةِ في النَّاس، وَهِي نَزْعُ أَرْواحِ الْكَافِرِينَ بِشِدَّةٍ وعُنْفٍ، وبصِنْفٍ آخَرَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَظِيفَتُهُمْ نَشْطُ أَرْواحِ المؤمِنينَ بِرِفْقٍ وسُهُولَةٍ ويُسْر، فَوصَفَ جَمَاعَاتِ الصِّنْفِ الأَوَّل بالنَّازِعَاتِ، ووصَفَ جماعَاتِ الصِّنْفِ الثّاني بالنَّاشِطَات.

والْقَسَمُ بِجَماعَاتِ الملائكَةِ الّذِينَ لَهُمْ وَظِيفَةُ قَبْضِ الأَرْوَاحِ وفَصْلِهَا عَنِ النُّفُوس في ظَاهِرَةِ الْمَوْتِ؛ كِنَايَةٌ عَنْ قَسَمِ اللهِ بِسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ في الحياةِ والْمَوْتِ، وتَسْخِيرِهِ مَخْلُوقَاتٍ غيبيَّةً عَنِ النَّاسِ هم مَلَائِكَتُهُ

لِيَكُونُوا أسْبابَ تَنْفِيذِ ما قَدَّرَهُ وقَضاهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ وهُوَ فيها هُوَ الْخَالِق.

غَرْقاً: الْغَرْقُ ـ والإغْراقُ = مَدُّ الرَّامِي وتَرَ قَوْسِهِ مَدّاً مُبالَغاً فِيهِ حَتَّىٰ يَسْتَوْفيَ فِيهِ غايَةَ مَدِّه.

النَّازِعَات: جمع «النَّازِعَةِ»، **والنَّزْعُ:** يأتي بمعنَىٰ جَذْبِ الشَّيْءِ وَقَلْعِهِ مِنْ مَكَانِهِ، وَيَأْتِي بِمَعْنَىٰ: مَدِّ وَتَرِ الْقَوْسِ لِرَمْيِ السَّهْم.

وجاءَتْ عبارَة: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١﴾ وَصْفاً لجماعَاتٍ مِنَ الملائكَةِ وظيفَتُهَا نَزْعُ أَرْواحِ الْكَافِرِينَ مِنْ نُفُوسِهِمْ بِشِدَّةٍ وعُنْفٍ، كَمَا يَنْزِعُ الرَّامِي بِقَوْسِهِ وَتَرَ قَوْسِهِ بِشِدَّةٍ حَتَّىٰ يَسْتَوْفِي غَايَةَ مَدِّه، وَعَمَلُهُم يكُونَ طَاعَةً لِأَمْرِ رَبِّهِمْ، وتَنْفِيذاً لِمَا سَبَقَ بِهِ تَقديرُهُ وقَضاؤه.

النَّاشِطَات: جَمْعُ «النَّاشِطَةِ». **والنَّشْطُ:** يأتي بمَعْنَىٰ جَذْبِ الشَّيْءِ دُونَ شِدَّةٍ وَلَا عُنْف. **نَشْطاً:** مَفْعُول مُطْلَق لِتَوْكِيدِ كَوْنِ عمل النَّاشِطاتِ لَا عُنْفَ فِيهِ وَلَا شِدَّة.

وجاءَتْ عبارَةُ ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾ وَصْفاً لجماعَاتٍ مِنْ الملائكَةِ وظيفَتُهَا جَذْبُ أَرْواحِ الْمُؤْمِنينَ مِنْ نُفُوسِهِمْ بِسُهُولَةٍ ويُسْرٍ ورِفْق، عِنْدَ انْتِهَاءِ آجالِهِم، طَاعَةً لِأَمْرِ رَبِّهم، وتنفيذاً لِمَا سَبَقَ بِهِ تَقْدِيرُهُ وَقَضاؤه.

- قول اللهِ تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾:

ويُقْسِمُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بِجَمَاعَاتٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ سَابِحَاتٍ فِي الأجْواء، جَعَلَ لَهَا وَظَائِفَ تَنْفِيذِ تَدْبيرَاتِهِ فِي كَوْنِه.

والْقَسَمُ بِهٰذِهِ الْجَماعَاتِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ؛ كنَايَةٌ عَنْ قَسَمِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بِتَصْرِيفِ أَحْدَاثِ كَوْنِهِ، وتَسْخِيرِهِ مَخْلُوقَاتٍ غَيْبِيَّةً عَنِ النَّاس هُمْ مَلَائِكَتُهُ، لِيَكُونُوا أَسْبَابَ تَنْفِيذِ ما سَبَقَ أَنْ قَدَّرَهُ وَقَضاهُ، وهُوَ في الْحَقِيقَةِ الْخَلَّاقُ الْفَعَّالُ مِنْ بَاطِنِ قَنواتِ الْأَسْبَاب.

السَّابِحَات: جمع «السَّابِحَة» **والسَّبح**: الحركَةُ السَّهْلَةُ الَّتِي يكُونُ بِهَا الانْتقَالُ فِي الْمَاءِ أَو الْهَوَاءِ بِرِفْقٍ ولِين، ومِنْهُ سَبْحُ السَّمَكِ في الماء، وسَبْحُ الكَوَاكِبِ والنُّجُومِ في مَسِيراتِهَا فِي أفْلَاكِهَا، وكَذَلِكَ حَرَكَةُ اللَّيْلِ والنَّهَارِ الدَّائِرَة في فلكها، ومِنْهُ قَوْلُ العَرَب: جَرَتِ الْخَيْلُ سَبْحاً.

سَبْحاً: مَفْعُول مُطْلَق، والْمُرَاد سَبْحاً حَكِيماً بِدَأْبٍ، دُونَ كَلَلٍ ولَا تَعَب، وَهـٰذِهِ الْجماعَاتُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَتَرَقَّبُونَ دواماً مَا يَنْزِلُ إلَيْهِمْ مِنْ أَوَامِرَ رَبَّانِيَّةٍ، لِيَقُومُوا بِتَنْفِيذِهَا فِي كَوْنِهِ دُونَ تَبَاطُؤٍ وَلَا تَأَخُّرٍ عَنِ الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لَهُمْ للتَّنْفِيذ بِمُقْتَضَىٰ تَقْدِيرِ اللهِ وقضائِهِ.

- ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ④﴾: أي: فالمتقَدِّمَاتِ المسْرِعَاتِ لِتَنْفِيذِ أوَامِرِ اللهِ في الأمَاكِنِ المطْلُوبِ تَنْفِيذُ أَوَامِرِ اللهِ فيها مَهْمَا كانَتْ نَائِيَةً بَعِيدَة.

جَاءَتْ عِبَارَةُ ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾ مَعْطُوفَةً بالْفَاء الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ التَّرْتيب مَعَ التَّعْقِيب، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ سُرْعَةِ طَاعَتِهِمْ لِأَوَامِرِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ دُونَ تَأْخِيرٍ وَلَا تَبَاطُؤ. واسْتُعْمِلَتْ مَادَّةُ السَّبْقِ الْمَوْضُوعَةُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ وُجُودِ سَابِقٍ ومَسْبُوقٍ؛ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْمُبَالَغَةِ فِي سُرْعَةِ الْوُصُولِ إِلَىٰ مَكَانِ تَنْفِيذِ الْمَأْمُورِ بِتَنْفِيذِه، ولَا أَرَىٰ أَنَّ الْمَلَائِكَة يَتَسَابَقُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِيَقُومَ السَّابِقُ مِنْهُمْ بالتَّنْفِيذ.

وجاءَ التَّوكِيدُ بِالمفْعُولِ المطْلَقِ «سَبْقاً» للدَّلَالَة على مُبَالَغَةِ الْمَلَائِكَةِ بِطَاعَةِ اللهِ، وبَيَانِ أَنَّ سَبْقَهُمْ حَسَنٌ مَحْمُودٌ حَكيم.

- ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ⑤﴾: وصِفَتْ هـٰذِهِ الْجَمَاعَاتُ مِنَ الملائِكَةِ بِكَوْنِهِمْ مُدَبِّراتٍ عَلَىٰ مَعْنَىٰ قيامِهِمْ بِتَنْفِيذِ ما سَبَقَ بِهِ التَّدْبيرُ الرَّبَّانِي لِأُمُورِ كَوْنِهِ، الَّذِي سَبَقَ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُه، إِذْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمَلَائِكَةِ تَدْبِيرُ

أُمورِ الكَوْنِ، بَلْ هُمُ المأمُورُونَ بِتَنْفِيذِ مَا سَبَقَ أَنْ دَبَّرَهُ اللهُ، وتَمَّ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤه.

أُطْلِقَ فِي الْعِبَارَةِ لَفْظُ «الْمُدَبِّراتِ» عِوَضاً عَنْ لَفْظِ «المنَفِّذَاتِ» على طَرِيقَةِ المجازِ المرسَل، وهو مِنْ إطْلَاقِ عَمَلِ الآمِرِ عَلَىٰ مَا يَقُومُ بِهِ المأمُورُ المكلَّف، وفي هذا إيجازٌ في العبارة، واختصارٌ لِجُمْلَةٍ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى: فالمنَفِّذَاتِ مَا سَبَقَ بِهِ تَدْبِيرُ اللهِ وتَمَّ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وقَضاؤُه، وتَوَجَّه بِهِ أَمْرُهُ لِلمَلَائِكَةِ المكَلَّفِين بالتَنْفِيذِ، باعتبارِه عَمَلاً سَبَبِيّاً، يَخْلُقُ اللهُ مَنْ قَنَوَاتِهِ مَا شَاءَ في الموضُوعِ المتعلّق بِهِ أَمْرُ التَّنْفِيذ.

واسْتُخْدِمَتْ فَاءُ الْعَطْفِ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ قِيامِ الْمَلَائِكَةِ بالتَّنْفِيذِ دُونَ إبْطَاءٍ وَلَا تَأَخُّر.

وبهذا تَمَّ تَدبُر الدَّرْسِ الأوّل مِنْ دُروس سُورَةِ (النَّازِعَات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٥)

التَّدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (النَّازِعات) الآيات من (٦ ـ ١٤)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾:

القراءات:

(١٠ ـ ١١) ● قرأ نَافع، وابْنُ عامر، والكِسَائي، ويعقوب: [**أَئِنَّا**... **إِذَا**].

وقرأها أبو جعفر: [**إِنَّا**... **أَئِذَا**].

وقرأَهَا باقي القرّاء العشرة: [**أَئِنَّا**... **أَئِذَا**].

(١١) ● قرأ شعبة، وحَمْزَةِ، والكِسَائي بِخُلْف عن الدّوريّ، ورُوَيْس، وخلف: [**نَاخِرَةً**].

وقرأَهَا باقي القرّاء العشرة: [**نَخِرَةً**].

نَاخِرَة، ونَخِرَة: لفظانِ لمعْنَىً واحِدٍ في اللُّغَة، وهُمَا بمعنى بالِيَة مُتَفَتِّتَة.

تمهيد:

في آيَات هـٰذا الدَّرسِ عَرْضُ فِقْراتٍ تَتَعَلَّقُ بِنَفْخَةِ إِنْهاءِ ظُرُوف الحياةِ الدُّنيا في الصُّور، ونَفْخَةِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، مَعَ عَرْضِ لَمْحَةٍ مِنْ أَحْوَال الْكَافِرِينَ المكَذِّبِينَ بَعْدَ الْبَعْثِ مِنْ ذُعْرٍ وذُلٍّ، وبَيَانٍ لِمَا كَانُوا فِي الحياة الدُّنْيَا يَقُولُونَهُ من اسْتِبْعَادٍ واسْتِغْرَابٍ لِلْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ وإنْكارٍ لَهُما، مَقْرُونٍ بِبَيَانِ أَنَّ بَعْثَهُمْ جَمِيعاً يَكُونُ بِزَجْرَةٍ صَوْتِيَّةٍ واحِدَة.

التدبّر التّحليلي:

■ قول اللهِ تعالى:

● ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾:

يقال لغة: «رَجَفَ، يَرْجُفُ، رَجْفاً، ورُجُوفاً، ورَجِيفاً، ورَجَفَاناً» أي: تَحرَّكَ واضْطَربَ اضْطِراباً شَدِيداً. «وَرَجَفَتِ الأرض» أي: حَصَل فيها زِلْزالٌ. **فالرَّاجِفَةُ**: هي الْمُضْطَرِبَةُ المتَزَلْزِلَةُ بِتَأْثِيرِ مُزَلْزِلٍ لَهَا.

المعنىٰ: يَوْمَ تَرْجُفُ وَتَتَزَلْزَلُ كُلُّ كَائِنَةٍ قَابِلَةٍ لِأَنْ تَرْجُفَ وَتَتَزَلْزَلَ في الْكَوْنِ، بتَأْثِيرِ النَّفْخَةِ الْأُولَىٰ فِي الصُّورِ، الَّتِي يَكُونُ بِهَا إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الحيَاةِ الدُّنْيَا. وَتَتْبَعُهَا النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ فِي الصُّورِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا بَعْثُ الْأَحْيَاءِ لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاءِ، وتَحْقيقِ الجزاء.

وصَفَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي يَكُونُ بها الْبَعْثُ بِوَصْفِ «الرَّادِفة» بِمَعْنَىٰ التَّابِعَة، إِذْ هِيَ تَابِعَةٌ للنَّفْخَةِ الْأُولَىٰ ولَوْ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ طَوِيلٍ.

ولفْظُ «يَوْمَ» ظَرْفٌ مُتَعَلِّقٌ بِخَبَرٍ مُقَدَّرٍ مُقَدَّم علَىٰ المبْتَدأ الَّذِي هُوَ ﴿قُلُوبٌ﴾ الآتِي بَيَانُها. أو بِفِعْلِ «اذْكُرْ»، أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة.

- ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾:

وَاجِفَة: أي: مضْطرِبَةٌ خَافِقَةٌ خَائِفَةٌ، وهِيَ قُلُوبُ الْكَافِرِينَ وَمُرْتَكِبِي كَبَائِرِ الإِثْم.

المعنى: حِينَ تُنْفَخُ النَّفْخَتَانِ في الصُّورِ الْأُولَىٰ والثَّانِيَةِ، ويُبْعَثُ الْأَحْيَاءُ، ويَرَوْنَ أَهْوَالَ الْمَوْقِفِ؛ تَكُونُ قُلُوبٌ هِيَ قُلُوبُ الكَفَرَةِ والْعُصَاةِ مُرْتَكِبِي كَبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ خَائِفَةً خَافِقَةً مُضْطرِبَةً، تَتَرَقَّبُ في حَذَرٍ أَنْ يَحْكُمَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عَلَيْهَا بالْعِقَابِ الَّذِي تَسْتَحِقُّهُ، وأَنْ يُدْخِلَها جهَنَّم دَارَ عَذَابِ المجْرِمِينَ، والْعُصَاةِ مُرْتَكِبِي كَبَائِرِ الإثم.

وتكُونُ أبْصَارُ أصْحَابِ هـٰذِهِ الْقُلُوبِ خاشِعَةً، أي: مُنْكَسِرَةً تَنْظُرُ إِلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ ذِلَّتِهِمْ، خَافِضَةً أَجْفَانَهَا مِنْ خُضُوعِهِمْ وخَوْفِهِم.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُنْتَقِلاً إِلَىٰ بَيَانِ حَالِ الْكَافِرِينَ المكَذِّبين بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ وهُمْ في الحياة الدُّنْيَا:

• ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ⑩ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ⑪ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ⑫﴾:

يُقَال: «رَجعَ فِي حَافِرَتِهِ» أي: رجعَ إِلَىٰ مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ في خِلْقَتِهِ الْأُولَىٰ، بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَ عَنْها.

المعْنَىٰ: يَقُولُ مُنْكِرُو الْبَعْثِ بِتَكْرَارٍ، مُسْتَبْعِدِينَ مُسْتَغْرِبين بأسْلُوب الاسْتِفْهَامِ الإنْكاريّ: أَءِنَّا لَرَاجِعُونَ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الموْتِ، أَءِذَا صِرْنَا عِظَاماً بالِيَةً مُتفتِّتَةً مُتَفرِّقَةً فِي تُرَابِ الأَرْضِ، أَنرْجِعُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟؟! إِنَّ هـٰذا خَبَرٌ مُسْتَبْعَدُ الْحُصُولِ لا نُصَدِّقُهُ.

وفي كُلِّ مَرَّاتِ الاسْتِنْكَارِ الاسْتِغْرَابِيِّ لَمْ يَأْتُوا بِدَلِيلٍ يُحْتَجُّ بِهِ لِمَا أَنْكَرُوا احْتِجَاجاً يُمْكِنُ أَنْ تَقْبَلَهُ الْعُقُولُ، بَلِ الْحُجَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ الدَّامِغَةُ نافِذَةٌ إِلَىٰ عُمْقِ أَدمغَتِهِمْ، ومَرَاكِزِ تَفْكِيرِهِمْ بِسُلْطَانِ الْحَقِّ، فَكَمَا خَلَقَهُمُ اللهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئاً مَذْكُوراً؛ إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَ خَلْقَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وتَفَتُّتِ ذَرَّاتِ أَجْسَامِهِمْ واخْتِلَاطِهَا بِتُرَابِ الْأَرْضِ، وَلَا يُشْتَرَطُ إِعَادَةُ الذَّرَّاتِ نَفْسِهَا إلى أَجْسَادِهِمْ حِينَ بَعْثِهِمْ، بَلْ تَكْفِي خَرِيطَةُ نُفُوسِهِمْ الْبَاقِيَةُ فِي ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ أَجْسَادِهم لِلْبِنَاءِ عَليها، وهَـٰذِه باقِيَةٌ فِي عَجْبِ الذَّنَبِ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ، ويَكْفِي عِلْمُ اللهِ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ حتَّىٰ يَقُولَ لَهُمْ: كُونُوا، فَهُمْ يَكُونُونَ كَمَا خَلَقَهُمْ أَوَّلَ مَرَّة.

• ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ⑫﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ هـٰذِهِ المقُولَةَ قَالَهَا أئِمَّةُ مُنْكِرِي الْبَعْثِ، وهُمْ يَتَنَاجَوْنَ فيمَا بَيْنَهُمْ.

أي: قَالُوا: إِنْ صَحَّ نَبَأُ الْبَعْثِ الَّذِي يُخبِرُ بِهِ مُحمَّد ﷺ فإنَّ تِلْكَ

الرَّجْعَةَ إِلَىٰ الحياةِ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ سَوْفَ تَكُونُ رَجْعَةً خاسِرَةً، أي: نَكُونُ نَحْنُ الْخَاسِرِينَ فيها خُسْرَاناً عَظيماً، إِذْ نَخْلُدُ في عَذَاب جَهَنَّمَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ عَنْهَا، بِسَبَبِ كُفْرِنَا بِمَا جَاءَ بِه عَنْ رَبِّنَا، وهذا من المجاز العقلي.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ الْبَعْثَ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ يكُونُ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ حَاجَةٍ إِلَىٰ تَكْرَار:

- ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾:

الزَّجْرَة: المرَّةُ مِنَ الزَّجْر. **والزَّجْرُ**: يُطْلَقُ عَلَىٰ صَوْتٍ ذي أَثَرٍ في شيءٍ ما، كأمْرٍ، أَوْ نَهْيٍ، أو حَثٍّ، ومِنْهُ: «زَجْرُ الْبَعِير» أي: حَثُّهُ بِصَوْتٍ وَحَمْلُهُ عَلَىٰ السُّرْعَةِ. ويُقَالُ: «زَجرَتِ الريحُ السَّحَابَ» أي: أثارَتْهُ.

السَّاهِرَة: وَجْهُ الْأَرْضِ الَّتِي كَانُوا فِي بَاطِنِهَا رُفَاتاً.

المعنى: لَا يَحْتَاجُ بَعْثُهُمْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ، وإرْجَاعُهُمْ أَحْيَاءً كَمَا كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ إِلَّا زَجْرَةً وَاحِدَةً بالنَّفْخِ في الصُّورِ، وبهَا يُفَاجؤُونَ أَنَّهُمْ قَائِمُونَ أَحْيَاءً بالسَّاهِرَةِ، وهِيَ وَجْهُ الْأَرْضِ الَّتِي كانُوا فِي بَاطِنِهَا رُفَاتاً.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الثَّاني مِنْ دُروس سُورَةِ (النَّازِعَات).

والْحَمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (النّازِعَات)

الآيات من (١٥ ـ ٢٦)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ

ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ :

القراءات:

(١٦) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [طُوَىٰ].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿طُوًى﴾ وَأَمَالَهُ وَقْفاً: حَمْزَة، والكِسائِي، وَخَلَف.

ووَقَف يعقوب على: ﴿بِٱلۡوَادِ﴾ بِزِيادَةِ يَاءٍ سَاكِنَةٍ.

(١٨) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأَبُو جعفر، ويعقوب: [إِلَىٰ أَنْ تَزَّكَّىٰ] بِتَشْدِيد الزّاي.

وقرأهَا باقي القراء العشرة: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ بفتح الزَّاي دُونَ تَشْدِيدٍ.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ بيان شَاهِدٍ تاريخيّ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ إِهْلَاكِ اللهِ عزَّ وجلَّ لِبَعْضِ الكافِرِينَ المكَذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّين، وهو إِهْلَالُ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِه بالإِغْرَاق، الَّذِي كَانَ أَثَرَ مُعْجِزَةٍ كُبْرَى لموسَىٰ عليه السّلام، إِذْ فَلَقَ اللهُ لَهُ الْبَحْرَ، وأَنْجَىٰ بَنِي إِسْرَائِيل بِعُبُورِ مكان الفلق، وأغْرَقَ بَعْدَهم فِرْعَوْنَ وَكُلَّ جُنُودِه.

التدبر التحليلي:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُخاطِباً كُلَّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ الرَّبَّانِي:

● ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾: اسْتِفْهَامٌ يرادُ بِهِ التَّعْلِيمُ لِلْجَاهِل، والتَّذْكِيرُ لِلْعَالم، أي: اسْتَمِعْ مُتَفَهِّماً هَـٰذَا الْحَدِيثَ المَتَعلّقَ بالنَّبِيِّ الرَّسُولِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

- ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾:

الوادي المقدَّسُ طوىً: هُو الوادِي المطَهَّرُ الْوَاقِعُ إِلَىٰ جَانِبِ جَبَلِ الطُّورِ، وقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلٌ لِقِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ وكَلَّمَهُ إِلَىٰ جَانِبِ الطُّور، واخْتَارَهُ نَبِيّاً وَرَسُولاً إِلى فِرْعَوْنَ باعتبارِه مَلِكَ مِصْرَ في مواضع عدة سابقة من نجوم التنزيل وإرْسَالُهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إرْسَالٌ إِلَىٰ كُلِّ الْمِصْرِيين.

- ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾: أي: إِنَّهُ تَجَاوَزَ كُلَّ الْحُدُودِ الَّتِي تَكُونُ مِنَ الْمُلُوكِ الْبُغَاةِ الظَّلَمَةِ، بِبغْيِهِ، وَظُلْمِهِ، وعُدْوانِهِ، وكُفْرِه، وَجَبَرُوته.

- ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾:

يُعَلِّمُ اللهُ عزَّ وجلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَدْعُوَ فِرْعَونَ إلى دِينِ اللهِ الْحَقِّ بِغَايَةِ الرِّفْقِ والتَّكْرِيم، وأَنْ يُخَاطِبَهُ بِأُسْلُوبِ مُخَاطَبَةِ المُلوكِ فِي زَمَانِهِ، مُسْتَخْدِماً الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي فِيهَا عَرْضٌ بِرِفْقٍ ولُطْفٍ، وبأُسْلُوب الاسْتِفْهَامِ، لَا بأُسْلُوب الأَمْرِ والنَّهْيِ والدَّعْوَةِ بِشِدَّة.

كانَ مِنَ الْمُمْكنِ أَنْ يَقْتَصِرَ التَّعْلِيمُ على: «هَلْ تزكّى» أو «هل لَكَ أَنْ تزكّى»، لَكِنْ جَاءَ التَّعْلِيمُ مُسْتَخْدِماً أَطْوَلَ مُقَدِّمَاتِ عَرْضٍ قَبْلَ طَلَبِ التَّزْكِيَة، فجاء في المقدّمات: «هَلْ» عَرْضٌ بالاسْتِفْهَام، و«لَكَ» إطْنَابٌ، و«إِلَىٰ أَنْ» إطْنَابٌ آخرُ، والمطْلُوبُ في العرض: ﴿تَزَكَّىٰ﴾.

التَّزْكِيَةُ: التَّطْهِيرُ، والتَّنْمِيَة. والإيمَانُ، والإسْلَامُ، والْعَمَلُ بِأَحْكَامِ دِينِ اللهِ؛ فِيهَا التَّطْهِيرُ مِنْ أَرْجَاسِ الكُفْرِ والشِّرْكِ وكَبَائِرِ الإِثْم، وفِيهَا التَّنْمِيَةُ بارْتِقَاءِ دَرجاتِ المتَّقِينَ، وَدَرَجاتِ الأَبْرار، ودَرَجَاتِ الْمُحْسِنِين.

- ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾: أي: وَأُعَرِّفَكَ بِصِفَاتِ رَبِّكَ الْجَلِيلَةِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، ومِنْهَا أَنَّهُ خَالِقُ الْأَكْوَانِ، وأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِ التَّكْوِين، وأَنَّهُ قَوِيٌّ قَدِيرٌ عَزِيزٌ جَبَّارٌ حَكِيمٌ، فإِذَا عَرَفْتَ بِعَقْلِكَ صِفَاتِهِ

الْجَلِيلَةَ خَشِيتَ عِقَابَهُ وانْتِقَامَهُ، فَآمَنْتَ بِهِ رَبّاً لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَأَسْلَمْتَ قِيادَكَ لَهُ، وَعَبَدْتَهُ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ أَحَداً، وأَطَعْتَهُ فَفَعَلْتَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ، واجْتَنَبْتَ مَا يَنْهاكَ عَنْهُ، طَامِعاً بِثَوابِهِ الْجَزِيلِ يَوْمَ الدِّين.

- ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾: أي: فَطَلَبَ فِرْعَوْنُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ؛ أَنْ يُرِيَه آيَةً تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ رَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ، فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ، وهِيَ آيَةُ الْعَصَا الَّتِي رَمَاهَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَانْقَلَبَتْ بِخَلْقِ اللهِ حَيَّةً عَظِيمَةً مُخِيفَةً تَسْعَىٰ.

- ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾: أي: فَكَذَّبَ بِأَنَّهَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، وزَعَمَ بِأَنَّها مِنْ أَعْمَالِ السِّحْرِ الَّتِي يَسْتَطِيعُ سَحَرَةُ مِصْرَ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَهَا، وَعَصَىٰ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، فَلَمْ يُؤْمِنْ ولَمْ يُسْلِمْ.

- ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾: أي: وانْتَظَرَ يَتَفَكَّرُ وَيَتَأَمَّلُ فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي يُبَارِي بِهَا سِحْرَ مُوسَىٰ عليه السلام بِزَعْمِهِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مَجْلِسِهِ الَّذِي أَجْرَىٰ فيه مُوسَىٰ عليه السلام آيَةَ الْعَصَا، وأَدْبَرَ يَسْعَىٰ مُتَفَكِّراً في اتِّخاذِ وَسِيلَةٍ يَغْلِبُ بِهَا عَصَا مُوسَىٰ عليه السلام.

- ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾: أي: فَسَاقَ وَجَمَعَ جموعاً كَثِيرَةً مِنَ الْمِصْرِيين، وَيَظْهَرُ أَنَّ هـٰذَا كَانَ بَعْدَ أَنْ دَعَا مُوسَىٰ عليه السلام لِلْمُبَارَاةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَحَرَةِ مَصْرِ، وبَعْدَ أَنْ غَلَبَتْ آيَةُ مُوسَىٰ عليه السلام سِحْرَ سَحَرَةِ مِصْر، وَأَرادَ بِهـٰذا أَنْ يُثْبِتَ سُلْطَانَهُ عَلَىٰ مِصْرَ وَرَعَايَاهَا، فَنَادَىٰ في خُطْبَةٍ مِنْ خُطَبِ الْعَرْشِ الْفِرْعَوْنِي، فقالَ فيها: أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ.

وكَانَ هـٰذا فِي أَوَاخِرِ دَعْوَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِصْر، وقُبَيْلَ خُرُوجِهِ مِنْ مِصْرَ بِبَنِي إِسْرائِيلَ فِي اتِّجاهِ سِينَاء.

- ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾:

النَّكال: الْعِقَابُ الرَّادِع. «نَكَالَ الآخِرَة» أي: عِقَابَ مَقُولَتِهِ الْآخِرَة، وهي قَوْلُهُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. و«نَكَالَ الْأُولى» أي: عِقَابَ مَقُولَتِهِ الْأُولى،

وهي الَّتِي جاء بيانُها في سورة (الْقَصَص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) بِقَوْل اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ . . . ﴿٣٨﴾﴾.

المعنى: فَأَخَذَهُ اللهُ أَخْذَ مُنْتَقِمٍ مُعَاقِبٍ ذي نَكَالٍ، عَلَىٰ مَقَالَتِهِ الآخِرَةِ، ومَقَالَتِهِ الأُولى، وَكَانَ هَـٰذا الأَخْذُ بإغْرَاقِهِ ومَلَئِهِ وَجَيْشِهِ في الْبَحْرِ، في مَكَانِ الْفَرْقِ الَّذِي سَلَكَهُ مُوسَىٰ وهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وسَائِرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا فِي مصر.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في آخِرِ هَـٰذا الدَّرْس:

- • ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾: **الْعِبْرَة**: الاتّعاظُ والاعْتِبارُ بما مَضَىٰ، مِمَّا هُوَ خَاضِعٌ لسُنَنِ اللهِ في كَوْنِهِ. وأَصْلُها الانْتِقَالُ عُبُوراً مَنْ حَدَثٍ جَرَىٰ إِلَىٰ حَدَثٍ مُشَابِهٍ لَمْ يَجْرِ، عَنْ طَرِيقِ القياس.

أي: إِنَّ في ذَلِكَ الَّذي جَرَىٰ لِفِرْعَوْنَ مِنْ نَكَالٍ؛ لَاتِّعَاظاً يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ يَخَافُ سُوءَ عَاقِبَةِ الْعَمَلِ الَّذِي عَاقَبَ اللهُ عَلَيْهِ بَعْضَ عباده.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الثالث مِنْ دُروس سُورَةِ (النَّازِعَات).

والْحَمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (النَّازِعَات) الآيات من (٢٧ ـ ٣٣)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾:

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرس إقْنَاعٌ لِلْكَافِرِينَ بِقُدْرَة اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ عَلَىٰ بَعْثِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، مِنْ خِلَالِ عَرْضِ بَعْضِ آياتِهِ فِي كَوْنِهِ، الَّتِي هِي أشَدُّ خَلْقاً مِنْ إعَادَتِهِمْ إلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وفَنَاءِ أَجْسَادِهِمْ.

التدبرُّ التحليلي:

يُخَاطِبُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ مِنْكِرِي الْبَعْثِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين، فيُبَيِّنُ لَهُمْ عَنْ طَرِيق طَرْحِ السُّؤَالِ عَلَيْهِمْ لِانْتِزَاعِ اعْتِرافِهِمْ؛ أَنَّ خَلْقَ السَّمَاءِ وَمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِهِ، وخَلْقَ الْأَرْضِ وَدَحْوهَا، وَإِخْرَاجَ مَائِهَا وَمَرْعَاهَا مِنْها، وَإِرْسَاءَ الْجَبَالِ فيها؛ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ مَتَاعاً فِي الدُّنْيا لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ.

- ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ . . . ﴿٢٧﴾﴾:

إنَّ السَّمَاءَ بأبْعَادِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ نُجُومِ لَا يُحْصِي عَدَّهَا غَيْرُ بَارِئِهَا؛ أَشَدُّ خَلْقاً مِنْ خَلْقِ جَسَدِ الإنْسَان، وهٰذَا واضِحٌ لِكُلِّ ذي نَظَرٍ وفِكْر، فَلَا عَجَبَ أَنْ يُعِيدَ اللهُ خَلْقَ الإنْسَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَفَنَاء جَسَدِه.

وَمِنَ ظَوَاهِرِ خَلْقِهِ لِلسَّمَاء أنَّهُ:

- ﴿. . . بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾: أي: بَنَاهَا بنَاءً عَظِيماً مُحْكَماً، لَا خَلَلَ فِيه وَلا نقص، وقَدْ رَفَعَها ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ وَهي كالسَّقْفِ ذي الطَّبقَاتِ فَأَمْسَكَهَا فِي الْفَضَاءِ الْوَاسِعِ فِي مَوَاضِعَ مُحَدَّدَةٍ لَهَا لَا تَحِيدُ عَنْهَا، فَلَا تَهْبِطُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، مَعَ مَالَهَا مِنْ أَثْقَالٍ عظيمةٍ جِدّاً.

السَّمْكُ: فِي اللُّغَةِ: السَّقْفُ، وقد جاء في القرآن وصْفُ السَّماء بأنَّها سَقْفٌ مَحفُوظ، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: كالسَّقْفِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ سُكَّانِ الأَرْض.

فَسَوَّاهَا: أي: أَبْلَغَهَا الْغَايَةَ الْمقْضِيَّةَ لَهَا، فجَعَلَهَا تَامَّةً مُسْتَوِيَةً بالِغَةً الْغَايَةَ المقْصُودَةَ مِنْ خَلْقِهَا.

ونَفْهَمُ مِنْ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أَنَّهُ رَفَعَ أجْرامَهَا التّي هِيَ كالسَّقْفِ فِي الْفَضاء الواسِعِ، حتَّىٰ أَبْلَغَهَا الْغايَةَ المقْصُودَةَ مِنْ خلْقِهَا.

ومِنْ ظَواهِرِ خَلْقِهِ للسَّماء أنَّهُ:

- ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾: أي: جَعَلَ لَيْلَها مُظْلِماً، يُقالُ لُغَةً: «أغْطشَ اللهُ اللَّيْلَ» أي: جعَلَهُ مُظْلِماً.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾: أي: وَأخْرجَ شَمْسَها الّتي تسَبَّبَ عَنْ إخْراجِهِ لَها أَنْ يَنْجَلِي ضُحَاها، والْمُرَادُ بالسَّماءِ هُنَا جوُّ السَّماءِ الْملاصِقُ لِلأَرْض.

الضُّحَىٰ: أَوَّلُ النَّهارِ مُنْذُ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ إلَىٰ الزَّوال، وخُصَّ بِالذِّكْرِ لِأَنَّه أفْضَلُ أوْقَاتِ امْتِدَاد الضِّياءِ عَلَىٰ الْأَرْضِ بِتَأْثِير أَشِعَّةِ الشَّمْسِ، وَيُقَاسُ عَلَيْهِ سَائِرُ أَوْقَاتِ النَّهار.

وَمِنْ ظَوَاهِرِ خَلْقِ اللهِ في كَوْنِهِ أَنَّهُ دَحَا الأَرْضَ، فقال تعالى:

- ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾: أي: وَدحْرجَ الأَرْضَ بَعْدَ أنْ رَفعَ سَمْكَ السَّماءِ فَسوَّاها، وأغْطشَ لَيْلَهَا وأَخْرجَ ضُحَاها.

يُقال لغة: «دَحا السَّيْلُ الحصا» أي: دَفَعَهُ فَتَدَحْرجَ فكَانَت لَهُ حرَكَتَانِ: حرَكَةٌ حَوْلَ نَفْسِهِ، وحرَكَةٌ فِي مَسِيرٍ. وكَانَ لِأَهْلِ مَكَّةَ لُعْبَةٌ يَلْعَبُونَ بها، وهِي حِجارَةٌ كَالْأقراص، وتُحْفَرُ حُفْرَةٌ بِقَدْرِها، يَتَنَحَّوْنَ عَنْها قليلاً، ثُمَّ يَدْحُونَ بِتِلْكَ الْأَحْجارِ إلَىٰ تِلْكَ الحفْرَة، فإنْ وقَعَ فيها الْحَجَرُ فَقَدْ غَلَبَ صَاحِبُهُ، وإنْ لَمْ يَقَعْ غُلِب، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَجَرَ تَكُونُ لَهُ حَرَكَتَانِ، حَرَكَةٌ حولَ نَفْسِهِ، وحَرَكَةٌ فِي مَسِير.

وَهَـٰذا وَاقِعُ حالِ الْأَرْضِ إذْ أَثْبَتَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ أَنَّ لِلْأَرْضِ حَرَكَةً حَوْلَ نَفْسِهَا فِي اتِّجَاهِ الشَّمْسِ، فَيَكُونُ مِنْ أَثَرِها ظَاهِرَة اللَّيْلِ والنَّهار، وَأَنَّ لَهَا حَرَكَةً أُخْرَىٰ في مَسِيرٍ فَلَكِيّ حَوْل الشَّمْس، يَكُونُ مِنْ أَثَرِهَا ظَاهِرَةُ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ بِفُصُولِهَا الْأَرْبَعَة.

وَبِهـٰذَا تَظْهَرُ لَنَا المطَابَقَةُ بَيْنَ النَّصِّ القرآني؛ وبَيْنَ مَا قَالَ الْعِلْمُ الإنْسَانِيُّ فِيهِ كَلِمَتَهُ الْأَخِيرَة.

وجاء نَصْبُ «وَالْأَرْضَ» عَلَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْل «دَحَا» مُقَدَّراً، لِأَنَّ الْفِعْلَ المذكُورَ اشْتَغَلَ عَنْ نَصْبِ الْأَرْضِ، بِنَصْبِ ضَمِيرِها.

وَمِنْ ظواهِرِ خَلْقِ اللهِ لِلْأَرْضِ أَنَّهُ تبارَكَ وَتَعالَىٰ:

- ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾:

أي: أَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ بِحِكْمَتِهِ وَعَظِيم قُدْرَتِهِ مَاءَهَا أَوَّلَ مَا أَوْجَدَ الْمَاءَ فِيها، وَأَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ إخْرَاجِ الْمَاءِ مِنْهَا مَرْعَاهَا الَّذِي تَأْكُلُ مِنْهُ دوابُّ الْأَرْضِ، وأخْرَجَ مِنْهَا أَقْوَاتَ النَّاسِ وَفَاكِهَتَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا مَرْعَاهَا.

وَجَعَلَ الْجِبَالَ فِيهَا رَاسِيَةً كَالْأَوْتَادِ لِتَثبيتِ قِشْرَةِ الْأَرْضِ حَتَّىٰ لَا تَمِيدَ وَتَضْطَرِب بسُكَّانها.

وَمِنْ ظَوَاهِرِ رَحْمَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ للنَّاس أَنَّهُ جَعَلَ مَا يُخْرِجُهُ مِنَ الْأَرْضِ مِمَّا يُؤْكل مَتَاعاً للنَّاسِ وَلأنْعَامِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾: **المتاع**: مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مُؤَقَّتا وَمَصِيرُهُ إلى الْفَنَاء، وقد خصص اللهُ فِي كِتابِهِ لفظ المتَاعِ لِمَا جَعَلَ في الدُّنْيا مِنْ مَنَافِعَ وَزِينَات، وخَصَّصَ لفظ النعيم لِمَا جَعَلَ فِي الجنَّةِ مِنْ مُسْعِدَاتِ أَصْحَابها.

وبهذا انتهى تَدَبُّرُ الدَّرْس الرابع مِنْ دُرُوس سورة (النازعات).

والحَمْدُ للهِ على معُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتوفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (النازعات)
الآيات من (٣٤ ـ ٤١)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١)﴾:

القراءات:

(٣٩) • قرأ الأصبهاني، وأبو عمرو بخلفه، وأبو جعفر: [**الْمَاوَىٰ**] بإبْدَال الهمزة أَلِفاً مَدّية، وكَذَلِكَ قَرأَهَا حَمْزَة في الوقف.

تمهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذا الدَّرسِ عَرضُ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي سوف تَكُونُ يَوْمَ الدِّينَ، فَمِنْهَا مَا هُو مُرْهِبٌ لِلْكافِرِينَ، ومِنْهَا مَا هُوَ مُطْمِعٌ لِلْمُؤْمِنِينَ المتَّقِين.

التدبُّر التحليلي:

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦)﴾:

وصَفَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ القِيَامَةَ وَمَا يجري فيها مِنْ أَحْدَاثٍ عَظِيمَةٍ؛ بِأَنَّها الطَّامَّةُ الكُبْرَىٰ.

الطَّامَّة: مُؤَنَّثُ «الطَّامّ»، وهذا اللَّفْظ يُطْلَقُ على الشَّيْءِ الْعَظِيم، والْمَاءِ الكثير، وحَرِيٌّ بالقِيَامَةِ وَأَحْدَاثِها العظيمَةِ الكَثِيرَةِ؛ أَنْ تُوصَفَ بأَنَّهَا الطَّامَّةُ الكُبْرَىٰ.

فإذَا جَاءَتْ هٰذِهِ الأحْدَاثُ الكُبْرَى، الّتِي يَكُونُ يَوْمَها مَوْقِفُ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاء؛ يَتَذَكَّرُ الإنْسَانُ مَا سَبَقَ أَنْ سَعَىٰ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ، فَيَجِدُ مَا هُوَ مَكتُوبٌ فِي كِتَابِ عَمَلِهِ مُطَابِقاً لِمَا سَعَىٰ في الحياة الدُّنْيا الَّذِي تَذَكَّرَه.

لفظ: «السَّعْي» أُطْلِقَ فِي الْقُرْآن على الأَعْمَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ ذَاتِ الأَثَرِ فِي الآخِرَة، أَمَّا الأَعْمَالُ الدُّنْيَوِيَّة غَيْرُ ذَاتِ الأَثَرِ فِي الآخِرَةِ فالمطْلُوبُ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا أَنْ نَمْشِيَ فِي مَنَاكِبِ الأَرْضِ مَشْياً لِلْحُصُولِ عَلَيْها، لا أن نَسْعَى سَعْياً.

- ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾: أي: وَأُظْهِرَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَىٰ أَهْوالها، وأوَّلُ الْمَقْصُودِينَ بِهٰذَا الإظْهَارِ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيها.

الْجَحِيم: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاء النَّارِ دَارِ الْعَذَابِ يَوْم الدّين. وكُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْوَاة هِي جَحِيمٌ لُغَةً.

- ■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾:

﴿فَأَمَّا﴾: الفاء عَاطِفَةٌ فِيها مَعْنَىٰ التَّفْرِيع على ما سَبَق. «أمَّا» حَرْفٌ فِيه مَعْنَىٰ الشَّرطِ، والتوكيد دَائماً، والتَّفْصِيلِ غَالِباً، وهُنَا فيها معْنَىٰ التفصِيلِ بين مَنْ طَغَىٰ ومَأْوَاهُ الجحيم، وبَيْنَ مَنْ خَافَ مَقَام رَبِّهِ ومأواه الجنَّة يَوْمَ الدِّين.

المعنى: فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ فَتَجَاوَزَ بِكَبَائِرِهِ حُدُودَ مَنْ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِ بالْخُلُودِ في عَذَابِ الْجَحِيم، فَصَارَ بِحُكْمِ اللهِ الْعَادِلِ مِنَ الَّذِينَ يَقْضِي اللهُ عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ؛ فإنَّ الْجَحِيمَ هِيَ مَأْواه، أي: هي مَنْزِلُهُ يَوْمَ الدِّين الذي يَأْوي إِلَيْهِ، ويَنْزِلُ فِيهِ، ويَسْكُنُهُ سُكُوناً أَبَدِيّاً.

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ الَّذِي سَوْفَ يَقِفُهُ يَوْم الدِّين لِلْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وخَافَ تَنْفِيذ جزائِهِ الْعَادِل عَلَىٰ المعاصِي وارْتِكَاب الكبائر، وَنَهَىٰ نَفْسَهُ عِنِ اتِّباعِ الْهَوَىٰ الَّذِي يُطْغِيهِ، فَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ المعاصِي وارْتِكَابِ كبائِرِ الإثم، وطَوَّعَ نَفْسهِ أَنْ يُطِيعَ اللهَ بِتَأْدِيَةِ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَات؛ فإنَّ الجنَّة دَارَ نَعِيمِ المتَّقِينَ يَوْم الدِّينِ هِي مَأْواه، أي: مَنْزِلُهُ الَّذي يَأْوِي إِلَيْهِ يَوْمَ الدّين، وهِي الدَّارُ الَّتِي يَسْكُنُهَا مُنَعَّماً خَالِداً فِيهَا مُخَلَّداً أَبَداً.

الْهَوىٰ: مَيْلُ النَّفْسِ إلى مَا تُحِبُّ وَلَوْ كَانَ فِيهِ ضُرٌّ وشَرٌّ وإثْمٌ وعصيان.

وفي الهوى معْنَىٰ السُّقُوطِ والْهُبُوط مِنْ عُلْوٍ إِلى سُفُول.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الخامس مِنْ دُرُوس سورة (النازعات).

والحَمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وَفَضْلِهِ.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (النَّازِعات) الآيات من (٤٢ ـ ٤٦) آخر السورة

قال اللهُ تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾:

القراءات:

(٤٣) • وقف الْبَزِّي على ﴿فِيمَ﴾ بِهَاءِ السَّكْتِ بِخُلْفٍ عَنْهُ، وكذلِكَ يَعْقُوبُ بِخَلْف عنه.

(٤٥) • قرأ أَبُو جَعْفَر: [مُنْذِرٌ] بالتَّنْوين.

وقَرَأَهَا بَاقِي القرّاءِ العشرة: ﴿مُنذِرُ﴾ بالرَّفْعِ دُونَ تَنْوين، على الإضافة.

تمهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ تَعِلَّةِ الْكَافِرِينَ المكَذِّبين بالْبَعْثِ وبِيَوْمِ الدِّين، بسُؤَالِهِمْ رَسُول اللهِ ﷺ عَنِ الوقْتِ الّذِي تَقُومُ فِيهِ السَّاعَة، وجاء بَعْدَهُ بَيَانُ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ لِرَسُوله ﷺ بأنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعْنِيّاً بالإجَابَةِ عَلَىٰ سُؤَالِهِمْ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أبانَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ أَنَّ وَقْتَ السَّاعَةِ مِمَّا أَخْفَاهُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ عباده، فَلَا تَأْتِي السَّاعَةُ إِلَّا بَغْتَةً، وأَنَّ وَظِيفة الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يُنْذِرَ بِهَا، وبِمَا يُجْرِيه اللهُ بَعْدَهَا يَوْم الدِّين مِنْ حِسَابٍ، وفَصْل قضاء، وتَنْفِيذ جَزَاء، وأَنَّ النَّاسَ حِينَ يَرَوْنَ أَحْدَاثَ السَّاعَةِ يَشْعُرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا في الْأَرْضِ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْث إِلَّا مِقْدَارَ نَوْمَةٍ قَبْلَ مُنْتَصَفِ النَّهار، أَوْ نَوْمَةٍ بَعْدَ مُنْتَصَفِ النَّهار.

التدبر التحليلي:

■ يقولُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرسُوله ﷺ:

• ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾:

أي: يَسْأَلُكَ المكَذِّبُونَ بالْبَعْثِ وَيَوْم الدِّينِ عَنْ سَاعَةِ إِنْهَاء ظُروفِ الحياة الدُّنيا، الَّتي تَأتي بَعْدَهَا سَاعَةُ البَعْثِ إِلَىٰ الْحياة الْأُخْرى، فَيَتَسَاءَلُونَ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَة؟

أَيَّان: اسْمُ اسْتِفْهَام يُسْأَلُ بِهِ عَنِ الزَّمَانِ المستقبل، ولَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيما يُرَادُ تَضْخِيمُ أَمْرِهِ، وَتَعْظِيمُ شَأْنِهِ.

مُرْسَاها: **الْمُرْسَىٰ، والْمَرْسَىٰ**: مَحَطُّ السَّفِينَةِ بالسَّاحِلِ، وجَمْعُهُ الْمَرَاسِي. شُبِّهَتِ السَّاعَةُ بِسَفِينَةٍ سَائِرَةٍ فِي بَحْرِ الزَّمَنِ، وشُبِّهَ قِيَامُهَا: بِرُسُوِّ هَـٰذِهِ السَّفِينَةِ بالسَّاحِلِ، واسْتُعِيرَ لفظ «مُرْسَاها» للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ قيامِهَا، أي: مَتَىٰ يَكُونُ قِيَامُ السَّاعَةِ؟.

- ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾؟:

أي: في أيِّ شيءٍ أنْتَ يَا مُحَمَّدُ مِن تَذَكُّرِ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ وأَنْتَ لَا تَعْلَمُ عَنْ هـٰذا الْوَقْتِ شَيْئاً حتَّىٰ تُسْأَلَ عَنْه.

الذِّكْرَىٰ: تَأْتِي بِمَعْنَىٰ التَّذَكُّرِ، وهـٰذا الْمَعْنَىٰ هُوَ الظَّاهِرُ هُنَا.

وبِمَا أَنَّ الْعِلْمَ بَوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ قَدْ أَخْفَاهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عَلَىٰ كُلِّ عِبَادِهِ، فَلَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ فَلَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ يَا مُحَمَّدُ بالتَّطَلّعِ إلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَلَا يَكُنْ مِمَّا يُهِمُّكَ أَنْ تَجِيبَ السَّائِلِينَ عَنْ وَقْتِهَا، مَهْمَا أَلَحُّوا في السُّؤَالِ عَنْهُ.

- ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: إِلَىٰ رَبِّكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ عِلْمُ الْوَقْتِ الَّذِي يَنْتَهِي عَنْدَهُ مَسِيرُ زَمَنِ الحَيَاةِ الدُّنيا، وتَرْسُو عِنْدَهُ سَاعَةُ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ هـٰذِهِ الحياة.

- ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾:

أي: لَيْسَ مِنْ وِظِيفَتِكَ أَنْ تُبَيِّنَ لِلسَّائِلِينَ وَقْتَ قِيامِ السَّاعَةِ، وقَدْ أَخْفَاهُ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ عِبادِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ والإِنْسِ والْجِنِّ.

إِنَّما وَظِيفَتُكَ أَنْ تُنْذِرَ بِعِقَابِ اللهِ مَنْ يَخْشَىٰ السَّاعَةَ، وَمَا أَعْتَدَ بَعْدَهَا مِنْ عقابٍ وَعَذَابٍ لِلْكَافِرِينَ ومُرْتَكِبِي كبَائِرِ الإِثْمِ، فِي رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فِي

الحياةِ الدُّنْيا، ولعَلَّ الرَّسُولَ ﷺ تَحدَّثَتْ نَفْسُهُ بِمَعْرِفَةِ وقت قيام السَّاعةِ ليُجيب السائِلينَ عَنْهُ، فَأنزل اللهُ عَلَيْهِ مَا جاءَ بيانه في هذه السورة.

■ وأبان اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّ نُفُوسَ الْمَوْتَىٰ لَا تُحِسُّ بِمُرُور الزَّمَنِ مَهْمَا طَالَ، فاللَّحظَاتُ وملْيَارَاتُ السِّنينَ سَوَاءٌ بالنِّسْبَةِ إليها، فقال الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَزَّ سُلْطَانُه ـ:

- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾:

أي: كَأنَّ إحْسَاسَهُمْ بالزَّمَنِ يَوْمَ يَرَوْنَ الْبَعْثَ وَبَعْضَ أَحْدَاثِ مَا بَعْدَ الْبَعْثِ؛ يُسَاوِي فِي تَقْدِيرِهِمْ زَمَنَ نَوْمَةٍ نَامُوهَا بَعْدَ ظُهْرِ يَوْمٍ وَاحِدٍ، أَوْ نَوْمَةٍ نَامُوهَا قَبْلَ ظُهْرِ هـٰذا الْيَوم.

الْعَشِيَّة: نِصْفُ النهار الثَّاني إلى الْغُروب.

الضُّحَىٰ: أَوَّلُ النَّهَارِ مُنْذُ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ إلى الزَّوَال، وضُحَىٰ العشية: أَوَّلُ نَهَارِ يَوْمِ الْعَشِيَّة.

وجاءت عبارةُ ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ للتَّنَاظُرِ بَيْنَ رُؤُوسِ الآيَات، مَعَ مَا فِيها مِنْ دَلَالَةِ أنَّ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ واحِدٍ لَا أكْثَر.

وبهذا يَظْهَرُ لَنَا أَنَّ إحْسَاسَ الميِّتِ بالزَّمَنِ فِي عَهْدِ آدَمَ عليه السلام؛ نَظِيرُ إحْسَاسِ الميِّتِ بالزَّمَنِ قُبيْلَ سَاعَةِ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ السَّادِسِ مِنْ دُرُوس سورة (النازعات) وهو الدَّرْس الأخير مِنها.

والحَمْدُ للهِ علَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وَفَتْحِه.

* * *

(١٠)

ملحق: مستَخرَجَات بَلَاغِيّة من سُورة (النازعات)

في هـٰذِهِ السُّورَةِ اخْتِيَارَاتٌ بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، مِنْها الاختيارات التاليات:

أولاً:

من الاستعارة قول اللهِ تَعَالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾:

اسْتُعِير لَفْظُ «الْمُرْسَى» وهُو مَحَطّ السّفينَةِ بالسَّاحِلِ، للدَّلَالَةِ بِهِ على وَقْتِ انْتِهاءِ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيا، وَقِيامِ السَّاعَة.

ثانياً:

من اقتطاع النَّصّ مِنْ وقْتِ حُدُوثِهِ وَتَقْدِيمِهِ كأَنَّهُ يَجْرِي عِنْدَ التكلُّمِ بِهِ؛ قول اللهِ تَعَالى في حكَايَةِ مَا قَال لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾:

لم يأتِ في التعبير عبارة: فقال له، وإنَّما جَاءَتِ العبارة مقتطعةً من الحدَثِ الماضِي.

ثالثاً:

من القصر، وهو تخصيص شيءٍ بشيءٍ بعِبَارَةٍ كَلامِيَّة تَدُلُّ عَلَيْهِ، ومِنْه في السُّورة ما يلي:

(١) قولُ اللهِ تَعالَىٰ بشَأْنِ صَيْحَةِ الْبَعْث:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾:

أي: فَمَا هِيَ إِلَّا صَيْحَةٌ زَاجِرَةٌ وَاحِدَةٌ، فإذَا الْمَوْتى مَبْعُوثُون إلىٰ الحياةِ، وهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْض.

والأداة المستعملة في هذا الْقَصْر لفظ: «إنَّما»، وهو بمعنى «ما» و«إلَّا».

(٢) قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ السَّاعَة:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥﴾:

أي: مَا وَظيفَتُكَ يَا مُحَمَّد بالنسبَةِ إِلَىٰ السَّاعَةِ إلَّا أَنْ تُنْذِرَ مَنْ يَخْشَىٰ السَّاعَة وَمَا يَكُونُ بعْدَهَا مِنْ عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِه.

رابعاً:

من الإيجاز بالحذفِ في السُّورَة ما يلي:

(١) قول الله تعالى:

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾:

الراجِفَة، والرَّادِفَةُ، كُلٌّ مِنْهُمَا صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ إيجازاً، أي: يَوْمَ تَرْجُفُ وتَتَزَلْزَلُ كُلُّ كائِنَةٍ قَابِلَةٍ لِأَنَّ تَرْجُفَ وتَتَزَلْزَلَ فِي الكَوْنِ، بِتَأْثِيرِ النَّفْخَةِ الْأُولَىٰ فِي الصُّور، ثُمَّ بِتَأْثِيرِ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ فِيه.

(٢) قول الله تَعَالَىٰ:

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾:

أي: وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوىٰ.

(٣) قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشأْنِ السَّاعَة وَوَقْتِ قِيامِهَا:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾:

أي: إِلَىٰ رَبِّكَ عِلْمُ مُنْتَهَىٰ الحياة الدُّنْيا، وقِيَامِ السَّاعَة.

خامساً:

من الإطْنَاب لِتَعْلِيم أُسْلُوبِ دَعْوَةِ عُظَمَاءِ النَّاس إلَىٰ دِينِ اللهِ قول اللهِ تَعَالى يُعَلِّمُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُسْلُوبَ دَعْوَةِ فِرْعَوْن:

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ⑱﴾:

فَعِبَارَةُ: «هَلْ تَزَكَّىٰ» كافِيَةٌ، لَكِنَّ مُقَدِّمَاتِ مُدَارَاتِ فِرْعَوْن اسْتَدْعَتِ الإطْنَاب.

سَادِساً:

من الاستفهام الخارج عَنْ أصْلِ دَلَالَتِهِ وهو طَلَبُ الإفهام؛ ما يلي:

(١) ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ⑩ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ⑪﴾؟:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامَيْنِ هُنَا الاسْتِبعادُ، والاسْتِغْرَابُ، والإنْكارُ.

(٢) قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ⑮﴾؟:

يُرَادُ بِالاسْتِفْهَامِ هُنَا الإعْلَامُ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ غَيْرِ الْعَالم، والتَّذْكيرُ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ العالم.

(٣) قول اللهِ تَعَالَى يُعَلِّمُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُسْلُوبَ خِطَابِ فِرْعَوْن:

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ⑱﴾؟:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ هُنَا الْعَرْضُ بِرِفْق.

(٤) قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لمنْكِرِي الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ㉗﴾؟:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ هُنَا الإقْنَاعُ، وانْتِزَاعُ الإقرار.

(٥) قول اللهِ تَعَالَىٰ خَطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ سُؤَال الْكَافِرِينَ عَنْ وَقْتِ قِيام السَّاعَة:

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾؟:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامُ هُنَا النفي، أي: لَسْتَ يَا مُحَمَّد في شيءٍ مِنْ ذِكْرَاهَا، فلا تَجْعَل مَعْرِفَةِ وَقْتِ قِيام السَّاعَةِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتي تُعْنَىٰ بها.

سَابعاً:

من التوكيد لداعٍ أَوْ أَكْثرَ من الدَّواعي البلاغية؛ ما يلي:

(١) قول اللهِ تَعَالَى:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَات التوكيدُ بالْقَسَم عَلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ وَيَوْمَ الدِّينِ حَقٌّ، مع مَا فيها مِنْ حَذْفِ المقْسَمِ عَلَيْهِ إيجازاً.

وفيها التوكيد بالمفْعُولِ المطْلَقِ أَوْ بِصَفَتِهِ «غَرْقاً ـ نَشْطاً ـ سَبْحاً ـ سَبْقاً».

(٢) قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْن إِهْلَاكِ فِرْعَوْن:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيـةِ التَّوْكيد بـ: «إِنّ ـ والجملَة الاسمية ـ واللام المزحْلَقة».

وأكْتفي بهذهِ المسْتَخْرَجَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ، والحمدُ للهِ على مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوفِيقِه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

سورة الانفطار

٨٢ مصحف ٨٢ نزول

وهي سورة مَكِيَّة بلا خلاف

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ
فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ
وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا
كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾
وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا
بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا
يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ
يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

---

٧ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائيّ، وخلف: [**فَعَدَلَكَ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**فَعَدَّلَكَ**]، بِتَشْدِيدِ الدّال.

٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [**يُكَذِّبُونَ**] بياء الغائبين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**تُكَذِّبُونَ**] بتاء المخاطبين.

١٩ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [**يَوْمُ لَا**].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**يَوْمَ لَا**].
وهما وَجْهانِ عَرَبيان جائزان.

(٢)

مما ورد في السنة بشأن سورة (الانفطار)

روى النّسائِي بِسَنَدِه عَن جابر رضي الله عنه، قال: قَامَ مُعَاذٌ رضي الله عنه فَصَلَّىٰ الْعِشَاءِ الآخِرَةَ فَطَوَّلَ، فقال النبيُّ ﷺ:

«أفَتَّانٌ يا مُعَاذ؟!، أفَتَّانٌ يا مُعَاذ؟!، أين كُنْتَ عَن ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾؟!».

(٣)

موضوع سورة (الانفطار)

موضوع هذه السورة يَتَنَاوَلُ بياناً مُوجزاً حَوْلَ يَوْمِ الدّين.

ففيه لقَطَاتٌ مِنْ أحداثِ القيامَةِ، فبَيَانٌ إقناعِيٌّ للإنْسَانِ الكافِرِ بيَوْمِ الدِّين، فَبَيَانٌ بأَنَّ كُلَّ الموضُوعينَ فِي الحيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ؛ مَلاحَقُون بِكِتَابَةِ أعْمَالِهِمْ مِنْ قِبَلِ ملائِكَةٍ كِرَامٍ كاتِبينَ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ مِنْ أعْمَالٍ ظَاهِرَة وأعْمَالٍ باطِنَةٍ داخِلَ النفس، فَبيَانٌ يَتَعَلَّقُ بمصير الأبرار يَوْم الدِّين، وأَنَّهُمْ يَكُونُون فِي نَعِيم، ومَصِيرِ الْفُجَّارِ يَوْمَ الدِّين وأَنَّهُمْ يَكُونُون فِي جَحِيم، وختامٌ يَتَعَلَّقُ بِيَوْمِ الدِّين.

(٤)

دروس سورة (الانفطار)

ظَهَر لي أَنَّ هَـٰذِهِ السُّورَةَ تَنْقَسِمُ إِلَىٰ أَرْبَعَةِ دُروس، وهي كما يلي:

الدرس الأوّل: الآيَات من (١ ـ ٥).

وفي آيات هذا الدَّرْسِ لَقَطَاتٌ مِنْ أَحْدَاثِ القيامَةِ؛ يَليهَا بَيَانُ بَعْثِ الْأَحْيَاءِ مِنَ الأَمَاكِنِ الّتِي بَقِيَتْ فِيها نَوَيَاتُ بَعْثِهِم، وعِنْدَئِذٍ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا فَعَلَتْ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ، وما أخرَّتْ فَلَمْ تَفْعَلْ مِمَّا فِيه تَرْكُ طَاعَةٍ للهِ أَوْ مَعْصِيَة.

الدّرس الثاني: الآيات من (٦ ـ ١٢).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْس فِقَراتٌ إقْنَاعِيَّةٌ للإنْسَانِ الكافر، الشَّامِلِ لِكُلِّ الْكَافِرين باللهِ وَبِيَوْم الدِّين، مع زَجْرٍ لَهُمْ فَتَحْذِيرٍ بأَنَّهُمْ مُلَاحَقُونَ بِكِتَابَةِ أعْمَالِهِمُ الْجَسَدِيَّةِ الظَّاهِرَة، وأعْمَالِهِمُ النَّفْسِيَّةِ الْبَاطِنَة، مِنْ قِبَلِ مَلَائِكَةٍ كِرَامٍ كَاتِبِين، يَعْلَمونَ مَا يَفْعَلُ الموضوعُونَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، مِنْ أفْعَالٍ نَفْسِيَّةٍ، وأَفْعَالٍ جَسَدِية.

الدَّرْسُ الثالث: الآيات من (١٣ ـ ١٦).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ بيانُ مَصِيرِ الْأَبْرَارِ يَوْمَ الدِّين، وأَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي نَعِيم، وبَيَانُ مَصِيرِ الْفُجَّارِ يَوْمَ الدِّين، وأنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي جَحِيمٍ يَحْتَرِقُونَ بِنَارِها، ولَا يُفَارِقُونَها.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (١٧ ـ ١٩) آخر السورة.

وفي آيات هذا الدَّرس إعْلَامٌ بأنَّ يَوْمَ الدِّينِ يَوْمٌ عَظِيمٌ خَطِيرٌ، غَايَةٌ فِيما خُلِقَ مِنْ أَجْلِهِ وَدُبِّرَ لَهُ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضائِهِ، مَعَ بيانِ أنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ فِيهِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه، فَلَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شيئاً، مِنْ جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرّ.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدّرس الأوّل من دُرُوس سورة (الانفطار)

الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)﴾:

تمهيد:

فِي آيات هـٰذا الدّرسِ لقَطَاتٌ مِنْ أَحْدَاثِ الْقِيَامَةِ، ويليها بَيَانُ بَعْثِ الْأَحْيَاءِ مِنْ الأماكِنِ الَّتِي بَقِيَتْ فِيها نَوَيَاتُ بَعْثِهم، وعنْدَئذٍ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا فَعَلَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وتَعْلَمُ مَا أخَّرَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ مِمَّا فِيهِ تَرْكُ طَاعَةٍ للهِ، أَوْ تَرْكُ مَعْصِيَة.

التدبّر التحليلي:

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾:

دَلَّتْ هـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ مِنْ أَحْدَاثِ القيامَةِ انْفِطَارُ السَّمَاءِ، أي: انْشقاقُها.

يقال لغة: «انْفَطَرَ الشيءُ» أي: انْشَقَّ.

وانْفِطَارُ السَّمَاءِ يَكُونُ بانْشِقَاقٍ يَحْدُثُ بَيْنَ أجْزَائِهَا المتَمَاسِكَةِ، في الْبِنَاء التَّجَاذُبِيِّ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ لها.

وجَاءَ بِشَأْنِ انْشِقَاقِ السَّمَاء مِنْ أَحْداثِ القيامَة:

(١) قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾.

(٢) وقول اللهِ تَعالى في سورة (الحاقة/ ٧٨ نزول):

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾:

أي: فهِيَ يَوْمَئِذٍ ضَعِيفَةُ التَّماسُكِ بَيْنَ أجْزائِها وأَجْرَامِهَا.

(٣) وقولُ اللهِ تَعَالَى في سورة (الانْشقاق/ ٨٣ نزول):

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٢)﴾:

أي: وأطاعَتْ لِأَمْرِ رَبِّهَا فِي تصارِيفِهِ لِأَحْدَاثِ القيامَةِ، وحُقَّ لَهَا أَنْ تُطِيعَ طاعةً جَبْرِيَّةً، لَا تَخْرِمُ مِن الأَمْرِ التَّكْوينيِّ الرَّبَّانِيّ لَهَا شيئاً، لِأَنَّ اللهَ إذَا أَرَادَ فِي كَوْنِهِ شيئاً قالَ لَهُ: كُنْ، فَهُو يَكُونُ كما جاء في الأَمْرِ، إيجاداً أو إِعْدَاماً، أو تغييراً أَوْ تَحْوِيلاً، أَوْ غير ذلك.

٤ ـ وقول اللهِ تعالى في سورة (الرَّحْمٰن/ ٩٧ نزول):

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ (٣٧)﴾:

أي: فإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَصَارَتْ مِثْلَ وَرْدَةٍ ذَاتِ أَوْرَاقٍ حَمْراءَ كالْجُلُودِ الْحَمْراء، وهٰذا مِنْ أَحْدَاثِ القيامَة.

الْوَرْدَة: تُطْلَقُ على الزَّهْرَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مَعَ أَوْرَاقِ الشّجَر، فَهِيَ تَزِيدُ فِي جَمالِ الشَّجَرَةِ، ولِأَشجار الْوَرْدِ أَزْهَارٌ بَدِيعَةٌ هِيَ ثَمَرَاتُها، وهِي ذَواتُ أَلْوَانٍ، ومِنْهَا الْوُرُودُ الْحَمْرَاء.

الدِّهَان: مِنْ مَعَانِيهِ الْجُلُودُ الْحَمْرَاء، والظَّاهِرُ أَنَّهَا هي المرادة هُنَا.

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ (٢)﴾:

الظاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بالكواكِبِ نُجُومُ السَّماءِ، أَمَّا الكواكِب في عِلْمِ الفلَكِ فَهِي الأجرام السَّماوِيَّةُ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ الشمس، وتقْتَبِسُ من الشَّمْسِ نورها.

وانْتِثَارُ الكَواكِبِ تَفرُّقُها عَلَىٰ غَيْرِ نِظَام، وخُرُوجُها عَنْ خُطُوطِ مَدَارَاتِها، ويَكُونُ هٰذا لإعَادَةِ تَنْظِيمِها تَنْظِيماً مُلَائماً لِأَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين، إِذْ تُبَدَّلُ السَّمَاءُ غَيْرَ السَّمَاءِ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي التَّبْدِيلِ إعْدَامُ الْمُبَدَّلِ، وخَلْقُ سَمَاءٍ بِإِبْدَاعٍ جَدِيد.

- ■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:
- ● ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾. وجاء في سورة (التكوير/٧ نزول) قول اللهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾:

التَّفْجير: يَأْتي بمَعْنَىٰ بَعْثِ ودَفْعِ الشّيْءِ بِعُنْفٍ وَقُوَّةٍ، كَتَفَجِيرِ الْماءِ مِنْ مَنابِعِهِ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ.

والتَّسْجِير: يأتي بِمَعْنَىٰ إيْقَادِ الشَّيْءِ وجَعْلِهِ مُلْتَهِباً نَاراً، ويَأْتِي بمَعْنَىٰ مَلْءِ الشَّيْءِ.

وبالتَّأَمُّلِ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ؛ يَتَرَجَّحُ لَدَىٰ المتدَبِّر أَنَّ الْمُرَادَ بتَفْجِيرِ الْبِحَارِ بَعْثُ بَرَاكِينَ مِنْ باطِنِ الْأَرْضِ تَحْتَ الْبَحَارِ، فَيَكُونُ مِنْ أَثَرِهَا تَفَجُّرُ البِحَارِ في اتِّجَاهِ سَمَاوَاتِها، وَتَنْدَفِعُ مَعَ الْبَراكِينِ نِيرَانٌ شَدِيدَةٌ مِنْ باطِنِ الْأَرْض تَجْعَلُ مِياه الْبِحارِ ضِمْنَ لَهَبِ نِيرَانِ البراكِينِ، وَوَقُوداً مُضَافاً لها.

وهٰذِه المسْتَقْبَلِيَّاتُ أَحْدَاثٌ كَبِيرَةٌ مِنْ أَحْدَاثِ القِيامَة.

- ■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:
- ● ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾:

أي: وإِذَا الْقُبُورُ أُثِيرَتْ، وَأَخْرِجَ مَا كانَ مَدْفُوناً فِيهَا مِن نَوَيَاتِ أَحْيَاءٍ، وبُعِثَتْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بِخَلْقِ اللهِ، لِيَوْمِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء.

يُقال لغة: «بَعْثَرَ الشَّيْءَ» أي: فَرَّقَهُ وَبَدَّده. ويُقَالُ: «بَعْثَرَ المخْبُوءَ» أي: أَثَارَهُ واسْتَخْرَجه.

وهَـٰذَا مِنْ أَحْدَاثِ القيامَة، الَّتِي تَكُونُ بالنَّفخَةِ الثَّانِيَةِ فِي الصُّور.

- ■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:
- ● ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾:

أي: إذا حَدَثَتْ مُسْتَقْبلاً أَحْدَاثُ انْفِطارِ السَّمَاءِ، وانْتِثَارِ الكواكب،

وتفجير البحار، وبَعْثَرَةِ الْقُبُور؛ فَحِينَئِذٍ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ ما قَدَّمَتْ لِحِسَابِهَا بَيْنَ يَدَي رَبِّها مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ تُثَابُ عَلَيْهِ، وعَمَلٍ سَيِّئٍ تُعَاقَبُ عَلَيْه، ومَا أَخَّرتْ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَهُ فَلَمْ تَعْمَلْهُ، فَهِيَ تُعَاقَبُ عَلَىٰ تَأْخِيرِهِ عَنْ سُلُوكِها الإراديّ، مَعْصِيَةً لِرَبّها، وَمَا أَخَّرَتْ مِنْ عَمَلٍ سَيِّئٍ كَانَ مِنَ الواجِبِ عَلَيْها أَنْ لَا تَفْعَلَهُ طَاعَةَ لِرَبّها، فَلَمْ تَعْمَلْهُ، فَهِي تُثَابُ على تَرْكِهِ وَتَأْخِيرِهِ عَنْ سُلُوكِهَا الإرَادِيّ طَاعَةً لِرَبِّهَا.

وعلْمُ كُلِّ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ وَمَا أَخَّرَتْ يَكُونُ بالنَّظَرِ فِي كِتَابِ أَعْمَالِهَا، الَّذِي كَتَبَتْ فِيهِ الملائكةُ الكِرامُ كُلَّ صَغِيرَةٍ وكُلَّ كَبِيرَةٍ مِنْ سُلُوكِهَا الإرَادِيّ، الظَّاهِرِ الْجَسَدِيّ، والباطِنِ النَّفْسِيّ، ويَعْلَمُهُ أيْضاً بِتَذَكُّرِهِ لِكُلِّ مَا سَعَىٰ فِي رِحْلَةِ الحياةِ الدُّنْيا رِحْلَةِ الامْتِحَان.

وعِلْمُ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَت مِنْ سُلُوكٍ إرَادِيّ؛ يُعِدُّهَا لاستقبال حِسَابِ رَبِّها وفَصْلِ قَضَائِهِ، في مَحْكَمَةِ الفَضْلِ والْعَدْلِ الَّتي يُقِيمُها لعباده، الَّذِينَ كَانُوا في الحياة الدُّنيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامتحان.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الأوَّلِ من دُروس سورة (الانفطار).

والحَمْدُ للهِ على معُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفتحِهِ.

* * *

(٦)

التدبرّ التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الانفطار)

الآيات من (٦ ـ ١٢)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَٰتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾:

القراءات:

(٧) • قَرَأَ عَاصِمٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بفتح الدال دُونَ تَشْدِيد.

وقرأها باقي القرّاءِ العَشَرةِ: [فَعَدَّلَكَ] بفتح الدّال مُشَدَّدَة، وهذه القراءة فيها دَلَالَةٌ علَىٰ أنَّ التَّعْدِيل غَايَةٌ فِي الإتْقَان.

(٩) • قرأ أبُو جَعْفَر: [يُكَذِّبُون] بيَاء الْغَائبِينَ.

وقرأهَا باقي القرّاء العشَرة: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بتَاء المخاطَبين.

وبيْنَ القراءَتَيْنِ تكَامُلٌ في الْأَدَاءِ البياني.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدّرس فِقَرَاتٌ إقْنَاعِيَّةٌ للإنْسَانِ الكافِرِ، الشَّامِلِ لِكُلِّ الْكَافِرِينَ باللهِ وبِيَوْمِ الدِّين، مَعَ زَجْرٍ لَهُمْ، فَتَحْذِيرٍ بأَنَّهُمْ مُلَاحقُونَ بِكِتَابَةِ أَعْمَالِهِمْ الْجَسَدِيَّةِ الظَّاهِرَة، وأَعْمَالِهِمْ النَّفْسِيَّة الباطِنَةِ، مِنْ قِبَلِ مَلَائِكَةٍ كِرَامٍ كاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ الموضُوعُونَ في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، من أعْمَالٍ نَفْسِيَّةٍ باطِنَةٍ، وأعْمَالٍ جَسَدِيَّةٍ ظَاهِرَة مَعَ الْعِلْمِ بنِيَّاتِهِمْ المحدِّدَة لِغَايَاتِهِمْ ومقاصِدِهِمْ مِنها.

التدبّر التحليلي:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً يَتَنَاوَلُ كُلَّ إنْسَانٍ كَافِرٍ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّين، بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفْرَادِي:

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾:

• ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾؟ أي: مَا الشَّيْءُ الَّذِي خَدَعَكَ

وَأطْمَعَكَ بالْبَاطِلِ، الَّذِي هُوَ الكُفْرُ بِرَبِّكَ وَبِمَا جاءَكَ مِنْ عِنْدِه عَلَىٰ لِسَانِ رَسُوله عليه السلام، والتَّكْذِيبُ بالجزاء وَبِيَوْمِ الدِّينِ.

يقالُ لغة: «غرَّ فُلاناً شَيْءٌ مَا» أي: خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بالْبَاطل.

بِرَبِّكَ: أي: بِالْمُهَيْمِنِ عَلَيْكَ دَوَاماً وَالمتَصَرِّفِ فِيكَ والْمُمِدِّ لَكَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، خَلْقاً، وإِمْدَاداً، وَرِزْقاً، وعَافِيَةً، وَمَرَضاً، وَحَيَاةً، وموْتاً، وابْتِلاءً وَجَزاءً، إِلَىٰ سَائِرِ التَّصَارِيفِ الَّتِي تَجْرِي فِيكَ، مِمَّا يَسُرُّكَ، ومِمَّا يُحْزِنُكَ، ومِمَّا يَلَذُّكَ ومِمَّا يُؤْلِمُكَ، وهُوَ الَّذِي يجزِي فَاعِلَ الحسَنَةِ طَاعَةً لَهُ بِعَشْرِ أمْثَالِهَا إِلَىٰ أضْعَافٍ كثيرة، وهو الذي يجْزِي فاعِلَ السَّيِّئَةِ مَعْصِيَةً لَهُ بِمِثْلِهَا، وَيَعْفُو عَنْ كثير.

الكَرِيم: أي: الْمَحْمودُ بِكُلِّ الصِّفَاتِ الحسنة النَّفِيسَة، والجامِعُ لِكُلِّ أنْوَاعِ وَأفْرادِ الخير والشَّرَفِ والفضائل، والمنزَّهُ عَنْ كُلِّ النَّقائِصِ والدَّنايا.

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾: أي: مَا خَدَعَك وأطْمَعَك بالكُفرِ بِرَبِّكَ وَبِمَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَكَ وَأَوْجَدَكَ مِنَ الْعَدَمِ، بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ، المقْتَرِنَةِ بِعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيْءٍ.

- ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: أي: أَبْلَغَكَ الْغَايَةَ الْمَقْضِيةَ لَكَ، فجعَلَكَ تَامّاً مُسْتَوِياً بالِغاً الغايَةَ المقْصُودَةَ مِنْ خَلْقِكَ وَصُنْعِكَ.

وفي التَّسْوِية معْنَىٰ إِحْكَامِ مَقَادِيرِ أجْزَاءِ المصْنُوعِ، من عَنَاصِرَ وصُوَرٍ، وجَعْلِهِ يَتَدَرَّجُ فِي الإِنْشَاءِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ مُسْتَوِياً تَامّاً، بالِغاً الْغَايَة المقْضِيَّةَ لَهُ فِي إِعْدَادِ خُطَّةِ تَكْوِينِه.

- ﴿فَعَدَلَكَ﴾: أي: فَأَعْطَىٰ كُلَّ عُضوٍ مِنْ أعْضَائِكَ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، وَكُلَّ خَلِيَّةٍ مِنْ خَلايَاكَ، حَقَّهُ مِنَ الْمَوَادِّ والْعَنَاصِرِ المكَوِّنَةِ له، حتَّىٰ يَبْلُغَ الْغَايَةَ المقْصُودَة مِنْ خَلْقِهِ.

إنّ للدِّمَاغ مِقْدَاراً مِنَ الموادِّ والْعَنَاصِرِ، والْعَدْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سائِرِ الْأَعْضَاءِ يَقْتَضِي إعْطَاءَهُ المقدَارَ الَّذِي يُبَلِّغُهُ الْغَايَةَ المَقضِيَّة له.

وإنّ لِلْعَيْنِ مِقْداراً من الموادِّ والْعَناصِرِ الْمُكَوِّنَةِ لها، والْعَدْلُ بَيْنَها وبَيْنَ سَائِرِ الأَعْضَاءِ والْجَوارِحِ؛ يَقْتَضِي إعْطَاءَهَا مِنَ الموادِّ والْعَنَاصِرِ المقدار الذي يُبْلِغُهَا الغايَةَ المقضيَّةَ لَهَا.

وهَكَذَا إلَىٰ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ والجوارحِ والْخَلَايا.

وقانُونُ اللهِ فِي التَكْوِينِ قَائِمٌ عَلَىٰ الْعَدْلِ، لَا عَلَىٰ جَعْلِ المكَوّنَاتِ مُتَسَاوِيةً فِي ذَوَاتِهَا وصِفَاتِهَا.

والْعَدْلُ: هُو إعْطاءُ كُلِّ شَيْءٍ حَقَّهُ مِنَ الذَّوَاتِ والصِّفَاتِ.

والمكَوّنَاتُ في الْوُجُود مُتَفَاضِلَاتٌ فِيما بَيْنَهَا عَلَىٰ سُلَّم ذِي دَرَجَاتٍ لَا تَكادُ تُعَدُّ وَتُحْصَىٰ، والمتَفَاضِلَاتُ فِيما بَيْنَها يُلَائِمُهَا قَانُونُ الْعَدْل، لَا قَانُونُ الْمُسَاواة، إنّ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ المتَفَاضِلَاتِ ظُلْمٌ لِلْفَاضِلِ، ومُحَابَاةٌ للمفْضُولِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وهُوَ أَمْرٌ بَاطل مُنَافٍ لِلْحَقِّ.

- ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾:

أي: رَكَّبَ أجْزاءَكَ تَرْكِيباً تَمَّ بِهِ جَعْلُكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي شَاءَ أَنْ يَجْعَلَكَ فيها، وهَكَذا نَرَىٰ أنَّ لِكُلِّ إنْسَانٍ صُورَةً خَاصَّةً مَيَّزَهُ بها، ضِمْنَ المخَطَّطِ الْعَامِّ الشَّامِلِ لِأَفْرادِ النَّوْعِ.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ فِي خِطابٍ عامٍّ مُوجَّهٍ للمكَذِّبينَ بالجزاء وبيوْمِ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْث:

- ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾:

- ﴿كَلَّا﴾: أداةُ زَجْرٍ لِلْمُكَذِّبين بالدِّين.

- ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ⑨﴾: لَمْ تُؤْمِنُوا بِرَبِّكُم الَّذِي خَلَقَكُمْ فَسَوَّاكُمْ فَعَدَلَكُمْ، ولَمْ تُصَدِّقُوا بجزائِهِ إِذْ إِنَّكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانٍ في الحياةِ الدُّنْيَا، ولَمْ تُصَدِّقُوا بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين، الَّذِي أَنْبَأَكُمْ بِهِ عَنْ طَرِيق رَسُولِهِ عليه السلام فِيمَا أَنْزَلَ فِي آيَاتِ كِتَابِهِ، بَلْ تُكَذِّبُونَ دواماً بالدِّين. فَبَلْ تَعْطِفُ على مَحْذُوفٍ ملاحظٍ ذِهْناً.

الدِّين: هو فِي اللُّغَةِ الجزاء، ولَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يُحْمَلَ أيضاً عَلَىٰ يَوْمِ الدِّين، على تقدير مُضَافٍ مَحْذُوفٍ، ويَوْمُ الدِّينِ هُو يَوْمُ الجزَاءِ الْأَكْبر.

- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫﴾:

أي: وَإِنَّ رَبَّكُمْ قَدْ جَعَلَ عَلَيْكُمْ مَلَائِكَةً مُرَاقِبِينَ لَكُمْ، لَا يَنِدُّ عَنْ مُرَاقَبَتِهِمْ لَكُمْ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِكُمُ الظَّاهِرَةِ الْجَسَدِيَّة، والْبَاطِنَةِ النَّفْسِيَّة، وهُمْ حَافِظُونَ لَا يَفْلِتُ مِنْ ذَاكِرَاتِهِمْ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، وهُمْ كِرَامٌ مُتَرَفِّعُونَ عَنِ النَّقَائِصِ، ومَتَحَلُّونَ بالْفَضَائِلِ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَهُمْ كاتِبُونَ يَكْتُبُونَ كُلَّ صَغِيرَةٍ وكبيرَةٍ مِنْ أَعْمَالِكُمُ الإرادِيَّةِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، مِنْ طَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، فَاحْذَرُوا عِقَابَ رَبِّكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وآخِرَتِكُمْ يَوْمَ الدِّين.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثاني مِنْ دُرُوس سورة (الانفطار).

والحَمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الانفطار)

الآيات من (١٣ - ١٦)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ⑭ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ⑮ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ⑯﴾:

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ بَيَانُ مَصِيرِ الْأَبْرَار يَوْمَ الدِّين، وأَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي نَعِيمٍ، وَبَيَانُ مَصِير الْفُجَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، وأَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي جَحِيمٍ يَحْتَرِقُونَ بِنَارِها، وَلَا يُفَارِقُونَها.

التدبّر التحليلي:

الْأَبْرَار: هُمْ أَهْلُ الْمَرْتَبَةِ الْوُسْطَىٰ مِن مَرَاتِبِ المؤمِنِينَ، فَوْقَ مَرْتَبَةِ المتَّقِين، وَدُونَ مَرْتَبَةِ المحسِنِينَ، وهُمُ الَّذِينَ يَتَوَسَّعُونَ فِي فِعْلِ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ، فَوْقَ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، وَيَتَوَسَّعُونَ فِي تَرْكِ المكْرُوهَاتِ فَوْقَ اجْتِنَابِ المحَرَّمَاتِ.

الفُجَّار: هم الّذِين يُسْرِفُونَ فِي ارْتِكَابِ الآثَامِ والجرائِمِ إلَىٰ دَرَكَةِ الكُفْرِ الَّتِي لَا يَغْفِرُ اللهُ لِمَنْ يَنْحَطُّ إلَيْهَا.

الفجور: هو الانْبِعَاثُ الْقَبِيحُ الْوَقِحُ الواسِعُ في فِعْل الشُّرُورِ والآثَام والكَبَائِرِ، وكُلِّ مَا فِيهِ ظُلْمٌ وضُرٌّ وبَغْيٌ وعُدْوان، دُونَ وَازِعٍ وَلَا رَادِعٍ مِنْ دَاخِلِ النفس.

وقَدْ جَعَلَ اللهُ الْفُجَّارَ مُقَابِلِينَ لِلأَبْرَارِ، فَالْأَبْرَارُ مُرْتَقُونَ فَوْقَ مَرْتَبَةِ المتَّقِينَ، والْفُجَّارُ مُنْحَطُونَ إلَىٰ مَا تَحْتَ دَرَكَاتِ الْعُصَاةِ الَّذِين قَدْ يَغْفِرُ اللهُ لَهُمْ إذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَيَرْحَمَهُمْ.

• ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾: أي: إنَّ الأبْرَارَ لمُنْغَمِسُونَ فِي نَعِيم مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِمْ، وَدَاخِلٍ إلَىٰ كُلِّ مَرَاكِزِ إحْسَاسِهِمْ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ، فَهُمْ يُنَعَّمُونَ دَوَاماً، وخالِدُونَ فِي جَنَّاتِ النعيم أبداً.

النَّعِيمُ: كُلُّ مَا يَلَذُّ الإنْسَانَ وَيَسُرُّهُ وَيُفْرِحُهُ وَيُسْعِدُهُ.

هـٰذِه الْجُمْلَةُ مؤكَّدَة بـ: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّامُ المزَحْلَقَةِ»،

وقَدْ دَعَا إِلَىٰ هـٰذَا التَّوْكيدِ أَنَّ الخِطَابَ مُوَجَّهٌ فِي السِّبَاقِ لِلْكفَرَةِ المكَذِّبين بِالدِّين.

- ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾: وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَمُنْغَمِسُونَ فِي نَارٍ عَظِيمَةٍ مُحِيطَةٍ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَوانِبِهِمْ، وَنَافِذَةٍ إِلَىٰ كُلِّ مَرَاكِزِ إِحْسَاسِهم، فَهُمْ يُعَذَّبُونَ بِهَا دَواماً، وخالِدُونَ فِيها أَبَداً.

الْجَحِيم: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين. وكُلُّ نَارٍ عظِيمَةٍ فِي مَهْوَاةٍ يُطْلَقُ عَلَيْهَا في اللُّغَةِ لَفْظُ «جَحِيم».

- ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾: أي: يَدْخُلُهَا الْفُجَّارُ يَوْمَ الدِّين يَوْمَ الجزَاءِ الْأَكْبَرِ، ويَحْتَرِقُونَ بِلَهَبِ نَارِهَا.

يُقَالُ لُغَة: «صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِيَ بها» أي: احْتَرَقَ فيها، ولَامَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

- ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾: أي: وَمَا الْفُجَّارُ يَوْمَ الدِّينَ بِغَائِبِينَ عَنِ الْجَحِيم، لَا غِيَاباً أَبَدِيّاً، ولَا غِيَاباً مُؤَقَّتاً، بَلْ هُمْ خَالِدُونَ فِيها دَواماً.

الباء في ﴿بِغَآئِبِينَ﴾ مَزِيدَةٌ لِلتَّوْكِيد.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثالث مِنْ دُرُوس سورة (الانفطار).

والحَمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروسِ سورة (الانفطار) الآيات (١٧ ـ ١٩) وهي آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾:

القراءات:

(١٩) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمرو، ويعقوب: [يَوْمُ لَا] بِرَفْعِ الميم.

وقرأها باقي القرَّاء العشرة: ﴿يَوْمَ لَا﴾ بفَتْحِ الميم.

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبيَّان جائزان، فرَفْعُ «يَوْمُ» على أنَّهُ بَدَلٌ من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، أو علىٰ أنَّهُ خَبَرٌ لمبتدأٍ مَحْذُوف، أي: هو يَوْمُ الدِّين. وفَتْحُ «يَوْمَ» على أنَّها فَتْحَةُ بناء، لإضافَتِهِ إلَىٰ الْجُمْلَةِ.

تمهيد:

فِي آيَاتِ هذا الدّرْسِ إعْلَامٌ بأَنَّ يَوْمَ الدِّينِ يَوْمٌ عَظِيمٌ خَطِيرٌ، غايَةٌ فِيمَا خُلِقَ مِنْ أَجْلِهِ وَدُبِّرَ لَهُ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقضائِه، مع بيانِ أنْ الْأَمْرَ كُلَّهُ فيه للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً، مِنْ جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ.

التدبر التحليلي:

• ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ⑰﴾: اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ عَظَمَةِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ يَوْمِ الجزاءِ الْأَكْبَرِ، الَّتِي سَوْفَ تَحْدُثُ بَعْدَ الْبَعْث.

أي: أَعْظِمْ مُتَعَجِّباً أَيُّها المتَلَقِّي من الْأَحْدَاثِ الْكُبْرَىٰ الْخَطِيرَةِ الّتي سَوْفَ تَحْدُثُ يَوْمَ الدِّين.

هَذَا الاسْتِفْهَامُ وَنظيرُهُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ عِلْمِ المخاطَبِ بِمَا هُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أي: أنْتَ لَا تَدْرِي مَهْمَا انْطلقْتَ سَابحاً فِي التَّصوُّرِ مَبْلَغَ عَظمَةِ أحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ العظيم، إلَّا إذا أعْلَمْنَاكَ بِذَلِكَ، وفي هـٰذا دَلَالَةٌ كَافِيَةٌ عَلَىٰ أَنَّ أَحْدَاثَ يَوْمِ الدّين أحْدَاثٌ عَظِيمَةٌ جِدّاً.

قال المفسِّرُون في: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ⑰﴾؟! وأمْثَالِهَا: لَمْ تَبْلُغْ دِرَايَتُكَ إِدْرَاكَ عَظَمَةِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ يَوْم الجزاءِ الْأَكْبَرِ.

أقول: لقد تكرَّرَ فِي القرآنِ المجيدِ مِثْلُ هـٰذا الاسْتِعْمَالِ، حتَّىٰ صَارَ مَعْلُوماً أَنَّهُ أُسْلُوبٌ قُرْآنِيٌّ مِنْ أَسَالِيبِ التَّعظيم والتَّكْبِيرِ والتهويلِ والتَّعْجِيب، وهُوَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ الْقُرْآنِ فِي التَّعْبِير.

أي: أَعْظِمْ بِيَوْمِ الدِّينِ إعْظَاماً لَا يَصِلُ إِلَيْهِ مَدَىٰ إِدْرَاكِكَ.

وظاهِرٌ أَنَّ هـٰذِهِ الْعِبارَةَ وَأَمْثَالَهَا أَبْلَغُ مِنْ عِبَارَتَي التَّعَجُّبِ والتَّعْجِيبِ المستَعْمَلَتَيْنِ عِنْدَ العَرَب، وهُما: «مَا أَعْظَمَهُ» و«أَعْظِمْ بِهِ»، فَهَاتَانِ العبارَتَانِ لَا تُدُلَّان عَلَىٰ عَدَم قُدْرَةِ الْمُخَاطَبِ علَىٰ إدْرَاكِ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ الّذي يُرَادُ تَعْظِيمُهُ، وأَنَّ مَدارِكَهُ لَا تَصِلُ إِلَىٰ الإحَاطَةِ بِهِ، بخِلَافِ الصِّيغَةِ القرآنِيَّةِ المبتَكَرَةِ فِي التَّعْجِيب.

• ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾: أي: ثُمَّ مَهمَا أَطَلْتَ التَّأَمُّلَ والتَّفْكِيرَ أزْمَاناً مُتَطَاوِلَةً؛ فإنَّ دِرايَتَكَ لَا تَبْلُغُ إِلَىٰ إِدْرَاك عَظَمَةِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ يَوْمِ الجزاءِ الأَكْبَرِ، لِأَنَّهَا أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ تَصوُّرَاتِكَ وَتَخيُّلَاتِك مَهْمَا انْطَلَقْتَ سَابِحاً فيما تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَتَخيُّلَات.

• ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾:

أي: وَمِنْ خَصَائِصِ يَوْمِ الدِّينِ يَوْمِ الجزاءِ الأَكْبَرِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ الْبَعْث؛ أَنَّهُ يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ فِيهِ نَفْسٌ مِنْ نُفُوسِ كُلِّ المخْلُوقَاتِ، مِنَ الإنْسِ والجِنِّ والْمَلَائِكَةِ، مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَةُ ومَكَانَةُ هـٰذا المخْلُوقِ عِنْدَ رَبِّهِ؛ أَنْ تَصْنَعَ أَوْ تَفْعَلَ شَيْئاً لِنَفْسٍ أُخْرَىٰ، ولَوْ كَانَتْ مِنْ أَحبِّ النُّفُوسِ إِلَيْهَا.

والأَمْرُ كُلُّهُ الْمُتَعَلِّقُ بِأَحْداثِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيم؛ لَيْسَ لِأَحدٍ مِنَ الْمَخْلُوقاتِ فِيهِ تَأْثِيرٌ مَا فِي شيْءٍ مَا، بَلْ هُو للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، ولَهُ الْحكْمُ، ولَهُ الْفِعْلُ، ولَهُ الْخَلْقُ، ولَهُ الأَمْر، ولَهُ النَّهْيُ، وَلَهُ الإذْنُ، ولَهُ الْحِسَابُ، ولَهُ القضاء، ولَهُ السُّلْطَانُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ، جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظُمَ سُلْطانُهُ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الرابع مِنْ دُرُوس سورة (الانْفِطَار) وبِهِ انْتَهَىٰ تَدَبُّر السُّورَةِ عَلَىٰ مَا فَتَحَ اللهُ به.

والحَمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفتْحِهِ.

* * *

(٩)

ملحق: مُستَخرَجَات بلاغيّة مِن سُورَةِ (الانفطار)

فِي هـٰذه السورة اخْتِيارَاتٌ بَلَاغيه مُتَعَدَّدَة، مِنْها:

أوّلاً:

مِنَ الْإيجازِ بالحْذفِ قول اللهِ تَعَالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾:

أي: ﴿كَلَّا﴾ زَجْراً لَكُمْ يَا أَيّهَا الَّذِينَ لَمْ تَنْتَفِعُوا بآيَاتِ اللهِ فيكُم، إذْ خَلقَكُمْ فَسوَّاكُم فَعدَلكُمْ، وفي الصُّورِ الَّتِي شاءَهَا رَكَّبكُمْ، فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وبِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، وَلَمْ تُؤْمِنُوا بِجزَائِهِ، وبأَنَّكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانٍ، وبعْدَ مَوْتِكُمْ سَوْفَ تُبْعَثُونَ وتُحاسَبُونَ وتُجازَوْنَ ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ تكْذِيباً مُتَتَّابِعاً ﴿بِٱلدِّينِ﴾ بِالْجَزاءِ وَبِيَوْمِ الجزاء الْأكْبَر.

ثانياً:

من التوكيد لدَواعٍ بلاغيَّة:

(١) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾:

(٢) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾:

(٣) ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾:

جاء التوكيدُ الموَجَّهُ لِلْمكَذِّبين في هذه الجمل الثلاث بـ«إنَّ - والْجُمَل الاسميّة - واللّام المزَحْلَقة».

(٤) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾:

جاء التوكيد في هذه الجملة بحرف الجرّ الزائد «الباء».

ثالثاً:

في السُّورَة من البديعِ ما يُسَمَّى الموازَنَة، وهي تساوي الفاصِلَتَيْنِ في الوزن من الفقرتين المقترِنَتَيْنِ، مع اختلافِهما في الحرف الأخير مِنْهما.

ومن الموازنة في السورة ما يلي:

(١) ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ .... ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾.

(٢) ﴿فُجِّرَتْ﴾ .... ﴿بُعْثِرَتْ﴾.

(٣) ﴿لَحَـٰفِظِينَ﴾ .... ﴿كَـٰتِبِينَ﴾.

(٤) ﴿نَعِيمٍ﴾ .... ﴿جَحِيمٍ﴾.

وأكْتَفِي بهذِهِ المستخرجاتِ الْبَلَاغِيَّةِ من هذه السورة.

والحَمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفتْحِهِ.

* * *

سورة الانْشقَاق

٨٤ مصحف ٨٣ نزول

وهي مَكّيَّة بلَا خلاف

(١)

نصّ السّورة ومَا فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ
﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ
إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾
فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ
مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ
بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾
وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا
يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ

---

١٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابْن عامر، والكِسَائي، وغَلَّظ ورش اللّامَ مع الفتح، ورقَّقَها مع التَّقْليل: [وَيُصَلَّىٰ].
وقرأها باقي القرَّاء العشرة: [وَيَصْلَىٰ].

١٩ ـ • قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: [لَتَرْكَبَنَّ] على أن الخطاب للمفرد.
وقرأها باقي القراء العشرة: [لَتَرْكَبُنَّ] على أن الخطاب للجماعة.

٢١ ـ • أبْدَلَ أبو جعفر الْهَمْزَةَ مِنْ: [قُرِئَ] يَاءً مَفْتُوحَةً وصْلاً، وساكِنَةً وَقفاً: [قُرِيْ] وَوَقَفَ حمزة، وهشام بخلفه كأبي جعفر: [قُرِيْ].
=

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾
فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ
لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونِۭ ﴿٢٥﴾

=٢١ ـ ● قرأ أبو عَمْرو: [**عَلَيْهِمِ الْقُرْآن**].
وقرأَهَا حمزةُ، والكِسَائِي، ويَعْقُوبُ، وخلَف: [**عَلَيْهُمُ الْقُرْآنُ**].
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: [**عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ**].
وهذا كُلُّهُ عِنْدَ الوصْل، وأَمَّا عِنْدَ الوقف فكُلُّهُمْ عَلَىٰ كَسْرِ الهاءِ وإسْكَانِ الميم، مَا عَدَا حمزة، ويعقوب، فإنّهما يَقْرآنِ بِضَمْ الهاء وإسْكانِ الميم.
٢١ ـ ● قرأ ابْنُ كثير: [**الْقُرَانُ**]. وكَذَلِكَ قَرأَها حمزةُ في الوقف.

(٢)

مما وَرَدَ في السنة بشَأنِ سورة (الانشِقَاق)

١ ـ روى البخاري ومسلم وغَيْرُهُما عَنْ أَبِي رَافع رضي الله عنه، قال: «صَلَيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَة (أي: العشاء) فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ فَسجَدَ، (أي: عِنْدَ قول اللهِ تَعالَىٰ فيها: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾﴾). فقُلْتُ لَهُ، فقال: سَجَدْتُ خَلْفَ أبي الْقَاسِمِ ﷺ، فَلا أَزَالُ أَسْجُدُ فِيها حَتَّىٰ أَلْقاه».

٢ ـ وروى مسلم، وأَهْلُ السُّنَنِ، وغيرُهُمْ عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَال: «سَجَدْنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ وفي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾».

٣ ـ ورَوىٰ ابْنُ خُزَيمَةَ، والرُّويَاني في مُسْنَدِه، والضياء المقدسي فِي المختارة، عَنْ بُرَيدَة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرأ فِي الظُّهرِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ ونَحْوَها».

(٣)

موضوع سورة (الانشِقَاقِ)

يَدُور مَوْضُوعُ هـٰذِهِ السورة حَوْلَ الابْتِلَاءِ، والجزَاءِ، ويَوْمِ الدّين.

فهو يتناوَلُ عَرْضَ لَقَطَاتٍ مِنْ أَحْدَاثِ الْقِيَامَة، وبَعْدَهَا خِطَابٌ للإنْسانِ خِطَاباً يَشْمَلُ كُلَّ فَرْدٍ من أفْرادِ النَّاسِ الموضوعين فِي الحيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفْرَادِيِّ، لإعْلَامِ كُلِّ فَرْدٍ بأنَّهُ مَحَلُّ عِنَايَةِ الرَّبِّ في خِطابه، ومضْمُونُ هـٰذا الْخِطَابِ يَتَعَلَّقُ بِبَيانِ أَنَّهُ فِي رِحْلَةِ الحياة كَادِحٌ، إمَّا فِي الْخَيْرِ وطَاعَةِ اللهِ، وإمَّا فِي الشَّرِّ ومَعْصِيَةِ الله، فَهُو في كُلِّ أحْوَالِهِ لَا يَخْرُجُ عَنْ قَانُونِ الكَدْحِ المتْعِبِ لَهُ، لَكِنَّهُ بَعْدَ كَدْحِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ مَجْزِيٌّ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ مِنْ سَعْيٍ فِي حَيَاةِ ابْتِلَائه.

وهُنَا تَأْتِي لَقَطَاتٌ مِنَ الأَحْدَاثِ المستَقْبلِيَّةِ الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ يَوْمَ الدِّين، من المشَاهِدِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّهُ مَجْزِيٌّ بالثَّوَابِ أَوْ بالْعِقَابِ بِحَسَبِ مُكْتَسَبَاتِهِ الإرَادِيَّةِ الَّتِي قَدَّمَها.

وبَعْدَ ذَلِكَ يُقْسِمُ اللهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ بِبَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، علَىٰ أَنَّ النَّاسَ سَيَصِلُونَ مُسْتَقْبلاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا إِلَىٰ مَا يُمَكِّنُهُمْ مِنَ الصُّعُودِ في جَوِّ السَّمَاءِ تَمْكِيناً جُزْئِيّاً يَصِلُونَ بِهِ إِلَىٰ بَعْضِ كَوَاكِب الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّة، وهـٰذا بيَانٌ عَنْ بَعْضِ الْأَنْبَاءِ الغيْبِيَّةِ المسْتَقْبلِيَّةِ الَّتي تَحقَّقَ بَعْضُها.

وبَعْدَهَا تَحدَّثَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عَنِ الْكَافِرِينَ حَدِيثَ تَعْجِيبٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، إِذْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَهُم عَنْ رَبِّهِم، وإِذْ لَا يَسْجُدُونَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرآن. وأَبَانَ أَنَّهُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي أَوْحَالِ التَّكْذِيب بالحقّ، وأَنَّ الله عَلِيمٌ بِكُلِّ مَا يَعْمَلُونَ، فالْكَافِرُونَ مُنْذَرُونَ بِعَذابٍ أليم، أَمَّا المؤمنونَ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ، بل هو مُسْتَمِرٌّ مُرافِقٌ لِخُلُودِهِمْ في جنَّاتِ النَّعِيم.

(٤)

دُرُوسُ سُورَةِ (الانشِقاق)

من الواضحِ أنَّ هذه السورة يُمْكِنُ تَقْسِيمُها إلى أربعة دُروس:

الدرسُ الأول: الآيات من (١ ـ ٥).

وفي آياتِ هذا الدّرسِ بيانُ لقطاتٍ مِنْ أَحْدَاثٍ عُظْمَىٰ، تَكُونُ مع القيامَة الَّتِي يَتْبَعُها بَعْثُ الموتَىٰ إِلَىٰ الحيَاةِ الْأُخْرَىٰ.

الدّرْس الثاني: الآيات من (٦ ـ ١٥).

وفي آيَاتِ هذا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ الإنْسَانَ في الحياة الدُّنْيَا كادِحٌ مُمْتَحنٌ، فِيمَا يكْتَسِبُهُ بإرَادَتِهِ الحرَّةِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ.

وفيها لقَطَاتٌ مِنْ مَشَاهِدِ حِسَابِهِ وَجَزَائِهِ يَوْم الدِّين مَعَ بَيَانِ بَعْضِ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحياة الدُّنْيا.

الدرس الثالث: الآيات من (١٦ ـ ١٩).

وفي آيَاتِ هَـٰذا الدَّرْس يُقْسِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بِبَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِه، علَىٰ أنَّ النَّاسَ سَيَرْكَبُونَ بِمَا يَكْتَشِفُونَ بإلْهَام اللهِ لهم مِنْ مَرَاكِبَ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ، حتَّىٰ يَصِلُوا إلَىٰ أجْرَامٍ سَمَاوِيَّةٍ عُلْيَا كَالْقَمَر.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (٢٠ ـ ٢٥).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرس تَعْجِيبٌ مِنْ أَمْرِ الكَفَرَةِ المكَذِّبين، الَّذِينَ لَا يَنْتَفِعُونَ مِنْ بَرَاهِينِ الْحَقِّ الَّتِي دَفَعَهُمُ اللهُ بها، مع إِنْذَارِهِمْ بعَذَابٍ أليمٍ.

وفيها بَيَانٌ يَتَعَلَّقُ بِثَوَابِ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات.

* * *

(٥)

التدبر التحليلي للدّرس الأوّل من دُروس سورة (الانشقّاق) الآيات من (١ ـ ٥)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤﴾:

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ بَيَانُ لقَطاتٍ مِنْ أَحْدَاثٍ عُظْمَىٰ، تَكُونُ مَعَ القيامَةِ الَّتِي يَتْبَعُهَا بَعْثُ الْمَوْتَىٰ إلىٰ الحياة الأُخْرَى، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

التدبُّر التحليلي:

- ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ①﴾:

سَبَقَ في سُورَةِ (الانفطار/ ٨٢ نزول) بَيَانُ أَنَّ الانْفِطَارَ هُوَ الانْشقاق، وأَنَّ انْفِطَارَ السَّمَاءِ يَكُونُ بانْشِقَاقٍ يَحْدُثُ بَيْنَ أَجْزَائِهَا المتماسِكَةِ، فِي الْبِنَاءِ التجاذُبِيِّ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ لها ـ بِحِكْمَتِهِ وعَظِيم قُدْرتِهِ، مَعَ ذِكْر النُّصُوصِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي جَاءَ فِيها بَيَانُ انْشِقَاقِ السَّمَاءِ، وسَبَقَ بَيانُ أَنَّ هٰذا الانْشِقَاقَ يَكُونُ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْعُظْمَىٰ لِيَوْمِ القيامَة.

- ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ②﴾:

﴿وَأَذِنَتْ﴾: أي: واسْتَمَعَتْ فَأَطَاعَت.

أي: واسْتَمَعَتِ السَّماءُ لِأَوَامِرِ رَبِّهَا التَّكْوِينيَّةِ، فَأَطَاعَتْ إطَاعَةً جَبْرِيَّةً.

﴿وَحُقَّتْ﴾: أي: وَنَفَذَتْ فِيهَا أَوَامِرُ اللهِ التَّكْوِينيَّةُ، إذْ هِيَ حَقٌّ نَافِذٌ ثَابِتٌ لَا يَسْتَطِيعُ مَأْمُورٌ بِهَا أَنْ يُعَانِدَ وَيُخَالِفَ ويَحِيد عَنْهَا أَقَلَّ مِقْدَارٍ، لِأَنَّهَا أَوَامِرُ مُجْبِرَةٌ قَاهِرَةٌ مُكَوِّنَةٌ عَلَىٰ وَفْقِ المشيئَةِ الربَّانِية.

- ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾:

أي: وَإِذَا الْأَرْضُ بُسِطَتْ بَسْطاً وَاسِعاً، فَصَارَتْ مَعَ مَدِّهَا مِنْ أَطْرَافِها سَطْحاً مُسْتَوِياً، لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا مَرْتَفِعَاتٍ ولَا مُنْخَفِضَات.

وإِذَا الْأَرْضُ قَذَفَتْ كُلَّ شيءٍ هُوَ مُسْتَوْدَعٌ فِيها أَوْ مَكْنوزٌ، فَأَلْقَتْهُ بِتَقْدِيرِ رَبِّها وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ عَلَىٰ سَطْحِهَا وَتَخَلَّتْ عَنِ الاحْتِفَاظِ بأيِّ شيءٍ مُخَالِفٍ لِأَصْلِ تَكْوِينِها، ومِنْهَا نَوَيَاتُ الْأَحْيَاءِ المقَدَّرِ بَعْثُهُمْ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ.

- ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾:

أي: واسْتَمَعَتِ الْأَرْضُ لِأَوامِرِ رَبِّهَا التَّكْوِينيَّةِ، فَأَطَاعَتْ إطاعةً جَبْرِيَّة، وَنَفَذَتْ فِيها هٰذِهِ الْأَوَامِرُ بالْجَبْرِ والْقَهْرِ، إذْ هِيَ حَقٌّ نَافِذٌ ثَابِتٌ لَا يَسْتَطِيعُ مَأْمُورٌ بِهَا أَنْ يُعَانِدَ ويُخَالِفَ ويَحِيدَ عَنْهَا أَقَلَّ مِقْدَار.

وجوابُ الشَّرْطِ الّذي تَقْتَضِيهِ ﴿إِذَا﴾ في الْمَوْضِعَيْنِ مَطْوِيٌّ إيجازاً، ويُمْكِنُ تَقْدِيرُه بِما يَلِي: بَدأَتْ أَحْدَاثُ يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الْجَزاء الْأَكْبر، بِمَا فِيهِ مِنْ حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضاءٍ، وتَنْفِيذِ جزاء.

وبهذا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الأول مِنْ دُرُوس سورة (الانْشقاق).

والحمد للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني من دُروس سورة (الانشقاق) الآيات من (٦ ـ ١٥)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾:

القراءات:

(١٢) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عامِر، والكسائي: [وَيُصَلَّىٰ]، وكذلِكَ وَرْشٌ، وغَلَّظَ اللَّامَ مع الْفَتْح ورقّقَها مَعَ التقليل.

وقَرأَها باقي الْقُرَّاءِ العشَرَة: ﴿وَيَصْلَىٰ﴾.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِكْرِيٌّ، إذِ الْكَافِرُ يُصَلَّىٰ بِالْقَهْرِ سَعِيراً، فَهُو يَصْلَاهَا مَجْبُوراً مَقْهُوراً.

تمهيد:

فِي آيَات هٰذا الدَّرْسِ بيانُ أَنَّ الإنْسَانَ في الحياة الدُّنْيَا كَادِحٌ فِي أَعْمَالِهِ بِمَشَقَّةٍ وَدَأْبٍ، وهُو مُمْتَحَنٌ فِيمَا يَكْتَسِبُهُ بِإرَادَتِهِ الحرَّةِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ.

وفيها لقطاتٌ مِنْ مَشاهِدِ حِسَابِهِ وجزائِهِ يَوْمَ الدِّين، مع بَيَانِ بَعْضِ ما كان عليه، إذْ كانَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحياة الدُّنْيا.

التدبّر التحليلي:

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾:

الكَدْح: الْكَدُّ بِدَأْبٍ فِي الْعَمَلِ، وقد يَصِلُ إلى حَدِّ بَذْلِ الْجَهْدِ الشَّدِيدِ، والمشَقَّةِ والْإعْيَاءِ.

جَعَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ وَسِيلَةَ الْحُصُولِ على المعَايِشِ وَمَطَالِبِ الإنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ؛ أَنْ يَعْمَلَ كَادّاً كادِحاً، وأَنْ يَبْذُلَ جَهْداً شَدِيداً، ويَتَحَمَّلَ مَشَقَّةً قَدْ تَنْتَهِي بِهِ إِلَىٰ الإعْيَاء.

وجَعَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فِي النُّفوسِ رَغَبَاتٍ تَدْفَعُهُ بِقُوَّةٍ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَعَايِشِهِ، ومَطَالِبِهِ فِي حَيَاتِهِ، لِيَتَخَلَّصَ مِنْ آلَامِ مَشَاعِرِ الحِرْمَانِ، وَلِيَسْتَمْتِعَ بِلَذَّاتِ مَا يُحَقِّقُهُ مِنْ مَطَالِبِهِ المادِّيَّةِ أو الْمَعْنَوِيَّةِ.

فَلا نَكَادُ نَجِدُ في النَّاسِ إِنْسَاناً غَيْرَ كَادِحٍ، ولَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْكَدْحُ في عَمَلٍ جَسَدِيٍّ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِي حَرَكَاتٍ نَفْسِيَّةٍ ذَاتِ مَشَقَّةٍ عَلَىٰ النَّفْسِ أَكْثَرَ مِنَ حَرَكَاتِ الْكَدِّ الْجَسَدِيِّ.

ومِنَ الكَدْحِ مَا يُعَانِيهِ الإنْسَانُ مِنْ أَمْرَاضٍ، وأَوْجَاعٍ، وآلَامٍ، جَسَدِيَّةٍ وَنَفْسِيَّة.

ومِنَ الكَدْحِ مَا يُعَانِيهِ الإنْسَانُ مِنْ آلَامِ المصَائِبِ في الْأَمْوَالِ والْأَنْفسِ، وفَقْدِ الْأَحِبَّةِ.

ومِنَ الْكَدْحِ عِشْقُ الْعَاشِقِينَ الْمَحْرُومِينَ، وحُزْنُ الْحَزِينِين، وكَرْبُ الْمَكْرُوبِينَ، واكْتِئَابُ المكتَئِبين.

ويَسْتَمِرُّ كَدْحُ الإنْسَانِ حَتَّىٰ اللَّحظَاتِ الأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ، ومُلَاقَاتِهِ رَبَّهُ بالْمَوْتِ، وبَعْدَ مُلَاقَاتِهِ رَبَّهُ بالْمَوْتِ تَبْدَأُ مَرْحَلَةُ مُلَاقَاةِ حِسَابِهِ، وفَصْلِ

الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، ومُجَازَاتِهِ عَلَىٰ ما كَسَبَهُ بإرَادَتِهِ فِي رِحلَةِ امْتِحَانِه، وأكْبَرُ ذَلِكَ مَا يَكُونُ يَوْمَ الدِّين.

فالمعنىٰ: يَا أَيُّهَا الإنْسَانُ المبتَعِدُ بِمَشَاعِرِكَ عَنْ رَبّك؛ إِنَّكَ كادِحٌ كادٌّ فِي حَيَاتِكَ، تَبْذُلُ كَلَّ مَا لَدَيْكَ مِنْ جَهْدٍ، وتَتَحَمَّلُ المشَقَّاتِ، فِي الخير وفي الشَّرِّ، لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَطَالِبِكَ العاجلَة أو الآجلَةِ. وفِي أَعْمَالِكَ الَّتِي تَعْمَلُهَا مَا هُوَ طَاعَةٌ لِرَبِّكَ، وفيها مَا هو مَعْصِيَةٌ لِرَبِّكَ، إِذْ أنْتَ فِي رِحْلَةِ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَان.

ويَسْتَمِرُّ كَدحُكَ إِلَىٰ مُلَاقَاةِ رَبِّكَ بالْمَوْتِ، الَّذِي يَنْقَطِعُ بِهِ عَمَلُكَ وكَدْحُكَ، وبَعْدَ الموْتِ الَّذِي يَتْبَعُهُ الْبَعْثُ تُلاقِي حِسَابَكَ عَلَىٰ مَا كَسَبْتَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ، وفَصلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِكَ، وجَزَاءَكَ بالْعَدْلِ أَوْ بالفضل.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ يَوْمَ الدِّينِ الكادِحُونَ الْكَاسِبُونَ، فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وشَرّ:

• ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾:

أمَّا: حرْفُ شَرْطٍ، وتَوْكِيد، وتفصِيل.

دلَّت هٰذه الآياتُ عَلَىٰ أنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ يُؤْتَوْنَ كُتُبَ أعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيَا بأيْمَانِهِمْ، وأَنَّهُمْ سَوْفَ يُحَاسَبُونَ فِي مَحْكَمَةِ اللهِ حِسَاباً يَسِيراً لَا يُنَاقَشُونَ فِيهِ الْحِسَابَ، وأَنَّهُمْ يَنْقَلِبُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ زَوْجَاتِهِمْ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وأَهْلِيهِمْ الَّذِينَ قُضِيَ لَهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ مَعَهُمْ، وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا أَهْلِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مَسْرُورِينَ سُعَدَاء بِمَا آتاهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ.

ودَلَّتْ أيْضاً عَلَىٰ أنَّ أَهْلَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ يُؤْتَوْنَ كُتُبَ أَعْمَالِهِم

الّتي عَمِلُوهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ وَرَاء ظُهُورِهِمْ، ودَلَّ غَيْرُ هـٰذا النّصِّ مِن الْقُرْآنِ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بِشَمَائِلِهِمْ، وَمِنْ جَمْعِ النُّصُوصِ نَفْهَمُ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهم بَشَمَائِلِهِمْ، زِيَادَةً فِي تَمْييزِهِمْ عَنْ أَهْلِ الجنَّة، وإهَانَةً لَهُمْ. وأَنَّهُمْ حِينَ يُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ فِي النَّارِ دَارِ تَعْذِيبِهِمْ ويَشْهَدُونَ مَشَاهِدَ مِنْ أَهْوَالِهَا يَدْعُونَ عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ بالْهَلَاكِ الأبَدِيِّ والتَّخَلُّصِ مِنَ الحياة، ولَكِنْ لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ، بَلْ يُدْخَلُونَ قَهْراً فِي الْجحِيم، ويَصْلَوْنَ مُحتَرِقين بِلَهَبِهَا، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلَهُمُ اللهُ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العذابَ دَواماً، أخذاً من دَلَالَاتِ نصٍّ آخر.

- ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾: أي: ويَنْصَرِفُ ذَاهِباً إِلَىٰ أَهْلِهِ فِي الجنَّة فَرِحاً مَسْرُوراً.

أَهْلُهُ: هُمْ زَوْجَاتُهُ مِنَ المؤْمِنَاتِ والْحُورِ الْعِينِ، وعَشِيرَتُهُ وأَصْحَابُ مَوَدَّتِهِ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ مِثْلِهِ الّذِينَ قَضَىٰ اللهُ لَهُمْ بأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ.

- ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١﴾: أي: فَبَعْدَ انْتِظَارٍ طَوِيلٍ فِي المحشَرِ، وبَعْدَ الْحُكْم عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّار، وبَعْدَ سَوْقِهِ إِلى أبْوابِ جَهَنَّمَ وَمُشَاهَدَتِهِ دَرَكَتَهُ فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ؛ يَدْعُو عَلَىٰ نَفْسِهِ بالْهَلَاكِ الْأَبَدِي.

الثُّبُورُ: يُرَادُ به الْهَلَاكُ الْأَبَدِيُّ، وهُو الْمَوْتُ الَّذِي لَا حَيَاةَ بَعْدَه.

- ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ وفي القِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ [**وَيُصَلَّىٰ سَعيراً**]: أي: وَيَحْتَرِقُ بِلَهَبِ النَّارِ، بَعْدَ أَنْ يُدْخَلَ قَهْراً إلى دَرَكة عَذَابِهِ فِي جَهَنَّمَ.

يُقَالُ لُغَةً: «صَلِيَ النَّارَ، وصَلِي بِهَا» أي: احْتَرَقَ فيها، ولَامَسَ لَهَبُها جَسَدَهُ مُحْرِقاً. ويُقَالُ: «صَلَّاهُ، وأَصْلَاهُ» أي: أدْخَلَهُ فِي النار.

السّعير: يأتي في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ النّار، وقيل: «السَّعِيرُ» لَهَبُ النار.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ يَصِفُ حَالَ مَنْ أُوتِي كتابَهُ وراءَ ظَهْرِهِ، حِينَ كَانَ فِي الدُّنْيا كافِراً بِرَبِّهِ، مُكَذِّباً رَسُولَهُ عليه السلام، ومُكَذِّباً بما جاءَهُ عَنْهُ، مَعَ بَيَانٍ مُلَائم:

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾:

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾: أي: إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا مَسْرُوراً بِكُفْرِهِ، وفُجُورِهِ، يَتَّبِعُ أَهْوَاءَ نَفْسِهِ وَشَهَوَاتِها، ويَفْعَلُ مَا يَلَذُّ لَهُ مِنْ جَرائِمَ وَعُدْوانٍ، وظُلْمٍ وطُغْيَانٍ، غَيْرَ عَابِئٍ بالإِنْذَارَاتِ الَّتِي بَلَّغَهَا رَسُولُ رَبِّهِ عليه السلام، ولَا بالتَّرْغِيب والترهيب، اللَّذَينِ جَاءَا فِي كِتَابِ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ.

- ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾: أي: إِنَّهُ ظَنَّ ظَنّاً ضَعِيفاً إِذْ كَانَ فِي الحياة الدُّنْيا غَيْرَ مُعْتَمِدٍ فِيهِ إِلَّا عَلَىٰ الاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْراب؛ أَنَّهُ لَنْ يَعُودَ إِلَىٰ الحَياةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، لِيُحَاسَبَ مِنْ قَبَلِ رَبِّهِ، ويُقْضَىٰ بِشَأْنِهِ، وَيُجَازَىٰ عَلَىٰ أَعْمَالِهِ الَّتِي كانَ فِيها كَافِراً فَاجِراً مُجْرِماً.

﴿لَّن يَحُورَ﴾: أي: لَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الحياة بَعْدَ الموت، يُقَالُ لغة: «حَارَ، يَحُورُ، حَوْراً» أي: رَجَعَ، **والْمَحَارُ**: الرُّجوع.

- ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾: أي: لَيْسَ كَمَا ظَنَّ ظَنّاً تَوَهُّمِيّاً، فَقَالَ: لَا رُجُوعَ إِلَىٰ الحياة بَعْدَ الموت، بَلَىٰ هُو رَاجِعٌ إِلَىٰ الحياةِ يَوْمَ بَعْثِ الأَحْياءِ، لِيُحَاسَبَ عَلَى مَا قَدَّمَ فِي حَيَاةِ ابْتِلَائِهِ مِنْ عَمَلٍ، ولِيُقْضَىٰ بِشَأْنِهِ، ولِيُجَازَىٰ الجزاءَ الملائِمَ لِعَمَلِهِ. وَعَمَلُهُ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيا مَعْلُومٌ كُلُّهُ، ومَكْتُوبٌ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ مَلَائِكَةٍ كِرام كَاتِبِين، يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ، ومَعْلُومٌ كُلُّهُ أَيْضاً مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ خَالِقِهِ وَرَازِقِه، وَالْمُهَيْمِنِ عَلَيْهِ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِعِبَادِه، إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً، حِينَ كَانَ يَخُوضُ خَوْضَهُ فِي الحياة الدُّنيا، عَاصِياً مُجْرِماً أَثِيماً.

وبهذا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني مِنْ دُرُوس سورة (الانْشقاق).

والحمدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (الانشقاق) الآيات من (١٦ ـ ١٩)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾﴾:

القراءات:

(١٩) • قرأ ابْنُ كثير، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [لَتَرْكَبَنَّ] عَلَىٰ أَنَّ الخِطَابَ لِمُخَاطَبٍ مفرد، وهو الإنسان.

وقرأها باقي القُرَّاءِ العشرة: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ على أنَّ الخطاب مُوَجَّهٌ لِلنَّاسِ.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ يُقْسِمُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بِبَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، على أَنَّ الناسَ سَيَرْكَبُونَ بِما سَيَكْتَشِفُونَ مِنْ مَرَاكِبَ بإلْهَامِ اللهِ لَهُمْ طَبقاً عَنْ طَبَقٍ، حَتَّىٰ يَصِلُوا إِلَىٰ أَجْرَامٍ سَمَاوِيَّةٍ عُليَا كَالْقَمَر.

التدبُّر التحليلي:

الشّفَق: حُمْرَةٌ تَظْهَرُ في الْأُفُقِ حَيْثُ تَغْرُبُ الشَّمْسُ، وتَسْتَمِرُّ مِنَ الْغُروب إِلَىٰ مَا قُبَيْلَ الْعِشَاءِ تَقْرِيباً.

• ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾: أي: واللَّيْلِ وَمَا جَلَّلَ وسَتَر مِنْ أشْيَاء بظُلْمَتِه، ويُقَالُ لُغَةً: «وَسَقَ الْأَشْيَاءَ» أي: ضَمَّها وجَمَعَها.

• ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾: أي: والْقَمَرِ إِذَا اسْتَوَىٰ وامْتَلأَ، فَصَار بَدْراً مُكْتمِلاً أَوْ قريباً مِنَ الاكْتمال في اللَّيالي من (١٣ ـ ١٦).

• ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾: خطاباً للنَّاس. وفي القراءة الأخرىٰ: [**لَتَرْكَبَنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ**] خِطاباً للإنسان.

الطَّبَقُ: المطابِقُ لِغَيْرِه الْمُسَاوِي له، وَالغِطاءُ، والغِشاءُ، والْحَالُ والمنزِلَة.

• ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: أي: طَبَقاً يَنْفَصِلُ عَنْ طَبَقٍ، أَوْ مَرْكَبَةً يُرْكَبُ فيها، يَنْتَقِلُ بِهَا الإنسانُ مُرْتَقِياً فِي طَبَقَاتٍ ومُجْتَازاً فِي كُلِّ طَبَقَةٍ يَصِلُ إِلَيْها عَنِ طَبَقَةٍ انْتَهىٰ مِنْ عُبُورِها.

ويظْهَرُ لي أَنَّ هٰذا إِنْباءٌ رَبَّانِيٌّ عَنْ حَدَثٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ، يَصِلُ إِلَيْهِ الإِنْسَانُ باكْتِشَافَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ والصِّناعِيَّةِ، وهٰذا الْحَدَثُ يَرْكَبُ فِيهِ الإِنْسَانُ مَرْكَبَةً جَوِّيَّةً يَنْطَبِقُ عَلَيْها أَنَّها تَنْتَقِلُ طَبقاً عنْ طَبَق. وحَرْف «عَنْ» مَعْنَاهُ المجاوَزَةُ، وهذا المعنى هو الأصل، وقَدْ يأتي لمعانٍ أُخرَىٰ.

فقد تَكُونُ الْمَرْكَبَةُ تَدْفَعُهَا قُوىً دَافِعَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، إذَا دَفَعَتْهَا أَدْنَاهَا انْفَصَلَتْ عَنْهَا، ثُمَّ تَدْفَعُهَا الَّتِي بَعْدَهَا وَتَنْفَصِلُ عَنْها، وهَكَذا حَتَّىٰ تَصِلَ الْمَرْكَبَةُ إِلَىٰ الكَوْكَبِ الموَجَّهَةِ لَهُ.

وقَدْ يكُونُ المرادُ اجْتِيَازَ الْمَرْكَبَةِ طَبقاً فِي الْجَوّ بَعْدَ طَبَقٍ.

إلى غير هٰذَيْنِ مِن الاحْتِمَالات، وَالْوَاقِع الَّذِي يَصِلُ إِلَيْهِ الإِنْسَانُ باكْتِشَافَاتِهِ وَتَجْرِبَاتِهِ وتَطْبيقَاتِهِ هو الَّذِي يُفَسِّرُ المرادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ خطاباً للنَّاس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾، أو خطاباً للإِنْسَانِ: [**لَتَرْكَبَنَّ**].

أَمَّا الْقَسَمُ المنفِيُّ بالشَّفَقِ، وباللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ، وبالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ، فَقَدْ ظَهَرَ كَمَا أَبَنْتُ فِي القاعِدَة العشرين من كتاب: «قواعد التَّدَبُّر الأَمْثَلِ لِكِتَاب اللهِ عزَّ وجلَّ» أَنَّهُ أَسْلُوبٌ مُبْتَكَرٌ للدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّ الموضوع مَعَ حَال الْمُخَاطَبِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ يَقْتَضِي اقتضاءَيْنِ مُتَعَارِضين:

(١) أَحَدُهُمَا يَسْتَدْعِي البيانُ فيهِ الْقَسَمَ المؤكِّدِ لِلْخَبَرِ الَّذِي هُوَ الْمُقْسَمُ عليه.

(٢) والآخَرُ يَسْتَدْعِي الْبَيَانُ فِيهِ عَدَمَ الْقَسَمِ.

فَكَانَ الحلُّ المبتَكَرُ فِي أَسَالِيبِ البيانِ القرآنِيَّة اخْتِيَارَ أُسْلُوبِ ذِكْرِ لفظ الْقَسَمِ، وذِكْرَ لفظ المقْسَمِ بِهِ تَنْبِيهاً عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ آيَاتِ اللهِ العظمَىٰ، مَعَ سَبْقِ الْقَسَمِ بأَدَاةِ النَّفي.

فالْوَجْهُ الَّذِي اقْتَضَىٰ الْقَسَمَ رُوعِيَ حَالُهُ بِذِكْرِ الْقَسَمِ والمقْسَمِ بِهِ، تَنْبِيهاً علَىٰ مَا فِي المقْسَمِ بِهِ مِنْ تَأْكِيدٍ أَوْ حُجَّةٍ هَادِيَةٍ إِلَىٰ أَنَّ الموضُوعَ الَّذِي يُرَادُ تَأْكِيدُهُ هُوَ مُتَحَقِّقُ الْوُقُوعِ لا مَحَالَة.

والْوَجْهُ الَّذِي اقْتَضَىٰ عَدَمَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الْقَسَمِ رُوعِي حَالُهُ بِنَفْيِ الْقَسَمِ بأداة النَّفْي «لا».

أَمَّا الْمقسَمُ به في هٰذِهِ السُّورَةِ فَفِيهِ عَدَدٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وَتَدْبِيرِهِ لِمَا خلَقَ.

فَالشَّفَقُ: يَتَطَلَّبُ دِراسَةً ضَوْئِيَّةً مُتَقَدِّمَةً لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَة إِبَّانَ تَنْزِيلِ الْقُرْآن، لَكِنْ سَيَصِلُ الْعُلَمَاءُ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا، ومَعْرِفَةِ إتْقَانِ صُنْعِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ في آيَةِ الشَّفَقِ.

واللّيلُ وَمَا جلَّلَ وستَرَ: لَمْ يَكُنِ النَّاسُ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ يَعْلَمُونَ عَظَمَة هذه الآيَةِ الرَّبَّانيَّةِ فِي كَوْنِهِ، لَكِنْ سَيَصِلُ الْعُلَماءِ الْبَاحِثُونَ إلى مَعْرِفَةِ هٰذِهِ الآيَةِ العظيمة، ومَعْرِفَةِ إتْقَانِ صُنْعِ اللهِ فيها.

والْقَمَرُ إذَا اكْتَمَلَ نُورُه: لَمْ يَكُنِ النَّاسُ إِبَّانَ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ قَدْ عَرَفُوا سَبَبَ تَنَاقُصِ الْقَمَرِ واكْتِمَالِهِ، ولَمْ يَكُونُوا قَدِ اكْتَشَفُوا بَدِيعَ آياتِ اللهِ فِيه، لَكِنْ سَيَصِلُ الْعُلَمَاءُ الْبَاحِثُونَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَا فِي هٰذِهِ الآيَةِ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ مِنْ إتْقَانِ صُنْعٍ، وعِنايَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ.

ومُرَاعَاةً للاقْتِضَاءَيْنِ جَاءَ الْقَسَمُ مَنْفِيّاً بأُسْلُوبٍ قُرْآنِيٍّ مُبْتَكر.

وفي الختام أقول: هَلْ وُصُولُ الإِنْسَانِ إِلَىٰ الْقَمَر، بمَرْكَبَةٍ جوِّيَّةٍ تَدْفَعُهَا صَوَارِيخُ تَنْفَصِلُ عَنْها، دَافِعاً ثُمَّ دَافِعاً، مِمَّا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُخَاطِبُ الإنسان: [**لَتَرْكَبَنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق**]، وَيُخَاطِبُ النَّاسَ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩)﴾؟؟.

وهَلْ هـٰذا مِنْ أمْثِلَةِ الإعْجَازِ الْخَبَرِيِّ عَنْ أَحْدَاثِ المستَقْبَلِ فِي الْقُرْآن؟؟.

أَتْرُكُ الإِجَابَةَ لِعُلَمَاءِ الكَوْنِيَّاتِ، ورِجالِ الْبَحْثِ العِلْمِيِّ في المكْتَشَفاتِ الْعِلْمِيَّةِ والصِّنَاعِيَّة.

وبهذا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثَّالِثِ مِنْ دُرُوس سورَة (الانْشقاق).

والحمدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الانشِقَاق) الآيات من (٢٠ ـ ٢٥) آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ (٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ (٢٥)﴾:

القراءات:

(٢١) ● أَبْدَلَ أبو جعفر الهمزة من: ﴿قُرِئَ﴾ يَاءً مَفْتُوحَةً وَصْلاً، وسَاكِنَةً وقْفاً، [قُرِيْ].

ووقَفَ حمزة، وهِشَامٌ بخلفه كأبِي جَعْفر: [قُرِيْ].

(٢١) ● قَرَأ أبو عَمْرٍو: [**عَلَيْهِمِ الْقُرْآنُ**].

وقرأهَا حمزة، والكِسَائي، ويَعْقُوبُ، وخَلَف: [**عَلَيهُمُ الْقرآنُ**].

وقرأهَا باقِي القرّاء العشرة: ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾.

وهـٰذا كُلُّهُ عِنْدَ الْوَصْلِ، أمَّا عِنْدَ الْوَقف فكُلُّهُمْ عَلَىٰ كَسْرِ الـهَاءِ وإسْكَانِ الميم، مَا عَدَا حمزَةَ، ويَعْقُوب، فإنَّهُما يَقْرآنِ بِضَمِّ الْهَاءِ وإسْكَانِ الميم.

(٢١) ● قرأ ابْنُ كثير: [**الْقُرَانُ**]، وكذَلِكَ قَرأها حَمْزَةُ فِي الوقف.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْسِ تعجيبٌ مِنْ أمْرِ الكَفَرَةِ المكَذِّبينَ، الَّذِينَ لَا يَنْتَفِعُونَ مِنْ بَرَاهِينِ الْحَقِّ الَّتِي دَفَعَهُمُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بها، مع إنْذَارِهِمْ بِعَذَابٍ أليم.

وفيها بيانٌ يَتَعَلَّقُ بِثوابِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات.

التدبّر التَّحلِيلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الكَفَرَةِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، ولَمْ يُؤْمِنُوا بالقرآنِ العظيم:

● ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾﴾:

أي: أيُّ شَيْءٍ هُوَ حُجَّةٌ لَهُمْ تَجْعَلُهُمْ يُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، ولَا يُؤْمِنُونَ بالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبالْقُرْآنِ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إيَّاهُ عَنْ رَبِّهِ، مَعَ تَوَالِي الإقْنَاعَاتِ والمَوَاعِظِ الحسنَةِ بالتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيب؟؟!!.

اسْتُعْمِلَ الْفِعْلُ المضَارِعُ في: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ للدَّلَالَة عَلَىٰ تَتَابُعِ

مُجاهَدَتِهِمْ ومُعالَجَتِهِمْ، بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ الإقْنَاعِيَّةِ والْعِلَاجِيَّةِ، وَتَتَابُعِ رَفْضِهِمْ بإِصْرَارٍ أَنْ يُؤْمِنُوا بالْحَقِّ المنزَّلِ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

وأيُّ شَيْءٍ هُوَ صَارِفٌ لَهُمْ عَنِ السُّجُودِ لِعَظَمَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيد، إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ، أو تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ مِنْ آيَاتِهِ، مَعَ أَنَّ مِنْ عَادَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يَسْجُدُونَ تَعْظِيماً لِكَلامٍ بَلِيغٍ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَاعِرٍ أَوْ نَاثر، أَوْ أُلْقِيَ عَلَىٰ مَسامِعِهِمْ، فِي حَالِ أَنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمُ كَلامٍ بَلِيغٍ يَسْمَعُونَهُ؟؟!!.

واستُعْمِلَ الْفِعْلُ المضارِعُ في: ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَتَابُعِ قِرَاءَةِ القرآنِ الْعَظِيمِ المعْجِزِ عَلَىٰ مَسَامِعِهِمْ، وتتابُعِ صَدِّهِمْ عَنْهُ، وعَدَمِ التَّعْبِيرِ عَنْ إِعْظَامِهِمْ لِبَلَاغَتِهِ الْمُعْجِزةِ بالسُّجُودِ له.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ السَّبَبَ في أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وإذَا قُرِئ عَلَيْهِمْ القرآنُ لَا يَسْجُدُونَ:

● ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

يُوعُونَ: أي: يَجْمَعُونَ فِي أَوْعِيَتِهِمْ، والمرادُ أَوْعِيَةُ نُفُوسِهِمْ وصُدُورِهِمْ، وقُلُوبِهِمْ، وأَفْئِدَتِهِمْ، وأَدْمِغَتِهِمْ، مِنْ مُكْتَسَباتٍ إِرَادِيَّة فِيها.

المعنى: لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا المعْنِيُّونَ بِالْبَيَانِ أَصْحَابَ حُجَجٍ تَجْعَلُهُمْ لَا يُؤْمِنُون بإِصْرَارٍ مُتَتابعٍ، ولَيْسُوا فِيمَا يَتَظَاهَرُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِبَلاغَةِ القرآنِ الْمُعْجِزَةِ صادِقِين، بَلْ هُمْ يُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ ﷺ، ويُكَذِّبُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، تَكْذِيباً مُتَجَدِّداً كُلَّمَا تَتَابَعَتْ عَلَيْهِمْ بَرَاهِينُ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ، وَكُلَّمَا سَمِعُوا نَجْماً مِنْ نُجُومِ القرآنِ المنَزَّلَة، وهٰذا التَّكْذِيبُ المدْفُوعُ بِعَدَمِ رَغْبَتِهِمْ فِي تَرْكِ جَرَائِمِهِمْ الَّتِي يُمَارِسُونَهَا دَوَاماً، قَدْ طَمَسَ بَصائِرَهُمْ، وَغَشَّىٰ عَلَىٰ عُقُولِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ لَا يَرَوْنَ الحقَّ حَقّاً، ولَا يَرَوْنَ الْبَاطِلَ بَاطِلاً.

واللهُ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ، بِمَا يَجْمَعُونَ في أَوْعِيَةِ نُفُوسِهِمْ،

وصُدُورِهِمْ، وقُلُوبِهِمْ، وأَفْئِدَتِهِمْ، وأَدْمِغَتِهِمْ، مِنْ مُكْتَسَبَاتٍ إِرَادِيَّةٍ فيها، وهُمْ فِيها بُغَاةٌ، ظَلَمَةٌ، جَحُودُونَ، مُتَشَبِّثُونَ بما يَشْتَهُونَ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنْيَا، غَيْرَ عَابِئِينَ بالآخِرَة، ومَا أَعَدَّ الرَّبُّ الْجَلِيلُ فيها مِنْ جزاء بالثَّوَابِ، وبالْعِقَاب، لِلَّذِينَ كَانُوا فِي الحيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الابْتِلَاء.

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُنْذِراً لِلْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْم الدِّين:

- ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾:

الخطابُ في هـٰذِهِ الآيَةِ مُوَجَّهٌ لِلرَّسُولِ ﷺ ولِكُلِّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ مِنْ أُمَّتِهِ، بأسْلُوبِ الخِطَابِ الإفْرَادِي، ومُوَجَّهٌ لِلْكافِرينَ تَعْرِيضاً عَنْ طَرِيقِ اللُّزُومِ الذِّهْنِي، أي: فَأَبشِرُوا بَعذَابٍ أَلِيم.

أصْلُ التَّبْشِير: الإخْبارُ بما يَسُرُّ وَيُفْرِحُ الْمُبَشَّر، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ التبشِيرُ فِي الإخْبَارِ بِمَا يَسُوءُ وَيُحْزِنُ الْمُبَشَّرَ عَلَىٰ سَبِيلِ التهكُّم، مَعَ قَرِينَةٍ دَالَّةٍ عَلَىٰ المراد، والْقَرِينَةُ هُنَا كَوْنُ المبَشَّرِ بِهِ عَذَاباً أَلِيماً، أَي: شَدِيدَ الإيلَام.

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بِصُورَةٍ إِجْمَالِيَّةٍ عَامَّةٍ ثَوابَ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات، فِي مُقَابِلِ عِقَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا:

- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾:

لفظ: ﴿إِلَّا﴾ هُنَا هِي بِمَعْنَىٰ «لَكِنْ».

- ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾: أي: مُسْتَمِرٌّ مُتَتَابِعٌ مُتَجَدِّدٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ، إِذْ هُوَ دَائِمٌ مَعَ دَوَامِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ خَالِدِينَ فِي جنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

وبهذا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّر سُورة (الانْشِقَاق) بانْتِهَاءِ تَدَبُّر الدَّرْس الرابع منها.

والحمدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

ملحق: مستَخرَجَات بَلاغِيّة مِن سُورة (الانشِقَاق)

أوّلاً:

من التوكيد لدواعٍ بَلاغية نَجِدُ في السورة ما يلي:

(١) قول اللهِ تَعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)﴾:

في هَـٰذا البيان تَوْكيد بـ(إِنَّ - والجملةِ الاسْمِيَّةِ - والمفعول المطْلَق «كَدْحاً»)، وتَوْكيد بِـ«أمَّا» الشَّرْطِيَّةِ التَّفْصِيلية، وكذلِك نَظِيرُهَا في الآية (١٠).

(٢) التوكيد بِالْقَسَم في قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨)﴾.

ثانياً:

مِنَ الإيجاز بالحذف، قولُ اللهِ تَعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ (٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣)﴾:

أي: لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا المعْنِيُّون أصْحَابَ حُجَجٍ تَجعلُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، ولَيْسُوا فِيمَا يَتَظَاهَرُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ لا يَشْعُرُونَ بِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ المعجِزَةِ صَادقين، بَلْ هُمْ يُكَذِّبُونَ الرَّسُول ﷺ، وَيُكَذِّبُونَ بأَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبّ الْعَالَمِين، إلى آخر مَا جاءَ فِي تَدَبُّر الآيات.

فَحَرْف «بَلْ» يَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ يَسْهُلُ عَلى المتَدَبّر المتأني أَنْ يَسْتَخْرِجَهُ ذهناً.

وأكْتَفِي بهذهِ المستخرجات البلاغية مِنْ سُورَة (الانْشقاق)، والحمد للهِ على معونتِهِ ومَدَدِه، وتوفيقهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

سورة الرُّوم

٣٠ مصحف ٨٤ نزول

وهي مكيَّةٌ كُلُّها بلا خلاف

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ
غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ
وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (٤) بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ
مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ
ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٦) يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا
مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ (٧) أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ
فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ
وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ
(٨) أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ
أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

١ - • سَكَتَ أبو جعفر على: «ألف» و«لام» و«مِيم» سَكْتَةً خفيفةً بِدُونَ تنفُّسٍ.

٥ - • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَهُوَ] بضَمِّ الهاء. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

٩ - • قرأ أبو عمْرو: [رُسْلُهُمْ] بإسكانِ السين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [رُسُلُهُمْ] بضمّ السّينِ.

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ
ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ
﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾
وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن
شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ
﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ
ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ
ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

---

١٠ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: **[ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ]** برفع لفظ: «عَاقِبةُ».
وقرأها باقِي القرّاء العشرة: **[ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِين]** بِنصب «عاقِبةَ».
وهُمَا وَجْهَانِ نَحويَّانِ جائِزَان.

١٠ ـ • قرأ أبو جعفر: **[يَسْتَهْزُونَ]**، وكذلِكَ حمزة في الوقف، ولَهُ أيضاً التَّسْهِيل بين بين، وله أيضاً الإبْدَال يَاءً **[يَسْتَهْزِيُونَ]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَسْتَهْزِئُون]**، ولِلأزرق ثَلاثةُ البدل.

١١ ـ • قرأ أبو عمرو، وشعبة: **[يُرْجَعُونَ]**.
وقرأها رَوْح: **[يَرْجِعُونَ]**.
وقرأها رُوَيس: **[تَرْجِعُونَ]**.
وقرأها باقي القُرَّاءِ العشرة: **[تُرْجَعُونَ]**.

١٩ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة: **[الْمَيْت]**، بإسكان الياء دون تشديد في الموضعين.

=

مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ
ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم
مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً
وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ
خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ
﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ
وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ
﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ

= وقَرَأهُما بَاقي القرّاءِ العشرة: **[الْمَيِّت]**، بِتَشْدِيد الياء المكْسُورة.

١٩ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف، وابْنُ ذَكْوَان بخلف عنه: **[تَخْرُجُونَ]**.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة وهو الثاني لابن ذكوان: **[تُخْرَجُون]**.

٢٢ ـ ● قرأ حفص: **[لِلْعَالِمِينَ]**.
وقرأها بَاقي القرّاء العشرة **[لِلْعَالَمِينَ]**.
وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامل، أي: للعالِمينَ مِنَ الْعَالَمِينَ.

٢٤ ـ ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: **[وَيُنْزِلُ]**، من فعل «أنْزَل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَيُنَزِّلُ]**، من فعل «نَزَّل».
والقراءتان متكافئتان، إذِ الفعْل المهموز أخُو الفعل المضعَّف.

٢٧ ـ ● قرأ قالون، وأبو عمرو، والكِسَائِي، وأبو جعفر: **[وَهْوَ]** بإسكان الهاء. =

ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾
ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن
شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى
فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ
وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ
ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ
﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [وَهُوَ] بضمّ الهاء. ووقف يعقوب بهاءِ السَّكْتِ. وكذا حيث ورد.

٣٠ ـ ● وَقف ابن كثير، وأبو عَمْرو، والكسائي، ويعقوب، بالهاء عَلَىٰ: [فِطْرَتَ]. ووقف باقي القراء العشرة عَلَيْها بالتاء.

٣٢ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي: [فَارَقُوا].
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَرَّقُوا].
وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

٣٢ ـ قرأ حمزة، ويعقوب: [لَدَيْهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [لَدَيْهِمْ].

٣٥ ـ ● قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ].

سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا
ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا
هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ
ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ
فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ
تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي
خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشۡرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي

---

٣٥ ـ • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جَعْفَر: [وَهْوَ] بإسْكان الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَهُوَ] بضم الهاء.

٣٦ ـ • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ]. وقرأها باقي القراء العشرة: [أَيْدِيهِمْ].

٣٦ ـ • قرأ أبو عمرو، والكِسَائيّ، ويعقوب، وخلَف العاشِر: [يَقْنِطُون] بكسر النون.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَقْنَطُون] بفتح النّون.

٣٩ ـ • قرأ ابنُ كثير: [وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ رِباً].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً].

٣٩ ـ • قرأ نَافع، وأبُو جعفر، ويَعقُوب: [لِتُرْبُوا].
وقرأها باقي القُرَّاءِ العشرة: [لِيَرْبُوَا].
أي: لِتُرْبُوا أنْتُم، ولِيَرْبُوَ المال.

٤٠ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [تُشْرِكُونَ] بتاءِ المخاطَبِينَ.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يُشْرِكُونَ] بياء الغائبين.

ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ سِيرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ
أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن
يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ
فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجۡزِيَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿٤٥﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ
وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا
مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ
وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ

---

٤١ ـ ● قرأ قُنْبُلُ بخلف عنه، ورَوْح: [لِنُذِيقَهُمْ] بنون المتكلم العظيم.
وقرأها باقي القراء العشرة، وهو الثاني لقنبل: [لِيُذِيقَهُمْ]، أي: لِيُذِيقَهُمْ اللهُ.
٤٨ ـ ● قرأ ابن كثير، وحمزة، والكِسائي، وخلف: [الرِّيحَ] بالإفراد.
وقرأها باقي القرَّاءِ العشرة: [الرِّيَاحَ] بالْجَمْع.
٤٨ ـ ● قرأ هشام بخلف عنه، وأبو جعفر: [كِسْفاً] بإسكان السين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [كِسَفاً] بفتح السين، وهو الوجه الثاني لهشام.
٤٩ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويَعْقُوب: [يُنْزَلَ] من فعل: «أنْزل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يُنَزَّلَ] من فعل: «نزّل».

عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ
كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ
مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ
ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن
ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾
۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ
قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ
ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا

---

٥٠ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وشُعْبَة، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أَثَرِ**] بالإفراد.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**آثارِ**] بالجمع، والمؤدّى واحد.

٥٠ ـ ● وقف ابْنُ كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب على: [**رَحمَتِ**] بالهاء.
ووقف باقي القراء العشرة عليها بالتّاء.

٥٠ ـ ● قرأ قالُون، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [**وَهْوَ**] بإسكان الهاء. وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَهُوَ**] بضم الهاء، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

٥٢ ـ ● قرأ ابْنُ كَثِير: [**وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ**].
وقرأها باقِي القراء العشرة: [**وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ**].

٥٣ ـ ● قرأ حمزة: [**تَهْدِي الْعُمْيَ**]، ووقف على [**تَهْدِي**] بالياء بخلف عنه.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: [**بِهَادِي الْعُمْيِ**]، ولا يَخْفَىٰ أنّ الياء تحذف وصْلاً للساكنين. ووقف على [**بهادي**] بإثبات الياء: يعقوب، والكسائي بخلفه.
ووقف الباقون بحذفها.

٥٤ ـ ● قرأ شعبة، وحمزة: [**ضَعْفٍ**] في الموضعين، وكذاك حَفْصٌ بخُلف عنه.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**ضُعْفٍ**] في الموضعين، وكذلك [**ضُعْفاً**]. وهو الوجه الثاني لحفْصٍ.

٥٤ ـ ● قرأ قالون، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [**وَهْوَ**]؛ بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَهُوَ**] بِضَمّ الهاء ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا
يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٥٦) فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا
لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ
لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ
يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ (٥٩) فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ
ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

---

٥٧ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**لَا يَنْفَعُ**] بالياء.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: [**لَا تَنْفَعُ**] بالتاء.
وهما وجْهَان عربيان.
٥٨ ـ ● قرأ ابن كثير: [**الْقُرَانِ**]. وكذلِكَ حمزة في الوقف.
٥٨ ـ ● قرأ السُّوسِي، وأبو جعفر: [**جِيتَهَمْ**]. وكذلِكَ قرأها حمزَةُ في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**جِئْتَهُمْ**]
٦٠ ـ ● قرأ رُويس: [**وَلَا يَسْتَخِفَنْكَ**] بإسْكَانِ النُّون.
وقرأها باقي القراءِ العشرة: [**وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ**] بتشدِيد النون.

(٢)

موضوع سورة (الرّوم)

ظَهَرَ لِي أنَّ هذه السورة ذَاتُ خُطُوطٍ ثلاثَةٍ، بَعْدَ تَمْهِيد يتَضَمَّنُ صِدْقَ الأنباء الرَّبَّانِيَّةِ المسْتَقْبَلِيَّةِ الوارِدَةِ فِي القرآن، بِحَدَثٍ سَيَقَعُ قَرِيباً فِي بضع سنِينَ، وهو انْتِصَارُ الرُّوم علَىٰ الْفُرْسِ، بَعْدَ حَدَثٍ وَقَعَ كَانَ فِيهِ انْتِصَارُ الْفُرْسِ على الرُّوم مع إلْمَاحٍ إلى انْتِصَارِ المسْلِمينَ على المشركين، وقد كان ذَلِكَ في غَزْوَةِ بَدْرِ الكُبْرَىٰ.

الخطّ الأول: تَسِير عليه قضايا تتعلَّقُ بقَانُونِ الْجَزاءِ الرَّبَّانِي المعجَّلِ والمؤجَّلِ، مع بيانِ أَنَّ مَنْ بدَأ الخلْقَ هُو الذِّي يُعِيدُهُ، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

الخط الثاني: خَطٌّ تَسِيرُ عَلَيْهِ بيانَاتٌ تتعلَّقُ بالشِّرْكِ وبُطْلَانِهِ.

الخطّ الثالث: خَطٌّ تسير عليه بيانَاتٌ تتعلَّقُ بأنَّ اللهَ خالِقُ كُلِّ شيْءٍ، فهو المالك لِكُلِّ شيءٍ في السَّمَاوَاتِ وَفي الأرض.

وفي السورة مُرَافقاتٌ لِفُرُوعِ وَأفْنَانِ شَجَرةِ السُّورةِ، مُلائماتٌ لَهَا ضِمْنَ خُطُوطِهَا الكُلِّيَّةِ العامَّة.

(٣)

دروس سورة (الرُّوم)

رَأَيْتُ بالتأمّلِ في آياتِ سورة (الرُّوم) وعَنَاصِرِها الفكرِيَّةِ؛ أنَّ مِنَ المناسِبِ تجزئَتَهَا إِلَىٰ اثني عشر دَرْساً، وهذه الدُّرُوس مُرْتَبطَةٌ بِوَحْدَةِ مَوضوع شَجَرَةِ السُّورَة، وهي الدُّروس التالية:

الدَّرْس الأول: الآيات من (١ ـ ٧).

وفي آياتِ هذا الدّرْسِ تَمْهِيدٌ بنَبَأٍ عن حَدَثٍ غيْبِيٍّ مُسْتَقْبلِّي يَكْشِفُ الواقِع القريبُ صِدْقَه، دليلاً على أَنَّ القرآنَ حَقٌّ وصِدْقٌ مَنَزَّلٌ مِنْ لَدُن رَبِّ الْعَالَمِين، وهذ النَّبأُ هو أنّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سنين، مَعَ إِتْبَاعَاتِ مُلَائِمَاتِ للإعْلَامِ بهذا النَّبأ.

الدرس الثاني: الآيات من (٨ ـ ١٦).

وفي آيات هذا الدَّرْس بيانَاتٌ وإقْنَاعَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِقَانُونِ الْجَزاءِ الرَّبَّانِي، المعجَّلِ في الدُّنيا، والمؤجَّلِ إِلَىٰ يَوْمِ الدّين.

الدرس الثالث: الآياتُ من (١٧ ـ ٢٧).

وفي آياتِ هـٰذا الدّرسِ عَرْضُ طائِفَةٍ مِنْ آياتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، دَالَّاتٍ عَلَىٰ تَنْزِيهِ اللهِ عَنْ كُلِّ ما لَا يَلِيقُ بأزَلِيَّتِهِ وأَبَدِيَّتِهِ، وعلى أَنَّ لَهُ كُلَّ صِفَاتِ الكَمَالِ الَّتِي يُحْمَدُ عَلَيْهَا فِي السَّمَاوَاتِ وفِي الْأَرْضِ.

الدّرْس الرابع: الآيَات من (٢٨ ـ ٣٥).

وفي آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ قضايا تَتَعَلَّقُ بُبُطْلَانِ الشِّرْك، وأنَّ المشرِكين يَتَّبِعُونَ أهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم، مَعَ تَوْجِيهِ الأمْرِ الرَّبَّانِيّ بإقَامَةِ الوجْهِ للدِّينِ حَنيفاً، والأمْرِ بالتقوى، وإقامَةِ الصَّلَاةِ، والنَّهْي عَنِ الدُّخُولِ فِي زُمَرِ المشركين، الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينهم وكانُوا شيعاً.

وفيها بيانُ حَالِ المشركينَ تُجَاه مَا يمَسُّهُمْ مِنْ ضُرٍّ أَوْ رَحْمَة، وأَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ في أَحْوَالِ الضُّرِّ، وأَنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ يُشْرِكُون حِينَما يُذِيقُهُمْ رَبُّهُمْ بَعْضَ آثارِ رَحْمته، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ حُجَّةً عَلَىٰ شَيْءٍ من قَضَايا شِرْكِهِمْ.

الدَّرْس الخامس: الآيات من (٣٦ ـ ٣٩).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ وَصْفُ حَالِ النَّاس في عَطَاءاتِ اللهِ لَهُمْ، وأَنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ بِحِكْمَتِهِ لِمَنْ يَشَاء، وَيَقْدِرُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاء، مَعَ توجيه الأمْرِ بالإِنْفَاقِ ابْتغاءَ وجْهِهِ، والتحذير من الرِّبَا، للظفر بالفلاح ومضاعَفَةِ الأجْرِ يَوْمَ الدِّين.

الدرس السادس: الآيات من (٤٠ ـ ٤٥).

في آيات هذا الدّرس خِطابٌ من اللهِ للمشركين بأنَّهُ هو الذي خَلَقَهُمْ، ثُمَّ رَزَقَهُمْ، ثُمَّ يُمِيتُهُمْ، ثُمَّ يُحْيِيهِمْ، وأَنَّهُ تَنَزَّهَ وتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُون.

وفيها بَيَانُ أَنَّ النَّاس الَّذِينَ خَالَفُوا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ الأَشْيَاء

والأحياءَ عَلَيْها؛ قَدْ ظَهَرَ بمَا كَسَبُوا الْفَسَادُ في الْبَرِّ والبحر، إذْ أرَادُوا أَنْ يتَدَخَّلُوا في تغْيير فِطَرِ الأشياءِ، طمعاً في زِيَادَةِ مَكَاسِبِهِمْ مِنَ الأمْوال.

وفيها التحْذِيرُ مِنْ عُقُوبَاتِ اللهِ المعجَّلَة بالدَّعْوَةِ إلى السَّيْرِ في الْأَرْضِ، للنظر في عاقبة الَّذِينَ كَانَ أَكْثَرُهم مُشْرِكين، وكيف أنَّ اللهَ أهْلَكَهُمْ إهْلَاكاً جماعِيّاً مُسْتَأْصِلاً.

وفيها الأمْرُ بإقامَةِ الْوَجْه لِلدِّينِ الْقَيّم مع التَّحْذِيرِ من عقاب اللهِ يَوْمَ الدّين.

الدرس السابع: الآيات من (٤٦ ـ ٥١).

وفي آيات هٰذا الدَّرْس عَرْضُ بَعْضِ آيات اللهِ في كَوْنِهِ، وبَعْضِ آيَاتِهِ الجزائيّة، وفِيهَا قِيَاسُ إحْيَاءِ الموْتىٰ عَلَىٰ إحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتها، مَعَ بيانِ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَتَّعِظُونَ بِمُنْذِرَاتِ الْعَذَابِ بَلْ يَظَلُّونَ يَكْفُرُون.

الدرس الثامن: الآيتان (٥٢ و٥٣).

وفي آيَتي هذا الدّرْس تَيْئِيسُ الداعي إلى اللهِ مِنْ تَأْثيرِ دَعْوَتِهِ في الَّذين بَلَغُوا فِي نُفُوسِهِمْ دَرَكَةَ مَوْتَىٰ الْقُلُوب، أو دَرَكَةَ الصُّمِّ الْعُمْيِ، فَعَلَيْهِ أنْ يُجَاهِدَ فِي غَيْرِ الميؤُوسِ مِنْهم.

الدرس التاسع: الآية (٥٤).

وفي آية هذا الدَّرْسِ بَيَانُ وَاقِعِ رِحْلَةِ الإنْسَانِ في هَـٰذِهِ الْحيَاةِ الدُّنيا، بَيْنَ الضَّعْفِ والقوة، والَّتِي يَكُونُ خِتامُهَا انْتِهَاءَ هـٰذِه الرِّحْلَةِ بالموت.

الدرس العاشر: الآيات من (٥٥ ـ ٥٧).

وفي آيات هذا الدَّرْس بيانٌ عن أحوال النَّاسِ عِنْدَ قيام سَاعَةِ الْبَعْث.

الدرس الحادي عشر: الآيتان (٥٨ ـ ٥٩):

وفي آيتي هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ قَد ضَرَبَ لِلنَّاسِ في هـٰذا القرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، لإقْنَاعِ الْكَافِرينَ بنبذِ كُفْرِيَّاتِهِم، ولَكِنَّ الكافِرينَ يُوَاجِهُونَ مَا يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِ اللهِ بِقَوْلِهم للمؤمنين: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ. والسبب في ذَلِكَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ مُقْفَلَةٌ مَطْبُوعٌ عَلىٰ أَقْفَالِها. وَلِيَكُونَ المثَلُ مِقْياساً يُقَاسُ عَلَيْهِ في حُكْمِهِ أشباهُهُ في صِفاتِهِ.

الدرس الثاني عشر: الآية (٦٠) وهي آخر السّورة.

وفي آيَةِ هـٰذا الدَّرْسِ يأْمُرُ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بالصَّبْرِ، ويُحَذِّرُهُ مِنْ أَنْ يَسْتَخِفَّهُ الَّذين لَا يُوقِنُونَ، فَيُطِيعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ إغراءاتِهِم أَوْ زُخْرُفِ أَقْوالِهم، وَيُلْحَقُ بالرَّسُولِ ﷺ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي للدرس الأوّلِ مِن دُروسِ سُورة (الرُّوم) الآيات من (١ ـ ٧)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾:

القراءات:

(١) • سَكَتَ أبو جعفر على «ألف» و«لام» و«ميم» سَكْتةً خَفِيفةً بِدُون تَنَفُّس.

(٥) • قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، والِكسَائِيّ، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسْكانِ الهاء، وهو لغة عَرَبية.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بِضَمّ الهاء. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْس تمهيدٌ بِنَبأٍ عَنْ حَدَثٍ غَيْبِيّ مسْتَقْبَلِيٍّ يَكْشِفُ الواقِعُ الْقَرِيبُ صِدْقَهُ، دَليلاً عَلىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وصِدْقٌ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُن رَبّ العالَمِينَ، وهـٰذا النَّبأُ هو أنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِين، مع إتْبَاعَات مُلَائِمَاتٍ للإعْلَامِ بهذا النَّبأ.

موجز مَا عِنْدَ أهْلِ التَّارِيخِ حَوْلَ الْحُرُوبِ بَيْنَ فَارِسَ والرُّومِ إبَّانَ التَّنْزِيل:

في أيَّام حُكْم هِرَقْلَ مَلِكاً عَلَىٰ الرُّوم، وَكَانَ الملكُ عَلَىٰ الرُّوم يُقالُ لَهُ: «قَيْصَر»، أمَّا المِلكُ على الفرس فكَان يقال لَهُ: «كِسْرَىٰ» ـ:

قالوا: إنَّ «كِسْرَىٰ» مَلِكَ الفُرْسِ، إبَّانَ عَهْدِ «هِرَقْلَ» قَيْصَرِ الرُّوم؛ غزَا بِلَادَ الرُّوم وَانْتَصَرَ عَلَىٰ جُيُوشِهِمْ، حتَّىٰ وَصَلَ إلَىٰ «قُسْطَنْطِينيَّة»، فحَاصَرَها مُدَّة طَوِيلَةً، لَكِنَّهُ لَمْ يسْتَطِعْ أنْ يَفْتَحها. ثُمَّ احْتَالَ «قَيْصَرُ» أنْ يَخرُجَ مِنْها، لِيَجْمَعَ لِكِسْرىٰ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا يُرِيدُ، بَعْدَ مُفَاوَضَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُمَا، وخَرَجَ مَعَهُ ثُلَّةٌ مُنْتَقَاةٌ مِنْ جَيْشِهِ، أمَّا كِسْرَىٰ فَبَقِيَ مُرَابطاً عند «قُسْطَنْطِينِيَّة» يَنْتَظِرُ عَوْدَتَهُ بِمَا وَعَدَهُ أنْ يَجْلُبَ لَهُ مِنْ أمْوال.

لَكِنَّ قَيْصَرَ غَزَا بِلَادَ فَارِس، وعَاثَ فيها قتلاً وتَخرِيباً وسَلْباً، حتَّىٰ وَصَلَ إلى «المدائِن» بَلَدِ عَرْشِ «كِسْرىٰ» فَقَتَل مُقَاتِلَتَها، واسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ كُلِّ مَا فِيها مِنْ أمْوَالٍ وكُنُوزٍ، واحْتَالَ فِي عَوْدَتِهِ إلَىٰ «قُسْطَنْطِينِيَّة» بَعِيداً عَنْ جَيْشِ «كِسْرَىٰ» المرابِطِ، وقد بَلَغَهُ أَنَّ قَيْصر غَزَا بِلَادَهُ وخَرَّبَها، واسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ أَمْوَالِهِ في «المدائن».

وكانَ انْتِصَارُ الرُّومِ عَلَىٰ فَارِسَ بَعْدَ تِسْع سِنِينَ من انتصارِ فَارِسَ على الرُّوم.

وجاء في بَعْضِ الرِّوايَاتِ؛ أَنَّ الرُّومَ غَلَبُوا الْفُرْسَ فِي يَوْمِ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ المشْرِكين فِي غَزْوَةِ بَدْرِ الكُبْرَىٰ.

التدبُّر التَّحْلِيلِي:

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ . . .﴾:

- ﴿الٓمٓ ①﴾: هـٰذِهِ من الحروف المقطَّعةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي أوائِلِ بَعْضِ سُوَرِ القرآن، وقد ذَكَرْتُ مَا يكْفِي بِشَأْنِهَا فِي أوائلِ تَدبُّر سورة (القلم/ ٤ نُزُول) فَلْيُرْجَعْ إليه.

- ﴿ٱلرُّومُ﴾: أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ مَعْرُوفَة، عاصِمَةُ مَمْلَكَتِهِمْ مَدِينَةُ «قُسْطَنْطِينِيَّة» وهي: «اصْطَنْبُول» الآن.

- ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: فِي أَقْرَبِ أَرْضِهِمْ مِنْ أَرْضِ الجزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، والظَّاهِرُ أَنَّهَا مِنْ بِلَادِ الشَّام «فِلِسْطِين ومَا حَوْلَها».

جاء عند المفسّرين: أنَّ دَوْلَةَ «فَارِس» غَلَبَتْ دَوْلَةَ الرُّوم، ففرح بهذا مُشْرِكُو مَكَّة، وقالُوا: غَلَبَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ وهُمُ الْفُرْسُ؛ الَّذِينَ لَهُمْ كِتَابٌ وهُمُ الرُّوم، وافْتَخَرُوا بهذا عَلَىٰ المسلمين، وقَالُوا لَهُمْ: سنغلِبُكُمْ كَما غَلَبَ الْفُرْسُ الرُّوم.

- ﴿. . . وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ . .﴾:

أي: وسَيَكُونُ لِلرُّومِ فِي بِضْعِ سِنِينَ انْتِصَارٌ على فَارِسَ، وهـٰذا خَبَرٌ قُرْآنِيٌّ عَنْ غَيْبِ سَيَقَعُ في المسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ، وهُوَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الّتِي

تُثبِتُ أنَّهُ كِتَابٌ مَنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذْ تَحقَّقَ انْتِصَارُ الرُّومِ عَلَىٰ فَارِسَ بَعْدَ نَحْوِ تِسْعِ سِنِينَ.

البِضْعُ: هو في الْعَدَد من الثَّلاثِ إِلَىٰ التِّسع.

وجاءت رِوايات متَعَدِّدَات، فيها أَنَّ نَاساً مِنَ المشركين من قريش؛ قَالُوا لِأَبي بَكْرٍ رضي اللهُ عَنْهُ: أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا يَقُولُ صَاحِبُك يَزْعُمَ أَنَّ الرُّوم سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ؟!. قال: صَدَقَ صَاحِبِي.

قالوا: هَلْ لَكَ أَنْ نُقَامِرَكَ؟، وَكَانَ هَـٰذَا قَبْلَ تَحْرِيم الْقِمَارِ. فَقَبِلَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يُرَاهِنَهُمْ، تَصْدِيقاً للهِ ورسُولِهِ ﷺ، واجْتَهَدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي تَحْدِيدِ السِّنِينَ إِذْ جَعَلَهَا دُونَ تِسْعِ سِنِين، ثُمّ زَادَهَا إلى تِسْعِ سِنِينَ. وتَحقَّقَ انْتِصَارُ الرُّوم عَلَىٰ فَارِسَ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآن.

وقيل: إنَّ الَّذِي رَاهَنَ أَبَا بَكْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو «أُمَيَّةُ بْنُ خَلف»، على عَشْرِ قَلَائِص «وهي من الإبل الشابَّة»، ثُمَّ زَادَ أَبو بكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْأَجَلَ، وزاد في القلائِصِ فجعلَها مِئَةً.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿... لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧)﴾:

أي: للهِ وَحْدَهُ كُلُّ الْأَمْرِ مِنْ تَصَارِيفِ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ قَبْلِ انْتِصَارِ فَارِسَ عَلَىٰ الرُّوم، فَهُو الَّذِي نَصَرَ فَارِسَ يَوْمَئِذٍ، وللهِ وَحْدَهُ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِ انْتِصَارِهِمْ، فَهوَ الَّذِي سَيَنْصُرُ الرُّومَ عَلَىٰ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِين، ويَوْمَ يَتَحقَّقُ انْتِصَارُ الرُّوم عَلَىٰ فَارِسَ يَفْرَحُ المؤْمِنُونَ بهذا الانْتِصارِ، لأَنَّ الرُّومَ أَهْلُ كِتَاب. ويَفْرَحُ المؤمِنُونَ أَيْضاً بانْتِصَارِهِمْ عَلَىٰ مُشْرِكِي قُرَيشٍ فِي

غَزَواتٍ أَوَّلُها غَزْوَةُ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، وهَـٰذا النَّصْرُ هُوَ مِنَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ تَقْدِيراً وَقَضاءً وخَلْقاً، أَوْ إِذْناً وَتَمْكِيناً، فَهُوَ الَّذِي يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ، ومَا النَّصْرُ دَواماً إِلَّا مِنْ عِنْدِ الله.

- ﴿... وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾: أي: واللهُ وَحْدَهُ هو الْقَوِيُّ الغالِبُ، وَذُو الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ بِعِبادِه.

- ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾:

أي: إنَّ الْإِنْبَاءَ بأنْ يَنْصُرَ اللهُ الرُّومَ عَلَىٰ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ؛ خَبَرٌ عَنْ أمْرٍ غَيْبِيٍّ مُسْتَقْبَلِيٍّ سَيَقَعُ فِي المسْتَقْبَلِ الْقَرِيب، حَالَةَ كَوْنِهِ وَعْدَ اللهِ صَادِراً عَنْهُ، ويَجْرِي الْوَاقِعُ بِتَقْدِيرِهِ وقضائِهِ أَوْ إِذْنِهِ، وهُوَ مَشْمُولٌ بِعِلْمِهِ المحِيطِ بِمَا كَانَ وبِمَا هُوَ كائِنٌ وبما سَيكُون.

ومن صِفَاتِ اللهِ أَنَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، إِذْ صِدْقُ الْوَعْدِ مِنْ صِفَاتِ كمالَاتِ الله، وهُو ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يُخْلِفَ وَعْدَه.

ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ بِكَمالَاتِ صِفاتِ اللهِ، وتَنَزُّهِهِ عَنِ النقائِصِ كُلِّها، فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ فيما يُخْبِرُ بِهِ حَقٌّ، ولَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الميعاد، وَغَيْرُ مُؤْمِنِينَ بأَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهُ، فَهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ بالْأَنْبَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا آيَاتُهُ.

واسْتَدْرَكَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ بالنِّسْبَةِ إلى عِلْم النَّاس، فأَبَانَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وأَنَّهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُون.

أَمَّا عِلْمُ أَكْثَرِ النَّاسِ بِظَاهِرٍ مِنَ الحياةِ الدُّنْيا؛ فَهُو عِلْمُهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ لِحَياتِهِمُ الدُّنْيا، وَيَقَدِّمُ لَهُمْ مَا يُحِبُّونَ مِنْ مَتَاعَاتِها، ولَذَّاتِهَا، وَمَا تَهْواهُ نُفُوسُهُمْ مِنْها.

فالْعِلْمُ بأحْسَنِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُقَدِّمُ لَهُمْ أَطْيَبَ الْأَطْعِمَةِ وأَلَذَّهَا؛ هُوَ مِنَ الْعِلْم بِظَاهِرٍ مِنَ الحياة الدُّنْيا.

والْعِلْمُ بأحْسَنِ الوسَائِلِ الَّتِي تُنْتِجُ أفْضَلَ المزارعِ وأَحْسَنَ الثَّمَرَاتِ؛ هُو مِن الْعِلْمِ بظاهِرٍ مِنَ الحياة الدُّنيا.

والْعِلْمُ بأَحْسَنِ وَسَائِلِ كَسْبِ الأمْوال؛ هو مِنَ الْعِلْمِ بظاهِرٍ من الْحَيَاةِ الدُّنيا.

والْعِلْم الموصِلُ إلىٰ صِنَاعَةِ أحْسَنِ المراكِبِ الْبَرِّيَّةِ والْبَحْرِيَّةِ والجوِّيَّة؛ هُو مِنَ الْعِلْمِ بظَاهِرٍ مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيا.

والْعِلْمُ الموصِلُ إلى مَعْرِفَةِ أَفْضَلِ الأدْوِيَةِ والْعِلاجَاتِ الطِّبِّيَّة؛ هو من الْعِلْمِ بظاهِرٍ من الحياةِ الدُّنيا.

وهَكَذا إلى أَمْثِلَةٍ كَثيرَة لَا تَكَادُ تُحصَىٰ.

أَمَّا بَاطِنُ مَا فِي الحياة الدُّنْيَا فَهُو دَلَالَةُ كُلِّ شَيءٍ فيها على الخالِقِ البارئ المُصَوِّرِ، الرَّحِيمِ بِعِباده، والَّذِي أَتْقَنَ كَلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، وَخَلَقَ أَحْسَنَ الْأَشْيَاءِ وَأحْكَمَهَا لِحَياةِ الابْتِلَاءِ، وَجَعَل مَا جَعَلَ فيها دَالّاً عَلَىٰ صِفَاتِهِ العظْمَىٰ وَأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ.

ومَعْرِفَةُ صِفاتِ اللهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ؛ تَهْدِي إِلَىٰ الإيمانِ بالجزاءِ الرَّبَّانِيِّ الحكِيم، والْإيمَانُ بالجزاءِ الرَّبَّانِيِّ الحكِيم يَهْدِي عَنْ طَرِيق اللَّوازِمِ الْعَقْلِيَّةِ إِلَىٰ الإيمانِ بالْآخِرَةِ حَتْماً، ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَنْ هٰذِهِ الحقيقَةِ العظْمَىٰ غَافِلُون.

وبياناً لِهٰذِهِ الحقيقةِ قَالَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فِي وَصْفِ أَكْثَرِ الناس:

- ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ⑦﴾:

أي: وهم ـ بالتأكِيدِ المشَدَّدِ ـ غافِلُونَ عَنِ الحياةِ الآخِرَةِ، الَّتِي تكُونُ

بَعْدَ الْبَعْثِ إلى يَوْمِ الدِّين، وغافِلُونَ عَمَّا سَوْفَ يَكُونُ فِيها مِنْ جزاءٍ بالثَّوَابِ أَوْ بِالْعِقَاب، إِذْ تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللهِ تَحْقِيقَ هٰذا الجزاء.

إِنَّهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ، مَعَ وُجُودِ أَدِلَّةِ الْجَزاءِ يَوْمَ الدِّينِ فِي ظَاهِرَاتِ الحياةِ الدُّنْيا، وَهِي تَسْتَثِيرُ كُلَّ ذِي فِكْرٍ لِمَعْرِفَتِها، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ مُنصَرِفُو الأَذْهَانِ عَنْهَا، انْشغَالاً بمَتَاعَاتِ نُفُوسِهِم وَمَطَالِبِهِمْ لِحَياتِهِمُ الدُّنْيَا مِنْهَا، فَهُمْ لَا يَسْعَوْنَ لِلْآخِرَة والنجاة من عَذَابِها، والظَّفَرِ بنَعِيمِهَا؛ سَعْيَها الّذي جاءت بِهِ تَعالِيمُ دِينِ اللهِ وآياتُ كِتابِهِ، وأَرْسَلَ رَسُولَهُ ﷺ مُبَلِّغاً وَمُبَيِّناً.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الأول مِنْ دُروس سورة (الروم).

والحمد للهِ على معونَتِهِ، ومدَدِهِ، وتَوْفِيقِه، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الرُّوم) الآيات من (٨ ـ ١٦)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن

شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

القراءات:

(٩) • قرأ أبو عمْرو: [**رُسْلُهُمْ**] بإسْكانِ السّين، وهو لغة.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿رُسُلُهُم﴾ بِضَمِّ السّين، وهو لغة.

(١٠) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: [**ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ**] بِرَفْعِ لفظ «عَاقِبة».

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ بِنَصْبِ لفظِ «عاقبة».

والقراءتان وجهانِ عَربيانِ جائِزان.

(١٠) • قرأ أبو جعفر: [**يَسْتَهْزُونَ**]، وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف، ولَهُ أيضاً التَّسْهِيلُ بَيْنَ بَيْن، وله أيضاً الإبْدالُ ياءً [**يَسْتَهْزِيُونَ**].

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وللأزْرَق ثلاثة الْبَدَل.

(١١) • قرأ أبو عَمْرو، وشُعْبَةُ: [**يُرْجَعُونَ**].

وقرأهَا رَوْحٌ: [**يَرْجِعُونَ**].

وقرأها رُوَيس: [**تَرْجِعُونَ**].

وقرأها باقِي الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

وبيْنَها تكامُلٌ فِي الأَدَاءِ البياني.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرس بيانَاتٌ وإقْنَاعَاتٌ تتعلَّقُ بِقَانونِ الجزاءِ الرَّبَّاني، المعجَّلِ في الدُّنْيا، والمؤجَّلِ إلىٰ يَوْمِ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشركينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالجزاءِ الرَّبَّانِيّ الحكيم، القائِمِ عَلَىٰ الْعَدْلِ، والْفَضْلِ، وفي مُقَدِّمَةِ المعنيّينَ مُشْرِكُو مَكَّة إبَّانَ التنزيل:

• ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

• ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ ... ﴿٨﴾﴾:

أي: أَنْطَمَسَتْ عُقُولُهُمْ وَأَذْهَانُهُمْ وَبَصَائِرُهُمْ بِتَعَلُّقِهِمْ بمَتَاعَاتِ الحياةِ الدّنيا، وزِينَتِهَا، وَمَطَالِبِهِمْ مِنْهَا، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تفكُّراً سَدِيداً رَشِيداً يُوصِلُهُمْ إلَىٰ إدْرَاكِ الْغَايَةِ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مَا خَلَقَ هٰذِهِ المخْلُوقَاتِ العظْمَىٰ إلَّا مُتَّصِفَةً بالحَقِّ؟!.

ومِمَّا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ الْمَلَائِكَةُ والْجِنُّ والإنْسُ، والْقُوَىٰ غَيْرُ المنْظُورَةِ المنْتَشِرَةُ فِي بَاطِنِ هٰذا الكَوْنِ وَأَرْجَائِهِ.

والْحَقُّ هُوَ الشَّيْءُ الثَّابِتُ، وأجْزَاءُ هـٰذا الكَوْنِ أشْيَاءُ مَوْجُودَةٌ حَقّاً، وَلَيْسَتْ وَهْماً مِنَ الأَوْهَام، ومِنَ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ لِلْخَلْقِ غايَةٌ حَكِيمَةٌ، ولَمَّا كانَ مِنْ صِفَاتِ الباري ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ أَنَّهُ عَلِيمٌ، قَدِيرٌ، حَكِيمٌ، كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَلْقُ الإِنْسِ والجنِّ أمْراً حَكِيماً ذَا غَايَةٍ تُناسِبُ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ الْحَكِيم، وَأَنْ لَا يَكُونَ هـٰذا الْخَلْقُ عَبَثاً وَلَا لَهْواً وَلَا لَعِباً.

وبالتَّفكُّرِ السَّدِيدِ الرَّشِيدِ؛ يُدْرِكُ الْعُقَلَاءُ أَنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ فِي ظُرُوفِ هـٰذِهِ الحياة الدُّنْيَا لِيَبْلُوهُمْ، ويَلْزَمُ عَقْلاً مِنَ الابْتِلَاءِ الْجَزَاءُ، وإلَّا كَانَ الابْتِلَاءُ عَبَثاً، ويَلْزَمُ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ للابْتِلَاءِ أَجَلٌ يَنْتَهِي عِنْدَه، والْعَلِيمُ الْقَدِيرُ الْحَكِيمُ لَا بُدَّ أَنْ يُحَدِّدَ زَمَنَ الابْتِلَاءِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا، وأنْ يُسَمِّيَ الأَجَلَ الَّذِي يَنْتَهِي عِنْدَهُ، وبانْتِهائِهِ يأتِي زَمَنُ إِقَامَةِ سَاعَةِ إِفْنَاءِ الأَحْيَاءِ، وَتَغْيِيرِ نِظَامِ الكَوْنِ الْقَائِمِ المناسِبِ لِمُدَّةِ الابْتِلَاءِ، ثم يأْتِي زَمَنُ إِقَامَةِ سَاعَةِ الْبَعْث، وإيجادِ نِظَامٍ كَوْنِيٍّ يُنَاسِبُ يَوْمَ الجزاء الأكبر.

ودَلَّتْ عبارَة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ عَلَىٰ أَنَّ أجْهِزَةَ التفكِيرِ فِي النَّاسِ جُزْءٌ مِنَ أنْفُسِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ لِقَاءُ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْثِ للحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء؛ عُنْصُراً مِنْ عَنَاصِرِ خُطَّةِ الباري جَلَّ جَلَالُهُ لِتَحْقِيقِ الْغَايَةِ الحكيمَةِ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وهي الجزاءُ الْحَكِيمُ، وَكَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ مُتَعَلِّقِينَ بمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا، وزُخْرُفِها، وزِينَاتِهَا، ويُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ الآخِرَة؛ كَانَ الكثِيرُ مِنْهُمْ كَافِرِينَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وبياناً لِهـٰذِهِ الحقيقَةِ قَال اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿... وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ⑧﴾:

والباعِثُ لَهُمْ أَنْ يَكْفُروا أَنَّ الإِيمَانَ يَجْعَلُهُمْ يَتْركُونَ كَثِيراً مِمَّا يُحِبُّونَ مِنَ الدُّنْيا، وهُمْ مُتَشَبِّثُونَ بِهَا، وَلَا يَسْهُلُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَتْرُكُوها.

جَاءَ توكيد هٰذه العبارة بِ«إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللَّام المزحْلَقَة».

■ قول الله تعالىٰ:

• ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أيْ: أَاسْتَقَرَّ الْمَعْنِيُّونَ بالْعِلَاجِ وَهُمْ أَئِمَّةُ مُشْرِكِي مَكَّةَ فِي بَلَدِهِمْ، وَلَمْ يَسِيرُوا مُسَافِرِينَ في الأَرْضِ، وصُولاً إِلَىٰ بِلَادِ مُهْلَكِين سَابِقِينَ مِنْ أَقْوَام كَفَرَةٍ، فَيَنْظُرُوا بِأَعْيُنِهِمْ آثَارَ بُلْدَانِهِمُ المدَمَّرَةِ عَلَيْهِمْ، ويَعْلَمُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمُ الْوَخِيمَةُ تَعْذِيباً لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمُ الْعِنَادِيِّ الإِجْرَامِيِّ؟!.

والجواب: بَلْ سَارُوا وَنَظَرُوا، وعَلِمُوا، فَقَدْ شَاهَدُوا دِيَارَ ثَمُودَ، قَوْمِ النبيّ الرَّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وشاهَدُوا كَيْفَ قَلَبَ اللهُ أَرْضَ سَدُوم، قَوْمِ النبيِّ الرَّسُولِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وجَعَلَ مَكانَ دِيَارِهم الْبَحْرَ الميِّتَ، وَشَاهَدُوا دِيَارَ أَقْوَامٍ آخَرِينَ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَّعِظُوا وَلَمْ يَرْتَدِعُوا.

وبَعْضُ هٰؤلَاءِ الأَقْوَامِ المهْلَكِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قُوَّةً، مثل: «عَادٍ»، قَوْمِ النَّبيِّ الرَّسُولِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام، ومِثْل: «فِرْعَوْنَ» وآلِهِ وَجُنْدِه، الَّذِينَ كَذَّبُوا بالآياتِ التِّسْعِ الَّتِي آتاها اللهُ مُوسَىٰ ومَعَهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السلام.

• ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾: أي: وحَفَرُوهَا وحَرَثُوهَا لمنافِعِهِمُ الزراعِيَّةِ والْعُمْرانِيَّةِ والصِّناعِيَّة، أكْثَرَ مِمَّا أَثَارَ أَهْلُ مَكَّةَ الأَرْض التي كَانَ لهم سُلْطَانٌ عليها.

• ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: أي: وَعَمَرَ المهْلَكُونَ السَّابِقُونَ أَرْضَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرَ أَهْلُ مَكَّةَ أَرْضَهُمْ.

- ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي: وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالآياتِ البَيِّناتِ الواضِحاتِ، وَهِيَ الآياتُ البَيِّناتُ المنزَّلاتُ مِنَ الكُتُبِ والصُّحُفِ.

- ﴿... فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ⑨﴾:

أي: فَقَضَىٰ اللهُ أنْ يُنْزِلَ بِهِمْ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، بِقَضَائِهِ الْعَادِلِ، وَمَا كَانَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ اسْتِعْمَالُ سُلْطَانِهِ وقُدْرَتِهِ العظيمةِ؛ لِيَظْلِمَهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في قَضَائِهِ وَلَا في تَنْفِيذِ جزائِهِ العقابيِّ، ولَكِنْ كَانُوا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وبارتكابِهِم الجرائِمَ الكُبْرَىٰ، علَىٰ الرُّغم مِنْ تَحْذِيرِهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ وعَذابِهِ.

إِنَّ مَنْ يُبَلَّغُ أَنَّهُ إِذَا كَفَرَ بِرَبِّهِ وعَصَاهُ بمُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ ونَواهِيهِ؛ عَاقَبَهُ رَبُّهُ عِقَاباً أليماً، فَلَمْ يَعْبَأْ بِمَا جَاءَهُ مِنْ بَلاغٍ حَقٍّ، فَكَفَرَ وَعصَىٰ، ولَمْ يَتَدارَكْ نَفْسَهُ بالتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ؛ فَهُوَ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ بإدْخَالِهِ نَفْسَهُ تَحْتَ نَوَازِلِ عِقَابِ رَبِّهِ وعَذَابِهِ، الَّتِي جَاءَ التحذيرُ مِنْهُ فِي الْبَلَاغِ الحقِّ الصَّادِقِ عَنْهُ.

- ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ⑩﴾:

السُّوأىٰ: مؤنَّثُ «الأَسْوَأ»، والمرادُ بالسُّوأَىٰ هُنَا: دَارُ العذاب النَّار.

أي: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الْمُهْلَكِينَ مِنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ أَسَاؤُوا؛ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، بقَضاءٍ عَادِلٍ مِنْ رَبِّهِمْ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بآياتِ اللهِ الإعجازِيَّةِ وَآياتِهِ البيانِيَّة، وأَنَّهُمْ كانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ، إِنْكاراً لَهَا وَجُحُوداً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُبَيِّنُ خِطَّتَهُ لِحَياةِ الابْتِلَاءِ وَحَياةِ الجزاء:

- ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ⑪ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ

يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ
كَٰفِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)﴾:

- ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١)﴾:

أي: اللهُ الأزَلِيُّ بلا بِدَايَةٍ، الأَبَدِيُّ بلا نِهَايَةٍ؛ يَبْدأُ خَلْقَ مَا قَدَّرَ وَقَضَىٰ أَنْ يَخْلُقَهُ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، ثُمَّ يُمِيتُ الأَحْيَاءَ الَّتِي خَلَقَهَا، ويُفْنِي مَا يَشَاءُ أَنْ يُفْنِيَهُ، ثُمَّ يُعِيدُ الأحْيَاءَ الَّتِي أَمَاتَهَا، وَيُعِيدُ مِمَّا أَفْنَاهُ مَا شَاءَ أَنْ يُعِيدَهُ بِقُدْرَتِهِ العظيمة.

وخَاطَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ النَّاسَ بقَوْلِهِ:

- ﴿. . . ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١)﴾:

أي: ثُمَّ تُبْعَثُونَ لِلْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ، وإِلَىٰ حِسَابِ اللهِ تعالى، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ، تُرْجَعُونَ بالْجَبْرِ، فَأَنْتُم تَرْجِعُونَ مُطَاوِعِينَ.

- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢)﴾:

﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أي: يَسْكُتُ، وَيَيْئَسُ، وَيَنْدَمُ الْمُجْرِمُونَ.

المجْرِمُون: أي: المعْتَدُونَ بِذُنُوبٍ كَبِيرَةٍ، وقَدْ جاء لفظ «المجرمينَ» في القرآن عُنْوَاناً مُقَابِلاً لِلْمُسْلِمينَ، ووَصْفاً لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ خالِدِينَ فِي النار يَوْم الدِّين.

المعْنَىٰ: وَيَوْمَ تَقُومُ سَاعَةُ الْبَعْثِ، ويَشْهَدُ المجْرِمُونَ الكَفَرَةُ مَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ أَمْراً وَاقِعاً حقّاً، وأَنَّهُمْ سَيَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وتَكْذِيبِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ حِينَ كَانُوا فِي رِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَبَعْثِهِمْ؛ لَا يَجِدُونَ شيْئاً يَتَصَرَّفُونَهُ إِلّا الإبْلَاسَ ـ وهُوَ السُّكُوتُ ـ واليأسُ، وَالنَّدَمُ.

- ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: وَلَمْ يَجِدُوا أَحداً وَلَا أَكْثَرَ مِنْ آلِهَتِهِمُ الَّذِينَ جَعَلُوهُمْ شُرَكَاءَ للهِ فِي إلـٰهِيَّتِهِ، حين كانُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ الرَّبِّ الْواحِدِ الأَحَدِ الَّذِي لَا إِلـٰهَ بِحَقٍّ إِلَّا هُو، ولَا رَبَّ فِي الوجود سِوَاه.

وإِذْ لَمْ يَجِدُوا مِنَ الَّذِينَ كَانُوا آلِهَتَهُمْ شُفَعَاءَ لَهُمْ صَارُوا بِهِمْ كَافِرِين، ولَكِنَّ كُفْرَهُمْ بِهِمْ جَاءَ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ، وبَعْدَ انْتِهَاءِ حَيَاةِ الامْتِحَانِ، وبَعْدَ تَحَقُّقِ حَيَاةِ الجزاء.

- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: وَيَوْمَ تَقُومُ سَاعَةُ الْبَعْثِ، وَيُحْشَرُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضُوعِينَ بِحِكْمَةِ اللهِ مَوْضِعَ الامْتِحَان؛ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ، ويَنْقَسِمُونَ إِلَىٰ فَرِيقَيْنِ رَئِيسَيْنِ أَكْبَرَينِ:

الْقِسْمُ الأَوَّلُ: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم.

الْقِسْمُ الثَّانِي: الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِ رَبِّهِمُ الإعجازِيَّة، والجزائِيَّةِ، والبيانِيَّة.

- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

يُحْبَرُون: أي: يُسَرُّونَ، ويُنَعَّمُونَ، يُقَالُ لُغَةً: «حَبَرَهُ، يَحْبُرُهُ، حُبُوراً» أي: سَرَّهُ ونَعَّمَهُ.

والرَّوْضَةُ: الأرضُ المكْسُوَّةُ خُضرَةً، وأزْهَاراً، ووروداً، والْبُسْتَانُ الحسن، والمرادُ بالرَّوْضَةِ هُنَا الجنَّةُ دَارُ المتَّقِين يَوْمَ الدِّين.

المعنىٰ: فَأَمَّا فَرِيقُ الَّذِينَ كَانُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيَا مُؤْمِنِينَ يُعَبِّرُونَ عَنْ صِدْقِ إيمانِهِمْ بأعْمَالٍ صَالِحَاتٍ، فَهُمْ فِي الجنَّةِ دَارِ

نَعِيم المتّقِينَ يَوْمَ الدّين، يُسَرُّونَ، وينَعَّمُونَ، خَالِدِينَ فِيها فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ لَا يَنْقَطِعُ.

- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

- ﴿كَفَرُواْ﴾: أي: جَحَدُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ في رُبُوبيَّتِهِ، أو بِوَحْدَانِيّتِهِ فِي إلـٰهِيَّتِهِ، مَعَ وُضُوحِ أَدِلَّةِ وَحْدَانِيّتِهِ لهم.

- ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: وكَذَّبُوا بآيَاتِ اللهِ الْبَيَانِيَّةِ، وآيَاتِهِ الإعْجَازِيَّةِ، وآيَاتِهِ الجزَائِيَّة، علَىٰ الرُّغم مِنْ كَوْنِهَا آيَاتٍ بيِّنَاتٍ واضِحَات.

- ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أي: وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ فِي الآخِرَة للحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء.

- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾: أي: فأُولـٰئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ؛ سَوْفَ يَكُونُونَ مُقِيمينَ فِي عَذَابِ جهَنَّمَ، وسَوْفَ يَكُونُونَ مَسُوقِينَ قَهْراً إِلَىٰ دَرَكَاتِ تَعْذِيبِهِمْ في جهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها.

الإحضار: يكونُ بحَسَبِ الغايَةِ مِنْهُ، فإذَا كانَتِ الغايَة مِنْهُ الحساب وفَصْلَ القضاء؛ فالْمُحضَرُ يُساقُ قَهراً إِلَىٰ مَوْقِفِ مُحَاسَبَتِهِ وفَصْلِ القَضَاء بشَأْنِهِ، وإذا كانَتِ الغايَةُ مِنْهُ تَنْفِيذَ الجزَاءِ؛ فالْمُحضَرُ يُسَاقُ أَوْ يُحْمَلُ إِلىٰ المكان المعَدِّ لتَعْذِيبه فيه، والقَرائِنُ كَوَاشِفُ لِلْمُرَادِ بالإِحْضَارِ.

وبهـٰذا انْتَهىٰ مَا فتح اللهُ بِهِ مِنْ تَدَبُّر الدّرْسِ الثاني مِنْ دُروسِ سُورة (الروم).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، وَمَدِه، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الروم)

الآيات من (١٧ ـ ٢٧)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ
وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ
ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

القراءات:

(١٩) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، وشُعْبَة: [**الْمَيْت**] بإسْكَان الياء دُونَ تَشْدِيدٍ في الموضِعَيْن.

وقرأهُمَا باقي القرّاءِ العشرة: ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ بِتَشْدِيد الياء المكْسُورَة.

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبيان والمرادُ بهما واحد.

(١٩) • قرأ حمزة، والكسَائِيّ، وخلف، وابْن ذَكْوَان بخلف عنه: [**تَخْرُجُونَ**].

وقرأَهَا باقي القرّاء العشَرة وهو الثاني لابن ذكوان: **[تُخْرَجُوْنَ]**.

أي: تُخْرَجُونَ بِخَلْقٍ جَبْرِيّ، فَتَخْرُجُونَ مُطَاوِعين.

(٢٢) ● قرأ حفص: **[لِلْعَالِمِينَ]**.

وقرأَهَا بَاقِي القُرّاءِ العشَرة: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

وبين القراءتَيْنِ تكَامُل، أي: لِلْعَالِمِينَ مِنَ الْعَالَمِينَ.

(٢٤) ● قرأ ابْنُ كَثِير، وأبُو عمرو، ويَعْقُوب: **[وَيُنْزِلُ]**، مِنْ فعل «أَنْزَلَ».

وقرأهَا باقِي القراء العشرة: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾، مِنْ فِعْلِ «نَزَّلَ».

والقراءتَان متكافِئَتَان، إِذِ الْفِعْلُ المهموزُ أَخُو الْفِعْل المضَعَّف.

(٢٧) ● قرأ قَالُون، وأبُو عمرو، والكِسَائِي، وأبو جَعْفَر: **[وَهْوَ]** بإسْكان الهاء.

وقرأهَا باقي القراء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بِضَمِّ الْهَاءِ، ووقَفَ يَعْقُوبُ بهاء السَّكْت.

وكذا حيْثُ وَرَد.

إسْكَانُ هَاء «وَهْوَ» وضَمُّهَا نُطْقَانِ عَربيان.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، دَالَّاتٍ عَلَىٰ تَنْزِيهِ اللهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بأَزَلِيَّتِهِ وَأَبَدِيَّتِهِ، وعَلَىٰ أَنَّ لَهُ كُلَّ صِفَاتِ الكَمَالِ الَّتِي يُحْمَدُ عَلَيْهَا فِي السَّمَاوَاتِ، وَفي الأَرْض.

التَّدَبُّر التحليلي:

■ قول اللهِ تعالىٰ يُرْشِدُ عِبادَهُ إلىٰ تَنْزِيهِهِ والثَّناءِ عَلَيْهِ بالْحَمْدِ، فِي المَساء، وفي الصَّباحِ، وَفِي الْعَشِيّ، وعِنْدَ الظَّهِيرَة:

- ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ⑰ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ⑱﴾:
- ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: أي: حِينَ تَدْخُلُونَ في المسَاءِ، وهُو يُطْلَقُ عَلَىٰ مَا بَعْدَ الظُّهْرِ وقد يَمْتَدُّ إِلَىٰ مُنْتَصَفِ اللَّيل.
- ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: أي: وحِينَ تَدْخُلُونَ فِي الصَّباح، وهو أَوَّلُ النَّهار.
- ﴿وَعَشِيًّا﴾: الْعَشِيُّ هُوَ مِنْ أَوَّلِ وَقْتِ الْعَصْرِ إِلَىٰ غُروبِ الشَّمْس.
- ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: أي: وحِينَ تَدْخُلُونَ فِي وَقْتِ الظَهِيرَة. وهو منتصف النهار.

المعنىٰ: يُرْشدُ اللهُ عزَّ وجَلَّ عِبادَهُ المؤمِنينَ بِعِبارَةٍ خَبَرِيَّةٍ لَا أَمْرَ فِيها وَلَا تَكْلِيفَ؛ إِلَىٰ أَنْ يُسَبِّحُوا اللهَ وَيَحْمَدُوهُ في وقْتِ الْمَسَاءِ، وفِي وقْتِ الصَّباحِ، وفي وَقْتِ العشِيِّ، وفي وقْتِ الظَّهِيرَةِ.

إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ مُنَزَّهٌ دواماً عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وعَظِيمِ سُلْطانِه، وهُوَ مَحْمُودٌ دَواماً بِكُلِّ صِفَاتِ الكَمالِ في السَّماوَاتِ والأَرْضِ، فذِكْرُ أَوْقَاتِ الْمَسَاءِ، والصَّباحِ، والْعَشِيّ، والظَّهِيرَةِ؛ يَدُلُّ دَلَالَةً ضِمْنِيَّةً عَلَىٰ إِرْشَادِ المؤمِنِينَ إلىٰ أَنْ يُسَبِّحُوا رَبَّهُمْ فِي هـٰذِهِ الأَوْقَاتِ.

وَجاءَتْ عِبارَةُ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جُمْلَةً مُعْتَرِضَةً لِتُؤَدِيَ دَلَالَتَيْن:

الأولىٰ: أَنَّ اللهَ مَحْمُودٌ في كُلِّ الكَوْنِ، إِذْ يَدُلُّ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ علىٰ صِفَاتِهِ العظْمَىٰ، وأَسْمَائِهِ الحسنَىٰ.

الثَّانِية: ارْتِبَاطُ التَّسْبِيحِ بالْحَمْدِ، فالتَّسْبِيحُ تَنْزِيهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ لَا يَلِيقُ بأَزَلِيَّتِهِ وأَبَدِيَّتِهِ، والْحَمْدُ ثَنَاءٌ بِصِفَاتِهِ العظْمَىٰ ذَاتِ الكَمَالِ الّذِي لَا حَدَّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ.

ولهـٰذا جَاءَ في العبارات المرْويَّاتِ عن النّبيّ ﷺ: سُبْحَانَ اللهِ والْحَمْدُ لله، سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِه.

- ■ قول الله تَعَالَىٰ مبيّناً بَعْضَ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ:

- ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: مِنْ آيَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّهُ يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميّتِ، ومِنْهَا أَنَّهُ أخْرَجَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام حَيّاً مِنْ طِينٍ جافٍّ لَا حَيَاةَ لَهُ، فَهُوَ كَائِنٌ إِنْسَانٍ ذو نفس مَيِّتٍ، ويُخْرِجُ مِنَ الْبُيُوضِ المَيِّتَةِ الأحْيَاءَ الَّتِي تَفْقِسُ عَنْهَا الْبُيُوضُ، وَأَخْرَجَ نَاقَةَ صَالح ـ عَلَيْهِ السلام ـ من صَخْرَةٍ مِنْ صُخُورِ الْجَبَلِ، وكُلُّ جَنِينٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيهِ الرّوحُ كَانَ مَيِّتاً، وَيُخْرِجُ اللهُ مِنْهُ كَائِناً حَيّاً بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيه.

ويظْهَرُ أَنَّ المرادَ بالإخْرَاجِ التَّحْوِيلُ مِن مَيّتٍ إلَىٰ حَيٍّ، إِذْ هو بهـٰذا يَخْرُجُ مِنْ وَضْعٍ إلَىٰ وضْعٍ آخَرَ، وَمِنْ حَالِ سُكُونٍ أَوْ نَمُوٍّ كَنُمُوِّ النَّبَاتَاتِ؛ إلَىٰ وَضْعٍ آخَرَ وحَالٍ أُخْرَىٰ يَكونُ فِيهَا كَائِناً يَتَحرَّكُ تَحرُّكاً إرادِيّاً ذا حَيَاةٍ خاصَّةٍ جامِعَةٍ لكلّ أجزائِهِ وخَلَايَاه.

- ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾: أَيْ: ويُخْرِجُ نَبَاتَاتِ الأَرْضِ مِنْ بُزُورِهَا أو نَوَيَاتِهَا الميّتَةِ، الَّتِي لَا خُضْرَةَ وَلَا نُضْرَةَ لَها، فَيَجْعَلُهَا ذَاتَ حَيَاةٍ نَبَاتِيَّةٍ وَذَاتَ ثَمَرٍ نَافِعٍ وَفِير، فالمرادُ بالأَرْضِ نَبَاتَاتُها.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾: أي: وَكَذَلِكَ الإحْيَاءِ للنَّبَاتَاتِ مِنْ بُزُورِها أَوْ نَوَيَاتِهَا المَيّتَةِ؛ تُخْرجُونَ أَيُّهَا النَّاسُ حِينَ الْبَعْثِ إلَىٰ ظُرُوفِ الْحَياةِ

الأُخْرَىٰ، مِنْ نَوَيَاتِكُمُ الْبَاقِيَةِ في الأَرْضِ، والَّتِي قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ أَنْ لَا تَفْنَىٰ، وَهُوَ عَلَىٰ إِعَادَةِ إِيجادِكُمْ مِنَ الْعَدَمِ قَدِيرٌ، وَعِلْمُهُ بِكُلِّ صِفَاتِ وَخَصَائِصِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْكُمْ كَافٍ لإِعَادَتِكُمْ، ولَكِنَّ للهِ خُطَّةً فِي إِبْدَاءِ الْخَلْقِ وإِعَادَتِهِ، أَبَانَهَا فيما أَنْزَلَ في آيَاتِ كِتَابِهِ، وفِيمَا أَنْطَقَ بِهِ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، مِن بيَانَاتٍ ثَبَتَتْ صِحَّتُهَا.

- ■ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ:
- ● ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾:
- ● ﴿تَنتَشِرُونَ﴾: أَيْ: تَتَفرَّقُونَ في الأَرْضِ بِحَسَبِ مَطَالِبِ حَيَواتِكُمْ وَمَعَايِشِكُمْ، ومَا تُرِيدُونَ فِي تَنَقُّلَاتِكُمْ مِنْ مَكَانٍ لآخَر.

أي: ومِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ مخْتَلِطٍ بالماء.

فآدَمُ - عَلَيْهِ السَّلام - أَبُو الْبَشَرِ جَمِيعاً خَلَقَهُ اللهُ مِنْ طِينٍ جفَّ بَعْدَ أَنْ صَوَّرَهُ وَأَتْقَنَ أَجزاءَهُ الظَّاهِرَةَ والْبَاطِنَةَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَصَارَ بَشَراً سَوِيّاً حَيّاً.

وحَوَّاءُ أُمُّ الْبَشَرِ خَلَقَها اللهُ مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِ آدم - عَلَيْهِ السَّلام -، فَهِيَ أَيْضاً مِثْلُ آدَمَ مِنْ تُراب.

والنُّطَفُ الّتِي تَنَاسَلَ مِنْهَا سَائِرُ الْبَشَرِ مُتَحوِّلَاتٌ من الدِّمَاءِ، والدِّمَاءُ مُتَحوِّلَاتٌ مِنَ الأَغْذِية، والأَغْذِيَةُ تَرْجِعُ جَمِيعُها إِلَىٰ تُرَابِ الأرضِ مُخْتَلِطاً بالْمَاءِ، أَمَّا الأَغْذِيَةُ النَّبَاتِيَّةُ فأَمْرُهَا ظَاهِرٌ، وأمَّا الأَغْذِيَةُ الْحَيَوانِيَّةُ، فَجَمِيعُ الْحَيوانَاتِ تَرْجِعُ أَغْذِيَتُها وَتكَوّنُ أَجْسَادِهَا إِلَىٰ تُرَابِ الأَرْضِ مَعَ الْمَاءِ.

وجاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ بيانُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ النَّاسَ مِنْ طين، وأَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِين، وأَنَّهُ خلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماء.

وَمِنَ الْمُشَاهَدِ أَنَّ أَجْسَادَ النَّاسِ وسَائِرِ الأَحْيَاءِ مُكَوَّنَةٌ مِنْ مَاءٍ، ومِنْ عَنَاصِرَ مِنْ تُرَابِ الأَرْضِ بما فِيهِ مِنْ مَعَادِن.

• ﴿... ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ تَكْوِينِ أجْسَادِكُمْ ونُفُوسِكُمْ فِي بُطُونِ أَمَّهَاتِكُمْ، وَبَعْدَ نَفْخِ أَرْواحِكُمْ فِيها، وبَعْدَ تَكَامُلِ خَلْقِكُمْ أَطْفَالاً، وبَعْدَ وِلَادَتِكُمْ وتَجَاوُزِكُم مَرْحَلَةَ الطُّفُولَة، وَوُصُولِكُمْ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ الاسْتِقْلَالِ بِتَصَرُّفَاتِكُمْ؛ تُفَاجِئُونَ مَنْ يُرَاقِبُ أَطْوَارَكُمْ بِأَنَّكُمْ بَشَرٌ مُكْتَمِلُو الْخَلْقِ تَنْتَشِرُونَ مُتَفَرِّقِينَ فِي الأَرْضِ، سُهولِها، وجبالِهَا، وَوِدْيَانِها، وَمُدُنِهَا، وَقُرَاها، بِحَسَبِ مَطَالِبِ حَيَواتِكُمْ وَمَعَايِشِكُمْ، وَمَا تُحِبُّونَ وَتَهْوَوْنَ مِنْ دُنياكم.

■ قول اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾:

أي: ومِنْ آياتِ اللهِ الْجَلِيلَةِ في كَوْنِهِ؛ أَنَّهُ خَلَقَ لِلرِّجَالِ مِنْ نَوْعِ أَنْفُسِهِمْ أَزْوَاجاً لِيَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وأَنَّهُ جَعَلَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أَزْوَاجِهِمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، فَحَوَّاء خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِ آدم عَلَيْهِ السَّلام، ففيها وفي ذُرِّيَاتِهَا كَثِيرٌ مِنْ خَصَائِصِ هٰذا النوع من الأحياء.

• أمّا السُّكُونُ لِلأَزْوَاجِ؛ فَهُو الحالَةُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الزَّوْجَ يَأْنَسُ بِزَوْجِهِ، وَيُصِيبُ مِنْهُ مُتْعَةً وَلَذَّةً، وَهٰذِهِ الْحَالَةُ تُخْرِجُ نَفْسَهُ مِنَ القَلَقِ والاضطِّرابِ وَالتَّوتُّرِ، الَّتِي تَجْلُبُهَا لَهُ مُنَغِّصَاتُ الحياةِ وأَكْدَارُهَا، وَهِيَ كَثِيرَةٌ جداً، فَالأُنْسُ والاسْتِمْتَاعُ بالزَّوْجِ الملائم، مِمَّا يُنْسِيهِ مُشْكِلَاتِ الحياةِ المقْلِقَةِ المثيرَةِ للاضطرابِ والتَّوتُّرِ، فَتَهْدَأُ نَفْسُهُ وَتَسْتَرْخِي وأخيراً تَسْكُنُ سُكُونَ رَاحَةٍ.

الزَّوْج: خِلَافُ الْفَرْدِ، وَكُلُّ مُقْتَرِنَيْنِ هُمَا زَوْجَان، ولَوْ كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ، فالرَّجُلُ مَعَ زَوْجَتِهِ زَوْج، والمرأَةُ مَعَ زَوْجِهَا زَوْج، وجمع الزَّوجِ أَزْوَاج، رِجَالاً أَوْ نِسَاءً.

ومِنْ طبيعَةِ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ المتلائِمَيْنِ أنْ يَسْكُنَ لِزَوْجِهِ، فَهُوَ يَسْكُنُ مَائِلاً إِلَيْهَا، وهِيَ تَسْكُنُ مَائِلَةً إِلَيْهِ.

المودَّة: نَوْعٌ مِنَ الحبِّ الهادِئ الثَّابِتِ الَّذِي يَكُونُ بيْنَ الأَصْحَابِ والإخوانِ وذَوِي الْعَلاقَاتِ الْقَوِيَّة، وَلَا يُطْلَقُ علىٰ المشبُوب بالْعَواطِفِ الثائِرَة.

الرَّحْمَة: عَاطِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَدْفَعُ مَنْ تَتَحرَّكُ فِيهِ إِلَىٰ الْعَطَاءِ والمسَاعَدَةِ والمواسَاةِ، ومُشَارَكَةِ المعْطُوفِ عَلَيْهِ فِي آلامِهِ وآمَالِهِ.

فإذَا لَمْ تُوجَدْ مَوَدَّةٌ بَيْنَ الزَّوْجَيْن، أَوْ لَمْ تُوجَدْ بَيْنَ أَحَدِهِمَا تُجاهَ الآخَرِ؛ فَلا أَقلَّ مِنْ أَنْ تَصْنَعَ العِشْرَةُ بَيْنَهُمَا إِلْفاً يُوَلِّدُ رَحْمَةً دَافِعَةً إِلَىٰ الْعَطَاءِ والْمُسَاعَدَةِ والْمُواسَاةِ، وهٰذَا بالنِّسْبَةِ إِلىٰ مُعْظَم النَّاسِ، باسْتِثْناءِ الْقِلَّةِ الشَّاذِّينَ الَّذِينَ نُزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قُلُوبهم، وفي هٰذا امتنانٌ من اللهِ علىٰ النَّاسِ بأَنْ خَلَقَ لَهُمْ أَزْوَاجاً مِنْ أنفسهم.

- ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾: أي: إنَّ في الّذي جاءَ فِي هٰذِهِ الآيَةِ مِنْ بَيَانٍ لآياتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ جَلِيلَاتٍ، يُدْرِكُهَا قَوْمٌ يَتفكَّرُونَ تفكُّراً مُتَأَنِّياً عَمِيقاً فِيمَا خَلَقَ الله، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيم قُدْرَة اللهِ، وعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وعِنَايَتِهِ ورَحْمَتِهِ بَعِبَادِهِ، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

فخَلْقُ الأَزْوَاجِ مِنْ أَنْفُسِ النَّاسِ رَابطٌ اجْتماعِيٌّ عَظِيمٌ فِيهِ الإيناسُ، والإِمْتَاعُ، والتَّعَاوُنُ، وبناءٌ لِلْخَلِيَّةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الأُوْلَىٰ الَّتِي هي الأُسْرَةُ، وَحِينَ يَتّبعُ النَّاسُ نِظَامَ الأُسْرَةِ في الإِسْلَامِ، يَتَكَوَّنُ مُجْتَمَعٌ سَعِيدٌ عَابِدٌ لِرَبِّهِ، وَخَالٍ مِنَ الشُّرورِ والْعُدْوانِ والطُّغْيَان.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وَمِنْ آيَاتِ اللهِ العظيمةِ في كَوْنِهِ الدَّالَّاتِ علىٰ كَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ وَأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ ورُبُوبيَّتِهِ الواحِدَةِ لِكَوْنِهِ كُلِّهِ خَلْقُهُ للسَّمَاوَاتِ وَخَلْقُهُ لِلأَرْضِ بِمَا فِيهِمَا مِنْ مُدْهِشَاتٍ لِعُقُولِ أُولِي الأَلْبَابِ المتفكّرِينَ الْعَالِمِينَ بِمَا فِيهَا مِنْ صِفَاتٍ عَظيمَةٍ وإتْقَانٍ بَدِيعٍ، وَهـٰذِهِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ صِفَاتِ خَالِقِهِمَا غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ في السُّمُوّ والْعُلُوِّ الكَمَالِي.

ومِنْ آيَاتِهِ الباهرة أيْضاً اخْتِلَافُ أَلْسِنَةِ النَّاسِ في التَّعْبِيرِ عَمَّا تُرِيدُ أَنْفُسُهُمُ التَّعْبِيرَ عَنْه، فَلَمْ يَجْعَلْ سُبْحَانَهُ أَلْسِنَةَ التَّعْبِيرِ عَنْ مُرَادَاتِ الأَنْفُسِ فِي شُعُوبِ الأَرْضِ وَاحِدَةً بالْفِطْرَةِ، بِخِلَافِ الطُّيُورِ، فَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا ذُو مَنْطِقٍ يَتَفَاهَمُ بِهِ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أفرادِ نَوْعِهِ مَهْمَا تَبَاعَدَتْ مَوَاطِنُهُمْ، وكَذَلِكَ سَائِرُ الحيوانات.

ويَلْزَمُ مِن اخْتِلَافِ الأَلْسِنَةِ تَفَاضُلُ اللُّغَاتِ فِيمَا بيْنَها، وهَـٰذا التَّفَاضُلُ إِحْدَىٰ ظَوَاهِرِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ فِي الكَوْن.

وَمِنْ آيَاتِ اللهِ الْبَاهِرَة اخْتِلَافُ أَلْوَانِ النَّاس، فَمِنْهُمُ الْبِيضُ عَلَىٰ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِ البياضِ فيما بيْنَهم، وَمِنْهُمُ السُّودُ عَلَىٰ اختِلَافِ دَرَجَاتِ السَّوَادِ فيما بَيْنَهُمْ، ومِنْهُمُ السُّمْرُ، ومِنْهُمُ الصُّفْرُ، ومِنْهُمُ الْحُمْرُ، والباحِثُونَ العالِمُونَ من الْعَالَمِينَ، هُمُ الَّذِينَ تَهْدِيهِمْ بُحُوثُهُمْ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ أَسْبابِ اخْتِلَاف الأَلْوَانِ فِي السُّلَالَاتِ الْبَشَرِيَّة، وإدْرَاكِ آيَاتِ الله فيها.

■ قَولُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

إنَّ مِنَ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ لِلنَّاسِ جَمِيعاً؛ أَنَّ اللهَ قَدْ جعَلَ لَهُمُ النَّوْمَ بالَّيْلِ والنَّهارِ سَبباً مِنْ أَسْبَابِ رَاحَتِهِمْ، مِنْ عَنَاءِ الكَدِّ وَالكَدْحِ والْعَمَلِ فِي سَاعَاتِ يقظَتِهِمْ، وأَنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ سَاعَاتِ يَقظَتِهِمْ وَنَشَاطِهِمْ؛ زَمَناً مُلَائِماً

لاكْتِسَابِ أَرْزَاقِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ لِحَيَواتِهِمْ، مِنْ فَضْلِ رَبِّهِم الَّذِي يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ.

ولِظُهُورِ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ يَكْفِي التَّنْبِيهُ عَلَيْهِما بِبَيَانٍ كَلامِيٍّ يُسْمَعُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي البيان: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

إنَّ ظَاهِرَةَ الْبَرْقِ مِنْ تَصَارِيفِ الظّاهِرَات الكَوْنِيَّةِ الَّتِي يُجْرِيها اللهُ عزَّ وَجلَّ فِي كَوْنِهِ، مِنْ آياتِ اللهِ، وَهـٰذِهِ الظَّاهِرَةُ تُخِيفُ لاحْتِمَالِ إِنْزَالِ الصَّوَاعِقِ الْمُهْلِكَةِ الْمُدَمِّرَةِ بها، وهِيَ تُطْمِعُ الْمُحْتَاجِينَ لِمَاءِ السَّمَاءِ باحْتِمَالِ إِنْزَالِ مَطَرِ السَّمَاءِ بِها أَوْ مَعَها، لِيُحْيِيَ اللهُ عَزَّ وجلَّ زُرُوعَ الأَرْضِ بِهِ بَعْدَ مَوْتها.

والْبَرْقُ حَدَثٌ كَهْرَبَائِيٌّ يَعْرِفُهُ عُلَماءُ الْفِيزْيَاء من احْتِكَاكِ السّالِبِ وَالْمُوجِبِ فِي السَّحَاب.

وَلمَّا كَانَ الْبَرْقُ ظَاهِرَةً تُخِيفُ وتُطْمِعُ؛ كَانَتْ آيَةً لِقَوْم يَعْقِلُونَ بإِرَادَاتِهِمُ الْقَوِيَّة نُفُوسَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ؛ عَنِ ارْتِكَابِ المعاصِي بِتَرْكِ الواجِبَاتِ وَفِعْلِ الْمُحَرَّمَات.

الْعَقْلُ هُنَا عَقْلٌ إِرادِيّ، وهُوَ الَّذِي يَضْبِطُ السُّلُوكَ عن الانْحِرَاف خُرُوجاً عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: ومِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ؛ أَنْ يَسْتَمِرَّ كُلُّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في السَّماء والأرض مُحَافِظاً عَلَىٰ الْقِيَام بالْعَمَلِ المقدَّرِ المقْضِيِّ لَهُ، دُونَ خُرُوجٍ عَنْهُ وَدُونَ إِخْلَالٍ به، وَهَـٰذا القِيَامُ المسْتَمِرُّ مُنْذُ إنْشاءِ اللهِ السَّمَاءَ والأَرْضَ؛ إِنَّمَا يَتَحقَّقُ بِأَمْرِ اللهِ التَّكْوِينيّ وَسُلْطَانِهِ الدَّائِمِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ في كَوْنِهِ.

ثُمّ بَعْدَ مَوْتِكُمْ أَيُّها النَّاسُ، وَقِيَامِ السَّاعَةِ الأُولَىٰ، سَاعَةِ تَغْيِيرِ نِظَام الحَياةِ الدُّنْيا، وَبَعْدَ قِيَام السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ سَاعَةِ بَدْءِ نِظَام الحياة الأُخْرَىٰ، الَّتِي يَكُونُ عَقِبَهَا بَعْثُ الأَحْيَاءِ لِيَوْم الدّينِ؛ تُفَاجَؤُونَ بأَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ أَحْيَاءً للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، بِدَعْوَةٍ يَدْعُوكُمُ اللهُ إِيَّاهَا لِلْخُرُوجِ مِنَ الأَرْضِ أَحْيَاءً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وَللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مِلْكُ مَنْ في السَّماواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ مِنْ أَحْيَاء ذَوِي عِلْمٍ، فَهُمْ عَبِيدُهُ، لأَنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ.

● ﴿... كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾: **القُنُوت**: يأتي بمَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ، وَيأْتِي بمعنىٰ الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ والذُّلّ، وهـٰذَا المعْنَىٰ هُوَ الْمُلَائِمُ هُنَا، لأَنَّ فِي الأَرْضِ مِنَ الجنِّ والإنْسِ كَفَرَةً غَيْرَ عَابِدِينَ للهِ بإرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ، لَكِنَّهُمْ مُطِيعُونَ بالْجَبْرِ لأَوَامِرِهِ التَّكْوِينِيَّةِ ولتَصارِيفِهِ، خَاضِعُونَ أَذِلَّاءَ، لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ فِي إيقافِ شيءٍ مِنْ أَوَامِرِهِ التَّكْوِينيَّة وَتَصارِيفِهِ، وَلَوْ كَانُوا كَارِهِينَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: واللهُ ـ عَزَّ وجلَّ ـ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَبْدأُ خَلْقَ الأَحْيَاء، وهُوَ

وَحْدَهُ الَّذِي يُعِيدُهُمْ إِلَىٰ مِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُمِيتَهُمْ ويُفْنِيَ أَجْسَادَهم، وَهـٰذَا الْخَلْقُ الثَّانِي الَّذِي هُوَ إِعَادَةٌ لِلْخَلْقِ الأَوَّلِ؛ هُوَ فِي مقايِيسِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، لأَنَّكُمْ تَرَوْنَ أَنَّ الْبَدْءَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ أَصْعَبُ مِنَ الإِعَادَة، مَعَ أَنَّ الإِعَادَةَ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ مِثْلُ الْبَدْءِ، لأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ شَيئاً فإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ فَوْراً دُونَ فَاصِلٍ زَمَنِيّ.

- ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: وَلَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ المَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي خَلْقِهِ للسَّماوَاتِ والأَرْضِ، فَهـٰذَا الْخَلْقُ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ فِي حجُومِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ، وَهُوَ مَثَلٌ أَعْلَىٰ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عَلَىٰ الْخلْقِ، وخَالِقُ المثَلِ الأَعْلَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ خَلْقِ المثَلِ الأَدْنىٰ بَدَاهَةً، فَلَا عَجَبَ فِي أَنْ يُعِيدَ اللهُ خَلْقَ الأَحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ يُمِيتَهُمْ، ويُفْنِي أَجْسَادَهُمْ.

- ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

الْعَزِيز: أي: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ الَّذِي لَا يُعَانِدُ قُوَّتَهُ شَيْءٌ فِي الْوُجُود.

الْحَكِيم: أي: الَّذِي يُجْرِي خَلْقَهُ وَتَصَارِيفَهُ وَأَحْكَامَهُ عَلَىٰ أَفْضَلِ الاحْتِمَالَاتِ وَأَحْكَمِهَا، بِوَضْعِ الأَشْيَاءِ في أَحْسَنِ وأَفْضَلِ الاحْتِمَالَاتِ الْمُلَائِمَاتِ لِمَا تُوضَعُ له، ومِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ قَدَّرَ وَقَضَىٰ حَيَاةً أُخْرَىٰ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، بَعْدَ الحياة الدُّنْيا حَيَاةِ الامْتِحَانِ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ مَا فتح اللهُ بِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الرُّوم).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الرُّوم)

الآيات من (٢٨ ـ ٣٥)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ
فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن
يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ
بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾:

القراءات:

(٣٠) ● وقف ٱبن كثيرٍ، وأبو عمْرو، والكِسَائيُّ، ويَعْقُوب، بالهاء علىٰ: **[فِطْرَتَ]**.

ووقف باقي الْقُرّاءِ العشرة عَلَيْها بالتّاء.

(٣٢) ● قَرأ حَمْزَةُ، والكِسَائي: **[فَارَقُوا]**.

وقرأها باقي الْقُرّاءِ العشرة: ﴿فَرَّقُوا۟﴾.

وبَيْنَ الْقِراءَتَيْنِ تكامُل فِي أَداءِ المعْنَىٰ المراد.

(٣٢) ● قَرَأَ حَمْزَة، ويَعْقُوب: **[لَدَيْهُمْ]** بضم الميم.

وَقَرَأَها بَاقِي الْقُرّاء العشرة: **[لَدَيْهِمْ]** بكسر الميم.

(٣٥) • قَرأ حمزة، ويَعْقُوب: [عَلَيْهُمْ] وهي لغة عربية.

وقرأها باقي القرَّاء العشرة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وهي لغة عربيَّة.

(٣٥) • قَرأ قَالُون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسكان الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَهُوَ] بِضَمِّ الهاء. وهما لغتان عربيّتان.

تمهيد:

فِي آيَات هـٰذا الدَّرس قَضَايَا تَتَعَلَّقُ بِبُطْلَانِ الشّرك، وأنَّ المشركين يتَّبعُونَ أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، مَعَ تَوْجِيهِ الأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ بإِقَامَةِ الْوَجْهِ للدِّينِ حَنِيفاً، والأَمْرِ بالتَّقْوىٰ، وإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، والنَّهْي عَنِ الدُّخُولِ فِي زُمَرِ المشْرِكين، الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيعاً.

وفيها بَيَانُ حَالِ المشْرِكينَ تُجاهَ مَا يَمَسُّهُمْ مِنْ ضُرّ أَوْ رَحْمَةٍ، وأَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فِي أَحْوَالِ الضُّرِّ، وأَنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ يُشْرِكُونَ حِينَما يُذِيقُهُمْ رَبُّهُمْ بَعْضَ آثارِ رَحْمَتِهِ، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ حُجَّةً عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ قَضَايَا شِرْكِهِمْ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً للمشْرِكين مُقَدِّماً لَهُمْ دَلِيلاً إِقْنَاعِيّاً عَلَىٰ بُطْلَانِ الشِّرْك:

• ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

أَصْلُ الضَّرْبِ إِلْصَاقُ شيْءٍ بشَيْءٍ بِقُوَّةٍ وعُنْف، وقَدْ يَنْفُذُ المضْرُوبُ

بِهِ إِلَىٰ عُمْقِ المضْرُوبِ، كالضَّرْبِ بالسَّيْفِ، أو بالرُّمح، أو بالسّكّينِ، أو نحوها، ومِنْهُ ضَرْبُ الدَّراهِم والدَّنانِيرِ بقَوالبَ مَحْفُورٍ فيها أَمْثِلَتُها، وهِيَ مِنَ الْحَدِيدِ الصُّلْب، فتظْهَرُ في الْمَعْدَنِ المَضْرُوبِ أَمْثِلَةُ الْمَحْفُورِ فِي الْقَوالب.

وحصَلَ توَسُّعٌ فِي معْنَىٰ الضَّرْب هـٰذا، فَصَارَ يُسْتَعْمَلُ فِي ضَرْبِ المثَلِ، بِمَعْنَىٰ ذِكْرِ شَبِيهِ الممثَّلِ لَهُ.

المعنىٰ: ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلْمُشْرِكينَ الَّذِينَ اتَّخذُوا آلِهَةً من دُونِ الله، يَعْبُدُونَهُمْ كَعِبَادَةِ عُبَّادِ اللهِ للهِ جَلَّ جلالُهُ وعزَّ سُلْطَانُهُ.

وهـٰذا المَثَلُ مُنْتَزَعٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، لِيَقيسُوا عَلَيْهِ، ولِيُدْرِكُوا بِهِ أَنَّ شِرْكَهُمْ بَاطِلٌ.

إنَّ أَحَدَ المشْرِكِينَ قَدْ يَمْلِكُ عَبِيداً وَإِمَاءً بِوَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ الْمِلْكِ، ولَيْسَ مِنْهَا وَسِيلَةُ الْخلْقِ، فَهَلْ يَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكُهُ شَرِيكاً لَهُ فِيمَا يَمْلِكُ مِنْ أشياءَ أَوْ أحْيَاء؟، فَهُوَ يَمْلِكُ مَعَهُ مِلْكاً مُسَاوِياً لِمِلْكِهِ، ويَمْلِكُ فِيهِ التَّصرُّفَ كَمَا يَمْلِكُ هُوَ فِيهِ التَّصرُّف، وَيَخَافُ أَنْ يُنَافِسَهُ، ويَنْتَزِعَ بمُشَارَكَتِهِ أشْيَاءَ يُحِبُّهَا مِنْ مُمْتَلَكَاتِهِ، كَمَا يَخَافُ شُرَكَاءَ لَهُ أَحْرَاراً لَا سُلْطَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ بِمِلْكٍ، فَهُمْ مِثْلُهُ فِي المشَارَكَةِ الحقيقيَّةِ والنِّدِّيَّة.

إنَّ أَحَداً مِنْكُمْ أَيُّهَا المشْرِكُونَ لَا يَرْضَىٰ هـٰذا لنَفْسِه، فَكَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِين اتَّخذَ شُرَكَاءَ لَهُ مِنَ الَّذِينَ خلَقَهُم هو، وهُمْ مِلْكُهُ وَعَبِيدُهُ؟، وَكَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بمُشارَكَتِهِمْ لَهُ يَتَصرَّفُونَ بِبَعْضِ كَوْنِهِ كَمَا يَتَصَرَّفُ هُوَ؟، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا تُشْرِكُونَ عُلُوّاً كبيراً.

- ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي: تَخَافُونَ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِمْ كَخِيفَتِكُمْ شُرَكَاءَ أَحْرَاراً مِثْلَ أَنْفُسِكُمْ، لَا عَبِيداً وَاقِعِينَ تَحْتَ مِلْكِكُمْ.
- ﴿... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾: أي: كَذَلِك

التَّفْصِيلِ الَّذِي فَصَّلْنَاهُ فِي هـٰذا المثَلِ الإِقْنَاعِيّ لإِبْطَالِ الشِّرْكِ، بَعْدَ الْحُجَجِ الْبُرْهَانِيةِ الَّتِي عَرَضْنَاهَا فِيما أَنْزَلْنَاهُ سَابقاً مِنْ نُجُوم التَّنْزِيلِ قَبْلَ سُورَةِ (الرُّوم)؛ نُفَصِّلُ الآياتِ الْبَيَانِيَّةَ مِنْ مُخْتَلِفِ الجوانِبِ، لِيَسْتَفِيدَ مِنْهَا قَوْمٌ يَعْقِلُونَ الْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّة وَلِيُدْرِكُوهَا إِدْرَاكاً سَلِيماً، وَيَعْقِلُونَ عَقْلاً إِرَادِيّاً، فَيَحْجُزُونَ بِهِ أَهْوَاءَهُمْ وَنُفُوسَهُمْ وَنَزَعَاتِهِمْ وَنَزْغَاتِهِمْ عن الاسْتِمْسَاكِ بالْبَاطِلِ، واتِّبَاعِهِ، ولَوْ كَانَ دِينَ آبائِهِمْ وَأَجْدادِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً وَمُبيّناً الباعِثَ لِشِرْكِ المشركين، والْحُكْمَ عَلَيْهِمْ بالضَّلَال:

● ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٢٩﴾:

أي: بَلْ لَا حُجَّةَ لِلّذِينَ أشْرَكُوا وَظَلَمُوا الحقَّ بِشِرْكِهِمْ، ولكِن اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهم الجانِحَةَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ومن اتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ اتِّبَاعُهُمْ آبَاءَهُمْ وأَجْدَادَهُمْ بِالتَّقْلِيدِ الأَعْمَىٰ عَلَىٰ سَبِيلِ المناصَرَةِ العنْصُرِيَّة، وهُمْ بهـٰذا ضَالُّونَ مُبْطِلُونَ.

وقَدْ حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِم بِالضَّلَالِ إذْ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ، ولَا عُذْرَ لَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَلَا شُبْهَة عُذْرٍ، فَهَلْ يُوجَدُ مَنْ يَحْكُمُ لَهُمْ بالْهِدَايَةِ بَعْدَ أَنْ حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بالضَّلَالِ، ولَا حُكَمَ إِلّا للهِ؟، وَهَلْ يُوجَدُ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ وضَلَالِهِم؟.

لَا يُوجَدُ لَهُمْ نَاصِرُون، ولَو اجْتَمَعَ كُلُّ خَلْقِ اللهِ عَلَىٰ نُصْرَتِهِمْ، وحِمَايَتِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، لأَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ دَفْعِ ذَرَّةٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ لَهُمْ أَوْ أَقلَّ مِنْها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ مَوْضُوعٍ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، بأسْلُوبِ الخِطَابِ الإِفْرادي:

- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أصْلُ الْقِيَامِ الوقُوفُ بِنصْبِ الْقَامَة، واسْتُعْمِلَ القِيَامُ بمَعْنَىٰ الثَّبَاتِ ومُلَازَمَةِ تَوْجِيهِ الإِرَادَةِ باسْتِقَامَةٍ عَلَىٰ صِرَاطِ الله.

وإِقَامَةُ الْوَجْهِ تَكُونُ بِجَعْلِهِ مُسْتَقِيمَ التَّوجُّهِ عَلَىٰ صِرَاطِ الله، فِي مَسِيرَةِ الإنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ، لَا يَلْتَفِتُ ذَاتَ اليمينِ وَلَا ذاتَ الشِّمَالِ، لِئَلَّا تَنْزِعَ نَفْسُهُ إلىٰ الْخُرُوجِ عَنْ حَدِّهِ الأَيْمَنِ أَوْ حَدِّهِ الأَيْسَرِ.

واختِيرَتِ اسْتِعَارَةُ الْوَجْهِ للتَّعْبِيرِ بِهِ عَنِ السُّلُوكِ الإرَادِيّ للإنْسَانِ، لأَنَّ تَوَجُّهَ الْوَجْهِ مَعَ المداوَمَةِ؛ هُوَ الدَّالُّ عَلَىٰ اخْتِيَارِ الإنْسَانِ طَرِيقَهُ فِي مَسِيرَتِهِ، وَلأَنَّ فِيهِ حَاسَّتَي السَّمْعِ والْبَصَرِ، أَعْظَمِ الحَواسِّ الضَّابِطَةِ لِسُلُوكِ الإنْسَانِ عَلَىٰ طَرِيقِه.

والْمُرَادُ بالدِّينِ دينُ اللهِ الْحَقِّ، الَّذِي بلَّغَهُ أنبياءُ اللهِ وَرُسُلُهُ عَلَيْهِم السَّلَام فيما أَنْزَلَ عليهم.

- ﴿حَنِيفًاۚ﴾: أي: مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْعَقَائِدِ والمذَاهِبِ والأدْيَانِ المخالِفَةِ لِدِينِ اللهِ الحقِّ، والمَيْلُ عَنْهَا جميعاً يَجْعَلُهُ مُسْتَقِيماً عَلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ وعَلَىٰ صِرَاطِهِ المستقيم، ولأَنَّ المَيْلَ عَنِ المائِلَاتِ المنْحَرِفَاتِ، الْمَائِلَاتِ كُلَّ خُطُوطِ الانْحِرَافِ؛ لَا يَكُونُ إِلَّا بالاستقامَةِ علىٰ الحقّ.

أي: فَأَقِمْ وَجْهَكَ أَيُّهَا الموضُوعُ في الحيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، واجْعَلْهُ مُوَجَّهاً للدِّينِ الحقّ، وهُو الدِّين الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، لِيُؤْمِنُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بأحْكَامِهِ وَتَعَالِيمِهِ مَا دَامُوا فِي الحيَاةِ الدُّنْيَا.

وهٰذا الدِّينُ الحقُّ هُوَ فِطْرَةُ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها، فَجَعَلَ في طَاقَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ موازِينَ وَمَقَايِيسَ يُدْرِكُونَ بِها أَنَّهُ الحقُّ، وجَعَلَ في مَشَاعِرِ

نُفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ مَا يُحِسُّونَ بِهَا أَنَّهُ الموافِقُ لِمَا يُرْضِيها، وَيُسْعِدُهَا حِينَما يُعَامَلُونَ بِمُقْتَضَىٰ أَحْكَامِهِ وَتَعَالِيمِهِ.

وهـٰذِهِ الفِطْرَةُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، وَلَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ، بَلْ تَبْقَىٰ مَوْجُودَةً فِي النَّاسِ إلىٰ آخِرِ آجَالِهِمْ فِي الحياة الدُّنْيَا، والمخالِفُونَ لِدِينِ اللهِ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وشَهَواتِهِمْ وَنَزَغاتِ شَيَاطِينِهِمْ، وَهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ يُخَالِفُونَ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْها، ولَكِنَّ عاجِلَ لَذَّاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيا يُضْعِفُ إِرَادَاتِهِمْ، فَيَجْعَلُهَا تَنْسَاقُ لمطالِبِ أهوائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَنَزَغَاتِ شَيَاطِينِهِمْ عَمَلاً، ثُمَّ فِكْراً واعْتِقَاداً.

ذَلِكَ الْعَظِيمُ الرَّفِيعُ هُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ المسْتَقِيمُ الَّذِي لا عوجَ فيه، وهُوَ ذُو الْقِيمَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الْجَلِيلَةِ بَيْنَ كُلِّ المذاهِب والأدْيَان والاحْتِمَالَاتِ الفِكْرِيَّة المخالِفَةِ له، ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ هـٰذِهِ الحقيقةَ، لأَنَّهُمْ صَرَفُوا أَذْهَانَهُمْ عَنِ التَّبَصُّرُ فيها ومُحَاوَلَةِ إِدْرَاكِهَا، إِذْ رَبَطُوا حُبَّهُمْ بالْعَاجِلَةِ وَتَرْكِ الآخِرَة والتَّوَلِّي عَنْهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِلْمَوْضُوعِينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، بَعْدَ تَكْلِيفِهِمْ أَنْ يُقِيمُوا وَجُوهَهُمْ للدِّينِ حنيفاً، بأسْلُوب الْخِطَابِ الإفرادي، ولَا سيما المشْرِكُونَ مِنْهُمْ:

- ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

- ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: أي: رَاجِعِينَ إِلَى اللهِ رَبِّكُم بِرُجُوعِكُم إِلَىٰ فِطْرَتِكُمْ الَّتِي فَطَرَكُمْ عَلَيْهَا، وبِإِقَامَةِ وُجُوهِكُمْ للدِّينِ حَنِيفاً.

- ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: أي: واتَّقُوا عِقَابَ اللهِ رَبِّكُمْ بِفِعْلِ مَا أَمَرَكُم وَيَأْمُرُكُمْ بِهِ، وتَرْكِ مَا نَهَاكُمْ وَيَنْهَاكُمْ عَنْهُ.

• ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: وَدَاوِمُوا وَوَاظِبُوا عَلَىٰ أَدَاءِ الصَّلَوات الْخَمْسِ المفْرُوضَةِ يَوْمِيّاً، فِي أَوْقَاتِها عَلَىٰ الوجْهِ الشَّرْعِيِّ المطْلُوب فيها.

وأَدَاؤُهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ المشْرُوعِ يَجْعَلُهَا مُسْتَقِيمَةً.

• ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: أي: وَلَا تَكُونُوا مِنَ المشْرِكِينَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وَلَا بإِلٰهِيَّتِهِ، ولَوْ كَانَ شِرْكاً خَفِيّاً، كَتَصَوُّرِ أَنَّ الأسْبَابَ ذَاتُ تَأْثِيرٍ ذَاتِيٍّ بِمُسَبَّبَاتِها، وكابْتِغَاءِ مُرَاءَاتِ العِبَادِ في الأَعْمَالِ الَّتِي يُبْتَغَىٰ بِهَا وَجْهُ اللهِ ورِضْوَانُه، لِتَحْصِيلِ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ مِنَ الْعِبَادِ. ومِنَ الشِّرْكِ وَضْعُ أَحْكَامٍ تَشْرِيعيَّة علىٰ خلاف مَا جاء في شرع الله لعباده.

• ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ**]:

إِنَّ المشْرِكِينَ المنْتَمِينَ إِلَىٰ الْيَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ قَدْ فَارَقُوا دِينَهُمُ الْحَقَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ، وَفَرَّقُوا دِينَهُمُ الَّذِي ابْتَدَعُوهُ بِشِرْكِيَّاتِهِمُ المخْتَلِفَاتِ، وَكَانُوا بهٰذا التَّفْرِيقِ شِيَعاً وأَحْزَاباً، وكُلُّ شِيعَةٍ مِنْهُمْ وَكُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ مِمَّا ابْتَدَعُوهُ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ فَرِحُونَ، لأَنَّ هٰذِهِ المبْتَدَعَاتِ تَخْدُمُ مَصَالِحَهُمْ وَمَنَافِعَهُمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَلَا سيمَا أَئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ أَصْحَابُ المنافِعِ الكُبْرَىٰ مِنْ مُبْتَدَعَاتِهِمْ.

• ﴿شِيَعًا﴾: جَمْعُ «شِيعَة»، وهيَ الْفِرْقَةُ والجماعَةُ الَّتِي يُنَاصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ويَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. وقَدْ يُطْلَقُ لفظ «الشِّيعَةِ» عَلَىٰ أَصْحَابِ المذهَبِ الواحِدِ، دُونَ اشْتِرَاطِ المناصَرَة أو اتِّحَادِ الزَّمن.

الحزب: الجماعَةُ المتَّفِقَةُ المتناصِرَةُ علىٰ أَمْرٍ، والجماعَةُ الَّذِينَ تَشَاكَلَتْ مَبَادِئُهُمْ وَأَهْوَاؤُهم، واتَّفَقَتْ أَعْمَالُهُمْ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً سُلُوكَ النَّاسِ بِوَجْهٍ عَامٍّ تُجاهَ مَا يَمَسُّهُمْ مِنْ

ضُرٌّ، أَوْ مَا يُذِيقُهُمُ اللهُ مِنْ رَحْمَةٍ، وَمَا لَدَيْهِمْ مِنْ نَوَازِعِ شِرْكٍ بِرَبِّهِمْ، وَسِيما المشْرِكُونَ مِنْهُمْ:

• ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾:

إِنَّ وَاقِعَ حَالِ أَكْثَرِ النَّاسِ ـ ولَا سيما المشركون مِنْهُم ـ إذا مَسَّهُمْ ضُرٌّ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَهْلِيهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ؛ لَمْ يَجِدُوا مَنْ يَكْشِفُ عَنْهُمْ مَا مَسَّهُمْ مِنْ ضُرٍّ إِلَّا أَنْ يَلْجَؤُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ فَيَدْعُوهُ رَاجِعِينَ إِلَيْهِ بقُلُوبِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ وَدُعَائِهِمْ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ نِعَماً هِيَ آثَارُ رَحْمَةٍ مِنْهُ رَحِمَهُمْ بِهَا؛ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ، يَنْسُبُونَ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ الظَّوَاهِرِ السَّبَبِيَّةِ الَّتِي يَسَّرَها اللهُ لَهُمْ، ودَلَّ الواقعُ المشْهُودُ أَنَّ هَـٰذَا حَالُ الْفَرِيقِ الأَكْثَرِ مِنَ النَّاسِ.

والباعِثُ لِهَـٰذَا الْفَرِيقِ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ؛ رَغْبَتُهُمْ بِجُحُودِ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، حَتَّىٰ لَا يَشْعُرُوا بأَنَّهُمْ مُلْزَمُونَ بِشُكْرِ اللهِ بالْعَمَلِ بمراضِيهِ، فَغَرَضُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا آتَاهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ مِمَّا يَسُرُّهُمْ وَيُفْرِحُهُمْ.

وَخَاطَبَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ لِهَـٰؤُلَاءِ المشْرِكِينَ الْجَاحِدِينَ: ﴿... فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾: أي: فَتَمَتَّعُوا فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا بما أَنْعَمْنَا بِهِ عَلَيْكُمْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْثِ مَا يَنْزِلُ بِكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ عَلَىٰ شِرْكِكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحدِّثاً عَنِ المشْرِكِينَ، وأَنَّهُمْ لَا حُجَّةَ لَهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ شِرْكِيَّاتِهِمْ، تَسْتَنِدُ إِلَىٰ دَلِيلٍ مِنْ بَيَانٍ مُنَزَّلٍ مِنَ اللهِ رَبِّهِمْ:

• ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾:

أي: بَلْ عَلَىٰ سَبِيلِ الإضْرَابِ الانْتِقَالِيّ؛ هَلْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ عَنْ طَرِيقِ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِنَا؛ بُرْهَاناً فِي كِتَابٍ صَادِقٍ مِنْ كُتُبِنَا لِعِبَادِنَا، فَهَـٰذَا الكِتَابُ

يَتَكَلَّمُ فِي آيَاتٍ مِنْهُ، بِصِحَّةِ مَا كَانُوا فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ يَجْعَلُونَهُمْ شُرَكَاءَ لَنَا فِي رُبُوبِيَّتِنَا أَوْ فِي إِلٰهِيَّتِنَا؟.

إِنَّنَا لَمْ نُنْزِلْ كِتَاباً فِيهِ آيَاتٌ تَتَكَلَّمُ بِصِحَّةِ مَا كَانُوا يُشْرِكُونَ به، أي: يَتَكَلَّمُ تَالُوهُ بذَلِكَ. أُطْلِقَ الْكَلَامُ عَلَىٰ الكِتَابِ وهُوَ حَدَثٌ يَجْرِي مِنْ قِبَلِ تَالِيهِ، عَلىٰ سَبِيلِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيّ: «وَهُو إِسْنَادُ الْفِعْلِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ إِلَىٰ غَيْرِ مَنْ هُوَ لَهُ، لِعَلَاقَةٍ مِنْ عَلَاقَاتِ المَجَازِ».

السُّلْطَان: يأتي بِمَعْنَىٰ الْقُوَّةِ والْقَهْرِ، وبِمَعْنَىٰ الحجَّةِ والْبُرْهَان، وهٰذا المعنَىٰ هُوَ المناسِبُ هُنَا.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ مَا فتح اللهُ بِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْس الرَّابِعِ من دُرُوسِ سورة (الرّوم).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبُّر التحليلي للدّرسِ الخامِسِ من دُروس سورة (الرُّوم) الآيات من (٣٦ ـ ٣٩)

قالَ اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

القراءات:

(٣٦) • قرأ يَعْقُوب: [**أَيْدِيهُمْ**].

وقرأهَا باقي الْقُرَّاء العشرة: [**أَيْدِيهِمْ**].

والقراءتان لغتان عَرَبيَّتَان.

(٣٦) • قرأ أبو عمْرو، والكِسَائيُّ، ويَعْقُوبُ، وخَلَفٌ العاشر: [**يَقْنِطُونَ**] بِكَسْرِ النُّون.

وقرأهَا باقِي الْقُرَّاءِ العشَرةِ: ﴿**يَقْنَطُونَ**﴾ بفتح النون. وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

(٣٩) • قرأ ابن كثير: [**وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ رِباً**]، أي: وما فَعَلْتُم مِنْ رباً.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: [**وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِباً**]: أي: وما أَعْطَيْتُمْ مِنْ رِباً.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِكري، أي: وما فَعَلْتُم مِنْ رباً آكِلِينَ ومُوكلين، ومَا أَعْطَيْتُمْ مِنْ مَالٍ لِتَرْبَحُوا مِنْهُ مَالاً رِباً.

(٣٩) • قرأ نَافع، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [**لِتُرْبُوا**].

وقرأهَا باقي القراء العشرة: [**لِيَرْبُوَا**].

وبين القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي الأداء البياني، أي: لِتُرْبُوا أَنْتُم أَمْوَالَكُمْ، وَلِيَرْبُو مَالُكُمْ.

تمهيد:

فِي آياتِ هـٰذا الدَّرْس وصْفُ حَالِ النَّاسِ فِي عَطَاءَاتِ اللهِ لَهُمْ، وَبيانُ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرّزْقَ بِحِكْمَتِهِ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيَقْدِرُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، مَعَ تَوْجِيهِ الأَمْرِ بالإِنْفَاقِ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ، ومَعَ التَّحْذِيرِ مِنَ الرِّبا، للظَّفَرِ بالْفَلاحِ

ومُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ يَوْمَ الدِّين.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً حَالَ مُعْظَمِ النَّاسِ إِذَا أَذَاقَهُمْ رَبُّهُمْ مَتَاعَاتٍ هِيَ من آثَارِ رَحْمَتِهِ، وإِذَا أَنْزَلَ بِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ مِنْ مَصَائِبَ بِسَبَبِ مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ مِن ذُنُوبٍ وآثَام:

• ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

• ﴿فَرِحُواْ﴾: أي: سُرُّوا وابتَهَجُوا.

• [**يَقنَطُونَ**]: أي: يَيْأَسُونَ أشَدَّ الْيَأْسِ.

• [**يَبْسُطُ الرِّزْقَ**]: أي: يُوَسِّعُهُ وَيكَثِّرُه.

• [**وَيَقْدِرُ**]: أي: وَيُضَيِّقُ، يُقَالُ لغةً: «قَدَرَ اللهُ عَلَىٰ فُلَانٍ الرِّزْقَ» أي: ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ وَقَلَّلَهُ عَنْ مِقْدَارِ حَاجَتِهِ وحاجَاتِ عِيَالِهِ.

إنَّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ ـ عزَّ وجَلَّ ـ في ابْتِلَاءِ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ؛ أَنْ يَبْلُوَهُمْ بِمَا يَسُرُّهُمْ ويُفْرِحُهُمْ، وبِمَا يَسُوؤُهُمْ وَيُحْزِنُهُمْ، وفي بَعْضِ الأَحْيَانِ يُصِيبُهُمْ بِمَا يَسُوؤُهُمْ عِقَاباً لَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَسَبُوا مِنْ ذُنُوبٍ وخَطَايَا قَدَّمَتْهَا أَيْدِيهِمْ.

فإِذَا أَذَاقَ اللهُ النَّاسَ نِعَماً هِيَ مِن آثَارِ رَحْمَةٍ مِنْهُ فَرِحُوا بِهَا، وأَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ رَبَّهُمْ عَلَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ، بَلْ يَقْتَصِرُونَ عَلَىٰ الْفَرَحِ بها. (إذَا: لِلْمُتَحقِّقِ الوقُوع عنْدَ الْبَلاغيين).

وَإِنْ أَنْزَلَ بِهِمْ أَحْيَاناً نَادِرَةً سَيِّئَةً تُصِيبُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَهْلِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ، بِسَبَبِ مَا كَسَبُوا مِنْ ذُنُوبٍ وخَطَايَا؛ يُفَاجِئُونَ مُرَاقِبِيهِمْ بِأَنَّهُمْ يَقْنَطُونَ يَائِسِينَ أَشَدَّ الْيَأْسِ. (إنْ: للنَّادِرِ الْوُقُوعِ أَو المشْكُوكِ فِيهِ عِنْدَ الْبَلاغيين).

تكُونُ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَةُ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ، مَعَ أَنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ دَواماً؛ أَنَّ اللهَ مِنْ سُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ أَنَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عَبَادِهِ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتاهُمْ هَلْ يَشْكُرُونَ؟، وَيَقْدِرُ مُضَيِّقاً الرِّزْقَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيَمْتَحِنَهُمْ بتَضْيِيقِ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ، هَلْ يَصْبِرُونَ وَيَسْتَسْلِمُونَ لِحِكْمَةِ اللهِ فيما اخْتَارَهُ لَهُمْ، أَمْ يَضْجَرُونَ وَيَرْكَبُونَ مَرَاكِبَ مَعْصِيَتِهِ، لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَا يَطِيبُ لَهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَاسِعٍ، ومَا يُحِبُّونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الحيَاةِ الدُّنْيَا؟.

- ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾:

اسْتُعِير الفِعْلُ في: «أَذَقْنَا» للدَّلالَةِ بِهِ عَلَىٰ معْنَىٰ الفِعْلِ فِي «أَمْتَعْنَا» لأَنَّ حَاسَةَ الذَّوْقِ قَوِيَّةُ الإحْسَاسِ بِمَا يُلامِسُهَا، والتَّلَذُّذِ بما تَذُوقُهُ مِنْ طَيِّبات.

وأُطْلِقَتِ الرَّحْمَةُ والمَرادُ آثَارُهَا مِنْ عَطَاءَاتِ اللهِ لِعِبَادِهِ المرحُومِين.

واسْتُعمِلَتْ «إذَا» للدَّلالَة بِهَا عَلَىٰ تَحقُّقِ شَرْطِهَا في الواقع غالباً.

واقْتَصرَ البيانُ علىٰ ذِكْرِ الْفَرَحِ، للدَّلالَة علىٰ أنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ رَبَّهُمْ عَلَىٰ مَا يُؤْتِيهِمْ مِنْ نِعَمٍ يُفْرِحُهُمْ بها.

- ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

جَاءَ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ الشَّرْطِ «إِنْ» للدَّلاَلَةِ بِهِ عَلَىٰ أَنَّ إِصَابَتَهُمْ بِمَا يَسُوؤُهُمْ قَلِيلٌ فِي حَيَوَاتِهِمْ، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ ما يُذِيقُهُمْ رَبُّهُم مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ، وهُوَ فِي الْغَالِبِ يَكُونُ بِسَبَبِ مَا كَسَبُوا مِنْ خطَايَا وَذُنُوب.

وَجَاءَ اسْتِعْمَالُ عِبَارَةِ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لِلدَّلالَةِ بِهَا عَلَىٰ مَا كَسَبُوا وَيَكْسِبُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، لأَنَّ يَدَي الإنْسَانِ مُشَارِكَتَانِ فِي مُعْظَمِ مَا يَكْسِبُ الإنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ فِي جَسَدِه.

- ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾: «إِذَا» فُجَائِيَّة، أي: يُفَاجِئُونَ مُرَاقِبيهم بِأَنَّهُمْ يَيْأَسُون أَشَدَّ الْيَأْسِ.

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؟!:

أي: أنطَمَسَتْ بَصائِرُ النَّاسِ المَتحدَّثِ عَنهُمْ، ولَمْ يَروْا رُؤيَةً عِلْمِيَّةً شَبيهَةً بالرُّؤْيَةِ الْبَصرِيَّةِ لِوُضُوحِها أَنَّ اللهَ يُوسِّعُ في حَياةِ الامْتِحانِ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتاهُمْ، هَلْ يَشْكُرُونَ رَبَّهُمْ أَمْ يَكْفُرُونَه، وأَنَّهُ يَقْدِرُ وَيُضَيِّقُ الرِّزْقَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُمْ وَرِضَاهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ فيمَا ابْتَلاهُمْ بِهِ، وَسُؤَالَهُمْ رَبَّهُمْ أَنْ يُغْنِيَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، غَيْرَ نَاظِرِينَ إِلَىٰ مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ بِعُيُونِ الحسَدِ وَالاعْتِرَاضِ عَلَىٰ اللهِ فِيمَا اخْتَارَ لِعِبَادِهِ فِي دَقَائِقِ حِكْمَتِهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ؟.

- ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أَيْ: إِنَّ فِي ذَلِكَ التَّفْضِيلِ بَيْنَ الْعِبادِ لآياتٍ مُتعَدِّداتٍ عَلَىٰ حِكْمَةِ اللهِ السَّامِيَةِ في اخْتِيَارَاتِهِ، وهٰذِهِ الآياتُ يُدْرِكُها الْقَوْمُ المسْتَعِدُّونَ لأَنْ يُؤْمِنُوا بِحِكَمِ اللهِ الْجَلِيلَةِ في اخْتِيَارَاتِهِ وَمَا يُرِيدُهُ لِعِبادِهِ مِنْ بَسْطٍ وقَبْضٍ، وعَطاءٍ وإِمْسَاك.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُخَاطِبُ المؤمِنَ الَّذِي لَدَيْهِ سَعَةٌ مِن الرِّزْقِ، وقَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْفِقَ مِنْهُ:

- ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

- ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾: تَدُلُّ هٰذِهِ العِبارَةُ مِنْ عِبَارَاتِ التَكْلِيفِ؛ عَلَىٰ أَنَّ لِذِي الْقُرْبَىٰ حَقّاً مَعْرُوفاً إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة، وهُوَ مَا عُرِفَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ فيما بَعْدُ بِالنَّفَقَةِ الواجِبَةِ عَلَىٰ الأَقْرَبِين.

- ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾: أي: صَاحِبَ الْقَرابَةِ، وهي الْقُرْبُ والدُّنُوّ في النسب.

- ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾: أي: وآتِ المسْكِينَ، وهُوَ الَّذِي يُعْلِنُ أَنَّهُ فَقِيرٌ ذُو حَاجَةٍ لِمَعَاشِهِ وَمَعَاشِ أُسْرَتِهِ، وقَدْ لَا يَكُونُ فِي وَاقِعِ حَالِهِ فقيراً، ولَكِنَّ

التَحرِّيَ لإِعْطاءِ الفقيرِ ذِي الحاجَةِ حقّاً أَفْضَلُ، لِئَلَّا يَعْتَادَ بَعْضُ الأَغْنِيَاءِ المكْفِيِّينَ عَلَىٰ التَسَوُّلِ، رَغْبَةً فِي جَمْعِ الأَمْوَالِ والاسْتِكْثَارِ مِنْهَا، وهِيَ في الْوَاقِعِ أَمْوَالُ الْفُقَرَاءِ، وهَـٰؤُلَاءِ لَا حَقَّ لَهُمْ فيها.

- ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾: أي: وآتِ ٱبْنَ السَّبِيلِ، وهُو الْمُسَافِرُ المنْقَطِعُ بِهِ، وهُوَ يُرِيدُ الرُّجُوعَ إلىٰ بَلَدِهِ، ولَا يَجِدُ مَا يَتَبَلَّغُ بِهِ.

وحَقُّهُ إِيتَاؤُهُ مَا يُوصِلُهُ إِلَىٰ بَلَدِهِ، ويُعِيدُهُ إِلَىٰ دَارِ إِقَامَتِهِ، أو تَيْسِيرُ إِيصَالِهِ إِلَىٰ بَلَدِهِ مَكْفِيّاً بِوَسِيلَةٍ ما، فهـٰذا مِنْ إيتائِهِ.

- ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ﴾: أي: ذَلِكَ الإيتاءُ لِذِي الْقُرْبَىٰ، والمسْكِينِ، وٱبْنِ السَّبِيلِ؛ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ ذَاتِ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِين، يُثَابُ بِهِ الّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَقُرُبَاتِهِمْ، أي: يُرِيدُونَ الْوَجْهَ الَّذِي يُرْضُونَ بِهِ رَبَّهُمْ ويَطْلُبُونَ بِهِ ثَوَابَهُ.

وإِرَادَةُ وَجْهِ اللهِ بالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي حَثَّ اللهُ عَلَيْهَا، أو رَغَّبَ فيها؛ هي النِّيَّةُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يثِيبُ اللهُ عِبَادَهُ عَلَيْهَا، ولهـٰذا قال الرَّسُولُ ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ»، أي: مَا تُحْسَبُ قِيمَةُ الأَعْمَالِ عِنْدَ اللهِ إِلَّا بالنِّيَّاتِ الْمُحَدِّدَاتِ للْقَصْدِ مِنْها.

- ﴿... وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٣٨﴾: أي: وأُولـٰئِكَ الْفُضَلَاءُ رَفِيعُو المنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ؛ هُمْ وَحْدَهم المفْلِحُونَ. اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفي الإسْنَاد.

المفلحون: أي: هُمُ الظَّافِرُونَ بِمَا يُرِيدُونَ، والفائِزُونَ بِنَعِيمِ الآخرة، يقالُ لغة: «أَفْلَحَ فُلَانٌ» أي: فَازَ ونَجا وَظَفِر، وأَصْلُ معْنَىٰ «الْفَلَاحِ» البقاءُ في النَّعِيمِ والْخَيْر.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُحَذِّرُ مِنَ الرِّبَا وَيُرَغِّبُ فِي الزَّكَاةِ بِمُنَاسَبَةِ أَمْرِهِ المؤمِنَ بإيتاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ حقَّه، والمسْكِين، وابْن السبيل، مُخَاطِباً المؤمِنِين

الْحَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ يَبْتَغُوا وَجْهَ اللهِ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَة:

- ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وَمَا أَعْطَيْتُمْ مِنْ مَالٍ علَىٰ سَبِيلِ الْقَرْضِ أَوِ الدَّيْنِ لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ، فَيَدْفَعُوا لَكُمْ أَجْرَ مُرُورِ الزَّمَنِ عَلَىٰ الأَمْوَالِ الَّتِي هِيَ لَكُم عِنْدَهُمْ، مُسْتَغِلِّينَ ضَرُوراتِهِمْ أَوْ حَاجَاتِهِمْ؛ فَهُو لَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ.

الرِّبَا: الزِّيَادَةُ عَلَىٰ رَأْسِ الْمَالِ فِي الْقَرْضِ أَوِ الدَّيْنِ، مُقَابِلَ مُرُورِ الزَّمَنِ.

- ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: فَلَا يَزِيدُ الْمَالُ عِنْدَ اللهِ، لأَنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يَمْحَقُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ.

وَمَا أَعْطَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ في سَبِيلِ اللهِ، تُطَهِّرُون أَمْوَالَكُمْ، وَتَبْتَغُونَ مِنَ اللهِ نَمَاءَها؛ فإِنَّ اللهَ يُضَاعِفُهَا لَكُمْ، تَعْوِيضاً، وثواباً عِنْدَه.

جَاءَ التَّعْبِيرُ بعبارَة: ﴿... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بَدَلَ: فَأَنْتُمُ المضْعِفُونَ، للثَّنَاءِ عَلَىٰ المزكّينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ، باسْمِ الإشَارَةِ الَّذِي يُشَارُ بِهِ لِرَفِيعِي المنْزِلَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ «أولَئكَ».

المضْعِفُون: أي: الْحَاصِلُونَ عَلَىٰ ثَوَابٍ مُضَاعَفٍ عِنْدَ اللهِ، إذْ يَجْعَلُ اللهُ الحسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلىٰ سَبْعمائة ضعف إلىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَة.

وبهَـٰذَا انْتَهَىٰ مَا فتح اللهُ بِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْس الخامس مِنْ دُروس سورة (الرُّوم).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرسِ السادس من دُروس سورة (الرّوم) الآيات من (٤٠ ـ ٤٥)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٤٥)﴾:

القراءات:

(٤٠) ● قرأ حمْزَةُ، والكِسَائِيُّ، وخَلَفٌ: [**تُشْرِكُونَ**] بِتَاءِ المخَاطَبِينَ.

وقرأهَا باقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرة: [**يُشْرِكُونَ**] بِيَاءِ الْغَائِبين.

وبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تكَامُلٌ فِي الأداءِ البيانيّ.

(٤١) ● قرأ قُنبل بخلف عنه، ورَوْح: [**لِنُذِيقَهُمْ**] بِنُونِ المتكلِّمِ العظيم.

وقرأهَا بَاقي القرَّاء العشرة، وهو الثاني لقنبل: [**لِيُذِيقَهُمْ**]: أي: لِيُذِيقَهُمُ اللهُ.

ومؤدى القراءتين واحد.

تمهيد:

في آياتِ هَـٰذَا الدَّرسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ لِلمُشْرِكِينَ بأنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ، ثُمَّ رَزَقَهُمْ، ثُمَّ يُمِيتُهُمْ، ثُمَّ يُحْيِيهِمْ، وأنَّهُ تنَزَّهَ وَتعالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُون.

وفيها بَيَانُ أَنَّ النَّاسَ الَّذِينَ خَالَفُوا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ الأَشْيَاءَ والأَحْيَاءَ عَلَيْها؛ قَدْ ظَهَرَ بِمَا كَسَبُوا الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، إِذْ أَرادُوا أَنْ يَتَدَخَّلُوا فِي تَغْيِيرِ فِطَرِ الأَشْيَاءِ، طَمَعاً فِي زِيَادَةِ مَكاسِبِهِمْ مِنَ الأَمْوَال.

وفيها التَّحْذِيرُ مِنْ عُقُوبَاتِ اللهِ الْمُعَجَّلَةِ بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ السَّيْرِ فِي الأَرْضِ، لِلنظَرِ في عَاقِبَةِ الَّذِينَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ، وَكَيْفَ أَنَّ اللهَ أَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكاً جَماعِيّاً مُسْتَأْصِلاً.

وفيها الأَمْرُ بإِقَامَةِ الْوَجْهِ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ، مَعَ التَّحْذِيرِ مِنْ عِقَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ الجزَاءِ الأَكْبَر.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلْمُشْرِكِينَ، يُبَيِّنُ لَهُمْ حَقَائِقَ لَيْسَ فِيهَا مَا يَعْذُرُهُمْ بِأَنْ يَتَّخِذُوا شُرَكَاءَ للهِ مِنْ دُونِهِ:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: أي: اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ خَلْقَ إِبْدَاعٍ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وخَلْقَ تَصْوِيرٍ، فَجَعَلَكُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ نَفْسِيٍّ وأَحْسَنِ صُورَةٍ جَسَدِيَّة، وَنَفَخَ فِيكُمُ الرُّوحَ الإِنْسَانِيَّةَ.

• ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ خَلَقَكُمْ، ومَضَتْ مُدَّةُ إِنْشَائِكُمُ الأَوَّلِ فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِكُمْ، وبَعْدَ أَنْ نَفَخَ فِي أَجْسَادِكُمُ الرُّوحَ الإِنْسَانِيَّةَ، وَصِرْتُمْ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ قُوتٍ لاسْتِمْرَارِ حَيَواتِكُمْ؛ رَزَقَكُمْ بِأَلْطَافِهِ الْخَفِيَّةِ، مِنْ دِمَاءِ أُمَّهَاتِكُمْ، ثُمَّ بالرَّضَاعِ فالطَّعَامِ والشَّرَابِ، طَوَالَ حَيَواتِكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الدُّنْيا.

• ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الحياة

الدُّنْيا؛ يُمِيتُكُمْ وَيُفْنِي أَجْسَادكُم إلَّا خَلِيَّةً فِي عَجْبِ الذَّنَبِ، يُبْقِيهَا اللهُ لِتَكُونَ النَّوَاةَ الَّتِي يُنْبِتُكُمْ مِنْهَا، لِيُحْيِيَكُم بَعْدَ مَوْتِكُم لِيَوْمِ الدّينِ.

• ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إنْبَاتِكُمْ مِنْ نَوَيَاتِكُمْ؛ يَنْفُخُ فِيكُمْ أَرْوَاحَكُمْ الَّتِي انْفَصَلَتْ عَنْكُمْ عِنْدَ إِمَاتَتِكُمْ، فَيُحْيِيكُمْ وَيَبْعَثُكُمْ أَحْيَاءً بِكُلِّ صِفَاتِكُمُ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، لِتُلَاقُوا حِسَابَ رَبِّكُمْ، وفَصْلَ قَضَائِهِ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْكُمْ، وَتَنْفِيذَ جَزَائِهِ عَلَىٰ مَا كَسَبْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا.

• ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؟!: أي: هَلْ بَعْضُ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ كَذِباً وزُوراً وَبَاطِلاً للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَو فِي إلـٰهِيَّتِهِ؛ مَنْ يَخْلُقُ أَوْ يَرْزُقُ، أَوْ يُمِيتُ عِنْدَ انْتِهَاءِ الآجَالِ المَحدَّدَةِ بِقَضَاءِ اللهِ، أَوْ يُحْيِي يَوْمَ البعث؟!.

إنَّهُ لا يُوجَدُ أَحَدٌ يَفعَلُ ذَلِكَ إلّا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِين.

«مِنْ» في عِبارَةِ: «مِنْ شَيْءٍ» مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ النَّفْيِ المفْهُوم مِنَ الاسْتِفهَامِ الإنْكَارِي، أي: لَا أَحَدَ مِنْ شُرَكَائِكُم مَنْ يَفعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ شَيْئاً مَهْمَا كَانَ قَلِيلاً.

• ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾: وفي القراءَة الأُخْرَىٰ: **[عَمَّا تُشْرِكُونَ]** خِطاباً لِلْمُشْرِكِينَ:

سُبْحَانَهُ: أي: تَنَزَّهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شُرَكَاء.

وَتَعَالَىٰ: أي: تَسَامَىٰ، مِنَ الْعُلُوِّ المعْنَوِيّ الْفِكْرِيّ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ.

عَمَّا يُشْرِكُونَ: أي: عَنْ كُلِّ مَا يَجْعَلُهُ المشْرِكُونَ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ فِي إلـٰهِيَّتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً سُوءَ تَدَخُّلِ النَّاسِ فِي تَغْيِيرِ أَنْظِمَتِهِ فِي كَوْنِهِ، مِمَّا جَعَلَ لَهُمْ قُدْرَةً عَلَىٰ التَّدَخُّلِ فِيهِ:

• ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾:

تَدَخَّلَ النَّاسُ في تَغْيِيرِ نظامِ اللهِ في كَوْنِهِ، فظَهَرَ بِسَبَبِ تَدَخُّلِهِمْ فَسَادٌ خَطِير في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ والْجَوِّ الجامِعِ لَهُمَا، ومِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ ما يلي:

المثال الأول: تَدَخَّلَ النَّاسُ فِي نِظَامِ الغاباتِ الرَّبَّانِيّ، فقَطَعُوا أشْجَارَهَا بِإسْرَافٍ ابْتغَاءَ المكاسِبِ الماليَّة، فَنَجَمَ عَنْ ذَلِكَ تَصَحُّرٌ واختلافٌ فِي مُنَاخِ الْبِيئة، ونَفَقَتْ بِسَبَبِهِ حَيَواناتٌ كَانَ وُجُودُهَا مُكَمِّلاً لِصَلاحِ البيئة.

المثال الثاني: أَسْرَفَ النَّاسُ في صَيْدِ الْحَيَوانَاتِ بِوَسَائِلِ الْقَتْلِ الْجَمَاعِيّ، وفِي أَوْقَاتِ التَّزاوُجِ وَالتَّكاثُرِ الَّتِي لَا يُسْمَحُ الصَّيْدُ فيها، فَنَجَمَ عَنْ هٰذا الإِسْرَافِ انْقِراضُ بَعْضِ أَصْنَافٍ مِنَ الحيوانَاتِ، وخَلَلٌ فِي النِّظَامِ الرَّبَّانِي الْقَائِمِ عَلَىٰ الْعَدْلِ (المصْطَلَح عَلَيْهِ بالتَّوَازُنِ الْبِيئِيّ).

المثال الثالث: الآلَاتُ الصِّنَاعِيَّة المسْتَحْدَثَةُ، ومَا نَتَجَ عَنْهَا مِنْ مُخَلَّفَاتٍ مُفْسِدَةٍ أَوْ سَامَّة؛ فَنَجَمَ عَنْهَا تَلَوُّثٌ في الهواء، وفِي الماء، وفِي بَاطِنِ الأَرْضِ، الأَمْر الَّذِي أَضَرَّ بالحياة، وثَقَّبُ الأوزون مِنَ الأَضْرَارِ والْفَسَادِ النَّاجِم عَنْهُ.

المثال الرابع: اكْتِشَافُ النَّاسِ للطَّاقَةِ الذَّرِّيَّةِ والأَسْلِحَةِ النَّوَوِيَّةِ، وَمَا نَجَمَ عَنْهُ مِنْ تَعْرِيضِ شُعُوبٍ وَمُدُنٍ كُبْرَىٰ، لأَمْراضٍ خَطِيرَةٍ جدّاً، كالأَوْرَام السَّرَطَانِيَّةِ، والأَمْراضِ الْجِلْدِيَّةِ المخْتَلِفَةِ، والَّتِي تَسْتَعْصِي عَلَىٰ الْعِلَاجِ، وَهِي تُهَدِّدُ دواماً بتَدْمِيرِ كُلِّ شَيْءٍ علىٰ الْكُرَةِ الأَرْضِيَّة.

المثال الخامس: تَدَخُّلُ النَّاسِ فِي تَغْذِيَةِ الْحَيَوَانَاتِ، عَلىٰ خِلَافِ نِظَامِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، ابْتِغَاءَ التَّنْمِيَةِ الكَثِيرَةِ، والرِّبْحِ الوفير؛ نَجَمَ عَنْهُ فَسَادٌ فِي الأَحْيَاءِ الَّتِي خَضَعَتْ لِتَدَخُّلِ الناس، ومِنْهَا مَا عُرِف بِجُنُونِ البقر،

والْفَيْرُوسَات الَّتِي أَصَابَتْ بَعْضَ الدَّواجِنِ، وجَعَلَتْ أَصْحَابَ حَظَائِرِها يَتَخَلَّصُونَ مِنَ الأَعْدَادِ الكَثِيرَةِ جدّاً مِنْهَا.

المثال السادس: تَدَخُّلَ النَّاسُ فِي أَنْظِمَةِ اللهِ الاجْتِمَاعِيَّة، ومِنْهَا نِظَامُ الأُسْرَةِ؛ فَنَجَمَ عَنْ تَدَخُّلِهِمُ الشَّيْطَانِيِّ الْخَبِيثِ؛ فَسَادٌ عَرِيضٌ فِي المجتَمَعَاتِ، ذُو سَلَاسِلَ مُتَوالِيَاتٍ مِنَ الْفَسَادِ، فِي عَلَاقَاتِ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَفِي كَسْبِ المالِ، وَفِي تَفَكُّكِ أَفْرَادِ المجْتَمَعِ الْبَشَرِي، وفِي الْعَوَاطِفِ الإِنْسَانِيَّة النَّبِيلَة.

إلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَمْثِلَةٍ كَثِيرَةٍ، يَزْعُمُ النَّاسُ فيها أَنَّهُمْ يُصْلِحُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ.

وَجَاءَ التَّعْبِيرُ بالْفِعْلِ الْمَاضِي بقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ ظَهَرَ هَـٰذَا الْفَسَادُ إِبَّانَ تَنْزِيلِ هَـٰذَا الْبَيانِ الرَّبَّانِيِّ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا الْفَسَادَ سَيَظْهَرُ حَتْماً فِي مُسْتَقْبَلِ النَّاسِ، فَتَحَقُّقُهُ فِي المسْتَقْبَلِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ بِمَثَابَةِ تَحَقُّقِهِ فِي الماضِي، لأَنَّ عِلْمَ اللهِ لَا يَتَخَلَّفُ.

وَهـٰذِهِ الآيَةُ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ الخَبَرِيَّةِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَمَّا سَيَكُونُ، كالَّذِي جَاءَ في أَوائِلِ هـٰذِهِ السورة:

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِى بِضْعِ سِنِينَ ... ④﴾:

- ﴿... لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ㊶﴾:

دَلَّ هـٰذا الْبَيَانُ عَلَىٰ أَنَّ الْفَسَادَ الَّذِي ظَهَرَ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ، بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ؛ فِيهِ مَكَارِهُ لِلنَّاسِ وآلَامٌ هِي مِنْ عُقُوبَاتِ اللهِ لَهُمْ عَلَىٰ تَدَخُّلِهِمْ فِي تَغْيِيرِ أَنْظِمَةِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، الَّتِي مَكَّنَهُمْ مِنَ التَّغْيِيرِ فيهَا، لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا مَكَّنَهُمْ مِنْهُ.

واللهُ عَزَّ وجَلَّ يُذِيقُ النَّاسَ آلَامَ بَعْضِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ رَغْبَةً مِنْهُ فِي أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ تَمَادِيهِمْ فِي تَدَخُّلَاتِهِم الْمُفْسِدَات.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ بِأَسْلُوبِ الْخِطَابِ الإِفْرَادِي، مَا يَقُولُهُ للمشْرِكين:

● ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

العاقِبَةُ، والْعُقْبَىٰ: آخِرُ كُلِّ شَيْءٍ وخاتِمَتُهُ، والجزاءُ عَلَىٰ المكْتَسَبِ الإرَادِي.

أي: قُلْ أَيُّها الدَّاعِي إلىٰ الدِّينِ الحقِّ، لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِنَبْذِ شِرْكِيّاتِهِمْ، بِبَرَاهِينِ التوحيدِ الحقّ: سِيرُوا فِي الأرضِ حَتَّىٰ تَصِلُوا دِيَارِ المهْلَكِينَ السَّابقينَ الَّذِينَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكين، فَانْظُرُوا الْبَاقِي مِنْ آثَارِ بِلَادِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ، وَقُصُورِهِمْ، وَمَعَابِدِهِمُ الْوَثَنِيَّة، وَتَفَكَّروا كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ رَبُّهُمْ إِهْلَاكاً جَمَاعِيّاً مُسْتَأْصِلاً، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ فِي رُبُوبِيَّةِ اللهِ، وفِي إِلٰـهِيَّتِهِ، واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً بَاطِلَةً، وَزَعَمُوا أَنَّهَا تَجْلُبُ لِعَابِدِيها نَفْعاً، وتَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِكُلِّ مَوْضُوعٍ في الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بأسْلُوبِ الْخِطَاب الإفْرَادِيّ:

● ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

في الآية (٣٠) من هـٰذه السُّورة؛ جاءت العبارة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ﴾، وأكَرِّر هُنَا مَا ذَكَرْتُهُ فِي تَدَبُّر هـٰذِهِ الآية، من أَنَّ إِقَامَةَ الْوَجْهِ تَكُونُ بِجَعْلِ الْوَجْهِ مُسْتَقِيمَ التَّوجُّهِ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ، فِي مَسِيرَة الإِنْسَانِ في

حَيَاتِهِ، لَا يَلْتَفِتُ ذَاتَ الْيَمِينِ ولَا ذَاتَ الشِّمَالِ، لِئَلَّا تَنْزِعَ نَفْسُهُ إِلَىٰ الْخُرُوجِ عَنْ حَدِّهِ الأَيْمَنِ وَلَا عَنْ حَدِّهِ الأَيْسَرِ.

أَمَّا كَوْنُهُ حَنِيفاً فَالمرادُ بِهِ مَيْلُهُ عَنْ كُلِّ الْعَقَائِدِ والمذاهِب والأَدْيانِ المخالِفَةِ لِدِينِ اللهِ الْحقّ، والمَيْلُ عَنْهَا جَمِيعاً يَجْعَلُهُ مُسْتَقِيماً عَلَىٰ صِراطِ اللهِ المستقيم، وَهَـٰذَا المَعْنَىٰ يَتَّفِقُ مَعَ وَصْفِ الدِّين بِوَصْفِ «الْقَيِّم» الَّذِي جاءَ في الآيَة (٤٣) الّتِي يَعْمَلُ الْفِكْرُ عَلَىٰ تَدبُّرِها.

الْقَيِّم: أي: المسْتَقِيمُ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ عَنِ الْحَقِّ والْخَيْرِ وَمَحَاسِنِ الأَخْلَاقِ والسُّلُوك.

أي: فَأَقِمْ وَجْهَكَ أَيُّهَا الموْضُوعُ فِي الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ، واجْعَلْهُ مُوَجَّهاً دَوَاماً للدِّينِ الْقَيِّم، وهُو الدِّينُ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ الرَّبُّ لِعِبَادِهِ، لِيُؤْمِنُوا بِهِ وَلِيَعْمَلُوا بأَحْكَامِهِ وَتَعَالِيمِهِ مَا دَامُوا فِي الحياة الدُّنْيا.

- ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: فاجْعَلْ وَجْهَكَ دَواماً مُوَجَّهاً للدِّينِ الْقَيِّم حتَّىٰ آخِرِ رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ في الحياة الدّنيا، مِنْ قَبْلِ أَنْ يأتِيَ يَوْمٌ هُو يَوْم الدِّينِ الّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ، وهُوَ يأتِي مِنَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

- ﴿مَرَدَّ﴾: مَصْدَر مِيمي مِنْ فِعلْ «رَدَّ»، أي: لَا دَفْعَ لَهُ ولا إرْجَاعَ لَهُ.

- ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلّقٌ بفِعْلِ [**يأْتِي**].

- ﴿... يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: يَوْمَ يَأْتِي ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ وهُوَ يَوْمُ الدِّينِ؛ يَنْقَسِمُ الّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ إِلَىٰ أقْسام مُتَعَدِّدَةٍ، وإلىٰ زُمَرٍ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا لآخِرَتِهِمْ، فَأَهْلُ النَّارِ يُسَاقُونَ إِلَيْهَا زُمَراً بِحَسَبِ أَعْمَالهم، وأَهْلُ الجنَّةِ يُسَاقُونَ إليها زُمَراً بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ.

[يَصَّدَّعُونَ]: أي: يَتفرَّقُونَ، يُقَالُ لُغَةً: «تَصَدَّعَ الْقَوْمُ» أي: تَفرَّقُوا، مَأْخُوذٌ مِنَ التَصَدُّعِ، وهُوَ التَّشَقُّقُ والتكَسُّر.

- ■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبيِّنُ الْفَرْقَ الكبيرَ بَيْنَ مَنْ كَفَر وبَيْنَ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً:

- ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: مَنْ كَفَرَ وَمَاتَ وهو كافِرٌ؛ فَعَلَيْهِ وِزْرُ كُفْرِه، وعَلَيْهِ عِقَابُ كُفْرِهِ خُلُوداً فِي عَذَابِ نَارِ جَهَنَمَ عَلَىٰ مَا جَاءَ تَفْصِيلُهُ فِي نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ أُخْرَىٰ.

وَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً يُعَبِّرُ بِهِ عَنْ صِحَّةِ إيمانِهِ وَصِدْقِهِ فِيه؛ فَأُولَـٰئِكَ الْفُضَلَاءُ المرتَفِعُو الدَّرَجَاتِ عِنْدَ رَبِّهِمْ؛ لأَنْفُسِهِمْ يُقَدِّمُونَ أَعْمَالاً تُمَهِّدُ لَهُمُ الطَّرِيق لِنَيْلِ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ الْعَظِيم الْخَالِدِ في جَنَّاتِ النَّعِيم.

- ﴿... فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: فَلأَنْفُسِهِمْ لا لِغَيْرِهِمْ يُوَطِّئُونَ ويُسَهِّلُونَ وَيَبْسُطُونَ؛ مَا سَوْفَ يَكُونُ جَزَاؤُهُمْ عَلَيْهِ مَنَازِلَ مُسْعِدَةً لَهُمْ، ومُمَهَّدَةً، عَظِيمَةَ الإنْعَامِ والإسْعَادِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

يقال لغة: «مَهَدَ الفِرَاشَ يَمْهَدُهُ مَهْداً» أي: بَسَطَهُ وَوَطَّأَهُ وجَعَلَهُ مُرِيحاً لِلْجُلُوسِ أو الاضطجاع عليه.

وقَوْلُ اللهِ تعالىٰ: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ مُرْتَبِطٌ بما جَاءَ فِي الآيَة (٤٣) بِشَأْنِ يَوْم الدِّين الّذِي لَا مَرَدَّ له. أي: وَقَدْ أَعَدَّ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هـٰذَا الْيَوْمَ الْعَظِيمَ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَزَاءً عظيماً مِنْ فَضْلِهِ، مُنَاسِباً لِفَضْلِهِ العظيم.

وأَمَّا الْكَافِرُونَ فإنَّ اللهَ لَا يُحِبُّهُمْ، فَلَا نَصِيبَ لَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، بَلْ يَكُونُ نَصِيبُهُمْ مِنْ عَدْلِهِ، وهُوَ الْخُلُودُ فِي عَذَابِ النَّارِ خُلُوداً لَا نِهَايَةَ لَهُ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تدبُّر الدَّرس السادس من دُروس سورة (الروم).

والحمد للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُروس سورة (الروم)

الآيات من (٤٦ ـ ٥١)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾:

القراءات:

(٤٨) • قرأ ٱبْنُ كثير، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: **[الرِّيحَ]** بالإفراد، اسْم جنْسٍ.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ بالجمْعِ. والمؤدَّىٰ واحد.

(٤٨) • قرأ هشام بخُلْفٍ عَنْه، وأبو جعفر: **[كِسْفاً]** بإسكانِ السين.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: ﴿كِسَفًا﴾ بِفتْح السين، وهو الوجْهُ الثانِي لِهِشام.

(٤٩) • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعْقُوب: **[يُنْزَلَ]** من فعل «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿يُنَزِّلَ﴾ مِنْ فِعْلِ «نَزَّلَ».

«أنْزَلَ» و«نَزَّلَ» متكافئان، فالمهْمُوز أخُو المضَعَّف.

(٥٠) • قرأ نَافع، وٱبْن كثير، وأبو عمْرو، وشُعْبَة، وأَبُو جَعْفر، ويعقوب: [أَثَرِ] بالإفراد، اسم جنس.

وقرأهَا باقي الْقُرّاءِ العشرة: ﴿ءَاثَٰرِ﴾ بالجمع. والمؤدَّىٰ واحد.

(٥٠) • وقف ابْن كثير، وأبو عمْرو، والكسائي، ويعقوب علىٰ: [رَحْمَتِ] بالهاء.

ووقف باقي القرّاء العشرة عليها بالتاء.

(٥٠) • قرأ قالُون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإِسْكانِ الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بضم الهاء. وهما لُغَتان.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كونِهِ وبَعْضِ آيَاتِهِ الْجزَائِيَّة.

وفيها قياسُ إحْيَاءِ الموتَىٰ علَىٰ إحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِها، مَعَ بَيَانِ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَتَّعِظُونَ بِمُنْذِرَاتِ العَذَاب، بَلْ يظَلُّونَ يَكْفُرُونَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً بَعْضَ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ المتضمّنة بعض مِنَنِهِ علىٰ عِبَادِه، رغْبَةً مِنْهُ في أَنْ يَكُونُوا شَاكِرِين:

• ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

- ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾: أي: ومِنَ الْعَلامَاتِ الدَّالّات علىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وأسْمَائِهِ الحسْنَىٰ.

- ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾: أي: ومِنْ آيَاتِهِ إرْسَالُهُ ـ تبارَكَ وتَعالَىٰ ـ أنواعاً مِنَ الرِّيَاحِ خاصَّةً بإنْعَامِ اللهِ علىٰ عِبَادِهِ، وهـٰذِهِ الرِّيَاحُ مُبشِّراتٌ بِسُحُبٍ ذَاتِ غَيْثٍ يُنْبِتُ الزَّرْعَ، ويَفِيضُ بِهِ الرِّزْقُ عَلَىٰ النَّاسِ وعلىٰ سَائِرِ الأحْيَاءِ في الأَرْض.

- ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: فِي هـٰذِهِ الجمْلَةِ خِطَابٌ لِلنَّاسِ، وهِي ـ فِيمَا أَرَىٰ ـ مَعْطُوفَةٌ علىٰ مَضمُونِ [مُبشِّراتٍ]، إذَ المعنَىٰ: لِيُبَشِّرَكُمْ أَيُّها النَّاسُ بالْغَيْثِ، ولِيُذِيقكُمْ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ بِمَا يُنْبِتُ لَكُمْ مِنْ زُرُوعٍ وثِمَارٍ، ويُخْرِجَ لَكُم مِنْ أَنْواعٍ وأَصْنَافِ أشْجَارٍ، لَكُمْ فيها مَنَافِعُ كَثِيرَة.

استُعْمِلَتِ «الإذاقَةُ» الْخَاصَّةُ بِمَا يُحِسُّ بِهِ اللِّسَانُ، وأُرِيدَ بِهَا جَمِيعُ ما يُحِسُّ بِهِ النَّاسُ مِنْ طَيِّبَاتٍ فِي كُلِّ حَوَاسِّهِمْ، وهَـٰذا مِن التَّعْمِيمِ المجَازِي، أو مِنَ التَّوَسُّعِ فِي دَلَالَاتِ الْكَلِمَاتِ اللّغويَّة.

- ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾: أي: ولِيَكُونَ إرْسَالُ الرِّيَاحِ سَبَباً فِي إجراء الْفُلْكِ فِي الْبَحْرِ بأمْرِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَمَا يَكُونُ لَهَا مِنْ سَلَامَةٍ إلَّا بأَمْرِهِ، ومَا يَكُونُ لَهَا مِنْ تَوْفِيقٍ وبُلوغٍ إلَىٰ غاياتِ أَهْلِهَا إلّا بأمْرِه، وَمَا يَكُونُ لَهَا مِنْ حَرَكَةٍ عَبْرَ الأَمْوَاجِ إلَّا بأمْرِه.

- ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أيْ: وَلِتَبْتَغُوا أَيُّهَا النَّاسُ بِرُكُوبِ الْفُلْكِ، وبِتَسْخِيرِ اللهِ إيَّاهَا لَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ؛ جَلْبَ أَرْزَاقٍ، واسْتِخْرَاجَ لَحمٍ طَرِيّ، ونَقْلَ بَضَائِعَ تَجْنُونَ مِنهَا أَرْبَاحاً عَنْ طَرِيقِ التجارَةِ مَعَ أَهْلِ بُلْدَانٍ نَائِيَة، وغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مصالِحَ ومَنَافِعَ لَكُمْ.

- ﴿... وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: وَرَغْبَةً في أَنْ تَشْكُرُوا ربَّكُمْ أيها النَّاسُ عَلَىٰ ما تَفضَّلَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، إذْ تَعْلَمُونَ أَنَّها مِنْ جُودِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

دلَّتْ هٰذهِ الآيَةُ علىٰ أنَّ الرسُولَ ﷺ؛ كَانَ إبَّانَ نُزُولِ هٰذِهِ السُّورَة يَرْغَبُ فِي أَنْ يَنْتَقِمَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ مِنَ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ، وأنَّ المضطَّهَدِينَ من المؤمِنينَ المسْلِمِينَ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ تَشْتَدُّ فِي طَلَبِ انْتِقَامِ اللهِ مِنْ أَعْدَائِهِم الكَفَرَةِ المضطّهِدِينَ لَهُمْ ظُلْماً وَعُدْواناً.

فأنْزَلَ اللهُ هَـٰذَا الْبَيَانَ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هٰذِهِ الآيَةُ طَمْأَنَةً لقُلُوبِهِمْ، وإعْلَاماً لَهُمْ بأنَّ سُنَّتَهُ فِي الانْتِقَامِ مِنَ المجْرِمِينَ ونُصْرَةِ عباده المؤمنينَ لَنْ تَتَخلَّفَ، فَهِيَ حَقٌّ أَلْزَمَ اللهُ نَفْسَهِ بِهِ ضِمْنَ مَجَارِي سُنَنِهِ.

• ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو تَعْطِفُ بَيَاناً عَلَىٰ بَيَانٍ سَابقٍ، واللّام واقِعةٌ فِي جواب قَسَمٍ مَنْوِي، و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيق.

• ﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: أي: نُؤَكِّدُ تَوْكِيداً مُشَدَّداً بِـ **[لَقَدْ]** أنَّنا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّد رُسُلاً كثِيرِينَ إلَىٰ أقْوَامِهِمْ.

أُطْلِقَ لفظ «قَوْمٍ» وأُرِيدَ بِهِ «أقْوام» لأَنَّهُ اسْمُ جِنْسٍ إفرادِي يَصْدُقُ علَىٰ الْقَلِيلِ والكَثِير.

• ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي: فجاءَ الرُّسُلُ أَقْوامَهُم بالبيِّناتِ مِنَ الْحُجَجِ والْبَرَاهِينَ، وجَاؤُوهُمْ بالْبَيِّنَاتِ مِن الآيَاتِ الخوارقِ المعْجِزَةِ.

• ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾: أي: فَعَاقَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانُوا فِي تَصَرُّفَاتِهِم مُجْرِمِينَ.

الانْتِقام: الْعِقَابُ عَلَىٰ الإثْم.

الإِجْرَامُ: ارْتِكَابُ ذَنْبٍ كَبِيرٍ. **والْمُجْرِم**: المعْتَدِي بِذَنْبٍ كبير.

• ﴿... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: وَكَانَ وَاجِباً عَلَيْنَا أَنْ نَنْصُرَ المؤمِنينَ عَلىٰ أَعْدَائِهِم الْمُجْرِمِينَ، أَلْزَمْنَا بِهِ أَنْفُسَنَا فيما دَبَّرْنَاه وقَرَّرْنَاه مِنْ تَصَارِيفِنَا لِعِبَادِنا.

لَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وحَرَّمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، حتَّىٰ لَا يَتَعالَىٰ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَاءِ النَّاسِ عَنْ أَنْ يُوجِبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ واجِبَاتٍ يَقْتَضِي الْحَقُّ والْعَدْلُ أَنْ يُوجِبَهَا عَلَيْها، ولَا يَتَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يُحَرِّمَ علَىٰ نَفْسِهِ مُحَرَّمَاتٍ يَقْتَضِي الحقُّ والْعَدْلُ أَنْ يُحَرِّمَهَا عَلَيْهَا.

ودَلَّتْ هٰذِهِ العبارة بأَسْلُوبِ الكِنَايَةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ نَصَرَ رُسُلَهُ عَلَيْهِمْ السَّلَام السَّابِقِينَ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ عَلَىٰ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، فَلَا بُدَ أَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ عَلَىٰ الْمُجْرِمِينَ مِنْ قَوْمِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي بَيَانٍ مُتَّصِلٍ بآيَةِ الرِّيَاحِ بَعْدَ الْبَيَانِ المعْتَرِضِ في الآية (٤٧):

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: [كِسْفاً].

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾: أي: اللهُ المتفَرِّدُ بِسُلْطَانِهِ عَلَىٰ تَصَارِيفِ كَوْنِهِ؛ هُو وَحْدَهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ علىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَدَرَجَاتِ شِدَّتِهَا وَضَعْفِهَا، وَمُسْتَوَيَاتِهَا ارْتِفَاعاً أَوِ انْخِفَاضاً، ودَرَجَاتِ حَرَارَتِهَا وَبُرُودَتِها، ونِسَبِ عَنَاصِرِها الغازِيَّة.

• ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: أي: فَتَنْشُرُ الرِّيَاحُ سُحُباً فِي جَوِّ السَّمَاءِ.

سَحَاب: اسم جِنْس جَمْعِي، مُفْرَدُهُ «سَحَابَة»، ويُلاحَظ معنىٰ الْجَمْعِ فِيهِ فَيُوصَفُ بالجمع، فيقال: «سَحَابٌ ثِقَال». ويَلاحَظ معْنَىٰ الإفرادِ فِيهِ فَيُوصَفُ بالمفْرَد، كَمَا سَيأْتِي في: «فيبْسُطُهُ»، وفي: «من خِلَالِهِ».

- ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾: أي: فَيَبْسُطُ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ السَّحَابَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، ويَجْعَلُهُ عَلَىٰ الكيْفِيَّةِ الَّتِي يَشَاؤُها، فَمَا نُشَاهِدُهُ مِنْ كَيْفِيَّاتٍ كَثِيرَاتٍ مُخْتَلِفَاتِ الأَشْكَالِ والأَحْوَالِ؛ هُوَ مِنْ صُنْعِ اللهِ الّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، وأَحْكَمَ كُلَّ تَصْرِيفٍ مِنْ تَصَارِيفِهِ فِي كَوْنِهِ بِحِكْمَتِهِ السَّامِيَة.
- ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: وفي القراءة الأخرىٰ: [**كِسْفاً**]: أي: ويَجْعَلُهُ قِطَعاً، **الْكِسَفُ ـ والكِسْفُ**: الْقِطَعُ مِنْ أَيِّ شيءٍ. واللَّفْظ جَمْعٌ، واحِدَتُهُ: «كِسْفَة»، وهي الْقِطْعَةُ مِنْ أيِّ شيءٍ.
- ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾: أي: فَتَرَىٰ أَيُّها الرَّائِي الْمَطَرَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِ السَّحابِ، بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ وَعِلْمِهِ وحِكْمَتِه، لِمَنَافِعِ الأَحْيَاءِ فِي الأَرْض.

الودق: المطر كله شديده وهيّنه، يقال لغة: «وَدَقَ، يَدِقُ، وَدْقاً» أي: قطر.

- ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: فإذَا أصَابَ اللهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ بِمَاءِ المطَرِ مَوَاضِعَ حَاجَاتِ ومَطَالِبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه؛ فاجَؤُوا مَنْ يُرَاقبهم بِأَنَّهُمْ يَفْرَحُونَ وَيُسَرُّون.

اسْتَبْشَرَ: فَرِحَ وسُرَّ.

- ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾: أي: لَيَائِسِينَ، ساكِتِينَ، مُتَحَيِّرِينَ، لَا يَمْلِكُونَ وسِيلَةً يَجْلُبُونَ بِهَا مَا يُغِيثُهُمْ لأَنْفُسِهِمْ وأَرْضِهِمْ وبَهَائِمِهِمْ، وسَائِر ما يَحْتَاجُونَ فِيهِ إلىٰ الماء.

المعنىٰ: وقَدْ كَانَ شَأْنُهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاء، من قَبْلِهِ بِلَحظَاتٍ؛ لَيَائِسِينَ، سَاكِتِينَ، مُتَحَيِّرِينَ، لَا حِيلَةَ لَهُمْ يَجْلُبُونَ بِهَا مَاءً لمصَالِحِ حَيَواتِهِمْ.

جَاءَ تَكْرِيرُ فِكْرَةِ الْقَبْلِيَّة بِعِبَارَةِ: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ للدَّلَالَة عَلَىٰ الْقَبْلِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ فِيمَا أَرَىٰ، ودَفعاً لِتَوَهُّم الْقَبْلِيَّةِ الْبَعِيدَة، وبَيَاناً لأُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي تَكْرِيرِ الْعِبَارَة للتوكيد.

«إنْ» في: ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ هِيَ المخفَّفَة مِنَ الثقِيلَة، فهي تُفِيدُ التوكيد، واللَّام في: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ هي لَامُ التوكِيدِ المزحْلَقة، فالعبارة مؤَكَّدَة، بـ: «إنَّ ـ والجملَةِ الاسْمِيَّةِ ـ واللّام المزحْلَقة».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُنَبِّهاً عَلَىٰ رَحْمَتِهِ، وحِكْمَتِهِ، وقُدْرَتِهِ فِي تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ:

● ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾:

فِي هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانُ أَرْبَعِ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الأُولَى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾:

أي: فانْظُرْ أيُها النَّاظِرُ المتَفَكِّرُ المتَدبِّرُ إِلَىٰ آثَارِ صِفَةِ رَحْمَةِ اللهِ في كَوْنِهِ، وَتَصَارِيفِ خَلْقِهِ المسْبُوقِ بِتَقْدِيرِهِ وَقضائِهِ، كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ، بإِخْرَاجِ نَبَاتِهَا وزُرُوعِها وَأَشْجَارِهَا وثمراتها، بالْمَاءِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَخْتَلِطُ بِتُرَابِ الأَرْضِ، ثُمَّ يَخْتَلِطُ بالبزور والجذور، فتَتَنَامَىٰ بِخَلْقِهِ، حتَّىٰ تَكُونَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْض ذَوات حَيَاةٍ نَبَاتِيَّة، مختَلِفَةَ الأَجْنَاسِ والأَنْوَاعِ والأَصْنَاف، وفي كلٍّ مِنْهَا مَنَافِعُ للعباد.

الْقَضِيَّة الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾: أي: إنَّ ذَلِكَ الْعَظِيم الْجَلِيلَ الْقَدِيرَ الَّذِي يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا؛ لَمُحْيِي الموتىٰ مِنَ الأَحْيَاءِ ذَوَاتِ الأَرْوَاحِ إِذَا شَاءَ، ولَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ جَمِيعاً يَوْمَ الْبَعْثِ لِمَرْحَلَةِ الْجَزَاء.

القضيَّة الثَّالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾: أي: وهُو ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدِيرٌ علىٰ إِيجادِ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاءُ إِيجادَهُ، وقَدِيرٌ عَلَىٰ إِعْدَام كُلِّ شيءٍ يَشَاءُ إِعْدَامَهُ، ومَعْلُومٌ أَنَّ مَشِيئَةَ اللهِ فِي الإيجادِ وَالإِعْدَام لَا تتعلَّقُ إِلَّا بالجائزاتِ الْعَقْلِيَّة، فَلَا تَتعلَّقُ بالْوَاجِبَاتِ الْعَقْلِيَّة، وهِي ذَاتُهُ وصِفَاتُهُ، ولَا بالمسْتَحِيلاتِ الْعَقْلِيَّة، كإيجَادِ رَبٍّ مُمَاثِلٍ له، وكالْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ.

الْقَضِيَّةُ الرَّابعة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ۝٥١﴾: يَتحدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم.

أي: وأُقْسِمُ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً مَصْحُوبَةً بمَا يُنْذِرُ بِعَذَابٍ وإِهْلَاكٍ وتَدْمِيرٍ، فَرَأَوْا جَوَّ السَّمَاءِ مُصْفَرّاً بِمَا تَحمِلُ الرِّيحُ مِنْ تُرَابٍ وغُبَارٍ ورِمَالٍ ومُهْلِكَاتٍ؛ لَاسْتَمَرُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ، حَتَّىٰ يَنْزِلَ بهم وَيُصِيبَهُمُ العقاب الرَّبَّانِيُّ.

إِنَّهم حِينَ يَرَوْنَ جَوَّ السَّمَاءِ مُصْفَرّاً مُنْذِراً بِعِقَابٍ؛ يُعَلِّلُونَ مَا شَاهَدُوه بأَنَّهُ مِنَ الظَّواهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الكَوْنِ، وَلَيْسَتْ أَثَرَ رَبٍّ خَالِقٍ يتصرَّفُ بأَحْدَاثِ كَوْنِهِ علَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ، ومِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنَ الْكَافِرِين.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْس السابعِ من دُروس سورة (الرُّوم).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دروس سورة (الرّوم)

الآيتان (٥٢ و٥٣)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

القراءات:

(٥٢) • قرأ ابْنُ كَثِير: [**وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، فَأَنْتَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاء، وهُمْ لَا يَسْمَعُونَ الدُّعاء.

(٥٣) • قرأ حمزة: [**تَهْدِي الْعُمْيَ**]، وَوَقَفَ على [**تَهْدِي**] بالياء بخلف عنه.

وقرأهَا باقِي القرَّاء العشرة: ﴿بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ﴾. ومؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

ولَا يَخْفَىٰ أَنَّ الياء تحذف وصْلاً للساكنين. ووقف على [**بهادي**] بإثبات الياء: يعقوب، والكسائي بخلفه. ووقف الباقون بحذفها.

تمهيد:

في آيَتَيْ هـٰذا الدَّرسِ تَيْئِيسُ الدّاعي إلَىٰ اللهِ من تَأْثِيرِ دَعْوَتِهِ فِي الَّذِين بَلَغُوا في قُلُوبِهِمْ دَرَكَةَ مَوْتَىٰ الْقُلُوبِ، أَوْ دَرَكَة الصُّمِّ الْعُمْي فِي بَصَائِرِهم، فَعَلَيْهِ أَنْ يُجاهِدَ فِي دَعْوَةِ غَيْرِ الميؤُوسِ مِنْهُمْ.

التدبّر التحليلي:

الصُّمُّ: جَمْعُ «الأَصَمِّ»، وهو من لَا سَمْعَ لَهُ.

الْعُمْي: جَمْعُ «الأعْمَىٰ»، وهو مَنْ لَا بَصَرَ لَهُ.

والمراد بالصُّمِّ الّذِينَ سَدُّوا أَسْمَاعَهُمْ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ دَعْوَة الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، والمرادُ بالْعُمْي الَّذِينَ أَغْمَضُوا عُيُونَ بَصَائِرِهم عن إِدْراكِ أنوار الهداية الرَّبَّانِيَّة.

والمرَادُ بِالْمَوْتَىٰ الّذِينَ فَقَدُوا كُلَّ إِحْسَاسٍ لهم بِشَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا دِينِ اللهِ لهم، فَهُمْ كالموْتَىٰ.

المعنىٰ: فأَنْتَ أَيُّها المؤمِنُ المسْلِمُ الدّاعِي إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ؛ لَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمُجاهَدَةِ مَنْ أَثْبَتَتِ التَّجْرِبَةُ الطَّوِيلَةُ أَنَّهُمْ كالْمَوْتَىٰ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قَضَايا الدِّين، فإِنَّهُمْ لا يَسْمَعُونَ دُعَاءَكَ، وأَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُسْمِعَهُمْ دُعَاءَك، لأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤَثِّرَ علىٰ إِرَادَاتِهِمْ، الَّتِي تَشَبَّثَتْ بأَهْوَائِهِمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَمَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ، وَابْتَعَدُوا بُعْداً شَاسِعاً عَنْ رَبِّهِمْ وعَنْ تَصَوُّرِ الْيَوْم الآخِرِ وَحِكْمَةِ الجزاءِ الرَّبَّانِيِّ بالْعَدْلِ أَوْ بالفضل، فصَارُوا كالموتَىٰ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هٰذِهِ القضايا.

ولَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمُجَاهَدَةِ مَنْ أَثْبَتَتِ التَّجْرِبَةُ الطَّوِيلَةُ أَنَّهُم كالصُّمِّ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قَضَايَا الدِّين، فَإِنَّهُم لا يَسْمَعُونَ دُعَاءَك، وأَنْتَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُسْمِعَهُمْ دُعَاءَكَ، لأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ بالْجَبْرِ أَنْ تُحوّلَهُمْ مِنْ صُمٍّ إِلَىٰ سَامِعِينَ، وقَدْ جَعَلَهُمْ رَبُّكَ ذَوِي إِرادَاتٍ حُرَّةٍ يَخْتَارُونَ بِهَا طَرِيقَ الْخَيْرِ أَوْ طَرِيقَ الشَّرِّ، ولَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِينَ، ولَا قَابِلِينَ لِلْجَبْرِ الَّذِي يُوَجَّهُ لإِرَادَاتِهِمْ، ولَا سِيَّما إِذَا ابْتَعَدُوا مُدْبِرِينَ عَنْ دَائِرَةِ سَمَاعِ النداء.

وَكذلِكَ لَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمُجَاهَدَةِ مَنْ أَثْبَتَتِ التَّجْرِبَةُ الطَّوِيلَة أَنَّهُمْ كالْعُمْي بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ هِدَايَةٍ عَنْ طَرِيقِ أَبْصَارِهِمْ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قَضَايَا الدِّين، فإِنَّهُمْ لَا يَرَوْنَها، وأَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرِيَهُمْ إِيَاهَا، ولَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَهُمْ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ دَلَالَاتِها، ولَا أَنْ تَهْدِيَهُمْ وهُمْ مُوغِلُونَ فِي ضَلَالَاتِهِمْ، بَعِيدُونَ عن صراطِ الْهُدَىٰ، وعَنْ مَوَاقِعِ الحقِّ.

جاءَ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ اسْتِعَارَةُ أَلْفَاظِ «الْمَوْتَىٰ» و«الصُّمِّ» و«الْعُمْيِ» للدَّلالَةِ بِهَا عَلَىٰ مَنْ بَلَغُوا دَرَكَةَ حَجْبِ مَدَارِكِهِمُ النَّفْسِيَّةِ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ الْحَقِّ مِنْ دُعَاةِ الحقِّ، رَسُولاً كَانَ فَمَنْ دُونَهُ.

ويَقول اللهِ للدَّاعِي: مَا تُسْمِعُ إلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بآياتِنَا البيانِيَّة وآيَاتِنَا الكونيَّةِ الإعجازيَّةِ والجزائيَّةِ، فَهُمْ بِدَافِعِ إيمانِهِمْ مُسْلِمُونَ مُسْتَسْلِمُون.

وبهٰذَا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الثَّامِنِ من دُروس سورة (الرُّوم).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٢)

التدبر التحليلي للدّرس التاسع من دروس سورة (الرُّوم) الآية (٥٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةً ۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾:

القراءات:

(٥٤) ● قرأ شُعبة، وحمزة: [**ضَعْفٍ**] في الموضِعَيْن، وكذلِكَ حفْصٌ بِخُلْفٍ عَنْهُ.

وقرأها باقِي القُرَّاءِ العشرة: [**ضُعْفٍ**] في الموضِعَيْن، وكَذٰلِكَ: [**ضُعْفاً**]. وهُو الوَجْهُ الثَّانِي لحفص.

(٥٤) ● قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكِسَائِي، وأبو جَعْفر: [**وَهْوَ**] بإسكان الهاء.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بِضَمِّ الهاء وَوَقَفَ عليها يعقوب بهاء السكت.

تمهيد:

في هـٰذا الدّرس بيان واقِعِ رِحْلَةِ الإنْسَانِ في هـٰذِهِ الحَياةِ الدنيا، بَيْنَ الضَّعْفِ والْقُوَّةِ، والَّتِي يَكُونُ انْتِهَاؤُهَا بالْمَوْتِ.

التدبّر التحليلي:

هـٰذه الآيَةُ تَدُلُّ علَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ خلَقَ النَّاسَ من ضَعْفٍ.

وجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجلّ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

دَلَّ هَـٰذَانِ النَّصَّانِ عَلَىٰ وَاقِعِ الْحِكْمَةِ الرَّبَانِيَّةِ فِي خَلْقِ الإنْسَانِ نَاشِئاً مِنْ ضَعْف، وفِي خَلْقِهِ حَالَةَ كَوْنِهِ مَخْلُوقاً ضَعِيفاً.

الضَّعْفُ: نَقْصٌ فِي الْقُوَّةِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ ذِي قُوَّةٍ أَكْثَرَ وأَشَدَّ، والضَّعِيفُ هو الَّذِي يَعْجِز عَنْ تَحْقِيقِ مَطْلُوبِهِ بِقُوَّتِهِ.

إنَّ مِنَ الملاحَظِ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ؛ أَنَّ الإنْسَانَ ـ كُلَّ الإنْسَانِ ـ مَخْلُوقٌ مِنْ مَادَّةٍ ضَعِيفَةٍ جدّاً فِي النُّطْفَةِ الَّتِي يَبْدَأُ تَكَوُّنُهُ مِنْها، فَكَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ ضَعْفٍ لِشِدَّةِ الضَّعْفِ فِيهَا عَنْ مُقاوَمَةِ أيِّ مُغَالِب لَهَا مِنْ حَوْلِهَا، لَوْلَا حِمَايَةُ الْخَالِقِ لَهَا، وحِفْظُهَا مِنْ كُلِّ ذي قُوَّةٍ لَهُ حَاجَةٌ بِمُغَالَبَتِها، ولَوْ كَانَتْ قُوَّتُهُ زَائِدَةً علَىٰ قُوَّتِهَا زِيَادَةً لَا يَسْتَطِيعُ الحاسِبُونَ تَقْدِيرَها.

ويَسْتَمِرُّ حَالُ الضَّعْفِ فِي الإنْسَانِ، حتَّىٰ تَكَادَ بَعُوضَةٌ أَن تَطْرَحَهُ أَوْ تَقْتُلَهُ، وَرُبَّ جُرْثُومَةٍ أَوْ فيروسَةٍ تَجْتَمِعُ المَلَايِينُ مِنْهَا عَلَىٰ رَأْسِ إِبْرَةٍ أَوْ شَوْكَةٍ؛ تَكُونُ سَبباً فِي إسْقَاطِهِ مَرِيضاً عَاجِزاً، أَوْ قَتْلِهِ، لأَنَّهُ يَضْعُفُ عَنْ مُقَاوَمَتِها، أَوْ إِدْرَاكِهَا، وَتَدْخُلُ فِي جَسَدِهِ إِلَىٰ مَقَاتِلِهِ وهُوَ لَا يَرَاها، لِضَعْفِ بَصَرِهِ عَنْ رُؤْيَتِهَا.

وفِي مَسِيرَةِ الإنْسَانِ الْمَحْفُوظ بِحَفْظِ اللهِ لَهُ مِنَ المخاطِرِ؛ يُعْطِيهِ اللهُ

ـ جلَّ جلَالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قُوَّةً مَا تَجعَلُهُ يَقُومُ بِبَعْضِ الأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، وَلَكِنَّ اللهَ يُنَكِّسُهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُنَبِّهَهُ عَلَىٰ أَنَّهُ سَيُنْهِي حَيَاتَهُ، بِسَلْبِ كُلِّ قُوَّةٍ لَهُ، وجَعْلِهِ مَيِّتاً لَا حَيَاةَ فِيهِ ولَا حَرَكَةَ لَهُ، وَلِيُذَكِّرُه بِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ بَعْدَ ذَلِكَ لِيَوْمِ الدِّينِ، لِيُلَاقي حِسَابَهُ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، وَجزَاءَهُ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالْفَضْلِ.

وَمِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنَّهُ رَاعَىٰ حَالَةَ ضَعْفِ الإنسان، فَخَفَّفَ عنهُ تكَالِيفَ الامْتِحَانِ، وخَفَّفَ مِنْ مُؤَاخذَتِهِ عَلَىٰ المعاصِي مِنْ دُونِ الكُفْرِ، فَجعَلَ لَهَا مُكَفِّرَاتٍ بِالتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ، وإِتْبَاعِ السَّيِّئَةِ الحسَنَةَ، والاعتمادِ علىٰ وَاسِعِ رَحْمَتِهِ وعَظِيم فَضْلِهِ.

- ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ﴾: أيْ: يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ خَلْقَهُ، وَلَكِنَّ مَشيئَتَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ.
- ﴿... وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ۝٥٤﴾: أي: وهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، الْقَدِيرُ عَلَىٰ خَلْقِ مَا يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يَخْلُقَهُ.

وبهٰذَا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْس التاسع من دُروس سورة (الرُّوم).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس سورة (الرُّوم) الآيات من (٥٥ ـ ٥٧)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٥٦ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٥٧﴾:

القراءات:

(٥٧) • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[لَا يَنْفَعُ]** بالياء.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرةِ: **[لَا تَنْفَعُ]** بالتاء.

وهما وَجهان عَرَبيان لأنّ الفاعل مجازِيُّ التَّأْنيث.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ أَحْوالِ النَّاسِ عِنْدَ قِيَامِ سَاعَةِ البعث، بالنِّسْبَةِ إلىٰ بَقَائِهِمْ فِي الْبرْزَخِ بَيْنَ الموْتِ والْبَعْث.

التدبّر التحليلي:

• ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: أي: وَيَـوْمَ تَـقُـومُ سَـاعَـةُ الْبَـعْـثِ إلَىٰ الْـحَـيَـاةِ الأُخْرَىٰ، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء.

هـٰذا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاق، وبَعِيدٌ أَنْ يَكُونَ المرادُ سَاعَةَ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحيَاةِ الدُّنْيا.

• ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾: أي: يَـحْـلِـفُ غُـلَاةُ الـكَـفَـرَةِ الْمُجْرِمُونَ بارْتِكَاب الآثَام الكُبْرَىٰ قائِلين: مَا أَقَمْنَا فِي مَدَافِنِنَا بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إلَّا سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهارٍ.

والسَّبَبُ فِي هَـٰذَا أَنَّ الْحِسَّ بالزَّمَنِ مَمْسُوحٌ مِنْ إِدْرَاكِ نُفُوسِهِمْ بالْمَوْتِ، فَالسَّاعَةُ فِي إِدْرَاكِهَا ومِلْيَارَاتُ الْقُرُونِ سَوَاءٌ، فَهُمْ يُقْسِمُونَ عَلَىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ زَمَنِيٍّ يُقَدِّرُونَهُ تَقْدِيراً، دُونَ شُعُورٍ مِنْهُمْ بِمُدَّتِهِ، ولَمْ يَكُونُوا قَبْلَ مَوْتِهِمْ مُؤْمِنينَ بالْبَعْثِ ولَا بِيَوْمِ الدِّين، بَعْدَ انْتِهَاءِ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا.

• ﴿... كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾: **يُؤْفَكُونَ**: أي: يُصْرَفُون.

إنَّهُمْ لَمْ يَسْتَرْجِعُوا مَا كَانُوا يُنَبَّؤُونَ بِهِ عَنِ الْبَرْزَخِ والْبَعْثِ لِيَوْم الدِّين بَعْدَ انْتِهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، بَلْ اسْتَمَرُّوا يَعِيشُونَ فِي أَوْهَامِهِمُ الْخَاصَّةِ، وَمَا يُحِسُّونَ فِي مَشَاعِرِهِمْ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا عُقُولَهُمْ فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ، لَقَدْ كَانُوا فِي الحياةِ الدُّنْيَا يُصْرَفُونَ عَنْ إِدْرَاكِ الحقِّ بِعُقُولِهِمْ، بِعَوَامِلِ أَهْوَاءِ نُفُوسِهِمْ، وشَهَواتِهِمْ، وإِحْسَاسَاتِ نُفُوسِهِم السَّطْحِيَّة، وعِنْدَ سَاعَةِ الْبَعْثِ يَكُونُ حَالُهُمْ مِثْلَ حَالِهِمْ قُبَيْلَ مَوْتِهِمْ، يُصْرَفُونَ عَنْ إِدْرَاكِ الحقِّ بِعُقُولِهِمْ بالْعَوامِلِ الَّتِي كَانُوا يُصْرَفُونَ بها في الحياة الدُّنْيَا، حَتَّىٰ تَظْهَرَ لَهُمْ بَعْضُ أَحْوَالِ الْيَوْمِ الآخر، أمَّا عذابُ القبر فهم يظنُّونَهُ بمثابة أحْلَامٍ كانوا يرَوْنَها.

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: وَقَالَ لَهُمُ المؤمِنُونَ الَّذِينَ مَاتُوا مُؤْمِنِينَ، وسَبَقَ لَهُمْ أَنْ عَلِمُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُ اللهِ ـ عليهم السلام ـ مِنْ أَحْوَالِ الْيَوْمِ الآخِرِ، والْبَعْثِ بَعْدَ الموتِ وانْتِهَاءِ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيَا مَهْمَا طَالَ زَمَنُها: لَقَدْ لبِثْتُم مَوْتَىٰ فِي مَدَافِنِ أَجْسَادِكُمْ زَمَناً مُحَدَّداً فِي عِلْمِ اللهِ المكْتُوبِ فِي اللَّوْحِ المحْفُوظِ، وَهَـٰذَا الزَّمَنُ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الأشْخَاصِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ ـ عليه السلام ـ حَتَّىٰ قِيَامِ سَاعَةِ الإفْنَاء، وَلَا يَعْلَمُ زَمَنَ إِقَامَةِ كُلِّ واحِدٍ في الْبَرْزَخِ بَيْنَ الموْتِ والْبَعْثِ إِلَّا اللهُ الَّذِي وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شيءٍ، ومَنْ أَعْلَمَهُ اللهُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ أو غَيْرِهِم.

وقالُوا لهم أَيْضاً: ولَكِنَّكُمْ كُنتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا تَعْلَمُونَ مَا أَنْبَأَكُمْ بِهِ رُسُلُ اللهِ ـ عليهم السلام ـ، لأَنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تُصَدِّقُونَهُمْ فِي قَضايا الدِّينَ، فَتَصْرِفونَ أَذْهَانَكُمْ عَنْ حِفْظِ مَا كَانُوا قَدْ بَلَّغُوكُمْ مِنْ عِلْمٍ وَعَنِ تَذَكُّرِهِ، فَقُلْتُمُ الْيَوْمَ مَقَالَتَكُمْ بأَنَّكُمْ مَا لَبِثْتُمْ غَيْرَ سَاعَةٍ وَأَنْتُمْ جَاهِلُونَ، تَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ ظُنُونِكُمُ الضَّعِيفَةِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ قَبِيلِ الأَوْهَام.

• ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

الْمَعْذِرَةُ: الحجَّةُ الَّتِي يُقَدِّمُها ويُجَادِلُ بِهَا المعْتَذِرُ عَنْ ذَنْبِهِ، لِتَبْرِئَةِ نَفْسِهِ مِنِ ارْتِكَابِ الإِثْمِ.

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: يُقْبَلُ رفْعُ الْمَلَامِ عَنْهُمْ. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: وَلَا هُمْ يُقْبَلُ رَفْعُ الْعتَبِ عَنْهُمْ، وَلَا رَفْعُ الْمَلَامِ والمؤاخَذَةِ عَنْهُمْ عَلَىٰ ذُنُوبِهِمْ، لأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ظَالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ بما جَاءَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِم - عليهم السلام -، والمؤيَّدِينَ بالآيَاتِ الْبَيِّنَات والْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَات.

يُقَالُ لُغَةً: «أَعْتَبَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: قَبِلَ رَفْعَ الْمَلَامِ والمؤاخَذَةِ والعِقَابِ عَنْهُ.

المعنىٰ: فَيَوْمَ تَقُومُ سَاعَةُ الْبَعْثِ، وَتَحْضُرُ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَة، لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ دَرَكَة الْكُفْرِ حُجَجُهُمُ الْكَواذِبُ الَّتِي يُقَدِّمُونَهَا، لِسَتْرِ ذُنُوبِهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لِطَلَبِهِمْ رَفْعَ الْمَلَامِ والْعَتْبِ والمؤاخَذَةِ عَنْهُمْ مَهْمَا زَخْرَفُوا أَقْوالَهُمْ، ومَهْمَا تَذَلَّلُوا وَخَضَعُوا دَاعِينَ أَنْ يَرْفَعَ اللهُ عَنْهُمُ الْعِقَابَ، فَقَدِ انْتَهَتْ حَيَاة الابْتِلَاءِ، وَجاءَتْ يَوْمَ الدِّينِ حَيَاةُ الجزاء.

وبهـٰذَا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْس العاشر مِنْ دُروس سورة (الرُّوم).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٤)

التدبّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (الرُّوم) الآيتان (٥٨ و٥٩)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

القراءات:

(٥٨) ● قرأ ابن كثير: [**الْقُرَانِ**]. وكَذَلِكَ حَمْزَةُ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾.

(٥٨) ● قرأ السُّوسِي، وأبُو جَعْفَر: [**جِيتَهُمْ**]. وكَذَلِكَ قَرَأَهَا حَمْزَةُ فِي الوقف.

وقرأها باقي القُرّاءِ العشرة: ﴿جِئْتَهُم﴾.

تمهيد:

فِي آيَتَيْ هَـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ - عزَّ وجَلَّ - قَدْ ضَرَبَ للنَّاسِ فِي هَـٰذَا القرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لإقْنَاعِ الْكَافِرِينَ بِنَبْذِ كُفْرِهِمْ وشِرْكِيَّاتِهِمْ، ولَكِنَّ الْكَافِرِينَ يُوَاجِهُونَ مَا يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِ اللهِ - عَزَّ وجلَّ - بِقَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ. والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ مُقْفَلَةٌ مَطْبُوعٌ عَلَىٰ أَقْفَالِهَا.

التدبُّر التحليلي:

- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ . . .﴾:
- ﴿وَلَقَدْ﴾ اللَّامُ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ. أي: وأُقْسِمُ لَقَدْ.
- ﴿ضَرَبْنَا﴾: أَصْلُ الضَّرْبِ تَوْجِيهُ شَيْءٍ لِشَيْءٍ آخَرَ بِقُوَّةٍ حَتَّىٰ يَصْطَدِم به. ولَمَّا كَانَتْ صِنَاعَةُ الدَّرَاهِمِ والدَّنَانِيرِ، قَدْ كانَتْ تَتِمُّ عَنْ طَرِيقِ ضَرْبِ صَفَائِحِ الْفِضَّةِ والذَّهَبِ بِقَوَالِبَ حَدِيدِيَّةٍ صُلْبَة حُفِرَت فِيها أَمْثِلَتُها، أو ضِمْنَ قَوالِبَ يَدْخُلُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ؛ قالوا: ضَرَبَ فُلَانٌ الدَّرَاهِمَ والدَّنَانِير، إِذَا طَبَعَ مَعْدِنَهُمَا عَلَىٰ الْمِثَالِ الْمَحْفُورِ فِي القالب، ثُمَّ حَصَلَ تَوَسُّعٌ فِي الضَّرْبِ فقالُوا: «ضَرَبَ فُلَانٌ مَثلاً» أي: ذَكَرَ أَوْ صَنَعَ أو قَدَّمَ مَثلاً لأَمْرٍ بِقَصْدِ أَنْ يُقَاسَ عَلَيْهِ.

- ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾: يُطلَقُ «المثَلُ» علىٰ الشَّيْءِ الّذِي يُضرَبُ لِشَيْءٍ آخَر، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ شَبِيهُهُ، فَيُدَّعَىٰ أَنَّهُ مِثْلُهُ.

المعنىٰ: يخاطِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ النَّاسَ بِضَمِيرِ المتكلِّمِ العظيم: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾.

- مِنْ وَسَائِلِ الإقْنَاعِ ضَرْبُ مَثَلٍ مِنَ المسَلَّمَاتِ لِيُقَاسَ عَلَيْهِ المدَّعَىٰ مِنْ غَيْرِ المسَلَّمَاتِ، إِذْ هُوَ مِثْلُهُ وشَبِيهُهُ.
- ومِنْ أَسَالِيبِ التَّعْمِيمِ ضَرْبُ مَثَلٍ لِيُقَاسَ عَلَيْهِ شبيهُهُ، فَيُعْطَىٰ الشَّبِيهُ حُكْمَ الْمَثَلِ الَّذِي جِيءَ بِهِ لِيُقَاسَ عَلَيْهِ.

(١) فإحياءُ الموْتَىٰ يَوْمَ الْبَعْثِ الّذِي يَجْحَدُهُ المشْرِكُونَ جُحُودَ اسْتِبْعَادٍ واسْتِغْرَابٍ؛ يُضْرَبُ لَهُ مَثَلٌ مِنْ خَلْقِ الإنْسَانِ الأوَّلِ مِنْ طِينٍ، وإحْيَائِهِ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيه. وَيُضرَبُ لَهُ مَثَلٌ مِنْ إِحْيَاءِ الْعُزَيرِ وحِمَارِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا مِئَة سَنَة. ويُضْرَبُ لَهُ مَثَلٌ مِنْ إحْيَاءِ قَتِيلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيُخْبِرَ عَنْ قَاتِلِهِ. ويُضرَبُ لَهُ مَثَلٌ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الكَهْفِ. ويُضْرَبُ لَهُ مَثَلٌ مِنْ إِعْطَاءِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام مُعْجِزَةَ النَّفْخِ فِي طِينٍ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيراً حَيّاً بِإِذْنِ اللهِ وَيُضرَبُ لَهُ مَثَلٌ مِنْ إِحْيَاءِ الأَرْضِ بِالنَّبَاتِ مِنْ بُزُورِهِ وَجُذُورِه بَعْدَ مَوْتِهَا وخُلُوِّهَا مِنْ حَيَاةٍ نَبَاتِيَّةٍ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِسَقْيِهَا بالماء.

(٢) والتَّعْمِيمُ يَكُونُ بِبَيَانِ حُكْم ذِي صِفَةٍ تَقْتَضِي عَقْلاً هٰذَا الحكْمَ، لِيُقَاسَ عَلَيْهِ أَشْبَاهُهُ فِي الصِّفَةِ الَّتِي اقْتَضَتْ عَقْلاً هٰذَا الْحُكْمَ.

فَذِكْرُ الْخَمْرِ وبَيَانُ تَحْرِيمِ شُرْبِهَا مَثَلٌ يُقَاسُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَحْمِلُ صِفَةَ الْخَمْرِ مِنَ الإسْكَارِ والأَضْرَارِ، ولَا سِيمَا إذا كَانَ فِي ذَلِكَ أَشَدَّ مِنَ الْخَمْرِ وأَوْلَىٰ بِحُكْمِ التَّحْرِيمِ.

والنَّهْيُ عَنْ أَنْ يَقُولَ الإِنْسَانُ لِأُمِّهِ أَوْ أَبِيهِ كَلِمَةَ: «أُفٍّ» مَثَلٌ يُقَاسُ عَلَيْهِ مَا هُوَ مِثْلُ كَلِمَةِ: «أُف»، ويُقَاسُ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هٰذِهِ الكَلِمَةِ قَوْلاً أَوْ فِعْلاً.

والنَّهْيُ عَنِ الاقْتَراب مِنْ مَكَانِ عَمَلٍ مَا؛ يُقَاسُ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَشَدُّ من الاقْتِرَاب، كَمُمَارَسَةِ الْعَمَلِ وفِعْلِهِ الَّذِي هُوَ المقْصُودُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الاقْتِرَاب.

والنَّهْيُ عَنْ أَكْلِ الرِّبَا - وَلَوْ بِرِضَىٰ بَاذِلِ الْفَائِدَةِ - يُقَاسُ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَشَدُّ، كَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ بالْحِيلَةِ دُونَ شُعُورٍ مِمَّنْ تُؤْكَلُ أَمْوَالُهُمْ، كالْغِشِّ، والتَّطْفِيفِ فِي الْمَوازِينِ، والسَّرِقَةِ فِي الخفاء.

فَمِنَ الْعَمَلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - الْقِيَاسُ عَلَىٰ الْأَمْثَالِ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي كِتَابِهِ، وإعْطَاءُ الْمَقِيسِ حُكْمَ المقِيسِ عَلَيهِ.

لَكِنَّ الكَفَرَةَ المشْرِكينَ كَانُوا وَمَا زَالُوا يُكابِرُونَ، فَيَجْحَدُونَ الْبَعْثَ، دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا حُجَّةً مَا غَيْرَ التَّعَجُّبِ والاسْتِبْعَادِ والاسْتِغْرَابِ.

- ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

اللَّام فِي ﴿وَلَئِن﴾ واقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَنْوِي، وتُسَمَّىٰ مُوَطِّئَةً لِلْقَسَم.

المعنىٰ: وأُقْسِمُ لَئِنْ جِئْتَ النَّاسَ أَيُّهَا الدَّاعِي إلى اللهِ - رَسُولاً فَمَنْ دُونَهُ - بآيَةٍ بَيَانِيَّة أَوْ بآيَةٍ كَوْنِيَّة، دَلِيلاً عَلَىٰ مَا تَعْرِضُهُ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ، كَقَضِيَّةِ الْبَعْثِ للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الْجزَاءِ، يَوْمَ الدِّينِ؛ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ الدُّعَاةِ إلى اللهِ وإلَىٰ سَبِيلِهِ: مَا أَنْتُمْ إلَّا مُبْطِلُونَ.

إنَّهُمْ لَا يَمْلكُونَ حُجَّةً مَا يَكْشِفُونَ بِهَا بُطْلَانَ آيَاتِ الدُّعَاةِ إلى اللهِ، لَكِنَّهُمْ يُوَاجِهُونَهُمْ بِسَفَاهَةٍ وَمَكَابَرَةٍ وعِنَادٍ، بِمَقَالَةٍ ادِّعَائِيَّةٍ غَيْرِ مُقْتَرِنَةٍ بِحُجَّةٍ تَقْبَلُهَا الْعُقُولُ لِلْمُنَاظَرَةِ والرَّدِّ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: مَا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ.

كُلُّ فَاقِدٍ للاحْتِجَاجِ بِمَنْطِقٍ عَقْلِي قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَشْتُمَ صَاحِبَ الحجَّةِ الْعَقْلِيَّة بأَنْ يَقُولَ لَهُ: أَنْتَ مُبْطِلٌ كَذَّاب، أو مَا أَنْتَ إِلَّا مُبْطِلٌ كذَّاب، وَلَا نَظِيرَ لِهٰذَا إِلَّا عُوَاءُ الْكِلاب، ومُوَاءُ الْقِطَطِ عِنْدَ التَّخَاصُم، ومِثْلُهُ سِبَابُ السُّفَهَاءِ الَّذِين لَا عُقُولَ لَهُمْ.

«إِنْ» في: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ حَرْف نَفْي بمَعْنَىٰ «مَا».

- ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾:

- ﴿يَطْبَعُ﴾: الطَّبْعُ فِي الماديَّاتِ الملْمُوسَةِ كالْخَتْم، وقد كَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ إذَا أَرْسَلُوا رَسَائِلَ، وأَرَادُوا المحافَظَة على سِرِّيَّةِ مَا فِيها؛ أَقْفَلُوهَا بإحْكَام، وَوَضَعُوا عندَ مَكانِ إِقْفَالِهَا طِيناً خاصّاً، يَطْبَعُونَ عَلَيْهِ خَاتَمَهُمُ الْخَاصَّ بِهِم، فَيَجفُّ الطِّينُ ومِثَالُ الْخَاتَمِ عَلَيْهِ مَطْبُوعٌ، فَلَا يُعْرَفُ مَا فِي دَاخِلِ الرِّسَالَةِ إِلَّا بِكَسْرِ خَاتَمِ الطين.

وعلى سَبِيلِ التوسُّع في التَّعْبِيرِ، بِنَقْل مَا هُوَ لِلْمَادِّيَّاتِ إلى المعنويَّات؛ جاء في القرآن التَّعْبِيرُ بالطَّبْع والْخَتْم على القُلُوبِ، للدَّلَالَةِ على أَنَّهَا صَارَتْ مَحْجُوبَةً عَنْ إِدْرَاكِ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَا هِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ.

وَطَبْعُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عَلَىٰ الْقُلُوبِ لَا يَكُونُ بِصُورَةٍ ابْتِدَائِيَّةٍ جَبْرِيَّة، ولَكِنْ يَكُونُ نَتِيجَةَ مَا يَكْسِبُهُ الْعَبْدُ بإرَادَتِهِ، مِن أَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ، يَتَوَلَّدُ عَنْهَا الطَّبْعُ بِمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللهِ في قَوَانِينِ الأَسْبَابِ والمسَبَّبات.

المعنى: كَذَلِكَ الَّذِي يَجْرِي من الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ يَقُولُونَ للدُّعَاةِ إِلَىٰ الله: ﴿... إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾ مِنَ الطَّبْع عَلَىٰ قُلوبهم؛ يَطْبَعُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ على قُلُوبِ الذينَ أَقْفَلُوا أَبْوابَ مَدَارِكِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ عَنْ تَلَقِّي كُلِّ عِلْمٍ يَأْتِي حَوْلَ الْقَضَايا الدِّينِيَّة، فَهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوها.

الفِعْلُ فِي: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ جاء للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْحَال والاسْتِقْبَالِ،

أي: فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الآنَ عِنْدَ نُزُولِ النَّصِّ، ولَا يُرِيْدُوْنَ أَنْ يَعْلَمُوا مُسْتَقْبَلاً، لأَنَّهُمْ سَدُّوا المنافِذَ إلى مَرَاكِزِ أفْكَارِهِمْ وعُقُولِهِمْ، فَحَجَبُوهَا عَنْ تَلَقِّي المعَارِفِ والْعُلُومِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِقَضَايا الدِّين، فَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ بِمُقْتَضَىٰ سُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ، فَمَنْ حَجَبَ بإرادَتِهِ قَلْبَهُ عَنِ الحقِّ حِجَاباً تَامّاً طَبَعَ اللهُ عَلَيْهِ.

وبهٰذا أنْتَهِي من تدبُّر الدّرْسِ الحادي عشر من دُروس سورة (الرُّوم).

والحمد للهِ على معونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الثانِي عشر من دُروس سورة (الرُّوم) الآية (٦٠) آخر السورة

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خطاباً لرسُوله ﷺ، ويُلْحَقَ بهِ الداعي من أمتِهِ:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾:

القراءات:

- قرأ رُويس: **[وَلَا يَسْتَخِفَّنْك]** بنوْن التوكيد الخفيفة.

وقرأها باقي القرَّاءِ العَشَرَة: **[وَلَا يَسْتَخِفَّنَّك]** بِنُونِ التَّوكِيد الثَّقِيلَة.

القراءتان تُعبِّران عَنْ حَالَتَي قُوَّةِ أعْمَالِ الاسْتِخفافِ وضَعْفِهَا.

تمهيد:

فِي آيَةِ هٰـذا الدَّرس يَأْمُرُ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ فكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ بالصَّبْر، ويُحَذِّرُهُ مِنْ أَنْ يَسْتَخِفَّهُ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ، فَيُطِيعَهُمْ فِي شيءٍ مِنْ إغْرَاءَاتِهِمْ أَوْ زُخْرُفِ أَقْوالِهم، الخفيفة أو الشَّدِيدَة.

التدبُّر التَّحليلي:

الصَّبْر: قُوَّةٌ خُلُقِيَّةٌ مِنْ قُوَىٰ الإرَادَة، تُمكِّنُ الإنْسَانَ مِنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ لِتَحمُّلِ المتاعِبِ والمشقَّاتِ والآلام، وضَبْطِها عَنِ الانْدِفَاعِ بِعَوامِلِ الضَّجَرِ والْجَزَعِ والسَّأَمِ والمللِ والْعَجَلَةِ والرُّعُونَةِ والْغَضَبِ والطَّيْش، وضبْطِها عنْدَ الْخَوْفِ أو الطمع، وعِنْدَ هِيَاجِ الأَهْوَاءِ والشَّهَواتِ والْغَرَائِز.

- ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾: وَلَا يَسْتَفِزَّنَّكَ مُهَيِّجاً لَكَ مِنْ مَوَاطِنِ الْخِفَّةِ الَّتِي يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ يَسْتَفِزُّكَ مِنْهَا.

- ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾: أي: لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا مَا يُبَلِّغُونَهُ مِنْ مَعَارِفَ وَعُلُومٍ عَنْ قَضَايَا تَتَعَلَّقُ بالدِّينِ، وإذا أَدْرَكُوا مِنْهَا شَيْئاً لَمْ يُدْخِلُوهُ إِلَىٰ مَرَاكِزِ الْعِلْمِ الثَّابِتِ الحقِّ.

الْيَقِين: هو الْعِلْمُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ.

المعْنَىٰ: دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على أَنَّ الرسُولَ محمّداً ﷺ، وحَمَلَة رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ كانُوا إِبَّانَ نُزُول السُّورَةِ وقَبْلَهَا يَتَعَرَّضُونَ لِمَا يُزْعِجُهُمْ وَيَسْتَخِفُّهُمْ، مِنْ قِبَلِ الكفَرَةِ المشْرِكِينَ، الَّذِينَ جَاهَرُوا بِخُصُومَتِهِمْ وعِدَائِهِمْ لِلْإِسْلَامِ، وللرَّسُولِ ﷺ، ولِلْمُسْلِمِين، ولا سيَّما الدُّعَاةُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ مِنْهُمْ.

ولَمَّا كانَ الْعِلَاجُ الْمُلَائِمُ في مُوَاجَهَةِ هذا الواقِعِ الْكريهِ الصَّبْرَ، والثِّقَةَ بِوَعْدِ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَنْصُرَهُ ويَنْصُرَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ حَامِلٍ لِرَسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: أي: فاصبرْ عَلَىٰ مَا تَلْقَىٰ مِنْ قَومِكَ مِمَّا تَكْرَهُ، وَتَرَقَّبْ تحقيقَ وَعْدِ اللهِ لَكَ ولِلْمُؤْمِنينَ مَعَكَ بالنُّصْرة عَلَىٰ الكَفَرَةِ المشْرِكين، فَإِنَّ تَحْقِيقَ هٰذا الوعْدِ سَيَحْصُلُ لَا مَحالَة.

وقَدْ تَحقَّقَ هٰذا النَّصْرُ قَرِيباً فِي غَزْوَةِ بَدْرِ الكُبْرَىٰ، فَسُورَة (الرُّوم/ ٨٤ نزول) مِنْ أَوَاخِرِ التَّنْزِيلِ المكِّيّ.

وقال اللهُ - عزَّ وجلَّ لَهُ ﷺ - في آخِرِ السُّورَة: ﴿... وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾:

أي: وَلَا تَسْتَجِبْ لِلْمُهَيِّجاتِ الَّتِي يُحاوِلُ أئِمَّةُ المشْرِكِينَ أن يَسْتَفِزُّوكَ بِهَا، لِتَقُومَ بأَعْمَالٍ فِيها وَرْطاتٌ لَكَ ولِلْمُؤْمِنينَ، فَيَسْتَغِلُّوها للنِّكايَةِ بِكُمْ، قَبْلَ الْوَقْتِ الْمُلَائِمِ، وقَبْلَ اتِّخاذِ الْوَسَائِلِ السَّبَبِيَّة الَّتِي يتَحَقَّقُ لَكُمْ بِهَا النَّصْرُ المؤزَّر.

أمَّا حِينَ قَضَىٰ اللهُ بأنْ تَقُومَ مَعْرَكَةُ النَّصْرِ المصْحُوبَةُ بِمَدَدٍ مِنَ اللهِ في بَدْرٍ؛ فَقَدْ كَانَ هُوَ الْوَقْتَ الملائِمَ بِتَوْفِيقِ الله وحِكْمَتِهِ السَّنِيَّة.

وبهٰذا أنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الثاني عشر من دُروس سورة الرُّوم، وهو الدرس الأخير مِنها.

والحمد للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٦)

ملحق: مُستخرَجات بَلَاغِيّة من سُورَةِ (الرُّوم)

في سورة (الرّوم/ ٨٤ نزول) بَلاغِيّاتٌ كَثِيراتٌ، اسْتَخْرَجْتُ مِنها المسْتَخْرَجاتِ التاليات:

(أ): من الْقَصْر الأمْثِلَةُ التالية

المثال الأول:

قول الله تَعالَى:

﴿... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾:

في عبارة: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قصْرٌ أداتُهُ تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَاد.

المثال الثاني:

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ... ⁽٨⁾﴾:

فِي هذا البيان قَصْرٌ أداته النَّفْيُّ في: ﴿مَا خَلَقَ﴾، والاستِثْنَاءُ في: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

المثالُ الثالث:

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ⁽٢٧⁾﴾:

في هذه العبارة قصر أداتُهُ تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنَاد.

المثالُ الرابع:

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ ... ⁽٤٨⁾﴾:

في هذا البيان قَصْرٌ بتَعْرِيف طَرَفي الإسْناد، أي: لا يُرْسِلُ الرِّيَاحَ غَيْرُهُ، جَلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

المثال الخامس:

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ⁽٥٣⁾﴾:

اسْتفِيدَ الْقَصْر هُنَا من النَّفْي والاسْتِثْنَاءِ، أي: مَا تُسْمِعُ إلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بآيَاتنا.

المثال السادس:

قول الله تَعَالى:

﴿... وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾:

استفِيدَ الْقَصْرُ هُنَا مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنَاد.

(ب): من الكناية

قول اللهِ تَعَالَى خطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

جاءت في هٰذِهِ الآيَةِ عِبارَةُ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، كِنَايَة عَنْ أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ نَصَرَ المؤمِنِينَ كَمَا انْتَقَمَ مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا.

(ج): مِنَ الإيجاز بالحذف

المثال الأول:

قول الله تعالى:

﴿... لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾:

أي: للهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ الْغَلَبِ ومِنْ بَعْدِ الْغَلَب.

المثال الثاني:

قول اللهِ تَعَالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴿٨﴾﴾:

أي: أفَقَدُوا قُدْراتِهِمُ الْفِكْرِيَّةَ وانْطمَسَتْ بَصائِرُهُمْ وَلَمْ يَتَفكَّرُوا؟.

والاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ، يُنْكِرُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَنَّهم لَم يَتَفكَّرُوا، أَوْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا إِلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ تَفْكِيرُهم.

المثال الثالِثُ:

قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بشأْنِ كُبَرَاء مُشْرِكي مَكَّة:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ ... ﴿٩﴾﴾:

أي: أَأَقَامُوا فِي بَلَدِهِمْ في مَكةَ طَوَالَ أَعْمَارِهِمْ وَلَمْ يَسِيروا فِي الأرض فيَنْظُروا آثار الَّذين أُهْلِكُوا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ عليهم السلام.

وَالاسْتِفْهَام هُنَا اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ أَيْضاً.

وهَـٰذَا المثال بِوَجْهٍ عامٍّ نَظِيرُ المثال السابق له.

المثال الرابع:

قول الله تعالى: ﴿... تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ ... ﴿٢٨﴾﴾:

أي: تَخَافُونَ الْعَبِيدَ والإمَاءَ كخِيْفَتِكُمُ الشُّركَاءَ الأحْرارَ الذين هُمْ أمْثَالُ أنْفُسِكُمْ.

المثال الخامس:

قول الله تعالى:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: وقَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ بِحِكْمَتِهِ إظْهَارَ هـٰذا الْفَسَاد ضِمْنَ سُنَنِهِ، لِيُذِيقَ النَّاسَ عِقَابَ بَعْضِ الَّذي عَمِلُوا رَغْبَةً فِي أَنْ يَرْجِعُوا عن أعمالهم الَّتِي يَنْجُمُ عَنْهَا الْفَسَادُ.

(د): من تنزيل القريب منْزِلَة الْبَعيد لِدَاعٍ من الدَّواعي البلاغِية

المثال الأول:

قول الله تَعالىٰ:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

جَاءَتِ الإشارة إلى الَّذِينَ كَفَرُوا باسم الإشارة «أُولئِكَ» للدَّلالَةِ عَلى أَنَّهُمْ مُنْحطُّو المنْزِلَةِ في اتِّجاه الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّارِ، بَعِيدُون جِدّاً عَنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلِ رَحَمات الله.

المثال الثاني:

قول اللهِ تَعالىٰ:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

(١) ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ نُزِّلَ في هذه العبارة القريبُ الَّذي هو الإيتاء مَنْزِلَة الْبَعيد؛ للدَّلالَةِ على ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِ جدّاً عِنْدَ الله.

(٢) ﴿وأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: وَجَاءَت الإِشَارَةُ إلى الَّذين يريدون بإيتائهم وجْهَ اللهِ مَنْزِلَةَ الْبَعِيدِين؛ للدَّلالَةِ على عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ. ونَظِيرُهُ: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

(هـ): من مُخَاطَبَةِ المفْرَدِ والبناء عَلَيْهِ بِخِطَابِ الْجَمَاعَةِ للدَّلَالَة عَلَىٰ أنّ المقصُودَ بِخِطَاب المفرد خِطَابُ جَمِيعِ الأفْرادِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّنَاوُب

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ . . . ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾.

جاء الخطاب أوّلاً لِلْمُفْرَد بِعبارة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، وجاء البناء عَلَيْهِ بِخِطَاب الجماعَة: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ للدَّلَالَة على أن المقصود بِخِطَابِ الْمُفْرَدِ خِطَابُ جَمِيعِ الأفراد عَلَىٰ سَبِيل التَّناوُب.

(و): من التوكيد لِدَاعٍ من الدواعي البلاغية

المثال الأول:

قول الله تَعَالى:

﴿... وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ⑦﴾:

جاء التوكيد هُنَا بِتكرِير ضَمِير «هُم» لِتَوكِيد غَفْلَتِهِمْ عَنِ الآخِرَة.

المثال الثاني:

قول الله تعالى:

﴿... وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ⑧﴾:

جاء التوكيد في هذا البيان بـ: «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحْلَقَة».

المثال الثالث:

قول اللهِ تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ⑭﴾:

جاء التوكيد في هذا البيان بتكْرِير كلمة يوم في عِبَارَةِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

المثال الرابع:

قول اللهِ تعالى:

﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ㊲﴾:

جاء التوكيد في هذا البيان بـ«إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة».

المثال الخامس:

قول الله تعالى:

﴿... هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

جِيءَ بحرف «مِنْ» الزائد في عبارة: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ للتَّوْكيد، لِأَنَّ الكلام مُوَجَّهٌ للمشْرِكين.

المثال السادس:

قول اللهِ تعالى:

﴿... إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

جاء التوكيدُ في هٰذهِ الجملة بـ«إنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسمية».

المثال السابع:

قول الله تعالى:

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

في هذا البيان تَوْكيدان:

الأول: التوكيد بـ«إِنْ المخفَّفة من الثقيلة ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحْلَقَة».

الثاني: تكْرير كَلِمَةِ «قَبْلِ» في عبارة: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾.

وأكْتَفِي بهذه المستخرجات البلاغية، والحمد لله على معونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

سورة العنكبوت

٢٩ مصحف ٨٥ نزول

وهي كُلُّها مَكِّيَّة في أَرْجحِ الأقوال

(١)

نصّ السورة ومَا فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ
﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ
مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ
عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ
سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِى مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا
تُطِعۡهُمَآۚ إِلَىَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

١ ـ ٢ ـ ● سكَتَ أبو جعفر على ألف، ولام، وميم من [أَلَمٓ]. ونقل ورْش حركة همزة [أَحَسِبَ] إلى الساكن قبلها، مع الْقَصْرِ والمدِّ فِي الميم، ووقف حمزة بالنقل كورش، وله التحقيق مع السكت وعدمه.

٥ ـ ● قرأ قالُون، وأبو عَمْرُو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسْكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَهُوَ] بِضَمِّ الهاء.
وهما لغتان عربيتان.
ووقف يعقوب بهاء السكت.

٨ ـ ● وقف يعقوبُ بخلف عنه بهاء السَّكْتِ علىٰ: [إِلَيَّ].

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ
ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ
ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ
خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ
وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ
﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ
قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ
إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ
رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا

---

١٣ ـ ● قرأ حمزة عند الوقف: [وَلَيُسَلُنَّ] بِنَقْلِ حَرَكة الهمزة إلى ما قبلها مع حَذفْ الهمزة.

١٤ ـ ● قرأ يَعْقُوب: [فِيهُمْ] بِضَمِّ الهاء. وهو لغة.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فِيهِمْ].

١٧ ـ ● قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ].

=

عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ
يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ
سِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ
ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم
بِمُعۡجِزِينَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِن وَلِىّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ
فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾
وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِى
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ

= وقرأها باقي القرَّاءِ العشرة: [**تُرْجَعُونَ**].
وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

١٩ ـ • قرأ شُعْبَةُ بخلف عنه، وحمزة، والكِسَائيُّ، وخلف: [**أَوَلَمْ تَرَوْا**] بتاء الخطاب.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَوَلَمْ يَرَوْا**] بياء الغائبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٢٠ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبو عمْرو: [**النَّشَاءَةَ**].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**النَّشْأَةَ**]. ووقف حمزة بنَقْلِ الهمزة إلَىٰ الساكِنِ قَبْلَها مَعَ حَذْفِ الهمزة: [**النَّشَةَ**]، وبإبْدَالِ الهمزةِ أَلِفاً مراعَاةً للرَّسْم: [**النَّشَاةَ**].

٢٥ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبو عمْرو، والكِسائي، ورُوَيس: [**مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ**].
وقرأها حفص، وحمزة، ورَوْح: [**مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ**]. والمؤدَّىٰ فِيها واحد.

وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي
ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ
مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ
ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾
وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ

---

٢٥ ـ • قرأ ورش من طريق الأصبهاني، وأبو عمرو بخلفه، وأبو جعفر: **[وَمَاوَاكُمْ]**، وكذلِكَ حمزة فِي الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَمَأْوَاكُمْ]**.

٢٦ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[رَبِّيَ إِنَّهُ]** بِفَتْحِ يَاء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرَةِ بإسْكَانِ ياء المتكلِّم.

٢٧ ـ • قرأ نَافع: **[النَّبُوءَةَ]** مَعَ المدّ المتصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[النُّبُوَّةَ]**.

٢٨ ـ ٢٩ ـ • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامِرٍ، وحفص، وأبو جَعْفر، ويعقوب: **[إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ـ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ]**.

وقرأها باقي القُرّاء العشرة: **[أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ـ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ]** على الاستفهام في العبارتَيْن.

٣١ ـ • قرأ أبو عمْرو: **[رُسْلُنَا]** بإسْكَان السين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[رُسُلُنَا]**. وكذلك ما جاء في الآية (٣٣).

٣١ ـ • قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان: **[إِبْرَاهَام]**.

وقرأها باقي القراء العشرة، وهو الثاني لابن ذكوان: **[إِبْرَاهِيمَ]**.

أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ
رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا
تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ
﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ
لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ
ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي
دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن

---

٣٢ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، ويَعْقُوب، وخلَف: [لَنُنْجِيَنَّهُ]، من فعل «أَنْجَىٰ».
وقرأها باقي القراء العشرة: [لَنُنَجِّيَنَّهُ]، من فعل «نَجَّىٰ».
والقراءتان متكافئتان لِأَنَّ المهمُوزَ أَخُو المضعف.

٣٣ ـ • قرأ نافع، وأَبو عمْرو، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر: [مُنَجُّوكَ]، من فعل «نَجَّىٰ».
وقرأها باقي القراء العشرة: [مُنْجُوكَ]، من فعل «أَنْجَىٰ» المهموز.

٣٤ ـ • قرأ ابْنُ عامر: [مُنَزِّلُونَ]، مِن فِعْل: «نَزَّل» المضعف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [مُنْزِلُونَ]، من فعل: «أَنْزَلَ» المهموز.

٣٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، ويعقوب: [وَثَمُودَ]، ووقفوا بالدَّال.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَثَمُوداً] بالتنوين، ووقفوا بالألِفِ المُبْدَلَة من التَّنوين.

مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ
وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ
سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ
أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ
إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ

---

٤١ ـ ● قرأ ورش، وأبو عمْرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**الْبُيُوتِ**]، بضم الباء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**البِيُوتِ**]، بِكَسْرِ الباء.

وهما لغتان.

٤٢ ـ ● قرأ أبو عمْرو، وعَاصِم، ويعقوب: [**يَدْعُونَ**]، بياء الغائِبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**تَدْعُونَ**]، بتاء المخاطبين.

٤٢ ـ ● قرأ قالون، وأبو عمْرو، والكِسَائِي، وأبو جعفر: [**وَهْوَ**]، بإسكان الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَهُوَ**]، بضَمِّ الهاء. وهما لغتان. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞
وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ
وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ
هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا
لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾
وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ
عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا
عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً

---

٥٠ ـ ● قرأ ابن كثير، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [آيَةٌ] بالإفراد، وكلٌّ عَلَىٰ أصله وقفاً.
وقرأها باقي القرَّاء العشرة: [آيَاتٌ] بالجمع.

٥١ ـ ● قرأ رُوَيس: [أَوَلَمْ يَكْفِهُمْ]، بضم الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ]، بكَسْرِ الهاء.
وهما لُغَتان.

٥١ ـ ● قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ]، بِضَمّ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ]، بكَسْرِ الهاء.
وهُمَا لغتان.

وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ
وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ
وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ
ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ
نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ

---

٥٥ - • قرأ نَافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**وَيَقُولُ**].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَنَقُولُ**]، بالنُّون.

٥٦ - • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامر، وعاصم، وأبو جعفر: [**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ**]، بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: بإسْكانِ ياء المتكلم.

٥٦ - • قرأ ابن عامِرٍ: [**إِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ**]، بفَتْحِ يَاءِ المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة: بإسْكَانِ يَاءِ المتكَلِّم.

٥٦ - • قرأ يَعْقُوب: [**فَاعْبُدُونِي**] بإثباتِ ياء المتكلم في الحالين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**فَاعْبُدُونِ**] بحذف ياء المتكلم.

٥٧ - • قرأ شُعبة: [**يُرْجَعُونَ**]، بياء الغائِبينَ مع البناء للمجهول.
وقرأها يَعْقُوب: [**تَرْجِعُونَ**]، بتاء المخاطبين المفتوحة.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**تُرْجَعُونَ**]، بتاء المخاطبين المضمومة.

٥٨ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**لَنُثْوِيَنَّهُمْ**] من فعل: «أَثْوَىٰ».
وقرأها أبو جعفر [**لَنُبَوِّيَنَّهُم**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**لَنُبَوِّئَنَّهُمْ**]، من فعل «بَوَّأَ».

نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾
وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ
﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ
مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ
ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا
رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى
ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا

---

٦٠ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو جعفر: [وَكَائِنْ]، إلّا أنَّ أبا جعفر يُسَهِّلُ الهمزة مطلقاً مع المدّ والقصر.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَكَأَيِّنْ]. ويقف عليها أبو عمْرو، ويعقوب: بالياء دون النُّون، والباقون بالنون. ووقف حمزة بالتسهيل وبالتحقيق.

٦٠ ـ • قرأ قالون، وأبو عمْرو، والكسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ]، بإسْكانِ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وهُوَ]، بضم الهاء، ووقف يقعوب بهاء السكت.

٦٤ ـ • قرأ قالون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [لَهْيَ]، بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [لَهِيَ]، بكَسْر الهاء. ووقف يعقوب بهاء السَّكت.

٦٦ ـ • قرأ قالون، وابْنُ كثير، وحمزة، والكِسَائي، وخلَف: [وَلْيَتَمَتَّعُوا]، بإسكان اللام.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلِيَتَمَتَّعُوا]، بِكَسْرِ اللام.

وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

---

٦٩ - ● قرأ أبو عمْرو: [سُبْلَنَا]، بإسْكان الباء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [سُبُلَنَا]، بِضَمِّ الباء.

(٢)
ممّا ورد في السنة بشأن سورة (العنكبوت)

رَوَىٰ الدَّارَقُطْنِي في السُّنَن عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي فِي كُسُوفِ الشَّمْسِ والْقَمَرِ أَرْبعَ رَكَعَاتٍ وأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ، يَقْرأ في الرَّكْعَةِ الْأُولَىٰ الْعَنْكَبُوتَ أَوِ الرُّوم، وَفي الثَّانِيَةِ يَسٓ».

(٣)
موضع سورة (العنكَبُوت/٨٥ نزول)

اقْتَضَتِ الحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ فِي أَواخِرِ المرحَلَةِ المكيَّةِ من مَسِيرَةَ الدَّعْوَةِ الإسلامِيَّةِ، الَّتِي حَمَلَ رِسَالَتَهَا سيِّدُنا محمَّد رَسُولُ الله صلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وسَلَّم؛ أَنْ يُبَيِّنَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - لِلْمُؤْمِنينَ قَضَايا تَتعَلَّقُ بالْمَسِيرَةِ الْجِهَادِيَّةِ الَّتِي سَتَقْتَرِنُ بِقِتَالِ فِئَاتٍ مِنَ الكافِرِينَ المجْرِمِينَ، وَيَتَعَرَّضُ المؤمِنُونَ فِيها لِأَذَاهُم بِمُقْتَضَىٰ ما يَدُورُ بَيْنَهُمْ مِنْ قِتَالٍ وحَرْبٍ سافِرَة، وهَـٰذا مِنْ لَوَازِمِهِ ضِمْنَ سُنَنِ الأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ؛ أَنْ يُصَابَ بَعْضُ المؤمِنين بأَذًى فِي أَجْسَامِهِمْ أَوْ أَمْوالِهِمْ أَوْ أَهْلِهِم مِنْ قِبَلِ أَعْدائِهِم الكافِرِين.

فدارتِ السورة حَوْلَ بَيَانِ أَقْسَام مُعْلِنِي إيمانهم تُجَاهَ مَا يَنْزِلُ مِنْ أذىً، بأسْلُوبٍ مُقْتَرِنٍ بِالتَّنبِيهِ على حِكْمَةِ اللهِ في ابْتِلَائِهِ، وبِوَعْدٍ بالأَجْرِ العظيم للمؤمنينَ الصادِقِين الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ مَكَارِهَ ضِمْنَ صَالِحَاتِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يُثِيبُهُمُ اللهُ عَلَيْهَا ثَواباً جَزِيلاً. وأَمَّا المنافِقُونَ وَضُعَفَاءُ الإيمانِ فَإنَّ اللهَ - جَلَّ جَلالُهُ - يَكْشِفُ بِالاخْتِبَار مَا فِي قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ يُجَازِيهِمْ بِحَسَبِهِ.

فأمّا الْمُنَافِقُونَ فَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ تَمْكِينَ اللهِ الْكَافِرِينَ مِنْ تَعْذِيبِ المؤمنين مِثْلُ تَعْذِيبِ اللهِ المباشِرِ لِبَعْضِ عبادِهِ، ولَا يَضَعُونَ فِي حُسْبَانِهِمْ أَنَّ لَازِمَ التَّمْكِينِ لِلابْتِلَاءِ يَخْتَلِفُ عَمَا يَحْدُثُ بِعَمَلٍ مُبَاشر، ومِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ حِينَمَا يَنْصُرُ اللهُ المؤمِنِينَ وَيَشْهَدُونَ ظَفَرَهُمْ بالْغَنَائم؛ يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنين: إِنَّا كُنَّا مُؤْمِنِينَ مَعَكُمْ، لِيُشَارِكُوهُمْ فِي الْغَنَائِمِ والمَجْدِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ جِهَادٌ حَقِيقِيٌّ يُذْكَر.

وأَمَّا المؤمِنونَ صَادِقُو الإيمانِ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ هَـٰذَا التَّمْكِينَ جُزْءٌ مِنْ قَانُونِ اللهِ وسُنَّتِهِ فِي ابْتِلَاءِ عِبَادِه، ويَعْلَمُونَ أَنَّ ما يُصِيبُهُمْ مِنْ أذىً بأيْدِي الكَفَرَةِ المجْرِمِينَ؛ لَيْسَ مِنْ نَوْعِ عَذَاب اللهِ المباشر، ولَا يُشْبِهُهُ فِعْلاً وَلَا غَايَةً، بَلْ هُمْ يَتَرَقَّبُونَ ثَوابَ اللهِ الْعَظِيم، ويَحْتَسِبُونَ أَعْمَالَهُمْ وصَبْرَهُمْ عَلَىٰ مَا يُصِيبُهُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِ الله.

وإذَا كانَ الْمُكْرِهُ عَلَىٰ الكُفْرِ الْوَالِدَانِ أَوْ أَحدهُمَا؛ فاللهُ يأمُرُ المؤمِنَ بِعَدَمِ طَاعَتِهِمَا، مع مُعَامَلَتِهِمَا بما وَصَّىٰ بِهِ مِنْ حُسْنٍ فِي أُمُورِ الدُّنْيا.

وأمَّا الْكَافِرُونَ الصُّرَحَاءُ حَمَلَةُ رِسَالَةِ التَّكْفِيرِ والتَّضْلِيلِ؛ فَهُمْ يَدْعُونَ المؤمِنينَ إلى اتّبَاعِ سَبِيلِهِمْ بِمُخْتَلِفِ الوَسَائِلِ الدِّعَائِيةِ، الْعَمَلِيَّةِ والقَوْلِيَّةِ، حَتَّىٰ وَسِيلَةِ ادّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ مُسْتَعِدُّونَ أن يَتَحَمَّلُوا عُقُوبَاتِ خَطَايَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، عَلَىٰ فَرْضِ كَوْنِ الْيَوْمِ الآخِرِ حَقِيقَةً سَوْفَ تكُونُ فِي الواقع.

وَتَضَمَّنَ هـٰذا الموضعُ بَيَانَاتٍ وَوَصَايَا رَبَّانِيَّة مُلَائمات.

وَضَرَبَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - في السورة أمْثِلَةً تُبيِّنَ وَاقِعَ حَالِ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَاهَدُوا في تَاريخِ الْبَشَرِيَّةِ السَّالِفِ، ودَعَوْا إلى سَبِيلِ رَبّهم، مُشِيراً إلى مَا تَحَمَّلُوا مِنْ أذىً مِنْ قِبَلِ الكَفَرَةِ المجْرِمِينَ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، وكيف نَصَرَهُمُ اللهُ عليهم في آخِرِ الأمر.

فَمِنَ الأمْثِلَة: نُوحٌ عَلَيْهِ السلام والمؤمنون معه، وإبراهِيمُ عَلَيْهِ السلام، ولُوطٌ عَلَيْهِ السّلام، وشُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلام، وهُود عليه السلام، من قِبَلِ كُفَّارِ قَوْمِهِ عاد، وصالح عليه السلام مِنْ قِبَلِ كُفَّارِ قَوْمِهِ ثمود، وجاء فيها مِثَالُ قَوْمِ مُوسَى عليه السلام في مِصْرَ، وأَئِمَّتِهِمْ قارُونَ، وفِرْعَوْنَ، وهَامَان.

وجاء في السُّورَةِ بَيَانٌ عَنِ الشِّرْكِ وبُطْلَانِهِ، وَخِطَابٌ من اللهِ - عزَّ وجلَّ - للرَّسول ﷺ يَتَضَمَّنُ مَا يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا كانَ لَهَا ظُهُورٌ في المرحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها السُّورَة.

وجاء فيها قضايا تُمَهِّدُ لِمُعَالَجَةِ أَهْلِ الكِتَاب، الَّذِين سَيَكُونُ لَهُمْ تَمَاسٌّ بِالرَّسُول ﷺ وبِالْمُؤْمِنِينَ، بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ الْقَرِيبَةِ إِلَىٰ المدينَة.

وجاء فيها مُطالَبَةُ المشْرِكين الرَّسُولَ صلّىٰ اللهُ عليه وعلى آله وسلّم بأنْ يأتِيَهُمْ بآيَات مَادِّيات كَعَصَا مُوسَىٰ عليه السلام، مع المعالجة. واسْتِعْجَالُهُمْ مَا كَانَ تَوَعَّدَهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابٍ، مَعَ المعالَجَة.

وجاء فيها توجِيهُ المؤمِنِينَ لِأَنْ يُهَاجِرُوا في سَبِيلِ اللهِ، فَأَرْضُ اللهِ واسعة، مَعَ الوعْد الحسَنِ بِجَنَّاتِ النعيم، ومَعَ الطَّمْأنَةِ على الرِّزْق.

وجاء فيها عَوْدٌ إلى المشركين بالْعِلَاج الملَائِم لِأَحْوالهم.

وخُتِمَتِ السُّورَة بِوَعْدِ اللهِ للمؤمِنين المجاهِدِينَ في اللهِ بأنْ يَهْدِيَهُمْ

سُبُلَ نَجَاتِهِمْ والنَّصْرِ عَلَىٰ أَعْدَائِهِم الكافِرِينَ المجرِمينَ، وأنَّ اللهَ مَعَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي جِهَادِهِمْ ضِمْنَ دَائِرَةِ المحسنين.

وبالتَّأَمُّلِ الدَّقِيق نُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ الْقَضَايَا الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا في السُّورَةِ؛ مَشْمُولَةٌ بِوَحْدَةِ مَوْضُوعِها الْعَامّ، ولَوْ بأَفْنانٍ دَقِيقَةٍ مِنْ شَجَرَتها.

(٤)

دُروس سورة (العَنكَبُوت/٨٥ نزول)

ظَهَر لي أَنْ أُقَسِّمَ هَـٰذِهِ السورة إلى تِسْعَةِ دروس، وهي:

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ١٣).

وفي آيَاتِ هَـٰذا الدّرْس كُلِّيَّاتُ مَوْضُوعِ السُّورة، الذي سَبَقَ بيانه في الفِقْرَةِ السابقة.

الدرس الثاني: الآيات من (١٤ ـ ٢٧).

وفي آيات هـٰذا الدَّرس ضَرْبُ مَثَلَيْنِ مِنَ الَّذينَ صَبَروا على مَا أَصَابَهُمْ فِي سَبيل اللهِ مِنْ أذىً، واحْتَسَبُوهُ عِنْدَ اللهِ رَبِّهِمْ، ثُمَّ نَصرَهُمُ اللهُ، وقَدَّرَ وقَضَىٰ لهم ثَواباً جَزِيلاً، عَاجلاً ومُؤَجَّلاً إِلَىٰ يَوْمِ الدِّين، والمثلان هما: نوحٌ عليه السَّلَامُ والمؤمِنُونَ مِنْ قومه، وإبراهيم عليه السَّلامُ ومَنْ آمَنَ بِهِ من قومه. مَعَ تَوجيهاتٍ وَبَيَانَاتٍ لِقَضَايَا دِينيَّة مُشْتَقَّاتٍ مِنْهُمَا لدىٰ عَرْضِهما، هِيَ بِمَثَابَةِ أَفْنَانٍ لِهذَا الْفَرْعِ مِنْ فُرُوعِ شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة.

الدرس الثالث: الآيات من (٢٨ ـ ٣٥).

وفي آيات هـٰذا الدّرس ضَرْبُ مَثَلٍ مِنْ الَّذِينَ صَبَرُوا على ما أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ من أذىً، واحْتَسَبُوهُ عِنْدَ اللهِ رَبّهم، ثُمَّ نَصرَهُمُ اللهُ، وَقَدَّرَ الله وقَضَىٰ لهم ثَوَاباً جَزِيلاً، عاجلاً في الدُّنيا ومُؤَجّلاً إلى يَوْمِ الدِّين، والمثَلُ هُوَ لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ أَهْلِ سَدُوم.

الدرس الرابع: الآيتان: (٣٦ و٣٧).

وفي آيتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ ضَرْبُ مَثَلٍ آخر، والمثَلُ هُنَا هُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السّلام، مع قَوْمِهِ أَهْلِ مَدْيَن.

الدرس الخامس: الآية: (٣٨).

وفي آيَةِ هذا الدَّرْس ضَرْبُ مَثَلَيْنِ آخرينِ، والمثلانِ هُنَا هما مَثَلُ هُودٍ عَلَيْهِ السلام، وكَفَرَةِ قَومِهِ مِنْ «عاد»، وصالح عليه السَّلَام وكَفَرَةِ قَوْمِهِ «ثمود».

الدرس السادس: الآيتان: (٣٩ و٤٠).

وفي آيَتَي هذا الدَّرْس ضَرْبُ مَثَلٍ آخرَ، وهُوَ هُنَا مَثَلُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع طُغَاةِ قَوْمِهِ فِي مِصْرَ: «قارون وهو إسرائيلي، وفِرْعَوْنَ وهَامَانَ وهُمَا مِصْرِيَّان».

الدرس السابع: الآيات من (٤١ ـ ٤٤):

وفي آيات هذا الدَّرْسِ بَيَانُ بُطْلَانِ الشِّرْكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُعَالَجُونَ فِي مَكَّةَ، إبَّانَ نَزُولِ السُّورة.

الدَّرْسُ الثامن: الآيات من (٤٥ ـ ٥٥).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ وَصَايَا وَتوجيهات للرَّسُول محمَّد ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ حَمَلةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِه، وفيها تَمْهِيدٌ لُمَعَالَجَةِ أَهْلِ الكِتَّابِ المرتَقَبَة بَعْدَ الْهِجْرَة إذِ اقْتَرَبَ فِي عِلْم اللهِ مَوْعِدُها، مَعَ بيَانَاتٍ بِشَأْنِ المشْرِكِينَ الْمُصِرِّينَ علَىٰ مَوَاقِفِهِم الكُفْرِيَّة، والرَّدّ عَلَىٰ بَعْض مَطالِبِهِمُ التَّعَنُّتِيَّة وَالْعِنادِيَّةِ.

الدَّرْس التاسع: الآيات من (٥٦ ـ ٦٩) آخر السورة.

وفي آيات هذا الدَّرس تَوجيهُ خِطَابٍ مِنَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ للمؤمنينَ

الَّذِينَ كانوا يُضْطَّهَدُون في مَكَّةَ مِنْ قِبل أَئِمَة الشِّرْك يَعِظُهُمْ فِيهِ بأَنْ يُهاجِرُوا فِي سبيل اللهِ، فَأَرْضُ الله واسِعة، مَعَ بَيانَاتٍ بشَأْنِ الموْتِ والرِّزْق، ومَعَ وَعْدٍ مِنَ اللهِ لَهُمْ بالأَجْرِ الْعَظِيم عِنْدَهُ في جَنَّاتِ النَّعِيم.

وفيها عَوْدٌ لِمُعالَجَةِ المشْرِكينَ بِشَأْنِ شِرْكِيَّاتِهِمْ، مع إقناعِهِمْ بأنَّ الحياةَ الدُّنيا لَهْوٌ ولَعِبٌ، وأنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ دَارُ الحياة الخالِدَة العظيمَةِ للمؤمنين.

وفيها وَعْدٌ للمؤمنين المجاهِدِينَ في سبيل اللهِ بأَنْ يَهْدِيَهُمُ الله سُبُلَ نَجاتِهِمْ، وانْتِصارِهِمْ عَلَىٰ الكَفَرَةِ أعْدَائِهِم، ووَصْفٌ لِهؤُلَاءِ المجاهِدِينَ بأَنَّهُمْ مِنَ المحسنين.

* * *

(٥)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُورس سورة (العنكبوت) الآيات من (١ ـ ١٣)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ (٢)
وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٣) أَمۡ
حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرۡجُواْ
لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٥) وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ
لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ
عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٧) وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ
حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي
ٱلصَّٰلِحِينَ (٩) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ

ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

القراءات:

(١ ـ ٢) • سَكَتَ أبو جعفر على ألف، ولامْ، وميم من (الٓمٓ). ونقل ورش حركة همزة ﴿أَحَسِبَ﴾ إلى السَّاكِنِ قَبْلَهَا، مَع الْقَصْر والمدِّ في الميم، ووقف حمزة بالنقل كورش، وله التحقيق مع السكت وعدمه.

(٥) • قرأ قَالُون، وأبُو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: **[وَهْوَ]** بإسْكَانِ الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾ بِضَمِّ الهاء.

وهُمَا لُغتَان عَرَبيَّتان. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

تمهيد:

في آياتِ هَـٰذا الدَّرْس بيَانُ كلّيّاتِ مَوْضوعِ السّورة، الّذي سبَق بيَانُهُ في فِقْرَةِ مَوضوعِ (سُورة العنكبوتِ/ ٨٥ نزول)، وهي الفقرة: (٣).

التدبر التحليليّ:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾:

• ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ هَـٰذِهِ مِنَ الْحُروفِ المقطّعةِ الَّتي جاءَتْ في أوائِلِ بعض سُوَرِ الْقُرْآنِ المجِيدِ، وقد سبَقَ بَيَانُ ما يَكْفِي بِشَأْنِهَا في أوائل تدبُّرِ سورة (القلم/ ٤ نزول).

- ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾:

فعل «حَسِبَ، يَحْسَبُ، ويَحْسِبُ» هو في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ «ظَنَّ». ومِنِ استقرائي لِهٰذا الفعل في القرآن المجيد مع سَبْرِ المعاني؛ تبيَّنَ لِي أَنَّهُ قد اسْتُعْمِلَ فِيهِ لِلدَّلَالَةِ علىٰ الظَّنِّ الضعيفِ الْمُسَاوِي للتوهُّم، والّذِي يَجِبُ طَرْحُهُ واسْتِبْعَادُه.

والْفِتْنَةُ: هِي هُنَا بمَعْنَىٰ الاخْتِبَارِ والابْتِلَاء بِالْمَكَارِهِ أَوْ بِغَيْرِها.

- ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾: أي: وهُمْ يُقَدِّرُونَ في تَصَوُّرِهم أَنَّهُمْ قَدْ حَمَوْا أَنْفُسَهُمْ بإعْلَانِ الْإيمانِ مِنَ التَّعَرُّضِ للامْتِحَانِ بما يَكْرَهُونَ من أذىً فِي الحياة الدُّنيَا.

إنَّ الإنْسَانَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في حَيَاتِهِ الأُولَىٰ؛ عُرْضَةٌ دواماً لِلامْتِحَانِ بِمَا يَكْرَهُ مِنْ دُنْياهُ، أَوْ بِمَا يَسُرُّهُ مِنْهَا، فَلَا يَتَوَهَمَنَّ أَنَّهُ إذا أَعْلَنَ إيمانَهُ بِرَبِّهِ وَبِرَسُولِهِ ﷺ، وبِمَا أَنْزَلَ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ من كِتَابٍ وَبَيَانَاتٍ دِينِيَّة؛ فقَدْ حَمَىٰ بإعْلَانِهِ إيمانَهُ نَفْسَهُ مِنَ أَنْ يُفْتَنَ مُمْتَحَناً بِمَا يَكْرَهُ ممَّا يُسَمِّيهِ شَرّاً.

إنَّ إعْلَانَهُ إيمانَهُ بِمقَالِهِ قَدْ يَكُونُ فِيهِ صَادِقاً، وقَدْ يَكُونُ فِيهِ كاذِباً، والكاشِفُ لِصِدْقِهِ في إيمَانِهِ يَكُونُ باخْتِبَارِهِ عَمَلِيّاً بِمَا يَكْرَهُ، فإذَا هُوَ صَبَرَ مُحْتَسِباً أَجْرَهُ الْعَظِيمَ عِنْدَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كَانَ صَبْرُهُ عَلى مِقْدارِهِ دَلِيلاً عَلَىٰ مِقْدَارِ صِدْقِهِ فِي إعْلَانِهِ إِيمَانَهُ، وإذا هُوَ لَمْ يَصْبِرْ بَلْ تَضَجَّرَ وتَذَمَّرَ وتَوَهَّمَ أَنَّ ما نَزَلَ بِهِ لَا يَتَلَاءَمُ مَعَ إعْلَانِهِ إيمانَهُ، وَبَدَأَ يميلُ إِلَىٰ سُبُلِ الكُفْرِ والْكَافِرِينَ، أَوْ يَتَزَلْزَلُ عَنْ مَوْقِعِهِ الَّذِي كَانَ يُوهِمُ أَنَّهُ يَحْتَلُّهُ مَعَ المؤمنينَ بإعْلَانِهِ الإيمان؛ كَانَ كُلُّ هَـٰذا مِنْهُ دَلِيلاً عَلَىٰ مقْدَارِ الكَذِبِ في ادّعَائِهِ اللِّسَانِيّ.

فأبانَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فِي هذه الآيَةِ؛ أَنَّ إعْلَانَ الإيمانِ باللِّسَانِ لَا

يَكْفِي فِي الامْتِحَانِ، بل لَا بُدَّ مِنَ الرِّضَا عَنِ اللهِ، والصَّبْرِ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ، واحْتِسَابِ الأجْرِ الْعَظِيمِ عِنْدَ اللهِ، مَعَ التَّسْلِيم التَّامّ لتَقْدِيرِهِ وقَضَائِهِ، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ فِيمَا يَجْرِي بِهِ قَدَرُهُ وَقضَاؤُهُ وخَلْقُهُ أَوْ إِذْنُهُ.

- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾: أي: ونؤَكِّدُ ـ بالْقَسَم المطْويِّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ اللّام في: [لقد] ـ أنّنَا امْتَحنَّا وابْتَلَيْنا الَّذِينَ قَالُوا مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمَم: آمَنَّا، فَفتَنَّاهم بِمَا يَكْرَهُونَ، ولَمْ يَحْمِهِمْ إعْلَانُهُمْ إِيمَانَهُمْ مِنْ أَنْ يَتعَرَّضُوا لِلْفِتْنَةِ بِمُؤلِمَاتٍ يَكْرَهُونها، ومنهم نوحٌ عليه السلام والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وهُودٌ وَصَالِحٌ وإبراهيمُ ولُوطٌ وشُعَيبٌ ومُوسَىٰ عليهم السَّلام وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنَ المؤمنين، أخذاً من الأمْثِلَةِ الَّتِي سَتَأْتِي في السورة.

- ﴿... فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾: يُبَيِّنُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ أَنَّهُ أَلْزَمَ نَفْسَهُ مُؤَكِّداً بأنْ يَعْلَم الَّذِينَ صَدَقُوا في إعْلَانِهِمْ قَائِلِينَ بأَلْسِنَتِهِمْ: آمَنَّا، وبأنْ يَعْلَمَ الكَاذِبين المدَّعِينَ أنَّهُمْ قَدْ آمَنُوا صَادِقِين، لِيَجْزِيَ كُلَّ مَوْضُوعٍ في الحياة الدُّنْيا موضِعَ الامْتِحانِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بِهِ.

وَلَيْسَ المرادُ بالْعِلْمِ هُنَا عِلْمَ مُطَابَقَةِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ لِمَا أَعْلَنُوا بأَلْسِنَتِهِمْ، لِأَنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِهِ عِنْدَ قَوْلِهِمْ، وَعلِيمٌ بِوَاقِعِ حَالِهِمْ قَبْلَهُ وبَعْدَهُ.

فالتَّدَبُّر المتأَنِّي يَقْضِي بأنْ نَحمِلَ الْعِلْمَ هُنَا عَلَىٰ اخْتِبَارِهِمْ عَمَلِيّاً، بِمَا يَكْشِفُ صِدْقَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ، وبِمَا يَكْشِفُ كَذِبَ الكَاذِبِينَ مِنْهُمْ، وهذا يَكُونُ بِتَعَرُّضِهِمْ لِمَا يُؤْلِمُهُمْ مِنْ مَكارِهَ تَكْرَهُهَا نُفُوسُهُمْ، وعِنْدَئِذٍ تَقُومُ الحُجَّةُ الْعَمَلِيَّةُ عَلَىٰ الْكَاذِبِينَ مِنْهُمْ. أَمّا الصادقون مِنْهُمْ فَيَظْهَرُ التَّطَابُقُ بَيْنَ مَا أعْلَنُوا بأَلْسِنَتِهِمْ وبَيْنَ مَا هُوَ فِي قُلُوبِهِمْ ثَابِتٌ رَاسِخ، والتميِيزُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ إِنَّمَا يَكُونُ بامْتِحَانِ كُلٍّ مِنْهُمَا عَمَلِيّاً بِمَا يَكُونُ حُجَّةً لَهُ أَوْ حُجَّةً عَلَيْهِ.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾:

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «السَّيِّئَة»، وهِيَ فِي اللُّغَةِ: الْفَعْلَةُ الْقَبِيحَةُ وَالمكْرُوهَةُ، والْخَصْلَةُ المكْرُوهَة، من أدنَىٰ القبائِحِ حَتَّىٰ أشَدِّها.

● ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾: جاء في القرآن «السَّبْقُ» بِمَعْنَىٰ الْقُوَّةِ المتفَوِّقَةِ الْغَالِبَةِ، والمعْجِزَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْمُتَابِعَ يعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِ مَنْ يُلاحِقُهُ مُتابعاً لَهُ لِيُدْرِكَهُ، وهذا المعْنَىٰ هو الملائم لِمَا جَاءَ في هٰذِهِ الآية.

● ﴿سَآءَ﴾: فِعْلٌ يُقَالُ فِي إِنْشَاءِ الذَّمِّ علَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَة، مِثْلُ فِعْلِ «بِئْسَ».

المعنى: بَلْ: أَحَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، وَمِنْهَا النِّفَاقُ بِإعْلَانِ الإِيمَانِ باللِّسَانِ وإِبْطَانِ عَدَمِ الإيمان؛ أَنْ يُعْجِزُونَا بِكَتْمِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ عَنْ إِظْهَارِهِ باخْتِبارِنَا لَهُمْ بِمُخْتَلِفِ الوسَائِلِ، ومِنْهَا اخْتِبَارُهُمْ بالْمَكَارِهِ الَّتِي تَضِيقُ صُدُورُهُمْ عَنِ الصَّبْرِ عَلَيْهَا، فَيَكْشِفُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِي قَوْلِهِمْ: آمَنَّا.

هٰذا مِنْهُم حُكْمٌ مَذْمُومٌ أَشَدَّ الذَّمّ، إِذْ هُمْ مَا قَدَرُوا رَبَّهُمْ حَقَّ قَدْرِه، فاللهُ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَلَا يُعْجِزُهُ كَشْفُ مَا يَكْتُمُ عِبادُهُ فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ جَلِيّاً لِلْمَلَائِكَةِ وللنَّاسِ، ويَكُونَ حُجَّةً عَلَيْهِم.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾:

- ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾: ظَهَرَ لِي مِنَ الاسْتِعْمَالَاتِ القرآنِيَّةِ؛ أَنَّ أَصْلَ معْنَىٰ الرَّجَاءِ مُطْلَقُ التَّوَقُّعِ لِلْمَرْغُوبِ فِيه، أَو المخُوفِ مِنْهُ.

أي: مَنْ كَانَ يَتَوَقَّعُ لِقَاءَ اللهِ يَوْمَ الدِّين، وبَعْدَ المْوتِ.

- ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾: **الأجَلُ**: يأْتِي بِمَعْنَىٰ غاية الْوَقْتِ المحدّدِ لشَيْءٍ ما، أو المأذُونِ بِهِ. ويأتِي بمعنىٰ الوقت المحدَّدِ أو المناسب لحصولِ الشَّيْءِ وابْتِداءِ زَمانِهِ. وَيَأتي بِمَعْنَىٰ المدَّةِ المحدَّدَةِ للشَّيْءِ المحصُورَةِ بَيْنَ أَوَّلٍ وَآخر.

المعنى: مَنْ كَانَ يتَوَقَّعُ لِقَاءَ اللهِ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ؛ فَلْيَعْلَمْ عِلْماً مُؤَكَّداً أَنَّ أَجَلَ اللهِ المقَرَّرَ بِتَقْدِيرِهِ وقَضَائِهِ لِهذَا اللِّقَاءِ؛ لَآتٍ فِي الزَّمَانِ المحدَّدِ لَهُ لَا مَحَالَة، وسَوْف يُحَاسِبُ اللهُ فِيهِ الموضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، ويَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِعدْلِهِ أَوْ بِفَضْلِهِ، على ما قَدَّمُوا مِنْ عَمَلٍ إرَادِيٍّ فِي الْخَيْرِ أَوْ فِي الشَّرِّ عَبْرَ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِمْ بِالْإِحْصَاءِ الشَّامِل، ومَعْلُومٌ للهِ رَبِّهِمْ عِلْماً مُحِيطاً بِكُلِّ صَغِيرَة وكَبِيرةٍ، ظَاهِرَة أو خَفِيَّةٍ.

- ﴿.. وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾: أي: وهُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ صَوْتٍ مَهْمَا كَانَ مُنْخَفِضاً أَوْ مُرْتَفِعاً، وهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ مَا يُعْلَم.

السَّمِيعُ: صِيغَةُ مُبَالغَةٍ للسَّامع، فالسَّمْعُ بالنِّسْبَةِ إلى اللهِ بالِغُ الغَاية.

الْعَلِيم: صِيغَة مُبَالغَةٍ للعالِم، والْعِلْمُ بالنسبة إلى اللهِ بالِغُ الغاية.

وتَعْرِيفُ طَرَفَيِ الإسْنَادِ في عبارَة: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يَدُلُّ على الْقَصْرِ والحصْر، أي: لا يوجَدُ سَمِيعٌ يَسْمَعُ كُلَّ صَوت، ولَا يُوجَدُ عَلِيمٌ يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، إلَّا اللهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وإِذْ كانَتْ رِحْلَةُ الحياةِ الدُّنْيا رِحْلَة امْتِحَانٍ واخْتِبَارٍ وفِتْنَةٍ، ولَمَّا كَانَ النَّاسُ فِيهَا قِسْمَيْنِ:

القِسْمَ الْخَاسِرَ: الَّذِي لَا يَتَوَقَّعُ لِقَاءَ اللهِ، فَيَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ وشَهَواتِهِ، ورَغَباتِهِ مِنَ الحيَاةِ الدُّنْيَا، وَوَسَاوِسَ شَياطِينِ الإنْسِ والْجِنِّ.

الْقِسْمَ الرابِعَ: الَّذِي يَتَوَقَّعُ لِقَاءَ اللهِ، فَيُجَاهِدُ لالْتِزَام صِراطِ اللهِ المسْتَقِيمِ فِي مَسِيرَتِهِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

كانَ مِنَ الحكْمَةِ فِي الْبَيَانِ؛ أَنْ يَأْتِي حَدِيثٌ عَنِ المؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي حَيَواتِهِم ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِمْ، فقال اللهُ تَعالَىٰ:

- ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾:

أي: ومَنْ بَذَلَ غَايَةَ ما لَدَيْهِ مِنْ طَاقَةٍ فِي طَاعَةِ للهِ وعَمَلٍ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ صالحات؛ فَإِنَّمَا يُجاهِدُ لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ وفَائِدَتِهَا وسَعَادتِها، ولَا يُقَدِّمُ بِعِبَادَاتِهِ ومُجَاهَدَاتِهِ نَفْعاً للهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ، لأَنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ وبِصِفَاتِهِ عَنْ جَمِيعِ الْعَالَمِين.

الْغَنِيُّ: المكْتَفِي الَّذِي لَا يَحْتَاجُ غَيْرَهُ.

الْعَالَمُونَ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «الْعَالَم». وكَلِمَةُ: «عالَم» تُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَى الله، **والْعَالَمُونَ**: تُطْلَقُ فِي القرآن وَيُرَادُ بِهَا كُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ، وقَدْ تُطْلَقُ ويرادُ بِهَا كُلُّ النَّاسِ، أو الإِنْسُ والجنُّ.

- ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾: أيْ: إنَّ اللهَ لَا يَحْتَاجُ لذاتِهِ أو لِصِفَاتِهِ أَوْ لِنَفْسِهِ شيئاً مِنْ سِواه، إنَّهُ الخالِقُ الْمُمِدُّ لِكُلِّ الْخَلَائِقِ بِمَا هُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، مِنْ صَغَائِرِ الْحَاجَاتِ وكَبَائِرِها.

جاءت هذه العبارة مؤكَّدة بـ: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحْلَقة».

- قولُ اللهِ تَعالَىٰ متحدِّثاً بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

• ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾:

أي: والَّذِينَ آمَنُوا بِمَا يَجِبُ الْإِيمان به فِي دِينِ اللهِ صادِقِينَ فِي إيمانِهم، وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الَّتِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوهَا، سواءٌ بَلَغُوا دَرجَةَ المجاهِدِينَ بالنَّوافِلِ والْقُرُباتِ، وتَرْكِ المكْرُوهاتِ؛ أَوْ لم يَبْلُغُوها؛ فَقَدْ أَعْدَدْنا لَهُمْ مِنْحَتَيْنِ عَظِيمَتَيْن:

المِنْحَةُ الْأُولَىٰ: تَكْفِيرُ سَيِّئَاتِهِمْ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ الْعِبَادِ، أخذاً من دَلَالَاتِ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ: أي: سَتْرُهَا وَعَدَمُ المؤاخَذَةِ عَلَيْهَا.

وجاء توكيد العبارة باللّام وَنُونِ التَّوْكيد الثقيلة في عبارة: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

المنحة الثانية: مُجَازَاتُهُمْ ضِمْنَ قَانُونِ الْمُكَافآتِ «الحسنةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أضْعَاف كَثِيرة»، وَهٰـذِهِ الْمُجَازَاةُ تَكُونُ بِحِسَابِ أَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وهِيَ كُلُّ الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ عَمِلُوهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا، لِأَنَّهَا هِيَ الْأَحْسَنُ مِنْ سَائِرِ أَعْمَالِهِمُ الْمُبَاحَةِ والسَّيِّئَة.

دَلَّ على هذه المِنْحَةِ؛ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآية: ﴿... وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ وهـٰذه العبارَةُ مؤكَّدَةٌ كَسَابِقَتِهَا.

الجزاءُ: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ بِمَا يُلَائِمُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

• ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾:

يتساءَلُ الْمُتدبِّرُ: إذَا كَانَتِ الفِتْنَةُ فِي الدِّينِ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ الكَفرَةِ الْبُعَداءِ؛ فالمطْلُوبُ مِنَ المؤمِنِ المفْتُونِ أنْ يُجَاهِدَ بالصَّبْرِ وبالْمُقَاوَمَةِ والدِّفَاعِ على مقدار استْطاعَتِهِ، فَما الْمَطْلُوبُ مِنْهُ إِذَا كانَتِ الْفِتْنَةُ فِي الدِّينِ مِنْ قِبَلِ الْوَالِدَيْنِ أَوْ أَحدِهِمَا وقَدْ أَمرَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بِبِرِّهما؟.

فَجاءَ الجوابُ لِهـٰذا السؤالِ المطْوِيّ بقولِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾: أي: وأَمرْنَا الإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ بأنْ يُعامِلَ وَالِدَيْهِ الْكَافِرِينَ بالْحُسْنِ، أي: بما هُو جَمِيلٌ مَعْرُوفٌ بِحُسْنِهِ.

وسَبَقَ أَنْ جاء في سورة (الأحقاف/٦٦ نزول) قول اللهِ تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا . . . ﴿١٥﴾﴾: وأرَىٰ أَنْ نَحْمِلَ الاحْسَانَ هُنَا عَلَىٰ وُجُوبِ مُعَامَلَةِ الْوَالِدَيْنِ بأن يَفْعَلَ الْوَلَدُ ما هُوَ حَسَنٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا مَعَ قَصْدٍ وعِنَايَة، وهـٰذَا يَكُونُ بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ الوالِدَيْنِ المؤمِنَيْن.

فالإحْسَان: فِعْلُ مَا هُوَ حَسَنٌ مَقْصُودٌ بِعِنَايَة.

والْحُسْنُ: هو الْجَمِيلُ ولَوْ لَمْ يَكُنْ بِفِعْلٍ مَقْصُودٍ مَعَ عِنَايَة.

فَالْإِحْسَانُ أَقْوَىٰ وأَبْلَغُ مِنَ الحسْنِ، وهـٰذا يُنَاسِبُ معامَلَةَ الوالِدَيْنِ المؤمِنَيْن، واللهُ أَعْلَمُ.

وأَتْبَعَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ قَوْلَهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ بِقَوْلِهِ خِطَاباً للإنْسَانِ المؤمِنِ: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾:

أي: وَإِنْ جَاهَدَكَ وَالِدَاكَ الْكَافِرَانِ أَيُّها الإِنْسَانُ المؤمِنُ يَفْتِنَانِكَ عَنْ دِينِك، لِأَجْلِ أنْ تُشْرِكَ بِي وأَنَا اللهُ رَبُّكَ، شَرِيكاً لَيْسَ لَكَ بِكَوْنِهِ شَرِيكاً لِي عِلْمٌ قَائِمٌ علَىٰ حُجَّةٍ مَقْبولَةٍ فِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ؛ فَلَا تُطِعْهُمَا، لِأَنَّكَ إِذَا أَطَعْتَهُمَا فِي ذٰلِكَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ، ونِلْتَ يَوْمَ الدِّينِ جزاءَ كُفْرِكَ خُلُوداً فِي نَارِ جَهَنَّمَ كَسَائِرِ المشْرِكين.

وَلْيَكُنْ فِي ذَاكِرَتِكَ دَواماً؛ أَنَّ إِلَيَّ وَحْدِي مَرْجِعَكُم يَوْمَ الدِّينِ، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

اقتصر البيانُ هُنَا عَلَىٰ عبارة: ﴿... فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧﴾، وهَـٰذَا الْإِنْبَاءُ فِقَرَةٌ مِنْ فِقَرَاتِ الحسَابِ يَوْمَ الدِّينِ، اسْتُغْنِيَ بِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ الكِنَايَةِ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ سَائِرِ ما يَجْرِي في مَحْكَمَةِ اللهِ يومَئِذٍ، ومَا يَلْزَمُ عَنْ فَصْلِ القضاء مِنَ الجزاء.

وهذا الإِنْبَاءُ خَاصٌّ بِمَنْ يَسْتَجِيبُ لِمُجَاهَدَةِ والِدَيْهِ المشْرِكين لَهُ حَتَّىٰ يُشْرِكَ.

أَمَّا مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُمَا وَتَمَسَّكَ بالْإِيمانِ الصّحِيحِ الصَّادِقِ، وعَبَّرَ عَنْ صِدْقِ إِيمَانِهِ بالْعَمَلِ الصالح؛ فَهُوَ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بِشَأْنِهِمْ في الآيَةِ التَّالِيَة:

- ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ⑨﴾:

أي: والَّذين ثَبَتُوا عَلَىٰ إِيمَانِهِمُ الصَّادِقِ الصَّحِيح، فَلَمْ تُزَحْزِحْهُمُ الْفِتْنَةُ عَنْ مَوْقِعِهِم الْإِيمانِيّ الراسِخ، وعَبَّرُوا عَنْ صِدْقِهِمْ في إِيمانِهِمْ بأَعْمَالِ صَالِحَاتٍ عَمِلُوها؛ فَلَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي زُمَرِ الصَّالِحِينَ يَوْمَ الدِّينَ، الَّذِينَ يُسَاقُونَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَراً بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ ودَرَجَاتِهِمْ.

وقد جاء في سَبَبِ نُزُولِ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ عدّة رواياتٍ، مِنْها: أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاص قالَ: قَالَتْ أُمِّي: لَا آكُلُ طَعَاماً، وَلَا أَشْرَبُ شَرَاباً حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّد، فامْتَنَعَتْ مِنَ الطَّعَامِ والشَّرَابِ، حتَّىٰ جَعَلُوا يُكْرِهُونَها بالْعَصَا.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المنافِقِينَ وَضُعَفَاءِ الإيمانِ تُجَاهَ الْفِتْنَة فِي الّدين:

● ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠) وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ (١١)﴾:

أي: ومِنَ النَّاسِ فَرِيقٌ مُنافِقُونَ أَوْ ضُعَفَاءُ الْإِيمَانِ يقُولُون بأَلْسِنَتِهِمْ: آمَنَّا باللهِ، حِمَايَةً لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ جَمَاعَةِ المؤمنِينَ، أو طَمَعاً بِمَغَانِم يَنَالُونَها مَعَ المؤمِنينَ إِذَا نَصَرَهُمُ اللهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ. فَإِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ أَذىً وَهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَصَابَ هٰذا الْفَرِيقَ مَعَ المؤمنِينَ أذىً؛ فَأَمَّا المؤمِنُونَ الصَّادِقُونَ فَيَصْبِرُونَ وَيَحْتَسِبُونَ أَجْرَهُمُ الْعَظِيمَ عِنْدَ اللهِ ويَرَوْنَ أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ في ابْتِلاءِ عِبَادِهِ؛ قَضَتْ بِأَنْ لَا يَتَدَخَّلَ فِي مَنْعِ بَعْضِ الأَسْبَابِ الكَوْنِيَّةِ، الَّتِي يَتَّخِذُهَا الْكَافِرُونَ ضِدَّ المؤمنِينَ، حِمَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ؛ وأَمَّا المنَافِقُونَ وَضُعَفَاءُ الْإِيمانِ فَيَشُكُّونَ فِي حِكْمَةِ اللهِ، وَيَرَوْن أَنّ عَدَمَ تَدَخُّلِ اللهِ فِي حِمَايَةِ المؤْمِنِينَ مِنْ أَسْبَابِ الْكَافِرِينَ الإِيذائِيَّةِ التَّعْذِيبِيَّةِ؛ يُشْبِهُ عَذَابَ اللهِ المباشِرَ لِلْمُؤْمِنينَ، وَكَأَنَّ اللهَ يُعَذِّبُهُمْ بِتَمْكِينِ الْكَافِرِينَ مِن اتِّخَاذِ وَسَائِلَ لِتَعْذِيبِهِمْ.

إِنَّ هٰذا الْفَهْمَ مِنَ المنَافِقِينَ جَهْلٌ وَحَمَاقَةٌ، وَعشىً فِي بَصَائِرِهِمْ يَحْجُبُ عَنْهُمْ إِدْرَاكَ الحقِيقَةِ، وَفَهْمَ حِكْمَةِ اللهِ في امْتِحَانِ عِبادِهِ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا.

الفتنة: فِي هٰذا النَّصّ هِي بِمَعْنَىٰ الْعَذَابِ، أي: جَعَلَ عَذَابَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ.

لَكِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ وضُعَفَاءِ الإِيمانِ موقفاً آخَرَ إِذَا نَصَرَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ وتَحَقَّقَتْ لَهُمْ بِهذا النَّصْرِ غَنائِمُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنينَ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مُشَارَكَةٌ صَادِقَةٌ فِي قِتَالٍ، ولَا مُسَاهَمَةٌ فِي دَفْعِ بَأْسِ الْكَافِرِينَ الأَعْدَاء، وَغَرَضُهُمْ تَأْكِيدُ صِحَّةِ إِيمانِهِمْ، مَعَ مُشَارَكَةِ الْمُؤْمِنِين فِي الْغَنَائِم أَوِ الأَنْفَال أو المجْد.

- ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾: دَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَىٰ أَنَّ تَحقِيقَ النَّصْرِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ.

- ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾: اللَّامُ فِي: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ واقِعَةٌ في جَوَابِ الْقَسَمِ المنْوِيِّ قَبْلَ: «لَئِنْ»، والْفِعْلُ مؤكَّدٌ بِنُونِ التوكيدِ الثَّقِيلَةِ.

- ﴿... أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾: فـي هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ تَلْوِيحٌ بِإِنْذَارِ الْكَاذِبِينَ في قَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، فاللهُ أعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْم بِمَا فِي قُلُوبِ وصُدُور الْعَالَمِينَ مِنْ مُطَابَقَةٍ لِمَا يَدَّعُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، أو مُخَالَفَةٍ إِلَىٰ حَدِّ التَّضَادِّ والتَّنَاقُض، مَعَ الإشَارَةِ الضِّمْنِيَّة إلى أَنَّ حِسَابَ اللهِ وَفَصْلَ قَضَائِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ؛ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَىٰ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَصُدُورِهِمْ، لَا عَلَىٰ مَا يَظْهَرُ مِنْ أقوالِهِمُ الْكَاذِبَةِ، أَوْ أَعْمَالِهِمُ النِّفَاقِيَّة.

- ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانٌ مُؤَكَّدٌ مِنَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ بأَنَّهُ لَنْ يَتْرُكَ عِبَادَهُ الْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا دُونَ أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الَّذِينَ آمَنُوا بِصِدْقٍ، وَدُونَ أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَة المنَافِقِينَ، الَّذِينَ يُبْطِنُونَ خِلَافَ مَا يُظْهِرُونَ.

مِنَ الْمُلَاحَظِ أَنَّ هـٰذَا الْبَيَانَ جَاءَ عَنِ المنافِقِينَ في أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، وَقَبْلَ ظُهُورِ النِّفَاقِ فِي هـٰذا الْعَهْدِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، تَوْطِئَةً لِمَا سَيَظْهَرُ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، مِنْ نِفَاقٍ، وضَعْفٍ فِي الإيمان، إِذْ سَيَكُونُ لِلإِسْلَام والْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ دَوْلَةٌ مَرْهُوبَةُ الْجَانِبِ، مَطْمُوعٌ بِمَا يأْتِيهَا مِنْ غَنَائِمَ وأَنْفَال، وهَـٰذَا الواقِعُ يُسَاعِدُ عَلَىٰ ظُهُورِ المنَافِقِينَ وَضُعَفَاءِ الإيمانِ، فاللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ يُعِدُّ المؤمنينَ الصَّادِقِينَ فِي المجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ لِلْحَذَرِ مِنَ المنافِقِينَ، وتَرَقُّبِ وُجُودِ ذَوِي إيمانٍ ضَعِيفٍ بِدَافِعِ الرَّهْبَةِ مِمَّا يَكْرَهُونَ مِنَ الدُّنيا، والطَّمَعِ بِمَا يُحِبُّونَ مِنَ الدُّنيا.

- قولُ اللهِ تعالَىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ⑫ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ⑬﴾:

يُبَيِّنُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فِي هَـٰذا النَّصِّ مَقالَةً تَضْلِيلِيَّةً، قالَها بَعْضُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبَعْضِ الَّذِينَ آمَنُوا، تَحْرِيضاً لَهُمْ عَلَىٰ اتِّباعِ سَبِيلِهِمْ فِي الشِّرْكِ ولَوازِمِهِ فِي السُّلُوكِ، وقالُوا لهم: اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا، واسْتَمْتِعُوا بلَذّاتِ الحياةِ وطَيِّباتِهَا كَمَا نَسْتَمْتِعُ، وإنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّ سَبِيلَنَا يُحَمِّلُكُمْ خَطَايَا تُجاهَ رَبِّكُمْ؛ فَنَحْنُ نَتَعَهَّدُ لَكُمْ مُلْزِمِينَ أنْفُسَنَا بأَنْ نَحْمِلَ عَنْكُمْ هَـٰذِهِ الْخَطَايا، ونَكُونَ نَحْنُ المسؤولِينَ عَنْها، والْمُحَاسَبِينَ عَلَيْهَا، والْمُجازَيْنَ الجزاءَ الَّذِي يَحْكُمُ بِهِ اللهُ عِقاباً عَلَيْهَا.

فَأَبانَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ مُؤَكِّداً أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَاذِبُونَ فِي تَعَهُّدِهِمْ أَنْ يَحْمِلُوا خَطَايَا مَنْ يَتَّبِعُ سَبِيلَهُمْ مِنَ المؤمِنِينَ، فقالَ تَبارَكَ وتَعالَىٰ:

- ﴿... وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ⑫﴾:

أي: إِنَّهُمْ فِي تَعَهُّدِهِمْ وإلْزامِهِمْ أَنْفُسَهُمْ بِأَنْ يَتَحَمَّلُوا خَطَايَاهُمْ لَكَاذِبونَ، إِذْ هُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ يَتَنَصَّلُونَ مِنْ تَعَهُّدِهِمْ لَوْ طُلِبَ مِنْهُمْ أَنْ يَفُوا بِهِ، عَلَىٰ أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ لَا يَقْبَلُ يَوْمَ الدِّينِ أَنْ تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ، فالمسْؤُولِيَّةُ عِنْدَهُ مَسْؤُولِيَّةٌ شَخْصِيَّةٌ فَرْدِيَّة.

الباء في: ﴿بِحَٰمِلِينَ﴾ ومِنْ في ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ حَرْفَانِ مَزِيدانِ لِلتَّوْكِيد.
وجُمْلَةُ: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ مؤكَّدةٌ بـ: «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحْلَقَة».

خطَايَا: جَمْعُ «خَطِيئَة»، وهِي «الذَّنْبُ».

وأبانَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَنَّ هؤلاءِ الْمُضِلِّينَ مِنَ الَّذين كَفَرُوا؛ يَحْمِلُونَ بِإِضْلَالِهِمْ أَوْزَارَهُمُ الَّتِي كَانُوا بِهَا ضَالِّينَ، وأَوْزَارَ اتِّخَاذِهِمْ وَسَائِلَ لإِضْلَالِ غَيْرِهِمْ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيّ، فَهَذَا الإِضْلَالُ هُوَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يُحَاسَبُونَ ويُجازَوْنَ عَلَيْهَا، مَهْمَا كَانَتْ آثَارُ إِضْلَالِهِمْ فِي النَّاس، فقالَ تَبارَكَ وَتعالى بشَأْنِهِمْ:

- ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ⑬﴾:

أَثْقَال: جَمْعُ: «ثِقْل»، وهُو الْحِمْلُ الثقيل، والمرادُ بالأَثْقَالِ: الذُّنُوبُ والخطايا.

- ﴿... وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ⑬﴾: أي: ولَيُحَاسَبُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ على مَا كَانُوا يَكْذِبُونَ في الدِّين.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأول من دُروس سورة (العنكبوتِ/ ٨٥ نزول).

والحمْدُ للهِ عَلَى معونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التّدبّر التحليلي للدّرس الثاني مِن دُروس سورة (العنكبوت) الآيات من (١٤ ـ ٢٧)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ⑭ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ⑮ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ
وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى
ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ
ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا
لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ
ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٥) ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ
وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧)﴾:

القراءات:

(١٤) • قرأ يعقوب: [فِيهُمْ] بضمِّ الهاء، وهو لغة.

وقرأها باقي القراء العشرة: [فِيهِمْ]، بكسر الهاء.

(١٧) • قرأ يعقوب: [تَرْجِعُونَ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

وبين القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي الأدَاء البياني، أي: تُرْجَعُونَ بالْجَبْرِ، فتَرجِعُونَ مُطَاوِعِين.

(١٩) • قرأ شُعْبَة بخلف عنه، وحَمزَةُ، والكِسَائي، وخلف: [أَوَلَمْ تَرَوْا] بتاء الخطاب.

وقرأها باقي القرَّاءِ العشرة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بياء الغائبِينَ.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامل في الأدَاءِ البيانيّ.

(٢٠) • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو: [**النَّشَاءَةَ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾.

ووقف حمزة بِنَقْلِ الهمزة إلى السَّاكِنِ قَبْلَهَا مع حَذْفِ الهمزة: [**النَّشَةَ**]، وبإِبْدَالِ الهمزة ألفاً مراعاةً لِلرَّسم: [**النَّشَاة**].

(٢٥) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، والكِسَائي، ورُويس: [**مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ**].

وقرأها حفص، وحمزة، ورَوْح: [**مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ**].

وقرأها باقِي القرّاء العشرة: [**مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ**].

والمؤدّى في هَـٰذِهِ القراءات واحد.

(٢٥) • قرأ ورش من طريق الأصبهاني، وأبو عمرو بخلفه، وأبو جعفر: [**وَمَاوَاكُمُ**]، وَكذلِكَ حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَمَأْوَاكُمْ**].

(٢٦) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**رَبِّيَ إِنَّهُ**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكانِ يَاءِ المتكلِّم.

(٢٧) • قرأ نافع: [**النُّبُوءَةَ**] مع المدّ المتصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾.

تمهيد:

في آيات هذا الدَّرْس ضَرْبُ مَثَلَيْنِ من الذينَ صَبَرُوا عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ

في سبيل الله مِنْ أذى، واحْتَسَبُوهُ عِنْدَ الله رَبِّهِمْ، ثُمَّ نَصَرَهُمُ اللهُ، وقدَّرَ وقَضَىٰ لَهُمْ ثَوَاباً جَزِيلاً، عاجلاً في الدُّنيا، ومؤجَّلاً إلَىٰ يَوْمِ الدِّين. والمثلان هما: نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ والمؤمِنُونَ مِنْ قومه، وإبراهِيمُ عليه السَّلاَمُ ومَنْ آمَنَ بِهِ من قَوْمِهِ، مَعَ تَوْجِيهَاتٍ وبيانَاتٍ لِقَضَايا دِينِيَّة، مُشْتَقَّاتٍ مِنْهُما لَدَىٰ عَرْضِها، هِيَ بِمَثَابَةِ أَفْنَانٍ لِهَـٰذا الْفَرْعِ مِنْ فُرُوعِ شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة.

مقدمة للتدبّر:

سبَقَ أَنْ كَتَبْتُ بِمَعُونَةِ اللهِ وَتَوفِيقِهِ كِتَاباً مُسْتقِلّاً بِشَأْن نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، عنوانه: «نُوحٌ عَلَيْهِ السّلام وقومُهُ في القرآن المجيد»، تَدَبَّرْتُ فِيهِ (٢٧) نصّاً مِنَ القرآنِ الكَرِيم تَدَبُّراً تكامُلِيّاً، هي النُّصُوصُ الواردةُ فِيهِ بِشَأْنِهِ عَلَيْهِ السَّلَام، وظَهَرَ لِي أَنَّهَا مُتَكَامِلَةٌ فِيمَا بَيْنَها، غَيْرُ مُتَطابِقَةٍ تَطابُقاً تَكْرارِيّاً، فَلَا حَاجَةَ بِي هُنَا فِي دِرَاسَةِ الآيَاتِ المتعَلِّقَةِ بِهِ إلى التَّعَرُّضِ للتَّدَبُّرِ التَّكَامُلِيّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَائِرِ النُّصُوصِ الَّتِي جاء فِيها ذِكْرُهُ في القرآنِ الكريمِ، وإِنّي أُحِيلُ الْقَارِئَ عَلَى الدِّراسَةِ الشَّامِلَة الَّتِي جَاءَتْ فِي هَـٰذا الكِتَابِ المسْتَقِلِّ، الملْحَقِ بِهَا جَداولُ تَكْشِفُ التَّكَامُلَ بَيْنَهَا.

التَّدَبُّرُ التحليلي:

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ متحدّثاً بِضَمِير المتَكلِّمِ الْعَظِيمِ:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾:

• ﴿وَلَقَدْ﴾: اللَّامُ وَاقِعَةٌ فِي جَوابِ قَسَمٍ مَنْوِيّ. و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيقٍ.

- ﴿فَلَبِثَ﴾: يقال لغة: «لَبِثَ بالمكانِ يَلْبَثُ، لَبْثاً، ولُبْثاً» أي: أقام فِيهِ.

المعنى: وَنُؤَكِّدُ لَكُم بالْقَسَم وبِحَرْفِ التَّحْقِيق؛ أَنَّنا أَرسَلْنا نُوحاً رَسُولاً إِلَىٰ قَوْمِهِ، لِيُبَلِّغَهُمْ دِينَنا الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبادِنَا الَّذِينَ وَضَعْنَاهُمْ فِي الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فَبَلَّغَهُمْ وَنَصَحَهُمْ وَصَبَرَ فِي دَعْوَتِهِمْ صَبْراً كَثِيراً، طَوَالَ أَلْفِ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً، يَدْعُو أَجْيَالَهُمْ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، بِمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ الْجَهْرِيَّةِ والسِّرِّيَّة، وَكَانَ يَلْقَىٰ مِنْهُمُ التَّكْذِيبَ الْعِنَادِيَّ، والإِصْرَارَ عَلَىٰ الشِّرْك والكُفْرِ، ومَا آمَنَ بِهِ إِلَّا عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِهِ.

فَقَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُعَاقِبَ كُفَّارَ قَوْمِهِ وَيُهْلِكَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِغْرَاقاً بالطُّوفان العَامّ، إِذْ صَارَتْ بِيئَتُهُمْ مِنَ الْفَسَادِ أَنْ لَا يَنْشَأَ نَاشِئٌ فِيهِمْ إِلَّا فَاجراً كَفَّاراً.

- ﴿... فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ⑭﴾: أي: فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ الَّذِي قَدَّرْنَا وَقَضَيْنَا أَنْ يَأْخُذَهُمْ أَخْذَ إِهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ، إِذْ أَجْرَيْنَا أَعْمَالاً خَارِقَةً لِلْعَادَةِ فَجَّرْنَا الأَرْضَ بِهَا عُيُوناً، وأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَنْصَبُّ عَلَىٰ الأَرْضِ بِشِدَّة، حَتَّىٰ غَمَرَ الْمَاءُ رُؤُوسَ الْجِبَال، ولَمْ يَبْقَ عَلَىٰ أَرْضِ الْقَوْم مَكَانٌ يَأْوِي إِلَيْهِ مُحْتَمٍ بِهِ مِنْهُمْ، وَكَانَ إِهْلَاكُهُمْ إِغْرَاقاً فِي حَالِ أَنَّهُمْ ظالِمُونَ كَفَرَةٌ مُجْرِمُونَ.

- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ⑮﴾: أي: فَأَنْجَيْنا نُوحاً ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ بالسَّفِينَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَمَرْنَاهُ بأَنْ يَصْنَعَهَا اسْتِعْدَاداً لِلرُّكُوبِ فِيهَا عِنْدَ الطُّوفان، هو والَّذِين آمَنُوا مَعَهُ، وأَنْجَيْنَا مَعَهُ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ، وَهُمُ المؤمِنُونَ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الرُّكُوبِ مَعَهُ فِيهَا للظَّفَرِ بالنَّجَاةِ مِنَ الإِغْرَاقِ بِالطُّوفَانِ الشَّامل.

وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ إِهْلَاكُ كَفَرَةِ قَوْمِ نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ وَذَرَارِيهِمْ، وَبَعْدَ أَنِ انْخَفَضَ مُسْتَوىٰ الماءِ بِما بَلَعَتْ مِنْهُ الأَرْض، وانْكَشَفَ مِنَ الأَعَالِي مُنْكَشِفٌ صَالِحٌ لِإقَامَةِ رُكَّابِ سَفِينَةِ نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ فِيهِ، هم وَمَا مَعَهُمْ فِي السَّفِينَةِ مِنْ حَيَوانَاتٍ وأَشْيَاء؛ أَرْسَىٰ اللهُ السَّفِينَةَ فِي مَكَانٍ صالحٍ لِرُسُوِّهَا، وَأَبْقَى اللهُ سَفِينَة نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ فِي مَكَانِ رُسُوِّهَا، لِتَكُونَ آيَةً «عَلَامَةً» لِلْعَالَمِين فِي أَزْمَانٍ لَاحِقَةٍ بَعْدَ الطُّوفان، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانَهُ ـ قَدْ أَهْلَكَ كُفَّارَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالطُّوفَانِ العظِيمِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَّعِظُوا فَلَا يَكْفُرُوا ولَا يُعَانِدُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السلام وَما نَالَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ أذىً:

● ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾:

سبَقَ في الْمُلْحَقِ الثَّانِي لِتَدَبُّرِ سُورةِ (إبراهيم/ ٧٢ نزول) دِراسةٌ تَكامُلِيَّةٌ للنُّصُوصِ القرآنِيَّةِ الْوارِدَةِ بِشَأْنِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السلام، فَلَا دَاعِيَ فِي هذا النَّصِّ الوارِدِ هُنَا في سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٨٥ نزول) لإِعَادَةِ النَّظَراتِ التَّدَبُّرِيَّةِ التَّكَامُلِيَّةِ بِشَأْنِ إبْراهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في النُّصُوصِ القرآنِيَّةِ الوارِدَةِ فِي مُخْتَلِفِ السُّوَر، وأَقْتَصِرُ هُنَا عَلى التدبُّرِ التحليليِّ لِهذَا النَّصّ.

أي: وأَرْسَلْنَا إِبْرَاهِيمَ إلى قومِهِ، فاذْكُرْ أَيُّها المتلقّي إذْ قَالَ لَهُمْ: اعْبُدُوا اللهَ وحْدَهُ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، إنَّه هُوَ رَبُّكُم الَّذِي لَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ، واتَّقُوا بالْإيمَانِ بِهِ رَبّاً وَاحِداً لَا رَبَّ سِوَاه، وبِعِبَادَتِهِ إِلَهاً واحِداً لَا

إِلَهَ إِلَّا هُو؛ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، إِذْ فَرضَ عَلَيْكُمْ ذَلِكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحيَاةِ الدُّنْيَا.

واعْلَمُوا ذَلِكُم عِلْماً رَاسِخاً مَعَ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ الْبَالِغِ دَرجَةَ الطُّمَأْنِينَةِ، إِنْ كُنْتُم تُرِيدُونَ أَنْ تَعْلَمُوا الْحَقَّ وَتَعْمَلُوا بِهِ.

وقَال إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِلَّا أَوثَاناً أَنْتُمْ تَنْحِتُونَهَا مِنَ الْحِجَارَةِ، أَوْ تَصْنَعُونَهَا مِنَ الْخَشَب أو الطِّينِ، وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، فَلَا تَدْفعُ شَرّاً ولَا تَجْلُبُ خيراً.

• ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: أي: وَتَفْتَرُونَ لِأَوْثَانِكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَها كَذِباً، إِذْ تَدَّعُونَ أَنَّ لَهَا تَأْثِيراتٍ غَيْبِيَّةً، فِي دَفْعِ الضَّرِّ عَنْ عَابِدِيها وَجَلْبِ النَّفْعِ لَهُمْ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ.

الْخَلْقُ ـ والاخْتِلَاق: يَأْتِيَانِ بِمَعْنَى افْتِرَاءِ الكَذِبِ عَنْ عَمْدٍ.

الْإِفْكُ: الْكَذِبُ في الْقَوْلِ أَوْ فِي الْعَمَل، وأَصْلُ الإفْكِ صَرْفُ الشيْءِ عَنْ وَجْهِهِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ.

وَكَانَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام يَعْتَقِدُونَ اعْتِقَاداً فَاسِداً بَاطِلاً؛ أَنَّ آلِهَتَهُمْ مِنَ الْأَوْثَانِ تُسَاعِدُهُمْ مُسَاعَدَاتٍ غَيْبِيَّةً فِي تَيْسِيرِ سُبُلِ أَرْزَاقِهِمْ، فقال إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِه:

• ﴿... إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

• ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: أي: فَاطْلُبُوا عِنْدَ اللهِ رِزقَكُمْ. يُقَالُ لغة: «ابْتَغَى الشَّيْءَ، وبَغَاهُ» أي: أَرَادَهُ وَطَلَبَهُ.

أي: إِنَّ الأوثانَ الَّتِي تَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّها تَنْفَعُكُمْ فِي أَنَّهَا تُيَسِّرُ لَكُم سُبُلَ أَرْزَاقِكُمْ، إِذْ تَتَصَوَّرُونَ أَنَّ مَنْ تُمَثِّلُهُمْ هَـٰذِهِ الْأَوْثَانُ

هُمْ كَائِنَاتْ أَحْيَاء عَالِمَة، ذَوات قُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ فِي نَفْع أو ضُرّ؛ إِنَّهُمْ ـ في حقيقة أمرهم ـ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً مَا أيَّ رِزْقٍ، لِأَنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ صَنَعْتُمْ بأَوْهَامِكُمُ الصُّوَرَ الَّتِي رَأَيْتُمْ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لَكُمْ في قَضَايَا أَرْزَاقِكُمْ.

إنَّ الرِّزْقَ إنَّما يَمْلِكُهُ اللهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وهو الخالِقُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ، فَاطْلُبُوا أَرْزَاقَكُمْ عِنْدَهُ وحْدَهُ، وَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، واشْكُرُوا لَهُ نِعَمَهُ الكثيرةَ، ومِنْهَا أَرْزَاقُكُمُ الَّتِي يُيَسِّرُ لَكُمْ وَسَائِلَها، بإِنْزَالِ غَيْثِ السَّمَاءِ، وإِنْبَاتِ الزُّرُوعِ وإِخْرَاجِ الثَّمَرَاتِ.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ الْمُنْعِمِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَل.

- ﴿... إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ⑰﴾ وفي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ: [**إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ**]: أي: سَتُبْعَثُونَ أَحْيَاءً بَعْدَ مَوْتِكُم إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الجزَاءِ الْأَكْبَر، وتَكُونُ هٰذِهِ الرَّجْعَةُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ لِتُلَاقُوا حِسَابَ رَبِّكُمْ، وفَصْلَ قَضَائِهِ فِيكُمْ، وِلتَنَالُوا جَزَاءَكُمْ بِدَارِ النَّعِيمِ الْجَنَّة، أَوْ بِدَار الْعَذَابِ النَّار.

وقال إبراهيم عليه السلام لِقَوْمه:

- ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ⑱﴾:

أي: وإِنْ تُكَذِّبُونِي في بَلَاغَاتِي الَّتِي بَلَّغْتُكُمْ إِيَّاهَا عَنْ اللهِ رَبِّكُمْ، إذْ بَعَثَنِي رَسُولاً إِلَيْكُمْ؛ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ واسْتأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ بأَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ العذاب، وسَيُلَاقُونَ مَصِيرَهُمُ الأليم في عذاب جَهَنَّمَ يَوْمَ الدين.

وبما أَنّي رسُولٌ لَا أَمْلِكُ إِلَّا التَّبلِيغَ. فاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا عَلى الرَّسُولِ إِلَّا البلاغ المبينُ الواضح.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي بَيَانٍ يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ مِمَّا أَنْزَلَهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عَلى إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاللهُ يَتَحَدثُ بِهِ عَن قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ، ويَصْلُحُ لِأَنْ يكُونَ اعْتِرَاضاً يَتَحَدَّثُ اللهُ بِه عَنْ كُفَّارِ مَكَّةَ إبَّانَ

التَّنْزِيلِ، ويَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ لِلأَمْرَينِ مَعاً، وهَـٰذا مِنَ الإيجازِ الْبَدِيعِ فِي بَلاغَةِ القرآنِ المجيد:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾: **يُبْدِئُ**: يُقالُ لُغَةً: «أَبْدأ، يُبْدِئُ»: أي: جاءَ بالْبَدِيءِ الْعَجِيبِ. ويأتي بِمَعْنَىٰ: «بَدَأَهُ».

أي: أنطَمَسَتْ أَبْصارُهُمْ وبَصائِرُهم، وَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ، فَيُنْبِتُ النَّباتَ والزُّرُوعَ مِنْ بُزُورِها وجُذُورِها، ويُنْشِئُ الأَحْياءَ مِنْ نُطَفِ الذُّكُورِ وَبُيَيْضاتِ الإناثِ، الَّتِي هُوَ يَخْلُقُها من الدِّماءِ والأَغْذِيَة، وكُلُّ ذَلِكَ مِنَ التَّكْوِينِ الْعَجِيب، ولَمْ يَرَوْا بِعُقُولِهِمْ أَنّ أَوَّلَ كُلِّ كائِنٍ حَيٍّ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَنَوْعٍ قَدْ أَبْدأ اللهُ خَلْقَهُ دُونَ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ ذَلِكَ شَيْئاً مَذْكُوراً، وأَنَّ الأَكْوانَ قَدْ خَلَقَها اللهُ مِنَ الْعَدَمِ الْمُطْلَق؟!.

- ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾: أي: ثُمَّ هُوَ يُعِيدُهُ بَعْدَ إِفْنائِهِ كَما أَبْدَأَهُ.

- ﴿... إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ أي: إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ الإِبْداءَ والإعادَةَ خَلْقٌ يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَىٰ اللهِ، لِأَنَّهُ ـ جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ إذا أَرادَ تَكْوِينَ شَيْءٍ وَخَلْقَهُ فإِنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، ولَيْسَ فِي أَمْرِ التَّكْوِينِ كُلْفَةٌ عَلَىٰ الباري تَبارَكَ وتَعالَى.

- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: قلَ أيُّها الداعي إلىٰ اللهِ أيّاً كُنْتَ، إبْرَاهِيمَ أَوْ محمّداً ـ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَام ـ أوْ داعِياً مَا مِنَ المؤمِنِينَ، لِلْكَافِرِينَ، الَّذِين لَا يُؤْمِنُونَ بالْبَعْثِ والْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ:

سِيرُوا فِي الأرْضِ مُنَقِّبِينَ وَبَاحِثِينَ بِوَسَائِلِكُم الْعِلْمِيَّةِ لِتَنْظُرُوا بِعُقُولِكُم كَيْفَ بَدأ اللهُ الْخَلْقَ، إنَّكُمْ لَنْ تَصِلُوا إلَىٰ مَعْرِفَةِ أَسْبَابٍ تُمَكِّنُكُمْ مِنْ مُضاهَاةِ خَلْقِ اللهِ إذَا اتَّخَذْتُمُوها، بَلْ تَصِلُونَ إلَىٰ يَقِينٍ بِأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ بَدَأَ الْخَلْقَ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إلَّا مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَلَا تَطْمَعُوا بِأَنْ تَعْرِفُوا أَسْبَاباً يَكُونُ بها بَدْءُ الْخَلْقِ، إلَّا أَنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْبَارِئِ المصَوِّر، فإذَا أرَادَ خَلْقَ شَيْءٍ قَالَ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ. فالْعُقَلَاءُ الأسْوِيَاءُ المنْصِفُونَ الْحَرِيصُونَ عَلَىٰ نَجَاتِهِمْ وسَعَادَتِهِمْ يُؤْمِنُونَ باللهِ الرَّبِّ الْخَالِقِ، وأَنَّهُ هُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ وبِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُعِيدُهُ حِينَ يَأْتِي أَجَلُ إعَادَةِ الْخَلْقِ الَّذِي أفْنَاهُ، فَهُوَ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الأُخْرىٰ.

- ﴿... يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ...﴾: **يُنْشِئُ**: أي: يَجْعلُ وَيَخْلُقُ ويُوجِدُ بأسْلُوبِ الإنْشَاءِ التَّكَامُلِي. **النَّشْأَة**: الإيجادُ بأسْلُوبِ التَّرْبِيَةِ المتَدرِّجَةِ التَّكَامُلِيَّة.

أي: ثُمَّ بَعْدَ الإفْنَاءِ لِلْمَخْلُوقَاتِ فِي الحياةِ الأُولَىٰ، يَخْلُقُ بأسْلُوبِ الإنْشَاءِ التكامُلِيِّ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ لِلْخَلَائِقِ الَّتِي أفْنَاها، لِتَلْقَىٰ ظُرُوفَ وَأَحْدَاثَ الْحَيَاةِ الأخرَىٰ، حَيَاةِ يَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الجزاءِ الأَكْبَرِ.

- ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾﴾: يُؤَكِّدُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَنَّهُ قَدِيرٌ عَلَىٰ إيجادِ وَصُنْعِ وفِعْلِ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُهُ، جَلَّ جَلَالَهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

ويَتَسَاءَلُ المتَدبِّرُ: لِمَاذَا يُنْشِئُ اللهُ النَّشْأَة الآخِرَةَ بالْبَعْثِ إلَىٰ الْحَياةِ الْأُخرَىٰ؟.

وَيُجِيبُ نَفْسَهُ بِمَا سَبَقَ أَنْ عَرَفَ مِنْ نُجُومِ التَّنْزِيلِ: إِنَّ الحيَاةَ الْأُخْرَىٰ قَدْ أَعَدَّهَا اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فِي خِطَّةِ التَّكْوِينِ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزَاءِ، لِمَا حَصَلَ مِنِ ابْتِلَاءٍ فِي ظُروف الحياةِ الدُّنيا.

وَلَمَّا كَانَ الجزاءُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ تَعْذِيبِ لِمُسْتَحِقِّيهِ مِنَ الَّذِين كانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ والاخْتِبَارِ، وهذا التَّعْذِيبُ يَكُونُ بِعَدْلِ اللهِ ضِمْنَ مَشِيئَتِهِ الحَكِيمَةِ الَّتِي لا مُجْبِرَ لَهَا.

ولَمَّا كَانَ الجزَاءُ يَشْتَمِلُ أيضاً عَلَىٰ ثَوابِ جَزِيلٍ بِفَضْلِ اللهِ لِمَنْ وَعَدَهُمْ بأنْ يُثِيبَهُمْ: عَلَىٰ الإيمان، والطَّاعَةِ، والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَرَاضِيهِ، وهـٰذا الثَّوَابُ يَكُونُ بِفَضْلِ اللهِ ضِمْنَ مَشِيئَتِهِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي لَا مُجْبِرَ لها، وهُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ جلَّ جَلَالُه.

لَمَّا كَانَ ذَلِكَ قَال اللهُ تَعَالَىٰ فِي الآيَةِ التَّالِيَة:

- ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾:

- ﴿... وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾: أي: وإِلَىٰ حِسَابِهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذِ جَزَائِهِ؛ تُرْجَعُونَ لِمُلَاقَاةِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ.

المعنى: يُعَذِّبُ اللهُ بِعَدْلِهِ مَنْ يَشَاءُ تَعْذِيبهُ مِنَ الكَفَرَةِ والْعُصَاة، ويُثِيبُ مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ الَّذِي هُوَ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ رحْمَتِهِ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، وعَبَّرُوا عَنْ صِدْقِ إِيمانِهِمْ بِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ عَمِلُوهَا فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

وإِلَيْهِ وَحْدَهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ تُرْجَعُونَ بَعْدَ المَوْتِ والْفَنَاءِ، فتَكُونُونَ أَحْيَاءً تَسْتَقْبِلُونَ أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّين فَيُجْرِي اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ حِسَابَكُمْ لَا تُظْلَمُونَ فِيهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ولا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، ويَقْضِي بِعَدْلِهِ أَوْ بِفَضْلِهِ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ يُنَفِّذُ مِنْ جَزَاءِ مَا قَضَىٰ بِه لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ.

أمَّا فِي الْحيَاة الدُّنْيَا فإذَا اقْتَضتْ حِكْمَتُهُ أنْ يُعجِّلَ بَعْضَ عِقَابِ الْمُجْرِمينَ مِنكُمْ أَيُّها النَّاسُ، أَوْ يُهْلِكَهُمْ ويَسْتَأْصِل وُجُودَهُمْ؛ فَمَا هُمْ بِقَادِرينَ عَلَىٰ الإفْلاتِ مِنْ عِقَابِهِ، ولَوْ تَصوَّرُوا أنَّهُمْ مَالِكُون قُوَىٰ الأَرْضِ المتفوِّقَة، وقُوًى فِي السَّمَاءِ غَلَّابَةً، كالطَّائِرَاتِ، والصَّوَارِيخ عَابِرَاتِ الْقَارَّاتِ، وكالطَّاقَاتِ الأُخْرىٰ المدمِّرَاتِ، فَقَال اللهُ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلْكَفَرةِ الْمُجْرِمِينَ في الآية التالية:

- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وَمَا أنْتُمْ أَيُّها الكَفَرَةُ الْمُجْرِمُونَ بِقَادِرِينَ عَلَىٰ الإفْلَاتِ مِنْ قَبْضَةِ أَخْذِنَا لَكُمْ، هَرَباً مِنْ عِقَابِنَا لَكُمْ، مَهْمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ وسَائِلَ في الأرضِ أو في السَّماء.

الْمعْجِزُ: هُوَ الْهَارِبُ السَّابِقُ الَّذِي لَا يَتمَكَّنُ مُلَاحِقُهُ مِنْ إدْرَاكِهِ والْقَبْضِ عَلَيْهِ، وإنْزَالِ الْعَذَابِ به.

- ﴿... وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: وَإذَا الْتَمسْتُمُ الْحِمَايَةَ مِنْ إنْزَالِ عَذَابِ اللهِ بِكُمْ، أَوْ إهْلَاكِكُمْ إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ؛ فَلَنْ تَجِدُوا وَلِيّاً يَحْمِيكُمْ، وَلَا نَصِيراً يَنْصُرُكُمْ، إذْ لَا وُجُود لِآلِهتِكُمُ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي تَعْبُدُونَها من دُونِ الله، ولَا يَسْتَطِيعُ نَصِيرٌ مُحِبٌّ لَكُم أَنْ يَمْنَعَ عَنْكُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ مِثْقَالَ ذَرَةٍ وَلَا أصْغَرَ مِنْ ذَلِك وَلَا أكْبَر.

وأبَانَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَنَّ الْكَافِرِينَ سَيكُونُونَ يَائِسِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ، فَلَا يَنَالُونَ مِنْ آثَارِهَا عَفْواً وَلَا مَغْفِرَةً وَلَا تَخْفِيفاً مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقال اللهُ تَعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: والَّذِين كَفرُوا بآيَاتِ اللهِ المنزَّلَةِ، وآيَاتِهِ الكَوْنِيَّة، وآيَاتِهِ الإعجازيَّة، وآياتِهِ العقابِيَّةِ، وكَفرُوا بالْبَعْثِ والحياةِ الأُخْرىٰ ولِقَاءِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، أولئِكَ الْبُعَدَاءُ إِلَىٰ أسْفَلِ سَافِلِينَ الأَخَسُّونَ الأَرْذَلُونَ يَئِسُوا مِنْ رحْمَةِ اللهِ فَلَا عَفْوَ لَهُمْ وَلَا غُفْرَانَ وَلَا تَخْفِيفَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ الَّذِي قَضَىٰ بِهِ عَلَيْهِمْ، وأُولئِكَ الْبُعَدَاءُ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ، فِي دَارِ العذَابِ الْمُعَدَّةِ لِلْمُجْرِمِينَ وَالْعُصَاةِ، وهَـٰذَا العذابُ الأَلِيمُ يَذُوقُونَهُ يَوْم الدِّينِ خَالِدِينَ فِيِّهِ أَبداً لَا يُفتَّرُ عَنْهُمْ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ لقطاتٍ مِنْ قِصَّةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

● ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فَمَا كَانَ جَوَابَ عِلْيَةِ قَوْم إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَوِي السُّلْطَانِ فِيهِمْ، رَدّاً عَلَىٰ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، فِي مُشَاوَرَاتِهِمْ وَمُدَاولَاتِهِمُ الرَّأْيَ؛ إِلَّا أنْ قَالُوا: اقْتُلُوهُ وتَخَلَّصُوا مِنْهُ ومِنْ حُجَجِهِ الْبُرْهَانِيَّة، أَوْ حَرِّقُوهُ بالنَّارِ الَّتِي تُوقِدُونَهَا لَهُ، بِحُضُورِ جَمَاهِيرِ الْقَوْمِ، لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ، ولِئلَّا يَتَأَثَّرَ بَعْضُ النَّاسِ بِدَعْوَتِهِ، ويُفْسِدَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الآبَاءُ والأَجْدَادُ مِنْ عَقَائِدَ بالأَصْنَامِ والأَوثَان.

وبَنَوْا الْبُنيَانَ الْعَظِيمَ وأَوْقَدُوا فِيهِ النَّارَ لإِلْقَائِهِ فِيهَا ضِمْنَ مَشْهَدٍ عَامٍّ مِنْ جُمْهُورِ قَوْمِهِ، وأَلْقَوْهُ فِي النَّار، فَقَالَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِلنَّارِ: كُونِي بَرْداً وسَلَاماً علَىٰ إبْرَاهِيمَ، فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنْها، وخَرَجَ مِنْهَا سَالماً لَمْ يَنَلْ جِسْمَهُ مِنْهَا أذىً.

● ﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: إنّ فِي ذلِكَ الْعَمَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْجىٰ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بِهِ رَسُولَهُ إبراهيم عَليهِ السَّلام لَعَلَامَاتٍ ذَوَاتِ دَلَالَاتٍ كَبِيراتٍ يَنْتَفِعُ بِهَا قَوْمٌ عُقَلَاءُ أَسْوِيَاءُ أَهْلُ رُشْدٍ،

لَدَيهِمُ الاسْتِعْدَادُ النَّفسِيُّ لِأَنْ يُؤْمِنُوا بالْحَقِّ، ويَتَّبِعُوا مَا جاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ.

لَقَدْ حَوَّلَ اللهُ النَّارَ بأمْرِ التَّكْوِينِ إِلَىٰ بَرْدٍ وسَلَامٍ، فَبَرَدَتْ حَرَارَتُها، وَفَقَدَتْ صِفَةَ إِحْرَاقِها، وكَانَتْ سَلَاماً مِنْ كُلِّ أذىً عَلَىٰ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السلام.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَابعَ دَعْوَتَهُ فِي قَوْمِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، بَعْدَ نَجاتِهِ مِنَ النَّارِ الَّتِي قَذَفُوهُ فِيها:

● ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَانَ لِقَوْمِهِ سَبَبَ تَعَلُّقِهِمْ جَمِيعاً بِأَوْثَانِهِمْ، وَأَنَّ هَـٰذَا التَّعَلُّقَ لَيْسَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَجِدُونَ فِعْلاً لَدَيْهَا جَلْبَ نَفعٍ لَهُمْ أَوْ دَفْعَ ضُرٍّ عَنْهُمْ إذَا عَبَدُوهَا، بَلْ هِيَ فِي مَوَارِيثِهِمُ التَّقْلِيدِيَّةِ رَمْزُ الرَّابِطِ الاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ أَفْرَادِهِمْ بِالْمَوَدَّةِ.

وهَـٰذَا نَظِيرُ الرَّابِطِ الْقَوْمِيِّ، الَّذِي يَجْعَلُ أفْرَادَ الْقَبِيلَةِ الْوَاحِدَةِ يَتَوادُّون فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَىٰ جَدٍّ واحِدٍ.

ونَظِيرُ الرابِطِ الْوَطَنِيِّ، الَّذِي يَجْعَلُ أَفْرَاد الوطَنِ الواحِدِ المتَمَيِّزِ عَنْ غَيْرِه مِنْ أوطَانِ النَّاس يَتَوَقُونِ فيما بَيْنَهُمْ وَيَتَنَاصَرُونَ.

ونَظِيرُ شِعَارِ «الطَّوطَم» الَّذِي كَانَتِ المجتَمَعَاتُ الْقَدِيمَةُ تَتَّخذُهُ رَمْزَ مَوَدَّةٍ بَيْنَ أَفْرَادِها، فَكُلُّ حَامِلِي هذا الشِّعَارِ فِي أَجْسَادِهِمْ يَتَنَاصَرُون على أَساس أَنَّهُ رِباطُ مَوَدَّةٍ بَيْنَهُمْ.

فَإبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السلام قَالَ لِقَوْمِهِ: مَا اتَّخَذْتُمُ الأَوْثَانَ الَّتِي تَعْبُدُونَها

مِنْ دُونِ اللهِ؛ إلَّا لِتَكُونَ رَمْزَ رِباطِ مَوَدَّةٍ بَيْنَ أَفْرادِكُم، لِيَنْصُرَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً عَلَىٰ أَسَاسِ هَـٰذَا الرِّبَاطِ الرَّمْزِيّ، ثُمَّ جَعَلْتُمُوهُ رِباطاً دِينِيّاً، وَجَعَلْتُمْ أَوْثَانَكُمْ آلِهَةٌ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وهِيَ لَا تَجْلُبُ لَكُمْ نَفْعاً وَلَا تَدْفَعُ عَنْكُمْ ضُرّاً، ولَا تَشْعُرُ بِعِبَادَتِكُمْ لَهَا.

ويَظْهَرُ أَنَّ أَعْرَاقَ قَوْمِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُخْتَلِفَةٌ، فَاصْطَلَحَ أَجْدَادُهُمْ أَنْ تَكُونَ أَوْثَانُهُمْ رُمُوزَ الرِّبَاطِ الاجْتِمَاعِيّ الْقَائِمِ عَلَىٰ التَّوَادِّ والتناصُرِ بَيْنَ أَفْرادِهِمْ، ثُمَّ تَحَوَّلَ هَـٰذَا الرَّمْزُ إلَىٰ عَقِيدَةٍ دِينِيَّةٍ بَعْدَ حِينٍ.

وقال إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ مُحَذِّراً، بَعْدَ أَنْ أَبَانَ لَهُمُ الْعَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ بِشَأْنِ يَوْمِ الدِّينِ، يَوْمِ الجزاءِ الْأَكْبَرِ:

- ﴿... ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: ثُمَّ إذَا جَاءَتْ سَاعَةُ الْبَعْثِ، وقُمْتُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ أَحْيَاءً، لِمُلَاقَاةِ رَبِّكُمْ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وصِرْتُمْ تَشْهَدُونَ الحقائِقَ الَّتِي تُكَذِّبُونَ بِهَا الْيَوْمَ وأَنْتُمْ فِي الْحياةِ الدُّنْيا؛ حِينئِذٍ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ، إذْ يُنْكِرُ بَعْضُكُمْ أَيَّةَ صِلَةٍ لَهُ بِبَعْضٍ آخَرَ، خَشْيَةَ أَنْ تُؤَثِّرَ هَـٰذِهِ الصِّلَةُ فِي زِيَادَةِ عَذَابِهِ مُقْتَرِناً مَعَهُ فِي الْعَذَابِ، وحِينَئِذٍ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، فَيَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ قَادَتَهُمُ الَّذِين كَانُوا يُلْزِمُونَهُمْ بِعِبادَةِ الْأَوْثَانِ، ويُزَيِّنُونَ لَهُمْ عِبَادَتَهَا، ويَوْمَئِذٍ تَكُونُونَ أَعْدَاءً لَيْسَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةٌ مَا، ويَوْمَئِذٍ يَكُونُ مَأْوَاكُمُ الَّذِي تَأْوُونَ إلَيْهِ بالْقَهْرِ، وتُقِيمُونَ بِهِ: دَارَ الْعَذَابِ النَّارَ الَّتِي تَصْلَوْنَها، وَيَمَسُّكُمْ فِيهَا لَهَبُهَا مُحْرِقاً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

وقال لَهُمْ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامِ: وَمَا لَكُمْ يَوْمَ القِيامَة مِن ناصِرِينَ يَحْمُونَكُمْ وَيَنْصُرُونَكُم فَيَكْشِفُونَ عَنْكُمْ عَذابَ رَبِّكُمْ الَّذِي لا كاشِفَ لَهُ إلَّا هو.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابعاً بَيانَ لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ حياةِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السلام:

• ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بَيانُ سِتِّ قَضايَا تَتَعَلَّقُ بِإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّ ابْنَ أَخِيهِ لُوطاً ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ قَدْ آمَنَ بِهِ، وأَسْلَمَ قِيادَهُ لَهُ، فَصارَ تابعاً مِنْ أَتْباعِهِ، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾: أي: فَآمَنَ بِهِ وأَسْلَمَ لَهُ، ضُمِّنَ فِعْلُ: «آمَنَ» مَعْنَىٰ فِعْلِ: «أَسْلَمَ»، فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ باللَّام، وهذا من نَفائِسِ الإِيجازِ الْقُرْآني.

القضِيَّةُ الثانية: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنِ اسْتِجابَةِ قَوْمِهِ لِدَعْوَتِهِ، وَأَذِنَ اللهُ لَهُ بالْهِجْرَةِ، أَوْ أَوْحَىٰ لَهُ بِأَنْ يُهَاجِرَ إِلَى حَيْثُ يَهْدِيهِ؛ أَعْلَنَ أَنَّهُ مُهاجِرٌ مِنَ الْعِراقِ إِلَىٰ حَيْثُ يَأْمُرُهُ اللهُ أَوْ إِلَىٰ حَيْثُ يَهْدِيهِ، وأَعْلَنَ اعْتِمَادَهُ وتَوَكُّلَهُ عَلَىٰ رَبِّهِ، مُثْنِياً عَلَيْهِ بِأَنَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيم. دَلَّ عَلَىٰ هـٰذِهِ الْقَضِيَّةَ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾: أي: وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ بَلَدٍ يَهْدِينِي إِلَىٰ الْهِجْرَةِ إِلَيْهِ رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي يَحْمِينِي بِعِزَّتِهِ، وهُوَ الْحَكِيمُ فِيمَا يَخْتارُهُ لي.

الْعَزِيزُ: أي: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ الَّتِي لَا تَسْتَعْصِي عَلَيْهَا قُوَّةٌ مَا.

الحَكِيم: أي: الَّذِي يَخْتَارُ أَفْضَلَ الاحْتِمَالَاتِ فِي كُلِّ مَا يَشاءُ.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَصْلَحَ لَهُ زَوْجَتَهُ «سَارَة» الَّتِي كانَتْ عَجُوزاً عَقِيماً، فَوَهَبَ لَهُ مِنْهَا إِسْحَاقَ، وَوَهَبَ لَهُ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾. وَلَا يُعَارِضُ هَـٰذا أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ كَانَ قَدْ وهَبَ لَهُ قَبْلَ إسحَاقَ وَلَدَهُ إسْمَاعِيلَ ـ عَلَيْهِمَا السَّلَام ـ مِنْ زَوْجَتِهِ «هَاجَر» المصْرِيَّة، الَّتِي وَهَبَتْهَا لَهُ «سَارَة» ـ عَلَيْهِمَا السَّلَام ـ لِأَنَّ الْبَيَانَ فِي هَـٰذا النَّصِّ يَتَعَلَّقُ بِحَالِهِ وَحَالِ مَنْ هَاجَرَ مَعَهُ، وكَانَتْ «سَارَةُ» مِمَّنْ هَاجَرَ مَعَهُ، أَمَّا «هَاجَرُ» فَقَدْ كَانَ وُجُودُها فِي حَيَاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ.

الْقَضِيَّة الرابِعَة: أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةِ والكِتَاب، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِه القَضِيَّةِ قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾: فالنُّبُوَّةُ والرِّسَالَةُ وإنْزَالُ الكُتُبِ قَدِ اخْتَارَ اللهُ لَهَا بَشَراً مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَعْدِهِ، ولُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَإِنَّما كَانَ ابْنَ أَخِيهِ لِأَنَّهُ كَانَ مُعَاصِراً لَهُ ولم يَكُنْ مِنْ بَعْدِه، لَكِنَّ سَائِرَ الأنبياء والرُّسُلِ الَّذِين كانُوا مِنْ بَعْدِهِ فَكُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، بِدْءاً بِإِسْمَاعِيلَ عليه السلام وإِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ والمرسَلِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أَجْمَعِينَ.

الْقَضِيَّة الْخَامِسَة: أَنَّ اللهَ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ قد آتىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَجْرَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، دَلَّ على هَـٰذِه الْقَضِيَّةِ قَولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾. فَقَدْ كَانَ بَعْدَ هِجرَتِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ المقَدَّسَةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ ذَا مَكَانَةٍ رَفِيعةٍ بَيْنَ عُظَمَاءِ أَهْلِهَا ومُلُوكِها، وكَانَ ذا مَالٍ واسِعٍ مِن قُطْعَانِ الأنْعام، وَكَانَ ذَا حَفَاوَةٍ بَالِغَةٍ بِمَنْ يَأْتِيهِ مِنَ الضُّيُوف، فَيُسْرِعُ فِي قِرَاهُمْ بِأَفْضَلِ اللَّحْمِ المشْوِي، وأَعْطَاهُ هذا ذِكْراً حَسَناً، وشُهْرَةً واسِعَةً.

الْقَضِيَّةُ السَّادِسة: أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجَلَّ ـ جَعَلَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الصالِحِين، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ؛ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وتَعالى: ﴿... وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾: **الصَّلَاحُ**: ضِدُّ **الفساد**، فالْخَالِي مِنْ كُلِّ فَسَادٍ هُوَ عَبْدٌ صالح.

وقَدْ جاءَ فِي القرآن لفظ: «الصالِحِينَ» وصْفاً لِلأَنْبيَاءِ والمرْسَلِينَ ـ عَلَيْهِمْ السَّلَام ـ، ووصفاً لِلْمُؤْمنين الصَّادِقِين الّذِينَ يَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وينْهَوْنَ عَن المنْكر، وَيُسَارِعُونَ فِي الخيرات.

وأدْخَلَ اللهُ ـ عزّ وجَلَّ ـ في «الصَّالِحِين» الأَوَّابِينَ، الَّذِين إذَا فَعَلُوا بَعْضَ المعاصِي والمخالَفَاتِ رَجَعُوا إلَىٰ رَبِّهِمْ بالتَّوْبَةِ والاستِغْفَارِ عَلَىٰ وَجْهِ السُّرْعَةِ، ولَوْ تكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُمْ.

وذِكْرُ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام هو في الآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مَنْزِلَتَهُ في جَنَّاتِ الْخُلْدِ فِي رَفِيعَاتِ دَرَجَاتِ الْفِرْدَوْس الأعْلَىٰ.

وبهذا أنْتَهِي مِنْ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (العنكبوتِ).

والْحَمْدُ للهِ عَلَى معونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرسِ الثالث من دُروس سورة (العنكبوت) الآيات من (٢٨ ـ ٣٥)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ

لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

القراءات:

(٢٨ ـ ٢٩) • قرأ نَافع، وابْنُ كثيرٍ، وابْنُ عَامِرٍ، وحفص، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: [**إِنَّكُم لَتَأْتُونَ ـ أَإِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ**].

وقرأها باقي الْقُرّاءِ العشرة: [**أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُون ـ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ**] على الاسْتِفْهَام فِي العبارتين.

(٣١) • قرأ أَبُو عَمْرو: [**رُسْلَنَا**] بإِسْكَانِ السِّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿رُسُلُنَآ﴾.

وكذلِكَ مَا جاء في الآية (٣٣) وهُما لغتان.

(٣١) • قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان: [**إِبْرَاهَامَ**].

وقرأها باقي القراء العشرة، وهو الثاني لابن ذكوان: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

وهُمَا نُطْقَانِ عِنْدَ العرب.

(٣٢) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، ويَعْقُوبُ، وخَلَف: [**لَنُنْجِيَنَّهُ**]، مِنْ فعل: «أَنْجَىٰ».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾، من فعل: «نَجَّىٰ».

والقراءتانِ مُتكافِئَتَان، لِأَنَّ المهموز أَخُو المضعَّف.

(٣٣) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامِرٍ، وحفص، وأبو جعفر: ﴿مُنَجُّوكَ﴾، مِنْ فِعْلِ: «نَجَّىٰ» المضعَّف.

وقَرأَهَا باقي القراء العشرة: [مُنْجُوكَ]، من فعل: «أَنْجَىٰ» المهموز.

(٣٤) ● قرأ ابْنُ عامر: [مُنَزِّلُونَ]، من فعل: «نَزَّلَ» المضعّف.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿مُنزِلُونَ﴾، مِنْ فِعْلِ: «أَنْزَلَ» المهموز.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ ضَرْبُ مَثَلٍ بِلُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، من أَمْثِلَةِ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ أذىً، واحْتَسَبُوهُ عِنْدَ اللهِ رَبِّهِمْ، ثُمَّ نَصَرَهُمُ اللهُ، وقَدَّرَ وقضَىٰ لَهُمْ ثواباً جَزيلاً، عاجِلاً فِي الدُّنْيا، ومُؤَجَّلاً إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

مُقَدِّمَة بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام:

سبق في المـلْحَقِ الخامس من ملاحِق تَدبُّر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) دِراسَةٌ تكامُلِيَّةٌ للنُّصُوصِ القرآنِيَّة بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السلام، وقَوْمِهِ. فَلا حَاجَةَ هُنَا إِلَىٰ النظراتِ التكامُلِيَّاتِ.

وأقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدبُّرِ مَا جَاءَ في هذا النَّصّ من مُفْرَدَاتٍ وجُمَلٍ وعِبَارَات.

التدبّر التحليلي:

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلام:

● ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: ولَقَدْ أَرْسَلْنَا لُوطاً ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ، عَطْفاً عَلَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ في الآية (١٤).

«لُوط» عَلَيْهِ السَّلام ابْنُ أخِي «إبراهِيمَ» عَلَيْهِ السَّلام، آمَنَ بِه وأَسْلَمَ لَهُ، وهَاجَرَ مَعَهُ مِنَ الْعِرَاقِ إلى الأَرْضِ المقَدَّسَةِ فِي بَلَادِ الشَّامِ.

فَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي؛ إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ، وهُمُ السَّدُومِيُّون الَّذِينَ قَلَبَ اللهُ بِلَادَهُمْ، وَأَهْلَكَهُمْ، فَهُمْ وهِيَ رُكامٌ تَحْتَ قَاعِ الْبَحْرِ الميّتِ الْمَعْرُوفِ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وفي القراءة الأخرىٰ: **[أإِنَّكُمْ لَتأْتونَ الفاحِشَةَ]** بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَام الإنْكَارِيّ. وبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ المعْنَىٰ المراد، فَقَدْ أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ عَلَىٰ عِلْم بأمْرِهِمْ، ثُم أنْكَرَ عَلَيْهِمْ. وغُلُوُّهُمْ فِي الْفَاحِشَةِ قَدْ كَانَ بإسْرَافِهِم الشَّنِيعِ فِي إتْيَانِ الذُّكُورِ مِنْهُمْ، حَتَّىٰ صَارَتْ عَادَتُهُمْ إتْيَانَ الرِّجَالِ كِبَارِ السِّنّ مِنَ النَّاس.

وَقَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿... مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾: أي: مَا سَبَقَكُم بكَثْرَةِ مُمَارَسةِ هٰذِه الْفَاحِشَةِ الكَبِيرَةِ الشَّنِيعَةِ مَعَ المجَاهَرَةِ بِوَقَاحَةٍ وجُرْأَةٍ، وَعُدْوانٍ على الأَطْهَارِ؛ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ.

أفْهَمُ مِنَ السَّبْقِ هُنَا السَّبْقَ في الممارسَةِ والوقاحَةِ والشَّنَاعَةِ والْمُجَاهَرَةِ، لَا السَّبْقَ الزَّمَنِيَّ، فالبشَرُ هُمُ البشَرُ يُوجَدُ فِيهِمُ الشُّذُوذُ عَنِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ، في مُمَارَسَةِ شَهواتِ الْفُرُوج.

والسَّبْقُ بمَعْنَىٰ التَّفَوُّقِ هُوَ الشَّائِعُ في الاسْتِعْمَالَاتِ القرآنِيَّة.

«من» في: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيد عموم النَّفْي.

وقال لوط عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِهِ في مَوْقِفٍ آخَرَ مِنْ مَوَاقِفِ دَعْوَتِهِ لهم:

- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ...﴾: الاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ تَشْنِيعِيٌّ، فَبَعْدَ أنْ قَالَ لَهُمْ فِي الموقِفِ السَّابِقِ: ﴿... إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾ وَقَالَ هَٰذا لَهُم مَرَّةً أُخْرَى بأسْلُوب الاسْتِفْهَامِ

الإنْكارِي، أخذاً مِنَ الْقِراءَةِ الْأُخْرَىٰ، قَالَ لَهُمْ مُؤَنِّباً مُسْتَنْكِراً مُشَنِّعاً عَلَيْهِم، مُبَيِّناً ثَلاثَ قَبِيحَاتٍ شَنِيعَاتٍ مِنْ سُلُوكِهِمْ:

الْأُولى: أَنَّهُمْ يَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِم.

الثَّانِية: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْطَعُونَ السَّبِيل، إِذْ يَجْعَلُونَهَا مَقْطُوعَةً مِنْ مُرُورِ النَّاسِ بها خَوْفاً من جَرائِمِهِمْ، فَقَدْ كَانَتْ طُرُقُهُمُ الَّتِي لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَيْهَا غَيْر آمِنَة، فَيَتَحَاشَىٰ النَّاسُ أَنْ يَمُرُّوا بِهَا لِئَلَّا يَتَعَرَّضُوا للمصَائِب مِنْ قِبَلِهِمْ.

ومِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ: الْعُدْوانُ عَلَىٰ المارَّةِ، وسَلْبُهُمْ أَمْوَالَهُمُ الَّتِي تَكُونُ بَحوْزَتِهِمْ مِنْ أشْيَاء أو أحْيَاء.

ومِنْ قَطْعِهِمُ الطَّرِيقَ إِكْرَاهُهُمُ المارَّةَ عَلَىٰ أَنْ يَفعَلُوا بِهِمُ الْفَاحِشَة.

الثالثة: أَنَّهُمْ يَأْتُونَ فِي نَادِيهِمُ المنْكر، وَهَـٰذا يَشْمَلُ تَوَاطُؤَهُمْ فِي نَوَادِيهِمْ عَلَىٰ فِعْلِ المنْكَرَاتِ، الْمَعْرُوفَةِ فِي أَزْمَانِهِمْ بِأَنَّهَا مِنَ المنْكَرَاتِ القَبِيحَاتِ الشَّنِيعَاتِ، عَنْدَ مُخْتَلِفِ الأقْوَامِ والمجتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَة، فَكَانَتْ بِيئَتُهُمْ بِمَثَابَةِ عِصَابَةِ أشْقِيَاءِ أشْرَارِ، لَا يَرْدَعَهُمْ رَادِعٌ عَنْ فِعْلِ مَا تَهْوىٰ نُفُوسهُمْ، ويَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِوَقَاحَةٍ ومُجُونٍ واسْتِخْفافٍ بِكُلِّ الْفَضَائِلِ وأَعْرَافِ النَّاس.

فَلَا حَرَجَ لَدَيْهِمْ أَنْ تَكُونَ نَوَادِيهِمْ بُؤَرَ خُمُورٍ وقِمَارٍ، وفِسْقٍ وفُجُورٍ، وَسِبَابٍ وَشَتَائِمَ، وَعُدْوانٍ عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ مِنَ الكِبَارِ والصِّغَارِ، الَّذِين لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَىٰ الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وأَنْ تَكُونَ نَوادِيهِمْ بُؤَرَ أَلْعَابٍ عَبَثِيَّةٍ مَاجِنَةٍ تُدَرِّبُ المشَارِكِينَ فِيهَا على اسْتِحْسَانِ الظُّلْم والْعُدْوانِ والسَّلْبِ والنَّهْبِ، وتُدَرِّبُ عَلَىٰ فُنُونِ الْحِيلَةِ لِأَكْلِ أَمْوالِ النَّاسِ بِغَيْرِ حَقّ.

وأَنْذَرَ «لُوطٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ لَهُمْ، وإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، إِذَا لَمْ يُقْلِعُوا عَنْ قَبَائِحِهِمْ وشَنَاعَاتِهِمُ الَّتِي يَفْعَلُونَها وَهُمْ يَسْتَحْسِنُونَها، ولَا يُنْكِرُونَ شَيْئاً مِنْهَا، ولَا يُقِيمُونَ وَزْناً لِدِينٍ وَلَا خُلُقٍ، ولَا لِفَضِيلَةٍ يَرَىٰ النَّاسُ أَنَّهَا مِن الفضائِلِ الواجِبَة.

- ﴿... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِ «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلام على إِنْذَارَاتِهِ لَهُمْ بِعَذَابِ اللهِ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا جَمِيعاً دُونَ مُعَارِضٍ قَائِلِينَ لَهُ: ﴿... ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فَتَحَدَّوْه بِهٰذا.

عِنْدئذٍ قال «لُوطٌ» عَلَيْهِ السلام دَاعِياً:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

سَأَل «لُوطٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ أَنْ يَنْصُرَهُ عَلَىٰ الْقَوْمِ المفْسِدِين، وعَمَّمَ عِبَارَتَهُ مَعَ أَنَّ مُرَادَهُ قَوْمُهُ، وقَدْ وصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ، لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ مِنْ صِنْفِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، لَيْسَ فِيهَا صَلَاحٌ يُحْمَدُونَ عَلَيْهِ.

واسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، فَقَضَىٰ أَنْ يُرْسِلَ مَلَائِكَةً لِإِهْلَاكِهِمْ، وَيَقْلِبَ بِلَادَهُمْ وَكُلَّ أَرْضِهِمْ، ويَجْعَلَ عَالِيهَا سَافِلَهَا.

وَجَعَلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لِهَؤلَاءِ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَظِيفَتَيْنِ:

الْأُولى: أَنْ يُبَشِّرُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بوَلَدٍ ذَكَرٍ مِنْ صُلْبِهِ مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارة»، مع إِخْبَارِهِ بِأَنَّهُمْ مُنْصَرِفُونَ مِنْ عِنْده لإِهْلَاكِ قَوْم «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلامُ فِي «سَدُوم»، باعْتِبَار أَنَّ رِسَالَةَ لُوطٍ امْتِدادٌ لِرِسالَةِ إبراهيم عَلَيْهِ السلام، إِذْ هو أحد المؤمنين بِهِ والمسْلِمين له.

الثَّانِية: أَنْ يَذْهَبُوا إِلَىٰ أَرْضِ «سَدُوم» الَّتِي فيها قَوْمُ «لُوط» عَلَيْهِ السَّلام، لِإِخْرَاجِ «لُوطٍ» ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ وأَهْلِهِ مِنْهَا، باسْتِثْنَاء زَوْجَتِهِ الَّتِي كَانَتْ عَلَىٰ هَوَى قَوْمِهِ الْكافِرِينَ المفْسِدِينَ، إِذْ هِي مِنْهُمْ، وأَنْ يَقْلِبُوا بِلَادَهُمْ وَيَجْعَلُوا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، ويُهْلِكُوا كُلَّ أَهْلِهَا.

فقال اللهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ . . .﴾: أي: ولمَّا جاءَتْ رُسُلُنا مِنَ الْمَلائِكَةِ إبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ لِتُبَشِّرَهُ بولَدٍ هو «إِسْحَاق» عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة».

الْبُشْرَىٰ: اسْمٌ للتَّبْشِيرِ.

• ﴿. . . قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

كَانَ لِسَدُوم خَمْسُ قُرَىٰ، وَلَكِنْ تَجْمَعُهُمْ وَحْدَةٌ إِدَارِيَّةٌ، فَأَطْلَقَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَهْلُ قَرْيَةٍ واحِدَةٍ، باعْتِبَارِهَا تَخْضَعُ جَمِيعُهَا لِوَحْدَةٍ إِدَارِيَّةٍ.

أي: قَالُوا لإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ قُرَىٰ سَدُوم قَوْمِ «لُوط» ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ، والسَّبَبُ فِي إِهْلَاكِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا وَمَا زَالُوا ظَالِمِينَ مِنْ دَرَكَةٍ يَسْتَحِقُّونَ مَعَها أَنْ يُهْلَكُوا، لتَخْلِيصِ الْأَرْضِ مِنْ وَبَائِهِمْ، بِمُقْتَضَىٰ الْحِكْمَةِ والْعَدْلِ.

• ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ للرُّسُلِ مِن الملائكة ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ: إِنَّ فِي هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ المأمُورِينَ بإهْلَاكِ أهلها «لُوطاً» ابْنَ أَخِي وهو نبيٌّ ورسُول، فقالَ الرُّسُلُ مِنَ الملائكَةِ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ لإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السلام: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا مِنْكَ ومِنْ غَيْرِكَ مَنَ النَّاسِ، لَنُنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ الَّتِي نُنْزِلُهَا بِأَهْلِهَا، إِلَّا امْرَأَتَهُ الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُهْلَكَ مَعَ قَوْمِهَا وقَدْ قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ أَنْ يُهْلِكَهَا مع قَوْمِهَا، لِأَنَّ هَوَاهَا مَعَهُم وهِي مِنْهُمْ.

• ﴿. . . كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾: **الْغابِرُ**: يَأتي بِمَعْنَىٰ الماكِثِ الَّذِي لَا يَتَحَوَّل، ويأتي بِمَعْنَىٰ الذَّاهِبِ الماضِي الّذِي لَمْ يَبْقَ لَهُ وُجود.

فالمعنى: إِلَّا امْرَأتَهُ كانَتْ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ وأَوَامِره الَّتِي يَجِبُ عَلَيْنَا

تَنْفِيذُها؛ مِنَ الْمَاكِثِينَ في أَرْضِ قَوْمِهَا مَعَ الَّذِينَ سَتَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمُهْلِكَاتُ، ومِنَ الذَّاهِبِينَ الْمَاضِينَ الَّذِينَ لَا يَبْقَىٰ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الْحَيَاة، فَهِيَ هَالِكَةٌ مَعَ الْهَالِكِينَ مِنْ قَوْمِهَا.

وانْصَرَفَ الرُّسُلُ مِنَ الملائِكَةِ ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ بَعْدَ أَنِ انْتَهَوْا مِنْ تَأْدِيَةِ وَظِيفَتِهِمْ عِنْدَ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، مُتَّجِهِينَ إِلَىٰ «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلام فِي أَرْضِ قَوْمه أَهْلِ سَدُوم، وهُنَا يأتي قَوْلُ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذا الدَّرْس:

- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

- ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾: أي: سَاءَهُ مجيئُهُمْ إلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ جَاؤُوهُ عَلَىٰ صُوَرِ شُبَّانٍ مُرْدٍ حِسَان. يقالُ لغة: «سَاءَهُ الْأَمْرُ يَسُوؤُه» أي: أَنْزَلَ بِهِ مَا يَكْرَهُ، وَأَحْدَثَ لَدَيْهِ مَسَاءَةً.

- ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: أي: اشْتَدَّ عَلَيْهِ الأمْر، وثَقُلَ بِسَبَبِ مَقْدَمِهِمْ إِلَيْهِ، وهُو كِنايَةٌ أصْلُهَا أَنَّ الْبَعِيرَ إِذَا ثَقُلَ عَلَيْهِ الحِمْلُ ضَاقَ ذَرْعُهُ في خَطْوِهِ. فهو ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ زَائِرِيهِ الشُّبَّانَ رُسُلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ، وكَانَ قَوْمُهُ قَدْ نَهَوْهُ عَنْ أَنْ يَلْتَقِي أحداً من العالمين.

- ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾: أي: وَكَشَفَ زَائِرُوهُ لَهُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مُكَلَّفُونَ أَنْ يُهْلِكُوا قَوْمَهُ أَهْلَ سَدُوم.

وقالَوا لَهُ: لَا تَخَفْ عَلَىٰ نَفْسِكَ مِنْ أَنْ يَنَالَكَ أذىً، وَلَا تَحْزَنْ عَلَىٰ أَمْوَالِكَ فِي سَدُوم مِنْ أَشْيَاءَ وَأَحْيَاءٍ، فَإِنَّ اللهَ سَيُعَوِّضُكَ عَنْهَا خَارِجَ هٰذِهِ الْأَرْض.

وقالوا له مؤكِّدِينَ:

- ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

سَبَقَ تَدَبُّرُ نَظِيرِها آنِفاً.

وَقَالُوا لَهُ أيضاً:

- ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾:
- ﴿مُنزِلُونَ﴾: اسْمُ الْفَاعِلِ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي الاسْتِقْبَالِ، أي: سَنُنْزِلُ.
- ﴿رِجْزًا﴾: الرِّجْزُ كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ عَذاب، وفي الغالِبِ يَنْتَهِي التَّعْذِيبُ بالإهْلَاكِ.

أي: إنَّا بِأَمْرِ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ سَنُنْزِلُ طاعَةً لَهُ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ؛ عَلَىٰ أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ قَوْم «لُوطٍ» ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ أَسْبَابَ تَعْذِيبٍ مُهْلِكَةً لَهُمْ، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْسُقُون، مُكَرِّرِين دواماً أعْمالَهُمُ الْفِسْقِيَّة، ومُصِرّين عليها.

الفِسْق: العصيان، والخروجُ عَنِ الحقِّ والواجبِ وأوامِرِ اللهِ ونواهيه. وهو مُصْطَلَحٌ إسْلَامِيٌّ مَأخُوذٌ مِنْ قَوْلِ العرب: «فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ» أي: خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِها، ومَعْلُومٌ أَنَّ الرُّطَبَةَ مَتَىٰ خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا تَعَرَّضَتْ لِلْفَسَادِ السَّرِيع، وقَدْ أُطْلِقَ عَلَىٰ المؤذِيَاتِ المفْسِدَاتِ مِن الحيوانَاتِ: «فَوَاسِق»، كالْفَأر.

وأُسْدِلَ عَلَىٰ هَـٰذا الْمَقْطَعِ الْمُخْتَارِ مِنْ قِصَّةِ «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلام لِهَـٰذِهِ السُّورَة، قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾: يُؤَكِّدُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بِعِبَارَةِ [لَقَدْ] أَنَّهُ تَرَكَ مِنْ قُرَىٰ قَوْمِ «لُوطٍ» ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ المدَّمَرةِ عَلَامَةً بَيِّنَة ظاهِرَةً يَنْتَفِعُ بِهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيّاً ذا دَلَالَةٍ على حِكْمَةِ اللهِ وعَدْلِهِ فِي عِبادِهِ، ويَعْقِلُونَ عَقْلاً إرادِيّاً يَمْنَعُهُمْ عَنِ الكُفْرِ باللهِ وبِرُسُلِهِ ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ، وعَنِ ارْتِكَابِ الجرائِمِ والمعَاصِي الَّتِي تُسْخِطُه.

وهٰذِهِ الْعَلَامَةُ هِي الْبَحْرُ الْمَيِّتُ الْمَعْرُوف.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثالث من دُروس سورة (الْعَنْكَبُوت).

والحمْدُ للهِ عَلَى معونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (العنكبوت) الآيتان (٣٦ و٣٧)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

تَمْهيد:

فِي آيَتَي هذا الدَّرْس ضَرْبُ مَثَلٍ مِنَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ من أذىً، واحْتَسَبُوهُ عِنْدَ اللهِ رَبِّهِمْ، ثُمَّ نَصَرَهُمُ اللهُ، وَقَدَّرَ وَقَضَىٰ لَهُمْ ثَوَاباً جَزِيلاً عَاجِلاً في الدُّنْيا، ومؤجّلاً إلَىٰ يَوْمِ الدِّين. والمثَلُ في هَـٰذا الدَّرْس هُوَ شَعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلام الَّذِي كَانَ نَبِيّاً وَرَسُولاً إلى أَهْلِ مَدْيَنَ.

مُقَدِّمَة بِشَأْنِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السّلام:

سبَقَ في الـمُلْحَق السَّادِسِ مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّرِ سُورَة (الأعراف/ ٣٩ نزول) دِرَاسَةٌ تَدَبُّرِيَّةٌ تَكَامُلِيَّةٌ؛ للنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّة بِشَأْنِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ تَعْرِيفٍ بِقَوْمِهِ وَقَبَائِحِهِمْ وَجَرَائمهم.

فَلا حَاجَةَ هُنَا إِلى إِعادَةِ النَّظَرَاتِ التَّكامُلِيَّاتِ، وأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ مَا جَاءَ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ (الْعَنْكَبُوت) مِنْ مَفْرَداتٍ وَجُمَلٍ وَعِبَارَات.

التدبُّر التحليلي:

- قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: ولَقَدْ أَرسَلْنَا إِلَىٰ أَهْلِ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ لُغَةً، ونَسَباً، وإِقَامَةً، النبيَّ الرَّسُولَ «شُعَيْباً» عَلَيْه السلام، وهُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَدْيَنَ بْنِ إبراهيم عليه السلام. فقال لِقَوْمِه أَهْلِ مَدْيَنَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهِ وحْدَهُ، ولَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.

- ﴿... وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ...﴾: **الرَّجاء**: ظَهَرَ لِي من الاسْتِعْمَالَاتِ القرآنيَّةِ أنّ أَصْلَ مَعْنَىٰ الرَّجاء مُطْلَقُ التَّوَقُّعِ لِلْمَرْغُوب فِيه، أو لِلْمَخُوفِ مِنْهُ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ يَتَوَقَّعُ الْيَومَ الآخِرَ وَمَا يَجْرِي فِيهِ من أَحْدَاثِ حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وجَزَاءٍ؛ يَطْمَعُ بأَنْ يَنالَ الثوابَ الْجَزِيلَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وَيَخَافُ مِنْ أَنْ يَذُوقَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ في دَار الْعَذَابِ النَّار.

- ﴿... وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

الْعُثُوُّ: أَشَدُّ الْفَسَاد. يُقَالُ لُغَةً: «عَثِيَ، يَعْثَىٰ، عُتُوّاً، وعَثِيّاً، وَعَثَيَاناً» أي: أَفْسَدَ أَشَدَّ الْفَسَاد.

وقَدْ كَانَ أَهْلُ مَدْيَنَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ إفْسَاداً وظُلْماً وعُدْواناً.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُهُم «شُعَيْبٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ: ولَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ إفْسَاداً شَدِيداً مُنْكَراً، فَنَهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يُمَارِسُونَهُ دَواماً مِنْ إفْسَادٍ شَدِيدٍ.

﴿مُفۡسِدِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكِّدة لِشدَّةِ إِفْسَادِهِمْ في الْأَرْضِ الَّتي لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَيْهَا.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٣٧﴾:

- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: فَكَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَهْلُ مَدْيَنَ فِي أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ ورسُولُهُ إِلَيْهِمْ، وكَذَّبُوهُ فِي بَلَاغَاتِهِ الدِّينِيَّةِ، وفي إِنْذَارَاتِهِ بِعَذَاب اللهِ لَهُمْ إذَا لَمْ يُؤْمِنُوا ولم يُسْلِمُوا ولَمْ يُطِيعُوا اللهَ في أَوامِرِه ونَوَاهِيهِ، وإذا لَمْ يُقْلِعُوا عَنْ إِفْسَادِهِمُ الشَّدِيدِ في الْأَرْض.

- ﴿... فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ ...﴾: أي: فَقَبَضَتْ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ جوانِبِ أَفْرَادِهِمْ وجَمَاعَاتِهِمُ الزَّلْزَلَةُ، إِذْ زَلْزَلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِمْ قُبَيْلَ الْفَجْرِ، فَتَرَاكَمَتْ عَلَيْهِمْ أَنْقَاضٌ وحجارَةٌ وأَتْرِبَة.

- ﴿... فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٣٧﴾:

جَاثِمِين: أي: لَاصِقِين بالْأَرْضِ عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، مُلَازِمِينَ أَمْكِنَتَهُمْ هَلْكَىٰ.

أي: فَحِينَ دَخلُوا في الصَّبَاحِ؛ كَانُوا هَلْكَىٰ فِي مَسَاكِنِهِمْ وجَمِيعِ أَرْضِهِمُ الَّتي هِيَ دَارُهُم، لَاصِقِينَ بالأرْضِ عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، مُلَازِمِينَ أَمْكِنَتَهُمْ مَيِّتِين.

وبهذا أَنْتَهِي من تَدَبُّر الدَّرْسِ الرابع من دُروس سورة (العنكبوتِ).

والحمْدُ للهِ عَلَى معونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٩)

التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (العنكبوت) الآية (٣٨)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

القراءات:

(٣٨) ● قرأ حفص، وحمزة، ويعقوب: **[وَثَمُودَ]**، ووقَفُوا بالّدالِ.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَثَمُوداً]** بالتنوين، ووقَفُوا بالألِفِ المبْدَلَةِ مِنَ التَّنْوين.

تمهيد:

في آيَة هذا الدَّرسِ ضَرْبُ مَثَلَيْنِ من أمْثِلَةِ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ فِي سبيل الله مِنْ أذىً، واْحتَسَبُوهُ عِنْدَ اللهِ رَبِّهِمْ، ثُمَّ نَصَرَهُمُ اللهُ، وَقَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ لَهُمْ ثَواباً جَزِيلاً عاجلاً في الدُّنْيا، ومُؤَجّلاً إِلَىٰ يَوْمِ الدين.

والمثلانِ هُنَا هُمَا:

(١) مَثَل هُودٍ عَلَيْهِ السَّلامُ، ومَعَهُ مَنْ آمَن بِهِ، ومَا لَقُوا مِنْ أذى كُفَّارِ قَوْمِه.

(٢) مَثَلُ صَالحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومَعَهُ مَنْ آمَنَ بِه، وما لَقُوا من أَذىٰ كُفَّارِ قَوْمِه.

مُقدِّمَة بشأن هود عليه السلام وقومه «عاد»:

سبَقَ في الْملحَق الثّاني مِنْ مُلْحَقَي تَدَبُّر سورة (هود/ ٥٢ نزول) دِراسَةٌ تَدَبُّرِيَّة تكامُلِيَّة للنُّصُوص القرآنية بشأْنِ «هود» عَلَيْهِ السلام وقَوْمِهِ «عاد»، فَلَا حَاجَة هُنَا إلى إعَادَةِ النظراتِ التَّكَامُلِيَّاتِ.

مقدمة بشأن صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَام وقومه «ثمود»:

سبق في الملْحَقِ الثالث من مَلَاحِقِ تَدَبُّر سُورَةِ (النّمل/٤٨ نزول) دراسَةٌ تَدَبُّرِيَّةٌ تكامُلِيَّةٌ للنُّصُوصِ القرْآنِيَّة بِشَأْنِ «صالح» عَلَيْهِ السَّلَام وَقَوْمِهِ «ثمود»، فَلَا حَاجَةَ هُنَا إلى إعَادَةِ النظراتِ التكامُلِيّاتِ.

التدّبّر التحليلي:

أي: وضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمْ أَيُّهَا المكذِّبُونَ رَسُولَ ربِّكُمْ محمداً ﷺ، «عَاداً» الَّذِينَ كَذَّبُوا رسُولَ رَبِّهِم «هوداً» ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ، ونَصَرَ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ. وَ«ثَمُودَ» الَّذِينَ كذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ «صَالحاً» ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ ونَصَرَ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

وقَدْ تبَيَّنَ لَكُم بِوُضُوحٍ في أَرْضِ عَادٍ وثَمُودَ، مِنْ مَسَاكِنِهِمْ؛ آثَارٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ دَمَّرَهَا عَلَيْهِمْ، وأَهْلَكَهُمْ إهْلَاكاً مُقْتَرِناً بِتَعْذِيبٍ، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَهُم عَنْ رَبِّهِمْ، وأَصَرُّوا عَلى كُفْرِهِمْ بَعْدَ مُعَالجَةٍ طَوِيلَةٍ لهم، مُتَأَثِّرِينَ بِمَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، إِذْ زَيَّنَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمُ الإجْرَامِيَّةَ والشِّرْكِيَّةَ المتَنَوِّعَةَ، الَّتِي يَقُودُهُمْ إِلَيْهَا مِنْ أعِنَّةِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَطَالِبِ نُفُوسِهِمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ، فَجَعَلَهُمْ يُعْرِضُونَ ويَنْصَرِفُونَ عَنِ السَّبِيلِ الْحَقِّ، وهُوَ صِرَاطُ اللهِ المسْتَقِيم، وكَانُوا بِهَـٰذَا مُسْتَبْصِرِينَ، يَعْرِفُونَ سَبِيلَ الْحَقِّ ويَجْحَدُونَهُ، ويَعْرِفُونَ سُبُلَ الْبَاطِلِ والشَّرِّ، ويَتَّبِعُونَهَا فِي مَسِيراتِ حَيَواتِهِمْ.

- ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾: أي: ذوي بَصِيرةٍ عَالِمَةٍ بِمَا هُوَ خَيْرٌ وَمَا هُوَ شَرٌّ، وَمَا هُوَ حَقٌّ ومَا هو بَاطِل، ولَمْ يَكُونُوا جَاهِلِينَ بِمَا دَعَاهُم إِلَيْهِ رُسُلُ رَبِّهِم ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ.

وبهذا أَنْتَهِي مِنْ تدبُّر الدَّرْس الْخَامِسِ من دُرُوسِ سُورة (العنْكبوت).

والحَمْدُ للهِ عَلَى مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِه، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (العنكبوت) الآيتان (٣٩ و٤٠)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

تمهيد:

في آيَتَي هذا الدَّرْسِ ضَرْبُ مَثَلٍ من الَّذِينَ صَبَرُوا في التَّارِيخِ علَىٰ مَا نَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ أذىً، واحْتَسَبُوهُ عِنْدَ اللهِ رَبِّهِمْ ثُمَّ نَصرَهُمُ اللهُ:

والمثَلُ في هذا الدَّرْسِ هو مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، ومَا أَصابَهُ مِنْ أذىً عَلَىٰ أَيْدِي طُغَاة جَبابِرَةٍ، هُمْ:

(١) قارون، وهو إسْرَائيليٌّ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السلام، جَعَلَ نَفْسَهُ خادِماً لْلقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيّ في اضْطِهادِ بَنِي إسْرَائِيل والْبَغْي عَلَيْهِمْ.

(٢) فرعون، حَاكِمُ مِصْرَ الأولُ الجبَّارُ المكابِرُ الْعَنِيد.

(٣) هامَان، الوزيرُ الأوَّل لِفِرْعَوْن في عَهْدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

وقد سبَق فِي نُجومِ التَّنْزيلِ عِدَّةُ بيانات عَنْ هؤلاء الثَّلاثَةِ، فَلَا حَاجَةَ إلى الإعادَة هنا.

التدبّر التَّحْلِيلِيّ:

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأن مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام ومُعَانَاتِهِ في مسيرتِهِ الدَّعوِيَّة لِتَأْدِيَةِ رِسالَةِ رَبِّهِ فِي مصر:

- ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمْ أَيُّها المشرِكونَ المكَذِّبُونَ رسُولَ رَبِّكُمْ مُحَمَّداً ﷺ هـٰؤُلاءِ الْبُغَاةَ الْجَبابِرَةَ الثَّلاثَة:

أَوَّلاً: «قَارُونُ» الَّذِي كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ، فَجَعَلَ نَفْسَهُ خَادِماً مُعِيناً لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْني عَلَىٰ مُوسَىٰ وهَارُون ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ وبني إسْرَائِيل، مُقَابِلَ تَمْكِينِهِ مِنْ تَحْصِيل ثَرْوَةٍ عَظِيمَةٍ، حَتَّىٰ صَارَتْ مَفَاتِيحُ كُنُوزِهِ يَثْقُلُ حَمْلُهَا عَلَىٰ الْعُصْبَةِ مِنْ رِجَالٍ أُولِي قُوَّة، فَبَغَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْتِزَازاً بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ أَمْوَالٍ وَمَكَانَةٍ عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ ومَلَئِهِ.

ثانِياً: «فِرْعَونُ» الَّذِي كَانَ طَاغِيَةً جَبَّاراً عَنِيداً، مُسْتَعْبِداً بَنِي إِسْرَائِيل.

ثالثاً: «هَامَان» الَّذِي كانَ الْوَزِيرَ الْأَوَّلَ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِي فِي عَهْدِ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ، وَكَانَ المنَفِّذَ لِرَغَبَاتِ فِرْعَوْنَ مَهْمَا كَان فيها ظُلْمٌ، وعُدْوانٌ، وإِفْسَادٌ فِي الأَرْضِ، واسْتِعْبادٌ للضّعَفاء.

- ﴿... وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ...﴾: أي: ونُقْسِمُ أَنَّ مُوسَىٰ قَدْ جَاءَهُمْ بالآياتِ الْبَيِّنَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، والإعْجَازِيَّةِ مِنْ خَوارِقِ العادات، وهي الآيَاتُ التِّسْع، ومِنْهَا آيَتَا الْعَصَا والْيَد.

- ﴿... فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾: أي: فَبالَغُوا في كِبْرِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِ الحقّ، والاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ مُوسَىٰ الْبُرْهَانِيَّة، وتَمَادَوْا فِي اضْطِهادِهِمْ مُعْتَزِّينَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوىً قِتَالِيَّةٍ مُتفَوِّقَةٍ، وجُنُودٍ مُدَجَّجِينَ بالأَسْلِحَةِ، فِي عُمُومِ أَرْضِ مِصْرَ التي لهم سُلْطَانٌ عَلَيْهَا.

- ﴿... وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: وَمَا كَانَتْ قُوَاهُمْ مُتَفَوِّقَة فِي الْوَاقِع، حِينَ قَضَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُهْلِكَهُمْ.

مِنْ مَعانِي السَّبْقِ في الْقُرْآنِ، أَنْ يَأْتِي بِمَعْنَىٰ الْقُوَّةِ المتفَوِّقَةِ، ويُحْمَلُ لفظ: ﴿سَٰبِقِينَ﴾ هُنَا عَلَىٰ هذا.

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: فَكُلُّ فَرِيقٍ مِنَ المهْلَكِينَ السَّابِقِينَ قَبَضْنَا عَلَيْهِ قَبضَ إِهْلَاكٍ، بِسَبَبِ ذَنْبِهِ الشَّنِيعِ الَّذِي اقْتَرَفَهُ كُفْراً بالْحَقّ، وَجرائِمَ كُبْرَىٰ.

• ﴿... فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ...﴾: أي: فَمِنْهُمْ مَنْ عَذَّبْنَاهُ وأَهْلَكْنَاهُ بالحاصِب، كَقَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السلام في أَرْضِ سَدُوم.

الحاصِب: الرِّيحُ الَّتِي تَحْمِلُ الترابَ والحصْبَاءَ فَتَضْرِبُ الأشْيَاءَ والأَحْيَاءَ بها.

• ﴿... وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ..﴾: أي: ومِنْهُمْ مَنْ عَذَّبْنَاهُ وأَهْلَكْنَاهُ بالصَّيْحَة، إِذْ قَبَضَتْ عَلَيْهِ قَبْضَ تَعْذِيب وإِهْلَاك.

الصَّيْحَةُ: صَوْتٌ عَظِيمٌ مُهْلِكٌ. وقَدْ أَهْلَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ أقواماً كثيرين بالصَّيْحَة، مِنْهُمْ «ثَمودُ» قومُ النبيِّ الرسُولِ صالحٍ عليه السلام. ومِنْهُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَدْيَنَ قَوْمِ النَّبيِّ الرَّسُول شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السّلام. ومِنْهُمْ أَصْحَاب الْقَرْيَةِ الَّتي جاءَهَا المرسَلُون الثَّلاثَة ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ.

• ﴿... وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ...﴾: أي: ومِنْهُمْ مَنْ عَذَّبْنَاهُ وأَهْلَكْنَاهُ بالْخَسْفِ، فَغَاصَ في الأرْضِ هُوَ ودَارُهُ ومَالُه، وَمِنْهُمْ قَارُون.

• ﴿... وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ ...﴾: أي: ومِنْهُمْ مَنْ عَذَّبْنَاهُ وأَهْلَكْنَاهُ بالإِغْرَاقِ. ومِنْ هـٰذا الْفَرِيق كُفَّارُ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَفِرْعَونُ ومَلَؤُهُ وَجُنُودُهم، على إِثْرِ إنْجَاءِ مُوسَىٰ وهارون عليهما السَّلاَمُ ومَعَهُمَا بَنُو إسْرَائِيل.

• ﴿... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: وَمَا كَانَ ولَا يَكُونُ ولَنْ يَكُونَ مِنْ فِعْلِ اللهِ وَلَا مِنْ صِفَاتِهِ أَنْ يَظْلِمَ أَحداً، لِأَنَّهُ ذُو الْعَدْلِ والْفَضْلِ، فَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَظْلِمَ هَؤُلَاء الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ فِي تَارِيخ النَّاس، بَلْ عَذَّبَهُمْ وأَهْلَكَهُمْ بَعَدْلِهِ مَعَ عَفْوِهِ عَنْ كَثِيرٍ، وهَكَذَا يَفْعَلُ فِي أَمْثَالِهِمْ ضِمْنَ مَجَارِي سُنَنِهِ الثَّابِتَة.

ولَكِنْ كَانُوا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ، ولَا يَظْلِمُونَ فِي اخْتِبَارَاتِهِمْ عَبْرَ رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ غَيْرَ أَنْفُسِهِمْ، فاللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَا يَضُرُّهُ كُفْرُ الكافِرِينَ، وَلَا ظُلْمُ الظَّالِمِينَ، ولَا إجْرَامُ الْمُجْرِمِينَ شَيْئاً، كما لَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُ المؤمِنِينَ، ولَا إحْسَانُ الْمُحْسِنِينَ، ولا تَعَبُّدُ العابدينَ المخْلِصِينَ، وَلَا قُنُوتُ الْقَانِتِينَ لَهُ شيئاً، إِنَّهُ الْغَنِيُّ بذاتِهِ وَبِصفَاتِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِذْ هُوَ الأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ، الواحدُ الأحَدُ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ.

وبهذا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّر الدَّرْس السَّادِس مِنْ دُرُوس سورة (العنكبوتِ).

والحَمْدُ للهِ عَلَى مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١١)

التدبُّر التحليلي للدَّرسِ السابِعِ مِن دُرُوس سورة (العَنكَبوت)

الآيات من (٤١ ـ ٤٤)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(٤١) • قرأ ورش، وأبُو عَمْرو، وحفْص، وأبُو جَعْفَر، ويعقوب: ﴿ٱلْبُيُوتِ﴾، بِضَمِّ الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**الْبِيُوتِ**]، بِكَسْرِ الباء. وهُمَا لُغَتَانِ عَرَبِيتَان.

(٤٢) • قرأ أبو عَمْرو، وعَاصِمٌ، ويَعْقُوب: ﴿يَدْعُونَ﴾، بياء الغائبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**تَدْعُونَ**]، بتاء المخاطبين.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في الْأَدَاءِ الْبَيَانِيّ.

(٤٢) • قرأ قالون، وأبُو عَمْرو، والكِسَائِيُّ، وَأَبُو جَعْفر: [**وَهْوَ**] بإسْكَانِ الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَهُوَ﴾، بضَمّ الهاء.

وهُما لغتان عَرَبيتان. ووقَفَ يَعْقُوبُ بِهَاءِ السّكت.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ بُطْلَانِ الشِّرْكِ الذي كَانَ عَلَيْهِ الْمُعَالَجُونَ في مَكَّة، إبَّانَ نُزُولِ هٰذه السُّورَة.

التدبُّر التحليلي:

- قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

• ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾:

العنكبوت: يَرَىٰ عُلَمَاءُ الأحْيَاءِ أنَّ الْعَنَاكِبَ حَيوانَاتٌ تَختَلِفُ عَنِ الحَشَرَاتِ الّتِي مِنْهَا النَّحلُ والنَّمْلُ والْخَنَافِسُ، فالْعَنَاكِبُ لَهَا ثَمَانِيَةُ أرْجُلٍ، أمَّا الْحَشَراتُ فَلَهَا سِتَّةُ أَرْجل. قَالُوا: وَيُوجَدُ مَا يَقْرُبُ من (٣٠) ألْفَ نَوْعٍ فِي عُمُومِ الْأَرْض، وقَدْ تَصِلُ أنواعُ العناكب إلى (١٠٠) ألفِ نَوْع. وقالوا: لَيْسَ للعناكِب عِظَام، ولَكِنْ زَوَّدَها اللهُ تَبارَكَ وتَعَالَىٰ بِجِلْدٍ صُلْبٍ، وهُوَ بِمَثَابَةِ هَيْكَلٍ خَارجِيٍّ وَاقٍ، ويُغَطِّي أَجْسَامَ الْعَنَاكِبِ الشَّعْرُ والْهُدْبُ والأَشْوَاكُ. ويُوجَدُ فِي العناكِب سَبْعَةُ أنواعٍ مِنْ غُددِ الْحَرِير، وفي الْعَادَةِ لَا يَحْتَوي نَوْعٌ واحِدٌ مِنَ العناكِب كُلَّ أنواعِ غُددِ الْحَرير، لَكِنْ يوجَدُ في كُلِّ نوع من العناكب ما لَا يَقِلُّ عَن ثَلَاثَةِ أنواعٍ من الْغُدَدِ الَّتِي تُفرِزُ خُيُوطَ الْحَرير، ولمُعْظَم الْعَنَاكِب مِنْهَا خَمْسَةُ أنواع، وكُلُّ نَوْعٍ مِنْ هٰذِهِ الْغُددِ يُنْتِجُ مِنَ الْحَرِيرِ نَوْعاً مُخْتَلِفاً عَمَّا تُنْتِجُهُ سَائِرُ أنواعِ الْغُدَد.

قالوا: وَلَا يَذُوبُ حَرِيرُ العنكبُوتِ بِالْمَاءِ، وخَيُوطُهُ هِيَ مِنْ أَقْوىٰ أَلْيَافِ الطَّبِيعَةِ، أقُولُ: فَضَعْفُهَا يَأْتِي مِنْ شِدَّةِ رِقَّتِهَا، ودِقَّةِ حَجْمِ نِقَاطِ التواصُلِ بَيْنَ أَجْزَائِها.

وفِي هٰذِهِ الْآيَةِ ضَرَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَثَلاً لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا

آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، لِيَكُونُوا أَوْلِيَاءَ لَهُمْ يَحْمُونَهُمْ، ويَنْصُرُونَهُم بِقُوًى غَيْبِيَّةٍ يَتَوَهَّمُونَهَا لَهُمْ؛ بِأَنَّ قُوىٰ أَوْلِيَائِهِمْ تُشْبِهُ بَيْتَ العنْكَبُوتِ، الَّذِي تُلْغِي وُجُودَهُ قَشَّةٌ ضَئِيلَةُ الْحَجْمِ ضَعِيفَةُ الْقُوَّة، فَهُمْ وَاهِمُونَ فِي اعْتِمَادِهِمْ عَلَىٰ حِمَايَةِ أَوْلِيَائِهِمْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، والْقُوَىٰ الَّتِي يَنْسُبُونَها إلى أَولِيَائِهِمْ هِيَ مِنْ صِنْفِ خُيُوطِ الْعَنْكَبُوتِ الَّتِي تُفْرِزُهَا غُدَدٌ فيها، فَتَبْنِي مِنْهَا بَيْتَهَا، وَبِهَـٰذِهِ الْخُيُوطِ الَّتِي تَكَادُ أَنْ لَا تُرَىٰ مِنْ شِدَّةِ دِقَّتِهَا، تَصْطَادُ فَرائِسَها مِنَ الْحَشَرات كالذُّبَاب والْبَعُوض.

وأبانَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَنَّ أَضْعَفَ وأَوْهَنَ الْبُيُوتِ الَّتِي تَتَّخِذُها الكائِنَات الحيَّةُ هُوَ بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ، فالَّذِينَ يَتّخِذُونَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللهِ واهِمُونَ، ونَسِيجُهُمُ الْوَهْمِيُّ يُشْبِهُ نَسِيجَ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، إِنْ كانَتْ أَوْهَامُهُمْ ذَاتَ أَسَاسٍ يُمْكِنُ أَنْ تَنْخَدِعَ بِهِ الأَفْكَارُ السَّلِيمَة.

هذا ما ظَهَرَ لي في فَهْم هـٰذا المثَلِ بِصُورَةٍ كُلِّيَّةٍ مُجْمَلَة، دُونَ مُحاوَلَةِ تَطْبِيقِ عَناصِرَ جُزْئِيَّةٍ مِن الممثَّلِ بِهِ عَلَىٰ عَناصِرَ جُزْئِيَّةٍ مِنَ الممثَّل لَهُ.

- ﴿... لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: لَوْ كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقِيقَةَ؛ لَعَلِمُوا أَنَّ اعْتِمَادَهُم عَلى قُوَىٰ أَوْلِيائِهِمْ لِحِمَايَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ وَنَفْعِهِمْ أَوْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُمْ؛ يُسَاوِي اعْتِمَادَهُمْ عَلَىٰ قُوَّةٍ تُسَاوِي قُوَّةَ بَيْتِ العنكبوت، الَّذِي تُلْغِي وُجُودَهُ قُوَّةٌ فِي قَشَّةٍ ضَئِيلَةِ الحجْم ضَعِيفَةِ الْقُوَّة، ولَوْ أَنَّهُمْ عَلِمُوا هَـٰذِهِ الحقيقَةَ لَنَبَذُوا عَقَائِدَهُمُ الشِّرْكِيَّةَ نَبْذَ الْقُشُورِ إلىٰ رُكَامِ الْقُمَامَاتِ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾:

يَدْعُون: أي: يَعْبُدُونَ، ومِنْ عِبادَتِهِمْ لِشُرَكَائِهِمْ أَنَّهُم يَدْعُونَهُمْ سَائِلين، لِيُحَقِّقُوا لَهُمْ مَطَالِبَهُمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ في جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ.

أي: إِنَّ اللهَ الْمُحِيط بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً؛ يَعْلَمُ أَنَّ المشْرِكينَ مَا يَعْبُدُونَ وَلَا يَسْأَلُونَ لمطالِبِهِمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ الَّذِينَ اتَّخذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ شَيْئاً مَا، تُؤَهِّلُهُ صِفَاتُهُ لِجَلْبِ نَفْعٍ لَهُمْ، أَوْ دفعِ ضُرٍّ عَنْهُمْ، إنَّما يَدْعُونَ أَوْهَاماً اصْطَنَعُوهَا افْتِرَاءً عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وجَعَلُوهَا شُرَكَاءَ للهِ رَبِّهِمْ وَرَبِّ الْعَالَمِين.

- ﴿... وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾: **الْعَزِيزُ**: أي: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ الَّتي يُعْدِمُ بِهَا كُلَّ قُوَّةٍ إذَ شَاءَ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ «كُنْ».

الْحَكِيم: أي: ذُو الْحِكْمَة الْبَالِغَةِ الغايَة، وهو الّذِي يَضَعُ الأشْيَاءَ فِي مَوَاضِعَها عَلَىٰ أحْسَنِ وَجْهٍ وأَكْمَلِهِ، وهو الَّذِي يَخْتَارُ أفْضَلَ المخْتَارَاتِ وأتْقَنَهَا وأَحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ المختَلِفَةِ، لِمَا يُعْطِي أَحْسَن النَّتَائِجِ وَيُحَقِّقُ أفْضَلَ الْعَمَل.

- ■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِضَمِيرِ المَتكَلِّمِ العظيم:

- ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: وَتِلْكَ الأمْثَالُ السَّامِيَةُ فِي أُسْلُوبِهَا وَدَلَالَاتِهَا وما تُقَدِّمُهُ لِلْأَذْهَانِ السَّلِيمَةِ، والْقُلُوبِ الْوَاعِيَةِ، مِنْ هِدَايَةٍ عُظْمَىٰ؛ نَتَّخِذُهَا وَسِيلَةَ بَيَانٍ لِلنَّاسِ مِنْ أَجْلِ إِقْنَاعِهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ لِلْحَقِّ، وإِقْنَاعِ أذْواقِهِمُ الْأَدَبِيَّةِ بِمَا تَحْتَوِيهِ مِنْ جَمَالٍ أَدَبِيٍّ.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾: أي: وَمَا يَفْهَمُ دَلَالَاتِهَا إِلَّا ذَوُو الْفِكْرِ الدَّرَّاكِ لِدَقَائِقِ الْمعَارِفِ، وَمَا يُمْسِكُ بِهَا ثُمَّ يَرْبِطُهَا في مَرَابِطِهَا مِنْ أَجْهِزَةِ المعْرِفَةِ الرَّاسِخَة:

- ﴿... إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْحَرِيصُونَ عَلَىٰ الوصُولِ إِلَىٰ حقَائِقِ الْعِلْمِ، والاحْتِفَاظِ بِهَا في مَرَاكِزِ المعْرِفَةِ الثَّابِتَةِ لَدَيْهِمْ، والانْتِفَاعِ بِهَا فِي عَقَائِدِهِمْ وأنواعِ سُلُوكِهِمْ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: خَلَقَ اللهُ السَّمَاواتِ والأَرْضَ مُتَّصِفاً خَلْقُهُ لَهُمَا بالْحَقِّ، فَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهُمَا مَهْمَا كَانَ صَغِيراً هُوَ حَقٌّ ثَابِتٌ لَا وَهْمَ يَكْتَنِفُهُ، ولَا بَاطِلَ يَدْخُلُ فِيهِ، وفي كُلِّ شيءٍ خَلَقَ اللهُ فِي كَوْنِهِ آيَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ ذَاتِهِ وصِفَاتِهِ، وهَـٰذا حَقٌّ، وَمَا خَلَقَ اللهُ الجِنَّ والإِنْسَ بِصِفَاتِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا إِلَّا لِيَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، ثُمَّ لِيَجْزِيَهُمْ عَلَىٰ وفْقِ أَعْمَالِهِمْ. وظاهِرٌ أنَّ الْخَلْقَ لِتَحْقِيقِ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ الْعَظِيمَةِ خَلْقٌ مُتَصِفٌ بالْحَقِّ، وَلَوْلَا تَحْقِيقُ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ السَّامِيَةِ لَكَانَ خَلْقُ الجِنِّ والإِنْسِ عملاً بَاطِلاً⁽¹⁾.

- ﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾: أَيْ: إِنَّ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيم، وهُو أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْض بالْحَقّ؛ لَآيَةً عظيمَةً كُبْرَىٰ لِلَّذِين هُمْ مُسْتَعِدونَ لِأَنْ يَعْلَمُوا الحقَّ بالتَّفكُّرِ، ولِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، ثُمَّ يَعْمَلُوا فِي حَيَواتِهِمْ بِمُقْتَضَىٰ إيمانِهِمْ.

وبهذا أَنْتَهي من تَدَبُّرِ الدَّرْس السّابِعِ من دُروس سورة (العنكَبُوت).

والحمْدُ للهِ عَلَى مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

---

(١) انظر تتمة هذا البيان التحليلي لدىٰ تدبُّر الآية (٧٣) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول).

(١٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (العنكبوت)

الآيات من (٤٥ ـ ٥٥)

قال اللهُ عزَّ وجل:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ۩ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)﴾:

القراءات:

(٥٠) ● قرأ ابن كثير، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[آيَةٌ]**، بالإفراد. وكُلٌّ علىٰ أَصْلِهِ وقفاً.

وقرأها باقي القُرَّاءِ العشرة: **[آياتٌ]** بالجمع.

(٥١) ● قرأ رُوَيْس: **[أَوَلَمْ يَكْفِهُمْ]** بِضَمِّ الهاء.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: **[أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ]** بِكَسْرِ الهاء.

ضَمُّ الهاء وكَسْرُها لُغَتَان.

(٥١) ● قرأ حمزة، ويعقوبُ: **[عَلَيْهُمْ]** بِضَمِّ الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[عَلَيْهِمْ]** بِكَسْرِ الهاء، وهما لغتان.

(٥٥) ● قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[وَيَقُولُ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَنَقُولُ]**، بِنُونِ المتكلِّم العظيم.

تمهيد:

في آيات هٰذا الدَّرسِ وَصَايا وتوجيهاتٌ للرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِه.

وفيها تَمْهِيدٌ لِمُعَالَجَةِ أَهْلِ الكِتَابِ الْمُرْتَقَبَةِ بَعْدَ الهجرَة، إِذْ قَدِ اقْتَرَبَ مَوْعِدُها فِي عِلْمِ اللهِ.

وفيها بياناتٌ بِشَأْنِ المشْرِكِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ مَواقِفِهِمُ الكُفْرِيَّة.

وفيها الرَّدُّ علىٰ بعضِ مطالبِ المشْرِكِينَ التَّعَنُّتِيَّةِ العنادية.

التدبُّر التَّحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله محمَّد ﷺ:

● ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: انْطِقْ بِلِسَانِكَ مِنْ حِفْظِكَ في ذاكِرَتِكَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ من الكتابِ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ يا مُحَمَّد.

تَلَا، يَتْلُو: أي: تبع يتْبَعُ، واسْتُعْمِل بمَعْنىٰ النُّطْقِ بالْقُرْآنِ كما أنزلَه الله. أمَّا القراءةُ فهي النطقُ بالمطلوب مع متابعة النظر إليه.

- ﴿. . . وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ . . .﴾:

الْمُرَاد بإقَامَةِ الصَّلَاةِ المداوِمَةُ والْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا فِي أَوْقَاتِهَا، وَأَدَاؤُهَا عَلىٰ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ المطلُوبِ فيها، وبهٰذا تَكُونُ مُسْتَقِيمَةً، وهٰذا البيان مُوجَّهٌ لكل مُسْلِمٍ.

وأَمَّا كَوْنُ الصَّلَاةِ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ والمنْكَر؛ فَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّ فِيهَا مِنَ التِّلَاوَاتِ والأَذْكَارِ، ومُرَاقَبَةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ مَا يَتَضَمَّنُ نَحْوَ عِبَارَة: لَا تَعْصِ رَبَّكَ يا مَنْ تُصَلِّي لَهُ، فَلَا تَرْتَكِبِ الْفَحْشَاء، وَلَا تَفْعَلِ المنكر، وقَدْ نَهَاكَ اللهُ رَبُّكَ عَنْهُمَا.

الْفَحْشَاء: كُلُّ قبيح تجاوَزَ حَدَّ مَا يُحْتَمَلُ ويُغْضَىٰ عَنْهُ عَادَةً مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْل، وهٰذِهِ المادَّةُ مُخَصَّصَةٌ غالباً فِي الاسْتِعْمَالَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ بالكَبَائِرِ المتَعَلِّقَةِ بِشَهَوَاتِ الْفُروجِ.

الْمُنْكَر: كُلُّ قَبِيحٍ يُنْكِرهُ الشَّرْعُ، ويَنْهَىٰ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم.

ولَيْسَ المعْنَىٰ أَنَّ الصَّلَاةَ تَجعَلُ الْمُصَلِّيَ يَجْتَنِبُ فِي سُلُوكِهِ الْفَحْشَاءَ وَلَا يَفْعَلُ المنْكَرَ، فَلَيْسَ هـٰذَا مِمّا يَقْتَضِيهِ النَّهْيُ ولا مِنْ لَوَازِمِهِ. إنَّ النَّهي عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ مَوْجُودٌ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ، وفي أحادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، ولَكِنَّ الانْتِهَاءَ عَنِ الْفَحْشَاءِ والمنكَرِ سُلُوكٌ اخْتِيَارِيٌّ مِنَ الإِنْسَانِ المؤمِنِ الْمُسْلِمِ، فإِنْ شَاءَ اسْتَجَابَ لِلْمَطْلُوبِ بِالنَّهْي، وإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَسْتَجِبْ.

ولهـٰذا نُلَاحِظُ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْمُصَلِّينَ يَرْتَكِبُونَ الكَبَائِرَ مِنَ الْفَوَاحِشِ، ويَفْعَلُونَ الكَبَائِرَ مِنَ المنْكَرَاتِ، دُونَ أَنْ تَجعَلَهُمْ صَلَوَاتُهُمْ يَجْتَنِبُونَها.

- ﴿. . . وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ . . .﴾: أي: واعْلَمْ مُتَأَكِّداً أَيُّها

المتلَقِّي لبيَانَاتِ رَبِّكَ؛ أَنَّ ذِكْرَ اللهِ بالْفِكْرِ والْقَلْبِ ويَحْسُنُ مَعَهُ ذِكْرُ اللهِ باللِّسَانِ؛ ذُو أَثَرٍ أَكْبَرَ في النَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ والمنْكرِ، ولَا سِيمَا إِذَا كَانَ هـٰذا الذِّكْرُ كَثِيرَ الدَّوَامِ آنَاءَ اللَّيلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ.

لَكِنَّ هـٰذَا الذِّكْرَ لَا يُغْنِي عَنِ الصَّلَواتِ المطْلُوبَةِ ولَا يَقُومُ مَقَامَهَا، وإِنَّما هُوَ مَطْلُوبٌ تَرْغِيباً فِي كلّ حَالَاتِ الْوَعْيِ الإنْسَانِيِّ، ولَا سِيما مَا وَرَدَ مِنْهُ فِي أَقْوَالِ الرَّسُولِ ﷺ وفي أَفْعَالِهِ.

- ﴿... وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

فِي هـٰذَا الخِتَامِ لِهـٰذِهِ الآيَةِ؛ رَبْطٌ بِعُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ، وَهُوَ عِلْمُ اللهِ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُهُ مِنْ صَالِحَاتٍ وغَيْرِ صَالِحَاتٍ، وبِنَاءً عَلَىٰ عِلْمِهِ بِمَا يَصْنَعُونَ يُحَاسِبُهُمْ، ويَحْكُمُ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَجْزِيهِمْ بِحَسَبِ مَا كَسَبُوا أَو اكْتَسَبُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

الصُّنْع: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ فِعْلٍ، وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَىٰ فِعْلٍ ذي أَثَرٍ مَادِّيٍّ مَشْهُودٍ، كَصُنْعِ السَّفِينَةِ، وبناءِ الْحُصُونِ وخَزَّانَاتِ المياه، ونَحْوِها.

وهـٰذا الختامُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ البيانَ في الآيَةِ مُوجَّهٌ لِعُمُومِ المكلّفِين، باسْتِثْنَاء عبارة: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فَهِي خَاصَّةٌ بالرَّسُولِ ﷺ، لَكِنْ يُفْهَمُ مِنْهَا عِبَارَةٌ مُوجَّهَةٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ، وهي: «اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَىٰ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْكِتَاب».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ جميعاً:

- ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

المجادلة: المحاوَرَةُ، والمناظَرَةُ، والمخاصَمَةُ بالأقوال، وأصل

المجادَلَةِ المصارِعَة، يُقَالُ: «جَادَلَهُ، فَجدَلَهُ» أي: غالَبَهُ وصارَعَهُ فَصَرَعَهُ وغَلَبَهُ، ثُمّ أُطْلِقَتْ علىٰ المخاصَمَةِ الكَلَامِيَّة، وعَلَىٰ الحِوار حول فِكْرَةٍ لإِثْبَاتِها أو رَفْضِها، ويُمْكِنُ تَعْرِيف الْجِدَالِ بما يلي:

هُو حِوارٌ كَلَامِيٌّ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ يَتَفَهَّمُ فِيهِ كُلٌّ مِنْهُمَا وِجْهَةَ نَظَر مُحَاوِرِه، وَيَعْرِضُ فِيهِ كُلٌّ مِنْهُمَا أَدِلَّتَهُ الَّتِي رَجَّحَتْ لَدَيْهِ اسْتِمْسَاكَهُ بِوِجْهَةِ نَظَرِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِتَبَصُّرِ الحقيقَةِ مِنْ خِلَالِ الْبَيَانَاتِ الَّتِي يُوَجِّهُهَا مُحَاوِرُه.

وهَدَفُ المجادَلَةِ هُوَ في الأَصْلِ؛ تَعَاوُنُ الْفَرِيقَيْنِ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ الَّتِي يَجْرِي حَوْلَهَا الْحِوَار، بِتَبْصِيرِ كُلٌّ مِنْهُمَا مُحَاوِرَهُ بالأماكِنِ المظْلِمَةِ عَلَيْهِ، أَوْ تَبْصِيرِ الْوَاقِفِ عَلَىٰ الحقيقَةِ قَطْعاً مُحَاوِرَه بِمَا هُوَ خَافٍ عَلَيْهِ، والأَخْذِ بِيَدِهِ فِي طُرُقِ الاسْتِدْلَالِ الصَّحِيحِ لإِبْلَاغِهِ وَجْهَ الْحَقِّ المشْرِقِ، وذَلكَ باسْتِخْدَام الْحِوَارِ الْبَرِيءِ مِنَ التَّعَصُّبِ، الْخَالِي مِنَ الْعُنْفِ والانْفِعَالِ، والمتَمَشِّي وَفْقَ الأُصُولِ الْعَامَّةِ لِلْحِوَارِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ الوصُولُ إلىٰ الحقيقة دُونَ تَعَصُّبٍ ولَا أَنَانِيَّة.

ولَمَّا كَانَ الْجِدَالُ فِي الواقِعِ الإنْسَانِيِّ مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ لِنَشْرِ الأَفْكَارِ والإِقْنَاعِ بِهَا، وكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً، وَكَانَ الْجِدَالُ سِلَاحَهُ لِلدِّفَاعِ عَنْ أَفْكَارِه؛ فَقَدْ أَمَرَ الإِسْلَامُ بِهِ للدِّفَاعِ عَنِ الحقِّ الإِسْلَامِيِّ، مَشْرُوطاً بأَنْ يَكُونَ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

وقد جَاءَ هَـٰذَا البيانُ فِي أَوَاخِرِ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ، تَوْطِئَةً لِمَا سَيَجْرِي فِي الْمَرْحَلَةِ الْمَدَنِيَّةِ الْقَادِمَةِ الْقَرِيبَةِ فِي عِلْمِ اللهِ مِنْ حَاجَةٍ إلىٰ الْمُجادَلَةِ مَعَ أَهْلِ الكِتَابِ وَلَا سِيمَا الْيَهُودُ مِنْهُمْ، إِذْ لِبَعْضِ قَبَائِلِهِمْ وَجُودٌ وافِدٌ إِلَيْهَا مُنْذُ قُرُون.

وقَدِ اسْتَخْدَمَ الرُّسُلُ ـ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ وَسِيلَةَ المجادَلَةِ، لإِقْنَاعِ المشْرِكِينَ وسَائِرِ الكَفَرَةِ بالحقِّ الَّذِي أُرْسِلُوا بِهِ مِنْ عِنْدِ الله رَبِّ العالَمِينَ.

فَقَدْ آتىٰ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفَساً طَوِيلاً فِي مُجادَلَةِ الكافِرِينَ مِنْ قَوْمِهِ، لإقْناعِهِمْ بالحقّ الّذِي جاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، حَتَّىٰ سَاءَتْهُمْ كَثْرَةُ مُجادَلَتِهِ لَهُمْ، دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعُوا غَلَبَتَهُ فِي المجادَلَةِ، فَقَالُوا لَهُ مَا جَاءَ بَيَانُهُ في سُورَة (هود/ ٥٢ نزول) بِقولِ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

وآتىٰ اللهُ ـ عَزَّ وَجلَّ ـ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُوَّةَ حُجَّةٍ، وَقُدْرَةً عَلَىٰ الجدَالِ للإِلْزَام بالْحَقِّ، وهـٰذا مَا كَشَفَتْهُ لَنا بَعْضُ جَدَلِيَّاتِهِ الَّتِي قَصَّ اللهُ في الْقُرْآنِ نَمَاذِجَ مِنْها، وأثْنَىٰ اللهُ ـ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ ـ علَىٰ قُوَّةِ حُجَّتِهِ الَّتِي آتاهُ إِيَّاها، فَقَالَ عزَّ وجَلَّ في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

وفي قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الموزّعَةِ في عَدَدٍ مِنْ سُوَرِ القرآن بَيَانٌ مُوجَزٌ عَنْ بَعْضِ جَدَلِيَّاتِهِ، مع الآيَاتِ الباهراتِ المعجِزَاتِ الَّتِي آتاهُ اللهُ إِيَّاها.

وكَانَ لِسَائِرِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَدَلِيَّاتٌ مَعَ أقوامِهِم لإِقْنَاعِهِمْ بالحقِّ الرَّبَّانِيِّ، ونَبْذِ مَا هُمْ يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ كُفْرٍ وشِرْكِيَّاتٍ، ونَبْذِ مَا يَعْمَلُونَه مِنْ جَرَائِمَ ومُنْكَرَاتٍ، وقَبَائِحَ وظُلْمٍ وعُدْوانٍ وإفْسَادٍ في الأرض.

ففي قَوْلِ اللهِ تَعالَىٰ خطاباً للرَّسُولِ ﷺ ولِلْمُؤْمنِينَ:

- ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ . . .﴾:

دَعْوَةٌ إلَىٰ مُجادَلَتِهِم لإِقْنَاعِهِمْ بالحقِّ وإقامَةِ الحجَّةِ عليهم، مجادَلَةً مَقْصُورَةً عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، باسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، إذْ لَا مَانِعَ مِنْ مُخاشَنَتِهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِمِثْلِ طَرِيقَتِهِمْ.

فإذا سَلَكَ المخالِفُونَ الْمُجادِلُونَ مَسالِكَ غَيْرَ مُهَذَّبَةِ الْقَوْلِ فَعَلَىٰ المؤمِنِينَ أَنْ يَتَقَيَّدُوا بِكُلِّ قَوْلٍ مُهذَّبٍ. وإذَا صَارُوا يُجادِلُونَ بالْبَاطِلِ فَعَلَىٰ المؤمِنِينَ أَنْ يُجادِلُوا بالْحَقِّ، فالْحَقُّ الرَّبَّانِيُّ يَجبُ أَنْ يُنْصَرَ بالْحَقِّ لا بالباطل. وإذَا قَدَّمَ المخَالِفُونَ حُجَجاً كَاذِبَةً؛ فَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَدِّمُوا حُجَجاً صَادِقَةً. وإذَا اتَّخَذَ المخالِفُونَ أُسْلُوبَ الْمُغَالَطَة؛ فَعَلَىٰ المؤمِنِينَ أَنْ يُقَدِّمُوا نِظَامَ المناظَرَةِ السَّوِيَّةِ السَّلِيمَة. وإذا انْتَقَلَ الْمُخَالِفُونَ مِنَ الْمَوْضُوعِ الّذِي تَجْرِي المناظَرَةُ فِيهِ إلَىٰ غَيْرِهِ كانْتِقَالِهِمْ مِنَ الأُصُولِ إلَىٰ الْفُرُوعِ؛ فَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَرُدُّوهُمْ إلَىٰ نُقْطَةِ الموضوعِ الَّذِي تَجْرِي المجادَلَةُ فِيه.

واحْتِمَالاتُ الْخُروجِ عَمَّا يَجِبُ الالْتِزَامُ بِهِ فِي المجادَلَةِ كثيرَةٌ جدّاً، ويَصْعُبُ اسْتِقْصَاؤُهَا، وكُلُّهَا خُرُوجٌ عمَّا يَجِبُ عَلَىٰ المؤمِنِ أَنْ يَتَقَيَّدَ بِهِ، وهُوَ الْجِدَالُ بِالَّتِي أَحْسَنُ، أي: الْجِدَالُ بالْقَضِيَّةِ والْفِكْرَةِ والطَّرِيقَةِ الَّتِي هِي أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الاحْتِمَالات، إنَّ المؤمِنَ مَطْلُوبٌ مِنْهُ أَنْ يَخْتَارَ الأَحْسَنَ دَواماً فِي حِوَارِه ومُجَادَلاتِهِ وفي أَدِلَّتِهِ لِلإِقْنَاعِ بالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ.

وَلَمَّا كَانَ الْبَيَانُ فِي الآيَةِ مُتَعلِّقاً بِمُجادَلَةِ أَهْلِ الكِتَاب؛ كانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُرْشِدَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ المؤمِنِين إلَىٰ أَنْ يُعْلِنُوا لَهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ سَابِقاً إِلَيْهِمْ، مِمَّا لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ تَحْرِيفٌ وَلَا تَبْدِيل، كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ـ عزَّ وَجلّ ـ عَلَىٰ رَسُولِهِ محمّد خاتم الأنبياء والمرسَلِينَ صَلَّىٰ اللهُ وسلم عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَأَنْ يُعْلِنُوا لَهُمْ أَنَّ الإلَـٰهَ الَّذي جَاءَ الأَمْرُ بِعِبَادَتِهِ فِيمَا أُنزِلَ إِلَيهِمْ هُو الإلَـٰهُ نَفْسُهُ الّذِي جاءَ في الإسلام الأَمْرُ بِعِبادَتِهِ، إِذْ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لا يُعْبَدُ في الوجودِ سِوَاه، فقال اللهُ تَعالَىٰ في الآيَة خِطاباً لِلْمُؤْمِنِين:

● ﴿... وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾:

أي: ونَحْنُ لَهُ وَحْدَهُ مُسْلِمُونَ مُنْقَادُونَ مُطِيعُونَ، ولَسْنَا عُبَّادَ ذَوِي رِئَاسَاتٍ دِينِيَّةٍ، ولَا عُبَّادَ أنْبِيَاءِ ومُرْسَلِينَ، فَهـٰؤُلَاءِ كُلُّهُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا، مُطَالَبُونَ بِأَنْ يَعْبُدُوا اللهَ رَبَّهُمْ، ولَا يُشْرِكُوا بِهِ أحداً، ولَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ بضَمِير المتكلّم العَظِيم:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ...﴾: أي: ومِثْلَ ذَلِكَ الإنْزَالِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إلَىٰ رُسُلِ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ قَبْلِكَ؛ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ قِسْماً مِنَ الكِتَابِ الَّذِي هُوَ الْقُرْآن، وَقَدَّرْنَا وَقَضَيْنَا أَنْ نُنْزِلَ إِلَيْكَ سَائِرَهُ لِتُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ أَجَلُ بَقَائِكَ فِي الحياةِ الدُّنْيا.

• ﴿... فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ...﴾: أي: فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ وَأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمُ الصَّادِقِين؛ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِهِ تَصْدِيقاً لِمَا أَخْبَرْنَاهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّنَا سَنَبْعَثُكَ وسَنُنْزِلُ إِلَيْكَ كِتاباً هُوَ آخِرُ كُتُبِنَا لِلنَّاسِ.

• ﴿... وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ...﴾: أي: وبَعْضُ هـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ السَّابِقِ مَنْ سَيُؤْمِنُ بِهِ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَام، وهُم من المنتَمِينَ إلَىٰ رُسُلِهِمْ مِنْ بَعْدِ بَعْثَتِكَ يا مُحَمَّد.

• ﴿... وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: وبَعْضُ الَّذِين يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ السَّابِقِ مُنْتَمِينَ إِلَيْهِ سَيَجْحَدُونَ بآيَاتِنَا البيانِيَّةِ في القرآنِ، مَعَ اسْتِيقَانِهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ بأَنَّهَا آيَاتٌ مُنَزَّلَاتٌ مِنْ لَدُنَّا، لَكِنَّهُمْ يَسْتُرُونَ أَدِلَّةَ كَوْنِهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ مُعْجِزَاتٍ مُنَزَّلَاتٍ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، فَهُمْ

كَافِرُونَ يَسْتُرُونَ الْحَقَّ بِزُيُوفِ الأَقْوَالِ الإِيهَامِيَّة، وزُخْرُفِ الأَفْكَارِ الْخِدَاعِيَّة، اتِّبَاعاً لأهوائهم، وتَعَصُّباً لِتَقَالِيدِهِمُ الْعَمْيَاءِ، ولأَنَّ لَهُمْ مَصَالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ مِنَ التَّحْرِيفَاتِ الَّتِي أُدْخِلَتْ في الكِتَابِ المُنَزَّلِ إِلَيْهِمْ، وفي البَيَانَاتِ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهَا رُسُلُهُمْ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ.

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾: أيْ: وَمَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ قَارِئاً وَلَا كَاتِباً طَوَالَ حَيَاتِكَ قَبْلَ أَنْ نُنزِلَ إِلَيْكَ الْقُرْآنَ وبَعْدَهُ، فَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ مَا مِنَ الكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا إِلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، وَهَـٰذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ كُلُّ الَّذِينَ عَاصَرُوكَ قَبْلَ بِعْثَتِكَ وبعدها، ومَا كُنْتَ تَخُطُّ كِتَاباً مَا بِيَمِينِكَ، ولَوْ كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِ إِنْزَالِ الْقُرآنِ إِلَيْكَ كِتَاباً ما، أَوْ تَكْتُبُ بِيَمِينِكَ كِتَاباً ما؛ لارْتَابَ الْمُبْطِلُون فِي كَوْن الْقُرْآن الذِي نُتَابع إِنْزَالَه إِلَيْكَ كِتَاباً مِنْ لَدُنَّا، ولأَذَاعُوا بَيْنَ مَنْ يَتَأَثَّرُونَ بِهِمْ أَنَّكَ نَقَلْتَهُ مِنْ مَحفُوظَاتِكَ مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، أَوْ نَقَلْتَهُ مِنْ مَخْطُوطَاتِ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، بِكِتَابَةٍ أَنْتَ تَكْتُبُهَا بِيَمِينِكَ.

جَاءَ التعبير: [**بِيَمِينِك**] إِذْ كان مِنَ المعْلُوم لِلْجَمِيع أَنَّ الرَّسُول ﷺ قد كَانَ أَيْمَنَ ولَمْ يَكُنْ أَعْسَرَ، مَعَ تَفْضِيلِ اسْتِعْمَالِ الْيَمِينِ في الكتابة وغيرها.

الْجُحُود: إِنْكَارُ الْحَقِّ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ حَقّ، **فالجاحِدُ**: هو المنكِرُ ظُلْماً وعُدْوَاناً.

المبْطِلُونَ: هُمْ أَصْحَابُ الْهَوَىٰ فِي اخْتِيَارِ الباطِلِ ونَبْذِ الْحَقِّ، والراغبونَ الْحَرِيصُونَ عَلَىٰ اخْتِيَارِ الْبَاطِلِ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَواتِهِمْ.

ومَا قَبْلَ [**إذاً**] الْفُجَائِيَّةِ كَلَامٌ مَطْوِيٌّ يُمْكِنُ تَقْدِيرُهُ بِمَا يَلِي: ولَوْ كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ، أَوْ تَخُطُّ بيمينِكَ مِنْ كِتَابٍ؛ إِذاً لَارْتَابَ المبطِلُونَ.

«مِنْ» في [مِنْ كِتَابٍ] مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْيِ واسْتِغْرَاقِهِ كُلَّ الكُتُبِ.

• ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: لَيسَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ مَا يَتوَهَّمُ المبْطِلُونَ، مِنْ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ علىٰ اصْطِنَاعِ الْحُجج المزَيَّفَةِ للإقْناعِ بأنَّهُ عَمَلٌ بَشَرِيٌّ، ولَيْسَ تَنْزِيلاً ـ بِزَعْمِهِمْ ـ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ وَاضِحَاتٌ، فِيهَا مِنَ الحقِّ والإعْجَازِ البيانيِّ وغيرِهِ ما يَدُلُّ علَىٰ أَنَّهُ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وهَـٰذَا مَا جَعَلَ كَثِيراً مِن الّذِين أُوتُوا حُبَّ الْعِلْم، والرَّغْبَةَ فِي تَحْصِيلِهِ؛ يَحفَظُونَهُ في صُدُورِهِمْ، أي: في أَوَّلِ مُسْتَوىً مِنَ الْعُمْقِ فِيهِمْ، فَمَا هُوَ أَعْمَقُ مِنْهُ، إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَأَفْئِدَتِهِمْ⁽¹⁾.

• ﴿... وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: وَمَا يُنْكِرُ آيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ الواضِحَاتِ المشْتَمِلَاتِ علىٰ كَثِيرٍ من وُجُوهِ الإعجازِ، والدَّالَّاتِ عَلَىٰ الحقِّ؛ إِلَّا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ أَدِلَّةَ كَوْنِهَا مُنَزَّلَاتٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وهُمُ الظَّالِمُونَ بِجُحُودِهِمْ وَافْتِرَاءَاتِهِمُ التَّضْلِيلِيَّة، وَحِيَلِ أَقْوَالِهِمُ الزُّخْرُفِيَّةِ الإيهامِيَّة.

الظُّلْم: تجاوُزُ الْحدِّ، وَوَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْمُعَانِدِينَ المتَعَنِّتِّينَ مِنْ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفرِ فِي مَكَّةَ، وَمَا يُطَالِبُونَ بِهِ مِنْ مَطَالِبَ تَعَنُّتِيَّةٍ حَوْلَ آيَاتِ خَوارِقَ، كَعَصَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وإِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام:

• ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ

---

(١) راجع بحث النفس في كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» لكاتب هـٰذا التدبُّر.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

• ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ـ وفي القراءة الأخرىٰ: [آيَةٌ] بالإفراد، وهَـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ طَالَبُوا مَرَّةً بِآيَةٍ، فَلَمَّا ذُكِّرُوا بآيَةِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ قَالُوا: [آيَاتٌ]: أي: آيَاتٌ خَوارِقُ كُبْرَىٰ.

[لَوْلَا]: أي: هَلَّا، فَهِي أَدَاةُ تَحْضِيض.

إِنَّهُمْ كَرَّرُوا مَا سَبَقَ أَنْ طَالَبُوا بِهِ، ومِنْهُ مَا جَاءَ في سورة (طه/ ٤٥ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ... ﴿١٣٣﴾﴾.

ومِنْهُ مَا جَاءَ في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾.

فَعَلَّمَ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ أَنْ يَقُول لهم:

• ﴿... قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّ الرَّسُولَ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يُجْرِي الآيَاتِ الخوارِق، مَا الآيَاتُ الْخَوارِقُ المعْجِزَةُ إِلَّا عِنْدَ اللهِ، وَهُوَ الَّذِي إِنْ شَاءَ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُجْرِيَها لِرَسُولِهِ أَجْرَاهَا، إِنَّهُ هو الْعَلِيمُ بِحَاجَةِ الْقَوْمِ إِلَىٰ إِجْرَاءِ الْمُعْجِزَةِ، أَوْ عَدَمِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا، لأَنَّهُمْ مُوقِنُونَ فِي قُلُوبِهِمْ بِصِدْقِ رَسُولِهِمْ، وصِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ.

وقُلْ لَهُمْ أَيْضاً: وَمَا أَنَا بالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ ومَا تَتَّصِفُونَ بِهِ مِنْ جُحُودٍ بالْحَقِّ، وَمُعَانَدَةٍ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِمَا يَهْدِيكُمْ إِلَىٰ نَجَاتِكُمْ وسَعَادَتِكُمْ؛ إِلَّا

مُنْذِرٌ لَكُم بِعَذَاب اللهِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ احْتِمَالِ تَعْذِيبكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِهْلاكِكُمْ إِهْلاكَ اسْتِئْصَالٍ أَو إِهْلاكَ انْتِقَاءِ جَبابِرَتِكُمْ، وأَئِمَّةِ الضَّلالِ فِيكُمْ.

وَقَالَ اللهُ ـ عَزَّ وجلَّ ـ لِرَسُولِهِ ﷺ مُخَاطِباً، وَلْلمُعَانِدِينَ المتَعَنِّتِين بأسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبين، ومُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

- ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: أَنْطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ، وعُطِّلَتْ عُقُولُهُمْ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقِّ المنَزَّلِ مِنْ لَدُنْ رَبِّهِمْ، ولَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا بعظَمَتِنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ الكِتَابَ القُرآن مُعْجِزاً، لِتَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ تَكْلِيفاً إِلْزَامِيّاً مِنْ عِنْدِنَا، فَهُوَ يُتْلَىٰ عَلَيهِمْ مِنْ قِبَلِكَ وَمِنْ قِبَلِ بَعْضِ الَّذِينَ آمَنُوا بكَ واتَّبَعُوكَ وقامُوا بِرِسَالَةِ التَّبْلِيغ، وهُوَ كِتَابٌ مُعْجِزٌ تَحَدَّيناهُمْ بأنْ يأْتُوا بِمِثْلِهِ أَو بِمِثْلِ عشر سُوَرٍ قِصَارٍ مِنْهُ، أو بمثل سورةٍ منه، فَعَجزُوا؟.

- ﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ...﴾: أي: إِنَّ فِي إِنْزَالِ القرآنِ عَلَيْكَ لِيُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ:

- ﴿... لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾: أي: لَرَحْمَةً بِهِمْ، إِذْ جَاءَتْهُمُ الْهِدَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تُتلَىٰ عَلَيْهِمْ دُونَ أَنْ يَكدُّوا فِي الوصُولِ إِلَيْهَا وَالْحُصُولِ عَلَيْها، وهِيَ بِلُغَتِهِمْ يَتَخَاطَبُونَ بِهَا، وهـٰذِهِ الْهِدَايَةُ الرَّبَّانِيَّة تُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِذَا آمَنُوا بِهَا، وعَمِلُوا بِمَا جَاءَ فِيها مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهٍ، وتَجْعَلُهُمْ فِي عَافِيَةٍ مِنْ شَقَاءِ الدُّنْيَا، وَيَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ وعَمَلِهِمْ بِمُقْتَضَاهَا، خُلُوداً فِي جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ.

[وذِكْرَىٰ]: **الذِّكْرَىٰ**: اسْمٌ لِلتَّذْكِير، وتَأْتي لِلتَّذْكِرَة، «وَهِي الوَسِيلَةُ المذَكِّرَة». وَلَمَّا كَانَ المطْلُوبُ مِنَ المؤمِنِينَ أَنْ يَكْتُبُوا الْقُرْآنَ فِي المصاحِفِ؛ فإنَّ وُجُودَ هـٰذا الكِتَابِ فِي أَيْدِي النَّاسِ، مَكْتُوباً مَحفُوظاً مِنَ

التَّغْيِيرِ والتَّبْدِيلِ؛ وَسِيلَةٌ مُذَكِّرَةٌ بِخِطَابِ اللهِ لَهُمْ، كُلَّمَا رَجعُوا إلَيْهِ قَارِئِينَ لآيَاتِهِ فِي المصاحِف.

فَهُو إِذَنْ أَثَرُ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ بِهِمْ، وهُوَ ذِكْرَىٰ.

- ﴿... لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾: أي: هُوَ رَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْم لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ والرَّغْبَةُ فِي أَنْ يَعْلَمُوا الحقَّ المنَزَّلَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وفي أَنْ يُؤْمِنُوا به، والإِيْمَانُ هُوَ الْبَاعِثُ الأَعْظَمُ لِلْعَمَلِ بِمَا آمَنَ بِهِ الإِنْسَانُ الْعَاقِلُ السَّوِيُّ.

وعَلَّمَ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ رسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ أَيْضاً:

- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ... ۝٥٢﴾:

أي: أَنْذِرْهُمْ بأَنَّ اللهَ سَيُجَازِيهِمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﷺ خُلُوداً فِي عَذَابِ السَّعِير، وقُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ شَهِيدٌ علىٰ كُلِّ شَيْءٍ، يَعْلَمُ كُلَّ ما في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَتَكْذِيبٍ بِالْحَقِّ الرَّبَّانِي، وكَفَىٰ بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً.

«الباء» الَّتِي تَأْتِي بَعْدَ «كَفَىٰ» زَائِدَةٌ لِلتَّوكِيد، وأَصْلُ العبارة: «كَفَىٰ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً».

وَخَتَمَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٥٢﴾:

في هٰذا الخِتَام بَيَانٌ عَامٌّ يَدْخُلُ فِيه المتَحَدَّثُ عَنْهُمْ سَابِقاً مِنْ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ، وغَيْرُهُمْ من الَّذِينَ آمَنُوا بالْبَاطِلِ وكَفَرُوا باللهِ.

أي: والَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ مِنْ شِرْكٍ باللهِ، واتِّخَاذِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ، وجُحُودٍ لِرُبُوبِيَّتِهِ أو لإلٰهِيَّتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَاطِلٍ، كاعْتِبَارِ الأَسْبَابِ الكَوْنِيَّةِ فَاعِلَةً بِمُسَبَّبَاتِهَا بِصِفَاتٍ ذَاتِيَّةٍ فيها، وكَفَرُوا بِاللهِ فِي ذَاتِهِ أَوْ صِفَاتِهِ

أَوْ أَسْمَائِهِ الحسنَىٰ؛ فأولـٰئِكَ الْبَعِيدُونَ جدّاً في اتّجاهِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ هُمُ الْخَاسِرُونَ الضَّالُونَ، الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ شَيْءٍ، إذْ قَذَفُوا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَىٰ عَذَابٍ أَبَدِيٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا خَالِدِين.

في عبارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قَصْرٌ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: هُمْ أَشَدُّ الْخَاسِرِينَ خُسْراً، وهُوَ قَصْرٌ بِتَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنَادِ مع ضَمِيرِ الْفَصْل.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ الَّذِينَ يَتحدَّوْنَ الرَّسُولَ ﷺ بِتَعْجِيلِ عَذَابِ اللهِ لَهُمْ الَّذِي كَانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ به:

● ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَعْجَلَ فُلَاناً بالشَّيْءِ» أي: طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَعْجَلَ بِهِ مُسْرِعاً.

● ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: أي: وقْتٌ مِنْ أَوْقَاتِ المستَقْبَلِ مُحَدَّدٌ مُبَيَّنٌ بِاسْمِهِ، كسَاعَةِ كَذَا، مِنْ يَوْمِ كَذَا، مِنْ شَهْرِ كَذَا، مِنْ سَنَةِ كَذَا.

● ﴿بَغْتَةً﴾: أي: مُفَاجَأَةً دُونَ إِشْعَارٍ سَابق.

● ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: وهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَدْنَىٰ عِلْمٍ بِهِ، فالشُّعُورُ بالشَّيْءِ أَوَّلُ مَرَاحِلِ إِدْرَاكِهِ والإحْسَاسِ به.

● ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾: أي: يُحِيطُ بِهِمْ إِحَاطَةَ الثَّوْبِ السَّاتِرِ لِكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ أَجْسَادِهِمْ. **الْغِشَاءُ**: الْغِطَاءُ السَّاتِر.

● ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ . . .﴾: أي: ويَطْلُبُ الكَفَرَةُ المعانِدُونَ مِنْكَ يا مُحمَّدُ، عَلَىٰ سَبِيلِ التَّحَدِّي النَّاشِئِ عَنْ إِنْكَارِهِمْ أَنَّكَ رَسُولُ رَبِّ العَالَمِين؛ أَنْ تُعَجِّلَ لَهُمُ العَذَابَ الَّذِي كُنْتَ أَنْذَرْتَهُمْ به وحَذَّرْتَهُمْ مِنْهُ.

• ﴿... وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ...﴾: أي: ولـوْلا سَبْقُ تَحْدِيدِ وَقْتٍ مُعَيَّنٍ مِنْ أَوْقَاتِ المسْتَقْبَلِ، بِتَقْدِيرِ رَبِّكَ وقَضَائِهِ، لِتَعْذِيب مُسْتَحِقِّي الْعَذَابِ مِنْهُمْ عَلَىٰ وَفْقِ الْحِكْمَةِ والْعَدْلِ؛ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ، بإنْزَالِ وَسَائِلِهِ وأسْبَابِهِ عَلَيْهِمْ فَوْراً عقِبَ طَلَبِهِمْ هَـٰذا التَّعْجِيلَ.

• ﴿... وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: ونُؤَكِّدُ أَنَّ الْعَذَابَ المقَدَّرَ الْمقْضِيَّ بِهِ عَلَيْهِم؛ سَيأْتِيهِمْ لَا مَحَالَةَ بِصُورةٍ مُفَاجِئَةٍ لَهُمْ، وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ شُعُوراً مَا بِبوادِرِهِ وقَوَابِلِهِ.

وقَدْ عُذِّبَ وأُهْلِكَ مُسْتَحِقُّو الْعَذَابِ وَالإِهْلَاكِ مِنْهُمْ فِي غَزْوَة بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، بَعْدَ زَمَنٍ غَيْرِ طَوِيلٍ لإِنْزَالِ هَـٰذِهِ السُّورَة، إذْ كَانَ إِنْزَالُهَا فِي أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَكِّيّ، ولم تَنْزِلْ بَعْدَهَا إلَّا سُورَةُ المطفِّفِينَ.

• ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ـ وفـي القراءة الأخرىٰ: **[وَنَقُولُ]**:

جَاءَ تكْرِيرُ عبارَةِ: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ تَوْطِئَةً لِمَا رُتِّبَ مَنْ بَيَانٍ عَلَيْهَا.

جَهَنَّمُ: اسْمُ عَلَمٍ مِنْ أَسْمَاء النَّارِ الَّتِي أَعدَّهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ بِهَا الْكَافِرِينَ والْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّين، وهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيث. ويُقَالُ لِلْقَعْرِ الْبَعِيدِ: «جَهَنَّم»، ويقال: «بِئْرٌ جَهَنَّم» أي: بَعِيدَةُ الْقَعْرِ.

المعنىٰ: يَسْتَعْجِلُكَ يَا مُحَمَّدُ هَـٰؤُلَاءِ المعانِدُونَ الكَفَرَةُ المشْرِكُون الطُّغَاةُ، مُتَحَدِّين بإنْزَالِ أَسْبَابِ وَوَسَائِلِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيا، فَلْيَعْلَمُوا أَنَّ دَارَ تَعْذِيبِهِمْ ـ وَهِيَ جهَنَّمُ ـ؛ سَوْفَ تَكُونُ مُحِيطَةً بِكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ أَجْسَامِهِمْ وَأَجْسَامِ كُلِّ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ تَغْشَاهُمْ مُجَلِّلَةً لَهُمْ، فِيهَا وَسَائِلُ وأَسْبَابُ تَعْذِيبِهِمْ مِنْ فَوْقِ رُؤوسِهِمْ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ.

وبَيْنَما هُمْ يَتقَلَّبُونَ فِي وَسَائِلِ وأَسْبَابِ تَعْذِيبِهِمْ فِي جهَنَّم، ويَذُوقُونَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ؛ يَقُولُ اللهُ لَهُمْ، أَوْ تَقُولُ الْمَلائِكَةُ الْمُكَلَّفُونَ أَنْ يُعَذِّبُوهُمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ: ذُوقُوا جَزَاءَ مَا كُنْتُمْ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ كُفْرٍ وجَرَائِمَ وقَبَائِحَ وَعُدْوانٍ وظُلْم.

وبهٰذَا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الثامن من دُروس سورة (الْعَنْكَبُوتِ).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٣)

التدبر التحليلي للدّرس التاسع مِن دُرُوس سورة (العنكبوت) الآيات من (٥٦ ـ ٦٩) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وجَلّ:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ

يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

القراءات:

(٥٦) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عامر، وعاصم، وأبو جعفر: **[يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ]**، بِفَتْحِ يَاءِ المتكلّم.

وقرأهَا باقي الْقُرَّاءِ العشَرَةِ: بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.

(٥٦) • قرأ ابن عامر: **[إِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ]**، بفتح ياء المتكلّم.

وقرأهَا بَاقي الْقُرَّاءِ العشرة: بإسْكَانِ ياء المتكلم.

(٥٦) • قرأ يَعْقُوبُ: **[فاعْبُدُونِي]**، بإثباتِ ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: **[فَاعْبُدُونِ]** بحَذْفِ يَاءِ المتكلم.

(٥٧) • قرأ شُعْبَة: **[يُرْجَعُونَ]**، بياء الغائبين مع البناء للمجْهُول.

وقرأها يَعْقُوب: **[تَرْجِعُونَ]**، بتاء المخاطَبِينَ المفْتُوحَة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تُرْجَعُونَ]**، بتاء المخاطَبِينَ المضْمُومَة.

(٥٨) • قرأ حَمْزَةُ، والْكِسَائي، وخَلَف: **[لَنُثْوِيَنَّهُمْ]**، مِنْ فِعْلِ «أَثْوَىٰ».

وقرأها أبو جعفر: **[لَنُبَوِّيَنَّهم]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[لَنُبَوِّئَنَّهُمْ]**، من فِعْل «بَوَّأَ».

(٦٠) • قرأ ابْنُ كَثِير، وأَبُو جَعْفر: **[وَكَائِنْ]**، إِلَّا أَنَّ أَبَا جَعْفَر يُسَهِّلُ الْهَمْزَةَ مُطْلَقاً مع المدِّ والقصر.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَكَأَيِّنْ]**. ويَقِفُ عَلَيْهَا أَبو عَمْرو،

ويَعْقُوب: بالْيَاءِ دُونَ النُّون، والباقُونَ بالنُّون، ووقَفَ حَمْزَةُ بالتَّسْهِيلِ وبالتحقيق.

(٦٠) • قرأ قالُون، وأَبُو عَمْرو، والكِسَائي، وأبُو جَعْفر: **[وَهْوَ]**، بإسْكَانِ الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَهُوَ]**، بِضَمِّ الهاء، ووقف يعقوب بهاء السكت.

(٦٤) • قرأ قالُونُ، وأَبُو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: **[لَهْيَ]**، بإسْكَانِ الهاء.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: **[لَهِيَ]**، بِكَسْرِ الهاء. ووقَفَ يَعْقُوبُ بِهَاءِ السَّكْتِ.

(٦٦) • قرأ قَالُون، وابْنُ كَثِير، وحمزة، والكسَائي، وخلف: **[وَلْيَتَمَتَّعُوا]** بإسْكَانِ اللّام.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَلِيَتَمَتَّعُوا]**، بِكَسْرِ اللّام.

(٦٩) • قرأ أَبو عَمْرو: **[سُبْلَنَا]**، بإسْكَانِ الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[سُبُلَنَا]**، بِضَمِّ الباء.

تَمْهِيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْجِيهُ خِطَابٍ مِنْ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُضْطَهَدُونَ فِي مَكَّةَ مِنْ قِبَلِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ فيها، يَعِظُهُمْ فِيه بأَنْ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ الله، فَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ، مَعَ بَيَانَاتٍ بِشَأْنِ المَوْتِ والرِّزْقِ، وَمَعَ وَعْدٍ مِنَ اللهِ لَهُمْ بالأَجْرِ الْعَظِيم عِنْدَهُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

وفيها عَوْدٌ لِمُعَالَجَةِ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ شِرْكِيَّاتِهِمْ، مَعَ إِقْنَاعِهِمْ بِأَنَّ الحيَاةَ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وأَنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ دَارُ الحياةِ الخالِدَةِ الْعَظِيمَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وفِيهَا وَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ المجاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ بأنَّ اللهَ سَيَهْدِيهِمْ سُبُلَ نَجاتِهِمْ، وانْتِصَارِهِمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمُ الكَفَرَة، وَفِيها وصْفٌ لِهَـٰؤُلَاءِ الْمُجَاهِدِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ الْمُحْسِنِين.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً للَّذِينَ آمَنُوا إِبَّانَ التّنْزِيلِ يَحُثُّهُمْ علَىٰ الْهِجْرَةِ فِي سَبِيلِ الله، وكانَتِ الْمَدِينَةُ حِينَئِذٍ مُهاجَرَ المسْلِمينَ المضْطَهَدين:

- ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾:

يُنَادِي اللهُ ـ عزَّ وَجلَّ ـ الَّذِينَ آمَنُوا وَقَدْ كَانُوا يُضْطَهَدُونَ فِي مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، فَيُكَرِّمُهُمْ بِعُبُودِيَّتِهِمْ لَهُ، إِذْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ عُبُودِيَّةً اخْتِيَارِيَّةً ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، فَيَصْبِرُونَ عَلَىٰ أَذَىٰ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ لَهُمْ فِي مَكَّةَ، ويَقُولُ لَهُمْ بِأُسْلُوبِ الكِنَايَةِ مُرَغِّباً لَهُمْ في أَنْ يُهَاجِرُوا مِنْ مَكَّة إِلَىٰ أَرْضٍ أُخْرَىٰ لَا يُضطَّهَدُونَ فيها: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾، أي: فَهَاجِرُوا إِلَىٰ أَرْضٍ تَكُونُونَ آمِنِينَ فِيهَا، لَا تَتَعَرَّضُونَ فيها لاضطّهَادِ الْكَافِرِينَ والمشْرِكِين، وَإِذَا هَاجَرْتُمْ فَهَاجِرُوا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، ولَا تَقْصِدُوا بِهِجْرَتِكُمْ مَقَاصِدَ دُنْيَوِيَّةً، بَلِ اجْعَلُوا قَصْدَكُمْ عِبَادَتِي وَحْدِي، لَا تُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِي شَيْئاً، ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾:

جاء في هـٰذِهِ العبارة تَقْدِيمُ المعْمُولِ علىٰ العامِلِ لإفادَةِ الْقَصْرِ والْحَصْرِ، أي: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّايَ في مَقَاصِدِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ، وقَدْ جَاءَ بَيانُ هـٰذا في الحديثِ الصّحيح: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ ورَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ ورَسُولِهِ، ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُهَوِّنُ علىٰ الرّاغبين في الهجرة من المؤمنين احْتِمَالَ الموْتِ في أمْكِنَةِ هِجْرَتِهِم، لِئَلَّا يُثَبِّطَهُمْ ذَلِكَ عَنِ الهِجْرَة:

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ـ وفي قراءة أُخْرَىٰ: [يُرْجَعُونَ] ـ وفي قراءة ثَالِثَةٍ: [تَرْجِعُونَ]، وهي وجُوهٌ من الأداء البياني.

أي: فَلَا يُثَبِّطَنَّكُمْ عَنِ الهِجْرَةِ الْخَوْفُ مِنَ الْمَوْتِ وأَنْتُمْ مَهاجِرُون، فَكُلُّ نَفْسٍ سَتَذُوقُ الْمَوْتَ عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِ بَقَائِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِي بَلَدِهَا أَوْ فِي غَيْرِ بَلَدِها. ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ الحياةِ الأُولَىٰ والحياةِ الأخرَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ؛ تُرْجَعُونَ قَهْراً إِلَىٰ الحياةِ لِتُلَاقُوا حِسَابَ رَبِّكُمْ، وفَصْلَ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذَ جَزَائِهِ، فَتَرْجِعُونَ مَطَاوِعِينَ، إِذْ تَجِدُونَ أَنْفُسَكُمْ فِي خَلْقٍ آخَرَ مِثْلَمَا كُنْتُمْ فِي الْخَلْقِ الأَوَّل، بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ كُنْتُمْ فِيهِ تُرَاباً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ.

دَلَّتْ عِبارَةُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ علىٰ أَنَّ أَنْفُسَ الأَحْيَاءِ هِيَ الَّتِي تَذُوقُ الْمَوْتَ بانفِصَالِ الأَرْوَاحِ عَنْهَا، فَتَرْتَفِعُ مِنْهَا الْحَيَاةُ، وحِينَ تَرْجِعُ الأَرْوَاحُ إِلَىٰ النُّفُوسِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا الحياة، فالحياةُ هِيَ حَيَاةُ النَّفْسِ بانْدِمَاجِ الرُّوحِ فيها، والموتُ يَكُونُ بانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنْها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ صُورَةً مِنْ صُورِ جَزَاءِ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَمِنْهُمُ الْمُهَاجِرُونَ فِي سَبِيلِه:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ـ وفي القراءة الأخرىٰ: [لَنُثْوِيَنَّهُمْ]، أَصْلُهُ مِنْ فعل: «ثَوَىٰ».

أي: وكُلُّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَبَّرُوا عَنْ صِدْقِ إيمانِهِمْ وصِحَّتِهِ بأَعْمَالٍ صَالِحَاتٍ مُرْضِيَاتٍ للهِ عَمِلُوهَا؛ لَنُنْزِلَنَّهُمْ يَوْمَ الدِّينِ مِنَ الجنَّةِ دَارِ المتَّقِينَ؛ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِ شُرُفَاتِهَا وَفِي المشَاهِدِ الواقِعَةِ مِنْ دُونِ مُسْتَوىٰ النَّظَرِ الأُفُقِيِّ فِيها الأَنْهَارُ الْبَدِيعَةُ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ خَالِدِينَ فِيها دَواماً.

[لَنُبَوِّئَنَّهُمْ]: أي: لَنُنْزِلَنَّهُمْ، يُقَالُ لُغَةً: «بَوَّأَ فُلَانٌ فُلَاناً المكان» أي: أَنْزَلَهُ فيه.

[لَنُثْوِيَنَّهُمْ]: أي: لَنُنْزِلَنَّهُمْ وَلَنُسْكِنَنَّهُمْ، يُقَالُ لغة: «أَثْوَيْتَ فُلَاناً، وَثَوَّيْتُ فُلَاناً» أي: أَنْزَلْتُهُ وَأَسْكَنْتُهُ. وَأَصْلُ الثوّاء يَحْمِلُ مَعْنَىٰ طول المقام.

[غُرُفاً] جَمْعُ «غُرْفَة»، وهي فِي الْقُصُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ عِنْدَ العرب ذَاتُ مَنْزِلَةٍ فيها، تُخْتَارُ لسَيِّدِ الْقَصْرِ وَمُتْعَتِهِ الْخَاصَةِ، ويُصْعَدُ إِلَيْهَا بِدَرَج، وتَكُونُ فِي العادة عَالِيَةً مُشْرِفَة.

- ﴿... نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾: فِي هـٰذِهِ العبارَةِ يُثْنِي اللهُ ـ عزَّ وجَلَّ ـ عَلَىٰ أَجْرِ الْعَامِلِينَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ بِمَا يُرْضِي اللهَ عَنْهُمْ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ مِنْ ثَوَابٍ جَزِيل.

نِعْمَ: فِعْلٌ لإِنْشَاءِ الْمَدْحِ علىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ.

- ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾: فِي هـٰذِهِ العبارَةِ بَيَانٌ لِلسَّبَبِ الَّذِي اسْتَحَقَّ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الأَجْرَ العظيمَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَهـٰذَا السَّبَبُ يَرْجِعُ إِلَىٰ فَضِيلَتَيْنِ تَحَلَّوْا بِهِمَا بِكَسْبِهِمُ الاخْتِيَارِي.

الْفَضِيلَةُ الأُولَىٰ: أَنَّهُمْ صَبَرُوا عَلَىٰ فِعْلِ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِفِعْلِهِ مِمَّا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ، وصَبَرُوا عَلَىٰ تَرْكِ مَا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْ فِعْلِهِ، مِمَّا تَشْتَدُّ رَغْبَةُ نُفُوسِهِمْ فِي فِعْلِهِ ويَشُقُّ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ تَرْكُهُ.

الصَّبْرُ: قُوَّةٌ خُلُقِيَّةٌ مِنْ قُوَىٰ الإرادَة، تُمَكِّنُ الإِنْسَانَ مِنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ لِتَحَمُّلِ المتاعِبِ والْمَشَاقِّ والآلام، وضَبْطِهَا عَنِ الانْدِفَاعِ بِعَوَامِلِ الضَّجَرِ والجَزَعِ والسَّأَمِ، والمَلَلِ والْعَجَلَةِ والرُّعُونَةِ، والغَضَبِ والطيش، والخوفِ والطمّع، والأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ والْغَرَائِزِ.

الْفَضِيلَةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ لا عَلَىٰ غَيْرِهِ يَتوَكَّلُونَ، وهـٰذَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الْقَلْبِيَّةِ الْعَظِيمَةِ للهِ عزَّ وجلَّ، وبَاعِثُهَا صِدْق الإيمان وقُوَّتُهُ.

التوكُّل علىٰ اللهِ: هو الاسْتِسْلَامُ إلَيْهِ، وتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الأمُورِ وتَحْقِيقِ مَا يَرْجُو المتوَكِّلُ إليه، مع القيامِ بالأَسْبَابِ المسْتَطَاعَةِ المادِّيَّةِ والمعْنَوِيَّةِ طَاعَةً لأَمْرِهِ ونَهْيِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُطَمْئِنُ الرَّاغِبِينَ فِي الْهِجْرَةِ مِنَ المؤمِنِينَ مِنْ أَجْلِ رِزْقِهِمْ بِبَيَانٍ كُلِّيّ بِشَأْنِ الرِّزْق:

• ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾:

[كَأَيِّنْ]: اسْمٌ مُرَكَّبٌ مِنْ كَافِ التَّشْبِيهِ، وَ«أَيٍّ» المنوَّنَةِ، وجَازَ الْوَقْفُ عَلَيْهَا بالنُّون، ولِهـٰذَا رُسِمَ خَطُّهَا في المصْحَفِ «كَأَيِّنْ» بالنُّون.

ومعنىٰ: «كَأَيِّنْ» مِثْلُ مَعْنَىٰ لَفْظِ «كَمْ»، وهو في الْغَالِبِ يُفِيدُ التَّكْثِير.

• ﴿مِّن دَآبَّةٍ﴾ تَمْيِيزٌ لِلإبْهَامِ فِي **[وَكَأَيِّنْ]**، وعِبَارَةُ: **[لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وإِيَّاكُمْ]** جُمْلَةٌ هِيَ خَبَرُ **[وَكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ]**.

المعْنَىٰ: وانْظُرُوا يا مَنْ تُرِيدُونَ الطُّمَأْنِينَةَ مِنْ أَجْلِ أَرْزَاقِكُم إِذَا هَاجَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ أَنَّ دَوَابّاً كَثِيرَةً جِدّاً مِنْ حَوْلِكُم لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا مِنْ مَوَاطِنِ إِقَامَتِهَا إِلَىٰ مَنَازِلِ أَسْفَارِهَا، فِي جِهَاتِ الأَرْض، وأَنَّ اللهَ يَرْزُقُهَا في أَسْفَارِها، وفِي الْمَنَازِلِ الَّتِي تَنْزِلُ فِيها. وهُوَ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ يَرْزُقُكُمْ فِي بَلَدِكُمْ، وَفِي الأَمَاكِنِ الَّتِي تُهَاجِرُونَ إِلَيْهَا، والطُّرُقَاتِ الَّتِي تَمُرُّونَ بها.

• ﴿... وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾: أي: واللهُ هُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ صَوْتٍ مَهْمَا كَانَ خَافِتاً في الْوُجُودِ كُلِّه، ومِنْهُ أَصْوَاتُ أَدْعِيَتِكُمْ تَسْأَلُونَهُ أَرْزَاقَكُمْ. الْعَلِيمُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، ومِنْهُ عِلْمُهُ بأَحْوَالِكُمْ

وبِحَاجَاتِكُمْ إلىٰ الرِّزْقِ في كُلِّ مَكَانٍ تَصِلُونَ إلَيْهِ، وفِي كُلِّ مَكَانٍ تَنْزِلُونَ فِيه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشْرِكِينَ الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ هِي الّتِي تَرْزُقُهُمْ، فَيَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ رَغْبَةً فِي أَنْ تُسَاعِدَهُمْ غيبيّاً فِي تَحْقِيقِ مطالِبِهِمْ مِن الرِّزْقِ وغَيْرِهِ مِنَ الأَرْضِيَّاتِ:

• ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

• ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ تَوْطِئَةٌ لإقَامَةِ الدَّلِيلِ علىٰ المشْرِكِينَ بأَنَّ الرازِقَ فِي الأرضِ هُوَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ، وأَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً، وَلَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً ولَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرّاً.

المعنىٰ: وأُقْسِمُ مُؤَكداً: لَئِنْ سَأَلْتَ أَيُّها الدَّاعِي إلىٰ اللهِ المشْرِكِينَ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ؟، لَيَقُولُنَّ: اللهُ هُو الْخَالِقُ وهُوَ المسَخِّرُ، إذْ هُمْ يُؤْمِنُونَ بأَنَّ هٰذِهِ مِنْ أَعْمَالِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ، إِذْ هِيَ أَعْمَالٌ سَمَاوِيَّةٌ لَيْسَ لآلِهَتِهِمْ سُلْطَانٌ عَلَيْهَا وَلَا تَأْثِيرٌ فِيها.

ولَمَّا كَانَ تَسْخِيرُ الشَّمْسِ والْقَمرِ هُوَ لِمَنافِعِ أَهْلِ الأَرْضِ، ومِنْ هٰذِهِ الْمَنافِعِ إِنْبَاتُ نَبَاتَاتِ الأَرْضِ الَّتِي فِيها أَرْزَاقُ الأَحْيَاءِ الأرضية، إِذْ مِنْ أَسْبَابِ إِنْبَاتِهَا الأَشِعَّةُ والحرارَةُ، الَّتِي تَبُثُّهُمَا الشَّمْسُ عَلَىٰ الأَرْضِ، ومِنْ مَنَافِعِ الْقَمَرِ لِسُكَّانِ الأَرْضِ النُّورُ الَّذِي يَنْشُرُهُ عَلَيْهَا فِي اللَّيَالي، ومَعْرِفَةُ عَدَدِ السِّنِينَ وحِسَابِ الشُّهُور، ومَعْرِفَةُ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاقِيتِ؛ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ

فِي الْبَيَانِ أَنْ يَقُولَ اللهُ ـ عَزَّ وجل ـ: ﴿... فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾: أي: فَكَيْفَ يُصْرفُ المشْرِكُونَ عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ فِي الْوُجُودِ كُلِّه، وَلَا رَزَّاقَ فِيهِ سِوَاهُ، إِذِ النَّبَاتَاتُ فِي الأَرْضِ لَا تَنْبُتُ مَا لَمْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُسَخِّرُ لَها، هَـٰذا مِنْهُمْ تَنَاقُضٌ مَعَ أَنْفُسِهِمْ.

- ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾:

بِمُنَاسَبَةِ الْحَدِيثِ عَنِ الرِّزْقِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَفْعَالِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ أَنْ يُعْلِمَ اللهُ عِبَادَهُ؛ بِأَنَّ مِنْ أَعْمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا؛ أَنْ يُوَسِّعَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ، وَأَنْ يُضَيِّقَ وَيُقَلِّلَ الرِّزْقَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ، لأَنَّ حِكْمَتَهُ فِي ابْتِلَائِهِ لَهُمْ وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي صِفَاتِهِمُ النَّفْسِيَّةِ؛ أَنْ يَشَاءَ بَسْطَ الرِّزْقِ لِمَنْ قَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُوَسِّعَ الرِّزْقَ لَهُمْ فِي امْتِحَانِهِمْ، وأَنْ يَشَاءَ تَقْلِيلَ الرِّزْقِ علىٰ مَنْ قَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

ومِنَ الحقائِقِ الثَّابِتَةِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّ مَشِيئَتَهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ الَّتِي يَخْتَارُ بِهَا أَفْضَلَ الأَشْيَاءِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ، ولَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ يَخْتَارُ بِحِكْمَتِهِ مِنَ الاحْتِمَالَاتِ الَّتِي يُحِيطُ بِهَا عِلْمُهُ أَفْضَلَ الاحْتِمَالاتِ وأَحْسَنَهَا، وأَكْثَرَهَا مُوَافَقَةً لِلنَّتَائِجِ الَّتِي تُرْجَىٰ مِنْهَا.

- ﴿... يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ ...﴾: أي: يُوَسِّعُهُ وَيُكَثِّرُهُ.
- ﴿... وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ...﴾: أي: يُضَيِّقُهُ ويُقَلِّلُهُ لَهُ عَنْ كَامِلِ حاجَتِهِ وحاجَةِ عِيالِه.
- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: وأُقْسِمُ مؤكّداً: لَئِنْ سَأَلْتَ المشْرِكِينَ يَا أَيُّهَا الدَّاعِي إلىٰ اللهِ: مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ فَأَنْبتَ فِيهَا النَّبَاتَاتِ علىٰ اخْتِلَاف أنْواعِهَا؟، لَيَقُولُنَّ: اللهُ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها، فَأَنْبتَ فِيهَا النَّبَاتَاتِ علىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِها، إذْ هم يُؤْمِنُونَ بأَنَّ إنْزَال الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ أَعْمَالِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ، ولَيْسَ مِنْ أَعْمَالِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ عزّ وجلّ.

هُنَا يَقُول لَهُمُ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ: أَلَيْسَتِ الأَرْزَاقُ فِي الأَرْضِ مِنَ النَّبَاتَاتِ، حَتَّىٰ اللُّحُومُ الْحَيَوَانِيَّةُ فَلَوْلَا النَّبَاتَاتُ لَمْ تَكُنْ؟.

عِنْدَ هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْجَدَلِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يُسَلِّمَ المشْرِكُ، أَوْ يَنْقَطِعَ ويُفْحَمَ، وتَنْتَهِي هُنَا مَرَاحِلُ المناظَرَة، وبانْتِهَائِهَا يَكُونُ آخِرُ مَا يَدْعُو بِهِ الدَّاعِي إلىٰ اللهِ أَنْ يَقُولُ: [**الْحَمْدُ للهِ**].

وجاء التَّعْلِيقُ الرَّبَّانِيُّ بِبَيَانِ أَنَّ أَكْثَرَ المشْرِكِين لَا يَعْقِلُونَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾: أي: لَا تَطْمَعْ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ؛ فِي أَنْ تَجْعَلَ أَكْثَرَ الْمُشْرِكِينَ بإقَامَةِ الحجَّةِ عَلَيْهِمْ يُسَلِّمُونَ فَيَنْبِذُونَ شِرْكَهُمْ، ويُؤْمِنُونَ بأَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الوجُودِ إلَّا اللهُ فلَا إلٰه إلَّا هُو، بَلْ سَتَجِدُ أَكْثَرَهُمْ يُصِرُّونَ عَلَىٰ باطِلِهِمْ إِذْ هُمْ لَا يَعْقِلُون.

إِنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيّاً، لأَنَّ مَدَارِكَهُمْ مُغَشّىً عَلَيْهَا بِزُيُوفِ المفاهِيمِ الْبَاطِلَةِ الْمَوْرُوثَةِ عَنْ آبَائِهِمْ وأَجْدَادِهِمْ.

وإِنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ عَقْلاً إرَادِيّاً، لأَنَّ أَهْوَاءَهُمْ وشَهَواتِهِمْ ومَطَالِبَهُمْ مِنْ حَيَواتِهِمْ؛ مَشْدُودَةٌ بِقُوَّةٍ إِلَىٰ شِرْكِهِمْ وَلَوَازِمِهِ فِي السُّلُوك.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً إِقْنَاعَ المشْرِكِينَ بأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا الَّتِي يَحْرِصُونَ عَلَىٰ الظَّفرِ مِنْهَا بِأَكْبَرِ نَصِيبٍ، فَيُصِرُّونَ علىٰ شِرْكِهِمْ ولَوَازِمِهِ في السُّلُوكِ؛ لَيْسَتْ ذَاتَ قِيمَةٍ حَقِيقِيَّةٍ بِجَنْبِ الآخِرَةِ الْخَالِدَةِ الأَبَدِيَّةِ:

• ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

اللَّهو: كُلُّ أَمْرٍ قَلِيلِ القِيمَةِ يَشْغَلُ عمَّا يَجبُ تَوْجِيهُ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ، فالّذِي يَعْمَلُ لمصالح دُنْيَاهُ مُهمِلاً الْعَمَلَ لِسَعَادَتِهِ في آخِرَتِهِ الخالِدَةِ إنَّمَا يَلْهُو بالفاني عَنِ البَاقِي.

اللَّعِبُ: ضِدُّ الْجِدّ، ومِنْهُ عَبثٌ مُطْلَقٌ، ومِنْهُ مَا فِيهِ فَائِدَةٌ تُقْصَدُ لِلْجَسَدِ أَوِ النفس كالرِّيَاضَة، ويُقَالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عملاً لَا يَجْنِي مِنْهُ نَفعاً: إنَّمَا أنْتَ لَاعِبٌ.

المعنىٰ: وَمَا بَذْلُ الْجَهْدِ والطَّاقَةِ مِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِ لَذَّاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِجَنْبِ الآخِرَةِ؛ إلَّا لَهْوٌ يَشْغَلُ عمَّا يَجبُ تَوجِيهُ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ لِتَحْصِيلِ السَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ يَوْمَ الدِّين، أَوْ لَعِبٌ مِنْ نَوْعِ الْعَبَث، أَوْ مِنْ نَوْعِ مَا فَائِدَتُهُ قَلِيلَةٌ ضَئِيْلَةٌ، بِجَنْبِ ذِي فَائِدَةٍ عَظِيمَةٍ خالِدَةٍ خُلُوداً أَبَدِيّاً.

• ﴿... وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ...﴾: أي: وإنَّ حَيَاةَ الدَّار الآخِرَةِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ لَهِيَ الحياةُ ذَاتُ الكَمَالِ فِي كُلِّ مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ الحياة السَّعِيدَةِ وَخَصَائِصِها.

الْحَيَوانُ: أي: الحياةُ ذَاتُ الكَمَالِ فِي كُلِّ مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ وخَصَائِصِها.

• ﴿... لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾: أي: لَوْ كَانَ المشركُونَ حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ يَعْلَمُوا مَا يَكُونُ سَبَبَ سَعَادَتِهِمُ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَها؛ لَعَلِمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ السَّعِيدَةَ الْخَالِدَةَ؛ هِيَ حَيَاةُ الدَّارِ الآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، تَصْدِيقاً لبَيَانَاتِ رَبِّهِمْ، رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي كتابِهِ المعْجزِ للإِنْسِ والْجِنّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّ الإيمَانَ فِي عُمْقِ أَفْئِدَةِ المشْرِكِينَ تَكْشِفُهُ

أَحْدَاثُ المخاطِرِ الْمُهْلِكَةِ الْعُظْمَىٰ، فَيَدْعُونَ اللهَ رَبَّهُمْ، ولَا يَدْعُونَ شُرَكَاءَهُمْ، وحِينَمَا يُنَجِّيهُمُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ ويأمَنُونَ يَرْجِعُونَ إِلَىٰ شِرْكِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ حُدُوثِ المخَاطِرِ:

- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: يَسْتَمِرُّ المشْرِكُونَ المعالَجُونَ بالْمُعَالَجَاتِ السَّابِقَاتِ فِي السُّورَةِ مُصِرِّينَ عَلَىٰ شِرْكِهِمُ الاعْتِقَادِيِّ، ولَوَازِمِهِ في السُّلُوكِ، حَتَّىٰ تَحِلَّ بِهِمُ الْمَخَاطِرُ الْعُظْمَىٰ الَّتِي لَا خَلَاصَ لَهُمْ مِنْهَا، وَيَرَوْنَ أَنَّ هَلَاكَهُمْ فِيهَا أَقْرَبُ إِلَىٰ نُفُوسِهِمْ مِنْ عَصاً يُمْسِكُونَها بأيْدِيهِمْ، عِنْدَئِذٍ يَتَيَقَّظُ فِي عُمْقِ أَفْئِدَتِهِمْ مَا هُوَ مَغْرُورٌ فِيهَا، مِنْ فِطْرَةٍ إِيمَانِيَّةٍ بِأَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ، فَلَا إِلٰهَ إِلَّا هُو، ولَا يُنْجِيهِمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ إِلَّا هُو، فَيَدْعُونَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، لَا يُشْرِكُونَ فِي دُعَائِهِمْ له أحداً.

ومِنْ أمْثِلَةِ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ، وهَاجَ بِهِمُ الْبَحْرُ ومَاجَ، وتَخَبَّطَتْ بِهِمُ الأَمْوَاجُ، وَرَأَوْا أَنَّ الْمُهْلِكَاتِ مُحِيطَةٌ بِهِمْ، ولَمْ يَجِدُوا سَبَباً يَتَّخِذُونَهُ لِنَجَاتِهِمْ؛ لَمْ يَدْعُوا آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ، بَلْ يَدْعُونَ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدُّعَاءَ الَّذِي هُوَ مِنَ الدِّينِ بِمَثَابَةِ مُخِّ الْعِبَادَة، لَكِنَّهُمْ عَقِبَ أَنْ يُنَجِّيَهُمُ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ مَخَاطِر، ويُوصِلَهُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ الآمِنِ؛ يُفَاجِئُونَ بِأَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَىٰ شِرْكِهِمُ السَّابِقِ، وعِلَّتُهُمُ النَّفْسِيَّةُ تَرْجِعُ إِلَىٰ أَمْرَين:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: رَغْبَتُهُمْ فِي أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَهَا، فَهُمْ لَا يُرِيدونَ أَنْ يَحْمَدُوهُ عَلَيْها، ولَا يُرِيدُونَ أَنْ يُؤَدُّوا شَيْئاً مِنْ واجِبات شُكْرِهِمْ لَهُ عَلَيْهَا، تَعَالِياً واسْتِكْبَاراً. هٰذا ما نَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، ومِنْ لَوَازِمِ كُفْرِهِمْ هٰذا أَنْ

يَخُوضُوا فِي المَعَاصِي والْمُخالَفَاتِ، فَلَا يُطِيعُوا رَبَّهُمْ بِفِعْلِ مَا يأمُرُهُمْ بِفِعْلِهِ، وتَرْكِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِتَرْكِهِ أَوَ يَنْهَاهُمْ عَنْ فِعْلِهِ.

الأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ يَنْطَلِقُوا بِفُجُورٍ، يَسْتَمْتِعُونَ بِكُلِّ مَا يَشَاؤُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيا، دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا بِعقَبَاتِ وَخَزَاتِ ضَمَائِرِهِم، عَلَىٰ مَا يَرْتَكِبُونَ مِنْ قَبَائِحَ وَشَنَائِعَ ومُنْكِرَاتٍ، وبَغْيٍ وعُدْوان، وظُلْمٍ وطُغْيَان. وَهَـٰذا مَا نَفْهمُهُ مِنْ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾.

● ﴿... فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ مُغَالِينَ فِي ظُلْمِهِمْ، عُصَاةً لِرَبِّهِمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، وَأَنَّ مَصِيرَهُمُ الْخُلُودُ فِي عَذَابِ النَّار.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيل، ولا سِيمَا أَئِمَّةُ الكُفْرِ والْعِنَادِ مِنْهُمْ:

● ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: أَفَقَدَ مُشْرِكُو أَهْلِ مَكَّةَ، المسْتَكْبِرُونَ الْمُعَانِدُونَ؛ قُدْرَاتِ التَّفْكِيرِ والْفَهْمِ الَّتِي فَطَرَهُمُ الْبَارِئُ عَلَيْها، وَلَمْ يَرَوْا مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ حَرَمٍ آمِنٍ مِنْ أَجْلِ بَيْتِهِ المشَرَّفِ، الَّذِي بَنَاهُ جَدُّهُمْ إِبْرَاهِيمُ وابْنُهُ إِسْمَاعِيل عليهما السلام بعِيداً عَنْ مَوَاطِنِ الشِّرْكِ والْكُفْرِ حينئذٍ في الأَرْضِ، لِيَكُونَ الْبَلَدُ مِنْ حَوْلِهِ بَلَد تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلَـٰهِيَّتِهِ، وقَدْ جَعَلَ الله فيه الأَمْنَ مِنَ الْحَوادِثِ الكَوْنِيَّة المدَمِّرَة كالزَّلَازِلِ والْبَرَاكِينِ، وجَعَلَ فِيهِ الأَمْنَ بالأَحْكَام التكليفيَّةِ الشَّرعيَّةِ الْمَوْرُوثَةِ عَنْ إِبْرَاهِيم وإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَام، بَيْنَمَا يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ، فيُؤْخَذُونَ بِسُرْعَةٍ إِلَىٰ هَلَاكِهِمْ أَوْ سَلْبِ أَمْوَالِهِمْ؟!.

يُقَالُ لغة: «تَخطَّفَهُ، يَتَخطَّفُهُ» أي: خَطَفَهُ وجَذَبَهُ بِشِدَّةٍ وسُرْعَةٍ، واسْتَلَبَهُ، واخْتَلَسَهُ.

وكانَتِ الأرْضُ مَا عَدَا الحرَم المكّيّ يَوْمَئِذٍ لَا أَمْنَ فِيها غالباً.

- ﴿... أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ⦗٦٧⦘﴾:

أي: أَهُمْ فِي غَايَةِ الانْحِطَاطِ والْخِسَّةِ، واتّبَاعِ الأهْوَاءِ والشَّهَواتِ وَمَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَبِالْبَاطِلِ الّذِي زَيَّنَهُ لَهُمُ الشَّيْطَان، فَجَعَلَهُمْ يَتَّخِذُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ زُوراً وبُهْتَاناً وافْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ، فَهَلْ بِهٰذَا يُؤْمِنُونَ، زَاعِمِينَ أَنَّ لَهُ حَقِيقَةً وَهُوَ بَاطِلٌ وَاضِحُ الْبُطْلَان، وبِنِعْمَةِ اللهِ رَبِّهِمْ الْغَامِرَةِ لَهُمْ يَكْفُرُونَ؟.

الاسْتِفْهَامُ فِي هٰذا الْبَيَانِ يُرَادُ بِهِ التَّلْوِيمُ والتَّثْرِيبُ، والاسْتِخْفَافُ بِعُقُولِهِمُ المجانِبَةِ لِلْحَقِّ والصَّوَابِ فِي اخْتِيَارَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنْهُمْ مَعَ هٰذا الاخْتِيَارِ المسْتَنْكَرِ الّذِي اخْتَارُوه لأَنْفُسِهِمْ، وهُوَ أَشْنَعُ الاخْتِيَارَاتِ:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ⦗٦٨⦘﴾؟؟:

الاسْتِفْهَامُ فِي صَدْرِ هٰذِهِ الآيَةِ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أَيْ: لَا يُوجَدُ أَشَدُّ ولَا أَكْثَرُ ظُلْماً مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً، ومِمَّنِ افْتَرَىٰ علَىٰ اللهِ كَذِباً مَنْ زعَمَ أَنَّ لَهُ شَرِيكاً أو شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ فِي إِلٰهِيَّتِهِ. وكَذَلِكَ لَا يُوجَدُ أَشَدُّ وَلَا أَكْثَرُ ظُلْماً مِمَّنْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ حينَمَا جَاءَهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِمْ السَّلَام، مُؤَيَّدٍ مِنْهُ بالآيات البيِّنَات، والمعْجِزَاتِ الباهرات.

والاسْتِفْهَامُ الثَّانِي فِي هٰذِهِ الآيَةِ؛ يُرَادُ بِهِ الإعْلَامُ والإنْذَارُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ فِي جَهَنَّمَ، بِأُسْلُوبِ الكِنَايَة:

- ﴿... أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ⦗٦٨⦘﴾: أي: لِيَكُنْ بِعِلْمِ هٰؤُلَاءِ المشْرِكِينَ الّذِينَ افْتَرَوْا عَلَىٰ اللهِ كَذِباً، وكَذَّبُوا بالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ لَمَّا

جاءَهُمْ عَلَىٰ لِسَانِ رسُولِ ربِّهِمْ عَلَيْهِ السَّلَام، المؤيَّدِ مِنْ لَدُنْهُ بالآياتِ الْبَيِّنَاتِ والْمُعْجِزَاتِ الباهرات؛ بأنَّ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً خالِداً، إذْ هُمْ كَافِرُون.

جَهَنَّم: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أعَدَّهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ فِيها الْكَافِرِينَ والعصاةَ يَوْمَ الدِّين، وهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّة والتَّأْنِيث.

مَثْوىً: مَكَانُ إقَامَةٍ واسْتِقْرَار.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِضَمِير المتكلِّم العظيم مُطْمِعاً المجاهِدِينَ في سَبِيلِهِ وَمِنْهُمُ الْمُهَاجِرُون؛ بِأَنَّهُ سَيَهْدِيهِمْ سُبُلَهُ المنْجِيةَ لَهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، والمظْفِرَةَ لَهُمْ بِهِمْ، والنَّاصِرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ:

- ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾:

الجهاد: كَلِمَةٌ عامَّة تَشْمَلُ كُلَّ مَا فِيهِ بَذْلُ جَهْدٍ بِمَشَقَّة، ومِنْ تَطْبِيقَاتِهِ الْهِجْرَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ، الأمْرُ الَّذِي جاءَ الإلْمَاحُ إلَيْهِ في آياتٍ مُتفرِّقَاتٍ من السُّورَةِ.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾: أي: لَنَجْعَلَنَّ لَهُمْ بِتَقْدِيرِنَا وَقَضَائِنَا وإلْهَامَاتِنَا ما يُبَيِّنُ لَهُمْ ويُعْلِمُهُمْ.

﴿سُبُلَنَاۚ﴾: جَمْعُ: «سَبِيلٍ»، وقَدْ نَظَرْتُ في القرآنِ الْمَجِيدِ فَرَأيْتُ أنَّ الصِّرَاطَ والسَّبِيلَ لَا يُسْتَعْمَلَانِ بِمَعْنَىٰ شَرِيعَةِ اللهِ إلَّا مُفْرَدَيْنِ، لأنَّ صِرَاطَ اللهِ لِعِبَادِهِ واحِدٌ، وكَذَلِكَ سَبِيلُ اللهِ لعباده، أمَّا السُّبُلُ مَجْمُوعَةً فَهِي سُبُلُ الشَّرِّ، وسُبُلُ الشَّيَاطِين. وسُبُلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي السِّلْمِ والْحَرْبِ، حَتَّىٰ سُبُل رِزْقِ الأحْيَاء وسُبُل السلام.

المعنىٰ: والَّذِينَ بَذَلُوا جَهْداً بِمَشَقَّةٍ فِي سَبِيلِنَا وابْتِغَاءِ مَرْضَاتِنَا، ومِنْهُ تَحمُّلُ مَشَاقِّ الْهِجْرَةِ؛ لَنَهْدِيَنَّهُمْ بِوَسَائِلِنَا وَتَوْفِيقِنَا وإلْهَامَاتِنَا سُبُلَ نَجاتِهِم مِنْ أذَىٰ أَعْدَائِهِمْ، وظَفَرِهِمْ بِهِمْ، وانْتِصَارِهِمْ عليهم، ومِنْ هٰذِهِ السُّبُلِ تَيْسِير

إِعْدَادِ الْقُوىٰ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ سُبُلِ النَّصْرِ والتَّفَوُّقِ والْعِزِّ وامْتِلَاكِ السُّلْطَانِ فِي الأَرْض.

ووَصَفَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ هـٰؤلَاءِ المجاهِدِينَ بأنَّهُمْ مُحْسِنُونَ، إِذَا كانُوا يَعْبُدُونَهُ فِي جِهَادِهِمْ كَأَنَّهُمْ يَرونَهُ، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ:

- ﴿... وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾: أي: هُو مُصَاحِبٌ لَهُمْ بالْعَوْنِ والتَّسْدِيدِ والتوفِيقِ والْهِدَايَةِ إلىٰ السُّبُلِ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ هُمُ الأَعِزَّاءَ المتفوِّقين.

وبهـٰذَا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ التَّاسِعِ من دُروس سورة (الْعَنكبوت) وهو الدَّرْسُ الأخير مِنْ دُروسِ السورة.

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(١٤)

ملحق: مُستَخرَجات بَلَاغِيّة مِنَ السُّورَة

تُوجَدُ فِي سُورَةِ العَنكَبوتِ اختياراتٌ بَلَاغِيَّةٌ عَدِيدة، ومِنْهَا الاختياراتُ التالِيَاتُ اللّاتي اسْتَخْرَجْتُهَا مِنْها:

أَوّلاً: مِن الإيجاز بالحذف قول اللهِ عزَّ وجلَّ في السّورة خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ، وإسْمَاعاً للمشْرِكِين المبْطِلِين:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: ولَوْ كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِ إِنْزَالِ القرآنِ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ مِن حِفْظِكَ، ولَوْ كُنْتَ تَخُطُّ كِتَاباً، ولَوْ كُنْتَ كَاتِباً؛ لارْتَابَ المبْطِلُونَ ارْتِيَاباً صَادِراً عَنْ قُلوبِهِمْ، وَلأَشَاعُوا بَيْنَ جَمَاهِيرِهِمْ أَنَّ ارتِيَابَهُمْ حَقٌّ. أمَّا والحالُ

أَنَّهُ ﷺ أُمِّي لَا يَقْرأ ولَا يَكْتُبُ فَهُمْ كَاذِبُون في ارْتِيَابِهِم، إذْ هُمْ مُسْتَيقِنُونَ بأنَّ القرآن تَنْزِيلُ رَبِّ العالَمِين.

* * *

ثانياً: من استخدام اسم الإشارة الموضوع لُغةً لِلْبَعِيد في الْمُشَارِ إليهِ القريب، الأَمْثِلَةُ التَّالِيةُ:

المثال الأول: قول اللهِ عزَّ وجلّ في السورة يَقُصُّ بَعْضَ أَحْدَاثِ دعوة إِبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلام:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾:

المشار إليه بـ [ذلِكُمْ] قولُهُ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ وهو قريب، واسْمُ الإشارةِ المستَعْمَلُ مَوْضُوعٌ لِلْبَعِيد. والْغَرَضُ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ ارتفاعِ مَنْزِلَةِ تَوحِيدِ اللهِ في العبادة، وارتفَاعِ مَنْزِلَةِ طَاعَةِ اللهِ في أَوامِرِه ونواهِيه لاتِّقَاءِ عِقَابِهِ.

المثال الثاني: قول اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ مَاتُوا وهُمْ كَافِرُونَ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

أُشِيرَ إلىٰ الْكَافِرِينَ المذْكُورِينَ فِي صَدْرِ الآيَة باسْمِ الإشَارَةِ الموضُوع للبعيدين، للدَّلَالَةِ علىٰ بُعْدِ دَرَكَتِهِمْ جِدّاً في اتِّجَاهِ الدرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وفي اتِّجَاهِ أَسْفَلِ سَافِلِينَ.

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجل بِشَأْنِ تَنْجِيَةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحريق بالنَّار الَّتِي أَلْقَاهُ فِيها طُغَاةُ قَوْمِهِ:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

المشارُ إلَيْه باسم الإشارة الموضوعِ للبعيد: **[ذَٰلِكَ]** إنْجاءُ اللهِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنَ النَّارِ، وهُو مَذْكُورٌ بِعبَارَةٍ فِي غايَةِ القرب، للدَّلالَةِ عَلَىٰ سُمُوِّ مَنْزِلَةِ هٰذا الإنْجاء.

المثال الرابع: قول اللهِ عزَّ وجَلَّ:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

جَاءَ اسْمُ الإشارةِ في: **[وَتِلْكَ]** الموضوعِ للأشياء الْبَعِيدَةِ يُشَارُ بِهِ إلَيْها، مَعَ أَنَّ المشار إلَيْهِ موجود قريباً في الآية (٤١) وهو قول الله تَعالىٰ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾:

والْغَرَضُ الدَّلالَةُ عَلَىٰ قِيمَةِ هٰذَا المثَلِ الرَّفِيعَةِ، للتَأمُّلِ فِيهِ بإمْعَانٍ والاسْتِفَادَةِ مِنْهُ فِي نَبْذِ اتِّخاذِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الله.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في السورة:

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

جَاءَ اسْمُ الإشارة: **[ذَٰلِكَ]** الموضوع للمشار إليه البعيد، للدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّ خَلْقَ السَّماوَاتِ والأرض بالْحَقِّ خَلْقٌ رَفِيعُ الْقِيمَةِ جِدّاً، يُدْرِكُ هٰذا أَهْلُ الْفِكْرِ الباحِثُونَ بِصِدْقٍ عَنْ كُبْرَيَاتِ الحقائِق، والْحَرِيصُونَ عَلَىٰ الإيمان بها، فَيَجِدُونَ فِيهِ آيَةً عُظْمَىٰ مِنْ آياتِ اللهِ في كَوْنه.

المثال السادس: قولُ اللهِ عزَّ وجَلّ:

﴿... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

جاءَت الإشارة إِلَىٰ الَّذِين آمَنُوا بالْبَاطِلِ وكَفَرُوا باللهِ باسم الإشارة الموضُوع للبعيدين: **[أُولَئِكَ]** للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ بُعْدِ دَرَكَتِهِمْ جدّاً، فِي اتِّجَاهِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وفي اتِّجَاهِ أَسْفَلِ سَافِلِينَ.

* * *

ثالثاً: مِنْ خُرُوج الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلاَلَتِهِ وهُوَ طَلَبُ الإفْهَامِ إِلىٰ دَلاَلاَتٍ أُخْرَىٰ، الأَمْثِلَةُ التَّالِيَة:

المثالُ الأول: قول اللهِ عزَّ وجلَّ في السورة:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾:

يُراد بالاسْتِفْهَامِ فِي هـٰذِهِ الآيَة النَّهْيُ، أي: لا يَحْسَبُوا هـٰذا الْحُسْبَانَ، ولَا يَتَوَهَّمُوا هـٰذا التَّوَهُّم.

المثال الثاني: قول اللهِ عزَّ وجلّ في السورة:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾:

الاسْتِفْهَامُ فِي هـٰذِهِ الآيَة نظيرُ الاسْتِفْهَامِ في الآية (٢) السابقة.

المثال الثالث: قول اللهِ عزَّ وجلَّ في السورة:

﴿... أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠﴾:

الاسْتِفْهامُ في هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ وإِعْلاَمِيٌّ.

المثال الرابع: قَوْلُ اللهِ عزَّ وجَلَّ في السورة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩﴾:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ فِي هـٰذِهِ الآيَةِ تَثْرِيبُ وتَلْوِيمُ مَنْ رَأَوْا، وحَثُّ مَنْ لَمْ يَرَوْا عَلَىٰ أَنْ يَرَوْا هـٰذِهِ الحقيقَة، بالتَّفَكُّرِ فيها في كائناتٍ كَثِيراتٍ مِمَّا خَلَقَ اللهُ.

المثال الخامس: قول اللهِ عزَّ وجلَّ في السورة:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ فِي هـٰذِهِ الآيَةِ التَّلْويمُ، والتَّثْرِيبُ عَلَىٰ مُكَذِّبي الرَّسُولِ ﷺ، طُلَّابِ آيَاتِ مُعْجِزَاتٍ كُبْرَىٰ تَشْهَدُهَا أبْصَارُهُمْ، كآيَاتِ مُوسَىٰ وعِيسَىٰ عَلَيْهِما السَّلام.

المثال السادس: قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ في السورة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ اسْتِفْهَامَانِ:

الأَوَّل مِنهما: يُرَادُ بِهِ التَّذْكِيرُ بإحْدَىٰ نِعَم اللهِ علىٰ أَهْلِ مَكَّة، يَسْتَحِثُّهُمْ بِهِ عَلَىٰ أَنْ يَنْبِذُوا شِرْكَهُمْ، ويُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ أَحداً ولَا شيئاً.

الثَّاني مِنْهُما: يُرَادُ بِهِ التَّلْويمُ والتَّثْرِيبُ، وبَيَانُ سَفَاهَةِ المشْرِكِينَ إِذْ هُمْ يُؤْمِنُونَ بالْبَاطِلِ، ويَكْفُرُونَ بالْحَقِّ، ومِنْ كُفْرِهِمْ بالْحَقِّ جُحُودُهُمْ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ.

المثال السابع: قَوْلُ اللهِ عزَّ وجَلَّ في السورة:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ اسْتِفْهَامَان:

الأَوَّل مِنْهُما: يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بالْحَقِّ لَمَّا جَاءَه.

الثَّانِي مِنْهما: يُرَادُ بِهِ الإعْلَامُ والإنْذارُ بِعَذَابٍ أَبَدِيٍّ فِي جَهَنَّمَ يَذُوقُونَ فيها الحريق.

* * *

رَابعاً: مِنَ الْقَصْرِ والْحَصْرِ «وهو تخصيصُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه» الأَمْثِلَةُ التَّالِيَةُ:

المثال الأول: قول اللهِ عزَّ وجلَّ في السّورة:

﴿... وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾:

أي: واللهُ هُوَ وَحْدهُ المتَّصِفُ بأَنَّهُ السَّمِيعُ لكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعُ، وبأَنَّهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ يُعْلَمُ.

استفيد الْقَصْرُ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْناد، والقَصْرُ هُنَا حقيقيّ.

المثالُ الثاني: قولُ اللهِ عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾:

أي: وَمَنْ جاهَدَ فَلَا يُجاهِدُ إلَّا لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ، ولَا يَجْلُبُ بِجِهَادِهِ نفعاً لِلْبَارِي ـ جَلَّ وَعَلَا ـ لأَنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عن الْعَالَمِين.

اسْتُفِيدَ الْقَصرُ من أداة «إنَّما» وهُوَ هُنَا قَصْرٌ إِضَافِي، إذْ قَدْ يَحْصُلُ بِجِهَادِهِ نَفْعٌ لِلْمُسْلِمينَ، أَوْ نَفْعٌ اجْتِمَاعِيٌّ يَظْهَرُ بِانتِشَارِ الإسْلَامِ، وبالاستجابَةِ لِدَعْوَتِهِ في النَّاس.

المثال الثالث: قول اللهِ عزَّ وجلَّ في السورة:

﴿... إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ... ۝٨﴾:

أي: إلَيَّ وَحْدِي، وإلىٰ حِسَابي، وفَصْلِ قَضَائِي؛ رُجُوعُكُمْ إلىٰ الحياة بالْبَعْثِ يَوْمَ القيامَة، بَعْدَ مَرْحَلَةِ الموت، الّتِي هِيَ الْبَرْزَخُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الحياة الأولىٰ والحياة الأُخْرَىٰ.

اسْتُفِيدَ القصرُ هُنَا مِنْ تَقْدِيمِ المعْمُولِ [**إِلَيَّ**] عَلَىٰ عامِلِهِ [**مَرْجِعُكُمْ**]، والظاهر أَنَّ الْقَصْرَ هُنَا قَصْرٌ حَقِيقي.

ونظيره: ﴿... إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧﴾، وكذلك: ﴿... وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ٢١﴾.

المثال الرابع: قولُ اللهِ عز وجلّ في السورة حِكَايَة لقول إبراهيمَ عليه السَّلام في دَعْوَتِهِ لِقَوْمه:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ... ١٧﴾:

أي: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِلَّا أَوْثَاناً لَيْسَ فِي الغيب مِنْ ورَائِهَا مَا لَهُ نَفْعٌ يُرجَىٰ، أَوْ ضَرَرٌ يُخْشَىٰ. وأنْتُمْ تَفْتَرُونَ كَذِباً بادِّعَاءَاتِكُمْ إِذْ تَعْبُدُونَهَا رَاجِينَ أَنْ تجلُبَ لَكُمْ نفعاً أَوْ تَدْفَعَ عَنْكُمْ ضرّاً.

هٰذا قَصْرٌ حقيقيٌ بأداةِ «إنَّما».

المثال الخامس: قول اللهِ عزّ وجلَّ في السّورَة حكايةً لِقَوْلِ إبراهيم عليه السلام لِقَوْمِهِ في دَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلىٰ دِينِ اللهِ الحقّ:

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ١٨﴾:

في عِبَارَةِ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ قَصْرٌ بالنَّفي والاسْتِثْنَاء، وَهُوَ قَصْرٌ إِضَافِي، أي: مَا علىٰ الرَّسُول بالإضافَةِ إِلَىٰ المكذِّبين إِلَّا الْبَلاغُ المبينُ. إِذْ لَهُ وَظَائِفُ أُخرَىٰ غير البلاغِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ.

المثال السادس: قول اللهِ عزّ وجلّ في السورة:

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ٥٦﴾:

أي: لَا تَعْبُدُوا فِي عِبَادَةٍ مَا غَيْرِي. جاء الْقَصر مِنْ دَلَالَة تَقْدِيم المعمول علىٰ عامِلِهِ. وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌّ.

ونظيره: ﴿... وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

المثال السابع: قول اللهِ تَعَالَىٰ في السُّورَة بِشَأْنِ إبراهيم عَلَيْهِ السلام وقومه:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ... ﴿٢٤﴾﴾.

ونظيره ما جاء في السورة بشأن لوطٍ عليه السَّلَامُ وقَوْمِهِ:

﴿... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

القصر في الآيتين جاء بالنفي والاسْتِثْنَاء.

وَتُوجَدُ في السورة أَمْثِلَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِن الْقَصْرِ، تَرَكْتُ التَّنْبِيهَ عَلَيْها، لأَنَّها مُشَابِهَةٌ لِمَا ذَكَرْتُهُ، ولَا يَصْعُبُ عَلَىٰ مُتَدَبِّر السُّورَةِ اسْتِخْرَاجُهَا وشَرْحُها.

* * *

خامساً: مِنَ التَّوكِيد لوُجُودِ دَواعٍ بلاغِيَّةٍ تَدْعُو إلَيْه، الأَمْثِلَةُ التالِيَة:

المثال الأول: قول اللهِ عزَّ وجلَّ في السورة بضمير المتكلّم العظيم:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾:

ثَلاثُ جُمَلٍ في هٰذِهِ الآيَةِ مُؤَكَّدَاتٌ لِوُجُودِ دَواعٍ فيها للتَّوكيد:

(١) التوكيدُ بالقسم المنوي، وبحرف «قد» في: **[وَلَقَدْ]**.

(٢) التوكيد باللّام وبنون التوكيد الثقيلَة في: **[فَلَيَعْلَمَنَّ]**، وفي: **[وَلَيَعْلَمَنَّ]**.

المثال الثاني: قولُ اللهِ عزّ وجلَّ في السّورَة:

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾:

جاء التوكيدُ فِي: **[فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ]** بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّامِ المزَحْلَقَةِ».

المثال الثالث: قول اللهِ عزّ وجل:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾:

جاء التوكيد في هـٰذِهِ الجملة بـ «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللَّام المزحْلَقة».

المثال الرابع: قول اللهِ عزَّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧﴾:

جاءَ في: [**لَنُكَفِّرَنَّ**] وفي: [**لَنَجْزِيَنَّهُمْ**] التوكيد بـ «باللام - وبِنُونِ التوكيدِ الثَّقِيلَة».

ونَظِيرُهُمَا فِي: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٩﴾.

المثال الخامس: قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المنَافِقِين:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ ... ۝١٠﴾:

جاء فِي هـٰذِهِ الآية التَّوْكِيدُ فِي: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ بالْقَسَمِ المنوِيّ، فاللامُ في «لَئِنْ» وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ الْقَسَم الملاحَظِ ذهْناً. وجاء التوكيد في جُمْلَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ بـ «إِنَّ - والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة».

وفي السُّورَةِ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ مَوْضِعاً فِيها مُؤَكّدات لِدَواعٍ بَلَاغِيَّةٍ لِلتَّوْكِيد، اقْتَصَرْتُ مِنْهَا عَلَىٰ كِتَابَةِ الأمْثِلَةِ الْخَمْسَةِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُها، لِسُهُولَةِ اسْتِخْرَاجِ سَائِرِهَا عَلَىٰ ذِي اهْتِمَامٍ بالبلاغيات.

وبهـٰذَا أَنْتَهِي مِنْ هـٰذا المَلْحق المتعَلّق باسْتِخْرَاج البلاغيات من السورة.

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

سورة المطفّفِين

٨٣ مصحف ٨٦ نزول

وهِيَ مكيَّة في أَرْجح الأقوال

وهِيَ آخِرُ التَّنْزِيلِ المكّي

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾
وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم
مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا
سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ
﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ
لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي
كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾
وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ
﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾

---

١٤ ـ • سكَتَ حفصٌ بخلف عنه سَكْتَةً لَطِيفَةً من غير تَنَفُّسٍ مِقْدارَ حَرَكَتَيْنِ علىٰ لَامِ [بَلْ] مُظْهَرَةً، مِنْ [بَلْ رَانَ]. وعِنْدَ تَرْكِ السَّكْت كَمَا هُوَ قِرَاءَة بَقِيَّة القُرَّاءِ العَشْرَةَ، وَهُوَ الوَجْهُ الثَّانِي لِحَفْصٍ: يَلْزَمُ إدْغَامُ اللَّامِ في الرَّاء.

تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ
﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ
مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ
يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ
﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

---

٢٤ ـ • قرأ أبو جعفر، ويعقوب: **[تُعْرَفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةُ]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ]**، وهو من التنويعِ في التعبير، والمؤدَّىٰ واحد.

٢٦ ـ • قرأ الكسائي: **[خَاتَمُهُ]**.
وقرأها باقي القراءِ العشرة: **[خِتَامُهُ]**.
الْخَاتَمُ والْخِتَام: يأتِيَانِ بمَعْنَىٰ آخِرِ الشيء. فالمؤدّىٰ بهما واحد.

٣١ ـ • قرأ أبو عَمْرو، ويعقوب: **[أَهْلِهِم انْقَلَبُوا]**.
وقرأها حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[أَهْلِهُمُ انْقَلَبُوا]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا]**، وهذَا كُلُّهُ عِنْدَ الوَصْلِ. ووقف الجميع بِكَسْرِ الهاء وسُكُونِ الميم.

٣١ ـ • قرأ حفص، وَابْنَ عَامِرٍ بِخَلَفٍ عَنْهُ، وأبو جعفر: **[فَكِهِينَ]**.
وقرأها باقي القُرَّاءِ العشرة: **[فَاكِهِينَ]**.
الْفَكِهُ والْفَاكِهُ: النَّاعم الْعَيْش.

٣٣ ـ • قرأ حمْزَة، ويَعْقُوبُ: **[عَلَيْهُمْ]** بضَمِّ الهاء، وهو لغة.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[عَلَيْهِمْ]** بِكَسْرِ الهاء، وهو لغة.

(٢)

موضوع سورة (المطفّفين)

يَدُورُ مَوْضُوعُ هـٰذِهِ السُّورَةِ حَوْلَ تَحْذِيرِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بالباطل، عَنْ طَرِيقِ بَخْسِ وإنْقَاصِ حَقِّ الْمَكِيلِ لَهُ، أَو الْموزُونِ لَهُ، بالتَّطْفِيفِ، وهُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْواعِ السَّرِقَةِ واللُّصُوصِيَّةِ، وصَاحِبُ الحقِّ غَافِلٌ مُسْتَسْلِمٌ، يَأْمَنُ مَنْ يَكِيلُ لَهُ أَوْ يَزِنُ لَهُ.

وفي هـٰذا الموضوع بَعْضُ بَيَانٍ عَنْ يَوْمِ الدينِ وأهوالِهِ، وعَنِ المكَذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّينِ وعذابِهِمْ.

وفِيهِ بَيَانٌ مَا عَنْ كِتَابِ الْفُجَّارِ، ومِنْهُمُ المطَفِّفُونَ، وفِيهِ لَقَطَاتٌ عَنْ بَعْضِ أَحْوَالهم فِي الآخِرَة.

وفِيهِ بَيَانٌ ما عَنْ كِتَابِ الأبْرَارِ، وفيه لقطاتٌ عَنْ بَعْضِ أَحْوَالِهِمْ فِي الآخِرَة.

(٣)

دُروس سورة (المطفّفين)

هـٰذِهِ السُّورَةُ مُتَشَابِكَةُ الْبِنَاءِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ دَرْسٍ واحِدٍ، ولكِنْ حَسُنَ عِنْدِي أَنْ أَقَسِّمَها إِلَىٰ أَرْبَعَةِ دُروس، وهيَ ما يلي:

الدّرس الأول: الآيَات من (١ ـ ٦).

وفي هَـٰذَا الدَّرْسِ تَحْذِيرُ المطفِّفِينَ مِنْ عذَابٍ شَدِيدٍ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مَعَ التَّعْرِيفِ بِهِمْ.

الدَّرْسُ الثاني: الآيات من (٧ ـ ١٧).

وفي هـٰذا الدَّرسِ بَيَانٌ عَنْ كِتَابِ الْفُجَّارِ، وتَحْذِيرٌ لِلْمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدّينِ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ أُعِدَّ لَهُمْ، مَعَ كَشْفِ هُوِّيَّتِهم النَّفْسِيَّة، وبيان أَنَّهُمْ

مَحْجُوبُونَ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَ القيامَة، ثُمَّ يُقْذَفُون إلىٰ الْحَرِيق بالْجَحِيم، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيق: هـٰذا الَّذِي كُنْتُم به تُكَذِّبُونَ.

الدَّرْس الثالث: الآيات مِنْ (١٨ ـ ٢٨).

وفي هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ كِتَابِ الأَبْرَار، وفيه لَقَطاتٌ مُخْتَزَلَاتٌ مُوجَزَاتٌ مِنْ نَعِيمِهِمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (٢٩ ـ ٣٦) آخر السورة.

وفي هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ مُقَارَنَةٍ بَيْنَ الْمُجْرِمِينَ فِي الدُّنْيَا، وضَحِكِهِمْ ضِحْكَ سُخْرِيَةٍ واسْتِهْزَاءٍ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، واتِّهَامِهِمْ لَهُمْ بأَنَّهُمْ ضَالُّون، وبَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الآخِرَةِ وَكَيْفَ يُجازُونَ الْمُجْرِمِينَ الكُفَّارَ بِضَحِكٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ فِي الْجَحِيم. وفِي هـٰذَا تَحْقِيقٌ لِصُورَةٍ مِنْ صُوَرِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيّ.

* * *

(٤)

التدبّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (المطفّفِين) الآيات من (١ ـ ٦)

قال اللهُ عزَّ وجلّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦)﴾:

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذا الدَّرسِ تَحْذِيرُ المطَفِّفِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَوْم الدِّين، مَعَ التَّعْرِيفِ بهِمْ.

التدبُّر التَّحْلِيلي:

﴿وَيۡلٌ﴾: كَلِمَةُ عَذَابٍ، وفيها مَعْنَىٰ الْوَعِيدِ بِعَذَاب الله، أي: عَذَابٌ شَدِيدٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ. وتَأتِي مُبْتَدَأً لأَنَّهَا عَلَىٰ تقديرِ وصْفٍ مَحْذُوف. والمجْرُورُ بَعْدَها باللَّامِ خَبَر.

وورَدَ أَنَّ كَلِمَةَ «وَيْل» اسْمُ عَلَمٌ عَلَىٰ وَادٍ فِي جَهَنَّم.

﴿لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾: **المطَفِّفُونَ**: هُمُ الَّذِينَ يَنْقُصُونَ مِنَ الْمِكْيَالِ والْمِيزَانِ إِذَا كَالُوا أَوْ وَزَنُوا لِغَيْرِهِمْ، وَيَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ وافِياً إِذَا كَالُوا أَوْ وَزَنُوا لأَنْفُسِهِمْ.

وكلمة: «الْمُطَفِّفِينَ» بِهٰذا الْمَعْنَىٰ اصْطِلَاحٌ إِسْلامِيٌّ، وأَصْلُهُ فِي اللُّغَة مِنْ «طَفَّفَ المِكْيَالَ وَنَحْوَهُ» أي: بَخَسَهُ ونَقَصَهُ.

ولَمَّا كَانَتِ اصْطِلَاحاً إِسْلَامِيّاً؛ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَعْرِيفُ «المطَفِّفِينَ» بقول اللهِ تَعَالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾.

الكَيْل: تحديدُ مِقْدَارِ الشيْءِ بِوَسَاطَةِ آلَةٍ مُعَدَّةٍ لِذَلِكَ يُقَدَّرُ بها حَجْمُ الشيء، أو يقاسُ بها طُولُهُ وعَرْضُهُ.

- ﴿... ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴾: يُقَالُ لُغَةً: «اكْتَالَ مِنْهُ واكْتَالَ عَلَيْهِ» أي: أَخَذَ مِنْهُ وتَوَلَّىٰ الكَيْلَ بِنَفْسِهِ. ويُقَال: «كَالَ الْمُعْطِي» و«واكْتَالَ الآخِذُ».

- ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾: أي: يَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ وَافِياً تَامّاً غَيْرَ مَنْقُوصٍ.

وإيفاء الكيل أو الوزن: جَعْلُهُ وافياً غَيْرَ مَنْقُوص.

- ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾: أي: وَإِذَا كَالُوا لِلنَّاسِ أَوْ وَزَنُوا لِلنَّاسِ يَنْقُصُونَهُمْ حَقَّهُمْ، فَيُعْطُونَهُمْ عَنْ طَرِيقِ التَّلَاعُبِ بالكَيْلِ أَوِ الوزْنِ أَقَلَّ مِنْ حَقِّهِمْ.

أَصْلُ الكَلَامِ: «كَالَ لَهُ» وَ«وَزَنَ لَهُ» حُذِفَتِ اللَّامُ وجُعِلَ الضَّمِيرُ المجْرُورُ بها مَفْعُولاً به، وهِيَ طَرِيقَةٌ يُسَمِّيها المعْرِبُونَ: الحذفَ والإيصَالَ.

أَقُول: لمَّا كَانَ المَالُ عِنْدَ النَّاسِ كَجُزْءٍ مِنْ ذَوَاتِهِمْ؛ كَانَ كَيْلُ أَوْ وَزْنُ الأشياءِ لَهُمْ بِمَثَابَةِ كَيْلِ أَوْ وَزْنِ ذَوَاتِهِمْ، فَحَسُنَ أَنْ يُقَال: «كَالُوهُمْ أو وَزَنُوهُمْ».

يُخْسِرُونَ: أي: يَنْقُصُون.

- ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ (٤) لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ (٥) يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦)﴾:

أي: أَلَا يَكْفِي أُولـٰئِكَ الْبُعَدَاءَ إِلَىٰ جِهَةِ أَسْفَلِ سَافِلِينَ، باحْتِيَالِهِمْ لأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ عَنْ طَرِيقِ التَّطْفِيفِ؛ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهُمْ مَبْعُوثُون بَعْدَ مَوْتِهِمْ، لِمُلَاقَاةِ أَحْدَاثِ يَوْمٍ عَظِيمٍ يَكُونُ فِيهِ حِسَابُهُمْ وفَصْلُ قَضَاءِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِمْ، ومُجَازَاتُهُ لَهُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، ومِنْهُ ظُلْمُهُمْ بأَكْلِ أَمْوالِ النَّاسِ بالْبَاطل.

إِنَّ الظَّنَّ يَكْفِي فِي هَـٰذا الأَمْرِ وأَمْثَالِهِ لِلْحَذَرِ الشَّدِيدِ مِنْ عِقَابِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ. فَكَيْفَ وَقَدْ قَامَتْ عَلَىٰ الْبَعْثِ بَرَاهِينُ قَطْعِيَّةٌ تُفِيدُ الْيَقِين.

وقِيامُ النَّاسِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هُوَ حُضورُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قياماً فِي مَحْكَمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، ثُمَّ تَكُونُ مُجَازَاتُهُمْ عَلَىٰ وفْقِ مَا قَضَىٰ اللهُ بِهِ مِنْ ثَوَابٍ، لِكُلِّ واحِدٍ مِنْ مُسْتَحِقِّي الثَّوابِ بِفَضْلِ اللهِ وَوَعْدِهِ الْكَرِيم.

الأَمْرُ بإِيفَاءِ الكيلِ والمكيالِ والْوَزْنِ والْمِيزَانِ في القرآن:

الكَيْلُ: الْعَمَلُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ تَقْدِيرُ الأَشْيَاءِ بأَدَاةٍ خَاصَّةٍ مُتَّفَقٍ عَلَىٰ التَّقْدِيرِ بِها، لإِيفَاءِ الْحَقِّ واسْتِيفائِهِ.

المِكْيَالُ: هُو الأَدَاةُ الَّتِي يَتِمُّ الاتِّفَاقُ عَلَىٰ تَقْدِيرِ كَمِّيَّةِ الأَشْيَاءِ بِها، لإِيفاءِ الْحَقِّ واسْتِيفَائِهِ.

الْوَزْن: الْعَمَلُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ تَقْدِيرُ كَمِيَّةِ الأشياء بها بِآلَةِ الْمِيزَانِ، لإيفاء الْحَقِّ واستِيفَائِه.

الْمِيزَان: هُو الآلَة الَّتِي تُوزَنُ بِها الأَشْياء وهو مَعْرُوف. ويُطْلَقُ المِيْزانُ عَلَىٰ السِّنْجَة مِنَ الحجارة أو مِنَ الْحَدِيدِ أو مِنْ نَحْوِهِمَا.

(١) أَوَّلُ ما أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِي هـٰذا المَوضُوعِ قَوْلَهُ في سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول) حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ كَانُوا أَخْبَثَ النَّاسِ في التَّلَاعُبِ بالكَيْلِ والمِكْيَالِ والوَزْنِ والمِيزَانِ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هـٰذِهِ الآيَةِ فِي مَوْقِعِها مِنْ سُورَةِ (الأعْرَاف).

(٢) ثُمّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ في سُورَةِ (الشُّعَرَاء/ ٤٧ نزول) حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾:

القِسْطَاسُ، والقُسْطَاسُ: أَضْبطُ المَوازِينِ وَأَعْدَلُهَا.

وقد سبَق تَدَبُّر هـٰذِهِ الآيَةِ في مَوْقِعِها من سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول).

(٣) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ قَوْلَهُ في سورة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول) خِطَاباً لِلَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

فَكَانَ مَا نَزَلَ بِشَأْنِ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَمْهِيداً مُشْعِراً بأنَّ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ واحِدٌ.

(٤) ثُمّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ قَوْلَهُ فِي سورَةِ (هود/ ٥٢ نزول)، وفيه حكايَةُ مَا قَالَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

القِسْطُ: الْعَدْل، وهُو مِنَ المصادِرِ الَّتِي يُوصَفُ بها الواحِدُ والجمْعُ.

وقد سبَقَ تدبُّر هـٰذه الآية في مَوْقِعِها من سورة (هود/ ٥٢ نزول).

(٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ قَوْلَهُ في سورة (الأنْعَام/ ٥٥ نزول) خِطَاباً لِلّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا، وقيل: هـٰذِهِ الآية مَدَنِيَّةٌ مَضْمُومَةٌ إِلَىٰ سُورَةِ (الأنْعَامِ) المَكِّيَّة:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هـٰذِهِ الآيَةِ في مَوْقِعِهَا مِنْ سُورَةِ (الأنْعَام/ ٥٥ نزول).

(٦) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَا جَاءَ في سورة (المطفّفين/ ٨٦ نزول) تَحْذِيراً لأَهلِ المدينة، إذْ كَانُوا قبل نزولها مِنْ أَخْبَثِ النَّاس كَيْلاً، وبَعْدَ نُزُولها صاروا أهل كيلٍ حسن، كَمَا رُوِي عن ابن عباسٍ رضي اللهُ عَنْهُ.

(٧) ثمَّ أنزل اللهُ عزَّ وجلَّ قوله في سورة (الرحمن/ ٩٧ نزول) وهي مَدَنِيَّةُ التَّنْزِيل:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾:

أي: وَوضَعَ الْمِيزَانَ لِلنَّاسِ، وكَلَّفَ النَّاسَ أَلَّا يَطْغَوْا فِي الْوَزْنِ، وأَمَرَهُمْ أَنْ يُقِيمُوا الْوَزْنَ بالْعَدْلِ المعتمِدِ عَلَىٰ قواعِدِ الحقّ، ونَهاهُمْ عَنْ أَنْ يُخْسِرُوا الْمِيزَانَ بِالنَّقْصِ مِنْ حَقٍّ ذي الْحَقِّ، عَنْ طَرِيقِ التَّلاعُبِ بِالْميزانِ، أو التَّلاعُبِ بِالْوَزْنِ.

مِمَّا ورَد في السُّنَّةِ بِشَأْنِ مَوْقِفِ المبْعُوثِينَ فِي المحشَرِ يَوْمَ القِيَامَة:

(١) روَىٰ البخاري ومُسْلِمٌ وغَيْرُهما عَنِ ابْنِ عُمَر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ حَتَّىٰ يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَىٰ أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ».

(٢) ورویٰ الإمام أحمد بسَنَدِهِ عَنِ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ الكِنْدِيِّ قَال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول:

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُدْنِيَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ، حَتَّىٰ تَكُونَ قِيدَ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْن، فَتَصْهَرُهُمُ الشَّمْسُ، فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَىٰ عَقِبَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إلىٰ رُكْبَتَيه، ومِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَىٰ حَقْوَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ إِلْجَاماً».

الْحَقْوُ: مَعْقِدُ الإزار.

أقُول: إِنَّ أَحْوالَ الآخِرَةِ لَا تُقَاسُ عَلَىٰ أَحوال الدنيا، وجاء في القرآنِ أَنَّهُ يَوْمٌ علىٰ الكافِرِينَ عسير، وعلىٰ المؤمنين يسير.

وبهـٰذا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْس الأول من دُروس سورة (المطففين).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

❋ ❋ ❋

(٥)

التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (المطفّفِين) الآيات من (٧ ـ ١٧)

قال اللهُ عزَّ وجَلّ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ
(٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ
(١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾:

القراءات:

(١٤) • سَكَتَ حَفْصٌ بخلف عنه سَكْتَةً لَطِيفَةً مِنْ غَيْرِ تَنَفُّسٍ مقْدار حَرَكَتَيْنِ علىٰ لَام ﴿بَلْ﴾ مُظْهرَةً مِن: ﴿بَلْ رَانَ﴾. وعِنْدَ تَرْكِ السَّكْتِ كَمَا هُوَ قِرَاءَةَ بَقِيَّةَ الْقُرّاءِ الْعَشْرَة، وَهُوَ الْوَجْهُ الثّانِي لِحفص يَلْزَمُ إِدْغَامُ اللّامِ في الراء.

تمهيد:

في هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ كِتَابِ الْفُجَّارِ، وتَحْذِيرٌ لِلْمُكَذِّبِينَ بَيومِ الدِّينِ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ أُعِدَّ لَهُمْ، مَعَ كَشْفِ هُوِّيَّتِهِم النَّفْسِيَّة، وبيانِ أَنَّهُمْ مَحْجُوبُونَ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيامَة، ثُمَّ يُقْذَفُونَ إلىٰ الْحَرِيقِ فِي الْجَحِيم، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَذُوقُوا آلامَ عَذَابِ الْحَرِيقِ: ﴿... هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾:

التدبّر التحليلي:

• ﴿كَلَّآ﴾: هِيَ عِنْدَ سِيبَوَيْهِ للرَّدْعِ والزَّجْرِ، وقيل: تَأْتي بمَعْنَىٰ «حقّاً»، وقيل: قَدْ تَأْتِي بمَعْنَىٰ «أَلا» الاسْتِفْتَاحِيَّة.

قال ابْنُ فارِس: إنَّ «كَلَّا» تَقَعُ فِي تَصْرِيف الكلام علىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: الرَّدّ، والرَّدْع، وصِلَة الْيَمِين، وافْتِتَاح الْكَلَام بِهَا مِثْل «أَلَا».

أَقُولُ: الَّذِي أَرَاهُ أَنَّ «كَلَّا» فِي هٰذِهِ السُّورَةِ هِي بِمَعْنَىٰ «أَلَا» الاستِفْتَاحِيَّة، مع رائِحَةِ الرَّدْعِ والزَّجْرِ في بَعْضِ الْمَوَاضِع.

- ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ⑦﴾: أي: انْتَبِهُوا أَيُّهَا المتَلَقُّونَ لِكَلَامِ رَبِّكُمْ: إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ.

الْفُجَّارُ: هُمُ الْغُلَاةُ الْمُسْرِفُونَ فِي ارْتِكَابِ الآثَامِ والْجَرَائِمِ وكَبَائِرِ الذُّنُوب، والْمُنْبَعِثُونَ انْبِعَاثاً قَبيحاً وَقِحاً فِي فِعْلِ الشَّرِّ والضُّرِّ والظُّلْمِ والْعُدْوان. ومُفْرَدُ «الْفُجَّار» لفظ «الْفَاجِر».

الْفُجُور: هو الانْبِعَاثُ الْقَبِيحُ الْوَقِحُ الْواسِعُ في فِعْلِ الشُّرُور وكَبَائِرِ الإثم.

- ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ⑧ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ⑨﴾:

تَكَرَّرَ في القرآن المجيد اسْتِعْمَالُ عِبَارَةِ: «مَا أَدْرَاكَ»، حتَّىٰ غدا مَعْلُوماً أَنَّها عبارةٌ يُرَادُ بها التَّعْظِيمُ، والتَّهْوِيلُ، والتَّكْبِيرُ، والتَّعْجِيب. ولَدَىٰ التحليلِ التَّدَبُّرِيِّ ظَهَرَ لِي أَنَّها صِيغَةٌ مِنْ صِيَغِ التَّعْجِيبِ الْقُرْآنِيَّة المبتكَرَة، ضِمْنَ أُصُول اللِّسَانِ الْعَرَبِي، وهي أَبْلَغُ مِنْ عِبارَتَي التَّعَجُّبِ والتَّعْجِيبِ الْمُسْتَعْمَلَتَيْنِ عِنْدَ الْعَرَبِ: «مَا أَعْظَمَهُ، وأَعْظِمْ به».

ومَعْنَىٰ عبارةِ: «مَا أَدْرَاكَ مَا كَذا»: أَعْظِمْ بِهٰذا الأَمْرِ إِعْظَاماً لَا يَصِلُ إِلَيْهِ مَدَىٰ إِدْرَاكِك.

سِجِّينٌ: كَلِمَةٌ مُشْتَقَةٌ مِنَ السِّجْنِ، اسْتُعْمِلَتْ فِي الْقُرْآنِ للدَّلَالَةِ بِهَا عَلَىٰ أَمْرٍ غَيْبِيٍّ عَنِ الثَّقَلَيْنِ، بَيَّنَهُ الله ـ عزَّ وَجلَّ ـ بِأَنَّهُ كِتَابٌ خَاصٌّ بِالْفُجَّارِ، وَأَنَّهُ مَرْقُومٌ: «أي: مَكْتُوب».

أي: اعْلَمْ أيُّها المتلقي بانْتِبَاهٍ أَنَّ الكِتَابَةَ المتَعَلِّقَةَ بِالْفُجَّارِ، والْمُبَيِّنَةَ لأَشْخَاصِهِمْ، وأَعْمَالِهِمْ، وعُقُوبَاتِهِمْ؛ مَكْتُوبَةٌ فِي كِتَابٍ خَاصٍّ اسْمُهُ عِنْدَ رَبِّكَ: «سِجينٌ». وهُوَ كِتَابٌ عَظِيمٌ جِدّاً لَا يَصِلُ إِدْرَاكُكَ مَهْمَا امْتَدَّ إلىٰ تَصَوُّرِ حَقِيقَتِهِ.

أقول: لَعَلَّهُ مِنْ عَظَمَتِهِ كِتَابٌ جَامِعٌ لِصُوَرِ أشْخَاصِ الْفُجَّارِ ظَوَاهِرِهَا وبَوَاطِنِها، ولأَعْمَالِهِمْ، تَسَلْسُلاً مَعَ تَوَارِيخِ حَيَواتِهِمْ، حَتَّىٰ انْتِهَاءِ أَعْمَارِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ومَا يُلَاقُونَ مِنْ حِسَابٍ وفَصْلِ قضاءٍ، وَجَزَاءٍ بِعَذَابٍ أليمٍ فِي دَرْكٍ سَافِلٍ مِنْ دَرَكَاتِ الجحيم.

وبِما أَنَّ الْمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ مَشْمُولُونَ بِعُنْوانِ الْفُجَّارِ؛ قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ بضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

- ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾:

﴿وَيۡلٞ﴾ سَبَقَ في الدَّرْسِ الأول بيان كافٍ بِشَأْنِ هٰذِهِ الكَلِمَة.

أي: عَذَابٌ شَدِيدٌ أَلِيمٌ فِي الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ يَوْمَ الدِّينِ؛ لِلْمُكَذِّبينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رَسُولَ رَبِّهِمْ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْبَاءِ يَوْمِ الدِّين.

وأَبَانَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ العِلَّةَ النَّفْسِيَّةَ لِلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدّين؛ وهِيَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُعْتَدٍ وأثِيمٌ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُ الرَّبِّ الجلِيلِ الْعَظِيم مِنْ كِتَابِهِ الْمَجِيدِ جَحَدَهَا وقَالَ: أَسَاطِيرُ الأَوّلين.

الْمُعْتَدِي: الظَّالِمُ الَّذِي يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْحَقِّ بإرَادَتِهِ، وهو عالِمٌ بِأَنَّهُ ظَالِمٌ.

وبالتَّأَمُّلِ نُدْرِكُ أَنَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ؛ إِنَّمَا يُكَذِّبُ بِهِ لِيُحَسِّنَ لِنَفْسِهِ سُلُوكَ سُبُلِ الظُّلمِ، لِيَسْتَزِيدَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاة الدُّنْيَا بفُجُورٍ، دون

أن تَشْعُرَ نَفْسُهُ بخَوْفٍ مِنَ الْمَصِيرِ التَّعِيسِ، كاللِّصِّ الّذِي يَحْلُو لَهُ تَرْجِيحُ احْتِمَالاَتِ الظَّفَرِ بِمَا يَسْرِقُهُ، دُونَ أَن تَقْبِضَ عَلَيْهِ أَيْدِي الْعَدَالَةِ، ويُسَاق إِلَىٰ قَطْعِ يَدِه.

الأَثِيم: المسْرِفُ فِي ارْتِكَابِ الذُّنُوب والمَعاصِي من دَرَكَةِ الكبائِر.

ومِنْ مظاهر تَكْذِيبِهِ أَنَّهُ إذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ بتكْرَارِ آيَاتُ اللهِ الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ؛ قَالَ: أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ، فقال تَعالَىٰ بِضَمِيرِ المتكلِّم الْعَظِيم:

- ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾:

- ﴿... أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: أَبَاطِيلُ مُقْتَبَسَةٌ ومَأْخُوذَةٌ مِنْ خُرَافَاتِ وأباطِيل الأَوَّلِينَ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ. «**أَسَاطِير**»: جَمْعُ «إِسْطَارٍ، وإِسْطَارَة، وأُسْطُور، وأُسْطُورَةٍ».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديث عَنِ الْفُجَّار:

- ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾: أي: أَلَا اعْلَمْ أَيُّهَا المتَلَقِّيَ لكَلَامِ رَبِّكَ بانْتِبَاهٍ وَوعْيٍ؛ أَنَّ الْفُجَّارَ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ هَـٰذا الدَّرْكِ الْخَسِيسِ، من اعْتِبَارِ آيَاتِ كِتَابِ رَبِّهِمْ أَسَاطِيرَ الأَوَّلِينَ؛ بِعَوَامِلَ مِنْ أَصْلِ فِطْرَتِهِمْ، بَلْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَهُ من آثَامٍ بِتَكْرَارٍ فِي حَيَواتِهِمْ؛ هُوَ الّذِي جَعَلَ قُلُوبَهُمْ مُغَشَّاةً بِنُكَتٍ سَوْدَاءَ قَذِرَةٍ، هِيَ مِنْ آثَارِ مَعَاصِيهِمُ الكَثِيرَة الَّتِي تَرَاكَمَ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وكانُوا فِي ارْتِكَابِهَا غَيْرَ عَابِئِينَ بما رَتَّب اللهُ عَلَيْهَا مِنْ عِقَابٍ أليم.

يُقَال لُغَةً: «رَانَ الثَّوْبُ، يَرِينُ، رَيْناً» أي: جَلَّلَهُ الدَّنَسُ. ويُقَال: «رَانَتْ نَفْسُ الرَّجُلِ» أي: خَبُثَتْ بمَا غَشَّىٰ عَلَيْهَا مِنْ أَرْجَاسِ السُّلُوكِ الّذِي ارتكَبَ بِهِ شُرُوراً وآثاماً.

والْبَيَانُ النَّبَوِيُّ يُجلِّي مَعْنَىٰ الآيَةِ بِوُضُوحٍ كافٍ.

رَوَىٰ الإمَامُ أَحْمَدُ، والتِّرْمِذِيُّ وصَحَّحَهُ، والحاكِمُ وصَحَّحَهُ، والبيهقيُّ فِي شُعَبِ الإيمان، عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قال: «إنَّ الْعَبْدَ إذَا أَذْنَبَ نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فإنْ تَابَ ونَزَعَ واسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّىٰ تُغَلِّفَ قَلْبَهُ، فَذلِكَ الرَّانُ الّذِي ذَكَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ في الْقُرْآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑭﴾..».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديث عَنِ الْفُجَّارِ:

• ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ⑮ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ⑯ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ⑰﴾:

• ﴿... لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: لَمُحْتَرِقُونَ بِنَارِ الْجَحِيم، يُقَالُ لُغَةً: «صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِي بِهَا» أي: احْتَرَقَ فِيهَا، وَلاَمَسَ لَهَبُهَا جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

الْجَحِيمُ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ يَوْم الدِّين. وكُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْوَاةٍ يُطْلَقُ عَلَيْهَا لُغَةً لَفْظَةُ «جَحِيم».

المعنىٰ: أَلَا اعْلَمْ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلام رَبِّكَ؛ أَنَّ الْفُجَّارَ سَوْفَ يَكُونُونَ حِينَ يَقُومُونَ فِي الْمَوْقِفِ لِحِسَابِ رَبِّ الْعَالَمِين، وفَصْلِ قَضَائِهِ؛ مَحْجُوبِينَ عَنْ مُشَاهَدَةِ أَنْوَارِ عَظَمَتِهِ، إمَّا بِغشَاواتٍ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ أَوْ بِسُحُبٍ فِي أَجْوَائِهِمْ تَحْجُبُ عَنْهُمُ الْمُشَاهَدَة. ثُمَّ بَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ؛ يَأْمُرُ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ الملائِكَةَ المكَلَّفِين أَنْ يَسُوقُوهُمْ إِلَىٰ دَرَكاتِ تَعْذِيبِهِمْ فِي الْجَحِيم؛ بِسَوْقِهِمْ وَوَضْعِ كُلٍّ مِنْهُمْ فِي الدَّرَكَةِ المقْضِي عَلَيْهِ أَنْ يُوضَعَ فِيهَا، عِنْدَئِذٍ يَحْتَرِقُونَ بِنَارِ الْجَحِيم، وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ مِنَ الزَّمَنِ يَذُوقُونَ فيها عَذَابَ الْحَرِيقِ، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلَهُمُ اللهُ جُلُوداً غَيْرَهَا؛ يُقَالُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَلائِكَةِ المشْرِفِينَ عَلَىٰ شُؤُونِهِمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ: هَـٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبونَ، حِينَمَا كُنْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيا، فَلَا تُصَدِّقُونَ رُسُلَ رَبِّكُمُ المؤيّدِينَ مِنْهُ بالآياتِ البيِّناتِ والْمُعْجزاتِ الْبَاهِرَاتِ، إِذْ كَانُوا يُنْذِرُونَكُمْ بِعَذَابِ يَوْمِ الدِّين، وإِذْ كَانُوا يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ كِتَابِهِ الْمَجِيد.

لَقَدْ ثَبَتَ لَكُمُ الْيَوْمَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ طُغَاةً فُجَّاراً ظَلَمَةً، تُؤْثِرُونَ مَتاعَاتِ الْحَياةِ الدُّنْيا، وتَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَكُمْ وشَهَوَاتِكُمْ وَوَسَاوِسَ شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنّ، وتَرْتَكِبُونَ كُبْرَيَاتِ الْجَرَائِمِ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهَا جَرَائِمُ فِيها ظُلْمٌ وعُدْوانٌ، وبَغْيٌ وطُغْيَانٌ.

وبهٰذَا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْس الثاني مِنْ دُرُوس سورة (المطفّفِين).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٦)

التَّدَبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُرُوسِ سورة (المطَفِّفين) الآيات من (١٨ ـ ٢٨)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾:

القراءات:

(٢٤) • قرأ أبو جَعْفر، ويعقوب: [**تُعْرَفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةُ**]، ببناءِ الفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشَرةِ: **[تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ]**، بخِطَاب كُلِّ فَرْدٍ، بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفْرَادِيِّ، يُمْكِنُ أَنْ يَرَىٰ يَوْمَ الدِّينِ وُجُوهَ الأَبْرَارِ، وهُمْ يُنَعَّمُونَ فِي جَنَاتِ النَّعِيم.

وبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ جَمَالُ التَّنْوِيعِ فِي التَّعْبِيرِ، والمؤدَّىٰ واحد.

(٢٦) ● قرأ الكِسَائي: **[خَاتَمُهُ]**.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[خِتَامُهُ]**.

الْخَاتَمُ والْخِتَامُ: يَأْتِيَانِ بِمَعْنَىٰ آخِرِ الشيءِ، فالمؤدَّىٰ بِهِمَا واحد.

تمهيد:

في آيَاتِ هـٰذا الدَّرْسِ بيانٌ عَنْ كِتَابِ الأَبْرار، في مُقَابِلِ البيانِ السَّابِقِ عَنْ كِتَابِ الْفُجَّار، وفيها لقَطَاتٌ مُوجزَاتٌ مُخْتَزَلَاتٌ مِنْ نَعِيمِ الأَبْرَارِ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين.

التدبُّر التّحليلي:

الأبرار: هُمْ أَصْحَابُ الْمَرْتَبَةِ الْوُسْطَىٰ الْكَائِنَةِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ المتَّقِينَ، ودُونَ مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، وهُمُ الَّذِينَ يَتَوَسَّعُونَ فِي فِعْلِ الصَّالِحَاتِ مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ، وفِي تَرْكِ المكْرُوهَاتِ وخلافِ الأَوْلَىٰ الَّتِي لَمْ تَصِلْ إِلَىٰ دَرَكَةِ الْمُحَرَّمَاتِ، وهي ذَاتُ دَرَجَات مُتَفَاضِلَاتٍ بِحَسَب مقادِيرِ التوسُّعِ فِي نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ وتَرْكِ الْمَكْرُوهَاتِ وَغيرِ المسْتَحبَّاتِ.

أَمَّا مَرْتَبَةُ التَّقْوىٰ فَهِيَ خَاصَّةٌ بِفِعْلِ الواجباتِ وتَرْكِ المحرَّمَاتِ، وهِيَ ذَاتُ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ أَدْنَاهَا مَا يُنْجِي مِنَ الْخُلُودِ في عَذَاب النَّارِ، وسَقْفُهَا يَصِلُ إِلَيْهِ مَنْ أَدَّىٰ جَمِيعَ الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكَ جَمِيعَ الْمُحَرَّمَاتِ، ويُلْحَقُ بِهِ مَنْ تَابَ واسْتَغْفَرَ وَقَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُ وقَبِلَ اسْتِغْفَارَهُ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ مِنَ الْمَعَاصِي والْمُخَالَفَاتِ.

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ المحسِنِينَ؛ فَهِيَ مَرْتَبَةُ مَنْ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ، مع أدَائِهِمْ لِحُقُوقِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، وبَعْضِ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ.

والآيات في هـٰذا الدَّرْسِ تَتَحَدَّثُ عَنْ كِتَابِ الأَبْرَارِ، في مُقَابِلِ الحديثِ عَنْ كِتَابِ الْفُجَّارِ في الدَّرْسِ الثَّاني من دُروس السورة.

المعْنَىٰ: أي: انْتَبِهْ أيُّهَا المتَلَقِّي لِكِتَابِ رَبّكَ، واعْلَمْ أَنَّ الكِتَابَةَ المتَعَلِّقَةَ بالأَبْرَارِ، والمبيّنَةَ لأَشْخَاصِهِمْ، وأَعْمَالِهِم الظَّاهِرَة والْبَاطِنَةِ، ومَثُوبَاتِهِمْ؛ مَكْتُوبَةٌ فِي كِتَابٍ خَاصّ اسْمُهُ عِنْدَ رَبّكَ: «عِلّيُّون»، وهُو كِتَابٌ عَظِيمٌ جِدّاً لَا يَصِلُ إِدْراكُكَ إِلَىٰ تَصوُّرِ حَقِيقَتِهِ مَهْمَا امْتَدَّ.

وهو كِتَابٌ «مَرْقُوم»: أي مَكْتُوبٌ. [**يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**]: وهُمْ فيما ظَهَرَ لي أَهْلُ مَرْتَبَةِ الإحسَانِ، وَمِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ. وشُهُودُهُم لَهُ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ، والظَّاهِرُ أَنَّهُ يَكُونُ في الآخِرَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ نَعِيمِ الأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلُوهَا مُعزَّزِينَ مُكَرَّمِينَ:

• ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

• ﴿... لَفِى نَعِيمٍ﴾: أي: لَمُحَاطُونَ مِنْ كُلِّ ذِي إِحْسَاسٍ فِيهِمْ بِلَذَّاتِ النَّعِيم، فَهُمْ كَالْغَرقَىٰ فِي النَّعِيم.

• ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

الأَرَائِك: جَمْعُ «الأَرِيكَةِ»، وهِي الْمَقْعَدُ المنَجَّدُ الْوَثِير.

أي: هُمْ يَجْلِسُونَ مُنَعَّمِينَ عَلَىٰ الْمَقَاعِدِ المنَجَّدَةِ الْوَثِيرَةِ، يَنْظُرُونَ مَا حَوْلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، فَيَرَوْنَ كُلَّ مَا يَسُرُّهُم النَّظرُ إِلَيْهِ، من حُورٍ حِسَانٍ،

وولْدَانٍ مُخَلَّدِينَ، وأشْجَارٍ بَدِيعَةِ الأَشْكَالِ والألْوَانِ والثَّمَرَاتِ والزُّهُورِ، وطُيُورٍ عَجِيبَةِ الأَنْوَاعِ، جَمِيلَةٍ فَائِقَةِ الْجَمَالِ، ذَوَاتِ أَلْوَانٍ تُدْهِشُ النَّاظِرِينَ وَتَسُرُّهُمْ.

- ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾، وفي القراءة الأُخرىٰ: [**تُعْرَفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ**]، وهو تنويعٌ مؤدَّاهُ واحد:

أي: تَعْرِفُ أَيُّهَا الرَّائِي، إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَرَىٰ وُجُوهَهُمْ حِينَئِذٍ؛ حُسْناً وبَرِيقاً وَنُعُومَةً وَلِيناً مِنْ أَثَرِ النَّعِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُحَاطُونَ بِلَذَّاتِهِ.

النَّضْرَةُ: هِي حُسْنٌ وبَرِيقٌ يَدُلَّانِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ هِي فِيهِ مُنَعَّمٌ غَايَةَ التَّنْعِيمِ.

- ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥﴾:

الرَّحِيق: هِيَ الْخَمْرُ الَّتِي لَا غِشَّ فيها وَلَا شَيْءَ يُفْسِدُها، وهِي أَجْوَدُ الْخَمْرِ.

المخْتُوم: أي: الَّذِي لَهُ خِتَامٌ يَحْفَظُهُ مِنَ الْفَسَادِ، ولَا يمَسُّهُ مَاسٌّ حَتَّىٰ يُفَكَّ خَتْمُهُ لِلأَبْرَار.

أي: إِنَّ الأَبْرَارَ يُسْقَوْنَ مِنْ قِبَلِ المأْمُورِينَ بِخِدْمَتِهِمْ، مِنْ خَمْرٍ هِيَ مِنْ صِنْفِ الرَّحِيقِ الْمَوْضُوعِ فِي أَدَوَاتٍ نَفِيسَاتٍ، وهٰذِهِ الأَدَوَاتُ مَخْتُومَاتٌ، تَجْعَلُ مَا فِيهَا بَعِيداً عَنْ أَنْ يَمَسَّهُ مَاسٌّ.

- ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾:

خِتَامُه مِسْكٌ: أي: يَجِدُ شَارِبُهُ فِي آخِرِ شُرْبِهِ لَهُ رَائِحَةَ المِسْكِ.

التَّنافس: التَّسَابُقُ والتَّبَارِي بَيْنَ الْقَوْمِ، دُونَ أَنْ يُلْحِقَ بَعْضُهُمُ الضَّرَرَ بِبَعْضٍ.

المعنىٰ: إِنَّ الرَّحِيقَ المخْتومَ الَّذِي يُقَدَّمُ فِي الْجَنَّةِ لِلأَبْرَارِ؛ هُوَ مِنْ

أَجْوَدِ خُمُورِ الْجَنَّةِ الَّتِي لَا غَوْلَ فيها وَلَا سُكْرَ يُؤَثِّرُ عَلَىٰ أَدْمِغَةِ شَارِبِيها، ويَجِدُ شَارِبو هٰذا الرَّحِيقِ في آخِرِ شُرْبِهِمْ لَهُ رائِحَةَ الْمِسْكِ النَّفِيس.

ولِكَثْرَةِ اللَّذَةِ الَّتِي يَتَنَعَّمُ بِهَا الأَبْرَارُ مِنْ شُرْبِ الرَّحِيقِ المخْتُومِ، الَّذِي يَجِدُونَ في آخِرِ كُلِّ شَرْبَةٍ يَشْرَبُونَها مِنْهُ رَائِحَةَ المسْكِ النَّفِيسِ مِنْ مِسْكِ الْجَنَّةِ؛ يَتَسَابَقُ الأَبْرَارُ فِي كَثْرَةِ الشُّرْبِ مِنْهُ.

وجَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ هَـٰذا التَّنافُسِ بَعِبَارَةٍ تَتَضَمَّنُ التَّرغِيب فِي هَـٰذَا التَّنافُسِ، والثَّنَاءَ عَلَيْهِ، فَقَال اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿... وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: وفي ذَلِكَ الشَّرَابِ الرَّفِيعِ في نَفَاسَتِهِ؛ فَلْيَتَسَابَقِ الْمُتَسَابِقُونَ، ولْيَتَبَارَىٰ المتَبَارُون، دُونَ أَنْ يُلْحِقَ أحَدٌ مِنْهُمْ بِغَيْرِهِ أذىً، لِمَا يَجِدُون مِنْ وَفْرَةٍ.

- ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

المِزَاجُ: مَا يُمْزَجُ ويُخْلَطُ بِشَيْءٍ آخَرَ لِتَحْسِينِ طَعْمِهِ، كَمَاءِ الْوَرْدِ يُوضَعُ مِنْهُ مِقْدَارٌ مَا فِي شَرَابٍ آخَرَ ويُمْزَجُ به.

تَسْنِيمٌ: عَيْنُ مَاءٍ فِي الجنَّةِ يَشْرَبُ مُتَنَعِّماً بها المقَرَّبُونَ، وهُمْ فِيمَا يَظْهَرُ الْمُحْسِنُونَ والأبْرَارُ، وتَسْمِيَةُ هَـٰذِهِ الْعَيْنِ «تَسْنِيماً» الْمُشْتَقَّ مِنَ السَّنَامِ؛ يُشْعِرُ بأنَّ مَوْقِعَ تَفَجُّرِهَا مَكَانٌ مَا مِنْ أعالِي الْجَنَّةِ حَيْثُ الْفِرْدَوْسُ الأَعْلَىٰ.

- ﴿عَيْنًا﴾: حَالٌ، أي: حَالَ كَوْنِ تَسْنِيم عَيْناً، أو مَنْصُوبَةٌ علىٰ الْمَدْحِ، أي: نَمْدَحُ تَسْنِيماً بكَوْنِهَا عيناً يَشْرَبُ مُتَنَعِّماً بالشُّرْبِ مِنْهَا الْمُقَرَّبُونَ أَصْحَابُ الْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ فِي الْجَنَّةِ.

- ﴿... يَشْرَبُ بِهَا ...﴾: ضُمِّنَ فِعْلُ «يَشْرَبُ» مَعْنَىٰ فِعْلِ «يَتَنَعَّمُ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِالباء، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَين هُمَا: يَشْرَبُ مِنْهَا، ويَتَنَعَّم بها الْمُقَرَّبُون.

• ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: جَاءَ فِي القرآن وصْفُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأَنَّهُ مِنَ الْمُقَرَّبين، ووَصْفُ السَّابِقينَ السَّابِقينَ بأَنَّهُمْ هُمُ الْمُقَرَّبُون. وأفْهَمُ مِنْ هٰذا أَنَّ الْمُقَرَّبينَ هُمُ الْمُحْسِنُونَ، ويُلْحَقُ بِهِم السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الأَبْرَارِ، فالْمُحْسِنُونَ مُتَفَوِّقُونَ فِي السَّبْقِ إِلَىٰ فِعْلِ الصَّالِحَاتِ، والْقُرُبَات، ويُوجَدُ في الأَبْرَارِ مَنْ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمُ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ إِلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ والْقُرُبَاتِ مِنْ مَرَاضِي الله.

وبهٰذَا أَنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْس الثَّالِثِ من دُروسِ سُورَة (المطفّفِين).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٧)

التَّدبُّر التحليلي للدَّرسِ الرابع من دروس سورة (المطفّفِين) الآيات من (٢٩ ـ ٣٦) آخر السورة

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

القراءات:

(٣١) • قَرأَ أَبو عَمْرٍو، ويَعْقُوب: [**أَهْلِهِمِ انْقَلَبُوا**].

وقرأَها حمزة، والكِسائي، وخَلَف: [**أَهْلِهُمُ انْقَلَبُوا**].

وقرأها باقِي الْقُرَّاءِ العشَرَةِ: [**أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا**].

وهي وجُوهٌ عَرَبِيَّة، وهذا كله عند الوصل.

ووقَفَ الْجَمِيعُ بِكَسْرِ الْهَاءِ وسُكُونِ الميم.

(٣١) • قرأ حَفْصٌ، وابن عامر بخلف عنه، وأبُو جَعْفَر: [**فَكِهِينَ**].

وقرأهَا بَاقي القرّاء العشَرَة: [**فَاكِهِينَ**].

الْفَكِهُ والْفَاكِهُ: النَّاعِمُ الْعَيْشِ، المسْرُور بمَا هُوَ فِيهِ من مَتَاعٍ.

(٣٣) • قَرأ حَمْزَةُ، ويَعْقُوب: [**عَلَيْهُمْ**] بِضَمِّ الهاء، وهو لُغة.

وقرأها باقي الْقُرّاء العشرة: [**عَلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ الهاء، وهو لُغَةٌ.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ مُقَارَنَةٍ بَيْنَ المجْرِمِينَ في الدُّنْيَا الَّذِينَ جَاءَ وصْفُهُمْ فِي أَوَائِلِ هـٰذِهِ السُّورَةِ بأَنَّهُمُ الْفُجَّار، وضَحِكِهِمْ ضَحِكَ سُخْرِيَةٍ واسْتِهْزَاءٍ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، واتِّهَامِهِمْ لَهُمْ بأَنَّهُمْ ضَالُّونَ؛ وبَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا في الآخرة، وكَيْفَ يُجَازُونَ الْمُجْرِمِينَ الكُفَّارَ الْفُجَّارَ بِضَحِكٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ في الجحيم، وفي هـٰذا تَحْقِيقٌ لصورَةٍ مِنْ صُوَرِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِي.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ (٣٣)﴾:

الَّذِينَ أَجْرَمُوا هُمُ الَّذِينَ ذُكِرُوا في الآيَةِ (٧) من السُّورَةِ بأَنَّهُمْ فُجَّارٌ،

الْمُجْرِمُ: هُوَ المتعَدِّي بِذَنْبٍ كَبِيرٍ.

وقَدْ جاءَ في القُرآنِ الْمَجيدِ لَفْظُ: «الْمُجْرِمين» عُنْوَاناً مُقَابِلاً لِلْمُسْلِمِينَ، وَوَصْفاً لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ فِي الدُّنْيَا عُقوبَةً عَلىٰ ارْتِكَابِهِم الجرائِمَ الكُبْرَىٰ، وَوَصْفاً لِلمُعَذَّبِينَ فِي النَّار.

فَيَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بلفظ: «الْمُجْرِمينَ» مُرْتَكِبُو الآثَام مِنْ دَرَكَاتِ الكُفْرِ، لِذَلِكَ فَهُمْ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ الَّذِينَ يَحْتَرِقُونَ بِلَهَبِ نِيرانِهَا، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلَهُمُ اللهُ جُلوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَاب.

وَقَدْ كَانَ هَـٰؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ الكُفَّارُ الْفُجَّارُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ يَضْحَكُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ ورسُولِهِ ﷺ وبما أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ، ضَحِكَ اسْتِهْزَاءٍ وسُخْرِيَةٍ، إِذْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ المؤمِنِينَ قَدْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ بإيمانِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا، بِأَوْهَامِ خَوْفِهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ، وطَمَعِهِمْ بِثَوَابِهِ إِذَا هُمْ أَطَاعُوهُ في أَوَامِرِهِ ونَوَاهِيهِ، وَهَـٰذا مِنْهُمْ ضَلَالٌ عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَارُوه لأَنْفُسِهِمْ فِي الحياةِ الدُّنْيَا.

- ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾: أي: وَإِذَا مَرَّ المؤْمِنُونَ بِهِمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ، أَوْ مَرُّوا هُمْ بالْمُؤْمِنِينَ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ، ويَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا الَّتِي حَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ دِينُهُمْ؛ يَتَغَامَزُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ اسْتِهْزَاءً وَسُخْرِيَةً بالْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمين.

التَّغَامُز: يُقَالُ لُغَةً: «تَغَامَزَ الْقَوْمُ» أي: أَشَارَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ بأَعْيُنِهِمْ أَو بأَيْدِيهِمْ أَوْ بِحَوَاجِبِهِمْ وَحَرَكَاتٍ فِي وُجُوهِهِمْ، للدَّلَالَةِ بِها عَلَىٰ مَعَانٍ يَقْصِدُونَها فِيهَا سُخْرِيَةٌ واسْتِهْزَاءٌ مِمَّنْ يَكُونُ التَّغَامُزُ ضِدَّهُ، فَرْداً كانَ أَوْ أَكْثَر.

- ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١﴾، وفي القراءة الأخرىٰ: **[فَاكِهِينَ]**، والمعنىٰ واحِدٌ.

أي: وإِذَا رَجَعَ الْمُجْرِمُونَ الكُفَّارُ الْفُجَّارُ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ فِي بُيُوتِهِمْ؛

رَجعُوا حَالَةَ كَوْنِهِمْ نَاعِمِي الْعَيْشِ مَسْرُورِينَ، إِذْ لَمْ تُسَيْطِرْ عَلَيْهِمْ بِزَعْمِهِمْ أَوْهَامُ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ يَحرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيا، طَاعَةً لأَوَامر دينِهِمْ وَنَوَاهِيه.

- ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: وإذا رأىٰ الْمُجْرِمُونَ الكُفَّارُ الْفُجَّارُ الَّذِينَ آمَنُوا وأسْلَمُوا يَعْبُدُونَ اللهَ رَبَّهُمْ، ويَجْتَنِبُونَ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ قَالُوا: إِنَّ هـٰؤُلَاءِ المؤمِنِينَ المسْلِمِينَ لَضَالُّون.

- ﴿لَضَآلُّونَ﴾: أي: لَغَيْرُ مُهْتَدِينَ إلَىٰ سُبُلِ سَعَادَتِهِمْ فِي حَيَواتِهِمْ، ولَتَائِهُونَ عَنْ وَسَائِلِ تَحْقِيقِ مَتَاعَاتِهِمْ مِنْ دُنْيَاهم، ولَمَغْرُورُونَ بِأَوْهَامِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والحياةِ الآخِرَةِ وَجَنَّتِهَا ونارِها.

- ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ الكُفَّارَ الْفُجَّارَ؛ قَدْ يَعْمَلُونَ عَلَىٰ إِلْزَامِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا؛ بِأَنْ يَسْلُكُوا سُبُلَهُمُ الْخَارِجَةَ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، ليَكُونُوا مَعَهُمْ فِي مُسْتَنْقَعٍ وَخِيمٍ قَذِرٍ وَاحِدٍ، فَهُمْ كأَنَّهُمْ حَمَلَةُ رِسَالَةٍ تُوجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكرِهُوا النَّاسَ عَلَىٰ أَنْ يَسْلُكُوا مَعَهُمْ سُبُلَ الضَّلَالِ والشَّرِّ، والْفَسَادِ والإفْسَادِ فِي الأَرْض، والْحَالُ أَنَّهُمْ مَا أُرْسِلُوا لِيَكُونُوا ذَوِي سُلْطَانٍ عَلَيْهِمْ وَلَا حَافِظِينَ لهم بالْقَهْرِ والْجَبْرِ، حَتَّىٰ يَدْفَعَهُمْ وَاجِبُ الإفْسَادِ لأَنْ يَسْلُكُوا مَعَهُمْ سُبُلَ الْفَسَادِ.

إِنَّ إِبْلِيسَ لَيْسَ مَبْعُوثاً بِرِسَالَةِ إِضْلَالٍ وإِفْسَادٍ فِي الأَرْض، فَمَا لِجُنُودِ إِبليسَ من النَّاسِ يُحَاوِلُونَ إِكْرَاهَ الَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا عَلَىٰ أَنْ يَسْلُكُوا سُبُلَهُمُ الشَّيْطَانِيَّةَ الضَّالَّة؟.

- ﴿حَٰفِظِينَ﴾: أي: حُرَّاساً مُرَاقِبِينَ يَحْفَظُونَ مَنْ يَحْرُسُونَهُمْ ولَوْ بالإِكْرَاهِ، لِيَسْلُكُوا سُبُلَهُمْ.

إنَّ الإكْرَاهَ فِي كُلِّ المجتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، بِقَضَايَا الدِّينِ؛ لَا يَكُونُ مِنْ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام، وَلَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهُمْ عُلَمَاءَ فُقَهَاءَ، وإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ، والضَّلَالِ والإضْلَالِ، والْفَسَادِ والإفْسَادِ فِي الأَرْضِ، وشَواهِدُ التَّارِيخِ الْبَشَرِي تَشْهَدُ بهٰذا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحدَّثُ عَنْ حَالِ الَّذِينَ آمَنُوا يَوْمَ الدِّينِ، وكَيْفَ يُجَازُونَ الْمُجْرِمِينَ الْفُجَّارَ الكُفَّارَ عَلَىٰ ضَحِكِهِمْ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، بضَحِكٍ يَتَحقَّقُ فِيهِ الْعَدْلُ الرَّبَّانِيُّ فِي الآخِرَة:

• ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: فَالْيَوْمَ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الدِّينِ والْجَزَاءِ الأَكْبَرِ؛ يَتَحقَّقُ الْعَدْلُ الرَّبَّانِيُّ، وَمِنْ ظَوَاهِرِهِ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا يَكُونُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، جَالِسِينَ عَلَىٰ الْمَقَاعِدِ المنَجَّدَةِ الْوَثِيرَة الْفَاخِرَةِ، يَنْظُرُونَ إِلَىٰ أَهْلِ جهَنَّمَ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ، بِوَسَائِلَ جَعَلَهَا اللهُ لَهُمْ، فَيَرَوْنَ فِيمَنْ يَرَوْنَ فِيهَا أَئِمَّةَ الكُفْرِ والْفُجُورِ الْمُجْرِمِينَ، يَحْتَرِقُونَ بِلَهَبِهَا، والظَّاهِرُ أَنَّ هٰؤُلَاءِ يُمَكَّنُونَ مِنْ مُشَاهَدَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وهُمْ جُلُوسٌ عَلَىٰ أَرَائِكِهِمْ، فَيَضْحَكُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ وَاقِعِ حَالَ الكُفَّارِ الْمُعَذَّبِين، وَرُبَّمَا يَقُولُون لَهُمْ: كُنْتُمْ في الدُّنْيا تَضْحَكُونَ مِنَّا، لأَنَّا كُنَّا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، فَالْيَوْمَ نَحْنُ نَضْحَكُ مِنْ تَقَلُّبِكُمْ فِي عَذَابِ الجحيم، ونَجْزِيكُمْ عَلَىٰ ضَحِكِكُمُ السَّابِقِ مِنَّا بِضَحِكٍ مِثْلِهِ، لَقَدْ كُنْتُمْ تَضْحَكُونَ مِمَّا لَا دَاعِي للضَّحِكِ مِنْهُ، لَكِنَّنَا نَضْحَكُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُضْحَكَ مِنْهُ.

• ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿ثُوِّبَ﴾: أي: جُوزي، يُقَالُ لُغَةً: «ثَوَّبَهُ» أي: كافَأَهُ وجَازَاه.

المَعْنَىٰ: هَلْ جُوزِيَ الكُفَّارُ بالْعَدْلِ الْمُطَابِقِ لِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟.

الاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيريٌّ، وجَوَابُهُ: نَعَمْ، لَقَدْ جوزُوا بالْعَدْلِ المطابِقِ لِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

وبهـٰذَا أنْتَهِي مِنْ تَدَبُّرِ الدَّرْسِ الرابع آخِر دُروس سورة (المطفّفِين).

والْحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوْفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

(٨)

ملحق: مُستخرَجات بلَاغِيّة من سُورَة (المطفِّفِين)

تُوجَد في هـٰذِهِ السُّورَةِ اخْتِيَارَاتٌ بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، مِنْهَا مَا يلي:

أوّلاً: مِنَ الإيجاز بالحذف ما يلي:

المثال الأول: قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ في السُّورَةِ بِشَأْنِ المطَفّفِين:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾:

أي: وإذَا كَالُوا لَهُمْ، أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُون، حُذِفَ حَرْفُ الْجَرِّ اللّام إيجَازاً، وهُوَ مَا يُسَمَّىٰ عِنْدَ النُّحاةِ: «الْحَذْف والإيصال».

ويُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هـٰذا التَّعبِيرُ مِنْ قَبِيلِ تَنْزِيلِ الْمُمْتَلَكَاتِ مَنْزِلَةَ أشياءَ مِنْ ذَوَاتِ الْمَالِكِينَ لَهَا، لأَنَّ النَّاسَ يَعْتَبِرُونَ مَا يَمْلِكُونَهُ بِمَثَابَةِ جُزْءٍ مِنْ ذَواتِهِم.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في التَّعْرِيف بالمراد من لفظ «تَسْنِيم»:

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾:

في هـٰذِهِ الآيَةِ التَّضْمِينُ، وهُو تَضْمِينُ فِعْلِ «يَشْرَبُ» مَعْنَىٰ فِعْلِ «يَتَنَعَّمُ»، فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن.

والتقدير: يَشْرَبُ مُتَنَعِّماً بالشُّرْب مِنْهَا الْمُقَرَّبُون.

ثَانِياً: مِنَ الكِنَايَةِ ما يلي:

قول اللهِ عزّ وجَلَّ بِشَأْنِ الرَّحِيقِ المخْتُومِ الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ الأَبْرَارُ فِي جَنَاتِ النَّعِيم:

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦)﴾:

فِي عِبَارَةِ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ كِنَايَةٌ عَنْ نَفَاسَةِ الرَّحِيقِ الْمَختُومِ الَّذِي يَحْسُنُ أَنْ يَتَنَافَسَ بالشُّرْبِ مِنْهُ المتَنَافِسُون، ولكنْ لَا يَكُونُ فِي أَذَىٰ مِنْ بِعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، لِوَفْرَةِ مَا يَجِدُون مِنْ رَحِيق.

ثالِثاً: مِنْ خُرُوجِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ عِدَّة أَمْثِلَة:

المثال الأوَّلُ: قَوْلُ اللهِ عزَّ وجَلَّ فِي تَلْوِيمِ وَتَثْرِيبِ وَتَوْبِيخ المطفِّفِين:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ (٤) لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ (٥)﴾:

يُرادَ بالاسْتِفْهَامِ هُنَا التَّلْوِيمُ والتَّثْرِيبُ والتَّوْبِيخ، إِذْ لم يَكْتَفُوا بالظَّنِّ الرَّاجح، مَعَ أَنَّ اليقين قَد قَامَت عليه البراهين.

المثالُ الثاني: قول اللهِ تَعَالَىٰ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنَ السُّورَة:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ (٨)﴾ - ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩)﴾:

يراد بالاسْتِفْهَامِ فِي العِبَارَتَين التَّعْجِيب مِنْ عَظَمَةِ كِتَابِ الْفُجَّارِ، ومِنْ عَظَمَةِ كِتَابِ الأبْرار.

المثالُ الثالث: قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (٣٦)﴾:

يُرَادُ بالاسْتِفْهَامِ هُنَا التَّقْرِير، وانْتِزَاعُ الاعْتِرَافِ مِنَ الْمُتَلَقِّي الْعَالِمِ بمَا جُوزِي به الكُفَّارُ.

رابعاً: من التوكيد لِدَوَاعٍ بَلَاغِيّة ما يلي:

(١) ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ٧﴾:

(٢) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ١٦﴾:

(٣) ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ١٨﴾:

(٤) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ٢٢﴾:

هٰذِهِ الْجُمَلُ مُؤَكَّدَاتٌ بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّام المزَحْلقَة»، لدواعٍ بلاغية.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ٢٩﴾:

هٰذه الجملة مؤكَّدَة بـ «إنَّ ـ والجملَة الاسميَّة».

(٦) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾:

جملة: «إنَّ هـٰؤلاءِ لضَالُّونَ» مؤكَّدَة بـ «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللَّام المزَحْلقَة».

وأَكْتَفِي بهـٰذه المستخرجات من الاختياراتِ البلاغيّة لهـٰذا الملحق.

والحمْدُ للهِ عَلَىٰ معونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وتَوفِيقِهِ، ومِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.

* * *

سورة البقرة

٢ مصحف ٨٧ نزول

وهي أوَّلُ مَا نـزل في المدينة من القرآن

نَـزَلَتْ في أوقاتٍ مُتفَرِّقَة

لكنَّ الآية ٢٨١

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

فَقَدْ رُوِيَ أنَّهَا آخِرُ مَا نَـزَلَ مِنْ القرآن

ورُوِي أنَّ آيات الرِّبَا من (٢٧٥ ـ ٢٨٠)

هي من أواخِرِ ما نَـزَلَ مِنْ قُرآن

(١)

نص السورة وما فيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾
ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ
يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن
قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن
رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ
عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

---

١ ـ • سكَتَ أبو جعفر سَكْتَةً لطيفةً عَلى «ألف ـ لَامْ ـ مِيم» من غَيْرِ تَنَفُّس.
وقرأها باقي القرّاء العشرَةِ بغَيْرِ سَكْتٍ.

٢ ـ • قرأ ابْنُ كَثِيرٍ بِلَفظ: [فِيهِ] بصِلَةِ هَاءِ الضَّمِير بياءٍ مَدِّيَّةٍ.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بِدُونِ هٰذِهِ الصِّلَةِ.

٣ ـ • قرأ وَرْشٌ [الصَّلاَة] بتَفْخِيم اللَّام حيْثُ وقَعَتْ.
وقرأها باقي القُراء العشرة بِتَرْقِيقِ اللَّام.

٤ ـ • قرأ وَرْشٌ فِي: [وَبالْآخِرَةِ] بِنَقْلِ حَرَكَةِ الهمزة إلى السَّاكِنِ قَبْلَهَا مَعَ حَذْفِ الهمزة، ولَهُ في مَدِّ البَدَلِ: الْقَصْرُ، والتوسُّط، والطُّول. وقرأ أيضاً بِتَرْقِيقِ الرَّاءِ لِوُجُودِ الكَسْرَةِ الأَصْلِيَّةِ قَبْلَها.
وقرأ حمزة بِخُلْفٍ عَنْ خَلَّادٍ بالسَّكْتِ عَلَىٰ لَامِ التَّعْرِيفِ وصْلاً، وأمَّا فِي الوقف فَلَهُ السَّكْتُ والنَّقْلُ، ووقف أيضاً بإمالة هاء التأنيث بخلفه. ووقف الكسائي بالإمالة، بلا خلاف فَقَطْ.

٦ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.

=

قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ
ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ
وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ
ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ
ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ

=٦ - • قرأ قالُون، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وهشام بأحد أوجهه الثلاثة: [ءَاْنذَرْتَهُمْ] بتسهيل الهمزة الثَّانِيَة بينها وبَيْنَ الألف، مع إدْخال ألِفٍ بينهما.

وقرأها ابن كثير، والأصبهاني ورُوَيْس، بِتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ إدْخال.

وللأزرق وجْهَان: **الأول**: مثل ابْن كثير ورُويس والأصبهاني. **والثاني**: إبدالُها ألِفاً خالصة مع المدّ المشبع للساكنين.

ولِهِشام ثلاثة أوجه: التحقيق مع الإدخال وعدمه، والتسهيل مع الإدْخالِ، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين بلا إدخال.

٩ - • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو: **[وَمَا يُخَادِعُونَ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَمَا يَخْدَعُونَ]**.

١٠ - • قرأ نافع، وابْنُ كثيرٍ، وأبُو عمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويعقوب: **[يُكَذِّبُونَ]**، مِنْ فِعْلِ «كَذَّبَ» المضعف.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَكْذِبُونَ]**.

١١-١٣-• قرأ هشام، والكسائي، ورُويس: **[قِيلَ]** في الموضِعَيْن بإشْمَامِ كَسْرَةِ الْقَافِ الضَّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرَةٍ خَالِصَة.

١٣ - • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ورُويس: **[السُّفَهَاءُ أَلَا]** بإبْدَال الْهَمْزَةِ الثانية واواً خالِصَةً في الوصل، وبتحقيقها عند البدء بها.

ووقف على **[السُّفَهَاءِ]** حمزة، وهشام بخلفه بإبدال الهمزة ألفاً مع المدّ، والقصر، والتوسط، ويجوز رومها بالتسهيل مع المدّ والقصر.

ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا
نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت
تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى
ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ
فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ
﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم
مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ

---

١٤ ـ ● قرأ أبو جعفر: [مُسْتَهْزُونَ]. وكَذَلِكَ قرأها حمزة في الوقف، وله في الوقف: التسهيل بين الهمزة والواو، وله أيضاً: الإبدال ياءً خالصة فيقرأ [مُسْتَهْزِيُونَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [مُسْتَهْزِئُونَ]. وللأزرق ثلاثةُ البدل.

١٩ ـ ● قرأ ابن كثير: [فِيهِۦ] بصِلَةِ هَاء الضمير بياءٍ مَدِّيَّة.

٢٠ ـ ● قرأ ورْش: [أَظْلَمَ] بِتَغْلِيظِ اللّام.

٢٠ ـ ● قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بِضَمّ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بِكسْرِ الْهاء.
وهُمَا نُطْقَان عَرَبِيَّان.

٢٠ ـ ● في لفظة: [شَيْءٍ] عدَّةُ قراءاتٍ في النُّطْقِ يُعْنَى بها المقرِئون.

ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ
أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا
عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ
ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي
رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ
وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن
يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ
مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ
كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ
تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ

---

٢٣ ـ • قرأ وَرْشٌ، والسُّوسي، وأبو جعفر: **[فَاتُوا]**، وكذلك قرأها حمْزَةُ فِي الوقْفِ. وقرأها باقي القراء العشرة: **[فَأْتُوا]**.

٢٧ ـ • فَخَّمَ ورْش اللّام من: **[يُوصَلَ]** في الوصل، وله في الوقْفِ التفخيمُ والترقيق، والتفخيمُ أَرْجحُ لأنَّ السُّكونَ عارِض، وليَدُلَّ على حُكْمِ الوصل.

يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا
فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ
أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ
عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ
قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا

---

٢٨ ـ • قرأ ابنُ كثير بِصِلَةِ هاءِ الضمير بياء مَدِّيَّةٍ من: [إِلَيْهِ].

٢٨ ـ • قرأ يعقُوب: [تَرْجِعُونَ].
وقرأها باقي القرَّاءِ العشرة: [تُرْجَعُونَ]. بالبناءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

٢٩ ـ • وقف يعقوب بهاء السَّكْتِ على آخر: [فَسَوَّاهُنَّ].

٢٩ ـ • قرأ قالُون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسْكَانِ الهاء.
وقرأ باقي القرَّاء العشرة: [وَهُوَ] بِضَمّ الهاء، وَوَقف يعقوب بهاء السَّكْت.

٢٩ ـ • في لفظة: [شَيْءٍ] عِدَّةُ قراءاتٍ في النُّطق يُعْنَىٰ بها المقْرِئون.

٣٠ و٣٣ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلم في الموضعين.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكَان.

٣١ ـ • قرأ أبو جعفر: [أَنْبُونِي]. وكذلك قرأها حمزة في الوقف، ولَهُ حالة الوقف: التسهيل، والإبْدَالُ ياءً خالصة فيقرأها: [أَنْبِيُونِي].
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَنْبِئُونِي]. مع ثَلَاثَةِ البَدَل لِلأَزْرق.

٣١ ـ • توجَدُ في هَمْزَتَيْ [هَؤُلَاءِ إِنْ] عِدَّةُ قراءاتٍ في النُّطْقِ يُعْنَىٰ بها المقْرِئون. =

تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ
فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا
يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا
ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن
رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟
مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ

=٣٣ـ • وقف حمزة في: [**أَسْمَائِهِمْ**] بأربعة أوجه: تحقيق الهمزة الأولى، وبإِبْدَالها يَاءً خَالِصَة، وعلى كُلٍّ مِنَ التحقيق والإبْدَال يَقْرأُ بِتَسْهِيلِ الهمزة الثانِية مع المدّ والقصر.

٣٤ ـ • قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان: [**لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا**] بضَمِّ التَّاءِ إتباعاً لضمّ الجيم، والوجه الثاني لابن وردان: إشمام كسرة التاء الضم.
وقرأها باقي الْقُراء العشَرَةِ: [**لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا**].

٣٥ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [**شِيتُما**]، وكَذَلِكَ حمْزَةُ في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**شِئْتُما**].

٣٦ ـ • قرأ حمزة: [**فَأَزَالَهُمَا**]. ووقف بالتحقيق والتسهيل.
وقرأها باقي القرَّاءِ العشرة: [**فَأَزَلَّهُمَا**].

٣٧ ـ • قرأ ابْنُ كثير: [**فَتَلَقَّىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ**].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**فَتَلَقَّىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ**].

٣٦ و٣٧ ـ • قرأ ابن كثير في: [**فِيهِ ـ و ـ عَلَيْهِ**] بِصِلَةِ هَاء الضَّمِير بياءٍ مَدِّيَّة.

٣٨ ـ • قرأ حمزة: [**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهُمْ**].
وقرأها يعقوب: [**فَلَا خَوْفَ عَلَيْهُمْ**].
وَقَرَأَهَا باقي القراء العشرة: [**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**].

أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ
فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا
تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ
﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ
﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾
۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ
أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا
عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ
رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي
فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ
شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ

---

٤٠ ـ • في لفظة: [إِسْرَائِيلَ] عدَّةُ قراءاتٍ في النُّطقِ، يُعْنَىٰ بِها المقرِئُون.

٤٠ و٤١ ـ • أثبَتَ يَعْقُوبُ ياءَ المتكلِّمِ من [فارْهَبُونِي] ومِنْ [فَاتَّقُونِي]. وحَذَفَها مِنْهُما باقِي القُرَّاءِ العشرة.

٤٥ ـ • فخَّم لام [الصَّلَاةِ] ورش، ورقَّق راءَ: [لَكَبِيرَةٌ].

٤٦ ـ • لابْنِ كثير صلة هاء الضمير من: [إِلَيْهِ].

٤٨ ـ • في لفظة: [شَيْئاً] عِدَّةُ قراءاتٍ في النُّطق، يُعْنَىٰ بِهَا المقرِئُون.

٤٨ ـ • قرأ ابْنُ كَثِيرٍ، وأبو عَمْرو، ويعقوب: [وَلَا تُقْبَلُ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَا يُقْبَلُ].

٤٩ ـ • لحمزة، وهشام بخلفه في كَلِمَةِ [سُوءَ] قراءاتٌ يُعْنَىٰ بِهَا المقرِئُون.

يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ
(٤٩) وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ
تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذۡ وَعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ
بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ (٥٢) وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ
(٥٣) وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ
ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ
فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ
لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ
بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ
ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٥٧) وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ
ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا

---

٥١ ـ • قرأ أبو عمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [وَعَدْنَا].
وقرأَها باقي القراء العشرة: [وَاعَدْنَا].

٥٤ ـ • قرأ أبو عَمْرٍو بخُلْفٍ عَنِ الدُّوري: [بارِئْكُمْ].
وقرأها باقي القرَّاءِ العشرة: [بَارِئِكُمْ].
وللدّوري وجهان آخران: كسر الهمزة كسرة خالصة، والاختلاس، وللسوسي وجهان: الإسكان، والاختلاس. ووقف حمزة بتسهيل الهمزة فقط.
• لورْشٍ تفخيم اللَّام من: [ظَلَمْتُمْ] ومِنْ: [ظَلَّلْنَا] ومِنَ: [وَمَا ظَلَمُونَا].
• ولَهُ تَرْقِيقُ الرَّاء مِنْ [خَيْرٌ].

٥٨ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جَعْفر: [شِيتُمْ]. وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف. =

وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞
وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ
فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ
كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ
﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا
رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ
خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ
ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ

= وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: [**شِئْتُمْ**].

٥٨ ـ ● قرأ نافع، وأبو جَعْفر: [**يُغْفَرْ لَكُمْ**].
وقرأها ابن عامر: [**تُغْفَرْ لَكُمْ**].
وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: [**نَغْفِرْ لَكُمْ**].

٥٩ ـ ● قرأ هشام، والكسائي، ورُوَيس لفظة: [**قِيلَ**] بإشْمَامِ كَسْرَة القاف الضَّمّ.
وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرَةٍ خَالصَة.

٦١ ـ ● قرأ حمزة بتَسْهِيل همزة: [**سَأَلْتُمْ**]، في الوقف فقط.

٦١ ـ ● قرأ أبو عمْرو: [**عَلَيْهِمِ الذِّلَّةُ**] في الوصل.
وقرأها حمزة، والكِسائي، ويعقوب، وخلف: [**عَلَيْهُمُ الذِّلَّةُ**] في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ**].
أمّا في الوقف فَكُلُّهُمْ يَقِفُونَ بِكَسْرِ الهاء وسُكُونِ الميم، ما عدا حمزة، ويَعْقُوب فإنَّهما يَقِفَان بِضَمِّ الْهَاءِ وسُكُونِ الميم على أَصْلَيْهِمَا.

٦١ ـ ● للأَزْرق في: [**وَبَاءُوا**] ثَلَاثَةُ البدل. ولحمزة التسهيلُ في الوقف مع المدّ والقصر.

يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ
وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ
عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا
مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا
فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ
عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ
ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾
فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾
وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا

---

٦١ ـ • قرأ نافع: [النَّبيئينَ] مع المدّ المتصل. وللأزرق ثلاثةُ الْبَدَل.
وقرأها باقي القراء العشرة: [النَّبِيِّينَ].
• رقَّقَ ورش الراء من: [غَيْرَ] ومن [خَيْرٌ].
• وقرأ ابْنُ كثير في: [مِنْهُ] بصِلَةِ الهاء.
٦٢ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [والصَّابِينَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [والصَّابِئِينَ].
ووقف حمزة بحذف الهمزة، وبتسهيلِها بين بين.
٦٢ ـ • قرأ حمزة: [وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهُمْ].
وقرأها يعقوب: [وَلَا خَوْفَ عَلَيْهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ].
٦٥ ـ • ووقف حمزة بحذفِ همزة: [خاسِئِينَ]، وبتسهيلها بَيْنَ بَيْن.
٦٧ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [يَأْمُرْكُم] بخُلْفٍ عن الدُّوري.
والوجه الثاني للدُّوري الاختلاس، وهو الإتيان بمُعْظَمِ الْحَرَكَة، وقُدِّرَ بِثُلُثَيْهَا
وللدّوري وجه ثالث وهو الضمّة الكاملة كالباقين.
=

هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ
ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا
لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ
ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ
ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ
فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [يأْمُرُكُمْ]. وأبْدَلَ الهمزَةَ ورشٌ، وأبو جعفر، وكذلك حمزة في الوقف.

٦٧ ـ • قرأ حفص: [هُزُواً].
وقرأها حَمزة: [هُزْءاً] في الوصل، وكذلك خلف العاشر في الوصل والوقف، ولحمزة في الوقف وجهان:
الأول: نَقْلُ حركَةِ الهمزة إلى الزَّاي، وَحذف الهمزة، فيصير النُّطْقُ بزاي مَفْتُوحَةٍ بَعْدَهَا ألف [هُزاً].
الثاني: إبْدال الهمزة واوا: [هُزْواً].
وقرأها باقي القراء العشرة: [هُزُؤاً].

٦٨ ـ • وقف يَعْقُوب بهاء السَّكْتِ على آخِرِ: [مَا هِيَ] وكذلك في الآية: (٧٠).
• رقَّقَ ورش الراء من: [قِرِدَةً] ومِنْ: [بِكْرٌ].
• وقرأ ابْنُ كَثِيرٍ بِصِلَةِ هَاء: [فِيهِ] بياءٍ مَدِّيَّةٍ.

٧١ ـ • توجَدُ عِدَّةُ قراءات في النُّطق بـ: [قَالُوا الآنَ] يُعْنَىٰ بها المقرئون.

٧١ ـ • قرأ السُّوسِي، وأبو جعفر: [جِيتَ]. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [جِئْتَ].

٧٢ ـ • قرأ السُّوسي، وورْش من طريق الأصبهاني، وأبو جَعْفر: [فَادَّارَاتُمْ].
وكذلك حمزة في الوقف. =

فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ
كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾
ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ
وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ
فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ
كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ
مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ
ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا
يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنۡهُمۡ
أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ
﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا

= وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: [فَادَّارَأْتُمْ].

٧٤ ـ • قرأ قالُون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [فَهْيَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَهِيَ]. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

٧٤ ـ • قرأ ابن كثير: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] بياء الغائبين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [عَمَّا تَعْمَلُونَ] بِتَاءِ المخاطَبين.

٧٨ ـ • قرأ أبو جعفر: [إِلَّا أَمَانِيَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [إِلَّا أَمَانِيَّ] بِتَشْدِيدِ الياء.

٧٩ ـ • قرأ يعقوب: [بِأَيْدِيهُمْ] و[أَيْدِيهُمْ] بضم الهاء.
وقرأهُمَا باقي القرَّاءِ العشرة بِكَسْرِ الهاء.

مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ
أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ
إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ
ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۙ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن
كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا
تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ
وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ

---

٨١ ـ • وقف حمزة في: [سَيِّئَةً] بإبدال الهمزةِ ياءً خَالصة فيقرؤُها: [سَيِّيَة].

٨١ ـ • قرأ نَافع، وأبو جعفر، [خَطِيئَاتُهُ] بالجمع وللأزرق ثلاثة البدل.

وقرأها باقي القراء العشرة: [خَطِيئَتُهُ] بالإفراد.

ووقف حمزة بإبْدَالِ الهمزة ياء خالصةً، مع إدْغَام الياء قبلَهَا فيها.

٨٣ ـ • قرأ ابن كثير، وحَمْزَة، والكِسَائي: [لَا يَعْبُدُونَ] بياء الغائبينَ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [لَا تَعْبُدُونَ] بتَاءِ المخاطبين.

٨٣ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، ويعقوب، وخلف العاشر: [حَسَناً] بفتح الحاء والسين.

وقرأها باقي القراء العشرة؛ [حُسْناً] بضَمّ الحاء وإسْكان السين.

وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ
وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ
أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ
ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ
أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى
ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا

---

٨٥ - • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**تَظَاهَرُونَ**].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**تَظَّاهَرُونَ**] بتَشْدِيد الظّاء.

٨٥ - • قرأ حمزة، ويعقوب: [**عَلَيْهُمْ**] بضمّ الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**عَلَيْهِمْ**] بكسر الهاء، وهما لغتان.

٨٥ - • قرأ حمزة: [**أَسْرَىٰ**] مع الإمالة.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**أُسَارَىٰ**] مع ملاحظة الإمالة والتقليل لأصحاب كلّ منهما.

٨٥ - • قرأ نافع، وعاصم، والكِسَائي، ويعقوب، وأبو جعفر: [**تُفَادُوهُمْ**].
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: [**تَفْدُوهُمْ**].

٨٥ - • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكِسَائيّ، وأبو جعفر: [**وَهْوَ**] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة [**وَهُوَ**] بضم الهاء.
ووقف يعقوب علَيْها بِهاءِ السَّكْت.

٨٥ - • قرأ نَافع، وابن كثير، وشعبة، ويعقوب، وخَلَفٌ في اختياره: [**يَعْمَلُونَ**] بياء الغائبين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**تَعْمَلُونَ**] بتاء المخاطبين.
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني.

٨٧ - • قرأ ابن كثير: [**وَأَيَّدْنَاهُ**] بِصِلَةِ هاء الضَّمِيرِ بياء مَدِّيَّة.

=

تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾
وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ
﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ
وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا
عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا
ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن
يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ
عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ
بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ

= ووقف حمزة بتحقيقِ الهمزة، وبتَسْهيلِهَا.

٨٧ ـ • قرأ ابن كثير: [**الْقُدْسِ**] بإسْكان الدال.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**الْقُدُسِ**] بضم الدَّال.
الْقُدْسُ، والْقُدُسُ: بمَعْنَىٰ الطَّهارَة.

٩٠ ـ ٩٣ ـ • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر: [**بِيسَمَا**]، وكذلك قرأها حمْزَة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**بِئْسَمَا**].

٩٠ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [**أَنْ يُنْزِلَ**]، من فعل: «أَنْزَلَ».
وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَنْ يُنَزِّلَ**]، من فعل: «نَزَّلَ» المضعف.

٩١ ـ • قرأ هشام، والكسائي، وُرويس: [**قِيلَ**] بإشْمَامِ كَسْرَةِ القَافِ الضَّمّ.
وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرَةٍ خَالِصَة.

٩١ ـ • قرأ قالون، وأبو عمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [**وَهْوَ**] بإسْكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَهُوَ**].
ووقف يعقوب بهاء السَّكت.

٩١ ـ • وقف البزّي بهاء السَّكت على: [**فَلِمَ**] بخُلْفٍ عَنْهُ، وكذلِكَ يعقوب بخلف عنه. =

ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم
مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ
ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ
خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا
وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا
يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلۡ إِن كَانَتۡ
لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ
فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا
بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ
أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ
يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ

= وقرأها باقي القراء العشرة بغير هاء السَّكْت وهو الثاني للبزي، ويعقوب.

٩١ - • قرأ نَافع: [أَنبِئَاءَ اللهِ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَنْبِيَاءَ اللهِ].

٩٣ - • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [قُلُوبِهِمِ العِجْلَ] وصلاً.
وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [قُلُوبِهُمُ العِجْلَ] وصْلاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: [قُلُوبِهِمُ العِجْلَ] وصْلاً.
ووقف الجميعُ بِكَسْرِ الهاء وسُكُونِ الميم.

٩٣ - • قرأ أبو عمْرو بِخُلْفٍ عَنِ الدوري: [يَأْمُرْكُمْ]. والوجه الثاني للدوري الاخْتِلاس، وهو الإتيان بثُلُثَي الحركة، وللدُّوري وجه ثالث: وهو ضم الراء ضمة خالصة.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَأْمُرُكُمْ]. ولا يخفى الإبدالُ لورش، والسُّوسِي، وأبي جعفر. وكذلك حمزةُ في الوقف.

٩٥ - • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَيْدِيهِمْ].

بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ
عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ
بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا
نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ
مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا
تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ
ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى

---

٩٦ ـ • قرأ يعقوب: [بِمَا تَعْمَلُونَ] بتاء المخاطبين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [بِمَا يَعْمَلُونَ] بياء الغائبين.

٩٧ و٩٨ ـ • قرأ ابن كثير: [لِجَبْرِيلَ] في الموضعين.
وقرأهما شعبة بأحد وجهيه: [لِجَبْرَئِلَ].
وقرأهما حمزة، والكِسَائي، وشعبة بخلف عنه، وخلف: [لِجَبْرَئِيل] ووقف حمزة بالتسهيل.
وقرأهما باقي القراء العشرة: [لِجِبْرِيلَ].

٩٨ ـ • قرأ نَافع، وقُنْبل بخلف عنه وأبو جعفر: [مِيكَائِلَ].
وقرأها أبو عمْرو، وحفص، ويعقوب: [مِيكَالَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [مِيكَائِيلَ] وهو الوجه الثاني لقنبل، ووقف حمزة بالتسهيل مع المد والقصر.
• قرأ ابْنُ كثير: [يَتَمَنَّوْهُ] و[يَدَيْهِ] بِصِلَةِ هَاءِ الضَّمِير.

١٠٢ ـ • قرأ ابْنُ عامر، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [وَلَكِنِ الشَّيَاطِينُ]، وهو وجهٌ عَرَبيٌّ صحيح.
وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: [وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ].

ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ
يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا
يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ
أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ
وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ
وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ
﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ
لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟
رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾
مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن
يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞

---

١٠٢ ـ ● وقف حمزة وهشام بخلفه بوجهين: في: [**الْمَرْءِ**]: ١ ـ نَقلِ حركة الهمزة إلى الراءِ، مع حذف الهمزة، وإسْكَانِ الراء مفخَّمَة. ٢ ـ مثل الأول لكن مع رَوْم الرّاءِ مُرقَّقَة، فَرَوْم الحركَةِ مثْلُ الحركة.

١٠٢ ـ ● قرأ ورْشٌ، والسُّوسي، وأبو جعفر: [**وَلَبِيسَ**]. وكذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: [**ولَبِئْسَ**].

١٠٥ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [**أَنْ يُنْزَلَ**]، من فعل«أَنْزَلَ». وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَنْ يُنَزَّلَ**]، من فعل «نَزَّلَ» المضعف.

١٠٥ ـ ● وقف حمزة، وهشام بخلف عنه على [**يَشَاءُ**] بعِدَّةِ وجُوه:
١ ـ إبدال الهمزة ألفاً مع المدّ والقصر والتوسط لَهُمَا.
٢ ـ تَسْهِيل الهمزة بالرَّوْم مع المدّ والقصر لحمزة.
٣ ـ تَسْهِيل الهمزة بالرَّوْم مع التوسُّط والقصر لهشام.

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ
تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم
مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَۚ
وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ
هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن

---

١٠٦ ـ ● قرأ ابن عامر بخلف عن هشام: [نُنْسِخْ]، من فعل: «أنسَخَ» ولا بُدّ أن يكُونَ لغة، وبمعنى: «نسخ».
وقرأها باقي القراء العشرة، وهو الوجه الثاني لهشام: [نَنْسَخْ]، من فعل: «نَسَخَ» بمعنى أزال، وهذا هو المشهور لُغةً.

١٠٦ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [نَنْسَأْهَا].
وقرأها باقي القراء العشرة: [نُنْسِهَا].

١٠٨ ـ ● وقف حمزة بنَقْلِ حَرَكةِ الهمزة من [أَنْ تَسْأَلُوا] إلى السِّينِ قَبْلَها، وحَذْفِ الهمزة، فقراءتُهُ: [تَسَلُوا].

١٠٨ ـ ● وقف حمزة على كَلِمَةِ [سُئِلَ] بِنُطْقِهَا: [سُوِلَ]، فَسَهَّلَ الهمزة، وأبْدَلَها واواً خَالِصَةً مَكْسُورَة.

١١١ ـ ● قرأ أبو جعفر: [أَمَانِيهِمْ] بإسْكَانِ الياء مَمْدُودَةً.
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَمَانِيُّهُمْ]، بضَمّ الياء مُشَدَّدَة وهي حركة الرفع.

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ
لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ
فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ
إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ
سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾
بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ

---

١١٢ ـ ● قرأ قالون، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جَعْفَر: [وَهْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَهُوَ] بِضَمِّ الهاء، ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.
١١٢ ـ ● قرأ حمزة: [وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهُمْ].
وقرأها يَعْقُوب: [وَلَا خَوْفَ عَلَيْهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ].
وهي وجوهٌ عربيَّةٌ جائِزَة.
١١٥ ـ ● وقف رُوَيس بخلف عنه على [فَثَمَّ] بهاء السَّكْت.
١١٥ و١١٦ ـ ● قرأ ابن عامر: [عَلِيمٌ * قَالُوا].
وقرأها باقي القراء العشرة: [عَلِيمٌ * وقَالُوا].
١١٧ ـ ● قرأ ابن عامر: [كُنْ فَيَكُونَ] بنصب: «فَيَكُونَ».
=

تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ
تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ
أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ
﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ
إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ
مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ
بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ
أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا
تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ
وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ
قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ

= وقرأها باقي القراء العشرة: **[كُنْ فَيكُونُ]** برفع: «فَيَكُونُ» أي: فهو يكون.

١١٩ ـ ● قرأ نافع، ويعقوب: **[وَلَا تَسْأَلْ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَلَا تُسْأَلُ]**.

١٢٢ ـ ● قرأ أبو جعفر بتَسْهِيلِ الهمزة الثانية من: **[إِسْرَائيل]** مع المدّ والقصر.
وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة بالتحقيق.

١٢٤ ـ ● قرأ ابن عامر بخُلْفٍ عن ابنِ ذكوان: **[إِبْرَاهَامَ]**، حيثُ وردَ في هـٰذِهِ السُّورَة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِبْرَاهِيمَ]** وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

١٢٤ ـ ● وقف حمزة بتحقيق همزة: **[فَأَتَمَّهُنَّ]** وبِتَسْهِيلِهَا.
ووقف يعقوبُ بخلف عنه بِهاء السَّكْتِ.

عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا
وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ
أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ
قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ
ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ
أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ
ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ
لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

---

١٢٤ ـ • قرأ حفص، وحمزة: **[عَهْدِي الظالمينَ]** بإسْكَانِ ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القراء العشرة بفتح ياء المتكلّم ووقف يعقوب بهاء السكت بخلف عنه.

١٢٥ ـ • قرأ نافع وابن عامر: **[وَاتَّخَذُوا]** بفتح الخاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[واتَّخِذُوا]** بكسر الخاء.

١٢٥ ـ • فخَّمَ ورش اللّام من: **[مُصَلًّى]** وَصلاً، فإن وقف فَلَهُ التَّفْخِيمُ مع الْفَتْحِ، والترقيقُ مع التَّقْلِيل.

١٢٥ ـ • قرأ نَافع، وهشام، وحفص، وأبو جعفر: **[بَيْتِيَ للطَّائِفِينَ]** بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي الْقُرَّاء العشرة بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

١٢٦ ـ • قرأ ابن عامر: **[فَأُمْتِعُهُ]**، من فعل: «أمْتَعَ» المهموز.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَأُمَتِّعُهُ]**، من فعل: «مَتَّعَ» المضعَّف ووقف حمزة بالتحقيق وبالتسهيل.

١٢٦ ـ • قرأ ورْش، والسُّوسي، وأبو جعفر: **[وبِيسَ]**، وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَبِئْسَ]**.

١٢٧ ـ • قرأ ابن عامر بخُلْف عن ابن ذكوانَ: **[إِبْرَاهَامُ]**، حَيْثُ ورَدَ في هـٰذِهِ السُّورَة.
وقرأها باقي الْقُراء العشرة: **[إِبْرَاهِيمُ]** وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

١٢٨ ـ • قرأ ابْنُ كثير، والسُّوسِي، ويعقوب: **[وَأَرْنَا]**.
وقرأ بالاخْتِلَاسِ دُوري أبي عمْرو، وهو الإتيان بثُلُثَي الْحَرَكة.
وقرأها باقي الْقُرَّاءَ العشرة: **[وَأَرِنَا]**.

رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن
يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي
ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ
أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ
وَيَعۡقُوبُۙ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ
قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ
ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ
مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا
كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا

---

١٢٩ ـ • قرأ يعقوب: [فِيهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فِيهِمْ] بكسر الهاء.
١٢٩ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة؛ [عَلَيْهِمْ].
١٢٩ ـ • قرأ يعقوب: [وَيُزَكِّيهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَيُزَكِّيهِمْ].
١٣٢ ـ • قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر: [وَأَوْصَىٰ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَوَصَّىٰ].
المهموز أخو المضعَّف فهما مُتَكافِئان.
١٣٣ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ورُوَيْس: [شُهَدَاءَ إِذْ] بِتَسْهِيلِ الهمزة الثّانية بَيْنَ بَيْنَ.
وقرأها باقي القراء العشرة بتحقيق الهمزة الثانية.
واتّفقُوا على تحقيق الهمزة الأولى.

أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ
إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ
ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ
لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ
إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟

---

١٣٥ ـ ● قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان: [إِبْرَاهَامَ]، حيث وردت في هذه السورة. وقرأها باقي القراء العشرة: [إِبْرَاهِيمَ]، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

١٣٦ ـ ● قرأ نافع: [النَّبِيئُونَ].

وللأزرق ثلاثةُ البدل.

وقرأها باقي القراء العشرة: [النَّبِيُّونَ].

١٣٧ و١٣٩ ـ ● قرأ قالُون، وأبُو عمرٍو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسْكَانِ الهاء في الموضعين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَهُوَ] بضمّ الهاء.

ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

١٤٠ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرٍو، وشعبة، وأبو جعفر، ورَوْح: [أَمْ يَقُولُونَ] بِياءِ الغَائبين.

وقرأها باقي القراء العشرة [أَمْ تَقُولُون] بتاء المخاطَبين.

هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ
شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾
تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا
تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ
ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ
وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ
ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا
لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ

---

١٤٠ ـ • قرأ ورش بِنَقْلِ حركة الْهَمْزَة من: [وَمَنْ أَظْلَمُ] إلى النون قَبْلَها، وفَخَّمَ اللَّام.

١٤٢ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [قِبْلَتِهِمِ الّتِي] في الوصل.
وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [قِبْلَتِهُمُ الّتِي] في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة: [قِبْلَتِهِمُ الّتِي] في الوصل.
أما في حالة الوقف فَكُلُّهُمْ يَكْسِرُونَ الهاء ويُسَكِّنُونَ الميم.

١٤٢ ـ • قرأ نافع، وابن كَثِير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ورُويس: [يَشَاءُ إِلَىٰ] بتَسْهِيلِ الهمزة الثَّانية، وإبْدَالِهَا واواً خَالِصَةً.
وقرأها باقي القراء العشرة بالتحقيق.
وكُلُّهُمْ متَّفِقُونَ عَلى تحقيقِ الثانية إذا بَدَؤوا بها.

١٤٢ ـ • قرأ قُنْبل بخلف عنه، ورُويس: [سِرَاطٍ] بالسّين.
وقرأها خَلَفٌ عن حَمْزَة بالصّاد مَشَمَّةً صوتَ الزّاي.
وقرأها باقي القراء العشرة: [صِرَاطٍ] بالصاد الخالصة وهو الوجه الثاني لقنبل.

١٤٣ ـ • قرأ أبو عمْرو، وشعبة، وحمزة، والكِسَائي، ويعقوب، وخلف: [لَرَؤُفٌ]، ووقَفَ حَمْزة بالتَّسْهِيلِ. =

فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ
ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ
مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ
بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ
ٱلۡعِلۡمِۙ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ
يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾
وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ
بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ
خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن
رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [لَرَؤُوفٌ]. ولِلأزرق ثلاثةُ البَدَل.

١٤٤ ـ ● قرأ ابن عامر، وحمزة، والكِسَائي، وأبو جعفر، ورَوْح: [تَعْمَلُونَ] بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يَعْمَلُونَ] بياءِ الغائبين.

● قرا ابْنُ كثير: [عَقِبَيْهِ] بصِلَةِ هاء الضَّمير.

● وقرأ ورش: [لَكَبِيرَةً] بِتَرْقيق الراء.

١٤٦ ـ ● وقف حمزة على [أَبْنَاءَهُمْ] بالتسهيل مع المدّ والقصر.

١٤٨ ـ ● قرأ ابْنُ عامر: [هُوَ مُوَلَّاهَا].

وقرأها باقي القراء العشرة: [هُوَ مُوَلِّيهَا].

١٤٩ ـ ● قرأ أبو عمْرو: [يَعْمَلُونَ] بياء الغائبين. =

وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا
وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟
تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ
أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ
وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [تَعْمَلُونَ] بتاء المخاطبين.

١٥٠ ـ ● قرأ ورش من طريق الأزرق: [لِيَلَّا]:

وكذلك قرأها حمزة في الوقف، ولَهُ التحقيق أيضاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: [لِئَلَّا].

١٥٢ ـ ● قرأ ابن كثير: [فَاذْكُرُونِيَ أَذْكُرْكُمْ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

١٥٢ ـ ● قرأ يعقوب: [وَلَا تَكْفُرُونِي] باثْبَاتِ ياء المتكلّم وصلاً ووقْفاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَا تَكْفُرُونِ] بحَذْفِ ياء المُتَكَلّم.

(١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُهۡتَدُونَ (١٥٧) ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ
حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن
تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ
أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ
أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ
وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
(١٦٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ (١٦١) خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ
ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (١٦٢) وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ
ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ
مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ

---

١٥٧ و١٦٠ و١٦١ ـ ● قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء في المواضع الثلاثة، وصلاً ووقفاً.

وقرأها باقي القراءة العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكَسْرِ الهاء وصلاً ووقفاً.

١٥٨ ـ ● قرأ حمزة، والكِسائي، ويعقوب، وخلف: [وَمَنْ يَطَّوَّعْ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَمَنْ تَطَوَّعَ].

١٦٣ ـ ● وقف يعقوب علىٰ [هُوَ] بهاء السَّكْت.

١٦٤ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [الرِّيحِ] بالإفراد.

وقرأها باقي القراء العشرة: [الرِّيَاحِ] بالجمع.

ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ
ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ
ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ
تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ
بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ
حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

١٦٥ ـ • قرأ نافع، وابنُ عامر، وابن وردان بخلفه، ويعقوب، [وَلَوْ تَرَىٰ] بتاء المخاطب.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَوْ يَرَىٰ].

١٦٥ ـ • قرأ ابن عامر: [إِذْ يُرَوْنَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [إِذْ يَرَوْنَ]

١٦٥ ـ • قرأ أبو جعفر، ويعقوب: [إِنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً وإِنَّ اللهَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ].

١٦٦ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: [بِهِمِ الأَسْبَابُ] في الوَصْل.
وقرأها حمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: [بِهُمُ الأَسْبَابُ] في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة: [بِهِمُ الأَسْبَابُ] في الوصل.
وأمَّا عِنْدَ الوقف فكُلُّهم يكْسِرُونَ الهاء ويُسَكِّنُونَ الميم.

١٦٧ ـ • قرأ أبو عمْرو: [يُرِيهِمِ اللهُ] وصْلاً.
وقرأها حمزة، والكِسَائي، وخلف: [يُرِيهُمُ اللهُ] وصْلاً. وكذلك يعقوب وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يُرِيهِمُ اللهُ] وصلاً. وأمَّا عند الوقف فَكُلُّهُمْ يكْسِرُونَ الهاء ويسَكِّنُونَ الميم، إلَّا يعقوبَ فإنَّهُ يضُمُّ الهاء.

١٦٧ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] وصْلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمْ] وصْلاً ووقفاً.

كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن
تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ
ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟
مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ
﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ
أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ

---

١٦٨ - • قرأ نافع، والبَزّي بخلف عنه، وأبو عمْرو، وشعبة، وحمزة، وخلف: [خُطْواتِ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [خُطُوَاتِ] بضم الطّاء وهو الوجه الثاني للبزّي.

١٦٩ - • قرأ أبو عمْرو بخُلْفٍ عن الدُّوري [يَأْمُرْكُمْ] بإسْكَانِ الراء، والوجه الثاني للدوري الاختلاس وللدّوري وجه ثالث وهو ضم الراء ضمة خالصة.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَأْمُرُكُمْ].

١٧٠ - • قرأ هشام، والكسائي، ورويس: [قِيلَ] بإشْمَام كَسْرَة الْقَافِ ضمّاً.
وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرةٍ خالصة.

١٧٠ - • وقف حمزة علىٰ [آباءَنا] بالتسهيلِ مع المدِّ والقصر.

١٧٣ - • قرأ أبو جعفر: [المَيِّتَةَ] بتشْدِيد الياء المكْسُورة.
وقرأها باقي القراء العشرة: [الْمَيْتَةَ] بإسْكانِ الياء.

١٧٣ - • قرأ أبو جعفر: [فَمَنُ اضْطِرَّ].
وقرأها أبو عمْرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: [فَمَنِ اضْطُرَّ].
وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: [فَمَنُ اضْطُرَّ].
وعند الابتداء بـ [اضطرّ] فكُلُّ القراء يَضُمُّونَ الهمزة.

عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا
يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ
ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ
﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ
فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ
وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي
ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي
ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا
عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

---

١٧٤ ـ ● قرأ يعقوبُ: [**يُزَكِّيهُمْ**] بضمّ هاء الضمير.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**يُزَكِّيهِمْ**] بكسر هاء الضمير.
● وقف حمزة على [**وَنِدَاءً**] بالتسهيلِ مع المدّ والقصر في الآية (١٧١).

١٧٧ ـ ● قرأ حفص، وحمزة: [**لَيْسَ الْبِرَّ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**لَيْسَ الْبِرُّ**] بالرَّفع.

١٧٧ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر: [**ولَكِنِ الْبِرُّ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَلَكِنَّ الْبِرَّ**].

١٧٧ ـ ● قرأ نافع: [**والنَّبِيئِينَ**] مَعَ المدّ المتَّصل مع ملاحظة ثلاثة البدل للأزرق.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَالنَّبِيِّينَ**].

١٧٧ ـ ● قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [**الْبَاسَاءِ ـ الْبَاسِ**] وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**الْبَأْسَاءِ ـ الْبَأْسِ**].

صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ
فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ
ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ
إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ
يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ
إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ
فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ
وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا

---

١٧٨ ـ • في كلمة: [شَيْءٌ] عدّة قراءات يُعْنَىٰ بها المقرئون.

١٨٢ ـ • قرأ شعبة، وحمزة، والكِسَائي، ويعقوب، وخَلَف [مُوَصٍّ]، من فعل: «وَصَّىٰ».
وقرأها باقي القراء العشرة: [مُوصٍ]، من فعل: «أَوْصَىٰ».

١٨٤ ـ • قرأ نافع، وابنُ ذَكْوان، وأبُو جعفر: [فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ].
وقرأها هِشام: [فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ].

١٨٤ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [فَمَنْ يَطَّوَّعْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَمَنْ تَطَوَّعَ].

فَهُوَ خَيْرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٞ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾
شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ
وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ
يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ
ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ
ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ
﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٞ

---

١٨٤ ـ • قرأ قالون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [فَهْوَ] بإسْكانِ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَهُوَ] بضمِّ الهاء. ووقف يعقوب بهاء السَّكْتِ.

١٨٥ ـ • قرأ ابْنُ كثير: [الْقُرَانُ]. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [القُرْآن].

١٨٥ ـ • قرأ أبو جعفر: [الْيُسُرَ ـ الْعُسُرَ].
وقرأهما باقي القراء العشرة: [الْيُسْرَ ـ الْعُسْرَ] بإسْكان السِّين.

١٨٥ ـ • قرأ شعبة، ويعقوب: [وَلِتُكَمِّلُوا] من فعل: «كَمَّلَ» المضعف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلِتُكْمِلُوا] من فعل: «أَكْمَلَ» المهموز.

١٨٦ ـ • قرأ يعقوب: [الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي] في الوصل والوقف. وكذلك وَرْشٌ، وأبو عمرو، وأبو جعفر: في الوصل. وكذلك قالون بخُلْفٍ وصلاً.
وقرأهُمَا باقي القرّاء العشرة: [الدَّاعِ إذا دَعَانِ] في الحالين، وهو الوجه الثاني لقالون في الحالين.

١٨٦ ـ • قرأ ورش: [وَلْيُومِنُوا بِيَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلْيُؤْمِنُوا بِيْ].

١٨٧ ـ • وقف يعقوب على: [هُنَّ] بهاءِ السّكْت. وكذا على ما ماثلها مِنَ المشدّد المبني في ضمير جمع المؤنث، مثل: [بَاشِرُوهُنَّ]، فقد وقف عليها بهاء السَّكْت بخلف عنه.

لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا
كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ
مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا
تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا
تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى
ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ
وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ
ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ

---

١٨٧ ـ ● قرأ ورش، وابْنُ وردان بخلف عنه [فَالَانَ] بالنقل. وللأزرق ثلاثة الْبَدَل.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فالْآنَ] بالتحقيق، وعَدَم النقل.
ووقف حمزة بالسَّكْت والنَّقل، وله في الوصل السَّكْتُ بخُلْف عن خلَّاد.

١٨٩ ـ ● قرأ ورش، وأبو عمْرو، وحفص، وأبُو جعفر، ويعقوب: [الْبُيوتَ] بضَمّ الباء في الموضعين.
وقرأهما باقي القُرَّاء العشرة: [الْبِيُوت] بِكَسْرِ الباء.

١٨٩ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ عامر: [وَلَكِنِ الْبِرُّ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَكِنَّ الْبِرَّ].

ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن
قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ
فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا
ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾
وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا
ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن
كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ
صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ
مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ
تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ

---

١٩١ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُم].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ].

١٩٦ ـ • للأزرق ثلاثةُ البَدَلِ في: [رُؤُوسَكُمْ].

ووقف حمزة بالتَّسْهِيلِ، وبالحذف: [رُوسَكُمْ].

١٩٦ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [رَاسِهِ]. وكذلك حَمْزَةُ في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: [رَأْسِهِ].

مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا
جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ
فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيۡسَ
عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ
أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ
ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ
وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم
مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ
فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا

---

١٩٧ ـ ● قرأ يعقوبُ: [**فِيهُنَّ**]. ووقف بهاء السَّكْت بخلف عنه.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**فِيهِنَّ**].

١٩٧ ـ ● قرأ أبو جعفر: [**فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ ولَا جِدَالٌ**].
وقرأها ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [**فَلَا رَفَثٌ ولَا فُسُوقٌ ولَا جِدَالَ**].
وقرأهَا باقي القراء العشرة: [**فَلَا رَفَثَ ولَا فُسُوقَ ولَا جِدَالَ**].

١٩٧ ـ ● قرأ أبو عمْرو، وأبو جعفر: [**واتَّقُونِي**] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل.
وكذلِكَ قرأها يعقوب في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَاتَّقُونِ**]، بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً، وكذا قرأها في الوقف: أبو عمرو، وأبو جعفر.

٢٠٠ـ ● قرأ ورْش: [**ذِكْراً**] بالتفخيم والترقيقِ انْفراداً، فإذا نظر مَعَ ما قبله كان له خمسة أوجه:
١ ـ قَصْرُ البَدَلِ، مع التفخيم والترقيق، فهما وجهان.
٢ ـ المدّ، مع التفخيم والترقيق أيضاً، فهما وجهان.
٣ ـ التوسُّط مع التفخيم فقط، فهو وجه واحد.

فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ
٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ
٢٠٢ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۖ فَمَن تَعَجَّلَ فِي
يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي
قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ
لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ
٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ
جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ
ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ يَٰٓأَيُّهَا

---

٢٠٤ ـ • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [وَهْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَهُوَ] بضمّ الهاء. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

٢٠٦ ـ • قرأ هشام، والكِسَائي، ورُويْس: [قِيلَ] بإشْمَامِ الكَسْرَة الضَّمَّ.
وقرأها باقي القراء العشرة بالكَسْرَةِ الْخَالِصَة.

٢٠٦ ـ • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر: [وَلَبِيسَ]. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلَبِئْسَ].

٢٠٧ ـ • وقف الكِسَائي بالهاء على: [مَرْضَاتِ] مع الإمالة في الحالين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالتاء.

٢٠٧ ـ • قرأ أبو عمْرو، وشُعْبة، وحمزة، والكِسَائي، ويعقوب، وخلف: [رَؤُفٌ]
ووقف حمزة بالتسهيل.
وقرأها باقي القراء العشرة: [رَؤُوفٌ]. وللأزرق ثلاثَةُ الْبَدَل.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن
زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ
ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠
سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢ كَانَ

---

٢٠٨ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، والكِسَائي، وأبو جعفر: [**فِي السَّلْمِ**] بفتح السين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**فِي السِّلْمِ**] بِكَسْرِ السّين.

٢٠٨ ـ • قرأ نافع، ، والْبَزّي بخلف عنه، وأبو عَمْرو، وشعبة، وحمزة، وخَلَف: [**خُطْوَاتِ**] بإسكان الطاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**خُطُوَاتِ**] بضَمِّ الطاء، وهو الوجه الثاني للبزي.

٢١٠ ـ • قرأ أبو جعفر: [**وَالْمَلاَئِكَةِ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**والْمَلاَئِكَةُ**] بالرفع.

ووقف حمزة بالتسهيل مع المدّ والقصر.

٢١٠ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وعاصم، وأبو جعفر: [**تُرْجَعُ الأُمُورُ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**تَرْجِعُ الأُمُورُ**] .

ووقف حمزة بالنَّقْلِ والسَّكْت.

٢١١ ـ • قرأ أبو جعفر: [**إِسْرَائِيلَ**] بتسهيل الهمزة الثانيةِ مع المدّ والقصر، وصلاً ووقفاً.

وكذلك حمزة في الوقف. مع فارق المدّ بينهما.

وقرأها باقي القراء العشرة بالتحقيق.

ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ
مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا
ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا
بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ
بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن
قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾
يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ
وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ

---

٢١٣ ـ • قرأ نافع [النَّبِيئِينَ] مع المدّ المتصل.
وللأزرق ثلاثةُ البَدَل.
وقرأها باقي القراء العشرة: [النَّبِيِّينَ].

٢١٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [لِيُحْكَمَ] .
وقرأها باقي القرّاء العَشرة: [لِيَحْكُمَ] .

٢١٣ ـ • وقف حمزة في: [بِإِذْنِهِ] بالتَّحْقِيق، وبالتسهيل.

٢١٣ ـ • قرأ قنبل بخلف عنه، ورُويس: [سِرَاطٍ] بالسِّين.
وقرأها خلف عن حمزة بالصاد مُشَمَّةً صَوْتَ الزّاي.
وقرأها باقي القراء العشرة: [صِرَاطٍ]، وهو الوجه الثاني لقنبل.

٢١٤ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [الْبَاسَاءُ] .
وقرأها باقي القراء العشرة: [الْبَأْسَاءُ].
ولحمزة وجوه في الهمزة.

٢١٤ ـ • قرأ نافع: [حَتَّىٰ يَقُولُ] بالرفع.
وقرأها باقي القراء العَشرة: [حَتَّىٰ يَقُولَ] بالنَّصب.

فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ
لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ
شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾
يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ
وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ
أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا
يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن
يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ
أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿٢١٨﴾ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ
كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ

---

٢١٦ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكِسَائِي، وأبو جَعْفر: [وهْوَ] بإسْكَانِ الْهَاء في كلّ مواضعها من الآية.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَهُوَ]. ووقف يعقوبُ بهاء السَّكْت.

٢١٨ ـ • وقف ابن كثير، وأبو عمْرو، والكسائي، ويعقوب على: [رحْمَتَ] بالهاء.

ووقف باقي القراء العشرة عليها بالتاء.

٢١٩ ـ • قرأ يعقوب: [فيهُمَا] بضَمِّ الهاء.

وقرأها باقي الْقُرَّاء العشرَة: [فِيهِمَا] بكسر الهاء.

٢١٩ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي: [إِثْمٌ كَثِيرٌ] .

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِثْمٌ كبِيرٌ] .

مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ
ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ
خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ
يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ
يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ
ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ
هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ

---

٢١٩ ـ ● قرأ أبو عمرو: [قُلِ الْعَفْوُ] بالرفع.
وقرأها باقي القراء العشرة: [قُلِ الْعَفْوَ] بالنَّصب.

٢٢٠ ـ ● لورش في: [والْآخِرَةِ] نَقلُ حركة الهمزة وحذفها. وله ثلاثة الْبَدل. وترقيق الراء.
وقرأ خلَفٌ عَنْ حمزة، وخَلَّادٌ بخلافٍ عنه: بالسَّكْتِ على لَامِ التعريف وصلاً، أما في الوقف فلكُلٍّ مِنْهُمَا وجهان: السكت والنَّقْل.

٢٢٠ ـ ● وقف حمزة على: [فَإِخْوَانُكُمْ] بالتحقيق، وبالتَّسْهِيلِ.

٢٢٠ ـ ● قرأ الْبَزِّي بخُلْفٍ عَنْه بتَسْهِيلِ همزة: [لَأَعْنَتَكُمْ] وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة بالتحقيق.
وهو الوجه الثاني للبَزِّي.
ولحمزة في الوقف التسهيل والتحقيق.

٢٢٢ ـ ● قرأ شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [يَطَّهَّرْنَ] أي: يَتَطَهَّرْنَ.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَطْهُرْنَ].

فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ
وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ
وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟
وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا
يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ
فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا
يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ

---

٢٢٢ ـ • وقفَ يعقُوب بخلف عنه على: [فَأْتُوهُنَّ] بِهَاءِ السَّكْت.
وأَبْدَلَ ورْشٌ، والسُّوسي، وأبو جعفر: الهمزة، وكذلِكَ حمزة في الوقف.

٢٢٥ ـ • قَرأَ ورْش، وأبو جعفر: [يُوَاخِذُكُمْ] في الموضعين بإبدال الهمزة واوا. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يُؤَاخِذُكم].

٢٢٦ ـ • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر: [يُولُونَ]. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يُؤْلُونَ] .

٢٢٦ ـ • لورش في [فَاؤُوا] ثلاثة البدل. ولحمزة التسهيلُ في الوقف مع المدّ والقصر.

٢٢٨ ـ • وقف حمزة على: [بِأَنْفُسِهِنَّ] بالتحقيق، والإبدال ياءً خالِصَة.
ووقف يعقوب بهاء السكت، وكذا وقف على ما كان مِثْلَهُ ممّا آخِرُه ضَمِيرٌ مُشَدَّدٌ مَبْنِي.

٢٢٨ ـ • لحمزةَ، وهشام بخلفه في الوقف على [قُرُوءٍ]: إِبْدَال الهمزة واواً وإِدْغَامُ ما قبلها فيها، مع السُّكُون والرَّوْم.

وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ
وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ
أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ
حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ
بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن
يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۗ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟

---

٢٢٨ ـ • قرأ يعقوب: [عَلَيْهُنَّ] في الموضعين بضمّ الهاء، ووقف عليها بهاء السكت.

وقرأهما باقي القُرّاء العشرة: [عَلَيْهِنَّ] بكَسْرِ الهاء.

٢٢٩ ـ • قرأ حمزة، وأبو جعفر، ويعقوب: [يُخَافَا].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَخَافَا].

٢٢٩ و٢٣٠ ـ • قرأ يعقوب: [عَلَيْهُمَا] بضَمّ الهاء في الموضعين.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [عَلَيْهِما] بكَسْرِ الهاء في الموضعين.

• فَخَّمَ ورْش اللّام في: [الطَّلَاق ـ والمُطَلَّقات ـ طَلَّقَها ـ إِصْلَاحاً].

٢٣١ ـ • وقف يعقوب على: [أَجَلَهُنَّ] بهاء السَّكْت، وكذلك وقف على أمْثالِها.

٢٣١ ـ • قرأ حفص: [هُزُواً] وصلاً ووقفاً.

وقرأها خلَف العَاشر: [هُزْءاً] وصلاً ووقفاً. وكذلك حمزة وصلاً، وله في الوقف وجهان:

١ ـ نقلُ حركَةِ الهمزة إلى السَّاكِن قَبْلَها، مع حذف الهمزة: [هُزَا] . =

نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم
بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ
ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ
بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾
۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ
ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ
إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى
ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا
سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ

= ٢ ـ إبدال الهمزة واواً: [هُزُواً] .
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [هُزُؤاً] .

٢٣٢ ـ ● وقف ابن كثير، وأبو عمْرو، والكِسَائي، ويعقوب على: [نِعْمَتْ] بالهاء.
ووقف عليها باقي القرَّاء العشرة بالتّاء.

٢٣٣ ـ ● قرأ أبو جعفر بخلف عنه: [لَا تُضَارْ].
وقرأها ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [لَا تُضارُّ].
وقرأ باقي القراء العشرة: [لَا تُضَارَّ]، وهو الوجه الثاني لأبي جعفر.
واتفقوا على مَدّهِ مَدّاً لازماً.

٢٣٣ ـ ● لورش في: [فِصَالًا] تفخيم اللام وترقيقها، فإذا ضُمَّت إلى البدل بَعْدها
وهو: [آتَيْتُمْ] فله خمسة أوجه.

٢٣٣ ـ ● قرأ يعقوب: [عَلَيْهُمَا] بضمّ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمَا] بِكَسْرِ الهاء.

٢٣٣ ـ ● قرأ ابن كثير: [ما أَتَيْتُمْ].
=

بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ
بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
خَبِيرٞ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ
ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا
تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ
أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ
قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [مَا آتَيْتُم].

٢٣٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورويس: [النِّسَاءِ أَوْ] بإبدال الهمزة الثانية ياءً خَالِصَة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بتَحْقِيقِها.

واتفق القراء على تحقيق الهمزة الأولى، وعلى تحقيق الهمزة الثانية عِنْدَ البدْءِ بها.

٢٣٦ و٢٣٧ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: [تُمَاسُّوهُنَّ] في الموضعَيْنِ، مع المدّ اللازم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَمَسُّوهُنَّ]. ووقف يعقوب بهاء السَّكْت.

٢٣٦ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وهشام، وشعبة، ويعقوب: [قَدْرُهُ]، بإسْكَان الدال.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قَدَرُهُ]، والمعنى فيهما واحد.

مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا
فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ
وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ
ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ
فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ
تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا
وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِى مَا فَعَلۡنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا
عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن
دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ
أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا

---

٢٣٧ ـ ● قرأ رُوَيس في: [بِيَدِهِ] بقصرِ الهاء وصلاً، أي: باختِلاس حَركتِها.
وقرأها باقي القراء العشرة بإشباع الهاء.

٢٤٠ ـ ● قرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحفص، وحمزة: [وَصِيَّةً] بالنصب.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَصِيَّةٌ] بالرَّفع.

فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ
مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا

---

٢٤٥ ـ • قرأ عاصم: [**فَيُضَاعِفَهُ**].

وقرأها ابنُ كثير، وأبو جعفر: [**فَيُضَعِّفُهُ**].

وقرأها ابن عامر، ويعقوب: [**فَيُضَعِّفَهُ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**فَيُضَاعِفُهُ**].

ومؤدَّىٰ هٰذِه القراءات واحد، وهِيَ من التَّفَنُّن.

٢٤٥ ـ • قرأ نافع، والْبَزِّي، وشعبة، والكِسَائي، ورَوْح، وأبو جعفر: [**وَيَبْصُطُ**] بالصاد.

وقرأها: دوري أبي عمرو، وهشام، وخلف عن حمزة، ورويس، وخلف: [**وَيَبْسُطُ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: بالسين والصاد.

٢٤٥ ـ • قرأ يَعْقُوب: [**تَرْجِعُونَ**] بالمبني للمعلوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**تُرْجَعُونَ**] بالمبني لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، أي: يُرْجِعُكُمْ اللهُ بالْجَبْرِ، فترجعون مُطاوِعين.

• قرأ ورْش بتفخيم اللّام، وترقيق الرَّاء من: [**الصَّلَواتِ ـ والصَّلَاةِ ـ ولِلْمطَلَّقَاتِ ـ غَيْرَ إخْرَاجٍ ـ كَثِيرَةً**].

٢٤٦ ـ • لحمزة في الوقف علىٰ [**الْمَلإِ**] وجهان:

١ ـ إبدال الهمزة ألفاً: [**الْمَلَا**].

٢ ـ التسهيل مع الرَّوم.

٢٤٦ ـ • قرأ أبو جعفر: [**إِسْرَائِيلَ**] بتسهيل الهمزة الثانية، مع المدّ والقصر وصْلاً ووقفاً.

وكذلك قرأها حمزة وَقْفاً مع فارق المدِّ بَيْنَهُما.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالتحقيق.

٢٤٦ ـ • قرأ نافع: [**لِنَبِيءٍ**] مع المدّ المتصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**لِنَبِيٍّ**].

٢٤٦ ـ • قرأ نَافع: [**عَسِيتُمْ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**عَسَيْتُمْ**].

تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا
مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ
إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ
ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ
ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي
ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن
يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ
طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ

---

٢٤٦ ـ ● وقف حمزة على: [وَأَبْنَائِنَا] بتَحْقِيقِ الهمزة الأولى وتَسْهِيلها، وعلى كُلٍّ وقف في الثانية بالتسهيل مع المدّ والقصر.

٢٤٦ ـ ● قرأ أبو عمْرو: [عَلَيْهِمِ الْقِتَالُ].

وقرأها حمزة، والكِسَائِيُّ، ويعقوب، وخلف: [عَلَيْهُمُ الْقِتَالُ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ].

وهذا عند الوصل، وأما عند الوقف فكلهم يكسرون الهمزة ويسكنون الميم، ما عدا حمزة ويعقوب، فإنهما يقفان بضم الهاء وإسكان الميم.

٢٤٧ و٢٤٨ ـ ● قرأ نافع: [نَبِيئُهُمْ] في الموضِعَيْنِ مع المدّ المتّصل.

وقرأهما باقي القراء العشرة: [نَبِيُّهُمْ].

٢٤٧ ـ ● قرأ قنبل بخلف عنه: [بَصْطَةً].

وقرأها باقي القراء العشرة، وهو الوجه الثاني لقنبل: [بَسْطَةً].

٢٤٧ ـ ● لحمزة، وهشام في الوقف على: [يشَاءُ] خمسة أوجه:

إبدال الهمزة ألفاً مع المدّ، والقصر، والتوسط، وله التسهيل بالرَّوم مع المدّ، والقصر، مع مراعاة فارق المدّ بينهما حالَة التَّسْهِيل.

مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ
غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن
فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ
أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ
وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا
دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ

---

٢٤٩ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [مِنِّيَ إِلَّا] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مِنِّي إِلَّا] بإسكان ياء المتكلّم.

٢٤٩ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمرو، وأبو جعْفَر: [غَرْفَةً] بفَتح الْغَيْن.
وقرأها باقي القراء العشرَة: [غُرْفَةً] بضَمّ الغين.

٢٤٩ ـ • قرأ رُويس بقصر الهاء وصلاً من: [بِيَدِهِ] أي: باخْتِلاس حَرَكَتِهَا.
وقَرأها باقي القرّاء العشرة بالإشباع.

٢٤٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [فِيَةٍ] ـ [فِيَةً].
وكذلك قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فِئَةٍ] ـ [فِئَةً].

٢٥١ ـ • قرأ نَافع، وأبو جعفر، ويعقوب: [وَلولا دِفَاعُ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَوْلَا دَفْعُ] .

• قرأ ابن كثير بصلَة هاء الضمير بواو مَدِّيَّةٍ في: [مِنْهُ] و[يَطْعَمْهُ].

• وقرأ ورش بترقيق الراء من: [كَثِيرَةً]، وبتفخيم اللّام من: [فَضَل] .

ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞
تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ
بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ
بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ
بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم
مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ
﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ
يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا
نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ
عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ
بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ
وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ

---

٢٥٣ ـ • قرأ ابنُ كثير: [**القُدْسِ**] بإسْكَانِ الدال.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**القُدُسِ**] بضم الدال.

٢٥٤ ـ • قرأ ابنُ كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [**لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ**].
وقرأها باقي القُرَّاءِ العشرة: [**لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ**].
والقراءتان على وجْهَيْنِ عربيَّيْنِ جائزَيْن.

٢٥٥ ـ • قرأ يعقُوبُ: [**أَيْدِيهُمْ**] بضم الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَيْدِيهِمْ**] بِكَسْرِ الهاء.

٢٥٥ ـ • لحمزة، وهشام وَقْفاً: إبدال همزة [**شَاءَ**] مع الْقَصْرِ، والتوسُّطِ والمدِّ.

٢٥٥ ـ • قرأ الأزرق بتثليث مد البدل في: [**يَؤُودُهُ**]. ولحمزة في الوقف: تَسْهيلُ الهمْزَةِ بينها وبين الواو، وحَذْفُها.

٢٥٥ ـ • قرأ قالُون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [**وَهْوَ**] بإسْكَان الهاء. =

قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ
فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى
ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ
إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ
وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ
بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [وَهُوَ] بضم الهاء. ووقف يعقوب بهاء السَّكت.

٢٥٨ ـ • قرأ ابنُ ذَكْوان بخلْف عنه: [إِبْرَاهَام] في المواضِع الثلاثة.
وقرأها باقي القراء العشرة: [إِبْرَاهِيم]. وهو الوجْهُ الثاني لابن ذَكْوَان.

٢٥٨ ـ • قرأ حمزة: [رَبِّيْ الَّذِي] بإسكان ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القراء العشرة بفتح ياء المتكلّم.

٢٥٨ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [أَنا أُحْيِي] بإثبات ألف «أنا» في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة بحذف ألف «أنا» في الوصل إثباتها وقفاً.

٢٥٩ ـ • قرأ قَالُون، وأبو عمرو، والكِسَائي، وأبو جعفر: [وَهْيَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَهِيَ] بِكَسْرِ الهاء.
ووقف يعقوب بهاء السَّكت.

٢٥٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [مِيَةَ] في الموضِعَيْن. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القُرَّاءِ العشرة: [مِئَةَ].

عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ
قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ
يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ
وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ
٢٥٩ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ
أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ
ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ

---

٢٥٩ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائي، ويعقوب، وخلف: [يَتَسنَّ] في الوصل، و[يَتَسَنَّهْ] في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يَتَسَنَّهْ] في الوصل والوقف.

٢٥٩ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُنْشِرُهَا]. ورقّق ورْش رَاءَها.

وقرأها باقي القراء العشرة: [نُنْشِزُهَا].

٢٥٩ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائي: [قَالَ اعْلَمْ] بإسْكَانِ الميم، وبهمزة وصل. وإذا ابتدأ بـ[اعْلَم] كسر همزة الوصل على الأصل.

وقرأها باقِي القراء العشرة: [قَالَ أَعْلَمُ] برَفْعِ الميم.

٢٦٠ ـ ● قرأ ابْنُ ذَكْوانَ بخُلْفٍ عنه: [إِبْرَاهَام].

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِبْرَاهِيمُ]، وهو الوجه الثاني لابن ذَكْوان.

٢٦٠ ـ ● قرأ ابن كثير، والسُّوسي، ويعقوب: [أَرْنِي] بإسْكَانِ الراء.

وقرأها دوري أبي عمْرو: باختلاسِ الراء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [أَرِنِي] بِكَسْرِ الراء.

٢٦٠ ـ ● قرأ حمزة، وأبو جعفر، ورُويس، وخلف: [فَصِرْهُنَّ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [فَصُرْهُنَّ] بضم الصاد. ووقف يعقوب بهاء السكت.

٢٦٠ ـ ● قرأ شعبة: [جُزُءاً].

وقرأها أبو جعفر: [جُزًّا].

=

ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ
سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ
مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ
حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ
وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ
صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [جُزْءاً]. ووقف حمزة: [جُزَا].

٢٦١ ـ ● قرأ أبو جعفر: [مِيَةٌ] وصلاً ووقفاً وكذا حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [مِئَةٌ].

٢٦١ ـ ● قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [يُضَعِّفُ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [يُضَاعِفُ].

٢٦٢ ـ ● قرأ حمزة: [وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهُمْ].
وقرأها يعقوب: [وَلَا خَوْفَ عَلَيْهُمْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ].

٢٦٤ ـ ● قرأ أبو جعْفَر: [رِيَاءَ]. وكذا حمزة في الوقف، ولحمزة مع هشام بخلفه
في الهمزة الثَّانِيَةِ: إبدالُ الهمزة ألفاً مع ثلاثَةِ المدّ.
وقرأها باقي القراء العشرة: [رِئَاءَ].

مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ
أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ
فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن
تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ
فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ
وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن
تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ
ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ

---

٢٦٥ ـ • وقف الكسائي على: [مَرْضَاتِ] بالهاء مع الإمالة.
وقرأها باقي القراء العشرة بالتاء.

٢٦٥ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم: [بِرَبْوَةٍ] بفتح الراء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [بِرُبْوَةٍ] بضم الراء.

٢٦٥ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمْرو: [أُكْلَهَا].
وقرأها باقي القراء العشرة: [أُكُلَهَا].

٢٦٧ ـ • قرأ البزّي بخلف عنه: [وَلَا تَّيَمَّمُوا] مع المدّ المشبَعِ، وصلاً.
وإذا بدأ بـ [تيَمَّمُوا] خفَّف التاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَا تَيَمَّمُوا] وهو الوجه الثاني للبزّي.

٢٦٨ ـ • قرأ أبو عمْرو بخلف عن الدُّوري [وَيأْمُرْكُمْ]. والوجه الثاني للدوري هو الاختِلاس، وله وجه ثالث: وهو ضمّ الراء ضمة خالصة.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَيأْمُرُكُمْ].
ولِوَرْش، والسُّوسِي، وأبي جعفر الإبدال. وكذا لحمزة في الوقف.

وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ
ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن
تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَهْدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا

---

٢٦٩ ـ • قرأ يعقوب: [وَمَنْ يُؤْتِ] في الوصل. وقرأها: [وَمَنْ يُؤْتِي] في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَمَنْ يُؤْتَ] وصلاً ووقفاً.
ولورْش، والسُّوسِي، وأَبِي جعفر الإبْدَال. وكذلك لحمزة في الوقف.

٢٧١ ـ • قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف: [فَنَعِمَّا] بفتح النون.
وقرأها ورش، وابْنُ كثير، وحفص، ويعقوب: [فَنِعِمَّا] بكَسْرِ النون.
وقرأها قالون، وأبو عَمْرو، وشعبة: [فَنِعْمَّا] بِكَسْرِ النون وإسكان العين، بخُلْفٍ عنهم.
والوجه الثاني لهم باختلاس كَسْرَةِ الْعَيْن. وقرأها أبو جعفر بلا خلاف: [فَنِعْمَّا].

٢٧١ ـ • وقف يعقوب على [هِيَ] بهاء السَّكْت.

٢٧١ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [فَهْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَهُوَ] بضمّ الهاء. ووقف يعقوب بهاء السَّكْتِ.

٢٧١ ـ • قرأ نافع، وحمزة، والكِسَائي، وأبو جعفر، وخلف: [وَنُكَفِّرْ].
وقرأها ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وشعْبة، ويعقوب: [ونُكَفِّرُ].
وقرأها باقي القراء العَشَرة: [وَيُكَفِّرُ].

٢٧١ ـ • للأزرق ثلاثة البدل في [سَيِّئَاتِكُمْ]. ووقف حمزة بإبدالِ الهمزة ياءً خَالِصَةً
فقرأها: [سَيِّيَاتِكُمْ].

٢٧٢ ـ • وقف حمزة على: [فَلأَنْفُسِكُمْ] بالتحقيق، وبإبْدَالِ الهمزة ياءً خالِصَةً:
[فَلِيَنْفُسِكُمْ].

تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ
يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ
لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ
ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ
ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ
ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا
سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا
يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ

---

٢٧٣ ـ ● قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [يَحْسَبُهُمُ] بفتح السين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يَحْسِبُهُمُ] بِكَسْرِ السِّين.

٢٧٤ ـ ● قرأ يعقوب: [وَلَا خَوْفَ عَلَيْهُمْ].

وقرأها حمزة: [وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهُمْ] .

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ].

رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ
فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن
كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ
إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن

---

٢٧٧ ـ ● قرأ حمزة: **[وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهُمْ]**.
وقرأها يعقوب: **[وَلَا خَوْفَ عَلَيْهُمْ]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ]**.
٢٧٩ ـ ● قرأ شعبة، وحمزة: **[فَآذِنُوا]**. ولحمزة في الوقف التحقيق والتسهيل.
وقرأها باقي القرَّاء العشرة: **[فَأْذَنُوا]**، وأبْدَلَ ورش، وأبُو عمرو بخلف عنه،
وأبو جعفر: الهمزة في الحالين.
٢٧٩ ـ ● للأزرق ثلاثَة الْبَدَل في: **[رُؤُوسُ]**. ووقف حمزة بالتسهيل، وبالحذف: **[رُوسُ]**.
٢٨٠ ـ ● قرأ أبو جعفر: **[عُسُرَةٍ]** بضم السين.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[عُسْرَةٍ]** بإسْكان السين.
٢٨٠ ـ قرأ نافع: **[مَيْسُرَةٍ]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[مَيْسَرَةٍ]**.
٢٨٠ ـ ● قرأ عاصم: **[وَأَنْ تَصَدَّقُوا]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَأَنْ تَصَّدَّقُوا]**.
٢٨١ ـ ● قرأ أبو عَمْرو، ويعقوب: **[يَوْماً تَرْجِعُونَ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَوْماً تُرْجَعُونَ]**.
● لورش ترقِيقُ الراء وتفخِيمُ اللَّام من: «فَنَظِرَة ـ خير ـ الصَّلَاة».
● ولابن كثير صِلَة الهاء من: «فيه».

يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ
وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ
ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ
وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا
رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ
إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا
دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ
ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ

---

٢٨٢ ـ ● قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ورُوَيس: [**مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ**] بإبْدَال الهمزة الثانية ياءٍ خالصة مفتوحة.

وقرأها باقي القراء العشرة بتحقيق هذه الهمزة.

واتفقوا على تحقيق الهمزة الأولى، وعلى تحقيق الهمزة الثَّانِيَةِ إذا بَدَؤُوا بها.

٢٨٢ ـ ● قرأ حمزة: [**إِنْ تَضِلَّ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَنْ تَضِلَّ**].

٢٨٢ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [**فَتُذْكِرَ**]، من فعْلِ «أذكر».

وقرأها حمزة: [**فَتُذَكِّرُ**].

وقرأها باقي العشرة: [**فَتُذَكِّرَ**].

٢٨٢ ـ ● أبدل ورْش، والسُّوسي، وأبُو جعفر: الْهَمْزَة من [**يَأْبَ**] . وكذلك حمزة في الوقف.

٢٨٢ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ورُويس في: [**الشُّهَدَاءُ إِذَا**]: بتسهيل الهمزة الثانية، وبإبْدالها واواً خالصة.

وقرأها باقي القراء العشرة بتَحْقِيقها.

واتفق الجميع على تحقيق الهمزة الأولى، وعلى تحقيق الهمزة الثانية عِنْدَ الْبَدْءِ بها.

٢٨٢ ـ ● وقف حمزة على: [**وَلَا تَسْأَمُوا**] بنقل حركة الهمزة إلى السّين مع حذف الهمزة، فيقرأها: [**وَلَا تَسَمُوا**] .

أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا
شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ
وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ
عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم
بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ
ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا
فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ

---

٢٨٢ ـ • قرأ عَاصِم: [تِجَارَةً حَاضِرَةً] بالنصب.
وقرأها باقي القراء العشرة: [تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ] بالرَّفع.

٢٨٢ ـ • قرأ أبو جعفر بخلف عنه: [وَلَا يُضَارْ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وَلَا يُضَارَّ] وهو الوجه الثاني لأبي جعفر.
وكُلُّهُمْ يُشْبِعُونَ المدَّ لِأجل السَّاكِنَين.

٢٨٣ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: [فَرُهُنٌ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَرِهَانٌ].

٢٨٣ ـ • قرأ ورْش، وأبو جعفر: [فَلْيُوَدِّ]. وكذلِكَ حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَلْيُؤَدِّ].

٢٨٣ ـ • قرأ ورْش، والسُّوسي، وأبو جعفر في: [الَّذِي اؤْتُمِنَ] في الوصل بإبدال الهمزة ياء خالصة.
وكذلِكَ حمزة في الوقف، فَتَصِيرُ: [الَّذِيتُمِنَ].
وكُلُّهُمْ يبْتَدِئونَ «اؤْتُمِنَ»: بهمزةٍ مضمومةٍ وبَعْدَهَا واو ساكِنَة.
وقرأ الباقون وصلاً: بهمزة ساكنة.

٢٨٤ ـ • قرأ ابْن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ويُعَذِّبُ] بالرفع.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ ويُعَذِّبْ]. =

ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ
وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا
يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا
ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا
تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا
وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ
أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

=٢٨٤ ـ ● وقف حمزة، وهشام في: [يَشَاءُ] بإبدال الهمزة ألفاً، مع المدّ، والقصر، والتوسط. ولهما التسهيل بالرَّوْم مع المدّ والقصر. ويُراعَىٰ فَارِقُ المد بَيْنَهما.

٢٨٥ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وَكِتَابِهِ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَكُتُبِهِ].

٢٨٥ ـ ● قرأ يعقوب: [لَا يُفَرِّقُ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [لَا نُفَرِّقُ].

٢٨٦ ـ ● قرأ ورش، وأبو جعفر: [لَا تُوَاخِذْنَا]. وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لَا تُؤَاخِذْنَا].

٢٨٦ ـ ● قرأ السّوسي، وورش من طريق الأصبهاني، وأبو جعفر: [أخْطَانا]. وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: [أخْطَأْنا].

(٢)

ممّا وَرَدَ في السنة بشأن سورة (البقرة)

(١) روىٰ مسلم، وأحمد، والترمذي، والبخاري في تاريخه عن النَّواس بْن سمْعَان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يُؤْتَىٰ بِالْقُرآن وأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ في الدنيا، تَقْدُمُهُمْ سُورَة الْبَقَرَة، وآلُ عِمْران».

قال: وضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثلاثَةَ أَمْثَال ما نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قال: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَان، أَوْ كأَنَّهُمَا غَيَايَتَان[1]، أو كَأَنَّهما ظُلَّتَان سَوْدَاوانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا».

(٢) ورَوىٰ أحمد، والحاكم وصَحَّحَه وغيرهما، عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ الله عنه قَال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«تَعلّمُوا سُورَةَ الْبَقَرِةِ، فإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَة»[2].

ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمّ قَالَ:

«تَعلَّمُوا سُورَةَ الْبَقرة، وآلَ عِمْرانَ، فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوان تُظِلَّانِ صاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَة، كأنَّهما غَمَامَتَان، أَوْ غَيَايَتَانِ، أَو فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافَّ». قال ابن كثير: إسناده حسن علىٰ شرط مُسْلِم.

(٣) وروىٰ مسلم، والترمذي، والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الّذِي تُقْرأ فِيهِ سورة البقرة».

أي: لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم كَالْمَقَابِرِ للنَّوْمِ، دُونَ أَنْ يكُونَ فِيها ذِكْرٌ للهِ عزَّ وجل، كتِلَاوَةِ سُورَةٍ أَوْ سُوَرٍ من القرآن المجيد.

(٤) وروىٰ الإمام أحمد، والطَّبَرانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ الله عنه، أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قال:

---

(١) **الغَيَايَة**: كلُّ ما أظلَّ الإنسان فوقَ رأْسِهِ، كالسحابة، والْغَبَرَة، والظّلّ، ونحو ذلك.

(٢) **الْبَطَلَةُ**: السَّحَرَة، أي: لا تَسْتَطِيعُ السَّحَرَةُ الصُّمودَ تُجَاهَ مَا جَعَلَ الله فيها من تأْثِيرٍ في إبطالِ سِحْرِ السَّحَرَةِ مَهْمَا بَلَغَ سِحْرُهُمْ.

«الْبَقَرَةُ سَنَامُ الْقُرآنِ وَذِرْوَتُهُ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمانُون مَلَكاً، واسْتُخْرِجَتْ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ...﴾ من تَحْتِ الْعَرْشِ فَوُصِلَتْ بِهَا».

(٥) وروىٰ الإمامُ أحْمَدُ، والبخَارِيُّ في صَحِيحِه تَعْلِيقاً، ومُسْلِمٌ، والنَّسَائِي، عن أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْر رضي الله عنه، قال: [بَيْنَما هُوَ يَقْرأ في اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْده؛ إذْ جَالَتِ[1] الْفَرَسُ، فَسَكَتَ، فَسَكَنَتْ، ثُمَّ قَرأَ فَجالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ، فَسَكَنَتْ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فسَكَتَ، فَسَكَنَتْ. فَانْصَرَفَ إلىٰ ابْنِهِ يَحْيَىٰ، وكَانَ قَرِيباً مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا أَخَذَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فإذَا هُوَ بِمِثْلِ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المصَابِيحِ عَرَجَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ حَتَّىٰ مَا يَرَاها.

فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَال رسُول اللهِ ﷺ:

«أَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟».

قال: لَا يا رَسُولَ الله، قَالَ:

«تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، ولَوْ قَرأْتَ لأَصْبَحَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهَا النَّاسُ لَا تَتَوَارَىٰ مِنْهُمْ»...].

(٦) ورَوَىٰ التِّرمِذِيُّ وحَسَّنَهُ، والنَّسَائِيُّ، وابْنُ مَاجَهْ، والْحَاكِمُ وصحَّحه، عَنْ أبي هُرَيرة رضي الله عنه، قَالَ: [بَعَثَ رسُولُ اللهِ ﷺ بَعْثاً، فاسْتَقْرَأَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ - يَعْنِي مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرآنِ - فَأَتَىٰ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنّاً، فَقَال:

«مَا مَعَكَ يَا فُلَانُ؟».

قال: مَعِي كَذَا وَكَذَا، وسُورَةُ الْبَقَرَةِ، قال:

---

(١) **إذْ جَالَتِ الْفَرَسُ**: أي: تحركَتْ مُضْطَربَةً مَذْعُورة.

«أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟».

قال: نَعَمْ. قال:

«اذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ»...].

وفي السُّنَّةِ أَحَادِيثُ مُتَعَدِّدَةٌ أُخَرُ بِشَأْن هٰذِه السورة العظيمة.

(٣)
موضوع سُورَةِ (البقرة)

فروع شجرة سورة (البقرة/ ٨٧ نزول) فروعٌ كُبْرَىٰ مُمْتَدَّةٌ حَتَّىٰ آخِرِها، وهٰذه الفروع ذَوَاتُ أَفْنَانٍ كَبِيرَة، وهٰذه الأفْنَانُ ذَوَاتُ أَفْنَانٍ أَصْغَر مِنْهَا، وهِيَ مُتَشَابِكَةٌ تَشَابُكاً عَجِيباً، ومُتَداخِلَةٌ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وكثيرٌ مِنَ الْخُطُوطِ الواصِلَةِ بَيْنَهَا خُطُوطٌ غَيْرُ مَنْظُورَةٍ، كالْخُطُوطِ غَيْرِ المنظورة بَيْنَ نُجُومِ السَّمَاءِ، وقَدْ يُدْرَكُ بَعْضُهَا بالتَّأَمُّلِ الْفِكْرِيِّ الْعَمِيقِ في الْمَعانِي، وروابِطِهَا الفِكْرِية، وما يلْزَمُ عَنْهَا مِنْ دَلَالَات، يَسْتَخْرِجُها الذِّهْنُ الثاقب.

وقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّهَا خَمْسَةُ فُرُوعٍ عُظْمَىٰ:

الفرع الأول مِنْ فروعها العظمىٰ:

القرآن المجيد المعْجِزُ وهدايته، والمشَكِّكُون فيه، والمعْتَرِضُونَ عَلَىٰ بعْضِ ما جاء فيه.

الفرع الثاني مِنْ فُروعِهَا العظمىٰ:

ضَرْبُ أَمْثِلَةٍ مِنْ تَارِيخ المـوضُوعِيـنَ في الحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وبيانُ مواقِفِهِمْ تُجَاهَ قَضَايا الدِّينِ وأوامِرِ اللهِ لَهُمْ وَنَواهِيهِ لهم، بَدْأً بإِبْلِيسَ، فآدَمَ عَلَيْهِ السَّلام وزَوْجِهِ، ثُمَّ جاءَ فيها عَرْضُ لَقَطاتٍ كَثِيراتٍ

مِنْ قِصَّةِ بَنِي إسْرَائيل، تُجاهَ دِينِ اللهِ لَهُمْ، تَحْذِيراً لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ من أنْ لَا يَكُونُوا مِثْلَهُمْ، فَقَدِ اصْطَفَاهُمُ اللهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ الْخَاتِمَةِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

ومِنْ هٰذِهِ الأمْثِلَةِ تَسَاؤل إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام: كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الموتَىٰ، لِيَصِلَ إيمانُهُ إلَىٰ عَيْنِ اليقين، وليكُونَ قَلْبُهُ كَامِلَ الطَمَأْنِينَةِ. وَكَذَلِكَ تَسَاؤُل العزير عَنْ كَيْفِيَّةِ إحْيَاءِ اللهِ مَوْتَىٰ مَقْبرةٍ، فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عامٍ وَمَعَهُ حِمَارُهُ، ثُمَّ بَعَثَهُ وأَرَاهُ كَيْفَ يُنْشِئُ حِمَارَهُ حَتَّىٰ صَارَ حَيّاً كما كَانَ.

الفرع الثالث من فُرُوعِهَا العظمىٰ:

المؤمِنُونَ المتَّقُون، ومَطْلُوب اللهِ - عَزَّ وجَلَّ - مِنْهم، وفي مُقَدِّمَةِ صِفَاتِ المتَّقِينَ الأُسُسُ الْكُلِيَّةُ الكُبْرَىٰ، المبَيَّنَةُ في الآيات من (١ - ٥).

وجاء في أَثْنَاءِ السُّورَةِ بَيَانَاتٌ كَثِيرَاتٌ عَنْ مَطْلُوب اللهِ - عَزَّ وجَلَّ - مِنَ المتَّقِينَ، في أَحْكَامٍ بِقَضَايَا كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تتعَلَّقُ بِسُلُوك الإنْسَانِ الاخْتِيَارِيّ فِي حَيَاتِهِ.

الفرع الرابعُ مِنْ فُرُوعِهَا العظْمىٰ:

الكافِرُونَ وغَيْرُ المسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَة الْحَق، بدْأً بالَّذِينَ وصَلُوا إلَىٰ دَرَكَةِ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيق إرادَاتِهِم الحرَّة.

وفيه علاج الّذين لم يستجيبوا بَعْدُ لِدَعْوَةِ الحقّ، ولم يَبْلُغُوا درَكَةَ الميؤوس مِنْ إصْلَاحِهِمْ عن طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة.

الفرع الخامس من فروعها العظمىٰ:

المنافقون وصفاتهم، ثم عِلَاج مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ الحقّ مِنْهُمْ ويَتَخَلَّصَ مِنْ نِفَاقِهِ.

(٤)

دُروسُ سورة (البقرة)

كثِيرَة دُروس هـٰذه السُّورة العظيمة، وَفِيهَا بَعْضُ دُرُوسٍ طويلة يُمْكِنُ تَقْسِيمُها إلىٰ عِدَّةُ فُصُولٍ:

الدّرس الأول: الآيات من (١ ـ ٥).

وفي آيات هَـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ الأُسُسِ الْعُظْمَىٰ لِصِفَاتِ المتقين.

الدرس الثاني: الآيتان (٦ و٧).

وفي آيَتَيْ هَـٰذا الدَّرس بيان واقِع حَالِ الكافِرِينَ المصِرّين عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بِعِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ، والميْؤُوسِ من اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَة الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، عن طَرِيقِ إراداتِهِم الحرَّة.

الدرس الثَّالث: الآيات من (٨ ـ ٢٠).

وفي آيَاتِ هَـٰذا الدَّرس بَيَانٌ بِشَأْنِ المنافقين الَّذِين بَدأ ظُهُورُهُمْ فِي المدينَة، عِنْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَيْهَا، وكَثْرَةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة فيها، وظُهُور بوادِرِ تَأْسِيس دَوْلَةٍ إسْلَاميَّة.

الدرس الرابع: الآيات من (٢١ ـ ٢٩).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْس خطابٌ من اللهِ ـ عزَّ وجَلَّ ـ مُوجَّهٌ للنَّاسِ جَمِيعاً، بأنْ يَعْبُدُوا اللهَ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، مع بيان أَدِلَّة وُجُوبِ هـٰذِهِ العبادة، من الظَّوَاهِرِ الكَوْنِيَّة، ومن القرآن المجيد المعجز.

وفيها ترغيب وتَرْهيب. وفيها بيان سُقُوط مَقَالَةِ المعترِضِينَ علىٰ أمْثالِ قرآنِيَّة، مُتوَهِّمِينَ أَنَّها لَا تَلِيقُ بِعَظَمَةِ التنزيل الرَّبَّانِي، مَعَ معالَجَتِهم الحكيمة ببيان بعض صفاتِهم، والتعجيب من أمْرِهِمْ كيف يكْفُرُونَ باللهِ، وقد كَانُوا أَمْوَاتاً فأحْيَاهُمْ ثُمَّ يُمِيتُهُمْ ثُمَّ يُحْيِيهم لِمَلَاقَاة أحداثِ يوم الدِّين،

وهو الذي خَلَقَ لَهُمْ مَا فِي الأرض جَمِيعاً، ثُمَّ اسْتَوىٰ إلىٰ السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سبع سَمَاوَات وهو بكل شيءٍ عليم.

الدَّرس الخامس: الآيات من (٣٠ ـ ٣٩).

وفي آيَاتِ هـٰذا الدرس عَرْضُ لَقْطَةٍ مِنْ قِصَّةِ خَلْقِ آدم عَلَيْهِ السَّلَام، وسؤال الملائكة عَلَيْهِم السَّلَام عن الحكْمَةِ مِنْ خَلْقِهِ، وبَيَانِ اللهِ لَهُمْ عَمَلِيّاً، وإسْكَانِ اللهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام وزَوْجَهُ الجَنَّةَ إِسْكَانَ اخْتِبَارٍ، وإخْرَاجِهِمَا من الجنَّة بِسَبَبِ مَعْصِيَتِهِمَا بأَكْلِهِمَا مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاهُمَا اللهُ عَنْ أَنْ يَقْرَبَاها، مُتَأَثِّرَيْن بِتَضْلِيلَاتِ عَدُوِّهما إبْليسَ الشَّيْطَانِ الرجيم.

الدَّرْس السادس: الآيات من (٤٠ ـ ١٠٣).

وفي آيات هـٰذا الدَّرس؛ بَيَانٌ عَنْ عَدَدٍ كَثِيرٍ مِنْ مَوَاقِفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُجَاهَ دِينِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِمْ عَلَيْهِم السَّلام، مَعَ بيان بَعْضِ صِفَاتِهِمُ المتكَرِّرَةِ فِي أَجْيَالِهِمْ، ومَا وَاجَهُوا به الرِّسَالَة الخاتِمَة الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ ـ عزّ وجلَّ ـ علىٰ محمَّدِ بن عَبْدِ الله ﷺ.

ولِطُولِ هـٰذا الدَّرْسِ قَسَّمْتَهُ إلىٰ تِسْعَةِ فُصُول:

الفصل الأول: الآيات من (٤٠ ـ ٤٦).

وفي آيات هـٰذا الْفَصْل نداءٌ مُوَجَّهُ لبَنِي إسْرائيل، بأنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَ بها عَلَيْهِم، وَبِأَنْ يُوفُوا بِعَهْدِهِ لِيُوفِي بِعَهْدِهِمْ، وبأَنْ لَا يَرْهَبُوا غَيْرَه، مع أَوَامِرَ وتَوْجِيهَاتٍ ومَطَالِبَ أُخْرَىٰ، ووَصَايَا وتَرْغِيبٍ وتَرْهِيب.

الفصل الثاني: الآيات من (٤٧ ـ ٥٠).

وفي آيَاتِ هـٰذا الفصل تَذْكِيرٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِبَعْضِ نِعَمِ اللهِ ـ عزّ وجلَّ ـ السابقة عليهم، وتَحْذِيرٌ لَهُمْ مِنْ جَزَاءِ يَوْمِ الدين.

ومن نِعَمِ اللهِ عليهم:

أ ـ أنَّهُ نَجَّاهم مِنْ آل فِرْعَوْنَ.

ب ـ وأنَّهُ فَرَقَ بِهِمُ الْبَحْرَ وأغْرَقَ آلَ فِرْعَونَ وهُمْ يَنْظُرُون.

الفصل الثالث: الآيات من (٥١ ـ ٥٩).

وفي آياتِ هـٰذا الْفَصْلِ بيان اتّخاذِهِمُ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ يَعْبُدُونَهُ، حِينَ ذَهَبَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ عِنْدَ جَبَلِ الطُّور.

وبيانُ أنّ اللهَ آتىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْكِتَابَ والْفُرْقَان.

وبيانُ أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أمَرَهُمْ بأنْ يَقْتُلوا أنْفُسَهُمْ تائِبين إلَىٰ بارِئِهِمْ بسَبَبِ عِبادَتِهِم العجل.

وبيان أنَّهُمْ بَعْدَ نجاتِهِمْ من آل فِرْعَوْنَ قَالُوا لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام: لَنْ نُؤْمِنَ مُسْلِمِين لَكَ حتَّىٰ نَرَىٰ اللهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْهُمُ الصاعِقَةُ وهُمْ يَنْظُرُون، ثُمَّ بَعَثَهُمُ اللهُ مِنْ مَوْتِهِمْ رَغْبَةً فِي أنْ يَشْكُرُوا رَبَّهُمْ.

وبيان أنَّ اللهَ جَعَلَ الْغَمَامَ يُظِلُّهُمْ فِي سِينَاءَ من حَرِّ الشَّمْس، وأنَّهُ امْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِالْمَنِّ والسَّلْوىٰ، ولكِنَّهُمْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ بالمعاصِي والمخالفات. وبيان أن الله أمَرَهُمْ بأنْ يَدْخُلُوا قَرْيَةَ أريحا، وأنْ يَدْخُلُوا بَابَهَا سُجّداً، فَبَدَّلُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لهم، فَعَذَّبَ اللهُ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ بِرِجْزٍ من السَّمَاء.

الفصل الرابع: الآيات من (٦٠ ـ ٦٢).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَسْقَىٰ لِقَوْمِهِ فِي سِينَاء، فأمَرَهُ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ بأنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ حَجَراً عَيَّنَهُ لَهُ، فَضَرَبَ فانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَة عيناً، بِعَدَدِ أسْبَاطِ بَنِي إسْرائيلَ، فَخَصَّصَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْناً مِنْها لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ أسْباطِهِم، وهـٰذا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي سيناء.

وفيها بَيَانُ أَنَّ بَنِي إِسْرائيلَ قَالُوا لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام: لَنْ نَصْبِرَ علىٰ طَعَامِ واحد، وطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ، وبيانٌ مَا أَجَابَهُمْ بِهِ.

مع تَعْلِيقٍ تَرْغِيبيٍّ في الإيمان والعمل الصالح.

الفصل الخامس: الآيات من (٦٣ ـ ٦٦).

وَفِي آيَاتِ هَـٰذا الدَّرس بَيَانُ أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجَلَّ ـ أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْ يَأْخُذُوا مَا آتاهُمْ في التَّوْرَاةِ مِنْ أَحْكَامٍ بِقُوَّةٍ، فَتَرَدَّدُوا فِي إِعْطَائِهِمْ مِيثَاقَهُمْ، فَرَفَعَ فَوْقَهُمْ جَبَلَ الطُّور تَخْوِيفاً لهم فَأَعْطَوْا مِيثَاقَهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَلْتَزِمُوا بِمَا أَعْطَوْا مِيثَاقَهُمْ عَلَيْه.

وفِيهَا بَيَانُ اعْتِدَاءِ فَرِيقٍ بالْعَمَلِ الدُّنْيَوِيِّ يَوْم السَّبْتِ، وكَيْفَ أَنَّ الله عَاقَبَهُمْ بِمَسْخِهِمْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ.

الفصْلُ السادس: الآيات من (٦٧ ـ ٧٤).

وفي آيَات هـٰذا الدَّرْسِ بيانُ قِصَّةِ القَتِيلِ الَّذِي قُتِلَ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، ومَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ لِمَعْرِفَةِ قَاتِلِهِ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلك، فَصَارَتْ أَشَدَّ مِنَ الحجارة قَسْوَةً، مع تَرْهِيبِهِمْ مِنْ عِقَاب اللهِ لهم.

الْفَصْلُ السَّابع: الآيات من (٧٥ ـ ٨٢).

وفي آياتِ هَـٰذا الدَّرْس بيانٌ للمؤْمِنِينَ المسْلِمِينَ بِأَنْ لَا يَطْمَعُوا في أَنْ يُؤْمِنَ الْيَهُودُ مُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِهِمْ، وقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ أَحْبَارِهِمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ، ويُوجَدُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُنَافِقُونَ نِفَاقَ مَكْرٍ وكَيْدٍ، وآخَرُونَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ جَهَلَةٌ، لَا يَعْلَمُونَ كِتَابَ التَّوْرَاةِ إِلَّا عِلْمَ قِراءَةٍ بِلَا فَهْمٍ لِدَلَالَاتِ كَلِمَاتِهِ وَجُمَلِهِ.

وآخَرُونَ مِنْهُمْ مُفْتَرُون عَلَىٰ اللهِ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ: هَـٰذا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فِي ادِّعَاءِ أَنَّ اللهَ لَنْ يُعَاقِبَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ إِلَّا بأَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ أَيَّاماً مَعْدُودَة. وفيها بَيانُ كَذِبِهِمْ فِي ادِّعَاءَاتِهِمْ بِأُسْلُوبِ بَيَانِ خُلُودِ الْكَافِرِينَ فِي النَّار، وخُلُودِ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي الجنَّةِ يَوْمَ الدِّين.

الفصل الثامن: الآيات من (٨٣ ـ ٨٦).

وفي آيات هـٰذا الدّرس بَيانُ أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَخَذَ مِيثَاقَ بَنِي إسرائيلَ بأَنْ لَا يَعْبُدوا إِلَّا الله، وَبِأَنْ يُعَامِلُوا الْوَالِدَيْنِ فِي حَيَواتِهِمْ بالإِحْسَان، وبأنْ يُحْسِنُوا لِذِي الْقُرْبَىٰ واليتامَىٰ والمساكين، وبِأَنْ يَقُولُوا لِلنَّاس حُسْناً، وبِأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاة ويُؤْتُوا الزَّكَاة، لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ عَصَوْا مَا أَعْطَوْا عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ وابْتَعَدُوا عَنْهُ مُعْرِضِين.

وفيها بيانُ أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أَخَذَ مِيثَاقَهُمْ عَلَىٰ أَنْ لَا يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ، وعَلَىٰ أَنْ لَا يُخْرِجُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ دِيَارِهِم، ثُمَّ عَصَوْا وخَالَفُوا مَا أَعْطَوْا عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، مَعَ تَلْوِيمِهِمْ وَتَثْرِيبِهِمْ عَلَىٰ مَعَاصِيهِمْ، وإيمانِهِمْ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَكُفْرِهِمْ بِبَعْضٍ، وَإِنْذَارِهِمْ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْم الدين.

الفصل التاسع: الآيات من (٨٧ ـ ١٠٣).

وفي آيات هـٰذا الدَّرس تَوْجِيهُ إِقْنَاعٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، مَقْرُونٍ بالتَّثْرِيبِ والتَّلْوِيم، علىٰ كَبَائِرِهِمْ، وبيانِ أَنَّهُمْ يُعَادونَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام، ويُعَادُونَ اللهَ وبَعْضَ مَلائِكَتِهِ ورُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام.

وفيها بيانُ أَنَّهُمْ لَا وَفَاءَ لأَكْثَرِهِم في عُهُودِهِمْ، ومُوَاجَهَتُهُم بِعُنْفٍ بِتَلْوِيمِهِمْ عَلَىٰ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِرَسُولِ اللهِ محمّد ﷺ وَبالكِتَابِ القرآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ. وعَلَىٰ أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلام، مَعَ بَيَانَاتٍ وَتَوْجِيهاتٍ مُلائماتٍ.

الدرس السَّابع: الآيَات من (١٠٤ ـ ١١٠).

وفي آيات هٰذا الدَّرْسِ نِداءٌ من اللهِ ـ عزَّ وجَلَّ ـ للّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وبمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيهِ بِتوصِياتٍ، مَعَ بَيَانِ أَنَّ الّذِينَ كَفَرُوا من أَهْلِ الكِتَابِ الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ، ومن المشْرِكِينَ الْوَثَنِيِّينَ؛ يَكْرَهُونَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَىٰ المؤمنين المسْلِمينَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ يُمَيِّزُهُمْ به.

وَفيها بَيَانٌ عَنِ النَّسْخِ مَقْرُونٌ بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ وأَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوات والأرْض.

وَفِيهَا تَحْذِيرٌ لهم من أَنْ يَتَّبِعُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي قَبَاحَاتِهِمْ وتَشْكِيكاتِهِمْ فِي دِينِ اللهِ، مع بَيَانِ أَنَّ كَثِيرِينَ من أَهْلِ الكِتَابِ يَوَدُّونَ لَوْ يَرُدُّونَهُمْ إِلىٰ الكُفْرِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِمْ حَسَداً من عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ.

وفيها أَمْرٌ مِن اللهِ ـ عزَّ وجَلَّ ـ بِأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ، مَعَ الْوَعْدِ بالثواب الجزيل.

الدَّرْسُ الثامن: الآيات مِنْ (١١١ ـ ١١٨).

وفي آيات هٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ مَقَالَة قَالَهَا الْيَهُودُ وقَالَ مِثْلَهَا النَّصارَىٰ، وهِيَ افْتِرَاؤُهُمْ عَلَىٰ اللهِ بأَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّة يَوْمَ الدِّينِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ، وهٰذِهِ مقالَةُ الْيَهُودِ، ولَنْ يَدْخُلَ الْجنَّةَ إِلّا مَنْ كَانَ مِنَ النَّصارَىٰ، وهٰذِهِ مَقَالَةُ النَّصارَىٰ، مَعَ تَكْذِيبِ اللهِ لَهُمْ فِي هٰذَا الافْتِرَاء، وبَيَانِ الْحَقِّ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: لَيْسَتِ النَّصارَىٰ عَلَىٰ شيءٍ مِنَ الْحَقِّ والصّدْقِ، وأَنَّ النَّصارَىٰ قالُوا: لَيْسَتِ الْيَهُودُ علىٰ شيءٍ من الحقِّ والصِّدْقِ، وكَذٰلِكَ قَالَ الّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ من الكتاب، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ.

وفِيهَا بَيَانُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَمْنَعُ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ، ويَسْعَىٰ في خَرَابِهَا، مَعَ بياناتٍ ووَصَايا مُلَائِمَات.

وفيها بَيَانُ مَقَالَةٍ قَالَهَا النَّصَارَىٰ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ اتَّخَذَ وَلَداً، مع بَيَانِ تَنَزُّهِ اللهِ عن اتِّخَاذِ الْوَلَدِ.

وفِيها بَيَانُ أَنَّ المشْرِكِينَ الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ مِنْ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ قَالُوا مُطَالِبِين بِإِلْحَاحٍ: هَلَّا يُكَلِّمُنَا اللهُ، أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ مُعجِزَةٌ كُبْرَىٰ، كَمَا آتَىٰ اللهُ مُوسَىٰ وعِيسَىٰ عَلَيْهِما السَّلَام، مَعَ مُعَالَجَتِهِمْ بِبَيَانِ حَالَتِهِمْ فِي هَـٰذِهِ المرْحَلَةِ مِنْ مَرَاحِلِ تَنْزِيلِ الْقُرآنِ.

الدَّرْس التاسع: الآيات من (١١٩ ـ ١٢١).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ ـ عزّ وجلّ ـ لِرَسُولِهِ محمد ﷺ يُبَيِّنُ لَهُ وظِيفَتَهُ فِي هـٰذِهِ المرْحَلَةِ مِنْ مَسيرتهِ الدَّعَوِيَّة لِغَيْرِ الْمُسْلمين، مَعَ بَيَانِ أَنَّ الْيَهُودَ والنَّصَارَىٰ لَنْ يَرْضَوْا عَنْهُ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، وتَوْجِيهِهِ بِمَا يُنَاسِبُ، وَبَيَانِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ المسْلِمِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ القرآنَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وأنَّ من يَكفُرُ بالْقُرآنِ هُمُ الْخَاسِرُونَ المنْحَطُّونَ الْبَعِيدُونَ عَنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلِ رَحَمَاتِ اللهِ.

الدَّرْسُ العاشر: الآيتان (١٢٢ و١٢٣).

وفي آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْس عَوْدٌ إلىٰ نِدَاءِ بَنِي إسْرائيلَ لِيَضعُوا فِي ذَاكِرَاتِهِمْ نِعْمَةَ اللهِ الَّتِي أَنْعَمَ بها عَلَيْهِمْ، وأَنَّهُ فَضَّلَهُمْ فِي أَيَّام مُوسَىٰ وَهارُونَ وَدَاوُودَ وسُلَيْمَانَ عَلَيْهِم السَّلَام وبَعْضِ أَزْمَانٍ أُخْرَىٰ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ لِحْملِ رِسَالَةِ اللهِ للنَّاس، وفيها تَحْذِيرُهُمْ وَإِنْذارُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ إِذَا لَمْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ.

الدَّرْس الحادي عشر: الآيات من (١٢٤ ـ ١٣٤).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، وقِصَّةِ الكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ، وَرَفْعِ إِبْرَاهِيم مَعَ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِما السَّلام الْقَوَاعِدَ من الْبَيْتِ، وَدُعَائِهِما وَهُمَا يَبْنِيَانِ الكَعْبَةَ.

وفيها بَيَانُ أَنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام هِيَ الْمِلَّةُ الصَّحِيحَة، وبيانُ أَنَّ الله اصطفاهُ علَىٰ العالَمِينَ، وأنَّهُ وَصَّىٰ بِهَا بَنِيهِ وكَذَٰلِكَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَام.

مَعَ مُرَافِقَاتٍ ولَوَاحِقَ ذَاتِ قِيمَة.

الدرس الثاني عَشَر: الآيات من (١٣٥ ـ ١٤١).

وفي آيَاتِ هٰذا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا للمؤمِنِينَ المسْلِمينَ: كُونُوا يَهُوداً تَهْتَدُوا، وكَذَٰلِكَ قَالَ النَّصَارَىٰ: كُونُوا نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا، مَعَ تَعْلِيمِ اللهِ المؤمِنِينَ المسْلِمِينَ مَا يَرُدُّونَ بِهِ عَلَيْهِمْ، مع بيانات مُرَافِقَاتٍ قيمَات.

الدّرْس الثالث عشر: الآيات من (١٤٢ ـ ١٥٠).

وفي آيَاتِ هٰذا الدَّرْسِ تَمْهِيدٌ يَتَعَلَّقُ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَىٰ الكَعْبَةِ المشَرَّفَة، وبيانُ مَا سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ أَعْدَاءُ الإِسْلَام من النَّاس، تَشْكِيكاً في دِينِ اللهِ الْخَاتِمِ الَّذِي يُنَزِّلُ اللهُ أَحْكَامَهُ تِبَاعاً فِيما يُنَزِّلُ مِنْ قُرْآن.

مع تَيْئِيسِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أَنْ يَتْبَعَ الَّذِين أُوتُوا الكِتَابَ وهُمُ الْيَهُودُ والنَّصَارَىٰ قِبْلَتَهُ الَّتِي حَوَّلَهُ اللهُ إِلَيْهَا، وهِي الكَعْبَةُ المشَرَّفَة، والاتّجاهُ مِنْ بُعْدٍ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحرامِ في مَكَّةَ حَرَسَهَا الله.

ومَعَ بيانَاتٍ مُرَافِقَاتٍ قَيِّمات.

الدَّرس الرابع عشر: الآيات من (١٥١ ـ ١٥٧).

وفي آيَاتِ هَٰذَا الدَّرْسِ خِطَابٌ لِقَوْم الرَّسُولِ ﷺ من الْعَرب، يأمُرُهُمْ فِيهِ أَنْ يَشْكُرُو الله عَلَىٰ إِرْسَال الرَّسُولِ مِنْهُمْ، بِأَنْ يَذْكُرُوه لِيَذْكُرَهُمْ، وَبِأَنْ يَشْكُرُوهُ ولَا يَكْفُرُوه.

وفيها نداءٌ من اللهِ لِلَّذِينَ آمَنُوا، يُوصِيهِمْ بِتَوْصِيَاتٍ نَفْسِيَّةٍ وعَمَلِيَّةٍ.

وفيها تَمْهِيدٌ لِلأَمْرِ بالقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وبَيَانُ أَنَّ الَّذِينَ يَمُوتُونَ

شُهَدَاءَ في سَبِيلِ اللهِ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، حَيَاةً تُلَائِمُ الْفَاصِلَ الْبَرْزَخِيَّ بَيْنَ انْتِهَاءِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وبَدْءِ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ بالبعث.

الدرس الخامس عشر: الآية (١٥٨).

وفي هـٰذه الآية بيانٌ يتعَلَّقُ بالصَّفا والمروَة، وأنَّهُمَا مِنْ شعائِرِ اللهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أو اعْتَمَر فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْعَىٰ بَيْنَهُمَا، عِبَادَةً للهِ عزَّ وجَلَّ.

الدرس السادس عشر: الآيات من (١٥٩ ـ ١٦٢).

وفي آيَاتِ هَـٰذا الدَّرْس بَيَانٌ بِشَأْنِ الإثْم الْعَظِيمِ الْوَاصِلِ إلَىٰ دَركاتِ لَعْنِ مُرْتَكِبِهِ، وهُوَ إِثْمُ كِتْمَانِ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَىٰ، باسْتِثْنَاءِ مَنْ تَابَ وأصْلَحَ وبَيَّنَ.

وبيانٌ بِشَأْن الَّذِينَ كَفَرُوا ومَاتُوا وهُمْ كُفَّارٌ.

الدرس السابع عشر: الآيات من (١٦٣ ـ ١٦٧).

وفي آيات هَـٰذَا الدَّرْس تَذكِيرٌ للنَّاس بأنَّ إلـٰهَهُمْ إلـٰهٌ واحِدٌ، مع عَرْضِ بَعْضِ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ رُبُوبيَّةِ اللهِ لكَوْنِهِ، الَّتِي يَلْزَمُ عَنْهَا أَنَّهُ هُو الإلـٰهُ الْمَعْبُودُ بِحَق.

وفيها بَيَانٌ يَتَعَلَّقُ بِالْمُشْرِكِينَ، ويَتَعَلَّقُ بالأتْبَاعِ والمتبوعِينَ مِنْهُمْ يَوْمَ الدِّين.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (١٦٨ ـ ١٧١).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ نِداءٌ من اللهِ للنَّاس بأنْ يأكُلُوا مِمَّا في الأرْضِ حَلَالاً طَيِّباً، وبأَنْ لَا يَتَّبعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ، فإنَّهُ لَا يأمُرُ إلَّا بالسُّوءِ والْفَحْشَاءِ، وأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

وفيها بيانٌ عَنِ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ومَوْقِفِهِمُ الْعِنَادِي من الدَّعْوَة إلىٰ دينِ اللهِ الحقِّ.

الدرس التاسع عشر: الآيات من (١٧٢ ـ ١٧٦).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْس نِدَاءٌ مِنَ اللهِ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِقَضَايَا تتعلَّقُ بِالْمآكل، وبِكِتْمَانِ مَا أَنْزَلَ اللهُ ـ عزَّ وجَلَّ ـ مِنَ الِكتَاب، مُقَابِلَ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ يَحْصُلُونَ عليها، وأَمْوالٍ يُصِيبُونَها.

الدرس العشرون: الآية (١٧٧).

وفِي آيَةِ هـٰذا الدَّرْس بَيَانٌ بِشَأْنِ القِبْلَة، وأَنَّهُ ليسَ الْبِرَّ أَنْ يُوَلِّيَ النَّاسُ وُجُوهَهُمْ قِبَلَ المشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ دُونَ إيمان، ولَكِنَّ الْبِرَّ هُوَ التَّوَسُّعُ فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ ونَوَافِلِ العبادات بَعْدَ الإيمانِ وبَذْلِ المالِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ، والبِرَّ أيضاً بِرُّ مَنْ أقام الصَّلَاةَ أَوّلاً وأدّىٰ الْفُرُوض الإسلامية، وزادَ علىٰ ذَلِكَ الصَّبْرَ.

الدرس الحادي والعشرون: الآيات من (١٧٨ ـ ١٨٢).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ بيانُ حُكْمِ القِصَاصِ في القَتْلَىٰ، وحُكْمِ الوصِيَّةِ لِلْوَالِدَينِ والأقْرَبِينَ بالْمعْرُوف مِنَ التَّرِكَةِ إِذَا حَضَرَ المؤمِنَ الموْتُ، وكَانَ هـٰذَا قَبْلَ إِنْزَالِ أَحْكَامِ المواريث، وهُوَ مِنْ أَمْثِلَةِ التَّدَرُّجِ فِي إِنْزَالِ الأَحْكَامِ فِي الإِسْلام.

الدرس الثاني والعشرون: الآيات من (١٨٣ ـ ١٨٧).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ فَرْضِ صِيَام رَمَضَانَ، مع تَفْصِيلِ بَعْضِ أَحْكَامِهِ، مع بَيَانٍ في ضِمْنِهَا يَتَعَلَّقُ بالدُّعاء.

الدرس الثالث والعشرون: الآية (١٨٨).

وآيَةُ هَـٰذَا الدَّرْسِ تَتَضَمَّنُ النَّهْيَ والتَّحْذِيرَ مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ، والتَّحْذِيرَ مِنِ اسْتِخْدَامِ الْحُكَّامِ للوصُولِ إِلَىٰ هـٰذِهِ الغايَةِ الآثِمَة.

الدَّرس الرابع والعشرون: الآية (١٨٩).

وفي آيَةِ هـٰذا الدّرْس جوابُ سُؤال عن الأهِلَّةِ، مع بَيَانِ بَعْضِ قَضَايَا تَتَعَلَّقُ بالحجّ، مصحوبَةٍ بالأَمْرِ بالتَّقْوىٰ.

الدرس الخامس والعشرون: الآيات من (١٩٠ ـ ١٩٥).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرْس أمْرٌ مُوجَّهُ للمؤْمِنِينَ المسْلِمِينَ بأنْ يقاتِلُوا فِي سبيلِ اللهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَهُمْ، مَعَ نَهْيِهِمْ عَنِ الاعْتِداء، ومَعَ تَوْجِيهاتٍ أُخْرَىٰ تَتعلَّقُ بالْقِتَالِ، والإنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ أَجْلِ الْقِتَالِ المأمُورِ بِهِ.

الدرس السَّادس والعشرون: الآيات من (١٩٦ ـ ٢٠٣).

وفي هـٰذه الآيَات بيانات تتعلَّقُ بالحجّ والْعُمْرَة، وتَفْصِيلٌ لِبَعْضِ أَحْكَامِ الحجّ، مَعَ مُرَافِقَاتٍ مُلائِمَاتٍ.

الدرس السَّابع والعشرون: الآيات من (٢٠٤ ـ ٢٠٧).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْس بَيَانٌ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ مِمَّنْ يُعْجِب قَوْلُهُ السَّامِعِينَ لَهُ في الحياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا في قَلْبِهِ، لَكِنَّهُ إِذَا تَوَلَّىٰ وَمَلَكَ الْقُوَّةَ كَانَ خبيثاً مُفْسِداً جَبَّاراً.

الدرس الثامن والعشرون: الآيات من (٢٠٨ ـ ٢١١).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرس نِدَاءٌ من اللهِ لِلّذِينَ آمَنُوا بأنْ يَدْخُلُوا مع إخوانِهِم المسْلِمِينَ في السِّلْم جَمِيعاً، وبأَنْ لَا يَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ، مَعَ تَحْذِيرِهِمْ من الزَّلَلِ عَنْ هـٰذِهِ الْقَاعِدَةِ، وَوَعِيدٍ مُلَائِم.

الدرس التاسع والعشرون: الآيات من (٢١٢ ـ ٢١٤).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرْس بَيَانُ أَنّ دَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْجِع إلىٰ أَنَّهُمْ قَدْ زُيِّنَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا زينَةً سَيْطَرَتْ عَلَىٰ كُلِّ مَشَاعِرِهِم النَّفْسِيَّةِ، فَحَجَبَتْ عنْهُمُ الحقَّ حتَّىٰ صَارُوا يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، مع بَيَانِ أَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ سَوْفَ يَكُونُونَ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة.

وفيها بَيَانُ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا أُمَّةً واحِدَةً علىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا، وكَثُرَ فيهِمُ الكُفْرُ، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِم السَّلام مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ، وأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ المبَيِّنَ لِدِينِهِ الحقِّ، ليَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فيمَا اخْتَلَفُوا فيه، ثُمَّ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بَغْياً بَيْنَهُمْ.

وفيها بَيَانُ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ في ابْتِلَاءِ عِبَادِه المؤمِنِينَ، ومِنْهَا ابْتِلَاؤُهُمْ بالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاء، حتَّىٰ يَقُولُوا: مَتَىٰ يَكُونُ نَصْرُ الله؟.

الدَّرْس الثلاثون: الآية (٢١٥).

وفي آيَةِ هٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ جواب سؤالٍ سَأَلَهُ المؤمِنُونَ عمَّاذَا يُنْفِقُونَ، مَعَ تَرْغِيبِهِمْ فِي الإنْفَاقِ إِذْ هُو مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ الْذِي يُثيب اللهُ عَلَيْهِ.

الدرس الحادي والثلاثون: الآيات من (٢١٦ ـ ٢١٨).

وفي آياتِ هَٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ كَتَبَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ القِتَالَ وهُو كُرْهٌ لَهُمْ.

وفيهَا إجَابَةُ سُؤَالٍ عَنِ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الحرامِ.

وفيها وعْدٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله بالمغْفِرَةِ والثّوابِ الْجَزِيلِ.

الدرس الثاني والثلاثون: الآيتانِ (٢١٩ ـ ٢٢٠).

وفيهما بَيَانُ جَوَابِ سُؤَال المسْلِمِينَ عَنِ الْخَمْرِ، في هٰذه المرحَلَةِ من مَسِيرة دَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ، وسؤالِهِمْ عَمَّاذا يَنْفِقُون، وسُؤَالِهِمْ عَنِ الْيَتَامَىٰ.

الدرس الثالث والثلاثون: الآية (٢٢١).

وفي آيَةِ هٰذا الدَّرْسِ نَهْيٌ عَنْ نِكَاحِ المشْرِكاتِ، وعَنْ إِنْكاح المشْرِكين.

الدّرس الرابع والثلاثون: الآيتان (٢٢٢ و٢٢٣).

وفي آيَتَيْ هـٰذا الدَّرْسِ جوابُ سؤالٍ عَنْ مُعَاشَرَةِ الزَّوْجاتِ حِينَ يَكُنَّ حَائِضَات.

وفِيهِمَا بَيَانُ الإذْنِ بمُعَاشَرَتِهِنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ، أَيْ: في مَوْضِعِ إنجاب الأوْلَادِ مِنْهُنَّ، مَعَ مُرَافِقَاتٍ تَتَعَلَّقُ بالمعاشرة.

الدرس الخامس والثلاثون: الآيات من (٢٢٤ ـ ٢٣٧).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ أَحْكَامٍ تَتَعَلَّقُ بالأيْمَان، وبِالإيلَاءِ، والطَّلَاقِ، وبإرْضَاعِ الأَوْلَادِ.

وفيها بَيَانُ أَحْكَامٍ تَتَعَلَّقُ بِوَفَاةِ الأَزْواجِ، وخِطْبَةِ النِّساء، وحُقُوقِ الزَّوْجَةِ الْمُطَلَّقَةِ.

الدَّرس السَّادس والثلاثون: الآيتان (٢٣٨ و٢٣٩).

وفي آيَتَيْ هـٰذا الدَّرْسِ أَمْرٌ بالمحافَظَةِ علىٰ الصَّلَواتِ، مع بَيَانِ بَعْضِ أَحْكَامِ الصَّلَاةِ فِي حَالَةِ الْخَوفِ.

الدَّرْس السابع والثلاثون: الآيَات من (٢٤٠ ـ ٢٤٢).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بَيانُ أَحْكَامٍ تَتعَلَّقُ بالزَّوْجَاتِ اللَّاتِي يُتَوَفَّىٰ أَزْوَاجُهُنَّ، وَبالْمُطَلَّقَاتِ.

الدرس الثامن والثلاثون: الآيات من (٢٤٣ ـ ٢٤٥).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ تَوْطِئَةٌ بِبَيَانِ الأُلُوف الّذِينَ خَرجُوا مِنْ دِيَارِهِم حَذَرَ الموت، فأماتَهُمُ اللهُ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ. وأَمْرٌ بِالْقِتَالِ في سَبِيلِ الله، وتَرْغِيبٌ فِي الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ من أَجْلِ القتال.

الدرس التاسع والثلاثون: الآيات من (٢٤٦ ـ ٢٥٢).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ بَيَانُ قِصَّةِ قِتَالٍ جَرَىٰ بَيْنَ قِسْمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقِيَادَةِ طَالُوت؛ وبَيْنَ الكَفَرَةِ المشْرِكِينَ بقيادَة جالُوت، وانْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ بِقَتْلِ جالُوتَ الْجَبَّارِ بِيَدِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، وهَزِيمَةِ جَيْشِهِ الْمُدَجَّجِ بالسِّلَاح.

الدرس الأربعون: الآية (٢٥٣)(١).

وفي آية هـٰذا الدرس بيان موضوع تفاضل الرسل عليهم السلام عند الله عز وجل، مع بيان حال الناس بعد مجيء البينات الربانية إليهم.

الدرس الحادي والأربعون: الآية (٢٥٤).

وفي آية هـٰذا الدرس أمر الله تعالىٰ الذين آمنوا بالمبادرة إلىٰ الإنفاق مما رزقهم تبارك اسمه.

الدرس الثاني والأربعون: الآية (٢٥٥).

وآية هـٰذا الدرس هي الآية المعروفة بآية الكرسي، والمُتَضَمِّنَة لِذِكْرِ العَدِيد من الصفات الرَّبَّانية، ولإثبات توحيد الله ـ تبارك اسمه ـ في إلـٰهِيَّتِهِ وربوبِيَّتِهِ.

الدرس الثالث والأربعون: الآيات من (٢٥٦ ـ ٢٦٠).

وفي آيات هـٰذا الدرس:

أولاً: بيان أنه ليست الغاية من القتال المشروع إكراه الناس علىٰ أن يكونوا مؤمنين مسلمين.

---

(١) إلىٰ هنا ينتهي ما بيّضه الوالد الشيخ رحمه الله بيده، وكان قبل هـٰذا قد كتب دروس سورة البقرة كاملة في مسودة، فليس لي في ذكر ما تبقّىٰ من الدروس إلا التبييض، مع تصرّف يسير يقتضيه حال نقل الكلام من مسودة، وحال ما سمعته من الوالد رحمه الله تعالىٰ.

ثم بيان أنّ مَنِ اتّجهَ إلىٰ اللهِ فآمَنَ بِهِ حقّاً أخْرَجَهُ مِنَ الظلمات إلىٰ النور.

وَمَنْ لَمْ يَتَّجِه إِلَيْهِ تبارك اسمه كان الطّاغوتُ وليّه، يُخْرِجه من النور إلىٰ الظلمات.

ثم ضَرْبُ مثالٍ يُؤَكّدُ ما سبق، مِنْ خِلالِ نصرة الله لوليّ له ورسولٍ من أولي العزم من رسله عليهم السلام، وهو إبراهيم عليه السلام، عند مُحَاجّتِهِ ومناظرته لِعَدُوٍّ مِنْ أعداءِ الله سبحانه، وهو الملكُ: النمرود. إذ يتبيّن في هٰذا المثال كيف أَيّدَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِالحُجّةِ التي قطعت مجادلة النمرود له في رَبّه سبحانه.

ثم ضرب الله سبحانه مِثَالَيْنِ آخرين يُبَيِّنان كذلك وجهين آخَرَيْنِ مِنْ وُجُوه بَيَانِ الحَقِّ واضحاً جَلِيّاً بالمثال التطبيقيّ لِوَلِيَّيْنِ مِنْ أَوْلِيَاء الله تعالىٰ.

فالمثال الأوّل: كان مع (العزير) الذي تَسَاءَل عَنْ كَيْفِيَّةِ إِحْيَاء الله لموتىٰ القريةِ التي مَرَّ بِهَا، فَضَرَبَ الله تعالىٰ له المثال مِنْ خلال إماتته له ولحماره، ثم بَعْثِهِ له ولحماره مِنْ بَعْدِهِ.

والمثال الثاني: كان مع (إبراهيم) عليه السلام عندما سَأَلَ رَبَّهُ عز وجلَّ أَنْ يُرِيَهُ كيف يحيي الموتىٰ، فَأَجابَه تعالىٰ إلىٰ سؤاله.

الدرس الرابع والأربعون: الآيات من (٢٦١ ـ ٢٧٤).

وفي آيات هٰذا الدرس: ترغيب المؤمنين في الإنفاق في سبيل الله، وبيان الأجر العظيم عليه، والتحذير مِنْ إِبْطَالِ الصَّدَقَاتِ بِالمَنِّ والأَذىٰ.

وَفِيها بَسْطُ قَضَايَا تَتَعَلَّقُ بِالإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الله عز وجلّ.

الدرس الخامس والأربعون: الآيات من (٢٧٥ ـ ٢٨١).

وفي آيات هٰذا الدرس بَيَانٌ بشأن تحريم الرّبا، وكَيْفِيّةِ التَّعَامُلِ مَعَ المَدِين المُعْسِر، والتخويف مِنْ لقاء الله تعالىٰ يوم الدّين.

الدرس السادس والأربعون: الآيتان (٢٨٢ و٢٨٣).

وفي آيتي هٰذا الدرس: بيان قضايا تتعلق بالمداينات، وكيفية توثيقها، ووجوب أدائها، وغير ذلك مما يتعلق بالمداينات.

الدرس السابع والأربعون: الآيات من (٢٨٤ ـ ٢٨٦)، ختام السورة.

وفي آيات هٰذا الدرس: ختام السورة ببيان قضايا عقدية.

وفيها أيضاً تعليم إعلان إيماني، وبيان أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وتعليم المؤمنين دعاءً يدعون به، بشأن مطلوب الله تعالىٰ منهم في سلوكهم في حياتهم الدنيوية(١).

* * *

---

(١) إلىٰ هنا انتهىٰ ما كتبه الوالد رحمه الله في المسودة التي أكمل فيها دروس هٰذه السورة. وأرجو الله تعالىٰ أن أكون قد وفقت في تبييضها. والحمد لله علىٰ كل حال.

خاتمة المجلد الخامس عشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

لقد كتب الله جلّت قدرته للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني أن يتوقف عند هـٰذا الحدّ بالنسبة إلىٰ ما كتبه في تدبره هـٰذا، وذلك بعد أن أنهىٰ ـ رحمه الله ـ العهد المكي من التنزيل، واستخرج دروس أولىٰ سور العهد المدني (سورة البقرة).

وله تعالىٰ الحمد والمنّة أن أعان الشيخ ـ رحمه الله ـ علىٰ إتمام العهد المكي، المشتمل علىٰ تأصيل الأسس العقدية والخلقية والسلوكية والتربوية، وإقامة الدعامات الأساسية لأمهات العبادات العملية.

ونسأل الله عز وجل أن يعين علىٰ إتمام هـٰذا التدبر الكبير لكتابه العزيز، علىٰ المنوال الذي خَطّه الشيخ رحمه الله تعالىٰ، لنستفيد من حكمة دروس تتابع التنزيل الرباني في إعادة بناء هـٰذه الأمّة من جديد شيئاً فشيئاً، حتىٰ تَسْتَحِقّ وَعْدَ اللهِ تعالىٰ لها بالنصر والتمكين.

مع ملاحظة أن للشيخ رحمه الله الكثير من التدبر لآيات عديدات وردت في السور المدنية، بل إن له تدبراً قديماً لسورة مدنية وهي سورة (الرعد)، وهو مما يمكن الاستفادة منه في إتمام هـٰذا التدبر.

وقد كان الشيخ رحمه الله رغم تقدّم المرض فيه؛ يجاهد نفسه وضعفه ليكتب ما يمنّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ تدبّر لكتابه، واستمرّ علىٰ هـٰذا رغم

ما اعترضه مِنْ أَوْجَاع مؤلمة في المدّةِ الأخيرة مِنْ حياته رحمه الله.

وغير بعيد عن اليوم الذي اختاره تعالىٰ ليكون آخر أيام حياة الشيخ في هٰذه الدنيا؛ تَوَقَّفَ رحمه الله عن الكتابة، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَتَوقَّفْ عَنِ العَطَاءِ والتَّدْرِيس والمناقشة والتعليم حتىٰ آخر يومٍ مِنْ أَيَّامِهِ رحمه الله.

وفي يوم الثلاثاء: ٢٤/جمادىٰ الآخرة/ ١٤٢٥هـ؛ شَعَرَ رحمه الله بعدم القدرة عَلَىٰ إبقاء الطعام والشراب في جوفه، وتسارع الأمر حتىٰ ما بعد منتصف الليل، وفي أولىٰ ساعات صباح الأربعاء: ٢٥/ جمادىٰ الآخرة/ ١٤٢٥هـ، الموافق لـ: ١١/ ٨/ ٢٠٠٤م؛ فاضت رُوح الشيخ رحمه الله تعالىٰ إلىٰ مولاها، ونسأله تعالىٰ أن يغفر له مغفرة واسعة، وأن يلحقه بعباده الذين أنعم عليهم مِنَ النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وَحَسُنَ أولـٰئك رفيقاً، ونسأله جل جلاله أن يكتب للشيخ درجة الشهادة، إذ توفاه مبطوناً.

وكما كان يذكر الشيخ رحمه الله في خاتمة كل مجلد سابق فقد اجتهد أن يكون في تدبره في هـٰذا المجلّد مُنْضَبِطاً وفق القواعد التي وضعها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل).

ومما كان رحمه الله يكرّر معناه: أن ما كان في هـٰذا التدبر مِنْ توفيق فهو مِنْ فيض عطاء الله تعالىٰ ومنته، وما كان فيه مِنْ خطأ فهو راجع إلىٰ القصور البشري عن إدراك الآفاق الساميات لدلالات كلمات الله المنزلات. . . .

وقد اشتمل هـٰذا المجلد علىٰ تدبر السور التالية:

١ ـ سورة (النبأ/ ٨٠ نزول)، وملحق مستخرجات بلاغية منها.

٢ ـ سورة (النازعات/ ٨١ نزول)، وملحق مستخرجات بلاغية منها.

٣ ـ سورة (الانفطار/ ٨٢ نزول)، وملحق مستخرجات بلاغية منها.

٤ ـ سورة (الانشقاق/ ٨٣ نزول)، وملحق مستخرجات بلاغية منها.

٥ ـ سورة (الروم/ ٨٤ نزول)، وملحق مستخرجات بلاغية منها.

٦ ـ سورة (العنكبوت/ ٨٥ نزول)، وملحق مستخرجات بلاغية منها.

٧ ـ سورة (المطففين/ ٨٦ نزول)، وملحق مستخرجات بلاغية منها.

٨ ـ وأخيراً بيان ما في سورة (البقرة/ ٨٧ نزول) أولى السور في العهد المدني؛ من فَرْش القراءات، واستخراج دروسها.

وبعد؛ فإنا نسأله جل جلاله أن يتقبّل هٰذا العمل مِنَ الشيخ ـ رحمه الله ـ بقبول حسن، وَأَنْ ينفع به المسلمين نفعاً كبيراً.

ونسأله جل ذكره أن يغفر للشيخ ويرحمه وأن يعفو عنه ويكرم نزله ويوسع مدخله ويغسله بالماء والثلج والبرد، وينقّيه مِنَ الخطايا كما يُنَقَّىٰ الثوب الأبيض مِنَ الدنس، ويباعد بينه وبينها كما باعد بين المشرق والمغرب، وأن يبدله داراً خيراً مِنْ داره وأهْلاً خيراً مِنْ أهله، وَأَنْ يثبّته بالقول الثابت، وأن يجعله مِنْ أَهْلِ فِرْدَوْسِهِ الأعْلَىٰ، وَأَنْ يَجْمَعْنَا وإيّاه تحت لواء سيد البشر محمد بن عبد الله ﷺ، وفي مستقرّ رحمته، إنه قريب سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

* * *

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

سورة النبا (عَمَّ)

٧٨ مصحف ٨٠ نزول

(١) نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٧
(٢) موضوع سورة النبأ (عم) ٩
(٣) دروس سورة النبأ (عم) ٩
(٤) التدبر التَّحليليّ للدرس الأول من دروس سورة (النّبأ)، الآيات من (١ ـ ١٦) .. ١٠
- التمهيد ١١
- التدبر التحليلي ١١
- ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾ ١١
- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا (٦) وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾ ١٣
(٥) التَّدَبُّر التحلِيلي للدرس الثاني من دروس سورة (النّبأ)، الآيات من (١٧ ـ ٢٠)
- القراءات ٢٠
- تمهيد ٢٠
- التدبّر التحليلي ٢٠
(٦) التَّدَبُّر التحلِيلي للدَّرْس الثالث من دروس سورة (النّبأ)، الآيات من (٢١ ـ ٣٠) .. ٢٢
- القراءات ٢٢

الموضوع **الصفحة**

ـ تمهيد ٢٣
ـ التدبّر التحليلي ٢٣
- ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١)﴾ ٢٣
- ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا (٢٢)﴾ ٢٣
- ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا (٢٣)﴾ ٢٣
- ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَآءً وِفَاقًا (٢٦)﴾ ٢٤
- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا (٢٨)﴾ ٢٤
- ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا (٢٩)﴾ ٢٥
- ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)﴾ ٢٥

(٧) التَّدبُّر التحليلي للدَّرْس الرابع من دروس سورة (النّبأ)، الآيات من (٣١ ـ ٣٧) ٢٦
ـ القراءات ٢٦
ـ تمهيد ٢٦
ـ التدبُّر التحليلي ٢٦
- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١)﴾ ٢٧
- ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤)﴾ ٢٧
- ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥)﴾ ٢٨
- ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا (٣٦)﴾ ٢٨
- ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧)﴾ ٢٨

(٨) التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (النبأ)، الآيات من (٣٨ ـ ٤٠) آخر السورة ٢٩
ـ تمهيد ٣٠
ـ التدبُّر التحليلي ٣٠
- ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)﴾ ٣٠
- ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا (٣٩)﴾ ٣٠
- ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا (٤٠)﴾ ٣١

(٩) ملحق حول مُسْتَخْرَجات بَلاغية مِنْ سورة (النَّبأ) ٣٢

الموضوع **الصفحة**

سورة النَّازِعَات

٧٩ مصحف ـ ٨١ نزول

(١) نص سورة (النَّازعات) وما فيها من فرش القراءات ٣٩
(٢) موضوع سورة (النَّازعات) ٤١
(٣) دروس سورة (النَّازعات) ٤٢
(٤) التدبّر التحليلي للدَّرْس الأوّل من دُرُوس سورة (النّازعات)، الآيات من (١ ـ ٥) ٤٤
ـ تمهيد ٤٤
ـ التدبُّر التحليلي ٤٤
- ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا (٢)﴾ ٤٤
- ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا (٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا (٤) فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا (٥)﴾ ٤٥
(٥) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثَّاني مِنْ دُرُوس سورة (النَّازِعَات)، الآيات من (٦ ـ ١٤) ٤٧
ـ القراءات ٤٨
ـ تمهيد ٤٨
ـ التدبُّر التحليلي ٤٨
- ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧)﴾ ٤٨
- ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ (٨) أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ (٩)﴾ ٤٩
- ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ (١١) قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ (١٢)﴾ ٥٠
- ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (١٤)﴾ ٥١
(٦) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثالث من دُروس سورة (النَّازِعَاتِ)، الآيات من (١٥ ـ ٢٦) ٥١
ـ القراءات ٥٢
ـ تمهيد ٥٢
ـ التدبُّر التحليلي ٥٢
- ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥)﴾ ٥٢

الموضوع الصفحة

- ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦)﴾ ٥٣
- ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧)﴾ ٥٣
- ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)﴾ ٥٣
- ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ (٢٠)﴾ ٥٤
- ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١)﴾ ٥٤
- ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢)﴾ ٥٤
- ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤)﴾ ٥٤
- ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ (٢٥)﴾ ٥٤
- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ (٢٦)﴾ ٥٥

(٧) التدبّر التحليلي للدَّرْس الرابع من دروس سورة (النَّازِعَات)، الآيات من (٢٧ ـ ٣٣) ٥٥

ـ تمهيد ٥٦

ـ التدبُّر التحليلي ٥٦

- ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ . . . (٢٧)﴾ ٥٦
- ﴿. . . بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨)﴾ ٥٦
- ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩)﴾ ٥٧
- ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠)﴾ ٥٧
- ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢)﴾ ٥٨
- ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٣)﴾ ٥٨

(٨) التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (النازعات)، الآيات من (٣٤ ـ ٤١) ٥٩

ـ القراءات ٥٩

ـ تمهيد ٥٩

ـ التدبُّر التحليلي ٥٩

- ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦)﴾ ٥٩

الموضوع **الصفحة**

- ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ ٦٠

(٩) التدبّر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (النَّازِعَات)، الآيات من (٤٢ ـ ٤٦) آخر السورة ٦١

ـ القراءات ٦٢

ـ تمهيد ٦٢

ـ التدبُّر التحليلي ٦٢

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٤٢)﴾ ٦٢
- ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ (٤٣)﴾ ٦٣
- ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤)﴾ ٦٣
- ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا (٤٥)﴾ ٦٣
- ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا (٤٦)﴾ ٦٤

(١٠) ملحق حول مُسْتَخْرجَات بَلاغيّة مِنْ سورة (النّازِعات) ٦٥

سورة الانفطار

٨٢ مصحف ٨٢ نزول

(١) نصّ سورة (الانفطار) وما فيها من فرش القراءات ٧١

(٢) ممّا وَرَدَ في السنّة بشأن سورة (الانفطار) ٧٢

(٣) موضوع سورة (الانفطار) ٧٢

(٤) دُروسُ سُورَةِ (الانفطار) ٧٢

(٥) التدبّر التحليلي للدَّرْس الأوّل من دروس سورة (الانفطار)، الآيات من (١ ـ ٥) ٧٣

ـ تمهيد ٧٤

ـ التدُّبر التحليلي ٧٤

- ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١)﴾ ٧٤
- ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢)﴾ ٧٥
- ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣)﴾ ٧٦

الموضوع الصفحة

• ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)﴾ ٧٦

• ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)﴾ ٧٦

(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُروس سورة (الانفطار)، الآيات من (٦ ـ ١٢) ٧٧

ـ القراءات ٧٨

ـ تمهيد ٧٨

ـ التدبُّر التحليلي ٧٨

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾ ٧٨

• ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَٰتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ ٨٠

(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (الانفطار)، الآيات من (١٣ ـ ١٦) ٨١

ـ تمهيد ٨٢

ـ التدبُّر التحليلي ٨٢

• ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ (١٦)﴾ ٨٢

(٨) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (الانفطار)، الآيات من (١٧ ـ ١٩) وهي آخر السورة ٨٣

ـ القراءات ٨٤

ـ تمهيد ٨٤

ـ التدبُّر التحليلي ٨٤

• ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)﴾ ٨٤

(٩) مُلْحَق مُسْتَخْرَجَات بَلَاغِيَّة مِنْ سورة (الانفطار) ٨٦

الموضوع **الصفحة**

سورة الانْشقَاق

٨٤ مصحف ٨٣ نزول

(١) نصّ سورة (الانْشقَاق) وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْش القراءات ٩١
(٢) مِمَّا وَرَدَ فِي السنّة بِشَأْن سورة (الانشقاق) ٩٢
(٣) موضوع سورة (الانْشِقَاق) ٩٣
(٤) دُروسُ سُورَةِ (الانْشِقَاق) ٩٤
(٥) التدبّر التحليلي للدَّرْس الأوّل من دُرُوس سورة (الانْشِقَاق)، الآيات من (١ ـ ٥) ٩٥
- تمهيد ٩٥
- التدبُّر التحليلي ٩٥
- ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)﴾ ٩٥
(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (الانشقاق)، الآيات من (٦ ـ ١٥) ٩٧
- القراءات ٩٧
- تمهيد ٩٧
- التدبُّر التحليلي ٩٨
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ (٦)﴾ ٩٨
- ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢)﴾ ٩٩
- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا (١٥)﴾ ١٠١
(٧) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثالث من دروس سورة (الانشقاق)، الآيات من (١٦ ـ ١٩) ١٠٢
- القراءات ١٠٢
- تمهيد ١٠٢

الموضوع الصفحة

- التدبُّر التحليلي ١٠٢
• ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨) لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ (١٩)﴾ ١٠٢
(٨) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (الانْشِقَاق)، الآيات من (٢٠ ـ ٢٥) آخر السورة ١٠٥
- القراءات ١٠٥
- تمهيد ١٠٦
- التدبُّر التحليلي ١٠٦
• ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ (٢١)﴾ ١٠٦
• ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣)﴾ ١٠٧
• ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)﴾ ١٠٨
• ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ (٢٥)﴾ ١٠٨
(٩) مُلْحَق: مُسْتَخْرَجَات بَلَاغِيَّة مِنْ سُورَة (الانْشِقَاق) ١٠٩

سورة الرُّوم

٣٠ مصحف ٨٤ نزول

(١) نصّ سورة (الرُّوم) وَمَا فِيهَا مِنْ فَرْش القراءات ١١٣
(٢) موضوع سورة (الرُّوم) ١٢٠
(٣) دروس سورة (الرُّوم) ١٢١
(٤) التدبّر التحليلي للدَّرْس الأوّل من دُرُوس سورة (الرُّوم)، الآيات من (١ ـ ٧) ١٢٤
- القراءات ١٢٤
- تمهيد ١٢٥
- موجز مَا عِنْدَ أَهْلِ التَّارِيخ حَوْلَ الْحُرُوبِ بَيْنَ فَارِسَ وَالرُّومِ إِبَّانَ التَّنْزِيل ١٢٥
- التدبُّر التحليلي ١٢٦
• ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ . . . (٤)﴾ ١٢٦

الموضوع **الصفحة**

• ﴿... لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧)﴾ ١٢٧

(٥) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثاني من دروس سورة (الرُّوم)، الآيات من (٨ ـ ١٦) ١٣٠

ـ القراءات ١٣١

ـ تمهيد ١٣٢

ـ التدبُّر التحليلي ١٣٢

• ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)﴾ ١٣٢

• ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)﴾ ١٣٦

(٦) التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الرّوم)، الآيات من (١٧ ـ ٢٧) ١٣٩

ـ القراءات ١٣٩

ـ تمهيد ١٤٠

ـ التدبُّر التحليلي ١٤١

• ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾ ١٤١

الصفحة

الموضوع

- ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)﴾ ١٤٢
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠)﴾ ١٤٣
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ ١٤٤
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢)﴾ ١٤٥
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)﴾ ١٤٦
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾ ١٤٧
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾ ١٤٧
- ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٢٦)﴾ ١٤٨
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٧)﴾ ١٤٨

(٧) التدبّر التحليلي للدّرسِ الرّابع مِنْ دُروس سورة (الرُّوم)، الآيات من (٢٨ ـ ٣٥) ١٥٠

ـ القراءات ١٥١

ـ تمهيد ١٥١

ـ التدبُّر التحليلي ١٥١

- ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ ١٥١
- ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٩)﴾ ١٥٣
- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ ١٥٤

الموضوع **الصفحة**

- ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ ١٥٥
- ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ (٣٣) لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (٣٤)﴾ .. ١٥٧
- ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ (٣٥)﴾ ١٥٧

(٨) التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الخَامِسِ من دُروس سورة (الرُّوم)، الآيات من (٣٦ ـ ٣٩) ١٥٨

ـ القراءات ١٥٩

ـ تمهيد ١٥٩

ـ التدبُّر التحليلي ١٦٠

- ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٣٧)﴾ ١٦٠
- ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٣٨)﴾ ١٦٢
- ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ (٣٩)﴾ ١٦٤

(٩) التدبّر التحليليّ للدَّرْسِ السادس من دروس سورة (الرُّوم)، الآيات من (٤٠ ـ ٤٥) ١٦٥

ـ القراءات ١٦٥

ـ تمهيد ١٦٥

ـ التدبُّر التحليلي ١٦٦

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٤٠)﴾ ١٦٦
- ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (٤١)﴾ ١٦٨

الموضوع الصفحة

- ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢)﴾ ١٧٠
- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾ ١٧٠
- ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٥)﴾ ١٧٢

(١٠) التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُروس سورة (الرُّوم)، الآيات من (٤٦ ـ ٥١) ١٧٣

- القراءات ١٧٣
- تمهيد ١٧٤
- التدبُّر التحليلي ١٧٤

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)﴾ ١٧٤
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ ١٧٦
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (٤٩)﴾ ١٧٧
- ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾ ١٧٩

(١١) التدبّر التحليليّ للدَّرس الثامن من دروس سورة (الرّوم)، الآيتان (٥٢ و٥٣). ١٨١

- القراءات ١٨١
- تمهيد ١٨١
- التدبر التحليلي ١٨١

- ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾ ١٨١

(١٢) التدبّر التحليليّ للدَّرس التَّاسع من دروس سورة (الرُّوم) الآية (٥٤) ١٨٣

الموضوع **الصفحة**

- القراءات ١٨٣
- تمهيد ١٨٤
- التدبُّر التحليلي ١٨٤
• ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ (٥٤)﴾ ١٨٤
(١٣) التدبّر التحليلي للدَّرْس العاشِر مِنْ دروس سورة (الرُّوم)، الآيات من (٥٥ ـ ٥٧) ١٨٥
- القراءات ١٨٦
- تمهيد ١٨٦
- التدبُّر التحليلي ١٨٦
• ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ ... ١٨٦
• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦)﴾ ١٨٧
• ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ ١٨٨
(١٤) التدبّر التحليليّ للدَّرْس الحادي عشر مِنْ دروس سورة (الرُّوم) الآيتان (٥٨ و٥٩) ١٨٨
- القراءات ١٨٩
- تمهيد ١٨٩
- التدبُّر التحليلي ١٨٩
• ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾ ١٩١
• ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩)﴾ ١٩٢
(١٥) التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الرُّوم) الآية (٦٠) آخر السورة ١٩٣
- القراءات ١٩٣
- تمهيد ١٩٣
- التدبُّر التحليلي ١٩٤

الموضوع **الصفحة**

• ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾ ١٩٤
(١٦) ملحق: مُسْتَخْرَجات بَلَاغية مِنْ سورة (الرُّوم) ١٩٥

سورة الْعَنْكَبُوت

٢٩ مصحف ـ ٨٥ نزول

(١) نَصّ سورة (العَنْكَبُوت) وَمَا فِيها مِنْ فَرْش القراءات ٢٠٥
(٢) مِمّا وَرَدَ فِي السنّة بشأن سورة (العنكبوت) ٢١٤
(٣) مَوْضوع سورة (العَنْكَبوت) ٢١٤
(٤) دروس سورة (العَنْكَبُوت) ٢١٧
(٥) التدبّر التحليلي للدَّرْس الأوّل من دُرُوس سورة (العنكبوت)، الآيات من (١ ـ ١٣) ٢١٩
ـ القراءات ٢٢٠
ـ تمهيد ٢٢٠
ـ التدبُّر التحليلي ٢٢٠
• ﴿الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ (٢) وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٣)﴾ ٢٢٠
• ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (٤)﴾ ٢٢٣
• ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٥) وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦)﴾ ٢٢٣
• ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٧)﴾ ٢٢٦
• ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ (٩)﴾ ٢٢٦
• ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠) وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ (١١)﴾ ٢٢٩

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (١٢) وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (١٣)﴾ ٢٣١

(٦) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثاني مِنْ دُروس سورة (العنْكَبُوت)، الآيات من (١٤ ـ ٢٧) ٢٣٢

ـ القراءات ٢٣٣

ـ تمهيد ٢٣٤

ـ مقدمة التدبُّر ٢٣٥

ـ التدبّر التحليلي ٢٣٥

• ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ (١٤) فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ (١٥)﴾ ٢٣٥

• ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (١٨)﴾ ٢٣٧

• ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (١٩) قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٣)﴾ ٢٤٠

• ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٢٤)﴾ ٢٤٤

• ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٥)﴾ ٢٤٥

الموضوع الصفحة

• ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ ٢٤٧

• ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ ٢٤٧

(٧) التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الثالث من دُروس سورة (العَنْكَبوت)، الآيات من (٢٨ ـ ٣٥) ٢٤٩

ـ القراءات ٢٥٠

ـ تمهيد ٢٥١

ـ مُقدِّمَة بِشأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام ٢٥١

ـ التدبّر التحليلي ٢٥١

• ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَيِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ ٢٥١

• ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾ ٢٥٥

• ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ ٢٥٥

• ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾ ٢٥٦

• ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾ ٢٥٧

• ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ ٢٥٧

(٨) التدبُّر التحليلي للدَّرْس الرابع من دُروس سورة (العنكبوت)، الآيتان (٣٦ و٣٧) ٢٥٨

ـ تمهيد ٢٥٨

ـ مُقَدِّمَة بِشَأْنِ شُعَيبٍ عَلَيْهِ السَّلام ٢٥٨

ـ التدبُّر التحليلي ٢٥٩

الموضوع **الصفحة**

• ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ ٢٥٩

• ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٣٧)﴾ ٢٦٠

(٩) التدبّر التحليلي للدّرْس الخامس من دُروس سورة (العنكبوت)، الآية (٣٨) ٢٦١

ـ القراءات ٢٦١

ـ تمهيد ٢٦١

ـ مُقدِّمة بشأن هود عليه السلام وقومه «عاد» ٢٦١

ـ مُقدِّمة بشأن صالحٍ عَلَيْهِ السَّلام وقومه «ثمود» ٢٦١

ـ التدبّر التحليلي ٢٦٢

• ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾ ٢٦٢

(١٠) التدبّر التحليلي للدّرس السادس من دروس سورة (العنكبوت)، الآيتان (٣٩ و٤٠) ٢٦٣

ـ تمهيد ٢٦٣

ـ التدبّر التَّحْلِيلِيّ ٢٦٣

• ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ (٣٩)﴾ ٢٦٤

• ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ ٢٦٥

(١١) التدبُّر التحليلي للدَّرسِ السَّابعِ مِنْ دُرُوس سورة (العَنْكَبوت)، الآيات من (٤١ ـ ٤٤) ٢٦٧

ـ القراءات ٢٦٧

ـ تمهيد ٢٦٨

ـ التدبّر التحليلي ٢٦٨

• ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ ٢٦٨

الموضوع **الصفحة**

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٤٢)﴾ ٢٦٩
- ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ (٤٣)﴾ ٢٧٠
- ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾ ٢٧١

(١٢) التدبّر التحليليّ للدَّرْس الثامن مِنْ دُروس سورة (العنكبوت)، الآيات من (٤٥ ـ ٥٥) ٢٧٢

ـ القراءات ٢٧٢

ـ تمهيد ٢٧٣

ـ التدبّر التحليلي ٢٧٣

- ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ ٢٧٣
- ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ ٢٧٥
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩)﴾ ٢٧٩
- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٥٢)﴾ ٢٨١
- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)﴾ ٢٨٥

(١٣) التدبّر التحليلي للدَّرْس التاسع مِنْ دُرُوس سورة (العَنْكَبُوت)، الآيات من (٥٦ ـ ٦٩) آخر السورة ٢٨٧

الموضوع **الصفحة**

ـ القراءات ٢٨٨

ـ تمهيد ٢٨٩

ـ التدبّر التحليلي ٢٩٠

• ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ ٢٩٠

• ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٢٩١

• ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٢٩١

• ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ ٢٩٣

• ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٢٩٤

• ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٢٩٧

• ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٢٩٨

• ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ٢٩٩

• ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ٣٠٠

• ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ ٣٠١

(١٤) ملحق: مُسْتَخْرَجات بَلاغِيَّة مِنْ سورة (العَنْكَبوت) ٣٠٢

سورة المُطَفِّفِين

٨٣ مصحف ٨٦ نزول

وهي آخر التنزيل المكيّ

(١) نَصّ سورة (المُطَفِّفِين) وَمَا فِيها مِنْ فَرْش القراءات ٣١٣

الموضوع **الصفحة**

(٢) مَوْضُوع سورة (المطفِّفِين) ٣١٥

(٣) دُروس سورة (المطفِّفِين) ٣١٥

(٤) التدبّر التحليليّ للدَّرْس الأول من دُروس سورة (المطفِّفِينَ)، الآيات من (١ ـ ٦) ٣١٦

ـ تمهيد ٣١٦

ـ التدبُّر التَّحْليلي ٣١٧

- ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦)﴾ ٣١٧

ـ مِمَّا وَرَدَ في السُّنَّةِ بِشَأْنِ مَوْقِفِ المبْعُوثِينَ في المحشَرِ يَوْمَ القِيامَة ٣٢١

(٥) التدبّر التحليلي للدَّرْس الثاني من دُروس سورة (المُطَفِّفِين)، الآيات من (٧ ـ ١٧) ٣٢٢

ـ القراءات ٣٢٢

ـ تمهيد ٣٢٢

ـ التدبّر التحليليّ ٣٢٢

- ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧)﴾ ٣٢٣
- ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩)﴾ ٣٢٣
- ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣)﴾ ٣٢٤
- ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤)﴾ ٣٢٥
- ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾ ٣٢٦

(٦) التَّدَبُّر التحليليّ للدَّرْس الثالث من دُرُوسِ سورة (المُطَفِّفِين)، الآيات من (١٨ ـ ٢٨) ٣٢٧

ـ القراءات ٣٢٧

ـ تمهيد ٣٢٨

ـ التدبّر التحليلي ٣٢٨

الموضوع الصفحة

• ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٢٠) يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢١)﴾ ٣٢٨

• ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ (٢٧) عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾ ٣٢٩

(٧) التَّدبُّر التحليلي للدَّرْسِ الرَّابع مِنْ دُرُوس سورة (الْمُطَفِّفِين)، الآيات من (٢٩ ـ ٣٦) آخر السورة ٣٣٢

- القراءات ٣٣٢
- تمهيد ٣٣٣
- التدبّر التحليليّ ٣٣٣

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ (٣٣)﴾ ٣٣٣

• ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (٣٦)﴾ ٣٣٦

(٨) ملحق: مُسْتَخْرَجات بَلاغِيَّة مِنْ سُورَة (الْمُطَفِّفِين) ٣٣٧

سورة (الْبَقَرَة)

٢ مصحف ٨٧ نزول

وهي أوّل التنزيل المدني

(١) نَصّ سورة (البقرة) وما فِيها مِنْ فَرْش القراءات ٣٤٣

(٢) مِمَّا وَرَدَ فِي السّنّة بشأن سورة (البقرة) ٤٠٢

(٣) موضوعُ سُورَةِ (البقرة) ٤٠٥

(٤) دُروسُ سورة (البقرة) ٤٠٧

خاتمة المجلّد الخامس عشر ٤٢٣

الفهرس ٤٢٦